الحاوي في التفسير

الشيخ

عبدالرحمن بن محمد القماش

المجلد الرابع

الاجزاء من ٥٠ الى ٧٠

ٱلْحَاوِي فِي ٱلتَّقْسِيمِ

الشيخ عبدالرحمن بن محمد القماش

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۞ اللَّهُ

الصَّمَدُ ۞ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۞

وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۞

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

كتاب الحاوي في التفسير أكبر موسوعة في تفسير القرءان

الكريم حيث تحتوي على ٨٤٠ جزءا" موزعة على ٤١ مجلدا"

بذل فيه الشيخ الجليل " عبدالرحمن بن محمد القماش" جهدا"

كبيرا" و أسطوريا" في سبيل تأليف هذه الموسوعة العملاقة

وتم إكمال الموسوعة من قبل المكتبة الشاملة

في ١٤ حزيران ٢٠٠٩ وتم إكمال ملفات PDF

في آذار- نيسان ٢٠١٢ *

محتويات الكتاب

الجزء	الموضوع	الموضوع الفرعي	الصفحة
50	سورة البقرة	الآية 47 الى الآية 49	2
51	=	الآية 50 الى الآية 54	310
52	=	الآية 55 الى الآية 60	552
53	=	الآية 61 الى الآية 62	975
54	=	الآية 63 الى الآية 66	1363
55	=	الآية 67 الى الآية 73	1540
56	=	الآية 74	1844
57	=	الآية 75 الى الآية 82	2270
58	=	الآية 83 الى الآية 86	2652
59	=	الآية 87 الى الآية 90	2940
60	=	الآية 91 الى الآية 101	3160
61	=	الآية 102 الى الآية 103	3647
62	=	الآية 104 الى الآية 108	4414
63	=	الآية 109 الى الآية 114	4788
64	=	الآية 115 الى الآية 119	5116
65	=	الآية 120 الى الآية 126	5482
66	=	الآية 127 الى الآية 131	5860
67	=	الآية 132 الى الآية 137	6076
68	=	الآية 138 الى الآية 141	6289
69	=	الآية 142 الى الآية 147	6692
70	=	الآية 148 الى الآية 154	7015

بسم الله الرحمن الرحيم

الكتاب / الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

ويسمى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العَاجِزُ الْفَقِيرُ

عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مُحَمَّدٍ الْقَمَّاش

إِمَامُ وَخَطِيبُ مَسْجِدِ بُورُسْلِى - رَأْسُ الْخَيمَةِ

دَوَلَةُ الإِمَارَاتِ الْعَرَبِيَّةِ الْمُتَّحِدَةِ

(عَفَا اللهُ عَنْهُ وَغَفَرَ لَهُ)

الجزء الخمسون

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الخمسون

من الآية ﴿ 47 ﴾ من سورة البقرة

وحتى الآية ﴿ 49 ﴾ من نفس السورة

(4/50)

قوله تعالى ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (47) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان الغالب على أكثر الناس الجمود كرر النداء لهم مبالغة في اللطف بهم إثر الترجية والتخويف فقال : ﴿ يا بني إسرائيل ﴾ أي الذي أكرمته وأكرمت ذريته من بعده بأنواع الكرامة ﴿ اذكروا نعمتي ﴾ وفخم أمرها بقوله : ﴿ التي أنعمت عليكم ﴾ أي بإنزال الكتب وإرسال الرسل وغير ذلك ﴿ وإني فضلتكم ﴾ والتفضيل الزيادة من خطوة جانب القرب والرفعة فيما يقبل الزيادة والنقصان منه – قاله الحرالي .

﴿ على العالمين ﴾ وهم من كان قد برز الوجود في ذلك الزمان بالتخصيص بذلك دونهم ،

ولا يدخل في هذا من لم يكن برز إلى الوجود في ذلك الزمان كما يأتي تحقيقه عن الحرالي قريباً ومما يوجب القطع به قوله تعالى لنا : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ﴾ [آل عمران : 110] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 127 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أنه تعالى إنما أعاد هذا الكلام مرة أخرى توكيداً للحجة عليهم وتحذيراً من ترك اتباع محمد صلى الله عليه وسلم ثم قرنه بالوعيد ، وهو قوله : ﴿ واتقوا يوماً ﴾ [البقرة : 48 ، 123] كأنه قال : إن لم تطيعوني لأجل سوالف نعمتي عليكم فأطيعوني للخوف من عقابي في المستقبل .

أما قوله : ﴿ وأني فضلتكم على العالمين ﴾ ففيه سؤال وهو : أنه يلزم أن يكونوا أفضل من محمد عليه السلام وذلك باطل بالاتفاق .

والجواب عنه من وجوه .

أحدها : قال قوم : العالم عبارة عن الجمع الكثير من الناس كقولك : رأيت عالماً من الناس ، والمراد منه الكثير لا الكل ، وهذا ضعيف لأن لفظ العالم مشتق من العلم وهو الدليل ، فكل ما كان دليلاً على الله تعالى كان عالماً ، فكان من العالم ، وهذا تحقيق قول المتكلمين : العالم كل موجود سوى الله ، وعلى هذا لا يمكن تخصيص لفظ العالم ببعض المحدثات .

وثانيها : المراد فضلتكم على عالمي زمانكم وذلك لأن الشخص الذي سيوجد بعد ذلك وهو الآن ليس بموجود لم يكن ذلك الشخص من جملة العالمين حال عدمه لأن شرط العالم أن يكون موجوداً والشيء حال عدمه لا يكون موجوداً .

فالشيء حال عدمه لا يكون من العالمين ، وأن محمداً عليه السلام ما كان موجوداً في ذلك الوقت ، فما كان ذلك الوقت من العالمين فلا يلزم من كون بني إسرائيل أفضل العالمين في ذلك الوقت كونهم أفضل من محمد صلى الله عليه وسلم في ذلك الوقت ، وهذا هو الجواب أيضاً عن قوله تعالى : ﴿ إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين ﴾ [المائدة : 20] .

وقال : ﴿ ولقد اخترناهم على علم على العالمين ﴾ [الدخان : 32] وأراد به عالمي ذلك الزمان ، وإنما كانوا أفضل من غيرهم بما أعطوا من الملك والرسالة والكتب الإلهية ، وثالثها : أن قوله : ﴿ وأني فضلتكم على العالمين ﴾ عام في العالمين لكنه مطلق في الفضل والمطلق يكفي في صدقه صورة واحدة .

فالآية تدل على أن بني إسرائيل فضلوا على العالمين في أمر ما وهذا لا يقتضي أن يكونوا أفضل من كل العالمين في كل الأمور ، بل لعلهم وإن كانوا أفضل من غيرهم في أمر واحد فغيرهم يكون أفضل منهم فيما عدا ذلك الأمر وعند ذلك يظهر أنه لا يصح الاستدلال بقوله تعالى : ﴿ إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم ، وآل عمران على العالمين ﴾ [آل عمران : 33] على أن الأنبياء أفضل من الملائكة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 49. 50 ﴾

وقال السمرقندى :

قوله تعالى : ﴿ يا بنى إسراءيل اذكروا نِعْمَتِى التى أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى العالمين ﴾ ، أي على عالمي زمانهم .

وقال بعضهم : من آمن من أهل الكتاب بمحمد صلى الله عليه وسلم كانت له فضيلة على غيره وكان له أجران ، أجر إيمانه بنبيه عليه السلام وأجر إيمانه بمحمد صلى الله عليه وسلم ؛ وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ثَلاَثَةٌ يُعْطِيهُم الله الأَجْرَ مَرَّتَيْنِ ، مَنِ اشْتَرَى جَارِيَةً فَأَحْسَنَ تَأْدِيبَهَا فَأَعْتَقَهَا وَتَزَوَّجَهَا ، وَعَبْدٌ أَطَاعَ سَيِّدَهُ وَأَطَاعَ الله تَعَالَى ، وَرَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ أَدْرَكَ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم فَآمَنَ بِهِ " وقال بعضهم : معنى قوله ﴿ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى العالمين ﴾ بإنزال المن والسلوى وغيره ، ولم يكن ذلك لأحد من العالمين غيرهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ 76 ﴾

وقال ابن عطية :

قد تكرر هذا النداء والتذكير بالنعمة ، وفائدة ذلك أن الخطاب الأول يصح أن يكون المؤمنين ، ويصح أن يكون للكافرين منهم ، وهذا المتكرر إنما هو للكافرين ، بدلالة ما بعده ، وأيضاً فإن فيه تقوية التوقيف وتأكيد الحض على ذكر أيادي الله وحسن خطابهم بقوله : ﴿ فضلتكم على العالمين ﴾ لأن تفضيل آبائهم وأسلافهم تفضيل لهم ، وفي الكلام اتساع .

(6/50)

قال قتادة وابن زيد وابن جريج وغيرهم : المعنى على عالم زمانهم الذي كانت فيه النبوءة المتكررة والملك ، لأن الله تعالى يقول لأمة محمد صلى الله عليه وسلم : "كنتم خير أمة أخرجت للناس" . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 1 صـ 138. 139 ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ يا بَنِى إسراءيل اذكروا نِعْمَتِيَ التى أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾ كرر التذكير للتأكيد والإيذان بكمال غفلتهم عن القيام بحقوق النعمة ، وليربط ما بعده من الوعد الشديد به لتتم الدعوة بالترغيب والترهيب ، فكأنه قال سبحانه : إن لم تطيعوني لأجل سوابق نعمتي ، فأطيعوني

للخوف من لواحق عقابي ، ولتذكير التفضيل الذي هو أجل النعم ، فإنه لذلك يستحق أن يتعلق به التذكير بخصوصه مع التنبيه على أجليته بتكرير النعمة التي هي فرد من أفرادها .

(7/50)

﴿ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى العالمين ﴾ عطف على ﴿ نِعْمَتِيَ ﴾ من عطف الخاص على العام ، وهو مما انفردت به الواو كما في " البحر " ، ويسمى هذا النحو من العطف بالتجريد كأنه جرد المعطوف من الجملة ، وأفرد بالذكر اعتناءاً به ، والكلام على حذف مضاف أي فضلت آباءكم وهم الذين كانوا قبل التغيير ، أو باعتبار أن نعمة الآباء نعمة عليهم ، قال الزجاج : والدليل على ذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ نجيناكم ﴾ [البقرة : 49] الخ ، والمخاطبون لم يروا فرعون ولا آله ، ولكنه تعالى أذكرهم أنه لم يزل منعماً عليهم ، والمراد بالعالمين سائر الموجودين في وقت التفضيل ، وتفضيلهم بما منحهم من النعم المشار إليها بقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ موسى لِقَوْمِهِ يا قوم قَوْمٌ اذكروا نِعْمَةَ الله عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاء وَجَعَلَكُمْ مُّلُوكاً ﴾ [المائدة : 20] فلا يلزم من الآية تفضيلهم على النبي صلى الله عليه وسلم ولا على أمته ، الذين هم خير أمة أخرجت للناس وكذا لا يصح الاستدلال بها على أفضلية البشر على الملائكة من جميع الوجوه ولو صح ذلك يلزم تفضيل عوامهم على خواص

الملائكة ، ولا قائل به .

ومن اللطائف أن الله سبحانه وتعالى أشهد بني إسرائيل فضل أنفسهم فقال : ﴿ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ ﴾ الخ ، وأشهد المسلمين فضل نفسه فقال : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ ﴾ [يونس : 58] فشتان من مشهوده فضل ربه ، ومن مشهوده فضل نفسه فالأول : يقتضي الفناء والثاني : يقتضي الإعجاب ، والحمد لله الذي فضلنا على كثير ممن خلق تفضيلاً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 250 . 251 ﴾

(8/50)

وقال ابن عاشور :

أعيد خطاب بني إسرائيل بطريق النداء مما ثلاً لما وقع في خطابهم الأول لقصد التكرير للاهتمام بهذا الخطاب وما يترتب عليه ، فإن الخطاب الأول قصد منه تذكيرهم بنعم الله تعالى ليكون ذلك التذكير داعية لامتثال ما يرد إليهم من الله من أمر ونهي على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم غير أنه لما كان الغرض المقصود من ذلك هو الامتثال كان حق البلاغة أن يفضي البليغ إلى المقصود ولا يطيل في المقدمة ، وإنما يلم بها إلماماً ويشير إليها إجمالاً ، تنبيهاً بالمبادرة إلى المقصود على شدة الاهتمام به ولم يزل الخطباء والبلغاء يعدون مثل ذلك

من نباهة الخطيب ويذكرونه في مناقب وزير الأندلس محمد بن الخطيب السلماني إذ قال عند سفارته عن ملك غرناطة إلى ملك المغرب ابن عنان أبياته المشهورة التي ارتجلها عند الدخول عليه طالعها :

خليفةَ الله ساعدَ القدرُ . . .

عُلاك ما لاح في الدجا قمر

ثم قال :

والناس طرا بأرض أندلس . . .

لولاك ما وطنوا ولا عمروا

وقد أهمتهمُ نفوسُهم . . .

فوجهوني إليك وانتظروا

فقال له أبو عنان : ما ترجع إليهم إلا بجميع مطالبهم وأذن له في الجلوس فسلم عليه .

قال القاضي أبو القاسم الشريف وكان من جملة الوفد لم نسمع بسفير قضى سفارته قبل أن يسلم على السلطان إلا هذا .

فكان الإجمال في المقدمة قضاء لحق صدارتها بالتقديم وكان الإفضاء إلى المقصود قضاء لحقه في العناية ، والرجوع إلى تفصيل النعم قضاء لحقها من التعداد فإن ذكر النعم تمجيد للمنعم وتكريم للمنعم عليه وعظة له ولمن يبلغهم خبر ذلك تبعث على الشكر .

فللتكرير هنا نكتة جمع الكلامين بعد تفريقهما ونكتة التعداد لما فيه إجمال معنى النعمة .

والنعمة هنا مراد بها جميع النعم لأنّه جنس مضاف فله حكم الجمع كما في قوله تعالى :

﴿ يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوفِ بعهدكم ﴾ [البقرة : 40] .

وقوله تعالى : ﴿ وأني فضلتكم على العالمين ﴾ عطف على ﴿ نعمتي ﴾ أي واذكروا تفضيلي إياكم على العالمين وهذا التفضيل نعمة خاصة فعطفه على (نعمتي) عطف خاص على عام وهو مبدأ لتفصيل النعم وتعدادها وربما كان تعداد النعم مغنياً عن الأمر بالطاعة والامتثال لأن من طبع النفوس الكريمة امتثال أمر المنعم لأن النعمة تورث المحبة .

وقال منصور الوراق :

تعصي الإله وأنت تُظهر حبَّه . . .

هذا لَعمري في القياس بديعُ

لو كان حُبّك صادقاً لأطعته . . .

إن المحِب لمن يُحب مُطيع

وهذا التذكير مقصود به الحث على الاتسام بما يناسب تلك النعمة ويستبقي ذلك الفضل .

(10/50)

ومعنى العالمين تقدم عنه قوله : ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ [الفاتحة : 2] والمراد به هنا صنف من المخلوقات ولا شك أن المخلوقات تصنف أصنافاً متنوعة على حسب تصنيف المتكلم أو السامع ، فالعالمون في مقام ذكر الخلق هم أصناف المخلوقات كالإنس والدواب والطير والحوت ، والعالمون في مقام ذكر فضائل الخلق أو الأمم أو القبائل يراد بها أصناف تلك المتحدث عنها فلا جرم أن يكون المراد من العالمين هنا هم الأمم الإنسانية فيعم جميع الأمم لأنه جمع معرف باللام لكن عمومه هنا عرفي يختص بأمم زمانهم كما يختص نحو : جمع الأمير الصاغة بصاغة مكانه أي بلده ويختص أيضاً بالأمم المعروفة كما يختص جمع الأمير الصاغة بالصاغة المتخذين الصياغة صناعة دون كل من يعرف الصياغة وذلك كقولك : هو أشهر العلماء وأنجب التلامذة ، فالآية تشير إلى تفضيل بني إسرائيل المخاطبين أو سلفهم على أمم عصرهم لا على بعض الجماعات الذين كانوا على دين كامل مثل نصارى نجران ، فلا علاقة له بمسألة تفضيل الأنبياء على الملائكة بحال ولا التفات إلى ما

يشذ في كل أمة أو قبيلة من الأفراد فلا يلزم تفضيل كل فرد من بني إسرائيل على أفراد من الأمم بلغوا مرتبة صالحة أو نبوءة لأن التفضيل في مثل هذا يراد به تفضيل المجموع ، كما تقول قريش أفضل من طيء وإن كان في طيء حاتم الجواد .

(11/50)

فكذلك تفضيل بني إسرائيل على جميع أمم عصرهم وفي تلك الأمم أمم عظيمة كالعرب والفرس والروم والهند والصين وفيهم العلماء والحكماء ودعاة الإصلاح والأنبياء لأنه تفضيل المجموع على المجموع في جميع العصور ، ومعنى هذا التفضيل أن الله قد جمع لهم من المحامد التي تتصف بها القبائل والأمم ما لم يجمعه لغيرهم وهي شرف النسب وكمال الخلق وسلامة العقيدة وسعة الشريعة والحرية والشجاعة ، وعناية الله تعالى بهم في سائر أحوالهم ، وقد أشارت إلى هذا آية : ﴿ وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليهم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين ﴾ [آل عمران : 20] وهذه الأوصاف ثبتت لأسلافهم في وقت اجتماعها وقد شاع أن الفضائل تعود على الخَلَف بحسن السمعة وإن كان المخاطبون يومئذ لم يكونوا بحال التفضيل على العالمين ولكنهم ذكروا بما كانوا عليه فإن فضائل الأمم لا يلاحظ فيها الأفراد ولا العصور .

ووجه زيادة الوصف بقوله : ﴿ التي أنعمت عليكم ﴾ مر في أختها الأولى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 1 صـ 466. 468 ﴾

فصل

قال الفخر :

بقي ههنا أبحاث :

البحث الأول : قال ابن زيد : أراد به المؤمنين منهم لأن عصاتهم مسخوا قردة وخنازير على ما قال تعالى : ﴿ وجعل منهم القردة والخنازير ﴾ [المائدة : 60] وقال : ﴿ لعن الذين كفروا من بني إسرائيل ﴾ [المائدة : 78] .

البحث الثاني : أن جميع ما خاطب الله تعالى به بني إسرائيل تنبيه للعرب لأن الفضيلة بالنبي قد لحقتهم ، وجميع أقاصيص الأنبياء تنبيه وإرشاد .

قال الله تعالى : ﴿ الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ﴾ [الزمر : 18] ، وقال : ﴿ واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم ﴾ [الزمر : 55] .

وقال : ﴿ لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ﴾ [يوسف : 111] .

ولذلك روى قتادة قال : ذكر لنا أن عمر بن الخطاب كان يقول : قد مضى الله بنو إسرائيل وما يغني ما تسمعون عن غيركم .

البحث الثالث : قال القفال : " النعمة بكسر النون المنة وما ينعم به الرجل على صاحبه . قال تعالى : ﴿ وتلك نعمة تمنها عليَّ ﴾ [الشعراء : 22] وأما النعمة بفتح النون فهو ما يتنعم به في العيش ، قال تعالى : ﴿ ونعمة كانوا فيها فاكهين ﴾ [الدخان : 27] .

البحث الرابع : قوله تعالى : ﴿ وأني فضلتكم على العالمين ﴾ يدل على أن رعاية الأصلح لا تجب على الله تعالى لا في الدنيا ولا في الدين لأن قوله : ﴿ وأني فضلتكم على العالمين ﴾ يتناول جميع نعم الدنيا والدين ، فذلك التفضيل إما أن يكون واجباً أو لا يكون واجباً ، فإن كان واجباً لم يجز جعله منة عليهم لأن من أدى واجباً فلا منة له على أحد وإن كان غير واجب مع أنه تعالى خصص البعض بذلك دون البعض ، فهذا يدل على أن رعاية الأصلح غير واجبة لا في الدنيا ولا في الدين .

فإن قيل : لما خصهم بالنعم العظيمة في الدنيا ، فهذا يناسب أن يخصهم أيضاً بالنعم العظيمة في الآخرة كما قيل : إتمام المعروف خير من ابتدائه ، فلم أردف ذلك التخويف الشديد في قوله : ﴿ واتقوا يوماً ﴾ ؟

والجواب : لأن المعصية مع عظم النعمة تكون أقبح وأفحش فلهذا حذرهم عنها .

البحث الخامس : في بيان أن أي فرق العالم أفضل يعني أن أيهم أكثر استجماعاً لخصال الخير ؟ اعلم أن هذا مما وقع فيه النزاع الشديد بين سكان النواحي فكل طائفة تدعي أنها أفضل

وأكثر استجماعاً لصفات الكمال ونحن نشير إلى معاقد الكلام في هذا الباب بتوفيق الله تعالى وعونه. (1) انتهى انتهى. اهـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 50﴾

---

(1) لم يذكر في الأصول التي بأيدينا في هذا الموضع شيء مما أشار إليه المصنف رحمه اللّه تعالى. (المصحح).

فائدة

قال الشيخ الشنقيطي – رحمه الله –

قوله تعالى لبني إسرائيل [وأني فضلتكم على العالمين] لا يعارض قوله تعالى في تفضيل هذه الأمة [كنتم خير أمة أخرجت للناس] (آل عمران : (110) , لأن المراد بالعالمين عالم زمانهم بدليل الآيات والأحاديث المصرحة, بأن هذه الأمة أفضل منهم كحديث معاوية بن حيدة القشيري في المسانيد والسنة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم – "أنتم توفون سبعين أمة أنتم خيرها , وأكرمها على الله" (1) .

ألا ترى أن الله جعل المقتصد منهم هو أعلاهم منزلة حيث قال [منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون] (المائدة : 66) وجعل في هذه الأمة درجة أعلى من درجة

المقتصدة وهي درجة السابق بالخيرات حيث قال تعالى [ومنهم سابق بالخيرات] (فاطر : 32) . انتهى انتهى . اهـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب صـ 21 ﴾

---

(1) رواه الحاكم في المستدرك رقم 6987 بلفظ تتمون سبعين أمة ، والترمذي رقم 3 (1 ، والدارمى رقم 276 (بلفظ وفيتم ، والنسائي رقم 1143 (بلفظ توفون ، والبيهقي حـ 9 صـ 5 .

فصل

قال ابن كثير :

﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (47) ﴾

يذكرهم تعالى سَالفَ نعمه على آبائهم وأسلافهم ، وما كان فَضَّلهم به من إرسال الرسل منهم وإنزال الكتب عليهم وعلى سائر الأمم من أهل زمانهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [الدخان : 32] ، وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ

أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ [المائدة : 20] .

وقال أبو جعفر الرازي ، عن الربيع بن أنس ، عن أبي العالية ، في قوله تعالى : ﴿ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ قال : بما أعطوا من الملك والرسل والكتب على عالم من كان في ذلك الزمان ؛ فإن لكل زمان عالما .

ورُوي عن مجاهد ، والربيع بن أنس ، وقتادة ، وإسماعيل بن أبي خالد نحوُ ذلك ، ويجب الحمل على هذا ؛ لأن هذه الأمة أفضل منهم ؛ لقوله تعالى خطابا لهذه الأمة : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴾ [آل عمران : 110] وفي المسانيد والسنن عن معاوية بن حَيْدَة القُشَيري ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أنتم تُوفُونَ سبعين أمة ، أنتم خيرها وأكرمها على الله " . والأحاديث في هذا كثيرة تذكر عند قوله تعالى : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾

[وقيل : المراد تفضيل بنوع ما من الفضل على سائر الناس ، ولا يلزم تفضيلهم مطلقًا ، حكاه فخر الدين الرازي وفيه نظر . وقيل : إنهم فضلوا على سائر الأمم لاشتمال أمتهم على

الأنبياء منهم ، حكاه القرطبي في تفسيره ، وفيه نظر ؛ لأن ﴿ الْعَالَمِينَ ﴾ عام يشتمل من قبلهم ومن بعدهم من الأنبياء ، فإبراهيم الخليل قبلهم وهو أفضل من سائر أنبيائهم ، ومحمد بعدهم وهو أفضل من جميع الخلق وسيد ولد آدم في الدنيا والآخرة ، صلوات الله وسلامه عليه وعلى إخوانه من الأنبياء والمرسلين] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن كثير حـ 1 صـ 255 ﴾

(16/50)

من فوائد الشوكانى فى الآية

قال رحمه الله :

قوله : ﴿ يا بنى إسراءيل اذكروا نِعْمَتِيَ التى أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾ قد تقدم تفسيره ، وإنما كرر ذلك سبحانه توكيداً للحجة عليهم ، وتحذيراً لهم من ترك اتباع محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم قرنه بالوعيد ، وهو قوله : ﴿ واتقوا يَوْمًا ﴾ ، وقوله : ﴿ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ ﴾ معطوف على مفعول اذكروا أي : اذكروا نعمتي ، وتفضيلي لكم على العالمين ، قيل المراد بالعالمين عالم زمانهم ، وقيل على جميع العالمين بما جعل ، فيهم من الأنبياء .

وقال في الكشاف : على الجمّ الغفير من الناس كقوله : ﴿ بَارَكْنَا فِيهَا للعالمين ﴾ [الأنبياء :

71] يقال رأيت عالماً من الناس : يراد الكثرة .

انتهى .

قال الرازي في تفسيره : وهذا ضعيف ؛ لأن لفظ العالم مشتق من العلم ، وهو الدليل ، وكل ما كان دليلاً على الله كان علماً ، وكان من العالم ، وهذا تحقيق قول المتكلمين : العالم كل موجود سوى الله ، وعلى هذا لا يمكن تخصيص لفظ العالم ببعض المحدثات .

انتهى .

(17/50)

وأقول : هذا الاعتراض ساقط ، أما أوّلا ، فدعوى اشتقاقه من العلم لا برهان عليه ، وأما ثانياً : فلو سلمنا صحة هذا الاشتقاق كان المعنى موجوداً بما يتحصل معه مفهوم الدليل على الله الذي يصح إطلاق اسم العلم عليه ، وهو كائن في كل فرد من أفراد المخلوقات التي يستدل بها على الخالق ، وغايته أن جميع العالم يستلزم أن يكونوا مفضلين على أفراد كثيرة من المحدثات ؛ وأما أنهم مفضلون على كل المحدثات في كل زمان ، فليس في اللفظ ما يفيد هذا ، ولا في اشتقاقه ما يدل عليه ، وأما من جعل العالم أهل العصر ، فغايته أن يكونوا مفضلين على أهل عصور ، لا على أهل كل عصر ، فلا يستلزم ذلك تفضيلهم على أهل

العصر الذين ، فيهم نبينا صلى الله عليه وسلم ، ولا على ما بعده من العصور ، ومثل هذا الكلام ينبغي استحضاره عند تفسير قوله تعالى : ﴿ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاء وَجَعَلَكُمْ مُّلُوكاً وَآتَاكُمْ مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِّن العالمين ﴾ [المائدة : 20] وعند قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدِ اخترناهم على عِلْمٍ عَلَى العالمين ﴾ [الدخان : 32] وعند قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الله اصطفى آدَمَ وَنُوحًا وَءالَ إبراهيم وَءالَ عمران عَلَى العالمين ﴾ [آل عمران : 33] فإن قيل : إن التعريف في العالمين يدل على شموله لكل عالم .

قلت : لو كان الأمر هكذا لم يكن ذلك مستلزماً لكونهم أفضل من أمة محمد صلى الله عليه وسلم : لقوله تعالى ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران : 110] فإن هذه الآية ونحوها تكون مخصصة لتلك الآيات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 1 صـ 73 . 74 ﴾

(18/50)

ومن فوائد ابن عرفة فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذكروا نِعْمَتِي التي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ . . . ﴾ .

الذكر باللسان والقلب .

واختلفوا في الذكر باللسان فقط هل هو معتبر (أم) لا ؟ ووجه مناسبتها لما قبلها أن الله تعالى كلفهم بالصلاة (وأعلمهم) بمشقتها وكان ذلك سببا في قنوطهم (وإياسهم) ، وقلة (طمعهم) في الوفاء بها والخروج من عهدتها ، وعقب ذلك ببيان أن الله تعالى منّ عليهم نعما في الماضي فليتذكروها لتذهب عنهم الأمور العادية ، ويكونوا على بصيرة من الطمع والرجاء في فضل الله تعالى وإنعامه عليهم في المستقبل بالإعانة على تحصيل تلك العبادة من غير مشقة (وجهد) .

قال : وإنما نسبهم إلى يعقوب إن كان لهم أجداد غيره أنبياء لأنه أقرب جدّ إليهم .

لأن يعقوب ابن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام وعليهم .

قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَاهِيمَ بالبشرى ﴾ ثم قال ﴿ وامرأته قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ فإن قلت : ما الفائدة في قوله : ﴿ التي أَنْعَمْتُ (عَلَيْكُمْ ﴾) ولو أسقطت لقيل : اذكروا نعمتي (عليكم) لما اختل المعنى ؟

فالجواب : أنه أفاد اختصاص تلك النعمة بهم ، وأنهم مقصودون بها ، أي اذكروا نعمتي التي جعلتها خاصة لكم ، لأنه أنعم عليهم نعما كثيرة ، وذكرهم بما اختصهم به منها دون ما (شاركهم) الغير (فيه) ، وأيضا فالإنعام على الشخص يطلق على ما ناله مباشرة وبواسطة

كالإنعام على قريبه وصديقه (فذكّروا) بما أنالهم من النعمة مباشرة .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى العالمين ﴾ .

قال ابن عطية : أي على (عالمي) زمانهم .

قال الزمخشري : أي على الجمّ الغفير .

قال ابن عرفة : جعله ابن عطية عاما في الأشخاص ، خاصا في الأزمان (وجعله) الزمخشري بالعكس ، والتخصيص في الزمان أولى لأن العام في الأشخاص مطلق في الأزمنة والأحوال ، وفرق المنطقيون بين الكلية الدائمة والكلية المطلقة .

(قرره) ابن عرفة مرة أخرى فقال : الألف (واللام) عند ابن عطية للعهد ، وعند الزمخشري للجنس ، ونظيره كقولك : كل إنسان أبيض ، إن أردت (اعتبار) الأمر الذهني فهو كاذب ، وإن (كان) باعتبار الوجود الخارجي فهو صادق إذا كان أهل زمانك كلهم بيضا .

زاد الفخر الرازي : أنه عام في الأشخاص والأزمان / مطلق في أنواع التفضيل .

فلعلّهم فضّلوا عليهم (لفرع) واحد إما بالتنصيص على أن منهم الأنبياء والملوك قال تعالى

﴿ وَإِذْ قَالَ موسى لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ اذكروا نِعْمَةَ الله عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكاً ﴾ فقال ابن عرفة : " هذه دلالة ظاهرة (وليست نصا) ولا ينبغي أن يصرح بكونهم أفضل من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ولا في خصلة واحدة .

قال ابن عرفة : والنعمة تحتمل أن يراد بها أمر حسي والتفضيل معنوي فيكون الكلام تأسيسا ، أو أن يكون عاما في جميع النصح فيكون وأَنّي فضلتكم من عطف الخاص على العام أو مطلقة تصدق على واحدة غير معينة فيكون من عطف الأخص على الأعم وهو المقيد على المطلق . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عرفة صـ 273.276 ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ " " أن " وما في حَيْزها في محلّ نصب لعطفها على المَنْصُوب في قوله : " اذْكُرُوا نِعْمَتِي " أي : اذكروا نِعْمَتِي وتفضيلي آبَاكم ، والجار متعلّق به ، وهذا من باب عطف الخَاصّ على العام ؛ لأن النعمة تشمل التَّفْضِيل .

والفضل الزيادة في الخير ، واستعماله في الأصل التعدّي بـ " على " ، وقد يتعدَّى بـ " عَنْ " إمَّا على التضْمِين ، وإما على التجوُّز في الحذف ؛ كقوله : [البسيط]

لاَهِ ابْنُ عَمّكَ لا أَفْضَلْتَ فِي حَسَبٍ . . .

عَنّي وَلاَ أَنْتَ دَيَّانِي فتَخْزُوني

وقد يتعدّى بنفسه ؛ كقوله : [الوافر]

وَجَدْنَا نَهْشَلاً فَضَلَتْ فُقَيْماً . . .

كَفَضْلِ ابْنِ المَخَاضِ عَلَى الفَصِيلِ

فعدّاه بنفسه ، وب " عن " ، وفعله " فَضَلَ " بالفَتْحِ " يَفْضُلُ " بالضم كـ : " قَتَلَ يَقْتُلُ " .

وأما الذي معناه " الفَضْلَة " من الشيء ، وهي : البقيّة فَفِعْلُه أيضاً كما تقدم .

ويقال فيه أيضاً : " فَضِلَ " بالكسر " يَفْضَلُ " بالفتح كـ : " عَلِمَ يَعْلَمُ " ، ومنهم من يكسرها في الماضي ، ويضمّها في المضارع ، وهو من التَّدَاخل بين اللغتين . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير ابن عادل حـ 2 صـ 45.46 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (47) ﴾

أشْهَدَ بني إسرائيل فضل أنفسهم فقال : ﴿ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى العَالَمِينَ ﴾ .

وأشهد المسلمين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم فضل نفسه فقال : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ﴾ [يونس : 58] .

فشتّان بين مَنْ مشهودُه فضلُ نفسه ، وبين مَنْ مشهودُه فضل ربه ؛ فشهود العبد فضل نفسه يوجب له الشكر وهو خطر الإعجاب ، وشهود العبد فضل الحق – الذي هو جلاله في وصفه وجماله في استحقاق نعته – يقتضي الثناء وهو يوجب الإيجاب . انتهى انتهى . اهـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 88 ﴾

(21/50)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (47) ﴾

يدّعي بعض الناس أن هناك تكراراً . للآيات السبع التي سبق فيها تذكير بني إسرائيل . نقول : لا . لم تتكرر هذه الآيات . . وهي قوله تعالى : ﴿ يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ * وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقاً لِمَا

مَعَكُمْ وَلاَ تَكُونُواْ أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ * وَلاَ تَلْبِسُواْ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُواْ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ * وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ وَارْكَعُواْ مَعَ الرَّاكِعِينَ * أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ * وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ * الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾[البقرة: 40-46]

هذه الآيات السبع كلها تذكر بني إسرائيل. برسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم. والذي جاء وصف صفاته وزمنه في التوراة ولتذكيرهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم. هو نعمة إليهم وإلى الناس جميعا. وإذا كان الله قد فضل بني إسرائيل بأن أرسل رسلا. فليس معنى ذلك أن ينكروا نعمة الله عليهم بالرسول الخاتم. وبما أن أوصاف رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ذكرت في التوراة وطلب منهم أن يؤمنوا به وينصروه فإن عدم إيمانهم به هو كفر بالتوراة. كما أن الإنجيل بشر بمحمد صلى الله عليه وسلم وطلب منهم أن يؤمنوا به. فعدم إيمانهم به كفر بالإنجيل.

وقوله تعالى: ﴿ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾ أي اذكروا أنني جعلت في كتابكم ما

يثبت صدق محمد صلى الله عليه وسلم في نبوته . والمعنى اذكروا نعمتي بأني فضلتكم على العالمين ممن عاصروكم وقت نزول رسالة موسى . وجعلت منكم الأنبياء .

ومادام الحق سبحانه وتعالى . . قد فضلهم على العالمين . . فكيف يمّن عليهم ؟ نقول المّن هنا لشدة النكاية بهم . فالله سبحانه وتعالى . لشدة معصيتهم وكفرهم جعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت .

واقرأ قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ [البقرة : 65]

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِّن ذَالِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُوْلَائِكَ شَرٌّ مَّكَاناً وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ السَّبِيلِ ﴾ [المائدة : 60]

فالله سبحانه وتعالى يبين لنا كيف كفر بنو إسرائيل بأنبيائهم وقتلوهم . رغم أن الله تعالى أعطاهم خيرا كثيرا . . ولكنهم نكثوا العهد . . فاستحقوا العذاب . فهم لم يجعلوا نعمة الله عليهم سببا في إخلاصهم والإيمان به سبحانه وتصديق منهجه . وتصديق الرسول الخاتم

الذي ذكر عندهم في التوراة . كان يجب أن يؤمنوا بالله وأن يذكروا نعمه الكثيرة التي تفضل بها عليهم .

والحق يريد أن يلفتنا إلى أنه مادام قد أنعم عليهم .

. فلا يظنون أنهم غير مطالبين بالإيمان بمحمد عليه الصلاة والسلام . إنما كان لابد أن يفهموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء ليصحح لهم كتابهم . ويوضح لهم الطريق الصحيح . . فكان يجب عليهم أن ينصروه . والنعمة لا يمكن أن تستمر مع الكفر بها .

وحتى لا نظن أن الله سبحانه وتعالى قد قسا عليهم بأن جعلهم أمما متفرقة في الأرض كلها . ثم بعد ذلك يجمعون في وطن واحد ليقتلوا . . واقرأ قوله تعالى : ﴿ وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُواْ الأَرْضَ ﴾ [الإسراء : 104]

أي أرض تلك التي طلب الله سبحانه وتعالى من بني إسرائيل أن يسكنوها ؟ مادام الحق سبحانه وتعالى قال : ﴿ اسْكُنُواْ الأَرْضَ ﴾ فهي الأرض كل الأرض . وهل تكون الأرض كلها وطنا لليهود . طبعاً لا . ولكن الحق سبحانه كتب عليهم أن يتفرقوا في الأرض . فلا تكون لهم دولة إلا عندما يشاء الله أن يجمعهم في مكان واحد . ثم يسلط عليهم عباده

المؤمنين . والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً * فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلاَلَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْداً مَّفْعُولاً * ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً ﴾ [الإسراء : 4-6]

هذه هي المرة الأولى التي انتصر فيها المسلمون على اليهود . يقول الحق سبحانه وتعالى . ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ ﴾ ومادام الحق سبحانه وتعالى قال عليهم فهي على المسلمين . لأنهم هم الذين انتصروا على اليهود . وقوله تعالى : ﴿ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ ﴾ معناها أنهم ينتصرون على المسلمين وهذا ما هو حادث الآن ، وما شاهدناه وما نشاهده في الفترة الأخيرة . أي أن المدد والقوة تأتيهم من الخارج وليس من ذاتهم .

ونحن نرى أن إسرائيل قائمة على جلب المهاجرين اليهود من الدول الأخرى وجلب الأموال والمساعدات من الدول الأخرى أيضا . أي أن كل هذا يأتيهم بمدد من الخارج . وإسرائيل لا تستطيع أن تعيش إلا بالمهاجرين إليها . وبالمعونات التي تأتيها . فالمدد لابد أن يأتي من الخارج . إذا كانت هناك معركة وطلب قائد المدد . . فمعناه أنه يريد رجالا يأتونه من

خارج أرض المعركة ليصبحوا مددا وقوة لهذا الجيش . وقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً ﴾ النفير هو الصوت العالي الذي يجذب الانتباه . ونحن نرى الآن أن إسرائيل تسيطر على وسائل الإعلام والدعاية في العالم . وأن صوتها عال ومسموع . . ويقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوءُواْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ . . ومعنى هذا أن المسجد الأقصى سيضيع من المسلمين ويصبح تحت حكم اليهود فيأتي المسلمون ويحاربونهم ويدخلون المسجد كما دخلوه أول مرة في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه . ويقول الله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً ﴾ واللفيف هو الجمع غير المتجانس .

الذي يتنافر مع نفسه ومع من حوله . وبما أن الله سبحانه وتعالى قد قضى أن يحدث قتال بين اليهود وبين المسلمين . . يستعيد فيه المسلمون المسجد الأقصى . فكان لابد أن يجمعهم في مكان واحد . لأنهم لو بقوا كجاليات متفرقة في كل دول العالم ومعزولة عن المجتمعات التي يعيشون فيها لاقتضى ذلك أن يحارب المسلمون العالم كله . ولكن الله سبحانه وتعالى سيأتي بهم من كل دولة إلى المكان الذي فيه بيت المقدس حتى يمكن أن يحاربهم المسلمون ، وأن يدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة .

فالحق سبحانه وتعالى يذكر بني إسرائيل بنعمه عليهم . وبمعاصيهم وكفرهم حتى لا يقول أحد إن الله سبحانه كان قاسيا عليهم لأنهم هم الذين كفروا . وهم الذين عصوا وأفسدوا في الأرض . فاستحقوا هذا العقاب من الله سبحانه وتعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 315.312 ﴾

(27/50)

قوله تعالى ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (48) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما ذكرهم بتخصيصهم بالكرامة ونهاهم عن المخالفة وكانت المخالفة مع عظيم النعمة أقبح وأشد وأفحش حذّرهم يوماً لا ينجي أحداً فيه إلا تقواه فقال .

وقال الحرالي : لما دعاهم إلى الوفاء بالعهد تنبيهاً لهمة من له فضل باطن يرجع إلى فضائل النفس فأجاب من وفق وتمادى على حاله من خذل ثنى الخطاب لهم بالتنبيه على النعمة

الظاهرة ليتنبه لذلك من يخاف تغيير النعمة الظاهرة حين لم يخف السقوط عن رتبة الفضيلة في الخطاب فذكرهم بالنعمة والتفضيل الذي فضلهم به على العالمين وهم من ظهرت أعلام وجودهم في زمانهم ، وكذلك كل تفضيل يقع في القرآن والسنة ، وإنما العالم من شمله الوجود لا ما أحاط به العلم بعد ، لأن ذلك لم يرفع في الشهود علم وجوده ؛ وفيه إشعار بأنهم كما فضلوهم على عالمي زمانهم فليس ذلك بمقصور عليهم بل كذلك يفضل الله العرب في زمان نبوتها على بني إسرائيل وعلى جميع الموجودين في زمانهم ، وحيث انتهى الخطاب إلى تذكر ظاهر النعمة بعد التذكير بباطن الفضيلة لم يبق وراء ذلك إلا التهديد بوعيد الآخرة عطفاً على تهديد تقتضيه الأفهام بتغيير ما بقي عليهم من النعمة في الدنيا ؛ فكان مفهوم الخطاب : فاحذروا أن يصيبكم مثل ما أصاب المؤاخذين في الدنيا – انتهى ﴿ واتقوا ﴾ .

ولما كان المتقى إنما هو الجزاء الواقع في يوم القيامة حذفه وأقام اليوم مقامه تفخيماً له وتنبيهاً على أن عقابه لا يدفع كما يدفع ما في غيره بأنواع الحيل فقال : ﴿ يوماً ﴾ هو من العظمة بحيث ﴿ لا تجزي ﴾ أي تقضي وتغني فيه ﴿ نفس ﴾ أي نفس كانت ﴿ عن نفس ﴾ كذلك ﴿ شيئاً ﴾ من الجزاء .

قال الحرالي : والنفس لكل امرىء لزمته نفاسة على غيره ، فهؤلاء الذين لا يغني بعضهم عن بعض بخلاف من آثر غيره وذهبت نفاسة نفسه ، فإنه يغني عمن دونه بالشفاعة والإحسان في الدنيا والآخرة ، وفيه إعلام بأن ضعة النفس مبدأ التوفيق ونفاستها مبدأ الخذلان

﴿ أذلة على المؤمنين ﴾ [المائدة : 54] فذل العبد – بالضم – لله ، وذِله – بالكسر – لعباد الله بشرى فوزه ، وإعراضه عن ذكر الله وصعر خده للناس نذارة هلاكه – انتهى .

(28/50)

ولما كان الإجزاء قد يكون بنفس كون المجزىء موجوداً وهو بحيث يخشى أن يسعى في الفكاك بنوع حيلة فتحرك القلوب لإجابته وفك أسيره فيحمل ذلك من أسره على إطلاقه ، وقد يحتال بالفعل في التوصل إلى فكه في خفية بسرقته أو فتح سجنه أو نحو ذلك ، وكانت وجوه الإجزاء المشهورة ثلاثة عطفها على الإجزاء الأعم منها فقال : ﴿ ولا يقبل منها ﴾ أي النفس الأولى أو الثانية ﴿ شفاعة ﴾ أي لم يؤذن فيها وهي من الشفع وهو إرفاد الطالب بتثنية الرغبة له فيما رغب فيه ليصير كالإمام له في وجهة حاجته – قاله الحرالي ﴿ ولا يؤخذ منها عدل ﴾ تبذله غير الأعمال الصالحة ، وهو ما يعدل الشيء ويكون معه كالعدلين المتكافئي القدر على الحمولة ، فكأنّ العدل – بالكسر – في الشيء المحسوس ، والعدل – بالفتح – في الشيء المعقول ، وكذلك عادة العرب تفرق بين ما في الحس وما في المعنى بعلامة إعراب في ذات نفس الكلمة لا في آخرها – قاله الحرالي .

ولما كان عدم النصرة للجمع يستلزم عدمها للمفرد بطريق الأولى جمع فقال : ﴿ ولا هم

ينصرون ﴾ أي يتجدد لهم نصر يوماً ما بمن ينقذهم قهراً كائناً من كان ، والنصر تأييد المقاوم في الأمر بما هو أقوى من مقاومة وهما طرفان ليصير كالمتقدم له بحكم استقلاله فيما يتوقع عجز المنصور فيه – قاله الحرالي .

فانتفى بذلك جميع وجوه الخلاص التي يطمع فيها الظالم في الدنيا .

قال الحرالي : ولما كانت أسباب النجاة للمرء بأحد ثلاث : إما شفاعة من فوقه في العلم والفضل ، وإما نصرة من فوقه في الأيد والقوة ، وإما فكاك من يده لنفسه إذ من هو مثله لا يغني وأحرى من هو دونه ، استوفى الخطاب جميع الوجوه الثلاثة ليسد على ذي النفس المستمسك بنفاسته جميع الوجوه الثلاثة من الشفاعة والفدية والنصرة – انتهى . انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 127. 129 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أن اتقاء اليوم اتقاء لما يحصل في ذلك اليوم من العقاب والشدائد لأن نفس اليوم لا يتقى ولا بد من أن يرده أهل الجنة والنار جميعاً .

فالمراد ما ذكرناه ثم إنه تعالى وصف اليوم بأشد الصفات وأعظمها تهويلاً ، وذلك لأن العرب إذا دفع أحدهم إلى كريهة وحاولت أعوانه دفاع ذلك عنه بذلت ما في نفوسها الأبية من مقتضى الحمية فذبت عنه كما يذب الوالد عن ولده بغاية قوته ، فإن رأى من لا طاقة له بمانعته عاد بوجوه الضراعة وصنوف الشفاعة فحاول بالملاينة ما قصر عنه بالمخاشنة ، فإن لم تغن عنه الحالتان من الخشونة والليان لم يبق بعده إلا فداء الشيء بمثله .

إما مال أو غيره وإن لم تغن عنه هذه الثلاثة تعلل بما يرجوه من نصر الأخلاء والأخوان فأخبر الله سبحانه أنه لا يغني شيء من هذه الأمور عن المجرمين في الآخرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 51 ﴾

سؤالان :

السؤال الأول : الفائدة من قوله : ﴿ لاَّ تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا ﴾ هي الفائدة من قوله : ﴿ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ فما المقصود من هذا التكرار ؟

والجواب : المراد من قوله : ﴿ لاَّ تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا ﴾ أنه لا يتحمل عنه غيره ما يلزمه من الجزاء ، وأما النصرة فهي أن يحاول تخليصه عن حكم المعاقب وسنذكر فرقاً آخر إن شاء الله تعالى .

السؤال الثاني : أن الله تعالى قدم في هذه الآية قبول الشفاعة على أخذ الفدية وذكر هذه الآية في هذه السورة بعد العشرين والمائة وقدم قبول الفدية على ذكر الشفاعة فما الحكمة

فيه ؟ الجواب : أن من كان ميله إلى حب المال أشد من ميله إلى علو النفس فإنه يقدم التمسك بالشافعين على إعطاء الفدية ومن كان بالعكس يقدم الفدية على الشفاعة ، ففائدة تغيير الترتيب ، الإشارة إلى هذين الصنفين . انتهى انتهى . ا هـ ﴾ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 51 ﴿

فصل

قال الفخر :

أما قوله تعالى : ﴿ لاَّ تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا ﴾ فقال القفال : الأصل في جزى هذا عند أهل اللغة قضي ومنه الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأبي بردة بن يسار : " تجزيك ولا تجزي أحداً بعدك " ، هكذا يرويه أهل العربية : " تجزيك " بفتح التاء غير مهموز أي تقضي عن أضحيتك وتنوب ، ومعنى الآية أن يوم القيامة لا تنوب نفس عن نفس شيئاً ولا تحمل عنها شيئاً مما أصابها ، بل يفر المرء فيه من أخيه وأمه وأبيه ومعنى هذه النيابة أن طاعة المطيع لا تقضي على العاصي ما كان واجباً عليه .

وقد تقع هذه النيابة في الدنيا كالرجل يقضي عن قريبه وصديقه دينه ويتحمل عنه ، فأما يوم

القيامة فإن قضاء الحقوق إنما يقع فيه من الحسنات .

روى أبو هريرة قال : قال عليه السلام : " رحم الله عبداً كان عنده لأخيه مظلمة في عرض أو مال أو جاه فاستحله قبل أن يؤخذ منه وليس ثم دينار ولا درهم فإن كانت له حسنات أخذ من حسناته وإن لم يكن له حسنات حمل من سيئاته " .

قال صاحب الكشاف : و (شيئاً) مفعول به ويجوز أن يكون في موضع مصدر أي قليلاً من الجزاء كقوله تعالى : ﴿ وَلاَ يُظْلَمُونَ شَيْئاً ﴾ [مريم : 60] .

ومن قرأ : " لا يجزي " من أجزأ عنه إذا أغنى عنه فلا يكون في قراءته إلا بمعنى شيئاً من الإجزاء وهذه الجملة منصوبة المحل صفة ليوماً .

فإن قيل : فأين العائد منها إلى الموصوف ؟ قلنا : هو محذوف تقديره لا تجزي فيه ومعنى التنكير أن نفساً من الأنفس لا تجزي عن نفس غيرها شيئاً من الأشياء وهو الإقناط الكلي القطاع للمطامع .

أما قوله تعالى : ﴿ وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شفاعة ﴾ فالشفاعة أن يستوهب أحد لأحد شيئاً ويطلب له حاجة وأصلها من الشفع الذي هو ضد الوتر ، كأن صاحب الحاجة كان فرداً فصار الشفيع له شفعاً أي صارا زوجاً .

واعلم أن الضمير في قوله : ﴿ وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا ﴾ راجع إلى النفس الثانية العاصية وهي التي لا يؤخذ منها عدل ، ومعنى لا يقبل منها شفاعة إنها إن جاءت بشفاعة شفيع لا يقبل منها ، ويجوز أن يرجع إلى النفس الأولى ، على أنها لو شفعت لها لم تقبل شفاعتها كما لا تجزي عنها شيئاً .

أما قوله تعالى : ﴿ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ ﴾ أي فدية ، وأصل الكلمة من معادلة الشيء تقول : ما أعدل بفلان أحداً ، أي لا أرى له نظيراً .

قال تعالى : ﴿ ثُمَّ الذين كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأنعام : 1] ونظيره هذه الآية قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَّا فِى الأرض جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُواْ بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ القيامة مَا تقبل منهم ﴾ [المائدة : 36] وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الذين كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْء الأرض ذَهَبًا وَلَوِ افتدى بِهِ ﴾ [آل عمران : 91] وقال : ﴿ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لاَّ يُؤْخَذْ مِنْهَا ﴾ [الأنعام : 70] .

أما قوله تعالى : ﴿ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ فاعلم أن التناصر إنما يكون في الدنيا بالمخالطة والقرابة وقد أخبر الله تعالى أنه ليس يومئذ خلة ولا شفاعة وأنه لا أنساب بينهم ، وإنما المرء يفر من أخيه وأمه وأبيه وقرابته ، قال القفال : والنصر يراد به المعونة كقوله : " انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً " ، ومنه معنى الإغاثة : تقول العرب : أرض منصورة أي ممطورة ، والغيث ينصر البلاد إذا أنبتها فكأنه أغاث أهلها وقيل في قوله تعالى : ﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ الله ﴾ [الحج : 15] أي أن لن يرزقه كما يرزق الغيث البلاد ، ويسمى الانتقام نصرة وانتصاراً ، قال تعالى : ﴿ ونصرناه مِنَ القوم الذين كَذَّبُواْ بآياتنا ﴾ [الأنبياء : 77] قالوا معناه : فانتقمنا له ، فقوله تعالى : ﴿ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ يحتمل هذه الوجوه فإنهم يوم القيامة لا يغاثون ، ويحتمل أنهم إذا عذبوا لم يجدوا من ينتقم لهم من الله ، وفي الجملة كأن النصر هو دفع الشدائد ، فأخبر الله تعالى أنه لا دافع هناك من عذابه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 51.52 ﴾

فائدة

قال القرطبى :

ومعنى ﴿ لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً ﴾ : أي لا تؤاخذ نفس بذنب أخرى ولا تدفع عنها شيئاً ؛ تقول : جَزَى عنّي هذا الأمر يَجْزِي ؛ كما تقول : قَضَى عني .

واجتزأت بالشيء اجتزاء إذا اكتفيت به ؛ قال الشاعر :

فإنّ الغدر في الأقوام عارٌ . . .

وأن الحرّ يَجزأ بالكُراع

أي يكتفي بها .

" وفي حديث عمر : " إذا أجريت الماء على الماء جَزَى عنك" " يريد إذا صببت الماء على البول في الأرض فجرى عليه طهر المكان ، ولا حاجة بك إلى غسل ذلك الموضع وتنشيف الماء بخرقة أو غيرها كما يفعل كثير من الناس .

وفي صحيح الحديث " عن أبي بُردة بن نِيار في الأُضْحِيّة : " لن تَجزِيَ عن أحد بعدك" " أي لن تغني .

(33/50)

فمعنى لا تجزي : لا تقضي ولا تغني ولا تكفي إن لم يكن عليها شيء ؛ فإن كان فإنها تجزي وتقضي وتغني ، بغير اختيارها من حسناتها ما عليها من الحقوق ؛ كما في حديث أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من كانت عنده مَظِلمة لأخيه من عِرْضه أو شيءٌ فليتحلّله منه اليوم قبل ألا يكون دينار ولا درهم إن كان له عمل صالح أُخِذ منه بقدر مظِلمته وإن لم يكن له حسنات أُخِذ من سيئات صاحبه فحُمِل عليه " خرّجه

البخاري.

ومثله حديثه الآخر: في المُفْلِس، وقد ذكرناه في التذكرة خرّجه مسلم.

وقرئ "تُجزِئ" بضم التاء والهمز.

ويقال: جَزَى وأجزى بمعنًى واحد.

وقد فرّق بينهما قوم فقالوا: جَزَى بمعنى قضى وكافأ.

وأجزى بمعنى أغنى وكفى.

أجزأني الشيء يجزئني أي كفاني؛ قال الشاعر:

وأجزأتَ أمر العالمين ولم يكن . . .

ليجزئ إلا كاملٌ وابن كامل. انتهى انتهى. اهـ ﴿تفسير القرطبى حـ 1 صـ 377.

378﴾

فائدة

قال الفخر:

إن في الآية أعظم تحذير عن المعاصي وأقوى ترغيب في تلافي الإنسان ما يكون منه من المعصية بالتوبة لأنه إذا تصور أنه ليس بعد الموت استدراك ولا شفاعة ولا نصرة ولا فدية علم أنه لا خلاص له إلا بالطاعة، فإذا كان لا يأمن كل ساعة من التقصير في العبادة، ومن فوت التوبة من حيث إنه لا يقين له في البقاء صار حذراً خائفاً في كل حال، والآية وإن كانت

في بني إسرائيل فهي في المعنى مخاطبة للكل لأن الوصف الذي ذكر فيها وصف لليوم وذلك يعم كل من يحضر في ذلك اليوم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 52 ﴾

(34/50)

فصل جامع ونفيس فى الشفاعة

قال الفخر :

أجمعت الأمة على أن لمحمد صلى الله عليه وسلم شفاعة في الآخرة وحمل على ذلك قوله تعالى : ﴿ عسى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُودًا ﴾ [الإسراء : 79] وقوله تعالى : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فترضى ﴾ [الضحى : 5] ثم اختلفوا بعد هذا في أن شفاعته عليه السلام لمن تكون أتكون للمؤمنين المستحقين للثواب ، أم تكون لأهل الكبائر المستحقين للعقاب ؟ فذهبت المعتزلة على أنها للمستحقين للثواب وتأثير الشفاعة في أن تحصل زيادة من المنافع على قدر ما استحقوه ، وقال أصحابنا : تأثيرها في إسقاط العذاب عن المستحقين للعقاب ، إما بأن يشفع لهم في عرصة القيامة حتى لا يدخلوا النار وإن دخلوا النار فيشفع لهم حتى يخرجوا منها ويدخلوا الجنة واتفقوا على أنها ليست للكفار ، واستدلت المعتزلة على إنكار الشفاعة لأهل الكبائر بوجوه .

أحدها : هذه الآية : قالوا إنها تدل على نفي الشفاعة من ثلاثة أوجه .

الأول : قوله تعالى : ﴿ لاَّ تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا ﴾ ولو أثرت الشفاعة في إسقاط العقاب لكان قد أجزت نفس عن نفس شيئاً .

الثاني : قوله تعالى : ﴿ وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شفاعة ﴾ وهذه نكرة في سياق النفي فتعم جميع أنواع الشفاعة ، والثالث : قوله تعالى : ﴿ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ ولو كان محمد شفيعاً لأحد من العصاة لكان ناصراً له وذلك على خلاف الآية .

لا يقال الكلام على الآية من وجهين : الأول : أن اليهود كانوا يزعمون أن آباءهم يشفعون لهم فأيسوا من ذلك ، فالآية نزلت فيهم .

الثاني : أن ظاهر الآية يقتضي نفي الشفاعة مطلقاً إلا أنا أجمعنا على تطرق التخصيص إليه في حق زيادة الثواب لأهل الطاعة ، فنحن أيضاً نخصه في حق المسلم صاحب الكبيرة بالدلائل التي نذكرها ، لأنا نجيب عن الأول بأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، وعن الثاني أنه لا يجوز أن يكون المراد من الآية نفي الشفاعة في زيادة المنافع لأنه تعالى حذر من ذلك اليوم بأنه لا تنفع فيه شفاعة ، وليس يحصل التحذير إذا رجع نفي الشفاعة إلى

تحصيل زيادة النفع لأن عدم حصول زيادة النفع ليس فيه خطر ولا ضرر يبين ذلك أنه تعالى لو قال : اتقوا يوماً لا أزيد فيه منافع المستحق للثواب بشفاعة أحد لم يحصل بذلك زجر عن المعاصي ، ولو قال : اتقوا يوماً لا أسقط فيه عقاب المستحق للعقاب بشفاعة شفيع كان ذلك زجراً عن المعاصي ، فثبت أن المقصود من الآية نفي تأثير الشفاعة في إسقاط العقاب لا نفي تأثيرها في زيادة المنافع .

وثانيها : قوله تعالى : ﴿ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ [غافر : 18] والظالم هو الآتي بالظلم وذلك يتناول الكافر وغيره ، لا يقال إنه تعالى نفى أن يكون للظالمين شفيع يطاع ولم ينف شفيعاً يجاب ونحن نقول بموجبه فإنه لا يكون في الآخرة شفيع يطاع ، لأن المطاع يكون فوق المطيع ، وليس فوقه تعالى أحد يطيعه الله تعالى ، لأنا نقول : لا يجوز حمل الآية على ما قلتم من وجهين ، الأول : أن العلم بأنه ليس فوقه تعالى أحد يطيعه ، متفق عليه بين العقلاء .

أما من أثبته سبحانه فقد اعترف أنه لا يطيع أحداً ، وأما من نفاه فمع القول بالنفي استحال أن يعتقد فيه كونه مطيعاً لغيره ، فإذا ثبت هذا كان حمل الآية على ما ذكرتم حملاً لها على معنى لا يفيد .

الثاني : أنه تعالى نفى شفيعاً يطاع ، والشفيع لا يكون إلا دون المشفوع إليه لأن من فوقه يكون آمراً له وحاكماً عليه ومثله لا يسمى شفيعاً فأفاد قوله : " شفيع " كونه دون الله تعالى فلم يمكن حمل قوله : ﴿ يُطَاعُ ﴾ على من فوقه فوجب حمله على أن المراد به أن لا يكون لهم شفيع يجاب .

وثالثها : قوله تعالى : ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شفاعة ﴾ [البقرة : 254] ظاهر الآية يقتضي نفي الشفاعات بأسرها .

ورابعها : قوله تعالى : ﴿ وَمَا للظالمين مِنْ أَنصَارٍ ﴾ [البقرة : 270] ولو كان الرسول يشفع للفاسق من أمته لوصفوا بأنهم منصورون لأنه إذا تخلص بسبب شفاعة الرسول عن العذاب فقد بلغ الرسول النهاية في نصرته .

وخامسها : قوله تعالى : ﴿ وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارتضى ﴾ [الأنبياء : 28] أخبر تعالى عن ملائكته أنهم لا يشفعون لأحد إلا أن يرتضيه الله عز وجل والفاسق ليس بمرتضى عند الله تعالى ، وإذا لم تشفع الملائكة له فكذا الأنبياء عليهم السلام ، لأنه لا قائل بالفرق .

وسادسها : قوله تعالى : ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شفاعة الشافعين ﴾ [المدثر : 48] ولو أثرت الشفاعة في إسقاط العقاب لكانت الشفاعة قد تنفعهم وذلك ضد الآية .

وسابعها : أن الأمة مجمعة على أنه ينبغي أن نرغب إلى الله تعالى في أن يجعلنا من أهل

شفاعته عليه السلام ويقولون في جملة أدعيتهم : واجعلنا من أهل شفاعته ، فلو كان المستحق للشفاعة هو الذي خرج من الدنيا مصراً على الكبائر لكانوا قد رغبوا إلى الله تعالى في أن يختم لهم مصرين على الكبائر .

(37/50)

لا يقال لم لا يجوز أن يقال : إنهم يرغبون إلى الله تعالى في أن يجعلهم من أهل شفاعته إذا خرجوا مصرين لا أنهم يرغبون في أن يختم لهم مصرين كما أنهم يقولون في دعائهم : اجعلنا من التوابين وليسوا يرغبون في أن يذنبوا ثم يتوبوا وإنما يرغبون في أن يوفقهم للتوبة إذا كانوا مذنبين وكلتا الرغبتين مشروطة بشرط وهو تقدم الإصرار وتقدم الذنب ، لأنا نقول : الجواب عنه من وجهين .

الأول : ليس يجب إذا شرطنا شرطاً في قولنا : اللهم اجعلنا من التوابين ، أن نزيد شرطاً في قولنا اجعلنا من أهل الشفاعة .

الثاني : أن الأمة في كلتا الرغبتين إلى الله تعالى يسألون منه تعالى أن يفعل بهم ما يوصلهم إلى المرغوب فيه ففي قولهم : اجعلنا من التوابين ، أن يرغبون في أن يوفقهم للتوبة من الذنوب ، وفي الثاني يرغبون في أن يفعل بهم ما كانوا عنده أهلاً لشفاعته عليه السلام ، فلو لم تحصل

أهلية الشفاعة إلا بالخروج من الدنيا مصراً على الكبائر لكان سؤال أهلية الشفاعة سؤالاً للاخراج من الدنيا حال الإصرار على الكبائر ، وذلك غير جائز بالإجماع .

أما على قولنا : إن أهلية الشفاعة إنما تحصل بالخروج على الكبائر ، وذلك غير جائز بالإجماع .

أما على قولنا إن أهلية الشفاعة إنما تحصل بالخروج من الدنيا مستحقاً للثواب كان سؤال أهلية الشفاعة حسناً فظهر الفرق .

وثانيها : أن قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ الفجار لَفِى جَحِيمٍ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدين وَمَا هُمَ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴾ [الانفطار : 14 16] يدل على أن كل الفجار يدخلون النار وأنهم لا يغيبون عنها وإذا ثبت أنهم لا يغيبون عنها ثبت أنهم لا يخرجون منها ، وإذا كان كذلك لم يكن للشفاعة أثر لا في العفو عن العقاب ولا في الإخراج من النار بعد الإدخال فيها .

وتاسعها : قوله تعالى : ﴿ يُدَبِّرُ الأمر مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ﴾ [يونس : 3] فنفى الشفاعة عمن لم يأذن في شفاعته وكذا قوله : ﴿ مَن ذَا الذى يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ [البقرة : 255] وكذا قوله تعالى : ﴿ لاَّ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرحمن وَقَالَ صَوَاباً ﴾ [

سبأ : 38] وإنه تعالى لم يأذن في الشفاعة في حق أصحاب الكبائر لأن هذا الإذن لو عرف لعرف إما بالعقل أو بالنقل ، أما العقل فلا مجال له فيه ، وأما النقل فأما بالتواتر أو بالآحاد ، والآحاد لا مجال له فيه لأن رواية الآحاد لا تفيد إلا الظن والمسألة علمية والتمسك في المطالب العلمية بالدلائل الظنية غير جائز .

وأما بالتواتر فباطل لأنه لو حصل ذلك لعرفه جمهور المسلمين ولو كان كذلك لما أنكروا هذه الشفاعة .

فحيث أطبق الأكثرون على الإنكار علمنا أنه لم يوجد هذا الإذن .

وعاشرها : قوله تعالى : ﴿ الذين يَحْمِلُونَ العرش وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك ﴾ [غافر : 7] ولو كانت الشفاعة حاصلة للفاسق لم يكن لتقييدها بالتوبة ومتابعة السبيل معنى .

الحادي عشر : الأخبار الدالة على أنه لا توجد الشفاعة في حق أصحاب الكبائر وهي أربعة .

الأول : ما روى العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة أنه عليه الصلاة والسلام دخل المقبرة فقال : " السلام عليكم دار قوم مؤمنين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون ، وددت أني قد

رأيت اخواننا : " قالوا : يا رسول الله ألسنا إخوانك .

" قال : بل أنتم أصحابي وإخواننا الذين لم يأتوا بعد .

(39/50)

" قالوا : يا رسول الله كيف تعرف من يأتي بعدك من أمتك ؟ " قال : أرأيت إن كان لرجل خيل غر محجلة في خيل دهم فهل لا يعرف خيله ؟ " قالوا : بلى يا رسول الله ، " قال فإنهم يأتون يوم القيامة غراً محجلين من الوضوء ، وأما فرطهم على الحوض ، ألا فليذادن رجال عن حوضي كما يذاد البعير الضال أناديهم ، ألا هلم ألا هلم فيقال إنهم قد بدلوا بعدك فأقول فسحقاً فسحقاً " والاستدلال بهذا الخبر على نفي الشفاعة أنه لو كان شفيعاً لهم لم يكن يقول فسحقاً فسحقاً ، لأن الشفيع لا يقول ذلك ، وكيف يجوز أن يكون شفيعاً لهم في الخلاص من العقاب الدائم وهو يمنعهم شربة ماء .

الثاني : روى عبد الرحمن ابن ساباط عن جابر بن عبد الله أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لكعب بن عجرة : " يا كعب بن عجرة أعيذك بالله من إمارة السفهاء إنه سيكون أمراء من دخل عليهم فأعانهم على ظلمهم وصدقهم بكذبهم فليس مني ولست منه ولن يرد على الحوض ومن لم يدخل عليهم ولم يعنهم على ظلمهم ولم يصدقهم بكذبهم فهو مني وأنا منه

وسيرد على الحوض ، يا كعب بن عجرة الصلاة قربان والصوم جنة والصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفيء الماء النار ، يا كعب بن عجرة لا يدخل الجنة لحم نبت من سحت " والاستدلال بهذا الحديث من ثلاثة أوجه .

أحدها : أنه إذا لم يكن من النبي ولا النبي منه فكيف يشفع له ، وثانيها : قوله : " لم يرد عليَّ الحوض" دليل على نفي الشفاعة لأنه إذا منع من الوصول إلى الرسول حتى لا يرد عليه الحوض فبأن يمتنع الرسول من خلاصه من العقاب أولى .

وثالثها : أن قوله : " لا يدخل الجنة لحم نبت من السحت" صريح في أنه لا أثر للشفاعة في حق صاحب الكبيرة .

الثالث : عن أبي هريرة قال عليه الصلاة والسلام : " لا ألفين أحدكم يوم القيامة على رقبته شاة لها ثغاء يقول : يا رسول الله أغثني فأقول لا أملك لك من الله شيئاً قد بلغتك " .

وهذا صريح في المطلوب ، لأنه إذا لم يملك له من الله شيئاً فليس له في الشفاعة نصيب .

الرابع : عن أبي هريرة قال : قال عليه الصلاة والسلام : " ثلاثة أنا خصيمهم يوم القيامة ، ومن كنت خصيمه خصمته ، رجل أعطى بي ثم غدر ، ورجل باع حراً فأكل ثمنه ، ورجل

استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يوفه أجرته " والاستدلال به أنه عليه الصلاة والسلام لما كان خصيماً لهؤلاء استحال أن يكون شفيعاً لهم ، فهذا مجموع وجوه المعتزلة في هذا الباب .

أما أصحابنا فقد تمسكوا فيه بوجوه .

أحدها : قوله سبحانه وتعالى : حكاية عن عيسى عليه السلام : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ العزيز الحكيم ﴾ [المائدة : 118] ، وجه الاستدلال أن هذه الشفاعة من عيسى عليه السلام إما أن يقال إنها كانت في حق الكفار أو في حق المسلم المطيع أو في حق المسلم صاحب الصغيرة أو المسلم صاحب الكبيرة بعد التوبة أو المسلم صاحب الكبيرة قبل التوبة .

والقسم الأول باطل لأن قوله تعالى : ﴿ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ العزيز الحكيم ﴾ [المائدة : 118] ، لا يليق بالكفار ، والقسم الثاني والثالث والرابع باطل لأن المسلم المطيع والمسلم صاحب الصغيرة والمسلم صاحب الكبيرة لا يجوز بعد التوبة تعذيبه عقلاً عند الخصم ، وإذا كان كذلك لم يكن قوله : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ﴾ لائقاً بهم وإذا بطل ذلك لم يبق إلا أن يقال : إن هذه الشفاعة إنما وردت في حق المسلم صاحب الكبيرة قبل التوبة وإذا صح القول بهذه الشفاعة في حق عيسى عليه السلام صح القول بها في حق محمد صلى الله عليه وسلم ضرورة أنه لا قائل بالفرق .

وثانيها : قوله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام : ﴿ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُ مِنّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [إبراهيم : 36] فقوله : ﴿ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ لا يجوز حمله على الكافر لأنه ليس أهلاً للمغفرة بالإجماع ولا حمله على صاحب الصغيرة ولا على صاحب الكبيرة بعد التوبة لأن غفرانه لهم واجب عقلاً عند الخصم فلا حاجة له إلى الشفاعة فلم يبق إلا حمله على صاحب الكبيرة قبل التوبة .

ومما يؤكد دلالة هاتين الآيتين على ما قلناه ما رواه البيهقي في كتاب شعب الإيمان أنه عليه الصلاة والسلام تلا قوله تعالى في إبراهيم : ﴿ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ وقول عيسى عليه السلام : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ﴾ الآية ، ثم رفع يديه وقال : " اللهم أمتي أمتي وبكى فقال الله تعالى : يا جبريل اذهب إلى محمد وربك أعلم فسله ما يبكيك ؟ فأتاه جبريل فسأله فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قال ، فقال الله عز وجل : يا جبريل اذهب إلى محمد فقل له إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك " .

رواه مسلم في الصحيح .

وثالثها : قوله تعالى في سورة مريم : ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرحمن وَفْداً وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ

إلى جَهَنَّمَ وِرْداً لاَّ يَمْلِكُونَ الشفاعة إِلاَّ مَنِ اتخذ عِندَ الرحمن عَهْداً ﴾ [مريم : 85 87] ، فنقول ليس في ظاهر الآية أن المقصود من الآية أن المجرمين لا يملكون الشفاعة لغيرهم أو أنهم لا يملكون شفاعة غيرهم لهم لأن المصدر كما يجوز ويحسن إضافته إلى الفاعل يجوز ويحسن إضافته إلى المفعول إلا أنا نقول حمل الآية على الوجه الثاني أولى ، لأن حملها على الوجه الأول يجري مجرى إيضاح الواضحات ، فإن كل أحد يعلم أن المجرمين الذين يساقون إلى جهنم وردا لا يملكون الشفاعة لغيرهم ، فتعين حملها على الوجه الثاني .

(42/50)

إذا ثبت هذا فنقول : الآية تدل على حصول الشفاعة لأهل الكبائر ، لأنه قال عقيبه : ﴿ إِلاَّ مَنِ اتخذ عِندَ الرحمن عَهْداً ﴾ ، والتقدير أن المجرمين لا يستحقون أن يشفع لهم غيرهم إلا إذا كانوا اتخذوا عند الرحمن عهداً ، فكل من اتخذ عند الرحمن عهداً وجب دخوله فيه ، وصاحب الكبيرة اتخذ عند الرحمن عهداً وهو التوحيد والإسلام ، فوجب أن يكون داخلاً تحته أقصى ما في الباب أن يقال : واليهودي اتخذ عند الرحمن عهداً وهو الإيمان بالله فوجب دخوله تحته لكنا نقول ترك العمل به في حقه لضرورة الإجماع فوجب أن يكون معمولاً به فيما وراءه .

ورابعها : قوله تعالى في صفة الملائكة : ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارتضى ﴾ [الأنبياء : 28] وجه الاستدلال به أن صاحب الكبيرة مرتضى عند الله تعالى ، وكل من كان مرتضى عند الله تعالى وجب أن يكون من أهل الشفاعة ، إنما قلنا : إن صاحب الكبيرة مرتضى عند الله تعالى لأنه مرتضى عند الله بحسب إيمانه وتوحيده وكل من صدق عليه أنه مرتضى عند الله بحسب هذا الوصف يصدق عليه أنه مرتضى عند الله تعالى لأن المرتضى عند الله جزء من مفهوم قولنا : مرتضى عند الله بحسب إيمانه ، ومتى صدق المركب صدق المفرد ، فثبت أن صاحب الكبيرة مرتضى عند الله ، وإذا ثبت هذا وجب أن يكون من أهل الشفاعة لقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارتضى ﴾ نفى الشفاعة إلا لمن كان مرتضى والاستثناء من النفي إثبات ، فوجب أن يكون المرتضى أهلاً لشفاعتهم ، وإذا ثبت أن صاحب الكبيرة داخل في شفاعة الملائكة وجب دخوله في شفاعة الأنبياء وشفاعة محمد صلى الله عليه وسلم ، ضرورة أنه لا قائل بالفرق .

فإن قيل : الكلام على هذا الاستدلال من وجهين ، الأول : أن الفاسق ليس بمرتضى فوجب أن لا يكون أهلاً لشفاعة الملائكة ، وإذا لم يكن أهلاً لشفاعة الملائكة وجب أن لا

يكون أهلاً لشفاعة محمد صلى الله عليه وسلم ، إنما قلنا : إنه ليس بمرتضى لأنه ليس بمرتضى بحسب فسقه وفجوره ومن صدق عليه أنه ليس بمرتضى بحسب فسقه صدق عليه أنه ليس بمرتضى بعين ما ذكرتم من الدليل ، وإذا ثبت أنه ليس بمرتضى وجب أن لا يكون أهلاً لشفاعة الملائكة ، لأن قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارتضى ﴾ يدل على نفي الشفاعة عن الكل إلا في حق المرتضى ، فإذا كان صاحب الكبيرة غير مرتضى وجب أن يكون داخلاً في النفي .

الوجه الثاني : أن الاستدلال بالآية إنما يتم لو كان قوله : ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارتضى ﴾ محمولاً على أن المراد منه ولا يشفعون إلا لمن ارتضاه الله ، أما لو حملناه على أن المراد منه ولا يشفعون إلا لمن ارتضى الله منه شفاعته فحينئذ لا تدل الآية إلا إذا ثبت أن الله تعالى ارتضى شفاعة صاحب الكبيرة ، وهذا أول المسألة .

والجواب عن الأول : أنه ثبت في العلوم المنطقية أن المهملتين لا يتناقضان ، فقولنا : زيد عالم ، زيد ليس بعالم لا يتناقضان لاحتمال أن يكون المراد زيد عالم بالفقه ، زيد ليس بعالم بالكلام ، وإذا ثبت هذا فكذا قولنا صاحب الكبيرة مرتضى صاحب الكبيرة ليس بمرتضى ، لا يتناقضان لاحتمال أن يقال : إنه مرتضى بحسب دينه ، ليس بمرتضى بحسب فسقه ، وأيضاً فمتى ثبت أنه مرتضى بحسب إسلامه ثبت مسمى كونه مرتضى ، وإذا كان المستثنى هو مجرد كونه مرتضى ، ومجرد كونه مرتضى حاصل عند كونه مرتضى بحسب

إيمانه وجب دخوله تحت الاستثناء وخروجه عن المستثنى منه ، ومتى كان كذلك ثبت أنه من أهل الشفاعة .

(44/50)

وأما السؤال الثاني : فجوابه أن حمل الآية على أن يكون معناها ولا يشفعون إلا لمن ارتضاه الله أولى من حملها على أن المراد ولا يشفعون إلا لمن ارتضى الله شفاعته ، لأن على التقدير الأول تفيد الآية الترغيب والتحريض على طلب مرضاة الله عز وجل والاحتراز عن معاصيه ، وعلى التقدير الثاني لا تفيد الآية ذلك ، ولا شك أن تفسير كلام الله تعالى بما كان أكثر فائدة أولى .

وخامسها : قوله تعالى في صفة الكفار : ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شفاعة الشافعين ﴾ [المدثر : 48] خصهم بذلك فوجب أن يكون حال المسلم بخلافه بناء على مسألة دليل الخطاب ، وسادسها : قوله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم : ﴿ واستغفر لذَنبكَ ، وَلِلْمُؤْمِنِينَ والمؤمنات ﴾ [محمد : 19] دلت الآية على أنه تعالى أمر محمداً بأن يستغفر لكل المؤمنين والمؤمنات وقد بينا في تفسير قوله تعالى : ﴿ الذين يُؤْمِنُونَ بالغيب ﴾ [البقرة : 3] أن

صاحب الكبيرة مؤمن ، وإذا كان كذلك ثبت أن محمداً صلى الله عليه وسلم استغفر لهم ، وإذا كان كذلك ثبت أن الله تعالى قد غفر لهم .

(45/50)

وإلا لكان الله تعالى قد أمره بالدعاء ليرد دعاءه فيصير ذلك محض التحقير والايذاء وهو غير لائق بالله تعالى ولا بمحمد صلى الله عليه وسلم فدل على أن الله تعالى لما أمر محمداً بالاستغفار لكل العصاة فقد استجاب دعاءه ، وذلك إنما يتم لو غفر لهم ولا معنى للشفاعة إلا هذا ، وسابعها : قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ﴾ [النساء : 86] فالله تعالى أمر الكل بأنهم إذا حياهم أحد بتحية أن يقابلوا تلك التحية بأحسن منها أو يردوها ، ثم أمرنا بتحية محمد صلى الله عليه وسلم حيث قال : ﴿ النبى يا أيها الذين ءامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلّمُواْ تَسْلِيماً ﴾ [الأحزاب : 56] الصلاة من الله رحمة ولا شك أن هذا تحية ، فلما طلبنا من الله الرحمة لمحمد عليه الصلاة والسلام وجب بمقتضى قوله : ﴿ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ﴾ ، أن يفعل محمد مثله وهو أن يطلب لكل المسلمين الرحمة من الله تعالى ، وهذا هو معنى الشفاعة ، ثم توافقنا على أنه عليه الصلاة والسلام غير مردود الدعاء ، فوجب أن يقبل الله شفاعته في الكل وهو المطلوب .

وثامنها : قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَاءوكَ فاستغفروا الله واستغفر لَهُمُ الرسول لَوَجَدُواْ الله تَوَّاباً رَّحِيماً ﴾ [النساء : 64] وليس في الآية ذكر التوبة ، والآية تدل على أن الرسول متى استغفر للعصاة والظالمين فإن الله يغفر لهم ، وهذا يدل على أن شفاعة الرسول في حق أهل الكبائر مقبولة في الدنيا ، فوجب أن تكون مقبولة في الآخرة ، لأنه لا قائل بالفرق .

وتاسعها : أجمعنا على وجوب الشفاعة لمحمد صلى الله عليه وسلم فتأثيرها إما أن يكون في زيادة المنافع أو في إسقاط المضار والأول باطل وإلا لكنا شافعين للرسول عليه الصلاة والسلام إذا طلبنا من الله تعالى أن يزيد في فضله عند ما نقول : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، وإذا بطل هذا القسم تعين الثاني وهو المطلوب ، فإن قيل : إنما لا يطلق علينا كوننا شافعين لمحمد صلى الله عليه وسلم لوجهين ، الأول : أن الشفيع لا بد أن يكون أعلى رتبة من المشفوع له ، ونحن وإن كنا نطلب الخير له عليه الصلاة والسلام ولكن لما كنا أدنى رتبة منه عليه الصلاة والسلام لم يصح أن نوصف بكوننا شافعين له .

الثاني : قال أبو الحسين : سؤال المنافع للغير إنما يكون شفاعة إذا كان فعل تلك المنافع لأجل

سؤاله ولولاه لم تفعل أو كان لسؤاله تأثير في فعلها ، فأما إذا كانت تفعل سواء سألها أو لم يسألها ، وكان غرض السائل التقرب بذلك إلى المسؤول ، وإن لم يستحق المسؤول له بذلك السؤال منفعة زائدة فإن ذلك لا يكون شفاعة له ، ألا ترى أن السلطان إذا عزم على أن يعقد لابنه ولاية فحثه بعض أوليائه على ذلك وكان يفعل ذلك لا محالة سواء حثه عليه أو لم يحثه ، وقصد بذلك التقرب إلى السلطان ليحصل له بذلك منزلة عنده فإنه لا يقال إنه يشفع لابن السلطان : وهذه حالتنا في حق الرسول صلى الله عليه وسلم فيما نسأله له من الله تعالى ، فلم يصح أن نكون شافعين ، والجواب على الأول ، لا نسلم أن الرتبة معتبرة في الشفاعة .

(47/50)

والدليل عليه أن الشفيع إنما سمي شفيعاً مأخوذاً من الشفع ، وهذا المعنى لا تعتبر فيه الرتبة ، فسقط قولهم ، وبهذا الوجه يسقط السؤال الثاني ، وأيضاً فنقول في الجواب عن السؤال الثاني : إنا وإن كنا نقطع بأن الله تعالى يكرم رسوله ويعظمه سواء سألت الأمة ذلك أم لم تسأل ، ولكنا لا نقطع بأنه لا يجوز أن يزيد في إكرامه بسبب سؤال الأمة ذلك على وجه لولا سؤال الأمة لما حصلت تلك الزيادة وإذا كان هذا الاحتمال يجوز ، وجب أن يبقى تجويز كوننا شافعين للرسول صلى الله عليه وسلم ولما بطل ذلك باتفاق الأمة بطل قولهم .

وعاشرها : قوله تعالى في صفة الملائكة : ﴿ الذين يَحْمِلُونَ العرش وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءامَنُواْ ﴾ [غافر : 7] وصاحب الكبيرة من جملة المؤمنين فوجب دخوله في جملة من تستغفر الملائكة لهم ، أقصى ما في الباب أنه ورد بعد ذلك قوله : ﴿ فاغفر لِلَّذِينَ تَابُواْ واتبعوا سَبِيلَك ﴾ [غافر : 7] ، إلا أن هذا لا يقتضي تخصيص ذلك العام لما ثبت في أصول الفقه أن اللفظ العام إذا ذكر بعده بعض أقسامه فإن ذلك لا يوجب تخصيص ذلك العام بذلك الخاص .

(48/50)

الحادي عشر : الأخبار الدالة على حصول الشفاعة لأهل الكبائر ، ولنذكر منها ثلاثة أوجه ، الأول : قوله عليه الصلاة والسلام : " شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي " قالت المعتزلة : الإعتراض عليه من ثلاثة وجوه : أحدها : أنه خبر واحد ورد على مضادة القرآن ، فإنا بينا أن كثيراً من الآيات يدل على نفي هذه الشفاعة وخبر الواحد إذا ورد على خلاف القرآن وجب رده ، وثانيها : أنه يدل على أن شفاعته ليست إلا لأهل الكبائر وهذا غير جائز ، لأن شفاعته منصب عظيم فتخصيصه بأهل الكبائر فقط يقتضي حرمان أهل الثواب عنه وذلك غير جائز ، لأنه لا أقل من التسوية ، وثالثها : أن هذه المسألة ليست من

المسائل العملية فلا يجوز الاكتفاء فيها بالظن وخبر الواحد لا يفيد إلا الظن فلا يجوز التمسك في هذه المسألة بهذا الخبر .

ثم إن سلمنا صحة الخبر لكن فيه احتمالات ، أحدها : أن يكون المراد منه الاستفهام بمعنى الإنكار يعني أشفاعتي لأهل الكبائر من أمتي كما أن المراد من قوله : ﴿ هذا ربّى ﴾ أي أهذا ربي ، وثانيها : أن لفظ الكبيرة غير مختص لا في أصل اللغة ولا في عرف الشرع بالمعصية بل كما يتناول المعصية بل كما يتناول المعصية يتناول الطاعة .

قال تعالى في صفة الصلاة : ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الخاشعين ﴾ [البقرة : 45] ، وإذا كان كذلك فقوله لأهل الكبائر : لا يجب أن يكون المراد منه أهل المعاصي الكبيرة بل لعل المراد منه أهل الطاعات الكبيرة .

فإن قيل : هب أن لفظ الكبيرة يتناول الطاعات والمعاصي ولكن قوله أهل الكبائر صيغة جمع مقرونة بالألف واللام فيفيد العموم فوجب أن يدل الخبر على ثبوت الشفاعة لكل من كان من أهل الكبائر سواء كان من أهل الطاعات الكبيرة أو المعاصي الكبيرة قلنا : لفظ الكبائر وإن كان للعموم إلا أن لفظ " أهل " مفرد فلا يفيد العموم فيكفي في صدق الخبر

شخص واحد من أهل الكبائر فنحمله على الشخص الآتي بكل الطاعات ، فإنه يكفي في العمل بمقتضى الحديث حمله عليه .

وثالثها : هب أنه يجب حمل أهل الكبائر على أهل المعاصي الكبيرة لكن أهل المعاصي الكبيرة أعم من أهل المعاصي الكبيرة بعد التوبة أو قبل التوبة فنحن نحمل الخبر على أهل المعاصي الكبيرة بعد التوبة ، ويكون تأثير الشفاعة في أن يتفضل الله عليه بما انحبط من ثواب طاعته المتقدمة على فسقه سلمنا دلالة الخبر على قولكم لكنه معارض بما روي عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : " أشفاعتي لأهل الكبائر من أمتي " ذكره مع همزة الاستفهام على سبيل الإنكار .

وروى الحسن عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : " ما ادخرت شفاعتي إلا لأهل الكبائر من أمتي " واعلم أن الإنصاف أنه لا يمكن التمسك في مثل هذه المسألة بهذا الخبر وحده ، ولكن بمجموع الأخبار الواردة في باب الشفاعة وإن سائر الأخبار دالة على سقوط كل هذه التأويلات .

الثاني : روى أبو هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لكل نبي دعوة مستجابة فتعجل كل نبي دعوته وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة فهي نائلة إن شاء الله من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئاً " رواه مسلم في الصحيح والاستدلال به أن

الحديث صريح في أن شفاعته صلى الله عليه وسلم تنال كل من مات من أمته لا يشرك بالله شيئاً وصاحب الكبيرة كذلك ، فوجب أن تناله الشفاعة .

(50/50)

والثالث : عن أبي هريرة قال : " أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً بلحم فرفع إليه الذراع وكانت تعجبه فنهش منها نهشة ثم قال : أنا سيد الناس يوم القيامة هل تدرون لم ذلك ؟ قالوا : لا يا رسول الله ، قال : يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد فيسمعهم الداعي وينفذهم البصر وتدنو الشمس ، فيبلّغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون فيقول بعض الناس لبعض : ألا ترون ما أنتم فيه ؟ ألا ترون ما قد بلغكم ألا تذهبون إلى من يشفع لكم إلى ربكم ؟ فيقول بعض الناس لبعض : أبوكم آدم فيأتون آدم فيقولون يا آدم أنت أبو البشر خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأمر الملائكة فسجدوا لك ، اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى ما نحن فيه ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فيقول لهم : إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب مثله قبله ولن يغضب بعده مثله ، وإنه نهاني عن الشجرة فعصيته .

نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى نوح .

فيأتون نوحاً فيقولون : يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض ، وسماك الله عبداً شكوراً ،

اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى إلى ما نحن فيه ؟ فيقول لهم : إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله وإنه كانت لي دعوة دعوت بها على قومي اذهبوا إلى غيري ، اذهبوا إلى إبراهيم .

(51/50)

فيأتون إبراهيم عليه السلام فيقولون : أنت إبراهيم نبي الله وخليله من أهل الأرض ، اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى إلى ما نحن فيه ؟ فيقول لهم إبراهيم : إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ، وذكر كذباته ، نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري ، اذهبوا إلى موسى ، فيأتون موسى ويقولون : يا موسى أنت رسول الله ، فضلك الله برسلاته وبكلامه على الناس ، اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى إلى ما نحن فيه ؟ فيقول لهم موسى : إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله وإني قتلت نفساً لم أومر بقتلها ، نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري ، اذهبوا إلى عيسى بن مريم ، فيأتون عيسى فيقولون : أنت رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه وكلمت الناس في المهد ، اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى إلى ما نحن فيه ؟ فيقول لهم عيسى : إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولم يغضب بعده مثله ، ولم يذكر له ذنباً ، نفسي نفسي اذهبوا

إلى غيري ، اذهبوا إلى محمد .

فيأتوني فيقولون : يا محمد أنت رسول الله وخاتم النبيين وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى ما نحن فيه ؟ فأنطلق واستأذن على ربي فيؤذن لي فإذا رأيت ربي وقعت ساجداً ، فيدعني ما شاء أن يدعني ثم يقول لي : يا محمد ارفع رأسك وقل تسمع وسل تعطه واشفع تشفع فأحمد ربي بمحامد علمنيها ، ثم أشفع فيحد لي حداً فأدخلهم الجنة ، ثم أرجع فإذا رأيت ربي تبارك وتعالى وقعت له ساجداً فيدعني ما شاء الله أن يدعني ، ثم يقول : أرفع رأسك وقل تسمع وسل تعطه واشفع تشفع ، فأحمد ربي بمحامد علمنيها ، ثم أشفع فيحد لي حداً فأدخلهم الجنة ، ثم أرجع فإذا رأيت ربي وقعت له ساجداً فيدعني ما شاء الله أن يدعني ، ثم يقول : يا محمد ارفع رأسك وقل تسمع وسل تعطه واشفع تشفع ، فأحمد ربي بمحامد علمنيها ، ثم اشفع فيحد لي حداً فأدخلهم الجنة .

(52/50)

ثم ارجع فأقول : يا رب ما بقي في النار إلا من حبسه القرآن ، أي وجب عليه الخلود "

وأكثر هذا الخبر مخرج بلفظه في الصحيحين .

قالت المعتزلة : الكلام على هذا الخبر وأمثاله من وجوه ، أحدها : أن هذه الأخبار أخبار طويلة فلا يمكن ضبطها بلفظ الرسول صلى الله عليه وسلم ، فالظاهر أن الراوي إنما رواها بلفظ نفسه ، وعلى هذا التقدير لا يكون شيء منها حجة ، وثانيها : أنها خبر عن واقعة واحدة ، وأنها رويت على وجوه مختلفة مع الزيادات والنقصانات ، وذلك أيضاً مما يطرق التهمة إليها .

وثالثها : أنها مشتملة على التشبيه وذلك باطل أيضاً يطرق التهمة إليها .

ورابعها : أنها وردت على خلاف ظاهر القرآن .

وذلك أيضاً بطرق التهمة إليها .

وخامسها : أنها خبر عن واقعة عظيمة تتوافر الدواعي على نقلها ، فلو كان صحيحاً لوجب بلوغه إلى حد التواتر وحيث لم يكن كذلك فقد تطرقت التهمة إليها ، وسادسها : أن الاعتماد على خبر الواحد الذي لا يفيد إلا الظن في المسائل القطعية غير جائز .

أجاب أصحابنا عن هذه المطاعن بأن كل واحد من هذه الأخبار وإن كان مروياً بالآحاد إلا أنها كثيرة جداً وبينها قدر مشترك واحد وهو خروج أهل العقاب من النار بسبب الشفاعة فيصير هذا المعنى مروياً على سبيل التواتر ، فيكون حجة والله أعلم .

والجواب على جميع أدلة المعتزلة بحرف واحد وهو أن أدلتهم على نفي الشفاعة تفيد نفي جميع أقسام الشفاعات ، وأدلتنا على إثبات الشفاعة تفيد إثبات شفاعة خاصة والعام

والخاص إذا تعارضا قدم الخاص على العام فكانت دلائلنا مقدمة على دلائلهم ، ثم إنا نخص كل واحد من الوجوه التي ذكروها بجواب على حدة :

أما الوجه الأول : وهو التمسك بقوله تعالى : ﴿ وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شفاعة ﴾ فهب أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب إلا أن تخصيص مثل هذا العام بذلك السبب المخصوص يكفي فيه أدنى دليل ، فإذا قامت الدلائل الدالة على وجود الشفاعة وجب المصير إلى تخصيصها .

(53/50)

وأما الوجه الثاني : وهو قوله تعالى : ﴿ مَا للظالمين مِنْ حَمِيمٍ وَلاَ شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ [غافر : 18] فالجواب عنه أن قوله : ﴿ مَا للظالمين مِنْ حَمِيمٍ وَلاَ شَفِيعٍ ﴾ نقيض لقولنا : للظالمين حميم وشفيع ، لكن قولنا للظالمين : حميم وشفيع موجبة كلية ، ونقيض الموجبة الكلية سالبة جزئية ، والسالبة يكفي في صدقها تحقق ذلك السلب في بعض الصور ، ولا يحتاج فيه إلى تحقق ذلك السلب في جميع الصور ، وعلى هذا فنحن نقول بموجبه لأن عندنا أنه ليس لبعض الظالمين حميم ولا شفيع يجاب وهم الكفار ، فأما أن يحكم على كل واحد منهم بسلب الحميم والشفيع فلا .

وأما الوجه الثالث : وهو قوله : ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شفاعة ﴾ [البقرة : 254] فالجواب عنه ما تقدم في الوجه الأول .

وأما الوجه الرابع : وهو قوله : ﴿ وَمَا للظالمين مِنْ أَنصَارٍ ﴾ [البقرة : 270] فالجواب عنه أنه نقيض لقولنا : للظالمين أنصار وهذه موجبة كلية فقوله : ﴿ وَمَا للظالمين مِنْ أَنصَارٍ ﴾ سالبة جزئية فيكون مدلوله سلب العموم وسلب العموم لا يفيد عموم السلب .

وأما الوجه الخامس : وهو قوله : ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شفاعة الشافعين ﴾ [المدثر : 48] فهذا وارد في حق الكفار وهو يدل بسبب التخصيص على ضد هذا الحكم في حق المؤمنين .

وأما الوجه السادس : وهو قوله : ﴿ وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارتضى ﴾ [الأنبياء : 28] فقد تقدم القول فيه .

وأما الوجه السابع : وهو قول المسلمين : اللهم اجعلنا من أهل شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم ، فالجواب عنه أن عندنا تأثير الشفاعة في جلب أمر مطلوب وأعني به القدر المشترك بين جلب المنافع الزائدة على قدر الاستحقاق ودفع المضار المستحقة على المعاصي ، وذلك القدر المشترك لا يتوقف على كون العبد عاصياً فاندفع السؤال .

وأما الوجه الثامن : وهو التمسك بقوله : ﴿ وَإِنَّ الفجار لَفِى جَحِيمٍ ﴾ [الانفطار : 14] فالكلام عليه سيأتي إن شاء الله تعالى في مسألة الوعيد .

وأما الوجه التاسع : وهو قوله لم يوجد ما يدل على إذن الله عز وجل في الشفاعة لأصحاب الكبائر ، فجوابه أن هذا ممنوع والدليل عليه ما أوردنا من الدلائل الدالة على حصول هذه الشفاعة .

وأما الوجه العاشر : وهو قوله في حق الملائكة : ﴿ فاغفر لِلَّذِينَ تَابُواْ ﴾ [غافر : 7] فجوابه ما بينا أن خصوص آخر هذه الآية لا يقدح في عموم أولها .

وأما الأحاديث فهي دالة على أن محمد صلى الله عليه وسلم لا يشفع لبعض الناس ولا يشفع في بعض مواطن القيامة ، وذلك لا يدل على أنه لا يشفع لأحد ألبتة من أصحاب الكبائر ، ولا أنه يمتنع من الشفاعة في جميع المواطن .

والذي نحققه أنه تعالى بين أن أحداً من الشافعين لا يشفع إلا بإذن الله ، فلعل الرسول لم يكن مأذوناً في بعض المواضع وبعض الأوقات ، فلا يشفع في ذلك المكان ولا في ذلك الزمان ، ثم يصير مأذوناً في موضع آخر وفي وقت آخر في الشفاعة فيشفع هناك والله أعلم .

(55/50)

قالت الفلاسفة في تأويل الشفاعة : إن واجب الوجود عام الفيض تام الجود ، فحيث لا يحصل فإنما لا يحصل لعدم كون القابل مستعداً ، ومن الجائز أن لا يكون الشيء مستعداً لقبول الفيض عن واجب الوجود إلا أن يكون مستعداً لقبول ذلك الفيض من شيء قبله عن واجب الوجود ، فيكون ذلك الشيء كالمتوسط بين واجب الوجود وبين ذلك الشيء الأول ، ومثاله في المحسوس أن الشمس لا تضيء إلا للقابل المقابل ، وسقف البيت لما لم يكن مقابلاً لجرم الشمس لا جرم لم يكن فيه استعداد لقبول النور عن الشمس ، إلا أنه إذا وضع طست مملوء من الماء الصافي ووقع عليه ضوء الشمس انعكس ذلك الضوء من ذلك الماء إلى السقف فيكون ذلك الماء الصافي متوسطاً في وصول النور من قرص الشمس إلى السقف الذي هو غير مقابل للشمس ، وأرواح الأنبياء كالوسائط بين واجب الوجود وبين أرواح عوام الخلق في وصول فيض واجب الوجود إلى أرواح العامة ، فهذا ما قالوه في الشفاعة تفريعاً على أصولهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴾ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 52 . ﴿ 62 ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ ﴾ الشفاعة مأخوذة من الشَّفع وهما الاثنان ؛ تقول : كان وَتْراً فشفَعتُه شَفْعاً ؛ والشُّفْعة منه ؛ لأنك تضم ملك شريكك إلى ملكك .

والشفيع : صاحب الشُّفْعة وصاحب الشفاعة .

وناقة شافع : إذا اجتمع لها حَمْل وولد يتبعها ؛ تقول منه : شَفعتِ الناقة شَفْعاً .

وناقة شَفُوع وهي التي تجمع بين مَحْلَبين في حَلْبة واحدة .

واستشفعته إلى فلان : سألته أن يشفع لي إليه .

وتشفّعت إليه في فلان فَشفّعني فيه ؛ فالشفاعة إذاً ضم غيرك إلى جاهك ووسيلتك ؛ فهي على التحقيق إظهار لمنزلة الشفيع عند المشفَّع ، وإيصال منفعته للمشفوع .

الرابعة : مذهب أهل الحق أن الشفاعة حق ؛ وأنكرها المعتزلة وخلدوا المؤمنين من المذنبين الذين دخلوا النار في العذاب .

(56/50)

والأخبار متظاهرة بأن من كان من العصاة المذنبين الموحّدين من أمم النبيين هم الذين تنالهم شفاعة الشافعين من الملائكة والنبيّين والشهداء والصالحين .

وقد تمسّك القاضي عليهم في الردّ بشيئين : أحدهما : الأخبار الكثيرة التي تواترت في المعنى .

والثاني : الإجماع من السلف على تلقّي هذه الأخبار بالقبول ؛ ولم يَبْدُ من أحد منهم في عصر من الأعصار نكير ؛ فظهور روايتها وإطباقهم على صحتها وقبولهم لها دليل قاطع

على صحة عقيدة أهل الحق وفساد دين المعتزلة.

فإن قالوا: قد وردت نصوص من الكتاب بما يوجب ردّ هذه الأخبار؛ مثل قوله: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: 18].

قالوا: وأصحاب الكبائر ظالمون.

وقال: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: 123]، ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾ [البقرة: 48].

قلنا: ليست هذه الآيات عامة في كل ظالم، والعموم لا صيغة له؛ فلا تعمّ هذه الآيات كل مَن يعمل سوءاً وكل نفس، وإنما المراد بها الكافرون دون المؤمنين بدليل الأخبار الواردة في ذلك.

وأيضاً فإن الله تعالى أثبت شفاعةً لأقوام ونفاها عن أقوام؛ فقال في صفة الكافرين: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشافعين﴾ [المدثر: 48] وقال: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارتضى﴾ [الأنبياء: 28] وقال: ﴿وَلَا تَنفَعُ الشفاعة عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ: 23].

فعلمنا بهذه الجملة أن الشفاعة إنما تنفع المؤمنين دون الكافرين.

وقد أجمع المفسرون على أن المراد بقوله تعالى: ﴿واتقوا يَوْماً لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾ [البقرة: 48] النفسُ الكافرة لا كل نفس.

ونحن وإن قلنا بعموم العذاب لكل ظالم عاص فلا نقول : إنهم مخلَّدون فيها بدليل الأخبار التي رويناها ، وبدليل قوله : ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء : 48] ، وقوله : ﴿ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللهِ إِلاَّ القوم الكافرون ﴾ [يوسف : 12] .

فإن قالوا : فقد قال تعالى : ﴿ وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارتضى ﴾ [الأنبياء : 28] والفاسق غير مُرْتَضًى .

قلنا : لم يقل لمن لا يرضى ، وإنما قال : ﴿ لِمَنِ ارتضى ﴾ ومن ارتضاه الله للشفاعة هم الموحّدون ؛ بدليل قوله : ﴿ لاَّ يَمْلِكُونَ الشفاعة إِلاَّ مَنِ اتخذ عِندَ الرحمن عَهْداً ﴾ [مريم : 87] .

" وقيل للنبي صلى الله عليه وسلم : ما عهد الله مع خلقه ؟ قال : " أن يؤمنوا ولا يشركوا به شيئاً " " وقال المفسرون : إلا من قال لا إله إلا الله .

فإن قالوا : المرتَضَى هو التائب الذي اتخذ عند الله عهداً بالإنابة إليه ، بدليل أن الملائكة استغفروا لهم ؛ وقال : ﴿ فاغفر لِلَّذِينَ تَابُواْ واتبعوا سَبِيلَكَ ﴾ [غافر : 7] .

وكذلك شفاعة الأنبياء عليهم السلام إنما هي لأهل التوبة دون أهل الكبائر .

قلنا : عندكم يجب على الله تعالى قبول التوبة ، فإذا قبل الله توبة المذنب فلا يحتاج إلى الشفاعة ولا إلى الاستغفار .

وأجمع أهل التفسير على أن المراد بقوله : ﴿ فاغفر لِلَّذِينَ تَابُواْ ﴾ [غافر : 7] أي من الشرك ﴿ واتبعوا سَبِيلَكَ ﴾ [غافر : 7] أي سبيل المؤمنين .

سألوا الله تعالى أن يغفر لهم ما دون الشرك من ذنوبهم ؛ كما قال تعالى : ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء : 48 و 116] .

فإن قالوا : جميع الأمة يرغبون في شفاعة النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فلو كانت لأهل الكبائر خاصّة بطل سؤالهم .

قلنا : إنما يطلب كل مسلم شفاعة الرسول ويرغب إلى اللَّه في أن تناله ؛ لاعتقاده أنه غير سالم من الذنوب ولا قائم لله سبحانه بكل ما افترض عليه ؛ بل كل واحد معترف على نفسه بالنقص فهو لذلك يخاف العقاب ويرجو النجاة ؛ وقال صلى الله عليه وسلم : " لا ينجو أحد إلا برحمة الله تعالى فقيل : ولا أنت يا رسول الله ؟ فقال : ولا أنا إلا أن يتغمّدني الله برحمته " . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 1 صـ 378 . 380 ﴾

(58/50)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى

قوله تعالى : ﴿ وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ ﴾ الآية –

ظاهر هذه الآية عدم قبول الشفاعة مطلقاً يوم القيامة . ولكنه بين في مواضع آخر أن الشفاعة المنفية هي الشفاعة للكفار ، والشفاعة لغيرهم ، بدون إذن رب السموات والأرض .

أما الشفاعة للمؤمنين بإذنه فهي ثابتة بالكتاب ، والسنة ، والإجماع . فنص على عدم الشفاعة للكفار بقوله : ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارتضى ﴾ [الأنبياء : 28] ، وقد قال : ﴿ وَلَا يرضى لِعِبَادِهِ الكفر ﴾ [الزمر : 7] ، وقال تعالى عنهم مقرراً له : ﴿ فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ﴾ [الشعراء : 100] ، وقال : ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشافعين ﴾ [المدثر : 48] ، إلى غير ذلك من الآيات .

وقال في الشفاعة بدون إذنه : ﴿ مَن ذَا الذي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ [البقرة : 255] ، وقال : ﴿ وَكَمْ مِّن مَّلَكٍ فِي السماوات لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللهُ لِمَن يَشَآءُ ويرضى ﴾ [النجم : 26] . وقال : ﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشفاعة إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرحمن وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً ﴾ [طه : 109] إلى غير ذلك من الآيات وادعاء شفعاء عند الله للكفار أو بغير إذنه ، من أنواع الكفر به جل وعلا ، كما صرح بذلك في قوله : ﴿ وَيَقُولُونَ هؤلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السماوات وَلَا فِي الأرض سُبْحَانَهُ وتعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [يونس : 18] .

تنبيه : هذا الذي قررنا من أن الشفاعة للكفار مستحيلة شرعاً مطلقاً ، يستثنى منه شفاعته صلى الله عليه وسلم لعمه أبي طالب في نقله من محلٍّ من النار إلى محل آخر منها ، كما ثبت عنه صلى الله عليه وسلم في الصحيح ، فهذه الصورة التي ذكرنا من تخصيص الكتاب بالسنة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أضواء البيان حـ 1 صـ 35.36﴾

(59/50)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : " واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئًا ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل " ووقع بعد : " ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة " ، فأخر ذكر الشفاعة فى هذه الآية وقدم فى الأولى يسأل عن ذلك .

ووجه ذلك والله أعلم أنه لما تقدم فى الآية الأولى قوله تعالى : " أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم " والمأمور بالبر قد يأخذ به ويتمسك بموجبه فيسلم من العصيان وتكون فى ذلك نجاته وإذا أمكن هذا فقد وقع الاهتداء بأمر هؤلاء الذين قيل لهم : " أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم " فهو مظنة عندهم لرجائهم أن ينفع عند مشاهدة الجزاء الإحسانى

للمأمورين بالبر حين قبلوا وامتثلوا أخذاً بظاهر حال الأمرين وإن كانوا يبطنون خلاف ما يظهرون وهذا جار على مألوف طمع اليهود ، وقد ورد فى ذكر المنافقين تعلقهم فى القيامة بقولهم للمؤمنين : " ألم نكن معكم " فطمع من زاد على كونه مع المتعلق به أنه أمره فاقتدى بأمره واهتدى المأمور لما بخلوصه أخذا بظاهر ما صدر عن الآمر وان كان الآمر يبطن خلاف ما أمر به غيره إلا أن هذا أمكن من التعلق بالكينونة فى الدنيا مع الناجين وإذا تعلق هؤلاء بمجرد كونهم كانوا مع المؤمنين فتعلق من أمر بالبر زائد إلى كونه من المأمورين ، وإن كان أمرة تظاهرا وراءا أمكن ، إلا أن كل ذلك لا ينفع ما لم يكن إيمان مخلص فلتوهم هؤلاء إمكان الشفاعة من أمرهم بالبر وطمعهم فى ذلك كان آكد شئ نفى الشفاعة لهم لإمكان توهمها ولم يتقدم فى الآية الأخرى ما يستدعى هذا فقدم فيها ذكر الفئة التى هى أولى وأحرى فى كمال التخلص على ما عهد فى الدنيا لو أمكنت والله أعلم بما أراد . انتهى . اهـ

﴿ ملاك التأويل صـ 32. 33 ﴾

(60/50)

وقال الكرماني – رحمه الله –

قوله تعالى : [ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل] قدم الشفاعة في هذه الآية, وأخر

العدل, وقدم العدل في الآية الأخرى من هذه السورة, وأخر الشفاعة, وإنما قدم الشفاعة قطعاً لطمع من زعم أن آبائهم تشفع لهم, وأن الأصنام شفعاؤهم عند الله, وأخرها في الآية الأخرى, لأن التقدير في الآيتين معاً لا يقبل منها شفاعة فتنفعها تلك الشفاعة, لأن النفع بعد القبول, وقدم العدل في الآية الأخرى ليكون لفظ القبول مقدماً فيها . انتهى انتهى . اهـ

﴿ أسرار التكرار في القرآن صـ 27 ﴾

فائدة

قال في التسهيل : [ولا يقبل منها شفاعة] ليس نفياً للشفاعة مطلقاً, فإن مذهب أهل الحق ثبوت الشفاعة لسيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم – وشفاعة الملائكة والأنبياء والمؤمنين, وإنما المراد : أنه لا يشفع أحد إلا بعد أن يأذن الله له لقوله تعالى [من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه] (البقرة : 225) ولقوله [ما من شفيع إلا من بعد إذنه] (يونس : 3) ولقوله [ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له] (سبأ : 23) وأنظر ما ورد أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يستأذن في الشفاعة, فيقال له : اشفع تشفع . فكل ما ورد في القرآن من نفى الشفاعة مطلقاً يحمل على هذا لأن المطلق يحمل على المقيد . انتهى . اهـ ﴿ التسهيل حـ 1 صـ 47 ﴾

فائدة

قال في الانتصاف : من جحد الشفاعة فهو جدير ألا ينالها, وأما من آمن بها وصدقها,

وهم أهل السنة والجماعة فأولئك يرجون رحمة الله, ومعتقدهم أنها تنال العصاة من المؤمنين وإنما ادخرت لهم, وليس في الآية دليل لمنكريها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الانتصاف من الكشاف حـ 1 صـ 139 على هامش الكشاف ﴾

فائدة

قال القاسمى :

[ولا هم ينصرون]

أي يمنعون من عذاب الله, وجمع لدلالة النفس المنكرة على النفوس الكثيرة, وذكر لمعنى العباد أو الأناسي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 2 صـ 333 ﴾

ومن فوائد ابن عرفة فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ واتقوا يَوْماً . . . ﴾ .

أي اتّقوا عذاب يوم .

قال ابن عرفة : لا بد من تقدير (هذا) المضاف لأن اليوم إن أعربته مفعولا لزمك تكليف ما

لا يطاق لأن يوم القيامة لا بد لهم منه ، فلا يصح تكليفهم بأن يجعلوا بينهم وبينه وقاية ، وإن أعربته ظرفا لم يصح أمرهم بالتقوى فيه لأنّه ليس محلا .

قوله تعالى : ﴿ لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ . . . ﴾ .

أي جزاء (تستقل به فيبطل استدلال المعتزلة بها على نفي الشفاعة العظمى أو الجزاء راجع إلى) النصرة لأن الإنسان لا (يفزع) إلى الشفاعة إلا إذا لم يقدر على النصرة لا بيده ولا بجنده ، فإن علم أنه عاجز تشفع ، فإن لم يقبل منه افتدى بالمال .

قال ابن عطية : وهذه إنما هي في الكافرين للإجماع ولتواتر الحديث بالشفاعة .

قال ابن عرفة : قال ابن الصلاح : لم يصح من (أحاديث) الشفاعة غير حديثين .

قال ابن عرفة : فعلى هذا يكون التواتر فيها معنويا لا لفظيا لتواتر شجاعة عليّ وجُود حَاتم .

وقال هنا : ﴿ وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ ﴾ (وفي الآية الأخرى) ﴿ وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ ﴾ فأخّر (الفداء) بالمال هنا عن الشفاعة وقدمه (هناك) .

قلت : ولقد أجاب الفخر الخطيب (عن ذلك) بأنّ ذلك على حسب حال الناس فواحد يرغب في المال (ويشح به) فيأتي بالشفيع ، وآخر يرغب في (الجاه والحرمة) فيهون عليه (بذل) المال صيانة لحرمته .

وأجاب الفقيه أبو جعفر أحمد بن ابراهيم (ابن الزبير) العاصمي الثقفي بأن هذه الآية تقدمها ﴿ أَتَأْمُرُونَ الناس بالبر ﴾ مظنة الامتثال والقبول فيكون مظنة لترجي الأمرين بالبر ، (وأن يشفع) فيهم يوم القيامة من امتثل أمرهم ألا ترى قوله تعالى في المنافقين ﴿ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ﴾ فقد نسبوا المؤمنين بالكون معهم فأحرى أن يتعلق هؤلاء بالحظ على الخير والدلالة عليه فكان الآكد هنا نفي الشفاعة ، فبدأ (به) ولم يتقدم في الآية الأخرى ما يستدعي هذا فبدأ بالفدية التي عهد في الدنيا أنها أمكن في التّخلص .

قال ابن عرفة : واحتجّ بها المعتزلة على إنكار الشفاعة وحملها أهل السنّة على أنها في الكفار خاصة (بهم) لما تقدم .

قال الإمام الرازي : بل هي حجة على المعتزلة .

قال ابن عرفة : لا يُنْفَى إلا ما هو قابل للنفي والكفار ليسوا بقابلين للشفاعة بوجه بخلاف العصاة .

وأجاب ابن عرفة : بأنهم قابلون لها باعتبار الدّعوى لقولهم : ﴿ هؤلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ

الله ﴾ فقد ادعوا أن لهم شفعاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عرفة صـ 276 .

279 ﴾

(63/50)

فصل

قال ابن كثير :

﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ (48) ﴾

لما ذكرهم [الله] تعالى بنعمه أولا عطف على ذلك التحذير من حُلُول نقمه بهم يوم القيامة فقال : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا ﴾ يعني : يوم القيامة ﴿ لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا ﴾ أي : لا يغني أحد عن أحد كما قال : ﴿ وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ [الأنعام : 164] ، وقال : ﴿ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ [عبس : 37] ، وقال ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا ﴾ [لقمان : 33] ، فهذه أبلغ المقامات : أن كلا من الوالد وولده لا يغني أحدهما عن الآخر شيئا ، وقوله تعالى : ﴿ وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ ﴾ يعني عن الكافرين ، كما قال : ﴿ فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ

الشَّافِعِينَ ﴾ [المدثر : 48] ، وكما قال عن أهل النار : ﴿ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ * وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾ [الشعراء : 110 ، 111] ، وقوله : ﴿ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ ﴾ أي : لا يقبل منها فداء ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ ﴾ [آل عمران : 91] وقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [المائدة : 36] وقال تعالى : ﴿ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لا يُؤْخَذْ مِنْهَا ﴾ [الأنعام : 70] ، وقال : ﴿ فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ الآية [الحديد : 15] ، فأخبر تعالى أنهم إن لم يؤمنوا برسوله ويتابعوه على ما بعثه به ، ووافوا الله يوم القيامة على ما هم عليه ، فإنه لا ينفعهم قرابة

(64/50)

قريب ولا شفاعة ذي جاه ، ولا يقبل منهم فداء ، ولو بملء الأرض ذهبا ، كما قال تعالى : ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ ﴾ [البقرة : 254] ، وقال ﴿ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خِلالٌ ﴾ [إبراهيم : 31] .

[وقال سنيد : حدثني حجاج ، حدثني ابن جريج ، قال : قال مجاهد : قال ابن عباس :

﴿ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ ﴾ قال : بدل ، والبدل : الفدية ، وقال السدي : أما عدل فيعدلها من العذاب يقول : لو جاءت بملء الأرض ذهبا تفتدي به ما تقبل منها ، وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ،] . وقال أبو جعفر الرازي ، عن الربيع بن أنس ، عن أبي العالية ، في قوله : ﴿ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ ﴾ يعني : فداء .

قال ابن أبي حاتم : وروي عن أبي مالك ، والحسن ، وسعيد بن جبير ، وقتادة ، والربيع بن أنس ، نحو ذلك .

وقال عبد الرزاق : أنبأنا الثوري ، عن الأعمش ، عن إبراهيم التيمي ، عن أبيه عن علي ، رضي الله عنه ، في حديث طويل ، قال : والصرف والعدل : التطوع والفريضة .

وكذا قال الوليد بن مسلم ، عن عثمان بن أبي العاتكة ، عن عمير بن هانئ .

وهذا القول غريب هنا ، والقول الأول أظهر في تفسير هذه الآية ، وقد ورد حديث يقويه ، وهو ما قال ابن جرير : حدثني نَجِيح بن إبراهيم ، .

(65/50)

حدثنا علي بن حكيم ، حدثنا حميد بن عبد الرحمن ، عن أبيه ، عن عَمْرو بن قيس الملائي ، عن رجل من بني أمية – من أهل الشام أحسن عليه الثناء – قال : قيل : يا رسول

الله ، ما العدل ؟ قال : "العدل الفدية"

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴾ أي : ولا أحد يغضب لهم فينصرهم وينقذهم من عذاب الله ، كما تقدم من أنه لا يعطف عليهم ذو قرابة ولا ذو جاه ولا يقبل منهم فداء . هذا كله من جانب التلطف ، ولا لهم ناصر من أنفسهم ، ولا من غيرهم ، كما قال : ﴿ فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴾ [الطارق : 10] أي : إنه تعالى لا يقبل فيمن كفر به فِدْيَة ولا شفاعة ، ولا ينقذ أحدا من عذابه منقذ ، ولا يجيره منه أحد ، كما قال تعالى : ﴿ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ ﴾ [المؤمنون : 88] . وقال ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ * وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ ﴾ [الفجر : 25 26] ، وقال ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ * بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴾ [الصافات : 25 ، 26] ، وقال ﴿ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ ﴾ الآية [الأحقاف : 28] .

وقال الضحاك عن ابن عباس في قوله : ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴾ ما لكم اليوم لا تمانعون منا ؟ هيهات ليس ذلك لكم اليوم .

قال ابن جرير : وتأويل قوله : ﴿ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴾ يعني : أنهم يومئذ لا ينصرهم ناصر ، كما لا يشفع لهم شافع ، ولا يقبل منهم عدل ولا فدية ، بَطَلت هنالك المحاباة واضمحلت الرَّشى والشفاعات ، وارتفع من القوم التعاون والتناصر ، وصار الحكم إلى عدل الجبار الذي لا ينفع لديه الشفعاء والنصراء ، فيجزي بالسيئة مثلها وبالحسنة أضعافها وذلك

نظير قوله تعالى : ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ* مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ* بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴾ [الصافات : 24 - 26] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن كثير حـ 1 صـ 256. 257 ﴾

(66/50)

من فوائد العلامة تقى الدين السبكى :

قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ :

(وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ)

وَفِي هَذِهِ السُّورَةِ أَيْضًا ﴿ وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ ﴾ وَقَدْ بَيَّنَ صَاحِبُ دُرَّةِ التَّنْزِيلِ أَنَّ الْعَادَةَ فِي الدُّنْيَا مَنْ وَقَعَ فِي شِدَّةٍ لَهُ أَرْبَعُ مَرَاتِبَ ، الْأُولَى أَنْ يُغْنِيَ عَنْهُ غَيْرُهُ مِنْ وَلَدٍ أَوْ وَالِدٍ أَوْ غَيْرِهِمَا ؛ وَالثَّانِي وَالثَّالِثُ الشَّفَاعَةُ وَالْفِدَاءُ ؛ وَالرَّابِعُ إذَا يَئِسَ مِنْ الثَّلَاثَةِ أَنْ يَنْتَظِرَ النَّصْرَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ بِغَيْرِ حِيلَةٍ مِنْهُ فَبَيَّنَ اللَّهُ نَفْيَ الْأَقْسَامِ الْأَرْبَعَةِ فِي الْآخِرَةِ وَتَطَابَقَتْ الْآيَتَانِ عَلَى تَقْدِيمِ الْأُولَى وَتَأْخِيرِ الرَّابِعَةِ ، وَاخْتَلَفَتَا فِي الثَّانِيَةِ وَالثَّالِثَةِ لِاخْتِلَافِ النَّاسِ تَارَةً يَبْدَءُونَ بِالشَّفِيعِ قَبْلَ الْفِدَاءِ ، وَتَارَةً عَكْسُهُ ؛ وَلَمْ يُبَيِّنْ صَاحِبُ الدُّرَّةِ مُنَاسَبَةَ خُصُوصِ كُلِّ آيَةٍ لِمَا جَاءَتْ بِهِ ، وَخَطَرَ لِي أَنَّهُ فِي الْأُولَى لَمَّا قَدَّمَ أَمْرَهُمْ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَالْمَأْمُورُ بِالْبِرِّ قَدْ

يَشْفَعُ ، فَقُدِّمَتْ الشَّفَاعَةُ ، وَفِي الثَّانِيَةِ لَيْسَ إلا حَالُهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ ، فَقَدَّمَ الْفِدَاءَ ؛ وَهُوَ الْعَدْلُ ، وَجَاءَتْ عَلَى وَجْهٍ أَبْلَغَ مِنْ الْأُولَى ، كَمَا هُوَ الْعَادَةُ فِي الْمَوَاعِظِ ، وَوَجْهُ الْأَبْلَغِيَّةِ أَنَّ عَدَمَ الْقَبُولِ يَسْتَلْزِمُ عَدَمَ الْأَخْذِ لِلْعَدْلِ ، وَعَدَمُ نَفْيِ الشَّفَاعَةِ يَسْتَلْزِمُ قَبُولَهَا ، وَاَللَّهُ أَعْلَمُ انْتَهَى . انتهى . اهـ ﴿ فتاوى السبكى حـ 1 صـ 20 ﴾

(67/50)

ومن فوائد أبى حيان فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ واتقوا يوماً ﴾ أمر بالاتقاء ، وكأنهم لما أمروا بذكر النعم وتفضيلهم ناسب أن من أنعم عليه وفضل يكون محصلاً للتقوى .

فأمروا بالإدامة على التقوى ، أو بتحصيل التقوى ، إن عرض لهم خلل وانتصاب يوماً ، أما على الظرف والمتقى محذوف تقديره : اتقوا العذاب يوماً ، وإما على المفعول به اتساعاً أو على حذف مضاف ، أي عذاب يوم ، أو هول يوم .

وقيل معناه : جيئوا متقين ، وكأنه على هذا التقدير لم يلحظ متعلق الاتقاء ، فإذ ذاك ينتصب يوماً على الظرف .

قال القشيري : العوام خوفهم بعذابه ، فقال : ﴿ واتقوا يوماً ﴾ ، ﴿ واتقوا النار ﴾ والخواص خوفهم بصفاته ، فقال : ﴿ وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله ﴾ وما تكون في شأن الآية .

وخواص الخواص خوفهم بنفسه ، فقال : ﴿ ويحذركم الله نفسه ﴾ وقرأ ابن السماك العدوي لا تجزي من أجزأ ، أي أغني ، وقيل جزا ، واجزا ، بمعنى واحد ، وهذه الجملة صفة لليوم ، والرابط محذوف ، فيجوز أن يكون التقدير : لا تجزي فيه ، فحذف حرف الجر ، فاتصل الضمير بالفعل ، ثم حذف الضمير ، فيكون الحذف بتدريج أو عداه إلى الضمير أولاً اتساعاً .

وهذا اختيار أبي عليّ ، وإياه نختار .

قال المهدوي : والوجهان ، يعني تقديره : لا تجزي فيه ولا تجزيه جائزان عند سيبويه والأخفش والزجاج .

وقال الكسائي : لا يكون المحذوف إلا الهاء ، قال : لا يجوز أن تقول : هذا رجل قصدت ، ولا رأيت رجلاً أرغب ، وأنت تريد قصدت إليه وأرغب فيه ، انتهى .

وحذف الضمير من الجملة الواقعة صفة جائز ، ومنه قوله :

فما أدري أغيرهم تناء . . .

وطول العهد أم مال أصابوا

يريد : أصابوه ، وما ذهبوا إليه من تعيين الربط أنه فيه ، أو الضمير هو الظاهر ، وقد يجوز على رأي الكوفيين أن يكون ثم رابط ، ولا تكون الجملة صفة ، بل مضاف إليها يوم محذوف لدلالة ما قبله عليه ، التقدير : واتقوا يوماً يوم لا تجزي ، فحذف يوم لدلالة يوماً عليه ، فيصير المحذوف في الإضافة نظير الملفوظ به في نحو قوله تعالى : ﴿ هذا يوم لا ينطقون ﴾ ونظير يوم لا تملك ، لا تحتاج الجملة إلى ضمير ، ويكون إعراب ذلك المحذوف بدلاً ، وهو بدل كل من كل ، ومنه قول الشاعر :

رحم الله أعظما دفنوها . . .

بسجستان طلحة الطلحات

في رواية من خفض التقدير أعظم طلحة .

وقد قالت العرب : يعجبني الإكرام عندك سعد ، بنية : يعجبني الإكرام إكرام سعد .

وحكى الكسائي عن العرب : أطعمونا لحماً سميناً شاة ذبحوها ، أي لحم شاة .

وحكى الفراء عن العرب : أما والله لو تعلمون العلم الكبيرة سنه ، الدقيق عظمه ، على تقديره : لو تعلمون علم الكبيرة سنه ، فحذف الثاني اعتماداً على الأول ، ولم يجز البصريون

ما أجازه الكوفيون من حذف المضاف وترك المضاف إليه على خفضه في : يعجبني القيام زيد ، ولا يبعد ترجيح حذف يوم لدلالة ما قبله عليه بهذا المسموع الذي حكاه الكسائي والفراء عن العرب .

ويحسن هذا التخريج كون المضاف إليه جملة ، فلا يظهر فيها إعراب ، فيتنافر مع إعراب ما قبله ، فإذا جاز ذلك في نثرهم مع التنافر ، فلأن يجوز مع عدم التنافر أولى .

ولم أر أحداً من المعربين والمفسرين خرجوا هذه الجملة هذا التخريج ، بل هم مجمعون على أن الجملة صفة ليوم ، ويلزم من ذلك حذف الرابط أيضاً من الجمل المعطوفة على ﴿ لا تجزي ﴾ ، أي ولا يقبل منها شفاعة فيه ، ولا يؤخذ منها عدل فيه ، ولا هم ينصرون فيه ، وعلى ذلك التخريج لا يحتاج إلى إضمار هذه الرّوابط .

﴿ نفس عن نفس شيئاً ﴾ كلاهما نكرة في سياق النفي فتعم .

(69/50)

ومعنى التنكير : أن نفساً من الأنفس لا تجزي عن نفس من الأنفس شيئاً من الأشياء ، قال الزمخشري : وفيه إقناط كلي قاطع من المطامع ، وهذا على مذهبه في أن لا شفاعة .

وقال بعضهم : التقدير عن نفس كافرة ، فقيدها بالكفر ، وفيه دلالة على أن النفس تجزي

عن نفس مؤمنة ، وذلك بمفهوم الصفة .

ويأتي الكلام على ذلك إن شاء الله تعالى عند الكلام على قوله : ﴿ ولا يقبل منها شفاعة ﴾ .

وقرأ أبو السرار الغنوي : لا تجزي نسمة عن نسمة ، وانتصاب شيئاً على أنه مفعول به ، أي لا يقضي شيئاً ، أي حقاً من الحقوق ، ويجوز أن يكون انتصابه على المصدر ، أي : ولا تجزي شيئاً من الجزاء ، قاله الأخفش ، وفيه إشارة إلى القلة ، كقولك : ضربت شيئاً من الضرب .

.

﴿ ولا يقبل منها شفاعة ﴾ : قرأ ابن كثير وأبو عمرو : ولا تقبل بالتاء ، وهو القياس والأكثر ، ومن قرأ بالياء فهو أيضاً جاز فصيح لمجاز التأنيث ، وحسنة أيضاً الفصل بين الفعل ومرفوعه .

وقرأ سفيان : ولا يقبل بفتح الياء ونصب شفاعة على البناء للفاعل ، وفي ذلك التفات وخروج من ضمير المتكلم إلى ضمير الغائب ، لأن قبله : ﴿ اذكروا نعمتي ﴾ و ﴿ إني فضلتكم ﴾ ، وبناؤه للمفعول أبلغ لأنه في اللفظ أعم ، وإن كان يعلم أن الذي لا يقبل هو الله تعالى .

والضمير في منها عائد على نفس المتأخرة لأنها أقرب مذكور ، أي لا يقبل من النفس

المستشفعة شفاعة شافع ، ويجوز أن يعود الضمير على نفس الأولى ، أي ولا يقبل من النفس التي لا تجزي عن نفس شيئاً شفاعة ، هي بصدد أن لو شفعت لم يقبل منها ، وقد يظهر ترجيح عودها إلى النفس الأولى ، لأنها هي المحدث عنها في قوله : ﴿ لا تجزي نفس عن نفس ﴾ ، والنفس الثانية هي مذكورة على سبيل الفضلة لا العمدة .

وظاهر قوله : ﴿ ولا يقبل منها شفاعة ﴾ نفي القبول ووجود الشفاعة ، ويجوز أن يكون من باب :

على لا حب لا يهتدى بمناره . . .

نفي القبول ، والمقصود نفي الشفاعة ، كأنه قيل : لا شفاعة ، فتقبل .

(70/50)

وقد اختلف المفسرون في فهم هذا على ستة أقوال : الأول : أنه لفظ عام لمعنى خاص ، والمراد : الذين قالوا من بني إسرائيل نحن أبناء الله ، وأبناء أنبيائه ، وأنهم يشفعون لنا عند الله ، فرد عليهم ذلك ، وأويسوا منه لكفرهم ، وعلى هذا تكون النفس الأولى مؤمنة ، والثانية كافرة ، والكافر لا تنفعه شفاعة لقوله تعالى : ﴿ فما تنفعهم شفاعة الشافعين ﴾

الثاني : معناه لا يجدون شفيعاً تقبل شفاعته ، لعجز المشفوع فيه عنه ، وهو قول الحسن .

الثالث : معناه لا يجيب الشافع المشفوع فيه إلى الشفاعة ، وإن كان لو شفع لشفع .

الرابع : معناه حيث لم يأذن الله في الشفاعة للكفار ، ولا بد من إذن من الله بتقدم الشافع بالشفاعة لقوله : ﴿ ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ﴾ ﴿ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ﴾ الخامس : معناه ليس لها شفاعة ، فيكون لها قبول ، وقد تقدم هذا القول .

السادس : أنه نفي عام ، أي لا يقبل في غيرها ، لا مؤمنة ولا كافرة ، في مؤمنة ولا كافرة ، قاله الزمخشري .

وأجمع أهل السنة أن شفاعة الأنبياء والصالحين تقبل في العصاة من المؤمنين ، خلافاً للمعتزلة ، قالوا : الكبيرة تخلد صاحبها في النار ، وأنكروا الشفاعة ، وهم على ضربين : طائفة أنكرت الشفاعة إنكاراً كلياً وقالوا : لا تقبل شفاعة أحد في أحد ، واستدلوا بظواهر آيات ، وخص تلك الظواهر أصحابنا بالكفار لثبوت الأحاديث الصحيحة في الشفاعة .

وطائفة أنكرت الشفاعة في أهل الكبائر ، قالوا : وإنما تقبل في الصغائر .

وقال في المنتخب : أجمعت الأمة على أن لمحمد صلى الله عليه وسلم شفاعة في الآخرة ، واختلفوا لمن تكون .

فذهبت المعتزلة إلى أنها للمستحقين الثواب ، وتأثيرها في أن تحصل زيادة من المنافع على قدر ما استحقوه .

وقال أصحابنا : تأثيرها في إسقاط العذاب عن المستحقين ، إما بأن لا يدخلوا النار ، وإما في أن يخرجوا منها بعد دخولها ويدخلون الجنة ، واتفقوا على أنها ليست للكفار ، ثم ذكر نحواً من ست أوراق في الاستدلال للطائفتين ، ورد بعضهم على بعض ، يوقف عليها في ذلك الكتاب .

﴿ ولا يؤخذ منها عدل ﴾ العدل : الفدية ، قاله ابن عباس وأبو العالية ، وسميت عدلاً لأن المفدى يعدل بها : أي يساويها ، أو البدل : أي رجل مكان رجل .

وروي عن ابن عباس : أو حسنة مع الشرك ثلاثة أقوال .

﴿ ولا هم ينصرون ﴾ : أتى بالضمير مجموعاً على معنى نفس ، لأنها نكرة في سياق النفي فتعم ، كقوله تعالى : ﴿ فما منكم من أحد عنه حاجزين ﴾ وأتى به مذكراً لأنه أريد بالنفوس الأشخاص كقولهم : ثلاثة أنفس ، وجعل حرف النفي منسحباً على جملة اسمية ليكون الضمير مذكوراً مرتين ، فيتأكد ذكر المنفي عنه النصر بذكره مرتين ، وحسن الحمل على المعنى كون ذلك في آخر فاصلة ، فيحصل بذلك التناسب في الفواصل ، بخلاف أن لو جاء ولا تنصر ، إذ كان يفوت التناسب .

ويحتمل رفع هذا الضمير وجهين من الإعراب .

أحدهما : وهو المتبادر إلى أذهان المعربين أنه مبتدأ ، والجملة بعده في موضع رفع على

الخبر .

والوجه الثاني : وهو أغمض الوجهين وأغربهما أنه مفعول لم يسم فاعله ، يفسر فعله الفعل الذي بعده ، وتكون المسألة من باب الاشتغال ، وذلك أن لا هي من الأدوات التي هي أولى بالفعل ، كهمزة الاستفهام .

فكما يجوز في : أزيد قائم ، وأزيد يضرب ، الرفع على الاشتغال ، فكذلك هذا ، ويقوي هذا الوجه أنه تقدم جملة فعلية .

والحكم في باب الاشتغال أنه إذا تقدمت جملة فعلية وعطف عليها بشرط العطف المذكور في ذلك الباب ، فالأفصح الحمل على الفعل ، ويجوز الابتداء كما ذكرنا أولاً ، ويقوي عود الضمير إلى نفس الثانية بناء الفعل للمفعول ، إذا لو كان عائداً على نفس الأولى لكان مبنياً للفاعل ، كقوله : لا تجزي .

(72/50)

ومن المفسرين من جعل الضمير في ولا هم عائداً على النفسين معاً ، قال : لأن التثنية جمع قالوا ، وفي معنى النصر للمفسرين هنا ثلاثة أقوال : أحدها : أن معناه لا يمنعون من عذاب الله .

الثاني : لا يجدون ناصراً ينصرهم ولا شافعاً يشفع لهم .

الثالث : لا يعاونون على خلاصهم وفكاكهم من موبقات أعمالهم .

وثلاثة الأقوال هذه متقاربة المعنى ، وجاء النفي لهذه الجمل هنا بلا المستعملة لنفي المستقبل في الأكثر ، وكذلك هذه الأشياء الأربعة هي مستقبلة ، لأن هذا اليوم لم يقع بعد .

وترتيب هذه الجمل في غاية الفصاحة ، وهي على حسب الواقع في الدنيا ، لأن المأخوذ بحق ، إما أن يؤدى عنه الحق فيخلص ، أو لا يقضى عنه فيشفع فيه ، أو لا يشفع فيه فيفدى ، أو لا يفدى فيتعاون بالإخوان على تخليصه .

فهذه مراتب يتلو بعضها بعضاً .

فلهذا ، والله أعلم ، جاءت مترتبة في الذكر هكذا .

ولما كان الأمر مختلفاً عند الناس في الشفاعة والفدية ، فمن يغلب عليه حب الرياسة قدم الشفاعة على الفدية ، ومن يغلب عليه حب المال قدم الفدية على الشفاعة ، جاءت هذه الجمل هنا مقدماً فيها الشفاعة ، وجاءت الفدية مقدمة على الشفاعة في جملة أخرى ، ليدل ذلك على اختلاف الأمرين .

وبدىء هنا بالشفاعة ، لأن ذلك أليق بعلوّ النفس ، وجاء هنا بلفظ القبول ، وهناك بلفظ النفع ، إشارة إلى انتفاء أصل الشيء ، وانتفاء ما يترتب عليه .

وبدىء هنا بالقبول ، لأنه أصل للشيء المترتب عليه ، فأعطى المتقدم ذكر المتقدم وجوداً

، وأخر هناك النفع إعطاء للمتأخر ذكر المتأخر وجوداً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 1 صـ 347. 350 ﴾

(73/50)

ومن فوائد أبى السعود فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ واتقوا يَوْمًا ﴾ أي حسابَ يومٍ أو عذابَ يوم ﴿ لاَّ تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا ﴾ أي لا تقضي عنها شيئاً من الحقوق فانتصابُ شيئاً على المفعولية أو شيئاً من الجزاء فيكون نصبُه على المصدرية وقرىء لا تُجزِي : أي لا تغني عنها فيتعين النصبُ على المصدرية ، وإيرادُه منكراً مع تنكير النفسِ للتعميم والإقناطِ الكليّ ، والجملة صفةُ (يوماً) والعائد منها محذوف أي لا تَجْزي فيه ومن لم يجوز الحذفَ قال : اتُسع فيه فحُذف الجارُّ وأُجرِيَ المجرورُ مجرى المفعولِ به ثم حُذِفَ في قول من قال :

فما أدري أغَيَّرهمْ تناء . . . وطولُ العهدِ أم مالٌ أصابوا

(74/50)

أي أصابوه ﴿ وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شفاعة وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ ﴾ أي من النفس الثانية العاصية أو من الأولى ، والشفاعةُ من الشفْع كأن المشفوعَ له كان فرداً فجعله الشفيعُ شفعاً والعدلُ الفدية وقيل : البدل ، وأصله التسوية سُمي به الفدية لأنها تساوي المَفْدِيَّ وتَجزي مَجزاه ﴿ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ أي يُمنعون من عذاب الله عز وجل ، والضميرُ لما دلت عليه النفسُ الثانية المنَكّرة الواقعةُ في سياق النفي من النفوس الكثيرة ، والتذكيرُ لكونها عبارةً عن العبّاد والأَناسيّ ، والنُصرةُ ههنا أخصُّ من المعونة لاختصاصها بدفع الضرر وكأنه أريد بالآية نفيُ أن يَدفعَ العذابَ أحدٌ عن أحد من كل وجهٍ محتمل ، فإنه إما أن يكون قهراً أو لا والأول النُّصرة ، والثاني إما أن يكون مجّاناً أو لا ، والأولُ الشفاعة والثاني إما أن يكونَ بأداء عينِ ما كان عليه وهو أن يجزيَ عنه أو بأداء غيرِه وهو أن يُعطيَ عنه عَدْلاً وقد تمسكت المعتزلةُ بهذه الآية على نفي الشفاعةِ لأهل الكبائرِ ، والجوابُ أنها خاصة بالكفار للآيات الواردة في الشفاعة والأحاديثِ المرويةِ فيها ويؤيده أن الخطابَ معهم ولردهم عما كانوا عليه من اعتقاد أن آباءَهم الأنبياءَ يشفعون لهم . انتهى انتهى . اهـ ﴾ تفسير أبي السعود حـ 1 صـ 99 ﴾

ومن فوائد الآلوسى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ واتقوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا ﴾ اليوم الوقت ، وانتصابه إما على الظرف والمتقى محذوف أي واتقوا العذاب يوماً وإما مفعول به واتقاؤه بمعنى اتقاء ما فيه إما مجازاً يجعل الظرف عبارة عن المظروف أو كناية عنه للزومه له ، وإلا فالاتقاء من نفس اليوم مما لا يمكن ، لأنه آت لا محالة ، ولا بد أن يراه أهل الجنة والنار جميعاً ، والممكن المقدور اتقاء ما فيه بالعمل الصالح ، و ﴿ تَجْزِى ﴾ من جزى بمعنى قضى ، وهو متعد بنفسه لمفعوله الأول ، وبعن للثاني وقد ينزل منزلة اللازم للمبالغة والمعنى لا تقضي يوم القيامة نفس عن نفس شيئاً مما وجب عليها ، ولا تنوب عنها ، ولا تحتمل مما أصابها ، أو لا تقضي عنها شيئاً من الجزاء ، فنصب ﴿ شَيْئاً ﴾ إما على أنه مفعول به أو على أنه مفعول مطلق قائم مقام المصدر ، أي جزاء مّا .

وقرأ أبو السماك : ﴿ وَلاَ ﴾ من أجزأ عنه إذا أغنى ، فهو لازم ، و ﴿ تَكُ شَيْئاً ﴾ مفعول مطلق لا غير ، والمعنى لا تغني نفس عن نفس شيئاً من الإغناء ولا تجديها نفعاً وتنكير الأسماء للتعميم في الشفيع والمشفوع ، وما فيه الشفاعة ، وفيه من التهويل والإيذان بانقطاع المطامع ما لا يخفى ، كما يشير إليه قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ المرء مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ

وصاحبته وَبَنِيهِ لِكُلِّ امرىء مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ [عبس : 34 37] والجملة في المشهور صفة يوم والرابط محذوف ، أي : لا تجزي فيه ولم يجوز الكسائي حذف المجرور إذا لم يتعين ، فلا تقول : رأيت رجلاً أرغب ، وأنت تريد أرغب فيه ، ومذهبه في هذا التدريج ، وهو أن يحذف حرف الجر أولاً حتى يتصل الضمير بالفعل فيصير منصوباً فيصح حذفه كما في قوله :

فما أدري أغيرهم تناء . . .

وطول العهد أو مال أصابوا

(76/50)

يريد أصابوه ، وقد يجوز على رأي الكوفيين أن لا تكون الجملة صفة ، بل مضاف إليها (يوم) محذوف لدلالة ما قبله عليه فلا تحتاج إلى ضمير ، ويكون ذلك المحذوف بدلاً من المذكور ومن ذلك ما حكاه الكسائي أطعمونا لحماً سميناً ، شاة ذبحوها بجر شاة على تقدير لحم شاة وحكى الفراء مثل ذلك ، ومنه قوله :

رحم الله أعظما دفنوها . . .

بسجستان طلحة الطلحات

في رواية من خفض طلحة ، والبصريون لا يجوّزون حذف المضاف ، وترك المضاف إليه على خفضه ، ويقولون بشذوذ ما ورد من ذلك ، وقرأ أبو سرار : (لا تجزي نسمة عن نسمة) وهي بمعنى النفس .

﴿ وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شفاعة وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ ﴾ الشفاعة كما في " البحر " ضم غيره إلى وسيلته وهي من الشفع ضد الوتر لأن الشفيع ينضم إلى الطالب في تحصيل ما يطلب فيصير شفعاً بعد أن كان فرداً والعدل الفدية ، قاله ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، وروي عنه أيضاً البدل أي رجل مكان رجل ، وأصل العدل بفتح العين ما يساوي الشيء قيمة وقدراً وإن لم يكن من جنسه وبكسرها المساوى في الجنس والجرم ، ومن العرب من يكسر العين من معنى الفدية ، وذكر الواحدي أن (عدل) الشيء بالفتح والكسر مثله ، وأنشد قول كعب بن مالك :

صبرنا لا نرى لله عدلا . . .

على ما نابنا متوكلينا

وقال ثعلب : العدل الكفيل والرشوة ولم يؤثر في الآية والضميران المجروران بمن إما راجعان إلى النفس الثانية لأنها أقرب مذكور ولموافقته لقوله تعالى : ﴿ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ ولأنه المتبادر من قوله : ﴿ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ ﴾ ومعنى عدم قبول الشفاعة حينئذٍ أنها إن جاءت بشفاعة شفيع لم تقبل منها وإما إلى الأولى لأنها المحدث عنها ، والثانية فضلة ولأن المتبادر من نفي قبول الشفاعة أنها لو شفعت لم تقبل شفاعتها ، وحينئذٍ معنى عدم أخذ العدل من الأولى أنه لو أعطى عدلاً من الثانية لم يؤخذ ، وكأن في الآية على هذا نوعاً من الترقي ارتكب هنا وإن لم يرتكب في مقام آخر كأنه قيل : إن النفس الأولى لا تقدر على استخلاص صاحبتها من قضاء الواجبات وتدارك التبعات لأنها مشغولة عنها بشأنها ، ثم إن قدرت على نفي ما كان بشفاعة لا يقبل منها ، وإن زادت عليه بأن ضمت الفداء فلا يؤخذ منها ، وإن حاولت الخلاص بالقهر والغلبة وأنى لها ذلك فلا تتمكن منه ، واختار الكواشي جعل الضمير الأول للنفس الأولى ، والثانية للثانية على اللف والنشر لما فيه من إجراء الجملتين على المعنى الظاهر منهما ، ويهوّن أمر التفكيك الاتضاح ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ولا تقبل بالتاء ، وسفيان ﴿ يَقْبَلُ ﴾ بفتح الياء ، ونصب شفاعة على البناء للفاعل ، وفيه التفات من ضمير المتكلم في ﴿ نِعْمَتِيَ ﴾ [البقرة : 47] الخ إلى ضمير الغائب وبناؤه للمفعول أبلغ .

﴿ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ النصر في الأصل المعونة ، ومنه أرض منصورة ممدودة بالمطر ، والمراد به هنا ما يكون بدفع الضرر أي ولاهم يمنعون من عذاب الله عز وجل والضمير راجع إما إلى ما دلت عليه النفس الثانية المنكرة الواقعة في سياق النفي من النفوس الكثيرة فيكون من قبيل ما تقدم ذكره معنى بدلالة لفظ آخر ، وإما إلى النفس المنكرة من حيث كونها لعمومها بالنفي في معنى الكثرة كما قيل في قوله تعالى : ﴿ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حاجزين ﴾ [الحاقة : 47] وأتى به مذكراً لتأويل النفوس بالعباد والأناسي ، وفيه تنبيه على أن تلك النفوس عبيد مقهورون مذللون تحت سلطانه تعالى ، وأنهم ناس كسائر الناس في هذا الأمر ، وعوده إلى النفسين بناءً على أن التثنية جمع ليس بشيء ، وجعل النفي منسحباً على جملة اسمية للتقوى ، ورفع ﴿ هُمْ ﴾ على الابتداء والجملة بعده خبره ، وجعله مفعولاً لما لم يسم فاعله والفعل بعده مفسر فتوافق الجمل لا أوافق على اختياره وإن ذهب إليه بعض الأجلة وتمسك المعتزلة بعموم الآية على نفي الشفاعة لأهل الكبائر وكون الخطاب للكفار والآية نازلة فيهم لا يدفع العموم المستفاد من اللفظ ، وأجيب بالتخصيص من وجهين ، الأول : بحسب المكان والزمان فإن مواقف القيامة ومقدار زمانها فيها سعة وطول ، ولعل هذه الحالة في ابتداء وقوعها وشدته ثم يأذن بالشفاعة ، وقد قيل : مثل ذلك في الجمع بين قوله تعالى : ﴿ فَلَا أنساب بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءلُونَ ﴾ [المؤمنون : 101]

وقوله تعالى : ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ ﴾ [الطور : 25] وكون مقام الوعيد يأبى عنه غير مسلم ، والثاني : بحسب الأشخاص إذ لا بد لهم من التخصيص في غير العصاة لمزيد الدرجات فليس العام باقياً على عمومه عندهم وإلا اقتضى نفي زيادة المنافع وهم لا يقولون به ، ونحن نخصص في العصاة بالأحاديث الصحيحة البالغة حد التواتر ، وحيث

فتح باب التخصيص نقول أيضاً : ذلك النفي مخصص بما قبل الإذن ، لقوله تعالى : ﴿ لاَّ تَنفَعُ الشفاعة عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ ﴾ [سبأ : 23] وهو تخصيص له دليل ، وتخصيصهم لا يظهر له دليل على أن الشفاعة بزيادة المنافع يكاد أن لا تكون شفاعة وإلا لكنا شفعاء الرسول صلى الله عليه وسلم عند الصلاة عليه مع أن الإجماع وقع منا ومنهم على أنه هو الشفيع ، وأيضاً في قوله تعالى : ﴿ واستغفر لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [محمد : 19] ما يشير إلى الشفاعة التي ندعيها ويحث على التخصيص الذي نذهب إليه رزقنا الله تعالى الشفاعة وحشرنا في زمرة أهل السنة والجماعة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 251 ﴿ 252.

ومن فوائد ابن عاشور فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (48) ﴾

عَطَفَ التحذير على التذكير ، فإنه لما ذكرهم بالنعمة وخاصة تفضيلهم على العالمين في زمانهم وكان ذلك منشأ غرورهم بأنه تفضيل ذاتي فتوهموا أن التقصير في العمل الصالح لا يضرهم فعقب بالتحذير من ذلك .

والمراد بالتقوى هنا معناها المتعارف في اللغة لا المعنى الشرعي .

وانتصاب ﴿ يوماً ﴾ على المفعولية به وليس على الظرفية ولذلك لم يقرأ بغير التنوين .

والمراد باتقائه اتقاؤه من حيث ما يحدث فيه من الأهوال والعذاب فهو من إطلاق اسم الزمان على ما يقع فيه كما تقول مكان مخوف .

و ﴿ تجزي ﴾ مضارع جزى بمعنى قضى حقاً عن غيره ، وهو متعد بعن إلى أحد مفعوليه فيكون ﴿ شيئاً ﴾ مفعوله الأول ، ويجوز أيضاً أن يكون مفعولاً مطلقاً إذا أريد شيئاً من الجزاء ويكون المفعول محذوفاً .

(80/50)

وجملة : ﴿ لا تجزي نفس ﴾ صفة ليوماً وكان حق الجملة إذا كانت خبراً أو صفة أو حالاً أو صلة أن تشتمل على ضمير ما أجريت عليه ، ويكثر حذفه إذا كان منصوباً أو ضميراً مجروراً فيحذف مع جاره ولا سيما إذا كان الجار معلوماً لكون متعلقه الذي في الجملة لا يتعدى إلا بجار معين كما هنا تقديره فيه وإنما جاز حذفه لأن المحذوف فيه متعين من الكلام وقد يحذف لقرينة كما في حذف ضمير الموصول إذا جر بما جر به الموصول .

ونظير هذا الحذف قول العريان الجرمي من جرم طيء :

فقلت لها لاَ والذي حجَّ حاتم . . .

أُخونُكِ عهداً إنني غير خوّان

تقديره حج حاتم إليه .

وتنكير النفس في الموضعين وهو في حيز النفي يفيد عموم النفوس أي لا يغني أحد كائناً من كان فلا تغني عن الكفار آلهتهم ولا صلحاؤهم على اختلاف عقائدهم في غَناء أولئك عنهم ، فالمقصود نفي غنائهم عنهم بأن يحولوا بينهم وبين عقاب الله تعالى ، أي نفي أن يجزوا عنهم جزاء يمنع الله عن نوالهم بسوء رعياً لأوليائهم ، فالمراد هنا الغناء بحرمة الشخص وتوقع غضبه وهو غناء كفء العدو الذي يخافه العدو على ما هو معروف عند الأمم يومئذ من اتقائهم بطش مولى أعدائهم وإحجامهم عما يوجب غضبه تقية من مكره أو ضره

أو حرمان نفعه قال السموأل :

وما ضرنا أنا قليل وجارنا . . .

عزيز وجار الأكثرين ذليل

وقال العنبري :

لو كنتُ من مازن لم تَستبِحْ إبلي . . .

بُنو الشقيقة من ذُهل بن شيبان

وبهذا يتبين أن مفاد قوله : ﴿ لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ﴾ مغاير لمفاد ما ذكر بعده بقوله : ﴿ ولا يقبل منها شفاعة ﴾ إلخ فقوله : ﴿ لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ﴾ ، هو بمعنى قوله تعالى : ﴿ يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله ﴾ [الانفطار : 19] .

(81/50)

وقوله : ﴿ ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ﴾ الضميران عائدان للنفس الثانية المجرورة بعن أي لا يقبل من نفس شفاعة تأتي بها ولا عدل تعاض به لأن المقصود الأصلي إبطال عقيدة تنصل المجرم من عقاب الله ما لم يشأ الله ؛ ليكون الضمير في قوله : ﴿ ولا هم ينصرون ﴾ راجعاً إلى مرجع الضميرين قبله .

وهذا التأييس يستتبع تحقير من توهمهم الكفرة شفعاء وإبطال ما زعموه مغنياً عنهم من غضب الله من قرابين قربوها ومجادلات أعدوها وقالوا : ﴿ هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴾ [يونس : 18] .

﴿ يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها ﴾ [النحل : 111] .

ومن المفسرين من فسر قوله : ﴿ لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ﴾ بما يعم الإجزاء فجعل ما هو مذكور بعده من عطف الخاص على العام ولذلك قال الشيخ ابن عطية : " حصرت هذه الآية المعاني التي اعتاد بها بنو آدم في الدنيا فإن الواقع في شدة لا يتخلص إلا بأن يُشفع له أو يفتدى أو ينصر " انتهى انتهى . ا هـ وألغى جمعها لحالة أن يتجنب الناس إيقاعه في شدة اتقاء لمواليه ، وما فسرنا به أرشق .

وقد جمع كلام شيوخ بني أسد مع أمرىء القيس حين كلموه في دم أبيه حجر فقالوا : فأَحمد الحالات في ذلك أن تعرف الواجب عليك في إحدى خلال ثلاث : أما إن اخترت من بني أسد أشرفها بيتاً فقدناه إليك بنسعه تذهب مع شفرات حسامك بباقي قصرته ، أو فداء بما يروح على بني أسد من نعمها فهي ألوف ، وإما وادعتنا إلى أن تضع الحوامل فتُسْدل الأزر وتُعقد الخمر فوق الرايات " أ هـ .

وقرأ الجمهور (ولا يقبل) بياء تحتية ياء المضارع المسند إلى مذكر لمناسبة قوله بعده : ﴿ ولا يؤخذ منها عدل ﴾ ، ويجوز في كل مؤنث اللفظ غير حقيقي التأنيث أن يعامل

معاملة المذكر لأن صيغة التذكير هي الأصل في الكلام فلا تحتاج إلى سبب ، وقرأه ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بمثناة فوقية رعياً لتأنيث لفظ (شفاعة) .

(82/50)

والشفاعة : السعي والوساطة في حصول نفع أو دفع ضر سواء كانت الوساطة بطلب من المنتفع بها أم كانت بمجرد سعي المتوسط ويقال لطالب الشفاعة مستشفع .

وهي مشتقة من الشفع لأن الطالب أو التائب يأتي وحده فإذا لم يجد قبولاً ذهب فأتى بمن يتوسل به فصار ذلك الثاني شافعاً للأول أي مصيّره شفعاً .

والعدل بفتح العين العوض والفداء ، سمي بالمصدر لأن الفادي يعدل المفدى بمثله في القيمة أو العين ويسويه به ، يقال عدل كذا بكذا أي سواه به .

والنصر هو إعانة الخصم في الحرب وغيره بقوة الناصر وغلبته .

وإنما قدم المسند إليه لزيادة التأكيد المفيد أن انتفاء نصرهم محقق زيادة على ما استفيد من نفي الفعل مع إسناده للمجهول كما أشرنا إليه آنفاً .

وقد كانت اليهود تتوهم أو تعتقد أن نسبتهم إلى الأنبياء وكرامة أجدادهم عند الله تعالى مما يجعلهم في أمن من عقابه على العصيان والتمرد كما هو شأن الأمم في إبان جهالتها

وانحطاطها وقد أشار لذلك قوله تعالى : ﴿ وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم ﴾ [المائدة : 18] .

وقد تمسك المعتزلة بهذه الآية للاحتجاج لقولهم بنفي الشفاعة في أهل الكبائر يوم القيامة لعموم (نفس) في سياق النفي المقتضي أن كل نفس لا يقبل منها شفاعة وهو عموم لم يرد ما يخصصه عندهم .

والمسألة فيها خلاف بين المعتزلة وأصحاب الأشعري .

واتفق المسلمون على ثبوت الشفاعة يوم القيامة للطائعين والتائبين لرفع الدرجات ، لم يختلف في ذلك الأشاعرة والمعتزلة فهذا اتفاق على تخصيص العموم ابتداء ، والخلاف في الشفاعة لأهل الكبائر فعندنا تقع الشفاعة لهم في حط السيئات وقت الحساب أو بعد دخول جهنم لما اشتهر من الأحاديث الصحيحة في ذلك كقوله صلى الله عليه وسلم " لكل نبيء دعوة مستجابة وقد ادخرت دعوتي شفاعة لأمتي " وغير ذلك .

(83/50)

قال القاضي أبو بكر الباقلاني : إن الأحاديث في ذلك بلغت مبلغ التواتر المعنوي كما أشار إليه القرطبي في نقل كلامه .

وعند المعتزلة لا شفاعة لأهل الكبائر لوجوه منها الآيات الدالة على عدم نفع الشفاعة كهاته الآية، وقوله: ﴿ فما تنفعهم شفاعة الشافعين ﴾ [المدثر: 48].

﴿ من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة ﴾ [البقرة: 254] ﴿ ما للظالمين من حميم ولا شفيع ﴾ [غافر: 18] قالوا والمعصية ظلم.

ومنها قوله تعالى: ﴿ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ﴾ [الأنبياء: 28] وصاحب الكبيرة ليس بمرتضى، ومنها قوله: ﴿ فاغفر للذين تابوا ﴾ [غافر: 7].

والجواب عن الجميع أن محل ذلك كله في الكافرين جمعاً بين الأدلة وأن قوله: ﴿ لمن ارتضى ﴾ يدل على أن هنالك إذناً في الشفاعة كما قال: ﴿ إلا لمن أذن له ﴾ [سبأ: 23] وإلا لكان الإسلام مع ارتكاب بعض المعاصي مساوياً للكفر وهذا لا ترضى به حكمة الله وأما قوله: ﴿ فاغفر للذين تابوا ﴾ فدعاء لا شفاعة.

والظاهر أن الذي دعا المعتزلة إلى إنكار الشفاعة منافاتها لخلود صاحب الكبيرة في العذاب الذي هو مذهب جمهورهم الذين فسروا قول واصل بن عطاء بالمنزلة بين المنزلتين بمعنى إعطاء العاصي حكم المسلم في الدنيا وحكم الكافر في الآخرة ولا شك أن الشفاعة تنافي هذا الأصل، فما تمسكوا من الآيات إنما هو لقصد التأبيد ومقابلة أدلة أهل السنة أمثالها.

ولم نر جوابهم عن حديث الشفاعة ، وأحسب أنهم يجيبون عنه بأن أخبار الآحاد لا تنقض أصول الدين ولذلك احتاج القاضي أبو بكر إلى الاستدلال بالتواتر المعنوي .

(84/50)

والحق أن المسألة أعلق بالفروع منها بالأصول لأنها لا تتعلق بذات الله ولا بصفاته ولو جارياهم في القول بوجوب إثابة المطيع وتعذيب العاصي ، فإن الحكمة تظهر بدون الخلود وبحصول الشفاعة بعد المكث في العذاب ، فلما لم نجد في إثبات الشفاعة ما ينقض أصولهم فنحن نقول لهم : لم يبق إلا أن هذا حكم شرعي في تقدير تعذيب صاحب الكبيرة غير التائب وهو يتلقى من قبل الشارع وعليه فيكون تحديد العذاب بمدة معينة أو إلى حصول عفو الله أو مع الشفاعة ، ولعل الشفاعة تحصل عند إرادة الله تعالى إنهاء مدة التعذيب . وبعد فمن حق الحكمة أن لا يستوي الكافرون والعصاة في مدة العذاب ولا في مقداره ، فهذه قولة ضعيفة من أقوالهم حتى على مراعاة أصولهم ، وقد حكى القاضي أبو بكر الباقلاني إجماع الأمة قبل حدوث البدع على ثبوت الشفاعة في الآخرة ، وهو حق فقد قال سواد بن قارب يخاطب رسول الله صلى الله عليه وسلم

فكُن لي شفيعاً يوم لا ذو شفاعة . . .

بمغنٍ فتيلاً عن سواد بن قارب

وأما الشفاعة الكبرى العامة لجميع أهل موقف الحساب الوارد فيها الحديث الصحيح المشهور فإن أصول المعتزلة لا تأباها .

وقوله : ﴿ ولا يؤخذ منها عدل ﴾ والعدل بفتح العين يطلق على الشيء المساوي شيئاً والمماثل له ولذلك جعل ما يفتدي به عن شيء عدلاً وهو المراد هنا كما في قوله تعالى : ﴿ أو عدل ذلك صياماً ﴾ [المائدة : 95] فالمعنى : ولا يقبل منها ما تفتدي به عوضاً عن جرمها .

والنصر هو إعانة العدو على عدوه ومحاربه إما بالدفاع معه أو الهجوم معه فهو في العرف مراد منه الدفاع بالقوة الذاتية وأما إطلاقه على الدفاع بالحجة نحو ﴿ من أنصاري إلى الله ﴾ [آل عمران : 52] وعلى التشيع والاتباع نحو ﴿ إن تنصروا الله ينصركم ﴾ [محمد : 7] فهو استعارة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 1 صـ 468 . 472 ﴾

ومن فوائد السعدى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ لا تَجْزِي ﴾ فيه ، أي : لا تغني ﴿ نَفْسٌ ﴾ ولو كانت من الأنفس الكريمة كالأنبياء والصالحين ﴿ عَنْ نَفْسٍ ﴾ ولو كانت من العشيرة الأقربين ﴿ شَيْئًا ﴾ لا كبيرا ولا صغيرا وإنما ينفع الإنسان عمله الذي قدمه .

﴿ وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا ﴾ أي : النفس ، شفاعة لأحد بدون إذن الله ورضاه عن المشفوع له ، ولا يرضى من العمل إلا ما أريد به وجهه ، وكان على السبيل والسنة ، ﴿ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ ﴾ أي : فداء ﴿ ولو أن للذين ظلموا ما في الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به من سوء العذاب ﴾ ولا يقبل منهم ذلك ﴿ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴾ أي : يدفع عنهم المكروه ، فنفى الانتفاع من الخلق بوجه من الوجوه ، فقوله : ﴿ لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا ﴾ هذا في تحصيل المنافع ، ﴿ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴾ هذا في دفع المضار ، فهذا النفي للأمر المستقل به النافع .

﴿ ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ﴾ هذا نفي للنفع الذي يطلب ممن يملكه بعوض ، كالعدل ، أو بغيره ، كالشفاعة ، فهذا يوجب للعبد أن ينقطع قلبه من التعلق بالمخلوقين ، لعلمه أنهم لا يملكون له مثقال ذرة من النفع ، وأن يعلقه بالله الذي يجلب المنافع

، ويدفع المضار ، فيعبده وحده لا شريك له ويستعينه على عبادته . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير السعدى صـ 52 ﴾

(86/50)

" فوائد بلاغية "

قال فى صفوة التفاسير :

البلاغة :

أولا : [أتأمرون] الاستفهام خرج عن حقيقته إلى معنى التوبيخ والتقريع .

ثانيا : أتى بالمضارع [أتأمرون] وإن كان قد وقع ذلك منهم ، لأن صيغة المضارع تفيد التجدد والحدوث ، وعبر عن ترك فعلهم بالنسيان [وتنسون أنفسكم] مبالغة فى الترك ، فكأنه لا يجري لهم على بال ، وعلقه بالأنفس توكيدا للمبالغة في الغفلة المفرطة ، ولا يخفى ما في الجملة الحالية [وأنتم تتلون الكتاب] من التبكيت والتقريع والتوبيخ ، على سوء الفعل والصنيع ! !

ثالثا : [وأني فضلتكم على العالمين] هو من باب عطف الخاص على العام لبيان الكمال ، لأن النعمة اندرج تحتها التفضيل المذكور ، فلما قال : [اذكروا نعمتي] عم جميع النعم فلما

عطف [وأني فضلتكم] كان من باب عطف الخاص على العام ، اعتناء بشأن الخاص ، لأنه نعمة أكبر .

رابعاً : [واتقوا يوما] التنكير للتهويل أي يوما شديد الهول ، وتنكير النفس [نفس عن نفس] ليفيد العموم والإقناط الكلي . انتهى انتهى . اهـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 1 صـ 55. 56 ﴾

(87/50)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

" يوماً " مفعول به ، [ولا بد من حذف] مضاف أي : عذاب يوم أو هول يوم ، وأجيز أن يكون منصوباً على الظرف ، والمفعول محذوف تقديره : واتقوا العَذَاب في يومٍ صِفَتُهُ كَيْتَ وكَيْتَ .

ومنع " أبو البقاء " كونه ظرفاً ، قال : " لأن الأمر بالتقوى لا يقع في يوم القيامة " .

والجواب عما قاله : أن الأمر بالحَذَرِ من الأسباب المؤدّية إلى العقاب في يوم القيامة .

وأصل " اتَّقُوا " : " اوْتَقُوا " ، ففعل به ما تقدم في ﴿ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة : 21] .

قوله : ﴿ لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ ﴾ .

التنكير في " نفس " و" شيئاً " معناه أن نفساً من الأنفس لا تجزي عن نفس مثلها شيئاً من الأشياء ، وكذلك في " شَفَاعة " و" عَدْل " .

قال الزمخشريك و" شيئاً " مفعول به على أن تجزي بمعنى " تقتضي " ، أي : لا تقضي نفسٌ عن غيرها شيئاً من الحُقُوق ، ويجوز أن يكون في موضع مَصْدَر ، أي : قليلاً من الجزاء كقوله : ﴿ وَلاَ يُظْلَمُونَ شَيْئاً ﴾ [مريم : 60] ، أي : شيئاً من الجزاء ؛ لأن الجزاء شيء ، فوضع العام موضع الخاص .

واحْتَزَأْتُ بالشَّيء اجْتِزَاءً : اكْتَفَيْتُ ، قال الشاعر : [الوافر]

بأَنَّ الغَدْرَ في الأَقْوَامِ عَارٌ . . .

وَأَنَّ الحُرَّ يَجْزَأُ بالكُرَاعِ

أي : يجتزىء به .

والجملة في محلّ نصب صفة لـ " يوماً " والعائد محذوف ، والتقدير : لا تَجْزِي فيه ، ثم حذف الجار والمجرور ، لأن الظروف يتّسع فيها ما لا يتّسع في غيرها ، وهذا مذهب " سيبويه " .

وقيل : بل حذف بعد حذف حَرْفِ الجَرّ ، ووصول الفعل إليه فصار : لا تجزية ؛ كقوله : [الطويل]

وَيَوْمٍ شَهِدْنَاهُ سُلَيْماً وَعَامِراً . . .

قَلِيلٍ سِوَى الطَّعْنِ النِّهَالِ نَوَافِلُهْ

ويُعْزَى للأخفش ، إلاّ أن " المهدوي " نقل أن الوجهين المتقدّمين جائزان عند الأخفش وسيبويه والزجاج ؛ ويدلّ على حذف عائد الموصوف إذا كان منصوباً قوله : [الوافر]

فَمَا أَدْرِي أَغَيَّرَهُمِ قَنَاءٍ . . .

وَطُولُ الدَّهْرِ أَمْ مَالٌ أَصَابُوا ؟

أي : أصابوه ، ويجوز عند الكوفيين أن يكون التقدير : يوماً يوم لا تَجْزي نفسٌ ، فيصير كقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ لاَ تَمْلِكُ نَفْسٌ ﴾ [الانفطار : 19] ، ويكون " اليوم " الثاني بدلاً من يوماً الأول ، ثم حذف المُضَاف ، وأقيم المضاف إليه مقامه ، كقوله : ﴿ واسأل القرية ﴾ [يوسف : 82] ، وعلى هذا لا يحتاج إلى تقدير عائدٍ ؛ لأن الظرف متى أضيف إلى الجملة بعده لم يؤت له فيها بضمير ، إلاّ في ضرورة شعر ؛ كقوله : [الوافر]

مَضَتْ مائَةٌ لِعَامَ وُلِدْتُ فِيهِ . . .

وَسَبْعٌ بَعْدَ ذَاكَ وَحِجَّتَانِ

و " عن نفس " متعلّق بـ " تجزي " ، فهو في محلّ نصب به .

قال " أبو البَقَاء " : يجوز أن يكون نصباً على الحال .

و" الجزاء " : القضاء والمكافأة ؛ قال : [الرجز]

يَجْزِيهِ رَبُّ العَرْشِ عَنّي إِذْ جَزَى . . .

جَنَّاتِ عَدْنٍ فِي العَلاَلِيِّ العُلا

و" الإجزاء " : الإغناء والكِفَايَة ، أجزأني كذا : كفاني ، قال : [الطويل]

وأَجْزَأْتَ أَمْرَ العَالَمِينَ وَلَمْ يَكُنْ . . .

لِيَجْزَأَ إِلاَّ كَامِلٌ وَابْنُ كَامِلِ

وأَجْزَأْتُ وجَزَأْتُ متقاربانِ .

وقيل : إن الإِجْزَاء والجَزَاء بمعنَى ، تقول فيه : جَزَيْتُهُ وأَجْزَيْتُهُ .

وقد قرئ : " تُجْزِئ " بضم حرف المُضَارعة من " أجزأ " .

قوله : ﴿ وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ ﴾ هذه الجملة عطف على ما قبلها ، فهو صفة أيضاً لـ " يوماً " والعائد " منها " عليه محذوف كما تقدم ، ولا يقبل منها فيه شفاعة .

و" شفاعة " مفعول لم يُسَمّ فاعله ، فلذلك رُفِعَتْ .

وقرئ : " يُقْبَل " بالتذكير والتأنيث ، فالتأنيث للفظ ، والتذكير لأنه مؤنّث مجازي ، وحسنه الفصل .

وقرىء : " ولا يَقْبَلُ " مبنياً للفاعل وهو " الله " تعالى .

و " شَفَاعةٌ " نصبا مفعولاً به .

(89/50)

" وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ " صفة أيضاً ، والكلام فيه واضح .

و " منها " متعلّق بـ " يُقْبَل " و " يُؤْخَذ " .

وأجاز أبو البقاء : أن يكون نصباً على الحال ؛ لأنه في الأصل صف لـ " شفاعة " و " عَدْل " ، فلما قدم عليهما نصب على الحَالِ ، ويتعلّق حينئذ بمحذوف ، وهذا غير وَاضِحٍ ، فإنّ المعنى منصب على تعلقه بالفعل ، والضمير في " منها " يعود على " نفس " الثانية ؛ لأنها أقرب مذكور ، ويجوز أن يعود الضَّمير الأول على الأولى ، وهي النفس الجازية ، والثاني يعود على الثَّانية ، وهي المجزيّ عنها ، وهذا مُنَاسب .

و " الشَّفَاعة " مشتقة من الشَّفْع ، وهو الزوج ، ومنه " الشُّفْعَة " ؛ لأنها ضَمَ ملك إلى غيره ، والشافع والمشفوع له ؛ لأن كلاًّ منهما يزوج نفسه بالآخر ونَاقَةٌ شَفُوعٌ يجمع بين مَحْلَبَيْنِ في حَلْبَةٍ واحدة ، وناقة شَافِعٌ : إذا اجتمع لها حَمْلٌ وَوَلَدٌ يَتْبَعُهَا .

وَالعَدْل بالفتح الفِدَاء وبالكَسْرِ : المِثْل ، يقال : عَدْل وعَدِيل .

وقيل : عَدْل بالفتح المساوي للشيء قيمةً وقدراً ، وإن لم يكن من جنسه ، وبالكَسْرِ : المساوي له في جنسه وجِرْمِهِ .

وحكى الطبري : " أن من العرب من يكسر الذي بمعنى الفِدَاء ، وأما عِدْل واحد الأعدال فهو بالكسر لا غير " .

وعَدْل واحد الشهود [فبالفتح لا غير ، وأما قوله عليه السلام : " لَمْ يَقْبَلِ اللهُ مِنْهُ صَرْفاً وَعَدْلاً "] فهو بالفتح أيضاً .

وقيل : المراد بـ " الصَّرْف " : النَّافلة ، وبـ " العَدْل " : الفريضة .

وقيل : الصَّرف : التوبة ، والعَدْل : الفِدْيَة .

قوله : ﴿ وَلاَ هُمْ يُنْصَرُونَ ﴾ جملة من مبتدأ وخبر معطوفة على ما قلها ، وإنما أتى هنا بالجملة مصدّرة بالمبتدأ مخبراً عنه بالمُضَارع تنبيهاً على المُبَالغة والتأكيد في عدم النصرة .

(90/50)

والضمير في قوله " وَلاَ هُمْ " يعود على " النَّفس " ؛ لأن المراد بها جنسُ الأنفس ، وإنما عاد الضمير مذكراً ، وإن كانت النفس مؤنثةً ؛ لأنّ المراد بها العباد والأُنَاسِيّ .

قال الزمخشري : " كما تقول : ثلاثة أنفس " .

يعني : إذا قصد به الذُّكُور ؛ كقوله : [الوافر]

ثَلاَثَةُ أَنْفُسٍ وَثَلاَثُ ذَوْدٍ . . . . . .

ولكن النُّحَاة نَصُّوا على أنه ضرورةٌ ، فالأَوْلَى أن يعود على الكفار الذين اختصتهم الآية ؛ كما قال " ابن عطية " .

و" النَّصْر " : العون ، والأَنْصَار : الأَعْوَان ، ومنه ﴿ مَنْ أنصاري إِلَى الله ﴾ [آل عمران : 52] والنّصر أيضاً الانتقام ، انتصر زيد : انتقم ، والنصر : الإِتْيَان نَصَرْتُ أَرْضَ بني فلانٍ : أتيتها ؛ قال الشاعر : [الطويل]

إِذَا دَخَلَ الشَّهْرُ الحَرَامُ فَوَدِّعِي . . .

بِلاَدَ تَمِيمٍ وانْصُرِي أَرْضَ عَامِرِ

والنَّصْر : المطر ، يقال : نصرت الأرض : مطرت .

قال " القَفّال " : تقول العرب : أرض مَنْصورَة أي ممطورة ، والغَيْثُ ينصر البلاد : إذا أنبتها ، ف : انه أغاث أَهْلَهَا .

وقيل في قوله : ﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ الله ﴾ [الحج : 15] أي : لن يرزقه الله ، كما يرزق الغَيْثُ البلادَ .

والنَّصْر : العَطَاءُ ؛ قال : [الرجز]

إِنِّي وَأَسْطَارٍ سُطِرْنَ سَطْرَا . . .

لَقَائِلٌ : يَا نَصْرُ نَصْرُ نَصْرَا

ويتعدّى بـ " على " قال تعالى : ﴿ فانصرنا عَلَى القوم الكافرين ﴾ [البقرة : 286] وأما قوله : ﴿ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ القوم ﴾ [الأنبياء : 77] فيحتمل التعدّي بـ " من " ويحتمل أن يكون من التضمين .

أي : نصرناه بالانتقام له منهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 2 صـ 47 .

51 ﴾

(91/50)

فصل نفيس

قال فى الميزان :

قوله تعالى : " واتقوا يوما لا تجزى "

الملك والسلطان الدنيوي بأنواعه وأقسامه وبجميع شؤونه ، وقواه المقننة الحاكمة والمجرية مبتنية على حوائج الحياة وغايتها رفع الحاجة حسب ما يساعد عليه العوامل الزمانية والمكانية ، فربما بدل متاع من متاع أو نفع من نفع أو حكم من حكم من غير ميزان كلي يضبط الحكم ويجري ذلك في باب المجازاة أيضا فإن الجرم والجنايات عندهم يستتبع العقاب

، وربما بدل الحاكم العقاب لغرض يستدعي منه ذلك كان يلح المحكوم الذي يرجى عقابه على القاضي ويسترحمه أو يرتشيه فينحرف في قضائه فيجزي أي يقضي فيه بخلاف الحق ، أو يبعث المجرم شفيعا يتوسط بينه وبين الحاكم أو مجري الحكم أو يعطي عدلا وبدلا إذا كانت حاجة الحاكم المريد للعقاب إليه أزيد وأكثر من الحاجة إلى عقاب ذالك المجرم ، أو يستنصر فومه فينصروه فيتخلص بذالك عن تبعة العقاب ونحو ذلك .

(92/50)

تلك سنة جارية وعادة حياة دنيوية يطرد فيها قانون الأسباب ويحكم فيها ناموس التأثير والتأثر المادي الطبيعي ، فيقدمون إلى آلهتم أنواع القرابين والهدايا للصفح عن جرائمهم أو الامداد في حوائجهم ، أو يستشفعون بها ، أو يفدون بشيئ عن جريمة أو يستنصرون بنفس أو سلاح حتى أنهم كانوا يدفنون مع الاموات أنواع الزخرف والزينة ، ليكون معهم ما يتمتعون به في آخرتهم ، ومن أنواع السلاح ما يدافعون به عن أنفسهم ، وربما ألحدوا معه من الجواري من يستأنس بها ، ومن الابطال من يستنصر به الميت ، وتوجد اليوم في المتاحف بين آثار الأرضية عتائق كثيرة من هذا القبيل ، ويوجد عقائد متنوعة شبيهة بتلك العقائد بين الملل الإسلامية على اختلاف ألسنتهم وألوانهم ، بقيت بينهم بالتوارث ، ربما تلونت لونا

بعد لون ، جيلا بعد جيل ، وقد أبطل القرآن جميع هذه الآراء الواهية ، والاقاويل الكاذبة ، فقد قال عز من قائل : (والامر يومئذ لله ، الانفطار – 19 ، وقال : (ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب) البقرة – 166 ، وقال : (ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعائكم الذين زعمتم انهم فيكم شركاء ، لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون) الأنعام – 94 ، وقال : (هنالك تبلوا كل نفس ما أسلفت وردوا إلى الله مولاهم الحق وضل عنهم ما كانوا يفترون) يونس – 30 ، إلى غير ذلك من الآيات التي بين فيها : أن الموطن خال عن الأسباب الدنيوية ، ومعزل عن الارتباطات الطبيعية ، وهذا أصل يتفرع عليه بطلان كل واحد من تلك الأقاويل والأوهام على طريق الإجمال ، ثم فصل القول في نفي واحد واحد منها وإبطاله فقال : (واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون) البقرة – 48 ، وقال : (يوم لا بيع فيه ، ولا خلة ، ولا شفاعة) البقرة – 254 ، وقال : (يوم لا يغني مولى عن مولى شيئا)

الدخان – 41 ، وقال (يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم) المؤمن – 33 ، وقال : (ما لكم لا تناصرون بل هم اليوم مستسلمون) الصافات – 26 ، وقال : (ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعائنا عند الله قل أتنبؤن الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون) يونس – 18 ، وقال : (ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع) المؤمن – 18 ، وقال : (فما لنا من شافعين ولا صديق حميم) الشعراء – 101 ، إلى غير ذلك من الآيات الكريمة النافية لوقوع الشفاعة وتأثير الوسائط والأسباب يوم القيامة هذا .

ثم إن القرآن مع ذلك لا ينفي الشفاعة من أصلها ، بل يثبتها بعض الاثبات .

(94/50)

قال تعالى : (الله الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تتذكرون) السجدة – 3 ، وقال تعالى : (ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع) الأنعام – 51 ، وقال تعالى : (قل لله الشفاعة جميعا) الزمر – 44 ، وقال تعالى : (له ما في السموات وما في الأرض من ذا الذي يشفع عنده الا باذنه ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم) البقرة – 255 ، وقال تعالى : (إن ربكم الله الذي

خلق السموات والأرض في ستة ايام ثم إستوى على العرش يد بر الام ر ما من شفيع الا من بعد اذنه) يونس – 3 ، وقال تعالى : (وقالوا إتخذ الله ولدا سبحانه بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن إرتضى وهم من خشيته مشفقون) الأنبياء – 28 ، وقال : (ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة الا من شهد بالحق وهم يعلمون) الزخرف – 86 ، وقال : (لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا) مريم – 87 ، وقال تعالى : (يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولا ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما) طه – 110 ، وقال تعالى : (ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له) سبأ – 23 ، وقال تعالى : (وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئا الا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى) النجم – 26 ، فهذه الآيات كما ترى بين ما يحكم باختصاص الشفاعة بالله عز اسمه كالآيات الثلاثة الأولى وبين ما يعممها لغيره تعالى باذنه وارتضائه ونحو ذلك ، وكيف كان فهي تثبت الشفاعة بلا ريب ، غير ان بعضها تثبتها بنحو الاصالة لله وحده من غير شريك ، وبعضها تثبتها لغيره باذنه وارتضائه ، وقد عرفت أن هناك آيات تنفيها فتكون النسبة بين هذه الآيات كالنسبة بين الآيات النافية لعلم الغيب عن غيره ، واثباته له تعالى بالاختصاص ولغيره بارتضائه ، قال تعالى :

(قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب) النحل – 65 ، وقال تعالى : (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو) الأنعام – 59 وقال تعالى : (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا الا من إرتضى من رسول) الجن – 27 ، وكذلك الآيات الناطقة في التوفي والخلق والرزق والتأثير والحكم والملك وغير ذلك فإنها شائعة في اسلوب القرآن ، حيث ينفي كل كمال عن غيره تعالى ، ثم يثبته لنفسه ، ثم يثبته لغيره باذنه ومشيته ، فتفيد ان الموجودات غيره تعالى لا تملك ما تملك من هذه الكمالات بنفسها واستقلالها ، وإنما تملكها بتمليك الله لها إياها ، حتى أن القرآن يثبت نوعا من المشيئة في ما حكم فيه وقضى عليه بقضاء حتم ، كقوله تعالى : (فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك ، إن ربك فعال لما يريد وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ) هود – 108 ، فقد علق الخلود بالمشية وخاصة في خلود الجنة مع حكمه بأن العطاء غير مجذوذ ، اشعارا بأن قضائه تعالى بالخلود لا يخرج الأمر من يده ولا يبطل سلطانه وملكه عز سلطانه كما يدل عليه قوله : (إن ربك فعال لما يريد) هود – 107 ، وبالجملة لا إعطاء هناك يخرج الأمر من يده ويوجب له الفقر ، ولا منع يضطره إلى حفظ ما منعه وإبطال سلطانه تعالى .

من هنا يظهر أن الآيات النافية للشفاعة ، إن كانت ناظرة إلى يوم القيامة فإنما تنفيها عن غيره

تعالى بمعنى الاستقلال في الملك ، والآيات المثبتة تثبتها لله سبحانه بنحو الاصالة ، ولغيره تعالى باذنه وتمليكه ، فالشفاعة ثابتة لغيره تعالى باذنه فلننظر ما ذا يفيده كلامه في معنى الشفاعة ومتعلقها ؟ وفيمن تجري ؟ وممن تصح ؟ ومتى تتحقق ؟ وما نسبتها إلى العفو والمغفرة منه تعالى ؟ ونحو ذلك في أمور .

(بيان) 1 – ما هي الشفاعة ؟

(96/50)

الشفاعة على ما نعرف من معناها إجمالا بالقريحة المكتسبة من الاجتماع والتعاون و (هي من الشفع مقابل الوتر كأن الشفيع ينضم إلى الوسيلة الناقصة التي مع المستشفع فيصير به زوجا بعد ما كان فردا فيقوى على نيل ما يريده ، لو لم يكن يناله وحده لنقص وسيلته وضعفها وقصورها) من الامور التي نستعلمها لانجاح المقاصد ، ونستعين بها على حوائج الحياة ، وجل الموارد التي نستعملها فيها اما مورد يقصد فيها جلب المنفعة والخير ، وإما مورد يطلب فيها دفع المضرة والشر ، لكن لا كل نفع وضرر ، فإنا لا نستشفع فيما يتضمنه الأسباب الطبيعية والحوادث الكونية من الخير والشر والنفع والضر ، كالجوع ، والعطش ، والحر ، والبرد ، والصحة ، والمرض ، بل نتسبب فيها بالاسباب الطبيعية ،

ونتوسل إليها بوسائلها المناسبة لها كالأكل ، والشرب ، واللبس والاكتنان والمداواة ، وانما نستشفع في الخيرات والشرور والمنافع والمضار التى تستدعيها أو تستتبعها أوضاع القوانين الأحكام التي وضعتها واعتبرتها وقررتها واجرتها حكومة الاجتماع بنحو الخصوص أو العموم ، ففي دائرة المولوية والعبودية وعند كل حاكم ومحكوم ، وأحكام من الأمر والنهي إذا عمل بها وإمتثلها المكلف بها استتبع ذلك تبعة الثواب من مدح أو نفع ، من جاه أو مال ، وإذا خالفها وتمرد منها استتبع ذلك تبعة العقاب من ذم أو ضرر مادي ، أو معنوي ، فإذا أمر المولى أو نهي عبده ، أو كل من هو تحت سيادته وحكومته بأمر أو نهى مثلا فامتثله كان له بذلك أجر كريم ، وإن خالف كان له عقاب أو عذاب فهناك نوعان من الوضع والاعتبار ، وضع الحكم ووضع تبعة الحكم ، يتعين به تبعة الموافقة والمخالفة .

وعلى هذا الأصل تدور جميع الحكومات العامة بين الملل والخاصة بين كل إنسان ومن دونه .

(97/50)

فإذا أراد الإنسان أن ينال كمالا وخيرا ماديا أو معنويا وليس عنده ما يستوجب ذلك بحسب ما يعينه الاجتماع ، ويعرف به لياقتة ، أو اراد ان يدفع عن نفسه شرا متوجها إليه

من عقاب المخالفة وليس عنده ما يدفعه ، أعني الامتثال والخروج عن عهدة التكليف ، وبعبارة واضحة إذا أراد نيل ثواب من غير تهيئة أسبابه ، أو التخلص من عقاب من غير إتيان التكليف المتوجة إليه فذلك مورد الشفاعة ، وعنده تؤثر لكن لا مطلقا فإن من لا لياقة له بالنسبة الي التلبس بكمال ، أو لا رابطة له تربطها إلى المشفوع عنده أصلا ، كالعامي الامي الذي يريد تقلد مقام علمي ، أو الجاحد الطاغي الذي لا يخضع لسيده أصلا لا تنفع عنده الشفاعة ، فإنما الشفاعة متممة للسبب لا مستقلة في التأثير .

ثم إن تأثير الشفيع عند الحاكم المشفوع عنده لا يكون تأثيرا جزافيا من غير سبب يوجب ذلك بل لا بد أن يوسط أمرا يؤثر في الحاكم ، ويوجب نيل الثواب ،

(98/50)

أو التخلص من العقاب ، فالشفيع لا يطلب من المولى مثلا أن يبطل مولوية نفسه وعبودية عبده فلا يعاقبه ، ولا يطلب منه أن يرفع اليد عن حكمه وتكليفه المجعول ، أو ينسخه عموما أو في خصوص الواقعة فلا يعاقبه ، ولا يطلب منه أن يبطل قانون المجازاة عموما أو خصوصا فلا يعاقب لذلك رأسا ، أو في خصوص الواقعة ، فلا نفوذ ولا تأثير للشفيع في مولوية وعبودية ، ولا في حكم ولا في جزاء حكم ، بل الشفيع بعد ما يسلم جميع الجهات

الثلاث المذكورة إنما يتمسك : إما بصفات في المولى الحاكم توجب العفو والصفح كسؤدده ، وكرمه ، وسخائه ، وشرافة محتده ، وإما بصفات في العبد تستدعي الرأفة والحنان وتثير عوامل المغفرة كمذلته ومسكنته وحقارته وسوء حاله ، وإما بصفات في نفسه أعني نفس الشفيع من قربه إلى المولى وكرامته وعلو منزلته عنده فيقول : ما أسألك إبطال مولويتك وعبوديته ، ولا أن تبطل حكمك ولا أن تبطل الجزاء ، بل أسألك الصفح عنه بأن لك سؤددا ورأفة وكرما لا تنتفع بعقابه ولا يضرك الصفح عن ذنبه أو بأنه جاهل حقير مسكين لا يعتني مثلك بشأنه ولا يهتم بأمره أو بأن لي عندك من المنزلة والكرامة ما يوجب إسعاف حاجتي في تخليصه والعفو عنه .

ومن هنا يظهر للمتأمل أن الشفيع إنما يحكم بعض العوامل المربوطة بالمورد المؤثرة في رفع العقاب مثلا من صفات المشفوع عنده أو نحوها على العامل الآخر الذي هو سبب وجود الحكم وترتب العقاب على مخالفته ، ونعني بالحكومة ان يخرج مورد الحكم عن كونه موردا بإدخاله في مورد حكم آخر ، فلا يشمله الحكم الأول لعدم كونه من مصاديقه لا أن يشمله فيبطل حكمه بعد الشمول بالمضادة كإبطال الأسباب المتضادة في الطبيعة بعضها حكم بعض بالمعارضة والغلبة في التأثير ، فحقيقة الشفاعة التوسط في إيصال نفع أو دفع شر بنحو الحكومة دون المضادة .

ومن هنا يظهر أيضا أن الشفاعة من مصاديق السببية فهي توسيط السبب المتوسط القريب بين السبب الأول البعيد ومسببه ، هذا ما يتحصل من تحليل معنى الشفاعة التي عندنا .

ثم إن الله سبحانه يمكن أن يقع مورد النظر في السببية من جهتين :

إحداهما : أنه يبتدي منه التأثير ، وينتهي إليه السببية ، فهو المالك للخلق والايجاد على الإطلاق ، وجميع العلل والاسباب امور متخللة متوسطة بينه وبين غيره لنشر رحمته التي لا تنفد ونعمته التي لا تحصى إلى خلقه وصنعه .

والثانيه : أنه تعالى تفضل علينا بالدنو في حين علوه فشرع الدين ووضع فيه أحكاما من أوامر ونواهي وغير ذلك وتبعات من الثواب والعقاب في الدار الآخرة وأرسل رسلا مبشرين ومنذرين فبلغوه أحسن تبليغ وقامت بذلك الحجة وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته .

أما من الجهة الأولى : وهي النظر إليه من جهة التكوين فإنطباق معنى الشفاعة على شأن الأسباب والعلل الوجودية المتوسطة واضح لا يخفى ، فإنها تستفيد من صفاته العليا من الرحمة والخلق والاحياء والرزق وغير ذلك إيصال أنواع النعم والفضل إلى كل مفتقر محتاج من خلقه ، وكلامه تعالى أيضا يحتمل ذلك ، كقوله تعالى : (له ما في السموات وما في الأرض

من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه) البقرة – 255 ، وقوله (إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم إستوى على العرش يدبر الأمر ما شفيع إلا من بعد إذنه) يونس – 3 ، فإن الشفاعة في مورد التكوين ليست إلا توسط العلل والأسباب بينه وبين مسبباتها في تدبير أمرها وتنظيم وجودها وبقائها فهذه شفاعة تكوينية .

(100/50)

وأما من الجهة الثانية وهى النظر إليه من جهة التشريع فالذي ينبغي أن يقال : أن مفهوم الشفاعة على ما سبق من التحليل يصح صدقه في مورده ولا محذور في ذلك وعليه ينطبق قوله تعالى : (يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له) الرحمن ورضي له قولا) طه – 109 ، وقوله : (لا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له) السبأ – 23 ، وقوله (لا تغني شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى) النجم – 26 ، وقوله : (ولا يشفعون إلا لمن إرتضى) الأنبياء – 28 ، وقوله : (ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة الا من شهد بالحق وهم يعلمون) الزخرف – 86 ، فإن الآيات كما ترى تثبت الشفاعة بمعنى الشافعية لعدة من عباده من الملائكة والناس من بعد الاذن والارتضاء ، فهو تمليك ولله الملك وله الأمر فلهم أن يتمسكوا برحمته وعفوه

ومغفرته وما أشبه ذلك من صفاته العليا لتشمل عبدا من عباده سائت حاله بالمعصية ، وشملته بلية العقوبة ، فيخرج عن كونه مصداقا للحكم الشامل ، والجرم العامل على ما عرفت أن تأثير الشفاعة بنحو الحكومة دون التضاد وهو القائل عز من قائل : (أولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات) الفرقان – 70 ، فله تعالى أن يبدل عملا من عمل كما أن له أن يجعل الموجود من العمل معدوما ، قال تعالى : (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا) الفرقان – 23 ، وقال تعالى : (فأحبط أعمالهم) محمد – 10 ، وقال تعالى : (إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم) النساء – 31 ، وقال تعالى : (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) النساء – 48 ، والآية في غير مورد الإيمان والتوبة قطعا فإن الإيمان والتوبة يغفر بهما الشرك أيضا كسائر الذنوب وله تكثير القليل من العمل ، قال تعالى : (أولئك يؤتون أجرهم مرتين) القصص – 65 ، وقال : (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها) الأنعام – 160 ، وله سبحانه أن يجعل المعدوم من العمل موجودا ، قال تعالى : (والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بايمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شئ كل أمرء بما كسب رهين) الطور – 21 ، وهذا هو اللحوق والالحاق

وبالجملة فله تعالى أن يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد .

نعم إنما يفعل لمصلحة مقتضية ، وعلة متوسطة ولتكن من جملتها شفاعة الشافعين من أنبيائه وأوليائه والمقربين من عباده من غير جزاف ولا ظلم .

ومن هنا ظهر أن معنى الشفاعة بمعنى الشافعية ، صادق بحسب الحقيقة في حقه تعالى فإن كلا من صفاته متوسطة بينه وبين خلقه في إفاضة الجود وبذل الوجود فهو الشفيع في الحقيقة على الإطلاق .

(102/50)

قال تعالى : (قل لله الشفاعة جميعا) الزمر – 44 ، وقال تعالى : (ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع) السجدة – 4 ، وقال تعالى : (ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع) الأنعام – 51 .

وغيره تعالى لو كان شفيعا فإنما هو بإذنه وتمليكه .

فقد ثبت بما مر صحة تحقق الشفاعة عنده تعالى في الجملة فيما لا يوجب محذورا لا يليق بساحة كبريائه تعالى .

2 – إشكالات الشفاعة قد عرفت : أن الشفاعة ثابتة في الجملة لا بالجملة ، وستعرف أن

الكتاب وكذلك السنة لا يثبتان أزيد من ذلك ، بل التأمل في معناها وحده يقضي بذلك ، فإن الشفاعة كما مر يرجع بحسب المعنى إلى التوسط في السببية والتأثير ، ولا معنى للاطلاق في السببية والتأثير فلا السبب يكون سببا لكل مسبب من غير شرط ولا مسبب واحد يكون مسببا لكل سبب على الإطلاق فإن ذلك يؤدي إلى بطلان السببيه وهو باطل بالضرورة .

ومن هنا اشتبه الأمر على النافين للشفاعة حيث توهموها مطلقة من غير شرط فاستشكلوا فيها بامور وبنوا عليها بطلان هذه الحقيقة القرآنية من غير تدبر فيما يعطيه كلامه تعالى وهاك شطرا منها : الاشكال الأول : أن رفع العقاب عن المجرم يوم القيامة بعد ما أثبته الله تعالى بالوعيد إما أن يكون عدلا أو ظلما .

فإن كان عدلا كان أصل الحكم المستتبع للعقاب ظلما لا يليق بساحته تعالى وتقدس ، وإن كان ظلما كان شفاعة الأنبياء مثلا سؤالا للظلم منه وهو جهل لا يجوز نسبته إليهم صلوات الله عليهم .

(103/50)

والجواب عنه أولا : بالنقض فإنه منقوض بالاوامر الامتحانية فرفع الحكم الامتحاني ثانيا وإثباته أولا كلاهما من العدل : والحكمة فيها اختبار سريرة المكلف أو إظهار باطن أمره أو إخراج ما في قوته إلى الفعل ، فيقال في مورد الشفاعة أيضا يمكن أن تكون النجاة مكتوبة لجميع المؤمنين ، ثم يوضع الأحكام وما لمخالفتها من أنواع العقاب ليهلك الكافرون بكفرهم ، وأما المؤمنون فيرتفع بالطاعة درجات المحسنين منهم ويبقى السميئون فينالون بالشفاعة النجاة المكتوبة لهم ولو بالنسبة إلى بعض أنواع العذاب أو أفراده مع مقاساة البعض الآخر كإحوال البرزخ وأهوال يوم القيامة ، فيكون بذلك أصل وضع الحكم وعقابه أولا عدلا ورفع عقابه ثانيا عدلا .

وثانيا : بالحل ، فإن رفع العقاب أولا بواسطة الشفاعة إنما يغاير الحكم الأول فيما ذكر من العدل والظلم لو كان رفع العقاب بالشفاعة نقضا للحكم الأول أو نقضا للحكم باستتباع العقوبة وقد عرفت أنه ليس كذلك بل أثر الشفاعة بالحكومة لا

بالمضادة فيها إخراج المجرم عن كونه مصداقا لشمول العقاب بجعله مصداقا لشمول الرحمة من صفات أخرى له تعالى من رحمة وعفو ومغفرة ، ومنها إفضاله للشافع بالاكرام والاعظام .

الاشكال الثاني : أن سنة الله تعالى جرت على صون أفعاله من التخلف والاختلاف ، فما قضى وحكم به يجريه على وتيرة واحدة من غير استثناء ، وعلى هذا جرت سنة الأسباب ، قال تعالى : (هذا صراط على مستقيم إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من إتبعك من الغاوين وإن جهنم لموعدهم أجمعين) الحجر – 43 ، وقال تعالى : (وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم) الأنعام – 153 ، وقال تعالى : (فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا) الفاطر – 42 ، وتحقق الشفاعة موجب للاختلاف في الفعل فان رفع العقاب بالشفاعة عن جميع المجرمين في جميع جرائمهم موجب لنقض الفرض المحال ، ولعب ينافي الحكمة قطعا ، ورفعة عن بعض المجرمين أو في بعض جرائمهم وذنوبهم إختلاف في فعله تعالى وتغير وتبدل في سنته الجارية وطريقته الدائمة ، إذ لا فرق بين المجرمين في أن كل واحد منهم مجرم ولا بين الذنوب في أن كلا منها ذنب وخروج عن زي العبودية فتخصيص بعضهم أو بعض من أعمالهم بالصفح والاغماض دون بعض بواسطة الشفاعة محال ، وإنما تجري الشفاعة وما يشبهها في سنة هذه الحياة من إبتناء الأعمال والافعال على الاهواء والاوهام التي ربما تقضي في الحق والباطل على السواء ، وتجري عن الحكمة وعن الجهالة على نسق واحد .

والجواب أنه لا ريب في أن صراطه تعالى مستقيم وسنته واحدة لكن هذه السنة الواحدة

الغير المختلفة ليست قائمة على أصل صفة واحدة من صفاته تعالى كصفة التشريع والحكم مثلا حتى لا يتخلف حكم عن مورده ولا جزاء حكم عن محله قط بل هي قائمة على ما يستوجبه جميع صفاته المربوطة علت صفاته .

توضيح ذلك : أن الله سبحانه هو الواهب المفيض لكل ما في الوجود من حياة أو موت أو رزق أو نعمة أو غير ذلك .

(105/50)

وهي أمور مختلفة لا ترتبط به سبحانه على السواء ولا لرابطة واحدة كيف كانت ، فإن فيه بطلان الارتباط والسببية ، فهو تعالى لا يشفي مريضا من غير سبب موجب ومصلحة مقتضية ولا يشفيه لأنه الله المميت

المنتقم شديد البطش بل لأنه الله الرؤوف الرحيم المنعم الشافي المعافي مثلا ولا يهلك جبارا مستكبرا من غير سبب ، لأنه رؤوف رحيم به ، بل لأنه الله المنتقم الشديد البطش القهار مثلا وهكذا .

والقرآن بذلك ناطق فكل حادث من الحوادث بما يشتمل عليه من جهات الوجود يسند إليه من جهة صفة أو أكثر من صفاته العليا تتسبب إليه بالتلائم والايتلاف الواقع بينها

والاقتضاء المستنتج من ذلك ، وإن شئت قلت : كل أمر من الامور يرتبط به تعالى من جهة ما يتضمنه من المصالح والخيرات .

إذا عرفت هذا علمت : أن استقامة صراطه وعدم تبدل سنته وعدم اختلاف فعله إنما هي بالنسبة إلى ما يفعله بجميع صفاته المربوطة لا بالنسبة إلى مقتضي صفة قاصره وإن شئت قلت : بالنسبة إلى ما يتحصل من الفعل والانفعال والكسر والانكسار الواقع بين الحكم والمصالح المرتبطة بالمورد لا بالنسبة إلى مقتضى مصلحة واحدة .

فلو كان هناك سبب الحكم المجعول فقط لم يتغير ولم يختلف في بر ولا فاجر ولا مؤمن ولا كافر .

لكن الأسباب كثيرة ربما استدعى توافق عدة منها غير ما يقتضيه بعضها فافهم ذلك .

فوقوع الشفاعة وارتفاع العقاب – وذلك أثر عدة من الأسباب كالرحمة والمغفرة والحكم والقضاء وإعطاء كل ذي حق حقه والفصل في القضاء – لا يوجب اختلافا في السنة الجارية وضلالا في الصراط المستقيم .

(106/50)

الاشكال الثالث : أن الشفاعة المعروفة عند الناس هي أن يحمل الشافع المشفوع عنده على فعل أو ترك أراد غيره حكم به أو لا فلا تتحقق الشفاعة إلا بترك الإرادة ونسخها لاجل الشفيع فأما الحاكم العادل فإنه لا يقبل الشفاعة إلا إذا تغير علمه بما كان أراده أو حكم به ، كأن أخطأ ثم عرف الصواب ورأى أن المصلحة أو العمل في خلاف ما كان يريده أو حكم به وأما الحاكم المستبد الظالم فإنه يقبل شفاعة المقربين عنده في الشئ وهو عالم بأنه ظلم وأن العدل في خلافه ولكنه يفضل مصلحة إرتباطه بالشافع المقرب عنده على العدالة ، وكل من النوعين محال على الله تعالى لأن إرادته على حسب علمه وعلمه أزلي لا يتغير .

(107/50)

والجواب أن ذلك منه تعالى ليس من تغير الإرادة والعلم في شئ وانما التغير في المراد والمعلوم ، فهو سبحانه يعلم أن الإنسان الفلاني سيتحول عليه الحالات فيكون في حين كذا على حال كذا لاقتران أسباب وشرائط خاصة فيريد فيه بإرادة ، ثم يكون في حين آخر على حال آخر جديد يخالف الأول لاقتران أسباب وشرائط اخر فيريد فيه بارادة أخرى وكل يوم هو في شأن ، وقد قال تعالى : (يمحوا الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب) الرعد – 39 ، وقال (بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء) المائدة – 67 ، مثال ذلك : أنا نعلم أن الهواء

ستغشاة الظلمة فلا يعمل أبصارنا والحاجة إليه قائمة ثم تنجلي الظلمة بانارة الشمس فتتعلق إرادتنا عند إقبال الليل بالاستضائة بالسراج وعند إنقضائه باطفائه والعلم والإرادة غير متغيرتين وإنما تغير المعلوم والمراد ، فخرجا عن كونهما منطبقا عليه للعلم والإرادة ، وليس كل علم ينطبق على كل معلوم ، ولا كل إرادة تتعلق بكل مراد ، نعم تغير العلم والإرادة المستحيل عليه تعالى هو بطلان إنطباق العلم على المعلوم والإرادة على المراد مع بقاء المعلوم والمراد على حالهما وهو الخطأ والفسخ ، مثل أن ترى شبحا فتحكم بكونه إنسانا ثم يتبين انه فرس فيتبدل العلم ، أو تريد أمرا لمصلحة ما ثم يظهر لك أن المصلحة في خلافه فتنفسخ إرادتك ، وهذان غير جائزين في مورده تعالى ، والشفاعة ورفع العقاب بها ليس من هذا القبيل كما عرفت .

الاشكال الرابع : أن وعد الشفاعة منه تعالى أو تبليغها من الأنبياء عليهم السلام مستلزم لتجري الناس على المعصية واغراء لهم على هتك محارم الله تعالى وهو مناف للغرض الوحيد من الدين من سوق الناس إلى العبودية والطلاعة فلا بد من تأويل ما يدل عليه من الكتاب والسنة بما لا يزاحم هذا الأصل البديهي .

(108/50)

والجواب عنه ، اولا : بالنقض بالآيات الدالة على شمول المغفرة وسعة الرحمة كقوله تعالى : (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) النساء – 51 ، والآية – كما مر – في غير مورد التوبة بدليل إستثنائه الشرك المغفور بالتوبة .

وثانيا : بالحل : فإن وعد الشفاعة أو تبليغها إنما يستلزم تجري الناس على المعصية وإغرائهم على التمرد والمخالفة بشرطين : احدهما : تعيين المجرم بنفسه ونعته أو تعيين الذنب الذي تقع فيه الشفاعة تعيينا لا يقع فيه لبس بنحو الانجاز من غير تعليق بشرط جائز .

وثانيهما : تأثير الشفاعة في جميع أنواع العقاب وأوقاته بأن تقلعه من أصله قلعا .

(109/50)

فلو قيل : أن الطائفة الفلانية من الناس أو كل الناس لا يعاقبون على ما أجرموا ولا يؤاخذون فيما أذنبوا أبدا ، أو قيل إن الذنب الفلاني لا عذاب عليه قط كان ذلك باطلا من القول ولعبا بالاحكام والتكاليف المتوجهة إلى المكلفين ، وأما إذا أبهم الأمر من حيث الشرطين فلم يعين أن الشفاعة في أي الذنوب وفي حق أي المذنبين أو ان العقاب المرفوع هو جميع العقوبات وفي جميع الاوقات والأحوال ، فلا تعلم نفس هل تنال الشفاعة الموعودة أو لا فلا

تتجرى على هتك محارم الله تعالى ، غير أن ذلك توقظ قريحة رجائها فلا يوجب مشاهدة ما يشاهدها من ذنوبها وآثامها قنوطا من رحمة الله ، ويأسا من روح الله ، مضافا إلى قوله تعالى : (إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم) النساء – 31 ، فإن الآية تدل على رفع عقاب السيئات والمعاصي الصغيرة على تقدير اجتناب المعاصي الكبيرة فإذا جاز أن يقول الله سبحانه : إن إتقيتم الكبائر عفونا عن صغائركم ، فليجز أن يقال : إن تحفظتم على إيمانكم حتى أتيتموني في يوم اللقاء بإيمان سليم قبلت فيكم شفاعة الشافعين ، فإنما الشأن كل الشأن في حفظ الإيمان والمعاصي تضعف الإيمان وتقسي القلب وتجلب الشرك ، وقد قال تعالى : (فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون) الأعراف – 98 ، وقال : (كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون) المطففين – 14 ، وقال : (ثم كان عاقبة الذين اساءوا السوآى أن كذبوا بآيات الله) الروم – 10 ، وربما أوجب ذلك إنقلاعه عن المعاصي ، وركوبه علصراط التقوى ، وصيرورته من المحسنين ، واستغنائه عن الشفاعة بهذا المعنى ، وهذا من أعظم الفوائد ، وكذا إذا عين المجرم المشفوع له أو الجرم المشفوع فيه لكن صرح بشموله على بعض جهات العذاب أو بعض أوقاته فلا يوجب تجري المجرمين قطعا .

والقرآن لم ينطق في خصوص المجرمين وفي خصوص الذنب بالتعيين ولم ينطق في رفع العقاب إلا بالبعض كما سيجئ فلا اشكال أصلا .

الاشكال الخامس : ان العقل لو دل فإنما يدل على إمكان وقوع الشفاعة لا على فعلية وقوعها على أن أصل دلالته ممنوع ، وأما النقل فما يتضمنه القرآن لا دلالة فيه على وقوعها فإن فيها آيات دالة على نفي الشفاعة مطلقا كقوله ، (لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة) البقرة – 254 ، واخرى ناطقة بنفي منفعة الشفاعة كقوله تعالى : (فما تنفعهم شفاعة الشافعين) المدثر – 48 ، وأخرى تفيد النفي بمثل قوله تعالى : (إلا باذنه) البقرة – 255 وقوله : (إلا من بعد إذنه) يونس – 3 ، وقوله تعالى : (إلا لمن إرتضي) الأنبياء – 28 ، ومثل هذا الاستثناء أي الاستثناء بالاذن والمشية معهود في اسلوب القرآن في مقام النفي القطعي للاشعار بان ذلك باذنه ومشيته سبحانه كقوله تعالى : (سنقرئك فلا تنسى إلا ما شاء الله) الأعلى – 6 ، وقوله تعالى : (خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك) هود – 107 ، فليس في القرآن نص قطعي على وقوع الشفاعة وأما السنة فما دلت عليه الروايات من الخصوصيات لا تعويل عليه ، وأما المتيقن منها فلا يزيد على ما في الكتاب دلالة .

والجواب : أما عن الآيات النافية للشفاعة فقد عرفت أنها لا تنفي مطلق الشفاعة بل الشفاعة بغير اذن الله وارتضائه ، وإما عن الآيات النافية لمنفعة الشفاعة على زعم المستشكل فانها تثبت الشفاعة ولا تنفيه فان الآيات واقعة في سورة المدثر وانما تنفي الانتفاع عن طائفة خاصة من المجرمين لا عن جميعهم ، ومع ذلك فالشفاعة مضافة لا مجردة مقطوعة عن الاضافة ، ففرق بين أن يقول القائل : فلا تنفعهم الشفاعة وبين أن يقول : فلا تنفعهم شفاعة الشافعين فإن المصدر المضاف يشعر بوقوع الفعل في الخارج بخلاف المقطوع عن الاضافة ، نص عليه الشيخ عبد القاهر في دلائل الاعجاز فقوله : شفاعة الشافعين يدل على ان شفاعة ما ستقع غير ان هؤلاء لا ينتفعون بها على ان الاتيان بصيغة الجمع في الشافعين يدل على ذلك أيضا كقوله : (كانت من الغابرين) وقوله : (وكان من الكافرين) وقوله : (وكان من الغاوين) وقوله : (لا ينال عهدي الظالمين) وأمثال ذلك ، ولولا ذلك لكان الاتيان بصيغة الجمع وله مدلول زائد على مدلول المفرد لغوا زائدا في الكلام فقوله : فما تنفعهم شفاعة الشافعين من الآيات المثبتة للشفاعة دون النافية .

واما عن الآيات المشتملة على استثناء الإذن والارتضاء فدلالة قوله : (إلا بإذنه) وقوله : (إلا من بعد إذنه) على الوقوع وهو مصدر مضاف مما لا ينبغي أن ينكره عارف باساليب الكلام وكذا القول : بكون قوله : (الا بإذنه) وقوله : (إلا لمن إرتضى) بمعنى

واحد وهو المشية مما لا ينبغ (الاصغاء إليه ، على أن الاستثناء واقع في مورد الشفاعة بوجوه مختلفة كقوله : (إلا باذنه والا من بعد إذنه) وقوله : (الا لمن إرتضى) ، وقوله : (إلا من شهد بالحق وهم يعلمون) إلى غير ذلك ، فهب : (إن الاذن والارتضاء واحد وهو المشية فهل يمكن التفوه بذلك في قوله : (إلا من شهد بالحق وهم يعلمون) .

(112/50)

فهل المراد بهذا الاستثناء استثناء المشية أيضا ؟ هذا وأمثاله من المساهلة في البيان مما لا يصح نسبته إلى كلام سوقي فكيف بالكلام البليغ ! وكيف بأبلغ الكلام ! وأما السنة فسيأتي الكلام في دلالتها على ما يحاذي دلالة الكتاب .

الاشكال السادس : أن الآيات غير صريحة في رفع العقاب الثابت على المجرمين يوم القيامة بعد ثبوت الجرم ولزوم العقاب بل المراد بها شفاعة الأنبياء بمعنى توسطهم بما هم أنبياء بين الناس وبين ربهم بأخذ الأحكام بالوحي وتبليغها الناس وهدايتهم وهذا المقدار كالبذر ينمو وينشأ منه ما يستقبله من الاقدار والاوصاف والأحوال فهم عليه السلام شفعاء المؤمنين في الدنيا وشفعائهم في الآخرة .

والجواب : انه لا كلام في ان ذلك من مصاديق الشفاعة الا أن الشفاعة غير مقصورة فيه كما

مر بيانه ، ومن الدليل عليه قوله تعالى : (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) النساء – 48 ، وقد مر بيان ان الآية في غير مورد الإيمان والتوبة ، والشفاعة التي قررها المستشكل في الأنبياء انما هي بطريق الدعوة إلى الإيمان والتوبة .

الاشكال السابع : أن طريق العقل لا يوصل إلى تحقق الشفاعة ، وما نطق به القرآن آيات متشابهة تنفيها تارة وتثبتها أخرى ، وربما قيدتها وربما أطلقتها ، والأدب الديني الإيمان بها ، وإرجاع علمها إلى الله تعالى .

والجواب عنه : أن المتشابهة من الآيات تصير بارجاعها إلى المحكمات محكمات مثلها ، وهو أمر ميسور لنا غير مضروب دونه الستر ، كما سيجئ بيانه عند قوله تعالى : (منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات) آل عمران – 7 .

(113/50)

---

3 – فيمن تجري الشفاعة ؟ قد عرفت ان تعيين المشفوع لهم يوم القيامة لا يلائم التربية الدينية كل الملائمة الا أن يعرفوا بما لا يخلو عن شوب ابهام وعلى ذلك جرى بيان القرآن ، قال تعالى : (كل نفس بما كسبت رهينة إلا أصحاب اليمين في جنات يتساءلون عن المجرمين ما سلككم في سقر قالوا لم نك من المصلين ولم نك نطعم المسكين وكنا نخوض مع

الخائضين وكنا نكذب بيوم الدين حتى أتانا اليقين فما تنفعهم شفاعة الشافعين) المدثر – 48 ، بين سبحانه فيها ان كل نفس مرهونة يوم القيامة بما كسبت من الذنوب) مأخوذه بما اسلفت من الخطايا إلا أصحاب اليمين فقد فكوا من الرهن واطلقوا واستقروا في الجنان ، ثم ذكر انهم غير محجوبين عن المجرمين الذين هم مرهونون باعمالهم ، مأخوذ عليهم في سقر ، يتساءلون عنهم سلوكهم في النار ، وهم يجيبون بالإشارة إلى عدة صفات ساقتهم إلى النار ، فرع على هذه الصفات بأنه لم ينفعهم لذلك شفاعة الشافعين .

(114/50)

ومقتضى هذا البيان كون أصحاب اليمين غير متصفين بهذه الصفات التي يدل الكلام على كونها هي المانعة عن شمول الشفاعة ، وإذا كانوا غير متصفين بهذه الصفات المانعة عن شمول الشفاعة وقد فك الله تعالى نفوسهم عن رهانة الذنوب والآثام دون المجرمين المحرومين عن الشفاعة ، المسلوكين في سقر ، فهذا الفك والاخراج إنما هو بالشفاعة فأصحاب اليمين هم المشفعون بالشفاعة وفي الآيات تعريف اصحاب اليمين بإنتفاء الاوصاف المذكورة عنهم ، بيان ذلك : أن الآيات واقعة في سورة المدثر وهي من السور النازلة بمكة في بدء البعثة كما ترشد إليه مضامين الآيات الواقعة فيها ، ولم يشرع يومئذ الصلوة والزكوة

بالكيفية الموجودة اليوم ، فالمراد بالصلوة في قوله لم نك من المصلين التوجه إلى الله تعالى بالخضوع العبودي ، وباطعام المسكين مطلق الانفاق على المحتاج في سبيل الله ، دون الصلوة والزكوة المعهودتين في الشريعة الإسلامية والخوض هو الغور في ملاهيا لحياة وزخارف الدنيا الصارفة للإنسان عن الإقبال على الآخرة وذكر الحساب يوم الدين : أو التعمق في الطعن في آيات الله المذكرة ليوم الحساب المبشرة المنذرة ، وبالتلبس بهذه الصفات الاربعة ، وهي ترك الصلوة لله وترك الانفاق في سبيل الله والخوض وتكذيب يوم الدين ينهدم أركان الدين ، وبالتلبس بها تقوم قاعدته على ساق فان الدين هو الاقتداء بالهداة الطاهرين بالاعراض عن الاخلاد إلى الأرض والاقبال إلى يوم لقاء الله وهذان هما ترك الخوض وتصديق يوم الدين ولازم هذين عملا التوجه إلى الله بالعبودية ، والسعي في رفع حوائج جامعة الحياة وهذان هما الصلوة والانفاق في سبيل الله ، فالدين يتقوم بحسب جهتي العلم والعمل بهذه الخصال الاربع ، وتستلزم بقية الاركان كالتوحيد والنبوة إستلزاما هذا ، فأصحاب اليمين هم الفائزون بالشفاعة ، وهم المرضيون دينا وإعتقادا سواء كانت أعمالهم مرضية غير محتاجة إلى شفاعة يوم القيامة أو لم تكن ،

(115/50)

وهم المعنيون بالشفاعة ، فالشفاعة للمذنبين من اصحاب اليمين ، وقد قال تعالى : (إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم) النساء – 31 ، فمن كان له ذنب باق إلى يوم القيامة فهو لا محالة من إهل الكبائر ، إذ لو كان الذنب من الصغائر فقط لكان مكفرا عنه ، فقد بان أن الشفاعة لاهل الكبائر من أصحاب اليمين ، وقد قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : إنما شفاعتي لاهل الكبائر من امتي فاما المحسنون فما عليهم من سبيل ، الحديث .

ومن جهة أخرى إنما سمى هؤلاء بأصحاب اليمين في مقابل أصحاب الشمال وربما سموا أصحاب الميمنة في مقابل أصحاب المشئمة ، وهو من الألفاظ التي اصطلح عليه القرآن مأخوذ من إيتاء الإنسان يوم القيامة كتابه بيمينه أو بشماله ، قال تعالى : (يوم ندعوا كل اناس بإمامهم فمن أوتي كتابه بيمينه فأولئك يقرؤن كتابهم ولا يظلمون فتيلا ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا) أسرى – 72 ، وسنبين في الآيه إن شاء الله تعالى أن المراد من إيتاء الكتاب باليمين إتباع الإمام الحق ، ومن إيتائه بالشمال إتباع إمام الضلال كما قال تعالى في فرعون : (يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار) هود – 98 ، وبالجملة مرجع التسمية بأصحاب اليمين أيضا إلى ارتضاء الدين كما أن إليه مرجع التوصيف بالصفات الاربعة المذكورة هذا .

ثم إنه تعالى قال في موضع آخر من كلامه : (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى)

الأنبياء – 28 ، فأثبت الشفاعة على من إرتضي ، وقد أطلق الارتضاء من غير تقييد بعمل ونحوه ، كما فعلة في قوله : (إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولا) طه – 109 ، ففهمنا أن المراد به إرتضاء أنفسهم أي إرتضاء دينهم لا إرتضاء عملهم ، فهذه الآية أيضا ترجع من حيث الافادة إلى ما ترجع إليه الآيات السابقة ثم إنه تعالى قال (يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا) فهو يملك الشفاعة (أي المصدر المبني للمفعول) وليس كل مجرم بكافر محتوم له النار ، بدليل قوله تعالى : (إنه من يأت ربه مجرما فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيي ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى) طه – 75 ، فمن لم يكن مؤمنا قد عمل صالحا فهو مجرم سواء كان لم يؤمن ، أو كان قد آمن ولم يعمل صالحا ، فمن المجرمين من كان على دين الحق لكنه لم يعمل صالحا وهو الذي قد اتخذ عند الله عهدا لقوله تعالى : (ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم) يس 61 فقوله تعالى : (وأن اعبدوني) عهد بمعنى الأمر وقوله تعالى : (هذا صراط مستقيم ، عهد بمعنى الالتزام لاشتمال الصراط المستقيم على الهداية إلى

السعادة والنجاة ، فهؤلاء قوم من أهل الإيمان يدخلون النار لسوء أعمالهم ، ثم ينجون منها بالشفاعة ، وإلى هذا المعنى يلوح قوله تعالى : (قالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة قل اتخذتم عند الله عهدا) البقرة – 80 ، فهذه الآيات أيضا ترجع إلى ما ترجع إليه الآيات السابقة ، والجميع تدل على أن مورد الشفاعة أعني المشفوع لهم يوم القيامة هم الدائنون بدين الحق من أصحاب الكبائر ، وهم الذين إرتضى الله دينهم .

(117/50)

---

4 – من تقع منه الشفاعة ؟ قد عرفت أن الشفاعة منها تكوينية ، ومنها تشريعية ، فأما الشفاعة التكوينية فجملة الأسباب الكونية شفعاء عند الله بما هم وسائط بينه وبين الأشياء .

وأما الشفاعة التشريعية ، وهي الواقعة في عالم التكليف والمجازات ، فمنها ما يستدعي في الدنيا مغفرة من الله سبحانه أو قربا وزلفى : فهو شفيع متوسط بينه وبين عبده .

ومنه التوبة كما قال تعالى : (قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم وأنيبوا إلى ربكم) الزمر – 54 ، ويعم شموله لجميع المعاصي حتى الشرك .

ومنه الإيمان قال تعالى : (آمنوا برسوله ، إلى قوله : (ويغفر لكم) الحديد – 28 .

ومنه كل عمل صالح .

قال تعالى : (وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر عظيم) المائدة – 9 ، وقال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة) المائدة – 35 ، والآيات فيه كثيرة ، ومنه القرآن لقوله تعالى : (يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم) المائدة – 16 .

ومنه كل ما له إرتباط بعمل صالح ، والمساجد والامكنة المتبركة والايام الشريفة ، ومنه الأنبياء والرسل بإستغفارهم لامهم .

قال تعالى : (ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤك فإستغفروا الله وإستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما) النساء – 64 .

(118/50)

ومنه الملائكة في استغفارهم للمؤمنين ، قال تعالى : (الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا) المؤمن – 7 ، وقال تعالى : (والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض ألا إن الله هو الغفور الرحيم)

الشوري – 5 ، ومنه المؤمنون بإستغفارهم لانفسهم ولاخوانهم المؤمنين قال تعالى حكاية عنهم (وأعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا) البقرة – 286 ومنها الشفيع يوم القيامة بالمعنى الذي عرفت فمنهم الأنبياء .

قال تعالى : (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون) إلى أن قال : (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى) الأنبياء – 29 ، فأن منهم عيسى بن مريم وهو نبي ، وقال تعالى : (ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون) الزخرف – 86 ، والآيتان تدلان على جواز الشفاعة من الملائكة أيضا لانهم قالوا إنهم بنات الله سبحانه .

ومنهم الملائكة .

قال تعالى : (وكم من ملك في السموات لا تغنى شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى) النجم – 26 ، وقال تعالى : (يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولا يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم) طه – 110 ، ومنهم الشهداء

لدلالة قوله تعالى : (ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون) الزخرف – 86 ، على تملكهم للشفاعة لشهادتهم بالحق ، فكل شهيد فهو شفيع يملك الشهادة غير ان هذه الشهادة كما مر في سورة الفاتحة وسيأتي في قوله تعالى (وكذلك جعلناكم امة وسطا لتكونوا شهداء على الناس) البقرة – 143 ، شهادة الأعمال دون

الشهادة بمعنى القتل في معركة القتال ، ومن هنا يظهر أن المؤمنين أيضا من الشفعاء فإن الله عز وجل أخبر بلحوقهم بالشهداء يوم القيامة قال تعالى : (والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم) الحديد – 19 ، كما سيجئ بيانه .

(119/50)

---

5 – بما ذا تتعلق الشفاعة ؟ قد عرفت أن الشفاعة منها تكوينية تتعلق بكل سبب تكويني في عالم الأسباب ومنها شفاعة تشريعية متعلقة بالثواب والعقاب فمنها ما يتعلق بعقاب كل ذنب ، الشرك فما دونه كشفاعة التوبة والإيمان قبل يوم القيامة ومنها ما يتعلق بتبعات بعض الذنوب كبعض الأعمال الصالحة ، وأما الشفاعة المتنازع فيها وهى شفاعة الأنبياء وغيرهم يوم القيامة لرفع العقاب ممن إستحقه بالحساب ، فقد عرفت في الأمر الثالث ان متعلقها أهل المعاصي الكبيرة ممن يدين دين الحق وقد ارتضى الله دينه .

6 – متى تنفع الشفاعة ؟ ونعني بها أيضا الشفاعة الرافعة للعقاب ، والذي يدل عليه قوله سبحانه : (كل نفس بما كسبت رهينة الا أصحاب اليمين في جنات يتساءلون عن المجرمين ما سلككم في سقر) المدثر – 42 ، فالآيات كما مر دالة على توصيف من تناله الشفاعة ومن يحرم منها غير أنها تدل على أن الشفاعة إما تنفع في الفك عن هذه الرهانة والاقامة

والخلود في سجن النار ، وأما ما يتقدم عليه من أهوال يوم القيامة وعظائمها فلا دليل على وقوع شفاعة فيها لو لم تدل الآية على انحصار الشفاعة في الخلاص من رهانة النار .

واعلم أنه يمكن أن يستفاد من هذه الآيات وقوع هذا التساؤل بعد استقرار أهل الجنة في الجنة واهل النار في النار وتعلق الشفاعة بجمع من المجرمين بإخراجهم من النار ، وذلك لمكان قوله : (في جنات ، الدال على الاستقرار وقوله : ما سلككم فإن السلوك هو الادخال لكن لا كل إدخال بل إدخال على سبيل النضد والجمع والنظم ففيه معنى الاستقرار وكذا قوله : فما تنفعهم ، فإن ما لنفي الحال ، فافهم ذلك .

(120/50)

واما نشأة البرزخ وما يدل على حضور النبي عليه السلام والائمة عليهم السلام عند الموت وعند مسائلة القبر وإعانتهم إياه علي الشدائد كما سيأتي في قوله تعالى : (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به) النساء – 158 ، فليس من الشفاعة عند الله في شئ وإنما هو من سبيل التصرفات والحكومة الموهوبة لهم بإذن الله سبحانه ، قال تعالى : (وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم ونادوا أصحاب الجنه أن سلام عليكم لم يدخلوها وهم يطمعون) إلى أن قال : (ونادى أصحاب الأعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم قالوا ما أغني

عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون ، أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا انتم تحزنون) الأعراف – 46 ، 48 ، 49 ، ومن هذا القبيل من وجه قوله تعالى : (يوم ندعوا كل اناس بإمامهم فمن أوتي كتابه بيمينه) أسرى – 71 ، فوساطة الإمام في الدعوة ، وإيتاء الكتاب من قبيل الحكومة الموهوبة فإفهم .

فتحصل أن المتحصل من أمر الشفاعة وقوعها في آخر موقف من مواقف يوم القيامة بإستيهاب المغفرة بالمنع عن دخول النار ، أو إخراج بعض من كان داخلا فيها ، بإتساع الرحمة أو ظهور الكرامة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الميزان حـ 1 صـ 155. 175 ﴾

(121/50)

بحثان يتعلقان بالشفاعة

قال فى الميزان :

(بحث فلسفي) البراهين العقلية وإن قصرت عن إعطاء التفاصيل الواردة كتابا وسنة في المعاد لعدم نيلها المقدمات المتوسطة في الاستنتاج على ما ذكره الشيخ ابن سينا لكنها تنال ما يستقبله الإنسان من كمالاته العقلية والمثالية في صراطي السعادة والشقاوة بعد مفارقة نفسه بدنه من جهة التجرد العقلي والمثالي الناهض عليهما البرهان .

فالإنسان في بادئ أمره يحصل له من كل فعل يفعله هيئة نفسانية وحال من أحوال السعادة والشقاوة ، ونعني بالسعادة ما هو خير له من حيث أنه إنسان ، وبالشقاوة ما يقابل ذلك ، ثم تصير تلك الأحوال بتكررها ملكة راسخة ، ثم يتحصل منها صورة سعيدة أو شقية للنفس تكون مبدئا لهيئات وصور نفسانية ، فإن كانت سعيدة فآثارها وجودية ملائمة للصورة الجديدة ، وللنفس التي هي بمنزلة المادة القابلة لها ، وان كانت شقية فآثارها أمور عدمية ترجع بالتحليل إلى الفقدان والشر ، فالنفس السعيدة تلتذ بآثارها بما هي انسان ، وتلتذ بها بما هي انسان سعيد بالفعل ، والنفس الشقية وان كانت آثارها مستأنسة لها وملائمة بما أنها مبدأ لها لكنها تتألم بها بما انها انسان ، هذا بالنسبة إلى النفوس الكاملة في جانب السعادة والشقاوة ، أعني الإنسان السعيد ذاتا والصالح عملا والإنسان الشقى ذاتا والطالح عملا ، واما الناقصة في سعادتها وشقاوتها فالانسان السعيد ذاتا الشقى فعلا بمعنى ان يكون ذاته ذات صورة سعيدة بالاعتقاد الحق الثابت غير ان في نفسه هيآت شقية ردية من الذنوب والآثام اكتسبتها حين تعلقها بالبدن الدنيوي وارتضاعها من ثدي الاختيار ، فهي امور قسرية غير ملائمة لذاتة ، وقد أقيم البرهان على أن القسر لا يدوم ،

فهذه النفس سترزق التطهر منها في برزخ أو قيمة على حسب قوة رسوخها في النفس ، وكذلك الأمر فيما للنفس الشقية من الهيآت العارضة السعيدة فانها ستسلب عنها وتزول سريعا أو بطيئا ، واما النفس التي لم تتم لها فعلية السعادة والشقاوة فيالحياة الدنيا حتى فارقت البدن مستضعفة ناقصة فهي من المرجئين لامر الله عز وجل ، فهذا ما يقتضيه البراهين في المجازاة بالثواب والعقاب المقتضية لكونها من لوازم الأعمال ونتائجها ، لوجوب رجوع الروابط الوضعية الاعتبارية بالآخرة إلى روابط حقيقية وجودية هذا .

(123/50)

ثم ان البراهين قائمة على أن الكمال الوجودي مختلف بحسب مراتب الكمال والنقص والشدة والضعف وهو التشكيك خاصة في النور المجرد فلهذه النفوس مراتب مختلفة في القرب والبعد من مبدأ الكمال ومنتهاه في سيرها الارتقائي وعودها إلى ما بدأت منها وهي بعضها فوق بعض ، وهذه شأن العلل الفاعلية (بمعنى ما به) ووسائط الفيض ، فلبعض النفوس وهي النفوس التامة الكاملة كنفوس الأنبياء عليهم السلام وخاصة من هو في أرقي درجات الكمال والفعلية وساطة في زوال الهيئات الشقية الردية القسرية من نفوس الضعفاء ، ومن دونهم من السعداء إذا لزمتها قسرا ، وهذه هي الشفاعة الخاصة

بأصحاب الذنوب .

(بحث اجتماعي) الذي تعطيه أصول الاجتماع ان المجتمع الإنساني لا يقدر على حفظ حياته وادامة وجوده الا بقوانين موضوعة معتبرة بينهم ، لها النظارة في حاله ، الحكومة في أعمال الافراد وشؤونهم ، تنشأ عن فطرة المجتمع وغريزه الافراد المجتمعين بحسب الشرائط الموجودة ، فتسير بهدايتها جميع طبقات الاجتماع كل على حسب ما يلائم شأنه ويناسب موقعه فيسير المجتمع بذلك سيرا حثيثا ويتولد بتألف أطرافه وتفاعل متفرقاته العدل الاجتماعي وهي موضوعة على مصالح ومنافع مادية يحتاج إليها إرتقاء الاجتماع المادي ، وعلى كمالات معنوية كالاخلاق الحسنة الفاضلة التي يدعو إليها صلاح الاجتماع كالصدق في القول والوفاء بالعهد والنصح وغير ذلك ، وحيث كانت القوانين والاحكام وضعية غير حقيقية احتاجت إلى تتميم تأثيرها ، بوضع أحكام مقررة أخرى في المجازاة لتكون

(124/50)

هي الحافظة لحماها عن تعدي الافراد المتهوسين وتساهل آخرين ، ولذلك كلما قويت حكومة (أي حكومة كانت) على إجراء مقررات الجزاء لم يتوقف المجتمع في سيره ولا ضل سائره عن طريقه ومقصده ، وكلما ضعفت اشتد الهرج والمرج في داخله وانحرف عن

مسيره فمن التعاليم اللازمة تثبيتها في الاجتماع تلقين أمر الجزاء ، وإيجاد الإيمان به في نفوس الافراد ، ومن الواجب الاحتراز من أن يدخل في نفوسهم رجاء التخلص عن حكم الجزاء ، وتبعة المخالفة والعصيان ، بشفاعة أو رشوة أو بشئ من الحيل والدسائس المهلكة ، ولذلك نقموا على الديانة المسيحية ما وقع فيها أن المسيح فدى الناس في معاصيهم بصلبه ، فالناس يتكلون عليه في تخليصهم من يد القضاء يوم القيامة ويكون الدين إذ ذاك هادما للانسانية ، مؤخرا للمدنية ، راجعا بالانسان القهقرى كما قيل .

وان الاحصاء يدل من أن المتدينين أكثر كذبا وأبعد من العدل من غيرهم وليس ذلك إلا انهم يتكلون بحقية دينهم ، وادخار الشفاعة في حقهم ليوم القيامة ، فلا يبالون ما يعملون بخلاف غيرهم ، فإنهم خلوا وغرائزهم وفطرهم ولم يبطل حكمها بما بطل به في المتدينين فحكمت بقبح التخلف عما يخالف حكم الإنسانية والمدنية الفاضله .

وبذلك عول جمع من الباحثين في تأويل ما ورد في خصوص الشفاعة في الإسلام وقد نطق به الكتاب وتواترت عليه السنة .

ولعمري لا الإسلام تثبت الشفاعة بالمعنى الذي فسروها به ، ولا الشفاعة التي تثبتها تؤثر الاثر الذي زعموه لها ، فمن الواجب أن يحصل الباحث في المعارف الدينية وتطبيق ما شرعه الإسلام على هيكل الاجتماع الصالح والمدنية الفاضلة تمام ما رامه الإسلام من

الاصول والقوانين المنطبقة على الاجتماع كيفية ذلك التطبيق ، ثم يحصل ما هي الشفاعة الموعودة وما هو محلها وموقعها بين المعارف التي جاء بها .

(125/50)

فيعلم اولا : أن الذي يثبته القرآن من الشفاعة هو ان المؤمنين لا يخلدون في النار يوم القيامة بشرط أن يلاقوا ربهم بالإيمان المرضي والدين الحق فهو وعد وعده القرآن مشروطا ثم نطق بأن الإيمان من حيث بقائه على خطر عظيم من جهة الذنوب ولاسيما الكبائر ولا سيما الادمان منها والامرار فيها ، فهو شفا جرف الهلاك الدائم ،

وبذلك يتحصل رجاء النجاة وخوف الهلاك ، ويسلك نفس المؤمن بين الخوف والرجاء فيعبد ربه رغبة ورهبة ، ويسير في حياته سيرا معتدلا غير منحرف لا إلى خمود القنوط ، ولا إلى كسل الوثوق .

وثانيا : أن الإسلام قد وضع من القوانين الاجتماعية من مادياتها ومعنوياتها ما يستوعب جميع الحركات والسكنات الفردية والاجتماعية ، ثم إعتبر لكل مادة من موادها ما هو المناسب له من التبعة والجزاء من دية وحد وتعزير إلى أن ينتهي إلى تحريم مزايا الاجتماع واللوم والذم والتقبيح ، ثم تحفظ على ذلك بعد تحكيم حكومة أولياء الأمر ، بتسليط الكل

على الكل بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ثم أحيى ذلك بنفخ روح الدعوة الدينية المضمنة بالانذار والتبشير بالعقاب والثواب في الآخرة ، وبنى أساس تربيتة بتلقين معارف المبدا والمعاد على هذا الترتيب .

(126/50)

فهذا ما يرومه الإسلام بتعليمه ، جاء به النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وصدقه التجارب الواقع في عهده وعهد من يليه حتى اثبت به أيدي الولاة في السلطنة الاموية ومن شايعهم في استبدادهم ولعبهم بأحكام الدين وابطالهم الحدود والسياسات الدينية حتى آل الأمر إلى ما آل إليه اليوم وارتفعت أعلام الحرية وظهرت المدنية الغربية ولم يبق من الدين بين المسلمين إلا كصبابة في إناء فهذا الضعف البين في سياسة الدين وارتجاع المسلمين القهقرى هو الموجب لتنزلهم في الفضائل والفواضل وانحطاطهم في الاخلاق والآداب الشريفة وإنغمارهم في الملاهي والشهوات وخوضهم في الفواحش والمنكرات ، هو الذي أجراهم على انتهاك كل حرمة وإقتراف كل ما يستشنعه حتى غير المنتحل بالدين لا ما يتخيله المعترض من إستناد الفساد إلى بعض المعارف الدينية التي لا غاية لها وفيها إلا سعادة الإنسان في آجله وعاجله والله المعين ، والاحصاء الذي ذكروها إنما وقع على

جمعية المتدينين وليس عليهم قيم ولا حافظ قوي وعلى جمعية غير المنتحلين ، والتعليم والتربية الاجتماعيان قيمان عليهم حافظان لصلاحهم الاجتماعي فلا يفيد فيما أراده شيئا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الميزان حـ 1 صـ 183.186 ﴾

(127/50)

ومن فوائد القاسمى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ [48]

﴿ وَاتَّقُواْ يَوْماً ﴾ يريد يوم القيامة أي : حسابه أو عذابه : ﴿ لاَّ تَجْزِي ﴾ فيه : ﴿ نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً ﴾ أي : لا تقضي عنها شيئاً من الحقوق . فانتصاب : ﴿ شيئاً ﴾ على المفعولية ، أو شيئاً من الجزاء فيكون نصبه على المصدرية ، وإيراده منكّراً مع تنكير النفس للتعميم ، والإقناط الكلي : ﴿ وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ ﴾ لا يقبل : ﴿ مِنْهَا عَدْلٌ ﴾ أي : فدية : ﴿ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ يمنعون من عذاب الله . وجُمع لدلالة النفس المنكّرة على النفوس الكثيرة ، وذُكّر لمعنى العباد أو الأناسي .

تنبيه :

تمسكت المعتزلة بهذه الآية على أن الشفاعة لا تقبل للعصاة ؛ لأنه نفى أن تقضي نفس عن نفس حقاً أخلت به من فعل أو ترك ، ثم نفى أن يقبل منها شفاعة شفيع ، فعلم أنها لا تقبل للعصاة .

والجواب : أنها خاصة بالكفار . ويؤيده أن الخطاب معهم كما قال : ﴿ فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾ [المدثر : 48] ، وكما قال عن أهل النار : ﴿ فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾ [الشعراء : 100 ، 101] فمعنى الآية أنه تعالى لا يقبل فيمن كفر به فدية ولا شفاعة ، ولا يُنفذ أحداً من عذابه منقذ ، ولا يخلص منه أحد .

(128/50)

وفي الانتصاف : من جحد الشفاعة فهو جدير أن لا ينالها . وأما من آمن بها وصدقها ؛ وهم أهل السنة والجماعة ، فأولئك يرجون رحمة الله ، ومعتقدهم أنها تنال العصاة من المؤمنين وإنما ادخرت لهم ، وليس في الآية دليل لمنكريها ؛ لأن قوله : ﴿ يوماً ﴾ أخرجه منكّراً ، ولا شك أن في القيامة مواطن ، ويومها معدود بخمسن ألف سنة ، فبعض أوقاتها ليس زماناً للشفاعة ، وبعضها هو الوقت الموعود ، وفيها المقام المحمود لسيد البشر عليه

أفضل الصلاة والسلام ، وقد وردت آي كثيرة ترشد إلى تعدد أيامها واختلاف أوقاتها ؛ منها قوله تعالى : ﴿ فَلا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ [المؤمنون : 101] ، مع قوله : ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ [الصافات : 27] فيتعين حمل الآيتين على يومين مختلفين ، ووقتين متغايرين : أحدهما محل للتناول ، والآخر ليس محلاً له .

وكذلك الشفاعة ، وأدلة ثبوتها لا تحصى كثرة ، رزقنا الله الشفاعة ، وحشرنا في زمرة أهل السنة والجماعة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 2 صـ 333. 334 ﴾

(129/50)

ومن فوائد صاحب المنار فى الآيتين :

(يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ)

تَقَدَّمَ تَذْكِيرُ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِالنِّعْمَةِ فِي آيَةٍ قَبْلَ هَذِهِ الْآيَةِ مَقْرُونًا بِالْأَمْرِ بِالْوَفَاءِ بِعَهْدِ اللهِ ، وَبِالْوَعْدِ بِالْجَزَاءِ عَلَيْهِ ، وَالْأَمْرِ بِالْخَشْيَةِ مِنْهُ وَالرَّهْبَةِ لَهُ وَحْدَهُ . (وَهِيَ آيَةُ 40) وَتَلَاهَا آيَاتٌ أَمَرَهُمْ فِيهَا بِالْإِيمَانِ بِالْقُرْآنِ وَنَهَاهُمْ عَنْ لَبْسِ الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ وَكِتْمَانِهِ . ثُمَّ أَمَرَهُمْ بِإِقَامَةِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ، ثُمَّ وَبَّخَهُمْ عَلَى نِسْيَانِ أَنْفُسِهِمْ مِنَ الْبِرِّ مَعَ أَمْرِهِمْ لِلنَّاسِ بِهِ وَتِلَاوَتِهِمْ

الْكِتَابَ الدَّاعِيَ إِلَيْهِ ، وَدَلَّهُمْ عَلَى الطَّرِيقِ الَّتِي لَوْ سَلَكُوهَا عُوفُوا مِنْ هَذَا النِّسْيَانِ ، تِلْكَ الطَّرِيقُ هِيَ : الِاسْتِعَانَةُ بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ الَّتِي فَقَدُوهَا بِفَقْدِ رُوحِهَا ، وَهُوَ : الْإِخْلَاصُ وَالْخُشُوعُ ، وَبَعْدَ هَذَا عَادَ إِلَى التَّذْكِيرِ بِالنِّعْمَةِ بِنَوْعٍ مِنَ التَّفْصِيلِ ، فَإِنَّ النِّعْمَةَ فِي الْآيَةِ الْأُولَى مُجْمَلَةٌ وَالْإِجْمَالُ يُنَبِّهُ الْفِكْرَ إِلَى الذِّكْرِ فِي الْجُمْلَةِ ، فَإِذَا تَلَاهُ التَّفْصِيلُ وَالْبَيَانُ كَانَ عَلَى اسْتِعْدَادٍ تَامٍّ لِكَمَالِ الْفَهْمِ (فَيَكُونُ التَّذَكُّرُ أَتَمَّ وَالتَّأَثُّرُ أَقْوَى ، وَالشُّكْرُ عَلَى النِّعْمَةِ أَرْجَى) .

(130/50)

ثُمَّ طَلَبَ مِنْهُمْ أَنْ يَذْكُرُوا نِعْمَتَهُ ، وَتَفْضِيلَهُ إِيَّاهُمْ عَلَى النَّاسِ ، إِحْيَاءً لِشُعُورِ الْكَرَامَةِ فِي نُفُوسِهِمْ ، وَوَصْلِهِ بِالْأَمْرِ بِاتِّقَاءِ يَوْمِ الدِّينِ وَالْجَزَاءِ . وَهَذَا أُسْلُوبٌ حَكِيمٌ فِي الْوَعْظِ ، فَيَنْبَغِي لِكُلِّ وَاعِظٍ أَنْ يَبْدَأَ وَعْظَهُ بِإِحْيَاءِ إِحْسَاسِ الشَّرَفِ وَشُعُورِ الْكَرَامَةِ فِي نُفُوسِ الْمَوْعُوظِينَ لِتَسْتَعِدَّ بِذَلِكَ لِقَبُولِ الْمَوْعِظَةِ (وَتَجِدَ مِنْ ذَلِكَ الْإِحْسَاسِ مَعُونَةً مِنَ الْعَزِيمَةِ الصَّادِقَةِ الَّتِي هِيَ مِنْ خَصَائِصِ النُّفُوسِ الْكَرِيمَةِ عَلَى عَوَامِلِ الْهَوَى وَالشَّهْوَةِ ، فَإِنَّ النَّفْسَ إِذَا اسْتَشْعَرَتْ كَرَامَتَهَا وَعُلُوَّهَا إِلَى مَا فِي الرَّذَائِلِ مِنَ الْخِسَّةِ أَبَى لَهَا ذَلِكَ الشُّعُورُ – شُعُورُ الْعُلُوِّ وَالرِّفْعَةِ – أَنْ تَنْحَطَّ إِلَى تَعَاطِي تِلْكَ الْخَسَائِسِ ، وَكَانَ ذَلِكَ مِنْ

أَقْوَى الْوَسَائِلِ لِمُسَاعَدَةِ الْوَاعِظِ عَلَى بُلُوغِ قَصْدِهِ مِنْ نَفْسِ مَنْ يُوَجِّهُ إِلَيْهِ وَعْظَهُ ، ثُمَّ إِنَّ فِي الْوَعْظِ مَا يُؤْلِمُ نَفْسَ الْمَوْعُوظِ ، وَحَرَجًا يَكَادُ يَحْمِلُهَا عَلَى النَّفْرَةِ مِنْ تَلْقِينِهِ ، وَالِاسْتِنْكَافِ مِنْ سَمَاعِهِ ، فَذِكْرُ الْوَاعِظِ لِمَا يُشْعِرُ بِكَرَامَةِ الْمُخَاطَبِ وَرِفْعَةِ شَأْنِهِ ، وَإِبَاءِ مَا يَنْمِي إِلَيْهِ مِنَ الشَّرَفِ أَنْ يَدُومَ عَلَى مِثْلِ مَا يَقْتَرِفُ يُقْبِلُ بِالنَّفْسِ عَلَى الْقَبُولِ ، كَمَا يُقْبِلُ الْجَرِيحُ عَلَى مَنْ يُضَمِّدُ جِرَاحَهُ وَيُسَكِّنُ آلَامَهُ) .

(131/50)

أَلَا وَإِنَّ هَذَا الشُّعُورَ ، شُعُورَ الشَّرَفِ وَالرِّفْعَةِ ، مُلَازِمٌ لِلْإِنْسَانِ لَا يُفَارِقُهُ وَلَكِنَّهُ قَدْ يَضْعُفُ حَتَّى لَا يَظْهَرَ لَهُ أَثَرٌ ، وَفِي تَحْرِيكِ الْوَاعِظِ لَهُ اعْتِرَافٌ ضِمْنِيٌّ بِكَرَامَةٍ وَفَضْلٍ لِلْمَوْعُوظِ يَشْفَعَانِ لَهُ بِمَا يَسْتَلْزِمُهُ الْوَعْظُ مِنْ مَظِنَّةِ الْإِهَانَةِ فَيَسْهُلُ احْتِمَالُهُ وَيَقْرُبُ قَبُولُهُ .

شُعُورُ الْعِزَّةِ وَالْكَرَامَةِ أَمْرٌ شَرِيفٌ يُحْيِيهِ الْإِيمَانُ فِي نُفُوسِ الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ ، بَلْ يَسْتَلْزِمُهُ عَلَى وَجْهٍ أَكْمَلَ ؛ لِأَنَّ صَاحِبَ الْإِيمَانِ الصَّحِيحِ يَرَى أَنَّ لَهُ نِسْبَةً إِلَى الرَّبِّ الْعَظِيمِ خَالِقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَأَنَّهُ سَنَدُهُ وَمُمِدُّهُ ، وَعِنْدَ ذَلِكَ تَعْلُو نَفْسُهُ وَتَرْتَفِعُ كَمَا قِيلَ :

قَوْمٌ يُخَالِجُهُمْ زَهْوٌ بِسَيِّدِهِمْ . . . وَالْعَبْدُ يَزْهُو عَلَى مِقْدَارِ مَوْلَاهُ

(132/50)

مَنْ كَانَ يَشْعُرُ لِنَفْسِهِ بِقِيمَةٍ أَوْ يَجِدُ لَهَا حَقًّا فِي أَنْ تَعِزَّ وَتُكْرَمَ ، تَرَاهُ إِذَا خَلَا بِنَفْسِهِ وَتَذَكَّرَ أَنَّهُ أَلَمَّ بِنَقِيصَةٍ يَتَأَلَّمُ وَيَتَمَلْمَلُ وَيَسْتَعِيذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ . وَإِذَا تَذَكَّرَ الْمُؤْمِنُ أَنَّ قَلْبَهُ الَّذِي تَشَرَّفَ بِمَعْرِفَةِ اللهِ – تَعَالَى – (وَأَنَّ شَرَفَ تِلْكَ الْمَعْرِفَةِ خَلَّصَهُ مِنَ الْعُبُودِيَّةِ لِغَيْرِهِ وَصَيَّرَهُ مَرْبُوبًا لِرَبِّ الْعَالَمِينَ وَحْدَهُ ، فَهُوَ فِي ذَلِكَ مَعَ أَرْفَعِ وَأَكْرَمِ كَرِيمٍ سَوَاءٌ – إِذَا ذَكَرَ ذَلِكَ ، لَمْ يَرَ مِنَ اللَّائِقِ بِمِثْلِ هَذَا الِاخْتِصَاصِ أَنْ يُجَاوِرَهُ مَا يُدَنِّسُهُ مِنَ الِاسْتِبْعَادِ لِمَا يُذِلُّهُ ، بَلْ يَرَى أَنَّ ذَلِكَ الشُّعُورَ الظَّاهِرَ وَالْعِرْفَانَ الْهَادِيَ إِلَى مَقَامَاتِ الْكَرَامَةِ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُزَاحِمَهُ فِي مَوْطِنِهِ مِنَ الْقَلْبِ دَنَسٌ مِنْ رِجْسِ الرَّذَائِلِ) فَيَنْفِرُ مِنْ هَذِهِ الْمُزَاحَمَةِ وَتَثْقُلُ عَلَيْهِ وَيَسْهُلُ عَلَيْهِ التَّزَكِّي مِمَّا أَلَمَّ بِهِ وَالْإِنَابَةُ إِلَى اللهِ – تَعَالَى – (قَالَ) : لِهَذَا بَدَأَ اللهُ – تَعَالَى – تَذْكِيرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا بَدَأَ وَثَنَّى بِمَا ثَنَّى .

وَهُوَ يَتَضَمَّنُ مِنَ التَّقْرِيعِ وَالتَّوْبِيخِ مَا يُشْعِرُ بِغِلَظِ طِبَاعِهِمْ وَفَسَادِ قُلُوبِهِمْ ، فَإِنَّ مَنْ لَا يَتَأَدَّبُ بِإِحْيَاءِ إِحْسَاسِ الْكَرَامَةِ ، يُؤَدَّبُ بِالتَّأْنِيبِ وَالْإِهَانَةِ .

الْعَبْدُ يُقْرَعُ بِالْعَصَا وَالْحُرُّ تَكْفِيهِ الْإِشَارَةْ

فَقَوْلُهُ – تَعَالَى – : (يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ) مُؤَكِّدٌ لِمِثْلِهِ فِي الْآيَةِ 40 وَتَمْهِيدٌ لِمَا عَطَفَهُ عَلَيْهِ مِنْ تَفْصِيلِ الْإِجْمَالِ فِي الْآيَةِ وَمَا بَعْدَهَا مِنَ الْآيَاتِ ، وَمَا اقْتَرَنَ بِهِ مِنْ بَيَانِ كُفْرِهِمْ لِلنِّعَمِ ، وَمَا تَخَلَّلَهَا مِنَ الْمَوَاعِظِ وَالْحُجَجِ ، وَأَوَّلُهُ وَأَعْلَاهُ قَوْلُهُ : (وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ) أَيْ : أَعْطَيْتُكُمْ مِنَ الْفَضْلِ – وَهُوَ الزِّيَادَةُ فِيمَا يَحْسُنُ – مَا لَمْ أُعْطِ غَيْرَكُمْ مِنَ الشُّعُوبِ – حَتَّى ذَاتِ الْمَزَايَا الدُّنْيَوِيَّةِ – كَالْمَصْرِيِّينَ وَسُكَّانِ الْبِلَادِ الْمُقَدَّسَةِ .

قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ مَا مَعْنَاهُ : نَادَاهُمْ بِاسْمِ أَبِيهِمُ الَّذِي هُوَ أَصْلُ عِزِّهِمْ وَسُؤْدُدِهِمْ وَمَنْشَأُ تَفْضِيلِهِمْ ، وَأَسْنَدَ النِّعْمَةَ إِلَيْهِمْ جَمِيعًا لَا إِلَيْهِ وَحْدَهُ ؛ لِأَنَّ النِّعْمَةَ عَمَّتْهُمْ ، وَالتَّفْضِيلَ شَمَلَهُمْ ، ثُمَّ طَفِقَ يُفَصِّلُ النِّعْمَةَ الَّتِي ذَكَرَهَا مُجْمَلَةً فِيمَا سَبَقَ بِذِكْرِ أُمَّهَاتِ أَنْوَاعِهَا ، فَذَكَرَ تَفْضِيلَهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ بِمَحْضِ كَرَمِهِ وَفَضْلِهِ ، فَإِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَغَيْرِهِمْ مِنَ الْبَشَرِ ، وَالتَّفْضِيلُ هُوَ مَنَاطُ الْأَخْذِ بِالْفَضَائِلِ وَتَرْكِ الرَّذَائِلِ ؛ لِأَنَّ الَّذِي يَرَى نَفْسَهُ رَذْلًا خَسِيسًا ، لَا يُبَالِي مَا يَفْعَلُ .

وَمَنْ يَرَى نَفْسَهُ مُفَضَّلًا مُكَرَّمًا ، فَإِنَّهُ يَتَرَفَّعُ عَنِ الدَّنَايَا وَالْخَسَائِسِ الَّتِي تُدَنِّسُ شَرَفَهُ وَتَذْهَبُ

بِفَضْلِهِ . وَالْحِكْمَةُ فِي التَّذْكِيرِ بِالتَّفْضِيلِ : أَنْ يَتَذَكَّرُوا أَنَّ الَّذِي فَضَّلَهُمْ لَهُ أَنْ يُفَضِّلَ غَيْرَهُمْ كَمُحَمَّدٍ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَأُمَّتِهِ ، وَتَنْبِيهُهُمْ إلَى عَدَمِ الذُّهُولِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ لِيُذَكِّرُوهَا عِنْدَ أَمْرِ النَّاسِ بِالْبِرِّ ، وَيَعْلَمُوا أَنَّهُمْ أَوْلَى بِأَنْ يَبَرُّوا مِمَّنْ يَأْمُرُونَهُمْ بِالْبِرِّ ؛ لِأَنَّهُمْ يَنَالُونَ الْكِتَابَ الدَّاعِيَ إلَيْهِ وَهُوَ آيَةُ تَفْضِيلِهِمْ . وَإِلَى أَنَّهُمْ أَحَقُّ بِاسْتِعْمَالِ الْفِكْرِ فِي الْآيَاتِ الَّتِي أُوتِيَهَا النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، وَأَجْدَرُ مِنْ جَمِيعِ الشُّعُوبِ بِالْإِيمَانِ بِهِ ، فَإِنَّ الْمُفَضَّلَ أَوْلَى بِالسَّبْقِ إلَى الْفَضَائِلِ مِمَّنْ فُضِّلَ هُوَ عَلَيْهِ .

ثُمَّ إنَّ الْفَضْلَ عَلَى الْعَالَمِينَ إنْ كَانَ بِكَثْرَةِ الْأَنْبِيَاءِ فِيهِمْ فَهُوَ ظَاهِرٌ عَلَى عُمُومِهِ ؛ لِأَنَّهُ لَا يُعْرَفُ شَعْبٌ مِنَ الشُّعُوبِ يُزَاحِمُهُمْ فِي هَذِهِ الْمَزِيَّةِ ، وَلَا تَقْتَضِي هَذِهِ الْفَضِيلَةُ بِأَنْ يَكُونَ كُلُّ فَرْدٍ مِنْهُمْ أَفْضَلَ مِنْ كُلِّ فَرْدٍ مِنْ غَيْرِهِمْ ، وَلَا تُنَافِي أَنْ يَفْضُلَهُمْ أَخَسُّ الشُّعُوبِ – بَلْ غَيْرُهُ – إذَا هُمْ انْحَرَفُوا عَنْ هَدْيِ أَنْبِيَائِهِمْ وَتَرَكُوا سُنَّتَهُمْ وَاهْتَدَى إلَيْهَا

(135/50)

ذَلِكَ الشَّعْبُ الَّذِي كَانَ مَفْضُولًا . وَإِنْ كَانَ الْمُرَادُ مِنَ التَّفْضِيلِ هُوَ الْقُرْبُ مِنَ اللَّهِ – تَعَالَى – بِمَرْضَاتِهِ ، فَلَا بُدَّ مِنْ تَخْصِيصِهِ بِأُولَئِكَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُهْتَدِينَ بِهِمْ مِنْ أَهْلِ زَمَانِهِمْ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ فِيهِ ، وَمِنْ تَقْيِيدِهِ بِمُدَّةِ الِاسْتِقَامَةِ عَلَى الْعَمَلِ الَّذِي اسْتَحَقُّوا بِهِ التَّفْضِيلَ .

ثُمَّ قَالَ – تَعَالَى – : (وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا) أَيْ وَاحْذَرُوا يَوْمًا عَظِيمًا أَمَامَكُمْ سَيَقَعُ فِيهِ مِنَ الْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ مَا لَا مَنْجَاةَ مِنْ هَوْلِهِ إلَّا بِتَقْوَى اللَّهِ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ ، وَمُرَاقَبَتِهِ فِي جَمِيعِ الْأَعْمَالِ ، فَهُوَ يَوْمٌ لَا تَقْضِي فِيهِ نَفْسٌ – مَهْمَا يَكُنْ قَدْرُهَا عَظِيمًا – عَنْ نَفْسٍ مَهْمَا يَكُنْ ذَنْبُهَا صَغِيرًا شَيْئًا مَا ، كَحَمْلِ وِزْرِهَا أَوْ تَكْفِيرِ ذَنْبِهَا (وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى) (35 : 18) وَصَفَ الْيَوْمَ بِهَذَا الْوَصْفِ وَلَمْ يَقُلْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَثَلًا ؛ لِلْإِشْعَارِ بِأَنَّ التَّصَرُّفَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ وَالْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ ، فَلَيْسَ فِيهِ مَا اعْتَادَ النَّاسُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا مِنْ دِفَاعِ بَعْضِهِمْ عَنْ بَعْضٍ .

وَعَبَّرَ عَنْ هَذَا الْمَعْنَى فِي أَوَّلِ سُورَةٍ بِقَوْلِهِ : (مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ) (1 : 4) ثُمَّ وَصَفَهُ هُنَا بِوَصْفٍ آخَرَ يُنَاسِبُ الْأَوَّلَ فَقَالَ : (وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ) وَقَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ وَأَبُو عَمْرٍو (وَلَا تُقْبَلُ) بِالتَّاءِ ، وَالْمَعْنَى : لَا يُقْبَلُ مِنْهَا أَنْ تَأْتِيَ بِشَفِيعٍ يَشْفَعُ لَهَا ، وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا فِدَاءٌ أَوْ بَدَلٌ إنْ هِيَ اسْتَطَاعَتْ أَنْ تَأْتِيَ بِذَلِكَ كَمَا يَظُنُّ أَكْثَرُ الْكُفَّارِ ، وَلَنْ تَسْتَطِيعَ . قَالَ الْبَيْضَاوِيُّ : وَكَأَنَّهُ أُرِيدَ بِالْآيَةِ نَفْيُ أَنْ يَدْفَعَ أَحَدٌ عَنْ أَحَدٍ الْعَذَابَ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ مُحْتَمَلٍ ، وَفَصَّلَ هَذِهِ الْوُجُوهَ بِمَا يَشْمَلُ

(137/50)

الثَّلَاثَ الْمَنْفِيَّةَ ، وَجُمْلَةُ الْمَعْنَى : أَنَّهُ يَوْمٌ لَا تَأْثِيرَ لِأَحَدٍ فِيهِ وَلَا كَسْبَ ، وَلَا يَنْطِقُ فِيهِ أَحَدٌ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ – تَعَالَى . وَقَالَ (الْجَلَالُ) : أَيْ لَيْسَ لَهَا شَفَاعَةٌ فَتُقْبَلُ ، وَاسْتَدَلَّ بِقَوْلِهِ – تَعَالَى – حِكَايَةً عَنِ الْمُجْرِمِينَ فِي الْآخِرَةِ : (فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ) (26 : 100) الْآيَةَ وَفَسَّرَ الْعَدْلَ بِالْفِدَاءِ قَالَ : (وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ) أَيْ يُمْنَعُونَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ .

قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : وَلَا دَلِيلَ فِي هَذَا عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ مَا ذَكَرَهُ فِي مَسْأَلَةِ الشَّفَاعَةِ ، وَإِنَّمَا السِّيَاقُ فِي الْآيَةِ وَأَمْثَالِهَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بَيَانُ أَنَّ ذَلِكَ الْيَوْمَ يَوْمٌ تَنْقَطِعُ فِيهِ الْأَسْبَابُ ، وَتَبْطُلُ مَنْفَعَةُ الْأَنْسَابِ ، وَتَتَحَوَّلُ فِيهِ سُنَّةُ هَذِهِ الْحَيَاةِ مِنِ انْطِلَاقِ الْإِنْسَانِ فِي اخْتِيَارِهِ يَدْفَعُ عَنْ نَفْسِهِ بِالْعَدْلِ وَالْفِدَاءِ ، وَيَسْتَعِينُ عَلَى الْمُدَافَعَةِ بِالشَّفَاعَةِ عِنْدَ

(138/50)

السَّلَاطِينِ وَالْأُمَرَاءِ ، وَقَدْ يُوجَدُ لَهُ فِيهَا أَنْصَارٌ يَنْصُرُونَهُ بِالْحَقِّ وَبِالْبَاطِلِ عَلَى سَوَاءٍ ، بَلْ يَكُونُ لَهُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ شَأْنٌ آخَرُ مَعَ رَبِّهِ ، تَضْمَحِلُّ فِيهِ جَمِيعُ الْوَسَائِلِ إِلَّا مَا كَانَ مِنْ

إِخْلَاصِهِ فِي عَمَلِهِ ، قَبْلَ حُلُولِ أَجَلِهِ ، وَرَحْمَةِ اللهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ لَهُ ، لِضَعْفِ حَوْلِهِ ، وَضِيقِ طَوْلِهِ ، وَأَنَّهُ يَوْمٌ لَا يَتَحَرَّكُ فِيهِ عُضْوٌ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ ، وَلَا يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَنْبِسَ بِكَلِمَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ (يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ) (82 : 19) .

(139/50)

كَانَ الْيَهُودُ الْمُخَاطَبُونَ بِبَيَانِ هَذِهِ الْحَقِيقَةِ كَغَيْرِهِمْ مِنْ أُمَمِ الْجَاهِلِيَّةِ وَأَهْلِ الْمِلَلِ الْوَثَنِيَّةِ ، كَقُدَمَاءِ الْمِصْرِيِّينَ وَالْيُونَانِ يَقِيسُونَ أُمُورَ الْآخِرَةِ عَلَى أُمُورِ الدُّنْيَا ، فَيَتَوَهَّمُونَ أَنَّهُ يُمْكِنُ تَخَلُّصُ الْمُجْرِمِينَ مِنَ الْعِقَابِ بِفِدَاءٍ يُدْفَعُ بَدَلًا وَجَزَاءً عَنْهُ – كَمَا يَسْتَبْدِلُ بَعْضُ حُكَّامِهِمْ مَنْفَعَةً مَالِيَّةً بِعُقُوبَةٍ بَدَنِيَّةٍ – أَوْ بِشَفَاعَةٍ مِنْ بَعْضِ الْمُقَرَّبِينَ إِلَى الْحَاكِمِ يُغَيِّرُ بِهَا رَأْيَهُ وَيَفْسَخُ إِرَادَتَهُ . وَلَقَدِ اكْتَسَحَ الْإِسْلَامُ هَذِهِ الْعَقَائِدَ وَآثَارَهَا الْعَمَلِيَّةَ بِالتَّوْحِيدِ الْخَالِصِ ، وَأَتَى بُنْيَانَهَا مِنَ الْقَوَاعِدِ ، وَلَكِنَّ الْمُسْلِمِينَ لَمْ يَسْلَمُوا مِنْهَا فَقَدْ دَخَلَ فِي الْإِسْلَامِ أَقْوَامٌ يَحْمِلُونَ أَوْزَارًا مِمَّا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الْوَثَنِيَّةِ ، وَلَمْ يُلَقَّنُوا الدِّينَ مِنَ الْقُرْآنِ وَلَا كَمَا أَرْشَدَ الْقُرْآنُ ، وَلَكِنَّهُمْ تَقَلَّدُوهُ مِمَّنْ لَا يَعْرِفُهُ حَقَّ الْمَعْرِفَةِ ، وَلُقِّنُوهُ كَمَا تُرْشِدُ إِلَيْهِ كُتُبُ التَّقْلِيدِ مِنْ مُصْطَلَحَاتٍ مُبْتَدَعَةٍ ، فَكَانُوا عَلَى بَقِيَّةٍ مِمَّا كَانَ عِنْدَهُمْ وَعَلَى جَهْلٍ بِالْإِسْلَامِ ، وَجَاءَ قَوْمٌ آخَرُونَ تَعَمَّدُوا الْإِفْسَادَ فَجَعَلُوا بِالتَّأْوِيلِ الْبَاطِلَ حَقًّا ، وَالْكَذِبَ صِدْقًا .

وَذَكَرَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ هُنَا بَعْضَ الْعَادَاتِ الْمِصْرِيَّةِ الَّتِي لَا تَزَالُ يُعْمَلُ بِهَا بِاسْمِ الدِّينِ ، وَهِيَ مِنْ إِرْثِ قُدَمَاءِ الْوَثَنِيِّينَ ، كَإِعْطَائِهِمْ لِغَاسِلِ الْمَيِّتِ شَيْئًا مِنَ النَّقْدِ يُسَمُّونَهُ " أُجْرَةَ الْمُعَدِّيَةِ " أَيْ أُجْرَةَ نَقْلِهِ إِلَى الْجَنَّةِ . وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَعْمَلُونَهُ لِلْأَمْوَاتِ ، وَلِمَنْ يَعْتَقِدُونَ فِيهِمُ الْوِلَايَةَ وَالْقُرْبَ مِنَ اللهِ ، وَمِثْلُهُ أَكْثَرُ تَقَالِيدِهِمْ فِي بِنَاءِ الْمَقَابِرِ وَاحْتِفَالَاتِهَا .

ثُمَّ ذَكَرَ الْمُكَفِّرَاتِ الَّتِي يَعْتَقِدُهَا الْيَهُودُ كَقُرْبَانِ الْإِثْمِ ، وَقُرْبَانِ الْخَطِيئَةِ ، وَقُرْبَانِ السَّلَامَةِ ، وَالْمَحْرَقَةِ وَالِاكْتِفَاءُ مِمَّنْ لَمْ يَجِدِ الْقُرْبَانَ بِحَمَامَتَيْنِ يُكَفِّرُ بِهِمَا عَنْ ذَنْبِهِ ، وَقَالَ : وَكَانُوا يَفْهَمُونَ أَنَّ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ تُكَفِّرُ الذُّنُوبَ بِذَاتِهَا ، وَالْحَقُّ أَنَّهَا عُقُوبَاتٌ لَا مُكَفِّرَاتٌ فَإِنَّ مَنْ فَهِمَ التَّوْرَاةَ حَقَّ فَهْمِهَا يَعْلَمُ أَنَّ الْمُكَفِّرَ الْحَقِيقِيَّ هُوَ التَّوْبَةُ وَالْإِقْلَاعُ عَنِ الذَّنْبِ ، ثُمَّ تَقْدِيمَ الْقُرْبَانِ يَكُونُ تَرْبِيَةً وَعُقُوبَةً . وَقَدْ أَخْبَرَهُمُ اللهُ – تَعَالَى – فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِأَنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُقْبَلُ فِيهِ عَدْلٌ يَفْتَدِي الْإِنْسَانُ بِهِ . قَالَ : وَكَانُوا يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُمْ بِانْتِسَابِهِمْ لِلْأَنْبِيَاءِ لَا يَدْخُلُونَ النَّارَ أَوْ لَا تَمَسُّهُمْ

إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً ؛ لِأَنَّ لَهُمُ الْجَاهَ وَالتَّأْثِيرَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَلَا يَرْضَوْنَ أَنْ يَتْرُكُوا أَبْنَاءَهُمْ فِي الْعَذَابِ ، ثُمَّ زَادُوا عَلَى ذَلِكَ شَفَاعَةَ الْأَحْبَارِ لِمَنْ يَنْتَسِبُ إِلَيْهِمْ . وَمَتَى ضَعُفَ الدِّينُ يُوجَدُ مِنْ رُؤَسَائِهِ مَنْ يُرَوِّجُ هَذِهِ الْعَقَائِدَ فِي الْعَامَّةِ لِمَا تَسُوقُ إِلَيْهِمْ مِنَ الْمَنَافِعِ . وَكَذَلِكَ كَانَ الْيَهُودُ حَتَّى جَاءَ الْإِسْلَامُ بِهَذِهِ الْآيَةِ وَأَمْثَالِهَا فَمَحَا هَذِهِ الْعَقِيدَةَ لِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنُونَ بِهِ أَنَّهُ لَا يَنْفَعُ الْإِنْسَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا مَرْضَاةُ اللهِ – تَعَالَى – بِالْإِيمَانِ الْخَالِصِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ .

(142/50)

فِي الْقُرْآنِ آيَاتٌ نَاطِقَةٌ بِنَفْيِ الشَّفَاعَةِ مُطْلَقًا ، كَقَوْلِهِ – تَعَالَى – فِي وَصْفِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ : (لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ) (2 : 254) وَأُخْرَى نَاطِقَةٌ بِنَفْيِ مَنْفَعَةِ الشَّفَاعَةِ ، كَقَوْلِهِ – عَزَّ وَجَلَّ – : (فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ) (74 : 48) وَآيَاتٌ تُفِيدُ النَّفْيَ بِمِثْلِ قَوْلِهِ : (إِلَّا بِإِذْنِهِ) (2 : 255) وَقَوْلِهِ (إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى) (21 : 28) فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَحْكُمُ الثَّانِي بِالْأَوَّلِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَرَى أَنَّهُ لَا مُنَافَاةَ بَيْنَهُمَا فَنَحْتَاجُ إِلَى حَمْلِ أَحَدِهِمَا عَلَى الْآخَرِ ؛ لِأَنَّ مِثْلَ هَذَا الِاسْتِثْنَاءِ (أَيِ الِاسْتِثْنَاءِ بِالْإِذْنِ وَالْمَشِيئَةِ) مَعْهُودٌ فِي أُسْلُوبِ الْقُرْآنِ فِي مَقَامِ النَّفْيِ الْقَطْعِيِّ لِلْإِشْعَارِ بِأَنَّ ذَلِكَ بِإِذْنِهِ وَمَشِيئَتِهِ – عَزَّ وَجَلَّ – ، كَقَوْلِهِ – تَعَالَى – : (سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ) (87 : 6 ، 7) وَقَوْلِهِ : (فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا

شَاءَ رَبُّكَ) (11 : 107) فَلَيْسَ فِي الْقُرْآنِ نَصٌّ قَطْعِيٌّ فِي وُقُوعِ الشَّفَاعَةِ ، وَلَكِنْ وَرَدَ الْحَدِيثُ بِإِثْبَاتِهَا ، فَمَا مَعْنَاهَا ؟

الشَّفَاعَةُ الْمَعْرُوفَةُ عِنْدَ النَّاسِ : هِيَ أَنْ يَحْمِلَ الشَّافِعُ الْمَشْفُوعَ عِنْدَهُ عَلَى فِعْلٍ أَوْ تَرْكٍ كَانَ أَرَادَ غَيْرَهُ – حَكَمَ بِهِ أَمْ لَا – فَلَا تَتَحَقَّقُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا بِتَرْكِ الْإِرَادَةِ ، وَفَسْخِهَا لِأَجْلِ الشَّفِيعِ .

(143/50)

فَأَمَّا الْحَاكِمُ الْعَادِلُ فَإِنَّهُ لَا يَقْبَلُ الشَّفَاعَةَ إِلَّا إِذَا تَغَيَّرَ عِلْمُهُ بِمَا كَانَ إِرَادَةً أَوْ حَكَمَ بِهِ ؛ كَأَنْ كَانَ أَخْطَأَ ثُمَّ عَرَفَ الصَّوَابَ ، وَرَأَى أَنَّ الْمَصْلَحَةَ أَوِ الْعَدْلَ فِي خِلَافِ مَا كَانَ يُرِيدُهُ أَوْ حَكَمَ بِهِ .

وَأَمَّا الْحَاكِمُ الْمُسْتَبِدُّ الظَّالِمُ فَإِنَّهُ يَقْبَلُ شَفَاعَةَ الْمُقَرَّبِينَ عِنْدَهُ فِي الشَّيْءِ ، وَهُوَ عَالِمٌ بِأَنَّهُ ظُلْمٌ وَأَنَّ الْعَدْلَ فِي خِلَافِهِ ، وَلَكِنَّهُ يُفَضِّلُ مَصْلَحَةَ ارْتِبَاطِهِ بِالشَّافِعِ الْمُقَرَّبِ مِنْهُ عَلَى الْعَدَالَةِ . وَكُلٌّ مِنَ النَّوْعَيْنِ مُحَالٌ عَلَى اللهِ – تَعَالَى – ؛ لِأَنَّ إِرَادَتَهُ – تَعَالَى – عَلَى حَسَبِ عِلْمِهِ ، وَعِلْمُهُ أَزَلِيٌّ لَا يَتَغَيَّرُ .

(قَالَ شَيْخُنَا) : فَمَا وَرَدَ فِي إِثْبَاتِ الشَّفَاعَةِ يَكُونُ عَلَى هَذَا مِنَ الْمُتَشَابِهَاتِ وَفِيهِ يَقْضِي مَذْهَبُ السَّلَفِ بِالتَّفْوِيضِ وَالتَّسْلِيمِ ، وَأَنَّهَا مَزِيَّةٌ يَخْتَصُّ اللهُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ

يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، عَبَّرَ عَنْهَا بِهَذِهِ الْعِبَارَةِ " الشَّفَاعَةُ " وَلَا نُحِيطُ بِحَقِيقَتِهَا مَعَ تَنْزِيهِ اللهِ جَلَّ جَلَالُهُ عَنِ الْمَعْرُوفِ مِنْ مَعْنَى الشَّفَاعَةِ فِي لِسَانِ التَّخَاطُبِ الْعُرْفِيِّ .

(144/50)

وَأَمَّا مَذْهَبُ الْخَلَفِ فِي التَّأْوِيلِ فَلَنَا أَنْ نَحْمِلَ الشَّفَاعَةَ فِيهِ عَلَى أَنَّهَا دُعَاءٌ يَسْتَجِيبُهُ اللهُ – تَعَالَى . وَالْأَحَادِيثُ الْوَارِدَةُ فِي الشَّفَاعَةِ تَدُلُّ عَلَى هَذَا ، فَفِي رِوَايَةِ الصَّحِيحَيْنِ وَغَيْرِهِمَا أَنَّ النَّبِيَّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يَسْجُدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيُثْنِي عَلَى اللهِ – تَعَالَى – بِثَنَاءٍ يُلْهِمُهُ يَوْمَئِذٍ فَيُقَالُ لَهُ : (ارْفَعْ رَأْسَكَ وَسَلْ تُعْطَهُ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ) وَلَيْسَ فِي الشَّفَاعَةِ بِهَذَا الْمَعْنَى أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ يَرْجِعُ عَنْ إِرَادَةٍ كَانَ أَرَادَهَا لِأَجْلِ الشَّافِعِ وَإِنَّمَا هِيَ إِظْهَارُ كَرَامَةٍ لِلشَّافِعِ بِتَنْفِيذِ الْإِرَادَةِ الْأَزَلِيَّةِ عُقَيْبَ دُعَائِهِ ، وَلَيْسَ فِيهَا أَيْضًا مَا يُقَوِّي غُرُورَ الْمَغْرُورِينَ اللَّذِينَ يَتَّكِلُونَ بِأَوَامِرِ الدِّينِ وَنَوَاهِيهِ اعْتِمَادًا عَلَى شَفَاعَةِ الشَّافِعِينَ ، بَلْ فِيهِ أَنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ ، وَأَنَّهُ لَا يَنْفَعُ أَحَدًا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا طَاعَتُهُ وَرِضَاهُ (فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ) (74 : 48 ، 49) وَ(وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى) (21 : 28) . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير المنار حـ 1 صـ 251. 256 ﴾

(145/50)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (48) ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْماً ﴾ يذكرهم بهذا اليوم . وهو يوم القيامة الذي لا ينفع الإنسان فيه إلا عمله . ويطلب الحق سبحانه وتعالى منهم أن يجعلوا بينهم وبين صفات الجلال لله تعالى في ذلك اليوم وقاية .

إن هناك آية أخرى تقول : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْماً لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ [البقرة : 123]

وهذه الآية وردت مرتين . وصدر الآيتين متفق . ولكن الآية الأولى تقول : ﴿ وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴾ والآية الثانية : ﴿ وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ هل هذا تكرار ؟ نقول لا . والمسألة تحتاج إلى فهم .

فالآيتان متفقتان في مطلعهما : في قوله تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْماً لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً ﴾ .

ففي الآية الأولى قدم الشفاعة وقال : لا يقبل . والثانية أخر الشفاعة وقال لا تنفع .

الشفاعة في الآية الأولى مقدمة . والعدل متأخر ، وفي الآية الثانية العدل مقدم والشفاعة مؤخرة . . وفي الآية الأولى لا يقبل منها شفاعة . وفي الآية الثانية . . لا تنفعها شفاعة .

والمقصود بقوله تعالى : ﴿ اتَّقُواْ يَوْماً ﴾ هو يوم القيامة الذي قال عنه سبحانه وتعالى : ﴿ يَوْمَ لاَ تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴾ [الانفطار : 19]

(146/50)

وقوله تعالى : ﴿ لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً ﴾ كم نفسا هنا ؟ إنهما اثنتان . نفس عن نفس . هناك نفس أولى ونفس ثانية . فما هي النفس الأولى ؟ النفس الأولى هي الجازية . والنفس الثانية . . هي المجزي عنها . . ومادام هناك نفسان فقوله تعالى : ﴿ لاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ ﴾ هل من النفس الأولى أو الثانية ؟

إذا نظرت إلى المعنى فالمعنى أنه سيأتي إنسان صالح في يوم القيامة ويقول يا رب أنا سأجزي عن فلان أو أغني عن فلان أو أقضي حق فلان . النفس الأولى أي النفس الجازية تحاول أن تتحمل عن النفس المجزي عنها .

ولكي نقرب المعنى ولله المثل الأعلى نفترض أن حاكما غضب على أحد من الناس وقرر أن ينتقم منه أبشع انتقام . يأتي صديق لهذا الحاكم ويحاول أن يجزي عن المغضوب عليه .

فبما لهذا الرجل من منزلة عند الحاكم يحاول أن يشفع للطرف الثالث . وفي هذه الحالة إما أن يقبل شفاعته أو لا يقبلها . فإذا لم يقبل شفاعته فإنه سيقول للحاكم أنا سأسدد ما عليه . . أي سيدفع عنه فدية ، ولا يتم ذلك إلا إذا فسدت الشفاعة .

فإذا كانت المسألة وفي يوم القيامة ومع الله سبحانه وتعالى . . يأتي إنسان صالح ليشفع عند الله تبارك وتعالى لإنسان أسرف على نفسه . فلابد أن يكون هذا الإنسان المشفع من الصالحين حتى تقبل شفاعته عند الحق جل جلاله .

واقرأ قوله سبحانه : ﴿ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِه ﴾ [البقرة : 255]

وقوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾ [الأنبياء : 28]

والإنسان الصالح يحاول أن يشفع لمن أسرف على نفسه فلا تقبل شفاعته ولا يؤخذ منه عدل ولا يسمح لها بأي مساومة أخرى . إذن لا يتكلم عن العدل في الجزاء إلا إذا فشلت الشفاعة .

هنا الضمير يعود إلى النفس الجازية . أي التي تتقدم للشفاعة عند الله . فيقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ لاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ ﴾ فلا يقبل منها أي مساومة أخرى . ويقول سبحانه : ﴿ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ ﴾ . وهذا ترتيب طبيعي للأحداث .

في الآية الثانية يتحدث الله تبارك وتعالى عن النفس المجزي عنها قبل أن تستشفع بغيرها وتطلب منه أن يشفع لها . لابد أن تكون قد ضاقت حيلها وعزت عليها الأسباب . فيضطر أن يذهب لغيره . وفي هذا اعتراف بعجزه . فيقول يا رب ماذا أفعل حتى أكفر عن ذنوبي فلا يقبل منه . فيذهب إلى من تقبل منهم الشفاعة فلا تقبل شفاعتهم .

وإذا أردنا أن نضرب لذلك مثلا من القرآن الكريم فاقرأ قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾[السجدة : 12]

هؤلاء هم الذين يطلبون العدل من الله . بأن يعيدهم إلى الدنيا ليكفروا عن سيئاتهم . ويعملوا عملا صالحا ينجيهم من العذاب . ذلك أن الحسنات يذهبن السيئات . .

فماذا كان رد الحق سبحانه وتعالى عليهم . قال جل جلاله : ﴿ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَاذَآ إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[السجدة : 14]

فهم عرضوا أن يكفروا عن سيئاتهم . بأن طلبوا العودة إلى الدنيا ليعملوا صالحا . فلم يقبل الله سبحانه وتعالى منهم هذا العرض . اقرأ قوله تبارك وتعالى : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ

يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ [الأعراف : 53]

(148/50)

لقد طلب هؤلاء الشفاعة أولا ولم تقبل . فدخلوا في حد آخر وهو العدل فلم يؤخذ مصداقا لقوله تعالى : ﴿ وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ ﴾ . . وهكذا نرى الاختلاف في الآيتين . فليس هناك تكرار في القرآن الكريم . .

ولكن الآية التي نحن بصددها تتعلق بالنفس الجازية . أو التي تريد آن تشفع لمن أسرف على نفسه : ﴿ وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ ﴾ . والآية الثانية : ﴿ لاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ ﴾ . أي أن الضمير هنا عائد على النفس المجزي عنها . فهي تقدم العدل أولا : ﴿ ارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً ﴾ فلا يقبل منها ، فتبحث عن شفعاء فلا تجد ولا تنفعها شفاعة .

وهذه الآيات التي أوردناها من القرآن الكريم كلها تتعلق بيوم القيامة .

على أن هناك مثلا آخر في قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُمْ مِّنْ إِمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ

﴾[الأنعام: 151]

والآية الثانية في قوله سبحانه: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ

﴾[الإسراء: 31]

(149/50)

يقول بعض الناس إن "نرزقكم" في الآية الأولى "ونرزقهم" في الآية الثانية من جمال الأسلوب. نقول لا. قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِّنْ إِمْلَاقٍ ﴾ أي من فقر موجود. ومادام الفقر موجودا فالإنسان لا يريد أولادا ليزداد فقره. ولذلك قال له الحق سبحانه وتعالى: ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾. أي أن مجيء الأولاد لن يزيدكم فقرا. لأن لكم رزقكم ولهم رزقهم. وليس معنى أن لهم رزقهم أن ذلك سينقص من رزقكم.. فللأب رزق وللولد رزق. أما في الآية الثانية: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ ﴾ فكأن الفقر غير موجود. ولكنه يخشى أن رزق بأولاد بأنه الفقر. يقول له الحق: ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾. أي أن رزقهم سيأتيهم قبل رزقكم.

فعندما تقرأ قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ اتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا ﴾ مكررة في الآيتين لا تظن أن هذا تكرار. لأن إحداهما ختامها: ﴿ لَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا

يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ ﴾ . والثانية : ﴿ لاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ ﴾ . فالضمير مختلف في الحالتين . مرة يرجع إلى النفس الجازية فقدم الشفاعة وأخر العدل . ولكن في النفس المجزي عنها يتقدم العدل وبعد ذلك الشفاعة .

الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَاخْشَوْاْ يَوْماً لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلاَ مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئاً ﴾ [لقمان : 33]

أي أن الإنسان لا يمكن أن يجزى عن إنسان مهما بلغت قرابته . . لا يجزى الولد عن أمه أو أبيه . أو يجزى الوالد عن أولاده . واقرأ قوله تبارك وتعالى : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِىءٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ [عبس : 34-37]

(150/50)

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ لاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ ﴾ : ﴿ لاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ ﴾ . العدل هو المقابل . كأن يقول المسرف على نفسه يا رب فعلت كذا وأسرفت على نفسي فأعدني إلى الدنيا أعمل صالحا . وكلمة العدل مرة تأتي بكسر العين وهي مقابل الشيء من جنسه . أي أن يعدل القماش قماش مثله ويعدل الذهب ذهب مثله . وعدل بفتح العين

مقابل الشيء ولكن من غير جنسه . والعدل معناه الحق والعدل لا يكون إلا بين خصمين . ومعناه الإنصاف ومعناه الحق . والحق هو الشيء الثابت الذي لا يتغير . وأنك لا تتحيز لجهة على حساب جهة أخرى . ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما كان يجلس مع أصحابه يوزع نظره إلى كل الجالسين . . حتى لا يقال أنه مهتم بواحد منهم عن الآخر .

ولابد أن نعرف ما هي النفس .

كلمة النفس إذا وردت في القرآن الكريم . فافهم أن لها علاقة بالروح . حينما تتصل الروح بالمادة وتعطيها الحياة توجد النفس . المادة وحدها قبل أن تتصل بها الروح تكون مقهورة ومنقادة مسبحة لله . فلا تقل الحياة الروحية والحياة المادية . لأن الروح مسبحة والمادة مسبحة . ولكن عندما تلتقي الروح بالمادة وتبدأ الحياة وتتحرك الشهوات يبدأ الخلل . والموت يترتب عليه خروج الروح من الجسد . الروح تذهب إلى عالمها التسخيري . والمادة تذهب إلى عالمها التسخيري . وذلك يجعلنا نفهم قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النور : 24]

لماذا تشهد ؟ لأنها لم تعد مسخرة للإنسان تتبع أوامره في الطاعة والمعصية . فحواسك مسخرة لك بأمر الله في الحياة الدنيا وهي مسبحة وعابدة . فإذا أطاعتك في معصية فإنها

تلعنك لأنك أجبرتها على المعصية فتأتي يوم القيامة وتشهد عليك . والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ [الشمس : 7-8]

(151/50)

ولقد شاع عند الناس لفظ الحياة المادية والحياة الروحية . لأن الحياة الروحية تختلف عن الروح التي في جسدك . وهي تنطبق على الملائكة مصداقا لقوله تعالى : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ﴾ [الشعراء : 193]

وقوله جل جلاله : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ [الشورى : 52]

هذه هي الروح التي فيها النقاء والصفاء . وقوله تعالى : ﴿ وَلاَ هُمْ يُنْصَرُونَ ﴾ . أي أن الله سبحانه وتعالى إذا أقضى عليهم العذاب لا يستطيع أحد نصرهم أو وقف عذابهم . لا يمكن أن يحدث هذا . لأن الأمر كله لله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 316 ﴿ 322.

(152/50)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (48) ﴾

العوام خوَّفهم بأفعاله فقال : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْماً ﴾ " واتقوا النار " .

والخواص خوَّفهم بصفاته فقال : ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ﴾ [التوبة : 105] وقال : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ ﴾ إلى قوله : ﴿ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا ﴾ [يونس : 61] .

وخاص الخاص خوَّفهم بنفسه فقال : ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ ﴾ [آل عمران : 28] .

والعدل : الفداء .

يوم القيامة لا تسمع الشفاعة إلا لمن أمر الحق بالشفاعة له ، وأَذِنَ فيه ، فهو الشفيع الأكبر – على التحقيق – وإن كان لا يطلق عليه لفظ الشفيع لعدم التوقيف . وفي معناه قيل :

الحمد لله شكرا . . . فكلُّ خيرٍ لديه

صار الحبيب شفيعاً . . . إلى شفيع إليه

والذين أصابتهم نكبة القسمة لا تنفعهم شفاعة الشافعين ، وما لهم من ناصرين ، فلا يُقْبَل

منهم فداء ، ولو افتدوا بملء السموات وملء الأرضين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 89.88 ﴾

(153/50)

ومن فوائد العلامة الزمخشرى فى الآيات

قال رحمه الله :

﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (44) ﴾

أَتَأْمُرُونَ الهمزة للتقرير مع التوبيخ والتعجيب من حالهم . والبرّ سعة الخير والمعروف . ومنه البر لسعته ، ويتناول كل خير . ومنه قولهم : صدقت وبررت . وكان الأحبار يأمرون من نصحوه في السر من أقاربهم وغيرهم باتباع محمد صلى اللَّه عليه وسلم ولا يتبعونه . وقيل كانوا يأمرون بالصدقة ولا يتصدّقون ، وإذا أتوا بصدقات ليفرّقوها خانوا فيها . وعن محمد بن واسع : بلغني أنّ ناسا من أهل الجنة اطلعوا على ناس من أهل النار فقالوا لهم : قد كنتم تأمروننا بأشياء عملناها فدخلنا الجنة . قالوا كنا نأمركم بها ونخالف إلى غيرها وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وتتركونها من البر كالمنسيات وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ تبكيت مثل قوله : (وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) يعنى تتلون التوراة وفيها نعت محمد صلى اللَّه عليه وسلم ، أو فيها الوعيد

على الخيانة وترك البر ومخالفة القول العمل أَفَلا تَعْقِلُونَ توبيخ عظيم بمعنى : أفلا تفطنون لقبح ما أقدمتم عليه حتى يصدكم استقباحه عن ارتكابه ، وكأنكم في ذلك مسلوبو العقول ، لأن العقول تأباه وتدفعه . ونحوه (أُفٍّ لَكُمْ وَلِما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ) .

وَاسْتَعِينُوا على حوائجكم إلى اللَّه بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ أى بالجمع بينهما ، وأن تصلوا صابرين على تكاليف الصلاة ، محتملين لمشاقها وما يجب فيها - من إخلاص القلب ، وحفظ النيات ، ودفع الوساوس

(154/50)

ومراعاة الآداب ، والاحتراس من المكاره مع الخشية والخشوع ، واستحضار العلم بأنه انتصاب بين يدي جبار السموات ، ليسأل فك الرقاب عن سخطه وعذابه . ومنه قوله تعالى :

(وأْمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها) أو : واستعينوا على البلايا والنوائب بالصبر عليها والالتجاء إلى الصلاة عند وقوعها . وكان رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم «إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة» «1» وعن ابن عباس أنه نعى إليه أخوه «قثم» وهو في سفر ، فاسترجع وتنحى عن الطريق فصلى ركعتين أطال فيهما الجلوس ، ثم قام يمشى إلى راحلته وهو يقول :

واستعينوا بالصبر والصلاة» «2» وقيل : الصبر الصوم ، لأنه حبس عن المفطرات . ومنه قيل لشهر رمضان :

شهر الصبر . ويجوز أن يراد بالصلاة الدعاء ، وأن يستعان على البلايا بالصبر ، والالتجاء إلى الدعاء ، والابتهال إلى اللَّه تعالى في دفعه وَإِنَّها الضمير للصلاة أو للاستعانة . ويجوز أن يكون لجميع الأمور التي أمر بها بنو إسرائيل ونهوا عنها من قوله : (اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ) إلى (وَاسْتَعِينُوا) . لَكَبِيرَةٌ لشاقة ثقيلة من قولك : كبر عليّ هذا الأمر ، (كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ما تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ) . فإن قلت : مالها لم تثقل على الخاشعين والخشوع في نفسه مما يثقل ؟ قلت : لأنهم يتوقعون ما ادّخر للصابرين على متاعبها فتهون عليهم . ألا ترى إلى قوله تعالى : الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ أى يتوقعون لقاء ثوابه ونيل ما عنده ، ويطمعون فيه . وفي مصحف عبد اللَّه : يعلمون . ومعناه : يعلمون أن لا بد من لقاء الجزاء فيعملون على حسب ذلك . ولذلك فسر «يظنون» بيتيقنون . وأما من لم يوقن بالجزاء ولم يرج الثواب ، كانت عليه مشقة خالصة فثقلت عليه كالمنافقين والمراءين بأعمالهم . ومثاله من وعد على بعض الأعمال والصنائع أجرة زائدة على مقدار عمله ، فتراه يزاوله برغبة ونشاط وانشراح صدر ومضاحكة لحاضريه ، كأنه يستلذ مزاولته بخلاف حال عامل يتسخره بعض الظلمة . ومن ثمّ قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وآله وسلم «وجعلت قرّة عيني في الصلاة» «3» وكان يقول «يا بلال

(1) . أخرجه الطبري في تفسيره من حديث حذيفة بهذا اللفظ . فأخرجه أبو داود وأحمد من رواية عبد العزيز أخى حذيفة عن حذيفة بلفظ «كان إذا حزبه أمر صلى» . وأخرجه البيهقي في الدلائل في قصة الخندق مطولا .

(2) . موقوف . أخرجه سعيد بن منصور . والطبري من طريق عيينة بن عبد الرحمن عن أبيه «أن ابن عباس . . . فذكره» . وأخرجه البيهقي في الشعب من هذا الوجه

(3) . أخرجه النسائي والحاكم وأحمد وابن أبى شيبة والبزار من حديث أنس رضى اللَّه عنه ، قال : قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم «حبب إلى من الدنيا النساء والطيب وجعلت قرة عينى في الصلاة» وسيأتى في آل عمران .

(155/50)

روّحنا» «1» والخشوع . الإخبات والتطامن . ومنه : الخشعة للرملة المتطامنة . وأما الخضوع فاللين والانقياد . ومنه : خضعت بقولها إذا لينته .

[سورة البقرة (2) : الآيات 47 إلى 48]

يا بَنِي إِسْرائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعالَمِينَ (47) وَاتَّقُوا

يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلا يُقْبَلُ مِنْها شَفاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْها عَدْلٌ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ (48)

وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ نصب عطف على : (نِعْمَتِيَ) أى اذكروا نعمتي وتفضيلي عَلَى الْعالَمِينَ على الجم الغفير من الناس ، كقوله تعالى : (بارَكْنا فِيها لِلْعالَمِينَ) يقال : رأيت عالما من الناس يراد الكثرة يَوْماً يريد يوم القيامة لا تَجْزِي لا تقضى عنها شيئا من الحقوق . ومنه الحديث في جذعة بن نيار : «تجزى عنك ولا تجزى عن أحد بعدك» «2» وشَيْئاً مفعول به ويجوز أن يكون في موضع مصدر ، أى قليلا من الجزاء ، كقوله تعالى : (وَلا يُظْلَمُونَ شَيْئاً) ومن قرأ (لا تجزئ) من أجزأ عنه إذا أغنى عنه ، فلا يكون في قراءته إلا بمعنى شيئا من الإجزاء . وقرأ أبو السرار الغنوي : لا تجزى نسمة عن نسمة شيئا . وهذه الجملة منصوبة المحل صفة ليوما . فإن قلت : فأين العائد منها إلى الموصوف ؟ قلت : هو محذوف تقديره : لا تجزى فيه . ونحوه ما أنشده أبو على :

تَرَوَّحِي أَجْدَرُ أَنْ تَقِيلِي «3»

---

(1) . أخرجه أبو داود من رواية سالم بن أبى الجعد . قال : قال رجل من خزاعة سمعت النبي صلى اللَّه عليه وسلم يقول : «يا بلال أقم الصلاة وأرحنا بها» ورجاله ثقات : لكن اختلف فيه على سالم اختلافا كثيراً . ذكره الدارقطني في العلل . ورواه أحمد من رواية سالم المذكور عن رجل من أسلم به . ورواه أحمد أيضا وأبو داود من وجه آخر عن سالم

«أن محمد بن الحنفية قال : دخلت مع أبى على صهر لنا من الأنصار . فحضرت الصلاة ، فذكر قصة .

وفيها . أقم يا بلال ، فأرحنا بالصلاة» أخرجه الدارقطني في العلل من رواية سالم عن ابن الحنفية عن على رضى اللَّه عنه . وقال : تفرد أبو خالد القرى عن الثوري هكذا ومن طريق حمزة الثمالي عن ابن الحنفية عن بلال . وأخرجه ابراهيم الحربي من رواية سالم عن ابن الحنفية مرسلا . وقال : معناه : نصلى ونروح إلى منازلنا . وليس من الاستراحة والأثقال وإلا لقال أرحنا منها «انتهى» وبعسكر على هذا أن في رواية أحمد : أن الأنصارى قال يا جارية . ايتيني بوضوئى لعلى أصلى فأستريح .

(2) . متفق عليه من حديث البراء رضى اللَّه عنه . قال «ضحى خال لي يقال له أبو بردة بن نيار – فذكر الحديث»

(3) تروحي يا خيرة الغسيل تروحى أجدر أن تقيلى

غدا بجنبي بارد ظليل

لأبى على أحيحة بن الجلاح . يقول لناقته : بكرى بالرواح : أو جدي السير فيه . والغسيل : صنوان النخل . شبه ناقته بالمختار منه لعراقتها في الكرم وارتفاعها . وكرر الأمر للتوكيد . هذا ويقال : تروح النبت إذا طال .

فتروحى : أى امتدى وارتفعى . والخطاب لعنعار النخل لا للناقة قاله العيني مخالفا جميع

الشراح لهذا الرجز . وقد يؤكده أنه روى بدل «تروحى» الأول «تأبرى» والتأبير : وضع طلع الذكور من النخل في الإناث لتنمو ثمرتها ويمكن أن يقال : إنه ترشيح للتشبيه . والظاهر أنه انتقل من رجز إلى آخر لأحيحة ، فقد روى عنه :

تأبرى يا خيرة الغسيل تأبرى من حنذ فشولى

إذ ضن أهل النخل بالفحول

هذا هو خطاب الغسيل . وحنذ – بالتحريك – موضع قريب من المدينة . وقيل اسم قرية . وقيل اسم ماء . والمعنى :

أن ريح الصبا تهب من جهته فتحمل طلع الذكور منه إلى الإناث فيغنيها عن التأبير الصناعى . وشولى أى ارتفعى وامتدى ، أى تأبرى بنفسك ، حيث بخل أهل النخل بطلع الذكور التي تلقح الإناث . وأجدر : نصب بمحذوف ، أى وأتى مكانا أجدر وأحق بأن تقيلى فيه وتستريحي من السير . ويجوز نصبه بتروحي ، بتضمينه معنى اطلبى . فحذف باء الجر ولفظ فيه لعلمها . وغدا نصب بتقيلى ، بجنبي : أى في جنبي ، فهو بدل من فيه المحذوفة ، أى : في حافتي ماء بارد ظليل ، أى مظلل بالأشجار ، أو في جانبي مكان ذى ظل لا حر فيه . وحينئذ فالمعنى أجدر أن تقيلى بجانبيه ، فأظهر في محل الإضمار لإظهار صفة المكان . وأفعل التفضيل المجرد إن لم تتصل به «من» لفظا فهي متصلة به تقديراً ، على أن محل ذلك إذا أريد به التفضيل على معين . والظاهر أن أجدر هنا ليس كذلك ، فلا

حاجة لتقديرها . ويجوز أن يكون أجدر فعلا ماضياً أى دخل في الجدارة والحقية «أن تقيلى» أى حقت ووجبت قيلولتك ، فلا حذف أصلا .

وقال العيني : يجوز أن يكون بارد ظليل على حذف حرف العطف للضرورة ، أى بجنب بارد وجنب ظليل .

(156/50)

أى ماء أجدر بأن تقيلى فيه . ومنهم من ينزل فيقول : اتسع فيه ، فأجرى مجرى المفعول به فحذف الجار ثم حذف الضمير كما حذف من قوله : أم مال أصابوا . ومعنى التنكير أن نفسا من الأنفس لا تجزى عن نفس منها شيئا من الأشياء ، وهو الإقناط الكلى القطاع للمطامع .

وكذلك قوله : وَلا يُقْبَلُ مِنْها شَفاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْها عَدْلٌ أى فدية لأنها معادلة للمفدى . ومنه الحديث «لا يقبل منه صرف ولا عدل» «1» أى توبة ولا فدية . وقرأ قتادة : ولا يقبل منها شفاعة ، على بناء الفعل للفاعل وهو اللَّه عز وجل ، ونصب الشفاعة . وقيل : كانت اليهود تزعم أن آباءهم الأنبياء يشفعون لهم فأويسوا . فإن قلت : هل فيه دليل على أنّ الشفاعة لا تقبل للعصاة «2» ؟ قلت : نعم ، لأنه نفى أن تقضى نفس عن نفس حقاً

أخلت به من فعل

---

(1) . متفق عليه من حديث على رضى اللَّه عنه رفعه «المدينة حرم ما بين عائر إلى كذا ، فمن أحدث حدثا أو آوى محدثا فعليه لعنة اللَّه والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل منه صرف ولا عدل – الحديث» ورواه عبد الرزاق وقال في آخره : والصرف والعدل : التطوع والفريضة . واتفقا عليه من حديث أنس نحوه . ولمسلم من حديث أبى صالح عن أبى هريرة رفعه : «بالمدينة حرم ، فمن أحدث – فذكره» وغفل الطيبي فعزاه لأبى داود من حديث أبى هريرة رضى اللَّه عنه ، بلفظ «من تعلم صرف الكلام ليسبى به قلوب الناس لم يقبل اللَّه منه يوم القيامة صرفا ولا عدلا» .

(2) . قال محمود رحمه اللَّه : «هل فيه دليل على أن الشفاعة لا تقبل للعصاة . . . الخ» ؟ قال أحمد رحمه اللَّه : أما من جحد الشفاعة فهو جدير أن لا ينالها . وأما من آمن بها وصدقها وهم أهل السنة والجماعة ، فأولئك يرجون رحمة اللَّه . ومعتقدهم أنها تنال العصاة من المؤمنين ، وإنما ادخرت لهم . وليس في الآية دليل لمنكريها ، لأن قوله يوما أخرجه منكرا ، ولا شك أن في القيامة مواطن ، ويومها معدود بخمسين ألف سنة ، فبعض أوقاتها ليس زمانا للشفاعة وبعضها هو الوقت الموعود وفيه المقام المحمود لسيد البشر عليه أفضل الصلاة والسلام . قد وردت آي كثيرة ترشد إلى تعدد أيامها واختلاف أوقاتها . منها قوله تعالى : (فَلا أَنْسابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَساءَلُونَ) مع قوله : (وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ

يَتَساءَلُونَ) فيتعين حمل الآيتين على يومين مختلفين ، متغايرين : أحدهما محل للتساؤل والآخر ليس محلا له ، وكذلك الشفاعة ، وأدلة ثبوتها لا تحصى كثرة ، رزقنا اللَّه الشفاعة وحشرنا في زمرة أهل السنة والجماعة

(157/50)

أو ترك ، ثم نفى أن يقبل منها شفاعة شفيع فعلم أنها لا تقبل للعصاة . فإن قلت : الضمير في (وَلا يُقْبَلُ مِنْها) إلى أى النفسين يرجع ؟ قلت : إلى الثانية العاصية غير المجزى عنها ، وهي التي لا يؤخذ منها عدل . ومعنى لا يقبل منها شفاعة : إن جاءت بشفاعة شفيع لم يقبل منها .

ويجوز أن يرجع إلى النفس الأولى ، على أنها لو شفعت لها لم تقبل شفاعتها ، كما لا تجزى عنها شيئا ، ولو أعطت عدلا عنها لم يؤخذ منها وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ يعنى ما دلت عليه النفس المنكرة من النفوس الكثيرة والتذكير بمعنى العباد والأناسى ، كما تقول : ثلاثة أنفس . انتهى انتهى . اهـ ﴿الكشاف حـ 1 صـ 133. 137﴾

(158/50)

وقال الإمام نظام الدين النيسابوري في الآيتين :

﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (47) وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (48) ﴾

التفسير : إنما أعاد سبحانه هذا الكلام مرة أخرى توكيداً للحجة وتحذيراً من ترك اتباع صلى الله عليه وسلم ، كأنه قال : إن لم تطيعوني لأجل سوالف نعمتي عليكم فأطيعوني للخوف من عقابي في المستقبل . والمراد بالعالمين ههنا الجم الغفير من الناس كقوله ﴿ باركنا فيها للعالمين ﴾ [الأنبياء : 71] .

(159/50)

ويقال : رأيت عالماً من الناس . يراد الكثرة بقرينة العلم بأنه لم ير كل الناس ، ويمكن أن يكون المراد فضلتكم على عالمي زمانكم ، لأن الشخص الذي سيوجد بعد ذلك لا يكون من جملة العالمين . ويحتمل أن يكون لفظ ﴿ العالمين ﴾ عاماً للموجودين ولمن سيوجد لكنه مطلق في الفضل ، والمطلق يكفي في صدقه صورة واحدة . فالآية تدل على أنهم فضلوا

على كل العالمين في أمر ما ، وهذا لا يقتضي أن يكونوا أفضل من كل العالمين في كل الأمور ، فلعل غيرهم يكون أفضل منهم في أكثرها . وقيل : الخطاب لمؤمني بني إسرائيل لأن عصاتهم مسخوا قردة وخنازير ، وفي جميع ما يخاطب الله تعالى بني إسرائيل تنبيه للعرب لأن الفضيلة بالنبي قد لحقتهم . وجميع أقاصيص الأنبياء تنبيه وإرشاد ﴿ لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ﴾ [يوسف : 111] . روي عن قتادة قال : ذكر لنا أن عمر بن الخطاب كان يقول : قد مضى والله بنو إسرائيل وما يعني بما تسمعون غيركم . واتقاء اليوم هو اتقاء ما يحصل في ذلك اليوم من الشدائد والأهوال ، لأن نفس اليوم لا يتقى . وقوله ﴿ لا تجزي ﴾ إلى آخر الآية . الجمل منصوبات المحل صفات متعاقبة لليوم ، والراجع منها إلى الموصوف محذوف تقديره : لا تجزي فيه . ومنهم من يقول : اتسع فيه فأجرى مجرى المفعول به فحذف الجار وهو " في " فبقي لا تجزيه ، ثم حذف الضمير كما حذف في قوله " أم مال أصابوا " قال :

فما أدري أغيرهم تناء . . . وطول العهد أم مال أصابوا

(160/50)

أي أصابوه . ولا يخفى أن هذا التكلف لا يتمشى في سائر الجمل ، بل يتعين تقدير الجار والمجرور العائد . ومعنى لا تجزي لا تقضي عنها شيئاً من الحقوق ، ومنه الحديث في الجذعة التي ضحاها ابن نيار قبل الوقت " تجزي عنك ولا تجزي عن أحد بعدك " و ﴿ شيئاً ﴾ مفعول به ، ويجوز أن يكون في موضع مصدر أي قليلاً من الجزاء مثل " ولا تظلمون شيئاً " . ومعنى تنكير النفس أن نفساً من الأنفس لا تجزي عن نفس منها شيئاً من الأشياء وهو الإقناط الكلي القاطع للمطامع . وكذلك قوله ﴿ ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ﴾ أي فدية لأنها معادلة للمفدى .

(161/50)

وفي الحديث " ولا يقبل منه صرف ولا عدل " أي توبة ، لأنها تصرف من الحال الذميمة إلى الحال الحميدة ولا فداء . والضمير في ﴿ ولا يقبل منها ﴾ يرجع إلى النفس الثانية العاصية غير المجزي عنها وهي التي لا يؤخذ منها عدل . ومعنى لا تقبل منها شفاعة أنها إن جاءت بشفاعة شفيع لم يقبل منها ، ويجوز أن يرجع إلى النفس الأولى على أنها لو شفعت لها لم تقبل شفاعتها ، كما لا تجزي عنها شيئاً ولو أعطت عدلاً منها لم يؤخذ منها ولا هم ينصرون ، الضمير عائد إلى ما دلت عليه النفس المنكرة من النفوس الكثيرة ، والتذكير بمعنى العباد أو

الأناسي مثل ثلاثة أنفس . وفي وصف اليوم بهذه الصفات تهويل عظيم تنبيه على أن الخطب شديد ، لأنه إذا وقع أحد في كريهة وحاولت أعزته دفاع ذلك عنه ، بدأت بما في نفوسها الأبية من مقتضى الحمية ، فتحمل عنه ما يلزمه وتذب عنه كما يذب الوالد عن ولده بغاية قوّته ونهاية بطشه . فإن رأى من لا طاقة له بمانعته عاد بوجوه الضراعة وصنوف الشفاعة وبذل المال والمنال ، فحاول بالملاينة ما قصر عنه بالمخاشنة ، فإن لم تغن هذه الأمور تعلل بما أمكنه من نصر الإخوان ومدد الأخدان ، فأخبر الله تعالى أن شيئاً من هذه لا يدفع يومئذ عن عذابه . وفي هذا تحذير من المعاصي وترغيب في تلافي ما فات بالتوبة ، لأنه إذا تصور أنه ليس بعد الموت استدراك ولا شفاعة ولا نصرة ولا فدية ، علم أنه لا ينفعه إلا الطاعة وتلافي البوادر . فالآية وإن كانت في بني إسرائيل إلا أنها تعم كل من يحضر ذلك اليوم . فإن قيل : قدم في هذه الآية قبول الشفاعة على أخذ الدية ، وفي موضع آخر من هذه السورة عكست القضية ، فما الحكمة في ذلك ؟ قلنا : من الناس من ميله إلى حب المال أشدّ من ميله إلى علو النفس فيتمسك أوّلاً بالشفيع ثم يستروح إلى بذل المال ، ومنهم من على العكس فيقدم الفدية على الشفاعة ، فتغيير الترتيب إشارة إلى الصنفين والله أعلم .

(162/50)

واعلم أن الشفاعة هي أن يستوهب أحد لأحد شيئاً ويطلب له حاجة من الشفع ضد الوتر ، كأن صاحب الحاجة كان فرداً فصار بالشفيع شفعاً . ثم إن الأمة أجمعت على أن لمحمد صلى الله عليه وسلم رتبة الشفاعة في الآخرة ، وعليه يحمل قوله تعالى ﴿ عسى أن يبعثك ربك مقاما محموداً ﴾ [الإسراء : 79] ﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ [الضحى : 5] . وأجمعوا على أنه لا شفاعة للكفار . بقي الخلاف فيمن عداهم . فأهل السنة أثبتوا الشفاعة لغير الكفار ، والمعتزلة على أن صاحب الكبيرة إذا لم يتب بقي خالداً في النار ولا شفاعة له وسائر الناس لهم الشفاعة . قالوا : إن هذه الآية تدل على نفي الشفاعة مطلقاً ، والآيات والأحاديث الدالة على وجود الشفاعة كثيرة ، فعرفنا أن الآية ليست على عمومها ، لكن الآيات الواردة في وعيد صاحب الكبيرة كثيرة كقوله تعالى

(163/50)

﴿ ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها ﴾ [الجن : 23] فخرج غير صاحب الكبيرة وبقيت الآية حجة في الكفار وفي صاحب الكبيرة . وزعم أهل السنة أن اليهود كانوا يدعون أن آباءهم الأنبياء يشفعون لهم فأويسوا من ذلك . وأجيب بأن العبرة

بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، وسوف يجيء سائر حجج الفريقين في الآيات المناسبة إن شاء الله تعالى . وقالت الفلاسفة في تحقيق الشفاعة : إن واجب الوجود عام الفيض والنقصان من القابل ، وجائز أن لا يكون الشيء مستعداً لقبول الفيض من واجب الوجود إلا أن يكون مستعداً لقبول ذلك الفيض من شيء قبله عن واجب الوجود ، فيكون ذلك الشيء متوسطاً بين الواجب . وذلك الشيء مثاله في المحسوس الشمس ، فإنها لا تضيء إلا القابل المقابل ، والسقف لما لم يكن مقابلاً لم يكن مستعداً لقبول النور منها ، لكنه لو وضع طست مملوء من الماء الصافي انعكس منه الضوء إلى السقف . فأرواح الأنبياء كالوسائط بين واجب الوجود وبين أرواح عوام الخلق كالماء بين الشمس وبين السقف ، وهذا يدل على أنه لا واسطة بين الله تعالى وبين عباده أشرف من نبينا محمد صلى الله عليه وسلم حيث إنه لا شفاعة إلا له . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 1 صـ 279. 281 ﴾

(164/50)

قوله تعالى ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (49) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما وصف ذلك اليوم بأنه لا ينفع فيه حيلة لذي ملكة المتردي بالكبرياء المتجلل بالعظمة ذكرهم بما أنعم عليهم من إنجائه لهم بموسى وهارون عليهما السلام حيث شفعا عند الملك الذي كان استعبدهم وسامهم سوء العذاب ، فلما لم يشفّعهما فيهم قاهراه فانتصرا عليه بأيد مليكهم واستنقذاهم منه بسطوة معبودهم .

وقال الحرالي : ولما استوفى خطاب النداء لهم وجهي التذكير بأصل فضيلة النفس الباطنة بالوفاء وغرض النفس

(165/50)

الظاهر في النعمة والرئاسة جاء ما بعد ذلك من تفاصيل النعم عطفاً من غير تجديد نداء إلى منتهى خاتمة الخطاب معهم حيث ثنى لهم الخطاب الأدنى بالتذكير بالنعمة ختماً لمتسق خطابه بما تضمنه تذكيرهم بتكرار قوله : وإذ وإذ ، واحدة بعد أخرى إلى جملة منها ، ولما ذكرهم بالنعمة الظاهرة فانتبه من تداركته الهداية وتمادى من استحق العقوبة ذكر أهل الاستحقاق بما عوقبوا به بما يستلزمه معنى النجاة وبما فسره مما أخذوا به على ذنوب تشاكل ما هم عليه في معاندتهم القرآن ، فحين لم ينفع فيهم التذكيران بالعهد والنعمة هددوا

بتقريرهم على مواقع ما أصيبوا به من البلاء من عدوهم لما اقترفوه من ذنوبهم ﴿ ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم في شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولاً ﴾ [غافر : 34] فكان في تكذيبهم بالرسالة الأولى وشكهم ما أصابهم من العقوبة من آل فرعون حتى أنقذهم الله بموسى عليه السلام فقال تعالى : ﴿ وإذ ﴾ أي واذكروا إذ ﴿ نجيناكم ﴾ وهو من التنجية وهي تكرار النجاة ، والنجاة معناه رفع على النجوة وهو المرتفع من الأرض الذي هو مخلص مما ينال من الوهاد وخبث الأرض من هلاك بسيل ماء ونحوه ﴿ من آل ﴾ آل الرجل من تبدو فيهم أحواله وأعماله وأفعاله حتى كأنهم هو في غيبه من معنى الآل الذي هو السراب الذي يظهر فيه ما بعد ويتراءى ما لم يكن يرى لولاه ، ﴿ فرعون ﴾ اسم ملك مصر في الجاهلية ، علم جنس لملوكها بمنزلة أسماء الأجناس في الحيوان وغيره – انتهى .

(166/50)

والمراد بالآل فرعون وأتباعه فإن الآل يطلق على الشخص نفسه وعلى أهله وأتباعه وأوليائه – قاله في القاموس ، قال : ولا يستعمل إلاّ فيما فيه شرف غالباً ثم بين ما أنجاهم منه بقوله : ﴿ يسومونكم سوء العذاب ﴾ سماه بذلك لأنه أشد البلاء على النفس لما فيه

من استحقارها ، من السوم وهو تعذيب بتهاون بالمعذب ، والسوم ما يشتد ، تنكر النفس له وتكرهها ، ثم فسر هذا بقوله ﴿ يذبحون ﴾ من التذبيح وهو تكرار الذبح ، والذبح قطع بالغ في العنق – قاله الحرالي .

ولما كان كل من ذبح الابن وحياة المرأة بغير رجل أفحش وكانت البنت إذا بقيت صارت امرأة عبر بالأبناء والنساء فقال ﴿ أبناءكم ﴾ أي سوقاً لكم مساق البهائم

﴿ ويستحيون ﴾ قال الحرالي : من الاستحياء وهو استبقاء الحياة ﴿ نساءكم ﴾ من معنى الاتخاذ للتأهل الملابس في معنى ما جرى منه اشتقاق الإنس والإنسان والنسوة باشتراكها في أحد الحروف الثلاثة من الهمزة أو الواو أو الياء مع اجتماعها في النون والسين – انتهى .

ثم نبههم على ما فيه من العظم بقوله ﴿ وفي ذلكم ﴾ فأشار بأداة البعد مقرونة بالميم ﴿ بلاء ﴾ أي اختبار ﴿ من ربكم ﴾ أي المحسن إليكم في حالي الشدة والرخاء ﴿ عظيم ﴾ قال الحرالي : البلاء الاختبار هو إبداء خبرة الشيء بشدة ومحنة ، وفيه إشعار باستحقاقهم ذلك واستصلاحهم بشدته دون ما هو أيسر منه ، وذكره بالعظم لشياعه في الأجسام والأنفس والأرواح ، وذكر معنى النجاة ثم فصله تفصيلاً لكيفيته بعد ذلك تعداداً لنعمة النجاة التي هي تلو رحمة الإنعام التي هي تلو رفعة التقدم بالعهد ، فانتهى الخطاب نهايته في المعنى يعني فلما قررهم تعالى على ما اقترفوه قبل موسى عليه السلام حين

أصابهم من آل فرعون ما أصابهم استجدّ لهم تذكيراً بنعمة نجاة من عقوبة متقدم أعمالهم - انتهى . انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 129 . 130 ﴾

وقال الفخر :

اعلم أنه تعالى لما قدم ذكر نعمه على بني إسرائيل إجمالاً بين بعد ذلك أقسام تلك النعم على سبيل التفصيل ليكون أبلغ في التذكير وأعظم في الحجة ، فكأنه قال : اذكروا نعمتي واذكروا إذ نجيناكم واذكروا إذ فرقنا بكم البحر وهي إنعامات ، والمذكور في هذه الآية هو الإنعام الأول . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 63 ﴾

(167/50)

اللغة :

[آل فرعون] أصل " آل " أهل ، ولذلك يصغر بأهيل ، فأبدلت هاؤه ألفا ، وخص استعماله بأولي الخطر والشأن كالملوك وأشباههم ، فلا يقال آل الإسكاف والحجام ، و[فرعون] علم لمن ملك العمالقة ، كقيصر لملك الروم وكسرى لملك الفرس ، ولعتوا الفراعنة اشتقوا منه " تفرعن " : إذا عتا وتجبر

[يسومونكم] يذيقونكم من سامه إذا أذاقه وأولاه ، قال الطبري : يوردونكم ويذيقونكم .

[يستحيون] يستبقون الإناث على قيد الحياة

[بلاء] اختبار ومحنة ، ويستعمل في الخير والشر كما قال تعالى : [ونبلوكم بالشر والخير فتنة]

[فرقنا] الفرق : الفصل والتمييز ، ومنه قوله سبحانه [وقرآنا فرقناه] أي فصلناه وميزناه بالبيان

[بارئكم] الباري هو الخالق للشئ على غير مثال سابق ، والبرية : الخلق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 1 صـ 57 ﴾

(168/50)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ سوء العذاب ﴾ و ﴿ سوء الحساب ﴾ بغير همز حيث وقعتا مفتوحتين : الأصبهاني عن ورش . ﴿ وعدنا ﴾ حيث كان أبو عمرو وسهل ويعقوب ويزيد . ﴿ موسى ﴾ بالإمالة المفرطة كل القرآن : حمزة وعلي وخلف وعن أبي عمرو وجهان : إن جعلته " فعلى " فبالإمالة بين الفتح والكسر ، وإن جعلته على " مفعل " فبالفتح لا غير

﴿ ثم اتخذتم ﴾ وبابه بالإظهار : ابن كثير وحفص والمفضل والأعشى والبرجمي .

﴿ والفرقان لعلكم ﴾ مدغماً : عباس ، وكذلك يدغم إذا كان قبل النون حرف من حروف المد واللين وهي الواو والمضموم ما قبلها مثل ﴿ وتكون لكما الكبرياء ﴾ والياء المكسور ما قبلها مثل ﴿ ميثاق النبيين لما ﴾ والألف المفتوح ما قبلها مثل ﴿ وما كان لمؤمن ﴾ وما أشبه ذلك .

الوقوف : ﴿ نساءكم ﴾ (ط) ﴿ عظيم ﴾ (5) ﴿ تنظرون ﴾ (5) ﴿ ظالمون ﴾ (5) ﴿ تشكرون ﴾ (5) ﴿ تهتدون ﴾ (5) . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 1 صـ 282.281 ﴾

فصل

قال الفخر :

أما قوله : ﴿ وَإِذْ نجيناكم ﴾ فقرىء أيضاً أنجيناكم ونجيتكم ، قال القفال : أصل الإنجاء والتنجية التخليص ، وأن بيان الشيء من الشيء حتى لا يتصلا وهما لغتان نجى وأنجى ونجا بنفسه ، وقالوا لمكان العالي : نجوة لأن من صار إليه نجا ، أي تخلص ولأن الموضع المرتفع بائن عما انحط عنه فكأنه متخلص منه .

قال صاحب الكشاف : أصل آل أهل ولذلك يصغر بأهيل فأبدلت هاؤه ألفاً وخص استعماله بأولي الخطر والشأن ، كالملوك وأشباههم ولا يقال : آل الحجام والإسكاف ، قال عيسى : الأهل أعم من الآل ، يقال : أهل الكوفة وأهل البلد وأهل العلم ولا يقال : آل الكوفة وآل البلد وآل العلم ، فكأنه قال : الأهل هم خاصة الشيء من جهة تغليبه عليهم ، والآل خاصة الرجل من جهة قرابة أو صحبة .

وحُكي عن أبي عبيدة أنه سمع فصيحاً يقول : أهل مكة آل الله .

أما فرعون فهو علم لمن ملك مصر من العمالقة كقيصر وهرقل لملك الروم وكسرى لملك الفرس وتبع لملك اليمن وخاقان لملك الترك ، واختلفوا في فرعون من وجهين ، أحدهما : أنهم اختلفوا في اسمه فحكى ابن جريج عن قوم أنهم قالوا : مصعب بن ريان ، وقال ابن اسحق : هو الوليد بن مصعب ، ولم يكن من الفراعنة أحد أشد غلظة ولا أقسى قلباً منه ، وذكر وهب بن منبه أن أهل الكتابين قالوا : إن اسم فرعون كان قابوس وكان من القبط ، الثاني : قال ابن وهب : إن فرعون يوسف عليه السلام هو فرعون موسى وهذا غير صحيح ، إذ كان بين دخول يوسف مصر وبين أن دخلها موسى أكثر من أربعمائة سنة ، وقال محمد بن اسحق : هو غير فرعون يوسف وأن فرعون يوسف كان اسمه الريان بن الوليد ، أما آل فرعون فلا شك أن المراد منه ههنا من كان من قوم فرعون وهم الذين عزموا

على إهلاك بني إسرائيل ليكون تعالى منجياً لهم منهم بما تفضل به من الأحوال التي توجب بقاءهم وهلاك فرعون وقومه .

أما قوله تعالى : ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ فهو من سامه خسفاً إذا أولاه ظلماً ، قال عمرو بن كلثوم :

إذا ما الملك سام الناس خسفا . . أبينا أن نقر الخسف فينا

(170/50)

وأصله من سام السلعة إذا طلبها ، كأنه بمعنى يبغونكم سوء العذاب ويريدونه بكم ، والسوء مصدر ساء بمعنى السيىء ، يقال : أعوذ بالله من سوء الخلق وسوء الفعل يراد قبحهما ، ومعنى سوء العذاب والعذاب كله سيىء أشده وأصعبه كأن قبحه (زاد) بالإضافة إلى ساء ، واختلف المفسرون في المراد من " سوء العذاب" فقال محمد بن إسحق : إنه جعلهم خولاً وخدماً له وصنفهم في أعماله أصنافاً ، فصنف كانوا يبنون له ، وصنف كانوا يحرثون له ، وصنف كانوا يزرعون له ، فهم كانوا في أعماله ومن لم يكن في نوع من أعماله كان يأمر بأن يوضع عليه جزية يؤديها ، وقال السدي : كان قد جعلهم في الأعمال القذرة الصعبة مثل لنس المبرز وعمل الطين ونحت الجبال ، وحكى الله تعالى عن بني

إسرائيل أنهم قالوا لموسى : ﴿ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴾ [الأعراف : 129] .

وقال موسى لفرعون : ﴿ وتلك نعمة تمنها على أن عبدت بني اسرائيل ﴾ [الشعراء : 22] واعلم أن كون الإنسان تحت يد الغير بحيث يتصرف فيه كما يشاء لا سيما إذا استعمله في الأعمال الشاقة الصعبة القذرة ، فإن ذلك يكون من أشد أنواع العذاب ، حتى إن من هذه حالته ربما تمنى الموت فبين الله تعالى عظيم نعمه عليهم بأن نجاهم من ذلك .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 63. 64 ﴾

فصل

قال الفخر :

إن ذبح الذكور دون الإناث مضرة من وجوه :

أحدها : أن ذبح الأبناء يقتضي فناء الرجال ، وذلك يقتضي انقطاع النسل ، لأن النساء إذا انفردن فلا تأثير لهن ألبتة في ذلك ، وذلك يقضي آخر الآمر إلى هلاك الرجال والنساء ، وثانيها : أن هلاك الرجال يقتضي فساد مصالح النساء في أمر المعيشة ، فإن المرأة لتتمنى وقد انقطع عنها تعهد الرجال وقيامهم بأمرها الموت ، لما قد يقع إليها من نكد العيش بالانفراد فصارت هذه الخصلة عظيمة في المحن ، والنجاة منها في العظم تكون بحسبها ،

وثالثها : أن قتل الولد عقيب الحمل الطويل وتحمل الكد والرجاء القوي في الانتفاع بالمولود من أعظم العذاب ، لأن قتله والحالة هذه أشد من قتل من بقي المدة الطويلة مستمتعاً به مسروراً بأحواله ، فنعمة الله من التخليص لهم من ذلك بحسب شدة المحنة فيه ،

ورابعها : أن الأبناء أحب إلى الوالدين من البنات ، ولذلك فإن أكثر الناس يستثقلون البنات ويكرهونهن وإن كثر ذكرانهم ، ولذلك قال تعالى : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّا وَهُوَ كَظِيمٌ يتوارى مِنَ القوم مِن سُوء مَا بُشِّرَ بِهِ ﴾ [النحل : 58] الآية ، ولذلك نهى العرب عن الوأد بقوله : ﴿ وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إملاق ﴾ [الإسراء : 31] وإنما كانوا يئدون الإناث دون الذكور ،

وخامسها : أن بقاء النسوان بدون الذكران يوجب صيرورتهن مستفرشات الأعداء وذلك نهاية الذل والهوان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 64 ﴾

فائدة

قال الفخر :

ذكر في هذه السورة ﴿يُذَبِّحُونَ﴾ بلا واو وفي سورة إبراهيم ذكره مع الواو ، والوجه فيه أنه إذا جعل قوله : ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوء العذاب﴾ مفسراً بقوله : ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءكُمْ﴾ لم يحتج إلى الواو ، وأما إذا جعل قوله : ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوء العذاب﴾ مفسراً بسائر التكاليف الشاقة سوى الذبح وجعل الذبح شيئاً آخر سوى سوء العذاب ، احتيج فيه إلى الواو ، وفي الموضعين يحتمل الوجهين ، إلا أن الفائدة التي يجوز أن تكون هي المقصودة من ذكر حرف العطف في سورة إبراهيم أن يقال : إنه تعالى قال قبل تلك الآية : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا موسى بآياتنا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظلمات إِلَى النور وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ الله﴾ [إبراهيم : 5] والتذكير بأيام الله لا يحصل إلا بتعديد نعم الله تعالى ، فوجب أن يكون المراد من قوله : ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوء العذاب﴾ نوعاً من العذاب ، والمراد من قوله : ﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءكُمْ﴾ نوعاً آخر ليكون التخلص منهما نوعين من النعمة .

فلهذا وجب ذكر العطف هناك ، وأما في هذه الآية لم يرد الأمر إلا بتذكير جنس النعمة وهي قوله : ﴿اذكروا نِعْمَتِيَ التى أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة : 40 ، 47 ، 122] فسواء كان المراد من سوء العذاب هو الذبح أو غيره كان تذكير جنس النعمة حاصلاً فظهر الفرق . انتهى انتهى . اهـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 64. 65﴾

فصل

قال الفخر :

قال بعضهم : أراد بقوله : ﴿ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ ﴾ الرجال دون الأطفال ليكون في مقابلة النساء إذ النساء هن البالغات ، وكذا المراد من الأبناء هم الرجال البالغون ، قالوا : إنه كان يأمر بقتل الرجال الذين يخاف منهم الخروج عليه والتجمع لإفساد أمره .

وأكثر المفسرين على أن المراد بالآية الأطفال دون البالغين ، وهذا هو الأولى لوجوه : الأول : حملاً للفظ الأبناء على ظاهره .

الثاني : أنه كان يتعذر قتل جميع الرجال على كثرتهم .

(173/50)

الثالث : أنهم كانوا محتاجين إليهم في استعمالهم في الصنائع الشاقة .

الرابع : أنه لو كان كذلك لم يكن لإلقاء موسى عليه السلام في التابوت حال صغره معنى ، أما قوله وجب حمله على الرجال ليكون في مقابلة النساء ففيه جوابان : الأول : أن الأبناء لما قتلوا حال الطفولية لم يصيروا رجالاً ، فلم يجز إطلاق اسم الرجال عليهم ، أما البنات لما لم يقتلن بل وصلن إلى حد النساء جاز إطلاق اسم النساء عليهن .

الثاني : قال بعضهم : المراد بقوله : ﴿ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ﴾ ، أي يفتشون حياء المرأة أي فرجها هل بها حمل أم لا ، وأبطل ذلك بأن ما في بطونهن إذا لم يكن للعيون ظاهراً لم يعلم

بالتفتيش ولم يوصل إلى استخراجه باليد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 65 ﴾

فصل في سبب قتل الأبناء

قال الفخر :

في سبب قتل الأبناء ذكروا فيه وجوهاً .

أحدها : قول ابن عباس رضي الله عنهما أنه وقع إلى فرعون وطبقته ما كان الله وعد إبراهيم أن يجعل في ذريته أنبياء وملوكاً فخافوا ذلك واتفقت كلمتهم على إعداد رجال معهم الشفار يطوفون في بني إسرائيل فلا يجدون مولوداً ذكراً إلا ذبحوه ، فلما رأوا كبارهم يموتون وصغارهم يذبحون خافوا الفناء فحينئذ لا يجدون من يباشر الأعمال الشاقة ، فصاروا يقتلون عاماً دون عام .

(174/50)

وثانيها : قول السدي : إن فرعون رأى ناراً أقبلت من بيت المقدس حتى اشتملت على بيوت مصر فأحرقت القبط وتركت بني إسرائيل فدعا فرعون الكهنة وسألهم عن ذلك ؟ فقالوا : يخرج من بيت المقدس من يكون هلاك القبط على يده ، وثالثها : أن المنجمين

أخبروا فرعون بذلك وعينوا له السنة فلهذا كان يقتل أبناءهم في تلك السنة والأقرب هو الأول ، لأن الذي يستفاد من علم التعبير وعلم النجوم لا يكون أمراً مفصلاً وإلا قدح ذلك في كون الإخبار عن الغيب معجزاً بل يكون أمراً مجملاً والظاهر من حال العاقل أن لا يقدم على مثل هذا الأمر العظيم بسببه ، فإن قيل : إن فرعون كان كافراً بالله فكان بأن يكون كافراً بالرسل أولى ، وإذا كان كذلك فكيف يمكن أن يقدم على هذا الأمر العظيم بسبب إخبار إبراهيم عليه السلام عنه .

قلنا : لعل فرعون كان عارفاً بالله وبصدق الأنبياء إلا أنه كان كافراً كفر الجحود والعناد أو يقال : إنه كان شاكاً متحيراً في دينه وكان يجوز صدق إبراهيم عليه السلام فأقدم على ذلك الفعل احتياطاً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 65 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أن الفائدة في ذكر هذه النعمة من وجوه :

أحدها : أن هذه الأشياء التي ذكرها الله تعالى لما كانت من أعظم ما يمتحن به الناس من جهة الملوك والظلمة صار تخليص الله إياهم من هذه المحن من أعظم النعم وذلك لأنهم عاينوا هلاك من حاول إهلاكهم وشاهدوا ذل من بالغ في إذلالهم ولا شك في أن ذلك من أعظم النعم وتعظيم النعمة يوجب الانقياد والطاعة ، ويقتضي نهاية قبح المخالفة والمعاندة

، فلهذا السبب ذكر الله تعالى هذه النعمة العظيمة مبالغة في إلزام الحجة عليهم وقطعاً لعذرهم .

(175/50)

وثانيها : أنهم لما عرفوا أنهم كانوا في نهاية الذل وكان خصمهم في نهاية العز إلا أنهم كانوا محقين وكان خصمهم مبطلاً لا جرم زال ذل المحقين وبطل عز المبطلين ، فكأنه تعالى قال : لا تغتروا بفقر محمد وقلة أنصاره في الحال ، فإنه محق لا بد وأن ينقلب العز إلى جانبه والذل إلى جانب أعدائه ، وثالثها : أن الله تعالى نبه بذلك على أن الملك بيد الله يؤتيه من يشاء ، فليس للإنسان أن يغتر بعز الدنيا بل عليه السعي في طلب عز الآخرة . انتهى انتهى . اهـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 65. 66 ﴾

فصل

قال الفخر :

أما قوله تعالى : ﴿ وَفِي ذلكم بَلاء مّن رَّبّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ قال القفال : أصل الكلمة من الابتلاء وهو الاختيار والامتحان قال تعالى : ﴿ وَنَبْلُوكُم بالشر والخير فِتْنَةً ﴾ [الأنبياء : 35] وقال : ﴿ وبلوناهم بالحسنات والسيئات ﴾ [الأعراف : 168] والبلوى واقعة

على النوعين ، فيقال للنعمة بلاء وللمحنة الشديدة بلاء والأكثر أن يقال في الخير إبلاء وفي الشر بلاء وقد يدخل أحدهما على الآخر .

قال زهير

جزى الله بالإحسان ما فعلا بكم . . وأبلاهما خير البلاء الذي يبلو

إذ عرفت هذا فنقول : البلاء ههنا هو المحنة إن أشير بلفظ : " ذلكم " إلى صنع فرعون والنعمة إن أشير به إلى الإنجاء وحمله على النعمة أولى لأنها هي التي صدرت من الرب تعالى ، ولأن موضع الحجة على اليهود إنعام الله تعالى على أسلافهم . انتهى . اهـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 66 ﴾

وقال الماوردى :

وفي قوله تعالى : ﴿ وَفِي ذَلِكُم بَلاَءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ تأويلان :

أحدهما : أن فيما كانوا يفعلونه بهم : مِنْ سوء العذاب ، وذبح الأبناء ، واستحياء النساءِ شدةً وجهداً عظيماً .

والثاني : أن في إنجائهم من آل فرعونَ ، الذين كانوا يفعلون ذلك بهم نعمةٌ من ربِّهم عظيمةٌ ، وهو قول ابن عباسٍ ، ومجاهدٍ ، والسدي .

وأصل البلاء الاختبار في الخير والشر ، كما قال عز وجل : ﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ [الأنبياء : 35] لأن الاختبار قد يكون بالخير كما يكون بالشر ، غير أن الأكثر في

الشر أن يقال : بَلَوْتُه أَبْلُوهُ بلاءً ، وفي الخير : أَبْلَيْتُهُ أُبْلِيهِ إِبْلاءً ، ومن ذلك قول زُهَيْرٍ :

جَزَى اللهُ بالإِحْسَانِ مَا فَعَلاَ بِكُمْ . . . فَأَبْلاَهُمَا خَيْرَ الْبَلاءِ الَّذِي يَبْلُو

فجمع بين اللُّغَتين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ النكت والعيون حـ 1 صـ 118. 119 ﴾

(176/50)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : " وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ " الآية .

وفى سورة الأعراف : : " وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ " فالقضية فى السورتين واحدة وقد ورد فى سورة البقرة : " نجيناكم " مضعفا وفى الأعراف : " أنجيناكم " غير مضاعف ، وفى سورة البقرة : " يذبحون " وفى سورة الأعراف : " يقتلون " ، وقد ورد فى سورة إبراهيم " يسومونكم سوء العذاب ويذبحون " منسوقا بحرف العطف ففى هذه الآية ثلاث سؤالات تعرض منها

صاحب كتاب الدرة للفرق بين " يذبحون " وقوله تعالى فى سورة إبراهيم " ويذبحون " وأغفل ما سوى ذلك .

(177/50)

والجواب عن الأول : ان الوارد فى سورة البقرة مقصود به تعداد وجوه الإنعام على بنى إسرائيل وتوالى الامتنان ليبين شنيع مرتكبهم فى مقابلة ذلك الإنعام بالكفر ولنقدم لذلك تمهيداً فنقول : أنه تعالى بدأ عباده بالنعم وأحسن إليهم قبل إيجادهم حين ذكرهم فى الأزل بخصوص التكريم وسبقت رحمته غضبه وله المن والطول وعلى لحظ ما ذكرنا ورعيه جرى خطاب الخلق فى دعائهم إلى عبادته فقال تعالى فى أول وارد من ذلك فى كتابه العزيز على المعتمد من مقتضى الترتيب الثابت : " يأيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون " إلى قوله : " فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون " فذكرهم سبحانه بإيجادهم بعد العدم وجعله الأرض فراشا لهم والسماء بناء وانزال الماء من السماء واخراج الثمرات به وكل هذا انعام وإحسان منه لعباده من غير حاجة به إلى ذلك فدعا سبحانه الخلق لعبادته مذكراً بإنعامه عليهم وبهذا أمر رسله فقال لموسى عليه السلام : " وذكرهم بأيام الله " أى بآلائه ونعمائه وعلى هذا جرى خطاب بنى إسرائيل فى سورة البقرة

فى أول خطاب خوطبوا به ودعوا إلى عبادة الله وتصديق من قدم لهم فى أمره وأخذ عليهم العهد فى الإيمان به فقال تعالى : " يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم " .

فأجمل تعالى ثم فصل فذكر نجاتهم من آل فرعون وفرق البحر بهم ونجاتهم وهلاك عدوهم بالغرق ثم ذكر عفوه عنهم فى عبادة العجل وتوبته عليهم وبعثهم من موتهم عند طلبهم الرؤيا ، وتظليلهم بالغمام إلى ما ذكر تعالى بعد هذا .

فلما كان موضع تعداد نعم وآلاء ذكروا بها ليزدجروا عن المخالفة والعناد ناسبه التضعيف لاثباته بالكثرة ولو قيل هنا واذ أنجيناكم لما أنبأ بذلك ولا ناسب المقصود مما ذكر ، وأيضا فإن التضعيف فى : نجيناكم يناسب التضعيف الوارد بعده فى قوله : " يذبحون " ، ولم يكن لفظ أنجيناكم غير مضاعف ليناسب .

(178/50)

والجواب عن السؤال الثانى : والله أعلم ان الذبح منبئ عن القتل وصفته وأما اسم القتل فلا يفهم الا اعدام الحياة ويتناول من غير المقتول فى الغالب فعبر أولا بما يوفى المقصود من الاخبار بالقتل مع احراز الايجاز ، إذ لو ذكر القتل وأتبع الصفة لما كان ايجازا ، فعدل إلى ما

يحصل عنه المقصود مع ايجاز فقيل : " يذبحون " وعبر فى سورة الأعراف بالقتل لأنه أوجز من لفظ يذبحون لأجل التضعيف إذ لفظ يذبحون أثقل لتضعيفه وقد حصلت صفة القتل فى سورة البقرة فأحرز الايجاز فى الكل وجاء على ما يجب ويناسب والله أعلم .

والجواب عن السؤال الثالث : وهو قوله تعالى فى سورة إبراهيم : " ويذبحون أبنائكم ويستحيون نسائكم " منسوقا بواو العطف فوجه ذلك والله أعلم ان هذه السورة مبنية على الإجمال والايجاز فيما تضمنته من قصص الرسل وغير ذلك ولم يقصد فيها بسط قصة كما ورد فى غيرها مما بنى على الاستيفاء وكلا المرتكبين مقصود معتمد عند العرب : يرمون بالخطب الطوال وتارة وحى الملاحظ خيفة الرقباء

(179/50)

وعلى هذا جرى خطابهم فى الكتاب العزيز وتأمل المقصدين فقد ورد فى سورة الأعراف وسورة هود قصص نوح وهود وصالح ولوط وموسى عليهم السلام فتأمل ما ما بين ورود هذه القصص الخمس فى هاتين السورتين وورودها خمستها فى سورة القمر وكيف مدت أطناب الكلام فى السورتين الاوليين ثم أوجزت فى سورة القمر أبلغ ايجاز وأوفاه بالمقصود ، فلما كان مبنى سورة إبراهيم عليه السلام على الايجاز فيما تضمنت من هذه القصص

افتتاحا واختتاما لقوله تعالى : " ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد " إلى قوله تعالى : " فردوا أيديهم فى أفواههم " وما بعد هذه من الآى وانه انضم فى هذه السورة إلى قصد الايجاز تغليظ الوعيد فلبنائها على هذين الغرضين ورد فيها قوله تعالى : " واذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم " إلى قوله تعالى : " يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبنائكم " فأشار قوله سبحانه : " يسومونكم سوء العذاب " إلى جملة ما امتحنوا به من فرعون وآله من استخدامهم واذلالهم بالأعمال الشاقة وامتهانهم واستحياء نسائهم لذلك وذبح الذكور فلما وقعت الإشارة إلى هذه الجملة مما كانوا يمتحنونهم به جرد منها وعين بالذكر أشدها واعظمها امتحانا فجئ به معطوفا كما أنه مغاير لما تقدمه فقيل : " ويذبحون أبنائكم " فعين من الجملة هذا وخص بالذكر تعريفا بمكانة وشدة الامر فيه ، وهو مما أجمل أولا وشمله الكلام المتقدم .

كما ورد فى قوله تعالى : " من كان عدوا لله وملائكته " ثم قال : " وجبريل وميكال " فخصهما بالذكر والتعيين اعلاما بمكانهما فى الملائكة بعد أن شملهم قوله تعالى : " وملائكته " فالوارد فى سورة إبراهيم من هذه القبيل وقد تبين زجهه واتضحت مناسبته والله أعلم بما أراد .

وأما إعراب آية البقرة فيمكن فى قوله تعالى : " يذبحون أبنائكم " أن يحمل على البدل وعلى الاستئناف وهو الأولى وكأن قد قيل وما ذاك ؟ فقيل : يذبحون أبنائكم ولا إشكال فى الأخرى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ ملاك التأويل صـ 33 ـ 35 ﴾

(181/50)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى ذكر فرعون عدو الله)

وفِرْعَونُ اسمٌ أَعجمىٌّ ممنوعٌ من الصّرف ، والجمع فَراعِنَةٌ كقَياصِرة وأَكاسِرَة / وهو اسمٌ لكلّ من مَلَك مِصْرَ ، فإذا أُضِيفَت إليها الاسكَنْدرِيّة سُمِّىَ عَزِيزاً .

واختلف فى اسمه ، فقيل : مُصْعَب بن الوَلِيد ، وقيل رَيَّانُ بن الوَلِيد ، وقيل الوَلِيدُ ابن رَيّان .

وكان أَصله من خُراسانَ من مدينة بسورمان ، وقيل من قرية مجهولة تسمّى نوشخ .

ولما قَعَد على سرير الملك قال : أَين عجائِز نُوشَخ .

وقد صدر منه ما لَمْ يَصْدُر من أَحَدٍ من الكُفَّار والمتمرّدين ، ولا من قائِدهم إبْليس ، منها : إنكارُ العبوديّة ودَعْوَى الرُّبوبيّةِ بقوله : ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى ﴾ ، ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِّنْ اله غَيْرِي ﴾ ، ومنها : نَكالُ زَوْجَته وقَتْلُها أَشدَّ قِتْلَة بسبب إيمانها بالله ؛ ومنها : جَمْعُ السَحَرة لمُعارَضةِ الأَنبياء .

وقد دعاه الله تعالَى فى القرآن بأَسماءٍ تُشْعِر بخذْلانِه وذلِّه وخِزْيه ، منها : المُكَذّب والعاصى : ﴿ فَكَذَّبَ وَعَصَى ﴾ ، مُدْبِرٌ وساعِى : ﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى ﴾ ، حاشِرٌ ، ومُنادِى : ﴿ فَحَشَرَ فَنَادَى ﴾ ، مُدَّعِى ومُعْتَدِى : ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى ﴾ ، مُسْتَعْلِى : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ ﴾ مُفْسِدٌ : ﴿ وكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ ، مُجْرِمٌ : ﴿ وكَانُواْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ ﴾ ، مُسْرِفٌ : ﴿ وَأَنَّ / الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ ، كَيّادٌ : ﴿ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِي تَبَاب ﴾ ، مَكَّار : ﴿ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُواْ ﴾ ، مُتَكَبّر وجَبَّارٌ : ﴿ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ ، عَدُوٌّ : ﴿ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ ﴾ ، فِرعَونُ وطاغِى : ﴿ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴾ .

وقد ذكره الله تعالى باسمه مقرونا بأَنواع فساده :

1- إلزام الحجّة : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ ﴾ .

2- إتيانُ موسى ببيان الحَقّ له : ﴿ يَافِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ * حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ﴾ .

3- تسميتهم مُوسى بالسّاحِر : ﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هذا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ .

4- إصرارُهم على الكُفْرِ وقَسَمُهُم بعزّته : ﴿ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَونَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴾ .

5- فى جَمْعه السَّحَرة للمَكْر والحِيلة : ﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَونُ فِي الْمَدَآئِنِ حَاشِرِينَ ﴾ .

6- استدعاؤه السّحرة فى حال الخَلْوة : ﴿ وَجَآءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ ﴾ .

7- تهديدُه السَّحرة لمّا آمنُوا : ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُمْ بِهِ قَبْلَ أَن آذَنَ لَكُمْ ﴾ .

8- ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَونَ أَتَذَرُ مُوسَى ﴾ .

9- الإخبارُ بهلاكه ودماره : ﴿ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ ﴾ .

10- الإخبارُ عن كَيْدِ بعد الهرب والهزيمة : ﴿ فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ﴾ .

11- الإخبار عن إضلاله قومه : ﴿ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ ﴾ .

12- الإخبار عن مُوافَقَتِه لأَهل الكُفْرِ لشَقاوته : ﴿ وَعَادٌ وفِرْعَوْنُ ذُو الأَوْتَادِ ﴾ .

13- الإخبارُ عن مُجادلته موسى : ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

14- الإخبارُ عن تمرُّده وتجبُّره : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الأَرْضِ ﴾ .

15- الإخبارُ عن كونه فى الخَطأ ليلاً ونهاراً سِرّاً وجهاراً : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ ﴾ .

16- الإخبارُ عن إظْهار القُدْرة بجعْل تَرْبية موسى على يد فِرْعون : ﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً ﴾ .

(183/50)

17- الإخْبارُ عن مُلاطفات آسِيةَ ومساعِيها فى نَجاة مُوسى وسلاَمته : ﴿ وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لاَ تَقْتُلُوهُ عَسَى أَن يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً ﴾ .

18- تَشَبُّه كفَّار مكة فى قُبْح سيرتهم بِفِرْعَوْن ﴿ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾ .

19- الإخبار عن هلاكهم وسُوء عاقِبَتهم : ﴿ وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴾ .

20- الإخبار بأَن يجرى عليهم نظيرُ ما جَرَى على قومِ عادٍ وثمود : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِى الأَوْتَادِ ﴾ قال :

*تَكَبَّرَ فِرْعَوْنُ القُبَيْطىّ عاتِياً * فصارَ غَرِيقَ البَحْرِ فى قَعْرِ يَمّهِ*

*كما تاهَ إبْليسُ اللَّعِينَ تَجَبُّراً * وكانَ وَقُوداً للسَّعِير بغَمّه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 6 صـ 69. 71 ﴾

(184/50)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطي :

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ﴾ الآية .

ظاهر هذه الآية الكريمة يدل على أن استحياء النساء من جملة العذاب الذي كان يسومهم فرعون .

وقد جاء في آية أخرى ما يدل على أن الإناث هبة من هبات الله لمن أعطاهن له وهي قوله تعالى : ﴿ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴾ فبقاء بعض الأولاد على هذا خير من موتهم كلهم كما قال الهذلي :

خراش وبعض الشر أهون من بعض

حمدت إلهي بعد عروة إذ نجا

والجواب عن هذا أن الإناث وإن كن هبة من الله لمن أعطاهن له فبقاؤهن تحت يد العدو يفعل بهن ما يشاء من الفاحشة والعار ويستخدمهن في الأعمال الشاقة نوع من العذاب, وموتهن راحة من هذا العذاب وقد كان العرب يتمنون موت الإناث خوفا من مثل هذا .

قال بعض شعراء العرب في ابنة له تسمى مودة :

مودة تهوى عمر شيخ يسره

لها الموت قبل الليل لوانها تدرى

يخاف عليها جفوة الناس بعده

ولا ختن يرجى أود من القبر

وقال الآخر :

والموت أكرم نزال على الحرم

تهوى حياتي وأهوى موتها شفقا

وقال عقيل بن علفة المري لما خطبت عنه ابنته الجرباء :

إني وان سيق الى المهر

عبد والفان وذود عشر

أحب اصهاري إلى القبر

وقال بعض الأدباء :

سروران ما لهما ثالث

حياة البنين وموت البنات

وفي القرآن إشارة إلى أن الإنسان يسوءه إهانة ذريته الضعاف بعد موته في قوله تعالى :

﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُوا عَلَيْهِمْ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 21.22 ﴾

(185/50)

من فوائد ابن عطية فى الآية

قال رحمه الله :

وقوله تعالى : ﴿ وإذ نجيناكم من آل فرعون ﴾ أي خلصناكم ، و ﴿ آل ﴾ أصله أهل ، قلبت الهاء ألفاً كما عمل في ماء ، ولذلك ردها التصغير إلى الأصل ، فقيل أُهَيْل ، موَيْه ، وقد قيل في ﴿ آل ﴾ إنه اسم غير أهل ، أصله أول وتصغيره أويل ، وإنما نسب الفعل إلى ﴿ آل فرعون ﴾ وهم إنما كانوا يفعلونه بأمره وسلطانه لتوليهم ذلك بأنفسهم .

وقال الطبري رحمه الله : " ويقتضي هذا أن من أمره ظالم بقتل أحد فقتله المأمور فهو المأخوذ به ، وآل الرجل قرابته وشيعته وأتباعه " .

ومنه قول أراكة الثقفي : [الطويل]

فلا تبك ميْتاً بعد ميْتٍ أجنّهُ . . . عليٌّ وعباسٌ وآلُ أبي بكر

يعني المؤمنين الذين قبروا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والأشهر في ﴿ آل ﴾ أن يضاف

إلى الأسماء لا إلى البقاع والبلاد ، وقد يقال آل مكة ، وآل المدنية ، وفرعون اسم لكل من ملك من العمالقة مصر ، وفرعون موسى قيل اسمه مصعب بن الريان .

وقال ابن إسحاق : " اسمه الوليد بن مصعب " .

وروي أنه كان من أهل اصطخر ، ورد مصر فاتفق له فيها الملك ، وكان أصل كون بني إسرائيل بمصر نزول إسرائيل بها زمن ابنه يوسف عليهما السلام .

(186/50)

و ﴿ يسومونكم ﴾ معناه : يأخذونكم به ويلزمونكم إياه ومنه المساومة بالسلعة ، وسامه خطة خسف و ﴿ يسومونكم ﴾ إعرابه رفع على الاستئناف والجملة في موضع نصب على الحال ، أي سائمين لكم سوء العذاب ، ويجوز أن لا تقدر فيه الحال ، ويكون وصف حال ماضية ، و ﴿ سوء العذاب ﴾ أشده وأصعبه .

قال السدي : " كان يصرفهم في الأعمال القذرة ويذبح الأبناء ، ويستحيي النساء " .

وقال غيره : صرفهم على الأعمال : الحرث والزراعة والبناء وغير ذلك ، وكان قومه جنداً ملوكاً ، وقرأ الجمهور " يذبّحون " بشد الباء المكسورة على المبالغة ، وقرأ ابن محيصن : " يذبحون " بالتخفيف ، والأول أرجح إذ الذبح متكرر . كان فرعون على ما روي قد رأى في

منامه ناراً خرجت من بيت المقدس فأحرقت بيوت مصر ، فأولت له رؤياه أن مولوداً من بني إسرائيل ينشأ فيخرب ملك فرعون على يديه .

وقال ابن إسحاق وابن عباس وغيرهما : إن الكهنة والمنجمين قالوا لفرعون : قد أظلك زمن مولود من بني إسرائيل يخرب ملكك .

وقال ابن عباس أيضاً : إن فرعون وقومه تذاكروا وعد الله لإبراهيم أن يجعل في ذريته أنبياء وملوكاً ، فأمر عند ذلك بذبح الذكور من المولودين في بني إسرائيل ، ووكل بكل عشر نساء رجلاً يحفظ من يحمل منهن .

وقيل : " وكل بذلك القوابل " .

وقالت طائفة : معنى ﴿ يذبحون أبناءكم ﴾ يذبحون الرجال ويسمون أبناء لما كانوا كذلك ، واستدل هذا القائل بقوله تعالى : ﴿ نساءكم ﴾ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله : والصحيح من التأويل أن الأبناء هم الأطفال الذكور ، والنساء هم الأطفال الإناث ، وعبر عنهن باسم النساء بالمآل ، وليذكرهن بالاسم الذي في وقته يستخدمن ويمتهنَّ ، ونفس الاستحياء ليس بعذاب ، لكن العذاب بسببه وقع الاستحياء ، و ﴿ يذبحون ﴾ بدل من " يسومون " .

قوله تعالى : ﴿ وفي ذلكم ﴾ إشارة إلى جملة الأمر ، إذ هو خبر فهو كمفرد حاضر ، و ﴿ بلاء ﴾ معناه امتحان واختبار ، ويكون ﴿ البلاء ﴾ في الخير والشر .

وقال قوم : الإشارة ﴿ بذلكم ﴾ إلى التنجية من بني إسرائيل ، فيكون ﴿ البلاء ﴾ على هذا في الخير ، أي وفي تنجيتكم نعمة من الله عليكم .

وقال جمهور الناس : الإشارة إلى الذبح ونحوه ، و ﴿ البلاء ﴾ هنا في الشر ، والمعنى وفي الذبح مكروه وامتحان .

وحكى الطبري وغيره في كيفيه نجاتهم : أن موسى عليه السلام أوحي إليه أن يسري من مصر ببني إسرائيل فأمرهم موسى أن يستعيروا الحلي والمتاع من القبط ، وأحل الله ذلك لبني إسرائيل ، فسرى بهم موسى من أول الليل ، فأعلم فرعون فقال لا يتبعنهم أحد حتى تصيح الديكة ، فلم يصح تلك الليلة بمصر ديك حتى أصبح ، وأمات الله تلك الليلة كثيراً من أبناء القبط فاشتغلوا في الدفن وخرجوا في الأتباع مشرقين ، وذهب موسى إلى ناحية البحر حتى بلغه ، وكانت عدة بني إسرائيل نيفاً على ستمائة ألف ، وكانت عدة فرعون ألف ألف ومائتي ألف .

وحكي غير هذا مما اختصرته لقلة ثبوته ، فلما لحق فرعون موسى ظن بنو إسرائيل أنهم غير ناجين ، فقال يوشع بن نون لموسى أين أمرت ؟ فقال هكذا وأشار إلى البحر فركض

فرسه فيه حتى بلغ الغمر ، ثم رجع فقال لموسى أين أمرت ، فوالله ما كذبت ولا كذبت ، فأشار إلى البحر ، وأوحى الله تعالى إليه ، ﴿ أن اضرب بعصاك البحر ﴾ [الشعراء : 63] . وأوحى إلى البحر أن انفرق لموسى إذا ضربك ، فبات البحر تلك الليلة يضطرب فحين أصبح ضرب موسى البحر ، وكناه أبا خالد فانفرق وكان ذلك في يوم عاشوراء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 1 صـ 139 . 141 ﴾

ومن فوائد ابن عرفة فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ . . . ﴾ .

قال ابن عرفة : معطوف على " اذْكُرُوا " (عطف الجملة) أو على " نِعْمَتِيَ " (فالعامل) فيه " اذْكُرُوا " (المتقدم) على الفعل في المفعول به ، أو عطف على " عَلَيْكُمْ " (فالعامل) فيه " أنعمت " (عمل) الفعل في الظرف .

(188/50)

قلت : وهذا (باطل) لأن " أنعمت " في صلة الموصول فكذلك معمولها وما عطف عليه وقد (فصل) بينهما بأجنبي وهو ﴿ واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا ﴾ قوله تعالى

: ﴿يَسُومُونَكُمْ سواء العذاب . . . ﴾ .

قال الطيبي : السّوم مفرد في اللّفظ مركّب في المعنى لأنه طلب (البغي) على الغير فمعناه مركب من الطلب (والإضرار) بالغير .

قال ابن عرفة : لا يسمى هذا مركبا إنما المركب عندهم (ما كان) كلفظ مركب ولفظ مجمل ولفظ النسبة .

(فإنها) لا تعقل إلا بالشيئين المناسبين .

قال ابن عطية : وإنما نسب الفعل إلى (آل فرعون وهم) إنما فعلوه بأمره (لمباشرتهم ذلك) .

قال الطبري : إن من أمره ظالم بقتل أحد فقتل إنه المأخوذ به (لا) الآمر .

قال ابن عرفة : هذا هو المشهور عندنا وذكره الشيخ ابن رشد في البيان والتحصيل وأظنه في كتاب السلطان واللّخمي في (الغصب) وذكره ابن يونس فر فروع آخر الغصب عن ابن أبي زيد (من أخبر لصوصا أو غاصبا بظهر رجل ، ومن قدّم رجلا إلى ظالم إنّه يغرمه مالا يجب عليه ، انظرها) ، وفي الحج الثالث إذا دل محرم على صيد محرما أو حلالا فقتله المدلول عليه فلا شيء على الدال وإن أمر بقتله فعليه جزاء واحد وإن كان المأمور عبدا وإلاّ فلا .

هذا هو المشهور .

ونقل ابن يونس عن أشهب في كتاب ابن المواز : أنه إن دل محرما على صيد فقتله فعلى كل واحد منهما جزاء وإن دل حلالا فلا شيء على الدال .

وقال التونسي : الصواب بأن الجزاء لئلا يبقى الصيد بلا جزاء لأنه إذا وجب (الجزاء) حيث يكون المدلول محرما فأحرى إذا كان حلالا وهو عكس / المشهور .

وذكر ابن بشير الأول والثالث وزاد إن دل حلالا وجبت عليه (الدية) إذ لا يمكن إسقاطها .

وإن دل حراما لم تجب لاستقلال المدلول بها فجاءت أربعة أقوال .

وإن أمسك الصيد لرجل فقتله قال في المدونة : إن كان القاتل حلالا أدّاه الماسك وإن كان حراما (أدّاه) القاتل .

(189/50)

وقال سحنون : لا شيء على الماسك .

ابن يونس : وقال التونسي : وانظر هل يلزم على مذهب أشهب إذا دل أحد على مال رجل فأخذه ، أو على قتله فقتله ؟ فإنه يقتص منه ويغرم المال لأنه لم يتوصل إليه إلا بدلالته .

قوله تعالى : ﴿ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ . . . ﴾ .

كانوا أضروهم بقتل الذكور لانقطاع النسل وإحياء النساء للإذلال والمعرة وقد كانوا هم (يكرهون) استحياءهم خوف المعرة والإذلال .

وقال في سورة إبراهيم : ﴿ وَيُذَبِّحُونَ ﴾ بالواو وهنا بغير واو .

قال ابن عرفة : الجواب (إما) بأن العطف بالواو (تفسير) كما قال الشيخ ابن رشد في المقدمات في قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمُ الذين يُؤْذُونَ النبي وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ﴾ وإما بأن يكون " وَيُذَبِّحُونَ " معطوفا على فعل مقدر يكون ذلك الفعل تفسير الأول ، وإلا فالقصة واحدة . فإما أن يكون الثاني هو الأول فيهما ، أو مغايرا (له فيهما) لأن العطف يقتضي (المغايرة ، وعدم العطف) يقتضي الموافقة فكيف الجمع بينهما ؟

قلت : وتقدم لنا الجواب في الخاتمة الثانية في سورة إبراهيم حيث قال ابن عرفة : (وعادتهم) يجيبون بأن (المنّة في) آية البقرة (وقعت من الله تعالى) " نَجَّيْنَاكُمْ " فأسند الفعل إلى نفسه (والملك) (لكل) الأشياء (عنده) حقير فلذلك أتى بالجملة " يذبحون " مفسرة للأول غير معطوفة فكأنها شيء واحد إذ لا يستعظم الأشياء إلا العاجز فالألف دينار لا قدر لها عند الغني وهي عند الفقير (مال جليل) .

وأما سورة إبراهيم فالامتنان فيها من موسى عليه السلام لأن أول الآية (﴿ وَإِذْ قَالَ موسى لِقَوْمِهِ اذكروا نِعْمَةَ الله عَلَيْكُمْ ﴾ فهي حكاية صدرت من موسى لقومه) ، فناسب المبالغة بالعطف (فيها) المقتضي (للتعدد) والمغايرة لتكثر أسباب الامتنان .

قلت : وأجاب صاحب درة التنزيل بأن آية إبراهيم وقعت في خبر عطف على خبر آخر قبله وهو ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا موسى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ ﴾ ﴿ وَإِذْ قَالَ موسى لِقَوْمِهِ ﴾ فيبقى معنى العطف في "يُذَبِّحُونَ" لأنه هو وما عطف عليه داخل في جملة معطوفة فالمقام مقام فصل وأما آية البقرة أخبر فيها بخبر واحد وهو إخباره عن (نفسه) بإنجائه بني إسرائيل فلذلك لم يعطف وأخبر في إبراهيم بخبرين معطوفين فلذلك عطف .

قلت : وأيضا فالجمل المتقدمة في البقرة طلبية وهي ﴿ يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اذكروا ﴾ " واتَّقُوْا " ، وجملة "يُذَبِّحونَ" خبرية فليست مشاكلة لها بخلاف في سورة إبراهيم فإنها كلها خبرية وقد نص ابن أبي الربيع على أن المشهور أنه لا يعطف الخبرية على الطلبية ولا العكس .

وأجاب القاضي أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير بأن هذه الآية مشتملة على استيفاء القصص ، وسورة إبراهيم على إيجاز القصص ، والأمران سائغان عند العرب قال شاعرهم :

يرمون (بالخطب) الطوال وتارة . . .

(رمي) الملاحظ خيفة الرقباء

فذكر في البقرة سوء العذاب مجملا ، (ثم) البينة (بذبح) الذكور وإحياء النّساء لأن القصد الإطناب بدليل زياده ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ البحر ﴾ وأشار في السورة الأخرى بقوله : ﴿ يَسُومُونَكُمْ (سواء العذاب ﴾) إلى جملة ما (امتحنوا) به من فرعون وقومه من استخدامهم وإذلالهم بالأعمال الشاقة وذبح الذكور واستحياء النساء ثم جرد منها (أعظمها) امتحانا ، فعطفه لأنه مغاير لما قبله فقال : " وَيُذَبِّحُونَ " إشعارا (بشدة) الأمر فيه ، وهو مما أجمل فيه ، كما ورد في قوله تعالى : ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وملائكته وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ ﴾ خصصهما بالذكر إعلاما بمكانهما .

(191/50)

قال ابن عرفة : فإن قلت : لم قال هنا : " نَجَّيْنَا " وفي الأعراف (﴿ أَنجَيْنَا) ﴾ فالجواب : بأن القصد هنا كثرة تعداد وجوه الإنعام (فيه) (فبدأ) بـ ﴿ يا أيها الناس (اعبدوا) رَبَّكُمُ ﴾ إلى آخرها وكلها إنعام ، ثم قال : ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ فلما كان موضع تعداد النعم ناسب التضعيف في " نَجَّيْنَاكُمْ " وأيضا فهو مناسب للتضعيف في " يُذَبِّحُونَ " الأعراف إنما فيها " يُقَتِّلُونَ " فرُوعِيَ مناسبة اللّفظ فيما بعد ، والمعنى فيما قبل ، انتهى .

قال ابن عرفة : وإنما قال : " نِسَاؤُكُمْ " ولم يقل : ببناتكم كما قال : " أَبْنَاءَكُمْ " تسمية

للشيء بما يؤول إليه ، وإشارة إلى قصدهم المعرة ، واستحقار (بناتكم) .

قوله تعالى : ﴿ وَفِي ذَٰلِكُم بلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾

البلاء : إما قدر مشترك بين الخير والشر أو لفظ مشترك ، ويجيء فيه تعميم المشترك (فيبتلى الإنسان) بالخير ليشكر ، و (الشر) ليصبر .

قال الله تعالى ﴿ هذا مِن فَضْلِ رَبِّي ليبلونيا ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ﴾ قال ابن عطية : (معناه) الامتحان والاختبار .

قال ابن عرفة : في هذه العبارة قلق ، وينبغي أن يفهم (بما) قال الزمخشري في غير هذا الموضع : إنه يفعل بهم فعل المختبر لأن الاختبار من لوازمه الجهل ، وهو مستحيل عن الله عز وجل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عرفة صـ 279. 286 ﴾

ومن فوائد الإمام القرطبى فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾

فيه ثلاث عشرة مسألة :

الأولى : قوله تعالى ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾ "إذ" في موضع نصب عطف على ﴿ اذكروا نِعْمَتِي ﴾ .

وهذا وما بعده تذكير ببعض النعم التي كانت له عليهم ؛ أي اذكروا نعمتي بإنجائكم من عدوّكم وجعل الأنبياء فيكم .

(192/50)

والخطاب للموجودين والمراد مَن سلف من الآباء ؛ كما قال : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَآءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴾ [الحاقة : 11] أي حملنا آباءكم .

وقيل : إنما قال " نجيناكم " لأن نجاة الآباء كانت سبباً لنجاة هؤلاء الموجودين .

ومعنى " نجيناكم " ألقيناكم على نَجْوَة من الأرض ، وهي ما ارتفع منها .

هذا هو الأصل ؛ ثم سُمّيَ كل فائز ناجياً .

فالنّاجي مَن خرج من ضيق إلى سَعة .

وقرىء : " وإذ نَجّيْتُكم " على التوحيد .

الثانية : قوله تعالى : ﴿ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾ " آل فرعون " قومه وأتباعه وأهل دينه .

وكذلك آل الرسول صلى الله عليه وسلم من هو على دينه وملّته في عصره وسائر الأعصار ؛ سواء كان نسيباً له أو لم يكن .

ومن لم يكن على دينه وملّته فليس من آله ولا أهله ، وإن كان نسيبَه وقريبَه .

خلافاً للرافضة حيث قالت : إن آل رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة والحسن والحسين فقط .

دليلنا قوله تعالى : ﴿ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ ﴾ [البقرة : 50] ﴿ أدخلوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ العذاب ﴾ [غافر : 46] أي آل دينه ؛ إذ لم يكن له ابن ولا بنت ولا أب ولا عمّ ولا أَخٌ ولا عَصَبة .

ولأنه لا خلاف أن من ليس بمؤمن ولا مُوَحّد فإنه ليس من آل محمد وإن كان قريباً له ؛ ولأجل هذا يقال : إن أبا لهب وأبا جهل ليسا آله ولا من أهله ؛ وإن كان بينهما وبين النبيّ صلى الله عليه وسلم قرابة ؛ ولأجل هذا قال الله تعالى في ابن نوح : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ [هود : 46] .

(193/50)

وفي صحيح مسلم عن عمرو بن العاص قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم جِهَاراً غيرَ سِرّ يقول : " (ألا) إنّ آلَ أبي يعني فلاناً ليسوا (لي) بأولياء إنما وَلِيّيَ اللّهُ وصالحُ المؤمنين " وقالت طائفة : آل محمد أزواجُه وذرّيّتُه خاصة ؛ لحديث أبي حُميد السّاعدي أنهم قالوا : " يا رسول الله كيف نصلّي عليك ؟ قال : " قولوا اللَّهُمّ صلّ على محمد وعلى

أزواجه وذُرّيته كما صلّيت على آل إبراهيم وبارك على محمد وعلى أزواجه وذُرّيته كما باركتَ على آل إبراهيم إنك حميد مجيد " " رواه مسلم .

وقالت طائفة من أهل العلم : الأهل معلوم ، والآل : الأتباع .

والأوّل أصح لما ذكرناه ؛ ولحديث عبد اللَّه بن أَبِي أَوْفَى : " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا أتاه قوم بصدقتهم قال : " اللّهُمّ صلّ عليهم" فأتاه أبي بصدقته فقال : " اللَّهُمّ صلّ على آل أَبِي أَوْفَى " " .

الثالثة : اختلف النحاة هل يضاف الآل إلى البلدان أو لا ؟ فقال الكسائي : إنما يقال آل فلان وآل فلانة ، ولا يقال في البلدان من آل حِمص ولا من آل المدينة .

قال الأخفش : إنما يقال في الرئيس الأعظم ، نحو آل محمد صلى الله عليه وسلم ، وآل فرعون لأنه رئيسهم في الضلالة .

قال : وقد سمعناه في البلدان ، قالوا : أهل المدينة وآل المدينة .

الرابعة : واختلف النحاة أيضاً هل يضاف الآل إلى المضمر أولا ؟ فمنع من ذلك النحاس والزبيدي والكسائيّ ؛ فلا يقال إلا اللَّهُمّ صلّ على محمد وآل محمد ، ولا يقال وآله ، والصواب أن يقال : أهله .

وذهبت طائفة أخرى إلى أن ذلك يقال ؛ منهم ابن السيّد وهو الصواب ؛ لأن السماع الصحيح يَعْضُده ، فإنه قد جاء في قول عبد المطلب :

لا هُمّ إن العبد يم . . .

نع رَحْلَه فامنع حِلالكْ

وانصر على آل الصّلي . . .

ب وعابديه اليومَ آلكْ

وقال نُدْبة :

أنا الفارس الحامي حقيقةَ والدي . . .

وآلي كما تَحْمِي حقيقةَ آلِكا

(194/50)

الحقيقة (بقافين) : ما يَحُقّ على الإنسان أن يحميه ؛ أي تجب عليه حمايته .

الخامسة : واختلفوا أيضاً في أصل آل ؛ فقال النحاس : أصله أهل ، ثم أبدل من الهاء ألفاً ، فإن صغّرته رددته إلى أصله فقلت : أُهَيْل .

وقال المهدَوِيّ : أصله أوْل .

وقيل : أهْل ؛ قُلبت الهاء همزة ثم أبدلت الهمزة ألفاً .

وجمعه آلون ، وتصغيره أُوَيْل ؛ فيما حكى الكسائي .

وحكى غيره أهيل ، وقد ذكرناه عن النحاس .

وقال أبو الحسن ابن كَيْسان : إذا جمعت آلاً قلت آلون ؛ فإن جمعت آلاً الذي هو السراب قلت آوال ؛ مثل مال وأموال .

السادسة : قوله تعالى : ﴿ فِرْعَوْنَ ﴾ "فرعون" قيل : إنه اسم ذلك المَلِك بعينه .

وقيل إنه اسم كل ملك من ملوك العمالقة ؛ مثل كسرى للفرس ، وقَيْصر للروم ، والنجاشي للحبشة .

وإن اسم فرعون موسى : قابوس ؛ في قول أهل الكتاب .

وقال وهب : اسمه الوليد بن مصعب بن الرّيان ، ويكنى أبا مُرّة وهو من بني عمليق بن لاوذ بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام .

قال السهيليّ : وكل من وَلِي القبط ومصر فهو فرعون .

وكان فارسيًّا من أهل اصْطَخْر .

قال المسعودي : لا يعرف لفرعون تفسير بالعربية .

قال الجوهري : فرعون لقب الوليد بن مصعب ملك مصر ؛ وكل عاتٍ فرعون .

والعتاة : الفراعنة ؛ وقد تفرعن ، وهو ذو فرعنة ؛ أي دهاء ونكر .

وفي الحديث : "أخذنا فرعون هذه الأمة" "وفرعون" في موضع خفض إلا أنه لا ينصرف لعُجْمته .

السابعة : قوله تعالى : ﴿ يَسُومُونَكُمْ ﴾ قيل : معناه يذيقونكم ويلزمونكم إياه .

وقال أبو عبيدة : يُولُونكم ؛ يقال : سلمه خُطّة خَسْف إذا أوْلاه إياها ؛ ومنه قول عمرو بن كُلثوم :

إذا ما المَلْك سام الناسَ خَسْفاً . . .

أَبينا أن نُقرّ الخسف فينا

وقيل : يديمون تعذيبكم .

والسَّوْم : الدوام ؛ ومنه سائمة الغنم لمداومتها الرَّعْي .

قال الأخفش : وهو في موضع رفع على الابتداء ، وإن شئت كان في موضع نصب على الحال ؛ أي سائمين لكم .

(195/50)

الثامنة : قوله تعالى : ﴿ سواء العذاب ﴾ مفعول ثان ل " يسومونكم " ومعناه أشدّ العذاب .

ويجوز أن يكون بمعنى سوم العذاب .

وقد يجوز أن يكون نعتاً ؛ بمعنى سوماً سيئاً .

فروي أن فرعون جعل بني إسرائيل خَدَماً وخَوَلاً وصنفهم في أعماله ؛ فصِنف يبنون ، وصِنف يحرثون ويزرعون ، وصِنف يتخدّمون وكان قومه جنداً ملوكاً ومن لم يكن منهم في عمل من هذه الأعمال ضُربت عليه الجِزْية ؛ فذلك سوء العذاب .

التاسعة : قوله تعالى : ﴿ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ ﴾ "يذبّحون" بغير واو على البدل من قوله : " يسومونكم" كما قال أنشده سيبويه :

مَتَى تأتنا تُلْمِم بنا في ديارنا . . .

تجد حطباً جَزْلاً ونارا تأجّجَا

قال الفَرّاء وغيره : "يذبحون" بغير واو على التفسير لقوله : ﴿ يَسُومُونَكُمْ سواء العذاب ﴾ كما تقول : أتاني القوم زيد وعمرو ؛ فلا تحتاج إلى الواو في زيد ؛ ونظيره : ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذلك يَلْقَ أَثَاماً يُضَاعَفْ لَهُ العذاب ﴾ [الفرقان : 68 69] ، وفي سورة إبراهيم : ﴿ يُذَبِّحُونَ ﴾ بالواو ، لأن المعنى يعذّبونكم بالذّبح وبغير الذّبح .

فقوله : ﴿ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ ﴾ جنس آخر من العذاب ، لا تفسير لما قبله .

والله أعلم .

قلت : قد يحتمل أن يقال : إن الواو زائدة بدليل سورة " البقرة" والواو قد تزاد ، كما قال :

فلمّا أجزنا ساحة الحيّ وانتحى . . .

أي قد انتحى .

وقال آخر :

إلى المَلِك القَرْم وابن الهمام . . .

وليثِ الكتيبة في المُزْدحم

أراد إلى الملك القرم ابن الهمام ليث الكتيبة ؛ وهو كثير .

العاشرة : قوله تعالى : ﴿يُذَبِّحُونَ﴾ قراءة الجماعة بالتشديد على التكثير .

وقرأ ابن مُحَيْصِن "يَذْبَحون" بفتح الباء .

والذَّبح : الشّق .

والذِّبح : المذبوح .

والذُّبَاح : تشقق في أصول الأصابع .

وذبحت الدَّن : بزلته ؛ أي كشفته .

وسعدُ الذّابحُ : أحد السعود .

والمذابح : المحاريب .

والمذابح : جمع مذبح ، وهو إذا جاء السيل فخَدَّ في الأرض ، فما كان كالشبر ونحوه سمي مذبحاً .

فكان فرعون يَذْبح الأطفال ويُبقي البنات ، وعبّر عنهم باسم النساء بالمآل .

وقالت طائفة : " يذبّحون أبناءكم" يعني الرجال ، وسُمُّوا أبناء لما كانوا كذلك ؛ واستدل هذا القائل بقوله : " نِساءكم" .

والأوّل أصح ؛ لأنه الأظهر ، والله أعلم .

الحادية عشرة : نسب الله تعالى الفعل إلى آل فرعون ؛ وهم إنما كانوا يفعلون بأمره وسلطانه ؛ لتولّيهم ذلك بأنفسهم ؛ وليعلم أن المباشر مأخوذ بفعله .

قال الطبريّ : ويقتضي أن من أمره ظالم بقتل أحد فقتله المأمور فهو المأخوذ به .

قلت : وقد اختلف العلماء في هذه المسألة على ثلاثة أقوال : يُقتلان جميعاً ، هذا بأمره والمأمور بمباشرته .

هكذا قال النّخعِيّ ؛ وقاله الشافعيّ ومالك في تفصيل لهما .

قال الشافعي : إذا أمر السلطان رجلا بقتل رجل والمأمور يعلم أنه أمر بقتله ظُلماً كان عليه وعلى الإمام القَوَد كفاتَلَين معاً ، وإن أكرهه الإمام عليه وعلم أنه يقتله ظلما كان على الإمام القَوَد .

وفي المأمور قولان : أحدهما : أن عليه القَوَد .

والآخر لا قَوَد عليه وعليه نصف الدِّيَة ؛ حكاه ابن المنذر .

وقال علماؤنا : لا يخلو المأمور أن يكون ممن تلزمه طاعة الآمر ويخاف شره كالسلطان والسيد لعبده ، فالقَوَد في ذلك لازم لهما ؛ أو يكون ممن لا يلزمه ذلك فيُقتَل المباشرُ وحده دون الآمر ؛ وذلك كالأب يأمر ولده ، أو المعلّم بعضَ صبيانه ، أو الصانع بعضَ متعلّميه إذا كان مُحْتَلِماً ؛ فإن كان غير محتلم فالقتل على الآمر ، وعلى عاقلة الصبيّ نصف الدية .

وقال ابن نافع : لا يقتل السيد إذا أمر عبده وإن كان أعجمِياً بقتل إنسان .

قال ابن حبيب : وبقول ابن القاسم أقول إن القتل عليهما .

فأما أمر من لا خوف على المأمور في مخالفته فإنه لا يلحق بالإكراه بل يُقتل المأمور دون الآمر ، ويُضرب الآمر ويُحبس .

(197/50)

وقال أحمد في السيّد يأمر عبده أن يقتل رجلاً : يُقتل السيّد .

وروي هذا القول عن عليّ بن أبي طالب وأبي هريرة رضي الله عنهما .

وقال عليّ : ويُستودع العبد السجن .

وقال أحمد : ويُحبس العبد ويُضرب ويؤدّب .

وقال الثوريّ : يُعَزَّر السيد .

وقال الحكم وحمّاد : يُقتل العبد .

وقال قتادة : يُقتلان جميعاً .

وقال الشافعيّ : إن كان العبد فصيحاً يَعقِل قَتل العبد وعُوقب السيد ؛ وإن كان العبد أعجمِياً فعلى السيّد القَود .

وقال سليمان بن موسى : لا يُقتل الآمر ولكن تُقطع يديه ثم يُعاقب ويُحبس وهو القول الثاني ويقتل المأمور للمباشرة .

كذلك قال عطاء والحكم وحماد والشافعيّ وأحمد وإسحاق في الرجل يأمر الرجلَ بقتل الرجل ؛ وذكره ابن المنذر .

وقال زُفَر : لا يُقتل واحد منهما وهو القول الثالث حكاه أبو المعالي في البرهان ؛ ورأى أن الآمر والمباشر ليس كل واحد منهما مستقلاً في القَوَد ؛ فلذلك لا يُقتل واحد منهما عنده .

والله أعلم .

الثانية عشرة : قرأ الجمهور " يذبّحون" بالتشديد على المبالغة .

وقرأ ابن مُحَيْصِن "يَذْبَحون" بالتخفيف .

والأولى أرجح إذ الذبح متكرر .

وكان فرعون على ما رُوِيَ قد رأى في منامه ناراً خرجت من بيت المَقْدِس فأحرقت بيوت

مصر ؛ فأُوِّلت له رؤياه : أن مولوداً من بني إسرائيل ينشأ فيكون خراب ملكه على يديه .

وقيل غير هذا ؛ والمعنى متقارب .

الثالثة عشرة : قوله تعالى : ﴿ وَفِي ذَلِكُمْ ﴾ إشارة إلى جملة الأمر ، إذ هو خبر فهو كمفرد حاضر ؛ أي وفي فعلهم ذلك بكم بلاء ، أي امتحان واختبار .

و ﴿ بلاء ﴾ نعمة ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلِيُبْلِيَ المؤمنين مِنْهُ بلاء حَسَناً ﴾ [الأنفال : 17] .

قال أبو الهيثم : البلاء يكون حَسَناً ويكون سيئاً ، وأصله المِحنة ؛ والله عز وجل يبلو عبده بالصنع الجميل ليمتحن شكره ، ويبلوه بالبلوَى التي يكرهها ليمتحن صبره ؛ فقيل للحَسَن بلاء ، وللسّيىء بلاء ؛ حكاه الهَرَوِيّ .

(198/50)

وقال قوم : الإشارة ب " ذلكم " إلى التنجية ؛ فيكون البلاء على هذا في الخير ، أي تنجيتكم نعمة من الله عليكم .

وقال الجمهور : الإشارة إلى الذبح ونحوه ، والبلاء هنا في الشر ؛ والمعنى : وفي الذبح مكروه وامتحان .

وقال ابن كَيْسان : ويقال في الخير أبلاه الله وبلاه ؛ وأنشد :

جزَى اللَّهُ بالإحسان ما فعلا بكم . . .

وأبلاهما خيرَ البلاء الذي يَبْلُو

فجمع بين اللغتين .

والأكثر في الخير أبليته .

وفي الشر بلوته ، وفي الاختبار ابتليته وبلوته ؛ قاله النحاس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 1 صـ 381. 387 ﴾

ومن فوائد الآلوسى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَإِذْ نجيناكم مّنْ ءالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوء العذاب ﴾ وهو على الشائع عطف على ﴿ نِعْمَتِيَ ﴾ [البقرة : 47]

(199/50)

بتقدير : اذكروا كيلا يلزم الفصل بين المعطوفين بأجنبي وهو اتقوا وقد تقدم قبل ما ينفعك هنا ، وقرىء (أنجيناكم) ، و(أنجيتكم) ونسبت الأول للنخعي ، والآل قيل : بمعنى

الأهل وإن ألفه بدل عن هاء ، وإن تصغيره أهيل ، وبعضهم ذهب إلى أن ألفه بدل من همزة ساكنة وتلك الهمزة بدل من هاء ، وقيل : ليس بمعنى الأهل لأن الأهل القرابة والآل من يؤول إليك في قرابة أو رأي أو مذهب ، فألفه بدل من واو ، ولذلك قال يونس في تصغيره : أويل ، ونقله الكسائي نصاً عن العرب ، وروي عن أبي عمر غلام ثغلب إن الأهل القرابة كان لها تابع أولاً ، والآل القرابة بتابعها فهو أخص من الأهل ، وقد خصوه أيضاً بالإضافة إلى أولي الخطر فلا يضاف إلى غير العقلاء ولا إلى من لا خطر له منهم ، فلا يقال آل الكوفة ، ولا آل الحجام وزاد بعضهم اشتراط التذكير فلا يقال آل فاطمة ولعل كل ذلك أكثري وإلا فقد ورد على خلاف ذلك كآل أعوج اسم فرس ، وآل المدينة ، وآل نعم ، وآل الصليب ، وآلك ويستعمل غير مضاف كهُم خير آل ويجمع كأهل فيقال آلون : وفرعون لقب لمن ملك العمالقة ككسرى لملك الفرس ، وقيصر لملك الروم ، وخاقان لملك الترك ، وتبع لملك اليمن ، والنجاشي لملك الحبشة وقال السهيلي : هو اسم لكل من ملك القبط ومصر ، وهو غير منصرف للعلمية والعجمة ، وقد اشتق منه باعتبار ما يلزمه فقيل : تفرعن الرجل إذا تجبر وعتا ، واسم فرعون هذا الوليد بن مصعب قاله ابن إسحاق ، وأكثر المفسرين وقيل : أبوه مصعب بن ريان حكاه ابن جرير ، قيل : قنطوس حكاه مقاتل ، وذكر وهب بن منبه أن أهل الكتابين قالوا : إن اسمه قابوس ، وكنيته أبو مرة وكان من القبط ، وقيل : من بني عمليق

أو عملاق بن لاوز بن ارم بن سام بن نوح عليه السلام ، وهم أمم تفرقوا في البلاد ، وروي أنه من

أهل اصطخر ورد إلى مصر فصار بها ملكاً ، وقيل : كان عطاراً بأصفهان ركبته الديون فدخل مصر وآل أمره إلى ما آل وحكاية البطيخ شهيرة وقد نقلها مولانا مفتي الديار الرومية في " تفسيره" ، والصحيح أنه غير فرعون يوسف عليه السلام ، وكان اسمه على المشهور الريان بن الوليد ، وقد آمن بيوسف ومات في حياته وهو من أجداد فرعون المذكور على قول ، ويؤيد الغيرية أن بين دخول يوسف ودخول موسى عليهما السلام أكثر من أربعمائة سنة ، والمراد ب آل فرعون هنا أهل مصر أو أهل بيته خاصة أو أتباعه على دينه ، وب أنجيناكم أنجينا آباءكم ، وكذا نظائره فلا حجة فيها لتناسخي ، وهذا في كلام العرب شائع كقوله حسان :

ونحن قتلناكم ببدر فأصبحت . . .

عساكركم في الهالكين (تجول)

و(يسومونكم) من السوم ، وأصله الذهاب للطلب ، ويستعمل للذهاب وحده تارة ، ومنه

السائمة ، وللطلب أخرى ، ومنه السوم في البيع ، ويقال : سامه كلفه العمل الشاق ، والسوء مصدر ساء يسوء ، ويراد به السيء ، ويستعمل في كل ما يقبح كأعوذ بالله تعالى من سوء الخلق و(سوء العذاب) أفظعه وأشده بالنسبة إلى سائره ، وهو منصوب على المفعولية ليسومونكم بإسقاط حرف الجر أو بدونه ، والجملة يحتمل أن تكون مستأنفة ، وهي حكاية حال ماضية ، ويحتمل أن تكون في موضع الحال من ضمير ﴿ نجيناكم ﴾ أو ﴿ مّنْ ءالِ فِرْعَوْنَ ﴾ ، وهو الأقرب ، والمعنى يولونكم أو يكلفونكم الأعمال الشاقة ، والأمور الفظيعة أو يرسلونكم إليها ويصرفونكم فيها أو يبغونكم سوء العذاب المفسر بما بعده ، وقد حكي أن فرعون جعل بني إسرائيل خدماً وخولاً ، وصنفهم في الأعمال فصنف يبنون ، وصنف يحرثون ، وصنف يخدمون ومن لم يكن منهم في عمل وضع عليه الجزية يؤديها كل يوم ، ومن غربت عليه الشمس قبل أن يؤديها غلت يده إلى عنقه شهراً ، وجعل النساء يغزلن الكتان ، وينسجن .

(201/50)

﴿ يُذَبّحُونَ أَبْنَاءكُمْ ﴾ جملة حالية أو استئنافية كأنه قيل : ما الذي ساموهم إياه ، فقال : ﴿ يُذَبّحُونَ ﴾ الخ ، ويجوز أن تخرج على إبدال الفعل من الفعل كما في قوله تعالى : ﴿ يَلْقَ

أَثَاماً يضاعف لَهُ العذاب ﴾ [الفرقان : 68 ، 69] ، وقيل : بالعطف وحذف حرفه لآية إبراهيم ، والمحققون على الفرق ، وحملوا ﴿ سُوء العذاب ﴾ فيها على التكاليف الشاقة غير الذبح ، وعطف للتغاير ، واعتبر هناك لا هنا على رأيهم لسبق ﴿ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ الله ﴾ [إبراهيم : 5] ، وهو يقتضي التعداد ، وليس هنا ما يقتضيه ، والأبناء الأطفال الذكور ، وقيل : إنهم الرجال هذا وسموا أبناء باعتبار ما كانوا قبل ، وفي بعض الأخبار أنه قتل أربعين ألف صبي ، وحكي أنه كان يقتل الرجال الذين يخاف منهم الخروج والتجمع لإفساد أمره ، والمشهور حمل الأبناء على الأول ، وهو المناسب المتبادر ، وفي سبب ذلك أقوال وحكايات مختلفة ومعظمها يدل على أن فرعون خاف من ذهاب ملكه على يد مولود من بني إسرائيل ففعل ما فعل ﴿ وَكَانَ أَمْرُ الله قَدَراً مَّقْدُوراً ﴾ [الأحزاب : 38] وقرأ الزهري وابن محيصن : ﴿ يُذَبِّحُونَ ﴾ مخففاً ، وعبد الله : ﴿ يَقْتُلُونَ ﴾ مشدداً ﴿ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ ﴾ عطف على ﴿ يُذَبِّحُونَ ﴾ أي يستبقون بناتكم ويتركونهن حيات ، وقيل : يفتشون في حيائهن ينظرون هل بهن حمل والحياء الفرج لأنه يستحى من كشفه ، والنساء جمع المرأة ، وفي " البحر " إنه جمع تكسير لنسوة على وزن فعلة جمع قلة ، وزعم ابن السراج أنه اسم جمع ، وعلى القولين لم يلفظ له بواحد من لفظه ، وهي في الأصل البالغات دون الصغائر ، فهي على الوجه الأول مجاز باعتبار الأول للإشارة إلى أن استبقاءهم كان لأجل أن يصرن نساءً لخدمتهم ، وعلى الثاني فيه تغليب البالغات

على الصغائر ، وعلى الثالث حقيقة ، وقدم الذبح لأنه أصعب الأمور وأشقها عند الناس وإن كان ذلك الاستحياء أعظم من

(202/50)

القتل لدى الغيور .

﴿ وَفِى ذلكم بَلاء مّن رَّبّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ إشارة إلى التذبيح والاستحياء ، أو إلى الإنجاء ، وجمع الضمير للمخاطبين ، ويجوز أن يشار بذلكم إلى الجملة وأصل البلاء الاختبار ، وإذا نسب إليه تعالى يراد منه ما يجري مجراه مع العباد على المشهور ، وهو تارة يكون بالمسار ليشكروا ، وتارة بالمضار ليصبروا ، وتارة بهما ليرغبوا ويرهبوا فإن حملت الإشارة على المعنى الأول : فالمراد بالبلاء المحنة ، وإن على الثاني : فالمراد به النعمة ، وإن على الثالث : فالمراد به القدر المشترك كالامتحان الشائع بينهما ، ويرجح الأول : التبادر ، والثاني : أنه في معرض الامتنان ، والثالث : لطف جمع الترغيب والترهيب ؛ ومعنى ﴿ مّن رَّبّكُمْ ﴾ من جهته تعالى إما بتسليطهم عليكم أو ببعث موسى عليه السلام وتوفيقه لتخليصكم أو بهما جميعاً ، و(عظيم) صفة (بلاء) وتنكيرهما للتفخيم ، والعظم بالنسبة للمخاطب ، والسامع لا بالنسبة إليه تعالى لأنه العظيم الذي لا يستعظم شيئاً .

ومن باب الإشارة : والتأويل : وإذ نجيناكم من قوى فرعون النفس الأمارة المحجوبة بأنانيتها ، والنظر إلى نفسها المستعلية على إهلاك الوجود ، ومصر مدينة البدن المستعبدة ، وهي وقواها من الوهم ، والخيال ، والغضب ، والشهوة القوى الروحانية التي هي أبناء صفوة الله تعالى يعقوب الروح ، والقوى الطبيعية البدنية من الحواس الظاهرة والقوى النباتية أولئك يكلفونكم المتاعب الصعبة ، والأعمال الشاقة من جمع المال ، والحرص وترتيب الأقوات والملابس وغير ذلك ، ويستعبدونكم بالتفكر فيها والاهتمام بها لتحصل لكم لذة هي في الحقيقة عذاب وذلة لأنها تمنعكم عن مشاهدة الأنوار ، والتمتع بدار القرار ﴿ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءكُمْ ﴾ التي هي القوى الروحانية من القوى النظرية التي هي العين اليمنى للقلب ، والعملية التي هي العين اليسرى له ، والفهم الذي هو سمعه ، والسر الذي هو قلبه ﴿ وَيَسْتَحْيُونَ ﴾ [البقرة : 49] قواكم الطبيعية ليستخدموها ويمنعوها عن أفعالها اللائقة بها .

وفي ذلك الإنجاء نعمة عظيمة من ربّكم المرقي لكم من مقام إلى مقام ومشهد إلى مشهد حتى تصلوا إليه وتحطوا رحالكم بين يديه ، أو في مجموع ذلك امتحان لكم وظهور آثار

الأسماء المختلفة عليكم فاشكروا واصبروا فالكل منه وكل ما فعل المحبوب محبوب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 252. 255 ﴾

(204/50)

ومن فوائد ابن عاشور فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ . . . الآية ﴾

عطف على قوله : ﴿ نعمتي ﴾ [البقرة : 47] فيُجْعل (إذ) مفعولاً به كما هو في قوله تعالى : ﴿ واذكروا إذ كنتم قليلاً فكثركم ﴾ [الأعراف : 86] فهو هنا اسم زمان غير ظرف لفعل والتقدير اذكروا وقت نجيناكم ، ولما غلبت إضافة أسماء الزمان إلى الجمل وكان معنى الجملة بعدها في معنى المصدر وكان التقدير اذكروا وقت إنجائنا إياكم ، وفائدة العدول عن الإتيان بالمصدر الصريح لأن في الإتيان بإذ المقتضية للجملة استحضاراً للتكوين العجيب المستفاد من هيئة الفعل لأن الذهن إذا تصور المصدر لم يتصور إلا معنى الحدث وإذا سمع الجملة الدالة عليه تصور حدوث الفعل وفاعله ومفعوله ومتعلقاته دفعة واحدة فنشأت من ذلك صورة عجيبة ، فوزان الإتيان بالمصدر وزان الاستعارة المفردة ،

وزان الإتيان بالفعل وزان الاستعارة التمثيلية ، وليس هو عطفاً على جملة ﴿ اذكروا ﴾ [البقرة : 47] كما وقع في بعض التفاسير لأن ذلك يجعل (إذ) ظرفاً فيطلب متعلقاً وهو ليس بموجود ، ولا يفيده حرف العطف لأن العاطف في عطف الجمل لا يفيد سوى التشريك في حكم الجملة المعطوف عليها ، وليس نائباً مناب عامل ، ولا يربيك الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه أعني ﴿ وإذ نجيناكم ﴾ بجملة ﴿ واتقوا يوماً ﴾ [البقرة : 48] فتظنه ملجأ لاعتبار العطف على الجملة لما علمت فيما تقدم أن قوله : ﴿ واتقوا ﴾ ناشىء عن التذكير فهو من علائق الكلام وليس بأجنبي ، على أنه ليس في كلام النحاة ما يقتضي امتناع الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه بالأجنبي فإن المتعاطفين ليسا بمرتبة الاتصال كالعامل والمعمول ، وعُدي فعل ﴿ أنجينا ﴾ إلى ضمير المخاطبين مع أن التنجية إنما كانت تنجية أسلافهم لأن تنجية أسلافهم تنجية للخلف فإنه لو بقي أسلافهم في عذاب فرعون لكان ذلك لاحقاً لأخلافهم فذلك كانت منة التنجية منتين : منة على السلف ومنة على الخلف فوجب شكرها على كل جيل منهم ولذلك أوجبت عليهم شريعتهم الاحتفال بما

يقابل أيام النعمة عليهم من أيام كل سنة وهي أعيادهم وقد قال الله لموسى : ﴿ وذكرهم بأيام الله ﴾ [إبراهيم : 5] .

وآل الرجل أهله .

وأصل آل أهل قلبت هاؤه همزة تخفيفاً ليتوصل بذلك إلى تسهيل الهمزة مداً .

والدليل على أن أصله أهل رجوع الهاء في التصغير إذ قالوا : أهيل ولم يسمع أُويل خلافاً للكسائي .

والأهل والآل يراد به الأقارب والعشيرة والموالي وخاصة الإنسان وأتباعه .

والمراد من آل فرعون وَزَعَته ووكلاؤه ، ويختص الآل بالإضافة إلى ذي شأن وشرف دنيوي ممن يعقل فلا يقال آل الجاني ولا آل مكة ، ولما كان فرعون في الدنيا عظيماً وكان الخطاب متعلقاً بنجاة دنيوية من عظيم في الدنيا أطلق على أتباعه آل فلا توقف في ذلك حتى يحتاج لتأويله بقصد التهكم كما أول قوله تعالى : ﴿ أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾ [غافر : 46] لأن ذلك حكاية لكلام يقال يوم القيامة وفرعون يومئذ محقر ، هلك عنه سلطانه .

فإن قلت : إن كلمة أهل تطلق أيضاً على قرابة ذي الشرف لأنها الاسم المطلق فلماذا لم يؤت بها هنا حتى لا يطلق على آل فرعون ما فيه تنويه بهم ؟ قلت : خصوصية لفظ آل هنا أن المقام لتعظيم النعمة وتوفير حق الشكر والنعمة تعظيم بما يحف بها فالنجاة من العذاب وإن كانت نعمة مطلقاً إلا أن كون النجاة من عذاب ذي قدرة ومكانة أعظم لأنه لا يكاد ينفلت

منه أحد .

ولا قرار على زأر من الأسد . . .

وإنما جعلت النجاة من آل فرعون ولم تجعل من فرعون مع أنه الآمر بتعذيب بني إسرائيل تعليقاً للفعل بمن هو من متعلقاته على طريقة الحقيقة العقلية وتنبيهاً على أن هؤلاء الوزعة والمكلفين ببني إسرائيل كانوا يتجاوزون الحد المأمور به في الإعنات على عادة المنفذين فإنهم أقل رحمة وأضيق نفوساً من ولاة الأمور كما قال الراعي يخاطب عبد الملك بن مروان :

إن الذين أمرتهم أن يعدلوا . . .

لم يفعلوا مما أمرت فتيلاً

(206/50)

جاء في التاريخ أن مبدأ استقرار بني إسرائيل بمصر كان سببه دخول يوسف عليه السلام في تربية العزيز طيفار كبير شرط فرعون ، وكانت مصر منقسمة إلى قسمين مصر العليا الجنوبية المعروفة اليوم بالصعيد لحكم فراعنة من القبط وقاعدتها طيوه ، ومصر السفلى وهي الشمالية وقاعدتها منفيس وهي القاعدة الكبرى التي هي مقر الفراعنة وهذه قد

تغلب عليها العمالقة من الساميين أبناء عم ثمود وهم الذين يلقبون في التاريخ المصري بالرعاة الرحالين والهكصوص في سنة 3300 أو سنة 1900 قبل المسيح على خلاف ناشىء عن الاختلاف في مدة بقائهم بمصر الذي انتهى سنة 1700 ق م عند ظهور العائلة الثامنة عشرة ، فكان يوسف عند رئيس شرط فرعون العمليقي ، واسم فرعون يومئذ أبوفيس أو أبيبي وأهل القصص ومن تلقف كلامهم من المفسرين سموه ريّان بن الوليد وهذا من أوهامهم وكان ذلك في حدود سنة 1739 قبل ميلاد المسيح ، ثم كانت سكنى بني إسرائيل مصر بسبب تنقل يعقوب وأبنائه إلى مصر حين ظهر أمر يوسف وصار بيده حكم المملكة المصرية السفلى .

وكانت معاشرة الإسرائيليين للمصريين حسنة زمناً طويلاً غير أن الإسرائيليين قد حافظوا على دينهم ولغتهم وعاداتهم فلم يعبدوا آلهة المصريين وسكنوا جميعاً بجهة يقال لها أرض (جاسان) ومكث الإسرائيليون على ذلك نحواً من أربعمائة سنة تغلب في خلالها ملوك المصريين على ملوك العمالقة وطردوهم من مصر حتى ظهرت في مصر العائلة التاسعة عشرة وملك ملوكها جميع البلاد المصرية ونبغ فيهم رعمسيس الثاني الملقب بالأكبر في حدود سنة 1311 قبل المسيح وكان محارباً باسلاً وثارت في وجهه الممالك التي أخضعها أبوه ومنهم الأمم الكائنة بأطراف جزيرة العرب ، فحدثت أسباب أو سوء ظنون

أوجبت تنكر القبط على الإسرائيليين وكلفوهم أشق الأعمال وسخروهم في خدمة المزارع والمباني وصنع الآجر .

(207/50)

وتقول التوراة إنهم بنوا لفرعون مدينة مخازن (فيثوم) ومدينة (رعمسيس) ثم خشي فرعون أن يكون الإسرائيليون أعواناً لأعدائه عليه فأمر باستئصالهم وكأنه اطلع على مساعدة منهم لأبناء نسبهم من العمالقة والعرب فكان يأمر بقتل أبنائهم وسبي نسائهم وتسخير كبارهم ولا بد أن يكون ذلك لما رأى منهم من التنكر ، أو لأن القبط لما أفرطوا في استخدام العبرانيين علم فرعون أنه إن اختلطت جيوشه في حرب لا يسلم من ثورة الإسرائيليين فأمر باستئصالهم .

وأما ما يحكيه القصاصون أن فرعون أخبره كاهن أن ذهاب ملكه يكون على يد فتى من إسرائيل فلا أحسبه صحيحاً إذ يبعد أن يروج مثل هذا على رئيس مملكة فيفنى به فريقاً من رعاياه ، اللهم إلا أن يكون الكهنة قد أغروا فرعون باليهود قصداً لتخليص المملكة من الغرباء أو تفرسوا من بني إسرائيل سوء النوايا فابتكروا ذلك الإنباء الكهنوتي لإقناع فرعون ، بوجوب الحذر من الإسرائيليين ولعل ذبح الأبناء كان من فعل المصريين استخفافاً باليهود ،

فكانوا يقتلون اليهودي في الخصام القليل كما أنبأت بذلك آية ﴿ فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه ﴾ [القصص : 15] والحاصل أن التاريخ يفيد على الإجمال أن عداوة عظيمة نشأت بين القبط واليهود آلت إلى أن استأصل القبط الإسرائيليين .

ولقد أبدع القرآن في إجمالها إذ كانت تفاصيل إجمالها كثيرة لا يتعلق غرض التذكير ببيانها .

وجملة : ﴿ يسومونكم سوء العذاب ﴾ حال من ﴿ آل فرعون ﴾ يحصل بها بيان ما وقع الإنجاء منه وهو العذاب الشديد الذي كان الإسرائيليون يلاقونه من معاملة القبط لهم .

ومعنى ﴿ يسومونكم ﴾ يعاملونكم معاملة المحقوق بما عومل به يقال سامه خسفاً إذا أذله واحتقره فاستعمل سام في معنى أنال وأعطى ولذلك يعدى إلى مفعولين ليس أصلهما المبتدأ والخبر .

وحقيقة سام عرض السوم أي الثمن .

(208/50)

وسوء العذاب أشده وأفظعه وهو عذاب التسخير والإرهاق وتسليط العقاب الشديد بتذبيح الأبناء وسبي النساء والمعنى يذبحون أبناء آبائكم ويستحيون نساء قومكم الأولين .

والمراد من الأبناء قيل أطفال اليهود وقيل : أريد به الرجال بدليل مقابلته بالنساء وهذا الوجه أظهر وأوفق بأحوال الأمم إذ المظنون أن المحق والاستئصال إنما يقصد به الكبار ، ولأنه على الوجه الأول تكون الآية سكتت عن الرجال إلا أن يقال : إنهم كانوا يذبحون الصغار قطعاً للنسل ويسبون الأمهات استعباداً لهن ويبقون الرجال للخدمة حتى ينقرضوا على سبيل التدريج .

وإبقاء الرجال في مثل هاته الحالة أشد من قتلهم .

أو لعل تقصيراً ظهر من نساء بني إسرائيل مرضعات الأطفال ومربيات الصغار وكان سببه شغلهن بشؤون أبنائهن فكان المستعبِدون لهم إذا غضبوا من ذلك قتلوا الطفل .

والاستحياء استفعال يدل على الطلب للحياة أي يبقونهن أحياء أو يطلبون حياتهن .

ووجه ذكره هنا في معرض التذكير بما نالهم من المصائب أن هذا الاستحياء للإناث كان المقصد منه خبيثاً وهو أن يعتدوا على أعراضهن ولا يَجدن بداً من الإجابة بحكم الأسر والاسترقاق فيكون قوله : ﴿ ويستحيون نساءكم ﴾ كناية عن استحياء خاص ولذلك أدخل في الإشارة في قوله : ﴿ وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم ﴾ ولو كان المراد من الاستحياء ظاهره لما كان وجه لعطفه على تلك المصيبة .

وقيل إن الاستحياء من الحياء وهو الفرج أي يفتشون النساء في أرحامهن ليعرفوا هل بهن حمل وهذا بعيد جداً وأحسن منه أن لو قال إنه كناية كما ذكرنا آنفاً .

وقد حكت التوراة أن فرعون أوصى القوابل بقتل كل مولود ذكر .

وجملة : ﴿ يذبحون أبناءكم ﴾ إلخ بيان لجملة ﴿ يسومونكم سوء العذاب ﴾ فيكون المراد من سوء العذاب هنا خصوص التذبيح وما عطف عليه وهو ﴿ ويستحيون نساءكم ﴾ لما عرفت فكلاهما بيان لسوء العذاب فكان غير ذلك من العذاب لا يعتد به تجاه هذا .

(209/50)

ولك أن تجعل الجملة في موضع بدل البعض تخصيصاً لأعظم أحوال سوء العذاب بالذكر وهذا هو الذي يطابق آية سورة إبراهيم (6) التي ذكر فيها ﴿ ويذبحون أبناءكم بالعطف على سوء العذاب ﴾ وليس قوله ﴿ ويستحيون ﴾ مستأنفاً لإتمام تفصيل صنيع فرعون بل هو من جملة البيان أو البدل للعذاب ويدل لذلك قوله تعالى في الآية الأخرى : ﴿ يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين ﴾ [القصص : 4] فعقب الفعلين بقوله : ﴿ إنه كان من المفسدين ﴾ .

والبلاء الاختبار بالخير والشر قال تعالى : ﴿ وبلوناهم بالحسنات والسيئات ﴾ [الأعراف : 168] وهو مجاز مشهور حقيقته بلاء الثوب بفتح الباء مع المد وبكسرها مع القصر وهو تخلقه وترهله ولما كان الاختبار يوجب الضجر والتعب سمي بلاء كأنه يُخلق

النفس ، ثم شاع في اختبار الشر لأنه أكثر إعناتاً للنفس ، وأشهر استعماله إذا أطلق أن يكون للشر فإذا أرادوا به الخير احتاجوا إلى قرينة أو تصريح كقول زهير :

لاجزى الله بالإحسانِ ما فعلا بكم . . .

وأبلاهما خير البلاء الذي يبلو

فيطلق غالباً على المصيبة التي تحل بالعبد لأن بها يختبر مقدار الصبر والأناة والمراد هنا المصيبة بدليل قوله ﴿ عظيم ﴾ .

وقيل أراد به الإنجاء والبلاء بمعنى اختبار الشكر وهو بعيد هنا .

وتعلق الإنجاء بالمخاطبين لأن إنجاء سلفهم إنجاء لهم فإنه لو أبقى سلفهم هنالك للحق المخاطبين سوء العذاب وتذبيح الأبناء ، أو هو على حذف مضاف أي نجينا آباءكم ، أو هو تعبير عن الغائب بضمير الخطاب إما لنكتة استحضار حاله وإما لكون المخاطبين مثالهم وصورتهم فإن ما يثبت من الفضائل لآباء القبيلة يثبت لأعقابهم فالإتيان بضمير المخاطب على خلاف مقتضى الظاهر على حد ما يقال في قوله تعالى : ﴿ إنا لما طغا الماء حملناكم في الجارية ﴾ [الحاقة : 11] فالخطاب ليس بالتفات لأن اعتبار أحوال القبائل يعتبر للخلف ما ثبت منه للسلف . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 1 صـ 472. 477 ﴾

(210/50)

"لطيفة"

قال السيوطى :

السوء يأتي على أوجه

1 – الشدة يسومونكم سوء العذاب

2 – والعقر ولا تمسوها بسوء

3 – والزنى ما جزاء من أراد بأهلك سوءا ما كان أبوك امرأ سوء

4 – والبرص بيضاء من غير سوء

5 – والعذاب إن الخزي اليوم والسوء

6 والشرك ما كنا نعمل من سوء

7 – والشتم لا يحب الله الجهر بالسوء وألسنتهم بالسوء

8 – والذنب يعملون السوء بجهالة

9 – وبمعنى بئس ولهم سوء الدار

10 – والضر ويكشف السوء وما مسني السوء

11 – والقتل والهزيمة لم يمسسهم سوء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الإتقان في علوم القرآن حـ 1 صـ 412.411 ﴾

ومن فوائد صاحب المنار فى الآية الكريمة

قال رحمه الله :

(وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ)

هَذِهِ الْآيَةُ كَالَّتِي قَبْلَهَا وَاللَّوَاتِي بَعْدَهَا تَفْصِيلٌ لِنِعْمَةِ اللهِ عَلَى شَعْبِ إِسْرَائِيلَ الَّتِي ذُكِرَتْ مِنْ قَبْلُ مُجْمَلَةً ، وَابْتُدِئَ التَّفْصِيلُ بِذِكْرِ التَّفْضِيلِ لِمَا تَقَدَّمَ مِنَ الْحِكْمَةِ فِي ذِكْرِهِ ، وَهُوَ نُهُوضُ الْهِمَّةِ إِلَى التَّخَلُّقِ بِالْأَخْلَاقِ الْفَاضِلَةِ وَالتَّرَفُّعِ عَنِ الرِّضَا بِمَا دُونَ الْمَقَامِ الَّذِي رَفَعَهُمُ اللهُ إِلَيْهِ ، وَتَوْطِينِ النَّفْسِ لِقَبُولِ الْمَوْعِظَةِ إِلَى آخِرِ مَا تَقَدَّمَ . ثُمَّ ذَكَّرَهُمْ بِمَا حَلَّ بِهِمْ مِنَ الْبَلَاءِ وَالْعُقُوبَاتِ جَزَاءً عَلَى جَرَائِمِهِمْ ، وَبِلُطْفِ اللهِ – تَعَالَى – بِهِمْ وَإِنْجَائِهِمْ مِنَ الْبَلَاءِ وَتَوْبَتِهِ عَلَيْهِمُ الْمَرَّةَ بَعْدَ الْمَرَّةِ لِيُعَرِّفَهُمْ مِقْدَارَ فَضْلِهِ وَعُقُوبَتِهِ مَعًا .

وَالْآيَةُ مَعْطُوفَةٌ عَلَى مَا قَبْلَهَا مِنْ سِلْسِلَةِ الذِّكْرَيَاتِ فَقَوْلُهُ : (وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ) عَطْفُ تَفْصِيلٍ عَلَى الْإِجْمَالِ فِي قَوْلِهِ : (اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ) أَيْ : نِعَمِيَ الْكَثِيرَةَ ؛ لِأَنَّ الْمُفْرَدَ الْمُضَافَ يُفِيدُ الْعُمُومَ ، أَيْ : وَاذْكُرُوا إِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ ،

(212/50)

وَفِرْعَوْنُ لَقَبٌ لِمَنْ تَوَلَّى مُلْكَ مِصْرَ قَبْلَ الْبَطَالِسَةِ ، وَإِلَهُ خَاصَّتِهِ ، وَقَدْ يُطْلَقُ عَلَى قَوْمِهِ قُدَمَاءِ الْمِصْرِيِّينَ ، وَلَمَّا كَانَتِ التَّنْجِيَةُ لَا تَكُونُ إلَّا مِنْ ظُلْمٍ أَوْ شَرٍّ ، بَيَّنَ مَا نَجَّاهُمْ مِنْهُ بِقَوْلِهِ : (يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ) أَيْ : يُكَلِّفُونَكُمْ وَيَبْغُونَكُمْ مَا يَسُوءُكُمْ وَيُذِلُّكُمْ مِنَ الْعَذَابِ ، ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ (يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ) أَيْ : يَقْتُلُونَ ذُكْرَانَ نَسْلِكُمْ ، وَيَسْتَبْقُونَ إنَاثَهُ أَحْيَاءً لِإِضْعَافِكُمْ وَإِذْلَالِكُمْ الْمُفْضِي إلَى قَطْعِ نَسْلِكُمْ وَإِبَادَتِكُمْ (وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ) أَيْ : وَفِي ذَلِكُمْ الْعَذَابِ وَفِي التَّنْجِيَةِ مِنْهُ – فِي كُلٍّ مِنْهُمَا – بَلَاءٌ وَامْتِحَانٌ عَظِيمٌ لَكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ ، كَمَا قَالَ فِي آيَةٍ أُخْرَى : (وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) (7 : 168) .

(213/50)

(قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ) فِي هَذِهِ الْآيَةِ بَعْدَ قِرَاءَةِ عِبَارَةِ الْجَلَالِ مَا مِثَالُهُ : خَاطَبَ الَّذِينَ كَانُوا فِي زَمَنِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بِمَا كَانَ لِآبَائِهِمْ ؛ لِأَنَّ الْإِنْعَامَ عَلَى أُمَّةٍ بِعُنْوَانِ أَنَّهَا

أُمَّةً كَذَا ، هُوَ إِنْعَامٌ شَامِلٌ لِلْأُمَّةِ مَنْ أَصَابَهُ ذَلِكَ الْإِنْعَامُ مِنْ أَفْرَادِهَا وَمَنْ لَمْ يُصِبْهُ ، وَيَصِحُّ الِامْتِنَانُ بِهِ عَلَى اللَّاحِقِينَ مِنْهُمْ وَالسَّابِقِينَ ، كَمَا يَصِحُّ الْفَخْرُ بِهِ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ، كَمَا أَنَّ الْإِنْعَامَ عَلَى شَخْصٍ بِشَيْءٍ يَخْتَصُّ بِعُضْوٍ مِنْ أَعْضَائِهِ كَلُبُوسٍ يَلْبَسُهُ ، أَوْ لِذِيذِ طَعَامٍ يَطْعَمُهُ ، يَكُونُ إِنْعَامًا عَلَى الشَّخْصِ ، وَلَا يُقَالُ : إِنَّهُ إِنْعَامٌ عَلَى لِسَانِ فُلَانٍ وَلَا عَلَى رَأْسِهِ ، أَوْ يَدِهِ أَوْ رِجْلِهِ ، وَلِأَنَّ مَا وَصَلَ إلَى مُجْتَمَعٍ بِعُنْوَانِ ذَلِكَ الِاجْتِمَاعِ وَالرَّابِطَةِ الَّتِي رَبَطَتْ أَفْرَادَهُ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ يَكُونُ لَهُ أَثَرٌ فِي مَجْمُوعِ الْأَفْرَادِ ، لَا سِيَّمَا إذَا كَانَ الْوَاصِلُ مِنْ نِقْمَةٍ أَوْ نِعْمَةٍ مُسَبَّبًا عَنْ عَمَلِ الْأُمَّةِ شَرًّا أَوْ خَيْرًا ، وَيَكُونُ لِذَلِكَ أَثَرٌ فِي الْأُمَّةِ يُورِثُهُ السَّلَفُ الْخَلَفَ مَا بَقِيَتِ الْأُمَّةُ ، وَأَنْوَاعُ الْبَلَاءِ الَّتِي ذَكَّرَهَا بِهَا الْيَهُودَ فِي الْقُرْآنِ كَانَتْ لِشَعْبِ إسْرَائِيلَ مِنْ حَيْثُ هُوَ شَعْبُ إسْرَائِيلَ ؛ لِأَنَّ الْجَرَائِمَ الَّتِي كَانَ الْبَلَاءُ عُقُوبَةً عَلَيْهَا إنَّمَا كَانَتْ مِنْ مَجْمُوعِ الشَّعْبِ ، مِنْ حَيْثُ هُوَ شَعْبُ إسْرَائِيلَ . ثُمَّ إنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - كَانَ يَتُوبُ عَلَى الشَّعْبِ بَعْدَ كُلِّ بَلَاءٍ وَيُفِيضُ

(214/50)

عَلَيْهِ النِّعَمَ ؛ فَتَكُونُ الْعُقُوبَةُ تَرْبِيَةً وَتَعْلِيمًا تُفِيدُ الْمُعْتَبِرِينَ بِهَا نِعْمَةً وَسَعَادَةً .

لَا أَقُولُ : إنَّ هَذَا الْخِطَابَ إيمَاءٌ أَوْ إشَارَةٌ لِلْمُخَاطَبِينَ بِأَنْ يَسْتَحْضِرُوا تَارِيخَ أُمَّتِهِمُ الْمَاضِيَ لِيَتَذَكَّرُوا صُنْعَ اللَّهِ - تَعَالَى - فِيهِمْ فَيَعْتَبِرُوا بِمَا أَصَابَهُمْ مِنْ نَعْمَاءَ وَضَرَّاءَ ، وَسَعَادَةٍ

وَشَقَاءٍ ، وَيَتَفَكَّرُوا فِيمَا حَلَّ بِهِمْ مِنْ بَعْدِهِمْ ، وَمَا يُنْتَظَرُ أَنْ يَحِلَّ بِهِمْ ، وَإِنَّمَا الْكَلَامُ نَصٌّ صَرِيحٌ لَا يَحْتَاجُ إِلَى التَّأْوِيلِ ؛ فَالرَّوَابِطُ الِاجْتِمَاعِيَّةُ بَيْنَ أَفْرَادِ الْأُمَمِ وَجَمَاعَاتِهَا كَالرَّوَابِطِ الْحَيَوِيَّةِ بَيْنَ أَعْضَاءِ الشَّخْصِ الْوَاحِدِ بِلَا فَرْقٍ . تَعَثُّرُ الرِّجْلِ فَتُخْدَشُ أَوْ تُوثَأُ ، وَالْأَلَمُ يُلِمُّ بِالشَّخْصِ كُلِّهِ مِنْ حَيْثُ هُوَ شَخْصٌ حَيٌّ بِحَيَاةٍ وَاحِدَةٍ تَسْتَوِي فِيهَا رِجْلُهُ وَسَائِرُ أَعْضَائِهِ ؛ وَلِذَلِكَ يَسْعَى بِجُمْلَتِهِ لِإِزَالَةِ أَلَمِ الرِّجْلِ ، وَيَتَوَقَّى أَسْبَابَ الْعِثَارِ بَعْدَ ذَلِكَ مُسْتَعِينًا بِكُلِّ أَعْضَائِهِ وَقُوَاهُ .

(215/50)

عَلَّمَنَا اللهُ – تَعَالَى – هَذَا بِمَا قَصَّ عَلَيْنَا مِنْ أَخْبَارِ الْأُمَمِ ، وَأَنْعَمَ عَلَى أُمَّتِنَا – الَّتِي لَا تَخْتَصُّ بِشَعْبٍ وَلَا جِنْسٍ – بِهَذَا الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فَكَانَ لَهُمْ بِهِ نِعَمٌ لَا تُحْصَى تُعْرَفُ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، مِنْهَا أَنَّهُمْ كَانُوا أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ فَأَصْبَحُوا بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ، وَمِنْهَا أَنَّهُمْ كَانُوا مُسْتَضْعَفِينَ فَمَكَّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَأَوْرَثَهُمْ أَرْضَ الشُّعُوبِ الْقَوِيَّةِ وَدِيَارَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمُ السُّلْطَانَ عَلَيْهِمْ ، وَمِنْهَا أَنَّهُ جَعَلَهُمْ أُمَّةً وَسَطًا لَا تَفْرِيطَ عِنْدَهَا وَلَا إِفْرَاطَ ؛ لِيَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ الَّذِينَ غَلَوْا وَأَفْرَطُوا ، وَالَّذِينَ قَصَّرُوا وَفَرَّطُوا ، ثُمَّ لَمَّا كَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ أَنْزَلَ بِهَا أَلْوَانًا مِنَ الْبَلَاءِ وَالنِّقَمِ بِعُنْوَانِ الْأُمَّةِ . فَإِنَّ التَّتَارَ إِنَّمَا نَكَّلُوا بِهَا وَتَبَّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ؛

لِأَنَّهَا الْأُمَّةُ الْإِسْلَامِيَّةُ ، ثُمَّ زَحَفَ عَلَيْهَا الْغَرْبِيُّونَ أَيَّامَ حُرُوبِ الصَّلِيبِ وَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ ؛ لِأَنَّهَا الْأُمَّةُ الْإِسْلَامِيَّةُ ،

ثُمَّ إِنَّ الْفِتَنَ لَا تَزَالُ تَحُلُّ بِدِيَارِهِمْ ، وَتُنْقِصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ، وَسَوْطُ عَذَابِ اللهِ يُصَبُّ عَلَيْهَا بِعُنْوَانِ الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، وَقَدْ مَرَّتْ عَلَيْهَا قُرُونٌ وَهِيَ لَا تَعْتَبِرُ بِمَا مَضَى ، وَلَا تَتَرَبَّى بِمَا حَضَرَ ، بَلْ جَهِلَتِ الْمَاضِيَ فَحَارَتْ فِي الْحَاضِرِ ، لَا تَعْرِفُ سَبَبَهُ وَلَا الْمَخْرَجَ مِنْهُ .

(216/50)

أَلَيْسَ مِنَ الْعَجِيبِ أَنَّ الْجُمْهُورَ الْأَعْظَمَ مِنَ الْمُشْتَغِلِينَ بِالْعِلْمِ مِنْهَا هُمْ أَجْهَلُهَا بِتَارِيخِهَا ، لَا يَعْرِفُونَ شَيْئًا مِنْ مَاضِيهَا وَلَا حَاضِرِهَا ؟ وَلَكِنَّهُمْ يَعْتَرِفُونَ بِأَنَّ الْأُمَّةَ فِي بَلَاءٍ كَبِيرٍ ، وَيَعْتَذِرُونَ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ عَنْ مَعْرِفَةِ الْأَسْبَابِ ، وَيَكِلُونَ إِلَى الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ النَّجَاةَ مِنْهُ أَوِ الْبَقَاءَ فِيهِ .

إِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ وَإِنِ اخْتَلَفَتْ دِيَارُهَا وَتَعَدَّدَتْ أَجْنَاسُهَا ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ تُعْرَفَ حَقِيقَتَهَا إِلَّا بَعْدَ مَعْرِفَةِ تَارِيخِهَا الْمَاضِي ، فَلَا بُدَّ مِنْ تَتَبُّعِ السَّوَاقِي وَالْجَدَاوِلِ إِلَى الْيَنْبُوعِ الْأَوَّلِ الَّذِي هُوَ الْأَصْلُ .

كَانَ سَلَفُنَا - رَضِيَ اللهُ - تَعَالَى - عَنْهُمْ - يَضْبِطُونَ أَحْوَالَ مَنْ قَبْلَهُمْ مِنْ أُمُورِ الدِّينِ وَالدُّنْيَا

(217/50)

بِكُلِّ اعْتِنَاءٍ وَدِقَّةٍ ، حَتَّى كَانُوا يَرْوُونَ الْبَيْتَ مِنَ الشِّعْرِ أَوِ النُّكْتَةَ بَيْنَ الْعَاشِقِ وَمَعْشُوقَتِهِ بِالْأَسَانِيدِ الْمُتَّصِلَةِ ، وَلَيْسَتْ هَذِهِ الْمُبَالَغَةُ مِمَّا يُؤْخَذُ عَلَيْهِمْ ؛ فَإِنَّ الْأُمَّةَ إِنَّمَا تَكُونُ أُمَّةً بِدِينِهَا وَلُغَتِهَا وَأَخْلَاقِهَا وَعَادَاتِهَا ، فَإِذَا لَمْ يَحْفَظْ خَلَفُهَا عَنْ سَلَفِهَا هَذِهِ الْمُقَوِّمَاتِ بِحِفْظِ تَارِيخِهَا ، تَكُونُ عُرْضَةً لِلتَّغَيُّرِ بِتَأْثِيرِ حَوَادِثِ الزَّمَانِ ، وَتَقَلُّبَاتِ شُئُونِ الِاجْتِمَاعِ مَعَ جَهْلِ الْمُتَأَخِّرِ بِمَا كَانَ عَلَيْهِ الْمُتَقَدِّمُ ، وَبِكَيْفِيَّةِ حُدُوثِ التَّغْيِيرِ الضَّارِّ لِلْجَهْلِ بِالتَّارِيخِ ، بِهَذَا تَفْعَلُ فَوَاعِلُ الْكَوْنِ بِالْأُمَّةِ الْجَاهِلَةِ أَفَاعِيلَهَا حَتَّى تَقْلِبَ كِيَانَهَا ، وَتُقَوِّضَ بُنْيَانَهَا ، وَتَقْطَعَ عُرَى الرُّبُطِ الْعَامَّةِ بَيْنَ أَفْرَادِهَا ، فَلَا يَكُونُ لَهُمْ عَمَلٌ إِلَّا لِلْمَصْلَحَةِ الشَّخْصِيَّةِ ، وَهِيَ لَا حِفَاظَ لَهَا فِي مَجْمُوعِ الْأُمَّةِ إِلَّا بِالْمَصْلَحَةِ الْعَامَّةِ ، فَإِذَا أَهْمَلَتْ تَكُونُ الْأُمَّةُ مِنَ الْهَالِكِينَ .

(218/50)

عُنِيَتْ أُمَّتُنَا بِالتَّارِيخِ عِنَايَةً لَمْ تَسْبِقْهَا بِهِ أُمَّةٌ ، فَلَمْ تَكْتَفِ بِضَبْطِ الْوَقَائِعِ وَتُلْقِيهَا بِالرِّوَايَةِ كَالسُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ ، بَلْ تَفَنَّنَتْ فِيهَا فَصَنَّفَتْ فِي تَارِيخِ الْأَشْخَاصِ كَمَا صَنَّفَتْ فِي تَارِيخِ الْبِلَادِ وَالشُّعُوبِ ، ثُمَّ نَوَّعَتْ تَارِيخَ الْأَشْخَاصِ فَجَعَلَتْ لِكُلِّ طَبَقَةٍ تَارِيخًا ، فَنَرَى فِي الْمَكَاتِبِ طَبَقَاتِ الْمُفَسِّرِينَ ، وَطَبَقَاتِ الْمُحَدِّثِينَ ، وَطَبَقَاتِ النَّحْوِيِّينَ ، وَطَبَقَاتِ الْأَطِبَّاءِ ، وَطَبَقَاتِ الشُّعَرَاءِ ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ .

ثُمَّ اهْتَدَى بَعْضُهُمْ إِلَى اسْتِنْبَاطِ قَوَاعِدِ الْعُمْرَانِ وَأُصُولِ الِاجْتِمَاعِ مِنَ التَّارِيخِ فَصَنَّفَ ابْنُ خَلْدُونَ فِي ذَلِكَ مُقَدِّمَةَ تَارِيخِهِ ، وَلَوْ لَمْ تَنْقَطِعْ بِنَا سِلْسِلَةُ الْعِلْمِ مِنْ ذَلِكَ الْعَهْدِ لَكُنَّا أَتْمَمْنَا مَا بَدَأَ بِهِ سَلَفُنَا ، وَلَكِنَّنَا تَرَكْنَاهُ وَسَبَقَنَا غَيْرُنَا إِلَى إِتْمَامِهِ وَاسْتِثْمَارِهِ ؛ فَالتَّارِيخُ هُوَ الْمُرْشِدُ الْأَكْبَرُ لِلْأُمَمِ الْعَزِيزَةِ

(219/50)

الْيَوْمَ إِلَى مَا هِيَ فِيهِ مِنْ سَعَةِ الْعُمْرَانِ وَعِزَّةِ السُّلْطَانِ ، وَكَانَ الْقُرْآنُ هُوَ الْمُرْشِدُ الْأَوَّلُ لِلْمُسْلِمِينَ إِلَى الْعِنَايَةِ بِالتَّارِيخِ وَمَعْرِفَةِ سُنَنِ اللهِ فِي الْأُمَمِ مِنْهُ ، وَكَانَ الِاعْتِقَادُ بِوُجُوبِ حِفْظِ السُّنَّةِ وَسِيرَةِ السَّلَفِ هُوَ الْمُرْشِدُ الثَّانِي إِلَى ذَلِكَ ، فَلَمَّا صَارَ الدِّينُ يُؤْخَذُ مِنْ غَيْرِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ أُهْمِلَ التَّارِيخُ ، بَلْ صَارَ مَمْقُوتًا عِنْدَ أَكْثَرِ الْمُشْتَغِلِينَ بِعِلْمِ الدِّينِ ، فَإِنْ وُجِدَ مَنْ

يَلْتَفِتُ إِلَيْهِ ، فَإِنَّمَا يَكُونُ مُتَّبِعًا فِي ذَلِكَ سُنَّةَ قَوْمٍ آخَرِينَ .

نَكْتَفِي الْآنَ بِهَذَا التَّنْبِيهِ وَنَعُودُ إِلَى إِتْمَامِ تَفْسِيرِ الْآيَةِ الَّتِي صَرَفْتَنَا إِلَيْهِ بِمُخَاطَبَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي زَمَنِ تَنْزِيلِ الْقُرْآنِ بِمَا كَانَ مِنْ تَعْذِيبِ آلِ فِرْعَوْنَ لِسَلَفِهِمْ ، وَإِنْعَامِ اللهِ عَلَيْهِمْ بِالْإِنْجَاءِ مِنْ ذَلِكَ الْعَذَابِ .

(220/50)

أَوَّلُ مَنْ دَخَلَ مِصْرَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ هُوَ يُوسُفُ – عَلَيْهِ السَّلَامُ – ، وَانْضَمَّ إِلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ إِخْوَتُهُ وَنَمَا نَسْلُهُ وَنَسْلُهُمْ فِيهَا وَكَثُرَ ، حَتَّى قِيلَ : إِنَّهُمْ كَانُوا يَوْمَ خَرَجُوا مِنْ مِصْرَ سِتَّمِائَةِ أَلْفٍ ، وَهَذَا النُّمُوُّ كَانَ فِي مُدَّةِ أَرْبَعِمِائَةِ سَنَةٍ ، وَكَانَ الْمِصْرِيُّونَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ لَا يُحِبُّونَ مُسَاكَنَةَ الْغُرَبَاءِ ، فَلَمَّا رَأَى فِرْعَوْنُ نُمُوَّ شَعْبِ إِسْرَائِيلَ خَافَ مَغَبَّةَ الْأَمْرِ ؛ لِأَنَّهُ كَانَ يَعْلَمُ أَنَّهُمْ إِذَا كَثُرُوا يَتَبَسَّطُونَ فِي الْأَرْضِ وَيُزَاحِمُونَ الْمِصْرِيِّينَ ، فَطَفِقَ يَسْتَذِلُّهُمْ وَيُكَلِّفُهُمُ الْأَعْمَالَ الشَّاقَّةَ ، كَصُنْعِ الطُّوبِ لِبِنَاءِ الْهَيَاكِلِ وَالْبَرَابِي لِعِلْمِهِ بِأَنَّ الذُّلَّ يُقَلِّلُ النَّسْلَ وَيُفْضِي بِالْأُمَّةِ إِلَى الِانْقِرَاضِ ، وَلَكِنَّهُمْ ظَلُّوا مَعَ الِاسْتِذْلَالِ يَتَنَاسَلُونَ وَيَكْثُرُونَ . فَلَمَّا رَآهُمُ الْحُكَّامُ الْمِصْرِيُّونَ يَزْدَادُونَ نَسْلًا ، وَأَنَّهُمْ مَعَ هَذَا مُحَافِظُونَ عَلَى عَادَاتِهِمْ وَتَقَالِيدِهِمْ ، وَلَا يُمَازِجُونَ الْمِصْرِيِّينَ ، وَعِنْدَهُمُ الْأَثَرَةُ وَالْإِبَاءُ ؛ لِاعْتِقَادِهِمْ أَنَّهُمْ شَعْبُ اللهِ وَأَفْضَلُ خَلْقِهِ ، خَافُوا أَنْ يَقْوَوْا

بِالْكَثْرَةِ فَيَعْدُوا عَلَيْهِمْ وَيَغْلِبُوهُمْ عَلَى بِلَادِهِمْ كُلِّهَا أَوْ بَعْضِهَا ، وَإِنَّمَا كَانُوا يَزْدَادُونَ عَلَى الذُّلِّ نَسْلًا ؛ لِأَنَّ الذُّلَّ لَا يُؤَثِّرُ إِلَّا فِي الزَّمَنِ الطَّوِيلِ ، ذَلِكَ بِأَنَّ الذَّلِيلَ الَّذِي لَا تُطْلَقُ إِرَادَتُهُ فِي أَعْمَالِهِ هُوَ

(221/50)

بِمَنْزِلَةِ الشَّخْصِ الَّذِي يَضْعُفُ عَنْ تَنَاوُلِ الْغِذَاءِ الَّذِي يَمُدُّ حَيَاتَهُ ، فَهُوَ يَذْبُلُ رُوَيْدًا رُوَيْدًا حَتَّى يَنْحَلَ وَيَمُوتَ ، وَالْقُوَّةُ الْمَعْنَوِيَّةُ الَّتِي تَحْفَظُ حَيَاةَ الْأُمَمِ هِيَ قُوَّةُ الْأَرْوَاحِ وَالْإِرَادَاتِ ؛ لِأَنَّ الْجِسْمَ مَحْمُولٌ

بِالرُّوحِ . وَالْعَمَلُ النَّافِعُ إِنَّمَا يَكُونُ بِالْإِرَادَةِ ، فَمَتَى خُذِلَتِ النُّفُوسُ بِالتَّسَلُّطِ عَلَى إِرَادَتِهَا تَبِعَهَا الْجِسْمُ فَيَضْعُفُ بِضَعْفِهَا ، وَالضَّعِيفُ يَأْتِي بِنِتَاجٍ ضَعِيفٍ ، وَيَكُونُ نَسْلُ نِتَاجِهِ أَضْعَفَ مِنْ نَسْلِهِ ، وَيَتَسَلْسَلُ هَكَذَا حَتَّى يَكُونَ مِنْ لَوَازِمِ ضَعْفِ النَّسْلِ إِسْرَاعُ الْمَوْتِ إِلَى صِغَارِهِ قَبْلَ بُلُوغِ سِنِّ الرُّشْدِ ، وَبِهَذَا يَنْقَرِضُ النَّسْلُ ، كَمَا حَصَلَ لِهُنُودِ أَمْرِيكَا وَسُكَّانِ شَمَالِيِّ أُسْتُرَالِيَا .

اسْتَبْطَأَ الْمِصْرِيُّونَ أَثَرَ الِاسْتِذْلَالِ فِي الْإِسْرَائِيلِيِّينَ فَعَمِلُوا عَلَى انْقِرَاضِهِمْ بِقَتْلِ ذُكْرَانِهِمْ ، وَاسْتِحْيَاءِ إِنَاثِهِمْ ، فَأَمَرَ فِرْعَوْنُ الْقَوَابِلَ بِأَنْ يَقْتُلْنَ كُلَّ ذَكَرٍ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ عِنْدَ وِلَادَتِهِ ؛ لِأَنَّ مِنْ

سُنَّةِ اللهِ فِي الْخَلْقِ أَنَّ قِوَامَ الشُّعُوبِ وَالْقَبَائِلِ وَحِفْظَ الْأَجْنَاسِ إِنَّمَا يَكُونُ بِالذُّكُورِ . وَقَالَ مُفَسِّرُنَا (الْجَلَالُ) تَبَعًا لِغَيْرِهِ : إِنَّ سَبَبَ الْعَذَابِ وَتَقْتِيلِ الْأَبْنَاءِ دُونَ الْبَنَاتِ هُوَ أَنَّ بَعْضَ الْكَهَنَةِ أَخْبَرَ فِرْعَوْنَ بِأَنْ سَيُولَدُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَدٌ يَنْزِعُ مِنْهُ مُلْكَهُ ، وَيَكُونُ عَلَى يَدَيْهِ هُلْكُهُ .

(222/50)

(قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ) : وَلَيْسَ لِهَذَا الْقَوْلِ سَنَدٌ صَحِيحٌ وَلَا يُعْرَفُ فِي التَّارِيخِ ، وَمَا قُلْنَاهُ هُوَ الَّذِي يَعْرِفُهُ بَنُو إِسْرَائِيلَ ، وَيَتَنَاقَلُونَهُ فِي كُتُبِهِمُ الْمَعْرُوفَةِ بِالْمُقَدَّسَةِ وَغَيْرِ الْمُقَدَّسَةِ ، وَهُوَ الْمَعْقُولُ فِي نَفْسِهِ أَيْضًا .

(وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)

جَاءَ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ ذِكْرُ تَنْجِيَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ ، وَهُوَ عَلَى كَوْنِهِ تَفْصِيلًا لِمَا قَبْلَهُ مِنْ حَيْثُ التَّذْكِيرِ بِالنِّعَمِ ، مُجْمَلٌ مِنْ حَيْثُ الْإِنْجَاءِ ، فَإِنَّهُ يَشْمَلُ النَّجَاةَ بِجَمِيعِ أَنْوَاعِهَا مِنْ ذَلِكَ الْعَذَابِ ، وَذَكَرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ نِعْمَتَهُ فِي طَرِيقِ الْإِنْجَاءِ

بِالتَّفْصِيلِ بَعْدَ الْإِجْمَالِ لِبَيَانِ عِنَايَةِ اللهِ – تَعَالَى – بِهِمْ فِيهَا ، إِذْ جَعَلَ وَسِيلَتَهُ مِنْ خَوَارِقِ الْعَادَاتِ ، وَجَعَلَ فِي طَرِيقِهِ هَلَاكَ عَدُوِّهِمْ . وَقَدْ يُقَالُ : إِنَّ هَذِهِ نِعْمَةٌ مُسْتَقِلَّةٌ مِنْ نِعَمِهِ – تَعَالَى – عَلَيْهِمْ ، لَا أَنَّهَا بَيَانُ الْإِجْمَالِ فِي الَّتِي قَبْلَهَا .

(223/50)

لَمَّا أَرْسَلَ اللهُ – تَعَالَى – مُوسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ – إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ يَدْعُوهُمْ إِلَى تَوْحِيدِ اللهِ ، وَإِلَى أَنْ يُخَلِّيَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ شَعْبِ إِسْرَائِيلَ بَعْدَ إِطْلَاقِهِمْ مِنْ ذَلِكَ الِاسْتِعْبَادِ وَالتَّعْذِيبِ ، لَمْ يَزِدْهُمْ فِرْعَوْنُ إِلَّا تَعْذِيبًا وَتَعْبِيدًا ، وَفِي سِفْرِ الْخُرُوجِ مِنْ تَارِيخِ التَّوْرَاةِ : أَنَّ اللهَ – تَعَالَى – أَنْبَأَ مُوسَى بِأَنَّهُ يُقَسِّي

(224/50)

قَلْبَ فِرْعَوْنَ فَلَا يُخَفِّفُ الْعَذَابَ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَلَا يُرْسِلُهُمْ مَعَ مُوسَى حَتَّى يُرِيَهُ آيَاتِهِ ، وَأَنَّهُ بَعْدَ الدَّعْوَةِ زَادَ ظُلْمًا وَعُتُوًّا ، فَأَمَرَ الَّذِينَ كَانُوا يُسَخِّرُونَ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْأَعْمَالِ الشَّاقَّةِ بِأَنْ يَزِيدُوا فِي الْقَسْوَةِ عَلَيْهِمْ ، وَأَنْ يَمْنَعُوهُمُ التِّبْنَ الَّذِي كَانُوا يُعْطُونَهُمْ إِيَّاهُ لِعَمَلِ اللَّبِنِ

(الطُّوب) ، وَيُكَلِّفُوهُمْ أَنْ يَجْمَعُوا التِّبْنَ وَيَعْمَلُوا كُلَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَهُ مِنَ اللَّبِنِ ، لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْهُ شَيْءٌ ، فَأَعْطَى اللهُ – تَعَالَى – مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ ، فَحَاوَلَ فِرْعَوْنُ مُعَارَضَتَهَا بِسِحْرِ السَّحَرَةِ ، فَلَمَّا آمَنَ السَّحَرَةُ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ؛ لِعِلْمِهِمْ أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ لَيْسَ مِنَ السِّحْرِ ، وَإِنَّمَا هُوَ تَأْيِيدٌ مِنَ اللهِ – تَعَالَى – ، وَرَأَى مَا رَأَى بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللهِ لِمُوسَى ، سَمَحَ بِخُرُوجِ بَنِي إِسْرَائِيلَ بَلْ طَرَدَهُمْ ، وَفِي سِفْرِ الْخُرُوجِ أَنَّهُمْ خَرَجُوا فِي شَهْرِ أَبِيبٍ ، وَكَانَتْ إِقَامَتُهُمْ فِي مِصْرَ 430 سَنَةٍ . ثُمَّ أَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ، وَأَنْجَى اللهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَأَغْرَقَ فِرْعَوْنَ وَمَنْ مَعَهُ ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ – عَزَّ وَجَلَّ – :

(وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ) . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير المنار حـ 1 صـ 256. 260 ﴾

(225/50)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾

بعد أن حذر الله سبحانه وتعالى بني إسرائيل من يوم لا تنفع فيه الشفاعة . أراد أن يذكرهم

بفضله عليهم وبنعمه . قوله تعالى : " إذ " هي ظرف لشيء وسبق أن قلنا أن الظرف نوعان . لأن كل حدث من الأحداث يحتاج إلى زمان يقع فيه وإلى مكان يقع فيه . وعندما أقول لك إجلس مكانك . هذا الظرف يراد به المكان . وعندما يخاطب الله عز وجل عباده : أذكر إذ فعلت كذا . أي اذكر وقت أن فعلت كذا ظرف زمان . وقول الحق تبارك وتعالى : " وإذ نجيناكم " أي اذكروا الوقت الذي نجاكم فيه من فرعون .

والآية التي نحن بصددها وردت ثلاث مرات في القرآن الكريم . قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ [البقرة : 49]

﴿ وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَونَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ﴾ [الأعراف : 141]

وقوله جل جلاله في سورة إبراهيم : ﴿ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ﴾ [إبراهيم : 6]

الاختلاف بين الأولى والثانية هو قوله تعالى في الآية الأولى : ﴿ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ ﴾ . وفي الثانية : ﴿ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ ﴾ . " ونجينا " في الآية الأولى : " وأنجينا " في الآية الثانية . ما الفرق بين نجينا وأنجينا ؟ هذا هو الخلاف الذي يستحق أن تتوقف عنده . . في سورة البقرة : ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾ . . الكلام هنا من الله . أما في سورة إبراهيم فنجد ﴿ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُمْ ﴾ .

الكلام هنا كلام موسى عليه السلام . ما الفرق بين كلام الله سبحانه وتعالى وكلام موسى ؟ . .

إن كلام موسى يحكي عن كلام الله . إن الله سبحانه وتعالى حين يمتن على عباده يمتن عليهم بقمم النعمة ، ولا يمتن بالنعم الصغيرة . والله تبارك وتعالى حين امتن على بني إسرائيل قال : ﴿ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ﴾ . ولم يتكلم عن العذاب الذي كان يلاقيه قوم موسى من آل فرعون . إنهم كانوا يأخذونهم أجراء في الأرض ليحرثوا وفي الجبال لينحتوا الحجر وفي المنازل ليخدموا . ومن ليس له عمل يفرضون عليه الجزية . ولذلك كان اليهود يمكرون ويسيرون بملابس قديمة حتى يتهاون فرعون في أخذ الجزية منهم . وهذا معنى قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ ﴾ [البقرة : 61]

أي أنهم يتمسكون ويظهرون الذلة حتى لا يدفعوا الجزية . ولكن الحق سبحانه وتعالى لم يمتن

عليهم بأنه أنجاهم من كل هذا العذاب . بل يمتن عليهم بقمة النعمة . وهي نجاة الأبناء من الذبح واستحياء النساء . لأنهم في هذه الحالة ستستذل نساؤهم ورجالهم . فالمرأة لا تجد رجلا يحميها وتنحرف .

كلمة نَجَّى وكلمة أنجى بينهما فرق كبير .

(227/50)

كلمة نَجَّى تكون وقت نزول العذاب . وكلمة أنجى يمنع عنهم العذاب . الأولى للتخليص من العذاب والثانية يبعد عنهم عذاب فرعون نهائيا . ففضل الله عليهم كان على مرحلتين . مرحلة أنه خلصهم من عذاب واقع عليهم . والمرحلة الثانية أنه أبعدهم عن آل فرعون فمنع عنهم العذاب .

قوله تعالى : ﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾ ما هو السوء ؟ إنه المشتمل على ألوان شتى من العذاب كالجلد والسخرة والعمل بالأشغال الشاقة . ما معنى يسوم ؟ يقال سام فلان خصمه أي أذله وأعنته وأرهقه . وسام مأخوذة من سام الماشية تركها ترعى . لذلك سميت بالسام أي المتروكة . وعندما يقال إن فرعون يسوم بني إسرائيل سوء العذاب . معناها أن كل حياتهم ذل وعذاب . . فتجد أن الله سبحانه وتعالى عندما يتكلم عن

حكام مصر من الفراعنة يتكلم عن فراعنة قدماء كانوا في عهد عاد وعهد ثمود . واقرأ قوله تعالى : ﴿ وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ * وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ * هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ * أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ * وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ * الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴾ [الفجر : 1-12]

أي أن الله تبارك وتعالى جاء بحضارة الفراعنة وقدماء المصريين بعد عاد وثمود . وهذا دليل على أن حضارة عاد وثمود قديمة . والله سبحانه وتعالى وصف عادا بأنها التي لم يخلق مثلها في البلاد . أي أنها حضارة أرقى من حضارة قدماء المصريين .

قد يتساءل بعض الناس كيف يصف الله سبحانه وتعالى عادا بأنها التي لم يخلق مثلها في البلاد . مع أنه يوجد الآن حضارات متقدمة كثيرة .

(228/50)

نقول إن الله قد كشف لنا حضارة الفراعنة وآثارهم . ولكنه أخفى عنا حضارة عاد . ولقد وجدنا في حضارة الفراعنة أشياء لم نصل إليها حتى الآن . مثل براعتهم في تحنيط الموتى والمحافظة على الجثث . وبناء الأهرامات وغير ذلك . وبما أن حضارة عاد كانت

أرقى من حضارة الفراعنة . فإنها تكون قد وصلت إلى أسرار مازالت خافية على العالم حتى الآن . ولكنا لا نعرف شيئًا عنها ، لأن الله لم يكشف لنا آثارها .

ولقد تحدث الحق تبارك وتعالى عن الفراعنة باسم فرعون . وتكلم عنهم في أيام موسى باسم آل فرعون . ولكن الزمن الذي كان بين عهدي يوسف وموسى لم يسم ملك مصر فرعون ، إنما سماه العزيز الذي هو رئيس الوزراء ورئيسه الملك . وقال الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ ﴾ [يوسف : 50]

إذن فالحاكم أيام يوسف كان يسمى ملكا ولم يسم فرعون . بينما حكام مصر قبل يوسف وبعده كانوا يلقبون بفرعون . ذلك لأنه قبل عهد يوسف عليه السلام حكم مصر الهكسوس أهل بني إسرائيل .

فقد أغاروا على مصر وانتصروا على الفراعنة . وحكموا مصر سنوات حتى تجمع الفراعنة وطردوهم منها .

والغريب أن هذه القصة لم تعرف إلا بعد اكتشاف حجر رشيد ، وفك رموز اللغة الهيروغليفية . وكان ملوك الهكسوس من الرعاة الذين استعمروا مصر فترة . ولذلك نرى في قصة يوسف عليه السلام قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ ﴾ .

وهكذا نعلم أن القرآن الكريم قد روى بدقة قصة كل حاكم في زمنه . وصف الفراعنة بأنهم الفراعنة . ثم جاء الهكسوس فلم يكن هناك فرعون ولكن كان هناك ملك . وعندما جاء موسى كان الفراعنة قد عادوا لحكم مصر . فإذا كان هذا الأمر لم نعرفه إلا في مطلع القرن الخامس . عندما اكتشف الفرنسيون حجر رشيد ، ولكن القرآن أرخ له التاريخ الصحيح منذ أربعة عشر قرنا . وهذه معجزة تنضم لمعجزات كبيرة في القرآن الكريم عن شيء كان مجهولا وقت نزول القرآن وأصبح معلوما الآن . لنجد أن القرآن جاء به في وضعه الصحيح والسليم .

بعد أن تحدثنا عن الفرق بين نجيناكم وأنجيناكم . نتحدث عن الفرق بين ﴿ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ ﴾ . و ﴿ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ ﴾ . . الذبح غير القتل . . الذبح لابد فيه من إراقة دماء . والذبح عادة يتم بقطع الشرايين عند الرقبة ، ولكن القتل قد يكون بالذبح أو بغيره كالخنق والإغراق . كل هذا قتل ليس شرطا فيه أن تسفك الدماء .

والحق سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى أن فرعون حينما أراد أن ينتقم من ذرية بني إسرائيل انتقم منهم انتقامين . . انتقاما لأنهم كانوا حلفاء للهكسوس وساعدوهم على احتلال مصر . ولذلك فإن ملك الهكسوس اتخذ يوسف وزيرا . فكأن الهكسوس كانوا

موالين لبني إسرائيل . وعندما انتصر الفراعنة انتقموا من بني إسرائيل بكل وسائل الانتقام . قتلوهم وأحرقوا عليهم بيوتهم .

(230/50)

أما مسألة الذبح في قوله تعالى : ﴿ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ ﴾ فلقد رأى فرعون نارا هبت من ناحية بيت المقدس فأحرقت كل المصريين ولم ينج منها غير بني إسرائيل . فلما طلب فرعون تأويل الرؤيا . قال له الكهان يخرج من ذرية إسرائيل ولد يكون على يده نهاية ملكك . فأمر القوابل (الدايات) بذبح كل مولود ذكر من ذرية بني إسرائيل . ولكن قوم فرعون الذين تعودوا السلطة قالوا لفرعون : إن بني إسرائيل يوشك أن ينقرضوا وهم يقومون بالخدمات لهم . فجعل الذبح سنة والسنة الثانية يبقون على المواليد الذكور . وهارون ولد في السنة التي لم يكن فيها ذبح فنجا . وموسى ولد في السنة التي فيها ذبح فحدث ما حدث .

إذن سبب الذبح هو خوف فرعون من ضياع ملكه . وفرض الذبح حتى يتأكد قوم فرعون من موت المولد . ولو فعلوه بأي طريقة أخرى كأن القوة من فوق جبل أو ضربوه بحجر غليظ . أو طعنوه بسيف أو برمح قد ينجو من الموت . ولكن الذبح يجعلهم يتأكدون من

موته في الحال فلا ينجو أحد .

والحق يقول : ﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ﴾ . كلمة الابن تطلق على الذكر ، ولكن الولد يطلق على الذكر والأنثى . ولذلك كان الذبح للذكور فقط . أما النساء فكانوا يتركونهن أحياء .

ولكن لماذا لم يقل الحق تبارك وتعالى يذبحون أبناءكم ويستحيون بناتكم بدلا من قوله يستحيون نساءكم . الحق سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى أن الفكرة من هذا هو إبقاء عنصر الأنوثة يتمتع بهن آل فرعون . لذلك لم يقل بنات ولكنه قال نساء . أي أنهم يريدونهن للمتعة وذلك للتنكيل ببني إسرائيل . ولا يقتل رجولة الرجل إلا أنه يرى الفاحشة تصنع في نسائه .

(231/50)

والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَفِي ذَلِكُمْ بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ . ما هو البلاء ؟ بعض الناس يقول إن البلاء هو الشر . ولكن الله تبارك وتعالى يقول : ﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾

إذن هناك بلاء بالخير وبلاء بالشر . والبلاء كلمة لا تخيف . أما الذي يخيف هو نتيجة هذا

البلاء ؛ لأن البلاء هو امتحان أو اختبار . إن أديته ونجحت فيه كان خيرا لك . وأن لم تؤده كان وبالا عليك . والحق سبحانه وتعالى يقول في خليله إبراهيم : ﴿ وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً ﴾[البقرة : 124]

فإبراهيم نجح في الامتحان ، والبلاء جاء لبني إسرائيل من جهتين . . بلاء الشر بتعذيبهم وتقتيلهم وذبح أبنائهم . وبلاء الخير بإنجائهم من آل فرعون . ولقد نجح بنو إسرائيل في البلاء الأول . وصبروا على العذاب والقهر وكان بلاء عظيما . وفي البلاء الثاني فعلوا أشياء سنتعرض لها في حينها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 323.328 ﴾

(232/50)

فصل

قال السيوطى :

﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آَلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (49) ﴾

أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : قالت الكهنة لفرعون : إنه يولد في هذا العام مولود يذهب بملكك . فجعل فرعون على كل ألف امرأة مائة رجل ، وعلى كل مائة عشرة ،

وعلى كل عشر رجلاً ، فقال : انظروا كل امرأة حامل في المدينة ، فإذا وضعت حملها ذكراً فاذبحوه ، وإن كانت أنثى فخلوا عنها ، وذلك قوله ﴿ يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم . . . ﴾ الآية .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية في قوله ﴿ يسومونكم سوء العذاب . . . ﴾ الآية . قال : إن فرعون ملكهم أربعمائة سنة ، فقال له الكهنة : سيولد العلم بمصر غلام يكون هلاكك على يديه . فبعث في أهل مصر للنساء قوابل ، فإذا ولدت امرأة غلاماً أتى به فرعون فقتله ويستحيي الجواري .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ بلاء من ربكم عظيم ﴾ يقوله : نعمة .

وأخرج وكيع عن مجاهد في قوله ﴿ وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم ﴾ قال : نعمة من ربكم عظيمة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 1 صـ 166 ﴾

(233/50)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

"إذ" في موضع نصب عطفاً على "نِعْمَتِي" وكذلك الظُّروف التي عبده نحو: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا﴾ [البقرة: 51]، ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ﴾ [البقرة: 55].

وقرىء: [أَنْجَيْتُكُمْ] على التوحيد.

وهذا الخطاب للموجودين في زمن الرسول عليه الصلاة والسلام ولا بُدّ من حذف مضاف، أي: أنجينا آباءكم، نحو: ﴿حَمَلْنَاكُمْ فِي الجارية﴾ [الحاقة: 11]؛ لأن إنجاء الآباء سبب في وجود الأبناء، وأصل الإنْجَاء والنَّجَاة: الإلقاء على نَجْوَةٍ من الأرض، وهي المرتفع منها ليسلم من الآفات، ثم أطلق الإنْجاء على كل فَائِزٍ وخارج من ضِيْقٍ إلى سَعَةٍ، وإن لم يُلْقِ على نَجْوَةٍ.

و"من آل" متعلّق به، و"من" لابتداء الغاية.

و"آل" اختلف فيه على ثلاثة أقوال: فقال "سيبويه" [وأتباعه]: إن أصله "أهل" فأبدلت الهاء همزة لقربها منها [كما قالوا: ماء، وأصله ماه]، ثم أبلدت الهمزة ألفاً، لسكونها بعد همزة مفتوحة نحو: "آمن وآدم" ولذلك إذا صُغِّرَ رجع إلى أصله فتقول: "أُهَيْل".

قال أبو البقاء: وقال بعضهم: "أويل"، فأبدلت الألف واواً].

ولم يرده إلى أصله، كما لم يردوا "عُبَيْداً" إلى أصله في التصغير يعني فلم يقولوا: "عُوَيْداً" لأنه من "عَادَ يَعُود"، قالوا: لئلا يلتبس بِعُودِ الخَشَبِ.

وفي هذا نظر ؛ لأن النحاة قالوا : من اعتقد كونه من " أهل " صغره على " أُهَيْل " ، من اعتقد كونه من " آل يَئُول " أي : رجع صَغّره على " أُوَيل " .

وذهب " النحاس " إلى أن أصله " أَهْل " أيضاً ، إلا أنه قلب الهاء ألفاً منغير أن يقلبها أولاً همزة ، وتصغيره عنده على " أُهَيْلٍ " .

وقال الكسَائِيُّ : " أُوَيْل " وقد تقدّم ما فيه .

(234/50)

ومنهم من قال أصله : " أَوَلَ " مشتق من " آل يَئُول " ، أي : رجع ؛ لأنّ الإنسان يرجع إلى آله ، فتحركت الواو ، وانفتح ما قبلها فقلبت ألفاً ، وتصغيره على " أُوَيْل " نحو : " مَال " و " مُوَيْل " و " بَاب " و " بُوَيْب " ويعزى هذا الكسَائِيّ .

وجمعه : " آلُون " و " آلين " وهذا شاذٌّ كـ " أَهْلِين " ؛ لأنه ليس بصفة ولا عَلَمٍ .

قال ابن كَيْسَان : إذا جمعتَ " آلا " قُلْتَ : " آلُونَ " ، فإن جمعت " آلا " الذي هو [السَّراب] قلت : " آوَال " ليس إلاّ ؛ مثل : " مَال وأَمْوَال " .

واختلف فيه فقيل : " آل " الرجل قرابته كأهله .

وقيل من كان من شيعته ، وإن لم يكن قريباً منه ؛ قال : [الطويل]

فَلاَ تَبْكِ مَيْتاً بَعْدَ مَيْتٍ أَجَنَّهُ . . .

عَلِيٌّ وَعَبَّاسٌ وَآلُ أَبِي بَكْرِ

ولهذا قيل : آل النبي من آمن به إلى آخر الدَّهْرِ ، ومن لمؤيؤمن به فليس بآله ، وإن كان نسيباً له ، كأبي لَهَبٍ وأبي طالب ، ونقل بعضهم أن " الرَّاغب " ذكر في " المفردات أن " الآل " يطلق على الرَّجل نفسه .

واختلف فيه النُّحَاة : هل يضاف إلى الضمير أم لا ؟

فذهب الكسائي ، وأبو بكر الزبيدي ، والنحاس إلى أن ذلك لا يجوز ، فلا يجوز اللَّهم صَلِّ على محمَّد وآله ، بل وعلى آل محمد ، وذهب جَمَاعة ، منهم ابن السِّيدِ إلى جوازه ؛ واستدلُّوا بقوله عليه الصلاة والسلام لما سئل فقيل : يا رسول الله من آلُكَ ؟ فقال : " آلِي كُلُّ تَقِيٍّ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ " ؛ وأنشدوا قول [عبد المطلب] : [الكامل]

لاَهُمَّ إِنَّ العَبْدَ يَمْنَعُ . . .

رَحْلَهُ فَامْنَعْ حِلاَلَكْ

وانْصُرْ عَلَى آلِ الصَّلِيبِ . . .

وَعَابِدِيهِ اليَوْمَ آلَكْ

[وقول نُدْبَة : [الطويل]

أَنَا الفَارِسُ الحَامِي حَقِيقَةَ وَالِدِي . . .

وَآلِي كَمَا تَحْمِي حَقِيقَةَ آلِكَا]

واختلفوا أيضاً فيه : هل يُضَاف إلى غير العُقَلاَء فيقال : آل " المدينة " وآل " مكة " ؟

(235/50)

فمنعه الجمهور ، وقال " الأخفش " : قد سمعناه في البُلْدَان ، قالوا : أهل " المدينة " وآل " المدينة " ولا يضاف إلاَ إلى مَنْ له قَدْرٌ وخَطرٌ ، فلا يقال : آل الإسْكَاف ولا آل الحَجّام ، وهو من الأسماء اللازمة للإضافة معنّى ولفظاً ، وقد عرفت ما اختص به من الأحكام دون أصله الذي هو " أهل " هذا كلّه في " آل " مراداً به لأهل ، أما " آل " الذي هو السَّراب فليس مما نحن فيه في شيء ، وتصغيره " أُوَيْل " نحو : " مَال ومُوَيْل " وتقدم جمعه .

قوله : ﴿ فِرْعَوْنَ ﴾ خفض بالإضافة ، ولكنه لا ينصرف للعُجْمَةِ والتعريف .

واختلف فيه : هل هو علم شخص ، أو علم جنس ؛ فإنه يقال لكلّ [من] ملك القِبْط و " مِصْر " : فرعون ، مثل كِسْرَى لكل من ملك الفرس ، وقَيْصَر [وهرقل] لكل من ملك الروم ، ويقال لكل من ملك " الهند " : نهمز ، وقيل : يَعْفُورن ويقال لمن ملك الصَّابئة : نَمْرُوذ ، ولمن ملك البربر : جَالُوت ، [ولمن ملك اليهود فيطون ، والمعروف شالخ ولمن ملك فَرْغَانَة الإخشيد] ، ولمن ملك العرب من قبل العَجم النُّعْمَان ؛ ولمن ملك " الصين " يعفو ، وهِرَقْل

لكل من ملك الروم ، والقَيْل لكل من ملك " حِمْير " ، والنَّجاشي لكل من ملك " الحبشة " وبَطْلَيْمُوس لكل من ملك " اليونان " وتُبَّع لمن ملك " اليمن " ، وخَاقَان لمن ملك التُّرك .

وقال " الزمخشري " : وفرعون علم لمن ملك العَمَالقة كقيصر للروم ، ولعُتُوّ الفراعنة اشتقوا منه تَفَرْعَنَ فلانٌ ، إذا عَتَا وتَجَبَّرَ ؛ وفي مُلَحِ بعضهم : [الكامل]

قد جَاءَهُ الموسَى [الكَلُومُ] فزَادَ في . . .

أَقْصَى تَفَرْعُنِهِ وَفَرْطِ عُرَامِهِ

وقال " المَسْعُودي " : " لا يعرف لفرعون تفسير بالعربية " .

وظاهر كلام " الجوهري " أنه مشتق من معنى العتو ، فإنه قال : " والعُتَاة : الفَرَاعنة ، وقد تَفَرْعَنَ ، وهو ذو فَرْعَنَةٍ ، أي دهاء ومكر " .

(236/50)

وفي الحديث : " أخذنا فِرْعَون هذه الأُمّة " إلا أن [يريد] معنى ما قاله الزمخشري المتقدم .

واسم فرعون موسى : قَابُوس في قول أهل الكتاب ، نقله وهب بن منبه وقال ابن إسحاق وَوَهْب : " اسمه الوليد بن مصعب بن الريان ، ويكنى أبا مُرَّة " .

وحكى ابن جريج " أن " اسمه مصعب بن ريّان ، وهو من بني عمْلِيق بن ولاد بن إرم بن سام

بن نوح عليه الصلاة والسلام .

وذكر ابن الخطيب أن [ابن] وهب قال : إن فرعون يوسف عليه الصَّلاة والسَّلام هو فرعون موسى ، لقول موسى عليه الصَّلاة والسلام .

﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بالبينات ﴾ [غافر : 34] وقال : هذا غير صحيح ، إذ كان بين دخول يوسف " مصر " ، وبين أن دخلها موسى أكثر من أربعمائة سنة .

وذكر النووي أن فرعون موسى عمر أكثر من أربعمائة سنة ، فمشى قول ابن وهب .

وقال محمد بن إسحاق : " هو غير فرعون يوسف إن فرعون يوسف كان اسمه الريان بن الوليد " .

قوله : ﴿ يَسُومُونَكُمْ سواء العذاب ﴾ هذه الجملة في محل نصب على الحال من " آل " أي : حال كونهم سَائِمِين ، ويجوز أن تكون مستأنفة لمجرد الإخبار بذلك ، وتكون حكاية حال ماضية ، قال بمعناه ابن عطية ، وليس بظاهر .

وقيل : هو خبر لمبتدأ محذوف ، أي : هم يسومونكم ، ولا حَاجَةَ إليه أيضاً .

و " كم " مفعول أول ، و " سوء " مفعول ثان ؛ لأن " سَامَ " يعتدّى لاثنين كـ " أعْطَى " ، ومعناه أَوْلاَهُ كذا ، وألزمه إياه ؛ ومنه قول عمرو بن كُلْثُومٍ : [الوافر]

إِذَا مَا المَلْكُ سَامَ النَّاسَ خَسْفاً . . .

أَبَيْنَا أَن نُقِرَّ الخَسْفَ فينا

قال الزمخشري : " وأصله من سَامَ السّلعة إذا طلبها ، كأنه بمعنى يبغونكم سوء العذاب ، ويزيدونكم عليه " .

وقيل أصل السَّوم : الدوام ، ومنه سَائِمَةُ الغَنَمِ لمداومتها الرعي .

والمعنى : يديمون تعذيبكم .

وسوء العذاب : أشدّه وأقطعه ، وإن كان كله سيّئاً ، كأنه أقبحه بالإضافة إلى سائره .

(237/50)

والسوء : كل ما يعم الإنسان من أمْرٍ دنيوي وأخروي ، وهو في الأصل مصدر ، ويؤنث بالألف ، قال تعالى : ﴿ أَسَاءُواْ السواءى ﴾ [الروم : 10] .

[وأجاز بعضهم أن يكون " سوء " نعتاً لمصدر محذوف تقديره : يسومونكم سوماً سيئاً ، كذا قدره .

وقال أيضاً :] " ويجوز أن يكون بمعنى سوم العذاب " ، كأنه يريد بذلك أنه منصوب على نوع المصدر نحو : " قعد جلوساً " ؛ لأن سوء العذاب نوع من السوم .

قال أبو العباس المُقْرىء : ورد لفظ " السّوء " على خمسة عشر وجهاً :

الأول : بمعنى " الشدة " كهذه الآية ، أي : شدة العذاب .

الثاني: بمعنى "العَقْر" قال تعالى: ﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بسواء ﴾ [هود: 64].

الثالث: "الزِّنا: قال تعالى: ﴿ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سواء ﴾ [يوسف: 51].

الرابع: "المَرَض" قال تعالى: ﴿ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سواء ﴾ [طه: 22].

الخامس: "اللّعْنة" قال تعالى: ﴿ إِنَّ الخزي اليوم والسواء عَلَى الكافرين ﴾ [النحل: 27].

السادس: "العَذَاب" قال تعالى: ﴿ لَا يَمَسُّهُمُ السواء ﴾ [الزمر: 61].

السابع: "الشِّرْك" قال تعالى: ﴿ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سواء ﴾ [النحل: 28].

الثامن: "العِصْيَان" قال تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ السواء بِجَهَالَةٍ ﴾ [النحل: 119].

التاسع: "الشَّتْم" قال تعالى: ﴿ ويبسطوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بالسواء ﴾ [الممتحنة: 2] أي: بالشَّتم، ومثله: ﴿ لَّا يُحِبُّ الله الجهر بالسواء مِنَ القول ﴾ [النساء: 148] أي: الشَّتْم.

العاشر: "الجُنُون" قال تعالى: ﴿ إِن نَّقُولُ إِلَّا اعتراك بَعْضُ آلِهَتِنَا بسواء ﴾ [هود: 54] أي بجنون.

الحادي عشر: "اليأس" قال تعالى: ﴿ وَلَهُمْ سواء الدار ﴾ [الرعد: 25] أي: يأس الدار.

الثاني عشر : " المرض " قال تعالى : ﴿ وَيَكْشِفُ السواء ﴾ [النمل : 62] يعني المرض .

الثالث عشر : " الفَقْر " قال تعالى : ﴿ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الغيب لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الخير وَمَا مَسَّنِيَ السواء ﴾ [الأعراف : 188] أي : الفقر .

الرابع عشر : " الهَزِيمة " قال تعالى : ﴿ فانقلبوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ الله وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سواء ﴾ [آل عمران : 174] أي : هزيمة .

الخامس عشر : " السوء " : الصيد ، قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ أَنجَيْنَا الذين يَنْهَوْنَ عَنِ السواء ﴾ [الأعراف : 165] أي : الصيد .

قوله : ﴿ يُذَبِّحُونَ ﴾ هذه الجملة يُحْتَمَلُ أن تكون مفسّرة للجملة قبلها ، وتفسيرها لها على وجهين :

أحدهما : أن تكون مستأنفةً ، فلا محلّ لها حينئذ من الإعراب ، كأنه قيل : كيف كان سومهم العذاب ؟ فقيل يذبحون .

الثاني : أن تكون بدلاً منها ؛ كقوله : [الطويل]

مَتَى تَأْتِنَا تُلْمِمْ بِنَا فِي دِيَارِنَا . . . . . .

﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذلك يَلْقَ أَثَاماً 0 يُضَاعَفْ لَهُ العذاب ﴾ [الفرقان : 68 – 69] ، ولذلك ترك العاطف ، ويحتمل أن تكون حالاً ثانية ، لا على أنها بدل من الأول .

وذلك على رأي من يجوز تعدد الحال وقد منع " أبو البقاء " هذا الوجه محتجاً بأن الحال تشبه المفعول بهن ولا يعمل العامل في مفعولين على هذا الوصف ، وهذا بناء منه على أحد القولين ، ويحتمل أن تكون حالاً من فاعل : " يسومونكم " .

" والذّبح " أصله الشّقّ ، منه المَذَابح لأَخَادِيد السُّيول في الأرض .

والذَّبح المذبوح " والذُّبَاح " : تشقق في [أصول] الأصابع .

والمَذَابح أيضاً : المحاريب .

وأما " أبناء " جمع " ابن " ، رجع به إلى أصله ، فَرُدَّت لامه ، إما الواو أو الياء حسبما تقدم .

والأصل : " أبناو " أو " أبناي " ، فأبدل حرف العلة همزة لتطرفه بعد ألف زائدة ، والمراد بهم : الأطفال عند أكثر المفسرين .

وقيل : الرجال ، وعبر عنهم بالأبناء باعتبار ما كانوا ؛ لأنه ذكرهم في مُقَابلة النساء .

و" النِّسَاء " اسم للبَالِغَات ، فكذا المُرَاد من الأبناء الرِّجَال البالغون .

قالوا : إنه كان يأمر بقَتْلِ الرجال الذين يخافون منهم الخُرُوج عليهم والتجمُّع لإفساد أمره .

والأول أولى لحمل لفظ الأبناء على ظاهره ، ولأنه كان متعذّر قتل جميع الرِّجَال على كثرتهم ، وأيضاً فكانوا مُحْتَاجين إليهم في استعمالهم في الأعمال الشَّاقة ، ولو كان كذلك لم يكن لإلقاء موسى عليه الصلاة والسلام في التَّابوت حال صغره معنى .

قوله : ﴿ وَفِي ذَلِكُمْ بلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ الجار والمجرور خبر مقدم ، و" بَلاَء " مبتدأ .

ولامه واو لظهورها في الفعل نحو بَلَوْتُه ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ ﴾ [البقرة : 155] ، فأبدلت همزة .

والبلاء يكون في الخير والشر ، قال تعالى : ﴿ وَنَبْلُوكُم بالشر والخير فِتْنَةً ﴾ [الأنبياء : 35] ؛ لأن الابتلاء امتحان ، فيمتحن الله عباده بالخير ليشكروا ، وبالشر ليصبروا .

وقال ابن كيسان : " أَبْلاَه وبَلاَه في الخير والشر " ؛ وأَنْشَدَ : [الطويل]

جَزَى الله بالخَيْرَاتِ ما فعلاَ بكُمْ . . .

وَأَبْلاَهُمَا خَيْرَ البَلاَءِ الَّذِي يَبْلُو

فجمع بين اللغتين .

وقيل : الأكثر في الخير أَبْلَيْتُهُ ، وفي الشر بَلَوْتُهُ ، وفي الاختبار ابْتَلَيْتُهُ وبَلَوْتُهُ .

قال النحاس : فاسم الإشارة من قوله : " وفي ذلكم " يجوز أن يكون إشارة إلى الإنْجَاءِ وهو خير محبوب ، ويجوز أن يكون إشارة إلى الذّبح ، وهو شر مكروه .

وقال الزمخشري : والبلاء : المِحْنة إن أشير بـ " ذلكم " إلى صنيع فِرْعَونَ ، والنعمة إن أشير به إلى الإنجاء ، وهو حسن .

(240/50)

وقال ابن عطية : " ذلكم " إشارة إلى جملة الأمر ، إذ هو خير فهو كفرد حاضر ، كأنه يريد أن يشير به إلى مجموع الأمرين من الإنْجَاءِ ، والذبح ولهذا قال بعده : " يكون البلاء في الخير والشر " ، وهذا غير بعدي ؛ ومثله : [الرمل]

إنَّ لِلْخَيْرِ وللشَّرِّ مَدًى . . . . . .

وكل ذلك وجه .

وقيل : و" من ربكم " متعلّق بـ " بلاء " ، و" من " لابتداء الغاية مجازاً .

وقال أبو البقاء : هو في موضع رفع صفة لـ " بلاء " ، فيتعلّق بمحذوف .

وفي هذا نظر ، من حيث إنه إذا إجتمع صفتان ، إحْدَاهما صريحة ، والأخرى مؤولة ، قُدِّمت الصريحة ، حتى إن بعض الناس يجعل ما سواه ضرورةً ، و" عظيم " صفة لـ " بلاء "

وقد تقدم معناه مستوفى [في أول السورة] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 2 صـ 62.53 ﴾ . باختصار .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ . . . الآية ﴾

من صبر في الله على بلاء أعدائه عوَّضه الله صحبة أوليائه ، وأتاح له جميل عطائه ؛ فهؤلاء بنو إسرائيل صبروا على مقاساة الضر من فرعون وقومه فجعل منهم أنبياءهم ، وجعلهم ملوكاً ، وآتاهم ما لم يؤت أحداً من العالمين . ﴿ وَفِى ذَلِكُمْ بَلاَءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ : قيل نعمة عظيمة و قيل محنة شديدة . وفي الحقيقة ما كان من الله – في الظاهر – محنةً فهو – في الحقيقة لمن عرفه – نعمةٌ ومِنَّة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 89 ﴾

(241/50)

بسم الله الرحمن الرحيم

الكتاب / الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

ويسمى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العَاجِزُ الْفَقِيرُ

عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مُحَمَّدٍ الْقَمَّاش

إِمَامُ وَخَطِيبُ مَسْجِدِ بُورُسْلِى - رَأْسُ الْخَيمَةِ

دَوْلَةُ الإِمَارَاتِ الْعَرَبِيَّةِ الْمُتَّحِدَةِ

(عَفَا اللهُ عَنْهُ وَغَفَرَ لَهُ)

الجزء الحادى والخمسون

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الحادى والخمسون

من الآية ﴿ 50 ﴾ من سورة البقرة

وحتى الآية ﴿ 54 ﴾ من نفس السورة

قوله تعالى ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (50) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان ما فعل بهم في البحر إهلاكاً للرجال وإبقاء للنساء طبق ما فعلوا ببني إسرائيل عقبه به فقال ﴿ وإذ ﴾ أي واذكروا إذ ﴿ فرقنا ﴾ من الفرق وهو إفراج الواحد لحكمة إظهار التقابل – قاله الحرالي .

فصارت لكم مسالك على عدد أسباطكم ﴿ بكم ﴾ أي بسببكم عقب إخراجنا لكم من أسر القبط ﴿ البحر ﴾ قال الحرالي : هو المتسع الرحب البراح مما هو ظاهر كالماء ، ومما هو باطن كالعلم الذي منه الحبر ، تشاركا بحروف الاشتقاق في المعنى .

﴿ فأنجيناكم ﴾ من الإنجاء وهو الإسراع في الرفعة عن الهلاك إلى نجوة الفوز – انتهى .

ومن عجائب ذلك أنه كما كان الإنجاء منه كان به .

قال الحرالي : وجعل البحر مفروقاً بهم كأنهم سبب فرقة ، فكأن نجاتهم هي السبب وضرب موسى عليه السلام بالعصاة هي الأمارة والعلامة التي انفلق البحر عندها بسببهم ، وجعل النجاة من بلاء فرعون تنجية لما كان على تدريج ، وجعل النجاة من البحر إنجاء لما كان وحياً في سرعة وقت – انتهى .

﴿ وأغرقنا آل فرعون ﴾ فيه وبه ﴿ وأنتم تنظرون ﴾ إسراعه إليهم في انطباقه عليهم ، وهذا مثل ما خاض العلاء بن الحضرمي رضي الله عنه البحر الملح في ناحية البحرين أو انحسر له على اختلاف الروايتين ، ومثل ما قطع سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه الدجلة في وقائع الفُرس عوماً بالخيول بجميع عساكره وكانوا زيادة على ثلاثين ألفاً لم يُفقد منهم أحد ، وكان الفرس إذا تعب وثب فصار واقفاً على ظهر الماء كأنه على صخر ، فإذا استراح عام .

قال الحرالي : ﴿ وأغرقنا ﴾ من الغرق وهو البلاغ في الشيء إلى غايته بحسبه ، فإن كان في الهلاك فهو غاية وظهر معناه في الماء والبحر لبُعد قعره ، وهو في الماء بمنزلة الخسف في الأرض ، والنظر التحديق للصورة من غير تحقق ولا بصر – انتهى .

فذكرهم سبحانه بنعمة الإنجاء منه بالرحيل عنه أولاً ، ثم بإغراقه الذي هو أكبر من ذلك ثانياً بما كان بعينه سبب سلامتهم واستمر يذكرهم بما تابع لهم من النعم حيث كانوا يستحقون النقم .

قال الحرالي : وقررهم على نظرهم إليهم ، وفيه إشعار بفقد بصرهم لضعف بصائرهم من حيث لم يقل : وأنتم تبصرون ، ولذلك عادوا بعدها إلى أمثال ما كانوا فيه من الشك والإباء على أنبيائهم بعد ذلك – انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 130 . 131 ﴾

فصل فى ذكر سياق القصة

قال الخازن :

وذلك أنه لما دنا هلاك فرعون ، أمر الله موسى عليه الصلاة والسلام أن يسري ببني إسرائيل من مصر بالليل ، فأمر موسى قومه أن يسرجوا في بيوتهم السرج إلى الصبح ، وأن يستعيروا حلى القبط لتبقى لهم أو ليتبعوهم لأجل المال ، وأخرج الله كل ولد زنا كان في القبط من بني إسرائيل إلى بني إسرائيل وكل ولد زنا كان في بني إسرائيل من القبط إلى القبط حتى يرجع كل ولد إلى أبيه وألقى الله الموت على القبط فمات كل بكر لهم فاشتغلوا بدفنهم وقيل : بلغ ذلك فرعون فقال لا أخرج في طلبهم حتى يصيح الديك فما صاح تلك الليلة ديك وخرج موسى في بني إسرائيل وهم ستمائة ألف وعشرون ألفاً لا يعدون ابن عشرين سنة لصغره ، ولا ابن ستين سنة لكبره ، وكانوا يوم دخلوا مصر مع يعقوب اثنين وسبعين إنساناً ما بين رجل وامرأة فلما أرادوا السير ضرب عليهم التيه فلم يدروا أين يذهبوا فدعا موسى مشيخة بني إسرائيل وسألهم عن ذلك فقالوا : إن يوسف لما حضره الموت أخذ على إخوته عهداً أن لا

يخرجوا من مصر حتى يخرجوه معهم فلذلك انسد علينا الطريق فسألهم عن موضع قبره فلم يعلموه فقال موسى .

(6/51)

ينادي أنشد الله كل من يعلم أين قبر يوسف إلا أخبرني به ومن لم يعلم صمت أذناه عن سماع قولي : فكان يمر بالرجل وهو ينادي فلا يسمع صوته حتى سمعته عجوز منهم فقالت له : أرأيتك إن دللتك على قبره أتعطيني كل ما أسألك فأبى عليها وقال : حتى أسأل ربي فأمره أن يعطيها سؤالها فقالت : إني عجوز لا أستطيع المشي فاحملني معك وأخرجني من مصر هذا في الدنيا وأما في الآخرة فأسألك أن لا تنزل غرفة من غرف الجنة إلا نزلتها معك قال : نعم ، قالت : إنه في النيل في جوف الماء فادع الله أن يحسر عنه الماء فدعا الله فحسر عنه الماء ، ودعا الله أن يؤخر عنه طلوع الفجر حتى يفرغ من أمر يوسف ، ثم حفر موسى ذلك الموضع فاستخرجه وهو في صندوق من مرمر وحمله معه حتى دفنه بالشام ، فعند ذلك فتح لهم الطريق فسار موسى ببني إسرائيل هو في ساقتهم وهارون في مقدمتهم ، ثم خرج فرعون في طلبهم في ألف ألف وسبعمائة ألف وكان فيهم سبعون ألفاً من دهم الخيل سوى سائر الشيات وقيل : كان معهن مائة ألف حصان أدهم وكان فرعون في الدهم وكان على

مقدمة عسكر هامان ، وكان فرعون في سبعة آلاف ألف وكان بين يديه مائة ألف ألف ناشب ومائة ألف ألف حراب ومائة في ألف ألف حراب ومائة في ألف ألف ، معهم الأعمدة واسر بنو إسرائيل حتى وصلوا البحر والماء في غاية الزيادة ، ونظروا حين أشرقت الشمس فإذا هم بفرعون في جنوده فبقوا متحيرين وقالوا : يا موسى أين ما وعدتنا به فكيف نصنع هذا فرعون خلفنا إن أدركنا قتلنا والبحر أمامنا إن دخلناه غرقنا ، فأوحى الله إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فضربه فلم يطعه فأوحى الله إليه أن كنه فضربه ، وقال : انفلق يا أبا خالد فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم ، وظهر فيه اثنا عشر طريقاً لكل سبط منهم طريق وارتفع الماء بين كل طريقين كالجبل وأرسل الله الريح والشمس على قعر البحر ، حتى صار يبساً وخاضت بنو إسرائيل البحر كل سبط في طريق عن جوانبهم الماء كالجبل

الضخم لا يرى بعضهم بعضاً فخافوا ، وقال : كل سبط منهم قد هلك إخواننا فأوحى الله إلى جبال الماء أن تشبكي فصار الماء كالشباك يرى بعضهم بعضاً ، ويسمع بعضهم كلام بعض حتى عبروا البحر سالمين . (1) انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 1 صـ 57.

﴿ 59

فصل

قال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ البحر فَأَنجَيْنَاكُمْ ﴾ "إذ" في موضع نصب .

و" فَرَقْنَا" فلقنا ؛ فكان كل فِرْق كالطَّوْد العظيم ، أي الجبل العظيم .

وأصل الفَرْق الفصل ؛ ومنه فَرْق الشّعر ؛ ومنه الفُرقان ؛ لأنه يفرق بين الحق والباطل أي يفصل ؛ ومنه : ﴿ فالفارقات فَرْقاً ﴾ [المرسلات : 4] يعني الملائكة تنزل بالفرق بين الحق والباطل ؛ ومنه : ﴿ يَوْمَ الفرقان ﴾ [الأنفال : 41] يعني يوم بَدْر ، كان فيه فرق بين الحق والباطل ، ومنه : ﴿ وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ ﴾ [الإسراء : 106] أي فصّلناه وأحكمناه .

وقرأ الزُّهْرِيّ : " فرّقنا" بتشديد الراء ؛ أي جعلناه فرقاً .

ومعنى " بكم" أي لكم ، فالباء بمعنى اللام .

وقيل : الباء في مكانها ؛ أي فرقنا البحر بدخولكم إياه .

أي صاروا بين الماءين ، فصار الفرق بهم ؛ وهذا أَوْلَى يبيّنه ﴿ فانفلق ﴾ [الشعراء : 63] .

قوله تعالى : ﴿ البحر ﴾ البحر معروف ، سُمي بذلك لاتساعه .

ويقال : فَرَسٌ بَحْرٌ إذا كان واسع الجَرْي ؛ أي كثيره .

ومن ذلك " قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في مَنْدُوب فرس أبي طلحة : " وإنْ وجدناه لبحراً " " والبحر : الماء الملح .

ويقال : أبجر الماء : مَلُح ؛ قال نُصَيب :

وقد عاد ماءُ الأرض بَحْراً فزادني . . .

إلى مَرَضِي أن أبْحَرَ المَشْربُ العذْبُ

والبحر : البلدة ؛ يقال : هذه بَحْرَتُنا ؛ أي بلدتنا .

قاله الأُمويّ .

والبَحَر : السُّلال يصيب الإنسان .

---

(1) هذه القصة وما شابهها من قصص بنى إسرائيل تفتقر إلى سند صحيح ، ولا يوجد ما يعضدها من الكتاب والسنة . والله أعلم بحقائق الأمور .

ويقولون : لقيته صَحْرَةً بَحْرَةً ؛ أي بارزاً مكشوفاً .

وفي الخبر عن كعب الأحبار قال : إن لله ملَكاً يقال له : صندفاييل ، البحار كلها في نقرة إبهامه .

ذكره أبو نعيم عن ثور بن يزيد عن خالد بن مَعْدان عن كعب .

قوله تعالى : ﴿ فَأَنجَيْنَاكُمْ ﴾ أي أخرجناكم منه ؛ يقال : نجوت من كذا نجاء ، ممدود ، ونجاة ، مقصور .

والصدق منجاة .

وأنجيت غيري ونجّيته ؛ وقرىء بهما " وإذ نجيناكم " ، " فأنجيناكم " . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 1 صـ 387. 388 ﴾

فصل

قال الفخر :

هذا هو النعمة الثانية ، وقوله : ﴿ فَرَقْنَا ﴾ أي فصلنا بين بعضه وبعض حتى صارت فيه مسالك لكم وقرىء : ﴿ فَرَّقْنَا ﴾ بالتشديد بمعنى فصلنا .

يقال : فرق بين الشيئين وفرق بين الأشياء لأن المسالك كانت اثنتي عشرة على عدد الأسباط ،

فإن قلت : ما معنى : (بكم) ؟

قلنا : فيها وجهان :

أحدهما : أنهم كانوا يسلكونه ويتفرق الماء عند سلوكهم فكأنما فرق بهم كما يفرق بين الشيئين بما توسط بينهما ، الثاني : فرقناه بسببكم وبسبب إنجائكم ثم ههنا أبحاث :

البحث الأول : روي أنه تعالى لما أراد إغراق فرعون والقبط وبلغ بهم الحال في معلوم الله أنه لا يؤمن أحد منهم أمر موسى عليه السلام بني إسرائيل أن يستعيروا حلي القبط ، وذلك لغرضين .

أحدهما : ليخرجوا خلفهم لأجل المال ، والثاني : أن تبقى أموالهم في أيديهم ثم نزل جبريل عليه السلام بالعشي وقال لموسى : أخرج قومك ليلاً ، وهو المراد من قوله : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي ﴾ [طه : 77] وكانوا ستمائة ألف نفس لأنهم كانوا اثني عشر سبطاً كل سبط خمسون ألفاً ، فلما خرج موسى عليه السلام ببني إسرائيل بلغ ذلك فرعون ، فقال : لا تتبعوهم حتى يصيح الديك .

(9/51)

قال الراوي : فوالله ما صاح ليلته ديك فلما أصبحوا دعا فرعون بشاة فذبحت ثم قال : لا أفرغ من تناول كبد هذه الشاة حتى يجتمع إلي ستمائة ألف من القبط ، وقال قتادة : اجتمع إليه ألف ألف ومائتا ألف نفس كل واحد منهم على فرس حصان فتبعوهم نهاراً .

وهو قوله تعالى : ﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴾ [الشعراء : 60] أي بعد طلوع الشمس .

(10/51)

﴿ فَلَمَّا تَرَاءا الجمعان قَالَ أصحاب موسى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ [الشعراء : 61] فقال موسى : ﴿ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء : 62] فلما سار بهم موسى وأتى البحر قال له يوشع بن نون : أين أمرك ربك ؟ فقال موسى : إلى أمامك وأشار إلى البحر فأقحم يوشع بن نون فرسه في البحر فكان يمشي في الماء حتى بلغ الغمر ، فسبح الفرس وهو عليه ثم رجع وقال له : يا موسى أين أمرك ربك ؟ فقال البحر ، فقال : والله ما كذبت ، ففعل ذلك ثلاث مرات ، فأوحى الله إليه : ﴿ أَنِ اضرب بّعَصَاكَ البحر فانفلق فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كالطود العظيم ﴾ [الشعراء : 67] ، فانشق البحر اثني عشر جبلاً في كل واحد منها طريق ، فقال له : ادخل فكان فيه وحل فهبت الصبا فجف البحر ، وكل طريق فيه حتى صار طريقاً يابساً كما قال تعالى : ﴿ فاضرب لَهُمْ طَرِيقاً فِي البحر يَبَساً ﴾ [طه : 77] ، فأخذ كل سبط منهم طريقاً ودخلوا فيه فقالوا لموسى : إن بعضنا لا يرى صاحبه ، فضرب موسى عصاه على البحر فصار بين الطرق منافذ وكوى فرأى بعضهم بعضاً ، ثم أتبعهم فرعون ، فلما بلغ شاطىء البحر رأى إبليس واقفاً فنهاه عن الدخول فهم بأن لا يدخل البحر فجاء جبريل عليه السلام على حجرة فتقدم فرعون وهو كان على فحل فتبعه فرس فرعون ودخل البحر ، فلما دخل فرعون البحر صاح ميكائيل بهم الحقوا آخركم بأولكم ، فلما دخلوا البحر بالكلية أمر الله الماء حتى نزل عليهم في ذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ

فَرَقْنَا بِكُمُ البحر فأنجيناكم ﴾ وقيل كان ذلك اليوم يوم عاشوراء ، فصام موسى عليه السلام ذلك اليوم شكراً لله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 66 .

67 ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ البحر ﴾ عطف على ما قبل ، والفرق الفصل بين الشيئين ، وتعديته إلى البحر بتضمين معنى الشق ، أي فلقناه وفصلنا بين بعضه وبعض لأجلكم ، وبسبب إنجائكم .

(11/51)

والباء للسببية الباعثة بمنزلة اللام إذا قلنا بتعليل أفعاله تعالى وللسببية الشبيهة بها في الترتيب على الفعل ، وكونه مقصوداً منه إن لم نقل به وإنما قال سبحانه : ﴿ بِكُمْ ﴾ دون لكم ، لأن العرب على ما نقله الدامغاني تقول : غضبت لزيد إذا غضبت من أجله وهو حي وغضبت بزيد إذا غضبت من أجله وهو ميت ففيه تلويح إلى أن الفرق كان من أجل أسلاف المخاطبين ، ويحتمل أن تكون للاستعانة على معنى بسلوككم ويكون هناك استعارة تبعية بأن يشبه سلوكهم بالآلة في كونه واسطة في حصول الفرق من الله تعالى ،

ويستعمل الباء .

وقول الإمام الرازي قدس سره : إنهم كانوا يسلكون ، ويتفرق الماء عند سلوكهم ، فكأنه فرق بهم يرد عليه أن تفرق الماء كان سابقاً على سلوكهم على ما تدل عليه القصة ، وقوله تعالى : ﴿ أَنِ اضرب بّعَصَاكَ البحر فانفلق فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كالطود العظيم ﴾ [الشعراء : 36] وما قيل : إن الآلة هي العصا كما تفهمه الآية غير مسلم .

(12/51)

والمفهوم كونها آلة الضرب لا الفرق ولو سلم يجوز كون المجموع آلة ، على أن آلية السلوك على التجوز ، وقد يقال : إن الباء للملابسة ، والجار والمجرور ظرف مستقر واقع موقع الحال من الفاعل ، وملابسته تعالى معهم حين الفرق ملابسة عقلية ، وهو كونه ناصراً وحافظاً لهم ، وهي ما أشار إليه موسى عليه السلام بقوله تعالى : ﴿ كَلاَّ إِنَّ مَعِىَ رَبّى سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء : 62] ومن الناس من جعله حالاً من البحر مقدماً وليس بشيء لأن الفرق مقدم على ملابستهم البحر اللهم إلا على التوسع ، واختلفوا في هذا البحر فقيل : القلزم وكان بين طرفيه أربعة فراسخ وقيل : النيل ، والعرب تسمي الماء الملح والعذب بحراً إذا كثر ، ومنه : ﴿ مَرَجَ البحرين يَلْتَقِيَانِ ﴾ [الرحمن : 19] وأصله السعة ، وقيل : الشق ، ومن الأول :

البحرة البلدة ، ومن الثاني : البحيرة التي شقت أذنها ، وفي كيفية الانفلاق قولان : فالمشهور كونه خطياً ، وفي بعض الآثار ما يقتضي كونه قوسياً ، إذ فيه أن الخروج من الجانب الذي دخلوا منه ، واحتمال الرجوع في طريق الدخول يكاد يكون باطلاً لأن الأعداء في أثرهم ، وسيأتي إن شاء الله تعالى تحقيق ما يتعلق بهذا المبحث .

(13/51)

﴿ فأنجيناكم وَأَغْرَقْنَا ءالَ فِرْعَوْنَ ﴾ في الكلام حذف يدل عليه المعنى والتقدير : وإذا فرقنا بكم البحر وتبعكم فرعون وجنوده في تقحمه فأنجيناكم أي من الغرق ، أو من إدراك فرعون وآله لكم ، أو مما تكرهون ، وكنى سبحانه بآل فرعون عن فرعون وآله كما يقال : بني هاشم ؛ وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى ءادَمَ ﴾ [الإسراء : 70] يعني هذا الجنس الشامل لآدم ، أو اقتصر على ذكر الآل لأنهم إذا عذبوا بالإغراق كان مبدأ العناد ورأس الضلال أولى بذلك ، وقد ذكر تعالى غرق فرعون في آيات أخر من كتابه كقوله سبحانه : ﴿ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا ﴾ [الإسراء : 103] ﴿ فأخذناه وَجُنُودَهُ فنبذناهم فِى اليم ﴾ [القصص : 40] وحمل الآل على الشخص حيث إنه ثبت لغة كما في " الصحاح" ركيك غير مناسب للمقام ، وإنما المناسب له التعميم ، وناسب نجاتهم بإلقائهم في البحر

وخروجهم منه سالمين نجاة نبيهم موسى على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام من الذبح بإلقائه وهو طفل في البحر وخروجه منه سالماً ، ولكل أمة نصيب من نبيها وناسب هلاك فرعون وقومه بالغرق هلاك بني إسرائيل على أيديهم بالذبح لأن الذبح فيه تعجيل الموت بإنهار الدم ، والغرق فيه فيه إبطاء الموت ولا دم خارج وكان ما به الحياة وهو الماء كما يشير إليه قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الماء كُلَّ شَيْءٍ حَيّ ﴾ [الأنبياء : 30] سبباً لإعدامهم من الوجود ، وفيه إشارة إلى تقنيطهم وانعكاس آمالهم كما قيل :

إلى الماء يسعى من يغص بلقمة . . .

(إلى أين) يسعى من يغص بماء

ولما كان الغرق من أعسر الموتات وأعظمها شدة ولهذا كان الغريق المسلم شهيداً جعله الله تعالى نكالاً لمن ادعى الربوبية وقال : ﴿ أَنَاْ رَبُّكُمُ الاعلى ﴾ [النازعلات : 24] وعلى قدر الذنب يكون العقاب .

(14/51)

ويناسب دعوى الربوبية والاعتلاء انحطاط المدعي وتغييبه في قعر الماء ، ولك أن تقول لما افتخر فرعون بالماء كما يشير إليه قوله تعالى حكاية عنه : ﴿ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وهذه

الأنهار تَجْرِى مِن تَحْتِى ﴾ [الزخرف : 51] جعل الله تعالى هلاكه بالماء ، وللتابع حظ وافر من المتبوع وكان ذلك الغرق والإنجاء ، والإغراق يوم عاشوراء والكلام فيه مشهور . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 255.256 ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ . . . الآية ﴾

هذا زيادة في التفصيل بذكر نعمة أخرى عظيمة خارقة للعادة ، بها كان تمام الإنجاء من آل فرعون ، وفيها بيان مقدار إكرام الله تعالى لهم ومعجزة لموسى عليه السلام وتعدية فعل ﴿ فرقنا ﴾ إلى ضمير المخاطبين بواسطة الحرف جار على نحو تعدية فعل ﴿ نجيناكم ﴾ [البقرة : 49] إلى ضميرهم كما تقدم .

وفَرَق وفرّق بالتخفيف والتشديد بمعنى واحد إذ التشديد يفيده تعدية ومعناه الفصل بين أجزاء شيء متصل الأجزاء ، غير أن فرق يدل على شدة التفرقة وذلك إذا كانت الأجزاء المفرقة أشد اتصالاً ، وقد قيل إن فرّق للأجسام وفرق للمعاني نقله القرافي عن بعض مشايخه وهو غير تام كما تقدم في المقدمة الأولى من مقدمات هذا التفسير بدليل هذه الآية ، فالوجه أن فَرَّقَ بالتشديد لما فيه علاج ومحاولة وأن المخفف والمشدد كليهما حقيقة في فصل الأجسام وأما في فصل المعاني الملتبسة فمجاز .

وقد اتفقت القراءات المتواترة العشر على قراءة (فرقنا) بالتخفيف والتخفيف منظور فيه

إلى عظيم قدرة الله تعالى فكان ذلك الفرق الشديد خفيفاً .

وتصغر في عين العظيم العظائم . . .

وأل في (البحر) للعهد وهو البحر الذي عهدوه أعني بحر القلزم المسمى اليوم بالبحر الأحمر وسمته التوراة بحر سوف .

(15/51)

والباء في (بكم) إما للملابسة كما في طارت به العنقاء وعدا به الفرس ، أي كان فرق البحر ملابساً لكم والمراد من الملابسة أنه يفرق وهم يدخلونه فكان الفرق حاصلاً بجانبهم .

وجوز صاحب " الكشاف " كون الباء للسببية أي بسببكم يعني لأجلكم .

والخطاب هنا كالخطاب في قوله : ﴿ وإذ نجيناكم من آل فرعون ﴾ [البقرة : 49] .

وقوله : ﴿ فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون ﴾ هو محل المنة وذكر النعمة وهو نجاتهم من الهلاك وهلاك عدوهم ، قال الفرزدق :

كيف تراني قَاليا مجنى . . .

قد قتل الله زياداً عني

فكون قوله : ﴿ وإذ فرقنا بكم البحر ﴾ تمهيداً للمنة لأنه سبب الأمرين النجاة والهلاك وهو مع ذلك معجزة لموسى عليه السلام .

وقد أشارت الآية إلى ما حدث لبني إسرائيل بعد خروجهم من مصر من لحاق جند فرعون بهم لمنعهم من مغادرة البلاد المصرية وذلك أنهم لما خرجوا ليلاً إما بإذن من فرعون كما تقول التوراة في بعض المواضع ، وإما خفية كما عبرت عنه التوراة بالهروب ، حصل لفرعون ندم على إطلاقهم أو أغراه بعض أعوانه بصدهم عن الخروج لما في خروجهم من إضاعة الأعمال التي كانوا يسخرون فيها أو لأنه لما رآهم سلكوا غير الطريق المألوف لاجتياز مصر إلى الشام ظنهم يرومون الانتشار في بعض جهات مملكته المصرية فخشى شرهم إن هم بعدوا عن مركز ملكه ومجتمع قوته وجنده .

إن بني إسرائيل ما خرجوا من جهات حاضرة مصر وهي يومئذ مدينة منفيس لم يسلكوا الطريق المألوف لبلاد الشام إذ تركوا أن يسلكوا طريق شاطىء بحر الروم (المتوسط) فيدخلوا برية سينا من غير أن يخترقوا البحر ولا يقطعوا أكثر من اثنتي عرة مرحلة أعني مائتين وخمسين ميلاً وسلكوا طريقاً جنوبية شرقية حول أعلى البحر الأحمر لئلا يسلكوا الطريق المألوفة الآهلة بقوافل المصريين وجيوش الفراعنة فيصدوهم عن الاسترسال في سيرهم أو يُلحق بهم فرعون من يردهم لأن موسى علم بوحي كما قال تعالى :

﴿ وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي إنك متبعون ﴾ [الشعراء : 52] إن فرعون لا يلبث أن يصدهم عن المضي في سيرهم فلذلك سلك بهم بالأمر الإلهي طريقاً غير مطروقة فكانوا مضطرين للوقوف أمام البحر في موضع يقال له " فم الحيروث" فهنالك ظهرت المعجزة إذ فلق الله لهم البحر بباهر قدرته فأمر موسى أن يضربه بعَصاه فانفلق وصار فيه طريق يبس مرت عليه بنو إسرائيل وكان جند فرعون قد لحق بهم ورام اقتحام البحر وراءهم فانطبق البحر عليهم فغرقوا .

وقوله : ﴿ وأغرقنا آل فرعون ﴾ أي جنده وأنصاره .

ولم يذكر في هاته الآية غرق فرعون لأن محل المنة هو إهلاك الذين كانوا المباشرين لتسخير بني إسرائيل وتعذيبهم والذين هم قوة فرعون وقد ذكر غرق فرعون في آيات أخرى نتكلم عليها في موضعها إن شاء الله ، وكان ذلك في زمن الملك " منفتاح" ويقال له " منفطة" أو " مينيتاه" من فراعنة العائلة التاسعة عشرة في ترتيب فراعنة مصر عند المؤرخين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 1 صـ 477. 479 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أن هذه الواقعة تضمنت نعماً كثيرة في الدين والدنيا ، أما نعم الدنيا في حق موسى

عليه السلام فهي من وجوه ، أحدها : أنهم لما وقعوا في ذلك المضيق الذي من ورائهم فرعون وجنوده وقدامهم البحر ، فإن توقفوا أدركهم العدو وأهلكهم بأشد العذاب وإن ساروا غرقوا فلا خوف أعظم من ذلك ، ثم إن الله نجاهم بفلق البحر فلا فرج أشد من ذلك .

وثانيها : أن الله تعالى خصهم بهذه النعمة العظيمة والمعجزة الباهرة ، وذلك سبب لظهور كرامتهم على الله تعالى .

وثالثها : أنهم شاهدوا أن الله تعالى أهلك أعداءهم ومعلوم أن الخلاص من مثل هذا البلاء من أعظم النعم ، فكيف إذا حصل معه ذلك الإكرام العظيم وإهلاك العدو .

ورابعها : أن أورثهم أرضهم وديارهم ونعمهم وأموالهم .

(17/51)

وخامسها : أنه تعالى لما أغرق آل فرعون فقد خلص بني إسرائيل منهم ، وذلك نعمة عظيمة لأنه كان خائفاً منهم ، ولو أنه تعالى خلص موسى وقومه من تلك الورطة وما أهلك فرعون وقومه لكان الخوف باقياً من حيث إنه ربما اجتمعوا واحتالوا بحيلة وقصدوا إيذاء موسى عليه السلام وقومه ، ولكن الله تعالى لما أغرقهم فقد حسم مادة الخوف بالكلية .

وسادسها : أنه وقع ذلك الإغراق بمحضر من بني إسرائيل وهو المراد من قوله تعالى : ﴿ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ وأما نعم الدين في حق موسى عليه السلام فمن وجوه ، أحدها : أن قوم موسى لما شاهدوا تلك المعجزة الباهرة زالت عن قلوبهم الشكوك والشبهات ، فإن دلالة مثل هذا المعجز على وجود الصانع الحكيم وعلى صدق موسى عليه السلام تقرب من العلم الضروري ، فكأنه تعالى رفع عنهم تحمل النظر الدقيق والاستدلال الشاق .

وثانيها : أنهم لما عاينوا ذلك صار داعياً لهم إلى الثبات على تصديق موسى والانقياد له وصار ذلك داعياً لقوم فرعون إلى ترك تكذيب موسى عليه السلام والإقدام على تكذيب فرعون .

وثالثها : أنهم عرفوا أن الأمور بيد الله فإنه لا عز في الدنيا أكمل مما كان لفرعون ولا شدة أشد مما كانت ببني إسرائيل ، ثم إن الله تعالى في لحظة واحدة جعل العزيز ذليلاً والذليل عزيزاً ، وذلك يوجب انقطاع القلب عن علائق الدنيا والإقبال بالكلية على خدمة الخالق والتوكل عليه في كل الأمور ، وأما النعم الحاصلة لأمة محمد صلى الله عليه وسلم من ذكر هذه القصة فكثيرة ، أحدها : أنه كالحجة لمحمد صلى الله عليه وسلم على أهل الكتاب لأنه كان معلوماً من حال محمد عليه الصلاة والسلام أنه كان أمياً لم يقرأ ولم يكتب ولم يخالط أهل الكتاب فإذا أورد عليهم من أخبارهم المفصلة ما لا يعلم إلا من الكتب علموا أنه أخبر

عن الوحي وأنه صادق ، فصار ذلك حجة له عليه السلام على اليهود وحجة لنا في تصديقه .

(18/51)

وثانيها : أنا إذا تصورنا ما جرى لهم وعليهم من هذه الأمور العظيمة علمنا أن من خالف الله شقي في الدنيا والآخرة ومن أطاعه فقد سعد في الدنيا والآخرة ، فصار ذلك مرغباً لنا في الطاعة ومنفراً عن المعصية .

وثالثها : أن أمة موسى عليه السلام مع أنهم خصوا بهذه المعجزات الظاهرة والبراهين الباهرة ، فقد خالفوا موسى عليه السلام في أمور حتى قالوا : ﴿ اجعل لَّنَا إِلهاً كَمَا لَهُمْ ءالِهَةٌ ﴾ [الأعراف : 138] وأما أمة محمد صلى الله عليه وسلم فمع أن معجزتهم هي القرآن الذي لا يعرف كونه معجزاً إلا بالدلائل الدقيقة انقادوا لمحمد صلى الله عليه وسلم وما خالفوه في أمر ألبتة ، وهذا يدل على أن أمة محمد صلى الله عليه وسلم أفضل من أمة موسى عليه السلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 67. 68 ﴾

فصل في اختلاف العلماء في كيفيّة إنجاء بني إسرائيل

قال القرطبى :

ذكر الطبري أن موسى عليه السلام أُوحِيَ إليه أن يسري من مصر ببني إسرائيل فأمرهم موسى أن يستعيروا الحليّ والمتاع من القبط ، وأحلّ الله ذلك لبني إسرائيل ؛ فسرى بهم موسى من أول الليل ؛ فأعلم فرعون فقال : لا يتبعهم أحد حتى تصيح الدِّيكَة ، فلم يصِح تلك الليلة بمصر ديك ؛ وأمات الله تلك الليلة كثيراً من أبناء القبط فاشتغلوا في الدفن وخرجوا في الأتباع مشرقين ؛ كما قال تعالى : ﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴾ [الشعراء : 60] .

وذهب موسى إلى ناحية البحر حتى بلغه .

وكانت عِدّة بني إسرائيل نَيِّفاً على ستمائة ألف .

وكانت عِدّة فرعون ألف ألف ومائتي ألف .

وقيل : إن فرعون اتّبعه في ألف ألف حصان سوى الإناث .

وقيل : دخل إسرائيل وهو يعقوب عليه السلام مصر في ستة وسبعين نفساً من ولده وولد ولده ؛ فأنمى الله عددهم وبارك في ذرّيته ؛ حتى خرجوا إلى البحر يوم فرعون وهم ستمائة ألف من المقاتلة سوى الشيوخ والذرية والنساء .

وذكر أبو بكر عبد اللَّه بن محمد بن أبي شيبة قال حدّثنا شَبَابة بن سَوّار عن يونس بن أبي إسحاق عن أبي إسحاق عن عمرو بن ميمون عن عبد اللَّه بن مسعود أن موسى عليه السلام حين أسري ببني إسرائيل بلغ فرعون فأمر بشاة فذبحت ، ثم قال : لا والله لا يفرغ من سلخها حتى تجتمع لي ستمائة ألف من القبط ؛ قال : فانطلق موسى حتى انتهى إلى البحر ؛ فقال له : افرق ؛ فقال له البحر : لقد استكبرت يا موسى ! وهل فَرْقت لأحد من ولد آدم فأفرق لك ! قال : ومع موسى رجل على حصان له ؛ قال : فقال له ذلك الرجل : أين أُمرتَ يا نبيّ الله ؟ قال : ما أُمِرْتُ إلا بهذا الوجه ؛ قال : فأقحم فرسه فسبح فخرج.

فقال أين أُمرتَ يا نبي الله ؟ قال : ما أمِرتُ إلا بهذا الوجه ؛ قال : والله مَا كَذَبْتَ ولا كُذِّبْتَ ؛ ثم اقتحم الثانية فسَبَح به حتى خرج ؛ فقال : أين أُمرت يا نبيّ الله ؟ فقال : ما أمرتُ إلا بهذا الوجه ؛ قال : والله ما كَذَبْتَ ولا كُذِّبْتَ ؛ قال فأوحى الله إليه : ﴿ أن اضرب بِعَصَاكَ الْبَحْرَ ﴾ [الأعراف : 160] فضربه موسى بعصاه ؛ ﴿ فانفلق فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كالطود العظيم ﴾ [الشعراء : 63] .

فكان فيه اثنا عشر فِرقاً ، لاثني عشر سِبْطا ، لكل سبط طريق يتراءون ؛ وذلك أن أطواد الماء صار فيها طيقاناً وشبابيك يرى منها بعضهم بعضاً ؛ فلما خرج أصحاب موسى وقام أصحاب فرعون التطم البحر عليهم فأغرقهم .

ويذكر أن البحر هو بحر القُلْزم ، وأن الرجل الذي كان مع موسى على الفرس هو فتاه يوشع

بن نون .

وأن الله تعالى أوحى إلى البحر أن انفرق لموسى إذا ضربك ؛ فبات البحر تلك الليلة يضطرب ؛ فحين أصبح ضرب البحر وكنّاه أبا خالد .

ذكره ابن أبي شيبة أيضاً .

وقد أكثر المفسرون في قصص هذا المعنى ؛ وما ذكرناه كافٍ ، وسيأتي في سورة " يونس ، والشعراء " زيادة بيان إن شاء الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴾ تفسير القرطبى حـ 1 صـ 390.389 ﴿

(20/51)

سؤالان :

السؤال الأول : إن فلق البحر في الدلالة على وجود الصانع القادر وفي الدلالة على صدق موسى كالأمر الضروري ، فكيف يجوز فعله في زمان التكليف ؟ والجواب : أما على قولنا فظاهر ، وأما المعتزلة فقد أجاب الكعبي الجواب الكلي بأن في المكلفين من يبعد عن الفطنة والذكاء ويختص بالبلادة وعامة بني إسرائيل كانوا كذلك ، فاحتاجوا في التنبيه إلى معاينة الآيات العظام كفلق البحر ورفع الطور وإحياء الموتى ، ألا ترى أنهم بعد ذلك مروا بقوم

يعكفون على أصنام لهم فقالوا : (يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة) ، وأما العرب فحالهم بخلاف ذلك ، لأنهم كانوا في نهاية الكمال في العقول ، فلا جرم ، اقتصر الله تعالى معهم على الدلائل الدقيقة والمعجزات اللطيفة .

السؤال الثاني : إن فرعون لما شاهد فلق البحر وكان عاقلاً فلا بد وأن يعلم أن ذلك ما كان من فعله بل لا بد من قادر عالم مخالف لسائر القادرين ، فكيف بقي على الكفر مع ذلك ؟

فإن قلت : إنه كان عارفاً بربه إلا أنه كان كافراً على سبيل العناد والجحود .

قلت : فإذا عرف ذلك بقلبه فكيف استخار توريط نفسه في المهلكة ودخول البحر مع أنه كان في تلك الساعة كالمضطر إلى العلم بوجود الصانع وصدق موسى عليه السلام ؟

والجواب : حب الشيء يعمي ويصم فحبه الجاه والتلبيس حمله على اقتحام تلك المهلكة .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 68 ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾

فصل

قال الفخر :

وأما قوله تعالى : ﴿ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ ففيه وجوه .

أحدها : أنكم ترون التطام أمواج البحر بفرعون وقومه .

وثانيها : أن قوم موسى عليه السلام سألوه أن يريهم الله تعالى حالهم فسأل موسى عليه السلام ربه أن يريهم إياهم فلفظهم البحر ألف ألف ومائتي ألف نفس وفرعون معهم ، فنظروا إليهم طافين وإن البحر لم يقبل واحداً منهم لشؤم كفرهم فهو قوله تعالى : ﴿ فاليوم نُنَجّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءايَةً ﴾ [يونس : 92] أي نخرجك من مضيق البحر إلى سعة الفضاء ليراك الناس ، وتكون عبرة لهم .

وثالثها : أن المراد وأنتم بالقرب منهم حيث توجهونهم وتقابلونهم وإن كانوا لا يرونهم بأبصارهم ، قال الفراء وهو مثل قولك : لقد ضربتك وأهلك ينظرون إليك فما أغاثوك تقول ذلك إذا قرب أهله منه وإن كانوا لا يرونه ومعناه راجع إلى العلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 68 ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ جملة في موضع الحال ، ومعناه بأبصاركم ؛ فيقال إن آل فرعون طفوا على الماء فنظروا إليهم يغرقون ، وإلى أنفسهم ينجون ؛ ففي هذا أعظم المِنّة . وقد قيل : إنهم أخرجوا لهم حتى رأوهم .

فهذه مِنّة بعد مِنّة .

وقيل : المعنى " وأنتم تنظرون " أي ببصائركم الاعتبار ؛ لأنهم كانوا في شغل عن الوقوف

والنظر بالأبصار .

وقيل : المعنى وأنتم بحال من ينظر لو نظر ؛ كما تقول : هذا الأمر منك بمرأى ومسمع ؛ أي بحال تراه وتسمعه إن شئت .

وهذا القول والأوّل أشبه بأحوال بني إسرائيل لتوالي عدم الاعتبار فيما صدر من بني إسرائيل بعد خروجهم من البحر ؛ وذلك أن الله تعالى لما أنجاهم وغرّق عدوّهم قالوا : يا موسى إن قلوبنا لا تطمئن ، إن فرعون قد غَرِق ! حتى أمر الله البحر فلفَظَه فنظروا إليه .

ذكر أبو بكر بن أبي شيبة عن قيس بن عُبَاد : أن بني إسرائيل قالت : ما مات فرعون وما كان ليموت أبداً ! قال : فلما أن سمع الله تكذيبهم نبيه عليه السلام ، رمى به على ساحل البحر كأنه ثور أحمر يتراءاه بنو إسرائيل ؛ فلما أطمأنوا وبُعثوا من طريق البر إلى مدائن فرعون حتى نقلوا كنوزه وغرِقوا في النعمة ، رأوا قوماً يَعكُفون على أصنام لهم ؛ قالوا يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة ؛ حتى زجرهم موسى وقال : أغير الله أبغيكم إلها وهو فضّلكم على العالمين ؛ أي عالمي زمانه .

ثم أمرهم أن يسيروا إلى الأرض المقدّسة التي كانت مساكن آبائهم ويتطهروا من أرض

فرعون .

وكانت الأرض المقدّسة في أيدي الجبارين قد غُلبوا عليها فاحتاجوا إلى دفعهم عنها بالقتال ؛ فقالوا : أتريد أن تجعلنا لُحْمة للجبارين ! فلو أنك تركتنا في يد فرعون كان خيراً لنا .

قال : ﴿ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ المُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ [المائدة : 21] إلى قوله " قَاعِدُون" حتى دعا عليهم وسمّاهم فاسقين .

فبقوا في التّيه أربعين سنة عقوبة ثم رحمهم فمنّ عليهم بالسّلْوَى وبالغمام على ما يأتي بيانه ، ثم سار موسى إلى طُورِ سَيْناء ليجيئهم بالتوراة ؛ فاتخذوا العجل على ما يأتي شأنه ، ثم قيل لهم : قد وصلتم إلى بيت المقدس فادخلوا الباب سُجّداً وقولوا حِطّة على ما يأتي ، وكان موسى عليه السلام شديد الحياء سِتّيراً ؛ فقالوا : إنه آدر .

فلما اغتسل وضع على الحجر ثوبه ؛ فعدا الحجر بثوبه إلى مجالس بني إسرائيل ، وموسى على أثره عُريان وهو يقول : يا حجر ثوبي ! فذلك قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمَنُوا لاَ تَكُونُوا كالذين آذَوْا موسى فَبرَّأَهُ الله مِمَّا قَالُوا ﴾ [الأحزاب : 69] على ما يأتي بيانه ، ثم لما مات هارون قالوا له : أنت قتلت هارون وحسدته ؛ حتى نزلت الملائكة بسريره

وهارون ميت عليه وسيأتي في المائدة ، ثم سألوه أن يعلَموا آية في قبول قربانهم ؛ فجعلت نار تجيء من السماء فتقبل قربانهم ؛ ثم سألوه أنْ بيّن لنا كفارات ذنوبنا في الدنيا ، فكان من أذنب ذنباً أصبح على بابه مكتوب : " عملت كذا ، وكفارته قطع عضو من أعضائك" يسمّيه له ؛ ومن أصابه بول لم يطهر حتى يَقرِضه ويزيل جلدته من بدنه ؛ ثم بدّلوا التوراة وافتروا على الله وكتبوا بأيديهم واشتروا به عَرَضاً ؛ ثم صار أمرهم إلى أن قتلوا أنبياءهم ورسلهم .

فهذه معاملتهم مع ربّهم وسيرتهم في دينهم وسوء أخلاقهم .

وسيأتي بيان كل فصل من هذه الفصول مستوفًى في موضعه إن شاء الله تعالى .

وقال الطبري : وفي أخبار القرآن على لسان محمد عليه السلام بهذه المغيّبات التي لم تكن من علم العرب ولا وقعت إلا في حق بني إسرائيل دليل واضح عند بني إسرائيل قائم عليهم بنبوّة محمد صلى الله عليه وسلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 1 صـ 392 . 393 ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ جملة حالية وفيها تجوز أي وآباؤكم ينظرون ، والمفعول محذوف أي جميع ما مر فإن أريد الأحكام فالنظر بمعنى العلم وعليه ابن عباس رضي الله تعالى عنه وإن نفس الأفعال من الغرق والإنجاء .

والإغراق فهو بمعنى المشاهدة وعليه الجمهور والحال على هذا من الفاعل وهو معمول بجميع الأفعال السابقة على التنازع ، وفائدته : تقرير النعمة عليهم كأنه قيل : وأنتم لا تشكون فيها ، وجوز أن يقدر المفعول خاصاً أي غرقهم ، وإطباق البحر عليهم فالحال متعلق بالقريب ، وهو ﴿ أَغْرَقْنَا ﴾ وفائدته : تتميم النعمة فإن هلاك العدو نعمة ؛ ومشاهدته نعمة أخرى ، وفي " قصص الكسائي " أن بني إسرائيل حين عبروا البحر وقفوا ينظرون إلى البحر وجنود فرعون ، ويتأملون كيف يفعلون ، أو انفلاق البحر فيكون الحال متعلقاً بالأصل في الذكر ، وهو ﴿ فَرَقْنَا ﴾ وفائدته : إحضار النعمة ليتعجبوا من عظم شأنها ، ويتعرفوا إعجازها ، أو ذلك الآل الغريق فالحال من مفعول ﴿ أَغْرَقْنَا ﴾ متعلق به والفائدة : تحقيق الإغراق وتثبيته ، وقيل : المراد ينظر بعضكم بعضاً وأنتم سائرون في البحر ، وذلك أنه نقل أن بعض قوم موسى قالوا له : أي أصحابنا ؟ فقال : سيروا فإنهم على طريق مثل طريقكم .

قالوا : لا نرضى حتى نراهم فأوحى الله تعالى أن قل بعصاك هكذا فقال بها على الحيطان فصار بها كوى فتراأوا وسمعوا كلام بعضهم بعضاً فالحال متعلق بفرقنا وفائدته : تتميم

النعمة فإن كونهم مستأنسين يرى بعضهم حال بعض آخر نعمة أخرى ، وبعض الناس يجعل الفعل على هذا الوجه منزلاً منزلة اللازم وليس بالبعيد ، نعم البعيد جعل النظر هنا مجازاً عن القرب أي وأنتم بالقرب منهم أي بحال لو نظرتم إليهم لرأيتموهم كقولهم أنت مني بمرأى ومسمع أي قريب مني بحيث أراك وأسمعك ، وكذا جعله بمعنى الاعتبار أي وأنتم تعتبرون بمصرعهم وتتعظون بمواقع النقمة التي أرسلت عليهم .

هذا وقد حكوا في كيفية خروج بني إسرائيل وتعنتهم وهم في البحر ، وفي كيفية خروج فرعون بجنوده ، وفي مقدار الطائفتين حكايات مطولة جداً لم يدل القرآن ولا الحديث الصحيح عليها والله تعالى أعلم بشأنها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 256 ﴾

(25/51)

وقال ابن عاشور :

قوله : ﴿ وأنتم تنظرون ﴾ جملة حالية من الفاعل وهو ضمير الجلالة في ﴿ فرقنا ﴾ و ﴿ أنجينا ﴾ و ﴿ أغرقنا ﴾ مقيدة للعوامل الثلاثة على سبيل التنازع فيها ، ولا يتصور في التنازع في الحال إضمار في الثاني على تقدير إعمال الأول لأن الجملة لا تضمر كما لا يضمر

في التنازع في الظرف نحو سكن وقرأ عندك ولعل هذا مما يوجب إعمال الأول وهذا الحال زيادة في تقرير النعمة وتعظيمها فإن مشاهدة المنعم عليه للنعمة لذة عظيمة لا سيما ومشاهدة إغراق العدو أيضاً نعمة زائدة كما أن مشاهدة فرق البحر نعمة عظيمة لما فيها من مشاهدة معجزة تزيدهم إيماناً وحادث لا تتأتى مشاهدته لأحد .

ويجوز أن تكون الجملة حالاً من المفعول وهو (آل فرعون) أي تنظرونهم ، ومفعول ﴿ تنظرون ﴾ محذوف ولا يستقيم جعله منزلاً منزلة اللازم .

وإسناد النظر إليهم باعتبار أن أسلافهم كانوا ناظرين ذلك لأن النعمة على السلف نعمة على الأبناء لا محالة فضمير الخطاب مجاز . انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 1 صـ 480.479 ﴾

فصل

قال القرطبى :

ذكر الله تعالى الإنجاء والإغراق ، ولم يذكر اليوم الذي كان ذلك فيه .

فروى مسلم عن ابن عباس : " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة فوجد اليهود صياماً يوم عاشوراء ؛ فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما هذا اليوم الذي تصومونه" فقالوا : هذا يوم عظيم أنجى الله فيه موسى وقومه وغَرّق فرعونَ وقومه ، فصامه موسى شكراً ؛ فنحن نصومه .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " فنحن أحق وأولى بموسى منكم" فصامه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمر بصيامه "

وأخرجه البخاري أيضاً عن ابن عباس ، " وأن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه : " أنتم أحق بموسى منهم فصوموا" " .

مسألة : ظاهر هذه الأحاديث تدل على أن النبيّ صلى الله عليه وسلم إنما صام عاشوراء وأمر بصيامه اقتداء بموسى عليه السلام على ما أخبره به اليهود .

وليس كذلك ؛ لما روته عائشة رضي الله عنها قالت : "كان يوم عاشوراء تصومه قريش في الجاهلية ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصومه في الجاهلية ؛ فلما قدم المدينة صامه وأمر بصيامه ؛ فلما فُرض رمضان ترك صيام يوم عاشوراء فمن شاء صامه ومن شاء تركه " أخرجه البخاريّ ومسلم .

فإن قيل : يحتمل أن تكون قريش إنما صامتة بإخبار اليهود لها لأنهم كانوا يسمعون منهم ؛ لأنهم كانوا عندهم أهل علم ؛ فصامه النبيّ عليه السلام كذلك في الجاهلية ، أي بمكة ؛ فلما قدم المدينة ووجد اليهود يصومونه قال : " نحن أحقّ وأولى بموسى منكم " فصامه اتباعا

لموسى .

" وأمر بصيامه" أي أوجبه وأكدّ أمره ، حتى كانوا يصومونه الصغار .

قلنا : هذه شبهة من قال : إن النبيّ صلى الله عليه وسلم لعلّه كان متعبداً بشريعة موسى ؛ وليس كذلك ، على ما يأتي بيانه في " الأنعام" عند قوله تعالى : ﴿ فَبِهُدَاهُمُ اقتده ﴾ [الأنعام : 90] .

مسألة : اختِلف في يوم عاشوراء ؛ هل هو التاسع من المحرّم أو العاشر ؟ فذهب الشافعيّ إلى أنه التاسع ؛ لحديث الحكم بن الأعرج قال : انتهيت إلى ابن عباس رضي الله عنهما وهو متوَسّد رداءه في زمزم ، فقلت له : أخبرني عن صوم عاشوراء ؛ فقال : إذا رأيت هلال المحرّم فاعدد وأصْبِحْ يوم التاسع صائماً .

قلت : هكذا كان محمد صلى الله عليه وسلم يصومه ؟ قال نعم .

خرّجه مسلم .

وذهب سعيد بن المسيب والحسن البصري ومالك وجماعة من السلف إلى أنه العاشر .

وذكر الترمذي حديث الحَكَم ولم يصفه بصحة ولا حسن .

ثم أردفه : أنبأنا عبد الوارث عن يونس عن الحسن عن ابن عباس قال : " أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بصوم عاشوراء يوم العاشر " قال أبو عيسى : حديث ابن عباس حديث حسن صحيح .

قال الترمذيّ : وروى عن ابن عباس أنه قال : صوموا التاسع والعاشر وخالفوا اليهود .

وبهذا الحديث يقول الشافعيّ وأحمد بن حنبل وإسحاق .

(27/51)

قال غيره : وقول ابن عباس للسائل : " فاعدد وأصبح يوم التاسع صائماً " ليس فيه دليل على ترك صوم العاشر ، بل وعد أن يصوم التاسع مضافاً إلى العاشر .

قالوا : فصيام اليومين جَمْع بين الأحاديث .

وقول ابن عباس للحَكَم لما قال له : هكذا كان محمد صلى الله عليه وسلم يصومه ؟ قال : نعم .

معناه أن لو عاش ؛ وإلا فما كان النبيّ صلى الله عليه وسلم صام التاسع قطّ .

يبيّنه ما خرّجه ابن ماجه في سُننه ومسلم في صحيحه عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لئن بَقِيت إلى قابلٍ لأصومّن اليوم التاسع " .

فضيلة : روى أبو قتادة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " صيام يوم عاشوراء أحتسب على الله أن يكفّر السَّنة التي قبله " أخرجه مسلم والترمذيّ ، وقال : لا نعلم في شيء من الروايات أنه قال : " صيام يوم عاشوراء كفّارة سنة " إلا في حديث أبي قتادة . انتهى .

ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 1 صـ 390. 392 ﴾

فائدة

قال السمرقندى :

وكان في قصة فرعون وغيره علامة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم لأنه لا يعرف ذلك إلا بالوحي ، فلما أخبرهم بذلك من غير أن يقرأ كتاباً ، كان ذلك دليلاً أنه قاله بالوحي ، وفيه أيضاً تهديد للكفار ليؤمنوا حتى لا يصيبهم مثل ما أصاب أولئك ، وفيه أيضاً تنبيه للمؤمنين وعظة لهم ليزجرهم ذلك عن المعاصي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ 78 ﴾

ومن فوائد ابن عرفة فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ فَأَنجَيْنَاكُمْ . . . ﴾ .

قال البسيلي : في تفسير قوله تعالى : " فأنجيناكم " قدم الإنجاء وإن كان دفع المؤلم آكد مراعاة للترتيب الوجودي لأن الإنجاء متقدم على إغراق آل فرعون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عرفة صـ 287 ﴾

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (50) ﴾

مرة ثانية تأتي " وإذ " . ويأتي الانجاء وسيلة . هذه الوسيلة ذكرتها الآية الكريمة . فقد خرج موسى وقومه وكانوا ستمائة ألف كما تقول الروايات . وعرف فرعون بخروجهم فخرج وراءهم على رأس جيش من ألف ألف (مليون) . عندما رآهم قوم موسى كما يروي لنا القرآن الكريم : ﴿ قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِينَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴾ [الأعراف : 129]

وقال لهم موسى كما جاء في الكتاب العزيز : ﴿ عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف : 129]

وعندما جاء قوم فرعون بعددهم الضخم يقاومون قوم موسى وتراءى الجمعان أي أنهم رأوهم رؤية العين قال قوم موسى " أنا لمدركون "

وهذا كلام منطقي . فأمامهم البحر ووراءهم فرعون وجنوده . ولكن حين تخرج الأحداث من نطاق الأسباب إلى قدرة المسبب فهي لا تخضع لأسباب الكون . ولذلك قال لهم موسى بملء فمه :

﴿ قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ .

وبذلك نقل المسألة من الأسباب إلى المسبب تبارك وتعالى . فبمنطق الأحداث يكون فرعون وجنوده سيدركونهم . ولكن بمنطق الحق سبحانه وتعالى فإنه سيهيئ لهم طريق النجاة .

وأوحى الله سبحانه وتعالى إلى موسى بأن يضرب بعصاه البحر فانفرق . وهكذا توقف قانون الماء وهو الاستطراق والسيولة . وانفرق البحر وأصبح كل جزء منه كالجبل . ذرات الماء تماسكت مع بعضها البعض لتكون جبلين كبيرين بينهما يابس يمر منه بنو إسرائيل .

هذا هو معنى قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ ﴾ والفرق هو الفصل بين شيئين . . وإذا كان البحر قد انشق . . فأين ذهب الطين المبتل في قاع البحر ؟ . . قالوا إن الله أرسل ريحا مرت عليه فجففته . ولذلك قال الحق جل جلاله : ﴿ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً ﴾ ويقال إنه حين كان موسى وقومه يعبرون البحر سألوا عن بقية إخوانهم . فقال لهم موسى أنهم في طرق أخرى موازية لطريقنا . قالوا نريد أن نطمئن عليهم . فرفع موسى يده إلى السماء وقال اللهم أَعِنّي على أخلاقهم السيئة . فأوحى الله إلى موسى أن يضرب بعصاه الحواجز فانفتحت طاقة بين كل ممر . فكانوا يرون بعضهم بعضا .

وعندما رأى موسى عليه السلام فرعون وجيشه يتجهون إلى البحر ليعبروه . أراد أن يضرب البحر ليعود إلى السيولة . فلا يلحق بهم آل فرعون . ولكن الله أوحى إليه : ﴿ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴾ [الدخان : 24]

أي اترك البحر على ما هو عليه . حتى يتبعكم قوم فرعون . ظانين أنهم قادرون على أن يسلكوا نفس الطريق ويمشوا فيه . وحينما يكون أولهم قريبا من شاطئكم وآخرهم عند الشاطئ الآخر . أعيد الماء إلى استطراقه . فأكون قد أنجيت وأهلكت بالسبب الواحد . فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يمن على بني إسرائيل بأنه أنجاهم من العذاب وأهلك عدوهم .

فكان العطاء عطاءين . عطاء إيجاب بأن أنجاهم . وعطاء سلب بأن أهلك عدوهم . وقوله تعالى : ﴿ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ في هذه الآية لم يتحدث الحق جل جلاله عن فرعون . وإنما حدث عن إغراق آل فرعون . لماذا ؟ لأن آل فرعون هم الذين أعانوه على جبروته وبطشه وطغيانه . هم الأداة التي استخدمها لتعذيب بني إسرائيل .

والله سبحانه وتعالى أراد أن يرى بنو إسرائيل آل فرعون وهم يغرقون فوقفوا يشاهدونهم. وأنت حين ترى مصرع عدوك. تشعر بالمرارة التي في قلبك تزول. ﴿ وَأَنْتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ تحتمل معنى آخر. أي ينظر بعضكم إلى بعض وأنتم غير مصدقين أنكم نجوتم من هذا البلاء العظيم. وفي نفس الوقت تطمئنون وأنتم تشاهدونهم. وهم يغرقون دون أن ينجو منهم أحد حتى لا يدخل في قلوبكم الشك. أنه ربما نجى بعضهم وسيعودون بجيش ليتبعوكم. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 329. 331 ﴾

(31/51)

فصل

قال السيوطى :

﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (50) ﴾

أخرج عبد حميد عن قتادة في قوله ﴿ وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون ﴾ قال : أي والله لفرق بهم البحر حتى صار طريقاً يبساً يمشون فيه ﴿ فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون ﴾ [البقرة : 50] عدوّهم نعم من الله يعرفهم لكيما يشكروا ويعرفوا حقه.

وأخرج أحمد والبخاري ومسلم والنسائي والبيهقي عن ابن عباس قال : قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، فرأى اليهود يصومون يوم عاشوراء ، فقال " ما هذا اليوم الذي تصومون ؟ قالوا : هذا يوم صالح نجى الله فيه بني إسرائيل من عدوهم فصامه موسى . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نحن أحق بموسى منكم ، فصامه وأمر بصومه " .

وأخرج الطبراني وأبو نعيم في الحلية عن سعيد بن جبير : أن هرقل كتب إلى معاوية وقال : إن كان بقي فيهم شيء من النبوّة فسيخبرني عما أسألهم عنه . قال : وكتب إليه يسأله عن المجرة ، وعن القوس ، وعن البقعة التي لم تصبها الشمس إلا ساعة واحدة ، قال : فلما أتى معاوية الكتاب والرسول قال : إن هذا شيء ما كنت آبه له أن أسأل عنه إلى يومي هذا ، من لهذا ؟ قالوا : ابن عباس . وطوى معاوية كتاب هرقل وبعثه إلى ابن عباس ، فكتب إليه : إن القوس أمان لأهل الأرض من الغرق ، والمجرة باب السماء الذي تشق منه ، وأما البقعة التي لم تصبها الشمس إلا ساعة من نهار فالبحر الذي أفرج عن بني إسرائيل .

وأخرج أبو يعلى وابن مردويه عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " فلق البحر لبني إسرائيل يوم عاشوراء " . انتهى انتهى . اهـ ﴿الدر المنثور حـ 1 صـ 167﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

" إذْ " في موضع نصب ، و " الفَرْق " [والفَلْق] واحد ، وهو الفصل والتمييز ، ومنه : ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ ﴾ [الإسراء : 106] أي : فَصّلناه ومَيَّزْنَاه بالقرآن والبيان .

والقرآن فُرقان لتمييزه بين الحق والباطل .

وقرأ الزُّهْرِي : " فَرَّقْنَا " بتشديد الراء .

أي : جعلناه فرقاً .

قوله : " بكم " الظاهر أن الباء على بابها من كونها داخلة على الآلة ، فكأنه فرق بهم كما يفرق بين الشَّيئين بما توسط بينهما .

وقال أبو البقاء : ويجوز أن تكون المعدية كقولك : " ذهبت بزيد " ، فيكون التقدير : أفرقناكم البَحْر ، ويكون بمعنى : ﴿ وَجَاوَزْنَا ببني إِسْرَآئِيلَ البحر ﴾ [الأعراف : 138] .

وهذا أقرب من الأول .

ويجوز أن تكن الباء للسببية أي : بسببكم ، ويجوز أن تكون للحال من " البحر " أي : فرقناه ملتبساً بكم ، ونظره الزمخشري بقوله : [الوافر]

. . .

تَدُوسُ بِنَا [الجَمَاجِمَ] والتَّرِيبَا

أي : تَدُوسُهَا ونحن راكبوها .

قال أبو البقاء : أي : فرقنا البحر وأنتم به ، فيكون إما حالاً مقدرة أو مقارنة ، ولا حاجة إلى ذلك ؛ لأنه لم يكن مفروقاً إلا بهم حال كونهم سالكين فيه .

وقال أيضاً : و " بكم " في موضع نصب مفعول ثانٍ لـ " فَرَقْنَا " و " البحر " مفعول أول ، والباء هنا في معنى اللام .

وفيه نظر ؛ لأنه على تقدير تسليم كون الباء بمعنى اللام فتكون لام العلّة ، والمجرور بلام العلة لا يقال : إنه مفعول ثانٍ ، لو قلت : ضربت زيداً لأجلك ، لا يقول النحوي : " ضرب " يتعدّى لاثنين إلى أحدهما بنفسه ، وللآخر بحرف الجر .

و " البَحْر " أصله : الشّق الواسع ، ومنه " البَحِيْرة " لِشَقّ أذنها ن وفيه الخلاف المتقدّم في " النهر " في كونه حقيقة في الماء ، أو في الأُخْدُود ؟

ويقال : فرس بَحْر أي : واسع الجَرْي ، ويقال : أَبْحَرَ الماء : ملح ؛ قال نُصَيْب : [الطويل]

وَقَدْ عَادَ مَاءُ الأَرْضِ بَحْراً فَزَادَنِي . . .

إِلَى مَرَضِي أَنْ أَبْحَرَ المَشْرَبُ العَذْبُ

والبَحْر يكنى إياه ، وقد يطلق على العَذْب بحراً ، وهو مختص بالماء المِلْح وفيه خلاف .

و" البَحْر " : البلدة ، يقال : هذه بَحْرتنا ، أي : بلدتنا .

(33/51)

و " البحر " كالسُّلال يصيب الإنسان .

ويقولون : لقيته صَحْرَةً بَحْرَةً ، أي : بارزاً مكشوفاً .

قوله : " فأنجيناكم " أي : أخرجناكم منه ، يقال : نجوت من كذا نِجَاءً ، ممدوداً ، ونَجَاةً ، مقصوراً ، والصدق مَنْجَاة ، وأَنْجَيْت غيري ونَجَّيته ، وقرىء بهما : ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم ﴾ [البقرة : 49] " فأنجيناكم " .

قوله : ﴿ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ ﴾ .

" الغَرَق " : الرسوب في الماء ، يقال : غَرِقَ في الماء غَرَقاً ، فهو غَرِقٌ وغَارِقٌ أيضاً ، وأَغْرَقَ غَيْرَهُ وغَرَّقَهُ ، فهو مُغَرَّقٌ وغَرِيقٌ ؛ قال أبو النَّجْم : [الرجز]

مِنْ بَيْن مَقْتُولٍ وطَافٍ غَارِقِ . . .

ويطلق على القتل بأي نوع كان ؛ قال الأعشى : [الطويل]

. . . . . .

أَلاَّ لَيْتَ قَيْساً غَرَّقَتْهُ القَوابِلُ

وذلك إن القَابِلَة كانت تغرق المولود في دم السَّلَى عام القَحْطِن ذكراً كان أو أنثى حتى يموت ، فهذا الأصل ، ثم جعل كل قتل تغريقاً ، ومنه قول ذي الرمة : [الطويل]

إذَا غَرَّقَتْ أرْبَاظُهَا ثِنْيَ بَكْرةٍ . . .

بِتَيْهَاءَ لَمْ تُصْبِحْ رَءُوماً سَلُوبُهَا

والأَرْبَاض : الحِبَال .

والبَكْرَة : النَّاقة .

وثِنْيُهَا : بطنها الثَّاني ، وإنما لم تعطف على ولدها لما لحقها من التعب .

قوله : ﴿ وَأَنْتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ جملة من مبتدأ وخبر في محل نصب على الحال من " آل فرعون " أي : وأنتم تنظرون إغْرَاقَكُم ، والعامل " أغرقنا " ، ويجوز أن يكون حالاً من مفعول " أنجيناكم " .

والنَّظر يحتمل أن يكون بالبَصَرِ ؛ لأنهم كانوا يبصرون بعضهم بعضاً لقربهم ؛ وقيل : إن آل فرعون طغوا على الماء ، فنظروا إليهم .

وأن يكون بالبصيرة والاعتبار .

وقيل المعنى : وأنتم بحال من ينظر لو نظرتم ، ولذلك لم يُذْكر له مفعول . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير ابن عادل حـ 2 صـ 62 . 64 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

(34/51)

﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (50) ﴾

تقاصرت بصائر بني إسرائيل فأراهم المعجزات عياناً ، ونفذت بصائر هذه الأمة فكاشفهم بآياته سراً ، وبذلك جرت سُنَّتُه سبحانه ، وكل من كان أشحذَ بصيرةً كان الأمر عليه أغمض ، والإشارات معه أوفر ، قال صلى الله عليه وسلم : " أوتيت جوامع الكلم واختصر لي الكلام اختصاراً " .

وحين شاهدوا ظاهر تلك الآيات من فلق البحر وإغراق آل فرعون – دَاخَلَهُمْ رِيبٌ ؛ فقالوا : إنه لم يغرق حتى قذفهم البحر ، فنظر بنو إسرائيل إليهم وهم مغرقون . وهذه الأمة لفظ تصديقهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله ، وقوة بصائرهم (أن) قال واحد من أفتاء الناس : " كأني بأهل الجنة يتزاورون وكأني بأهل النار يتعاوون وكأني أنظر عرش ربي بارزاً " فشتَّان بين من يُعاين فيرتاب مع عيانه ، وبين مَنْ يسمع فكالعيان حالُه من قوة إيمانه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 89. 90 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (51) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان فرق البحر للإبقاء البدني وكان إنزال الكتاب للإبقاء الديني عقبه به وكان الطبع السليم والمزاج المستقيم يقتضي إحسان العمل زمن المواعدة واستعطاف المواعد والترفق له والتملق بما تحقق الرجاء في إنجاز وعده لا سيما بعد بليغ إحسانه بالإنجاء من العدو وإهلاكه نعى عليهم عملهم بخلاف ذلك بقوله : ﴿ وإذ ﴾ .

وقال الحرالي : لما ذكّرهم تعالى بأمر الوفاء بالعهد الذي هو خاتمة أمرهم وبالتفصيل الذي كان بادية أمرهم نظم ذلك بالأمر المتوسط بين الطرفين الذي أعلاه مواعدة موسى عليه السلام ربه الذي النعمة عليه نعمة عليهم فقال : وإذ ﴿ واعدنا ﴾ من الوعد وهو الترجية بالخير ، ووعدنا من المواعدة وهي التقدم في اللقاء والاجتماع والمفاوضة ونحوه

﴿ موسى ﴾ كلمة معربة من لفظ العبراني بما تفسيره فيما يقال ماء وشجر ، سمي به لما

أودع فيه من التابوت المقذوف في اليم ﴿ أربعين ليلة ﴾ هي كمال وقت الليل والليل وقت انطماس المدركات الظاهرة – انتهى .

وخص الليل بالذكر إشارة إلى أن ألذ المناجاة فيه وإلى أنه لا نوم في تلك المدة بل المناجاة عامة لليلها ونهارها ، وانتصب أربعين بوقوعه موقع المفعول الثاني لوعدنا أي انقضاء أربعين أي الكلام أو إنزال التوراة عند انقضاء الأربعين وهي ذو القعدة وعشر من ذي الحجة وقيل ذو الحجة وعشر من المحرم .

قال الحرالي : وفيه إشعار بأن المناجاة إنما يتهيأ لها لميقات حبس النفس عما به قوامها وكمال ذلك إنما هو الصوم وكمال العدد الذي هو طور مصير من حال إلى حال هو الأربعون ، وذكر الميقات بالليالي يشعر أن مناجاته صباح من ظلمة الكون في حال خصوص الخلقة من حيث إن الظلمة آية على فوت مرام نور الحق والنهار آية على ظهور نور الحق وأول بادٍ بدأ من الحق للخلق كلامه لمصطفى من خلقه بغير واسطة وهو بعد في دنياه وفي أرضه التي كانت سجناً ، فلما جاءها الحق لعبد من عبيده مناجياً له كما يأتيها يوم الجزاء بعد البعث صارت موطن رحمة وهدى ونور وهو مجيء الله سبحانه من سيناء المذكور في الكتاب الأول – انتهى .

وهذا دون قصة المعراج التي كانت لنبينا صلى الله عليه وسلم في اختراق السماوات العلى إلى سدرة المنتهى إلى ما لا يعلمه إلاّ الله تعالى وسمع الكلام من غير واسطة ورجع إلى بيته في ليلته وقد قطع من المسافات ما مسيرته خمسون ألف سنة كما سأبينه إن شاء الله تعالى في سورة السجدة.

(37/51)

ولما كانت الأنفس الأبيّة والهمم العلية تقتضي النفرة من الظالم والأنفة من كل ما ينسب إليه ويذكّر به وكانوا قد اتخذوا من آثار آل فرعون من حليهم ما دخلوا في رقه وعبوديته وكانت مشاهدتهم لما رأوا من الآيات مقتضية لغاية البعد من الكفر عبر عن مواقعتهم له بثم فقال: ﴿ ثم اتخذتم ﴾ قال الحرالي: من الاتخاذ وهو افتعال مما منه المواخذة كأنه الوخذ، وهو تصيير في المعنى نحو الأخذ في الحس، وفيه تكلف، ﴿ العجل ﴾ وذكر في هذا التقرير أصل المواعدة وذكر الميقات وتجاوز الخطاب ما بعد ذلك من مهل حسب ما تفهمه كلمة ثم، فاقتضى إفهام ذلك ما نالوه من الخير ثم تعقبوا ذلك بالتزام عادتهم في معاودة ما اعتادوه من أعمالهم إلى أدنى عمل من لا عقل له ولا بقية نظر له من اتخاذ جسد عجل إلهاً بعد

معرفة آثار الإلهية على الغيب ، ففيه تعجيب من أن موسى عليه السلام إنما واعده الله بالمناجاة بعد ميقات أربعين صوماً ونسكاً وتحنثاً وانقطاعاً إلى ربّه ثم يرونهم أنهم شهدوا الإله مصوراً محسوساً على أن موسى الذي ناجاه ربّه منع الرؤية فكيف بهم وذلك هو ظلمهم ، فوضعوا الإله محل الشيء المحسوس وهو تعالى قد تعالى عن أن يراه صفيه الذي ناجاه في دنياه وإنما ناجاه بعد ميقاته ، وهم يهمون في تألّه مرئي من غير مواعدة ولا اختصاص ! وفي قوله تعالى ﴿ من بعده ﴾ أي من بعد إتيانه لميعادنا إضمار لذكر موسى عليه السلام تقريراً لما كان ينبغي أن يكونوا عليه من الارتقاب لما يأتيهم به موسى من فوائد المناجاة ، كما يكون من تعلق قلبه بمن هو قدوته ، والبعد بعد عن حد يتخذ مبدأ ليكون سابقه قبل ولاحقه بعد – انتهى .

واثبات الجار لأن اتخاذهم ذلك لم يستغرق زمان البعد ﴿ وأنتم ظالمون ﴾ فاعلون فعل من هو في أظلم الظلام بعد أنجاءكم موسى بالنور المبين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 131.133 ﴾

فصل فى ذكر القصة

قال الخازن :

قال العلماء : لما أنجى الله بنى إسرائيل من البحر وأغرق عدوهم ولم يكن لهم كتاب ولا شريعة ينتهون إليهما ، وعد الله موسى أن ينزل عليه التوراة فقال موسى لقومه : إني ذاهب إلى ميقات ربي لآتيكم منه بكتاب فيه بيان ما تأتون وما تذرون ، ووعدهم أربعين ليلة واستخلف عليهم أخاه هارون فلما جاء الموعد أتاه جبريل عليه الصلاة والسلام على فرس يقال له : فرس الحياة لا يصيب شيئاً إلا حيي ليذهب بموسى إلى ميقات ربه فرآه السامري ، وكان صائغاً اسمه ميخا وقال ابن عباس : اسمه موسى بن ظفر ، وقيل : كان من أهل ماحرا وقيل كرمان وقيل من بني إسرائيل من قبيلة يقال لها السامرة وكان منافقاً يظهر الإسلام وكان من قوم يعبدون البقر فلما رأى جبريل على ذلك الفرس ورأى موضع قدم الفرس يخضر في الحال فقال في نفسه إن لهذا لشأناً وقيل رأى جبريل حين دخل البحر قدام فرعون فقبض قبضة من تراب فرسه وألقى في روعه ، أنه إذا ألقي في شيء حيي فلما ذهب موسى إلى الميقات ، ومكث على الطور أربعين ليلة وأنزل الله عليه التوراة في الألواح وكانت الألواح من زبرجد ، وقربه نجياً وأسمعه صرير الأقلام وقيل : إنه بقي أربعين ليلة لم يحدث فيها حدثاً حتى هبط من الطور ، وكان بنو إسرائيل قد استعاروا حلياً كثيراً من القبط حين أرادوا الخروج من مصر بعلة عرس لهم فلما هلك فرعون وقومه بقي ذلك الحلي

في أيديهم فلما فصل موسى قال لهم السامري : إن الحلي الذي استعرتموه من القبط غنيمة لا تحل لكم فاحفروا حفيرة وادفنوه فيها حتى يرجع موسى ، ويرى فيها رأيه وقيل : إن هارون أمرهم بذلك فلما اجتمعت الحلي أخذها السامري وصاغها عجلاً في ثلاثة أيام ، ثم ألقى فيها القبضة التي أخذها من تراب فرس جبريل عليه الصلاة والسلام فصار عجلاً من ذهب مرصعاً بالجواهر وخار خورة وقيل : كان يخور ويمشي ، فقال لهم السامري ؛ " هذا إلهكم وإله موسى فنسي " أي فتركه ها هنا وخرج يطلبه وكان بنو إسرائيل قد

أخلفوا الوعد ، فعدوا اليوم مع الليلة يومين فلما مضى عشرون يوماً ، ولم يرجع موسى وقعوا في الفتنة وقيل : كان موسى وعدهم ثلاثين ليلة ثم زيدت العشرة فكانت فتنتهم في تلك العشرة فلما مضت الثلاثون ولم يرجع موسى ، ظنوا أنه قد مات ورأوا العجل وسمعوا قول السامري فعكف عليه ثمانية آلاف رجل يعبدونه ، وقيل : عبده كلهم إلا هارون مع اثني عشر ألف رجل وهذا أصح فذلك قوله عز وجل : ﴿ ثم اتخذتم العجل ﴾ . (1) انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 1 صـ 59. 60 ﴾

فصل

قال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ وَاعَدْنَا موسى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ قرأ أبو عمرو " وَعَدْنَا " بغير ألفٍ ، واختاره أبو عبيد ورجّحه وأنكر ﴿ وَاعَدْنَا ﴾ قال : لأن المواعدة إنما تكون من البشر ، فأما الله جل وعز فإنما هو المنفرد بالوعد والوعيد .

على هذا وجدنا القرآن ؛ كقوله عز وجل : ﴿ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الحق ﴾ [إبراهيم : 14] وقوله : ﴿ وَعَدَ الله الذين آمَنُواْ مِنْكُمْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ [النور : 55] ، وقوله : ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ الله إِحْدَى الطائفتين أَنَّهَا لَكُمْ ﴾ [الأنفال : 7] .

قال مكيّ : وأيضاً فإن ظاهر اللفظ فيه وَعْدٌ من الله تعالى لموسى ، وليس فيه وعد من موسى ؛ فوجب حمله على الواحد ، لظاهر النص أن الفعل مضاف إلى الله تعالى وحده ؛ وهي قراءة الحسن وأبي رجاء وأبي جعفر وشيبة وعيسى بن عمر ؛ وبه قرأ قتادة وابن أبي إسحاق .

قال أبو حاتم : قراءة العامة عندنا " وعدنا " بغير ألف ؛ لأن المواعدة أكثر ما تكون بين المخلوقين والمتكافئين ، كل واحد منهما يَعِد صاحبه .

قال الجوهري : الميعاد : المواعدة والوقت والموضع .

---

(1) هذه القصة كسابقتها تفتقر إلى سند صحيح وتشتمل على مبالغات كبيرة . ولا

نستطيع الجزم بصحة وقوعها بل يغلب على الظن أنها من أساطير التوراة المحرفة. والله أعلم.

قال مكيّ: المواعدة أصلها من اثنين، وقد تأتي المفاعلة من واحد في كلام العرب؛ قالوا: طارقت النّعل، وداويت العليل، وعاقبت اللص؛ والفعل من واحد.

فيكون لفظ المواعدة من الله خاصة لموسى كمعنى وعدنا؛ فتكون القراءتان بمعنىً واحد.

والاختيار ﴿وَاعَدْنَا﴾ بالألف لأنه بمعنى "وعدنا" في أحد معنييه، ولأنه لا بدّ لموسى من وعد أو قبول يقوم مقام الوعد فتصح المفاعلة.

قال النحاس: وقراءة ﴿وَاعَدْنَا﴾ بالألف أجود وأحسن، وهي قراءة مجاهد والأعرج وابن كثير ونافع والأعمش وحمزة والكسائي؛ وليس قوله عز وجل: ﴿وَعَدَ اللهُ الذين آمَنُواْ مِنْكُمْ وَعَمِلُواْ الصالحات﴾ من هذا في شيء؛ لأن ﴿وَاعَدْنَا موسى﴾ إنما هو من باب الموافاة؛ وليس هذا من الوعد والوعيد في شيء، وإنما هو من قولك: موعدك يوم الجمعة، وموعدك موضع كذا.

والفصيح في هذا أن يقال : واعدته .

قال أبو إسحاق الزجاج : ﴿ واعدنا ﴾ ها هنا بالألف جيّد ؛ لأن الطاعة في القبول بمنزلة المواعدة ؛ فمن الله جل وعز وَعْد ، ومن موسى قبول واتباع يجري مجرى المواعدة .

قال ابن عطية .

ورجّح أبو عبيدة " وعدنا " وليس بصحيح ؛ لأن قبول موسى لوعد الله والتزامه وارتقابه يشبه المواعدة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 1 صـ 394 ﴾

وقال الفخر :

اعلم أن هذا هو الإنعام الثالث .

فأما قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ واعدنا ﴾ فقرأ أبو عمرو ويعقوب وإذ وعدنا موسى بغير ألف في هذه السورة وفي الأعراف وطه وقرأ الباقون واعدنا بالألف في المواضع الثلاثة ، فأما بغير ألف فوجهه ظاهر لأن الوعد كان من الله تعالى ، والمواعدة مفاعلة ولا بد من اثنين ، وأما بالألف فله وجوه ، أحدها : أن الوعد وإن كان من الله تعالى فقبوله كان من موسى عليه السلام وقبول الوعد يشبه الوعد ، لأن القابل للوعد لا بد وأن يقول أفعل ذلك ، وثانيها : قال القفال : لا يبعد أن يكون الآدمي يعد الله ويكون معناه يعاهد الله .

وثالثها : أنه أمر جرى بين اثنين فجاز أن يقال واعدنا .

ورابعها : وهو الأقوى أن الله تعالى وعده الوحي وهو وعد الله المجيء للميقات إلى الطور ، أما موسى ففيه وجوه ، أحدها : وزنه فعلى والميم فيه أصلية أخذت من ماس يميس إذا تبختر في مشيته وكان موسى عليه السلام كذلك .

وثانيها : وزنه مفعل فالميم فيه زائدة وهو من أوسيت الشجرة إذا أخذت ما عليها من الورق وكأنه سمي بذلك لصلعه ، وثالثها : أنها كلمة مركبة من كلمتين بالعبرانية فمو هو الماء بلسانهم ، وسى هو الشجر ، وإنما سمي بذلك لأن أمه جعلته في التابوت حين خافت عليه من فرعون فألقته في البحر فدفعته أمواج البحر حتى أدخلته بين أشجار عند بيت فرعون ، فخرجت جواري آسية امرأة فرعون يغتسلن فوجدن التابوت فأخذنه فسمي باسم المكان الذي أصيب فيه وهو الماء والشجر .

واعلم أن الوجهين الأولين فاسدان جداً ،

أما الأول : فلأن بني إسرائيل والقبط ما كانوا يتكلمون بلغة العرب فلا يجوز أن يكون مرادهم ذلك ، وأما الثاني : فلأن هذه اللفظة اسم علم واسم العلم لا يفيد معنى في الذات والأقرب هو الوجه الثالث وهو أمر معتاد بين الناس ، فأما نسبه صلى الله عليه وسلم فهو موسى بن عمران بن يصهر بن قاهث بن لاوي بن يعقوب بن اسحق بن إبراهيم عليهم السلام . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 69 ﴾

قوله تعالى : ﴿ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾

فصل

قال الفخر :

إن موسى عليه السلام قال لبني إسرائيل : إن خرجنا من البحر سالمين أتيتكم من عند الله بكتاب بين لكم فيه ما يجب عليكم من الفعل والترك ، فلما جاوز موسى البحر ببني إسرائيل وأغرق الله فرعون قالوا : يا موسى ائتنا بذلك الكتاب الموعود فذهب إلى ربه ووعدهم أربعين ليلة وذلك قوله تعالى : ﴿ وواعدنا موسى ثلاثين لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ ميقات رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ [الأعراف : 142] واستخلف عليهم هارون ومكث على الطور أربعين ليلة وأنزل الله التوراة عليه في الألواح ، وكانت الألواح من زبرجد فقربه الرب نجياً وكلمه من غير واسطة وأسمعه صرير القلم ، قال أبو العالية وبلغنا أنه لم يحدث حدثاً في الأربعين ليلة حتى هبط من الطور . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 69 ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ أربعين نصب على المفعول الثاني ، وفي الكلام حذف ؛ قال الأخفش : التقدير وإذ واعدنا موسى تمام أربعين ليلة ؛ كما قال : ﴿ واسأل القرية ﴾ [يوسف : 82] والأربعون كلها داخلة في الميعاد .

والأربعون في قول أكثر المفسرين : ذو القعدة وعشرة من ذي الحجة .

وكان ذلك بعد أن جاوز البحر وسأله قومه أن يأتيهم بكتاب من عند الله ؛ فخرج إلى الطور في سبعين من خيار بني إسرائيل ، وصعِدوا الجبل وواعدهم إلى تمام أربعين ليلة ؛ فعدّوا فيما ذكر المفسرين عشرين يوماً وعشرين ليلة ، وقالوا قد أخلفنا موعده .

فاتخذوا العجل ؛ وقال لهم السامريّ : هذا إلهكم وإله موسى ، فاطمأنوا إلى قوله .

ونهاهم هارون وقال : ﴿ يا قوم إِنَّمَا فُتِنتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أَمْرِي قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حتى يَرْجِعَ إِلَيْنَا موسى ﴾ [طه : 90] .

فلم يتبع هارون ولم يطعه في ترك عبادة العجل إلا اثنا عشر ألفا فيما روي في الخبر .

وتهافت في عبادته سائرهم وهم أكثر من ألفي ألف ؛ فلما رجع موسى ووجدهم على تلك الحال ، ألقى الألواح فرفع من جملتها ستة أجزاء وبقي جزء واحد وهو الحلال والحرام

وما يحتاجون ؛ وأحرق العجل وذراه في البحر ؛ فشربوا من مائه حُبًّا للعجل ؛ فظهرت على شفاههم صفرة وورمت بطونهم ؛ فتابوا ولم تُقبل توبتهم دون أن يَقتلوا أنفسهم ؛ فذلك قوله تعالى : ﴿ فتوبوا إلى بَارِئِكُمْ فاقتلوا أَنفُسَكُمْ ﴾ [البقرة : 54] .

فقاموا بالخناجر والسيوف بعضهم إلى بعض من لَدُن طلوع الشمس إلى ارتفاع الضّحى ؛ فقتل بعضهم بعضاً ، لا يسأل والد عن ولده ولا ولد عن والده ، ولا أخ عن أخيه ولا أحد عن أحدٍ ، كل من استقبله ضربه بالسيف وضربه الآخر بمثله ؛ حتى عَجَّ موسى إلى الله صارخاً : يا ربّاه ، قد فنيت بنو إسرائيل ! فرحمهم الله وجاد عليهم بفضله ؛ فقبل توبةَ من بقي وجعل مَن قُتل في الشهداء ؛ على ما يأتي . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 1 صـ 395.396 ﴾

فائدة

قال الفخر :

إنما قال أربعين ليلة لأن الشهور تبدأ من الليالي . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 69 ﴾

وقال البغوي :

وقرن بالليل دون النهار , لأن شهور العرب وضعت على سير القمر , والهلال إنما يهل بالليل ,

وقيل, لأن الظلمة أقدم من الضوء وخلق الليل قبل النهار قال الله تعالى : [وآية لهم الليل نسلخ منه النهار] (يس : 37) انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البغوى حـ 1 صـ 94 ﴾

فصل

قال الفخر :

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ واعدنا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ معناه واعدنا موسى انقضاء أربعين ليلة كقولهم : اليوم أربعون يوماً منذ خرج فلان ، أي تمام الأربعين ، والحاصل أنه حذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه ، كما في قوله تعالى : ﴿ واسئل القرية ﴾ [يوسف : 82] وأيضاً فليس المراد انقضاء أي أربعين كان ، بل أربعين معيناً وهو الثلاثون من ذي القعدة والعشر الأول من ذي الحجة لأن موسى عليه السلام كان عالماً بأن المراد هو هذه الأربعون ، وأيضاً فقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ واعدنا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ يحتمل أن يكون المراد أنه وعد قبل هذه الأربعين أن يجيء إلى الجبل هذه الأربعين حتى تنزل عليه التوراة ، ويحتمل أن يكون المراد أنه أمر بأن يجيء إلى الجبل هذه الأربعين ووعد بأنه ستنزل عليه بعد ذلك التوراة ، وهذا الاحتمال الثاني هو المتأيد بالأخبار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ

فائدة

قال القرطبى :

قال النقاش : في هذه الآية إشارة إلى صلة الصوم ؛ لأنه تعالى لو ذكر الأيام لأمكن أن يعتقد أنه كان يفطر بالليل ، فلما نصّ على الليالي اقتضت قوّة الكلام أنه عليه السلام واصل أربعين يوماً بلياليها .

قال ابن عطية : سمعت أبي يقول : سمعت الشيخ الزاهد الإمام الواعظ أبا الفضل الجوهريّ رحمه الله يعظ الناس في الخلوة بالله والدُنو منه في الصلاة ونحوه ، وأن ذلك يشغل عن كل طعام وشراب ، ويقول : أين حال موسى في القرب من الله ! ووِصال ثمانين من الدهر من قوله حين سار إلى الخضر لفتاه في بعض يوم : ﴿ آتِنَا غَدَآءَنَا ﴾ [الكهف : 62] .

قلت : وبهذا استدل علماء الصوفية على الوصال ، وأن أفضله أربعون يوماً .

وسيأتي الكلام في الوصال في آي الصيام من هذه السورة إن شاء الله تعالى .

(45/51)

ويأتي في " الأعراف" زيادة أحكام لهذه الآية عند قوله تعالى : ﴿ وَوَاعَدْنَا موسى ثَلاَثِينَ لَيْلَةً ﴾ [الأعراف : 142] ، ويأتي لقصة العجل بيانٌ في كيفيته وخُواره هناك وفي " طه" إن شاء الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 1 صـ 396 ﴾

فائدة

قال الفخر :

قوله ههنا : ﴿ وَإِذَا واعدنا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ يفيد أن المواعدة كانت من أول الأمر على الأربعين ، وقوله في الأعراف ﴿ وواعدنا موسى ثلاثين لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ ﴾ يفيد أن المواعدة كانت في أول الأمر على الثلاثين فكيف التوفيق بينهما ؟

أجاب الحسن البصري فقال : ليس المراد أن وعده كان ثلاثين ليلة ثم بعد ذلك وعده بعشر لكنه وعده أربعين ليلة جميعاً ، وهو كقوله : ﴿ ثلاثة أَيَّامٍ فِي الحج وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾ [البقرة : 196] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 70 ﴾

فائدة

قال السمرقندى :

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ واعدنا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ ، قرأ أبو عمرو " وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَى" بغير ألف ، وقرأ غيره ﴿ واعدنا ﴾ بالألف ، فمن قرأ بغير ألف فمعناه ظاهر ، يعني أن الله تعالى وعد موسى عليه السلام ومن قرأ بالألف فالمواعدة تجري بين اثنين ، وإنما كان الوعد

من الله تعالى ومن موسى الوفاء ، ومن الله الأمر ، ومن موسى الائتمار .

فكأنما جرت المواعدة بين الله تعالى وبين موسى .

وقد يجوز أن تكون المفاعلة من واحد ، كما يقال : سافر ونافق .

ويقال : أربعين ليلة كانت ثلاثين ليلة منها من ذي القعدة وعشراً من ذي الحجة .

وقال بعضهم : ثلاثين كانت من ذي الحجة وعشراً من المحرم وكانت مناجاته يوم عاشوراء .

وروى الكلبي ، عن أبي صالح ، عن ابن عباس أنه قال : لما وعدهم موسى أربعين ليلة ، عدَّت بنو إسرائيل عشرين يوماً وعشرين ليلة ، وقالوا : قد تمت أربعون ولم يرجع موسى ، فقد خالفنا .

وذكر أن السامري قال لهم : إنكم استعرتم من نساء آل فرعون حليهم ولم تردوه عليهم ، فلعل الله تعالى لم يرد علينا موسى لهذا المعنى ، فهاتوا ما عندكم من الحلي حتى نحرقه ، فلعلَّ الله يرد إلينا موسى فجمعوا ذلك الحلي ، وكان السامري صائغاً فاتخذ من ذلك عجلاً ، وقد كان قبل ذلك رأى جبريل عليه السلام على فرس الحياة ، فكلما وضع حافره اخضر ذلك الموضع ، فرفع من تحت سنبكه قبضة من التراب ، ونفخ ذلك التراب في العجل فصار

ذلك عجلاً جسداً له خوار .

وروي عن ابن عباس أنه قال : صار عجلاً له لحم ودم وفيه حياة له خوار .

وروي عن علي أنه قال : اتخذ عجلاً جسداً مشبكاً ، من ذهب له خوار ، فدخل الريح في جوفه وخرج من فيه كهيئة الخوار .

فقال للقوم : هذا إلهكم وإله موسى فنسي ، يعني أن موسى أخطأ الطريق .

وقال بعضهم : كان موسى وعدهم ثلاثين ليلة ، فتمَّ ميقات ربه أربعين ليلة ، لأنه قد أفطر من الصِّيام في تلك العشرة ، لأنه ظهر لهم الخلاف في تلك العشرة وهذا الطريق أوضح .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ 78 . 79 ﴾

قوله تعالى ﴿ ثُمَّ اتخذتم العجل مِن بَعْدِهِ ﴾

فائدة

قال الفخر :

إنما ذكر لفظه (ثم) لأنه تعالى وعد موسى حضور الميقات لإنزال التوراة عليه بحضرة السبعين .

وأظهر في ذلك درجة موسى عليه السلام وفضيلة بني إسرائيل ليكون ذلك تنبيهاً للحاضرين على علو درجتهم وتعريفاً للغائبين وتكملة للدين ، كان ذلك من أعظم النعم فلما أتوا عقيب ذلك بأقبح أنواع الجهل والكفر كان ذلك في محل التعجب فهو كمن يقول إنني

أحسنت إليك وفعلت كذا وكذا ، ثم إنك تقصدني بالسوء والإيذاء . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 70 ﴾

فصل

قال الفخر :

قال أهل السير : إن الله تعالى لما أغرق فرعون ووعد موسى عليه السلام إنزال التوراة عليه قال موسى لأخيه هارون : ﴿ اخلفنى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ المفسدين ﴾ [الأعراف : 142] ، فلما ذهب موسى إلى الطور ، وكان قد بقي مع بني إسرائيل الثياب والحلي الذي استعاروه من القبط قال لهم هارون إن هذه الثياب والحلي لا تحل لكم فأحرقوها فجمعوا ناراً وأحرقوها ، وكان السامري في مسيره مع موسى عليه السلام في البحر نظر إلى حافر دابة جبريل عليه السلام حين تقدم على فرعون في دخول البحر فقبض قبضة من تراب حافر تلك الدابة ، ثم إن السامري أخذ ما كان معه من الذهب والفضة وصور منه عجلاً وألقى ذلك التراب فيه فخرج منه صوت كأنه الخوار ، فقال للقوم : ﴿ هذا إلهكم وإله موسى ﴾ [طه : 88] ، فاتخذه القوم إلهاً لأنفسهم فهذا ما في الرواية

ولقائل أن يقول : الجمع العظيم من العقلاء لا يجوز أن يتفقوا على ما يعلم فساده ببديهة العقل وهذه الحكاية كذلك لوجوه : أحدها : أن كل عاقل يعلم ببديهة عقله أن الصنم المتخذ من الذهب الذي لا يتحرك ولا يحس ولا يعقل يستحيل أن يكون إله السموات والأرض ، وهب أنه ظهر منه خوار ولكن هذا القدر لا يصلح أن يكون شبهة في قلب أحد من العقلاء في كونه إلهاً ، وثانيها : أن القوم كانوا قد شاهدوا قبل ذلك من المعجزات القاهرة التي تكون قريبة من حد الإلجاء في الدلالة على الصانع وصدق موسى عليه السلام ، فمع قوة هذه الدلالة وبلوغها إلى حد الضرورة ومع أن صدور الخوار من ذلك العجل المتخذ من الذهب يستحيل أن يقتضي شبهة في كون ذلك الجسم المصوت إلهاً .

(48/51)

والجواب : هذه الواقعة لا يمكن تصحيحها إلا على وجه واحد ، وهو أن يقال : إن السامري ألقى إلى القوم أن موسى عليه السلام إنما قدر على ما أتى به لأنه كان يتخذ طلسمات على قوى فلكية وكان يقدر بواسطتها على هذه المعجزات ، فقال السامري للقوم : وأنا أتخذ لكم طلسماً مثل طلسمه وروح عليهم ذلك بأن جعله بحيث خرج منه صوت عجيب فأطمعهم في أن يصيروا مثل موسى عليه السلام في الإتيان بالخوارق ، أو لعل

القوم كانوا مجسمة وحلولية فجوزوا حلول الإله في بعض الأجسام فلذلك وقعوا في تلك الشبهة. انتهى انتهى. اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 70. 71 ﴾

فصل

قال ابن عاشور :

﴿ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ ﴾

تذكير لهم بنعمة عفو الله عن جرمهم العظيم بعبادة غيره وذلك مما فعله سلفهم ، فإسناد تلك الأفعال إلى ضمير المخاطبين باعتبار ما عطف عليه من قوله : ﴿ ثم عفونا عنكم ﴾ فإن العفو عن الآباء منة عليهم وعلى أبنائهم يجب على الأبناء الشكر عليه كما تقدم عند قوله : ﴿ اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم ﴾ [البقرة : 40 ، 47] .

ووقع في " الكشاف " و " تفسير البغوي " و " تفسير البيضاوي " أن الله وعد موسى أن يؤتيه الشريعة بعد أن عاد بنو إسرائيل إلى مصر بعد مهلك فرعون ، وهذا وهم فإن بني إسرائيل لم يعودوا إلى مصر البتة بعد خروجهم ، كيف والآيات صريحة في أن نزول الشريعة كان بطور سينا وأن خروجهم كان ليعطيهم الله الأرض المقدسة التي كتب الله لهم وقد أشار في " الكشاف " في سورة الدخان إلى التردد فيه ولا ينبغي التردد في ذلك .

وقوله : ﴿ ثم اتخذتم العجل من بعده ﴾ هو المقصود وأما ما ذكر قبله فهو تمهيد وتأسيس لبنائه وتهويل لذلك الجرم إظهاراً لسعة عفو الله تعالى وحلمه عنهم .

وتوسيط التذكير بالعفو عن هذه السيئة بين ذكر النعم المذكورة مراعاة لترتيب حصولها في الوجود ليحصل غرضان غرض التذكير وغرض عرض تاريخ الشريعة .

والمراد من المواعدة هنا أمر الله موسى أن ينقطع أربعين ليلة لمناجاة الله تعالى وإطلاق الوعد على هذا الأمر من حيث إن ذلك تشريف لموسى ووعد له بكلام الله وبإعطاء الشريعة .

وقراءة الجمهور ﴿ وواعدنا ﴾ بألف بعد الواو على صيغة المفاعلة المقتضية حصول الوعد من جانبين الواعد والموعود والمفاعلة على غير بابها لمجرد التأكيد على حد سافر وعافاه الله ، وعالج المريض وقاتله الله ، فتكون مجازاً في التحقيق لأن المفاعلة تقتضي تكرر الفعل من فاعلين فإذا أخرجت عن بابها بقي التكرر فقط من غير نظر للفاعل ثم أريد من التكرر لازمه وهو المبالغة والتحقق فتكون بمنزلة التوكيد اللفظي .

والأشهر أن المواعدة لما كان غالب أحوالها حصول الوعد من الجانبين شاع استعمال صيغتها في مطلق الوعد وقد شاع استعمالها أيضاً في خصوص التواعد بالملاقاة كما وقع في حديث الهجرة " وواعداه غار ثور " .

وقول الشاعر :

فواعديه سَرْحَتَي مالك . . .

أو الرُّبا بينهما أسهلا

واستعملت هنا لأن المناجاة والتكلم يقتضي القرب فهو بمنزلة اللقاء على سبيل الاستعارة ولذلك استغني عن ذكر الموعود به لظهوره من صيغة المواعدة .

وقيل المفاعلة على بابها بتقدير أن الله وعد موسى أن يعطيه الشريعة وأمره بالحضور للمناجاة فوعد موسى ربه أن يمتثل لذلك ، فكان الوعد حاصلاً من الطرفين وذلك كاف في تصحيح المفاعلة بقطع النظر عن اختلاف الموعود به ، وذلك لا ينافي المفاعلة لأن مبنى صيغة المفاعلة حصول فعل متماثل من جانبين لا سيما إذا لم يذكر المتعلق في اللفظ كما هنا لقصد الإيجاز البديع لقصد إعظام المتعلق من الجانبين ، ولك أن تقول سوغ حذفه علم المخاطبين به فإن هذا الكلام مسوق للتذكير لا للإخبار والتذكير يكتفى فيه بأقل إشارة فاستوى الحذف والذكر فرجح الإيجاز وإن كان الغالب اتحاده .

وقرأ أبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب ﴿ وعدنا ﴾ بدون ألف عقب الواو على الحقيقة .

وموسى هو رسول الله إلى بني إسرائيل وصاحب شريعة التوراة ، وهو موسى بن عمران ولم يذكر اسم جده ولكن الذي جاء في التوراة أنه هو وأخوه هارون من سبط لاوى بن يعقوب .

ولد بمصر في حدود سنة ألف وخمسمائة قبل ميلاد عيسى ولما ولدته أمه خافت عليه أن يأخذه القبط فيقتلوه لأنه في أيام ولادته كان القبط قد ساموا بني إسرائيل سوء العذاب لأسباب غير مشروعة كما تقدم عند قوله تعالى : ﴿ يذبحون أبناءكم ﴾ [البقرة : 49] فأمر ملك مصر بقتل كل ذكر يولد في إسرائيل .

وأمه تسمى " يوحانذ " وهي أيضاً من سبط لاوى وكان زوجها قد توفي حين ولدت موسى فتحيلت لإخفائه عن القبط مدة ثلاثة أشهر ثم ألهمها الله فأرضعته رضعة ووضعته في سفط منسوج من خوص البردي وطلته بالمغرة والقار لئلا يدخله الماء ووضعت فيه الولد وألقته في النيل بمقربة من مساكن فرعون على شاطىء النيل ووكلت أختاً له اسمها مريم بأن ترقب الجهة التي يلقيه النيل فيها وماذا يصنع به ، وكان ملك مصر في ذلك الوقت تقريباً هو فرعون رعمسيس الثاني ، ولما حمله النهر كانت ابنة فرعون المسماة ثرموت مع جَوارٍ لها يمشين على حافة النهر لقصد السباحة والتبرد في مائه قيل كانوا في مدينة عين شمس فلما بصرت بالسفط أرسلت أمة لها لتنظر السفط فلما فتحنه وجدن الصبي فأخذته ابنة فرعون إلى أمها وأظهرت مريم أخت موسى نفسها لابنة فرعون فلما رأت رقة ابنة فرعون

على الصبي قالت : إن فينا مرضعاً أفأذهب فأدعوها لترضعه ؟ فقالت : نعم فذهبت وأتت بأم موسى .

وأخذت امرأة فرعون الولد وتبنته وسمته موشى قيل : إنه مركب من كلمة " مو" بمعنى الماء وكلمة " شى" بمعنى المنقَذ وقد صارت في العربية موسى والأظهر أن هذا الاسم مركب من اللغة العبرية لا من القبطية فلعله كان له اسم آخر في قصر فرعون وأنه غير اسمه بعد ذلك .

(51/51)

ونشأ موسى في بيت فرعون كولد له ولما كبر علم أنه ليس بابن لفرعون وأنه إسرائيلي ولعل أمه أعلمته بذلك وجعلت له أمارات يوقن بها وأنشأه الله على حب العدل ونصر الضعيف وكان موسى شديداً قوي البنية ولما بلغ أشده في حدود نيف وثلاثين من عمره حدث له حادث قتل فيه قبطياً انتصاراً لإسرائيلي ولعل ذلك كان بعد مفارقته لقصر فرعون أي بعد موت مربيه فخاف موسى أن يقتص منه وهاجر من مصر ومر في مهاجرته بمدين وتزوج ابنة شعيب ثم خرج من مدين بعد عشر سنين وعمره يومئذ نيف وأربعون سنة .

وأوحى الله إليه في طريقه أن يخرج بني إسرائيل من مصر وينقذهم من ظلم فرعون فدخل

مصر ولقي أخاه هارون في جملة قومه في مصر وسعى في إخراج بني إسرائيل من مصر بما قصه الله في كتابه وكان خروجه ببني إسرائيل من مصر في حدود سنة 1460 ستين وأربعمائة وألف قبل المسيح في زمن منفطاح الثاني وتوفي موسى عليه السلام قرب أريحا على جبل نيبو سنة 1380 ثمانين وثلاثمائة وألف قبل ميلاد عيسى ودفن هنالك وقبره غير معروف لأحد كما هو نص التوراة .

وقوله : ﴿ أربعين ليلة ﴾ انتصب على أنه ظرف لمتعلق ﴿ واعدنا ﴾ وهو اللقاء الموعود به ناب هذا الظرف عن المتعلق أي مناجاة وغيرها في أربعين ليلة إن جعل ﴿ واعدنا ﴾ مسلوب المفاعله وإن أبقي على ظاهره قدرنا متعلقين وعلى كلا التقديرين فانتصاب (أربعين) على الظرفية لذلك المحذوف على أن إطلاق اسم الزمان على ما يقع فيه مجاز شائع في كلام البلغاء ومنه ﴿ واتقوا يوماً لا تجزى نفس ﴾ [البقرة : 48] كما تقدم والأمور التي اشتملت عليها الأربعون ليلة معلومة للمخاطبين يتذكرونها بمجرد الإلماع إليها .

وبما حررناه في قوله : ﴿ وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ﴾ تستغني عن تطويلات واحتمالات جرت في كلام الكاتبين هنا من وجوه ذكرها التفتازاني وعبد الحكيم وقد جمع الوجه الذي أبديناه محاسنها .

وجعل الميقات ليالي لأن حسابهم كان بالأشهر القمرية .

وعطفت جملة ﴿ اتخذتم العجل من بعده ﴾ بحرف ﴿ ثم ﴾ الذي هو في عطف الجمل للتراخي الترتيبي للإشارة إلى ترتيب في درجات عظم هذه الأحوال وعطف ﴿ ثم عفونا عنكم من بعد ذلك ﴾ أيضاً لتراخي مرتبة العفو العظيم عن عظيم جرمهم فروعي في هذا التراخي أن ما تضمنته هذه الجمل عظائم أمور في الخير وضده تنبيهاً على عظم سعة رحمة الله بهم قبل المعصية ، وبعدها وحذف المفعول الثاني لاتخذتم لظهوره وعلمهم به ولشناعة ذكره وتقديره معبوداً أو إلهاً وبه تظهر فائدة ذكر ﴿ من بعده ﴾ لزيادة التشنيع بأنهم كانوا جديرين بانتظارهم الشريعة التي تزيدهم كمالاً لا بالنكوص على أعقابهم عما كانوا عليه من التوحيد والانغماس في نعم الله تعالى وبأنهم كانوا جديرين بالوفاء لموسى فلا يحدثوا ما أحدثوا في مغيبه بعد أن رأوا معجزاته وبعد أن نهاهم عن هاته العبادة لما قالوا له :

﴿ اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون ﴾ [الأعراف : 138] الآية .

وفائدة ذكر (من) للإشارة إلى أن الاتخاذ ابتدأ من أول أزمان بعدية مغيب موسى عليه السلام وهذه أيضاً حالة غريبة لأن شأن التغير عن العهد أن يكون بعد طول المغيب على أنه ضعف في العهد كما قال الحرث بن كلدة :

فما أدري أغيَّرهم تناءٍ . . .

وطول العهد أم مالٌ أصابوا

ففي قوله : ﴿ من بعده ﴾ تعريض بقلة وفائهم في حفظ عهد موسى .

وقوله : ﴿ من بعده ﴾ أي بعد مغيبه وتقدير المضاف مع بعد المضاف إلى اسم المتحدث عنه شائع في كلام العرب لظهوره بحسب المقام وإذا لم يكن ما يعنيه من المقام فالأكثر أنه يراد به بعد الموت كما في قوله تعالى : ﴿ قلتم لن يبعث الله من بعده رسولاً ﴾ [غافر : 34] وقوله : ﴿ ألم تر إلى الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى ﴾ [البقرة : 246] .

(53/51)

وإنما اتخذوا العجل تشبهاً بالكنعانيين الذين دخلوا إلى أرضهم وهم الفنيقيون سكان سواحل بلاد الشام فإنهم كانوا عبدة أوثان وكان العجل مقدساً عندهم وكانوا يمثلون أعظم الآلهة عندهم بصورة إنسان من نحاس له رأس عجل جالس على كرسي مادا ذراعيه كمتناول شيء يحتضنه وكانوا يحمونه بالنار من حفرة تحت كرسيه لا يتفطن لها الناس فكانوا يقربون إليه القرابين وربما قربوا له أطفالهم صغاراً فإذا وضع الطفل على ذراعيه اشتوى فظنوا ذلك أمارة قبول القربان فتباً لجهلهم وما يصنعون .

وكان يسمى عندهم " بعلا" وربما سموه " مولوك" وهم أمة سامية لغتها وعوائدها تشبه في الغالب لغة وعوائد العرب فلما مر بهم بنو إسرائيل قالوا لموسى ﴿ اجعل لنا إلهاً كما لهم

آلهة ﴾ [الأعراف : 138] فانتهرهم موسى وكانوا يخشونه فلما ذهب للمناجاة واستخلف عليهم هارون استضعفوه وظنوا أن موسى هلك فاتخذوا العجل الذي صنعوه من ذهب وفضة من حليهم وعبدوه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 1 صـ 484.480 ﴾

فصل

قال الفخر :

هذه القصة فيها فوائد :

أحدها : أنها تدل على أن أمة محمد صلى الله عليه وسلم خير الأمم ، لأن أولئك اليهود مع أنهم شاهدوا تلك البراهين القاهرة اغتروا بهذه الشبهة الركيكة جداً ، وأما أمة محمد صلى الله عليه وسلم فإنهم مع أنهم محتاجون في معرفة كون القرآن معجزاً إلى الدلائل الدقيقة لم يغتروا بالشبهات القوية العظيمة ، وذلك يدل على أن هذه الأمة خير من أولئك وأكمل عقلاً وأزكى خاطراً منهم .

وثانيها : أنه عليه الصلاة والسلام ذكر هذه الحكاية مع أنه لم يتعلم علماً ، وذلك يدل على أنه عليه الصلاة والسلام استفادها من الوحي .

وثالثها : فيه تحذير عظيم من التقليد والجهل بالدلائل فإن أولئك الأقوام لو أنهم عرفوا الله بالدليل معرفة تامة لما وقعوا في شبهة السامري .

ورابعها : في تسلية النبي صلى الله عليه وسلم مما كان يشاهد من مشركي العرب واليهود والنصارى بالخلاف عليه وكأنه تعالى أمره بالصبر على ذلك كما صبر موسى عليه الصلاة والسلام في هذه الواقعة النكدة فإنهم بعد أن خلصهم الله من فرعون وأراهم المعجزات العجيبة من أول ظهور موسى إلى ذلك الوقت اغتروا بتلك الشبهة الركيكة ، ثم إن موسى عليه السلام صبر على ذلك فلأن يصبر محمد عليه الصلاة والسلام على أذية قومه كان ذلك أولى .

وخامسها : أن أشد الناس مجادلة مع الرسول صلى الله عليه وسلم وعداوة له هم اليهود فكأنه تعالى قال : إن هؤلاء إنما يفتخرون بأسلافهم ، ثم إن أسلافهم كانوا في البلادة والجهالة والعناد إلى هذا الحد فكيف هؤلاء الأخلاف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 71 ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَنتُمْ ظالمون ﴾

فصل في تفسير الظلم

قال الفخر :

وفيه وجهان .

الأول : قال أبو مسلم الظلم في أصل اللغة هو النقص ، قال الله تعالى : ﴿ كِلْتَا الجنتين آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا ﴾ [الكهف : 33] ، والمعنى أنهم لما تركوا عبادة الخالق المحيي المميت واشتغلوا بعبادة العجل فقد صاروا ناقصين في خيرات الدين والدنيا .

والثاني : أن الظلم في عرف الشرع عبارة عن الضرر الخالي من نفع يزيد عليه ودفع مضرة أعظم منه والاستحقاق عن الغير في علمه أو ظنه ، فإذا كان الفعل بهذه الصفة كان فاعله ظالماً ثم إن الرجل إذا فعل ما يؤديه إلى العقاب والنار قيل : إنه ظالم نفسه وإن كان في الحال نفعاً ولذة كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان : 13] ، وقال : ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ ﴾ [فاطر : 32] ولما كانت عبادتهم لغير الله شركا وكان الشرك مؤدياً إلى النار سمي ظلماً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 71 ﴾

(55/51)

وقال ابن عاشور :

وقوله : ﴿ وأنتم ظالمون ﴾ حال مقيدة لاتخذتم ليكون الاتخاذ مقترناً بالظلم من مبدئه إلى منتهاه وفائدة الحال الإشعار بانقطاع عذرهم فيما صنعوا وأن لا تأويل لهم في عبادة العجل

أو لأنهم كانوا مدة إقامتهم بمصر ملازمين للتوحيد محافظين على وصية إبراهيم ويعقوب لذريتهما بملازمة التوحيد فكان انتقالهم إلى الإشرك بعد أن جاءهم رسول انتقالاً عجيباً .

فلذلك كانوا ظالمين في هذا الصنع ظلماً مضاعفاً فالظاهر أن ليس المراد بالظلم في هاته الآية الشرك والكفر وإن كان من معاني الظلم في اصطلاح القرآن لظهور أن اتخاذ العجل ظلم فلا يكون للحال معه موقع .

وقد اطلعت بعد هذا على " تفسير الشيخ محمد بن عرفة التونسي" فوجدته قال :

﴿ وأنتم ظالمون ﴾ أي لا شبهة لكم في اتخاذه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 1 صـ 484 ﴾

فصل

قال الفخر :

استدلت المعتزلة بقوله : ﴿ وَأَنتُمْ ظالمون ﴾ على أن المعاصي ليست بخلق الله تعالى من وجوه :

أحدها : أنه تعالى ذمهم عليها ولو كانت مخلوقة لله تعالى لما استحق الذم إلا من فعلها .

وثانيها : أنها لو كانت بإرادة الله تعالى لكانوا مطيعين لله تعالى بفعلها لأن الطاعة عبارة عن فعل المراد .

وثالثها : لو كان العصيان مخلوقاً لله تعالى لكان الذم بسببه يجري مجرى الذم بسبب كونه

أسود وأبيض وطويلاً وقصيراً ، والجواب : هذا تمسك بفعل المدح والذم وهو معارض بمسألتي الداعي والعلم ذلك مراراً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 71 . 72 ﴾

فائدة

قال الفخر :

في الآية تنبيه على أن ضرر الكفر لا يعود إلا عليهم لأنهم ما استفادوا بذلك إلا أنهم ظلموا أنفسهم ، وذلك يدل على أن جلال الله منزه عن الاستكمال بطاعة الاتقياء والانتقاص بمعصية الأشقياء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 72 ﴾

(56/51)

فائدة

قال الخطيب الشربيني :

وقول البيضاوي : إنّ ذلك الوعد لما عادوا إلى مصر بعد هلاك فرعون تبع في ذلك " الكشاف " ولم يعرف ذلك لغيرهما وإنما كانوا بالشام لأن إتيان موسى للمقيات كان بطور سينا وهو بالشام لا بمصر وقد قال البهاء بن عقيل في " تفسيره " : لم يصرّح أحد من

المفسرين والمؤرّخين بأنهم دخلوا مصر بعد خروجهم منها .

فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ فأخرجناهم من جنات ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ وأورثناها بني إسرائيل ﴾ يقتضي أنهم عادوا إليها . أجيب : بأن المعنى أن الله تعالى أورثهم وملكهم إياها ولم يردّهم إليها وجعل مساكنهم الشام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ السراج المنير حـ 1 صـ 97 ﴾

(57/51)

ومن فوائد ابن عرفة فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ وَاعَدْنَا موسى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً . . . ﴾ .

قال ابن عرفة : يمتنع أن يكون أربعين ليلة (ظرفا) لأن ظرف الزمان المحدود (العمل) فيه كله ، ويمتنع أن يكون (مفعولا) ، لأنها ليست هي (الموعودة) إنما الموعود موسى عليه السلام .

قال الزمخشري : وعده الله الوحي ، ووعده موسى (المجيء للميقات) ، (فكأنه) مواعدة من الجانبين ، وأبطله الطيبي بأن فيه تقدير مضافين معطوفين .

وهو باطل .

قال ابن عرفة : إنما يريد واعدنا موسى مناجاة أربعين (ليلة) ، وملاقاة أربعين ليلة ، والمناجاة تستلزم مجيء موسى إلى الميقات ، لأنها بعد الأربعين لأن الله تعالى جعل له عبادة هذه الأربعين ليلة (و) وِصَال صيامها كلها ليلا ونهارا سببا في مناجاته إياه بعدها بما طلب من التوراة والصحف والألواح .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ اتخذتم العجل مِن بَعْدِهِ . . . ﴾ .

منع أبو حيان عود الضمير إلى الوعد للتناقض ، لأن " ثُمَّ " للتراخي و " مِن " في " مِن بَعْدِهِ " (تقتضي) ابتداء الغاية فهي لأول أزمنة البعدية .

وأجاب ابن عرفة : بأن الأولية مقولة بالتشكيك ، ألا تراهم يؤرخون بأوائل الشهر في العشرة (الأول) كلّها .

(قيل له) : ابتداء الغاية ما (يصدق) إلا على أول جزء .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴾

أي لا شبهة لكم في اتخاذه ، بل ذلك محض ظلم منكم وتعنت . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عرفة صـ 287. 288 ﴾

ومن فوائد الآلوسى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَإِذْ واعدنا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ لما جاوز بنو إسرائيل البحر سألوا موسى عليه السلام أن يأتيهم بكتاب من عند الله فوعده سبحانه أن يعطيه التوراة وقبل موسى ذلك ، وضرب له ميقاتاً ذا القعدة وعشر ذي الحجة أو ذا الحجة وعشر المحرم فالمفاعلة على بابها ، وهي من طرف فعل ، ومن آخر قبوله مثل عالجت المريض وإنكار جواز ذلك لا يسمع مع وروده في كلام العرب وتصريح الأئمة به وارتضائهم له ، ويجوز أن يكون ﴿ واعدنا ﴾ من باب الموافاة وليس من الوعد في شيء وإنما هو من قولك موعدك يوم كذا وموضع كذا ، ويحتمل أن يكون بمعنى وعدنا وبه قرأ أبو عمرو ، أو يقدر الملاقاة ، أو يقال بالتفكيك إلى فعلين فيقدر الوحي في أحدهما ؛ والمجيء في الآخر ولا محذور في شيء كما حققه الدامغاني ، وقول أبي عبيدة : المواعدة لا تكون إلا من البشر غير مسلم ، وقول أبي حاتم : أكثر ما تكون من المخلوقين المتكافئين على تقدير تسليمه لا يضرنا ، و(أربعين) مفعول به بحذف المضاف بأدنى ملابسة أي إعطاء أربعين أي عند انقضائها ، أو في العشر الأخير منها ، أو في كلها ، أو في أولها على اختلاف الروايات ، أو ظرف مستقر وقع صفة لمفعول محذوف

لواعدنا أي واعدنا موسى أمراً كائناً في أربعين ، وقيل : مفعول مطلق أي واعدنا موسى مواعدة أربعين ليلة .

(59/51)

ومن الناس من ذهب إلى أن الأولى أن لا يقدر مفعول لأن المقصود بيان من وعد لا ما وعد وينصب الأربعين على الإجراء مجرى المفعول به توسعاً ، وفيه مبالغة بجعل ميقات الوعد موعوداً وجعل الأربعين ظرفاً لواعدنا على حد جاء زيد يوم الخميس ليس بشيء كما لا يخفى ، و(موسى) اسم أعجمي لا ينصرف للعلمية والعجمة ، ويقال : هو مركب من (مو) وهو الماء (وشى) وهو الشجر وغُيِّرَ إلى (سى) بالمهملة وكأن من سماه به أراد ماء البحر والتابوت الذي قذف فيه وخاض بعضهم في وزنه فعن سيبويه إن وزنه مفعل وقيل : إنه فعل وهو مشتق من ماس يميس فأبدلت الياء واواً لضم ما قبلها كما قالوا طوبى ، وهي من ذوات الياء لأنها من طاب يطيب ، ويبعده أن الإجماع على صرفه نكرة ولو كان فعل لم ينصرف لأن ألف التأنيث وحدها تمنع الصرف في المعرفة والنكرة على أن زيادة الميم أولاً أكثر من زيادة الألف آخراً ، وعبر سبحانه وتعالى عن ذلك الوقت بالليالي دون الأيام لأن افتتاح الميقات كان من الليل ، والليالي غرر شهور العرب لأنها وضعت على سير القمر ،

والهلال إنما يهل بالليل ، أو لأن الظلمة أقدم من الضوء بدليل ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ اليل نَسْلَخُ مِنْهُ النهار ﴾ [يس : 37] أو إشارة إلى مواصلة الصوم ليلاً ونهاراً ولو كان التفسير باليوم أمكن أن يعتقد أنه كان يفطر بالليل فلما نص على الليالي فهم من قوة الكلام أنه واصل أربعين ليلة بأيامها ، والقول بأن ذكر الليلة كان للإشعار بأن وعد موسى عليه السلام كان بقيام الليل ليس بشيء لأن المروي أن المأمور به كان الصيام لا القيام ، وقد يقال من طريق الإشارة : إن ذكر الليلة للرمز إلى أن هذه المواعدة كانت بعد تمام السير إلى الله تعالى ومجاوزة بحر العوائق والعلائق ، وهناك يكون السير في الله تعالى الذي لا تدرك حقيقته ، ولا تعلم هويته ، ولا يرى في بيداء جبروته إلا الدهشة والحيرة ، وهذا السير متفاوت باعتبار الأشخاص

(60/51)

والأزمان ولي مع الله تعالى وقت يشير إلى ذلك .

﴿ ثُمَّ اتخذتم العجل مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظالمون ﴾ الاتخاذ يجيء بمعنى ابتداءً صنعة فيتعدى لواحد نحو اتخذت سيفاً أي صنعته .

وبمعنى اتخاذ وصف فيجري مجرى الجعل ويتعدى لاثنين نحو اتخذت زيداً صديقاً والأمران محتملان في الآية ، والمفعول الثاني على الاحتمال الثاني محذوف لشناعته أي : اتخذتم

العجل الذي صنعه السامري إلهاً ، والذمّ فيه ظاهر لأنهم كلهم عبدوه إلا هارون مع اثني عشر ألفاً ، أو إلا هارون والسبعين الذين كانوا مع موسى عليه السلام ، وعلى الاحتمال الأول لا حاجة إلى المفعول الثاني ويؤيده عدم التصريح به في موضع من آيات هذه القصة ، والذمّ حينئذٍ لما ترتب على الاتخاذ من العبادة أو على نفس الاتخاذ لذلك ، والعرب تذم أو تمدح القبيلة بما صدر عن بعضها ، والعجل ولد البقرة الصغير وجعله الصوفية إشارة إلى عجل النفس الناقصة وشهواتها وكون ما اتخذوه عجلاً ظاهر في أنه صار لحماً ودماً فيكون عجلاً حقيقة ويكون نسبة الخوار إليه فيما يأتي حقيقة أيضاً وهو الذي ذهب إليه الحسن ، وقيل : أراد سبحانه بالعجل ما يشبهه في الصورة والشكل .

ونسبة الخوار إليه مجاز وهو الذي ذهب إليه الجمهور ، وسيأتي إن شاء الله تعالى الكلام على ذلك .

(61/51)

ومن الغريب أن هذا إنما سمي عجلاً لأنهم عجلوا به قبل قدوم موسى فاتخذوه إلهاً ، أو لقصر مدته حيث إن موسى عليه السلام بعد الرجوع من الميقات حرقه ونسفه في اليم نسفاً ، والضمير في بعده راجع إلى موسى ، أي : بعد ما رأيتم منه من التوحيد والتنزيه والحمل

عليه والكف عما ينافيه ، وذكر الظرف للإيذان بمزيد شناعة فعلهم ، ولا يقتضي أن يكون موسى متخذاً إلهاً كما وهم لأن مفهوم الكلام أن يكون الاتخاذ بعد موسى ومن أين يفهم اتخاذ موسى سيما في هذا المقام ؟ ويجوز أن يكون في الكلام حذف ، وأقرب ما يحذف مصدر يدل عليه ﴿ واعدنا ﴾ أي من بعد مواعدته ؛ وقيل : المحذوف الذهاب المدلول عليه بالمواعدة لأنها تقتضيه .

والجملة الاسمية في موضع الحال ، ومتعلق الظلم الإشراك ، ووضع العبادة في غير موضعها ، وقيل : الكف عن الاعتراض على ما فعل السامري وعدم الإنكار عليه وفائدة التقييد بالحال الإشعار بكون الاتخاذ ظلماً بزعمهم أيضاً لو راجعوا عقولهم بأدنى تأمل ، وقيل : الجملة غير حال بل مجرد إخبار أن سجيتهم الظلم وإنما راج فعل السامري عندهم لغاية حمقهم وتسلط الشيطان عليهم كما يدل على ذلك سائر أفعالهم واتخاذ السامري لهم العجل دون سائر الحيوانات ، قيل : لأنهم مروا على قوم يعكفون على أصنام لهم على صور البقر فقالوا : ﴿ اجعل لَّنَا إلها كَمَا لَهُمْ ءالِهَةٌ ﴾ [الأعراف : 138] فهجس في نفس السامري أن فتنتهم من هذه الجهة ، فاتخذ لهم ذلك .

وقيل : إنه كان هو من قوم يعبدون البقر وكان منافقاً فاتخذ عجلاً من جنس ما يعبده .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 257. 258 ﴾

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى ذكر موسى عليه السلام)

موسى اسمٌ مُعَرَّبٌ أَصله مُوشا ، ومُو بالعِبْرِيَّة الماء ، وشا الشَّجَر ، سمّى به لأَنَّه وجد فى الماء والشجر الذى كان حول قصر فرعون فى عين الشمس ، وهى موضع معروفٌ بمصر لا يَنْبُت شجر البَلَسان إلاَّ فيه .

قيل : سُئِل النبىّ صلَّى الله عليه وسلَّم ما بَال الله أَكْثَرَ ذِكْرَ موسى فى القرآن ؟ فقال : لأَنَّ الله يُحِبُّه ، ومنْ أَحبَّ شَيْئاً أَكثر ذِكْرَه .

قال كعبٌ : سَمِع موسى كلام الله يوم الطُّور غير ما سمِعه قبل ذلك ، فقال موسى : يا ربّ وكيف هذا ؟ قال الله تعالى : إنما كلَّمتك على قَدْر طاقَتك ، ولو كلَّمتك أَشدَّ من هذا لَذُبْتَ .

(63/51)

وقد دعاه الله تعالى فى القرآن بخمسين اسْما تصريحاً وتعريضاً ، هادِى : ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ ، داعِى : ﴿ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ ﴾ ، ناجى : ﴿ وَأَنجَيْنَا مُوسَى وَمَن مَّعَهُ ﴾ ، ساقى : ﴿ وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى ﴾ ، ناسِى : ﴿ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ ﴾ ، صادقٌ : ﴿ وَإِن يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ﴾ ، صاعِقٌ : ﴿ وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً ﴾ ، مُصْطَفَى : ﴿ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ ﴾ ، شاكِرٌ : ﴿ وَكُنْ مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ ، صابِرٌ : ﴿ إِن شَآءَ اللَّهُ صَابِراً ﴾ ، آمِرٌ : ﴿ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا ﴾ ، غَضْبانُ وأَسِفٌ : ﴿ إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً ﴾ ، مَذْكُور : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى ﴾ ، مُخْلَص : ﴿ إِنَّهُ كَانَ مُخْلِصاً ﴾ ، رَسُولٌ ونَبِىٌّ : ﴿ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيّاً ﴾ ، مُنادى : ﴿ وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الأَيمَنِ ﴾ ، مُقَرَّبٌ ونَجِىٌّ : ﴿ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً ﴾ ، مُختارٌ : ﴿ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ ﴾ ، مُسْتَمِع : ﴿ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ﴾ ، مُسَبِّح : ﴿ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً ﴾ مَحْبُوبٌ : ﴿ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي ﴾ ، مُصْطَنَع الحقّ : ﴿ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴾ ، قُرَّةُ عين : ﴿ قُرَّةُ عَيْنٍ لِّي ولَكَ ﴾ ، ﴿ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُها ﴾ ، أَعْلَى : ﴿ لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَى ﴾ ، كَبِيرٌ : ﴿ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ ﴾ ، مُسْتَعْجل : ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴾ ، رَسُولٌ كَرِيمٌ : ﴿ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴾ ، مُرْسَلٌ : ﴿ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ، وَلِيدٌ : ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً ﴾ ، لابِثٌ : ﴿ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ﴾ ، مُبَرَّأٌ : ﴿ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا

قَالُواْ ﴾ ، مُبارَكٌ : ﴿ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ ﴾ ، وَجِيهٌ : ﴿ وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهاً ﴾ ، بالِغٌ : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ﴾ ، ظَهِيرٌ : ﴿ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً

(64/51)

لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ ، خائفٌ : ﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفاً ﴾ ، فَقِيرٌ : ﴿ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ ، قَوِيٌّ وأَمِينٌ : ﴿ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ ﴾ ، أَجير : ﴿ عَلَى أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ ﴾ ، قاضى : ﴿ فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الأَجَلَ ﴾ ، مُقْبِل : ﴿ أَقْبِلْ وَلاَ تَخَفْ ﴾ ، آمِنٌ : ﴿ إِنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ ﴾ ، مَنْصُورٌ : ﴿ وَنَصَرْنَاهُمْ ﴾ ، غالِبٌ : ﴿ فَكَانُواْ هُمُ الْغَالِبِينَ ﴾ ، مَهْدِيٌّ : ﴿ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ ، مُحْسِنٌ : ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ ، مُؤْمِنٌ : ﴿ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، رَجُلٌ : ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً ﴾ .

(65/51)

وذكره الله تعالى فى القرآن باسْمه فى مائة وثلاثين موضعاً ، منها : ﴿ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى ﴾ ، ﴿ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ﴾ ، ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِمْ مُّوسَى ﴾ ، ﴿ وَقَالَ مُوسَى يا فِرْعَوْنُ ﴾ ، ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ﴾ ، ﴿ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴾ ، ﴿ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ ﴾ ، ﴿ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ ﴾ ، ﴿ يا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ ﴾ ، ﴿ يامُوسَى اجْعَل لَّنَا آلهاً ﴾ ، ﴿ وَقَالَ مُوسَى لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي ﴾ ، ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا ﴾ ، ﴿ وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً ﴾ ، ﴿ يامُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ ﴾ ، ﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى ﴾ إلى قوله : ﴿ جَسَداً لَّهُ خُوَارٌ ﴾ ، ﴿ رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ ﴾ ، ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ ﴾ ، ﴿ وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ ﴾ ، ﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ ﴾ ، ﴿ قَالَ لَهُمْ مُّوسَى أَلْقُوا ﴾ ، ﴿ فَمَآ آمَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ ﴾ ، ﴿ وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَآ إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ ﴾ إلى قوله : ﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ ﴾ ، ﴿ وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ ، ﴿ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ ﴾ ، ﴿ إِنِّي لأَظُنُّكَ يامُوسَى مَسْحُوراً ﴾ ، ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ ﴾ ، ﴿ قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ ﴾ ، ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى ﴾ ، ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴾ ، ﴿ نُودِيَ يامُوسَى ﴾ ، ﴿ أَلْقِهَا يامُوسَى ﴾ ، ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يامُوسَى ﴾ ، ﴿ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يامُوسَى ﴾ ، ﴿ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يامُوسَى ﴾ ، ﴿ فَمَن رَّبُّكُمَا يامُوسَى ﴾ ، ﴿ قَالَ لَهُمْ مُّوسَى ﴾ ، ﴿ يامُوسَى إِمَّآ أَن تُلْقِيَ ﴾ ،

﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى ﴾ ، ﴿ آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى ﴾ ، ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى

(66/51)

مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي ﴾ ، ﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَى ﴾ ، ﴿ هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى ﴾ ، ﴿ وَأَنجَيْنَا مُوسَى ﴾ ، ﴿ نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَى ﴾ ، ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى ﴾ ، ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى ﴾ ، ﴿ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ ﴾ ، ﴿ قَالَ لَهُ مُوسَى ﴾ ، ﴿ قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ ﴾ ، ﴿ فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ ﴾ ، ﴿ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ ﴾ ، ﴿ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ﴾ ، ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴾ ، ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ ﴾ ، ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ ﴾ ، ﴿ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴾ ، ﴿ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَاماً وَرَحْمَةً ﴾ ، ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴾ ، ﴿ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴾ ، ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى ﴾ .

قيل لمّا سأَل موسى الرّؤية أَتاه من كلّ سماءٍ سبعون أَلف مَلَكٍ ، وبيد كلّ واحد شعلة نار ، ويقولون يا ابن النّساء الحُيَّض ، أَتطمع فى رؤية ربّ العزّة ؟ ! وقال السُّدّىُّ لمّا قال :

﴿ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾ أَحفّ الله الطور نيراناً ، وأَحفّ النيران ملائكةً ، وأَحفّ الملائكة بالبرْق ، والبرْقَ بالظُّلْمة ، والظُّلمة بالزَّلْزلَة ، ونُودِى لَنْ تَرانى .

(67/51)

وقال وهبٌ وابن إسحاق : لمّا سأَل موسى الرّؤية أَرسل الله تعالى الضَّباب والصّواعق والظُّلمة والرَّعْد والبَرْقَ وأَحاطَتْ بالجبل الذى عليه موسى أَربعة فراسخ من كلّ جانبٍ ، وأَمر الله تعالَى ملائكة السَّماوات أَنْ يُعْرَضوا عليه ، فمرّت به ملائكة السّماء الدّنيا كثيران البقر تتابع أَفواههم التسبيح والتَّقديس بأَصوات عظيمة كصوت الرّعد الشديد ، ثم أَمر الله تعالى ملائكة السّماء الثانية أَن اهبطوا على مُوسى فاعترضوا عليه ، فهَبطُوا عليه أَمْثال الأُسُودِ لهم لَجَبٌ بالتَّسبيح والتَّقديس ، ففَزِع العبْدُ الضَّعِيفُ مِمّا رأَى وسمِع ، واقشعرّت كلّ شعرة فى رأْسِه وجسده ، ثم قال : لقد نَدِمْت على مسْأَلتِى ، فهل يُنْجِينى من مكانى الَّذى أَنا فيه شئ ؟ فقال له خير الملائكة ورئيسهم : يا موسى اصْبِرْ لما سأَلت ، فقليلٌ من كثير ما رأَيت .

ثمّ أَمر الله تعالى ملائكة السّماء الثَّالثة ، أَن اهبطوا على مُوسى واعترضوا عليه فَهَبطُوا أَمثال النُّسورِ لهم قَصْف ورجْفٌ ولَجبٌ شَدِيدٌ ، وأَفواههم تتابُع التسبيح والتقديس

كلَجَبِ الجيْش العظيم ، أَلوانهم كلَهَب النّار ، ففزِع موسى واشتدّ نَفَسُه وأَيِس من الحياة ، فقال له خير الملائكة : مكانَك يا ابْنَ عِمْرانَ حتى ترى ما لا تَصْبِرُ عليه .

ثمّ أَمر الله تعالى ملائكة السّماء الرّابعة أَن اهْبِطوا على موسى فاعْتَرِضوا عليه ، فهبطوا وكان لا يشبههم شيء من الذين مرّوا به قبلهم ، أَلوانهم كلهب النار وسائر خلقهم كالثَلْجِ الأَبيض ، أَصواتُهم عالية بالتسبيح والتَّقْديس ، لا يُقاربهم شيء من أَصوات الَّذين مرُّوا به قبلهم ، فاصطكت رُكْبتاه وأُرْعِد قلبُه ، واشتدّ بُكاؤه ، فقال له خير الملائكة ورأسهم : يا بْنَ عِمْران اصبر لما سأَلت ، فقليل من كثير ما رأَيت .

(68/51)

ثمّ أَمر الله تعالى ملائكة السّماءِ الخامسة أَنِ اهبطوا فاعترِضوا على موسى ، فهَبطوا عليه لهم سبعة أَلوان فلم يستطع موسى أَنْ يُتْبِعهم بصره ، لم ير مثلَهم ولم يسمع مثل أَصواتهم ، فامتلأَ جوفُه خوفا ، واشتدّ حزنه وكثر بكاؤه ، فقال له خير الملائكة ورأسهم : يا بن عِمْران اصبر حتى تَرى بعض مالا تصبر عليه ، فهبطوا عليه في يد كلّ ملَكٍ منهم مثل النَّخلة الطَّويلة نارا أَشدّ ضوءًا من الشمس ولِباسُهم كلَهَبِ النار ، إِذا سبحوا وقدّسوا جاوبهم من مكان قبلهم من ملائكة السّماوات كلّهم يقولون بشدّة أَصواتهم سبّوح قُدُّوسٌ

ربُّ الملائكة والرُّوح ، ربُّ العِزَّة أَبداً لا يمُوت ، فى رأس كلّ ملَكٍ منهم أَربعة أُوْجُه .

فلمّا رآهم موسى ، رفع صوته يسبّح معهم حين سبّحوا وهو يبْكى ويقول : ربّ اذكُرْنى ولا تَنْس عبْدك ، لا أَدرى أُنْفِلتُ مِمّا فيه أَم لا ؟ إِن خَرَجْت احْتَرقْت ، وإِن مكَثْت مِتُّ ! فقال له خير الملائكة ورأسهم : اسكت يا بنَ عِمْران : [أَوْشك] أَنْ يشتدّ خَوْفُك وينخلع قَلْبُك فاصبر للذى سأَلت .

ثم أَمر الله تعالى أَن يحمل عرشه فى ملائكة السَّماء

السّابعة ، فلمّا بدا نورُ العِزَّة انفرج الجبل من عظمة الرّب تعالَى ، ورفعت ملائكة السماوات أَصواتَهم جميعاً يقولون : سبحان المِلك القُدُّوسُ ربُّ العِزَّة أَبداً لا يمُوت ، بشدّة أَصواتهم ، فارتجَّ الجبل ، واندَكَّ .

(69/51)

كُلّ شجرة كانت فيه وخَرَّ العبد الضَّعيف موسى صعِقاً على وجْهه وليس معه رُوحه ، فأَرسل الله تعالى برحْمتَه الرُّوح فتَغَشّاه ، وقَلَب عليه الحجر الَّذى كان عليه موسى وجعله كهَيْئة القُبَّة لئلاّ يحْتَرق موسى ، فأَقامه الرُّوح مثل الأُمّ ، فقام موسى يسبّحُ الله تعالى ويقول : بِكَ آمنت ربّى وصدّقْتُ أَنّه لا يراك أَحدٌ فيَحْيا ، ومن نظر إِلى ملائكتك انْخلَع قلبُه ، فما

أَعظَمكَ وأَعْظَم ملائكتك ، أَنت ربُّ الأَرْباب وإِله الآلهة ، ومَلِكُ المُلوك ، لا يعْدِلُك شيءٌ ، ولا يقُوم لك شيءٌ ، ربِّ تُبْتُ إِليك ، الحمدُ لَكَ لا شريك لَكَ ، ما أَعْظَمك وما أَجلَّك ربَّ العالمين .

أَنشد بعض الأَدباء :

*لِلْحُبّ نورٌ مُنَوّرْ * فى عَرْصة الجِنانِ*

*للَّذِكر حُسْنُ أُنْسٍ * يُنْسِى جَنَى الجِنان*

*الحُبُّ فى كَمالٍ * والحُبُّ فى جمالٍ*

*أَضحى أَخا كَلالٍ * عن وصفهِ لسانى*

*الشَّوْق فى الْتِهابِ * والدَّمْع فى انْسِكابِ*

*السِرُّ فى اضْطراب * يَنْبُو عن البَيان*

*فيهم لَقِيتُ كَرْبا * حتّى انْتَشَيْت شربا*

*ثمّ اشْتَهَيْت قُرْباً * من سُكْرِ اعْترانِى*

*نادَيْت يا حَبيبى * ارحَمْ عَلا نحيبى*

*اسْمَع من الغَريب * انْظرْ إِلى المُهانِ*

*بادِرْ إِلَىَّ عَطْفاً * اصْبُبْ لَدَىّ لطْفاً*

*وامْننْ عَلَىّ كَشْفاً * فى مَجْلس التَّدانى*

*نُودِيتُ يا ابْنَ آدَمْ * نسيتَ عِلْمَ عالِمْ*

*يا سيّدى إلى كَمْ * من قَهْرَ لَنْ تَرانى* . انتهى انتهى . اهـ ﴾ بصائر ذوى التمييز حـ 6 صـ 66.61 ﴿

(70/51)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (51) ﴾

قول الحق سبحانه وتعالى ﴿ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ هذا الوعد كان لإعطاء موسى المنهج ، فحينما كلّم الله سبحانه وتعالى موسى بجانب الطور . . كان هذا لإبلاغ موسى عليه السلام أنه رسول من رب العالمين. وأنه أرسله ليخلص بني إسرائيل من طغيان فرعون وعذابه . . وأنه سيمده بآيات ومعجزات . . حتى يقتنع فرعون وقومه أن موسى رسول من الله تبارك وتعالى . . بعد تكليف موسى بالرسالة وذهابه إلى فرعون . . وما حدث مع السحره ثم نجاة موسى وقومه . . بأن شق الله جل جلاله لهم البحر . . هذا في وقت لم يكن المنهج قد نزل بعد . . ولذلك بمجرد أن نجَّى الله سبحانه وتعالى موسى وقومه

وأغرق فرعون . . كان لابد أن يتم إبلاغ موسى بالمنهج . وكان الوعد يشمل أربعين ليلة . . هذه الليالي الأربعون حددت كثلاثين أولا . . ثم أتمها الحق سبحانه وتعالى بعشر أخرى . . واقرأ قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاَثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ [الأعراف : 142]

وعندما يتكلم الدين عن الزمن يتكلم دائما بالليلة . . والسبب في ذلك أنك لا تستطيع أن تحدد الزمن بدقة بالنهار . . الشمس تشرق وتغرب ثم تعود لتشرق . . فإذا نظرت إلى قرص الشمس . . لا يمكن أن تحدد في أي وقت من الشهر نحن . . هل في أوله أو في وسطه أو في آخره . . ولكن إذا جاء الليل بمجرد أن تنظر إلى القمر تستطيع أن تحدد الزمن . فإذا كان القمر هلالا فنحن في أوائل الشهر . . وإذا كان بدرا فنحن في وسطه وهكذا . .

إن هناك مقاييس دقيقة بالنسبة للقمر وقياس الزمن في عرف الناس ؛ الإنسان العادي يستطيع أن يحدد لك الزمن بالتقريب بالليالي . . ويقول لك البدوي في الصحراء ، هذا القمر ابن كذا ليلة .

وفي منطق الدين نحسب كل شيء بدخول الليل . . فهذه ليلة الأول من شهر رمضان نصلي

فيها التراويح . . وليلة العيد لا تصلى فيها التراويح . . وليلة النصف من شعبان . . وليلة الإسراء والمعراج . .

وفي كل مقاييس الدين الليل لا يتبع النهار إلا في شيء واحد هو يوم عرفة . . فلا نقول ليلة عرفة وإنما نقول يوم عرفة . . إذن الليلة هي ابتداء الزمن في الدين . . والزمن عند الله مدته اثنا عشر شهرا للعام الواحد . . السنة الميلادية تختلف عن السنة الهجرية . . والسبب في ذلك أن الله سبحانه وتعالى وزع رحمته على كونه . . فلو أن المواقيت الدينية سارت على مواقيت الشمس . . لجاء رمضان مثلا في شهر محدد لا يتغير .

. يصومه الناس صيفا في مناطق محددة . وشتاء في مناطق محددة ولا يختلف أبدا . .

فيظل رمضان يأتي في الصيف والحر دائما بالنسبة لبعض الناس . . وفي الشتاء والبرد دائما بالنسبة لبعض الناس . .

ولكن لأن السنة الهجرية تقوم على حساب الهلال . . فمعنى ذلك أن كل نفحات الله في كونه تأتي في كل الفصول والأزمان . . فتجد رمضان في الصيف والشتاء . . وكذلك وقفة عرفات وكذلك كل المناسبات الدينية الطيبة . . لأن السنة الهجرية تنقص أحد عشر يوما عن السنة الميلادية . . والفرق سنة كل ثلاث وثلاثين سنة .

والحق سبحانه يقول : ﴿ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴾ .

يريد أن يمّحص بني إسرائيل . . ويبين لنا كفرهم بنعم الله . فالله نجاهم من آل فرعون . . ولم

يكادوا يعبرون البحر حتى رأوا قوما يعبدون الأصنام . . فقالوا كما يروى لنا القرآن الكريم : ﴿ يامُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَاهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾ [الأعراف : 138]

(72/51)

حدث هذا بمجرد خروجهم من البحر سالمين . . موسى عليه السلام أخذ النقباء وذهب لميقات ربه . وترك أخاه هارون مع بني إسرائيل . . وبنو إسرائيل عندما كانوا في مصر . . وكانوا يخدمون نساء آل فرعون . . أخذوا منهن بعض الحلي والذهب خلسة . . ومع أن فرعون وقومه متمردون على الله تبارك وتعالى . . فإن هذا لا يبرر سرقة حلي نسائهم . . فنحن لا نكافئ من عصى الله فينا بأن نعصي الله فيه . . ونصبح متساويين معهم في المعصية . . ولكن نكافئ من عصى الله فينا بأن نطيع الله فيه . .

وأبو الدرداء رضي الله عنه حينما بلغه أن شخصا سبه . . بعث له كتابا قال فيه . . يا أخي لا تسرف في شتمنا . . واجعل للصلح موضعا فإنا لا نكافئ من عصى الله فينا بأكثر من أن نطيع الله فيه . . بنو إسرائيل سرقوا بعض حلي نساء آل فرعون . . فجعلها الله فتنة لإغوائهم . . وزين لهم الشيطان أن يصنعوا منها عجلا يعبدونه . . صنعه لهم موسى السامري الذي رباه جبريل . . فأخذ الحلي وصهرها ليجعلها في صورة عجل له خوار . .

وقال لهم هذا إلهكم وإله موسى .

أتعرف لماذا فتنهم الله سبحانه وتعالى بالعجل ؟

لأن الذهب المصنوع منه العجل من أصل حرام . . والحرام لا يأتي منه خير مطلقا . . ولابد أن نأخذ العبرة من هذه الواقعة . . وهي أن الحرام ينقلب على صاحبه شراً ووبالا ، إن كان طعامك حراما يدخل في تكوين خلاياك ويصبح في جسدك الحرام . . فإذا دخل الحرام إلى الجسد يميل فعلك إلى الحرام . . فالحرام يؤرق الجسد ويسوقه إلى المعاصي . .

(73/51)

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيبا ، وإن الله تعالى أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال تعالى : ﴿ يا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُواْ صَالِحاً ﴾ وقال تعالى : ﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُواْ للَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ ، ثم ذكر ، الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يا رب يا رب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام فأَنَّى يستجاب لذلك " .

وقد حصل لبني إسرائيل الشيء نفسه وسرقوا ذهب آل فرعون فانقلب عليهم ظلما ، وقال الله تعالى عنهم : ﴿ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴾ .

وعد الله لموسى كما قال أهل العلم كان ثلاثين ليلة . . إتمام الثلاثين ليلة يؤتيه ما وعد . .

وكلمة وعد هي الإخبار بشيء سار . والوعيد هي الإخبار بشيء سيئ . . فإذا سمعت وعدا فأعرف أنَّ ما سيجيء بعدها خير . وإذا سمعت وعيدا تعرف أن ما بعدها شر ، إلا آية واحدة وهي قوله سبحانه وتعالى : ﴿ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ [الحج : 72]

فهل الوعد هنا بخير أو المعنى اختلف ؟ . . نقول : إن كانت النار موعودا فهي شر . . وإن كانت النار هي الموعودة والكفار هم الموعود بهم فهي خير للنار ؛ لأن النار تفرح بتعذيب الكافرين من عباد الله . . ونعرف هذا الفرح من قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ [ق : 30]

ولا يستزيد الإنسان إلا من شيء يحبه . . والنار ـ ككل شيء مسخر ـ مسبحة لله تكره العصاة . . ولكنها غير مأمورة بحرقهم في الدنيا . . ولكن في الآخرة تكون سعيدة وهي تحرق العصاة والكافرين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 332 ـ 335 ﴾

فصل

قال السيوطى :

﴿ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (51) ﴾

أخرج ابن جرير عن أبي العالية في قوله ﴿ وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ﴾ قال : ذا القعدة وعشرا من ذي الحجة ، وذلك حين خلف موسى أصحابه واستخلف عليهم هرون ، فمكث على الطور أربعين ليلة وأنزل عليهم التوراة في اللوح ، فقربه الرب نجياً وكلمه وسمع صرير القلم ، وبلغنا أنه لم يحدث حدثاً في الأربعين ليلة حتى هبط الطور .

أما قوله تعالى ﴿ ثم اتخذتم ﴾ .

أخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال : اسم عجل بني إسرائيل الذي عبدوه يهبوب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 1 صـ 167 . 168 ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قرأ أبو عمرو ويعقوب : " وَعَدْنَا " هنا ، وما كان مِثْلَه ثلاثاً ، وقرأ الباقون : " وَاعَدْنَا "

بالألف واختار أبو عبيدة قراءة أبي عمرو ، ورجّحها بأن المُوَاعدة إنما تكون من البَشَرِ ، وأمَا الله عز وجل فهو المنفرد بالوَعْدِ والوَعِيدِ ، على هذا وجدنا القرآن نحو : ﴿ وَعَدَ الله الذين آمَنُواْ ﴾ [المائدة : 9] ، ﴿ وَعَدكُمْ وَعْدَ الحق ﴾ [إبراهيم : 22] ، ﴿ وَإِذْ يَعِدكُمُ الله ﴾ [الأنفال : 7] .

ورجحه مكّي فقال : وأيضاً فإن ظاهر اللفظ فيه " وعد " من الله تعالى لموسى ، وليس فيه " وَعْد " من موسى ، فوجب حمله على الواحد ، بظاهر النص

ثم ذكر جماعة جلّة من القراء عليها كالحَسَنِ ، وإبي رجاء ، وأبي جعفر ، وشيبة ، وعيسى بن عمر ، وقتادة ، وابن إسحاق ، ورجّحه أبو حاتم أيضاً بأن قراءة العامة عندنا " وَعَدْنَا " بغير ألف ؛ لأن المُوَاعدة أكثر ما تكون بين المَخْلُوقين والمُتَكَافئين .

وقد أجاب الناس عن قول أبي عبيد ، وأبي حاتم ، ومكي بأن " المُفَاعلة " هنا صحيحة ، بمعنى أن موسى نزل قبوله لالتزام الوفاء بمنزلة الوعد منه ، أو أنه وعد أن يفي بما كلفه ربه .

وقال القفال : " ولا يبعد أن يكون الآدمي يعد الله تعالى ويكون معناه يعاهد الله تعالى " ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ الله ﴾ [التوبة : 75] إلى أن قال : ﴿ بِمَآ أَخْلَفُواْ الله مَا وَعَدُوهُ ﴾ [الأنفال : 77] .

وقال مكّي : المُوَاعدة أصلاً من اثنين ، وقد تأتي بمعنى " فعل " نحو : " طَارَقْتُ النَّعْل " فجعل القراءتين بمعنى واحدٍ .

وقال الكسائي : ليس قوله الله : ﴿ وَعَدَ اللهُ الذين آمَنُواْ ﴾ [النور : 55] من هذا الباب في شيء ؛ لأن " واعدنا موسى " إنما هو من باب المُوَافاة ، وليس من الوعد في شيء ، وإنما هو من قولك : " موعدك يوم كذا " ، و" موضع كذا " .

(76/51)

والفصيح في هذا أن يقال : " واعدته " ، قال تعالى حكاية عن موسى عليه الصلاة والسلام أنه قال : ﴿ مَوْعِدكُمْ يَوْمُ الزينة ﴾ [طه : 59] .

وقال الزجاج : " وَاعَدْنَا " بالألف جَيّد ؛ لأن الطَّاعة في القبول بمنزلة المُوَاعد ، فمن الله وَعْد ، ومن موسى قَبُول واتباع ، فجرى مجرى المواعدة .

وقال مكّي أيضاً : " والاختيار " واعدنا " بالألف ؛ لأنه بمعنى " وعدنا " في أحد معنييه ؛ ولأنه لا بُدَّ لموسى من وَعْد أو قَبُول يم مقام الوَعْدِ فتصحّ المُفَاعلة " .

قال ابن الخَطِيب : الأقوى أن الله تعالى وعد الوَحْي ، وهو وعد الله المجيء للميقات .

قال الجوهري : " المِيعَادُ : المُوَاعدة والوقت والموضع " ؟

ووعد يتعدّى لاثنين ، ف " موسى " مفعول أول ، و" أربعين " مفعول ثانٍ ، ولا بد من حذف مضاف ، أي : تمام أربعين ، ولا يجوز أن ينتصب على الظَّرف ، لفساد المعنى ، وعلامة

نصبه الياء ؛ لأنه جار مجرى جمع المذكر السَّالم ، وهو في الأصل مفرد اسم جمع ، سمي به هذا العَقْد من العدد ، ولذلك أعربه بعضهم بالحركات ؛ ومنه في أحد القولين : [الوافر]

وَمَاذَا يَبْتَغِي الشُّعَرَاءُ مِنّي . . .

وَقَدْ جَاوَزْتُ حَدَّ الأَرْبَعِينِ

بكسر النون .

و " ليلة " نصب على التَّمييز والعقود التي هي من عشرين إلى تِسْعِين ، وأحد عشر إلى تسعة عشر كلها تميز بواحد منصوب .

و " موسى " هو موسى بن عِمْران بن يصهر بن قاهت بن لاوي بن يَعْقُوب بن إسْحَاق ابن إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، اسم أعجمي غير منصرف ، وهو في الأصل على ما يقال مركّب والأصلاً : مُوشَى بالشين لأن " ماء " بلغتهم يقال له : " مو " والشّجر يقال له : " شَا " فعربته العرب فقالوا : موسى .

(77/51)

قالوا : إما سمي به ؛ لأن أمه جعلته في التَّابوت حين خافت عليه من فِرْعون ، وألقته في البحر ، فدفعته أمواج البحر حتى أدخلته بين أشْجَار عند بيت فرعون ، فخرجت

جَوَاري آسيَةَ امرأة فرعون يَغْسِلْنَ فوجدن التَّابوت ، فأخذنه فسمي عليه الصلاة والسلام باسم المكان الَّذِي أصيب فيه وهو الماء والشجر ، وليس لموسى اسم النَّبِيّ عليه الصلاة والسلام اشتقاق ؛ لأنه أعجمي ؛ لأن بني إسرائيل والقبط ما كانوا يتكلّمون بلغة العرب .

ومنهم من قال : إنه مشتق ، واختلفوا في اشتقاقه ، فقيل : هو " مفعل " من أوْسَيْت رأسه : إذا حلقته فهو مُوسى ، كـ " أعطيته فهو مُعْطَى " ن فمن جعل اسمه عليه مشتقاً قال : إنما سمي بذلك لِصَلَعِهِ .

وقيل : مشتق من " مَاسَ يَمِيسُ " أي : يَتَبَخْتَرُ في مشيته ويتحركن فهو " فعلى " وكان عليه الصلاة والسلام كذلك ، فقلبت الياء واواً لانظمام ما قبلها كـ " مُوقِن " من " اليَقين " .

والصحيح الأول ، وهذا الاشتقاق إنما هو في مُوسى آلة الحَلْق .

قوله : ﴿ ثُمَّ اتخذتم العجل ﴾ " اتَّخَذَ " يتعدّى لاثنين ، والمفعول الثاني محذوف أي : اتخذتم العِجْلَ إلهاً ، وقد يتعدّى لمفعول واحد إذا كان معناه " عمل " و " جعل " نحو : ﴿ وَقَالُواْ اتخذ الله وَلَداً ﴾ [البقرة : 116] .

وقال بعضهم : " تَخِذَ " و" اتَّخَذَ " يتعدّيان لاثنين ما لم يفهما كسباً ، فيتعديان لواحد ، واختلف في " اتَّخَذَ " فقيل : هو " افتعل " من الأَّخْذِ ، والأصل : " ائْتَخَذَ " الأولى همزة وصل ، والثانية فاء الكلمة ، فاجتمع همزتان ثانيتهما ساكنة بعد أخرى ، فوجب قلبها ياء كـ " إيمان " فوقعت الياء فاء قبل تاء الافتعال ، فأبدلت تاء ، وأدغمت في تاء الافتعال كـ " اتَّسَرَ " من اليُسْرِ " ، إلا أن هذا قليل في باب الهمز ؛ نحو : " اتَّكَلَ " من " الأَكْل " ، و" اتَّزَر " من " الإزَار " ؛ وقال أبو عليٍّ : هو " افْتَعَل " من تَخِذَ يَتْخَذُ ؛ وأنشد : [الطويل]

وَقَدْ تَخِذَتْ رِجْلِي إِلَى جَنْبِ غَرْزِهَا . . .

نَسِيفاً كَأُفْحُوصِ القَطَاةِ المُطَوّقِ

وقال تعالى : ﴿ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً ﴾ [الكهف : 77] وهذا أسهل القولين .

والقُرّاءُ على إدغام الذَّال في التاء لقرب مخرجهما ، وابن كثير ، وعاصم في رواية حَفْص بالإظهار ، وهذا الخلاف جارٍ في المفرد نحو : " اتَّخَذْتُ " ، والجمع نحو : " اتَّخَذْتُم " ، وأتى في هذه الجملة بـ " ثم " دلالة على أن الاتّخَاذ كان بعد المُوَاعدة بمهلة .

قوله : " مِنْ بعْدِهِ " متعلّق بـ " اتَّخَذْتُمْ " ، و" مِنْ " لابتداء الغاية والضمير بعود على مُوسى ، ولا بُدّ من حذف مضافٍ ، إي : من بعد انطلاقه أو مُضِيّه .

وقال ابن عطية : " يعود على موسى " .

وقيل : " على انطلاقه للمتكلّم " .

ويل : عرى الوَعْدِ ، وفي كلامه بعض مُنَاقشة ، فإن قوله : " وقيل يعود على انطلاقه " يقتضي عوده على موسى من غير تقدير مضاف ، وذلك غير مُتَصَوَّر .

قوله : " وَأَنْتُم ظَالِمُونَ " جملة حالية من فاعل " اتَّخَذْتُمْ " .

(79/51)

و " العِجْل " ولد البقرة والعُجُول مثله ، والجمع عَجَاجِيْل ، والأنثى " عِجْلة " ، عن أبي الحسن ، وسمي العجل عِجْلاً لاستعجالهم عبادته ، ذكره القُرْطبي ، وفيه نظر ؛ لأن العِجْلَ ولد البقرة كان موجوداً قبل أن يتخذ بنو إسرائيل العِجْل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 2 صـ 72.67 ﴾ . باختصار .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (51) ﴾

شتَّان بين أمة وأمة ؛ فأُمَّةُ موسى عليه السلام – غاب نبيُّهم عليه السلام أربعين يوماً فاتخذوا العِجْلَ معبودَهم ، ورضوا بأن يكون لهم بمثل العجل معبوداً ، فقالوا : ﴿ هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ ﴾ [طه : 88] وأمة محمد المصطفى صلى الله عليه وسلم

مضى من وقت نبيّهم سنون كثيرة فلو سمعوا واحداً يذكر في وصف معبودهم ما يوجب تشبيهاً لما أبْقَوْا على حشاشتهم ولو كان في ذلك ذهاب أرواحهم .

ويقال إن موسى – صلوات الله عليه – سلَّم أمته إلى أخيه فقال : اخلفني في قومي ، وحين رجع وجدهم وقعوا في الفتنة ، ونبيُّنا – صلوات الله عليه – توكَّل على الله فلم يُشِرْ على أحَدٍ في أمر الأمة وكان يقول في آخر حاله : الرفيق الأعلى . فانظر كيف تولَّى الحق رعاية أمته في حفظ التوحيد عليهم . لعمري يُضَيِّعون حدودَهم ولكن لا ينقضون توحيدَهم .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 90. 91 ﴾

(80/51)

قوله تعالى ﴿ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (52) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان ذلك مقتضياً لأعظم السخط المقتضي من القادر للمعاجلة بالأخذ ذكرهم نعمة الإمهال بعده فقال مشيراً إلى عظم الذنب والنعمة بأداة التراخي : ﴿ ثم عفونا ﴾ .

وقال الحرالي : ثم تجاوز الخطاب ما أصابهم من العقوبة على اتخاذهم إلى ذكر العفو تقريراً

على تكرر تلافيهم حالاً بعد حال وقتاً بعد وقت ، كلما أحدثوا خطيئة تداركهم منه عفو ، وخصه باسم العفو لما ذكر ذنوبهم ، لأن المغفور له لا يذكر ذنبه ، فإن العفو رفع العقوبة دون رفع ذكرها ، والغفر إماتة ذكر الذنب مع رفع العقوبة – انتهى .

﴿ عنكم ﴾ ولم نعاجلكم بالأخذ ، وفي قوله تعالى ﴿ من بعد ذلك ﴾ أي الذنب العظيم إشعار بما أصابهم من العقوبة وخطاب لبقية المعفو عنهم ، لينتهي الأمر فيهم إلى غاية يترجّى معها لبقيتهم الشكر – قاله الحرالي .

وكان الإشعار من جهة أدخال من ، على الظرفية ، فاقتضى مهلة بين العفو والذنب لم يشملها العفو بل كان فيها عقوبة ، كما اقتضى قوله : من بعده ، مهلة بين اتخاذهم العجل وأول ذهاب موسى عليه السلام للمناجاة ؛ ويجوز أن يكون أفرد حرف الخطاب إشارة إلى أنه لا يعلم جميع ما في دينهم من الشناعة إلا إمام أهل التوحيد النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ لعلكم تشكرون ﴾ أي ليكون حالكم حال من يتوقع منه الشكر .

قال الحرالي : وهو ظهور بركة الباطن على الظاهر ، يقال : دابة شكور ، إذا أنجح ما أكلها بظهور سمنها ؛ وفيه إشعار بأن منهم من يشكر وفيهم من يتمادى بما في ترجي كلمة لعل ، من الإبهام المشعر بالقسمين والمهيىء لإمكان ظهور الفريقين حتى يظهر ذلك لميقاته ، لأن كل ما كان في حق الخلق تردداً فهو من الله سبحانه إبهام لمعلومه فيهم ؛ على ذلك تجري كلمة لعل وعسى ونحوها – انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 133 ﴾

فصل

قال الفخر :

(81/51)

أما قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّن بَعْدِ ذلك ﴾ فقالت المعتزلة : المراد ثم عفونا عنكم بسبب إتيانكم بالتوبة وهي قتل بعضهم بعضاً ، وهذا ضعيف من وجهين ، الأول : أن قبول التوبة واجب عقلاً فلو كان المراد ذلك لما جاز عده في معرض الإنعام لأن أداء الواجب لا يعد من باب الإنعام والمقصود من هذه الآيات تعديد نعم الله تعالى عليهم .

الثاني : أن العفو اسم لإسقاط العقاب المستحق فأما إسقاط ما يجب إسقاطه فذاك لا يسمى عفواً ألا ترى أن الظالم لما لم يجز له تعذيب المظلوم ، فإذا ترك ذلك العذاب لايسمى ذلك الترك عفواً فكذا ههنا ، وإذا ثبت هذا فنقول لا شك في حصول التوبة في هذه الصورة لقوله تعالى : ﴿ فَتُوبُواْ إِلى بَارِئِكُمْ فاقتلوا أَنفُسَكُمْ ﴾ [البقرة : 54] وإذا كان كذلك دلت هذه الآية على أن قبول التوبة غير واجب عقلاً ، وإذا ثبت ذلك ثبت أيضاً أنه تعالى قد أسقط عقاب من يجوز عقابه عقلاً وشرعاً ، وذلك أيضاً خلاف قول المعتزلة ، وإذا ثبت

أنه تعالى عفا عن كفار قوم موسى فلأن يعفو عن فساق أمة محمد صلى الله عليه وسلم مع أنهم : خير أمة أخرجت للناس كان أولى .

(82/51)

أما قوله تعالى : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ فاعلم أن الكلام في تفسير " لعل" قد تقدم في قوله : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام : 153] [الأعراف : 171] [البقرة : 21 ، 33] وأما الكلام في حقيقة الشكر وماهيته فطويل وسيجيء إن شاء الله تعالى ، ثم قالت المعتزلة : إنه تعالى بين أنه إنما عفا عنهم ولم يؤاخذهم لكي يشكروا ، وذلك يدل على أنه تعالى لم يرد منهم إلا الشكر ، والجواب : لو أراد الله تعالى منهم الشكر لأراد ذلك إما بشرط أن يحصل للشاكر داعية الشكر أولاً بهذا الشرط فإن كان هذا الشرط من العبد لزم افتقار الداعية إلى داعية أخرى ، وإن كان من الله فحيث خلق الله الداعي حصل الشكر لا محالة وحيث لم يخلق الداعي استحال حصول الشكر ، وذلك ضد قول المعتزلة وإن أراد حصول الشكر منه من غير هذه الداعية فقد أراد منه المحال لأن الفعل بدون الداعي محال فثبت أن الإشكال وارد عليهم أيضاً . والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 72 ﴾

وقال السمرقندى :

قوله : ﴿ وَإِذْ ءاتَيْنَا مُوسَى الكتاب ﴾ ، أي أعطينا موسى التوراة ﴿ والفرقان ﴾ ، أي الفارق بين الحلال والحرام .

ويقال : الفرقان هو النصرة بدليل قوله تعالى : ﴿ واعلموا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ للَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إِن كُنتُمْ ءَامَنْتُم بالله وَمَآ أَنزَلْنَا على عَبْدِنَا يَوْمَ الفرقان يَوْمَ التقى الجمعان والله على كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأنفال : 41] أي يوم النصرة .

ويقال : الفرقان هو المخرج من الشبهات .

ويقال : هو انفلاق البحر بدليل قوله : ﴿ وإذ فرقنا بكم البحر ﴾ [البقرة : 50] .

وقال الفراء : في الآية مضمر ، ومعناه : وآتينا موسى الكتاب يعني التوراة ، وأعطينا محمداً الفرقان ، فكأنه خاطبهم فقال : قد أعطيناكم علم موسى وعلم محمد صلى الله عليه وسلم وعلم سائر الأنبياء .

قوله : ﴿ والفرقان لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ ، أي لكي تهتدوا من الضلالة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ 79 . 80 ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى ﴿ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم ﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم ﴾ العَفْوُ : عفوُ الله جل وعز عن خلقه ؛ وقد يكون بعد العقوبة وقبلها ، بخلاف الغُفران فإنه لا يكون معه عقوبة ألْبَتَّةَ .

وكل من استحق عقوبة فتُرِكت له فقد عُفِيَ عنه .

فالعفو : مَحْوُ الذنب ؛ أي محوْنا ذنوبكم وتجاوزنا عنكم .

مأخوذ من قولك : عَفَتِ الريح الأثر ؛ أي أذهبته .

وعفا الشيءُ : كثر .

فهو من الأضداد ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ حتى عَفَوْا ﴾ [الأعراف : 95] .

الثانية : قوله تعالى : ﴿ مِّن بَعْدِ ذَلِكَ ﴾ أي من بعد عبادتكم العجل .

وسُمِّيَ العجل عجلاً لاستعجالهم عبادته .

والله أعلم .

والعجل : ولد البقرة .

والعِجّول مثله ، والجمع العجاجيل ؛ والأنثى عِجْلة .

عن أبي الجرّاح .

الثالثة : قوله تعالى : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ كي تشكروا عفو الله عنكم .

وقد تقدّم معنى لعل .

وأما الشكر فهو في اللغة الظهور ؛ من قوله : دابة شَكور ؛ إذا ظهر عليها من السَّمَن فوق ما تُعْطَى من العَلَف .

وحقيقته الثناء على الإنسان بمعروف يُولِيكه .

كما تقدّم في الفاتحة .

قال الجوهري : الشكر : الثناء على المحسن بما أَوْلاكه من المعروف ؛ يقال : شكرته وشكرت له ؛ وباللام أفصح .

والشكران : خلاف الكُفران .

وتشكّرت له مثل شَكَرت له .

وروى الترمذي وأبو داود عن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " لا يشكر الله من لا يشكر الناس " قال الخطابي : هذا الكلام يتأوّل على معنيين : أحدهما أن من كان من طبعه كفران نعمة الناس وترك الشكر لمعروفهم كان من عادته كفران نعمة الله عز وجل وترك الشكر له .

والوجه الآخر أن الله سبحانه لا يقبل شكر العبد على إحسانه إليه إذ كان العبد لا يشكر إحسان الناس إليه ويكفر معروفهم ؛ لاتصال أحد الأمرين بالآخر .

الرابعة : في عبارات العلماء في معنى الشكر ؛ فقال سَهْل ابن عبد اللَّه : الشكر : الاجتهاد في بذل الطاعة مع الاجتناب للمعصية في السر والعلانية .

وقالت فرقة أخرى : الشكر هو الاعتراف في تقصير الشكر للمنعم ؛ ولذلك قال تعالى : ﴿ اعملوا آلَ دَاوُودَ شُكْراً ﴾ [سبأ : 13] .

فقال داود : كيف أشكرك يا رب ، والشكر نعمة منك ! قال : الآن قد عرفتني وشكرتني ؛ إذ قد عرفت أن الشكر مني نعمة .

قال : يا ربّ فأرني أخْفى نعمك عليّ .

قال : يا داود تنفّس ؛ فتنفّس داود .

فقال الله تعالى : مَن يُحصي هذه النعمة الليلَ والنهارَ .

وقال موسى عليه السلام : كيف أشكرك وأصغر نعمة وضعتها بيدي من نعمك لا يجازي بها عملي كله ! فأوحى الله إليه : يا موسى الآن شكرتني .

وقال الجُنَيْد : حقيقة الشكر العجز عن الشكر .

وعنه قال : كنت بين يدي السَّرِيّ السَّقَطِيّ ألعب وأنا ابن سبع سنين وبين يديه جماعة يتكلمون في الشكر ، فقال لي : يا غلام ما الشكر ؟ فقلت : ألا يُعْصَى الله بنعمه .

فقال لي : أخشى أن يكون حظك من الله لسانك .

قال الجنيد : فلا أزال أبكي على هذه الكلمة التي قالها السِرِيّ لي .

وقال الشبليّ : الشكر : التواضع والمحافظة على الحسنات ، ومخالفة الشهوات وبذل الطاعات ، ومراقبة جبّار الأرض والسموات .

وقال ذو النُون المصريّ أبو الفَيْض : الشكر لمن فوقك بالطاعة ، ولنظيرك بالمكافأة ، ولمن دونك بالإحسان والإفضال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 1 صـ 397. 398 ﴾

وقال الآلوسى :

(ثم) لتفاوت ما بين فعلهم القبيح ، ولطفه تعالى في شأنهم ، فلا يكون ﴿ مِن بَعْدِ ذلك ﴾ تكراراً .

(85/51)

و(عفا) بمعنى درس يتعدى ولا يتعدى كعفت الدار ، وعفاها الريح والمراد بالعفو هنا محو الجريمة بالتوبة وذلك موضوع موضع (ذلكم) والإشارة للاتخاذ كما هو الظاهر ، وإيثارها لكمال العناية بتمييزه كأنه يجعل ظلمهم مشاهداً لهم وصيغة البعيد مع قربه لتعظيمه ليتوسل بذلك إلى جلالة قدر العفو والمراد بالترجي ما علمت ، والمشهور هنا كونه مجازاً عن طلب الشكر على العفو ومن قدر الإرادة من أهل السنة أراد مطلق الطلب وليس ذلك من الاعتزال ، إذ لا نزاع في أن الله تعالى قد يطلب من العباد ما لا يقع والشكر عند الجنيد هو العجز عن الشكر ، وعند الشبلي التواضع تحت رؤية المنة وقال ذو النون : الشكر لمن فوقك بالطاعة ، ولنظيرك بالمكافآت ، ولمن دونك بالإحسان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 258 ﴾

وقال ابن عاشور :

وقوله : ﴿ ثم عفونا عنكم من بعد ذلك ﴾ هو محل المنة ، وعطفه بثم لتراخي رتبة هذا العفو في أنه أعظم من جميع تلك النعم التي سبق عدها ففيه زيادة المنة فالمقصود من الكلام هو المعطوف بثم وأما ما سبق من قوله : ﴿ وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ﴾ إلخ فهو تمهيد له وتوصيف لما حفّ بهذا العفو من عظم الذنب .

وقوله : ﴿ من بعد ذلك ﴾ حال من ضمير " عفونا " مقيدة للعفو إعجاباً به أي هو عفو حال حصوله بعد ذلك الذنب العظيم وليس ظرفاً لغواً متعلقاً بعفونا حتى يقال : إن ثم دلت

على معناه فيكون تأكيداً لمدلول ثم تأخير العفو فيه وإظهار شناعته بتأخير العفو عنه وإنما جاء قوله ذلك مقترناً بكاف خطاب الواحد في خطاب الجماعة لأن ذلك لكونه أكثر أسماء الإشارة استعمالاً بالإفراد إذ خطاب المفرد أكثر غلب فاستعمل لخطاب الجمع تنبيهاً على أن الكاف قد خرجت عن قصد الخطاب إلى معنى البعد ومثل هذا في كلام العرب كثير لأن التثنية والجمع شيآن خلاف الأصل لا يصار إليهما إلا عند تعيين معناهما فإذا لم يقصد تعيين معناهما فالمصير إليهما اختيار محض .

وقوله : ﴿ لعلكم تشكرون ﴾ رجاء لحصول شكركم ، وعدل عن لام التعليل إيماء إلى أن شكرهم مع ذلك أمر يتطرقه احتمال التخلف فذكر حرف الرجاء دون حرف التعليل من بديع البلاغة فتفسير لعل بمعنى لكي يفيت هذه الخصوصية وقد تقدم كيفية دلالة لعل على الرجاء في كلام الله تعالى عند قوله : ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم إلى قوله لعلكم تتقون ﴾ [البقرة : 21] .

ومعنى الشكر تقدم في قوله تعالى : ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ [الفاتحة : 2] وللغزالي فيه باب حافل عدلنا عن ذكره لطوله فارجع إليه في كتاب " الإحياء " . انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 1 صـ 484. 485 ﴾

فصل

قال الثعلبي :

واختلف العلماء في ماهيّة الشكر ، فقال ابن عباس : هو الطاعة بجميع الجوارح لربّ الخلائق في السر والعلانية .

وقال الحسن : شكر النعمة ذكرها ، قال الله تعالى : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ .

الفضل : شكر كل نعمة ألاّ يُعصى الله بعد تلك النعمة .

أبو بكر بن محمد بن عمر الوراق : حقيقة الشكر : معرفة المُنعم ، وأن لا تعرف لنفسك في النعمة حظّاً بل تراها من الله عزّ وجلّ . قال الله تعالى : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾

يدل عليه ما روى سيف بن ميمون عن الحسين : إنّ رسول الله ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ قال : " قال موسى : يا ربّ كيف استطاع آدم أنْ يؤدي شكر ما أجريت عليه من نعمك ، خلقته بيدك واسجدت له ملائكتك واسكنته جنّتك ؟

فأوحى الله إليه : إنّ آدم علم إنّ ذلك كله منّي ومن عندي فذلك شكر " .

وعن إسحاق بن نجيح الملطي عن عطاء الخرساني عن وهب بن منبّه قال : قال داود : إلهي كيف لي أن أشكرك وأنا لا أصِلُ إلى شكرك إلاّ بنعمتك ؟

فأوحى الله تعالى إليه : ألست تعلم أنّ الذي بك من النعم منّي ؟

قال : بلى يا ربّ ، قال : أرضى بذلك لك شكراً .

وقال وهب : وكذلك قال موسى : يا ربّ أنعمت عليّ بالنعم السوابغ وأمرتني بالشكر لك عليها ، وإنما شكري لكل نعمة منك عليّ ، فقال الله : يا موسى تعلّمت العلم الذي لا يفوته علم ، حسبي من عبدي أن يعلم أن ما به من نعمة فهو منّي ومن عندي .

قال الجنيد : حقيقة الشكر : العجز عن الشكر .

وروى ذلك عن داود عليه السلام إنّه قال : سبحان من جعل اعتراف العبد بالعجز عن شكره شكراً ، كما جعل اعترافه بالعجز عن معرفته معرفة .

وقال بعضهم : الشكر أن لا يرى النعمة ألبتة بل يرى المنعم .

أبو عثمان الخيري : صدق الشكر : لا تمدح بلسانك غير المنعم .

أبو عبد الرحمن السلمي عن أبي بكر الرازي عن الشبلي : الشكر : التواضع تحت رؤية المنّة .

(87/51)

وقيل : الشكر خمسة أشياء : مجانبة السيئات ، والمحافظة على الحسنات ، ومخالفة الشهوات ، وبذل الطاعات ، ومراقبة ربّ السموات .

قال الثعلبي : سمعت أبا القاسم الحبيبي يقول : سُئل أبو الحسن علي بن عبد الرحيم القناد في الجامع بحضرة أبي بكر بن عدوس وأنا حاضر : من أشكر الشاكرين ؟

قال : الطاهر من الذنوب ، يعدُّ نفسه من المذنبين ، والمجتهد في النوافل بعداد الفرائض ، يعدُّ نفسه من المقصّرين ، والراضي بالقليل من الدُّنيا ، يعدُ نفسهُ من المفلسين ، فهذا أشكر الشاكرين .

بكر بن عبد الرحمن عن ذي النّور : الشكر لمن فوقك بالطاعة ، ولنظيرك بالمكافأة ، ولمن دونك بالإحسان والإفضال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 1 صـ 195 . 196 ﴾

(88/51)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى الشكر)

وهو تصوُّر النعمة وإظهارها .

وقيل : هو الثناءُ على المحسِن بما أَوْلَى من المعروف ، يقال : شَكَرْتُهُ ، وشكرت له .

وتعديته باللَّام أَفصح ، قال الله تعالى : ﴿ وَاشْكُرُوا لِي ﴾ ، وقال جَلَّ ذكره : ﴿ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴾ يحتمل أَن يكون مصدرًا مثل قعد قعودًا ، ويحتمل أن يكون جمعا ، مثل بُرْد وبُرُود ، وكُفر وكُفور .

والشُّكْران : خلاف الكفران .

والشَكُور : الشّاكر .

والشّكُور من الدّواب : الَّذى يجتزىء بالعَلَف القليل ويسمَن عليه .

قال الأَعشى :

*ولا بدّ من غزوةٍ فى الربيع * رَهْبٍ تُكلّ الوَقاح الشكورا *

وقيل : الشكر مقلوب الكشْر أَى الكشف .

وقيل : أَصله من عَيْنٍ شَكْرَى : ممتلئة .

والشكر على هذا : الامتلاء من ذكر المُنْعِم .

والشكر على ثلاثة أَضرب : شكر بالقلب ؛ وهو تصوّر النّعمة .

وشكر باللسان ؛ وهو الثناءُ على المنعِم .

وشكر بسائر الجوارح ؛ وهو مكافأَة النعمة بقدر استحقاقه .

وقوله تعالى : ﴿ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا ﴾ انتصابه على التمييز ومعناه اعملوا ما تعملونه

شكرًا لله.

وقيل: شكرًا مفعول لقوله: ﴿ اعْمَلُواْ ﴾.

ولم يقل: اشكروا لينبّه على التزام الأَنواع الثلاثة من الشكر بالقلب واللسان وسائر الجوارح.

وقوله تعالى: ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ فيه تنبيه أَنَّ توفية شكرِ الله صعب.

ولذلك لم يُثْنِ بالشكر من أَوليائه إِلاَّ على اثنين، قال في وصف إِبراهيم عليه السلام: ﴿ شَاكِراً لِّأَنْعُمِهِ ﴾، وقال في نوح عليه السلام: ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً ﴾.

وإِذا وُصف الله بالشكر في قوله: ﴿ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴾ فإِنما يُعنى به إِنعامه على عباده، وجزاؤه بما أَقامه من العبادة.

(89/51)

واعلم أَنَّ الشكر أَعلى منازل السّالكين، وفوق منزلة الرّضا، فإِنَّه يتضمّن الرّضا وزيادةً، والرّضا مندرِج في الشكر؛ إِذ يستحيل وجود الشكر بدونه.

وهو نصف الإِيمان.

وقد أَمر الله به، ونَهَى عن ضدّه، وأَثنى على أَهله، ووصف [به] خواصّ خَلْقه، وجعله

غاية خَلْقه وأَمره ، ووعَد أَهله بأَحسن جزائه ، وجعله سببًا للمزيد من فضله ، وحارسًا وحافظًا لنعمته .

وأَخيرا أَنَّ أَهله هم المنتفعون بآياته ، واشتَقَّ لهم اسمًا من أَسمائه .

فإِنَّه سبحانه هو الشّكور ، وهو مُوَصّل الشّاكِر إِلى مشكوره ، بل يعيد الشّاكر مشكورًا .

وهو غاية رضا الربّ عن عبده ، وأَهله هم القليل من عباده ، قال تعالى : ﴿ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ ، وقال : ﴿ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ .

وقال عن خليله إِبراهيم : ﴿ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ﴾ ، وعن نبيّه نوح : ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ .

وقال : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ وقال : ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ * فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ ، وقال : ﴿ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ وقال : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ ، وقال : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ .

وسمّى نفسه شاكرًا ، وشَكُورًا .

وحسبك بهذا محبّة للشاكرين وفَضْلاً .

وأَعاد به الشُكْر مشكورًا ؛ كقوله : ﴿ إِنَّ هذا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُوراً ﴾ .

(90/51)

ورَضِىَ الرّبّ عن عبده كقوله : ﴿ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ .

وقِلَّة أَهله فى العالمين على أَنَّهم من خواصّه .

وفى الصّحيح عن النبىّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم : " أَنَّه قام حتى تورّمت قَدَماه ، فقيل له : تفعل هذا وقد غَفَر الله لك ما تقدّم من ذنبك [وما تأَخَّر] ؟ قال : أَفلا أَكون عبدًا شكورًا" !.

وقال لمُعَاذٍ إِنّى أُحبُك ، فلا تنس أَن تقول فى دُبُر كلّ صلاة : اللَّهمّ أَعنّى على ذكرك وشُكرك وحُسن عبادتك" .

وفى الترمذى من بعض دعائه المشهور : " ربّ اجعلنى لك شَكَّارًا ، لك ذَكَّارًا ، لك رَهّابا لك مِطواعًا ، لك مُخْبِتًا ، إِليك أَوّاهًا مُنِيبًا" .

والشكر مبنىّ على خمس قواعد : خضوع الشاكر للمشكور ، وحبّه له ، واعترافه بنعمته ، والثناء عليه بها ، وأَلا يستعملها فيما يكره .

هذه الخمسة هى أَساس الشكر ، وبناؤه عليها .

فمتى عُدم منها واحدة اختلّت قاعدة من قواعد الشكر .

وكلّ من تكلم فى الشكر فكلامه إليها يرجع ، وعليها يدور .

فقيل حَدّه : أَنَّه الاعتراف بنعمة المنعِم على وجه الخضوع .

وقيل : الثناءُ على المحسِن بذكر إحسانه .

وقيل : هو عكوف القلب على محبّة المنعِم ، والجوارح على طاعته ، وجَرَيانُ اللسان بذكره ، والثناءِ عليه .

وقيل : هو مشاهدة المِنَّة ، وحفظ الحُرْمة .

وما أَلطف ما قال حَمْدُون القصّار : شُكر النعمة : أَن نرى نفسك طُفَيْلِيًّا .

وقال أَبو عثمان : الشكر : معرفة العجز عن الشكر .

وقيل : الشكر إضافة النّعَم إلى مُوليها .

وقال الجُنَيد : الشكر : أَلاَّ ترى نفسك أَهلاً للنعمة .

وهذا معنى قول حمدون : أَن ترى نفسك فيها طُفَيْلِيًّا .

وقال رُوَيم : الشكر : استفراغ الطَّاقة ، يعنى فى الخدمة .

وقال الشِّبلىّ : الشكر : رؤية المنعِم لا رؤية النعمة .

ويحتمل كلامه أَمرين : أَحدهما أَن يَفْنَى برؤية المنعِم عن رؤية النعمة ، الثَّانى أَلَّا تحجبه رؤية النعمة ومشاهدتُها عن رؤية المنعِم بها ، وهذا أَكمل ، والأَوّل أَقوى عندهم .

(91/51)

والكمال أَن يشهد النعمة والمنعِم ، لأَنّ شكره بحسب شهوده للنعمة ، وكلّما كان أَتمّ كان الشّكر أَكمل ، والله يحُبّ من عبده أَن يشهد نعمه ، ويعترف بها ، ويُثنى عليه بها ، ويحبّه عليها ، لا أَن يَفْنَى عنها ، ويغِيب عن شهودها .

وقيل : الشكر قِيْد النّعَم الموجودة ، وصيد النّعم المفقودة .

وشكر العامّة على المَطْعَم والمَلْبَس وقوة الأَبدان ، وشكر الخاصّة على التَّوحيد والإِيمان وقوّة القلوب .

وقال داود عليه السّلام : يا ربّ كيف أَشكرك وشكرى نعمة علىّ مِن عندك تستوجب بها شكرًا ؟ .

فقال : الآن شكرتنى يا داود .

وفى أَثر إِسرائيلىّ ، قال موسى : يا ربّ خلقتَ آدم بيدك ، ونفخت فيه من رُوحك ، وأَسجدت له ملائكتك ، وعلَّمته أَسماءَ كلّ شىء ، وفعلتَ وفعلت ، فكيف أَطاق

شكرك .

فقال الله عزَّ وجلّ : علم أَنَّ ذلك منى ، فكانت معرفته بذلك شكرًا لى .

وقيل : التلذّذ بثنائه على ما لم يستوجب من عطائه .

وقال الجُنَيد – وقد سأَله سَرِىّ عن الشكر ، وهو صبىّ بَعْدُ – : الشكر أَلاّ يستعان بشىء من نِعَم الله على معاصيه .

قال من أَين لك هذا ؟ قال : من مجالستك .

وقيل : من قَصُرت يداه عن المكافأَة فليَطُل لسانُه بالشكر .

والشكر مع المزيد أَبدًا ؛ لقوله تعالى : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ .

فمتى لم ترحالك فى مزيد فاستقبل الشكر .

وفى أَثر إِلَهىّ ، يقول الله : أَهل ذكرى أَهل مجالستى ، وأَهل شكرى أَهل زيادتى ، وأَهل طاعتى أَهل كرامتى ، وأَهل معصيتى لا أُقَنّطهم من رحمتى ، إِنْ تابوا فأَنا حبيبهم ، وإِنْ لم يتوبوا فأَنا طبيبهم ، أَبتليهم بالمصائب لأطهرهم عن المعايب .

وقيل : من كتم النعمة فقد كفرها ؛ ومن أَظهرها ونَشرها فقد شكرها .

قال :

*ومن الرزيّة أَنَّ شكرى صامت * عمّا فعلت وأَنّ برّك ناطقُ

*أَأَرَى الصنيعة منك ثم أُسِرّها * إِنّى إِذاً لِنَدَى الكريمِ لسارقُ*

وتكلم النَّاسُ فى الفرق بين الحمد والشكر [و] أيُّها أَفضل .

(92/51)

وفى الحديث : " الحمد رأس الشكر ، فمن لم يَحْمَدِ الله لم يشكره" .

والفرق بينهما أَنَّ الشكر أَعمّ من جهة أَنواعه وأَسبابه ، وأَخصّ من جهة متعلَّقاته فيه .

والحمد أَعمّ من جهة المتعلّقات ، وأَخصّ من جهة الأَسباب .

ومعنى هذا أَنَّ الشكر يكون بالقلب خضوعًا واستكانة ، وباللسان ثناءً واعترافًا ، وبالجوارح طاعة وانقيادًا ؛ ومتعلَّقُهُ النِعَم دون الأَوصاف الذاتيّة ، فلا يقال : شكرنا الله على حياته وسمعه وبصره وعلمه ، وهو المحمود بها ، كما هو محمود على إِحسانه وعدله .

والشكر يكون على الإِحسان والنِّعَم .

فكلّ ما يتعلّق به الشكر يتعلّق به الحمد من غير عكس .

وكل ما يقع به الحمد يقع به الشكر من غير عكس ، فإِنَّ الشكر يقع بالجوارح ، والحمد باللسان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 334.340 ﴾

ومن فوائد ابن عرفة فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ .

قال ابن عطية : الترجي مصروف للمخاطب أي (عَفَوْنَا) (عنكم) لتكونوا بحيث (يترجى) المخاطب (بها) شكركم عليه .

وفسره الزمخشري على مذهبه بالإرادة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عرفة صـ 288 .289﴾

(93/51)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ " .

و" العفو " المَحْوُ ، ومنه : " عَفَا اللهُ عَنْكُمْ " أي محا ذنوبكم ، والعافية : لأنها تمحو السّقم ، وعَفَتِ الريح الأَثَر ؛ قال : [الطويل]

فَتُوضِحَ فَالمِقْراةِ لَمْ يَعْفُ رَسْمُهَا . . .

لِمَا نَسَجَتْهَا مِنْ جَنُوبٍ وَشَمْأَلِ

وقيل : عَفَا كذا أي : كَثُرَ ، ومنه " وأَعْفُوا اللِّحَى " فيكون من الأضداد .

وقال ابن عطية : " العَفْوُ تغطية الأثر ، وإذهاب الحال الأوّل من الذَّنب أو غيره ، ولا يستعمل العَفْوُ بمعنى الصَّفح إلا في الذنب " .

وهذا الذي قاله قريب من تَفْسِيْرِ الغُفْرَان ؛ لأن الغفر التغطية والسَّتر ، ومنه : المغفر ، ولكن قد فُرِّق بينهما بأن العفو يجوز أن يكون بعد العقوبة ، فيجتمع معها ، وأمّا الغُفْرَانُ فلا يكون مع عقوبة .

(94/51)

وقال الرَّاغب : " العَفْو " : القصد لتناول الشَّيء ، يقال : عَفَاه واعْتَفَاهُ أي : قصده مُتَناولاً ما عنده ، وعَفَتِ الرِيحُ التُّرابَ قصدتها متناولة آثارها ، وعَفَتِ الديار كأنها قصدت نحو البلَى وعفا النَّبْت والشَّعْرُ قصد تناول الزِّيادة ، وعفوتُ عنك كأنه قصد إزَالَةَ ذَنْبِهِ صارفاً عنه ، وأعْفَيْتُ كذا ، أي : تركته يعفو ويكثر ، ومنه " أعْفُوا اللِّحَى " فجعل القصد قدراً مشتركاً في العَفْوِ ، وهذا ينفي كونه من الأَضْدَادِ وهو كلام حسن ؛ وقال الشاعر [الطويل]

. . . . . .

إِذَا رَدَّ عَافِي الْقِدْرِ مَنْ يَسْتَعِيرُهَا

معناه : أن العَافِي هنا ما يبقى في القَدْرِ من المَرَقِ ونحوه ، فإذا أراد أحد أن يستعير القِدْرَ يُعَلِّلُ صاحبها بالعَافِي الذي فيها ، فالعَافِي فاعل ، ومن يستعيرها مَفْعُول ، وهو من الإسناد المجازي ؛ لأن الرَّاد في الحقيقة صاحب القِدْرِ بسبب العافي .

قوله : " لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ " .

" تَشْكُرُونَ " في محل رفع خبر " لعلّ " ، وقد تقدّم تفسير الشكر عند ذكر الحمد .

وقال الراغب : هو تصور النعمة وإظهارها .

وقيل : هو مقلوب عن الكَشْر أي : الكَشْف ، وهو ضدّ الكفر ، فإنه تَغْطِيَةُ النعمة وقيل : أصله من " عَيْن شَكْرَى " أي : ممتلئة ، فهو على هذا الامتلاء من ذكر المنعم عليه .

و " شَكَرَ " من الأفعال المتعدّية بنفسها تارةً ، وبحرف الجرّ أُخْرَى ، وليس أحدهما أصلاً للآخَرِ على الصحيحن فمن المتعدّي بنفسه قوله عَمْرِو بْنِ لُحَيّ : [الطويل]

هُمُ جَمَعُوا بُؤْسَى ونُعْمَى عَلَيْكُمُ . . .

فَهَلاَّ شَكَرْتَ الْقَوْمَ إِذْ لَمْ تُقَاتِلِ

ومن المتعدّي بحرف الجر قوله تعالى : ﴿ واشكروا لِي ﴾ [البقرة : 152] ، وسيأتي هناك تحقيقُهُ .

أهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 2 صـ 74 . 76 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

(95/51)

﴿ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (52) ﴾

سرعة العفو على عظيم الجُرْم تدل على حقارة قدرة المعفو عنه ، يشهد لذلك قوله تعالى : (مخاطباً أمهاتِ المسلمين) : ﴿ من يأتِ منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين ﴾ [الأحزاب : 30] هؤلاء بنو إسرائيل عبدوا العجل فقال الله تعالى : ﴿ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ ﴾ ، وقال لهذه الأمة (يقصد أمة محمد صلى الله عليه وسلم) : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة : 8] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 91 ﴾

(96/51)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (52) ﴾

الله سبحانه وتعالى يمن على بني إسرائيل مرة أخرى . . مع أنهم ارتكبوا ذنبا من ذنوب القمة . . ومع ذلك عفا الله عنهم لأنه يريد أن يستبقي عنصر الخير للناس . . يريد أن يعلم خلقه أنه رب رحيم . يفتح أبواب التوبة للواحد بعد الآخر . . لتمحو خلايا الشر في النفس البشرية . .

إن الإنسان حين يذنب ذنبا ينفلت من قضية الإيمان . . ولو لم تشرع التوبة والعفو من الله لزاد الناس في معاصيهم وغرقوا فيها . . لأنه إذا لم تكن هناك توبة وكان الذنب الواحد يؤدي إلى النار . . والعقاب سينال الإنسان فإنه يتمادى في المعصية . وهذا ما لا يريده الله سبحانه وتعالى لعباده . . وفي الحديث الشريف :

" للَّهُ أفرحُ بتوبةِ عبدِه مِن أحدِكم سَقَطَ على بعيره وقد أضلَّه في أرضٍ فلاةٍ "

معنى الحديث . . رجل معه بعير يحمل ماله وطعامه وشرابه وكل ما يملكه . هذا البعير تاه في صحراء جرداء . . بحث عنه صاحبه فلم يجده . . لقد فقده وفقد معه كل مقومات حياته . . ثم ينظر فيراه أمامه . . كيف تكون فرحته ؟ . . طبعا بلا حدود . هكذا تكون فرحة الله تعالى بتوبة عبده المؤمن بل أشد من ذلك .

إن الله تبارك وتعالى حين يفتح باب التوبة . يريد لحركة العالم أن تسير . . هب أن نفسا غفلت مرة . . أو قادتها شهوتها مرة إلى معصية . أو وسوس الشيطان لها كما حدث مع آدم وحواء . لو لم تكن هناك توبة ومغفرة . . لانقلب كل هؤلاء إلى شياطين . . بل إن أعمال الخير تأتي من الذين أسرفوا على أنفسهم . . فهؤلاء يحسنون كثيرا ويفعلون الخير كثيرا . . مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَالِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ ﴾ [هود : 114]

وقوله جل جلاله : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾ [التوبة : 103]

(97/51)

إذن فكون الله سبحانه وتعالى يتوب على بني إسرائيل مع أنهم كفروا بالقمة في عبادة العجل . . فذلك لأن الله يريد استبقاء الخير في كونه . . ولقد عبد بنو إسرائيل العجل قبل أن ينزل عليهم المنهج وهو التوراة . . ولكن هل بعد أن أنزل عليهم المنهج والتوراة تابوا وأصلحوا أو استمروا في معصيتهم وعنادهم ؟ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 336. 337 ﴾

(98/51)

قوله تعالى ﴿ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (53) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان في ذلك دليل على سوء طباعهم وعكس مزاجهم وأنهم لا يحفظون عهداً ولا يستقيمون على نهج ذكرهم بنعمة الكتاب الذي من شأنه الضبط في جميع الأحوال بالرجوع إليه عند الضلال فقال : وقال الحرالي : لما ذكر تعالى أمر موسى عليه السلام وهو خاص أمرهم فصل لهم أمر ما جاء به موسى وما كان منهم فميا جاء به – انتهى .

فقال ﴿ وإذ اتينا ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿ موسى الكتاب ﴾ أي الكامل في نفسه الجامع لكم على طريق الحق .

ولما كان الكتاب مع كونه جامعاً لما أريد منه فارقاً بين الملبسات وصفه بقوله

﴿ والفرقان ﴾ أي المبين للأشياء على ما هي عليه من غير أن يدع في شيء لبساً .

قال الحرالي : فقررهم على أمرين من الكتاب الذي فيه أحكام الأعمال والفرقان الذي فيه أمر العلم وهما مِلاك حال إقامة الدين بالعلم والعمل ؛ والفرقان ، فُعلان لفظ مبالغة يفهم استغراقاً وامتلاء وعظماً فيما استعمل فيه وهو في هذا اللفظ من الفرق وهو إظهار ما ألبسته الحكمة الظاهرة للأعين بالتبيان لفرقان لبسه بما تسمعه الأذن ، وجاء فيه بكلمة لعل

، إشعاراً بالإبهام في أمرهم وتفرقتهم بين مثبت لحكم الكتاب عامل به عالم بطية الفرقان خبير به وبين تارك لحكم الكتاب غافل عن علم الفرقان – انتهى .

فقال تعالى ﴿ لعلكم تهتدون ﴾ أي ليكون حالكم حال من ترجى هدايته فيغلب حلمه جهله وعقله شهوته ، ولهذا الختم تلاه بما هداهم به بما ألزمهم من النقمة الزاجرة عن مثل ذلك من قتل الأنفس فقال : ﴿ وإذ ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 133 ﴿ 134.

فصل

قال الفخر :

اعلم أن هذا هو الإنعام الرابع والمراد من الفرقان يحتمل أن يكون هو التوراة وأن يكون شيئاً داخلاً في التوراة وأن يكون شيئاً خارجاً عن التوراة فهذه أقسام ثلاثة لا مزيد عليها وتقرير الاحتمال الأول أن التوراة لها صفتان كونها كتاباً منزلاً وكونها فرقاناً تفرق بين الحق والباطل فهو كقولك : رأيت الغيث والليث تريد الرجل الجامع بين الجود والجراءة ونظيره قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءاتَيْنَا موسى وهارون الفرقان وَضِيَاء وَذِكْراً ﴾ [الأنبياء : 48] وأما تقرير الاحتمال الثاني فهو أن يكون المراد من الفرقان ما في التوراة من بيان الدين لأنه إذا أبان ظهر الحق متميزاً من الباطل ، فالمراد من الفرقان بعض ما في التوراة وهو بيان أصول الدين وفروعه .

وأما تقرير الاحتمال الثالث فمن وجوه ، أحدها : أن يكون المراد من الفرقان ما أوتي موسى عليه السلام من اليد والعصا وسائر الآيات وسميت بالفرقان لأنها فرقت بين الحق والباطل .

وثانيها : أن يكون المراد من الفرقان النصر والفرج الذي آتاه الله بني إسرائيل على قوم فرعون ، قال تعالى : ﴿ وَمَا أَنزَلْنَا على عَبْدِنَا يَوْمَ الفرقان يَوْمَ التقى الجمعان ﴾ [الأنفال : 41] والمراد النصر الذي آتاه الله يوم بدر ، وذلك لأن قبل ظهور النصر يتوقع كل واحد من الخصمين في أن يكون هو المستولي وصاحبه هو المقهور ، فإذا ظهر النصر تميز الراجح من المرجوح وانفرق الطمع الصادق من الطمع الكاذب ، وثالثها : قال قطرب الفرقان هو انفراق البحر لموسى عليه السلام .

فإن قلت : فهذا قد صار مذكوراً في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا فَرَقْنَا بِكُمُ البحر ﴾ [البقرة : 50] وأيضاً فقوله تعالى بعد ذلك : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ لا يليق إلا بالكتاب لأن ذلك لا يذكر إلا عقيب الهدى .

قلت : الجواب عن الأول أنه تعالى لم يبين في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ البحر ﴾ أن ذلك

كان لأجل موسى عليه السلام ، وفي هذه الآية بين ذلك التخصيص على سبيل التنصيص ، وعن الثاني أن فرق البحر كان من الدلائل فلعل المراد أنا لما آتينا موسى فرقان البحر استدلوا بذلك على وجود الصانع ، وصدق موسى عليه السلام وذلك هو الهداية وأيضاً فالهدى قد يراد به الفوز والنجاة كما يراد به الدلالة ، فكأنه تعالى بين أنه آتاهم الكتاب نعمة في الدين والفرقان الذي حصل به خلاصهم من الخصم نعمة عاجلة .

واعلم أن من الناس من غلط فظن أن الفرقان هو القرآن ، وأنه أنزل على موسى عليه السلام وذلك باطل لأن الفرقان هو الذي يفرق بين الحق والباطل وكل دليل كذلك فلا وجه لتخصيص هذا اللفظ بالقرآن .

وقال آخرون : المعنى : ﴿ وَإِذْ ءاتَيْنَا مُوسَى الكتاب ﴾ يعني التوراة وآتينا محمداً صلى الله عليه وسلم الفرقان لكي تهتدوا به يا أهل الكتاب .

وقد مال إلى هذا القول من علماء النحو الفراء وثعلب وقطرب وهذا تعسف شديد من غير حاجة ألبتة إليه .

(100/51)

وأما قوله تعالى : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ فقد تقدم تفسير لعل وتفسير الاهتداء ، واستدلت المعتزلة بقوله : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ على أن الله تعالى أراد الاهتداء من الكل وذلك يبطل قول من قال : أراد الكفر من الكافر ، وأيضاً فإذا كان عندهم أنه تعالى : يخلق الاهتداء ، فيمن يهتدي والضلال فيمن يضل ، فما الفائدة في أن ينزل الكتاب والفرقان ويقول : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ ومعلوم أن الاهتداء إذا كان يخلقه ، فلا تأثير لإنزال الكتب فيه لو خلق الاهتداء ولا كتاب لحصل الاهتداء ، ولو أنزل بدلاً من الكتاب الواحد ألف كتاب ولم يخلق الاهتداء فيهم لما حصل الاهتداء ، فكيف يجوز أن يقول أنزلت الكتاب لكي تهتدوا ؟ واعلم أن هذا الكلام قد تقدم مراراً لا تحصى مع الجواب . والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 72 . 73 ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (53) ﴾

هذا تذكير بنعمة نزول الشريعة التي بها صلاح أمورهم وانتظام حياتهم وتأليف جماعتهم مع الإشارة إلى تمام النعمة وهم يعدونها شعار مجدهم وشرفهم لسعة الشريعة المنزلة لهم حتى كانت كتاباً فكانوا به أهل كتاب أي أهل علم تشريع .

والمراد من (الكتاب) التوراة التي أوتيها موسى فالتعريف للعهد ، ويعتبر معها ما ألحق بها على نحو ما قدمناه في قوله تعالى : ﴿ ذلك الكتاب ﴾ [البقرة : 2] .

والفرقان مصدر بوزن فعلان مشتق من الفرق وهو الفصل استعير لتمييز الحق من الباطل فهو وصف لغوي للتفرقة فقد يطلق على كتاب الشريعة وعلى المعجزة وعلى نصر الحق على الباطل وعلى الحجة القائمة على الحق وعلى ذلك جاءت آيات ﴿ تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ﴾ [الفرقان : 1] ﴿ ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان ﴾ [الأنبياء : 48] فلعله أراد المعجزات لأن هارون لم يؤت وحياً وقال : ﴿ يوم الفرقان يوم التقى الجمعان ﴾ [الأنفال : 41] يعني يوم النصر يوم بدر وقال : ﴿ وأنزل الفرقان ﴾ [آل عمران : 4] عطفاً على ﴿ نزل عليك الكتاب بالحق وأنزل التوراة والإنجيل ﴾ [آل عمران : 3] الآية .

والظاهر أن المراد به هنا المعجزة أو الحجة لئلا يلزم عطف الصفة على موصوفها إن أريد بالفرقان الكتاب الفارق بين الحق والباطل والصفة لا يجوز أن تتبع موصوفها بالعطف ومن نظر ذلك بقول الشاعر :

إلى الملك القرم وابن الهمام . . .

وليث الكتيبة في المزدحم

فقد سها لأن ذلك من عطف بعض الصفات على بعض لا من عطف الصفة على الموصوف كما نبه عليه أبو حيان .

وقوله : ﴿ لعلكم تهتدون ﴾ هو محل المنة لأن إتيان الشريعة لو لم يكن لاهتدائهم وكان قاصراً على عمل موسى به لم يكن فيه نعمة عليهم .

والقول في ﴿ لعلكم تهتدون ﴾ كالقول في ﴿ لعلكم تشكرون ﴾ [البقرة : 52] السابق .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 1 صـ 485.486 ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

" الكتاب " و" الفُرْقان " مفعول ثان لـ " آتَيْنَا " .

وهل المراد بالكتاب والفرقان شيء واحد ، وهو التوراة ؟

كأنه قيل : الجامع بين كونه كتاباً مُنَزَّلاً ، وفرقاناً يفرِّق بَيْن الْحَقِّ والْبَاطل ، نحو : رَأَيْتُ الغَيْثَ واللَّيْثَ ، وهو مِنْ باب قوله : [المتقارب]

إِلَى الْمَلِكِ الْقَرْمِ وَابْنِ الهُمَامِ . . . . . .

أو لأنهم لَمَّا اختلف اللفظ ، جاز ذلك ؛ كقوله : [الوافر]

فَقَدَّمَتِ الأَدِيمَ لِرَاهِشَيْه . . .

وَأَلْقَى قَوْلَهَا كَذِباً وَمَيْنَا

وقوله : [الطويل]

. . . . . .

وَهِنْدٌ أَتَى مِنْ دُونِهَا النَّأْيُ وَالْبُعْدُ

وقوله عنترة : [الكامل]

. . . . . .

أَقْوَى وَأَقْفَرَ بَعْدَ أُمِّ الْهَيْثَمِ

قال النحاس : " هذا إنما يجوز في الشّعر ، فالأحسن أن يراد بالفُرْقَانِ ما علَّمه الله موسَى من الفَرْقِ بين الحقّ والباطل " .

وقيل : " الواو زائدة " ، و" الفرقان " نعت للكتاب أو " الكتابُ " التوراةُ ، و" الفرقان " ما فرِّق به بين الكُفْرِ والإيمان ، كالآيات من نحو : العَصَا واليَدِ أو ما فرّق به بين الحلال والحرام من الشرائع .

و" الفُرْقَان " في الأَصل مصدر مثل الغُفْرَان .

وقد تقدّم معناه في ﴿ فَرَقْنَا بِكُمُ البحر ﴾ [البقرة : 50] .

وقيل : " الفُرقَانُ " هنا اسم للقرآن ، قالوا : والتقدير : ولقد آتينا موسى الكتاب ، ومحمّداً

الفرقان.

قال النحاس: هذا خطأ في الإعراب والمعنى، أمّا الإعراب فلأن المعطوف على الشيء مثله، وهذا يخالفه، وأمّا المعنى فلقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا موسى وَهَارُونَ الفرقان﴾ [الأنبياء: 48].

وقال قُطْرب وزيد: "الفُرْقَانُ انْفِرَاقُ البَحْرِ له".

فإن قلت: هذا مذكور في قوله: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ البحر﴾ [البقرة: 50] وأيضاً قوله بعد ذلك: "لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ" لا يليق إلاّ بالكتاب؛ لأن ذلك لا يذكر إلا عقيب الهدى، فالجواب عن الأولى أنه تعالى لم يبين في قوله: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ البحر﴾ أن ذلك كان لأجل موسى عليه السلام، وفي هذه الآية بَيّن ذلك بالتنصيص.

(103/51)

وعن الثاني: أن فَرْقَ البحر كان من الدّلائل فلعلّ المُرَاد: آتينا موسى الكتاب ليستدلُّوا بذلك على وجود الصانع، وصدق موسى عليه السَّلام، وذلك هو الهِدَايَةُ، وأيضاً فالهدى قد يُرَادُ به الفَوْزُ والنَّجَاة ولم يُرَدْ به الدلالة، فكأنه تعالى بيّن أنه أتاهم الكتاب نعمةً من الدين والفرقان الذي جعل به نجاتهم من الخَصْمِ نعمةً عاجلةً.

وقيل : الفرقان : الفَرَجُ من الكَرْب ؛ لأنهم كانوا مستعبدين مع القبط ، ﴿ إِن تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً ﴾ [الأنفال : 29] أي : فَرَجاً ومَخْرَجاً وقيل : الحجّة والبَيَان ، قاله ابن بحر .

وقيل : الفُرْقَان الفَرْقُ بينهم وبين قوم فرعون ، أنجى هؤلاء ، وغرق أولئك ، ونظيره يوم الفُرْقَان ، فقيل يعني به يوم بدر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 2 صـ 76 . 78 ﴾ .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (53) ﴾

فرقان هذه الأمة الذي اخْتَصَّوا به نورٌ في قلوبهم ، به يُفَرِّقون بين الحق والباطل ، قال النبي صلى الله عليه وسلم لوابصة : " استفتِ قلبك " .

وقال : " اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله " .

وقال الله تعالى : ﴿ إِن تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً ﴾ [الأنفال : 29] وذلك الفرقان ميراث ما قدَّموه من الإِحسان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 91 ﴾

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (53) ﴾

الحق سبحانه وتعالى يذكر بني إسرائيل هنا . . أنه بعد أن أراهم من المعجزات الكثير . ونجاهم من آل فرعون وشق لهم البحر - كان لابد أن يؤمنوا إيمانا حقيقيا لا يشوبه أي نوع من التردد . . ذلك لأنهم رأوا وشهدوا . . وكانت شهادتهم عين يقين . أي شهدوا بأعينهم ماذا حدث . .

ولكن هل استطاعت هذه المشاهدة أن تمحو من قلوبهم النفاق والكفر ؟ . . لا . . لقد ظلوا معاندين طوال تاريخهم . لم يأخذوا أي شيء بسهولة . .

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يحذر أمته من أن يكونوا كبني إسرائيل ويكونوا قوما شددوا فشدد الله عليهم . . وكان ذلك بالنسبة لقصة البقرة . . التي أمروا أن يذبحوها ليعرفوا من القاتل في جريمة قتل كادت تثير حروبا بينهم . . فأخذوا يسألون ما هي وما لونها إلى آخر ما سنتحدث عنه . . عندما نأتي إلى الآيات الكريمة الخاصة بهذه الواقعة . فلو ذبحوا أي بقرة لكفتهم . . لأنه يكفي أن يقول لهم الله سبحانه وتعالى إذبحوا بقرة فيذبحوا أي بقرة . وعدم التحديد يكون أسهل عليهم . . ولكنهم سألوا وظلوا يسألون فشدد عليهم . . بتحديد بقرة معينة بذاتها . . ولذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم " ذَرُوني ما

تَرَكْتُكُمْ فإنما هلكَ من قبلكم بكثرة سؤالِهِمْ واختلافِهِمْ على أنبيائِهم فإذا أمرتُكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم وإذا نَهَيْتُكُم عن شيء فدعُوه" .

(105/51)

والله سبحانه وتعالى في قوله : ﴿ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ ﴾ . كأن إتيان موسى الكتاب والفرقان . . نعمة يجب أن يذكرها قومه . . وأن يستقبلوا منهج الله على أنه نعمة . . فلا يأخذ الإنسان التكليف الإلهي من زاوية ما يقيد حركته ولا ما يعطيه له . . ذلك أن الله حين حرم عليك السرقة . . حرم على الناس جميعا أن يسرقوك . . فإذا أخذ منك حريتك أن تسرق . . فقد أخذ من الناس كل الناس حريتهم أن يسرقوا مالك . . وهذه حماية كبيرة لك .

ما هو الكتاب . . وما هو الفرقان ؟ . . الكتاب هو التوراة . . هو الذي يبين المنهج . . والفرقان هو الأشياء التي يفرق الله فيها بين الحق والباطل . . فكأن الفرقان تطلق مرة على التوراة . . لأنها تفرق بين الحق والباطل . وتطلق أيضا على كل ما يفرق بين الحق والباطل . . ولذلك سمي يوم بدر يوم الفرقان . . لأنه فرق بين الحق والباطل . . فكأن منهج

الله وكتابه يبين لنا أين الحق وأين الباطل ويفرق بينهما . انتهى انتهى . ا هـ ﴾ تفسير الشعراوى صـ 338. 339 ﴿

(106/51)

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آَلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (49) وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آَلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (50) وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (51) ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (52) وَإِذْ آَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (53) ﴾

التفسير : إنه سبحانه لما قدّم ذكر النعمة على بني إسرائيل إجمالاً أخذ في تفصيلها واحدة فواحدة ليكون أبلغ في التذكير وأعظم في الحجة كأنه قال : اذكروا نعمتي ، واذكروا إذ نجيناكم ، وإذ فرقنا ، وإذ كان كذا وكذا . " وإذ " في جميع هذه القصص بمعنى مجرد الوقت مفعول به لـ " اذكروا "

وأصل الإنجاء والتنجية التخليص ، ومنه النجوة للمكان العالي لأن من صار إليه نجا أي تخلص من أن يعلوه سيل ، أو لأن الموضع تخلص مما انحط عنه . وأصل آل أهل بدليل أهيل وأهال في تحقيره وتكسيره على الأعرف ، فأبدلت إلى " أءل " على خلاف القياس ، ثم إلى " آل " وجوباً فالألف فيه بدل عن همزة بدل عن هاء . ولا يستعمل الآل إلا فيمن له خطر . يقال " آل النبي " " وآل الملك " ولا يقال : آل الحائك . وإنما يقال أهله ، وهكذا لا يقال : آل البلد وآل العلم ، وإنما يقال أهلهما . وعند الكسائي ، أصله أول بدليل تصغيره على أويل ، كأنهم يؤلون إلى أصل قلبت الواو ألفاً على القياس . و ﴿ فرعون ﴾ علم لمن ملك العمالقة أولاد عمليق ابن لاوذ بن أرم بن سام بن نوح كقيصر لملك الروم ، وكسرى لملك الفرس ، وخاقان للترك ، وتبع لليمن . واختلف في اسمه . فابن جريج : أن اسمه مصعب بن ريان . وابن إسحق : أنه الوليد بن مصعب . ولم يكن من الفراعنة أغلظ وأقسى قلباً منه . وعن وهب بن منبه : أن أهل الكتابين قالوا : إن اسمه قابوس وكان من القبط . وقيل : إن فرعون يوسف هو فرعون موسى . وضعف إذ كان بين دخول يوسف مصر وبين دخول موسى أكثر من أربعمائة سنة . وقال محمد بن إسحق : هو غير فرعون يوسف وإن اسم فرعون

يوسف الريان بن الوليد . والمراد بآل فرعون أتباعه وأعوانه الذين عزموا على إهلاك بني إسرائيل بأمره .

ولعتوّ الفراعنة اشتقوا " تفرعن " فلان إذا عتا وتجبر . و ﴿ يسومونكم ﴾ من سامه خسفاً إذا أولاه ظلماً . قال عمرو بن كلثوم :

(108/51)

إذا ما الملك سام الناس خسفاً . . . أبينا أن نقر الخسف فينا

وأصله من سام السلعة إذا طلبها كأنه بمعنى يبغونكم سوء العذاب ويريدونكم عليه .

والسوء مصدر السيء يقال : أعوذ بالله من سوء الخلق وسوء الفجور يراد قبحهما .

ومعنى سوء العذاب والعذاب كله سيئ أشده وأفظعه ، كأنه قبحه بالإضافة إلى سائره ، أو المراد عذاب من غير استحقاق ، لأن العذاب بالاستحقاق حسن واختلف في سوء العذاب فابن إسحق : إنه جعلهم خدماً وخولاً وصنفهم في أعماله ، فمن بان وحارث وزارع ومن لم يكن ذا عمل وضع عليه جزية يؤديها . السدي : كان يجعلهم في الأعمال القذرة ككنس الكنيف ونحوه ، ولا ريب أن كون الإنسان تحت تصرف الغير كيف شاء لا سيما إذا استعمله في الأعمال الشاقة القذرة من غير أن يأخذه بهم رأفة وإشفاق ، من

أشدّ العذاب ، حتى إن من هذه حاله ربما يتمنى الموت . سئل حكيم : أي شيء أصعب من الموت ؟ فقال : ما يتمنى فيه الموت . فبين تعالى عظيم نعمته عليهم بأن نجاهم من ذلك ، ثم أتبع نعمة أخرى فقال ﴿ يذبحون أبناءكم ﴾ ومعناه هم يقتلون الذكور من أولادكم دون الإناث . والذي دعاهم إلى ذلك أمور منها : أن ذبح الأبناء يقتضي إفناء الرجال وانقطاع النسل بالآخرة . ومنها أن هلاك الرجال يقتضي فساد معيشة النساء حتى يتمنين الموت من النكد والضر . ومنها أن قتل الولد عقيب الحمل والكد والرجاء القوي في الانتفاع بالمولود من أعظم العذاب . ومنها أن الأبناء أحب وأرغب من البنات ولهذا قيل :

سروران ما لهما ثالث . . . حياة البنين وموت البنات

(109/51)

لقول النبي صلى الله عليه وسلم " دفن البنات من المكرمات " ومنها أن بقاء النسوان بدون الذكران يوجب صيرورتهن مستفرشات للأعداء ، وذلك نهاية الذل والهوان . قال بعضهم : المراد بالأبناء الرجال ليطابق النساء ، إذ النساء اسم للبالغات وهو جمع المرأة من غير لفظها . قالوا : وإنما كان يأمر بقتل الرجال الذين يخاف منهم الخروج عليه والتجمع لإفساد أمره . والأكثرون على أن المراد بالأبناء الأطفال لظاهر اللفظ ، ولأنه كان يتعذر

قتل جميع الرجال على كثرتهم ، ولأنهم كانوا محتاجين إليهم في الأعمال الشاقة ، ولأنه لو كان كذلك لم يكن لإلقاء موسى في اليم معنى . وإنما لم يقل البنات في مقابلة الأبناء لأنهن لما لم يقتلن كن بصدد أن يبلغن ، فحسن إطلاق اسم النساء عليهن مثل ﴿ إني أراني أعصر خمراً ﴾ [يوسف : 36] عن ابن عباس : أنه وقع إلى فرعون وطبقته ما كان الله وعد إبراهيم أن يجعل في ذريته أنبياء وملوكاً ، فخافوا ذلك واتفقت كلمتهم على أعداد رجال معهم الشفار يطوفون في بني إسرائيل فلا يجدون مولوداً ذكراً إلا ذبحوه ، فلما رأوا أن كبارهم يموتون ، والصغار يذبحون ، خافوا فناءهم وأن لا يجدوا من يباشر الأعمال الشاقة ، فصاروا يقتلون عاماً دون عام .

(110/51)

وعن السدي : أن فرعون رأى ناراً أقبلت من بيت المقدس حتى استولت على بيوت مصر وأحرقت القبط وتركت بني إسرائيل ، فدعا فرعون الكهنة وسألهم عن ذلك فقالوا : يخرج من بيت المقدس من يكون هلاك القبط على يده . وقيل : إن المنجمين أخبروا فرعون بذلك وعينوا له السنة ، فلهذا كان يقتل أبناءهم من تلك السنة . قيل : والأقرب هو الأول ، لأن المستفاد من علم النجوم والتعبير لا يكون أمراً مفصلاً ، وإلا قدح ذلك في كون الإخبار

عن الغيب معجزاً ، بل يكون أمراً جميلاً ، والظاهر من حال العاقل أن لا يقدم على هذا الأمر العظيم بسببه (قلت) كون فرعون عاقلاً ممنوع ، فإن من شك في أجلى البديهيات وهو أنه ممكن الوجود ، فعدّه من العقلاء لا يكون من العقل . ثم قال ذلك القائل : لعل فرعون كان عارفاً بالله وبصدق الأنبياء إلا أنه كان كافراً كفر الجحود والعناد ، أو يقال إنه كان شاكاً متحيراً في دينه وكان يجوّز صدق إبراهيم عليه السلام ، وأقدم على ذلك الفعل احتياطاً . (قلت) : إذا أخبر الله تعالى عنه بأنه قال ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ [النازعات : 24] و ﴿ ما علمت لكم من إله غيري ﴾ [القصص : 38] فلا ضرورة بنا إلى تجويز كونه عارفاً بالله وبصدق الأنبياء وجعل كفره كفر جحود ﴿ ومن أصدق من الله قيلا ﴾ [النساء : 122] ﴿ ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ﴾ [النور : 40] فإن قلت : لم ذكر ﴿ يذبحون ﴾ ههنا بلا " واو " ، وفي سورة إبراهيم بواو ؟ فالوجه فيه أنه إذا جعل ﴿ يسومونكم سوء العذاب ﴾ مفسراً بقوله ﴿ يذبحون ﴾ فلا حاجة إلى الواو ، وإذا جعل ﴿ يسومونكم ﴾ مفسراً بسائر التكاليف الشاقة سوى الذبح ، وجعل الذبح شيئاً آخر احتيج إلى الواو . وإنما جاء ههنا ﴿ يذبحون ﴾ وفي الأعراف ﴿ يقتلون ﴾ بغير واو لأنهما من كلام الله فلم يرد تعداد المحن عليهم . والذي في إبراهيم من كلام موسى فعدّ المحن عليهم وكان مأموراً بذلك في قوله ﴿ وذكرهم بأيام الله ﴾

[إبراهيم : 5] وقال بعضهم : إن معنى يستحيون يفتشون حياء المرأة أي فرجها ، هل بها حمل أم لا ؟ وفيه تعسف . والبلاء المحنة إن أشير بذلك إلى صنيع فرعون ، والنعمة إن أشير به إلى الإنجاء ، والحمل على النعمة أولى لأنها هي التي يحسن إضافتها إلى الرب تعالى ، ولأن موضع الحجة على اليهود إنعام الله تعالى على أسلافهم حيث عاينوا إهلاك من حاول إهلاكهم وإذلال من بالغ في إذلالهم . وههنا نكتة ، وهي أنهم كانوا في نهاية الذل ، وخصمهم في غاية الاستيلاء والغلبة ، إلا أنهم كانوا محقين وخصومهم مبطلين ، فانقلب المحق غالباً والمبطل مغلوباً ، فكأنه قيل : لا تغتروا بفقر محمد صلى الله عليه وسلم وقلة أنصاره في الحال ، فإنه سينقلب العز إلى جانبه صلى الله عليه وسلم ، والذل إلى جانب أعدائه .

وفيه تنبيه على أن الملك بيد الله يؤتيه من يشاء ، فليس للإنسان أن يغتر بعز الدنيا وينسى أمر الآخرة . قال أهل الإشارة : النفس الأمارة وصفاتها الذميمة وأخلاقها الرديئة تسوم الروح الشريف ذبح أبناء الصفات الروحانية الحميدة واستحياء بعض الصفات القلبية لاستخدامهن في الأعمال القذرة الحيوانية ولا ينجيه من ذلك إلا الله تعالى .

قوله ﴿ وإذ فرقنا ﴾ نعمة أخرى في نعمة أي فصلنا بين بعضه وبعض حتى صارت فيه سالك لكم على عدد الأسباط وكانوا اثني عشر . ومعنى بكم أنهم كانوا يسلكونه ويتفرق الماء كما يفرق بين الشيئين بما يوسط بينهما ، أو يراد فرقناه بسبب إنجائكم ، أو يكون حالاً أي ملتبساً بكم . روي أنه تعالى لما أراد غرق فرعون والقبط وبلغ بهم الحال في معلوم الله تعالى أنه لا يؤمن أحد منهم ، أمر موسى بني إسرائيل أن يستعيروا حلي القبط ، إما ليخرجوا خلفهم لأجل المال ، وإما لتبقى أموالهم في أيديهم . ثم نزل جبريل وقال : أخرج ليلاً كما قال تعالى ﴿ وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي ﴾ [الشعراء : 52] وكانوا ستمائة ألف ، وكل سبط خمسون ألفاً . فلما خرجوا وبلغ الخبر فرعون قال : لا تتبعوهم حتى يصيح الديك . قال الراوي : فوالله ما صاح الليلة ديك . فلما أصبحوا دعا فرعون بشاة فذبحت ثم قال : لا أفرغ من تناول كبد هذه الشاة حتى يجتمع إليّ ستمائة ألف من القبط . قال قتادة : فاجتمع إليه ألف ألف ومائتا ألف ، كل واحدٍ منهم على فرس حصان فتبعوهم نهاراً وهو قوله ﴿ فاتبعوهم مشرقين ﴾ [الشعراء : 60] أي بعد طلوع الشمس . فلما سار بهم موسى إلى البحر قال له يوشع : أين أمرك ربك ؟ فقال له موسى : إلى أمامك . وأشار إلى البحر – فأقحم يوشع فرسه في البحر وكان يمشي في الماء حتى بلغ الغمر ، فسبح الفرس وهو عليه ، ثم رجع وقال له يا موسى : أين أمرك ربك ؟ فقال : البحر

. فقال : والله ما كذبت وما كذب . ففعل ذلك ثلاث مرات فأوحى الله تعالى إليه أن اضرب بعصاك البحر ، فانشق البحر اثني عشر طريقاً . فقال له : ادخل ، وكان فيه وحل فهب الصبا نحو البحر حتى صار طريقاً يبساً ، فاتخذ كل سبط منهم طريقاً ودخلوا فيه ، فقالوا لنبيهم : أين أصحابنا لا نراهم ؟ فقال موسى : سيروا فإنهم على طريق مثل طريقكم . قالوا : لا نرضى حتى نراهم . فقال : اللهم أعني على أخلاقهم السيئة . فأوحى

(113/51)

إليه أن قل بعصاك هكذا ، فقال بها على حيطان المياه فصارت فيها كوى فتراءوا وتسامعوا كلامهم . ثم اتبعهم فرعون فلما بلغ شاطئ البحر رأى إبليس واقفاً فنهاه عن الدخول فهمّ بأن لا يدخل البحر ، فجاء جبريل على مهرة فتقدم وهو كان على فحل ، فتبعه فرس فرعون ودخل البحر ، فصاح ميكائيل بهم ألحقوا آخركم بأوّلكم ، فلما دخلوا البحر بالكلية أمر الله تعالى الماء حتى نزل عليهم فذلك قوله تعالى ﴿ وأغرقنا آل فرعون ﴾ قيل : ذلك اليوم كان يوم عاشوراء ، فصام موسى عليه السلام ذلك اليوم شكراً لله تعالى ، ومعنى قوله ﴿ وأنتم تنظرون ﴾ أنكم ترون التطام أمواج البحر بفرعون وقومه .

وقيل : إن قوم موسى سألوا أن يريهم الله تعالى حالهم ، فسأل موسى ربه فلفظهم البحر ألف

ألف ومائة ألف نفس فنظروا إليهم طافين . وقيل : المراد وأنتم بالقرب منهم . قال الفراء : وهو مثل قولك " لقد ضربتك وأهلك ينظرون إليك فما أغاثوك " تقول ذلك إذا قرب أهله منه وإن كانوا لا يرونه ومعناه راجع إلى العلم . قال أهل الإشارة : البحر هو الدنيا ، وماؤه شهواتها ولذاتها ، وموسى القلب ، وقومه صفات القلب ، وفرعون النفس الأمارة ، وقومه صفات النفس ، والعصا عصا الذكر ، فينفلق بحر الدنيا بتفليق لا إله إلا الله ، وينشبك ماء شهواته يميناً وشمالاً ، ويرسل الله تعالى ريح العناية وشمس الهداية على قعر بحر الدنيا فيصير يابساً من ماء الشهوات ، فيخوض موسى القلب وصفاته فيعبرونه وتنجيهم عناية الله إلى ساحل ﴿ وإن إلى ربك المنتهى ﴾ [النجم : 42] ويغرق فرعون النفس وقومه والله تعالى أعلم . ولما دخل بنو إسرائيل مصر بعد هلاك فرعون ولم يكن لهم كتاب ينتهون إليه ، وعد الله موسى .

(114/51)

ونسبه : موسى بن عمران بن يصهر بن قاهث بن لاوي بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم عليه السلام . أن ينزل عليه التوراة وضرب له ميقاتاً ذا القعدة وعشر ذي الحجة ، وإنما قيل أربعين ليلة لأن الشهور غررها بالليالي . وقال أهل التحقيق : لأن الليلة وقت العبادة

والخلوة فخصت بالذكر لشرفها . ولعدد الأربعين خاصية لن ينكرها أهل الذوق ، ولهذا جاء في الحديث " من أخلص لله أربعين صباحاً ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه " والجنين يتقلب في الأطوار في الأربعينات ، قال أبو العالية : وبلغنا أنه لم يحدث حدثاً في الأربعين ليلة حتى هبط من الطور . ولا بد من تقدير مضاف أي انقضاء أربعين كقولك " اليوم أربعون يوماً منذ خرج فلان " أي تمام الأربعين . ومن قرأ ﴿ واعدنا ﴾ من المواعدة فمعناه أن الله تعالى وعده الوحي ووعد هو المجيء للميقات إلى الطور . وذكر الأربعين ههنا مجمل وتفصيله في الأعراف كقوله : ﴿ ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة ﴾ [البقرة : 196] فصل أولاً ثم أجمل . ومعنى " ثم " في قوله ﴿ ثم اتخذتم ﴾ استبعاد مضمون ما بعدها عن مضمون ما قبلها وعدم مناسبته له ، لأنه تعالى لما وعد موسى حضور الميقات لإنزال التوراة عليه بحضرة السبعين تنبيهاً للحاضرين وتعريفاً للغائبين وإظهاراً لدرجة موسى وسائر بني إسرائيل ، وأتوا عقيب ذلك بأشنع أنواع الجهل والكفر ، كان ذلك في محل التبعيد والتعجيب كما تقول : إنني أحسنت إليك وفعلت كذا وكذا ثم إنك تقصدني بالسوء والإيذاء .

(115/51)

والاتخاذ افتعال من الأخذ إلا أنه أدغم بعد تليين الهمزة وإبدال التاء ، ثم لما كثر استعماله على لفظ الافتعال توهموا أن التاء أصلية فبنوا منه " فعل " " يفعل " وقالوا : يخذ يتخذ ، وقد أجرى اتخذ مجرى الأفعال القلبية في الدخول على المبتدأ والخبر نحو " جعل " و " صير " والتقدير : اتخذتم العجل إلهاً إلا أنه حذف الثاني للعلم به ولذكره في مواضع أخر منها في طه ﴿ فقالوا هذا الهكم وإله موسى ﴾ [طه : 88] وقوله من بعده من بعد مضيه إلى الطور . قال أهل السير : لما ذهب موسى إلى الطور وكان قد بقي مع بني إسرائيل الثياب والحلي التي استعاروها من القبط ، قال لهم هارون : إن هذه الثياب والحلي لا تحل لكم فأحرقوها ، فجمعوا ناراً وأحرقوها . وكان السامري في مسيره مع موسى عليه السلام في البحر نظر إلى حافر دابة جبريل حين تقدّم في البحر ، فقبض قبضة من تراب حافر تلك الدابة . ثم إن السامري أخذ ما كان معه من الذهب وصوّر منه عجلاً وألقى فيه ذلك التراب فخرج منه صوت كأنه الخوار ﴿ فقالوا هذا الهكم وإله موسى ﴾ [طه : 88] فاتخذه إلهاً لأنفسهم ، ولهذا وصفهم الله تعالى بالظلم في قوله ﴿ وأنتم ظالمون ﴾ كما قال ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ [لقمان : 13] وذلك أن الظلم وضع الشيء في غير موضعه ، والمشرك وضع أخس الأشياء مكان أشرف الموجودات . والواو في ﴿ وأنتم ﴾ إما للحال وإما للاعتراض أي وأنتم قوم من عادتكم الظلم ، وقال أهل التحقيق : إن لكل قوم عجلاً يعبدونه . قال صلى الله عليه وسلم " تعس عبد الدرهم تعس عبد الدينار تعس

عبد الخميصة " وقال " ما عبد إله أبغض إلى الله من الهوى " وفيه تقريع لليهود الذين جادلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وعادوه كأنه قال : هؤلاء إنما يفتخرون بأسلافهم ، ثم إن أسلافهم كانوا في البلادة والجهالة والعناد إلى هذا الحد ، فكيف بهؤلاء الأخلاف ؟ وتسلية للنبي صلى الله عليه وسلم مما كان يشاهد من مشركي العرب

(116/51)

واليهود والنصارى من الخلاف والمشاقة ﴿ فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ﴾ [الأحقاف : 35] وتحذير للعقلاء من الجهل والتقليد إلى هذه الغاية . ما أفظع شأن الجهلة المقلدة ، رضوا بأن يكون العجل إلهاً ، وما رضوا بأن يكون البشر نبياً وقد تمحل بعضهم لتصحيح واقعة عبدة العجل حيث استبعد وقوعها منهم مع أنهم شاهدوا تلك المعجزات الباهرة التي تكاد تكون قريبة من حد الإلجاء في الدلالة على الصانع وصدق النبي صلى الله عليه وسلم .

إن السامري ألقى إلى القوم أن موسى صلى الله عليه وسلم إنما قدر على ما أتى به لأنه كان يتخذ طلسمات على قوى فلكية فقال للقوم : أنا أتخذ لكم طلسماً مثل طلسمه ، وروّج عليهم ذلك بأن جعله بحيث خرج منه صوت عجيب ، وأطمعهم في صيرورتهم مثل

موسى في إتيان الخوارق ، أو لعل القوم كانوا مجسمة وحلولية فجوزوا حلول الإله في الأجسام فوقعوا في تلك الشبهة الركيكة ، وههنا يظهر التفاوت بين أمة موسى وأمة محمد صلى الله عليه وسلم فإنهم بعد مشاهدة الآيات العظام القريبة من الأفهام عبدوا الأصنام بل الأنعام ، وأمة محمد صلى الله عليه وسلم مع أن معجزتهم القرآن الذي لا يعرف إعجازه إلا بالنظر الدقيق والبحث العميق لم يخالفوا نبيهم طرفة عين ﴿ رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ﴾ [الأحزاب : 23] ﴿ رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ﴾ [النور : 37] لا يزيغون عن سواء السبيل ولا يميلون إلى معتقدات أهل الأباطيل ﴿ مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل ﴾ [الفتح : 29] .

(117/51)

قوله : ﴿ ثم عفونا عنكم ﴾ أي حين تبتم بأن قتلتم أنفسكم ﴿ من بعد ذلك ﴾ الأمر العظيم الذي ارتكبتموه من اتخاذ العجل ﴿ لعلكم تشكرون ﴾ نعمة العفو . ومعنى الترجي في كلام الله تعالى قد مر في قوله ﴿ لعلكم تتقون ﴾ الكتاب والفرقان يعني الجامع بين كونه كتاباً منزلاً وفرقاناً يفرق بين الحق والباطل يعني التوراة نحو : رأيت الغيث والليث ، يريد الرجل الجامع بين الجود والجراءة . أو التوراة والبرهان الفارق بين الكفر والإيمان العصا

واليد وغيرهما من الآيات ، أو الشرع الفارق بين الحلال والحرام . وقيل : الفرقان انفراق البحر ، ولا يلزم التكرار لأنه لم يبين هناك أن ذلك لأجل موسى وفي هذه الآية بين ذلك التخصيص على سبيل التنصيص . وقيل : النصر الذي فرق بينه وبين عدوه كقوله تعالى ﴿ يوم الفرقان ﴾ [الأنفال : 41] يعني يوم بدر . وقيل : آتينا موسى التوراة ومحمداً الفرقان لكي تهتدوا به يا أهل الكتاب وفيه تعسف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 1 صـ 282. 288 ﴾

(118/51)

قوله تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (54) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

قال الحرالي : لما تكمل إقبال الخطاب عليهم مرات بما تقدم من ندائهم والعطف على ما في صلته صرف الحق وجه الخطاب عنهم إلى ذكر خطاب نبيه صلى الله عليه وسلم لهم ،

فإن الله يخاطب العباد بإسقاط الواسطة بينه وبينهم ترفيعاً لأقدارهم لديه ، فيرفع من شاء فيجيبه بما شاء ، ويوقف من شاء فيجعل بينه وبينه في الخطاب واسطة من نبيه ، فلما قررهم بما مضى من التذكير على ما واجههم به الحق تعالى ذكر في هذه الآية تقريرهم على ما خاطبهم به نبيهم حين أعرض الحق عن خطابهم بما أصابوه من قبيح خطيئتهم – انتهى .

فقال ﴿ وإذ قال موسى لقومه ﴾ العابد للعجل والساكت عنه ، والقوم قال الحرالي اسم من لهم منة في القيام بما هم مذكورون به ، ولذلك يقابل بلفظ النساء لضعفهن فيما يحاولنه ؛ وفيه تخويف لهذه الأمة أن يصيبهم مثل ما أصابهم في خطاب ربهم فيعرض عنهم – انتهى . ﴿ يا قوم ﴾ وأكد لعراقتهم في الجهل بعظيم ما ارتكبوه وتهاونهم به لما أشربوا في قلوبهم من الهوى فقال ﴿ إنكم ظلمتم أنفسكم ﴾ ظلماً تستحقون به العقوبة ﴿ باتخاذكم العجل ﴾ أي الهاً من دون الله ، فجعلتم أنفسكم متذللة لمن لا يملك لها شيئاً ولمن هي أشرف منه ، فأنزلتموها من رتبة عزها بخضوعها لمولاها الذي لا يذل من والاه ولا يعز من عاداه إلى ذلها بخضوعها لمن هو دونكم أنتم ، هذا هو أسوأ الظلم ، فإن المرء لا يصلح أن يتذلل ويتعبد لمثله فكيف لمن دونه من حيوان ! فكيف بما يشبه بالحيوان من جماد الذهب الذي هو من المعادن وهو أخفض المواليد رتبة حين لم تبلغها حياتها أن تبدو فوق الأرض كالنبات من النجم والشجر ولما فيه من الانتفاع بما يكون من الحب والثمر الذي يُنتفع به غذاء ودواء

والمعادن لا ينتفع بها إلا آلات ونقوداً منفعتها إخراجها لا إثباتها – قاله الحرالي : ﴿ فتوبوا إلى بارئكم ﴾ الذي فطركم من قبل أن تتخذوا العجل بريئين من العيب مع إحكام الخلق على الأشكال المختلفة .

(119/51)

وقال الحرالي : البارىء اسم قائم بمعنى البرء وهو إصلاح المواد للتصوير ، كالذي يقطع الجلد والثوب ليجعله خفاً وقميصاً ، وكالذي يطحن القمح ويعجن الطين ليجعله خبزاً وفخاراً و – نحو ذلك ، ومعناه التدقيق للشيء بحسب التهيؤ لصورته – انتهى .

ولما كانت توبتهم بقتل أقاربهم وإن كانوا آباء أو أبناء عبر عنهم بالنفس لذلك وإشارة إلى خبث ما ارتكبوا فقال ﴿ فاقتلوا أنفسكم ﴾ أي التي أوجدها فقادتكم إلى غيره .

قال الحرالي : والقتل قصل الحيوان قبل انتهاء قوته بمنزلة قصل الزرع قبل استحصاده – انتهى .

ولما كان ما أمرهم به أمراً لا يكاد يسمح به عظّم الرغبة فيه بقوله ﴿ ذلكم ﴾ أي الأمر العظيم وهو القتل ﴿ خير لكم ﴾ والخير قال الحرالي ما يصلح في الاختيار من محسوس الأشياء وما هو الأصلح وما هو الأخير ، وربما استعملت منه خيرٌ محذوفة فيقال : هو

خير في نفسه ، أي مما يختار ، ويقال : هذا خير من هذا ، أي أخير منه أي أصلح في الاختيار ، وكذلك لفظ شر في مقابله وهما مشعران بمتوسط من الأشياء لا يختار لأجل زيادة صلاح ولا يطرح لأجل أذى ولا مضرة ﴿ عند ﴾ كلمة تفهم اختصاص ما أضيفت إليه بوجه مّا عام وأخص منه لدن ، فلدن خاصتها وعند عامتها ، كالذي يملك الشيء فهو عنده وإن لم يكن في حضرته – انتهى .

﴿ بارئكم ﴾ أي القادر على إعدامكم كما قدر على إيجادكم ، وفي التعبير بالبارىء ترغيب لهم في طاعته بالتذكير بالإحسان وترهيب بإيقاع الهوان .

(120/51)

ولما كان التقدير ففعلتم التوبة المأمور بها بأن قتل بعضكم بعضاً بتوفيقه لكم سبحانه مع ما فيه من عظم المشقة عطف عليه قوله ﴿ فتاب عليكم ﴾ أي مع عظم جرمكم ، ولولا توبته عليكم ما تبتم ؛ ثم علل ذلك بقوله ﴿ إنه ﴾ أي لأنه ﴿ هو التواب الرحيم ﴾ أي ما زال هذا صفة له لا لاستحقاق منكم عليه قال الحرالي : وفي إظهار هو مفصولة من ضمير وصلها إثبات معنى الرحمة لله ثبتاً لا يتبدل ولا يتغير إلا أنه من وراء غيب ما شاء الله من أدب وامتحان وعقاب ، فلذلك ختمه باسمه الرحيم ، لأن الختم أبدى إظهار للمعنى

الأخفى من مضمون ما فيه الختم - انتهى . انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 134 . 135 ﴾

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ بارئكم ﴾ بالإمالة : قتيبة ونصير وأبو عمرو من طريق أبي الزعراء ، وعبد الرحمن بن عبدوس . وقرأ أبو عمرو بالاختلاس ﴿ أنه هو ﴾ مدغماً : أبو عمرو غير عباس ، وكذلك كل ما كان بينهما ياء أو واو ملفوظة مثل ﴿ ومن دونه هو ﴾ ﴿ وأنه هو ﴾ وأشباه ذلك . ﴿ حتى ﴾ حيث كان بالإمالة : نصير والعجلي ﴿ نرى الله ﴾ مكسورة الراء : روى ابن رومي عن عباس وأبو شعيب عن اليزيدي ، وكذلك كل راء بعدها ياء استقبلها ألف ولام مثل ﴿ ولو يرى الذين ﴾ ﴿ والنصارى المسيح ﴾ ﴿ جهرة ﴾ مفتوحة الهاء : قتيبة ﴿ السلوى ﴾ بالإمالة الشديدة : حمزة وعلي وخلف . وقرأ أبو عمرو بالإمالة اللطيفة وكذلك كل كلمة على مثال " فعلى " .

الوقوف : ﴿ فاقتلوا أنفسكم ﴾ (ط) ﴿ عند بارئكم ﴾ (ط) لأن التقدير ففعلتم ﴿ فتاب عليكم ﴾ (ط) ﴿ الرحيم ﴾ (5) ﴿ تنظرون ﴾ (5) ﴿ تشكرون ﴾ (5) ﴿ السلوى ﴾ (ط) ﴿ ما رزقناكم (ط) ﴿ يظلمون ﴾ 5 . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 1 صـ 288 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أن هذا الإنعام الخامس قال بعض المفسرين : هذه الآية وما بعدها منقطعة عما تقدم من التذكير بالنعم وذلك لأنها أمر بالقتل والقتل لا يكون نعمة وهذا ضعيف من وجوه ،

أحدها : أن الله تعالى نبههم على عظم ذنبهم ، ثم نبههم على ما به يتخلصون عن ذلك الذنب العظيم وذلك من أعظم النعم في الدين ، وإذا كان الله تعالى قد عدد عليهم النعم الدنيوية فبأن يعدد عليهم هذه النعمة الدينية أولى ، ثم إن هذه النعمة وهي كيفية هذه التوبة لما لم يكن وصفها إلا بمقدمة ذكر المعصية كان ذكرها أيضاً في تمام النعمة .

فصار كل ما تضمنته هذه الآية معدوداً في نعم الله فجاز التذكير بها .

وثانيها : أن الله تعالى لما أمرهم بالقتل رفع ذلك الأمر عنهم قبل فنائهم بالكلية فكان ذلك نعمة في حق أولئك الباقين .

وفي حق الذين كانوا موجودين في زمان محمد عليه الصلاة والسلام ، لأنه تعالى لولا أنه رفع القتل عن آبائهم لما وجد أولئك الأبناء فحسن إيراده في معرض الامتنان على الحاضرين في

زمان محمد عليه الصلاة والسلام ، وثالثها : أنه تعالى لما بين أن توبة أولئك ما تمت إلا بالقتل مع أن محمداً عليه الصلاة والسلام كان يقول لهم : لا حاجة بكم الآن في التوبة إلى القتل بل إن رجعتم عن كفركم وآمنتم قبل الله إيمانكم منكم فكان بيان التشديد في تلك التوبة تنبيهاً على الإنعام العظيم بقبول مثل هذه التوبة السهلة الهينة .

ورابعها : أن فيه ترغيباً شديداً لأمة محمد صلوات الله وسلامه عليه في التوبة ، فإن أمة موسى عليه السلام لما رغبوا في تلك التوبة مع نهاية مشقتها على النفس فلأن يرغب الواحد منا في التوبة التي هي مجرد الندم كان أولى .

ومعلوم أن ترغيب الإنسان فيما هو المصلحة المهمة من أعظم النعم .

(122/51)

وأما قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ ﴾ أي واذكروا إذ قال موسى لقومه بعد ما رجع من الموعد الذي وعده ربه فرآهم قد اتخذوا العجل ﴿ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ وللمفسرين في الظلم قولان : أحدهما : أنكم نقصتم أنفسكم الثواب الواجب بالإقامة على عهد موسى عليه السلام ، والثاني : أن الظلم هو الإصرار الذي ليس بمستحق ولا فيه نفع ولا دفع مضرة لا علماً ولا طباً ، فلما عبدوا العجل كانوا قد أضروا بأنفسهم لأن ما يؤدي

إلى ضرر الأبد من أعظم الظلم ، ولذلك قال تعالى : ﴿ إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان : 13] لكن هذا الظلم من حقه أن يقيد لئلا يوهم إطلاقه إنه ظلم الغير لأن الأصل في الظلم ما يتعدى ، فلذلك قال : ﴿ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ .

أما قوله تعالى : ﴿ باتخاذكم العجل ﴾ ففيه حذف لأنهم لم يظلموا أنفسهم بهذا القدر لأنهم لو اتخذوه ولم يجعلوه إلهاً لم يكن فعلهم ظلماً ، فالمراد باتخاذكم العجل إلهاً ، لكن لما دلت مقدمة الآية على هذا المحذوف حسن الحذف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 74. 75 ﴾

قال القرطبي :

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ موسى لِقَوْمِهِ ﴾ القوم : الجماعة الرجال دون النساء ؛ قال الله تعالى : ﴿ لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ ﴾ [الحجرات : 10] ثم قال : ﴿ وَلاَ نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ ﴾ [الحجرات : 10] .

وقال زُهير :

وما أدري وسوف إخال أدري . . .

أقومٌ آلُ حِصْنٍ أم نساءُ

وقال تعالى : ﴿ وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ﴾ [الأعراف : 80] أراد الرجال دون النساء .

وقد يقع القوم على الرجال والنساء ؛ قال الله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ ﴾ [نوح :

1] وكذا كل نبيّ مرسَل إلى النساء والرجال جميعاً .

قوله تعالى : ﴿ يَا قَوْمِ ﴾ منادَى مضاف .

وحذفت الياء في " يا قَوْم " لأنه موضع حذف والكسرة تدل عليها ؛ وهي بمنزلة التنوين فحذفتها كما تحذف التنوين من المفرد .

(123/51)

ويجوز في غير القرآن إثباتها ساكنة ؛ فتقول : يا قومي ؛ لأنها اسم وهي في موضع خفض .

وإن شئت فتحتها وإن شئت ألحقت معها هاء ؛ فقلت : يا قومِيَهْ .

وإن شئت أبدلت منها ألفاً لأنها أخفّ ؛ فقلت : يا قوماً ، وإن شئت قلت : يا قوم ؛ بمعنى يأيها القوم .

وإن جعلتهم نكرة نصبت ونوّنت .

وواحد القوم امرؤ على غير اللفظ .

وتقول : قوم وأقوام ؛ وأقاوم جمع الجمع .

والمراد هنا بالقوم عَبَدة العجل ، وكانت مخاطبته عليه السلام لهم بأمر من الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ استغنى بالجمع القليل عن الكثير ؛ والكثير نفوس .

وقد يوضع الجمع الكثير موضع جمع القِلة ، والقليل موضع الكثرة ؛ قال الله تعالى : ﴿ ثَلاَثَةَ قرواء ﴾ [البقرة : 228] .

وقال : ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأنفس ﴾ [الزخرف : 71] .

ويقال لكل مَن فعل فعلا يعود عليه ضرره : إنما أسأتَ إلى نفسك .

وأصل الظلم وضع الشيء في غير موضعه .

ثم قال تعالى : ﴿ باتخاذكم العجل ﴾ قال بعض أرباب المعاني : عجل كُلّ إنسان نفسه ؛ فمن أسقطه وخالف مراده فقد برئ من ظلمه .

والصحيح أنه هنا عجل على الحقيقة عبدوه كما نطق به التنزيل . والحمد لله . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 1 صـ 400 . 401 ﴾

(124/51)

وقال الآلوسى :

﴿ وَإِذْ قَالَ موسى لِقَوْمِهِ يا قوم إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ باتخاذكم العجل ﴾ نعمة أخروية في حق المقتولين من بني إسرائيل حيث نالوا درجة الشهداء ، كما أن العفو نعمة دنيوية في حق الباقين ، وإنما فصل بينهما بقوله : ﴿ وإذ آتينا ﴾ [البقرة : 53] الخ ؛ لأن المقصود تعداد

النعم فلو اتصلا لصارا نعمة واحدة وقيل : هذه الآية وما بعدها منقطعة عما تقدم من التذكير بالنعم وليس بشيء واللام في ﴿ لِقَوْمِهِ ﴾ للتبليغ ، وفائدة ذكره التنبيه على أن خطاب موسى لقومه كان مشافهة لا بتوسط من يتلقى منه كالخطابات المذكورة سابقاً لبني إسرائيل والقوم اسم جمع لا واحد له من لفظه ، وإنما واحده امرىء وقياسه أن لا يجمع وشذ جمعه على أقاويم والمشهور اختصاصه بالرجال لقوله تعالى : ﴿ لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ ﴾ مع قوله : ﴿ وَلاَ نِسَاء مِّن نِّسَاء ﴾ [الحجرات : 11] وقال زهير :

فما أدري وسوف أخال أدري . . .

أ (قوم) آل حصن أم (نساء)

وقيل : لا اختصاص له بهم ، بل يطلق على النساء أيضاً لقوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ ﴾ [نوح : 1] والأول أصوب ، واندراج النساء على سبيل الاستتباع ، والتغليب والمجاز خير من الاشتراك ، وسمي الرجال قوماً لأنهم يقومون بما لا يقوم به النساء ، وفي إقبال موسى عليهم بالنداء ، ونداؤه لهم بيا قوم إيذان بالتحنن عليهم وأنه منهم وهم منه ، وهزّ لهم لقبولهم الأمر بالتوبة بعد تقريعهم بأنهم ظلموا أنفسهم والباء في ﴿ باتخاذكم ﴾ سببية وفي الاتخاذ هنا الاحتمالان السابقان هناك . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 259 ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ . . . الآية ﴾

هذه نعمة أخرى وهي نعمة نسخ تكليف شديد عليهم كان قد جعل جابراً لما اقترفوه من إثم عبادة الوثن فحصل العفو عنهم بدون ذلك التكليف فتمت المنة وبهذا صح جعل هذه منة مستقلة بعد المنة المتضمنة لها قوله تعالى : ﴿ ثم عفونا عنكم من بعد ذلك ﴾ [البقرة : 52] لأن العفو عن المؤاخذة بالذنب في الآخرة قد يحصل مع العقوبة الدنيوية من حد ونحوه وهو حينئذ منة إذ لو شاء الله لجعل للذنب عقابين دنيوي وأخروي كما كان المذنب النفس والبدن ولكن الله برحمته جعل الحدود جوابر في الإسلام كما في الحديث الصحيح ، فلما عفا الله عن بني إسرائيل على أن يقتلوا أنفسهم فقد تفضل بإسقاط العقوبة الأخروية التي هي أثر الذنب ، ولما نسخ تكليفهم بقتل أنفسهم فقد تفضل بذلك فصارت منتان .

فقول موسى لقومه : ﴿ إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ﴾ تشريع حكم لا يكون مثله إلا عن وحي لا عن اجتهاد وإن جاز الاجتهاد للأنبياء فإن هذا حكم مخالف لقاعدة حفظ النفوس التي قيل قد اتفق عليها شرائع الله فهو يدل على أنه كلفهم بقتل أنفسهم قتلاً حقيقة إما بأن يقتل كل من عبد العجل نفسه فيكون المراد بالأنفس الأرواح التي في الأجسام فالفاعل والمفعول واحد على هذا وإنما اختلفا

بالاعتبار كقوله ﴿ ظلمتم أنفسكم ﴾ وقول ابن أذينة :

وإذا وجدت لها وساوس سلوءه . . .

شفع الفؤاد إلى الضمير فسلها

(126/51)

وإما بأن يقتل من لم يعبدوا العجل عابديه ، وكلام التوراة في هذا الغرض في غاية الإبهام وظاهره أن موسى أمره الله أن يأمر اللاويين الذين هم من سبط لاوي الذي منه موسى وهارون أن يقتلوا من عبد العجل بالسيف وأنهم فعلوا وقتلوا ثلاثة آلاف نفس ثم استشفع لهم موسى فغفر الله لهم أي فيكون حكم قتل أنفسهم منسوخاً بعد العمل به ويكون المعنى فليقتل بعضكم بعضاً ، فالأنفس مراد بها الأشخاص كما في قوله تعالى : ﴿ فإذا دخلتم بيوتاً فسلموا على أنفسكم ﴾ [النور : 61] أي فليسلم بعضكم على بعض وقوله : ﴿ وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ﴾ [البقرة : 84] أي لا يسفك بعضكم دماء بعض وقوله عقبه : ﴿ ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم ﴾ [البقرة : 85] فالفاعل والمفعول متغايران .

ومن الناس من حمل الأمر بقتل النفس هنا على معنى القتل المجازي وهو التذليل والقهر على

نحو قول امرىء القيس : " في أعشار قلب مقتَّل " وقوله : خمر مقتلة أو مقتولة ، أي مذللة سورتها بالماء .

قال بجير بن زهير :

إن التي ناولْتَني فرددتُها . . .

قُتِلتْ قُتِلت فهاتها لم تُقتلِ

وفيه بعد عن اللفظ بل مخالفة لغرض الامتنان ، لأن تذليل النفس وقهرها شريعة غير منسوخة .

والظلم هنا الجناية والمعصية على حد قوله : ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ [لقمان : 13] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 1 صـ 486. 487 ﴾

(127/51)

قوله تعالى : ﴿ فَتُوبُواْ إِلى بَارِئِكُمْ فاقتلوا أَنفُسَكُمْ ﴾

قال الآلوسى :

﴿ فَتُوبُواْ إِلى بَارِئِكُمْ ﴾ الفاء للسببية لأن الظلم سبب للتوبة وقد عطفت ما بعدها على ﴿ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ ﴾ والتوافق في الخبرية والإنشائية إنما يشترط في العطف بالواو وتشعر

عبارات بعض الناس أنها للسببية دون العطف ، والتحقيق أنها لهما معاً ، والبارىء هو الذي خلق الخلق برياً من التفاوت وعدم تناسب الأعضاء وتلائم الأجزاء بأن تكون إحدى اليدين في غاية الصغر والرقة ، والأخرى بخلافه ؛ ومتميزاً بعضه عن بعض بالخواص والإشكال والحسن والقبح فهو أخص من الخالق وأصل التركيب لخلوص الشيء وانفصاله عن غيره إما على سبيل التفصي كبرء المريض أو الإنشاء كبرأ الله تعالى آدم أي خلقه ابتداءً متميزاً عن لوث الطين ، وفي ذكره في هذا المقام تقريع بما كان منهم من ترك عبادة العالم الحكيم الذي برأهم بلطف حكمته حتى عرضوا أنفسهم لسخط الله تعالى ونزول أمره بأن يفك ما ركبه من خلقهم ، وينثر ما نظم من صورهم وأشكالهم حين لم يشكروا النعمة في ذلك وغمطوها بعبادة من لا يقدر على شيء منها وهو مثل في الغباوة والبلادة وقرأ أبو عمرو : ﴿ بَارِئِكُمْ ﴾ بالاختلاس ، وروي عنه السكون أيضاً وهو من إجراء المتصل من كلمتين مجرى المنفصل من كلمة ، وللناس في تخريجه وجوه لا تخلو عن شذوذ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 259 ﴾

وقال ابن عاشور :

والفاء في قوله : ﴿ فتوبُوا ﴾ فاء التسبب لأن الظلم سبب في الأمر بالتوبة فالفاء لتفريع الأمر على الخبر وليست هنا عاطفة عند الزمخشري وابن الحاجب إذ ليس بين الخبر والإنشاء ترتب في الوجود ، ومن النحاة من لا يرى الفاء تخرج عن العطف وهو الجاري على عبارات

الجمهور مثل صاحب " مغني اللبيب" فيجعل ذلك عطف إنشاء على خبر ولا ضير في ذلك .

وذكر التوبة تقدم في قوله تعالى : ﴿ فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه ﴾ [البقرة : 37] .

(128/51)

والفاء في قوله : ﴿ فاقتلوا أنفسكم ﴾ ظاهرة في أن قتلهم أنفسهم بيان للتوبة المشروعة له فتكون الفاء للترتيب الذكري وهو عطف مفصل على مجمل كقوله تعالى : ﴿ فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة ﴾ [النساء : 153] كما في " مغني اللبيب" وهو يقتضي أنها تفيد الترتيب لا التعقيب .

وأما صاحب " الكشاف" فقد جوز فيه وجهين أحدهما تأويل الفعل المعطوف عليه بالعزم على الفعل فيكون ما بعده مرتباً عليه ومعقباً وهذا الوجه لم يذكره صاحب " المغني" وهذا لا يتأتى في قوله تعالى : ﴿ فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا ﴾ ، وثانيهما جعل التوبة المطلوبة شاملة لأقوال وأعمال آخرها قتلهم أنفسهم فتكون الفاء للترتيب والتعقيب أيضاً .

وعندي أنه إذا كانت الجملة الثانية منزلة منزلة البيان من الجملة الأولى وكانت الأولى

معطوفة بالفاء كان الأصل في الثانية أن تقطع عن العطف فإذا قرنت بالفاء كما في هذه الآية كانت الفاء الثانية مؤكدة للأولى ، ولعل ذلك إنما يحسن في كل جملتين تكون أولاهما فعلاً غير محسوس وتكون الثانية فعلاً محسوساً مبين للفعل الأول فينزل منزلة حاصل عقبه فيقرن بالفاء لأنه لا يحصل تمامه إلا بعد تقرير الفعل الأول في النفس ولذلك قربه صاحب " الكشاف" بتأويل الفعل الأول بالعزم في بعض المواضع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 1 صـ 487.488 ﴾

(129/51)

أسئلة وأجوبة :

السؤال الأول : قوله تعالى : ﴿ فَتُوبُواْ إِلى بَارِئِكُمْ فاقتلوا أَنفُسَكُمْ ﴾ يقتضي كون التوبة مفسرة بقتل النفس كما أن قوله عليه السلام : " لا يقبل الله صلاة أحدكم حتى يضع الطهور مواضعه فيغسل وجهه ثم يديه " يقتضي أن وضع الطهور مواضعه مفسر بغسل الوجه واليدين ولكن ذلك باطل لأن التوبة عبارة عن الندم على الفعل القبيح الذي مضى والعزم على أن لا يأتي بمثله بعد ذلك وذلك مغاير لقتل النفس وغير مستلزم له فكيف يجوز تفسيره به ؟ والجواب ليس المراد تفسير التوبة بقتل النفس بل بيان أن توبتهم لا تتم ولا تحصل إلا

بقتل النفس وإنما كان كذلك لأن الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام أن شرط توبتهم قتل النفس كما أن القاتل عمداً لا تتم توبته إلا بتسليم النفس حتى يرضى أولياء المقتول أو يقتلوه فلا يمتنع أن يكون من شرع موسى عليه السلام أن توبة المرتد لا تتم إلا بالقتل .

إذا ثبت هذا فنقول شرط الشيء قد يطلق عليه اسم ذلك الشيء مجازاً كما يقال للغاصب إذا قصد التوبة أن توبتك رد ما غصبت يعني أن توبتك لا تتم إلا به فكذا ههنا .

السؤال الثاني : ما معنى قوله تعالى : ﴿ فَتُوبُواْ إِلَى بَارِئِكُمْ ﴾ والتوبة لا تكون إلا للبارىء ، والجواب : المراد منه النهي عن الرياء في التوبة كأنه قال لهم : لو أظهرتم التوبة لا عن القلب فأنتم ما تبتم إلى الله الذي هو مطلع على ضميركم ، وإنما تبتم إلى الناس وذلك مما لا فائدة فيه ، فإنكم إذا أذنبتم إلى الله .

السؤال الثالث : كيف اختص هذا الموضع بذكر البارىء ؟ والجواب : البارىء هو الذي خلق الخلق بريئاً من التفاوت : ﴿ مَّا تَرَى فِى خَلْقِ الرحمن مِن تفاوت ﴾ [الملك : 3] ومتميزاً بعضه عن بعض بالأشكال المختلفة والصور المتباينة فكان ذلك تنبيهاً على أن من كان كذلك فهو أحق بالعبادة من البقر الذي يضرب به المثل في الغباوة .

السؤال الرابع : ما الفرق بين الفاء في قوله : ﴿ فَتُوبُواْ ﴾ والفاء في قوله : ﴿ فاقتلوا ﴾ ؟

الجواب : أن الفاء الأولى للسبب لأن الظلم سبب التوبة والثانية للتعقيب لأن القتل من تمام التوبة فمعنى قوله : ﴿ فَتُوبُواْ ﴾ أي فأتبعوا التوبة القتل تتمة لتوبتكم .

السؤال الخامس : ما المراد بقوله : ﴿ فاقتلوا أَنفُسَكُمْ ﴾ أهو ما يقتضيه ظاهره من أن يقتل كل واحد نفسه أو المراد غير ذلك ؟ الجواب : اختلف الناس فيه فقال قوم من المفسرين . لا يجوز أن يكون المراد أمر كل واحد من التائبين بقتل نفسه وهو اختيار القاضي عبد الجبار ، واحتجوا عليه بوجهين .

الأول : وهو الذي عول عليه أهل التفيسر أن المفسرين أجمعوا على أنهم ما قتلوا أنفسهم بأيديهم ولو كانوا مأمورين بذلك لصاروا عصاة بترك ذلك ، الثاني : وهو الذي عول عليه القاضي عبد الجبار أن القتل هو نقض البنية التي عندها يجب أن يخرج من أن يكون حياً وما عدا ذلك مما يؤدي إلى أن يموت قريباً أو بعيداً إنما سمي قتلاً على طريق المجاز .

إذا عرفت حقيقة القتل فنقول : إنه لا يجوز أن يأمر الله تعالى به لأن العبادات الشرعية إنما تحسن لكونها مصالح لذلك المكلف ولا تكون مصلحة إلا في الأمور المستقبلة وليس بعد القتل حال تكليف حتى يكون القتل مصلحة فيه وهذا بخلاف ما يفعله الله تعالى من الإماتة لأن ذلك من فعل الله فيحسن أن يفعله إذا كان صلاحاً لمكلف آخر ويعوض ذلك المكلف بالعوض العظيم وبخلاف أن يأمر الله تعالى بأن يجرح نفسه أو يقطع عضواً من أعضائه ولا

يحصل الموت عقبه لأنه لما بقي بعد ذلك الفعل حياً لم يمتنع أن يكون ذلك الفعل صلاحاً في الأفعال المستقبلة .

(131/51)

ولقائل أن يقول : لا نسلم أن القتل اسم للفعل المزهق للروح في الحال بل هو عبارة عن الفعل المؤدي إلى الزهوق إما في الحال أو بعده والدليل عليه أنه لو حلف أن لا يقتل إنساناً فجرحه جراحة عظيمة وبقي بعد تلك الجراحة حياً لحظة واحدة ثم مات فإنه يحنث في يمينه وتسميه كل أهل هذه اللغة قاتلاً والأصل في الاستعمال الحقيقة فدل على أن اسم القتل اسم الفعل المؤدي إلى الزهوق سواء أدى إليه في الحال أو بعد ذلك وأنت سلمت جواز ورود الأمر بالجراحة التي لا تستعقب الزهوق في الحال وإذا كان كذلك ثبت جواز أن يراد الأمر بأن يقتل الإنسان نفسه ، سلمنا أن القتل اسم الفعل المزهق للروح في الحال فلم لا يجوز ورود الأمر به ؟ قوله : لا بد في ورود الأمر به من مصلحة استقبالية ، قلنا : أولاً لا نسلم أنه لا بد فيه من مصلحة ، والدليل عليه أنه أمر من يعلم كفره بالإيمان ولا مصلحة في ذلك إذ لا فائدة من ذلك التكليف إلا حصول العقاب ، سلمنا أنه لا بد من مصلحة ولكن لم قلت إنه لا

بد من عود تلك المصلحة إليه ، ولم لا يجوز أن قتله نفسه مصلحة لغيره فالله تعالى أمره بذلك لينتفع به ذلك الغير ، ثم إنه تعالى يوصل العوض العظيم إليه .

(132/51)

سلمنا أنه لا بد من عود المصلحة إليه ، لكن لم لا يجوز أن يقال إن علمه بكونه مأموراً بذلك الفعل مصلحة له ، مثل أنه لما أمر بأن يقتل نفسه غداً فإن علمه بذلك يصير داعياً له إلى ترك القبائح من ذلك الزمان إلى ورود الغد ، وإذا كانت هذه الاحتمالات ممكنة سقط ما قال القاضي ، بل الوجه الأول الذي عول عليه المفسرون أقوى ، وعلى هذا يجب صرف الآية عن ظاهرها ، ثم فيه وجهان ، الأول : أن يقال أمر كل واحد من أولئك التائبين بأن يقتل بعضهم بعضاً فقوله : ﴿ اقتلوا أَنفُسَكُمْ ﴾ معناه ليقتل بعضكم بعضاً وهو كقوله في موضع آخر : ﴿ وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ ﴾ [النساء : 29] ومعناه لا يقتل بعضكم بعضاً وتحقيقه أن المؤمنين كالنفس الوحدة ، وقيل في قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَلْمِزُواْ أَنفُسَكُمْ ﴾ [الحجرات : 11] أي إخوانكم من المؤمنين ، وفي قوله : ﴿ لَّوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ المؤمنون والمؤمنات بِأَنفُسِهِمْ خَيْراً ﴾ [النور : 12] أي بأمثالهم من المسلمين ، وكقوله : ﴿ فَسَلّمُواْ على أَنفُسِكُمْ ﴾ [النور : 61] أي ليسلم بعضكم على بعض .

ثم قال المفسرون : أولئك التائبون برزوا صفين فضرب بعضهم بعضاً إلى الليل .

الوجه الثاني : أن الله تعالى أمر غير أولئك التائبين بقتل أولئك التائبين فيكون المراد من قوله : ﴿ اقتلوا أَنفُسَكُمْ ﴾ أي استسلموا للقتل ، وهذا الوجه الثاني أقرب لأن في الوجه الأول تزداد المشقة لأن الجماعة إذا اشتركت في الذنب كان بعضهم أشد عطفاً على البعض من غيرهم عليهم فإذا كلفوا بأن يقتل بعضهم بعضاً عظمت المشقة في ذلك ثم اختلفت الروايات ، فالأول : أنه أمر من لم يعبد العجل من السبعين المختارين لحضور الميقات أن يقتل من عبد العجل منهم ، وكان المقتولون سبعين ألفاً فما تحركوا حتى قتلوا على ثلاثة أيام ، وهذا لقول ذكره محمد بن إسحاق .

(133/51)

الثاني : أنه لما أمرهم موسى عليه السلام بالقتل أجابوا فأخذ عليهم المواثيق ليصبروا على القتل فأصبحوا مجتمعين كل قبيلة على حدة وأتاهم هارون بالإثني عشر ألفاً الذين لم يعبدوا العجل ألبتة وبأيديهم السيوف ، فقال التائبون : إن هؤلاء إخوانكم قد أتوكم شاهرين السيوف فاتقوا الله واصبروا فلعن الله رجلاً قام من مجلسه أو مد طرفه إليهم أو اتقاهم بيد أو رجل يقولون أمين ، فجعلوا يقتلونهم إلى المساء وقام موسى وهارون عليهما السلام

يدعوان الله ويقولان البقية البقية يا إلهنا فأوحى الله تعالى إليهما ، قد غفرت لمن قتل وتبت على من بقي ، قال : وكان القتلى سبعين ألفاً ، هذه رواية الكلبي .

الثالث : أن بني إسرائيل كانوا قسمين : منهم من عبد العجل ومنهم من لم يعبده ولكن لم ينكر على من عبده ، فأمر من لم يشتغل بالإنكار بقتل من اشتغل بالعبادة ، ثم قال المفسرون : إن الرجل كان يبصر والده وولده وجاره فلم يمكنه المضي لأمر الله فأرسل الله تعالى سحابة سوداء ، ثم أمر بالقتل فقتلوا إلى المساء حتى دعا موسى وهارون عليهما السلام وقالا : يا رب هلكت بنو إسرائيل البقية البقية فانكشفت السحابة ونزلت التوراة وسقطت الشفار من أيديهم .

السؤال السادس : كيف استحقوا القتل وهم قد تابوا من الردة والتائب من الردة لا يقتل ؟

الجواب : ذلك مما يختلف بالشرائع فلعل شرع موسى عليه السلام كان يقتضي قتل التائب عن الردة إما عاماً في حق الكل أو كان خاصاً بذلك القوم .

السؤال السابع : هل يصح ما روي أن منهم من لم يقتل ممن قبل الله توبته ؟

الجواب : لا يمتنع ذلك لأن قوله تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ خطاب مشافهة فلعله كان مع البعض أو إنه كان عاماً فالعام قد يتطرق إليه التخصيص . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 75 . 77 ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ فتوبوا إلى بَارِئكُمْ ﴾ لما قال لهم : فتوبوا إلى بارئكم ؛ قالوا : كيف ؟ قال : ﴿ فاقتلوا أَنفُسَكُمْ ﴾ .

قال أرباب الخواطر : ذلّلوها بالطاعات وكُفّوها عن الشهوات .

والصحيح أنه قَتْلٌ على الحقيقة هنا .

والقتل : إماتة الحركة .

وقتلت الخمر : كسرت شدّتها بالماء .

قال سفيان بن عُيَيْنة : التوبة نعمة من الله أنعم الله بها على هذه الأمة دون غيرها من الأمم ؛ وكانت توبة بني إسرائيل القتل .

وأجمعوا على أنه لم يؤمر كل واحد من عبدة العِجل بأن يقتل نفسه بيده .

قال الزُّهْرِيّ : لما قيل لهم : ﴿ فتوبوا إلى بَارِئكُمْ فاقتلوا أَنفُسَكُمْ ﴾ [البقرة : 54] قاموا صفّين وقتل بعضهم بعضا ؛ حتى قيل لهم : كُفّوا .

فكان ذلك شهادةً للمقتول وتوبةً للحيّ ؛ على ما تقدّم .

وقال بعض المفسرين : أرسل الله عليهم ظلاماً ففعلوا ذلك .

وقيل : وقف الذين عبدوا العجل صفّاً ، ودخل الذين لم يعبدوه عليهم بالسلاح فقتلوهم .

وقيل : قام السبعون الذين كانوا مع موسى فقُتِلُوا إذ لم يعبدوا العجل مَن عبد العجل .

ويروى أن يوشع بن نون خرج عليهم وهم مُحْتَبُون فقال : ملعون من حلّ حَبْوَتَه أو مدّ طرفه إلى قاتله أو اتقاه بيد أو رِجل .

فما حلّ أحد منهم حبوته حتى قتل منهم يعني من قتل وأقبل الرجل يقتل من يليه .

ذكره النحاس وغيره .

وإنما عوقب الذين لم يعبدوا العجل بقتل أنفسهم على القول الأوّل ؛ لأنهم لم يغيّروا المنكر حين عبدوه ؛ وإنما اعتزلوا ، وكان الواجب عليهم أن يقاتلوا من عبده .

وهذه سنة الله في عباده إذا فشا المنكر ولم يُغَيَّر عوقب الجميع .

روى جرِير قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما من قوم يُعمل فيهم بالمعاصي هم أعزّ منهم وأمنع لا يغيّرون إلا عَمّهم الله بعقاب " أخرجه ابن ماجه في سُننه .

وسيأتي الكلام في هذا المعنى إن شاء الله تعالى .

فلما استحر فيهم القتل وبلغ سبعين ألفاً عفا الله عنهم .

(135/51)

قاله ابن عباس وعليّ رضي الله عنهما .

وإنما رفع الله عنهم القتل لأنهم أعطوا المجهود في قتل أنفسهم .

فما أنعم الله على هذه الأمة نعمة بعد الإسلام هي أفضل من التوبة .

وقرأ قتادة : فأقيلوا أنفسكم من الإقالة ؛ أي استقبلوها من العثرة بالقتل . انتهى انتهى . اهـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 1 صـ 401.402 ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ فاقتلوا أَنفُسَكُمْ ﴾ الفاء للتعقيب ، والمتبادر من القتل القتل المعروف من إزهاق الروح وعليه جمع من المفسرين والفعل معطوف على سابقه ، فإن كانت توبتهم هو القتل إما في حقهم خاصة ، أو توبة المرتد مطلقاً في شريعة موسى عليه السلام ،

(136/51)

فالمراد بقوله تعالى : ﴿ فَتُوبُواْ ﴾ اعزموا على التوبة ليصح العطف وإن كانت هي الندم والقتل من متمماتها كالخروج عن المظالم في شريعتنا فهو على معناه ولا إشكال ، وقد يقال : إن التوبة جعلت لهؤلاء عين القتل ولا حاجة إلى تأويل توبوا باعزموا ، بل تجعل الفاء للتفسير كما تجعل الواو له وقد قيل به في قوله تعالى : ﴿ فانتقمنا مِنْهُمْ فأغرقناهم فِي اليم ﴾ [

الأعراف : 136] وظاهر الأمر أنهم مأمورون بأن يباشر كل قتل نفسه ، وفي بعض الآثار أنهم أمروا أن يقتل بعضهم بعضاً ، فمعنى ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ﴾ [النساء : 29] ﴿ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ ﴾ [الحجرات : 11] والمؤمنون كنفس واحدة ، وروي أنه أمر من لم يعبد العجل أن يقتل من عبده ، والمعنى عليه استسلموا أنفسكم للقتل ، وسمى الاستسلام للقتل قتلاً على سبيل المجاز ، والقاتل إما غير معين ، أو الذين اعتزلوا مع هارون عليه السلام ، والذين كانوا مع موسى عليه السلام ، وفي كيفية القتل أخبار لا نطيل بذكرها ، وجملة القتلى سبعون ألفاً ، وبتمامها نزلت التوبة وسقطت الشفار من أيديهم ، وأنكر القاضي عبد الجبار أن يكون الله تعالى أمر بني إسرائيل بقتل أنفسهم وقال : لا يجوز ذلك عقلاً إذ الأمر لمصلحة المكلف وليس بعد القتل حال تكليف ليكون فيه مصلحة ، ولم يدر هذا القاضي بأن لنفوسنا خالقاً بأمره نستبقيها ؛ وبأمره نفنيها وأن لها بعد هذه الحياة التي هي لعب ولهو ، حياة سرمدية وبهجة أبدية ، وأن الدار الآخرة لهي الحيوان ، وأن قتلها بأمره يوصلها إلى حياة خير منها ، ومن علم أن الإنسان في هذه الدنيا كمجاهد أقيم في ثغر يحرسه ، ووال في

بلد يسوسه وأنه مهما استرد فلا فرق بين أن يأمره الملك بخروجه بنفسه ، أو يأمر غيره بإخراجه وهذا واضح لمن تصور حالتي الدنيا والآخرة ، وعرف قدر الحياتين والميتتين فيهما ، ومن الناس من جوّز ذلك إلا أنه استبعد وقوعه فقال : معنى ﴿ فاقتلوا أَنفُسَكُمْ ﴾ ذللوا ، ومن ذلك قوله :

إن التي عاطيتني فرددتها . . .

(قتلت قتلت) فهاتها لم (تقتل)

ولولا أن الروايات على خلاف ذلك لقلت به تفسيراً .

ونقل عن قتادة أنه قرأ : (فأقيلوا أنفسكم) والمعنى أن أنفسكم قد تورطت في عذاب الله تعالى بهذا الفعل العظيم الذي تعاطيتموه ، وقد هلكت فأقيلوها بالتوبة والتزام الطاعة ، وأزيلوا آثار تلك المعاصي بإظهار الطاعات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 260 ﴾

قوله تعالى ﴿ ذلكم خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التواب الرحيم ﴾

قال الفخر :

أما قوله تعالى : ﴿ ذلكم خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ ﴾ ففيه تنبيه على ما لأجله يمكن تحمل هذه المشقة وذلك لأن حالتهم كانت دائرة بين ضرر الدنيا وضرر الآخرة ، والأول أولى بالتحمل لأنه متناه ، وضرر الآخرة غير متناه ، ولأن الموت لا بد واقع فليس في تحمل القتل

إلا التقدم والتأخير ، وأما الخلاص من العقاب والفوز بالثواب فذاك هو الغرض الأعظم .

أما قوله تعالى : ﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ﴾ ففيه محذوف ، ثم فيه وجهان :

أحدهما : أن يقدر من قول موسى عليه السلام كأنه قال : فإن فعلتم فقد تاب عليكم ،

والآخر : أن يكون خطاباً من الله لهم على طريقة الالتفات فيكون التقدير ففعلتم ما أمركم به موسى فتاب عليكم بارئكم .

وأما معنى قوله تعالى : ﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التواب الرحيم ﴾ ، فقد تقدم في قوله : ﴿ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التواب الرحيم ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 77 ﴾

(138/51)

وقال الآلوسى :

﴿ ذلكم خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ ﴾ جملة معترضة للتحريض على التوبة أو معللة ، والإشارة إلى المصدر المفهوم مما تقدم ، و ﴿ خَيْرٌ ﴾ أفعل تفضيل حذفت همزته ، ونطقوا بها في الشعر .

قال الراجز :

بلا خير الناس وابن الأخير . . .

وقد تأتي ولا تفضيل والمعنى : أن ذلكم خير لكم من العصيان والإصرار على الذنب أو خير من ثمرة العصيان ، وهو الهلاك الدائم ، والكلام على حد العسل أحلى من الخل أو خير من الخيور كائن لكم .

والعندية هنا مجاز ، وكرر البارىء بلفظ الظاهر اعتناءً بالحث على التسليم له في كل حال ، وتلقى ما يرد من قبله بالقبول والامتثال فإنه كما رأى الإنشاء راجحاً فأنشأ رأي الإعدام راجحاً ، فأمر به وهو العليم الحكيم .

﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ﴾ جواب شرط محذوف بتقدير قد إن كان من كلام موسى عليه السلام لهم ، تقديره إن فعلتم ما أمرتم به فقد تاب عليكم ومعطوف على محذوف إن كان خطاباً من الله تعالى لهم ، كأنه قال : ففعلتم ما أمرتم فتاب عليكم بارئكم وفيه التفات لتقدم التعبير عنهم في كلام موسى عليه السلام بلفظ القوم وهو من قبيل الغيبة ، أو من التكلم إلى الغيبة في ﴿ فَتَابَ ﴾ حيث لم يقل : فتبنا ، ورجح العطف لسلامته من حذف الأداة والشرط وإبقاء الجواب ، وفي ثبوت ذلك عن العرب مقال ، وظاهر الآية كونها إخباراً عن المأمورين بالقتل الممتثلين ذلك .

وقال ابن عطية : جعل الله تعالى القتل لمن قتل شهادة وتاب عن الباقين وعفا عنهم ، فمعنى ﴿ علكيم ﴾ عنده ، على باقيكم .

﴿ إِنَّهُ هُوَ التواب الرحيم ﴾ تذييل لقوله تعالى : ﴿ فَتُوبُواْ ﴾ فإن التوبة بالقتل لما كانت شاقة على النفس هوّنها سبحانه بأنه هو الذي يوفق إليها ويسهلها ويبالغ في الإنعام على من أتى بها ، أو تذييل لقوله تعالى : ﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ﴾ وتفسر التوبة منه تعالى حينئذ بالقبول لتوبة المذنبين والتأكيد لسبق الملوح أو للاعتناء بمضمون الجملة ، والضمير المنصوب إن كان ضمير الشأن فالضمير المرفوع مبتدأ وهو الأنسب لدلالته على كمال الإعتناء بمضمون الجملة ، وإن كان راجعاً إلى البارىء سبحان فالضمير المرفوع إما فصل أو مبتدأ ، هذا وحظ العارف من هذه القصة أن يعرف أن هواه بمنزلة عجل بني إسرائيل فلا يتخذه إلهاً ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتخذ إلهه هَوَاهُ ﴾ [الجاثية : 23] وأن الله سبحانه قد خلق نفسه في أصل الفطرة مستعدة لقبول فيض الله تعالى والدين القويم ، ومتهيئة لسلوك المنهج المستقيم ، والترقي إلى جناب القدس وحضرة الأنس ، وهذا هو الكتاب الذي أوتيه موسى القلب ، والفرقان الذي يهتدى بنوره في ليالي السلوك إلى حضرة الرب ، فمتى أخلدت النفس إلى الأرض واتبعت هواها ، وآثرت شهواتها على مولاها ، أمرت بقتلها بكسر شهواتها وقلع مشتهياتها ليصح لها البقاء بعد الفناء ، والصحو بعد المحو ، وليست التوبة الحقيقية سوى

محو البشرية بإثبات الألوهية ، وهذا هو الجهاد الأكبر والموت الأحمر .

ليس من مات فاستراح بميت . . .

إنما الميت ميت الأحياء

وهذا صعب لا يتيسر إلا لخواص الحق ورجال الصدق ، وإليه الإشارة بموتوا قبل أن

تموتوا .

وقيل أول قدم في العبودية إتلاف النفس وقتلها بترك الشهوات ، وقطعها عن الملاذ ، فكيف

الوصول إلى شيء من منازل الصديقين ومعارج المقربين هيهات هيهات ذاك بمعزل عنا ،

ومناط الثريا منا :

تعالوا نقم مأتما للهموم . . .

فإن الحزين يواسي الحزينا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 260 . 261 ﴾

(140/51)

وقال ابن عاشور :

والبارىء هو الخالق الخلق على تناسب وتعديل فهو أخص من الخالق ولذلك أتبع به الخالق

في قوله تعالى : ﴿ هو الله الخالق البارىء ﴾ [الحشر : 24] .

وتعبير موسى عليه السلام في كلامه بما يدل على معنى لفظ البارىء في العربية تحريض على التوبة لأنها رجوع عن المعصية ففيها معنى الشكر وكون الخلق على مثال متناسب يزيد تحريضاً على شكر الخالق .

وقوله : ﴿ فتاب عليكم ﴾ ظاهر في أنه من كلام الله تعالى عند تذكيرهم بالنعمة وهو محل التذكير من قوله : ﴿ وإذ قال موسى لقومه ﴾ إلخ فالماضي مستعمل في بابه من الإخبار وقد جاء على طريقة الالتفات لأن المقام للتكلم فعدل عنه إلى الغيبة ورجحه هنا سبق معاد ضمير الغيبة في حكاية كلام موسى .

وعطفت الفاء على محذوف إيجازاً ، أي ففعلتم فتاب عليكم أو فعزمتم فتاب عليكم ، على حد ﴿ أن اضرب بعصاك البحر فانفلق ﴾ [الشعراء : 63] أي فضرب ، وعطف بالفاء إشارة إلى تعقيب جرمهم بتوبته تعالى عليهم وعدم تأخيرها إلى ما بعد استئصال جميع الذين عبدوا العجل بل نسخ ذلك بقرب نزوله بعد العمل به قليلاً أو دون العمل به وفي ذلك رحمة عظيمة بهم إذ حصل العفو عن ذنب عظيم بدون تكليفهم توبة شاقة بل اكتفاء بمجرد ندمهم وعزمهم على عدم العود لذلك .

ومن البعيد أن يكون ﴿ فتاب عليكم ﴾ من كلام موسى لما فيه من لزوم حذف في الكلام غير واضح القرينة ؛ لأنه يلزم تقدير شرط تقديره فإن فعلتم يتب عليكم فيكون مراداً منه الاستقبال والفاء فصيحة ، ولأنه يعرى هذه الآية عن محل النعمة المذكر به إلا تضمناً .

وجملة : ﴿ إنه هو التواب الرحيم ﴾ خبر وثناء على الله ، وتأكيده بحرف التوكيد لتنزيلهم منزلة من يشك في حصول التوبة عليهم لأن حالهم في عظم جرمهم حال من يشك في قبول التوبة عليه وإنما جمع التواب مع الرحيم لأن توبته تعالى عليهم كانت بالعفو عن زلّة اتخاذهم العجل وهي زلة عظيمة لا يغفرها إلا الغفار ، وبالنسخ لحكم قتلهم وذلك رحمة فكان للرحيم موقع عظيم هنا وليس هو لمجرد الثناء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 1 صـ 488.489 ﴾

فائدة

قال السمرقندى :

وروي في الخبر أن الذين عبدوا العجل جلسوا على أبواب دورهم ، وأتاهم هارون والذين لم يعبدوا العجل شاهرين سيوفهم ، فكان موسى عليه السلام يتقدم ويقول : إن هؤلاء إخوانكم قد أتوا شاهرين سيوفهم ، فاتقوا الله واصبروا له ، فلعن الله رجلاً قام من مجلسه أو حلّ حبوته ، أو مدّ بطرفه إليهم أو اتقاهم بيد أو برجل .

فيقولون : آمين ، وذكر في رواية أبي صالح : أن هارون كان يتقدم ويقول ذلك ، فجعلوا

يقتلونهم إلى المساء فكانت القتلى سبعين ألفاً ، فكان موسى عليه السلام يدعو ربه لما شق عليه من كثرة الدماء ، حتى نزلت التوبة .

فقيل لموسى : ارفع السيف عنهم ، فإني قبلت توبتهم جميعاً ، من قتل ومن لم يقتل . (1)

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ 80 ﴾

ومن فوائد ابن عرفة فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ موسى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم . . . ﴾ .

الظلم هنا المراد به الكفر لتقيّده (باتخاذ) العجل .

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ وقال جلّ ذكره : ﴿ الذين ءَامَنُواْ وَلَمْ يلبسوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ ﴾ هو مطلق فلذلك أشكل على الصحابة رضي الله عنهم ، وَقَالوا : أَيُّنَا لم يلبس إيمانه بظلم ؟

---

(1) هذا الخبر يفتقر إلى سند صحيح . والله أعلم .

قال ابن عرفة : وقدم المجرور هنا على المفعول ، والأصل تأخيره عنه ، ولا (يقدم) إلا لنكتة (تتوخى) والحكمة في ذلك أن النداء إقبال على المنادى ، وتخصيص له فلو قيل : (وإذ) قال موسى : يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم لقومه .

لما كان لقومه فائدة بخلاف قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لا أَبْرَحُ ﴾ فإن تقديم المجرور هناك (بمعنى) آخر وهو الاعتناء بالمقول له وتشريفه ، والاهتمام به وتخصيصه بتلك المقالة دون غيره ، وبين (بقوله) : ﴿ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾ أن الله تعالى منزه عن أن يناله شيء من ظلمهم ، وإنما ضرر ذلك راجع (إليهم) .

قال ابن عرفة : وهذا (يشبه المحدود) ، فإنه لا تنفع فيه الشفاعة ، ولا (تسقطه) التوبة كما قال الإمام مالك رضي الله عنه في المحارب : إذا قتل (أحدا) فعفا عنه وليه ، أنّ الحد لا يرتفع لأن الحق لله تعالى ، فلذلك قال : ﴿ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ وهذا بيان للتوبة ، (و) الفاء (للتسبيب أو للتعقيب) .

قوله تعالى : ﴿ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ . . . ﴾ .

الإشارة إلى التوبة بشرطها ، وهو القتل ، و (خير) هذا إما (فعل) ، لأن (ضده) وهو عدم التوبة لا خير فيه ، أو أفعل مِن ، لأنّ ضده المشارك له في مطلق الخيرية هو التوبة مع علم قتل الأنفس .

قوله تعالى : ﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ . . . ﴾ .

إما علم أنكم تتوبون ، وإما على المعنى ألهمكم (للتوبة) أو يسرّها لكم .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ هُوَ التواب الرحيم ﴾

قال ابن عرفة : الوصف بالرحيم دليل لنا على المعتزلة في إبطال قاعدة التحسين والتقبيح ، وأن الله تعالى لا يجب عليه شيء لاقتضائها أن توبته على (العصاة) محض رحمة منه وتفضل (لأن) الدليل اقتضى وجوب ذلك عليه ، قال الإمام فخر الدين الرازي .

(143/51)

قال ابن عرفة : يقال : إنه إنما لم يقل : فقتلوا لأن توبتهم (ملزومة) لقتلهم (أنفسهم) ، فلا يبق للقتل بعد ذلك محل ، لأنهم قد ماتوا حين التوبة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عرفة صـ 291.289 ﴾

ومن فوائد أبى حيان فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وإذ قال موسى لقومه يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم ﴾ : عدّ صاحب المنتخب هذا إنعاماً خامساً ، وقيل : هذه الآية وما بعدها منقطعة مما تقدم من التذكير بالنعم ، وذلك لأنه أمر بالقتل ، والقتل لا يكون نعمة ، وضعف بأن من أعظم النعم التنبيه على ما به يتخلصون

من عقاب الذنب العظيم ، وذلك هو التوبة .

وإذا كان قد عدّد عليهم النعم الدنيوية ، فلأن يعدد عليهم النعم الدينية أولى .

ولما لم يكمل وصف هذه النعمة إلا بمقدمة ما تسببت عنه ، قدم ذكر ذلك ، وهذا الخطاب هو محاورة موسى لقومه حين رجع من الميقات ووجدهم قد عبدوا العجل .

واللام في قوله : لقومه ، للتبليغ ، وإقبال موسى عليه بالنداء ، وندائه بلفظ يا قوم ، مشعر بالتحنن عليهم ، وأنه منهم ، وهم منه ، ولذلك أضافهم إلى نفسه ، كما يقول الرجل : يا أخي ، ويا صديقي ، فيكون ذلك سبباً لقبول ما يلقى إليه ، بخلاف أن لو ناداه باسمه ، أو بالوصف القبيح الصادر منه .

وفي ذلك أيضاً هزلهم لقبولهم الأمر بالتوبة ، بعد تقريعهم بأنهم ظلموا أنفسهم ، وأي ظلم أعظم من اتخاذ إله غيره ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ ونص على أنهم ظلموا أنفسهم بذلك لأنه أفحش الظلم ، لأن نفس الإنسان أحب شيء إليه ، فإذا ظلمها ، كان ذلك أفحش من أن يظلم غيره .

ويا قوم : منادى مضاف إلى ياء المتكلم ، وقد حذفت واجتزى بالكسرة عنها ، وهذه اللغة أكثر ما في القرآن .

وقد جاء إثباتها كقراءة من قرأ : يا عبادي فاتقون ، بإثبات الياء ساكنة ، ويجوز فتحها ، فتقول : يا غلامي ، وفتح ما قبلها وقلب الياء ألفاً ، فتقول : يا غلاما .

وأجاز الأخفش حذف الألف والاجتزاء بالفتحة عنها ، فتقول : يا غلام ، وأجازوا ضمه وهو على نية الإضافة فتقول : يا غلام ، تريد : يا غلامي .

وعلى ذلك قراءة من قرأ : قل ﴿ ربّ احكم بالحق ﴾ ﴿ قال ربّ السجن أحب إليّ ﴾ هكذا أطلقوا ، وفصل بعضهم بين أن يكون فعلاً أو اسماً ، إن كان فعلاً فلا يجوز بناؤه على الضم ، ومثل الفعل بمثل : يا ضاربي ، فلا يجيز في هذا يا ضارب ، وظاهر الخطاب اختصاصه بمتخذي العجل .

وقيل : يجوز أن يراد به : من عبد ومن لم يعبد جعلوا ظالمين ، لكونهم لم يمنعوهم ولم يقاتلوهم .

والباء في ﴿ باتخاذكم العجل ﴾ سببية ، واحتمال الوجهين السابقين في قوله : ﴿ ثم اتخذتم العجل ﴾ جاء هنا ، أي بعملكم العجل وعبادته ، أو ﴿ باتخاذكم العجل إلهاً ﴾ .

قال السلمي : عجل كل واحد نفسه ، فمن أسقط مراده وخالف هواه فقد برىء من ظلمه .

﴿ فتوبوا إلى بارئكم ﴾ الفاء في فتوبوا معها التسبيب ، لأن الظلم سبب للتوبة ، ولما كان

السامريّ قد عمل لهم من حليهم عجلاً ، قيل لهم : توبوا إلى بارئكم ، أي منشئكم وموجدكم من العدم ، إذ موجد الأعيان هو الموجد حقيقة .

وأما عمل العجل واتخاذه فليس فيه إبراز الذواب من العدم ، إنما ذلك تأليف تركيبي لا خلق أعيان ، فنبهوا بلفظ الباري على الصانع ، أي الذي أوجدكم هو المستحق للعبادة ، لا الذي صنعه ، مصنوع مثله ، فلذلك ، والله أعلم ، كان ذكر الباري هنا .

وقرأ الجمهور : بظهور حركة الإعراب في بارئكم ، وروي عن أبي عمرو : الاختلاس ، روي ذلك عنه سيبويه ، وروى عنه : الإسكان ، وذلك إجراء للمنفصل من كلمتين مجرى المتصل من كلمة ، فإنه يجوز تسكين مثل إبل ، فأجرى المكسوران في بارئكم مجرى إبل ، ومنع المبرد التسكين في حركة الإعراب ، وزعم أن قراءة أبي عمرو لحن ، وما ذهب إليه ليس بشيء ، لأن أبا عمرو لم يقرأ إلا بأثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(145/51)

ولغة العرب توافقه على ذلك ، فإنكار المبرد لذلك منكر ، وقال الشاعر :

فاليوم أشرب غير مستحقب . . .

إثماً من الله ولا واغل

وقال آخر :

رحت وفي رجليك ما فيهما . . .

وقد بداهنك من المئزر

وقال آخر :

أو نهر تيرى فما تعرفكم العرب . . .

وقد خلط المفسرون هنا في الردّ على أبي العباس ، فأنشدوا ما يدل على التسكين مما ليست حركته حركة إعراب .

قال الفارسي : أما حركة البناء فلم يختلف النحاة في جواز تسكينها ، ومما يدل على صحة قراءة أبي عمرو وما حكاه أبو زيد من قوله تعالى : ﴿ ورسلنا لديهم يكتبون ﴾ وقراءة مسلمة ابن محارب : ﴿ وبعولتهنّ أحقّ بردّهن في ذلك ﴾ وذكر أبو عمرو : أن لغة تميم تسكين المرفوع من يعلمه ونحوه ، ومثل تسكين بارئكم ، قراءة حمزة ، ﴿ ومكر السيئ ﴾ وقرأ الزهريّ : باريكم ، بكسر الياء من غير همز ، وروي ذلك عن نافع .

ولهذه القراءة تخريجان أحدهما : أن الأصل الهمزة ، وأنه من برأ ، فخففت الهمزة بالإبدال المحض على غير قياس ، إذ قياس هذا التخفيف جعلها بين بين .

والثاني : أن يكون الأصل باريكم ، بالياء من غير همز ، ويكون مأخوذاً من قولهم : بريت القلم ، إذا أصلحته ، أو من البري : وهو التراب ، ثم حرك حرف العلة ، وإن كان قياسه

تقديراً لحركة في مثل هذا رفعاً وجراً ، وقال الشاعر :

ويوماً توافينا الهوى غير ماضي . . .

وقال آخر :

ولم تختضب سمر العوالي بالدم . . .

وقال آخر :

خبيث الثرى كأبي الأزيد . . .

وهذا كله تعليل شذوذ .

وقد ذكر الزمخشري في اختصاص ذكر البارىء هنا كلاماً حسناً هذا نصه .

(146/51)

فإن قلت : من أين اختص هذا الموضع بذكر البارىء ؟ قلت : البارىء هو الذي خلق الخلق بريئاً من التفاوت ، ﴿ ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت ﴾ ومتميزاً بعضه من بعض بالأشكال المختلفة والصور المتباينة ، فكان فيه تقريع بما كان منهم من ترك عبادة العالم الحكيم الذي برأهم بلطيف حكمته على الأشكال المختلفة ، أبرياء من التفاوت والتنافر إلى عبادة البقر التي هي مثل في الغباوة والبلادة .

في أمثال العرب : أبلد من ثور ، حتى عرضوا أنفسهم لسخط الله ونزول أمره بأن يفك ما ركبه من خلقهم وينثر ما نظم من صورهم وأشكالهم حين لم يشكروا النعمة في ذلك وغبطوها بعبادة من لا يقدر على شيء منها ، انتهى كلامه .

﴿ فاقتلوا أنفسكم ﴾ : ظاهر هذا أنه القتل المعروف من إزهاق الروح .

فظاهره أنهم يباشرون قتل أنفسهم .

والأمر بالقتل من موسى على نبينا وعليه السلام لا يكون إلا بوحي من الله تعالى ، إما بكونه كانت التوراة في شريعته متقررة بقتل النفس ، وإما بكونه أمر ذلك بأمر متجدد عقوبة لهؤلاء الذين عبدوا العجل ، والمأمور بقتل أنفسهم عبّاد العجل ، أو من عبد ومن لم يعبد .

والمعنى : اقتلوا الذين عبدوا العجل من أهلكم ، كقوله : ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم ﴾ أي من أهلكم وجلدتكم ، أو الجميع مأمورون بقتل أنفسهم ، ثلاثة أقوال .

وقال ابن إسحاق : أمروا بأن يستسلموا للقتل ، وسمي الاستسلام للقتل قتلاً على سبيل المجاز .

وقيل : معنى فاقتلوا أنفسكم : ذللوا أهواءكم .

وقد قدمنا أن التقتيل بمعنى التذليل ، ومنه أيضاً قول حسان :

إن التي عاطيتني فرددتها . . .

قتلت قتلت فهاتها لم تقتل

فتلخص في قوله : ﴿ فاقتلوا ﴾ ، ثلاثة أقوال : الأول : الأمر بقتل أنفسهم .

الثاني : الاستسلام للقتل .

والثالث : التذليل للأهواء .

والأول هو الظاهر ، وهو الذي نقله أكثر الناس .

وظاهر الكلام أنهم هم المأمورون بقتل أنفسهم ، فقيل : وقع القتل هكذا قتلوا أنفسهم بأيديهم .

(147/51)

وقيل : قتل بعضهم بعضاً من غير تعيين قاتل ولا مقتول .

وقيل : القاتلون هم الذين اعتزلوا مع هارون ، والمقتولون عباد العجل .

وقيل : القاتلون هم الذين كانوا مع موسى في المناجاة بطور سيناء ، والمقتولون من عداهم .

وإذا قلنا : إن بعضهم قتل بعضاً ، فاختلفوا في كيفية القتل ، فقيل : اصطفوا صفين ، فاجتلدوا بالسيوف والخناجر ، فقتل بعضهم بعضاً حتى قيل لهم : كفوا ، فكان ذلك شهادة للمقتول ، وتوبة للقاتل ، وقيل : أرسل الله عليهم ظلاماً ففعلوا ذلك .

وقيل : وقف عباد العجل صفاً ، ودخل الذين لم يعبدوه عليهم بالسلاح فقتلوهم .

وقيل : احتبى عباد العجل في أفنية دورهم ، أو في موضع غيره ، وخرج عليهم يوشع بن نون وهم محتبون فقال : ملعون من حل حبوته ، أو مد طرفه إلى قاتله ، أو اتقاه بيد أو رجل ، فيقولون : آمين .

فما حل أحد منهم حبوته حتى قتل منهم سبعون ألفاً .

وفي رواية ، قال لهم : من حل حبوته لم تقبل توبته ، ولم يذكر اللعنة .

وقيل : إن الرجل كان يبصر ولده ووالده وجاره وقريبه ، فلم يمكنهم المضي لأمر الله ، فأرسل الله ضبابة وسحابة سوداء لا يتباصرون تحتها ، وأمروا أن يحتبوا بأفنية بيوتهم ، ويأخذ الذين لم يعبدوا العجل سيوفهم ، وقيل لهم : أصبروا ، فلعن الله من مد طرفه ، أو حل حبوته ، أو اتقى بيد أو رجل ، فيقولون : آمين ، فقتلوهم إلى المساء ، حتى دعا موسى وهارون ، قالا : يا رب ! هلكت بنو إسرائيل البقية البقية ، فكشفت السحابة ونزلت التوبة ، فسقطت الشفار من أيديهم ، وكانت القتلى سبعين ألفاً .

انتهى ما نقلناه من بعض ما أورده المفسرون في كيفية القتل وفي القاتلين والمقتولين .

وفي ذلك من الاتعاظ والاعتبار ما يوجب مبادرة الازدجار عن مخالفة الملك القهار .

وانظر إلى لطف الله بهذه الملة المحمدية ، إذ جعل توبتها في الإقلاع عن الذنب ، والندم عليه ، والعزم على عدم المعاودة إليه .

والفاء في قوله : ﴿ فاقتلوا أنفسكم ﴾ ، إن قلنا : إن التوبة هي نفس القتل ، وأن الله تعالى جعل توبتهم قتل أنفسهم ، فتكون هذه الجملة بدلاً من قوله ، فتوبوا ، والفاء كهي في فتوبوا معها السببية .

وإن قلنا : إن القتل هو تمام توبتهم ، فتكون الفاء للتعقيب ، والمعنى فأتبعوا التوبة القتل ، تتمة لتوبتكم .

وقد أنكر في المنتخب كون القتل يكون توبة وجعل القتل شرطاً في التوبة ، فأطلق عليه مجازاً ، كما يقال للغاصب إذا قصد التوبة : توبتك رد ما غصبت ، يعني أنه لا تتم توبتك إلا به ، فكذلك هنا .

وتعدية التوبة بإلى معناه الانتهاء بها إلى الله ، فتكون بريئة من الرياء في التوبة ، لأنهم إن راءوا بها لم تكن إلى الله .

ولا يلتفت إلى ما وقع في المنتخب من أن المفسرين أجمعوا على أنهم ما قتلوا أنفسهم بأيديهم ، إذ قد نقلنا أن منهم من قال ذلك ، فليس بإجماع .

وأما منع عبد الجبار ذلك من جهة العقل ، بأن القتل هو نقض البنية التي عنده ، يجب أن يخرج من أن يكون حياً ، وما عدا ذلك إنما يسمى قتيلاً على سبيل المجاز ، قال : وهذا لا يجوز أن يأمر الله به ، لأن العبادات الشرعية إنما تحسن لكونها مصالح لذلك المكلف ، ولا

يكون مصلحة إلا في الأمور المستقبلة ، وليس بعد القتل حال تكليف حتى يكون القتل مصلحة فيه ، وهذا بخلاف ما يفعله الله من الإماتة ، لأن ذلك من فعل الله تعالى ، فيحسن أن يفعله إذا كان صلاحاً لمكلف آخر ، وبخلاف أن يأمر الله بأن يجرح نفسه أو يقطع عضواً من أعضائه ، ولا يحصل الموت عقيبه ، لأنه لما بقي بعد ذلك الفعل حياً لم يمتنع أن يكون ذلك الفعل صلاحاً في الأفعال المستقبلة .

انتهى كلامه ، وهو مبني على قاعدتهم في الاعتزال من مراعاة المصلحة .

(149/51)

والكلام معهم في ذلك مذكور في أصول الدين ، مع أنه يمكن أن يقال هنا بالمصلحة ، لأن الأمر بالقتل ليس إلا من باب الزواجر والروادع ، وليس من شرط ذلك اعتبار حال المكلف ، بل يصنع الزواجر لازدجار غيره .

وإذا فعل مثل هذا الفعل العظيم الذي هو القتل بمن عبد العجل ، اتعظ به غيره وانكف عن الوقوع فيما لا يكون التوبة منه إلا بالقتل .

وقرأ قتادة فيما نقل المهدوي وابن عطية والتبريزي وغيرهم : فأقيلوا أنفسكم وقال الثعلبي : قرأ قتادة : فاقتلوا أنفسكم .

فأما فاقيلوا ، فهو أمر من الإقالة ، وكأنّ المعنى : أن أنفسكم قد تورطت في عذاب الله بهذا الفعل العظيم الذي تعاطيتموه من عبادة العجل ، وقد هلكت فأقيلوها بالتوبة والتزام الطاعة ، وأزيلوا آثار تلك المعاصي بإظهار الطاعات .

وأما فاقتالوا أنفسكم ، فقالوا : هو افتعل بمعنى استفعل ، أي فاستقيلوها ، والمشهور استقال لا اقتال .

قال ابن جني : يضعف أن يكون عينها واواً كاقتادوا ، ويحتمل طأن تكون ياء كأقياس ، والتصريف يضعف أن يكون من الاستقالة ، كما قال ابن جني ، فهذه اللفظة لا شك مسموعة بدليل نقل قتادة لها ويكون مما جاءت فيه افتعل بمعنى استفعل ، وهو أحد المعاني التي جاءت لها افتعل ، وذلك نحو : اعتصم واستعصم .

قال السلميّ : فتوبوا إلى بارئكم .

ارجعوا إليه بأسراركم وقلوبكم ، فاقتلوا أنفسكم بالتبري منها ، فإنها لا تصلح لبساط الإنس .

وقال الواسطي : كانت توبة بني إسرائيل قتل أنفسهم ، ولهذه إلامة أشد ، وهو إفناء نفوسهم عن مرادها مع بقاء رسوم الهياكل .

وقال فارس : التوبة محو البشرية بمباينات الإلهية .

وقيل : توبوا إليه من أفعالكم وأقوالكم وطاعاتكم ، واقتلوا أنفسكم في طاعاته ، وقتل

النفس عما دون الله وعن الله بالفراغ من طلب الجزاء حتى ترجع إلى أصل العدم ، ويبقى الحق كما لم يزل .

(150/51)

وقال بعض أهل اللطائف : التوبة بقتل النفس غير منسوخة ، لأن بني إسرائيل كان لهم قتل أنفسهم جهراً ، وهذه الإمة قتل أنفسهم في أنفسهم ، وأول قدم في القصد إلى الله الخروج عن النفس توهم الناس أن توبة بني إسرائيل كانت أشق ، ولا كما توهموا ، فإن ذلك كان مقاساة القتل مرة ، وأما أهل الخصوص ففي كل لحظة قتل ، قال الشاعر :

ليس من مات فاستراح بميت . . .

إنما الميت ميت الأحياء

﴿ ذلكم ﴾ : إشارة إلى المصدر المفهوم من قوله : فاقتلوا ، لأنه أقرب مذكور ، أي القتل :

﴿ خير لكم ﴾ وقال بعضهم : هو إشارة إلى المصدرين المفهومين من قوله : فتوبوا واقتلوا ، فأوقع المفرد موقع التثنية ، أي فالتوبة والقتل خير لكم ، فيكون مثل قولهم في قوله تعالى :

﴿ عوان بين ذلك ﴾ أي بين ذينك أي الفارض والبكر ، وكذلك قوله :

إن للخير وللشر مدى . . .

وكلا ذلك وجه وقبل

أي : وكلا ذينك ، وهذا ينبني على ما قدمناه من أن قوله : فاقتلوا ، هل هو تفسير للتوبة ؟ فتكون التوبة هي القتل .

فينبغي أن يكون ذلكم مفرداً أشير به إلى مفرد ، وهو القتل ، أو يكون القتل مغايراً للتوبة ، فيتحتمل هذا الذي قاله هذه القائل ، ولكن الأرجح خير ، إن كانت للتفضيل فقيل : المعنى خير من العصيان والأصرار على الذنب .

وقيل : خير من ثمرة العصيان ، وهو الهلاك الذي لهم ، إذ الهلاك المتناهي خبر من الهلاك غير المتناهي ، إذ الموت لا بد منه ، فليس فيه إلا التقديم والتأخير .

وكلا هذين التوجيهين ليس التفضيل على بابه ، إذ العصيان والهلاك غير المتناهي لا خير فيه ، فيوصف غيره بأنه أزيد في الخيرية عليه ، ولكن يكون على حد قولهم : العسل أحلى من الخل .

ويحتمل أن لا يكون للتفضيل بل أريد به خير من الخيور .

لكم : متعلق بخير إن كان للتفضيل ، وإن كانت على أنها خير من الخيور فيتعلق بمحذوف ، أي خير كائن لكم .

والتخريجان يجريان في نصب قوله : ﴿ عند بارئكم ﴾ .

والعندية هنا مجاز ، إذ هي ظرف مكان وتجوّز به عن معنى حصول ثوابهم من الله تعالى .

وكرر البارىء باللفظ الظاهر توكيداً ، ولأنها جملة مستقلة فناسب الإظهار ، وللتنبيه على أن هذا الفعل هو راجح عند الذي أنشأكم ، فكما رأى أن إنشاءكم راجح ، رأى أن إعدامكم بهذا الطريق من القتل راجح ، فينبغي التسليم له في كل حال ، وتلقي ما يرد من قبله بالقبول والامتثال .

﴿ فتاب عليكم ﴾ : ظاهره أنه إخبار من الله تعالى بالتوبة عليهم ، ولا بد من تقدير محذوف عطفت عليه هذه الجملة ، أي فامتثلتم ذلك فتاب عليكم .

وتكون هاتان الجملتان مندرجتين تحت الإضافة إلى الظرف الذي هو : إذ في قوله : ﴿ وإذ قال موسى لقومه ﴾ .

وأجاز الزمخشري أن يكون مندرجاً تحت قول موسى على تقدير شرط محذوف ، كأنه قال : فإن فعلتم فقد تاب عليكم ، فتكون الفاء إذ ذاك رابطة لجملة الجزاء بجملة الشرط المحذوفة ، هي وحرف الشرط ، وما ذهب إليه الزمخشري لا يجوز ، وذلك أن الجواب يجوز حذفه كثيراً للدليل عليه .

وأما فعل الشرط وحده دون الأداة فيجوز حذفه إذا كان منفياً بلا في الكلام الفصيح ، نحو قوله :

فطلقها فلست لها بكفؤ . . .

وإن لا يعل مفرقك الحسام

التقدير : وأن لا تطلقها يعل ، فإن كان غير منفي بلا ، فلا يجوز ذلك إلا في ضرورة ، نحو قوله :

سقته الرواعد من صيف وإن . . .

من خريف فلن يعدما

التقدير : وإن سقته من خريف فلن يعدم الري ، وذلك على أحد التخريجين في البيت ، وكذلك حذف فعل الشرط وفعل الجواب دون أن يجوز في الضرورة ، نحو قوله :

قالت بنات العمّ يا سلمى وإن . . .

كان عيياً معدماً قالت وإن

التقدير : وإن كان عيياً معدماً أتزوجه .

وأما حذف فعل الشرط وأداة الشرط معاً ، وإبقاء الجواب ، فلا يجوز إذا لم يثبت ذلك من كلام العرب .

وأما جزم الفعل بعد الأمر والنهي وأخواتهما فله .

ولتعليل ما ذكرنا من الأحكام مكان آخر يذكر في علم النحو .

وظاهر قوله : ﴿ فتاب عليكم ﴾ أنه كما قلنا : إخبار عن المأمورين بالقتل الممتثلين ذلك .

وقال ابن عطية : معناه على الباقين ، وجعل الله القتل لمن قتل شهادة ، وتاب على الباقين وعفا عنهم ، انتهى كلامه .

﴿ إنه هو التواب الرحيم ﴾ : تقدم الكلام على هذه الجملة عند قوله تعالى في قصة آدم : ﴿ فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم ﴾ فأغنى ذلك عن إعادته هنا . انتهى انتهى . اهـ

﴿ البحر المحيط حـ 1 صـ 264. 270 ﴾

ومن فوائد البيضاوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَإِذْ قَالَ موسى لِقَوْمِهِ يا قوم إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ باتخاذكم العجل فَتُوبُواْ إِلى بَارِئِكُمْ ﴾ فاعزموا على التوبة والرجوع إلى من خلقكم براءٍ من التفاوت ، ومميزاً بعضكم عن بعض بصور وهيئات مختلفة ، وأصل التركيب لخلوص الشيء عن غيره ، إما على سبيل التقصي كقولهم بريء المريض من مرضه والمديون من دينه ، أو الإنشاء كقولهم برأ الله آدم من الطين أو فتوبوا .

﴿ فاقتلوا أَنفُسَكُمْ ﴾ إتماماً لتوبتكم بالبخع ، أو قطع الشهوات كما قيل من لم يعذب نفسه لم ينعمها ومن لم يقتلها لم يحيها . وقيل أمروا أن يقتل بعضهم بعضاً . وقيل أمر من لم يعبد العجل

أن يقتل العبدة . روي أن الرجل كان يرى بعضه وقريبه فلم يقدر على المضي لأمر الله ، فأرسل الله ضبابة وسحابة سوداء لا يتباصرون ، فأخذوا يقتتلون من الغداة إلى العشي حتى دعا موسى وهارون فكشفت السحابة ونزلت التوبة ، وكانت القتلى سبعين ألفاً . والفاء الأولى للتسبب ، والثانية للتعقيب .

﴿ ذلكم خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ ﴾ من حيث إنه طهرة من الشرك ، ووصلة إلى الحياة الأبدية والبهجة السرمدية .

(153/51)

﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ﴾ متعلق بمحذوف إن جعلته من كلام موسى عليه السلام لهم تقديره : إن فعلتم ما أمرتم به فقد تاب عليكم ، أو عطف على محذوف إن جعلته خطاباً من الله تعالى لهم على طريقة الالتفات ، كأنه قال : ففعلتم ما أمرتم به فتاب عليكم بارئكم . وذكر البارئ وترتيب الأمر عليه إشعار بأنهم بلغوا غاية الجهالة والغباوة ، حتى تركوا عبادة خالقهم الحكيم إلى عبادة البقر التي هي مثل في الغباوة ، وأن من لم يعرف حق منعمه حقيق بأن لا يسترد منه ، ولذلك أمروا بالقتل وفك التركيب .

﴿ إِنَّهُ هُوَ التواب الرحيم ﴾ للذي يكثر توفيق التوبة ، أو قبولها من المذنبين ، ويبالغ في الإنعام

عليهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 1 صـ 324. 325 ﴾

ومن فوائد ابن كثير فى الآية

قال رحمه الله :

قال الحسن البصري ، رحمه الله ، في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ ﴾ فقال : ذلك حين وقع في قلوبهم من شأن عبادتهم العجل ما وقع حين قال الله تعالى : ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا ﴾ الآية [الأعراف : 149] .

قال : فذلك حين يقول موسى : ﴿ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ ﴾

وقال أبو العالية ، وسعيد بن جبير ، والربيع بن أنس : ﴿ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ ﴾ أي إلى خالقكم .

قلت : وفي قوله ها هنا : ﴿ إِلَى بَارِئِكُمْ ﴾ تنبيه على عظم جرمهم ، أي : فتوبوا إلى الذي خلقكم وقد عبدتم معه غيره .

(154/51)

وروى النسائي وابن جرير وابن أبي حاتم ، من حديث يزيد بن هارون ، عن الأصبغ بن زيد الوراق عن القاسم بن أبي أيوب ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، قال : قال الله تعالى : إن توبتهم أن يقتل كل واحد منهم كل من لقي من ولد ووالد فيقتله بالسيف ، ولا يبالي من قتل في ذلك الموطن . فتاب أولئك الذين كانوا خفي على موسى وهارون ما اطلع الله من ذنوبهم ، فاعترفوا بها ، وفعلوا ما أمروا به فغفر الله تعالى للقاتل والمقتول . وهذا قطعة من حديث الفُتُون ، وسيأتي في تفسير سورة طه بكماله ، إن شاء الله (1) .

وقال ابن جرير : حدثني عبد الكريم بن الهيثم ، حدثنا إبراهيم بن بَشَّار ، حدثنا سفيان بن عيينة ، قال : قال أبو سعيد : عن عكرمة ، عن ابن عباس ، قال : قال موسى لقومه : ﴿ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ قال : أمر موسى قومه – من أمر ربه عز وجل – أن يقتلوا أنفسهم قال : واحتبى الذين عبدوا العجل فجلسوا ، وقام الذين لم يعكفوا على العجل ، فأخذوا الخناجر بأيديهم ، وأصابتهم ظُلَّة شديدة ، فجعل يقتل بعضهم بعضا ، فانجلت الظُّلَّة عنهم ، وقد أجلوا عن سبعين ألف قتيل ، كل من قتل منهم كانت له توبة ، وكل من بقي كانت له توبة .

وقال ابن جُرَيْج : أخبرني القاسم بن أبي بَزَّة أنه سمع سعيد بن جبير ومجاهدًا يقولان في قوله تعالى : ﴿ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ قالا قام بعضهم إلى بعض بالخناجر فقتل بعضهم بعضًا ، لا

يحنو رجل على قريب ولا بعيد ، حتى ألوى موسى بثوبه ، فطرحوا ما بأيديهم ، فكُشِفَ عن سبعين ألف قتيل . وإن الله أوحى إلى موسى : أن حَسْبي ، فقد اكتفيت ، فذلك حين ألوى موسى بثوبه ، [وروي عن علي رضي الله عنه نحو ذلك] .

---

(1) وهو في سنن النسائي الكبرى برقم (11326) وسيأتي عند الموضع الذي أشار إليه الحافظ ابن كثير .

(155/51)

وقال قتادة : أمر القوم بشديد من الأمر ، فقاموا يتناحرون بالشفار يقتل بعضهم بعضا ، حتى بلغ الله فيهم نقمته ، فسقطت الشفار من أيديهم ، فأمسك عنهم القتل ، فجعل لحيهم توبة ، وللمقتول شهادة .

وقال الحسن البصري : أصابتهم ظلمة حنْدس ، فقتل بعضهم بعضا [نقمة] ثم انكشف عنهم ، فجعل توبتهم في ذلك .

وقال السدي في قوله : ﴿ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ﴾ قال : فاجتلد الذين عبدوه والذين لم يعبدوه بالسيوف ، فكان من قُتِل من الفريقين شهيدًا ، حتى كثر القتل ، حتى كادوا أن يهلكوا ، حتى قتل بينهم سبعون ألفًا ، وحتى دعا موسى وهارون : ربنا أهلكت بني إسرائيل ، ربنا

البقيةَ البقيةَ ، فأمرهم أن يضعوا السلاح وتاب عليهم ، فكان من قتل منهم من الفريقين شهيدًا ، ومن بقي مُكَفّرا عنه ؛ فذلك قوله : ﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾

وقال الزهري : لما أمرت بنو إسرائيل بقتل أنفسها ، برزوا ومعهم موسى ، فاضطربوا بالسيوف ، وتطاعنوا بالخناجر ، وموسى رافع يديه ، حتى إذا أفنوا بعضهم ، قالوا : يا نبي الله ، ادع الله لنا . وأخذوا بعضُديه يسندون يديه ، فلم يزل أمرهم على ذلك ، حتى إذا قبل الله توبتهم قبض أيديهم ، بعضهم عن بعض ، فألقوا السلاح ، وحزن موسى وبنو إسرائيل للذي كان من القتل فيهم ، فأوحى الله ، جل ثناؤه ، إلى موسى : ما يحزنك ؟ أما من قتل منكم فحي عندي يرزقون ، وأما من بقي فقد قبلت توبته . فسُرّ بذلك موسى ، وبنو إسرائيل .

(156/51)

رواه ابن جرير بإسناد جيد عنه .

وقال ابن إسحاق : لما رجع موسى إلى قومه ، وأحرق العجل وذرّاه في اليم ، خرج إلى ربه بمن اختار من قومه ، فأخذتهم الصاعقة ، ثم بُعثوا ، فسأل موسى ربه التوبة لبني إسرائيل من عبادة العجل . فقال : لا إلا أن يقتلوا أنفسهم قال : فبلغني أنهم قالوا لموسى : نَصبر لأمر

الله . فأمر موسى من لم يكن عبد العجل أن يَقْتُل من عبده . فجلسوا بالأفنية وأصْلَتَ عليهم القومُ السيوف ، فجعلوا يقتلونهم ، وبكى موسى ، وَبَهَش إليه النساء والصبيان ، يطلبون العفو عنهم ، فتاب الله عليهم ، وعفا عنهم وأمر موسى أن ترفع عنهم السيوف .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : لما رجع موسى إلى قومه ، وكان سبعون رجلا قد اعتزلوا مع هارون العجل لم يعبدوه . فقال لهم موسى : انطلقوا إلى موعد ربكم . فقالوا : يا موسى ، ما من توبة ؟ قال : بلى ، ﴿ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ﴾ الآية ، فاخترطوا السيوف والجرزَة والخناجر والسكاكين . قال : وبعث عليهم ضبابة . قال : فجعلوا يتلامسون بالأيدي ، ويقتل بعضهم بعضاً . قال : ويلقى الرجل أباه وأخاه فيقتله ولا يدري . قال : ويتنادون [فيها] : رحم الله عبدا صبر نفسه حتى يبلغ الله رضاه ، قال : فقتلاهم شهداء ، وتيب على أحيائهم ، ثم قرأ : ﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن كثير حـ 1 صـ 261 . 263 ﴾

(157/51)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (54) ﴾

يذكّر الله تبارك وتعالى بني إسرائيل بقصة عبادة العجل . وهي قصة مخالفة خطيرة لمنهج الله ومخالفة في القمة . . عبادة الله وحده . والذي حدث أن موسى عليه السلام ذهب لميقات الله ومعه نقباء قومه ليتلقى المنهج والتوراة . . وأخبره الله سبحانه وتعالى أن قومه قد ضلوا وعبدوا غير الله . . وعاد موسى وهو في قمة الغضب . وأمسك بأخيه هارون يجره من رأسه ولحيته . . ويقول له لقد اخلفتك عليهم لكيلا يضلوا ، فقال هارون عليه السلام : ﴿ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَآءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾ [طه : 94]

فتنة عبادة العجل حدثت بسبب السامري . . والسامري اسمه موسى السامري ولدته أمه في الصحراء وماتت فكفله جبريل ورباه . . وكان جبريل عليه السلام يأتيه على حصان . . يحمل له ما يحتاج إليه من طعام وشراب ، وكان موسى السامري يرى حصان جبريل ، كلما مشى على الأرض وقع منه تراب فتخضر وتنبت الأرض بعد هذا التراب . وأيقن أن في حافر الحصان سرّاً . . فأخذ قبضة من أثر الحصان ووضعها في العجل المصنوع من الذهب . فأخذ يحدث خوارا كأنه حي . .

ولا تتعجب من أن صاحب الفتنة يجد معونة من الأسباب حتى يفتن بها الناس . . لأن الله تبارك وتعالى يريد أن يمتحن خلقه . والذي يحمل دعوة الحق لابد أن يهيئه الله سبحانه وتعالى تهيئة خاصة . ورسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن ينتقل إلى المدينة . . تعرض هو والمسلمون لابتلاءات كثيرة . . ولقد جاء حدث الإسراء والمعراج لرسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن تخلت عنه أسباب الدنيا في مكة وذهب إلى الطائف يدعو أهلها فسلطوا عليه غلمانهم وسفهاءهم فقذفوه بالحجارة حتى أدموا قدميه الشريفتين . . ورفع يديه إلى السماء بالدعاء المأثور :

" اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس " .

وليس هذا على الرسول وحده بل والمؤمنين معه . . حتى أن مصعب بن عمير فتى قريش المدلل . . الذي كان عنده من الملابس والأموال والعبيد ما لا يعد ولا يحصى رئي بعد إسلامه وهو يرتدي جلد حمار وذلك حتى يختبر الحق سبحانه وتعالى في قلب مصعب بن عمير حبه للإيمان . . هل يحب الدنيا أكثر أو يحب الله ورسوله أكثر . . حتى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم . كان يقول للصحابة انظروا كيف فعل الإيمان بصاحبكم .

والله تبارك وتعالى لابد أن يمحص ويختبر أولئك الذين سيحملون دعوته إلى الدنيا كلها . . لابد أن يكونوا صابرين على البلاء . أقوياء أمام خصوم الدعوة . . مستعدين لتحمل

الأعباء والآلام.

. لأن هذا هو دليل الصدق في الإيمان . .

(159/51)

ولذلك تجد كل دعوة ضلال تأتي بالفائدة لأصحابها . . دعوة الشيوعية يستفيد منها أعضاء اللجنة المركزية . . أما الشعب فإنه يرتدي ملابس رخيصة . . ويسكن في بيوت ضيقة . أما السادة الذين ينفقون بلا حساب فهم أعضاء اللجنة المركزية . . هذه دعوة الباطل . . وعكس ذلك دعوة الحق . . صاحب الدعوة هو الذي يدفع أولا ويضحي أولا . لا ينتفع بما يقول بل على العكس يضحي في سبيل ما يقول . . إذن الباطل يأتي بالخير لصاحب الدعوة . فإذا رأيت دعوة تغدق على أتباعها فأعلم أنها دعوة باطل . . لولا أنها أعطت بسخاء ما تبعها أحد .

والآية الكريمة التي نحن بصددها هي تقريع من موسى عليه السلام لقومه . . الذين نجاهم الله من آل فرعون وأهلك عدوهم فاتخذوا العجل إلها . . ومتى حدث ذلك ؟ في الوقت الذي كان موسى فيه قد ذهب لميقات ربه ليأتي بالمنهج . . والذين اتخذوا العجل إلها . . هل ظلموا الله سبحانه وتعالى أو ظلموا أنفسهم ؟ . . ظلموا أنفسهم لأنهم أوردوها مورد

التهلكة دون أن يستفيدوا شيئا . . والظالم على أنواع . . ظالم في شيء أعلى أي في القمة . . وظالم في مطلوب القمة . . الظالم في القمة هو الذي يجعل الله شريكا ولذلك قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان : 13]

(160/51)

وعلاقة الشرك بالظلم أنك جئت بمن لم يخلق ومن لم يرزق شريكا لمن خلق ورزق . . وذلك الذي جعلته إلها كيف يعبد ؟ . . العبادة طاعة العابد للمعبود . . فماذا قال لكم هذا العجل الذي عبدتموه من دون الله أن تفعلوا . . لذلك فأنتم ظالمون ظلم القمة . . والظلم الآخر هو الظلم فيما شرعت القمة . . بأن أخذتم حقوق الناس واستبحتموها . . في كلتا الحالتين لا يقع الظلم على الله سبحانه وتعالى ولكن على نفسك . لماذا ؟ . . لأنك آمنت بالله أو لم تؤمن . سيظل هو الله القوي القادر العزيز . لن يُنْقصَ إيمانك أو عدم إيمانك من ملكه شيئا . ثم تأتي يوم القيامة فيعذبك . فكأن الظلم وقع عليك . . وإذا أخذت حقوق الناس فقد تتمتع بها أياما أو أسابيع أو سنوات ثم تموت وتتركها وتأخذ العذاب . فكأنك ظلمت نفسك ولم تأخذ شيئا . . لذلك يقول الحق جل جلاله : ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَاكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [البقرة : 57]

وظلم الناس يعود على أنفسهم . . لأنه لا أحد من خلق الله يستطيع أن يظلم الله سبحانه وتعالى . . وقوله سبحانه ﴿ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ ﴾ . . الحق تبارك وتعالى قال في الآية السابقة " عفونا عنكم " ثم يقول هذه الآية ﴿ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ ﴾ . . لأن التوبة هي أصل المغفرة . أنت تتوب عن فعلك للذنب وتعتزم ألا تعود لمثله أبدا ويقبل الله توبتك ويعفو عنك .

.

(161/51)

وقد كان من الممكن أن يأخذهم الله بهذا الذنب ويهلكهم كما حدث بالنسبة للأمم السابقة . . أما وقد شرع الله لهم أن يتوبوا . فهذا فضل من الله وعفو . . ثم يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ﴾ . . فانظروا إلى دقة التكليف ودقة الحيثية في قوله تعالى : ﴿ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ﴾ الله سبحانه وتعالى يقول لهم . . أنا لم أغلب عليكم خالقا خلقكم أو آخذكم منه . . ولكن أنا الذي خلقتكم . ولكن الخالق شيء والبارئ شيء آخر . . خلق أي أوجد الشيء من عدم . . والبارئ أي سَوَّاهُ على هيئة مستقيمة وعلى أحسن تقويم . . ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ الَّذِي خَلَقَ

فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴾ [الأعلى : 2-3]

ومن هنا نعرف أن الخلق شيء والتسوية شيء آخر . . بارئكم مأخوذة من برئ السهم . .

وبرئ السهم يحتاج إلى دقة وبراعة .

وقوله تعالى : ﴿ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ﴾ لأن الذي خلقك وسواك كفرت به وعبدت سواه .

فكأنك في هذه الحالة لابد أن تعيد له الحياة التي وهبها لك . . وعندما نزل حكم الله تبارك وتعالى . . جعل موسى بني إسرائيل يقفون صفوفا . وقال لهم أن الذي لم يعبد العجل يقتل من عبده . . ولكنهم حين وقفوا للتنفيذ . كان الواحد منهم يجد ابن عمه وأخاه وذوي رحمه أمامه فيشق عليه التنفيذ . . فرحمهم الله بأن بعث ضبابا يسترهم حتى لا يجدوا مشقة في تنفيذ القتل . . وقيل أنهم قتلوا من أنفسهم سبعين ألفا .

وعندما حدث ذلك أستصرخ موسى وهارون ربهم . . وقالا البكية البكية . أي أبكوا عسى أن يعفو الله عنهم . ووقفوا يبكون أمام حائط المبكى فرحمهم الله . .

وقوله تعالى : ﴿ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ﴾ لأن هذه الأنفس بشهوتها وعصيانها . . هي التي جعلتهم يتمردون على المنهج . .

إن التشريع هنا بالقتل هو كفارة الذنب . لأن الذي عبد العجل واتخذ إلها آخر غير الله . كونه يقدم نفسه ليقتل فهذا اعتراف منه بأن العجل الذي كان يعبده باطل . . وهو بذلك يعيد نفسه التي تمردت على منهج الله إلى العبادة الصحيحة . . وهذا أقسى أنواع الكفارة . . وهو أن يقتل نفسه إثباتا لإيمانه . . بأنه لا إله إلا الله وندما على ما فعل وإعلانا لذلك . . فكأن القتل هنا شهادة صادقة للعودة إلى الإيمان .

وقوله تعالى ﴿ ذَالِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ ﴾ . . أي أن هذه التوبة هي أصدق أنواع التوبة . . وهي خير لأنها تنجيكم من عذاب الآخرة . . وقوله سبحانه ﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ . التوبة الأولى أنه شرع لكم الكفارة . . والتوبة الثانية عندما تقبل منكم توبتكم . . وعفا عنكم عفوا أبديا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 344.340 ﴾

(163/51)

فصل

قال السيوطى :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ

﴿ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (54) ﴾

أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : أمر موسى قومه عن أمر ربه أن يقتلوا أنفسهم ، واحتبى الذين عكفوا على العجل فجلسوا ، وقام الذين لم يعكفوا على العجل فأخذوا الخناجر بأيديهم ، وأصابتهم ظلمة شديدة فجعل يقتل بعضهم بعضاً ، فانجلت الظلمة عنهم وقد أجلوا عن سبعين ألف قتيل ، كل من قتل منهم كانت له توبة ، وكل من بقي كانت له توبة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن علي قال : قالوا لموسى : ما توبتنا ؟ قال : يقتل بعضكم بعضاً ، فأخذوا السكاكين فجعل الرجل يقتل أخاه وأباه وابنه – والله لا يبالي من قتل – حتى قتل منهم سبعون ألفاً ، فأوحى الله إلى موسى : مرهم فليرفعوا أيديهم وقد غفر لمن قتل ، وتيب على من بقي .

وأخرج عبد حميد عن قتادة في قوله ﴿ إنكم ظلمتم أنفسكم . . . ﴾ الآية . قال : أمر القوم بشديدة من البلاء ، فقاموا يتناحرون بالشفار ، ويقتل بعضهم بعضاً ، حتى بلغ الله نقمته فيهم وعقوبته ، فلما بلغ ذلك سقطت الشفار من أيديهم وأمسك عنهم القتل ، فجعله الله للحي منهم توبة وللمقتول شهادة .

وأخرج أحمد في الزهد وابن جرير عن الزهري قال : لما أمرت بنو إسرائيل بقتل أنفسها برزوا ومعهم موسى ، فاضطربوا بالسيوف وتطاعنوا بالخناجر وموسى رافع يديه ، حتى إذا أفنوا بعضهم قالوا : يا نبي الله ادع لنا ، وأخذوا بعضديه فلم يزل أمرهم على ذلك حتى إذا قبل الله توبتهم قبض أيديهم بعضهم عن بعض ، فألقوا السلاح وحزن موسى وبنو إسرائيل للذي كان من القتل فيهم ، فأوحى الله إلى موسى : ما يحزنك . . . ؟ أما من قتل منكم فحي عندي يرزق ، وأما من بقي فقد قبلت توبته . فسر بذلك موسى وبنو إسرائيل .

وأخرج الطستي عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق قال له : أخبرني عن قوله عز وجل ﴿ إلى بارئكم ﴾ قال : خالقكم . قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم . أما سمعت قول تبع :

شهدت على أحمد أنه . . . رسول من الله باري النسم

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية في قوله ﴿ إلى بارئكم ﴾ قال : خالقكم .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد قال : كان أمر موسى قومه عن أمر ربه أن يقتل بعضهم بعضاً بالخناجر ، ففعلوا فتاب الله عليهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 1 صـ 169.168 ﴾

"فوائد بلاغية"

قال فى صفوة التفاسير :

البلاغة :

أولا : قال ابن جزي : [يسومونكم سوء العذاب] أي يلزمونكم به وهو استعارة من السوم في البيع ، وفسر سوء العذاب بقوله : [يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم] ولذلك لم يعطفه هنا بالواو ، وعطفه في إبراهيم [ويذبحون أبناءكم] لأنه هناك نوع العذاب ، أي أنه نوع آخر غير الذبح .

ثانيا : التنكير في كل من [بلاء] و[عظيم] للتفخيم والتهويل .

ثالثا : صيغة المفاعلة في قوله : [وإذ واعدنا] ليست على بابها ، لأنها لا تفيد المشاركة من الطرفين ، وإنما هي بمعنى الثلاثي [وإذ وعدنا] .

رابعاً : قال أبو السعود : [فتوبوا إلى بارئكم] التعرض بذكر البارئ للإشعار بأنهم بلغوا من الجهالة أقصاها ، ومن الغواية منتهاها ، حيث تركوا عبادة العليم الحكيم ، الذي خلقهم

بلطيف حكمته ، إلى عبادة البقر الذي هو مثل فى الغباوة . . أقول : لا عجب فى ذلك ، فالجنس يألفه الجنس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 1 صـ 58 ﴾

(166/51)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

" يا قوم " اعْلَمْ أن في المنادى المضاف إلى ياء المتكلم ستّ لُغَات .

أفصحها : حذفها مجتزئاً عنها بالكَسْرَة ، وهي لغة القرآن .

والثانية : ثبوت الياء ساكنة .

الثالثة : ثبوتها مفتوحة .

الرابعة : قلبها ألفاً .

الخامسة : حذف هذه الألف ، والاجتزاء عنها بالفتحة ؛ كقوله : [الوافر]

وَلَسْتُ بِرَاجِعٍ مَا فَاتَ مَنّي . . .

بِلَهْفَ وَلاَ بِلَيْتَ وَلاَ لَوَ أَنّي

أي يقول : يا لَهْفَا .

السَّادِسَةُ : بناء المضاف إليها على الضَّمّ تشبيهاً بالمفرد ، نحو قراءة من قرأ : ﴿ قَالَ رَبِّ احكم بالحق ﴾ [الأنبياء : 112] .

قال بعضهم : لأن " يا قوم " في تقدير : يا أيها القوم والقوم : سم جمع ؛ لأنه دالّ على أكثر من اثنين ، وليس له واحد من لفظه ، ولا هو على صيغة مختصّة بالتكسير ، ومُفْرَدُهُ " رَجُل " ، واشتقاقه من " قَامَ بالأَمرْ يقومُ به " ، قال تعالى : ﴿ الرجال قَوَّامُونَ عَلَى النسآء ﴾ [النساء : 34] والأصل في إطلاقه على الرجال ؛ ولذلك قوبل بالنّسَاء في قوله تعالى : ﴿ لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عسى أَن يَكُونُواْ خَيْراً مِّنْهُمْ وَلاَ نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ ﴾ [الحجرات : 11] .

وقول زهير : [الوافر]

وَمَا أَدْرِي وَسَوْفَ إِخَالُ أَدْرِي . . .

أَقَوْمٌ حِصْنٍ أَمْ نِسَاءَ

وأما قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ المرسلين ﴾ [الشعراء : 105] و ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ﴾ [الشعراء : 106] والمكذبون رجال ونساء فإنما ذلك من باب التَّغْلِيب ، ولا يجوز أن يطلق على النِّساء وحدهن آلبتة ، وإن كانت عبادة بعضهم توهم ذلك .

قوله تعالى : ﴿ باتخاذكم العجل ﴾ الباء للسببية ، متعلّقة بـ " ظلمتم " ، وقد تقدم الخلاف في مثل هذه لمادة .

و" العِجْل " مفعول أوّل ، والثَّاني محذوف أي : إلهاً كما تقدم ، والمصدر هُنَا مضاف للفاعل ، وهو أحسن الوجهين ، فإن المصدر إذا اجتمع فاعله ومفعوله فالأولى إضافته إلى الفاعل ؛ لأن رتبته التقديم ، وهذا من الصور التي يجب فيها تقديم الفاعل .

وأما ﴿ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ ﴾ [الأنعام : 137] فسيأتي إن شاء الله تعالى .

وتقدّم الكلام في " العِجْل " .

قوله : ﴿ إِلَى بَارِئِكُمْ ﴾ متعلّق بـ " توبوا " ، والمشهور كسر الهمزة ؛ لأنها حركة إعراب .

وروي عن أبي عمرو ثلاثة أوجه أخر :

الاخْتِلاَس : وهو الإتيان بحركة خفية ، والسكون المحض ، وهذه قد طعن فيها جماعة من النحاة ، ونسبوا راويها إلى الغَلَطِ على أبي عَمْرو .

وقال سيبويه : " إنما اختلس أبو عمرو فظنّه الراوي سَكَّن ولم يضبط " .

وقال المبرّد : " لا يجوز التسكين مع تَوَالِي الحركات في حرف الإعراب في كلام ولا شِعْرٍ ، وقراءة أبي عمرو لحن " .

وهذه جرأة من المبرد ، وجهل بأشعار العرب ، فإن السُّكُونَ في حركات الإعراب قد ورد

في الشعر كثيراً ؛ منه قول امرء القيس : [السريع]

فَالْيَوْمَ أَشْرَبْ غَيْرَ مُنْتَحْقِبٍ . . .

إِثْماً مِنَ اللهِ وَلاَ وَاغِلِ

فَسكَّن " أَشْرَبْ " ، وقال جَرِير : [البسيط]

. . . . . .

وَنَهْرُ تِيرَى فَلاَ تَعْرِفْكُمُ العَرَبُ

وقال آخر : [السريع]

رُحْتِ وفِي رِجْلَيْكِ مَا فِيهِمَا . . .

وَقَدْ بَدَا هَنْكِ مِنَ المِئْزَرِ

يريد : " هَنُك وتَعْرِفُكُكم " فهذه حركات إعراب ، وقد سُكّنت ، وقد أنشد ابن عطية

وغيره رَدّاً عليه قوله : [الرجز]

قَالَتْ سُلَيْمَى : اشْتَرْ لَنَا سَوِيقَا . . .

وقول آخر : [الرجز]

إِذَا اعْوَجَجْنَ قُلْتُ : صَاحِبْ قَوِّمِ . . .

وقول الآخر : [الرمل]

إِنَّما شِعْرِيَ شَهْدٌ . . .

قَدْ خُلِطْ بِجُلْجُلاَنِ

ولا يحسن ذلك ؛ لأنها حركات بناء ، وإما منع هو ذلك من حركات الإعراب ، وقراءة أبي عمرو صحيحةٌ ، وذلك أن الهمزة حرف ثقيلٌ ، ولذلك اجتزء عليها بجميع أنواع التخفيف ، فاستثقلت عليها الحركة فقدّرتن وهذه القراءة تشبه قراءة حمزة رحمه الله في قوله تعالى : ﴿ وَمَكْرَ السيىء وَلاَ ﴾ فإنه سكن همزة " السّيّىء " وصلاً ، والكلام عليهما واحد ، والذي حسنه هنا أنّ قبل كسرةِ الهمزةِ راءٌ مكسورةٌ ، والراء حرف تكرير ، فكأنه توالى ثلاث كسرات فحسن التَّسْكين ، وليت المبرّد اقتدى بسيبويه في الاعْتِذَار عن أبي عمرو .

(168/51)

وجميع رواية أبي عمرو دائرة على التَّخْفيف ، وذلك يدغم المثلين ، والمتقاربين ، ويُسَهّل الهمزة ، ويسكن نحو : ﴿ يَنصُرْكُمُ ﴾ [آل عمران : 160] و ﴿ يَأْمُرْكُمْ ﴾ [البقرة : 67] و ﴿ بِأَعْلَمَ بالشاكرين ﴾ [الأنعام : 53] علكى تفصيل معروف عند القُرَّاء ، وروي عنه إبدالُ هذه الهمزة السَّاكنة ياءً ، كأنه لم يعتدّ بالحركة المقدرة ، وبعضهم ينكر ذلك عنه ، فهذه أربع قراءات لأبي عمرو .

وروى ابن عطية عن الزهري : " بَارِيكُمْ " بكسر الياء من غير همزة قال : " ورويت عن

نافع " .

قلتك من حق هذا القارىء أن يكسن الياء ؛ لأن الكسرة ثقيلةٌ عليها ، ولا يجوز ظهورها إلاّ في ضرورة شعر ؛ كقول أبي طالب : [الطويل]

كَذَبْتُمْ وَبَيْتِ اللهِ نُبْزِي مُحَمَّداً . . .

وَلَمْ تَخْتَضِبْ سُمْرُ العَوَالِي بالدَّمِ

وقرأ قتادة : " فَاقْتَالُوا " وقال : هي من الاسِتقَالة .

قال ابن جنّي : اقْتَالَ : افتعل ، ويحتمل أن تكون عينها واواً كـ " اقْتَادُوا " أوياء كـ " اقْتَاسَ " ، والتصريف يضعف أن تكون من الاستقالة .

ولكن قتادة ينبغي أن يُحْسَنَ الظنُّ به في أنه لم يورد ذلك إلا بحجّة عنده .

وقرىء أيضاً : " فَأَقِيلُوا أنفسكم " بالياء المُثَنَّاة التحتية ، وهي موافقة للرسم أيضاً .

" والبارىء " : الخالق ، برأ الله الخلق أي : خلقهم ، وقد فرق بعضهم بين الخَالِقِ والبارىء ، بأن البَارِىءَ هو المبدع والمُحْدِث ، والخالق هو المقدر النَّاقل من حال إلى حال ، وأصل هذه المادّة يدلّ على الانفصال والتميز ، ومنه : برأ المريض بُرْءاً وبَرْءاً وبَرَاءَةً ، وبرئت أيضاً من الدَّين براءةً ، والبَرِيّة : الخلق ؛ لأنهم انفصلوا من العَدَمِ إلى الوجود ، إلاّ أنه لا يهمز .

وقيل : أصله من البَرَى وهو التراب .

وسيأتي تحقيق القولين إن شاء الله تعالى .

قوله : ﴿ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ .

(169/51)

قال بعضهم : " ذلكم " مفرد وقاع مقوع " ذانكم " المُثَنَّى ؛ لأنه قد تقدّم اثنان : التوبة ، والقَتْل .

قال أبو البقاء : " وهذا ليس بشيء ؛ لأن قوله : " فاقتلوا " تفسير للتوبة فهو واحد " .

و " خير " " أفعل " تفضيل ، و~أصله : أَخْيَر ، وإنما حذفت همزته تخفيفاً ، ولا ترجع هذه الهمزة إلا في ضرورة ؛ قال : [الرجز]

بِلاَلٌ خَيْرُ النَّاسِ وَابْنُ الأَخْيَرِ . . .

ومثله : " شَرّ " لا يجوز " أَشَرّ " إلا في ندور ، وقد قرئ : ﴿ مَّنِ الكذاب الأشر ﴾ [القمر : 26] وإذا بني من هذه المادة فعل تعجّب على " أَفْعَل " ، فلا تحذف همزته إلا في ندور ، كقولهم : " ما خَيَ ﴾ ر اللبن للصحيح ، وما شَرّه للمبطون " ف " خَيْر وشَرّ " قد خرجا عن نظائرهما في باب التَّفضيل والتعجُّب .

و " خَيْر " أيضاً مخفف من " خَيْر " على " فَيْعل " ولا يكون من هذا الباب ، ومنه : ﴿ فِيهِنَّ

خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ﴾ [الرحمن : 70] .

قال بعضهم : مخفف من " خَيِّرات " .

والمفضّل عليه محذوف للعلم به ، أي : خير لكم من عدم التوبة .

ولـ " أفعل " التفضيل أحكام كثيرة ، وباقي منها ما يضطر إليه .

قوله : ﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ﴾ في الكلام حَذْفٌ ، وهو : ففعلتم ما أمرتم به من القتل فتاب عليكم ، والفاء الأولى في قوله : " فَتُوبُوا " للسببية ؛ لأن الظلم سَبَبُ التوبة .

والثانية للتعقيب ؛ لأن المعنى : فاعزموا على التَّوْبة فاقتلوا أنفسكم .

والثَّالثة متعلقة بمحذوف ولا يخلو : إما أن ينتظم في قول مُوسَى لهم فيتعلّق بشرط محذوف ، كأنه قال : وإن فعلتم فقد تاب عليكم ، وإما أن يكون خطاباً من الله لهم على طريقة الالْتِفَاتِ ، فيكون التقدير : ففعلتم ما أمركم به موسى ، فتاب عليكم بارئكم . قاله الزمخشري . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 2 صـ 78 . 84 ﴾ . باختصار .

(170/51)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ ﴾ .

أي ما أضررتم إلا بأنفسكم فيما ارتكبتم من ذنوبكم ، فأمَّا الحق سبحانه فعزيز الوصف ، لا يعود إلى عِزّه من ظلم الظالمين شيء ، ومن وافق هواه واتَّبع مناه فَعِجْلُه ما علَّق به همَّه وأفرد له قصده .

قوله جلّ ذكره : ﴿ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ ﴾ .

الإشارة إلى حقيقة التوبة بالخروج إلى الله بالكلية .

قوله جلّ ذكره : ﴿ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ .

التوبة بقتل النفوس غير (. . .) إلا أن بني إسرائيل كان لهم قتل أنفسهم جهراً ، وهذه الأمة توبتهم بقتل أنفسهم في أنفسهم سراً ، فأَوَّلُ قَدَمٍ في القصد إلى الله الخروجُ عن النفس .

فصل : ولقد توهم الناس أن توبة بني إسرائيل كانت أشق ، ولا كما توهموا ؛ فإن ذلك كان مقاساة القتل مرة واحدة ، وأمَّا أهل الخصوص من هذه (الأمة) ففي كل لحظة قتل ، ولهذا :

ليس من مات فاستراح بميتٍ . . . إنما الميت ميت الأحياء

وقتل النفس في الحقيقة التبري عن حوْلها وقوتها أو شهود شيءٍ منها ، ورد دعواها إليها ، وتشويش تدبيرها عليها ، وتسليم الأمور إلى الحق – سبحانه – بجملتها ، وانسلاخها من اختِيارها وإرادتها ، وانمحاء آثار البشرية عنها ، فأمَّا بقاء الرسوم والهياكل فلا خطرَ له

ولا عبرةَ به.

قوله جلّ ذكره: ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

كونه لكم عنكم أتمُّ من كونكم لأنفسكم. انتهى انتهى. اهـ ﴿لطائف الإشارات حـ 1 صـ 92.91﴾.

(171/51)

بسم الله الرحمن الرحيم

الكتاب / الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

ويسمى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العَاجِزُ الْفَقِيرُ

عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مُحَمَّدٍ الْقَمَّاش

إِمَامُ وَخَطِيبُ مَسْجِدِ بُورُسْلِى - رَأْسُ الْخَيمَةِ

دَولَةُ الإِمَارَاتِ الْعَرَبِيَّةِ الْمُتَّحِدَةِ

(عَفَا اللهُ عَنْهُ وَغَفَرَ لَهُ)

الجزء الثانى والخمسون

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الثانى والخمسون

من الآية ﴿ 55 ﴾ من سورة البقرة

وحتى الآية ﴿ 60 ﴾ من نفس السورة

قوله تعالى ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (55) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما استتيبوا عن عبادة العجل التي تقيدوا فيها بالمحسوس الذي هو مثل في الغباوة طلبوا

رؤية بارئهم بالحس على ما له من صفات الكمال التي تأبى الابتذال ناسين لجميع النعم والنقم مسرعين في الكفر الذي هو من شأن الحائر والحال أن الفرقان الذي لا يدع شبهة ولا يبقى حيرة قائم بين أيديهم ، لأنهم من الجمود والوقوف مع الوهم والحس بمكان عظيم ، فذكرهم سبحانه ذلك مسلياً للنبي صلى الله عليه وسلم في إبائهم للإيمان به بما فعلوا مع موسى عليه السلام وهو أحدهم فقال ﴿ وإذ قلتم ﴾ أي بعد ما رأيتم من الآيات وشاهدتم من الأمور البينات ﴿ يا موسى ﴾ فدعوتموه باسمه جفاء وغلظة كما يدعو بعضكم بعضاً ولم تخصوه بما يدل على تعظيمه لما رأيتم من إكرام الله له وإكرامكم على يده ﴿ لن ﴾ وهي كلمة تفهم نفي معنى باطن كأنها لا أن ، يُسِّر بالتخفيف لفظها – قاله الحرالي .

﴿ نؤمن لك ﴾ أي لأجل قولك .

قال الحرالي : وجاء باللام لأنهم قد كانوا آمنوا به فتوقفوا عن الإيمان له الذي يتعلق بأمور من تفاصيل ما يأتيهم به ، فمن آمن لأحد فقد آمن بأمور لأجله ، ومن آمن به فقد قَبِل أصل رسالته ﴿ يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ﴾ [التوبة : 61] ﴿ حتى ﴾ كلمة تفهم غاية محوطة يدخل ما بعدها في حكم ما قبلها مقابل معنى لكي ﴿ نرى ﴾ من الرؤية وهي اطلاع على باطن الشيء الذي أظهر منه مبصره الذي أظهره منه منظره ، ومنه يقال في مطلع المنام : رؤيا ، لأن ذوات المرئي في المنام هي أمثال باطنه في صورة المنظور إليه في

اليقظة – انتهى .

﴿ الله ﴾ أي مع ما له من العظمة ﴿ جهرة ﴾ أي عياناً من غير خفاء ولا نوع لبس .

(5/52)

قال الحرالي : من الجهر وهو الإعلان بالشيء إلى حد الشهرة وبلاغه لمن لا يقصد في مقابلة السر المختص بمن يقصد به ، وهذا المطلوب مما لا يليق بالجهر لتحقيق اختصاصه بمن يكشف له الحجاب من خاصة من يجوّزه القرب من خاصة من يقبل عليه النداء من خاصة من يقع عنه الإعراض ، فكيف أن يطلب ذلك جهراً حتى يناله من هو في محل البعد والطرد ! وفيه شهادة بتبلدهم عن موقع الرؤية ، فإن موسى عليه السلام قال ﴿ رب أرني ﴾ [الأعراف : 143] وقال تعالى ﴿ وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ﴾ [القيامة : 22-23] وقال عليه الصلاة والسلام : " إنكم ترون ربكم " فالاسم المذكور لمعنى الرؤية إنما هو الرب لما في اسم الله تعالى من الغيب الذي لا يذكر لأجله إلا مع ما هو فوت لا مع ما هو في المعنى نيل ، وذلك لسر من أسرار العلم بمواقع معاني الأسماء الحسنى فيما يناسبها من ضروب الخطاب والأحوال والأعمال ، وهو من أشرف العلم الذي يفهم به خطاب القرآن حتى يضاف لكل اسم ما هو أعلق في معناه وأولى به وإن كانت الأسماء كلها

ترجع معاني بعضها لبعض ، ﴿ فأخذتكم ﴾ من الأخذ وهو تناول الشيء بجملته بنوع بطش وقوة – انتهى .

أي لقولكم هذا لما فيه من الفظاعة وانتهاك الحرمة ، ﴿ الصاعقة ﴾ قيل : هي صيحة ، وقيل : نار نزلت من السماء فأحرقتهم ، ويؤيده قوله ﴿ وأنتم تنظرون ﴾ أي تلك الصاعقة فأماتتكم ، لأنكم كنتم في طلبكم رؤيته على ضرب من حال عبدة العجل ، فأماتكم كما أماتهم بالقتل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 135. 137 ﴾

اللغة :

[جهرة] علانية ، وأصل الجهر : الظهور ، ومنه الجهر بالقراءة والجهر بالمعاصي يعني المظاهرة بها ، تقول : رأيت الأمير جهاراً أي غير مستتر بشئ ، وقال ابن عباس : جهرة : عيانا ، [الصاعقة] صيحة العذاب أو هي نار محرقة

[بعثناكم] أحييناكم ، قال الطبري : وأصل البعث : إثارة الشيء من محله

[الغمام] جمع غمامه كسحابة وسحاب ، وزنا ومعنى ، لأنها تغم السماء أي تسترها ، وكل مغطى فهو مغموم ، وغم الهلال : إذا غطاه الغيم فلم ير .

[حطة] : مصدر أي حط عنا ذنوبنا ، وهي كلمة استغفار ومعناها : اغفر خطايانا .

[رجزا] عذابا ومنه [لئن كشفت عنا الرجز] أي العذاب

[يفسقون] الفسق : الخروج من الطاعة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 1 صـ 59 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أن هذا هو الإنعام السادس ، بيانه من وجوه :

أحدها : كأنه تعالى قال : اذكروا نعمتي حين قلتم لموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة ثم أحييتكم لتتوبوا عن بغيكم وتتخلصوا عن العقاب وتفوزوا بالثواب ،

وثانيها : أن فيها تحذيراً لمن كان في زمان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم عن فعل ما يستحق بسببه أن يفعل به ما فعل بأولئك .

وثالثها : تشبيههم في جحودهم معجزات النبي صلى الله عليه وسلم بأسلافهم في جحود

نبوة موسى عليه السلام مع مشاهدتهم لعظم تلك الآيات الظاهرة وتنبيهاً على أنه تعالى إنما لا يظهر عن النبي صلى الله عليه وسلم مثلها لعلمه بأنه لو أظهرها لجحودها ولو جحدوها لاستحقوا العقاب مثل ما استحقه أسلافهم ،

ورابعها : فيه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم مما كان يلاقي منهم وتثبيت لقلبه على الصبر كما صبر أولو العزم من الرسل .

وخامسها : فيه إزالة شبهة من يقول : إن نبوة محمد صلى الله عليه وسلم لو صحت لكان أولى الناس بالإيمان به أهل الكتاب لما أنهم عرفوا خبره ، وذلك لأنه تعالى بين أن أسلافهم مع مشاهدتهم تلك الآيات الباهرة على نبوة موسى عليه السلام كانوا يرتدون كل وقت ويتحكمون عليه ويخالفونه فلا يتعجب من مخالفتهم لمحمد عليه الصلاة والسلام وإن وجدوا في كتبهم الأخبار عن نبوته .

وسادسها : لما أخبر محمد عليه الصلاة والسلام عن هذه القصص مع أنه كان أمياً لم يشتغل بالتعلم ألبتة وجب أن يكون ذلك عن الوحي . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 78 ﴾

فصل

قال الفخر :

للمفسرين في هذه الواقعة قولان :

الأول : أن هذه الواقعة كانت بعد أن كلف الله عبدة العجل بالقتل ، قال محمد بن إسحاق : لما رجع موسى عليه السلام من الطور إلى قومه فرأى ما هم عليه من عبادة العجل وقال لأخيه والسامري ما قال .

(8/52)

وحرق العجل وألقاه في البحر ، اختار من قومه سبعين رجلاً من خيارهم فلما خرجوا إلى الطور قالوا لموسى : سل ربك حتى يسمعنا كلامه ، فسأل موسى عليه السلام ذلك فأجابه الله إليه ولما دنا من الجبل وقع عليه عمود من الغمام وتغشى الجبل كله ودنا من موسى ذلك الغمام حتى دخل فيه فقال للقوم : ادخلوا وعوا ، وكان موسى عليه السلام متى كلمه ربه وقع على جبهته نور ساطع لا يستطيع أحد من بني آدم النظر إليه ، وسمع القوم كلام الله مع موسى عليه السلام يقول له : افعل ولا تفعل ، فلما تم الكلام انكشف عن موسى الغمام الذي دخل فيه فقال القوم بعد ذلك : لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ، فأخذتهم الصاعقة وماتوا جميعاً وقام موسى رافعاً يديه إلى السماء يدعو ويقول : يا إلهي اخترت من بني إسرائيل سبعين رجلاً ليكونوا شهودي بقبول توبتهم ، فارجع إليهم وليس معي منهم

واحد ، فما الذي يقولون فيّ ، فلم يزل موسى مشتغلاً بالدعاء حتى رد الله إليهم أرواحهم وطلب توبة بني إسرائيل من عبادة العجل فقال : لا إلا أن يقتلوا أنفسهم .

(9/52)

القول الثاني : أن هذه الواقعة كانت بعد القتل ، قال السدي : لما تاب بنو إسرائيل من عبادة العجل بأن قتلوا أنفسهم أمر الله تعالى أن يأتيهم موسى في ناس من بني إسرائيل يعتذرون إليه من عبادتهم العجل ، فاختار موسى سبعين رجلاً ، فلما أتوا الطور قالوا : لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ، فأخذتهم الصاعقة وماتوا فقام موسى يبكي ويقول : يا رب ماذا أقول لبني إسرائيل ، فإني أمرتهم بالقتل ثم اخترت من بقيتهم هؤلاء ، فإذا رجعت إليهم ولا يكون معي منهم أحد فماذا أقول لهم ؟ فأوحى الله إلى موسى أن هؤلاء السبعين ممن اتخذوا العجل إلهاً فقال موسى : ﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ ﴾ [الأعراف : 155] إلى قوله : ﴿ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ﴾ [الأعراف : 156] ثم إنه تعالى أحياهم فقاموا ونظر كل واحد منهم إلى الآخر كيف يحييه الله تعالى ، فقالوا : يا موسى إنك لا تسأل الله شيئاً إلا أعطاك فادعه يجعلنا أنبياء ، فدعاه بذلك فأجاب الله دعوته .

واعلم أنه ليس في الآية ما يدل على ترجيح أحد القولين على الآخر وكذلك ليس فيها ما

يدل على أن الذين سألوا الرؤية هم الذين عبدوا العجل أو غيرهم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 78 . 79 ﴾

قوله تعالى : ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ ﴾

فصل

قال الفخر :

أما قوله تعالى : ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ ﴾ فمعناه لا نصدقك ولا نعترف بنبوتك حتى نرى الله جهرة (أي) عياناً .

(10/52)

قال صاحب الكشاف : وهي مصدر من قولك : جهرت بالقراءة وبالدعاء كأن الذي يرى بالعين جاهر بالرؤية والذي يرى بالقلب مخافت بها وانتصار بها على المصدر لأنها نوع من الرؤية ، فنصبت بفعلها كما ينصب القرفصاء بفعل الجلوس أو على الحال بمعنى ذوي جهرة وقرىء جهرة بفتح الهاء وهي إما مصدر كالغلبة وإما جمع جاهر ، وقال القفال أصل الجهرة من الظهور يقال جهرت الشيء إذا كشفته وجهرت البئر إذا كان ماؤها مغطى بالطين فنقيته حتى ظهر ماؤه ويقال صوت جهير ورجل جهوري الصوت ، إذا كان صوته عالياً ، ويقال :

وجه جهير إذا كان ظاهر الوضاءة ، وإنما قالوا : جهرة تأكيداً لئلا يتوهم متوهم أن المراد بالرؤية العلم أو التخيل على (نحو) ما يراه النائم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 79 ﴾

فائدة

قال السمرقندى :

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يا موسى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ ﴾ ، أي لن نصدقك ﴿ حتى نَرَى اللهَ جَهْرَةً ﴾ أي عياناً ، وذلك أن موسى عليه السلام حين انطلق إلى طور سيناء للمناجاة ، اختار موسى من قومه سبعين رجلاً ، فلما انتهوا إلى الجبل أمرهم موسى بأن يمكثوا في أسفل الجبل ، وصعد موسى عليه السلام فناجى ربه فأعطاه الله الألواح ، فلما رجع إليهم قالوا له : إنك قد رأيت الله فأرناه حتى ننظر إليه ، فقال لهم : إني لم أره ، وقد سألته أن أنظر إليه ، فتجلى للجبل ، فدك الجبل ، فلم يصدقوه وقالوا : لن نصدقك حتى نرى الله جهرة .

فأخذتهم الصاعقة فماتوا كلهم ، فدعا موسى ربه فأحياهم الله تعالى ، فذلك قوله عز وجل : ﴿ فَأَخَذَتْكُمُ الصاعقة وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ إلى الصاعقة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ 80 ﴾

قوله تعالى ﴿ فَأَخَذَتْكُمُ الصاعقة ﴾

فصل

قال الفخر :

استدلت المعتزلة بذلك على أن رؤية الله ممتنعة ، قال القاضي عبد الجبار : إنها لو كانت جائزة لكانوا قد التمسوا أمراً مجوزاً فوجب أن لا تنزل بهم العقوبة كما لم تنزل بهم العقوبة لما التمسوا النقل من قوت إلى قوت وطعام إلى طعام في قوله تعالى : ﴿ لَن نَّصْبِرَ على طَعَامٍ واحد فادع لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الأرض ﴾ [البقرة : 61] ، وقال أبو الحسين في كتاب التصفح : إن الله تعالى ما ذكر سؤال الرؤية إلا استعظمه ، وذلك في آيات .

أحدها : هذه الآية فإن الرؤية لو كانت جائزة لكان قولهم : (لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة) كقول الأمم لأنبيائهم : لن نؤمن إلا بإحياء ميت في أنه لا يستعظم ولا تأخذهم الصاعقة .

وثانيها : قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الكتاب أَن تُنَزّلَ عَلَيْهِمْ كتابا مّنَ السماء فَقَدْ سَأَلُواْ موسى أَكْبَرَ مِن ذلك فَقَالُواْ أَرِنَا الله جَهْرَةً فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ﴾ [النساء : 153] ، فسمى ذلك ظلماً وعاقبهم في الحال ، فلو كانت الرؤية جائزة لجرى سؤالهم لها مجرى من يسأل معجزة زائدة .

فإن قلت أليس إنه سبحانه وتعالى قد أجرى إنزال الكتاب من السماء مجرى الرؤية في كون كل واحد منهما عتوا ، فكما أن إنزال الكتاب غير ممتنع في نفسه فكذا سؤال الرؤية .

قلت : الظاهر يقتضي كون كل واحد منهما ممتنعاً ترك العمل به في إنزال الكتاب فيبقى معمولاً به في الرؤية .

وثالثها : قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الذين لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْنَا الملئكة أَوْ نرى رَبَّنَا لَقَدِ استكبروا فِى أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوّاً كَبِيراً ﴾ [الفرقان : 21] فالرؤية لو كانت جائزة وهي عند مجزيها من أعظم المنافع لم يكن التماسها عتواً لأن من سأل الله تعالى نعمة في الدين أو الدنيا لم يكن عاتياً وجرى ذلك مجرى ما يقال : لن نؤمن لك حتى يحيي الله بدعائك هذا الميت .

واعلم أن هذه الوجوه مشتركة في حرف واحد وهو أن الرؤية لو كانت جائزة لما كان سؤالها عتواً ومنكراً ، وذلك ممنوع .

وقوله : إن طلب سائر المنافع من النقل من طعام إلى طعام لما كان ممكناً لم يكن طالبه عاتياً وكذا القول في طلب سائر المعجزات .

قلنا : ولم قلت إنه لما كان طالب ذلك الممكن ليس بعات وجب أن يكون طالب كل ممكن غير عات والاعتماد في مثل هذا الموضع على ضروب الأمثلة لا يليق بأهل العلم وكيف وأن الله تعالى ما ذكر الرؤية إلا وذكر معها شيئاً ممكناً حكمنا بجوازه بالاتفاق وهو إما نزول الكتاب من السماء أو نزول الملائكة .

وأثبت صفة العتو على مجموع الأمرين ، وذلك كالدلالة القاطعة في أن صفة العتو ما حصلت لأجل كون المطلوب ممتنعاً .

أما قول أبي الحسين : الظاهر يقتضي كون الكل ممتنعاً ترك العمل به في البعض فيبقى معمولاً به في الباقي .

قلنا : إنك ما أقمت دليلاً على أن الاستعظام لا يتحقق إلا إذا كان المطلوب ممتنعاً وإنما عولت فيه على ضروب الأمثلة ، والمثال لا ينفع في هذا الباب ، فبطل قولك : الظاهر يقتضي كون الكل ممتنعاً .

فظهر بما قلنا سقوط كلام المعتزلة .

فإن قال قائل : فما السبب في استعظام سؤال الرؤية ؟ الجواب في ذلك يحتمل وجوهاً .

أحدها : أن رؤية الله تعالى لا تحصل إلا في الآخرة ، فكان طلبها في الدنيا مستنكراً .

وثانيها : أن حكم الله تعالى أن يزيل التكليف عن العبد حال ما يرى الله فكان طلب الرؤية طلباً لإزالة التكليف وهذا على قول المعتزلة أولى ، لأن الرؤية تتضمن العلم الضروري والعلم الضروري ينافي التكليف ، وثالثها : أنه لما تمت الدلائل على صدق المدعي كان طلب الدلائل الزائدة تعنتاً والمتعنت يستوجب التعنيف ، ورابعها : لا يمتنع أن يعلم الله تعالى أن في منع الخلق عن رؤيته سبحانه في الدنيا ضرباً من المصلحة المهمة ، فلذلك استنكر طلب الرؤية في الدنيا كما علم أن في إنزال الكتاب من السماء وإنزال الملائكة من السماء مفسدة عظيمة فلذلك استنكر طلب ذلك . والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 79 . 80 ﴾

فصل

قال الفخر :

للمفسرين في الصاعقة قولان .

الأول : أنها هي الموت وهو قول الحسن وقتادة واحتجوا عليه بقوله تعالى : ﴿ فَصَعِقَ مَن فِى السموات وَمَن فِى الأرض إِلاَّ مَن شَاء الله ﴾ [الزمر : 68] ، وهذا ضعيف لوجوه . أحدها : قوله تعالى : ﴿ فَأَخَذَتْكُمُ الصاعقة وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ ولو كانت الصاعقة هي الموت لامتنع كونهم ناظرين إلى الصاعقة ، وثانيها : أنه تعالى قال في حق موسى : ﴿ وَخَرَّ

موسى صَعِقًا ﴾ [الأعراف : 143] أثبت الصاعقة في حقه مع أنه لم يكن ميتاً لأنه قال : ﴿ فَلَمَّا أَفَاقَ ﴾ والإفاقة لا تكون عن الموت بل عن الغشي ، وثالثها : أن الصاعقة وهي التي تصعق وذلك إشارة إلى سبب الموت .

ورابعها : أن ورودها وهم مشاهدون لها أعظم في باب العقوبة منها إذا وردت بغتة وهم لا يعلمون .

ولذلك قال : ﴿ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ منبهاً على عظم العقوبة ، القول الثاني : وهو قول المحققين : إن الصاعقة هي سبب الموت ولذلك قال في سورة الأعراف : ﴿ فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرجفة ﴾ واختلفوا في أن ذلك السبب أي شيء كان على ثلاثة أوجه .

أحدها : أنها نار وقعت من السماء فأحرقتهم .

وثانيها : صيحة جاءت من السماء ، وثالثها : أرسل الله تعالى جنوداً سمعوا بحسها فخروا صعقين ميتين يوماً وليلة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 80 ﴾

وقال الثعالبى :

ومن قال : إن السبعين سَمِعُوا ما سمع موسى ، فقد أخطأ ، وأذهب فضيلةَ موسى ،

واختصاصه بالتكْلِيم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الجواهر الحسان حـ 1 صـ 66 ﴾

فصل

قال الخازن :

قوله عز وجل : ﴿ وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك ﴾ أي لن نصدقك ﴿ حتى نرى الله جهرة ﴾ أي عياناً وذلك أن الله عز وجل أمر موسى أن يأتيه في ناس من بني إسرائيل يعتذرون إليه من عبادة العجل ، فاختار موسى من قومه سبعين رجلاً من خيارهم وقال لهم : صوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم ، ففعلوا وخرج بهم موسى إلى طور سيناء لميقات ربه فقالوا لموسى : اطلب لنا أن نسمع كلام ربنا قال : أفعل فلما دنا من الجبل وقع عليه عمود من الغمام وتغشى الجبل كله فدخل موسى في الغمام ، وقال للقوم : ادنوا حتى دخلوا تحت الغمام وخروا سجداً وكان موسى إذا كلمه ربه وقع على وجهه نور ساطع فلا يستطيع أحد أن ينظر إليه فضرب دونهم الحجاب وسمعوه يكلم موسى يأمره وينهاكم وأسمعهم الله تعالى : (إني أنا الله لا إله إلا أنا ذو بكة أخرجتكم من أرض مصر بيد شديدة فاعبدوني ولا تعبدوا غيري (1) فلما فرغ موسى وانكشف الغمام أقبل إليهم فقالوا لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة) وإنما قالوا : جهرة توكيد للرؤية لئلا يتوهم متوهم أن المراد بالرؤية العلم ﴿ فأخذتكم الصاعقة ﴾ قيل : هي الموت وفيه ضعف لأن قوله وأنتم تنظرون يرده إذ لو كان منها الموت لامتنع كونهم ناظرين إليها وقيل : إن الصاعقة هي سبب

الموت واختلفوا في ذلك السبب فقيل : إن ناراً نزلت من السماء فأحرقتهم .

---

(1) هذه الرواية فيها نظر ويردها قوله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ (الشورى / 51) ﴾ . والله أعلم .

وقيل : جاءت صيحة من السماء وقيل : أرسل جموعاً من الملائكة فسمعوا بحسهم فخروا صعقين ﴿ وأنتم تنظرون ﴾ أي ينظر بعضكم إلى بعض كيف يأخذه الموت فلما هلكوا جعل موسى يبكي ويتضرع ويقول إلهي ماذا أقول لبني إسرائيل إذا أتيتهم وقد هلك خيارهم " لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي أتهلكنا بما فعل السفهاء منا " فلم يزل يناشد ربه حتى أحياهم الله رجلاً بعد رجل ، بعد ما ماتوا يوماً وليلة ينظر بعضهم إلى بعض كيف يحيون فذلك قوله تعالى : ﴿ ثم بعثناكم ﴾ أي أحييناكم ﴿ من بعد موتكم ﴾ أي لتستوفوا بقية آجالكم وأرزاقكم ولو أنهم كانوا قد ماتوا لانقضاء آجالهم لم يبعثوا إلى يوم القيامة .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 1 صـ 62. 63 ﴾

فصل

قال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ وإذ قلتم يا موسى ﴾ يريد السبعين الذين اختارهم موسى ، واختلف في وقت اختيارهم .

فحكى أكثر المفسرين أن ذلك بعد عبادة العجل ، اختارهم ليستغفروا لبني إسرائيل .

وحكى النقاش وغيره أنه اختارهم حين خرج من البحر وطلب بالميعاد ، والأول أصح ، وقصة السبعين أن موسى صلى الله عليه وسلم لما رجع من تكليم الله ووجد العجل قد عبد قالت له طائفة ممن لم يعبد العجل : نحن لم نكفر ونحن أصحابك ، ولكن أسمعنا كلام ربك ، فأوحى الله إليه أن اختر منها سبعين شيخاً ، فلم يجد إلاّ ستين ، فأوحى الله إليه أن اختر من الشباب عشرة ، ففعل ، فأصبحوا شيوخاً ، وكان قد اختار ستة من كل سبط فزادوا اثنين على السبعين ، فتشاحوا فيمن يتأخر ، فأوحى الله إليه أن من تأخر له مثل أجر من مضى ، فتأخر يوشع بن نون وطالوت بن يوقنا وذهب موسى عليه السلام بالسبعين بعد أن أمرهم أن يتجنبوا النساء ثلاثاً ويغتسلوا في اليوم الثالث ، واستخلف هارون على قومه ، ومضى حتى أتى الجبل ، فألقي عليهم الغمام .

قال النقاش وغيره : غشيتهم سحابة وحيل بينهم موسى بالنور فوقعوا سجوداً .

قال السدي وغيره : وسمعوا كلام الله يأمر وينهى ، فلم يطيقوا سماعه ، واختلطت أذهانهم ، ورغبوا أن يكون موسى يسمع ويعبر لهم ، ففعل ، فلما فرغ وخرجوا بدلت منهم طائفة ما سمعت من كلام الله فذلك قوله تعالى : ﴿ وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه ﴾ [البقرة : 75] ، واضطرب إيمانهم وامتحنهم الله بذلك فقالوا : ﴿ لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ﴾ ولم يطلبوا من الرؤية محالاً ، أما إنه عند أهل السنة ممتنع في الدنيا من طريق السمع ، فأخذتهم حينئذ الصاعقة فاحترقوا وماتوا موت همود يعتبر به الغير .

وقال قتادة : " ماتوا وذهبت أرواحهم ثم ردوا لاستيفاء آجالهم ، فحين حصلوا في ذلك الهمود جعل موسى يناشد ربه فيهم ويقول : أي رب ، كيف أرجع إلى بني إسرائيلي دونهم فيهلكون ولا يؤمنون بي أبداً ، وقد خرجوا معي وهم الاخيار " .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله : يعني وهم بحال الخير وقت الخروج .

وقال قوم : بل ظن موسى عليه السلام أن السبعين إنما عوقبوا بسبب عبادة العجل ، فذلك قوله ﴿ أتهلكنا ﴾ يعني السبعين ﴿ بما فعل السفهاء منا ﴾ [الأعراف : 155] يعني عبدة العجل .

وقال ابن فورك : يحتمل أن تكون معاقبة السبعين لإخراجهم طلب الرؤية عن طريقه ، بقولهم لموسى " أرنا " وليس وذلك من مقدور موسى صلى الله عليه وسلم ، و

﴿ جهرة ﴾ مصدر في موضع الحال ، والأظهر أنها من الضمير في ﴿ نرى ﴾ ، وقيل من الضمير في ﴿ نؤمن ﴾ ، وقيل من الضمير في ﴿ قلتم ﴾ ، والجهرة العلانية ، ومنه الجهر ضد السر ، وجهر الرجل الأمر كشفه .

وقرأ سهل بن شعيب وحميد بن قيس : " جهَرة " بفتح الهاء ، وهي لغة مسموعة عند البصريين فيما فيه حرف الحلق ساكناً قد انفتح ما قبله ، والكوفيون يجيزون فيه الفتح وإن لم يسمعوه .

قال القاضي أبو محمد : ويحتمل أن يكون ﴿ جهرة ﴾ جمع جاهر ، أي حتى نرى كاشفين هذا الأمر .

وقرأ عمر وعلي رضي الله عنهما : " فأخذتكم الصعقة " ، ومضى في صدر السورة معنى ﴿ الصاعقة ﴾ ، والصعقة ما يحدث بالإنسان عند الصاعقة .

وتنظرون معناه إلى حالكم .

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رحمه الله : حتى أحالهم العذاب وأزال نظرهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 1 صـ 146 . 147 ﴾

لطيفة

قال فى روح البيان

ليس في الآية دليل على نفي الرؤية بل فيها إثباتها وذلك أن موسى عليه السلام لما سأله السبعون لم ينههم عن ذلك وكذلك سأل هو ربه الرؤية فلم ينهه عن ذلك بل قال : ﴿ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِى ﴾ (الأعراف : 143) وهذا تعليق بما يتصور .

قال بعض العلماء الحكماء الحكمة في أن الله تعالى لا يرى في الدنيا وجوه :

الأول : أن الدنيا دار أعدائه لأن الدنيا جنة الكافر .

الثاني : لو رآه المؤمن لقال الكافر لو رأيته لعبدته ولو رأوه جميعاً لم يكن لأحدهما مزية على الآخر .

الثالث : أن المحبة على غيب ليست كالمحبة على عين .

الرابع : أن الدنيا محل المعيشة ولو رآه الخلق لاشتغلوا عن معائشهم فتعطلت .

الخامس : أنه جعلها بالبصيرة دون البصر ليرى الملائكة صفاء قلوب المؤمنين .

السادس : ليقدر قدرها إذ كل ممنوع عزيز .

السابع : إنما منعها رحمة بالعباد لما جبلوا عليه في هذه الدار من الغيرة إذ لو رآه أحد تصدع قلبه من رؤية غيره إياه كما تصدع الجبل غيرة من أن يراه موسى . انتهى . اهـ ﴿ روح البيان حـ 1 صـ 182. 183 ﴾

ومن فوائد ابن عرفة فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يا موسى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ . . . ﴾ .

أي لن ندوم على الإيمان لك فليس هو ردة ، لأنّه من قول السبعين ، وقد كانوا آمنوا به ، وفيه دليل على أن رؤية الله سبحانه وتعالى ممكنة جائزة عقلا لطلبهم ذلك .

فإن قلت : لم يقم الدليل على صحة طلبهم ، فلعلهم آخطؤوا في الطلب ؟

قلنا : نص العميدي في الجدل وغيره إذا وقع الشك في شيء إنما يحمل على الأمر الغالب فيه ، والغالب في هؤلاء أنهم ما يطلبون إلا الأمر الممكن عقلا ، فأخبر الشارع أنه غير واقع .

قال ابن عرفة : واستشكل القرطبي تكليفهم بعد إحيائهم من الصعق (لسقوط) التكليف بالصعق وإذا سقط لا يرجع .

قال ابن عرفة : (وعندي) لا إشكال (فيه) وهو كمن أحرم بالحج وعنده طائر في قفص ، فإنه مكلف (بإرساله ، فإذا أزال إحرامه عادت الإباحة ، كما كانت أول مرة .

وكذلك النائم حالة نومه غير مكلف) فإذا استيقظ عاد التكليف .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾

قال (ابن عرفة) : (حال) من الضمير المفعول في " أَخَذْتُكُم " فهي إشارة إلى أن (الصّاعقة) نالتهم/ على غفلة فصادفتهم ثابتين في النظر والأبصار والعقول ، ولو علموا بها قبل ذلك لأذهب الوهم عنهم أبصَارَهُم وبصائرهم فلم تصادف عندهم إثباتا بوجه ، والمراد بذلك أو أجزاء (الصاعقة) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عرفة صـ 292. 293 ﴾

ومن فوائد أبى حيان فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وإذ قلتم يا موسى ﴾ : هذه محاورة بني إسرائيل لموسى ، وذلك بعد محاورته لهم في الآية قبل هذا .

(19/52)

والضمير في قلتم قيل للسبعين المختارين ، قاله ابن مسعود وقتادة ، وذكر في اختيار السبعين كيفية ستأتي ، إن شاء الله تعالى ، في مكانها في الأعراف .

وقيل : الضمير لسائر بني إسرائيل إلا من عصمه الله ، قاله ابن زيد .

وقيل : الذين انفردوا مع هارون ولم يعبدوا العجل .

وقال بعض من جمع في التفسير : تظافرت أقوال أئمة التفسير على أن الذين أصابتهم الصاعقة هم السبعون رجلاً الذين اختارهم موسى ومضى بهم لميقات ربه ومناجاته ، وما ذكر لا يمكن مع ذكر الاختلاف في قوله : ﴿ وإذ قلتم ﴾ ، لأن الظاهر أن القائل ذلك هم الذين أخذتهم الصاعقة ، إلا إن كان ذلك من تلوين الخطاب ، وهو هنا بعيد .

وفي نداء بني إسرائيل لنبيهم باسمه سوء أدب منهم معه ، إذ لم يقولوا : يا نبي الله ، أو يا رسول الله ، أو يا كليم الله ، أو غير ذلك من الألفاظ التي تشعر بصفات التعظيم ، وهي كانت عادتهم معه : يا موسى لن نصبر على طعام واحد ، يا موسى اجعل لنا إلهاً ، يا موسى ادع لنا ربك .

وقد قال الله لهذه الأمّة لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً .

﴿ لن نؤمن لك ﴾ : قيل معناه : لن نصدّقك فيما جئت به من التوراة ، ولم يريدوا نفي الإيمان به بدليل قولهم لك ، ولم يقولوا بك نحو : ﴿ وما أنت بمؤمن لنا ﴾ ، أي بمصدّق .

وقيل معنا : لن نقرّ لك ، فعبر عن الإقرار بالإيمان وعدّاه باللام ، وقد جاء ﴿ لتؤمنن به ولتنصرنه ﴾ قَال ﴿ أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري ﴾ قالوا : أقررنا ، فيكون المعنى : لن نقرّ لك بأن التوراة من عند الله .

وقيل : يجوز أن تكون اللام للعلة ، أي لن نؤمن لأجل قولك بالتوراة .

وقيل : يجوز أن يراد نفي الكمال ، أي لا يكمل إيماننا لك ، كما قيل في قوله صلى الله عليه وسلم : " لا يؤمن عبد حتى أكون أحبّ إليه من نفسه وأهله والناس أجمعين "

(20/52)

﴿ حتى نرى الله جهرة ﴾ حتى : هنا حرف غاية ، أخبروا بنفي إيمانهم مستصحباً إلى هذه الغاية ومفهومها أنهم إذا رأوا الله جهرة آمنوا ، والرؤية هنا : هي البصرية ، وهي التي لا حجاب دونها ولا ساتر ، وانتصاب جهرة على أنه مصدر مؤكد مزيل لاحتمال الرّؤية أن تكون مناماً أو علماً بالقلب .

والمعنى حتى نرى الله عياناً ، وهو مصدر من قولك : جهر بالقراءة وبالدعاء ، أي أعلن بها فأريد بها نوع من الرّؤية ، فانتصابها على حدّ قولهم : قعد القرفصاء ، وفي : نصب هذا النوع خلاف مذكور في النحو .

والأصح أن يكون منصوباً بالفعل السابق يعدي إلى النوع ، كما تعدّى إلى لفظ المصدر الملاقي مع الفعل في الاشتقاق ، وقيل انتصابه على أنه مصدر في موضع الحال على تقدير الحذف ، أي ذوي جهرة ، أو على معنى جاهرين بالرؤية لا على طريق المبالغة نحو : رجل صوم ، لأن المبالغة لا تراد هنا .

فعلى القول الأوّل تكون الجهرة من صفات الرّؤية ، وعلى هذا القول تكون من صفات الرائين ، وثم قول ثالث ، وهو أن يكون راجعاً لمعنى القول ، أو القائلين ، فيكون المعنى : وإذ قلتم كذا قولاً جهرة أو جاهرين بذلك القول ، لم يسروه ولم يتكاتموا به ، بل صرحوا به وجهروا بأنهم أخبروا بانتفاء الإيمان مغيا باً لرؤية .

والقول بأن الجهرة راجع لمعنى القول مروي عن ابن عباس وأبي عبيدة ، والظاهر تعلقه بالرؤية لا بالقول ، وهو الذي يقتضيه التركيب الفصيح .

وقرأ ابن عباس وسهل بن شعيب وحميد بن قيس : جهرة ، بفتح الهاء ، وتحتمل هذه القراءة وجهين : أحدهما : أن يكون جهرة مصدراً كالغلبة ، فتكون معناها ومعنى جهرة المسكّنة الهاء سواء ، ويجري فيها من الإعراب الوجوه التي سبقت في جهرة .

والثاني : أن يكون جمعاً لجاهر ، كما تقول : فاسق وفسقة ، فيكون انتصابه على الحال ، أي جاهرين بالرؤية .

قال الزمخشري : وفي هذا الكلام دليل على أن موسى عليه السلام رادّهم ، وعرّفهم أن رؤية ما لا يجوز عليه أن يكون في جهة محال ، وأن من استجاز على الله الرؤية ، فقد جعله

من جملة الإقسام أو الإعراض ، فرادوه بعد بيان الحجة ووضوح البرهان ، ولجوا فكانوا في الكفر كعبدة العجل ، فسلط الله عليهم الصاعقة ، كما سلط على أولئك القتل ، تسوية بين الكفرين ، ودلالة على عظمها بعظم المحنة .

اه .

كلامه .

وهو مصرّح باستحالة رؤية الله تعال بالأبصار .

وهذه المسألة فيها خلاف بين المسلمين .

ذهبت القدرية والمعتزلة والنجارية والجهمية ومن شاركهم من الخوارج إلى استحالة ذلك في حق الباري سبحانه وتعالى ، وذهب أكثر المسلمين إلى إثبات الرؤية .

فقال الكرامية : يرى في جهة فوق وله تحت ، ويرى جسماً ، وقالت المشبهة : يرى على صورة ، وقال أهل السنة : لا مقابلاً ، ولا محاذياً ، ولا متمكناً ، ولا متحيزاً ، ولا متلوناً ، ولا على صورة ولا هيئة ، ولا على اجتماع وجسمية ، بل يراه المؤمنون ، يعلمون أنه بخلاف المخلوقات كما علموه كذلك قبل .

وقد استفاضت الأحاديث الصحيحة الثابتة في رؤية الله تعالى ، فوجب المصير إليها .

وهذه المسألة من أصعب مسائل أصول الدين ، وقد رأيت لأبي جعفر الطوسي من فضلاء الإمامية فيها مجلدة كبيرة ، وليس في الآية ما يدل على ما ذهب إليه الزمخشري من استحالة

الرؤية ، لكن عادته تحميل الألفاظ ما لا تدل عليه ، خصوصاً ما يجر إلى مذهبه الإعتزالي ، نعوذ بالله من العصبية فيما لا ينبغي .

وكذلك اختلفوا في رؤية الحق نفسه ، فذهب أكثر المعتزلة إلى أنه لا يرى نفسه ، وذهبت طائفة منهم إلى أنه يرى نفسه ، وذهب الكعبي إلى أنه لا يرى نفسه ولا غيره ، وهذا مذهب النجار ، وكل ذلك مذكور في علم أصول الدين .

﴿ فأخذتكم الصاعقة ﴾ : أي استولت عليكم وأحاطت بكم .

وأصل الأخذ : القبض باليد .

(22/52)

والصاعقة هنا : هل هي نار من السماء أحرقتهم ، أو الموت ، أو جند سماوي سمعوا حسهم فماتوا ، أو الفزع فدام حتى ماتوا ، أو غشي عليهم ، أو العذاب الذي يموتون منه ، جو صيحة سماوية ؟ أقوال ، أصحها : أنها سبب الموت ، لا الموت ، وإن كانوا قد اختلفوا في السبب ، قاله المحققون لقوله تعالى : ﴿ فلما أخذتهم الرّجفة ﴾ وأجمع المفسرون على أن المدّة من الموت أو الصعق كانت يوماً وليلة .

وقيل : أصاب موسى ما أصابها ، وقيل صعق ولم يمت ، قالوا : وهو الصحيح ، لأنه جاء ،

فلما أفاق في حق موسى وجاء ، ثم بعثناكم في حقهم ، وأكثر استعماله البعث في القرآن بعث الأموات .

وقيل : غشي عليهم كهو ولم يموتوا ، والصعق يطلق على غير الموت ، وقال جرير :

وهل كان الفرزدق غير قرد . . .

أصابته الصواعق فاستدارا

والظاهر أن سبب أخذ الصاعقة إياهم قولهم : ﴿ لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ﴾ ، إذ لم يقولوا ذلك ويسألوا الرؤية إلا على سبيل التعنت ، وقيل : سبب أخذ الصعقة إياهم هو غير هذا القول من كفرهم بموسى ، أو تكذيبهم إياه لما جاءهم بالتوراة أو عبادة العجل .

وقرأ عمرو على الصعقة ، واستعظم سؤال الرؤية حيث وقع ، لأن رؤيته لا تحصل إلا في الآخرة ، فطلبها في الدنيا هو مستنكر ، أو لأن حكم الله أن يزيل التكليف عن العبد حال ما يراه ، فكان طلبها طلباً لإزالة التكليف ، أو لأنه لما دلت الدلائل على صدق المدّعي كان طلب الدلائل الزائدة تعنتاً ولأن في منع الرؤية في الدنيا ضرباً من المصلحة المهمة للخلق ، فلذلك استنكر . .

﴿ وأنتم تنظرون ﴾ : جملة حالية ، ومتعلق النظر : أخذ الصعقة إياكم ، أي وأنتم تنظرون إلى ما حل بكم منها أو بعضكم إلى بعض كيف يخرّ ميتاً ، أو إلى الأحياء ، أو تعلمون أنها تأخذكم .

فعبر بالنظر عن العلم ، أو إلى آثار الصاعقة في أجسامكم بعد أن بعثتم ، أو ينظر كل منكم إلى إحياء نفسه ، كما وقع في قصة العُزير ، قالوا : حي عضواً بعد عضو ، أو إلى أوائل ما كان ينزل من الصاعقة قبل الموت ، أو أنتم يقابل بعضكم بعضاً من قول العرب دور آل فلان تتراءى ، أي يقابل بعضها بعضاً ، ولو ذهب ذاهب إلى أن المعنى ﴿ وأنتم تنظرون ﴾ إجابة السؤال في حصول الرؤية لهم ، لكان وجهاً من قولهم : نظرت الرجل ، أي انتظرته ، كما قال الشاعر :

فإنكما إن تنظراني ساعة . . .

من الدهر تنفعني لدى أم جندب

لكن هذا الوجه ليس بمنقول ، فلا أجسر على القول به ، وإن كان اللفظ يحتمله .

وقد عدّ صاحب المنتخب هذا إنعاماً سادساً ، وذكر في كونه إنعاماً وجوهاً : منها ما يتعلق بغير بني إسرائيل ، ومنها ما يتعلق بهم ، والمقصود ذكر ما يتعلق بكون ذلك إنعاماً ، وهو أن إحياءهم لأن يتوبوا عن التعنت ، ولأن يتخلصوا من أليم العقاب ويفوزوا بجزيل الثواب من أعظم النعم ، ولا تدل هذه الآية على أن قولهم هذا بعد أن كلف عبدة العجل

بالقتل ولا قبله .

وقد قيل بكل من القولين ، لأن هذه الجمل معطوفة بالواو ، والواو لا تدل بوضعها على الترتيب الزماني .

قال بعضهم : لما أحلهم الله محل مناجاته ، وأسمعهم لذيذ خطابه ، اشرأبّت نفوسهم للفخر وعلوّ المنزلة ، فعاملهم الله بنقيض ما حصل في أنفسهم بالصعقة التي هي خضوع وتذلل تأديباً لهم وعبرة لغيرهم ، ﴿ إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ البحر المحيط حـ 1 صـ 270. 273 ﴾

(24/52)

فصل

قال ابن كثير :

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴾

يقول تعالى : واذكروا نعمتي عليكم في بعثي لكم بعد الصعق ، إذ سألتم رؤيتي جهرة عياناً ، مما لا يستطاع لكم ولا لأمثالكم ، كما قال ابن جريج ، قال ابن عباس في هذه الآية : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً ﴾ قال : علانية .

وكذا قال إبراهيم بن طهمان عن عباد بن إسحاق ، عن أبي الحويرث ، عن ابن عباس ، أنه قال في قول الله تعالى : ﴿ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً ﴾ أي علانية ، أي حتى نرى الله .

وقال قتادة ، والربيع بن أنس : ﴿ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً ﴾ أي عيانا .

وقال أبو جعفر عن الربيع بن أنس : هم السبعون الذين اختارهم موسى فساروا معه . قال : فسمعوا كلاما ، فقالوا : ﴿ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً ﴾ قال : فسمعوا صوتاً فصعقوا ، يقول : ماتوا .

وقال مروان بن الحكم ، فيما خطب به على منبر مكة : الصاعقة : صيحة من السماء .

وقال السدي في قوله : ﴿ فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ ﴾ الصاعقة : نار .

وقال عروة بن رويم في قوله : ﴿ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴾ قال : فصعق بعضهم وبعض ينظرون ، ثم بعث هؤلاء وصعق هؤلاء .

وقال السدي : ﴿ فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ ﴾ فماتوا ، فقام موسى يبكي ويدعو الله ، ويقول : رب ، ماذا أقول لبني إسرائيل إذا أتيتهم وقد أهلكت خيارهم ﴿ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ

قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا ﴾ [الأعراف : 155] . فأوحى الله إلى موسى أن هؤلاء السبعين ممن اتخذوا العجل ، ثم إن الله أحياهم فقاموا وعاشوا رجلٌ رجلٌ ، ينظر بعضهم إلى بعض : كيف يحيون ؟ قال : فذلك قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

وقال الربيع بن أنس : كان موتهم عقوبة لهم ، فبعثوا من بعد الموت ليستوفوا آجالهم . وكذا قال قتادة .

وقال ابن جرير : حدثنا محمد بن حميد ، حدثنا سلمة بن الفضل ، عن محمد بن إسحاق ، قال : لما رجع موسى إلى قومه فرأى ما هم عليه من عبادة العجل ، وقال لأخيه وللسامري ما قال ، وحَرّق العجل وذرّاه في اليم ، اختار موسى منهم سبعين رجلا الخَيّرَ فالخير ، وقال : انطلقوا إلى الله وتوبوا إلى الله مما صنعتم وسلوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم ، صوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم . فخرج بهم إلى طور سيناء لميقات وقّتَه له ربه ، وكان لا يأتيه إلا بإذن منه وعِلْم ، فقال له السبعون ، فيما ذكر لي ، حين صنعوا ما أمروا به وخرجوا للقاء الله ، قالوا : يا موسى ، اطلب لنا إلى ربك نسمع كلام ربنا ، فقال : أفعل . فلما دنا موسى من الجبل ، وقع عليه الغمام حتى تغشى الجبل كله ، ودنا موسى فدخل فيه ، وقال للقوم : ادنوا . وكان موسى إذا كلمه الله وقع على جبهته نور ساطع ،

لا يستطيع أحد من بني آدم أن ينظر إليه ، فضرب دونه بالحجاب ، ودنا القوم حتى إذا دخلوا في الغمام وقعوا سجودا فسمعوه وهو يكلم موسى يأمره وينهاه : افعل ولا تفعل . فلما فرغ إليه من أمره انكشف عن موسى الغمام ، فأقبل إليهم ، فقالوا لموسى : ﴿ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً ﴾ فأخذتهم الرجفة ، وهي الصاعقة ، فماتوا جميعًا . وقام موسى يناشد ربه ويدعوه ويرغب إليه ، ويقول : ﴿ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ [وَإِيَّايَ] ﴾ [الأعراف : 155] قد سفهوا ، أفتهلك من ورائي من بني إسرائيل بما يفعل السفهاء منا ؟ أي : إن هذا لهم هلاك . اخترتُ منهم سبعين رجلا الخَيِّر فالخير ، أرجع إليهم وليس معي منهم رجل واحد ! فما الذي يصدقوني به ويأمنوني عليه بعد هذا ؟ ﴿ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ﴾ [الأعراف : 156] فلم يزل موسى يناشد ربه عز وجل ، ويطلب إليه حتى ردّ إليهم أرواحهم ، وطلب إليه التوبة لبني إسرائيل من عبادة العجل ، فقال : لا ؛ إلا أن يقتلوا أنفسهم .

هذا سياق محمد بن إسحاق .

وقال إسماعيل بن عبد الرحمن السدي الكبير : لما تابت بنو إسرائيل من عبادة العجل وتاب الله عليهم بقتل بعضهم بعضا كما أمرهم به ، أمر الله موسى أن يأتيه في كل أناس من

بني إسرائيل ، يعتذرون إليه من عبادة العجل ، ووعدهم موسى ، فاختار موسى قومه سبعين رجلا على عَينه ، ثم ذهب بهم ليعتذروا . وساق البقية .

(27/52)

[وهذا السياق يقتضي أن الخطاب توجه إلى بني إسرائيل في قوله : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً ﴾ والمراد السبعون المختارون منهم ، ولم يحك كثير من المفسرين سواه ، وقد أغرب فخر الدين الرازي في تفسيره حين حكى في قصة هؤلاء السبعين : أنهم بعد إحيائهم قالوا : يا موسى ، إنك لا تطلب من الله شيئًا إلا أعطاك ، فادعه أن يجعلنا أنبياء ، فدعا بذلك فأجاب الله دعوته ، وهذا غريب جدا ، إذ لا يعرف في زمان موسى نبي سوى هارون ثم يوشع بن نون ، وقد غلط أهل الكتاب أيضًا في دعواهم أن هؤلاء رأوا الله عز وجل ، فإن موسى الكليم ، عليه السلام ، قد سأل ذلك فمنع منه فكيف يناله هؤلاء السبعون ؟

القول الثاني في الآية] قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في تفسير هذه الآية : قال لهم موسى - لما رجع من عند ربه بالألواح ، قد كتب فيها التوراة ، فوجدهم يعبدون العجل ، فأمرهم بقتل أنفسهم ، ففعلوا ، فتاب الله عليهم ، فقال : إن هذه الألواح فيها كتاب الله ، فيه أمركم

الذي أمركم به ونهيكم الذي نهاكم عنه . فقالوا : ومن يأخذه بقولك أنت ؟ لا والله حتى نرى الله جهرة ، حتى يطلع الله علينا فيقول : هذا كتابي فخذوه ، فما له لا يكلمنا كما يكلمك أنت يا موسى ! وقرأ قول الله : ﴿ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً ﴾ قال : فجاءت غضبة من الله ، فجاءتهم صاعقة بعد التوبة ، فصعقتهم فماتوا أجمعون . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن كثير حـ 1 صـ 264 . 266 ﴾

ومن فوائد أبى السعود فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يا موسى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ ﴾ تذكيرٌ لنعمة أخرى عليهم بعد ما صدر عنهم ما صدر من الجناية العظيمةِ التي هي اتخاذُ العجل أي لن نؤمنَ لأجل قولِك ودعوتِك أو لن نُقرَّ لك ، والمؤمَنُ به إعطاءُ الله إياه التوراةَ أو تكليمَه إياه أو أنه نبيٌّ أو أنه تعالى جعل توبتَهم بقتلهم أنفسَهم ﴿ حتى نَرَى الله جَهْرَةً ﴾ أي عياناً وهي في الأصل مصدرُ قولِك جهَرتُ بالقراءة ، استُعيرت للمعاينة لما بينهما من الاتحاد في الوضوح والانكشافِ ، إلا أن الأولَ في المسموعات والثاني في المُبْصَرات ونصبُها على المصدرية لأنها نوع من الرؤية أو حالٌ من

الفاعل أو المفعول وقرىء بفتح الهاء على أنها مصدر كالغَلَبة أو جمعٌ كالكَتَبة فيكون حالاً من الفاعل لا غير ، والقائلون هم السبعون المختارون لميقات التوبةِ عن عبادة العجل ، روُي أنهم لما ندِموا على ما فعلوا وقالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفرْ لنا لنكونن من الخاسرين ، أمر الله موسى عليه السلام أن يجمع سبعين رجلاً ويحضرَ معهم الطورَ يُظهرون فيه تلك التوبةَ فلما خرجوا إلى الطور وقع عليه عمودٌ من الغمام وتغشاه كله فكلم الله موسى عليه السلام يأمره وينهاه ، وكان كلما كلّمه تعالى أوقع على جبهته نوراً ساطعاً لا يستطيع أحدٌ من السبعين النظرَ إليه وسمِعوا كلامَه تعالى مع موسى عليه السلام افعل ولا تفعل فعند ذلك طمِعوا في الرؤية فقالوا ما قالوا كما سيأتي في سورة الأعراف إن شاء الله تعالى وقيل : عشرة آلاف من قومه ﴿ فَأَخَذَتْكُمُ الصاعقة ﴾ لفرط العنادِ والتعنّتِ وطلب المستحيل فإنهم ظنوا أنه سبحانه وتعالى مما يشبه الأجسامَ وتتعلق به الرؤيةُ تعلُّقَها بها على طريق المقابلة في الجهات والأحياز ، ولا ريبَ في استحالته إنما الممكنُ في شأنه تعالى الرؤيةُ المنزهة عن الكيفيات بالكلية وذلك للمؤمنين في الآخرة وللأفرادِ من الأنبياء الذين بلغوا في صفاء الجوهر إلى حيث تراهم

كأنهم وهم في جلابيبَ من أبدانهم قد نَضَوْها وتجرّدوا عنها إلى عالم القدس في بعض الأحوال في الدنيا . قيل : جاءت نارٌ من السماء فأحرقتهم وقيل : صيحة وقيل : جنودٌ سمعوا بحسيسها فخرّوا صعِقين ميتين يوماً وليلة . وعن وهْب : أنهم لم يموتوا بل لما رأَوْا تلك الهيئة الهائلة أخذتهم الرعدةُ ورَجَفوا حتى كادت تبِينُ مفاصلُهم وتنقضُّ ظهورُهم وأشرفوا على الهلاك فعند ذلك بكى موسى عليه السلام ودعا ربه فكشف الله عز وجل عنهم ذلك فرجعت إليهم عقولُهم ومشاعرُهم ولم تكن صعقةُ موسى عليه السلام موتاً بل غَشْيةً لقوله تعالى فلما أفاق ﴿ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ أي ما أصابكم بنفسه أو بآثاره . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 1 صـ 103 ﴾

ومن فوائد الآلوسى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يا موسى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ ﴾ القائل هم السبعون الذين اختارهم موسى عليه السلام لميقات التوراة ، قيل : قالوه بعد الرجوع ، وقتل عبدة العجل ، وتحريق عجلهم ، ويفهم من بعض الآثار أن القائل أهل الميقات الثاني الذي ضربه الله تعالى للاعتذار عن عبدة العجل وكانوا سبعين أيضاً ، وقيل القائل عشرة آلاف من قومه ، وقيل : الضمير لسائر بني إسرائيل إلا من عصمه الله تعالى وسيأتي إن شاء الله تعالى في الأعراف ما ينفعك هنا واللام من ﴿ لَكَ ﴾ إما لام الأجل أو للتعدية بتضمين معنى الإقرار على أن موسى مقرّ له

والمقر به محذوف ، وهو أن الله تعالى أعطاه التوراة ، أو أن الله تعالى كلمه فأمره ونهاه ، وقد كان هؤلاء مؤمنين من قبل بموسى عليه السلام ، إلا أنهم نفوا هذا الإيمان المعين والإقرار الخاص .

وقيل : أرادوا نفي الكمال أي لا يكمل إيماننا لك ، كما قيل في قوله صلى الله عليه وسلم : " لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه المؤمن ما يحب لنفسه " والقول إنهم لم يكونوا مؤمنين أصلاً لم نره لأحد من أئمة التفسير .

(30/52)

﴿ حتى نَرَى الله جَهْرَةً ﴾ ﴿ حتى ﴾ هنا حرف غاية ، والجهرة في الأصل مصدر جهرت بالقراءة إذا رفعت صوتك بها واستعيرت للمعاينة بجامع الظهور التام .

وقال الراغب : الجهر يقال لظهور الشيء بإفراط حاسة البصر أو حاسة السمع أما البصر فنحو رأيته جهاراً وأما السمع فنحو ﴿ وَإِن تَجْهَرْ بالقول فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السر وَأَخْفَى ﴾ [طه : 7] وانتصابها على أنها مصدر مؤكد مزيل لاحتمال أن تكون الرؤية مناماً أو علماً بالقلب ، وقيل : على أنها حال على تقدير ذوي جهرة أو مجاهرين ، فعلى الأول الجهرة من صفات الرؤية ، وعلى الثاني من صفات الرائين ، وثمّ قول ثالث ، وهو أن تكون راجعة لمعنى القول

أو القائلين فيكون المعنى وإذ قلتم كذا قولاً جهرة أو جاهرين بذلك القول مكترثين ولا مبالين ، وهو المروي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وأبي عبيدة ، وقرأ سهل بن شعيب وغيره جهرة بفتح الهاء ، وهي إما مصدر كالغلبة ومعناها معنى المسكنة وإعرابها إعرابها أو جمع جاهر أو كفاسق وفسقة ، وانتصابها على الحال .

﴿ فَأَخَذَتْكُمُ الصاعقة ﴾ أي استولت عليكم وأحاطت بكم ، وأصل الأخذ القبض باليد ، والصاعقة هنا نار من السماء أحرقتهم أو جند سماوي سمعوا حسهم فماتوا ، أو صيحة سماوية خروا لها صعقين ميتين يوماً وليلة ، واختلف في موسى هل أصابه ما أصابهم ؟ والصحيح لا وأنه صعق ولم يمت لظاهر

﴿ فلما أفاق ﴾ [الأعراف : 143] في حقه ، و ﴿ ثُمَّ بعثناكم ﴾ [البقرة : 56] الخ في حقهم ، وقرأ عمر وعلي رضي الله تعالى عنهما (الصعقة) .

﴿ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ جملة حالية ومتعلق النظر ما حل بهم من الصاعقة أو أثرها الباقي في أجسامهم بعد البعث ، أو إحياء كل منهم كما وقع في قصة العزيز ، قالوا : أحيا عضواً بعد عضو : والمعنى : وأنتم تعلمون أنها تأخذكم ، أو وأنتم يقابل بعضكم بعضاً ، قال في "

البحر" : ولو ذهب ذاهب إلى أن المعنى : وأنتم تنظرون إجابة السؤال في حصول الرؤية لكم كان وجهاً من قولهم : نظرت الرجل أي انتظرته كما قال :

فإنكما إن (تنظراني) ساعة . . .

من الدهر تنفعني لدى أم جندب

لكن هذا الوجه غير منقول فلا أجسر على القول به ، وإن كان اللفظ يحتمله . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 261. 262 ﴾

ومن فوائد ابن عاشور فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يا موسى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ ﴾

تذكير بنعمة أخرى نشأت بعد عقاب على جفاء طبع فمحل المنة والنعمة هو قوله : ﴿ ثم بعثناكم ﴾ ، وما قبله تمهيد له وتأسيس لبنائه كما تقدم في قوله : ﴿ وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ﴾ [البقرة : 51] الآية .

والقائلون هم أسلاف المخاطبين وذلك أنهم قالوا لموسى ﴿ لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ﴾ .

والظاهر أن هذا القول وقع منهم بعد العفو عن عبادتهم العجل كما هو ظاهر ترتيب الآيات ، روى ذلك البغوي عن السدي ، وقيل : إن ذلك سألوه عند مناجاته وأن السائلين هم

السبعون الذين اختارهم موسى للميقات وهم المعبر عنهم في التوراة بالكهنة وبشيوخ بني إسرائيل .

(32/52)

وقيل : سأل ذلك جمع من عامة بني إسرائيل نحو العشرة الآلاف وهذان القولان حكاهما في "الكشاف" وليس في التوراة ما هو صريح لترجيح أحد القولين ولا ما هو صريح في وقوع هذا السؤال ولكن ظاهر ما في سفر التثنية منها ما يشير إلى أن هذا الاقتراح قد صدر وأنه وقع بعد كلام الله تعالى الأول لموسى لأنها لما حكت تذكير موسى في مخاطبة بني إسرائيل ذكرت ما يغاير كيفية المناجاة الأولى إذ قال : فلما سمعتم الصوت من وسط الظلام والجبل يشتعل بالنار تقدم إليّ جميع رؤساء أسباطكم وشيوخكم وقلتم هو ذا الرب إلهنا قد أرانا مجده وعظمته وسمعنا صوته من وسط النار . . .

إن عندما نسمع صوت الرب إلهنا أيضاً نموت . . .

تقدم أنت واسمع كل ما يقول لك الرب إلهنا وكلمنا بكل ما يكلمك به الرب إلخ .

فهذا يؤذن أن هنالك ترقباً كان منهم لرؤية الله تعالى وأنهم أصابهم ما بلغ بهم مبلغ الموت ، وبعد فالقرآن حجة على غيره مصدقاً لما بين يديه ومهيمناً عليه .

والظاهر أن ذلك كان في الشهر الثالث بعد خروجهم من مصر .

ومعنى ﴿ لا نؤمن لك ﴾ يحتمل أنهم توقعوا الكفر إن لم يروا الله تعالى أي إنهم يرتدون في المستقبل عن إيمانهم الذي اتصفوا به من قبل ، ويحتمل أنهم أرادوا الإيمان الكامل الذي دليله المشاهدة أي إن أحد هذين الإيمانين ينتفي إن لم يروا الله جهرة لأن لن لنفي المستقبل قال سيبويه : " لا لنفي يفعل ولن لنفي سيفعل" وكما أن قولك سيقوم لا يقتضي أنه الآن غير قائم فليس في الآية ما يدل على أنهم كفروا حين قولهم هذا ولكنها دالة على عجرفتهم وقلة اكتراثهم بما أوتوا من النعم وما شاهدوا من المعجزات حتى راموا أن يروا الله جهرة وإن لم يروه دخلهم الشك في صدق موسى وهذا كقول القائل إن كان كذا فأنا كافر .

وليس في القرآن ولا في غيره ما يدل على أنهم قالوا ذلك عن كفر .

وإنما عدى ﴿ نؤمن ﴾ باللام لتضمينه معنى الإقرار بالله ولن نقر لك بالصدق والذي دل على هذا الفعل المحذوف هو اللام وهي طريقة التضمين .

والجهرة مصدر بوزن فَعلة من الجهر وهو الظهور الواضح فيستعمل في ظهور الذوات والأصوات حقيقة على قول الراغب إذ قال : " الجهر ظهور الشيء بإفراط إما بحاسة

البصر نحو رأيته جهاراً ومنه جهر البئر إذا أظهر ماءها ، وإما بحاسة السمع نحو : ﴿ وإن تجهر بالقول ﴾ [طه : 7] " وكلام " الكشاف" مؤذن بأن الجهر مجاز في الرؤية بتشبيه الذي يرى بالعين بالجاهر بالصوت والذي يرى بالقلب بالمخافت ، وكان الذي حداه على ذلك اشتهار استعمال الجهر في الصوت وفي هذا كله بعد إذ لا دليل على أن جهرة الصوت هي الحقيقة ولا سبيل إلى دعوى الاشتهار في جهرة الصوت حتى يقول قائل إن الاشتهار من علامات الحقيقة على أن الاشتهار إنما يعرف به المجاز القليل الاستعمال ، وأما الأشهرية فليست من علامات الحقيقة ، ولأنه لا نكتة في هذه الاستعارة ولا غرض يرجع إلى المشبه من هذا التشبيه فإن ظهور الذوات أوضح من ظهور الأصوات .

وانتصب (جهرة) على المفعول المطلق لبيان نوع فعل ترى لأن من الرؤية ما يكون لمحة أو مع سائر شفاف فلا تكون واضحة .

ووجه العدول عن أن يقول عياناً إلى قوله (جهرة) لأن جهرة أفصح لفظاً لخفته ، فإنه غير مبدوء بحرف حلق والابتداء بحرف الحلق أتعب للحلق من وقوعه في وسط الكلام ولسلامته من حرف العلة وكذلك يجتبي البلغاء بعض الألفاظ على بعض لحسن وقعها في الكلام وخفتها على السمع وللقرآن السهم المعلى في ذلك وهو في غاية الفصاحة .

وقوله : ﴿ فأخذتكم الصاعقة ﴾ أي عقوبة لهم عما بدا منهم من العجرفة وقلة الاكتراث بالمعجزات .

وهذه عقوبة دنيوية لا تدل على أن المعاقب عليه حرام أو كفر لا سيما وقد قدر أن موتهم بالصاعقة لا يدوم إلا قليلاً فلم تكن مثل صاعقة عاد وثمود .

(34/52)

وبه تعلم أن ليس في إصابة الصاعقة لهم دلالة على أن رؤية الله تعالى مستحيلة وأن سؤالها والإلحاح فيه كفر كما زعم المعتزلة وأن لا حاجة إلى الجواب عن ذلك بأن الصاعقة لاعتقادهم أنه تعالى يشبه الأجسام فكانوا بذلك كافرين إذ لا دليل في الآية ولا غيرها على أنهم كفروا ، كيف وقد سأل الرؤية موسى عليه السلام .

والصاعقة نار كهربائية من السحاب تحرق من أصابته ، وقد لا تظهر النار ولكن يصل هواؤها إلى الأحياء فيختنقون بسبب ما يخالط الهواء الذي يتنفسون فيه من الحوامض الناشئة عن شدة الكهربائية ، وقد قيل : إن الذي أصابهم نار ، وقيل : سمعوا صعقة فماتوا .

وقوله : ﴿ وأنتم تنظرون ﴾ فائدة التقييد بهذا الحال عند صاحب " الكشاف" الدلالة على أن الصاعقة التي أصابتهم نار الصاعقة لا صوتها الشديد لأن الحال دلت على أن الذي أصابهم مما يرى ، وقال القرطبي أي وأنتم ينظر بعضكم إلى بعض أي مجتمعون .

وعندي أن مفعول ﴿ تنظرون ﴾ محذوف وأن (تنظرون) بمعنى تحدقون الأنظار عند رؤية السحاب على جبل الطور طمعاً أن يظهر لهم الله من خلاله لأنهم اعتادوا أن الله يكلم موسى كلاماً يسمعه من خلال السحاب كما تقوله التوراة في مواضع ، ففائدة الحال إظهار أن العقوبة أصابتهم في حين الإساءة والعجرفة إذ طمعوا فيما لم يكن لينال لهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 1 صـ 489. 491 ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ لَن نُّؤْمِنَ ﴾ إنما تعّدى بـ " اللام " دون " الباء " لأحد وجهين :

إمّا أن يكون التقدير : لن نؤمن لأجل قولك .

وإما أن يضمن معنى الإقرار ، أي : لن نقر لك بما ادعيته .

وقرأ أبو عمرو بإدغام النون في اللام ، لتقاربهما .

وفرق بعضهم بين قوله : ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ ﴾ وجعل الإيمان به بما جاء به ، والإيمان له هو الاستسلام والانقياد .

قوله : ﴿ جَهْرَةً ﴾ فيها قولان :

أحدهما : أنها مصدر ، وفيها حينئذ قولان :

أحدهما : أن ناصبها محذوف ، وهو من لفظها تقديره : جهرتم جهرة ، نقله " أبو البقاء " .

والثاني : أنها مصدر من نوع الفعل ، فتنتصب انتصاب " القرفصاء " من قولك ، " قعد القُرْفُصَاء " فإنها نوع من الرؤية ، وبه بدأ " الزمخشري " .

والثَّاني : أنها مصدر واقع الحال ، وفيها حينئذ أربعة أقوال :

أحدها : أنه حَالٌ من فاعل " نرى " ، أي : ذوي جَهْرَة ، قاله " الزمخشري " .

والثاني : أنها حال من فاعل " قُلْتم " ، أي : قلتم ذلك مُجَاهرين ، قاله " أبو البقاء " .

وقال بعضهم : فيكون في الكلام تقديم وتأخير أي : قلتم جَهْرَةً : لن نؤمن لك ، ومثل هذا لا يقال فيه تقديم وتأخير ، بل أتي بمقول القول ، ثم بالحال من فاعله ، فهو نظير : " ضربت هنداً قائماً " .

والثالث : أنها حال من اسم الله تعالى أي : نراه ظاهراً غير مستور .

والرابع : أنها حال من فاعل " نؤمن " ، نقله " ابن عطية " ، ولا معنى له .

والصحيح من هذه الأقوال هو الثاني .

وقرأ " ابن عَبَّاس " : جَهَرَةً بفتح الهاء ، وفيها قولان :

أحدهما : أنها لغة في " جَهْرَة " .

قال " ابن عطية " : " وهي لغة " مسموعة " عند البصريين فيما كفيه حرف الحَلْق ساكن

قد انفتح ما قبله ، والكُوفيون يُجيزُونَ فيه الفتح ، وإن لم يسمعوه " وقد تقدم تحريره .

والثاني : أنها جمع " جَاهِر " نحك " خَادِم وخَدَمَ " ، والمعنى : حتى نرى الله كَاشِفِينَ هذا الأمر ، وهي تؤيد كون " جَهرة " حالاً من فاعل " نرى " .

و " الجَهْر " : ضد السّرّ ، وهو الكشف والظهور ، ومنه : جَهَرَ بالقراءة أي : أظهرها .

قال الزمخشري : " كأن الَّذِي يرى بالعين جاهر بالرُّؤية ، والذي يرى بالقلب مخافت بها " .

قوله : ﴿ فَأَخَذَتْكُمُ الصاعقة ﴾ قرأ عمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم " الصَّعْقة " بغير ألف ، وقرأ الباقون بالألف ، وهما لغتان .

قوله : ﴿ وَأَنْتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ جملة حالية ، والمعنى : وأنتم تنظرون موت بعضكم خلف بعض ، أوك تنظرون إلى ما حَلّ بكم ، أو : أنتم أعينكم صَيْحَةٌ وتفكّر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 2 صـ 84 ـ 87 ﴾ . باختصار .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ

(55) ﴾

التعرض بمطالعة الذات على غير نعمة إلهية إفصاحٌ بتَرْكِ الحرمة ، وذلك من أمارات البعد والشقوة .

وإثبات نعت التولي بمكاشفات العزة مقروناً بملاطفات القربة من علامات الوصلة ودلالات السعادة .

فلا جَرَمَ لما أطلقوا لسان الجهل بتقوية ترك الحشمة أخذتهم الرجفة والصعقة . انتهى .

اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 92. 93 ﴾

(37/52)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (55) ﴾

بعد أن تاب الله على قوم موسى بعد عبادتهم للعجل . . عادوا مرة أخرى إلى عنادهم وماديتهم . فهم كانوا يريدون إلها ماديا . . إلها يرونه ولكن الإله من عظمته أنه غيب لا

تدركه الأبصار . . واقرأ قوله تعالى : ﴿ لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام : 103]

فكون الله سبحانه وتعالى فوق إدراك البشر . . هذا من عظمته جل جلاله . . ولكن اليهود الذين لا يؤمنون إلا بالشيء المادي المحس . . لا تتسع عقولهم ولا قلوبهم إلى أن الله سبحانه وتعالى فوق المادة وفوق الأبصار . . وهذه النظرة المادية نظرة حمقاء . . والله تبارك وتعالى قد لفتنا إلى قضية رؤيته جهرا في الدنيا . . بقوله تعالى : ﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات : 21]

أي أن الله جل جلاله وضع دليل القمة على وجود الله الذي لا تدركه الأبصار . وضع هذا الدليل في نفس كل واحد منا . وهي الروح الموجودة في الجسد . . والإنسان مخلوق من مادة نفخت فيها الروح فدبت فيها الحياة والحركة والحس . . إذن كل ما في جسدك من حياة . . ليس راجعا إلى المادة التي تراها أمامك . . وإنما يرجع إلى الروح التي لا تستطيع أن تدركها إلا بآثارها . . فإذا خرجت الروح ذهبت الحياة وأصبح الجسد رمة .

إذا كانت هذه الروح التي في جسدك . . والتي تعطيك الحياة لا تستطيع أن تدركها مع أنها موجودة داخلك . . فكيف تريد أن تدرك الله سبحانه وتعالى . . كان يجب أولا أن تسأل الله أن يجعلك تدرك الروح التي في جسدك . . ولكن الله سبحانه وتعالى قال إنها من أمر الله . . واقرأ جل جلاله : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [الإسراء : 85]

إذا كانت هذه الروح هي مخلوقة لله لا تدركها . . فكيف تطمع أن ترى خالقها . . وانظر إلى دقة الأداء القرآني في قوله سبحانه . ﴿ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً ﴾ . . فكلمة نرى تطلق ويراد بها العلم . مثلا : ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَاهَهُ هَوَاهُ ﴾ [الفرقان : 43]

أي أعلمت . . ولكن جاءت كلمة جهرة لتنفي العلم فقط وتطالب بالرؤية مجهورة واضحة يدركونها بحواسهم . وهذا دليل على أنهم متمسكون بالمادية التي هي قوام حياتهم . . نقول لهؤلاء إن سؤالكم يتسم بالغباء . . فأنتم حين تطلبون أن تروا الله جهرة . والمفروض أن الله تبارك وتعالى له مدلول عندكم . . ولذلك تطلبون رؤيته لتقارنوا المدلول على الموجود . . ذلك لو كانت القضية أصلا أن تعرفوا أن الله موجود أو غير موجود . . والذي شجعهم على أن يقولوا ما قالوا . . طلب موسى عليه السلام من الله سبحانه وتعالى أن يراه .

واقرأ قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَاكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ

اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا ﴾[الأعراف: 143]

ولابد أن نعرف أن قضية رؤية الله في الدنيا محسوسة . . وأنه لا سبيل إلى ذلك والإنسان في جسده البشري . . لأن هذا الجسد له قوانين في ادراكاته . . ولكن يوم القيامة نكون خلقا بقوانين تختلف . . ففي الدنيا لابد أن تخرج مخلفات الطعام من أجسادنا . وفي الآخرة لا مخلفات . وفي الدنيا يحكمنا الزمن . . وفي الآخرة لا زمن . إذ يظل الإنسان شبابا دائما . . إذن فهناك تغيير . .

المقاييس هنا غير المقاييس يوم القيامة في الدنيا بإعدادك وجسدك لا يمكن أن ترى الله . وفي الآخرة يسمح إعدادك وجسدك بأن يتجلى عليك الله سبحانه وتعالى . . وهذا قمة النعيم في الآخرة . أنت الآن تعيش في أثار قدرة الله . . وفي الآخرة تعيش عيشة الناظر إلى الله تبارك وتعالى . . وفي ذلك يقول الحق جل جلاله : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾[القيامة: 22-23]

والإنسان في الدنيا قد اخترع آلات مكنته من أن يرى ما لا يراه بعينه المجردة يرى الأشياء

الدقيقة بواسطة الميكرسكوب . والأشياء البعيدة بواسطة التلسكوب . . فإذا كان عمل الإنسان في الدنيا جعله يبصر ما لم يكن يبصره . . فما بالك بقدرة الله في الآخرة . . وإذا كان الإنسان عندما يضعف نظره . يطلب منه الطبيب استعمال نظارة . . فإذا ذهب إلى طبيب أمهر . . أجرى له عملية جراحية في عينه يستغني بها عن النظارة ويرى بدونها . . فما بالكم بإعداد الحق للخلق وبقدرة الله التي لا حدود لها في أن يعيد خلق العين بحيث تستطيع أن تتمتع بوجهه الكريم .

ولقد حسم الله تبارك وتعالى المسألة مع موسى عليه السلام بأن أراه العجز البشري . . لأن الجبل بقوته وجبروته لم يستطع احتمال نور الله فجعله دكا . . وكأن الله يريد أن يفهم موسى . . أن الله تبارك وتعالى حجب عنه رؤيته رحمة منه . لأنه إذا كان هذا قد حدث للجبل فماذا كان يمكن أن يحدث بالنسبة لموسى . إذا كان موسى قد صعق برؤية المتجلَّى عليه . . فكيف لو رأى المتجلِّي ؟ . .

والإنسان حين يعجز عن إدراك شيء في الدنيا لأنه مخلوق بهذه الإمكانات يكون العجز عن الإدراك إدراكا لأن العجز عن الإدراك هو في عظمة الله سبحانه وتعالى . . وقوم موسى

حينما طلبوا منه أن يروا الله جهرة أخذتهم الصاعقة وهم ينظرون . . عندما اجترأوا هذا الاجتراء على الله أخذتهم الصاعقة . . والصاعقة إما نار تأتي وإما عذاب ينزل . . المهم أنه بلاء يعمهم . . والصاعقة قد أصابت موسى . انتهى انتهى . ا هـ ﴾ تفسير الشعراوى صـ 348.345 ﴿

قوله تعالى ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (56) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان إحياؤهم من ذلك في الدار في غاية البعد وخرق العادة عبر عنه بأداة التراخي ومظهر العظمة فقال ﴿ ثم بعثناكم ﴾ أي بما لنا من العظمة بالإحياء .

قال الحرالي : من البعث وهو الاستثارة من غيب وخفاء ، أشده البعث من القبور ، ودونه البعث من النوم ؛ قال : وتجاوز الخطاب ما كان من سبب بعثهم ، وكذلك كل موضع يقع فيه ثم ، ففيه خطاب متجاوز مديد الأمد كثير رتب العدد مفهوم لمن استوفى مقاصد ما وقعت كلمة ثم ، بينه من الكلامين المتعاطفين ؛ ففي معنى التجاوز من الخطاب سؤال

موسى عليه السلام ربه في بعثهم حتى لا يكون ذلك فتنة على سائرهم – انتهى .

ولما كان ربما ظن أن البعث من غشى ونحوه حقق معناه مبيناً أنه لم يستغرق زمن البعد بقوله : ﴿ من بعد موتكم ﴾ أي هذا بتلك الصاعقة ، وقال دالاً على أن البعث إلى هذه الدار لا يقطع ما بنيت عليه من التكليف لأنها دار الأكدار فلا بد من تصفية الأسرار فيها بالأعمال والأذكار ﴿ لعلكم تشكرون ﴾ أي لتصير حالكم حال من يصح ترجي شكره لهذه النعمة العظيمة ، وكل ما جاء من لعل ، المعلل بها أفعال الرب تبارك وتعالى ينبغي أن تؤول بنحو هذا ، فإن لعل ، تقتضي الشك لأنها للطمع والإشفاق فيطمع في كون مدخولها ويشفق من أن لا يكون ، وتارة يكون الشك للمخاطب وتارة يكون للمتكلم ، ولو قيل : لتشكروا ، لم يكن هناك شك – قاله الرماني في سورة يوسف عليه السلام .

وقال الحرالي : وفي لعل ، إبهام معلومه فيهم بأن منهم من يشكر ومنهم من لا يشكر – انتهى .

وسيأتي في سورة طه إن شاء الله تعالى عن نص سيبويه في كتابه ما يؤيد ما ذكرته .

وفي هذه الآية وما تقدمها من آية ﴿ واتقوا يوماً لا تجزي نفس ﴾ تنبيه للعرب من غفلتهم في إنكار البعث وإرشاد إلى سؤال ممن يغرّهم من أهل الكتاب بأنهم أولى بالحق من المسلمين عن هذه القصة التي وقعت لأسلافهم من إحيائهم بعد موتهم ، وكذا ما أتى في محاوراتهم من قصة البقرة ونحوها مما فيه ذكر الإحياء في هذه الدار أو في القيامة .

قال الحرالي : وفيه أي هذا الخطاب آية على البعث الآخر الذي وعد به جنس بني آدم كلهم

فجأة صعق وسرعة بعث ، فإن ما صح لأحدهم ولطائفة منهم أمكن عمومه في كافتهم - انتهى .

ولما ذكرت الصاعقة الناشئة غالباً من الغمام كان أنسب الأشياء إيلاءها ذكر تظليل الغمام وناسب التحذير من نقمة الإحراق بالصاعقة والتذكير بنعمة الإيجاد من الموت الإتباع بذكر التنعيم في الإبقاء بالصيانة عن حر الظاهر بالشمس والباطن بالجوع . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 137.138 ﴾

فصل

قال الفخر :

أما قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ بعثناكم مّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ ﴾ لأن البعث قد (لا) يكون إلا بعد الموت ، كقوله تعالى : ﴿ فَضَرَبْنَا على ءاذَانِهِمْ فِى الكهف سِنِينَ عَدَدًا ثُمَّ بعثناهم لِنَعْلَمَ أَيُّ الحِزْبَيْنِ أحصى لِمَا لَبِثُواْ أَمَدًا ﴾ [الكهف : 11 ، 12] .

فإن قلت : هل دخل موسى عليه السلام في هذا الكلام ؟ قلت : لا ، لوجهين .

الأول : أنه خطاب مشافهة فلا يجب أن يتناول موسى عليه السلام .

الثاني : أنه لو تناول موسى لوجب تخصيصه بقوله تعالى في حق موسى : ﴿ فَلَمَّا أَفَاقَ ﴾ مع أن لفظة الإفاقة لا تستعمل في الموت ، وقال ابن قتيبة : إن موسى عليه السلام قد مات وهو خطأ لما بيناه .

أما قوله تعالى : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ فالمراد أنه تعالى إنما بعثهم بعد الموت في دار الدنيا ليكلفهم وليتمكنوا من الإيمان ومن تلافي ما صدر عنهم من الجرائم ، أما أنه كلفهم فلقوله تعالى : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ ولفظ الشكر يتناول جميع الطاعات لقوله تعالى : ﴿ اعملوا ءالَ دَاوُودُ شُكْرًا ﴾ [سبأ : 13] ، فإن قيل : كيف يجوز أن يكلفهم وقد أماتهم ولو جاز ذلك فلم لا يجوز أن يكلف أهل الآخرة إذا بعثهم بعد الموت ؟ قلنا : الذي يمنع من تكليفهم في الآخرة ليس هو الإماتة ثم الإحياء ، وإنما يمنع من ذلك أنه قد اضطرهم يوم القيامة إلى معرفته وإلى معرفة ما في الجنة من اللذات وما في النار من الآلام وبعد العلم الضروري لا تكليف فإذا كان المانع هو هذا لم يمتنع في هؤلاء الذين أماتهم الله بالصاعقة أن لا يكون قد اضطرهم ، وإذا كان كذلك صح أن يكلفوا من بعد ويكون موتهم ثم الإحياء بمنزلة النوم أو بمنزلة الإغماء .

ونقل عن الحسن البصري أنه تعالى قطع آجالهم بهذه الإماتة ثم أعادهم كما أحيا الذي أماته حين مر على قرية وهي خاوية على عروشها وأحيا الذين أماتهم بعد ما خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت وهذا ضعيف لأنه تعالى ما أماتهم بالصاعقة إلا وقد كتب وأخبر بذلك فصار ذلك الوقت أجلاً لموتهم الأول ثم الوقت الآخر أجلاً لحياتهم.

وأما استدلال المعتزلة بقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ على أنه تعالى يريد الإيمان من الكل فجوابنا عنه قد تقدم مراراً فلا حاجة إلى الإعادة. انتهى انتهى. اهـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 81﴾

وقال القرطبى:

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ أي أحييناكم.

قال قتادة: ماتوا وذهبت أرواحهم ثُمّ ردوا لاستيفاء آجالهم.

قال النحاس: وهذا احتجاج على من لم يؤمن بالبعث من قريش، واحتجاج على أهل الكتاب إذ خبروا بهذا، والمعنى ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ما فعل بكم من البعث بعد الموت.

وقيل: ماتوا مَوْتَ همودٍ يعتبر به الغير، ثم أرسلوا.

وأصل البعث الإرسال.

وقيل: بل أصله إثارة الشيء من محله؛ يقال: بعثت الناقة: أثرتها، أي حركتها؛ قال امرؤ

القيس :

وفتيان صدْق قد بعثتُ بسُحْرة . . .

فقاموا جميعاً بين عاثٍ ونَشْوان

وقال عنترة :

وصحابةٍ شُمّ الأنوف بعثتهم . . .

ليلاً وقد مال الكرى بُطلاها

وقال بعضهم : ﴿ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ ﴾ علّمناكم من بعد جهلكم .

قلت : والأوّل أصح ؛ لأن الأصل الحقيقةُ ، وكان موت عقوبة ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الموت فَقَالَ لَهُمُ الله مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ﴾ [البقرة : 243] على ما يأتي .

فائدة : قال الماوَرْدِيّ : واختلف في بقاء تكليفَ من أعيد بعد موته ومعاينة الأحوال المضطرة إلى المعرفة على قولين : أحدهما : بقاء تكليفهم لئلا يخلو عاقل مِن تعبّد .

الثاني : سقوط تكليفهم معتبراً بالاستدلال دون الاضطرار .

قلت : والأوّل أصح ، فإن بني إسرائيل قد رأوا الجبل في الهواء ساقطاً عليهم والنار محيطة بهم ؛ وذلك مما اضطرهم إلى الإيمان ، وبقاء التكليف ثابت عليهم ؛ ومثلهم قوم يونس . ومحال أن يكونوا غير مكلَّفين . والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 1 صـ 405.404 ﴾ . بتصرف يسير .

وقال أبو حيان :

﴿ ثم بعثناكم من بعد موتكم ﴾ : معطوف على قوله : ﴿ أخذتكم الصاعقة ﴾ ، ودل العطف بثم على أن بين أخذ الصاعقة والبعث زماناً تتصوّر فيه المهلة والتأخير ، هو زمان ما نشأ عن الصاعقة من الموت ، أو الغشي على الخلاف الذي مرّ .

والبعث هنا : الإحياء ، ذكر أنهم لما ماتوا لم يزل موسى يناشد ربه في إحيائهم ويقول : يا رب إن بني إسرائيل يقولون قتلت خيارنا حتى أحياهم الله جميعاً رجلاً بعد رجل ، ينظر بعضهم إلى بعض كيف يحيون .

وقيل : معنى البعث الإرسال ، أي أرسلناكم .

روي أنه لما أحياهم الله سألوا أن يبعثهم أنبياء فبعثهم أنبياء .

وقيل : معنى البعث : الإفاقة من الغشية ، ويتخرّج على قول من قال إنهم صعقوا ولم يموتوا .

وقيل : البعث هنا : القيام بسرعة من مصارعهم ، ومنه قالوا : ﴿ يا ويلنا من بعثنا من

مرقدنا ﴾ ؟ وقيل معنى البعث هنا ، التعليم ، أي ثم علمناكم من بعد جهلكم ، والموت هنا ظاهرة مفارقة الروح الجسد ، وهذا هو الحقيقة ، وكان إحياؤهم لأجل استيفاء أعمارهم .

ومن قال : كان ذلك غشياً وهموداً كان الموت مجازاً ، قال تعالى : ﴿ ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ﴾ والذي أتاه مقدّماته سميت موتاً على سبيل المجاز ، قال الشاعر :

وقل لهم بادروا بالعذر والتمسوا . . .

قولاً يبرئكم إني أنا الموت

جعل نفسه الموت لما كان سبباً للموت ، وكذلك إذا حمل الموت على الجهل كان مجازاً ، وقد كنى عن العلم بالحياة ، وعن الجهل بالموت .

قال تعالى : ﴿ أو من كان ميتاً فأحييناه ﴾ وقال الشافعي ، رحمه الله :

إنما النفس كالزجاجة . . .

والعلم سراج وحكمة الله زيت

فإذا أبصرت فإنك حيّ . . .

وإذا أظلمت فإنك ميت

وقال ابن السيد :

أخو العلم حي خالد بعد موته . . .

وأوصاله تحت التراب رميم

وذو الجهل ميت وهو ماش على الثرى . . .

يظنّ من الأحياء وهو عديم

ولا يدخل موسى على نبينا وعليه السلام في خطاب ثم ﴿ بعثناكم ﴾ ، لأنه خطاب مشافهة للذين قالوا : ﴿ لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ﴾ ، ولقوله : ﴿ فلما أفاق ﴾ ، ولا يستعمل هذا في الموت .

وأخطأ ابن قتيبة في زعمه أن موسى قد مات ﴿ لعلكم تشكرون ﴾ : وفي متعلق الشكر أقوال ينبني أكثرها على المراد بالبعث والموت .

فمن زعم أنهما حقيقة قال : المعنى لعلكم تشكرون نعمته بالإحياء بعد الموت ، أو على هذه النعمة وسائر نعمه التي أسداها إليهم ، ومن جعل ذلك مجازاً عن إرسالهم أنبياء ، أو إثارتهم من الغشي ، أو تعليمهم بعد الجهل ، جعل متعلق الشكر أحد هذه المجازات .

وقد أبعد من جعل متعلق الشكر إنزال التوراة التي فيها ذكر توبته عليهم وتفصيل شرائعه ، بعد أن لم يكن شرائع .

وقيل : المعنى لعلكم تشكرون نعمة الله بعد ما كفرتموها إذا رأيتم بأس الله في رميكم بالصاعقة وإذاقتكم الموت .

وقال في المنتخب : إنما بعثهم بعد الموت في دار الدنيا ليكلفهم وليتمكنوا من الإيمان ومن تلافي ما صدر عنهم من الجرائم .

أمّا أنه كلفهم ، فلقوله : ﴿ لعلكم تشكرون ﴾ .

ولفظ الشكر يتناول جميع الطاعات لقوله : ﴿ اعملوا آل داود شكراً ﴾ انتهى كلامه .

وقال الماوردي : اختلف في بقاء تكليف من أعيد بعد موته ، ومعاينة الأهوال التي تضطره وتلجئه إلى الاعتراف بعد الاقتراف .

فقال قوم : سقط عنهم التكليف ليكون تكليفهم معتبراً بالاستدلال دون الاضطرار .

وقال قوم : يبقى تكليفهم لئلا يخلو بالغ عاقل من تعبد ، ولا يمنع حكم التكليف بدليل قوله تعالى : ﴿ وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة ﴾ وذلك حين أبوا أو يقبلوا التوراة ، فلما نتق الجبل فوقهم آمنوا وقبلوها ، فكان إيمانهم بها إيمان اضطرار ، ولم يسقط عنهم التكليف ، ومثلهم قوم يونس في إيمانهم . انتهى كلامه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 1 صـ

﴿ 274.273

وقال الآلوسى :

﴿ ثُمَّ بعثناكم مّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ ﴾ بسبب الصاعقة ، وكان ذلك بدعاء موسى عليه السلام ومناشدته ربه بعد أن أفاق ، ففي بعض الآثار أنهم لما ماتوا لم يزل موسى يناشد ربه في إحيائهم ويقول : يا رب إن بني إسرائيل يقولون قتلت خيارنا حتى أحياهم الله تعالى جميعاً رجلاً بعد رجل ينظر بعضهم إلى بعض كيف يحييون ، والموت هنا ظاهر في مفارقة الروح الجسد ، وقيد البعث به لأنه قد يكون عن نوم كما هو في شأن أصحاب الكهف ، وقد يكون بمعنى إرسال الشخص وهو في القرآن كثير ومن الناس من قال : كان هذا الموت غشياناً وهمودا لا موتاً حقيقة كما في قوله تعالى : ﴿ وَيَأْتِيهِ الموت مِن كُلّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيّتٍ ﴾ [إبراهيم : 17] ومنهم من حمل الموت على الجهل مجازاً كما في قوله تعالى : ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فأحييناه ﴾ [الأنعام : 122] .

وقد شاع ذلك نثراً ونظماً ، ومنه قوله :

أخو (العلم حي) خالد بعد موته . . .

وأوصاله تحت التراب رميم

وذو (الجهل ميت) وهو ماش على الثرى . . .

يظن من الأحياء وهو عديم

ومعنى البعث على هذا التعليم أي ثم علمناكم بعد جهلكم .

(47/52)

﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أي نعمة الله تعالى عليكم بالإحياء بعد الموت أو نعمته سبحانه بعد ما كفرتموها إذ رأيتم بأس الله تعالى في رميكم بالصاعقة وإذاقتكم الموت وتكليف من أعيد بعد الموت مما ذهب إليه جماعة لئلا يخلو بالغ عاقل من تعبد في هذه الدار بعد بعثة المرسلين ، ومن جعل البعث بعد الموت مجازاً عن التعليم بعد الجهل جعل متعلق الشكر ذلك ، وفي بعض الآثار أنه لما أحياهم الله تعالى سألوا أن يبعثهم أنبياء ففعل ، فمتعلق الشكر حينئذ على ما قيل : هذا البعث وهو بعيد ، وأبعد منه جعل متعلقه إنزال التوراة التي فيها ذكر توبته عليهم وتفصيل شرائعهم بعد أن لم يكن لهم شرائع .

وقد استدل المعتزلة وطوائف من المبتدعة بهذه الآية على استحالة رؤية الباري سبحانه وتعالى لأنها لو كانت ممكنة لما أخذتهم الصاعقة بطلبها ، والجواب أن أخذ الصاعقة لهم ليس لمجرد الطلب ولكن لما انضم إليه من التعنت وفرط العناد كما يدل عليه مساق الكلام حيث علقوا الإيمان بها ، ويجوز أيضاً أن يكون ذلك الأخذ لكفرهم بإعطاء الله تعالى

التوراة لموسى عليه السلام وكلامه إياه أو نبوته لا لطلبهم ، وقد يقال : إنهم لما لم يكونوا متأهلين لرؤية الحق في هذه النشأة كان طلبهم لها ظلماً فعوقبوا بما عوقبوا ، وليس في ذلك دليل على امتناعها مطلقاً في الدنيا والآخرة ، وسيأتي إن شاء الله تعالى تحقيق هذه المسألة بوجه لا غبار عليه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 262 .

263 ﴾

وقال ابن عاشور :

وقوله : ﴿ ثم بعثناكم من بعد موتكم ﴾ إيجاز بديع ، أي فمتم من الصاعقة ثم بعثناكم من بعد موتكم ، وهذا خارق عهادة جعل الله معجزة لموسى استجابة لدعائه وشفاعته أو كرامة لهم من بعد تأديبهم إن كان السائلون هم السبعين فإنهم من صالحي بني إسرائيل .

فإن قلت إذا كان السائلون هم الصالحين فكيف عوقبوا ؟

قلت قد علمت أن هذا عقاب دنيوي وهو ينال الصالحين ويسمى عند الصوفية بالعتاب وهو لا ينافي الكرامة ، ونظيره أن موسى سأل رؤية ربه فتجلى الله للجبل فجعله دكاً وخر موسى صعقاً فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك .

فإن قلت إن الموت يقتضي انحلال التركيب المزاجي فكيف يكون البعث بعده في غير يوم إعادة الخلق ؟

قلت : الموت هو وقوف حركة القلب وتعطيل وظائف الدورة الدموية فإذا حصل عن فساد فيها لم تعقبه حياة إلا في يوم إعادة الخلق وهو المعنى بقوله تعالى : ﴿ لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ﴾ [الدخان : 56] وإذا حصل عن حادث قاهر مانع وظائف القلب من عملها كان للجسد حكم الموت في تلك الحالة لكنه يقبل الرجوع إن عادت إليه أسباب الحياة بزوال الموانع العارضة ، وقد صار الأطباء اليوم يعتبرون بعض الأحوال التي تعطل عمل القلب اعتبار الموت ويعالجون القلب بأعمال جراحية تعيد إليه حركته .

والموت بالصاعقة إذا كان عن اختناق أو قوة ضغط الصوت على القلب قد تعقبه الحياة بوصول هواء صاف جديد وقد يطول زمن هذا الموت في العادة ساعات قليلة ولكن هذا الحادث كان خارق عادة فيمكن أن يكون موتهم قد طال يوماً وليلة كما روي في بعض الأخبار ويمكن دون ذلك . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 1 صـ 491 . ﴿ 492

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (56) ﴾

أعادهم إلى حال الإحساس بعد ما استوفتهم سطوات العذاب إملاء لهم بمقتضى الحكم ، وإجراء للسنَّةِ في الصفح عن الجُرْم ، ومن قضايا الكرم إسبال الستر على هناتِ الخَدَم .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 93 ﴾

(49/52)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (56) ﴾

فالحق سبحانه وتعالى يكمل لنا قصة الذين قالوا ﴿ أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ ﴾ . موسى عليه السلام أصيب بالصاعقة أيضا . . عندما طلب أن ينظر إلى الله . ولكن هناك فرق بين الحالتين . . الله تبارك وتعالى يقول : ﴿ وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف : 143]

ولكن الأمر لم يكن كذلك مع قوم موسى . فمع موسى قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ فَلَمَّا أَفَاقَ ﴾ أي أن الصاعقة أصابته بنوع من الإغماء . . ولكن مع قوم موسى . قال : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ ﴾ . . فكأن قوم موسى ماتوا فعلا من الصاعقة . . فموسى أفاق

من تلقاء نفسه . . أما أولئك الذين أصابتهم الصاعقة من قومه . . فقد ماتوا ثم بعثوا لعلهم يشكرون . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 349 ﴾

(50/52)

قوله تعالى ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (57) ﴾

فصل

قال البقاعى :

قال الحرالي : وعطف تعالى على ذكر البعث ذكر حال من مثل أحوال أهل الجنة الذي ينالونه بعد البعث ، فكأن عامتهم الذين لم يموتوا إنما شركوا هؤلاء المبعوثين لكونهم كأنهم ماتوا بموتهم وبعثوا ببعثهم ، فذكر ظل الغمام وهو من أمر ما بعد البعث والأرزاق بغير كلفة وهو من حال ما بعد البعث وأفهم ذلك أموراً أخر في أحوالهم كما يقال إن ملابسهم كانت تطول معهم كلما طالوا فكأنهم أخرجوا من أحوال أهل الدنيا بالجملة إلى شبه أحوال أهل الجنة في محل تيههم ومستحق منال العقوبة لهم كل ذلك إنعاماً عليهم ، ثم لم يزيدوا مع ذلك إلا بعداً عن التبصرة في كل ما أبدي لهم من العجائب – حدث عن بني إسرائيل ولا حرج فقال

: ﴿ وظللنا ﴾ من الظلة وهو وقاية مما ينزل من سماء الموقي و ﴿ عليكم الغمام ﴾ من الغم وهو ما يغم النور أي يغطيه – انتهى .

أي فعلنا ذلك لترفيه أجسامكم وترويح أرواحكم ، وعن مجاهد أن الغمام أبرد من السحاب وأرق وأصفى ﴿ وأنزلنا عليكم المن ﴾ قال الحرالي : هو ما جاء بغير كلفة ، الكمأة من المن – انتهى .

﴿ والسلوى ﴾ أي لطعامكم على أن المن من الغمام ، وحشر السلوى إليهم بالريح المثيرة له فنظمها به على غاية التناسب .

قال الحرالي : والسلوى اسم صنف من الطير يقال هو السماني أو غيره – انتهى .

وسيأتي إن شاء الله تعالى في الأعراف أنه غير السماني وأنهم خصوا به إيذاناً بقساوة قلوبهم .

وهذه الخارقة قد كان صحابة نبينا صلى الله عليه وسلم غنيين عنها بما كان النبي صلى الله عليه وسلم كلما احتاجوا دعا بما عندهم من فضلات الزاد فيدعو ، فيكثره الله حتى يكتفوا من عند آخرهم ، وأعطى أبا هريرة رضي الله عنه تمرات وأمره أن يجعلها في مزود وقال له : أنفق ولا تنثرها ، فأكل منه سنين وأنفق منه أكثر من خمسين وسقاً .

وبارك لآخر في قليل شعير وأمره أن لا يكيله ، فلم يزل ينفق منه على نفسه وامرأته وضيفه حتى كاله فنفي ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " لو لم تكله لأكلتم منه ولقام لكم " وكان نحو ذلك لعائشة رضي الله عنها بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم .

وكذا لأم مالك رضي الله عنها في عكة سمن لم تزل تقيم لها أدمها حتى عصرتها .

ومثل ذلك كثير في دلائل النبوة للبيهقي وغيره .

وقيل لكم ﴿ وكلوا ﴾ ودل على أنه أكثر من كفايتهم بقوله ﴿ من طيبات ﴾ جمع طيبة .

قال الحرالي : والطيب ما خلص من منازع يشارك فيه وطيّبه من سوى الأكل له أي لم ينازعه وليس فيه حق لغيره ، ومنه الطيب في المذاق وهو الذي لا ينازعه تكره في طعمه ، وهذا زاد على ذلك بكونه لم يكن عن عمل حرث ولا معاملة مع خلق – انتهى .

﴿ ما رزقناكم ﴾ أي على عظمتنا التي لا تضاهى .

ولما لم يرعوا هذه النعم أعرض عنهم للإيذان باستحقاق الغضب .

وقال الحرالي : ثم أعرض بالخطاب عنهم وأقبل به على محمد صلى الله عليه وسلم ومن معه – انتهى .

فقال ﴿ وما ﴾ أي فظلموا بأن كفروا هذه النعم كلها وما ﴿ ظلمونا ﴾ بشيء من ذلك ﴿ ولكن كانوا ﴾ أي جبلة وطبعاً ﴿ أنفسهم ﴾ أي خاصة ﴿ يظلمون ﴾ لأن ضرر ذلك

مقصور عليهم .

قال الحرالي : وفيه إشعار بتحذير هؤلاء أن يروا نحواً مما رأوا فينالهم نحو مما نالوه ، لأن قصص القرآن ليس مقصوده مقصوراً على ذكر الأولين فقط بل كل قصة منه إنما ذكرت لما يلحق هذه الأمة في أمد يومها من شبه أحوال من قص عليهم قصصه – انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 138. 140 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أن هذا هو الإنعام السابع الذي ذكره الله تعالى وقد ذكر الله تعالى هذه الآية بهذه الألفاظ في سورة الأعراف ، وظاهر هذه الآية يدل على أن هذا الإظلال كان بعد أن بعثهم لأنه تعالى قال : ﴿ ثُمَّ بعثناكم مّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الغمام ﴾ بعضه معطوف على بعض وإن كان لا يمتنع خلاف ذلك ، لأن الغرض تعريف النعم التي خصهم الله تعالى بها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 81 ﴾

قال الفخر :

قال المفسرون : ﴿ وَظَلَّلْنَا ﴾ وجعلنا الغمام تظلكم ، وذلك في التيه سخر الله لهم السحاب يسير بسيرهم يظلهم من الشمس وينزل عليهم المن وهو الترنجبين مثل الثلج من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس لكل إنسان صاع ويبعث الله إليهم السلوى وهي السماني فيذبح الرجل منها ما يكفيه ﴿ كُلُواْ ﴾ على إرادة القول : ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا ﴾ يعني فظلموا بأن كفروا هذه النعم أو بأن أخذوا أزيد مما أطلق لهم في أخذه أو بأن سألوا غير ذلك الجنس وما ظلمونا فاختصر الكلام بحذفه لدلالة ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا ﴾ عليه . انتهى انتهى . اهـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 82 ﴾

فائدة

قال السمرقندى :

﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الغمام ﴾ ، إنما خاطبهم وأراد به آباءهم وهم قوم موسى عليه السلام حيث أمروا بأن يدخلوا مدينة الجبارين ، فأبوا ذلك وقالوا لموسى : ﴿ قَالُواْ يا موسى إِنَّا لَنْ نَّدْخُلَهَآ أَبَداً مَّا دَامُواْ فِيهَا فاذهب أَنتَ وَرَبُّكَ فقاتلا إِنَّا هاهنا قاعدون ﴾ [المائدة : 24] ، فعاقبهم الله عز وجل فبقوا في التيه أربعين سنة ، وكانت المفازة اثني عشر فرسخاً ، وكان يؤذيهم حر الشمس فظلل عليهم الغمام ، فذلك قوله تعالى : ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الغمام ﴾ وهو السحاب الأبيض ، يقيكم حر الشمس في التيه ، وكان لهم في التيه عمود من نور مد لهم من السماء فيسير معهم من الليل مكان القمر .

فأصابهم الجوع فسألوا موسى فدعا الله فأنزل عليهم المن وهو الترنجبين كان يتساقط عليهم كل غداة ، فيأخذ كل إنسان منهم ما يكفيه يومه وليلته ، فإن أخذ أكثر من ذلك دود ذلك الزائد وفسد ؛ وإذا كان يوم الجمعة أخذ كل إنسان منهم مقدار ما يكفيه يومين ، لأنه لا يأتيهم يوم السبت ، وكان ذلك مثل الشهد المعجون بالسمن فأجموا من المن ، أي ملوا من أكله .

فقالوا لموسى عليه السلام : قتلنا هذا المن بحلاوته وأحرق بطوننا ، فادع لنا ربك أن يطعمنا لحماً .

فدعا لهم موسى عليه السلام فبعث الله لهم طيراً كثيراً فذلك قوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ المن والسلوى ﴾ ، وهو السماني وهو طير يضرب إلى الحمرة .

وقال بعضهم : كان طيراً يأتيهم مشوياً .

قال عامة المفسرين إنهم كانوا يأخذونها ويذبحونها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ 100 ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وظَلَّلنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المنَّ والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ .

﴿ الغمام ﴾ السحاب ، سمي غماماً ، لأنه يغم السماء ، أي : يسترها ، وكل شيء غطيته فقد غممته ، وهذا كان في التيه .

وفي المن ثمانية أقوال .

أحدها : أنه الذي يقع على الشجر فيأكله الناس ، قاله ابن عباس والشعبي والضحاك .

والثاني : أنه الترنجبين ، روي عن ابن عباس أيضاً ، وهو قول مقاتل .

والثالث : أنه صمغه ، قاله مجاهد .

والرابع : أنه يشبه الرب الغليظ ، قاله عكرمة .

والخامس : أنه شراب ، قاله أبو العالية ، والربيع بن أنس .

والسادس : أنه خبز الرقاق مثل الذرة ، أو مثل النَّقي ، قاله وهب .

والسابع : أنه عسل ، قاله ابن زيد .

والثامن : أنه الزنجبيل ، قاله السدي .

وفي السلوى قولان .

أحدهما : أنه طائر ، قال بعضهم : يشبه السماني ، وقال بعضهم : هو السماني .

والثاني : أنه العسل ذكره ابن الانباري ، وأنشد :

وقاسمها بالله جهداً لأنتم . . .

ألذ من السلوى إذا ما نشورها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير حـ 1 صـ 84 ﴾

فصل

قال الآلوسى :

﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الغمام ﴾ عطف على ﴿ بعثناكم ﴾ [البقرة : 65] وقيل : على ﴿ قُلْتُمْ ﴾ [البقرة : 55] والأول أظهر للقرب والاشتراك في المسند إليه مع التناسب في المسندين في كون كل منهما نعمة بخلاف ﴿ قُلْتُمْ ﴾ فإنه تمهيد لها ، وإفادته تأخير التظليل والإنزال عن واقعة طلبهم الرؤية ، وعلى التقديرين لا بد لترك كلمة ﴿ إِذْ ﴾ [البقرة : 55] ههنا من نكتة ، ولعلها الاكتفاء بالدلالة العقلية على كون كل منهما نعمة مستقلة مع التحرز عن تكرارها في ﴿ ظللنا ﴾ و ﴿ وَقَدْ أَنزَلْنَا ﴾ والغمام اسم جنس كحامة وحمام وهو السحاب ، وقيل : ما ابيض منه ، وقال مجاهد : هو أبرد من السحاب وأرق ، وسمي غماماً لأنه يغم وجه السماء ويستره ومنه الغم والغمم ، وهل كان غماماً حقيقة أو شيئاً يشبهه وسمي به ؟ قولان ، والمشهور الأول وهو مفعول ﴿ ظللنا ﴾ على إسقاط حرف

الجر كما تقول : ظللت على فلان بالرداء أو بلا إسقاط ، والمعنى جعلنا الغمام علكيم ظلة ، والظاهر أن الخطاب لجميعهم فقد روي أنهم لما أمروا بقتال الجبارين وامتنعوا وقالوا : ﴿ فاذهب أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا ﴾ [المائدة : 24] ابتلاهم الله تعالى بالتيه بين الشام ومصر أربعين سنة وشكوا حر الشمس فلطف الله تعالى بهم بإظلال الغمام وإنزال المنّ والسلوى وقيل : لما خرجوا من البحر وقعوا بأرض بيضاء عفراء ليس فيها ماء ولا ظل فشكوا الحر فوقوا به ، وقيل : الذين ظللوا بالغمام بعض بني إسرائيل وكان الله تعالى قد أجرى العادة فيهم أن من عبد ثلاثين سنة لا يحدث فيها ذنباً أظلته الغمامة وكان فيهم جماعة يسمون أصحاب غمائم فامتن الله تعالى لكونهم فيهم من له هذه الكرامة الظاهرة والنعمة الباهرة .

(55/52)

﴿ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ المن والسلوى ﴾ المنّ اسم جنس لا واحد له من لفظه والمشهور أنه الترنجبين وهو شيء يشبه الصمغ حلو مع شيء من الحموضة كان ينزل عليهم كالطل من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس في كل يوم إلا يوم السبت وكان كل شخص مأموراً بأن يأخذ قدر صاع كل يوم أو ما يكفيه يوماً وليلة ولا يدخر إلا يوم الجمعة فإن ادخار حصة السبت كان مباحاً فيه .

وعن وهب أنه الخبز الرقاق ، وقيل : المراد به جميع ما منّ الله تعالى به عليهم في التيه وجاءهم عفواً بلا تعب ، وإليه ذهب الزجاج ويؤيده قوله صلى الله عليه وسلم : " الكمأة من المنّ الذي منّ الله تعالى به على بني إسرائيل " والسلوى اسم جنس أيضاً واحدها سلواة كما قاله الخليل .

وليست الألف فيها للتأنيث وإلا لما أنثت بالهاء في قوله .

كما انتفض السلوات من بلل القطر . . .

وقال : الكسائي : السلوى واحدة وجمعها سلاوي ، وعند الأخفش الجمع والواحد بلفظ واحد ، وقيل : جمع لا واحد له من لفظه وهو طائر يشبه السماني أو هو السماني بعينها وكانت تأتيهم من جهة السماء بكرة وعشياً أو متى أحبوا فيختارون منها السمين ويتركون منها الهزيل ، وقيل : إن ريح الجنوب تسوقها إليهم فيختارون منها حاجتهم ويذهب الباقي ، وفي رواية كانت تنزل عليهم مطبوخة ومشوية وسبحان من يقول للشيء كن فيكون وذكر السدوسي أن السلوى هو العسل بلغة كنانة ويؤيده ؛ قول الهذلي :

وقاسمتها بالله جهراً لأنتم . . .

ألذ من (السلوى) إذا ما نشورها

وقول ابن عطية إنه غلط غلط ، واشتقاقها من السلوة لأنها لطيبها تسلي عن غيرها

وعطفها على بعض وجوه المنّ من عطف الخاص على العام اعتناء بشأنه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 263. 264 ﴾

(56/52)

وقال ابن عاشور :

عطف ﴿ وظللنا ﴾ على ﴿ بعثناكم ﴾ [البقرة : 56] .

وتعقيب ذكر الوحشة بذكر جائزة شأن الرحيم في تربية عبده ، والظاهر أن تظليل الغمام ونزول المن والسلوى كان قبل سؤالهم رؤية الله جهرة لأن التوراة ذكرت نزول المن والسلوى حين دخولهم في برية سين بين إيليم وسينا في اليوم الثاني عشر من الشهر الثاني من خروجهم من مصر حين اشتاقوا أكل الخبز واللحم لأنهم في رحلتهم ما كانوا يطبخون بل الظاهر أنهم كانوا يقتاتون من ألبان مواشيهم التي أخرجوها معهم ومما تنبته الأرض .

وأما تظليلهم بالغمام فالظاهر أنه وقع بعد أن سألوا رؤية الله لأن تظليل الغمام وقع بعد أن نصب لهم موسى خيمة الاجتماع محل القرابين ومحل مناجاة موسى وقبلة الداعين من بني إسرائيل في برية سينا فلما تمت الخيمة سنة اثنتين من خروجهم من مصر غطت سحابة خيمة الشهادة ومتى ارتفعت السحابة عن الخيمة فذلك إذن لبني إسرائيل بالرحيل فإذا

حلت السحابة حلوا إلخ كذا تقول كتبهم .

فلما سأل بنو إسرائيل الخبز واللحم كان المن ينزل عليهم في الصباح والسلوى تسقط عليهم في المساء بمقدار ما يكفي جميعهم ليومه أو ليلته إلا يوم الجمعة فينزل عليهم منهما ضعف الكمية لأن في السبت انقطاع النزول .

والمن مادة صمغية جوية ينزل على شجر البادية شبه الدقيق المبلول ، فيه حلاوة إلى الحموضة ولونه إلى الصفرة ويكثر بوادي تركستان وقد ينزل بقلة غيرها ولم يكن يعرف قبل في برية سينا .

وقد وصفته التوراة بأنه دقيق مثل القشور يسقط ندى كالجليد على الأرض وهو مثل بزر الكزبرة أبيض وطعمه كرقاق بعسل وسمته بنو إسرائيل منا ، وقد أمروا أن لا يبقوا منه للصباح لأنه يتولد فيه دود وأن يلتقطوه قبل أن تحمى الشمس لأنها تذيبه فكانوا إذا التقطوه طحنوه بالرحا أو دقوه بالهاون وطبخوه في القدور وعملوه ملات وكان طعمه كطعم قطائف بزيت وأنهم أكلوه أربعين سنة حتى جاءوا إلى طرف أرض كنعان يريد إلى حبرون .

(57/52)

وأما السلوى فهي اسم جنس جمعي واحدته سلواة وقيل : لا واحد له وقيل : واحده وجمعه سواء ، وهو طائر بري لذيذ اللحم سهل الصيد كانت تسوقه لهم ريح الجنوب كل مساء فيمسكونه قبضاً ويسمى هذا الطائر أيضاً السمانى بضم السين وفتح الميم مخففة بعدها ألف فنون مقصور كحبارى ، وهو أيضاً اسم يقع للواحد والجمع ، وقيل : هو الجمع وأما الفرد فهو سماناة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 1 صـ 492. 493 ﴾

فصل

قال ابن عطية :

ذكر المفسرون في تظليل الغمام : أن بني إسرائيل لما كان من أمرهم ما كان من القتل وبقي منهم من بقي حصلوا في فحص التيه بين مصر والشام ، فأمروا بقتال الجبارين فعصوا وقالوا : ﴿ فاذهب أنت وربك فقاتلا ﴾ [المائدة : 24] فدعا موسى عليهم فعوقبوا بالبقاء في ذلك الفحص أربعين سنة يتيهون في مقدار خمسة فراسخ أو ستة ، روي أنهم كانوا يمشون النهار كله وينزلون للمبيت فيصبحون حيث كانوا بكرة أمس ، فندم موسى عليه السلام على دعائه ، عليهم ، فقيل له : ﴿ فلا تأس على القوم الفاسقين ﴾ [المائدة : 26] .

وروي أنهم ماتوا بأجمعهم في فحص التيه ، ونشأ بنوهم على خير طاعة ، فهم الذين خرجوا من فحص التيه وقاتلوا الجبارين ، وإذ كان جميعهم في التيه قالوا لموسى : من لنا بالطعام ؟

قال : الله ، فأنزل الله عليهم المن والسلوى ، قالوا : من لنا من حر الشمس ؟ فظلل عليهم الغمام ، قالوا : بم نستصبح بالليل ؟ فضرب لهم عمود نور في وسط محلتهم ، وذكر مكي : عمود نار . فقالوا : من لنا بالماء ؟ فأمر موسى بضرب الحجر ، قالوا : من لنا باللباس ؟ فأعطوا أن لا يبلى لهم ثوب ولا يخلق ولا يدرن ، وأن تنمو صغارها حسب نمو الصبيان .

ومعنى ﴿ ظللنا ﴾ جعلناه ظللاً ، و ﴿ الغمام ﴾ السحاب لأنه يغم وجه السماء أي يستره .

وقال مجاهد : " هو أبرد من السحاب وأرق وأصفى ، وهو الذي يأتي الله فيه يوم القيامة " .

(58/52)

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رحمه الله : يأتي أمره وسلطانه وقضاؤه . وقيل ﴿ الغمام ﴾ ما ابيض من السحاب .

و ﴿ المن ﴾ صمغة حلوه ، هذا قول فرقة ، وقيل : هو عسل ، وقيل : شراب حلو ، وقيل : الذي ينزل اليوم على الشجر ، وقيل : ﴿ المن ﴾ خبز الرقاق مثل النقي : وقيل : هو الترنجبين وقيل الزنجبيل ، وفي بعض هذه الأقوال بعد . وقيل : ﴿ المن ﴾ مصدر يعني به

جميع ما من الله به مجملاً .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم في كتاب مسلم : الكمأة مما من الله به على بني إسرائيل وماؤها شفاء للعين .

فقيل : أراد عليه السلام أن الكمأة نفسها مما أنزل نوعها على بني إسرائيل .

وقيل : أراد أنه لا تعب في الكمأة ولا جذاذ ولا حصاد ، فهي منه دون تكلف من جنس من بني إسرائيل في أنه كان دون تكلف .

وروي أن ﴿ المن ﴾ كان ينزل عليهم من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس كالثلج فيأخذ منه الرجل ما يكفيه ليومه ، فإن ادخر فسد عليه إلا في يوم الجمعة فإنهم كانوا يدخرون ليوم السبت فلا يفسد عليهم ، لأن يوم السبت يوم عبادة ، و ﴿ المن ﴾ هنا اسم جمع لا واحد له من لفظه ، ﴿ والسلوى ﴾ طير بإجماع من المفسرين ، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والربيع بن أنس وغيرهم .

قيل : هو السماني بعينه . وقيل : طائر يميل إلى الحمرة مثل السمانى ، وقيل : طائر مثل الحمام تحشره عليهم الجنوب .

قال الأخفش : " السلوى جمعه وواحده بلفظ واحد " . قال الخليل : ﴿ السلوى ﴾ جمع واحدته سلواة .

قال الكسائي : ﴿ السلوى ﴾ واحدة جمعها سلاوى ، ﴿ والسلوى ﴾ اسم مقصور لا

يظهر فيه الإعراب ، لأن آخره ألف ، والألف حرف هوائي أشبه الحركة فاستحالت حركته ولو حرك لرجع حرفا آخر ، وقد غلط الهذلي فقال : [الطويل]

وقاسمها بالله عهداً لأنتمُ . . . ألذُّ من السلوى إذا ما نشورُها

ظن السلوى العسل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 1 صـ 148. 149 ﴾

(59/52)

فصل

قال الشوكانى :

قوله : ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الغمام ﴾ أي : فعلناه كالظلة ، والغمام جمع غمامة كسحابة ، وسحاب ، قاله الأخفش : قال الفراء ويجوز غمائم .

وقد ذكر المفسرون أن هذا جرى في التيه بين مصر ، والشام لما امتنعوا من دخول مدينة الجبارين .

والمنّ : قيل هو : الترنجبين .

قال النحاس : هو بتشديد الراء ، وإسكان النون ، ويقال : الطرَنجبين بالطاء ، وعلى هذا أكثر المفسرين ، وهو : طلٌّ ينزل من السماء على شجر ، أو حجر ، ويحلو ، وينعقد عسلاً

، ويجفّ جفاف الصمغ ، ذكر معناه في القاموس ، وقيل إن المنّ العسل ، وقيل شراب حلو ، وقيل خبز الرقاق ، وقيل إنه مصدر يعمّ جميع ما مَنَّ الله به على عباده ، من غير تعب ، ولا زرع ، ومنه ما ثبت في صحيح البخاري ، ومسلم ، من حديث سعيد بن زيد عن النبي صلى الله عليه وسلم : " أن الكمأة من المنّ الذي أنزل على موسى " وقد ثبت مثله من حديث أبي هريرة عند أحمد ، والترمذي ، ومن حديث جابر ، وأبي سعيد ، وابن عباس عند النسائي .

والسلوى : قيل هو : السُمَاني ، كحبارى ، طائر يذبحونه ، فيأكلونه .

قال ابن عطية : السلوى طير بإجماع المفسرين ، وقد غلط الهذلي فقال :

وقاسمهما بالله جَهْداً لأنتُما . . . ألذُّ من السَلوى إذا ما أشورها

ظنّ أن السلوى العسل .

قال القرطبي : ما ادعاه من الإجماع لا يصح .

وقد قال المؤرج أحد علماء اللغة ، والتفسير : إنه العسل .

واستدل ببيت الهذلي ، وذكر أنه كذلك بلغة كنانة ، وأنشد :

لو شربت السُّلوان ما سلوت . . . ما بي غنا عنك وإن غنيت

وقال الجوهري : والسلوى العسل .

قال الأخفش : السلوى لا واحد له من لفظه مثل الخير والشرّ ، وهو يشبه أن يكون واحده

سلوى .

وقال الخليل : واحده سلواة ، وأنشد :

وإني لتعروني لذكراك سلوة . . . كما انتفض السلواة من سلكه القطر

وقال الكسائي : السلوى واحدة ، وجمعه سلاوى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 1 صـ 87 ﴾

قوله تعالى ﴿ كُلُواْ مِن طيبات مَا رزقناكم وَمَا ظَلَمُونَا ولكن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

قال السمرقندى :

﴿ كُلُواْ مِن طيبات ﴾ ، أي قيل لهم كلوا من طيبات ، وهذا من المضمرات ، وفي كلام العرب يضمر الشيء إذا كان يستغنى عن إظهاره ، كما قال في آية أخرى ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الذين اسودت وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمانكم فَذُوقُواْ العذاب بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ [آل عمران : 106] ، يعني يقال لهم أكفرتم ؛ وكما قال في آية أخرى : ﴿ أَلاَ لِلَّهِ الدين الخالص والذين اتخذوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى الله زلفى إِنَّ الله يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ الله لاَ يَهْدِى مَنْ هُوَ كاذب كَفَّارٌ ﴾ [الزمر : 3] يعني

قالوا : ما نعبدهم .

ومثل هذا في القرآن كثير .

وكذلك قوله هاهنا ﴿ كُلُواْ مِن طيبات مَا رزقناكم ﴾ ، أي من حلالات ﴿ مَا رزقناكم ﴾ ، أي أعطيناكم من المن والسلوى ولا ترفعوا منها شيئاً ، كما قال في آية أخرى ﴿ كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيه ﴾ [طه : 81] ، أي ولا تعصوا فيه فلا ترفعوا إلى الغد ، فرفعوا وجعلوا اللحم قديداً مخافة أن ينفد فرجع ذلك عنهم ، ولو لم يرفعوا لدام ذلك عليهم .

قوله تعالى : ﴿ رزقناكم وَمَا ظَلَمُونَا ﴾ ، يقول وما أضرونا ﴿ ولكن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ ، أي أضروا بأنفسهم حيث رفعوا إلى الغد حتى منع ذلك عنهم . انتهى انتهى .

ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ 81 ﴾

وقال البغوى :

﴿ كُلُوا ﴾ أي : وقلنا لهم : كلوا ﴿ مِنْ طَيِّبَاتِ ﴾ حلالات ﴿ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ ولا تدخروا لغد ، ففعلوا ، فقطع الله ذلك عنهم ، ودود وفسد ما ادخروا ، فقال الله تعالى : ﴿ وَمَا

ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ أي وما بخسوا بحقنا ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون باستيجابهم عذابي ، وقطع مادة الرزق الذي كان ينزل عليهم بلا مؤنة في الدنيا ولا حساب في العقبى .

أخبرنا حسان بن سعيد المنيعي أنا أبو طاهر محمد بن محمد بن محمش الزيادي أنا أبو بكر محمد بن الحسين القطان أنا أحمد بن يوسف السلمي أنا عبد الرزاق أنا معمر عن همام بن منبه أنا أبو هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لولا بنو إسرائيل لم يخبث الطعام ولم ينتن اللحم ، ولولا حواء لم تخن أنثى زوجها الدهر " (1) انتهى . ا هـ

﴿ تفسير البغوى حـ 1 صـ 98 ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ كُلُواْ مِن طيبات مَا رزقناكم ﴾ أمر إباحة على إرادة القول أي وقلنا أو قائلين ، والطيبات المستلذات وذكرها للمنة عليهم أو الحلالات فهو للنهي عن الإدخار ، و ﴿ مِنْ ﴾ للتبعيض ، وأبعد من جعلها للجنس أو للبدل ، ومثله من زعم أن هذا على حذف مضاف أي من عوض طيبات قائلاً إن الله سبحانه عوضهم عن جميع ما كلهم المستلذة من قبل بالمنّ والسلوى فكانا بدلاً من الطيبات ، و ﴿ مَا ﴾ موصولة والعائد محذوف أي رزقناكموه أو مصدرية والمصدر بمعنى المفعول ، واستنبط بعضهم من الآية أنه لا يكفي وضع المالك الطعام بين يدي الإنسان في إباحة الأكل بل لا يجوز التصرف فيه إلا

بإذن المالك وهو أحد أقوال في المسألة.

---

(1) رواه البخاري: في الأنبياء - باب: قول الله تعالى وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر: 6 / 430. مسلم: في الرضاع - باب لولا حواء لم تخن أنثى زوجها الدهر برقم (1470) 2 / 1092. والبغوى في شرح السنة: 9 / 164.

﴿ وَمَا ظَلَمُونَا ﴾ عطف على محذوف أي فعصوا ولم يقابلوا النعم بالشكر أو فظلموا بأن كفروا هذه النعم وما ظلمونا بذلك، ويجوز كما في "البحر" أن لا يقدر محذوف لأنه قد صدر منهم ارتكاب قبائح من اتخاذ العجل إلهاً، وسؤال رؤيته تعالى ظلماً وغير ذلك فجاء قوله تعالى: ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا ﴾ بجملة منفية تدل على أن ما وقع منهم من تلك القبائح لم يصل إلينا منها نقص ولا ضرر، وفي هذا دليل على أنه ليس من شرط نفي الشيء عن الشيء إمكان وقوعه لأن ظلم الإنسان لله تعالى لا يمكن وقوعه ألبتة.

﴿ ولكن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ بالكفران أو بما فعلوا إذ لا يتخطاهم ضرره، وتقديم المفعول للدلالة على القصر الذي يقتضيه النفي السابق، وفيه ضرب تهكم بهم، والجمع بين صيغتي الماضي والمستقبل للدلالة على تماديهم في الظلم واستمرارهم عليه، وفي ذكر (

أنفسهم) بجمع القلة تحقير لهم وتقليل ، والنفس العاصية أقل من كل قليل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 264 ﴾

وقال ابن عاشور :

وقوله : كلوا من طيبات ما رزقناكم مقول قول محذوف لأن المخاطبين حين نزول القرآن لم يؤمروا بذلك فدل على أنه من بقية الخبر عن أسلافهم .

(63/52)

وقوله : ﴿ وما ظلمونا ﴾ قدره صاحب " الكشاف" معطوفاً على مقدر أي فظلموا وقرره شارحوه بأن (ما ظلمونا) نفي لظلم متعلق بمفعول معين وهو ضمير الجلالة وهذا النفي يفيد في المقام الخطابي أن هنالك ظلماً متعلقاً بغير هذا المنصوب إذ لو لم يكن الظلم واقعاً لنفى مطلقاً بأن يقال : وما ظلموا وليس المعنى عليه ، وأنه إنما قدر في " الكشاف" الفعل المحذوف مقترناً بالفاء لأن الفاء في عطف الجمل تفيد مع الترتيب والتعقيب معنى السببية غالباً ، فتكون الجملة المعطوفة متسببة عن الجملة المعطوف عليها فشبه وقوع ظلمهم حين كفروا النعمة عقب الإحسان بترتب المسبب على السبب في الحصول بلا ريثٍ وبدون مراقبة ذلك الإحسان حتى كأنهم يأتون بالظلم جزاء للنعمة ، ورمز إلى لفظ

المشبه به بردیفه وهو فاء السببية وقرينة ذلك ما يعلمه السامع من أن الظلم لا يصلح لأن يكون مسبباً عن الإنعام على حد قولك أحسنتُ إلى فلان فأساء إليَّ وقوله تعالى : ﴿ وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ﴾ [الواقعة : 82] أي تجعلون شكر رزقكم أنكم تكذبون فالفاء مجاز لغير الترتب على أسلوب قولك : أنعمَتُ عليه فكفر .

ولك أن تقول إن أصل معنى الفاء العاطفة الترتيب والتعقيب لا غير وهو المعنى الملازم لها في جميع مواقع استعمالها فإن الاطراد من علامات الحقيقة .

(64/52)

وأما الترتب أي السببية فأمر عارض لها فهومن المجاز أو من مستتبعات التراكيب ألا ترى أنه يوجد تارة ويتخلف أخرى فإنه مفقود في عطف المفردات نحوجاء زيد فعمرو وفي كثير من عطف الجمل نحو قوله تعالى : ﴿ لقد كنتَ في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك ﴾ [ق : 22] فلذلك كان معنى السببية حيثما استفيد محتاجاً إلى القرائن فإن لم تتطلب له علاقة قلت هو من مستتبعات تراكيب بقرينة المقام وإن تطلبت له علاقة وهي لا تعوزك قلت هو مجاز لأن أكثر الأمور الحاصلة عقب غيرها يكون موجب التعقيب فيها هو السببية ولو عرفا ولو ادعاء فليس خروج الفاء عن الترتب هو المجاز بل الأمر بالعكس .

ومما يدل على أن حقيقة الفاء العاطفة هو الترتيب والتعقيب فقط أن بعض البيانيين جعلوا قوله تعالى : ﴿ فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوًّا ﴾ [القصص : 8] اللامَ فيه مستعارة لمعنى فاء التعقيب أي فكان لهم عدوًّا فجعلوا الفاء حقيقة في التعقيب ولو كانت للترتيب لساوت اللام فلم تستقم الاستعارة فيكون الوجه الحامل للزمخشري على تقدير المحذوف مقترناً بالفاء هو أنه رأى عطف الظلم على ﴿ وظللنا عليكم الغمام ﴾ وما بعده بالواو ولا يحسن لعدم الجهة الجامعة بين الامتنان والذم والمناسبةُ شرط في قبول الوصل بالواو بخلاف العطف بالفاء ، فتعين إما تقدير ظلموا مستأنفاً بدون عطف وظاهر أنه ليس هنالك معنى على الاستئناف وإما ربط ظلموا بعاطف سوى الواو وليس يصلح هنا غير الفاء لأن المعطوف حصل عقب المعطوف عليه فكان ذلك التعاقب في الخارج مغنياً عن الجهة الجامعة ولذلك كانت الفاء لا تستدعي قوة مناسبة كمناسبة الواو ولكن مناسبة في الخيال فقط وقد وجدت هنا لأن كون المعطوف حصل في الخارج عقب المعطوف عليه مما يجعله حاضراً في خيال الذي يتكلم عن المعطوف عليه ، وأما قبح نحو قولك جاء زيد فصاح الديك فلقلة جدوى هذا الخبر ألا تراه يصير حسناً لو أردت بقولك فصاح الديك معنى

التوقيت بالفجر فبهذا ظهر أنه لم يكن طريق لربط الظلم المقدر بالفعلين قبله إلا الفاء .

وفي ذلك الإخبار والربط والتصدي لبيانه مع غرابة هذا التعقيب تعريض بمذمتهم إذ قابلوا الإحسان بالكفران وفيه تعريض بغباوتهم إذ صدَفوا عن الشكر كأنهم ينكون بالمنعم وهم إنما يوقعون النكاية بأنفسهم ، هذا تفصيل ما يقال على تقدير صاحب " الكشاف" .

(66/52)

والذي يظهر لي أن لا حاجة إلى التقدير وأن جملة ﴿ وما ظلمونا ﴾ عطف على ما قبلها لأنها مثلها في أنها من أحوال بني إسرائيل ومثار ذكر هذه الجملة هو ما تضمنته بعض الجمل التي سبقت من أن ظلماً قد حصل منهم من قوله : ﴿ ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون ﴾ [البقرة : 51] وقوله : ﴿ إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل ﴾ [البقرة : 54] وما تضمنه قوله : ﴿ فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون ﴾ [البقرة : 55] الدال على أن ذلك عذاب جروه إلى أنفسهم فأتى بهذه الجملة كالفذلكة لما تضمنته الجمل السابقة نظير قوله : ﴿ وما يخادعون إلا أنفسهم ﴾ [البقرة : 9] عقب قوله : ﴿ يخادعون الله والذين آمنوا ﴾ [البقرة : 9] ونظير قوله : ﴿ وظلموا أنفسهم ﴾ [سبأ : 19] بعد الكلام السابق وهو قوله : ﴿ وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى

ظاهرة ﴾ [سبأ : 18] الآية .

وغير الأسلوب في هذه الجملة إذ انتقل من خطاب بني إسرائيل إلى الحديث عنهم بضمير الغيبة لقصد الاتعاظ بحالهم وتعريضاً بأنهم متمادون على غيهم وليسوا مستفيقين من ضلالهم فهم بحيث لا يقرون بأنهم ظلموا أنفسهم .

وهذا الظلم الذي قدر في نظم الآية هو ضجرهم من مداومة أكل المن والسلوى الذي سيأتي ذكره بقوله تعالى : ﴿ وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد ﴾ [البقرة : 61] الآية فكان قوله : ﴿ وما ظلمونا ﴾ تمهيداً له وتعجيلاً بتسجيل قلة شكرهم على نعم الله وعنايته بهم إذ كانت شكيمتهم لم تلينها الزواجر ولا المكارم .

وقوله : ﴿ ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ قدم فيه المفعول للقصر وقد حصل القصر أولاً بمجرد الجمع بين النفي والإثبات ثم أكد بالتقديم لأن حالهم كحال من ينكي غيره كما قيل : يفعل الجاهل بنفسه ما يفعل العدو بعدوه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 1 صـ 495.493 ﴾

لطيفة

قال فى روح البيان

كلوا من طيبات ما رزقناكم بأمر الشرع وما ظلمونا إذ تصرفوا فيها بالطبع ولكن كانوا أنفسهم يظلمون بالحرص على الدنيا ومتابعة الهوى .

قال في التنوير وما أدخلك الله فيه تولى إعانتك عليه وما دخلت فيه بنفسك وكلك إليه فلا تكفر نعمة الله عليك فيما تولاك به من ذلك .

كان بعضهم يسير في البادية وقد أصابه العطش فانتهى إلى بئر فارتفع الماء إلى رأس البئر فرفع رأسه إلى السماء وقال : أعلم أنك قادر ولكن لا أطيق هذا فلو قيضت لي بعض الأعراب يصفعني صفعات ويسقيني شربة ماء كان خيراً لي ثم إني أعلم أن ذلك الرفق من جهته فقد عرفت أن مكر الله خفي فلا تغرنك النعم الظاهرة والباطنة وليكن عزمك على الشكر والإقامة في حد أقامك الله فيه وإلا فتضل وتشقى .

وقد قال الشيخ أبو عبد الله القرشي من لم يكن كارهاً لظهور الآيات وخوارق العادات منه كراهية الخلق لظهور المعاصي فهي حجاب في حقه وسترها عنه رحمة فالنعمة كما أنها سبب للسعادة كذلك هي سبب للشقاوة استدراجاً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح البيان حـ 1 صـ 185 ﴾

فائدة

قال الشيخ الشنقيطي :

قوله تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ , هذه الآية الكريمة تدل على أن الله أكرم بني إسرائيل بنوعين من أنواع الطعام وهما المن والسلوى, وقد جاء في آية أخرى ما يدل على أنهم لم يكن عندهم الإطعام واحد , وهي قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ ﴾ , وللجمع بينهما أوجه :

الأول–إن المن وهو الترنجبين على قول الأكثرين من جنس الشراب والطعام الواحد هو السلوى, وهو على قول الأكثرين السماني أو طائر يشبهه .

الوجه الثاني – إن المجعول على المائدة الواحدة تسميه العرب طعاما واحد وإن اختلفت أنواعه .

ومنه قولهم : أكلنا طعام فلان, وإن كان أنواعا مختلفة .

والذي يظهر أن هذا الوجه أصح من الأول لأن تفسير المن بخصوص الترنجبين يرده الحديث المتفق عليه : " الكمأة من المن . . " الحديث .

الثالث – أنهم سموه طعاما واحدا لأنه لا يتغير ولا يتبدل كل يوم, فهو مأكل واحد وهو ظاهر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 22 . 23 ﴾

ومن فوائد الإمام القرطبى فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الغمام ﴾

فيه ثمان مسائل .

الأولى : قوله تعالى : ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الغمام ﴾ أي جعلناه عليكم كالظُّلّة .

والغمام جمع غمامة ، كسحابة وسحاب ؛ قاله الأخفش سعيد .

قال الفراء : ويجوز غمائم وهي السحاب ؛ لأنها تغمّ السماء أي تسترها ؛ وكل مغطّى فهو مغموم ؛ ومنه المغموم على عقله .

وغُمّ الهلال إذا غطّاه الغَيْم .

والغين مثل الغيم ؛ ومنه قوله عليه السلام : " إنه ليُغان على قلبي " قال صاحب العين : غِين عليه : غطّى عليه .

والغَيْن : شجر ملتّف .

وقال السُّدّي : الغمام السحاب الأبيض .

وفعل هذا بهم ليقيهم حرّ الشمس نهاراً ، وينجلي في آخره ليستضيئوا بالقمر ليلاً .

وذكر المفسرون أن هذا جرى في التِّيه بين مصر والشام لما امتنعوا من دخول مدينة الجبّارين وقتالهم ؛ وقالوا لموسى : ﴿ فاذهب أَنتَ وَرَبُّكَ فقاتلا ﴾ [المائدة : 24] .

فعوقبوا في ذلك الفَحْصِ أربعين سنة يتيهون في خمسة فراسخ أو ستة .

رُوي أنهم كانوا يمشون النهار كله وينزلون للمبيت فيصبحون حيث كانوا بكرة أمس .

وإذ كانوا بأجمعهم في التِّيه قالوا لموسى : مَن لنا بالطعام ! فأنزل الله عليهم المنّ والسّلْوَى .

قالوا : مَن لنا من حَرّ الشمس ! فظلّل عليهم الغمام .

قالوا : فبم نستصبح ! فضرب لهم عمود نور في وسط محلّتهم .

وذكر مكيّ : عمود من نار .

قالوا : من لنا بالماء ! فأمر موسى بضرب الحجر .

قالوا : من لنا باللباس ! فأعطوا ؛ ألاّ يبلى لهم ثوب ولا يَخْلَق ولا يدرَن ؛ وأن تنمو صغارها حسب نموّ الصبيان .

والله أعلم .

الثانية : قوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ المن والسلوى ﴾ اختُلِف في المنّ ما هو وتعيينه على أقوال ؛ فقيل : التّرْنجبِين بتشديد الراء وتسكين النون ، ذكره النحاس ، ويقال : الطّرْنجبِين بالطاء وعلى هذا أكثر المفسرين .

وقيل : صمغة حُلوة .

وقيل عسل : وقيل شراب حلو .

وقيل : خبز الرُّقاق ؛ عن وهب بن مُنَبّه .

(70/52)

وقيل : " المنّ" مصدر يعم جميع ما منّ الله به على عباده من غير تعب ولا زرع ؛ ومنه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث سعيد بن زيد بن عمرو بن نُفَيل : " الكمأة من المنّ الذي أنزل الله على بني إسرائيل وماؤها شفاء للعين " وفي رواية : " من المنّ الذي أنزل الله على موسى " رواه مسلم .

قال علماؤنا : وهذا الحديث يدل على أن الكمأة مما أنزل الله على بني إسرائيل ؛ أي مما خلقه الله لهم في التِّيه .

قال أبو عبيد : إنما شبهها بالمنّ لأنه لا مؤونة فيها ببذر ولا سقي ولا علاج ؛ فهي منه .

أي مِن جنس مَنّ بني إسرائيل في أنه كان دون تكلُّف .

روي أنه كان ينزل عليهم من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس كالثلج ؛ فيأخذ الرجل ما يكفيه ليومه ، فإن ادخر منه شيئاً فسد عليه ، إلا في يوم الجمعة فإنهم كانوا يدخرون ليوم السبت

فلا يفسد عليهم ؛ لأن يوم السبت يوم عبادة ، وما كان ينزل عليهم يوم السبت شيء .

الثالثة : لما نصّ عليه السلام على أن : " ماء الكمأة شفاء للعين " قال بعض أهل العلم بالطب : إما لتبريد العين من بعض ما يكون فيها من الحرارة فتستعمل بنفسها مفردة ، وإما لغير ذلك فمركبة مع غيرها .

وذهب أبو هريرة رضي الله عنه إلى استعمالها بحتاً في جميع مرض العين .

وهذا كما استعمل أبو وَجْزَة العسلَ في جميع الأمراض كلّها حتى في الكحل ، على ما يأتي بيانه في سورة " النحل " إن شاء الله تعالى .

وقال أهل اللغة : الكمء واحد ، وكمآن اثنان ، وأكمؤ ثلاثة ، فإذا زادوا قالوا : كمأة بالتاء على عكس شجرة وشجر .

والمنّ اسم جنس لا واحد له من لفظه ؛ مثل الخير والشر ؛ قاله الأخفش .

الرابعة : قوله تعالى : ﴿ والسلوى ﴾ اختُلِف في السَّلْوَى ، فقيل : هو السُّمَانَى بعينه ؛ قاله الضحاك .

قال ابن عطية : السَّلْوَى طير بإجماع المفسرين ؛ وقد غَلِط الهُذَلي فقال :

وقاسمها بالله جَهْداً لأَنْتُمُ . . .

أَلذّ من السّلوَى إذا ما نَشُورُهَا

ظنّ السلوى العسل .

قلت : ما ادعاه من الإجماع لا يصح ؛ وقد قال المؤرّج أحد علماء اللغة والتفسير : إنه العسل ؛ واستدل ببيت الهذليّ ، وذكر أنه كذلك بلغة كنانة ؛ سُمّيَ به لأنه يسلى به ؛ ومنه عين السُّلوان ؛ وأنشد :

لو أشرب السُّلوان ما سَلِيتُ . . .

ما بي غنىً عنكِ وإن غَنِيتُ

وقال الجوهري : والسلوى العسل ؛ وذكر بيت الهُذَلِيّ :

ألذّ من السَّلْوَى إذا ما نَشُورُهَا . . .

ولم يذكر غلطا .

والسُّلوانة (بالضم) : خرزة كانوا يقولون إذا صُبّ عليها ماء المطر فشربه العاشق سلا ؛ قال :

شربتُ على سُلوانةٍ ماءَ مُزْنَةٍ . . .

فلا وجديد العيشِ يا مَيّ ما أسْلُو

واسم ذلك الماء السُّلوان .

وقال بعضهم : السلوان دواء يُسقاه الحزين فيسلو ؛ والأطباء يسمونه المُفَرِّح .

يقال : سَلِيت وسلوتْ ؛ لغتان .

وهو في سُلوة من العيش ، أي في رغد ؛ عن أبي زيد .

الخامسة : واختلف في السَّلْوَى هل هو جمع أو مفرد ؛ فقال الأخفش : جمع لا واحد له من لفظه ؛ مثل الخير والشر ؛ وهو يشبه أن يكون واحده سَلْوَى مثل جماعته ؛ كما قالوا : دِفْلَى للواحد والجماعة ، وسُمَانَى وشُكاعَى في الواحد والجميع .

وقال الخليل : واحده سَلواة ؛ وأنشد :

وإني لتعروني لذكرك هزةٌ . . .

كما انتفض السَّلواة من بلل القطر

وقال الكسائي : السَّلْوَى واحدة ، وجمعه سلاوي .

السادسة : "السَّلْوَى" عطفٌ على "المنّ" ، ولم يظهر فيه الإعراب ، لأنه مقصور .

ووجب هذا في المقصور كله ؛ لأنه لا يخلو من أن يكون في آخره ألف .

قال الخليل : والألف حرف هوائي لا مستقرّ له ؛ فأشبه الحركة فاستحالت حركته .

وقال الفرّاء : لو حرّكت الألف صارت همزة .

السابعة : قوله تعالى : ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ "كلوا" فيه حذف ، تقديره وقلنا كلوا ؛ فحذف اختصاراً لدلالة الظاهر عليه .

والطيبات هنا قد جمعت الحلال واللذيذ .

الثامنة : قوله تعالى : ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا ﴾ يقدّر قبله فعصوا ولم يقابلوا النّعم بالشكر .

﴿ ولكن كانوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ لمقابلتهم النعم بالمعاصي . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 1 صـ 405. 409 ﴾

ومن فوائد الماوردى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله عز وجل : ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ ﴾ :

والغمام : هو ما غَمَّ السماء ، فغطَّاها من سحاب وقتام ، وكلُّ مُغَطٍّ فهُو غمام ، ومنه : غُمَّ الهلال ، أي غطاه الغَيْمُ .

وفي الغمام الذي ظلله الله عليهم تأويلان :

أحدهما : أنه السحابة ، وهو قول ابن عباس .

والثاني : أنه الذي أتى الملائكة في يوم بدر ، مثل قوله تعالى : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ ﴾ [البقرة : 210] وهذا قول مجاهد .

قوله عز وجل : ﴿ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى ﴾ فيه سبعة أقاويل :

أحدها : أن المنَّ ما سقط على الشجر فيأكله الناس ، وهو قول ابن عباس .

والثاني : أن المنَّ صمغة ، وهو قول مجاهد .

والثالث : أن المنَّ شرابٌ ، كان ينزل عليهم يشربونه بعد مزجِهِ بالماء ، وهو قول الربيع بن أنس .

والرابع : أن المنَّ عسل ، كان ينزل عليهم ، وهو قول ابن زيدٍ .

والخامس : أن المن الخبز الرقاق ، هو قول وهب .

والسادس : أنه الزنجبيل ، وهو قول السدي .

والسابع : أنه الترنجين .

وفي السلوى قولان :

أحدهما : أنه السماني .

والثاني : أنه طائر يشبه السماني كانت تحشره عليهم الريح الجنوب ، وهذا قول ابن عباس ، واشتقاقه من السلو ، كأَنَّه مُسَلِّي عن غيره .

قال ابن جريج : كان الرجل منهم إن أخذ من المنِّ والسلوى زيادة على طعام يوم واحدٍ فسد ، إلا يومَ الجمعة ، فإنهم كانوا إذا أخذوا طعامَ يومَيْنِ لم يفسد .

وفي قوله عز وجل : ﴿ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ ثلاثة تأويلاتٍ :

أحدها : الشَّهيَّات اللذيذة .

والثاني : أنه الحلال .

والثالث : أنها المباح . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 1 صـ 124 . 125 ﴾

(73/52)

ومن فوائد الخازن فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله عز وجل : ﴿ وظللنا عليكم الغمام ﴾ يعني في التيه يقيكم حر الشمس ، وذلك أنه لم يكن لهم في التيه شيء يسترهم ولا يستظلون به فشكوا إلى موسى فأرسل الله غماماً أبيض رقيقاً يسترهم من الشمس وجعل لهم عموداً من نور يضيء لهم الليل إذا لم يكن قمر

﴿ وأنزلنا عليكم المن والسلوى ﴾ أي في التيه الأكثرون على أن المن هو الترنجبين وقيل : هو شيء كالصمغ يقع على الشجر طعمه كالشهد .

(74/52)

وقال وهب : هو الخبز الرقاق ، وأصل المن هو ما يمن الله به من غير تعب (ق) عن سعيد بن زيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الكماة من المن وماؤها شفاء للعين " ومعنى الحديث أن الكمأة شيء أنبته الله من غير سعي أحد ولا مؤنة وهو بمنزلة المن الذي كان ينزل على بني إسرائيل ، وقوله : وماؤها شفاء للعين معناه أن يخلط مع الأدوية فينتفع به لا أنه يقطر ماؤها بحتاً في العين وقيل : إن تقطيره في العين ينفع لكن لوجع مخصوص ، وليس يوافق كل وجع العين وكان هذا المن ينزل على أشجارهم في كل ليلة من وقت السحر إلى طلوع الشمس ، كالثلج لكل إنسان صاع فقالوا : يا موسى قد قتلنا هذا المن بحلاوته ، فادع لنا ربك أن يطعمنا اللحم فأرسل الله عليهم السلوى ، وهو طائر يشبه السماني وقيل هو السماني بعينه فكان الرجل يأخذ ما يكفيه يوماً وليلة ، فإذا كان يوم الجمعة يأخذ ما يكفيه ليومين لأنه لم يكن ينزل يوم السبت شيء ﴿ كلوا ﴾ أي وقلنا لهم كلوا ﴿ من طيبات ﴾ أي حلالات ﴿ ما رزقناكم ﴾ أي تدخروا لغد فخالفوا وادخروا فدود وفسد ، فقطع الله عنهم ذلك (ق) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لولا بنو إسرائيل لم يخبث الطعام ولم يخنز اللحم ولولا حواء لم تخن أنثى زوجها الدهر " قوله : لم يخنز اللحم لم ينتن ولم يتغير ﴿ وما ظلمونا ﴾ أي وما بخسوا حقنا ﴿ ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ يعني بأخذهم أكثر مما حولهم فاستحقوا بذلك عذابي وقطع مادة الرزق الذي كان ينزل عليهم بلا مؤنة ولا تعب في الدنيا ولا حساب في العقبى . انتهى انتهى . اهـ

﴿ تفسير الخازن حـ 1 صـ 64.63 ﴾

ومن فوائد أبى حيان فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وظللنا عليكم الغمام ﴾ الغمام : مفعول على إسقاط حرف الجرّ ، أي بالغمام ، كما تقول : ظللت على فلان بالرداء ، أو مفعول به لا على إسقاط الحرف ، ويكون المعنى جعلناه عليكم ظللاً .

(75/52)

فعلى هذا الوجه الثاني يكون فعل فيه ، يجعل الشيء بمعنى ما صيغ منه كقولهم : عدّلت زيداً ، أي جعلته عدلاً ، فكذلك هذا معناه : جعلنا الغمام عليكم ظلة ، وعلى الوجه الأول تكون فعل فيه بمعنى أفعل ، فيكون التضعيف أصله للتعدية ، ثم ضمن معنى فعل يعدى بعلى ، فكان الأصل : وظللناكم ، أي أظللناكم بالغمام ، نحو ما ورد في الحديث : " سبعة يظلهم الله في ظله " ، ثم ضمن ظلل معنى كلل أو شبهة مما يمكن تعديته بعلى ، فعداه بعلى .

وقد تقدم ذكر معاني فعل ، وليس المعنى على ما يقتضيه ظاهر اللفظ ، إذ ظاهره يقتضي

أن الغمام ظلل علينا ، فيكون قد جعل على الغمام شيء يكون ظلة للغمام ، وليس كذلك ، بل المعنى ، والله أعلم ، ما ذكره المفسرون .

وقد تقدّم تفسير الغمام ، وقيل : إنه الغمام الذي أتت فيه الملائكة يوم بدر ، وهو الذي تأتي فيه ملائكة الرحمن ، وهو المشار إليه بقوله : ﴿ في ظلل من الغمام والملائكة ﴾ وليس بغمام حقيقة ، وإنما سمي غماماً لكونه يشبه الغمام .

وقيل : الذين ظلّل عليهم الغمام بعض بني إسرائيل ، وكان الله قد أجرى العادة في بني إسرائيل أن من عبد الله ثلاثين سنة لا يحدث فيها ذنباً أظلّته غمامة .

وحكي أن شخصاً عبد ثلاثين سنة فلم تظله غمامة ، فجاء إلى أصحاب الغمائم فذكر لهم ذلك فقالوا : لعلك أحدثت ذنباً ، فقال : لا أعلم شيئاً إلا أني رفعت طرفي إلى السماء وأعدته بغير فكر ، فقالوا له : ذلك ذنبك ، وكانت فيهم جماعة يسمون أصحاب الغمائم ، فامتنّ الله عليهم بكونهم فيهم من له هذه الكرامة الظاهرة الباهرة .

والمكان الذي أظلتهم فيه الغمامة كان في التيه بين الشام ومصر لما شكوا حر الشمس ، وسيأتي بيان ذلك في قصتهم .

وقيل : أرض بيضاء عفراء ليس فيها ماء ولا ظل ، وقعوا فيها حين خرجوا من البحر ، فأظلهم الله بالغمام ، ووقاهم حرّ الشمس .

﴿ وأنزلنا عليكم المنّ والسلوى ﴾ المنّ : اسم جنس لا واحد له من لفظه .

وفي المن الذي أنزله الله على بني إسرائيل أقوال : ما يسقط على الشجر أحلى من الشهد وأبيض من الثلج ، وهو قول ابن عباس والشعبي ، أو صمغة طيبة حلوة ، وهو قول مجاهد ؛ أو شراب كان ينزل عليهم يشربونه بعد مزجه بالماء ، وهو قول الرّبيع أبن أنس وأبي العالية ؛ أو عسل كان ينزل عليهم ، وهو قول ابن زيد ؛ أو الرقاق المتخذ من الذرة أو من النقي ، وهو قول وهب ؛ أو الزنجبيل ، وهو قول السدّي ، أو الترنجبين ، وعليه أكثر المفسرين ؛ أو عسل حامض ، قاله عمرو بن عيسى ؛ أو جميع ما منّ الله به عليهم في التيه وجاءهم عفواً من غير تعب ، قاله الزّجاج ، ودليله قوله صلى الله عليه وسلم : " الكمأة من المنّ الذي منّ الله به على بني إسرائيل " وفي رواية : على موسى .

وفي السلوى الذي أنزله الله على بني إسرائيل أقوال : طائر يشبه السماني ، أو هو السماني نفسه ، أو طيور حمر بعث الله بها سحابة فمطرت في عرض ميل وطول رمح في السماء بعضه على بعض ، قاله أبو العالية ومقاتل ؛ أو طير يكون بالهند أكبر من العصفور ، قاله عكرمة ؛ أو طير سمين مثل الحمام ؛ أو العسل بلغة كنانة ، وكانت تأتيهم السلوى من جهة السماء ، فيختارون منها السمين ويتركون الهزيل ؛ وقيل : كانت ريح الجنوب تسوقها إليهم

فيختارون منها حاجتهم ويذهب الباقي .

وقيل : كانت تنزل على الشجر فينطبخ نصفها وينشوي نصفها .

وكان المنّ ينزل عليهم من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ، والسلوى بكرة وعشياً ، وقيل : دائماً ، وقيل : كلما أحبوا .

وقد ذكر المفسرون حكايات في التظليل ونزول المنّ والسلوى ، وتظافرت أقاويلهم أن ذلك كان في فحص التيه ، وستأتي قصته في سورة المائدة ، إن شاء الله تعالى ، وأنهم قالوا : من لنا من حراك الشمس ؟ فظلل عليهم الغمام ، وقالوا : من لنا بالطعام ؟ فأنزل الله عليهم المن والسلوى ، وقالوا : من لنا بالماء ؟ فأمر الله موسى بضرب الحجر ، وهذه دل عليها القرآن .

(77/52)

وزيد في تلك الحكايات أنهم قالوا : بم نستصبح ؟ فضرب لهم عمود من نور في وسط محلتهم ، وقيل : من نار ، وقالوا : من لنا باللباس ؟ فأعطوا أن لا يبلى لهم ثوب ، ولا يخلق ، ولا يدرن ، وأن تنمو صغارها حسب نمو الصبيان .

﴿ كلوا ﴾ : أمر إباحة وإذن كقوله : ﴿ فاصطادوا ﴾ ﴿ فانتشروا في الأرض ﴾ وذلك

على قول من قال : إن الأصل في الأشياء الحظر ، أو دوموا على الأكل على قول من قال الأصل فيها الإباحة ، وههنا قول محذوف ، أي وقلنا : كلوا ، والقول يحذف كثيراً ويبقى المقول ، وذلك لفهم المعنى ، ومنه : أكفرتم ؟ أي فيقال : أكفرتم ؟ وحذف المقول وإبقاء القول قليل ، وذلك أيضاً لفهم المعنى ، قال الشاعر :

لنحن الألى قلتم فأنى ملئتم . . .

برؤيتنا قبل اهتمام بكم رعبا

التقدير : قلتم نقاتلهم .

﴿ من طيبات ﴾ : من : للتبعيض لأن المن والسلوى بعض الطيبات ، وأبعد من ذهب إلى أنها زائدة ، ولا يتخرج ذلك إلا على قول الأخفش ، وأبعد من هذا قول من زعم أنها للجنس ، لأن التي للجنس في إثباتها خلاف ، ولا بد أن يكون قبلها ما يصلح أن يقدر بعده موصول يكون صفة له .

وقول من زعم أنها للبدل ، إذ هو معنى مختلف في إثباته ، ولم يدع إليه هنا ما يرجح ذلك .

والطيبات هنا قيل : الحلال ، وقيل : اللذيذ المشتهى .

ومن زعم أن هذا على حذف مضاف ، وهو كلوا من عوض طيبات ما رزقناكم ، فقوله ضعيف ، عوضهم عن جميع ما آكلهم المستلذة بالمن والسلوى ، فكانا بدلاً من الطيبات .

وقد استنبط بعضهم من قوله : ﴿ كلوا من طيبات ما رزقناكم ﴾ أنه لا يكفي وضع المالك

الطعام بين يدي الإنسان في إباحة الأكل ، بل لا يجوز التصرف فيه إلا بإذن المالك ، وهو قول .

وقيل : يملك بالوضع فقط ، وقيل : بالأخذ والتناول ، وقيل : لا يملك بحال ، بل ينتفع به وهو على ملك المالك .

(78/52)

وما في قوله : ﴿ ما رزقناكم ﴾ موصولة ، والعائد محذوف ، أي ما رزقناكموه ، وشروط الحذف فيه موجودة ، ولا يبعد أن يجوز مجوّز فيها أن تكون مصدرية ، فلا يحتاج إلى تقدير ضمير ، ويكون يطلق المصدر على المفعول ، والأول أسبق إلى الذهن .

﴿ وما ظلمونا ﴾ نفي أنهم لم يقع منهم ظلم لله تعالى ، وفي هذا دليل على أنه ليس من شرط نفي الشيء إمكان وقوعه ، لأن ظلم الإنسان لله تعالى لا يمكن وقوعه ألبتة .

قيل : المعنى وما ظلمونا بقولهم : ﴿ أرنا الله جهرة ﴾ ، بل ظلموا أنفسهم بما قابلناهم به من الصاعقة .

وقيل : وما ظلمونا بادخارهم المن والسلوى ، بل ظلموا أنفسهم بفساد طعامهم وتقليص أرزاقهم .

وقيل : وما ظلمونا بإبائهم على موسى أن يدخلوا قرية الجبارين .

وقيل : وما ظلمونا باستحبابهم العذاب وقطعهم مادّة الرزق عنهم ، بل ظلموا أنفسهم بذلك .

وقيل : وما ظلمونا بكفر النعم ، بل ظلموا أنفسهم بحلول النقم .

وقيل : وما ظلمونا بعبادة العجل ، بل ظلموا أنفسهم بقتل بعضهم بعضاً .

واتفق ابن عطية والزمخشري على أنه يقدر محذوف قبل هذه الجملة ، فقدره ابن عطية ، فعصوا ولم يقابلوا النعم بالشكر ، قال : والمعنى وما وضعوا فعلهم في موضع مضرّة لنا ، ولكن وضعوه في موضع مضرّة لهم حيث لا يجب .

وقدره الزمخشري : فظلموا بأن كفروا هذه النعم ، وما ظلمونا ، قال : فاختصر الكلام بحذفه لدلالة وما ظلمونا عليه ، انتهى .

ولا يتعين تقدير محذوف ، كما زعما ، لأنه قد صدر منهم ارتكاب قبائح من اتخاذ العجل إلهاً ، ومن سؤال رؤية الله على سبيل التعنت ، وغير ذلك مما لم يقص هنا .

فجاء قوله تعالى : ﴿ وما ظلمونا ﴾ جملة منفية تدل على أن ما وقع منهم من تلك القبائح لم يصل إلينا بذلك نقص ولا ضرر ، بل وبال ذلك راجع إلى أنفسهم ومختص بهم ، لا يصل إلينا منه شيء .

﴿ ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ : لكن هنا وقعت أحسن موقع ، لأنه تقدم قبلها نفي وجاء بعدها إيجاب ، نحو قوله تعالى : ﴿ وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم ﴾ ، وكذلك العكس ، نحو قوله تعالى : ﴿ ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون ﴾ ، أعني أن يتقدم إيجاب ثم يجيء بعدها نفي ، لأن الاستدراك الحاصل بها إنما يكون عليه ما قبلها بوجه مّا ، وذلك أنه لما تقرر أنه قد وقع منهم ظلم ، فلما نفى ذلك الظلم أن يصل إلى الله تعالى بقيت النفس متشوّفة ومتطلعة إلى ذكر من وقع به الظلم ، فاستدرك بأن ذلك الظلم الحاصل منهم إنما كان واقعاً بهم ، وأحسن مواقعها أن تكون بين المتضادين ، ويليه أن تقع بين النقيضين ، ويليه أن تقع بين الخلافين ، وفي هذا الأخير خلاف بين النحويين .

أذلك تركيب عربي أم لا ؟ وذلك نحو قولك : ما زيد قائم ، ولكن هو ضاحك ، وقد تكلم على ذلك في علم النحو .

واتفقوا على أنها لا تقع بين المتماثلين نحو : ما خرج زيد ولكن لم يخرج عمرو .

وطباق الكلام أن يثبت ما بعد لكن على سبيل ما نفي قبلها ، نحو قوله : ﴿ وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم ﴾ ، لكن دخلت كانوا هنا مشعرة بأن ذلك من شأنهم ومن طريقتهم ، ولأنها أيضاً تكون في كثير من المواضع تستعمل حيث يكون المسند لا ينقطع عن المسند إليه ، نحو قوله :

﴿ وكان الله بكل شيء عليماً ﴾ فكان المعنى : ولكن لم يزالوا ظالمي أنفسهم بكثرة ما يصدر منهم من المخالفات .

ويظلمون : صورته صورة المضارع ، وهو ماض من حيث المعنى ، وهذا من المواضع التي يكون فيها المضارع بمعنى الماضي .

ولم يذكره ابن مالك في التسهيل ولا فيما وقفنا عليه من كتبه ، وذكر ذلك غيره وقدم معمول الخبر عليه هنا وهو قوله : ﴿ أنفسهم ﴾ ، ليحصل بذلك توافق رؤوس الآي والفواصل ، وليدل على الاعتناء بالإخبار عمن حل به الفعل ، ولأنه من حيث المعنى صار العامل في المفعول توكيداً لما يدل عليه ما قبله .

(80/52)

فليس ذكره ضروريًّا ، وبأن التوكيد أن يتأخر عن المؤكد ، وذلك أنك تقول : ما ضربت زيداً ولكن ضربت عمراً ، فذكر ضربت الثانية أفادت التأكيد ، لأن لكن موضوعها أن يكون ما بعدها منافياً لما قبلها ، ولذلك يجوز أن تقول : ما ضربت زيداً ولكن عمراً ، فلست مضطراً لذكر العامل .

فلما كان معنى قوله : ﴿ ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ في معنى : ﴿ ولكن ظلموا

أنفسهم ﴾ ، كان ذكر العامل في المفعول ليس مضطراً إليه ، إذ لو قيل : وما ظلمونا ولكن أنفسهم ، لكان كلاماً عربياً ، ويكتفي بدلالة لكن أن ما بعدها مناف لما قبلها ، فلما اجتمعت هذه المحسنات لتقديم المفعول كان تقديمه هنا الأفصح .

وقد تضمنت هذه الآيات الكريمة من ذكر قصص بني إسرائيل فصولاً منها : أمر موسى ، على نبينا وعليه السلام ، إياهم بالتوبة إلى الله من مقارفة هذا الذنب العظيم الذي هو عبادة العجل من دون الله ، وأن مثل هذا الذنب العظيم تقبل التوبة منه ، والتلطف بهم في ندائهم بيا قوم ، وتنبيههم على علة الظلم الذي كان وباله راجعاً عليهم ، والإعلام بأن توبتهم بقتل أنفسهم ، ثم الإخبار بحصول توبة الله عليهم وأن ذلك كان بسابق رحمته ، ثم التوبيخ لهم بسؤالهم ما كان لا ينبغي لهم أن يسألوه ، وهو رؤية الله عياناً ، لأنه كان سؤال تعنت .

ثم ذكر ما ترتب على هذا السؤال من أخذ الصاعقة إياهم .

ثم الإنعام عليهم بالبعث ، وهو من الخوارق العظيمة أن يحيى الإنسان في الدنيا بعد أن مات .

ثم إسعافهم بما سألوه ، إذ وقعوا في التيه ، واحتاجوا إلى ما يزيل ضررهم وحاجتهم من لفح الشمس ، وتغذية أجسادهم بما يصلح لها ، فظلل عليهم الغمام ، وهذا من أعظم الأشياء وأكبر المعجزات حيث يسخر العالم العلوي للعالم السفلي على حسب اقتراحه ، فكان على ما قيل : تظلهم بالنهار وتذهب بالليل حتى ينوّر عليهم القمر .

وأنزل عليهم المن والسلوى ، وهذا من أشرف المأكول ، إذ جمع بين الغذاء والدواء ، بما في ذلك من الحلاوة التي في المن والدسم الذي في السلوى ، وهما مقمعاً الحرارة ومثيراً القوّة للبدن .

ثم الأمر لهم بتناول ذلك غير مقيد بزمان ولا مكان ، بل ذلك أمر مطلق .

ثم التنصيص أن ذلك من الطيبات وبحق ما يكون ذلك من الطيبات .

ثم ذكر أنه رزق منه لهم لم يتعبوا في تحصيله ولا استخراجه ولا تنميته ، بل جاء رزقاً مهنأ لا تعب فيه .

ثم أرداف هذه الجمل بالجملة الأخيرة ، إذ هي مؤكدة لافتتاح هذه الجمل السابقة ، لأنه افتتحها بالإخبار بأنهم ظلموا أنفسهم ، وختمها بذلك وهو قوله : ﴿ ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ .

فجاءت هذه الجمل في غاية الفصاحة لفظاً والبلاغة معنى ، إذ جمعت الألفاظ المختارة والمعاني الكثيرة متعلقاً أوائل أواخرها بأواخر أوائلها ، مع لطف الإخبار عن نفسه .

فحيث ذكر النعم صرح بأن ذلك من عنده ، فقال : ثم بعثناكم ، وقال : وظللنا وأنزلنا ،

وحيث ذكر النقم لم ينسبها إليه تعالى فقال : فأخذتكم الصاعقة .

وسر ذلك أنه موضع تعداد للنعم ، فناسب نسبة ذلك إليه ليذكرهم آلاءه ، ولم ينسب النقم إليه ، وإن كانت منه حقيقة ، لأن في نسبتها إليه تخويفاً عظيماً ربما عادل ذلك الفرح بالنعم .

والمقصود : انبساط نفوسهم بذكر ما أنعم الله به عليهم ، وإن كان الكلام قد انطوى على ترهيب وترغيب ، فالترغيب أغلب عليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 1 صـ 277.274 ﴾

(82/52)

فصل

قال السيوطى :

﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (57) ﴾

أخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله ﴿ وظللنا عليكم الغمام ﴾ قال : غمام أبرد من هذا وأطيب ، وهو الذي يأتي فيه يوم القيامة ، وهو الذي جاءت فيه الملائكة يوم بدر ، وكان معهم في التيه .

وأخرج وكيع وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ وظللنا عليكم الغمام ﴾ قال : ليس بالسحاب ، هو الغمام الذي يأتي الله فيه يوم القيامة ولم يكن إلا لهم .

وأخرج أبو الشيخ عن قتادة ﴿ وظللنا عليكم الغمام ﴾ قال : هو السحاب الأبيض الذي لا ماء فيه .

وأخرج عبد بن حميد عن أبي مجلز في قوله ﴿ وظللنا عليكم الغمام ﴾ قال : ظلل عليهم في التيه .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ وظللنا عليكم الغمام . . . ﴾ الآية . قال : كان هذا في البرية ، ظلل عليهم الغمام من الشمس ، وأطعمهم المن والسلوى حين برزوا إلى البرية ، فكان المن يسقط عليهم في محلتهم سقوط الثلج ، أشد بياضاً من الثلج ، يسقط عليهم من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ، فيأخذ الرجل قد ما يكفيه يومه ذلك فإن تعدى فسد وما يبقى عنده ، حتى إذا كان يوم سادسه يوم جمعة أخذ ما يكفيه ليوم سادسه ويوم سابعه فبقي عنده ، لأنه إذا كان يوم عيد لا يشخص فيه لأمر معيشة ولا لطلب شيء ، وهذا كله في البرية .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن عكرمة قال ﴿ المن ﴾ شيء أنزله الله عليهم مثل الطل شبه الرب الغليظ ﴿ والسلوى ﴾ طير أكبر من العصفور .

وأخرج وكيع وعبد حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد قال ﴿ المن ﴾ صمغة ﴿ والسلوى ﴾ طائر .

(83/52)

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي قال : قالوا يا موسى كيف لنا بماء ههنا ، أين الطعام ؟ فأنزل الله عليهم المن ، فكان يسقط على شجرة الترنجبين .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن وهب بن منبه . أنه سئل ما المن ؟ قال : خبز الرقاق مثل الذرة ، أو مثل النقي .

وأخرج ابن جرير وابن وابن حاتم عن الربيع بن أنس قال ﴿ المن ﴾ شراب كان ينزل عليهم مثل العسل ، فيمزجونه بالماء ثم يشربونه .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : كان المن ينزل عليهم بالليل على الأشجار ، فيغدون إليه فيأكلون منه ما شاؤوا ﴿ والسلوى ﴾ طائر شبيه بالسماني كانوا يأكلون منه ما شاؤوا .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال ﴿ المن ﴾ الذي يسقط من السماء على الشجر فتأكله الناس ﴿ والسلوى ﴾ هو السماني .

وأخرج أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجة وابن أبي حاتم عن سعيد بن زيد قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم

" الكمأة من المن ، وماؤها شفا للعين " .

وأخرج أحمد والترمذي من حديث أبي هريرة . مثله .

وأخرج النسائي من حديث جابر بن عبد الله وأبي سعيد الخدري وابن عباس . مثله .

وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود وناس من الصحابة ﴿ السلوى ﴾ طائر يشبه السماني .

وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن الضحاك أنه كان يقول : السماني هي السلوى .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة قال : كانت السلوى طيراً إلى الحمرة تحشرها عليهم الريح الجنوب ، فكان الرجل منهم يذبح منها قدر ما يكفيه يومه ذلك ، فإذا تعدى فسد ولم يبق عنده ، حتى إذا كان يوم سادسه يوم جمعته أخذ ما يكفيه ليوم سادسه ويوم سابعه .

(84/52)

وأخرج سفيان بن عيينة وابن أبي حاتم عن وهب بن منبه قال : سألت بنو إسرائيل موسى اللحم فقال الله : لأطعمنهم من أقل لحم يعلم في الأرض . فأرسل عليهم ريحاً فأذرت عند

مساكنهم السلوى – وهو السماني – ميلاً في ميل قيد رمح في السماء ، فجنوا للغد فنتن اللحم .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن وهب بن منبه أنه سئل عن السلوى فقال : طير سمين مثل الحمام ، كان يأتيهم فيأخذون منه من سبت إلى سبت .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ وما ظلمونا ﴾ قال : نحن أعز من أن نظلم .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس قوله ﴿ ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ قال : يضرون . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 1 صـ 170 . 172 ﴾

(85/52)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الغمام ﴾ تقديره : وجعلنا الغمام يُظَلِّلُكُمْ .

قال : " أبو البقاء " : ولا يكون كقولك : " ظَلَّلْتُ زيداً يُظَلُّ " ؛ لأن ذلك يقتضي أن يكون الغمام مستوراً بظل آخر .

وقيل التقدير : بالغمام ، وهذا تفسير معنى لا إعراب ، لأن حذف الجر لا يَنْقَاس .

فصل في اشتقاق الغمام

الغمام : السَّحَاب ، لأنه يغم وَجْه السماء ، أي : يَسْتُرُهَا ، وكل مستور مغموم أي مغطى .

وقيل : الغمام : السَّحاب الأبيض خاصّة ، ومثله : الغَيْمُ والغَيْن بالميم والنون وفي الحديث :

" إنه لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي " .

وواحدته " غَمَامَةٌ " فهو اسم جنس .

و" المَنّ " تقدم تفسيره ، ولا واحد له من لفظه .

والمَنّ أيضاً مقدار يوزن به ، وهذا يجوز إبدال نونه الأخيرة حرف علّة ، فيقال : مَناً مثل :

عَصاً ، وتثنيته : مَنَوَان ، وجمعه : أمْنَاء .

والسَّلْوَى تقدمت أيضاً ، واحدتها : سَلْوَاةٌ ؛ وأنشدوا : [الطويل]

وَإِنّي لَتَعْرُونِي لِذِكْرَاكِ سَلْوَةٌ . . .

كَمَا انْتَفَضَ السَّلْوَاةُ مِنْ بَلَلِ القَطرِ

فيكون من باب " قَمْح وقَمْحَة " .

وقيل : سَلْوَى مفرد وجمعها : سَلاَوى ك " فَتْوَى وفَتَاوَى " قاله " الكسائي " .

وقيل : سلوى يستعمل للواحد والجمع ك : دِفْلَى .

و" السُّلْوَانَةُ " بالضم خَرَزَةٌ كانوا يقولون : إذا صُبَّ عليها ماء المَطَرِ فشربه العاشق سَلاَ ؛ [

قال : [الطويل]

شَرِبْتُ عَلَى سُلْوَانَةٍ مَاءً مُزْنَةٍ . . .

فَلاَ وَجَدِيدِ العَيْشِ يَا مَيُّ مَا أَسْلُو]

واسم ذلك الماء " السُّلْون " .

وقال بعضهم : " السُّلْوَان " دواء يُسْقَاه الحزين فَيَسْلُو ، والأطباء يسمونه المُفَرِّح .

يقال : سَلَيْتُ وسَلَوْت ، لُغَتَان .

وهو في سُلْوة من العيش ، قاله " أبو زيد " .

و" السَّلوى " عطف على " المَنّ " لم يظهر فيه الإعراب ، لأنه مقصور ، وهذا في المقصور كلّه ؛ لأنه لا يخلو من أن يكون في آخره ألف .

قال الخليل : " والألف حرف هَوَائِيّ لا مُسْتَقَرّ له ، فأشبه الحركة ، فاستحالت حركته " .

وقال " الفراء " : " لو حركت الألف صارت همزة " .

(86/52)

" كلوا " هذا على إضمار القول ، أي : وقلنا لهم : كلوا ، وإضمار القول كثير ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَالْمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِّن كُلِّ بَابٍ ﴾ [الرعد : 23] أي : يقولون سلام ، ﴿ والذين اتخذوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ ﴾ [الزمر : 3] أي : يقولون : ما نعبدهم

إلاّ .

﴿ فَأَمَّا الذين اسودت وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ ﴾ [آل عمران : 106] أي : فيقال لهم : أكفرتم ، وتقدم الكلام في كل تصريفه .

قوله : " مِنْ طَيِّبَات " من لابتداء الغاية ، أو للتبعيض .

وقال : " أبو البقاء " : أو لبيان الجِنْسِ .

والمفعول محذوف ، أي : كلوا شيئاً من طيبات .

وهذا ضعيف ؛ لأنه كيف يبين شيء ثم يحذف .

قولهك " مَا رَزَقْنَاكُم " يجوز في " ما " أن تكون بمعنى الَّذي ، وما بعدها حاصلة لها ، والعائد محذوف ، أي : رَزَقْنَاكُمُوهُ ، وأن تكون نكرة موصوفة .

فالجملة لا محلّ لها على الأول ، ومحلّها الجر على الثَّاني ، والكلام في العَائِد كما تقدّم ، وأن تكون مصدريةٌ ، والجملة صلتها ، ولم تَحْتَجْ إلى عائدٍ على ما عرف قبل ذلك ، ويكون هذا المصدر واقعاً موقع المفعول ، أي : من طيبات مرزوقنا .

قوله : " أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ " .

" أنفسهم " مفعول مقدم ، و " يظلمون " في محل نصب خبر " كانوا " وقدّم المفعول إيذاناً باختصاص الظُّلم بهم ، وأنه لا يتعّداهم .

والاستدراك في " لكن " واضح ، ولا بُدّ من حذف جملة قبل قوله : " وَمَا ظَلَمُونَا " ، فقدره

ابن عطية : فعصوا ، ولم يقابلوا النعم بالشكر .

وقال الزمخشري " : تقديره فظلمونا بأن كفروا هذه النعم ، وما ظلمونا ، فاختصر الكلام بحذفه لدلالة " وَمَا ظَلَمُونَا " عليه .

فإن قيل : قوله : " وَمَا ظَلَمُونَا " جلمة خبرية ، فكيف عطفت على قوله : " كلوا " ، وهي جملة أمرية ؟ .

فالجواب من وجهين :

الأول : أن هذه جملة مستأنفة لا تعلُّق لها بما قبلها .

(87/52)

والثاني : أَنَّهَا معطوفة على الجملة القولية المحذوفة أي : وقيل لهم : كلوا من طيبات ما رزقناكم ، وما ظلمونا ، فيكون قد عطف جملة خبرية على خَبَرِيّة .

و" الظلم " : وضع الشيء في غير موضعه .

وقوله : " كانوا " وكانت هذه عادتهم كقولك " كان حاتم كريماً " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 2 صـ 89 ـ 92 ﴾ . باختصار .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (57) ﴾

لّما طرحهم في متاهات الغُربة لم يرضَ إلاَّ بأن ظلَّلَهُم ، وبلبسة الكفايات جَلَّلَهُم ، وعن تكلف التكسُّب أغناهم ، وبجميل صنعه فيما احتاجوا إليه تولاَّهم ؛ فلا شُعُورُهم كانت تَطُول ، ولا أظفارهم كانت تنبُت ، ولا ثيابهم كانت تتسِخ ، ولا شعاعُ الشمس عليهم كان ينبسط . وكذلك سُنَّتُه لمن حال بينه وبين اختياره ، يكون ما يختاره سبحانه له خيراً مما يختاره لنفسه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 93 ﴾

(88/52)

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (54) وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (55) ثُمَّ

بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (56) وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (57) ﴾

التفسير : إنه سبحان نبههم على عظم ذنبهم ثم على ما به يتخلصون منه ، وذلك من أعظم النعم في الدين وأيضاً لما أمرهم بالقتل ورفع ذلك الأمر عنهم قبل فنائهم بالكلية ، كان ذلك نعمة في حق أولئك الباقين وفي أعقابهم إلى زمن

(89/52)

محمد صلى الله عليه وسلم ، وأيضاً لما بين أن توبة أولئك ما تمت إلا بالقتل ، ظهر أن بعثة محمد صلى الله عليه وسلم لهم نعمة ورحمة لأنه لا يأمرهم بشيء من ذلك متى رجعوا عن كفرهم . وفيه ترغيب لأمة محمد صلى الله عليه وسلم في التوبة ، فإن أمة موسى لما رغبوا في تلك التوبة مع نهاية مشقتها على النفس فلأن يرغب أحدنا في مجرد الندم كان أولى .

هذا وقد مر أن الظلم وضع الشيء في غير موضعه إلا أنه لا بد فيه من تعدي ضرر ، فبين ههنا أن الضرر إنما يعود على أنفسهم فبذلك استحقوا العذاب الأبدي . والفرق بين الفاءات الثلاثة في الآية ، أن الأولى للتسبيب لا غير لأن الظلم سبب التوبة . والثانية للتعقيب إما لأن المعنى فاعزموا على التوبة فاقتلوا أنفسكم على أن التوبة مفسرة بقتل

النفس في شرعهم لا بالندم ، وإما لأن القتل تمام توبة المرتد في شرعهم ، والمعنى فتوبوا فاتبعوا التوبة القتل تتمة لتوبتكم كما أن القاتل عمداً لا تتم توبته في شرعنا إلا بتسليم النفس حتى يرضى أولياء المقتول أو يقتلونه . ومعنى ﴿ إلى بارئكم ﴾ النهي عن الرياء في التوبة كأنه قيل : لو أظهرتم التوبة لا عن القلب فأنتم ما تبتم إلى الله وإنما تبتم إلى الناس . وقوله ﴿ ذلكم ﴾ أي القتل ﴿ خير لكم عند بارئكم ﴾ جملة معترضة تفيد التنبيه على أن ضرر الدنيا أهون من عذاب الآخرة إذ لا نسبة للمتناهي إلى غير المتناهي .

(90/52)

والموت لا بد واقع فليس في تحمل القتل إلا التقديم والتأخير . والثالثة هي الفاء الفصيحة أي المفصحة عن محذوف تقديره : فامتثلتم فتاب عليكم . وعلى هذا يكون الكلام خطاباً من الله تعالى لهم على طريقة الالتفات ، ويمكن أن يقال : المحذوف شرط منتظم في جملة قول موسى كأنه قال فإن فعلتم فقد تاب عليكم ، وإنما اختص هذا الموضع بذكر البارئ لأن معناه كما مر في الأسماء الذين خلق الخلق على الوجوه الموافقة للمصالح والأغراض ، ففيه تقريع لما كان منهم من ترك عبادة العليم الحكيم الذي برأهم بلطف حكمته على الأشكال المختلفة برآء من التنافر مناسبة للحكم والمقاصد إلى عبادة العجل

الذي هو مثل في البلادة والغباوة ، فلا جرم كان جزاؤهم تفكيك ما ركب من خلقهم وتبديل . من أشكالهم حين لم يشكروا النعمة في ذلك وغمطوها باتخاذ من لا يقدر على شيء منها . والمراد بقتل الأنفس إما ما يقتضيه ظاهر اللفظ وهو أن يقتل كل واحد نفسه ، والقتل اسم للفعل المؤدي إلى زهوق الروح في الحال أو في المآل . وإما قتل بعضهم بعضاً وعليه المفسرون لقوله تعالى ﴿ ولا تقتلوا أنفسكم ﴾ [النساء : 29] ﴿ ولا تلمزوا أنفسكم ﴾ [الحجرات : 11] ﴿ فسلموا على أنفسكم ﴾ [النور : 61] وذلك أن المؤمنين كنفس واحدة . ثم اختلفوا فقيل : إنه أمر من لم يعبد العجل من السبعين المختارين لحضور الميقات أن يقتل من عبد العجل منهم . وقيل : لما أمرهم موسى عليه السلام بالقتل أجابوا فأخذ عليهم المواثيق ليصبرن على القتل فأصبحوا مجتمعين كل قبيلة على حدة ، وأتاهم هارون بالاثني عشر ألفاً الذين ما عبدوا العجل وبأيديهم السيوف فقال : إن هؤلاء إخوانكم قد أتوكم شاهرين للسيوف فاجلسوا بأفنية بيوتكم واتقوا الله واصبروا ، فلعن الله رجلاً قام من مجلسه أو مد طرفه إليهم أو اتقاهم بيد أو رجل ويقولون آمين . روي أن الرجل كان يبصر ولده ووالده وجاره وقريبه فلم يمكنه المضي لأمر الله ، فأرسل الله

ضبابة وسحابة سوداء لا يتباصرون تحتها ، فجعلوا يقتلونهم إلى المساء . وقام موسى وهارون يدعوان الله ويقولان : هلكت بنو إسرائيل ، البقية البقية يا الهنا . فكشفت الضبابة والسحابة ، وأوحى الله تعالى إليه : قد غفرت لمن قتل ، وتبت على من لم يقتل . قالوا : وكانت القتلى سبعين ألفاً . وقيل : كانوا قسمين : منهم من عبد العجل ، ومنهم من لم يعبد . ولكن لم ينكر على من عبده فأمر من لم يشتغل بالإنكار بقتل من اشتغل بالعبادة . والقائلون بأن العجل عجل الهوى قالوا : معنى قتل الأنفس هو قمع الهوى لأن الهوى حياة النفس .

قوله : ﴿ وإذا قلتم يا موسى ﴾ ذهب بعض المفسرين إلى أن هذه الواقعة كانت قبل أن كلف الله عبدة العجل بالقتل . قال محمد بن إسحق : لما رجع موسى عليه السلام من الطور إلى قومه فرأى ما هم عليه من عبادة العجل وقال لأخيه والسامري ما قال وأحرق العجل ونسفه في اليم ، اختار سبعين رجلاً من خيارهم .

فلما خرجوا إلى الطور قالوا لموسى : سل ربك حتى نسمع كلامه . فسأل موسى ذلك فأجابه الله إليه ، فلما دنا من الجبل وقع عليه عمود من الغمام وتغشى الجبل كله ، ودنا

موسى عليه السلام من ذلك الغمام حتى دخل فيه فقال للقوم : ادخلوا وعوا . وكان موسى متى كلمه ربه وقع على جبهته نور ساطع لا يستطيع أحد من بني إسرائيل النظر إليه . وسمع القوم كلام الله مع موسى يقول له : افعل ولا تفعل . ومن جملة الكلام " إني أنا الله لا إله إلا أنا ذو بكة ، أخرجتكم من أرض مصر فاعبدوني ولا تعبدوا غيري " . فلما تم الكلام انكشف عن موسى الغمام الذي دخل فيه فقال القوم بعد ذلك ﴿ لن نؤمن لك ﴾ أي لن نصدقك ولن نقر بنبوتك ﴿ حتى نرى الله جهرة ﴾ عياناً ، وهي مصدر قولك جهر بالقراءة والدعاء ، كأن الذي يرى بالعين يجاهر بالرؤية ، والذي يرى بالقلب يخافت بها . وانتصابها على نحو انتصاب " قعد القرفصاء " لأن هذه نوع من الرؤية كما أن تلك نوع من القعود ، ويحتمل أن يكون نصبها على الحال بمعنى ذوي جهرة . ومن قرأ ﴿ جهرة ﴾ بفتح الهاء فإما لأنه مصدر كالغلبة ، وإما لأنه جمع جاهر . وإنما أكدوا بهذا لئلا يتوهم أن المراد بالرؤية العلم أو التخيل على ما يراه النائم ﴿ فأخذتكم الصاعقة ﴾ وهي ما صعقهم أي أماتهم . فقيل : نار وقعت من السماء فأحرقتهم ، وقيل : صيحة جاءت من السماء ، وقيل : أرسل الله جنوداً سمعوا بحسها فخروا صعقين ميتين يوماً وليلة . وصعقة موسى في قوله ﴿ وخر موسى صعقاً ﴾ [الأعراف : 143] لم تكن موتاً ولكن غشية بدليل ﴿ فلما أفاق ﴾ [الأعراف : 143] والظاهر أنه أصابهم ما ينظرون إليه لقوله ﴿ وأنتم تنظرون ﴾ فرفع موسى يديه إلى السماء يدعو ويقول : إلهي اخترت من بني إسرائيل

سبعين رجلاً ليكونوا شهودي بقبول توبتهم فأرجع إليهم وليس معي أحد ، فما الذي يقولون فيّ ؟ فلم يزل يدعو حتى رد الله إليهم أرواحهم وذلك قولهم ﴿ ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم

(93/52)

تشكرون ﴾ نعمة البعث بعد الموت ، أو نعمة الله بعد ما كفرتموها فطلب توبة بني إسرائيل من عبادة العجل فقال : لا إلا أن يقتلوا أنفسهم . وقيل : إن هذه الواقعة كانت بعد القتل .

قال السدي : لما تاب بنو إسرائيل من عبادة العجل بأن قتلوا أنفسهم ، أمر الله أن يأتيه موسى في ناس من بني إسرائيل يعتذرون إليه من عبادتهم العجل ، فاختار موسى سبعين رجلاً . فلما أتوا الطور قالوا : لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتهم الصاعقة وماتوا ، فقام موسى يبكي ويقول : يا رب ، ماذا أقول لبني إسرائيل فإني أمرتهم بالقتل ثم اخترت من بينهم هؤلاء ، فإذا رجعت إليهم ولا يكون معي أحد منهم فماذا أقول لهم ؟ فأوحى الله إلى موسى : إن هؤلاء السبعين ممن اتخذوا العجل إلهاً .

فقال موسى : إن هي إلا فتنتك . فأحياهم الله تعالى فقاموا ونظر كل واحد إلى الآخر كيف يحييه الله تعالى . فقالوا : يا موسى إنك لا تسأل الله شيئاً ، إلا أعطاك ، فادعه

يجعلنا أنبياء . فدعا بذلك فأجاب الله دعوته . هذا ما قاله المفسرون ، وليس في الآية ما يدل على ترجيح أحد القولين على الآخر ، ولا على أن الذين سألوا الرؤية عبدة العجل أم لا ، والصحيح أن موسى لم يكن من جملة الصعقين في هذه الواقعة لأنه خطاب مشافهة ، ولأنه لو تناوله لوجب تخصيصه بقوله في حق موسى ﴿ فلما أفاق ﴾ [الأعراف : 143] مع أن لفظة " الإفاقة " لا تستعمل في الموت .

(94/52)

ثم في الآية فوائد منها : التحذير لمن كان في زمان نبينا صلى الله عليه وسلم عن فعل ما يستحق بسببه أن يفعل به ما فعل بأولئك . ومنها تشبيه جحودهم معجزات النبي صلى الله عليه وسلم بجحود أسلافهم نبوة موسى عليه السلام مع مشاهدتهم لعظم تلك الآيات ليتنبهوا أنه إنما لا يظهر على النبي صلى الله عليه وسلم مثلها لعلمه بأنه لو أظهرها لجحودها ، ولو جحدوها لاستحقوا العقاب كما استحقه أسلافهم . ومنها التسلية للنبي صلى الله عليه وسلم وتثبيت فؤاده كي يصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل .

ومنها إزالة شبهة من يقول إن نبوة محمد صلى الله عليه وسلم لو صحت لكان أولى الناس بالإيمان به أهل الكتاب ، حيث إنهم عرفوا خبره ، وذلك أنه تعالى بيَّن أن أسلافهم بعد

مشاهدة تلك الآيات كانوا يرتدون كل وقت ويتحكمون عليه ، فكيف يتعجب من مخالفتهم محمداً صلى الله عليه وسلم وإن وجدوا في كتبهم أخبار نبوته صلى الله عليه وسلم . و منها لما أخبر محمد صلى الله عليه وسلم عن هذه القصة مع كونه أمياً ، تبين أن ذلك من الوحي .

بقي ههنا بحث وهو أن المعتزلة استدلوا بالآية على امتناع رؤية الله تعالى لأنها لو كانت أمراً جائز الوقوع لم تنزل بهم العقوبة كما لم تنزل بهم حين التمسوا النقل من قوت إلى قوت في قولهم ﴿ لن نصبر على طعام واحد ﴾ [البقرة : 61] . وأجيب بأن امتناع رؤيته في الدنيا لا يستلزم امتناع رؤيته في الآخرة الذي هو محل النزاع ، فعل رؤيته تقتضي زوال التكليف عن العبد والدنيا مقام التكليف ، وأيضاً اقتراح دليل زائد على صدق المدعي بعد ثبوته تعنت . وأيضاً لا يمتنع أن الله تعالى علم أن فيه مفسدة كما علم في إنزال الكتاب من السماء ﴿ يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة ﴾

[النساء : 153] فلهذا جاز الاستنكار لأن مطالبة الرؤية جهرة مطالعة الذات غفلة ، وفيه من سوء الأدب وترك الحرمة ما لا يستحسنه قضية العزة والحشمة .

قوله تعالى ﴿ وظللنا ﴾ أي جعلنا الغمام يظلكم وذلك في التيه كما سيجيء في المائدة ، سخر الله لهم السحاب فيسير بسيرهم يظلهم من الشمس والظل ضوء ثان ، وينزل عليه ثوب كالظفر يطول بطوله كما كان لآدم قبل الزلة ، وينزل عليهم المن وهو الترنجبين مثل الثلج من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ، لكل إنسان صاع لا أزيد ، ويبعث الله الجنوب فتحشر عليهم السلوى وهي السماني ، فيذبح الرجل منها ما يكفيه لا أزيد . مجاهد : المن صمغ حلو . وهب : هو الخبز السميذ . الزجاج : هو ما منّ الله تعالى به عليهم ، وهذا كما يروى مرفوعاً " الكمأة من المن وفيها شفاء للعين " وقيل : السلوى العسل . وقيل : طائر أحمر ﴿ كلوا ﴾ على إرادة القول أي وقلنا لهم كلوا ﴿ من طيبات ﴾ من حلالات ﴿ ما رزقناكم ﴾ وهذا للإباحة . ﴿ وما ظلمونا ﴾ يعني فظلموا بأن كفروا هذه النعم فجعلوا موضع الشكر كفراً ، وما ظلمونا فاختصر الكلام بحذفه لدلالة وما ظلمونا عليه ﴿ ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ لأن وبال الظلم عائد عليهم لا إلى غيرهم ولا إلى الله تعالى . وإنما قال ههنا وفي الأعراف والتوبة والروم بزيادة لفظة " كانوا " لأنها إخبار عن قوم ماتوا وانقرضوا بخلاف قوله في آل عمران ﴿ ولكن أنفسهم يظلمون ﴾ [آل عمران : 117] لأنه مثل ، والله أعلم . انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 1 صـ 289 ـ 292 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (58) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان كل من ظل الغمام ولزوم طعام واحد غير مألوف لهم مع كونه نعمة دنيوية وكان المألوف أحب إلى النفوس تلاه بالتذكير بنعمة مألوفة من الاستظلال بالأبنية والأكل مما يشتهى مقرونة بنعمة دينية .

وقال الحرالي : لما ذكر تعالى عظيم فضله عليهم في حال استحقاق عقوبتهم في تظليل الغمام وإنزال المن والسلوى وهو مبتدأ أمر تيههم حين أبوا أن يقاتلوا الجبارين نظم به آخر أمر تيههم بعد وفاة موسى وهارون عليهما السلام حين دخولهم مع يوشع عليه السلام وما أمروا به من دخول البلد المقدس متذللين بالسجود الذي هو أخص رتب العبادة وكمال عمل العامل ودنو من الحق – انتهى .

فقال تعالى ﴿ وإذ قلنا ﴾ أي لكم ﴿ ادخلوا هذه القرية ﴾ إشارة إلى نعمة النصر .

قال الحرالي : الدخول الولوج في الشيء بالكلية حساً بالجسم ومعنى بالنظر والرأي ، والقرية من القرى وهو الجمع للمصالح التي بها يحصل قوام الدنيا لقرى أهل الدنيا والتي تجمع مصالح أهل الآخرة ، لقرى أهل الآخرة ، قال عليه السلام : " أُمرت بقرية تأكل القرى " باستيطانها كأنها تستقري القرى تجمعها إليها ، وقد تناوبت الياء والهمزة والواو مع القاف والراء على عام هذا المعنى – انتهى .

وناسب سياق النعم الدلالة على تعقيب نعمة الدخول بالفاء في قوله : ﴿ فكلوا منها حيث شئتم ﴾ وأتمّ النعمة بقوله ﴿ رغداً ﴾ موسعاً عليكم طيباً .

قال الحرالي : وفيه أي هذا الخطاب تثنية في ذكر الأرض لما تقدم من نحوه لآدم في السماء ، فكان تبديلهم لذلك عن فسق لا عن نسيان كما كان أمر آدم عليه السلام ، فكأنهم اقتطعوا عن سنته إلى حال الشيطان الذي كان من الجن ففسق عن أمر ربه ، فتحقق ظلمهم حين لم يشبهوا آباءهم وأشبهوا عدو أبيهم – انتهى .

(97/52)

وأمرهم بالشكر على نعم النصر والإيواء وإدرار الرزق بأمر يسير من القول والفعل ، وقدم الدخول السار للنفوس والسجود الذي هو أقرب مقرب للحضرة الشريفة لأنه في سياق عد

النعم على القول المشعر بالذنب فقال ﴿ وادخلوا الباب ﴾ وهو كما قال الحرالي أول مستفتح الأشياء والأمور المستغلقة حساً أو معنى حال كونكم ﴿ سجداً وقولوا ﴾ جامعين إلى ندم القلب وخضوع الجوارح الاستغفار باللسان ، ولما كان القول تحكى به الجمل فتكون مفعولاً بها ويعمل في المفرد إذا كان مصدراً أو صفة لمصدر كقلت حقاً أو معبراً به عن جملة كقلت شعراً وما كان على غير هذا كان إسناداً لفظياً لا فائدة فيه غير مجرد الامتثال رفع قوله ﴿ حطة ﴾ أي عظيمة لذنوبنا .

قال الكشاف : والأصل النصب أي حط عنا ذنوبنا إلاّ أنه رفع ليعطي معنى الثبات .

قال الحرالي : من الحط وهو وضع الحمل الثقيل بُمنّة وجمام قوة يكون في الجسم ، والمعنى أمروا بقول ما يحط عنهم ذنوبهم التي عوّقتهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم مع من معه من المهاجرين والأنصار بشعب من الشعاب متردداً بين الحرمين الشريفين – يعني في عمرة الحديبية – فقال قولوا : " لا إله إلاّ الله " وعند ذلك دخول الشعب الذي هو باب المدخل من نجد الأرض إلى سهلها " فقالوها ، فقال : والذي نفسي بيده ! إنها للحطة التي عرضت على بني إسرائيل أن يقولوها فبدلوها " انتهى .

وعبر بنون العظمة في قوله ﴿ نغفر لكم ﴾ إشارة إلى أنه لا يتعاظمه ذنب وإن عظم كاتخاذ العجل إذا جُبّ بالتوبة ، وفي قراءة من قرأ بالتحتانية والفوقانية مبنياً للمجهول إشارة إلى

تحقير الذنوب إذا أراد غفرانها بحيث إنه بأدنى أمر وأدق إشارة يمحوها وهي أقل من أن يباشرها بنفسه المقدسة ، كل ذلك استعطاف إلى التوبة .

(98/52)

والغفر قال الحرالي : ستر الذنب أن يظهر منه أثر على المذنب لا عقوبة ولا ذكر – ثم قال : ففي قراءة ﴿ نغفر ﴾ تول من الحق ومن هو من حزبه من الملائكة والرسل ، وفي قراءة : تغفر ، إبلاغ أمر خطابهم بما يفهمه التأنيث من نزول القدر ، وفي قراءة الياء توسط بين طرفي ما يفهمه علو قراءة النون ونزول قراءة التاء ، ففي ذلك بجملته إشعار بأن خطاياهم كانت في كل رتبة مما يرجع إلى عبادة ربهم وأحوال أنفسهم ومعاملتهم مع غيرهم من أنبيائهم وأمثالهم حتى جمعت خطاياهم جميع جهات الخطايا الثلاث ، فكأنهم ثلاثة أصناف : صنف بدلوا ، وصنف اقتصدوا ، وصنف أحسنوا فيزيدهم الله ما لا يسعه القول و ﴿ هل جزاء الإحسان إلاّ الإحسان ﴾ [الرحمن : 60] انتهى .

ولما كان السياق هنا لتعداد النعم حسن أن يعبر عن ذنوبهم بجمع الكثرة فقال ﴿ خطاياكم ﴾ إشارة إلى أنهم أصروا عليها بحيث كادوا أن يجعلوا بإزاء كل نعمة ذنباً ، والخطايا جمع خطيئة من الخطأ وهو الزلل عن الحد عن غير تعمد بل مع عزم الإصابة أو وَدِّ

أن لا يخطىء – هكذا قال الحرالي ، والظاهر أن المراد هنا ما كان عن عمد كائناً ما كان ، لأن ذلك أولى بسياق الامتنان والعقوبة بالعصيان .

قال في القاموس : والخطيئة الذنب أو ما تعمد منه والخطأ ما لم يتعمد ، جمعه خطايا ، وقرىء شاذاً : خطيئاتكم ، بالجمع السالم الدال على القلة إشارة إلى أنّها وإن تكاثرت فهي في جنب عفوه قليل ، وهذا بخلاف الأعراف فإن السياق هناك لبيان إسراعهم في الكفر كما سيأتي إن شاء الله تعالى ، وناسب عدّ النعم العطف على ما تقدم منها بقوله : ﴿ وسنزيد المحسنين ﴾ أي بعد غفران ذنوبهم .

(99/52)

قال الحرالي : جمع محسن من الإحسان وهو البلوغ إلى الغاية في حسن العمل ، فيكون مع الخلق رؤية المرء نفسه في غيره فيوصل له من البر ما يجب أن يفعل معه ، ورؤية العبد ربّه في عبادته ، فالإحسان فيما بين العبد وربّه أن يغيب عن نفسه ويرى ربه ، والإحسان فيما بين العبد وغيره أن يغيب عن غيره ويرى نفسه ، فمن رأى نفسه في حاجة الغير ولم ير نفسه في عبادة الرب فهو محسن ، وذلك بلوغ في الطرفين إلى غاية الحسن في العمل بمنزلة الحسن في الصورة – انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 140. 142 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أن هذا هو الإنعام الثامن ، وهذه الآية معطوفة على النعم المتقدمة لأنه تعالى كما بين نعمه عليهم بأن ظلل لهم من الغمام وأنزل (عليهم) من المن والسلوى وهو من النعم العاجلة أتبعه بنعمه عليهم في باب الدين حيث أمرهم بما يمحو ذنوبهم وبين لهم طريق المخلص مما استوجبوه من العقوبة .

واعلم أن الكلام في هذه الآية على نوعين :

النوع الأول : ما يتعلق بالتفسير فنقول : أما قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادخلوا هذه القرية ﴾ [البقرة : 58] فاعلم أنه أمر تكليف ، ويدل عليه وجهان : الأول : أنه تعالى أمر بدخول الباب سجداً ، وذلك فعل شاق فكان الأمر به تكليفاً ودخول الباب سجداً مشروط بدخول القرية ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، فثبت أن الأمر بدخول القرية أمر تكليف لا أمر إباحة .

الثاني : أن قوله : ﴿ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِى كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلاَ تَرْتَدُّوا على أدباركم ﴾ [المائدة : 21] دليل على ما ذكرناه .

أما القرية فظاهر القرآن لا يدل على عينها ، وإنما يرجع في ذلك إلى الأخبار ، وفيه أقوال :

أحدها : وهو اختيار قتادة والربيع وأبي مسلم الأصفهاني أنها بيت المقدس ، واستدلوا عليه بقوله تعالى في سورة المائدة : ﴿ ادْخُلُوا الأَرْضَ المُقَدَّسَةَ الَّتِى كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ ، ولا شك أن المراد بالقرية في الآيتين واحد ، وثانيها : أنها نفس مصر ، وثالثها : وهو قول ابن عباس وأبي زيد إنها أريحاء وهي قريبة من بيت المقدس ، واحتج هؤلاء على أنه لا يجوز أن تكون تلك القرية بيت المقدس لأن الفاء في قوله تعالى : ﴿ فَبَدَّلَ الذين ظَلَمُواْ ﴾ تقتضي التعقيب فوجب أن يكون ذلك التبديل وقع منهم عقيب هذا الأمر في حياة موسى ، لكن موسى مات في أرض التيه ولم يدخل بيت المقدس ، فثبت أنه ليس المراد من هذه القرية بيت المقدس .

وأجاب الأولون بأنه ليس في هذه الآية : أنا قلنا ادخلوا هذه القرية على لسان موسى أو على لسان يوشع ، وإذا حملناه على لسان يوشع زال الإشكال .

وأما قوله تعالى : ﴿ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا ﴾ فقد مر تفسيره في قصة آدم عليه السلام وهو أمر إباحة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 82 ـ 83 ﴾

وقال السمرقندى :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادخلوا هذه القرية ﴾ ، قال الكلبي : يعني أريحا .

وقال مقاتل : إيليا .

ويقال : هذا كان بعد موت موسى عليه السلام وبعد مضي أربعين سنة ، حيث أمر الله تعالى يوشع بن نون وكان خليفة موسى عليهما السلام بأن يدخل مع قومه المدينة ، فقال لهم يوشع بن نون : ادخلوا الباب سجداً ، يعني إذا دخلتم من باب المدينة فادخلوا ركعاً منحنين ناكسي رؤوسكم متواضعين ، فيقوم ذلك منكم مقام السجود وذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادخلوا هذه القرية ﴾ ، يعني أريحا أو إيليا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ 82 ﴾

قوله تعالى ﴿ وادخلوا الباب سُجَّدًا ﴾

فصل

قال الفخر :

أما قوله تعالى : ﴿ وادخلوا الباب سُجَّدًا ﴾ ففيه بحثان .

الأول : اختلفوا في الباب على وجهين :

أحدهما : وهو قول ابن عباس والضحاك ومجاهد وقتادة إنه باب يدعى باب الحطة من بيت المقدس ،

وثانيهما : حكى الأصم عن بعضهم أنه عني بالباب جهة من جهات القرية ومدخلاً إليها .

الثاني : اختلفوا في المراد بالسجود فقال الحسن أراد به نفس السجود الذي هو الصاق الوجه بالأرض وهذا بعيد لأن الظاهر يقتضي وجوب الدخول حال السجود فلو حملنا السجود على ظاهره لامتنع ذلك ، ومنهم من حمله على غير السجود ، وهؤلاء ذكروا وجهين : الأول : رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس أن المراد هو الركوع ، لأن الباب كان صغيراً ضيقاً يحتاج الداخل فيه إلى الانحناء ، وهذا بعيد لأنه لو كان ضيقاً لكانوا مضطرين إلى دخوله ركعاً فما كان يحتاج فيه إلى الأمر .

الثاني : أراد به الخضوع وهو الأقرب ، لأنه لما تعذر حمله على حقيقة السجود وجب حمله على التواضع ، لأنهم إذا أخذوا في التوبة فالتائب عن الذنب لا بد أن يكون خاضعاً مستكيناً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 83 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَقُولُواْ حِطَّةٌ ﴾

فصل

قال الفخر :

أما قوله تعالى : ﴿ وَقُولُواْ حِطَّةٌ ﴾ ففيه وجوه .

أحدها : وهو قول القاضي : المعنى أنه تعالى بعد أن أمرهم بدخول الباب على وجه الخضوع أمرهم بأن يقولوا ما يدل على التوبة ، وذلك لأن التوبة صفة القلب ، فلا يطلع الغير عليها ، فإذا اشتهر واحد بالذنب ثم تاب بعده لزمه أن يحكي توبته لمن شاهد منه الذنب ، لأن التوبة لا تتم إلا به (1) ، إذ الأخرس تصح توبته وإن لم يوجد منه الكلام بل لأجل تعريف الغير عدوله عن الذنب إلى التوبة ، ولإزالة التهمة عن نفسه ، وكذلك من عرف بمذهب خطأ ، ثم تبين له الحق فإنه يلزمه أن يعرف إخوانه الذين عرفوه بالخطأ عدوله عنه ، لتزول عنه التهمة في الثبات على الباطل وليعودوا إلى موالاته بعد معاداته ، فلهذا السبب ألزم الله تعالى بني إسرائيل مع الخضوع الذي هو صفة القلب أن يذكروا اللفظ الدال على تلك التوبة وهو قوله : ﴿ وَقُولُواْ حِطَّةٌ ﴾ [البقرة : 58] ، فالحاصل أنه أمر القوم بأن يدخلوا الباب على وجه الخضوع وأن يذكروا بلسانهم التماس حط الذنوب حتى يكونوا جامعين بين ندم القلب وخضوع الجوارح والاستغفار باللسان ، وهذا الوجه أحسن الوجوه وأقربها إلى التحقيق .

ثانيها : قول الأصم : إن هذه اللفظة من ألفاظ أهل الكتاب أي لا يعرف معناها في العربية .

وثالثها : قال صاحب الكشاف (حطة) فعلة من الحط كالجلسة والركبة وهي خبر مبتدأ محذوف أي مسألتنا حطة أو أمرك حطة والأصل النصب بمعنى حط عنا ذنوبنا حطة

وإنما رفعت لتعطي معنى الثبات كقوله :

صبر جميل فكلانا مبتلي . . والأصل صبراً على تقدير اصبر صبراً ، وقرأ ابن أبي عبلة بالنصب .

---

(1) قال الشوكاني : وكون التوبة لا تتم إلا بذلك لا دليل عليه ، بل مجرد عقد القلب عليها يكفي ، سواء اطلع الناس على ذنبه أم لا .

وربما كان التكتم بالتوبة على وجه لا يطلع عليها إلا الله – عزّ وجل – أحبّ إلى الله ، وأقرب إلى مغفرته ، وأما رفع ما عند الناس من اعتقادهم بقاءه على المعصية ، فذلك باب آخر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 1 صـ 89 ﴾

(103/52)

ورابعها : قول أبي مسلم الأصفهاني معناه أمرنا حطة أي أن نحط في هذه القرية ونستقر فيها ، وزيف القاضي ذلك بأن قال : لو كان المراد ذلك لم يكن غفران خطاياهم متعلقاً به ولكن قوله : ﴿ وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خطاياكم ﴾ [البقرة : 58] ، يدل على أن غفران الخطايا كان لأجل قولهم حطة ، ويمكن الجواب عنه بأنهم لما حطوا في تلك القرية حتى يدخلوا سجداً مع التواضع كان الغفران متعلقاً به .

وخامسها قول القفال : معناه اللهم حط عنا ذنوبنا فإنا إنما انحططنا لوجهك وإرادة التذلل لك ، فحط عنا ذنوبنا .

فإن قال قائل : هل كان التكليف وارداً بذكر هذه اللفظة بعينها أم لا ؟ قلنا روي عن ابن عباس أنهم أمروا بهذه اللفظة بعينها وهذا محتمل ولكن الأقرب خلافه لوجهين .

أحدهما : أن هذه اللفظة عربية وهم ما كانوا يتكلمون بالعربية ، وثانيهما : وهو الأقرب أنهم أمروا بأن يقولوا قولاً دالاً على التوبة والندم والخضوع حتى أنهم لو قالوا مكان قولهم : ﴿ حِطَّةٌ ﴾ اللهم إنا نستغفرك ونتوب إليك لكان المقصود حاصلاً ، لأن المقصود من التوبة ، إما القلب وإما اللسان ، أما القلب فالندم ، وأما اللسان فذكر لفظ يدل على حصول الندم في القلب وذلك لا يتوقف على ذكر لفظة بعينها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 84.83 ﴾

قوله تعالى ﴿ نَّغْفِرْ لَكُمْ خطاياكم ﴾

فائدة

قال السمرقندى :

﴿ نَّغْفِرْ لَكُمْ خطاياكم ﴾ ، قرأ ابن عامر ومن تابعه من أهل الشام ﴿ تَغْفِرْ ﴾ بالتاء والضمة ، لأن لفظ الخطايا مؤنث .

وقرأ نافع ومن تابعه من أهل المدينة ﴿ يَغْفِرُ ﴾ بالياء والضمة بلفظ التذكير ، لأن تأنيثه

ليس بحقيقي ولأن الفعل مقدم .

وقرأ الباقون بالنون وكسر الفاء على معنى الإضافة إلى نفسه وذلك كله يرجع إلى معنى واحد ، ومعناه نغفر لكم خطايا الذين عبدوا العجل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ 82 ﴾

(104/52)

فصل

قال الفخر :

أما قوله تعالى : ﴿ نَّغْفِرْ لَكُمْ ﴾ فالكلام في المغفرة قد تقدم .

ثم ههنا بحثان :

الأول : أن قوله : ﴿ نَّغْفِرْ لَكُمْ ﴾ ذكره الله تعالى في معرض الامتنان ، ولو كان قبول التوبة واجباً عقلاً على ما تقوله المعتزلة لما كان الأمر كذلك ، بل كان أداء للواجب وأداء الواجب لا يجوز ذكره في معرض الامتنان .

الثاني : ههنا قراءات .

أحدها : قرأ أبو عمرو وابن المنادي بالنون وكسر الفاء .

وثانيها : قرأ نافع بالياء وفتحها .

وثالثها : قرأ الباقون من أهل المدينة وجبلة عن المفضل بالتاء وضمها وفتح الفاء ، ورابعها : قرأ الحسن وقتادة وأبو حيوة والجحدري بالياء وضمها وفتح الفاء .

قال القفال : والمعنى في هذه القراءات كلها واحد ، لأن الخطيئة إذا غفرها الله تعالى فقد غفرت وإذا غفرت فإنما يغفرها الله ، والفعل إذا تقدم الاسم المؤنث وحال بينه وبين الفاعل حائل جاز التذكير والتأنيث كقوله : ﴿ وَأَخَذَ الذين ظَلَمُواْ الصيحة ﴾ [هود : 67] والمراد من الخطيئة الجنس لا الخطيئة الواحدة بالعدد .

أما قوله تعالى : ﴿ خطاياكم ﴾ ففيه قراءات ، أحدها : قرأ الجحدري " خطيئتكم " بمدة وهمزة وتاء مرفوعة بعد الهمزة على واحدة .

وثانيها : الأعمش " خطيئاتكم " بمدة وهمزة وألف بعد الهمزة قبل التاء وكسر التاء .

وثالثها : الحسن كذلك إلا أنه يرفع التاء ، ورابعها : الكسائي خطاياكم بهمزة ساكنة بعد الطاء قبل الياء ، وخامسها : ابن كثير بهمزة ساكنة بعد الياء وقبل الكاف .

وسادسها : الكسائي بكسر الطاء والتاء ، والباقون بإمالة الياء فقط . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 84 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَسَنَزِيدُ المحسنين ﴾

فصل

قال الفخر :

أما قوله تعالى : ﴿ وَسَنَزِيدُ المحسنين ﴾ فإما أن يكون المراد من المحسن من كان محسناً بالطاعة في هذا التكليف أو من كان محسناً بطاعات أخرى في سائر التكاليف .

أما على التقدير الأول : فالزيادة الموعودة يمكن أن تكون من منافع الدنيا وأن تكون من منافع الدين .

(105/52)

أما الاحتمال الأول : وهو أن تكون من منافع الدنيا ، فالمعنى أن من كان محسناً بهذه الطاعة فإنا نزيده سعة في الدنيا ونفتح عليه قرى غير هذه القرية ، وأما الاحتمال الثاني : وهو أن تكون من منافع الآخرة ، فالمعنى أن من كان محسناً بهذه الطاعة والتوبة فإنا نغفر له خطاياه ونزيده على غفران الذنوب إعطاء الثواب الجزيل كما قال : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الحسنى وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس : 26] ، أي نجازيهم بالإحسان إحساناً وزيادة كما جعل الثواب للحسنة الواحدة عشراً ، وأكثر من ذلك ، وأما إن كان المراد من " المحسنين " من كان محسناً بطاعات أخرى بعد هذه التوبة ، فيكون المعنى أنا نجعل دخولكم الباب سجداً وقولكم حطة مؤثراً في غفران الذنوب ، ثم إذا أتيتم بعد ذلك بطاعات أخرى أعطيناكم

الثواب على تلك الطاعات الزائدة ، وفي الآية تأويل آخر ، وهو أن المعنى من كان خاطئاً غفرنا له ذنبه بهذا الفعل ، ومن لم يكن خاطئاً بل كان محسناً زدنا في إحسانه ، أي كتبنا تلك الطاعة في حسناته وزدناه زيادة منا فيها فتكون المغفرة للمؤمنين والزيادة للمطيعين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 84. 85 ﴾

وقال السمرقندى :

﴿ وَسَنَزِيدُ المحسنين ﴾ ، أي سنزيد في إحسان من لم يعبد العجل .

ويقال : نغفر خطايا من رفع المن والسلوى للغد ، وسنزيد في إحسان من لم يرفع إلى الغد .

ويقال : نرفع خطايا من هو عاصٍ ، وسنزيد في إحسان من هو محسن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ 82 ﴾

وقال ابن عطية :

وقوله تعالى : ﴿ وسنزيد المحسنين ﴾ عدة ، المعنى إذا غفرت الخطايا بدخولكم وقولكم زيد بعد ذلك لمن أحسن ، وكان من بني إسرائيل من دخل كما أمر وقال لا إله إلا الله فقيل هم المراد ب ﴿ المحسنين ﴾ هنا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 1 صـ 151 ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ وَسَنَزِيدُ المحسنين ﴾ ثواباً جعل الامتثالَ توبةً للمسيءِ وسبباً لزيادة الثواب للمُحْسِنِ وأُخرج ذلك عن صورة الجواب إلى الوعد إيذاناً بأن المحسنَ بصدد ذلك وإن لم يفعله فكيف إذا فعله وأنه يفعله لا محالة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 1 صـ 104 ﴾

ومن فوائد الإمام القرطبى فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادخلوا هذه القرية ﴾

فيه تسع مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادخلوا هذه القرية ﴾ حُذفت الألف من " قلنا " لسكونها وسكون الدال بعدها ، والألف التي يُبتدأ بها قبل الدال ألف وصل ؛ لأنه من يدخل .

الثانية : قوله تعالى : ﴿ هذه القرية ﴾ أي المدينة ؛ سُمِّيت بذلك لأنها تقرّت أي اجتمعت ؛ ومنه قَرَيت الماء في الحوض ؛ أي جمعته ؛ واسم ذلك الماء قِرًى (بكسر القاف) مقصور . وكذلك ما قُرِيَ به الضيف ؛ قاله الجوهري .

والمِقْراة للحوض .

والقَرِيّ لمسيل الماء .

والقَرَا للظهر ؛ ومنه قوله :

لاحِقُ بطنِ بِقَراً سمينِ . . .

والمقارِي : الجِفان الكبار ؛ قال :

عظام المقاري ضيفهم لا يُفْزَّع . . .

وواحد المقاري مِقراة ؛ وكله بمعنى الجمع غير مهموز .

والقِرية (بكسر القاف) لغة اليمن .

واختلف في تعيينها ؛ فقال الجمهور : هي بيت المقدس .

وقيل : أريحاء من بيت المقدس .

قال عمر بن شَبّة : كانت قاعدة ومسكن ملوك .

ابن كَيْسَان : الشام .

الضحاك : الرَّمْلة والأُرْدُنّ وفلسطين وتَدْمُر .

وهذه نعمة أخرى ، وهي أنه أباح لهم دخول البلدة وأزال عنهم التِّيه .

الثالثة : قوله تعالى : ﴿ فَكُلُواْ ﴾ إباحة .

و ﴿ رَغَداً ﴾ كثيراً واسعاً ؛ وهو نعت لمصدر محذوف ؛ أي أكلاً رَغَداً .

ويجوز أن يكون في موضع الحال ؛ على ما تقدّم .

وكانت أرضاً مباركة عظيمة الغَلّة ، فلذلك قال : " رغدا " .

الرابعة : قوله تعالى : ﴿ وادخلوا الباب سُجَّداً ﴾ الباب يُجمع أبواباً ؛ وقد قالوا : أبْوِبَة

للازدواج؛ قال الشاعر :

هتّاك أخْبيةٍ ولاّج أبوِبَة . . .

(107/52)

يَخْلِط بالبِرّ منه الجِدَّ واللّينا

ولو أفرده لم يجز .

ومثله قوله عليه السلام : " مرحبا بالقوم أو بالوفد غير خَزَايا ولا نَدَامَى " وتبوّبت بوّابا

اتخذته .

وأبواب مبوّبة ؛ كما قالوا : أصناف مُصنّفة .

وهذا شيء من بابَتِك ؛ أي يصلح لك .

وقد تقدّم معنى السجود فلا معنى لإعادته .

والحمد لله .

والباب الذي أُمِروا بدخوله هو باب في بيت المقدس يعرف اليوم ب " باب حِطّة" ؛ عن

مجاهد وغيره .

وقيل : باب القُبّة التي كان يصلي إليها موسى وبنو إسرائيل .

و" سجداً" قال ابن عباس : منحنين ركوعاً .

وقيل : متواضعين خضوعاً لا على هيئة متعينة .

الخامسة : قوله تعالى : ﴿ وَقُولُواْ ﴾ عطف على ادخلوا .

و﴿ حِطَّةٌ ﴾ بالرفع قراءة الجمهور ؛ على إضمار مبتدأ ، أي مسألتنا حطة ، أو يكون حكاية .

قال الأخفش : وقرئت " حِطّةً" بالنصب ، على معنى احطط عنا ذنوبنا حِطة .

قال النحاس : جاء الحديث عن ابن عباس أنه قيل لهم : قولوا لا إله إلا الله ، وفي حديث آخر عنه قيل لهم : قولوا مغفرة تفسير للنصب ؛ أي قولوا شيئاً يحط ذنوبكم ؛ كما يقال : قل خيراً .

والأئمة من القراء على الرفع .

وهو أولى في اللغة ؛ لما حكي عن العرب في معنى بدّل ، قال أحمد بن يحيى : يقال بدّلته ؛ أي غيرته ولم أزِل عينه .

وأبدلته أزلت عينه وشخصه ؛ كما قال :

عَزْل الأمير للأمير المُبْدَل . . .

وقال الله عز وجل : ﴿ وَقَالَ الذين لاَ يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ائت بِقُرْآنٍ غَيْرِ هاذآ أَوْ بَدِّلْهُ ﴾ [يونس : 15] وحديث ابن مسعود قالوا : " حِطّة" تفسير على الرفع .

هذا كله قول النحاس .

وقال الحسن وعكرمة : " حِطّةً" بمعنى حُطّ ذنوبنا ؛ أُمِروا أن يقولوا : لا إله إلا الله ليحطّ بها ذنوبهم .

وقال ابن جبير : معناه الاستغفار .

أبان بن تَغْلِب : التوبة ؛ قال الشاعر :

فاز بالحطة التي جعل اللّ . . .

ه بها ذنب عبده مغفورا

(108/52)

وقال ابن فارس في المُجْمَل : " حِطّة" كلمة أمر بها بنو إسرائيل لو قالوها لحطّت أوزارهم .

وقاله الجوهري أيضاً في الصحاح .

قلت : يحتمل أن يكونوا تعبّدوا بهذا اللفظ بعينه ، وهو الظاهر من الحديث .

روى مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " قيل لبني إسرائيل ادخلوا الباب سُجَّداً وقولوا حِطّةٌ يُغفر لكم خطاياكم (فبدّلوا) فدخلوا الباب يَزْحَفُون على أستاههم وقالوا حَبّةٌ في شَعرة " وأخرجه البخاري وقال : " فبدلوا وقالوا حِطَّةَ حبّةٌ

في شعرة " في غير الصحيحين : " حنطة في شَعَر " وقيل : هِطّا سُمْها ثا .

وهي لفظة عبرانية ، تفسيرها : حنطة حمراء ؛ حكاها ابن قتيبة ، وحكاه الهروِي عن السدّي ومجاهد .

وكان قصدهم خلاف ما أمرهم الله به فعصوا وتمرّدوا واستهزءوا ؛ فعاقبهم الله بالرجز وهو العذاب .

وقال ابن زيد : كان طاعونا أهلك منهم سبعين ألفاً .

ورُوِيَ أن الباب جُعل قصيراً ليدخلوه ركّعاً فدخلوه متورّكين على أستاههم .

والله أعلم .

السادسة : استدل بعض العلماء بهذه الآية على أن تبديل الأقوال المنصوص عليها في الشريعة لا يخلو أن يقع التعبُّد بلفظها أو بمعناها ؛ فإن كان التعبُّد وقع بلفظها فلا يجوز تبديلها ؛ لذمّ الله تعالى مَن بدّل ما أمره بقوله .

وإن وقع بمعناها جاز تبديلها بما يؤدّي إلى ذلك المعنى ؛ ولا يجوز تبديلها بما يخرج عنه .

وقد اختلف العلماء في هذا المعنى ؛ فحُكِيَ عن مالك والشافعيّ وأبي حنيفة وأصحابهم أنه يجوز للعالم بمواقع الخطاب البصير بآحاد كلماته نقل الحديث بالمعنى لكن بشرط المطابقة للمعنى بكماله ؛ وهو قول الجمهور .

ومنع ذلك جمعٌ كثير من العلماء منهم ابن سِيرين والقاسم بن محمد ورجاء بن حَيْوَة .

وقال مجاهد : انْقُصْ من الحديث إن شئت ولا تزد فيه .

وكان مالك بن أنس يشدّد في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم في التاء والياء ونحو هذا .

(109/52)

وعلى هذا جماعة من أئمة الحديث لا يرون إبدال اللفظ ولا تغييره حتى إنهم يسمعون ملحوناً ويعلمون ذلك ولا يغيّرونه .

وروى أبو مِجْلَز عن قيس بن عُبَاد قال : قال عمر بن الخطاب : مَن سمع حديثاً فحدّث به كما سمع فقد سلم .

وروي نحوه عن عبد اللَّه بن عمرو وزيد بن أرقم .

وكذا الخلاف في التقديم والتأخير والزيادة والنقصان ؛ فإن منهم من يعتدّ بالمعنى ولا يعتدّ باللفظ ، ومنهم من يشدّد في ذلك ولا يفارق اللفظ .

وذلك هو الأحوط في الدّين والأتقى والأولى ؛ ولكن أكثر العلماء على خلافه .

والقول بالجواز هو الصحيح إن شاء الله تعالى ؛ وذلك أن المعلوم من سيرة الصحابة رضي الله عنهم هو أنهم كانوا يروون الوقائع المتحدة بألفاظ مختلفة ، وما ذاك إلا أنهم كانوا يصرفون

عنايتهم للمعاني ولم يلتزموا التكرار على الأحاديث ولا كتبها .

وروي عن واثلة بن الأَسْقَع أنه قال : ليس كل ما أخبرنا به رسول الله صلى الله عليه وسلم نقلناه إليكم ؛ حسبكم المعنى .

وقال قتادة عن زُرارة بن أَوْفَى : لقيت عدّة من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم فاختلفوا عليّ في اللفظ واجتمعوا في المعنى .

وكان النَّخَعِيّ والحسن والشعبيّ رحمهم الله يأتون بالحديث على المعاني .

وقال الحسن : إذا أصبت المعنى أجزأك .

وقال سفيان الثورِيّ رحمه الله : إذا قلت لكم إني أحدثكم كما سمعت فلا تصدّقوني ؛ إنما هو المعنى وقال وَكِيع رحمه الله : إن لم يكن المعنى واسعاً فقد هلك الناس .

واتفق العلماء على جواز نقل الشرع للعجم بلسانهم وترجمته لهم ؛ وذلك هو النقل بالمعنى .

وقد فعل الله ذلك في كتابه فيما قص من أنباء ما قد سلف ، فقصّ قِصصاً ذكر في مواضع بألفاظ مختلفة والمعنى واحد ، ونقلها من ألسنتهم إلى اللسان العربيّ وهو مخالف لها في التقديم والتأخير ، والحذف والإلغاء ، والزيادة والنقصان .

وإذا جاز إبدال العربية بالعجمية فَلأن يجوز بالعربية أوْلى .

احتج بهذا المعنى الحسن والشافعيّ ، وهو الصحيح في الباب .

فإن قيل : فقد قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " نَضّر الله امرأ سمع مقالتي فبلّغها كما سمعها " وذكر الحديث .

وما " ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه أمر رجلاً أن يقول عند مضجعه في دعاء علمه : " آمنت بكتابك الذي أنزلت ونبيّك الذي أرسلت " ؛ فقال الرجل : ورسولك الذي أرسلت ؛ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " ونبيّك الذي أرسلت " " قالوا : أفلا ترى أنه لم يسوّغ لمن علمه الدعاء مخالفة اللفظ وقال : " فأدّاها كما سمعها " قيل لهم : أما قوله : " فأدّاها كما سمعها " فالمراد حكمها لا لفظها ؛ لأن اللفظ غير معتدٍّ به .

ويدلّك على أن المراد من الخطاب حكمه قوله : " فرُبّ حامِل فقه غير فقيه ورُبّ حامِل فقه إلى من هو أفقه منه " ثم إن هذا الحديث بعينه قد نقل بألفاظ مختلفة والمعنى واحد ؛ وإن أمكن أن يكون جميع الألفاظ قول النبيّ صلى الله عليه وسلم في أوقات مختلفة ؛ لكن الأغلب أنه حديث واحد نقل بألفاظ مختلفة ؛ وذلك أدلّ دليل على الجواز .

وأما ردّه عليه السلام الرجلَ من قوله : " ورسولك إلى قوله ونبيك " ؛ لأن لفظ النبيّ صلى الله عليه وسلم أمدح ؛ ولكل نعت من هذين النعتين موضع .

ألا ترى أن اسم الرسول يقع على الكافة ، واسم النبيّ لا يستحقه إلا الأنبياء عليهم السلام !

وإنما فُضّل المرسلون من الأنبياء لأنهم جمعوا النبوّة والرسالة .

فلما قال : " ونبيك" ، جاء بالنعت الأمدح ، ثم قيّده بالرسالة بقوله : " الذي أرسلت" .

وأيضاً فإن نقله من قوله " ورسولك إلى قوله ونبيك" ليجمع بين النبوّة والرسالة .

ومستقبح في الكلام أن تقول : هذا رسول فلان الذي أرسله ، وهذا قتيل زيد الذي قتله ؛ لأنك تجتزىء بقولك : رسول فلان ، وقتيل فلان عن إعادة المرسل والقاتل ؛ إذ كنت لا تفيد به إلا المعنى الأوّل .

(111/52)

وإنما يحسن أن تقول : هذا رسول عبد اللَّه الذي أرسله إلى عمرو ، وهذا قتيل زيد الذي قتله بالأمس أو في وقعة كذا .

والله وليّ التوفيق .

فإن قيل : إذا جاز للرّاوي الأوّل تغيير ألفاظ الرسول عليه السلام جاز للثاني تغيير ألفاظ الأوّل ، ويؤدّي ذلك إلى طمس الحديث بالكلية لدقة الفروق وخفائها .

قيل له : الجواز مشروط بالمطابقة والمساواة كما ذكرنا ؛ فإن عُدمت لم يجز .

قال ابن العربيّ : الخلاف في هذه المسألة إنما يُتصوّر بالنظر إلى عصر الصحابة والتابعين

لتساويهم في معرفة اللغة الجِبلّية الذّوقية ؛ وأما من بعدهم فلا نشك في أن ذلك لا يجوز ؛ إذ الطباع قد تغيّرت ، والفهوم قد تباينت ، والعوائد قد اختلفت ؛ وهذا هو الحق .

والله أعلم .

قال بعض علمائنا : لقد تعاجم ابن العربيّ رحمه الله ؛ فإن الجواز إذا كان مشروطاً بالمطابقة فلا فرق بين زمن الصحابة والتابعين وزمن غيرهم ؛ ولهذا لم يفصّل أحد من الأصوليين ولا أهل الحديث هذا التفصيل .

نعم ، لو قال : المطابقة في زمنه أبعد كان أقرب ، والله أعلم .

السابعة : قوله تعالى : ﴿ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ﴾ قراءة نافع بالياء مع ضمها .

وابن عامر بالتاء مع ضمها ، وهي قراءة مجاهد .

وقرأها الباقون بالنون مع نصبها ، وهي أبينها ؛ لأن قبلها ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادخلوا ﴾ فجرى ﴿ نَّغْفِرْ ﴾ على الإخبار عن الله تعالى ؛ والتقدير وقلنا ادخلوا الباب سُجّداً نغفر ، ولأن بعده ﴿ وَسَنَزِيدُ ﴾ بالنون .

و ﴿ خَطَايَاكُمْ ﴾ اتباعا للسواد وأنه على بابه .

ووجه من قرأ بالتاء أنه أنث لتأنيث لفظ الخطايا ؛ لأنها جمع خطيئة على التكسير .

ووجه القراءة بالياء أنه ذكر لما حال بين المؤنث وبين فعله ؛ على ما تقدّم في قوله : ﴿ فتلقى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ ﴾ .

وحَسُن الياء والتاء وإن كان قبله إخبار عن الله تعالى في قوله : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ﴾ لأنه قد عُلِم أن ذنوب الخاطئين لا يغفرها إلا الله تعالى ؛ فاستغنى عن النون وردّ الفعل إلى الخطايا المغفورة .

الثامنة : واختلف في أصل خطايا جمع خطيئة بالهمزة ؛ فقال الخليل : الأصل في خطايا أن يقول : خطاييء .

ثم قلب فقيل : خطائي بهمزة بعدها ياء ، ثم تبدل من الياء ألفاً بدلاً لازماً فتقول : خطاءاً ؛ فلما اجتمعت ألفان بينهما همزة والهمزة من جنس الألف صرت كأنك جمعت بين ثلاث ألفات ، فأبدلت من الهمزة ياء فقلت : خطايا .

وأما سيبويه فمذهبه أن الأصل مثل الأوّل خطاييء ، ثم وجب بهذه أن تهمز الياء كما همزتها في مدائن فتقول : خطائيء ، ولا تجتمع همزتان في كلمة ؛ فأبدلت من الثانية ياء فقلت : خطائي ، ثم عملت كما عملت في الأول .

وقال الفرّاء : خطايا جمع خطية بلا همز ؛ كما تقول : هديّة وهدايا .

قال الفراء : ولو جمعت خطيئة مهموزة لقلت : خطاءا .

وقال الكسائي : لو جمعتها مهموزة أدغمت الهمزة في الهمزة ؛ كما قلت : دواب .

التاسعة : قوله تعالى : ﴿ وَسَنَزِيدُ المحسنين ﴾ أي في إحسان من لم يعبد العجل .

ويقال : يغفر خطايا من رفع المنّ والسَّلْوَى للغد ، وسنزيد في إحسان من لم يرفع للغد .

ويقال : يغفر خطايا من هو عاص ، وسيزيد في إحسان من هو محسن ؛ أي نزيدهم إحساناً على الإحسان المتقدّم عندهم .

وهو اسم فاعل من أحسن .

والمحسن : من صحح عقد توحيده ، وأحسن سياسة نفسه ، وأقبل على أداء فرائضه ، وكفى المسلمين شرّه .

وفي حديث جبريل عليه السلام : " ما الإحسان قال أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك قال صدقت " وذكر الحديث . خرّجه مسلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 1 صـ 409. 415 ﴾

ومن فوائد ابن عرفة فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادخلوا هذه القرية . . . ﴾ .

قال ابن عرفة : هذا إما خطاب لهم مباشرة أو بواسطة .

والأول : (يمتنع) لأنّ الله تعالى لم يباشرهم بالخطاب إلا على لسان نبيه إلا أن يكون الخطاب لجماعة أنبياء وهو بعيد .

والثاني : أيضا ممتنع لأنهم غائبون عن الخطاب ، وفعل الآمر الغائب إنما يكون باللام فكيف (يقول) : " ادْخُلُوا " .

وأجيب باختيار أنه مباشرة ، وأن قول الرّسول لهم منزل منزلة خطاب الله لهم قال الله تعالى : ﴿ مَّن يُطِعِ الرسول فَقَدْ أَطَاعَ الله ﴾ وكما يقول الملك : بنيت داري ، وكاتبت فلانا (بكذا) وهو لم يفعله بنفسه ، إنما فعله أعوانه وخدمه .

قال ابن عرفة : والقرية إن أريد بها بيت المقدس فصيغة أفعل للطلب ، وإن أريد بها (أريحا) فهي للاباحة .

قيل لابن عرفة : هذا أمر ورد عقب الحظر فهو للإباحة (مطلقا) ؟

فقال : لم يرد عقب الحظر القولي ، وإنما (ورد) عقب (الحظر) الجبري (المعلن) بالبقاء في أرض وعدم التمكن في الخروج عنها أربعين سنة ولم يقع هنالك نهي بالقول حتى يكون هذا أمر بعده .

قيل له : قد قال تعالى : ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴾ فقال : هذا إخبار عن واقع ، لأنهم كلفوا بالبقاء فيها وعدم الخروج بل منعوا من ذلك فمقامهم ليس باختيارهم

لأجل التكليف به ، بل جبرا واضطرارا لأجل عدم قدرتهم على الخروج.

قال ابن عرفة : وعموم " حيث شئتم " مخصوص بالمساجد ، (فإنه) يمتنع الأكل فيها .

قوله تعالى : ﴿ وادخلوا الباب سُجَّداً . . . ﴾ .

أعيد لفظ " ادْخُلُوا " (لأجل وصفهم) سجدا فليس بتكرار ، والمراد بالسجود الركوع لتعذر الدخول حالة السجود أو يكون حالا مقدرة ، فيكون الدخول سابقا على السجود .

(114/52)

واحتج ابن التلمساني على أن الواو لا تفيد ترتيبا بكون المقدم هنا مؤخرا في سورة الأعراف ، فلو كانت الواو للترتيب للزم عليه : إما التنافي بين الآيتين ، أو المجاز في أحدهما ، وأجاب بأنه قصد تكليفهم ((بأن يقولوا : حطة (حال كونهم) قبل السجود وبعده ، وأجاب أبو جعفر (الزّبير) بأنه قصد تكليفهم)) بالجمع بين السجود والقول في حالة واحدة لأن كلا الأمرين حصل له وصف (الاهتمام) بالتقديم .

قوله تعالى : ﴿ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ . . . ﴾ .

قال الفخر الرّازي : يحتج بها على المعتزلة في قولهم : إن قبول التوبة واجب عقلا لأجل ما

اشتملت عليه من أوصاف الامتنان بتعداد (النعم)، فغفران الخطايا نعمة وتفضل (لا انّه) واجب لأجل التوبة.

ورده ابن عرفة: بأنهم يقولون: إن الامتنان بهذه النعمة سبب لطريق التوبة والخطايا مرتفعة بالتوبة.

قوله تعالى: ﴿وَسَنَزِيدُ المحسنين﴾

قال ابن عرفة: لما تضمّن الكلام السابق حصول المغفرة لهؤلاء وعدم المؤاخذة بالذنب فقط من غير زيادة على ذلك أفاد هذا أن المحسنين لهم مع ذلك ثواب جزيل وعبر عنهم بالاسم تهييجا على الاتصاف بذلك وإشارة إلى (أنّ) الزيادة إنما هي لمن بالغ في الإحسان وحصل منه الحظ (الوافر) (لينَالَها) من حصل مطلقة وأدناه.

فإن قلت: لم قال هنا: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادخلوا هذه القرية فَكُلُواْ﴾، وفي الأعراف ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسكنوا هذه القرية وَكُلُواْ﴾ قلت: نقل (لي) عن القاضي أبي عبد الله محمد بن عبد السلام أنه قَال: إن كانت القصة واحدة، وتلك مكررة بهذه، فعبر فيها بـ "قيل لهم" عن "قُلْنَا" التي في هذه، وأخبر بما بعد الدخول وهو السكنى (لالتزامها) إيّاه وان (كانا) قصتين فتلك بعد هذه.

وأجاب أبو جعفر (الزبير) بأنهم أمروا أولا بالوسيلة وهو الدخول، ثم أمروا (بالمقصد) وهو السكنى.

قال الشيخ أبو جعفر : وعطف هنا بالفاء لأن الأكل من الموضع (لا يكون) إلا بعد الدخول عليه وعطف في الأعراف (بالواو) لأنّ السكنى قد تقارن الأكل ، وقد يتأخر عنه ، وقد يتقدم (عليه)

قال ابن عبد السلام : أو هما قصتان أو يقال : لما فيهم التعقيب من الأول لم يحتج إلى إعادته في الثانية وقال هنا : ﴿ حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً ﴾ .

وأسقط في الأعراف (رغدا) لأن السكنى يفهم منها الملازمة والدوام وعطفها على الأمر بالأكل من حيث شاء ، وأشعر بدوام الأكل من غير مانع (فتحصل) فيه معنى الرغد (فأغنى) عن ذكره هناك وقال هنا ﴿ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ﴾ ، وفي الأعراف على قراءة الجماعة غير أبي عمرو وابن عامر ، (نَغْفِرْ لَكُمْ) خَطَايَاكُمْ ، مجموعة جمع سلامة ولأن آية البقرة (بنيت) على كثرة تعداد النعم فناسبت جمع الكثرة وآية الأعراف لم يبالغ فيها بكثرة تعداد النعم فناسبت جمع القلة وهو جمع السلامة .

وقلت : ونقل / لي عن القاضي ابن عبد السلام أجاب بأن آية البقرة صدرت بـ " إِذْ قُلْنَا " المكنى به عن الله تعالى فناسب جمع الكثرة (ولما ذكر) هنا ﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ﴾ بحذف

الفاعل فناسب جمع القلة ، وقال هناك " وَسَنَزِيدُ " بالواو وفي الأعراف بغير واو لأن البقرة بولغ فيها بتعداد ما لم يبالغ في الأعراف ، أي ولنجزي المُحْسِنِينَ على مَا تَقَدّم من تعداد النعم بالعفو وزيادة الإحسان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عرفة صـ 293 . 298 ﴾

ومن فوائد أبى حيان فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية ﴾ .

القائل : هو الله تعالى ، وهل ذلك على لسان موسى أو يوشع عليهما السلام ، قولان :

وانتصاب هذه على ظرف المكان ، لأنه إشارة إلى ظرف المكان ، كما تنتصب أسماء الإشارة على المصدر ، وعلى ظرف الزمان إذا كنّ إشارة إليهما تقول : ضربت هذا الضرب ، وصمت هذا اليوم .

(116/52)

هذا مذهب سيبويه في دخل ، إنها تتعدّى إلى المختص من ظرف المكان بغير وساطة في ، فإن كان الظرف مجازياً تعدّت بفي ، نحو : دخلت في غمار الناس ، ودخلت في الأمر المشكل .

ومذهب الأخفش والجرمي أن مثل : دخلت البيت ، مفعول به لا ظرف مكان ، وهي مسألة تذكر في علم النحو .

والألف واللام في القرية للحضور ، وانتصاب القرية على النعت ، أو على عطف البيان ، كما مرّ في إعراب الشجرة من قوله : ﴿ ولا تقربا هذه الشجرة ﴾ وإن اختلفت جهتا الإعراب في هذه ، فهي في : ﴿ ولا تقربا هذه ﴾ مفعول به ، وهي هنا على الخلاف الذي ذكرناه .

والقرية هنا بيت المقدس ، في قول الجمهور ، قاله ابن مسعود وابن عباس وقتادة والسدّي والربيع وغيرهم .

وقيل : أريحا ، قاله ابن عباس أيضاً ، وهي بأرض المقدس .

قال أبو زيد عمر بن شبة النمري : كانت قاعدة ومسكن ملوك ، وفيها مسجد هو بيت المقدس ، وفي المسجد بيت يسمى إيليا .

وقال الكواشي : أريحا قرية الجبارين ، كانوا من بقايا عاد ، يقال لهم : العمالية ورأسهم : عوج بن عنق ، وقيل : الرملة ، قاله الضحاك ؛ وقيل : أيلة ، وقيل : الأردن ؛ وقيل : فلسطين ؛ وقيل : البلقاء ؛ وقيل : تدمر ، وقيل : مصر ؛ وقيل : قرية بقرب بيت المقدس غير معينة أمروا بدخولها ؛ وقيل : الشام .

روي ذلك عن ابن كيسان ، وقد رجح القول الأوّل لقوله في المائدة :

﴿ ادخلوا الأرض المقدّسة ﴾ قيل : ولا خلاف ، أن المراد في الآيتين واحد .

وردّ هذا القول بقوله : فبدّل لأن ذلك يقتضي التعقيب في حياة موسى ، لكنه مات في أرض التيه ولم يدخل بيت المقدس .

وأجاب من قال إنها بيت المقدس بأن الآية ليس فيها ما يدل على أن القول كان على لسان موسى ، وهذا الجواب وهم ، لأنه قد تقدّم أن المراد في هذه الآية وفي التي في المائدة من قوله : ادخلوا الأرض المقدّسة واحد ، والقائل ذلك في آية المائدة قطعاً .

(117/52)

ألا ترى إلى قوله : ﴿ يا قوم ادخلوا الأرض المقدّسة ﴾ ، وقولهم : ﴿ قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين ﴾ قال وهب : كانوا قد ارتكبوا ذنوباً ، فقيل لهم : ﴿ ادخلوا ﴾ الآية .

وقال غيره : ملوا المنّ والسلوى ، فقيل لهم : اهبطوا مصراً ، وكان أوّل ما لقوا أريحا .

وفي قوله : ﴿ هذه القرية ﴾ دليل على أنهم قاربوها وعاينوها ، لأن هذه إشارة لحاضر قريب .

قيل : والذي قال لهم ذلك هو يوشع بن نون ، فإنه نقل عنهم أنهم لم يدخلوا البيت المقدّس إلا بعد رجوعهم من قتال الجبارين ، ولم يكن موسى ﴿ معهم حين ﴾ دخلوها ، فإنه مات هو

وأخوه في التيه .

وقيل : لم يدخلا التيه لأنه عذاب ، والله لا يعذب أنبياءه .

﴿ فكلوا منها حيث شئتم رغداً ﴾ : تقدّم الكلام على نظير هذه الجملة في قصة آدم في قوله : ﴿ وكلا منها رغداً حيث شئتما ﴾ ، إلا أن هناك العطف بالواو وهنا بالفاء ، وهناك تقديم الرغد على الظرف ، وهنا تقديم الظرف على الرغد ، والمعنى فيهما واحد ، إلا أن الواو هناك جاءت بمعنى الفاء ، قيل : وهو المعنى الكثير فيها ، أعني أنه يكون المتقدّم في الزمان والمعطوف بها هو المتأخر في الزمان ، وإن كانت قد ترد بالعكس ، وهو قليل .

وللمعية والزمان ، وهو دون الأول ، ويدل أنها بمعنى الفاء ما جاء في الأعراف من قوله : ﴿ فكلا ﴾ بالفاء ، والقضية واحدة .

وأما تقديم الرغد هناك فظاهر ، فإنه من صفات الأكل أو الآكل ، فناسب أن يكون قريباً من العامل فيه ولا يؤخر عنه ، ويفصل بينهما بظرف وإن لم يكن فاصلاً مؤثراً المنع لاجتماعهما في المعمولية لعامل واحد ، وأما هنا فإنه أخر لمناسبة الفاضلة بعده ، ألا ترى أن قوله : ﴿ فكلوا منها حيث شئتم رغداً ﴾ وقوله : ﴿ وادخلوا الباب سجداً ﴾ ، فهما سجعتان متناسبتان ؟ فلهذا ، والله أعلم ، كان هذان التركيبان على هذين الوضعين .

﴿ وادخلوا الباب ﴾ : الخلاف في نصب الباب كالخلاف في نصب القرية ، والباب أحد أبواب بيت المقدس ، ويدعى الآن : باب حطة ، قاله ابن عباس ؛ أو الثامن ، من أبواب بيت المقدس ، ويدعى باب التوبة ، قاله مجاهد والسدي ؛ أو باب القرية التي أمروا بدخولها ، أو باب القبة التي كان فيها موسى وهارون يتعبدان ، أو باب في الجبل الذي كلم الله عليه موسى .

﴿ سجداً ﴾ نصب على الحال من الضمير في ادخلوا ، قال ابن عباس : معناه ركعاً ، وعبر عن الركوع بالسجود ، كما يعبر عن السجود بالركوع ، قيل : لأن الباب كان صغيراً ضيقاً يحتاج الداخل فيه إلى الانحناء ، وبعد هذا القول لأنه لو كان ضيقاً لكانوا مضطرين إلى دخوله ركعاً ، فلا يحتاج فيه إلى الأمر ، وهذا لا يلزم ، لأنه كان يمكن أن تكون الحال لازمة بمعنى أنه لا يمكن أن يقع الدخول إلا على هذه الحال ، والحال اللازمة موجودة في كلام العرب .

وقيل : معناه خضعاً متواضعين ، واختاره أبو عبد الله محمد بن أبي الفضل في المنتخب ، ونذكر وجه اختياره لذلك .

وقيل : معناه السجود المعروف من وضع الجبهة على الأرض ، والمعنى : ادخلوا ساجدين شكراً لله تعالى ، إذ ردهم إليها .

وهذا هو ظاهر اللفظ .

قال أبو عبد الله بن أبي الفضل : وهذا بعيد ، لأن الظاهر يقتضي وجوب الدخول حال السجود ، فلو حملناه على ظاهره لامتنع ذلك ، فلما تعذر على حقيقة السجود وجب حمله على التواضع ، لأنهم إذا أخذوا في التوبة ، فالتائب عن الذنب لا بد أن يكون خاشعاً مستكيناً ، وما ذهب إليه لا يلزم ، لأن أخذ الحال مقارنة ، فتعذر ذلك عنده ، وليس بمتعذر لأنه لا يبعد أن أمروا بالدخول وهم ساجدون ، فيضعون جباههم على الأرض وهم داخلون .

وتصدق الحال المقارنة بوضع الجبهة على الأرض إذا دخلوا .

وأما إذا جعلنا الحال مقدرة فيصح ذلك ، لأن السجود إذ ذاك يكون متراخياً عن الدخول ، والحال المقدرة موجودة في لسان العرب .

(119/52)

من ذلك ما في كتاب سيبويه مررت برجل معه صقر صائداً به غداً .

وإذا أمكن حمل السجود على المتعارف فيه كثيراً ، وهو وضع الجبهة بالأرض يكون الحال مقارنة أو مقدرة ، كان أولى .

وقال الزمخشري : أمروا بالسجود عند الانتهاء إلى الباب ، شكراً لله وتواضعاً ، وما ذكره ليس مدلول الآية لأنهم لم يؤمروا بالسجود في الآية عند الانتهاء إلى الباب ، بل أمروا بالدخول في حال السجود .

فالسجود ليس مأموراً به ، بل هو قيد في وقوع المأمور به ، وهو الدخول ، والأحوال نسب تقييدية ، والأوامر نسب إسنادية ، فتناقضتا ، إذ يستحيل أن يكون الشيء تقييدياً إسنادياً ، لأنه من حيث التقييد لا يكتفي كلاماً ومن حيث الإسناد يكتفي ، فظهر التناقض .

وفي كيفية دخولهم الباب أقوال : قال ابن عباس وعكرمة : دخلوا من قبل أستاههم ، وقال ابن مسعود : دخلوا مقنعي رؤوسهم ، وقال مجاهد : دخلوا على حروف أعينهم ، وقال مقاتل : دخلوا مستلقين ، وقيل : دخلوا منزحفين على ركبهم عناداً وكبراً ، والذي ثبت في البخاري ومسلم أنهم دخلوا الباب يزحفون على أستاههم .

فاضمحلت هذه التفاسير ، ووجب المصير إلى تفسير رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقوله : ﴿ وقولوا حطة ﴾ ، حطة : مفر ، ومحكي القول لا بد أن يكون جملة ، فاحتيج إلى تقدير مصحح للجملة ، فقدر مسألتنا حطة هذا تقديراً لحسن بن أبي الحسن .

وقال الطبري : التقدير دخولنا الباب كما أمرنا حطة ، وقال غيرهما : التقدير أمرك حطة .

وقيل : التقدير أمرنا حطة ، أي أن نحط في هذه القرية ونستقر فيها .

قال الزمخشري : والأصل النصب بمعنى حط عنا ذنوبنا حطة ، وإنما رفعت لتعطي معنى الثبات كقوله :

صبر جميل فكلانا مبتلى . . .

والأصل صبراً .

انتهى كلامه ، وهو حسن .

ويؤكد هذا التخريج قراءة إبراهيم بن أبي عبلة : حطة بالنصب ، كما روي :

صبراً جميلاً فكلانا مبتلي . . .

بالنصب .

(120/52)

والأظهر من التقادير السابقة في إضمار المبتدأ القول الأول ، لأن المناسب في تعليق الغفران عليه هو سؤال حط الذنوب لا شيء من تلك التقادير الأخر ، ونظير هذا الإضمار قول الشاعر :

إذا ذقت فاها قلت طعم مدامة . . .

معتقة مما تجيء به التجر

روي برفع طعم على تقدير : هذا طعم مدامة ، وبالنصب على تقدير : ذقت طعم مدامة .

قال الزمخشري : فإن قلت : هل يجوز أن ينصب حطة في قراءة من نصبها يقولوا على معنى قولوا هذه الكلمة ؟ قلت : لا يبعد ، انتهى .

وما جوزه ليس بجائز لأن القول لا يعمل في المفردات ، إنما يدخل على الجمل للحكاية ، فيكون في موضع المفعول به ، إلا إن كان المفرد مصدراً نحو : قلت قولاً ، أو صفة لمصدر نحو : قلت حقاً ، أو معبراً به عن جملة نحو : قلت شعراً وقلت خطبة ، على أن هذا القسم يحتمل أن يعود إلى المصدر ، لأن الشعر والخطبة نوعان من القول ، فصار كالقهقري من الرجوع ، وحطة ليس واحداً من هذه .

ولأنك إذا جعلت حطة منصوبة بلفظ قولوا ، كان ذلك من الإسناد اللفظي وعري من الإسناد المعنوي ، والأصل هو الإسناد المعنوي .

وإذا كان من الإسناد اللفظي لم يترتب على النطق به فائدة أصلاً إلا مجرد الامتثال للأمر بالنطق بلفظ ، فلا فرق بينه وبين الألفاظ الغفل التي لم توضع لدلالة على معنى .

ويبعد أن يرتب الغفران للخطايا على النطق بمجرد لفظ مفرد لم يدل به على معنى كلام .

أما ما ذهب إليه أبو عبيدة من أن قوله حطة مفرد ، وأنه مرفوع على الحكاية وليس مقتطعاً من جملة ، بل أمروا بقولها هكذا مرفوعة ، فبعيد عن الصواب لأنه يبقى حطة مرفوعاً بغير رافع ، ولأن القول إنما وضع في باب الحكاية ليحكى به الجمل لا المفردات ، ولذلك احتاج

النحويون في قوله تعالى : ﴿ يقال له إبراهيم ﴾ إلى تأويل ، وأما تشبيهه إياه بقوله :

سمعت الناس ينتجعون غيثا . . .

وجدنا في كتاب بني تميم . . .

أحق الخيل بالركض المعار

(121/52)

فليس بسديد ، لأن سمع ووجد كل منهما يتعلق بالمفردات والجمل ، لأن المسموع والموجود في الكتاب قد يكون مفرداً وقد يكون جملة .

وأما القول فلا يقع إلا على الجمل ، ولا يقع على المفردات إلا فيما تقدم ذكره ، وليس حطة منها .

واختلفت أقوال المفسرين في حطة ، فقال الحسن : معناه حط عنا ذنوبنا ، وقال ابن عباس وابن جبير ووهب : أمروا أن يستغفروا ، وقال عكرمة : معناها لا إله إلا الله ، وقال الضحاك : معناه وقولوا هذا الأمر الحق ، وقيل : معناه نحن لا نزال تحت حكمك ممتثلون لأمرك ، كما يقال قد حططت في فنائك رحلي .

وقد تقدمت التقادير في إضمار ذلك المبتدأ قبل حطة وهي أقاويل لأهل التفسير .

وقد روي عن ابن عباس أنهم أمروا بهذه اللفظة بعينها ، قيل : والأقرب خلافه ، لأن هذه اللفظة عربية وهم ما كانوا يتكلمون بها ، ولأن الأقرب أنهم أمروا بأن يقولوا قولاً دالاً على التوبة والندم والخضوع ، حتى لو قالوا : اللهم إنا نستغفرك ونتوب إليك ، لكان الخضوع حاصلاً ، لأن المقصود من التوبة أما بالقلب فبالندم وأما باللسان فبذكر لفظ يدل على حصول الندم في القلب ، وذلك لا يتوقف على ذكر لفظة بعينها .

﴿ يغفر ﴾ ، نافع : بالياء مضمومة ، ابن عامر : بالتاء ، أبو بكر من طريق الجعفي : يغفر ، الباقون : نغفر .

(122/52)

فمن قرأ بالياء مضمومة فلأن الخطايا مؤنث ، ومن قرأ بالياء مفتوحة فالضمير عائد على الله تعالى ويكون من باب الالتفات ، لأن صدر الآية ﴿ وإذ قلنا ﴾ ثم قال : ﴿ يغفر ﴾ ، فانتقل من ضمير متكلم معظم نفسه إلى ضمير الغائب المفرد ، ويحتمل أن يكون الضمير عائداً على القول الدال عليه وقولوا ، أي نغفر القول ونسب الغفران إليه مجازاً لما كان سبباً للغفران ، ومن قرأ بالنون ، وهي قراءة باقي السبعة ، فهو الجاري على نظام ما قبله من قوله : ﴿ وإذ قلنا ﴾ ، وما بعده من قوله : ﴿ وسنزيد ﴾ ، فالكلام به في أسلوب واحد ، ولم

يقرأ أحد من السبعة إلا بلفظ ﴿ خطاياكم ﴾ ، وأمالها الكسائي .

وقرأت طائفة : تغفر بفتح التاء ، قيل : كأن الحطة تكون سبب الغفران ، يعني قائل هذا وهو ابن عطية ، فيكون الضمير للحطة وهذا ليس بجيد ، لأن نفس اللفظة بمجردها لا تكون سبباً للغفران .

وقد بينا ذلك قبل ، فالضمير عائد على المقالة المفهومة من : ﴿ وقولوا ﴾ ، ونسب الغفران إليها على طريق المجاز ، إذ كانت سبباً للغفران .

وقرأ الجحدري وقتادة : تغفر بضم التاء وإفراد الخطيئة .

وروي عن قتادة : يغفر بالياء مضمومة .

وقرأ الأعمش : يغفر بالياء مفتوحة وإفراد الخطيئة .

وقرأ الحسن : يغفر بالياء مفتوحة والجمع المسلم .

وقرأ أبو حياة : تغفر بالتاء مضمومة وبالجمع المسلم .

وحكى الأهوازي أنه قرأ : خطاياكم بهمز الألف وسكون الألف الأخيرة .

وحكى عنه أيضاً العكس .

وتوجيه هذا الهمز أنه استثقل النطق بألفين مع أن الحاجز حرف مفتوح والفتحة تنشأ عنها الألف ، فكأنه اجتمع ثلاث ألفات ، فهمز إحدى الألفين ليزول هذا الاستثقال ، وإذ كانوا قد همزوا الألف المفردة بعد فتحه في قوله :

وخندف هامة هذا العألم . . .

فلأن يهمزوا هذا أولى ، وهذا توجيه شذوذ .

(123/52)

ومن قرأ بضم الياء أو التاء كان : خطاياكم ، أو خطيا تكم ، أو خطيتكم مفعولاً لم يسم فاعله ، ومن قرأ بفتح التاء أو الياء أو بالنون ، كان ذلك مفعولاً ، وجزم هذا الفعل لأنه جواب الأمر .

وقد تقدم الكلام في نظيره في قوله تعالى : ﴿ وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم ﴾ ، وذكرنا الخلاف في ذلك .

وهنا تقدمت أوامر أربعة : ﴿ ادخلوا ﴾ ، ﴿ فكلوا ﴾ ، ﴿ وادخلوا الباب ﴾ ، ﴿ وقولوا حطة ﴾ ، والظاهر أنه لا يكون جواباً إلا للآخرين ، وعليه المعنى ، لأن ترتب الغفران لا يكون على دخول القرية ولا على الأكل منها ، وإنما يترتب على دخول الباب لتقييده بالحال التي هي عبادة وهي السجود ، وبقوله : ﴿ وقولوا حطة ﴾ لأن فيه السؤال بحط الذنوب ، وذلك لقوة المناسبة وللمجاورة .

ويدل على ترتب ذلك عليها ما في الأعراف من قوله تعالى : ﴿ وقولوا حطة ﴾ ،

﴿ وادخلوا الباب سجداً ﴾ ، ﴿ نغفر ﴾ ، والقصة واحدة .

فرتب الغفران هناك على قولهم حطة ، وعلى دخول الباب سجداً ، لما تضمنه الدخول من السجود .

وفي تخالف هاتين الجملتين في التقديم والتأخير دليل على أن الواو لا ترتب وإنها لمطلق الجمع .

وقرأ من الجمهور : بإظهار الراء من نغفر عند اللام ، وأدغمها قوم قالوا وهو ضعيف .

﴿ وسنزيد ﴾ : هنا بالواو ، وفي الأعراف ﴿ سنزيد ﴾ ، والتي في الأعراف مختصرة .

ألا ترى إلى سقوط رغداً ؟ والواو من : ﴿ وسنزيد ﴾ ، وقوله : ﴿ فأرسلنا عليهم ﴾ بدل ، ﴿ فأنزلنا على الذين ظلموا ﴾ ، وإثبات ذلك هنا ، وناسب الإسهاب هنا والاختصار هناك .

والزيادة ارتفاع عن القدر المعلوم ، وضده النقص .

﴿ المحسنين ﴾ ، قيل : الذين لم يكونوا من أهل تلك الخطيئة ، وقيل : المحسنين منهم ، فقيل : معناه من أحسن منهم بعد ذلك زدناه ثواباً ودرجات ، وقيل : معناه من كان محسناً منهم

زدنا في إحسانه ، ومن كان مسيئاً بعد ذلك زدناه ثواباً ودرجات ، وقيل : معناه من كان محسناً منهم زدنا في إحسانه ، ومن كان مسيئاً مخطئاً نغفر له خطيئته ، وكانوا على هذين الصنفين ، فأعلمهم الله أنهم إذا فعلوا ما أمروا به من دخولهم الباب سجداً وقولهم حطة يغفر ويضاعف ثواب محسنهم .

وقيل : المحسنون من دخل ، كما أمر وقال : لا إله إلا الله ، فتلخص أن المحسنين إما من غيرهم أو منهم .

فمنهم إما من اتصف بالإحسان في الماضي ، أي كان محسناً ، أو في المستقبل ، أي من أحسن منهم بعد ، أو في الحال ، أي وسنزيدكم بإحسانكم في امتثالكم ما أمرتم به من دخول الباب سجداً والقول حطة .

وهذه الجملة معطوفة على : ﴿ وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم ﴾ ، وليست معطوفة على نغفر فتكون جواباً ، ألا تراها جاءت منقطعة عن العطف في الإعراف في قوله سنزيد ؟ وإن كانت من حيث المعنى لا من حيث الصناعة الإعرابية ترتيب على دخول الباب سجداً .

والقول حطة ، لكنها أجريت مجرى الإخبار المحض الذي لم يرتب على شيء قبله . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 1 صـ 382. 386 ﴾

ومن فوائد الآلوسى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادخلوا هذه القرية ﴾ منصوبة على الظرفية عند سيبويه ، والمفعولية عند الأخفش ، والظاهر أن الأمر بالدخول على لسان موسى عليه السلام كالأوامر السابقة واللاحقة والقرية بفتح القاف والكسر لغة أهل اليمن المدينة من قريت إذا جمعت سميت بذلك لأنها تجمع الناس على طريقة المساكنة ، وقيل : إن قلوا قيل لها : قرية ، وإن كثروا قيل لها مدينة ، وأنهى بعضهم حدّ القلة إلى ثلاثة ، والجمع القرى على غير قياس ، وقياس أمثاله فعال كظبية وظباء وفي المراد بها هنا خلاف جمّ والمشهور عن ابن عباس وابن مسعود وقتادة والسدي ، والربيع ، وغيرهم وإليه ذهب الجمهور أنها بيت المقدس ، وقد كان هذا الأمر بعد التيه والتحير وهو أمر إباحة يدل عليه عطف ﴿ فَكُلُواْ ﴾ الخ وهو غير الأمر المذكور بقوله تعالى : ﴿ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِى كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلاَ تَرْتَدُّوا على أدباركم فَتَنْقَلِبُوا خاسرين ﴾ [المائدة : 21] لأنه كان قبل ذلك وهو أمر تكليف كما يدل عليه عطف النهي ، ومنهم من زعم اتحادهما ، وجعل هذا الأمر أيضاً للتكليف .

وحمل تبديل الأمر على عدم امتثاله بناء على أنه لم يدخلوا القدس في حياة موسى عليه السلام ، ومنهم من ادّعى اختلافهما لكنه زعم أن ما هنا كان بعد التيه على لسان يوشع لا

على لسان موسى عليهما السلام لأنه وأخاه هرون ماتا في التيه وفتح يوشع مع بني إسرائيل أرض الشام بعد موته عليه السلام بثلاثة أشهر ، ومنهم من قال الأمر في التيه بالدخول بعد الخروج عنه ولا يخفى ما في كل ، فالأظهر ما ذكرنا .

(126/52)

وقد روي أن موسى عليه السلام سار بعد الخروج من التيه بمن بقي من بني إسرائيل إلى أريحاء وهي بأرض القدس وكان يوشع بن نون على مقدمته ففتحها وأقام بها ما شاء الله تعالى ثم قبض ، وكأنهم أمروا بعد الفتح بالدخول على وجه الإقامة والسكنى كما يشير إليه قوله تعالى : ﴿ فَكُلُواْ ﴾ الخ ، وقوله تعالى في الأعراف (161) ﴿ اسكنوا هذه القرية ﴾ ويؤكد كونه بعد الفتح الإشارة بلفظ القريب ، والقول بأنها نزلت منزلة القريب ترويجاً للأمر بعيد ، ولا ينافي هذا ما مر من أنه مات في التيه لأن المراد به المفازة لا التيه مصدر تاه يتيه تيهاً بالكسر والفتح وتيهاناً إذا ذهب متحيراً فليفهم .

﴿ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا ﴾ أي واسعاً هنيئاً ونصبه على المصدرية أو الحالية من ضمير المخاطبين ، وفي الكلام إشارة إلى حلّ جميع مواضعها لهم ، أو الإذن بنقل حاصلها إلى أي موضع شاءوا مع دلالة (رغداً) على أنهم مرخصون بالأكل منها واسعاً وليس

عليهم القناعة لسد الجوعة ، ويحتمل أن يكون وعداً لهم بكثرة المحصولات وعدم الغلاء ، وأخر هذه المنصوب هنا مع تقديمه في آية آدم عليه السلام قبل لمناسبة الفاصلة في قوله تعالى : ﴿ وادخلوا الباب سُجَّدًا ﴾ والخلاف في نصب (الباب) في نصب ﴿ هذه القرية ﴾ والمراد بها على المشهور أحد أبواب بيت القدس ، وتدعى الآن باب حطة قاله ابن عباس ، وقيل : الباب الثامن من أبوابه ، ويدعي الآن باب التوبة وعليه مجاهد وزعم بعضهم أنها باب القبة التي كانت لموسى وهرون عليهما السلام يتعبدان فيها ، وجعلت قبلة لبني إسرائيل في التيه ، وفي وصفها أمور غريبة في القصص لا يعلمها إلا الله تعالى .

(127/52)

و (سجداً) حال من ضمير ﴿ ادْخِلُواْ ﴾ والمراد خضعاً متواضعين لأن اللائق بحال المذنب التائب والمطيع الموافق الخشوع والمسكنة ، ويجوز حمل السجود على المعنى الشرعي ، والحال مقارنة أو مقدرة ، ويؤيد الثاني ما روي عن وهب في معنى الآية إذا دخلتموه فاسجدوا شكراً لله أي على ما أنعم عليكم حيث أخرجكم من التيه ونصركم على من كنتم منه تخافون وأعادكم إلى ما تحبون وقول الزمخشري أمروا بالسجود عند الانتهاء إلى الباب شكراً لله تعالى وتواضعاً لم نقف على ما يدل عليه من كتاب وسنة ،

وفسر ابن عباس السجود هنا بالركوع ، وبعضهم بالتطامن والانحناء قالوا : وأمروا بذلك لأن الباب كان صغيراً ضيقاً يحتاج الداخل فيه إلى انحناء ، وفي الصحيح عن أبي هريرة أنه قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قيل لبني إسرائيل : ﴿ ادخلوا الباب سُجَّداً ﴾ فدخلوا يزحفون على أستاهم2 .

﴿ وَقُولُواْ حِطَّةٌ ﴾ أي مسالتنا ، أو شأنك يا ربنا أن تحط عنا ذنوبنا ، وهي فعلة من الحط كالجلسة ، وذكر أبان أنها بمعنى التوبة وأنشد :

فاز (بالحطة) التي جعل الل . . .

ه بها ذنب عبده مغفوراً

(128/52)

والحق أن تفسيرها بذلك تفسير باللازم ، ومن البعيد قول أبي مسلم : إن المعنى أمرنا حطة أي أن نحط في هذه القرية ونقيم بها لعدم ظهور تعلق الغفران به وترتب التبديل عليه إلا أن يقال كانوا مأمورين بهذا القول عند الحط في القرية لمجرد التعبد ، وحين لم يعرفوا وجه الحكمة بدلوه ، وقرأ ابن أبي عبلة بالنصب بمعنى حط عنا ذنوبنا (حطة) أو نسألك ذلك ، ويجوز أن يكون النصب على المفعولية لقولوا أي قولوا هذه الكلمة بعينها وهو المروي عن ابن

عباس ومفعول القول عند أهل اللغة يكون مفرداً إذا أريد به لفظه ولا عبرة بما في "البحر" من المنع إلا أنه يبعد هذا إن هذه اللفظة عربية وهم ما كانوا يتكلمون بها ، ولأن الظاهر أنهم أمروا أن يقولوا قولاً دالاً على التوبة والندم حتى لو قالوا اللهم إنا نستغفرك ونتوب إليك لكان المقصود حاصلاً ولا تتوقف التوبة على ذكر لفظة بعينها ، ولهذا قيل : الأوجه في كونها مفعولاً لقولوا أن يراد قولوا أمراً حاطاً لذنوبكم من الاستغفار ، وحينئذ يزول عن هذا الوجه الغبار ، ثم هذه اللفظة على جميع التقادير عربية معلومة الاشتقاق ، والمعنى وهو الظاهر المسموع ، وقال الأصم : هي من ألفاظ أهل الكتاب لا نعرف معناها في العربية . وذكر عكرمة إن معناها لا إله إلا الله وهو من الغرابة بمكان .

﴿ نَّغْفِرْ لَكُمْ خطاياكم ﴾ بدخولكم الباب سجداً وقولكم حطة .

(129/52)

والخطايا أصلها خطايىء بياء بعد ألف ثم همزة فأبدلت الياء عند سيبويه الزائدة همزة لوقوعها بعد الألف واجتمعت همزتان وأبدلت الثانية ياء ثم قلبت ألفاً ، وكانت الهمزة بين ألفين فأبدلت ياء ، وعند الخليل قدمت الهمزة على الياء ثم فعل بها ما ذكر ، وقرأ نافع ﴿ يَغْفِرُ ﴾ بالياء وابن عامر بالتاء على البناء للمجهول ، والباقون بالنون والبناء للمعلوم

وهو الجاري على نظام ما قبله وما بعده ولم يقرأ أحد من السبعة إلا بلفظ ﴿ خطاياكم ﴾ وأمالها الكسائي ، وقرأ الجحدري وقتادة ﴿ تَغْفِرْ ﴾ بضم التاء ، وأفرد الخطيئة وقرأ الجمهور بإظهار الراء من ﴿ يَغْفِرُ ﴾ عند اللام وأدغمها قوم ، قالوا : وهو ضعيف .

﴿ وَسَنَزِيدُ المحسنين ﴾ معطوف على جملة ﴿ قُولُواْ حِطَّةٌ ﴾ وذكر أنه عطف على الجواب ، ولم ينجزم لأن السين تمنع الجزاء عن قبول الجزم ، وفي إبرازه في تلك الصورة دون تردد دليل على أن المحسن يفعل ذلك ألبتة ، وفي الكلام صفة الجمع مع التفريق ، فإن ﴿ قُولُواْ حِطَّةٌ ﴾ جمع ، و ﴿ نَّغْفِرْ لَكُمْ ﴾ و ﴿ سَنَزِيدُ ﴾ تفريق ، والمفعول محذوف ، أي ثواباً .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 264. 266 ﴾

ومن فوائد ابن عاشور فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ . . . الآية ﴾

هذا تذكير بنعمة أخرى مكنوا منها فما أحسنوا قبولها ولا رعوها حق رعايتها فحرموا منها إلى حين وعوقب الذين كانوا السبب في عدم قبولها .

وفي التذكير بهذه النعمة امتنان عليهم ببذل النعمة لهم لأن النعمة نعمة وإن لم يقبلها المنعم عليه ، وإثارة لحسرتهم على ما فات أسلافهم وما لقوه من جراء إعجابهم بآرائهم ، وموعظة لهم أن لا يقعوا فيما وقع فيه الأولون فقد علموا أنهم كلما صدفوا عن قدر حق

النعم نالتهم المصائب .

قال الشيخ ابن عطاء الله : من لم يشكر النعم فقد تعرض لزوالها ، ومن شكرها فقد قيدها بعقالها .

(130/52)

ولعلم المخاطبين بما عنته هذه الآية اختصر فيها الكلام اختصاراً ترك كثيراً من المفسرين فيها حيارى ، فسلكوا طرائق في انتزاع تفصيل المعنى من مجملها فما أتوا على شيء مقنع ، وكنت تجد أقوالهم هنا إذا التأم بعضها بنظم الآية لا يلتئم بعضه الآخر ، وربما خالف جميعها ما وقع في أيام أخر .

والذي عندي من القول في تفسير هاته الآية أنها أشارت إلى قصة معلومة تضمنتها كتبهم وهي أن بني إسرائيل لما طوحت بهم الرحلة إلى برية فاران نزلوا بمدينة قادش فأصبحوا على حدود أرض كنعان التي هي الأرض المقدسة التي وعدها الله بني إسرائيل وذلك في أثناء السنة الثانية بعد خروجهم من مصر فأرسل موسى اثني عشر رجلاً ليتجسسوا أرض كنعان من كل سبط رجل وفيهم يوشع بن نون وكالب بن يفنة فصعدوا وأتوا إلى مدينة حبرون فوجدوا الأرض ذات خيرات وقطعوا من عنبها ورمانها وتينها ورجعوا لقومهم

بعد أربعين يوماً وأخبروا موسى وهارون وجميع بني إسرائيل وأروهم ثمر الأرض وأخبروهم أنها حقاً تفيض لبناً وعسلاً غير أن أهلها ذوو عزة ومدنها حصينة جداً فأمر موسى كالباً فأنصت إسرائيل إلى موسى وقال إننا نصعد ونمتلكها وكذلك يوشع أما العشرة الآخرون فأشاعوا في بني إسرائيل مذمة الأرض وأنها تأكل سكانها وأن سكانها جبابرة فخافت بنو إسرائيل من سكان الأرض وجبنوا عن القتال فقام فيهم يوشع وكالب قائلين لا تخافوا من العدو فإنهم لقمة لنا والله معنا ، فلم يصغ القوم لهم وأوحى الله لموسى أن بني إسرائيل أساءوا الظن بربهم وأنه مهلكهم فاستشفع لهم موسى فعفا الله عنهم ولكنه حرمهم من الدخول إلى الأرض المقدسة أربعين سنة يتيهون فلا يدخل لها أحد من الحاضرين يومئذ إلا يوشعاً وكالباً وأرسل الله على الجواسيس العشرة المثبطين وباء أهلكهم.

(131/52)

فهذه الآية تنطبق على هذه القصة تمام الانطباق لا سيما إذا ضمت لها آية سورة [المائدة : 21 ، 25] ﴿ يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم إلى قوله الفاسقين ﴾ فقوله : ﴿ ادخلوا هذه القرية ﴾ الظاهر أنه أراد بها " حبرون" التي كانت قريبة منهم والتي

ذهب إليها جواسيسهم وأتوا بثمارها ، وقيل : أراد من القرية الجهة كلها قاله القرطبي عن عمرو بن شبة فإن القرية تطلق على المزرعة لكن هذا يبعده قوله : ﴿ وادخلوا الباب ﴾ وإن كان الباب يطلق على المدخل بين الجبلين وكيفما كان ينتظم ذلك مع قوله : ﴿ فكلوا منها حيث شئتم رغداً ﴾ يشير إلى الثمار الكثيرة هناك .

وقوله : ﴿ فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم ﴾ يتعين أنه إشارة إلى ما أشاعه الجواسيس العشرة من مذمة الأرض وصعوبتها وأنهم لم يقولوا مثل ما قال موسى حيث استنصت الشعب بلسان كالب بن يَفُنَّة ويوشع ويدل لذلك قوله تعالى في سورة الأعراف (162) ﴿ فبدل الذين ظلموا منهم قولاً ﴾ أي من الذين قيل لهم ادخلوا القرية وأن الرجز الذي أصاب الذين ظلموا هو الوباء الذي أصاب العشرة الجواسيس ، وينتظم ذلك أيضاً مع قوله في آية المائدة (21 ، 22) ﴿ ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين ﴾ قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين إلخ وقوله : ﴿ قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب ﴾ [المائدة : 23] فإن الباب يناسب القرية .

وقوله : ﴿ قال فإنها محرمة عليهم ﴾ [المائدة : 26] .

فهذا هو التفسير الصحيح المنطبق على التاريخ الصريح .

فقوله : ﴿ وإذ قلنا ﴾ أي على لسان موسى فبلغه للقوم بواسطة استنصات كالب بن يَفُنَّة

، وهذا هو الذي يوافق ما في سورة العقود في قوله تعالى : ﴿ يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ﴾ الآيات .

(132/52)

وعلى هذا الوجه فقوله : ﴿ ادخلوا ﴾ إما أمر بدخول قرية قريبة منهم وهي " حبرون " لتكون مركزاً أولاً لهم ، والأمر بالدخول أمر بما يتوقف الدخول عليه أعني القتال كما دلت عليه آية المائدة إذ قال : ﴿ ادخلوا الأرض المقدسة ﴾ إلى قوله ﴿ ولا ترتدوا على أدباركم ﴾ فإن الارتداد على الأدبار من الألفاظ المتعارفة في الحروب كما قال تعالى : ﴿ فلا تولوهم الأدبار ﴾ [الأنفال : 15] .

ولعل في الإشارة بكلمة ﴿ هذه ﴾ المفيدة للقرب ما يرجح أن القرية هي حبرون التي طلع إليها جواسيسهم .

والقرية بفتح القاف لا غير على الأصح البلدة المشتملة على المساكن المبنية من حجارة وهي مشتقة من القَرْي بفتح فسكون وبالياء وهو الجمع يقال : قَرى الشيء يَقريه إذا جمعه وهي تطلق على البلدة الصغيرة وعلى المدينة الكبيرة ذات الأسوار والأبواب كما أريد بها هنا بدليل قوله : ﴿ وادخلوا الباب سجداً ﴾ .

وجمع القرية قُرى بضم القاف على غير قياس لأن قياس فُعَل أن يكون جمعاً لِفعْلة بكسر الفاء مثل كسوة وكُسى وقياس جمع قرية أن يكون على قِراء بكسر القاف وبالمد كما قالوا : رَكوة وركاء وشكوة وشكاء .

وقوله : ﴿ وادخلوا الباب سجداً ﴾ مراد به باب القرية لأن أل متعينة للعوضية عن المضاف إليه الدال عليه اللفظ المتقدم .

ومعنى السجود عند الدخول الانحناء شكراً لله تعالى لا لأن بابها قصير كما قيل ، إذ لا جدوى له .

والظاهر أن المقصود من السجود مطلق الانحناء لإظهار العجز والضعف كيلا يفطن لهم أهل القرية وهذا من أحوال الجوسسة ، ولم تتعرض لها التوراة ويبعد أن يكون السجود المأمور به سجود الشكر لأنهم داخلون متجسسين لا فاتحين وقد جاء في الحديث الصحيح أنهم بدلوا وصية موسى فدخلوا يزحفون على استاهم كأنهم أرادوا إظهار الزمانة فأفرطوا في التصنع بحيث يكاد أن يفتضح أمرهم لأن بعض التصنع لا يستطاع استمراره .

(133/52)

وقوله : ﴿ وقولوا حطة ﴾ الحطة فعلة من الحط وهو الخفض وأصل الصيغة أن تدل على الهيئة ولكنها هنا مراد بها مطلق المصدر ، والظاهر أن هذا القول كان معروفاً في ذلك المكان للدلالة على العجز أو هو من أقوال السُّؤَّال والشحاذين كيلا يحسب لهم أهل القرية حساباً ولا يأخذوا حذراً منهم فيكون القول الذي أمروا به قولاً يخاطبون به أهل القرية .

وقيل : المراد من الحطة سؤال غفران الذنوب أي حط عنا ذنوبنا أي اسألوا الله غفران ذنوبكم إن دخلتم القرية .

وقيل : من الحط بمعنى حط الرحال أي إقامة أي ادخلوا قائلين إنكم ناوون الإقامة بها إذ الحرب ودخول ديار العدو يكون فتحاً ويكون صلحاً ويكون للغنيمة ثم الإياب .

وهذان التأويلان بعيدان ولأن القراءة بالرفع وهي المشهورة تنافي القول بأنها طلب المغفرة لأن المصدر المراد به الدعاء لا يرتفع على معنى الإخبار نحو سَقياً ورعياً وإنما يرتفع إذا قصد به المدح أو التعجب لقربهما من الخبر دون الدعاء ولا يستعمل الخبر في الدعاء إلا بصيغة الفعل نحو رحمه الله ويرحمه الله .

و(حطة) بالرفع على أنه مبتدأ أو خبر نحو سمعٌ وطاعة وصبرٌ جميل .

والخطايا جمع خطيئة ولامها مهموزة فقياس جمعها خطائِيء بهمزتين بوزن فعائل فلما اجتمعت الهمزتان قلبت الثانية ياء لأن قبلها كسرة أو لأن في الهمزتين ثقلاً فخففوا الأخيرة منهما ياء ثم قلبوها ألفاً إما لاجتماع ثقل الياء مع ثقل صيغة الجمع وإما لأنه لما أشبه جائي

استحق التخفيف ولكنهم لم يعاملوه معاملة جائي لأن همزة جائي زائدة وهمزة خطائيء أصلية ففروا بتخفيفه إلى قلب الياء ألفاً كما فعلوا في يتامى ووجدوا له في الأسماء الصحيحة نظيراً وهو طَهارَى جمع طَاهرة .

والخطيئة فعيلة بمعنى مفعولة لأنها مخطوء بها أي مسلوك بها مسلك الخطأ أشاروا إلى أنها فعل يحق أن لا يقع فيه فاعله إلا خطأ فهي الذنب والمعصية .

وقوله : ﴿ وسنزيد المحسنين ﴾ وعد بالزيادة من خيري الدنيا والآخرة ولذلك حذف مفعول (نزيد) .

والواو عاطفة جملة ﴿ سنزيد ﴾ على جملة ﴿ قلنا ادخلوا ﴾ أي وقلنا سنزيد المحسنين ؛ لأن جملة ﴿ سنزيد ﴾ حكيت في سورة الأعراف (161) مستأنفة فعلم أنها تعبر عن نظير لها في الكلام الذي خاطب الله به موسى على معنى الترقي في التفضل فلما حكيت هنا عطفت عطف القول على القول . انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 1 صـ 499.495 ﴾

(134/52)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (58) ﴾

من هذه الآية الكريمة نعرف أن بني إسرائيل رفضوا رزق السماء من المن والسلوى مع أنه كان رزقا عاليا . . عاليا في الجودة لأنه طعام حلو نقي شهي ينزل لهم من السماء مباشرة ، وعاليا في الكثرة من أنه كان يأتيهم بلا عمل وبلا تعب وبكميات هائلة تكفيهم وتزيد . . وطلبوا من موسى طعام الأرض الذي يزرعونه بأيديهم ويرونه أمامهم كل يوم فقد كانوا يخافون أن يستيقظوا يوما فلا يجدون المن والسلوى . الحق سبحانه وتعالى يكمل لنا القصة في آية قادمة : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نَّصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ﴾ [البقرة : 61]

فالله سبحانه وتعالى ما زال يمتن على بني إسرائيل بنعمه وكيف قابلوها بالجحود . .

فيذكرهم بإنجائهم من عذاب آل فرعون . . ويذكرهم بالبحر الذي انشق لهم فمشوا فيه ثم انقض الماء بعد ذلك على آل فرعون فأغرقهم . . ويذكرهم كيف أنهم عبدوا العجل بعد ذلك . . وكان من الممكن أن يهلكهم الله بذنوبهم . كما أهلك الأمم السابقة ولكنه عفا

عنهم . . ثم يذكرهم بفضله عليهم بأن أعطاهم الكتاب الذي يفرق بين الحق والباطل . . ويذكرهم بأنهم طلبوا أن يروا الله جهرة . . فصعقوا وماتوا ثم بعثهم الله . ويذكرهم كيف ظللهم بالغمام من حرارة الشمس المحرقة . . ورزقهم بالمن والسلوى . . ثم يذكرهم بأنهم طلبوا طعام الأرض فاستجاب لهم .

(135/52)

في هذه الآية يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً ﴾ . وفي آية أخرى يقول : ﴿ رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمْ ﴾ . الفرق في المعنى أن قوله تعالى : ﴿ حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً ﴾ تدل على أن هناك أصنافاً كثيرة من الطعام .

﴿ ورَغَداً حَيْثُ شِئْتُمْ ﴾ يكون هناك صنف واحد والناس جائعون فيقبلون على الطعام . . عندما يقول الحق جل جلاله : كلوا رغداً يكون المخاطب هنا نوعين : إنسان غير جائع ولذلك تعد له ألوانا متعددة من الطعام لتغريه على الأكل . . فتقدم في هذه الحالة " حيث شئتم " فيقال : ﴿ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً ﴾ . . فإذا كان الإنسان جوعان يرضى بأي طعام . . فيقال رغدا حيث شئتم .

إن المسألة في القرآن الكريم ليست تقديما وتأخيراً في الألفاظ . . ولكن المعنى لا يستقيم

بدون هذا التغيير . . قوله تعالى ﴿ ادْخُلُواْ هَاذِهِ الْقَرْيَةَ ﴾ . . والقرية هي هنا بيت المقدس أو فلسطين أو الأردن . . الحق تبارك وتعالى يقول : ﴿ وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ . .

والحق جل جلاله حين خاطبهم بين لنا أنهم لم يكونوا في حالة جوع شديد بحيث يأكلون أي شيء فقال : ﴿ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً ﴾ أي ستجدون فيها ألوانا كثيرة من الطعام تغريكم على الأكل ولو لم تكونوا جائعين .

(136/52)

وقوله تعالى : ﴿ وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّداً ﴾ . . أي ادخلوا الباب وأنتم في منتهى الخضوع . . ﴿ وَقُولُواْ حِطَّةٌ ﴾ أي حط عنا ذنوبنا يا رب . . غير أنهم حتى في الأمر يغيرون مضمونه . . ويلبسون الحق بالباطل . . وهذه خاصية فيهم . . ولذلك دخلوا الباب وهم غير ساجدين . . دخلوه زاحفين على ظهورهم . . مع أن ما أمرهم الله به أقل مشقة مما فعلوه . . فكأن المخالفة لم تأت من أن أوامر الله شاقة . . ولكنها أتت من الرغبة في مخالفة أمر الخالق وبدلا من أن يقولوا حطة . أي حط عنا يا رب ذنوبنا قالوا حنطة والحنطة هي القمح . . ليطوعوا اللفظ لأغراضهم . . فكأن المسألة ليست عدم قدرة على

الطاعة ولكن رغبة في المخالفة .

ومع أن الحق تبارك وتعالى وعدهم بالمغفرة والرحمة والزيادة للمحسنين . . فإنهم خالفوا وعصوا . . وقوله تعالى : ﴿ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ يأتي في الآية الكريمة : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس : 26]

أي لهم أجر مثل ما فعلوا أضعافا مضاعفة . . وما هي الزيادة ؟

أن يروا الله يوم القيامة . هذه هي الزيادة التي ليس لها نظير في الدنيا . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ 350 . 351 ﴾

(137/52)

فصل

قال السيوطى :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (58) ﴾

أخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ ادخلوا هذه القرية ﴾ قال : بيت المقدس .

وأخرج وكيع والفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه عن ابن عباس في قوله ﴿ وادخلوا الباب ﴾ قال : باب ضيق ﴿ سجدا ﴾ قال : ركعا ﴿ وقولوا حطة ﴾ قال : مغفرة قال : فدخلوا من قبل استاههم وقالوا : حنطة استهزاء قال : فذلك قوله عز وجل ﴿ فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم ﴾ [البقرة : 59] .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله ﴿ وادخلوا الباب سجدا ﴾ قال : هو أحد أبواب بيت المقدس وهو يدعى باب حطة .

وأخرج وكيع والفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني في الكبير وأبو الشيخ عن ابن مسعود قال : قيل لهم ﴿ ادخلوا الباب سجدا ﴾ فدخلوا مقنعي رؤوسهم ﴿ وقولوا حطة ﴾ فقالوا : حنطة حبة حمراء فيها شعيرة ، فذلك قوله ﴿ فبدل الذين ظلموا ﴾ [البقرة : 59] .

وأخرج ابن جرير والطبراني وأبو الشيخ والحاكم عن ابن مسعود أنهم قالوا : هطى سمقاثا ازبة مزبا . فهي بالعربية حبة حنطة حمراء مثقوبة فيها شعيرة سوداء .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ وقولوا حطة ﴾ أي احطط عنا خطايانا .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن عكرمة في قوله ﴿ وادخلوا الباب

سجدا ﴾ قال : طأطئوا رؤوسكم ﴿ وقولوا حطة ﴾ قال : قولوا لا إله إلا الله .

وأخرج البيهقي في الأسماء والصفات من طريق عكرمة عن ابن عباس في قوله ﴿ وقولوا حطة ﴾ قال : لا إله إلا الله .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : كان الباب قبل القبلة .

(138/52)

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد قال : باب حطة من أبواب بيت المقدس ، أمر موسى قومه أن يدخلوا ويقولوا حطة ، وطؤطىء لهم الباب ليخفضوا رؤوسهم ، فلما سجدوا قالوا حنطة .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة في قوله ﴿ وادخلوا الباب سجداً ﴾ قال : كنا نتحدث أنه باب من أبواب بيت المقدس ﴿ وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين ﴾ قال : من كان خاطئا غفرت له خطيئته ، ومن كان محسناً زاده الله إحساناً ﴿ فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم ﴾ [البقرة : 59] قال : بين لهم أمرا علموه فخالفوه إلى غيره جرأة على الله وعتواً .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله ﴿ وسنزيد المحسنين ﴾ قال : من كان قبلكم

محسناً زيد في إحسانه ومن كان مخطئاً نغفر له خطيئته .

وأخرج عبد الرزاق وأحمد والبخاري ومسلم وعبد بن حميد والترمذي والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " قيل لبني إسرائيل ادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة ، فبدلوا فدخلوا يزحفون على استاههم ، وقالوا حبة في شعرة " .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس وأبي هريرة قالا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " دخلوا الباب الذي أمروا أن يدخلوا فيه سجدا يزحفون على استاههم ، وهم يقولون : حنطة في شعيرة " .

وأخرج أبو داود والضياء المقدسي في المختارة عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم " قال الله لبني إسرائيل ﴿ ادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم ﴾ " .

وأخرج ابن مردويه عن أبي سعيد قال : " سرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا كان من آخر الليل اجتزنا في برية يقال لها ذات الحنظل ، فقال : ما مثل هذه الثنية الليلة إلا كمثل الباب الذي قال الله لبني إسرائيل ﴿ ادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم ﴾ " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن علي بن أبي طالب قال : إنما مثلنا في هذه الأمة كسفينة نوح

وكتاب حطة في بني إسرائيل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 1 صـ 172 .

174 ﴾

(139/52)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " هَذِهِ الْقَرْيَةَ " .

هذه منصوبة عند سيبويه على الظرف ، وعند الأخفش على المفعول به ، وذلك أنّ كل ظرف مكان مختصّ لا يتعدّى إليه الفعل إلاّ بـ " في " ، تقول : صلّيت في البيت ولا تقول : صلّيت البيت إلاّ ما استثني .

ومن جملة ما استثني " دخل " مع كل مكان مختصّ ، " دخلت البيت والسُّوق " ، وهذا مذهب سيبويه وقال الأخفش : الواقع بعد " دَخَلت " مفعول به كالواقع بعد " هَدَمت " كقولك : " هَدَمت البيت " فول جاء " دَخَلْت " مع الظرف تعدّى بـ " في " نحو : " دخلت في الأمر " ولا تقول : " دَخَلْت الأمر " ، وكذا لو جاء الظرف المختصّ مع غير " دخل " تعدّى بـ " في " إلا ما شَذَّ ؛ كقوله : [الطويل]

جَزَى اللهُ [رَبُّ النَّاسِ خَيْرَ جَزَائِهِ] . . .

رَفِيقَيْنِ قَالاَ خَيْمَتَيْ أُمِّ مَعْبَدِ

و" القرية " " المدينة " ، وهي نعت لـ" هذه " ، أو عطف بَيَان كما تقدم ، والقرية مشتَقّة من قَرَيْتُ أي : جمعت ، تقول : قَرَيْتُ المَاءَ فِي الحَوْض ، أي : جَمَعْتُهُ ، واسم ذلك الماء قِرى بكسر القاف و" المِقْرَاة " للحوض ، وجمعها " مَقَارٍ " ، قال : [الطويل]

عِظَامُ الْمَقَارِي ضَيْفُهُمْ لاَ يُفَزَّعُ . . . . . .

(140/52)

و " القَرْيَان " اسم لمجتمع الماء ، و" القَرْيَةُ " في الأصل اسم للمكان الذي يجتمع فيه القوم ، وقد يطلق عليهم مجازاً ، وقوله تعالى ﴿ واسأل القرية ﴾ [يوسف : 82] يحتمل الوجهين .

وقال الراغب : " إنها اسم للموضع وللناس جميعاً ، ويُسْتَعْمَل في كل واحد منهما " و" القِرْيَة " بكسر القاف في لغة " اليمن " ، واختلف في تعيينها .

فقال الجمهور : هي بيت المقدس .

وقال ابن عباس : " أَرِيحا " وهي قرية الجَبَّارين ، وكان فيها قوم من بَقِيَّةِ عَادٍ يقال لهم :

العَمَالقة ، ورئيسهم عوج بن علق .

وقال " ابن كيسان " : " الشّام " .

وقال الضحاك : " الرَّمْلَة " و " الأردنُّ " ، و " فلسطين " و " تَدْمُرُ " .

وقال مقاتل " إيليا " .

وقيل : بلقاء .

وقيل : " مصر " .

والصحيح الأول ، لقوله من المائدة : ﴿ ادْخُلُوا الأَرْضَ المُقَدَّسَةَ ﴾ [المائدة : 21] .

قوله : " وكُلوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً " تقدّم الكلام على هذه المادة .

قوله : " البَابَ سُجَّداً " حال من فاعل " ادْخُلُوا " وهو جمع " سَاجِد " .

قال أبو البقاء : " وهو أبلغ من السجود " ، يعنيك أن جمعه على " فُعَّل " فيه من المُبَالغة ما ليس في جمعه على " فُعُول " .

وأصل باب : بَوَبٌ ، لقولهم : أَبْوَاب ، وقد يجمع على " أَبْوِبة " ؛ لازدواج الكلام ؛ قال : [البسيط]

هَتَّاك أَخْبِيَةٍ وَلاَّجُ أَبْوِبَةٍ . . .

يَخْلِطُ بِالْجِدّ مِنْهُ البِرَّ واللِّينا

ورواه الجَوهريُّ : [البسيط]

. . . . . .

يَخْلِطُ بالْبِرِّ مِنْهُ الْجِدَّ وَاللِّيْنَا

ولو أفرده لم يجزن ومثله قوله عليه الصلاة والسلام : " مرحباً بالقَوْمِ أو بالوفد غير خَزَايَا ولا نَدامَى " .

وتَبَوَّبْتُ بَوَّاباً اتخذته .

وأبواب مُبَوَّبَة ، كقولهم : أصناف مصنّفة ، وهذا شيء من بابتك ، أي : يصلح لك وتقدّم معنى السجود .

(141/52)

قوله : " وَقُولُوا " قال [ابن كثير] الواو هنا حالية لا عاطفة ، أي : ادخلوا سُجَّداً في حال قولكم حطّة .

وأما قوله : " حطّة " قرىء بالرّفع والنصب ، فالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أي : مسألتنا حطّة ، أو أمرك حطة .

قال : " الزمخشري " : والأصل النصب بمعنى : حُطّ عنا ذنوبنا حطّة ، وإنما رفعت لتعطي مَعْنَى الثبات كقوله : [الرجز]

يَشْكُو إِليَّ جَمَلِي طُولَ السُّرَى . . .

صَبْرٌ جَمِيلٌ فَكِلانَا مُبْتَلَى

والأصل : صبراً عَلَيَّ ، أصْبِرْ صبراً ، فجعله من باب ﴿ سَلامٌ عَلَيْكُم ﴾ [الرعد : 24]

وتكن الجملة في محلّ نصب بالقول .

وقال " ابن عطية " وقيل : أمروا أن يقولوها مرفوعة على هذا اللفظ .

يعني : على الحكاية ، فعلى هذا تكون هي وحَدْهَا من غير تقدير شيء في محلّ نصب بالقول وإنما منع [النصب] حركة الحكاية .

وقال أيضاً : وقال عكرمة : أُمِرُوا أن يقولوا : لا إله إلا الله ، لِتحطَّ بها ذنوبهم وحَكَى قَوْلَيْن آخرين بمعناه ، ثم قال : " فعلى هذه الأقوال تقتضي النَّصب " ، يعني أنه إذا كان المَعْنَى على أنّ المأمور به لا يتعيّن أن يكون بهذا اللَّفظ الخاً ، بل بأيّ شيء يقتضي حطّ الخطيئة ، فكان ينبغي أن ينتصب ما بعد القول مفعولاً به نحك قيل لزيد خيراً ، المعنى : قل له ما هو من جنس الْخُيُور .

وقال النَّحَاس : الرفع أولى ، لما حكي عن العرب في معنى " بَدَّل " .

قال أحمد بن يحيى : بَدّلته أي غيرته ، ولم أزل عينه ، وأبْدَلْتُه أَزَلْتُ عينه وشَخْصَهُ ؛ كقوله : [الرجز]

عَزْلَ الأَمِيْرِ لِلأَمِيرِ المُبْدَلِ . . .

وقال تعالى : ﴿ ائت بِقُرْآنٍ غَيْرِ هاذا أَوْ بَدِّلْهُ ﴾ [يونس : 15] .

وبحديث ابن مسعود قالوا : حطّةٌ تغير على الرَّفع يعني : أن الله تعالى قال : فبدَّل الذي يقتضي التَّغيير لا زوَالَ العين ، قال : وهذا المعنى يقتضي الرَّفع لا النصب .

وقرأ ابن أبي عبلة : حطَّةً بالنصب وفيها وجهان :

أحدهما : أنها مصدر نائب عن الفعل ، نحو : ضرباً زيداً .

والثاني : أن تكون منصوبة بالقول ، أي : قولوا هذا اللَّفظ بعينه ، كما تقدم في وجه الرَّفع ، فهي على الأوّل منصوبةٌ بالفعل المقدر ، وذلك الفعل المقدر ومنصوبه في محل نصب بالقول ، ورجح الزمخشري هذا الوجه .

و " الحطّة " اسم الهَيْئَةِ من الْحَطِّ كـ " الجِلْسَة " و " الْقِعْدَة " .

وقيل : هي لفظة أمروا بها ، ولا ندري معناها .

وقيل : هي التَّوْبة ، وأنشد : [الخفيف]

فَازَ بالْحِطَّةِ الَّتِي جَعَل اللهُ . . .

بِهَا ذَنْبَ عَبدِهِ مَغْفُورَا

قوله "نَغْفِرْ" هو مجزوم في جواب الأمر، وقد تقدم الخلاف، هل الجازم نفس الجملة، أو شرط مقدر؟ أي: يقولوا نغفر.

وقرئ: "نَغْفِرْ" بالنون وهو جار على ما قبله [من قوله:] "وإذ قلنا" و"تُغْفَرَ" بالتاء بالياء مبنيّاً للمفعول.

و"خطاياكم" مفعول لم يسم فاعله، فالتَّاء لتأنيث الخَطَايا، والياء؛ لأن تأنيثها غير حقيقين وللفصل أيضاً بـ"لكم".

وقرئ: "يغفر" مبنياً للفاعل، وهو الله تعالى وهو في معنى القراءة الأولى، إلاّ أن فيه التفاتاً.

و"لكم" متعلّق بـ"نغفر".

وأدغم "أبو عمرو" الراء في اللاّم، والنحاة يستضعفونها، قالوا: لأن الرَّاء حرف تكرير فهي أقوى من اللام، والقاعدة أن الأضعف يدغم في الأقوى من غير عَكْسٍ، وليس فيها ضعف، لأن انحراف اللاّم يقاوم تكرير الراء.

وقد بَيَّن "أبو البَقَاءِ" ضعفه،

وتقدم جوابه.

قوله: "خطاياكم": إما منصوب بالفعل قبله، أو مرفوع حسب ما تقدّم من القراءات، وفيها [أربعة] أقوال:

أحدها : قول الخليل [أنّ] أصلها " خَطَايِىء " بياء بعد الألف ، ثم همزة ؛ لأنها جمع " خطيئة " مثل : " صَحِيْفة وصَحَايف " ، فلو تركت على حالها لوجب قَلْبُ الياء همزة ؛ لأن مدة " فَعَايل " يفعل بها كذا ، على ما تقرر في التصريف ، فضر من ذلك ، لئلا تجتمع همزتان ، بأن قلب فقام اللام ، وأخّر عنها المدّة فصارت : " خَطَائي " ، فاستثقلت الكسرة على حرف ثقيل في نفسه ، وبعده ياء من جنس الكَسْرَة فقلبوا الكسرة فتحة ، فتحرك حرف العّلة ، وانفتح ما قبله فقلبت ألفاً ، فصارت : " خَطَاءا " بهمز بين ألفين ، فاستثقلوا ذلك ، فإنّ الهمزة تشبه الألف ، فكأنه اجتمع ثلاث ألفات ، فقلبوا الهمزة ياء ؛ لأنها واقعة موقعها قبل القَلْبِ ، فصارت " خَطَايَا " على وزن " فَعَالَى " ففيها أربعة أعمال : قلب ، وإبدال لكسرة فتحة ، وقلب الياء ألفاً وإبدال الهمزة ياء ، هكذا ذكر التصريفيون ، وهو مذهب الخليل .

الثاني : وعزاه " أبو البقاء " إليه أيضاً أنه : " خطائيء " بهمزتين : الأولى منهما مكسورة وهي المنقلبة عن الياء الزائدة في " خَطِيْئَة " فهو مثل " صَحِيْفة " و " صَحَائف " ، فاستثقلوا الجمع بين الهمزتين ، فنقلوا الهمزة الأولى إلى موضع الثانية ، فصار وزنه " فَعَلى " ،

وإنما فَعَلوا ذلك ، لتصير المكسورة ظرفاً ، فتنقلب ياء ، فتصير " فعالىْ " ، ثم أبدلوا من كسرة الهمزة الأولى فتحة ، فانقلبت الياء بعدا ألفاً كما قالوا في : يا لَهْفى " " ويا أَسَفى " ، فصارت الهمزة بين ألفين ، فأُبْدِل منها يا ، لأن الهمزة قريبة من الألف ، فاستنكروا اجتماع ثلاث ألفات .

فعلى هذا فيها خمسة تغييرات : تقديم اللام ، وإبدال الكسرة فتحة ، وإبدال الهمزة الأخيرة ياء ، ثم إبدالها ألفاً ، ثم إبدال الهمزة التي هي لام ياء .

والقول الأول أَوْلَى ، لقلّة العمل ، فيكون للخليل في المسألة قولان .

(144/52)

الثالث : قول سيبويه أن أصلها عنده : " خَطَايِىء "كما تقدم ، فأبدل الياء الزائدة همزة ، فاجتمع همزتان ، فأبدل الثانية منهما " ياء " لزوماً ، ثم عمل العمل المتقدّمن ووزنها عند " فَعَائل " مثل : " صَحَائف " ، وفيها على قوله خمسة تغييرات : إبدال الياء المزيدة همزة وإبدال الهمزة الأصلية ياء ، وقلب الكسرة فتحة ، وقلب الياء الاصلية ألفاً ، وقلب الهمزة المزيدة ياء .

الرابع : قول " الفرّاء " ، هو أن " خَطَايا " عنده ليس جمعاً لـ " خطيئة " بالهمز ، إنما هو جمع

لـ " خَطِيّة " كـ " هَدِيَة وهَدَايا " و " رَكِيّة ورَكَايَا " .

قال الفراء : ولو جمعت " خَطيئة " مهمزة لقلت : " خَطَاءا " يعني : فلم تقلب الهمزة ياء ، بل تبقيها على حالها ، ولم يعتد باجتماع ثلاث ألفات .

ولكنه لم يقله العرب ، فدلّ ذلك عنده أنه ليس جمعاً للمهموز .

وقال " الكسائي " : ولو جمعت مهموزة أدغمت الهمزة في الهمزة مثل : " دواب " .

وقرئ : " يَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيْئَاتِكُمْ " و " خَطِيْئَتَكُمْ " بالجمع والتوحيد ، وبالياء والتاء على ما لم يُسَمَّ فاعله ، و " خَطَايَاكُمْ " بهمز الألف الأولى دون الثانية ، وبالعكس .

والمعنى في هذه القراءات واحد ؛ لأن الخطيئة إذا غفرها الله تعالى فقد غفرت ، وإذا غفرت فإنما يغفرها الله .

والفعل إذا تقدّم الاسم المؤنث ، وحال بينه وبين الفاعل حَائِلٌ جاز التذكير والتّأنيث كقوله تعالى : ﴿ وَأَخَذَ الذين ظَلَمُواْ الصيحة ﴾ [هود : 67] .

و ﴿ وَأَخَذَتِ الذين ظَلَمُواْ ﴾ [هود : 94] .

وقرأ الجحدري : " خَطِيئَتكم " بمدة وهمزة وتاء مرفوعة بعد الهمزة .

وقرأ ابن كثير : " خَطَايأكم " بهمزة قبل اكاف .

وقرأ الكسائي : بكسر الطاء والتاء ، والباقون بإمالة الياء .

و" الغَفْر " : السّتر ، ومنه المِغْفَر : لِسُتْرة الرأسن وغفران الذُّنوب ؛ لأنها تغطيها ، وتقد تقدّم الفرق بينه وبين العَفُوا .

(145/52)

و " الغِفارَة " : خِرْقَةٌ تستر الْخِمَار أن يَمَسَّه دهن الرأس .

و" الخَطِيئة " من الخَطَأ ، وأصله : العدول عن الجهة ، وهو أنواع :

أحدها : إرادة غير ما تحسن إرادته ، فيفعله ، وهذا هو الأصل [التام] يقال منه : " خَطِىءَ يَخْطَأ خِطْأً وخِطْأةً " .

والثاني : أن يريد ما يحسن فعله ، ولكن يقع بخلافه ، يقال منه : أَخْطَأَ إِخْطَاء ، فهو مخطىء ، وجملة الأمر أنَّ من أراد شيئاً ، فاتفق منه غيره يقال : " أخطأ " ، وإن وقع كما أراد ، يقال : " أصَاب " ، وقد يقال لمن فعل فعلاً لا يحسن أو أراد إرادة لا تجمل : إنه أخطأ ولهذا يقال : أَصَابَ الخَطَأ ، وأَخْطَأَ الصَّوابَ ، وأصاب الصواب ، وأخطأ الخطأ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير ابن عادل حـ 2 صـ 92 ـ 99 ﴾ . باختصار .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (58) ﴾

(. . .) بنو إسرائيل على تضييع ما كانوا يُؤْمَرون ، حتى قالةٍ أُوصُوا بحفظها فَبَدّلوها ، وحالةٍ من السجود أُمروا بأن يدخلوا عليها فحوّلوها ، وعَرّضوا أنفسَهم لسهام الغيب . ثم لم يطيقوا الإصابة بقَرْعِها ، وتعرضوا المفاجآت العقوبة فلم يثبتوا عند صدمات وَقْعِها .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 93 ﴾

(146/52)

قوله تعالى ﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (59) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولّما كان هذا التصريح بالترغيب المتضمن للتلويح بالترهيب مقتضياً للعاقل المبادرة إلى الطاعة بين أنه تسبب عنه أن بعضهم عصوا وكفروا هذه النعمة العظيمة ولم يقتصروا على ترك هذا الأمر بل بدلوه بدخولهم كما في الحديث " يزحفون على أستاههم قائلين : حبة في

شعرة " أي جنس الحب في جنس الشعرة أي في الغرائر مطلوبنا لا الحطة وهي غفران الذنوب .

قال الحرالي : أمروا بالإخلاص لله نظراً إلى حياة قلوبهم فطلبوا الحنطة نظراً إلى حياة جسومهم فقال تعالى ﴿ فبدل ﴾ من التبديل وهو تعويض شيء مكان شيء – انتهى .

﴿ الذين ظلموا ﴾ وأسقط : منهم ، لما يأتي في الأعراف ﴿ قولاً ﴾ أي مكان القول الذي أمروا به .

ولما كان التبديل وإن كان يفهم التغيير لكنه يصدق بأدنى تغيير ولو أنه في اللفظ وإن اتّحد المعنى بيّن أنه مضاد له بحيث لا يمكن اجتماعهما بقوله : ﴿ غير الذي قيل لهم ﴾ فإن غيراً كما قال الحرالي كلمة تفهم انتفاء وإثبات ضد ما انتفى ، وقال : ذكر تعالى عدولهم عن كل ذلك واشتغالهم ببطونهم وعاجل دنياهم فطلبوا طعام بطونهم التي قد فرغ منها التقدير وأظهر لهم الغناء عنها في حال التيه بإنزال المن والسلوى إظهاراً لبلادة طباعهم وغلبة حب العاجلة عليهم فبدلوا كلمة التوحيد وهي لا إله إلاّ الله وهي الحطة بطلب الحنطة ﴿ ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم ﴾ [المائدة : 66] ﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ﴾ [الأعراف : 96] " من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين " انتهى .

وبيّن أنه خصّ المبدلين بالعتاب نعمة منه مع أن له أن يعم فقال ﴿ فأنزلنا ﴾ أي بعظمتنا بسبب ذلك ﴿ على الذين ظلموا ﴾ أي خاصة ﴿ رجزاً ﴾ قال الحرالي : هو أشد العذاب ، وما جره أيضاً يسمى رجزاً مما يجب أن يزجر عنه والزجر كف البهائم عن عدواها – انتهى .

(147/52)

ولما كان الإنزال مفهماً للسماء حققه تعظيماً له بقوله : ﴿ من السماء بما ﴾ أي بسبب ما ﴿ كانوا يفسقون ﴾ أي يجددون الخروج من الطاعة إلى المعصية في كل وقت .

ففي إفهامه أنهم يعودون إلى الطاعة بعد الخروج منها وذلك مقتض لأن يكون يظلمون أشد منه كما يأتي .

قال الحرالي : فبحق يجب على من دخل من باب جبل أو قرية أن يقول في وصيدها : لا إله إلاّ الله ، ليحط عنه ماضي ذنوبه ، فكأنّ ذكر الله في باب المدينة والشعب ذكاة لذلك المدخل ، فمن لم يدخله مذكياً دخله فاسقاً ﴿ لا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق ﴾ [الأنعام : 121] فلذلك ما اختتم ذكرهم في الآية بالفسق – انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 142. 144 ﴾

فصل

قال الفخر :

أما قوله تعالى : ﴿ فَبَدَّلَ الذين ظَلَمُواْ ﴾ ففيه قولان .

الأول : قال أبو مسلم قوله تعالى : ﴿ فَبَدَّلَ ﴾ يدل على أنهم لم يفعلوا ما أمروا به ، لا على أنهم أتوا له ببدل ، والدليل عليه أن تبديل القول قد يستعمل في المخالفة ، قال تعالى : ﴿ سَيَقُولُ المخلفون مّنَ الأعراب ﴾ [الفتح : 11] إلى قوله : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدّلُواْ كلام الله ﴾ [الفتح : 15] ولم يكن تبديلهم إلا الخلاف في الفعل لا في القول فكذا ههنا ، فيكون المعنى أنهم لما أمروا بالتواضع وسؤال المغفرة لم يمتثلوا أمر الله ولم يلتفتوا إليه .

الثاني : وهو قول جمهور المفسرين : إن المراد من التبديل أنهم أتوا ببدل له لأن التبديل مشتق من البدل ، فلا بد من حصول البدل ، وهذا كما يقال : فلان بدل دينه ، يفيد أنه انتقل من دين إلى دين آخر ، ويؤكد ذلك قوله تعالى : ﴿ قَوْلاً غَيْرَ الذي قِيلَ لَهُمْ ﴾ ثم اختلفوا في أن ذلك القول والفعل أي شيء كان ؟ فروي عن ابن عباس أنهم دخلوا الباب الذي أمروا أن يدخلوا فيه سجداً زاحفين على أستاههم ، قائلين حنطة من شعيرة ، وعن مجاهد أنهم دخلوا على أدبارهم وقالوا : حنطة استهزاء ، وقال ابن زيد : استهزاء بموسى .

وقالوا : ما شاء موسى أن يلعب بنا إلا لعب بنا حطة حطة أي شيء حطة .

أما قوله تعالى : ﴿ الذين ظَلَمُواْ ﴾ فإنما وصفهم الله بذلك إما لأنهم سعوا في نقصان خيراتهم في الدنيا والدين أو لأنهم أضروا بأنفسهم ، وذلك ظلم على ما تقدم .

أما قوله تعالى : ﴿ فَأَنزَلْنَا عَلَى الذين ظَلَمُواْ رِجْزًا مّنَ السماء ﴾ ففيه بحثان :

الأول : أن في تكرير : ﴿ الذين ظَلَمُواْ ﴾ زيادة في تقبيح أمرهم وإيذاناً بأن إنزال الرجز عليهم لظلمهم .

الثاني : أن الرجز هو العذاب والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرجز ﴾ أي العقوبة ، وكذا قوله تعالى : ﴿ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرجز ﴾ [الأعراف : 134] وذكر الزجاج أن الرجز والرجس معناهما واحد وهو العذاب .

وأما قوله : ﴿ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشيطان ﴾ [الأنفال : 11] فمعناه لطخه وما يدعوا إليه من الكفر ، ثم إن تلك العقوبة أي شيء كانت لا دلالة في الآية عليه ، فقال ابن عباس : مات منهم بالفجأة أربعة وعشرون ألفاً في ساعة واحدة ، وقال ابن زيد : بعث الله عليهم الطاعون حتى مات من الغداة إلى العشي خمس وعشرون ألفاً ، ولم يبق منهم أحد .

أما قوله تعالى : ﴿ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾ ، فالفسق من الخروج المضر ، يقال فسقت الرطبة إذا خرجت من قشرها وفي الشرع عبارة عن الخروج من طاعة الله إلى معصيته ، قال أبو

مسلم : هذا الفسق هو الظلم المذكور في قوله تعالى : ﴿ عَلَى الذين ظَلَمُواْ ﴾ وفائدة التكرار التأكيد والحق أنه غير مكرر لوجهين .

(149/52)

الأول : أن الظلم قد يكون من الصغائر ، وقد يكون من الكبائر ، ولذلك وصف الله الأنبياء بالظلم في قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا ﴾ [الأعراف : 23] ولأنه تعالى قال : ﴿ إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان : 13] ولو لم يكن الظلم إلا عظيماً لكان ذكر العظيم تكريراً والفسق لا بد وأن يكون من الكبائر فلما وصفهم الله بالظلم أولاً : وصفهم بالفسق ، ثانياً : ليعرف أن ظلمهم كان من الكبائر لا من الصغائر .

الثاني : يحتمل أنهم استحقوا اسم الظالم بسبب ذلك التبديل فنزل الرجز عليهم من السماء بسبب ذلك التبديل بل للفسق الذي كانوا فعلوه قبل ذلك التبديل وعلى هذا الوجه يزول التكرار .

النوع الثاني من الكلام في هذه الآية : اعلم أن الله تعالى ذكر هذه الآية في سورة الأعراف وهو قوله : ﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسكنوا هذه القرية وَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُواْ حِطَّةٌ وادخلوا الباب سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خطيئاتكم سَنَزِيدُ ﴾ [الأعراف : 161 ، 162] واعلم أن من

الناس من يحتج بقوله تعالى : ﴿ فَبَدَّلَ الذين ظَلَمُواْ ﴾ على أن ما ورد به التوقيف من الأذكار أنه غير جائز تغييرها ولا تبديلها بغيرها ، وربما احتج أصحاب الشافعي رضي الله عنه في أنه لا يجوز تحريم الصلاة بلفظ التعظيم والتسبيح ولا تجوز القراءة بالفارسية وأجاب أبو بكر الرازي بأنهم إنما استحقوا الذم لتبديلهم القول إلى قول آخر يضاد معناه معنى الأول ، فلا جرم استوجبوا الذم ، فأما من غير اللفظ مع بقاء المعنى فليس كذلك والجواب أن ظاهر قوله : ﴿ فَبَدَّلَ الذين ظَلَمُواْ قَوْلاً غَيْرَ الذي قِيلَ لَهُمْ ﴾ يتناول كل من بدل قولاً بقول آخر سواء اتفق القولان في المعنى أو لم يتفقا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 86.85 ﴾

وقال البغوى :

(150/52)

﴿ فَبَدَّلَ ﴾ فغير ﴿ الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ أنفسهم وقالوا ﴿ قَوْلا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ ﴾ وذلك أنهم بدلوا قول الحطة بالحنطة ، فقالوا بلسانهم : حطانا سمقاثا أي حنطة حمراء ، استخفافا بأمر الله تعالى ، وقال مجاهد : طؤطئ لهم الباب ليخفضوا رءوسهم فأبوا أن يدخلوها سجدا فدخلوا على أستاههم مخالفة في الفعل كما بدلوا القول وقالوا قولا غير

الذي قيل لهم .

أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا إسحاق بن نصر أنا عبد الرزاق عن معمر عن همام بن منبه أنه سمع أبا هريرة يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " قيل لبني إسرائيل ادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة فبدلوا فدخلوا يزحفون على أستاهم وقالوا حبة في شعرة"

﴿ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ ﴾ قيل : أرسل الله عليهم طاعونا فهلك منهم في ساعة واحدة سبعون ألفا ﴿ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ يعصون ويخرجون من أمر الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البغوى حـ 1 صـ 99 ﴾

فائدة

قال ابن الجوزى :

اعلم أَن الله ، عز وجل ، أمرهم في دخولهم بفعل وقول ، فالفعل السجود ، والقول : حطة ، فغير القوم الفعل والقول .

فأما تغيير الفعل ؛ ففيه خمسة أقوال .

أحدها : أنهم دخلوا متزحفين على أوْراكهم .

رواه أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم .

والثاني : أنهم دخلوا من قبل أستاههم ، قاله ابن عباس وعكرمة .

والثالث : أنهم دخلوا مقنعي رؤوسهم ، قاله ابن مسعود .

والرابع : أنهم دخلوا على حروف عيونهم ، قاله مجاهد .

والخامس : أنهم دخلوا مستقلين ، قاله مقاتل .

وأما تغيير القول ؛ ففيه خمسة أقوال .

أحدها : أنهم قالوا مكان " حطة" حبة في شعرة ، رواه أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم .

والثاني : أنهم قالوا : حنطة ، قاله ابن عباس ، وعكرمة ، ومجاهد ، ووهب ، وابن زيد .

(151/52)

والثالث : أنهم قالوا : حنطة حمراء فيها شعرة ، قاله ابن مسعود .

والرابع : أنهم قالوا : حبة حنطة مثقوبة فيها شعيرة سوداء ، قاله السدي عن أشياخه .

والخامس : أنهم قالوا سنبلاثا ، قاله أبو صالح .

فاما الرجز ؛ فهو العذاب ، قاله الكسائي وأبو عبيدة والزجاج .

وأنشدوا لرؤبة :

حتى وقمنا كيده بالرجز . . .

وفي ماهية هذا العذاب ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه ظلمة وموت ، مات منهم في ساعة واحدة ، أربعة وعشرون ألفاً ، وهلك سبعون ألفا عقوبة ، قاله ابن عباس .

والثاني : أنه أصابهم الطاعون ، عذبوا به أربعين ليلة ثم ماتوا ، قاله وهب بن منبه .

والثالث : أنه الثلج ، هلك به منهم سبعون ألفاً ، قاله سعيد بن جبير . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ زاد المسير حـ 1 صـ 85.86 ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى ﴿ فَبَدَّلَ الذين ظَلَمُواْ قَوْلاً ﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ فَبَدَّلَ الذين ظَلَمُواْ قَوْلاً ﴾ "الذين" في موضع رفع ؛ أي فبدّل الظالمون منهم قولا غير الذي قيل لهم .

وذلك أنه قيل لهم : قولوا حِطّة ؛ فقالوا حنطة ، على ما تقدم ؛ فزادوا حرفاً في الكلام فلقوا من البلاء ما لقوا ؛ تعريفاً أن الزيادة في الدِّين والابتداع في الشريعة عظيمة الخطر شديدة الضرر .

هذا في تغيير كلمة هي عبارة عن التوبة أوجبت كل ذلك من العذاب ؛ فما ظنك بتغيير ما هو من صفات المعبود ! هذا والقول أنقص من العمل ، فكيف بالتبديل والتغيير في الفعل .

الثانية : قوله تعالى : ﴿ فَبَدَّلَ ﴾ تقدم معنى بدّل وأبدل ؛ وقُرِىء " عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا " على الوجهين .

قال الجوهري : وأبدلت الشيء بغيره .

وبدّله الله من الخوف أمْناً .

وتبديل الشيء أيضاً تغييره وإن لم يأت ببدَل .

واستبدل الشيء بغيره ، وتبدّله به إذا أخذه مكانه .

والمبادلة التبادل .

والأبدال : قوم من الصالحين لا تخلو الدنيا منهم ؛ إذا مات واحد منهم أبدل الله مكانه بآخر .

قال ابن دُرَيد : الواحد بديل .

والبدِيل : البدل .

(152/52)

وبدَلُ الشيء : غيره ؛ يقال : بَدَلٌ وبِدْلٌ ، لغتان ؛ مثل : شَبَه وشِبْه ، ومَثَل ومِثْل ، ونَكَل ونِكْل .

قال أبو عبيد : لم يُسمع في فَعَل وفِعْل غير هذه الأربعة الأحرف .

والبَدَل : وَجَع يكون في اليدين والرجلين .

وقد بَدِل (بالكسر) يَبْدَلُ بَدَلاً .

الثالثة : قوله تعالى : ﴿ فَأَنزَلْنَا عَلَى الذين ظَلَمُواْ ﴾ كرر لفظ " ظلموا " ولم يضمره تعظيماً للأمر .

والتكرير يكون على ضربين ؛ أحدهما : استعماله بعد تمام الكلام ؛ كما في هذه الآية وقوله : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الكتاب بِأَيْدِيهِمْ ﴾ ، ثم قال بعدُ : ﴿ فَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ [البقرة : 79] ولم يقل : مما كتبوا .

وكرر الويل تغليظاً لفعلهم ؛ ومنه قول الخنساء :

تَعَرّقني الدهرُ نَهْساً وحَزّا . . .

وأوجعني الدهرُ قَرْعاً وغَمْزَا

أرادت أن الدهر أوجعها بكبريات نوائبه وصغرياتها .

والضرب الثاني : مجيء تكرير الظاهر في موضع المضمر قبل أن يتم الكلام ؛ كقوله تعالى : ﴿ الحاقة .

مَا الحآقة ﴾ [الحاقة : 21] و ﴿ القارعة مَا القارعة ﴾ [القارعة : 21] كان القياس لولا ما أريد به من التعظيم والتفخيم : الحاقة ما هي ، والقارعة ما هي ، ومثله :

﴿ فَأَصْحَابُ الميمنة مَآ أَصْحَابُ الميمنة وَأَصْحَابُ المشأمة مَآ أَصْحَابُ المشأمة ﴾ [الواقعة : 98] .

كرر ﴿ فَأَصْحَابُ الميمنة ﴾ تفخيماً لما ينيلهم من جزيل الثواب ؛ وكرر لفظ " أصحاب المشأمة" لما ينالهم من أليم العذاب .

ومن هذا الضرب قول الشاعر :

ليتَ الغرابَ غداةَ ينعَبُ دائباً . . .

كان الغرابُ مقطّع الأوداج

وقد جمع عَدِيّ بن زيد المعنيين فقال :

لا أرى الموتَ يسبِقُ الموتَ شيءٌ . . .

نغَّص الموتُ ذا الغِنَى والفقيرا

فكرر لفظ الموت ثلاثاً ، وهو من الضرب الأوّل ؛ ومنه قول الآخر :

ألا حبّذا هندٌ وأرضٌ بها هندُ . . .

وهندٌ أتى مِن دونها النّأْيُ والبُعْدُ

فكرر ذكر محبوبته ثلاثاً تفخيماً لها .

الرابعة : قوله تعالى : ﴿ رِجْزاً ﴾ قراءة الجماعة " رِجْزاً " بكسر الراء ، وابن مُحَيْصِن بضم الراء .

والرجز : العذاب (بالزاي) ، و (بالسين) : النَّتْن والقَذَر ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إلى رِجْسِهِمْ ﴾ [التوبة : 125] أي نَتْناً إلى نَتْنِهم ؛ قاله الكِسائي .

وقال الفرّاء : الرَّجْز هو الرِّجْس .

قال أبو عبيد : كما يقال السُّدْغ والزُّدْغ ، وكذا رِجْس ورِجْز بمعنًى .

قال الفرّاء : وذكر بعضهم أن الرُّجز (بالضم) : اسم صنم كانوا يعبدونه ؛ وقرئ بذلك في قوله تعالى : ﴿ والرجز فاهجر ﴾ [المدثر : 5] .

والرَّجَز (بفتح الراي والجيم) : نوع من الشِّعْر ؛ وأنكر الخليل أن يكون شِعراً .

وهو مشتق من الرَّجَز ؛ وهو داء يصيب الإبل في أعجازها ، فإذا ثارت ارتعشت أفخاذها .

﴿ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ أي بفسقهم .

والفِسْق الخروج ، وقد تقدّم .

وقرأ ابن وَثّاب والنَّخَعِيّ : " يَفْسِقُونَ " بكسر السين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 1 صـ 415. 417 ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ فبدّل الذين ظلموا ﴾ : ظاهره انقسامهم إلى ظالمين وغير ظالمين ، وأن الظالمين هم الذين بدلوا ، فإن كان كلهم بدلوا ، كان ذلك من وضع الظاهر موضع المضمر إشعاراً بالعلة ، وكأنه قيل : فبدّلوا ، لكنه أظهره تنبيهاً على علة التبديل ، وهو الظلم ، أي لولا ظلمهم ما بدلوا ، والمبدّل به محذوف تقديره : فبدّل الذين ظلموا بقولهم حطة .

﴿ قولاً غير الذي قيل لهم ﴾ : ولما كان محذوفاً ناسب إضافة غير إلى الاسم الظاهر بعدها .

والذي قيل لهم هو أن يقولوا حطة ، فلو لم يحذف لكان وجه الكلام فبدّل الذين ظلموا بقولهم حطة قولاً غيره ، لكنه لما حذف أظهر مضافاً إليه غير ليدل ، على أن المحذوف هو هذا المظهر ، وهو الذي قيل لهم .

وهذا التقدير الذي قدرناه هو على وضع بدل إذ المجرور هو الزائل ، والمنصوب هو الحاصل .

(154/52)

واختلف المفسرون في القول الذي قالوه بدل أن يقولوا : حطة ، فقال ابن عباس وعكرمة ومجاهد ووهب وابن زيد : حنطة ، وقال السدّي عن أشياخه : حنطة حمراء ، وقيل : حنطة بيضاء مثقوبة فيها شعرة سوداء ، وقال أبو صالح : سنبلة ، وقال السدّي ومجاهد أيضاً : هطا شمهاثاً ، وقيل : حطى شمعاثاً ، ومعناها في هذين القولين : حنطة حمراء ، وقيل : حنطة بيضاء مثقوبة فيها شعرة .

وقيل : حبة في شعيرة ، وقال ابن مسعود : حنطة حمراء فيها شعير ، وقيل : حنطة في شعير ، رواه ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم .

وقيل : حبة حنطة مقلوة في شعرة ، وقيل : تكلموا بكلام النبطية على جهة الاستهزاء والاستخفاف .

وقيل : إنهم غيروا ما شرع لهم ولم يعملوا بما أنزل الله عليهم .

والذي ثبت في صحيح البخاري ومسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم فسر ذلك بأنهم قالوا : حبة في شعرة ، فوجب المصير إلى هذا القول واطراح تلك الأقوال ، ولو صح شيء من الأقوال السابقة لحمل اختلاف الألفاظ على اختلاف القائلين ، فيكون بعضهم قال : كذا ، وبعضهم قال : كذا ، فلا يكون فيها تضاد .

ومعنى الآية : أنهم وضعوا مكان ما أمروا به من التوبة والاستغفار قولاً مغايراً له مشعراً باستهزائهم بما أمروا به ، والإعراض عما يكون عنه غفران خطياآتهم .

كل ذلك عدم مبالاة بأوامر الله ، فاستحقوا بذلك النكال .

﴿ فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً ﴾ : كرر الظاهر السابق زيادة في تقبيح حالهم وإشعاراً بعلية نزول الرجز .

وقد أضمر ذلك في الأعراف فقال : ﴿ فأرسلنا عليهم ﴾ ، لأن المضمر هو المظهر .

وقرأ ابن محيصن : رجزاً بضم الراء ، وقد تقدّم أنها بالغة في الرجز .

(155/52)

واختلفوا في الرجز هنا ، فقال أبو العالية : هو غضب الله تعالى ، وقال ابن زيد : طاعون أهلك منهم في ساعة سبعين ألفاً ، وقال وهب : طاعون عذبوا به أربعين ليلة ثم ماتوا بعد ذلك ، وقال ابن جبير : ثلج هلك به منهم سبعون ألفاً ، وقال ابن عباس : ظلمة وموت مات منهم في ساعة أربعة وعشرون ألفاً وهلك سبعون ألفاً عقوبة .

والذي يدل عليه القرآن أنه أنزل عليهم عذاب ولم يبين نوعه ، إذ لا كبير فائدة في تعليق النوع .

﴿ من السماء ﴾ : إن فسر الرجز بالثلج كان كونه من السماء ظاهراً ، وإن فسر بغيره فهو إشارة إلى الجهة التي يكون منها القضاء عليهم ، أو مبالغة في علوه بالقهر والاستيلاء .

﴿ بما كانوا ﴾ ، ما : مصدرية التقدير بكونهم .

﴿ يفسقون ﴾ .

وأجاز بعضهم أن تكون بمعنى الذي ، وهو بعيد .

وقرأ النخعي وابن وثاب وغيرهما بكسر السين ، وهي لغة .

قال أبو مسلم : هذا الفسق هو الظلم المذكور في قوله : ﴿ على الذين ظلموا ﴾ .

وفائدة التكرار التأكيد ، لأن الوصف دال على العلية ، فالظاهر أن التبديل سببه الظلم ، وأن إنزال الرجز سببه الظلم أيضاً .

وقال غير أبي مسلم : ليس مكرر الوجهين : أحدهما : أن الظلم قد يكون من الصغائر ، ﴿ ربنا ظلمنا ﴾ ، ومن الكبائر : ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ والفسق لا يكون إلا من الكبائر .

فلما وصفهم بالظلم أوّلاً وصفهم بالفسق الذي هو لا بد أن يكون من الكبائر .

والثاني : أنه يحتمل أنهم استحقوا اسم الظلم بسبب ذلك التبديل ونزول الرجز عليهم من السماء ، لا بسبب ذلك التبديل بل بالفسق الذي فعلوه قبل ذلك التبديل ، وعلى هذا يزول التكرار . انتهى .

وقد احتج بعض الناس بقوله تعالى : ﴿ فبدّل الذين ظلموا ﴾ ، وترتيب العذاب على هذا التبديل على أن ما ورد به التوقيف من الأقوال لا يجوز تغييره ولا تبديله بلفظ آخر .

وقال قوم : يجوز ذلك إذا كانت الكلمة تسدّ سدّها ، وعلى هذا جرى الخلاف في قراءة القرآن بالمعنى ، وفي تكبيرة الإحرام ، وفي تجويز النكاح بلفظ الهبة والبيع والتمليك ، وفي نقل الحديث بالمعنى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 1 صـ 286. 287 ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ فَبَدَّلَ الذين ظَلَمُواْ ﴾ بما أُمروا به من التوبة والاستغفار بأن أعرضوا عنه وأوردوا مكانه ﴿ قَوْلاً ﴾ آخرَ مما لا خيرَ فيه . رُوي أنهم قالوا مكان حِطة حِنْطة وقيل : قالوا بالنَّبْطية حِطاً سمقاساً يعنون حنطةً حمراءَ استخفافاً بأمر الله عز وجل ﴿ غَيْرَ الذى قِيلَ لَهُمْ ﴾ نعتٌ لقولا وإنما صُرِّح به مع استحالة تحقُّق التبديلِ بلا مغايَرةٍ تحقيقاً لمخالفتهم وتنصيصاً على المغايرة من كلِّ وجه ﴿ فَأَنزَلْنَا ﴾ أي عقيب ذلك ﴿ عَلَى الذين ظَلَمُواْ ﴾ بما ذكر من التبديل وإنما وُضِعَ الموصولُ موضعُ الضمير العائدِ إلى الموصول الأول للتعليل والمبالغةِ في الذم والتقريع ، وللتصريح بأنهم بما فعلوا قد ظلموا أنفسَهم بتعريضها لسخط الله تعالى ﴿ رِجْزًا مّنَ السماء ﴾ أي عذاباً مقدّراً منها ، والتنوينُ للتهويل والتفخيم ﴿ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾ بسبب فِسقهم المستمرِّ حسبما يفيدُه الجمعُ بين صيغتي الماضي والمستقبل ، وتعليلُ إنزال الرجزِ به بعد الإشعار بتعليله بظلمهم للإيذان بأن ذلك فسقٌ وخروجٌ عن الطاعة وغلوٌّ في الظلم وأن تعذيبَهم بجميع ما ارتكبوه من القبائح لا بعدم توبتهم

فقط كما يُشعِرُ به ترتيبُه على ذلك بالفاء ، والرِّجْزُ في الأصل ما يُعاف عنه وكذلك الرجسُ وقرئ بالضم ، وهو لغة فيه والمراد به الطاعونُ ، روي أنه مات به في ساعة واحدةٍ أربعةٌ وعشرون ألفاً (1) . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 1 صـ 105 ﴾

---

(1) هذا الخبر يحتاج إلى سند صحيح . والله أعلم .

(157/52)

أسئلة وأجوبة

السؤال الأول : لم قال في سورة البقرة : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ﴾ وقال في الأعراف : ﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ﴾

الجواب أن الله تعالى صرح في أول القرآن بأن قائل هذا القول هو الله تعالى إزالة للإبهام ولأنه ذكر في أول الكلام : ﴿ اذكروا نِعْمَتِيَ التى أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾ [البقرة : 40] ثم أخذ يعدد (نعمه) نعمة نعمة فاللائق بهذا المقام أن يقول : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ﴾ أما في سورة الأعراف فلا يبقى في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ﴾ إبهام بعد تقديم التصريح به في سورة البقرة .

السؤال الثاني : لم قال في البقرة : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادخلوا ﴾ وفي الأعراف : ﴿ اسكنوا ﴾ ؟

الجواب : الدخول مقدم على السكون ولا بد منهما فلا جرم ذكر الدخول في السورة المتقدمة والسكون في السورة المتأخرة .

السؤال الثالث : لم قال في البقرة : ﴿ فَكُلُواْ ﴾ بالفاء وفي الأعراف : ﴿ وَكُلُواْ ﴾ بالواو ؟ والجواب ههنا هو الذي ذكرناه في قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَدًا ﴾ وفي الأعراف : ﴿ فَكُلاً ﴾ .

السؤال الرابع : لم قال في البقرة : ﴿ نَّغْفِرْ لَكُمْ خطاياكم ﴾ وفي الأعراف : ﴿ نَّغْفِرْ لَكُمْ خطيئاتكم ﴾ ، الجواب : الخطايا جمع الكثرة والخطيئات جمع السلامة فهو للقلة ، وفي سورة البقرة لما أضاف ذلك القول إلى نفسه فقال : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادخلوا هذه القرية ﴾ لا جرم قرن به ما يليق جوده وكرمه وهو غفران الذنوب الكثيرة ، فذكر بلفظ الجمع الدال على الكثرة ، وفي الأعراف لما لم يضف ذلك إلى نفسه بل قال : ﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ﴾ لا جرم ذكر ذلك بجمع القلة ، فالحاصل أنه لما ذكر الفاعل ذكر ما يليق بكرمه من غفران الخطايا الكثيرة (ة) وفي الأعراف لما لم يسم الفاعل لم يذكر اللفظ الدال على الكثرة .

(158/52)

السؤال الخامس : لم ذكر قوله : ﴿ رَغَدًا ﴾ في البقرة وحذفه في الأعراف ؟ الجواب عن هذا السؤال كالجواب في الخطايا والخطيئات لأنه لما أسند الفعل إلى نفسه لا جرم ذكر معه الإنعام الأعظم وهو أن يأكلوا رغداً ، وفي الأعراف لما لم يسند الفعل إلى نفسه لم يذكر الإنعام

الأعظم فيه .

السؤال السادس : لم ذكر في البقرة : ﴿ وادخلوا الباب سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ ﴾ وفي الأعراف قدم المؤخر ؟ الجواب : الواو للجمع المطلق وأيضاً فالمخاطبون بقوله : ﴿ ادخلوا الباب سُجَّداً وَقُولُواْ حِطَّةٌ ﴾ ، يحتمل أن يقال : إن بعضهم كانوا مذنبين والبعض الآخر ما كانوا مذنبين ، فالمذنب لا بد أن يكون اشتغاله بحط الذنوب مقدماً على الاشتغال بالعبادة لأن التوبة عن الذنب مقدمة على الاشتغال بالعبادات المستقبلة لا محالة ، فلا جرم كان تكليف هؤلاء أن يقولوا أولاً " حطة" ثم يدخلوا الباب سجداً ، وأما الذي لا يكون مذنباً فالأولى به أن يشتغل أولاً بالعبادة ثم يذكر التوبة ، ثانياً : على سبيل هضم النفس وإزالة العجب في فعل تلك العبادة فهؤلاء يجب أن يدخلوا الباب سجداً أولاً ثم يقولوا حطة ثانياً ، فلما احتمل كون أولئك المخاطبين منقسمين إلى هذين القسمين لا جرم ذكر الله تعالى حكم كل واحد منهما في سورة أخرى .

السؤال السابع : لم قال : ﴿ وَسَنَزِيدُ المحسنين ﴾ في البقرة مع الواو وفي الأعراف : ﴿ سَنَزِيدُ المحسنين ﴾ من غير الواو ؟ الجواب : أما في الأعراف فذكر فيه أمرين : أحدهما : قول الحطة وهو إشارة إلى التوبة ، وثانيها : دخول الباب سجداً وهو إشارة إلى العبادة ، ثم ذكر جزأين : أحدهما : قوله تعالى : ﴿ نَّغْفِرْ لَكُمْ خطاياكم ﴾ وهو واقع في مقابلة قول الحطة .

والآخر : قوله : ﴿ سَنَزِيدُ المحسنين ﴾ وهو واقع في مقابلة دخول الباب سجداً فترك الواو يفيد توزع كل واحد من الجزأين على كل واحد من الشرطين .

(159/52)

وأما في سورة البقرة فيفيد كون مجموع المغفرة والزيادة جزاء واحداً لمجموع الفعلين أعني دخول الباب وقول الحطة .

السؤال الثامن : قال الله تعالى في سورة البقرة : ﴿ فَبَدَّلَ الذين ظَلَمُواْ قَوْلاً ﴾ وفي الأعراف : ﴿ فَبَدَّلَ الذين ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلاً ﴾ فما الفائدة في زيادة كلمة " منهم " في الأعراف ؟

الجواب : سبب زيادة هذه اللفظة في سورة الأعراف أن أول القصة ههنا مبني على التخصيص بلفظ " من " لأنه تعالى قال : ﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بالحق وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأعراف : 159] فذكر أن منهم من يفعل ذلك ثم عدد صنوف إنعامه عليهم وأوامره لهم ، فلما انتهت القصة قال الله تعالى : ﴿ فَبَدَّلَ الذين ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ﴾ فذكر لفظة : ﴿ مِنْهُمْ ﴾ في آخر القصة كما ذكرها في أول القصة ليكون آخر الكلام مطابقاً لأوله فيكون الظالمون من قوم موسى بإزاء الهادين منهم فهناك ذكر أمة عادلة ، وههنا ذكر أمة جابرة وكلتاهما من قوم موسى فهذا هو السبب في ذكر هذه الكلمة في سورة الأعراف ، وأما في

سورة البقرة فإنه لم يذكر في الآيات التي قبل قوله : ﴿ فَبَدَّلَ الذين ظَلَمُواْ ﴾ تمييزاً وتخصيصاً حتى يلزم في آخر القصة ذكر ذلك التخصيص فظهر الفرق .

السؤال التاسع : لم قال في البقرة : ﴿ فَأَنزَلْنَا عَلَى الذين ظَلَمُواْ رِجْزًا ﴾ وقال في الأعراف : ﴿ فَأَرْسَلْنَا ﴾ الجواب : الإنزال يفيد حدوثه في أول الأمر والإرسال يفيد تسلطه عليهم واستئصاله لهم بالكلية ، وذلك إنما يحدث بالآخرة .

السؤال العاشر : لم قال في البقرة : ﴿ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾ وفي الأعراف : ﴿ بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ ﴾ ، الجواب : أنه تعالى لما بين في سورة البقرة كون ذلك الظلم فسقاً اكتفى بلفظ الظلم في سورة الأعراف لأجل ما تقدم من البيان في سورة البقرة ، والله أعلم . انتهى .

اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 86. 87 ﴾

(160/52)

وقال فى ملاك التأويل :

قوله جل وتعالى : " وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (58) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ

(59) " وفى سورة الأعراف : " وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (161) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ (162) " .

فى ذلك عشرة سؤالات :

الأول : قوله تعالى فى سورة البقرة : " واذ قلنا ادخلوا " وفى سورة الأعراف : " واذ قيل لهم اسكنوا " .

الثانى : قوله فى البقرة : " فكلوا " وفى الأعراف : " وكلوا " .

الثالث : قوله تعالى فى البقرة : " رغدا " ولم يأت ذلك فى سورة الاعراف .

الرابع : قوله تعالى : " ادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة " .

وفى الأعراف : " وقولوا حطة وادخلوا الباب سجدا " .

الخامس : قوله تعالى فى البقرة : " يغفر لكم خطاياكم " وفى الأعراف فى قراءة الجماعه غير أبى عمرو وابن عامر : خطيئاتكم " مجموعا جمع سلامه .

السادس : قوله : " وسنزيد المحسنين " وفى الأعراف : " سنزيد المحسنين " .

السابع : زيادة منهم فى الأعراف وسقوط ذلك فى البقرة .

الثامن : قوله تعالى : " فأنزلنا " وفى الأعراف : " فأرسلنا " .

التاسع : قوله تعالى : " على الذين ظلموا " وفى الأعراف : " عليهم " .

العاشر : " بما كانوا يفسقون " وفى الأعراف : " بما كانوا يظلمون " .

(161/52)

والجواب عن الأول : ان أمرهم بدخول القرية مغاير من حيث المعنى لأمرهم بسكناها وان كان الامر بدخولهم قد يشير بما نسق معه إلى سكناها لكن ليس نصا بل ولا هو ظاهر فبينت آية الأعراف ذلك وأوضحت المقصود ، وحصل الأمر بالدخول والسكنى وتبين وجه ورود العبارتين على الترتيب .

والجواب عن الثانى : أن قوله تعالى : " فكلوا " بحرف التعقيب وجهه ان الاكل لا يكون الا بعد الدخول ولا يكون قبله بوجه ولا نعه لتعذر وانما يكون مرتبا عليه فجئ بالحرف المحرز لذلك المعنى وانه على التعقيب من غير مهله .

وأما الوارد فى سورة الأعراف فإن السكن منجر معه الاكل ومساوق له ولا يمكن ان يكون مرتبا عليه فجاء بالحرف الصالح لذلك المعنى .

والجواب عن الثالث : وهو ورود قوله : " رغدا " فى البقرة وسقوط ذلك غى الأعراف أن تحته معنى مقصودا لا يحصل من شئ مما ورد فى الآية وانطوت عليه من الكلام ، بخلاف آية

الأعراف فإن مفهوم السكنى وهو الملازمة ولاقامة مع الامر بالاكل حيث شاؤوا مع انضمام معنى الامتنان والانعام المقصود فى الآية كل ذلك مشعر ومعرف بتمادى الاكل وقوة السياق مانعه من التحجير والاقتصار فحصل معنى الرغد فوقع الاكتفاء بهذا المفهوم الحاصل قطعا من سياق آية الأعراف ولو لم يرد فى سورة البقرة لم يفهم من سياق الآية كفهمه من سياق آية الاعراف .

(162/52)

وأما قوله سبحانه فى سورة البقرة : " وادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة " وعكس ذلك فى الأعراف فوجه ذلك والله أعلم ان قولهم : حطة دعاء أمروا به فى سجودهم فلو ورد فى السورتين على حد سواء لأوهم من حيث مقتضى الواو من الاحتمال أنهم أمروا بالسجود والقول منفصلين غير مساوق أحدهما للآخر على أحد محتملات الواو فى عدم الرتبة فقدم وأخر فى السورتين ليحرز المجموع أن المراد بهذا القول ان يكون فى حال السجود لا قبله ولا بعده وتعين بهذا معنى المعيه من محتملات الواو وتحرر المقصود وان المراد : وادخلوا الباب سجدا قائلين فى سجودكم حطة فاكتفى بتقلب الورود عن الافصاح بمعنى المعيه ايجازا جليلا وبلاغة عظيمة وقدم فى البقرة الأمر بالسجود لأن

ابتداء السجود يتقدم ابتداء الدعاء ثم يتساوق المطلوبان فجاء ذلك على الترتيب الثابت في السور ولآي والله أعلم.

ومما يجب تمهيده لتخليص هذه المفهوم ان العرب الفصحاء إذا أخبرت عن مخبر ما أو أناطت به حكما من الأحكام وقد شركه غيره في ذلك الحكم أو فيما أخبر به عنه وقد عطفت أحدهما على الآخر بالواو المقتضية عدم الترتيب فنهم مع ذلك إنما يبدأون بالأهم والأولى قال سيبويه رحمه الله: "كأنهم يقدمون ما بيانه أهم لهم وهم به أعنى" هذا معنى كلامه رحمه الله، قال الله سبحانه وتعالى: "وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة" فهذان مطلوبان مقامهما في الطلب اليماني معلوم ولكن المبدؤ به أهم.

وقال الله تعالى: "وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول" وقال تعالى: "آمنوا بالله ورسوله" وقال تعالى: "والله ورسوله أحق أن يرضوه".

(163/52)

وهذا أكثر من أن يحصى وعكس الوارد منه ليس بالأفصح فعلى هذا التمهيد يفهم ما قدمنا فإن قوله تعالى: "وادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة" مقتضاه على ما تمهد الابتداء بأول الأمرين فلا يمكن تحصيل ذلك في الآيتين الا بالمساوقة وكونهما معا في حالة

واحدة فتدبر ذلك والله أعلم بما أراد ، وأما الاختلاف فى جمع خطيئة فى السورتين فانها تجمه من حيث ثبوت تاء التأنيث فى الواحدة منها فى بالألف والتاء وتجمع أيضا مكسرة على فعائل كظعينه وظعائن وسفينه وسفائن وصحيفه وصحائف فالأصل خطاى مثل ظعائن ثم ترجع بمقتضى التصريف إلى خطايا كمطيه ومطايا فورد جمعها فى البقرة مكسرا ليناسب ما بنيت عليه آيات البقرة من تعداد النعم والالاء حسبما يتبين فى جواب السؤال لأن جموع التكسير ما عدا الاربعة أبنية التى هى : أفعل وأفعال وأفعله وفعله إنما ترد فى الغالب للكثرة فطابق الوارد فى البقرة ما قصد من تكثير الآلاء والنعم وأما الجمع بالألف والتاء فبابه القلة فى الغالب أيضا ما لم يقترن به ما يبين أن المراد به الكثرة فناسب ما ورد فى الأعراف من حيث لم تبن آيها من قصد تعدد النعم على ما بنيت عليع آى البقرة فجاء كل على ما يناسب والله أعلم .

وأما زيادة واو العطف فى قوله تعالى : " وسنزيد "

(164/52)

فى البقرة وهو السؤال الخامس فإنما جئ بها هنا لأن المتقدم قبل هذه الآية من لدن قوله سبحانه : " يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم " إنما هى ألاء ونعم كما تقدم

عددت عليهم على التفصيل شيئا بعد شئ فناسب ذلك عطف قضية الزيادة بالواو ليجرى على ما تقدم من تعداد الآلاء وضروب الإنعام بالعفو عن الزلات والامتنان بضروب الإحسان ، لهذا القصد من احراز التعداد ورد : " وسنزيد " هنا بالواو ولم يكن ليحصل ذلط لو لم ترد الواو هنا وأما آية الأعراف فلم يرد قبلها ما ورد فى سورة البقرة وأما قوله : " فبدل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم " وفى الأعراف : " فبدل الذين ظلموا منهم قولا غير الذى قيل لهم " فوجهه والله أعلم أن لفظ الذين ظلموا لفظ عام يحتمل التخصيص ، والتخصيص يكون بدليل عقلى ودليل سمعى ومن المعلوم أن الامة من الناس والطائفة الكبيرة إذا خوطبوا بأمر أو نهى لم يكونوا فى تقلبه على حد سواء وهذا معلوم ويبين هذا فى هؤلاء المقصودين بهذا الإخبار قوله تعالى : " منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون " وقوله تعالى : " من أهل الكتاب أمة قائمة " وغير ذلك .

وإذا تأملت هذه الآية فهمت منها نفسها أنها ليست على عمومها ، فزادت آية الأعراف تخصيصا سمعيا بما بعطيه حرف التبعيض فى قوله تعالى : " منهم " وآية الأعراف مخصصه للعموم البادى من آية البقرة ولهذا القصد من التخصيص ورد فى سورة البقرة : " فأنزلنا على الذين ظلموا " ولم يرد فيها فأنزلنا عليهم لأنه لو ورد كذلك لكان يتناول المتقدم ذكرهم على التعميم وليس مقصود فنحرز بقوله : " فأنزلنا على الذين ظلموا " أن المعذب هو الظالم

من تقدم وجاء فى الأعراف : " عليهم " لتخصيص ذكر الظال بقوله : " منهم " فجاء كل على ما يجب .

(165/52)

ويزيد ذلك بيانا ان قوله : " فأرسلنا " يقتضى بظهور ما وذلك بحسب مفهوم الارسال انسحاب العذاب لأن المعذب قد حرز ذكره وأما لفظ أنزل فلا يقتضى الانسحاب والتعيم بحسب اقتضاء أرسل فلهذا ورد مع ما لم يرد عمومه وهذا

جواب السؤال الثامن .

ولم يبق الا قوله تعالى : " بما كانوا يفسقون " و : " بما كانوا يظلون " وهو الؤال التاسع ووجه ذلك والله أعلم أنه لما وصف اعتداؤهم نيطت بهم أولا صفة الظلم ومن المعلوم أن مواقعه تتسع ثم لما ذكر من اعتدائهم وسوء مرتكبهم غير ما تقدم وتضاعف موجب وبيل جزائهم وصفوا بالفسق المنبئ عن حال أوبق من الظلم .

ألا ترى أنه صفة ابليس قال تعالى : " الا ابليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه " .

وقد جعل الله تعالى الفسق نقيض الإيمان وفى طرف منه فى قوله : " أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون " والظلم قد يقع على أضعف المعاصى قال تعالى : " ومن يعمل

سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله " وقال : " والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم " ولوقوعه على مختلفات المآثم ومطابقته لما قل أو كثر منها على وصف بالعظم حين أريد به الشرك .

(166/52)

قال تعالى : " ان الشرك لظلم عظيم " ويقول الشاكى للحاكم : ان هذا ظالم وقد ظلمنى فى خردلة فما فوقها ولا يلزمه من هذا القول شئ إذا صح له أدنى تعلق أما ان قال فاسق أو فسق فليس كذلك وكما يترقى فى الجزاء الاحسانى كذلك يترقى فى الطرف الآخر وهو فى الحقيقة ضد الترقى وسنزيد هذا ان شاء الله فى سورة المائدة بيانا فى وصفه سبحانه من لم يحكم بما أنزل الله بالكفر ثم بالظلم ثم بالفسق وإذا تقرر هذا فتأمل آيات البقرة من لدن قوله تعالى : " يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم " إلى ذكر وصفهم بتظليلهم بالغمام كيف ذكروا أولا بالظلم فقال تعالى عقب ذكرهم تظليلهم بالغمام : " وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون " ثم أردف ذكر اعتدائهم فى تبديلهم قولا غير الذى قيل لهم وأعقب بقوله : " فأنزلنا على الذين ظلموا رجزا من السماء بما كانوا يفسقون " وجعل الفسق ختام وصفهم الجارى جزاء على مرتكباتهم ولم يقع بعده ذكر علة منوطة بجزاء ما

وقع منهم وإذا تأملت آية الأعراف وجدتها جارية على منهج ما ورد فى سورة البقرة وان أول وصفهم المبنى جزاء على مرتكباتهم قولع : " فأرسلنا عليهم رجزا من السماء بما كانوا يظلمون " ثم قال تعالى : " واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر " إلى قوله تعالى : " كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون " فطابق هذا ما ورد فى البقرة من تقدم وصفهم أولا بالظلم ثم بعد ذلك بالفسق ووضح الاتفاق فى ختام القصة فى السورتين من غير اختلاف فيهما . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 36.40 ﴾

(167/52)

فصل

قال الآلوسى :

﴿ فَبَدَّلَ الذين ظَلَمُواْ قَوْلاً غَيْرَ الذي قِيلَ لَهُمْ ﴾ أي بدل الذين ظلموا بالقول الذي قيل لهم قولاً غيره ﴿ فَبَدَّلَ ﴾ يتعدى لمفعولين أحدهما : بنفسه والآخر : بالياء ، ويدخل على المتروك فالذمّ متوجه وجوّز أبو البقاء أن يكون بدل محمولاً على المعنى ، أي : فقال الذين ظلموا قولاً الخ ، والقول بأن (غير) منصوب بنزع الخافض ، كأنه قيل : فغيروا قولاً بغيره غير مرضي من القول ، وصرح سبحانه بالمغايرة مع استحالة تحقق التبديل بدونها تحقيقاً

لمخالفتهم وتنصيصاً على المغايرة من كمل وجه ؛ وظاهر الآية انقسام من هناك إلى ظالمين وغير ظالمين وأن الظالمين هم الذين بدلوا وإن كان المبدل الكل كان وضع ذلك من وضع الظاهر موضع الضمير للإشعار بالعلة واختلف في القول الذي بدلوه ففي الصحيحن أنهم قالوا : حبة في شعيرة ، وروى الحاكم ﴿ حنطة ﴾ بدل ﴿ وَقُولُواْ حِطَّةٌ ﴾ وفي "المعالم" إنهم قالوا بلسانهم حطة سمقاثاً أي حنطة حمراء ، قالوا ذلك استهزاء منهم بما قيل لهم ، والروايات في ذلك كثيرة ، وإذا صحت يحمل اختلاف الألفاظ على اختلاف القائلين ، والقول بأنه لم يكن منهم تبديل ومعنى فبدلوا لم يفعلوا ما أمروا به ، لا أنهم أتوا ببدل له غير مسلم وإن قاله أبو مسلم وظاهر الآية ، والأحاديث تكذبه .

(168/52)

﴿ فَأَنزَلْنَا عَلَى الذين ظَلَمُواْ رِجْزًا مّنَ السماء بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾ وضع المظهر موضع الضمير مبالغة في تقبيح أمرهم ، وإشعاراً بكون ظلمهم وإضرارهم أنفسهم بترك ما يوجب نجاتها ، أو وضعهم غير المأمور به موضعاً سبباً لإنزال الرجز وهو العذاب وتكسر راؤه وتضم والضم لغة بني الصعدات وبه قرأ ابن محيصن والمراد به هنا كما روى عن ابن عباس ظلمة وموت ، يروى أنه مات منهم في ساعة أربعة وعشرون ألفاً ، وقال وهب : طاعون

غدوا به أربعين ليلة ثم ماتوا بعد ذلك ، وقال ابن جبير : ثلج هلك به منهم سبعون ألفاً فإن فسر بالثلج كان كونه ﴿ مّنَ السماء ﴾ ظاهراً وإن بغيره فهو إشارة إلى الجهة التي يكون منها القضاء أو مبالغة في علوّه بالقهر والاستيلاء ، وذكر بعض المحققين أن الجار والمجرور ظرف مستقر وقع صفة لرجزاً و ﴿ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾ متعلق به لنيابته عن العامل علة له ، وكلمة (ما) مصدرية ، والمعنى : أنزلنا على الذين ظلموا لظلمهم عذاباً مقدراً بسبب كونهم مستمرين على الفسق في الزمان الماضي ، وهذا أولى من جعل الجار والمجرور ظرفاً لغواً متعلقاً بأنزلنا لظهوره على سائر الأقوال ، ولئلا يحتاج في تعليل الانزال بالفسق بعد التعليل المستفاد من التعليق بالظلم إلى القول بأن الفسق عين الظلم وكرر للتأكيد ، أو أن الظلم أعم والفسق لا بد أن يكون من الكبائر ، فبعد وصفهم بالظلم وصفوا بالفسق للإيذان بكونه من الكبائر ، فإن الأول : بضاعة العاجز .

(169/52)

والثاني : لا يدفع ركاكة التعليل ، وما قيل : إنه تعليل للظلم فيكون إنزال العذاب مسبباً عن الظلم المسبب عن الفسق ليس بشيء ، إذ ظلمهم المذكور سابقاً ، الذي هو سبب الإنزال لا يحتاج إلى العلة ، وقد احتج بعض الناس بقوله تعالى : ﴿ فَبَدَّلَ ﴾ الخ ؛ وترتب العذاب

على التبديل ، على أن ما ورد به التوقيف من الأقوال لا يجوز تغييره ولا تبديله بلفظ آخر ، وقال قول : يجوز ذلك إذا كانت الكلمة الثانية تسد الأولى ، وعلى هذا جرى الخلاف كما في البحر في قراءة القرآن بالمعنى ورواية الحديث به ، وجرى في تكبيرة الإحرام ، وفي تجويز النكاح بلفظ الهبة والبيع والتمليك ، والبحث مفصل في محله هذا .

وقد ذكر مولانا الإمام الرازي رحمه الله تعالى أن هذه الآية ذكرت في الأعراف مع مخالفة من وجوه لنكات .

الأول : قال هنا : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ﴾ [البقرة : 58] لما قدم ذكر النعم ؛ فلا بد من ذكر المنعم ، وهناك ﴿ وَإِذْ قِيلَ ﴾ [الأعراف : 161] إذ لا إبهام بعد تقديم التصريح به .

الثاني : قال هنا : ﴿ ادْخُلُواْ ﴾ وهناك ﴿ اسكنوا ﴾ لأن الدخول مقدم ، ولذا قدم وضعاً المقدم طبعاً .

الثالث : قال هنا : ﴿ خطاياكم ﴾ بجمع الكثرة لما أضاف ذلك القول إلى نفسه ، واللائق بجوده غفران الذنوب الكثيرة ، وهناك ﴿ خطيئاتكم ﴾ بجمع القلة إذ لم يصرح بالفاعل .

الرابع : قال هنا : ﴿ رَغَدًا ﴾ دون هناك لإسناد الفعل إلى نفسه هنا ، فناسب ذكر الإنعام الأعظم وعدم الإسناد هناك .

الخامس : قال هنا : ﴿ ادخلوا الباب سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ ﴾ وهناك بالعكس ، لأن الواو لمطلق الجمع ، وأيضاً المخاطبون يحتمل أن يكون بعضهم مذنبين ، والبعض الآخر ما كانوا

كذلك ، فالمذنب لا بد وأن يكون اشتغاله بحط الذنب مقدماً على اشتغاله بالعبادة ، فلا جرم كان تكليف هؤلاء أن يقولوا : (حطة) ثم يدخلوا وأما الذي لا يكون مذنباً ، فالأولى به أن يشتغل أولاً : بالعبادة ثم يذكر التوبة .

(170/52)

ثانياً : للهضم وإزالة العجب فهؤلاء يجب أن يدخلوا ثم يقولوا فلما احتمل كون أولئك المخاطبين منقسمين إلى ذين القسمين ، لا جرم ذكر حكم كل واحد منهما في سورة أخرى .

السادس : قال هنا : ﴿ وَسَنَزِيدُ ﴾ بالواو وهناك بدونه ، إذ جعل هنا المغفرة مع الزيادة جزاءاً واحداً لمجموع الفعلين ، وأما هناك فالمغفرة جزاء قول (حطة) والزيادة جزاء الدخول فترك (الواو) يفيد توزع كل من الجزاءين على كل من الشرطين .

السابع : قال هناك : ﴿ الذين ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ﴾ [الأعراف : 162] وهنا لم يذكر (منهم) لأن أول القصة هناك مبني على التخصيص ب ﴿ مِنْ ﴾ حيث قال : ﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بالحق ﴾ [الأعراف : 159] فخص في آخر الكلام ليطابق أوله ؛ ولما لم يذكر في الآيات التي قبل ﴿ فَبَدَّلَ ﴾ هنا تمييزاً وتخصيصاً لم يذكر في آخر القصة ذلك .

الثامن : قال هنا : ﴿ فَأَنزَلْنَا ﴾ وهناك ﴿ فَأَرْسَلْنَا ﴾ [الأعراف : 162] لأن الإنزال

يفيد حدوثه في أول الأمر ، والإرسال يفيد تسليطه عليهم واستئصاله لهم ، وذلك يكون بالآخرة .

التاسع : قال هنا : ﴿ فَكُلُواْ ﴾ [البقرة : 58] بالفاء وهناك بالواو لما مر في ﴿ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَدًا ﴾ [البقرة : 35] وهو أن كل فعل عطف عليه شيء وكان الفعل بمنزلة الشرط ، وذلك الشيء بمنزلة الجزاء عطف الثاني على الأول بالفاء دون الواو فلما تعلق الأكل بالدخول قيل في سورة البقرة : ﴿ فَكُلُواْ ﴾ ولما لم يتعلق الأكل بالسكون في الأعراف (161) قيل : ﴿ وَكُلُواْ ﴾ .

العاشر : قال هنا : ﴿ يَفْسُقُونَ ﴾ وهناك ﴿ يَظْلِمُونَ ﴾ [الأعراف : 162] لأنه لما بين هنا كون الفسق ظلماً اكتفى بلفظ الظلم هناك انتهى .

(171/52)

ولا يخفى ما في هذه الأجوبة من النظر ، أما في الأول والثاني والثامن والعاشر فلأنها إنما تصح إذا كانت سورة البقرة متقدمة على سورة الأعراف نزولاً كما أنها متقدمة عليها ترتيباً وليس كذلك ، فإن سورة البقرة كلها مدنية ، وسورة الأعراف كلها مكية إلا ثمان آيات من قوله تعالى : ﴿ وَسْئَلْهُمْ عَنِ القرية ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ وَإِذ نَتَقْنَا الجبل ﴾ [

الأعراف : 163 171] وقوله تعالى : ﴿ اسكنوا هذه القرية ﴾ [الأعراف : 161] داخل في الآيات المكية ، فحينئذ لا تصح الأجوبة المذكورة .

وأما ما ذكر في التاسع فيرد عليه منع عدم تعلق الأكل بالسكون لأنهم إذا سكنوا القرية ، تتسبب سكناهم للأكل منها كما ذكر الزمخشري ، فقد جمعوا في الوجود بين سكناها والأكل منها ، فحينئذ لا فرق بين ﴿ كُلُواْ ﴾ و ﴿ فَكُلُواْ ﴾ فلا يتم الجواب ، وأما الثالث فلأنه تعالى وإن قال في الأعراف (161) ﴿ وَإِذْ قِيلَ ﴾ لكنه قال في السورتين : ﴿ نَّغْفِرْ لَكُمْ ﴾ [البقرة : 58 ، الأعراف : 161] وأضاف الغفران إلى نفسه ، فبحكم تلك اللياقة ينبغي أن يذكر في السورتين جمع الكثرة بل لا شك أن رعاية ﴿ نَّغْفِرْ لَكُمْ ﴾ أولى من رعاية ﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ﴾ لتعلق الغفران بالخطايا كما لا يخفى على العارف بالمزايا .

وأما الرابع فلأنه تعالى وإن لم يسند الفعل إلى نفسه تعالى لكنه مسند إليه في نفس الأمر ، فينبغي أن يذكر الإنعام الأعظم في السورتين .

وأما الخامس فلأن القصة واحدة ، وكون بعضهم مذنبين وبعضهم غير مذنبين محقق فعلى مقتضى ما ذكر ينبغي أن يذكر ﴿ وَقُولُواْ حِطَّةٌ ﴾ مقدماً في السورتين .

وأما السادس فلأن القصة واحدة ، وأن الواو لمطلق الجمع ، وقوله تعالى : ﴿ نَّغْفِرْ ﴾ في مقابلة ﴿ قُولُواْ ﴾ سواء قدم أو أخر ، وقوله تعالى : ﴿ وَسَنَزِيدُ ﴾ [البقرة : 85] في مقابلة ﴿ وادخلوا ﴾ [الأعراف : 161] سواء ذكر الواو أو ترك ، وأما السابع فلأنه تعالى قد ذكر هنا قبل ﴿ فَبَدَّلَ ﴾ [البقرة : 59] ما يدل على التخصيص والتمييز ، حيث قال سبحانه : ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الغمام وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ المن والسلوى كُلُواْ مِن طيبات مَا رزقناكم ﴾ [البقرة : 57] الخ بكافات الخطاب وصيغته فاللائق حينئذ أن يذكر لفظ (منهم) أيضاً ، والجواب الصحيح عن جميع هذه السؤالات وما حكاها ما ذكره الزمخشري من أنه لا بأس باختلاف العبارتين إذا لم يكن هناك تناقض ، ولا تناقض بين قوله تعالى : ﴿ اسكنوا هذه القرية ﴾ [الأعراف : 161] وقوله : ﴿ وَكُلُواْ ﴾ [الأعراف : 161] لأنهم إذا سكنوا القرية فتسبب سكناهم للأكل منها ، فقد جمعوا في الوجود بين سكناها والأكل منها ، وسواء قدموا (الحطة) على دخول الباب أو أخروها ، فهم جامعون في الإيجاد بينهما ، وترك ذكر الرغد لا يناقض إثباته ، وقوله تعالى : ﴿ نَّغْفِرْ لَكُمْ خطاياكم سَنَزِيدُ المحسنين ﴾ [الأعراف : 161] موعد بشيئين بالغفران والزيادة ، وطرح الواو لا يخل لأنه استئناف مرتب على تقدير قول القائل : ماذا بعد الغفران ؟ فقيل له : ﴿ سَنَزِيدُ المحسنين ﴾ وكذلك زيادة ﴿ مِنْهُمْ ﴾ زيادة بيان و ﴿ فَأَرْسَلْنَا ﴾ [

الأعراف : 162] و ﴿ أَنزَلْنَا ﴾ [البقرة : 57] و ﴿ يَظْلِمُونَ ﴾ [الأعراف : 162] و ﴿ يَفْسُقُونَ ﴾ [البقرة : 59] من دار واحد ، انتهى .

(173/52)

وبالجملة التفنن في التعبير لم يزل دأب البلغاء ، وفيه من الدلالة على رفعة شأن المتكلم ما لا يخفى ، والقرآن الكريم مملوء من ذلك ، ومن رام بيان سر لكل ما وقع فيه منه فقد رام ما لا سبيل إليه إلا بالكشف الصحيح والعلم اللدني ، والله يؤتي فضله من يشاء ، وسبحان من لا يحيط بأسرار كتابه إلا هو .

ومن باب الإشارة في الآيات (1) : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ ﴾ لموسى القلب ﴿ لَن نُّؤْمِنَ ﴾ الإيمان الحقيقي حتى نصل إلى مقام المشاهدة والعيان ﴿ فَأَخَذَتْكُمُ ﴾ [البقرة : 55] صاعقة الموت الذي هو الفناء في التجلي الذاتي وأنتم تراقبون أو تشاهدون ﴿ ثُمَّ بعثناكم ﴾ [البقرة : 56] بالحياة الحقيقية والبقاء بعد الفناء لكي تشكروا نعمة التوحيد والوصول بالسلوك في الله عز وجل ، ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ﴾ غمام تجلي الصفات لكونها حجب الذات المحرقة سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره .

﴿ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ﴾ من الأحوال والمقامات الذوقية الجامعة بين الحلاوة وإذهاب رذائل

أخلاق النفس ، كالتوكل والرضا وسلوى الحكم والمعارف والعلوم الحقيقية التي يحشرها عليكم ريح الرحمة ، والنفحات الإلهية في تيه الصفات عند سلوككم فيها ، فتسلون بذلك (السلوى) وتنسون من لذائذ الدنيا كل ما يشتهى ﴿ كُلُواْ ﴾ أي تناولوا وتلقوا هذه الطيبات التي رزقتموها حسب استعدادكم ، وأعطيتموها على ما وعد لكم ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا ﴾ أي ما نقصوا حقوقنا وصفاتنا باحتجابهم بصفات أنفسهم ، ولكن كانوا ناقصين حقوق أنفسهم بحرمانها وخسرانها ، وهذا هو الخسران المبين .

---

(1) التفسير الإشارى لا يمكن حمله على الحقيقة .

﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادخلوا هذه القرية ﴾ أي المحل المقدس الذي هو مقام المشاهدة ﴿ وادخلوا الباب ﴾ الذي هو الرضا بالقضاء ، فهو باب الله تعالى الأعظم ﴿ سُجَّدًا ﴾ منحنين خاضعين لما يرد عليكم من التجليات ، واطلبوا أن يحط الله تعالى عنكم ذنوب صفاتكم وأخلاقكم وأفعالكم ، فإن فعلتم ذلك ﴿ نَّغْفِرْ لَكُمْ خطاياكم ﴾ " فمن تقرب إليّ شبراً تقربت إليه ذراعاً .

ومن تقرب إليّ ذراعاً ، تقربت إليه باعاً .

ومن أتاني يمشي أتيته هرولة " ﴿ وَسَنَزِيدُ المحسنين ﴾ [البقرة : 58] أي المشاهدين " ما لا عين رأيت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر " وهل ذلك إلا الكشف التام عن الذات الأقدس .

﴿ فَبَدَّلَ الذين ظَلَمُواْ ﴾ أنفسهم وأضاعوها ووضعوها في غير موضعها اللائق بها ﴿ قَوْلاً غَيْرَ الذي قِيلَ لَهُمْ ﴾ ابتغاءً للحظوظ الفانية والشهوات الدنية .

﴿ فَأَنزَلْنَا ﴾ [البقرة : 59] على الظالمين خاصة ، عذاباً وظلمة وضيقاً في سجن الطبيعة ، وإسراً في وثاق التمني ، وقيد الهوى ، وحرماناً ، وذلاً بمحبة الماديات السفلية ، والإعراض عن هاتيك التجليات العلية ، وذلك من جهة قهر سماء الروح ، ومنع اللطف والروح عنهم بسبب فسقهم وخروجهم عن طاعة القلب الذي لا يأمر إلا بالهدى كما ورد في الأثر " إستفت قلبك وإن أفتاك المفتون " إلى طاعة النفس الأمارة بالسوء .

وهذا هو البلاء العظيم ، والخطب الجسيم .

من كان يرغب في السلامة فليكن . . .

أبداً من الحدق المراض عياذه

لا تخدعنك بالفتور فإنه . . .

نظر يضر بقلبك استلذاذه

إياك من طمع المنى فعزيزه . . .

كذليله ، وغنيه شحاذه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 266 . 269 ﴾

(175/52)

وقال ابن عاشور :

وقوله : ﴿ فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم ﴾ أي بدل العشرة القول الذي أمر موسى بإعلانه في القوم وهو الترغيب في دخول القرية وتهوين العدو عليهم فقالوا لهم : لا تستطيعون قتالهم وثبطوهم ولذلك عوقبوا فأنزل عليهم رجز من السماء وهو الطاعون . وإنما جعل من السماء لأنه لم يكن له سبب أرضي من عدوَى أو نحوها فعلم أنه رمتهم به الملائكة من السماء بأن ألقيت عناصره وجراثيمه عليهم فأصيبوا به دون غيرهم .

ولأجل هذا خص التبديل بفريق معروف عندهم فعبر عنه بطريق الموصولية لعلم المخاطبين به وبتلك الصلة فدل على أن التبديل ليس من فعل جميع القوم أو معظمهم لأن الآية تذكير لليهود بما هو معلوم لهم من حوادثهم .

وإنما جاء بالظاهر في موضع المضمر في قوله : ﴿ فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً ﴾ ولم يقل عليهم لئلا يتوهم أن الرجز عم جميع بني إسرائيل وبذلك تنطبق الآية على ما ذكرته التوراة

تمام الانطباق .

وتبديل القول تبديل جميع ما قاله الله لهم وما حدثهم الناس عن حال القرية ، وللإشارة إلى جميع هذا بني فعل ﴿ قيل ﴾ إلى المجهول إيجازاً .

فقولاً مفعول أو لبدّل ، و ﴿ غير الذي قيل ﴾ مفعول ثان لأن (بدل) يتعدى إلى مفعولين من باب كسى أي مما دل على عكس معنى كسى مثل سلَبه ثوبه .

قال أبو الشيص :

بُدِّلْتُ من بُرْد الشباب ملاءة . . .

خَلَقاً وبئس مثوبة المقتاض

وفائدة إظهار لفظ القول دون أن يقال فبدلوه لدفع توهم أنهم بدلوا لفظ حطة خاصة وامتثلوا ما عدا ذلك لأنه لو كان كذلك لكان الأمر هيناً .

وقد ورد في الحديث عن أبي هريرة أن القول الذي بدّلوا به أنهم قالوا : حبة في شَعَرة أو في شعيرة ، والظاهر أن المراد به أن العشرة استهزؤا بالكلام الذي أعلنه موسى عليه السلام في الترغيب في فتح الأرض وكنوا عن ذلك بأن محاولتهم فتح الأرض كمحاولة ربط حبة بشَعَرة أي في التعذر ، أو هو كأكل حبة مع شَعَرة تخنق آكلها ، أو حَبَّة من بُرّ مع شعيرة .

وقوله : ﴿ فبدل الذين ظلموا ﴾ وقوله : ﴿ فأنزلنا على الذين ظلموا ﴾ اعتنى فيهما بالإظهار في موضع الإضمار ليعلم أن الرجز خص الذين بدّلوا القول وهم العشرة الذين أشاعوا مذمة الأرض لأنهم كانوا السبب في شقاء أمة كاملة .

وفي هذا موعظة وذكرى لكل من ينصب نفسه لإرشاد قوم ليكون على بصيرة بما يأتي ويذر وعلم بعواقب الأمور فمن البر ما يكون عقوقاً ، وفي المثل " على أهلها تجني براقش " وهي اسم كلبة قوم كانت تحرسهم بالليل فدل نبحها أعداءهم عليهم فاستأصلوهم فضربت مثلاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 1 صـ 499. 500 ﴾

سؤال : " لماذا خص الرجز بأنه من السماء " ؟

الجواب : قال الراغب :

وتخصيص قوله [رجزاً من السماء] هو أن العذاب ضربان : ضرب قد يمكن – على بعض الوجوه – دفاعه أو يظن أنه يمكن فيه ذلك, وهو كل عذاب على يد آدمي, أو من جهة المخلوقات, كالهدم والغرق, وضرب لا يمكن – ولا يظن – دفاعه بقوة آدمي, كالطاعون, والصاعقة والموت, وهي المعني بقوله [رجزاً من السماء] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 2 صـ 345 ﴾

ومن فوائد ابن عرفة فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ فَبَدَّلَ الذين ظَلَمُواْ قَوْلاً غَيْرَ الذي قِيلَ لَهُمْ . . . ﴾ .

قال ابن عرفة : يكون القول بذاته مصروفا (لنقيض) الشّيء ، فينصرف إلى ذلك الشيء باعتبار حال المخاطب ، وعَبّر بـ " الَّذِينَ ظَلَمُواْ " ولم يقل : فَبَدَّلَ الظالمون ، لأن تعليق الذم على الوصف الأعم يستلزم الذم على الأخص من باب أحرى ، (وكذلك ذمّهم على) تبديل القول يستلزم (ذمهم) على تبديل الكلام (من باب أحرى) لأنه إذا (بدل) أحد قرار المركب انتفى عنه التركيب .

فإن قلت : هؤلاء إنما بدلوا غير القول الذي قيل لهم ، ومن بدل غير (ما) قيل له يذم ، وإنّما يذم من بدل لا ما قيل له (بغيره) ؟

فالجواب بوجوه : إما بأن في الآية حذفا ، أي فبدل الذين ظلموا فقالوا قولا غير الذي قيل لهم ، ويكون ذلك تفسيرا للتبديل كيف هو ، وإما بأن (يشوب) " بدل " معنى أتى أي فأتى الذين ظلموا قولا غير الذي قيل لهم ، وإما بأن يكون " بدل " (تعدى) إلى الثاني على

إسقاط حرف الجر أي فبدل الذين ظلموا قولا بغير الذي قيل لهم .

وذكر أبو حيان أن البدل قد يتعدى إلى المبدل وهو المعطي بنفسه وإلى (المبدل به) وهو المأخوذ بواسطة حرف الجر وأنشد عليه :

وبدلت والدهر ذو تبدل . . .

(هيفا) دبورا بالصبا والشمأل

(178/52)

والتقدير هنا فبدل الذين ظلموا قولا غير الذي قيل لهم بالقول الذي قيل لهم .

قال ابن عرفة : وهو كقوله عز وجل : ﴿ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ﴾ ق ابن عرفة : وأخذ منه منع نقل الحديث بالمعنى ، (ورد بأنهم) إنما ذموا على تبديل اللّفظ والمعنى .

و(أجيب) بأن الذم إنما علل (بتبديلهم القول ، والقول إنما يطلق على اللفظ فقط) وأيضا فلعل هذه اللّفظة متعبد بها فلذلك ذموا على تبديلها .

(ورده) ابن عرفة (بأنه يلزمكم) التعليل بأمرين .

قال القاضي أبو جعفر بن الزبير : وقال هنا ﴿ فَبَدَّلَ الذين ظَلَمُواْ ﴾ فعمم ثم خصص ذلك العموم بالأعراف بزيادة منهم لأن المخاطبين ليسوا سواء في الامتثال قال الله عز وجل :

﴿ مِّنْهُمُ المؤمنون وَأَكْثَرُهُمُ الفاسقون ﴾ ولذلك أعاد الظاهر فقال : ﴿ فَأَنزَلْنَا عَلَى الذين ظَلَمُواْ ﴾ (التخصص) العقوبة بالظالمين ، ولو قال : عليهم لاحتمل العموم وهو غير مقصود . قال : فإن قلت لم قال هنا : ﴿ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾ وفي الأعراف ﴿ بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ ﴾ وأجاب بأنه في البقرة وصفهم أولا بالوصف الأعم الصادق على أدنى المعاصي وأعلاها وهو الظلم ثم بالأخص وهو الفسق فقال : ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا ولكن كانوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ ثم قال هنا : ﴿ رِجْزاً مِّنَ السمآء بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾ وفي الأعراف وصفهم بالظلم في قوله : ﴿ بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ ﴾ ثم بالفسق فقال : ﴿ وَسْئَلْهُمْ عَنِ القرية التي كَانَتْ حَاضِرَةَ البحر ﴾ إلى قوله ﴿ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عرفة صـ 301.299 ﴾

(179/52)

من فوائد الإمام الجصاص فى الآية

قال رحمه الله :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ ﴾ يُحْتَجُّ بِهَا فِيمَا وَرَدَ مِنْ التَّوْقِيفِ فِي الْأَذْكَارِ وَالْأَقْوَالِ بِأَنَّهُ غَيْرُ جَائِزٍ تَغْيِيرُهَا وَلَا تَبْدِيلُهَا إلَى غَيْرِهَا وَرُبَّمَا احْتَجَّ بِهِ

عَلَيْنَا الْمُخَالِفُ فِي تَجْوِيزِنَا تَحْرِيمَةَ الصَّلَاةِ بِلَفْظِ التَّعْظِيمِ وَالتَّسْبِيحِ ، وَفِي تَجْوِيزِ الْقِرَاءَةِ بِالْفَارِسِيَّةِ عَلَى مَذْهَبِ أَبِي حَنِيفَةَ ، وَفِي تَجْوِيزِ النِّكَاحِ بِلَفْظِ الْهِبَةِ ، وَالْبَيْعِ بِلَفْظِ التَّمْلِيكِ ، وَمَا جَرَى مَجْرَى ذَلِكَ وَهَذَا لَا يَلْزَمُنَا فِيمَا ذَكَرْنَا لِأَنَّ قَوْله تَعَالَى : ﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ إنَّمَا هُوَ فِي الْقَوْمِ الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ : ﴿ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ ﴾ يَعْنِي حُطَّ عَنَّا ذُنُوبَنَا قَالَ الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ : قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : " أُمِرُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا " .

وَرُوِيَ عَنْهُ أَيْضًا أَنَّهُمْ أُمِرُوا أَنْ يَقُولُوا : هَذَا الْأَمْرُ حَقٌّ ، كَمَا قِيلَ لَكُمْ وَقَالَ عِكْرِمَةُ : " أُمِرُوا أَنْ يَقُولُوا لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ فَقَالُوا بَدَلَ هَذَا حِنْطَةٌ حَمْرَاءُ تَجَاهُلًا وَاسْتِهْزَاءً " وَرُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَغَيْرِهِ مِنْ الصَّحَابَةِ وَعَنْ الْحَسَنِ : " إنَّمَا اسْتَحَقُّوا الذَّمَّ لِتَبْدِيلِهِمْ الْقَوْلَ إلَى لَفْظٍ فِي ضِدِّ الْمَعْنَى الَّذِي أُمِرُوا بِهِ " ؛ إذْ كَانُوا مَأْمُورِينَ بِالِاسْتِغْفَارِ وَالتَّوْبَةِ فَصَارُوا إلَى الْإِصْرَارِ وَالِاسْتِهْزَاءِ .

(180/52)

فَأَمَّا مِنْ غَيْرِ اللَّفْظِ مَعَ اتِّفَاقِ الْمَعْنَى فَلَمْ تَتَنَاوَلْهُ الْآيَةُ ؛ إذْ كَانَتْ الْآيَةُ إنَّمَا تَضَمَّنَتْ الْحِكَايَةَ عَنْ فِعْلِ قَوْمٍ غَيَّرُوا اللَّفْظَ وَالْمَعْنَى جَمِيعًا فَأُلْحِقَ بِهِمْ الذَّمَّ بِهَذَا الْقَوْلِ وَإِنَّمَا يُشَارِكُهُمْ فِي الذَّمِّ مَنْ يُشَارِكُهُمْ فِي الْفِعْلِ مِثْلًا بِمِثْلٍ ، فَأَمَّا مَنْ غَيَّرَ اللَّفْظَ وَأَتَى بِالْمَعْنَى فَلَمْ تَتَضَمَّنْهُ الْآيَةُ ، وَإِنَّمَا

نَظِيرُ فِعْلِ الْقَوْمِ إجَازَةُ مَنْ يُجِيزُ الْمُتْعَةَ مَعَ قَوْله تَعَالَى : ﴿ إلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ فَقَصْرَ اسْتِبَاحَةِ الْبُضْعِ عَلَى هَذَيْنِ الْوَجْهَيْنِ ، فَمَنْ اسْتَبَاحَهُ بِلَفْظِ الْمُتْعَةِ مَعَ مُخَالَفَةِ النِّكَاحِ وَمِلْكِ الْيَمِينِ مِنْ جِهَةِ اللَّفْظِ وَالْمَعْنَى فَهَذَا الَّذِي يَجُوزُ أَنْ يَلْحَقَهُ الذَّمُّ بِحُكْمِ الْآيَةِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 1 صـ 39. 40 ﴾

ومن فوائد ابن العربى فى الآية

قال رحمه الله :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ ﴾ قَالَ بَعْضُ عُلَمَائِنَا : قِيلَ لَهُمْ قُولُوا حِطَّةٌ ، فَقَالُوا : سقماثاه أزه هَذَا ، مَعْنَاهُ حَبَّةٌ مَقْلُوَّةٌ فِي شَعْرَةٍ مَرْبُوطَةٍ ، اسْتِخْفَافًا مِنْهُمْ بِالدِّينِ وَمُعَانَدَةً لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْحَقِّ .

وَقَدْ قَالَ بَعْضُ مَنْ تَكَلَّمَ فِي الْقُرْآنِ : إنَّ هَذَا الذَّمَّ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ تَبْدِيلَ الْأَقْوَالِ الْمَنْصُوصِ عَلَيْهَا لَا يَجُوزُ .

(181/52)

وَهَذَا الْإِطْلَاقُ فِيهِ نَظَرٌ ؛ وَسَبِيلُ التَّحْقِيقِ فِيهِ أَنْ نَقُولَ : إنَّ الْأَقْوَالَ الْمَنْصُوصَ عَلَيْهَا فِي الشَّرِيعَةِ لَا يَخْلُو أَنْ يَقَعَ التَّعَبُّدُ بِلَفْظِهَا ، أَوْ يَقَعَ التَّعَبُّدُ بِمَعْنَاهَا ، فَإِنْ كَانَ التَّعَبُّدُ وَقَعَ بِلَفْظِهَا فَلَا

يَجُوزُ تَبْدِيلُهَا .

وَإِنْ وَقَعَ التَّعَبُّدُ بِمَعْنَاهَا جَازَ تَبْدِيلُهَا بِمَا يُؤَدِّي ذَلِكَ الْمَعْنَى ، وَلَا يَجُوزُ تَبْدِيلُهَا بِمَا يَخْرُجُ عَنْهُ ، وَلَكِنْ لَا تَبْدِيلَ إِلَّا بِاجْتِهَادٍ .

وَمِنْ الْمُسْتَقِلِّ بِالْمَعْنَى الْمُسْتَوْفِي لِذَلِكَ الْعَالِمِ بِأَنَّ اللَّفْظَيْنِ الْأَوَّلَ وَالثَّانِيَ الْمَحْمُولُ عَلَيْهِ طِبْقُ الْمَعْنَى .

وَبَنُو إِسْرَائِيلَ قِيلَ لَهُمْ قُولُوا : حِطَّةٌ ، أَيْ اللَّهُمَّ احْطُطْ عَنَّا ذُنُوبَنَا .

فَقَالُوا اسْتِخْفَافًا : حَبَّةٌ مَقْلُوَّةٌ فِي شَعْرَةٍ [فَبَدَّلُوهُ بِمَا لَا يُعْطِي مَعْنَاهُ] .

وَلَوْ بَدَّلُوهُ بِمَا لَا يُعْطَى مَعْنَاهُ جِدًّا لَمْ يَجُزْ ؛ فَهَذَا أَعْظَمُ فِي الْبَاطِلِ وَهُوَ الْمَمْنُوعُ الْمَذْمُومُ مِنْهُمْ .

وَيَتَعَلَّقُ بِهَذَا الْمَعْنَى نَقْلُ الْحَدِيثِ بِغَيْرِ لَفْظِهِ إِذَا أَدَّى مَعْنَاهُ .

وَقَدْ اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي ذَلِكَ ؛ فَالْمَرْوِيُّ عَنْ وَاثِلَةَ بْنِ الْأَسْقَعِ جَوَازُهُ ؛ قَالَ : لَيْسَ كُلُّ مَا أَخْبَرَنَا بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَنْقُلُهُ بِلَفْظِهِ ؛ حَسْبُكُمْ الْمَعْنَى .

وَقَدْ بَيَّنَّا فِي أُصُولِ الْفِقْهِ ؛ وَأَذْكُرُ لَكُمْ فِيهِ فَصْلًا بَدِيعًا ؛ وَهُوَ أَنَّ هَذَا الْخِلَافَ إنَّمَا يَكُونُ فِي عَصْرِ الصَّحَابَةِ وَمِنْهُمْ ، وَأَمَّا مَنْ سِوَاهُمْ فَلَا يَجُوزُ لَهُمْ تَبْدِيلُ اللَّفْظِ بِالْمَعْنَى ، وَإِنْ اسْتَوْفَى ذَلِكَ الْمَعْنَى ؛ فَإِنَّا لَوْ جَوَّزْنَاهُ لِكُلِّ أَحَدٍ لَمَا كُنَّا عَلَى ثِقَةٍ مِنْ الْأَخْذِ بِالْحَدِيثِ ؛ إذْ كُلُّ أَحَدٍ إلَى زَمَانِنَا هَذَا قَدْ بَدَّلَ مَا نَقَلَ ، وَجَعَلَ الْحَرْفَ بَدَلَ الْحَرْفِ فِيمَا رَوَاهُ ؛ فَيَكُونُ خُرُوجًا مِنْ الْإِخْبَارِ بِالْجُمْلَةِ .

وَالصَّحَابَةُ بِخِلَافِ ذَلِكَ فَإِنَّهُمْ اجْتَمَعَ فِيهِمْ أَمْرَانِ عَظِيمَانِ : أَحَدُهُمَا : الْفَصَاحَةُ وَالْبَلَاغَةُ ؛ إذْ جِبِلَّتُهُمْ عَرَبِيَّةٌ ، وَلُغَتُهُمْ سَلِيقَةٌ .

وَالثَّانِي : أَنَّهُمْ شَاهَدُوا قَوْلَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَفِعْلَهُ ، فَأَفَادَتْهُمْ الْمُشَاهَدَةُ عَقْلَ الْمَعْنَى جُمْلَةً ، وَاسْتِيفَاءَ الْمَقْصِدِ كُلِّهِ ؛ وَلَيْسَ مَنْ أَخْبَرَ كَمَنْ عَايَنَ .

أَلَا تَرَاهُمْ يَقُولُونَ فِي كُلِّ حَدِيثٍ : أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِكَذَا ، وَنَهَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ كَذَا ، وَلَا يَذْكُرُونَ لَفْظَهُ ، وَكَانَ ذَلِكَ خَبَرًا صَحِيحًا وَنَقْلًا لَازِمًا ؛ وَهَذَا لَا يَنْبَغِي أَنْ يَسْتَرِيبَ فِيهِ مُنْصِفٌ لِبَيَانِهِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أحكام القرآن لابن العربى حـ 1 صـ 34. 36﴾

ومن فوائد صاحب المنار فى الآيات السابقة

قال رحمه الله :

(وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ) .

أَيْ : وَاذْكُرُوا مِنْ نِعَمِنَا عَلَيْكُمْ إِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهِ طَرِيقًا يَبَسًا سَلَكْتُمُوهُ فِي هَرَبِكُمْ مِنْ فِرْعَوْنَ (فَأَنْجَيْنَاكُمْ) بِعُبُورِهِ مِنْ جَانِبٍ إِلَى آخَرَ (وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ) إِذْ عَبَرُوا وَرَاءَكُمْ (وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ) ذَلِكَ بِأَعْيُنِكُمْ ، لَوْلَاهُ لَعَظُمَ عَلَيْكُمْ خَبَرُ غَرَقِهِمْ وَلَمْ تُصَدِّقُوهُ

.

(قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ) : فَلْقُ الْبَحْرِ كَانَ مِنْ مُعْجِزَاتِ مُوسَى . وَقَدْ قُلْنَا فِي " رِسَالَةِ التَّوْحِيدِ " : إِنَّ الْخَوَارِقَ الْجَائِزَةَ عَقْلًا ، أَيِ الَّتِي لَيْسَ فِيهَا اجْتِمَاعُ النَّقِيضَيْنِ ، وَلَا

ارْتِفَاعُهُمَا لَا مَانِعَ مِنْ وُقُوعِهَا بِقُدْرَةِ اللهِ – تَعَالَى – فِي يَدِ نَبِيٍّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ ، وَيَجِبُ أَنْ نُؤْمِنَ بِهَا عَلَى ظَاهِرِهَا ، وَلَا يَمْنَعُنَا هَذَا الْإِيمَانُ مِنَ الِاهْتِدَاءِ بِسُنَنِ اللهِ – تَعَالَى – فِي الْخَلْقِ وَاعْتِقَادِ أَنَّهَا لَا تَتَبَدَّلُ وَلَا تَتَحَوَّلُ ، كَمَا قَالَ اللهُ فِي كِتَابِهِ الَّذِي خَتَمَ بِهِ الْوَحْيَ ، عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ الَّذِي خَتَمَ بِهِ النَّبِيِّينَ ، فَانْتَهَى بِذَلِكَ زَمَنُ الْمُعْجِزَاتِ ، وَدَخَلَ الْإِنْسَانُ بِدِينِ الْإِسْلَامِ فِي

سِنّ الرُّشْدِ ، فَلَمْ تَعُدْ مُدْهِشَاتُ الْخَوَارِقِ هِيَ الْجَاذِبَةُ لَهُ إلَى الْإِيمَانِ وَتَقْوِيمِ مَا يَعْرِضُ لِلْفِطْرَةِ مِنَ الْمَيْلِ عَنِ الِاعْتِدَالِ فِي الْفِكْرِ وَالْأَخْلَاقِ وَالْأَعْمَالِ ، كَمَا كَانَ فِي سِنّ الطُّفُولِيَّةِ (النَّوْعِيَّةِ) بَلْ أَرْشَدَهُ – تَعَالَى – بِالْوَحْيِ الْأَخِيرِ (الْقُرْآنِ) إلَى اسْتِعْمَالِ عَقْلِهِ فِي تَحْصِيلِ الْإِيمَانِ بِاَللهِ وَبِالْوَحْيِ ، ثُمَّ جَعَلَ لَهُ كُلَّ إرْشَادَاتِ الْوَحْيِ مُبَيِّنَةً مُعَلِّلَةً مُدَلِّلَةً حَتَّى فِي مَقَامِ الْأَدَبِ (كَمَا أَوْضَحْنَا ذَلِكَ فِي رِسَالَةِ التَّوْحِيدِ) . فَإِيمَانُنَا بِمَا أَيَّدَ اللهُ – تَعَالَى – بِهِ الْأَنْبِيَاءَ مِنَ الْآيَاتِ لِجَذْبِ قُلُوبِ أَقْوَامِهِمُ الَّذِينَ لَمْ تَرْتَقِ عُقُولُهُمْ إلَى فَهْمِ الْبُرْهَانِ ، لَا يُنَافِي كَوْنَ دِينِنَا هُوَ دِينُ الْعَقْلِ وَالْفِطْرَةِ ، وَكَوْنِهِ حَتَّمَ عَلَيْنَا الْإِيمَانَ بِمَا يَشْهَدُ لَهُ الْعِيَانُ ، مِنْ أَنَّ سُنَنَهُ – تَعَالَى – فِي الْخَلْقِ لَا تَبْدِيلَ لَهَا وَلَا تَحْوِيلَ .

(185/52)

(أَقُولُ) : وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ أَنَّ الَّذِي يَمْنَعُهُ الْعَقْلُ هُوَ وُقُوعُ الْمُحَالِ ، فَلَا يُمْكِنُ أَنْ يُؤَيِّدَ نَبِيٌّ بِمَا هُوَ مُسْتَحِيلٌ عَقْلًا ؛ لِأَنَّ الْمُسْتَحِيلَ هُوَ الَّذِي لَا يُمْكِنُ وُقُوعُهُ ، وَمَا وَقَعَ لَا يَكُونُ مُسْتَحِيلًا ، وَلِذَلِكَ سَمَّى الْمُتَكَلِّمُونَ الْمُعْجِزَاتِ " خَوَارِقَ الْعَادَاتِ " وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ : إنَّ لَهَا أَسْبَابًا خَفِيَّةً رُوحِيَّةً لَمْ يُطْلِعِ اللهُ الْأُمَمَ عَلَيْهَا وَلَكِنَّهُ خَصَّ بِهَا الْأَنْبِيَاءَ – عَلَيْهِمُ السَّلَامُ – ، وَالْمَشْهُورُ : أَنَّ اللهَ يَخْلُقُهَا بِغَيْرِ سَبَبٍ لِتَدُلَّ عَلَى أَنَّ السُّنَنَ وَالنَّوَامِيسَ لَا تَحْكُمُ عَلَى

وَاضِعِهَا وَمُدَبِّرِهَا ، وَإِنَّمَا هُوَ الْحَاكِمُ الْمُتَصَرِّفُ بِهَا ، وَإِنَّمَا كَانَ هَذَا هُوَ الْمَشْهُورُ ؛ لِأَنَّهُ الظَّاهِرُ ، وَإِلَّا فَمَنْ ذَا الَّذِي يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْفِيَ ذَلِكَ النَّفْيَ الْمُطْلَقَ عَنْ عَالَمِ الْغَيْبِ ؟ وَقَدْ ذَكَرَ الْقَوْلَيْنِ الْإِمَامُ الْغَزَالِيُّ وَأَشَارَ إلَيْهِمَا الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ فِي رِسَالَةِ التَّوْحِيدِ .

(186/52)

(قَالَ) : وَزَعَمَ الَّذِينَ لَا يُحِبُّونَ الْمُعْجِزَاتِ مِنَ الْمُتَهَوِّرِينَ أَنَّ عُبُورَ بَنِي إسْرَائِيلَ الْبَحْرَ كَانَ فِي إبَّانِ الْجَزْرِ ، فَإِنَّ فِي الْبَحْرِ الْأَحْمَرِ رُقَارِقَ إذَا كَانَ الْجَزْرُ الَّذِي عُهِدَ هُنَاكَ شَدِيدًا يَتَيَسَّرُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَعْبُرَ مَاشِيًا ، وَلَمَّا أَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ وَرَآهُمْ قَدْ عَبَرُوا الْبَحْرَ تَأَثَّرَهُمْ ، وَكَانَ الْمَدُّ تَفِيضُ ثَوَائِبُهُ (وَهِيَ الْمِيَاهُ الَّتِي تَجِيءُ عُقَيْبَ الْجَزْرِ) فَلَمَّا نَجَا بَنُو إسْرَائِيلَ ، كَانَ الْمَدُّ قَدْ طَغَى وَعَلَا حَتَّى أَغْرَقَ الْمِصْرِيِّينَ ، وَتَحَقَّقُ إنْعَامِ

اللَّهِ عَلَى بَنِي إسْرَائِيلَ يَتِمُّ بِهَذَا التَّوْفِيقِ لَهُمْ وَالْخِذْلَانِ لِعَدُوِّهِمْ ، وَلَا يُنَافِي الِامْتِنَانَ بِهِ عَلَيْهِمْ كَوْنُهُ لَيْسَ آيَةً لِمُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ . فَإِنَّ نِعَمَ اللَّهِ بِغَيْرِ طَرِيقِ الْمُعْجِزَاتِ أَعَمُّ وَأَكْثَرُ ، كَذَا قَالُوا . قَالَ شَيْخُنَا : وَلَكِنْ يَدُلُّ عَلَى كَوْنِهِ آيَةً لَهُ وَصْفُ كُلِّ فِرْقٍ مِنْهُ بِالطَّوْدِ الْعَظِيمِ . وَإِذَا تَيَسَّرَ تَأْوِيلُ كُلِّ آيَاتِ الْقِصَّةِ مِنَ الْقُرْآنِ فَإِنَّهُ يَتَعَسَّرُ تَأْوِيلُ قَوْلِهِ - تَعَالَى - فِي سُورَةِ الشُّعَرَاءِ : (فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ) (26 : 63) وَهُوَ الْمُوَافِقُ لِمَا فِي التَّوْرَاةِ اهـ .

وَيَقُولُ الْمُؤَوِّلُونَ : إنَّهُمْ لَمَّا عَبَرُوا انْفَرَقَ بِهِمْ ، وَكَانُوا لِاسْتِعْجَالِهِمْ وَاتِّصَالِ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ قَدْ جَعَلُوا ذَلِكَ الْمَاءَ الرَّقَارِقَ فِرْقَيْنِ عَظِيمَيْنِ مُمْتَدَّيْنِ كَالطَّوْدَيْنِ ، وَأَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ تُشْعِرُ بِذَلِكَ ، فَإِنَّهُ يَقُولُ : (وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ) وَلَمْ يَقُلْ : فَرَقْنَا لَكُمُ الْبَحْرَ ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْبَاءَ هُنَا لِلْآلَةِ ، كَمَا تَقُولُ : قَطَعْتُ بِالسِّكِّينِ . وَأَمَّا قَوْلُهُ - تَعَالَى - : (فَأَوْحَيْنَا إلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ) (26 : 63) فَإِنَّهُ لَا يُنَافِي أَنَّ الِانْفِلَاقَ كَانَ بِهِمْ كَمَا فِي آيَةِ الْبَقَرَةِ لَا بِالْعَصَا ، وَذَلِكَ أَنَّ الَّذِي أَوْحَاهُ اللَّهُ - تَعَالَى - إلَى مُوسَى هُوَ أَنْ يَخُوضَ الْبَحْرَ بِبَنِي إسْرَائِيلَ ، وَقَدْ عُهِدَ أَنَّ مَنْ كَانَ بِيَدِهِ عَصًا إذَا أَرَادَ الْخَوْضَ فِي مَاءٍ كَثُرْعَةٍ أَوْ نَهْرٍ ، فَإِنَّهُ يَضْرِبُ الْمَاءَ أَوَّلًا بِعَصَاهُ ثُمَّ يَمْشِي ، فَهَذِهِ الْآيَةُ مُعَبِّرَةٌ عَنْ هَذَا الْمَعْنَى : أَيْ أَلْهَمَهُ اللَّهُ عِنْدَ مَا وَصَلَ إلَى الْبَحْرِ أَنْ يَضْرِبَهُ بِعَصَاهُ وَيَمْشِيَ ، فَفَعَلَ وَمَشَى وَرَاءَهُ بَنُو إسْرَائِيلَ بِجَمْعِهِمُ الْكَبِيرِ ، فَانْفَلَقَ بِهِمُ الْبَحْرُ . وَأَمَّا قَوْلُهُ - تَعَالَى - : (فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ) (26 : 63) فَهُوَ تَشْبِيهٌ مَعْهُودٌ مِثْلُهُ فِي مَقَامِ الْمُبَالَغَةِ ، كَقَوْلِهِ - تَعَالَى - : (وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ) (11 : 42) وَقَوْلِهِ : (وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِي فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ) (42 : 32) فَالْأَمْوَاجُ وَالسُّفُنُ وَالْجَوَارِي لَا تَكُونُ

(188/52)

كَالْجِبَالِ الشَّاهِقَةِ ، وَالْأَعْلَامِ الْبَاسِقَةِ ، وَإِنَّمَا تَقْضِي الْبَلَاغَةُ بِمِثْلِ هَذَا التَّعْبِيرِ ، لِكَمَالِ التَّصْوِيرِ وَإِرَادَةِ التَّأْثِيرِ .

هَذَا مَا يَنْتَهِي إِلَيْهِ تَأْوِيلُ الْمُؤَوِّلِينَ وَلَمْ يَبْسُطْهُ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ فِي الدَّرْسِ ، وَإِنَّمَا قَرَّرَ أَنَّ فَرْقَ الْبَحْرِ كَانَ مُعْجِزَةً لِمُوسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ – ، وَحَكَى عَنِ الْمُتَهَوِّرِينَ مِنَ الَّذِينَ لَا يُحِبُّونَ الْمُعْجِزَاتِ خِلَافَهُ ، وَهُوَ أَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ عُبُورَ الْبَحْرِ كَانَ فِي وَقْتِ الْجَزْرِ ، وَإِنَّمَا بَسَطْنَا تَأْوِيلَهُمْ لِئَلَّا يَتَوَهَّمُوا أَنَّنَا لَمْ نَقِفْ بِهِ ؛ لِأَنَّنَا لَمْ نَهْتَدِ لِتَوْجِيهِهِ مِثْلَهُمْ ، وَلَا يَهِمُّنَا أَنْ نُنَازِعَهُمْ فِي تَأْوِيلِ آيَةٍ بِخُصُوصِهَا إِذَا عَلِمْنَا أَنَّهُمْ يُثْبِتُونَ الْآيَاتِ الْكَوْنِيَّةَ تَأْيِيدًا

(189/52)

لِلْأَنْبِيَاءِ – عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ – ، فَإِذَا كَانُوا يَنْفُونَهَا كُلَّهَا فَالْأَوْلَى لَهُمْ أَلَّا يَتْعَبُوا فِي تَأْوِيلِ جُزْئِيَّاتِهَا ، فَإِنَّ مِنْهَا مَا لَا يَقْبَلُ التَّأْوِيلَ بِحَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ ، وَحِينَئِذٍ يَكُونُ الْكَلَامُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ لِإِثْبَاتِهَا أَوَّلًا فِي قُدْرَةِ اللهِ وَإِرَادَتِهِ ، ثُمَّ فِي إِثْبَاتِ أَصْلِ الْوَحْيِ وَإِرْسَالِ الرُّسُلِ ، وَاللهُ يَهْدِي

مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ، وَلَنَا أَنْ نَقُولَ هُنَا : إِنَّ الْبَاءَ فِي قَوْلِهِ (بِكُمْ) سَبَبِيَّةٌ ، أَوْ لِلْمُلَابَسَةِ لَا لِلْآلَةِ ، وَقَدْ أَشَارَ الْبَيْضَاوِيُّ إِلَى ذَلِكَ كُلِّهِ بِقَوْلِهِ : فَقُلْنَاهُ وَفَصَلْنَا بَيْنَ بَعْضِهِ وَبَعْضٍ حَتَّى حَصَلَتْ فِيهِ مَسَالِكُ لِسُلُوكِكُمْ فِيهِ أَوْ بِسَبَبِ إِنْجَائِكُمْ ، أَوْ مُتَلَبِّسًا بِكُمْ .

وَأَزِيدُ الْآنَ : أَنِّي رَأَيْتُ بَعْدَ كِتَابَةِ مَا تَقَدَّمَ بِبِضْعِ سِنِينَ جُزْءًا مِنْ تَفْسِيرِ الْأَصْبَهَانِيِّ فِي خِزَانَةِ كُتُبِ كُوبْرِيلِي بَاشَا فِي الْآسِتَانَةِ ، فَرَاجَعْتُ تَفْسِيرَ هَذِهِ الْآيَةِ فِيهِ فَأَلْفَيْتُهُ يَذْكُرُ فِي الْبَاءِ الْوَجْهَيْنِ ، أَيْ : إِنَّ فَرْقَ الْبَحْرِ حَصَلَ بِهِمْ ، أَيْ : بِنَفْسِ عُبُورِهِمْ أَوْ بِسَبَبِهِمْ . وَمِثْلُهُ قَوْلُ الْبَغَوِيِّ : قِيلَ : مَعْنَاهُ فَرَقْنَاهُ لَكُمْ ، وَقِيلَ : فَرَقْنَا الْبَحْرَ بِدُخُولِكُمْ إِيَّاهُ .

(190/52)

قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : بَعْدَ أَنْ قَرَّرَ نِعْمَةَ الْإِنْجَاءِ مِنِ اسْتِبْعَادِ الظَّالِمِينَ ، وَالْبُعْدِ مِنْ فِتْنَةِ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ، ذَكَرَ النِّعْمَةَ الَّتِي وَلِيَتْهَا ، وَذَكَّرَهُمْ بِمَا كَانَ مِنْ كُفْرِهِمْ إِيَّاهَا ، فَقَالَ : (وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً) وَقَدْ كَانَتْ هَذِهِ الْمُوَاعَدَةُ لِإِعْطَائِهِ التَّوْرَاةَ ، وَلَمَّا ذَهَبَ لِمِيقَاتِ رَبِّهِ اسْتَبْطَئُوهُ فَاتَّخَذُوا عِجْلًا مِنْ ذَهَبٍ فَعَبَدُوهُ ، كَمَا هُوَ مُفَصَّلٌ فِي غَيْرِ هَذِهِ السُّورَةِ – وَسَيَأْتِي هُنَاكَ تَفْسِيرُهُ إِنْ شَاءَ اللهُ – تَعَالَى – وَالْمُرَادُ هُنَا التَّذْكِيرُ بِالنِّعْمَةِ وَبَيَانُ كُفْرِهَا ؛ لِيَظْهَرَ أَنَّ تَكْذِيبَهُمْ بِمُحَمَّدٍ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَمُعَانَدَتَهُ لَيْسَ بِبِدْعٍ مِنْ أَمْرِهِمْ ،

وَإِنَّمَا هُوَ مَعْهُودٌ مِنْهُمْ مَعَ رُؤْيَةِ الْآيَاتِ وَبَعْدَ إِغْدَاقِ النِّعَمِ عَلَيْهِمْ ؛ وَلِذَلِكَ اكْتَفَى بِالْإِشَارَةِ إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ : (ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ) أَيِ : اتَّخَذْتُمُوهُ إِلَهًا وَمَعْبُودًا . وَبَعْدَ أَنْ ذَكَّرَهُمْ بِذَلِكَ الظُّلْمِ ذَكَّرَهُمْ بِتَفَضُّلِهِ عَلَيْهِمْ بِالتَّوْبَةِ ، ثُمَّ بِالْعَفْوِ الَّذِي هُوَ جَزَاءُ التَّوْبَةِ ، فَقَالَ : (ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) هَذِهِ النِّعْمَةَ بِدَوَامِ التَّوْحِيدِ وَالطَّاعَةِ . ثُمَّ قَفَّى عَلَى هَذَا بِذِكْرِ إِيتَائِهِمُ الْكِتَابَ وَهُوَ الْمِنَّةُ الْكُبْرَى ، فَقَالَ : (وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) . قَالَ الْمُفَسِّرُ (الْجَلَالُ) كَغَيْرِهِ : إِنَّ

الْفُرْقَانَ هُوَ التَّوْرَاةُ ، وَقَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ : إِنَّ الْفُرْقَانَ هُوَ مَا أُوتِيَهُ مُوسَى مِنَ الْآيَاتِ وَالْمُعْجِزَاتِ . وَقَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ بَعْدَ حِكَايَةِ الْقَوْلَيْنِ : وَلَكِنَّ ذِكْرَهُ بَعْدَ الْكِتَابِ مَعْطُوفًا عَلَيْهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ مَا فِي الْكِتَابِ مِنَ الشَّرَائِعِ وَالْأَحْكَامِ الْمُفَرِّقَةِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ وَالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ ، وَمَعْنَى

قَوْلِهِ : (لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) وَ (لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) أَيْ : لِيُعِدَّكُمْ بِهَذَا الْعَفْوِ لِلِاسْتِمْرَارِ عَلَى الشُّكْرِ وَيُعِدَّكُمْ بِهَذِهِ الْأَحْكَامِ وَالشَّرَائِعِ لِلِاهْتِدَاءِ وَيُهَيِّئَكُمْ لِلِاسْتِرْشَادِ ، فَلَا تَقَعُوا فِي وَثَنِيَّةٍ أُخْرَى ، وَإِنَّ مِنْ كَمَالِ الِاسْتِعْدَادِ لِلْهِدَايَةِ بِفَهْمِ الْكِتَابِ أَنْ يَعْرِفُوا أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ –

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – هُوَ هُدًى وَنُورٌ يَرْجِعُهُمْ إِلَى الْأَصْلِ الَّذِي تَفَرَّقُوا عَنْهُ وَاخْتَلَفُوا فِيهِ ، وَكَذَلِكَ اهْتَدَى بِهِ مِنْهُمُ الْمُسْتَبْصِرُونَ ، وَجَاحَدَهُ الرُّؤَسَاءُ الْمُسْتَكْبِرُونَ ، وَالْمُقَلِّدُونَ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ .

(192/52)

(وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)

فِي هَذِهِ الْآيَاتِ ضَرْبٌ مِنْ ضُرُوبِ التَّذْكِيرِ غَيْرُ مَا سَبَقَهُ ، وَمِنَ الْبَلَاغَةِ وَالْحِكْمَةِ أَنْ يَجِيءَ تَالِيًا لَهُ وَمُتَأَخِّرًا عَنْهُ : مَهَّدَ أَوَّلًا لِلتَّذْكِيرِ تَمْهِيدًا يَسْتَرْعِي السَّمْعَ ، وَيُوَجِّهُ الْفِكْرَ وَيَسْتَمِيلُ الْقَلْبَ ، وَهُوَ الِابْتِدَاءُ بِذِكْرِ النِّعْمَةِ مُجْمَلَةً وَالتَّفْضِيلِ عَلَى الْعَالَمِينَ وَلَا يَرْتَاحُ الْإِنْسَانُ لِحَدِيثٍ كَحَدِيثِ مَنَاقِبِ قَوْمِهِ وَمَفَاخِرِهِمْ ، ثُمَّ طَفِقَ يُفَصِّلُ النِّعْمَةَ وَيَشْرَحُهَا ، فَبَدَأَ بِذِكْرِ

فَرْدٍ مِنْ أَفْرَادِهَا لَا يَقْتَرِنُ بِهِ ذِكْرُ سَيِّئَةٍ مِنْ سَيِّئَاتِهِمْ وَهُوَ تَنْجِيَتُهُمْ مِنْ ظُلْمِ آلِ فِرْعَوْنَ ، وَلَكِنْ ذَكَرَ مَعَهُ أَكْبَرَ ضُرُوبِ ذَلِكَ الظُّلْمِ – وَهُوَ قَتْلُ

(193/52)

الْأَبْنَاءِ – يُخَفِّضُ مِنْ عُتُوِّ تِلْكَ النُّفُوسِ الْمُعْجَبَةِ الْمُتَكَبِّرَةِ الَّتِي تَعْتَقِدُ أَنَّ اللهَ لَا يُسَوِّدُ عَلَيْهِمْ شَعْبًا آخَرَ ، وَهُوَ مَعَ هَذَا لَا يُنَفِّرُ بِهَا عَنِ الْإِصْغَاءِ وَالتَّدَبُّرِ ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يُفَاجِئْهَا بِشَيْءٍ فِيهِ نِسْبَةُ التَّقْصِيرِ وَعَمَلُ السُّوءِ إِلَيْهَا ، ثُمَّ ثَنَّى بِذِكْرِ نِعْمَةٍ خَاصَّةٍ خَالِصَةٍ تَسْكُنُ النَّفْسُ إِلَى ذِكْرِهَا ، إِذْ لَا يَشُوبُ الْفَخْرَ بِهَا تَنْغِيصٌ مِنْ تَذَكُّرِ غَضَاضَةٍ تَتَّصِلُ بِوَاقِعَتِهَا ، وَهِيَ فَرْقُ الْبَحْرِ بِهِمْ وَإِنْجَاؤُهُمْ ، وَإِغْرَاقُ عَدُوِّهِمْ .

(194/52)

لَا جَرَمَ أَنَّ نُفُوسَ الْإِسْرَائِيلِيِّينَ كَانَتْ تَهْتَزُّ وَتَأْخُذُهَا الْأَرْيَحِيَّةُ عِنْدَ مَا تَلَا عَلَيْهِمُ النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – هَذِهِ الْآيَةَ لِمَا فِيهَا مِنَ الشَّهَادَةِ بِعِنَايَةِ اللهِ – تَعَالَى – بِهِمْ ، وَلَا سِيَّمَا إِذَا قَارَنُوا بَيْنَ هَذَا التَّذْكِيرِ وَبَيْنَ تَذْكِيرِ مُشْرِكِي الْعَرَبِ بِتِلْكَ الْقَوَارِعِ الشَّدِيدَةِ ، لَمْ يَتْرُكْهَا بَعْدَ

هَذِهِ الْهَزَّةَ تَجْمَحُ فِي عُجْبِهَا وَفَخْرِهَا ، وَتَتَمَادَى فِي إِبَائِهَا وَزَهْوِهَا ، بَلْ عَقَّبَ عَلَيْهَا فَذَكَرَ بَعْدَ هَذِهِ النِّعْمَةِ سَيِّئَةً لَهُمْ ، هِيَ كُبْرَى السَّيِّئَاتِ الَّتِي ظَلَمُوا بِهَا أَنْفُسَهُمْ وَكَفَرُوا نِعْمَةَ رَبِّهِمْ ، وَهِيَ اتِّخَاذُ الْعِجْلِ إِلَهًا ، وَقَدَّمَ عَلَى ذِكْرِهَا خَبَرَ مُوَاعَدَةِ مُوسَى وَهِيَ مِنَ النِّعَمِ ، وَخَتَمَهَا بِذِكْرِ الْعَفْوِ ، ثُمَّ قَفَّى عَلَيْهَا بِذِكْرِ نِعْمَةِ إِيتَائِهِمُ الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ ، وَهَذَا مَا يَجْعَلُ أَنْفُسَ السَّامِعِينَ الْوَاعِينَ قَلِقَةً يَتَنَازَعُهَا شُعُورُ اعْتِرَافِ الْمُذَكِّرِ الْوَاعِظِ لَهَا بِالشَّرَفِ ، وَشُعُورُ رَمْيِهِ إِيَّاهَا بِالظُّلْمِ وَالسَّرَفِ .

(195/52)

بَعْدَ هَذَا كُلِّهِ اسْتَعَدَّتْ تِلْكَ النُّفُوسُ ؛ لِأَنْ تَسْمَعَ آيَاتٍ مَبْدُوءَةٍ بِذِكْرِ سَيِّئَاتِهَا مِنْ غَيْرِ تَمْهِيدٍ وَلَا تَوْطِئَةٍ ، فَانْتَقَلَ الْكَلَامُ إِلَى هَذَا الضَّرْبِ مِنَ التَّذْكِيرِ مَبْدُوءًا بِقَوْلِهِ – تَعَالَى – : (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ) أَيْ وَاذْكُرْ أَيُّهَا الرَّسُولُ فِيمَا تُلْقِيهِ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ وَغَيْرِهِمْ إِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا عَبَدُوهُ إِذْ كَانَ يُنَاجِي رَبَّهُ فِي الْمِيقَاتَيْنِ : الزَّمَانِيِّ ، وَالْمَكَانِيِّ (يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ) إِلَهًا عَبَدْتُمُوهُ . وَالْقِصَّةُ مُفَصَّلَةٌ فِي سُورَتَيِ الْأَعْرَافِ وَطَهَ الْمَكِّيَّتَيْنِ ؛ لِأَنَّ قِصَّةَ مُوسَى فِيهِمَا مَقْصُودَةٌ بِالذَّاتِ ، وَأَمَّا مَا هُنَا فَهُوَ تَذْكِيرٌ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا تَقَدَّمَ وَجْهُهُ فِي سِيَاقِ دَعْوَتِهِمْ إِلَى الْإِسْلَامِ (فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ

فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ) أَيْ فَتُوبُوا إِلَى خَالِقِكُمُ الَّذِي لَا يَجُوزُ أَنْ تَعْبُدُوا مَعَهُ إِلَهًا آخَرَ هُوَ أَدْنَى مِنْكُمْ ، وَهُوَ مِنْ خَلْقِكُمْ ، أَيْ تَقْدِيرِكُمْ وَصُنْعِكُمْ ، وَذَلِكَ بِأَنْ يَقْتُلَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا ، فَإِنَّ قَتْلَ الْمَرْءِ لِأَخِيهِ كَقَتْلِهِ لِنَفْسِهِ ، وَيَحْتَمِلُ اللَّفْظُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ لِيَبْخَعَ كُلُّ مَنْ عَبَدَ الْعِجْلَ نَفْسَهُ انْتِحَارًا .

(196/52)

تَكَلَّمَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ فِي التَّوْبَةِ وَقَالَ : إِنَّهَا مَحْوُ أَثَرِ الرَّغْبَةِ فِي الذَّنْبِ مِنْ لَوْحِ الْقَلْبِ ، وَالْبَاعِثُ عَلَيْهَا هُوَ شُعُورُ التَّائِبِ بِعَظَمَةِ مَنْ عَصَاهُ ، وَمَا لَهُ مِنَ السُّلْطَانِ عَلَيْهِ فِي الْحَالِ ، وَكَوْنِ مَصِيرِهِ إِلَيْهِ فِي الْمَآلِ ، لَا جَرَمَ أَنَّ الشُّعُورَ بِهَذَا السُّلْطَانِ الْإِلَهِيِّ بَعْدَ مُقَارَفَةِ الذَّنْبِ يَبْعَثُ فِي قَلْبِ الْمُؤْمِنِ الْهَيْبَةَ وَالْخَشْيَةَ ، وَيُحْدِثُ فِي رُوحِهِ انْفِعَالًا مِمَّا فَعَلَ ، وَنَدَمًا عَلَى صُدُورِهِ عَنْهُ ، وَيُزِيدُ هَذَا الْحَالَ فِي النَّفْسِ تَذَكُّرُ الْوَعِيدِ عَلَى ذَلِكَ الذَّنْبِ ، وَمَا رَتَّبَهُ اللهُ عَلَيْهِ مِنَ الْعُقُوبَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . هَذَا أَثَرُ التَّوْبَةِ فِي النَّفْسِ ، وَهَذَا الْأَثَرُ يُزْعِجُ التَّائِبَ إِلَى الْقِيَامِ بِأَعْمَالٍ تُضَادُّ ذَلِكَ الذَّنْبَ الَّذِي تَابَ مِنْهُ وَتَمْحُو أَثَرَهُ السَّيِّئَ (إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ) (11 : 114)

فَمِنْ عَلَامَةِ التَّوْبَةِ النَّصُوحِ الْإِتْيَانُ بِأَعْمَالٍ تَشُقُّ عَلَى النَّفْسِ ، وَمَا كَانَتْ لِتَأْتِيَهَا لَوْلَا ذَلِكَ

الشُّعُورُ الَّذِي يُحْدِثُهُ الذَّنْبُ ، وَهَذِهِ الْعَلَامَةُ لَا تَتَخَلَّفُ عَنِ التَّوْبَةِ ، سَوَاءٌ كَانَ الذَّنْبُ مَعَ اللهِ - تَعَالَى - أَوْ مَعَ النَّاسِ ، أَلَا تَرَى أَنَّ أَهْوَنَ مَا يَكُونُ مِنْ إِنْسَانٍ يُذْنِبُ مَعَ آخَرَ يُبَاهِي بِهِ أَنْ يَجِيءَ مُعْتَرِفًا بِالذَّنْبِ مُعْتَذِرًا عَنْهُ ؟ وَهَذَا ذُلٌّ يَشُقُّ عَلَى النَّفْسِ لَا مَحَالَةَ ، وَقَدْ أُمِرَ بَنُو إِسْرَائِيلَ بِأَشَقِّ الْأَعْمَالِ

(197/52)

فِي تَحْقِيقِ التَّوْبَةِ مِنْ أَكْبَرِ الذُّنُوبِ ، وَهُوَ الرَّغْبَةُ عَنْ عِبَادَةِ مَنْ خَلَقَهُمْ وَبَرَأَهُمْ إِلَى عِبَادَةِ مَا عَمِلُوا بِأَيْدِيهِمْ وَقَدْ قَالَ : (فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ) لِيُنَبِّهَهُمْ إِلَى أَنَّ الْإِلَهَ الْحَقِيقِيَّ هُوَ الْخَالِقُ الْبَارِئُ لِيَتَضَمَّنَ الْأَمْرُ الِاحْتِجَاجَ عَلَيْهِمْ وَالْبُرْهَانَ عَلَى جَهْلِهِمْ ، ذَلِكَ الْعَمَلُ الَّذِي أَمَرَهُمْ بِهِ مُوسَى هُوَ قَتْلُ أَنْفُسِهِمْ ، وَالْقِصَّةُ فِي التَّوْرَاةِ الَّتِي بَيْنَ أَيْدِيهِمْ إِلَى الْيَوْمِ : دَعَا مُوسَى إِلَيْهِ مَنْ يَرْجِعُ إِلَى الرَّبِّ ، فَأَجَابَهُ بَنُو لَاوَى ، فَأَمَرَهُمْ بِأَنْ يَأْخُذُوا السُّيُوفَ وَيَقْتُلَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا فَفَعَلُوا ، وَقُتِلَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ " نَحْوُ ثَلَاثَةِ آلَافٍ " ، وَقَالَ مُفَسِّرُنَا (الْجَلَالُ) كَغَيْرِهِ : إِنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا سَبْعُونَ أَلْفًا وَالْقُرْآنُ لَمْ يُعَيِّنِ الْعَدَدَ ، وَالْعِبْرَةُ الْمَقْصُودَةُ مِنَ الْقِصَّةِ لَا تَتَوَقَّفُ عَلَى تَعْيِينِهِ فَنُمْسِكُ عَنْهُ ، كَذَا قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ ، وَهَذَا مَذْهَبُهُ فِي جَمِيعِ مُبْهَمَاتِ الْقُرْآنِ ، يَقِفُ عِنْدَ النَّصِّ الْقَطْعِيِّ لَا يَتَعَدَّاهُ ، وَيُثْبِتُ أَنَّ الْفَائِدَةَ لَا تَتَوَقَّفُ عَلَى سِوَاهُ .

قَالَ – تَعَالَى – : (ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ) لِأَنَّهُ يُطَهِّرُكُمْ مِنْ رِجْسِ الشِّرْكِ الَّذِي دَنَّسْتُمْ بِهِ أَنْفُسَكُمْ وَيَجْعَلُكُمْ أَهْلًا لِمَا وَعَدَكُمْ بِهِ فِي الدُّنْيَا وَلِمَثُوبَتِهِ فِي الْآخِرَةِ ،

(198/52)

وَقَوْلُهُ : (فَتَابَ عَلَيْكُمْ) مِنْ كَلَامِ اللهِ – تَعَالَى – لَا تَتِمَّةٍ لِكَلَامِ مُوسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ – فِي الظَّاهِرِ ، وَهُوَ مَعْطُوفٌ عَلَى مَحْذُوفٍ ، تَقْدِيرُهُ فَفَعَلْتُمْ مَا أَمَرَكُمْ مُوسَى بِهِ ، فَتَابَ عَلَيْكُمْ (إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) أَيْ أَنَّهُ هُوَ وَحْدَهُ الْكَثِيرُ التَّوْبَةِ عَلَى عِبَادِهِ بِتَوْفِيقِهِمْ لَهَا وَقَبُولِهَا مِنْهُمْ ، وَإِنْ تَعَدَّدَتْ قَبْلَهَا جَرَائِمُهُمْ ، الرَّحِيمُ بِهِمْ ، وَلَوْلَا رَحْمَتُهُ لَعَجَّلَ بِإِهْلَاكِهِمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمُ الْكُبْرَى وَلَا سِيَّمَا الشِّرْكُ بِهِ .

(وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً) أَيْ وَاذْكُرُوا إِذْ قُلْتُمْ لِنَبِيِّكُمْ : يَا مُوسَى لَنْ نُصَدِّقَ بِمَا جِئْتَ بِهِ تَصْدِيقَ إِذْعَانٍ وَاتِّبَاعٍ ، حَتَّى نَرَى اللهَ عِيَانًا جَهْرَةً ، فَيَأْمُرَنَا بِالْإِيمَانِ لَكَ ، (فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ) أَيْ فَأَخَذَتِ الْقَائِلِينَ ذَلِكَ مِنْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ بِأَعْيُنِكُمْ ، وَسَيَأْتِي بَيَانُ هَذَا بِالتَّفْصِيلِ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ ، فَالْقِصَّةُ هُنَالِكَ مَقْصُودَةٌ بِكُلِّ مَا فِيهَا مِنْ فَائِدَةٍ وَعِبْرَةٍ ، وَإِنَّمَا الْمُرَادُ بِهَا هُنَا التَّذْكِيرُ كَمَا تَقَدَّمَ .

(199/52)

قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : سُؤَالُ بَنِي إِسْرَائِيلَ رُؤْيَةَ اللهِ – تَعَالَى – وَاقِعَةٌ مُسْتَقِلَّةٌ لَا تَتَّصِلُ بِمَسْأَلَةِ عِبَادَةِ الْعِجْلِ ، وَهِيَ مَعْرُوفَةٌ عِنْدَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَمَنْصُوصَةٌ فِي كُتُبِهِمْ ، وَذَلِكَ أَنَّ طَائِفَةً مِنْهُمْ قَالُوا : لِمَاذَا اخْتُصَّ مُوسَى وَهَارُونُ بِكَلَامِ اللهِ – تَعَالَى – مِنْ دُونِنَا ؟ وَانْتَشَرَ هَذَا الْقَوْلُ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَتَجَرَّأَ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ بَعْدَ مَوْتِ هَارُونَ وَهَاجُوا عَلَى مُوسَى وَبَنِي هَارُونَ وَقَالُوا لَهُمْ : إِنَّ نِعْمَةَ اللهِ عَلَى شَعْبِ إِسْرَائِيلَ هِيَ لِأَجْلِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ ، فَتَشْمَلُ جَمِيعَ الشَّعْبِ ، وَقَالُوا لِمُوسَى : لَسْتَ أَفْضَلَ مِنَّا ، فَلَا يَحِقُّ لَكَ أَنْ تَتَرَفَّعَ وَتَسُودَ عَلَيْنَا بِلَا مَزِيَّةٍ ، وَإِنَّنَا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً ، فَأَخَذَهُمْ إِلَى خَيْمَةِ الْعَهْدِ فَانْشَقَّتِ الْأَرْضُ وَابْتَلَعَتْ طَائِفَةً مِنْهُمْ ، وَجَاءَتْ نَارٌ مِنَ الْجَانِبِ الْآخَرِ فَأَخَذَتِ الْبَاقِينَ ، وَهَذِهِ النَّارُ هِيَ الْمُعَبَّرُ عَنْهَا هُنَا بِالصَّاعِقَةِ ، وَهَلْ ثَمَّةَ مِنْ نَارٍ غَيْرُ الِاشْتِعَالِ بِالْكَهْرَبَاءِ ، وَهُوَ مَا تُحْدِثُهُ الصَّاعِقَةُ الَّتِي تُحْدِثُ الِانْشِقَاقَ فِي الْأَرْضِ أَيْضًا ؟ . وَقَدْ أَخَذَ هَذَا الْعَذَابُ تِلْكَ الطَّائِفَةَ وَالْآخَرُونَ يَنْظُرُونَ ، وَهَكَذَا بَنُو إِسْرَائِيلَ يَتَمَرَّدُونَ وَيُعَانِدُونَ مُوسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ – ، وَكَانَ سَوْطُ عَذَابِ اللهِ

يُصَبُّ عَلَيْهِمْ ، فَرُمُوا بِالْأَمْرَاضِ وَالْأَوْبِئَةِ ، وَسُلِّطَتْ عَلَيْهِمُ الْهَوَامُّ وَغَيْرُهَا حَتَّى أَمَاتَتْ مِنْهُمْ خَلْقًا كَثِيرًا ، فَمُجَاحَدَتُهُمْ وَمُعَانَدَتُهُمْ لِلنَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لَمْ تَكُنْ بِدْعًا مِنْ أَعْمَالِهِمْ .

قَالَ – تَعَالَى – : (ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) ذَهَبَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ إِلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالْبَعْثِ هُوَ كَثْرَةُ النَّسْلِ ، أَيْ أَنَّهُ بَعْدَمَا وَقَعَ فِيهِمُ الْمَوْتُ بِالصَّاعِقَةِ وَغَيْرِهَا وَظَنَّ أَنْ سَيَنْقَرِضُونَ بَارَكَ اللهُ فِي نَسْلِهِمْ ؛ لِيُعِدَّ الشَّعْبَ – بِالْبَلَاءِ السَّابِقِ – لِلْقِيَامِ بِحَقِّ الشُّكْرِ عَلَى النِّعَمِ الَّتِي تَمَتَّعَ بِهَا الْآبَاءُ الَّذِينَ حَلَّ بِهِمُ الْعَذَابُ بِكُفْرِهِمْ لَهَا .

(201/52)

وَالْعِبْرَةُ الِاجْتِمَاعِيَّةُ فِي الْآيَاتِ أَنَّ الْخِطَابَ فِي كُلِّ مَا تَقَدَّمَ كَانَ مُوَجَّهًا إِلَى الَّذِينَ كَانُوا فِي عَصْرِ التَّنْزِيلِ ، وَأَنَّ الْكَلَامَ عَنِ الْأَبْنَاءِ وَالْآبَاءِ وَاحِدٌ لَمْ تَخْتَلِفْ فِيهِ الضَّمَائِرُ حَتَّى كَأَنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا أَنْفُسَهُمْ بِالتَّوْبَةِ وَالَّذِينَ صُعِقُوا بَعْدَ ذَلِكَ هُمُ الْمُطَالَبُونَ بِالِاعْتِبَارِ وَبِالشُّكْرِ ، وَمَا جَاءَ الْخِطَابُ بِهَذَا الْأُسْلُوبِ إِلَّا لِبَيَانِ مَعْنَى وِحْدَةِ الْأُمَّةِ ، وَاعْتِبَارِ أَنَّ كُلَّ مَا يَبْلُوهَا اللهُ بِهِ مِنَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ، وَمَا يُجَازِيهَا بِهِ مِنَ النِّعَمِ وَالنِّقَمِ ، إِنَّمَا يَكُونُ لِمَعْنًى مَوْجُودٍ فِيهَا يَصِحُّ أَنْ يُخَاطَبَ اللَّاحِقُ مِنْهَا بِمَا كَانَ لِلسَّابِقِ ، كَأَنَّهُ وَقَعَ بِهِ ؛ لِيَعْلَمَ النَّاسُ أَنَّ سُنَّةَ اللهِ – تَعَالَى –

فِي الِاجْتِمَاعِ الْإِنْسَانِيِّ أَنْ تَكُونَ الْأُمَمُ مُتَكَافِلَةً ، يَعْتَبِرُ كُلُّ فَرْدٍ مِنْهَا سَعَادَتَهُ بِسَعَادَةِ سَائِرِ الْأَفْرَادِ وَشَقَاءَهُ بِشَقَائِهِمْ ، وَيَتَوَقَّعُ نُزُولَ الْعُقُوبَةِ إِذَا فَشَتِ الذُّنُوبُ فِي الْأُمَّةِ وَإِنْ لَمْ يُوَاقِعْهَا هُوَ (وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً) (8 : 25) وَهَذَا التَّكَافُلُ فِي الْأُمَمِ هُوَ الْمِعْرَاجُ الْأَعْظَمُ لِرُقِيِّهَا ؛ لِأَنَّهُ يَحْمِلُ الْأُمَّةَ الَّتِي تَعْرِفُهُ عَلَى التَّعَاوُنِ عَلَى الْخَيْرِ وَالْمُقَاوَمَةِ لِلشَّرِّ فَتَكُونُ مِنَ الْمُفْلِحِينَ .

(202/52)

بَعْدَ هَذَا ذَكَرَ اللهُ – تَعَالَى – نِعْمَةً أُخْرَى ، بَلْ نِعْمَتَيْنِ مِنَ النِّعَمِ الَّتِي مَنَّ بِهَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ ، فَكَفَرُوا بِهَا ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَذْكُرْ مَا كَانَ بِهِ الْكُفْرَانُ ، بَلْ طَوَاهُ وَأَشَارَ بِمَا خَتَمَ بِهِ الْآيَةَ مِنْ أَنَّهُمْ لَمْ يَظْلِمُوا اللهَ – تَعَالَى – بِذَلِكَ الذَّنْبِ الْمَطْوِيِّ وَإِنَّمَا ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ، وَهَذَا أُسْلُوبٌ آخَرُ مِنْ أَسَالِيبِ الْبَيَانِ فِي التَّذْكِيرِ ، وَضَرْبٌ مِنْ ضُرُوبِ الْإِيجَازِ الَّتِي هِيَ أَقْوَى دَعَائِمِ الْإِعْجَازِ .

أَمَّا النِّعْمَةُ الْأُولَى فَقَوْلُهُ – تَعَالَى – : (وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ) قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : هَذِهِ نِعْمَةٌ مُسْتَقِلَّةٌ مُتَّصِلَةٌ بِمَا قَبْلَهَا فِي سِيَاقِ الذِّكْرَى ، مُنْفَصِلَةٌ عَنْهَا فِي الْوُقُوعِ ، فَإِنَّ التَّظْلِيلَ اسْتَمَرَّ إِلَى دُخُولِهِمْ أَرْضَ الْمِيعَادِ ، وَلَوْلَا أَنْ سَاقَ اللهُ إِلَيْهِمُ الْغَمَامَ يُظَلِّلُهُمْ فِي التِّيهِ لَسَفَعَتْهُمُ الشَّمْسُ وَلَفَحَتْ وُجُوهَهُمْ . وَقَالَ : لَا مَعْنَى لِوَصْفِ الْغَمَامِ بِالرَّقِيقِ كَمَا قَالَ

الْمُفَسِّرُ (الْجَلَالُ) وَغَيْرُهُ ، بَلِ السِّيَاقُ يَقْتَضِي كَثَافَتَهُ إِذْ لَا يَحْصُلُ الظِّلُّ الظَّلِيلُ الَّذِي يُفِيدُهُ حَرْفُ التَّظْلِيلِ إِلَّا بِسَحَابٍ كَثِيفٍ يَمْنَعُ حَرَّ الشَّمْسِ وَوَهَجَهَا ، وَكَذَلِكَ لَا تَتِمُّ النِّعْمَةُ الَّتِي بِهَا الْمِنَّةُ إِلَّا بِالْكَثِيفِ ، وَهُوَ الْمَنْقُولُ الْمَعْرُوفُ عِنْدَ الْإِسْرَائِيلِيِّينَ أَنْفُسِهِمْ .

(203/52)

وَأَمَّا النِّعْمَةُ الثَّانِيَةُ فَفِي قَوْلِهِ – تَعَالَى – : (وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى) مَا مُنِحَ مِنَ اللهِ – تَعَالَى – يُسَمَّى إِيجَادُهُ إِنْزَالًا وَمِنَّةً (وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ) (57 : 25) عَلَى أَنَّ الْمَنَّ يَنْزِلُ كَالنَّدَى ، وَهُوَ مَادَّةٌ لَزِجَةٌ حُلْوَةٌ تُشْبِهُ الْعَسَلَ ، تَقَعُ عَلَى الْحَجَرِ وَوَرَقِ الشَّجَرِ مَائِعَةً ، ثُمَّ تُجَمَّدُ وَتَجِفُّ فَيَجْمَعُهَا النَّاسُ ، وَمِنْهَا التَّرَنْجَبِينُ وَبِهِ فَسَّرَ الْمَنَّ مُفَسِّرُنَا وَغَيْرُهُ . وَأَمَّا السَّلْوَى فَقَدْ فَسَّرُوهَا بِالسُّمَّانِيِّ ، وَهُوَ الطَّائِرُ الْمَعْرُوفُ ، فَمَعْنَى النُّزُولِ يَصِحُّ فِيهِ عَلَى حَقِيقَتِهِ أَيْضًا . وَظَاهِرٌ أَنَّ قَوْلَهُ – تَعَالَى – : (كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ) مُقَدَّرٌ فِيهِ الْقَوْلُ . وَفِي (سِفْرِ الْخُرُوجِ) أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكَلُوا الْمَنَّ أَرْبَعِينَ سَنَةً وَأَنَّ طَعْمَهُ كَالرُّقَاقِ بِالْعَسَلِ ، وَكَانَ لَهُمْ بَدَلًا مِنَ الْخُبْزِ ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ أَكْلٌ سِوَاهُ إِلَّا السَّلْوَى ، فَقَدْ كَانَ مَعَهُمُ الْمَوَاشِي ، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا مَحْرُومِينَ مِنَ النَّبَاتِ وَالْبُقُولِ كَمَا يُعْلَمُ مِمَّا يَأْتِي .

(204/52)

وَفِي قَوْلِهِ – تَعَالَى – : (وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) تَقْرِيرٌ لِقَاعِدَةٍ مُهِمَّةٍ ، وَهِيَ أَنَّ كُلَّ مَا يَطْلُبُهُ الدِّينُ مِنَ الْعَبْدِ فَهُوَ لِمَنْفَعَتِهِ ، وَكُلُّ مَا يَنْهَاهُ عَنْهُ فَإِنَّمَا يَقْصِدُ بِهِ دَفْعَ الضَّرَرِ عَنْهُ ، وَلَنْ يَبْلُغَ أَحَدٌ نَفْعَ اللهِ فَيَنْفَعَهُ ، وَلَنْ يَبْلُغَ أَحَدٌ ضَرَّهُ فَيَضُرَّهُ ، كَمَا ثَبَتَ فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ . فَكُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ أَوْ عَلَيْهِ (لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ) (2 : 86)

(وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ)

الْمُرَادُ بِالْقَرْيَةِ : الْمَدِينَةُ ، وَهِيَ فِي الْأَصْلِ اسْمٌ لِمُجْتَمَعِ النَّاسِ وَمَسْكَنِ النَّمْلِ الَّذِي يَبْنِيهِ ، وَمَادَّتُهَا تَدُلُّ عَلَى الِاجْتِمَاعِ ، وَمِنْهَا قَرَيْتُ الْمَاءَ فِي الْحَوْضِ إِذَا جَمَعْتُهُ ، وَأُطْلِقَتْ عَلَى الْأُمَّةِ نَفْسِهَا ، ثُمَّ غَلَبَ اسْتِعْمَالُهَا فِي الْبِلَادِ الصَّغِيرَةِ وَلَا يَصِحُّ هُنَا ؛ فَإِنَّ الرَّغَدَ لَا يَتَيَسَّرُ لِلْإِنْسَانِ كَمَا يَشَاءُ إِلَّا فِي الْمُدُنِ الْوَاسِعَةِ الْحَضَارَةِ .

(قَالَ شَيْخُنَا) : وَنَسْكُتُ عَنْ تَعْيِينِ الْقَرْيَةِ كَمَا سَكَتَ الْقُرْآنُ ، فَقَدْ أُمِرَ بَنُو إِسْرَائِيلَ بِدُخُولِ بِلَادٍ كَثِيرَةٍ . وَكَانُوا يُؤْمَرُونَ بِدُخُولِهَا خَاشِعِينَ لِلَّهِ خَاضِعِينَ لِأَمْرِهِ مُسْتَشْعِرِينَ عَظَمَتَهُ وَجَلَالَهُ وَنِعَمَهُ وَأَفْضَالَهُ ، وَهُوَ مَعْنَى السُّجُودِ وَرُوحِهِ الْمُرَادِ هُنَا .

وَأَمَّا صُورَةُ السُّجُودِ مِنْ وَضْعِ الْجِبَاهِ عَلَى الْأَرْضِ فَلَا يَصِحُّ أَنْ تَكُونَ مُرَادَهُ ؛ لِأَنَّهَا سُكُونٌ وَالدُّخُولُ حَرَكَةٌ وَهُمَا لَا يَجْتَمِعَانِ ، وَالْمُرَادُ بِالْحِطَّةِ : الدُّعَاءُ بِأَنْ تُحَطَّ عَنْهُمْ خَطَايَا التَّقْصِيرِ وَكُفْرُ النِّعَمِ ، وَتَبْدِيلُ الْقَوْلِ بِغَيْرِهِ عِبَارَةٌ عَنِ الْمُخَالَفَةِ ، كَأَنَّ الَّذِي يُؤْمَرُ بِالشَّيْءِ فَيُخَالِفُ قَدْ أَنْكَرَ أَنَّهُ أُمِرَ بِهِ وَادَّعَى أَنَّهُ أُمِرَ بِخِلَافِهِ ، يُقَالُ : بَدَّلْتُ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ ، أَيْ جِئْتُ بِذَلِكَ الْقَوْلِ مَكَانَ الْقَوْلِ الْأَوَّلِ .

(206/52)

وَهَذَا التَّعْبِيرُ أَدَلُّ عَلَى الْمُخَالَفَةِ وَالْعِصْيَانِ مِنْ كُلِّ تَعْبِيرٍ ، خِلَافًا لِمَا يَتَرَاءَى لِغَيْرِ الْبَلِيغِ مِنْ أَنَّ الظَّاهِرَ أَنْ يُقَالَ : بَدَّلُوا الْقَوْلَ بِغَيْرِهِ ، دُونَ أَنْ يُقَالَ : غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ ، فَإِنَّ مُخَالِفَ أَمْرِ سَيِّدِهِ قَدْ يُخَالِفُهُ عَلَى سَبِيلِ التَّأْوِيلِ مَعَ الِاعْتِرَافِ بِهِ ، فَكَأَنَّهُ يَقُولُ فِي الْآيَةِ : إِنَّهُمْ خَالَفُوا الْأَمْرَ خِلَافًا لَا يَقْبَلُ التَّأْوِيلَ ، حَتَّى كَأَنَّهُ قِيلَ لَهُمْ غَيْرَ الَّذِي قِيلَ ، وَلَيْسَ الْمَعْنَى أَنَّهُمْ أُمِرُوا بِحَرَكَةٍ يَأْتُونَهَا ، وَكَلِمَةٍ يَقُولُونَهَا ، وَتَعَبَّدُوا بِذَلِكَ ، وَجُعِلَ سَبَبًا لِغُفْرَانِ الْخَطَايَا عَنْهُمْ ، فَقَالُوا

غَيْرَهُ وَخَالَفُوا الْأَمْرَ ، وَكَانُوا مِنَ الْفَاسِقِينَ . وَأَيُّ شَيْءٍ أَسْهَلُ عَلَى الْمُكَلَّفِ مِنَ الْكَلَامِ ، يُحَرِّكُ بِهِ لِسَانَهُ ، وَقَدِ اخْتَرَعَ أَهْلُ الْأَدْيَانِ مِنْ ذَلِكَ مَا لَمْ يُكَلَّفُوا قَوْلَهُ لِسُهُولَةِ الْقَوْلِ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ ، فَكَيْفَ يُقَالُ أُمِرَ هَؤُلَاءِ بِكَلِمَةٍ يَقُولُونَهَا فَعَصَوْا بِتَرْكِهَا ؟ إِنَّمَا يَعْصِي الْعَاصِي إِذَا كُلِّفَ مَا يَثْقُلُ عَلَى نَفْسِهِ ، وَيَحْمِلُهَا عَلَى غَيْرِ مَا اعْتَادَتْ ، وَأَشَقُّ التَّكَالِيفِ حَمْلُ الْعُقُولِ عَلَى أَنْ تُفَكِّرَ فِي غَيْرِ مَا عَرَفَتْ ، وَحَثُّ النُّفُوسِ عَلَى أَنْ تَتَكَيَّفَ بِغَيْرِ مَا تَكَيَّفَتْ .

(207/52)

وَذَهَبَ الْمُفَسِّرُ (الْجَلَالُ) إِلَى تَرْجِيحِ اللَّفْظِ عَلَى الْمَعْنَى ، وَالصُّورَةِ عَلَى الرُّوحِ ، فَفَسَّرَ السُّجُودَ كَكَثِيرٍ مِنْ غَيْرِهِ بِالِانْحِنَاءِ ، وَقَالَ : إِنَّهُمْ أُمِرُوا بِأَنْ يَقُولُوا (حِطَّةٌ) فَدَخَلُوا زَحْفًا عَلَى أَسْتَاهِهِمْ ، وَقَالُوا : حَبَّةٌ فِي شَعِيرَةٍ ، أَيْ : أَنَّنَا نَحْتَاجُ إِلَى الْأَكْلِ . مَنْشَأُ هَذِهِ الْأَقْوَالِ الرِّوَايَاتُ الْإِسْرَائِيلِيَّةُ ، وَلِلْيَهُودِ فِي هَذَا الْمَقَامِ كَلَامٌ كَثِيرٌ

وَتَأْوِيلَاتٌ خُدِعَ بِهَا الْمُفَسِّرُونَ وَلَا نُجِيزُ حَشْوَهَا فِي تَفْسِيرِ كَلَامِ اللهِ – تَعَالَى .

وَأَقُولُ : إِنَّ مَا اخْتَارَهُ الْجَلَالُ مَرْوِيٌّ فِي الصَّحِيحِ ، وَلَكِنَّهُ لَا يَخْلُو مِنْ عِلَّةٍ إِسْرَائِيلِيَّةٍ ، وَسَنُبَيِّنُ ذَلِكَ فِي تَفْسِيرِ الْمَسْأَلَةِ مِنْ سُورَةِ الْأَعْرَافِ مَعَ الْمُقَابَلَةِ بَيْنَ الْعِبَارَاتِ الْمُخْتَلِفَةِ فِي السُّورَتَيْنِ ، وَبَيَانِ وُجُوهِهَا ، وَتَحْقِيقِ مَعَانِي أَلْفَاظِهَا .

وَيَدُلُّ عَلَى قَوْلِهِ – تَعَالَى – : (فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ) عَلَى أَنَّ هَذَا الْعِصْيَانَ لَمْ يَكُنْ مِنْ كُلِّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَأَنَّ هَذَا الرِّجْزَ كَانَ خَاصًّا بِالظَّالِمِينَ مِنْهُمُ الَّذِينَ فَسَقُوا عَنِ الْأَمْرِ وَلَمْ يَمْتَثِلُوهُ ، وَقَدْ أُكِّدَ هَذَا الْمَعْنَى أَشَدَّ التَّأْكِيدِ بِوَضْعِ الْمُظْهَرِ مَوْضِعَ الْمُضْمَرِ ، فَقَالَ : (فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا) وَلَمْ يَقُلْ : فَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ ؛ وَلَعَلَّ وَجْهَ الْحَاجَةِ إِلَى التَّأْكِيدِ الِاحْتِرَاسُ مِنْ إِبْهَامِ كَوْنِ الرِّجْزِ كَانَ عَامًّا ، كَمَا هُوَ الْغَالِبُ فِيهِ ، ثُمَّ أَكَّدَهُ بِتَأْكِيدٍ آخَرَ ، وَهُوَ قَوْلُهُ : (بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ) وَفِي هَذَا الضَّرْبِ مِنَ الْمُقَابَلَةِ مِنْ تَعْظِيمِ شَأْنِ الْمُحْسِنِينَ مَا فِيهِ .

وَأَقُولُ الْآنَ : الْقَاعِدَةُ أَنَّ تَرْتِيبَ الْحُكْمِ عَلَى الْمُشْتَقِّ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَصْدَرَهُ عِلَّةٌ لَهُ كَقَوْلِهِ : (وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا) (5 : 38) : فَالسَّرِقَةُ عِلَّةٌ لِلْقَطْعِ . وَالْمَوْصُولُ مَعَ صِلَتِهِ هُنَا كَذَلِكَ ، وَالْمَعْنَى (فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ) بِسَبَبِ ظُلْمِهِمْ ، ثُمَّ أَكَّدَ هَذَا السَّبَبَ الْخَاصَّ الْعَارِضَ الْمُعَبَّرَ عَنْهُ بِالْفِعْلِ الْمَاضِي بِبَيَانِ سَبَبٍ عَامٍّ يَشْمَلُهُ وَيَشْمَلُ غَيْرَهُ هُمْ يَفْعَلُونَهُ دَائِمًا وَهُوَ قَوْلُهُ : (بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ) أَيْ بِسَبَبِ تَكْرَارِ الْفُسُوقِ وَالْعِصْيَانِ مِنْهُمْ ، وَاسْتِمْرَارِهِمْ عَلَيْهِ ، الَّذِي كَانَ هَذَا الظُّلْمُ مِنْهُ .

(209/52)

(قَالَ الْأُسْتَاذُ) : وَنَسْكُتُ عَنْ تَعْيِينِ نَوْعِ ذَلِكَ الرِّجْزِ ، كَمَا هُوَ شَأْنُنَا فِي كُلِّ مَا أَبْهَمَهُ الْقُرْآنُ . وَقَالَ الْمُفَسِّرُ وَغَيْرُهُ : إِنَّهُ الطَّاعُونُ ، وَاحْتَجَّ بَعْضُهُمْ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ - تَعَالَى - : (مِنَ السَّمَاءِ) وَهُوَ كَمَا تَرَاهُ . وَالرِّجْزُ : هُوَ الْعَذَابُ ، وَكُلُّ نَوْعٍ مِنْهُ رِجْزٌ . وَقَدِ ابْتَلَى اللهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِالطَّاعُونِ غَيْرَ مَرَّةٍ ، وَابْتَلَاهُمْ بِضُرُوبٍ أُخْرَى مِنَ النِّقَمِ فِي إِثْرِ كُلِّ ضَرْبٍ مِنْ ضُرُوبِ ظُلْمِهِمْ وَفُسُوقِهِمْ ، وَمِنْ أَشَدِّ ذَلِكَ تَسْلِيطُ الْأُمَمِ عَلَيْهِمْ ، وَحَسْبُنَا مَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ عِبْرَةً وَتَبْصِرَةً ، فَنُعَيِّنُ مَا عَيَّنَهُ ، وَنُبْهِمُ مَا أَبْهَمَهُ (وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ تفسير المنار حـ 1 صـ 260 . 271 ﴾

(210/52)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا

كَانُوا يَفْسُقُونَ (59) ﴾

الله سبحانه وتعالى يشرح لنا في هذه الآية الكريمة كيف أن اليهود قوم معصية برغم نعم الله عليهم . . فلو أن الله سبحانه وتعالى كلفهم تكليفا لم يستطيعوه ؛ لأنه شاق عليهم فربما كان لهم عذرهم . . ولكن الله تبارك وتعالى لا يكلف إلا بما هو في طاقة الإنسان أو أقل منها . . فيقول جل جلاله : ﴿ لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾ [البقرة : 286]

والله تبارك وتعالى لم يكلف بني إسرائيل بأن يدخلوا هذه القرية التي يقال : إنها القدس ويقال أنها قرية في فلسطين أو قرية في الأردن . . إلا بناء على طلبهم هم . فهم الذين طلبوا من موسى أن يدعو الله لهم أن يدخلوا واديا فيه زرع . . ليأكلوا مما تنتج الأرض ويطمئنوا على طعامهم . . لأنهم يخافون أن يأتي يوم . . لا ينزل عليهم المن والسلوى من السماء . . فلما استجاب الله لدعواهم وقال لهم ادخلوا الباب خاشعين . وقولوا يا رب حط عنا ذنوبنا . . بدل بنو إسرائيل القول فبدلا من أن يقولوا حطة قالوا حنطة . . وبدلوا طريقة الدخول فبدلا من أن يدخلوا ساجدين دخلوا على ظهورهم زاحفين . . وكان هذا رغبة في المخالفة . . فأصابهم الله بعذاب من السماء بما كانوا يفسقون . . أي يبتعدون عن منهج الله ولا يطبقونه . رغبة في المخالفة وإصرارا على العناد . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 355 ﴾

فصل

قال السيوطى :

﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (59) ﴾

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : كل شيء في كتاب الله من الرجز يعني به العذاب .

وأخرج أحمد وعبد بن حميد ومسلم والنسائي وابن جرير وابن أبي حاتم عن سعيد بن مالك وأسامة بن زيد وخزيمة بن ثابت قالوا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن هذا الطاعون رجز وبقية عذاب عذب به أناس من قبلكم ، فإذا كان بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها ، وإذا بلغكم أن بأرض فلا تدخلوها " .

وأخرج ابن جرير عن أبي العالية في الآية قال : الرجز الغضب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 1 صـ 174. 175 ﴾

" فوائد بلاغية "

قال فى صفوة التفاسير :

البلاغة :

أولا : إنما قيد البعث بعد الموت [ثم بعثناكم من بعد موتكم] لزيادة التأكيد على أنه موت حقيقي ، ولدفع ما عساه يتوهم أن بعثهم كان بعد إغماء أو بعد نوم .

ثانيا : في الآية إيجاز بالحذف في قوله : [كلوا] أي قلنا لهم كلوا وفي قوله : [وما ظلمونا] تقديره فظلموا أنفسهم بأن كفروا وما ظلمونا بذلك ، دل على هذا الحذف قوله : [ولكن كانوا أنفسهم يظلمون] والجمع بين صيغتى الماضي والمضارع [ظلمونا] و[يظلمون] للدلالة على تماديهم في الظلم واستمرارهم على الكفر .

ثالثا : وضع الظاهر مكان الضمير في قوله [فأنزلنا على الذين ظلموا] ولم يقل " فأنزلنا عليهم " لزيادة التقبيح ، والمبالغة في الذم والتقريع ، وتنكير [رجزا] للتهويل والتفخيم .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 1 صـ 61.60 ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ فَبَدَّلَ الذين ظَلَمُواْ قَوْلاً غَيْرَ الذي قِيلَ لَهُمْ ﴾ .

لا بُدّ في هذا الكلام من تأويل ؛ إذ الذّم إنما يتوجه عليهم إذا بدّلوا القول الذي قيل لهم ، لا إذا بدّلوا قولاً غيره .

فقيل : تقديره : فبدل الذين ظلموا بالذي قيل لهم قولاً غير الذي قيل لهم ف " بدّل " يتعدّى لمفعول واحد بنفسه ، وإلى آخر بالباء ، والمجرور بها هو المتروك ، والمنصوب هو الموجود ، كقول أبي النجم : [الرجز]

وَبُدِّلَتْ والدَّهْرُ ذُو تَبَدُّلِ . . .

هَيْفاً دَبُوراً بِالصَّبَا وَالشَّمْأَلِ

فالمتطوع عنها الصَّبَا ، والحاصل لها الهَيْفُ .

قاله أبو البقاء وقال يجوز أن يكون " بدل " محمولاً على المعنى ، تقديره : فقال الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم ؛ لأن تبديل القول كان بقول " فَنَصْبُ " غير عنده في هذين القولين على النّعت لـ " قولاً " .

وقيل : تقديره : فبدل الذين قولاً بغير الذي ، فحذف الحرفن فانتصب " غير " .

ومعنى التَّبْديل : التغيير كأنه قيل : فغيروا قولاً بغيره ، إي جَاءُوا بقول آخر ، فكان القول

الذي أمروا به ، كما يروا في القصّة أنهم قالوا : بدل حطّة حِنْطَة .

والإبدَال والتبديل والاستبدال : جعل الشيء مكان آخر ، وقد يقال : التبديل : التغيير ، وإن لم يأت ببدله .

وقد تقدم الفرق بين بدل وأَبْدَلَ ، وهو أن بدّل بمعنى غيّر من غَيْر إزالة العين ، وأبدل تقتضي إزالة العين ، إلا أنه قرىء : ﴿ عسى ربُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا ﴾ [القلم : 32] ﴿ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا ﴾ [الكهف : 81] بالوجهين ، وهذا يقتضي اتّحَادهما معنى لا اختلافهما والبديل والبدل بمعنى واحد ، وبدله غيره .

ويقال : بِدْل وبَدل كَشِبْه وشَبَه ، ومِثْل ومَثَل ، ونِكْل ونَكَل [قال أبو عُبَيْدة : لم يسمع في فِعْل وفَعَل غي رهذه الأربعة أحرف] .

و" الرجز " : هو العذاب .

فصل في لغات الرجز

وفيه لُغة أخرى وهي ضمّ الراء ، وقرىء بهما .

وقيل : المضموم اسم صَنَم ، ومنه : ﴿ والرجز ﴾ [المدثر : 5] .

والرِّجْز والرِّجْس بالزاي والسين بِمَعْنَى ك : السُّدْغ والزُّدْغ .

والصحيح أن الرِّجْزَ : الْقَذَر ، والرِّجَز : ما يصيب الإبل ، فترتعش منه ، ومنه : بحر الرِّجَز في الشّعر .

قوله : " مِنَ السَّمَاءِ " يجوز فيه وجهان :

أحدهما : أن يكون متعلقاً بـ " أَنْزَلْنَا " ، و" من " لابتداء الغاية ، أي : من جهة السماء ، وهذا الوجه هو الظاهر .

والثاني : أن يكون صفة لـ " رِجْزاً " فيتعلّق بمحذوف ، و" من " أيضاً للابتداء .

وقوله : ﴿ عَلَى الذين ظَلَمُواْ ﴾ فأعادهم بذكرهم أولاً ، ولم يقل : " عليهم " تنبيهاً على أن ظُلْمهم سبب في عقابهم ، وهو من إيقاع الظاهر موقع المُضْمَر لهذا الغرض ، وإيقاع الظاهر موقع المُضْمَر على ضربين : ضرب يقع بعد تمام الكلام كهذه الآية ، وقول الخنساء : [المتقارب]

تَعَرَّقَنِي الدَّهْرُ [نَهْساً] وَحَزَّا . . .

[وَأَوْجَعَنِي] الدَّهْرُ قَرْعاً وَغَمْزا

أي : أصابتني نوائبه جُمَعُ .

وضرب يقع في كلام واحد ؛ نحو قوله : ﴿ الحاقة 0 مَا الحآقة ﴾ [الحاقة : 1 ، 2] .

لَيْتَ الغُرَابَ غَدَاةَ يَنْعَبُ دَائِباً . . .

كَانَ الغُرَابُ مُقَطَّعَ الأَوْدَاجِ

وقد جمع عدي بن زيد المعنيين فقال : [الخفيف]

لاَ أَرَى المَوْتَ يَسْبِقُ المَوْتَ شَيْءٌ . . .

نَغَّصَ المَوْتُ ذَا الغِنَى والفَقِيرَا

قوله : "بِمَا كَانُوا " متعلّق بـ "أَنْزَلْنَا " و"الباء "للسببية ، و"ما "يجوز أن تكون مصدرية وهوالظّاهر أي : بسبب فِسْقِهِمْ ، وأن تكون موصولة اسمية ، والعائد محذوف على التدريج المذكور في غير موضع ، والأصل : يفسقونه ، ولا يقوى جعلها نكرة موصولة . وقرأ "ابن وَثّاب " : "يَفْسِقُون " بكسر السين ، وتقدم أنهما لُغَتَان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 2 صـ 100 . 103 ﴾ . باختصار .

(215/52)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (59) ﴾

لم يمكنهم أن يردوا باب السماء باحتيالهم ، أو يصدوا مِنْ دونهم أسبابَ البلاء بما ركنوا إليه من أحوالهم ، فزعوا من الندم لما عضّهم ناب الألم ، وهيهات أن ينفعهم ذلك لأنه محال من الحسبان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 94 ﴾

(216/52)

ومن فوائد العلامة الزمخشرى فى الآيات

قال رحمه الله :

﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ ﴾

أصل آلِ أهل ، ولذلك يصغر بأهيل ، فأبدلت هاؤه ألفاً . وخص استعماله بأولى الخطر والشأن كالملوك وأشباههم ، فلا يقال آل الإسكاف والحجام . وفِرْعَوْنَ علم لمن ملك العمالقة ، كقيصر : لملك الروم ، وكسرى : لملك الفرس . ولعتوّ الفراعنة اشتقوا : تفرعن فلان ، إذا عتا وتجبر . وفي ملح بعضهم :

قَدْ جَاءَهُ الْمُوسَى الْكَلُومُ فَزَادَ فِى أَقْصَى تَفَرْعُنِهِ وَفَرْطِ عُرَامِهِ «1»

وقرئ : أنجيناكم ، ونجيتكم يَسُومُونَكُمْ من سامه خسفاً إذا أولاه ظلما . قال عمرو بن كلثوم :

إذَا مَا الْمَلْكُ سَامَ النَّاسَ خَسْفاً أَبَيْنَا أَنْ يُقِرَّ الْخَسْفُ فِينَا «2»

---

(1) . الضمير للصبي . وقيل لذكره . والموسى : آلة الحلق والختان ، من أوسى رأسه حلقه . وقال الفراء وغيره هي فعلى ويؤنث . يقال . رجل ماس مثل مال ، أى خفيف طياش . وقيل : هو مفعل . وذلك كناية عن ختانه به ، لأنه يورث النمو والفتوة . وقيل : عن حلق العانة ، لأنه زمن بلوغ الأشد . واختار السعد الأول لأنه أنسب بالمقام . والكلوم : كثير الكلم - أى الجرح - والتفرعن : العتو والتجبر ، مأخوذ من فرعون لشهرته بالطغيان والظلم والتكبر . والعرام كغراب : الشدة والحدة والخبث . ويمكن أنه من الفرع ، لارتفاعه وعلوه على غيره .

(2) . لعمرو بن كلثوم من معلقته . «و ما» زائدة . «و الملك» بالسكون : لغة فيه . ويقال : سامه ذلا ، إذا أولاه إياه وألحقه به . وقيل : إذا كلفه ما فيه ذل وأكرهه عليه . والخسف - بفتح الخاء وضمها - : الذل . يقول إذا ألحق بالناس الذل منعناه إقرار الذل فينا ، ولم ننقد له كسائر الناس ، لشجاعتنا على جميع من سوانا .

وأصله من سام السلعة إذا طلبها . كأنه بمعنى يبغونكم سُوءَ الْعَذابِ ويريدونكم عليه .

والسوء : مصدر السيئ : يقال أعوذ باللَّه من سوء الخلق وسوء الفعل ، يراد قبحهما .

ومعنى سوء العذاب – والعذاب كله سيئ – : أشدّه وأفظعه ، كأنه قبحه بالإضافة لي سائره .

ويُذَبِّحُونَ : بيان لقوله يسومونكم . ولذلك ترك العاطف كقوله تعالى : يُضاهِؤُنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا وقرأ الزهري (يذبحون) بالتخفيف كقولك : قطعت الثياب وقطعتها .

وقرأ عبد اللَّه : يقتلون . وإنما فعلوا بهم ذلك لأنّ الكهنة أنذروا فرعون بأنه يولد مولود يكون على يده هلاكه ، كما أنذر نمروذ . فلم يغن عنهما اجتهادهما في التحفظ ، وكان ما شاء اللَّه .

والبلاء المحنة إن أشير بذلكم إلى صنيع فرعون . والنعمة إن أشير به إلى الإنجاء .

[سورة البقرة (2) : آية 50]

وَإِذْ فَرَقْنا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْناكُمْ وَأَغْرَقْنا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (50)

فَرَقْنا فصلنا بين بعضه وبعض حتى صارت فيه مسالك لكم . وقرئ : فرّقنا ، بمعنى فصلنا . يقال : فرق بين الشيئين ، وفرّق بين الأشياء لأن المسالك كانت اثنى عشر على عدد الأسباط . فإن قلت : ما معنى بِكُمُ ؟ قلت : فيه أوجه : أن يراد أنهم كانوا يسلكونه ، «1» ويتفرّق الماء عند سلوكهم ، فكأنما فرق بهم كما يفرق بين الشيئين بما يوسط بينهما

، وأن يراد فرقناه بسببكم «2» وبسبب إنجائكم ، وأن يكون في موضع الحال «3» بمعنى فرقناه ملتبسا بكم كقوله :

تَدُوسُ بِنَا الْجَمَاجِمَ وَالتَّرِيبا «4»

---

(1) . قال محمود رحمه اللَّه : «يحتمل أنهم كانوا يسلكون . . . الخ» . قال أحمد رحمه اللَّه : فتكون الباء على هذا الوجه استعانة مثلها في كتبت بالقلم .

(2) . قال محمود رحمه اللَّه : «ويحتمل أن يكون المراد فرقناه بسببكم» . قال أحمد رحمه اللَّه : وهي على هذا الوجه سببية ، كما تقول : أكرمتك بإحسانك إلى . [. . . . .]

(3) . قال محمود رحمه اللَّه : «ويحتمل أن يكون في موضع الحال . . . الخ» قال أحمد رحمه اللَّه : وهي على هذا الوجه للمصاحبة مثلها في : أسندت ظهري بالحائط ، والوجه الأول ضعيف من حيث أن مقتضاه أن تفريق البحر وقع ببني إسرائيل . والمنقول بل المنصوص عليه في الكتاب العزيز : أن البحر إنما انفرق بعصا موسى ، يشهد لذلك قوله تعالى : (أَنِ اضْرِبْ بِعَصاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ) ، فآلة التفريق العصا ، لا بنو إسرائيل

(4) كأن خيولنا كانت قديما تسقى في قحوفهم الحليبا

فمرت غيرنا فرة عليهم تدوس بنا الجماجم والتريبا

لأبي الطيب المتنبي . وتسقى : بالتضعيف ، والقحوف : جمع قحف بالكسر ، وقيل

بالضم : وهو العظم الذي فوق الدماغ وإناء صغير من خشب . والحليب : اللبن المحلوب ، أى كأنها كانت معتادة بهم فمرت عليهم مطمئنة . تدوس جماجمهم : أى رؤسهم ونحن على ظهورها . والتريب : لغة في التراب

(218/52)

أى تدوسها ونحن راكبوها . وروى أنّ بنى إسرائيل قالوا لموسى : أين أصحابنا لا نراهم ؟ قال :

سيروا فإنهم على طريق مثل طريقكم . قالوا : لا نرضى حتى نراهم . فقال : اللهم أعنى على أخلاقهم السيئة . فأوحى إليه : أن قل بعصاك هكذا ، فقال بها على الحيطان ، فصارت فيها كوى . فتراموا وتسامعوا كلامهم وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ إلى ذلك وتشاهدونه لا تشكون فيه .

[سورة البقرة (2) : الآيات 51 إلى 52]

وَإِذْ واعَدْنا مُوسى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظالِمُونَ (51) ثُمَّ عَفَوْنا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (52)

لما دخل بنو إسرائيل مصر بعد هلاك فرعون ولم يكن لهم كتاب ينتهون إليه ، وعد اللَّه

موسى أن ينزل عليه التوراة ، وضرب له ميقاتا ذا القعدة وعشر ذى الحجة . وقيل أَرْبَعِينَ لَيْلَةً لأنّ الشهور غررها بالليالي . وقرئ (واعَدْنا لأن اللَّه تعالى وعده الوحى ووعد المجيء للميقات إلى الطور مِنْ بَعْدِهِ من بعد مضيه إلى الطور وَأَنْتُمْ ظالِمُونَ بإشراككم ثُمَّ عَفَوْنا عَنْكُمْ حين تبتم مِنْ بَعْدِ ذلِكَ من بعد ارتكابكم الأمر العظيم وهو اتخاذكم العجل لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ إرادة أن تشكروا «1» النعمة في العفو عنكم .

[سورة البقرة (2) : الآيات 53 إلى 54]

وَإِذْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ وَالْفُرْقانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (53) وَإِذْ قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ يا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلى بارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بارِئِكُمْ فَتابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (54)

---

(1) . قال محمود : «و معناه إرادة أن تشكروا» . قال أحمد رحمه اللَّه : أخطأ في تفسير «لعل» بالارادة لأن مراد اللَّه تعالى كائن لا محالة . فلو أراد منهم الشكر لشكروا ولا بد . وإنما أجراه الزمخشري على قاعدته لفاسدة في اعتقاد أن مراد الرب كمراد العبد ، منه ما يقع ومنه ما يتعذر – تعالى اللَّه عن ذلك – ، ما شاء اللَّه كان وما لم يشأ لم يكن . والتفسير الصحيح في «لعل» هو الذي حرره سيبويه رحمه اللَّه في قوله : (لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشى) قال سيبويه :

الرجاء منصرف إلى المخاطب كأنه قال : كونا على رجائكما في تذكرته وخشيته وكذلك

هذه الآية معناها لتكونوا على رجاء الشكر للَّه عز وجل ونعمه ، فينصرف الرجاء إليهم وينزه اللَّه تعالى .

(219/52)

الْكِتابَ وَالْفُرْقانَ يعنى الجامع بين كونه كتابا منزلا ، وفرقانا يفرق بين الحق والباطل : يعنى التوراة ، كقولك : رأيت الغيث والليث ، تريد الرجل الجامع بين الجود والجرأة . ونحوه قوله تعالى : (وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسى وَهارُونَ الْفُرْقانَ وَضِياءً وَذِكْراً) يعنى الكتاب الجامع بين كونه فرقانا وضياء وذكراً : أو التوراة . والبرهان : الفارق بين الكفر والإيمان من العصا واليد وغيرهما من الآيات ، أو الشرع الفارق بين الحلال والحرام ، وقيل الفرقان : انفراق البحر . وقيل : النصر الذي فرّق بينه وبين عدوّه ، كقوله تعالى :

(يَوْمَ الْفُرْقانِ) يريد به يوم بدر . حمل قوله فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ على الظاهر وهو البخع «1» . وقيل : معناه قتل بعضهم بعضا . وقيل : أمر من لم يعبد العجل أن يقتلوا العبدة . وروى أن الرجل كان يبصر ولده ووالده وجاره وقريبه ، فلم يمكنهم المضي لأمر اللَّه ، فأرسل اللَّه ضبابة وسحابة سوداء لا يتباصرون تحتها ، وأمروا أن يحتبوا بأفنية بيوتهم ، ويأخذ الذين لم يعبدوا العجل سيوفهم ، وقيل لهم : اصبروا ، فلعن اللَّه من مدّ طرفه أو حل حبوته أو

اتقى بيد أو رجل ، فيقولون : آمين ، فقتلوهم إلى المساء حتى دعا موسى وهرون وقالا : يا رب ، هلكت بنو إسرائيل ، البقية البقية ، فكشفت السحابة ونزلت التوبة . فسقطت الشفار من أيديهم ، وكانت القتلى سبعين ألفا . فإن قلت : ما الفرق بين الفاءات ؟ قلت : الأولى للتسبيب لا غير ، لأن الظلم سبب التوبة . والثانية للتعقيب لأن المعنى فاعزموا على التوبة فاقتلوا أنفسكم ، من قبل أن اللَّه تعالى جعل توبتهم قتل أنفسهم . ويجوز أن يكون القتل تمام توبتهم . فيكون المعنى : فتوبوا ، فأتبعوا التوبة القتل تتمة لتوبتكم ، والثالثة متعلقة بمحذوف ، ولا يخلو إما أن ينتظم في قول موسى لهم فتتعلق بشرط محذوف ، كأنه قال : فإن فعلتم فقد تاب عليكم . وإمّا أن يكون خطابا من اللَّه تعالى لهم على طريقة الالتفات . فيكون التقدير : ففعلتم ما أمركم به موسى فتاب عليكم بارئكم .

فإن قلت : من أين اختص هذا الموضع بذكر البارئ ؟ قلت : البارئ هو الذي خلق الخلق بريئا من التفاوت (ما تَرى فِي خَلْقِ الرَّحْمنِ مِنْ تَفاوُتٍ) ومتميزا بعضه من بعض بالأشكال المختلفة والصور المتباينة ، فكان فيه تقريع بما كان منهم من ترك عبادة العالم الحكيم الذي برأهم بلطف حكمته على الأشكال المختلفة أبرياء من التفاوت والتنافر ، إلى عباد البقرة التي هي مثل في الغباوة والبلادة . - في أمثال العرب : أبلد من ثور - حتى عرضوا أنفسهم لسخط

---

(1) . قوله «و هو البخع» في الصحاح : بخع نفسه بخعا ، أى قتلها غما . (ع)

اللَّه ونزول أمره بأن يفك ما ركبه من خلقهم ، وينثر ما نظم من صورهم وأشكالهم ، حين لم يشكروا النعمة في ذلك ، وغمطوها بعبادة من لا يقدر على شيء منها .

[سورة البقرة (2) : الآيات 55 إلى 57]

وَإِذْ قُلْتُمْ يا مُوسى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (55) ثُمَّ بَعَثْناكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (56) وَظَلَّلْنا عَلَيْكُمُ الْغَمامَ وَأَنْزَلْنا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوى كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ وَما ظَلَمُونا وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (57)

قيل : القائلون السبعون الذين صعقوا . وقيل قاله عشرة آلاف منهم جَهْرَةً عيانا .

وهي مصدر من قولك : جهر بالقراءة وبالدعاء ، كأنّ الذي يرى بالعين جاهر بالرؤية ، والذي يرى بالقلب مخافت بها ، وانتصابها على المصدر ، لأنها نوع من الرؤية فنصبت بفعلها كما تنصب القرفصاء بفعل الجلوس ، أو على الحال بمعنى ذوى جهرة . وقرئ «جهرة» بفتح الهاء ، وهي إمّا مصدر كالغلبة . وإما جمع جاهر . وفي هذا الكلام دليل على أن موسى عليه الصلاة والسلام رادّهم القول وعرّفهم أن رؤية ما لا يجوز عليه أن يكون

في جهة محال «1» وأن من استجاز على اللَّه الرؤية فقد جعله من جملة الأجسام «2» أو الأعراض ، فرادّوه بعد بيان

---

(1) . قوله «أن يكون في جهة محال» هذا مذهب المعتزلة . ومن استجاز عليه الرؤية هم أهل السنة ، والجهة ليست شرطا للرؤية عندهم ، فلا يلزم كونه من جملة الأجسام أو الأعراض كما بين في علم التوحيد . (ع)

(2) . قال محمود رحمه اللَّه : «فيه دليل على أن موسى عليه السلام رادهم القول ، وعرفهم أن رؤية من لا يجوز عليه . . . الخ» . قال أحمد رحمه اللَّه : لقد انتهز الزمخشري ما اعتقده فرصة من هذه الآية التي لا مطمع له عند التحقيق في التشبث بها ، فبنى الأمر على أن العقوبة سببها طلب ما لا يجوز على اللَّه تعالى من الرؤية على ظنه ، وأنى له ذلك وثم سبب ظاهر في العقوبة سوى ما ادعاه هو كل السبب . وذلك أن موسى عليه السلام لما علم جواز رؤيته تعالى طلبها في آية الأعراف في دار الدنيا ، فأخبره اللَّه تعالى أنه لا يراه في الدنيا ، وصار ذلك عنده وعند بنى إسرائيل أصلا مقرراً ، كما هو عندنا الآن معاشر أهل السنة أن اللَّه تعالى لا يرى في دار الدنيا ، لأنه أخبر أنه لا يرى والخبر واجب الصدق وكما أخبر أنه لا يرى في دار الدنيا فقد وعد الوعد الصادق عز وجل برؤيته في الدار الآخرة وتخصيص ذلك بالمؤمنين ، وبعد استقرار هذا المعتقد طلب بنو إسرائيل الرؤية في الدنيا تعنتا أو شكا في الخبر ، فأنزل اللَّه تعالى بهم تلك العقوبة . وكيف تخيل الزمخشري وشيعته

أن موسى عليه السلام طلب من اللَّه ما لا يجوز عليه . وهل هو لو كان الأمر على ما تخيل إلا كبني إسرائيل . ومعاذ اللَّه ، لقد برأه من ذلك وكان عند اللَّه وجيها .

وأما الأدلة العقلية على جواز رؤيته تعالى عقلا والسمعية على وقوعها في الدار الآخرة ، فأكثر من أن تحصى وهي مستقصاه في فن الكلام . وإنما غرضنا في هذا الباب مباحثة الزمخشري والرد عليه من حيث يتمسك على ظنه وأخذه قوما منه . واللَّه الموفق .

(221/52)

الحجة ووضوح البرهان ، ولجوا فكانوا في الكفر كعبدة العجل ، فسلط اللَّه عليهم الصعقة كما سلط على أولئك القتل تسوية بين الكفرين ودلالة على عظمهما بعظم المحنة .

والصَّاعِقَةُ ما صعقهم ، أى أماتهم . قيل : نار وقعت من السماء فأحرقتهم . وقيل : صيحة جاءت من السماء . وقيل : أرسل اللَّه جنودا سمعوا بحسها فخروا صعقين ميتين يوما وليلة . وموسى عليه السلام ، لم تكن صعقته موتا ولكن غشية ، بدليل قوله : فلما أفاق . والظاهر أنه أصابهم ما ينظرون إليه لقوله وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ . وقرأ علىّ رضى اللَّه عنه فأخذتكم الصاعقة .

لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ نعمة البعث بعد الموت ، أو نعمة اللَّه بعد ما كفرتموها إذا رأيتم بأس اللَّه في

رميكم بالصاعقة وإذاقتكم الموت. وَظَلَّلنا وجعلنا الغمام يظلكم. وذلك في التيه، سخر اللَّه لهم السحاب يسير بسيرهم يظلهم من الشمس وينزل بالليل عمود من نار يسيرون في ضوئه، وثيابهم لا تتسخ ولا تبلى، وينزل عليهم الْمَنَّ وهو الترنجبين مثل الثلج. من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، لكل إنسان صاع، ويبعث اللَّه الجنوب فتحشر عليهم السَّلْوى وهي السمانى فيذبح الرجل منها ما يكفيه كُلُوا على إرادة القول وَما ظَلَمُونا يعنى فظلموا بأن كفروا هذه النعم وما ظلمونا، فاختصر الكلام بحذفه لدلالة (و ما ظلمونا) عليه.

[سورة البقرة (2) : الآيات 58 إلى 59]

وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْها حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَادْخُلُوا الْبابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطاياكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (58) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِنَ السَّماءِ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ (59)

الْقَرْيَةَ بيت المقدس. وقيل أريحاء من قرى الشام، أمروا بدخولها بعد التيه الْبابَ باب القرية. وقيل هو باب القبة التي كانوا يصلون إليها وهم لم يدخلوا بيت المقدس في حياة موسى عليه الصلاة والسلام. أمروا بالسجود عند الانتهاء إلى الباب شكراً للَّه وتواضعاً. وقيل «السجود» أن ينحنوا ويتطامنوا داخلين، ليكون دخولهم بخشوع وإخبات. وقيل: طوطئ لهم الباب ليخفضوا رؤسهم فلم يخفضوها، ودخلوا متزحفين على أوراكهم حِطَّةٌ فعلة من الحط كالجلسة والركبة، وهي خبر مبتدأ محذوف، أى مسألتنا حطة، وأمرك

حطة.

والأصل: النصب بمعنى: حط عنا ذنوبنا حطة. وإنما رفعت لتعطى معنى الثبات، كقوله:

صَبْرٌ جَمِيلٌ فَكِلَانَا مُبْتَلَى «1»

والأصل صبراً، على: اصبر صبراً. وقرأ ابن أبى عبلة بالنصب على الأصل. وقيل معناه:

أمرنا حطة، أى أن نحط في هذه القرية ونستقرّ فيها. فإن قلت: هل يجوز أن تنصب حطة في قراءة من نصبها بقولوا، على معنى: قولوا هذه الكلمة؟ قلت: لا يبعد. والأجود أن تنصب بإضمار فعلها، وينتصب محل ذلك المضمر بقولوا. وقرئ (يُغفر لكم) على البناء للمفعول بالياء والتاء وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ أى من كان محسناً منكم كانت تلك الكلمة سبباً في زيادة ثوابه، ومن كان مسيئاً كانت له توبة ومغفرة فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أى وضعوا مكان حطة قَوْلًا غيرها. يعنى أنهم أمروا بقول معناه التوبة والاستغفار، فخالفوه إلى قول ليس معناه معنى ما أمروا به، ولم يمتثلوا أمر اللَّه. وليس الغرض أنهم أمروا بلفظ بعينه وهو لفظ

الحطة فجاءوا بلفظ آخر . لأنهم لو جاءوا بلفظ آخر مستقل بمعنى ما أمروا به ، لم يؤاخذوا به .

كما لو قالوا مكان حطة : نستغفرك ونتوب إليك . أو اللهم اعف عنا وما أشبه ذلك . وقيل :

قالوا مكان حطة : حنطة . وقيل : قالوا بالنبطية : «حطا سمقاثا» أى حنطه حمراء ، استهزاء منهم بما قيل لهم ، وعدولا عن طلب ما عند اللَّه إلى طلب ما يشتهون من أغراض الدنيا . وفي تكرير الَّذِينَ ظَلَمُوا زيادة في تقبيح أمرهم «2» وإيذان بأنّ إنزال الرجز عليهم لظلمهم . وقد جاء في سورة الأعراف : (فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمُ) على الإضمار . والرجز : العذاب . وقرئ - بضم الراء - وروى أنه مات منهم في ساعة بالطاعون أربعة وعشرون ألفاً . وقيل : سبعون ألفاً . انتهى انتهى . اهـ ﴿الكشاف حـ 1 صـ 137. 143﴾

---

(1) شكا إلى جملى طول السرى صبراً جميلا فكلانا مبتلى

يقول : اشتكى بعيري إلى تعبه من طول سير الليل . وصبراً : مصدر قام مقام فعله ، أى اصبر يا بعير صبراً جميلا ففيه التفات من الغيبة إلى الخطاب . أو التقدير : فقلت له اصبر صبراً ، فكل منا مصاب بالبلاء . أو مختبر وممتحن هل يصبر على مشاق السفر أم لا . ويروى : صبر جميل ، أى أحق بنا على حذف الخبر . أو أمرنا صبر ، فيكون من المواضع التي يجب فيها حذف المبتدأ لنيابة الخبر عن الفعل . والصبر الجميل : هو ما لا شكوى فيه

إلى الخلق .

(2) . قال محمود رحمه اللَّه : «وفي تكرير (الَّذِينَ ظَلَمُوا) زيادة في تقبيح . . . الخ» . قال أحمد رحمه اللَّه : وفيه تهويل لظلمهم من حيث وضع الظاهر موضع المضمر ، وهو مفيد لذلك ، إذ هو من قبيل الاشهار لهذا المعين مع إمكان الاختصار بالاضمار .

(223/52)

وقال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيتين :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (58) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (59) ﴾

التفسير : القرية مجتمع الناس من قرأت الماء في الحوض أي جمعت . وبهذا الاعتبار كثيراً ما تطلق القرية على البلدة ، والجمع القرى على غير قياس . وإنما قياسه من المعتل اللام " فعال " نحو : ركوة وركاء ، وظبية وظباء ، والنسبة إليها قروي . وهو على القياس عند يونس حيث قال : ظبوي في النسبة إلى ظبية ، وعلى خلاف القياس عند الخليل وسيبويه حيث يقولان : ظبي على مثال الصحيح . والقرية بيت المقدس ، وقيل : أريحاء من قرى الشام .

أمروا بدخولها بعد التيه . والباب باب القرية ، وقيل : باب القبة التي كانوا يصلون إليها وهم لم يدخلوا بيت المقدس في حياة موسى ، أمروا بالسجود عند الانتهاء إلى الباب تواضعاً وشكراً لله تعالى . وقيل : السجود أن ينحنوا ويتطامنوا داخلين ليكون دخولهم بإخبات وخشوع . وقيل : طؤطئ لهم الباب ليخفضوا رؤوسهم فلم يخفضوا ودخلوا متزحفين على أوراكهم من الزحف وهو المشي على الأوراك . و ﴿ حطة ﴾ فعلة من الحط كالجلسة خبر مبتدأ محذوف أي مسألتنا حطة ، أو أمرك وأصله النصب معناه : اللهم حط عنا ذنوبنا حطة ، فرفعت لإفادة الثبوت كقوله :

شكا إليّ جملي طول السرى . . . يا جملي ليس إليّ المشتكى

(224/52)

صبر جميل فكلانا مبتلى . . . الأصل صبراً أي أصبر صبراً . كان القوم أمروا أن يدخلوا الباب على وجه الخضوع ، وأن يذكروا بلسانهم التماس حط الذنوب حتى يكونوا جامعين بين ندم القلب وخضوع الجوارح والاستغفار باللسان ، وذلك أن التوبة صفة القلب فلا يطلع الغير عليها ، فإذا اشتهر واحد بالذنب ثم تاب بعده لزمه أن يحكي توبته لمن شاهد منه الذنب ، لا لأن التوبة لا تتم إلا به إذ الأخرس تصح توبته وإن لم يوجد منه الكلام ، بل لأجل

تعريف الغير عدوله عن الذنب إلى التوبة ولإزالة التهمة عن نفسه ، وكذا من عرف بمذهب خطأ ثم تبين له الحق ، فإنه يلزمه أن يعرّف إخوانه الذين عرفوه بالخطأ عدوله عنه لتزول التهمة عنه في الثبات على الباطل ، وليعودوا إلى موالاته بعد معاداته ويحسنوا الظن به .

وعن أبي مسلم الأصفهاني : أن معناه أمرنا حطة أي أن نحط في هذه القرية ونستقر فيها .

وأصل الغفر الستر والتغطية . ومعنى القراءات في ﴿ نغفر لكم ﴾ واحد ، لأن الخطيئة إذا غفرها الله تعالى فقد غفرت ، وإذا غفرت فإنما يغفرها الله .

والفعل إذا تقدم الاسم المؤنث وحال بينه وبين الفاعل حائل جاز التذكير والتأنيث .

والخطء الذنب قال تعالى ﴿ إن قتلهم كان خطأ كبيراً ﴾ [الإسراء : 31] تقول منه خطئ يخطأ خطأً وخطأة على فعلة . والاسم الخطيئة على " فعيلة " وجمعها خطايا وأصله خطايئ بياء ثم همز ، أبدلت الهمزة ألفاً فانفتحت الياء لأجلها .

(225/52)

﴿ وسنزيد المحسنين ﴾ المفعول الثاني محذوف للعلم به ولمكان الفاصلة أي سنزيدهم إحساناً أو ثواباً أو سعة ، وذلك أن المراد من المحسنين إما من هو محسن بالطاعة في هذا التكليف ، وإما من هو محسن بطاعات أخرى في سائر التكاليف . وعلى الأول فالزيادة

الموجودة إما منفعة دنيوية ، فالمعنى أن المحسن بهذه الطاعة نزيده سعة في الدنيا ونفتح عليه قرى غير هذه القرية ، وإما منفعة دينية أي المحسن بهذا نزيده على غفران الذنوب ثواباً جزيلاً . وعلى الثاني فالمعنى أنّا نجعل دخولكم الباب سجداً وقولكم ﴿ حطة ﴾ مؤثراً في غفران الذنوب ، ثم إن أتيتم بعد ذلك بطاعات أخرى زدناكم ثواباً . ويحتمل أن يكون المراد أنهم صنفان : فمن مخطئ تصير الكلمة سبباً لغفرانه ، ومن محسن تصير سبباً لزيادة ثوابه قوله تعالى ﴿ فبدل الذين ظلموا ﴾ قال أبو البقاء : التقدير فبدلوا بالذي قيل لهم قولاً غير الذي قيل لهم . يتعدى إلى مفعولين : واحد بنفسه والآخر بالباء . والذي مع الباء يكون هو المتروك ، والذي بغير باء هو الموجود . ويجوز أن يكون " بدل " بمعنى " قال " ، لأن تبديل القول يكون بقول . والمعنى أنهم أمروا بقول معناه التوبة والاستغفار فخالفوه إلى قول ليس معناه معنى ما أمروا به ولم يمتثلوا أمر الله . وليس الغرض أنهم أمروا بلفظ معين وهو لفظ حطة فجاءوا بلفظ آخر ، لأنهم لو جاءوا بلفظ آخر مستقل بمعنى ما أمروا به لم يأخذوا به ، كما لو قالوا مكان حطة نستغفرك ونتوب إليك ، أو اللهم اعف عنا ونحو ذلك . وقيل : قالوا مكان حطة حنطة . وقيل : قالوا بالنبطية والنبط قوم ينزلون بالبطائح بين العراقين حطاً سمقاثاً أي حنطة حمراء استهزاء منهم بما قيل لهم ، وعدولاً عن طلب ما عند الله إلى طلب ما يشتهون . وفي الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله

عليه وسلم قال : " قيل لبني إسرائيل ادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم ، فبدلوا فدخلوا الباب يزحفون

(226/52)

على أستاههم وقالوا : حبة في شعرة " وفي تكرير ﴿ الذين ظلموا ﴾ ووضع المظهر موضع المضمر ، زيادة في تقبيح أمرهم وإيذان بأن إنزال الرجز عليهم لظلمهم ، وهو أن وضعوا غير ما أمروا به مكان ما أمروا به . والرجز العذاب . عن ابن عباس : مات بالفجأة منهم أربعة وعشرون ألفاً في ساعة واحدة .

وقال ابن زيد : بعث الله عليهم الطاعون حتى مات من الغداة إلى العشي عشرون ألفاً .

وقيل : سبعون ألفاً . ومعنى ﴿ من السماء ﴾ يحتمل أن يكون شيئاً نازلاً من جهة العلو كريح ونحوه ، ويحتمل أن يراد من قبل الأمر النازل من عند الله تفظيعاً لشأن العذاب .

والفسق هو الخروج عن طاعة الله إلى معصيته بارتكاب الكبيرة ، فالمراد ﴿ بما كانوا يفسقون ﴾ إما الظلم المذكور وفائدة التكرار التأكيد ، وإما أن يراد أنهم استحقوا اسم الظلم بسبب ذلك التبديل . ونزول الرجز عليهم من السماء بالفسق الذي كانوا يفعلون قبل ذلك التبديل مستمراً إلى أوان هذا الظلم ، وهذا أظهر لزوال التكرير ، ولأن لفظة " كانوا "

تنبئ عن خصلة مستمرة ، والخصلة الواحدة المعينة لا يتصور فيها الاستمرار . فلو كان المراد ذلك لقيل بما فسقوا . وربما احتج أصحاب الشافعي بقوله تعالى ﴿ فبدل الذين ظلموا ﴾ أنه لا يجوز تحريم الصلاة بلفظ التحميد والتعظيم والتسبيح ، ولا تجوز القراءة بالفارسية ، وكذا لا يجوز تبديل ما ورد به التوقيف من الأذكار بغيرها . وأجيب بأنهم إنما استحقوا الذم لتبديلهم القول إلى قول آخر يضاد معناه معنى الأول ، فلا جرم استوجبوا الذم . فأما من غير اللفظ مع بقاء المعنى فليس كذلك . ورد بأن ظاهر الآية يتناول كل من بدل قولاً بقول آخر سواء اتفق القولان في المعنى أم لم يتفقا .

(227/52)

(أسئلة) لم قال في "البقرة" ﴿ وإذ قلنا ﴾ وفي "الأعراف" ﴿ وإذ قيل ﴾ لأنه صرح بالقائل في أول القرآن إزالة للإبهام ، ولأن الكلام مرتب على قوله ﴿ اذكروا نعمتي ﴾ وفي "الأعراف" لم يبق الإبهام . ولم قال ههنا ﴿ ادخلوا ﴾ وهناك ﴿ اسكنوا ﴾ ؟ لأن الدخول مقدم على السكون ، "والبقرة" مقدمة في الذكر على "الأعراف" . ولم قال في "البقرة" ﴿ فكلوا ﴾ وفي "الأعراف" ﴿ وكلوا ﴾ بالواو ؟ لما بينا في قوله ﴿ وكلا منها رغداً ﴾ . ولم قال في "البقرة" ﴿ خطاياكم ﴾ وفي "الأعراف" ﴿ خطيئاتكم ﴾ ؟

لأن الخطايا جمع الكثرة ، والخطيئات جمع السلامة للقلة ، وقد أضاف القول ههنا إلى نفسه فكان اللائق بكرمه غفران الذنوب الكثيرة ، وهناك لم يذكر الفاعل فلم يكن ذكر اللفظ الدال على الكثرة واجباً . ولمثل هذا الجواب ذكر ههنا ﴿ رغداً ﴾ ليدل على الإنعام الأتم ، ولم يذكر في " الأعراف " ، ولم قال ههنا ﴿ وادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة ﴾ وفي " الأعراف " بالعكس ؟ لأن الواو للجمع المطلق ، ولأن المخاطبين صنفان : محسن ومذنب . واللائق بالمحسن تقدم العبادة والخضوع ، ثم ذكر التوبة على سبيل هضم النفس وإزالة العجب . واللائق بالمسيء عكس ذلك ، ولأنه ذكر في هذه السورة ﴿ ادخلوا هذه القرية ﴾ فقدم كيفية الدخول . ولم قال في " البقرة " ﴿ وسنزيد ﴾ وفي " الأعراف " ﴿ سنزيد ﴾ ؟ لأنه في " الأعراف " ذكر امرين : قول الحطة وهو إشارة إلى التوبة ، ودخول الباب وهو إشارة إلى العبادة .

(228/52)

ثم ذكر جزاءين أحدهما الغفران والآخر الزيادة ، فترك الواو ليفيا توزيع الجزاءين على الشرطين . وفي " البقرة " وقع مجموع المغفرة والزيادة جزاء لمجموع الفعلين ، أعني دخول الباب وقول الحطة ، فاحتيج إلى الواو وأيضاً الاتصال اللفظي حاصل في هذه السورة بين

قوله ﴿ وإذ قلنا ﴾ وبين قوله ﴿ وسنزيد ﴾ بخلاف "الأعراف" لأن اللائق به في الظاهر سيزاد ، فحذف الواو ليكون استئنافاً للكلام . وما الفائدة في زيادة كلمة ﴿ منهم ﴾ في الأعراف ؟ لأن أول القصة مبني على التخصيص ﴿ ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ﴾ [الأعراف : 159] فذكر أن منهم من يفعل ذلك ، ثم عدد صنوف إنعامه وأوامره عليهم ، فلما انتهت القصة قال ﴿ فبدل الذين ظلموا منهم ﴾ فهناك ذكر أمة عادلة وأمة جائرة فصار آخر الكلام مطابقاً لأوله ، وأما في البقرة فلم يذكر في أول الآيات تمييزاً وتخصيصاً حتى يلزم في آخر القصة مثل ذلك . لم قال في "البقرة" ﴿ فأنزلنا ﴾ وفي "الأعراف" ﴿ فأرسلنا ﴾ لأن الإنزال يفيد حدوثه في أول الأمر ، والإرسال يفيد تسلطه عليهم واستئصالهم بالكلية ، وذلك إنما يحدث بالآخرة . وقيل : لأن لفظ الإرسال في "الأعراف" أكثر فَرُوعي التناسب . لم قال في "البقرة" ﴿ بما كانوا يفسقون ﴾ وفي "الأعراف" ﴿ يظلمون ﴾ لأنه لما بين في البقرة كون الظلم فسقاً اكتفى بذلك البيان في "الأعراف" . وأيضاً إنهم ظلموا أنفسهم وخرجوا عن طاعة الله تعالى ، فوصفهم بالأمرين في موضعين والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 1 صـ 293-296 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (60) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما بين سبحانه نعمته عليهم بالإمكان من القرية بالنصر على أهلها والتمتع بمنافعها وختمه بتعذيبهم بما يميت أو يحرق وتبين من ذلك كله أن قلوبهم أشد قسوة من الحجارة كما سيأتي التصريح به من قول الله تعالى في قصة البقرة وأنها لا منفعة فيها اتبعه التذكير بنعمته عليهم في البرية بما يبرد الأكباد ويحيي الأجساد فذكر انفجار الماء من الحجر الذي عمهم نفعه وأنقذهم من الموت تبعة ودلهم على التوحيد والرسالة أصله وفرعه بقدرة الصانع وعلمه جمعاً لهم بذلك بين نعمتي الدين والدنيا فقال تعالى ﴿ وإذ استسقى ﴾ أي طلب السقيا .

قال الحرالي : والسقيا فعلى صيغة مبالغة فيما يحصل به الري من السقي والسقي إحياء موات شأنه أن يطلب الإحياء حالاً أو مقالاً ؛ قال صلى الله عليه وسلم : " اللهم اسق عبادك ! ثم قال : وأحي بلدك الميت " انتهى .

﴿ موسى لقومه ﴾ أي لما خافوا الموت من العطش ﴿ فقلنا ﴾ أي بما لنا من العظمة حين خفيت عنهم ﴿ اضرب ﴾ قال الحرالي : من الضرب وهو وقع الشيء على الشيء بقوة

﴿ بعصاك ﴾ والعصا كأنها ما يكف به العاصي ، وهو من ذوات الواو ، والواو فيه إشعار بعلو كأنها آلة تعلو من قارف ما تشعر فيه الياء بنزول عمله بالمعصية ، كأن العصو أدب العصي ، يقال عصا يعصو أي ضرب بالعصا اشتقاق ثان ، وعصى يعصي إذا خالف الأمر – انتهى .

﴿ الحجر ﴾ أي جنسه فضرب حجراً ﴿ فانفجرت ﴾ وما أنسب ذكر الانفجار هنا بعد ختم ما قبل بالفسق لاجتماعهما في الخروج عن محيط ، هذا خروج يحيي وذاك خروج يميت .

(230/52)

قال الحرالي : الانفجار انبعاث وحي من شيء موعى أو كأنه موعى انشق وانفلق عنه وعاؤه ومنه الفجر وانشقاق الليل عنه – انتهى .

ولأن هذا سياق الامتنان عبر بالانفجار الذي يدور معناه على انشقاق فيه سيلان وانبعاث مع انتشار واتساع وكثرة ، ولما لم يكن ﴿ منه ﴾ أي الحجر الذي ضربه ﴿ اثنتا عشرة عيناً ﴾ لكل سبط عين ، والعين قال الحرالي هو باد نام قيم يبدو به غيره ، فما أجزأ من الماء في ري أو زرع فهو عين ، وما مطر من السماء فأغنى فهو عين ، يقال إن العين مطر

أيام لا يقلع وإنما هو مطر يغني وينجع ، وما تبدو به الموزونات عين ، وما تبدو به المرئيات من الشمس عين ، وما تنال به الأعيان من الحواس عين ، والركية وهي بئر السقيا عين ، وهي التي يصحفها بعضهم فيقول : الركبة – بالباء يعني الموحدة – وإنما هي الركّية – بالياء المشددة – كذا قال ، وقد ذكر أهل اللغة عين الرُكبة ؛ وعدّ في القاموس المعاني التي لهذا اللفظ نحو أربعين ، منها نقرة الركبة أي بالموحدة ، ومنها مفجر ماء الركية بالتحتانية مشددة .

ولما توقع السامع إخبار المتكلم هل كانت الأعين موزعة بينهم معروفة أو ملبسة قال ﴿ قد علم كل أناس ﴾ أي منهم .

(231/52)

قال الحرالي : وهو اسم جمع من الأنس – بالضم ، كالناس اسم جمع من النوس ، قال : فلم يسمهم باسم من أسماء الدين لأن الأسماء تجري على حسب الغالب على المسمّين بها من أحوال تدين أو حال طبع أو تطبع ﴿ مشربهم ﴾ مكتفاهم من الشرب المردد مع الأيام ومع الحاجات في كل وقت بما يفهمه المفعل اسم مصدر ثان مشتق من مطلق الشرب أو اسم محل يلزمه التكرار عليه والتردد ، فجعل سبحانه سقياهم آية من آياته في عصاه ، كما كانت آيته

في عصاه على عدوه الكافر ، فكان فيها نقمة ورحمة ؛ وظهر بذلك كمال تمليكه تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم حين كان ينبع من بين أصابعه الماء غنياً في نبوعه عن آلة ضرب أو حجر ، وتمليك الماء من أعظم التمكين ، لأنه تمكين فيما هو بزر كل شيء ومنه كل حي وفيه كل مجعول ومصور – انتهى .

يعني أن هذه الخارقة دون ما نبع للنبي صلى الله عليه وسلم من الماء من بين أصابعه ، ودون ما نبع بوضع أصحابه سهماً من سهامه في بئر الحديبية وقد كانت لا ماء فيها ، ونحو ذلك كثير .

ولما كان السياق للامتنان وكان الإيجاد لا تستلزم التحليل للتناول قال زيادة على ما في الأعراف ممتناً عليهم بنعمة الإحلال بعد الإيجاد على تقدير القول لأنه معلوم تقديره ﴿ كلوا واشربوا من رزق الله ﴾ أي الذي رزقكموه من له الكمال كله من غير كد ولا نصب .

قال الحرالي : لما لم يكن في مأكلهم ومشربهم جرى العادة حكمته في الأرض فكان من غيب فأضيف ذكره لاسم الله الذي هو غيب ﴿ ولا تعثوا ﴾ من العثو وهو أشد الفساد وكذلك العثي إلا أنه يشعر هذا التقابل بين الواو والياء ، إن العثو إفساد أهل القوى بالسطوة والعثى إفساد أهل المكر بالحيلة – انتهى .

﴿ في الأرض ﴾ أي عامة ، لأن من أفسد في شيء منها بالفعل فقد أفسد فيها كلها بالقوة .

واتباع ما معناه الفساد قوله ﴿ مفسدين ﴾ دليل على أن المعنى ولا تسرعوا إلى فعل ما يكون فساداً قاصدين به الفساد ، فإن العثي والعيث الإسراع في الفساد ، لكن قد يقصد بصورة الفساد الخير فيكون صلاحاً في المعنى ، كما فعل الخضر عليه السلام في السفينة والغلام ، وليس المراد بالإسراع التقييد بل الإشارة إلى أنه لملاءمته للهوى لا يكون إلا كذلك ، سيأتي له في سورة هود عليه السلام إن شاء الله تعالى مزيد بيان .

قال الحرالي : وفيه إشعار بوقوع ذلك منهم ، لأن في كل نهي إشعاراً بمخالفته ، إلا ما شاء الله ، وفي كل أمر إشعاراً بموافقته إلا ما شاء الله ، لأن ما جبل عليه المرء لا يؤمر به لاكتفاء إجباره فيه طبعاً عن أمره ، وما منع منه لا ينهى عنه لاكتفاء إجباره عن أمره ، وإنما مجرى الأمر والنهي توطئة لإظهار الكيان في التفرقة بين مطيع وعاص ، فكان منهم لذلك من العثي ما أوجب ما أخبر به الحق عنهم من الهوان ، وأشد الإفساد إفساد بنيان الحق الذي خلقه بيده وهي مباني أجساد بني آدم فكيف بالمؤمنين منهم فكيف بالأنبياء منهم – انتهى .

انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 144 . 147 ﴾

اللغة :

[استسقى] طلب السقيا لقومه لأن السين والتاء للطلب مثل : استنصر واستخبر ، قال أبو حيان : الاستسقاء : طلب الماء عند عدمه ، أو قلته ، ومفعوله محذوف أي استسقى موسى ربه .

[فانفجرت] الانفجار : الانشقاق ومنه سمي الفجر لانشقاق ضوئه ، وانفجر وانبجس بمعنى واحد قال تعالى : [فانبجست منه] .

[مشربهم] جهة وموضع الشرب

[تعثوا] العيث : شدة الفساد ، يقال : عثي يعثى ، وعثا يعثو إذا أفسد فهو عاث ، قال الطبري : معناه تطغوا وأصله شدة الإفساد

[فومها] الفوم : الثوم ، وقيل : الحنطة

[أتستبدلون] الاستبدال : ترك شيء لآخر وأخذ غيره مكانه

[أدنى] أخس وأحقر ، يقال رجل دنيء إذا كان يتتبع الخسائس

[الذلة] الذل والهوان والحقارة

[والمسكنة] الفاقة والخشوع مأخوذة من السكون ، لأم المسكين قليل الحركة لما به من الفقر

[باءوا] رجعوا وانصرفوا قال الرازي : ولا يقال باء إلا إذا كان بشر

[يعتدون] الاعتداء : تجاوز الحد فى كل شيء ، واشتهر فى الظلم والمعاصي . انتهى انتهى . اهـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 1 صـ 61 ﴾

(234/52)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابورى رحمه الله :

القراءات : عامة القراء ﴿ اثنتا عشرة ﴾ بسكون الشين للتخفيف ﴿ عليهم الذلة ﴾ بضم الهاء والميم : حمزة وعلي وخلف وسهل ويعقوب ، وكذلك كل ما كان قبل الهاء ياء ساكنة ، وافق سهل إذا كانت قبل الياء فتحة فقط . وقرأ أبو عمرو بكسر الهاء والميم ، الباقون بكسر الهاء وضم الميم . ﴿ النبيين وبابه ﴾ بالهمزة : نافع إلا في موضعين في الأحزاب ﴿ إن وهبت نفسها للنبي ﴾ [الأحزاب : 5] و ﴿ بيوت النبي ﴾ [الأحزاب : 53] إلا فروي إسماعيل وقالون عنه بغير همزة .

الوقوف : ﴿ الحجر ﴾ (ط) الحق المحذوف أي فضرب فانفجرت ﴿ عيناً ﴾ (ط) ﴿ مشربهم ﴾ (ط) ﴿ مفسدين ﴾ (5) ﴿ وبصلها ﴾ (ط) ﴿ هو خير ﴾ (ط) ﴿ سألتم ﴾ (ط) لأن قوله ﴿ وضربت ﴾ ابتداء إخبار عما يؤل إليه حالهم ﴿ من

الله ﴾ (ط) ﴿ بغير الحق ﴾ (ط) ﴿ يعتدون ﴾ (5) . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 1 صـ 297 ﴾

فصل

قال الفخر :

قراءة العامة اثنتا عشرة بسكون الشين على التخفيف وقراءة أبي جعفر بكسر الشين ، وعن بعضهم بفتح الشين ، والوجه هو الأول لأنه أخف وعليه أكثر القراء ، واعلم أن هذا هو الإنعام التاسع من الإنعامات المعدودة على بني إسرائيل ، وهو جامع لنعم الدنيا والدين ، أما في الدنيا فلأنه تعالى أزال عنهم الحاجة الشديدة إلى الماء ولولاه لهلكوا في التيه ، كما لولا إنزاله المن والسلوى لهلكوا ، فقد قال تعالى : ﴿ وَمَا جعلناهم جَسَداً لاَّ يَأْكُلُونَ الطعام ﴾ [الأنبياء : 8] وقال : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الماء كُلَّ شَىْء حَىّ ﴾ [الأنبياء : 30] بل الإنعام بالماء في التيه أعظم من الإنعام بالماء المعتاد لأن الإنسان إذا اشتدت حاجته إلى الماء في المفازة وقد انسدت عليه أبواب الرجاء لكونه في مكان لا ماء فيه ولا نبات ، فإذا رزقه الله الماء من حجر ضرب بالعصا فانشق واستقى منه علم أن هذه النعمة لا يكاد يعدلها شيء من النعم ، وأما كونه من نعم الدين فلأنه من أظهر الدلائل على وجود الصانع وقدرته وعلمه ومن أصدق الدلائل على صدق موسى عليه السلام . انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 88 ﴾

فصل

قال الفخر :

جمهور المفسرين أجمعوا على أن هذا الاستسقاء كان في التيه ، لأن الله تعالى لما ظلل عليهم الغمام وأنزل عليهم المن والسلوى وجعل ثيابهم بحيث لا تبلى ولا تتسخ خافوا العطش فأعطاهم الله الماء من ذلك الحجر ، وأنكر أبو مسلم حمل هذه المعجزة على أيام مسيرهم إلى التيه فقال : بل هو كلام مفرد بذاته ، ومعنى الاستسقاء طلب السقيا من المطر على عادة الناس إذا أقحطوا ويكون ما فعله الله من تفجير الحجر بالماء فوق الإجابة بالسقيا وإنزال الغيث والحق أنه ليس في الآية ما يدل على أن الحق هذا أو ذاك وإن كان الأقرب أن ذلك وقع في التيه ، ويدل عليه وجهان .

أحدهما : أن المعتاد في البلاد الاستغناء عن طلب الماء إلا في النادر ، الثاني : ما روي أنهم كانوا يحملون الحجر مع أنفسهم لأنه صار معداً لذلك فكما كان المن والسلوى ينزلان عليهم في كل غداة فكذلك الماء ينفجر لهم في كل وقت وذلك لا يليق إلا بأيامهم في التيه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 88 ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وَإِذِ استسقى موسى لِقَوْمِهِ ﴾ تذكير لنعمة عظيمة كفروا بها وكان ذلك في التيه لما عطشوا ففي بعض الآثار أنهم قالوا فيه : من لنا بحر الشمس فظلل عليهم الغمام وقالوا : من لنا بالطعام فأنزل الله تعالى عليهم المن والسلوى وقالوا : من لنا بالماء فأمر موسى بضرب الحجر وتغير الترتيب لقصد إبراز كل من الأمور المعدود في معرض أمر مستقل واجب التذكير والتذكر ، ولو روعي الترتيب الوقوعي لفهم أن الكل أمر واحد أمر بذكره والاستسقاء طلب السقيا عند عدم الماء أو قلته .

قيل : ومفعول استسقى محذوف أي ربه أو ماء وقد تعدى هذا الفعل في الفصيح إلى المستسقى منه تارة وإلى المستسقي أخرى كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ استسقاه قَوْمُهُ ﴾ [الأعراف : 160] وقوله :

وأبيض يستسقي الغمام بوجهه . . .

ثمال اليتامى عصمة للأرامل

(236/52)

وتعديته إليهما مثل أن تقول : استسقى زيد ربه الماء لم نجدها في شيء من كلام العرب واللام متعلقة بالفعل ، وهي سببية أي لأجل قومه .

﴿ فَقُلْنَا اضرب بّعَصَاكَ الحجر ﴾ أي فأجبناه ﴿ فَقُلْنَا ﴾ الخ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 269. 270 ﴾

فصل

قال الفخر :

اختلفوا في العصا ، فقال الحسن : كانت عصا أخذها من بعض الأشجار ، وقيل كانت من آس الجنة طولها عشرة أذرع على طول موسى ولها شعبتان تتقدان في الظلمة والذي يدل عليه القرآن أن مقدارها كان مقداراً يصح أن يتوكأ عليها وأن تنقلب حية عظيمة ولا تكون كذلك إلا ولها قدر من الطول والغلظ وما زاد على ذلك فلا دلالة عليه .

واعلم أن السكوت عن أمثال هذه المباحث واجب لأنه ليس فيها نص متواتر قاطع ولا يتعلق بها عمل حتى يكتفى فيها بالظن المستفاد من أخبار الآحاد فالأولى تركها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 88. 89 ﴾

فصل

قال الفخر :

اللام في " الحجر " إما للعهد والإشارة إلى حجر معلوم ، فروي أنه حجر طوري حمله معه

وكان مربعاً له أربعة أوجه ينبع من كل وجه ثلاثة أعين لكل سبط عين تسيل في جدول إلى ذلك السبط ، وكانوا ستمائة ألف وسعة المعسكر اثنا عشر ميلاً ، وقيل أهبط مع آدم من الجنة فتوارثوه حتى وقع إلى شعيب فدفعه إليه مع العصا ، وقيل : هو الحجر الذي وضع عليه ثوبه حين اغتسل إذ رموه بالأدرة ففر به ، فقال له جبريل : يقول الله تعالى : ارفع هذا الحجر فإن لي فيه قدرة ولك فيه معجزة ، فحمله في مخلاته ، وإما للجنس أي اضرب الشيء الذي يقال له الحجر ، وعن الحسن : لم يأمروه أن يضرب حجراً بعينه .

قال : وهذا أظهر في الحجة وأبين في القدرة ، وروي أنهم قالوا : كيف بنا لو أفضينا إلى أرض ليست فيها حجارة فحمل حجراً في مخلاته فحينما نزلوا ألقاه وقيل : كان يضربه بعصاه فينفجر ويضربه بها فييبس ، فقالوا : إن فقد موسى عصاه متنا عطشاً .

(237/52)

فأوحى الله إليه لا تقرع الحجارة ، وكلمها تطعك ، واختلفوا في صفة الحجر فقيل : كان من رخام وكان ذراعاً في ذراع ، وقيل : مثل رأس الإنسان .

والمختار عندنا تفويض علمه إلى الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ

وقال الآلوسى :

والعصا مؤنث والألف منقلبة عن واو بدليل عصوان وعصوته أي ضربته بالعصا ويجمع على أفعل شذوذاً وعلى فعول قياساً ، فيقال : أعصى وعصى ، وتتبع حركة العين حركة الصاد و(الحجر) هو هذا الجسم المعروف ، وجمعه أحجار وحجار ، وقالوا : حجارة ، واشتقوا منه فقالوا : استحجر الطين ، والاشتقاق من الأعيان قليل جداً .

والمراد بهذه (العصا) المسؤول عنها في قوله تعالى : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا موسى موسى ﴾ [طه : 71] والمشهور أنها من آس الجنة طولها عشرة أذرع طول موسى عليه السلام لها شعبتان تتقدان في الظلمة ، توارثها صاغر عن كابر حتى وصلت إلى شعيب ومنه إلى موسى عليهما السلام ؛ وقيل : رفعها له ملك في طريق مدين ، وفي المراد من (الحجر) خلاف ، فقال الحسن : لم يكن حجراً معيناً ، بل أي حجر ضربه انفجر منه الماء ، وهذا أبلغ في الإعجاز وأبين في القدرة ، وقال وهب : كان يقرع لهم أقرب حجر فتنفجر ، وعلى هذا اللام فيه للجنس ، وقيل : للعهد ، وهو حجر معين حمله معه من الطور مكعب له أربعة أوجه ينبع من كل وجه ثلاثة أعين ، لكل سبط عين تسيل في جدول إلى السبط الذي أمرت أن تسقيهم ، وكانوا ستمائة ألف ما عدا دوابهم ، وسعة المعسكر إثنا عشر ميلاً ، وقيل : حجر كان عند آدم وصل مع العصا إلى شعيب فدفع إلى موسى ، وقيل : هو الحجر الذي فر بثوبه ، والقصة معروفة .

وقيل : حجر أخذ من قعر البحر خفيف يشبه رأس الآدمي كان يضعه في مخلاته ، فإذا احتاج للماء ضربه .

والروايات في ذلك كثيرة ، وظاهر أكثرها التعارض ، ولا ينبني على تعيين هذا الحجر أمر ديني ، وإلا سلم تفويض علمه إلى الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 270 ﴾

(238/52)

أسئلة وأجوبة

السؤال الأول : هل يجوز أن يأمره الله تعالى بأن يضرب بعصاه الحجر فينفجر من غير ضرب حتى يستغني عن تقدير هذا المحذوف ؟ الجواب : لا يمتنع في القدرة أن يأمره الله تعالى بأن يضرب بعصاه الحجر ومن قبل أن يضرب ينفجر على قدر الحاجة لأن ذلك لو قيل إنه أبلغ في قيل : إنه أبلغ في الإعجاز لكان أقرب ، لكن الصحيح أنه ضرب فانفجرت لأنه تعالى لو أمر رسوله بشيء ، ثم إن الرسول لا يفعله لصار الرسول عاصياً ، ولأنه إذا انفجر من غير ضرب صار الأمر بالضرب بالعصا عبثاً ، كأنه لا معنى له ولأن المروي في الأخبار أن تقديره : فضرب فانفجرت كما في قوله تعالى : ﴿ فانفلق ﴾ [الشعراء : 63] من أن المراد

فضرب فانفلق .

السؤال الثاني : أنه تعالى ذكر ههنا : ﴿ فانفجرت ﴾ وفي الأعراف : ﴿ فانبجست ﴾ [الأعراف : 16] وبينهما تناقض لأن الانفجار خروج الماء بكثرة والانبجاس خروجه قليلاً .

الجواب من ثلاثة أوجه : أحدها : الفجر الشق في الأصل ، والانفجار الانشقاق ، ومنه الفاجر لأنه يشق عصا المسلمين بخروجه إلى الفسق ، والانبجاس اسم للشق الضيق القليل ، فهما مختلفان اختلاف العام والخاص ، فلا يتناقضان ، وثانيها : لعله انبجس أولاً ، ثم انفجر ثانياً ، وكذا العيون : يظهر الماء منها قليلاً ثم يكثر لدوام خروجه .

وثالثها : لا يمتنع أن حاجتهم كانت تشتد إلى الماء فينفجر ، أي يخرج الماء كثيراً ثم كانت تقل فكان الماء ينبجس أي يخرج قليلاً .

(239/52)

السؤال الثالث : كيف يعقل خروج المياه العظيمة من الحجر الصغير ؟ الجواب : هذا السائل إما أن يسلم وجود الفاعل المختار أو ينكره ، فإن سلم فقد زال السؤال ، لأنه قادر على أن يخلق الجسم كيف شاء كما خلق البحار وغيرها ، وإن نازع فلا فائدة له في البحث

عن معنى القرآن والنظر في تفسيره ، وهذا هو الجواب عن كل ما يستبعدونه من المعجزات التي حكاها الله تعالى في القرآن من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص ، وأيضاً فالفلاسفة لا يمكنهم القطع بفساد ذلك لأن العناصر الأربعة لها هيولى مشتركة عندهم ، وقالوا : إنه يصح الكون والفساد عليها ، وإنه يصح انقلاب الهواء ماء وبالعكس وكذلك قالوا : (الهواء) إذا وضع في الكوز الفضة جمد فإنه يجتمع على أطراف الكوز قطرات الماء ، فقالوا : تلك القطرات إنما حصلت لأن الهواء انقلب ماء فثبت أن ذلك ممكن في الجملة والحوادث السفلية مطيعة للاتصالات الفلكية ، فلم يكن مستبعداً أن يحدث اتصال فلكي يقتضي وقوع هذا الأمر الغريب في هذا العالم .

فثبت أن الفلاسفة لا يمكنهم الجزم بفساد ذلك .

أما المعتزلة فإنهم لما اعتقدوا كون العبد موجداً لأفعاله لا جرم قلنا لهم : لم لا يجوز أن يقدر العبد على خلق الجسم ؟ فذكروا في ذلك طريقين ضعيفين جداً سنذكرهما إن شاء الله تعالى في تفسير آية السحر ، ونذكر وجه ضعفهما وسقوطهما .

وإذا كان كذلك فلا يمكنهم القطع بأن ذلك من فعل الله تعالى فتنسد عليهم أبواب المعجزات والنبوات ، أما أصحابنا فإنهم لما اعتقدوا أنه لا موجد إلا الله تعالى لا جرم جزموا أن المحدث لهذه الأفعال الخارقة للعادات هو الله تعالى ، فلا جرم أمكنهم الاستدلال بظهورها على يد المدعي على كونه صادقاً .

السؤال الرابع : أتقولون إن ذلك الماء كان مستكناً في الحجر ثم ظهر أو قلب الله الهواء ماء أو خلق الماء ابتداء ؟ والجواب : أما الأول فباطل لأن الظرف الصغير لا يحوي الجسم العظيم إلا على سبيل التداخل وهو محال .

أما الوجهان الأخيران فكل واحد منهما محتمل ، فإن كان على الوجه الأول فقد أزال الله تعالى اليبوسة عن أجزاء الهواء وخلق الرطوبة فيها وإن كان على الوجه الثاني فقد خلق تلك الأجزاء وخلق الرطوبة فيها .

واعلم أن الكلام في هذا الباب كالكلام فيما كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض الغزوات وقد ضاق بهم الماء فوضع يده في متوضئه ففار الماء من بين أصابعه حتى استكفوا .

السؤال الخامس : معجزة موسى في هذا المعنى أعظم أم معجزة محمد عليه السلام ؟

الجواب : كل واحدة منهما معجزة باهرة قاهرة ، لكن التي لمحمد صلى الله عليه وسلم أقوى لأن نبوع الماء من الحجر معهود في الجملة ، أما نبوعه من بين الأصابع فغير معتاد ألبتة فكان ذلك أقوى .

السؤال السادس : ما الحكمة في جعل الماء اثنتي عشرة عيناً ؟ والجواب : أنه كان في قوم موسى كثرة والكثير من الناس إذا اشتدت بهم الحاجة إلى الماء ثم وجدوه فإنه يقع بينهم تشاجر وتنازع وربما أفضى ذلك إلى الفتن العظيمة فأكمل الله تعالى هذه النعمة بأن عين لكل سبط منهم ماء معيناً لا يختلط بغيره والعادة في الرهط الواحد أن لا يقع بينهم من التنازع مثل ما يقع بين المختلفين .

(241/52)

السؤال السابع : من كم وجه يدل هذا الانفجار على الإعجاز ؟ والجواب : من وجوه : أحدها : أن نفس ظهور الماء معجز ، وثانيها : خروج الماء العظيم من الحجر الصغير ، وثالثها : خروج الماء بقدر حاجتهم ، ورابعها : خروج الماء عند ضرب الحجر بالعصا ، وخامسها : انقطاع الماء عند الاستغناء عنه ، فهذه الوجوه الخمسة لا يمكن تحصيلها إلا بقدرة تامة نافذة في كل الممكنات وعلم نافذ في جميع المعلومات وحكمة عالية على الدهر والزمان ، وما ذاك إلا للحق سبحانه وتعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 90.89 ﴾

فائدة

قال الآلوسى :

﴿ فانفجرت مِنْهُ اثنتا عَشْرَةَ عَيْنًا ﴾ عطف على مقدر ، أي فضرب فانفلق ، ويدل على هذا المحذوف وجود الانفجار ، ولو كان ينفجر دون ضرب لما كان للأمر فائدة ، وبعضهم يسمي هذه الفاء الفصيحة ويقدر شرطاً أي فإن ضربت فقد انفجرت وفي " المغني " : إن هذا التقدير يقتضي تقدم الانفجار على الضرب ، إلا أن يقال : المراد فقد حكمنا بترتب الانفجار على ضربك ، وقال بعض المتأخرين : لا حذف ، بل الفاء للعطف وإن مقدرة بعد الفاء كما هو القياس ، بعد الأمر عند قصد السببية ، والتركيب من قبيل زرني فأكرمك أي (اضرب بعصاك الحجر) فإن انفجرت فليكن منك الضرب فالانفجار ولا يخفى ما في كل حتى قال مولانا مفتي الديار الرومية في الأول : إنه غير لائق بجلالة شأن النظم الكريم .

والثاني : أدهى وأمر والانفجار انصداع شيء من شيء ، ومنه الفجر والفجور ، وجاء هنا ﴿ انفجرت ﴾ وفي الأعراف (160) ﴿ فانبجست ﴾ فقيل : هما سواء .

(242/52)

وقيل : بينهما فرق وهو أن الانبجاس أول خروج الماء ، والانفجار اتساعه وكثرته ، أو الانبجاس خروجه من الصلب ، والآخر خروجه من اللين ، والظاهر استعمالهما بمعنى واحد وعلى فرض المغايرة لا تعارض لاختلاف الأحوال ، و(من) لابتداء الغاية ، والضمير عائد على الحجر المضروب وعوده إلى الضرب ، و(من) سببية مما لا ينبغي الإقدام عليه ، والتاء في إثنتا للتأنيث ويقال : ثنتا إلا أن التاء فيها على ما في " البحر " للإلحاق ، وهذا نظير أنبت ، ونبت ولامها محذوفة ، وهي ياء لأنها من ثنيت ، وقرأ مجاهد وجماعة ورواه السعدي عن أبي عمرو عشرة بكسر الشين وهي لغة بني تميم ، وقرأ الفضل الأنصاري بفتحها قال ابن عطية : وهي لغة ضعيفة ، ونص بعضها النحاة على الشذوذ ، ويفهم من بعض المتأخرين إن هذه اللغات في المركب لا في عشرة وحدها ، وعبارات القوم لا تساعده ، والعين منبع الماء وجمع على أعين شذوذاً وعيون قياساً ، وقالوا في أشراف الناس : أعيان ، وجاء ذلك في الباصرة قليلاً كما في قوله :

أعياناً لها ومآقيا . . .

وهو منصوب على التمييز ، وإفراده في مثل هذا الموضع لازم ، وأجاز الفراء أن يكون جمعاً ، وكان هذا العدد دون غيره لكونهم كانوا اثني عشر سبطاً وكان بينهم تضاغن وتنافس فأجرى الله تعالى لكل سبط عيناً يردها لا يشركه فيها أحد من السبط الآخر دفعاً لإثارة الشحناء ، ويشير إلى حكمة الانقسام ، قوله تعالى : ﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ﴾ وهي جملة مستأنفة مفهمة على أن كل سبط منهم قد صار له مشرب يعرفه فلا يتعدى لمشرب غيره ، و(أناس) جمع لا واحد له من لفظه ، وما ذكر من شذوذ إثبات همزته إنما هو مع الألف واللام ، وأما بدونها فشائع صحيح ، و(عَلِمَ) هنا متعدية لواحد أجريت مجرى عرف ووجد ذلك بكثرة والمشرب إما اسم مكان أي محل الشرب ، أو مصدر ميمي بمعنى الشرب ، وحمله بعضهم على المشروب وهو الماء ، وحمله على المكان أولى عند أبي حيان ، وإضافة المشرب إليهم لأنه لما تخصص كل مشرب بمن تخصص به صار كأنه ملك لهم وأعاد الضمير في مشربهم على معنى ﴿ كُلٌّ ﴾ ولا يجوز أن يعود على لفظها لأن كُلاً متى أضيف إلى نكرة وجب مراعاة المعنى كما في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِم ﴾ [الإسرار : 71] وقوله :

وكل أناس سوف تدخل بينهم . . .

دويهية تصفر منها الأنامل

ونص على المشرب تنبيهاً على المنفعة العظيمة التي هي سبب الحياة وإن كان سرد الكلام

يقتضي قد علم كل أناس عينهم وفي الكلام حذف أي منها لأن ﴿ قَدْ عَلِمَ ﴾ صفة لاثنتا عشرة عيناً فلا بد من رابط ، وإنما وصفها به لأنه معجزة أخرى حيث يحدث مع حدوث الماء جداول يتميز بها مشرب كل من مشرب آخر ، ويحتمل أن تكون الجملة حالية لا صفة لقوله تعالى : ﴿ اثنتا عَشْرَةَ ﴾ لئلا يحتاج إلى تقدير العائد وليفيد مقارنة العلم بالمشارب للانفجار ، والمشرب حينئذٍ العين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 270 . 271 ﴾

(244/52)

قوله تعالى : ﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾

قال الفخر :

أما قوله تعالى : ﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ﴾ فنقول : إنما علموا ذلك لأنه أمر كل إنسان أن لا يشرب إلا من جدول معين كيلا يختلفوا عند الحاجة إلى الماء ، وأما إضافة المشرب إليهم فلأنه تعالى لما أباح لكل سبط من الأسباط ذلك الماء الذي ظهر من ذلك الشق الذي يليه صار ذلك كالملك لهم وجازت إضافته إليهم .

أما قوله تعالى : ﴿ كُلُواْ واشربوا مِن رّزْقِ الله ﴾ ففيه حذف ، والمعنى : فقلنا لهم أو قال لهم موسى : كلوا واشربوا ، وإنما قال : كلوا لوجهين ، أحدهما : لما تقدم من ذكر المن والسلوى ، فكأنه قال : كلوا من المن والسلوى الذي رزقكم الله بلا تعب ولا نصب واشربوا من هذا الماء .

والثاني : أن الأغذية لا تكون إلا بالماء ، فلما أعطاهم الماء فكأنه تعالى أعطاهم المأكول والمشروب .

واحتجت المعتزلة بهذه الآية على أن الرزق هو الحلال ، قالوا : لأن أقل درجات قوله : ﴿ كُلُواْ واشربوا ﴾ الإباحة ، وهذا يقتضي كون الرزق مباحاً ، فلو وجد رزق حرام لكان ذلك الرزق مباحاً وحراماً وإنه غير جائز .

أما قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِى الأرض مُفْسِدِينَ ﴾ فالعثي أشد الفساد ، فقيل لهم : لا تتمادوا في الفساد في حالة إفسادكم لأنهم كانوا متمادين فيه ، والمقصود منه ما جرت العادة بين الناس من التشاجر والتنازع في الماء عند اشتداد الحاجة إليه ، فكأنه تعالى قال : إن وقع التنازع بسبب ذلك الماء فلا تبالغوا في التنازع . والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 91 ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ كُلُواْ واشربوا مِن رّزْقِ الله ﴾ على إرادة القول ، وبدأ بالأكل لأن قوام الجسد به ، والاحتياج إلى الشرب حاصل عنه ، و(من) لابتداء الغاية ، ويحتمل أن تكون للتبعيض ، وفي ذكر الرزق مضافاً تعظيم للمنة ، وإشارة إلى حصول ذلك لهم من غير تعب ولا تكلف ، وفي هذا التفات إذ تقدم ﴿ فَقُلْنَا اضرب ﴾ ولو جرى على نظم واحد لقال من رزقنا ، ولو جعل الإضمار قبل ﴿ كُلُواْ ﴾ مسنداً إلى موسى أي وقال موسى : كلوا واشربوا لا يكون فيه ذلك ، والرزق هنا بمعنى المرزوق وهو الطعام المتقدم من المنّ والسلوى ، والمشروب من ماء العيون ، وقيل : المراد به الماء وحده لأنه يشرب ويؤكل مما ينبت منه ويضعفه أنه لم يكن أكلهم في التيه من زروع ذلك الماء كما يشير إليه قوله تعالى : ﴿ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الأرض ﴾ [البقرة : 61] و ﴿ لَن نَّصْبِرَ على طَعَامٍ واحد ﴾ [البقرة : 61] ويلزم عليه أيضاً الجمع بين الحقيقة والمجاز إذ يؤول إلى كلوا واشربوا من الماء ، ويكون نسبة الشرب إليه بإرادة ذاته ، والأكل بإرادة ما هو سبب عنه ، أو القول بحذف متعلق أحد الفعلين أي كلوا من رزق الله واشربوا من رزق الله ، وقول بعض المتأخرين إن رزق الله عبارة عن الماء ، وفي الآية إشارة إلى إعجاز آخر وهو أن هذا الماء كما يروي العطشان يشبع الجوعان فهو طعام وشراب بعيد غاية البعد ، وأقرب منه أن لا يكون ﴿ كُلُواْ واشربوا ﴾ بتقدير القول

من تتمة ما يحكى عنهم بل يجعل أمراً مرتباً على ذكرهم ما وقع وقت الاستسقاء على وجه الشكر والتذكير بقدرة الله تعالى فهو أمر المخاطبين بهذه الحكاية بأكلهم وشربهم مما يرزقهم الله تعالى ، وعدم الإفساد بإضلال الخلق ، وجمع عرض الدنيا ويكون فصله عما سبق لأنه بيان للشكر المأمور أو نتيجة للمذكور

(246/52)

واحتجت المعتزلة بهذه الآية على أن الرزق هو الحلال لأن أقل درجات هذا الأمر أن يكون للإباحة فاقتضى أن يكون الرزق مباحاً فلو وجد رزق حرام لكان الرزق مباحاً وحراماً ، وأنه غير جائز ، والجواب أن الرزق هنا ليس بعام إذا أريد المنّ والسلوى والماء المنفجر من الحجر ، ولا يلزم من حلية معين مّا من أنواع الرزق حلية جميع الرزق وعلى تسليم العموم يلتزم التبعيض

﴿ وَلَا تَعْثَوْا فِى الأرض مُفْسِدِينَ ﴾ لما أمروا بالأكل والشرب من رزق الله تعالى ولم يقيد ذلك عليهم بزمان ولا مكان ولا مقدار كان ذلك إنعاماً وإحساناً جزيلاً إليهم ، واستدعى ذلك التبسط في المأكل والمشرب نهاهم عما يمكن أن ينشأ عن ذلك وهو الفساد حتى لا يقابلوا تلك النعم بالكفران ، والعثي عند بعض المحققين مجاوزة الحد مطلقاً فساداً كان أولاً

فهو كالاعتداء ، ثم غلب في الفساد ، و(مفسدين) على هذا حال غير مؤكدة وهو الأصل فيها كما يدل عليه تعريفها ، وذكر أبو البقاء أن العُتِيّ الفساد والحال مؤكدة ، وفيه أن مجيء الحال المؤكدة بعد الفعلية خلاف مذهب الجمهور .

وذهب الزمخشري أن معناه أشد الفساد والمعنى لا تتمادوا في الفساد حال إفسادكم ، والمقصد النهي عما كانوا عليه من التمادي في الفساد وهو من أسلوب ﴿ لاَ تَأْكُلُواْ الربا أضعافا مضاعفة ﴾ [آل عمران : 130] وإلا فالفساد أيضاً منكر منهي عنه ، وفيه أنه تكلف مستغنى عنه بما ذكرنا ، والمراد من (الأرض) عند الجمهور أرض التيه .

(247/52)

ويجوز أن يريدها وغيرها مما قدروا أن يصلوا إليها فينالها فسادهم ، وجوز أن يريد الأرضين كلها ، و(أل) لاستغراق الجنس ، ويكون فسادهم فيها من جهة أن كثرة العصيان والإصرار على المخالفات والبطر يؤذن بانقطاع الغيث وقحط البلاد ونزع البركات ، وذلك انتقام يعم الأرضين ، هذا ثم إن ظاهر القرآن لا يدل على تكرر هذا الاستسقاء ولا الضرب ولا الانفجار فيحتمل أن يكون ذلك متكرراً ، ويحتمل أن يكون ذلك مرة واحدة والواحدة هي المتحققة .

والحكايات في هذا الأمر كثيرة وأكثرها لا صحة له ، وقد أنكر بعض الطبيعيين هذه الواقعة وقال : كيف يعقل خروج الماء العظيم الكثير من الحجر الصغير ، وهذا المنكر مع أنه لم يتصور قدرة الله تعالى في تغيير الطبائع والاستحالات فقد ترك النظر على طريقتهم إذ قد تقرر عندهم أن حجر المغناطيس يجذب الحديد والحجر الحلاق يحلق الشعر والحجر الباغض للخل ينفر منه ، وذلك كله من أسرار الطبيعة وإذا لم يكن مثل ذلك منكراً عندهم فليس يمتنع أن يخلق في حجر آخر قوة جذب الماء من تحت الأرض ، ويكون خلق تلك القوة عند ضرب العصا أو عند أمر موسى عليه السلام على ما ورد أنه كان بعد ذلك يأمره ، فينفجر ولا ينافيه انفصاله عن الأرض كما وهم ، ويحتمل أيضاً أن يقلب الله تعالى بواسطة قوة أودعها في الحجر الهواء ماء بإزالة اليبوسة عن أجزائه وخلق الرطوبة فيها .

(248/52)

والله تعالى على كل شيء قدير ، وحظ العارف من الآية أن يعرف الروح الإنسانية وصفاتها في عالم القلب بمثابة موسى وقومه وهو مستسق ربه لإروائها بماء الحكمة والمعرفة وهو مأمور بضرب عصا لا إله إلا الله ولها شعبتان من النفي والإثبات تتقدان نوراً عند استيلاء ظلمات النفس ، وقد حملت من حضرة العزة على حجر القلب الذي هو

كالحجارة أو أشد قسوة ﴿ فانفجرت مِنْهُ اثنتا عَشْرَةَ عَيْنًا ﴾ من مياه الحكمة لأن كلمة لا إله إلا الله اثنتا عشرة حرفاً فانفجر من كل حرف عين قد عَلِمَ كل سبط من أسباط صفات الإنسان.

وهي اثنا عشر سبطاً من الحواس الظاهرة والباطنة، واثنان من القلب والنفس، ولكل واحد منهم مشرب من عين جرت من حرف من حروف الكلمة، و(قد عَلِمَ) مشربه ومشرب كل واحد حيث ساقه رائده وقاده قائده فمن مشرب عذب فرات.

ومشرب ملح أجاج، والنفوس ترد مناهل التقى والطاعات.

والأرواح تشرب من زلال الكشوف والمشاهدات، والأسرار تروى من عيون الحقائق بكأس تجلي الصفات عن ساقي ﴿ وسقاهم رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً ﴾ [الإنسان: 21] للاضمحلال في حقيقة الذات ﴿ كُلُواْ واشربوا مِن رِّزْقِ الله ﴾ بأمره ورضاه ﴿ وَلاَ تَعْثَوْاْ ﴾ في هذا القالب ﴿ مُفْسِدِينَ ﴾ بترك الأمر واختيار الوزر وبيع الدين بالدنيا وإيثار الأولى على العقبى وتقديمهما على المولى. انتهى انتهى. اهـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 273.271 ﴾

فائدة

قال السمرقندى:

﴿ وَإِذِ استسقى موسى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضرب بِّعَصَاكَ الحجر فانفجرت مِنْهُ اثنتا عَشْرَةَ

عَيْنًا ﴾ فإذا ساروا حملوه فاستمسك .

وقال بعضهم : كان يخرج عيناً واحدة ثم تتفرق على اثنتي عشرة فرقة ، وتصير اثني عشر نهراً .

وقال بعضهم : كان للحجر اثنا عشر ثقباً ، يخرج منها اثنتا عشرة عيناً لا يختلط بعضها ببعض .

(249/52)

قال مقاتل : كان الحجر مربَّعاً ، وكان جبريل عليه السلام أمر موسى بحمله معه يوم جاوز البحر ببني إسرائيل (1) ، وإنما انفجرت اثنتا عشرة عيناً ، لأنه أخذ من مكان فيه اثنا عشر طريقاً .

ثم قال تعالى : ﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ﴾ ، أي قد عرف كل سبط مشربهم ، أي موردهم وموضع شربهم من العيون لا يخالطهم فيها غيرهم .

والحكمة في ذلك أن الأسباط كانت بينهم عصبية ومباهاة ، وكل سبط منهم لا يتزوج من سبط آخر ، وأراد كل سبط تكثير نفسه ، فجعل لكل سبط منهم نهراً على حدة ليستقوا منها ، ويسقوا دوابهم لكيلا يقع بينهم جدال ومخاصمة .

وقال بعضهم : كان الحجر من الجنة .

وقال بعضهم : رفعه موسى من أسفل البحر حيث مرّ فيه مع قومه .

وقال بعضهم : كان حجراً من أحجار الأرض .

قوله عز وجل : ﴿ كُلُواْ واشربوا مِن رّزْقِ الله ﴾ أي قيل لهم كلوا من المن والسلوى ، واشربوا من ماء العيون ، ﴿ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِى الأرض مُفْسِدِينَ ﴾ ، أي لا تعملوا فيها بالمعاصي ، يقال : عثا يعثو عثواً ، إذا أظهر الفساد وعَثِي ، وعاث لغتان الذئب في الغنم أي أسرع بالفساد ثم إنهم أجمعوا من المن والسلوى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ 83 . 84 ﴾

وقال الزمخشري :

عطشوا في التيه ، فدعا لهم موسى بالسقيا فقيل له : ﴿ اضرب بّعَصَاكَ الحجر ﴾ واللام إمّا للعهد والإشارة إلى حجر معلوم .

فقد روي : أنه حجر طوري حمله معه ، وكان حجراً مربعاً له أربعة أوجه كانت تنبع من كل وجه ثلاث أعين ، لكل سبط عين تسيل في جدول إلى السبط الذي أمر أن يسقيهم ، وكانوا ستمائة ألف ، وسعة المعسكر اثنا عشر ميلاً ، وقيل : أهبطه آدم من الجنة فتوارثوه ، حتى وقع إلى شعيب ، فدفعه إليه مع العصا .

(1) ذكرت أقوال عديدة ومتعارضة في صفة العصا والحجر والأولى - كما قال الإمام الفخر - تفويض علم ذلك إلى الله تعالى . فتنبه ، ولا تغتر بكثرة ما قيل فيهما . والله أعلم .

(250/52)

وقيل : هو الحجر الذي وضع عليه ثوبه حين اغتسل إذ رموه بالأدرة ، ففرّ به ، فقال له جبريل : يقول لك الله تعالى : ارفع هذا الحجر ، فإنّ لي فيه قدرة ولك فيه معجزة ، فحمله في مخلاته .

وإمّا للجنس ، أي اضرب الشيء الذي يقال له الحجر .

وعن الحسن : لم يأمره أن يضرب حجراً بعينه قال : وهذا أظهر في الحجة وأبين في القدرة .

وروى أنهم قالوا : كيف بنا لو أفضينا إلى أرض ليست فيها حجارة ، فحمل حجراً في مخلاته فحيثما نزلوا ألقاه .

وقيل : كان يضربه بعصاه فينفجر ، ويضربه بها فييبس .

فقالوا : إن فقد موسى عصاه متنا عطشاً ، فأوحى إليه : لا تقرع الحجارة ، وكلمها تطعك ، لعلهم يعتبرون .

وقيل : كان من رخام وكان ذراعاً في ذراع .

وقيل : مثل رأس الإنسان .

وقيل : كان من أُسِّي الجنة طوله عشرة أذرع على طول موسى ، وله شعبتان تتقدان في الظلمة ، وكان يحمل على حمار : ﴿ فانفجرت ﴾ ، الفاء متعلقة بمحذوف ، أي فضرب فانفجرت .

أو فإن ضربت فقد انفجرت ، كما ذكرنا في قوله : ﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ﴾ وهي على هذا فاء فصيحة لا تقع إلا في كلام بليغ .

وقرىء " عشرة" بكسر الشين وبفتحها وهما لغتان ﴿ كُلُّ أُنَاسٍ ﴾ كل سبط ﴿ مَّشْرَبَهُمْ ﴾ عينهم التي يشربون منها ﴿ كُلُواْ ﴾ على إرادة القول ﴿ مِن رِّزْقِ الله ﴾ مما رزقكم من الطعام وهو المنّ والسلوى ومن ماء العيون .

وقيل : الماء ينبت منه الزروع والثمار ، فهو رزق يؤكل منه ويشرب .

والعثيّ : أشدّ الفساد ، فقيل لهم : لا تتمادوا في الفساد في حال فسادكم لأنهم كانوا متمادين فيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشاف حـ 1 صـ 144 ﴾

وقال البيضاوى :

﴿ وَإِذِ استسقى موسى لِقَوْمِهِ ﴾ لما عطشوا في التيه .

﴿ فَقُلْنَا اضرب بّعَصَاكَ الحجر ﴾ اللام فيه للعهد على ما روي أنه كان حجراً طورياً حمله معه ، وكانت تنبع من كل وجه ثلاث أعين ، تسيل كل عين في جدول إلى سبط ، وكانوا ستمائة ألف وسعة المعسكر اثنا عشر ميلاً ، أو حجراً أهبطه آدم من الجنة ، ووقع إلى شعيب عليه السلام فأعطاه لموسى مع العصا ، أو الحجر الذي فر بثوبه لما وضعه عليه ليغتسل وبرأه الله به عما رموه به من الأدرة ، فأشار إليه جبريل عليه السلام بحمله ، أو للجنس وهذا أظهر في الحجة . قيل لم يأمره بأن يضرب حجراً بعينه ، ولكن لما قالوا : كيف بنا لو أفضينا إلى أرض لا حجارة بها ؟ حمل حجراً في مخلاته ، وكان يضربه بعصاه إذا نزل فينفجر ، ويضربه بها إذا ارتحل فييبس ، فقالوا : إن فقد موسى عصاه متنا عطشاً ، فأوحى الله إليه لا تقرع الحجر وكلمه يطعك لعلهم يعتبرون . وقيل كان الحجر من رخام وكان ذراعاً في ذراع ، والعصا عشرة أذرع على طول موسى عليه السلام من آس الجنة ولها شعبتان تتقدان في الظلمة .

﴿ فانفجرت مِنْهُ اثنتا عَشْرَةَ عَيْنًا ﴾ متعلق بمحذوف تقديره : فإن ضربت فقد انفجرت ، أو فضرب فانفجرت ، كما مر في قوله تعالى : ﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ﴾ وقرىء عَشَرة بكسر الشين وفتحها وهما لغتان فيه .

﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ ﴾ كل سبط . ﴿ مَّشْرَبَهُمْ ﴾ عينهم التي يشربون منها . ﴿ كُلُواْ واشربوا ﴾ على تقدير القول :

(252/52)

﴿ مِن رِّزْقِ الله ﴾ يريد به ما رزقهم الله من المن والسلوى وماء العيون . وقيل الماء وحده لأنه يشرب ويؤكل مما ينبت به . ﴿ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِى الأرض مُفْسِدِينَ ﴾ لا تعتدوا حال إفسادكم ، وإنما قيده لأنه وإن غلب في الفساد قد يكون منه ما ليس بفساد ، كمقابلة الظالم المعتدي بفعله ، ومنه ما يتضمن صلاحاً راجحاً كقتل الخضر عليه السلام الغلام وخرقه السفينة ، ويقرب منه العيث غير أنه يغلب فيما يدرك حساً ، ومن أنكر أمثال هذه المعجزات فلغاية جهله بالله وقلة تدبره في عجائب صنعه ، فإنه لما أمكن أن يكون من الأحجار ما يحلق الشعر وينفر عن الخل ويجذب الحديد ، لم يمتنع أن يخلق الله حجراً يسخره لجذب الماء من تحت الأرض ، أو لجذب الهواء من الجوانب ويصيره ماء بقوة التبريد ونحو ذلك . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 1 صـ 329 . 331 ﴾

(253/52)

وقال أبو السعود :

﴿ وَإِذِ استسقى موسى لِقَوْمِهِ ﴾ تذكير لنعمةٍ أخرى كفروها وكان ذلك في التيه حين استولى عليهم العطشُ الشديد ، وتغييرُ الترتيب لما أشير إليه مراراً من قصد إبرازِ كلَ من الأمور المعدودة في معرِض أمرٍ مستقلَ واجبِ التذكير والتذكرِ ولو رُوعي الترتيبُ الوقوعي لفُهم أن الكلَّ أمرٌ واحد أُمر بذكره ، واللام متعلقة بالفعل أي استسقى لأجل قومه ﴿ فَقُلْنَا اضرب بّعَصَاكَ الحجر ﴾ رُوي أنه كان حَجَراً طورياً مكعباً حمله معه وكان ينبُع من كل وجه منه ثلاثُ أعين تسيل كلُّ عين في جدول إلى سبط وكانوا ستمائة ألفٍ وسعةَ المعسكر اثنيْ عشرَ ميلاً أو كان حجَراً أهبطه الله تعالى مع آدمَ عليه السلام من الجنة ووقع إلى شعيب عليه السلام فأعطاه موسى عليه السلام مع العَصا أو كان هو الحجرَ الذي فرَّ بثوبه حين وضعَه عليه ليغتسل وبرّأه الله تعالى به عما رمَوْه به من الأَدَرَة فأشار إليه جبريلُ عليه السلام أن يحمِلَه أو كان حَجَراً من الحجارة وهو الأظهر في الحجة ، قيل : لم يؤمَرْ عليه السلام بضرب حجر بعينه ولكن لما قالوا كيف بنا لو أفضينا إلى أرض لا حجارة بها حَملَ حجَراً في مخلاِته وكان يضربه بعصاه إذا نزل فيتفجَّر ويضرِبُه إذا ارتحل فييبَس فقالوا : إنْ فقَد موسى عصاه مِتْنا عطشاً ، فأوحى الله تعالى إليه أن لا تقرَعِ الحجَر وكلِّمْه يُطِعْك لعلهم يعتبرون وقيل : كان الحجر من رُخام حجمُه ذِراعٌ في ذراع والعصا عشرةُ أذرُعٍ على طوله

عليه السلام من آسِ الجنة ولها شُعبتان تتقدان في الظلمة ﴿ فانفجرت ﴾ عطف على مقدّر ينسحب عليه الكلام قد حُذف للدلالة على كمال سُرعة تحقُّق الانفجار كأنه حصلَ عَقيبَ الأمرِ بالضرب أي فضُرب فانفجَرَتْ ﴿ مِنْهُ اثنتا عَشْرَةَ عَيْنًا ﴾ وأما تعلقُ الفاءِ بمحذوفٍ أي فإنْ ضَرَبْتَ فقد انفجرت فغيرُ حقيق بجلالة شأن النظمِ الكريم كما لا يخفى على أحد ، وقرىء عشِرة بكسر الشين وفتحها وهما أيضاً لغتان ﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ ﴾ كل سبط ﴿ مَّشْرَبَهُمْ ﴾ عينُهم الخاصةُ بهم ﴿ كُلُواْ واشربوا ﴾ على إرادة القول ﴿ مِن رِّزْقِ الله ﴾ هو ما رزقهم من المنّ والسلوى والماء وقيل : هو الماءُ وحده لأنه يؤكَلُ ما ينبُت به من الزروع والثمار ويأباه أن المأمورَ به أكلُ النعمة العتيدة لا ما سيطلُبونه وإضافتُه إليه تعالى مع استناد الكلِّ إليه خلقاً وملكاً إما للتشريف وإما لظهوره بغير سبب عاديّ ، وإنما لم يقُلْ من رزقنا كما يقتضيه قوله تعالى : فقلنا إلخ إيذاناً بأن الأمرَ بالأكل والشرب لم يكن بطريق الخِطاب بل بواسطة موسى عليه السلام ﴿ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِى الأرض ﴾ العثْيُ أشدُّ الفساد فقيل لهم : لا تتمادَوْا في الفساد حال كونكم ﴿ مُفْسِدِينَ ﴾ وقيل : إنما قيد به لأن العَثْيَ في الأصل مطلقُ التعدي وإن غلب في الفساد وقد يكون في غير الفساد كما في مقابلة الظالم المعتدي بفعله وقد يكون فيه صلاحٌ راجح كقتل الخَضِر عليه السلام للغلام وخرقه للسفينة ، ونظيرُه العيْثُ خلا أنه غالبٌ فيما يدرك حِساً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 1 صـ 105. 106 ﴾

تنبيهات مهمة

قال ابن كثير :

قال ابن عباس رضي الله عنهما :

" وجُعل بين ظهرانيهم حجر مربع , وأُمر موسى – عليه السلام – فضربه بعصاه, فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً في كل ناحية منه ثلاث عيون وأعلم كل سبط عينهم يشربون منها , لا يرتحلون من منقلة – إلا وجدوا ذلك معهم بالمكان الذي كان منهم بالمنزل الأول – وهذا قطعة من الحديث الذي رواه النسائي وابن جرير وابن أبي حاتم وهو حديث الفتون الطويل . أ هـ

ونقل ابن كثير أقوال بعض المفسرين في وصف الحجر مع ما فيها من مبالغة دون أن يقرها أو ينكرها . حيث قال :

وقال عطية العوفي : وجعل لهم حجراً مثل رأس الثور يحمل على ثور, فإذا نزلوا وضعوه فضربه موسى – عليه السلام – بعصاه فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً فإذا ساروا حملوه على ثور فاستمسك الماء, وقيل كان لبني إسرائيل حجر فكان يضعه هارون ويضربه

موسى بالعصا , وقال قتادة : كان حجراً طورياً من الطور يحملونه معهم إذا نزلوا ضربه موسى بعصاه, وقال الزمخشري وقيل : كان من الرخام وكان ذراعاً في ذراع, وقيل مثل رأس الإنسان وقيل : كان من الجنة طوله عشرة أذرع على طول موسى وله شعبتان تتقدان في الظلمة وكان يحمل على حمار , وقيل أهبطه آدم من الجنة فتوارثوه حتى وقع إلى شعيب فدفعه إليه مع العصا , وقيل هو الحجر الذي وضع عليه ثوبه حين اغتسل فقال له جبريل : ارفع هذا الحجر فإن فيه قدرة ولك فيه معجزة فحمله في مخلاته . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير ابن كثير حـ 1 صـ 278.279 ﴾

وقال ابن الجوزي : واختلفوا في صفة الحجر على ثلاثة أقوال

أحدها : أنه كان حجراً مربعاً , والثاني : كان مثل رأس الثور, والثالث : مثل رأس الشاة .

وقال الإمام الفخر – رحمه الله – بعد ذكر بعض هذه الأقوال في صفة الحجر : " واعلم أن السكوت عن أمثال هذه المباحث واجب, لأنه ليس فيها نص متواتر قاطع, ولا يتعلق بها عمل حتى يكتفي فيها بالظن المستفاد من أخبار الآحاد فالأولى تركها . أ هـ

(255/52)

وقال الآلوسي : بعد أن ذكر أكثر هذه الروايات في صفة الحجر :

" وظاهر أكثرها التعارض, ولا ينبئ على تعيين هذا الحجر أمر ديني والأسلم تفويض علمه إلى الله (1) . أهـ

---

(1) وقد ذكر هذه الروايات كثير من المفسرين دون إقرار أو إنكار ، وكأنهم يميلون إلى القول بصحتها – والله أعلم – مع أنها تفتقر إلى نقل صحيح ، وقد سكت القرآن عن بيانها . وممن ذكر هذه الأقوال .

الإمام الطبري ، والزمخشري ، وابن الجوزي ، وابن جزي في التسهيل ، والبغوي ، والخازن ، وابن عطية ، والقرطبي ، وابن كثير ، وأبو السعود ، فهذه الأقوال يجب عدم التعويل عليها ، والأرجح أنها من الإسرائيليات المنكرة التي شوهت كتب التفسير ، كذلك يجب التنبيه على ضعف ما ورد من مبالغة في قوله تعالى " ونزلنا عليكم المن والسلوى " فقد ذكر الإمام الطبري رحمه الله في تفسيره حـ 2 صـ 99 ﴾ أن بني إسرائيل وهم في التيه كان ينزل عليهم المن والسلوى ، ولا تبلى ثيابهم . انتهى كلامه – سبحان الله هذا أمر لم يتحقق إلا لأهل الجنة فقط يوم المزيد بل لم يستطع رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأكل من قطف العنب الذي في الجنة عندما رآه وهو يصلي بالمسلمين ، والحديث معروف – رزقنا الله وإياكم الفوز بالجنة . أهـ

سؤال : فإن قيل : قوله تعالى : [ولا تعثوا في الأرض مفسدين] العثو : الفساد , فيصير المعنى : ولا تفسدوا في الأرض مفسدين !

الجواب : قلنا معناه : ولا تعثوا في الأرض بالكفر وأنتم مفسدون بسائر المعاصي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الرازي صـ 25 ﴾

وفي محاسن التأويل (4) : " وقوله : [ولا تعثوا في الأرض مفسدين] أي : لا تمشوا في الأرض بالفساد وخلاف أمر موسى .

قال الراغب : فإن قيل : فما فائدة قوله : [مفسدين] والعث وضرب من الإفساد ؟

قيل : قد قال بعض النحويين إن ذلك حال مؤكدة , وذكر ألفاظاً مما يشبه , وقال بعض المحققين : إن العثو , وإن اقتضى الفساد , فليس بموضوع له , بل هو كالاعتداء , وقد يوجد في الاعتداء ما ليس بفساد , وهو مقابلة المعتدي بفعله نحو : [فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم] (البقرة : 194) وهذا الاعتداء ليس بإفساد , بل هو , بالإضافة إلى ما قوبل به , عدل , ولولا كونه جزاء لكان إفساداً , فبين تعالى أن العث والمنهي عنه هو المقصود به الإفساد فالإفساد مكروه على الإطلاق , ولهذا قال : [ولا تفسدوا في

الأرض بعد إصلاحها] (الأعراف : 56) وقد يكون في صورة العثو والتعدي ما هو صلاح وعدل, كما تقدم وهذا ظاهر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 2 صـ 346 ﴾

(257/52)

ومن فوائد ابن عرفة فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ وَإِذِ استسقى موسى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضرب بِّعَصَاكَ الحجر . . . ﴾ .

أخذ منه الإمام المازري جواز استسقاء المخصب للمجدب لأن موسى عليه الصلاة والسلام لم ينله من الاحتياج وقد استسقى لهم .

ورده ابن عرفة بأنه نبي مرسل إليهم وهو معهم فليس مثل هذا .

قوله تعالى : ﴿ فانفجرت . . . ﴾ .

أجاز الزمخشري أن تكون الفاء جواب شرط مقدر أي فإن ضربت فقد (انفجرت) .

ورده أبو حيان بأن الشرط لا يحذف ، وإن سلم (فيلزمه) فساد المعنى والتركيب لأن

الشرط وجوابه مستقبلان " وانفجرت " ماض لفظا ومعنى (إذ لا تدخل الفاء على الماضي إلا إذا كان دعاء أو ماضيا لفظا ومعنى) ولأنه المفهوم من الآية .

(258/52)

(وأجاب المختصر) بأنّ " اضرب " أمر مُضَمَّنٌ معنى الشرط فليس فيه حذف ، ومنع فساد المعنى والتركيب بأنه كقوله تعالى : ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ﴾ قال فجوابه محذوف أي فإن كذبوك فاصبر لأنه كذبت رسل من قبلك .

وان ضربت فسّر أو لم ينكر ونحوه ، فإنه قد انفجرت ، أي أردنا وحكمنا أنها انفجرت .

قال ابن عرفة : وقد يقال إن يكذبوك (فعل) ماضٍ وعبر عنه بالمستقبل لأجل (التصديق) فهو حكاية مستقبل مضى ، أي كان مستقبلا فصار ماضيا ، ولا سيما أنهم حين نزول الآية كان التكذيب قد وقع منهم لأنها ليست من أول ما نزل وكذلك قوله تعالى : ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ القوم قَرْحٌ مِّثْلُهُ ﴾ قالوا : أنزلت في غزوة بدر ، وقد كان ذلك واقعا قبلها .

ويمكن أن يكون معنى (تلك) الآية وأن يدوموا على تكذيبك ولا يزال الشرط مستقبلا ، وقول الصفاقسي : أنَّ " اضرب " مضمن معنى الشرط .

قال الزمخشري : جعل الفاء جواب الشرط (مقدر) لأنها جواب شرط مفهوم من الأمر فلم يتوارد على محل واحد . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عرفة صـ 301. 303 ﴾

ومن فوائد الإمام القرطبى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَإِذِ استسقى موسى لِقَوْمِهِ ﴾

فيه ثماني مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ وَإِذِ استسقى موسى لِقَوْمِهِ ﴾ كُسرت الذال لالتقاء الساكنين .

والسين سين السؤال ؛ مثل : استعلم واستخبر واستنصر ، ونحو ذلك ؛ أي طلب وسأل السَّقْيَ لقومه .

والعرب تقول : سقيته وأسقيته ، لغتان بمعنًى ؛ قال :

سقى قومي بني مَجْدٍ وأسْقَى . . .

نُمَيْراً والقبائلَ من هِلال

وقيل : سقيتُه من سقي الشَّفَة ، وأسقيته دَلَلْته على الماء .

الثانية : الاستسقاء إنما يكون عند عدم الماء وحبس القطر ، وإذا كان كذلك فالحكم حينئذ إظهار العبودية والفقر والمسكنة والذِّلة مع التوبة النَّصوح .

وقد " استسقى نبيّنا محمد صلى الله عليه وسلم : " فخرج إلى المصلَّى متواضعاً متذلّلاً متخشعاً مترسّلاً متضرّعاً " " وحسبك به ! فكيف بنا ولا توبة معنا إلا العناد ومخالفة رب العباد ؛ فأنَّى نُسْقَى ! لكن قد قال صلى الله عليه وسلم في حديث ابن عمر : " ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا مُنِعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يُمْطَرُوا " الحديث .

وسيأتي بكماله إن شاء الله .

الثالثة : سُنّة الاستسقاء الخروج إلى المصلَّى على الصفة التي ذكرنا والخطبة والصلاة ؛ وبهذا قال جمهور العلماء .

وذهب أبو حنيفة إلى أنه ليس من سُنّته صلاة ولا خروج ، وإنما هو دعاء لا غير .

واحتج بحديث أنس : الصحيح ، أخرجه البخاريّ ومسلم .

ولا حجة له فيه ؛ فإن ذلك كان دعاء عُجّلت إجابته فاكتفى به عما سواه ، ولم يقصد بذلك بيان سُنّة ؛ ولما قصد البيان بيّن بفعله ، حسب " ما رواه عبد اللَّه بن زيد المازنيّ قال : " خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المصلى فاستسقى وحوّل رداءه ثم صلى ركعتين " " رواه مسلم .

وسيأتي من أحكام الاستسقاء زيادة في سورة " هود " إن شاء الله .

الرابعة : قوله تعالى : ﴿ فَقُلْنَا اضرب بِّعَصَاكَ الحجر ﴾ العصا : معروف ، وهو اسم

مقصور مؤنّث وألفه منقلبة عن واو ؛ قال :

على عَصَوَيْهَا سابِرِيٌّ مُشَبْرَقُ . . .

والجمع عُصِيّ وعِصِيّ ، وهو فعول ، وإنما كُسرت العين لما بعدها من الكسرة ؛ وأعْصٍ أيضاً مثله ؛ مثل زَمَنٍ وأزْمُنٍ .

وفي المثل : " العَصَا من العُصَيّة" أي بعض الأمر من بعض .

وقولهم : " أُلْقَى عصاه" أي أقام وترك الأسفار ؛ وهو مَثَل .

قال :

فألقتْ عصاها واستقر بها النّوَى . . .

كما قَرّ عَيْناً بالإياب المسافِرُ

وفي التنزيل : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا موسى .

قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا ﴾ [طه : 17 18] .

وهناك يأتي الكلام في منافعها إن شاء الله تعالى .

قال الفرّاء : أوّل لحن سُمع بالعراق هذه عصاتي .

وقد يعبّر بالعصا عن الاجتماع والافتراق ؛ ومنه يقال في الخوارج : قد شَقُّوا عصا المسلمين ؛ أي اجتماعهم وائتلافهم .

وانشقت العصا ؛ أي وقع الخلاف ؛ قال الشاعر :

إذا كانت الهَيْجاءُ وانشقت العصا . . .

فحسْبُكَ والضّحاكَ سَيْفٌ مُهَنَّدٌ

أي يكفيك ويكفي الضحاك .

وقولهم : لا ترفع عصاك عن أهلك ؛ يراد به الأدب .

والله أعلم .

والحجر معروف ، وقياس جمعه في أدنى العدد أحجار ، وفي الكثير حِجار وحجارة ؛ والحجارة نادر .

وهو كقولنا : جَمَل وجِمَالة ، وذَكَر وذِكَارة ؛ كذا قال ابن فارس والجوهري .

قلت : وفي القرآنِ ﴿ فَهِيَ كالحجارة ﴾ [البقرة : 74] .

﴿ وَإِنَّ مِنَ الحجارة ﴾ [البقرة : 74] .

﴿ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً ﴾ [الإسراء : 50] ﴿ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ ﴾ [الفيل : 4] .

﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً ﴾ [الحجر : 74] فكيف يكون نادراً ، إلا أن يريدا أنه نادر في القياس كثير في الاستعمال فصيح .

والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ فانفجرت ﴾ في الكلام حذف ؛ تقديره فضرب فانفجرت .

وقد كان تعالى قادراً على تفجير الماء وفلق الحجر من غير ضرب ؛ لكن أراد أن يربط المسبّبات بالأسباب حكمةً منه للعباد في وصولهم إلى المراد ؛ وليرتّب على ذلك ثوابهم وعقابهم في المعاد .

والانفجار : الانشقاق ؛ ومنه انشق الفجر .

وانفجر الماء انفجارا : انفتح .

والفُجْرة : موضع تفجّر الماء .

والانبجاس أضيق من الانفجار ؛ لأنه يكن انبجاسا ثم يصير انفجارا .

وقيل : انبجس وتبجّس وتفجّر وتفتّق ، بمعنًى واحد ؛ حكاه الهَرَوِيّ وغيره .

الخامسة : قوله تعالى : ﴿ اثنتا عَشْرَةَ عَيْناً ﴾ "اثنتا" في موضع رفع ب "انفجرت" وعلامة الرفع فيها الألف .

وأُعربت دون نظائرها لأن التثنية معرَبة أبداً لصحة معناها .

"عَيْناً" نُصب على البيان .

وقرأ مجاهد وطلحة وعيسى "عَشِرة" بكسر الشين ؛ وهي لغة بني تميم ، وهذا من لغتهم نادر ؛ لأن سبيلهم التخفيف .

ولغة أهل الحجاز "عشْرة" وسبيلهم التثقيل .

قال جميعه النحاس .

والعَيْن من الأسماء المشتركة ؛ يقال : عَيْنُ الماء ، وعَيْنُ الإنسان ، وعينُ الرُّكْبة ، وعين الشمس .

والعَيْن : سحابة تُقبل من ناحية القِبلة .

والعين : مطر يدوم خمساً أو سِتًّا لا يقلع .

وبلد قليل العَيْن : أي قليل الناس .

وما بها عين ، محرّكة الياء .

والعين : الثقب في المزادة .

والعَيْنُ من الماء مُشَبّهة بالعين من الحيوان ؛ لخروج الماء منها كخروج الدمع من عين الحيوان .

وقيل : لما كان عين الحيوان أشرف ما فيه ، شُبّهت به عين الماء ؛ لأنها أشرف ما في الأرض .

السادسة : لما استسقى موسى عليه السلام لقومه أمر أن يضرب عند استسقائه بعصاه

حجراً ؛ قيل : مربّعاً طُورِيًّا (من الطور) على قدر رأس الشاة يلقى في كسر جُوالق ويُرحل به ؛ فإذا نزلوا وُضع في وسط محلّتهم .

وذُكر أنهم لم يكونوا يحملون الحجر لكنهم كانوا يجدونه في كل مرحلة في منزلته من المرحلة الأولى ؛ وهذا أعظم في الآية والإعجاز .

وقيل : إنه أطلق له اسم الحجر ليضرب موسى أيّ حجر شاء ؛ وهذا أبلغ في الإعجاز .

وقيل : إن الله تعالى أمره أن يضرب حجراً بعينه بيّنه لموسى عليه السلام ؛ ولذلك ذكر بلفظ التعريف .

قال سعيد بن جُبير : هو الحجر الذي وضع عليه موسى ثوبه لما اغتسل ، وفرّ بثوبه حتى بَرّأه الله مما رماه به قومه .

قال ابن عطية : ولا خلاف أنه كان حجراً منفصلاً مربّعاً ، تطّرد من كل جهة ثلاث عيون إذا ضربه موسى ، وإذا استغنوا عن الماء ورحلوا جفّت العيون .

(262/52)

قلت : ما أوتى نبيّنا محمد صلى الله عليه وسلم من نبع الماء وانفجاره من يده وبين أصابعه أعظم في المعجزة ؛ فإنّا نشاهد الماء يتفجّر من الأحجار آناء الليل وآناء النهار ؛ ومعجزة

نبيّنا عليه السلام لم تكن لنبيّ قبل نبيّنا صلى الله عليه وسلم ، يخرج الماء من بين لحم ودم !

روى الأئمة الثّقات والفقهاء الأثبات " عن عبد اللَّه قال : " كنا مع النبيّ صلى الله عليه وسلم فلم نجد ماء فأتيَ بتَوْر فأدخل يده فيه ؛ فلقد رأيت الماء يتفجّر من بين أصابعه ويقول : " حيّ على الطّهور " " قال الأعمش : فحدّثني سالم بن أبي الجَعْد قال قلت لجابر : كم كنتم يومئذ ؟ قال : ألفا وخمسمائة .

لفظ النسائي .

السابعة : قوله تعالى : ﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ﴾ يعني أن لكل سِبْط منهم عيناً قد عرفها لا يشرب من غيرها .

والمَشْرَب : موضع الشرب .

وقيل : المشروب .

والأسباط في بني إسرائيل كالقبائل في العرب ، وهم ذُرّية الاثني عشر أولاد يعقوب عليه السلام ؛ وكان لكل سِبْط عَيْنٌ من تلك العيون لا يتعدّاها .

قال عطاء : كان للحَجَر أربعة أوجه ، يخرج من كل وجه ثلاث أعين ، لكل سِبط عَين لا يخالطهم سواهم .

وبلغنا أنه كان في كل سبط خمسون ألف مقاتل سوى خيلهم ودوابهم .

قال عطاء : كان يظهر على كل موضع من ضربة موسى مثل ثدي المرأة على الحجر فيعرق

أوّلاً ثم يسيل .

الثامنة : قوله تعالى : ﴿ كُلُواْ واشربوا ﴾ في الكلام حذف تقديره وقلنا لهم كلوا المنّ والسلوى ، واشربوا الماء المتفجّر من الحجر المنفصل .

﴿ وَلاَ تَعْثَوْاْ ﴾ أي لا تفسدوا .

والعيث : شدّة الفساد ؛ نهاهم عن ذلك .

يقال : عَثِي يَعْثَى عُثِيًّا ، وعثا يَعْثُو عُثُوًّا ، وعاث يَعِيث عَيْثاً وعُيُوثاً ومَعَاثاً ؛ والأوّل لغة القرآن .

ويقال : عَثّ يَعُثّ في المضاعف : أفسد ؛ ومنه العُثّة ، وهي السُّوسة التي تَلْحَس الصّوف .

و ﴿ مُفْسِدِينَ ﴾ حال ؛ وتكرر المعنى تأكيداً لاختلاف اللفظ .

(263/52)

وفي هذه الكلمات إباحة النعم وتعدادها ، والتقدّم في المعاصي والنهي عنها . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 1 صـ 417. 421 ﴾

ومن فوائد أبى حيان فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وإذ استسقى موسى لقومه ﴾ : هذا هو الإنعام التاسع ، وهو جامع لنعم الدنيا والدين .

أما في الدنيا فلأنه أزال عنهم الحاجة الشديدة إلى الماء ، ولولا هو لهلكوا في التيه ، وهذا أبلغ من الماء المعتاد في الأنعام لأنهم في مفازة منقطعة .

وأما في الدين فلأنه من أظهر الدلائل على وجود الصانع وقدرته وعلمه ، وعلى صدق موسى عليه السلام ، والاستسقاء طلب الماء عند عدمه وقلته .

وقيل : مفعول استسقى محذوف ، أي استسقى موسى ربه ، فيكون المستسقى منه هو المحذوف ، وقد تعدى إليه الفعل كما تعدى إليه في قوله : ﴿ إذ استسقاه قومه ﴾ أي طلبوا منه السقيا .

وقال بعض الناس : وحذف المفعول تقديره استسقى ماء ، فعلى هذا القول يكون المحذوف هو المستسقى ، ويكون الفعل قد تعدى إليه كما تعدى إليه في قوله :

" وأبيض يستسقى الغمام بوجهه " . . .

.

ويحتاج إثبات تعديه إلى اثنين إلى شاهد من كلام العرب ، كان يسمع من كلامهم : استسقى زيد وبه الماء ، وقد ثبت تعديه مرة إلى المستسقي منه ومرة إلى المستسقى ، فيحتاج تعديه

إليهما إلى ثبت من لسان العرب .

وذكر الله هذه النعمة من الاستسقاء غير مقيدة بمكان .

وقد اختلف في ذلك ، فقال أبو مسلم : كان ذلك على عادة الناس إذا قحطوا ، وما فعله الله تعالى من تفجير الماء من الحجر فوق الإجابة بالسقياء وإنزال الغيث .

وقال أكثر المفسرين : كان هذا الاستسقاء في التيه حين قالوا : من لنا بكذا ، إلى أن قالوا : من لنا بالماء ، فأمر الله موسى بضرب الحجر .

(264/52)

وقيل ذلك عند خروجهم من البحر الذي انفلق ، وقعوا في أرض بيضاء ليس فيها ظل ولا ماء ، فسألوا أن يستسقى لهم ، واللام قي لقومه لام السبب ، أي لأجل قومه وثم محذوف يتم به معنى الكلام ، أي لقومه إذ عطشوا ، أو ما كان بهذا المعنى ومحذوف آخر : أي فأجبناه .

﴿ فقلنا اضرب بعصاك ﴾ قالوا : وهذه العصا هي المسؤول عنها في قوله : ﴿ وما تلك بيمينك يا موسى ﴾ وكانت فيها خصائص تذكر في موضعها .

قيل : كانت نبعة ، وقيل : عليقي ، وهو شجر له شوك ، وقيل : من آس الجنة طولها عشرة

أذرع ، طول موسى عليه السلام ، لها شعبتان يتقدان في الظلمة ، وكان آدم حملها معه من الجنة إلى الأرض ، فتوارثها أصاغر عن أكابر حتى وصلت إلى شعيب ، فأعطاها موسى على نبينا وعليهما الصلاة والسلام ، وذلك أنه لما استرعاه قال له : اذهب فخذ عصاً ، فذهب إلى البيت ، فطارت هذه إلى يده ، فأمره بردها ، فأخذ غيرها ، فطارت إلى يده ، فتركها له .

وقيل : دفعها إليه ملك من الملائكة في طريق مدين .

﴿ الحجر ﴾ : قال الحسن : لم يكن حجراً معيناً بل أي حجر ضرب انفجر منه الماء ، وهذا أبلغ في الإعجاز ، حيث ينفجر الماء من أي حجر ضرب .

وروي أنهم قالوا : لو فقد موسى عصاه متنا عطشاً ، فأوحى الله إليه : لا تقرع الحجارة ، وكلمها تطعك لعلهم يعتبرون ، فكانت تطيعه فلم يعتبروا .

وقال وهب : كان يقرع لهم أقرب حجر فينفجر ، فعلى هذا تكون الألف واللام في الحجر للجنس .

وقيل : إن الألف واللام للعهد ، وهو حجر معين حمله معه من الطور مربع له أربعة أوجه ، ينبع من كل وجه ثلاثة أعين ، لكل سبط عين تسيل في جدول إلى السبط الذي أمرت أن تسقيهم ، وكانوا ستمائة ألف خارجاً عن دوابهم ، وسعة العسكر اثنا عشر ميلاً .

وقيل : حجر أهبطه معه آدم من الجنة ، فتوارثوه حتى وقع لشعيب ، فدفعه إلى موسى مع العصا .

(265/52)

وقيل : هو الحجر الذي وضع موسى عليه ثوبه حين اغتسل ، إذ رموه بالأدرة ، ففز ، قال له جبريل عليه السلام : بأمر الله أرفع هذا الحجر ، فإن لي فيه قدرة ولك فيه معجزة ، فحمله في مخلاة ، قاله ابن عباس .

وقيل : حجر أخذه من قعر البحر خفيف مربع مثل رأس الرجل ، له أربعة أوجه ، ينبع من كل وجه ثلاث أعين ، لكل سبط عين تسيل في جدول إليه ، وكان يضعه في مخلاته ، فإذا احتاجوا إلى الماء وضعه وضربه بعصاه .

وقيل : كان رخاماً فيه اثنتا عشرة حفرة ، تنبع من كل حفرة عين ماء عذب يأخذونه ، فإذا فرغوا ضربه موسى بعصاه فذهب الماء .

وقيل : حجر أخذه من جبل زبيد ، طوله أربعة أذرع ، قاله الضحاك .

وقيل : حجر مثل رأس الشاة ، يلقونه في جانب الجوالق إذا ارتحلوا ، فيه من كل ناحية ثلاث عيون بعد أن يستمسك ماؤها بعد رحلتهم ، فإذا نزلوا قرعه موسى بعصاه فعادت العيون

بحسبها ، قاله ابن زيد .

وقيل حجر يحمله في مخلاته ، أخذه ، إذ قالوا : كيف بنا إذا أفضنا إلى أرض ليست فيها حجارة ؟ فحيثما نزلوا ألقاه فينفجر ماء .

وقيل : حجر من الكذان فيه اثنتا عشرة عيناً ، يسقي كل يوم ستمائة ألف ، قاله أبو روق ،

وقيل : حجر ذراع في ذراع ، قاله السدّي .

وقيل : حجر مثل رأس الثور .

وقيل : حجر كان ينفجر لهم منه الماء ، لم يكونوا يحملونه ، بل كانوا أي مكان نزلوا وجدوه فيه ، وذلك أعظم في الإعجاز وأبلغ في الخارق ، وقال مقاتل والكلبي : كانوا إذا قضوا حاجتهم من الماء اندرست تلك العيون ، فإذا احتاجوا إلى الماء انفجرت .

فهذه أقوال المفسرين في الحجر ، وظاهرها أو ظاهر أكثرها التعارض .

قال بعض من جمع في تفسير القرآن : الأليق أنه الحجر الذي فرّ بثوب موسى عليه السلام ، فإن الله أودع فيه حركة التنقل والسعي ، أو وكل به ملكاً يحمله ولا يستنكر ذلك .

(266/52)

فقد صح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إني لأعرف حجراً كان يسلم عليّ "

وقد رام هذا الرجل الجمع بين هذه الأقوال بأن يكون الحجر غير معين ، بل أيّ حجر وجده ضربه ، فوجد مرّة مربعاً ، ومرّة كذاناً ، ومرة رخاماً ، وكذا باقيها .

قال : فروى الراوي صفة ذلك الحجر الذي ضربه في تلك المنزلة قال : فيزول التغاير في الكيفيات ، ويحصل التوفيق بين الروايات .

وهذا الكلام كما ترى .

وظاهر القرآن : أن الحجر ليس بمعين ، إذ لم يتقدم ذكر حجر فيكون هذا معهوداً ، وأن الاستسقاء لم يتكرّر ، لا هو ولا الضرب ولا الانفجار ، وأن هذه الكيفيات التي ذكروها لم يتعرّض لها لفظ القرآن ، فيحتمل أن يكون ذلك متكرراً ، ويحتمل أن يكون ذلك مرة واحدة ، والواحدة هي المتحققة .

﴿ فانفجرت ﴾ : الفاء للعطف على جملة محذوفة ، التقدير : فضرب فانفجرت ، كقوله تعالى : ﴿ أن اضرب بعصاك البحر فانفلق ﴾ أي فضرب فانفلق .

ويدل على هذا المحذوف وجود الانفجار مرتباً على ضربه ، إذ لو كان يتفجر دون ضرب ، لما كان للأمر فائدة ، ولكان تركه عصياناً ، وهو لا يجوز على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

وما ذهب إليه بعض الناس من أن الفاء في مثل : فانفلق ، هي الفاء التي في ضرب ، وأن

المحذوف هو المعطوف عليه ، وحرف العطف من المعطوف حتى يكون المحذوف قد بقي عليه دليل ، إذ قد أبقيت فاؤه وحذفت فاء فانفلق ، واتصلت بانفلق فاء فضرب تكلف وتخرص على العرب بغير دليل .

وقد ثبت في لسان العرب حذف المعطوف عليه ، وفيه الفاء حيث لا معطوف بالفاء موجود ، قال تعالى : ﴿ فأرسلون يوسف أيها الصّدّيق ﴾ التقدير : فأرسلوه فقال : فحذف المعطوف عليه والمعطوف ، وإذا جاز حذفهما معاً ، فلأن يجوز حذف كل منهما وحده أولى .

(267/52)

وزعم الزمخشري أن الفاء ليست للعطف ، بل هي جواب شرط محذوف ، قال : فإن ضربت فقد انفجرت ، كما ذكرنا في قوله : ﴿ فتاب عليكم ﴾ وهي على هذا فاء فصيحة لا تقع إلا في كلام بليغ ، اه كلامه .

وقد تقدّم لنا الردّ على الزمخشري في هذا التقدير في قوله : ﴿ فتاب عليكم ﴾ بأن إضمار مثل هذا الشرط لا يجوز ، وبينا ذلك هناك ، وفي قوله أيضاً إضمار قد إذ يقدر ، فقد تاب عليكم ، وقد انفجرت ، ولا يكاد يحفظ من لسانهم ذلك ، إنما تكون بغير فاء ، أو إن

دخلت الفاء فلا بد من إظهار قد ، وما دخلت عليه قد يلزم أن يكون ماضياً لفظاً ومعنى ، نحو قوله : ﴿ وإن يكذبونك فقد كذبت رسل من قبلك ﴾ وإذا كان ماضياً لفظاً ومعنى ، استحال أن يكون بنفسه جواب الشرط ، فاحتيج إلى تأويل وإضمار جواب شرط . ومعلوم أن الانفجار على ما قدّر يكون مترتباً على أن يضرب ، وإذا كان مترتباً على مستقبل ، وجب أن يكون مستقبلاً ، وإذا كان مستقبلاً امتنع أن تدخل عليه قد التي من شأنها أن لا تدخل في شبه جواب الشرط على الماضي إلا ويكون معناه ماضياً نحو الآية ، ونحو قولهم : إن تحسن إليّ فقد أحسنت إليك ، ويحتاج إلى تأويل ، كما ذكرنا .

وليس هذا الفعل بدعاء فتدخله الفاء فقط ويكون معناه الاستقبال ، وإن كان بلفظ الماضي نحو : إن زرتني فغفر الله لك .

وأيضاً فالذي يفهم من الآية أن الانفجار قد وقع وتحقق ، ولذلك قال : ﴿ قد علم كل أناس مشربهم كلوا واشربوا ﴾ وجعله جواب شرط محذوف على ما ذهب إليه هذا الرجل يجعله غير واقع ، إذ يصير مستقبلاً لأنه معلق على تقدير وجود مستقبل ، والمعلق على تقدير وجود مستقبل لا يقتضي إمكانه فضلاً عن وجوده ، فما ذهب إليه فاسد في التركيب العربي ، وفاسد من حيث المعنى ، فوجب طرحه ، وأين هذا من قوله : وهي على هذا فاء فصيحة لا تقع إلا في كلام بليغ ؟ وجاء هنا : انفجرت وفي الاعراف : ﴿ انبجست ﴾ فقيل : هما سواء ، انفجر وانبجس وانشق مترادفات .

وقيل : بينهما فرق ، وهو أن الانبجاس هو أوّل خروج الماء ، والانفجار اتساعه وكثرته .

وقيل : الانبجاس خروجه من الصلب ، والانفجار خروجه من اللين .

وقيل : الانبجاس هو الرشح ، والانفجار هو السيلان ، وظاهر القرآن استعمالهما بمعنى واحد ، لأن الآيتين قصة واحدة .

﴿ منه ﴾ متعلق بقوله : فانفجرت ، ومن هنا لابتداء .

الغاية والضمير عائد على الحجر المضروب ، فانفجار الماء كان من الحجر لا من المكان ، كما قال تعالى : ﴿ وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار ﴾ ولو كان هذا التركيب في غير كلام الله تعالى لأمكن أن يعود الضمير على الضرب ، وهو المصدر المفهوم من الكلام قبله ، وأن تكون من للسبب ، أي فانفجرت بسبب الضرب ، ولكن لا يجوز أن يرتكب مثل هذا في كلام الله تعالى ، لأنه لا ينبغي أن يحمل إلا على أحسن الوجوه في التركيب وفي المعنى ، إذ هو أفصح الكلام .

وفي هذا الانفجار من الإعجاز ظهور نفس الماء من حجر لا اتصال له بالأرض ، فتكون مادّته منها ، وخروجه كثيراً من حجر صغير ، وخروجه بقدر حاجتهم ، وخروجه عند

الضرب بالعصا ، وانقطاعه عند الاستغناء عنه .

﴿ اثنتا عشرة ﴾ : التاء في اثنتا للتأنيث ، وفي ثنتا للالحاق ، وهذه نظير ابنة وبنت .

وقرأ الجمهور : عشرة بسكون الشين .

وقرأ مجاهد ، وطلحة ، وعيسى ، ويحيى بن وثاب ، وابن أبي ليلى ، ويزيد : بكسر الشين .

وروى ذلك نعيم السعيدي عن أبي عمرو ، والمشهور عنه الإسكان ، وتقدّم أنها لغة تميم ، وكسرهم لها نادر في قياسهم لأنهم يخففون فعلاً ، يقولون في نمر : نمر .

وقرأ ابن الفضل الأنصاري ، والأعمش : بفتح الشين .

وروي عن الأعمش : الإسكان ، والكسر أيضاً .

قال الزمخشري : الفتح لغة .

وقال ابن عطية : هي لغة ضعيفة .

(269/52)

وقال المهدوي : فتح الشين غير معروف ، ويحتمل أن تكون لغة ، وقد نص بعض النحويين على أن فتح الشين شاذ ، وعشرة في موضع خفض بالإضافة ، وهو مبني لوقوعه موقع النون

، فهو مما أعرب فيه الصدر وبني العجز .

ألا ترى أن اثنتي معرب إعراب المثنى لثبوت ألفه رفعاً وانقلابها نصباً وجراً ، وأن عشرة مبني ؟ ولما تنزلت منزلة نون اثنتين لم يصح إضافتها ، فلا يقال : اثنتا عشرتك .

وفي محفوظي أن ابن درستويه ذهب إلى أن اثنا واثنتا وثنتا مع عشر مبني ، ولم يجعل الإنقلاب دليل الإعراب .

﴿ عيناً ﴾ : منصوب على التمييز ، وإفراد التمييز المنصوب في باب العدد لازم عند الجمهور ، وأجاز الفراء أن يكون جمعاً ، وكان هذا العدد دون غيره لكونهم كانوا اثني عشر سبطاً ، وكان بينهم تضاغن وتنافس ، فأجرى الله لكل سبط منهم عيناً يرده ، لا يشركه فيه أحد من السبط الآخر ، وذكر هذا العدد دون غيره يسمى التخصيص عند أهل علم البيان ، وهو أن يذكر نوع من أنواع كثيرة لمعنى فيه لم يشركه فيه غيره ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وأنه هو رب الشعرى ﴾ ، وسيأتي بيان ذلك التخصيص فيها ، إن شاء الله تعالى ، في موضعها ، وقول الخنساء :

يذكرني طلوع الشمس صخراً . . .

وأندبه بكل مغيب شمس

اختصتهما من دون سائر الأوقات للغارة والقرى .

قال بعض أهل اللطائف : خلق الله الحجارة وأودعها صلابة يفرق بها أجزاء كثيرة مما

صلب من الجوامد ، وخلق الأشجار رطبة الغصون ، ليست لها قوّة الأحجار ، فتؤثر فيها تفريقاً بأجزائها ولا تفجير العيون مائها ، بل الأحجار تؤثر فيها .

فلما أيدت بقوة النبوّة ، انفلقت بها البحار ، وتفرقت بها أجزاء الأحجار ، وسالت بها الأنهار ، ﴿ إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار ﴾

﴿ قد علم كل أناس مشربهم ﴾ : جملة استئناف تدل على أن كل سبط منهم قد صار له مشرب يعرفه فلا يتعدّاه لمشرب غيره ، وكأنه تفسير لحكمة الانقسام إلى اثنتي عشرة عيناً ، وتنبيه عليها .

(270/52)

وعلم هنا متعدّية لواحد أجريت مجرى عرف ، واستعملها كذلك كثير في القرآن ولسان العرب .

وكل أناس مخصوص بصفة محذوفة ، أي من قومه الذين استسقى لهم .

والمشرب هنا مكان الشرب وجهته التي يجري منها الماء .

وحمله بعضهم على المشروب وهو الماء ، والأول أولى ، لأن دلالته على المكان بالوضع ، ودلالته على الماء بالمجاز ، وهو تسمية الشيء باسم مكانه وإضافة المشرب إليهم ، لأنه لما

تخصص كل مشرب بمن تخصص به صار كأنه ملك لهم ، وأعاد الضمير في مشربهم على معنى كل لا على لفظها ، ولا يجوز أن يعود على لفظها ، فيقال : مشربه ، لأن مراعاة المعنى هنا لازمة ، لأن كل قد أضيفت إلى نكرة ، ومتى أضيفت إلى نكرة وجب مراعاة المعنى ، فتطابق ما أضيفت إليه في عود ضمير وغيره ، قال تعالى : ﴿ يوم ندعوا كلّ أناس بإمامهم ﴾ ، وقال الشاعر :

وكلّ أناس قاربوا قيد فحلهم . . .

ونحن حللنا قيده فهو سارب

وقال :

وكل أناس سوف تدخل بينهم . . .

دويهية تصفرّ منها الأنامل

وقال تعالى : ﴿ كل نفس ذائقة الموت ﴾ وتقول : كل رجلين يقولان ذلك ، ولا يجوز في شيء من هذا مراعاة لفظ كل ، وثم محذوف تقديره : مشربهم منها : أي من الاثنتي عشرة عيناً . ونص على المشرب تنبيهاً على المنفعة العظيمة التي هي سبب الحياة ، وإن كان سرد الكلام قد علم كل أناس عينهم ، لكن في ذكر المشرب ما ذكرناه من تسويغ الشرب لهم منها أنشيء لهم الأمر بالأكل من المن والسلوى ، والشرب من هذه العيون ، أو أمروا بالدوام على ذلك ، لأن الإباحة كانت معلومة من غير هذا الأمر ، والأمر بالواقع أمر بدوامه ، كقولك

للقائم : قم .

﴿ كلوا واشربوا ﴾ : هو على إضمار قول ، أي وقلنا لهم ، وهذا الأمر أمر إباحة .

(271/52)

قال السلمي : مشرب كل أحد حيث أنزله رائده ، فمن رائده نفسه مشربه الدنيا ، أو قلبه فمشربه الآخرة ، أو سره فمشربه الجنة ، أو روحه فمشربه السلسبيل ، أو ربه فمشربه الحضرة على المشاهدة حيث يقول : ﴿ وسقاهم ربهم شراباً طهوراً ﴾ طهرهم به عن كل ما سواه ، وبدىء بالأكل لأنه المقصود أولاً ، وثنى بالشرب لأن الاحتياج إليه حاصل عن الأكل ، ولأن ذكر المن والسلوى متقدم على انفجار الماء .

﴿ من رزق الله ﴾ ، من : لابتداء الغاية ، ويحتمل أن تكون للتبعيض .

ولما كان مأكولهم ومشروبهم حاصلين لهم من غير تعب منهم ولا تكلف ، أضيفا إلى الله تعالى ، وهذا التفات ، إذ تقدم فقلنا : اضرب ، ولو جرى على نظم واحد لقال : من رزقنا ، إلا إن جعلت الإضمار قبل كلوا مسنداً إلى موسى ، أي وقال موسى : ﴿ كلوا واشربوا ﴾ فلا يكون فيه التفات ، ومن رزق الله متعلق بقوله : واشربوا ، وهو من إعمال الثاني على طريقة اختيار أهل البصرة ، إذ لو كان من أعمال الأول لأضمر في الثاني ما

يحتاجه ، فكان يكون : كلوا واشربوا منه ، من رزق الله ، ولا يجوز حذف منه إلا في ضرورة على ما نص بعضهم ، والضرورة والقليل لا يحمل كلام الله عليهما .

والرزق هنا هو المرزوق ، وهو الطعام من المن والسلوى ، والمشروب من ماء العيون .

وقيل : هو الماء ينبت منه الزروع والثمار ، فهو رزق يؤكل منه ويشرب ، وهذا القول يكون فيه من رزق الله ، يجمع فيه بين الحقيقة والمجاز ، لأن الشرب من الماء حقيقة ، والأكل لا يكون إلا مما نشأ من الماء ، لا أن الأكل من الماء حقيقة ، فحمل الرزق على القدر المشترك بين الطعام والماء أولى من هذا القول .

(272/52)

ولما كان مطعومهم ومشروبهم لا كلفة عليهم ولا تعب في تحصيله حسنت إضافته إلى الله تعالى ، وإن كانت جميع الأرزاق منسوبة إلى الله تعالى ، سواء كانت مما تسبب العبد في كسبها أم لا ، واختص بالإضافة للفظ الله ، إذ هو الاسم العلم الذي لا يشركه فيه أحد ، الجامع لسائر الأسماء ﴿ أالله الذي خلقكم ثم رزقكم ﴾ ﴿ قل من يرزقكم من السموات والأرض قل الله ﴾ ﴿ أمن يبدؤا الخلق ثم يعيده ﴾ و ﴿ من يرزقكم من السماء والأرض ﴾ ﴿ أإله مع الله ﴾ واحتجت المعتزلة بهذه الآية على أن الرزق هو الحلال ، لأن

أقل درجات هذا الأمر أن يكون للإباحة ، واقتضى أن يكون الرّزق مباحاً ، فلو وجد رزق حرام لكان الرزق مباحاً وحراماً ، وأنه غير جائز .

والجواب : أن الرزق هنا ليس بعام إذا أريد به المن والسلوى والماء المنفجر من الحجر ، ولا يلزم من حلية معين مّا من أنواع الرّزق حلية جميع الرّزق ، وفي هذه الآية دليل على جواز أكل الطيبات من الطعام ، وشرب المستلذ من الشراب ، والجمع بين اللونين والمطعومين ، وكل ذلك بشرط الحل .

وقد صح أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحب الحلواء والعسل ، وأنه كان يشرب الماء البارد العذب ، وكانت تنبذ له فيه الثمرات ، وجمع بين القثاء والرطب ، وسقى بعض نسائه الماء .

وقد نقل عن جماعة من الصحابة والتابعين أنهم كانوا يتركون اللذيذ من الطعام والشهي من الشراب رغبة فيما عند الله تعالى .

﴿ ولا تعثوا في الأرض مفسدين ﴾ : لما أمروا بالأكل والشرب من رزق الله ، ولم يقيد ذلك عليهم بزمان ولا مكان ولا مقدار من مأكول أو مشروب ، كان ذلك إنعاماً وإحساناً جزيلاً إليهم ، واستدعى ذلك التبسط في المآكل والمشارب ، وأنه ينشأ عن ذلك القوة الغضبية ، والقوّة الاستعلائية .

نهاهم عما يمكن أن ينشأ عن ذلك ، وهو الفساد ، حتى لا يقابلوا تلك النعم بما يكفرها ،

وهو الفساد في الأرض .

قال ابن عباس وأبو العالية : معناه ولا تسعوا .

وقال قتادة : ولا تسيروا .

(273/52)

وقيل : لا تتظالموا الشرب فيما بينكم ، لأن كلّ سبط منكم قد جعل له شرب معلوم .

وقيل : معناه : لا تؤخروا الغذاء ، فكانوا إذا أخروه فسد .

وقيل : معناه لا تخالطوا المفسدين .

وقيل : معناه لا تتمادوا في فسادكم .

وقيل : لا تطغوا ، قاله ابن زيد .

وهذه الأقوال كلها قريب بعضها من بعض .

﴿ في الأرض ﴾ : الجمهور على أنها أرض التيه ، ويجوز أن يريدها وغيرها مما قدر أن يوصلوا إليها فينالها فسادهم ، ويجوز أن يريد الأرضين كلها .

وأل : لاستغراق الجنس .

ويكون فسادهم فيها من جهة أن كثرة العصيان والإصرار على المخالفات والبطر يؤذن

بانقطاع الغيث وقحط البلاد ونزع البركات ، وذلك انتقام يعم الأرض بالفساد .

مفسدين : حال مؤكدة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 1 صـ 288. 293 ﴾

ومن فوائد ابن عاشور فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ ﴾

تذكير بنعمة أخرى جمعت ثلاث نعم وهي الري من العطش ، وتلك نعمة كبرى أشد من نعمة إعطاء الطعام ولذلك شاع التمثيل بري الظمآن في حصول المطلوب .

وكون السقي في مظنة عدم تحصيله وتلك معجزة لموسى وكرامة لأمته لأن في ذلك فضلاً لهم .

وكون العيون اثنتي عشرة ليستقل كل سبط بمشرب فلا يتدافعوا .

وقوله : ﴿ وإذ ﴾ متعلق بـ ﴿ اذكروا ﴾ وقد أشارت الآية إلى حادثة معروفة عند اليهود وذلك أنهم لما نزلوا في " رفيديم" قبل الوصول إلى برية سينا وبعد خروجهم من برية سين في حدود الشهر الثالث من الخروج عطشوا ولم يكن بالموضع ماء فتذمروا على موسى وقالوا أتصعدنا من مصر لنموت وأولادنا ومواشينا عطشاً فدعا موسى ربه فأمره الله أن يضرب بعصاه صخرة هناك في " حوريب" فضرب فانفجر منها الماء .

ولم تذكر التوراة أن العيون اثنتا عشرة عيناً وذلك التقسيم من الرفق بهم لئلا يتزاحموا مع كثرتهم فيهلكوا فهذا مما بينه الله في القرآن .

(274/52)

فقوله : ﴿ استسقى موسى ﴾ صريح في أن طالب السقي هو موسى وحده ، سأله من الله تعالى ولم يشاركه قومه في الدعاء لتظهر كرامته وحده ، كذلك كان استسقاء النبي صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة على المنبر لما قال له الأعرابي " هلك الزرع والضرع فادع الله أن يسقينا " والحديث في " الصحيحين " .

وقوله : ﴿ لقومه ﴾ مؤذن بأن موسى لم يصبه العطش وذلك لأنه خرج في تلك الرحلة موقناً أن الله حافظهم ومبلغهم إلى الأرض المقدسة فلذلك وقاه الله أن يصيبه جوع أو عطش وكلل وكذلك شأن الأنبياء فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم في حديث وصال الصوم : " إني لست كهيئتكم إني أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني "

قال ابن عرفة في " تفسيره " أخذ المازري من هذه الآية جواز استسقاء المخصب للمجدب لأن موسى عليه السلام لم ينله ما نالهم من العطش ورده ابن عرفة بأنه رسولهم وهو معهم أ هـ .

وهو رد متمكن إذ ليس المراد باستسقاء المخصب للمجدب الأشخاص وإنما المراد استسقاء أهل بلد لم ينلهم الجدب لأهل بلد مجدبين والمسألة التي أشار إليها المازري مختلف فيها عندنا واختار اللخمي جواز استسقاء المخصب للمجدب لأنه من التعاون على البر ولأن دعوة المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة وقال المازري فيه نظر لأن السلف لم يفعلوه .

وعصا موسى هي التي ألقاها في مجلس فرعون فتلقفت ثعابين السحرة وهي التي كانت في يد موسى حين كلمه الله في برية سينا قبل دخوله مصر وقد رويت في شأنها أخبار لا يصح منها شيء فقيل إنها كانت من شجر آس الجنة أهبطها آدم معه فورثها موسى ولو كان هذا صحيحاً لعده موسى في أوصافها حين قال : ﴿ هي عصاي ﴾ [طه : 18] إلخ فإنه أكبر أوصافها .

والعصا بالقصر أبداً ومن قال عصاه بالهاء فقد لحن ، وعن الفراء أن أول لحن ظهر بالعراق قولهم عصاتي .

(275/52)

و (أل) في (الحجر) لتعريف الجنس أي اضرب أي حجر شئت ، أو للعهد مشيراً إلى حجر عرفه موسى بوحي من الله وهو حجر صخر في جبل حوريب الذي كلم الله منه موسى كما ورد في سفر الخروج وقد وردت فيه أخبار ضعيفة .

والفاء في قوله : ﴿ فانفجرت ﴾ قالوا هي فاء الفصيحة ومعنى فاء الفصيحة أنها الفاء العاطفة إذ لم يصلح المذكور بعدها لأن يكون معطوفاً على المذكور قبلها فيتعين تقدير معطوف آخر بينهما يكون ما بعد الفاء معطوفاً عليه وهذه طريقة السكاكي فيها وهي المثلى .

وقيل : إنها التي تدل على محذوف قبلها فإن كان شرطاً فالفاء فاء الجواب وإن كان مفرداً فالفاء عاطفة ويشملها اسم فاء الفصيحة وهذه طريقة الجمهور على الوجهين فتسميتها بالفصيحة لأنها أفصحت عن محذوف ، والتقدير في مثل هذا فضرب فانفجرت وفي مثل قول عباس بن الأحنف :

قالوا خراسانُ أقصى ما يراد بنا . . .

ثم القفول فقد جئنا خراسانا

أي إن كان القفول بعد الوصول إلى خراسان فقد جئنا خراسان أي فلنقفل فقد جئنا .

وعندي أن الفاء لا تعد فاء فصيحة إلا إذا لم يستقم عطف ما بعدها على ما قبلها فإذا استقام فهي الفاء العاطفة والحذف إيجاز وتقدير المحذوف لبيان المعنى وذلك لأن الانفجار

مترتب على قوله تعالى لموسى : ﴿ اضرب بعصاك الحجر ﴾ لظهور أن موسى ليس ممن يشك في امتثاله بل ولظهور أن كل سائل أمراً إذا قيل له افعل كذا أن يعلم أن ما أمر به هو الذي فيه جوابه كما يقول لك التلميذ ما حكم كذا ؟ فتقول افتح كتاب " الرسالة" في باب كذا ، ومنه قوله تعالى الآتي : ﴿ اهبطوا مصراً ﴾ [البقرة : 61] وأما تقدير الشرط هنا أي فإن ضربت فقد انفجرت إلخ فغير بيّن ، ومن العجب ذكره في " الكشاف" .

(276/52)

وقوله : ﴿ قد علم كل أناس مشربهم ﴾ قال العكبري وأبو حيان : إنه استئناف ، وهما يريدان الاستئناف البياني ولذلك فصل ، كأن سائلاً سأل عن سبب انقسام الانفجار إلى اثنتي عشرة عيناً فقيل قد علم كل سبط مشربهم ، والأظهر عندي أنه حال جردت عن الواو لأنه خطاب لمن يعقلون القصة فلا معنى لتقدير سؤال .

والمراد بالأناس كل ناس سبط من الأسباط .

وقوله : ﴿ كلوا واشربوا من رزق الله ﴾ مقول قول محذوف .

وقد جمع بين الأكل والشرب وإن كان الحديث على السقي لأنه قد تقدمه إنزال المن والسلوى ، وقيل هنالك : ﴿ كلوا من طيبات ما رزقناكم ﴾ [البقرة : 57] فلما شفع

ذلك بالماء اجتمع المنتان .

وقوله : ﴿ ولا تعثوا في الأرض مفسدين ﴾ من جملة ما قيل لهم ووجه النهي عنه أن النعمة قد تنسي العبد حاجته إلى الخالق فيهجر الشريعة فيقع في الفساد قال تعالى : ﴿ كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى ﴾ [العلق : 6 ، 7] .

﴿ ولا تعثوا ﴾ مضارع عثي كرضي ، وهذه لغة أهل الحجاز وهي الفصحى فقوله : ﴿ ولا تعثوا ﴾ بوزن لا ترضوا ومصدره عند أهل اللغة يقتضي أن يكون بوزن رضي ولم أر من صرح به وذكر له في " اللسان " مصادر العُثيّ والعِثيّ بضم العين وكسرها مع كسر الثاء فيهما وتشديد الياء فيهما ، والعَثَيان بفتحتين وفي لغة غير أهل الحجاز عثا يعثو مثل سما يسمو ولم يقرأ أحد من القراء : ﴿ ولا تعثوا ﴾ بضم الثاء .

وهو أشد الفساد وقيل : هو الفساد مطلقاً وعلى الوجهين يكون ﴿ مفسدين ﴾ حالاً مؤكدة لعاملها .

وفي " الكشاف " جعل معنى ﴿ لا تعثوا ﴾ لا تتمادوا في فسادكم فجعل المنهي عنه هو الدوام على الفعل وكأنه يأبى صحة الحال المؤكدة للجملة الفعلية فحاول المغايرة بين ﴿ لا

تعثوا ﴾ وبين ﴿ مفسدين ﴾ تجنباً للتأكيد وذلك هو مذهب الجمهور لكن كثيراً من المحققين خالف ذلك ، واختار ابن مالك التفصيل فإن كان معنى الحال هو معنى العامل جعلها شبيهة بالمؤكدة لصاحبها كما هنا وخص المؤكدة لمضمون الجملة الواقعة بعد الاسمية نحو زيد أبوك عطوفاً وقول سالم بن دارة اليربوعي :

أنا ابن دارة معروفاً بها نسبي . . .

وهل بدارة يا للناس من عار . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 1 صـ 500 .

503 ﴾

(278/52)

فصل

قال السيوطى :

﴿ وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (60) ﴾

أخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله ﴿ وإذ استسقى موسى لقومه . . . ﴾ الآية . قال :

ذلك في التيه ، ضرب لهم موسى الحجر فصار فيه اثنتا عشرة عينا من ماء ، لكل سبط منهم عين يشربون منها .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة في قوله ﴿ وإذ استسقى موسى لقومه . . . ﴾ الآية . قال : كان هذا في البرية حيث خشوا الظمأ استسقى موسى فأمر بحجر أن يضربه ، وكان حجرا طورانياً من الطور يحملونه معهم ، حتى إذا نزلوا ضربه موسى بعصاه ﴿ فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل أناس مشربهم ﴾ قال : لكل سبط مهم عين معلومة يستفيد ماءها .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد قال : انفجر لهم الحجر بضربة موسى اثنتي عشرة عينا ، كل ذلك كان في تيههم حين تاهوا .

وأخرج ابن أبي حاتم عن جوبير أنه سئل في قوله ﴿ قد علم كل أناس مشربهم ﴾ قال : كان موسى يضع الحجر ويقوم من كل سبط رجل ، ويضرب موسى الحجر فينفجر منه اثنتا عشرة عيناً ، فينتضح من كل عين على رجل ، فيدعو ذلك الرجل سبطه إلى تلك العين .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ ولا تعثوا في الأرض ﴾ قال : لا تسعوا .

وأخرج ابن جرير عن أبي العالية في قوله ﴿ ولا تعثوا في الأرض مفسدين ﴾ قال : لا تسعوا في الأرض فساداً .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي مالك في قوله ﴿ ولا تعثوا ﴾ قال : يعني ولا تمشوا بالمعاصي .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ ولا تعثوا في الأرض مفسدين ﴾ قال : لا تسيروا في الأرض مفسدين .

وأخرج ابن أبي شيبة عن مجاهد قال : استسقى موسى لقومه فقال : اشربوا يا حمير (1) : فقال الله تعالى له : لا تسمّ عبادي حميراً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 1 صـ 176.175 ﴾

---

(1) هذا الكلام وما شابهه يجب أن تنزه عنه ساحة الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ولا يخفى ما فيه من البعد البعيد ، فكيف ينسب هذا القول إلى نبى قال الله له ﴿ إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى ﴾ وقال له أيضا ﴿ ولتصنع على عينى ﴾ وأمره وأخاه هارون - عليهما السلام - بلين القول مع فرعون فقال ﴿ اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (43) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (44) ﴾ أيراعى الأدب مع عدو الله الكفر (فرعون) ويطرحه مع المؤمنين ؟ ؟ ! ! !

سبحانك هذا بهتان عظيم . فتبه إلى مثله وخصوصا ما يذكره الإمام السيوطى فى تفسيره فكثيرا ما يذكر روايات ضعيفة بل وموضوعة غفر الله لنا وله .

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

كسرت الذّال من " إذ " لالتقاء الساكنين ، والسين للطلب على وجه الدعاء أي : سأل لهم السُّقْيَا ، وألف " إسْتَسْقَى " منقلبة عن ياء ؛ لأنه من " السَّقْي " ، وتقدَّم معنى " اسْتَفْعَلَ " ، ويقال : " سَقَيْتُه " و " أَسْقَيْتُهُ " ، بِمَعْنًى ؛ وأنشد : [الوافر]

سَقَى قَوْمِي بَنِي مَجْدٍ وَأَسْقَى . . .

نُمَيْراً وَالقَبَائِلَ مِنْ هِلاَلِ

وقيل : " سقيته " : أعطيته ما يشرب ، " وأسقيته " : جعلت ذلك له يتناوله كيف شاء .

و " الإسْقاء " أبلغ من " السَّقْي " على هذا .

وقيل : أسقيته : دَلَلْتُه على الماء ، وسيأتي عند قوله : ﴿ نُّسْقِيكُمْ مِّمَّا فِي بُطُونِهِ ﴾ [النحل : 66] وسقى وأسقى متعدّيان لمفعولين ، قال تعالى : ﴿ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً ﴾ [الإنسان : 21] وقال : ﴿ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّآءً فُرَاتاً ﴾ [المرسلات : 27] .

و " لِقَوْمِهِ " متعلّق بالفعل ، واللام للعلّة ، أي : لأجل ، أو تكمون للبيان لما كان المراد به الدعاء كالتي في قولهم : " سُقْياً لَكَ " فتتعلّق بمحذوف كنظيرتها .

قوله : ﴿ اضرب بِّعَصَاكَ الحجر ﴾ الإدغام هنا واجبٌ ؛ لأنه متى اجتمع مثلان في كلمتين

؛ أو كلمة أوّلهما ساكن وجب الإدغام نحو : اضرب بكراً ، وألف " عصاك " منقلبة عن واو ؛ لقولهم في النّسب : عَصَوِيٌّ ، وفي التثنية عَصَوَان ؛ قال : [الطويل]

. . . . . .

عَلَى عَصَوَيْهَا سَابِرِيٌّ مُشَبْرَقُ

والجمع : " عُصِيّ " " وَعِصِيّ " بضم العين وكسرها إتباعاً ، و" أَعْصٍ " مثل " زَمَنٍ " " وأَزْمُن " ، والأصل : " عُصُوُو " و" أَعْصُو " ، فأعل .

وعَصَوْتُه بالعَصَا ، وعَصَيْتُه بالسيف .

و" ألقى عَصَاه " يعبر به عن بلوغ المنزل ، قال : [الطويل]

فَأَلْقَتْ عَصَاهَا وَاسْتَقَرَّ بِهَا النَّوَى . . .

كَمَا قَرَّ عَيْنَا بِالإِيَابِ الْمُسَافِرُ

وانشقت العَصَا بين القوم ، أي : وقع الخلاف ؛ قال : [الطويل]

إِذَا كَانَتِ الْهَيْجَاءُ وَانْشَقَّتِ الْعَصَا . . .

فَحَسْبُكَ وَالضَّحَّاحُ سَيْفٌ مُهَنَّدٌ

قال الفرّاء : " أوّل لحن سمع بـ " العراق " هذه عَصَاتي " ، يعني : بالتاء .

وفي [المثل] : " العَصَا من العُصَيَّة " أي : بَعْضُ الأمر من بَعْضٍ .

و" الحَجَر " مفعول .

و" أل " فيه للعَهْدِ .

وقيلك للجنس ، وهو معروف ، وقياس جمعه في أدنى العدد " أَحْجَار " وفي التكثير : " حِجَارٌ وحِجَارَةٌ " نادر ، وهو كقولنا : " جَمَل وجِمَالة " ، و" ذَكَر وذِكَارة " قاله ابن فارس والجَوْهري .

(280/52)

وكيف يكون نادراً وفي القرآن : ﴿ فَهِيَ كَالحِجارة أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الحجارة ﴾ [البقرة : 27] ، ﴿ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً ﴾ [الإسراء : 50] ، ﴿ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴾ [الفيل : 4] ، ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً ﴾ [هود : 82] .

قوله : ﴿ فانفجرت ﴾ " الفاء " عاطفة على محذوف لا بُدّ من تقديره : فضرب فانفجرت .

قال ابن عصفور : إن هذه " الفاء " الموجودة هي الداخلة على ذلك الفعل المحذوف ، والفاء الداخلة على " انْفَجَرَتْ " محذوفة ، وكأنه يقول : حذف الفعل الأول لدلالة الثاني عليه ، وحذفت " الفاء " الثانية لدلالة الأولى عليها .

ولا حاجة إلى ذلك ، بل يقال : حذفت الفاء ، وما عطفته قبلها .

وجعلها الزمخشري جواب شرط [مقدر] قال : [أو] فإن ضربت فقد انفجرت ، قال : " وهي على هذا فاء فَصِيحة لا تقع إلا في كلام بليغ " .

وكأنه يريد تفسير المعنى لا الإعراب .

و" الانْفِجَار " : الانشقاق والتفتُّح ، ومنه : الفَجْر لانشقاقه بالضَّوء .

وفي " الأعراف " : ﴿ فانبجست ﴾ [الأعراف : 160] فقيل : هما بمعنى .

وقيل : " الانْبِجَاس " أضيق ؛ لأنه يكون أولاً والانفجار ثانياً .

وقيل : انبجس وتبجّس وتفجّر وتفتّق بمعنًى وَاحِدٍ .

قوله : ﴿ اثنتا عَشْرَةَ عَيْناً ﴾ فاعل " انْفَجَرَتْ " ، والألف علامة الرفع ؛ لأنه محمول على المُثَّنى ، وليس بمثنى حقيقة ، إذ لا واحد له من لفظه ، وكذلك مذكره " اثنان " ، ولا يضاف إلى تمييز ، لاستغنائه بذكر المعدود " مثنى " تقول : " رجلان وامرأتان " ولا تقول : يضاف إلى " اثنا رَجُل ، ولا اثنتا امرأة " إلا ما جاء نادراً فلا يقاس عليه ، قال : [الرجز]

كَأَنَّ خُصْيَيْهِ مِنَ التَّدَلْدُلِ . . .

ظَرْفُ عَجُوزٍ فِيهِ ثِنْتَا حَنْظَلِ

و " ثنتان " مثل " اثنتين " ، وحكم اثنين واثنتين في العدد المركب أن يُعْرَبا بخلاف سائر أخواتهما ، قالوا : لأنه حذف معهما ما يحذف في المعرب عند الإضافة ، وهي النون ، فأشبها المعرب فأعربا كالمثنى بالألف رفعاً والباء نصباً وجرًّا .

وأما " عَشْرة " فمبني لتنزله منزلة تاء التأنيث ، ولها أحكام كثيرة .

و " عَيْناً " تمييز .

وقرأ مجاهد وطلحة وعيسى : " عَشِرَة " بكسر الشين ، وهي لغة تميم .

قال النحَّاس : " وهذا عجيب فإن لغة تميم " عشرة " بالكسر ، وسبيلهم التخفيف ، ولغة " عَشْرة " بالسكون ، وسبيلهم التثقيل " .

وقرأ الأعمش : " عَشَرَة " بالفتح .

و " العَيْن " : اسم مشترك بين عَيْنِ الإنسان ، وعَيْنِ الماء ، وعين الرُّكّية ، وعَيْنِ الشمس ، وعَيْنِ الذهب ، وعين الميزان .

والعين : سحابة تقبل من ناحية القبلة .

والعين : المَطَر الدائم ستًّا أو خمساً .

والعين : الثقب في المَزَادة ، وبلد قليل العين ، أي : قليل النَّاس .

[وبها عين ، محركة الياء] .

فإن قيل : إذا كانت العين لفظاً مشتركاً بين حقائق ، فكيف وقعت هنا تمييزاً ؟

فالجواب : أن قوله : " وَإِذِ اسْتَسْقَى " ، وقوله : " فَانْفَجَرَتْ " ، وقوله : " مَشْرَبَهُمْ " دليل على إرادة عين الماء ، فاللفظ مع القرينة مميز ، والعَيْن من الماء شبيهة بالعين من الحيوان لخروج الماء منها ، كخروج الدَّمع من عين الحيوان .

وقيل : لما كان عين الحيوان اشرف ما فيه شبّهت به عين الماء ؛ لأنها أشرف ما في الأرض .

قوله : ﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ﴾

[الأعراف : 82] قد تقدّم الكلام على أنّ " أناس " أصل " النّاس " .

وقال الزمخشري في سورة " الأعراف " : " إنه اسم جمع غير تكسير " ، ثم قال : " ويجوز أن يكون الأصل الكسر ، والتكسير ، والضمة بدل من الكسرة ، كما أبدلت في سُكَارى " من الفتحة وسيأتي البحث معه إن شاء الله تعالى .

(282/52)

قوله : ﴿ مَّشْرَبَهُمْ ﴾ مفعول لـ " علم " بمعنى " عرف " ، و " المَشْرَب " هنا موضع الشُّرْب ؛ لأنه روي أنه كان لكل سِبْطٍ عَيْنٌ من اثنتي عشرة عيناً ، لا يشاركه فيها سبط غيره .

وقيل : هو نفس المشروب ، فيكون مصدراً واقعاً موقع المفعول به ، وضمير الجمع في قوله : " مشربهم " يعود على معنى " كُلُّ أُنَاسٍ " .

قوله : ﴿ كُلُواْ واشربوا ﴾ هاتان الجملتان في محلّ نصب بقول مضمر تقديره : وقلنا لهم : كلوا واشربوا .

وقد تقدّم تصريف "كُلْ" وما حذف منه .

قوله : ﴿ مِن رِّزْقِ الله ﴾ هذه من باب الإعمال ؛ لأن كلّ واحد من الفعلين يصحّ تسلّطه عليه ، وهو من باب إعمال الثاني للحذف من الأول .

والتقدير : كلوا منه .

و" مِنْ " يجوز أن تكون لابتداء الغاية ، وأن تكون للتبعيض ، ويجوز أن يكون مفعول الأكل محذوفاً ، وكذلك مفعول الشرب ؛ للدلالة [عليهما] ، والتقدير : كلوا المَنّ والسَّلوى لتقدمهما في قوله : ﴿ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ المن والسلوى ﴾ [البقرة : 57] ، واشربوا ماء العيون المتفجّرة .

وعلى هذا فالجار والمجرور يحتمل تعلّقه بالفعل قبله ، ويحتمل أن يكون حالاً من ذلك المفعول المحذوف ، فيتعلّق بمحذوفة .

وقيل : المراد بالرِّزْقِ الماء وحده ، ونسب الأكل إليه لما كان سبباً في نَمَاءِ ما يؤكل وحَيَاته ، فهو رزق يؤكل منه ويشرب .

والمُرَاد بالزرق المرزوق ، وهو يحتمل أن يكون من باب " ذِبْح ورِعْي " ، وأن يكون من باب " درهم ضرب الأمير " وقد تقدم بيانه .

قوله : ﴿ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأرض مُفْسِدِينَ ﴾ .

أصل " تعثوا " : " تَعْثُيُوا " ، فاستثقلت الضمة على الياء فحذفت ، فالتقى ساكنان فحذف الأول منهما وهو الياء ، أو لما تحركت الياء وانفتح ما قبلها قلبت ألفاً فالتقى ساكنان ، فحذفت الألف ، وبقيت الفتحة تدل عليها .

وهذا أولى ، فوزنه " تفعون " .

و" العِثِيّ " و" العَيْث " : أشد الفساد وهما متقاربان .

(283/52)

وقال بعضهم : " إلا أنّ العَيْثَ أكثر ما يقال فيما يدرك حسّه ، والعِثِيّ فيما يدرك حكماً ، يقال : عَثِيَ يَعْثَى عِثِيًّا ، وهي لغة القرآن ، وعَثَا يَعْثُو عُثُوًّا ، وعَاثَ يَعيثُ عَيْثاً " .

وليس " عاث " مقلوباً من " عَثِيَ " ك " جَبَذَ وجَذَبَ " لتفاوت معنييهما كما تقدم .

ويحتمل ذلك ، ثم اختصّ كل واحد بنوع ، ويقال : عَثِيَ يَعْثَى عِثِيًّا ومَعَاثاً ، وليس " عَثِيَ " أصله " عَثِوَ " فقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها ، ك " رضي " من الرِّضْوَان ، لثبوت العِثِيّ ، وإن تَوَهَّم بعضهم ذلك .

ويقال : عَثَّ يَعُثُّ مضافاً أي : فسد ، قال ابن الرِّقَاع : [الكامل]

لَوْلاَ الحَيَاءُ وَأَنَّ رَأْسِيَ قَدْ عَثَا . . .

فِيهِ المَشِيبُ لَزُرْتُ أُمَّ القَاسِمِ

ومنه : العُثَّة : [سوسة] تفسد الصُّوف .

وأما " عَثَا " بالثاء المُثَنَّاة من فوق فهو قريب من معناه ، وسيأتي الكلام عليه إن شاء الله تعالى .

و " مُفْسِدِينَ " حال من فاعل " تَعْثُوا " وهي حال مؤكدة ؛ لأن معناها قد فهم من عاملها ، وحسن ذلك اختلاف اللفظين ، ومثله : ﴿ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ [التوبة : 25] ، هكذا قالوا .

ويحتمل أن تكون حالاً مبينة ؛ لأن الفساد أعم ، والمعنى أخص ، ولهذا قال الزمخشري : فقيل لهم لا تَمَادَوْا في الفساد في حال فسادكم ؛ لأنهم كانوا متمادين فيه .

فغاير بينهما كما ترى .

و " في الأرض " يحتمل أن يتعلّق بـ " تعثوا " وهو الظاهر ، وأن يتعلّق بـ " مفسدين " .

والمراد بالأرض : عموم الأرض [لا] أرض التِّيْهِ .

والمراد بالفساد ها هنا هو قوله في سورة طه : ﴿ وَلاَ تَطْغَوْا فِيهِ ﴾ [طه : 81] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 2 صـ 105 . 113 ﴾ . باختصار .

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : " فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا " وفى الأعراف : " فانبجست " مع أن المعنى واحد فمعنى الانبجاس الانفجار يسأل عن وجه اختصاص كل من الموضعين بما ورد فيه .

والجواب والله أعلم أن الفعلين وإن اجتمعا فى المعنى فليسا على حد سواء بل الانبجاس ابتداء الانفجار والانفجار بعدة غاية له قال القرطبى : " الانحباس أول الانفجار " ، وقال ابن عطيه : " انبجست انفجرت لكنه أخف من الانفجار " وإذا تقرر هذا فأقول : إن الواقع فى الأعراف طلب بنى إسرائيل من موسى عليه السلام السقيا قال تعالى : " وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه " والوارد فى سورة البقرة طلب موسى عليه السلام من ربه قال تعالى : " وإذ استسقى موسى لقومه " فطلبهم ابتداء فناسبه الابتداء وطلب موسى عليه السلام غاية لطلبهم لأنه واقع بعده ومرتب عليه فناسب الابتداء الابتداء والغاية الغاية ، فقيل جوابا لطلبهم : " فانبجست " وقيل اجابة لطلبه : " فانفجرت " وتناسب ذلك وجاء على ما يجب ولم يكن ليناسب العكس . والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 40 ﴾

ومن فوائد صاحب المنار فى الآية الكريمة

قال رحمه الله :

(وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ)

هَذَا بَيَانٌ لِحَالٍ آخَرَ مِنْ أَحْوَالِ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي هِجْرَتِهِمْ وَعِنَايَةِ اللهِ – تَعَالَى – بِهِمْ ، فِيهَا أَصَابَهُمُ الظَّمَأُ فَعَادُوا عَلَى مُوسَى بِاللَّائِمَةِ أَنْ أَخْرَجَهُمْ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ الْخِصْبَةِ الْمُتَدَفِّقَةِ بِالْأَمْوَاهِ ، وَكَانُوا عِنْدَ كُلِّ ضِيقٍ يَمُنُّونَ عَلَيْهِ أَنْ خَرَجُوا مَعَهُ مِنْ مِصْرَ وَيَجْهَرُونَ بِالنَّدَمِ .

فَاسْتَغَاثَ مُوسَى بِرَبِّهِ وَاسْتَسْقَاهُ لِقَوْمِهِ ، كَمَا قَصَّهُ اللهُ – تَعَالَى – عَلَيْنَا بِقَوْلِهِ : (وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ) أَيْ طَلَبَ السُّقْيَا لَهُمْ مِنَ اللهِ – تَعَالَى – (فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ) قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : أَمَرَهُ أَنْ يَضْرِبَ بِعَصَاهُ حَجَرًا مِنْ حِجَارَةِ تِلْكَ الصَّحْرَاءِ بِتِلْكَ الْعَصَا الَّتِي ضَرَبَ بِهَا الْبَحْرَ ، فَضَرَبَهُ (فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا) بِعَدَدِ أَسْبَاطِهِمْ ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ – عَزَّ وَجَلَّ – : (قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ) .

(قَالَ) : وَكَوْنُ هَذَا الْحَجَرِ هُوَ الَّذِي رُوِيَ أَنَّهُ تَدَحْرَجَ بِثَوْبِ مُوسَى يَوْمَ كَانَ يَغْتَسِلُ كَمَا قَالَ الْمُفَسِّرُ (الْجَلَالُ) لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ ، وَقِصَّةُ الثَّوْبِ لَيْسَتْ فِي الْقُرْآنِ ، فَيُحْمَلُ تَعْرِيفُ

(286/52)

الْحَجَرِ عَلَى أَنَّهُ الْمَعْهُودُ فِي الْقِصَّةِ ، وَإِنَّمَا يُفْهِمُ التَّعْرِيفُ أَنَّ الْحَجَرَ الَّذِي ضُرِبَ فَتَفَجَّرَتْ مِنْهُ الْمِيَاهُ حَجَرٌ مَخْصُوصٌ لَهُ صِفَاتٌ تُمَيِّزُهُ عِنْدَهُمْ ، كَكَوْنِهِ صُلْبًا أَوْ عَظِيمًا تَتَّسِعُ مِسَاحَتُهُ لِتِلْكَ الْعُيُونِ ، وَيَصْلُحُ أَنْ تَكُونَ مِنْهُ مَوَارِدُ لِتِلْكَ الْأُمَمِ ، (أَوْ كَوْنِهِ يَقَعُ تَحْتَ أَعْيُنِهِمْ مُنْفَرِدًا عَنْ غَيْرِهِ ، لَيْسَ فِي مَحِلَّتِهِمْ سِوَاهُ ، وَقَدْ يَكُونُ التَّعْرِيفُ لِلدَّلَالَةِ عَلَى الْجِنْسِ ؛ لِيُفِيدَنَا بُعْدَ الْمَرْغُوبِ عَنِ التَّنَاوُلِ ، وَعَظَمَةَ الْقُدْرَةِ الْإِلَهِيَّةِ وَأَثَرَهَا الْجَلِيلَ فِي تَقْرِيبِهِ وَتَحْصِيلِهِ) وَعُبِّرَ عَنْهُ فِي سِفْرِ الْخُرُوجِ بِالصَّخْرَةِ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ – تَعَالَى – أَنَّ لَنَا فَائِدَةً فِي أَكْثَرَ مِمَّا دَلَّ عَلَيْهِ هَذَا الْخِطَابُ مِنَ التَّعْيِينِ لَمَا تَرَكَهُ .

ثُمَّ أَرَادَ أَنْ يُصَوِّرَ حَالَ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي هَذِهِ النِّعْمَةِ ، وَاغْتِبَاطَهُمْ بِمَا مَنَحَهُمْ مِنَ الْعَيْشِ الرَّغَدِ فِي مَهَاجِرِهِمْ ، فَقَالَ : (كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ) فَعَبَّرَ عَنِ الْحَالِ الْمَاضِيَةِ

(287/52)

بِالْأَمْرِ لِيَسْتَحْضِرَ سَامِعُ الْخِطَابِ أُولَئِكَ الْقَوْمَ فِي ذِهْنِهِ ، وَيَتَصَوَّرَ اغْتِبَاطَهُمْ بِمَا هُمْ فِيهِ ، حَتَّى كَأَنَّهُمْ حَاضِرُونَ الْآنَ وَالْخِطَابُ يُوَجَّهُ إِلَيْهِمْ ، وَهَذَا مِنْ ضُرُوبِ إِيجَازِ الْقُرْآنِ الَّتِي لَا تُجَارَى وَلَا تُمَارَى ، ثُمَّ قَالَ : (وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ) أَيْ لَا تَنْشُرُوا فَسَادَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَتَكُونُوا فِي الشُّرُورِ قُدْوَةً سَيِّئَةً لِلنَّاسِ . يُقَالُ : عَثَا إِذَا نَشَرَ الشَّرَّ وَالْفَسَادَ وَأَثَارَ الْخُبْثَ ، فَهُوَ أَخَصُّ مِنْ مُطْلَقِ الْإِفْسَادِ وَذَلِكَ مَعَ كَوْنِ (مُفْسِدِينَ) حَالًا مِنْ ضَمِيرِ (تَعْثَوْا) .

قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : إِنَّ كَثِيرًا مِنْ أَعْدَاءِ الْقُرْآنِ يَأْخُذُونَ عَلَيْهِ عَدَمَ التَّرْتِيبِ فِي الْقَصَصِ ، وَيَقُولُونَ هُنَا : إِنَّ الِاسْتِسْقَاءَ وَضَرْبَ الْحَجَرِ كَانَ قَبْلَ التِّيهِ وَقَبْلَ الْأَمْرِ بِدُخُولِ تِلْكَ الْقَرْيَةِ ، فَذُكِرَ هُنَا بَعْدَ تِلْكَ الْوَقَائِعِ . وَالْجَوَابُ عَنْ هَذِهِ الشُّبْهَةِ يُفْهَمُ مِمَّا قُلْنَاهُ مِرَارًا فِي قَصَصِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأُمَمِ الْوَارِدَةِ فِي الْقُرْآنِ ، وَهُوَ أَنَّهُ لَمْ يَقْصِدْ بِهَا التَّارِيخَ وَسَرْدَ الْوَقَائِعِ مُرَتَّبَةً بِحَسْبِ أَزْمِنَةِ وُقُوعِهَا ، وَإِنَّمَا الْمُرَادُ بِهَا الِاعْتِبَارُ وَالْعِظَةُ بِبَيَانِ النِّعَمِ مُتَّصِلَةً بِأَسْبَابِهَا لِتُطْلَبَ بِهَا ، وَبَيَانِ النِّقَمِ بِعِلَلِهَا لِتُتَّقَى مِنْ جِهَتِهَا ، وَمَتَى كَانَ هَذَا هُوَ الْغَرَضُ مِنَ السِّيَاقِ ، فَالْوَاجِبُ أَنْ يَكُونَ تَرْتِيبُ الْوَقَائِعِ فِي الذِّكْرِ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يَكُونُ أَبْلَغَ فِي التَّذْكِيرِ وَأَدْعَى إِلَى التَّأْثِيرِ .

إِنَّ الْبَاحِثِينَ فِي التَّارِيخِ لِهَذَا الْعَهْدِ قَدْ رَجَعُوا إِلَى هَذَا الْأُسْلُوبِ فِي التَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ ، وَقَالُوا : سَتَأْتِي أَيَّامٌ يَسْتَحِيلُ فِيهَا تَرْتِيبُ الْحَوَادِثِ وَالْقَصَصِ بِحَسْبِ تَوَارِيخِهَا لِطُولِ الزَّمَنِ ، وَكَثْرَةِ النَّقْلِ مَعَ حَاجَةِ النَّاسِ إِلَى مَعْرِفَةِ سِيَرِ الْمَاضِينَ ، وَمَا كَانَ لَهَا مِنَ النَّتَائِجِ وَالْآثَارِ فِي حَالِ الْحَاضِرِينَ ، وَقَالُوا : إِنَّ الطَّرِيقَ إِلَى ذَلِكَ هُوَ أَنْ نَنْظُرَ فِي كُلِّ حَادِثَةٍ مِنْ حَوَادِثِ الْكَوْنِ كَالثَّوَرَاتِ وَالْحُرُوبِ وَغَيْرِهَا ، وَنُبَيِّنُ أَسْبَابَهَا وَنَتَائِجَهَا مِنْ غَيْرِ تَفْصِيلٍ وَلَا تَحْدِيدٍ لِجُزْئِيَّاتِ الْوَقَائِعِ بِالتَّارِيخِ ، فَإِنَّ تَرْتِيبَ الْوَقَائِعِ هُوَ مِنَ الزِّينَةِ فِي وَضْعِ التَّأْلِيفِ ، فَلَا يَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ الِاعْتِبَارُ ، بَلْ رُبَّمَا يُصَدُّ عَنْهُ بِمَا يُكَلِّفُ الذِّهْنَ مِنْ مُلَاحَظَتِهِ وَحِفْظِهِ ، فَهَذَا ضَرْبٌ مِنْ ضُرُوبِ الْإِصْلَاحِ الْعِلْمِيِّ ، جَاءَ بِهِ الْقُرْآنُ وَأَيَّدَهُ سَيْرُ الِاجْتِمَاعِ فِي الْإِنْسَانِ .

هَذَا مَا نَقُولُهُ لَهُ إِذَا سَلَّمْنَا أَنَّ الِاسْتِسْقَاءَ كَانَ قَبْلَ التِّيهِ لَا فِيهِ ، وَلَنَا أَنْ نَقُولَ : إِنَّ أَرْضَ التِّيهِ هِيَ الْأَرْضُ الْمُمْتَدَّةُ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ الْأَحْمَرِ مِنْ بَيْدَاءِ فِلَسْطِينَ مِمَّا يَلِي حُدُودَ مِصْرَ ، وَفِيهَا كَانَ الِاسْتِسْقَاءُ بِلَا خِلَافٍ . (وَفِي سِفْرِ الْخُرُوجِ) أَنَّهُ كَانَ فِي رُفَيْدِيمَ الَّتِي انْتَقَلَ إِلَيْهَا بَنُو إِسْرَائِيلَ مِنْ (سِينَ) الَّتِي بَيْنَ إِيلِيمَ وَسَيْنَاءَ . وَيُطْلَقُ التِّيهُ عَلَى ضَلَالِ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَرْبَعِينَ سَنَةً فِي الْأَرْضِ .

وَالْعِبْرَةُ فِي الْقِصَّةِ عَلَى مَا يَظْهَرُ مِنَ التَّوْرَاةِ أَنَّ مُوسَى كَانَ يُحَاوِلُ نَزْعَ مَا فِي قُلُوبِ قَوْمِهِ مِنَ الشِّرْكِ الَّذِي أُشْرِبُوا عَقَائِدَهُ فِي مِصْرَ ، وَمَا فِي نُفُوسِهِمْ مِنَ الذُّلِّ الَّذِي طَبَعَهُ فِيهَا اسْتِبْدَادُ الْمِصْرِيِّينَ وَتَعْبِيدُهُمْ إِيَّاهُمْ ؛ لِيَكُونُوا أَعْلِيَاءَ أَعِزَّاءَ بِعِبَادَةِ اللهِ – تَعَالَى – وَحْدَهُ ، وَأَنْ يَدْخُلَ بِهِمْ أَرْضَ الْمِيعَادِ ، وَهِيَ بِلَادُ الشَّامِ الَّتِي وَعَدَ اللهُ بِهَا آبَاءَهُمْ ، وَكَانُوا لِطُولِ الْإِقَامَةِ فِي مِصْرَ قَدْ أَلِفُوا الذُّلَّ وَأَنِسُوا بِالشَّعَائِرِ وَالْعَادَاتِ الْوَثَنِيَّةِ ، فَكَانُوا لَا يَخْطُونَ خُطْوَةً إِلَّا وَيُتْبِعُونَهَا بِخَطِيئَةٍ ، وَكُلَّمَا عُرِضَ لَهُمْ شَيْءٌ مِنْ مَشَقَّاتِ السَّفَرِ يَتَبَرَّمُونَ بِمُوسَى وَيَتَحَسَّرُونَ عَلَى مِصْرَ وَيَتَمَنَّوْنَ الرُّجُوعَ إِلَيْهَا (كَمَا سَبَقَ الْقَوْلُ) وَيَسْتَبْطِئُونَ وَعْدَ اللهِ ، فَتَارَةً يَطْلُبُونَ مِنْهُ أَنْ يَجْعَلَ لَهُمْ إِلَهًا غَيْرَ اللهِ ، وَتَارَةً يَصْنَعُونَ عِجْلًا وَيَعْبُدُونَهُ ، وَتَارَةً يَفْسُقُونَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَيَكْفُرُونَ نِعَمَهُ . وَلَمَّا أَمَرَهُمْ بِدُخُولِ الْبِلَادِ الْمُقَدَّسَةِ الَّتِي وَعَدَهُمُ اللهُ أَبَوْا وَاعْتَذَرُوا بِالْخَوْفِ مِنْ أَهْلِهَا الْجَبَّارِينَ ، لِمَا اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْجُبْنِ الَّذِي هُوَ حَلِيفُ الذُّلِّ ، وَكَانَ مُوسَى أَرْسَلَ كَالِبًا وَيُوشَعَ بْنَ نُونٍ رَائِدَيْنِ لِيَنْظُرَا حَالَ الْبِلَادِ فِي الْقُوَّةِ وَالضَّعْفِ ، وَأَرْسَلَ غَيْرَهُمَا عَشْرَةً مِنْ بَقِيَّةِ أَسْبَاطِ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، فَأَخْبَرَ هَؤُلَاءِ بِأَنَّ فِي تِلْكَ الْأَرْضِ قَوْمًا جَبَّارِينَ ، فَقَالَ بَنُو

إِسْرَائِيلَ : إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا ، فَأَخْبَرَ يُوشَعُ وَكَالِبٌ بِأَنَّ الْأَرْضَ كَمَا وَعَدَ اللهُ ، وَأَنَّ دُخُولَهَا سَهْلٌ وَالظَّفَرَ مَضْمُونٌ بِالِاعْتِمَادِ عَلَى اللهِ - تَعَالَى - وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ ، فَلَمْ يَسْمَعُوا لَهُمَا بَلْ (قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا) (5 : 24) ، فَضَرَبَ اللهُ عَلَيْهِمُ التِّيهَ أَرْبَعِينَ سَنَةً لِحِكْمَةٍ بَالِغَةٍ ؛ وَهِيَ إِرَادَةُ انْقِرَاضِ أُولَئِكَ الْقَوْمِ الَّذِينَ تَأَشَّبَتْ فِي نُفُوسِهِمْ عَقَائِدُ الْوَثَنِيَّةِ ، وَزَايَلَتْهَا صِفَاتُ الرُّجُولِيَّةِ حَتَّى فَسَدَ مِزَاجُهَا وَتَعَذَّرَ عِلَاجُهَا ، وَخُرُوجِ نَشْءٍ جَدِيدٍ يَتَرَبَّى عَلَى الْعَقَائِدِ الصَّحِيحَةِ وَأَخْلَاقِ الشَّهَامَةِ وَالرُّجُولِيَّةِ ، فَتَاهُوا حَتَّى انْقَرَضَ أُولَئِكَ الْمُصَابُونَ بِاعْتِلَالِ الْفِطْرَةِ ، وَبَقِيَ النَّشْءُ الْجَدِيدُ وَبَعْضُ الَّذِينَ كَانُوا عِنْدَ الْخُرُوجِ مِنْ مِصْرَ صِغَارًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى حَمْلِ السِّلَاحِ ، وَقَضَى اللهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير المنار حـ 1 صـ 271. 273 ﴾

(291/52)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ ﴾

ومعناها : اذكر إذا استسقى موسى لقومه . . وهذه وردت كما بينا في عدة آيات في قوله

تعالى : ﴿ وَإِذْ أَنجَيْنَاكُمْ مِّنْ آلِ فِرْعَونَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾ [الأعراف : 141]

وقول سبحانه : ﴿ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ [البقرة : 51]

وقوله جل جلاله : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً ﴾ [البقرة : 55]

وقلنا أن هذه كلها نعم امتن الله بها على بني إسرائيل وهو سبحانه وتعالى يذكرهم بها . إما مباشرة وإما على لسان موسى عليه السلام . والحق يريد أن يذكر بني إسرائيل حينما تاهوا في الصحراء أنه أظلهم بالغمام . . وسقاهم حين طلبوا السقيا . . ولقد وصلت ندرة الماء عند بني إسرائيل لدرجة أنهم لم يجدوا ما يشربونه . . لأن الإنسان يبدأ الجفاف عنده لعدم وجود ماء يسقي به زرعه . . ثم يقل الماء فلا يجد ما يسقي به أنعامه . . ثم يقل الماء فلا يجد ما يشربه . . وهذا هو قمة الجفاف أو الجدب . .

وموسى عليه السلام طلب السقيا من الله تبارك وتعالى . . ولا تطلب السقيا من الله إلا إذا كانت الأسباب قد نفدت . . وانتهت آخر نقطة من الماء عندهم ؛ فالماء مصدر الحياة ينزله الله من السماء . . وينزله نقيا طاهرا صالحا للشرب والري والزرع وسقيا الأنعام . .

والحق سبحانه وتعالى جعل ثلاثة أرباع الأرض ماء والربع يابسا . . حتى تكون مساحة سطح الماء المعرضة للتبخّر بواسطة أشعة الشمس كبيرة جدا فتسهل عملية البخر ؛ فإنك إذا جئت بكوب ماء وتركته في حجرة مغلقة لمدة يومين أو ثلاثة . ثم عدت تجده ناقصا قيراطا أو قيراطين . ولكن إذا أمسكت ما في الكوب من ماء وألقيته على أرض الحجرة . . فأنه يجف قبل أن تغادرها لماذا ؟ . . لأن مساحة سطح الماء هنا كبيرة . . ولذلك يتم البخر بسرعة ولا يستغرق وقتا .

وهذه هي النظرية نفسها التي تتم في الكون . الله تبارك وتعالى جعل سطح الماء ثلاثة أرباع الأرض ليتم البخر في سرعة وسهولة . . فيتكون السحاب وينزل المطر نأخذ منه ما نحتاج إليه ، والباقي يكون ينابيع في الأرض ، مصداقا لقوله تبارك وتعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ﴾ [الزمر : 21]

هذه الينابيع تذهب إلى أماكن لا يصلها المطر . ليشرب منها الناس مِمّا نُسميه الآبار أو المياه الجوفية . . وتشرب منها أنعامهم . . فإذا حدث جفاف يخرج الناس رجالا ونساء وصبيانا وشيوخا . يتضرعون إلى الله ليمطرهم بالماء . . ونحن إذا توسلنا بأطفالنا الرضع وبالضعفاء يمطرنا الله .

وبعض الناس يقولون أن المطر ينزل بقوانين علمية ثابتة . . يصعد البخار من البحار ويصبح سحابا في طبقات الجو العليا ثم ينزل مطرا .

. تلك هي القوانين الثابتة لنزوله .

وأن السحاب لابد أن يكون ارتفاعه عدد كذا من الأمتار . . ليصل إلى برودة الجو التي تجعله ينزل مطرا . ولابد أن يكون السحاب ملقحا . . نقول أن هذا كله مرتبط بمتغيرات . فالريح تهب أو لا تهب . وتحمل السحاب إلى منطقة عالية باردة ولا تحمله وغير ذلك . .

(293/52)

إذن فكل ثابت محمول على متغير . . قد تعرف أنت القوانين الثابتة . . ولكن القوانين المتغيرة لا يمكن أن تنبأ بما ستفعل ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَأَلَّوِ اسْتَقَامُواْ عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُم مَّآءً غَدَقاً ﴾ [الجن : 16]

إذن فعوامل سقوط المطر لا تخضع لقوانين ثابتة . ولكن المتغير هو العامل الحاسم . ليسوق السحاب إلى المناطق الباردة وإلى الارتفاع المطلوب . . ولابد أن نتنبه إلى أن هناك قوانين ثابتة في الكون وقوانين تتغير . . وأن القانون المتغير هو الذي يحدث التغيير .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ ﴾ . . تدل على أن هناك مُستسقى بفتح القاف وأن هناك مستسقي بكسر القاف . . مستسقي بكسر القاف أي ضارع إلى الله لينزل المطر . . أما المستسقى بفتح القاف فهو الله سبحانه وتعالى الذي ينزل المطر . .

إن هذا الموقف خاص بالله تبارك وتعالى فلا توجد مخازن للمياه وليس هناك ماء في الأرض . . من أنهار أو آبار أو عيون ولا ملجأ إلا الله . . فلابد من التوسل لله تبارك وتعالى :

عن أنس رضي الله عنه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا قحطوا استسقي بالعباس بن المطلب رضي الله عنه فقال : اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا صلى الله عليه وسلم فتسقينا ، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا قال : فيُسقون "

بعض الناس يقولون هذا دليل على أن الميت لا يستعان به . . بدليل أن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه لم يتوسل برسول الله صلى الله عليه وسلم بعد موته ، وإنما توسل بعم رسول الله . . نقول وبمن توسل عمر ؟ . . أتوسل بالعباس أم بعم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ . . توسل بالرسول ، وبذلك أخذنا الحجة أن الوسيلة ليست مقصورة على رسول الله صلى الله عليه وسلم . . وإنما تتعدى إلى أقاربه . .

(294/52)

وهنا يأتي سؤال لماذا نقل الأمر من رسول الله عليه الصلاة والسلام إلى عم الرسول ؟ . .

نقول لأن رسول الله قد انتقل ولا ينتفع الآن بالماء . . ولكن عمه العباس هو الحي الذي

ينتفع بالماء . . لذلك كان التوسل بعم رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولم يكن منطقيا أن يتوسلوا برسول الله عليه الصلاة والسلام وهو ميت ولا يحتاج إلى الماء . . والذين أرادوا أن يأخذوا التوسل بذوي الجاه . . نقول لهم أن الحديث ضدكم وليس معكم .

. لأنه أثبت أن التوسل جائز بمن ينتسب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

لابد أن نتحدث كيف أن الحق سبحانه وتعالى بعد أن قابل بنو إسرائيل النعمة بالجحود والنكران فكيف يسقيهم ؟ . . نقول إنها النبوة الرحيمة التي كانت السبب في تنزل الرحمة تلو الرحمة على بني إسرائيل . . وكان طمع موسى في رحمة الله بلا حدود . . ولذلك فإن الدعوات كانت تتوالى من موسى عليه السلام لقومه . . وكانت الاستجابة من الله تأتي . كان من المفروض لاستكمال المعنى أن يقال وإذا استسقى موسى ربه لقومه فقال يا رب اسقهم . . ولكن هذه لم تأت حذفت وجاء بعدها الإجابة : ﴿ وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ﴾ . . إذن قوله يا رب اسق قومي واستجابة الله له محذوفة لأنها مفهومة . . ولذلك جاء القرآن باللفتات الأساسية وترك اللفتات المفهومة لذكاء الناس . . تماما كما جاء في سورة النمل : الهدهد ذهب ورأى ملكة بلقيس وعرشها . وعاد إلى سليمان وأخبره . فطلب سليمان من الهدهد أن يلقي إلى ملكة سبأ وقومها كتابا وقال : ﴿ اذْهَب بِّكِتَابِي هَاذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ * قَالَتْ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴾ [النمل : 28-29]

فسليمان أمر الهدهد أن يلقي كتابا إلى بلقيس وقومها . . والآية التي بعدها جاءت بقوله تعالى : قالت ﴿ يا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴾ كل التفاصيل حذفت من أن الهدهد أخذ الكتاب وطار إلى مملكة سبأ وألقى الكتاب أمام عرشها . . والتقطت بلقيس ملكة سبأ الكتاب وقرأته . . ودعت قومها وبدأت تروي إليهم قصة الكتاب . . كل هذا حُذف لأنه مفهوم .

قال موسى يا رب اسق قومي . . والله سبحانه وتعالى قال له : إن أردت الماء لقومك . . كل هذا محذوف . . وتأتي الآية الكريمة : ﴿ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ﴾ .

﴿ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ﴾ لنا معها وقفة . . الإنسان حين يستسقي الله . . يطلب منه أن ينزل عليه مطرا من السماء ، والحق تبارك وتعالى كان قادرا على أن ينزل على بني إسرائيل مطرا من السماء . ولكن الله جل جلاله أراد المعجزة . . فقال سأمدكم بماء ولكن من جنس ما منعكم الماء وهو الحجر الموجود تحت أرجلكم . . لن أعطيكم ماء من السماء . . ولكن الله سبحانه وتعالى أراد أن يُري بني إسرائيل مدى الإعجاز . . فأعطاهم الماء من الحجر الذي تحت أرجلهم .

ولكن من الذي يتأثر بالضرب : الحجر أم العصا ؟ . . العصا هي التي تتأثر وتتحطم والحجر لا يحدث فيه شيء . . ولكن الله سبحانه وتعالى أراد بضربة واحدة من العصا أن ينفلق الحجر . . ولذلك يقول الشاعر : أيا هازئاً من صنوف القدرْ بنفسك تعنف لا بالقدرْ ويا ضاربا صخرةً بالعصا ضربْتَ العصا أم ضربْتَ الحجرْ

إن انفجار الماء من ضربة العصا دليل على أن العصا أشارت فقط إلى الصخرة فتفجر منها الماء . . وحتى لو كانت العصا من حديد . . هل تكون قادرة على أن تجعل الماء ينبع من الحجر ؟

فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى أنه كان من الممكن أن ينزل الماء من السماء . . ولكن الله أرادها نعمة مركبة . . ليعلموا أنه يستطيع أن يأتي الماء من الحجر الصلب . . وأن نبع الماء من متعلقات "كن" .

(296/52)

هنا لابد أن ننظر إلى تعنت بني إسرائيل . قالوا لموسى هب أننا في مكان لا حجر فيه . من أين ينبع الماء ؟ . . لابد أن نأخذ معنا الحجر حتى إذا عطشنا نضرب الحجر بالعصا . . ونسوا أن هناك ما يتم بالأسباب وما يتم بكلمة "كن" . . ولذلك تجد مثلا كبار الأطباء

يحتارون في علاج مريض . . ثم يشفى على يد طبيب ناشئ حديث التخرج . . هل هذا الطبيب الناشئ يعرف أكثر من أساتذته الذين علموه ؟ . . الجواب طبعا لا .

إن التلميذ لا يتفوق على أستاذه الذي علمه فليس العلاج بالأسباب وحدها ولكن بقدرة المسبب . . ولذلك جاء موعد الشفاء على يد هذا الطبيب الناشئ . . فكشف الله له الداء وألهمه الدواء .

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً ﴾ لماذا اثنتا عشرة عينا . لأن اليهود كانوا يعيشون حياة انعزال . كل مجموعة منهم كانت تسمى " سبطا " لها شيخ مثل شيخ القبيلة . . والحق تبارك وتعالى يقول : ﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ﴾ أي كل سبط أو مجموعة ذهبت لمشرب . . نبعت العيون من الحجر امتدت متشعبة إلى الأسباط جميعا كل في مكانه . . فإذا ما أخذوا حاجتهم ضرب موسى الحجر فيجف . ولذلك نعرف أن الحجر كان يعطيهم الماء على قدر الحاجة وكانت الجهة السفلى من الحجر الملامسة للأرض . . والجهة العليا التي ضرب عليها بالعصا لم ينبع منهما شيء ، أما باقي الجهات الأربع فقد نبع منها كل منها ثلاثة ينابيع .

وهناك شيء في اللغة يسمونه اللفظ المشترك . . وهو الذي يستخدم في معانٍ متعددة . . فإذا قلت سقى القوم دوابهم من العين . . العين هنا عين الماء . . وإذا قلت أرسل الأمير عيونه في المدينة يعني أرسل جنوده . . وإذا قلت اشتريته بعين أي بذهب . . وإذا قلت نظر

إلي بعينه شذرا أي ببصره . . إذن كلمة عين تستخدم في أشياء متعددة . . ومعناها هنا عين الماء الجارية .

(297/52)

قوله تعالى : ﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ﴾ أي أن كل سبط عرف مكانه الذي يلزمه . . حتى لا يضيع من كل منهم الماء . . ولكن الإنسان حينما يكون مضطرا يلتزم بما يطلبه الله منه ويكون ملتزما بالأداء ، فإذا فرج الله كربه وعادت إليه النعمة يعود إلى طغيانه . . ولذلك يقول الحق جل جلاله فيها : ﴿ كُلُواْ وَاشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ أي لا يكون شكركم على النعمة بالإفساد في الأرض . . واقرأ قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُواْ لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ * فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾ [سبأ : 15-15]

هنا نرى أن أهل سبأ رزقهم الله فأعرضوا عن شكره . . كانوا يتيهون بالسد الذي يحفظ لهم مياه الأمطار . . ويمدهم بما يحتاجون إليه منها طوال العام ، وأخذوا يتفاخرون بعلمهم ونسوا الله الذي علمهم . . فكان هذا السد هو النكبة أو الكارثة التي أهلكت زرعهم . .

كذلك حدث لبني إسرائيل ، قيل لهم : ﴿ كُلُواْ وَاشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ فأفسدوا في الأرض ونسوا نعمة الله فنزل بهم العذاب . انتهى انتهى . اهـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ 362.356 ﴾

(298/52)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ . . . الآية ﴾

إن الذي قدر على إخراج الماء من الصخرة الصمَّاء كان قادراً على إروائهم بغير ماء ولكن لإظهار المعجزة فيه ، وإيصال محل الاستغاثة إليه ، وليكون على موسى عليه السلام – أيضاً في نقل الحجر – مع نفسه شغل ، ولتكليفه أن يضرب بالعصا مقاساةُ نوعٍ من معالجةِ ما أمضى حكمه عند استسقائه لقومه .

ثم أراد الحق سبحانه أن يكون كل قوم جارياً على سُنَّتْ ، ملازماً لَحَدّه ، غير مُزَاحِمٍ لصاحبه فأفرد لكل سبطة علامةً يعرفون بها مشربهم ، فهؤلاء لا يَرِدُون مشرب الآخرين ، والآخرون لا يَرِدُون مشرب الأولين .

وحين كفاهم ما طلبوا أمرَهُم بالشكر ، وحِفْظِ الأمرِ ، وتَرْكِ اختيار الوزر ، فقال : ﴿ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ .

والمناهل مختلفة ، والمشارب متفاوتة ، وكلٌّ يَرِدَ مَشْرَبَه فمشربٌ عَذْبٌ فُرات ، ومشربٌ مِلْح أُجاج ، ومشربٌ صافٍ زلال ، ومشرب رتق أوشال . وسائقُ كلِّ قوم يقودهم ، ورائد كُلِّ طائفة يسوقهم ؛ فالنفوس تَرِدُ مناهل المنى والشهوات ، والقلوب ترد مشارب التقوى والطاعات ، والأرواح ترد مناهل الكشف والمشاهدات ، والأسرار ترد مناهل الحقائق بالاختطاف عن الكون والمرسومات ، ثم عن الإحساس والصفات ثم بالاستهلاك في حقيقة الوجود والذات . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 94. 95 ﴾ .

(299/52)

بسم الله الرحمن الرحيم

الكتاب / الحَاوِي فِي تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

ويسمى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فِي تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العَاجِزُ الْفَقِيرُ

عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مُحَمَّدٍ الْقَمَّاش

إِمَامُ وَخَطِيبُ مَسْجِدِ بُورُسْلِى - رَأْسُ الْخَيمَةِ

دَوْلَةُ الإِمَارَاتِ الْعَرَبِيَّةِ الْمُتَّحِدَةِ

(عَفَا اللهُ عَنْهُ وَغَفَرَ لَهُ)

الجزء الثالث والخمسون

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الثالث والخمسون

من الآية ﴿ 61 ﴾ من سورة البقرة

وحتى الآية ﴿ 62 ﴾ من نفس السورة

قوله تعالى ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (61) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما امتنّ عليهم بهذه النعمة العظمة من أكل المن والسلوى وشرب هذا الماء الرباني بين أنهم كفروها بالتضجر منها وطلب غيرها وبالتيه كان قريباً منها بل كما أن هذه في غاية العلو كان مطلوبهم في غاية الدناءة والسفول فقال تعالى ﴿ وإذ قلتم ﴾ أي بعد هذه النعم كلها ﴿ يا موسى ﴾ منادين له باسمه من غير تعظيم ﴿ لن نصبر ﴾ أي طويلاً ﴿ على طعام ﴾ قال الحرالي : الطعام ما يقوت المتطعم ويصير جزاء منه ﴿ فلينظر الإنسان إلى طعامه ﴾ [عبس : 24] الآية – انتهى .

﴿ واحد ﴾ أي لا يتبدل وإن كان متعدداً وإن كان شريفاً لا تعب فيه ﴿ فادع لنا ﴾ قال الحرالي : من الدعاء وهو نداء لاقتضاء غلبة لما تدعو الحاجة إليه من القائم على الداعي بتذلل وافتقار وهو في مقابلة الأمر من الأعلى ، لأنه اقتضاء لما لا تدعو إليه حاجة من الآمر

لأن الآمر بالحقيقة إنما هو الغني لا المفتقر لما يقضيه – انتهى .

﴿ ربك ﴾ مضيفين لهذا الاسم إليه دون أنفسكم مع كثرة تجليه لكم بهذا الوصف الناظر إلى الإحسان ﴿ يخرج لنا ﴾ أي وإن كنت أنت غير ملتفت إلى ذلك ﴿ مما تنبت ﴾ من الإنبات وهو التغذية والتنمية – قاله الحرالي .

﴿ الأرض ﴾ ثم بينوا ما أرادوا بقولهم ﴿ من بقلها ﴾ أي خضرها .

(5/53)

قال الحرالي : البقل ما يكثر به الأدم ، والأدم الأشياء الدسمة فما يصلح معها من نجم الأرض فهو بقل – انتهى .

﴿ وقثائها وفومها ﴾ أي الحنطة .

وقال الحرالي : يقال هو الحب الذي يخبز – انتهى .

﴿ وعدسها وبصلها ﴾ فكأنه قيل إن هذا العجب منهم فما قال ؟ فقيل قال ﴿ قال ﴾ منكراً عليهم ﴿ أتستبدلون ﴾ أي أتأخذون ﴿ الذي هو أدنى ﴾ أي منزلة ﴿ بالذي هو خير ﴾ أي بدله .

فالباء داخلة هنا على المتروك وهذه المادة أعني الباء والدال المهملة واللام بهذا الترتيب لها

استعمالات كثيرة يختلف معناها معها فيشكل فهمها بسبب ذلك ، فإنه قد يذكر معها المتقابلان فقط ، وقد يذكر معها غيرها ، وقد لا يكون كذلك ، وقد يكون ذلك مع التبدل والاستبدال مصحوباً أحدهما بالباء ، وقد لا يكون كذلك ، وقد يذكران مع التبديل والإبدال ، وتارة تكون الباء داخلة على المتروك ، وتارة على المأخوذ ، وقد يعدي الفعل بنفسه إلى المفعولين ، وتارة يقتصر به على مفعول واحد ؛ ولبعض الاستعمالات معنى غير معنى الآخر وسيأتي تحريره إن شاء الله تعالى في سورة سبأ فكأنه قيل : فهل أجابهم إلى سؤالهم ؟ فقيل : نعم ، قال ﴿ اهبطوا مصراً ﴾ أي من الأمصار ، قال الحرالي : المصر هو البلد الجامع لما يتعاون عليه من أمور الدنيا الذي يجمع هذه المطالب التي طلبوها لأن ما دون الأمصار لا يكون فيها إلا بعضها ، ومنه سميت مصر لجماع أمر ما في الدنيا فيها وغرابة سقياها ، وإن وافق ذلك ما يقال إنها سميت مصر باسم رجل فالوفاق في حكمه الله ، لأن كل دقيق وجليل فيها جارٍ بعلم الله وحكمته حيث كانت من وراء حجاب يخفيها أو ظاهرة بادية لأهل النظر والاستبصار – انتهى .

﴿ فإن لكم ﴾ أي فيه ﴿ ما سألتم ﴾ وينقطع عنكم المن والسلوى ، والسؤال قال الحرالي طلب ما تدعو إليه الحاجة وتقع به الكفاية ، قال : وذكر تعالى أن مطلبهم إنما يجدونه في الأمصار التي أقر فيها حكمته لا في المفاوز التي تظهر فيها كلمته ، ولذلك كثيراً ما تنخرق العدة لأولياء هذه الأمة في المفاوز وقل ما تنخرق في الأمصار والقرى ، لما في هذه الآية مضمونة ، ولذلك حرص السالكون على السياحة والانقطاع عن العمائر ، لما يجدون في ذلك من روح رزق الله عن كلمته دون كلفة حكمته .

ولما نظم سبحانه بنبأ موسى عليه السلام ما كان من نبأهم مع يوشع عليه السلام بعده نظم في هذه الآية بخطاب موسى عليه السلام ما كان منهم بعد يوشع عليه السلام إلى آخر اختلال أمرهم وانقلاب أحوالهم من حسن المظاهرة لنبيهم إلى حال الاعتداء والقتل لأنبيائهم عليهم السلام ، وفي جملته إشعار بأن ذلك لم يكن منهم إلا لأجل إيثار الدنيا ورئاستها ومالها على الآخرة إيثاراً للعاجلة على الآجلة ، وفي طيه أشد التحذير لهذه الأمة في اتباعهم لسنن أهل الكتاب في مثل أحوالهم ؛ ولذلك انتظم بها الآية الجامعة وابتدأ بذكر الذين آمنوا من هذه الأمة ثم استوفى الملل التي لها صحة على ما يذكر آنفاً إن شاء الله تعالى – انتهى .

ولما كان التقدير ففعلوا ما أمروا به من هبوط المصر فكان ما وعدوا به عطف عليه قوله ﴿ وضربت عليهم الذلة ﴾ ملازمة لهم محيطة بهم من جميع الجوانب كما يحيط البيت

المضروب على الإنسان به ، وهي اسم من الذل وهو صغار في النفس عن قهر وغلبة .

قال الحرالي : وفي عطفه إفهام لمجاوزة أنباء عديدة غايتها في الظهور ما عطف عليها كأن الخطاب يفهم فأنزلناهم حيث أنزلوا أنفسهم ومنعناهم ما لا يليق عن حاله مثل حالهم فظهر منهم وجوه من الفساد ، فسلط عليهم العدو فاستأصل منهم من شاء الله ومن بقي منهم أخذوا بأنواع من الهوان – انتهى .

﴿ والمسكنة ﴾ أي كذلك مناسبة لخساسة ما سألوه .

قال الحرالي : وهي ظهور معنى الذل أو التذلل على ظاهر الهيئة والصورة سكوناً وانكفاف حراك – انتهى .

﴿ وباؤوا ﴾ أي رجعوا وكانوا أحقاء ﴿ بغضب ﴾ من باء فلان بفلان إذا كان حقيقاً بأن يقتل به لمساواته له .

قال الحرالي : معناه إجماع القاهر على الانتقام في حق مراغمة – انتهى .

﴿ من الله ﴾ الملك الأعظم لجرأتهم على هذا المقام الأعظم مرة بعد مرة وكرة إثر كرة .

قال الحرالي : وفيه تهديد لهذه الأمة بما غلب على أهل الدنيا منهم من مثل أحوالهم

باستبدال الأدنى في المعنى من الحرام والمتشابه بالأعلى من الطيب والأطيب المأخوذ عفواً واقتناعاً - انتهى .

ثم ذكر سبب هذا وقال الحرالي : ولما كان الغضب إنما يكون على من راغم الجليل في معصيته ووقعت منهم المراغمة في معصيتهم واعتدائهم ذكر فعلهم - انتهى .

فقال ﴿ ذلك ﴾ أي الأمر العظيم الذي حل بهم من الغضب وما معه ، ويجوز أن يرجع إلى اهتمامهم بأمر معاشهم وعنايتهم بأحوال شهواتهم على هذا النحو الأخس الأدنى ﴿ بأنهم ﴾ أي بسبب أنهم ﴿ كانوا ﴾ أي جبلة وطبعاً ﴿ يكفرون ﴾ أي مجددين مستمرين ﴿ بآيات الله ﴾ أي يسترون إذعانهم وتصديقهم بسبب آيات الله الذي له جميع العظمة كتماناً عمن لا يعلم الآيات وتلبيساً ، وكان تجديد ذلك والإصرار عليه ديدناً لهم وخلقاً قائماً بهم .

قال الحرالي : والكفر بالآيات أبعد الرتب من الإيمان ، لأنه أدنى من الكفر بالله ، لأن الكفر بالله كفر بغيب والكفر بآيات الله كفر بشهادة ﴿ والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشئمة ﴾ [البلد : 19] انتهى .

﴿ ويقتلون النبيين ﴾ أي كان ذلك جبلة لهم وطبعاً .

قال الحرالي : وهذا جمع نبيء وهو من النبأ وهو الإخبار عن غيب عجز عنه المخبر به من حيث أخبر - انتهى .

ولما كان النبي معصوماً ديناً ودنيا قال ﴿ بغير الحق ﴾ أي الكامل تنبيهاً على أن قتله لا يقع إلا كذلك ، لكن هذا لا ينفي أن يكون ثم شبهة كظن التنبؤ فالذم على الإقدام على إراقة الدم بدون الوضوح التام وفاقاً لنهي .

﴿ ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ﴾ [الإسراء : 33] فهو أخف مما في آل عمران .

ثم علل هذه الجرأة فقال ﴿ ذلك ﴾ أي الأمر الكبير من الكفر والقتل الذي هو من أعظم الكفر ﴿ بما عصوا ﴾ وهو من العصيان .

قال الحرالي : وهو مخالفة الأمر – انتهى .

﴿ وكانوا ﴾ أي جبلة وغريزة ﴿ يعتدون ﴾ أي يتجاوزون الحدود على سبيل التجدد والاستمرار ، فإن من فعل ذلك مرد عليه ومرن فاجترأ على العظائم .

قال الحرالي : وهو أي الاعتداء تكلف العداء ، والعداء مجاوزة الحد ، فيما يفسح فيه إلى حد لا عذر لمجاوزه من حيث فسح له سعة ما فسح وحُدّ له ما حُدّ – انتهى .

وقد جاء نظم هذه الآيات من قصصهم على غير ترتيبها في الوجود ، وفي التوراة لما ذكرت من هذه المناسبات العظيمة والله أعلم شرح أمرها من التوراة قال في آخر السفر الرابع منها في النسخ الموجودة بين أظهر اليهود الآن في هذا القرن التاسع فيما قرأته في نسخة مترجمة بالعربية وخطها كذلك وعليها آثار قراءتهم لها وبيان الأوقات التي يقرأ فيها كل فصل منها ثم قابلتها بالمعنى كما مضى مع شخص منهم وكان هو القارىء ما نصه : وهذه مظاعن بني إسرائيل حيث خرجوا من أرض مصر بأجنادهم على يدي موسى وهارون عليهما السلام وكتب موسى مخارجهم ومراحلهم عن قول الرب ظعنوا من رَعَمْسِيس – وفي نسخة : من عين شمس – في خمسة عشر يوماً من الشهر الأول من غد الفِصح – وفي نسخة : بعد الفصح بيوم – والمراد بالشهر الأول عندهم نيسان وهو شهر الفريك ، وخرج بنو إسرائيل بقوة عظيمة تجاه جميع أهل مصر كانوا مشاغيل بدفن الأبكار الذين قتلهم الرب ، وبما انتقم الرب من آلهتهم ، فظعن بنو إسرائيل من رعمسيس – وفي نسخة : عين شمس – ونزلوا ساحوت وارتحلوا من ساحوت ونزلوا آثَمْ – وفي نسخة : آثام – التي في أقاصي المفازة وظعنوا من آثام ونزلوا في فوهة الخندق الذي في جبال بَعَلصَفُون ونزلوا بإزاء مغدول – وفي نسخة : مجدول – وارتحلوا من فوهة الخندق وجازوا في وسط البحر إلى القفر – وفي نسخة : بين البحر والقفر – وساروا مسيرة ثلاثة أيام في برية اثام ونزلوا مرراً – وفي

نسخة : المُرَيرة – وأتوا آليم وفي نسخة : ونزلوا في المراير وارتحلوا من المراير وصاروا إلى آليم – وكان في آليم اثنتا عشرة عيناً من ماء وسبعون نخلة ونزلوا هناك على الماء ، وارتحلوا من آليم ونزلوا ساحل بحر سوف – وفي نسخة : على البحر الأحمر – وظعنوا من شاطىء بحر سوف – وفي نسخة : من البحر الأحمر – وفي أخرى : بحر القلزم – ونزلوا برية سينين وارتحلوا من قفر سينين ونزلوا دِفقاً وظعنوا من دِقفاً ونزلوا آلوش

(10/53)

وارتحلوا من آلوش ونزلوا رفيدين – وفي نسخة : رفيديم – ولم يكن هناك ماء يشرب الشعب وظعنوا من رفيدين – وفي نسخة : رفيديم – فنزلوا برية – وفي نسخة : قفر سيناء – وظعنوا من قفر سيناء ونزلوا الموضع المعروف بقبور الشهوة وارتحلوا من مقبرة الشهوة – وفي نسخة : قفر قبور الشهوة – فنزلوا حصروث وظعنوا من حصروث فنزلوا رثما – وفي نسخة : الرامة – وارتحلوا من رثما – وفي نسخة : الرامة – فنزلوا رِمُون فيرص .

(11/53)

وقال في السفر الثاني عند ذكر الإنعام عليهم باستنقاذهم من أيدي القبط بتلك الآيات العظيمة التي ستشرح إن شاء الله تعالى في سورة الأعراف فقال موسى للشعب : اذكروا هذا اليوم الذي خرجتم فيه من مصر من العبودية والرق ، لأن الرب أخرجكم من ههنا بيد منيعة فلا يؤكل الخمير في هذا اليوم وهو ذا أنتم خارجون في شهر الفقاخ – وفي نسخة : الفريك – فإذا أدخلكم الرب إلى أرض الكنعانيين والحيثانيين والأمورانيين والجاوانيين واليابسانيين والفرزانيين كالذي أقسم لآبائكم أن يعطيكم الأرض التي تغل السمن والعسل ، تعملون هذا العمل في هذا الشهر ، كلوا الفطير سبعة أيام ولا يوجد ن الخمير عندكم ؛ وتعلمون أبناءكم في ذلك اليوم وتقولون لهم إن الله فعل بنا هذا الفعل إذ أخرجنا من أرض مصر ، وليكن ذلك آية على يدك وعلامة بين عينيك لتكون سنة الرب وشريعته على لسانك لأن الرب أخرجك من مصر بيد عزيزة منيعة واحتفظ بهذا وهذه الوصية من سنة إلى سنة في وقته ، وإذا أدخلك الرب إلى أرض الكنعانيين التي أقسم لك ولآبائك أن يعطيكها فميز كل ذكر بفتح الرحم للرب وكل ذكر من البهائم التي تكون لك يفتح الرحم يكون خاصة للرب تفتديه بحمل ، فإن لم تفتده فاذبحه ، وتفتدي كل بكر ذكر من أولادك ، فإذا سألك ابنك غداً وقال لك : ما هذا العمل ؟ فقل : إن الرب أخرجنا من أرض مصر من العبودية والرق بيد منيعة عزيزة ، لأن فرعون قسا وفظَّ وأبى أن يرسلنا ، فقتل الرب جميع أبكار أرض مصر من بكر البشر إلى بكر البهائم ، فمن أجل ذلك أذبح للرب كل ذكر بفتح

الرحم وأفتدي جميع أبكار ولدي ، فيكون ذلك علامة على يدك وذكراً بين عينيك ، لأن الرب أخرجك من مصر بيد منيعة عزيزة .

(12/53)

فلما أرسل فرعون الشعب وانطلقوا لم يرسلهم الله تعالى في طريق أرض فلسطين ، لأنه كان قريباً ولأن الله قال : لعل الشعب إذا ما عاينوا القتال أن يخافوا ويرهبوا فيرجعوا إلى مصر ، فساس الله الشعب في طريق برية بحر سوف ، وخرج بنو إسرائيل من أرض مصر وهم متسلحون ، وحمل موسى عليه السلام عظام يوسف عليه السلام معه ، لأنه أقسم على بني إسرائيل بأيمان وقال : إن الله سيذكركم فأصعدوا عظامي معكم من ههنا ، فظعنوا من ساحوت ونزلوا آثام التي في أقطار البرية ، وكان الرب يسير أمامهم بالنهار في عمود السحاب ليسكنهم في الطريق وبالليل في عمود نار ليضيء لهم وكان يسير أمامهم بالليل والنهار ، ولم يكن عمود الغمام يزول بالنهار وعمود النار بالليل من بين يدي الشعب ، وكلم الرب موسى وقال له : قل لآل إسرائيل أن يرجعوا فينزلوا على شاطىء الخندق وما بين مغرول والبحر أمام بعلصفون ، انزلوا هناك إزاء البحر حتى يقول فرعون إن بني إسرائيل غرباء في الأرض ، فيظن أنهم قد تاهوا في القفر وأن البر قد انغلق عليهم ؛ وقال الرب لموسى : أنا أقسي قلب

فرعون فيسير في طلبكم فأمجد بفرعون وجميع جنوده ، فيعلم أهل مصر أني أنا الرب ، ففعلوا كذلك ؛ فأسف فرعون وعبيده لإرسال الشعب وندموا ، فألجم خيله وسار في جميع شعبه وظعن في ستمائة ألف راكب مختارة وجميع مواكب المصريين أيضاً والرجال – وفي نسخة : والقواد – على جميعها ، فسار المصريون في طلبهم فرهقوهم وهم حلول على المهرقان ، فقرب فرعون ورفع بنو إسرائيل أبصارهم فرأوا المصريين وهم في طلبهم فخافوا خوفاً شديداً ، فصلى بنو إسرائيل بين يدي الرب وقالوا لموسى : ألقلة القبور بمصر أخرجتنا لنموت في البرية ؟ لم فعلت بنا هذا الفعل وأخرجتنا من مصر ؟ أليس هكذا كنا نقول لك ونحن بمصر : دعنا نتعبد للمصريين كان خيراً لنا أن نتعبد للمصريين من الموت في هذا القفر ؟ فقال موسى للشعب : لا خوف عليكم ! انتظروا فأبصروا خلاص الرب

إياكم في هذا اليوم ، لأنكم عاينتم المصريين يومنا هذا ، لا تعودون أن تعاينوهم أيضاً إلى الأبد ، والرب يجاهد عنكم إذ أنتم في هدوء وطمأنينة ؛ فصلى موسى بين يدي الرب فقال : مُر بني إسرائيل أن يظعنوا وأنت فارفع عصاك واضرب ماء البحر ، فيسير آل إسرائيل في البحر في اليبس ، وها أنا ذا أقسي قلوب المصريين وأغلظها ليتبعوهم ، فأمجد بفرعون

وبجميع جنوده وبمواكبه وفرسانه ، فيعلم أهل مصر أني أنا الرب إذا مجدت بفرعون وبجميع جنوده ، فظعن ملك الله الذي كان يسير أمام عسكر بني إسرائيل فصار على ساقتهم ، فاحتمل السحاب الذي كان أمامهم فوقف خلفهم ودخل بين عسكر المصريين ومحلة بني إسرائيل ، وكان السحاب والحِنْدِس تلك الليلة بأسرها وكان الضياء والنور لبني إسرائيل تلك الليلة كلها ، فلم يقدروا على الدنو إليهم تلك الليلة .

(14/53)

فرفع موسى يده على البحر فزجر الرب البحر بريح سموم – وفي نسخة : قَبول عاصف – أليل أجمع ، فصير ماء البحر في اليبس ، وانقسم الماء ، فدخل بنو إسرائيل في وسط البحر في اليبس ، فصارت المياه كالسور بين ميامنهم ومياسرهم ، فسار المصريون فدخلوا في طلبهم فصار خيل فرعون وجميع مواكبه في البحر ، فلما كان عند حريم الغداة تراءى الرب لعسكر المصريين في عمود نار ومزنة غمامة ، فأرجف عسكر المصريين وأفتنه وربط مواكبهم وحبسها وجعلوهم يُعنقون بالسير عليها ، فقال المصريون : سيروا بنا لنهرب بين يدي آل إسرائيل ، لأن الرب حارب عنهم بمصر ، فقال الرب لموسى : ابسط يدك على المهرقان فتؤول المياه على المصريين فتطفح على مواكبهم وفرسانهم ، فرفع يده على البحر ،

فرجع البحر عند وقت الغداة إلى موضعه والمصريون جعلوا يهربون إزاءه ، فعذب الرب المصريين في البحر وأكذبهم ، فجرت المياه وطفت على المواكب والفرسان وعلى جميع جنود فرعون الذين دخلوا في البحر في طلبهم ، ولم ينج منهم واحد ، فخلص آل إسرائيل في ذلك اليوم من أيدي المصريين ، فنظر بنو إسرائيل إلى المصريين موتى على شاطىء المهرقان ، وعاين آل إسرائيل النقمة العظيمة التي أنزلها الله بالمصريين ، وخاف الشعب الرب وآمنوا به وصدقوا قول موسى عبده ، حينئذ سبح موسى وبنو إسرائيل بهذا التسبيح وقالوا :

نسبح الرب ذا الجلال الذي تعالى على المواكب وغرق فرسانها في البحر المنيع ، والمحمود الرب الأزلي ، فكان لي منجياً ، هذا إلهنا فلنحمده ولنمجده ، إله آبائنا فلنعظمه ولنجله ، الرب ذو الملاحم ، جبار اسمه ، لأنه قذف بمواكب فرعون وجنوده في البحر وغرق جبابرة في بحر سوف وغطتهم الأمواج وهبطوا في القعر فرسبوا مثل الجنادل ، يمينك يا رب بهية بالقوة ، يمينك يا رب أهلكت أعداءك بعظم عزك ، كبت شانئك أرسلت غضبك فأحرقهم كالسهم بريح وجهك ، وأمرك جمدت المياه ووقف جريها كأنه الأطواد ، ورسب الأغمار في قعر

البحر كالرصاص في الماء المنيع ؛ فمن مثلك ومن يفعل كأفعالك أيها البهي في قدسه المرهوب المحمود مظهر العجائب ، سُسْتَ بنعمتك هذا الشعب الذي خلّصت ، فبلغ ذلك الشعوب فارتجفوا وقلقوا وغشي الخوف والرعب سكان فلسطين ، عند ذلك ذعر أشراف ادوم وغشى الرعدة والارتعاش رجال مؤاب وانكسر جميع سكان كنعان فانهزموا فلينزل بهم الخوف والقلق والرجفة بعظمة ذراعك ، يغرقون كالجنادل حتى يجوز شعبك الذي خلّصت ، تقبل بهم فتقدسهم في جبل ميرانك ، الرب يملك إلى أبد الآبدين ؛ وظعن موسى ببني إسرائيل من بحر سوف ، فخرجوا حتى انتهوا إلى برية أسود ، ثم ساروا في البرية مسيرة ثلاثة أيام فلم يجدوا هناك ماء ، ثم انتهوا إلى مورّث فلم يقدروا على أن يشربوا ماء مورث ، لأنه كان مُرّاً فتذمر الشعب على موسى وقالوا له : ما الذي نشرب الآن ؟ فصلى موسى بين يدي الرب ، فأظهر الرب له عوداً فألقاه في الماء ، فعذب الماء هناك ، علمه السنن والأحكام ، فأتوا حتى انتهوا إلى آليم وكان هناك اثنتا عشرة عيناً من ماء وسبعون نخلة فنزلوا هناك على الماء ، ثم ظعنوا من آليم فأتوا برية سينين التي بين آليم وسينين في خمسة عشر من الشهر الثاني من الزمان الذي خرجوا من مصر ، فتذمر جميع جماعة بني إسرائيل على موسى وهارون وقالوا لهما : قد كنا نحب أن نتوفى في أرض مصر إذ كنا جلوساً بين أيدينا مراجل اللحم وكبار الخبز ونفضل فأخرجتمانا إلى هذه البرية لتقتلا جماعة بني إسرائيل بالجوع ! فقال الرب لموسى : ها أنا ذا مهبط لكم الخبز من السماء

فليخرج الشعب فليلتقطوا طعام يوم بيوم لكي أمتحنهم هل يسيرون بوصاياي وسنني ويحفظونها أم لا ، فإذا كان اليوم السادس فليعدوا فضلاً على ما يأتون به وليكن ذلك ضعف ما يلتقطون في كل يوم ، فقال موسى وهارون لجميع بني إسرائيل عند الأصيل : تعلمون أن الرب أخرجكم من أرض مصر وبالغداة تعاينون مجد الرب ، لأن تذمركم بلغ الرب ، ونحن فمن نحن إذ تتذمرون

(16/53)

علينا ، وقال لهم موسى : إن الرب قد أعطاكم لحماً عند الأصيل لتأكلوا ورزقكم خبزاً بالغداة لتشبعوا ، لأنه قد بلغ الرب تذمركم الذي تراطنون عليه ، ونحن فمن نحن وليس إنما تتذمرون علينا بل على الرب ، وقال لهارون : مر جميع جماعة بني إسرائيل أن يدنوا فيقفوا بين يدي الرب ، فلما قال هارون ذلك لجميع جماعة بني إسرائيل التفتوا فإذا مجد الرب قد اعتلن في السحاب وقال الرب لموسى : قد بلغني تذمر بني إسرائيل فقل : عند مغارب الشمس تأكلون اللحم وبالغداة شرقاً تشبعون من الخبز فتعلمون أني أنا الرب إلهكم ، فلما كان عند الأصيل صعدت السُماني فتغشت العسكر ، وكان بالغداة ضبابة تقطر المن فأحاطت بالعسكر ، فارتفعت الضبابة فإذا على وجه الأرض دقيق يتقشر وكان شبه

صفائح الجليد على الأرض ، فقال موسى : هذا الخبز الذي أعطاكم الرب لتأكلوا ، وهذا قول الرب الذي أمر به ليلتقط المرء منه على قدر قوته مكيالاً لكل نفس على عدد رؤوسكم ليأخذ المرء لكل من كان في خيمته ، فصنع بنو إسرائيل كما أمرهم موسى والتقطوا ، فمنهم من أخذ كثيراً ومنهم من تناول قليلاً وكالوا ذلك ، فلم يفضل الذي أخذ الكثير والذي أخذ القليل لم يعدمه ، فقال لهم موسى : لا تبقين منه للغد شيئاً ، فلم يطيعوا موسى فأفضل رهط منهم للغد ، فدب فيه الدود وأنتن ، فغضب موسى ، فجعلوا يلتقطونه في كل غداة كل امرىء على قدر قوته ، وكان إذا حميت عليه الشمس يميع ، فلما كان اليوم السادس التقطوا من الخبز ضعفي ما كانوا يتناولون كل رجل مكيالين ، فأتى جميع أشياخ الجماعة فأخبروا موسى ، فقال لهم : هكذا قال الرب ، إن السبت راحة ودعة وغداً يوم قدس الرب ؛ وقال في موضع آخر : لا تعملوا فيه عملاً بل يكون سبتاً للرب في جميع مساكنكم ، وكل ما أردتم أن تختبزوه فاخبزوه واطبخوا ما أردتم طبخه واحتفظوا بما تفضلون بارداً للغد ، فأبقوا منه للغد كما أمر موسى ، فلم ينتن ولم يدب فيه الدود فقال لهم موسى

: كلوه يومكم هذا ، لأن اليوم يوم سبت للرب ولستم تقدرون عليه اليوم في الحقل ، كونوا تلتقطونه ستة أيام واليوم السابع هو سبت لا يؤخذ فيه ، فلما كان اليوم السابع خرج رهط من الشعب ليلتقطوا فلم يجدوا فقال الرب لموسى : حتى متى يأبوا أن يقبلوا وصاياي وسنني ، فاستراح الشعب في اليوم السابع ، فسماه بنو إسرائيل المن وهو كحبة الكزبرة وطعمه كشهد العسل .

وقال في السفر الرابع : والمن كان يشبه حبة الكزبرة وكان منظره أبيض كالمها ، وكان الشعب يترددون ويلتقطونه ويطحنونه في الرحى ويهرسونه في المهراس ويطبخونه في القدور ويصيرون منه مليلاً ويصيّر طعمه مثل طعم الخبز الذي يعجن دقيقه بالزيت .

(18/53)

رجع إلى الثاني قال : فأكل بنو إسرائيل المن أربعين سنة ولم يزالوا يأكلون المن حتى انتهوا إلى أقطار الأرض ذات السكنى وحتى انتهوا إلى أقطار أرض كنعان ، وكان ذلك المكيال عشر جريب أي عشر ويبة ، وإن جماعة بني إسرائيل ظعنوا من برية سينين في مظاعنهم كما أمر الرب فوردوا رفيدين ولم يكن للشعب ماء يشربون ، فضج الشعب على موسى وقالوا له : أعطنا ماء لنشرب ، فقال : ما بالكم تضجون وكم تجربون الرب ؟ واشتد عطش الشعب

هناك فتذمّروا على موسى وقالوا له : لم أصعدتنا من أرض مصر لتقتلنا وأبناءنا ومواشينا بالعطش ؟ فصلى موسى أمام الرب وقال : ما أصنع بهذا الشعب ؟ إنهم كادوا أن يرجموني ، فقال الرب لموسى : جُز قدام الشعب وانطلق ببعض أشياخ بني إسرائيل والعصا التي ضربت بها البحر ففلقته ، خذها بيدك وانطلق وها أنا ذا واقفاً بين يديك على حجر الظِرّان بَحوْرِيب فاضرب عند ذلك الظران فيخرج الماء ويشرب الشعب ، فصنع موسى هذا الصنيع بين أشياخ بني إسرائيل ، فسمى ذلك الموضع التجريب والتذمر ، لأن بني إسرائيل تنازعوا واصطخبوا ولأنهم جربوا الله وقالوا : هل الله بيننا أم لا ؟ ولما كان في الشهر الثالث بعد خروج بني إسرائيل من مصر انتهوا إلى برية سيناء إذ ظعنوا من رفيدين فأتوا برية سيناء وحل هناك إسرائيل قبالة الجبل ، فصعد موسى إلى الجبل فدعاه الله من الجبل وقال : هكذا قل لآل يعقوب : قد رأيتم ما صنعت بالمصريين وحملتكم كأنكم على أجنحة النسور وأقبلت بكم إليّ ، فإن أنتم الآن أطعتم قولي وحفظتم عهدي فأنتم أحبّ إليّ من جميع شعوب الأرض ، فأتى موسى فدعا بأشياخ الشعب فقص عليهم جميع هذه الآيات التي أمره بها الرب ، فأجاب الشعب كلهم جميعاً وقالوا : نحن فاعلون جميع ما أمرنا به الرب ، فرد موسى جواب الشعب على الرب فقال الرب لموسى : ها أنا ذا مناجيك في سحابة مظلمة لكي يسمع الشعب كلامي إذا كلمتك فيقبلوا كلامك ويصدقوك إلى الأبد ، فقال الرب

لموسى : انطلق إلى الشعب وطهرهم اليوم وغداً وليبيضوا ثيابهم ويرحضوها وليستعدوا في اليوم الثالث فناشد الشعب وتقدم إليهم وقل لهم : احذروا أن تصعدوا إلى الجبل ولا تقربوا إلى حافاته ، ومن دنا من الجبل فليقتل ولا تصيبه أيدي الناس بل يرجم رجماً ويقذف به إلى أسفل به بهيمة كان أو إنساناً ، فإذا صمتت أصوات القرون فأنتم في حل من الصعود إلى الجبل ، فهبط موسى من الجبل إلى الشعب فطهر الشعب وبيضوا ثيابهم ، وقال موسى للشعب : كونوا مستعدين في اليوم الثالث ، لا تقتربن إلى امرأة ، فلما كان في اليوم الثالث باكروا غلساً ، فإذا هم بأصوات قرون وبروق وإذا هم أيضاً بسحابة عظيمة قد حلت على الجبل ، فاشتد صوت القرن جداً واشتد فزع من كان في العسكر ، وأخرج موسى الشعب إلى لقاء الرب من العسكر فقاموا في حافات الجبل وكان جبل سيناء يخرج منه القُتار والدخان ، لأن الرب هبط عليه بالنار وارتفع غباره كغبار الأتون وتزلزل الجبل زلزلة شديدة واشتد صوت القرن ، ودعا الرب موسى إلى رأس الجبل ، فصعد موسى وقال له الرب : انزل فأنشد بني إسرائيل وإنذرهم أن لا يتزحزحوا عند النظر بين يدي الرب فيهلك

منهم كثير ، وكان جميع الشعب يسمعون الأصوات ويرون المصابيح ويسمعون أصوات القرون ويرون الدخان يخرج من الجبل .

(20/53)

فرأى ذلك الشعب ففزعوا ووقفوا من بعيد وقالوا لموسى : كلمنا أنت حتى نسمع ولا يكلمنا الله لكيلا نموت ، فقال موسى : لا خوف عليكم ، لأن الله إنما كلمكم ليمتحنكم ويجربكم لكي تخافوه وترهبوه ولا تخطئوا ولا تأثموا ، فوقف الشعب من بعيد ودنا موسى من الضباب التي اعتلن الله فيها ، وقال الرب لموسى : هكذا قل لآل إسرائيل : قد رأيتم وعلمتم أني كلمتكم من السماء ، لا تتخذوا معي آلهة من ذهب ولا تعملوا لكم آلهة من فضة ، ثم قال : ها أنا ذا مرسل إليك الملك بين يديك ليحفظك في سفرك ويوردك البلد الذي أتقنت – وفي نسخة : الذي هيأته – فاحذره واسمع منه ، لأن اسمي حالٌّ عليه ، فإن أنت قبلت قوله وأطعت أمره وعملت بكل ما يأمرك به أبغض مبغضيك ويسير ملكي أمامك فيدخلك على الأمورانيين – وذكر بعدهم خمس فرق – فأقتلهم وأبيدهم وأرسل الرعب والخوف والجزع بين يديك وأبيد جميع الشعوب الذين تسير إليهم ولا أبيدهم في سنة واحدة لكي لا تخرب الأرض بل رويداً رويداً حتى تعتز – وفي نسخة : تكثر – فتصير ذا

بطش فترث الأرض واجعل تخومك من بحر سوف إلى فلسطين ومن البرية حتى النهر –
وفسره في موضع آخر بالفرات – وقال الرب لموسى : اصعد إلى الجبل أنت وهارون
وناداب وآبِيهُوا وسبعون رجلاً من أشياخ بني إسرائيل ويسجدون من بعيد ، ويقترب
موسى وحده إلى الرب وهم لا يقتربون ولا يصعد الشعب معه .

(21/53)

فجاء موسى وقص على الشعب جميع عهود الرب وجميع أحكامه ، فنادى الشعب كلهم
بصوت عال وقالوا : نحن نفعل ما أمرنا الرب ، وكتب موسى جميع كلام الرب ، وغداً باكراً
فبنى مذبحاً في حافة الجبل ونصب اثنتي عشرة نصبة لأسباط بني إسرائيل – ثم ذكر ذبائح
وقرابين وغير ذلك ثم قال : ثم أخذ سفر العهد فتلاه على الشعب ، فقالوا : نحن سامعون
فاعلون ما أمرنا به الرب ، فتناول موسى ذلك الدم – يعني دم القربان – فرشه على الشعب
وقال : هذا دم العهد الذي عاهدكم في جميع هذه الأقاويل ، وصعد موسى ومن ذكر معه
ثم تركهم في مكان من الجبل ثم قال لهم امكثوا ههنا ، فصعد موسى إلى الجبل وتغشاه
السحاب وحل مجد الله على جبل سيناء وستره السحاب ستة أيام ، ودعا الرب موسى
في اليوم السابع من جوف السحاب ونظر إلى مجد الرب مثل نار تتوقد في رأس الجبل أمام

جميع بني إسرائيل ، فدخل موسى في جوف السحاب وصعد إلى الجبل فمكث موسى في الجبل أربعين يوماً نهاراً وأربعين ليلة ، وكلم الرب موسى وقال له : قل لبني إسرائيل : فليخصوا لي تزكية أموالهم ، وخذ ذلك من كل رجل بلغ أشده – ثم ذكر الأموال التي تزكى إلى أن قال : ويتخذون لي مظهراً حتى أحل بينهم كل شيء أريكه شبه القبة وجميع متاعها كذلك فليصنعوه – ثم قال : واعمل على المثال الذي أريكه في الجبل وليتخذوا تابوتاً من خشب الشمشاد طوله ذراعان ونصف وسمكه ذراع ونصف ، وصفّحه بصفائح الذهب الإبريز من داخله ومن خارجه ، واتخذ له طوقاً من ذهب يحيط به ، وضع له أربع حلقات من ذهب وسمرها في أربع زوايا التابوت حلقتين في شق واحد وحلقتين في الجانب الآخر ، واتخذ أصطاراً من خشب الشمشاد وصفحها بالذهب ، وصير الأصطار في الحلق في جانبي التابوت ليحل بها ، وليكن الأصطار في حلق التابوت ولا ينزع منها ، وتضع الشهادة التي أعطيك في التابوت ، وسمي هذا تابوت الشهادة ، واتخذ كروبين أي شخصين من ذهب اتخذهما مفرعين مصبوبين فيكونا على

جانبي التطهير وتكون أجنحة الكروبين مبسوطة تظل من فوق فتظل بأكنافها على التطهير ، وليكن وجه كل واحد منهما إزاء صاحبه وليكن وجها الكروبين من فوق التطهير ؛ وقال : واتخذ داراً للقبة من مهب الجنوب واستمر يصف له عمل هذه القبة وأعمدتها وستورها وآلاتها وخدمها وما يقرّب فيها ومحل ضربها من العسكر وعلى أيّ كيفية في نحو خمس عشرة ورقة وسماها قبة الزمان ، ثم أمره تعالى في آخر هذا السفر الثاني بأشياء مما يتصل بأمتعها وسرادقاتها وغير ذلك في أزيد من عشر ورقات كما سيأتي ؛ وقال في تضاعيف ذلك : وتصير الشهادة التي أعطيك في التابوت وأواعدك إلى هنالك وأكلمك فوق التطهير من بين الكروبين الذين فوق تابوت الشهادة بجميع ما آمرك في بني إسرائيل وقال : ويتخذوا هذا القربان دائماً في كل حين في أحقابكم على باب قبة الزمان قدام الرب .

(23/53)

وأواعدكم إلى هناك لأكلمكم وأواعد بني إسرائيل إلى هناك فأتقدس بكرامتي وأحل بين بني إسرائيل فيعلمون أني أنا الرب إلههم الذي أخرجهم من أرض مصر ، ثم قال : فليؤد المرء منهم الزكاة عن نفسه إذا عددتهم لكيلا ينزل بهم الوباء ، ثم ذكر له تفاصيل ما يؤدى وأن الزكاة على الغني والمسكين ، وكلم الرب موسى وقال له : اعلم أني قد انتخبت بَصَلْيال بن

أُورِي بن حُور من سبط يهودا وأسبغت عليه روح الله وملأته من الحكمة والعلم في كل علم ليعلم الصناعات في عمل آنية الذهب والفضة والنحاس وفي رندجة الحجارة ونظمها وكمالها وفي تجارة الخشب ليعمل كل عمل وقد ضممت إليه أَلِيهبَ بن اخسَمَخ من سبط دان وأحللت الحكمة والفهم في قلوب ذوي الحكمة والعقل ليعملوا جميع ما أمرتك به من عمل قبة الأمد وتابوت الشهادة والتطهير الذي فوقها وجميع متاع قبة المائدة وجميع متاعها والمنارة وجميع آنيتها ومذبح البخور ومذبح القرابين وجميع آنيتهما والسطل وأسفله ولباس النضائد ولباس القدس لهارون الكاهن يعني الإمام وكسوة بنيه ليكهنوا ودهن المسح وبخور الطيب للقدس فليعملوا جميع ما أمرتك به – إلى أن قال : ودفع إلى موسى : لما فرغ من كلامه له في طور سيناء لوحي الشهادة لوحي حجارة مكتوب عليهما بيد الله ، فرأى الشعب أن موسى قد أبطأ عن النزول من الجبل فاجتمع الشعب يعني وقالوا : نتخذ لنا آلهة تسير أمامنا ، لأن الرجل موسى الذي أخرجنا من أرض مصر لا علم لنا ما صار من أمره – فذكر اتخاذهم العجل وأنهم ذبحوا له الذبائح وجلسوا يأكلون ويشربون وقاموا يلعبون ويتسافهون وأن هارون عليه السلام ذُعر من ذلك وفزع .

وإنما لم أسُق نص التوراة عن هذا بلفظه لأن في أول عبارته ما رأيته غضاً بالنسبة إلى مقام هارون عليه السلام وحاشاه مما يوهم نقصاً فجوزت أن يكون مما بدلوه ثم تأملت ما رواه النسائي وأبو يعلى وابن أبي حاتم وابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما في حديث الفتون فوجدته ليس بعيداً من تأويله وقد ذكرت محل الحاجة منه في سورة طه والله الموفق ؛ ثم قال فقال الرب لموسى : اهبط من ههنا لأن شعبك الذين أخرجتهم من أرض مصر أفسدوا سيرتهم وصدوا وشيكاً عن الطريق الذي أمرتهم أن يسلكوه فاتخذوا لهم عجلاً مفترغاً وسجدوا له بين يديه وذبحوا له الذبائح وقالوا : هذا إلهك يا إسرائيل الذي أخرجك من أرض مصر ، وقال الرب لموسى : إني قد رأيت هذا الشعب قاسية قلوبهم فدعني الآن فيشتد غضبي عليهم فأقتلهم وأبيدهم وأصيرك إلى شعب عظيم ، فصلى موسى بين يدي الإله وقال : كلا يا رب ! لا يشتد غضبك على شعبك الذين أخرجتم من مصر بقوتك المنيعة وبذراعك العلية الرفيعة ولا يقول أهل مصر : إنك إنما أخرجتهم لهلاكهم لتقتلهم بين الجبال وتستأصل شأفتهم وتبيد خضراءهم عن جديد الأرض يا رب ليسكن غضبك ورجزك واغفر ذنب شعبك اذكر إبراهيم وإسحاق ويعقوب عبيدك والأيمان التي أقسمت بها لهم وقلت : إني مكثر نسلكم مثل نجوم السماء وجميع الأرض التي وعدت بها نسلهم أن تعطيهموها فيرثوها إلى الأبد ؛ فعفا الرب عن شعبه ولم ينزل بهم الشر ، فنزل موسى وهبط من الجبل ولَوحا الشهادة في يده لَوْحان كتب عليهما في الوجهين جميعاً

واللوحان من عمل الله جل ثناؤه وخط الله مكتوب عليهما ، فلما دنا من العسكر نظر العجل والصنوج فاشتد غضب موسى فرمى باللوحين منْ يده فكسرهما في سفح الجبل ، ثم أخذ العجل الذي اتخذوه فأحرقه بالنار وسحله بالمبرد حتى صيره مثل التراب ونثر سحالته على وجه الماء ، فوقف موسى على الباب قبة الزمان وقال : من كان من حزب الله فليقل إليّ ، فانحاز إليه بنو لاوى بأجمعهم فقال

لهم موسى : هكذا يقول الرب إله إسرائيل ليتقلد المرء منكم سيفه وجوزوا من باب إلى باب وجولوا العسكر وليقتل المرء منكم أخاه وصاحبه وقرابته ، فصنع بنو لاوى كما أمرهم موسى ، فقتل من الشعب في ذلك اليوم نحو من ثلاثة آلاف رجل فقال لهم موسى : كفوا أيديكم يومكم هذا من الحمية للرب لتحل عليكم البركة يومنا هذا ، فلما كان الغد من ذلك اليوم قال موسى للشعب : أنتم خطئتم وارتكبتم هذه الخطيئة العظيمة ! فأما الآن فإني أصعد إلى الرب لعله أن يغفر لكم ذنوبكم وإثمكم ، فرجع موسى إلى الرب وقال : أطلب إليك بالتضرع اللهم ربي حقاً لقد أخطأ هذا الشعب وارتكب إثماً عظيماً واتخذوا آلهة من ذهب ، فالآن إن أنت غفرت خطاياهم وإلا فامحني من سفرك الذي كتبت ، فقال

الرب : أنا أمحو من سفري من أخطأ وأذنب ، فأما الآن فانطلق بهذا الشعب إلى الموضع الذي أقول لك وهذا ملاكي ينطلق أمامك إلى الأرض التي تغل السمن والعسل ، لأني لا أصعد معكم ؛ لأنهم شعب قاسية رقابهم ولعل غضبي أن يشتد عليهم فأقتلهم في الطريق ، فسمع الشعب هذا القول الفظيع فحزنوا ، فلم يتسلح المرء منهم بسلاحه ، فأخذ موسى خيمته فنصبها خارجاً من العسكر وأبعدها من المحلة وسماها قبة الزمان ، وكان من سأل الرب أمراً يخرج إلى قبة الزمان ، وكان إذا خرج موسى إلى قبة الزمان كان جميع الشعب يقفون ويستعد كل امرىء منهم على باب خيمته ينظرون إلى موسى من خلفه حتى يدخل إلى القبة ، وإذا دخل موسى إلى القبة كان ينزل عمود السحاب فيقف على باب القبة ويكلم موسى ، وكان جميع الشعب ينظرون إلى عمود السحاب واقفاً على باب القبة وكان يقف جميع الشعب ويصلي كل امرىء منهم على باب خيمته ، وكلم الرب موسى مواجهة كما يكلم المرء أخاه وصاحبه ، وكان يرجع إلى العسكر وكان خادمه يشوع بن نون الغلام لم يكن يفارق القبة ، وقال موسى للرب : أنت يا رب أمرتني أن أصعد بهذا الشعب ولم تطلعني على من ترسل معي وقلت : إني قد

أطلعتك على جميع خلائقي ومجدي وظفرت أيضاً مني برحمة ورأفة ، فالآن إن كنت قد ظفرت منك برحمة ورأفة فأرني طريقك حتى أعرفك ، فقال الرب لموسى : سر أمامي فأواعدك وأريحك ، فقال له : إن أنت لم تصعد بيننا فلا تصعدنا من ههنا ، فبماذا يعرف أني قد ظفرت منك برحمة ورأفة أنا وشعبك إلا إذا سرت بيننا فنكون أنا وشعبك منفصلين معروفين من جميع الشعوب الذين على وجه الأرض ، فقال الرب لموسى : إني فاعل ما سألت ، لأنك ظفرت مني برحمة ورأفة ، وأصير اسمك معروفاً شهيراً إلى الأبد ، فقال له : أرني مجدك ، فقال : أنا أجيز جميع مجدي وكرامتي بين يديك ويذكر اسم الرب أمامك وأتحنن على من أردت التحنن عليه وأرحم من أردت أرحم ، وقال : إنك لا تقدر على النظر إلى وجهي ، لأنه لا يراني بشري فيحيا ، وقال الرب لموسى : انقر لوحي حجارة مثل اللوحين الأولين اللذين كسرتهما وكن مستعداً بالغداة واصعد باكراً إلى الجبل جبل سيناء وقف هنالك على رأس الجبل ، ولا يصعدن أحد معك ، ولا يرى أحد في جميع الجبل ، ولا ترتعي الغنم والبقر قبالة ذلك الجبل ، فنقر موسى لوحين آخرين من حجارة مثل الأولين وغداً باكراً فصعد إلى طور سيناء كما أمره الرب وأخذ اللوحين في يده فنزل استعلان الرب أمامه ، فقال موسى : يا رب ! اللهم ربي الرؤوف الرحيم الطويل الأناة والمهل الكبير نعمته وقسطه حافظ النعمة والعدل إلى ألف حقب وتغفر الذنوب والإثم والخطايا ،

فاستعجل موسى فخر على وجهه على الأرض ساجداً وقال : إن ظفرت يا رب منك برحمة ورأفة فليسلك الرب الآن بيننا .

(27/53)

لأن هذا الشعب هو شعب قاسية رقابهم ، واغفر ذنوبنا وخطايانا وخبث نياتنا ؛ فقال له : ها أنا ذا أعهد عهداً أمام جميع الشعب وأظهر عجائب لم أظهر مثلها في الأرض كلها وفي جميع الشعوب فيرى ذلك جميع هذا الشعب الذي أنت فيه فعل الرب الذي أمرك به أنه مخوف مرهوب ، احتفظ بما آمرك به في هذا اليوم ، ها أنا ذا أقبل وأبيد من بين يديك من الكنعانيين – وسمى من تقدم ، وكرر النهي عن السجود لغيره سبحانه ، وأوصى بأشياء منها الفطير فقال : واحتفظ بعيد الفطير سبعة أيام كما أمرتك في أوان شهر الفقاح – وفي نسخة : الفريك – لأنك إنما خرجت من مصر في شهر الفقاح ، ثم قال : فمكث هناك عند الرب أربعين يوماً وليالها لم يأكل طعاماً ولم يشرب شراباً ، وكتب الله على لوحي الحجارة كلام العهد وهو العشر الآيات ، فلما هبط موسى من جبل سيناء كان لوحا الشهادة في يده ولم يعلم موسى أن بشرة وجهه قد جللت بالبهاء إذ كلمه الله فنظر هارون وجميع بني إسرائيل إلى وجه موسى ففزعوا أن يقتربوا إليه ، فدعاهم فأتاه هارون وجميع عظماء

الجماعة وكلمهم موسى ، فلما فرغ من كلامه لهم بسط على وجهه جلباباً وكان إذا دخل إلى الرب ليكلمه يسفر عن وجهه حتى يخرج ، وكان يخرج فيأمر بني إسرائيل بما يؤمر به ، وقال لهم : إن الرب أمر أن تعمل عملك ستة أيام واليوم السابع يكون مخصوصاً مقدساً ، السبت يوم راحة قدس الرب ، ومن عمل فيه عملاً فليقتل ، ولا تشعلوا النار في جميع مساكنكم يوم السبت ، ثم أمرهم تعالى بالزكاة من الذهب والفضة والنحاس والقز والجلود وغير ذلك وبأشياء يزيدونها في قبة الزمان في أكثر من عشر ورقات ، وقال في آخر ذلك : وقال الرب لموسى : أنصب قبة الزمان في أول يوم من الشهر الأول ؛ وصير تابوت الشهادة هنالك ، وأسبل الجلال على التابوت – إلى أن قال : وادن بهارون وبنيه إلى باب قبة الأمد واغسلهم بالماء ، والبس هارون لباس القدس وامسحه فليكهن لي ، وادن بنيه وألبسهم

السراويل وامسحهم كما مسحت هارون أخاك فليكهنوا لي ، وليكن لهم مسحهم للكهنوت إلى الأبد لأحقابهم ، فصنع موسى كما أمره الله ، فلما كان أول يوم من الشهر الأول من السنة الثانية نصب القبة يوم الأحد وضرب أوتادها وركب ألواحها وزرفن عوابرها وركز أعمدتها وستر الستر على القبة وجللها من فوقها كما أمر الرب ، وتناول الشهادة

فوضعها في التابوت ، وصير الدهوق في التابوت ، ووضع التطهير على التابوت من فوق ، وأدخل التابوت إلى القبة ، وأخذ حجاب وجه الباب فجلل تابوت الشهادة كما أمر الرب ، ونصب المنارة عند حافات القبة مما يلي مهب الشمال خارجاً من الحجاب ، ونضّد عليها صفوف الخبز بين يدي الرب كما أمر الرب موسى ، ونصب المنارة إزاء المائدة في حافات القبة مما يلي مهب الجنوب ، ودلوا مصابيحها قدام الرب كما أمر الرب موسى ، ونصب مذبح الذهب في قبة الزمان خارجاً من الحجاب ، وبخر عليه بخور الطيب كما أمر الرب ، وأسبل الستر على باب القبة ، ونصب مذبح القرابين على الباب ، وقرب عليه القرابين كما أمر الرب ، ووضع السطل بين قبة الزمان والمذبح وسكب عليه ماء الغسل ، وكان هارون وبنوه يغسلون أيديهم وأقدامهم إذا أرادوا الدخول إلى قبة الزمان ، وكانوا إذا دنوا من المذبح يغسلون أيضاً كما أمر الرب موسى ، ونصب داراً تحيط بالقبة والمذبح ، وأسبل الستر على باب الدار ، وكمل موسى عملها ؛ وتغشت السحابة قبة الزمان وامتلأت القبة مجد الرب وكرامته ، ولم يقدر موسى على الدخول إلى قبة الزمان ، لأن السحاب حلت عليها .

وامتلأت القبة مجد الرب وكرامته .

فكان إذا ارتفع السحاب عن القبة كان بنو إسرائيل يظعنون في جميع مظاعنهم ، وإن لم ترتفع الغمامة لم يظعنوا إلى اليوم الذي ترتفع فيه ، لأن سحاب الرب كان يغشى القبة بالنهار وكانت النار تضيء عليها بالليل وتزهر وتنير أمام جميع بني إسرائيل في جميع مظاعنهم .

وقال في أول السفر الرابع : أمر الله بإحصاء بني إسرائيل فكانوا من أبناء عشرين سنة إلى ما فوقها ، من خرج منهم للحرب في الأجناد ستمائة ألف وثلاثة آلاف وخمسمائة وخمسين دون سبط لاوى ، فإنهم لحفظ قبة الزمان وخدمتها ، وتكون منازلهم حولها محدقة بها ، وهم من ابن شهر إلى ما فوقه اثنان وعشرون ألفاً ، ثم قال : وكلم الرب موسى وقال له : إذا أتى على الرجل من اللاويين خمسة وعشرون سنة يتقوى على أن يعمل العمل في قبة الزمان ، فإذا أتت عليه خمسون سنة يخرج من العمل ولا يعمل عملاً في قبة الآمد ، وكان ينزل بنو إسرائيل حول بني لاوى بإنزال الله تعالى لهم ، كلّ له محل من القبة على الاستدارة ، وكان ينزل من مشارقها موسى وهارون وبنوه ليحفظوا حفاظ القدس والقرابين على بني إسرائيل ومن دنا من قبة الزمان وأعمالها من الغرباء يؤمر بقتله ، فقد علم من هذا ومما قبله من أن كلاًّ يصلي على باب خيمته أن قبلتهم وهم في التيه قبة الزمان ، وفي اليوم الذي نصب فيه الخباء أي في قبة الزمان تغشت سحابة من عند الرب قبة الزمان وحجاب باب الشهادة وكانوا يرون في الخباء عند المساء ناراً تتوقد إلى الصباح ، كذلك كان يكون في الخباء دائماً وكانت تغشاه سحابة بالنهار وتُرى فيه نار بالليل ، فإذا ارتفعت السحابة عن القبة ارتحل

بنو إسرائيل من مواضعهم وحيث ما نزلت السحابة هناك كان ينزل بنو إسرائيل ، وإنما كان ارتحال بني إسرائيل عن قول الرب وبأمره ، فربما مكثت السحابة على القبة من المساء حتى الصباح وترتفع بعد الصبح فيرتحلون ، وربما مكثت الليل والنهار وربما مكثت أياماً وأشهراً وربما مكثت سنة ، وكلم الرب موسى وقال له : اتخذ قرنين من قضة يكونان عند حضور الجماعة وارتحال العسكر يهتف بهما الكهنة ، فتحشد إليك جماعة بني إسرائيل أجمعون إلى باب قبة الزمان ، وإن نفخ في واحد اجتمع إليك القواد ورؤساء الألوف ، ولما كان في السنة الثانية في عشر خلون من الشهر

(30/53)

الثاني ارتفعت السحابة عن قبة الشهادة ، وارتحل بنو إسرائيل من برية سيناء .

ونزلت السحابة في قفر فاران ، ثم قال : وارتحلوا من عند جبل الرب مسيرة ثلاثة أيام ، فأما تابوت عهد الرب فظعن قبلهم مسيرة يوم ليهيء منزلاً ، وكانت تظلهم سحابة من قبل الرب إذا ارتحلوا لئلا تؤذيهم حرارة الشمس ، فلما ارتحل حاملوا التابوت قال موسى : انهض إلينا يا رب لينكسر شانئك ويبيد أعداؤك من بين يديك ، وإذا نزل حملة التابوت قال : أقبل يا رب إليّ ألوف بني إسرائيل ، فتذمر الشعب وساء الرب ذلك وغضب وسمع توشوشهم

فاشتد غضبه عليهم واشتعلت فيهم نار من قبل الرب ، فأحرقت الذي في أطراف العسكر وحوله ، وضج الشعب على موسى فصلى موسى أمام الرب وخمدت النار ، ودعا اسم ذلك الموضع الاحتراق ، لأن نار الرب اشتعلت فيهم وأحرقتهم هناك ، واشتهى الخلط الذين كانوا فيهم من الشعوب شهوة وأقبلوا على بني إسرائيل وقالوا : ليت أنا وجدنا من يطعمنا لحماً ! ذكرنا السمك الذي كنا نأكله بمصر وأكلنا القثاء والبطيخ والكراث والبصل والثوم والآن أنفسنا قرمة – أي يابسة – لا تقدر على شيء نأكله ما خلا هذا المن الذي قدام أعيننا ، وسمع موسى الشعب يبكون في قبائلهم ، كل إنسان على باب خيمته ، واشتد غضب الرب ، وشق ذلك على موسى أيضاً ، ثم قال من أين أقدر أعطي هذه الأمة كلها لحماً ؟ إنها تبكي عليّ وتقول : أعطنا لحماً ، لست أقدر أحتمل هذه الأمة كلها وحدي ، لأنها أقوى مني ، إن كان فعلك هذا بي فاقتلني قتلاً إن وافيت منك رحمة ولا أعاين شراً ولا أرى سوء .

(31/53)

فقال الرب لموسى : اجمع سبعين شيخاً من أشياخ بني إسرائيل الذين تعلم أنهم رؤساء الشعب وكتّاب به وانطلق بهم إلى قبّة الزمان فإني أنزل إليك وأكلمك هناك وأنقص من عطية

الروح التي عليك وأصيره عليهم ليحملوا أثقل هذا الشعب ولا يتركوك وحدك ، ثم قال موسى للشعب : تهيؤوا غداً لتأكلوا لحماً ، لأنكم بكيتم أمام الرب وقلتم : ليت من يطعمنا لحماً ! وإن الموت بأرض مصر خير لنا ، فسيعطيكم الرب لحماً وليس إنما تأكلون منه يوماً أو يومين بل تأكلون منه شهراً حتى يخرج من أنوفكم وتصيبكم منه تخمة ، وجمع سبعين شيخاً من مشايخ الشعب وأقامهم حول الخباء ، ونزل الرب سبحانه وكلمه وأخذ من الروح الذي عليه وصيره على السبعين ، ودخل موسى العسكر هو وأشياخ بني إسرائيل ، وهبت ريح من قبل الرب وأصعدت السلوى من البحور وألقته على العسكر ومسيرة يوم يمنة ويسرة حول العسكر وكان مرتفعاً من الأرض نحو ذراعين ، وجمعوا ونشروا حول العسكر ليكون لهم قديداً ، فبينا اللحم بين أسنانهم قبل أن ينقلع اشتد غضب الرب عليهم وضرب الشعب ضربة عظيمة جداً ودعا اسم ذلك الموضع قبور الشهوة ، وارتحل الشعب من قبور الشهوة فأتوا حصروث ونزلوها ، وذكر أنهم مكثوا هنالك سبعة أيام ثم قال : ثم ارتحل الشعب من حصروث ونزلوا مفازة فاران وكلم الرب موسى وقال له : أرسل قوماً يُحسبون الأرض التي أعطى بني إسرائيل – فذكر إرسال النقباء الاثني عشر كما سيأتي إن شاء الله تعالى في سورة المائدة ثم قال : ورجعوا إلى موسى بعد أربعين يوماً ، فأتوا موسى وهارون وجماعة بني إسرائيل إلى برية فاران إلى رقيم – انتهى شرح ما أشير إليه في هذه السورة من

قصص بني إسرائيل من التوراة. انتهى انتهى. اهـ ﴿نظم الدرر حـ 1 صـ 147.

﴿163﴾

فائدة

قال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يا موسى لَن نَّصْبِرَ على طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ كان هذا القول منهم في التّيه حين مَلُّوا المنّ والسَّلْوَى ، وتذكّروا عيشهم الأوّل بمصر .

قال الحسن : كانوا نَتَانَى أهل كُرّاث وأبصال وأعداس ، فنزعوا إلى عِكْرهم عِكرِ السّوء ، واشتاقت طباعهم إلى ما جرت عليه عادتهم فقالوا : لن نصبر على طعام واحد .

وكَنوا عن المنّ والسلوى بطعام واحد وهما اثنان لأنهم يأكلون أحدهما بالآخر ؛ فلذلك قالوا : طعام واحد .

وقيل : لتكرارهما في كل يوم غذاء ؛ كما تقول لمن يداوم على الصوم والصلاة والقراءة : هو على أمر واحد ؛ لملازمته لذلك .

وقيل : المعنى لن نصبر على الغنى فيكون جميعنا أغنياء فلا يقدر بعضنا على الاستعانة

ببعض ؛ لاستغناء كل واحد منّا بنفسه . (1)

وكذلك كانوا ؛ فهم أوّل من اتخذ العبيد والخَدَم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 1 صـ 422 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أن القراءة المعروفة يخرج لنا بضم الياء وكسر الراء ، تنبت بضم التاء وكسر التاء ، وقرأ زيد بن علي بفتح الياء وضم الراء ، تنبت بفتح التاء وضم الباء ، ثم اعلم أن أكثر الظاهريين من المفسرين زعموا أن ذلك السؤال كان معصية ، وعندنا أنه ليس الأمر كذلك ، والدليل عليه أن قوله تعالى : ﴿ كُلُواْ واشربوا ﴾ من قبل هذه الآية عند إنزال المن والسلوى ليس بإيجاب بل هو إباحة ، وإذا كان كذلك لم يكن قولهم : ﴿ لَن نَّصْبِرَ على طَعَامٍ واحد فادع لَنَا رَبَّكَ ﴾ معصية لأن من أبيح له ضرب من الطعام يحسن منه أن يسأل غير ذلك إما بنفسه أو على لسان الرسول ، فلما كان عندهم أنهم إذا سألوا موسى أن يسأل ذلك من ربه كان الدعاء أقرب إلى الإجابة جاز لهم ذلك ولم يكن فيه معصية .

---

(1) هذا القول فيه نظر ، فهو مستبعد من حيث ميول النفوس البشرية إلى الراحة .

واعلم أن سؤال النوع الآخر من الطعام يحتمل أن يكون لأغراض : الأول : أنهم لما تناولوا ذلك النوع الواحد أربعين سنة ملوه فاشتهوا غيره ، الثاني : لعلهم في أصل الخلقة ما تعودوا ذلك النوع وإنما تعودوا سائر الأنواع ورغبة الإنسان فيما اعتاده في أصل التربية وإن كان خسيساً فوق رغبته فيما لم يعتده وإن كان شريفاً .

الثالث : لعلهم ملوا من البقاء في التيه فسألوا هذه الأطعمة التي لا توجد إلا في البلاد وغرضهم الوصول إلى البلاد لا نفس تلك الأطعمة .

الرابع : أن المواظبة على الطعام الواحد سبب لنقصان الشهوة وضعف الهضم وقلة الرغبة والاستكثار من الأنواع يعين على تقوية الشهوة وكثرة الالتذاذ ، فثبت أن تبديل النوع بالنوع يصلح أن يكون مقصود العقلاء ، وثبت أنه ليس في القرآن ما يدل على أنهم كانوا ممنوعين عنه ، فثبت أن هذا القدر لا يجوز أن يكون معصية ، ومما يؤكد ذلك أن قوله تعالى : ﴿ اهبطوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ﴾ كالإجابة لما طلبوا ولو كانوا عاصين في ذلك السؤال لكانت الإجابة إليه معصية وهي غير جائزة على الأنبياء ، لا يقال : إنهم لما أبوا شيئاً اختاره الله لهم أعطاهم عاجل ما سألوه كما قال : ﴿ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدنيا نُؤْتِهِ مِنْهَا ﴾ [الشورى : 20] لأنا نقول هذا خلاف الظاهر ، واحتجوا على أن ذلك السؤال كان معصية بوجوه .

الأول : أن قولهم : ﴿ لَن نَّصْبِرَ على طَعَامٍ واحد ﴾ دلالة على أنهم كرهوا إنزال المن والسلوى وتلك الكراهة معصية ، الثاني : أن قول موسى عليه السلام : ﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ الذى هُوَ أدنى بالذى هُوَ خَيْرٌ ﴾ استفهام على سبيل الإنكار ، وذلك يدل على كونه معصية .

(34/53)

الثالث : أن موسى عليه السلام وصف ما سألوه بأنه أدنى وما كانوا عليه بأنه خير وذلك يدل على ما قلناه ، والجواب عن الأول : أنه ليس تحت قولهم : ﴿ لَن نَّصْبِرَ على طَعَامٍ واحد ﴾ دلالة على أنهم ما كانوا راضين به فقط ، بل اشتهوا شيئاً آخر ، ولأن قولهم : ﴿ لَن نَّصْبِرَ ﴾ إشارة إلى المستقبل لأن كلمة لن للنفي في المستقبل فلا يدل على أنهم سخطوا الواقع ، وعن الثاني : أن الاستفهام على سبيل الإنكار قد يكون لما فيه من تفويت الأنفع في الدنيا وقد يكون لما فيه من تفويت الأنفع في الآخرة ، وعن الثالث : بقريب من ذلك ، فإن الشيء قد يوصف بأنه خير من حيث كان الانتفاع به حاضراً متيقناً ومن حيث إنه يحصل عفواً بلا كد كما يقال ذلك في الحاضر ، فقد يقال في الغائب المشكوك فيه : إنه أدنى من حيث لا يتيقن ومن حيث لا يوصل إليه إلا بالكد ، فلا يمتنع أن يكون مراده :

﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ الذى هُوَ أدنى بالذى هُوَ خَيْرٌ ﴾ هذا المعنى أو بعضه فثبت بما ذكرنا أن ذلك السؤال ما كان معصية بل كان سؤالاً مباحاً ، وإذا كان كذلك فقوله تعالى : ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذلة والمسكنة وَبَاءو بِغَضَبٍ مّنَ الله ﴾ ، لا يجوز أن يكون لما تقدم بل لما ذكره الله تعالى بعد ذلك وهو قوله تعالى : ﴿ ذلك بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بآيات الله وَيَقْتُلُونَ النبيين بِغَيْرِ الحق ﴾ فبين أنه إنما ضرب الذلة والمسكنة عليهم وجعلهم محل الغضب والعقاب من حيث كانوا يكفرون لا لأنهم سألوا ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 91.93 ﴾

فائدة

قال الفخر :

قوله تعالى : ﴿ لَن نَّصْبِرَ على طَعَامٍ واحد ﴾ ليس المراد أنه واحد في النوع بل أنه واحد في النهج وهو كما يقال : إن طعام فلان على مائدته طعام واحد إذا كان لا يتغير عن نهجه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 93 ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ على طَعَامٍ ﴾ الطعام يُطلق على ما يُطعم ويُشرب ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مني ﴾ [البقرة : 249] وقال : ﴿ لَيْسَ عَلَى الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات جُنَاحٌ فِيمَا طعموا ﴾ [المائدة : 93] أي ما شربوه من الخمر ، على ما يأتي بيانه .

وإن كان السلوى العسل كما حكى المؤرّج فهو مشروب أيضاً .

وربما خُصّ بالطعام البُرُّ والتمرُ ، كما في حديث أبي سعيد الخُدْرِيّ قال : "كنا نُخرج صدقةَ الفطر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم صاعاً من طعام أو صاعاً من شعير" ؛ الحديث .

والعرف جارٍ بأن القائل : ذهبت إلى سوق الطعام ، فليس يفهم منه إلا موضع بيعه دون غيره مما يؤكل أو يُشرب .

والطَّعْم (بالفتح) : هو ما يؤدّيه الذوق ؛ يقال : طعمهُ مرّ .

والطَّعْم أيضاً : ما يشتهى منه ؛ يقال : ليس له طعم .

وما فلان بذي طعم : إذا كان غثًّا .

والطُّعم (بالضم) : الطعام ؛ قال أبو خِراش :

أَرُدّ شُجاعَ البطن لو تعلمينه . . .

وأُوثِرُ غيري من عِيَالِكِ بالطُّعْمِ

وأغتبق الماء القَراحَ فانتهي . . .

إذا الزادُ أمسى للمُزَلَّج ذا طَعْمِ

أراد بالأوّل الطعام ، وبالثاني ما يُشتهى منه .

وقد طَعِمَ يَطْعَمُ فهو طاعم إذا أكل وذاق ؛ ومنه قوله تعالى : " وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّه مِنّي " أي من لم يذقه .

وقال : " فَإِذَا طَعِمْتُمْ فانتشروا " أي أكلتم .

" وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم في زمزم : " إنها طَعامُ طُعْمٍ وشِفاءُ سُقْمٍ " "

واستطعمني فلان الحديث إذا أراد أن تحدّثه .

وفي الحديث : " إذا استطعمكم الإمامُ فأطعموه " يقول : إذا استفتح فافتحوا عليه .

وفلان ما يَطْعَم النوم إلا قائماً .

وقال الشاعر :

نَعاماً بوَجْرَةَ صُفر الخدو . . .

د ما تَطْعَم النومَ إلا صِياماً .

قوله تعالى : ﴿ فادعْ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الأرض ﴾ لغة بني عامر " فادع" بكسر العين لالتقاء الساكنين ؛ يُجرون المعتل مجرى الصحيح ولا يراعون المحذوف .

و" يُخْرِجْ" مجزوم على معنى سَلْه وقل له : أَخْرِجْ ، يُخْرِج .

وقيل : هو على معنى الدعاء على تقدير حذف اللام ، وضعّفه الزجاج .

و" مِن" ، في قوله " مِمّا" زائدة في قول الأخفش ، وغير زائدة في قول سيبويه ؛ لأن الكلام موجب .

قال النحاس : وإنما دعا الأخفش إلى هذا لأنه لم يجد مفعولاً ل "يُخرِج" فأراد أن يجعل " ما" مفعولاً .

والأوْلى أن يكون المفعول محذوفاً دلّ عليه سائر الكلام ؛ التقدير : يخرج لنا مما تنبت الأرض مأكولاً .

ف" من" الأولى على هذا للتبعيض ، والثانية للتخصيص . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 1 صـ 422 ـ 424 ﴾

فصل

قال الفخر :

القراءة المعروفة : ﴿ وَقِثَّائِهَا ﴾ بكسر القاف ، وقرأ الأعمش وطلحة وقثائها بضم القاف والقراءة المعروفة : ﴿ وَفُومِهَا ﴾ بالفاء وعن علقمة عن ابن مسعود وثومها وهي قراءة ابن

عباس قالوا : وهذا أوفق لذكر البصل واختلفوا في الفوم فعن ابن عباس أنه الحنطة ، وعنه أيضاً أن الفوم هو الخبز وهو أيضاً المروي عن مجاهد وعطاء وابن زيد وحكي عن بعض العرب : فوموا لنا أي اخبزوا لنا وقيل هو الثوم وهو مروي أيضاً عن ابن عباس ومجاهد واختيار الكسائي واحتجوا عليه بوجوه .

الأول : أنه في حرف عبد الله بن مسعود وثومها .

الثاني : أن المراد لو كان هو الحنطة لما جاز أن يقال : ﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ الذى هُوَ أدنى بالذى هُوَ خَيْرٌ ﴾ لأن الحنطة أشرف الأطعمة .

الثالث : أن الثوم أوفق للعدس والبصل من الحنطة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 93 ﴾

وقال القرطبى :

والبَقْلُ معروف ، وهو كل نبات ليس له ساق .

والشجر : ما له ساق .

والقِثّاء أيضاً معروف ، وقد تُضمّ قافه ، وهي قراءة يحيى بن وَثّاب وطلحة بن مُصَرِّف ، لغتان والكسر أكثر .

وقيل في جمع قِثّاء : قَثَائِيّ ؛ مثل عِلْبَاء وعَلاَبِيّ ؛ إلا أن قثاء من ذوات الواو ؛ تقول : أقثأتُ القوم ؛ أي أطعمتهم ذلك .

وفَثَأَت القِدْرَ سكّنت غليانها بالماء ؛ قال الجَعْدِيّ :

تَفُور علينا قِدْرُهم فنُدِيمُهَا . . .

ونَفْثَؤُها عنّا إذا حَمْيُهَا غلا

وفثأتُ الرجل إذا كسرتَه عنك بقول أو غيره وسكّنت غضبه .

وعدا حتى أفثأ ؛ أي أعْيَا وانبهر .

وأفثأ الحَرُّ أي سكن وفتَر .

ومن أمثالهم في اليسير من البرّ قولهم : إنّ الرَّثِيئَة تفثأ في الغضب" .

وأصله أن رجلاً كان غَضِب على قوم وكان مع غضبه جائعاً ، فسَقَوْه رَثِيئَة فسكن غضبه وكفّ عنهم .

الرثيئة : اللبن المحلوب على الحامض ليَخْثُر .

رَثَأْت اللبن رَثْأً إذا حلبته على حامض فخثُر ؛ والاسم الرَّثِيئَة .

وارتثأ اللبن خثر .

[

وروى ابن ماجه حدّثنا محمد بن عبد اللَّه بن نمير حدّثنا يونس بن بُكير حدّثنا هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت : "كانت أمّي تعالجني للسِّمْنة ، تريد أن تُدخلني على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما استقام لها ذلك حتى أكلت القِثّاء بالرُّطَب فسَمِنتُ كأحسنِ سِمْنة" .

وهذا إسناد صحيح .

قوله تعالى : ﴿ وَفُومِهَا ﴾ اختلف في الفُوم ، فقيل : هو الثُّوم ، لأنه المشاكل للبصل .

رواه جُوَيْبِر عن الضحاك .

والثاء تبدل من الفاء ، كما قالوا : مغافير ومغاثير .

وجَدَثٌ وجَدَفٌ ؛ للقبر .

وقرأ ابن مسعود "ثومها" بالثاء المثلثة ؛ وروي ذلك عن ابن عباس .

وقال أُمَيَّة بن أبي الصَّلْت :

كانت منازلهم إذ ذاك ظاهرةً . . .

فيها الفَرَادِيْسُ والفُومان والبَصلُ

الفراديس : واحدها فرديس .

وكَرْمٌ مَفْرَدس ، أي معرّش ، وقال حسّان :

وأنتم أناسٌ لئامُ الأصول . . .

طعامُكُم الفُومُ والحَوْقَلُ

يعني الثّوم والبصل ؛ وهو قول الكسائي والنّضر بن شُمَيل .

(38/53)

وقيل : الفُوم الحنطة ؛ روي عن ابن عباس أيضاً وأكثر المفسرين ؛ واختاره النحاس ، قال : وهو أوْلى ، ومن قال به أعلى ، وأسانيده صحاح ؛ وليس جُوَيْبر بنظير لرُوايته ؛ وإن كان الكسائي والفراء قد اختارا القول الأوّل ، لإبدال العرب الفاء من الثاء ؛ والإبدال لا يقاس عليه ؛ وليس ذلك بكثير في كلام العرب .

وأنشد ابن عباس لمن سأله عن الفوم وأنه الحنطة ، قول أحَيْحَة بن الجُلاَح :

قد كنتُ أغنَى الناسِ شخصاً واجداً . . .

ورَدَ المدينةَ عن زراعة فُومِ

وقال أبو إسحاق الزجاج : وكيف يطلب القوم طعاماً لا بُرّ فيه ، والبرّ أصل الغذاء ! وقال الجوهري أبو نصر : الفوم الحنطة .

وأنشد الأخفش :

قد كنت أحسبني كأغنى واجد . . .

نزل المدينة عن زراعة فُومِ

وقال ابن دُرَيد : الفُومة السُّنْبلة ؛ وأنشد :

وقال رَبيئهم لمّا أتانا . . .

بِكَفّهِ فومةٌ أو فُومتان

والهاء في "كَفّه" غير مشبعة .

وقال بعضهم : الفُوم : الحِمَّص ؛ لغةٌ شاميّة .

وبائعه فاميّ ، مغيَّر عن فُوميّ ؛ لأنهم قد يغيّرون في النسب ؛ كما قالوا : سُهْليّ ودُهْريّ .

ويقال : فَوّموا لنا ؛ أي اختبزوا .

قال الفرّاء : هي لغة قديمة .

وقال عطاء وقتادة : الفُوم كل حب يُخْتَبز .

مسألة : اختلف العلماء في أكل البصل والثوم وما له رائحة كريهة من سائر البقول .

فذهب جمهور العلماء إلى إباحة ذلك ؛ للأحاديث الثابتة في ذلك .

وذهبت طائفة من أهل الظاهر القائلين بوجوب الصلاة في الجماعة فرضاً إلى المنع ، وقالوا : كل ما مَنَع من إتيان الفرض والقيام به فحرام عمله والتشاغل به .

واحتجوا بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمّاها خبيثة ؛ والله عز وجل قد وصف نبيّه عليه السلام بأنه يحرّم الخبائث .

ومن الحجة للجمهور ما ثبت عن جابر : " أن النبيّ صلى الله عليه وسلم أُتِيَ بِبَدْر فيه خَضِرات من بقول فوجد لها ريحاً ؛ قال : فأخْبِر بما فيها من البقول ؛ فقال : " قرّبوها " إلى بعض أصحابه كان معه فلما رآه كره أكلها ، قال : " كُلْ فإِنّي أُنَاجِيَ مَن لا تُناجِي " " أخرجه مسلم وأبو داود .

فهذا بَيِّنٌ في الخصوص له والإباحة لغيره .

وفي صحيح مسلم أيضاً عن أبي أيوب : " أن النبيّ صلى الله عليه وسلم نزل على أبي أيوب ، فصنع للنبيّ صلى الله عليه وسلم طعاماً فيه ثُوم ، فلما رُدّ إليه سأل عن موضع أصابع النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فقيل له : لم يأكل .

ففزِع وصعِد إليه فقال : أحرامٌ هو ؟ قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " لا ولكني أكْرَهُه " .

قال : فإني أكره ما تكره أو ما كرهت ، قال : وكان النبيّ صلى الله عليه وسلم يُؤْتَى (يعني يأتيه الوحي) " فهذا نصّ على عدم التحريم .

وكذلك ما رواه أبو سعيد الخُدْرِيّ " عن النبيّ صلى الله عليه وسلم حين أكلوا الثّوم زمنَ خَيْبَر وفتحها : " أيها الناس إنه ليس لي تحريمُ ما أحلّ الله ولكنها شجرة أكره ريحها " " فهذه

الأحاديث تُشعر بأن الحكم خاصّ به ، إذ هو المخصوص بمناجاة المَلَك .

لكن قد علمنا هذا الحكم في حديث جابر بما يقتضي التسوية بينه وبين غيره في هذا الحكم حيث قال : " من أكل من هذه البقلةِ الثوم وقال مرة : من أكل البصل والثوم والكُرّاث فلا يَقْرَبَنّ مسجدنا فإن الملائكة تتأذّى مما يتأذّى منه بنو آدم "

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في حديث فيه طُول : " إنكم أيها الناس ، تأكلون شجرتين لا أراهما إلا خبيثتين ، هذا البصل والثوم .

ولقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا وجد ريحهما من الرجل في المسجد أمر به فأُخْرِجَ إلى البَقيع ، فمن أكلهما فَلْيُمِتْهُمَا طبخاً " خرّجه مسلم .

قوله تعالى : ﴿ وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ﴾ العدس معروف .

والعَدَسَةُ : بثْرَةٌ تخرج بالإنسان ، وربما قتلت .

وعَدَسْ : زَجْرٌ للبغال ؛ قال :

عَدَسْ ما لِعبّادٍ عليكِ إمارةٌ . . .

نَجوْتِ وهذا تحملين طَلِيق

والعَدْس : شدّة الوطء ، والكَدْح أيضاً ؛ يقال : عَدَسه .

وعَدَس في الأرض : ذهب فيها .

وعَدَستْ إليه المنيّة أي سارت ؛ قال الكُمَيْت :

أُكَلّفها هَوْلَ الظلامِ ولم أزَلْ . . .

أخا الليلِ مَعْدوساً إليّ وعادِسَا

أي يُسار إليّ بالليل .

وعَدَسْ : لغة في حَدَس ؛ قاله الجوهري .

ويؤثَرُ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم من حديث عليّ أنه قال : " عليكم بالعدس فإنه مبارَك مقدّس وإنه يَرِقّ القلب ويكثر الدَّمعة فإنه بارك فيه سبعون نبيًّا آخرهم عيسى ابن مريم " ؛ ذكره الثعلبي وغيره .

وكان عمر بن عبد العزيز يأكل يوماً خبزاً بزيت ، ويوماً بلحم ، ويوماً بعدس .

قال الحَلِيميّ : والعدس والزيت طعام الصالحين ؛ ولو لم يكن له فضيلة إلا أنه ضيافة إبراهيم عليه السلام في مدينته لا تخلو منه لكان فيه كفاية .

وهو مما يخفّف البدن فيخِفّ للعبادة ، ولا تثور منه الشهوات كما تثور من اللحم .

والحِنْطة من جملة الحبوب وهي الفُوم على الصحيح ، والشعير قريب منها وكان طعام أهل المدينة ، كما كان العدس من طعام قرية إبراهيم عليه السلام ؛ فصار لكل واحد من الحبتين

بأحد النبيين عليهما السلام فضيلة .

وقد روي أن النبيّ صلى الله عليه وسلم : " لم يَشْبع هو وأهله من خُبْزِ بُرٍّ ثلاثة أيام متتابعة منذ قِدم المدينة إلى أن توفاه الله عزّ وجلّ " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 1 صـ 428.424 ﴾

فصل

قال الفخر :

القراءة المعروفة : ﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ ﴾ وفي حرف أبي بن كعب : (أتبدلون) بإسكان الباء

وعن زهير الفرقبي : (أدناْ) بالهمزة من الدناءة .

واختلفوا في المراد بالأدنى وضبط القول فيه أن المراد إما أن يكون أدنى في المصلحة في الدين أو في المنفعة في الدنيا ، والأول غير مراد لأن الذي كانوا عليه لو كان أنفع في باب الدين من الذي طلبوه لما جاز أن يجيبهم إليه ، لكنه قد أجابهم إليه بقوله : ﴿ اهبطوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ﴾ ، فبقي أن يكون المراد منه المنفعة في الدنيا ثم لا يجوز أن يكون المراد أن هذا النوع الذي أنتم عليه أفضل من الذي تطلبونه لما بينا أن الطعام الذي يكون ألذ الأطعمة عند

قوم قد يكون أخسها عند آخرين ، بل المراد ما بينا أن المن والسلوى متيقن الحصول وما يطلبونه مشكوك الحصول والمتيقين خير من المشكوك أو لأن هذا يحصل من غير كد ولا تعب ، وذلك لا يحصل إلا مع الكد والتعب ، فيكون الأول أولى .

فإن قيل : كان لهم أن يقولوا هذا الذي يحصل عفواً صفواً لما كرهناه بطباعنا كان تناوله أشق من الذي لا يحصل إلا مع الكد إذا اشتهته طباعنا .

قلنا : هب أنه وقع التعارض من هذه الجهة لكنه وقع الترجيح بما أن الحاضر المتيقن راجع على الغائب المشكوك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 93 ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الذي هُوَ أدنى بالذي هُوَ خَيْرٌ ﴾ الاستبدال : وضع الشيء موضع الآخر ؛ ومنه البدل ، وقد تقدّم .

و " أدْنَى " مأخوذ عند الزجاج من الدُّنُوّ أي القُرْب في القيمة ؛ من قولهم : ثَوْبٌ مقارِب ؛ أي قليل الثمن .

وقال عليّ بن سليمان : هو مهموز من الدنيء البيّن الدناءة بمعنى الأخس ، إلا أنه خفّف همزته .

وقيل : هو مأخوذ من الدُّون أي الأحط ؛ فأصله أَدْوَن ، أفْعَل ، قُلِب فجاء أفْلَع ؛ وحُوّلت الواو ألفاً لتطرّفها .

وقُرِىء في الشّواذّ "أدنأ" .

ومعنى الآية : أتستبدلون البَقْل والقِثّاء والفُومَ والعَدَس والبَصل الذي هو أدنى بالمنّ والسَّلْوَى الذي هو خير .

(42/53)

واختلف في الوجوه التي توجب فضل المنّ والسّلْوَى على الشيء الذي طلبوه وهي خمسة :

الأوّل : أن البقول لما كانت لا خطر لها بالنسبة إلى المنّ والسلوى كانا أفضل ؛ قاله الزجاج .

الثاني : لمّا كان المنّ والسلوى طعاماً منّ الله به عليهم وأمرهم بأكله وكان في استدامة أمر الله وشكر نعمته أجر وذُخْرٌ في الآخرة ، والذي طلبوه عارٍ من هذه الخصائل ، كان أدنى في هذا الوجه .

الثالث : لمّا كان ما منّ الله به عليهم أطيب وألذّ من الذي سألوه ، كان ما سألوه أدنى من هذا الوجه لا محالة .

الرابع : لمّا كان ما أُعْطُوا لا كُلْفَةَ فيه ولا تعب ، والذي طلبوه لا يجيء إلا بالحرث والزراعة والتعب ، كان أدنى .

الخامس : لمّا كان ما ينزل عليهم لا مِرْيَةَ في حِلّه وخُلوصه لنزوله من عند الله ، والحبوب

والأرض يتخلّلها البيوع والغصوب وتدخلها الشُّبه ، كانت أدنى من هذا الوجه .

مسألة : في هذه الآية دليلٌ على جواز أكل الطّيبات والمطاعم المستلذّات ، وكان النبيّ صلى الله عليه وسلم يحبّ الحَلْوى والعَسَل ، ويشرب الماء البارد العَذْب ؛ وسيأتي هذا المعنى في "المائدة" و "النحل" إن شاء الله مستوفىً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 1 صـ 428. 429 ﴾

فصل

قال الفخر :

القراءة المعروفة : ﴿ اهبطوا ﴾ بكسر الباء وقرىء بضم الباء ، القراءة المشهورة : ﴿ مِصْرًا ﴾ بالتنوين وإنما صرفه مع اجتماع السببين فيه وهما التعريف والتأنيث لسكون وسطه كقوله : ﴿ وَنُوحاً هَدَيْنَا وَلُوطاً ﴾ [الأنعام : 84 ، 86] وفيهما العجمة والتعريف وإن أريد به البلد ، فما فيه إلا سبب واحد ، وفي مصحف عبد الله وقرأ به الأعمش : ﴿ اهبطوا مِصْرًا ﴾ بغير تنوين كقوله : ﴿ أَدْخِلُواْ مِصْرًا ﴾ واختلف المفسرون في قوله : ﴿ اهبطوا مِصْرًا ﴾ روي عن ابن مسعود وأبي بن كعب ترك التنوين ،

وقال الحسن : الألف في مصراً زيادة من الكاتب فحينئذ تكون معرفة فيجب أن تحمل على ما هو المختص بهذا الاسم وهو البلد الذي كان فيه فرعون وهو مروي عن أبي العالية والربيع ، وأما الذين قرؤوا بالتنوين وهي القراءة المشهورة فقد اختلفوا ، فمنهم من قال : المراد البلد الذي كان فيه فرعون ودخول التنوين فيه كدخوله في نوح ولوط ، وقال آخرون : المراد الأمر بدخول أي بلد كان كأنه قيل لهم ادخلوا بلداً أي بلد كان لتجدوا فيه هذه الأشياء ، وبالجملة فالمفسرون قد اختلفوا في أن المراد من مصر هو البلد الذي كانوا فيه أولاً أو بلد آخر ، فقال كثير من المفسرين : لا يجوز أن يكون هو البلد الذي كانوا فيه مع فرعون

واحتجوا عليه بقوله تعالى : ﴿ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِى كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلاَ تَرْتَدُّوا على أدباركم ﴾ [المائدة : 21] والاستدلال بهذه الآية من ثلاثة أوجه .

الأول : أن قوله تعالى : ﴿ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ ﴾ إيجاب لدخول تلك الأرض ، وذلك يقتضي المنع من دخول أرض أخرى .

والثاني : أن قوله : ﴿ كتاب الله ﴾ يقتضي دوام كونهم فيه .

والثالث : أن قوله : ﴿ وَلاَ تَرْتَدُّوا على أدباركم ﴾ صريح في المنع من الرجوع عن بيت المقدس .

الرابع : أنه تعالى بعد أن أمر بدخول الأرض المقدسة قال : ﴿ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِى الارض ﴾ [المائدة : 26] فإذا تقدم هذا الأمر ثم بين تعالى أنهم ممنوعون من دخولها هذه المدة فعند زوال العذر وجب أن يلزمهم دخولها ، وإذا كان كذلك لم يجز أن يكون المراد من مصر سواها .

فإن قيل : هذه الوجوه ضعيفة .

أما الأول : فلأن قوله : ﴿ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ ﴾ أمر والأمر للندب فلعلهم ندبوا إلى دخول الأرض المقدسة مع أنهم ما منعوا من دخول مصر ، أما الثاني : فهو كقوله : ﴿ كَتَبَ اللهُ لَكُمْ ﴾ فذلك يدل على دوام تلك الندبية .

وأما الثالث : وهو قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَرْتَدُّوا على أدباركم ﴾ فلا نسلم أن معناه ولا ترجعوا إلى مصر بل فيه وجهان آخران .

الأول : المراد لا تعصوا فيما أمرتم به إذ العرب تقول لمن عصى فيما يؤمر به : ارتد على عقبه .

والمراد من هذا العصيان أن ينكر أن يكون دخول الأرض المقدسة أولى .

الثاني : أن يخصص ذلك النهي بوقت معين فقط .

قلنا : ثبت في أصول الفقه أن ظاهر الأمر للوجوب فيتم دليلنا بناء على هذا الأصل ،

وأيضاً فهب أنه للندب ولكن الإذن في تركه يكون إذناً في ترك المندوب ، وذلك لا يليق بالأنبياء .

قوله : لا نسلم أن المراد من قوله : ﴿ وَلَا تَرْتَدُّوا ﴾ لا ترجعوا .

قلنا : الدليل عليه أنه لما أمر بدخول الأرض المقدسة ، ثم قال بعده : ﴿ وَلَا تَرْتَدُّوا على أدباركم ﴾ تبادر إلى الفهم أن هذا النهي يرجع إلى ما تعلق به ذلك الأمر .

قوله : أن يخصص ذلك النهي بوقت معين ، قلنا : التخصيص خلاف الظاهر ، أما أبو مسلم الأصفهاني فإنه جوز أن يكون المراد مصر فرعون واحتج عليه بوجهين .

الأول : أنا إن قرأنا : ﴿ اهبطوا مِصْرًا ﴾ بغير تنوين كان لا محالة علماً لبلد معين وليس في العالم بلدة ملقبة بهذا اللقب سوى هذه البلدة المعينة فوجب حمل اللفظ عليه ولأن اللفظ إذا دار بين كونه علماً وبين كونه صفة فحمله على العلم أولى من حمله على الصفة مثل ظالم وحادث ، فإنهما لما جاءا علمين كان حملهما على العلمية أولى .

أما إن قرأناه بالتنوين فإما أن نجعله مع ذلك اسم علم ونقول : إنه إنما دخل فيه التنوين لسكون وسطه كما في نوح ولوط فيكون التقرير أيضاً ما تقدم بعينه ، وأما إن جعلناه اسم

جنس فقوله تعالى : ﴿ اهبطوا مِصْرًا ﴾ يقتضي التخيير كما إذ قال : أعتق رقبة فإنه يقتضي التخيير بين جميع رقاب الدنيا .

الوجه الثاني : أن الله تعالى ورث بني إسرائيل أرض مصر وإذا كانت موروثة لهم امتنع أن يحرم عليهم دخولها بيان أنها موروثة لهم ، قوله تعالى : ﴿ فأخرجناهم مّن جنات وَعُيُونٍ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ إلى قوله : ﴿ كَذَلِكَ وأورثناها بَنِى إسراءيل ﴾ [الشعراء : 57 59] ولما ثبت أنها موروثة لهم وجب أن لا يكونوا ممنوعين من دخولها لأن الإرث يفيد الملك والملك مطلق للتصرف .

فإن قيل : الرجل قد يكون مالكاً للدار وإن كان ممنوعاً عن دخولها بوجه آخر ، كحال من أوجب على نفسه اعتكاف أيام في المسجد ، فإن داره وإن كانت مملوكة له لكنه يحرم عليه دخولها ، فلم لا يجوز أن يقال : إن الله ورثهم مصر بمعنى الولاية والتصرف فيها ، ثم إنه تعالى حرم عليهم دخولها من حيث أوجب عليهم أن يسكنوا الأرض المقدسة بقوله : ﴿ ادْخُلُوا الأَرْضَ المُقَدَّسَةَ ﴾ قلنا الأصل أن الملك مطلق للتصرف والمنع من التصرف خلاف الدليل ، أجاب الفريق الأول عن هاتين الحجتين اللتين ذكرهما أبو مسلم فقالوا : أما الوجه الأول فالجواب عنه أنا نتمسك بالقراءة المشهورة وهي التي فيها التنوين .

قوله : هذه القراءة تقتضي التخيير ، قلنا : نعم لكنا نخصص العموم في حق هذه البلدة المعينة بما ذكرناه من الدليل .

أما الوجه الثاني : فالجواب عنه أنا لا ننازع في أن الملك مطلق للتصرف ولكن قد يترك هذا الأصل لعارض كالمرهون والمستأجر ، فنحن تركنا هذا الأصل لما قدمناه من الدلالة .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 93.95 ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ اهبطوا مِصْراً ﴾ تقدّم معنى الهبوط ؛ وهذا أمر معناه التعجيز ؛ كقوله تعالى : ﴿ قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً ﴾ [الإسراء : 50] .

لأنهم كانوا في التِّيه وهذا عقوبة لهم .

وقيل : إنهم أعطوا ما طلبوه .

و" مِصْراً " بالتنوين منكَّراً قراءة الجمهور ، وهو خطّ المصحف .

قال مجاهد وغيره : فمن صَرَفها أراد مِصْراً من الأمصار غير معيَّن .

وروى عكرمة عن ابن عباس في قوله : " اهبطوا مِصْراً " قال : مِصْراً من هذه الأمصار .

وقالت طائفة ممن صَرَفها أيضاً : أراد مِصْرَ فرعون بعينها .

استدلّ الأوّلون بما اقتضاه ظاهر القرآن من أمرهم دخول القرية ، وبما تظاهرت به الرواية

أنهم سكنوا الشام بعد التِّيه .

واستدل الآخرون بما في القرآن من أن الله أوْرث بني إسرائيل ديار آل فرعون وآثارهم ، وأجازوا صرفها .

قال الأخفش والكسائي : لخفّتها وشبهها بِهِنْد ودَعْد ؛ وأنشد :

لم تَتَلَفَّعْ بفضل مِئزرها . . .

دَعْدٌ ولم تُسْقَ دَعْدُ في العُلَبِ

فجمع بين اللغتين .

وسيبويه والخليل والفرّاء لا يجيزون هذا ؛ لأنك لو سَمّيت امرأة بزيد لم تصرف .

وقال غير الأخفش : أراد المكان فَصرف .

وقرأ الحسن وأَبَان بن تَغْلِب وطلحة : " مِصْرَ" بترك الصرف .

وكذلك هي في مصحف أُبيّ بن كعب وقراءة ابن مسعود .

وقالوا : هي مصر فرعون .

قال أشهب قال لي مالك : هي عندي مصر قريتك مسكن فرعون ؛ ذكره ابن عطية .

والمِصر أصله في اللغة الحدّ .

ومِصر الدّار : حدودها .

قال ابن فارس ويقال : إن أهل هَجَر يكتبون في شروطهم " اشترى فلان الدار بِمُصُورها " أي حدودها ؛ قال عَدِيّ :

وجاعلُ الشمسِ مصراً لا خفاءَ به . . .

بين النهار وبين الليل قد فَصلاَ

قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ ﴾ " ما " نصب بإن .

وقرأ ابن وثَّاب والنَّخَعِي " سألتم " بكسر السين ؛ يقال : سألت وسلت بغير همز .

وهو من ذوات الواو ، بدليل قولهم : يتساولان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 1 صـ 430.429 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذلة ﴾

فصل

قال الفخر :

أما قوله تعالى : ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذلة ﴾ فالمعنى جعلت الذلة محيطة بهم حتى مشتملة عليهم فهم فيها كمن يكون في القبة المضروبة أو ألصقت بهم حتى لزمتهم ضربة لازم كما يضرب الطين على الحائط فيلزمه والأقرب في الذلة أن يكون المراد منها ما يجري مجرى الاستحقاق كقوله تعالى فيمن يحارب ويفسد : ﴿ ذلك لَهُمْ خِزْىٌ فِى الدنيا ﴾ فأما من

يقول المراد به الجزية خاصة على ما قال تعالى : ﴿ حتى يُعْطُواْ الجزية عَن يَدٍ وَهُمْ صاغرون ﴾ [التوبة : 29] فقوله بعيد لأن الجزية ما كانت مضروبة عليهم من أول الأمر .

أما قوله تعالى : ﴿ والمسكنة ﴾ فالمراد به الفقر والفاقة وتشديد المحنة ، فهذا الجنس يجوز أن يكون كالعقوبة ، ومن العلماء من عد هذا من باب المعجزات لأنه عليه السلام أخبر عن ضرب الذلة والمسكنة عليهم ووقع الأمر كذلك فكان هذا إخباراً عن الغيب فيكون معجزاً .

أما قوله تعالى : ﴿ وَبَاءو ﴾ ففيه وجوه .

أحدها : البوء الرجوع ، فقوله : ﴿ باءو ﴾ أي رجعوا وانصرفوا بذلك ولا يقال باء إلا بشر .

وثانيها : البوء التسوية .

فقوله : ﴿ باءو ﴾ أي استوى عليهم غضب الله .

قال الزجاج .

وثالثها : باؤ أي استحقوا ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنّى أُرِيدُ أَن تَبُوء بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ ﴾ [المائدة : 29] أي تستحق الإثمين جميعاً .

وأما غضب الله فهو إرادة الانتقام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 95 ﴾

وقال القرطبى :

ومعنى ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذلة ﴾ أي أُلزِموهما وقُضِيَ عليهم بهما ؛ مأخوذ من ضرب القباب ، قال الفرزدق في جَرِير :

ضربتْ عليك العنكبوتُ بنَسْجها . . .

وقَضَى عليك به الكتابُ الْمُنْزَلُ

وضرب الحاكم على اليد ؛ أي حمل وألزم .

والذِّلّة : الذُّلّ والصَّغار .

والمسكنة : الفقر .

فلا يوجد يهوديّ وإن كان غَنِياً خالياً من زِي الفقر وخضوعه ومهانته .

وقيل : الذلة فرض الجِزْية ؛ عن الحسن وقتادة .

والمسكنة الخضوع ، وهي مأخوذة من السكون ؛ أي قلّل الفقر حركته ؛ قاله الزجاج .

وقال أبو عبيدة : الذِّلة الصِّغار .

والمسكنة مصدر المسكين .

وروى الضّحاك بن مُزاحم عن ابن عباس : ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذلة والمسكنة ﴾ قال : هم أصحاب القَبَالات .

قوله تعالى : ﴿ وَبَآءُوا ﴾ أي انقلبوا ورجعوا ؛ أي لزمهم ذلك .

ومنه قوله عليه السلام في دعائه ومناجاته : " أَبُوءُ بنعمتك عليّ " أي أُقِرّ بها وأُلزمها نفسي .

وأصله في اللغة الرجوع ؛ يقال باء بكذا ، أي رجع به .

وباء إلى المَبَاءة وهي المنزل أي رجع .

والبواء : الرجوع بالقَوَد .

وهم في هذا الأمر بَوَاء ؛ أي سواء ، يرجعون فيه إلى معنىً واحد .

وقال الشاعر :

أَلاَ تَنْتَهِي عنّا ملوكٌ وتَتّقي . . .

محارِمَنا لا يَبْؤُؤُ الدّمُ بالدّمِ

أي لا يرجع الدّم بالدم في القَوَد .

وقال :

فأَبُوا بالنّهابِ وبالسَّبَايَا . . .

وأُبْنَا بالملوكِ مُصَفَّدِينَا

أي رجعوا ورجعنا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 1 صـ 430 ﴾

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : " وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباؤوا بغضب من الله " وفى سورة آل عمران : " ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وباؤوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة " فأخر فى سورة آل عمران ما قدم ذكره فى سورة البقرة فيسأل عن ذلك ووجهه والله أعلم أنهم لما سألوا فى البقرة عن مأكلهم ما فيه خسة وما يستلزم الذلة والصغار والمهنة فى التوصل إلى الانتفاع به وذلك ما طلبوه فى قولهم : " فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الارض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها " عوضا مما لا تكلف فيه ولا مشقة من المن والسلوى الذى كان ينزل عليهم عند الحاجة بغير مؤنة ولهذا قيل لهم : " أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير " فلما سألوا ما يستلزم مهنة النفس ودناءة الحال لما أجرى به الله تعالى العادة من أن الذى سألوه لا يتوصل إليه الا بتكلف ومشقة فلما سألوا ما حاصله خسة وامتهان ناسب ذلك أن يناط به وينبئ عليه ذكر ضرب الذلة والمسكنة عليهم ثم أعقب ذلك ما باؤوا به من غضب الله الذى سبق به القدر عليهم ونعوذ بالله من غضبه .

ولما تقدم فى آل عمران قوله تعالى : " لن يضروكم إلا أذى وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا

ينصرون " ناسب هذا تقديم ما لا نصرة لهم معه ولا فلاح وهو ما باؤوا به من غضب الله عليهم فقال تعالى : " وباؤوا بغضب من الله " فجاء كل على ما يناسب ويلائم والله أعلم بما أراد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 40. 41 ﴾

(50/53)

قوله تعالى ﴿ ذلك بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيات الله ﴾

فصل

قال الفخر :

أما قوله تعالى : ﴿ ذلك بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيات الله ﴾ فهو علة لما تقدم ذكره من ضرب الذلة والمسكنة عليهم وإلحاق الغضب بهم .

قالت المعتزلة : لو كان الكفر حصل فيهم بخلق الله تعالى كما حصلت الذلة والمسكنة فيهم بخلقه لما كان جعل أحدهما جزاء الثاني أولى من العكس ، وجوابه المعارضة بالعلم والداعي ، وأما حقيقة الكفر فقد تقدم القول فيها .

أما قوله تعالى : ﴿ وَيَقْتُلُونَ النبيين بِغَيْرِ الحق ﴾ فالمعنى أنهم يستحقون ما تقدم لأجل هذه الأفعال أيضاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 95 ﴾

سؤالان :

السؤال الأول : أن قوله تعالى : ﴿ يَكْفُرُونَ ﴾ دخل تحته قتل الأنبياء فلم أعاد ذكره مرة أخرى ؟

الجواب : المذكور ههنا الكفر بآيات الله ، وذلك هو الجهل والجحد بآياته فلا يدخل تحته قتل الأنبياء .

السؤال الثاني : لم قال : ﴿ بِغَيْرِ الحق ﴾ وقتل الأنبياء لا يكون إلا على هذا الوجه ؟

الجواب من وجهين :

الأول : أن الإتيان بالباطل قد يكون حقاً لأن الآتي به اعتقده حقاً لشبهة وقعت في قلبه وقد يأتي به مع علمه بكونه باطلاً ، ولا شك أن الثاني أقبح فقوله : ﴿ وَيَقْتُلُونَ النبيين بِغَيْرِ الحق ﴾ أي أنهم قتلوهم من غير أن كان ذلك القتل حقاً في اعتقادهم وخيالهم بل كانوا عالمين بقبحه ومع ذلك فقد فعلوه .

وثانيها : أن هذا التكرير لأجل التأكيد كقوله تعالى : ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ الله إِلَهًا ءاخَرَ لاَ بُرْهَانَ لَهُ بِهِ ﴾ [المؤمنون : 117] ويستحيل أن يكون لمدعي الإله الثاني برهان .

وثالثها : أن الله تعالى لو ذمهم على مجرد القتل لقالوا : أليس أن الله يقتلهم ولكنه تعالى قال : القتل الصادر من الله قتل بحق ومن غير الله قتل بغير حق . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 95 ـ 96 ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ بِغَيْرِ الحق ﴾ تعظيم للشُّنْعة والذّنب الذي أتوه .

فإن قيل : هذا دليل على أنه قد يصح أن يُقتلوا بالحق ؛ ومعلوم أن الأنبياء معصومون من أن يصدر منهم ما يُقتلون به .

قيل له : ليس كذلك ؛ وإنما خرج هذا مخرج الصفة لقتلهم أنه ظُلم وليس بحق ؛ فكان هذا تعظيماً للشُّنعة عليهم ؛ ومعلوم أنه لا يُقتل نبيّ بحق ، ولكن يُقتل على الحق ؛ فصرّح قوله : ﴿ بِغَيْرِ الحق ﴾ عن شُنعة الذنب ووضوحه ؛ ولم يأت نبيّ قط بشيء يوجب قتله .

فإن قيل : كيف جاز أن يخلّى بين الكافرين وقتل الأنبياء ؟ قيل : ذلك كرامة لهم وزيادة في منازلهم ؛ كمثل من يُقتل في سبيل الله من المؤمنين ، وليس ذلك بُخذلان لهم .

قال ابن عباس والحسن : لم يُقتل نبيّ قط من الأنبياء إلا من لم يؤمر بقتال ، وكلُّ مَن أمر بقتال نُصِر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 1 صـ 432 ﴾

(51/53)

وقال الماوردى :

وفي قوله تعالى : ﴿ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ قولان :

أحدهما : أن الله عز وجل ؛ إنما جاز أن يُخَلِّيَ بين الكُفَّار وقتلِ الأنبياء ، لينالوا من رفيع المنازل ما لا ينالونه بغيره ، وليس ذلك بخذلان لهم ، كما يفعل بالمؤمنين من أهل طاعته .

والثاني : وهو قول الحسن ، أن الله عز وجل ، ما أمر نبيّاً بالحرب إلا نَصَرَهُ فلم يُقتَلْ ، وإنما خلَّى بين الكفار وبين قتل مَنْ لم يؤمر بالقتال مِنَ الأنبياء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 1 صـ 130 ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ بغير الحق ﴾ فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أن معناه : بغير جرم ، قاله ابن الأنباري .

والثاني : أنه توكيد ، كقوله تعالى : ﴿ ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ﴾ .

والثالث : أنه خارج مخرج الصفة لقتلهم أنه ظلم ، فهو كقوله تعالى : ﴿ رب احكم بالحق ﴾ فوصف حكمه بالحق ، ولم يدل على أنه يحكم بغير الحق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 1 صـ 90 . 91 ﴾

فائدة

قال ابن جزي :

[بغير الحق] هنا باللام للعهد لأنه تقررت الموجبات لقتل النفس, وفي آل عمران [بغير حق]

بالتنكير, لاستغراق النفي, لأن تلك نزلت في المعاصرين لمحمد – صلى الله عليه وسلم .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التسهيل حـ 1 صـ 49 ﴾ بتصرف يسير

سؤال : فإن قيل : كيف قال : [ويقتلون النبيين بغير بغير الحق] وقتل النبيين لا يكون إلا بغير حق ؟

قلنا ما معناه : بغير الحق في اعتقادهم, ولأن التصريح بصفة فعلهم القبيح أبلغ في ذمهم, وإن كانت تلك الصفة لازمة للفعل, كما في عكسه : [قال رب احكم بالحق] (الأنبياء : 122) لزيادة معنى التصريح بالصفة, ولأن قتل النبي قد يكون بحق, كقتل إبراهيم – عليه السلام – ولده, لو وجد, كان بحق (1) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الرازي صـ 25 ﴾

---

(1) هذا القول فيه نظر ، فهنا أمر غير موجود في الواقع ، ولو وقع كما في قصة الذبيح عليه السلام فهذا أمر نادر ، والنادر لا حكم له والحق أن يقال : يجب قتل النفس فداء للنبيين ففي هذا حياة كاملة أبدية عند مليك مقتدر .

وقال النسفي :

[بغير الحق] عندهم أيضاً فإنهم لو أنصفوا لم يذكروا شيئاً يستحقون به القتل عندهم في التوراة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفي حـ 1 صـ 52 ﴾

وقال السمعاني :

" بغير الحق " قلنا ذكره وصفاً للقتل, والقتل يوصف تارة بالحق وتارة بغير الحق, وهو مثل قوله تعالى : [قال رب احكم بالحق] ذكر الحق وصفاً للحكم لا أن حكمه ينقسم إلى الجور والحق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير السمعاني حـ 1 صـ 87 ﴾

وقال السعدي :

[بغير الحق] زيادة شناعة, وإلا فمن المعلوم أن قتل النبيين لا يكون بحق, لكن لئلا يظن جهلهم وعدم علمهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير السعدي صـ 53 ﴾

وقال القرطبي :

[بغير الحق] تعظيم للشنعة والذنب الذي أتوه, فإن قيل هذا دليل على أنه قد يصح أن يقتلوا بالحق ومعلوم أن الأنبياء معصومون من أن يصدر منهم ما يقتلون به ؟

قيل له : ليس كذلك, وإنما خرج هذا مخرج الصفة لقتلهم أنه ظلم, وليس بحق, فكان هذا

تعظيماً للشنعة عليهم, ومعلوم أنه لا يقتل نبي بحق, ولكنه يقتل على الحق . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبي حـ 1 صـ 432 ﴾

(54/53)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : " ذلك بأنهم كانوا يكفرون بالله ويقتلون النبيين بغير الحق " وفى سورة آل عمران : " إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق " وفيها بعد : " لن يضروكم إلا أذى " إلى قوله تعالى : " ذلط بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق " بتنكير حق فى هذين الموضعين وتعريفه فى البقرة واختصاص الآية الأخيرة بجمع التكسير فيما جمع فى الآيتين جمع سلامه فقيل : " النبيين فى الآيتين وقيل فى هذه الأخيرة الأنبياء مكسرا فهذان سؤالان .

(55/53)

والجواب عن الأول والله أعلم ، بعد العلم بأن المذكورين فى الآيات الثلاث من بنى إسرائيل قد اجتمعوا فى الكفر والاعتداء أن هذه الآية الأخيرة لما كانت فيمن شاهد منهم أمر محمد صلى الله عليه وسلم وعاين تلك البراهين واستوضح أنه الذى أخبر به موسى وغيره صلى الله عليهم أجمعين وتكاثرت الأدلة فى أمره ثم لم يجد ذلك عليهم إلا التمادى فى الكفر والعناد من بعد ما تبين لهم الحق كان الأنسب لمرتكبهم فى كفرهم أن يعبر عنهم أنهم ارتكبوه بغير سبهة ولا سبب يمكن التعلق به فقوله تعالى : " بغير حق " كأنه مرادف لأن لو قيل : بغير سبب ولا سبهة وذلك أوغل فى ذمهم وسوء حالهم لأنهم لا يمكنهم فى مرتكبهم تعلق بشئ البتة ولا أدنى شبهة ولما كانت الأولى فى سورة البقرة إنما هى فى سلفهم ممن لم يشاهد أمر محمد صلى اله عليه وسلم وقد وقع الافصاح فيها بكفرهم بعد تعريفهم بذكر آلاء ونعم وقد ورد فيها أن بعض تلك المرتكبات أو أكثرها قد عفى عنهم فيها ولا شك أن بعضهم قد سلم مما وقع فيه الأكثر من كفرهم وقد أفصحت آي بذلك فيما ذكر عقبها من أن الكفر السابق عمومه فى جميعهم ليس على ما يبدو منه والله أعلم وإنما هو راجع إلى أكثرهم فقد دخله خصوص يدل عليه قوله تعالى : " فبدل الذين ظلموا منهم قولا " وقوله تعالى : " وأكثرهم فاسقون " ، فهم وإن وصفوا من الكفر والاعتداء بما وصفوا ليسوا فى ارتكاب البهت والمجاهرة بالباطل وموالاة التمرد والاعتداء وحال معاينة البراهين كحيىى بن أخطب وأشباهه من المعاصرين لنبينا صلى الله عليه وسلم والمشاهدين أمره فناسب

حال أولئك الذين لم يشاهدوه ما وقع التعبير به من قوله تعالى : " بغير الحق " إذ ليس المعرف فى قوة المنكر المرادف لقولك بغير سبب وأيضا فقد تقرر عندهم من كتابهم أن مسوغ قتل النفس تقدم قتل النفس بغير حق قال تعالى : " وكتبنا عليهم فيها – أى فى التوراة – أن النفس بالنفس " وتقرر أيضا فى كتابهم رجم الزانى المحصن وقد

(56/53)

عرفنا ذلك من دينهم

بالخبر الصحيح وأنهم اعترفوا بذلك عند النبى صلى الله عليه وسلم بعد إنكارهم وقوله تعالى فى خطاب موسى عليه السلام لهم بقوله : " ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين " فعرف بعظيم جريمة الارتداد والظاهر أن حكم المرتد عندهم القتل كحكمه عندنا وكيف ما كان فقد استقر عندهم ما يسوغ القتل ويوجبه بعد الإيمان وقد علموا أن الانبياء عليهم السلام مبرؤون من ذلك كله فقوله تعالى : " بغير الحق " أى بغير وجه الحق المبيح للقتل فالألف واللام للعهد فى المسوغ المتقرر فى شريعتهم فقد افترق مقصد الآيتين وأما الأولى من آيتى آل عمران فخاصة بالمتمادين منهم على الكفر ولا تتناول الآية من أولها إلى آخرها خلافه فهى كالآية الثانية فيما أعطته ودلت عليه من التمرد والتمادى على

الضلال فناسبها التذكير كالتى بعدها وهما معا بخلاف آية البقرة إذ لم يتقدم فى هاتين ما تقدم فى تلك ولا حال المذكورين فى هاتين كحال من ذكر فى تلك والله أعلم بما أراد .

والجواب عن السؤال الثانى : أن جمع التكسير يشمل أولى العلم وغيرهم وجمع السلامة يختص فى أصل الوضع بأولى العلم وإن وجد فى غيرهم فبحكم الالحاق والتشبيه كقوله تعالى : " إنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين " وما يلحق بهذا .

(57/53)

وإذا تقرر هذا فورود جمع السلامة فى قوله فى سورة البقرة : " ويقتلون النبيين بغير الحق " مناسب من جهتين : إحداهما شرف الجمع لشرف المجموع والثانية مناسبة زيادة المد لزيادة أداة التعريف فى لفظ الحق وأما الآية الأولى من سورة آل عمران فمثل الأولى فى مناسبة الشرف ومناسبة زيادة المد للزيادة فى الفعل العامل فى اللفظ المجموع فى قراءة من قرأ : " يقاتلون " ولما لم يكن فى الآية الثالثة سوى شرف المجموع وكانت العرب تتسع فى جموع التكسير فتوقعها على أولى العلم وغيرهم أتى بالجمع هنا مكسرا لتحصل اللغتان حتى لا يبقى لمن تحدى بالقرآن حجة إذ هم مخاطبون بما فى لغاتهم فلا يقصر فى شئ من خطابهم

على أحد الجائزين دون الآخر إلا ألا يتكرر فإذ ذلك يرد على وجه واحد مما يجوز فيه فتفهم ما أجملته فسوف يتضح لك به إذا استوفيته ما يعينك على فهم الإعجاز . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 41. 43 ﴾

(58/53)

قوله تعالى ﴿ ذلك بِمَا عَصَواْ وكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴾

فصل

قال الفخر :

وأما قوله تعالى : ﴿ ذلك بِمَا عَصَواْ ﴾ فهو تأكيد بتكرير الشيء بغير اللفظ الأول وهو بمنزلة أن يقول الرجل لعبده وقد احتمل منه ذنوباً سلفت منه فعاقبه عند آخرها : هذا بما عصيتني وخالفت أمري ، هذا بما تجرأت علي واغتررت بحلمي ، هذا بكذا فيعد عليه ذنوبه بألفاظ مختلفة تبكيتاً .

أما قوله تعالى : ﴿ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴾ فالمراد منه الظلم : أي تجاوزوا الحق إلى الباطل .

واعلم أنه تعالى لما ذكر إنزال العقوبة بهم بين علة ذلك فبدأ أولاً بما فعلوه في حق الله تعالى وهو جهلهم به وجحدهم لنعمه ثم ثناه بما يتلوه في العظم وهو قتل الأنبياء ثم ثلثه بما يكون

منهم من المعاصي التي تخصهم ثم ربع بما يكون منهم من المعاصي المتعدية إلى الغير مثل الاعتداء والظلم ، وذلك في نهاية حسن الترتيب .

فإن قيل : قال ههنا : ﴿ وَيَقْتُلُونَ النبيين بِغَيْرِ الحق ﴾ ذكر الحق بالألف واللام معرفة ، وقال في آل عمران : ﴿ إِنَّ الذين يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ الله وَيَقْتُلُونَ النبيين بِغَيْرِ حَقّ ﴾ [آل عمران : 21] نكرة ، وكذلك في هذه السورة : ﴿ وَيَقْتُلُونَ الانبياء بِغَيْرِ حَقّ ذلك بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ لَيْسُواْ سَوَاء ﴾ [آل عمران : 112 ، 113] فما الفرق ؟

الجواب : الحق المعلوم فيما بين المسلمين الذي يوجب القتل ، قال عليه السلام ، " " لا يحل دم امرىء مسلم إلا بإحدى معانٍ ثلاث ، كفر بعد إيمان وزنا بعد إحصان وقتل نفس بغير حق " فالحق المذكور بحرف التعريف إشارة إلى هذا وأما الحق المنكر فالمراد به تأكيد العموم أي لم يكن هناك حق لا هذا الذي يعرفه المسلمون ولا غيره ألبتة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 96 ﴾

لطيفة

قال فى البحر المديد :

قال في التنوير : فائدة : اعلم أن بني إسرائل لما دخلوا التيه ، ورُزقوا المنّ والسلوى ، واختار الله لهم ذلك رزقاً ، رزقهم إياه ، يبرز عن عين المنّة ، من غير تعب منهم ولا نصب ، فرجعت نفوسهم الكثيفة لوجود ، العادة ، والغيبة عن شهود تدبير الله ، غلى طلب ما كانوا يعتادونه ، فقالوا : ﴿ ادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض ﴾ الآية . ﴿ قال أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير اهبطوا مصراً فإن لكم ما سألتم وضرب عليهم الذلّة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ﴾ ، وذلك لأنهم تركوا ما اختار الله لهم ، مائلين لما اختاروا لأنفسهم ، فقيل لهم عن طريق التوبيخ : ﴿ أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير ﴾ ؟ فظاهر التفسير : أتستبدلون الفوم والعدس والبصل بالمنّ والسلوى ؟ وليس النوعان سواء في اللذة ولا في سقط المشقة وسر الاعتبار ، أتستبدلون مرادكم لأنفسكم بمراد الله تعالى لكم ؟ ﴿ أتستبدلون الذي هو أدنى ﴾ وهو ما أردتموه ، ﴿ بالذي خير ﴾ ، وهو ما أراده الله لكم ؟ ﴿ اهبطوا مصراً ﴾ فإن ما اشتهيتموه لا يليق إلا أن يكون في الأمصار ، وفي سر الخطاب : اهبطوا عن سماء التفويض وحسن التبدير منا لكم ، إلى أرضي التدبير والاختيار منكم لأنفسكم ، موصوفين بالذل والمسكنة ؛ لاختياركم مع اختيار الله ، وتدبيركم لأنفسكم مع تدبير الله . انتهى المراد منه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المديد حـ 1 صـ 115 ﴾

فصل

قال السيوطى :

أخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد في قوله ﴿ وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد ﴾ قال : المن والسلوى ، استبدلوا به البقل وما ذكر معه .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة قالوا : ملوا طعامهم في البرية وذكروا عيشهم الذي كانوا فيه قبل ذلك ، فقالوا ﴿ ادع لنا ربك . . . ﴾ الآية .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طرق عن ابن عباس في قوله ﴿ وفومها ﴾ قال : الخبز . وفي لفظ : البر . وفي لفظ : الحنطة بلسان بني هاشم .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني في الكبير من طرق عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق قال له : أخبرني عن قوله تعالى ﴿ وفومها ﴾ قال : الحنطة . قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم ، أما سمعت أحيحة بن الجلاح وهو يقول :

قد كنت أغنى الناس شخصاً واحداً . . . ورد المدينة عن زراعة فوم

وأخرج وكيع وعبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد وعطاء في قوله ﴿ وفومها ﴾ قالا : الخبز .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن الحسن وأبي مالك في قوله ﴿ وفومها ﴾ قالا : الخبز .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن الحسن وأبي مالك في قوله ﴿ وفومها ﴾ قالا : الحنطة .

وأخرج ابن أبي حاتم من وجه آخر عن ابن عباس قال : الفوم الثوم .

وأخرج ابن جرير عن الربيع بن أنس قال : الفوم الثوم – وفي بعض القراءة وثومها .

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي داود في المصاحف وابن المنذر عن ابن مسعود : أنه قرأ وثومها .

وأخرج ابن أبي داود عن ابن عباس قال : قراءتي قراءة زيد ، وأنا آخذ ببضعة عشر حرفاً من قراءة ابن مسعود هذا أحدها ﴿ من بقلها وقثائها وثومها ﴾ .

وأخرج الطستي في مسائله عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق قال له : أخبرني عن قوله عز وجل ﴿ وفومها ﴾ قال : الفوم الحنطة . قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم ، أما سمعت أبا محجن الثقفي وهو يقول :

قد كنت أحسبني كأغنى واحد . . . قدم المدينة عن زراعة فوم

قال : يا ابن الأزرق ومن قرأها على قراءة ابن مسعود فهو هذا المنتن قال أمية ابن أبي الصلت :

كانت منازلهم إذ ذاك ظاهرة . . . فيها الفراديس والفومات والبصل

وقال أمية ابن أبي الصلت أيضاً :

أنفي الدياس من القوم الصحيح كما . . . أنفي من الأرض صوب الوابل البرد

وأخرج ابن جرير عن مجاهد في قوله ﴿ أتستبدلون الذي هو أدنى ﴾ قال : أرداً .

وأخرج سفيان بن عيينة وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ اهبطوا مصراً ﴾ قال : مصراً من الأمصار .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة في قوله ﴿ اهبطوا مصراً ﴾ يقول : مصراً من الأمصار .

وأخرج ابن جرير عن أبي العالية في قوله ﴿ اهبطوا مصراً ﴾ قال : يعني به مصر فرعون .

وأخرج ابن أبي داود وابن الأنباري في المصاحف عن الأعمش أنه كان يقرأ ﴿ اهبطوا مصر ﴾ بلا تنوين ، ويقول : هي مصر التي عليها صالح بن علي .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ وضربت عليهم الذلة والمسكنة ﴾ قال : هم أصحاب الجزية .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن قتادة والحسن ﴿ وضربت عليهم الذلة والمسكنة ﴾ قال : يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون .

وأخرج ابن جرير عن أبي العالية في قوله ﴿ والمسكنة ﴾ قال : الفاقة .

وأخرج ابن جرير عن الضحاك في قوله ﴿ وباؤوا بغضب من الله ﴾ قال : استحقوا الغضب من الله .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة في قوله ﴿ وباؤوا ﴾ قال : انقلبوا .

وأما قوله تعالى : ﴿ ويقتلون النبيين ﴾ .

أخرج أبو داود الطاليسي وابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال : كانت بنو إسرائيل في اليوم تقتل ثلاثمائة نبي ، ثم يقيمون سوق بقلهم في آخر النهار .

وأخرج أحمد عن ابن مسعود . أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " أشد الناس عذاباً يوم القيامة رجل قتل نبيا أو قتله نبي ، وإمام ضلالة وممثل من الممثلين " .

وأخرج الحاكم وصححه وتعقبه الذهبي عن أبي ذر قال " جاء أعرابي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا نبيء الله . قال : لست بنبيء الله ولكنني نبي الله قال الذهبي : منكر لم يصح " .

وأخرج ابن عدي عن حمران بن أعين " أن رجلا من أهل البادية أتى النبي صلى الله عليه

وسلم فقال : السلام عليك يا نبيء الله . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لست بنبيء الله ولكنني نبي الله " .

وأخرج الحاكم عن ابن عمر قال " ما همز رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا أبو بكر ، ولا عمر ، ولا الخلفاء ، وإنما الهمز بدعة من بعدهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 1 صـ 176. 179 ﴾

(63/53)

ومن فوائد ابن عرفة فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يا موسى لَن نَّصْبِرَ على طَعَامٍ وَاحِدٍ . . . ﴾ .

الإقبال بالخطاب تأكيد لما تضمنه الكلام من المدح والإكرام أو الذم والتوبيخ .

(قوله) .

﴿ لَن نَّصْبِرَ على طَعَامٍ وَاحِدٍ ﴾ (أنظر ما فيه) من الجفاء والغلظة والجهل لقولهم : " لَن نَّصْبِرَ " ولقولهم " رَبَّكَ " ولم يقولوا " رَبَّنَا " وجعلوه واحدا إما من جهة أنه كله (خبز) (أو) إدام للخبز ، وليس فيه خبز بوجه ، وإما من (أجل) تكرر كل يوم بعينه من غير أن يتبدل .

قوله تعالى : ﴿ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا . . . ﴾ .

قيل/ لابن عرفة : هل هذا ترق بدأوا بالبقل ثم بالفوم وهو القمح ؟

فقال : (بعيد) لقوله " وبصلها " فهو في هذا تدلٍّ .

قوله تعالى : ﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ الذي هُوَ أدنى بالذي هُوَ خَيْرٌ . . . ﴾ .

(64/53)

قال ابن عرفة : كان الشيخ أبو عبد الله بن سلام يقول : إن هؤلاء لم يطلبوا ذلك بدلا من طعامهم بل زيادة عليه لقولهم : ﴿ لَن نَّصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ ﴾ ولم يقولوا : لن نحب هذا الطعام فكيف أنكر عليهم استبداله ؟

قال : وتقدم الجواب عنه بأنهم إذا أكلوا من الطّعام الذي طلبوه فإنه ينقص أكلهم من الطّعام الأول بقدر ما أكلوا من هذا فقد حصلت لهم (المبادلة) في ذلك المقدار فمن كان يأكل رطلا من المنّ والسلوى قبل ذلك يصير الآن يأكل (منه) نصف رطل أو أقل .

نعم إنهم (يجتمعون) في ملك واحد .

وحَوْز واحد ولا يجتمع ذلك في (بطن) واحد إلاّ على الصفة التي ذكرنا .

قيل لابن عرفة : قد (لا) يأكل الإنسان من (الخبز) والإدام ، والخبز أكثر (مما) يأكل من كل

(واحد) منها على انفراده ؟

فقال : وكذلك (أيضا) يأكل من العسل إذا (عقد) وصنع (خبيصا أو نحوه) كثيرا .

قيل لابن عرفة : أو يجاب بأنهم طلبوا النقلة من ذلك الموضع (إلى موضع ينبت فيه البقل والقثاء والفوم وما قام الدليل على أن ذلك الموضع) المنتقل إليه ينزل عليهم فيه المن والسلوى وكأنهم طلبوا الاستبدال .

فقال (ابن عرفة) : هذا صحيح لو كان (هذا) من كلامهم لأن ﴿ اهبطوا مِصْراً ﴾ من كلام موسى عليه السلام عن الله تعالى ، فالذم إنما هو على طلبهم الاستبدال وطلب (الاستبدال) ليس من كلامهم .

((بل (من) دلالة الحال والأمر العادي)) فهو لازم قولهم ، لأن تلك الأرض لم تجر العادة بإنباتها تلك الأشياء (فطلبهم تلك الأشياء) يستلزم طلبهم النقلة منها إلى أرض تُنبِتُها ولا ينزل فيه المن والسلوى .

والذم إنما هو على سؤالهم .

قيل لابن عرفة : هذا كله على تسليم السؤال ، ولنا أن نمنعه ونقول : إن سؤالهم ليس بنصّ في أنهم طلبوا الزيادة بل (هو) ظاهر في ذلك فقط ؟

والجواب (أنهم لهم) نص في طلبهم الاستبدال وإنما عبّروا عنه بلفظة محتملة احتمالا مرجوحا ، وربما ينافيه .

ومعنى كلامهم : لن نصبر على هذا الطعام لأنه طعام واحد بل نرجع إلى أطعمتنا المعتادة المتعودة .

فقال ابن عرفة : هذا هو الحق والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ الذي هُوَ أدنى . . . ﴾ .

سماه " أَدْنَى " لكونه يأتيهم بعد تكليف ومشقة ، والمنّ والسلوى ينزل عليهم بلا كلفة ، (أو) أنه حلال محض أو بأنه ألذّ وأطيب ، أو أنه الذي أمرهم الله به ففي أكله الشكر عليه نعمة وأجر .

قلت لشيخنا ابن عرفة : مساق الآية يقتضي أنه فيه دناءة قليلة مع أنه خير كله ؟

فقال : لا يريد الذي هو أدنى من طعامكم (هذا ، بل يريد الذي هو أدنى) بالإطلاق فليس في المن والسلوى دناءة .

قال القرطبي : يؤخذ من الآية تفضيل المستلذات الدنيوية ، وأنها مباحة راجحة ليس فيها مرجوحية بوجه لأجل وصفها بالخير .

(فرده) ابن عرفة بأنه يلزم من ذلك رجحانها ، فلعل وصفها بالخير لأجل أنها تنال بلا

مشقة ولا تكلف .

قوله تعالى : ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذلة والمسكنة . . . ﴾ .

(قال ابن عرفة) : المسكنة إن كانت من أقسام الفقر فهي مغايرة (للذلة) ، وإن لم تكن من أقسامه فيكون المسكين هو الذي يسأل ، والذلة مسكنة من غير سؤال ، وضرب الذلة عليهم يطلق يصدق بصورة إما في عصر من الأعصار وهو زمن بعثة نبينا سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم إلى الآن (وكذا) تعمّ الذلة اليهود في كل بلد ، أو يكون في بعض البلاد ، أو في زمن عيسى عليه الصلاة والسلام وما بعده إلى الآن وسجل عليهم بوصف الغضب ، وكونه من الله تعالى فهو أشد عليهم .

قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النبيين . . . ﴾ .

قال ابن عرفة : ذمّهم على قبح ما صدر منهم في (قوتهم) العلمية والعملية ، و (جمع) الأنبياء مبالغة في كثرة قتلهم ، وكذلك جمع الضمير في " يقتلون " ، أو يكون حقيقة .

وقد قال الإمام مالك رضي الله عنه في جامع العتيبية : بلغني أنه مات في مسجد (الخيف) كذا كذا كذا نبي ما توا كلهم بالقمل والجوع .

(قال ابن رشد) : لزهدهم في الدنيا أو لآن الله تعالى يبتلي عباده المؤمنين بالإذاية ليصبروا (فيه) فيعظم أجرهم عند الله .

قال ابن عطية : من همز النبيء فهو عنده من (الإنباء) إذا أخبر .

قال (ابن عرفة) : معناه كونه يخبر الناس بأنه يوحى إليه على الجملة .

والرسول يبلغهم الأحكام والشرائع ويدعوهم إلى الإيمان .

قوله تعالى : ﴿ بِغَيْرِ الحق . . . ﴾ .

ما الفائدة فيه مع أن قتل الأنبياء لا يكون إلا كذلك ؟

وأجاب الزمخشري بأنه الحق باعتبار الدّعوى ، كما إذا تخاصم رجلان فكل واحد منهما يزعم أنه على الحق ولدعواه مرجح ، (وهم يقتلون) ولا يستندون في (قتلهم) إلى شبهة بوجه ، وهم بحيث لو سئلوا عن موجب ذلك لم يستحضروا له سببا .

وفي سورة آل عمران ﴿ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ فهو مطلق وهذا (معرف) بالعهد أي بغير الحق المعهود في الدعاوى لا الحق الثابت في نفس الأمر لأن قتل النّبيئين لا يكون إلاّ بغير ذلك الحق .

قوله تعالى : ﴿ ذلك بِمَا عَصَواْ . . . ﴾ .

و/ إن كانت الإشارة إلى المشار إليه أولا فهو من التعليل بعلتين فأكثر (فيجيء) فيه تعداد (العلل ، والعلل) الشرعية يصحّ تعدّدها مطلقا ، وكذلك العقلية (تتعدد) لكن بالنوع لا

بالشخص ، وإن كانت الإشارة إلى العلة الأولى فيكون من تعليل المعصية بمعصية أخرى .

فإن قلت : إذا كانتا علتين فهلا عطف بالواو ولم (يكرر) اسم الإشارة بكأن يقال : وبما عصوا ؟

فالجواب : أنه إشارة إلى أن كل واحدة منهما علة مستقلة يحسن التعليل بها .

فإن قلت : لم أُكّدت الأولى دون الثانية بأن ؟

قلنا : (الغرابة) القتل ، وعدم تكرره بخلاف المعصية والاعتداء فإنّه يكثر تكرره ، ويتجدّد شيئًا فشيئًا ، ونفي (أكثريته) لا يدعيه أحد .

(67/53)

قال الطيبي : على أن القتل والاعتداء علتان (تكون) الأولى للمصاحبة بمعنى مع ، والثانية للسبب .

وفيه (تقديم) وتأخير ، أي ذلك بكفرهم (وعصيانهم) مع قتلهم النبيئين بغير الحق .

قال ابن عرفة : الصواب إنما للسبب مطلقا ولا يحتاج إلى تقديم ولا (إلى) تأخير . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عرفة صـ 303. 310 ﴾

ومن فوائد أبى حيان فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد ﴾ : لما سئموا من الإقامة في التيه ، والمواظبة على مأكول واحد ، لبعدهم عن الأرض التي ألفوها ، وعن العوائد التي عهدوها ، أخبروا عما وجدوه من عدم الصبر على ذلك وتشوفهم إلى ما كانوا يألفون ، وسألوا موسى أن يسأل الله لهم .

وأكثر أهل الظاهر من المفسرين على أن هذا السؤال كان معصية ، قالوا : لأنهم كرهوا إنزال المن والسلوى ، وتلك الكراهة معصية ، ولأن موسى وصف ما سألوه بأنه أدنى وما كانوا عليه بأنه خير ، وبأن قوله : ﴿ أتستبدلون ﴾ هو على سبيل الإنكار .

والجواب ، أن قولهم : ﴿ لن نصبر على طعام واحد ﴾ لا يدل على عدم الرضا به فقط ، بل اشتهوا أشياء أخر .

وأما الإنكار فلأنه قد يكون لما فيه من تفويت الأنفع في الدنيا ، أو الأنفع في الآخرة .

وأما الخيرية فسيأتي الكلام فيها ، وإنما كان سؤالاً مباحاً ، والدليل عليه أن قوله : ﴿ كلوا واشربوا ﴾ من قبل هذه الآية ، عند إنزال المن وتفجير العين ليس بإيجاب بل هو إباحة ، وإذا كان كذلك لم يكن قولهم : ﴿ لن نصبر على طعام واحد ﴾ معصية لأن من أبيح له صنوف من الطعام يحسن منه أن يسأل غيرها ، إما بنفسه أو على لسان الرسول .

ولما كان سؤال النبي أقرب للإجابة ، سألوه عن ذلك ، ولأن النوع الواحد أربعين سنة يمل ويشتهي إذ ذاك غيره ، ولأنهم ما تعودوا ذلك النوع .

(68/53)

ورغبة الإنسان فيما اعتاده ، وإن كان خسيساً ، فوق رغبة ما لم يعتده ، وإن كان شريفاً ، ولأن ذلك يكون سبباً لانتقالهم عن التيه الذي ملوه ، لأن تلك الأطعمة لا توجد فيه ، فأرادوا الحلول بغيره ، ولأن المواظبة على طعام واحد سبب لنقص الشهوة وضعف الهضم وقلة الرغبة ، والاستكثار من الأنواع بعكس ذلك .

فثبت بهذا أن تبديل نوع بنوع يصلح أن يكون مقصوداً للعقلاء ، وثبت أنه ليس في القرآن ما يدل على أنهم كانوا ممنوعين عنه ، فثبت أنه لا يجوز أن يكون معصية .

ومما يؤكد ذلك قوله : ﴿ اهبطوا مصراً فإن لكم ما سألتم ﴾ هو كالإجابة لما طلبوا .

ولو كانوا عاصين في ذلك السؤال لكانت الإجابة إليه معصية ، وهي غير جائزة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

ووصف الطعام بواحد ، وإن كان طعامين ، لأنه المنّ والسلوى اللذان رزقوهما في التيه ، لأنهم أرادوا بالواحد ما لا يختلف ولا يتبدل ، ولو كان على مائدة الرجل ألوان عديدة يداوم

عليها كل يوم لا يبدلها قيل : لا يأكل فلان إلا طعاماً واحداً ، يراد بالوحدة نفي التبدل والاختلاف .

ويجوز أن يريدوا أنهما ضرب واحد لأنهما معاً من طعام أهل التلذذ والسرف ، ونحن قوم فلاحة أهل زراعات ، فما نريد إلا ما ألفناه وضرينا به من الأشياء المتفاوتة ، كالحبوب والبقول ونحوهما .

ذكر هذين الوجهين في معنى الواحد الزمخشري .

وقيل : أعاد على لفظ الطعام من حيث أنه مفرد لا على معناه .

وقيل : كانوا يأكلون المن والسلوى مختلطين ، فيصير بمنزلة اللون الذي يجمع أشياء ويسمى لوناً واحداً ، قاله ابن زيد .

وقيل : كان طعامهم يأتيهم بصفة الوحدة ، نزل عليهم المن فأكلوا منه مدة حتى سئموه وملوه ، ثم انقطع عنهم ، فأنزل عليهم السلوى فأكلوها مدة وحدها .

وقيل : أرادوا بالطعام الواحد السلوى ، لأن المن كان شراباً ، أو شيئاً يتحلون به ، وما كانوا يعدون طعاماً إلا السلوى .

وقيل : عبر عنهما بالواحد ، كما عبر بالإثنين عن الواحد نحو : ﴿ يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ﴾ وإنما يخرج من أحدهما وهو الملح دون العذب .

وقيل : قالوا ذلك عند نزول أحدهما .

وقيل : معناه لن نصبر على أننا كلنا أغنياء ، فلا يستعين بعضنا ببعض ، ويكون قد كنى بالطعام الواحد عن كونهم نوعاً واحداً ، وهو كونهم ذوي غنى ، فلا يخدم بعضهم بعضاً ، وكذلك كانوا في التيه ، فلما خرجوا منه عادوا لما كانوا عليه من فقر بعض وغنى بعض .

فهذه تسعة أقوال في معنى قوله : ﴿ على طعام واحد ﴾ .

﴿ فادع لنا ربك ﴾ : معناه : اسأله لنا ، ومتعلق الدعاء محذوف ، أي ادع لنا ربك بأن يخرج كذا وكذا .

ولغة بني عامر : فادع بكسر العين ، جعلوا دعا من ذوات الياء ، كرمى يرمي ، وإنما سألوا من موسى أن يدعو لهم بما اقترحوه ولم يدعوا هم ، لأن إجابة الأنبياء أقرب من إجابة غيرهم ، ولذلك قالوا : ربك ، ولم يقولوا : ربنا ، لأن في ذلك من الاختصاص به ما ليس فيهم من مناجاته وتكليمه وإتيانه التوراة ، فكأنهم قالوا : ادع لنا الذي هو محسن لك ، فكما أحسن إليك في أشياء ، كذلك نرجو أن يحسن إلينا في إجابة دعائك .

﴿ يخرج لنا ﴾ : جزمه على جواب الأمر الذي هو ادع ، وقد مر نظيره في ﴿ أوفوا بعهدي أوف بعهدكم ﴾ وقيل : ثم محذوف تقديره : وقل له أخرج فيخرج ، مجزوم على جواب

هذا الأمر الذي هو اخرج.

وقيل : جزم يخرج بلام مضمرة ، وهي لام الطلب ، أي ليخرج ، وهذا عند البصريين لا يجوز .

﴿ مما تنبت الأرض ﴾ : مفعول يخرج محذوف ومن تبعيضة : أي مأكولاً مما تنبت ، هذا على مذهب سيبويه .

وقال الأخفش : من زائدة ، التقدير : ما تنبت ، وما موصولة ، والعائد محذوف تقديره ، تنبته ، وفيه شروط جواز الحذف ، وأجاز بعضهم أن تكون ما مصدرية تقديره : من إنبات الأرض .

(70/53)

قال أبو البقاء : لا يجوز ذلك لأن المفعول المقدر لا يوصف بالإنبات ، لأن الإنبات مصدر ، والمحذوف جوهر ، وإضافة الإنبات إلى الأرض مجاز ، إذ المنبت هو الله تعالى ، لكنه لما جعل فيها قابلية الإنبات نسب الإنبات إليها .

﴿ من بقلها ﴾ : هذا بدل من قوله : ﴿ مما تنبت الأرض ﴾ ، على إعادة حرف الجرّ ، وهو فصيح في الكلام ، أعني أن يعاد حرف الجرّ في البدل .

فمن على هذا التقدير تبعيضية ، كهي في مما تنبت ، ويتعلق بيخرج ، إمّا الأولى ، وإمّا أخرى مقدّرة على الخلاف الذي في العامل في البدل ، هل هو العامل الأول ، أو ذلك على تكرار العامل ؟ والمشهور هذا الثاني ، وأجاز المهدويّ أيضاً ، وابن عطية ، وأبو البقاء أن تكون من في قوله : ﴿ من بقلها ﴾ لبيان الجنس ، وعبر عنها المهدويّ بأنها للتخصيص ، ثم اختلفوا ، فقال أبو البقاء : موضعها نصب على الحال من الضمير المحذوف تقديره : مما تنبته الأرض كائناً من بقلها ، وقدّم ذكر هذا الوجه قال : ويجوز أن تكون بدلاً من ما الأولى بإعادة حرف الجر .

وأما المهدوي ، وابن عطية فزعما مع قولهما : إن من في ﴿ من بقلها ﴾ بدل من قوله : ﴿ مما تنبت ﴾ ، وذلك لأن من في قوله ﴿ مما تنبت ﴾ للتبعيض ، ومن في قوله ﴿ من بقلها ﴾ على زعمهما لبيان الجنس .

فقد اختلف مدلول الحرفين ، واختلاف ذلك كاختلاف الحرفين ، فلا يجوز البدل إلا أن ذهب ذاهب إلى أن من في قوله : ﴿ مما تنبت الأرض ﴾ لبيان الجنس ، فيمكن أن يفرّع القول بالبدل على كونها لبيان الجنس .

والمختار ما قدّمناه من كون من في الموضعين للتبعيض ، وأمّا أن تكون لبيان الجنس ، فقد أباه أصحابنا وتأوّلوا ما استدلّ به مثبت ذلك ، والمراد بالبقل هنا : أطايب البقول التي يأكلها الناس ، كالنعناع ، والكرفس ، والكرّاث ، وأشباهها ، قاله الزمخشري .

وقرأ يحيى بن وثاب وطلحة بن مصرف وغيرهما : وقثائها بضم القاف ، وقد تقدّم أنها لغة .

(71/53)

﴿ وفومها ﴾ : تقدّم الكلام فيه ، وللمفسرين فيه أقاويل ستة : أحدها : أنه الثوم ، وبينته قراءة ابن مسعود : وثومها بالثاء ، وهو المناسب للبقل والعدس والبصل .

الثاني : قاله ابن عباس والحسن وقتادة والسدّي : أنه الحنطة .

الثالث : أنه الحبوب كلها .

الرابع : أنه الخبز ، قاله مجاهد وابن عطاء وابن زيد .

الخامس : أنه الحمص .

السادس : أنه السنبلة .

﴿ وعدسها وبصلها ﴾ : وأحوال هذه الخمسة التي ذكروها مختلفة ، فذكروا ، أولاً : ما هو جامع للحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة ، إذ البقل منه ما هو بارد رطب كالهندبا ، ومنه ما هو حار يابس كالكرفس والسداب ، ومنه ما هو حار وفيه رطوبة عرضية كالنعناع .

وثانياً القثاء ، وهو بارد رطب .

وثالثاً : الثوم ، وهو حار يابس .

ورابعاً : العدس ، وهو بارد يابس .

وخامساً : البصل ، وهو حار رطب ، وإذا طبخ صار بارداً رطباً ، فعلى هذا جاء ترتيب ذكر هذه الخمسة .

﴿ قال أتستبدلون ﴾ : الضمير في قال ظاهر عوده على موسى ، ويحتمل عوده على الرب تعالى ، ويؤيده ﴿ اهبطوا مصراً فإن لكم ما سألتم ﴾ ، والهمزة في ﴿ أتستبدلون ﴾ للإنكار ، والاستبدال : الاعتياض .

وقرأ أبيّ : أتبدّلون ، وهو مجاز لأن التبديل ليس لهم إنما ذلك إلى الله تعالى ، لكنهم لما كانوا يحصل التبديل بسؤالهم جعلوا مبدّلين ، وكان المعنى : أتسألون تبديل .

﴿ الذي هو أدنى بالذي هو خير ﴾ ، والذي : مفعول أتستبدلون ، وهو الحاصل ، والذي دخلت عليه الباء هو الزائل ، كما قررناه في غير مكان .

هو أدنى : صلة للذي ، وهو هنا واجب الإثبات على مذهب البصريين ، إذ لا طول في الصلة ، وأدنى : خبر عن هو ، وهو : أفعل التفضيل ، ومن وما دخلت عليه حذفاً للعلم ، وحسن حذفهما كون أفعل التفضيل خبراً ، فإن وقع غير خبر مثل كونه حالاً أو صفة قل الحذف وتقديره : أدنى من ذلك الطعام الواحد ، وحسن حذفهما أيضاً كون المفضل عليه مذكوراً بعد ذلك ، وهو قوله : ﴿ بالذي هو خير ﴾ ، وأفرد : ﴿ الذي هو أدنى ﴾ لأنه أحال به على المأكول الذي هو ﴿ مما تنبت الأرض ﴾ ، وعلى ما من قوله : ﴿ مما تنبت ﴾ ، فيكون قد راعى المبدل منه ، إذ لو راعى البدل لقال : أتستبدلون اللاتي هي أدنى ، وقد تقدّم القول في أدنى عند الكلام على المفردات ، وذكرنا الأقاويل الثلاثة فيها .

وقرأ زهير الفرقبي ، ويقال له زهير الكسائي : أدنأ بالهمز ، ووقع البعض من جمع في التفسير ، وهم في نسبة هذه القراءة للكسائي ، فقال : وقرأ زهير والكسائي شاذاً : أدنأ ، فظن أن هذه قراءة الكسائي ، وجعل زهيراً والكسائي شخصين ، وإنما هو زهير الكسائي يعرف بذلك ، وبالفرقبي ، فهو رجل واحد .

فأما تفسير : الأدنى والخير هنا ففيه أقاويل : أحدها : قال الزجاج : تفاضل الأشياء بالقيم ، وهذه البقول لا خطر فيها ولا علو قيمة ، والمنّ والسلوى هما أعلا قيمة وأعظم خطراً ، واختار هذا الزمخشري ، قال : أقرب منزلة وأهون مقداراً ، والدنو والقرب يعبر بهما عن قلة المقدار فيقال : هو أدنى المحل وقريب المنزلة ، كما يعبر بالعبد عن عكس ذلك

فيقال : بعيد المحل بعيد المنزلة ، يريدون الرفعة والعلو .

انتهى كلامه ، وهو من كلام الزجاج .

والثاني : أن المنّ والسلوى هو الذي منّ الله به وأمرهم بأكله ، وفي استدامة ما أمر الله به وشكر نعمته أجر وذخر في الآخرة ، والذي طلبوه عار من هذه الخصال فكان أدنى من هذا الوجه .

(73/53)

الثالث : أن التفضيل يقع من جهة الطيب واللذة ، والمن والسلوى لا شك أنهما أطيب من البقول التي طلبوها .

الرابع : أن المنّ والسلوى لا كلفة في تحصيله ولا تعب ولا مشقة ، والبقول لا تحصل إلا بعد مشقة الحرث والزرع والخدمة والسقي ، وما حصل بلا مشقة خير مما حصل بمشقة .

الخامس : أن المنّ والسلوى لا شك في حله وخلوصه لنزوله من عند الله ، والحبوب والأرض يتخللها العيوب والغصوب ويدخلها الحرام والشبهة ، وما كان حلاً خالصاً أفضل مما يدخله الحرام والشبهة .

السادس : أن المنّ والسلوى يفضلان ما سألوه من جنس الغذاء ونفعه .

وملخص هذه الأقوال : هل الأدنوية والخيرية بالنسبة إلى القيمة ، أو امتثال الأمر وما يترتب عليه ، أو اللذة ، أو الكلفة ، أو الحل ، أو الجنس ؟ أقوال ستة .

وأما قراءة زهير فهي من الدناءة .

وقد تقدم أن أدنى غير المهموز قيل إن أصلها الهمزة فسهل كهذه القراءة ، ومن قال بالقلب وإن أصله أدون ، فالدناءة والدون راجعان إلى معنى واحد ، وهو الخِسة ، وهو من جهة المعنى أحسن مقابلة لقوله : ﴿ بالذي هو خير ﴾ .

ومن جعل أدنى بمعنى أقرب ، لأن الأدون والأدنأ يقابلهما الخير ، والأدنى بمعنى الأقرب يقابله الأبعد ، وحذف من ومعمولها بعد قوله : هو خير ، لما ذكرناه في قوله : هو أدنى ، من وقوع أفعل التفضيل خبراً وتقديره : منه ، أي من : ﴿ الذي هو أدنى ﴾ .

وكانت ها تان الصلتان جملتين إسميتين لثبوت الجملة الإسمية ، وكان الخير أفعل التفضيل ، لأنه لا دلالة فيها على تعيين زمان ، بل في ذلك إثبات الأدنوية والخيرية من غير تقييد بزمان ، بخلاف الجملة الفعلية ، فإنه كان يتعين الزمان ، أو يتجوز في ذلك ، إن لم يقصد التعيين ، فكان الوصل بما هو حقيقة في عدم الدلالة على التعيين أفصح ، وكانت صلة ما في قوله : مما تنبت ، جملة فعلية ، لأن الفعل عندهم يشعر بالتجدد والحدوث ، والإنبات متجدد دائماً ، فناسب كل مكان ما يليق به من الصلة .

﴿ اهبطوا مصراً ﴾ : في الكلام حذف على تقدير أن القائل : ﴿ أتستبدلون ﴾ هو موسى ، وتقدير المحذوف ، فدعا موسى ربه فأجابه ، ﴿ قال اهبطوا ﴾ وتقدّم معنى الهبوط ، ويقال : هبط الوادي : حل به ، وهبط منه : خرج ، وكان القادم على بلد ينصبّ عليه .

وقرىء اهبطوا ، بضم الباء ، وهما لغتان ، والأفصح الكسر ، والجمهور على صرف مصراً هنا .

وقرأ الحسن وطلحة والأعمش وأبان بن تغلب : بغير تنوين ، وبين كذلك في مصحف أبي بن كعب ، ومصحف عبد الله ، وبعض مصاحف عثمان .

فأما من صرف فإنه يعني مصراً من الأمصار غير معين ، واستدلوا بالأمر بدخول القرية ، وبأنهم سكنوا الشام بعد التيه ، وبأن ما سألوه من البقل وغيره لا يكون إلا في الأمصار ، وهذا قول قتادة والسدي ومجاهد وابن زيد .

وقيل : هو مصر غير معين لكنه من أمصار الأرض المقدسة ، بدليل : ادخلوا الأرض المقدسة .

وقيل : أراد بقوله : مصراً وإن كان غير معين مصر فرعون ، وهو من إطلاق النكرة ، ويراد بها المعين ، كما تقول : ائتني برجل ، وأنت تعني به زيداً .

قال أشهب ، قال لي مالك : هي مصر قريتك مسكن فرعون .

وأجاز من وقفنا على كلامه من المعربين والمفسرين أن تكون مصر هذه المنوّنة هي الاسم العلم .

والمراد بقوله : ﴿ أن تبوّآ لقومكما بمصر بيوتاً ﴾ قالوا : وصرف ، وإن كان فيه العلمية والتأنيث ، كما صرف هند ودعد لمعادلة أحد السببين ، لخفة الاسم لسكون وسطه ، قاله الأخفش ، أو صرف لأنه ذهب باللفظ مذهب المكان ، فذكره فبقي فيه سبب واحد فانصرف .

وشبهه الزمخشري في منع الصرف ، وهو علم بنوح ولوط حيث صرفا ، وإن كان فيهما العلمية والعجمة لخفة الاسم بكونه ثلاثياً ساكن الوسط ، وهذا ليس كما ذهبوا إليه من أنه مشبه لهند ، أو مشبه لنوح ، لأن مصر اجتمع فيه ثلاثة أسباب وهي : التأنيث والعلمية والعجمة .

(75/53)

فهو يتحتم منع صرفه بخلاف هند ، فإنه ليس فيه سوى العلمية والتأنيث ، على أن من النحويين من خالف في هند ، وزعم أنه لا يجوز فيه إلا منع الصرف ، وزعم أنه لا دليل على

ما ادعى النحويون من الصرف في قوله :

لم تتلفع بفضل مئزرها دعد . . .

ولم تسق دعد في العلب

وبخلاف نوح ، فإن العجمة لم تعتبر إلا في غير الثلاثي الساكن الوسط ، وأما إذا كان ثلاثياً ساكن الوسط فالصرف .

وقد أجاز عيسى بن عمر منع صرفه قياساً على هند ، ولم يسمع ذلك من العرب إلا مصروفاً ، فهو قياس على مختلف فيه مخالف لنطق العرب ، فوجب اطراحه .

وقال الحسن بن بحر : المراد بقوله مصراً ، البيت المقدس ، يعني أن اللفظ ، وإن كان نكرة ، فالمراد به معين ، كما قلنا في قول من قال : إنه أراد به وإن كان نكرة مصر المعينة .

وأمّا من قرأ مصر بغير تنوين ، فالمراد مصر العلم ، وهي دار فرعون .

واستبعد بعض الناس قول من قال : إنها مصر فرعون ، قال : لأنهم من مصر خرجوا ، وأمروا بالهبوط إلى الأرض المقدسة لقتال الجبارين فأبوا ، فعذبوا بالتيه أربعين سنة لتخلفهم عن قتال الجبارين ، ولقولهم : ﴿ اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ﴾ فماتوا جميعاً في التيه ، وبقي أبناؤهم ، فامتثلوا أمر الله ، وهبطوا إلى الشام ، وقاتلوا الجبارين ، ثم عادوا إلى البيت المقدّس .

ولم يصرّح أحد من المفسرين والمؤرخين أنهم هبطوا من التيه إلى مصر .

انتهى كلامه .

فتلخص من قراءة التنوين : أن يكون المراد مصراً غير معين لا من الشام ولا من غيره ، أو مصراً غير معين من أمصار الشام ، أو معيناً ، وهو بيت المقدس ، أو مصر فرعون ، فهذه أربعة أقوال .

(76/53)

﴿ فإن لكم ما سألتم ﴾ : هذه الجملة جواب للأمر ، كما يجاب بالفعل المجزوم ، ويجري فيه الخلاف الجاري فيه : هل ضمن اهبطوا مصراً معنى أن تهبطوا أو أضمر الشرط ؟ وفعله بعد فعل الأمر كأنه قال : أن تهبطوا مصراً فإن لكم ما سألتم ، وفي ذلك محذوفان : أحدهما : ما يربط هذه الجملة بما قبلها ، وتقديره : فإن لكم فيها ما سألتم .

والثاني : الضمير العائد على ما ، تقديره : ما سألتموه ، وشروط جواز الحذف فيه موجودة .

وقرأ إبراهيم النخعي ويحيى بن وثاب : سألتم : بكسر السين ، وهذا من تداخل اللغات ، وذلك أن في سأل لغتين : إحداهما : أن تكون العين همزة فوزنه فعل .

والثانية : أن تكون العين واواً تقول : سأل يسأل ، فتكون الألف منقلبة عن واو ، ويدل على

أنه من الواو ، وقولهم : هما يتساولان ، كما تقول : يتجاوبان ، وحين كسر السين توهم أنه فتحها ، فأتى بالعين همزة ، قال الشاعر :

إذا جئتهم وسألتهم . . .

وجدت بهم علة حاضره

الأصل ساءلتهم ، والمعروف إبدال الهمزة ياء ، فتقول : سايلتهم ، فجمع بين العوض وهو الياء ، وبين المعوض منه وهو الهمزة لكنه لما اضطر قدم الهمزة قبل ألف فاعل .

وقال ابن جني : يحتمل أن يكون إبدال الهمزة في سألتم ياء ، كما أبدلت ألفاً في قوله :

سألت هذيل رسول الله فاحشة . . .

فانكسر السين قبل الياء ، ثم تنبه للهمز فهمز .

والمعنى : ما سألتم من البقول والحبوب التي اخترتموها على المن والسلوى .

وقيل : ما سألتم من اتكالكم على تدبير أنفسكم في مصالح معاشكم وأحوال أقواتكم .

﴿ وضربت عليهم الذلة والمسكنة ﴾ : معنى الضرب هنا : الإلزام والقضاء عليهم ، من ضرب الأمير البعث على الجيش ، وكقول العرب : ضربة لازم ، ويقال : ضرب الحاكم على اليد ، وضرب الدهر ضرباته ، أي ألزم إلزاماته ، وقيل : معناه الإحاطة بهم والاشتمال عليهم مأخوذ من ضرب القباب .

ومنه قول الفرزدق :

ضربت عليك العنكبوت بنسجها . . .

وقضى عليك بها الكتاب المنزل

(77/53)

وقيل : معناه التصقت بهم ، من ضربت الحائط بالطين : ألصقته به .

وقيل : معناه جعلت من ضربت الطين خزفاً ، أي جعلت عليهم الذلة والمسكنة .

أما الذلة فقيل : هي هوانهم بما ضرب عليهم من الجزية التي يؤدّونها عن يد وهم صاغرون ،

وقيل : هي ما ألزموا به من إظهار الزيّ ليعلم أنهم يهود ، ولا يلتبسوا بالمسلمين ، وقيل : فقر النفس وشحها ، فلا ترى ملة من الملل أذل وأحرص من اليهود .

وأما المسكنة : فالخشوع ، فلا يرى يهودي إلا وهو بادي الخشوع ، أو الخراج ، وهو الجزية ، قاله الحسن وقتادة ، أو الفاقة والحاجة ، قاله أبو العالية ، أو ما يظهرونه من سوء حالهم مخافة أن تضاعف عليهم الجزية ، أو الضعف ، فتراه ساكن الحركات قليل النهوض .

واستبعد صاحب المنتخب قول من فسر الذلة بالجزية ، لأن الجزية لم تكن مضروبة عليهم من أول أمرهم .

وقيل : هو من المعجزات ، لأنه أخبر عنه صلى الله عليه وسلم .

فكان كما أخبر ، والمضروب عليهم الذلة والمسكنة اليهود المعاصرون لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، قاله الجمهور ، أو الذين كفروا بآيات الله وقتلوا الأنبياء بغير حق .

والقائلون : ﴿ ادع لنا ربك ﴾ ومن تابعهم من أبنائهم أقوال ثلاثة .

﴿ وباؤا بغضب من الله ﴾ : تقدم تفسيره باء ، فعلى من قال : باء : رجع ، تكون الباء للحال ، أي مصحوبين بغضب ، ومن قال : استحق ، فالباء صلة نحو : لا يقرأن بالسور : أي استحقوا غضباً ، ومن قال : نزل وتمكن أو تساووا ، والباء ظرفية ، فعلى القول الأول تتعلق بمحذوف ، وعلى الثاني لا تتعلق ، وعلى الثالث بنفس باء .

وزعم الأخفش أن الباء في قوله بغضب للسبب ، فعلى هذا تتعلق بباء ، ويكون مفعول باء محذوفاً ، أي استحقوا العذاب بسبب غضب الله عليهم .

(78/53)

وباء يستعمل في الخير : ﴿ لنبوئنهم من الجنة غُرَفاً ﴾ ﴿ ولقد بوّأنا بني إسرائيل مبوّأ صدق ﴾ ﴿ تتبوأ من الجنة حيث نشاء ﴾ وفي الشر : ﴿ وباؤا بغضب من الله ﴾ ﴿ أن تبوأ بإثمي وإثمك ﴾ ﴿ فباؤا بغضب على غضب ﴾ وقد جاء استعمال المعنيين في الحديث : " أبوء بنعمتك عليّ وأبوء بذنبي " وقال بعض الناس : باء لا تجيء إلا في الشر .

والغضب هنا ما حل بهم من البلاء والنقم في الدنيا ، أو ما يحل بهم من العذاب في الآخرة .

ويكون باؤوا في معنى يبوؤون ، نحو ﴿ أزفت الآزفة ﴾ ﴿ اقتربت الساعة ﴾ ﴿ من الله ﴾ يحتمل أن يكون متعلقاً بباؤوا إذا كان باء بمعنى رجع ، وكأنهم كانوا مقبلين على الله تعالى ، فبعصيانهم رجعوا منه ، أي من عنده بغضب .

ويحتمل أن يكون متعلقاً بمحذوف ويكون في موضع الصفة ، أي بغضب كائن من الله ، وهذا الوجه ظاهر إذا كان باء بمعنى استحق ، أو بمعنى نزل وتمكن ، ويبعد الوجه الأول ، وفي وصف الغضب بكونه من الله تعظيم للغضب ، وتفخيم لشأنه .

﴿ ذلك بأنهم ﴾ الإشارة إلى المباءة بالغضب ، أو المباءة .

والضرب وهو مبتدأ ، والجار والمجرور بعده خبر ، والباء للسبب ، أي ذلك كائن بكفرهم وقتلهم .

﴿ كانوا يكفرون بآيات الله ﴾ : الآيات المعجزات التسع وغيرها التي أتى بها موسى ، أو التوراة ، أو آيات منها ، كالآيات التي فيها صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو فيها الرّجم ، أو القرآن ، أو جميع آيات الله المنزلة على الرسل ، أقوال خمسة ، وإضافة الآيات إلى الله لأنها من عنده تعالى .

﴿ ويقتلون النبيين ﴾ : قتلوا يحيى وشعيا وزكريا .

وروي عن ابن مسعود قتل بنو إسرائيل سبعين نبياً ، وفي رواية ثلاثمائة نبي في أول النهار ،

وقامت سوق قتلهم في آخره .

وعلى هذا يتوجه قراءة من قرأ : يقتلون بالتشديد لظهور المبالغة في القتل ، وهي قراءة علي .

وقرأ الحسن : وتقتلون بالتاء ، فيكون ذلك من الالتفات .

(79/53)

وروي عنه بالياء كالجماعة ، ولا فرق في الدلالة بين النبيين والأنبياء ، لأن الجمعين إذا دخلت عليهما أل تساويا بخلاف حالهما إذا كانا نكرتين ، لأن جمع السلامة إذ ذاك ظاهر في القلة ، وجمع التكسير على أفعلاء ظاهر في الكثرة .

وقرأ نافع : بهمز النبيين والنبىء والأنبياء والنبوءة ، إلا أن قالون أبدل وأدغم في الأحزاب في : ﴿ إن وهبت نفسها للنبي ﴾ إن أراد وفي ﴿ لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن ﴾ في الوصل .

وقرأ الجمهور بغير همز ، وقد تقدّم الكلام عليه في المفردات .

﴿ بغير الحق ﴾ : متعلق بقوله : وتقتلون ، وهو في موضع نصب على الحال من الضمير في تقتلون ، أي تقتلونهم مبالغة .

قيل : ويجوز أن تكون منعة لمصدر محذوف ، أي قتلا بغير حق .

وعلى كلا الوجهين هو توكيد ، ولم يرد هذا على أن قتل النبيين ينقسم إلى قتل بحق وقتل بغير حق ، بل ما وقع من قتلهم إنما وقع بغير حق ، لأن النبي معصوم من أن يأتي أمراً يستحق عليه فيه القتل ، وإنما جاء هذا القيد على سبيل التشنيع لقتلهم ، والتقبيح لفعلهم مع أنبيائهم ، أي بغير الحق عندهم ، أي لم يدّعوا في قتلهم وجهاً يستحقون به القتل عندهم .

وقيل : جاء ذلك على سبيل التأكيد كقوله : ﴿ ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ﴾ إذ لا يقع قتل نبي إلا بغير الحق ، ولم يأت نبي قط بما يوجب قتله ، وإنما قتل منهم من قتل كراهة له وزيادة في منزلته .

قال ابن عباس وغيره : لم يقتل نبي قط من الأنبياء إلا من لم يؤمر بقتال ، وكل من أمر بقتال نصر .

قيل : وعرّف الحق هنا لأنه أشير به إلى المعهود في قوله عليه السلام : " لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث " وأما المنكر فالمراد به تأكيد العموم ، أي لم يكن هناك حق لا ما يعرفه المسلمون ولا غيره .

﴿ ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾ ، ذلك : رد على الأول وتكرير له ، فأشير به لما أشير بذلك الأول ، ويجوز أن تكون إشارة إلى الكفر والقتل المذكورين ، فلا يكون تكريراً ولا توكيداً ، ومعناه : أن الذي حملهم على جحود آيات الله وقتلهم الأنبياء إنما هو تقدم عصيانهم واعتدائهم ، فجسرهم هذا على ذلك ، إذا المعاصي يريد الكفر .

﴿ بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾ ﴿ وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم ﴾ وقولهم ﴿ قلوبنا غلف بل طبع الله عليهم بكفرهم ﴾ وقد تقدّم تفسير العصيان والاعتداء لغة ، وقد فسر الاعتداء هنا أنه تجاوزهم ما حدّ الله لهم من الحق إلى الباطل .

وقيل : التمادي على المخالفة وقتل الأنبياء .

وقيل : العصيان بنقض العهد والاعتداء بكثرة قتل الأنبياء .

وقيل : الاعتداء بسبب المخالفة والإقامة على ذلك الزمن الطويل أثر عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " اختلفت بنو إسرائيل بعد موسى بخمسمائة سنة حين كثر فيهم أولاد السبايا ، واختلفوا بعد عيسى بمائة سنة " .

وقيل : هو الاعتداء في السبت ، قال تعالى : ﴿ وقلنا لهم لا تعدوا في السبت ﴾ وما : في قوله ﴿ بما عصوا ﴾ مصدرية ، أي ذلك بعصيانهم ، ولم يعطف الاعتداء على العصيان لئلا يفوت تناسب مقاطع الآي ، وليدل على أن الاعتداء صار كالشيء الصادر منهم دائماً .

ولما ذكر تعالى حلول العقوبة بهم من ضرب الذلة والمسكنة والمباءة بالغضب ، وبين علة ذلك ، فبدأ بأعظم الأسباب في ذلك ، وهو كفرهم بآيات الله . .

ثم ثنى بما يتلو ذلك في العظم وهو قتل الأنبياء ، ثم أعقب ذلك بما يكون من المعاصي ، وما يتعدى من الظلم .

(81/53)

قال معنى هذا صاحب المنتخب ، ويظهر أن قوله ذلك بأنهم كانوا يكفرون ويقتلون ، تعليل لضرب الذلة والمسكنة والمباءة بالغضب ، وأن الإشارة بقوله ﴿ ذلك بما عصوا ﴾ إشارة إلى الكفر والقتل ، وبما تعليل لهما فيعود العصيان إلى الكفر ، ويعود الاعتداء إلى القتل ، فيكون قد ذكر شيئين وقابلهما بشيئين .

كما ذكر أولاً شيئين وهما : الضرب والمباءة ، وقابلهما بشيئين وهما : الكفر والقتل ، فجاء هذا لفاً ونشراً في المؤمنين ، وذلك من محاسن الكلام وجودة تركيبه ، ويخرج بذلك عن التأكيد الذي لا يصار إليه إلا عند الحاجة ، وذلك بأن يكون الكلام يبعد أن يحمل على التأسيس .

وقد تضمنت هذه الآيات من لطائف الامتنان وغرائب الإحسان لبني إسرائيل فصولاً ،

منها : أنهم أمروا بدخول القرية التي بها يتحصنون ، والأكل من ثمراتها ما يشتهون ، ثم كلفوا النزر من العمل والقول ، وهو دخول بابها ساجدين ، ونطقهم بلفظة واحدة تائبين ، ورتب على هذا النزر غفران جرائمهم العظيمة وخطاياهم الجسيمة ، فخالفوا في الأمرين فعلاً وقولاً ، جرياً على عادتهم في عدم الامتثال ، فعاقبهم على ذلك بأشد النكال .

ثم ذكر تعالى ما كان عليه موسى عليه السلام من العطف عليهم وسؤال الخير لهم ، وذلك بأن دعا الله لهم بالسقيا ، فأحاله على فعل نفسه بأن أنشأ لهم ، من قرع الصفا بالعصا ، عيوناً يجري بها ما يكفيهم من الماء ، معيناً على الوصف الذي ذكره تعالى من كون تلك العيون على عدد الأسباط ، حتى لا يقع منهم مشاحة ولا مغالبة ، وأعلمهم بأن ذلك منه رزق ، وأمروا بالأكل منه والشرب ، ثم نهوا عن الفساد ، إذ هو سبب لقطع الرزق .

(82/53)

ثم ذكر تعالى تبرمهم من الرزق الذي امتن به عليهم ، فلجوا في طلب ما كان مألوفهم إلى نبيهم فقالوا : ﴿ ادع لنا ربك ﴾ ، وذلك جري على عادته معهم ، إذ كان يناجي ربه فيما كان عائداً عليهم بصلاح دينهم ودنياهم ، وذكر توبيخه لهم على ما سألوه من استبدال الخسيس بالنفيس ، وبما لا نصب في اكتسابه ما فيه العناء الشاق ، إذ ما طلبوه يحتاج إلى

استفراغ أوقاتهم المعدة لعبادة ربهم في تحصيله ، ومع ذلك فصارت أغذية مضرة مؤذية جالبة أخلاطاً رديئة ، ينشأ عنها طمس أنوار الأبصار والبصائر ، بخلاف ما رزقهم الله ، إذ هو شيء واحد جيد ، ينشأ عنه صحة البدن وجودة الإدراك .

كان الخليل بن أحمد ، رحمه الله ، يستف دقيق الشعير ، ويشرب عليه الماء العذب ، وكان ذهنه أشرق أذهان أهل زمانه ، وكان قوي البدن يغزو سنة ويحج أخرى .

ثم أمروا بالحلول فيما فيه مطلبهم والهبوط إلى معدن ما سألوه ، ثم أخبر تعالى بما عاقبهم به من جعلهم أذلاء مساكين ومبائتهم بغضبه ، وإن ذلك متسبب عن كفرهم بالآيات التي هي سبب الإيمان ، لما احتوت عليه من الخوارق التي أعجزت الإنس والجان ، وعن قتلهم من كان سبباً لهدايتهم ، وهم الأنبياء ، إذ باتباعهم يحصل العز في الدنيا والفوز في الأخرى ، وأن الذي جرّ الكفر والقتل إليهم هو العصيان والاعتداء اللذان كانا سبقاً منهم قبل تعاطي الكفر والقتل .

إن الأمور صغيرها . . .

مما يهيج له العظيم

وقال :

والشر تحقره وقد ينمى . . . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 1 صـ 393 .

ومن فوائد ابن عطية فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ . . . الآية ﴾

كان هذا القول منهم في التيه حين ملوا المن والسلوى ، وتذكروا عيشهم الأول بمصر ، وكنى عن المن والسلوى ﴿ بطعام واحد ﴾ ، وهما طعامان ، لأنهما كانا يؤكلان في وقت واحد ، ولتكرارهما سواء أبداً قيل لهما ﴿ طعام واحد ﴾ ، ولغة بني عامر " فادعِ " بكسر العين . و ﴿ يخرج ﴾ : جزم بما تضمنه الأمر من معنى الجزاء ، وبنفس الأمر على مذهب أبي عمر الجرمي والمفعول على مذهب سيبويه مضمر تقديره مأكولاً مما تنبت الأرض ، وقال الأخفش : " من " في قوله : ﴿ مما ﴾ زائدة " وما " مفعولة ، وأبى سيبويه أن تكون " من " ملغاة في غير النفي ، كقولهم : ما رأيت من أحد ، و ﴿ من ﴾ في قوله : ﴿ من بقلها ﴾ لبيان الجنس ، و ﴿ بقلها ﴾ بدل بإعادة الحرف ، والبقل كل ما تنبته الأرض من النجم ، والقثاء جمع قثأة .

وقرأ طلحة بن مصرف ويحيى بن وثاب : " قُثائها " ، بضم القاف .

وقال ابن عباس وأكثر المفسرين : " الفوم الحنطة " .

وقال مجاهد : " الفوم الخبز " .

وقال عطاء وقتادة : " الفوم جميع الحبوب التي يمكن أن تختبز كالحنطة والفول والعدس ونحوه " .

وقال الضحاك : " الفوم الثوم " ، وهي قراءة عبد الله بن مسعود بالثاء ، وروي ذلك عن ابن عباس ، والثاء تبدل من الفاء ، كما قالوا ، مغاثير ومغافير ، وجدث وجدف ، ووقعوا في عاثور شر ، وعافور شر ، على أن البدل لا يقاس عليه ، والأول أصح : أنها الحنطة ، وأنشد ابن عباس قول أحيحة بن الجلاح : [الطويل]

قد كنت أغنى الناس شخصاً واجداً . . . ورد المدينة عن زراعة فوم

يعني حنطة .

قال ابن دريد : " الفوم الزرع أو الحنطة " ، وأزد السراة يسمون السنبل فوماً " ، والاستبدال طلب وضع الشيء موضع الآخر ، و ﴿ أدنى ﴾ مأخوذ عند أبي إسحاق الزجاج من الدنو أي القرب في القيمة .

(84/53)

وقال علي بن سليمان : " هو مهموز من الدنيء البين الدناءة ، بمعنى الأخس ، إلا أنه خففت همزته " .

وقال غيره : " هو مأخوذ من الدون أي الأحط ، فأصله أدون أفعل ، قلب فجاء أفلع ، وقلبت الواو ألفاً لتطرفها " .

وقرأ زهير للكسائي : " أدنأ " ، ومعنى الآية : أتستبدلون البقل والقثاء والفوم والعدس والبصل التي هي أدنى بالمن والسلوى الذي هو خير ؟ والوجه الذي يوجب فضل المن والسلوى على الشيء الذي طلبوه ، يحتمل أن يكون تفاضلها في القيمة ، لأن هذه البقول لا خطر لها ، وهذا قول الزجاج ، ويحتمل أن يفضل المن والسلوى لأنه الطعام الذي من الله به وأمرهم بأكله ، وفي استدامة أمر الله تعالى وشكر نعمته أجر وذخر في الآخرة ، والذي طلبوا عارٍ من هذه الخصال ، فكأن أدنى من هذا الوجه ، ويحتمل أن يفضل في الطيب واللذة به ، فالبقول لا محالة أدنى من هذا الوجه ، ويحتمل أن يفضل في حسن الغذاء ونفعه ، فالمن والسلوى خير لا محالة في هذا الوجه ، ويحتمل أن يفضل من جهة أنه لا كلفة فيه ولا تعب ، والذي طلبوا لا يجيء إلا بالحرث والزراعة والتعب ، فهو ﴿ أدنى ﴾ في هذا الوجه ، ويحتمل أن يفضل في أنه لا مرية في حله وخلوصه لنزوله من عند الله ، والحبوب والأرض يتخللها البيوع والغصوب وتدخلها الشبه ، فهي ﴿ أدنى ﴾ في هذا الوجه .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله : ويترتب الفضل للمن والسلوى بهذه الوجوه كلها ، وفي

الكلام حذف ، تقديره : فدعا موسى ربه فأجابه ، فقال لهم : ﴿ اهبطوا ﴾ ، وتقدم ذكر معنى الهبوط ، وكأن القادم على قطر منصب عليه ، فهو من نحو الهبوط ، وجمهور الناس يقرؤون " مصراً " بالتنوين وهو خط المصحف ، إلا ما حكي عن بعض مصاحف عثمان رضي الله عنه .

وقال مجاهد وغيره ممن صرفها : " أراد مصراً من الأمصار غير معين " ، واستدلوا بما اقتضاه القرآن من أمرهم بدخول القرية ، وبما تظاهرت به الرواية أنهم سكنوا الشام بعد التيه .

(85/53)

وقالت طائفة ممن صرفها : أراد مصر فرعون بعينها ، واستدلوا بما في القرآن من أن الله تعالى أورث بني إسرائيل ديار آل فرعون وآثارهم ، وأجازوا صرفها .

وقال الأخفش : " لخفتها وشبهها بهند ودعد " وسيبويه لا يجيز هذا .

وقال غير الأخفش : " أراد المكان فصرف " .

وقرأ الحسن وأبان بن تغلب وغيرهما : " اهبطوا مصر " بترك الصرف ، وكذلك هي في مصحف أبيّ بن كعب وقالوا : " هي مصر فرعون " .

قال الأعمش : " هي مصر التي عليها صالح بن علي " .

وقال أشهب : " قال لي مالك : هي عندي مصر قريتك مسكن فرعون " .

وقوله تعالى : ﴿ فإن لكم ما سألتم ﴾ يقتضي أنه وكلهم إلى أنفسهم .

وقرأ النخعي وابن وثاب " سِألتم " بكسر السين وهي لغة ، ﴿ وضربت عليهم الذلة والمسكنة ﴾ معناه ألزموها وقضي عليهم بها ، كما يقال ضرب الأمير البعث ، وكما قالت العرب ضربة لازب ، أي إلزام ملزوم أو لازم ، فينضاف المصدر إلى المفعول بالمعنى ، وكما يقال ضرب الحاكم على اليد ، أي حجر وألزم ؛ ومنه ضرب الدهر ضرباته ، أي ألزم إلزاماته ، و ﴿ الذلة ﴾ فعلة من الذل كأنها الهيئة والحال ، ﴿ والمسكنة ﴾ من المسكين ، قال الزجاج : " هي مأخوذة من السكون وهي هنا : زي الفقر وخضوعه ، وإن وجد يهودي غني فلا يخلو من زي الفقر ومهانته " .

قال الحسن وقتادة : " المسكنة الخراج أي الجزية " .

وقال أبو العالية : " المسكنة الفاقة والحاجة " .

﴿ وباؤوا بغضب من الله ﴾ معناه : مروا متحملين له ، تقول : بؤت بكذا إذا تحملته ، ومنه قول مهلهل ليحيى بن الحارث بن عباد : " بؤ بشسع نعل كليب " .

والغضب بمعنى الإرادة صفة ذات ، وبمعنى إظهاره على العبد بالمعاقبة صفة فعل ، والإشارة بذلك إلى ضرب الذلة وما بعده ، والباء في ﴿ بأنهم ﴾ باء السبب .

وقال المهدوي : " إن الباء بمعنى اللام " والمعنى : لأنهم ، والآيات هنا تحتمل أن يراد بها التسع وغيرها مما يخرق العادة ، وهو علامة لصدق الآية به ، ويحتمل أن يراد آيات التوراة التي هي كآيات القرآن .

وقرأ الحسن بن أبي الحسن : " وتقتلون " بالتاء على الرجوع إلى خطابهم ، وروي عنه أيضاً بالياء .

وقرأ نافع : بهمز " النبيئين " ، وكذلك حيث وقع في القرآن ، إلا في موضعين : في سورة الأحزاب : ﴿ أن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي ﴾ [الأحزاب : 50] بلا مد ولا همز ، ﴿ ولا تدخلوا بيوت النبي إلا ﴾ [الأحزاب : 53] ، وإنما ترك همز هذين لاجتماع همزتين مكسورتين من جنس واحد ، وترك الهمز في جميع ذلك الباقون ، فأما من همز فهو عنده من " أنبأ " إذا أخبر ، واسم فاعله منبىء فقيل نبيء ، بمعنى منبىء ، كما قيل : سميع بمعنى مسمع ، واستدلوا بما جاء من جمعه على نبآء . قال الشاعر : [الطويل]

يا خاتم النبآء إنك مرسل . . . بالحقّ كلّ هدى الإله هداكا

فهذا كما يجمع فعيل في الصحيح " كظريف " وظرفاء وشبهه .

قال أبو علي : " زعم سيبويه أنهم يقولون في تحقير النبوة : كان مسيلمة نبوته نبيئة سوء ، وكلهم يقولون تنبأ مسيلمة ، فاتفاقهم على ذلك دليل على أن اللام همزة " ، واختلف القائلون بترك الهمز في نبيء ، فمنهم من اشتق النبي من همز ثم سهل الهمز ، ومنهم من قال : هو مشتق من نبا ينبو إذا ظهر ، فالنبي الطريق الظاهر ، وكان النبي من عند الله طريق الهدى والنجاة ، وقال الشاعر : [البيسط] .

لما وردنا نبياً واستتبّ بنا . . . مسحنفر كخطوط السيح منسحل

(87/53)

واستدلوا بأن الأغلب في جمع أنبياء كفعيل في المعتل ، نحو ولي وأولياء وصفي وأصفياء ، وحكى الزهراوي أنه يقول نبوء إذا ظهر فهو نبيء ، والطريق الظاهر نبيء بالهمز ، وروي أن رجلاً قال للنبي صلى الله عليه وسلم : السلام عليك يا نبيء الله ، وهمز ، فقال له النبي صلى عليه السلام : لست بنبيء الله ، وهمز ، ولكني نبيّ الله ، ولم يهمز .

قال أبو علي : " ضعف سند هذا الحديث ، ومما يقوي ضعفه أنه صلى الله عليه وسلم ، قد أنشده المادح يا خاتم النبآء ولم يؤثر في ذلك إنكار ، والجمع كالواحد " .

وقوله تعالى : ﴿ بغير الحق ﴾ تعظيم للشنعة والذنب الذي أتوه ، ومعلوم أنه لا يقتل نبي بحق

، ولكن من حيث قد يتخيل متخيل لذلك وجهاً ، فصرح قوله : ﴿ بغير الحق ﴾ عن شنعة الذنب ووضوحه ، ولم يجترم قط نبي ما يوجب قتله ، وإنما أتاح الله تعالى من أتاح منهم . وسلط عليه ، كرامة لهم ، وزيادة في منازلهم ، كمثل من يقتل في سبيل الله من المؤمنين ، قال ابن عباس وغيره : " لم يقتل قط من الأنبياء إلا من لم يؤمر بقتال ، وكل من أمر بقتال نصر " . وقوله تعالى : ﴿ ذلك ﴾ رد على الأول وتأكيد للإشارة إليه ، والباء في ﴿ بما ﴾ باء السبب ، و ﴿ يعتدون ﴾ معناه : يتجاوزون الحدود ، والاعتداء تجاوز الحد في كل شيء ، وعرفه في الظلم والمعاصي . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 1 صـ 153 . 156 ﴾

(88/53)

ومن فوائد ابن كثير فى الآية

قال عليه الرحمة :

يقول تعالى : واذكروا نعمتي عليكم في إنزالي عليكم المن والسلوى ، طعامًا طيبًا نافعًا هنيئًا سهلا واذكروا دَبَرَكم وضجركم مما رزقتكم وسؤالكم موسى استبدال ذلك بالأطعمة الدنيّة من البقول ونحوها مما سألتم . وقال الحسن البصري رحمه الله : فبطروا ذلك ولم

يصبروا عليه ، وذكروا عيشهم الذي كانوا فيه ، وكانوا قومًا أهل أعداس وبصل وبقل وفوم ، فقالوا : ﴿ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ﴾ [وهم يأكلون المن والسلوى ، لأنه لا يتبدل ولا يتغير كل يوم فهو كأكل واحد] . فالبقول والقثاء والعدس والبصل كلها معروفة . وأما " الفوم" فقد اختلف السلف في معناه فوقع في قراءة ابن مسعود " وثومها " بالثاء ، وكذلك فسره مجاهد في رواية ليث بن أبي سليم ، عنه ، بالثوم . وكذا الربيع بن أنس ، وسعيد بن جبير .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا عمرو بن رافع ، حدثنا أبو عمارة يعقوب بن إسحاق البصري ، عن يونس ، عن الحسن ، في قوله : ﴿ وَفُومِهَا ﴾ قال : قال ابن عباس : الثوم .

قالوا : وفي اللغة القديمة : فَوِّمُوا لنا بمعنى : اختبزوا . وقال ابن جرير : فإن كان ذلك صحيحًا ، فإنه من الحروف المبدلة كقولهم : وقعوا في " عاثُور شَرّ ، وعافور شر ، وأثافي وأثاثي ، ومغافير ومغاثير" . وأشباه ذلك مما تقلب الفاء ثاء والثاء فاء لتقارب مخرجيهما ، والله أعلم .

وقال آخرون : الفوم الحنطة ، وهو البر الذي يعمل منه الخبز .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا يونس بن عبد الأعلى قراءة ، أنبأنا ابن وهب قراءة ، حدثني نافع

بن أبي نعيم : أن ابن عباس سئِل عن قول الله : ﴿ وَفُومِهَا ﴾ ما فومها ؟ قال : الحنطة .

قال ابن عباس : أما سمعت قول أحيحة بن الجلاح وهو يقول :

(89/53)

قد كنتُ أغنى الناس شخصًا واحدًا . . . وَرَدَ المدينة عن زراعة فُوم

وقال ابن جرير : حدثنا علي بن الحسن ، حدثنا مسلم الجرمي ، حدثنا عيسى بن يونس ، عن رشدين بن كُرَيْب ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، في قول الله تعالى : ﴿ وَفُومِهَا ﴾ قال : الفوم الحنطة بلسان بني هاشم .

وكذا قال علي بن أبي طلحة ، والضحاك وعكرمة عن ابن عباس أن الفوم : الحنطة .

وقال سفيان الثوري ، عن ابن جُرَيْج ، عن مجاهد وعطاء : ﴿ وَفُومِهَا ﴾ قالا وخبزها .

وقال هُشَيْم عن يونس ، عن الحسن ، وحصين ، عن أبي مالك : ﴿ وَفُومِهَا ﴾ قال : الحنطة .

وهو قول عكرمة ، والسدي ، والحسن البصري ، وقتادة ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وغيرهم ، والله أعلم .

[وقال الجوهري : الفوم : الحنطة . وقال ابن دريد : الفوم : السنبلة ، وحكى القرطبي عن

عطاء وقتادة أن الفوم كل حب يختبز . قال : وقال بعضهم : هو الحمص لغة شامية ، ومنه يقال لبائعه : فامي مغير عن فومي] .

وقال البخاري : وقال بعضهم : الحبوب التي تؤكل كلها فوم .

وقوله تعالى : ﴿ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ﴾ فيه تقريع لهم وتوبيخ على ما سألوا من هذه الأطعمة الدنيّة مع ما هم فيه من العيش الرغيد ، والطعام الهنيء الطيب النافع .

وقوله : ﴿ اهْبِطُوا مِصْرًا ﴾ هكذا هو منون مصروف مكتوب بالألف في المصاحف الأئمة العثمانية ، وهو قراءة الجمهور بالصرف .

قال ابن جرير : ولا أستجيز القراءة بغير ذلك ؛ لإجماع المصاحف على ذلك .

وقال ابن عباس : ﴿ اهْبِطُوا مِصْرًا ﴾ قال : مصرًا من الأمصار ، رواه ابن أبي حاتم ، من حديث أبي سعيد البقال سعيد بن المرزبان ، عن عكرمة ، عنه .

قال : وروي عن السدي ، وقتادة ، والربيع بن أنس نحو ذلك .

وقال ابن جرير : وقع في قراءة أبي بن كعب وابن مسعود : " اهبطوا مصر " من غير إجراء يعني من غير صرف . ثم روى عن أبي العالية ، والربيع بن أنس أنهما فسرا ذلك بمصر فرعون .

وكذا رواه ابن أبي حاتم عن أبي العالية ، وعن الأعمش أيضاً .

وقال ابن جرير : ويحتمل أن يكون المراد مصر فرعون على قراءة الإجراء أيضاً . ويكون ذلك من باب الاتباع لكتابة المصحف ، كما في قوله تعالى : ﴿ قَوَارِيرَا * قَوَارِيرَا ﴾ [الإنسان : 15 ، 16] . ثم توقف في المراد ما هو ؟ أمصر فرعون أم مصر من الأمصار ؟ وهذا الذي قاله فيه نظر ، والحق أن المراد مصر من الأمصار كما روي عن ابن عباس وغيره ،

والمعنى على ذلك لأن موسى ، عليه السلام يقول لهم : هذا الذي سألتم ليس بأمر عزيز ، بل هو كثير في أي بلد دخلتموه وجدتموه ، فليس يساوي مع دناءته وكثرته في الأمصار أن أسأل الله فيه ؛ ولهذا قال : ﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ ﴾ أي : ما طلبتم ، ولما كان سؤالهم هذا من باب البطر والأشر ولا ضرورة فيه ، لم يجابوا إليه ، والله أعلم

﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (61) ﴾

يقول تعالى : ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ ﴾ أي : وضعت عليهم وألزموا بها شَرْعًا وقدرًا ، أي : لا يزالون مستذلين ، من وجدهم استذلهم وأهانهم ، وضرب عليهم الصغار ، وهم مع ذلك في أنفسهم أذلاء متمسكنون .

(91/53)

قال الضحاك عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ ﴾ قال : هم أصحاب النيالات يعني أصحاب الجزية .

وقال عبد الرزاق ، عن مَعْمَر ، عن الحسن وقتادة ، في قوله تعالى : ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ﴾ قال : يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون (1) ، وقال الضحاك : ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ ﴾ قال : الذل . وقال الحسن : أذلهم الله فلا منعة لهم ، وجعلهم الله تحت أقدام المسلمين . ولقد أدركتهم هذه الأمة وإن المجوس لتجبيهم الجزية .

وقال أبو العالية والربيع بن أنس والسدي : المسكنة الفاقة . وقال عطية العوفي : الخراج .

وقال الضحاك : الجزية .

وقوله تعالى : ﴿ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ﴾ قال الضحاك : استحقوا الغضب من الله ، وقال الربيع بن أنس : فحدَثَ عليهم غضب من الله . وقال سعيد بن جبير : ﴿ وَبَاءُوا

بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ﴾ يقول : استوجبوا سخطًا ، وقال ابن جرير : يعني بقوله : ﴿ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ﴾ انصرفوا ورجعوا ، ولا يقال : باؤوا إلا موصولا إما بخير وإما بشر ، يقال منه : باء فلان بذنبه يبوء به بَوْءًا وبواء . ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ ﴾ [المائدة : 29] يعني : تنصرف متحملها وترجع بهما ، قد صارا عليك دوني . فمعنى الكلام إذًا : فرجعوا منصرفين متحملين غضب الله ، قد صار عليهم من الله غضب ، ووجب عليهم من الله سخط .

وقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ يقول تعالى :

---

(1) تفسير عبد الرزاق (1/ 69) .

هذا الذي جازيناهم من الذلة والمسكنة ، وإحلال الغضب بهم بسبب استكبارهم عن اتباع الحق ، وكفرهم بآيات الله ، وإهانتهم حملة الشرع وهم الأنبياء وأتباعهم ، فانتقصوهم إلى أن أفضى بهم الحال إلى أن قتلوهم ، فلا كبْر أعظم من هذا ، أنهم كفروا بآيات الله وقتلوا أنبياء الله بغير الحق ؛ ولهذا جاء في الحديث المتفق على صحته أن رسول الله صلى الله

عليه وسلم قال : " الكبر بَطَر الحق ، وغَمْط الناس" (1) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا إسماعيل ، عن ابن عون ، عن عمرو بن سعيد ، عن حميد بن عبد الرحمن ، قال : قال ابن مسعود : كنت لا أحجب عن النَّجْوى ، ولا عن كذا ولا عن كذا قال : فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده مالك بن مرارة الرهاوي ، فأدركته من آخر حديثه ، وهو يقول : يا رسول الله ، قد قسم لي من الجمال ما ترى ، فما أحب أن أحدًا من الناس فَضَلني بشراكين فما فوقهما أفليس ذلك هو البغي ؟ فقال : " لا ليس ذلك من البغي ، ولكن البغي مَنْ بطر – أو قال : سفه الحق – وغَمط الناس" . يعني : رد الحق وانتقاص الناس ، والازدراء بهم والتعاظم عليهم . ولهذا لما ارتكب بنو إسرائيل ما ارتكبوه من الكفر بآيات الله وقتل أنبيائهم ، أحل الله بهم بأسه الذي لا يرد ، وكساهم ذلا في الدنيا موصولا بذل الآخرة جزاء وفاقًا (2) .

---

(1) رواه مسلم في صحيحه برقم (91) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

(2) المسند (385/1) .

قال أبو داود الطيالسي : حدثنا شعبة ، عن الأعمش ، عن إبراهيم ، عن أبي معمر ، عن عبد الله بن مسعود ، قال : كانت بنو إسرائيل في اليوم تقتل ثلاثمائة نبي ، ثم يقيمون سوق بقلهم في آخر النهار .

وقد قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الصمد ، حدثنا أبان ، حدثنا عاصم ، عن أبي وائل ، عن عبد الله – يعني ابن مسعود – أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " أشد الناس عذابًا يوم القيامة رجل قتله نبي ، أو قتل نبيًا ، وإمام ضلالة وممثل من الممثلين " (1) .

وقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ وهذه علة أخرى في مجازاتهم بما جوزوا به ، أنهم كانوا يعصون ويعتدون ، فالعصيان فعل المناهي ، والاعتداء المجاوزة في حد المأذون فيه أو المأمور به . والله أعلم . انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن كثير حـ 1 صـ 283.280 ﴾

---

(1) المسند (407/1) .

ومن فوائد البيضاوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يا موسى لَن نَّصْبِرَ على طَعَامٍ واحد ﴾ يريدون به ما رزقوا في التيه من المن والسلوى . وبوحدته أنه لا يختلف ولا يتبدل ، كقولهم طعام مائدة الأمير واحد يريدون أنه لا تتغير ألوانه وبذلك أجمعوا أو ضرب واحد ، لأنهما طعام أهل التلذذ وهم كانوا فلاحة فنزعوا إلى عكرهم واشتهوا ما ألفوه . ﴿ فادعُ لَنَا رَبَّكَ ﴾ سله لنا بدعائك إياه ﴿ يُخْرِجْ لَنَا ﴾ يظهر ويوجد ، وجزمه بأنه جواب فادع فإن دعوته سبب الإجابة . ﴿ مِمَّا تُنبِتُ الأرض ﴾ من الإسناد المجازي ، وإقامة القابل مقام الفاعل ، ومن للتبعيض . ﴿ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ﴾ تفسير وبيان وقع موقع الحال ، وقيل بدل بإعادة الجار . والبقل ما أنبتته الأرض من الخضر والمراد به أطايبه التي تؤكل ، والفوم الحنطة ويقال للخبز ومنه فوموا لنا ، وقيل الثوم وقرىء قُثَّائها بالضم ، وهو لغة فيه . ﴿ قَالَ ﴾ أي الله ، أو موسى عليه السلام . ﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ الذي هُوَ أدنى ﴾ أقرب منزلة وأدون قدراً . وأصل الدنو القرب في المكان فاستعير للخسة كما استعير البعد للشرف والرفعة ، فقيل بعيد المحل بعيد الهمة ، وقرىء " أدنأ " من الدناءة . ﴿ بالذي هُوَ خَيْرٌ ﴾ يريد به المن والسلوى فإنه خير في اللذة والنفع وعدم الحاجة إلى السعي . ﴿ اهبطوا مِصْرًا ﴾ انحدروا إليه من التيه ، يقال هبط الوادي إذا نزل به ، وهبط منه إذا خرج منه ، وقرىء بالضم والمصر البلد العظيم وأصله الحد بين الشيئين ، وقيل أراد به العلم ، وإنما صرفه لسكون وسطه أو على تأويل البلد ، ويؤيده أنه غير منون في مصحف ابن مسعود . وقيل أصله

مصراتم فعرب . ﴿ فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذلة والمسكنة ﴾ أحيطت بهم إحاطة القبة بمن ضربت عليه ، أو ألصقت بهم ، من ضرب الطين على الحائط ، مجازاة لهم على كفران النعمة . واليهود في غالب الأمر أذلاء مساكين ، إما على

الحقيقة أو على التكلف مخافة أن تضاعف جزيتهم . ﴿ وَبَاءوا بِغَضَبٍ مّنَ الله ﴾ رجعوا به ، أو صاروا أحقاء بغضبه ، من باء فلان بفلان إذا كان حقيقاً بأن يقتل به ، وأصل البوء المساواة . ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما سبق من ضرب الذلة والمسكنة والبوء بالغضب . ﴿ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بآيات الله وَيَقْتُلُونَ النبيين بِغَيرِ الحق ﴾ بسبب كفرهم بالمعجزات ، التي من جملتها ما عد عليهم من فلق البحر ، وإظلال الغمام ، وإنزال المن والسلوى ، وانفجار العيون من الحجر . أو بالكتب المنزلة : كالإنجيل ، والفرقان ، وآية الرجم والتي فيها نعت محمد صلى الله عليه وسلم من التوراة ، وقتلهم الأنبياء فإنهم قتلوا شعياء وزكريا ويحيى وغيرهم بغير الحق عندهم ، إذ لم يروا منهم ما يعتقدون به جواز قتلهم ، وإنما حملهم على ذلك اتباع الهوى وحب الدنيا كما أشار إليه بقوله : ﴿ ذلك بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴾ أي : جرهم العصيان والتمادي والاعتداء فيه إلى الكفر بالآيات ، وقتل

النبيين .

فإن صغار الذنوب سبب يؤدي إلى ارتكاب كبارها ، كما أن صغار الطاعات أسباب مؤدية إلى تحري كبارها . وقيل كرر الإشارة للدلالة على أن ما لحقهم كما هو بسبب الكفر ، والقتل فهو بسبب ارتكابهم المعاصي واعتدائهم حدود الله تعالى . وقيل الإشارة إلى الكفر والقتل ، والباء بمعنى مع وإنما جوزت الإشارة بالمفرد إلى شيئين فصاعداً على تأويل ما ذكر ، أو تقدم للإختصار ، ونظيره في الضمير قول رؤبة يصف بقرة :

فِيها خُطُوطٌ مِنْ سَوادٍ وَبَلَق . . . كأنهُ في الْجِلدِ تَوْلِيعُ البَهَقْ

والذي حسن ذلك أن تثنية المضمرات والمبهمات وجمعها وتأنيثها ليست على الحقيقة ، ولذلك جاء الذي بمعنى الجمع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 1 صـ 331 . 333 ﴾

(96/53)

ومن فوائد أبى السعود فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ ﴾ تذكيرٌ لجناية أخرى لأسلافهم وكُفرانهم لنعمة الله عز وجل وإخلادِهم إلى

ما كانوا فيه من الدناءة والخساسةِ ، وإسنادُ القول المحكّى إلى أخلاقهم وتوجيهُ التوبيخ إليهم لما بينهم من الاتحاد ﴿ يا موسى لَن نَّصْبِرَ على طَعَامٍ واحد ﴾ لعلهم لم يريدوا بذلك جمعَ ما طلبوا مع ما كان لهم من النعمة ولا زوالَها وحصولَ ما طلبوا مكانها إذ يأباه التعرضُ للوحدة بل أرادوا أن يكون هذا تارةً وذاك أخرى . رُوي أنهم كانوا فلاحة فنزعوا إلى عكرهم فأجمعوا ما كانوا فيه من النعمة العتيدة لوحدتها النوعية وإطرادها وتاقت أنفسُهم إلى الشقاء ﴿ فادعُ لَنَا رَبَّكَ ﴾ أي سله لأجلنا بدعائك إياه والفاء لسببية عدمِ الصبر للدعاء ، والتعرضُ لعنوان الربوبية لتمهيد مبادي الإجابة ﴿ يُخْرِجْ لَنَا ﴾ أي يُظهِرْ لنا ويوجِدْ والجزم لجواب الأمر ﴿ مِمَّا تُنبِتُ الأرض ﴾ إسناد مجازيٌّ بإقامَةِ القابلِ مُقامَ الفاعل ومن تبعيضيةٌ والتي في قوله تعالى : ﴿ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ﴾ بيانية واقعةٌ موقعَ الحال أي كائناً من بقلها الخ وقيل : بدلٌ بإعادة الجارّ ، والبقلُ ما تنبتُ الأرضُ من الخُضَر والمراد به أطايبُه التي تؤكل كالنّعناع والكُرفُس والكُرّاث وأشباهِها ، والفومُ الحِنطةُ وقيل : الثوم وقرىء قُثائها بضم القاف وهو لغة فيه ﴿ قَالَ ﴾ أي الله تعالى أو موسى عليه السلام إنكاراً عليهم وهو استئناف وقع جواباً عن سؤال مقدر كأنه قيل : فماذا قال لهم فقيل قال : ﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ ﴾ أي أتأخُذون لأنفسِكم وتختارون ﴿ الذى هُوَ أدنى ﴾ أي أقربُ منزلةً وأدون قدراً سهلُ المنال وهينُ الحصول لعدم كونه مرغوباً فيه وكونه

تافهاً مرذولاً قليلَ القيمة ، وأصلُ الدنوّ القُرب في المكان فاستعير للخِسة كما استعير البُعدُ للشرف والرفعة ، فقيل : بعيدُ المحل وبعيدُ الهمة وقرىء أدنأُ من الدناءة وقد

حملت المشهورة على أن ألفها مبدلة من الهمزة ﴿ بالذى هُوَ خَيْرٌ ﴾ أي بمقابلة ما هو خيرٌ فإن الباء تصحب الذاهبَ الزائلَ دون الآتي الحاصل كما في التبدل والتبديل في مثل قوله عز وجل : ﴿ وَمَن يَتَبَدَّلِ الكفر بالإيمان ﴾ وقوله : ﴿ وبدلناهم بجنتيهم جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ ﴾ وليس فيه ما يدل قطعاً على أنهم أرادوا زوالَ المنّ والسلوى بالمرة ، وحصولُ ما طلبوا مكانه لتحقق الاستبدال فيما مر من صورة المناوبة ﴿ اهبطوا مِصْرًا ﴾ أُمروا به بياناً لدناءة مطلَبهم أو إسعافاً لمرامهم أي انحدروا إليه من التّيه يقال : هبَط الواديَ وقرىء بضم الباء ، والمِصرُ البلدُ العظيم وأصله الحدُّ بين الشيئين ، وقيل : أريد به العلَم وإنما صُرف لسكون وسَطِه أو لتأويله بالبلد دون المدينة ، ويؤيده أنه في مصحف ابن مسعود رضي الله عنه غيرُ منون ، وقيل : أصلُه مِصْرايِيم فعرب ﴿ فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ﴾ تعليلٌ للأمر بالهبوط أي فإن لكم فيه ما سألتموه ، ولعل التعبيرَ عن الأشياء المسؤولة بما للاستهجان بذكرها كأنه قيل : فإنه كثيرٌ فيه مبتذلٌ يناله كلُّ أحد بغير مشقة ﴿ وَضُرِبَتْ

عَلَيْهِمُ الذلة والمسكنة ﴾ أي جعلتا محيطتين بهم إحاطةَ القُبة بمن ضربت عليه أو ألصِقتا بهم وجعلتا ضربةَ لازبٍ لا تنفكان عنهم مجازاةً لهم على كُفرانهم ، مِنْ ضَرْبِ الطينِ على الحائط بطريق الاستعارة بالكناية ، واليهودُ في غالب الأمر أذلاءُ مساكينُ إما على الحقيقة ، وإما لخوف أن تضاعَفَ جزيتُهم ﴿ وَبَاءوا ﴾ أي رجعوا ، ﴿ بِغَضَبٍ ﴾ عظيم وقوله تعالى : ﴿ مِنَ الله ﴾ متعلق بمحذوف هو صفةٌ لغضبٍ مؤكّدٌ لما أفاده التنوينُ من الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافيةِ أي بغضب كائنٍ من الله تعالى أو صاروا أحقاءَ به ، من قولهم باءَ فلانٌ بفلان أي صار حقيقاً بأن يُقتلَ بمقابلته ، ومنه قول من قال : بُؤْ بشِسْعِ نعلِ كُلَيبٍ ، وأصل البَوْء

(98/53)

المساواة ﴿ ذلك ﴾ إشارةٌ إلى ما سلف من ضرب الذِلة والمسكنةِ والبَوْءِ بالغضب العظيم ﴿ بِأَنَّهُمْ ﴾ بسبب أنهم ﴿ كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴾ على الاستمرار ﴿ لَّهُ مَقَالِيدُ ﴾ الباهرة التي هي المعجزاتُ الساطعةُ الظاهرة على يدي موسى عليه السلام مما عُد وما لم يُعَدَّ ﴿ وَيَقْتُلُونَ النبيين بِغَيْرِ الحق ﴾ كشَعْيا وزكريا ويحيى عليهم السلام ، وفائدةُ التقييد مع أن قتل الأنبياءِ يستحيل أن يكون بحق الإيذانُ بأن ذلك عندهم أيضاً بغير الحق إذ لم يكن

أحد معتقداً بحقية قتلِ أحدٍ منهم عليهم السلام وإنما حملهم على ذلك حبُّ الدنيا واتباعُ الهوى والغلوُّ في العصيان والاعتداءُ كما يفصح عنه قوله تعالى : ﴿ ذلك بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴾ أي جرَّهم العصيانُ والتمادي في العُدوان إلى ما ذُكر من الكفر وقتلِ الأنبياءِ عليهم السلام فإن صِغارَ الذنوب إذا دُووِمَ عليها أدتْ إلى كبارها كما أن مداومةَ صغارِ الطاعات مؤديةٌ إلى تحرّي كبارِها ، وقيل : كُرِّرت الإشارةُ للدلالة على أن ما لَحِقَهم كما أنه بسبب الكفر والقتلِ فهو بسببِ ارتكابِهم المعاصيَ واعتدائهم حدودَ الله تعالى وقيل : الإشارةُ إلى الكفر والقتل ، والباء بمعنى مع ويجوز الإشارة إلى المتعدّد بالمفرد بتأويل ما ذُكر أو تقدم كما في قول رؤبة بنِ العجاج :

فيها خطوطٌ من سوادٍ وبَلَق . . . كأنه في الجِلد توليعُ البَهَقْ

أي كان ما ذُكر والذي حسَّن ذلك في المضْمَرات والمبهمات أن تثنيتها وجمعَها ليسا على الحقيقة ولذلك جاء الذي بمعنى الذين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 1 صـ 108.106 ﴾

ومن فوائد الشوكانى فى الآية

قال رحمه الله :

قوله : ﴿ لَن نَّصْبِرَ على طَعَامٍ واحد ﴾ تضجُّر منهم بما صاروا فيه من النعمة ، والرزق

الطيب ، والعيش المستلذ ، ونزوع إلى ما ألفوه قبل ذلك من خشونة العيش :

إنَّ الشَقيَّ بالشَقَاءِ مُولعٌ . . . لا يَمْلِكُ الردَّ لَهُ إذا أتى

(99/53)

ويحتمل أن لا يكون هذا منهم تشوقاً إلى ما كانوا فيه ، ونظراً لما صاروا إليه من العيشة الرافهة ، بل هو : باب من تعنتهم ، وشعبة من شعب تعجرفهم كما هو دأبهم ، وهِجّيراهم في غالب ما قصّ علينا من أخبارهم .

وقال الحسن البصري : إنهم كانوا أهل كراث ، وأبصال ، وأعداس ، فنزعوا إلى عكرهم ، أي : أصلهم عكر السوء ، واشتاقت طباعهم إلى ما جرت عليه عادتهم ، فقالوا : ﴿ لَن نَّصْبِرَ على طَعَامٍ واحد ﴾ والمراد بالطعام الواحد : هو : المنّ والسلوى ، وهما ، وإن كانا طعامين لكن لما كانوا يأكلون أحدهما بالآخر جعلوهما طعاماً واحد .

وقيل : لتكررهما في كل يوم ، وعدم وجود غيرهما معهما ، ولا تبدلة بهما .

و" من " في قوله : ﴿ مِمَّا تُنبِتُ ﴾ تخرج .

قال الأخفش زائدة ، وخالفه سيبويه ، لكونها لا تزاد في الكلام الموجب .

قال النحاس : وإنما دعا الأخفش إلى هذا ؛ لأنه لم يجد مفعولاً ليخرج فأراد أن يجعل " ما "

مفعولاً .

والأولى أن يكون المفعول محذوفاً دل عليه سياق الكلام ، أي : تخرج لنا مأكولاً .

وقوله : ﴿ مِن بَقْلِهَا ﴾ بدل من " ما " بإعادة الحرف .

والبقل : كل نبات ليس له ساق ، والشجر : ما له ساق .

قال في الكشاف : " البقل : ما أنبتته الأرض من الخضر ، والمراد به أطايب البقول التي يأكلها الناس كالنعناع ، والكرفس ، والكراث ، وأشباهها " .

انتهى .

والقثاء بكسر القاف ، وفتحها .

والأولى قراءة الجمهور ، والثانية قراءة يحيى بن وثاب ، وطلحة بن مُصَرِّف ، وهو معروف .

والفوم : قيل هو : الثوم ، وقد قرأه ابن مسعود بالثاء .

وروي نحو ذلك عن ابن عباس ، وقيل : الفوم : الحنطة ، وإليه ذهب أكثر المفسرين ، كما قال القرطبي .

وقد رجح هذا ابن النحاس .

وقال الجوهري : الثوم الحنطة ، وممن قال بهذا الزجاج ، والأخفش ، وأنشد :

قَدْ كُنْتُ أَحْسبني كَأَغْنَى وَاحِد . . . تَرِكَ المدينةَ عَنْ زِراعةِ فُومِ

وقال بالقول الأوّل الكسائي ، والنضر بن شميل ، ومنه قول أمية بن أبي الصلت :

كَانَت مَنَازِلُهم إذ ذَاكَ ظَاهِرة . . . فِيهَا الفَرَادِيسُ والفُومَاتُ والبْصَلُ

أي الثوم ، وقال حسان :

وأنتم أُنَاسٌ لِئَامُ الأصُولِ . . . طَعَامكم الفُومُ وَالْحوَقَلُ

يعني الثوم والبصل ، وقيل : الفوم : السنبلة .

وقيل الحمص .

وقيل : الفوم : كل حبّ يخبز .

والعدس والبصل معروفان .

والاستبدال : وضع الشيء موضع الآخر و ﴿ أَدْنَى ﴾ قال الزجاج : إنه مأخوذ من الدنوّ . أي : القرب ، والمراد : أتضعون هذه الأشياء التي هي دون موضع المنّ والسلوى اللذين هما خير منها من جهة الاستلذاذ ، والوصول من عند الله بغير واسطة أحد من خلقه ، والحلّ الذي لا تطرقه الشبهة ، وعدم الكلفة بالسعي له ، والتعب في تحصيله .

وقوله : ﴿ اهبطوا مِصْرًا ﴾ أي : انزلوا ، وقد تقدّم معنى الهبوط .

وظاهر هذا أن الله أذن لهم بدخول مصر .

وقيل : إن الأمر للتعجيز ؛ لأنهم كانوا في التيه ، فهو مثل قوله تعالى : ﴿ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً ﴾ (الإسراء : 50) ، وصرف مصر هنا مع اجتماع العلمية ، والتأنيث ؛ لأنه ثلاثي ساكن الوسط ، وهو : يجوز صرفه مع حصول السببين ، وبه قال الأخفش والكسائي .

وقال الخليل ، وسيبويه : إن ذلك لا يجوز ، وقالا : إنه لا علمية هنا ؛ لأنه أراد مصراً من الأمصار ، ولم يرد المدينة المعروفة ، وهو خلاف الظاهر .

وقرأ الحسن ، وأبان بن تغلب ، وطلحة بن مصرف بترك التنوين ، وهو كذلك في مصحف أبيّ ، وابن مسعود .

ومعنى ضرب الذلة ، والمسكنة إلزامهم بذلك ، والقضاء به عليهم قضاء مستمراً لا يفارقهم ، ولا ينفصل عنهم ، مع دلالته على أن ذلك مشتمل عليهم اشتمال القباب على من فيها ، ومنه قول الفرزدق يهجو جريراً :

ضرَبَت عَلَيْكَ العَنكَبوتُ بِنَسجِها . . . وَقَضى عَلَيْكَ بِهِ الكِتابُ المُنزلُ

وهو ضرب من الهجاء بليغ ، كما أنه إذا استعمل في المديح كان في منزلة رفيعة ، ومنه قول الشاعر :

إنَّ المُروءةَ والشَجَاعَةَ والنَدَى . . . في قُبةٍ ضُرِبتْ على ابن الحَشرجِ

وهذا الخبر الذي أخبرنا الله به هو معلوم في جميع الأزمنة ، فإن اليهود أقماهم الله أذلّ الفرق ، وأشدّهم مسكنة ، وأكثرهم تصاغراً ، لم ينتظم لهم جمع ، ولا خفقت على رءوسهم راية ، ولا ثبتت لهم ولاية ، بل ما زالوا عبيد العصى في كل زمن ، وطروقة كل فحل في كل عصر ، ومن تمسك منهم بنصيب من المال وإن بلغ في الكثرة أيّ مبلغ فهو متظاهر بالفقر مُتَرَدٍّ بأثواب المسكنة ليدفع عن نفسه أطماع الطامعين في ماله ، إما بحق كتوفير ما عليه من الجزية ، أو بباطل كما يفعله كثير من الظلمة من التجرؤ على الله بظلم من لا يستطيع الدفع عن نفسه .

ومعنى ﴿ باءوا ﴾ رجعوا ، يقال باء بكذا ، أي : رجع به ، وباء إلى المباءة ، أي : رجع إلى المنزل ، والبواء : الرجوع ، ويقال : هم في هذا الأمر بواء ، أي : سواء : يرجعون فيه إلى معنى واحد ، وباء فلان بفلان : إذا كان حقيقاً بأن يقبل به لمساواته له ، ومنه قول الشاعر :

ألا تنتهي عنا ملوك وتتقي . . . محاربنا لا يبوأ الدم بالدم

والمراد في الآية : أنهم رجعوا بغضب من الله ، أو صاروا أحقاء بغضبه .

وقد تقدم تفسير الغضب ، والإشارة بقوله : ﴿ ذلك ﴾ إلى ما تقدم من حديث الذلة وما بعده بسبب كفرهم بالله ، وقتلهم لأنبيائه بغير حق يحق عليهم اتباعه والعمل به ، ولم يخرج هذا مخرج التقييد حتى يقال : إنه لا يكون قتل الأنبياء بحق في حال من الأحوال لمكان العصمة ، بل المراد : نعي هذا الأمر عليهم وتعظيمه ، وأنه ظلم بحت في نفس الأمر . ويمكن أن يقال : أنه ليس بحق في اعتقادهم الباطل ، لأن الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه لم يعارضوهم في مال ولا جاه ، بل أرشدوهم إلى مصالح الدين .

(102/53)

والدنيا ، كما كان من شعيا وزكريا ويحيى ، فإنهم قتلوهم ، وهم يعلمون ويعتقدون أنهم ظالمون ، وتكرير الإشارة لقصد التأكيد ، وتعظيم الأمر عليهم ، وتهويله ، ومجموع ما بعد الإشارة الأولى والإشارة الثانية هو السبب لضرب الذلة وما بعده .

وقيل : يجوز أن تكون الإشارة الثانية إلى الكفر والقتل ، فيكون ما بعدها سبباً للسبب وهو بعيد جداً .

والاعتداء تجاوز الحدّ في كل شيء .

وقد أخرج ابن جرير ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَإِذِ استسقى موسى لِقَوْمِهِ ﴾ قال ذلك

في التيه ، ضرب لهم موسى الحجر ، فصار فيها اثنتا عشرة عيناً من ماء ، لكل سبط منهم عين يشربون منها .

وأخرج عبد بن حميد ، عن قتادة ومجاهد وابن أبي حاتم عن جويبر نحو ذلك .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَلَا تَعْثَوْا فِى الأرض ﴾ قال : لا تسعوا في الأرض فساداً .

وأخرج ابن جرير عن أبي العالية مثله .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي مالك قال : يعني : لا تمشوا بالمعاصي .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة قال : لا تسيروا في الأرض مفسدين .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، عن مجاهد في قوله : ﴿ لَن نَّصْبِرَ على طَعَامٍ واحد ﴾ قال : المنّ والسلوى ، واستبدلوا به البقل ، وما حكى معه .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَفُومِهَا ﴾ قال : الخبز ، وفي لفظ : البر ، وفي لفظ : الحنطة .

وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال : الفوم : الثوم .

وأخرج ابن جرير ، عن الربيع بن أنس مثله .

وأخرج سعيد بن منصور ، وابن المنذر عن ابن مسعود ؛ أنه قرأ : " وثومها " وروى ابن أبي الدنيا عن ابن عباس أنه قال : قراءتي قراءة زيد ، وأنا آخذ ببضعة عشر حرفاً من قراءة

ابن مسعود هذا أحدها : " من بقلها وقثائها وثومها " .

وأخرج ابن جرير ، عن مجاهد في قوله : ﴿ الذى هُوَ أدنى ﴾ قال : أرداً .

(103/53)

وأخرج عبد بن حميد ، عن قتادة في قوله : ﴿ اهبطوا مِصْرًا ﴾ قال مصراً من الأمصار .

وأخرج ابن جرير ، عن أبي العالية : أنه مصر فرعون .

وأخرج نحوه ابن أبي داود ، وابن الأنباري عن الأعمش .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذلة ﴾ قال : هم أصحاب الجزية .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن قتادة والحسن ؛ قال : ضربت عليهم الذلة ، والمسكنة أي : يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون .

وأخرج ابن جرير ، عن أبي العالية قال : المسكنة الفاقة .

وأخرج ابن جرير عن الضحاك في قوله : ﴿ وَبَاءوا بِغَضَبٍ مّنَ الله ﴾ قال : استحقوا الغضب من الله .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة في قوله : ﴿ وَبَاءوا ﴾ قال : انقلبوا .

وأخرج أبو داود الطيالسي ، وابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال : كانت بنو إسرائيل في اليوم تقتل ثلثمائة نبيّ ، ثم يقيمون سوق بقلهم في آخر النهار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 1 صـ 93.91 ﴾

ومن فوائد السعدى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا . . . الآية ﴾ .

أي : واذكروا ، إذ قلتم لموسى ، على وجه التملل لنعم الله والاحتقار لها ، ﴿ لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ ﴾ أي : جنس

(104/53)

من الطعام ، وإن كان كما تقدم أنواعا ، لكنها لا تتغير ، ﴿ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا ﴾ أي : نباتها الذي ليس بشجر يقوم على ساقه ، ﴿ وَقِثَّائِهَا ﴾ وهو الخيار ﴿ وَفُومِهَا ﴾ أي : ثومها ، والعدس والبصل معروف ، قال لهم موسى ﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى ﴾ وهو الأطعمة المذكورة ، ﴿ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ﴾ وهو المن

والسلوى ، فهذا غير لائق بكم ، فإن هذه الأطعمة التي طلبتم ، أي مصر هبطتموه وجدتموها ، وأما طعامكم الذي من الله به عليكم ، فهو خير الأطعمة وأشرفها ، فكيف تطلبون به بدلا ؟

ولما كان الذي جرى منهم فيه أكبر دليل على قلة صبرهم واحتقارهم لأوامر الله ونعمه ، جازاهم من جنس عملهم فقال : ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ ﴾ التي تشاهد على ظاهر أبدانهم ﴿ وَالْمَسْكَنَةُ ﴾ بقلوبهم ، فلم تكن أنفسهم عزيزة ، ولا لهم همم عالية ، بل أنفسهم أنفس مهينة ، وهممهم أردأ الهمم ، ﴿ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ﴾ أي : لم تكن غنيمتهم التي رجعوا بها وفازوا ، إلا أن رجعوا بسخطه عليهم ، فبئست الغنيمة غنيمتهم ، وبئست الحالة حالتهم .

﴿ ذَلِكَ ﴾ الذي استحقوا به غضبه ﴿ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ الدالات على الحق الموضحة لهم ، فلما كفروا بها عاقبهم بغضبه عليهم ، وبما كانوا ﴿ يَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ .

وقوله : ﴿ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ زيادة شناعة ، وإلا فمن المعلوم أن قتل النبي لا يكون بحق ، لكن لئلا يظن جهلهم وعدم علمهم .

﴿ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا ﴾ بأن ارتكبوا معاصي الله ﴿ وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ على عباد الله ، فإن المعاصي يجر بعضها بعضا ، فالغفلة ينشأ عنها الذنب الصغير ، ثم ينشأ عنه الذنب الكبير ، ثم ينشأ عنها أنواع البدع والكفر وغير ذلك ، فنسأل الله العافية من كل بلاء .

واعلم أن الخطاب في هذه الآيات لأمة بني إسرائيل الذين كانوا موجودين وقت نزول القرآن ، وهذه الأفعال المذكورة خوطبوا بها وهي فعل أسلافهم ، ونسبت لهم لفوائد عديدة ، منها : أنهم كانوا يتمدحون ويزكون أنفسهم ، ويزعمون فضلهم على محمد ومن آمن به ، فبين الله من أحوال سلفهم التي قد تقررت عندهم ، ما يبين به لكل أحد [منهم] أنهم ليسوا من أهل الصبر ومكارم الأخلاق ، ومعالي الأعمال ، فإذا كانت هذه حالة سلفهم ، مع أن المظنة أنهم أولى وأرفع حالة ممن بعدهم فكيف الظن بالمخاطبين ؟" .

ومنها : أن نعمة الله على المتقدمين منهم ، نعمة واصلة إلى المتأخرين ، والنعمة على الآباء ، نعمة على الأبناء ، فخوطبوا بها ، لأنها نعم تشملهم وتعمهم .

ومنها : أن الخطاب لهم بأفعال غيرهم ، مما يدل على أن الأمة المجتمعة على دين تتكافل وتتساعد على مصالحها ، حتى كان متقدمهم ومتأخرهم في وقت واحد ، وكان الحادث من بعضهم حادثا من الجميع .

لأن ما يعمله بعضهم من الخير يعود بمصلحة الجميع ، وما يعمله من الشر يعود بضرر الجميع .

ومنها : أن أفعالهم أكثرها لم ينكروها ، والراضي بالمعصية شريك للعاصي ، إلى غير ذلك من الحِكَم التي لا يعلمها إلا الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير السعدى صـ 53. 54 ﴾

(106/53)

من فوائد العلامة تقى الدين السبكى :

قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ :

تَكَلَّمَ صَاحِبُ دُرَّةِ التَّنْزِيلِ عَلَى قَوْله تَعَالَى فِي الْبَقَرَة ﴿ يَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ وَفِي آلِ عِمْرَانَ ﴿ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ وَفِي وَسَطِهَا ﴿ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ مِنْ جِهَةِ تَعْرِيفِ الْحَقِّ وَتَنْكِيرِهِ كَلامًا حَسَنًا وَلَمْ يَتَكَلَّمْ مِنْ جِهَةِ جَمْعِ الْقِلَّةِ وَجَمْعِ الْكَثْرَةِ فِي الأَنْبِيَاءِ ، وَظَهَرَ لِي فِيهِ أَنَّهُ لَمَّا كَانَ فِي الآيَةِ الَّتِي فِي وَسَطِ آلِ عِمْرَانَ الْمُرَادُ الاعْتِقَادُ وَالاعْتِقَادُ يَتَعَلَّقُ بِجَمِيعِ الأَنْبِيَاءِ أَتَى فِيهِ بِجَمْعِ الْكَثْرَةِ وَيُوَافِقُهُ قَوْلُهُ فِي آخِرِ آلِ عِمْرَانَ ﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ لأَنَّهَا فِي قَوْمٍ مَوْجُودِينَ لَمْ يَقْتُلُوا ، وَإِنَّمَا اعْتَقَدُوا بِخِلافِ آيَةِ الْبَقَرَةِ وَالآيَةُ الأُولَى مِنْ آلِ عِمْرَانَ فَإِنَّهَا فِي قَوْمٍ قَتَلُوا وَإِنَّمَا قَتَلُوا بَعْضَ الأَنْبِيَاءِ فَأَتَى فِيهَا بِجَمْعِ السَّلامَةِ الَّذِي هُوَ الْقِلَّةُ مَعَ أَنَّهُ رُوِيَ فِي عَدَدِ الْمَقْتُولِينَ أَنَّهُ أَكْثَرُ مِنْ الْعَشَرَةِ انتهى . انتهى . ا هـ ﴿ فتاوى السبكى حـ 1 صـ 23 ﴾

ومن فوائد الآلوسى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يا موسى لَن نَّصْبِرَ على طَعَامٍ واحد ﴾ الظاهر أنه داخل في تعداد النعم وتفصيلها وهو إجابة سؤالهم بقوله تعالى : ﴿ اهبطوا ﴾ الخ مع استحقاقهم كمال السخط لأنهم كفروا نعمة إنزال الطعام اللذيذ عليهم وهم في التيه من غير كدّ وتعب حيث سألوا ب ﴿ لَن نَّصْبِرَ ﴾ فإنه يدل على كراهيتهم إياه إذ الصبر حبس النفس في المضيق ، ولذا أنكر عليه بقوله تعالى : ﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ ﴾ الخ ، فالآية في الأسلوب مثل قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يا موسى موسى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ ﴾ [البقرة : 55] الخ ، حيث عاندوا بعد سماع الكلام وأهلكوا ، ثم أفاض عليهم نعمة الحياة ، قال مولانا الساليكوتي : ومن هذا ظهر ضعف ما قال الإمام الرازي لو كان سؤالهم معصية لما أجابهم ، لأن الإجابة إلى المعصية معصية وهي غير جائزة على الأنبياء وإن قوله تعالى : ﴿ كُلُواْ واشربوا ﴾ [البقرة : 60] أمر إباحة لا إيجاب ، فلا يكون سؤالهم غير ذلك الطعام معصية ، ووصف الطعام بواحد وإن كانا طعامين (المنّ والسلوى) اللذين رزقوهما في التيه ، إما باعتبار كونه على نهج واحد كما

يقال : طعام مائدة الأمير واحد ولو كان ألواناً شتى بمعنى أنه لا يتبدل ولا يختلف بحسب الأوقات ، أو باعتبار كونه ضرباً واحداً لأن المنّ والسلوى من طعام أهل التلذذ والسرف ، وكأن القوم كانوا فلاحة فما أرادوا إلا ما ألفوه ، وقيل : إنهم كانوا يطبخونهما معاً فيصير طعاماً واحداً ، والقول بأن هذا القول كان قبل نزول السلوى نازل من القول ، وأهون منه القول بأنهم أرادوا بالطعام الواحد السلوى لأن المنّ كان شراباً ، أو شيئاً يتحلون به ، فلم يعدوه طعاماً آخر ، وإلا نزل القول بأنه عبر بالواحد عن الاثنين كما عبر بالاثنين عن الواحد في نحو ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالمَرْجَانُ ﴾ [الرَحمن : 22] وإنما يخرج من أحدهما وهو الملح دون العذب

(108/53)

﴿ فادعُ لَنَا رَبَّكَ ﴾ أي سله لأجلنا بدعائك إياه بأن يخرج لنا كذا وكذا والفاء لسببية عدم الصبر للدعاء ، ولغة بني عامر ﴿ فادع ﴾ بكسر العين جعلوا دعا من ذوات الياء كرمى ، وإنما سألوا من موسى أن يدعو لهم ، لأن دعاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أقرب للإجابة من دعاء غيرهم ، على أن دعاء الغير للغير مطلقاً أقرب إليها فما ظنك بدعاء الأنبياء لأممهم ؟ ولهذا قال صلى الله عليه وسلم لعمر رضي الله تعالى عنه : " أشركنا في

دعائك " وفي الأثر : " ادعوني بألسنة لم تعصوني فيها " وحملت على ألسنة الغير ، والتعرض لعنوان الربوبية لتمهيد مبادىء الإجابة ، وقالوا : (ربك) ولم يقولوا : ربنا ، لأن في ذلك من الاختصاص به ما ليس فيهم من مناجاته وتكليمه وإيتائه التوراة ، فكأنهم قالوا : ادع لنا المحسن إليك بما لم يحسن به إلينا ، فكما أحسن إليك من قبل نرجو أن يحسن إليك في إجابة دعائك .

﴿ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الأرض مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ﴾ المراد بالإخراج المعنى المجازي اللازم للمعنى الحقيقي ، وهو الإظهار بطريق الإيجاد لا بطريق إزالة الخفاء والحمل على المعنى الحقيق يقتضي مخرجاً عنه ، وما يصلح له ههنا هو (الأرض) وبتقديره يصير الكلام سخيفاً ، و ﴿ يَخْرُجُ ﴾ مجزوم لأنه جواب الأمر ، وجزمه بلام الطلب محذوفة لا يجوز عند البصريين ، و(من) الأولى تبعيضية أي مأكولاً بعض ما (تنبت) وادعى الأخفش زيادتها وليس بشيء و(ما) موصولة والعائد محذوف ، أي تنبته ، وجعلها مصدرية لم يجوّزه أبو البقاء لأن المقدر جوهر ونسبة الإنبات إلى (الأرض) مجاز من باب النسبة إلى القابل .

(109/53)

وقد أودع الله تعالى في الطبقة الطينية من الأرض أو فيها قوة قابلة لذلك ، وكون القوة القابلة مودعة في الحب دون التراب ربما يفضي إلى القول بقدم الحب بالنوع ، و(من) الثانية بيانية ، فالظرف مستقر واقع موقع الحال ، أي كائناً من (بقلها) .

وقال أبو حيان : تبعيضية واقعة موقع البدل من كلمة (ما) فالظرف لغو متعلق ب (يُخرجْ) وعلى التقديرين كما قال الساليكوتي : يفيد أن المطلوب إخراج بعض هؤلاء ، ولو جعل بياناً لما أفاده (من) التبعيضية كما قاله المولى عصام الدين لخلا الكلام عن الإفادة المذكورة ، وأوهمَ أن المطلوب إخراج جميع هؤلاء لعدم العهد والبقل جنس يندرج فيه النبات الرطب مما يأكله الناس والأنعام ، والمراد به هنا أطايب البقول التي يأكلها الناس والقثاء هو هذا المعروف ، وقال الخليل : هو الخيار ، وقرأ يحيى بن وثاب وغيره بضم القاف وهو لغة والفوم الحنطة وعليه أكثر الناس حتى قال الزجاج : لا خلاف عند أهل اللغة أن الفوم الحنطة ، وسائر الحبوب التي تختبز يلحقها اسم الفوم وقال الكسائي وجماعة : هو الثوم ، وقد أبدلت ثاؤه فاء كما في جدث وجدف وهو بالبصل والعدس أوفق وبه قرأ ابن مسعود رضي الله تعالى عنه ونفس شيخنا عليه الرحمة إليه تميل ، والقول بأنه الخبز يبعده الإنبات من (الأرض) وذكره مع البقل وغيره .

وما في "المعالم" عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما من أن الفوم الخبز يمكن توجيهه بأن معناه إنه يقال عليه، ووجه ترتيب النظم أنه ذكر أولاً ما هو جامع للحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة وهو البقل إذ منه ما هو بارد رطب كالهندبا ومنه ما هو حار يابس كالكرفس والسذاب ومنه ما هو حار وفيه رطوبة، كالنعناع وثانياً: ما هو بارد رطب وهو القثاء وثالثاً: ما هو حار يابس وهو الثوم ورابعاً: ما هو بارد يابس وهو العدس وخامساً: ما هو حار رطب وهو البصل وإذا طبخ صار بارداً رطباً عند بعضهم، أو يقال: إنه ذكر أولاً ما يؤكل من غير علاج نار، وذكر بعده ما يعالج به مع ما ينبغي فيه ذلك ويقبله.

﴿قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الذى هُوَ أدنى بالذى هُوَ خَيْرٌ﴾ استئناف وقع جواباً عن سؤال مقدر، كأنه قيل: فماذا قال لهم؟ فقيل قال: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ﴾ الخ، والقائل إما الله تعالى على لسان موسى عليه السلام، ويرجحه كون المقام مقام تعداد النعم، أو موسى نفسه وهو الأنسب بسياق النظم والاستفهام للإنكار، والاستبدال الاعتياض.

(111/53)

فإن قلت كونهم لا يصبرون على طعام واحد أفهم طلب ضم ذلك إليه لا استبداله به أجيب بأن قولهم : ﴿ لَن نَّصْبِرَ ﴾ يدل على كراهتهم ذلك الطعام ؛ وعدم الشكر على النعمة دليل الزوال ، فكأنهم طلبوا زوالها ومجيء غيرها ، وقيل : إنهم طلبوا ذلك ، وخطابهم بهذا إشارة إلى أنه تعالى إذا أعطاهم ما سألوا منع عنهم المنّ والسلوى فلا يجتمعان ، وقيل : الاستبدال في المعدة وهو كما ترى وقرأ أبيّ : أتبدلون وهو مجاز ، لأن التبديل ليس لهم إنما ذلك إلى الله تعالى لكنهم لما كانوا يحصل التبديل بسؤالهم جعلوا مبدلين ، وكان المعنى أتسألون تبديل الذي الخ ، و ﴿ الذى ﴾ مفعول ﴿ تستبدلون ﴾ وهو الحاصل ؛ و ﴿ فَلْيُؤَدّ الذى ﴾ دخلت عليه الباء هو الزائل ، وهو ﴿ أدنى ﴾ صلة ﴿ الذى ﴾ وهو هنا واجب الإثبات عند البصريين إذ لا طول ، و ﴿ أدنى ﴾ إما من الدنو أو مقلوب من الدون ، وهو على الثاني ظاهر ، وعلى الأول مجاز استعير فيه الدنو بمعنى القرب المكاني للخسة كما استعير البعد للشرف ، فقيل : بعيد المحل بعيد الهمة ، ويحتمل أن يكون مهموزاً من الدناءة ، وأبدلت فيه الهمزة ألفاً ويؤيده قراءة زهير والكسائي ﴿ أدنأ ﴾ بالهمزة ، وأريد بالذي هو خير المنّ والسلوى ومعنى خيرية هذا المأكول بالنسبة إلى ذلك غلاء قيمته وطيب لذته ، والنفع الجليل في تناوله ، وعدم الكلفة في تحصيله ، وخلوّه عن الشبهة في حله

﴿ خَيْرٌ اهبطوا مِصْرًا ﴾ جملة محكية بالقول كالأولى ، وإنما لم يعطف إحداهما على الأخرى في المحكي لأن الأولى خبر معنى ، وهذه ليست كذلك ، ولكونها كالمبينة لها فإن الإهباط طريق الاستبدال ، هذا إذا جعل الجملتان من كلام الله تعالى أو كلام موسى ، وإن جعل إحداهما من موسى والأخرى من الله تعالى ، فوجه الفصل ظاهر ، والوقف على (خير) كاف على الأول : وتام على الثاني : والهبوط يجوز أن يكون مكانياً بأن يكون التيه أرفع من المصر ، وأن يكون رتبياً ، وهو الأنسب بالمقام ، وقرىء ﴿ اهبطوا ﴾ بضم الهمزة والباء والمصر البلد العظيم وأصله الحد والحاجز بين الشيئين ، قال : وجاعل الشمس (مصراً) لاخفاء به . . .

بين النهار وبين الليل قد فصلا

(113/53)

وإطلاقه على البلد لأنه ممصور أي محدود ، وأخذه من مصرت الشاة أمصرها إذا حلبت كل شيء في ضرعها بعيد ، وحكي عن أشهب أنه قال : قال لي مالك : هي مصر قريتك مسكن فرعون فهو إذاً عَلَمٌ وأسماء المواضع قد تعتبر من حيث المكانية فتذكَر ، وقد تعتبر

من حيث الأرضية فتؤنث ، فهو إن جعل علماً فإما باعتبار كونه بلدة ، فالصرف مع العلمية ، والتأنيث لسكون الوسط ، وإما باعتبار كونه بلداً فالصرف على بابه ، إذ الفرعية الواحدة لا تكفي في منعه ، ويؤيد ما قاله الإمام مالك رضي الله تعالى عنه : أنه في مصحف ابن مسعود (مصر) بلا ألف بعد الراء ويبعده أن الظاهر من التنوين التنكير ، وأن قوله تعالى : ﴿ ادْخُلُوا الأَرْضَ المُقَدَّسَةَ ﴾ [المائدة : 21] يعني الشام التي كتب الله تعالى لكم للوجوب كما يدل عليه عطف النهي وذلك يقتضي المنع من دخول أرض أخرى ، وأن يكون الأمر بالهبوط مقصوراً على بلاد التيه وهو ما بين بيت المقدس إلى قنسرين ومن الناس من جعل (مصر) معرب مصرائيم كإسرائيل اسم لأحد أولاد نوح عليه السلام وهو أول من اختطها فسميت باسمه ، وإنما جاز الصرف حينئذٍ لعدم الاعتداد بالعجمة لوجود التعريب والتصرف فيه فافهم وتدبر .

﴿ فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ﴾ تعليل للأمر بالهبوط ، وفي " البحر " أنها جواب للأمر وكما يجاب بالفعل يجاب بالجملة وفي ذلك محذوفان فإن ما يربط الجملة بما قبلها ، والضمير العائد على ﴿ مَا ﴾ والتقدير : فإن لكم فيها ما سألتموه ، والتعبير عن الأشياء المسؤولة ب (ما) للاستهجان بذكرها ، وقرأ النخعي ويحيى : ﴿ سَأَلْتُمْ ﴾ بكسر السين .

﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذلة والمسكنة ﴾ أي جعل ذلك محيطاً بهم إحاطة القبة بمن ضربت عليه ، أو ألصق بهم من ضرب الطين على الحائط ففي الكلام استعارة بالكناية حيث شبه ذلك بالقبة أو بالطين ، و(ضربت) استعارة تبعية تحقيقية لمعنى الإحاطة والشمول أو اللزوم واللصوق بهم ، وعلى الوجهين فالكلام كناية عن كونهم أذلاء متصاغرين ، وذلك بما ضرب عليهم من الجزية التي يؤدونها عن يَد وهم صاغرون ، وبما ألزموه من إظهار الزي ليعلم أنهم يهود ولا يلتبسوا بالمسلمين وبما طبعوا عليه من فقر النفس وشحها فلا ترى ملة من الملل أحرص منهم ، وبما تعودوا عليه من إظهار سوء الحال مخافة أن تضاعف عليهم الجزية إلى غير ذلك مما تراه في اليهود اليوم ، وهذا الضرب مجازاة لهم على كفران تلك النعمة ، وبهذا ارتبطت الآية بما قبلها ، وإنما أورد ضمير الغائب للإشارة إلى أن ذلك راجع إلى جميع اليهود ، وشامل للمخاطبين ، بقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ﴾ ولمن يأتي بعدهم إلى يوم القيامة فليس من قبيل الالتفات على ما وهم

﴿ وَبَاءوا بِغَضَبٍ مِّنَ الله ﴾ أي نزلوا وتمكنوا بما حل بهم من البلاء والنقم في الدنيا ، أو بما تحقق لهم من العذاب في العقبى ؛ أو بما كتب عليهم من المكاره فيهما أو رجعوا بغضب أي صار عليهم ، ولذا لم يحتج إلى اعتبار المرجوع إليه ، أو صاروا أحقاء به ، أو استحقوا العذاب بسببه وهو بعيد وأصل البواء بالفتح والضم مساواة الأجزاء ثم استعمل في كل

مساواة فيقال : هو بواء فلان أي كفؤه ، ومنه بؤ لشسع نعل كليب وحديث :
" فليتبوأ مقعده من النار " وفي وصف الغضب بكونه من الله تعالى تعظيم لشأنه بعد تعظيم وتفخيم بعد تفخيم .

(115/53)

﴿ ذلك بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بآيات الله وَيَقْتُلُونَ النبيين بِغَيْرِ الحق ﴾ أشار بذلك إلى ما سبق من ضرب الذلة والمسكنة والبوء بالغضب العظيم ، وإنما بَعّدهُ لبعد بعضه حتى لو كان إشارة إلى البوء لم يكن على لفظ البعيد ، أو للإشارة إلى أنهم أدركتهم هذه الأمور مع بعدهم عنها لكونهم أهل الكتاب ، أو للإيماء إلى بعدها في الفظاعة ، والباء للسببية وهي داخلة على المصدر المؤل ولم يعبر به ، وعبر بما عبر تنبيهاً على تجدد الكفر والقتل منهم حيناً بعد حين واستمرارهم عليهما فيما مضى ، أو لاستحضار قبيح صنعهم ، و(الآيات) إما المعجزات مطلقاً أو التسع التي أتى بها موسى عليه السلام ، أو ما جاء به من التسع وغيرها ، أو آيات الكتب المتلوة مطلقاً ، أو التوراة أو آيات منها كالآيات التي فيها صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم .
أو التي فيها الرجم أو القرآن ، وفي إضافة الآيات إلى اسمه تعالى زيادة تشنيع عليهم ، وبدأ

سبحانه بكفرهم بآياته لأنه أعظم كل عظيم ، وأردفه بقتلهم النبيين لأنه كالمنشأ له ، وأتى بالنبيين الظاهر في القلة دون الأنبياء الظاهر في الكثرة إذ الفرق بين الجمعين إذا كانا نكرتين وأما إذا دخلت عليهما (أل) فيتساويان كما في " البحر " فلا يرد أنهم قتلوا ثلثمائة نبي في أول النهار ، وأقاموا سوقهم في آخره ، وقيد القتل بغير الحق مع أن قتل الأنبياء لا يكون إلا كذلك للإيذان بأن ذلك بغير الحق عندهم إذ لم يكن أحد معتقداً حقية قتل أحد منهم عليهم السلام ، وإنما حملهم عليه حب الدنيا ، واتباع الهوى والغلو في العصيان ، والاعتداء فاللام في الحق على هذا للعهد ، وقيل : الأظهر أنها للجنس ، والمراد بغير حق أصلاً إذ لام الجنس المبهم كالنكرة ، ويؤيده ما في آل عمران (12)

(116/53)

﴿ بِغَيْرِ حَقّ ﴾ فيفيد أنه لم يكن حقاً باعتقادهم أيضاً ، ويمكن أن يكون فائدة التقييد إظهار معايب صنيعهم فإنه قتل النبي ثم جماعة منهم ثم كونه بغير الحق ، وهذا أوفق بما هو الظاهر من كون المنهي القتل بغير الحق في نفس الأمر سواء كان حقاً عند القاتل أو لا إلا أن الاقتصار على القتل بغير الحق عندهم أنسب للتعريض بما هم فيه على ما قيل ، والقول : بأنه يمكن أن يقال لو لم يقيد بغير الحق لأفاد أن من خواص النبوة أنه لو قتل أحداً بغير حق لا

يقتص ، ففائدة التقييد أن يكون النظم مفيداً لما هو الحكم الشرعي بعيد كما لا يخفى ، قال بعض المتأخرين : هذا كله إذا كان الغير بمعنى النفي أي بلا حق ، أما إذا كان بمعناه أي بسبب أمر مغاير للحق أي الباطل فالتقييد مفيد لأن قتلهم النبيين بسبب الباطل وحمايته ، وقريب من هذا ما قاله القفال من إنهم كانوا يقولون : إنهم كاذبون وأن معجزاتهم تمويهات ويقتلونهم بهذا السبب ، وبأنهم يريدون إبطال ما هم عليه من الحق بزعمهم ، ولعل ذلك غالب أحوالهم وإلا فشعياء ، ويحيى وزكريا عليهم السلام لم يقتلوا لذلك ، وإنما قتل شعياء لأن ملكاً من بني إسرائيل لما مات مرج أمر بني إسرائيل ، وتنافسوا الملك ، وقتل بعضهم بعضاً فنهاهم عليه السلام فبغوا عليه وقتلوه ، ويحيى عليه السلام إنما قتل لقصة تلك الامرأة لعنها الله تعالى ، وكذلك زكريا لأنه لما قتل ابنه انطلق هارباً فأرسل الملك في طلبه غضباً لما حصل لامرأته من قتل ابنه فوجد في جوف شجرة ففلقوا الشجرة معه فلقتين طولاً بمنشار ، ثم الظاهر أن الجار والمجرور مما تنازع فيه الكفر والقتل ، وفي " البحر " أنه متعلق بما عنده ، وزعم بعض الملحدين أن بين هذه الآية وما أشبهها ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا ﴾ [غافر : 51] تناقضاً وأجيب بأن المقتولين من الأنبياء والموعود بنصرهم الرسل ورد بأن قوله تعالى : ﴿ أَفَكُلَّمَا جَاءكُمْ رَسُولٌ ﴾ إلى

قوله سبحانه : ﴿ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ [البقرة : 87] يدل على أن المقتول رسل أيضاً ، وأجاب بعضهم بأن المراد النصرة بغلبة الحجة أو الأخذ بالثأر كما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن الله تعالى قدر أن يقتل بكل نبي سبعين ألفاً ، وبكل خليفة خمساً وثلاثين ألفاً ولا يخفى ما فيه ، فالأحسن أن المراد بالرسل المأمورون بالقتال كما أجاب به بعض المحققين لأن أمرهم بالقتال وعدم عصمتهم لا يليق بحكمة العزيز الحكيم ، وقرأ علي رضي الله تعالى عنه : (يقتلون) بالتشديد ، والحسن في رواية عنه (وتقتلون) بالتاء فيكون ذلك من الالتفات ، وقرأ نافع بهمز النبيين وكذا النبي والنبوة ، واستشكل بما روي أن رجلاً قال للنبي صلى الله عليه وسلم :

" يا نبىء الله بالهمزة فقال : لست بنبىء الله يعني مهموزاً ولكن نبي الله " بغير همزة فأنكر عليه ذلك .

ولهذا منع بعضهم من إطلاقه عليه عليه الصلاة والسلام على أنه استشكل أيضاً جمع النبي على نبيين وهو فعيل بمعنى مفعول ، وقد صرحوا بأنه لا يجمع جمع مذكر سالم وأجيب عن الأول بأن أبا زيد حكى نبأت من الأرض إذا خرجت منها فمنع لوهم أن معناه يا طريد الله تعالى فنهاه عن ذلك لإيهامه ، ولا يلزم من صحة استعمال الله تعالى له في حق نبيه صلى الله عليه وسلم الذي برأه من كل نقص جوازه من البشر ، وقيل : إن النهي كان خاصاً في صدر

الإسلام حيث دسائس اليهود كانت فاشية وهذا كما نهى عن قول : ﴿ راعنا ﴾ إلى قول : ﴿ انظرنا ﴾ [البقرة : 104] انتبه أيها المخرج وعن الثاني بأنه ليس بمتفق عليه إذ قيل : إنه بمعنى فاعل ولو سلم فقد خرج عن معناه الأصل ، ولم يلاحظ فيه هذا إذ يطلقه عليه من لا يعرف ذلك ، فصح جمعه باعتبار المعنى الغالب عليه فتدبر .

(118/53)

﴿ ذلك بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴾ إشارة إلى الكفر والقتل الواقعين سبباً لما تقدم ، وجازت الإشارة بالمفرد إلى متعدد للتأويل بالمذكور ، ونحوه مما هو مفرد لفظاً متعدد معنى ، وقد يجري مثل ذلك في الضمير حملاً عليه ، والباء للسببية ، وما بعدها سبب للسبب ، والمعنى : إن الذي حملهم على الكفر بآيات الله تعالى ، وقتلهم الأنبياء إنما هو تقدم عصيانهم واعتدائهم ومجاوزتهم الحدود ، والذنب يجر الذنب ، وأكد الأول لأنه مظنة الاستبعاد بخلاف مطلق العصيان ، وقيل : الباء بمعنى مع ؛ وقيل : الإشارة بذلك إلى ما أشير إليه بالأول ، وترك العاطف للدلالة على أن كل واحد منهما مستقل في استحقاق الضرب فكيف إذا اجتمعا .

وضعف هذا الوجه بأن التكرار خلاف الأصل مع فوات معنى لطيف حصل بالأول

وسابقه بأنه لا يظهر حينئذٍ لإيراد كلمة ذلك فائدة إذ الظاهر ﴿ بِمَا عَصَواْ ﴾ الخ ويفوت أيضاً ما يفوت ، وحظ العارف من هذه الآيات الاعتبار بحال هؤلاء الذين لم يرضوا بالقضاء ولم يشكروا على النعماء ولم يصبروا على البلواء كيف ضرب عليهم ذل الطغيان قبل وجود الأكوان ، وقهرهم بلطمة المسكنة في بيداء الخذلان وألبس قلوبهم حب الدنيا وأهبطهم من الدرجة العليا .

ومن باب الإشارة : الطعام الواحد هو الغذاء الروحاني من الحكمة والمعرفة ، وما تنبته الأرض هو الشهوات الخبيثة واللذات الخسيسة والتفكهات الباردة الناشئة من أرض النفوس المبتذلة في مصر البدن الموجبة للذلة لمن ذاقها والمسكنة لمن لاكها والهلاك لمن ابتلعها ، وسبب طلب ذلك الاحتجاب عن آيات الله تعالى وتجلياته وتسويد القلوب بدرن الذنوب ، وقطع وريدها بقطع واردها ، والذي يجر إلى هذا الغفلة عن المحبوب ، والاعتياض بالأغيار عن ذلك المطلوب نسأل الله تعالى لنا ولكم العافية . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 273. 279 ﴾

(119/53)

ومن فوائد ابن عاشور فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يا موسى لَن نَّصْبِرَ على طَعَامٍ واحد فادع لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الأرض مِن بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الذى هُوَ أدنى بالذى هُوَ خَيْرٌ اهبطوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ﴾

هي معطوفة على الجمل قبلها بأسلوب واحد ، وإسناد القول إلى ضمير المخاطبين جار على ما تقدم في نظائره وما تضمنته الجمل قبلها هو من تعداد النعم عليهم محضة أو مخلوطة بسوء شكرهم وبترتب النعمة على ذلك الصنيع بالعفو ونحوه كما تقدم ، فالظاهر أن يكون مضمون هذه الجملة نعمة أيضاً .

وللمفسرين حيرة في الإشارة إليها فيؤخذ من كلام الفخر أن قوله تعالى : ﴿ اهبطوا مصراً فإن لكم ما سألتم ﴾ هو كالإجابة لما طلبوه يعني والإجابة إنعام ولو كان معلقاً على دخول قرية من القرى ، ولا يخفى أنه بعيد جداً لأن إعطاءهم ما سألوه لم يثبت وقوعه .

ويؤخذ من كلام المفسرين الذي صدر الفخر بنقله ووجهه عبد الحكيم أن سؤالهم تعويض المن والسلوى بالبقل ونحوه معصية لما فيه من كراهة النعمة التي أنعم الله بها عليهم إذ عبروا عن تناولها بالصبر والصبر هو حمل النفس على الأمر المكروه ويدل لذلك أنه أنكر عليهم بقوله : ﴿ أتستبدلون الذي هو أدنى ﴾ فيكون محل النعمة هو الصفح عن هذا الذنب

والتنازع معهم إلى الإجابة بقوله : ﴿ اهبطوا ﴾ ولا يخفى أن هذا بعيد إذ ليس في قوله ﴿ اهبطوا ﴾ إنعام عليهم ولا في سؤالهم ما يدل على أنهم عصوا لأن طلب الانتقال من نعمة لغيرها لغرض معروف لا يعد معصية كما بينه الفخر .

(120/53)

فالذي عندي في تفسير الآية أنها انتقال من تعداد النعم المعقبة بنعم أخرى إلى بيان سوى اختيارهم في شهواتهم والاختيار دليل عقل اللبيب ، وإن كان يختار مباحاً ، مع ما في صيغة طلبهم من الجفاء وقلة الأدب مع الرسول ومع المنعم إذ قالوا : ﴿ لن نصبر ﴾ فعبروا عن تناول المن والسلوى بالصبر المستلزم الكراهية وأتوا بما دل عليه (لن) في حكاية كلامهم من أنهم لا يتناولون المن والسلوى من الآن فإن (لن) تدل على استغراق النفي لأزمنة فعل ﴿ نصبر ﴾ من أولها إلى آخرها وهو معنى التأبيد وفي ذلك إلجاء لموسى أن يبادر بالسؤال يظنون أنهم أيأسوه من قبول المن والسلوى بعد ذلك الحين فكان جواب الله لهم في هذه الطلبة أن قطع عنايته بهم وأهملهم ووكلهم إلى نفوسهم ولم يُرهم ما عودهم من إنزال الطعام وتفجير العيون بعد فلق البحر وتظليل الغمام بل قال لهم : ﴿ اهبطوا مصراً ﴾ فأمرهم بالسعي لأنفسهم وكفى بذلك تأديباً وتوبيخاً .

قال الشيخ ابن عطاء الله رحمه الله : من جهل المريد أن يسيء الأدب فتؤخر العقوبة عنه فيقول لو كان في هذا إساءة لعوقبت فقد يقطع المدد عنه من حيث لا يشعر ولو لم يكن إلا منع المزيد ، وقد يقام مقام البعد من حيث لا يدري ، ولو لم يكن إلا أن يخليك وما تريد ، والمقصد من هذا أن ينتقل من تعداد النعم إلى بيان تلقيهم لها بالاستخفاف لينتقل من ذلك إلى ذكر انقلاب أحوالهم وأسباب خذلانهم وليس شيء من ذلك بمقتضى كون السؤال معصية فإن العقوبات الدنيوية وحرمان الفضائل ليست من آثار خطاب التكليف ولكنها من أشباه خطاب الوضع ترجع إلى ترتب المسببات على أسبابها وذلك من نواميس نظام العالم وإنما الذي يدل على كون المجزي عليه معصية هو العقاب الأخروي وبهذا زالت الحيرة واندفع كل إشكال وانتظم سلك الكلام .

(121/53)

وقد أشارت الآية إلى قصة ذكرتها التوراة مجملة منتثرة وهي أنهم لما ارتحلوا من برية سينا من " حوريب" ونزلوا في برية " فاران" في آخر الشهر الثاني من السنة الثانية من الخروج سائرين إلى جهات " حبرون" فقالوا : تذكرنا السمك الذي كنا نأكله في مصر مجاناً (أي يصطادونه بأنفسهم) والقثاء والبطيخ والكراث والبصل والثوم وقد يبست نفوسنا فلا

ترى إلا هذا المن فبكَوا فغضب الله عليهم وسأله موسى العفو فعفا عنهم وأرسل عليهم السلوى فادخروا منها طعام شهر كامل .

والتعبير بلن المفيدة لتأبيد النفي في اللغة العربية لأداء معنى كلامهم المحكي هنا في شدة الضجر وبلوغ الكراهية منهم حدها الذي لا طاقة عنده ، فإن التأبيد يفيد استغراق النفي في جميع أجزاء الأبد أولها وآخرها فلن في نفي الأفعال مثل لا التبرئة في نفي النكرات .

ووصفوا الطعام بواحد وإن كان هو شيئين المن والسلوى لأن المراد أنه متكرر كل يوم .

وجملة ﴿ يخرج لنا ﴾ إلى آخرها هي مضمون ما طلبوا منه أن يدعو به فهي في معنى مقول قول محذوف كأنه قيل قل لربك يخرج لنا ومقتضى الظاهر أن يقال أن يخرج لنا فعدل عن ذلك إلى الإتيان بفعل مجزوم في صورة جواب طلبهم إيماء إلى أنهم واثقون بأنه إن دعا ربه أجابه حتى كأنَّ إخراج ما تنبت الأرض يحصل بمجرد دعاء موسى ربه ، وهذا أسلوب تكرر في القرآن مثل قوله : ﴿ قل لعبادِيَ الذين آمنوا يقيموا الصلاة ﴾ [إبراهيم : 31] . و ﴿ قل لعبادي يقولوا التي هي أحسن ﴾ [الإسراء : 53] وهو كثير فهو بمنزلة شرط وجزاء كأن قيل إن تدعُ ربك بأن يخرجَ لنا يخرجْ لنا ، وهذا بتنزيل سبب السبب منزلة السبب فجزم الفعل المطلوب في جواب الأمر بطلبه لله للدلالة على تحقق وقوعه لثقتهم بإجابة الله تعالى دعوة موسى ، وفيه تحريض على إيجاد ما علق عليه الجواب كأنه أمر في مكنته فإذا لم يفعل فقد شح عليهم بما فيه نفعهم .

والإخراج : الإبراز من الأرض ، و (من) الأولى تبعيضية والثانية بيانية أو الثانية أيضاً تبعيضية لأنهم لا يطلبون جميع البقل بل بعضه ، وفيه تسهيل على المسؤول ويكون قوله : ﴿ من بقلها ﴾ حالاً من (ما) أو هو بدل من (ما تنبت) بإعادة حرف الجر ، وعن الحسن : كانوا قوماً فلاّحة فنزعوا إلى عكرهم .

وقد اختلف في الفُوم فقيل : هو الثُوم بالمثلثة وإبدال الثاء فاءً شائع في كلام العرب كما قالوا : جدث وجدف وثَلَغ وفَلغ ، وهذا هو الأظهر والموافق لما عد معه ولما في التوراة .

وقيل الفوم الحنطة وأنشد الزجاج لأحيحة بن الجلاح :

قد كنتُ أُغنى الناس شخصاً واحداً . . .

وردَ المدينَة من مزارع فوم

(يريد مزارع الحنطة) وقيل الفوم الحِمَّص بلغة أهل الشام .

وقوله : ﴿ قال أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير ﴾ هو من كلام موسى وقيل من كلام الله وهو توبيخ شديد لأنه جرده عن المقنعات وعن الزجر ، واقتصر على الاستفهام المقصود منه التعجب فالتوبيخُ .

وفي الاستبدال للخير بالأدنى النداء بنهاية حماقتهم وسوء اختيارهم .

وقوله : ﴿ أتستبدلون ﴾ السين والتاء فيه لتأكيد الحدث وليس للطلب فهو كقوله : ﴿ واستغنى الله ﴾ [التغابن : 6] وقولهم استجاب بمعنى أجاب ، واستكبر بمعنى تكبر ، ومنه قوله تعالى : ﴿ كان شره مستطيراً ﴾ في سورة الإنسان (7) .

وفعل استبدل مشتق من البدل بالتحريك مثل شبَه ، ويقال بكسر الباء وسكون الدال مثل شِبْه ويقال بَدِيل مثل شَبيه وقد سمع في مشتقاته استبدل وأبْدَل وبَدَّل وتَبَدَّل وكلها أفعال مزيدة ولم يسمع منه فعل مجرد وكأنهم استغنوا بهذه المزيدة عن المجرد ، وظاهر كلام صاحب الكشاف ﴾ في سورة النساء (2) عند قوله تعالى : ﴿ ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ﴾ أن استبدل هو أصلها وأكثرها وأن تبدل محمول عليه لقوله والتفعل بمعنى الاستفعال غزير ومنه التعجل بمعنى الاستعجال والتأخر بمعنى الاستئخار .

(123/53)

وجميع أفعال مادة البدل تدل على جعل شيء مكان شيء آخر من الذوات أو الصفات أوعن تعويض شيء بشيء آخر من الذوات أو الصفات .

ولما كان هذا معنى الحدث المصوغ منه الفعل اقتضت هذه الأفعال تعدية إلى متعلقين إما

على وجه المفعولية فيهما معاً مثل تعلق فعل الجَعل ، وإما على وجه المفعولية في أحدهما والجر للآخر مثل متعلقي أفعال التعويض كاشترى وهذا هو الاستعمال الكثير ، فإذا تعدى الفعل إلى مفعولين نحو ﴿ يوم تبدل الأرض غير الأرض ﴾ [إبراهيم : 48] كان المفعول الأول هو المزال والثاني هو الذي يخلُفه نحو قوله تعالى : ﴿ فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسناتٍ ﴾ [الفرقان : 70] ﴿ يوم تبدل الأرض غير الأرض ﴾ وقولهم أبدلت الحَلْقة خاتَما ، وإذ تعدت إلى مفعول واحد وتعدت إلى الآخر بالباء وهو الأكثر فالمنصوب هو المأخوذ والمجرور هو المبذول نحو قوله هنا : ﴿ أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير وقوله ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل ﴾ [البقرة : 108] وقوله في سورة النساء ﴿ ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ﴾ ، وقد يجر المعمول الثاني بِمن التي هي بمعنى باء البدلية كقول أبي الشيص :

بُدِّلْتُ من مُرد الشباب ملاءة . . .

خَلَقا وبئس مثُوبة المقتاض

وقد يعدل عن تعدية الفعل إلى الشيء المعوض ويعدى إلى آخذ العوض فيصير من باب أعطى فينصب مفعولين وينبه على المتروك بما يدل على ذلك من نحو مِن كذا ، وبعد كذا ، كقوله تعالى : ﴿ وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً ﴾ [النور : 55] التقدير ليبدلن خوفهم أمناً هذا تحرير طريق استعمال هذه الأفعال .

ووقع في "الكشاف" عند قوله تعالى: ﴿ ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ﴾ ما يقتضي أن فعل بدل له استعمال غير استعمال فعل استبدل وتبدل بأنه إذا عدي إلى المعمول الثاني بالباء كان مدخول الباء هو المأخوذ وكان المنصوب هو المتروك والمعطى فقرره القطب في "شرحه" بما ظاهره أن بَدَّل لا يكون في معنى تعديته إلا مخالفاً لتبدل واستبدل، وقرره التفتازاني بأن فيه استعمالين إذا تعدى إلى المعمول الثاني بالباء أحدهما يوافق استعمال تبدل والآخر بعكسه، والأظهر عندي أن لا فرق بين بدل وتبدل واستبدل وأن كلام "الكشاف" مُشكل وحسبك أنه لا يوجد في كلام أئمة اللغة ولا في كلامه نفسه في كتاب "الأساس".

فالأمر في قوله: ﴿ اهبطوا ﴾ للإباحة المشوبة بالتوبيخ أي إن كان هذا همكم فاهبطوا بقرينة قوله: ﴿ أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير ﴾ فالمعنى اهبطوا مصراً من الأمصار يعني وفيه إعراض عن طلبهم إذ ليس حولهم يومئذ بلد قريب يستطيعون وصوله. وقيل: أراد اهبطوا مصرَ أي بلدَ مصرَ بلدَ القبطِ أي ارجعوا إلى مصر التي خرجتم منها والأمر لمجرد التوبيخ إذ لا يمكنهم الرجوع إلى مصر.

واعلم أن مصر على هذا المعنى يجوز منعه من الصرف على تأويله بالبقعة فيكون فيه العلمية والتأنيث ، ويجوز صرفه على تأويله بالمكان أو لأنه مؤنث ثلاثي ساكن الوسط مثل هِنْد فهو في قراءة ابن مسعود بدون تنوين وأنه في مصحف أبيّ بن كعب بدون ألف وأنه ثبت بدون ألف في بعض مصاحف عثمان قاله ابن عطية ، وذكَر أن أشهب قال قال لي مالك : هي عندي مصر قريتُك مسكنُ فرعون أ هـ .

ويكون قول موسى لهم : ﴿ اهبطوا مصراً ﴾ أمراً قصد منه التهديد على تذكُّرهم أيام ذلهم وعنائهم وتمنيهم الرجوع لتلك المعيشة ، كأنه يقول لهم ارجعوا إلى ما كنتم فيه إذ لم تقدُروا قدر الفضائل النفسية ونعمة الحرية والاستقلال .

(125/53)

وربما كان قوله : ﴿ اهبطوا ﴾ دون لنهبط مؤذناً بذلك لأنه لا يريد إدخال نفسه في هذا الأمر وهذا يذكر بقول أبي الطيب :

فإن كان أعجبكم عامُكم . . .

فعودوا إلى حِمْص في القابل

وقوله : ﴿ فإن لكم ما سألتم ﴾ الظاهر أن الفاء للتعقيب عطفت جملة ﴿ إن لكم ما

سألتم ﴿ على جملة ﴿ اهبطوا ﴾ للدلالة على حصول سؤلهم بمجرد هبوطهم مصر أو ليست مفيدة للتعليل إذ ليس الأمر بالهبوط بمحتاج إلى التعليل بمثل مضمون هذه الجملة لظهور المقصود من قوله : ﴿ اهبطوا مصراً ﴾ ولأنه ليس بمقام ترغيب في هذا الهبوط حتى يشجع المأمور بتعليل الأمر والظاهر أن عدم إرادة التعليل هو الداعي إلى ذكر فاء التعقيب لأنه لو أريد التعليل لكانت إن مغنية غناء الفاء على ما صرح به الشيخ عبد القاهر في " دلائل الإعجاز " في الفصل الخامس والفصل الحادي عشر من فصول شتى في النظم إذ يقول : واعلم أن من شأن إن إذا جاءت على هذا الوجه أي الذي في قول بشار :

بكرا صاحبيَّ قبل الهجير . . .

إن ذاك النجاحَ في التبكير

أن تغني غناء الفاء العاطفة مثلاً وأن تفيد من ربط الجملة بما قبلها أمراً عجيباً فأنت ترى الكلام بها مستأنفاً غير مستأنف مقطوعاً موصولاً معاً وقال إنك ترى الجملة إذا دخلت إن ترتبط بما قبلها وتأتلف معه حتى كأن الكلامين أفرغا إفراغاً واحداً حتى إذا أسقطت إن رأيت الثاني منهما قد نبا عن الأول وتجافى معناه عن معناه حتى تجيء بالفاء فتقول مثلاً :

بكرا صاحبيَّ قبل الهجير . . .

إن ذاك النجاحَ في التبكير

ثم لا ترى الفاء تعيد الجملتين إلى ما كانتا عليه من الألفة وهذا الضرب كثير في التنزيل جداً

من ذلك قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم ﴾ [الحج : 1] وقوله : ﴿ يا بني أقم الصلاة ﴾ إلى قوله : ﴿ إن ذلك من عزم الأمور ﴾ [لقمان : 17] وقال : ﴿ وصل عليهم إن صلواتك سكن لهم ﴾ (التوبة 103) إلخ .

(126/53)

فظاهر كلام الشيخ أن وجود إن في الجملة المقصود منها التعليل والربط مغن عن الإتيان بالفاء ، وأن الإتيان بالفاء حينئذ لا يناسب الكلام البليغ إذ هو كالجمع بين العوض والمعوض عنه فإذا وجدنا الفاء مع إن علمنا أن الفاء لمجرد العطف وإن لإرادة التعليل والربط بين الجملتين المتعاطفتين بأكثر من معنى التعقيب .

ويستخلص من ذلك أن مواقع التعليل هي التي يكون فيها معناه بين مضمون الجملتين كالأمثلة التي ذكرها .

وجعل أبو حيان في " البحر المحيط " جملة ﴿ فإن لكم ما سألتم ﴾ جواباً للأمر زعم أن الأمر كما يجاب بالفعل يجاب بالجملة الاسمية ولا يخفى أن كلا المعنيين ضعيف ههنا لعدم قصد الترغيب في هذا الهبوط حتى يعلل أو يعلق ، وإنما هو كلام غضب كما تقدم .

واقتران الجملة بإن المؤكدة لتنزيلهم منزلة من يشك لبعد عهدهم بما سألوه حتى يشكون هل

يجدونه من شدة شوقهم ، والمحب بسوء الظن مُغرى .

﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذلة والمسكنة وَبَآءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ الله ﴾ .

(127/53)

عطف على الجمل المتقدمة بالواو وبدون إعادة إذ ، فأما عطفه فلأن هاته الجملة لها مزيد الارتباط بالجمل قبلها إذ كانت في معنى النتيجة والأثر لمدلول الجمل قبلها من قوله : ﴿ وإذ نجيناكم من آل فرعون ﴾ [البقرة : 49] فإن مضمون تلك الجمل ذكر ما منَّ الله تعالى به عليهم من نعمة تحريرهم من استعباد القبط إياهم وسوقهم إلى الأرض التي وعدهم فتضمن ذلك نعمتي التحرير والتمكين في الأرض وهو جعل الشجاعة طوع يدهم لو فعلوا فلم يقدروا قدر ذلك وتمنوا العود إلى المعيشة في مصر إذ قالوا ﴿ لن نصبر على طعام واحد ﴾ كما فصلناه لكم هنالك مما حكته التوراة وتقاعسوا عن دخول القرية وجبنوا عن لقاء العدو كما أشارت له الآية الماضية وفصلته آية المائدة فلا جرم إذ لم يشكروا النعمة ولم يقدروها أن تنتزع منهم ويسلبوها ويعوضوا عنها بضدها وهو الذلة المقابلة للشجاعة إذ لم يثقوا بنصر الله إياهم والمسكنة وهي العبودية فتكون الآية مسوقة مساق المجازاة للكلام السابق فهذا وجه العطف .

وأما كونه بالواو دون الفاء فليكون خبراً مقصوداً بذاته وليس متفرعاً على قول موسى لهم : ﴿ أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير ﴾ لأنهم لم يشكروا النعمة فإن شكر النعمة هو إظهار آثارها المقصودة منها كإظهار النصر للحق بنعمة الشجاعة وإغاثة الملهوفين بنعمة الكرم وتثقيف الأذهان بنعمة العلم فكل من لم يشكر النعمة فهو جدير بأن تسلب عنه ويعوض بضدها قال تعالى : ﴿ فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط وأثل ﴾ [سبأ : 16] الآية ، ولو عطف بغير الواو لكان ذكره تبعاً لذكر سببه فلم يكن له من الاستقلال ما ينبه البال .

فالضمير في قوله : ﴿ وضربت عليهم . . .

(128/53)

وباءوا ﴾ إلخ عائدة إلى جميع بني إسرائيل لا إلى خصوص الذين أبوا دخول القرية والذين قالوا : ﴿ لن نصبر على طعام واحد ﴾ بدليل قوله ﴿ ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيئين بغير الحق ﴾ فإن الذين قتلوا النبيئين هم أبناء الذين أبوا دخول القرية وقالوا : ﴿ لن نصبر ﴾ فالإتيان بضمير الغيبة هنا جار على مقتضى الظاهر لأنهم غير المخاطبين فليس هو من الالتفات إذ ليس قوله : ﴿ وضربت عليهم الذلة ﴾ إلخ من بقية

جواب موسى إياهم لما علمت من شموله للمتحدث عنهم الآيين دخول القرية ولغيرهم ممن أتى بعدهم فقد جاء ضمير الغيبة على أصله ، أما شموله للمخاطبين فإنما هو بطريقة التعريض وهو لزوم توارث الأبناء أخلاق الآباء وشمائلهم كما قررناه في وجه الخطابات الماضية من قوله : ﴿ وإذ فرقنا بكم البحر ﴾ [البقرة : 50] الآيات ويؤيده التعليل الآتي بقوله : ﴿ ذلك بأنهم كانوا يكفرون ﴾ المشعر بأن كل من اتصف بذلك فهو جدير بأن يثبت له من الحكم مثل ما ثبت للآخر .

والضرب في كلام العرب يرجع إلى معنى التقاء ظاهر جسم بظاهر جسم آخر بشدة ، يقال ضرب بعصا وبيده وبالسيف وضرب بيده الأرض إذا ألصقها بها ، وتفرعت عن هذا معان مجازية ترجع إلى شدة اللصوق .

فمنه ضرب في الأرض : سار طويلاً ، وضرب قبة وبيتاً في موضع كذا بمعنى شدها ووثقها من الأرض .

قال عبدة بن الطبيب :

إن التي ضربتْ بيتاً مُهاجرة . . .

وقال زياد الأعجم :

في قبة ضربت على ابن الحشرج . . .

وضربَ الطين على الحائط ألصقه ، وقد تقدم ما لجميع هذه المعاني عند قوله تعالى : ﴿ إن

الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها ﴾ [البقرة : 26] .

فقوله : ﴿ وضربت عليهم الذلة والمسكنة ﴾ استعارة مكنية إذ شبهت الذلة والمسكنة في الإحاطة بهم واللزوم بالبيت أو القبة يضربها الساكن ليلزمها وذكر الضرب تخييل لأنه ليس له شبيه في علائق المشبه .

(129/53)

ويجوز أن يكون ضربت استعارة تبعية وليس ثمة مكنية بأن شبه لزوم الذلة لهم ولصوقها بلصوق الطين بالحائط ، ومعنى التبعية أن المنظور إليه في التشبيه هو الحدث والوصف لا الذات بمعنى أن جريان الاستعارة في الفعل ليس بعنوان كونه تابعاً لفاعل كما في التخييلية بل بعنوان كونه حدثاً وهو معنى قولهم أجريت في الفعل تبعاً لجريانها في المصدر وبه يظهر الفرق بين جعل ضربت تخييلاً وجعله تبعية وهي طريقة في الآية سلكها الطيبي في ﴿ شرح الكشاف ﴾ وخالفه التفتازاني وجعل الضرب استعارة تبعية بمعنى الإحاطة والشمول سواء كان المشبه به القبة أو الطين ، وهما احتمالان مقصودان في هذا المقام يشعر بهما البلغاء .

ثم إن قوله تعالى : ﴿ وضربت عليهم الذلة ﴾ ليس هو من باب قول زياد الأعجم :

إن السماحة والمروءة والندى . . .

في قبة ضربت على ابن الحشرج

لأن القبة في الآية مشبه بها وليست بموجودة والقبة في البيت يمكن أن تكون حقيقة فالآية استعارة وتصريح والبيت حقيقة وكناية كما نبه عليه الطيبي وجعل التفتازاني الآية على الاحتمالين في الاستعارة كناية عن كون اليهود أذلاء متصاغرين وهي نكت لا تتزاحم .

والذلة الصغار وهي بكسر الذال لا غير وهي ضد العزة ولذلك قابل بينهما السموأل أو الحارثي في قوله :

وما ضَرَّنَا أنا قَليل وجارُنا . . .

عَزِيز وجارُ الأكثرين ذَليل

والمسكنة الفقر مشتقة من السكون لأن الفقر يقلل حركة صاحبه .

وتطلق على الضعف ومنه المسكين للفقير .

ومعنى لزوم الذلة والمسكنة لليهود أنهم فقدوا البأس والشجاعة وبدا عليهم سيما الفقر والحاجة مع وفرة ما أنعم الله عليهم فإنهم لما سئموها صارت لديهم كالعدم ولذلك صار الحرص لهم سجية باقية في أعقابهم .

والبوء الرجوع وهو هنا مستعار لانقلاب الحالة مما يرضى الله إلى غضبه .

﴿ ذلك بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النبيين بِغَيْرِ الحق ذلك بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ .

استئناف بياني أثاره ما شنع به حالهم من لزوم الذلة والمسكنة لهم والإشارة إلى ما تقدم من قوله : ﴿ وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب ﴾ .

وأفرد اسم الإشارة لتأويل المشار إليه بالمذكور وهو أولى بجواز الإفراد من إفراد الضمير في قول رؤبة :

فِيها خطوط من سَواد وَبَلقْ . . .
كأَنَّه في الجِلْدِ توليع البَهَق

قال أبو عبيدة لرؤبة : إن أردت الخطوط فقل كأنها وإن أردت السواد والبياض فقل كأنهما فقال رؤبة : " أردت كأن ذلك ويلك" وإنما كان ما في الآية أولى بالإفراد لأن الذلة والمسكنة والغضب مما لا يشاهد فلا يشار إلى ذاتها ولكن يشار إلى مضمون الكلام وهو شيء واحد أي مذكور ومقول ومن هذا قوله تعالى :

﴿ ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم ﴾ [آل عمران : 58] أي ذلك القصص السابق .

ومنه قوله تعالى : ﴿ عوان بين ذلك ﴾ [البقرة : 68] وسيأتي .

وقال صاحب "الكشاف" "والذي حسن ذلك أن أسماء الإشارة ليست تثنيتها وجمعها وتأنيثها على الحقيقة وكذلك الموصولات ولذلك جاء الذي بمعنى الجمع" انتهى انتهى . اهـ قيل أراد به أن جمع أسماء الإشارة وتثنيتها لم يكن بزيادة علامات بل كان بألفاظ خاصة بتلك الأحوال فلذلك كان استعمال بعضها في معنى بعض أسهل إذا كان على تأويل ، وهو قليل الجدوى لأن المدار على التأويل والمجاز سواء كان في استعمال لفظ في معنى آخر أو في استعمال صيغة في معنى أخرى فلا حسن يخص هذه الألفاظ فيما يظهر فلعله أراد أن ذا موضوع لجنس ما يشار إليه .

والذي موضوع لجنس ما عرف بصلة فهو صالح للإطلاق على الواحد والمثنى والجمع والمذكر والمؤنث وإن ما يقع من أسماء الإشارة والموصولات للمثنى نحو ذان وللجمع نحو أولئك ، إنما هو اسم بمعنى المثنى والمجموع لا أنه تثنية مفرد ، وجمع مفرد ، فذا يشار به للمثنى والمجموع ولا عكس فلذلك حسن استعمال المفرد منها للدلالة على المتعدد .

(131/53)

والباء في قوله : ﴿ بأنهم كانوا يكفرون ﴾ سببية أي إن كفرهم وما معه كان سبباً لعقابهم في الدنيا بالذلة والمسكنة وفي الآخرة بغضب الله وفيه تحذير من الوقوع في مثل ما وقعوا

فيه .

وقوله : ﴿ ويقتلون النبيئين بغير الحق ﴾ خاص بأجيال اليهود الذين اجترموا هذه الجريمة العظيمة سواء في ذلك من باشر القتل وأمر به ومن سكت عنه ولم ينصر الأنبياء .

وقد قتل اليهود من الأنبياء أشعياء بن أموص الذي كان حياً في منتصف القرن الثامن قبل المسيح ، قتله الملك منسى ملك اليهود سنة 700 قبل المسيح نشر نشراً على جذع شجرة .

وأرمياء النبيء الذي كان حياً في أواسط القرن السابع قبل المسيح وذلك لأنه أكثر التوبيخات والنصائح لليهود فرجموه بالحجارة حتى قتلوه وفي ذلك خلاف .

وزكرياء الأخير أبا يحيى قتله هيرودس العبراني ملك اليهود من قبل الرومان لأن زكرياء حاول تخليص ابنه يحيى من القتل وذلك في مدة نبوءة عيسى ، ويحيى بن زكرياء قتله هيرودس لغضب ابنة أخت هيرودس على يحيى .

وقوله : ﴿ بغير الحق ﴾ أي بدون وجه معتبر في شريعتهم فإن فيها : ﴿ أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ﴾ [المائدة : 32] فهذا القيد من الاحتجاج على اليهود بأصول دينهم لتخليد مذمتهم ، وإلا فإن قتل الأنبياء لا يكون بحق في حال من الأحوال ، وإنما قال (الأنبياء) لأن الرسل لا تسلط عليهم أعداؤهم لأنه مناف لحكمة الرسالة التي هي التبليغ قال تعالى : ﴿ إنا لننصر رسلنا ﴾ [غافر : 51] وقال :

﴿ والله يعصمك من الناس ﴾ [المائدة : 67] ومن ثم كان ادعاء النصارى أن عيسى قتله اليهود ادعاء منافياً لحكمة الإرسال ولكن الله أنهى مدة رسالته بحصول المقصد مما أرسل إليه .

(132/53)

وقوله : ﴿ ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾ يحتمل أن تكون الإشارة فيه إلى نفس المشار إليه بذلك الأولى فيكون تكريراً للإشارة لزيادة تمييز المشار إليه حرصاً على معرفته ، ويكون العصيان والاعتداء سببين آخرين لضرب الذلة والمسكنة ولغضب الله تعالى عليهم ، والآية حينئذ من قبيل التكرير وهو مغن عن العطف مثل قوله تعالى : ﴿ أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾ [الأعراف : 179] .

ويجوز أن يكون المشار إليه بذلك الثاني هو الكفر بآيات الله وقتلهم النبيئين فيكون (ذلك) إشارة إلى سبب ضرب الذلة إلخ فما بعد كلمة (ذلك) هو سبب السبب تنبيهاً على أن إدمان العاصي يفضي إلى التغلغل فيها والتنقل من أصغرها إلى أكبرها .

والباء على الوجهين سببية على أصل معناها .

ولا حاجة إلى جعل إحدى الباءين بمعنى مع على تقدير جعل اسم الإشارة الثاني تكريراً

للأول أخذاً من كلام " الكشاف" الذي احتفل به الطيبي فأطال في تقريره وتفنين توجيهه فإن فيه من التكلف ما ينبو عنه نظم القرآن .

وكان الذي دعا إلى فرض هذا الوجه هوخلو الكلام عن عاطف يعطف ﴿ بما عصوا ﴾ على ﴿ بأنهم كانوا يكفرون ﴾ إذا كانت الإشارة لمجرد التكرير .

ولقد نبهناك آنفاً إلى دفع هذا بأن التكرير يغني غناء العطف . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 1 صـ 503.514 ﴾

(133/53)

ومن فوائد صاحب المنار فى الآية الكريمة

قال رحمه الله :

(وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا

يَعْتَدُونَ)

هَذَا ضَرْبٌ آخَرُ مِمَّا ذَكَرَ اللهُ - تَعَالَى - بِهِ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي سِيَاقِ دَعْوَتِهِمْ إِلَى الْإِسْلَامِ .

(134/53)

قَالَ صَاحِبُ الْكَشَّافِ . كَانُوا قَوْمًا فَلَّاحَةً فَنَزَعُوا إِلَى عِكْرِهِمْ ، فَأَجْمَعُوا مَا كَانُوا فِيهِ مِنَ النِّعْمَةِ وَطَلَبَتْ أَنْفُسُهُمُ الشَّقَاءَ اهـ . وَقَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ فِي تَفْسِيرِهِ وَنَقْدِهِ وَرَدِّهِ مَا نَصُّهُ : فَلَّاحَةٌ بِتَشْدِيدِ اللَّامِ جَمْعُ فَلَّاحٍ بِمَعْنَى الزُّرَّاعِ ، وَعِكْرُهُمْ بِكَسْرِ الْعَيْنِ أَصْلُهُمْ ، وَأَجَمَ الطَّعَامُ مِنْ بَابِ ضَرَبَ وَعَلِمَ كَرِهَهُ مِنَ الْمُدَاوَمَةِ عَلَيْهِ . وَهُوَ بَيَانٌ لِمَا بَعَثَهُمْ عَلَى أَنْ يَسْأَلُوا مُوسَى أَنْ يَدْعُوَ رَبَّهُ لِيُخْرِجَ لَهُمْ تِلْكَ الْأَشْيَاءَ الَّتِي طَلَبُوهَا ، وَالسَّبَبُ فِي جَهْرِهِمْ بِذَلِكَ وَثَوْرَتِهِمْ عَلَيْهِ ، كَأَنَّهُ يَقُولُ : إِنَّ الْحَامِلَ لَهُمْ عَلَى ذَلِكَ هُوَ تَمَكُّنُ الْعَادَةِ مِنْ نُفُوسِهِمْ ، فَلَمَّا خَرَجُوا مِنْهَا وَجَاءَهُمْ مَا لَمْ يَكُونُوا يَأْلَفُونَ نَزَعُوا إِلَى مَا كَانُوا قَدْ عُوِّدُوهُ مِنْ قَبْلُ . وَلَوْ كَانَ الْأَمْرُ كَمَا قَالَ لَكَانَ فِي ذَلِكَ الْتِمَاسُ عُذْرٍ لَهُمْ ، وَلَمَا عَدَّ اللهُ هَذَا الْقَوْلَ فِي خَطَايَاهُمْ ، بَلْ إِنَّ السَّآمَةَ مِنْ تَنَاوُلِ طَعَامٍ وَاحِدٍ قَدْ يَكُونُ مِنْ لَوَازِمِ الطِّبَاعِ الْبَشَرِيَّةِ إِلَّا مَا شَذَّ مِنْهَا لِعَادَةٍ أَوْ ضَرُورَةٍ ، وَلَا يُعَدُّ مَا هُوَ مِنْ مَنَازِعِ الطِّبَاعِ جُرْمًا إِذَا لَمْ يُسْقِطْ ذَلِكَ فِي مَحْظُورٍ . وَسِيَاقُ الْآيَاتِ قَبْلَهَا وَمَا يَلْحَقُ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِ - تَعَالَى - : (وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ) (2 : 63) . . . إِلَخْ ، كُلُّ

ذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَا عُدِّدَ مِنْ أَفَاعِيلِهِمْ مَعَ تَضَافُرِ الْآيَاتِ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَتَوَارُدِ نَعَمِ اللهِ عَلَيْهِمْ كُلُّهُ مِنْ

(135/53)

خَطَايَاهُمْ . وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ – تَعَالَى – : (وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا

تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا) وَيُؤَكِّدُ ذَلِكَ إِيرَادُ تِلْكَ الْعُقُوبَةِ الشَّدِيدَةِ مِنْ ضَرْبِ الذِّلَّةِ وَالْمَسْكَنَةِ وَاسْتِحْقَاقِ غَضَبِ اللهِ – تَعَالَى – عَقِبَ مَقَالِهِمْ هَذَا

.

وَالَّذِي يَقَعُ عَلَيْهِ الْفَهْمُ مِنَ الْآيَةِ أَنَّ التَّرَفَ قَدِ اسْتَوْلَى عَلَى طِبَاعِهِمْ وَمَلَكَ الْبَطَرُ أَهْوَاءَهُمْ حَتَّى كَانُوا يَسْتَخِفُّونَ بِذَلِكَ الْأَمْرِ الْعَظِيمِ الَّذِي هَيَّأَهُمُ اللهُ لَهُ مِنَ التَّمَكُّنِ فِي الْأَرْضِ الْمَوْعُودَةِ ، وَالْخُرُوجِ مِنَ الْخَسْفِ الَّذِي كَانُوا فِيهِ . وَمَعَ كَثْرَةِ مَا شَاهَدُوا مِنْ آيَاتِ اللهِ الْقَائِمَةِ عَلَى صِدْقِ

(136/53)

وَعْدِهِ لَهُمْ ، لَمْ تَسْتَيْقِنْهُ أَنْفُسُهُمْ ، بَلْ كَانُوا عَلَى رَيْبٍ مِنْهُ ، وَكَانُوا يَظُنُّونَ أَنَّ مُوسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ – خَدَعَهُمْ بِإِخْرَاجِهِمْ مِنْ مِصْرَ وَجَاءَ بِهِمْ فِي الْبَرِّيَّةِ لِيُهْلِكَهُمْ ؛ فَلِذَلِكَ دَأَبُوا عَلَى إِعْنَاتِهِ وَالْإِكْثَارِ مِنَ الطَّلَبِ فِيمَا يُسْتَطَاعُ وَمَا لَا يُسْتَطَاعُ ، حَتَّى يَئِسَ مِنْهُمْ فَيَرْتَدَّ بِهِمْ إِلَى مِصْرَ حَيْثُ أُلْفُوا الذِّلَّةَ ، وَلَهُمْ مَطْمَعٌ فِي الْعَيْشِ وَأَمَلٌ فِي الْخَلَاصِ مِنَ الْهَلَكَةِ ، مِمَّا ذَكَرَهُ اللهُ عَنْهُمْ فِي هَذِهِ الْآيَةِ عَلَى حَدِّ قَوْلِهِمْ (لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً) وَيُرْشِدُ إِلَى مَا فِيهِ مِنَ الْإِعْنَاتِ قَوْلُهُمْ : (لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ) ، فَقَدْ عَبَّرَ عَنْ مَسْأَلَتِهِمْ بِمَا فِيهِ حَرْفُ النَّفْيِ الَّذِي يَأْتِي لِسَلْبِ الْفِعْلِ فِي مُسْتَقْبَلِ الزَّمَانِ مَعَ تَأْكِيدِهِ ، فَكَأَنَّهُمْ قَالُوا : اعْلَمْ أَنَّهُ لَمْ يَبْقَ لَكَ أَمَلٌ فِي بَقَائِنَا مَعَكَ عَلَى هَذِهِ الْحَالَةِ مِنِ الْتِزَامِ طَعَامٍ وَاحِدٍ ، فَإِنْ كَانَتْ لَكَ مَنْزِلَةٌ عِنْدَ اللهِ كَمَا تَزْعُمُ فَادْعُهُ يُخْرِجْ لَنَا مَا يُمْكِنُ مَعَهُ أَنْ نَبْقَى مَعَكَ ؛ إِلَى أَنْ يَتِمَّ الْوَعْدُ الَّذِي وَعَدَكَ وَوَعَدْتَنَا – وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ كَانُوا فِي بَرِّيَّةٍ غَيْرِ مُنْبِتَةٍ ، وَرُبَّمَا لَمْ يَكُنْ قَوْلُهُمْ هَذَا عَنْ سَآمَةٍ وَلَا أَجَمٍ مِنْ وَحْدَةِ الطَّعَامِ ، وَلَكِنَّهُ نَزَقٌ وَبَطَرٌ كَمَا بَيَّنَّا ، وَطَلَبٌ لِلْخَلَاصِ مِمَّا يَخْشَوْنَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ . وَيُؤَيِّدُ ذَلِكَ مَا هُوَ مَعْرُوفٌ فِي أَخْبَارِهِمْ . وَوَصَفُوا الطَّعَامَ بِالْوَاحِدِ مَعَ أَنَّهُ نَوْعَانِ

–

الْمَنُّ وَالسَّلْوَى – لِأَنَّهُمَا طَعَامُ كُلِّ يَوْمٍ ، وَالْعَرَبُ تَقُولُ لِمَنْ يَأْكُلُ كُلَّ يَوْمٍ عِدَّةَ أَلْوَانٍ لَا تَتَغَيَّرُ : إِنَّهُ يَأْكُلُ مِنْ طَعَامٍ وَاحِدٍ ، كَأَنَّهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَى أَنَّ مَجْمُوعَ الْأَلْوَانِ هِيَ غِذَاؤُهُ الَّذِي لَا يَتَغَيَّرُ ، فَهِيَ غِذَاءٌ وَاحِدٌ ، فَإِذَا تَغَيَّرَتِ الْأَلْوَانُ تَغَيَّرَ نَوْعُ الْغِذَاءِ فَكَانَ طَعَامًا مُتَعَدِّدًا .

وَالْبَقْلُ مِنَ النَّبَاتِ : مَا لَيْسَ بِشَجَرٍ دِقٍّ وَلَا جِلٍّ كَمَا ذَكَرَهُ ابْنُ سِيدَهْ . وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : مَا يَنْبُتُ فِي بَزْرِهِ وَلَا يَنْبُتُ فِي أُرُومَةٍ ثَابِتَةٍ . وَفَرْقُ مَا بَيْنَ الْبَقْلِ وَدِقِّ الشَّجَرِ أَنَّ الْبَقْلَ إِذَا رُعِيَ لَمْ يَبْقَ لَهُ سَاقٌ ، وَالشَّجَرُ تَبْقَى لَهُ سُوقٌ وَإِنْ دَقَّتْ .

وَأَرَادُوا مِنَ الْبَقْلِ مَا يَطْعَمُهُ الْإِنْسَانُ مِنْ أَطَايِبِ الْخُضَرِ كَالْكَرَفْسِ وَالنَّعْنَاعِ وَنَحْوِهِمَا مِمَّا يُغْرِي بِالْقَضْمِ ، وَيُعِينُ عَلَى الْهَضْمِ ، وَالْقِثَّاءُ : هِيَ أُخْتُ الْخِيَارِ ، تُسَمِّيهَا الْعَامَّةُ " الْقَتَّةُ " وَالْعَدَسُ وَالْبَصَلُ مَعْرُوفَانِ ، وَالْفُومُ هُوَ : الْحِنْطَةُ .

(138/53)

وَقَالَ الْكِسَائِيُّ وَجَمَاعَةٌ هُوَ : الثُّومُ . أُبْدِلَتِ الثَّاءُ فَاءً كَمَا فِي جَدَثٍ وَجَدَفٍ . وَطَلَبُهُمْ لِلْحِنْطَةِ هُوَ طَلَبُهُمْ لِلْخُبْزِ الَّذِي يُصْنَعُ مِنْهَا . (قَالَ) مُوسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ – تَقْرِيعًا لَهُمْ عَلَى أَشَرِهِمْ وَإِنْكَارًا لِتَبَرُّمِهِمْ : (أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ) ؟ أَيْ أَتَطْلُبُونَ هَذِهِ

الْأَنْوَاعَ الْخَسِيسَةَ بَدَلَ مَا هُوَ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُوَ الْمَنُّ وَالسَّلْوَى ؟ وَالْمَنُّ فِيهِ الْحَلَاوَةُ الَّتِي تَأْلَفُهَا أَغْلَبُ الطِّبَاعِ الْبَشَرِيَّةِ ، وَالسَّلْوَى مِنْ أَطْيَبِ لُحُومِ الطَّيْرِ ، وَفِي مَجْمُوعِهَا غِذَاءٌ تَقُومُ بِهِ الْبِنْيَةُ ، وَلَيْسَ فِيمَا طَلَبُوهُ مَا يُسَاوِيهِمَا لَذَّةً وَتَغْذِيَةً .

أَقُولُ : وَالْأَدْنَى فِي اللُّغَةِ الْأَقْرَبُ ، وَاسْتُعِيرَ لِلْأَخَسِّ وَالْأَدْوَنِ ، كَمَا اسْتُعِيرَ الْبُعْدُ لِلرِّفْعَةِ ، وَالِاسْتِبْدَالُ طَلَبُ شَيْءٍ بَدَلًا مِنْ آخَرَ ، وَالْبَاءُ تَدْخُلُ الْمُبْدَلَ مِنْهُ الْمُرَادَ تَرْكُهُ . ثُمَّ قَالَ : (اهْبِطُوا مِصْرًا) مِنَ الْأَمْصَارِ (فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ) أَيْ فَإِنَّكُمْ إِنْ هَبَطْتُمُوهُ وَنَزَلْتُمُوهُ وَجَدْتُمْ فِيهِ مَا سَأَلْتُمْ .

(139/53)

أَمَّا هَذِهِ الْأَرْضُ الَّتِي قَضَى اللهُ أَنْ تُقِيمُوا فِيهَا إِلَى أَجَلٍ مَحْدُودٍ ، فَلَيْسَ مِنْ شَأْنِهَا أَنْ تُنْبِتَ هَذِهِ الْبُقُولَ ، وَأَنَّ اللهَ – جَلَّ شَأْنُهُ – لَمْ يَقْضِ عَلَيْكُمْ بِالتِّيهِ فِي هَذِهِ الْبَرِّيَّةِ إِلَّا لِجُبْنِكُمْ وَضَعْفِ عَزَائِمِكُمْ عَنْ مُغَالَبَةِ مَنْ دُونِكُمْ مِنْ أَهْلِ الْأَمْصَارِ ، فَلَوْ صَحَّ مَا تَزْعُمُونَ مِنْ كَرَاهَتِكُمْ لِلطَّعَامِ الْوَاحِدِ ، فَأَنْتُمُ الَّذِينَ قَضَيْتُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ بِمَا فَرَطَ مِنْكُمْ . فَإِنْ أَرَدْتُمُ الْخَلَاصَ مِمَّا كَرِهْتُمْ ، فَأَقْدِمُوا عَلَى مُحَارَبَةِ مَنْ يَلِيكُمْ مِنْ سُكَّانِ الْأَرْضِ الْمَوْعُودَةِ ، فَإِنَّ اللهَ كَافِلٌ لَكُمُ النَّصْرَ عَلَيْهِمْ ، وَعِنْدَ ذَلِكَ تَجِدُونَ طِلْبَتَكُمْ ، فَالْتَمِسُوا الْخَيْرَ فِي أَنْفُسِكُمْ

وَفِي أَفْعَالِكُمْ ، فَإِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْعَامِلِينَ .

قَالَ – تَعَالَى – : (وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ) الذِّلَّةُ وَالذُّلُّ خُلُقٌ خَبِيثٌ مِنْ أَخْلَاقِ نَفْسِ الْإِنْسَانِ يُضَادُّ الْإِبَاءَ وَالْعِزَّةَ ، وَأَصْلُ الْمَادَّةِ فِيهِ مَعْنَى اللِّينِ . فَالذِّلُّ بِالْكَسْرِ : اللِّينُ ، وَبِالضَّمِّ وَالْكَسْرِ : ضِدَّ الصُّعُوبَةِ ، وَإِذَا تَتَبَّعْتَ الْمَادَّةَ وَجَدْتَهَا لَا تَخْلُو مِنْ هَذَا الْمَعْنَى . صَاحِبُ هَذَا الْخُلُقِ لَيِّنٌ يَنْفَعِلُ لِكُلِّ فَاعِلٍ ، وَلَا يَأْبَى ضَيْمَ ضَائِمٍ . غَيْرَ أَنَّ هَذَا الْخُلُقَ الَّذِي يُهَوِّنُ عَلَى النَّفْسِ قَبُولَ كُلِّ شَيْءٍ لَا يَظْهَرُ أَثَرُهُ غَالِبًا عَلَى الْبَدَنِ وَفِي الْقَوْلِ إِلَّا عِنْدَ الِاسْتِذْلَالِ وَالْقَهْرِ . وَكَثِيرًا مَا تَرَى الْأَذِلَّاءَ تَحْسَبُهُمْ

أَعِزَّاءَ يَخْتَالُونَ فِي مِشْيَتِهِمْ مِنَ الْكِبْرِيَاءِ ، وَيُبَاهُونَ بِمَا لَهُمْ مِنْ سَلَفٍ وَآبَاءٍ ، وَرُبَّمَا فَاخَرُوا مَنْ لَا يَخْشَوْنَ سَطْوَتَهُ مِنَ الْكُبَرَاءِ :

وَإِذَا مَا خَلَا الْجَبَانُ بِأَرْضٍ . . . طَلَبَ الطَّعْنَ وَحْدَهُ وَالنِّزَالَا

وَلَكِنْ مَتَى شَعَرَ الذَّلِيلُ بِنِيَّةٍ مِنْ نَفْسِ الْقَاهِرِ ، أَوْ طَافَ بِذِهْنِهِ خَيَالُ يَدٍ تَمْتَدُّ إِلَيْهِ اسْتَخْذَى وَاسْتَكَانَ ، وَظَهَرَ السُّكُونُ عَلَى بَدَنِهِ ، وَاشْتَمَلَ الْخُشُوعُ عَلَى قَوْلِهِ وَفِعْلِهِ ، وَهَذَا الْأَثَرُ الَّذِي يَسْطَعُ مِنَ النَّفْسِ عَلَى الْبَدَنِ هُوَ الَّذِي يُسَمَّى الْمَسْكَنَةَ . وَإِنَّمَا سُمِّيَ الْفَقْرُ مَسْكَنَةً ؛

لِأَنَّ الْعَائِلَ الْمُحْتَاجَ تَضْعُفُ حَرَكَتُهُ وَيَذْهَبُ نَشَاطُهُ ، فَهُوَ بِعَدَمِ مَا يَسُدُّ عَوَزَهُ كَأَنَّهُ يَقْرُبُ مِنْ عَالَمِ الْجَمَادِ ، فَلَا تَظْهَرُ فِيهِ حَاجَةُ الْأَحْيَاءِ فَيَسْكُنُ . وَالْمُشَاهَدَةُ تُرْشِدُنَا إِلَى تَحْقِيقِ مَا عَلَيْهِ أَهْلُ الْمَسْكَنَةِ فِي أَوْضَاعِ أَعْضَائِهِمْ وَمَا يَبْدُو عَلَى وُجُوهِهِمْ وَمَا طُبِعَ فِي أَقْوَالِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ . فَضَرْبُ الذِّلَّةِ وَالْمَسْكَنَةِ عَلَى الْيَهُودِ هُوَ جَعْلُ الذُّلِّ وَضَعْفِ الْعَزِيمَةِ مُحِيطِينَ بِهِمْ كَمَا تُحِيطُ الْقُبَّةُ الْمَضْرُوبَةُ بِمَنْ فِيهَا .

(141/53)

أَوْ إِلْصَاقُهُمَا بِطِبَاعِهِمْ كَمَا تُطْبَعُ الطُّغْرَى عَلَى السِّكَّةِ ، (وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ) أَيْ رَجَعُوا بِهِ كَمَا يُقَالُ : رَجَعَ أَوْ عَادَ بِصَفْقَةِ الْمَغْبُونِ إِذَا كَانَ ذَلِكَ آخِرَ شَوْطِهِ وَمُنْتَهَى سَعْيِهِ ، وَكَذَلِكَ كَانَ آخِرُ أَطْوَارِ الْيَهُودِ فِي بَغْيِهِمْ أَيَّامَ مُلْكِهِمْ . وَالْمُرَادُ بِهِ : فَقْدُ الْمُلْكِ وَمَا يَتْبَعُهُ . وَقَالَ شَيْخُنَا : اسْتَحَقُّوا غَضَبَهُ وَمَنِ اسْتَحَقَّهُ فَقَدْ أَصَابَهُ ، فَقَدْ غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ ، وَتَنْكِيرُ الْغَضَبِ دَالَّةٌ عَلَى أَنَّهُ نَوْعٌ عَظِيمٌ مِنْ سَخَطِهِ جَلَّ شَأْنُهُ . (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ) (أَقُولُ) أَيْ ذَلِكَ الْعِقَابُ بِضَرْبِ الذِّلَّةِ وَالْمَسْكَنَةِ وَبِالْغَضَبِ الْإِلَهِيِّ بِسَبَبِ مَا جَرَوْا عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ

(142/53)

بِآيَاتِ اللهِ . . . إِلَخْ . فَإِنَّهُمْ بِإِحْرَاجِهِمْ لِمُوسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ – وَإِعْنَاتِهِمْ لَهُ فِي الْمَطَالِبِ ، مَعَ كَثْرَةِ مَا شَاهَدُوا مِنَ الْعَجَائِبِ ، وَمَا أَظْهَرَ اللهُ مِنَ الْغَرَائِبِ ، وَقَدْ دَلُّوا عَلَى أَنْ لَا أَثَرَ لِلْآيَاتِ فِي نُفُوسِهِمْ ، فَهُمْ بِهَا كَافِرُونَ فِي الْحَقِيقَةِ . وَنِسْيَانُ الْآيَاتِ وَعَدُّهَا كَأَنْ لَمْ تَكُنْ يَعُدُّهُ الْكِتَابُ الْعَزِيزُ كُفْرًا كَمَا قَالَ شَيْخُنَا (وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ) مَعَ أَنَّ الْكِتَابَ يُحَرِّمُ عَلَيْهِمْ قَتْلَ غَيْرِ الْأَنْبِيَاءِ فَضْلًا عَنْهُمْ إِلَّا بِحَقِّهِ الْمُبَيَّنِ فِيهِ ، كُلُّ ذَلِكَ دَلَّ فِيهِمْ عَلَى طِبَاعٍ بَعِيدَةٍ عَنِ الْكَرَمِ ، وَقُلُوبٍ غُلْفٍ دُونَ الْفَهْمِ ، وَمَنْ كَانَ هَذَا شَأْنُهُ فَالْأَجْدَرُ بِهِ أَنْ يَكُونَ ذَلِيلًا مَقْهُورًا ، ثُمَّ هُوَ مَهْبِطُ غَضَبِ اللهِ وَمَحَطُّ نِقَمِهِ ؛ لِأَنَّهُ أَشَدُّ النَّاسِ كُفْرًا لِنِعَمِهِ ، وَقَوْلُهُ : (بِغَيْرِ الْحَقِّ) مَعَ

أَنَّ قَتْلَ النَّبِيِّينَ لَا يَكُونُ إِلَّا كَذَلِكَ يَزِيدُ فِي شَنَاعَةِ حَالِهِمْ ، وَيُصَرِّحُ بِأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا مُخْطِئِينَ فِي الْفَهْمِ ، وَلَا مُتَأَوِّلِينَ لِلْحُكْمِ ، بَلِ ارْتَكَبُوا هَذَا الْجُرْمَ الْعَظِيمَ عَامِدِينَ ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ بِارْتِكَابِهِ مُخَالِفُونَ لِمَا شَرَعَ اللهُ – تَعَالَى – لَهُمْ فِي كِتَابِ دِينِهِمْ . (ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ) قَالَ الْأُسْتَاذُ : ذَلِكَ الذُّلُّ وَتِلْكَ الْخَلَاقَةُ بِالْغَضَبِ إِنَّمَا لَزِمَاهُمْ ؛ لِأَنَّهُمْ عَصَوُا اللهَ فِيمَا أَمَرَهُمْ أَنْ يَأْخُذُوا بِهِ مِنَ الْأَحْكَامِ ؛ وَلِأَنَّهُمُ اعْتَدَوْا تِلْكَ الْحُدُودَ الَّتِي حَدَّهَا اللهُ لَهُمْ فِي

شَرَائِعِ أَنْبِيَائِهِمْ ، وَقَدْ كَانَتْ تِلْكَ الْأَحْكَامُ وَالْحُدُودُ هِيَ الْوَسِيلَةُ لِإِخْرَاجِهِمْ مِنَ الذُّلِّ وَتَمْكِينِ الْعِزِّ وَالسُّلْطَانِ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ الْمَوْعُودَةِ ؛ لِأَنَّهَا كَانَتِ الْكَافِلَةَ بِنِظَامِهِمْ ، الْحَافِظَةَ لِبِنَاءِ جَمَاعَتِهِمْ ، فَإِذَا أَهْمَلُوهَا فَسَدَتْ أُلْفَتُهُمْ ، وَانْهَدَمَ بِنَاؤُهُمْ ، وَأَسْرَعَتْ إِلَيْهِمُ الذِّلَّةُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ فَارَقَتْهُمْ إِلَّا مُنْهَزِمَةً مِنْ يَدَيْ سُلْطَانِ الشَّرِيعَةِ ، وَلَمْ يَكُنْ يَصُدُّهَا عَنْهُمْ إِلَّا مَعَاقِلُ النِّظَامِ تَحْتَ رِعَايَتِهِ ، وَلَزِمَتْهُمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ بَعْدَ هَذَا لُزُومَ الطَّابِعِ لِلْمَطْبُوعِ .

(144/53)

وَالْمُتَبَادِرُ – وَعَدَّهُ الْأُسْتَاذُ احْتِمَالًا – أَنْ تَرْجِعَ الْإِشَارَةُ فِي (ذَلِكَ) إِلَى الثَّانِي أَيِ الْكُفْرِ بِآيَاتِ اللهِ وَقَتْلِ النَّبِيِّينَ . أَيْ إِنَّ كُفْرَهُمْ وَجَرَاءَتَهُمْ عَلَى النَّبِيِّينَ بِالْقَتْلِ ، إِنَّمَا مَنْشَؤُهُمَا عِصْيَانُهُمْ وَاعْتِدَاؤُهُمْ حُدُودَ دِينِهِمْ ؛ لِأَنَّ الَّذِي يَدِينُ بِدِينٍ أَوْ شَرِيعَةٍ أَيًّا كَانَتْ يَتَهَيَّبُ لِأَوَّلِ الْأَمْرِ مُخَالَفَتَهَا ، فَإِذَا خَالَفَهَا لِأَوَّلِ مَرَّةٍ تَرَكَتِ الْمُخَالَفَةُ أَثَرًا فِي نَفْسِهِ ، وَضَعُفَتْ هَيْبَةُ الشَّرِيعَةِ فِي نَظَرِهِ ، فَإِذَا عَادَ زَادَ ضَعْفُ سُلْطَةِ الشَّرِيعَةِ عَلَى إِرَادَتِهِ ، وَلَا يَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى تَصِيرَ الْمُخَالَفَةُ طَبْعًا وَرَيْنًا ، وَيَنْسَى مَا قَامَ عَلَى الشَّرِيعَةِ مِنْ دَلِيلٍ ، وَمَا كَانَ لَهَا مِنْ سَيْطَرَةٍ ، وَيَضْرَى بِالْعُدْوَانِ ، كَمَا يَضْرَى الْحَيَوَانُ بِالِافْتِرَاسِ ، وَكُلُّ عَمَلٍ يَسْتَرْسِلُ فِيهِ الْعَامِلُ تَقْوَى

مَلَكَتُهُ فِيهِ خُصُوصًا مَا اتَّبَعَ فِيهِ الْهَوَى. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير المنار حـ 1 صـ 273 ﴾ 277.

(145/53)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ . . . الآية ﴾

هذه الآية الكريمة أيضا من آيات التذكير بنعم الله سبحانه وتعالى على موسى وعلى بني إسرائيل . . وكنا قد تعرضنا لمعنى طعام واحد عند ذكر المن والسلوى . . وقلنا أن تكرار نزول المن والسلوى كل يوم جعل الطعام لونا واحدا . . وكلمة واحد هي أول العدد . . فإذا إنضم إليه مثله يصير اثنين . . وإذا إنضم إليه مثله يصبح ثلاثة . . إذن فأصل العدد هو الواحد . . والواحد يدل على وحدة الفرد ولا يدل على وحدانية . . فإذا قلنا الله واحد فإن ذلك يعني أنه ليس كمثله أحد . . ولكنه لا يعني أنه ليس مكونا من أجزاء . . فأنت لست واحداً ولست أحداً لأنك مكون من أجزاء . كما أن هناك من يشبهونك . . والشمس في مجموعتنا واحدة ولكنها ليست أحداً لأنها مكونة من أجزاء وتتفاعل . .

والله سبحانه وتعالى واحد ليس كمثله شيء . . وأحد ليس مكونا من أجزاء . . ولذلك من أسمائه الحسنى الواحد الأحد . . ولا نقول أن الاسم مكرر فهذه تعني الفردية ، وهذه تنفي التجزئة .

(146/53)

وقوله تعالى : ﴿ لَن نَّصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ ﴾ . . نلاحظ هنا أن الطعام وُصف بأنه واحد رغم أنه مكون من صنفين هما المن والسلوى . . ولكنه واحد لرتابة نزوله . . الطعام كان يأتيهم من السماء . . ولكن تعنتهم مع الله جعلهم لا يصبرون عليه فقالوا ما يدرينا لعله لا يأتي . . نريد طعاما نزرعه بأيدينا ويكون طوال الوقت أمام عيوننا . . وكأن هذه المعجزات كلها ليست كافية . . لتعطيهم الثقة في استمرار رزق الله . . إنهم يريدون أن يروا . . ألم يقولوا لموسى : ﴿ أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً ﴾ . .

ماذا طلبوا ؟ . . قالوا : ﴿ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ ﴾ . . ﴿ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ ﴾ أي أطلب من الله . . ولأن الدعاء لون من الطلب فإنك حين تتوجه إلى الله طالبا أن يعطيك . . فإنك تدعو بذلة الداعي أمام عزة المدعو . . والطلب إن كان من أدنى إلى أعلى قيل دعاء . . ومن مساوٍ إلى مساوٍ قيل طلب . . ومن أعلى إلى أدنى قيل أمر . .

لقد طلب بنو إسرائيل من موسى أن يدعو الله سبحانه وتعالى أن يخرج لهم أطعمة مما تنبت الأرض . . وعددوا ألوان الأطعمة المطلوبة . . وقالوا : ﴿ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ﴾ . . ولكنها كلها أصناف تدل على أن من يأكلها هم من صنف العبيد . . والمعروف أن آل فرعون إستعبدوا بني إسرائيل . . ويبدو أن بني إسرائيل أحبوا حياة العبودية واستطعموها . .

الحق تبارك وتعالى كان يريد أن يرفع قدرهم فنزل عليهم المن والسلوى .

. ولكنهم فضلوا طعام العبيد . . والبقل ليس مقصوداً به البقول فحسب . . ولكنه كل نبات لا ساق له مثل الخس والفجل والكرات والجرجير . . والقثاء هو القتة صنف من الخيار . . والفوم هو القمح أو الثوم . والعدس والبصل معروفان . . والله سبحانه وتعالى قبل أن يجيبهم أراد أن يؤنبهم : فقال ﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ﴾ . .

(147/53)

عندما نسمع كلمة استبدال فاعلم أن الباء تدخل على المتروك . . تقول إشتريت الثوب بدرهم . . يكون معنى ذلك إنك أخذت الثوب وتركت الدرهم .

قوله تعالى : ﴿ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ﴾ . . أي انهم تركوا الذي هو خير وهو المن

والسلوى . . وأخذوا الذي هو أدنى . . والدنو هنا لا يعني الدناءة . . لأن ما تنتجه الأرض من نعم الله لا يمكن أن يوصف بالدناءة . . ولكن الله تبارك وتعالى يخلق بالأسباب ويخلق بالأمر المباشر . . ما يخلقه الله بالأمر المباشر منه بكلمة "كن" . . يكون خيرا مما جاء بالأسباب . . لأن الخلق المباشر لا صفة لك فيه . . عطاء خالص من الله . . أما الخالق بالأسباب فقد يكون لك دور فيه . . كأن تحرث الأرض أو تبذر البذور . . ما جاء خالصا من الله بدون أسبابك يقترب من عطاء الآخرة التي يعطي الله فيها بلا أسباب ولكن بكلمة "كن" . . ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ [طه : 131] فالله تبارك وتعالى يصف رزق الدنيا بأنه فتنة . . ويصف رزق الآخرة بأنه خير منه . . مع أن رزق الدنيا والآخرة ، وكل رزق في هذا الوجود حتى الرزق الحرام هو من الله جل جلاله . . فلا رازق إلا الله ولكن الذي يجعل الرزق حراما هو استعجال الناس عليه فيأخذونه بطريق حرام . . ولو صبروا لجاءهم حلالا . .

نقول إن الله سبحانه وتعالى هو الذي يرزق . . ولكنه سمى رزقا فتنة وسمى رزقا خيرا منه . . ذلك أن الرزق من الله بدون أسباب أعلى وأفضل منزلة من الرزق الذي يتم بالأسباب . .

إذن الحق سبحانه وتعالى حين يقول : ﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ﴾ . . يكون المعنى أتستبدلون الذي هو رزق مباشر من الله تبارك وتعالى . . وهو المن والسلوى يأتيكم " بكن " قريب من رزق الآخرة بما هو أقل منه درجة وهو رزق الأسباب في الدنيا . . ولم يجب بنو إسرائيل على هذا التأنيب . . وقال لهم الحق سبحانه وتعالى : ﴿ اهْبِطُواْ مِصْراً فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ ﴾ . . ولا يقال لهم ذلك إلا لأنهم أصروا على الطلب برغم أن الحق جل جلاله بين لهم أن ما ينزله إليهم خير مما يطلبونه .

.

نلاحظ هنا أن مصر جاءت منوّنةً . . ولكن كلمة مصر حين ترد في القرآن الكريم لا ترد منونة . . ومن شرف مصر أنها ذكرت أكثر من مرة في القرآن الكريم . . نلاحظ أن مصر حينما يقصد بها وادي النيل لا يأتي أبدا منونة وإقرأ قوله تعالى : ﴿ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتاً ﴾ [يونس : 87]

وقوله جل جلاله : ﴿ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَاذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ﴾ [الزخرف : 51]

وقوله سبحانه : ﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ ﴾ [يوسف : 21]

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ ادْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴾ [يوسف : 99]

كلمة مصر ذكرت في الآيات الأربع السابقة بغير تنوين . . ولكن في الآية التي نحن بصددها : ﴿ اهْبِطُواْ مِصْراً ﴾ بالتنوين . . هل مصر هذه هي مصر الواردة في الآيات المشار إليها ؟ . . نقول لا . . لأن الشيء الممنوع من الصرف للعلمية والتأنيث . . إذا كان لبقعة أو مكان . . مرة تلحظ أنه بقعة فيبقى مؤنثاً . . ومرة تلحظ أنه مكان فيكون مذكرا . . فإن كان بقعةً فهو علم ممنوع من الصرف . . وإن كان مكانا تكون فيه علمية وليس فيه تأنيث . . ومرة تكون هناك علمية وأهمية ولكن الله صرفها في القرآن الكريم . . كلمات نوح ولوط وشعيب ومحمد وهود . .

(149/53)

كل هذه الأسماء كان مفروضا أن تمنع من الصرف ولكنها صرفت . . فقيل في القرآن الكريم نوحا ولوط وشعيبا ومحمدا وهودا . . إذن فهل من الممكن أن تكون مصر التي جاءت في قوله تعالى : ﴿ اهْبِطُواْ مِصْراً فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ ﴾ هي مصر التي عاشوا فيها وسط حكم فرعون . . قوله تعالى : ﴿ اهْبِطُواْ مِصْراً ﴾ من الممكن أن يكون المعنى أي مصر من الأمصار . . ومن الممكن أن تكون مصر التي عاش فيها فرعون . . وكلمة مصر تطلق على كل مكان له مفتي وأمير وقاض . . وهي مأخوذة من الاقتطاع . . لأنه مكان

يقطع إمتداد الأرض الخلاء . . ولكن الثابت في القرآن الكريم . . إن مصر التي لم تنون هي علم على مصر التي نعيش فيها . . أما مصراً التي خضعت للتنوين فهي تعني كل وادٍ فيه زرع . .

وقوله تعالى : ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ ﴾ . . الذلة هي المشقة التي تؤدي إلى الإنكسار . . ويمكن أن ترفع عنك بأن تكون في حمى غيرك فيعزك بأن يقول إنك في حماه . .

والله سبحانه وتعالى يقول عن بني إسرائيل : ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ ﴾ [آل عمران : 112]

حبل من الله كما حدث عندما عاهدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة . . وعاشوا في حمى العهد . . إذن بحبل من الله أي على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم أو المؤمنين به .

. وبحبل من الناس أي في حماية دولة قوية كالولايات المتحدة الأمريكية . . إذا عاهدتهم عزوا وإن تركتهم ذلوا . .

وقوله تعالى : ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ ﴾ ضربت أي طبعت طبعة قوية بضربة قوية تجعل الكتابة بارزة على النقود . . ولذلك يقال ضربت في مصر . . أي أعدت بضربة قوية أذلتهم وبقيت بارزة لا يستطيعون محوها . . أما المسكنة فهي انكسار في الهيئة .

أهل الكتاب كانوا يدفعون الجزية والجزية كانت تؤخذ من الأغنياء . . وكانوا يلبسون الملابس القذرة . . ويقفون في موقف الذل والخزي حتى لا يدفعوا الجزية .

وقوله تعالى : ﴿ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾ . . أي غضب الله عليهم بذنوبهم وعصيانهم . حتى أصبح الغضب ـ من كثرة عصيانهم ـ كأنه سمة من سماتهم لماذا ؟ : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَالِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴾ أي أنهم كانوا يكفرون بالنعم ولا يشكرون . . ويكفرون بالآيات ويشترون بها ثمنا قليلا . . ولم يكتفوا بذلك بل كانوا يقتلون أنبياء الله بغير حق . .

الأنبياء غير الرسل . . والأنبياء أسوة سلوكية ولكنهم لا يأتون بمنهج جديد . . أما الرسل فهم أنبياء بأنهم أسوة سلوكية ورسل لأنهم جاءوا بمنهج جديد . . ولذلك كل رسول نبي وليس كل نبي رسولا . والله سبحانه وتعالى يعصم أنبياءه ورسله من الخطيئة . . ولكنه يعصم رسله من القتل فلا يقدر عليهم أعداؤهم . . فمجيء الأنبياء ضرورة . . لأنهم نماذج سلوكية تسهل على الناس التزامهم بالمنهج ، وبنو إسرائيل بعث الله لهم أنبياء ليقتدوا بهم فقتلوهم . . لماذا ؟ . . لأنهم فضحوا كذبهم وفسقهم وعدم التزامهم بالمنهج . .

ولذلك تجد الكافر والعاصي وغير الملتزم يغار ويكره الملتزم بمنهج الله . . ويحاول إزالته عن

طريقه ولو بالقتل . . إذن فغضب الله عليهم من عصيانهم واعتدائهم على الأنبياء وما ارتكبوه من آثام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 363. 368 ﴾

(151/53)

" فوائد بلاغية "

قال فى صفوة التفاسير :

البلاغة :

أولا : في إضافة الرزق إلى الله تعالى [كلوا واشربوا من رزق الله] تعظيم للمنة والإنعام ، وإيماء إلى أنه رزق حاصل من غير تعب ولا مشقة .

ثانيا : في التصريح بذرك الأرض [ولا تعثوا في الأرض] مبالغة فى تقبيح الفساد وقوله : [مفسدين] حال مؤكدة ، ووجه فصاحة هذا الأسلوب ، أن المتكلم قد تشتد عنايته ، ومن مظاهر هذه العناية التوكيد ، فقوله : (مفسدين) يكسو النهي عن الفساد قوة ، ويجعله بعيدا من أن يغفل عنه أو ينسى .

ثالثا : قوله تعالى : [مما تنبت الأرض] المنبت الحقيقي هو الله سبحانه ففيه مجاز يسمى (المجاز العقلي) وعلاقته السببية ، لأن الأرض لما كانت سببا للنبات أسند إليها ، كما يقال

: بنى الملك البلدة ، لأنه أمر ببنائها .

رابعا : قوله : [وضربت عليهم الذلة والمسكنة] كناية عن إحاطتهما بهم كما تحيط القبة بمن ضربت عليه كما قال الشاعر :

إن السماحة والمروءة والندى في قبة ضربت على ابن الحشرج

خامساً : تقييد قتل الأنبياء بقوله : [بغير الحق] مع أن قتلهم لا يكون بحق البتة ، إنما هو لزيادة التشنيع بقبح عدوانهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 1 صـ 63 ﴾

(152/53)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

" لن نَصْبِرَ " ناصب منصوب ، والجملة في محلّ نصب بالقول ، وتقدم الكلام على " لن " .

قوله : ﴿ طَعَامٍ وَاحِدٍ ﴾ ، وإنما كان طعامين هما : المَنّ والسَّلْوَى ؛ لأن المراد بالواحد ما لا يختلف ولا يتبدّل ، فأريد بالوحدة نفي التبديل لا الاختلاف ، أو لأنهما ضرب واحد ؛ لأ ، هما من طعام أهل التلذُّذ والترف ، ونحن أهل زِرَاعات لا نريد إلا ما ألفناه من الأشياء المتفاوتة ، أو لأنهم كانوا يأكلون أحدهما بالآخر ، أو لأنهما كانا يؤكلان في وقت واحد .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : كانوا يعجنون المَنَّ والسّلوى ، فيصير طعاماً واحداً .

وقيل : لأن العرب تعبّر عن الاثنين بلفظ الواحد ، وبلفظ الواحد عن الواحد ، كقوله تعالى : ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالمَرْجَانُ ﴾ [الرحمن : 22] ، وإنما يخرجان من المِلْحِ دون العَذْب .

قال ابن الخطيب : ليس المراد أنه واحد في النوع ، بل إنه واحد في المَهْجِ ، كما يقال : إن طعام فلان على مائدة طعام واحداً إذا كان لا يتغيّر عن نهجه .

وقيل : كنوا بذلك عن الغنى ، فكأنهم قالوا : لن نرضى أن نكون كلنا مشتركين في شيء واحد فلا يخدم بعضنا بعضاً ، وكذلك كانوا أول من اتخذ الخدم والعبيد .

و" الطعام " : اسم لكل ما يطعم من مأكول ومشروب ، ومنه : ﴿ وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ ﴾ [البقرة : 249] ، وقد يختص ببعض المأكولات كاختصاصه بالبُرّ والتَّمْرِ في حديث الصَّدَقة ، أو صاعاً من طعام أو صاعاً من شعير .

والطَّعم بفتح الطاء المصدر أو ما يشتهى من الطعام أو ما يؤديه الذوق ، تقول : طَعْمُهُ حُلْو وطَعْمُهُ مُرّ ، وبضمها الشيء المطعوم كالأُكْلِ والأَكْل ؛ قال أبو خِرَاشٍ : [الطويل]

أَرُدُّ شُجَاعَ البَطْنِ لَوْ تَعْلَمِينَهُ . . .

وأُوثِرُ غَيْرِي مِنْ عِيَالِكِ بالطُّعْمِ

وأَغْتَبِقُ المَاءَ القَرَاحَ فَأَنْتَهِي . . .

إذَا الزَّادُ أَمْسَى لِلْمُزَلَّجِ ذَا طَعْمِ

أراد بالأول المطعوم، وبالثاني ما يُشْتَهَى منه، وقد يعبَّر به عن الإعطاء؛ قال عليه السلام: "إذا استَطْعَمَكُمُ الإمام فَأَطْعِمُوهُ" أي: إذا استفتح، فافتحوا عليه، وفلان ما يَطْعَمُ النومَ إلاَّ قائماً؛ قال: [المتقارب]

نَعَاماً بِوَجْرَةَ صُفْرَ الْخُدُودِ . . .

مَا تَطعَمُ النَّوْمَ إِلاَّ صِيَامَا

قوله: "فادع" اللّغة الفصيحة "ادْعُ".

بضم العين من "دَعَا يدعو".

(153/53)

ولغة بني عامر "فَادْعِ" بكسر العين قال أبو البقاء: "لالتقاء السَّاكِنَيْنِ؛ يُجْرُونَ المعتلَّ مُجْرَى الصَّحيح، ولا يراعون المحذُوفَ" يعني أن العَيْنَ ساكنةٌ، لأجل الأمر، والدَّالُ قبلها ساكنةٌ، فكسرت العين، وفيه نظرٌ، لأن القاعدة في هذا ونحوه أن يُكْسَرَ الأوَّل من الساكنين، لا الثاني، فيجوز أنْ يكُون من لُغتِهِمْ "دَعَا يَدْعِي" مثل "رَمَى يَرْمي"، والدُّعَاء هنا السُّؤال، ويكون هنا بمعنَى التَّسْمية؛ كقوله: [الطويل]

دَعَتْنِي أَخَاهَا أُمُّ عَمْرٍو . . . . . .

وقد تقدم ، و" لنا " متعلّق به ، واللام للعلة .

قوله : "يُخْرِجْ" مجزوم في جواب الأمر .

وقال بعضهم : مجزوم بلا الأمر مقدرة ، أي "ليخرج" ، وضعفه الزجاج وسيأتي الكلام على حذف لام الأمر إن شاء الله تعالى .

والقراءة المشهورة "يُخْرِجْ" بضم "الياء" وكسر "الراء" و"تُنْبِت" بضم "التاء" وكسر "الباء" وقرأ زيد بن علي "يَخْرُج" بفتح "الياء" وضم "الراء" و"تَنْبُت" بفتح "التاء" وضم "الباء" .

قوله : "مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ" مفعول "يخرج" محذوف عن سيبويه تقديره : مأكولاً مما ، أو شيئاً ممّا تنبت الأرض .

والجار يجوز أن يتعلّق بالفعل قبله ، ويكومن "مِنْ الابتداء الغاية ، وأن تكون صفةً لذلك المفعول المحذوف ، فيتعلّق بمضمر ، أي : مأكولاً كائناً مما تنبته الأرض .

و"مِنْ" للتبعيض ، ومذهب الأخفش : أن "من" زائدة في المفعول ، والتقدير : يخرج ما تُنْبِتُهُ الأرض ؛ لأنه لا يشترط في زيادتها شيئاً .

قال النَّحاس : وإنما دعى الحسن إلى زيادتها ؛ لأنه لم يجد مفعولاً لـ " يخرج " فأراد أن يجعل " ما " مفعولاً و" ما " يجوز أن تكون موصولة اسمية أو نكرة موصوفة ، والعائد محذوف ، أي من الذي تُنْبته ، أو من شيء تُنْبته ، ولا يجوز جعلها مصدريّة ؛ لأن المفعول المحذوف لا يُوصَف بالإنبات ؛ لأن الإنبات مصدر ، [والمُخْرِج] جوهر ، وكذلك على مذهب الأخفش ؛ لأن المخرج جوهر لا إنبات .

قوله : " مِنْ بَقْلِهَا " يجوز فيه وجهان :

أحدهما : أن يكون بدلاً من " ما " بإعادة العامل ، و" من معناها : بيان الجِنْس .

والثاني : أن يكون في محلّ نصب على الحال من الضمير المحذوف العائد على " ما " أي : مما تُنْبته الأرض في حال كونه من بقلها ، و" من " أيضاً للبيان .

و" البَقْل " : كل ما تنبته الأرض من النَّجم ، أي : ما لا سَاقَ له ، وجمعه " بُقُول " .

و" القِثَّاء " معروف .

الواحدة : قِثَّاءة ، فهو من باب قَمْح وقَمْحة ، وفيها لغتان : المشهورة كسر القاف وهي قراءة العامة ، وقرأ يحيى بن وَثّاب ، وطلحة بن مصرّفن والأشهب العُقَيْلِيُّ بضم القاف وهي لغة " تميم " .

و" القِثَّاء " مُفْرَدُهُ وَجَمْعُهُ مَمدود ، تقول : " قِثَاء " و" قِثَّاءة " وَ" دِبَّاءَ " وَ" دِبَّاءة " ، وَ"

دَاء " وَ " دَوَاء " والهمزة أصلٌ بنفسها في قولهم : " أَقْثَأَتِ الأرض " ، أي : كثر قِثَّاؤها .

ووزنها " فِعَّال " ، ويقال في جمعها : " قَثَائِي " ، مثل : " عِلْبَاء " و " عَلاَبِي " .

قال بعضهم : إلا أن " قِثَاء " من ذوات الواو ، تقول " أَقْثَأْتُ القَوْمَ " ، أي : أطمعتهم ذلك ، وَقَثَأْتُ القِدْرَ سَكَّنْتُ غليانَهَا بالماء .

قال الجعدي : [الطويل]

تَفُورُ عَلَيْنَا قِدْرُهُمْ فَنُدِيمُهَا . . .

وَنَقْثَؤُهَا عَنَّا إِذَا حَمْيُهَا غَلاَ

(155/53)

وهذا وهم فاحش ؛ لأنه لما جعلها من ذوات الواو كيف يستدلّ عليه بقولهم : " أَقْثَأت القوم " بالهمز ، بل كان ينبغي أن يقال : " أَقْثَيْتُ " والأصل " أَقْثَوْتُ " لكن لما وقعت الواو في بناء الأربعة قلبت ياء ، كـ " أَغْزَيْتُ " من الغَزْوِ ، ولكان ينبغي أن يقال : قَثَوْتُ القِدْرَ " بالواو ولقال الشاغر : [نَقْثُهَا] بالواو .

وَ " الْمَقْثَأَة " و " الْمَقْثُؤَة " بفتح الثاء وضمها : موضع " القِثَّاء " .

و " الفُوم " : الثُوم وروي عن علقمة وابن مسعود أنه قرأ : " وثُومها " ، وهي قراءة ابن عباس

رضي الله عنهما وفي مصحف عبد الله .

والفاء تبدل من الثاء كما قالوا : " جدث وجدف " و" عَاثُور وعَافُور " و" مَغَافير ومَغَاثير " ، ولكنه غير قياس .

وعن ابن عباس الفُوم : الخُبْز ، تقول العرب : فَوّمُوا لنا : أي : أختَبزُوا " .

وقال ابن عباس أيضاً وعطاء أبو مالك : هو الحِنْطَة وهي لغة قديمة ، وأنشد ابن عباس لمن سأله عن " الفُومِ " : [الكامل]

قدْ كُنْتَ أَحْسِبُنِي كَأَغْنَى وَاحِدٍ . . .

[نَزَلَ] الْمَدِينَةَ عَنْ زِرَاعةِ فُومِ

وقال ابن دُرَيْدٍ " " الفُومَةُ السُّنْبُلَةُ " ، وأنْشَد : [الوافر]

وَقَالَ رَبِيئُهُمْ لَمَّا أَتَانَا . . .

بِكَفِّهِ فُومَةٌ أَوْ فُومَتَانِ

وقال القتيبي : " هو الحبوبُ كلها " .

قال الكلبي والنضر بن شُمَيْل والكسَائي والمؤرجك الصّحيح أنه الثُّوم ، لقراءة ابن عباس ، ولكونه في مُصْحِف عبد الله بن مسعود وثُومها ؛ ولأنه لو كان المراد الحِنْطة لما جاز أن يقال لهم : أَتَسْتَبْدِلُون الذي هو أدنى بالذي هو خير ؛ لأن الحِنْطة أشرف الأطعمة ، ولأنَّ الثوم أوفق للعَدَس والبَصَل من الحِنْطة وأنشد المؤرج لحسان : [المتقارب]

وَأَنْتُمْ أُنَاسٌ لِئَامُ الأُصُولِ . . .

طَعَامُكُمُ الْفُومُ وَالْحَوْقَلُ

يعني : الثوم والبصل ؛ وأنشد النضر لأمية بن أبي الصَّلْت : [البسيط]

(156/53)

كَانَتْ مَنَازِلُهُمْ إِذْ ذَاكَ ظَاهِرَةً . . .

فِيْهَا الْفَرَادِيسُ وَالْفُومَانُ وَالْبَصَلُ

الفَرَادِيس : واحدها فِرْدِيسٌ .

وَكَوْمٌ مُفَرْدَسٌ ، أي : مُعَرَّش .

وقال بعضهم : " الفُوم : الحِمَّص لغة شامِيّة " .

قوله : " وَعَدَسِهَا " العَدَس معروف ، والعَدَسَة : بَثْرَةٌ تخرج بالإنسان وربما قَتَلَتْ وعَدَسْ

زجر للبغَال ؛ قال : [الطويل]

عَدَسْ مَا لِعَبَّادٍ عَلَيْكِ إِمَارَةٌ . . .

نَجَوْتِ وَهَذَا تَحْمِلِينَ طَلِيقُ

والعدس : شدة الوَطْء ، والكَدح أيضاً ، يقال : عدسه .

وعدس في الأرض ذهب فيها ، وعدست إليه المَنِيّة أي : سارت ؛ قال الكميت : [الطويل]

أُكَلِّفُهَا هَوْلَ الظَّلاَمِ وَلَمْ أَزَلْ . . .

أَخَا اللَّيْلِ مَعْدُوساً إِلَيَّ وَعَادِسَا

أي : يسار إليّ بالليل .

وعدس لغة في حدس ، قاله الجوهري .

وعن لعي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " عليكم بالعَدَس فإنه مُبَارك مُقَدّس ، وإنه يرقق القَلْب ويكثر الدَّمْعَة فإنه بارك فيه سبعون نبيا آخرهم عِيْسَى ابن مريم " .

اختلف العلماء في أكل البصل والثّوم [والكراث] وما له رائحة كريهة من البُقُول .

فذهب الجمهور إلى الإِبَاحَةِ ، للأحاديث الثابتة في ذلك .

وذهبت طائفة من أهل الظاهر القائلين بوجوب صلاة الفرض في الجَمَاعة إلى المَنْعِ ؛ لان النبي عليه الصَّلاة والسَّلام سمّاها خبيثةً .

وقال تعالى : ﴿ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الخبآئث ﴾ [الأعراف : 175] والصحيح الأول ؛ لقوله عليه الصَّلاة والسَّلام لبعض أصحابه : " كُلْ فَإِنِّي أُنَاجي من لا تُنَاجي " .

فصل في لفظ أدنى

قوله : " أَتَسْتَبْدِلُون " ؛ وفي مصحف أُبي " أَتُبَدِّلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى " ، وفيه ثلاثة أقوال :

(157/53)

أحدها : وهو الظاهر قول الزجاج أن أصله : " أَدْنَوْ " من الدنو ، وهو القرب ، فقلبت الواو ألفاً لتحركها ، وانفتاح ما قبلها ، ومعنى الدُّنُوِّ في ذلك فيه وجهان :

أحدهما : أنه أقرب لقلّة قيمته وخَسَاسته .

والثاني : أنه أقرب لكم ؛ لأنه في الدنيا بخلاف الذي هو خير ، فإنه بالصبر عليه يحصل نفعه في الآخرة .

والثاني : قول علي بن سليمان الأَخْفَش أن أصله : " أَدْنَأُ " مَهْمُوزاً من دَنَأَ بَدْنَأُ دَنَاءَة ، وهي الشيء الخَسِيْس ، إلا أنه خفّف همزته ؛ كقوله : [الكامل]

. . . . . .

فَارْعَيْ فَزَارَةُ لاَ هَنَاكِ الْمَرْتَعُ

ويدل عليه قراءة زهير [القرقبي] الكسائي : " أدنأ " بالهمز .

الثالث : أن أصله : أَدْوَن من الشيء الدّون ، أي : الرَّدِيء ، فقلب بأن أخرت العين إلى

موضع اللام ، فصار : أَدْنُو ، فأعلّ كما تقدم .

ووزنه " أفلع " ، وقد تقدم معنى الاستبدال .

و" أدنى " خبر عن " هو " ، والجملة صلة وعائد ، وكذلك : " هو خير " صلة وعائد أيضاً .

قوله : ﴿ اهبطوا مِصْراً ﴾ القراءة المعروفة " اهْبِطُوا " بكسر الياء ، وقرئ بضمها .

و" مصراً " قرأ الجمهور منوناً ، وهو خطّ المصحف .

فقيل : إنهم أمروا بهبوط مِصْرٍ من الأمطار فلذلك صرف .

وقيل : أمروا بِمْصرٍ بعينه ، وإنما صرف لخفّته ، لسكون وسطه كـ " هِنْد ودَعْد " ؛ وأنشد : [المنسرح]

لَمْ تَتَلَفَّعْ بِفَضْلِ مِئْزَرِهَا . . .

دَعْدٌ ولَمْ تُسْقَ دَعدُ في العُلَبِ

فجمع بين الأمرين .

أو صرفه ذهاباً به إلى المكان .

وقرأ الحسن : " مِصْرَ " بغير تنوين ، وقال : الألف زائدة من الكاتب ، وكذلك في بعض مصاحف عُثْمان ، ومصحف أُبيّ ، وابن مَسْعُود نكأنهم عَنَوْا مكاناً بعينه ، وهو بلد فرعون وهو مروي عن أبي العالية

وقال الزمخشري : " إنه معرّب من لسان العَجَمِ ، فإن أصله مِصْرائيم ، فعرب " ، وعلى هذا إذا قيل بأنه علم لمكان بعينه ، فلا ينبغي أن يصرف ألبتة لانضمام العُجْمة إليه ، فهو نظير " ماه وَجور وحِمْص " ، ولذلك أجمع الجمهور على منعه في قوله : ﴿ ادخلوا مِصْرَ ﴾ [يوسف : 99] .

والمِصْر في أصل اللغة : الحَدّ الفاصل بين الشيئين ، وحكي عن أهل " هَجَر " أنهم إذا كتبوا بيع دار قالوا : " اشترى فلانٌ الدَّارَ بِمُصُورِهَا " أي : حُدُودها ؛ وأنشد : [البسيط]

وَجَاعِلُ الشَّمْسِ مِصْراً لا خَفَاءَ بِهِ . . .

بَيْنَ النَّهَارِ وَبَيْنَ اللَّيْلِ قَدْ فَصَلاَ

قوله : ﴿ مَّا سَأَلْتُمْ ﴾ " ما " في محلّ نصب اسماً لـ " إن " ، والخبر في " لكم " ، و " ما " بمعنى الذي ، والعائد محذوف ، أي : الَّذي سألتموه .

قال أبو البَقَاء " ويضعف أن تكون نكرة موصوفة " .

يعني : أنَّ الذي سألوه شيءٌ معيَّنٌ ، فلا يحسُنُ أن يُجَابُوا بشيء مُبهَمٍ .

وقرىء : " سِلْتُمْ " مثل : بِعْتُمْ ، وهي مأخوذةٌ من " سَالَ " بالألف قال حَسَّان رضي الله

عنه : [البسيط]

سَالَت هُذَيْلٌ رَسُولَ اللهِ فَاحِشَةً . . .

ضَلَّتْ هُذَيْلٌ بِمَا سَالَتْ وَلَمْ تُصِبِ

وهل هذه الألف منقلبة عن ياء أو واو لقولهم : يَتَساوَلَانِ ، أو عن همزة ؟ ثلاثة أقوال يأتي بيانها في سورة " المعارج " إن شاء الله تعالى .

قوله : ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذلة والمسكنة ﴾ أي : جُعِلَتِ الذِّلَّة محيطاً بهم ، مشتملةً عليهم ؛ كمن يكون في القُبَّة المَضْرُوبَةِ ؛ قال الفرزدق لجرير : [الكامل]

ضَرَبَتْ عَلَيْكَ العَنْكَبُوتُ بِنَسْجِهَا . . .

وَقَضَى عَلَيْكَ بِهِ الكِتَابُ المُنْزَلُ

أو ألصقت بهم حتى لزمتهم كما يضرب الطِّين على الحائط فيلزمه .

ومن قال : إنها الجزية فبعيد ؛ لأن الجزية لم تكن مضروبةً حينئذ .

(159/53)

وقال بعضهم : هذا من باب المُعْجِزَات ؛ لأنه عليه الصلاة والسلام أخبر عن ضرب الذِّلة والمَسْكَنة عليهم ، ووقع الأمر كذلك ، فكان معجزة .

و" الذّلّة " : الصَّغَار .

والذُّلّ بالضم : ما كان عن قَهْرٍ ، وبالكسر : ما كان بعد شماس من غير قهر .

قاله الراغب .

و" المَسْكَنَةُ " : مَفْعَلَة من السُّكون ، لأن المسكين قليل الحركة والنهوض ، لما به من الفَقْرِ ،

و" المسكين : مُفْعِيْل منه ، إلاّ أن هذه الميم قد ثبتت في اشتقاق هذه الكلمة ، قالوا : تمسكن يتمسكن فهو متمسكن ، وذلك كما تثبت ميم " تَمْنَدل وتَمَدْرَعَ " من " النَّدْلِ " و " الدَّرَعِ " وذلك لا يدلّ على أصالتها ؛ لأن الاشتقاق قضى عليها بالزِّيادة .

وقال الراغب : قوله : ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذلة والمسكنة ﴾ : فالميم في ذلك زائدة في أصحّ القولين .

وإيراد هذا الخلاف يؤذن بأن النون زائدة ، وأنه من " مسك " و" ضربت " مبني للمفعول و" الذّلة " مقام الفاعل .

قول : ﴿ وَبَآءُوا ﴾ ألف " بَاءَ بكذا " منقلبة عن واو ؛ لقوله : " بَاءَ يَبُوءُ " مثل : " قَالَ يَقُولُ " قال عليه الصّلاة والسّلام : " أَبُوءُ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ " ، المصدر " البَوَاء " ؟

وبَاءَ معناه : رَجَع ؛ وأنشد بعضهم هذا : [الوافر]

فَأُبْوا بالنِّهَابِ وبالسَّبَايَا . . .

وأُبْنَا بِالمُلُوكِ مُصَفَّدِينَا

وهذا وَهَمٌ ؛ لأن هذا البيت من مادة : " آبَ يَئُوب " فمادته من همزة ، وواو ، وبَاءٍ ، و" بَاءَ " مادته من باء ، وواو ، وهمزة ، وادعاء القلب به بعيدٌ ؛ لأنه لم يُعْهَد تقدُّم العين واللام معاً على الفاء في مقلوب ، وهذا من ذلك .

والبَوَاءك الردوع بالقَوَدِ ، وهُمْ في هذا الأمر بَوَاء ، أي : سَوَاء ؛ قال : [الطويل]

أَلَا تَنْتَهِي عَنَّا [مُلُوكٌ] وتَتَّقِي . . .

مَحَارِمَنَا لَا يَبُؤِ الدَّمُ بِالدَّمِ

أي : لا يرجعُ الدم بالدم في القَوَدِ .

(160/53)

وبَاءَ بكذا : أقرَّ أيضاً ، ومنه الحديث المتقدّم أي : أُقِرُّ بها ، وأُلْزِمُهَا نَفْسِي ، وقال : [الكامل]

أَنْكَرْتُ بَاطِلَها وبُؤْتُ بِحَقِّهَا . . . . . .

وقال الراغب : " أصل البَواء مُسَاوَاةُ الأَجْزَاءِ في المكان خلاف النَّبْوَة الذي هو مُنَافاة الأجزاء " .

وقوله : " وبَاءوا بِغَضَبٍ " أي : حلُّوا مَبْوَأً ومعه غَضَب ، واستعمال " بَاءَ " تنبيه على أن

مكانه الموافق يلزمه فيه غضب الله فكيف بغيره من الأمكنة ، وذلك نحو : ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [آل عمران : 21] .

ثم قال : وقول من قال : بؤت بحقها ، أي : أقررت فليس تفسيره بحسب مقتضى اللفظ .

وقولهم : " حَيّاك الله وبَيّاك " أصله : بَوّأك ، وإنما غير للمُشَاكلة ، قاله خلف الأحمر .

وقيل : باءوا : استحقوا ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنِي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ ﴾ [المائدة : 29] أي : يستحق لإثم جمعياً ، ومن قال : إنه الرجوع فلا يقال : باء إلا بشَرّ .

قوله : " بغضب " في موضع الحال من فاعل " باءوا " أي : رجعوا مغضوباً عليهم ، وليس مفعولاً به كـ " مررت بزيد " .

وقال الزمخشري : هو من قولك : باء فلان بفلان إذا كان حقيقاً بأن يقتل به لمُسَاواته له ومكافأته ، أي صاروا أحقاء بغضبه .

وعلى هذا التفسير ينبغي كون الباء للحال .

قوله : ﴿ مِّنَ الله ﴾ الظاهر أنه محلّ جر صفة بـ " غضب " ، فيتعلّق بمحذوف ، أي : بغضب كائن من الله .

و " من " لابتداء الغاية مجازاً .

وقيل : هو متعلّق بالفعل نفسه أي : رجعوا من الله بِغَضَبٍ .

وليس ، بقوي .

قوله : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ﴾ .

" ذلك " مبتدأ أشير به إلى ما تقدّم من ضرب الذّلة والمسكنة [والخلافة] بالغضب .

و" بأنهم " الخبر ، والباء للسببية ، أي : ذلك مستحقّ بسبب كفرهم .

وقال المهدوي : الباء بمعنى اللام أي : لأنهم ، ولا حاجة إلى هذا ، فإن باء السببية تفيد التَّعطيل بنفسها .

(161/53)

و " يكفرون " في محلّ نصب خبراً لـ " كان " ، و" كان " وما في حَيّزها في حل رفع خبراً للمبتدأ كما تقدم .

قوله : ﴿ بِآيَاتِ اللهِ ﴾ متعلّق بـ " يكفرون " والباء للتعدية .

قوله : ﴿ وَيَقْتُلُونَ ﴾ في محلّ نصب عطفاً على خبر " كان " ، وقرىء : " تقتلون " بالخطاب التفاتاً إلى الخطاب الأول بعد الغيبة .

و" يُقَتِّلُونَ " بالتشديد للتكثير .

قوله : ﴿ النبيين ﴾ مفعول به جمع " نبي " .

والقراءة على ترك الهمزة في النُّبوة ، وما تصرف منها ، ونافع المدني على الهمز في الجميع إلاّ

موضعين : في سورة " الأحزاب " : ﴿ لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ﴾ [الأحزاب : 50] ، ﴿ بُيُوتَ النبي إِلاَّ ﴾ [الأحزاب : 53] ، فإن قالون حكى عنه في الوَصْلِ كالجماعة وسيأتي .

وما من همز فإنه جعله مشتقاً من " النبأ " وهو الخبر ، فالنَّبِيُّ " فعيل " بمعنى " فاعل " أي : مُنَبِّىءٌ عن الله برسالته ، ويجوز أن يكون بمعنى " مفعول " ، أي : أنه مُنَبَّأٌ من الله بأوامره ونواهيه ، واستدلُّوا على ذلك بجمعه على " نُبَآء " كـ " طَرِيف وظُرَفَاء " قال العَبَّاسُ بنُ مِرْدَاس : [الكامل]

يا خَاتَمَ النُّبَآءِ إِنَّكَ مُرْسَلٌ . . .

بِالحَقِّ كُلُّ هُدَى الإِلَهِ هُدَاكَا

فظهور الهمزتين يدلُّ على كونه من " النَّبَأ " ، واستضعف بعض النحويين هذه القراءة ، قال أبو علي : " قال سيبويه " : بلغنا أن قوماً من أهل التحقيق يحققون " نبيئاً وبريئة " قال : وهو رَدِيء ، وإنما استرداه ؛ لأن الغالب في استعماله التخفيف .

وقال أبو عبيدة الجمهور الأعظم من القراء والعَوَامّ على إسقاط الهمز من النَّبِي والأَنْبِيَاء ، وكذلك أكثر العرب مع حديث رويناه ، فذكر أن رجلاً جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : " يا نَبِيءَ الله " فهمز ، فقال : " لَسْتُ بِنَبِيءِ الله " فهمز ولَكِنِّي نَبِيُّ الله ، ولم يهمز ، فأ ، كر عليه الهمز .

قال : وقال لي أبو عبيدة : العرب تبدل الهمزة في ثلاثة أحرف : " النبيّ والبَرية والخَابية " وأصلهن الهَمْز .

قال أبو عبيدة : ومنها حرف رابع : " الذُّرِّيَة " من ذَرَأَ يَذْرَأُ ، ويدلّ على أن الأصل الهمز قال سيبويه : [إنهم] كلّهم يقولون : تنبأ مُسَيْلمة فيهمزون .

وبهذا لا ينبغي أن ترد به قراءة هذا الإمام الكبير ، أما الحديث فقد ضعفوه .

قال ابن عطية : ومما يقوي ضعفه أنه لما أنشده العَبَّاس : [الكامل]

يَا خَاتَمَ النُّبَآءِ . . . . . .

لم ينكره ، ولا فرق بين الجمع والواحد ، ولكن هذا الحديث قد ذكره الحاكمك في " المستدرك " وقال : هو صحيح على شرط الشَّيخين ، ولم يخرجاه .

فإذا كان كذلك فليلتمس للحديث تخريجٌ يكون جواباً عن قراءة نافع ، على أنّ الطَّعِيٌّ لا يُعَارَضُ بالظني ، وإنما يذكر زيادة فائدة .

والجواب عن الحديث : أنّ أبا زيد حكى : نَبَأْتُ من أرض كذا إلى أرض كذا ، أي : خرجت منها إليها فقوله : " يا نبيء الله " بالهمز يوهم يا طَرِيدَ الله الذي أخرجه من بلده إلى غيره ، فَنَهَاه عن ذلك لإيهامه ما ذكرنا ، لا لسبب يتعلّق بالقراءة .

ونظر ذلك نهيه المؤمنين عن قولهم : ﴿ رَاعِنَا ﴾ [البقرة : 104] لما وجدت اليهود

بذلك طريقاً إلى السَّب به في لغتهم ، أو يكون حضًّا منه عليه الصلاة والسلام على تَحَرِّي أفصح اللغات في القرآن وغيره ، وأما من لم يهمز ، فإنه يحتمل وجهين :

أحدهما : أنه من المهموز ، ولكن [خفف] ، وهذا أولى ليُوافق القراءتين ، ولظهور الهمز في قولهم : تنبأ مسليمة : " يا خاتم النُّبَآء . . . . . " .

(163/53)

والثاني : أنه أصل آخر بنفسه مشتقّ من " نَبَا يَنْبُو " : إذا ظهر وارتفع ، ولا شَكَّ أن رتبة النبي عليه الصلاة والسلام مرتفعة ، ومنزلته ظاهرة بخلاف غيره من الخَلْقِ ، والأصل : " نبيو وأنبواء " ، فاجتمع الياء ولواو : وسبقت إحداهما بالسكون ، فقلبت الواو ياء ، وأدغمت الياء في الياء كـ " ميت " في " ميوت " ، وانكسر ما قبل الواو في الجمع فقلبت ياء ، فصار : أنبياء .

والواو في " النبوة " بدل من الهمزة على الأول ، وأصل بنفسها على الثّاني ، فهو " فعيل " بمعنى " فاعل " ، أي : ظاهر مرتفع ، أو بمعنى مفعول أي : رفعه الله على خَلْقِهِ ، أو يكون مأخوذاً من النبي الذي هو الطريق ، وذلك أن النبي طريق الله إلى خلقه ، به يتوصّلون إلى معرفة خالقهم ؛ قال الشاعر : [البسيط]

لَمَّا وَرَدْنَ نُبَيّا وَاسْتَتَبَّ بِنَا . . .

مُسْحَنْفِرٌ كَخُطُوطِ النَّسْجِ مُنْسَحِلُ

وقال الشاعر : [المتقارب]

لأَصْبَحَ رَتْأً دُقَاقَ الحَصَى . . .

مَكَانَ النَّبِيِّ مِنَ الكَاثِبِ

" الرَّتْم " بالتاء المثناة والمثلثة جمعياً : الكسر .

و" الكَاثِب " بالمثلثة : اسم جَبَل ، وقالوا في تحقير نُبُوّة مسيلمة : نُبَيئة .

وقالوا : جمعه أنبياء قياس مُطّرد في " فعيل " المعتل نحو : " وَلِيّ وأولياء ، وصَفِيّ وأصفياء " .

(164/53)

وأما قَالُون فإنما ترك الهمز في الموضعين المذكورين لمَدْرَكٍ آخر ، هو أنه من أصله في اجتماع الهمزتين من كلمتين إذا كانتا مكسورتين أن تسهل الأولى ، إلا أن يقع قبلها حرف مدّ ، فتبدل وتدغم ، فلزمه أن يفعل هنا ما فعل في : ﴿ بالسوء إلاَّ ﴾ [يوسف : 53] من الإبدال والإدغام ، إلاّ أنه روي عنه خلاف في : ﴿ بالسوء إلاَّ ﴾ ولم يُرْوَ عنه [هنا] خلافٌ كأنه

التزم البدل لكثرة الاستعمال في هذه اللَّفظة وبابها ، ففي التحقيق لم يترك همزة " النَّبيّ " ن بل همزه ولما همزه أدّاه قياس تخفيفه إلى ذلك ، ويدلّ على هذا الاعتبار أنه إنما يَفْعَل ذلك حيث يَصِل ، أمّا إذا وقف فإنه يهمزه في الموضعين ، لزوال السَّبب المذكور ، فهو تارك للهمز لفظاً آتٍ به تقديراً .

قوله : ﴿ بِغَيْرِ الحق ﴾ في محلّ نصب على الحال من فاعل " يقتلون " تقديره : يقتلونهم مبطلين ، ويجوز أن يكون نعتاً لمصدر محذوف تقديره : قتلاً كائناً بغير الحَقِّ ، فيتعلّق بمحذوف .

فصل في أوجه ورود لفظ الحق

وقد ورد " الحَقّ " على أحد عشر وجهاً :

الأول : بمعنى " الجَزْ " لقوله تعالى : ﴿ وَيَقْتُلُونَ الأنبياء بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ [آل عمران : 112] أي : بغير جَزْمٍ كهذه الآية .

الثاني : بمعنى " الصّفة " قال تعالى : ﴿ الآن جِئْتَ بالحق ﴾ [البقرة : 71] أي : بالصفة التي نعرفها .

الثالث : بمعنى " الصّدق " قال تعالى : ﴿ وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ المؤمنين ﴾ [الروم : 47] ، ومثله ﴿ ذلك عِيسَى ابن مَرْيَمَ قَوْلَ الحق ﴾ [مريم : 47] أي : قول الصدق .

الرابع : بمعنى : " وجب " قال تعالى : ﴿ ولكن حَقَّ القول مِنّي ﴾ [السجدة : 13] أي :

وجب ، ومثله : ﴿ وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ ﴾ [غافر : 6] أي : وجبت .

الخامس : بمعنى : " الولد " قال تعالى : ﴿ بَشَّرْنَاكَ بالحق ﴾ [الحجر : 55] أي : بالولد .

(165/53)

السادس : الحقّ : الحُجّة قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الحق مِنْ عِندِنَا قالوا إِنَّ هذا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [يونس : 76] أي : جاءتهم الحجّة ، وهي اليَدُ والعَصَاة .

السابع : بمعنى " القَضَاء " قال تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ احكم بالحق ﴾ [الأنبياء : 115] أي : اقض ، ومثله : ﴿ وَإِن يَكُنْ لَّهُمُ الحق يأتوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴾ [النور : 49] .

الثامن : بمعنى : " التوحيد " قال تعالى : ﴿ بَلْ جَآءَ بالحق ﴾ [الصافات : 37] أي بالتوحيد .

التاسع : الحَقّ : الإسلام قال تعالى : ﴿ وَقُلْ جَآءَ الحق وَزَهَقَ الباطل ﴾ [الإسراء : 81] أي : جاء الإسلام ، وذهب الكفر ، ومثله : ﴿ أَفَمَن يهدي إِلَى الحق ﴾ [يونس : 35] أي : إلى الإسلام ، ومثله : ﴿ إِنَّكَ عَلَى الحق المبين ﴾ [النمل : 79] .

العاشر : بمعنى القرآن ، قال تعالى : ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بالحق لَمَّا جَآءَهُمْ ﴾ [ق : 5] أي : بالقرآن .

الحادي عشر : الحَقّ : هو الله تعالى ، قال تعالى : ﴿ وَلَوِ اتبع الحق أَهْوَآءَهُمْ ﴾ [المؤمنون : 71] أي : في إيجاد الولد ، ومثله : ﴿ وَتَوَاصَوْاْ بالحق ﴾ [العصر : 3] أي : بالله .

قوله : " ذَلِكَ بَمَا عَصَوا " مثل ما تقدم .

وفي تكرير اسم الإشارة قولان :

أحدهما : أنه مُشَار به إلى ما أشير بالأول إليه على سبيل التأكيد .

والثاني : ما قاله الزمخشري : وهو أن يشار به إلى الكُفْرِ ، وقَتْلِ الأنبياء ، على معنى أن ذلك بسبب عصيانهم ، واعتدائهم ؛ لأنهم انهمكوا فيها .

و " ما " مصدرية ، و " الباء " للسببية ، أي بسبب عصيانهم ، فلا محلّ لـ " عصوا " لوقوعه صلةً ، وأصل " عَصَوْا " : " عَصَيُوا " تحركت الياء وانفتح ما قبلها ، فقلبت ألفاً ، فالتقى سكنان [الياء] والواو ، فحذفت الياء لكونها أوّل السّاكنين ، وبقيت الفتحة تدلّ عليها ، فوزنه " فَعَوْا " .

وأصل " العصيان " : الشدة .

واعتصمت النَّوَاة : إذا اشتدت .

قوله : ﴿ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴾ المراد منه الظُّلم ، أو تجاوز الحَقّ إلى الباطل .

وأصل : " الاعتداء " : المُجَاوزة من " عَدَا " " يعْدُوا " ، فهو " افْتِعَال " منه ، ولم يذكر متعلّق العصيان والاعتداء ، ليعم كل ما يُعْصى ويعتدى فيه .

وأصل " يَعْتَدُون " : " يَعْتَدِيُون " ، ففعل به ما فعل بـ ﴿ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة : 21] من الحذف والإعلال ، وقد تقدم ، فوزنه : " يَفْتَعُون " .

والواو من " عصوا " واجبة الإدغام في الواو بعدها ، لانفتاح ما قبلها ، وليس فيها [مدٌّ] يمنع من الإدغام ، ومثله : ﴿ فَقَدِ اهتدوا وَّإِن تَوَلَّوْاْ ﴾ [آل عمران : 20] وهذا بخلاف ما إذا انظم ما قبل الواو ، فإن المَدّ يقوم مقام الحاجز بين المثلين : فجيب الإظهار ، نحو : ﴿ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ ﴾ [البقرة : 25] ومثله : ﴿ الذى يُوَسْوِسُ ﴾ [الناس : 5] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 2 صـ 113 . 131 ﴾ . باختصار .

(167/53)

فروق لغوية دقيقة :

الفرق بين أشياء مختلفة

الفرق بين الهبوط والنزول

أن الهبوط نزول يعقبه إقامة ومن ثم قيل هبطنا مكان كذا أي نزلنا ومنه قوله تعالى (اهبطوا مصرا) وقوه تعالى (قلنا اهبطوا منها جميعا) ومعناه أنزلوا الأرض للإقامة فيا ولا يقال هبط الأرض إلا إذا استقر فيها ويقال نزول وإن لم يستقر

الفرق بين الظعن والرحيل

أن الظعن هو الرحيل في الهوادح ومن ثم سميت المرأة إذا كانت في هودجها ظعينة ثم كثر ذلك حتى سميت كل امرأة ظعينة والظعان حبل يشد به الهودج قال الشاعر من الوافر (كما حاد الأزب عن الظعان)

والمظعون المشدود بالظعان ثم كثر الظعن حتى قيل لك رحيل ظعن والأصل ما قلناه

الفرق بين الهنيء والمريء

أن الهنيء هو الخالص الذي لا تكدير فيه ويقال ذلك في الطعام وفي كل فائدة لم يعترض عليها ما يفسدها والمريء المحمود العاقبة ويقال هنأني الطعام ومرأني الطعام بغير ألف فإذا أفردت قلت أمراني بغير همز وقال المبرد هذا الكلام لو كان له وجه لكان قمينا أن يأتي فيه بعلة وهل يكون فعل على شيء إذا كان وحده فإذا كان مع غيره انتقل لفظه والمراد واحد وإنما الصحيح ما أعلمتك وأمراني بغير همز معناه هضمته معدتي

الفرق بين النبذ والطرح

أن النبذ اسم لإلقاء الشيء استهانة به وإظهار للأستغناء عنه ولهذا قال تعالى (فنبذوه

وراء ظهورهم) وقال الشاعر من الطويل

(نظرت إلى عنوانه فنبذ ته

كنبذك نعلا أخلقت من نعالكا)

والحرح اسم لجنس الفعل فهو يكون لذلك ولغيره

الفرق بين التنحية والإزالة

أن الازالة تكون إلى الجهات الست والتنحية الإزالة إلى جانب اليمين أو الشمال أو خلف

أو قدام ولا يقال لما صعد به أو سفل به نحي وإنما التنحية في الأصل تحصيل الشيء في

جانب ونحو اليء جانبه

الفرق بين قولك تابعت زيدا وقولك وافقته

(168/53)

أن قولك تابعته يفيد أنه قد تقدم منه شيء اقتديت به فيه ووافقته يفيد أنكما اتفقتما معنا

في شيء من الأشياء ومنه سمي التوفيق توفيقا ويقول أبو علي رحمه الله عليه ومن تابع يريد

به أصحابه ومنه سمي التابعون التابعين وقال أبو علي رحمه الله ومن وافقه يريد من قال بقوله

وإن لم يكن من أصحابه وايضا فإن النظير لا يقال إنه تابع لنظيره لأن التابع دون المتبوع ويجوز

أن يوافق النظير النظير

الفرق بين قولك اجتزا به وقولك اكتفى به

أن قولك اجتزا يقتضي أنه دون ما يحتاج إليه وأصله من الجزء وهو اجتزاء الإبل بالرطب عن الماء وهي وإن اجتزأت به يقتضي أنه دون ما تحتاج إليه منه فهي محتاجة إليه بعض الحاجة والاكتفاء يفيد أن ما يكتفى به قدر الحاجة من غير زيادة ولا نقصان تقول فلان في كفاية أي في ما هو وفق حاجته من العيش

الفرق بين المحض والخالص

أن المحض هو الذي يكون على وجه لم يخالطه شيء والخالص هو المختار من الجملة ومنه سمي الذهب النقي عن الغش خالصا ومن الأول قولهم لبن محض أي لم يخالطه ماء

الفرق بين العدل والفداء

أن الفداء ما يجعل بدل الشيء لينزل على حاله التي كان عليها وسواء كان مثله أو أنقص منه والعدل ما كان من الفداء مثلا لما يفدى ومنه قوله تعالى (ولا يقبل منها عدل) وقال تعالى (أو عدل ذلك صياما) أي مثله

الفرق بين قولك تكأدني الشيء وقولك شق علي

أن معنى قولك تكأدني آذاني ومعنى قولك شق علي صعب والأشق

الطويل سمي بذلك لبعد أوله من آخره والشقة البعد من الثياب ترجع إلى هذا وأما قولهم

بهظني الشيء فمعناه شق علي حتى غلبني والباهظ الشاق الغالب وأما قولهم بهرني الشيء فإن الباهر الذي يغلب من غير تكلف ومنه قيل القمر الباهر

الفرق بين الصراط والطريق والسبيل

أن الصراط هو الطريق السهل قال الشاهر من الوافر

حشونا أرضهم بالخيل حتى

تركناهم أذل من الصراط

(169/53)

وهو من الذل خلاف الصعوبة وليس من الذل خلاف العز والطريق لا يقتضي السهولة والسبل اسم يقع على ما يقع عليه الطريق وعلى ما لا يقع عليه الطريق تقول سبيل الله وطريق الله وتقول سبيلك أن تفعل كذا ولا تقول طريقك أن تفعل كذا ويراد به سبيل ما يقصده فيضاف إلى القفاصد ويراد به القصد وهو كالمحبة في بابه والطريق كالإرادة

الفرق بين قولك عندي ولدني

أن لدني يتمكن تمكن عن ألا ترى أنك تقول هذا القول عندي صواب ولا تقول لدني صواب وتقول عندي مال ولا تقول لدني مال ولكن تقول لدني مال إلا أنك تقول ذلك في المال الحاضر

عندك ويجوز أن تقول عندي مال وإن كان غائبا عندك لأن لدني هو لما يلكي وقال بعضهم لدى لغة في لدن

الفرق بين قولك عندي كذا وقولك قبلي كذا وقولك في بيتي كذا

قال الفقهاء أصل هذا الباب أن المقر مأخوذ بما في لفظه لا يسقطه عنه ما يقتضيه ولا يزاد ما ليس فيه فعلى هذا إذا قال لفلان علي ألف درهم ثم قال هي وديعة لم يصدق لأن موجب لفظه الدين وهو قوله على لأن كلمة علي ذمة فليس له إسقاطه وكذا إذا قال قله قبلي ألف درهم لأن هذه اللفظه تتوجه إلى الضمان وإلى الأمانة إلا أن الضمان

عليها أغلب حتى سمي الكفيل قبيلا فإذا أطلق كان على الضمان وأخذ به إلا أن يقيده بالأمانة فيقول له قبلي ألف درهم وديعة وقوله علي لا يتوجه إلى الضمان فيلزمه به الدين ولا يصدق في صرفه عند فصل أو وصل وقوله وعندي وفي منزلي وما اشبه ذلك من الأماكن لا يقتضي الضمان ولا الذمة لأنها ألفاظ الأمانة

الفرق بين قولك من مالي وقولك في مالي

أن قولك في مالي إقرار بالشركة وقولك من مالي إقرار بالهبة فاذا قال له من دراهمي درهم فهو للهبة وإن قال له في دراهمي كان ذلك إقرار بالشركة

الفرق بين مع وعند

أن قولك مع يفيد الاجتماع في الفعل وقولك عند يفيد الاجتماع في المكان ولاذي يدل على أ

ن عند تفيد مع أنه يجوز ذهبت إلى عند زيد ولا يجوز ذهب إلى مع زيد ومن ثم يقال أنا

معك في هذا الأمر أي معينك فيه كأني مشاركك في فعله ولا تقول في هذا المعنى أنا عندك

الفرق بين الرسوخ والثبات

أن الرسوخ كمال الثبات والشاهد أنه يقال للشيء المستقر على الأرض ثابت وإن لم يتعلق

بها تعلقا شديدا ولا يقال راسخ ولا يقال حائط راسخ لأن الجبيل أكمل ثباتا من الحائط

وقال الله تعالى (والراسخون في العلم) أي الثابتون فيه قود تكلمنا في ذلك قبل ويقولن هو

أررسخهم في المكرمات أي أكملهم ثباتا فيها وأما لارسو فلا يستعمل إلا يستعمل إلا في

الشيء الثقيل نحو الجبل وما شاكله من الأجسام الكبيرة يقال جبل راس ولا يقال حائط

راس ولا عود راس وفي القرآن (بسم الله مجرها ومرساها) شبهها بالجبل لعظمها فالرسو

هو

الثبات مع العظم والثقل والعلو فان استعمل في غير ذلك فعلى التشبيه والمقاربة نحو قولهم

أرسيت العود في الأرض

الفرق بين أخمدت الناء وأطفاتها

أن الإخماد يستعمل في الكثير والإطفاء في الكثير والقليل يقال أخمدت الناء وأطفات النار

ويقال أطفأت السراج ولا يقال أخمدت السراج وطفئت النار يستعمل في الخود مع ذكر النار فيقال خمدت نيرت الظلم ويستعمار الطف في غير ذكر النار فيقال طفى ء غضبه ولا يقال خمد غضبه وفي الحديث الصدقة تطفى ء غضب الرب وقيل الخمود يكون بالغلبة والقهر والإطفاء بالمداراة والرفق ولهذا يتسعمل الإطفاء في الغضب لأنه يكون بالمداراة والرفق والإخماد يكون بالغلبة ولهذا يقال خمدت نيران الظلم والفتنه

واما الخمود والهمود فالفرق بينهما أن خمود النار أن يسكن لبها ويبقى جمرها وهمودها ذهابها البتة وأما الوقود بضم الواو فاشتعال النار والوقود بالفتح ما يوقد به

الفرق بين القناعة والقصد

(171/53)

أن القصد هو ترك الإسراف والتقتير جميعا والقناعة الاقتصار على القليل والتقتير إلا ترى أنه لا يقال هو قنوع إلا إذا استعمل دون ما يحتاج إليه ومقتصد لمن لا يتجاوز الحاجة ولا يقصر دونها وترك الاقتصاد مع الغنى ذم وترك القناعة معه ليس بذم وذلك أن نقيض الاقتصاد الإسراف وقيل الاقتصاد من أعمال الجوارح لأنه نقيض الإسراف وهو من أعمال الجوارح والقناعة من أعمل القلوب

الفرق بين الوسيلة والذريعة

أن الوسيلة عند أهل اللغة هي القربة واصلها من قولك سألت أسال أي طلبت وهما يتساولان أي يطلبان القربة التي ينبغي أن يطلب مثلها وتقول توسلت إليه بكذا فتجعل كذا طريقا إلى بغيتك عنده والذريعة إلى الشيء هي الطريق اليه ولهذا يقال جعلت كذا ذريعة إلى كذا فتجعل هي الطريقة نفسها وليست الوسيلة هي الطريقة فالفرق بينهما بين

الفرق بين قولنا فاض وبين قولنا سال

أنه يقال فاض إذا سال بكثرة ومنه الإفاضة من عرفه وهو أن يندفعوا منها بكثرة وقولنا سال لا يفيد الكثرة ويجوز أن يقال فاض إذا سال بعد الامتلاء وسال على كل وجه

الفرق بين النجم والكوكب

أن الكوكب اسم للكبير من النجوم وكوكب كل شيء معظمه والنجم عام في صغيرها وكبيرها ويجوز ان يقال الكواكب هي الثوابت ومنه يقال فيه كوكب من ذهب أو فضة لأنه ثابت لا يزول والنجم الذي يطلع منها ويغرب ولهذا قيل للمنجم منجم لأنه ينظر في يطلع منها ولا يقال له مكوكب

الفرق بين الأفول والغيوب

أن الأفول هو غيرب الشيء وراء الشيء ولهذا يقال أفل النجم لأنه يغيب وراءا جهة الأرض والفيوب يكون في ذلك وفي غيره ألا ترى أنك تقول غاب الرجل إذا ذهب عن البصر

وإن لم يستعمل إلا في الشمس والقمر والنجوم والغيوب يستعلم في كل شيء هذا أيضا فرق

بين

الفرق بين الزلزلة والرجفة

(172/53)

أن الرجفة الزلزلة العظيمة ولهذا يقال زلزت الأرض زلزلة خفيفة ولا يقال رجعت إلا إذا

زلزلت زلزلة وسميت زلزلة الساعة رجفة لذلك ومنه الإرجاف وهو الإخبار باضطراب

أمر الرجل ورجف الشيء إذا اضطرب يقال رجفت منه إذا تقلقلت

الفرق بين السلخ والإخراج

أن السلخ هو إخراج ظرف

أو ما يكون بمنزلة الظرف له والاخراج عام في كل شيء هو الإزلاة من محيط أو ما يجري

مجرى المحيط

الفرق بين الخلط واللبس

أن اللبس يستعمل في الأعراض مثل الحق والباطل وما يجري مجراها وتقول في الكلام لبس

والخلط يستعمل في العرض والجسم فتقول خلطت الأمرين ولبستهما وخلطت النوعين من

المتاع ولا يقال لبستهما وحد اللبس منع اللنفس من ادراك المعنى بما هو كالستر له وقلنا ذلك لأن أصل الكلمة الستر

الفرق بين الرجوع والفيء

أن الفيء هو الرجوع من قرب ومنه قوله تعالى (فإن فاءوا فإن الله غفور رحيم) يعني الرجوع ليس ببعيد ومنه سمي مال المشركين فيئا لذلك كأنه فاء من جانب الى جانب

الفرق بين قولك هو قمين به وقولك هو حري به وخليق به وجدير به

أن القمين يقتضي مقاربة الشيء والدنو منه حتى يرجى تحققه ولذلك قيل خبر قمين غذا بدا يكرج كأنه دنا من الفساد ويقال للقودح الذي تتخذ منه الكوامخ القمن وقولك حري به يقتضي أنه مأواه فهو أبلغ من القمين ومن ثم قيل لمأوى الطير حراها ولموضع بيضها الحرى وإذا رجا الإنسان أمرا وطلبه قيل تحراه كأنه طلب مستقره ومأواه ومنه قول الشاعر من الطويل

(فإن تتجت مهرا كريما فبالحرى

وإن يك إقراف فمن قبل الفحل)

وأما خليق به بين الخلافة فمعناه أن ذلك مقدر فيه وأصل الخلق

التقدير وأما قولهم جدير به فمعناه أن ذلك يرتفع من جهته ويظهر من قولك جدر الجدار إذا

بني وارتفع ومنه سمي الحائط جدارا

الفرق بين اللمس والمس

(173/53)

أن اللمس يكون باليد خاصة ليعرف اللين من الخشونة والحرارة من البرودة والمس باليد وبالحجر وغير ذلك ولا يقتضي أن يكون باليد ولهذا قال تعالى (مستهم البأساء) وقال (وإن يمسك الله بضر) ولم يقل يلمسك

الفرق بين الرجوع والإياب

هو الرجوع إلى منتهى المقصد والرجوع يكون لذلك ولغيره ألا ترى أنه يقال رجع إلى بعض الطريق ولا يقال آب إلى بعض الطريق ولكن يقال إن حصل في المنزل ولهذا قال أهل اللغة التأويب أن يمضي الرجل في حاجته ثم يعود فيثبت في منزلة وقال أبو حاتم رحمه الله التأويب ان يسير النهار أجمع ليكون عند الليل في منزلة وأنشد من البسيط

(البايتون قريبا من بيوتهم

ولو يشاءون أبوا الحي أو طرقوا)

وهذا يدل على أن الاياب الرجوع إلى منتهى القصد ولهذا قال تعالى (إن إلينا إيابهم) كأن

القيامة منتهى قصدهم لأنهم لا منزلة بعدها

الفرق بين الرجوع والانقلاب

أن الرجوع هو المصير إلى

الموضع الذي قد كان فيه قبل والانقلاب المصير الى نقيض ما كان فيه قبل ويوضح ذلك

قولك انقلب الطين فاما رجوعه خزفا فلا يصح لأنه لم يكن قبل خزفا

الفرق بين الرجوع والإنابة

أن الإنابة الرجوع إلى الطاعة فلا يقال لمن رجع إلى معصية إنه أناب والمنيب اسم مدح

كالمؤمن والمتقي

الفرق بين الهدي والبدنة

(174/53)

أن البدن ما تبدن من الإبل أي تسمن يقال بدنت الناقة إذا سمنتها وبدن الرجل سمن ثم كثر

ذلك حتى سميت الإبل بدنا مهزولة كانت أو سمينة فالبدنة اسم يختص به البعير إلا أن

البقرة لما صارت في الشريعة في حكم البدنة اسم يختص به البعير إلا أن البقرة لما صارت في

الشريعة في حكم البدنة قامت مقامها وذلك أن النبي قال البدنة عن سبعة والبقرة عن سبعة

فصار البقر في حكم البدن ولذلك كن يقلد البقرة كتقليد البدنة في حال وقوع الإحرام بها لسايقها ولا يقلد غيرها والهدي يكون من الإبل والبقر والغنم ولا تكون البدنة من الغنم والبدنة لا يقتض إهداؤها غلى موضع والهدي يقتضي اهداؤه إلى موضع لقوله تعالى (هديا بالغ الكعبة) فجعل بلوغ الكعبة من صفة الهدي فمن قال علي بدنه جاز له نحرها بغير مكة وهو كقوله علي جزور ومن قال علي هدي لم يجز أن يذبحه إلا بمكة وهذا قول جماعة من التابعين وبه قال أبو حنيفة ومحمد رحمهم الله وقال غيرهم إذا قال علي بدنه أو هدي فبمكة وإذا قال جزور فحيث يرى وهو قول أبي يوسف

الفرق بين قولك حاق به وقولك نزل به

أن النزول

عام في كل شيء يقال نزل بالمكان ونزل به الضيف ونزل به الكروه ولا يقال حاق إلا في نزول المكروه فقط تقول حاق به المكروه يحيق حيقا وحيوقا ومنه قوله تعالى (وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون) يعين العذاب لأنهم كانوا إذا ذكر لهم العذاب استهزأوا به وأراد جزاء استهزائهم وقيل أصل حاق حق لأن المضاعف قد يقلب إلى حرق علة نحو قول الراجز من مشطور الرجز

(تقضي البازي إذا البازي كسر

)

وهذا حسن في تأويل الآية فيه معنى الخبر الذي أتت به الرسل

الفرق بين الضيق والحرج

(175/53)

أن الحرج ضيق لا منفذ فيه مأخوذ من الحرجة وهي الشجر الملتف حتى لا يمكن الدخول فيه ولا الخروج مه ولهذا جاء بمعنى الشك في قوله تعالى (ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت) أي شكا لأن الشاك في الأمر لا ينفذ فيه زنثله (فلا يكن في صدرك حرج منه) وليس كل ما خاطب به النبي َالمؤمنين أرادهم به ألا ترى إلى قوله (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى) والقصاص في العمد فكأنه أثبت لهم الإيمان مع قتل العمد وقتل العمد يبطل الإيمان وإنما أراد أن يعلمهم الحكم في من يستوجب ذلك ونحوه قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة) وقد تكلمنا في هذا الحرف في كتاب تصحيح الوجوه

والنظائر بأكثر من هذا ومما قلنا قال بعض المفسرين في قوله تعالى (وما جعل عليكم في الدين حرج) إنه أراد ضيقا لا مخرج منه وذلكت أنه يتخلص من الذنب بالتوبة فالتوبة مخرج وترك ما يصعب فعله على الإنسان بالرخص ويحتج به في ما اختلف فيه من الحوادث إن ما أدى

إلى الضيق فهو وما أوجب فهو أولى

الفرق بين المحق والإذهاب

أن المحق يكون للأشياء ولا يكون في الشيء الواحد يقال محق الدنانير ولا يقال محق الدينار إذا أذهبه بعينه ولكن تقول محق الدينار إذا أردت قيمته من الورق فأما قوله تعالى (يمحق الله الربا) فأنه أراد أن ثواب عاملة يمحق والثواب أشياء كثيرة والشاهد قوله تعالى (ويربي الصدقات) ليس أنه يربي نفسها وإنما يربي ثوابها فلذلك يمحق ثواب فاعل الربا ونحن نعلم أنا المال يزيد بالربا في العاجل

الفرق بين الوضعية والخسران

(176/53)

أن الوضيعة ذهاب راس المال ولا يقال لمن ذهب ماله كله قد وضع والشاهد أنه من الوضع خلاف الرفع والشيء إذا وضع لم يذهب وإنما قيل وضع الرجل على الاختصار والمعنى أن التجارة وضعت من رأس ماله وإذا نفد ماله وضع لأن الوضع ضد الرفع والخسران ذهاب رأس المال كله ثم كثر حتى سمي ذهاب بعض رأس المال خسرانا وقل الله تعالى (خسروا أنفسهم) لأنهم عدموا الانتفاع فكأنها هلكت وذهبت أصلا فلم يقدر منها على شيء

وأصل الخسران في العربية الهلاك

الفرق بين المضي والذهاب

أن المضي خلاف الاستقبال ولذا يقال ماض ومستقبل وليس كذلك الذهاب ثم كثر حتى استعمل

أحدهما في موضع الآخر وقال علي بن عيسى قبل نقيض بعد ونظيرهما من المكان خلف وأمام فقيل في ما مضى قبل وفي ما يأتي بعد ويقال المستقبل والماضي

الفرق بين الإقبال والمضي والمجيء

أن الإقبال الإتيان من قبل الوجه والمجيء إتيان من أي وجه كان

الفرق بين قولك جئته وجئت إليه

أن في قولك جئت إليه معنى الغاية من أجل دخول إلى وجئته قصدته بمجيء وإذا لم تعده لم يكن فيه دلالة على القصد كقولك جاء المطر

الفرق بين المقاربة والملاقاة

أن الشيئين يتقاربان وبينهما حاجز يقال التقى الحدان والفارسان والملاقاة أيضا أصلها أن تكون من قدام ألا ترى أنه لا يقال لقيته من خلفه وقيل اللقاء اجتماع الشيء مع الشيء على طريق المقاربة وكذلك يصح اجتماع عرضين في المحل ولا يصح التقاؤهما وقيل اللقاء يقتضي الحجاب يقال احتجب عنه ثم لقيه وأما المصادقة فأصلها أن تكون من جانب والصدفان

جانبا الوادي ومنه قوله تعالى (إذا ساوى بين الصدفين

الفرق بين الندي والمجلس والمقامة

(177/53)

أن الندي هوا لمجلس للأهل ومن ثم قيل هو أنطقهم في الندي ولا يقال في المجلس إذا خلا من أهله ندي وقد تنادى القوم إذا تجالسوا في الندى والمقامة بالضم المجلس يؤكل فيه ويشرب والمقامة بالفتح المجلس الذي يتحدث فيه والمقامة بالفتح أيضا الجماعة وأما المقام فالإقامة والمقام بالفتح مصدر قام يقوم مقاما والمقام أيضا موضع القيام

الفرق بين أقام بالمكان وغني بالمكان

أن معنى قولك

غني بالمكان يغنى أنه أقام به إقامة مستغن به عن غيره وليس في الإقامة هذا المعنى

الفرق بين العكوف والإقامة

أن العكوف هو الإقبال على الشيء والاحتباس فيه ومنه الراجز من مشطور الرجز

باتت تبيا حوضها عكوفا

ومنه الاعكتاف لأن صاحبه مقبل عليه يحبس ليه غير مشتغل بغير والإقامة لاتقضي ذلك

الفرق بين المجلس والمحفل

أن المحف وهو المجلس الممتلىء من الناس من قولهم ضرع حافل إذا كان ممتلئا

الفرق بين الدنو والقرب

أن الدنو لا يكون إلا في المسافة بين شيئين تقول داره دانية ومزاوره دان والقرب عام في ذلك وفي غيره تقول قلوبنا تتقارب ولا تقول تتدانى وتقول هو قريب بقلبه ولا يقال دان بقلبه إلا على بعد

الفرق بين قولك طل دمه وقولك أهدي دمه

أن قولك طل دمه معنا أنه بطل ولم يطلب به ويقال طل القتيل نفسه وطله فلان إذا أبطله وأما أهدر فهو أن يبيحه السلطان أو غيره وقد هدر الدم هدرا وهو هادر كأنه مأخوذ من قولك هدر الشيء إذا على وفار وكذالك هدر الحمامة وهو ما دام ولج صوته بمنزلة غليان القدر يقال للمستقتل من الناس قد هدر دمه

الفرق بين الظل والفيء

أن الظل يكون ليلا ونهارا ولا

يكون الفيء بالنهار وهو ما فاء من جانب أي وجع والفيء الرجوع ويقال الفيء التبع لأنه يتبع الشمس وإذا ارتفعت الشمس إلى موضع المقال من ساق الشجرة قد عقل الظل

الفرق بين الوسط والوسط

أن الوسط لا يكون إلا ظرفا تقول قعدت وسط القوم وثوبي وسط الثياب وإنما تخبر عن شيء فيه والثوب وليس به فاذا حركت السين كما اسما وكان بمعنى بعض الشيء تقول وسط رأسه صلب فترفع لأنك إنما تخبر عن بعض الرأس لا عين شيء فه والوسط أسم الشيء لاذي في وسط القوم ولا يقال قعدت في وسط القوم كما لا يقال قعدت في بين القوم كما أن بين لا يدخل عليه في فكذلك لا تدخل ما أدى عنه بين

ا لفق بين قولك بين وسط

أن الوس يضاف الى الشيء الواحد وبين تضاف الى شيئين فصاعدا لأنه من البينونة تقول قعدت وسط الدار ولا يقال قعدت بين الدارين أي حيث تباين إحداهما صاصبتها وقعدت بين القوم أي حيث يتباينوا من المكان والوسط يقتضي اعتدال الأطراف إليه ولهذا قيل الوسط العدل في قوله تعالى (وكذلك جعلناكم أمة وسطا

الفرق بين الطلوع والبزوغ والشروق

أن البزوع أول الطلوع ولهذا قال تعالى (فلما رأى الشمس بازغة) أي لما رآها في أول أحوال طلوعها تفكر فيه فوقع له أنه ليست بإله ولهذا سمي الشرط تزيعا لأنه شق خفي كانه أول

الشق بزغ قوائم الدابة إذا شرطها ليبرز

الدم والشروق الطلوع تقول طلعت ولا يقال شرق الرجل كما يقال طلع الرجل فالطلوع أعم

الفرق بين الذوق وإدراك الطعم أن الذوق ملابسة يحسن بها الطعم إدراك الطعم يتبين به من ذلك الوجه وغير تضمين ملابسة الحبل وكذلك يقال ذقته فلم أجد له طعما

الفرق بين قوله (لا يغفر أن يشرك به) وقوله لا يغفر الشرك به في ما قال علي بن عيسى أن لا تدل على الاستقبال وتدل على وجه الفعل في الارادة ونحوها إذا كان قد يريد الانسان الكفر مع التوهم أنه إيمان كما يريد النصراني عبادة المسيح ويجوز ارادته ان يكفر مع التة وهم أنه إيمان والفرق من جهة آخرى أن المصدر لا يدل على زمان وإن يفعل يدل على زمان ففي قولك أن مع الفعل زيادة ليست في الفعل

الفرق بين الاستاقمة والإصابة

أن الاصابة مضمنة بملابسة الغرض وليس كذلك الاستقامة لأنه قد يمر الاستقامة ثم ينقطع عن الفرض الذي هو المقصد في الطلب

الفق بين قولك أتى فلان وجاء فلان

أن قولك جاء كلام تام لا يحتاج إلى صلة وقولك أتى فلان يقتضي مجية بشيء ولهذا يقال جاء فلان نفسه ولا يال أتى فلان نفسه ثم كثر ذلك حتى أستعمل أحد اللفظين في موضع الآخر

الفرق بين اولاء أولئك أن اولاء لما قرب وأولئك لما بعد كما أن ذا لما قرب وذلك لما بعد وإنما الكاف للخطاب ودخلها معنى البعد لن ما بعد عن المخاطب إلى اعلامه وانه مخاطب ذكره لما

لا يحتاج اليه ما قرب منه لوضوح أمره

الفرق بين من يأتيني فلة درهم والذي يأتيني فلة درهم

أن جواب الجزاء يدل على أنه يستحق من الفعل الأول والفاء في خبر الذي مشبهة بالجزاء وليست به وإنما دخلت لتدل على أن الدرهم يجب الإتيان

الفق بين الجواب بالفاء وبين العطف

أن العطف يوجب الاشتراك في المعنى والجواب يوجب أن الثاني بالأول كقوله تعالى (ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب

الفرق بين الركون والسكون

أن الركوب السكون إلى الشيء بالحب له والإنصات إليه ونقيضه النفور عنه والسكون خلاف الحركة وإنما يستعمل في غيره مجازا

الفرق بين لما ولم

أن لما يوقف عليها نحو قد جاء زيد فتقول لما أي لما يجيء ولا يجوز في ذلك كلامهم كاد ولما يفعل ولم يفعل ولما جواب قد فعل ولم جواب فعل لأن قد للتوقع وقال سيبوية ليست ما زائدة لأن لما تقع في مواضع لا تقع فيها لم فإذا قال القائل لم يأتني زيد فهو نفي لقوله أتاني زيد وإذا قال لما يأتني فمعناه أنه لم يأت وإنما يتوقعه

الفرق بين التابع والتالي

أن التالي في ما قال علي بن عيسى ثان وإن لم يكن يتدبر بتدبر الأول إنما هو المتدبر بتدبير الأول وقد يكون التابع قبل المتبوع في المكان كتقدم المدلول وتأخر الدليل وهو مع ذلك يأمر بالعدول تارة إلى الشمال وتارة إلى اليمين كذا قال

الفرق قين الخالي والماضي

أن الخالي يقتضي خلو المكان

منه وسواء خلا منه بالغيبة أو العدم ومنه لا يخلو الجسم من حركة أو سكون لامتناع خلو المكان منهما وأما لا يخلو الشيء من أن يكو موجودا أو معدوما فمعناه أنه لا يخلو من أن

يصح له معنى إحدى الصفتين

الفرق بين سوف والسين في سيفعل

أن سوف إطماع قولهم سوفته أي أطمعته في ما يكون وليس كذلك السين

الفرق بين قولك مالك لا تفعل كذا وقولك لم لا تفعل أن قولك لم لا تفعل أعم لأنه قد يكون بحال

يرجع إلى غيره ومالك لا تفعل بحال يرجع اليه

الفرق بين المكان والمكانة

أن المكانة الطريقة يقال هو يعمل على مكانته ومكينته أي على طريقته ومنه قوله تعالى (

على مكانتكم إنا عاملون) والمكان مفعل من يكون مصدرا وموضعا

الفرق بين قولك تماما له وتماما عليه

في قوله تعالى (تماما على الذي أحسن) أن تماما له يدل على نقصانه قبل تكميله وتماما

عليه يدل على نقصانه فقط لأنه يقتضي مضاعفة عليه

الفرق بين أمت وأو أن أم استفهام وفيها ادعاء إذا عادلت الألف نحو أزيد في الدار وليس

ذلك في أو ولهذا اختلف الجواب فيها أم بالتعبير أو بنعم أو لا

الفرق بين الناء والسعير والجحيم والحريق

أن السعير هو النار الملتهبة الحراقة أعني أنها تسمى حريقا في حال إحراقها للإحراق هو

النار الملتهبة الحراقة أعني أنها تسمى حريقا في حال إحراقها للأحراق يقال في العود نار وفي

الحجر نار ولا يقال فيه سعير والحريق النار الملتهبة شيئا واهلاكها له ولهذا يقال وقع الحريق في موضع كذا ولا يقال وقع السعير فلا يقتضي قولك السعير ما يقتضيه

الحريق ولهذا يقال فلان مسعر حرب كأنه يشعلها ويلهبها ولا يقال محرق والجحيم نار على نار وجمر وجاحمه شدة تلهبه وجاحم الحرب أشد موضع فغيها ويقال لعين الأسد جحمة لشدة توقدها وأما جهنم فيفيد بعد العقر من قولك بئر جهنام إذا كانت بعيدة القعر

الفرق بين النور والضياء

(181/53)

أن الضياء ما يتخلل الهواء من اجزاء النور فيبيض بذلك والشاهد أنهم يقولون ضياء النهار ولا يقولون نور النهار إلا أن يعنوا الشمس فالنور الجملة التي يتشعب منها والضوء مصد ضاء يضوء ضوءا يقال ضاء وأضاء أي ضاء هو وأضاء غيره

الفرق بين النطفة والمني

أن قولك النطفة يفيد أنها ماء قليل والماء القليل تسمية العرب النطفة يقولون هذه نطفة عذبة اي ماء عذب ثم كثر أستعمال النطفة في المني حتى صار لا يعرف باطلاقه غيره وقولنا المني يفيد أن الولد يقدر منه وهو من قولك منى الله له كذا أي قدره ومنه المنا الذي

يوزن به لأنه تقديرا معلوما

الفرق بين قولك أزاله عن موضعة وأزله

أن الإزلال عن الموضع هو الإزالة عنه دفعة واحدة من قولك زلت قدمه ومنه قيل أزل اليه النعمة إذا اصطنعها اليه بسرعة ومنه قيل للذنب الذي يقع من الإنسان على غير أعتماد زلة والصفاء الزلال بمعنى المزل

الفرق بين الضيق والضيق

قال المفضل الضيق بالفتح في الصدر والمكان والضيق بالكسر في البخل وعسر الخلق ومنه قوله تعالى (وى تك في مما يمكرون) وقال غيره الضيق مصدر والضيق اسم ضاق الشء ضاق الشيء ضيقا وهو الضيق والضيق ما يلزمه الضيق وهذا المثال يكون لما تلزمه الصفة مثل سيد وميت والضائق ما يكون فيه الضيق عارضا ومنه قوله تعالى (وضائق به صدرك)

الفرق بين الخلف والخلف

أنه يقال لمن جاء بعد الأول خلف شرا كان أو خيرا واليل على الشر قوله لبيد من الكامل

وبقيت في خلف كجلد الأجرب

وعلى الخير قول حسان من الطويل

لنا القدم الأولى إليك وخلفنا

لأولنا في طاعة الله تابع

والخف بالتحريك ما أخلف عليك بدلا مما أخذك منك

الفرق بين ما ولا أن لا جواب استفهام كقولك أ تقول كذا فيكون الجوالب لا وما جواب عن الدعوى تقول قلت كذا فيكون الجواب ما قلت

(182/53)

الفرق بين السكب والصب والسقوح والهموم والهطل أن السكب هو الصب المتتابع ولهذا يقال فرس سكب غذا كان يتابع الجري ولا يقطعه ومنه قوله تعالى (وماء مسكوب) لأنه دائم لا ينقطع والصب يكون دفعة ما يصب في القالب يصب دفعة واحدة والسفوح اندفاع الشيء اسائل وسرعة جريانه ولهذا قيل دم مسفوح لأن الدم يخرج

من العرق خروجا سريعا ومنه سفح الجبل لأن سيله يندفع إليه بسرعة والهمول يفيد أن الهامل يذهب كل مذهب من غير مانع ولهذا قيل أهملت فكثرة السيلان في سهولة ومنه يقا همر في كلامه إذا أكثر منه ورجل مهمار كثير الكلام وظبية همير بسيطة الجسم والهطل دوام السيلان في سكون كذا حتى السكري وقال الهطلان مطر إلى اللين ما هو وأما السح فهو عموم الانصباب ومنه يقال شاة ساح كأن جسمها أجمع يصب ودكا

الفرق بين المع واللمح

أن اللمع أصله في البركة وهي الرق ثم الأخرى المرة بعد المرة واللمح مثل اللمع في ذلك إلا أن اللمع لا يكون إلا من بعيد هكذا حكاه السكري في تفسير قول امرىء القيس من الطويل

وتخرج منه لا معات كأنها

أكف تلقى الفوز عن المفيض

والبرق أصله ما يقع به الرعب ولهذا استعمل في التهدد

الفرق بين التبديل والإبدال قال الفراء التبديل تغيير الشيء عن حاله والإبدال جعل الشيء مكان الشيء

الفرق بين الدلو والذنوب

أن الدلو تكون فارغة وملأى

والذنوب لا تكون إلا ملأى ولهذا سمي النصيب ذنوبا قال الشاعر من مشطور الرجز

إنا إذا ساجلنا شريب

لنا ذنوب وله ذنوب

فإن أبى كان له القليب

فلولا أنها مملوءة ما كان لقوله لنا ذنوب وله ذنوب معنى وكذا قول علقمه من الطويل

فحق لشاس من ندال ذنوب

ساجلنا شاركنا في الاستقاء بالسجال ولاذنوب تذكر وتؤنث وهكذا

الفق بين الكأس والقدح

(183/53)

أن الكأس لا يكون إلا مملوءة والقدح تكون مملوءة وغير مملوءة وكذلك الفرق بين الخواف

والمائدة وذلك أنها لا تسمى مائدة إلا إذا كان عليها طعام وإلا فهو خوان والله سبحانه

وتعالى أعلم. انتهى انتهى. اهـ ﴿ الفروق اللغوية صـ 316.336 ﴾

(184/53)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ

مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ﴾

لم يرضَوْا بحسن اختياره لهم ، ولم يصبروا على قيامه بتولي ما كان يَهُمُّهُم من كفاية مأكولهم

وملبوسهم ، فنزلوا في التحير إلى ما جرت عليه عاداتهم من أكل الخسيس من الطعام ، والرضا بالدون من الحال ، فردَّهم إلى مقاساة الهوان ، وربطهم بإدامة الخذلان ، حتى سفكوا دماء الأنبياء وهتكوا حرمة الأمر بِقِلَّة الاستحياء ، وتَرْكِ الاروعاء ، فعاقبهم على قبيح فعالهم ، وردَّهم إلى ما اختاره لأنفسهم من خسائس أحوالهم ، وحين لم تنجح فيهم النصيحة ، أدركتهم النقمة والفضيحة . ويقال كان بنو إسرائيل متفرقي الهموم مُشَتَّتِي القصود ؛ لم يرضوا لأنفسهم بطعام واحد ، ولم يكتفوا في تدينهم بمعبود واحد ، حتى قالوا لموسى عليه السلام – لَمَّا رأوا قوماً يعبدون الصنم – يا موسى : اجعل لنا إلهاً كما لهم إله ، وهكذا صفة أرباب التفرقة . والصبر مع الواحد شديد ، قال تعالى : ﴿ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى القُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴾ [الإسراء : 46] . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 96.95 ﴾

(185/53)

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيتين :

﴿ وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ

عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (60) وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (61) ﴾

التفسير : جمهور المفسرين سوى أبي مسلم ، على أن هذا الاستسقاء كان في التيه ، عطشوا فدعا لهم موسى بالسقيا فقيل له اضرب بعصاك الحجر ، أما العصا فقال الحسن : كانت عصا أخذها من بعض الأشجار . وقيل : كانت من الجنة طولها عشرة أذرع على طول موسى ولها شعبتان

(186/53)

تتقدان في الظلمة . وأما الحجر فاللام إما للعهد والإشارة إلى حجر معلوم ، فقد روي أنه حجر طوري حمله معه وكان حجراً مربعاً له أربعة أوجه كانت تنبع من كل وجه ثلاثة أعين ، لكل سبط عين تسيل في جدول إلى السبط الذي أمر أن يسقيهم وكانوا ستمائة ألف ،

وسعة المعسكر اثنا عشر ميلاً وقيل : أهبطه آدم من الجنة فتوارثوه حتى وقع إلى شعيب فدفعه إليه مع العصا . وقيل : هو الحجر الذي وضع عليه ثوبه حين اغتسل ورماه بنو إسرائيل بالأدرة ففرّ به ، فقال له جبريل : يقول الله تعالى : ارفع هذا الحجر فإن لي فيه قدرة ولك فيه معجزة ، فحمله في مخلاته . وإما للجنس أي اضرب الشيء الذي يقال له الحجر . وعن الحسن : لم يأمره أن يضرب حجراً بعينه قال : وهذا أظهر في الحجة وأبين في القدرة . ثم إنهم قالوا : كيف بنا لو أفضينا إلى أرض ليست فيها حجارة ؟ فحمل حجراً في مخلاته فحيثما نزلوا ألقاه ، وأما الصنف والشكل فقيل : كان من رخام وكان ذراعاً في ذراع . وقيل : مثل رأس الإنسان . وقيل : له أربعة أوجه كما مر ، وهذا إذا لم يعتبر الفوقاني ومقابله . وأما الضرب فقيل : كان يضربه بعصاه فينفجر ويضربه بها فييبس فقالوا : إن فقد موسى عصاه متنا عطشاً ، فأوحى الله تعالى إليه : لا تقرع الحجارة وكلمها تطعك لعلهم يعتبرون . والفاء في قوله ﴿ فانفجرت ﴾ فاء فصيحة كما سبق في ﴿ فتاب عليكم ﴾ [البقرة : 54] وفي هذا الحذف دلالة على أن موسى لم يتوقف عن اتباع الأمر ، وأنه من انتفاء الشك عنه بحيث لا حاجة إلى الإفصاح به .

والانفجار والانبجاس واحد ومعناه خروج الماء بسعة وكثرة . وأصل الفجر الشق ومنه الفاجر لأنه يشق عصا المسلمين بمخالفتهم . وقيل : الانبجاس خروج الماء قليلاً ، ووجه بأن الفجر في الأصل هو الشق ، والبجس الشق الضيق فلا يتناقضان كما لا يتناقض المطلق والمقيد والعام والخاص ، أو لعله انبجس أوّلاً ثم انفجر ثانياً وكذا العيون تظهر الماء قليلاً ثم يكثر لدوام خروجه ، أو لعل حاجتهم تشتد تارة فينفجر وتضعف أخرى فينبجس .

(188/53)

﴿ قد علم كل أناس ﴾ أي كل سبط ﴿ مشربهم ﴾ كأنه أمر كل سبط أن لا يشرب إلا من جدول معين حسماً لمادة التشاجر ، فإن العادة في الرهط الواحد أن لا يقع بينهم من التنازع مثل ما يقع بين المختلفين . وهذا أيضاً من تمام النعمة عليهم ، وإنما فقد العاطف لأن قوله ﴿ قد علم ﴾ بيان وتفصيل لما أجمل في قوله ﴿ اثنتا عشرة ﴾ كأنه قيل : هذا المجموع مشاع بينهم أو مقسوم فقيل قد علم ﴿ كلوا ﴾ على إرادة القول أي وقلنا أي قال لهم موسى كلوا من المن والسلوى الذي رزقناكم بلا تعب ولا نصب ، واشربوا من هذا الماء . وقيل : إن الأغذية لا تنبت إلا بالماء ، فلما أعطاهم الماء فكأنما أعطاهم المأكول والمشروب . والعثو أشد الفساد ، و ﴿ مفسدين ﴾ قيل : نصب على الحال المؤكدة

وهو ضعيف ، فإن من شرطها أن تكون مقررة لمضمون جملة اسمية . وقيل : حال منتقلة ومعناه النهي عن التمادي في حالة الإفساد ، إما مطلقاً أو مقيداً بأنه إن وقع التنازع بسبب ذلك الماء فلا تبالغوا في التنازع . ويرد على هذا القول أن الإفساد منهي عنه مطلقاً ، وهذا التفسير يقتضي أن يكون المنهي عنه هو التمادي في الإفساد لا نفس الإفساد . والصحيح أن يقال : إن المنصوبات في نحو قوله عز من قائل ﴿ ولا تعثوا في الأرض مفسدين ﴾ ﴿ ثم وليتم مدبرين ﴾ [التوبة : 25] وفي نحو قولهم " تعال جائياً وقم قائماً " من الصفات القائمة مقام المصدر نحو " أقاعداً وقد سار الركب " بقي في الآية بحث ، وهو أنه كيف يعقل خروج المياه الكثيرة من الحجر الصغير ؟ والجواب أما على القول بالفاعل المختار فظاهر فإن له أن يحدث أيّ فعل خارق شاء من غير أن يطلب له سبب وواسطة ، وأما عند طالب الأسباب والوسائط فإن العناصر الأربعة لها هيولي مشتركة عندهم . وجوّز وانقلاب صور بعضها إلى بعض ، فجاز استمداد الماء الكامن في الحجر من الهواء المجاور له ، ومثل هذا ما رواه أنس أنه أتى النبي صلى الله عليه وسلم بإناء وهو بالزوراء

، فوضع يده في الإناء فجعل الماء ينبع من بين أصابعه فتوضأ القوم . قال قتادة قلت لأنس : كم كنتم ؟ قال : ثلثمائة أو زهاء ثلثمائة . بل معجزة نبينا صلى الله عليه وسلم أقوى لأن نبوع الماء من الحجر معهود في الجملة ، أما نبوعه من بين الأصابع فغير معتاد ، قال أهل الإشارة : الروح الإنساني وصفاته في عالم القالب بمثابة موسى وقومه ، وإنه يستسقي ربه لإروائها من ماء الحكمة والمعرفة فيضرب بعصا لا إله إلا الله .

ولها شعبتان من النفي والإثبات تتقدان نوراً عند استيلاء ظلمات النفس على حجر القلب فيتفجر اثنتا عشرة عيناً من ماء الحكمة بعدد حروف لا إله إلا الله ، قد علم كل سبط من أسباط الإنسان وهي خمس حواس ظاهرة ، وخمس باطنة مع القلب والنفس مشربهم فيستوي في حظه بحسب مشربه .

(190/53)

قوله سبحانه ﴿ وإذ قلتم يا موسى ﴾ الآية . زعم بعض المفسرين أن هذا السؤال منهم كان معصية ، فإن اللائق بحال المكلف الصبر على ما ساقه الله تعالى إليه خصوصاً إذا كان نعمة وعفواً وصفواً ، ولا سيما إذا كان المسؤول أدون وأحقر . ولهذا أنكره موسى عليهم ﴿ قال أتستبدلون ﴾ . وقال الآخرون : إنه غير معصية لأن قوله ﴿ كلوا واشربوا ﴾

عند إنزال المن والسلوى ، وانفجار الماء أمر إباحة لا إيجاب . ثم إنهم كانوا أهل فلاحة فرغبوا إلى مألوفهم ، ورغبة الإنسان فيما اعتاده في أصل التربية وإن كان خسيساً فوق رغبته فيما لا يعتاد وإن كان شريفاً . ولعلهم سئموا من التيه فسألوا هذه الأطعمة التي لا توجد إلا في البلاد وغرضهم البلاد . وأيضاً المواظبة على الطعام الواحد تميت الشهوة وتضعف الهضم ، فيصح أن يكون التبديل مطلوباً للعقلاء ، ولهذا أجابهم الله تعالى إلى ما سألوا ، ولو كان معصية لم يجبهم إلى ذلك ، اللهم إلا أن يكون من قبيل ﴿ ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب ﴾ [الشورى : 20] وإنما صح إطلاق الطعام الواحد على المن والسلوى ، لأنهم أرادوا بالوحدة نفي التبدل والاختلاف ، ولو كان على مائدة الرجل ألوان عدة يداوم عليها ويأكلها كل يوم لا يبدلها . قيل : لا يأكل فلان إلا طعاماً واحداً . ويجوز أن يريدوا أنهما ضرب واحد لأنهما معاً من طعام أهل التلذذ والترفه ، ونحن أهل زراعة ما نريد إلا ما ألفناه . ومعنى يخرج لنا يوجد ويظهر . والبقل ما أنبتته الأرض من الخضر كالنعناع والكرفس والكراث وغير ذلك من أطايب البقول التي يأكلها الناس عادة . والقثاء الخيار ، والفوم الثوم ، ويدل عليه قراءة عبد الله ﴿ وثومها ﴾ وهو بالعدس والبصل أوفق . وقال بعضهم : الفوم الحمص لغة شامية ، ويقال : هو الحنطة . ومنه قولهم " فوّموا لنا " أي اختبزوا . قال الفراء : هي لغة قديمة ﴿ الذي هو أدنى ﴾ أي أقرب منزلة وأدون مقداراً كقولهم في

(191/53)

ضده " هو بعيد المحل وبعيد الهمة " يعنون الرفعة والعلو ﴿ اهبطوا مصراً ﴾ أي انحدروا إليه من التيه . يقال : هبط الوادي إذا نزل به ، وهبط منه إذا خرج .

(192/53)

وبلاد التيه ما بين بيت المقدس إلى قنسرين اثنا عشر فرسخاً في ثمانية . ومصر إما مصر فرعون ، والتنوين فيه في القراءات المعتبرة مع أن فيه العلمية والتأنيث لسكون وسطه كما في نوح ولوط ، وفيهما العلمية والعجمية . وإما مصر من الأمصار كأنه قيل لهم : ادخلوا بلداً أيّ بلد كان لتحدوا فيه هذه الأشياء . ولما ذكر الله سبحانه صنوف نعمه على بني إسرائيل إجمالاً ثم تفصيلاً ، أراد أن يبين مآل حالهم ليكون عبرة للنظار وتبصرة لأولي الأبصار وتحذيراً للإنسان عن الجحود والكفران المستتبعين للخزي والهوان فقال ﴿ وضربت عليهم الذلة والمسكنة ﴾ أي جعلت محيطة بهم مشتملة عليهم كالقبة المضروبة على الشخص ، أو ألصقت بهم حتى لزمتهم ضربة لازب كما يضرب الطين على الحائط

فيلصق به . فاليهود صاغرون أذلاء أهل مسكنة ومدقعة ، إما على الحقيقة وإما لتصاغرهم وتفاقرهم خيفة أن تضاعف عليهم الجزية . وهذا من جملة الأخبار عن الغيب الدال على كون القرآن وحياً نازلاً من السماء على محمد صلى الله عليه وسلم . هذا حالهم في الدنيا ، وأما حالهم في العقبى فذلك قوله ﴿ وباؤا بغضب من الله ﴾ من قولك " باء فلان بفلان " إذا كان حقيقاً بأن يقتل به لمساواته له ومكافأته ، أي صاروا أحقاء بغضبه وهو إرادة انتقامه ﴿ ذلك ﴾ الذي ذكر من ضرب الذلة والمسكنة والخلافة بالغضب ، بسبب كفرهم بآيات الله أي القرآن ، بل وبالتوراة لأن الكفر به مستلزم للكفر بها ، وقتلهم الأنبياء ، وقد قتلت اليهود – لعنوا – شعيباً وزكريا ويحيى وغيرهم بغير الحق أي من غير ما شبهة عندهم توجب استحقاق القتل . فإن الآتي بالباطل قد يكون اعتقده حقاً لشبهة عنت له ، وقد يأتي به مع علمه بكونه باطلاً . ولا شك أن الثاني أقبح وأدخل في القحة ، أو كرر للتأكيد نحو ﴿ ومن يدع مع الله الهاً آخر لا برهان له به ﴾ [المؤمنون : 117] ومحال أن يكون لمدعي الإله الثاني برهان . والنبيء بالهمزة " فعيل " بمعنى

فاعل من نبأ بالتخفيف أي أخبر لأنه نبأ عن الله تعالى . قال سيبويه : ليس أحد من العرب إلا ويقول تنبأ مسيلمة بالهمز ، غير أنهم تركوا الهمز في النبي كما تركوه في الذرية والبرية والخابية إلا أهل مكة ، فإنهم يهمزون هذه الأحرف ولا يهمزون غيرها ويخالفون العرب في ذلك . وقيل : أصله من نبأت من أرض إلى أرض أي خرجت منها إلى أخرى . وهذا المعنى أراد الأعرابي بقوله " يا نبيء الله " أي يا من خرج من مكة إلى المدينة . فأنكر عليه صلى الله عليه وسلم الهمزة . وقيل : النبي بالإدغام من النبوة وهي ما ارتفع من الأرض ، أي أنه صلى الله عليه وسلم شرف على سائر الخلق " فعيل " بمعنى " مفعول " ، والجمع أنبياء .

(194/53)

وعلى الأول إنما جمع على أنبياء لأن الهمز لما أبدل وألزم الإبدال جمع جمع ما أصل لامه حرف العلة ﴿ ذلك بما عصوا ﴾ تأكيد بتكرير الشيء بغير اللفظ الأول كقول السيد لعبده وقد احتمل منه ذنوباً سلفت منه فعاقبه عند آخرها " هذا بما عصيتني وخالفت أمري . هذا بما تجرأت علي واغتررت بحلمي " ويجوز أن يشار بذلك إلى الكفر والقتل على معنى انهمكوا في العصيان والاعتداء حتى قست قلوبهم فجسروا على جحود

الآيات وقتل الأنبياء ، أو تكون الباء بمعنى " مع " أي ذلك الكفر والقتل مع ما عصوا سائر أنواع المعاصي ، واعتدوا حدود الله في كل شيء . وقيل : هو اعتداؤهم في السبت . واعلم أنه سبحانه لما ذكر إنزال العقوبة بهم بين سبب ذلك أولاً بما فعلوه في حق الله وهو جهلهم به وجحدهم لنعمه ، ثم ثناه بما يتلوه في العظم وهو قتل الأنبياء ، ثم ثلثه بما يكون منهم من المعاصي المتعدية إلى الغير مثل الاعتداء والظلم وذلك في نهاية الترتيب . وقيل : الأول إشارة إلى متقدميهم ، والثاني إشارة إلى من كان في عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكأنه تعالى بيَّن سبب ما نزل بالفريقين من البلاء والمحنة ليظهر للخلائق أن ذلك على قانون العدالة وقضية الحكمة . فإن قيل : لم قيل ههنا ﴿ ويقتلون النبيين بغير الحق ﴾ وفي " آل عمران " ﴿ ويقتلون النبيين بغير حق ﴾ [آل عمران : 21] منكراً ؟ قلت : الحق المعلوم فيما بين المسلمين الذي يوجب القتل ما في قوله صلى الله عليه وسلم " لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث : كفر بعد إيمان وزنا بعد إحصان ، وقتل نفس بغير حق " فالحق المعرف إشارة إلى هذا ، وأما الحق المنكر فالمراد به تأكيد العموم ، أي لم يكن هناك حق لا هذا الذي يعرفه المسلمون ولا غيره ألبتة . انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 1 صـ 297 . 300 ﴾

(195/53)

قوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (62) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما بين سبحانه أنهم لما تعنتوا على موسى عليه السلام كما مر ويأتي عن نصوص التوراة مرة بعد مرة أورثهم كفراً في قلوبهم فمردوا على العصيان والتجرّؤ على مجاوزة الحدود فضرب عليهم الذلة والمسكنة وأحلهم الغضب ، وكان في ذلك تحذير لمن طلب سلوك ذلك الصراط المستقيم من حالهم ، وإعلام بأن المتقين المستجاب لهم في الدعاء بالهداية ليسوا في شيء من ذلك بل قالوا : اهدنا ، عن يقين وإخلاص متبرئين من الدعاوى والاعتراض على الرسل نبه على أن من عمل ضد عملهم فآمن منهم أو من غيرهم من جميع الملل كان على ضد حالهم عند ربهم فلا يغضب عليهم بل يوفيهم أجورهم ويورثهم الأمن والسرور المتضمنين لضد الذلة والمسكنة فقال تعالى ﴿ إن الذين آمنوا ﴾ أو يقال إنه سبحانه لما علّل إهانة بني إسرائيل بعصيانهم واعتدائهم كان كأنه قيل : فما لمن أطاع ؟ فأجيب بجواب عام لهم ولغيرهم ، أو يقال إنّه لما أخبر تعالى بأنهم ألزموا الخزي طوق الحمامة وكان ذلك ربما أوهم أنه لا خلاص لهم منه وإن تابوا وكانت عادته سبحانه جارية بأنه إذا ذكر وعداً أو

عيداً عقبه حكم ضده ليكون الكلام تاماً ، اعلموا أن باب التوبة مفتوح والرب كريم على وجه عام .

وقال الحرالي : لما أنهى الحق تعالى نبأ أحوال بني إسرائيل نهايته مما بين أعلى تكرمتهم بالخطاب الأول إلى أدنى الغضب عليهم بهذا النبأ الآخر عنهم إعراضاً في مقابلة ذلك الإقبال الأول وكانوا هم أول أهل كتاب أشعر تعالى بهذا الختم أن جميع من بعدهم يكون لهم تبعاً لنحو مما أصابهم من جميع أهل الملل الأربعة – انتهى .

فقيل ﴿ إن الذين آمنوا ﴾ أي ادعوا الإيمان بما دعا إليهم محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ والذين هادوا ﴾ أي ادعوا أنهم على دين موسى عليه السلام .

قال الحرالي : وهو من الهود وهو رجوع بالباطن وثبات فيه – انتهى .

(196/53)

وقال أبو عمرو ابن العلاء لأنهم يتهودون أي يتحركون عند قراءة التوراة ويقولون : إن السماوات والأرض تحركتا حين آتى الله عزّ وجلّ التوراة لموسى عليه السلام ﴿ والنصارى ﴾ المدعين أنهم تبعوا المسيح عليه السلام .

قال الحرالي : جمع نصران فإن كان من النصرة فهو فعلان .

ولما كانت هذه السورة في استعطاف بني إسرائيل ترغيباً وترهيباً قرن هنا بين فريقيهم ، ولما كانت ملة الصابئة جامعة لما تفرق من أصول أديان أهل الشرك تلاهم بهم مريداً كل مشرك فقال ﴿ والصابئين ﴾ المنكرين للرسالة في الصورة البشرية القائلين بالأوثان السماوية والأصنام الأرضية متوسطين إلى رب الأرباب ، قال الحرالي : بالهمز من صبأ يصبأ صبأ وبغير همز من صبا يصبوا صبواً ، تعاقبت الهمزة والياء مع الصاد والباء لعام معنى هو عود إلى حال صغر بعد كبر – انتهى .

﴿ من آمن ﴾ أي منهم بدوامه على الإيمان إن كان آمن قبل ذلك ، ودخوله في الإيمان إن كان كافراً فيكون من الاستعمال في الحقيقة والمجاز ﴿ بالله ﴾ أي لذاته ﴿ واليوم الآخر ﴾ الذي الإيمان به متضمن للإيمان بجميع الصفات من العلم والقدرة وغيرهما وحاثّ على كل خير وصادّ عن كل ضير ﴿ وعمل صالحاً ﴾ أي وصدق ما ادعاه من الإيمان باتباع شرع الرسول الذي في زمانه في الأعمال الظاهرة ولم يفرق بين أحد من الرسل ولا أخل بشيء من اعتقاد ما جاءت به الكتب من الصلاح .

قال الحرالي : وهو العمل المراعى من الخلل ، وأصله الإخلاص في النية وبلوغ الوسع في المحاولة بحسب علم العامل وإحكامه ، وقال : والعمل ما دبر بالعلم – انتهى .

ولما كان الإفراد أدل على تخصيص كل واحد بما له والجمع أدل على إرادة العموم وأقطع للتعنت أفرد أولاً وجمع هنا فقال ﴿ فلهم أجرهم ﴾ الذي وعدوه على تلك الأعمال المشروطة بالإيمان ، وهو في الأصل جعل العامل على عمله ، كائناً "عند ربهم" فهو محفوظ لا يخشى عليه نسيان ولا يتوجه إليه تلف ﴿ ولا خوف عليهم ﴾ من آتٍ يستعلي عليهم من جميع الجهات ﴿ ولا هم يحزنون ﴾ على شيء فات بل هم في أعظم السرور بما لهم من العز والجدة ضد ما للمعتدين من الذل والمسكنة ، وحسن وضع هذه الآية في أثناء قصصهم أنهم كانوا مأمورين بقتل كل ذكر ممن عداهم ، وربما أمروا بقتل النساء أيضاً ، فربما ظنّ من ذلك أن من آمن من غيرهم لا يقبل .

(198/53)

قال في التوراة في قصة مدين : وقتلوا كل ذكر فيها ، ثم قال : وغضب موسى فقال لهم : لماذا أبقيتم على الإناث ؟ وهن كنّ عشرة لبني إسرائيل عن قول بلعام ومشورته – يعني بما أفضى إلى الزنا ، ثم قال : وقال الرب لموسى : كلّم بني إسرائيل وقل لهم : أنتم جائزون الأردن لتهلكوا جميع سكان الأرض ونحو هذا مما لعل بعضه أصرح منه وقد ذكر منه في سورة

المائدة ، وفي وضعها أيضاً في أثناء قصصهم إشارة إلى تكذيبهم في قولهم : ﴿ ليس علينا في الأميين سبيل ﴾ [آل عمران : 75] وأن المدار في عصمة الدم والمال إنما هو الإيمان والاستقامة وذلك موجود في نص التوراة في غير موضع ، وفيها تهديدهم على المخالفة في ذلك بالذلة والمسكنة ، وسيأتي بعض ذلك عند قوله : ﴿ لا تعبدون إلاّ الله ﴾ [البقرة : 83] الآية ، بل وفيها ما يقتضي المنع من مال المخالف في الدين فإنه قال في وسط السفر الثاني : وإذا لقيت ثور عدوك أو حماره وعليه حمولة فارددها إليه ، وإذا رأيت حمار عدوك جاثماً تحت حمله فهممت أن لا توازره فوازره وساعده ، ثم رجع إلى قصصهم على أحسن وجه فإنه لما ذكر تعالى للمؤمنين هذا الجزاء الذي فخم أمره ترغيباً بإبهامه ونسبته إلى حضرة الرب المحسن بأنواع التربية وأنه لا خوف معه ولا حزن تلاه بأنهم لم يؤمنوا بعد رؤية ما رأوا من باهر الآيات حتى رفع فوقهم الطور وعلموا أنه دافنهم إن عصوا ، فكان قبوله من أعظم النعم عليهم ، لأن حقه الرد ، لأنه كالإيمان عند رؤية البأس لا إيمان بالغيب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 164 . 166 ﴾

(199/53)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ النصارى ﴾ بالإمالة : أو عمرو وحمزة وعلي وخلف وورش من طريق النجاري ، والخزاز عن هبيرة ، وكذلك كل راء بعدها ياء . وروى قتيبة بكسر الصاد والراء ، وكذلك قوله ﴿ سكارى ﴾ و ﴿ أسارى ﴾ و ﴿ يوارى ﴾ و ﴿ أوارى ﴾ كلها بإمالة ما قبل الألف ﴿ والصابئين ﴾ بغير همزة : أبو جعفر ونافع وحمزة في الوقف وإن شاء لين الهمزة .

الوقوف : ﴿ عند ربهم ﴾ (ز) لنوع عدول عن إثبات إلى نفي مع اتفاق الجملتين . و ﴿ يحزنون ﴾ (5) ﴿ الطور ﴾ (ط) لأن التقدير : قلنا لكم خذوا ﴿ تتقون ﴾ (5) ﴿ من بعد ذلك ﴾ (ج) لأن " لولا " للابتداء وقد دخل الفاء فيه ﴿ الخاسرين ﴾ (5) ﴿ خاسئين ﴾ (5) (ج) للآية والعطف بالفاء ﴿ المتقين ﴾ (5) . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 1 صـ 302 ﴾

(200/53)

فائدة

قال أبو حيان :

قوله تعالى : ﴿ إنّ الذين آمنوا والذين هادوا ﴾ الآية .

نزلت في أصحاب سلمان ، وذلك أنه صحب عباداً من النصارى ، فقال له أحدهم : إن زمان نبي قد أظل ، فإن لحقته فآمن به .

ورأى منهم عبادة عظيمة ، فلما جاء النبي صلى الله عليه وسلم ، ذكر له خبرهم وسأله عنهم ، فنزلت هذه الآية ، حكى هذه القصة مطوّلة ابن إسحاق والطبري والبيهقي .

وروي عن ابن عباس أنها نزلت في أوّل الإسلام ، وقدر الله بها أن من آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم ، ومن بقي على يهوديته ونصرانيته وصابئيته ، وهو مؤمن بالله واليوم الآخر ، فله أجره ، ثم نسخ ما قدر من ذلك بقوله : ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه ﴾ وردّت الشرائع كلها إلى شريعة محمد صلى الله عليه وسلم .

وقال غير ابن عباس : ليست بمنسوخة ، وهي فيمن ثبت على إيمانه بالنبي صلى الله عليه وسلم .

وروى الواحدي ، بإسناد متصل إلى مجاهد ، قال : لما قص سلمان على النبي صلى الله عليه وسلم قصة أصحابه ، وقال له هم في النار ، قال سلمان : فأظلمت عليّ الأرض ، فنزلت إلى ﴿ يحزنون ﴾ ، قال : فكأنما كشف عني جبل .

ومناسبة هذه الآية لما قبلها : أنه لما ذكر الكفرة من أهل الكتاب ، وما حل بهم من العقوبة ، أخبر بما للمؤمنين من الأجر العظيم ، دالاً على أنه يجزي كلاً بفعله ، والذين آمنوا منافقوا هذه الأمّة ، أي آمنوا ظاهراً ، ولهذا قرنهم بمن ذكر بعدهم ، ثم بين حكم من آمن ظاهراً وباطناً ، قاله سفيان الثوري أو المؤمنون بالرسول .

ومن آمن : معناه من داوم على إيمانه ، وفي سائر الفرق : من دخل فيه ، أو الحنيفيون ممن لم يلحق الرسول : كزيد بن عمرو بن نفيل ، وقيس بن ساعدة ، وورقة بن نوفل ، ومن لحقه : كأبي ذر ، وسلمان ، وبحيرا .

(201/53)

ووفد النجاشي الذين كانوا ينتظرون المبعث ، فمنهم من أدرك وتابع ، ومنهم من لم يدركه ، والذين هادوا كذلك ، ممن لم يلحق إلا من كفر بعيسى ، على نبينا وعليه الصلاة والسلام ، والنصارى كذلك ، والصابئين كذلك ، قاله السدّي أو أصحاب سلمان ، وقد سبق حديثهم ، أو المؤمنون بعيسى قبل أن يبعث الرسول ، قاله ابن عباس ، أو المؤمنون بموسى ، وعملوا بشريعته إلى أن جاء عيسى فآمنوا به وعملوا بشريعته ، إلى أن جاء محمد ، قاله السدي عن أشياخه ، أو مؤمنوا الأمم الخالية ، أو المؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله من

سائر الأمم.

فهذه ثمانية أقوال في المعنى بالذين آمنوا. انتهى انتهى. اهـ ﴿البحر المحيط حـ 1 صـ 404.402﴾

(202/53)

وقال الآلوسى:

﴿إِنَّ الذين ءامَنُواْ﴾ لما انجر الكلام إلى ذكر وعيد أهل الكتاب قرن به ما يتضمن الوعد جرياً على عادته سبحانه من ذكر الترغيب والترهيب وبهذا يتضح وجه توسيط هذه الآية وما قبلها بين تعداد النعم، وفي المراد ب ﴿الذين ءامَنُواْ﴾ هنا أقوال، والمروي عن سفيان الثوري أنهم المؤمنون بألسنتهم، وهم المنافقون بدليل انتظامهم في سلك الكفرة والتعبير عنهم بذلك دون عنوان النفاق للتصريح بأن تلك المرتبة وإن عبر عنها بالإيمان لا تجديهم نفعاً ولا تنقذهم من ورطة الكفر قطعاً، وعن السدي أنهم الحنيفيون ممن لم يلحق الرسول صلى الله عليه وسلم كزيد بن عمرو بن نفيل وقس بن ساعدة وورقة بن نوفل ومن لحقه كأبي ذر وبحيرى ووفد النجاشي الذين كانوا ينتظرون البعثة، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنهم المؤمنون بعيسى قبل أن يبعث الرسول صلى الله عليه وسلم، وروى

السدي عن أشياخه أنهم المؤمنون بموسى إلى أن جاء عيسى عليهما السلام فآمنوا به ، وقيل : إنهم أصحاب سلمان الذين قَصّ حديثهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له : " هم في النار " فأظلمت الأرض عليه كما روى مجاهد عنه فنزلت عند ذلك الآية إلى : ﴿ يَحْزَنُونَ ﴾ قال سلمان : فكأنما كشف عني جبل ، وقيل : إنهم المتدينون بدين محمد صلى الله عليه وسلم مخلصين أو منافقين واختاره القاضي وكأن سبب الاختلاف قوله تعالى فيما بعد : ﴿ مَنْ ءامَنَ ﴾ الخ فإن ذلك يقتضي أن يكون المراد من أحدهما غير المراد من الآخر وأقل الأقوال مؤنة أولها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 278 ﴾

(203/53)

فصل

قال الفخر :

اعلم أن القراءة المشهورة : ﴿ هَادُواْ ﴾ بضم الدال وعن الضحاك ومجاهد بفتح الدال وإسكان الواو والقراءة المعروفة الصابئين والصابئون بالهمزة فيهما حيث كانا وعن نافع وشيبة والزهري والصابين بياء ساكنة من غير همز ، والصابون بباء مضمومة وحذف

الهمزة ، وعن العمري يجعل الهمزة فيهما ، وعن أبي جعفر بياءين خالصتين فهما بدل الهمزة ، فأما ترك الهمزة فيحتمل وجهين .

أحدهما : أن يكون من صبا يصبو إذا مال إلى الشيء فأحبه ، والآخر : قلب الهمزة فنقول : الصابيين والصابيون والاختيار الهمز لأنه قراءة الأكثر وإلى معنى التفسير أقرب لأن أهل العلم قالوا : هو الخارج من دين إلى دين ، واعلم أن عادة الله إذا ذكر وعداً أو وعيداً عقبه بما يضاده ليكون الكلام تاماً فههنا لما ذكر حكم الكفرة من أهل الكتاب وما حل بهم من العقوبة أخبر بما للمؤمنين من الأجر العظيم والثواب الكريم دالاً على أنه سبحانه وتعالى يجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته كما قال : ﴿لِيَجْزِيَ الذين أَسَاءواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيِجْزِى الذين أَحْسَنُواْ بالحسنى ﴾ [النجم : 31] فقال : ﴿ إِنَّ الذين ءامَنُواْ ﴾ واختلف المفسرون في المراد منه ، وسبب هذا الاختلاف قوله تعالى في آخر الآية : ﴿ مَنْ ءامَنَ بالله واليوم الآخر ﴾ فإن ذلك يقتضي أن يكون المراد من الإيمان في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين ءامَنُواْ ﴾ غير المراد منه في قوله تعالى : ﴿ مَنْ ءامَنَ بالله ﴾ ونظيره في الإشكال قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الذين ءامَنُواْ ءامِنُواْ ﴾ [النساء : 136] فلأجل هذا الإشكال ذكروا وجوهاً ، أحدها : وهو قول ابن عباس .

المراد الذين آمنوا قبل مبعث محمد بعيسى عليهما السلام مع البراءة عن أباطيل اليهود والنصارى مثل قس بن ساعدة ، وبحيرى الراهب وحبيب النجار وزيد بن عمرو بن نفيل وورقة بن نوفل وسلمان الفارسي وأبي ذر الغفاري ووفد النجاشي فكأنه تعالى قال : إن الذين آمنوا قبل مبعث محمد والذين كانوا على الدين الباطل الذي لليهود والذين كانوا على الدين الباطل الذي للنصارى كل من آمن منهم بعد مبعث محمد عليه السلام بالله واليوم الآخر وبمحمد فلهم أجرهم عند ربهم ، وثانيها : أنه تعالى ذكر في أول هذه السورة طريقة المنافقين ثم طريقة اليهود ، فالمراد من قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين ءامَنُواْ ﴾ هم الذين يؤمنون باللسان دون القلب وهم المنافقون ، فذكر المنافقين ثم اليهود والنصارى والصابئين فكأنه تعالى قال : هؤلاء المبطلون كل من أتى منهم بالإيمان الحقيقي صار من المؤمنين عند الله وهو قول سفيان الثوري ، وثالثها : المراد من قوله : ﴿ إِنَّ الذين ءامَنُواْ ﴾ هم المؤمنون بمحمد عليه الصلاة والسلام في الحقيقة وهو عائد إلى الماضي ، ثم قوله تعالى : ﴿ مَنْ ءامَنَ بالله ﴾ يقتضي المستقبل فالمراد الذين آمنوا في الماضي وثبتوا على ذلك واستمروا عليه في المستقبل وهو قول المتكلمين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 96. 97 ﴾

فصل

قال الفخر :

أما قوله تعالى : ﴿ والذين هَادُواْ ﴾ فقد اختلفوا في اشتقاقه على وجوه .

أحدها : إنما سموا به حين تابوا من عبادة العجل وقالوا : ﴿ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ﴾ [الأعراف : 156] أي تبنا ورجعنا ، وهو عن ابن عباس .

وثانيها : سموا به لأنهم نسبوا إلى يهوذا أكبر ولد يعقوب وإنما قالت العرب بالدال للتعريب ، فإن العرب إذا نقلوا أسماء من العجمية إلى لغتهم غيروا بعض حروفها .

وثالثها : قال أبو عمرو بن العلاء : سموا بذلك لأنهم يتهودون أي يتحركون عند قراءة التوراة ، وأما النصارى ففي اشتقاق هذا الاسم وجوه .

(205/53)

أحدها : أن القرية التي كان ينزلها عيسى عليه السلام تسمى ناصرة فنسبوا إليها وهو قول ابن عباس وقتادة وابن جريج ، وثانيها : لتناصرهم فيما بينهم أي لنصرة بعضهم بعضاً .

وثالثها : لأن عيسى عليه السلام قال للحواريين من أنصاري إلى الله ، قال صاحب الكشاف : النصارى جمع نصران يقال رجل نصران ، وامرأة نصرانة والياء في نصراني للمبالغة كالتي في أحمري لأنهم نصروا المسيح .

أما قوله تعالى : ﴿ والصابئين ﴾ فهو من صبأ إذا خرج من دينه إلى دين آخر ، وكذلك

كانت العرب يسمون النبي عليه السلام صابئاً لأنه أظهر ديناً بخلاف أديانهم وصبأت النجوم إذا أخرجت من مطلعها .

وصبأنا به إذا خرجنا به ، وللمفسرين في تفسير مذهبهم أقوال ، أحدها : قال مجاهد والحسن : هم طائفة من المجوس واليهود لا تؤكل ذبائحهم ولا تنكح نساؤهم ، وثانيها : قال قتاد : هم قوم يعبدون الملائكة ويصلون إلى الشمس كل يوم خمس صلوات .

وقال أيضاً : الأديان خمسة منها للشيطان أربعة وواحد للرحمن : الصابئون وهم يعبدون الملائكة ، والمجوس وهم يعبدون النار ، والذين أشركوا يعبدون الأوثان ، واليهود والنصارى .

وثالثها : وهو الأقرب أنهم قوم يعبدون الكواكب ، ثم لهم قولان .

الأول : أن خالق العالم هو الله سبحانه ، إلا أنه سبحانه أمر بتعظيم هذه الكواكب واتخاذها قبلة للصلاة والدعاء والتعظيم .

(206/53)

والثاني : أن الله سبحانه خلق الأفلاك والكواكب ، ثم إن الكواكب هي المدبرة لما في هذا العالم من الخير والشر والصحة والمرض ، والخالقة لها فيجب على البشر تعظيمها لأنها هي

الآلهة المدبرة لهذا العالم ثم إنها تعبد الله سبحانه ، وهذا المذهب هو القول المنسوب إلى الكلدانيين الذين جاءهم إبراهيم عليه السلام رادًا عليهم ومبطلاً لقولهم ، ثم إنه سبحانه بين في هذه الفرق الأربعة أنهم إذا آمنوا بالله فلهم الثواب في الآخرة ليعرف أن جميع أرباب الضلال إذا رجعوا عن ضلالهم وآمنوا بالدين الحق فإن الله سبحانه وتعالى يقبل إيمانهم وطاعتهم ولا يردهم عن حضرته ألبتة ، واعلم أنه قد دخل في الإيمان بالله الإيمان بما أوجبه ، أعني الإيمان برسله ودخل في الإيمان باليوم الآخر جميع أحكام الآخرة ، فهذان القولان قد جمعا كل ما يتصل بالأديان في حال التكليف وفي حال الآخرة من ثواب وعقاب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 97. 98 ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ والذين هَادُواْ ﴾ أي تهودوا يقال : هاد وتهود إذا دخل في اليهودية ، ويهود إما عربي من هاد إذا تاب سموا بذلك لما تابوا من عبادة العجل ، ووجه التخصيص كون توبتهم أشق الأعمال كما مر ، وإما معرب يهوذا بذال معجمة وألف مقصورة كأنهم سموا بأكبر أولاد يعقوب عليه السلام ، وقرىء ﴿ هَادُواْ ﴾ بفتح الدال أي مال بعضهم إلى بعض

﴿ والنصارى ﴾ جمع نصران بمعنى نصراني ، وورد ذلك في كلام العرب وإن أنكره البعض كقوله :

تراه إذا دار العشيّ محنفا . . .

ويضحي لديه وهو (نصران) شامس

ويقال في المؤنث نصران كندمان وندمانة قال سيبويه وأنشد :

كما سجدت نصرانة لم تحنف . . .

(207/53)

والياء في نصراني عنده للمبالغة كما يقال للأحمر أحمري إشارة إلى أنه عريق في وصفه ، وقيل : إنها للفرق بين الواحد والجمع كزنج وزنجي ، وروم وروومي ، وقيل : النصارى جمع نصرى كمهرى ومهارى حذفت إحدى ياءيه وقلبت الكسرة فتحة للتخفيف فقلبت الياء ألفاً وإلى ذلك ذهب الخليل ، وهو اسم لأصحاب عيسى عليه السلام ، وسموا بذلك لأنهم نصروه ، أو لنصر بعضهم لبعض ، وقيل : إن عيسى عليه السلام ولد في بيت لحم بالقدس ثم سارت به أمه إلى مصر ولما بلغ اثني عشر سنة عادت به إلى الشام وأقامت بقرية ناصرة ، وقيل : نصرايا ، وقيل : نصرى ، وقيل : نصرانة ، وقيل : نصران وعليه الجوهري فسمي من معه باسمها ، أو أخذ لهم اسم منها

(والصابئين) هم قوم مدار مذاهبهم على التعصب للروحانيين واتخاذهم وسائط ولما لم يتيسر لهم التقرب إليها بأعيانها والتلقي منها بذواتها فزعت جماعة منهم إلى هياكلها ،

فصابئة الروم مفزعها السيارات ، وصابئة الهند مفزعها الثوابت ، وجماعة نزلوا عن الهياكل إلى الأشخاص التي لا تسمع ولا تبصر ولا تغني عن أحد شيئاً .

فالفرقة الأولى : هم عبدة الكواكب ، والثانية : هم عبدة الأصنام وكل من هاتين الفرقتين أصناف شتى مختلفون في الاعتقادات والتعبدات ، والإمام أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه يقول : إنهم ليسوا بعبدة أوثان وإنما يعظمون النجوم كما تعظم الكعبة ، وقيل : هم قوم موحدون يعتقدون تأثير النجوم ويقرون ببعض الأنبياء كيحيى عليه السلام ، وقيل : إنهم يقرون بالله تعالى ويقرءون الزبور ويعبدون الملائكة ويصلون إلى الكعبة ، وقيل : إلى مهب الجنوب ، وقد أخذوا من كل دين شيئاً ، وفي جواز مناكحتهم وأكل ذبائحهم كلام للفقهاء يطلب في محله ، واختلف في اللفظ فقيل غير عربي ، وقيل عربي من صبأ بالهمز إذا خرج أو من صبا معتلاً بمعنى مال لخروجهم عن الدين الحق وميلهم إلى الباطل ، وقرأ نافع وحده بالياء وذلك إما على الأصل أو الإبدال للتخفيف .

(208/53)

﴿ مَنْ ءامَنَ بالله الآخر وعَمِلَ صالحا ﴾ أي أحدث من هذه الطوائف إيماناً بالله تعالى وصفاته وأفعاله والنبوات ، وبالنشأة الثانية على الوجه اللائق ، وأتى بعمل صالح حسبما

يقتضيه الإيمان بما ذكر ، وهذا مبني على أول الأقوال ، والقائلون بآخرها منهم من فسر الآية بمن اتصف من أولئك بالإيمان الخالص بالمبدأ والمعاد على الإطلاق سواء كان ذلك بطريق الثبات ، والدوام عليه كإيمان المخلصين ، أو بطريق إحداثه ، وإنشائه كإيمان من عداهم من المنافقين ، وسائر الطوائف ، وفائدة التعميم للمخلصين مزيد ترغيب الباقين في الإيمان ببيان أن تأخرهم في الاتصاف به غير مخل بكونهم أسوة لأولئك الأقدمين ، ومنهم من فسرها بمن كان منهم في دينه قبل أن ينسخ مصدقاً بقلبه بالمبدأ والمعاد عاملاً بمقتضى شرعه ، فيعم الحكم المخلصين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، والمنافقين الذين تابوا ، واليهود والنصارى الذين ماتوا قبل التحريف والنسخ والصابئين الذين ماتوا زمن استقامة أمرهم إن قيل : إن لهم ديناً ، وكذا يعم اليهود والصابئين الذين آمنوا بعيسى عليه السلام وماتوا في زمنه ، وكذا من آمن من هؤلاء الفرق بمحمد صلى الله عليه وسلم .

(209/53)

وفائدة ذكر (الذين آمنوا) على هذا مع أن الوعيد السابق كان في اليهود لتسكين حمية اليهود بتسوية المؤمنين بهم في أن كون كل في دينه قبل النسخ : يوجب الأجر وبعده : يوجب الحرمان ، كما أن ذكر الصابئين للتنبيه على أنهم مع كونهم أبين المذكورين ضلالاً يتاب عليهم

إذا صح منهم الإيمان والعمل الصالح ، فغيرهم بالطريق الأولى وانفهام قبل النسخ من ﴿ وَعَمِلَ صالحا ﴾ إذ لا صلاح في العمل بعده ، وهذا هو الموافق لسبب النزول لا سيما على رواية أن سلمان رضي الله تعالى عنه ذكر للنبي صلى الله عليه وسلم حسن حال الرهبان الذين صحبهم ، فقال : " ماتوا وهم في النار " فأنزل الله تعالى هذه الآية ، فقال عليه الصلاة والسلام : " من مات على دين عيسى عليه السلام قبل أن يسمع بي فهو على خير ، ومن سمع ولم يؤمن بي فقد هلك "

والمناسب لعموم اللفظ وعدم صرفه إلى تخصيص الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى بالكفرة منهم وتخصيص ﴿ مَنْ ءامَنَ ﴾ الخ بالدخول في ملة الإسلام ، إلا أنه يرد عليه أنه مستلزم أن يكون للصائبين دين ، وقد ذكر غير واحد أنه ليس لهم دين تجوز رعايته في وقت من الأوقات ففي " الملل والنحل " أن الصبوة في مقابلة الحنيفية ، ولميل هؤلاء عن سنن الحق وزيغهم عن نهج الأنبياء قيل لهم : الصابئة ، ولو سلم أنه كان لهم دين سماوي ثم خرجوا عنه ، فمن مضى من أهل ذلك الدين قبل خروجهم منه ليسوا من الصابئين فكيف يمكن إرجاع الضمير الرابط بين اسم (إن) وخبرها إليهم على القول المشهور وارتكاب إرجاعه إلى المجموع من حيث هو مجموع قصداً إلى إدراج الفريق المذكور فيهم ضرورة أن من كان من أهل الكتاب عاملاً بمقتضى شرعه قبل نسخه من مجموع أولئك الطوائف بحكم اشتماله

على اليهود والنصارى وإن لم يكن من الصابئين مما يجب تنزيه ساحة التنزيل عنه ؟! على أن فيه بعد ما لا يخفى فتدبر .

(210/53)

و(من) مبتدأ ، وجوّزوا فيها أن تكون موصولة والخبر جملة قوله تعالى : ﴿ فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ ودخلت الفاء لتضمن المبتدأ معنى الشرط كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين فَتَنُواْ ﴾ [البروج : 10] الآية ، وأن تكون شرطية وفي خبرها خلاف هل الشرط ، أو الجزاء ، أو هما ؟ وجملة ﴿ مَنْ ءامَنَ ﴾ الخ خبر ﴿ إن ﴾ فإن كانت ﴿ مِنْ ﴾ موصولة وهو الشائع هنا احتيج إلى تقدير منهم عائداً ، وإن كانت شرطية لم يحتج إلى تقديره إذ العموم يغني عنه كأنه قيل : هؤلاء وغيرهم إذا آمنوا ﴿ فَلَهُمْ ﴾ الخ على ما قالوا في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً ﴾ [الكهف : 30] وجوّز بعضهم أن تكون ﴿ مِنْ ﴾ بدلاً من اسم ﴿ إن ﴾ وخبرها ﴿ فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ ﴾ واختار أبو حيان أنها بدل من المعاطيف التي بعد اسم ﴿ إن ﴾ فيصح إذ ذاك المعنى ، وكأنه قيل : إن الذين آمنوا من غير الأصناف الثلاثة ، ومن آمن من الأصناف الثلاثة (فلهم) الخ .

وقد حملت الضمائر الثلاثة باعتبار معنى الموصول ، كما أن إفراد ما في الصلة باعتبار لفظه ، وفي " البحر " إن هذين الحملين لا يتمان إلا بإعراب ﴿ مِنْ ﴾ مبتدأ ، وأما على إعرابها بدلاً فليس فيها إلا حمل على اللفظ فقط فافهم .

ثم المراد من الأجر الثواب الذي وعدوه على الإيمان والعمل الصالح ، فإضافته إليهم واختصاصه بهم بمجرد الوعد لا بالاستيجاب كما زعمه الزمخشري رعاية للاعتزال لكن تسميته أجراً لعدم التخلف ، ويؤيد ذلك . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 280.278 ﴾

فائدة

قال القرطبى :

لا خلاف في أن اليهود والنصارى أهل كتاب ولأجل كتابهم جاز نكاحُ نسائهم وأكلُ طعامهم على ما يأتي بيانه في المائدة وضَرْبُ الجِزْية عليهم ؛ على ما يأتي في سورة " براءة" إن شاء الله .

واختلف في الصابئين ؛ فقال السُّدّي : هم فرقة من أهل الكتاب ، وقاله إسحاق بن رَاهَوَيْه .

قال ابن المنذر وقال إسحاق : لا بأس بذبائح الصابئين لأنهم طائفة من أهل الكتاب .

وقال أبو حنيفة : لا بأس بذبائحهم ومناكحة نسائهم .

وقال الخليل : هم قوم يُشْبه دينُهم دين النصارى ، إلا أن قبلتهم نحو مهبّ الجنوب ؛ يزعمون أنهم على دين نوح عليه السلام .

وقال مجاهد والحسن وابن أبي نَجِيح : هم قوم تركّب دينهم بين اليهودية والمجوسيّة ، لا تؤكل ذبائحهم .

ابن عباس : ولا تنكح نساؤهم .

وقال الحسن أيضاً وقتادة : هم قوم يعبدون الملائكة ويصلّون إلى القِبلة ويقرأون الزّبور ويصلّون الخمس ؛ رآهم زياد بن أبي سفيان فأراد وضع الجزية عنهم حين عرف أنهم يعبدون الملائكة .

والذي تحصّل من مذهبهم فيما ذكره بعض علمائنا أنهم مُوَحّدون معتقِدون تأثير النجوم وأنها فعالة ؛ لهذا أفتى أبو سعيد الإصْطَخْرِيّ القادرَ بالله بكفرهم حين سأله عنهم .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 1 صـ 434. 435 ﴾

فائدة

قال الفخر :

أما قوله تعالى : ﴿ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ فليس المراد العندية المكانية ، فإن ذلك محال في حق الله تعالى ولا الحفظ كالودائع بل المراد أن أجرهم متيقن جار مجرى الحاصل عند ربهم .

وأما قوله تعالى : ﴿ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ فقيل : أراد زوال الخوف والحزن عنهم في الدنيا ومنهم من قال في الآخرة في حال الثواب ، وهذا أصح لأن قوله : ﴿ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ عام في النفي ، وكذلك : ﴿ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ وهذه الصفة لا تحصل في الدنيا وخصوصاً في المكلفين لأنهم في كل وقت لا ينفكون من خوف وحزن ، إما في أسباب الدنيا وإما في أمور الآخرة ، فكأنه سبحانه وعدهم في الآخرة بالأجر ، ثم بين أن من صفة ذلك الأجر أن يكون خالياً عن الخوف والحزن ، وذلك يوجب أن يكون نعيمهم دائماً لأنهم لو جوزوا كونه منقطعاً لاعتراهم الحزن العظيم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 98 ﴾

(212/53)

سؤال : فإن قال قائل : إن الله تعالى ذكر هذه الآية في سورة المائدة هكذا : ﴿ إِنَّ الذين ءامَنُواْ والذين هَادُواْ والصابئون والنصارى مَنْ ءامَنَ بالله واليوم الآخر وعَمِلَ صالحا فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يحزنون ﴾ [المائدة : 69] وفي سورة الحج : ﴿ إِنَّ الذين ءامَنُواْ

والذين هَادُواْ والصابئين والنصارى والمجوس والذين أَشْرَكُواْ إِنَّ اللهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ القيامة إِنَّ الله على كل شيء شهيد ﴾ [الحج : 17] فهل في اختلاف هذه الآيات بتقديم الصنوف وتأخيرها ورفع " الصابئين" في آية ونصبها في أخرى فائدة تقتضي ذلك ؟

والجواب : لما كان المتكلم أحكم الحاكمين فلا بد لهذه التغييرات من حكم وفوائد ، فإن أدركنا تلك الحكم فقد فزنا بالكمال وإن عجزنا أحلنا القصور على عقولنا لا على كلام الحكيم ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 98 ﴾

فائدة

قال القرطبى :

رُوِيَ عن ابن عباس أن قوله : ﴿ إِنَّ الذين آمَنُواْ والذين هَادُواْ ﴾ الآية .

منسوخ بقوله تعالى : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإسلام دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ [آل عمران : 85] الآية .

وقال غيره : ليست بمنسوخة .

وهي فيمن ثبت على إيمانه من المؤمنين بالنبيّ عليه السلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 1 صـ 436 ﴾

تنبيه

قال في التسهيل :

[والصابئون] قراءة السبعة بالواو وهي مشكلة حتى قالت عائشة رضي الله عنها – هي لحن من كتاب المصحف (1) . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التسهيل حـ 1 صـ 183 ﴾

(1) معاذ الله – أن يصدر هذا القول عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها – ولكن هذه الرواية موضوعة ومختلقة من الزنادقة ، وهي تتعارض مع التكفل بالحفظ الذي وعد الله به في قوله " إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون " وكان من الواجب على الإمام ابن جزي أن يرد على هذه الفرية – وسيأتي إن شاء الله تعالى رد شاف وكاف عن أمثال هذه الافتراءات عند الكلام في قوله تعالى " والمقيمين الصلاة " ﴿ النساء : 162 ﴾ .

(214/53)

فصل

قال السيوطى :

أخرج ابن أبي عمر العدني في سنده وابن أبي حاتم عن سلمان قال : سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن أهل دين كنت معهم ، فذكر من صلاتهم وعبادتهم ، فنزلت ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا . . . ﴾ الآية .

وأخرج الواحدي عن مجاهد قال : لما قص سلمان على رسول الله صلى الله عليه وسلم قصة أصحابه قال : هم في النار . قال سلمان : فأظلمت علي الأرض ، فنزلت ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا ﴾ إلى قوله ﴿ يحزنون ﴾ قال : فكأنما كشف عني جبل .

وأخرج ابن جرير واللفظ له وابن أبي حاتم عن السدي في قوله ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا . . . ﴾ الآية . قال : نزلت هذه الآية في أصحاب سلمان الفارسي ، وكان سلمان رجلاً من جند نيسابور ، وكان من أشرافهم ، وكان ابن الملك صديقا له مؤاخياً لا يقضي واحد منهما أمر دون صاحبه ، وكانا يركبان إلى الصيد جميعاً ، فبينما هما في الصيد إذ رفع لهما بيت من عباءة ، فأتياه فإذا هما فيه برجل بين يديه مصحف يقرأ فيه وهو يبكي فسألاه ما هذا ؟ فقال : الذي يريد أن يعلم هذا لا يقف موقفكما ، فإن كنتما تريدان أن تعلما ما فيه فانزلا حتى أعلمكما ، فنزلا إليه فقال لهما : هذا كتاب جاء من عند الله ، أمر فيه بطاعته ونهى عن معصيته ، فيه أن لا تسرق ولا تزني ولا تأخذ أموال الناس بالباطل ، فقص عليهما ما فيه وهو الإنجيل الذي أنزل الله على عيسى ، فوقع في قلوبهما وتابا فاسلما ، وقال لهما : إن ذبيحة قومكما عليكما حرام .

فلم يزالا معه وكذلك يتعلمان منه حتى كان عيد للملك ، فجمع طعاماً ثم جمع الناس والأشراف ، وأرسل إلى ابن الملك رسولاً فدعاه إلى ضيعته ليأكل مع الناس ، فأبى الفتى وقال : إني عنك مشغول فكل أنت وأصحابك ، فلما أكثر عليه من الرسل أخبرهم أنه لا يأكل من طعامهم ، فبعث الملك إلى ابنه ودعاه وقال : ما أمرك هذا ؟ قال : إنا لا نأكل من ذبائحكم ، إنكم كفار ليس تحل ذبائحكم . فقال له الملك : من أمرك بهذا ؟ فأخبره أن الراهب أمره بذلك ، فدعا الراهب فقال : ماذا يقول ابني ؟ قال : صدق ابنك . قال له : لولا الدم فينا عظيم لقتلتك ولكن أخرج من أرضنا ، فأجله أجلاً فقال سلمان : فقمنا نبكي عليه .

فقال لهما : إن كنتما صادقين فإنا في بيعة في الموصل ، ستين رجلا نعبد الله فأتونا فيها ، فخرج الراهب وبقي سلمان وابن الملك ، فجعل سلمان يقول لابن الملك : انطلق بنا . وابن الملك يقول : نعم . وجعل ابن الملك يبيع متاعه يريد الجهاز ، فلما أبطأ على سلمان خرج سلمان حتى أتاهم ، فنزل على صاحبه وهو رب البيعة ، فكان أهل تلك البيعة أفضل مرتبة من الرهبان ، فكان سلمان معه يجتهد في العبادة ويتعب نفسه ، فقال له سلمان :

أرأيت الذي تأمرني به هو أفضل أو الذي أصنع ؟ قال : بل الذي تصنع .

قال : فخلّ عني .

ثم إن صاحب البيعة دعاه فقال أتعلم أن هذه البيعة لي وأنا أحق الناس بها ، ولو شئت أن أخرج منها هؤلاء لفعلت ولكني رجل أضعف عن عبادة هؤلاء ، وأنا أريد أن أتحول من هذه البيعة إلى بيعة أخرى هم أهون عبادة من ههنا ، فإن شئت أن تقيم هنا فأقم وإن شئت أن تنطلق معي فانطلق . فقال له سلمان : أي البيعتين أفضل أهلاً ؟ قال : هذه .

قال سلمان : فأنا أكون في هذه فأقام سلمان بها وأوصى صاحب البيعة بسلمان يتعبد معهم .

(216/53)

ثم إن الشيخ العالم أراد أن يأتي بيت المقدس فدعا سلمان فقال : إني أريد أن آتي بيت المقدس ، فإن شئت أن تنطلق معي فانطلق ، وإن شئت أن تقيم فاقم . قال له سلمان : أيهما أفضل ، أنطلق معك أو أقيم ؟ قال : لا بل تنطلق . فانطلق معه فمروا بمقعد على ظهر الطريق ملقى ، فلما رآهما نادى يا سيد الرهبان ارحمني رحمك الله ، فلم يكلمه ولم ينظر إليه ، وانطلقا حتى أتيا بيت المقدس ، وقال الشيخ لسلمان : أخرج فاطلب العلم ، فإنه يحضر

هذا المسجد علماء الأرض . فخرج سلمان يسمع منهم ، فرجع يوماً حزيناً فقال له الشيخ ما لك يا سلمان قال : إن الخير كله قد ذهب به من كان قبلنا من الأنبياء والأتباع . فقال له الشيخ : لا تحزن فإنه قد بقي نبي ليس من نبي بأفضل تبعاً منه ، وهذا الزمان الذي يخرج فيه ولا أراني أدركه ، وأما أنت فشاب فلعلك أن تدركه ، وهو يخرج في أرض العرب فإن أدركته فآمن به واتبعه .

قال له سلمان : فأخبرني عن علامته بشيء . قال : نعم ، وهو مختوم في ظهره بخاتم النبوة وهو يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة ، ثم رجعا حتى بلغا مكان المقعد فناداهما فقال : يا سيد الرهبان ارحمني رحمك الله فعطف إليه حماره فأخذ بيده فرفعه فضرب به الأرض ودعا له ، وقال : قم بإذن الله . فقام صحيحاً يشتد . فجعل سلمان يتعجب وهو ينظر إليه ، وسار الراهب فغيب عن سلمان ولا يعلم سلمان .

(217/53)

ثم إن سلمان فزع بطلب الراهب ، فلقيه رجلان من العرب من كلب ، فسألهما هل رأيتما الراهب ؟ فأناخ أحدهما راحلته قال : نعم [ ] راعي الصرمة هذا ، فحمله فانطلق به إلى المدينة قال سلمان : فأصابني من الحزن شيء لم يصبني مثله قط ، فاشترته امرأة من جهينة

فكان يرعى عليها هو وغلام لها يتراوحان الغنم ، هذا يوماً وهذا يوماً ، وكان سلمان يجمع الدراهم ينتظر خروج محمد صلى الله عليه وسلم . فبينما هو يوماً يرعى إذ أتاه صاحبه بعقبة فقال له : أشعرت أنه قد قدم المدينة اليوم رجل يزعم أنه نبي ؟ ! فقال له سلمان : أقم في الغنم حتى آتيك .

فهبط سلمان إلى المدينة فنظر إلى النبي صلى الله عليه وسلم ودار حوله ، فلما رآه النبي صلى الله عليه وسلم عرف ما يريد ، فأرسل ثوبه حتى خرج خاتمه ، فلما رآه أتاه وكلمه ، ثم انطلق فاشترى بدينار ببعضه شاة فشواها وببعضه خبزاً ، ثم أتاه به فقال : ما هذه ؟ قال سلمان : هذه صدقة . قال : لا حاجة لي بها فأخرجها فليأكلها المسلمون . ثم انطلق فاشترى بدينار آخر خبزاً ولحماً ، ثم أتى به النبي صلى الله عليه وسلم فقال : ما هذا ؟ قال : هذه هدية . قال : فاقعد فكل . فقعد فأكلا منها جميعا .

فبينما هو يحدثه إذ ذكر أصحابه فأخبره خبرهم ، فقال : كانوا يصلون ويصومون ويؤمنون بك ، ويشهدون أنك ستبعث نبياً ، فلما فرغ سلمان من ثنائه عليهم قال له نبي الله صلى الله عليه وسلم : " يا سلمان هم من أهل النار " فاشتد ذلك على سلمان وقد كان قال له سلمان : لو أدركوك صدقوك واتبعوك . فأنزل الله هذه الآية ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر ﴾ .

(218/53)

وأخرج ابن جرير عن مجاهد قال " سأل سلمان الفارسي النبي صلى الله عليه وسلم عن أولئك النصارى ، وما رأى من أعمالهم ، قال : لم يموتوا على الإسلام . قال سلمان : فأظلمت عليَّ الأرض وذكرت اجتهادهم ، فنزلت هذه الآية ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا ﴾ فدعا سلمان فقال : نزلت هذه الآية في أصحابك ، ثم قال : من مات على دين عيسى قبل أن يسمع بي فهو على خير ، ومن سمع بي ولم يؤمن فقد هلك " .

وأخرج أبو داود في الناسخ والمنسوخ وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا . . . ﴾ الآية . قال : فأنزل الله بعد هذا ﴿ ومن يبتغ غير الإِسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق عبد الله بن نجي عن علي قال : إنما سميت اليهود لأنهم قالوا : إنا هدنا إليك .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عبد الله بن مسعود قال : نحن أعلم الناس من أين تسمت اليهود باليهودية ، بكلمة موسى عليه السلام إنا هدنا إليك ، ولم تسمت النصارى بالنصرانية ، من كلمة عيسى عليه السلام كونوا أنصار الله .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن مسعود قال : نحن أعلم الناس من أين تسمت اليهود باليهودية ، والنصارى بالنصرانية ، إنما تسمت اليهود باليهودية بكلمة قالها موسى إنا هدنا إليك ، فلما

مات قالوا هذه الكلمة كانت تعجبه فتسموا اليهود ، وإنما تسمت النصارى بالنصرانية لكلمة قالها عيسى من أنصاري إلى الله ؟ قال الحواريون : نحن أنصار الله فتسموا بالنصرانية .

وأخرج ابن جرير عن قتادة قال : إنما سموا نصارى بقرية يقال لها ناصرة ينزلها عيسى بن مريم ، فهو اسم تسموا به ولم يؤمروا به .

وأخرج ابن سعد في طبقاته وابن جرير عن ابن عباس قال : إنما سميت النصارى لأن قرية عيسى كانت تسمى ناصرة .

وأخرج وكيع وعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد قال : الصابئون قوم بين اليهود والمجوس والنصارى ليس لهم دين .

(219/53)

وأخرج ابن المنذر عن مجاهد قال : الصابئون ليسوا بيهود ولا نصارى ، هم قوم من المشركين لا كتاب لهم .

وأخرج عبد الرزاق عن مجاهد قال : سئل ابن عباس عن الصابئين ؟ فقال : هم قوم بين اليهود والنصارى والمجوس ، لا تحل ذبائحهم ولا مناكحهم .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال : الصابئون منزله بين النصرانية والمجوسية . لفظ ابن أبي حاتم : منزلة بين اليهود والنصارى .

وأخرج عبد بن حميد عن سعيد بن جبير قال : ذهبت الصابئون إلى اليهود فقالوا : ما أمركم ؟ قالوا : نبينا موسى جاءنا بكذا وكذا ونهانا عن كذا وكذا ، وهذه التوراة فمن تابعنا دخل الجنة ، ثم أتوا النصارى فقالوا في عيسى ما قالت اليهود في موسى ، وقالوا هذا الإنجيل فمن تابعنا دخل الجنة ، فقالت الصابئون هؤلاء يقولون نحن ومن اتبعنا في الجنة ، واليهود يقولون نحن ومن اتبعنا في الجنة ، فنحن به لا ندين ، فسماهم الله الصابئين .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي العالية قال : الصابئون فرقة من أهل الكتاب يقرأون الزبور .

وأخرج وكيع عن السدي قال : الصابئون من أهل الكتاب .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة قال : الصابئون قوم يعبدون الملائكة ، ويصلون إلى غير القبلة ، ويقرأون الزبور .

وأخرج ابن أبي حاتم عن وهب بن منبه قال : الصابىء : الذي يعرف الله وحده ، وليست له شريعة يعمل بها ولم يحدث كفراً .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي الزناد قال : الصابئون قوم مما يلي العراق ، وهم بكوثى يؤمنون بالنبيين كلهم .

وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس قال : يقولون الصابئون : وما الصابئون الصابئون ويقولون : الخاطئون وما الخاطئون الخاطئون . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 1 صـ 183.179 ﴾

(220/53)

فائدة

قال فى روح البيان

اعلم أن هذا الدين الحق حسنه موجود في النفوس وإنما يعدل عنه لآفة من الآفات البشرية والتقليد فكل مولود إنما يولد في مبدأ الخلقة وأصل الجبلة على الفطرة السليمة والطبع المتهيىء لقبول الدين فلو ترك عليها استمر على لزومها ولم يفارقها إلى غيرها كما قال عليه السلام : " ما من مولود إلا وقد يولد على فطرة الإسلام ثم أبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه" قال ابن الملك في " شرح المشارق" : المراد بالفطرة قولهم بلى حين قال الله تعالى : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ (الأعراف : 172) فلا مخالفة بين هذا الحديث وبين قوله عليه السلام : " إن الغلام الذي قتله الخضر طبع كافراً" والتحقيق إن الله تعالى لما أخرج ذرية آدم من ظهره وقال : ألست بربكم آمنوا كلهم لمشاهدتهم الحق بالمعاينة لكن لم ينفع إيمان الأشقياء لكونهم لم

يؤمنوا من قبل فاختلط السعيد والشقي ولم يفرق بينهما في هذا العالم ثم إنهم إذ أنزلوا في بطون الأمهات تميز السعيد من الشقي لأن الكاتب لا ينظر إلى عالم الإقرار بل ينظر إلى ما في علم الله تعالى من أحوال الممكن من السعادة والشقاوة وغيرهما وإذا ولدوا يولدون على فطرة الإسلام وهي فطرة بلى فههنا أربعة مقامات :

الأول : علم الله وهو البطن المعنوي ويقال له في اصطلاح الصوفية بطن الأم وأم الكتاب .

والثاني : مقام بلى ويقال له مولود معنوي .

والثالث : بطن الأم الصوري .

والرابع : مولود صوري وهو صورة المولود المعنوي لذلك لا يتميز السعيد من الشقي فيه كما لا يتميز في عالم ألست والبطن الصوري صورة علم الله لذلك يتميز السعيد من الشقي فيها فظهر لك معنى حديث النبي عليه السلام : " السعيد سعيد في بطن أمه والشقي شقي في بطن أمه" ومعنى الخبر الآخر " السعيد قد يشقى والشقي قد يسعد " ومعنى الحديث "كل مولود يولد على فطرة الإسلام" كذا حققه الشيخ بالي الصوفيوي قدس سره . انتهى انتهى .

اهـ ﴿روح البيان حـ 1 صـ 197﴾

فائدة

قال السمرقندى :

ولم يذكر في الآية الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم ، لأنه لما ذكر الإيمان بالله تعالى فقد دخل فيه الإيمان بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم ، لأنه لا يكون مؤمناً بالله تعالى ما لم يؤمن بجميع ما أنزل الله تعالى على محمد وعلى جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فكأنه قال : من آمن بالله وبما أنزل على جميع أنبيائه وصدق باليوم الآخر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ 86 ﴾

(222/53)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : " إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون " وقال فى المائدة : " إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون " وفى سورة الحج : " إن الذين آمنوا والذين هادوا

والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شئ شهيد " .

فيها أربع سؤالات : تقديم النصارى فى سورة البقرة وتأخيرهم فى المائدة وتخصيص آية البقرة بقوله تعالى : " فلهم أجرهم عند ربهم " ورفع " الصابئون " فى المائدة ولم يتبع وانفراد سورة الحج بسياقها وزيادة ذكر المجوس والذين أشركوا .

(223/53)

فأقول وأسأل الله توفيقه : إن المؤمنين أحق بالتقديم وهم أهل الخطاب والمتكلم معهم فى الآى قبل ، فهم من حيث أحوالهم معظم من قصد بالخطاب والتأنيس ثم إن أهل الكتابين يلون المؤمنين فإنهم ليسوا كافرين بكل الرسل ولا منكرين بكل الرسل ولا منكرين لكل ما أنزل من الكتب فقد كانوا أقرب شئ لولا التبديل والتغيير والتحريف المقدر وقوعه عليهم ، فإنهم قد قدم إليهم فنكثوا ونقضوا وكفروا بمن قدم إليهم من أمره ، واليهود أقدم تعريفا وأسبق زمانا فلما اجتمع الأصناف الثلاثة فى أنهم أهل الكتاب والمقرون بالبداءة والعودة وإرسال الرسل على اختلاف حالاتهم فى ذلك وأزمانهم كان تقديمهم على غيرهم أوضح شئ على الوارد فى سورة البقرة إلا أن ذكرهم لم يقع بحرف مرتب بل وقع الاكتفاء بترتيب

الذكر لاستوائهم فى الغايات من استواء العواقب وإن الفائز من الكل إنما هو من كانت خاتمته فى دار التكليف الموافاة على الإيمان والإسلام وإن أكرمكم عند الله أتقاكم وإن الموافى فى الكل على المفر والكفر فى النار ثم عذابهم بحسب جرائمهم جزاء وفاقا فرتبوا ذكرا بحسب حالهم الدنياوى ولم يتقعد الترتيب بالحرف المرتب لحظا لحالهم الاخراوى فجرى ذكرهم فى سورة البقرة على هذا وأخر ذكر الصابئين لتأخرهم عن هؤلاء الأصناف فى أنهم ليسوا من أهل الكتاب أو ليسوا مثلهم فى ما وراء ما ذكر من أحوالهم فإيراد ذكرهم على ما في سورة البقرة بين ، ثم قدم ذكر الصابئين فى سورة المائدة وزيادة بيان للغرض المذكور من أنه لا ترتيب فى الغاية الأخراوية إلا بنظر آخر لا بحسب الدنياوى والاشتراك فيما قبل الموافاة بل المستجيب المؤمن من الكل مخلص والمكذب متورط ثم مراتب الجزاء بحسب الأعمال فأوضح تقديم ذكر الصابئين فى سورة المائدة ما ذكرناه فإن قلت لم لم يقدم ذكرهم على الكل ؟ قلت : لا وجه لهذا لمكانة المؤمنين وشرفهم فإن قلت فهلا قدموا على يهود قلت : قد كانت يهود أولى الناس بأن يكونوا فى

رعيل من المستجيبين ومعهم جرى الكلام قبل هذا نعيا عليهم وبيانا لمرتكباهم ولعظيم ما جرى على من لم يؤمن منهم وترددت فيهم عدة آيات وذلك مما يوجب تقديم ذكرهم على من عدا المؤمنين .

فإن قلت فالنصارى مثلهم : قلت النصارى أقرب إلى الصابئين من حيث التثليث وسوء نظرهم فى ذلك وتصورهم ثم إنهم لم يجر لهم ذكر فيما تقدم هذه الآية بخلاف يهود فبان من هذه الجهة تقديم يهود عليهم وإن كان يهود شر الطائفتين .

السؤال الثانى : وهو ورود اسم الصابئين فى المائدة بالرفع والجواب عنه أنه لما ورد مرفوعا تنبيها على الغرض المذكور وتأكيدا للتسوية فى الحكم وإذا اتفقوا فى الموافاة على الإيمان فنبه التقديم على هذا كما تقدم وزاد القطع على الرفع تأكيدا لأن قطع اللفظ عن الجريان على ما قبله محرك للفظ توجيهه عند سيبويه رحمه الله مقدم من تأخير وكأنه لما ذكر حكم المذكورين سواهم قيل والصابئون كذلك أى لا فرق بين الكل فى الحكم الأخراوى وهو على هذا التقدير أوضح شئ فيما ذكر ، وأما على طريقة الفراء ومن قال بقوله من حمله على الموضع ففيه التقديم وأن التحريك القطعى فى اللفظ وإن لم يكن مقطوعا فى المنعنى لا يكون إلا لإحراز معنى وليس إلا ما تقدم .

والجواب عن السؤال الثالث : إن قوله تعالى فى سورة البقرة : " فلهم أجرهم " قد تقدم فى المائدة ما يعطيه ويحرزه فاكتفى به ألا ترى أن قوله تعالى : " ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا

لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم " تفسير بين للأجر الاخراوى المجمل فى قوله تعالى فى سورة البقرة : " فلهم أجرهم عند ربهم " إلى آخر الآية فقد حصل ما فى سورة المائدة مفصلا مبينا ما ورد فى البقرة مجملا فلو قيل فى آية المائدة فلهم أجرهم لكان تكرارا ورجوعا إلى الإجمال بعد التفصيل وذلك عكس ما ينبغى .

(225/53)

والجواب عن السؤال الرابع : أن آية سورة الحج إنما وردت معرفة بمن ورد فى القيامة على ما كان من يهودية أو نصرانية أو غير ذلك والآي الآخر فيمن ورد مؤمنا فافترق القصدان واختلف مساق الآى بحسب ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 43.45 ﴾

وقال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

قوله ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ ﴾ وقال فى الحج ﴿ وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى ﴾ وقال فى المائدة ﴿ وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى ﴾ لأَنَّ النصَّارى مقدَّمون على الصَّابئين فى الرُّتْبة ؛ لأَنهم أَهل الكتاب ؛ فقدَّمهم فى البقرة ؛ والصَّابئون مقدَّمون على النصارى فى الزمان ؛ لأَنهم كانوا قبلهم فقدَّمهم ف الحج ، وراعى فى المائدة المعنيين ؛ فقدَّمهم فى اللفظ ، وأَخرهم فى التقدير ؛ لأَن تقديره : والصّابئون كذلك ؛ قال الشاعر :

* فمن كان أَمسى بالمدينة رَحْلُه * فإِنى وقيَّارٌ بها لغرِيب *

أَراد : إِنى لغريب بها وقيَّارٌ كذلك .

فتأَمّل فيها وفى أَمثالها يظهر لك إِعجاز القرآن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 144. 145 ﴾

(226/53)

وقال الخطيب الإسكافي – رحمه الله – ما نصه :

قوله تعالى : [إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم] وقال في سورة المائدة : [إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم] (المائدة : 69) . وقال في سورة الحج : [إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة] (الحج : 17) .

للسائل أن يسأل فيقول : هل في اختلاف هذه الآيات بتقديم الفرق وتأخيرها ورفع الصابئين في آية ونصبها في أخرى غرض يقتضي ذلك ؟

(227/53)

الجواب أن يقال : إذا أورد الحكيم تقدست أسماؤه آية على لفظة مخصوصة, ثم أعادها في موضع آخر من القرآن, وقد غير فيها لفظة كما كانت عليه في الأولى فلا بد من حكمة هناك تطلب, فإذا أدركتموها فقد ظفرتم , وإن لم تدركوها ؟ فليس لأنه لا حكمة هناك بل جهلتم . فأما الآية الأولى في هذه السورة, فإن فيها مسائل ليست هذا المكان مكانها , لأنه يقال : كيف قال الله تعالى : [إن الذين آمنوا] [من آمن بالله واليوم الآخر] أي : من آمن منهم بالله واليوم الآخر, إلا أن الذي نذكره في هذا المكان هو أن المعنى : إن الذين أمنوا بكتب الله المتقدمة مثل صحف إبراهيم, والذين آمنوا بما نطقت به التوراة وهم اليهود , والذين آمنوا بما أتى به الإنجيل وهم النصارى, فهذا ترتيب على حسب ما ترتب تنزيل الله كتبه, فصحف إبراهيم – عليه السلام – قبل التوراة المنزلة على موسى – عليه السلام – والتوراة قبل الإنجيل المنزل على عيسى – عليه السلام – فرتبهم – عز وجل – في هذه الآية على ما رتبهم عليه في بعثة الرسالة, ثم أتى بذكر " الصابئين" وهم الذين لا يثبتون على دين, وينتقلون من ملة إلى ملة, ولا كتاب لهم, كما للطائفتين اللتين ذكرهما الله تعالى في قوله : [أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا] (الأنعام : 156) , فوجب أن يكونوا متأخرين عن أهل الكتاب, وأما بعد هذا الترتيب فترتيبهم في سورة المائدة وتقديم الصابئين على النصارى ورفعه هنا ونصبه هناك ترتيب ثان, فالأول على ترتيب الكتب, والثاني

على ترتيب الأزمنة, لأن الصابئين وإن كانوا متأخرين عن النصارى بأنهم لا كتاب لهم, فإنهم متقدمون عليهم بكونهم قبلهم, لأنهم كانوا قبل عيسى – عليه السلام – فرفع [الصابئون] ونوى به التأخير عن مكانه كأنه قال بعد ما أتى بخبر [إن الذين آمنوا والذين هادوا] [من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون] والصابئون هذا حالهم أيضاً, وهذا

(228/53)

مذهب سيبويه,

لأنه لا يجوز عنده, ولا عند البصريين وكثير من الكوفيين : إن زيداً وعمر وقائمان, والفراء يجيز هذا على شريطة أن يكون الاسم الأول المنصوب بأن لا إعراب فيه, نحو : إن هذا وزيد قائمان, وهذه من كبار المسائل ذوات الشعب, ويتعلق بالخلاف بين البصريين والكوفيين في أن لها عملين النصب والرفع على مذهب البصريين, وأن لها عملاً واحداً عند الكوفيين وهو النصب, إلا أن المذهب الصحيح ما ذهب إليه سيبويه, وهذه الآية تدل عليه, لأنه قدم فيها الصابئون, والنية بها التأخير على مذهب سيبويه, وإنما قدم اللفظ وأخر في النية, لأن التقديم الحقيقي التقديم بكتبه المنزلة على أنبيائه – عليهم السلام –,

فلذا فعل ذلك في الآية الأولى, وكان ها هنا تقديم آخر بتقديم الزمان, وجاءت آية أخرى قدم فيها هذا الاسم على ما أخر عنه في الآية التي قبل, ثم أقيمت في لفظه أمارة تدل على تأخره عن مكانه كان ذلك دليلاً على أن هذا الترتيب بالأزمنة, وأن النية به التأخير والترتيب بالكتب المنزلة, وأما الترتيب الثالث في سورة الحج : فترتيب الأزمنة التي لا نية للتأخير معه, لأنه لم يقصد في هذا المكان أهل الكتب إذ كان أكثر من ذكر ممن لا كتب لهم وهم : الصابئون والمجوس والذين أشركوا عبدة الأوثان, فهذه ثلاث طوائف وأهل الكتاب طائفتان, فلما لم يكن القصد في الأغلب الأكثر من المذكورين ترتيبهم بالكتب رتبوا بالأزمنة, وأخر الذين أشركوا, لأنهم وإن تقدمت لهم أزمنة, وكانوا في عهد أكثر الأنبياء الذين تقدمت بعثتهم صلوات الله عليهم, فإنهم كانوا أكثر من مني رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بهم وصلى بجهادهم, وكأنهم لما كانوا موجودين في عصر النبي – صلى الله عليه وسلم – كانوا أهل زمانه, وهذا الزمان متأخر عن أزمنة الفرق الذين قدم ذكرهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ درة التنزيل صـ 15. 17 . ﴾

(229/53)

ومن فوائد ابن عرفة فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ مَنْ ءَامَنَ بالله واليوم الآخر . . . ﴾ .

بدل من ﴿ الذين ءَامَنُواْ ﴾ و (مَا) عطف عليه فجيء فيه استعمال اللفظ (الواحد) في حقيقته ومجازه ، لأن المؤمنين (حصّلوا) الإيمان ، فقوله : ﴿ مَنْ ءَامَنَ ﴾ مجاز في حقهم ، عبّر به المداومة على الإيمان (وإيمان اليهود والنصارى والصّابئين إن شاء فهو حقيقة . ويمكن أن يراد بالجميع المداومة على الإيمان) ، لأن النصارى إذا داموا على الإيمان بملة نبيهم يؤمنون (بمحمد) صلى الله عليه وسلم لأن (من) ملة نبيهم عليه السلام الإيمان بملة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وإن لم يؤمنوا به فلم يؤمنوا بملّتهم (قط) انتهى .

قوله تعالى : ﴿ وَعَمِلَ صَالِحاً . . . ﴾ .

قال (ابن عرفة) : أي فيمن لم (تخترمه) المنية .

قوله تعالى : ﴿ فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ . . . ﴾ .

هذا ثواب (تفضلى) سماه أجرا إشعارا بتأكده حتى كأنه واجب كأجرة الأجير على عمله .

قوله تعالى : ﴿ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ .

عبر عن الخوف بالاسم ، وعن الحزن بالفعل ، لأن الخوف يتعلق بالمستقبل ، والحزن

بالماضي ، وتذكر الإنسان للأمر المستقبل وتألمه منه وخوفه أشد من تألمه من الماضي يعرض له التناسي إذا بعد أمره ، والمستقبل يشتدّ (الخوف) منه متى قرب أمره ، ويتزايد أمره ويتأكد ثبوته في النفس ، ففي كل واحد منهما على ما هو عليه .

فإن قلت : هلا كان بالفعل لأنّه (يتجدد زيادة) ؟

قلنا : التجديد تأكيد لثبوت الخوف (في النفس) ، وليس هو (أمرا) مغايرا للأول . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عرفة صـ 312.311 ﴾

(230/53)

ومن فوائد ابن الجوزى فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ إن الذين آمنوا ﴾ فيهم خمسة أقوال .

أحدها : أنهم قوم كانوا مؤمنين بعيسى قبل أن يُبعث محمد صلى الله عليه وسلم ، قاله ابن عباس .

والثاني : أنهم الذين آمنوا بموسى ، وعملوا بشريعته إلى أن جاء عيسى ، فآمنوا به وعملوا بشريعته إلى أن جاء محمد .

وهذا قول السدي عن أشياخه .

والثالث : أنهم المنافقون ، قاله سفيان الثوري .

والرابع : أنهم الذين كانوا يطلبون الإسلام ، كقس بن ساعدة ، وبحيرا ، وورقة بن نوفل ، وسلمان .

والخامس : أنهم المؤمنون من هذه الأمة .

قوله تعالى : ﴿ والذين هادوا ﴾ قال الزجاج : أصل هادوا في اللغة : تابوا .

وروي عن ابن مسعود أن اليهود سموا بذلك ، لقول موسى : ﴿ هدنا إليك ﴾ ، والنصارى لقول عيسى : ﴿ من أنصاري إلى الله ﴾ .

وقيل : سموا النصارى لقرية ، نزلها المسيح ، اسمها : ناصرة ، وقيل : لتناصرهم .

فأما " الصابئون" فقرأ الجمهور بالهمز في جميع القرآن ، وكان نافع لا يهمز كل المواضع .

قال الزجاج : معنى الصابئين : الخارجون من دين إلى دين ، يقال : صبأ فلان : إذا خرج من دينه .

وصبأت النجوم : إذا طلعت [وصبأ نابُه : إذا خرج] .

وفي الصابئين سبعة أقوال .

أحدها : أنه صنف من النصارى ألين قولاً منهم ، وهم السائحون المحلَّقة أوساط رؤوسهم ، روي عن ابن عباس .

والثاني : أنهم قوم بين النصارى والمجوس ، ليس لهم دين ، قاله مجاهد .

والثالث : أنهم قوم بين اليهود والنصارى ، قاله سعيد بن جبير .

والرابع : قوم كالمجوس ، قاله الحسن والحكم .

والخامس : فرقة من أهل الكتاب يقرؤون الزبور ، قاله أبو العالية .

والسادس : قوم يصلون إلى القبلة ، ويعبدون الملائكة ، ويقرؤون الزبور ، قاله قتادة .

والسابع : قوم يقولون : لا إِله إلا الله ، فقط ، وليس لهم عمل ولا كتاب ولا نبي ، قاله ابن زيد .

قوله تعالى : ﴿ من آمن ﴾ في إعادة ذكر الإيمان ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه لما ذكر مع المؤمنين طوائف من الكفار رجع قوله : ﴿ من آمن ﴾ إليهم .

والثاني : أن المعنى من أقام على إيمانه .

والثالث : أن الإيمان الأول نطق المنافقين بالإسلام .

والثاني : اعتقاد القلوب .

قوله تعالى : ﴿ وعمل صالحاً ﴾

قال ابن عباس : أقام الفرائض .

فصل

وهل هذه الآية محكمة أم منسوخة ؟ فيه قولان .

أحدهما : أنها محكمة ، قاله مجاهد والضحاك في آخرين ، وقدروا فيها : إن الذين آمنوا ، ومن آمن من الذين هادوا .

والثاني : أنها منسوخة بقوله : ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يُقبل منه ﴾ ، ذكره جماعة من المفسرين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير حـ 1 صـ 92.91 ﴾

(231/53)

ومن فوائد الإمام ابن تيمية فى الآية الكريمة

قال رحمه الله :

هَذَا تَفْسِيرُ آيَاتٍ أُشْكِلَتْ حَتَّى لَا يُوجَدُ فِي طَائِفَةٍ مِنْ "كُتُبٍ فِي التَّفْسِيرِ" إلَّا مَا هُوَ خَطَأٌ فِيهَا .

مِنْهَا قَوْلُهُ : ﴿ إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا ﴾ الْآيَتَانِ ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ وَصَفَ أَهْلَ السَّعَادَةِ مِنْ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ وَهُوَ الَّذِي يَدُلُّ عَلَيْهِ اللَّفْظُ وَيُعْرَفُ بِهِ مَعْنَاهُ مِنْ غَيْرِ تَنَاقُضٍ وَمُنَاسِبَةٍ لِمَا قَبْلَهَا وَلِمَا بَعْدَهَا وَهُوَ الْمَعْرُوفُ عِنْدَ السَّلَفِ وَيَدُلُّ عَلَيْهِ مَا ذَكَرُوهُ مِنْ سَبَبِ نُزُولِهَا بِالْأَسَانِيدِ الثَّابِتَةِ عَنْ سُفْيَانَ عَنْ ابْنِ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ ﴿ قَالَ سَلْمَانُ : سَأَلْت النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ أَهْلِ دِينٍ كُنْت مَعَهُمْ فَذَكَرَ مِنْ عِبَادَتِهِمْ فَنَزَلَتْ الْآيَةُ ﴾ . وَلَمْ

يَذْكُرْ فِيهِ أَنَّهُمْ مِنْ أَهْلِ النَّارِ كَمَا رُوِيَ بِأَسَانِيدَ ضَعِيفَةٍ وَهَذَا هُوَ الصَّحِيحُ كَمَا فِي مُسْلِمٍ ﴿ إلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ . وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَكُنْ يُجِيبُ بِمَا لَا عِلْمَ عِنْدَهُ وَقَدْ

(232/53)

ثَبَتَ أَنَّهُ أَثْنَى عَلَى مَنْ مَاتَ فِي الْفَتْرَةِ كَزَيْدِ بْنِ عَمْرٍو وَغَيْرِهِ وَلَمْ يَذْكُرْ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ خِلَافًا عَنْ السَّلَفِ ؛ لَكِنْ ذُكِرَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا ﴾ الْآيَةَ وَمُرَادُهُ أَنَّ اللَّهَ يُبَيِّنُ أَنَّهُ لَا يَقْبَلُ إلَّا الْإِسْلَامَ مِنْ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ وَكَثِيرٌ مِنْ السَّلَفِ يُرِيدُ بِلَفْظِ النَّسْخِ رَفْعَ مَا يُظَنُّ أَنَّ الْآيَةَ دَالَّةٌ عَلَيْهِ ؛ فَإِنَّ مِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ مَنْ كَذَّبَ رَسُولًا وَاحِدًا فَهُوَ كَافِرٌ فَلَا يَتَنَاوَلُهُ قَوْلُهُ : ﴿ مَنْ آمَنَ بِاَللَّهِ ﴾ إلَخْ . وَظَنَّ بَعْضُ النَّاسِ : أَنَّ الْآيَةَ فِيمَنْ بُعِثَ إلَيْهِمْ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَاصَّةً فَغَلِطُوا ثُمَّ افْتَرَقُوا عَلَى أَقْوَالٍ مُتَنَاقِضَةٍ . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ مجموع الفتاوى حـ 14 صـ 69.68

(233/53)

ومن فوائد ابن كثير في الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (62) ﴾

لما بين [الله] تعالى حال من خالف أوامره وارتكب زواجره ، وتعدى في فعل ما لا إذن فيه وانتهك المحارم ، وما أحلّ بهم من النكال ، نبه تعالى على أن مَنْ أحسن من الأمم السالفة وأطاع ، فإن له جزاء الحسنى ، وكذلك الأمر إلى قيام الساعة ؛ كُلّ من اتبع الرسول النبي الأمي فله السعادة الأبدية ، ولا خوف عليهم فيما يستقبلونه ، ولا هُمْ يحزنون على ما يتركونه ويخلفونه ، كما قال تعالى : ﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [يونس : 62] وكما تقول الملائكة للمؤمنين عند الاحتضار في قوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنزلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت : 30] .

(234/53)

قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا ابن أبي عمر العَدني ، حدثنا سفيان ، عن ابن أبي نَجِيح ، عن مجاهد ، قال : قال سلمان : سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن أهل دين كنت معهم ، فذكرتُ من صلاتهم وعبادتهم ، فنزلت : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ إلى آخر الآية .

وقال السدي : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ الآية : نزلت في أصحاب سلمان الفارسي ، بينا هو يحدث النبي صلى الله عليه وسلم إذْ ذكر أصحابه ، فأخبره خبرهم ، فقال : كانوا يصومون ويصلون ويؤمنون بك ، ويشهدون أنك ستبعث نبيًا ، فلما فرغ سلمان من ثنائه عليهم ، قال له نبي الله صلى الله عليه وسلم : " يا سلمان ، هم من أهل النار " . فاشتد ذلك على سلمان ، فأنزل الله هذه الآية ، فكان إيمان اليهود : أنه من تمسك بالتوراة وسنة موسى ، عليه السلام ؛ حتى جاء عيسى . فلما جاء عيسى كان من تمسك بالتوراة وأخذ بسنة موسى ، فلم يدعها ولم يتبع عيسى ، كان هالكًا . وإيمان النصارى أن من تمسك بالإنجيل منهم وشرائع عيسى كان مؤمنًا مقبولا منه حتى جاء محمد صلى الله عليه وسلم ، فمن لم يتبعْ محمدًا صلى الله عليه وسلم منهم ويَدَعْ ما كان عليه من سنة عيسى والإنجيل - كان هالكا .

وقال ابن أبي حاتم : وروي عن سعيد بن جبير نحو هذا .

قلت : وهذا لا ينافي ما روى عَليّ بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا

وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ الآية فأنزل الله بعد ذلك : ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [آل عمران : 85] .

(235/53)

فإن هذا الذي قاله [ابن عباس] إخبار عن أنه لا يقبل من أحد طريقة ولا عملا إلا ما كان موافقًا لشريعة محمد صلى الله عليه وسلم بعد أن بعثه [الله] بما بعثه به ، فأما قبل ذلك فكل من اتبع الرسول في زمانه فهو على هدى وسبيل ونجاة ، فاليهود أتباع موسى ، عليه السلام ، الذين كانوا يتحاكمون إلى التوراة في زمانهم .

واليهود من الهوادة وهي المودة أو التهود وهي التوبة ؛ كقول موسى ، عليه السلام : ﴿ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ﴾ [الأعراف : 156] أي : تبنا ، فكأنهم سموا بذلك في الأصل لتوبتهم ومودتهم في بعضهم لبعض .

[وقيل : لنسبتهم إلى يهوذا أكبر أولاد يعقوب عليه السلام ، وقال أبو عمرو بن العلاء : لأنهم يتهودون ، أي : يتحركون عند قراءة التوراة] .

فلما بعث عيسى صلى الله عليه وسلم وجب على بني إسرائيل اتباعه والانقياد له ،

فأصحابه وأهل دينه هم النصارى ، وسموا بذلك لتناصرهم فيما بينهم ، وقد يقال لهم : أنصار أيضاً ، كما قال عيسى ، عليه السلام : ﴿ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ﴾ [آل عمران : 52] وقيل : إنهم إنما سُمّوا بذلك من أجل أنهم نزلوا أرضاً يقال لها ناصرة ، قاله قتادة وابن جُرَيج ، وروي عن ابن عباس أيضاً ، والله أعلم .

والنصارى : جمع نصران كسكارى جمع سكران ، ويقال للمرأة : نصرانة ،

(236/53)

قال الشاعر :

نصرانة لم تَحنَّفِ (1)

فلما بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم خاتماً للنبيين ، ورسولا إلى بني آدم على الإطلاق ، وجب عليهم تصديقُه فيما أخبر ، وطاعته فيما أمر ، والانكفاف عما عنه زجر .

وهؤلاء هم المؤمنون [حقا] . وسميت أمة محمد صلى الله عليه وسلم مؤمنين لكثرة إيمانهم وشدة إيقانهم ، ولأنهم يؤمنون بجميع الأنبياء الماضية والغيوب الآتية . وأما الصابئون فقد اختلف فيهم ؛ فقال سفيان الثوري ، عن ليث بن أبي سليم ، عن مجاهد ،

قال : الصابئون قوم بين المجوس واليهود والنصارى ، ليس لهم دين . وكذا رواه ابن أبي نجيح ، عنه وروي عن عطاء وسعيد بن جبير نحو ذلك .

وقال أبو العالية والربيع بن أنس ، والسدي ، وأبو الشعثاء جابر بن زيد ، والضحاك [وإسحاق بن راهويه] الصابئون فرقة من أهل الكتاب يقرؤون الزبور .

[ولهذا قال أبو حنيفة وإسحاق : لا بأس بذبائحهم ومناكحتهم] .

وقال هشيم عن مطرف : كنا عند الحكم بن عتيبة فحدثه رجل من أهل البصرة عن الحسن أنه كان يقول في الصابئين : إنهم كالمجوس ، فقال الحكم : ألم أخبركم بذلك .

وقال عبد الرحمن بن مهدي ، عن معاوية بن عبد الكريم : سمعت الحسن ذكر الصابئين ، فقال : هم قوم يعبدون الملائكة .

[وقال ابن جرير : حدثنا محمد بن عبد الأعلى ، حدثنا المعتمر بن سليمان عن أبيه ، عن الحسن قال : أخبر زياد أن الصابئين يصلون إلى القبلة ويصلون الخمس . قال : فأراد أن يضع عنهم الجزية . قال : فخبر بعد أنهم يعبدون الملائكة] .

---

(1) البيت في تفسير الطبري (144/2) وهو لأبي الأخزر الحماني ، وهذا جزء منه وهو بتمامه : فكلتاهما خرت وأسجد رأسها . . . كما سجدت نصرانة لم تحنف

وقال أبو جعفر الرازي : بلغني أن الصابئين قوم يعبدون الملائكة ، ويقرؤون الزبور ، ويصلون إلى القبلة .

وكذا قال سعيد بن أبي عروبة ، عن قتادة .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا يونس بن عبد الأعلى ، أخبرنا ابن وهب ، أخبرني ابن أبي الزناد ، عن أبيه ، قال : الصابئون قوم مما يلي العراق ، وهم بكوثى ، وهم يؤمنون بالنبيين كلهم ، ويصومون من كل سنة ثلاثين يوما ويصلون إلى اليمن كل يوم خمس صلوات .

وسئل وهب بن منبه عن الصابئين ، فقال : الذي يعرف الله وحده ، وليست له شريعة يعمل بها ولم يحدث كفرًا .

وقال عبد الله بن وهب : قال عبد الرحمن بن زيد : الصابئون أهل دين من الأديان ، كانوا بجزيرة الموصل يقولون : لا إله إلا الله ، وليس لهم عمل ولا كتاب ولا نبي إلا قول : لا إله إلا الله ، قال : ولم يؤمنوا برسول ، فمن أجل ذلك كان المشركون يقولون للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه : هؤلاء الصابئون ، يشبهونهم بهم ، يعني في قول : لا إله إلا الله .

وقال الخليل هم قوم يشبه دينهم دين النصارى ، إلا أن قبلتهم نحو مهب الجنوب ، يزعمون

أنهم على دين نوح، عليه السلام. وحكى القرطبي عن مجاهد والحسن وابن أبي نجيح: أنهم قوم تركب دينهم بين اليهود والمجوس، ولا تؤكل ذبائحهم، قال ابن عباس: ولا تنكح نساؤهم. قال القرطبي: والذي تحصل من مذهبهم فيما ذكره بعض العلماء أنهم موحدون ويعتقدون تأثير النجوم، وأنهم فاعلة؛ ولهذا أفتى أبو سعيد الإصطخري بكفرهم للقادر بالله حين سأله عنهم، واختار فخر الدين الرازي أن الصابئين قوم يعبدون الكواكب؛ بمعنى أن الله جعلها قبلة للعبادة والدعاء، أو بمعنى أن الله فوض تدبير أمر هذا العالم إليها، قال: وهذا القول هو المنسوب إلى الكشرانيين الذين جاءهم إبراهيم الخليل، عليه السلام، رادًا عليهم ومبطلا لقولهم.

وأظهر الأقوال، والله أعلم، قول مجاهد ومتابعيه، ووهب بن منبه: أنهم قوم ليسوا على دين اليهود ولا النصارى ولا المجوس ولا المشركين، وإنما هم قوم باقون على فطرتهم ولا دين مقرر لهم يتبعونه ويقتفونه؛ ولهذا كان المشركون ينبزون من أسلم بالصابئي، أي: أنه قد خرج عن سائر أديان أهل الأرض إذ ذاك.

وقال بعض العلماء: الصابئون الذين لم تبلغهم دعوة نبي، والله أعلم. انتهى انتهى. اهـ

﴿ تفسير ابن كثير حـ 1 صـ 284. 287 ﴾

ومن فوائد أبى السعود فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ إِنَّ الذين ءامَنُواْ ﴾ أي بألسنتهم فقط وهم المنافقون بقرينة انتظامِهم في سِلك الكفرة ، والتعبيرُ عنهم بذلك دون عُنوانِ النفاقِ للتصريح بأن تلك المرتبةَ وإن عُبّر عنها بالإيمان لا تُجديهم نفعاً أصلاً ولا تُنْقِذُهم من ورطة الكفر قطعاً ﴿ والذين هَادُواْ ﴾ أي تهوَّدوا من هادَ إذا دخَل في اليهودية ، ويهودُ إما عربي من هاد إذا تاب سُموا بذلك حين تابوا من عبادة العجل وخُصوا به لما كانت توبتُهم توبةً هائلة ، وإما معرَّبُ يهوذا كأنهم سُمّوا باسم أكبرِ أولادِ يعقوبَ عليه الصلاة والسلام ﴿ والنصارى ﴾ جمع نَصرانٍ كندامَى جمعُ ندمانٍ يقال : رجلٌ نَصرانٌ وامرأة نصرانةٌ والياء في نصراني للمبالغة كما في أحمريّ سُموا بذلك لأنهم نَصَروا المسيحَ عليه السلام أو لأنهم كانوا معه في قرية يقال لها نَصرانُ فسُمّوا باسمها أو نُسبوا إليها والياء للنسبة ، وقال الخليل واحدُ النصارى نَصري كمَهْري ومهارى

﴿ والصابئين ﴾ هم قومٌ بين النصارى والمجوس وقيل : أصلُ دينهم دينُ نوح عليه السلام وقيل : هم عبدةُ الملائكة وقيل : عبدةُ الكواكب فهو إن كان عربياً فمن صَبَأ إذا خرج من

دين إلى آخرَ وقرىء بالياء ، إما للتخفيف ، وإما لأنه من صَبَا إذا مال لما أنهم مالوا من سائر الأديان إلى ما هم فيه ، أو من الحق إلى الباطل ﴿ مَنْ ءامَنَ بالله واليوم الآخر ﴾ أي من أحدث من هذه الطوائفِ إيماناً خالصاً بالمبدأ والمَعاد على الوجه اللائق ﴿ وَعَمِلَ ﴾ عملاً ﴿ صالحا ﴾ حسبما يقتضيه الإيمانُ بما ذكر ﴿ فَلَهُمْ ﴾ بقابلة ذلك ﴿ أَجْرَهُمْ ﴾ الموعودُ لهم ﴿ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ أي مالك أمرِهم ومُبلّغُهم إلى كمالهم اللائقِ ، فمَنْ إما في محل الرفع على الابتداء خبرُه جملةُ فلهم أجرُهم والفاءُ لتضمُّن الموصولِ معنى الشرط كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين فَتَنُواْ المؤمنين ﴾ الآية ، وجُمع الضمائرُ الثلاثة باعتبار معنى الموصول كما أن إفرادَ ما

(240/53)

في الصلة باعتبار لفظِه والجملةُ كما هي خبرُ إن والعائدُ إلى اسمها محذوفٌ أي من آمن منهم الخ ، وإما في محل النصبِ على البدلية من اسمِ (إن) وما عُطف عليه وخبرُها فلهم أجرهم و (عند) متعلّق بما تعلّق به لهم من معنى الثبوت ، وفي إضافته إلى الرب المضافِ إلى ضميرهم مزيدُ لُطفٍ بهم وإيذانٌ بأن أجرَهم مُتَيقَّنُ الثبوت مأمونٌ من الفَوات .

(241/53)

﴿ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ عطف على جملة فلهم أجرُهم أي لا خوف عليهم حين يخاف الكفارُ العقاب ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ حين يحزن المقصّرون على تضييع العُمر وتفويتِ الثواب ، والمرادُ بيانُ دوامِ انتفائهما لا بيانُ انتفاءِ دوامِهما كما يوهمه كونُ الخبرِ في الجملة الثانية مضارعاً لما مر من أن النفيَ وإن دخلَ على نفس المضارعِ يفيد الدوامَ والاستمرارَ بحسب المقام ، هذا وقد قيل : المرادُ بالذين آمنوا المتديّنون بدين الإسلام المُخلِصون منهم والمنافقون ، فحينئذ لا بد من تفسير مَنْ آمن بمن اتصف منهم بالإيمان الخالصِ بالمبدأ والمَعاد على الإطلاق ، سواءٌ كان ذلك بطريق الثبات والدوام عليه كإيمان المُخلصين أو بطريق إحداثه وإنشائه كإيمان مَنْ عداهم من المنافقين وسائر الطوائف ، وفائدةُ التعميم للمخلصين مزيدُ ترغيبِ الباقين في الإيمان ببيان أن تأخيرَهم في الاتصاف به غيرُ مُخلَ بكونهم أسوةً لأولئك الأقدمين في استحقاق الأجرِ وما يتبعه من الأمن الدائم ، وأما ما قيل في تفسيره من كان منهم في دينه قبل أن ينسخ مصدّقاً بقلبه بالمبدأ والمعاد عاملاً بمقتضى شرعِه فمما لا سبيل إليه أصلاً لأن مقتضى المقام هو الترغيبُ في دين الإسلام ، وأما بيانُ حال من مضى على دين آخرَ قبل انتساخِه فلا ملابسةَ له بالمقام قطعاً بل ربما يُخِلُّ بمقتضاه من حيث دلالتُه على حقّيته في زمانه في الجملة ، على أن المنافقين والصابئين لا يتسنى في حقهم ما ذكر ، أما المنافقون فإن كانوا من أهل الشرك فالأمرُ بيّن ، وإن كانوا من أهل

الكتاب فمن مضى منهم قبل النسخِ ليسوا بمنافقين ، وأما الصابئون فليس لهم دينٌ يجوز رعايتُه في وقت من الأوقات ولو سَلِم أنه كان لهم دينٌ سماوي ثم خرجوا عنه فمن مضى من أهل ذلك الدين قبل خروجِهم منه فليسوا من الصابئين فكيف يُمكِنُ إرجاعُ الضمير الرابطِ بين اسمِ إن وخبرِها إليهم أو إلى المنافقين ، وارتكابُ

(242/53)

إرجاعِه إلى مجموع الطوائفِ من حيث هو مجموعٌ لا إلى كل واحدة منها قصداً إلى درج الفريقِ المذكور فيه ضرورةَ أن من كان من أهل الكتاب عاملاً بمقتضى شرعِه قبل نسخِه من مجموع الطوائفِ بُحكم اشتمالِه على اليهود والنصارى وإن لم يكن من المنافقين والصابئين مما يجبُ تنزيهُ ساحةِ التنزيل عن أمثاله ، على أن المخلصين مع اندراجهم في حيز اسم إنّ ليس لهم في حيز خبرها عينٌ ولا أثر فتأملْ وكن على الحق المبين . انتهى انتهى . اهـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 1 صـ 108 . 109 ﴾

(243/53)

ومن فوائد ابن عاشور فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (62) ﴾

توسطت هاته الآية بين آيات ذكر بني إسرائيل بما أنعم الله عليهم وبما قابلوا به تلك النعم من الكفران وقلة الاكتراث فجاءت معترضة بينها لمناسبة يدركها كل بليغ وهي أن ما تقدم من حكاية سوء مقابلتهم لنعم الله تعالى قد جرت عليهم ضرب الذلة والمسكنة ورجوعهم بغضب من الله تعالى عليهم ، ولما كان الإنحاء عليهم بذلك من شأنه أن يفزعهم إلى طلب الخلاص من غضب الله تعالى لم يترك الله تعالى عادته مع خلقه من الرحمة بهم وإرادته صلاح حالهم فبين لهم في هاته الآية أن باب الله مفتوح لهم وأن اللجأ إليه أمر هين عليهم وذلك بأن يؤمنوا ويعملوا الصالحات ، ومن بديع البلاغة أن قرن معهم في ذلك ذكر بقية من الأمم ليكون ذلك تأنيساً لوحشة اليهود من القوارع السابقة في الآيات الماضية وإنصافاً للصالحين منهم ، واعترافاً بفضلهم ، وتبشيراً لصالحي الأمم من اليهود وغيرهم الذين مضوا مثل الذين كانوا قبل عيسى وامتثلوا لأنبيائهم ، ومثل الحواريين ، والموجودين في زمن نزول الآية مثل عبد الله بن سَلاَم وصهيب ، فقد وفَّت الآية حق الفريقين من الترغيب والبشارة ، وراعت المناسبتيْن للآيات المتقدمة مناسبةَ اقتران الترغيب بالترهيب ، ومناسبةَ ذكر الضد بعد

الكلام على ضده .

فمجيء (إنَّ) هنا لمجرد الاهتمام بالخبر وتحقيقِه لدفع توهم أن ما سبق من المذمات شامل لجميع اليهود ، فإن كثيراً من الناس يتوهم أن سلف الأمم التي ضَلَّت كانوا مثلهم في الضلال ، ولقد عجب بعض الأصحاب لما ذكرت لهم أني حين حللت في رومة تبركت بزيارة قبر القديس بطرس توهماً منهم بكون قبره في كنيسة رومة فبيّنت لهم أنه أحد الحواريين أصحاب المسيح عيسى عليه السلام .

(244/53)

وابتُدىء بذكر المؤمنين للاهتمام بشأنهم ليكونوا في مقدمة ذكر الفاضلين فلا يذكر أهلُ الخير إلا ويذكرون معهم ، ومن مراعاة هذا المقصد قوله تعالى في سورة النساء (162) ﴿ لكن الراسخون في العلم منهم ﴾ أي الذين هادوا والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك الآية ، ولأنهم القدوة لغيرهم كما قال تعالى : ﴿ فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا ﴾ [البقرة : 137] فالمراد من الذين آمنوا في هذه الآية هم المسلمون الذين صدقوا بالنبيء محمد صلى الله عليه وسلم وهذا لقب للأمة الإسلامية في عرف القرآن .

و﴿ الذين هادوا ﴾ هم بنو إسرائيل وقد مضى الكلام عليهم وإنما نذكر هنا وجه وصفهم بالذين هادوا ، ومعنى (هادوا) كانوا يهوداً أو دانوا بدين اليهود .

(245/53)

وأصل اسم يهود منقول في العربية من العبرانية وهو في العبرانية بذال معجمة في آخره وهو علم أحد أسباط إسرائيل ، وهذا الاسم أطلق على بني إسرائيل بعد موت سليمان سنة 975 قبل المسيح فإن مملكة إسرائيل انقسمت بعد موته إلى مملكتين مملكة رحبعام بنِ سليمان ولم يتبعه إلا سِبط يهوذا وسبط بِنْيَامِين وتُلقب بمملكة يهوذا لأن معظم أتباعه من سبط يهوذا وجعل مقر مملكته هو مقر أبيه (أورشليم) ، ومملكة مَلِكُها يورْبعام بن بناط غلام سليمان وكان شجاعاً نجيباً فملَّكَتْه بقية الأسباط العشرة عليهم وجَعل مقر مملكته السامرة وتلقب بمَلِككِ إسرائيل إلا أنه وقومه أفسدوا الديانة الموسوية وعبدوا الأوثان فلأجل ذلك انفصلوا عن الجامعة الإسرائيلية ولم يدم ملكهم في السامرة إلا مائتين ونيفاً وخمسين سنة ثم انقرض على يد ملوك الآشوريين فاستأصلوا الإسرائيليين الذين بالسامرة وخربوها ونقلوا بني إسرائيل إلى بلاد آشور عبيداً لهم وأسكنوا بلاد السامرة فريقاً من الآشوريين فمن يومئذ لم يبق لبني إسرائيل مُلك إلا مُلك يهوذا بأورشليم يتداوله أبناءُ سليمان

عليه السلام فمنذ ذلك غلب على بني إسرائيل اسم يَهود أي يَهوذا ودام ملكهم هذا إلى حد سنة 120 قبل المسيح مسيحية في زمن الأمبراطور أدريان الروماني الذي أجلى اليهود الجلاءَ الأخير فتفرقوا في الأقطار باسم اليهود هم ومن التحق بهم من فلول بقية الأسباط.

ولعل هذا وجه اختيار لفظ ﴿ الذين هادوا ﴾ في الآية دون اليهود للإشارة إلى أنهم الذين انتسبوا إلى اليهود ولو لم يكونوا من سبط يهوذا .

(246/53)

ثم صار اسم اليهود مطلقاً على المتدينين بدين التوراة قال تعالى : ﴿ وقالت اليهود ليست النصارى على شيء ﴾ [البقرة : 113] الآية ويقال تَهوّد إذا اتبع شريعة التوراة وفي الحديث : " يولد الولد على الفطرة ثم يكون أبواه هما اللذان يهوّدِانه أو ينصّرِانه أو يمَجّسانه " ويقال هاد إذا دان باليهودية قال تعالى : ﴿ وعلى الذين هادوا حرَّمنا كل ذي ظفر ﴾ [الأنعام : 146] .

وأما ما في سورة الأعراف (156) من قول موسى : ﴿ إنَّا هدنا إليك ﴾ فذلك بمعنى المتاب .

وأما النصارى فهو اسم جمع نَصْرى (فتح فسكون) أو ناصري نسبة إلى الناصرة وهي قرية

نشأت منها مريم أم المسيح عليهما السلام وقد خرجت مريم من الناصرة قاصدة بيت المقدس فولدت المسيح في بيت لحم ولذلك كان بنو إسرائيل يدعونه يشوع الناصري أو النَّصْرى فهذا وجه تسمية أتباعه بالنصارى .

وأما قوله : والصابين ﴾ فقرأه الجمهور بهمزة بعدَ الموحدة على صيغة جمع صَابىء بهمزة في آخره ، وقرأه نافع وحده بياء ساكنة بعد الموحدة المكسورة على أنه جمع صَابٍ منقوصاً فأما على قراءة الجمهور فالصابئون لعله جمع صابىء وصابىء لعله اسم فاعل صَبَأ مهموزاً أي ظهر وطلع ، يقال صَبَأ النجم أي طلع وليس هو من صبَا يصبو إذا مال لأن قراءة الهمز تدل على أن ترك تخفيف الهمز في غيرها تخفيف لأن الأصل توافق القراءات في المعنى .

وزعم بعض علماء الأفرنج أنهم سموا صابئة لأن دينهم أتى به قوم من سبأ .

وأما على قراءة نافع فجعلوها جمع صاب مثل رام على أنه اسم فاعل من صبا يصبو إذا مال قالوا : لأن أهل هذا الدين مالوا عن كل دين إلى دين عبادة النجوم (ولو قيل لأنهم مالوا عن أديان كثيرة إذ اتخذوا منها دينهم كما ستعرفه لكان أحسن) .

وقيل إنما خَفَّف نافع همزة (الصابين) فجعلها ياء مثل قراءَته ﴿ سَالَ سائل ﴾ [المعارج : 1] ، ومثل هذا التخفيف سماعي لأنه لا موجب لتخفيف الهمز المتحرك بعد حرف متحرك .

والأظهر عندي أن أصل كلمة الصابي أو الصابئة أوما تفرع منها هو لفظ قديم من لغة عربية أو سامية قديمة هي لغة عرب ما بين النهرين من العراق وفي " دائرة المعارف الإسلامية" أن اسم الصابئة مأخوذ من أصل عبري هو (ص بع) أي غطس عرفت به طائفة (المنديا) وهي طائفة يهودية نصرانية في العراق يقومون بالتعميد كالنصارى .

ويقال الصابئون بصيغة جمع صابىء والصابئة على أنه وصف لمقدر أي الأمة الصابئة وهم المتدينون بدين الصابئة ولا يعرف لهذا الدّين إلا اسم الصابئة على تقدير مضاف أي دين الصابئة إضافةً إلى وصف أتباعه ويقال دين الصابئة .

وهذا الدين دين قديم ظهر في بلاد الكلدان في العراق وانتشر معظم أتباعه فيما بين الخابور ودجلة وفيما بين الخابور والفرات فكانوا في البطائح وكَسْكَر في سواد واسط وفي حَرَّان من بلاد الجزيرة .

وكان أهل هذا الدين نَبَطاً في بلاد العراق فلما ظهر الفرس على إقليم العراق أزالوا مملكة الصابئين ومنعوهم من عبادة الأصنام فلم يجسروا بعد على عبادة أوثانهم .

وكذلك منع الروم أهلَ الشام والجزيرة من الصابئين فلما تنصر قسطنطين حملهم بالسيف على التنصر فبطلت عبادة الأوثان منهم من ذلك الوقت وتظاهروا بالنصرانية فلما ظهر الإسلام على بلادهم اعتبروا في جملة النصارى وقد كانت صابئة بلاد كَسْكَر والبَطَائح

معتبرين صنفاً من النصارى ينتمون إلى النبيء يحيى بن زكرياء ومع ذلك لهم كتب يزعمون أن الله أنزلها على شيث بن آدم ويسمونه (أغاثاديمون) ، والنصارى يسمونهم يُوحَنَّاسِية (نسبة إلى يوحنا وهو يحيى) .

(248/53)

وجامع أصل هذا الدين هو عبادة الكواكب السيارة والقمر وبعض النجوم مثل نجم القطب الشمالي وهم يؤمنون بخالق العالم وأنه واحد حكيم مقدس عن سمات الحوادث غير أنهم قالوا : إن البشر عاجزون عن الوصول إلى جلال الخالق فلزم التقرب إليه بواسطة مخلوقات مقربين لديه وهي الأرواح المجردات الطاهرة المقدسة وزعموا أن هذه الأرواح ساكنة في الكواكب وأنها تنزل إلى النفوس الإنسانية وتتصل بها بمقدار ما تقترب نفوس البشر من طبيعة الروحانيات فعبدوا الكواكب بقصد الاتجاه إلى رُوحانياتها ولأجل نزول تلك الروحانيات على النفوس البشرية يتعين تزكية النفس بتطهيرها من آثار القوى الشهوانية والغضبية بقدر الإمكان والإقبال على العبادة بالتضرع إلى الأرواح وبتطهير الجسم والصيام والصدقة والطيب وألزموا أنفسهم فضائل النفس الأربع الأصلية (وهي العفة والعدالة والحكمة والشجاعة) والأخذَ بالفضائل الجزئية (المتشعبة عن الفضائل الأربع وهي

الأعمال الصالحة) وتجنب الرذائل الجزئية (وهي أضداد الفضائل وهي الأعمال السيئة) .

ومن العلماء من يقول إنهم يقولون بعدم الحاجة إلى بعثة الرسل وأنهم يعللون ذلك بأن مدعي الرسالة من البشر فلا يمكن لهم أن يكونوا واسطة بين الناس والخالق .

ومن العلماء من ينقل عنهم أنهم يدعون أنهم على دين نوح .

وهم يقولون إن المعلّمَيْن الأولَيْن لدين الصابئة هما أغَاثَاذيمون وهُرمس وهما شيث بن آدم وإدريس ، وهم يأخذون من كلام الحكماء ما فيه عون على الكمال فلذلك يكثر في كلامهم المماثلة لأقوال حكماء اليونان وخاصة سولون وأفلاطون وأرسطاطاليس ، ولا يبعد عندي أن يكون أولئك الحكماء اقتبسوا بعض الآراء من قدماء الصابئة في العراق فإن ثمة تشابهاً بينهم في عبادة الكواكب وجعلها آلهة وفي إثبات إلاه الآلهة .

(249/53)

وقد بنوا هياكل للكواكب لتكون مهابط لأرواح الكواكب وحرصوا على تطهيرها وتطييبها لكي تألفها الروحانيات وقد يجعلون للكواكب تماثيل من الصور يتوخون فيها محاكاة صور الروحانيات بحسب ظنهم .

ومن دينهم صلوات ثلاث في كل يوم ، وقبلتهم نحو مهب ريح الشمال ويتطهرون قبل الصلاة وقراآتهم ودعواتهم تسمى الزمزمة بزايين كما ورد في ترجمة أبي إسحاق الصابىء .

ولهم صيام ثلاثين يوماً في السنة ، موزعة على ثلاثة مواقيت من العام .

ويجب غسل الجنابة وغسل المرأة الحائض .

وتحرم العزوبة ، ويجوز للرجل تزوج ما شاء من النساء ولا يتزوج إلا امرأة صابئة على دينه فإذا تزوج غير صابئة أو تزوجت الصابئة غير صابىء خرجا من الدين ولا تقبل منهما توبة .

ويغسلون موتاهم ويكفنونهم ويدفنونهم في الأرض .

ولهم رئيس للدين يسمونه الكمر بكاف وميم وراء .

وقد اشتهر هذا الدين في حران من بلاد الجزيرة ، ولذلك تعرف الصابئة في كتب العقائد الإسلامية بالحَرْنَانية (بنونين نسبة إلى حرّان على غير قياس كما في " القاموس") .

قال ابن حزم في كتاب " الفِصَل" : كان الذي ينتحله الصابئون أقدم الأديان على وجه الدهر والغالب على الدنيا إلى أن أحدثوا فيه الحوادث فبعث الله إبراهيم عليه السلام بالحنيفية أ هـ .

ودين الصابئة كان معروفاً للعرب في الجاهلية ، بسبب جوار بلاد الصابئة في العراق والشام لمنازل بعض قبائل العرب مثل ديار بكر وبلاد الأنباط المجاورة لبلاد تغلب وقضاعة .

ألا ترى أنه لما بعث محمد صلى الله عليه وسلم وصفه المشركون بالصابىء ، وربما دَعوه بابن أبي كبشة الذي هو أحد أجداد آمنة الزهرية أمِّ النبيء صلى الله عليه وسلم كان أظهر عبادة الكواكب في قومه فزعموا أن النبيء ورث ذلك منه وكَذَبُوا .

(250/53)

وفي حديث عمران بن حصين أنهم كانوا في سفر مع النبيء صلى الله عليه وسلم ونفد دماؤهم فابتغوا الماء فلقوا امرأة بين مزادتين على بعير فقالوا لها : انطلقي إلى رسول الله فقالت : الذي يقال له الصابىء قالوا : هو الذين تَعنين .

وساق حديث تكثير الماء .

وكانوا يُسمُّون المسلمين الصُّبَاةَ كما ورد في خبر سعد بن معاذ أنه كان صديقاً لأمية بن خلف وكان سعد إذا مر بمكة نزل على أمية فلما هاجر النبيء صلى الله عليه وسلم إلى المدينة انطلق سعد ذات يوم معتمراً فنزل على أمية بمكة وقال لأمية : انظُر لي ساعة خلوة لعلي أطوف بالبيت فخرج به فلقيهما أبو جهل فقال لأمية يا أبا صفوان من هذا معك قال : سعد ، فقال له أبو جهل : ألا أراك تطوف بمكة آمناً وقد أوَيْتم الصُّباةَ .

وفي حديث غزوة خالد بن الوليد إلى جذيمة أنه عرض عليهم الإسلام أو السيف فلم

يحسنوا أن يقولوا أسلمنا فقالوا : صبأنا ، الحديث .

وقد قيل إن قوماً من تميم عبدوا نجم الدَّبَران ، وأن قوماً من لخم وخزاعة عبدوا الشِّعْرى العَبَورَ ، وهو من كواكب برج الجوزاء في دائرة السرطان ، وأن قوماً من كنانة عبدوا القمر فظن البعض أن هؤلاء كانوا صابئة وأَحسب أنهم تلقفوا عبادة هذه الكواكب عن سوء تحقيق في حقائق دين الصابئة ولم يجزم الزمخشري بأن في العرب صابئة فإنه قال في " الكشاف" في تفسير سورة (37) فصلت في قوله تعالى : ﴿ لا تسجُدُوا للشمس ولا للقمر ﴾ قال : لعل ناساً منهم كانوا يسجدون للشمس والقمر كالصابئين فنُهوا عن ذلك .

(251/53)

وقد اختلف علماء الإسلام في إجراء الأحكام على الصابئة ، فعن مجاهد والحسن أنهم طائفة بين اليهود والمجوس ، وقال البيضاوي : هم قوم بين النصارى والمجوس فمن العلماء من ألحقهم بأهل الكتاب ، ومن العلماء من ألحقهم بالمجوس ، وسبب هذا الاضطراب هو اشتباه أحوالهم وتكتمهم في دينهم ، وما دخل عليه من التخليط بسبب قهر الأمم التي تغلبت على بلادهم ، فالقسم الذي تغلَّب عليهم الفرس اختلط دينهم بالمجوسية ، والذين غَلَب عليهم الروم اختل دينهم بالنصرانية .

قال ابن شاس في كتاب الجواهر الثمينة ﴾ : قال الشيخ أبو الطاهر (يعني ابن بشير التنوخي القيرواني) مَنَعوا ذبائح الصابئة لأنهم بين النصرانية والمجوسية (ولا شك أنه يعني صابئة العراق ، الذين كانوا قبل ظهور الإسلام على بلادهم على دين المجوسية) .

وفي " التوضيح على مختصر ابن الحاجب الفرعي " في باب الذبائح " قال الطرطوشي : لا تؤكل ذبيحة الصابيء وليست بحرام كذبيحة المجوسي " وفيه في باب الصيد " قال مالك لا يؤكل صيد الصابيء ولا ذبيحته " .

وفي " شرح عبد الباقي على خليل " : " إنَّ أخذ الصابىء بالنصرانية ليس بقوي كما ذكره أبو إسحاق التونسي ، وعن مالك لا يتزوج المسلمُ المرأةَ الصائبة " .

قال الجصاص في تفسير سورة العقود وسورة براءة : روي عن أبي حنيفة أن الصابئة أهل كتاب ، وقال أبو يوسف ومحمد ليسوا أهل كتاب .

وكان أبو الحسن الكَرخي يقول الصابئة الذين هم بناحية حَرَّانَ يعبدون الكواكب ، فليسوا أهل كتاب عندهم جميعاً .

(252/53)

قال الجصاص : الصابئة الذين يعرفون بهذا الاسم في هذا الوقت ليس فيهم أهل كتاب وانتحالهم في الأصل واحد أعني الذين هم بناحية حران ، والذين هم بناحية البطائح وكَسْكَر في سواد واسط ، وإنما الخلاف بين الذين بناحية حران والذين بناحية البطائح في شيء من شرائعهم وليس فيهم أهل كتاب فالذي يغلب على ظني في قول أبي حنيفة أنه شاهدَ قوماً منهم يظهرون أنهم نصارى تقيةً ، وهم الذين كانوا بناحية البطائح وكسْكر ويسميهم النصارى يُوحنَّا سِيَّة وهم ينتمون إلى يحيى بن زكرياء ، وينتحلون كتباً يزعمون أنها التي أنزلها الله على شيث ويحيى .

ومن كان اعتقاده من الصابئين على ما وصفنا وهم الحرانيون الذين بناحية حران وهم عبدة أوثان لا ينتمون إلى أحد من الأنبياء ولا ينتحلون شيئاً من كتب الله فلا خلاف بين الفقهاء في أنهم ليسوا أهل كتاب ، وأنه لا تؤكل ذبائحهم ولا تنكح نساؤهم وأبو يوسف ومحمد قالا : إن الصابئين ليسوا أهل كتاب ولم يفصلوا بين الفريقين وكذا قول الأوزاعي ومالك بن أنس أ هـ .

كلامه .

ووجه الاقتصار في الآية على ذكر هذه الأديان الثلاثة مع الإسلام دون غيرها من نحو المجوسية والدهريين والزنادقة أن هذا مقام دعوتهم للدخول في الإسلام والمتاب عن أديانهم التي أبطلت لأنهم أرجى لقبول الإسلام من المجوس والدهريين لأنهم يثبتون الإله المتفرد بخلق

العالم ويتبعون الفضائل على تفاوت بينهم في ذلك ، فلذلك اقتصر عليهم تقريباً لهم من الدخول في الإسلام .

ألا ترى أنه ذكر المجوس معهم في قوله تعالى : ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة ﴾ [الحج : 17] لأن ذلك مقام تثبيت للنبيء صلى الله عليه وسلم والمسلمين .

(253/53)

وقوله تعالى : ﴿ من آمن ﴾ يجوز أن تكون (من) شرطاً في موضع المبتدأ ويكون فلهم أجرهم جواب الشرط ، والشرط مع الجواب خبر ﴿ إن ﴾ ، فيكون المعنى إن الذين آمنوا من يؤمن بالله منهم فله أجره وحذف الرابط بين الجملة وبين اسم (إن) لأن (من) الشرطية عامة فكان الرابط العموم الذي شمل المبتدأ أعني اسم (إن) ويكون معنى الكلام على الاستقبال لوقوع الفعل الماضي في حيز الشرط أي من يؤمن منهم بالله ويعمل صالحاً فله أجره ويكون المقصود منه فتح باب الإنابة لهم بعد أن قُرِّعوا بالقوارع السالفة وذكر معهم من الأمم من لم يذكر عنهم كفر لمناسبة ما اقتضته العلة في قوله : ﴿ ذلك بأنهم كانوا يكفرون ﴾ [البقرة : 61] وتذكيراً لليهود بأنهم لا مزية لهم على غيرهم من الأمم حتى لا يتكلوا على

الأوهام أنهم أحباء الله وأن ذنوبهم مغفورة .

وفي ذلك أيضاً إشارة إلى أن المؤمنين الخالصين من اليهود وغيرهم ممن سلف مثل النقباء الذين كانوا في المناجاة مع موسى ومثل يوشع بن نوع كالب بن يفنه لهم هذا الحكم وهو أن لهم أجراً عند ربهم لأن إناطة الجزاء بالشرط المشتق مؤذن بالتعليل بل السابقون بفعل ذلك قبل التقييد بهذا الشرط أولى بالحكم فقد قضت الآية حق الفريقين .

ويجوز أن تكون (من) موصولة بدلاً من اسم (إن) والفعل الماضي حينئذ باق على المضي لأنه ليس ثمة ما يخلصه للاستقبال ودخلت الفاء في ﴿ فلهم أجرهم ﴾ إما على أنها تدخل في الخبر نحو قول الشاعر وهو من شواهد "كتاب سيبويه" .

وقائلة خولان فانكح فتاتهم . . .

ونحو : ﴿ إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ﴾ [البروج : 10] عند غير سيبويه .

وإما على أن الموصول عومل معاملة الشرط للإيذان بالتعليل فأدخلت الفاء قرينة على ذلك .

ويكون المفاد من الآية حينئذ استثناء صالحي بني إسرائيل من الحكم ، بضرب الذلة والمسكنة والغضب من الله ويكون ذكر بقية صالحي الأمم معهم على هذا إشارة إلى أن هذه سنة الله في معاملته خلقه ومجازاته كلاً على فعله .

وقد استشكل ذكر ﴿ الذين آمنوا ﴾ في عداد هؤلاء ، وإجراء قوله : ﴿ من آمن بالله ﴾ عليهم مع أنهم مؤمنون فذكرهم تحصيل للحاصل ، فقيل أريد به خصوص المؤمنين بألسنتهم فقط وهم المنافقون .

وقيل أراد به الجميع وأراد بمن آمن من دام بالنسبة للمخلصين ومن أخلص بالنسبة للمنافقين .

وهما جوابان في غاية البعد .

وقيل : يرجع قوله : ﴿ من آمن بالله واليوم الآخر ﴾ لخصوص الذين هادوا والنصارى والصابين دون المؤمنين بقرينة المقام لأنهم وصفوا بالذين آمنوا وهو حسن .

وعندي أنه لا حاجة إلى شيء من ذلك ، لأن الشرط والصلة تركبت من شيئين الإيمان والعمل الصالح .

والمخلصون وإن كان إيمانهم حاصلاً فقد بقي عليهم العمل الصالح فلما تركب الشرط أو الصلة من أمرين فقد علم كل أناس مشربهم وترجع كل صفة لمن يفتقر إليها كلاً أو بعضاً .

ومعنى ﴿ من آمن بالله ﴾ .

الإيمان الكامل وهو الإيمان برسالة محمد صلى الله عليه وسلم بقرينة المقام وقرينة قوله : ﴿ وعمل صالحاً ﴾ إذ شرط قبول الأعمال الإيمان الشرعي لقوله تعالى : ﴿ ثم كان من الذين آمنوا ﴾ [البلد : 17] .

وقد عد عدم الإيمان برسالة محمد صلى الله عليه وسلم بمنزلة عدم الإيمان بالله لأن مكابرة المعجزات ، القائمة مقام تصديق الله تعالى للرسول المتحدي بها يؤول إلى تكذيب الله تعالى في ذلك التصديق فذلك المكابر غير مؤمن بالله الإيمان الحق .

(255/53)

وبهذا يعلم أن لا وجه لدعوى كون هذه الآية منسوخة بقوله تعالى : ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه ﴾ [آل عمران : 85] إذ لا استقامة في دعوى نسخ الخبر إلا أن يقال إن الله أخبر به عن مؤمني أهل الكتاب والصابئين الذين آمنوا بما جاءت به رسل الله دون تحريف ولا تبديل ولا عصيان وماتوا على ذلك قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم فيكون معنى الآية كمعنى قوله صلى الله عليه وسلم فيما ذكر من يؤتى أجره مرتين : ﴿ ورجل من أهل الكتاب آمن برسوله ثم آمن بي فله أجران ﴾

وأما القائلون بأنها منسوخة ، فأحسب أن تأويلها عندهم أن الله أمهلهم في أول تلقي دعوة

رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن ينظروا فلما عَاندُوا نسخها بقوله : ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يُقبل منه ﴾ لئلا يفضي قولهم إلى دعوى نسخ الخبر .

وقوله تعالى : ﴿ فلهم أجرهم عند ربهم ﴾ أطلق الأجر على الثواب مجازاً لأنه في مقابلة العمل الصالح والمراد به نعيم الآخرة ، وليس أجراً دنيويّاً بقرينة المقام وقوله : ﴿ عند ربهم ﴾ عندية مجازية مستعملة في تحقيق الوعد كما تستعمل في تحقيق الإقرار في قولهم لك عندي كذا .

ووجه دلالة عند في نحو هذا على التحقق أن عند دالة على المكان فإذا أطلقت في غير ما من شأنه أن يحل في مكان كانت مستعملة في لازم المكان ، وهو وجود ما من شأنه أن يكون في مكان على أن إضافة عند لاسم الرب تعالى مما يزيد الأجر تحققاً لأن المضاف إليه أكرم الكرماء فلا يفوت الأجر الكائن عنده .

وإنما جُمع الضمير في قوله : ﴿ أجرهم عند ربهم ﴾ مراعاة لما صدق (مَنْ) ، وأُفرد شرطها أوصلتها مراعاةً للفظها .

(256/53)

ومما حسَّن ذلك هنا وجَعَله في الموقع الأعلى من البلاغة أن هذين الوجهين الجائزين عربيةً في معاد الموصولات وأسماء الشروط قد جمع بينهما على وجه أَنْبَأَ على قصد العموم في الموصول أو الشرط فلذلك أتى بالضمير الذي في صلته أو فعله مناسباً للفظه لقصد العموم ثم لما جيء بالضمير مع الخبر أو الجواب جُمِع ليكون عوداً على بدء فيرتبط باسم (إِنَّ) الذي جيء بالموصول أو الشرط بدلاً منه أو خبراً عنه حتى يعلم أن هذا الحكم العام مراد منه ذلك الخاص أوَّلاً، كأنه قيل إن الذين آمنوا إلخ كل من آمن بالله وعمل إلخ فِلأُولئك الذين آمنوا أجرُهم فعُلم أنهم مما شمله العموم على نحو ما يذكره المناطقة في طي بعض المقدمات للعلم به، فهو من العام الوارد على سبب خاص.

وقوله: ﴿ولا خوف عليهم﴾ قراءة الجميع بالرفع لأن المنفي خوف مخصوص وهو خوف الآخرة.

والتعبير في نفي الخوف بالخبر الاسمي وهو ﴿لا خوف عليهم﴾ لإفادة نفي جنس الخوف نفياً قاراً، لدلالة الجملة الاسمية على الدوام والثبات، والتعبير في نفي خوف بالخبر الفعلي وهو ﴿يحزنون﴾ لإفاد تخصيصهم بنفي الحزن في الآخرة أي بخلاف غير المؤمنين.

ولما كان الخوف والحزن متلازمين كانت خصوصية كل منهما سارية في الآخر.

واعلم أن قوله: ﴿فلهم أجرهم﴾ مقابل لقوله: ﴿وباءوا بغضب من الله﴾ [البقرة: 61] ولذلك قرن بعند الدالة على العناية والرضى.

وقوله : ﴿ ولا خوف عليهم ﴾ مقابل ﴿ وضربت عليهم الذلة ﴾ [البقرة : 61] لأن الذلة ضد العزة فالذليل خائف لأنه يخشى العدوان والقتل والغزو ، وأما العزيز فهو شجاع لأنه لا يخشى ضراً ويعلم أن ما قدره له فهو كائن قال تعالى : ﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾ [المنافقون : 8] وقوله : ﴿ ولا هم يحزنون ﴾ مقابل قوله : ﴿ والمسكنة ﴾ لأن المسكنة تقضي على صاحبها بالحزن وتمني حسن العيش قال تعالى : ﴿ من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ﴾ [النحل : 97] فالخوف المنفي هو الخوف الناشىء عن الذلة والحزن المنفي هو الناشىء عن المسكنة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 1 صـ 514.523 ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

و " هَادُوا " في ألفه قولان :

أحدهما : أنه من واو ، والأصل " هَادَيهُود " أي : تاب ؛ قال الشاعر [السريع]

. . . . . .

إِنّي امْرُؤٌ مِنْ حُبّهِ هَائِدُ

أي : تائب ، منه سمي اليَهُود ، لأنهم تابوا عن عبادة العِجْلِ ، وقالوا : ﴿ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ﴾ [الأعراف : 156] أي : تُبْنَا ورجعنا .

[قاله] ابن عباس .

وقيل : هو من التهويد ، وهو النطق في سكون ووَقَارٍ ؛ وأنشدوا : [الطويل]

وَخُودٌ مِنَ اللاَّئِي تَسَمَّعْنَ بِالضُّحَى . . .

قَرِيضَ الرُّدَافَى بِالغِنَاءِ المُهَوِّدِ

وقيل : من " الهَوَادَة " ، وهي الخضوع .

الثاني : أنها من ياء ، والأصل : " هَادَ يَهِيد " ، أي : تَحَرَّكَ ، ومنه سمي اليهود ؛ لتحركهم في دراستهم ، قاله أبو عمرو بن العلاء .

وقيل : سموا يهوداً نسبة ليَهُوذَا بالذال المعجمة وهو ابن يَعْقُوب عليه الصلاة والسلام ، فغيَّرته العرب بالدّال المهملة ، جرياً على عادتها في التلاعب بالأسماء الأعجمية ، فعرب ونسب الواحد إليه ، فقيل يَهُودِيّ ، ثم حذف الياء في الجمع ، فقيل يَهُود .

وكل جمع منسوب إلى جنس ، فهو بإسقاط ياء النسب ؛ كقولهم في " زِنْجِيّ " : زَنْجٌ ، وفي " رُومِيّ " : رُوم أيضاً .

وهيادا : إذا دخل في اليهودية ، وتهوَّد إذا [نسبه إليهم] وهوّد إذا دعا إلى اليهودية .

والنَّصَارى جمع واحده " نَصْرَان " ، و " نَصْرَانة " ك : " نَدْمَان ونَدمانة ونَدَامَى " ، قاله سيبويه ؛ وأنشد : [الطويل]

فَكِلْتَاهُمَا خَرَّتْ وَأَسْجَدَ رَأْسُهَا . . .

كَمَا أَسْجَدَتْ نَصْرَانَةٌ لَمْ تَحَنَّفِ

وقال عليه الصلاة والسلام : " فَأبواه يُهَوِّدَانِهِ " وقرأ أبو السمال ومجاهد : " هادَوْا " بفتح الدال ، وإسكان الواو كأنهما من المفاعلة ، والأصل : هادُيُوا فأعلّ كنظائره .

وقيل : سُمُّوا يهوداً لميلهم عن دين الإسلام ، وعن دين موسى ، فعلى هذا إنما سموا يهوداً بعد أنبيائهم .

وقال ابن الأعرابي : يقال : هَادَ : إذا رجع من خير إلى شَرّ ، ومن شَرّ إلى خير ، وسمي اليهود بذلك لتخليطهم ، وكثرة انتقالهم من مذاهبهم ، نقله النووي في " التهذيب " عن الوَاحِديّ .

وأنشد الطبري على " نَصْران " [قول الشاعر] : [الطويل]

يَضِلُّ إِذَا دَارَ العِشَا مُتَحَفِّناً . . .

وَيُضْحِي لَدَيْهِ وَهْوَ نَصْرانُ شَامِسُ

قال سيبويه : إلا أنه لم يستعمل في الكلام إلا بياء النَّسَب .

وقال الخليل : " واحد النصارى نَصْرِيّ ، كمَهْرِيٍّ ومَهَارَى " .

وقال الزمخشريُّ : الياء في " نَصْرانيّ " للمبالغة كالتي في " أحَمَرِيّ " و " نَصَارَى " نكرةٌ ،

ولذلك دخلت عليه آل ، ووصف بالنكرة في قول الشاعر : [البسيط]

صَدَّتْ كَمَا صَدَّ عَمَّا لاَ يَحِلُّ لَهُ . . .

سَاقِي نَصَارى قُبَيْلَ الفِصْحِ صُوَّامِ

وقال جاءت جموع على غير ما يستعمل واحدها ن وقياسه النَّصَارنيون .

وسموا بذلك نسبة إلى قرية يقال لها : " نَاصِرة " كان ينزلها عيسى عليه الصلاة والسلام ،

قاله ابن عباس ، وقَتَادة ، وابن جُرَيْج .

(259/53)

فنسب عيسى إليها ، فقيل : عيسى الناصري ، فلما نسب أصحابه إليه قيل : النَّصَارَى .

قال الجوهري : و " نَصْران " قرية بـ " الشَّام " ينسب إليها النصارَى .

أو لأنهم كانوا يتناصرون ؛ قال الشاعر : [الرجز]

لَمَّا رَأَيتُ نَبَاطاً أَنْصَارَا . . .

شَمَّرْتُ عَنْ رُكْبَتِي الإِزَارَا

كُنْتُ لَهُمْ من النَّصَارَى جَارَا . . .

وقيل : لأن عيسى عليه الصلاة والسلام قال للحواريين : ﴿ مَنْ أنصاري إِلَى الله ﴾ [آل عمران : 52] .

و" الصَّابئين " الجمهور على همزة ، وقرأه نافع وشيبة والزهري بياء ساكنة غير مهموزة ، وعن أبي جعفر بياءين خَالِصَتَيْنِ بدل الهمزة ، فمن همزه جعله من صَبَأَ نابُ البعير أي : خرج ، وصبأت النجوم : طلعت .

وقال أبو علي : صَبَأْتُ على القوم إذا طَرَأْتُ عليهم .

فالصَّابىء : التَّارك لدينه ، كالصَّابىء الطارىء على القوم ، فإنه تارك لأرضهن ومنتقل عنها .

ومن لم يهمز فإنه يحتمل وجهين :

أحدهما : أن يكون مأخوذا من المهموز فَأُبْدِلَ من الهمزة حرف علّة إما ياء أو واواً ، فصار من باب المنقوص مثل : " قاض أو غازٍ " ، والأصل : صاب ، ثم جمع كما يجمع القاضي أو الغازي ، إلا أن سيبويه لا يرى قلب هذه الهمزة إلاَّ في الشعر ، والأخفش وأبو زيد يريان ذلك مطلقاً .

الثَّاني : أنه من باب " صَبَا . .

يَصْبُو " إذا مال ، ولذلك كانت العرب يسمون النبي صلى الله عليه وسلم صابئاً ؛ لأنه أظهر ديناً خلاف أديانهم ، فالصَّابي كالغازي أصله : " صَابِوُا " فأعل كإعلال غازٍ ، وأسند أبو عبيد إلى ابن عباس : " ما الصَّابون إنا هي الصابئون ، والخَاطُون إنما هي الخاطئون " .

فقد اجتمع في قراءة نافع همز " النبيين " ، وترك همز " الصابئين " .

[وقد عُلم أنّ العكس فيهما أفصح] .

قوله : ﴿ مَنْ آمَنَ بالله واليوم الآخر وَعَمِلَ صَالِحاً ﴾ آمن : صدق .

و" من " في قوله : " مَنْ آمَنَ " في موضع نصب بدل من " الَّذِينَ آمَنُوا " .

(260/53)

والفاء في قوله : " فَلَهُمْ " داخلة بسبب الإبهام الذي في " مَنْ " .

وقيل : فى موضع رفع بالابتداء ، ومعناها الشرط ، و" آمن " في موضع جزم بالشرط ، و" الفاء " جواب و" لَهُمْ أَجْرُهُمْ " خبر " من " والجملة كلها خبر " إن " ، والعائد على " الذين " محذوف تقديره : من آمن منهم بالله ، وحمل الضمير على لفظ " مَنْ " فأفرد ، وعلى المعنى في قوله : " فَلَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ " فجمع ؛ كقوله : [الطويل]

أَلِمَّا بِسَلْمَى عَنْكُمَا إِنْ عَرَضْتُمَا . . .

وقُولاَ لَهَا : عُوجِي عَلَى مَنْ تَخَلَّفُوا

وقال الفرزدق : [الطويل]

تَعَالَ فَإِنْ عَاهَدْتَنِي لاَ تَخُونُنِي . . .

نَكُنْ مِثْلَ مَنْ يَا ذِئْبُ يَصْطَحِبَانِ

[فراعى المعنى] وقد تقدم تحقيق ذلك [عند) قوله : ﴿ وَمِنَ الناس مَن يَقُولُ آمَنَّا ﴾ [البقرة : 8] والأجر في الأصل مصدر يقال : أجره الله يَأْجُرُه أَجْراً ، وقد يعبر به عن نفس الشيء المُجَازَى به ، والآية الكريمة تحتمل المعنيين .

والمراد بهذه العِنْدِيَّة أن أجرهم متيقّن جارٍ مجرى الحاصل عندهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 2 صـ 132 ـ 137 ﴾ . باختصار .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (62) ﴾

اختلاف الطريق مع اتحاد الأصل لا يمنع من حسن القبول ، فمن صدّق الحق سبحانه في آياته ، وآمن بما أخبر من حقه وصفاته ، فتبأين الشرع واختلاف وقوع الاسم غيرُ قادح في استحقاق الرضوان ، لذلك قال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا ﴾ ثم قال : ﴿ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ ﴾ . أي إذا اتفقوا في المعارف فالكُلُّ لهم حُسْنُ المآب ، وجزيلُ الثواب . والمؤمن مَنْ كان في آمان الحق سبحانه ، ومَنْ كان في أمانه – سبحانه وتعالى – فَبالحريّ ﴿ أَلَّا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [آل عمران : 170] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 96 ﴾

(262/53)

ومن فوائد القاسمى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [62]

أي إن الذين آمنوا بما دعا إليه محمد صلى الله عليه وسلم ، وصاروا من جملة أتباعه . قال

في " فتح البيان " : كأنه سبحانه أراد أن يبين أن حال هذه الملة الإسلامية ، وحال من قبلها من سائر الملل ، يرجع إلى شيء واحد ، وهو أن من آمن منهم بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً استحق ما ذكره الله من الأجر . ومن فاته ذلك فاته الخير كله ، والأجر دقه وجله . والمراد بالإيمان ههنا هو ما بينه رسول الله صلى الله عليه وسلم من قوله ، لما سأله جبريل عليه السلام عن الإيمان فقال : < أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والقدر خيره وشره > . ولا يتصف بهذا الإيمان إلا من دخل في الملة الإسلامية . فمن لم يؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم ولا بالقرآن ، فليس بمؤمن . ومن آمن بهما صار مسلماً مؤمناً ، ولم يبق يهودياً ولا نصرانياً ولا مجوسياً . انتهى .

قال الراغب في تفسيره : تقدم أن الإيمان يستعمل على وجهين : أحدهما الإقرار بالشهادتين ، الذي يؤمّن نفس الْإِنْسَانْ ، وماله عن الإباحة إلا بحق ، وذلك بعد استقرار هذا الدين مختص به كالإسلام . والثاني تحري اليقين فيما يتعاطاه الْإِنْسَانْ من أمر دينه . فقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ ﴾ عنى به المتدّين بدين محمد صلى الله عليه وسلم ، وقوله : ﴿ من آمن بالله ﴾ عنى به المتحري للاعتقاد اليقيني ، فهو غير الأول . ولما كانت مشاهير الأديان هذه الأربع ، بيّن تعالى أن كل من تعاطى ديناً من هذه الأديان في وقت شرعه ، وقبل أن ينسخ ، فتحرى في ذلك الاعتقاد اليقينيّ ، وأتبع اعتقاده بالأعمال الصالحة ، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

ثم قال : وقول ابن عباس : إن هذا منسوخ بقوله : ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ [آل عِمْرَان : 85] ، يعنون أن هذه الأديان كلها منسوخة بدين الإسلام ، وأن الله عز وجل جعل لهم الأجر قبل وقت النبيّ عليه السلام . فأما في وقته ، فالأديان كلها منسوخة بدينه . أي : فليس مراد ابن عباس ، ومن وافقه ، أنه تعالى كان وعد من عَمِل صالحاً من اليهود ، ومن ذكر معهم على عمله ، في الآخرة الجنة ، ثم نسخه بآية : ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ بل مراده ما ذكر الراغب . وهذا ما لا شبهة فيه . ولذا قال ابن جرير : ظاهر التنزيل يدل على أنه تعالى لم يخصص بالأجر على العمل الصالح مع الإيمان ، بعض خلقه دون بعض منهم ، والخبر بقوله : ﴿ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ عن جميع ما ذكر في أول الآية .

تنبيه :

ظاهر هذه الآية ، مع تفسير الراغب : ﴿ مَنْ آمَنَ ﴾ بالمتحري للاعتقاد اليقينيّ ، مما قد يستدل به العنبريّ لمذهبه . فقد نقل الأصوليون في باب الاجتهاد والتقليد أن العنبريّ ذهب إلى كل مجتهد مصيب ، حتى في الأصول ، ووافقه الجاحظ . قال الغزالي في "

المستصفى " : ذهب الجاحظ إلى أن مخالف ملة الإسلام من اليهود والنصارى والدهرية ، إن كان معانداً على خلاف اعتقاده ، فهو آثم ، وإن نظر فعجز عن درك الحق فهو معذور غير آثم ، وإن لم ينظر من حيث لم يعرف وجوب النظر ، فهو أيضاً معذور ، وإنما الآثم المعذب المعاند فقط ؛ لأن الله تعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها ، وهؤلاء قد عجزوا عن دَرك الحق ، ولزموا عقائدهم خوفاً من الله تعالى ؛ إذ استُدّ عليهم طريق المعرفة . ثم ردّه الغزاليّ بأدلة سمعية ضرورية ، وذلك مثل معرفتنا ضرورة أمره عليه السلام اليهود والنصارى بالإيمان به ، وذمّهم على إصرارهم على عقائدهم ، وذلك لا ينحصر في الكتاب والسنة .

(264/53)

ثم قال الغزاليّ : وأما قوله – أي : الجاحظ – : كيف يكلفهم ما لا يطيقون ؟ قلنا : نعلم ضرورة أنه كلفهم ، أما أنهم يطيقون أو لا يطيقون ، فلننظر فيه ، بل نبه الله تعالى على أنه أقدرهم عليه بما رزقهم من العقل ، ونصب من الأدلة ، وبعث من الرسل المؤيدين بالمعجزات ، الذين نبّهوا العقول ، وحركوا دواعي النظر ، حتى لم يبق على الله لأحد حجة بعد الرسل . وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ هَادُواْ ﴾ أي : تهودوا . يقال : هاد يهود ، وتهوّد ، إذا

دخل في اليهودية . هو هائد ، والجمع هود . وهم أمة موسى عليه السلام ، وإنما لزمهم هذا الاسم ؛ لأن الإسرائيليين الذين رجعوا من جلاء سبعين سنة ، ومن سبي بابل إلى وطنهم القديم ، كان أكثرهم من نسل يهوذا بن يعقوب – بالذال المعجمة ، فقلبتها العرب دالاً مهملة – .

وقوله تعالى : ﴿ وَالنَّصَارَى ﴾ جمع نصران ، كندامى جمع ندمان ، يقال : رجل نصران ، وامرأة نصرانية ، والياء في نصرانيّ للمبالغة ، كما في أحمريّ ، سُموا بذلك لأنهم نصروا المسيح عليه السلام . كذا في " الكشاف " أو هو جمع نصرانيّ ، مغير عن ناصريّ نسبة إلى ناصرة ، القرية المعروفة . وقد نسب إليها المسيح عليه السلام ، لأنه رُبِّيَ بها . وجاء في الإنجيل : يسوع الناصري .

وقوله تعالى : ﴿ والصابئين ﴾ جمع صابئ ، ويقال لهم الصابئة . قال ابن جرير : الصابئ هو المستحدث ، سوى دينه ، ديناً ، كالمرتد من أهل الإسلام عن دينه . وكل خارج من دين كان عليه إلى آخر غيره تسميه العرب : صابئاً . يقال منه : صبا فلان يصبو صباء ، ويقال : صبأت النجوم إذا طلعت .

وقد اختلف أهل التأويل فيمن يلزمه هذا الاسم ، من أهل الملل ؟ . فقال بعضهم : يلزم ذلك كل من خرج من دين إلى غير دين . وقالوا : الذي عنى الله بهذا الاسم قوماً لا دين لهم ، فعن مجاهد : الصابئون ليسوا بيهود ولا نصارى ، ولا دين لهم . وعن ابن زيد : الصابئون دين من الأديان كانوا بجزيرة الموصل ، يقولون لا إله إلا الله ، وليس لهم عمل ولا كتاب ولا نبيّ . وعن قتادة : أنهم قوم يعبدون الملائكة . وقال الإمام الشهرستانيّ ، في الكلام عن الصابئة ما مثاله : والصبوة في مقابلة الحنيفية . وفي اللغة : صبا الرجل إذا مال وزاغ . فبحكم ميل هؤلاء عن سنن الحق وزيغهم عن نهج الأنبياء قيل لهم : الصابئة . وهم يقولون : الصبوة هو الانحلال عن قيد الرجال . وإنما مدار مذهبهم على التعصب للروحانيين ، كما أن مدار مذهب الحنفاء هو التعصب للبشر الجسمانيين .

والصابئة تدعي أن مذهبها هو الاكتساب ، [و] الحنفاء تدعي أن مذهبها هو الفطرة . فدعوة الصابئة إلى الاكتساب ، ودعوة الحنفاء إلى الفطرة ، فالصابئة قوم يقولون بحدود وأحكام عقلية ، ولا يقولون بالشريعة والإسلام . فيقابلون أرباب الديانات تقابل التضاد . والصابئة الأولى الذين قالوا بعاذيمون وهرمس ، وهما شيت وإدريس ، ولم يقولوا بغيرهما من الأنبياء . وهم أصحاب الروحانيات . فيعتقدون أن للعالم صانعاً حكيماً مقدّساً عن سمات الحدثان . والواجب علينا معرفة العجز عن الوصول إلى جلاله ، وإنما يُتقرب إليه بالمتوسطات المقربين لديه ، وهم الروحانيون المطهرون المقدسون جوهراً وفعلاً وحالة .

أما الجوهر فهم المقدسون عن المواد الجسمانية ، الذين جبلوا على الطهارة ، وفطروا على التقديس والتسبيح ، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون . قالوا فنحن نتقرب إليهم ونتوكل عليهم ، منهم أربابنا وآلهتنا وشفعاؤنا عند الله ، وهو رب الأرباب .

(266/53)

وأما الفعل ، فقالوا : الروحانيات هم الأسباب المتوسطون في الاختراع وتصريف الأمور من حال إلى حال ، يستمدون القوة من الحضرة الإلهية ، ويفيضون الفيض على الموجودات السفلية ، فمنها مدبرات الكواكب السبع السيارة في أفلاكها وهي هياكلها ، ولكل روحاني هيكل ، ولكل هيكل فلك ، ونسبة الروحاني إلى ذلك الهيكل الذي اختص به نسبة الروح إلى الجسد ، فهو ربه ومدبره . – وكانوا يسمون الهياكل أرباباً ، وربما يسمونها آباء ، والعناصر أمهات – ، ففعل الروحانيات : تحريكها على قدر مخصوص ليحصل من حركاتها انفعالات في الطبائع والعناصر ، فيحصل من ذلك تركيبات وامتزاجات في المركبات ، فيتبعها قوى جسمانية ويركب عليها نفوس روحانية : مثل أنواع النبات وأنواع الحيوان . ثم قد تكون التأثيرات كلّية صادرة عن روحانيّ كليّ ، وقد تكون جزئية صادرة عن روحاني جزئيّ . فمع جنس المطر ملك ، ومع كل قطرة ملك . ومنها مدبرات الآثار

العلوية الظاهرة في الجوّ مما يصعد من الأرض فينزل ، مثل الأمطار والثلوج والبرد والرياح ، وما ينزل من السماء : مثل الصواعق والشهب ، وما يحدث في الجو من الرعد ، والبرق ، والسحاب ، والضباب ، وقوس قزح ، وذوات الأذناب ، والهالة ، والمجرة ، وما يحدث في الأرض من الزلازل ، والمياه ، والأبخرة ، إلى غير ذلك .

قالوا : وأما الحالة ، فأحوال الروحانيات من الروح والريحان والنعمة واللذة والسرور في جوار رب الأرباب كيف يخفى ؟ .

هذا ملخص ما أفاده العلامة الشهرستانيّ في كتاب " الملل والنحل " ثم ساق مناظرات ومحاورات بين الصابئة والحنفاء جرت في المفاضلة بين الروحاني المحض ، والبشرية النبوية . وأوردها على شكل سؤال وجواب . فلتنظر ثَمَّ .

(267/53)

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه في " الرد على المنطقيين " : إن حرّان كانت دار هؤلاء الصابئة ، وفيها ولد إبراهيم عليه السلام ، أو انتقل إليها من العراق . على اختلاف القولين وكان بها هيكل العلّة الأولى ، هيكل العقل الأول ، هيكل النفس الكلية ، هيكل زحل . هيكل المشتري . هيكل المريخ ، هيكل الشمس . وكذلك الزهرة ، وعطارد ، والقمر .

وكان هذا دينهم قبل ظهور النصرانية فيهم . ثم ظهرت النصرانية فيهم مع بقاء أولئك الصابئة المشركين ، حتى جاء الإسلام ، ولم يزل بها الصابئة والفلاسفة في دولة الإسلام إلى آخر وقت ، ومنهم الصابئة الذين كانوا ببغداد وغيرها ، أطباء وكتاباً ، وبعضهم لم يسلم . وكذلك كان دين أهل دمشق وغيرها قبل ظهور النصرانية . وكانوا يصلّون إلى القطب الشماليّ . وتحت جامع دمشق مَعْبَد كبير له قبلة إلى القطب الشماليّ كان لهؤلاء .

فإن الصابئة نوعان : صابئة حنفاء موحّدون ، وصابئة مشركون . فالأول هم الذين أثنى الله عليهم بهذه الآية . فأثنى على من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً ، من هذه الملل الأربع : المؤمنين واليهود والنصارى والصابئين ، فهؤلاء كانوا يدينون بالتوراة قبل النسخ والتبديل ، وكذلك الذين دانوا بالإنجيل قبل النسخ والتبديل .

(268/53)

والصابئون الذين كانوا قبل هؤلاء ، كالمتبعين ملة إبراهيم إمام الحنفاء قبل نزول التوراة والإنجيل . وهذا بخلاف المجوس والمشركين ، فإنه ليس فيهم مؤمن . فلهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [الحج : 17] ، فذكر الملل الست هؤلاء

، وأخبر أنه يفصل بينهم يوم القيامة . لم يذكر في الست من كان مؤمناً ، وإنما ذكر ذلك في الأربعة فقط . ثم إن الصابئين ابتدعوا الشرك فصاروا مشركين ، والفلاسفة المشركون من هؤلاء المشركين .

وأما قدماء الفلاسفة الذين كانوا يعبدون الله وحده لا يشركون به شيئاً ، ويؤمنون بأن الله محدث لهذا العالم ، ويقرون بمعاد الأبدان ، فأولئك من الصابئة الحنفاء الذين أثنى الله عليهم . ثم المشركون من الصابئة كانوا يقرون بحدوث هذا العالم كما كان المشركون من العرب يقرون بحدوثه . وكذلك المشركون من الهند . وقد ذكر أهل المقالات أن أول من ظهر عنه القول بقدمه من هؤلاء الفلاسفة المشركين ، هو أرسطو . انتهى .

وما قرره الإمام ابن تيمية ، يؤيد ما ذهب إليه كثير من المفسرين ، من أن معنى قوله تعالى : ﴿ مَنْ آمَنَ ﴾ من كان منهم في دينه قبل أن ينسخ ، مصدقاً بقلبه بالمبدأ والمعاد ، علاماً بمقتضى شرعه ، وذلك كأهل الكتابين أو كان من الصابئة الموحدين . وذهب آخرون إلى أن معنى قوله : ﴿ مَنْ آمَنَ ﴾ من أحدث من هذه الطوائف ، إيماناً خالصاً بما ذكر . قالوا : لأن مقتضى المقام هو الترغيب في دين الإسلام . وأما بيان حال من مضى على دين آخر قبل انتساخه ، فلا ملابسة له بالمقام ، والصابئون ليس لهم دين يجوز رعايته في وقت من الأوقات . فليتأمل .

وقوله تعالى : ﴿ فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ ﴾ أي : الذي وعدوه على تلك الأعمال المشروطة بالإيمان ، وهو في الأصل جعل العامل على عمله . وفي قوله : ﴿ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ مزيد لطف بهم وإيذان بأن أجرهم متيقن الثبوت ، مأمون من الفوات . وقوله تعالى : ﴿ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ أي : حين يخاف الكفار العقاب ويحزنون على تفويت الثواب .

تنبيه :

قال العلامة البقاعي في تفسيره : وحسن وضع هذه الآية ، في أثناء قصصهم ، أنهم كانوا مأمورين بقتل كل ذكر ممن عداهم . وربما أمروا بقتل النساء أيضاً . فربما ظن من ذلك أن من آمن من غيرهم لا يقبل . وقد ذكر منه في سورة المائدة ، وفي وضعها أيضاً في أثناء قصصهم ، إشارة إلى تكذيبهم في قولهم : ﴿ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ ﴾ [آل عِمْرَان : 75] وأن المدار في عصمة الدم والمال إنما هو الإيمان والاستقامة . وذلك موجود في نص التوراة في غير موضع . وفيها تهديدهم على المخالفة في ذلك بالذل والمسكنة . وسيأتي بعض ذلك عند قوله : ﴿ لا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ ﴾ [البقرة : 83] الآية . بل وفيها ما يقتضي المنع من مال المخالف في الدين ، فإنه قال في وسط السفر الثاني : وإذا لقيت ثور عدوّك أو حماره وعليه حمولة فاردها إليه . وإذا رأيت حمار عدوك جاثماً تحت حمله فهممت أن لا توازره فوازره وساعده . انتهى انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 2 صـ 349. 355 ﴾

(270/53)

ومن فوائد صاحب المنار فى الآية الكريمة

قال رحمه الله :

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

أَحَاطَ الْقَضَاءُ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ بِالْيَهُودِ فَلَمْ يَدَعْ مِنْهُمْ حَاضِرًا وَلَا غَائِبًا ، فَأَلْزَمَ

(271/53)

الذُّلَّ بَاطِنَهُمْ ، وَكَسَا بِالْمَسْكَنَةِ ظَاهِرَهُمْ ، وَبَوَّأَهُمْ مَنَازِلَ غَضَبِهِ ، وَجَعَلَ أَرْوَاحَهُمْ مَسَاقِطَ نِقَمِهِ ، فَذَلِكَ اللهُ الَّذِي يَقُولُ : (وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ) سَجَّلَتِ الْآيَةُ عَلَيْهِمْ هَذَا الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيهِمْ ، وَاسْتَشْعَرَتْ قُلُوبُهُمْ مِنْ كُفْرٍ بِآيَاتِ اللهِ ، وَانْصِرَافٍ عَنِ الْعِبْرَةِ ، وَاسْتِعْصَاءٍ عَلَى الْمَوْعِظَةِ ، وَخُرُوجٍ عَنْ حُدُودِ الشَّرِيعَةِ وَاعْتِدَاءٍ عَلَى أَحْكَامِهَا ، اقْتَرَفَ ذَلِكَ سَلَفُهُمْ ، وَتَبِعَهُمْ عَلَيْهِ خَلَفُهُمْ ، فَحُقَّتْ

عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ ، فَلَوْ قَرَّ الْخُطَّابُ عِنْدَهَا ، وَلَمْ يَتْلُهَا مِنْ رَحْمَتِهِ مَا بَعْدَهَا ، لَحُقَّ عَلَى كُلِّ يَهُودِيٍّ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ أَنْ يَيْأَسَ ، وَأَنْ لَا يَبْقَى عِنْدَهُ لِلْأَمَلِ فِي عَفْوِ اللهِ مُتَنَفَّسٌ ، بَلْ كَانَ ذَلِكَ الْقُنُوطُ لَازِمًا لِكُلِّ عَاصٍ ، قَابِضًا عَلَى نَفْسِ كُلِّ مُعْتَدٍ ، لَا فَرْقَ بَيْنَ الْيَهُودِ وَغَيْرِهِمْ ، فَإِنَّ سَبَبَ مَا نَزَلَ بِالْيَهُودِ إِنَّمَا هُوَ عِصْيَانُهُمْ وَاعْتِدَاؤُهُمْ حُدُودَ مَا شَرَعَ اللهُ لَهُمْ ، وَسُنَنُ اللهِ فِي خَلْقِهِ لَا تَتَغَيَّرُ وَأَحْكَامُهُ الْعَادِلَةُ فِيهِمْ لَا تَتَبَدَّلُ ؛ لِهَذَا جَاءَ قَوْلُهُ – تَعَالَى – : (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا) . . . إِلَخْ ، بِمَنْزِلَةِ الِاسْتِثْنَاءِ مِنْ حُكْمِ الْآيَةِ السَّابِقَةِ ، وَإِنَّمَا وَرَدَ عَلَى هَذَا الْأُسْلُوبِ الْبَدِيعِ مُتَضَمِّنًا لِجَمِيعِ مَنْ تَمَسَّكَ بِهَدْيِ نَبِيٍّ سَابِقٍ وَانْتَسَبَ إِلَى شَرِيعَةٍ سَمَاوِيَّةٍ مَاضِيَةٍ ؛ لِيَدُلَّ عَلَى أَنَّ الْجَزَاءَ السَّابِقَ ، وَإِنْ حُكِيَ

(272/53)

عَلَى أَنَّهُ مِنْ خَطَأِ الْيَهُودِ خَاصَّةً ، لَمْ يُصِبْهُمْ إِلَّا لِجَرِيمَةٍ قَدْ تَشْمَلُ الشُّعُوبَ عَامَّةً ، وَهِيَ الْفُسُوقُ عَنْ أَوَامِرِ اللهِ وَانْتِهَاكُ حُرُمَاتِهِ ، فَكُلُّ مَنْ أَجْرَمَ كَمَا أَجْرَمُوا سَقَطَ عَلَيْهِ مِنْ غَضَبِ اللهِ مَا سَقَطَ عَلَيْهِمْ ، وَعَلَى أَنَّ اللهَ جَلَّ شَأْنُهُ لَمْ يَأْخُذْهُمْ بِمَا أَخَذَهُمْ لِأَمْرٍ يَخْتَصُّ بِهِمْ عَلَى أَنَّهُمْ مِنْ شَعْبِ إِسْرَائِيلَ أَوْ مِنْ مِلَّةِ يَهُودٍ ، بَلْ (ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ) .

وَأَمَّا أَنْسَابُ الشُّعُوبِ وَمَا تَدِينُ بِهِ مِنْ دِينٍ وَمَا تَتَّخِذُهُ مِنْ مِلَّةٍ ، فَكُلُّ ذَلِكَ لَا أَثَرَ لَهُ فِي رِضَاءِ

اللهِ وَلَا غَضَبِهِ ، وَلَا يَتَعَلَّقُ بِهِ رِفْعَةُ شَأْنِ قَوْمٍ وَلَا ضِعَتُهُمْ ، بَلْ عِمَادُ الْفَلَاحِ وَوَسِيلَةِ الْفَوْزِ بِخَيْرَيِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ إِنَّمَا هُوَ صِدْقُ الْإِيمَانِ بِاللهِ – تَعَالَى – ، بِأَنْ يَكُونَ التَّصْدِيقُ بِهِ سُطُوعًا عَلَى النَّفْسِ مِنْ مَشْرِقِ الْبُرْهَانِ ، أَوْ جَيَشَانًا فِي الْقَلْبِ مِنْ عَيْنِ الْوِجْدَانِ ، فَيَكُونُ الِاعْتِقَادُ بِوُجُودِهِ وَصِفَاتِهِ خَالِيًا مِنْ شَوْبِ التَّشْبِيهِ وَالتَّمْثِيلِ ، وَالْيَقِينُ فِي نِسْبَةِ الْأَفْعَالِ إِلَيْهِ خَالِصًا مِنْ وَسَاوِسِ الْوَهْمِ وَالتَّخْيِيلِ ، وَيَكُونُ الْمُؤْمِنُ قَدِ ارْتَقَى بِإِيمَانِهِ مُرْتَقًى يَشْعُرُ فِيهِ بِالْجَلَالِ الْإِلَهِيِّ .

فَإِذَا رَفَعَ بَصَرَهُ إِلَى الْجَنَابِ الْأَرْفَعِ أَغْضَى هَيْبَةً وَأَطْرَقَ إِلَى أَرْضِ الْعُبُودِيَّةِ خُشُوعًا ، وَإِذَا أَطْلَقَ نَظَرَهُ

(273/53)

فِيمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ، مِمَّا سَلَّطَهُ اللهُ عَلَيْهِ ، شَعَرَ فِي نَفْسِهِ عِزَّةً بِاللهِ ، وَوَجَدَ فِيهَا قُوَّةً تَصْرِفُهُ بِالْحَقِّ فِيمَا يَقَعُ تَحْتَ قُوَاهُ . لَا يَعْدُو حَدًّا ضُرِبَ لَهُ ، وَلَا يَقِفُ دُونَ غَايَةٍ قُدِّرَ لَهُ أَنْ يَصِلَ إِلَيْهَا ، فَيَكُونُ عَبْدًا لِلَّهِ وَحْدَهُ ، سَيِّدًا لِكُلِّ شَيْءٍ بَعْدَهُ .

كَتَبَ مَا تَقَدَّمَ الْأُسْتَاذُ بِقَلَمِهِ ؛ إِذِ اقْتَرَحْتُ أَنْ يَكْتُبَ تَفْسِيرَ الْآيَةِ كَمَا قَرَّرَهُ فِي دَرْسِهِ وَإِنِّي أُتِمُّهُ عَلَى الْمَنْهَجِ الَّذِي جَرَيْتُ عَلَيْهِ فَأَقُولُ :

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (62)

(274/53)

هَذَا هُوَ الْإِيمَانُ الْمَرْضِيُّ عِنْدَ اللهِ – تَعَالَى – الَّذِي يَكُونُ أَصْلًا لِتَهْذِيبِ أَخْلَاقِ صَاحِبِهِ ، وَمَصْدَرًا لِلْأَعْمَالِ الْحَسَنَةِ عَنْهُ . وَلِلْإِيمَانِ إِطْلَاقٌ آخَرُ وَهُوَ التَّصْدِيقُ بِالدِّينِ فِي الْجُمْلَةِ ، أَيِ الْإِيمَانُ بِاللهِ ، وَبِأَنَّ مَا جَاءَ بِهِ فُلَانٌ النَّبِيُّ مَثَلًا هُوَ صَحِيحٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ عَلَى اللهِ – تَعَالَى – وَيَدْخُلُ فِيهِ أَهْلُ الْفِرَقِ الضَّالَّةِ مِنْ كُلِّ دِينٍ مِنَ الْأَدْيَانِ السَّمَاوِيَّةِ ، فَهُوَ إِطْلَاقٌ صَحِيحٌ لُغَةً وَعُرْفًا كَمَا تَقَدَّمَ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ – تَعَالَى – : (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ) أَيْ إِنَّهُمْ يُصَدِّقُونَ بِأَنَّ لِلْعَالَمِ إِلَهًا ، وَبِأَنَّ بَعْدَ الْمَوْتِ بَعْثًا ، وَلَكِنَّ هَذَا الْإِيمَانَ لَيْسَ مُطَابِقًا فِي تَفْصِيلِهِ لِلْإِذْعَانِ الَّذِي لَهُ السُّلْطَانُ الْأَعْلَى عَلَى النُّفُوسِ فِي تَزْكِيَتِهَا وَتَهْذِيبِهَا وَحَمْلِهَا عَلَى الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ ، وَهَذَا الْإِطْلَاقُ هُوَ الَّذِي عَنَاهُ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ بِقَوْلِهِ : لَا أَثَرَ لَهُ فِي رِضَا اللهِ وَلَا غَضَبِهِ . . . إِلَخْ ، وَهُوَ كَوْنُ الدِّينِ جِنْسِيَّةً لِمَنْ يَنْتَسِبُ إِلَيْهِ ، فَقَوْلُهُ – تَعَالَى – : (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا) مُرَادٌ بِهِ الْمُسْلِمُونَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مُحَمَّدًا – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَالَّذِينَ سَيَتَّبِعُونَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَكَانُوا يُسَمَّوْنَ

الْمُؤْمِنِينَ وَالَّذِينَ آمَنُوا . وَقَوْلُهُ : (وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ) يُرَادُ بِهِ هَذِهِ الْفِرَقُ مِنَ النَّاسِ الَّتِي عُرِفَتْ بِهَذِهِ الْأَسْمَاءِ أَوِ

(275/53)

الْأَلْقَابِ مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا الْأَنْبِيَاءَ السَّابِقِينَ ، وَأُطْلِقَ عَلَى بَعْضِهِمْ لَفْظُ يَهُودٍ وَالَّذِينَ هَادُوا ، وَعَلَى بَعْضِهِمْ لَفْظُ النَّصَارَى ، وَعَلَى بَعْضِهِمْ لَفْظُ الصَّابِئِينَ (مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ وَالْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا) هَذَا بَدَلٌ مِمَّا قَبْلَهُ ؛ أَيْ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللهِ إِيمَانًا صَحِيحًا – وَتَقَدَّمَ شَرْحُهُ وَوَصْفُهُ آنِفًا – وَآمَنَ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ كَذَلِكَ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهُمَا فِي أَوَائِلِ السُّورَةِ ، وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا تَصْلُحُ بِهِ نَفْسُهُ وَشُئُونُهُ مَعَ مَنْ يَعِيشُ مَعَهُ ، وَمَا الْعَمَلُ الصَّالِحُ بِمَجْهُولٍ فِي عُرْفِ هَؤُلَاءِ الْأَقْوَامِ ، وَقَدْ بَيَّنَتْهُ كُتُبُهُمْ أَتَمَّ بَيَانٍ ، (فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) أَيْ إِنَّ حُكْمَ اللهِ الْعَادِلَ ، سَوَاءٌ وَهُوَ يُعَامِلُهُمْ بِسُنَّةٍ وَاحِدَةٍ لَا يُحَابِي فِيهَا فَرِيقًا وَيَظْلِمُ فَرِيقًا . وَحُكْمُ هَذِهِ السُّنَّةِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرَهُمُ الْمَعْلُومَ بِوَعْدِ اللهِ لَهُمْ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِمْ ، وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ مِنْ عَذَابِ اللهِ يَوْمَ يَخَافُ الْكُفَّارُ وَالْفُجَّارُ مِمَّا يَسْتَقْبِلُهُمْ ، وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ عَلَى شَيْءٍ فَاتَهُمْ . وَتَقَدَّمَ هَذَا التَّعْبِيرُ فِي الْآيَةِ مَعَ تَفْسِيرِهِ .

(276/53)

فَالْآيَةُ بَيَانٌ لِسُنَّةِ اللهِ - تَعَالَى - فِي مُعَامَلَةِ الْأُمَمِ ، تَقَدَّمَتْ أَوْ تَأَخَّرَتْ ، فَهُوَ عَلَى حَدِّ قَوْلِهِ - تَعَالَى - : (لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا) (4 : 133 - 124) فَظَهَرَ بِذَلِكَ أَنَّهُ لَا إِشْكَالَ فِي حَمْلِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ . . . إِلَخْ عَلَى قَوْلِهِ : (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا) . . . إِلَخْ ، وَلَا إِشْكَالَ فِي عَدَمِ اشْتِرَاطِ الْإِيمَانِ بِالنَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ لِأَنَّ الْكَلَامَ فِي مُعَامَلَةِ اللهِ - تَعَالَى - لِكُلِّ الْفِرَقِ أَوِ الْأُمَمِ الْمُؤْمِنَةِ بِنَبِيٍّ وَوَحْيٍ بِخُصُوصِهَا ؛

الظَّانَّةِ أَنَّ فَوْزَهَا فِي الْآخِرَةِ كَائِنٌ لَا مَحَالَةَ ؛ لِأَنَّهَا مُسْلِمَةٌ أَوْ يَهُودِيَّةٌ أَوْ نَصْرَانِيَّةٌ أَوْ صَابِئَةٌ مَثَلًا ، فَاللهُ يَقُولُ : إِنَّ الْفَوْزَ لَا يَكُونُ بِالْجِنْسِيَّاتِ الدِّينِيَّةِ ، وَإِنَّمَا يَكُونُ بِإِيمَانٍ صَحِيحٍ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى النَّفْسِ ، وَعَمَلٍ يَصْلُحُ بِهِ حَالُ النَّاسِ ؛ وَلِذَلِكَ نَفَى كَوْنَ الْأَمْرِ عِنْدَ اللهِ بِحَسْبِ أَمَانِيِّ الْمُسْلِمِينَ أَوْ أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ ، وَأَثْبَتَ كَوْنَهُ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ مَعَ الْإِيمَانِ الصَّحِيحِ .

أَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ السُّدِّيِّ قَالَ : الْتَقَى نَاسٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ، فَقَالَ الْيَهُودُ لِلْمُسْلِمِينَ : نَحْنُ خَيْرٌ مِنْكُمْ ، دِينُنَا قَبْلَ دِينِكُمْ ، وَكِتَابُنَا قَبْلَ كِتَابِكُمْ ، وَنَبِيُّنَا قَبْلَ نَبِيِّكُمْ ، وَنَحْنُ عَلَى دِينِ إِبْرَاهِيمَ ، وَلَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا ، وَقَالَتِ النَّصَارَى مِثْلَ ذَلِكَ ، فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ : كِتَابُنَا بَعْدُ كِتَابِكُمْ ، وَنَبِيُّنَا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بَعْدُ نَبِيِّكُمْ ، وَدِينُنَا بَعْدُ دِينِكُمْ ، وَقَدْ أُمِرْتُمْ أَنْ تَتْبَعُونَا وَتَتْرُكُوا أَمْرَكُمْ ، فَنَحْنُ خَيْرٌ مِنْكُمْ ، نَحْنُ عَلَى دِينِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ، وَلَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ عَلَى دِينِنَا ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ - تَعَالَى - : (لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ) (4 : 12) الْآيَةَ . وَرُوِيَ نَحْوُهُ عَنْ مَسْرُوقٍ وَقَتَادَةَ . وَأَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ فِي التَّارِيخِ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ مَرْفُوعًا (لَيْسَ الْإِيمَانُ بِالتَّمَنِّي ، وَلَكِنْ مَا وَقَرَ فِي الْقَلْبِ وَصَدَّقَهُ الْعَمَلُ . إِنَّ قَوْمًا أَلْهَتْهُمْ أَمَانِيُّ الْمَغْفِرَةِ حَتَّى خَرَجُوا مِنَ الدُّنْيَا وَلَا حَسَنَةَ لَهُمْ ، وَقَالُوا : نَحْنُ نُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللَّهِ - تَعَالَى - وَكَذَبُوا ، لَوْ أَحْسَنُوا الظَّنَّ لَأَحْسَنُوا الْعَمَلَ) .

(278/53)

وَالْحِكْمَةُ فِي عِنَايَةِ اللَّهِ - تَعَالَى - بِالنَّعْيِ عَلَى الْمُغْتَرِّينَ بِالِانْتِسَابِ إِلَى الدِّينِ - أَيًّا كَانَ - ظَاهِرَةٌ ، فَإِنَّ هَذَا الْغُرُورَ هُوَ الَّذِي صَرَفَهُمْ عَنِ الْعَمَلِ بِهِ اكْتِفَاءً بِالِانْتِسَابِ إِلَيْهِ وَجَعْلِهِ

جِنْسِيَّةً فَقَطْ . وَتَرْكُ الْعَمَلِ لَازِمٌ أَوْ مَلْزُومٌ لِعَدَمِ الْفِقْهِ فِي الدِّينِ ، أَيْ عَدَمِ فَهْمِ حِكَمِهِ وَأَسْرَارِهِ ، وَتَبِعَ هَذَا فِي الْأُمَمِ السَّابِقَةِ تَرْكُ النَّظَرِ فِيمَا جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - ؛ لِأَنَّ الْمَغْرُورَ بِمَا هُوَ فِيهِ لَا يَنْظُرُ فِيمَا سِوَاهُ نَظَرًا صَحِيحًا لَا سِيَّمَا إذَا كَانَ مُخَالِفًا لَهُ .

(279/53)

وَذَكَرَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ مَسْأَلَةَ أَهْلِ الْفَتْرَةِ وَالْخِلَافَ الْمَشْهُورَ فِيهَا ، وَهُوَ أَنَّ جُمْهُورَ أَهْلِ السُّنَّةِ يَقُولُ : إنَّهُمْ نَاجُونَ ؛ لِأَنَّهُ لَا تَكْلِيفَ إلَّا بِشَرْعٍ ، وَهَؤُلَاءِ لَمْ تَبْلُغْهُمْ دَعْوَةٌ ، وَمَنْ قَالَ : إنَّ بِالْعَقْلِ يُدْرَكُ الْوَاجِبُ وَالْمُحَرَّمُ وَالِاعْتِقَادُ الصَّحِيحُ وَالْبَاطِلُ ، عَدَّهُمْ غَيْرَ نَاجِينَ . وَهَذَا رَأْيُ الْمُعْتَزِلَةِ وَجَمَاعَةٍ مِنَ الْحَنَفِيَّةِ ، وَجُمْهُورُ الْأَشَاعِرَةِ عَلَى أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ إدْرَاكُ ذَلِكَ إلَّا بِالشَّرْعِ ، ثُمَّ إنَّ مَحَلَّ النَّظَرِ فِي أَهْلِ الْفَتْرَةِ مَنْ كَانَ مِنْهُمْ كَالْعَرَبِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْتَقِدُونَ نُبُوَّةَ أَنْبِيَاءَ وَلَا يَجِدُونَ لَدَيْهِمْ شَيْئًا مِنْ أَحْكَامِ دِينِهِمْ خَالِصًا مِنَ الشَّوَائِبِ ، سَالِمًا مِنَ النَّزَعَاتِ الْفَاسِدَةِ . وَأَمَّا مِثْلُ الْيَهُودِ فَلَا يَصِحُّ أَنْ يُسَمَّوْا أَهْلَ فَتْرَةٍ ، فَإِنَّهُمْ عَلَى نِسْيَانِهِمْ حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ، وَتَحْرِيفِهِمْ بَعْضَ مَا حَفِظُوا ، قَدْ بَقِيَ جَوْهَرُ دِينِهِمْ مَعْرُوفًا لَمْ يَغْشَ أَحْكَامَهُ مَا يَمْنَعُ الِاهْتِدَاءَ بِهَا ، وَاللهُ - تَعَالَى - يَقُولُ : (وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللهِ)

(5 : 43) وَكَذَلِكَ الْمَسِيحِيُّونَ لَا يُسَمَّوْنَ أَهْلَ فَتْرَةٍ ؛ لِأَنَّ عِنْدَهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ وَوَصَايَا الْأَنْبِيَاءِ مَا عِنْدَ الْيَهُودِ وَزِيَادَةً مِمَّا حَفِظُوا مِنْ وَصَايَا الْمَسِيحِ ، وَرُوحُ الدَّعْوَةِ مَوْجُودٌ عِنْدَهُمْ ، وَلَكِنَّهُمْ لَا يَعْمَلُونَ بِهَذِهِ الْوَصَايَا وَلَا يَأْخُذُونَ بِتِلْكَ

(280/53)

الْأَحْكَامِ ، وَلَا عُذْرَ لَهُمْ يَحُولُ دُونَ الْعُقُوبَةِ . وَأَمَّا الصَّابِئُونَ فَإِنْ كَانُوا فِرْقَةً مِنَ النَّصَارَى كَمَا يَظْهَرُ مِنَ الْوِفَاقِ بَيْنَهُمَا فِي كَثِيرٍ مِنَ التَّقَالِيدِ ، كَالْمَعْمُودِيَّةِ وَالِاعْتِرَافِ وَتَعْظِيمِ يَوْمِ الْأَحَدِ ، فَالْأَمْرُ ظَاهِرٌ أَنَّ حُكْمَهُمْ كَحُكْمِهِمْ ، وَإِنْ كَانَ الْخَلْطُ عِنْدَهُمْ أَكْثَرَ ، وَالْبُعْدُ عَنِ الْأَصْلِ أَشَدَّ ، حَتَّى إِنَّهُمُ اعْتَقَدُوا تَأْثِيرَ الْكَوَاكِبِ ، وَأَحَاطَتْ بِهِمُ الْبِدَعُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ، عَلَى أَنَّهُمْ أَقْرَبُ إِلَى رُوحِ الْمَسِيحِيَّةِ مِنَ النَّصَارَى ، فَإِنَّ عِنْدَهُمُ الزُّهْدَ وَالتَّوَاضُعَ اللَّذَيْنِ يَفِيضَانِ مِنْ كُلِّ كَلِمَةٍ

تُؤْثَرُ عَنِ الْمَسِيحِ – عَلَيْهِ السَّلَامُ – ، وَالنَّصَارَى صَارُوا أَشَدَّ أُمَمِ الْأَرْضِ عُتُوًّا وَطَمَعًا وَإِسْرَافًا فِي حُظُوظِ الدُّنْيَا . وَيُقَالُ : إِنَّ الصَّابِئَةَ مِلَّةٌ مُسْتَقِلَّةٌ يُؤْمِنُونَ بِكَثِيرٍ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ الْمَعْرُوفِينَ ، وَلَكِنْ قَدِ اخْتَلَطَ عَلَيْهِمُ الْأَمْرُ كَمَا اخْتَلَطَ عَلَى الْحُنَفَاءِ الْعَرَبِ إِلَّا أَنَّ عِنْدَهُمْ مِنَ التَّقَالِيدِ وَالْأَحْكَامِ مَا لَمْ يَكُنْ عِنْدَ الْعَرَبِ ، فَإِنْ كَانُوا أَقْرَبَ إِلَيْهِمْ ، فَلَهُمْ حُكْمُهُمْ ، وَإِلَّا

فَهُمْ كَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى يُسْأَلُونَ عَنِ الْعَمَلِ بِدِينِهِمْ بَعْدَ فَهْمِهِ كَمَا يَجِبُ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ هَدْيٌ آخَرُ ، كَأَنْ تَبْلُغَهُمْ دَعْوَةُ الْإِسْلَامِ ، فَإِنْ لَمْ يَفْعَلُوا فَهُمْ مُؤَاخَذُونَ .

(281/53)

عَلِمْنَا أَنَّ أَهْلَ الْفَتْرَةِ : هُمُ الَّذِينَ لَمْ تَبْلُغْهُمْ دَعْوَةٌ صَحِيحَةٌ تُحَرِّكُ إِلَى النَّظَرِ ، أَوْ بَلَغَهُمْ أَنَّ بَعْضَ الْأَنْبِيَاءِ بُعِثُوا ، وَلَكِنْ لَمْ يَصِلْ إِلَيْهِمْ شَيْءٌ صَحِيحٌ مِنْ شَرَائِعِهِمْ ، فَهُمْ يُؤْمِنُونَ بِهِمْ إِيمَانًا إِجْمَالِيًّا ، كَالْحُنَفَاءِ مِنَ الْعَرَبِ الَّذِينَ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِإِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ ، وَلَا يَعْرِفُونَ مِنْ دِينِهِمَا شَيْئًا خَالِصًا كَمَا تَقَدَّمَ آنِفًا . وَحُجَّةُ الْأَشَاعِرَةِ عَلَى عَدَمِ مُؤَاخَذَتِهِمْ آيَاتٌ كَقَوْلِهِ – تَعَالَى – : (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا) (17 : 15) وَقَوْلِهِ : (لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ) (4 : 165) وَذَهَبَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ إِلَى الِاكْتِفَاءِ بِبُلُوغِ دَعْوَةِ أَيِّ نَبِيٍّ فِي رُكْنَيِ الدِّينِ الرَّكِينَيْنِ ، وَهُمَا الْإِيمَانُ بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ ، فَمَنْ بَلَغَتْهُ ، وَجَبَ عَلَيْهِ الْإِيمَانُ بِهَذَيْنِ الْأَصْلَيْنِ . وَإِنْ لَمْ يَكُنِ النَّبِيُّ مُرْسَلًا إِلَيْهِ .

وَذَهَبَ جُمْهُورُ الْحَنَفِيَّةِ وَكَذَلِكَ الْمُعْتَزِلَةُ إِلَى أَنَّ أُصُولَ الِاعْتِقَادِ تُدْرَكُ بِالْعَقْلِ ، فَلَا تَتَوَقَّفُ الْمُؤَاخَذَةُ عَلَيْهَا عَلَى بُلُوغِ دَعْوَةِ رَسُولٍ ، وَإِنَّمَا يَجِيءُ الرُّسُلُ مُؤَكِّدِينَ لِمَا يَفْهَمُ الْعَقْلُ

مُوَضِّحِينَ لَهُ وَمُبَيِّنِينَ أُمُورًا لَا يَسْتَقِلُّ بِإِدْرَاكِهَا ، كَأَحْوَالِ الْآخِرَةِ وَكَيْفِيَّاتِ الْعِبَادَةِ الَّتِي تُرْضِي اللَّهَ – تَعَالَى .

(282/53)

وَأَوَّلُوا آيَةَ : (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا) (17 : 15) بِأَنَّ الْمُرَادَ بِالتَّعْذِيبِ هُوَ الِاسْتِئْصَالُ فِي الدُّنْيَا بِإِفْنَاءِ الْأُمَّةِ أَوِ اسْتِذْلَالِهَا ، وَالذَّهَابِ بِاسْتِقْلَالِهَا ، وَيُنَافِيهِ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ اسْتِعْمَالُ (وَمَا كُنَّا) مِنْ إِرَادَةِ نَفْيِ الشَّأْنِ الدَّالِّ عَلَى عُمُومِ السَّلْبِ ، وَلَهُمْ فِي كُتُبِهِمْ أَدِلَّةٌ وَمُنَاقَشَاتٌ لَيْسَ هَذَا مِنْ مَوَاضِعِهَا .

وَعَنِ الْإِمَامِ الْغَزَالِيِّ : أَنَّ النَّاسَ فِي شَأْنِ بَعْثَةِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ – أَصْنَافٌ ثَلَاثَةٌ : مَنْ لَمْ يَعْلَمْ بِهَا بِالْمَرَّةِ – أَيْ كَأَهْلِ أَمْرِيكَا لِذَلِكَ الْعَهْدِ – هَؤُلَاءِ نَاجُونَ حَتْمًا (أَيْ إِنْ لَمْ تَكُنْ بَلَغَتْهُمْ دَعْوَةٌ أُخْرَى صَحِيحَةٌ) . وَمَنْ بَلَغَتْهُ الدَّعْوَةُ عَلَى وَجْهِهَا وَلَمْ يَنْظُرْ فِي أَدِلَّتِهَا

إِهْمَالًا أَوْ عِنَادًا

أَوِ اسْتِكْبَارًا وَهَؤُلَاءِ مُؤَاخَذُونَ حَتْمًا . وَمَنْ بَلَغَتْهُ

عَلَى غَيْرِ وَجْهِهَا أَوْ مَعَ فَقْدِ شَرْطِهَا ، وَهُوَ أَنْ تَكُونَ عَلَى وَجْهٍ يُحَرِّكُ دَاعِيَةَ النَّظَرِ ، وَهَؤُلَاءِ فِي مَعْنَى الصِّنْفِ الْأَوَّلِ . هَذَا مَعْنَى عِبَارَتِهِ الْمُطَابِقَةِ لِأُصُولِ الْكَلَامِ .

(283/53)

(وَأَقُولُ) عِبَارَتُهُ فِي كِتَابِ فَيْصَلِ التَّفْرِقَةِ فِي هَذَا الصِّنْفِ هِيَ : وَصِنْفٌ ثَالِثٌ بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ بَلَغَهُمُ اسْمُ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَلَمْ يَبْلُغْهُمْ نَعْتُهُ وَصِفَتُهُ ، بَلْ سَمِعُوا مُنْذُ الصِّبَا أَنَّ كَذَّابًا مُدَلِّسًا اسْمُهُ مُحَمَّدٌ ادَّعَى النُّبُوَّةَ كَمَا سَمِعَ صِبْيَانُنَا أَنَّ كَذَّابًا يُقَالُ لَهُ : (الْمُقَفَّعُ) (لَعَنَهُ اللَّهُ) تَحَدَّى بِالنُّبُوَّةِ كَاذِبًا ، فَهَؤُلَاءِ عِنْدِي فِي مَعْنَى الصِّنْفِ الْأَوَّلِ ، فَإِنَّ أُولَئِكَ مَعَ أَنَّهُمْ لَمْ يَسْمَعُوا اسْمَهُ لَمْ يَسْمَعُوا ضِدَّ أَوْصَافِهِ ، وَهَؤُلَاءِ سَمِعُوا ضِدَّ أَوْصَافِهِ ، وَهَذَا لَا يُحَرِّكُ دَاعِيَةَ النَّظَرِ فِي الطَّلَبِ اهـ .

(284/53)

وَأَقُولُ فِي حَلِّ مَعْنَى الْآيَةِ عَلَى هَذَا : إِنَّ أَهْلَ الْأَدْيَانِ الْإِلَهِيَّةِ – وَهُمُ الَّذِينَ بَلَغَتْهُمْ دَعْوَةُ نَبِيٍّ عَلَى وَجْهِهَا وَبِشَرْطِهَا – إِذَا آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ عَلَى الْوَجْهِ الصَّحِيحِ الَّذِي بَيَّنَهُ نَبِيُّهُمْ وَعَمِلُوا الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ ، فَهُمْ نَاجُونَ مَأْجُورُونَ عِنْدَ اللَّهِ – تَعَالَى – ، وَإِذَا آمَنُوا عَلَى غَيْرِ الْوَجْهِ الصَّحِيحِ ، كَالْمُشَبِّهَةِ وَالْحُلُولِيَّةِ وَالِاتِّحَادِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ ، فَلَا يَنَالُهُمْ مِنْ هَذَا الْوَعْدِ

شَيْءٌ ، بَلْ يَتَنَاوَلُهُمُ الْوَعِيدُ الْمَذْكُورُ فِي الْآيَاتِ الْأُخْرَى ، وَكَذَلِكَ حَالُ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِأَقْوَالِهِمْ دُونَ أَعْمَالِهِمْ ، فَإِنَّ الْإِيمَانَ الصَّحِيحَ هُوَ صَاحِبُ السُّلْطَانِ الْأَعْلَى عَلَى الْقَلْبِ ، وَالْإِرَادَةِ الَّتِي تُحَرِّكُ الْأَعْضَاءَ فِي الْأَعْمَالِ ، فَإِنْ نَازَعَهُ فِي سُلْطَانِهِ طَائِفٌ مِنَ الشَّهْوَةِ فَإِنَّهُ لَا يَلْبَثُ أَنْ يَقْهَرَهُ (إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ) (7 : 201) ثُمَّ أَزِيدُ الْآنَ عَلَى مَا تَقَدَّمَ أَنَّ كُلَّ هَذِهِ الْأَقْوَالِ وَالتَّفْصِيلَاتِ إِنَّمَا هِيَ فِي الْمُؤَاخَذَةِ عَلَى اتِّبَاعِ دَعْوَةِ الرُّسُلِ وَعَدَمِهَا . وَلَا يُعْقَلُ أَنْ يَكُونَ مَنْ لَمْ تَبْلُغْهُمُ الدَّعْوَةُ بِشَرْطِهَا أَوْ مُطْلَقًا نَاجِينَ عَلَى سَوَاءٍ ، وَأَنْ يَكُونُوا كُلُّهُمْ فِي الْجَنَّةِ كَأَتْبَاعِ الرُّسُلِ فِي الْإِيمَانِ الصَّحِيحِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ . إِذْ لَوْ صَحَّ هَذَا لَكَانَ بَعْثُ الرُّسُلِ شَرًّا مِنْ عَدَمِهِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى أَكْثَرِ النَّاسِ .

وَالْمَعْقُولُ الْمُوَافِقُ

(285/53)

لِلنُّصُوصِ أَنَّ اللهَ – تَعَالَى – يُحَاسِبُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ لَمْ تَبْلُغْهُمْ دَعْوَةٌ مَا بِحَسْبِ مَا عَقَلُوا وَاعْتَقَدُوا مِنَ الْحَقِّ وَالْخَيْرِ وَمُقَابِلِهِمَا ، وَسَتَجِدُ تَفْصِيلَ هَذَا فِي مَوْضِعٍ آخَرَ مِنْ هَذَا التَّفْسِيرِ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير المنار حـ 1 صـ 277. 281 ﴾

(286/53)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾

بعد أن تحدث الحق سبحانه وتعالى عن بني إسرائيل وكيف كفروا بنعمه . . أراد أن يعرض لنا حساب الأمم التي سبقت أمم رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم القيامة ، ولقد وردت هذه الآية في سورة المائدة ولكن بخلاف يسير من التقديم والتأخير . . ففي سورة المائدة :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى ﴾ [المائدة : 69]

أي أنه في سورة المائدة تقدمت الصابئون على النصارى . . واختلف الإعْراب فبينما في البقرة و " الصابئين " . . وفي المائدة و " الصابئون " . . وردت آية أخرى في سورة الحج :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [الحج : 17]

الآيات الثلاث تبدو متشابهة . . إلا أنَّ هناك خلافات كثيرة . . ما هو سبب التكرار الموجود في الآيات . . وتقديم الصابئين مرة وتأخيرها . . ومع تقديمها رفعت وتغير الإعراب . . وفي الآيتين الأوليين (البقرة والمائدة) تأتي : ﴿ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ . . أما في الآية التي في

سورة الحج فقد زاد فيها : ﴿ الْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ . . واختلف فيها الخبر . .

فقال الله سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ ﴾ .

(287/53)

عندما خلق الله وأنزله ليعمر الأرض أنزل معه الهدى . . واقرأ قوله تعالى : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾ [طه : 123]

مفروض أن آدم أبلغ المنهج لأولاده . . وهؤلاء أبلغوه لأولادهم وهكذا . . وتشغل الناس الحياة وتطرأ عليهم الغفلة . . ويصيبهم طمع الدنيا وجشعها ويتبعون شهواتهم . . فكان لابد من رحمة الله لخلقه أن يأتي الرسل ليذكروا وينذروا ويبشروا . .

الآية الكريمة تقول : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ . . أي إيمان الفطرة الذي نزل مع آدم إلى الأرض . . وبعد ذلك جاءت أديان كفر الناس بها فأبيدوا من على الأرض . . كقوم نوح ولوط وفرعون وغيرهم . . وجاءت أديان لها اتباع حتى الآن كاليهودية والنصرانية والصابئية ، والله سبحانه وتعالى يريد أن يجمع كل ما سبق في رسالة محمد عليه الصلاة والسلام . . ورسول الله صلى الله عليه وسلم جاء لتصفية الوضع الإيماني في الأرض . . إذن الذين آمنوا أولا سواء مع آدم أو مع الرسل . . الذين جاءوا بعده لمعالجة الداءات التي

وقعت . . ثم الذين تسموا باليهود والذين تسموا بالنصارى والذين تسموا بالصابئة . . فالله تبارك وتعالى يريد أن يبلغهم لقد انتهى كل هذا . . فمن آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . . فكأن رسالته عليه الصلاة والسلام جاءت لتصفية كل الأديان السابقة .

(288/53)

. وكل إنسان في الكون مطالب بأن يؤمن بمحمد عليه الصلاة والسلام . . فقد دعى الناس كلهم إلى الإيمان برسالته . . ولو بقي إنسان من عهد آدم أو من عهد إدريس أو من عهد نوح أو إبراهيم أو هود . . وأولئك الذين نسبوا إلى اليهودية وإلى النصرانية وإلى الصابئية . . كل هؤلاء مطالبون بالإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم والتصديق بدين الإسلام . . فالإسلام يمسح العقائد السابقة في الأرض . . ويجعلها مركزة في دين واحد . . الذين آمنوا بهذا الدين : ﴿ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ . . والذين لم يؤمنوا لهم خوف وعليهم حزن . . وهذا إعلان بوحدة دين جديد . . ينتظم فيه كل من في الأرض إلى أن تقوم الساعة . . أما أولئك الذين ظلوا على ما هم عليه . . ولم يؤمنوا بالدين الجديد . . لا يفصل الله بينهم إلا يوم القيامة . . ولذلك فإن الآية التي تضمنت الحساب والفصل يوم القيامة . . جاء فيها كل من

لم يؤمن بدين محمد عليه الصلاة والسلام . . بما فيهم المجوس والذين أشركوا .

والحق تبارك وتعالى أراد أن يرفع الظن . . عمن تبع دينا سبق الإسلام وبقي عليه بعد السلام . . وهو يظن أن هذا الدين نافعه . . نقول له أن الحق سبحانه وتعالى قد حسم هذه القضية في قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ [آل عمران : 85]

وقوله جل جلاله : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ ﴾ [آل عمران : 19]

(289/53)

إذن التصفية النهائية لموكب الإيمان والرسالات في الوجود حسمت . . فالذي آمن بمحمد عليه الصلاة والسلام . . لا يخاف ولا يحزن يوم القيامة . . والذي لم يؤمن يقول الله تبارك وتعالى له ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ ﴾ . . إذن الذين آمنوا هم الذين ورثوا الإيمان من عهد آدم . . والذين هادوا هم أتباع موسى عليه السلام . . وجاء الاسم من قولهم : " إنا هدنا إليك " . أي عدنا إليك . . والنصارى جمع نصراني وهم منسوبون إلى الناصرة البلدة التي ولد فيها عيسى عليه السلام . . أو من قول الحواريين نحن أنصار الله في قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : 52]

أما الصابئة فقد اختلف العلماء فيهم . . قال بعضهم هم أتباع نوح ولكنهم غيروا بعده وعبدوا من دون الله الوسائط في الكون كالشمس والقمر والكواكب . . أو الصابئة هم الذين انتقلوا من الدين الذي كان يعاصرهم إلى الدين الجديد . . أو هم جماعة من العقلاء قالوا ما عليه قومنا لا يقنع العقل . . كيف نعبد هذه الأصنام ونحن نصنعها ونصلحها ؟ . . فامتنعوا عن عبادة أصنام العرب . . فقالوا عنهم إنهم صبئوا عن دين آبائهم . . أي تركوه وآمنوا بالدين الجديد . . وأيا كان المراد بالصابئين فهم كل من مال عن دينه إلى دين آخر .

(290/53)

أننا نلاحظ أن الله سبحانه وتعالى . . جاء بالصابئين في سورة البقرة متأخرة ومنصوبة . . وفي سورة المائدة متقدمةً ومرفوعةً . . نقول هذا الكلام يدخل في قواعد النحو . . الآية تقول : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ ﴾ . . نحن نعرف أَنَّ (إِنَّ) تنصب الاسم وترفع الخبر . . فالذين مبني لأنه إسم موصول في محل نصب إسم لأن : ﴿ وَالَّذِينَ هَادُواْ ﴾ معطوف على الذين آمنوا يكون منصوباً أيضاً . . والنصارى معطوف أيضا على إسم إن . . والصابئين معطوف أيضا ومنصوب بالياء لأنه جمع مذكر سالم . .

نأتي إلى قوله تعالى : ﴿ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ . هذه مستقيمة في سورة البقرة

إعرابا وترتيبا . . والصابئين تأخرت عن النصارى لأنهم فرقة قليلة . . لا تمثل جمهرة كثيرة كالنصارى . . ولكن في آية المائدة تقدمت الصابئون وبالرفع في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ ﴾ . . الذين آمنوا إسم إن والذين هادوا معطوف . . و " الصابئون " كان القياس إعرابيا أن يقال والصابئين . . وبعدها النصارى معطوفة . . ولكن كلمة (الصابئون) توسطت بين اليهود وبين النصارى . . وكسر إعرابها بشكل لا يقتضيه الظاهر . . وللعرب إذن مرهفة لغويا . . فمتى سمع الصابئين التي جاءت معطوفة على اسم إن تأتي بالرفع يلتفت لفتة قسرية ليعرف السبب . .

حين تولى أبا جعفر المنصور الخلافة . . وقف على المنبر ولحن لحنة أي أخطأ في نطق كلمة . . وكان هناك إعرابي يجلس فآذت أُذنيه . . وأخطأ المنصور للمرة الثانية فحرك الإعرابي أُذنيه باستغراب . . وعندما أخطأ للمرة الثالثة قام الإعرابي وقال . . أشهد أنك وليت هذا الأمر بقضاء وقدر . . أي أنك لا تستحق هذا . . هذا هو اللحن إذا سمعه العربي هز أذنيه . . فإذا جاء لفظ مرفوعا والمفروض أن يكون منصوبا . . فإن ذلك يجعله يتنبه أن الله له حكمة وعلة . . فما هي العلة ؟ . .

الذين آمنوا أمرهم مفهوم والذين هادوا أمرهم مفهوم والنصارى أمرهم مفهوم . . أما الصابئون فهؤلاء لم يكونوا تابعين لدين . . ولكنهم سلكوا طريقا مخالفا . . فجاءت هذه الآية لتلفتنا أن هذه التصفية تشمل الصابئين أيضا . . فقدمتها ورفعتها لتلفت إليها الآذان بقوة . . فالله سبحانه وتعالى يعطف الإيمان على العمل لذلك يقول دائما : ﴿ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ﴾ . . لأن الإيمان إن لم يقترن بعمل فلا فائدة منه . . والله يريد الإيمان أن يسيطر على حركة الحياة بالعمل الصالح . . فيأمر كل مؤمن بصالح العمل وهؤلاء لا خوف عليهم في الدنيا ولا هم يحزنون في الآخرة . انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 369 . 373 ﴾ .

(292/53)

بسم الله الرحمن الرحيم

الكتاب / الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

ويسمى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العَاجِزُ الْفَقِيرُ

عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مُحَمَّدٍ الْقَمَّاش

إِمَامُ وَخَطِيبُ مَسْجِدِ بُورُسْلِى - رَأْسُ الْخَيمَةِ

دَوْلَةُ الإِمَارَاتِ الْعَرَبِيَّةِ الْمُتَّحِدَةِ

(عَفَا اللهُ عَنْهُ وَغَفَرَ لَهُ)

الجزء الرابع والخمسون

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الرابع والخمسون

من الآية ﴿ 63 ﴾ من سورة البقرة

وحتى الآية ﴿ 66 ﴾ من نفس السورة

قوله تعالى ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (63) ﴾

فصل

قال البقاعى :

ثم ذكر أنه لما أقلع عنهم تولوا عن الحضرة الشريفة إلى حضرات الشيطان فأكرموا المعاصي إشارة إلى أنهم أغلظ الناس أكباداً وأكثرهم جرأة وعناداً لا يرعوون لرهبة ولا يثبتون لرغبة فقال تعالى ﴿ وإذ ﴾ وأخصر من هذا أن يقال إنه لما قرر سبحانه قوله للعالم العامل المذعن كائناً من كان تلاه بما لليهود من الجلافة الداعية إلى النفور عن خلال السعادة التي هي ثمرة للعلم وما له سبحانه من التطول عليهم بإكراههم على ردهم إليه فقال وإذ أي اذكروا يا بني إسرائيل إذ ﴿ أخذنا ﴾ بما لنا من العظمة ﴿ ميثاقكم ﴾ بالسمع والطاعة من الوثيقة وهي تثنية العهد تأكيداً كإثباته بالكتاب – قاله الحرالي .

﴿ ورفعنا ﴾ ولما كان الجبل قد صار فوقهم كالظلة عاماً لهم بحيث إنه إذا وقع عليهم لم يفلت منهم إنسان نزع الجار فقال ﴿ وفوقكم الطور ﴾ ترهيباً لكم لتقبلوا الميثاق الذي هو سبب سعادتكم ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كل جبل ينبت ، وكل جبل لا ينبت فليس بطور ، وقلنا لكم وهو مظل فوقكم ﴿ وخذوا ما آتيناكم ﴾ من الكتاب للسعادة بطاعتي والتزام أحكامي الموجبة للكون في حضرتي " بقوة " أي بجد واجتهاد ، والقوة

باطن القدرة ، من القوى وهي طاقات الحبل التي يمتن بها ويؤمن انقطاعه – قاله الحرالي .

﴿ واذكروا ما فيه ﴾ من التمسك به وللانتقال عنه عند مجيء الناسخ المنعوت فيه ذكراً يكون بالقلب فكراً وباللسان ذكراً ﴿ لعلكم تتقون ﴾ أي لتكونوا على رجاء من أن تتقوا موجبات السخط .

ولما كان التقدير : فأخذتم ذلك وأوثقتم العهد به خوفاً من أن يدفنكم بالجبل عطف عليه وأشار إلى أنه من حقه البعد عن تركه بأداة البعد . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 166 ﴾

اللغة :

[ميثاقكم] الميثاق : العهد المؤكد بيمين ونحوه ، والمراد هنا العمل بأحكام التوراة

[الطور] هو الجبل الذى كلم الله عليه موسى عليه السلام

[بقوة] بجزم وعزم

[توليتم] التولي : الإعراض عن الشيء والإدبار عنه

[خاسئين] جمع خاسئ وهو الذليل المهين ، قال أهل اللغة : الخاسئ : الصاغر المبعد

المطرود ، كالكلب إذا دنا من الناس قيل له : اخسأ أي تباعد وانطرد صاغرا

[نكالا] النكال : العقوبة الشديدة الزاجرة ، ولا يقال لكل عقوبة نكال حتى تكون زاجرة رادعة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 1 صـ 64 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أن هذا هو الإنعام العاشر وذلك لأنه تعالى إنما أخذ ميثاقهم لمصلحتهم فصار ذلك من إنعامه عليهم :

أما قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا ميثاقكم ﴾ ففيه بحثان :

الأول : اعلم أن الميثاق إنما يكون بفعل الأمور التي توجب الانقياد والطاعة ، والمفسرون ذكروا في تفسير الميثاق وجوهاً ، أحدها : ما أودع الله العقول من الدلائل الدالة على وجود الصانع وحكمته والدلائل الدالة على صدق أنبيائه ورسله ، وهذا النوع من المواثيق أقوى المواثيق والعهود لأنها لا تحتمل الخلف والتبديل بوجه ألبتة وهو قول الأصم ، وثانيها : ما روي عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم أن موسى عليه السلام لما رجع من عند ربه

بالألواح قال لهم : إن فيها كتاب الله فقالوا : لن نأخذ بقولك حتى نرى الله جهرة فيقول : هذا كتابي فخذوه فأخذتهم الصاعقة فماتوا ثم أحياهم ثم قال لهم بعد ذلك : خذوا كتاب الله فأبوا فرفع فوقهم الطور وقيل لهم : خذوا الكتاب وإلا طرحناه عليكم ، فأخذوه فرفع الطور هو الميثاق ، وذلك لأن رفع الطور آية باهرة عجيبة تبهر العقول وترد المكذب إلى التصديق والشاك إلى اليقين ، فلما رأوا ذلك وعرفوا أنه من قبله تعالى علماً لموسى عليه السلام علماً مضافاً إلى سائر الآيات أقروا له بالصدق فيما جاء به وأظهروا التوبة وأعطوا العهد والميثاق أن لا يعودوا إلى ما كان منهم من عبادة العجل وأن يقوموا بالتوراة فكان هذا عهداً موثقاً جعلوه لله على أنفسهم ، وهذا هو اختيار أبي مسلم .

وثالثها : أن لله ميثاقين ، فالأول : حين أخرجهم من صلب آدم وأشهدهم على أنفسهم ، والثاني : أنه ألزم الناس متابعة الأنبياء والمراد ههنا هو هذا العهد .

هذا قول ابن عباس وهو ضعيف .

الثاني : قال القفال رحمه الله : إنما قال : (ميثاقكم) ولم يقل مواثيقكم لوجهين ، أحدهما : أراد به الدلالة على أن كل واحد منهم قد أخذ ذلك كما قال : ﴿ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ﴾ [غافر : 67] أي كل واحد منكم .

والثاني : أنه كان شيئاً واحداً أخذ من كل واحد منهم كما أخذ على غيره فلا جرم كان كله ميثاقاً واحداً ولو قيل مواثيقكم لأشبه أن يكون هناك مواثيق أخذت عليهم لا ميثاق واحد ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 99 ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا ميثاقكم ﴾ تذكير بنعمة أخرى ، لأنه سبحانه إنما فعل ذلك لمصلحتهم ، والظاهر من الميثاق هنا العهد ، ولم يقل : مواثيقكم ، لأن ما أخذ على كل واحد منهم أخذ على غيره فكان ميثاقاً واحداً ولعله كان بالانقياد لموسى عليه السلام ، واختلف في أنه متى كان ؟ فقيل : قبل رفع الطور ؛ ثم لما نقضوه رفع فوقهم لظاهر قوله تعالى : ﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطور بميثاقهم ﴾ [النساء : 154] الخ ، وقيل : كان معه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 280 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَرَفَعْنَا فوقكم الطور ﴾

فصل

قال الفخر :

وأما قوله تعالى : ﴿ وَرَفَعْنَا فوقكم الطور ﴾ فنظيره قوله تعالى : ﴿ وَإِذ نَتَقْنَا الجبل فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ ﴾ [الأعراف : 171] وفيه أبحاث :

البحث الأول : الواو في قوله تعالى : ﴿ وَرَفَعْنَا ﴾ واو عطف على تفسير ابن عباس والمعنى أن أخذ الميثاق كان متقدماً فلما نقضوه بالامتناع عن قبول الكتاب رفع عليهم الجبل ، وأما على تفسير أبي مسلم فليست واو عطف ولكنها واو الحال كما يقال : فعلت ذلك والزمان زمان فكأنه قال : وإذ أخذنا ميثاقكم عند رفعنا الطور فوقكم .

الثاني : قيل : إن الطور كل جبل قال العجاج :

داني جناحيه من الطور فمر . . تقضي البازي إذا البازي كسر

أما الخليل فقال في كتابه : إن الطور اسم جبل معلوم وهذا هو الأقرب لأن لام التعريف فيه تقتضي حمله على جبل معهود عرف كونه مسمى بهذا الاسم ، والمعهود هو الجبل الذي وقعت المناجاة عليه وقد يجوز أن ينقله الله تعالى إلى حيث هم فيجعله فوقهم وإن كان بعيداً منهم لأن القادر أن يسكن الجبل في الهواء قادر أيضاً على أن يقلعه وينقله إليهم من المكان البعيد ، وقال ابن عباس : أمر تعالى جبلاً من جبال فلسطين فانقلع من أصله حتى قام فوقهم كالظلة وكان المعسكر فرسخاً في فرسخ فأوحى الله إليهم أن اقبلوا التوراة وإلا رميت الجبل عليكم ، فلما رأوا أن لا مهرب قبلوا التوراة بما فيها وسجدوا للفزع سجوداً

يلاحظون الجبل ، فلذلك سجدت اليهود على أنصاف وجوههم .

الثالث : من الملاحدة من أنكر إمكان وقوف الثقيل في الهواء بلا عماد وأما الأرض فقالوا إنما وقفت لأنها بطبعها طالبة للمركز فلا جرم وقفت في المركز ، ودليلنا على فساد قولهم أنه سبحانه قادر على كل الممكنات ووقوف الثقيل في الهواء من الممكنات فوجب أن يكون الله قادراً عليه وتمام تقرير هاتين المقدمتين معلوم في كتب الأصول .

الرابع : قال بعضهم : إظلال الجبل غير جائز لأن ذلك لو وقع لكان يجري مجرى الإلجاء إلى الإيمان وهو ينافي التكليف .

أجاب القاضي بأنه لا يلجيء لأن أكثر ما فيه خوف السقوط عليهم ، فإذا استمر في مكانه مدة وقد شاهدوا السموات مرفوعة فوقهم بلا عماد جاز ههنا أن يزول عنهم الخوف فيزول الإلجاء ويبقى التكليف . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 99 .

﴿ 100 ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطور ﴾ الواو للعطف ؛ وقيل : للحال ، والطور قيل : جبل من الجبال ، وهو سرياني معرب ، وقيل : الجبل المعين .

وعن أبي حاتم عن ابن عباس أن موسى عليه السلام لما جاءهم بالتوراة وما فيها من التكاليف الشاقة كبرت عليهم وأبوا قبولها فأمر جبريل بقلع الطور فظلله فوقهم حتى قبلوا ؛ وكان على قدر عسكرهم فرسخاً في فرسخ ورفع فوقهم قدر قامة الرجل ، واستشكل بأن هذا يجري مجرى الإلجاء إلى الإيمان فينافي التكليف ، وأجاب الإمام بأنه لا إلجاء لأن الأكثر فيه خوف السقوط عليهم ، فإذا استمر في مكانه مدة وقد شاهدوا السموات مرفوعة بلا عماد جاز أن يزول عنهم الخوف فيزول الإلجاء ويبقى التكليف ، وقال العلامة : كأنه حصل لهم بعد هذا الإلجاء قبول اختياري ، أو كان يكفي في الأمم السالفة مثل هذا الإيمان وفيه كما قال الساليكوتي إن الكلام في أنه كيف يصح التكليف ب ﴿ خُذُواْ ﴾ الخ مع القسر ، وقد تقرر أن مبناه على الاختيار فالحق أنه إكراه لأنه حمل الغير على أن يفعل ما لا يرضاه لو خلي ونفسه فيكون معدماً للرضا لا للاختيار إذ الفعل يصدر باختياره كما فصل في الأصول ، وهذا كالمحاربة مع الكفار ، وأما قوله : ﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِى الدين ﴾ [البقرة : 256] وقوله سبحانه : ﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ الناس حتى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس : 99] فقد كان قبل الأمر بالقتال ثم نسخ به . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 280 . 281 ﴾

قوله تعالى ﴿ خُذُواْ مَا ءاتيناكم بِقُوَّةٍ ﴾

فصل

قال الفخر :

أما قوله تعالى : ﴿ خُذُواْ مَا ءاتيناكم بِقُوَّةٍ واذكروا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ أي بجد وعزيمة كاملة وعدول عن التغافل والتكاسل ،

قال الجبائي : هذا يدل على أن الاستطاعة قبل الفعل لأنه لا يجوز أن يقال : خذ هذا بقوة ولا قوة حاصلة كما لا يقال : اكتب بالقلم ولا قلم ، وأجاب أصحابنا بأن المراد : خذوا ما آتيناكم بجد وعزيمة وعندنا العزيمة قد تكون متقدمة على الفعل .

وأما قوله تعالى : ﴿ واذكروا مَا فِيهِ ﴾ أي احفظوا ما في الكتاب وادرسوه ولا تنسوه ولا تغفلوا عنه .

(10/54)

فإن قيل : هلا حملتموه على نفس الذكر ؟ قلنا : لأن الذكر الذي هو ضد النسيان من فعل الله تعالى فكيف يجوز الأمر به .

فأما إذا حملناه على المدارسة فلا إشكال .

أما قوله تعالى : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ أي لكي تتقوا ، واحتج الجبائي بذلك على أنه تعالى أراد

فعل الطاعة من الكل ، وجوابه ما تقدم .

واعلم أن المفهوم من قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا ميثاقكم وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطور خُذُواْ مَا ءاتيناكم بِقُوَّةٍ ﴾ أنهم فعلوا ذلك وإلا لم يكن ذلك أخذاً للميثاق ولا صح قوله من بعد : ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ ﴾ فدل ذلك منهم على القبول والالتزام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 100 . 101 ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ خُذُواْ مَا ءاتيناكم بِقُوَّةٍ ﴾ هو على إضمار القول أي قلنا أو قائلين خذوا وقال بعض الكوفيين : لا يحتاج إلى إضماره لأن أخذ الميثاق قول ، والمعنى : وإذ أخذنا ميثاقكم بأن تأخذوا ما آتيناكم ، وليس بشيء والمراد هنا بالقوة الجد والاجتهاد كما قاله ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، ويؤول إلى عدم التكاسل والتغافل ، فحينئذ لا تصلح الآية دليلاً لمن ادعى أن الاستطاعة قبل الفعل إذ لا يقال : خذ هذا بقوة ، إلا والقوة حاصلة فيه لأن القوة بهذا المعنى لا تنكر صحة تقدمها على الفعل .

﴿ واذكروا مَا فِيهِ ﴾ أي ادرسوه واحفظوه ولا تنسوه ، أو تدبروا معناه ، أو اعلموا بما فيه من الأحكام ، فالذكر يحتاج أن يراد به الذكر اللساني والقلبي والأعم منهما وما يكون كاللازم لهما ، والمقصود منهما أعني العمل ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ قد تقدم الكلام على الترجي في كلامه تعالى ، وقد ذكر ههنا أن كلما لعل متعلقة بخذوا ، واذكروا إما مجاز يؤول معناه بعد الاستعارة إلى تعليل ذي الغاية بغايته أو حقيقة لرجاء المخاطب ؛ والمعنى : خذوا واذكروا راجين أن تكونوا متقين ويرجح المعنى المجازي أنه لا معنى لرجائهم فيما يشق عليهم أعني التقوى ، اللهم إلا باعتبار تكلف أنهم سمعوا مناقب المتقين ودرجاتهم فلذا كانوا راجين للانخراط في سلكهم ، وجوز المعتزلة كونها متعلقة بقلنا المقدر وأولوا الترجي بالإرادة أي : قلنا واذكروا إرادة أن تتقوا ، وهو مبني على أصلهم الفاسد من أن إرادة الله تعالى لأفعال العباد غير موجبة للصدور لكونها عبارة عن العلم بالمصلحة ، وجوز العلامة تعلقها إذا أول الترجي بالإرادة بخذوا أيضاً على أن يكون قيداً للطلب لا للمطلوب ، وجوز الشهاب أن يتعلق بالقول على تأويله بالطلب والتخلف فيه جائز ، وفيه أن القول المذكور وهو ﴿ خُذُواْ مَا ءاتيناكم ﴾ بعينه طلب التقوى فلا يصح أن يقال خذوا ما آتيناكم طالباً منكم التقوى إلا بنوع تكلف فافهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 281 ﴾

فصل

قال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطور ﴾ هذه الآية تفسّر معنى قوله .

تعالى : ﴿ وَإِذ نَتَقْنَا الجبل فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ ﴾ [الأعراف : 171] .

قال أبو عبيدة : المعنى زعزعناه فاستخرجناه من مكانه .

قال : وكل شيء قلعته فرمَيْتَ به فقد نتقته .

وقيل : نتقناه رفعناه .

قال ابن الأعرابيّ .

الناتقُ الرافعُ ، والناتقُ الباسطُ ، والناتقُ الفاتقُ .

وامرأة ناتق ومِنتاق : كثيرة الولد .

وقال القُتَبِيّ : أُخذ ذلك مِن نَتْق السِّقَاء ، وهو نفضه حتى تُقتلع الزُّبدة منه .

قال وقوله : ﴿ وَإِذ نَتَقْنَا الجبل فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ ﴾ [الأعراف : 171] قال : قُلع من أصله .

واختلف في الطور ؛ فقيل : الطور اسم للجبل الذي كلّم الله عليه موسى عليه السلام وأنزل عليه فيه التوراة دون غيره ؛ رواه ابن جريج عن ابن عباس .

وروى الضحاك عنه أن الطور ما أُنبتَ من الجبال خاصة دون ما لم ينبِت .

وقال مجاهد وقتادة : أي جبل كان .

إلا أن مجاهداً قال : هو اسم لكل جبل بالسريانية ؛ وقاله أبو العالية .

وقد مضى الكلام هل وقع في القرآن ألفاظ مفردة غير معرّبة من غير كلام العرب في مقدمة الكتاب .

والحمد لله .

وزعم البكري أنه سُمّيَ بطور بن إسماعيل عليه السلام .

والله تعالى أعلم .

القول في سبب رفع الطور

وذلك أن موسى عليه السلام لما جاء بني إسرائيل من عند الله بالألواح فيها التوراة قال لهم :

خذوها والتزِموها .

فقالوا : لا ! إلا أن يكلّمنا الله بها كما كلّمك .

فصعِقوا ثم أُحْيُوا .

فقال لهم : خذوها .

فقالوا لا .

فأمر الله الملائكة فاقتلعت جبلا من جبال فلسطين طوله فرسخ في مثله ؛ وكذلك كان

عسكرهم ؛ فجُعل عليهم مثل الظُّلة ، وأُتُوا ببحرٍ من خَلْفِهم ، ونار من قِبَل وجوههم ، وقيل لهم : خذوها وعليكم الميثاق ألا تضيّعوها ، وإلا سقط عليكم الجبل .

فسجدوا توبةً لله وأخذوا التوراة بالميثاق .

قال الطبري عن بعض العلماء : لو أخذوها أوّل مرة لم يكن عليهم ميثاق .

وكان سجودهم على شِقّ ؛ لأنهم كانوا يرقبون الجبل خوفاً ؛ فلما رحمهم الله قالوا : لا سجدة أفضل من سجدة تقبّلها الله ورَحِم بها عباده ، فأمَرّوا سجودَهم على شِق واحد .

قال ابن عطية : والذي لا يصح سواه أن الله تعالى اخترع وقت سجودهم الإيمان (في قلوبهم) لا أنهم آمنوا كرهاً وقلوبهم غير مطمئنة بذلك .

قوله تعالى : ﴿ خُذُواْ ﴾ أي فقلنا خذوا ؛ فحذف .

﴿ مَا آتَيْنَاكُم ﴾ أعطيناكم .

﴿ بِقُوَّةٍ ﴾ أي بِجد واجتهاد ؛ قاله ابن عباس وقتادة والسدّي .

وقيل : بنيّةٍ وإخلاص .

مجاهد : القوّة العمل بما فيه .

وقيل : بقوّة ، بكثرة درس .

﴿ واذكروا مَا فِيهِ ﴾ أي تدبّروه واحفظوا أوامره ووعيده ، ولا تنسوه ولا تضيّعوه .

قلت : هذا هو المقصود من الكُتب ، العملُ بمقتضاها لا تلاوتها باللسان وترتيلها ؛ فإن ذلك نَبْذٌ لها ؛ على ما قاله الشعبي وابن عُيَيْنة ؛ وسيأتي قولهما عند قوله تعالى : ﴿ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الذين أُوتُواْ الكتاب ﴾ [البقرة : 101] .

وقد روى النسائي عن أبي سعيد الخُدْرِيّ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إنّ مِن شرّ الناس رجلاً فاسقاً يقرأ القرآن لا يَرْعَوِي إلى شيء منه " فبّين صلى الله عليه وسلم أن المقصود العمل كما بيّنا .

وقال مالك : قد يقرأ القرآنَ مَن لا خير فيه .

فما لزم إذاً مَن قبلنا وأُخذ عليهم لازمٌ لنا وواجبٌ علينا .

قال الله تعالى : ﴿ واتبعوا أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [الزمر : 55] .

فأُمِرنا باتّباع كتابه والعمل بمقتضاه ؛ لكن تركنا ذلك ، كما تركت اليهود والنصارى ، وبقيت أشخاص الكتب والمصاحف لا تفيد شيئاً ؛ لغلبة الجهل وطلب الرياسة واتباع الأهواء .

روى الترمذيّ عن جُبَيْر بن نُفَيْر " عن أبي الدّرداء قال : " كنا مع النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فشخص ببصره إلى السماء ثم قال : " هذا أوانٌ يُختلس فيه العلمُ من الناس حتى

لا يقدِروا منه على شيء" .

فقال زياد بن لَبيد الأنصاريّ : كيف يُختلس منا وقد قرأنا القرآن ! فوالله لَنقْرَأنه ولَنُقرِئنّه نساءنا وأبناءنا .

فقال : " ثَكِلَتْك أمُّك يا زياد إن كنتُ لأعُدّك من فقهاء المدينة هذه التوراة والإنجيل عند اليهود والنصارى فماذا تُغني عنهم" " وذكر الحديث ، وسيأتي .

(14/54)

وخرّجه النسائي من حديث جُبير بن نُفير أيضاً عن عَوف بن مالك الأشجعيّ من طريق صحيحة ، وأن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال لزياد : " ثَكِلَتْك أُمُّك يا زياد هذه التوراة والإنجيل عند اليهود والنصارى " وفي المُوَطَأ عن عبد اللَّه بن مسعود قال لإنسان : " إنك في زمانٍ كثيرٍ فقهاؤه ، قليلٍ قُرّاؤه ، تُحفظ فيه حدودُ القرآن وتُضَيّع حروفه ، قليل مَن يسأل ، كثيرٍ مَن يُعطِي ، يطيلون الصلاة ويُقْصِرون فيه الخطبة ، يبدأون فيه أعمالهم قبل أهوائهم . وسيأتي على الناس زمان قليلٌ فقهاؤه ، كثيرٌ قراؤه ، تُحفظ فيه حروف القرآن ، وتُضيّع حدوده ؛ كثيرٌ من يسأل ، قليلٌ من يعطى ، يطيلون فيه الخطبة ، ويقصِرون الصلاة ، يبدأون فيه أهواءهم قبل أعمالهم " وهذه نصوص تدل على ما ذكرنا .

وقد قال يحيى : سألت ابن نافع عن قوله : يبدأون أهواءهم قبل أعمالهم ؟ قال يقول : يتبعون أهواءهم ويتركون العمل بالذي افترض عليهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴾ تفسير القرطبى حـ 1 صـ 436. 438 ﴾

فصل

قال السيوطى :

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

أخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة في قوله ﴿ وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور ﴾ فقال : جبل نزلوا بأصله فَرُفِعَ فوقهم ، فقال : لتأخذن أمري أو لأرمينكم .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : الطور الجبل الذي أنزلت عليه التوراة ، وكان بنو إسرائيل أسفل منه .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال : الطور ما أنبت من الجبال ، وما لم ينبت فليس بطور .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد قال : الطور الجبل بالسريانية .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك قال : النبط يسمون الجبل الطور .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله ﴿ خذوا ما آتيناكم بقوّة ﴾ قال : بجد .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي العالية ﴿ واذكروا ما فيه ﴾ يقول : اقرأوا ما في التوراة واعملوا به .

وأخرج ابن إسحاق وابن جرير عن ابن عباس في قوله ﴿ لعلكم تتقون ﴾ قال : لعلكم تنزعون عما أنتم عليه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 1 صـ 184 ﴾

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : " وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه " .

وفى الآية الأخرى مما بعد : " وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم

بقوة واسمعوا " للسائل أن يقول : إن الخطاب فى الآيتين لبنى إسرائيل وهم المخبر عنهم بما بعد والمقول لهم : " خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون " وهو بأعيانهم المقول لهم فى الآية بعد : " واسمعوا " ، فما وجه تخصيص كل من الآيتين بما أعقبت به ؟ وهل كان يمكن تعقيب الأولى بقوله واسمعوا وتعقيب الثانية بقوله : واذكروا ما فيه الآية ؟

(17/54)

والجواب : أنه لا يناسب كل آية منهما إلا ما به أعقبت ، ووجه ذلك أن الآية الأولى تقدم قبلها قوله تعالى : " وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان " والكتاب : التوراة وقد سمعوه وعنه قيل وإليه أشير بقوله تعالى : " خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه " ، وقد زاد هذا إيضاحا قوله فى سورة الأعراف : " وإذ نتقنا فوقهم الجبل كأنه ظلة وظنوا أنهم واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة " والإشارة بالقوة إلى عظيم تخويفهم برفع الجبل فوقهم كالظلة فقوله تعالى : " خذوا ما آتيناكم " عقب ذكر كتابهم أوضح شئ وأنسبه ولما تقدم قبل الآية الثانية قوله تعالى : " ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم " وهذا الكتاب هو الكتاب العزيز واليه الإشارة بقوله : " وإذ قيل لهم آمنوا بما أنزل الله " بدليل قولهم – حيدة عن إيمانهم – : " نؤمن بما أنزل علينا " قال تعالى : " ويكفرون بما وراءه " أى يكفرون بالقرآن ،

قال تعالى : " وهو الحق " والاشارة للقرآن : " مصدقا لما معهم أى من التوراة فلما تقدم هنا ذكر القرآن وخلف يهود المعاصرون لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ معرضون الا القليل عن الإيمان وسماع القرآن فناسب إعراضهم عن سماعه تخصيصه هذا الموضع من المقول لسلفهم بقوله للخلف : " واسمعوا " ليكون إخبارا عن سلفهم وتعريضا لخلفهم ، فوضح التناسب وأن العكس لا يناسب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 45 ﴾

(18/54)

ومن فوائد ابن عرفة فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ . . . ﴾ .

قال ابن عرفة : الواو إما عاطفة ، والعامل فيه " اذْكُرُوا " المتقدم أو استئناف (والعامل فيه " اذكروا ") مقدر .

(والَّذي قرره المفسرون) عند قول الله عز وجلّ : ﴿ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ ﴾ .

الآية .

وقدر الفخر ابن الخطيب وجه مناسبتها لما قبلها (بأنها) نعمة .

قال ابن عرفة : الصواب أنها وعظ ، لأن قبلها ﴿ (إنَّ) الذين ءَامَنُواْ والذين هَادُواْ ﴾ إلى آخره ، وهو وعظ ونعمة (لجميع الملل) .

ولما كانت بنو إسرائيل أقرب الناس إلى الإيمان والاتباع لوجهين : إما لأن ملّتهم أقدم من (ملة) النّصارى ، وإما لأنهم كانوا أكثر أهل المدينة ، فإيمانهم سبب في إيمان غيرهم وتعنتهم (وفرارهم) سبب في امتناع غيرهم أكّد ذلك بإعادة الوعظ لهم بخصوصيتهم في هذه الآية ، ولذلك (كررت) قصّتهم في القرآن (في) غير ما سورة أكثر (مما) تكرر غيرها من القصص .

وقوله تعالى : ﴿ مِيثَاقَكُمْ ﴾ إما أن يريد ميثاق آبائكم ، (أو) المراد المخاطبون (الموحدون) (حين) ما أنالوه ، والمراد الجميع لأن أخذ الميثاق كان على آبائهم ، وعلى من يأتي (بعدهم) من ذريتهم إلى قيام الساعة .

وضعف الثاني بقوله : ﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطور . . . ﴾ .

وأجاب ابن عرفة : بأنّ المراد رفعنا فوق آبائكم وفوقكم .

قال أبو حيان : حال من الطور .

وضعف كونه حالا من الضمير في " رفعنا " لما يلزم عليه من إيهام كون الرافع في مكان .

فإن (قلت) : الفوقية تستلزم الرفع ؟ قلنا : قد يكون إنسان فوق آخر بمقدار قامة فيقال (رفعته) عليه إذا علوت (به) عليه مقدار قامتين .

قوله تعالى : ﴿ وَرَفَعْنَا . . . ﴾ .

قال ابن عرفة : إما حال ، أي أخذنا ميثاقكم في هذه الحالة أو المراد أخذنا عليكم الميثاق فلم تقبلوا ، فرفعنا فوقكم الطور .

كما قال المفسرون في سبب نزول الآية .

قال ابن عطية : خلق الله وقت سجودهم الإيمان في قلوبهم ، لأنهم آمنوا كرها وقلوبهم غير مطمئنة .

قال ابن عرفة : المذهب لاعتبار الإيمان الجبري ، ولذا يجبر الكفار على الإيمان (ويقاتلون عليه) بالسيف ، وإنّما (تعتبر) النية (والإرادة) في الثواب والقبول المرتب عليه ، وكما قالوا في الزكاة : إنها تؤخذ من أربابها جبرا .

قال ابن عطية : الإيمان المتفق عليه الذي لا شبهة فيه ولا ريبة وليس قصده الإيمان المخرج من (عهدة) التكليف .

((قوله تعالى : ﴿ واذكروا مَا فِيهِ . . . ﴾ .

ابن عطية : أي (تدبروه) ولا تنسوه ، وامتثلوا أوامره (ووعيده))) .

قال ابن عرفة : أو اذكروه لغيركم وعلموه له .

قيل لابن عرفة : لا يناسب أن (يعلل) هذا بالتّقوى ، فإنه قد يكون المعلم غير متَّقٍ (لله) ؟

فقال : قد يكون (تذكيره) لغيره سببا في (انزجاره هو) ، وتذكيره في نفسه . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ تفسير ابن عرفة صـ 315.312 ﴾

ومن فوائد أبى حيان فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وإذ أخذنا ميثاقكم ﴾ : هذا هو الإنعام العاشر ، لأنه إنما أخذ ميثاقهم لمصلحتهم ، وتقدّم الكلام في لفظة الميثاق في قوله تعالى : ﴿ الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ﴾ والميثاق : ما أودعه الله تعالى العقول من الدلائل على وجوده وقدرته وحكمته وصدق أنبيائه ورسله ، أو المأخوذ على ذرية آدم في قوله : ﴿ ألست بربكم قالوا بلى ﴾ ، أو إلزام الناس متابعة الأنبياء ، أو الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم ، أو العهد منهم ليعملنّ بما في التوراة ، فلما جاء موسى قرأوا ما فيها من التثقيل فامتنعوا من أخذها ، أو قوله : ﴿ لا تعبدون إلا الله ﴾ أقوال ستة .

قال القفال : قال ميثاقكم ولم يقل مواثيقكم ، لأنه أراد ميثاق كل واحد منكم ، كقوله : ﴿ ثم يخرجكم طفلاً ﴾ أو لأن ما أخذه على واحد منهم ، أخذه على غيره ، فكان

ميثاقاً واحداً ، ولو جمع لاحتمل التغاير .

انتهى كلامه ملخصاً .

﴿ ورفعنا فوقكم الطور ﴾ : سبب رفعه امتناعهم من دخول الأرض المقدّسة ، أو من السجود ، أو من أخذ التوراة والتزمها .

أقوال ثلاثة .

روي أن موسى لما جاء إلى بني إسرائيل من عند الله بالألواح فيها التوراة قال لهم : خذوها والتزموها ، فقالوا : لا ، إلا أن يكلمنا الله بها ، كما كلمك ، فصعقوا ثم أحيوا .

فقال لهم : خذوها ، فقالوا : لا .

فأمر الله تعالى الملائكة فاقتلعت جبلاً من جبال فلسطين طوله فرسخ في مثله ، وكذلك كان عسكرهم ، فجعل عليهم مثل الظلة ، وأخرج الله تعالى البحر من ورائهم ، وأضرم ناراً بين أيديهم ، فاحتاط بهم غضبه ، فقيل لهم : خذوها وعليكم الميثاق أن لا تضيعوها ، وإلا سقط عليكم الجبل ، وغرقكم البحر ، وأحرقتكم النار ، فسجدوا توبة لله ، وأخذوا التوراة بالميثاق ، وسجدوا على شق لأنهم كانوا يرقبون الجبل خوفاً .

فلما رحمهم الله قالوا : لا سجدة أفضل من سجدة تقبلها الله ورحم بها ، فأمروا سجودهم على شق واحد .

وذكر الثعلبي أن ارتفاع الجبل فوق رؤوسهم كان مقدار قامة الرجل ، ولم تدل الآية على هذا السجود الذي ذكر في هذه القصة .

والواو في قوله : ورفعنا ، واو العطف : على تفسير ابن عباس ، لأن أخذ الميثاق كان متقدّماً ، فلما نقضوه بالامتناع من قبول الكتاب رفع عليهم الطور .

وأما على تفسير أبي مسلم : فإنها واو الحال ، أي إن أخذ الميثاق كان في حال رفع الطور فوقهم ، نحو قوله تعالى : ﴿ ونادى نوح ابنه وكان في معزل ﴾ أي وقد كان في معزل .

﴿ خذوا ما آتيناكم ﴾ : هو على إضمار القول ، أي : وقلنا لكم خذوا ما آتيناكم .

وقال بعض الكوفيين : لا يحتاج إلى إضمار قول ، لأن أخذ الميثاق هو قول ، والمعنى : وإذا أخذنا ميثاقكم بأن خذوا ما آتيناكم ، وما موصول ، والعائد عليه محذوف ، أي : ما آتيناكموه ، ويعني به الكتاب .

يدل على ذلك قوله : ﴿ واذكروا ما فيه ﴾ ، وقرىء : ما آتيتكم ، وهو شبه التفات ، لأنه خرج من ضمير المعظم نفسه إلى غيره .

ومعنى قوله : ﴿ بقوة ﴾ بجدّ واجتهاد ، قاله ابن عباس وقتادة والسدّي ، أو بعمل ، قاله مجاهد ؛ أو بصدق وحق ، قاله ابن زيد ؛ أو بقبول ، قاله ابن بحر ؛ أو بطاعة ، قاله أبو

العالية والربيع ؛ أو بنية وإخلاص ، أو بكثرة درس ودراية ؛ أو بجدّ وعزيمة ورغبة وعمل ؛ أو بقدرة .

والقوة : القدرة والاستطاعة .

وهذه الأقوال كلها متقاربة المعنى ، والباء للحال أو الاستعانة .

﴿ واذكروا ما فيه ﴾ .

قرأ الجمهور : به أمراً من ذكر ، وقرأ أبيّ : واذكروا ما فيه : أمراً من اذكر ، وأصله : وإذتكروا ، ثم أبدل من التاء دال ، ثم أدغم الذال في الدال ، إذ أكثر الإدغام يستحيل فيه الأول إلى الثاني ، ويجوز في هذا أن يستحيل الثاني إلى الأول ، ويدغم فيه الأول فيقال : اذكر ، ويجوز الإظهار فتقول : إذ ذكر .

وقرأ ابن مسعود : تذكروا ، على أنه مضارع انجزم على جواب الأمر الذي هو خذوا .

فعلى القراءتين قيل : هذا يكون أمراً بالادكار ، وعلى هذه القراءة يكون الذكر مترتباً على حصول الأخذ بقوة ، أي أن تأخذوا بقوّة تذكروا ما فيه .

وذكر الزمخشري أنه قرئ : وتذكروا أمراً من التذكر ، ولا يبعد عندي أن تكون هذه

القراءة هي قراءة ابن مسعود ، ووهم الذي نقلناه من كتابه تذكروا في إسقاط الواو ، والذي فيه هو ما تضمنه من الثواب ، قاله ابن عباس ؛ أو احفظوا ما فيه ولا تنسوه وادرسوه ، قاله الزجاج ؛ أو ما فيه من أمر الله ونهيه وصفة محمد صلى الله عليه وسلم ، أو اتعظوا به لتنجوا من الهلاك في الدنيا والعذاب في العقبى .

والذكر : قد يكون اللسان ، وقد يكون بالقلب على ما سبق ، وقد يكون بهما .

فباللسان معناه : ادرسوا ، وبالقلب معناه : تدبروا ، وبهما معناه : ادرسوا ألفاظه وتدبروا معانيه .

أو أريد بالذكر : ثمرته ، وهو العمل ، فمعناه : اعملوا بما فيه من الأحكام والشرائع .

والضمير في فيه يعود على ما .

وقال في المنتخب : لا يحمل على نفس الذكر ، لأن الذكر الذي هو ضدّ النسيان من فعل الله تعالى ، فكيف يجوز الأمر به ؟ انتهى .

﴿ لعلكم تتقون ﴾ : أي رجاء أن يحصل لكم التقوى بذكر ما فيه .

وقيل : معناه لعلكم تنزعون عما أنتم فيه .

والذي يفهم من سياق الكلام أنهم امتثلوا الأمر وفعلوا مقتضاه ، يدل على ذلك : ﴿ ثم توليتم من بعد ذلك ﴾ .

فهذا يدل على القبول والالتزام لما أمروا به .

وفي بعض القصص أنهم قالوا ، لما زال الجبل : يا موسى ، سمعنا وأطعنا ، ولولا الجبل ما أطعناك .

وفي بعض القصص : فآمنوا كرهاً ، وظاهر هذا الإلجاء .

والمختار عند أهل العلم أن الله تعالى خلق لهم الإيمان والطاعة في قلوبهم وقت السجود ، حتى كان إيمانهم طوعاً لا كرهاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 1 صـ 406. 407 ﴾

(22/54)

ومن فوائد الشوكانى فى الآية

قال رحمه الله :

قوله : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا ﴾ هو في محل نصب بعامل مقدر ، هو : اذكروا ، كما تقدم غير مرة .

وقد تقدّم تفسير الميثاق ، والمراد : أنه أخذ سبحانه عليهم الميثاق بأن يعملوا بما شرعه لهم في التوراة ، وبما هو أعم من ذلك ، أو أخص .

والطور : اسم الجبل الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام ، وأنزل عليه التوراة فيه .

وقيل : هو : اسم لكل جبل بالسريانية .

وقد ذكر كثير من المفسرين أن موسى لما جاء بني إسرائيل من عند الله بالألواح قال لهم : اسم خذوها ، والتزموها .

فقالوا : لا ، إلا أن يكلمنا الله بها كما كلمك .

فُصعِقوا ، ثم أحيوا ، فقال لهم : خذوها ، والتزموها ، فقالوا : لا ، فأمر الله الملائكة فاقتلعت جبلاً من جبال فلسطين ، طوله فرسخ في مثله ، وكذلك كان عسكرهم ، فجعل عليهم مثل الظلة ، وأُتوا ببحر من خلفهم ، ونار من قبل وجوههم ، وقيل لهم خذوها ، وعليكم الميثاق أن لا تضيعوها ، وإلا سقط عليكم الجبل ، فسجدوا توبة لله ، وأخذوا التوراة بالميثاق .

; قال ابن جرير عن بعض العلماء : لو أخذوها أوّل مرة لم يكن عليهم ميثاق .

قال ابن عطية : والذي لا يصح سواه أن الله سبحانه اخترع وقت سجودهم الإيمان ، لا أنهم آمنوا كرهاً ، وقلوبهم غير مطمئنة . انتهى .

وهذا تكلُّف ساقط حمله عليه المحافظة على ما قد ارتسم لديه من قواعد مذهبية قد سكن قلبه إليها كغيره ، وكل عاقل يعلم أنه لا سبب من أسباب الإكراه أقوى من هذا ، أو

أشد منه ، ونحن نقول : أكرههم الله على الإيمان ، فآمنوا مكرهين ، ورفع عنهم العذاب بهذا الإيمان ، وهو نظير ما ثبت في شرعنا من رفع السيف عمن تكلم بكلمة الإسلام ، والسيف مصلت قد هزَّه حامله على رأسه ، وقد ثبت في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لمن قتل من تكلم بكلمة الإسلام معتذراً عن قتله بأنه قالها تقية ، ولم تكن عن قصد صحيح : " أأنت فتشت عن قلبه " وقال : " لم أومر أن أنقب عن قلوب الناس "

وقوله : ﴿ خُذُواْ ﴾ أي : وقلنا لهم : ﴿ خذوا مَا ءاتيناكم بِقُوَّةٍ ﴾ والقوّة : الجدّ والاجتهاد .

والمراد بذكر ما فيه أن يكون محفوظاً عندهم ليعملوا به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 1 صـ 95 ﴾

ومن فوائد ابن عاشور فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (63) ﴾

تذكير بقصة أخرى أرى الله تعالى أسلافهم فيها بطشه ورحمته فلم يرتدعوا ولم يشكروا وهي أن أخذ الميثاق عليهم بواسطة موسى عليه السلام أن يعملوا بالشريعة وذلك حينما تجلى الله لموسى عليه السلام في الطور تجلياً خاصاً للجبل فتزعزع الجبل وتزلزل وارتجف وأحاط به دخان وضباب ورعود وبرق كما ورد في صفة ذلك في الفصل التاسع عشر من سفر الخروج وفي الفصل الخامس من سفر التثنية فلعل الجبل من شدة الزلازل وما ظهر حوله من الأسحبة والدخان والرعود صار يلوح كأنه سحابة ، ولذلك وصف في آية الأعراف (171) بقوله : ﴿ وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة ﴾ [نتقه : زعزعه ونقضه] حتى يخيل إليهم أنه يهتز وهذا نظير قولهم استطاره إذا أزعجه فاضطرب فأعطوا العهد وامتثلوا لجميع ما أمرهم الله تعالى وقالوا : "كل ما تكلم الله به نفعله فقال الله لموسى فليؤمنوا بك إلى الأبد" وليس في كتب بني إسرائيل ولا في الأحاديث الصحيحة ما يدل على أن الله قلع الطور من موضعه ورفعه فوقهم وإنما ورد ذلك في أخبار ضعاف فلذلك لم نعتمده في التفسير .

وضمائر الخطاب لتحميل الخلف تبعات السلف كيلا يقعوا في مثلها وليستغفروا لأسلافهم عنها .

والميثاق في هاته الآية كالعهد في الآيات المتقدمة مراد به الشريعة ووعدهم بالعمل بها وقد سمته كتبهم عهداً كما قدمنا وهو إلى الآن كذلك في كتبهم .

وهذه معجزة علمية لرسولنا صلى الله عليه وسلم

والطُّور علم على جبل ببرية سينا ، ويقال إن الطور اسم جنس للجبال في لغة الكنعانيين نقل إلى العربية وأنشدوا قول العجاج :

دَانَى جَناحيه من الطورِ فمَرْ . . .

تَقَضّيَ البازِي إذا البازِي كَسَر

فإذا صح ذلك فإطلاقه على هذا الجبل علم بالغلبة في العبرية لأنهم وجدوا الكنعانيين يذكرونه فيقولون الطور يعنون الجبل كلمة لم يسبق لهم أن عرفوها فحسبوها علماً له فسموه الطور .

وقوله : ﴿ خذوا ما آتيناكم بقوة ﴾ مقول قول ، محذوف تقديره قائلين لهم خذوا ، وذلك هو الذي أخذ الميثاق عليه .

والأخذ مجاز عن التلقي والتفهم .

والقوة مجاز في الإيعاء وإتقان التلقي والعزيمة على العمل به كقوله تعالى : ﴿ يا يحيى خُذ الكتاب بقوة ﴾ [مريم : 12] .

ويجوز أن يكون الذكر مجازاً عن الامتثال أي اذكروه عند عزمكم على الأعمال حتى تكون أعمالكم جارية على وفق ما فيه ، أو المراد بالذكر التفهم بدليل حرف (في) المؤذن بالظرفية المجازية أي استنباط الفروع من الأصول .

والمراد بما آتاهم ما أوحاه إلى موسى وهو الكلمات العشر التي هي قواعد شريعة التوراة .

وجملة ﴿ لعلكم تتقون ﴾ علة للأمر بقوله : ﴿ خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه ﴾ ولذلك فصلت بدون عطف .

والرجاء الذي يقتضيه حرف (لعل) مستعمل في معنى تقريب سبب التقوى بحضهم على الأخذ بقوة ، وتعهد التذكر لما فيه ، فذلك التقريب والتبيين شبيهٌ برجاء الراجي .

ويجوز أن يكون (لعل) قرينة استعارة تمثيل شأن الله حين هيأ لهم أسباب الهداية بحال الراجي تقواهم وعلى هذا محمل موارد كلمة (لعل) في الكلام المسند إلى الله تعالى .

وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم ﴾ [البقرة : 21] الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 1 صـ 523. 525 ﴾

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (63) ﴾

يمتنُّ الله سبحانه وتعالى مرة أخرى على بني إسرائيل بالنعم التي أنعم بها عليهم ويذكرهم بجحودهم بها . . ولكننا نلاحظ أن القرآن الكريم حينما يتكلم عن اليهود . . يتكلم عنهم بالخطاب المباشر . . فهل الذين عاصروا نزول القرآن وهم الذين أخذ الله تبارك وتعالى عليهم الميثاق . . هؤلاء مخاطبون بمراد آبائهم وأجدادهم الذين عاصروا موسى عليه السلام .

نقول أنه كان المطلوب من كل جد أو أب أن يبلغ ذريته ما انتهت إليه قضية الإيمان . . فحين يمتن الله عليهم أنه أهلك أهل فرعون وأنقذهم . . يمتن عليهم لأنه أنقذ آباءهم من التذبيح . . ولولا أنه أنقذهم ما جاء هؤلاء اليهود المعاصرون لرسول الله صلى الله عليه وسلم . . فهم كانوا مطمورين في ظهور آبائهم . . ولكي ينقذهم الله كان لابد أن تستمر حلقة الحياة متصلة . . فمتى انتهت حياة الأب قبل أن يتزوج وينجب انتهت في اللحظة نفسها حياة ذريته . . الشيء نفسه ينطبق على قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ ﴾ . . إمتنان على اليهود المعاصرين لنزول القرآن . . لأنه سبحانه

وتعالى لو لم ينقذ آباءهم من الموت عطشا لماتوا بلا ذرية.

إذن كل إمتنان على اليهود في عهد موسى هو إمتنان على ذريته في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم.. والحق سبحانه وتعالى أخذ على اليهود الميثاق القديم.. ولولا هذا الميثاق ما آمنوا ولا آمنت ذريتهم.

وقوله تعالى: ﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ ﴾.. أي أن الله تبارك وتعالى يذكرهم بأنهم بعد أن نجوا وأغرق الله فرعون وقومه ذهب موسى لميقات ربه ليتلقى عنه التوراة.. فعبد بنو إسرائيل العجل. وعندما عاد موسى بالتوراة وبالألواح.. وجدوا في تعاليمها مشقة عليهم.. وقالوا نحن لا نطيق هذا التكليف وفكروا ألا يلتزموا به وألا يقبلوه.

التكليف هو من مكلف هو الله سبحانه وتعالى.. وهم يقولون إن الله كلفهم ما لا يطيقون.. مع أن الله جل جلاله لا يكلف نفسا إلا وسعها.. هذا هو المبدأ الإيماني الذي وضعه الحق جل جلاله.. يظن بعض الناس أن معنى الآية الكريمة: ﴿ لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾[البقرة: 286]

يظنون أننا نضع أنفسنا حكما على تكليف الله.. فإن كنا نعتقد أننا نقدر على هذا

التكليف ثقل هو من الله وإن كنا نعتقد أننا لا نقدر عليه بحكمنا نحن . . ثقل الله لم يكلفنا بهذا لأنه فوق طاقتنا . . ولكن الحكم الصحيح هل كلفك الله بهذا الأمر أو لم يكلفك ؟ إن كان الله قد كلفك فهو عليم بأن ذلك في وسعك ؛ لأن الله لا يكلف نفسا إلا وسعها .

. ونحن نسمع الآن صيحات تقول أن العصر لم يعد يحتمل . . وإن ظروف الدنيا وسرعة الحركة فيها وسرعة الأحداث هي تبرير أنه ليس في وسعنا أن نؤدي بعض التكاليف . . ربما كان هذا التكليف في الوسع في الماضي عندما كانت الحياة بسيطة وحركتها بطيئة ومشكلاتها محدودة .

(28/54)

نقول لمن يردّد هذا الكلام : إن الذي كلفك قديما هو الله سبحانه وتعالى . إنه يعلم أن في وسعك أن تؤدي التكليف وقت نزوله . . وبعد آلاف السنين من نزوله وحتى قيام الساعة . . والدليل على ذلك أن هناك من يقوم بالتكليف ويتطوع بأكثر منه ليدخل في باب الإحسان ؛ فهناك من يصلي الفروض وهي التكليف . . وهناك من يزيد عليها السنن . . وهناك من يقوم الليل . . فيظل يتقرب إلى الله تبارك وتعالى بالتطوع من جنس ما فرض . . وهناك من يصوم رمضان ومن يتطوع ويصوم أوائل الشهور العربية . . أو كل اثنين وخميس

على مدار العام أو في شهري رجب وشعبان . . وهناك من يحج مرة ومن يحج مرات . .

وهناك من يلتزم بحدود الزكاة ومن يتصدق بأكثر منها .

إذن كل التكاليف التي كلفنا الله بها في وسعنا وأقل من وسعنا . . ولا يقال أن العصر قد اختلف ، فنحن الذين نعيش هذا العصر . . بكل ما فيه من متغيرات نقوم بالتكاليف ونزيد عليها دون أي مشقة ، والله سبحانه وتعالى رفع فوق بني إسرائيل الطور رحمة بهم . . تماما كما يمسك الطبيب المشرط ليزيل صديداً تكوّن داخل الجسد . . لأن الجسد لا يصح بغير هذا .

لذلك عندما أراد الله سبحانه وتعالى أن يصيب بفضله ورحمته بني إسرائيل رغم أنوفهم . . رفع فوقهم جبل الطور الموجود في سيناء . . وقال لهم تقبلوا التكليف أو أطبق عليكم الجبل . . تماما كما أهلك الله تبارك وتعالى الذين كفروا ورفضوا الإيمان وقاوموا الرسل الذين من قبلهم . . قد يقول البعض إن الله سبحانه وتعالى أرغم اليهود على تكليف وهو القائل : ﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ [البقرة : 256]

وقوله تعالى : ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف : 29]

نقول إن الله جل جلاله لم يرغم أحدا على التكليف . . ولكنه رحمة منه خيرهم بين التكليف وبين عذاب يصيبهم فيهلكهم . . وهذا العذاب هو أن يُطْبقَ عليهم جبل الطور . . إذن المسألة ليس فيها إجبار ولكن فيها تخيير . . وقد خُيِّرَ الذين من قبلهم بين الإيمان والهلاك فلن يصدقوا حتى أصابهم الهلاك . . ولكن حينما رأى بنو إسرائيل الجبل فوقهم خشعوا ساجدين على الأرض . . وسجودهم دليل على أنهم قبلوا المنهج . . ولكنهم كانوا وهم ساجدون ينظرون إلى الجبل فوقهم خشية أن يطبق عليهم .

. ولذلك تجد سجود اليهود حتى اليوم على جهة من الوجه . . بينما الجهة الأخرى تنظر إلى أعلى وكان ذلك خوفا من أن ينقض الجبل عليهم . . ولو سألت يهودياً لماذا تسجد بهذه الطريقة يقول لك أحمل التوراة ويهتز منتفضا . . نقول أنهم اهتزوا ساعة أن رفع الله جبل الطور فوقهم . . فكانوا في كل صلاة يأخذون الوضع نفسه ، والذين شهدوهم من أولادهم وذريتهم . . اعتقدوا أنها شرط من شروط السجود عندهم . . ولذلك أصبح سجودهم على جانب من الوجه . . ونظرهم إلى شيء أعلاهم يخافون منه . . أي أن الصورة التي حدثت لهم ساعة رفع جبل الطور لا زالوا باقين عليها حتى الآن .

في هذه الآية الكريمة يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وإذا رفعنا فوقكم الطور . . ﴿ وفي آية أخرى يقول المولى جل جلاله في نفس ما حدث : ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف : 171]

" نتقنا "كأن الجبل وتد في الأرض ونريد أن نخلعه . . فنحركه يمينا ويسارا حتى يمكن أن يخرج من الأرض . . هذه الحركة والزحزحة والجذب هي النتق . . والجبل كالوتد تماما يحتاج إلى هز وزعزعة وجذب حتى يخرج من مكانه . . وهذه الصورة عندما حدثت خشعوا وسجدوا وتقبلوا المنهج .

(30/54)

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ ﴾ . . الأخذ عادة مقابل للعطاء . . أنت تأخذ من معطٍ . . والتكليف أخذ من الله حتى تعطي به حركة صلاح في الكون . . إذن كل أخذ لابد أن يأتي منه عطاء ؛ فأنت تأخذ من الجيل الذي سبقك وتعطي للجيل الذي يليك . . ولكنك لا تعطيه كما هو ، ولكن لابد أن تضيف عليه . وهذه الإضافة هي التي تصنع الحضارات .

وقوله تعالى : " بقوة " . . أي لا تأخذوا التكليف بتخاذل . . والإنسان عادة يأخذ بقوة ما هو نافع له . . ولذلك فطبيعة مناهج الله أن تؤخذ بقوة وبيقين . . لتعطي خيرا كثيرا بقوة وبيقين . . وإذا أخذت منهج الله بقوة فقد ائتمنت عليه وأن صدرك قد انشرح وتريد أن تأخذ أكثر . . لذلك تجد في القرآن الكريم يسألونك عن كذا . . دليل على أنهم عشقوا

التكليف وعلموا أنه نافع فهم يريدون زيادة النفع .

ومادام الحق سبحانه وتعالى قال : ﴿ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ ﴾ . . فقد عشقوا التكليف ولم يعد شاقا على أنفسهم .

وقوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ . . إذكروا ما فيه أي ما في المنهج وأنه يعالج كل قضايا الحياة واعرفوا حكم هذه القضايا . . ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ أي تطيعون الله وتتقون عقابه وعذابه يوم القيامة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 374 . 378 ﴾

(31/54)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطور ﴾ نظيره : ﴿ وَإِذ نَتَقْنَا الجبل فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وظنوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ ﴾ [الأعراف : 171] .

و " الواو " في قوله : ﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ﴾ واو عطف على تفسير ابن عباس ، والمعنى : أن أخذ الميثاق كان متقدماً فلما نقضوه بالامتناع عن قَبُول الكتاب رفعنا عليهم الجبل .

وعلى تفسير أبي مسلم ليست واو عطف ولكنها واو الحال ، كما يقال : " فعلت ذلك والزمان زمان " فكأنه قال : وإذ أخذنا ميثاقكم عند رفعنا الطُّور فوقكم .

وفوقكم ظرف مكان ناصبه " رفعنا " ، وحكم " فوق " مثل حكم " تحت " ، وقد تقدم الكلام عليه .

قال أبو البقاء : ويَضْعُفُ أن يكون حالاً من " الطور " ؛ لأن التقدير يصير : ورفعنا الطور عالياً ، وقد استفيد من " رفعنا " .

وفي هذا نظر ؛ لأن المراد به علو خاص ، وهو كونه عالياً عليم لا مُطْلَقَ العلو حتى يصير : رفعناه عالياً كما قدره .

قال : " لأن الجبل لم يكن فوقهم وقت الرفع ، وإنما صار فوقهم بالرفع " .

ولقائل أن يقول : لم لا تكون حالاً مقدرة ، وقد قال هو في قوله : ﴿ بِقُوَّةٍ ﴾ إنها حال مقدرة كما سيأتي .

و " الطور " اسم [لكلّ] جبل ، وقيل : [لما] أُنْبِتَ منها خاصة دون ما لم ينبت ، وهل هو عربي أو سُرْيَانيّ قولان .

وقيل : سمي بطور بن إسماعيل عليه الصلاة والسلام ؛ وقال العَجَّاج : [الرجز]

دَانَى جَنَاحَيْهِ مِنَ الطُّورِ فَمَرّ . . .

تَقَضِّيَ البَازِي إذا البَازِي كَسَرْ

وقال الخليل : الطُّور اسم جبل معلوم ؛ لأن التعريف يقتضي حمله على جبل معهود مسمى بهذا الاسم ، وهو جبل المُنَاجاة .

وقد يجوز أن ينقله الله إلى حيث هم ، فيجعله فوقهم وإن كان بعيداً منهم .

قوله : " خذوا " في محل نصب بقول مضمر ، أي : وقلنا لهم : خذوا ، وهذا القول مضمر يجوز أن يكون في محل نصب على الحال من فاعل " رفعنا " والتقدير : ورفعنا الطور قائلين لكم خذوا .

(32/54)

وقد تقدّم أن خذ محذوف الفاء أن الأصل : اؤخذ ، عند قوله : ﴿ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً ﴾ [البقرة : 35] .

قوله : ﴿ مَآ آتَيْنَاكُم ﴾ مفعول " خذوا " ، و " ما " موصولة بمعنى الذي لا نكرة موصوفة ، والعائد محذوف أي : ما آتيناكموه .

قوله : " بقوة " في محل نَصْبٍ على الحال ، وفي صاحبها قولان :

أحدهما : إنه فاعل " خذوا " وتكون حالاً مقدرة ، والمعنى : خذوا الذي آتيناكموه حال كونكم عازمين على الجدّ في العمل به .

والثاني : أنه ذلك العائد المحذوف ، والتقدير : خذوا الذي آتيناكموه في حال كونه مشدداً فيه أي : في العمل به ، والاجتهاد في معرفته .

قوله : " ما فيه " الضمير يعود على " ما آتيناكم " أي : أذكروا ما في الكتاب ، واحفظوه وادرسوه ، ولا تغفلوا عنه ، ولا يحمل على الذكر الذي هو ضدّ النسيان ؛ لأنه ليس من فعل العبد ، فلا يجوز الأمر به ، وفي حرف " أُبَيّ " " واَّكِرُوا " بذال مشددة وكسر الكاف ، وفي حرف عبد الله " وتَذَكَّروا مَا فِيهِ " [ومعناه] : اتّعظوا به .

قوله : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ أي : لكي تتقوا فتنجوا من الهلاك في الدنيا ، والعذاب في العقبى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 2 صـ 139 . 141 ﴾ . باختصار .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (63) ﴾

أخذ سبحانه ميثاقَ جميع المُكَلَّفِين ، ولكنَّ قوماً أجابوا طوعاً لأنه تعرَّف إليهم فوَحَّدوه وقوماً أجابوه كرهاً لأنه ستر عليهم فجحدوه ، ولا حُجَّة أقوى من عيان ما رفع فوقهم من الطور – وهو الجبل – ولكن عَدِموا نورَ البصيرة ، فلا ينفعهم عيانُ البصر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 96 ﴾

قوله تعالى ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (64) ﴾

فصل

قال البقاعى :

قوله : ﴿ ثم توليتم ﴾ والتولي قال الأصفهاني : أصله الإعراض عن الشيء بالجسم ، ثم استعمل في الإعراض عن الأمر والدين – انتهى .

وهو هنا الإعراض المتكلف بما يفهمه التفعل – قاله الحرالي .

وذلك لأن النفوس إذا توطنت على أمر الله فرأت محاسنه فرجعت بذلك إلى نحو من الفطر الأولى لم ترجع عنه إلاّ بمنازعة من الهوى شديدة .

ولما كان توليهم لم يستغرق زمن البعد أدخل الجار فقال : ﴿ من بعد ذلك ﴾ أي التأكيد العظيم عن الوفاء به ﴿ فلولا ﴾ أي فتسبب عن توليكم أنه لولا ﴿ فضل الله ﴾ أي الذي له الجلال والإكرام مستعل ﴿ عليكم ورحمته ﴾ بالعفو والتوبة والإكرام بالهداية والنصر على الأعداء ﴿ ولكنتم من الخاسرين ﴾ بالعقوبة وتأبد الغضب ، وأيضاً فلما كان يمكنهم أن

يدعوا الإيمان والعمل الصالح عقبت تلك بآية الميثاق إشارة إلى أنه ليس المنجي الإيمان في الجملة بل الإيمان بجميع ما أخذ عليهم به الميثاق إشارة إلى أنه ليس المنجي الإيمان في الجملة بل الإيمان بجميع ما أخذ عليهم به الميثاق ، وهو جميع ما آتاهم في التوراة إيماناً مصحوباً بالقوة ، ومما آتاهم صفة عيسى ومحمد عليهما السلام والأمر باتباعهما ، فهو مما أخذ عليهم به العهد وقد كفروا به فلم يصح لهم إيمان ولا عمل ، لأن التفرقة بين ما أتى منه سبحانه زنذقة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 167 ﴾

فصل

قال الفخر :

أما قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّن بَعْدِ ذلك ﴾ أي ثم أعرضتم عن الميثاق والوفاء به ،

قال القفال رحمه الله : قد يعلم في الجملة أنهم بعد قبول التوراة ورفع الطور تولوا عن التوراة بأمور كثيرة ، فحرفوا التوراة وتركوا العمل بها وقتلوا الأنبياء وكفروا بهم وعصوا أمرهم ولعل فيها ما اختص به بعضهم دون بعض ومنها ما عمله أوائلهم ومنها ما فعله متأخروهم ولم يزالوا في التيه مع مشاهدتهم الأعاجيب ليلاً ونهاراً يخالفون موسى ويعترضون عليه

ويلقونه بكل أذى ويجاهرون بالمعاصي في معسكرهم ذلك حتى لقد خسف ببعضهم وأحرقت النار بعضهم وعوقبوا بالطاعون وكل هذا مذكور في تراجم التوراة التي يقرون بها ثم فعل متأخروهم ما لا خفاء به حتى عوقبوا بتخريب بيت المقدس وكفروا بالمسيح وهموا بقتله.

والقرآن وإن لم يكن فيه بيان ما تولوا به عن التوراة فالجملة معروفة وذلك إخبار من الله تعالى عن عناد أسلافهم فغير عجيب إنكارهم ما جاء به محمد عليه الصلاة والسلام من الكتاب وجحودهم لحقه وحالهم في كتابهم ونبيهم ما ذكر والله أعلم. انتهى انتهى. اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 101 ﴾

وقال القرطبى :

وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ ﴾ تولّى تفعّل ، وأصله الإعراض والإدبار عن الشيء بالجسم ؛ ثم استعمل في الإعراض عن الأوامر والأديان والمعتقدات إتساعاً ومجازاً .

وقوله : ﴿ مِّن بَعْدِ ذلك ﴾ أي من بعد البرهان ؛ وهو أخذ الميثاق ورفع الجبل. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 1 صـ 438 ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ ثم توليتم من بعد ذلك ﴾ : أي أعرضتم عن الميثاق والعمل بما فيه ، وأصل التولي : أن يكون بالجسم ، ثم استعمل في الإعراض عن الأمور والأديان والمعتقدات ، اتساعاً ومجازاً .

ودخول ثم مشعر بالمهلة ، ومن تشعر بابتداء الغاية .

لكن بين الجملتين كلام محذوف ، التقدير ، والله أعلم : فأخذتم ما آتيناكم ، وذكرتم ما فيه ، وعملتم بمقتضاه .

فلا بدّ من ارتكاب مجاز في مدلول من ، وأنه لسرعة التولي منهم واجتماعهم عليه ، كأنه ما تخلل بين ما أمروا به وبين التولي شيء .

(35/54)

وقد علم أنهم بعد ما قبلوا التوراة ، تولوا عنها بأمور ، فحرّفوها ، وتركوا العمل بها ، وقتلوا الأنبياء ، وكفروا بالله ، وعصوا أمره .

ومن ذلك ما اختص به بعضهم ، وما عمله أوائلهم ، وما عمله أواخرهم .

ولم يزالوا في التيه ، مع مشاهدتهم الأعاجيب ، يخالفون موسى ، ويظاهرون بالمعاصي في عسكرهم ، حتى خسف ببعضهم ، وأحرقت النار بعضهم ، وعوقبوا بالطاعون ، وكل هذا مذكور في تراجم التوراة التي يقرأون بها ، ثم فعل ساحروهم ما لا خفاء به ، حتى عوقبوا بتخريب بيت المقدس ، وكفروا بالمسيح وهموا بقتله ، والقرآن ، وإن لم يكن فيه بيان ما تولوا به عن التوراة .

فالجملة معروفة ، وذلك إخبار من الله عن أسلافهم .

فغير عجيب إنكارهم ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، وحالهم في كتابه ما ذكر .

والإشارة بذلك في قوله : ﴿ من بعد ذلك ﴾ إلى قبول ما أوتوه ، أو إلى أخذ الميثاق والوفاء به ، ورفع الجبل ، أو خروج موسى من بينهم ، أو الإيمان ، أقوال . انتهى انتهى . اهـ

﴿ البحر المحيط حـ 1 صـ 407 ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّن بَعْدِ ذلك ﴾ أي أعرضتم عن الوفاء بالميثاق بعد أخذه وخالفتم ، وأصل التولي الإعراض المحسوس ثم استعمل في الإعراض المعنوي كعدم القبول ، ويفهم من الآية أنهم امتثلوا الأمر ثم تركوه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 281 ﴾

قوله تعالى ﴿ فَلَوْلاَ فَضْلُ الله عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الخاسرين ﴾

فصل

قال الفخر :

ذكر القفال في تفسيره وجهين .

الأول : لولا ما تفضل الله به عليكم من إمهالكم وتأخير العذاب عنكم لكنتم من الخاسرين أي من الهالكين الذين باعوا أنفسهم بنار جهنم ، فدل هذا القول على أنهم إنما خرجوا عن هذا الخسران لأن الله تعالى تفضل عليهم بالإمهال حتى تابوا .

الثاني : أن يكون الخبر قد انتهى عند قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّن بَعْدِ ذلك ﴾ ثم قيل : ﴿ فَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ ﴾ رجوعاً بالكلام إلى أوله ، أي لولا لطف الله بكم برفع الجبل فوقكم لدمتم على رد كم الكتاب ولكنه تفضل عليكم ورحمكم فلطف بكم بذلك حتى تبتم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 101 ﴾

قال القرطبى :

وقوله : ﴿ فَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ ﴾ " فضلُ " مرفوع بالابتداء عند سيبويه والخبر محذوف لا يجوز إظهاره ؛ لأن العرب استغنت عن إظهاره ؛ إلا أنهم إذا أرادوا إظهاره جاءوا بأنّ ، فإذا جاءوا بها لم يحذفوا الخبر .

والتقدير فلولا فضل الله تداركك .

﴿ وَرَحْمَتُهُ ﴾ عطف على " فضل " أي لطفه وإمهاله .

﴿ لَكُنْتُم ﴾ جواب " لولا " .

﴿ مِّنَ الخاسرين ﴾ خبر كنتم .

والخسران : النقصان ؛ وقد تقدّم .

وقيل : فضله قبول التوبة ، و " رحمته" العفو .

والفضل : الزيادة على ما وجب .

والإفضال : فعل ما لم يجب .

قال ابن فارس في المُجْمَل : الفضل الزيادة والخير ، والإفضال : الإحسان . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 1 صـ 438 . 439 ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ فلولا فضل الله عليكم ورحمته ﴾ ، الفضل : الإسلام ، والرحمة : القرآن ، قاله أبو العالية .

أو الفضل : قبول التوبة ، والرحمة : العفو عن الزلة ، أو الفضل : التوفيق للتوبة ، والرحمة : القبول .

أو الفضل والرحمة ، فأخبر الله عنهم .

أو الفضل والرحمة : بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم وإدراكهم لمدته .

وعلى هذا القول يكون من تلوين الخطاب ، إذ صار هذا عائداً على الحاضرين .

والأقوال قبله تدل على أن المخاطب به من سلف ، لأنه جاء في سياق قصتهم .

وفضل الله على مذهب البصريين مرفوع على الابتداء ، والخبر محذوف تقديره : موجود ، وما يشبهه مما يليق بالموضع .

وعليكم : متعلق بفضل ، أو معمول له ، فلا يكون في موضع الخبر .

والتقدير : ﴿ فلولا فضل الله عليكم ورحمته ﴾ موجودان ، ﴿ لكنتم ﴾ : جواب لولا .

والأكثر أنه إذا كان مثبتاً تدخله اللام ، ولم يجىء في القرآن مثبتاً إلا باللام ، إلا فيما زعم بعضهم أن قوله تعالى : ﴿ وهم بها ﴾ جواب : لولا قدم فإنه لا لام معه .

وقد جاء في كلام العرب بغير لام ، وبعض النحويين يخص ذلك بالشعر ، قال الشاعر :

لولا الحياء ولولا الدين عبتكما . . .

ببعض ما فيكما إذ عبتما عوري

وقد جاء في كلامهم بعد اللام ، قد ، قال الشاعر :

لولا الأمير ولولا حق طاعته . . .

لقد شربت دماً أحلى من العسل

وقد جاء في كلامهم أيضاً حذف اللام وإبقاء قد نحو : لولا زيد قد أكرمتك .

﴿ من الخاسرين ﴾ : تقدّم أن الخسران : هو النقصان ، ومعناه من الهالكين في الدنيا والأخرى .

ويحتمل أن يكون كان هنا بمعنى : صار .

قال القشيري : أخذ سبحانه ميثاق المكلفين ، ولكنّ قوماً أجابوه طوعاً ، لأنه تعرّف إليهم ، فوحدوه ، وقوماً أجابوه كرهاً ، لأنه ستر عليهم ، فجحدوه .

ولا حجة أقوى من عيان ما رفع فوقهم من الطور ، ولكن عدموا نور البصيرة ، فلم ينفعهم عيان البصر .

قال تعالى : ﴿ ثم توليتم ﴾ ، أي رجعتم إلى العصيان ، بعد مشاهدتكم الإيمان بالعيان ، ولولا حكمه بإمهاله ، وحكمه بإفضاله ، لعاجلكم بالعقوبة ، ولحلّ بكم عظيم المصيبة .

وقال بعض أهل اللطائف : كانت نفوس بني إسرائيل ، من ظلمات عصيانها ، تخبط في عشواء حالكة الجلباب ، وتخطر ، من غلوائها وعلوّها ، في حلتي كبر وإعجاب .

فلما أمروا بأخذ التوراة ، ورأوا ما فيها من أثقال التكاليف ، ثارت نفوسهم الآبية ، فرفع الله عليهم الجبل ، فوجدوه أثقل مما كلفوه ، فهان عليهم حمل التوراة مع ما فيها من التكليف والنصب ، إذ ذاك أهون من الهلاك ، قال الشاعر :

إلى الله يدعى بالبراهين من أبى . . .

فإن لم يجب نادته بيض الصوارم . انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 1 صـ 408 ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ فَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الخاسرين ﴾ الفضل التوفيق للتوبة والرحمة قبولها ، أو الفضل والرحمة بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم وإدراكهم لمدته ، فالخطاب على الأول جار على سنن الخطابات السابقة مجازاً باعتبار الأسلاف وعلى الثاني جار على الحقيقة ، والخسران ذهاب رأس المال أو نقصه ، والمراد لكنتم مغبونين هالكين بالانهماك في المعاصي ، أو بالخبط في مهاوي الضلال عند الفترة ، وكلمة لولا إما بسيطة أو مركبة من لو الامتناعية وتقدم الكلام عليها ، وحرف النفي والاسم الواقع بعدها عند سيبويه مبتدأ خبره محذوف وجوباً لدلالة الحال عليه وسد الجواب مسده ، والتقدير ولولا فضل الله ورحمته حاصلان ، ولا يجوز أن يكون الجواب خبراً لكونه في الأغلب خالياً عن العائد إلى المبتدأ ، وعند الكوفيين فاعل فعل محذوف أي لولا ثبت فضل الله تعالى الخ ، و ﴿ لَكُنتُم ﴾ جواب لولا ويكثر دخول اللام على الجواب إذا كان موجباً ، وقيل : إنه لازم إلا في الضرورة كقوله :

لولا الحياء ولولا الدين (عبتكم) . . .

ببعض ما فيكما إذ عبتما عورى

وجاء في كلامهم بعد اللام قد ، كقوله :

لولا الأمير ولولا خوف طاعته . . .

(لقد) شربت وما أحلى من العسل

وقد جاء أيضاً حذف اللام وإبقاء قد نحو لولا زيد قد أكرمتك ولم يجيء في القرآن مثبتاً إلا باللام إلا فيما زعم بعضهم أن قوله تعالى : ﴿ وَهَمَّ بِهَا ﴾ [يوسف : 24] جواب لولا قدم عليها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 282.281 ﴾

فائدة

قال الفخر :

لقائل أن يقول كلمة ﴿ لَوْلاَ ﴾ تفيد انتفاء الشيء لثبوت غيره ، فهذا يقتضي أن انتفاء الخسران من لوازم حصول فضل الله تعالى فحيث حصل الخسران وجب أن لا يحصل هناك لطف الله تعالى .

(39/54)

وهذا يقتضي أن الله تعالى لم يفعل بالكافر شيئاً من الألطاف الدينية وذلك خلاف قول المعتزلة : أجاب الكعبي بأنه تعالى سوى بين الكل في الفضل لكن انتفع بعضهم دون بعض ، فصح أن يقال ذلك كما يقول القائل لرجل وقد سوى بين أولاده في العطية فانتفع بعضهم : لولا

أن أباك فضلك لكنت فقيراً ، وهذا الجواب ضعيف لأن أهل اللغة نصوا على أن : " لولا" تفيد انتفاء الشيء لثبوت غيره وبعد ثبوت هذه المقدمة فكلام الكعبي ساقط جداً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 101 ﴾

ومن فوائد ابن عرفة فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم . . . ﴾ .

((قال ابن عرفة : " ثُمَّ " إما لبعدها ما بين منزلة (الإيمان والكفر) أو للمهلة حقيقة)) .

قيل لابن عرفة : الحقيقة متعذرة/ فإن " من " لابتداء الغاية ، وليس بين أول أزمنة البعدية وآخر أزمنة (أَخْذِ الميثاق) تراخ بوجه ؟

قال ابن عرفة : الأولية مقولة بالتشكيك في أزمنة البعدية .

قيل لابن عرفة : هذا يرجح أن المراد أخذنا ميثاق آبائكم لأن المخاطبين لما (أسلموا) لم يرتد منهم أحد ؟

فقال ابن عرفة : يفهم هذا كما يفْهم في قوله تعالى : ﴿ والذين كفروا أَوْلِيَآؤُهُمُ الطاغوت يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النور إِلَى الظلمات ﴾ لأنه لم يحصل لهم النور فقط ، لكن لما كانت أدلته والآثار التي هي سبب فيه سهلة مُتيسرة (قريبة) لفهمهم لا مشقة عليهم (فيها) فصاروا كأنهم حصل لهم الإيمان بالفعل لحصول (أثره) أي شرائطه وأسبابه ، (فعدم) إيمانهم كأنه

ردّة وخروج من النور إلى الظلمات .

قوله تعالى : ﴿ فَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ . . . ﴾ .

قال ابن عرفة : هذا ليس بتكرار ، بل فضل الله راجع إلى قبول التّوبة ، (ورحمته) راجعة إلى نفس التوبة ، أو أنّ فضل الله راجع إلى الثواب والإنعام ، ورحمته أعم من ذلك (تتناول) رفع المؤلم فقط ، أو دفعه مع (جلب) الملائم ، فهو من عطف الأعم على الأخص . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عرفة صـ 315.317 ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ ﴾ التولّي تفعل من الوَلْي ، وأصله : الإعراض والإدبار عن الشَّيء بالجسم ، ثم استعمل في الإعراض عن الأوامر والمعتقدات اتساعاً ومجازاً وذلك إشارة إلى ما تقدم من رفع الطُّور ، وإيتاء التوراة .

قوله : ﴿ فَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ ﴾ " لولا " هذه حرف امتناع لوجود ، والظَّاهر أنها بسيطة وقال أبو البَقَاءِ : هي مركّبة من " لو " ، و " لا " و " لو " قبل التركيب يمتنع بها الشيء لامتناع غيره ،

و" لا " للنفي ، والامتناع نفي في المعنى ، وقد دخل النفي بـ " لا " على أحد امتناعي " لو " والامتناع نفي في المعنى ، والنَّفي إذا دخل على النَّفي صار إيجاباً ، فمن [ثمَّ] صار معنى " لولا " هذه يمتنع بها الشيء لوجود غيره وهذا تكلُّف ما لا فائدة فيه ، وتكون " لولا " أيضاً حرف تحضيض فتختص بالأفعال ، وسيأتي الكلام عليها إن شاء الله تعالى .

و" لولا " هذه تختص بالمبتدأ ، ولا يجوز أن يليها الأفعال ، فإن ورد ما ظَاهِرُهُ ذلك أُوِّل ؛ كقوله : [الوافر]

وَلَوْلاَ يَحْسِبُونَ الحِلْمَ عَجْزاً . . .

لَمَا عَدِمَ المُسِيئُونَ احْتِمَالِي

وتأويله أن الأصل : " ولولا أن تحسبوا " فلما حذفت أن ارتفع الفعل ؛ كقوله : [الطويل]

أَلاَ أَيُّهَذَا الزَّاجِرِي أَحْضُرُ الوَغَى . . . . . .

أي : " أَنْ أَحْضُرَ " .

والمرفوع بعدها مبتدأ خلافاً للكسائي حيث رفعه بفعل مضمر ، وللفراء حيث قال : " مرفوع بنفس لولا " .

وخيره واجب الحذف للدلالة عليه وسد شيء مسده وهو جوابها والتقدير : ولولا فَضْل الله كائن أو حاصل ، ولا يجوز أن يثبت إلا في ضرورة شعر ، ولذلك لُحِّنَ المعرِّيُّ في قوله : [الوافر]

يُذِيبُ الرُّعْبُ مِنْهُ كُلَّ عَضْبٍ . . .

فَلَوْلاَ الغِمْدُ يُمْسِكُهُ لَسَالاَ

حيث أثبت خبرها بعدها ، هكذا أطلقوا ، وبعضهم فَصَّل فقال : إن كان خبر ما بعدها كوناً مطلقاً ، فالحذف واجب ، وعليه جاء التنزيل وأكثر الكلام ، وإن كان كوناً مقيداً فلا يخلو إما أن يدلّ عليه دليل أوْلا ، فإن لم يدلِّ عليه دليل ، وجب ذكره ؛ نحو قوله عليه الصَّلاة والسَّلام : " لَوْلاَ قَوْمُكِ حَدِيثُو عَهْدٍ بِكُفْرٍ " ، وقول الآخر : [الطويل]

فَلَوْلاَ بَنُوهَا حَوْلَهَا لَخَبَطْتُهَا . . . . . .

وإن دلّ عليه دليل جاز الذِّكر والحذف نحو : " لولا زيد لَغُلِبْنَا " : شجاع ، وعليه بيت المعرّي المتقدم .

وقال أبو البَقَاءِ : ولزم حذف الخبر للعلم به ، وطول الكَلاَم فإن وقعت " أن " بعدها ظهر الخبر كقوله : ﴿ فَلَوْلاَ أَنَّهُ كَانَ مِنَ المسبحين ﴾ [الصافات : 143] فالخبر في اللّفظ لـ " أن " ، وهذا الَّذِي قاله موهم ، ولا تعلّق لخبر " أن " بالخبر المحذوف ، ولا يغني عنه ألبتة فهو كغيره سواء ، والتقدير : فلولا كونه مسبحاً حَاضِرٌ أو موجودٌ .

فأي فائدة في ذكره لهذا ؟ [والخبر] يجب حذفه في صور أخرى تأتي مفصّلة إن شاء الله تعالى في مواضعها ، وقد تقدم عنى الفضل عند قوله : ﴿ فَضَّلْتُكُمْ عَلَى العالمين ﴾ [البقرة : 47] .

قوله : ﴿ لَكُنْتُم مِّنَ الخاسرين ﴾ اللاَّم جواب " لولا " والعم أن جوابها إن كان مثبتاً ، فالكثير دخول اللام كهذه الآية ونظائرها ، ويقلّ حذفها ؛ قال : [البسيط]

لَوْلاَ الحَيَاءُ وَلَوْلاَ الدِّينُ عِبْتُكُمَا . . .
بِبَعْضِ مَا فِيكُمَا إِذْ عِبْتُمَا عَوَرِي

وإن كان منفيًّا فلا يخلو : إما أن يكون حرف النَّفي " ما " أو غيرها ، إن كان غيرها فترك اللام واجب نحو : " لولا زيد لم أقم ، ولن أقوم " ، لئلا يتوالى لامان ، وإن كان بـ " ما " فالكثير الحَذْف ، ويقلّ الإتيان بها ، وهكذا حكم جواب " لو " الامتناعية ، وقد تقدم عند قوله : ﴿ وَلَوْ شَآءَ اللهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ ﴾ [البقرة : 20] ، ولا محلّ لجوابها من الإعراب .

و " من الخاسرينَ " في محلّ نصب خبر " كان " ، و " من " للتبعيض . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 2 صـ 141 . 144 ﴾ . باختصار .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِّن بَعْدِ ذَلِكَ ﴾ ، أي رجعتم إلى العصيان بعد ما شاهدتم تلك الآيات بالعيان ، ولولا حكمه بإمهاله ، وحِلْمُه بأفضاله لعَاجَلَكُم بالعقوبة ، وأحلَّ عليكم عظيمَ المصيبة ولَخَسِرَتْ صفقتُكم بالكُلِّيَة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 96 ﴾

(43/54)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (64) ﴾

بعد أن بيّن الحق سبحانه وتعالى لنا كيف أمر اليهود بأن يتذكروا المنهج ولا ينسوه . . وكان مجرد تذكرهم للمنهج يجعلهم يؤمنون بالإسلام وبرسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه مكتوب عندهم في التوراة ومذكورة أوصافه . . ماذا فعل اليهود ؟

يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِّن بَعْدِ ذالِكَ ﴾ . . أي أعرضتم عن منهج الله ونسيتموه ولم تلتفتوا إليه . . ﴿ فَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ ما

هو الفضل وما هي الرحمة ؟ الفضل هو الزيادة عما تستحق . . يقال لك هذا حقك وهذا فضل مني أي زيادة على حقك . .

عن عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " سدّدوا وقاربوا وأبشروا فإنه لا يُدْخِلُ أحداً الجنةَ عملهُ قالوا : ولا أنت يا رسولَ الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بمغفرة ورحمة "

فإذا تساءلت كيف يتم هذا ؟ وكيف أنه لا أحد يدخل الجنة بعمله ؟ نقول نعم لأن عمل الدنيا كله لا يساوي نعمة من نعم الله على خلقه ؛ فأنت تذكرت العمل ولم تتذكر الفضل . . وكل من يدخل الجنة فبفضل الله سبحانه وتعالى . . حتى الشهداء الذين أعطوا حياتهم وهي كل ما يملكون في هذه الدنيا . . يقول الحق سبحانه وتعالى عنهم : ﴿ فَرِحِينَ بِمَآ آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [آل عمران : 170]

فإذا كان هؤلاء الشهداء وهم في أعلى مراتب الجنة قد دخلوا الجنة بفضل الله . . فما بالك بمن هم أقل منهم أجرا . . والله سبحانه وتعالى له فضل على عباده جميعا . . واقرأ قوله

تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَاكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة : 243]

أما الرحمة فهي التي فتحت طريق التوبه لغفران الذنوب . والله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى أنه لولا هذا الفضل لبني إسرائيل . . ولولا أنه فتح لهم باب الرحمة والمغفرة ليعودوا مرة أخرى إلى ميثاقهم ومنهجهم . . لولا هذا لكانوا من الخاسرين الذين أصابهم خسران مبين في الدنيا والآخرة . . ولكن الله تبارك وتعالى بفضل منه ورحمة قد قادهم إلى الدين الذي حفظه الله سبحانه وتعالى بقدرته من أي تحريف . . فرفع عنهم عبء حفظ الكتاب . . وما ينتج عن ذلك من حمل ثقيل في الدنيا . . ورحمهم برسول الله صلى الله عليه وسلم الذي أرسله رحمة للعالمين . . مصداقا لقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء : 107]

وأعطاهم فضل هذا الدين الخاتم الذي حسم قضية الإيمان في هذا الكون . . ومع هذه الرحمة وهذا الفضل . . بأن نزل إليهم في التوراة أوصاف رسول الله صلى الله عليه وسلم وموعد بعثه . . فتح لهم بابا حتى لا يصبحوا من الخاسرين . . ولكنهم تركوا هذا الباب كما تولوا عن دينهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 379 . 380 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (65) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال الفخر :

اعلم أنه تعالى لما عدد وجوه إنعامه عليهم أولاً ختم ذلك بشرح بعض ما وجه إليهم من التشديدات ، وهذا هو النوع الأول . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 102 ﴾

فصل

قال البقاعى :

ثم جاءت قصة المعتدين في السبت مؤكدة لذلك إذ كان حاصلها أنهم لما ضيعوا أمراً واحداً من أوامره واستخفوا به وهو تحريم السبت عذبهم بعذاب لم يعذب به أحداً من العالمين فقال : ولقد وأقرب من ذلك أن يقال إنه سبحانه لما ذكرهم بنعمة العفو الحافظ لهم من الخسران قرعهم بحلافة أخرى لهم خذل بها فريقاً منهم حتى غلبهم الخسران فما ضروا إلاّ أنفسهم مقسماً على أنهم بها عالمون ولها مستحضرون فقال تعالى عاطفاً على ما تقديره : لقد علمتم جميع ذلك من عهودنا وما ذكرنا من الإيقاع بمن نقض من شديد وعيدنا ومن التهديد على ذلك بضرب الذلة وما تبعها من أنواع النكال و ﴿ لقد ﴾ أي وعزتي لقد

﴿ علمتم الذين اعتدوا ﴾ أي تعمدوا العدوان ﴿ منكم في السبت ﴾ بأن استحلوه وأصل السبت القطع للعمل ونحوه ﴿ فقلنا ﴾ أي فتسبب عن اعتدائهم أن قلنا بما لنا من العظمة .

" لهم كونوا " بإرادتنا ﴿ قردة خاسئين ﴾ أي صاغرين مطرودين جمع خاسىء من الخسىء وهو طرد بكره واستخباث ، وسبب ذلك أن الله تعالى أمرهم بيوم الجمعة فأبوا إلا السبت ، فألزمهم الله إياه وجعله لهم محنة وحرم عليهم فيه العمل ، فاصطادوا على تهيب وخوف من العقوبة ، فلما طال زمن عفوه عنهم وحمله سبحانه فتجاهروا بالمعصية مسخ منهم من عصى بالمباشرة ومن سكت عن النهي عن المنكر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 167.168 ﴾

فصل

قال الفخر :

روي عن ابن عباس أن هؤلاء القوم كانوا في زمان داود عليه السلام بأيلة على ساحل البحر بين المدينة والشام وهو مكان من البحر يجتمع إليه الحيتان من كل أرض في شهر من السنة

حتى لا يرى الماء لكثرتها وفي غير ذلك الشهر في كل سبت خاصة وهي القرية المذكورة في قوله : ﴿ وَسْئَلْهُمْ عَنِ القرية التى كَانَتْ حَاضِرَةَ البحر إِذْ يَعْدُونَ فِى السبت ﴾ [الأعراف : 163] فحفروا حياضاً عند البحر وشرعوا إليها الجداول فكانت الحيتان تدخلها فيصطادونها يوم الأحد فذلك الحبس في الحياض هو اعتداؤهم ، ثم إنهم أخذوا السمك واستغنوا بذلك وهم خائفون من العقوبة فلما طال العهد استسن الأبناء بسنة الآباء واتخذوا الأموال فمشى إليهم طوائف من أهل المدينة الذين كرهوا الصيد يوم السبت ونهوهم فلم ينتهوا وقالوا : نحن في هذا العمل منذ زمان فما زادنا الله به إلا خيراً ، فقيل لهم : لا تغتروا فربما نزل بكم العذاب والهلاك فأصبح القوم وهم قردة خاسئون فمكثوا كذلك ثلاثة أيام ثم هلكوا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 102 ﴾

فائدة

قال الفخر :

المقصود من ذكر هذه القصة أمران .

الأول : إظهار معجزة محمد عليه السلام فإن قوله : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ﴾ كالخطاب لليهود الذين كانوا في زمان محمد عليه السلام فلما أخبرهم محمد عليه السلام عن هذه الواقعة مع أنه كان أمياً لم يقرأ ولم يكتب ولم يخالط القوم دل ذلك على أنه عليه السلام إنما عرفه من الوحي .

الثاني : أنه تعالى لما أخبرهم بما عامل به أصحاب السبت فكأنه يقول لهم أما تخافون أن ينزل عليكم بسبب تمردكم ما نزل عليهم من العذاب فلا تغتروا بالإمهال الممدود لكم ونظيره قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الذين أُوتُواْ الكتاب ءامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدّقاً لّمَا مَعَكُمْ مّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهاً فَنَرُدَّهَا على أدبارها ﴾ [النساء : 47] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 102 ﴾

فائدة

قال الفخر :

الكلام فيه حذف كأنه قال : ولقد علمتم اعتداء من اعتدى منكم في السبت لكي يكون المذكور من العقوبة جزاء لذلك ، ولفظ الاعتداء يدل على أن الذي فعلوه في السبت كان محرماً عليهم وتفصيل ذلك غير مذكور في هذه الآية لكنه مذكور في قوله : ﴿ وَسْئَلْهُمْ عَنِ القرية التى كَانَتْ حَاضِرَةَ البحر ﴾ ثم يحتمل أن يقال : إنهم إنما تعدوا في ذلك الاصطياد فقط ، وأن يقال : إنما تعدوا لأنهم اصطادوا مع أنهم استحلوا ذلك الاصطياد . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 102 ﴾

سؤال : فإن قيل : لما كان الله نهاهم عن الاصطياد يوم السبت فما الحكمة في أن أكثر الحيتان يوم السبت دون سائر الأيام كما قال : ﴿ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ كذلك نَبْلُوهُم ﴾ [الأعراف : 163] وهل هذا إلا إثارة الفتنة وإرادة الاضلال .

قلنا : أما على مذهب أهل السنة فإرادة الإضلال جائزة من الله تعالى وأما على مذهب المعتزلة فالتشديد في التكاليف حسن لغرض ازدياد الثواب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 102 ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خاسئين ﴾

فصل

قال الفخر :

قوله تعالى : ﴿ كُونُواْ قِرَدَةً خاسئين ﴾ ليس بأمر لأنهم ما كانوا قادرين على أن يقلبوا أنفسهم على صورة القردة بل المراد منه سرعة التكوين كقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُنَا لِشَىْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [النحل : 4] وكقوله تعالى : ﴿ قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ [

فصلت : 11] والمعنى أنه تعالى لم يعجزه ما أراد إنزاله من العقوبة بهؤلاء بل لما قال لهم ؛ ﴿ كُونُواْ قِرَدَةً خاسئين ﴾ صاروا كذلك أي لما أراد ذلك بهم صاروا كما أراد وهو كقوله : ﴿ كَمَا لَعَنَّا أصحاب السبت وَكَانَ أَمْرُ الله مَفْعُولاً ﴾ [النساء : 47] ولا يمتنع أيضاً أن يتكلم الله بذلك عند هذا التكوين إلا أن المؤثر في هذا التكوين هو القدرة والإرادة .

فإن قيل : لما لم يكن لهذا القول أثر في التكوين فأي فائدة فيه ؟

قلنا : أما عندنا فأحكام الله تعالى وأفعاله لا تتوقف على رعاية المصالح ألبتة ، وأما عند المعتزلة فلعل هذا القول يكون لفظاً لبعض الملائكة أو لغيرهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 103 ﴾

فصل

قال الفخر :

المروي عن مجاهد أنه سبحانه وتعالى مسخ قلوبهم بمعنى الطبع والختم لا أنه مسخ صورهم وهو مثل قوله تعالى : ﴿ كَمَثَلِ الحمار يَحْمِلُ أَسْفَاراً ﴾ [الجمعة : 5] ونظيره أن يقول الأستاذ للمتعلم البليد الذي لا ينجح في تعليمه : كن حماراً .

واحتج على امتناعه بأمرين .

الأول : أن الإنسان هو هذا الهيكل المشاهد والبنية المحسوسة فإذا أبطلها وخلق في تلك الأجسام تركيب القرد وشكله كان ذلك إعداماً للإنسان وإيجاداً للقرد فيرجع حاصل

المسخ على هذا القول إلى أنه تعالى أعدم الأعراض التي باعتبارها كانت تلك الأجسام إنساناً وخلق فيها الأعراض التي باعتبارها كانت قرداً فهذا يكون إعداماً وإيجاداً لا أنه يكون مسخاً .

(49/54)

والثاني : إن جوزنا ذلك لما آمنا في كل ما نراه قرداً وكلباً أنه كان إنساناً عاقلاً ، وذلك يفضي إلى الشك في المشاهدات .

وأجيب عن الأول بأن الإنسان ليس هو تمام هذا الهيكل ، وذلك لأن هذا الإنسان قد يصير سميناً بعد أن كان هزيلاً ، وبالعكس فالأجزاء متبدلة والإنسان المعين هو الذي كان موجوداً والباقي غير الزائل ، فالإنسان أمر وراء هذا الهيكل المحسوس ، وذلك الأمر إما أن يكون جسماً سارياً في البدن أو جزءاً في بعض جوانب البدن كقلب أو دماغ أو موجوداً مجرداً على ما يقوله الفلاسفة وعلى جميع التقديرات فلا امتناع في بقاء ذلك الشيء مع تطرق التغير إلى هذا الهيكل وهذا هو المسخ وبهذا التقدير يجوز في المالك الذي تكون جثته في غاية العظم أن يدخل حجرة الرسول عليه السلام .

وعن الثاني أن الأمان يحصل بإجماع الأمة ، ولما ثبت بما قررنا جواز المسخ أمكن إجراء

الآية على ظاهرها ، ولم يكن بنا حاجة إلى التأويل الذي ذكره مجاهد رحمه الله وإن كان ما ذكره غير مستبعد جداً ، لأن الإنسان إذا أصر على جهالته بعد ظهور الآيات وجلاء البينات فقد يقال في العرف الظاهر إنه حمار وقرد ، وإذا كان هذا المجاز من المجازات الظاهرة المشهورة لم يكن في المصير إليه محذور ألبتة . انتهى انتهى . ا هـ ﴾ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 103 ﴿

(50/54)

فائدة

قال الطبرى :

وهذا القول الذي قاله مجاهد (1) ، قول لظاهر ما دل عليه كتاب الله مخالف . وذلك أن الله أخبر في كتابه أنه جعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت ، كما أخبر عنهم أنهم قالوا لنبيهم : (أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً) [النساء : 153] ، وأن الله تعالى ذكره أصعقهم عند مسألتهم ذلك ربهم ، وأنهم عبدوا العجل ، فجعل توبتهم قتل أنفسهم ، وأنهم أمروا بدخول الأرض المقدسة فقالوا لنبيهم : (اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ) [المائدة : 24] فابتلاهم بالتيه . فسواء قائل قال : هم لم يمسخهم قردة ، وقد أخبر جل ذكره أنه

جعل منهم قردة وخنازير – وآخر قال : لم يكن شيء مما أخبر الله عن بني إسرائيل أنه كان منهم – من الخلاف على أنبيائهم ، والنكال والعقوبات التي أحلها الله بهم . ومن أنكر شيئا من ذلك وأقر بآخر منه ، سئل البرهان على قوله ، وعورض – فيما أنكر من ذلك – بما أقر به ، ثم يسأل الفرق من خبر مستفيض أو أثر صحيح .

هذا مع خلاف قول مجاهد قول جميع الحجة التي لا يجوز عليها الخطأ والكذب فيما نقلته مجمعة عليه . وكفى دليلا على فساد قول ، إجماعها على تخطئته . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الطبرى حـ 1 صـ 173 ﴾

---

(1) يكفي في رد قول مجاهد - رحمه الله - مخالفته لما أجمعت عليه الأمة ، من أن الله مسخهم قردة ، فلا حاجة إلى التأويل الذي لا يدل عليه دليل ، ثم ما الداعي إلى ترك الظاهر أو الحقيقة ، ولا يجوز العدول عن الحقيقة إلى المجاز إلا إذا تعذر حمل اللفظ على الحقيقة ، وهذا أمر غير مستبعد على سبيل العقوبة ، كما كان الأمر في حق إساف ونائلة ، [الصنمان المعروفان] ، والقصة مشهورة . والله أعلم .

ويرى ابن كثير رحمه الله : أن مسخهم كان صورياً ومعنوياً , فقال :

" بل الصحيح أنه معنوي وصوري . والله أعلم . (1) " انتهى انتهى . ا هـ ﴿ انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن كثير حـ 1 صـ 291 ﴾

﴿

وهو رأي في غاية الوجاهة والقوة ، ولعله يقصد بالمسخ الصورى مسخهم قردة ، وبالمسخ المعنوي ما ورد في قوله تعالى : " أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت " [النساء : 47] وقوله تعالى : " لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون [المائدة : 78] والله أعلم بأسرار كتابه .

(51/54)

سؤالان :

السؤال الأول : إنه بعد أن يصير قرداً لا يبقى له فهم ولا عقل ولا علم فلا يعلم ما نزل به من العذاب ومجرد القردية غير مؤلم بدليل أن القرود حال سلامتها غير متألمة فمن أين يحصل العذاب بسببه ؟

الجواب : لم لا يجوز أن يقال إن الأمر الذي به يكون الإنسان إنساناً عاقلاً فاهماً كان باقياً إلا أنه لما تغيرت الخلقة والصورة لا جرم أنها ما كانت تقدر على النطق والأفعال الإنسانية إلا أنها كانت تعرف ما نالها من تغير الخلقة بسبب شؤم المعصية وكانت في نهاية الخوف والخجالة ، فربما كانت متألمة بسبب تغير تلك الأعضاء ولا يلزم من عدم تألم القرود الأصلية بتلك الصورة عدم تألم الإنسان بتلك الصورة الغريبة العرضية .

السؤال الثاني : أولئك القردة بقوا أو أفناهم الله ، وإن قلنا إنهم بقوا فهذه القردة التي في زماننا هل يجوز أن يقال إنها من نسل أولئك الممسوخين أم لا ؟

الجواب : الكل جائز عقلاً (1) إلا أن الرواية عن ابن عباس أنهم ما مكثوا إلا ثلاثة أيام ثم هلكوا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 103. 104 ﴾

---

(1) لا مجال للقول بالجواز العقلي هنا بعد أن نطق السمع بخلافه كما ورد في صحيح مسلم . والله أعلم .

لطيفة

قال الثعالبى :

وَ﴿ كُونُواْ ﴾ : لفظة أُمر ، وهو أمر التكوينِ ؛ كقوله تعالى لكُلِّ شَيْءٍ : ﴿ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [يس : 82] قال ابن الحاجب . . . في مختصره الكَبِيرِ المسمى ب " منتهى الوُصُولِ " : صيغةُ : افعل ، وما في معناها قد صَحَّ إِطلاقها بإزاء خمسةَ عَشَرَ محملاً .

الوجوبُ : ﴿ أَقِمِ الصلاة ﴾ [الإسراء : 78] والنَّدْبُ : ﴿ فكاتبوهم ﴾ [النور : 33] .

والإِرشادُ : ﴿ وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ ﴾ [البقرة : 282] والإِباحةُ : ﴿ فاصطادوا ﴾ [المائدة : 2] .

والتأديب : "كُلْ مِمَّا يَليكَ" . والامتنانُ : ﴿ كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ الله ﴾ [الأنعام : 142] .

والإِكرامُ : ﴿ ادخلوها بِسَلامٍ ﴾ [ق : 34] والتَّهديد : ﴿ اعملوا مَا شِئْتُمْ ﴾ [فصلت : 40] والإِنذار : ﴿ تَمَتَّعُوا ﴾ [إبراهيم30 :] والتسخيرُ : ﴿ كُونُوا قِرَدَةً ﴾ [الأعراف : 166] والإِهانة : ﴿ كُونُوا حِجَارَةً ﴾ [الإسراء : 50] والتَّسويةُ : ﴿ فاصبروا أَوْلا تَصْبِرُوا ﴾ [الطور : 16] والدعاءُ : ﴿ اغفر لَنَا ﴾ [آل عمران : 147] والتمنّي : [الطويل]

. . . أَلا انجلي . . . . . وكمالُ القدرة : ﴿ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [يس : 82] . انتهى .

وزاد غيره كونها للتعجيز ، أعني : صيغةَ "افعل" .

قال ابن الحاجب : وقد اتفق على أنها مجازٌ فيما عَدَا الوُجُوبَ والنَّدْبَ والإِباحةَ والتهديدَ ، ثم الجمهورُ على أنها حقيقةٌ في الوجوب . انتهى . ا هـ ﴿ الجواهر الحسان حـ 1 صـ 74.75 ﴾

فصل

قال الفخر :

قال أهل اللغة : الخاسىء الصاغر المبعد المطرود كالكلب إذا دنا من الناس قيل له اخسأ ، أي تباعد وانطرد صاغراً فليس هذا الموضع من مواضعك ، قال الله تعالى : ﴿ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ البَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ [الملك : 4] يحتمل صاغراً ذليلاً ممنوعاً عن معاودة النظر لأنه تعالى قال : ﴿ فارجع البصر هَلْ ترى مِن فُطُورٍ ثُمَّ ارْجِعِ البَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ البَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ [الملك : 3 ، 4] ، فكأنه قال : ردد البصر في السماء ترديد من يطلب فطوراً فإنك وإن أكثرت من ذلك لم تجد فطوراً فيرتد إليك طرفك ذليلاً كما يرتد الخائب بعد طول سعيه في طلب شيء ولا يظفر به فإنه يرجع خائباً صاغراً مطروداً من حيث كان يقصده من أن يعاوده . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 104 ﴾

فصل

قال السيوطى :

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (65) ﴾

أخرج ابن جرير عن ابن عباس ﴿ ولقد علمتم ﴾ قال : عرفتم ، وهذا تحذير لهم من المعصية يقول : احذورا أن يصيبكم ما أصاب أصحاب السبت إذ عصوني اعتدوا يقول : اجترأوا في السبت بصيد السمك فقلنا لهم ﴿ كونوا قردة خاسئين ﴾ فمسخهم الله قردة بمعصيتهم ، ولم يعش مسخ فوق ثلاثة أيام ، ولم يأكل ولم يشرب ولم ينسل .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : إنما كان الذين اعتدوا في السبت فجعلوا قردة فواقاً ، ثم هلكوا ما كان للمسخ نسل .

وأخرج ابن المنذر من وجه آخر عن ابن عباس قال : القردة والخنازير من نسل الذين مسخوا .

وأخرج ابن المنذر عن الحسن قال : انقطع ذلك النسل .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم في قوله ﴿ فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين ﴾ قال : مسخت قلوبهم ولم يمسخوا قردة ، وإنما هو مثل ضربه الله لهم مثل الحمار يحمل أسفاراً .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة في الآية قال : أحلت لهم الحيتان وحرمت عليهم يوم السبت ليعلم من يطيعه ممن يعصيه ، فكان القوم فيهم ثلاثة أصناف ، فأما صنف فأمسك ونهى عن المعصية ، وأما صنف فأمسك عن حرمة الله ، وأما صنف فانتهك المعصية ومرن على المعصية ، فلما أبوا إلا عتواً عما نهاهم الله عنه ﴿ قلنا لهم كونوا قردة

خاسئين ﴾ وصار القوم قروداً تعاوى لها الذئاب بعد ما كانوا رجالاً ونساء .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ خاسئين ﴾ قال : ذليلين .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله ﴿ خاسئين ﴾ قال : صاغرين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 1 صـ 184. 185 ﴾

(55/54)

لطيفة

قال فى روح البيان :

واعلم أن هذا البلاء والخسران جزاء من لم يعرف قدر الإحسان ومن يكافىء المنعم بالكفران يرد من عزة الوصال إلى ذل الهجران وكان عقوبة الأمم بالخسف والمسخ على الأجساد وعقوبة هذه الأمة على القلوب وعقوبات القلوب أشد من عقوبات النفوس قال الله تعالى : ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ ﴾ (الأنعام : 110) الآية هكذا حال من لم يتأدب في خدمة الملوك وينخرط في أثناء السلوك ومن لم يتخط بساط القربة بقدم الحرمة يستوجب الحرمان ويستجلب الخسران ويبتلي بسياسة السلطان .

ثم علامة المسخ مثل الخنزير أن يأكل العذرات ومن أكل الحرام فقلبه ممسوخ .

ويقال علامة مسخ القلب ثلاثة أشياء لا يجد حلاوة الطاعة ولا يخاف من المعصية ولا يعتبر بموت أحد بل يصير أرغب في الدنيا كل يوم كذا في " زهرة الرياض " .

وروى عن عوف بن عبد الله أنه قال : كان أهل الخير يكتب بعضهم بثلاث كلمات من عمل لآخرته كفاه الله أمر دنياه ومن أصلح ما بينه وبين الله أصلح الله ما بينه وبين الناس ومن أصلح سريرته أصلح الله علانيته .

قال محمد بن علي الترمذي صلاح أربعة أصناف في أربعة مواطن : صلاح الصبيان في الكتاب ، وصلاح القطاع في السجن ، وصلاح النساء في البيوت ، وصلاح الكهول في المساجد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح البيان حـ 1 صـ 201 ﴾

(56/54)

ومن فوائد ابن الجوزى فى الآية

قال رحمه الله :

السبت : اليوم المعروف ، قاله ابن الأنباري : ومعنى السبت في كلام العرب : القطع ، يقال قد سبت رأسه : إذا حلقه وقطع الشعر منه ، ويقال : نعل سبتية : إذا كانت مدبوغة بالقرظ محلوقة الشعر ، فسمي السبت سبتاً ، لأن الله تعالى ابتدأ الخلق فيه ، وقطع فيه

بعض خلق الأرض ، أو : لأن الله تعالى أمر بني إسرائيل فيه بقطع الأعمال وتركها .

قال : وقال بعضهم : سمي سبتاً ، لأن الله تعالى أمرهم بالاستراحة فيه من الأعمال ، وهذا خطأ ، لأنه لا يعرف في كلام العرب : سبت بمعنى : استراح .

وفي صفة اعتدائهم في السبت قولان .

أحدهما : أنهم أخذوا الحيتان يوم السبت ، قاله الحسن ومقاتل .

والثاني : أنهم حبسوها يوم السبت وأخذوها يوم الأحد ، وذلك أن الرجل كان يحفر الحفيرة ؛ ويجعل لها نهراً إلى البحر ، فاذا كان يوم السبت فتح النهر ، وقد حرم الله عليه العمل يوم السبت ، فيقبل الموج بالحيتان حتى يلقيها في الحفيرة ، فيريد الحوت الخروج فلا يطيق ، فيأخذها يوم الأحد ، قاله السدي .

الإشارة إلى قصة مسخهم

روى عثمان بن عطاء عن أبيه قال : نودي الذين اعتدوا في السبت ثلاثة أصوات .

نودوا : يا أهل القرية ، فانتبهت طائفة أكثر من الأولى ، ثم نودوا : يا أهل القرية ، فانتبه الرجال والنساء والصبيان ، فقال الله لهم : ﴿ كونوا قردة خاسئين ﴾ فجعل الذين نهوهم يدخلون عليهم فيقولون : يا فلان ألم ننهكم ؟ فيقولون برؤوسهم : بلى .

قال قتادة : فصار القوم قردة تعاوي ، لها أذناب بعد ما كانوا رجالا ونساء .

وفي رواية عن قتادة : صار الشبان قردة ، والشيوخ خنازير ، وما نجا إلا الذين نهوا ، وهلك سائرهم .

(57/54)

وقال غيره : كانوا نحواً من سبعين ألفاً ، وعلى هذا القول العلماء ، غير ما روي عن مجاهد أنه قال : مسخت قلوبهم ولم تمسخ أبدانهم ، وهو قول بعيد ، قال ابن عباس : لم يحيوا على الأرض إلا ثلاثة أيام ، ولم يحيا مسخ في الأرض فوق ثلاثة أيام ، ولم يأكل ولم يشرب ولم ينسل . وزعم مقاتل أنهم عاشوا سبعة أيام ، وماتوا في اليوم الثامن ، وهذا كان في زمان داود عليه السلام .

قوله تعالى : ﴿ خاسئين ﴾ الخاسىء في اللغة : المبعد ، يقال للكلب : اخسأ ، أي : تباعد . انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير حـ 1 صـ 94.95 ﴾

(58/54)

ومن فوائد ابن عطية فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ علمتم ﴾ معناه : عرفتم ، كما تقول : علمت زيداً بمعنى عرفته ، فلا يتعدى العلم إلا إلى مفعول واحد ، و ﴿ اعتدوا ﴾ معناه تجاوزوا الحد ، مصرف من الاعتداء ، و ﴿ في السبت ﴾ معناه في يوم السبت ، ويحتمل أن يريد في حكم السبت ، و ﴿ السبت ﴾ مأخوذ إما : من السبوت الذي هو الراحة والدعة ، وإما من السبت وهو : القطع ، لأن الأشياء فيه سبتت وتمت خلقتها .

وقصة اعتدائهم فيه ، أن الله عز وجل أمر موسى عليه السلام بيوم الجمعة ، وعرفه فضله ، كما أمر به سائر الأنبياء ، فذكر موسى عليه السلام ذلك لبني إسرائيل عن الله تعالى وأمرهم بالتشرع فيه ، فأبوا وتعدوه إلى يوم السبت ، فأوحى الله إلى موسى أن دعهم وما اختاروا من ذلك ، وامتحنهم فيه بأن أمرهم بترك العمل وحرم عليهم صيد الحيتان ، وشدد عليهم المحنة بأن كانت الحيتان تأتي يوم السبت حتى تخرج إلى الأفنية . قاله الحسن بن أبي الحسن . وقيل حتى تخرج خرطيمها من الماء ، وذلك إما بالإلهام من الله تعالى ، أو بأمر لا يعلل ، وإما بأن فهمها معنى الأمنة التي في اليوم مع تكراره حتى فهمت ذلك ، ألا ترى أن الله تعالى قد ألهم الدواب معنى الخوف الذي في يوم الجمعة من أمر القيامة ، يقضي بذلك

قول النبي صلى الله عليه وسلم : " وما من دابة إلا وهي مصيخة يوم الجمعة فرقاً من الساعة " ، وحمام مكة قد فهم الأمنة ، إما أنها متصلة بقرب فهمها .

(59/54)

وكان أمر بني إسرائيل بأيلة على البحر ، فإذا ذهب السبت ذهبت الحيتان فلم تظهر إلى السبت الآخر ، فبقوا على ذلك زماناً حتى اشتهوا الحوت ، فعمد رجل يوم السبت فربط حوتاً بخزمة ، وضرب له وتداً بالساحل ، فلما ذهب السبت جاءَ وأخذه ، فسمع قوم بفعله فصنعوا مثل ما صنع ، وقيل بل حفر رجل في غير السبت حفيراً يخرج إليه البحر ، فإذا كان يوم السبت خرج الحوت وحصل في الحفير ، فإذا جزر البحر ذهب الماء من طريق الحفير وبقي الحوت ، فجاء بعد السبت فأخذه ، ففعل قوم مثل فعله ، وكثر ذلك حتى صادوه يوم السبت علانية ، وباعوه في الأسواق ، فكان هذا من أعظم الاعتداء ، وكانت من بني إسرائيل فرقة نهت عن ذلك فنجت من العقوبة ، وكانت منهم فرقة لم تعص ولم تنه ، فقيل نجت مع الناهين ، وقيل هلكت مع العاصين .

و ﴿ كونوا ﴾ لفظة أمر ، وهو أمر التكوين ، كقوله تعالى لكل شيء : ﴿ كن فيكون ﴾ [النحل : 40 مريم : 35 ، يس : 82 ، غافر : 68] ، ولم يؤمروا في المصير إلى حال

المسخ بشيء يفعلونه ولا لهم فيه تكسب .

و ﴿ خاسئين ﴾ معناه مبعدين أذلاء صاغرين ، كما يقال للكلب وللمطرود اخساً . تقول خسأته فخسأ ، وموضعه من الإعراب النصب على الحال أو على خبر بعد خبر .

وروي في قصصهم أن الله تعالى مسخ العاصين ﴿ قردة ﴾ بالليل فأصبح الناجون إلى مساجدها ومجتمعاتهم ، فلم يروا أحداً من الهالكين ، فقالوا إن للناس لشأناً ، ففتحوا عليهم الأبواب كما كانت مغلقة بالليل ، فوجدوهم ﴿ قردة ﴾ يعرفون الرجل والمرأة ، وقيل : إن الناجين كانوا قد قسموا بينهم وبين العاصين القرية بجدار ، تبرياً منهم ، فأصبحوا ولم تفتح مدينة الهالكين ، فتسوروا عليهم الجدار فإذا هم قردة ، يثب بعضهم على بعض .

(60/54)

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم وثبت عن أن المسوخ لا ينسل ولا يأكل ولا يشرب ولا يعيش أكثر من ثلاثة أيام ؛ ووقع في كتاب مسلم عنه عليه السلام أن أمة من الأمم فقدت ، وأراها الفأر ، وظاهر هذا أن المسوخ ينسل ، فإن كان أراد هذا فهو ظن منه عليه السلام في أمر لا مدخل له في التبليغ ، ثم أوحي إليه بعد ذلك أن المسوخ لا ينسل ، ونظير ما قلناه نزوله عليه السلام على مياه بدر ، وأمره باطراح تذكير النخل ، وقد قال صلى الله

عليه وسلم : " إذا أخبرتكم برأي في أمور الدنيا فإنما أنا بشر " .

وروي عن مجاهد في تفسير هذه الآية أنه إنما مسخت قلوبهم فقط وردّت أفهامهم كأفهام القردة ، والأول أقوى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 1 صـ 159 . 161 ﴾

(61/54)

ومن فوائد ابن عرفة فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الذين اعتدوا مِنكُمْ فِي السبت . . . ﴾ .

فرق الفخر في المحصول بين العلم والمعرفة ، أن العلم من قسم التصديق والمعرفة من التصور .

(فردّ) عليه بقوله : عرفت زيدا أبا من هو ؟ وأجيب بأن متعلق العلم تصديق ومتعلق المعرفة تصور .

وانظر ما قيدت في سورة الرّحْمَان ، انتهى .

قوله ﴿ فِي السبت ﴾ .

(قال ابن عطية) : والسبت أي في يوم السّبت أو (في) حكم السّبت .

قال ابن عرفة : الاعتداء إنما يتعلق بحكم اليوم لا بنفس اليوم فلا بد من (تقرير) لفظ

الحكم.

ابن عطية: السّبت إمّا من السّبوت وهو الراحة والدعة، وإما بمعنى القطع.

قال ابن عرفة: هما راجعان للقطع لأنّ الراحة إما تحصل بقطع الشواغل والمشوشات، أو هما متغايران تغاير العلة والمعلول فالقطع سبب في الراحة.

قال ابن عرفة: (واعلم أن) هذا انذار لهؤلاء الحاضرين أي (أولئك) عوقبوا بالمسخ مع أنهم مؤمنون بموسى، ومعصيتهم إنما هي بالتعدي في السبت (وفيها سوى الكفر) فهؤلاء الكافرون بالرسول الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل فمعصيتهم أشد.

قوله تعالى: ﴿خَاسِئِينَ﴾.

(قيل): حال من فاعل "كُونُواْ" ومنع أبو حيان والطيبي أن يكون حالا من ﴿قِرَدَةً﴾ إذ لو كان حالا منها لقيل: خاسئة.

ورده ابن عرفة بجواز: من كانت أمك، ومن كان (أمك)؟

فقد أجازوا تذكير اسم كان مراعاة للفظ (مع أن خبره مؤنث) فلذلك يصح إتيان الحال جمع سلامة بالياء والنون من خاسئة وإن كان جمع ما لا يعقل لكونه خبرا عن مذكر عاقل.

قال ابن عطية: وثبت أن الممسوخ لا ينسل ولا يأكل ولا يشرب ولا يعيش أكثر من ثلاثة أيام.

قال ابن عرفة : وقول الإمام مالك رضي الله عنه : إن القرد لا يؤكل لأنه مسخ يريد أنه شبيه (بالممسوخ) وعلى صفته .

(62/54)

وخرّج مسلم في كتاب (الزهد) والرقائق في صحيحه عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " (فقدت) أمة من بني إسرائيل لا (يدرى) ما فعلت (وإني لأراها) إلا الفأرَ إذا وضع لها ألبان الإبل لا تشربه فإذا وضع لها ألبان الشاء شربته " قلت : وخرجه الإمام البخاري في كتابه .

(ابن عطية) : ظاهره أن الممسوخ ينسل ، فإذا كان أراد هذا فهو ظن منه عليه الصلاة والسلام لا مدخل له في التبليغ ثم أوحي إليه بعده أنه لا ينسل .

قلت : (وكذا تأوله ابن رشد في كتاب الجامع الثالث من البيان .

ونظير هذا نزوله عليه السلام على مياه بدر ، وأمره لهم بترك تذكير النّخل فلم يثمر ذلك العام إلا يسيرا فقال لهم عليه الصّلاة والسلام : " إذا أخبرتكم برأي من أمور دنياكم فإنما أنا بشر وأنتم أعلم بدنياكم " .

(قلت) : وخرّج مسلم في كتاب الصيد والذبائح عن جابر ابن عبد الله قال : أتى رسول

الله صلى الله عليه وسلم بضب فأبى أن يأكل منه وقال : " لا أدري لعله من القرون التي مسخت " .

وخرج أيضا عن أبي نضرة عن أبي سعيد قال : " قال : رجل يا رسول الله إنّا بأرض مضبة فما تأمرنا ؟ قال : ذكر لنا أن أمة من بني إسرائيل مسخت " (فلم يأمر ولم ينه) .

وفي رواية " غضب : الله على (سبط) من بني إسرائيل فمسخهم دواب يدبون في الأرض : فلا أدري لعل هذا منها ، (فلست) آكلها ولا أنهى عنها " .

قال ابن عرفة : فإن قلت : يعارض حديث مسلم ، أي هذا الحديث لأنه أفاد بأن (الممسوخ) لا يعيش أكثر من ثلاثة (أيام) ؟ فيجاب بأن مراده في الضب أنه مثل المسخ .

قيل لابن عرفة : (مثل المسخ) كونه شبيها لا يوجب تحريمه ؟ فقال : حرمه لأنه مسخت أمة على صفته (فلولا أنه مستقبح مستكره عند الله لما مسخت تلك الأمة على صفته) .

(63/54)

فقيل له : أو يكون هذا الكلام منه قبل أن يوحى إليه لحديث : أن (الممسوخ) لا يعيش أكثر من ثلاثة أيام والضبّ (حيوان) يشبه الحرضون إلا أن لونه أسود وسيره غير مسرع يكون في الصحاري .

قلت : وخرج مسلم في آخر كتاب القدر عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال رجل : يا رسول الله القردة والخنازير هي مما مسخ ؟ فقال/ النّبي صلى الله عليه وسلّم : " إن الله عز وجل (لم) يهلك قوما ويعذب قوما فيجعل لهم نسلا ، وإن القردة والخنازير كانوا قبل ذلك " .

(ذكره في باب ضرب الآجال وقسم الأرزاق ، انتهى) .

وهذا إنذار للموجودين (حين) نزول الآية .

أي القوم المتقدمون منكم عوقبوا مع أنهم مؤمنون بعيسى عليه السلام ، ومعصيتهم إنما كانت في الفروع ، وأنتم كافرون فمعصيتكم أشد وعقوبتكم أشد .

وجعل ابن التلمساني شارح المعالم صيغة أفعل هنا للتكوين كما قال ابن عطية . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عرفة صـ 317. 322 ﴾

ومن فوائد الإمام القرطبى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (65) ﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الذين اعتدوا مِنْكُمْ فِي السبت ﴾ " علمتم" معناه عرفتم أعيانهم .

وقيل : علمتم أحكامهم .

والفرق بينهما أن المعرفة متوجّهة إلى ذات المُسَمَّى .

والعلم متوجّه إلى أحوال المسمَّى .

فإذا قلت : عرفت زيداً ؛ فالمراد شخصه .

وإذا قلت : علمت زيداً ؛ فالمراد به العلم بأحواله من فضل ونقص .

فعلى الأوّل يتعدّى الفعل إلى مفعول واحد ، وهو قول سيبويه : ﴿ عَلِمْتُمُ ﴾ بمعنى عرفتم .

وعلى الثاني إلى مفعولين .

وحكى الأخفش : ولقد علمت زيداً ولم أكن أعلمه .

وفي التنزيل : ﴿ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ [الأنفال : 60] .

كل هذا بمعنى المعرفة ؛ فاعلم .

﴿ الذين اعتدوا مِنْكُمْ فِي السبت ﴾ صلة " الذين " .

والاعتداء .

التجاوز ، وقد تقدّم .

الثانية : روى النَّسائي عن صفوان بن عسّال قال : " قال يهوديّ لصاحبه : اذهب بنا إلى هذا النبيّ .

فقال له صاحبه : لا تقل نبيّ لو سمعك ! فإن له أربع أعين .

فأتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم وسألاه عن تسع آيات بينات ؛ فقال لهم : " لا تشركوا بالله شيئاً ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا النفس التي حرّم الله إلا بالحق ولا تمشُوا ببريء إلى سلطان ولا تَسْحَرُوا ولا تأكلوا الربا ولا تَقْذِفُوا المُحْصَنة ولا تُوَلُّوا يوم الزّحف وعليكم خاصّةً يهودُ ألاّ تعدوا في السبت" .

فقبّلوا يديه ورجليه وقالوا : نشهد أنك نبيٌّ .

قال : " فما يمنعكم أن تتبعوني " ! قالوا : إن داود دعا بألاّ يزال من ذُرّيته نبيّ ، وإنا نخاف إن اتبعناك أن تقتلنا يهود " وخرّجه الترمذيّ وقال : حديث حسن صحيح .

وسيأتي لفظه في سورة " سبحان" إن شاء الله تعالى .

الثالثة : ﴿ فِي السبت ﴾ معناه في يوم السبت ؛ ويحتمل أن يريد في حكم السبت .

والأوّل قول الحسن وأنهم أخذوا فيه الحِيتان على جهة الاستحلال .

وروى أشهب عن مالك قال : زعم ابن رُومان أنهم كانوا يأخذ الرجل منهم خَيْطاً ويضع فيه وَهْقَة وألقاها في ذنَب الحوت ، وفي الطرف الآخر من الخيط وَتِد وتركه كذلك إلى

الأحد ؛ ثم تطرّق الناس حين رأوا مَن صَنَع لا يُبتلَى ، حتى كثر صيد الحوت ومُشِيَ به في الأسواق ، وأعلن الفَسَقة بصيده .

فقامت فرقة فنهت وجاهرت بالنّهي واعتزلت .

ويقال : إن الناهين قالوا : لا نساكنكم ؛ فقسموا القرية بجدار .

فأصبح الناهون ذات يوم في مجالسهم ولم يخرج من المعتدين أحد ؛ فقالوا : إنّ للناس لشأنا ؛ فعلَوْا على الجدار فنظروا فإذا هم قِردة ؛ ففتحوا الباب ودخلوا عليهم ، فعرفت القردة أنسابها من الإنس ، ولا يعرف الإنس أنسابهم من القِردة ؛ فجعلت القردة تأتي نسيبها من الإنس فتَشُمّ ثيابه وتبكي ؛ فيقول : ألم نَنْهَكم ! فتقول برأسها نعم .

(65/54)

قال قتادة : صار الشبان قِردة ، والشيوخ خنازير ؛ فما نجا إلا الذين نَهَوْا وهلك سائرهم .

وسيأتي في " الأعراف " قول من قال : إنهم كانوا ثلاث فرق .

وهو أصح من قول من قال : إنهم لم يفترقوا إلا فرقتين .

والله أعلم .

والسَّبْت مأخوذ من السَّبْت وهو القطع ؛ فقيل : إن الأشياء فيه سَبَتت وتمّت خِلْقتها .

وقيل : هو مأخوذ من السّبُوت الذي هو الراحة والدعة .

واختلف العلماء في الممسوخ هل يَنْسُل على قولين .

قال الزجاج : قال قوم يجوز أن تكون هذه القِردة منهم .

واختاره القاضي أبو بكر بن العربي .

وقال الجمهور : الممسوخ لا يَنْسُل وإن القردة والخنازير وغيرهما كانت قبل ذلك ؛ والذين مسخهم الله قد هلكوا ولم يبق لهم نسل ؛ لأنه قد أصابهم السّخط والعذاب ، فلم يكن لهم قرار في الدنيا بعد ثلاثة أيام .

قال ابن عباس : لم يعش مَسْخٌ قطّ فوق ثلاثة أيام ، ولم يأكل ولم يشرب ولم ينسل .

قال ابن عطية : وروي .

" عن النبيّ صلى الله عليه وسلم وثبت أن الممسوخ لا ينسل ولا يأكل ولا يشرب ولا يعيش أكثر من ثلاثة أيام" .

قلت : هذا هو الصحيح من القولين .

وأما ما احتج به ابن العربي وغيره على صحة القول الأوّل من قوله صلى الله عليه وسلم : " فُقِدتْ أُمَّةٌ من بني إسرائيل لا يُدْرَى ما فعلت ولا أراها إلا الفأر ألا ترونها إذا وُضِع لها ألبانُ الإبل لم تشربه وإذا وُضِع لها ألبانُ الشاء شربته " رواه أبو هريرة أخرجه مسلم ، وبحديث الضَّبّ رواه مسلم أيضاً عن أبي سعيد وجابر ؛ قال جابر : " أُتِيَ النبيُّ صلى الله عليه

وسلم بضبّ فأبى أن يأكل منه ؛ وقال : " لا أدري لعله من القرون التي مُسختْ" " فمتأوّل على ما يأتي .

قال ابن العربي : وفي البخاري عن عمرو بن مَيْمُون أنه قال : " رأيت في الجاهلية قِردة قد زنَت فرجموها فرجمتها معهم" ثبت في بعض نسخ البخاري وسقط في بعضها ، وثبت في نص الحديث " قد زنت" وسقط هذا اللفظ عند بعضهم .

(66/54)

قال ابن العربي : فإن قيل : وكأن البهائم بقيت فيهم معارف الشرائع حتى ورثوها خَلفاً عن سلف إلى زمان عمرو ؟ قلنا : نعم كذلك كان ؛ لأن اليهود غيّروا الرجم فأراد الله أن يقيمه في مُسُوخهم حتى يكون أبلغ في الحجة على ما أنكروه من ذلك وغيّروه ، حتى تشهد عليهم كتبهم وأحبارهم ومسوخهم ، حتى يعلموا أن الله يعلم ما يُسِرّون وما يُعلنون ، ويُحصي ما يُبدّلون وما يغيّرون ، ويُقيم عليهم الحجة من حيث لا يشعرون ، وينصر نبيّه عليه السلام وهم لا يُنصرون .

قلت : هذا كلامه في الأحكام ، ولا حجة في شيء منه .

وأمّا ما ذكره من قصة عمرو فذكر الحميدي في جمع الصحيحين : حكى أبو مسعود

الدمشقي أن لعمرو بن ميمون الأَوْديّ في الصحيحين حكايةً من رواية حُصين عنه قال :

رأيت في الجاهلية قردة اجتمع عليها قردة فرجموها فرجمتها معهم .

كذا حكى أبو مسعود ولم يذكر في أي موضع أخرجه البخاريّ من كتابه ؛ فبحثنا عن ذلك فوجدناه في بعض النسخ لا في كلها ؛ فذكر في كتاب أيام الجاهلية .

وليس في رواية النعيميّ عن الفَرَبْرِيّ أصلاً شيء من هذا الخبر في القِردة ؛ ولعلها من المُقْحَمات في كتاب البخاري .

والذي قال البخاريّ في التاريخ الكبير : قال لي نُعيم بن حمّاد أخبرنا هُشَيم عن أبي بَلْج وحُصين عن عمرو بن مَيمون قال : رأيت في الجاهلية قِردة اجتمع عليها قرود فرجموها فرجمتها معهم .

وليس فيه " قد زنت " .

فإن صحت هذه الرواية فإنما أخرجها البخاريّ دلالة على أن عمرو بن ميمون قد أدرك الجاهلية ولم يُبال بظنّه الذي ظنّه في الجاهلية .

وذكر أبو عمر في الاستيعاب عمرو بن ميمون وأن كنيته أبو عبد اللَّه " معدود في كبار التابعين من الكوفيين ، وهو الذي رأى الرجم في الجاهلية من القردة إن صح ذلك ؛ لأنّ رواته مجهولون .

وقد ذكره البخاريّ عن نُعيم عن هُشَيم عن حُصين عن عمرو بن ميمون الأَوْدِيّ مختصراً قال : رأيت في الجاهلية قردة زنت فرجموها يعني القردة فرجمتها معهم .

(67/54)

ورواه عباد بن العوّام عن حُصين كما رواه هُشيم مختصراً .

وأما القصة بطولها فإنها تدور على عبد الملك بن مسلم عن عيسى بن حِطّان ؛ وليسا ممن يُحتّج بهما .

وهذا عند جماعة أهل العلم منكر إضافة الزنى إلى غير مكلَّف ، وإقامة الحدود في البهائم .

ولو صح لكانوا من الجن ؛ لأن العبادات في الإنس والجن دون غيرهما " .

وأمّا قوله عليه السلام في حديث أبي هريرة : " ولا أراها إلا الفأر " وفي الضب : " لا أدري لعله من القرون التي مُسِخت " وما كان مثله ، فإنما كان ظناً وخوفاً لأن يكون الضب والفأر وغيرهما مما مُسخ ، وكان هذا حَدْساً منه صلى الله عليه وسلم قبل أن يُوحَى إليه أن الله لم يجعل للمسخ نسلاً ؛ فلما أوحى إليه بذلك زال عنه ذلك التخوّف ، وعلم أن الضبّ والفأر ليسا مما مُسِخ ؛ وعند ذلك أخبرنا بقوله صلى الله عليه وسلم لمن سأله عن القردة

والخنازير : هي مما مسخ ؟ فقال : " إنّ الله لم يُهلكْ قوماً أو يعذّب قوماً فيجعل لهم نسلاً وإن القردة والخنازير كانوا قبل ذلك " وهذا نص صريح صحيح رواه عبد اللَّه بن مسعود أخرجه مسلم في كتاب القَدَر .

وثبتت النصوص بأكل الضب بحضرته وعلى مائدته ولم يُنكر ؛ فدلّ على صحة ما ذكرنا .

وبالله توفيقنا .

ورُوِي عن مجاهد في تفسير هذه الآية أنه إنما مُسِختْ قلوبُهم فقط ، ورُدّت أفهامهم كأفهام القِردة .

ولم يقله غيره من المفسرين فيما أعلم .

والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً ﴾ " قردة" خبر كان .

﴿ خَاسِئِينَ ﴾ نعت ، وإن شئت جعلته خبراً ثانياً لكان ، أو حالاً من الضمير في "كونوا" .

ومعناه مبعَدين .

يقال : خَسَأته فَخَسأ وخَسِيء وانخسأ ؛ أي أبعده فبَعُدَ .

وقوله تعالى : ﴿ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ البَصَرُ خَاسِئاً ﴾ [الملك : 4] أي مبعَداً .

وقوله : ﴿ اخسئوا فِيهَا ﴾ [المؤمنون : 108] أي تباعدوا تباعد سخط .

قال الكسائي : خَسَأ الرجل خُسُوءاً ، وخَسَأته خَسْأً .

(68/54)

ويكون الخاسىء بمعنى الصاغر القَمِيء .

يقال : قَمُؤَ الرجل قماء وقماءة صار قميئاً ، وهو الصاغر الذليل .

وأقمأته : صغّرته وذلّلته ، فهو قميء على فعيل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 1 صـ 439. 443 ﴾

ومن فوائد الآلوسى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الذين اعتدوا مِنكُمْ فِى السبت ﴾ اللام واقعة في جواب قسم مقدر ، وعَلِمَ هنا كعرف فلذلك تعدت إلى واحد ، وظاهر هذا أنهم علموا أعيان المعتدين ، وقدر بعضهم مضافاً أي اعتداء الذين ، وقيل : أحكامهم ، و ﴿ مّنكُمْ ﴾ في موضع الحال ، و(السبت) اسم لليوم المعروف وهو مأخوذ من السبت الذي هو القطع لأنه سبت فيه خلق كل شيء وعمله ، وقيل : من السبوت وهو الراحة والدعة .

والمراد به هنا اليوم والكلام على حذف مضاف أي في حكم السبت لأن الاعتداء والتجاوز لم يقع في اليوم بل وقع في حكمه بناء على ما حكي أن موسى عليه السلام أراد أن يجعل يوماً خالصاً للطاعة وهو يوم الجمعة فخالفوه وقالوا : نجعله يوم السبت لأن الله تعالى لم يخلق فيه شيئاً فأوحى الله تعالى إليه أن دعهم وما اختاروا ثم امتحنهم فيه فأمرهم بترك العمل وحرم عليهم فيه صيد الحيتان فلما كان زمن داود عليه السلام اعتدوا وذلك أنهم كانوا يسكنون قرية على الساحل يقال لها أيلة .

(69/54)

وإذا كان يوم السبت لم يبق حوت في البحر إلا حظر هناك وأخرج خرطومه وإذا مضى تفرقت فحفروا حياضاً وأشرعوا إليها الجداول وكانت الحيتان تدخلها يوم السبت بالموج فلا تقدر على الخروج لبعد العمق وقلة الماء فيصطادونها يوم الأحد ، وروي أنهم فعلوا ذلك زماناً فلم ينزل عليهم عقوبة فاستبشروا وقالوا : قد أحل لنا العمل في السبت فاصطادوا فيه علانية وباعوا في الأسواق ، وعلى هذا يصح جعل اليوم ظرفاً للاعتداء ، ولا يحتاج إلى تقدير مضاف ، وقيل : المراد بالسبت هنا مصدر سبتت اليهود إذا عظمت يوم السبت وليس بمعنى اليوم فحينئذ لا حاجة إلى تقدير مضاف إذ يؤول المعنى إلى أنهم

اعتدوا في التعظيم وهتكوا الحرمة الواجبة عليهم .

وقد ذكر بعضهم أن تسمية العرب للأيام بهذه الأسماء المشهورة حدثت بعد عيسى عليه السلام وأن أسماءها قبل غير ذلك وهي التي في قوله :

أؤمل أن أعيش وأن يومي . . .

بأول أو بأهون أو جبار

أو التالي دبار فإن أفته . . .

فمونس أو عروبة أو شبار

واستدل بهذه الآية على تحريم الحيل في الأمور التي لم تشرع كالربا وإلى ذلك ذهب الإمام مالك فلا تجوز عنده بحال ، قال الكواشي : وجوزها أكثرهم ما لم يكن فيها إبطال حق أو إحقاق باطل ، وأجابوا عن التمسك بالآية بأنها ليست حيلة وإنما هي عين المنهي عنه لأنهم إنما نهوا عن أخذها ولا يخفى ما في هذا الجواب ، وتحقيقه في "كتب الفقه2 .

(70/54)

﴿ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خاسئين ﴾ القردة جمع قرد وهو معروف ويجمع فعل الاسم قياساً على فعول ، وقليلاً على فعلة ، والخسو الصغار والذلة ويكون متعدياً ولازماً ، ومنه قولهم

للكلب : اخساً وقيل : الخسوء والخساء مصدر خسأ الكلب بَعُدَ ، وبعضهم ذكر الطرد عند تفسير الخسوء كالابعاد ؛ فقيل : هو لاستيفاء معناه لا لبيان المراد ، وإلا لكان الخاسىء بمعنى الطارد ، والتحقيق أنه معتبر في المفهوم إلا أنه بالمعنى المبني للمفعول ، وكذلك الابعاد فالخاسىء الصاغر المبعد المطرود ، وظاهر القرآن أنهم مسخوا قردة على الحقيقة ، وعلى ذلك جمهور المفسرين وهو الصحيح وذكر غير واحد منهم أنهم بعد أن مسخوا لم يأكلوا ولم يشربوا ولم يتناسلوا ولم يعيشوا أكثر من ثلاثة أيام ، وزعم مقاتل أنهم عاشوا سبعة أيام وماتوا في اليوم الثامن ، واختار أبو بكر بن العربي أنهم عاشوا وأن القردة الموجودين اليوم من نسلهم ويرده ما رواه مسلم عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لمن سأله عن القردة والخنازير أهي مما مسخ ؟ " إن الله تعالى لم يهلك قوماً أو يعذب قوماً فيجعل لهم نسلاً وإن القردة والخنازير كانوا قبل ذلك " وروى ابن جرير عن مجاهد " أنه ما مسخت صورهم ولكن مسخت قلوبهم فلا تقبل وعظاً ولا تعي زجراً " فيكون المقصود من الآية تشبيههم بالقردة كقوله :

إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى . . .

فكن (حجراً) من يابس الصخر جلمداً

و ﴿ كُونُواْ ﴾ على الأول : ليس بأمر حقيقة ، لأن صيرورتهم ما ذكر ليس فيه تكسب لهم

لأنهم ليسوا قادرين على قلب أعيانهم ، بل المراد منه سرعة التكوين وأنهم صاروا كذلك كما أراد من غير امتناع ولا لبث .

(71/54)

وعلى الثاني : يكون الأمر مجازاً عن التخلية والترك والخذلان كما في قوله صلى الله عليه وسلم : " اصنع ما شئت " وقد قرره العلامة في تفسير قوله تعالى : ﴿ لِيَكْفُرُواْ بِمَا ءاتيناهم وَلِيَتَمَتَّعُواْ ﴾ [العنكبوت : 66] والمنصوبان خبران للفعل الناقص ، ويجوز أن يكون (خاسئين) حالا من الاسم ، ويجوز أن يكون صفة لقردة والمراد وصفهم بالصغار عند الله تعالى دفعاً لتوهم أن يجعل مسخهم وتعجيل عذابهم في الدنيا لدفع ذنوبهم ورفع درجاتهم .

واعترض أنه لو كان صفة لها لوجب أن يقول : خاسئة لامتناع الجمع بالواو والنون في غير ذوي العلم ، وأجيب بأن ذلك على تشبيههم بالعقلاء كما في ﴿ ساجدين ﴾ [الأعراف : 120] أو باعتبار أنهم كانوا عقلاء ، أو بأن المسخ إنما كان بتبدل الصورة فقط ، وحقيقتهم سالمة على ما روي أن الواحد منهم كان يأتيه الشخص من أقاربه الذين نهوهم ، فيقول له : ألم أنهك ؟ فيقول : بلى ثم تسيل دموعه على خده ولم يتعرض في الآية بمسخ

شيء منهم خنازير وروى عن قتادة أن الشباب صاروا قردة والشيوخ صاروا خنازير وما نجا إلا الذين نهوا ، وهلك سائرهم ، وقرىء ﴿ قِرَدَةً ﴾ بفتح القاف وكسر الراء و ﴿ خاسين ﴾ بغير همز . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 282. 283 ﴾

(72/54)

ومن فوائد ابن عاشور فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (65) ﴾

هذه من جملة الأخبار التي ذكرها الله تعالى تذكيراً لليهود بما أتاه سلفهم من الاستخفاف بأوامر الله تعالى وبما عرض في خلال ذلك من الزواجر والرحمة والتوبة ، وإنما خالف في حكاية هاته القصة أسلوب حكاية ما تقدمها وما تلاها من ذِكر ﴿ إذ ﴾ [البقرة : 63] المؤذنة بزمن القصة والمشعرة بتحقق وقوعها إلى قوله هنا : ﴿ ولقد علمتم ﴾ لمعنى بديع هو من وجوه إعجاز القرآن وذلك أن هذه القصة المشار إليها بهذه الآية ليست من القصص التي تضمنتها كتب التوراة مثل القصص الأخرى المأتي في حكايتها بكلمة (إذ) لأنها متواترة عندهم بل هذه القصة وقعت في زمن داود عليه السلام ، فكانت غير مسطورة في الأسفار

القديمة وكانت معروفة لعلمائهم وأحبارهم فأطلع الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم عليها وتلك معجزة غيبية وأوحى إليه في لفظها ما يؤذن بأن العلم بها أخفى من العلم بالقصص الأخرى فأسند الأمر فيها لعلمهم إذ قال : ﴿ ولقد علمتم ﴾ .

والاعتداء وزنه افتعال من العدو وهو تجاوز حد السير والحد والغاية .

(73/54)

وغلب إطلاق الاعتداء على مخالفة الحق وظلم الناس والمراد هنا اعتداء الأمر الشرعي لأن الأمر الشرعي يشبَّه بالحد في أنه يؤخذ بما شمله ولا يؤخذ بما وراءه والاعتداء الواقع منهم هو اعتداء أمر الله تعالى إياهم من عهد موسى بأن يحافظوا على حكم السبت وعدم الاكتساب فيه ليتفرغوا فيه للعبادة بقلب خالص من الشغل بالدنيا ، فكانت طائفة من سكان أَيلة على البحر رأوا تكاثر الحيتان يوم السبت بالشاطىء لأنها إذا لم تر سفن الصيادين وشباكهم أمنت فتقدمت إلى الشاطىء تفتح أفواهها في الماء لابتلاع ما يكون على الشواطىء من آثار الطعام ومن صغير الحيتان وغيرها فقالوا لو حفرنا لها حياضاً وشرعنا إليها جداول يوم الجمعة فتمسك الحياض الحوت إلى يوم الأحد فنصطادها وفعلوا ذلك فغضب الله تعالى عليهم لهذا الحرص على الرزق أو لأنهم يشغلون بالهم يوم السبت

بالفكر فيما تحصّل لهم أو لأنهم تحيلوا على اعتياض العمل في السبت ، وهذا الذي أحسبه لما اقترن به من الاستخفاف واعتقادهم أنهم علموا ما لم تهتد إليه شريعتهم فعاقبهم الله تعالى بما ذكره هنا .

فقوله : ﴿ في السبت ﴾ يجوز أن تكون (في) للظرفية .

والسبت مصدر سَبَتَ اليهودي من باب ضرب ونصر بمعنى احترم السبت وعظمه .

والمعنى اعتدوا في حال تعظيم السبت أو في زمن تعظيم السبت .

ويجوز أن تكون (في) للعلة أي اعتدوا اعتداء لأجل ما أوجبه احترام السبت من قطع العمل .

ولعل تحريم الصيد فيه ليكون أمناً للدواب .

ويجوز أن تكون (في) ظرفية والسبت بمعنى اليوم وإنما جعل الاعتداء فيه مع أن الحفر في يوم الجمعة لأن أثره الذي ترتب عليه العصيان وهو دخول الحيتان للحياض يقع في يوم السبت .

وقوله : ﴿ فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين ﴾ كونوا أمر تكوين والقردة بكسر القاف وفتح الراء جمع قرد وتكوينهم قردة يحتمل أن يكون بتصيير أجسامهم أجسام قردة مع بقاء الإدراك الإنساني وهذا قول جمهور العلماء والمفسرين ، ويحتمل أن يكون بتصيير عقولهم كعقول القردة مع بقاء الهيكل الإنساني ، وهذا قول مجاهد والعبرة حاصلة على كلا الاعتبارين والأول أظهر في العبرة لأن فيه اعتبارهم بأنفسهم واعتبار الناس بهم بخلاف الثاني والثاني أقرب للتاريخ إذ لم ينقل مسخ في كتب تاريخ العبرانيين ، والقدرة صالحة للأمرين والكل معجزة للشريعة أو لداود ولذلك قال الفخر : ليس قول مجاهد ببعيد جداً لكنه خلاف الظاهر من الآية وليس الآية صريحة في المسخ .

ومعنى كونهم قردة أنهم لما لم يتلقوا الشريعة بفهم مقاصدها ومعانيها وأخذوا بصورة الألفاظ فقد أشبهوا العجماوات في وقوفها عند المحسوسات فلم يتميزوا عن العجماوات إلا بالشكل الإنساني وهذه القردة تشاركهم في هذا الشبه وهذا معنى قول مجاهد هو مسخ قلوب لا مسخ ذوات .

ثم إن القائلين بوقوع المسخ في الأجسام اتفقوا أو كادوا على أن الممسوخ لا يعيش أكثر من ثلاثة أيام وأنه لا يتناسل وروى ذلك ابن مسعود عن النبيء صلى الله عليه وسلم في " صحيح مسلم " أنه قال : " لم يهلك الله قوماً أو يعذب قوماً فيجعل لهم نسلاً " وهو صريح في الباب ومن العلماء من جوز تناسل الممسوخ وزعموا أن الفيل والقرد والضب والخنزير من

الأمم الممسوخة وقد كانت العرب تعتقد ذلك في الضب قال أحد بني سليم وقد جاء لزوجه بضب فأبت أن تأكله :

قالت وكنت رجلاً فطيناً . . .

هذا لعمر الله إسرائينا

(75/54)

حتى قال بعض الفقهاء بحرمة أكل الفيل ونحوه بناء على احتمال أن أصله نسل آدمي قال ابن الحاجب " وأما ما يذكر أنه ممسوخ كالفيل والقرد والضب ففي المذهب الجواز لعموم الآية والتحريم لما يذكر " أي لعموم آية المأكولات ، وصحح صاحب " التوضيح " عن مالك الجواز وقد روى مسلم في أحاديث متفرقة من آخر " صحيحه " عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " فقدت أمة من بني إسرائيل لا يدرى ما فعلت ولا أُراها إلا الفأر ، ألا ترونها إذا وضع لها ألبان الإبل لم تشربه وإذا وضع لها ألبان الشاء شربته " أ هـ . وقد تأوله ابن عطية وابن رشد في " البيان " وغير واحد من العلماء بأن هذا قاله النبيء صلى الله عليه وسلم عن اجتهاد قبل أن يوقفه الله على أن الممسوخ لا يعيش أكثر من ثلاثة أيام ولا يتناسل كما هو صريح حديث ابن مسعود ، قلت : يؤيد هذا أنه قال عن اجتهاد

قوله : " ولا أُراها " .

ولا شك أن هاته الأنواع من الحيوان موجودة قبل المسخ وأن المسخ إليها دليل على وجودها ومعرفة الناس بها .

وهذا الأمر التكويني كان لأجل العقوبة على ما اجترأوا من الاستخفاف بالأمر الإلهي حتى تحيلوا عليه وفي ذلك دليل على أن الله تعالى لا يرضى بالحيل على تجاوز أوامره ونواهيه فإن شرائع الله تعالى مشروعة لمصالح وحكم فالتحيل على خرق تلك الحكم بإجراء الأفعال على صور مشروعة مع تحقق تعطيل الحكمة منها جراءة ، على الله تعالى ، ولا حجة لمن ينتحل جواز الحيل بقوله تعالى في قصة أيوب : ﴿ وخذ بيدك ضغثاً فاضرب به ولا تحنث ﴾ [ص : 44] لأن تلك فتوى من الله تعالى لنبيء لتجنب الحنث الذي قد يتفادى عنه بالكفارة ولكن الله لم يرض أصل الحنث لنبيه لأنه خلاف الأولى فأفتاه بما قاله ، وذلك مما يعين على حكمة اجتناب الحنث لأن فيه محافظة على تعظيم اسم الله تعالى فلا فوات للحكمة في ذلك ، ومسألة الحيل الشرعية لعلنا نتعرض لها في سورة (ص) وفيها تمحيص .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 1 صـ 525. 528 ﴾

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (65) ﴾

بعد أن بين الله جل جلاله لنا كيف أنه فتح باب الفضل والرحمة لليهود فتركوه . . أراد أن يبين لنا بعض الذي فعلوه في مخالفة أوامر الله والتحايل عليها . . والله تبارك وتعالى له أوامر في الدين وأوامر تتعلق بشئون الدنيا . . وهو لا يحب أن نأخذ أي أمر له يتعلق بالدين أو بالدنيا مأخذ عدم الجد . . أو نفضل أمرا على أمر . . ولذلك تجد في سورة الجمعة مثلا قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ ﴾ [الجمعة : 9-10]

هذان أمران أحدهما في الدين والثاني يتعلق بالدنيا . . وكلاهما من منهج الله . . فالله لا يريدك أن تتاجر وتعمل وقت الصلاة . . ولا أن تترك عملك بلا داع وتبقى في المسجد بعد الصلاة . . إذا نودي للصلاة فإلى المسجد . . وإذا قضيت الصلاة فإلى السعي للرزق . .

وهناك يومان في الأسبوع ذكرا في القرآن بالإسم وهما يوم الجمعة والسبت . . بينما أيام الأسبوع سبعة ، خمسة أيام منها لم تذكر في القرآن بالإسم . . وهي الأحد والإثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس . . الجمعة هي عيد المسلمين الذي شرع فيه إجتماعهم في المساجد

وأداء صلاة الجماعة . . ونلاحظ أن يوم الجمعة لم يأخذ اشتقاقه من العدد . . فأيام الأسبوع نسبت إلى الأعداد فيما عدا الجمعة والسبت . لذلك تجد الأحد منسوب إلى واحد والإثنين منسوب إلى إثنين . . والثلاثاء منسوب إلى ثلاثة والأربعاء منسوب إلى أربعة والخميس منسوب إلى خمسة . .

(77/54)

كان المفروض أن ينسب يوم الجمعة إلى ستة ولكنه لم ينسب . . لماذا ؟ لأنه اليوم الذي اجتمع فيه للكون نظام وجوده . . فسماه الله تبارك وتعالى الجمعة وجعله لنا عيدا . . والعيد هو اجتماع كل الكون في هذا اليوم ، إجتماع نعمة الله في إيجاد الكون وتمامها في ذلك اليوم . . فالمؤمنون بالله يجتمعون اجتماع حفاوة بتمام خلق الكون لهم . . والسبت . . الباء والتاء تفيد معنى القطع . . وسبت ويسبت سبتا إذا انقطع عمله . . ونلاحظ أن خلق السموات والأرض تم في ستة أيام مصداقا لقوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ [الحديد : 4]

وكان تمام الخلق يوم الجمعة . . وفي اليوم السابع وهو يوم السبت . . كان كل شيء قد استقر وفرغ من خلق الكون . . ولذلك له سبات أي أن هذا اليوم يسمى سباتا . . لأن فيه سكون

الحركة بعد تمام الخلق . . فلما أراد اليهود يوما للراحة أعطاهم الله يوم السبت وأراد الحق تبارك وتعالى أن يبتليهم في هذا اليوم والابتلاء هو إمتحانهم فقد كانوا يعيشون على البحر وعملهم كان صيد السمك .

. وكان الإبتلاء في هذا اليوم حيث حرم الله عليهم فيه العمل وجعل الحيتان التي يصطادونها تأتي إليهم وقد بدت أشرعتها وكانوا يبحثون عنها طوال الأسبوع وربما لا يجدونها . . وفي يوم السبت جاءتهم ظاهرة على سطح الماء تسعى إليهم لتفتنهم . . واقرأ قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ [الأعراف : 163]

وهكذا يمتلئ سطح البحر بالأسماك والحيتان يوم السبت . . فإذا جاء صباح الأحد اختفت بعيدا وهم يريدون أن يجعلوا السبت عيدا لهم لا يفعلون فيه أي شيء . . ولكنهم في الوقت نفسه يريدون أن يحصلوا على هذه الأسماك والحيتان . . صنعوا شيئا اسمه الحياض العميقة ليحتالوا بها على أمر الله بعدم العمل في هذا اليوم . . وفي الوقت نفسه

يحصلون على الأسماك . . هذه الحياض يدخلها السمك بسهولة . . ولأنها عميقة لا يستطيع الخروج منها ويتركونه يبيت الليل وفي الصباح يصطادونه . . وكان هذا تحايلا منهم على مخالفة أمر الله . . والله سبحانه وتعالى لا يحب من يحتال في شيء من أوامره .

ويقول الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ . . وهذه قصة مشهورة عند اليهود ومتواترة . . يعلمها الأجداد للآباء والأباء للأحفاد . . وهي ليست جديدة عليهم وإن كان المخاطبون هم اليهود المعاصرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم . . ولذلك عندما سمع : ﴿ ولقد علمتم ﴾ أي لقد عرفتم ومعنى ذلك أن القصة عندكم معروفة . . وكأنها من قصص التراث التي يتناقلونها . .

وقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ ﴾ . . المفعول هنا واحد هنا حيلة مذكورة أنهم اعتدوا على أمر الله بالراحة يوم السبت . . هم حقيقة لم يصطادوا يوم السبت . . ولكنهم تحايلوا على الممنوع بنصب الفخاخ للحيتان والأسماك . . وكانوا في ذلك أغبياء . . وقد كان الممنوع أن يأخذوا السمك في حيازتهم بالصيد يوم السبت . . ولكنهم أخذوه في حيازتهم بالحيلة والفخاخ . . وقوله تعالى : " اعتدوا " أي تجاوزوا حدود الله المرسومة لهم . . وعادة حين يحرم الله شيئا يأتي بعد التحريم قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ﴾ [البقرة : 187]

لأنه يريد أن يمنعك من الإغراء . . حتى لا تقع في المعصية فيقول لك لا تقترب . . ولكن بني إسرائيل اعتدوا على حكم الله متظاهرين بالطاعة وهم عاصون . . وحسبوا أنهم يستطيعون خداع الله بأنهم طائعون مع أنهم عاصون . . وصدر حكم الله عليهم : ﴿ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ .

وعادة أنك لا تأمر إنسانا أمرا إلا إذا كان في قدرته أن يفعله . . الأمر هنا أن يكونوا قردة . فهل يستطيعون تنفيذه ؟ وأن يغيروا خلقتهم إلى قردة . . إنه أمر في مقدرة الله وحده فكيف يقول لهم كونوا قردة ؟

نقول إن الآمر نفسه هنا هو الذي يستطيع أن يجعلهم قردة . . وهذا الأمر يسمى أمراً تسخيريّاً ولم يقل لهم كونوا قردة ليكونوا هم بإرادتهم قردة . . ولكنه سبحانه بمجرد أن قال كونوا قردة كانوا . . وهذا يدلنا على انصياع المأمور للأمر وهو غير مختار . . ولو كان لا يريد ذلك ولا يلزم أن يكونوا قد سمعوا قول الله أو قال لهم . . لأنه لو كان المطلوب منهم تنفيذ ما سمعوه ربما كان ذلك لازما . . ولكن بمجرد صدور الأمر وقبل أن ينتبهوا أو يعلموا شيئا كانوا قردة .

ولقد اختلف العلماء كيف تحول هؤلاء اليهود إلى قردة ؟ كيف مسخوا ؟ قال بعضهم لقد تم المسخ وهم لا يدرون . . فلما وجدوا أنفسهم قد تحولوا إلى خلق أقل من الإنسان . . لم يأكلوا ولم يشربوا حتى ماتوا . . وقال بعض العلماء أن الإنسان إذا مسخ فإنه لا يتناسل ، ولذلك فبمجرد مسخهم لم يتناسلوا حتى انقرضوا . . ولماذا لم يتناسلوا ؟ لأن الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ [الأنعام : 164]

ولو أنهم تناسلوا . . لتحمل الأبناء وزر آبائهم . . وهذا مرفوض عند الله . . إذن فمن رحمة الله أنهم لا يأكلون ولا يشربون ولا يتناسلون . . ويبقون فترة ثم ينقرضون بالأمراض والأوبئة وهذا ما حدث لهم .

قد يقول بعض الناس لو أنهم مسخوا قردة . . فمن أين جاء اليهود الموجودون الآن ؟ نقول لهم أنه لم يكن كل اليهود عاصين . . ولكن كان منهم أقلية هي التي عصت ومسخت . . وبقيت الأكثرية ليصل نسلها إلينا اليوم . . وقد قال علماء آخرون أن هناك آية في سورة المائدة تقول : ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِّن ذَالِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُوْلَائِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ السَّبِيلِ

﴿[المائدة: 60]

إذن هذه قضية قوم غضب الله عليهم ومسخهم قردة وخنازير وعبدة الطاغوت . . ولقد أخبرنا الله جل جلاله أن اليهود مسخوا قردة . . ولكنه لم يقل لنا أنهم مسخوا خنازير . . فهل مسخوا قردة ؟ ثم بعد ذلك إزداد غضب الله عليهم ومسخوا خنازير ؟ وهل نقلهم الله من إنسانية إلى بهيمية في القيم والإرادة والخلقة ؟

نقول علينا أولا أن ننظر إلى البهيمية التي نقلهم الله إليها . . نجد أن القردة هي الحيوان الوحيد المفضوح العورة دائما . . وإن عورته لها لون مميز عن جسده .

. وأنه لا يتأدب إلا بالعصا . . واليهود كذلك لم يقبلوا المنهج إلا عندما رفع فوقهم جبل الطور . . وما هم فيه الآن ليس مسخ خلقه ولكن مسخ خُلُق . . والخنازير لا يغارون على أنثاهم وهذه لازمة موجودة في اليهود . . وعبدة الطاغوت . . الطاغوت هو كل إنسان تجاوز الحد في البغي والظلم . . وعباد الطاغوت هم الطائعون لكل ظالم يعينونه على ظلمه وهم كذلك .

إذن فعملية المسخ هذه سواء تمت مرة واحدة أو على مرتين مسألة شكلية . . ولكن الله سبحانه وتعالى أعطانا في الآية التي ذكرناها في سورة المائدة سمات اليهود الأخلاقية . . فكأنهم مسخوا خلقه ومسخوا أخلاقا . انتهى انتهى . اهـ ﴾ تفسير الشعراوى صـ 385.381 ﴿

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

و" اللام " في [لقد] جواب قسم محذوف تقديره والله لَقَد ، وكذلك نظائرها .

قال بعض المتأخرين لها نحو أربين معنى ، قال : وجميع أقسام " اللام " التي هي حرف معنى يرجع عند التَّحقيق إلى قسمين : عاملة ، وغير عاملة ،

فالعاملة قسمان : جارّة ، وجازمة ، وزاد الكوفيون النَّاصبة للفعل .

وغير العاملة خمسة أقسام : لام ابتداء ، ولام فارقة ، ولام الجواب ، ولام موطّئة ، ولام التعريف عند من جعل حرف التعريف أحادياً .

أما الجارة فلها ثلاثون قسماً مذكورة في كتب النحو .

وأمّا الجازمة فلام الأمر ، والدعاء والالْتِمَاس .

وحركة هذه اللام الكسر .

ونقل ابن مالك عن الفرّاء أن فتحها لغة ، ويجوز إسكانها بعد الواو والفاء ، وهو الأكثر .

وفي حذف لام الطلب وإبقاء عملها أقوال :

وأما اللام [هنا فهي لام "كي"] عند الكوفيين ، وعند البصريين لام جَرّ .

ولام الجحود نحو : ما كان زيد لِيَذْهَبَ ، ولام الصَّيرورة ، وتسمى لام التَّعَاقُب ، ولام المآل واللام الزائدة كقوله : ﴿ يُرِيدُ اللهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ ﴾ [النساء : 26] واللام بمعنى الفاء كقوله : ﴿ رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ ﴾ [يونس : 88] أي : فيضلوا .

والكلام على هذه اللاّمات ليس هذا موضعه ، وإنما نبّهنا عليه ، فيطلب من مكانه .

و" قد " حرف تحقيق وتوقّع ، وتنفيذ في المضارع التقليل إلاّ في أفعال الله تعالى فإنها للتحقيق ، وقد تخرج المضارع إلى المُضِيّ كقوله : [البسيط]

قَدْ أَتْرُكُ القِرْنَ مُصْفَرًّا أَنَامِلُهُ . . .

كَأَنَّ أَثْوَابَهُ مُجَّتْ بِفِرْصَادِ

وهي أداة مختصّة بالفعل ، وتدخل على الماضي والمضارع ، وتحدث في الماضي التقريب من الحال .

وفي عبارة بعضهم : " قد " حرف يصحب الأفعال ، ويُقَرِّب الماضي من الحال ، ويحدث تقليلاً في الاستقبال .

والحاصل أنها تفيد مع الماضي أحد ثلاثة مَعَانٍ : التوقّع ، في التقريب ، والتحقيق ، ومع المضارع أحد أربعة معانٍ : التوقّع ، والتقليل ، والتكثير ، والتحقيق .

قال ابن مالك : " والدّالة على التقليل تصرف المضارع " ، وكذلك الدّالة على التكثير .

وأما الدالة على التحقيق ، فقد تصرفه إلى المُضِيّ ، ولا يلزم فيها ذلك ، وهي مع الفعل كجزء منه ، فلا يفصل بينهما بغير القسمح كقوله : [الطويل]

أخَالِدُ قَدْ واللهِ أوْطَأْتَ عَشْوَةً . . .

وَمَا العَاشِقُ المَظْلُومُ فِينَا بِسَارِقِ

وإذا دخلت على الماضي ، فيشترط أن يكون متصرفاً ، وإذا دخلت على المضارع ، فيشترط تجرّدهُ من جازم وناصب ، وحرف تنفيس ، وتكون اسماً بمعنى " حَسْب " ؛ نحو : " قَدْنِي دِرْهَمٌ " ، أي : حَسْبِي ، وتتّصل بها نون الوقاية مع ياء المتكلم غالباً ، وقد جمع الشاعر بين الأمرين ، قال : [الرجز]

قَدْنِي مِنْ نَصْرِ الخُبَيْبَيْنِ قَدِي . . .

والياء المتّصلة بـ " قدني " في موضع نصب إن كان " قَدْني " اسم فعل ، وفي موضع جرّ إن كانت بمعنى " حَسْب " .

والياء في " قدي " تحتمل أن تكون بمعنى " حسبي " ، ولم يأت بنون الوقاية على أحد الوجهين ، وتحتمل أن تكون اسم فعل ، وحذفت النون للضرورة ، وتحتمل أن تكون اسم

فعل ، والياء للإطلاق .

وإن كانت حرفاً جاز حذف الفعل بعدها ، كقوله : [الكامل]

أَزِفَ التَّرَحُّلُ غَيْرَ أَنَّ رِكَابَنَا . . .

لَمّا تَزُلْ بِرِحَالِنَا وَكَأَنْ قَدِ

أي : قد زالت .

وللقسم وجوابه أحكام تأتي إن شاء الله تعالى [مفصلة] .

و " عَلِمْتُم " بمعنى : عرفتم ، فيتعدّى لواحد فقط .

والفرق بين العِلْمِ والمَعْرفة أن العلم يستدعي معرفة الذات ، وما هي عليه من الأحوال نحو : " علمت زَيداً قائماً أو ضاحكاً " ، والمعرفة تستدعي معرفة الذَّات .

وقيل : لأن المعرفة يسبقها جهل ، والعلم قد لا يسبقه جهل ، ولذلك لا يجوز إطلاق المعرفة عليه سبحانه وتعالى .

و " الَّذِينَ اعْتَدَوا " الموصول وصِلَتُهُ في محصل نصب مفعول به ، ولا حاجة إلى حذف مضاف كما قدره بعضهم ، أي : أحكام الذين اعتدوا ؛ لأن المعنى عرفتم أشخاصهم

وأعيانهم.

وأصل "اعْتَدَوْا" : "اعْتَدُيُوا" ، فأعلّ بالحذف ، ووزنه "افْتَعَوْا" ، وقد عرف تصريفه ومعناه.

و"منكم" في محلّ نصب على الحال من الضمير في "اعتدوا" ، ويجوز أن يكون من "الذين" .

أي من المعتدين كائنين منكم.

و"من" للتبعيض.

و"السَّبْتِ" متعلّق بـ "اعتدوا" ، والمعنى : في حكم السبت.

وقال أبو البقاء : وقد قالوا : "اليوم السَّبت" ، فجعلوا "اليوم" خبراً عن "السبت" ، كما يقال : "اليوم القتيال" ، فعلى ما ذكرنا يكون في الكلام حذف ، تقديره : في يوم السَّبْت ، فالسَبت في الأصل مصدر "سَبَتَ" أي : قطع العمل.

وقال ابن عطية : والسَّبْت : إما مأخوذ من "السُّبُوت" الذي هو الراحة والدَّعَة ، وإما من "السَّبْت" وهو القطْع ؛ لأن الأشياء فيه سبتت ، وتمت خِلْقَتُهَا.

ومنه قولهم : سبت رأسه أي : حلقه.

وقال الزمخشري : "والسّبت مصدر [سبتت] اليهود : إذا عظمت يوم السبت" .

وفيه نظر ، فإنّ هذا اللفظ موجود ، واشتقاقه مذكور في لسان العرب قبل فعل اليَهُود ذلك

، اللّهم إلا [أن] يريد هذا السبت الخاصَّ المذكور في هذه الآية .

والأصل فيه المصدر كما ذكرت ، ثم سمي به هذا اليوم من الأسبوع ، لاتفاق وقوعه فيه كما تقدم أن خلق الأشياء تَمّ وانقطع ، وقد يقال : يوم السبت فكيون مصدراً .

وإذا ذكر معه " اليوم " ، أو مع ما أشبهه من أسماء الأزمنة مما يتضمّن عملاً وحدثاً جاز نصب " اليوم " ، ورفعه ، نحو : " اليوم الجمعة " ، " اليوم العيد " كما يقال : " اليوم الاجتماع والعَوْد " .

فإن ذكر مع " الأحد " وأخوته وجب الرفع على المشهور ، وتحقيقها مذكور في [كتب] النحو .

و" قِردَةً خَاسِئِيْنَ " يجوز فيه أربعة أوجه :

أحدها : أن يكونا خبرين ، قال الزَّمخشري : " أي : كونوا جامعين بين القِردّية والخسوء " .

وهذا التقدير منه بناء على أن الخبر لا يتعدّد ، فلذلك قدرهما بمعنى خبر واحد من باب : " هذا حُلْو حَامض " وقد تقدّم القول فيه .

والثَاني : أن يكون " خاسئين " نعتاً لـ " قردة " قاله أبو البقاء .

وفيه نظر من حيث إنّ القردة غير عقلاء ، وهذا جمع العقلاء .

فإن قيل : المخاطبون عقلاء ؟ فالجواب : أنّ ذلك لا يفيد ؛ لأن التقدير عندكم حينئذ : كونوا مثل قدرة من صفتهم الخُسوء ، ولا تعلّق للمخاطبين بذلك ، إلا أنه يمكن أن يقال : إنهم مشبَّهُون بالعقلاء كقوله : ﴿لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف : 4] و ﴿أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت : 11] .

والثالث : أن يكون حالاً من اسم "كونوا " ، والعامل فيه "كونوا " ، وهذا عند من يجيز لـ " كان " أن تعمل في الظروف [والأحوال] وفيه خلاف سيأتي تحقيقه إن شاء الله تعالى عند قوله : ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً﴾ [يونس : 2] .

الرابع : وهو الأجود أن يكون حالاً من الضمير المُسْتكنّ في " قردة " ؛ لأنه في معنى المشتق أي : كونوا ممسوخين في هذه الحال .

وجمع " فِعْل " على " فِعَلَة " قليل لا يَنْقَاس .

ومادة " القرد " تدلّ على اللُّصوق والسكون ، تقول : قَرَد بمكان كذا : لصق به وسكن ، ومنه : الصُّوف " الْقَرَد " أي : المتداخل ، ومنه أيضاً : " القُرَادُ " هذا الحيوان المعروف ويقال : " خسأته فخَسَأَ ، فالمتعدي والقاصر سواء نحو : زاد وغاض وقيل : خسأته فخسىء وانسخاً ، والمصدر " الخسوء " و " الْخَسْء " .

وقال الكسائي : " خسأت الرجل خسأ ، وخسأ هو خسوءاً " ، ففرق بين المصدرين .

والخسوء : الذّلة والصَّغار والطرد والبعد ، ومنه : خسأت الكلب قال مجاهد وقتادة والربيع : وهي لغة "كنانة" .

(85/54)

وقال أبو روق : يعني خرساً لقوله تعالى : ﴿ اخسئوا فِيهَا وَلاَ تُكَلِّمُونِ ﴾ [المؤمنون : 108] والمراد من هذا الأمر سرعة التكوين لا نفس الأمر .

روي عن مجاهد رضي الله عنه أن الله تعالى مسخ قلوبهم يعني : بالطَّبع والخَتْم ، إلا أنه مَسَخَ صورهم لقوله ﴿ كَمَثَلِ الحمار يَحْمِلُ أَسْفَاراً ﴾ [الجمعة : 5] وهذا مَجَاز ظاهر [مشهور] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 2 صـ 145. 150 ﴾ .

باختصار .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (65) ﴾

مسْخُ هذه الأمة حصل على القلوب ، فكما أنهم لما تركوا الأمر واستهانوا بما أُلزموا به من الشرع – عجلت عقوبتهم بالخسف والمسخ وغير ذلك من ضروب ما ورد به النَّصُّ ، فهذه

الأمة مِنْ نَقْضِ العهدِ ورفض الحدّ عوقبت بمسخ القلوب ، وتبديل الأحوال ، قال تعالى :

﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الأنعام : 110] وعقوبات القلوب أنكى من عقوبات النفوس ، وفي معناه أنشدوا :

يا سائلي : كيف كنتَ بَعْده ؟ . . . لقيتُ ما ساءني وسَرَّه

ما زلت أختال في وِصالي حتى . . . أمِنت من الزمانِ مَكره

طال عليَّ الصدود حتى . . . لم يُبْقِ مما شَهِدَت ذرَّه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 97 ﴾

(86/54)

قوله تعالى ﴿ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (66) ﴾

فصل

قال البقاعى :

﴿ فجعلناها ﴾ أي فتسبب عن قولنا إنهم كانوا قردة كما قلنا ، فجعلنا هذه العقوبة ﴿ نكالاً ﴾ أي قيداً مانعاً ﴿ لما بين يديها ﴾ من المعاصي من أهل عالمها الشاهدين لها ﴿ وما خلفها ﴾ ممن جاء بعدهم ، روي معناه عن ابن عباس رضي الله عنهما ، والنكال

إبداء العقوبة لمن يتّعظ بها ، واليد ما به تظهر أعيان الأشياء وصورها أعلاها وأدناها ، فلذلك ثنيت لأنها يد عليا هي اليمنى ويد دنيا هي اليسرى ، والخلف ما يخلفه المتوجه في توجهه فينطمس عن حواس إقباله شهوده – قاله الحرالي .

وقال ﴿ وموعظة ﴾ من الوعظ وهو دعوة الأشياء بما فيها من العبرة للانقياد للإله الحق بما يخوفها في مقابلة التذكير بما يرجيها ويبسطها ﴿ للمتقين ﴾ وقد أشعر هذا أن التقوى عصمة من كل محذور وأن النقم تقع في غيرهم وعظاً لهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 168 ﴾

فصل

قال الفخر :

أما قوله : ﴿ فَجَعَلْنَاهَا ﴾ فقد اختلفوا في أن هذا الضمير إلى أي شيء يعود على وجوه .

أحدها : قال الفراء : (جعلناها) يعني المسخة التي مسخوها ،

وثانيها : قال الأخفش : أي جعلنا القردة نكالاً .

وثالثها : جعلنا قرية أصحاب السبت نكالاً .

رابعها : جعلنا هذه الأمة نكالاً لأن قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الذين اعتدوا مِنكُمْ فِى السبت ﴾ يدل على الأمة والجماعة أو نحوها والأقرب هو الوجهان الأولان لأنه إذا أمكن رد الكناية إلى مذكور متقدم فلا وجه لردها إلى غيره ، فليس في الآية المتقدمة إلا ذكرهم وذكر عقوبتهم ، أما النكال فقال القفال رحمه الله : إنه العقوبة الغليظة الرادعة للناس عن الإقدام على مثل تلك المعصية وأصله من المنع والحبس ومنه النكول عن اليمين وهو الامتناع منها ، ويقال للقيد النكل ، وللجام الثقيل أيضاً نكل لما فيهما من المنع والحبس ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً وَجَحِيماً ﴾ [المزمل : 12] وقال الله تعالى : ﴿ والله أَشَدُّ بَأْساً وَأَشَدُّ تَنكِيلاً ﴾ [النساء : 84] والمعنى : أنا جعلنا ما جرى على هؤلاء القوم عقوبة رادعة لغيرهم أي لم نقصد بذلك ما يقصده الآدميون من التشفي لأن ذلك إنما يكون ممن تضره المعاصي وتنقص من ملكه وتؤثر فيه ، وأما نحن فإنما نعاقب لمصالح العباد فعقابنا زجر وموعظة ، قال القاضي : اليسير من الذم لا يوصف بأنه نكال حتى إذ عظم وكثر واشتهر ، يوصف به وعلى هذا الوجه أوجب الله تعالى في السارق المصر القطع جزاء ونكالاً وأراد به أن يفعل على وجه الإهانة والاستخفاف فهو بمنزلة الخزي الذي لا يكاد يستعمل إلا في الذم العظيم ، فكأنه تعالى لما بين ما أنزله بهؤلاء القوم الذين اعتدوا في السبت واستحلوا من اصطياد الحيتان وغيره ما حرمه عليهم ابتغاء الدنيا ونقضوا ما كان منهم من المواثيق ، فبين أنه تعالى أنزل بهم عقوبة لا على وجه المصلحة

لأنه كان لا يمتنع أن يقلل مقدار مسخهم ويغير صورهم بمنزلة ما ينزل بالمكلف من الأمراض المغيرة للصورة ، ويكون محنة لا عقوبة فبين تعالى بقوله : ﴿ فجعلناها نكالا ﴾ أنه تعالى فعلها عقوبة على ما كان منهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 104 ﴾

(88/54)

قال ابن عطية :

والضمير في ﴿ جعلناها ﴾ : يحتمل العود على المسخة والعقوبة ، ويحتمل على الأمة التي مسخت ، ويحتمل على القردة ، ويحتمل على القرية إذ معنى الكلام يقتضيها ، وقيل يعود على الحيتان ، وفي هذا القول بعد .

والنكال : الزجر بالعقاب ، والنكل والأنكال : قيود الحديد ، فالنكال عقاب ينكل بسببه غير المعاقب عن أن يفعل مثل ذلك الفعل ، قال السدي : ما بين يدي المسخة : ما قبلها من ذنوب القوم ، ﴿ وما خلفها ﴾ : لمن يذنب بعدها مثل تلك الذنوب ، وهذا قول جيد ، وقال غيره : " ما بين يديها " أي من حضرها من الناجين ، ﴿ وما خلفها ﴾ أي لمن يجيء بعدها ، وقال ابن عباس : ﴿ لما بين يديها ﴾ : أي من بعدهم من الناس ليحذر ويتقي ، ﴿ وما خلفها ﴾ : لمن بقي منهم عبرة .

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه : وما أراه يصح عن ابن عباس رضي الله عنه ، لأن دلالة ما بين اليد ليست كما في القول ، وقال ابن عباس أيضاً : ﴿ لما بين يديها وما خلفها ﴾ ، أي من القرى ، فهذا ترتيب أجرام لا ترتيب في الزمان .

﴿ وموعظة ﴾ مفعلة من الاتعاظ والازدجار ، ﴿ وللمتقين ﴾ معناه للذين نهوا ونجوا ، وقالت فرقة : معناه لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، واللفظ يعم كل متق من كل أمة .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 1 صـ 161 ﴾

(89/54)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً ﴾ نصب على المفعول الثاني .

وفي المجعول نكالاً أقاويل ؛ قيل : العقوبة .

وقيل : القرية ؛ إذ معنى الكلام يقتضيها .

وقيل : الأمّة التي مُسِخت .

وقيل : الحِيتان ؛ وفيه بُعْدٌ .

والنّكال : الزجر والعقاب .

والنِّكْل والأنكال : القيود .

وسُمِّيت القيود أنكالاً لأنها يُنْكل بها ؛ أي يمنع .

ويقال للجام الثقيل : نَكْل ونِكْل ؛ لأن الدابة تُمنع به .

ونَكَل عن الأمر يَنْكُل ، ونَكِل يَنْكَل إذا امتنع .

والتّنكيل : إصابة الأعداء بعقوبة تُنَكِّل مَن وراءهم ؛ أي تُجَبِّنهم .

وقال الأزهري : النكال العقوبة .

ابن دُرَيْد : والمَنْكَل : الشيء الذي يُنَكّل بالإنسان ؛ قال :

فارم على أقفائهم بمَنْكَل . . . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 1 صـ 443 ﴾

قوله تعالى ﴿ لّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا ﴾

فصل

قال الفخر :

أما قوله تعالى : ﴿ لّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا ﴾ ففيه وجوه .

أحدها : لما قبلها وما معها وما بعدها من الأمم والقرون لأن مسخهم ذكر في كتب الأولين

فاعتبروا بها واعتبر بها من بلغ إليه خبر هذه الواقعة من الآخرين ،

وثانيها : أريد بما بين يديها ما يحضرها من القرون والأمم ،

وثالثها : المراد أنه تعالى جعلها عقوبة لجميع ما ارتكبوه من هذا الفعل وما بعده ، وهو قول

الحسن . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 104.105 ﴾

وقال القرطبى :

قوله : ﴿ لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا ﴾ قال ابن عباس والسُّدّي : لِمَا بين يدي المَسْخة ما قبلها من ذنوب القوم .

﴿ وَمَا خَلْفَهَا ﴾ لمن يعمل بعدها مثل تلك الذنوب .

قال الفرّاء : جُعلت المسخة نكالاً لما مضى من الذنوب ؛ ولِمَا يُعمل بعدها ليخافوا المسخ بذنوبهم .

قال ابن عطية : وهذا قول جيّد ، والضميران للعقوبة .

وروى الحكم عن مجاهد عن ابن عباس : لمن حضر معهم ولمن يأتي بعدهم .

واختاره النحاس ؛ قال : وهو أشبه بالمعنى ، والله أعلم .

(90/54)

وعن ابن عباس أيضاً : ﴿ لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا ﴾ من القُرَى .

وقال قتادة : ﴿ لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا ﴾ من ذنوبهم ، " وما خلفها " من صيد الحيتان . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 1 صـ 444 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾

فصل

قال الفخر :

أما قوله تعالى : ﴿ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ ففيه وجهان .

أحدهما : أن من عرف الأمر الذي نزل بهم يتعظ به ويخاف إن فعل مثل فعلهم أن ينزل به مثل ما نزل بهم ، وإن لم ينزل عاجلاً فلا بد من أن يخاف من العقاب الآجل الذي هو أعظم وأدوم .

وأما تخصيصه المتقين بالذكر فكمثل ما بيناه في أول السورة عند قوله : ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ لأنهم إذا اختصموا بالاتعاظ والانزجار والانتفاع بذلك صلح أن يخصوا به ، لأنه ليس بمنفعة لغيرهم .

الثاني : أن يكون معنى قوله : ﴿ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ أن يعظ المتقون بعضهم بعضاً أي جعلناها نكالاً وليعظ به بعض المتقين بعضاً فتكون الموعظة مضافة إلى المتقين على معنى أنهم يتعظون بها ، وهذا خاص لهم دون غير المتقين ، والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 105 ﴾

وقال القرطبى :

الوعظ : التخويف .

والعِظَة الاسم .

قال الخليل : الوَعْظ التّذكير بالخير فيما يَرِقّ له القلب .

قال الماوَرْدِيّ : وخصّ المتقين وإن كانت موعظة للعالمين لتفرّدهم بها عن الكافرين المعاندين .

قال ابن عطية : واللفظ يعمّ كل مُتّقٍ من كل أمّة .

وقال الزجاج : ﴿ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ لأمة محمد صلى الله عليه وسلم أن ينتهكوا مِن حُرَم الله جلّ وعَزّ ما نهاهم عنه ، فيصيبهم ما أصاب أصحاب السبت إذ انتهكوا حُرَم الله في سَبْتهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 1 صـ 444 ﴾

(91/54)

وقال الآلوسى :

﴿ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ الموعظة ما يذكر مما يلين القلب ثواباً كان أو عقاباً والمراد بالمتقين ما يعم كل متق من كل أمة وإليه ذهب ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وقيل : من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، وقيل : منهم ، ويحتمل أنهم اتعظوا بذلك وخافوا عن ارتكاب خلاف ما أمروا به ، ويحتمل أنهم وعظ بعضهم بعضاً بهذه الواقعة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 284 ﴾

لطيفة

قال الآلوسى :

وحظ العارف من هذه القصة أن يعرف أن الله سبحانه وتعالى خلق الناس لعبادته وجعلهم بحيث لو أهملوا وتركوا وخلوا بينهم وبين طباعهم لتوغلوا وانهمكوا في اللذات الجسمانية والغواشي الظلمانية لضروراتهم لهم واعتيادهم من الطفولية عليها .

والنفس كالطفل إن تهمله شب على . . .

حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم

(92/54)

فوضع الله تعالى العبادات ، وفرض عليهم تكرارها في الأوقات المعينة ليزول عنهم بها درن الطباع المتراكم في أوقات الغفلات وظلمة الشواغل العارضة في أزمنة ارتكاب الشهوات ، وجعل يوماً من أيام الأسبوع مخصوصاً للاجتماع على العبادة وإزالة وحشة التفرقة ودفع ظلمة الاشتغال بالأمور الدنيوية ، فوضع السبت لليهود لأن عالم الحس الذي إليه دعوة اليهود هو آخر العوالم والسبت آخر الأسبوع ، والأحد للنصارى لأن عالم العقل الذي إليه

دعوتهم أول العوالم ، ويوم الأحد أول الأسبوع ، والجمعة للمسلمين لأنه يوم الجمع ، والختم فهو أوفق بهم وأليق بحالهم فمن لم يراع هذه الأوضاع والمراقبات أصلاً زال نور استعداده ، وطفىء مصباح فؤاده ، ومسخ كما مسخ أصحاب السبت ، ومن غلب عليه وصف من أوصاف الحيوانات ورسخ فيه بحيث أزال استعداده ، وتمكن في طباعه ، وصار صورة ذاتية له كالماء الذي منبعه معدن الكبريت مثلا أطلق عليه اسم ذلك الحيوان حتى كأن صار طباعه طباعه ، ونفسه نفسه ، فليجهد المرء على حفظ إنسانيته ، وتدبير صحته بشراب الأدوية الشرعية والمعاجين الحكمية ، وليحث نفسه بالمواعظ الوعدية والوعيدية .

هي النفس إن تهمل تلازم خساسة . . .

وإن تتبعث نحو الفضائل تلهج . انتهى انتهى . اهـ ﴿روح المعانى حـ 1 صـ 284﴾

لطيفة

قال أبو حيان :

وقد تضمنت هذه الآيات الكريمة التسوية بين مؤمني اليهود والنصارى والصابئين ، ومؤمني غيرهم في كينونة الأجر لهم ، وأن ذلك عند من يراهم ، وأن إيمانهم في الدنيا أنتج لهم الأمن في الآخرة ، فلا خوف مما يستقبل ، ولا حزن على ما فات إذ من استقر له أجره عند ربه فقد بلغ الغاية القصوى من الكرامة .

وقد أدخل هذه الآية بين قصص بني إسرائيل ليبين أن الفوز إنما هو لمن أطاع.

وصارت هذه الآية بين آيتي عقاب: إحداهما تتضمن ضرب الذلة والمسكنة على بني إسرائيل، والأخرى تتضمن ما عوقبوا به من نتق الجبل فوقهم، وأخذ الميثاق، ثم توليهم بعد ذلك.

(93/54)

فأعلمت هذه الآية بحسنى عاقبة من آمن، حتى من هذا الجنس الذي عوقب بهاتين العقوبتين، ترغيباً في الإيمان، وتيسيراً للدخول في أشرف الأديان، وتبييناً أن الإسلام يجبّ ما قبله، وأن طاعة الله تجلب إحسانه وفضله.

وتضمن قوله ﴿ وإذ أخذنا ميثاقكم ﴾ التذكير بالميثاق الذي أخذ عليهم، وأنه كان يجب الوفاء به، وأنه رفع الطور فوقهم لأن يتوبوا ويرجوا، وأنهم مع مشاهدتهم هذا الخارق العظيم تولوا وأعرضوا عن قبول الحق، وأنه لولا أن تداركهم بفضله ورحمته لخسروا.

ثم أخذ يذكرهم ما هو في طي علمهم من عقوبة العاصين، ومآل اعتداء المعتدين، وأنه باستمرار العصيان والاعتداء في إباحة ما حظره الرحمن، يعاقب بخروج العاصي من طور الإنسانية إلى طور القردية، فبينا هو يفرح بجعله من ذوي الألباب، ويمرح ملتذاً بدلال

الخطاب ، نسخ اسمه من ديوان الكمال ، ونسخ شكله إلى أقبح مثال ، هذا مع أعد له في الآخرة من النكال ، والعقوبات على الجرائم جارية على المقدار ، ناشئة عن إرادة الملك القهار ، ليست مما تدرك بالقياس ، فيخوص في تعيينها ألباب الناس ، ومثل هذه العقوبة تكون تنبيهاً للغافل ، عظة للعاقل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 1 صـ 410. 411 ﴾

(94/54)

فصل

قال السيوطى :

﴿ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (66)

﴾

وأخرج ابن جرير عن مجاهد . مثله .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ فجعلناها نكالاً لما بين يديها ﴾ من الذنوب ﴿ وما خلفها ﴾ من القرى ﴿ وموعظة للمتقين ﴾ الذين من بعدهم إلى يوم القيامة .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس ﴿ فجعلناها ﴾ يعني الحيتان ﴿ نكالاً لما بين يديها وما خلفها ﴾ من الذنوب التي عملوا قبل وبعد .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس ﴿ فجعلناها ﴾ قال : فجعلنا تلك العقوبة وهي المسخة ﴿ نكالاً ﴾ عقوبة ﴿ لما بين يديها ﴾ يقول : ليحذر من بعدهم عقوبتي ﴿ وما خلفها ﴾ يقول : للذين بقوا معهم ﴿ وموعظة ﴾ تذكرة وعبرة للمتقين .

وأخرج عبد بن حميد عن سفيان في قوله ﴿ نكالاً لما بين يديها وما خلفها ﴾ قال : من الذنوب ﴿ وموعظة للمتقين ﴾ قال : لأمة محمد عليه السلام . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 1 صـ 185 ﴾

(95/54)

ومن فوائد ابن عرفة فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ فَجَعَلْنَاهَا . . . ﴾ .

ابن عطية : المراد إما جعلنا العقوبة أو المسخة أو الأمة الممسوخة أو القردة أو القرية ، وقيل : أو الحيتان وفيه بُعْدٌ .

قوله تعالى : ﴿ لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا . . . ﴾ .

ابن عطية : عن السدي قيل : لما قبلها من ذنوب القوم وما بعدها من يذنب بعد ذلك (مثل تلك الذنوب) .

وقيل : لما بين يديها أي لما قبلها من الأمم ، وما خلفها أي لما بعدها من الأمم ، لأن (مسختهم) ذكرت في كتب من تقدمهم من الأمم ، وعلموا بها فاعتبروا وانزجروا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عرفة صـ 322 ﴾

(96/54)

ومن فوائد صاحب المنار فى الآية الكريمة

قال رحمه الله :

(وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ)

(97/54)

أَطْمَعَ اللهُ – تَعَالَى – بِالْآيَةِ السَّابِقَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي رَحْمَتِهِ بَعْدَمَا قَرَّعَهُمْ بِالنُّذُرِ الَّتِي تَكَادُ تُوقِعُ الْيَأْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ، وَبَيَّنَ لَهُمْ وَلِسَائِرِ النَّاسِ أَنَّ الْمَنْفَذَ إِلَى هَذَا الطَّمَعِ ، بَلِ الْبَابَ الَّذِي يُؤَدِّي إِلَى هَذَا الرَّجَاءِ هُوَ الْجَمْعُ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ اللَّذَيْنِ بَعَثَ لِتَقْرِيرِهِمَا الْأَنْبِيَاءَ – عَلَيْهِمُ السَّلَامُ – ، وَهُمَا الْإِيمَانُ الصَّحِيحُ الْيَقِينِيُّ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ ، وَإِشْرَاكُ غَيْرِ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي هَذَا الْحُكْمِ لَا يَقْتَضِي بِانْتِهَاءِ السِّيَاقِ ، بَلْ لَا يَزَالُ الْكَلَامُ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ ؛ وَلِذَلِكَ عَقَّبَ ذَلِكَ الْإِطْمَاعَ بِالتَّذْكِيرِ بِبَعْضِ الْوَقَائِعِ الَّتِي اسْتَحَقُّوا فِيهَا الْعُقُوبَةَ فَحَالَتْ دُونَ وُقُوعِهَا الرَّحْمَةُ فَقَالَ : (وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ) وَهُوَ الْعَهْدُ الَّذِي أَخَذَهُ عَلَيْهِمْ وَتَقَدَّمَ الْكَلَامُ فِيهِ ، وَأَمَّا قَوْلُهُ : (وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ) فَقَدْ ذَكَرَ الْمُفَسِّرُونَ فِيهِ قِصَّةً وَهِيَ : أَنَّ اللهَ – تَعَالَى – ظَلَّلَ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِالطُّورِ ، وَهُوَ الْجَبَلُ الْمَعْرُوفُ وَخَوَّفَهُمْ بِرَفْعِهِ فَوْقَهُمْ ؛ لِيُذْعِنُوا وَيُؤْمِنُوا ، ثُمَّ اعْتَرَضَ عَلَيْهِ بَعْضُهُمْ بِأَنَّهُ إِكْرَاهٌ عَلَى الْإِيمَانِ وَإِلْجَاءٌ إِلَيْهِ ، وَذَلِكَ يُنَافِي التَّكْلِيفَ ، وَأُجِيبَ بِأَجْوِبَةٍ مِنْهَا : أَنَّ مَا يُفْعَلُ بِالْإِكْرَاهِ يَعُودُ اخْتِيَارِيًّا بَعْدَ زَوَالِ مَا بِهِ الْإِكْرَاهُ ، وَمِنْهَا : أَنَّ مِثْلَ هَذَا الْإِلْجَاءِ وَالْإِكْرَاهِ كَانَ جَائِزًا فِي الْأُمَمِ السَّابِقَةِ ، وَيَزِيدُ مَنْ قَالَ هَذَا : أَنَّ نَفْيَ الْإِكْرَاهِ

فِي الدِّينِ الْخَاصِّ بِالْإِسْلَامِ لِقَوْلِهِ - تَعَالَى - : (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ) (2 : 256) وَقَوْلِهِ : (أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ) (10 : 99)

قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : لَا حَاجَةَ لَنَا فِي فَهْمِ كِتَابِ اللهِ إِلَى غَيْرِ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ بِأُسْلُوبِهِ الْفَصِيحِ ، فَهُوَ لَا يَحْتَاجُ فِي فَهْمِهِ إِلَى إِضَافَاتٍ وَلَا مُلْحَقَاتٍ ، وَقَدْ ذَكَرَ لَنَا مَسْأَلَةَ رَفْعِ الطُّورِ فَوْقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ يَقُلْ إِنَّهُ أَرَادَ بِذَلِكَ الْإِكْرَاهَ عَلَى الْإِيمَانِ ، وَإِنَّمَا حَكَى عَنْهُمْ فِي آيَةٍ أُخْرَى أَنَّهُمْ ظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ ، فَقَدْ قَالَ - تَعَالَى - فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ : (وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) (7 : 171) وَالنَّتْقُ : الزَّعْزَعَةُ وَالْهَزُّ وَالْجَذْبُ وَالنَّفْضُ ، وَنَتَقَ الشَّيْءَ يَنْتِقُهُ وَيَنْتُقُهُ - مِنْ بَابَيْ ضَرَبَ وَنَصَرَ - نَتْقًا ، جَذَبَهُ وَاقْتَلَعَهُ ، وَقَدْ يَكُونُ ذَلِكَ فِي الْآيَةِ بِضَرْبٍ مِنَ الزِّلْزَالِ ، كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ التَّعْبِيرُ بِالنَّتْقِ وَهُوَ فِي الْأَصْلِ بِمَعْنَى الزَّعْزَعَةِ

وَالنَّفْضِ ، وَالْمَفْهُومُ مِنْ أَخْذِ الْمِيثَاقِ أَنَّهُمْ قَبِلُوا الْإِيمَانَ وَعَاهَدُوا مُوسَى عَلَيْهِ . فَرَفْعُ الطُّورِ وَظَنُّهُمْ أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ ، مِنَ الْآيَاتِ الَّتِي رَأَوْهَا بَعْدَ أَخْذِ الْمِيثَاقِ ، كَانَ لِأَجْلِ أَخْذِ مَا أُوتُوهُ مِنَ الْكِتَابِ بِقُوَّةٍ وَاجْتِهَادٍ ؛ لِأَنَّ رُؤْيَةَ الْآيَاتِ تُقَوِّي الْإِيمَانَ ، وَتُحَرِّكُ الشُّعُورَ وَالْوِجْدَانَ ؛ وَلِذَلِكَ

خَاطَبَهُمْ عِنْدَ رُؤْيَةِ تِلْكَ الْآيَةِ بِقَوْلِهِ : (خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ) أَيْ تَمَسَّكُوا بِهِ وَاعْمَلُوا بِجِدٍّ وَنَشَاطٍ ، لَا يُلَابِسُ نُفُوسَكُمْ فِيهِ ضَعْفٌ ، وَلَا يَصْحَبُهَا وَهَنٌ وَلَا وَهْمٌ ، ثُمَّ قَالَ : (وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ) أَيْ بِالْمُحَافَظَةِ عَلَى الْعَمَلِ بِهِ ؛ فَإِنَّ الْعَمَلَ هُوَ الَّذِي يَجْعَلُ الْعِلْمَ رَاسِخًا فِي النَّفْسِ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهَا . وَيُؤْثَرُ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيٍّ – كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ – أَنَّهُ قَالَ : يَهْتِفُ الْعِلْمُ بِالْعَمَلِ . فَإِنْ أَجَابَهُ وَإِلَّا ارْتَحَلَ . وَذَلِكَ أَنَّ الْعِلْمَ إِنَّمَا يَحْضُرُ فِي النَّفْسِ مُجْمَلًا غَيْرَ سَالِمٍ مِنْ إِبْهَامٍ وَغُمُوضٍ ، فَإِذَا بَرَزَ لِلْوُجُودِ بِالْعَمَلِ صَارَ تَفْصِيلِيًّا جَلِيًّا ، ثُمَّ يَنْقَلِبُ النَّظَرِيُّ

(100/54)

مِنْهُ بِالتَّكْرَارِ وَالْمُوَاظَبَةِ بَدِيهِيًّا ضَرُورِيًّا ، وَبِذَلِكَ يَثْبُتُ فَلَا يُنْسَى . وَأَمَّا النِّسْيَانُ فَإِنَّهُ حَلِيفُ الْكُفْرِ ، وَإِنَّهُ لَيَصِلُ بِالْإِنْسَانِ إِلَى حَدٍّ يُسَاوِي فِيهِ مَنْ لَمْ تَسْبِقْ لَهُ مَعْرِفَةٌ بِالشَّيْءِ قَطُّ ؛ لِأَنَّهُ لَا أَثَرَ لَهُ فِي النَّفْسِ وَلَا فِي الظَّاهِرِ . وَلَا فَرْقَ بَيْنَ مَنْ بَلَغَتْهُ دَعْوَةُ الْهِدَايَةِ فَسَلَّمَ بِهَا وَقَبِلَهَا ثُمَّ تَرَكَ الْعَمَلَ بِهَا حَتَّى نَسِيَهَا ، وَبَيْنَ مَنْ لَمْ تَبْلُغْهُ أَلْبَتَّةَ ، وَمَنْ بَلَغَتْهُ عَلَى وَجْهٍ غَيْرِ مُقْنِعٍ ، فَلَمْ يُؤْمِنْ إِلَّا بِمَا تَكُونُ الْحُجَّةُ بِهِ عَلَى الْأَوَّلِ أَظْهَرَ ، وَكَوْنِهِ بِالْمُؤَاخَذَةِ أَجْدَرَ ، وَالثَّانِي مَعْذُورٌ عِنْدَ الْجَمَاهِيرِ ، وَكَذَلِكَ الثَّالِثُ إِذَا اسْتَمَرَّ عَلَى النَّظَرِ مِنْ غَيْرِ تَقْصِيرٍ ، فَعَلَى هَذَا تَكُونُ مَنْزِلَةُ النَّاسِي هِيَ الَّتِي تَلِي مَنْزِلَةَ الْجَاحِدِ الْمُعَانِدِ ، وَهُوَ خَلِيقٌ بِأَنْ يُحْشَرَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

أَعْمَى عَنْ طَرِيقِ النَّجَاةِ وَالسَّعَادَةِ ، حَتَّى إِذَا لَقِيَ رَبَّهُ (قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى) (20 : 125 ، 126)

.

(101/54)

وَأَقُولُ : إِنَّ فِي هَذَا الْحُجَّةَ عَلَى قُرَّاءِ الْقُرْآنِ ، الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ مِنْهُ إِلَّا التَّغَنِّي بِأَلْفَاظِهِ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ لَا أَثَرَ فِيهَا لِلْقُرْآنِ ، وَأَعْمَالُهُمْ لَا تَنْطَبِقُ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ الْقُرْآنُ ، وَهَذَا شَرُّ نَوْعَيِ النِّسْيَانِ ، وَقَدْ ضَرَبَ لَهُ أَبُو حَامِدٍ الْغَزَالِيُّ مَثَلٌ : عَبِيدٌ أَقْطَعَهُمْ سَيِّدُهُمْ بُسْتَانًا وَكَلَّفَهُمْ إِصْلَاحَهُ وَعِمَارَتَهُ ، وَكَتَبَ لَهُمْ كِتَابًا يُبَيِّنُ لَهُمْ فِيهِ كَيْفَ يَسِيرُونَ فِي هَذَا الْإِصْلَاحِ ، وَكَيْفَ تَكُونُ حَيَاتُهُمْ فِيهِ ، وَوَعَدَهُمْ عَلَى الْإِحْسَانِ بِمُكَافَأَةٍ وَأَجْرٍ فَوْقَ مَا يَسْتَفِيدُونَهُ مِنْ ثَمَرَاتِ الْبُسْتَانِ وَغَلَّاتِهِ ، وَتَوَعَّدَهُمْ عَلَى الْإِسَاءَةِ فِي الْعَمَلِ بِالْعُقُوبَةِ الشَّدِيدَةِ وَرَاءَ مَا يَفُوتُهُمْ مِنْ خَيْرَاتِ الْبُسْتَانِ ، وَمَا يَذُوقُونَ مِنْ مَرَارَةِ سُوءِ الْمُعَامَلَةِ فِيمَا بَيْنَهُمْ ، فَكَانَ حَظُّهُمْ مِنَ الْكِتَابِ تَعْظِيمَ رَقِّهِ وَوَرَقِهِ ، وَالتَّغَنِّيَ بِلَفْظِهِ ، وَتَكْرَارَ تِلَاوَتِهِ ، بِدُونِ مُبَالَاةٍ بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَلَا اعْتِبَارٍ بِالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ فِيهِ ، بَلْ عَاثُوا فِي أَرْضِ الْبُسْتَانِ

مُفْسِدِينَ فَأَهْلَكُوا الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ، فَهَلْ يَكُونُ حَظُّ هَؤُلَاءِ مِنَ الْكِتَابِ غَيْرَ أَنَّهُ حُجَّةٌ عَلَيْهِمْ ، وَقَاطِعٌ لِأَلْسِنَةِ الْعُذْرِ مِنْهُمْ ؟ !

(102/54)

أَمَرَهُمْ بِالذِّكْرِ الَّذِي يَثْبُتُ بِالْعَمَلِ ، وَوَصَلَهُ بِذِكْرِ فَائِدَتِهِ وَهِيَ إِعْدَادُهُ النَّفْسَ لِتَقْوَى اللهِ – عَزَّ وَجَلَّ – ، فَقَالَ : (لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) ، فَإِنَّ الْمُوَاظَبَةَ عَلَى الْعَمَلِ بِمَا يُرْشِدُ إِلَيْهِ الْكِتَابُ تَطْبَعُ فِي النَّفْسِ مَلَكَةَ مُرَاقَبَةِ اللهِ – تَعَالَى – فَتَكُونُ بِهَا نَقِيَّةً تَقِيَّةً ، رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً (وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى) (20 : 132) .

وَبَعْدَ أَنْ ذَكَرَ لَهُمْ تِلْكَ الْآيَةَ ، وَمَا اتَّصَلَ بِهَا مِنَ الْهِدَايَةِ ، ذَكَّرَهُمْ بِمَا كَانَ مِنْهُمْ مِنَ التَّوَلِّي عَنِ الطَّاعَةِ وَالْإِعْرَاضِ عَنِ الْقَبُولِ ، ثُمَّ امْتَنَّ عَلَيْهِمْ بِمَا عَامَلَهُمْ بِهِ مِنَ الْفَضْلِ وَالرَّحْمَةِ ، وَالصَّفْحِ عَمَّا يَسْتَحِقُّونَهُ مِنَ الْمُؤَاخَذَةِ وَالْعُقُوبَةِ ، فَقَالَ : (ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ) أَيْ ثُمَّ أَعْرَضْتُمْ وَانْصَرَفْتُمْ عَنِ الطَّاعَةِ مِنْ بَعْدِ أَخْذِ الْمِيثَاقِ وَمُشَاهَدَةِ الْآيَاتِ الَّتِي تُؤَثِّرُ فِي الْقُلُوبِ ، وَتَسْتَكِينُ لَهَا النُّفُوسُ (فَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ) أَيْ إِنَّكُمْ بِتَوَلِّيكُمُ اسْتَحْقَقْتُمُ الْعِقَابَ ، وَلَكِنْ حَالَ دُونَ نُزُولِهِ بِكُمْ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ بِكُمْ ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَخَسِرْتُمْ

سَعَادَةَ الدُّنْيَا ، وَهِيَ التَّمَكُّنُ فِي الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ الَّتِي تَفِيضُ لَبَنًا وَعَسَلًا ، ثُمَّ خَسِرْتُمْ سَعَادَةَ الْآخِرَةِ وَهِيَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا . فَمِنْ فَضْلِهِ وَإِحْسَانِهِ أَنْ وَفَّقَكُمْ لِلْعَمَلِ بِالْمِيثَاقِ بَعْدَ ذَلِكَ .

(103/54)

شَايَعَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ الْمُفَسِّرِينَ عَلَى أَنَّ رَفْعَ الطُّورِ كَانَ آيَةً كَوْنِيَّةً ، أَيْ أَنَّهُ انْتُزِعَ مِنَ الْأَرْضِ وَصَارَ مُعَلَّقًا فَوْقَهُمْ فِي الْهَوَاءِ ، وَهَذَا هُوَ الْمُتَبَادِرُ مِنَ الْآيَةِ بِمَعُونَةِ السِّيَاقِ ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ أَلْفَاظُهَا نَصًّا فِيهِ ، إِذِ الرَّفْعُ وَالِارْتِفَاعُ هُوَ جَعْلُ الشَّيْءِ – أَوْ أَنْ يَكُونَ الشَّيْءُ – رَفِيعًا عَالِيًا كَمَا قَالَ – تَعَالَى – : (فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ) (88 : 13) وَقَالَ : (وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ) (56 : 34) فَكُلٌّ مِنَ السُّرُرِ وَالْفُرُشِ تَكُونُ مَرْفُوعَةً وَهِيَ عَلَى الْأَرْضِ . وَقَوْلُهُ – تَعَالَى – فِي آيَةِ الْأَعْرَافِ : (وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ) (7 : 171) لَيْسَ نَصًّا أَيْضًا فِي كَوْنِ الْجَبَلِ رُفِعَ فِي الْهَوَاءِ . فَأَصْلُ النَّتْقِ فِي اللُّغَةِ : الزَّعْزَعَةُ وَالزَّلْزَلَةُ كَمَا سَبَقَ . قَالَ فِي حَقِيقَةِ الْأَسَاسِ نَتَقَ الْبَعِيرُ الرَّحْلَ : زَعْزَعَهُ ، وَنَتَقْتُ الزُّبْدَ : أَخْرَجْتُهُ بِالْمَخْضِ ، وَنَتَقَ اللهُ الْجَبَلَ : رَفَعَهُ مُزَعْزَعًا فَوْقَهُمْ . ا هـ .

(104/54)

وَالظُّلَّةُ : كُلُّ مَا أَظَلَّكَ سَوَاءٌ كَانَ فَوْقَ رَأْسِكَ أَوْ فِي جَانِبِكَ ، وَهُوَ مُرْتَفِعٌ لَهُ ظِلٌّ ، فَيُحْتَمَلُ أَنَّهُمْ لَمَّا كَانُوا بِجَانِبِ الطُّورِ رَأَوْهُ مَنْتُوقًا ، أَيْ مُرْتَفِعًا مُزَعْزَعًا ، فَظَنُّوا أَنْ سَيَقَعُ بِهِمْ ، وَيَنْقَضُّ عَلَيْهِمْ ، وَيَجُوزُ أَنَّ ذَلِكَ كَانَ فِي أَثَرِ زِلْزَالٍ تَزَعْزَعَ لَهُ الْجَبَلُ ، وَقَدْ سَبَقَ الْقَوْلُ بِبُطْلَانِ كَوْنِ ذَلِكَ إِرْهَابًا لِلْإِكْرَاهِ عَلَى قَبُولِ التَّوْرَاةِ ، وَإِذَا صَحَّ هَذَا التَّأْوِيلُ ، لَا يَكُونُ مُنْكِرُ ارْتِفَاعِ الْجَبَلِ فِي الْهَوَاءِ مُكَذِّبًا لِلْقُرْآنِ .

(وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ)

(105/54)

أَبَاحَ اللهُ – تَعَالَى – لِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْعَمَلَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ مِنَ الْأُسْبُوعِ ، وَحَظَرَ عَلَيْهِمُ الْعَمَلَ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ وَهُوَ يَوْمُ السَّبْتِ ، وَفَرَضَ عَلَيْهِمْ فِي هَذَا الْيَوْمِ الِاجْتِهَادَ فِي الْأَعْمَالِ الدِّينِيَّةِ إِحْيَاءً لِلشُّعُورِ الدِّينِيِّ فِي قُلُوبِهِمْ ، وَإِضْعَافًا لِشَرَهِهِمْ فِي جَمْعِ الْحُطَامِ وَحُبِّهِمْ لِلدُّنْيَا ، فَتَجَاوَزَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ حُدُودَ اللهِ فِي السَّبْتِ وَاعْتَدُوهَا ، فَكَانَ جَزَاؤُهُمْ عَلَى ذَلِكَ جَزَاءَ مَنْ لَمْ يُرْضِ نَفْسَهُ بِآدَابِ الدِّينِ ، وَجَزَاءُ مِثْلِهِ هُوَ الْخُرُوجُ مِنْ مُحِيطِ الْكَمَالِ الْإِنْسَانِيِّ ، وَالرُّتُوعُ

فِي مَرَاتِعِ الْبَهِيمِيَّةِ ، كَالْقِرْدِ فِي نَزَوَاتِهِ ، وَالْخِنْزِيرِ فِي شَهَوَاتِهِ ، وَقَدْ سَجَّلَ اللهُ – تَعَالَى – عَلَيْهِمْ ذَلِكَ بِحُكْمِ سُنَّةِ الْفِطْرَةِ ، وَالنَّوَامِيسِ الَّتِي أَقَامَ بِهَا نِظَامَ الْخَلِيقَةِ ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ – عَزَّ وَجَلَّ – : (وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ) أَيْ وَأُقْسِمُ أَنَّكُمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ نَبَأَ الَّذِينَ تَجَاوَزُوا حُدُودَ حُكْمِ الْكِتَابِ فِي تَرْكِ الْعَمَلِ الدُّنْيَوِيِّ يَوْمَ السَّبْتِ – وَسَيَأْتِي نَبَؤُهُمْ مُفَصَّلًا فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ – (فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ) رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ مُجَاهِدٍ أَنَّهُ قَالَ : مَا مُسِخَتْ صُوَرُهُمْ وَلَكِنْ مُسِخَتْ قُلُوبُهُمْ ، فَمُثِّلُوا بِالْقِرْدَةِ

كَمَا مُثِّلُوا بِالْحِمَارِ فِي قَوْلِهِ – تَعَالَى – : (مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا) (62 : 5) وَمِثْلُ هَذَا قَوْلُهُ – تَعَالَى – : (وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ) (5 : 60) وَالْخُسُوءُ : هُوَ الطَّرْدُ وَالصَّغَارُ . وَالْأَمْرُ لِلتَّكْوِينِ ، أَيْ فَكَانُوا بِحَسْبِ سُنَّةِ اللهِ فِي طَبْعِ الْإِنْسَانِ وَأَخْلَاقِهِ كَالْقِرْدَةِ الْمُسْتَذَلَّةِ الْمَطْرُودَةِ مِنْ حَضْرَةِ النَّاسِ ، وَالْمَعْنَى : أَنَّ هَذَا الِاعْتِدَاءَ الصَّرِيحَ لِحُدُودِ هَذِهِ الْفَرِيضَةِ قَدْ جَرَّأَهُمْ عَلَى الْمَعَاصِي وَالْمُنْكَرَاتِ بِلَا خَجَلٍ وَلَا حَيَاءٍ حَتَّى صَارَ كِرَامُ النَّاسِ يَحْتَقِرُونَهُمْ وَلَا يَرَوْنَهُمْ أَهْلًا لِمُجَالَسَتِهِمْ وَمُعَامَلَتِهِمْ .

وَذَهَبَ جُمْهُورُ الْمُفَسِّرِينَ إِلَى أَنَّ تِلْكَ الْقَرْيَةَ (أَيْلَةُ) وَقِيلَ : (طَبَرِيَّةُ) أَوْ (مَدْيَنُ) وَقَالُوا : إِنَّ ذَلِكَ كَانَ فِي زَمَنِ دَاوُدَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - ، وَالْقُرْآنُ لَمْ يُعَيِّنِ الْمَكَانَ وَلَا الزَّمَانَ ، وَالْعِبْرَةُ الْمَقْصُودَةُ لَا تَتَوَقَّفُ عَلَى تَعْيِينِ هَذِهِ الْجُزْئِيَّاتِ ، فَالْحُجَّةُ فِيمَا ذُكِرَ قَائِمَةٌ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ وَمُبَيِّنَةٌ أَنَّ مُجَاحَدَتَهُمْ وَمُعَانَدَتَهُمْ لِلنَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَيْسَتْ بِدْعًا مِنْ أَمْرِهِمْ ، ثُمَّ إِنَّهَا عِبْرَةٌ بَيِّنَةٌ لِكُلِّ مَنْ يَفْسُقُ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ فَيَتَّخِذُ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَيَعِيشُ عِيشَةً بَهِيمِيَّةً .

وَذَهَبَ الْجُمْهُورُ أَيْضًا إِلَى أَنَّ مَعْنَى (كُونُوا قِرَدَةً) أَنَّ صُوَرَهُمْ مُسِخَتْ فَكَانُوا قِرَدَةً حَقِيقِيِّينَ ، وَالْآيَةُ لَيْسَتْ نَصًّا فِيهِ ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا النَّقْلُ ، وَلَوْ صَحَّ لَمَا كَانَ فِي الْآيَةِ عِبْرَةٌ وَلَا مَوْعِظَةٌ لِلْعُصَاةِ ؛ لِأَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ بِالْمُشَاهَدَةِ أَنَّ اللَّهَ لَا يَمْسَخُ كُلَّ عَاصٍ فَيُخْرِجُهُ عَنْ نَوْعِ الْإِنْسَانِ ، إِذْ لَيْسَ ذَلِكَ مِنْ سُنَنِهِ فِي خَلْقِهِ ، وَإِنَّمَا الْعِبْرَةُ الْكُبْرَى فِي الْعِلْمِ بِأَنَّ مِنْ سُنَنِ اللَّهِ - تَعَالَى - فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ أَنَّ مَنْ يَفْسُقْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ، وَيَتَنَكَّبِ الصِّرَاطَ الَّذِي شَرَعَهُ لَهُ ، يَنْزِلْ عَنْ مَرْتَبَةِ الْإِنْسَانِ وَيَلْتَحِقْ بِعَجْمَاوَاتِ الْحَيَوَانِ . وَسُنَّةُ اللَّهِ - تَعَالَى - وَاحِدَةٌ ، فَهُوَ يُعَامِلُ الْقُرُونَ الْحَاضِرَةَ بِمِثْلِ مَا عَامَلَ بِهِ الْقُرُونَ الْخَالِيَةَ ، وَلِذَلِكَ قَالَ :

(فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا

بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ) أَيْ جَعَلْنَا هَذِهِ الْعُقُوبَةَ نَكَالًا ، وَهُوَ مَا يُفْعَلُ بِشَخْصٍ مِنْ إِيذَاءٍ وَإِهَانَةٍ لِيَعْتَبِرَ غَيْرُهُ ؛ أَيْ عِبْرَةً يَنْكُلُ مَنْ يَعْلَمُ بِهَا أَيْ يَمْتَنِعُ عَنِ اعْتِدَاءِ الْحُدُودِ ، وَمِنْ هَذِهِ الْمَادَّةِ (النَّكْلُ) لِلْقَيْدِ ، أَوْ هُوَ أَصْلُهَا وَمِنْهَا النُّكُولُ عَنِ الْيَمِينِ فِي الشَّرْعِ وَهُوَ الِامْتِنَاعُ ، وَمَا بَيْنَ يَدَيْهَا يُرَادُ بِهِ مَنْ وَقَعَتْ فِي زَمَنِهِمْ كَمَا يُرَادُ بِمَا خَلْفَهَا مَنْ بَعْدَهُمْ إِلَى مَا شَاءَ اللهُ – تَعَالَى .

وَأَمَّا كَوْنُهَا مَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ ، فَهُوَ أَنَّ الْمُتَّقِيَ يَتَّعِظُ بِهَا فِي نَفْسِهِ بِالتَّبَاعُدِ عَنِ الْحُدُودِ الَّتِي يُخْشَى اعْتِدَاؤُهَا (تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا) (2 : 187) وَيَعِظُ بِهَا غَيْرَهُ أَيْضًا ، وَلَا يَتِمُّ كَوْنُ تِلْكَ الْعُقُوبَةِ نَكَالًا لِلْمُتَقَدِّمِينَ وَالْمُتَأَخِّرِينَ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ ، إِلَّا إِذَا كَانَتْ جَارِيَةً عَلَى السُّنَّةِ الْمُطَّرِدَةِ فِي تَرْبِيَةِ الْأُمَمِ وَتَهْذِيبِ الطِّبَاعِ ، وَذَلِكَ مَا هُوَ مَعْرُوفٌ لِأَهْلِ الْبَصَائِرِ ، وَمَشْهُورٌ عِنْدَ عُرَفَاءِ الْأَوَائِلِ وَالْأَوَاخِرِ (وَحَدِيثُ الْمَسْخِ وَالتَّحْوِيلِ ، وَأَنَّ أُولَئِكَ قَدْ تَحَوَّلُوا مِنْ أُنَاسٍ إِلَى قِرَدَةٍ وَخَنَازِيرَ إِنَّمَا قُصِدَ بِهِ التَّهْوِيلُ وَالْإِغْرَابُ ؛ فَاخْتِيَارُ مَا قَالَهُ مُجَاهِدٌ هُوَ الْأَوْفَقُ بِالْعِبْرَةِ وَالْأَجْدَرُ بِتَحْرِيكِ الْفِكْرَةِ) .

وَأَقُولُ : إِنَّهُ لَيْسَ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ حَدِيثٌ مَرْفُوعٌ إِلَى النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – نَصٌّ فِيهِ عَلَى كَوْنِ مَا ذُكِرَ مَسْخًا لِصُوَرِهِمْ وَأَجْسَادِهِمْ . وَقَدْ ذَكَرَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ قَوْلَ مُجَاهِدٍ فِي أَنَّ الْمَسْخَ مَعْنَوِيٌّ ، وَقَوْلَ الْآخَرِينَ إِنَّهُ صُوَرِيٌّ ، ثُمَّ قَالَ : وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ مَعْنَوِيٌّ صُوَرِيٌّ ، فَمَا مُرَادُهُ بِذَلِكَ ؟ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير المنار حـ 1 صـ 281. 286 ﴾

(110/54)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (66) ﴾

يريد الله تبارك وتعالى أن يلفتنا إلى أنه بعد أن جعل المسخة الخلقية والأخلاقية لليهود : ﴿ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا ﴾ أي ما معها : ﴿ وَمَا خَلْفَهَا ﴾ أي ما بعدها : " والنكال " هو العقوبة الشديدة . . والعقوبة لابد أن تنشأ عن تجريم أولا . . هذا هو المبدأ الإسلامي والمبدأ القانوني . . فرجال القانون يقولون لا عقوبة إلا بتجريم ولا تجريم إلا

بنص . . قبل أن تعاقب لابد أن تقول أن هذا الفعل جريمة عقوبتها كذا وكذا . . وفي هذه الحالة عندما يرتكبها أي إنسان يكون مستحقا للعقوبة . . ومادام هذا هو الموقف فلابد من تشريع .

والتشريع ليس معناه أن الله شرع العقوبة . . ولكن معناه محاولة منع الجريمة بالتخويف حتى لا يفعلها أحد . . فإذا تمت الجريمة فلابد من توقيع العقوبة . . لأن توقيعها عبرة للغير ومنع له من ارتكابها . . وهذا الزجر يسمى نكولا ومنها النكول في اليمين أي الرجوع فيه .

(111/54)

إذن قوله تعالى : ﴿ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً ﴾ . . أي جعلناهم زجرا وعقابا قويا . . حتى لا يعود أحد من بني إسرائيل إلى مثل هذه المخالفة : ﴿ نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا ﴾ . . أي عقوبة حين يرويها الذين عاصروها تكفي لكيلا يقتربوا من هذه المعصية أبدا . . وتكون لهم موعظة لا ينسونها : ﴿ وَمَا خَلْفَهَا ﴾ يعني جعلناها تتوارثها الأجيال من بني إسرائيل جيلا بعد جيل . . كما بيننا الأب يحكي لابنه حتى لا يعود أحد في المستقبل إلى مثل هذا العمل من شدة العقوبة : ﴿ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ . . أي موعظة لكل الناس الذين سيبلغهم الله تبارك وتعالى بما حدث من بني إسرائيل وما عاقبهم به . . حتى يقوا أنفسهم شر

العذاب يوم القيامة الذي سيكون فيه ألوان أشد كثيرا من هذا العذاب . . على أننا لابد أن نلفت الإنتباه إلى أن مبدأ أنه لا عقوبة إلا بتجريم ولا تجريم إلا بنص هو مبدأ إلهي . . ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء : 15] أي يأتي الرسول أولا ليجرم هذه الأفعال . . فإن ارتكبها أحد من خلق الله حقت عليه العقوبة . . ومن هنا فإن كل ما يقال عن قوانين بأثر رجعي مخالف لشريعة الله تبارك وتعالى وعدله . . فلا يوجد في عدالة السماء ما يقال عنه أثر رجعي . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ 386 . 387 ﴾

(112/54)

" فوائد بلاغية "

قال فى صفوة التفاسير :

البلاغة :

أولا : [خذوا ما آتيناكم بقوة] فيه إيجاز بالحذف أي قلنا لهم : خذوا ، فهو كما قال الزمخشري على إرادة القول .

ثانيا : [كونوا قردة خاسئين] خرج الأمر عن حقيقته إلى معنى الإهانة والتحقير ، وقال

بعض المفسرين : هذا أمر تسخير وتكوين ، فهو عبارة عن تعلق القدرة ، بنقلهم من حقيقة البشرية إلى حقيقة القردة .

ثالثا : [لما بين يديها وما خلفها] كناية عمن أتى قبلها أو أتى بعدها من الأمم والخلائق ، أو عبرة لمن تقدم ومن تأخر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 1 صـ 65 ﴾

(113/54)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

" فَجَعَلْنَاهَا " فعل وفاعل ومفعول .

" نَكَالاً " مفعول ثانٍ لـ " جعل " التي بمعنى " صير " والأول هو الضمير ، وفيه أقوال : أحدها : يعود على المَسْخَة .

وقيل : على القرية ، لأن الكلام يقتضيها كقوله : ﴿ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً ﴾ [العاديات : 4] أي : بالمكان .

وقيل : على العقوبة .

وقيل : على الأمة .

" النكال " المنع ، ومنه : النّكل ، والنِّكْل اسم للقيد من الحديد ، واللِّجَام ؛ لأنه يُمنع به ، وسمي العقاب نَكَالاً ؛ لأنه يُمنْع به غير المعاقب أن يفعل فِعْلَه ، ويمنع المعاقب أن يعود إلى فَعله الأول .

و" التنكيل " : إصابة الغير بالنّكَالِ لِيُرْدَعَ غيره ، ونَكَلَ عن كذا يَنْكل نُكُولاً : امتنع ، وفي الحديث : " إنّ الله يحب الرَّجُلَ النّكل " أي : القوي على الغرس .

" والْمَنْكَل " : مَا يُنكَّل به الإنسان ، قال : [الرجز]

فَارْمِ عَلَى أَقفَائِهِمْ بِمَنْكَلِ . . .

والمعنى : أنا جعلنا ما جرى على هؤلاء عقوبة رادعة لغيرهم .

والضمير في "يَدَيْهَا " و" خلفها "كالضمير في " جَعَلْنَاهَا " .

قال ابن الخطيب : لما قبلها وما معها وما بعدها من الأمم والقرون ، لأن مَسْخَهُمْ ذكر في كتب الأولين ، فاعتبروا بها ، " ما يحضرها من [القرون] والأمم .

وما خَلْفَهَا من بعدهم .

وقال الحَسَنُ : عقوبة لجميع ما ارتكبوه من هذا الفعْلِ ، وما بعده .

و" مَوْعِظَةً " عطف على " نَكَالاً " وهي " مَفعِلَةٌ " ، من الوَعْظ وهو التخويف .

وقال الخليل : " التذكير بالخير فيما يرق له القلب " .

والاسم : " العظة " كـ " العِدَة " و " الزِّنَة " و " لِلْمُتَّقِينَ " متعلّق بـ " موعظة " ، واللام للعلّة ، وخصّ المتّقين بالذِّكر وإن كانت موعظةً لجميع العالم البَرّ والفاجر ؛ لأن المنتفع بها هم المتقون دون غيرهم ، ويجوز أن تكون اللام [مقوية] ؛ لأن " موعظة " فرع على الفعل في العمل فهو نظير ﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ [البروج : 16] فلا تعلّق لها لزيادتها ، ويجوز أن تكون متعلّقة بمحذوف ؛ لأنها صفة لـ " موعظة " .

أي : موعظة كائنة للمتّقين ، أي : يعظ المتقون بعضهم بعضاً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 2 صـ 151. 153 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (66) ﴾

هكذا مَنْ مُنِيَ بالهجران ، ووُسِمَ بالخذلان ؛ صارت أحواله عِبْرة ، وتجرَّع – مِنْ مُلاحَظته لحاله – عليه الحسرة ، وصار المسكين – بعد عِزِّه لكلِّ خسيسٍ سُخْرَة . هكذا آثار سُخْطِ الملوك وإعراض السادة عن الأصاغر :

وقد أحدق الصبيان بي وتَجمعوا . . . عليَّ وأشلوا بالكلاب ورائيا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 97 ﴾

ومن فوائد العلامة الزمخشرى فى الآيات

قال رحمه الله :

﴿ وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً ﴾

عطشوا في التيه ، فدعا لهم موسى بالسقيا فقيل له اضْرِبْ بِعَصاكَ الْحَجَرَ واللام إمّا للعهد والإشارة إلى حجر معلوم ، فقد روى أنه حجر طوري حمله معه ، وكان حجراً مربعاً له أربعة أوجه كانت تنبع من كل وجه ثلاث أعين ، لكل سبط عين تسيل في جدول إلى السبط الذي أمر أن يسقيهم ، وكانوا ستمائة ألف ، وسعة المعسكر اثنا عشر ميلا . وقيل أهبطه آدم من الجنة فتوارثوه ، حتى وقع إلى شعيب ، فدفعه إليه مع العصا . وقيل هو الحجر الذي وضع عليه ثوبه حين اغتسل إذ رموه بالأدرة ، ففرّ به ، فقال له جبريل : يقول لك اللَّه تعالى : ارفع هذا الحجر ، فإنّ لي فيه قدرة ولك فيه معجزة ، فحمله في مخلاته . وإمّا للجنس ، أى اضرب الشيء الذي يقال له الحجر . وعن الحسن : لم يأمره أن يضرب حجراً بعينه قال : وهذا أظهر في الحجة وأبين في القدرة . وروى أنهم قالوا : كيف بنا لو أفضينا إلى أرض

ليست فيها حجارة ، فحمل حجراً في مخلاته فحيثما نزلوا ألقاه . وقيل كان يضربه بعصاه فينفجر ، ويضربه بها فيبس . فقالوا : إن فقد موسى عصاه متنا عطشا ، فأوحى إليه : لا تقرع الحجارة ، وكلمها تطعك ، لعلهم يعتبرون . وقيل : كان من رخام وكان ذراعا في ذراع . وقيل مثل رأس الإنسان . وقيل : كان من آس الجنة «1» طوله عشرة أذرع على طول موسى ، وله شعبتان تتقدان في الظلمة ، وكان يحمل على حمار فَانْفَجَرَتْ الفاء متعلقة بمحذوف ، أى فضرب فانفجرت . أو فإن ضربت فقد انفجرت ، كما ذكرنا في قوله : (فَتابَ عَلَيْكُمْ) وهي على هذا فاء فصيحة لا تقع إلا في كلام بليغ . وقرئ (عشرة) بكسر الشين وبفتحها وهما لغتان كُلُّ أُناسٍ كل سبط مَشْرَبَهُمْ عينهم التي يشربون منها كُلُوا على إرادة القول مِنْ رِزْقِ اللَّهِ مما رزقكم من الطعام وهو المنّ والسلوى ومن ماء العيون . وقيل الماء ينبت منه الزروع والثمار ، فهو رزق يؤكل منه ويشرب . والعثىّ : أشدّ الفساد ، فقيل لهم : لا تتمادوا في الفساد في حال فسادكم لأنهم كانوا متمادين فيه .

[سورة البقرة (2) : آية 61]

وَإِذْ قُلْتُمْ يا مُوسى لَنْ نَصْبِرَ عَلى طَعامٍ واحِدٍ فَادْعُ لَنا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِها وَقِثَّائِها وَفُومِها وَعَدَسِها وَبَصَلِها قالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُمْ ما سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَباؤُ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كانُوا يَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذلِكَ بِما عَصَوْا وَكانُوا يَعْتَدُونَ

(1) . قوله «من آس الجنة» : ضبط في بعض النسخ بالضم والتشديد وكتب على هامشه : «كذا بخط جار اللَّه ومعناه الأساس ، والصواب ضبطه بالفتح والمد والتخفيف أى شجر الآس لأنه صفة العصا سها فيها المصنف كذا بهامشه» اه عليان . والظاهر أن ضبطه بالضم والتشديد بمعنى الأساس أليق لأن الكلام في وصف الحجر لا العصا . اه مصححه .

(116/54)

كانوا فلاحة فنزعوا إلى عكرهم فأجموا ما كانوا فيه «1» من النعمة وطلبت أنفسهم الشقاء عَلى طَعامٍ واحِدٍ أرادوا ما رزقوا في التيه من المنّ والسلوى . فإن قلت : هما طعامان فما لهم قالوا على طعام واحد ؟ قلت : أرادوا بالواحد ما لا يختلف ولا يتبدّل ، ولو كان على مائدة الرجل ألوان عدّة يداوم عليها كل يوم لا يبدّلها ، قيل : لا يأكل فلان إلا طعاما واحدا يراد بالوحدة نفى التبدّل والاختلاف . ويجوز أن يريدوا أنهما ضرب واحد ، لأنهما معاً من طعام أهل التلذذ والتترف ، ونحن قوم فلاحة أهل زراعات ، فما نريد إلا ما ألفناه وضرينا به من الأشياء المتفاوتة كالحبوب والبقول ونحو ذلك . ومعنى يُخْرِجْ لَنا يظهر

لنا ويوجد والبقل ما أنبتته الأرض من الخضر . والمراد به أطايب البقول التي يأكلها الناس كالنعناع والكرفس والكراث وأشباهها . وقرئ (وقثائها) بالضم . والفوم : الحنطة . ومنه فوّموا لنا ، أى :

اخبزوا . وقيل الثوم . ويدل عليه قراءة ابن مسعود : وثومها ، وهو للعدس والبصل أوفق الَّذِي هُوَ أَدْنى الذي هو أقرب منزلة وأدون مقداراً ، والدنو والقرب يعبر بهما عن قلة المقدار فيقال : هو دانى المحل وقريب المنزلة ، كما يعبر بالبعد عن عكس ذلك فيقال : هو بعيد المحل وبعيد الهمة يريدون الرفعة والعلو . وقرأ زهير الفرقبي : أدنأ بالهمزة من الدناءة اهْبِطُوا مِصْراً وقرئ اهبطوا ، بالضم : أى انحدروا إليه من التيه . يقال : هبط الوادي إذا نزل به ، وهبط منه ، إذا خرج . وبلاد التيه : ما بين بيت المقدس إلى قنسرين ، وهي اثنا عشر فرسخا في ثمانية فراسخ . ويحتمل أن يريد العلم وإنما صرفه مع اجتماع السببين فيه وهما التعريف والتأنيث ، لسكون وسطه كقوله : ونوحا ولوطا . وفيهما العجمة والتعريف ، وإن أريد به البلد فما فيه إلا سبب واحد ، وأن يريد مصراً من الأمصار . وفي مصحف عبد اللَّه وقرأ به الأعمش : اهبطوا مصر - بغير تنوين - كقوله : ادخلوا مصر . وقيل هو «مصرائيم» فعرّب وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ جعلت الذلة محيطة بهم مشتملة عليهم ، فهم فيها كما يكون في القبة من ضربت عليه . أو ألصقت بهم حتى لزمتهم ضربة لازب ، كما يضرب الطين على الحائط فيلزمه ،

(1) . قوله «فأجموا ما كانوا فيه» أى كرهوا . أفاده الصحاح. (ع)

فاليهود صاغرون أذلاء أهل مسكنة ومدقعة «1» إما على الحقيقة ، وإما لتصاغرهم وتفاقرهم ، خيفة أن تضاعف عليهم الجزية وَباؤُ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ من قولك : باء فلان بفلان ، إذا كان حقيقاً بأن يقتل به ، لمساواته له ومكافأته ، أى صاروا أحقاء بغضبه ذِلكَ إشارة إلى ما تقدّم من ضرب الذلة والمسكنة والخلاقة بالغضب ، أى ذلك بسبب كفرهم وقتلهم الأنبياء وقد قتلت اليهود – لعنوا – شعيا وزكريا ويحيى وغيرهم : فان قلت : قتل الأنبياء لا يكون إلا بغير الحق فما فائدة ذكره ؟ قلت : معناه أنهم قتلوهم بغير الحق عندهم ، لأنهم لم يقتلوا ولا أفسدوا في الأرض فيقتلوا . وإنما نصحوهم ودعوهم إلى ما ينفعهم فقتلوهم ، فلو سئلوا وأنصفوا من أنفسهم لم يذكروا وجها يستحقون به القتل عندهم . وقرأ علىّ رضى اللَّه عنه ويقتلون بالتشديد ذِلكَ تكرار للإشارة بما عَصَوْا بسبب ارتكابهم أنواع المعاصي واعتدائهم حدود اللَّه في كل شيء ، مع كفرهم بآيات اللَّه وقتلهم الأنبياء . وقيل : هو اعتداؤهم في السبت . ويجوز أن يشار بذلك إلى الكفر وقتل الأنبياء على معنى أن ذلك بسبب عصيانهم واعتدائهم ، لأنهم انهمكوا فيهما وغلوا حتى قست قلوبهم فجسروا

على جحود الآيات وقتل الأنبياء ، أو ذلك الكفر والقتل مع ما عصوا .

[سورة البقرة (2) : آية 62]

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هادُوا وَالنَّصارى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (62)

إن الذين آمنوا بألسنتهم من غير مواطأة القلوب وهم المنافقون وَالَّذِينَ هادُوا والذين تهوّدوا . يقال : هاد يهود . وتهوّد إذا دخل في اليهودية ، وهو هائد ، والجمع هود . وَالنَّصارى وهو جمع نصران . يقال : رجل نصران ، وامرأة نصرانة ، قال : نصرانة لم تحنف . والياء في نصرانىّ للمبالغة كالتي في أحمرىّ . سموا لأنهم نصروا المسيح . وَالصَّابِئِينَ وهو من صبأ إذا خرج من الدين وهم قوم عدلوا عن دين اليهودية والنصرانية وعبدوا الملائكة مَنْ آمَنَ من هؤلاء الكفرة إيمانا خالصا ودخل في ملة الإسلام دخولا أصيلا وَعَمِلَ صالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ الذي يستوجبونه بإيمانهم وعملهم . فإن قلت : ما محل من آمن ؟ قلت : الرفع إن جعلته مبتدأ خبره (فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ) والنصب إن جعلته بدلا من اسم إنّ والمعطوف عليه . فخبر إنّ في الوجه الأول الجملة كما هي وفي الثاني فلهم أجرهم . والفاء لتضمن «من» معنى الشرط .

---

(1) . قوله «أهل مسكنة ومدقعة» أى مترية . أفاده الصحاح . (ع)

[سورة البقرة (2) : الآيات 63 إلى 66]

وَإِذْ أَخَذْنا مِيثاقَكُمْ وَرَفَعْنا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا ما آتَيْناكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا ما فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (63) ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ فَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخاسِرِينَ (64) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خاسِئِينَ (65) فَجَعَلْناها نَكالاً لِما بَيْنَ يَدَيْها وَما خَلْفَها وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (66)

وَإِذْ أَخَذْنا مِيثاقَكُمْ بالعمل على ما في التوراة وَرَفَعْنا فَوْقَكُمُ الطُّورَ حتى قبلتم وأعطيتم الميثاق. وذلك أن موسى عليه السلام جاءهم بالألواح فرأوا ما فيها من الآصار والتكاليف الشاقة، فكبرت عليهم وأبوا قبولها، فأمر جبريل فقلع الطور من أصله، ورفعه وظلله فوقهم وقال لهم موسى: إن قبلتم وإلا أُلقى عليكم، حتى قبلوا. خُذُوا على إرادة القول ما آتَيْناكُمْ من الكتاب بِقُوَّةٍ بجدّ وعزيمة وَاذْكُرُوا ما فِيهِ واحفظوا ما في الكتاب وادرسوه ولا تنسوه ولا تغفلوا عنه لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ رجاء منكم أن تكونوا متقين، أو قلنا خذوا واذكروا إرادة أن تتقوا. ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ ثم أعرضتم عن الميثاق والوفاء به فَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ بتوفيقكم للتوبة لخسرتم. وقرئ: خذوا ما آتيتكم، وتذكروا، واذّكروا «1»

والسَّبْتِ مصدر سبتت اليهود إذا عظمت يوم السبت ، وإن ناساً منهم اعتدوا فيه أى جاوزوا ما حدّ لهم فيه من التجرّد للعبادة وتعظيمه واشتغلوا بالصيد . وذلك أن اللَّه ابتلاهم فما كان يبقى حوت في البحر إلا أخرج خرطومه يوم السبت ، فإذا مضى تفرّقت . كما قال : (تَأْتِيهِمْ حِيتانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ كَذلِكَ نَبْلُوهُمْ) فحفروا حياضا عند البحر وشرعوا إليها الجداول ، فكانت الحيتان تدخلها فيصطادونها يوم الأحد . فذلك الحبس في الحياض هو اعتداؤهم : قِرَدَةً خاسِئِينَ خبر ان أى كونوا جامعين بين القردية والخسوء ، وهو الصغار والطرد فَجَعَلْناها يمنى المسخة نَكالًا عبرة تنكل من اعتبر بها أى تمنعه . ومنه النكل : القيد لِما بَيْنَ يَدَيْها لما قبلها وَما خَلْفَها وما بعدها من الأمم والقرون «2» لأن مسختهم ذكرت في كتب الأولين فاعتبروا بها ، واعتبر بها من بلغتهم من الآخرين : أو أريد

---

(1) . قوله «و تذكروا واذكروا» أى بتشديد الذال والكاف ، وأصله : وتذكروا . (ع)

(2) . قوله «و ما بعدها من الأمم والقرون» لعله : والقرى ، نظير قوله الآتي : من القرى والأمم . (ع)

بما بين يديها : ما بحضرتها من القرى والأمم . وقبل نكالا : عقوبة منكلة لما بين يديها . لأجل ما تقدّمها من ذنوبهم وما تأخر منها (وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ) للذين نهوهم عن الاعتداء من صالحي قومهم ، أو لكل متق سمعها . انتهى انتهى . اهـ ﴿الكشاف حـ 1 صـ 148. 148﴾

(120/54)

وقال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (62) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آَتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (63) ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (64) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (65) فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (66) ﴾

التفسير : قد انجرّ الكلام في الآي المتقدمة إلى وعيد أهل الكتاب ومن يقفو آثارهم ، فقرن

به ما يتضمن الوعد جرياً على عادته سبحانه من ذكر الترغيب مع الترهيب فقال ﴿ إن الذين آمنوا ﴾ . واختلف المفسرون ههنا لأن قوله في

آخر الآية ﴿ من آمن ﴾ . يدل على أن المراد من قوله ﴿ آمنوا ﴾ شيء آخر ، كقوله ﴿ يا أيها الذين آمنوا آمِنوا ﴾ [النساء : 136] . فعن ابن عباس : المراد أن الذين آمنوا قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم بعيسى عليه السلام مع البراءة من أباطيل اليهود والنصارى كقس بن ساعدة وزيد بن عمرو بن نفيل وورقة بن نوفل وسلمان الفارسي وأبي ذر الغفاري . كأنه قيل : إن الذين آمنوا قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم ، والذين كانوا على الدين الباطل لليهود ، والذين كانوا على الدين الباطل للنصارى ، كل من آمن بعد مبعث محمد صلى الله عليه وسلم بالله واليوم الآخر وبمحمد صلى الله عليه وسلم فلهم أجرهم . وعن سفيان الثوري : إن الذين آمنوا باللسان دون القلب وهم المنافقون ، والذين تهوّدوا يقال هاد يهود وتهود إذا دخل في اليهودية ، والنصارى ، والصابئين ، كل من أتى منهم بالإيمان الحقيقي ، فلهم كذا . وقيل : الذين آمنوا هم المؤمنون بمحمد صلى الله عليه وسلم في الحقيقة ، وهو عائد إلى الماضي . وكأنه قيل : إن الذين آمنوا في الماضي ، واليهود

والنصارى والصابئين ، كل من آمن منهم وثبت على ذلك في المستقبل واستمر . واشتقاق اليهود قيل من قولهم ﴿ إنا هدنا إليك ﴾ [الأعراف : 156] أي تبنا ورجعنا . عن ابن عباس : وقيل نسبوا إلى يهودا أكبر ولد يعقوب . وقيل : إنهم يتهودون أي يتحرّكون عند قراءة التوراة . واشتقاق النصارى قبل من ناصرة قرية كان ينزلها عيسى صلى الله عليه وسلم قاله ابن عباس وقتادة وابن جريج . وقيل : لتناصرهم فيما بينهم أي لنصرة بعضهم بعضاً . وقيل : لأن عيسى عليه السلام قال للحواريين من أنصاري إلى الله . واحد النصارى

(122/54)

نصران ، ومؤنثه نصرانة : والياء في نصراني للمبالغة كالتي في أحمري ، والصابئين بالهمزة اشتقاقه من صبأ الرجل يصبأ صبواً إذا خرج من دينه إلى دين آخر .

(123/54)

وكانت العرب يسمون النبي صلى الله عليه وسلم صابئاً لأنه صلى الله عليه وسلم أظهر ديناً على خلاف أديانهم . عن مجاهد والحسن : هم طائفة من اليهود والمجوس لا تؤكل ذبائحهم ولا تنكح نساؤهم . وعن قتادة : قوم يعبدون الملائكة ويصلون للشمس كل يوم خمس مرات . وقيل : وهو الأقرب – إنهم قوم يعبدون الكواكب ثم فيهم قولان : الأوّل أن خالق العالم هو الله سبحانه إلا أنه أمر بتعظيم هذه الأجرام واتخاذها قبلة للصلاة والدعاء . والثاني أنه سبحانه خلق الأفلاك والكواكب وفوّض التدبير إليها ، فيجب على البشر تعظيمها لأنها هي الآلهة المدبرة لهذا العالم ، ثم إنها تعبد الله سبحانه . وينسب هذا المذهب إلى الكلدانيين الذين جاءهم إبراهيم عليه السلام ، فبين الله تعالى أن هذه الفرق الأربع إذا آمنوا بالله ويدخل فيه الإيمان بكل ما أوجبه كالإيمان برسله وآمنوا باليوم الآخر وبما وعد فيه ، فإن أجرهم متيقن جار مجرى الحاصل عند الله تعالى . ومحل ﴿ من آمن ﴾ رفع على أنه مبتدأ خبره ﴿ فلهم أجرهم ﴾ والجملة خبر "إن" ، أو نصب على أنه بدل من اسم "أن" . والمعطوفات عليه . وخبر "أن" ﴿ فلهم أجرهم ﴾ والفاء لتضمن من أو الذين معنى الشرط . قال أهل البرهان : قدم النصارى على الصابئين لأنهم أهل كتاب ، وعكس الترتيب في الحج لأن الصابئين مقدمة على النصارى بالزمان ، وراعى في المائدة المعنيين فقدمهم في اللفظ وأخرهم في التقدير ، لأن تقديره : والصابئون كذلك .

وقوله سبحانه ﴿ وإذ أخذنا ميثاقكم ﴾ مخاطبة فيها معاتبة لاستمالها على تذكير

النعم وتقدير المنعم . وللمفسرين في هذا الميثاق أقوال : أحدها : أنه ما أودع الله العقول من الدلائل الدالة على وجود الصانع وقدرته وحكمته وعلى صدق أنبيائه ورسله وهو أقوى المواثيق والعهود ، لأنه لا يحتمل الخلف والكذب والتبدل بوجه من الوجوه وهو قول الأصم ، وثانيها ما روي عن عبد الرحمن ابن زيد بن أسلم أن موسى عليه

(124/54)

السلام لما رجع من عند ربه بالألواح ، قرأوا ما فيها من الأخبار والتكاليف الشاقة فكبرت عليهم وأبوا قبولها ، أمر جبرائيل بقلع الطور من أصله ورفعه فظلله فوقهم وقال لهم موسى : إن قبلتم وإلا ألقي عليكم فحينئذ قبلوا وأعطوا الميثاق . وعن ابن عباس : إن لله ميثاقين الأول ، حين أخرجهم من صلب آدم على أنفسهم ، والثاني أنه تعالى ألزم الناس متابعة الأنبياء . والمراد ههنا هو هذا العهد . وإنما قال ﴿ ميثاقكم ﴾ ولم يقل " مواثيقكم " للعلم بذلك كقوله ﴿ يخرجكم طفلاً ﴾ [غافر : 67] أي كل واحد منكم ، أو لأن الميثاق بشيء واحد أخذه من كل واحد منهم . ولو قال مواثيقكم لأشبه أن يكون لكل منهم ميثاق آخر .

والواو في ﴿ ورفعنا ﴾ إما واو عطف إن جعل الميثاق مقدماً على رفع الجبل كما في قول

الأصم وابن عباس ، وإما واو الحال إن جعل مقارناً للرفع ، كأنه قال : وإذ أخذنا ميثاقكم عند رفعنا الطور فوقكم والطور . قيل : الجبل مطلقاً . وعن ابن عباس : أنه جبل من جبال فلسطين . وقيل : جبل معهود ، والأقرب أنه الجبل الذي وقعت المناجاة عليه ، وقد يجوز أن ينقله الله تعالى إلى حيث هم فيجعله فوقهم وإن كان بعيداً منهم ، فإن القادر على أن يسكن الجبل في الهواء قادر على أن ينقله إليهم من المكان البعيد .

(125/54)

﴿ خذوا ﴾ على إرادة القول أي وقلنا خذوا ﴿ ما آتيناكم ﴾ من الكتاب ﴿ بقوّة ﴾ بجد وعزيمة غير متكاسلين ولا متثاقلين وقيل : بقوة ربانية ﴿ واذكروا ما فيه ﴾ احفظوا ما في الكتاب وادرسوه ولا تنسوه ولا تغفلوا عنه ، وإنما لم يحمل على نفس الذكر لأن الذكر الذي هو ضد النسيان من فعل الله فكيف يجوز الأمر به ؟ ﴿ لعلكم تتقون ﴾ رجاء منكم أن تكونوا متقين ، أو قلنا خذوا إرادة أن تتقوا ﴿ ثم توليتم ﴾ معطوف على محذوف أي فقبلتم والتزمتم ثم أعرضتم عن الميثاق والوفاء به . ويمكن أن يقال أخذ الميثاق عبارة عن قبولهم فلا حاجة إلى تقدير ﴿ من بعد ذلك ﴾ أي من بعد القبول والالتزام . قال القفال : قد يعلم في الجملة أنهم بعد قبول التوراة ورفع الطور تولوا عن التوراة

بأمور كثيرة ، فحرفوا التوراة وتركوا العمل به وقتلوا الأنبياء وكفروا بهم وعصوا أمرهم . ولعل فيها ما اختص به بعضهم دون بعض ، ومنها ما عمله أوائلهم ومنها ما فعله متأخروهم ولم يزالوا في التيه مع مشاهدتهم الأعاجيب ليلاً ونهاراً يخالفون موسى ويعترضون عليه ويلقونه بكل أذى ، ويجاهرون بالمعاصي في عسكره ، حتى لقد خسف ببعضهم وأحرقت النار بعضهم وعوقبوا بالطاعون ، وكل هذا مذكور في تراجم التوراة التي يقرأونها ، ثم فعل متأخروهم ما لا خفاء به حتى عوقبوا بتخريب بيت المقدس ، وكفروا بالمسيح وهموا بقتله ، فغير عجيب إنكارهم ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من الكتاب ، وجحودهم لحقه صلى الله عليه وسلم وحالهم في كتابهم ونبيهم ما ذكر ﴿ فلولا فضل الله عليكم ورحمته ﴾ بإمهالكم وتأخير العذاب عنكم ﴿ لكنتم من الخاسرين ﴾ أي من الهالكين الذين باعوا أنفسهم بنار جهنم ، ولكنكم خرجتم من هذا الخسران لأن الله تعالى تفضل عليكم بالإمهال حتى تبتم . فإن كلمة " لولا " تدل على امتناع الثاني لوجود الأول ، فامتنع الخسران لوجود فضل الله . ويحتمل أن يكون الخبر قد انتهى عند قوله ﴿ ثم توليتم من بعد

ذلك ﴾ ويكون قوله ﴿ فلولا فضل الله ﴾ رجوعاً بالكلام إلى أوّله ، أي لولا لطف الله بكم برفع الجبل فوقكم لدمتم على ردكم للكتاب ، ولكنه تفضل عليكم ورحمكم ولطف بكم بذلك حتى تبتم .

(127/54)

قوله عز من قائل ﴿ ولقد علمتم ﴾ اللام للابتداء ، ولا تكاد تدخل الماضي بدون قد لأنها ولتأكيد مضمون الجملة الاسمية نحو : لزيد قائم ، أو لتأكيد المضارع نحو : ليضرب زيد . لكن قد تقرب الماضي من الحال فيصير الماضي كالمضارع مع تناسب معنى " قد " . ومعنى " اللام " في التحقيق ، وعند الكوفيين يقدر القسم قبله . عن ابن عباس : إن هؤلاء القوم كانوا في زمن داود عليه السلام بأيلة على ساحل البحر بين المدينة والشأم ، وهو مكان من البحر يجتمع إليه الحيتان من كل أوب في شهر من السنة حتى لا يرى الماء لكثرتها ، وفي غير ذلك الشهر في كل سبت خاصة ، فحفروا حياضاً عند البحر وشرعوا إليها الجداول ، وكانت الحيتان تدخلها فيصطادونها يوم الأحد . فذلك الحبس في الحياض هو اعتداؤهم ، ثم إنهم أخذوا السمك واستغنوا بذلك وهم خائفون من العقوبة ، فلما طال العهد استنت الأبناء سنة الآباء واتخذوا الأموال ، فمشى إليهم طوائف من أهل المدينة

الذين كرهوا الصيد في السبت فنهوهم فلم ينتهوا وقالوا : نحن في هذا العمل منذ زمان فما زادنا الله به إلا خيراً . فقيل لهم : لا تغتروا بذلك فربما ينزل بكم العذاب والهلاك . فأصبح القوم وهم قردة خاسئون فمكثوا ثلاثة أيام ثم ماتوا . قال بعضهم : وفي الكلام حذف أي ولقد علمتم اعتداء الذين اعتدوا ليكون المذكور من العقوبة جزاء لذلك . والسبت مصدر سبتت اليهود إذا عظمت يوم السبت والاعتداء فيه ، إما نفس الاصطياد لأنهم أمروا فيه بالتجرد للعبادة فجاوزوا ما حد لهم واشتغلوا بالصيد ، وإما الاصطياد مع استحلاله . وقوله ﴿ كونوا ﴾ المراد منه سرعة الإيجاد وإظهار القدرة وإن لم يكن هناك قول ﴿ إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴾ [النحل : 40] ﴿ وقردة خاسئين ﴾ خبر " إن " أي كونوا جامعين بين القردة ، والخسوء وهو الصغار والطرد . عن مجاهد أنه مسخ قلوبهم بمعنى الطبع والختم لا أنه مسخ صورهم وهو مثل قوله ﴿ كمثل

الحمار يحمل أسفاراً ﴾ [الجمعة : 5] ونظيره أن يقول الأستاذ للمتعلم البليد الذي لا ينجع فيه تعليمه : كن حماراً . واحتج بأن الإنسان هو هذا الهيكل المحسوس ، فإذا أبطله وخلق مكانه تركيب القرد رجع حاصل المسخ إلى إعدام الأعراض التي باعتبارها كان ذلك

الجسم إنساناً ، وإيجاد أعراض أخر باعتبارها صار قرداً . وأيضاً لو جوزنا ذلك لم نأمن في كل ما نراه قرداً وكلباً أنه كان إنساناً عاقلاً وذلك شك في المشاهدات . وأجيب بأن الإنسان ليس هذا الهيكل لتبدله بالسمن والهزال فهو أمر وراء ذلك ، إما جسماني سار في جميع البدن ، أو جزء في جانب من البدن كقلب أو دماغ ، أو مجرد كما يقوله الفلاسفة . وعلى التقادير فلا امتناع في بقاء ذلك الشيء مع تطرق التغير إلى هذا الهيكل وهذا هو المسخ ، وبهذا التأويل يجوز في الملك الذي تكون جثته في غاية العظم أن يدخل حجرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولأنه لم يتغير منهم إلا الخلقة والصورة والعقل ، والفهم باقٍ فإنهم يعرفون ما نالهم بشؤم المعصية من تغير الخلقة وتشوّه الصورة وعدم القدرة على النطق وسائر الخواص الإنسانية ، فيتألمون بذلك ويتعذبون ، ثم أولئك القرود بقوا أو أفناهم الله ، وإن بقوا فهذه القرود التي في زماننا من نسلهم أم لا ، الكل جائز عقلاً إلا أن الرواية عن ابن عباس أنهم ما مكثوا إلا ثلاثة أيام ثم هلكوا ﴿ فجعلناها ﴾ أي المسخة أو القردة أو قرية أصحاب السبت أو هذه الأمة ﴿ نكالاً ﴾ عقوبة شديدة رادعة عن الإقدام على المعصية .

والنكول عن اليمين الامتناع عنها . ولم يقصد بذلك ما يقصده الناس من التشفي وإطفاء نائرة الغيظ ، وإنما جعلناها عبرة لما قبلها ومعها وبعدها من الأمم والقرون ، لأن مسختهم ذكرت في كتب الأولين فاعتبروا بها وسيبلغ خبرها إلى الآخرين فيعتبرون ، أو أريد بما بين يديها ما بحضرتها من القرى والأمم ، أو جعلناها عقوبة لجميع ما ارتكبوه قبل هذا الفعل وبعده ، هكذا قال بعضهم ، والأولى عندي أن يقال : جعلناها عقوبة لأجل ذنوب تقدمت المسخة ، ولأجل ذنوب تأخرت عنها ، لأنهم إن لم يكونوا ممسوخين لم ينتهوا عنها فهم في حكم المرتكبين لها . ولا يلزم من ذلك تجويز العقاب على الذنب المفروض الموهوم لأنه أمر اعتباري ، والعقوبة في نفسها واحدة ثابتة على حالها لم تزدد لأجل الذنب المتأخر شيئاً ، فليس الأمر فيه كمن ضرب عبده لأجل الإباق المتقدم مائة جلدة ، ولأجل الإباق المتأخر المترقب مائة أخرى ، ولكنه كمن قيد عبده أو حبسه لأجل الإباق المتقدم والإباق المترقب والله أعلم ﴿ وموعظة للمتقين ﴾ لأن منفعة الاتعاظ تعود إليهم لا إلى غيرهم مثل ﴿ هدى للمتقين ﴾ أو ليعظ المتقون بعضهم بعضاً . وقيل : للمتقين الذين نهوهم عن الاعتداء من صالحي قومهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 1 صـ 302 . 306 ﴾

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : إنكم تسجدون لله بالطبيعة الملكية الروحانية ﴿ اسجدوا لآدم ﴾ بخلاف الطبيعة تعبداً ورقاً وانقياداً للأمر وامتثالاً للحكم ، اسجدوا له تعظيماً لشأن خلافته وتكريماً لفضيلته المخصوصة به ، فمن سجد له فقد سجد لله تعالى كما قال ﴿ إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ﴾ اسجدوا لآدم لأجل آدم فإن عبادتكم وطاعتكم لا توجب ثواباً لكم ولا تزيد في درجاتكم ، ولكن فائدتها تعود إلى الإنسان لقوله ﴿ يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض ﴾ ولأن الإنسان يقتدي بهم في الطاعة ويتأدب بآدابهم في امتثال الأوامر والانزجار عن الإباء والاستكبار ، كيلا يلحقه من اللعن والبعد ما لحق إبليس ﴿ فسجدوا إلا إبليس ﴾ لأنهم خلقوا من نور ، والنور من شأنه الانقياد والإفاضة ، وأنه خلق من نار والنار من شأنها الاستعلاء طبعاً ﴿ وكان من الكافرين ﴾ لأنه ستر الحق على آدم كما سمي إبليس لأنه أبلس الحق . ﴿ ولا تقربا هذه الشجرة ﴾ أي أبحت لك نعيم الجنة بما فيها وما كان لك فيها حق لأنك ما عملت بعد عملاً تستحق به الجنة فأعطني هذه الشجرة الواحدة منها وهي كلها لي وأنا خلقتها ، فإن طمعت فيها أيضاً فاعلم أن الإنسان له همة عالية وحرص شديد لا يزال تقول جهنم حرصه « هل من مزيد » ولا تمتلئ حتى يضع الجبار فيها قدمه أي سابقة رحمته وعنايته « سبقت رحمتي غضبي »

ثم إنه أبيح له ولزوجه مشتهيات النفس كلها ﴿ فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين ﴾ وقيل لهما اقتنعا بها ولا توقدا نار الفتنة على أنفسكما ، ولا تصبا من قربة المحبة ماء المحنة على رأسكما ، ولا تقربا شجرة المحبة وقد غرست لأجله في الحقيقة ﴿ يحبهم ويحبونه ﴾ [المائدة : 54] . ولكن سبب النهي هو الدلال الذي يقتضيه غاية الجمال . وأيضاً لو لم ينه عنها فلعله ما فرغ لها لكثرة أنواع المرادات النفسانية وكانت المحبة غذاء روحانياً فذكرها كان كالتحريض عليها فإن الإنسان حريص على ما منع وأيضاً إنه تعالى

(131/54)

وسع أسباب الانبساط أولاً ثم ضيق عليه الأمر آخراً .

وأدنيتني حتى إذا ما فتنتني . . . بقول يحل العصم سهل الأباطح .

تجافيت عني حين لالي حيلة . . . وغادرت ما غادرت بين الجوانح .

خلقه بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته وأسكنه الجنة في جواره وزوجه حواء حتى شاهد جمال الحق في مرآة وجهه ، وأنبت شجرة المحبة بين يديه ثم منعه عنها وكان في ذلك المنع تذكير وتحريض . أيضاً كما مر ثم عاتبه بقوله ﴿ فتكونا من الظالمين ﴾ وهذا كما أسكر موسى بأقداح الكلام وأذاقه لذة شراب السماع وقربه نجياً حتى اشتاق إلى

جماله وطمع في وصاله وقال ﴿ ربي أرني ﴾ [الأعراف : 143] عاتبه بسطوة ﴿ لن تراني ﴾ [الأعراف : 143] وذلك أن البلاء والولاء توأمان والمحبة والمحنة رضيعا لبان ، والمطلوب كلما كان أرفع كان أعز وأمنع والجمال لا بد له من الدلال ، وبه يتميز العاشق الصادق من المدعي المختال . ﴿ فلما ذاقا ﴾ شجرة الغرام خرجا من دار السلام فما لأهل الغرام ودار السلام ؟ وأين الفارغ السالي من المحب الغالي ؟

فبتنا على رغم الحسود وبيننا . . . حديث كطيب المسك شيب به الخمر .

فلما أضاء الصبح فرق بيننا . . . وأي نعيم لا يكدره الدهر ؟ .

(132/54)

وبالجملة ، فلما جاء القضاء ضاق الفضاء ، فلم يمس بعد أن كان مسجود الملك مرفوع السماك إلى السماك مشمول الرعاية موفور العناية حتى نزع عنه لباس الأمن والفراغ ، وبدل باستئناسه الاستيحاش ، تدفعه الملائكة بعنف أن اخرج من غير مكث ولا بحث ، فأزلتهما يد التقدير بحسن التدبير ، وكان الشيطان المسكين كذئب يوسف لطخ خرطومه بدم نصح ، فلما وقعا من القربة في الغربة ، ومن الألفة في الكلفة لما ذاقا من شجرة المحبة المورثة للمحنة استوحشا من كل شيء ، واتخذا عدوّاً بعضكم لبعض عدو ، وهكذا

شرط المحبة عداوة ما سوى المحبوب . فكما أن ذاته لا تقبل الشركة في التعبد ، كذلك لا تقبل الشركة في المحبة . فلما استقرت حبة المحبة في أرض قلب آدم جعل الأرض مستقر شخصه ليتمتع بتربية بذر المحبة بماء الطاعة والتكليف إلى حين إدراك ثمرة المعرفة ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ [الذاريات : 56] وقال صلى الله عليه وسلم « إن داود قال : يا رب لم خلقت الخلق ؟ فقال : كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لأعرف » ثم إنه بعد ما ابتلي بالهبوط بشره بأن وحيه لا ينقطع وهدايته لا ترتفع ، وإن من ربى بذر المحبة بماء الطاعة والطباعة ﴿ فلا خوف عليهم ﴾ في المستقبل ﴿ ولا هم يحزنون ﴾ على ما مضى من الهبوط إلى الأرض ، لأنهم يرجعون بجذبات العناية والهداية إلى ذرى حظائر القدس وبالله التوفيق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 1 صـ 269.267 ﴾

(133/54)

بسم الله الرحمن الرحيم

الكتاب / الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

ويسمى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العَاجِزُ الْفَقِيرُ

عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مُحَمَّدٍ الْقَمَّاش

إِمَامُ وَخَطِيبُ مَسْجِدِ بُورُسْلِى - رَأْسُ الْخَيمَةِ

دَوْلَةُ الإِمَارَاتِ الْعَرَبِيَّةِ الْمُتَّحِدَةِ

(عَفَا اللهُ عَنْهُ وَغَفَرَ لَهُ)

الجزء الخامس والخمسون

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الخامس والخمسون

من الآية ﴿ 67 ﴾ من سورة البقرة

وحتى الآية ﴿ 73 ﴾ من نفس السورة

قوله تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (67) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما بين تعالى قساوتهم في حقوقه عامة ثم خاصة اتبعه بيان جساوتهم في مصالح أنفسهم لينتج أنهم أسفه الناس فقال ﴿ وإذ قال موسى لقومه ﴾ بني إسرائيل ﴿ إن الله ﴾ أي الذي له الأمر كله ﴿ يأمركم أن تذبحوا بقرة ﴾ لتعرفوا بها أمر القتيل الذي أعياكم أمره ، وتاؤها ليست للتأنيث الحقيقي بل لأنها واحدة من الجنس فتقع على الذكر والأنثى .

ولما كان من حقهم المبادرة إلى الامتثال والشكر فلم يفعلوا بيّن فظاظتهم على طريق الاستئناف معظماً لها بقوله حكاية عنهم ﴿ قالوا أتتخذنا هزواً ﴾ أي مكان هزء ومهزوءاً بنا حين نسألك عن قتيل فتأمرنا بذبح بقرة ، فجمعوا إلى ما أشير إليه من إساءتهم سوء الأدب على من ثبتت رسالته بالمعجزة فرد كلامه كفر ، فذكرهم بما رأوا منه من العلم بالله المنافي للهزء بأن قال ﴿ أعوذ بالله ﴾ أي أعتصم بمن لا كفوء له من ﴿ أن أكون من الجاهلين ﴾ فإنه لا يستهزىء إلا جاهل ، والعوذ اللجاء من متخوَّف لكاف يكفيه ، والجهل

التقدم في الأمور المنبهمة بغير علم – قاله الحرالي . انتهى انتهى . ا هـ ﴾ نظم الدرر حـ 1 صـ 169.168 ﴿

اللغة :

[هزوا] الهزؤ : السخرية بضم الزاي وقلب الهمزة واوا [هزوا] مثل [كفوا أحد]

والمعنى على حذف مضاف أي أتتخذنا موضع هزؤ ، أو يحمل المصدر على معنى اسم المفعول أي أتجعلنا مهزوءاً بنا

[فارض] الفارض : الهرمة المسنة التي كبرت وطعنت في السن ، (البكر) الفتية السن التي لم تحمل بعد ، ولم يلقحها الفحل لصغرها قال الشاعر :

لعمري لقد أعطيت ضيفك " فارضا " تساق إليه ما تقوم على رجل

ولم تعطه " بكراً " فيرضى سمينة فكيف تجازى بالمودة والفضل ؟

[عوان] وسط ليست بمسنة ولا صغيرة ، وقيل هى التي ولدت بطنا أو بطنين ،

[فاقع] الفقوع : شدة الصفرة يقال : أصفر فاقع أي شديد الصفرة كما يقال : أحمر قان أي شديد الحمرة ، قال الطبري : وهو نظير النصوع في البياض

[ذلول] أي مذللة للعمل يقال : دابة ذلول أي ريضة زالت صعوبتها فقوله [لا ذلول] أي لم تذلل لإثارة الأرض أي لحرثها

[مسلمة] من السلامة أي خالصة ومبرأة من العيوب

[شية] الشية : اللمعة المخالفة لبقية اللون الأصلي ، قال الطبري : [لا شية فيها] أي لا بياض ولا سواد يخالف لونها

[فادارأتم] أي تدافعتم واختلفتم وتنازعتم ، وأصلها تدارأتم أدغمت التاء في الدال ، وأتي بهمزة الوصل ليتوصل بها إلى النطق بالساكن فصار ادارأتم ، ومعنى الدرء : الدفع ، لأن كلا من الفريقين كان يدرأ على الآخر أي يدفع التهمة عن نفسه ، ويلحقها بالآخر ، وفي الحديث " ادرءوا الحدود بالشبهات "

[قست] القسوة : الصلابة ونقيضها الرقة

[يشقق] التشقق : التصدع بطول أو عرض

[يهبط] الهبوط : النزول من أعلى إلى أسفل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 1 صـ 66 ﴾

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ يأمركم ﴾ بالاختلاس : أبو عمرو وكذلك كل فعل مستقبل مهموز من ذوات الراء . ﴿ هزؤا ﴾ ساكنة الزاء مهموزة ، حمزة وخلف وعباس والمفضل وإسماعيل . وقرأ حمزة مبدلة الواو من الهمزة في الوقف لمكان الخط ، وقرأ حفص غير الخزاز مثقلاً غير مهموز ، الباقون : مثقلاً مهموزاً ﴿ جئت ﴾ وبابه بغير همزة : أبو عمرو ويزيد والأعشى وحمزة في الوقت ﴿ فأدارأتم ﴾ بغير همزة : أبو عمرو ويزيد والأعشى والأصفهاني عن ورش وحمزة في الوقف ، ﴿ عما يعملون ﴾ بالياء التحتانية : ابن كثير .

الوقوف : ﴿ بقرة ﴾ (ط) ﴿ هزواً ﴾ (ط) ﴿ الجاهلين ﴾ (5) نصف الجزء ﴿ ما هي ﴾ (ط) ﴿ ولا بكر ﴾ (ط) لأن التقدير هي عوان ﴿ بين ذلك ﴾ (ط) على تقدير قد تبين لكم ﴿ فافعلوا ما تؤمرون ﴾ (5) ﴿ ما لونها ﴾ (ط) ﴿ صفراء ﴾ (لا) إلى آخر الآية لأن الجملة صفة بعد صفة ﴿ الناظرين ﴾ (5) ﴿ ما هي ﴾ (لا) لأن التقدير فإن البقر أو لأن البقر إيلاء لعذر تكرار السؤال ﴿ علينا ﴾ (ط) ﴿ لمهتدون ﴾ (5) ﴿ الحرث ﴾ (ج) لأن قوله ﴿ مسلمة ﴾ صفة بقرة أو خبر محذوف أي هي مسلمة ﴿ لا شية فيها ﴾ (ط) ﴿ جئت بالحق ﴾ (ط) لأن التقدير فطلبوها فوجدوها ﴿ فذبحوها ﴾ (ط) ﴿ يفعلون ﴾ (5) ﴿ فادارأتم فيها ﴾ (ط) ﴿ يكتمون ﴾ (5

) ج للآية والفاء بعدها ﴿ ببعضها ﴾ (ط) لأن التقدير فضربوه فحيي فقيل لهم ﴿ كذلك يحيي الله الموتى ﴾ ﴿ تعقلون ﴾ (5) ﴿ قسوة ﴾ (ط) ﴿ الأنهار ﴾ (ط) ﴿ الماء ﴾ (ط) ﴿ خشية الله ﴾ (ط) لتفصيل دلائل القدرة ﴿ تعملون ﴾ (5) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 1 صـ 307 ﴾

(7/55)

فصل

قال الفخر :

اعلم أن هذا هو النوع الثاني من التشديدات .

روي عن ابن عباس وسائر المفسرين أن رجلاً من بني إسرائيل قتل قريباً لكي يرثه ثم رماه في مجمع الطريق ثم شكا ذلك إلى موسى عليه السلام فاجتهد موسى في تعرف القاتل ، فلما لم يظهر قالوا له : سل لنا ربك حتى يبينه ، فسأله فأوحى الله إليه : ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةً ﴾ فتعجبوا من ذلك ثم شددوا على أنفسهم بالاستفهام حالاً بعد حال واستقصوا في طلب الوصف فلما تعينت لم يجدوها بذلك النعت إلا عند إنسان معين ولم يبعها إلا بأضعاف ثمنها ، فاشتروها وذبحوها وأمرهم موسى أن يأخذوا عضواً منها

فيضربوا به القتيل ، ففعلوا فصار المقتول حياً وسمي لهم قاتله وهو الذي ابتدأ بالشكاية فقتلوه قوداً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 105.106 ﴾

(8/55)

وقال الآلوسى :

﴿ وَإِذْ قَالَ موسى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةً ﴾ بيان نوع من مساويهم من غير تعديد النعم وصح العطف لأن ذكر النعم سابقاً كان مشتملاً على ذكر المساوي أيضاً من المخالفة للأنبياء والتكذيب لهم وغير ذلك ، وقد يقال : هو على نمط ما تقدم ، لأن الذبح نعمة دنيوية لرفعة التشاجر بين الفريقين ، وأخروية لكونه معجزة لموسى عليه السلام .

وكأن مولانا الإمام الرازي خفي عليه ذلك فقال : إنه تعالى لما عدد وجوه إنعامه عليهم أولا ختم ذلك بشرح بعض ما وجه إليهم من التشديدات ، وجعل النوع الثاني ما أشارت إليه هذه الآية وليس بالبعيد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 285 ﴾

فائدة

قال الفخر :

إن الإيلام والذبح حسن وإلا لما أمر الله به ، ثم عندنا وجه الحسن فيه أنه تعالى مالك الملك

فلا اعتراض لأحد عليه ، وعند المعتزلة إنما يحسن لأجل الأعواض . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 106 ﴾

فائدة

قال الفخر :

إنه تعالى أمر بذبح بقرة من بقر الدنيا وهذا هو الواجب المخير فدل ذلك على صحة قولنا بالواجب المخير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 106 ﴾

فصل

قال الفخر :

القائلون بالعموم اتفقوا على أن قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةً ﴾ معناه اذبحوا أي بقرة شئتم فهذه الصيغة تفيد هذا العموم ، وقال منكروا العموم : إن هذا لا يدل على العموم واحتجوا عليه بوجوه : الأول : أن المفهوم من قول القائل اذبح بقرة .

يمكن تقسيمه إلى قسمين ، فإنه يصح أن يقال : اذبح بقرة معينة من شأنها كيت وكيت ويصح أيضاً أن يقال اذبح بقرة أي بقرة شئت ، فإذن المفهوم من قولك " اذبح " معنى مشترك

بين هذين القسمين والمشترك بين القسمين لا يستلزم واحداً منهما ، فإذن قوله اذبحوا بقرة لا يستلزم معناه معنى قوله : اذبحوا بقرة ، أي بقرة شئتم ، فثبت أنه لا يفيد العموم لأنه لو أفاد العموم لكان قوله : اذبحوا بقرة أي بقرة شئتم تكريراً ولكان قوله : اذبحوا بقرة معينة نقضاً ، ولما لم يكن كذلك علمنا فساد هذا القول .

الثاني : أن قوله تعالى : ﴿ اذبحوا بَقَرَةً ﴾ كالنقيض لقولنا لا تذبحوا بقرة ، وقولنا لا تذبحوا بقرة يفيد النفي العام فوجب أن يكون قولنا اذبحوا بقرة يرفع عموم النفي ويكفي في ارتفاع عموم النفي خصوص الثبوت على وجه واحد ، فإذن قوله : اذبحوا بقرة يفيد الأمر بذبح بقرة واحدة فقط ، أما الإطلاق في ذبح أي بقرة شاءوا فذلك لا حاجة إليه في ارتفاع ذلك النفي فوجب أن لا يكون مستفاداً من اللفظ ، الثالث : أن قوله تعالى : ﴿ بَقَرَةً ﴾ لفظة مفردة منكرة والمفرد المنكر إنما يفيد فرداً معيناً في نفسه غير معين بحسب القول الدال عليه ولا يجوز أن يفيد فرداً أي فرد كان بدليل أنه إذا قال : رأيت رجلاً فإنه لا يفيد إلا ما ذكرناه فإذا ثبت أنه في الخبر كذلك وجب أن يكون في الأمر كذلك ، واحتج القائلون بالعموم بأنه لو ذبح أي بقرة كانت فإنه يخرج عن العهدة فوجب أن يفيد العموم .

والجواب : أن هذا مصادرة على المطلوب الأول ، فإن هذا إنما يثبت لو ثبت أن قوله : اذبح بقرة معناه اذبح أي بقرة شئت ، وهذا هو عين المتنازع فيه .

فهذا هو الكلام في هذه المسألة .

إذا عرفت هذا فنقول : اختلف الناس في أن قوله تعالى : ﴿ اذبحوا بَقَرَةً ﴾ هل هو أمر بذبح بقرة معينة مبينة أو هو أمر بذبح بقرة أي بقرة كانت ، فالذين يجوزون تأخير البيان عن وقت الخطاب قالوا : إنه كان أمراً بذبح بقرة معينة ولكنها ما كانت مبينة ، وقال المانعون منه : هو وإن كان أمراً بذبح أي بقرة كانت إلا أن القوم لما سألوا تغير التكليف عند ذلك ، وذلك لأن التكليف الأول كان كافياً لو أطاعوا وكان التخيير في جنس البقر إذ ذاك هو الصلاح ، فلما عصوا ولم يمتثلوا ورجعوا بالمسألة لم يمتنع تغير المصلحة وذلك معلوم في المشاهد ، لأن المدبر لولده قد يأمره بالسهل اختياراً ، فإذا امتنع الولد منه فقد يرى المصلحة في أن يأمره بالصعب فكذا ههنا .

واحتج الفريق الأول بوجوه .

الأول : قوله تعالى : ﴿ ادعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنَ لَّنَا مَا هِيَ ﴾ و ﴿ مَا لَوْنُهَا ﴾ وقول الله تعالى : ﴿ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ فَارِضٌ ، إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاء إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ ﴾ منصرف إلى ما أمروا بذبحه من قبل وهذه الكنايات تدل على أن المأمور به ما كان ذبح بقرة أي بقرة كانت ، بل كان المأمور به ذبح بقرة معينة .

الثاني : أن الصفات المذكورة في الجواب عن السؤال الثاني إما أن يقال : إنها صفات البقرة التي أمروا بذبحها أولاً أو صفات بقرة وجبت عليهم عند ذلك السؤال وانتسخ ما كان واجباً عليهم قبل ذلك ، والأول هو المطلوب ، والثاني : يقتضي أن يقع الاكتفاء بالصفات المذكورة آخراً ، وأن لا يجب حصول الصفات المذكورة قبل ذلك ، ولما أجمع المسلمون على أن تلك الصفات بأسرها كانت معتبرة علمنا فساد هذا القسم .

فإن قيل أما الكنايات فلا نسلم عودها إلى البقرة فلم لا يجوز أن يقال : إنها كنايات عن القصة والشأن ، وهذه طريقة مشهورة عند العرب ؟ قلنا : هذا باطل لوجوه .

أحدها : أن هذه الكنايات لو كانت عائدة إلى القصة والشأن لبقي ما بعد هذه الكنايات غير مفيد ، لأنه لا فائدة في قوله : ﴿ بَقَرَةٌ صَفْرَاء ﴾ بل لا بد من إضمار شيء آخر وذلك خلاف الأصل ، أما إذا جعلنا الكنايات عائدة إلى المأمور به أولاً لم يلزم هذا المحذور .

وثانيها : أن الحكم برجوع الكناية إلى القصة والشأن خلاف الأصل ، لأن الكناية يجب عودها إلى شيء جرى ذكره والقصة والشأن لم يجر ذكرهما فلا يجوز عود الكناية إليهما لكنا خالفنا هذا الدليل للضرورة في بعض المواضع فبقي ما عداه على الأصل .

وثالثها : أن الضمير في قوله : ﴿ مَا لَوْنُهَا وَمَا هِيَ ﴾ لا شك أنه عائد إلى البقرة المأمور بها فوجب أن يكون الضمير في قوله : ﴿ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاء ﴾ عائداً إلى تلك البقرة وإلا لم يكن الجواب مطابقاً للسؤال .

الثالث : أنهم لو كانوا سائلين معاندين لم يكن في مقدار ما أمرهم به موسى ما يزيل الاحتمال لأن مقدار ما ذكره موسى أن تكون بقرة صفراء متوسطة في السن كاملة في القوة ، وهذا القدر موضع للاحتمالات الكثيرة ، فلما سكتوا ههنا واكتفوا به علمنا أنهم ما كانوا معاندين .

واحتج الفريق الثاني بوجوه .

أحدها : أن قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةً ﴾ معناه يأمركم أن تذبحوا بقرة أي بقرة كانت ، وذلك يقتضي العموم ، وذلك يقتضي أن يكون اعتبار الصفة بعد ذلك تكليفاً جديداً ، وثانيها : لو كان المراد ذبح بقرة معينة لما استحقوا التعنيف على طلب البيان بل كانوا يستحقون المدح عليه ، فلما عنفهم الله تعالى في قوله : ﴿ فافعلوا مَا تُؤْمَرونَ ﴾ ، وفي قوله : ﴿ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ علمنا تقصيرهم في الإتيان بما أمروا به أولاً وذلك إنما يكون لو كان المأمور به أولاً ذبح بقرة معينة .

الثالث : ما روي عن ابن عباس أنه قال : لو ذبحوا أية بقرة أرادوا لأجزأت منهم لكنهم شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم .

ورابعها : أن الوقت الذي فيه أمروا بذبح البقرة كانوا محتاجين إلى ذبحها ، فلو كان المأمور به ذبح بقرة معينة مع أن الله تعالى ما بينها لكان ذلك تأخيراً للبيان عن وقت الحاجة وإنه غير جائز ، والجواب : عن الأول ما بينا في أول المسألة أن قوله : ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةً ﴾ لا يدل على أن المأمور به ذبح بقرة ، أي بقرة كانت ، وعن الثاني : أن قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ ليس فيه دلالة على أنهم فرطوا في أول القصة وأنهم كادوا يفرطون بعد استكمال البيان ، بل اللفظ محتمل لكل واحد منهما فنحمله على الأخير وهو أنهم لما وقفوا على تمام البيان توقفوا عند ذلك وما كادوا يفعلونه ، وعن الثالث : أن هذه الرواية عن ابن عباس من باب الآحاد وبتقدير الصحة ، فلا تصلح أن تكون معارضة لكتاب الله تعالى ، وعن الرابع : أن تأخير البيان عن وقت الحاجة إنما يلزم أن لو دل الأمر على الفور وذلك عندنا ممنوع .

واعلم أنا إذا فرعنا على القول بأن المأمور به بقرة أي بقرة كانت ، فلا بد وأن نقول : التكاليف مغايرة فكلفوا في الأول : أي بقرة كانت ، وثانياً : أن تكون لا فارضاً ولا بكراً بل

عواناً ، فلما لم يفعلوا ذلك كلفوا أن تكون صفراء ، فلما لم يفعلوا ذلك كلفوا أن تكون مع ذلك لا ذلولاً تثير الأرض ولا تسقي الحرث .

(13/55)

ثم اختلف القائلون بهذا المذهب ، منهم من قال في التكليف الواقع أخيراً يجب أن يكون مستوفياً لكل صفة تقدمت حتى تكون البقرة مع الصفة الأخيرة لا فارض ولا بكر وصفراء فاقع ، ومنهم من يقول : إنما يجب كونها بالصفة الأخيرة فقط ، وهذا أشبه بظاهر الكلام إذا كان تكليفاً بعد تكليف وإن كان الأول أشبه بالروايات وبطريقة التشديد عليهم عند تردد الامتثال ، وإذا ثبت أن البيان لا يتأخر فلا بد من كونه تكليفاً بعد تكليف ، وذلك يدل على أن الأسهل قد ينسخ بالأشق ويدل على جواز النسخ قبل الفعل ولكنه لا يدل على جواز النسخ قبل وقت الفعل ، ويدل على وقوع النسخ في شرع موسى عليه السلام ، وله أيضاً تعلق بمسألة أن الزيادة على النسخ هل هو نسخ أم لا ، ويدل على حسن وقوع التكليف ثانياً لمن عصى ولم يفعل ما كلف أولاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 106 . 108 ﴾

(14/55)

فائدة

قال الآلوسى :

وأول القصة : قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فادرأتم فِيهَا ﴾ [البقرة : 72] الخ ، وكان الظاهر أن يقال قال موسى إذ قتل قتيل تنوزع في قاتله إن الله يأمر بذبح بقرة هي كذا وكذا ، وأن يضرب ببعضها ذلك القتيل ويخبر بقاتله فيكون كيت وكيت إلا أنه فك بعضها وقدم لاستقلاله بنوع من مساويهم التي قصد نعيها عليهم ، وهو الاستهزاء بالأمر والاستقصاء في السؤال ، وترك المسارعة إلى الامتثال ، ولو أجرى على النظم لكانت قصة واحدة ، ولذهبت تثنية التقريع ، وقد وقع في النظم من فك التركيب والترتيب ما يضاهيه في بعض القصص ، وهو من المقلوب المقبول لتضمنه نكتاً وفوائد ، وقيل : إنه يجوز أن يكون ترتيب نزولها على موسى عليه السلام على حسب تلاوتها بأن يأمرهم الله تعالى بذبح البقرة ثم يقع القتل فيؤمروا بضرب بعضها لكن المشهور خلافه والقصة أنه عمد إخوان من بني إسرائيل إلى ابن عم لهما أخي أبيهما فقتلاه ليرثا ماله وطرحاه على باب محلهم ثم جاءا يطلبان بدمه فأمر الله تعالى بذلح بقرة وضربه ببعضها ليحيا ، ويخبر بقاتله ، وقيل : كان القاتل أخا القتيل ، وقيل : ابن أخيه ولا وارث له غيره فلما طال عليه عمره قتله ليرثه ، وقيل : إنه كان تحت رجل يقال له عاميل بنت عم لا مثل لها في بني إسرائيل في الحسن والجمال

فقتله ذو قرابة له لينكحها فكان ما كان ، وقرأ الجمهور (يأمركم) بضم الراء ، وعن أبي عمرو السكون والاختلاس وإبدال الهمزة ألفاً ، و ﴿ أَن تَذْبَحُواْ ﴾ من موضع المفعول الثاني ليأمر ، وهو على إسقاط حرف الجر أي بأن تذبحوا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 285 ﴾

(15/55)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً ﴾

تعرضت هذه الآية لقصة من قصص بني إسرائيل ظهر فيها من قلة التوقير لنبيهم ومن الإعنات في المسألة والإلحاح فيها إما للتقصي من الامتثال وإما لبعد أفهامهم عن مقصد الشارع ورومهم التوقيف على ما لاقصد إليه .

قيل : إن أول هذه القصة هو المذكور بقوله تعالى : ﴿ وإذ قتلتم نفساً فادّارأتم فيها ﴾ [البقرة : 72] الآية وإن قول موسى : ﴿ إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة ﴾ ناشىء عن قتل النفس المذكورة ، وإن قول موسى قدم هنا لأن خطاب موسى عليه السلام لهم قد نشأ عنه ضرب من مذامهم في تلقي التشريع وهو الاستخفاف بالأمر حين ظنوه هزؤاً والإعنات في

المسألة فأريد من تقديم جزء القصة تعدد تقريعهم ، هكذا ذكر صاحب " الكشاف" والموجهون لكلامه ، ولا يخفى أن ما وجهوا به تقديم جزء القصة لا يقتضي إلا تفكيك القصة إلى قصتين تعنون كل واحدة منهما بقوله : ﴿ وإذ ﴾ مع بقاء الترتيب ، على أن المذام قد تعرف بحكايتها والتنبيه عليها بنحو قوله : ﴿ أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين وقوله : ﴿ وما كادوا يفعلون ﴾ [البقرة : 71] .

فالذي يظهر لي أنهما قصتان أشارت الأولى وهي المحكية هنا إلى أمر موسى إياهم بذبح بقرة وهذه هي القصة التي أشارت إليها التوراة في السفر الرابع وهو سفر التشريع الثاني (تثنية) في الإصحاح 21 أنه " إذا وجد قتيل لا يعلم قاتله فإن أقرب القرى إلى موقع القتيل يخرج شيوخها ويخرجون عجلة من البقر لم يحرث عليها ولم تنجُر بالنير فيأتون بها إلى واد دائم السيلان لم يحرث ولم يزرع ويقطعون عنقها هنالك ويتقدم الكهنة من بني لاوى فيغسل شيوخ تلك القرية أيديهم على العجلة في الوادي ويقولون لم تسفك أيدينا هذا الدم ولم تبصر أعيننا سافكه فيغفر لهم الدم " أ هـ .

هكذا ذكرت القصة بإجمال أضاع المقصود وأبهم الغرض من هذا الذبح أهو إضاعة ذلك الدم باطلاً أم هو عند تعذر معرفة المتهم بالقتل ؟ وكيفما كان فهذه بقرة مشروعة عند كل قتل نفس جُهل قاتلها وهي المشار إليها هنا ، ثم كان ما حدث من قتل القتيل الذي قتله أبناء عمه وجاءوا مظهرين المطالبة بدمه وكانت تلك النازلة نزلت في يوم ذبح البقرة فأمرهم الله بأن يضربوا القتيل ببعض تلك البقرة التي شأنها أن تذبح عند جهل قاتل نفس .

4 وبذلك يظهر وجه ذكرهما قصتين وقد أجمل القرآن ذكر القصتين لأن موضع التذكير والعبرة منهما هو ما حدث في خلالهما لا تفصيل الوقائع فكانت القصة الأولى تشريعاً سيق ذكره لما قارنه من تلقيهم الأمر بكثرة السؤال الدال على ضعف الفهم للشريعة وعلى تطلب أشياء لا ينبغي أن يظن اهتمام التشريع بها ، وكانت القصة الثانية منة عليهم بآية من آيات الله ومعجزة من معجزات رسولهم بينها الله لهم ليزدادوا إيماناً ولذلك ختمت بقوله : ﴿ ويريكم آياته لعلكم تعقلون ﴾ [البقرة : 73] وأتبعت بقوله : ﴿ ثم قست قلوبكم من بعد ذلك ﴾ [البقرة : 74] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 1 صـ 528 . 529 ﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ﴾

فائدة

قال الفخر :

قال القفال قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ أَتَتَّخِذُنَا هزؤاً ﴾ استفهام على معنى الإنكار والهزء يجوز أن يكون في معنى المهزوء به كما يقال : كان هذا في علم الله أي في معلومه والله رجاؤنا أي مرجونا ونظيره قوله تعالى : ﴿ فاتخذتموهم سِخْرِيّاً ﴾ [المؤمنون : 110] قال صاحب "الكشاف" : (أتتخذنا هزؤاً) أتجعلنا مكان هزء أو أهل هزء أو مهزواً بنا والهزء نفسه فرط الاستهزاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 108 ﴾

(17/55)

وقال الآلوسى :

﴿ قَالُواْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ﴾ استئناف وقع جواباً عما ينساق إليه الكلام كأنه قيل : فماذا صنعوا هل سارعوا إلى الامتثال أم لا ؟ فأجيب بذلك ، والاتخاذ كالتصيير ، والجعل يتعدى إلى مفعولين أصلهما المبتدأ والخبر ، و ﴿ هُزُواً ﴾ مفعوله الثاني ولكونه مصدراً لا يصلح أن يكون مفعولاً ثانياً لأنه خبر المبتدأ في الحقيقة وهو اسم ذات هنا فيقدر مضاف كمكان ، أو أهل أو يجعل بمعنى المهزوء به كقوله تعالى : ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ البحر ﴾ [المائدة : 96] أي مصيده أو يجعل الذات نفس المعنى مبالغة كرجل عدل ، وقد قالوا ذلك إما بعد أن أمرهم موسى عليه السلام بذبح بقرة دون ذكر الإحياء بضربها ، وإما بعد أن

أمرهم وذكر لهم استبعاداً لما قاله واستخفافاً به كما يدل عليه الاستفهام إذ المعنى أتسخر بنا فإن جوابك لا يطابق سؤالنا ولا يليق ، وأين ما نحن فيه مما أنت آمر به ، ولا يأبى ذلك انقيادهم له لأنه بعد العلم بأنه جد وعزيمة ، ومن هنا قال بعضهم : إن إجابتهم نبيهم حين أخبرهم عن أمر الله تعالى بأن يذبحوا بقرة بذلك دليل على سوء اعتقادهم بنبيهم وتكذيبهم له إذ لو علموا أن ذلك إخبار صحيح عن الله تعالى لما استفهموا هذا الاستفهام ، ولا كانوا أجابوا هذا الجواب ، فهم قد كفروا بموسى عليه السلام .

ومن الناس من قال : كانوا مؤمنين مصدقين ولكن جرى هذا على نحو ما هم عليه من غلظ الطبع والجفاء والمعصية ، والعذر لهم أنهم لما طلبوا من موسى عليه السلام تعيين القاتل فقال ما قال ورأوا ما بين السؤال والجواب توهموا أنه عليه السلام داعبهم ، أو ظنوا أن ذلك يجري مجرى الاستهزاء ، فأجابوا بما أجابوا ، وقيل : استفهموا على سبيل الاسترشاد لا على وجه الانكار والعناد وقرأ عاصم وابن محيصن ﴿ يتخذنا ﴾ بالياء على أن الضمير لله تعالى .

وقرأ حمزة وإسمعيل عن نافع ﴿ هزأ ﴾ بالإسكان ، وحفص عن عاصم بالضم وقلب الهمزة واواً ، والباقون بالضم والهمزة والكل لغات فيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 285. 286 ﴾

فصل

قال الفخر :

القوم إنما قالوا ذلك لأنهم لما طلبوا من موسى عليه السلام تعيين القاتل فقال موسى : اذبحوا بقرة لم يعرفوا بين هذا الجواب وذلك السؤال مناسبة ، فظنوا أنه عليه السلام يلاعبهم ، لأنه من المحتمل أن موسى عليه السلام أمرهم بذبح البقرة وما أعلمهم أنهم إذا ذبحوا البقرة ضربوا القتيل ببعضها فيصير حياً فلا جرم ، وقع هذا القول منهم موقع الهزء ، ويحتمل أنه عليه السلام وإن كان قد بين لهم كيفية الحال إلا أنهم تعجبوا من أن القتيل كيف يصير حياً بأن يضربوه ببعض أجزاء البقرة فظنوا أن ذلك يجري مجرى الاستهزاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 108 ﴾

فصل

قال الفخر :

قال بعضهم : إن أولئك القوم كفروا بقولهم لموسى عليه السلام : أتتخذنا هزؤاً لأنهم إن قالوا ذلك وشكوا في قدرة الله تعالى على إحياء الميت ، فهو كفر وإن شكوا في أن الذي أمرهم

به موسى عليه السلام هل هو بأمر الله تعالى ، فقد جوزوا الخيانة على موسى عليه السلام في الوحي ، وذلك أيضاً كفر .

ومن الناس من قال : إنه لا يوجب الكفر وبيانه من وجهين .

الأول : أن الملاعبة على الأنبياء جائزة فلعلهم ظنوا به عليه السلام أنه يلاعبهم ملاعبة حقة ، وذلك لايوجب الكفر .

الثاني : أن معنى قوله تعالى : ﴿ أَتَتَّخِذُنَا هزؤاً ﴾ أي ما أعجب هذا الجواب كأنك تستهزىء بنا لا أنهم حققوا على موسى الاستهزاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 109 ﴾

قوله تعالى ﴿ قَالَ أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الجاهلين ﴾

فصل

قال الفخر :

أما قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الجاهلين ﴾ ففيه وجوه .

أحدها : أن الاشتغال بالاستهزاء لا يكون إلا بسبب الجهل ومنصب النبوة لا يحتمل الإقدام على الاستهزاء ، فلم يستعذ موسى عليه السلام من نفس الشيء الذي نسبوه إليه ، لكنه استعاذ من السبب الموجب له كما قد يقول الرجل عند مثل ذلك : أعوذ بالله من عدم العقل وغلبة الهوى ، والحاصل أنه أطلق اسم السبب على المسبب مجازاً هذا هو الوجه الأقوى .

وثانيها : أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين بما في الاستهزاء في أمر الدين من العقاب الشديد والوعيد العظيم ، فإني متى علمت ذلك امتنع إقدامي على الاستهزاء .

وثالثها : قال بعضهم : إن نفس الهزء قد يسمى جهلاً وجهالة ، فقد روي عن بعض أهل اللغة : إن الجهل ضد الحلم كما قال بعضهم إنه ضد العلم .

واعلم أن هذا القول من موسى عليه السلام يدل على أن الاستهزاء من الكبائر العظام وقد سبق تمام القول فيه في قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءونَ اللهَ يَسْتَهْزِىء بِهِمْ ﴾ [البقرة : 14 15] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 109 ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين ﴾ ، لما فهم موسى عليه السلام عنهم أن تلك المقالة التي صدرت عنهم إنما هي لاعتقادهم فيها أنه أخبر عن الله بما لم يأمر به ، استعاذ بالله وهو الذي أخبر عنه ، أن يكون من الجاهلين بالله ، فيخبر عنه بأمر لم يأمر به تعالى ، إذ الإخبار

عن الله تعالى بما لم يخبر به الله إنما يكون ذلك من الجهل بالله تعالى .

وقوله : من الجاهلين ، فيه تصريح أن ثم جاهلين ، واستعاذ بالله أن يكون منهم ، وفيه تعريض أنهم جاهلون ، وكأنه قال : أن أكون منكم ، لأنهم جوّزوا على من هو معصوم من الكذب ، وخصوصاً في التبليغ ، عن الله أن يخبر عن الله بالكذب .

قالوا : والجهل بسيط ، ومركب البسيط : عام وخاص .

العام : عدم العلم بشيء من المعلومات ، والخاص : عدم العلم ببعض المعلومات ، والمركب : أن يجهل ، ويجهل أنه يجهل .

(20/55)

فالعام والمركب لا يوصف بهما من له بعض علم ، فضلاً عن نبي شرف بالرسالة والتكليم ، وذلك مستحيل عليه ، فيستحيل أن يستعيذ منه إلا على سبيل الأدب .

فالذي استعاذ منه موسى هو خاص ، وهو المفضي إلى أن يخبر عن الله تعالى مستهزئاً ، أو المقابل لجهلهم .

فقالوا : أتتخذنا هزواً لمن يخبرهم عن الله ، أو معناه الاستهزاء بالمؤمنين .

فإن ذلك جهل ، أو من الجاهلين بالجواب ، لا على وفق السؤال ، إذ ذاك جهل ، والأمر من

تلقاء نفسي ، وأنسبه إلى الله ، والخروج عن جواب السائل المسترشد إلى الهزء ، فإن ذلك جهل .

وهذه الوجوه الستة مستحيلة على موسى .

قيل : وإنما استعاذ منها بطريق الأدب ، كما استعاذ نوح عليه السلام ﴿ أعوذ بك أن أسئلك ما ليس لي به علم ﴾ وكما في : ﴿ وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين ﴾ ، وإنما قالوا ذلك بطريق الأدب مع الله والتواضع له . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 1 صـ 415 ﴾

(21/55)

وقال الآلوسى :

﴿ قَالَ أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الجاهلين ﴾ أي من أن أعد في عدادهم ، والجهل كما قال الراغب له معان ، عدم العلم ، واعتقاد الشيء بخلاف ما هو عليه ، وفعل الشيء بخلاف ما حقه أن يفعل سواء اعتقد فيه اعتقاداً صحيحاً أو فاسداً وهذا الأخير هو المراد هنا ، وقد نفاه عليه السلام عن نفسه قصداً إلى نفي ملزومه الذي رمي به وهو الاستهزاء على طريق الكناية وأخرج ذلك في صورة الاستعارة استفظاعاً له ، إذ الهزء في مقام الإرشاد

كاد يكون كفراً وما يجري مجراه ، ووقوعه في مقام الاحتقار والتهكم مثل : ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [آل عمران : 21] سائغ شائع وفرق بين المقامين وذكر بعضهم أن الاستعاذة بالله تعالى من ذلك من باب الأدب والتواضع معه سبحانه كما في قوله تعالى : ﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشياطين ﴾ [المؤمنون : 97] لأن الأنبياء معصومون عن مثل ذلك ، والأول أولى وهو المعروف من إيراد الاستعاذة في أثناء الكلام والفرق بين الهزء والمزح ظاهر فلا ينافي وقوعه من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أحياناً كما لا يخفى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 286 ﴾

فصل

قال البغوى :

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً ﴾ البقرة هي الأنثى من البقر يقال : هي مأخوذة من البقر وهو الشق ، سميت به لأنها تشق الأرض للحراثة . والقصة فيه (1) أنه كان في بني إسرائيل رجل غني وله ابن عم فقير لا وارث له سواه ، فلما طال عليه

موته قتله ليرثه ، وحمله إلى قرية أخرى وألقاه بفنائهم ، ثم أصبح يطلب ثأره وجاء بناس إلى موسى يدعي عليهم القتل ، فسألهم موسى فجحدوا ، واشتبه أمر القتيل على موسى ،

---

(1) القصة من الإسرائيليات ، كما يظهر ، ولا يقبل في تفسير كتاب الله إلا ما جاء برواية ثابتة . وقال ابن كثير رحمه الله بعد أن قص قصة البقرة : وهذه السياقات عن عبيدة وأبي العالية والسدي وغيرهم فيها اختلاف والظاهر أنها مأخوذة من كتب بني إسرائيل ، وهي مما يجوز نقلها ، ولكن لا تصدق ولا تكذب . فلهذا لا يعتمد عليها إلا ما وافق الحق عندنا ، والله أعلم" . تفسير ابن كثير 1 / 197 وانظر : الإسرائيليات في التفسير والحديث للدكتور محمد حسين الذهبي .

قال الكلبي : وذلك قبل نزول القسامة (1) في التوراة ، فسألوا موسى أن يدعو الله ليبين لهم بدعائه ،

فأمرهم الله بذبح بقرة فقال لهم موسى : إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة ﴿ قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ﴾ أي : تستهزئ بنا ، نحن نسألك عن أمر القتيل وتأمرنا بذبح البقرة ! ! وإنما قالوا ذلك لبعد ما بين الأمرين في الظاهر ، ولم يدروا ما الحكمة فيه ، قرأ حمزة هزوا وكفوا

بالتخفيف وقرأ الآخرون بالتثقيل ، وبترك الهمزة حفص ﴿ قَالَ ﴾ موسى ﴿ أَعُوذُ بِاللَّهِ ﴾ أمتنع بالله ﴿ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ أي من المستهزئين بالمؤمنين وقيل : من الجاهلين بالجواب لا على وفق السؤال لأن الجواب لا على وفق السؤال جهل ، فلما علم (القوم) أن ذبح البقرة عزم من الله عز وجل استوصفوها ، ولو أنهم عمدوا إلى أدنى بقرة فذبحوها لأجزأت عنهم ، ولكنهم شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم وكانت تحته حكمة ، وذلك أنه كان في بني إسرائيل رجل صالح له (ابن) طفل وله عجلة اتى بها إلى غيضة وقال : اللهم إني أستودعك هذه العجلة لابني حتى تكبر ، ومات الرجل فصارت العجلة في الغيضة عوانا ، وكانت تهرب من كل من رآها فلما كبر الابن وكان بارا بوالدته ، وكان يقسم الليل ثلاثة أثلاث يصلي ثلثا وينام ثلثا ويجلس عند رأس أمه ثلثا ، فإذا أصبح انطلق فاحتطب على ظهره فيأتي به إلى السوق فيبيعه بما شاء الله ثم يتصدق بثلثه ، ويأكل ثلثه ، ويعطي والدته ثلثه ، فقالت له أمه يوما : إن أباك ورثك عجلة استودعها الله في غيضة كذا فانطلق وادع إله إبراهيم وإسماعيل وإسحاق أن يردها عليك وعلامتها أنك إذا نظرت إليها يخيل إليك أن شعاع الشمس يخرج من جلدها ، وكانت تسمى المذهبة لحسنها وصفرتها ، فأتى الفتى الغيضة فرآها ترعى فصاح بها وقال : أعزم بإله إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب أن تأتي إلي فأقبلت تسعى حتى قامت بين يديه فقبض على عنقها يقودها ، فتكلمت البقرة بإذن الله تعالى فقالت : أيها الفتى البار بوالدتك اركبني فإن

ذلك أهون عليك ، فقال الفتى : إن أمي لم تأمرني

(1) الأيمان تقسم على أولياء القتيل الذين ادعوا الدم .

بذلك ولكن قالت : خذ بعنقها ، فقالت البقرة : يإله بني إسرائيل لو ركبتني ما كنت تقدر علي أبدا ، فانطلق فإنك لو أمرت الجبل أن ينقلع من أصله وينطلق معك لفعل لبرك بأمك ، فسار الفتى بها إلى أمه فقالت له : إنك فقير لا مال لك فيشق عليك الاحتطاب بالنهار والقيام بالليل فانطلق فبع هذه البقرة ، قال : بكم أبيعها ؟ قالت : بثلاثة دنانير ولا تبع بغير مشورتي وكان ثمن البقرة يومئذ ثلاثة دنانير ، فانطلق بها إلى السوق ، فبعث الله ملكا ليرى خلقه قدرته وليختبر الفتى كيف بر بوالدته ، وكان الله به خبيرا فقال له الملك : بكم تبيع هذه البقرة ؟ قال : بثلاثة دنانير وأشترط عليك رضى والدتي فقال الملك : لك ستة دنانير ولا تستأمر والدتك فقال الفتى : لو أعطيتني وزنها ذهبا لم آخذه إلا برضى أمي فردها إلى أمه فأخبرها بالثمن فقالت : ارجع فبعها بستة دنانير على رضى مني فانطلق بها إلى السوق وأتى الملك فقال : استأمرت أمك فقال الفتى : إنها أمرتني أن لا أنقصها عن ستة على أن أستأمرها فقال الملك : فإني أعطيك اثني عشر على أن لا تستأمرها ، فأبى الفتى

، فرجع إلى أمه فأخبرها ، فقالت إن الذي يأتيك ملك في صورة آدمي ليختبرك فإذا أتاك فقل له : أتأمرنا أن نبيع هذه البقرة أم لا ؟ (ففعل) فقال له الملك : اذهب إلى أمك وقل لها أمسكي هذه البقرة فإن موسى بن عمران عليه السلام يشتريها منك لقتيل يقتل في بني إسرائيل فلا تبيعوها إلا بملء مسكها دنانير ، فأمسكوها ، وقدر الله تعالى على بني إسرائيل ذبح تلك البقرة بعينها فما زالوا يستوصفون موسى حتى وصف لهم تلك البقرة ، مكافأة له على بره بوالدته فضلا منه ورحمة (فذلك) . انتهى انتهى . اهـ ﴾ تفسير البغوى حـ 1 صـ 105. 106 ﴿

فصل

قال السيوطى :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (67) ﴾

أخرج ابن أبي الدنيا في كتاب من عاش بعد الموت عن ابن عباس قال : كانت مدينتان في بني إسرائيل . وأحداهما حصينة ولها أبواب ، والأخرى خربة . فكان أهل المدينة الحصينة

إذا أمسوا أغلقوا أبوابها ، فإذا أصبحوا قاموا على سور المدينة فنظروا هل حدث فيما حولها حادث ، فأصبحوا يوماً فإذا شيخ قتيل مطروح بأصل مدينتهم ، فأقبل أهل المدينة الخربة فقالوا : قتلتم صاحبنا وابن أخ له شاب يبكي عليه ويقول : قتلتم عمي . قالوا : والله ما فتحنا مدينتنا منذ أغلقناها ، وما لدينا من دم صاحبكم هذا ! فأتوا موسى ، فأوحى الله إلى موسى ﴿ إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة ﴾ إلى قوله ﴿ فذبحوها وما كادوا يفعلون ﴾ .

(26/55)

قال : وكان في بني إسرائيل غلام شاب يبيع في حانوت له ، وكان له أب شيخ كبير ، فأقبل رجل من بلد آخر يطلب سلعة له عنده فأعطاه بها ثمناً ، فانطلق معه ليفتح حانوته فيعطيه الذي طلب والمفتاح مع أبيه ، فإذا أبوه نائم في ظل الحانوت فقال : أيقظه . قال ابنه : إنه نائم وأنا أكره أن أروّعه من نومته . فانصرفا فأعطاه ضعف ما أعطاه على أن يوقظه فأبى ، فذهب طالب السلعة . فاستيقظ الشيخ فقال له ابنه : يا أبت والله لقد جاء ههنا رجل يطلب سلعة كذا ، فأعطى بها من الثمن كذا وكذا ، فكرهت أن أروعك من نومك فلامه الشيخ ، فعوّضه الله من بره بوالده أن نتجت من بقر تلك البقرة التي يطلبها بنو إسرائيل ،

فأتوه فقالوا له : بعناها فقال : لا . قالوا : إذن نأخذ منك . فأتوا موسى فقال : اذهبوا فارضوه من سلعته . قالوا : حكمك ؟ قال : حكمي أن تضعوا البقرة في كفة الميزان وتضعوا ذهباً صامتاً في الكفة الأخرى ، فإذا مال الذهب أخذته ففعلوا ، وأقبلوا بالبقرة حتى انتهوا بها إلى قبر الشيخ ، واجتمع أهل المدينتين فذبحوها ، فضرب ببضعة من لحمها القبر ، فقام الشيخ ينفض رأسه يقول : قتلني ابن أخي طال عليه عمري وأراد أخذ مالي ومات .

(27/55)

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في سننه عن عبيدة السلماني قال : كان رجل من بني إسرائيل عقيماً لا يولد له ، وكان له مال كثير ، وكان ابن أخيه وارثه ، فقتله ثم احتمله ليلاً فوضعه على باب رجل منهم ، ثم أصبح يدعيه عليهم حتى تسلحوا وركب بعضهم إلى بعض ، فقال ذوو الرأي منهم : علام يقتل بعضكم بعضاً وهذا رسول الله فيكم ؟ فأتوا موسى فذكروا ذلك له فقال ﴿ إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا أتتخذنا هزواً قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين ﴾ قال : فلو لم يعترضوا لاجزأت عنهم أدنى بقرة ولكنهم شددوا فشدد عليهم ، حتى انتهوا إلى البقرة التي أمروا

بذبحها ، فوجدوها عند رجل ليس له بقرة غيرها فقال : والله لا أنقصها من ملء جلدها ذهباً ، فذبحوها فضربوه ببعضها فقام ، فقالوا : من قتلك ؟ فقال : هذا لابن أخيه ثم مال ميتاً ، فلم يعط من ماله شيئاً ولم يورث قاتل بعد .

وأخرج عبد الرزاق عن عبيدة قال : أوّل ما قضي أنه لا يرث القاتل في صاحب بني إسرائيل .

وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن سيرين قال : أوّل ما منع القاتل الميراث لكان صاحب البقرة .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : إن شيخاً من بني إسرائيل على عهد موسى كان مكثراً من المال ، وكان بنو أخيه فقراء لا مال لهم ، وكان الشيخ لا ولد له ، وكان بنو أخيه ورثته فقالوا : ليت عمنا قد مات فورثنا ماله ، وأنه لما تطاول عليهم أن لا يموت أتاهم الشيطان فقال : هل لكم إلى أن تقتلوا عمكم وتغرموا أهل المدينة التي لستم بها ديته ، وذلك أنهما كانتا مدينتين كانوا في إحداهما ، وكان القتيل إذ قتل فطرح بين المدينتين قيس ما بين القتيل والقريتين فأيتهما كانت أقرب إليه غرمت الدية ، وأنهم لما سوّل لهم الشيطان ذلك عمدوا إليه فقتلوه ، ثم طرحوه على باب المدينة التي ليسوا بها ، فلما أصبح أهل المدينة

جاء بنو أخي الشيخ فقالوا : عمنا قتل على باب مدينتكم ، فوالله لتغرمنَّ لنا ديته . قال : أهل المدينة نقسم بالله ما قتلنا ، ولا علمنا قاتلاً ، ولا فتحنا باب مدينتنا منذ أغلق حتى أصبحنا ، فعمدوا إلى موسى ، فجاءه جبريل فقال : قل لهم ﴿ إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة ﴾ فتضربوه ببعضها .

(29/55)

وأخرج سفيان بن عيينة عن عكرمة قال : كان لبني إسرائيل مسجد له اثنا عشر باباً ، لكل سبط منهم باب يدخلون منه ويخرجون ، فوجد قتيل على باب سبط من الأسباط قتل على باب سبط وجر إلى باب سبط آخر ، فاختصم فيه أهل السبطين . فقال هؤلاء : أنتم قتلتم هذا ، وقال الآخرون : بل أنتم قتلتموه ، ثم جررتموه إلينا . فاختصموا إلى موسى فقال ﴿ إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة . . . ﴾ الآية . ﴿ قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي قال إنه يقول إنها بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك ﴾ قال : فذهبوا يطلبونها فكأنها تعذرت عليهم ، فرجعوا إلى موسى فقالوا ﴿ ادع لنا ربك يبين لنا ما هي . . . وإنا إن شاء الله لمهتدون ﴾ ولولا أنهم قالوا إن شاء الله ما وجدوها ﴿ قال : إنه يقول إنها بقرة لا ذلول ﴾ ألا وإنما كانت البقرة يومئذ بثلاثة دنانير ، ولو أنهم أخذوا أدنى بقرهم فذبحوها

كفتهم ولكنهم شددوا فشدد الله عليهم .

فذهبوا يطلبونها فيجدون هذه الصفة عند رجل فقالوا : تبيعنا هذه البقرة ؟ قال : أبيعها . قالوا : بكم تبيعها ؟ قال : بمائة دينار . فقالوا : إنها بقرة بثلاثة دنانير ! فابوا أن يأخذوها ، فرجعوا إلى موسى فقالوا : وجدناها عند رجل فقال لا أنقصكم عن مائة دينار ، وإنها بقرة بثلاثة دنانير .

(30/55)

قال : هو أعلم هو صاحبها ، إن شاء باع وإن شاء لم يبع ، فرجعوا إلى الرجل فقالوا : قد أخذناها بمائة دينار . فقال : لا أنقصها عن مائتي دينار . فقالوا ، سبحان الله . . . ! قد بعتنا بمائة دينار ورضيت فقد أخذناها . قال : ليس أنقصها من مائتي دينار . فتركوها ورجعوا إلى موسى فقالوا له : قد أعطاناها بمائة دينار ، فلما رجعنا إليه قال : لا أنقصها من مائتي دينار . قال : هو أعلم إن شاء باعها وإن شاء لم يبعها ، فعادوا إليه فقالوا : قد أخذناها بمائتي دينار . فقال : لا أنقصها من أربعمائة دينار . قالوا : قد كنت أعطيتناها بمائتي دينار فقد أخذناها ! فقال : ليس أنقصها من أربعمائة دينار ، فتركوها وعادوا إلى موسى فقالوا : قد أعطيناه مائتي دينار ، فأبى أن يأخذها وقال : لا أنقصها من أربعمائة

دينار . فقال : هو أعلم هو صاحبها إن شاء باع وإن شاء لم يبع ، فرجعوا إليه فقالوا : قد أخذناها بأربعمائة دينار فقال : لا أنقصها من ثمانمائة دينار . فلم يزالوا يعودون إلى موسى ويعودون عليه ، فكلما عادوا إليه أضعف عليه الثمن حتى قال : ليس أبيعها إلا بملء مسكها ، فأخذوها فذبحوها فقال : اضربوه ببعضها ، فضربوه بفخذها فعاش . فقال : قتلني فلان .

(31/55)

فإذا هو رجل كان له عم ، وكان لعمه مال كثير ، وكان له ابنة فقال : أقتل عمي هذا وأرث ماله وأتزوج ابنته ، فقتل عمه فلم يرث شيئاً ولم يورث قاتل منذ ذلك شيئاً ، قال موسى : إن لهذه البقرة لشأنا ادعوا إليَّ صاحبها ، فدعوه فقال : أخبرني عن هذه البقرة وعن شأنها ؟ قال : نعم . كنت رجلاً أبيع في السوق وأشتري ، فساومني رجل بضاعة عندي فبعته إياها ، وكنت قد أشرفت منها على فضل كبير ، فذهبت لآتيه بما قد بعته ، فوجدت المفتاح تحت رأس والدتي ، فكرهت أن أوقظها من نومها ، ورجعت إلى الرجل فقلت : ليس بيني وبينك بيع ، فذهب ثم رجعت فنتجت لي هذه البقرة ، فألقى الله عليها مني محبة فلم يكن

عندي شيء أحب إليَّ منها ، فقيل له إنما أصبت هذا ببرّ والدتك . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الدر المنثور حـ 1 صـ 186. 189 ﴾

(32/55)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى الجهل)

وقد ورد فى القرآن على خمسة عشر وجهاً :

الأَوّل : فى ذكر آدم بحمل الأَمَانَة ﴿ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴾ .

الثانى : خطاب لنوح عليه السّلام أَن يحفظ رَقْم الجهالة على نفسه بدعوة الجَهَلة ودعائهم ﴿ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ .

الثالث : ذكر هود عليه السّلام قومه لمّا امتنعوا عن إجابة الحقّ ﴿ وَلَاكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ ﴾ .

الرّابع : استعاذة موسى بالحقّ عن ملابسة الجَهَلة ﴿ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ وقال مرّة ﴿ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ وقال يوسف : إن لم تُبَذْرِقْنى بعصمتك أَصير من جملة

الجُهَلاءِ ﴿ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ وقال تعالى ﴿ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴾ وخاطب نبيّه وحبيبه .

﴿ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ قل يا محمّد لنسائك يَجْتَنِبْنَ من التَزيي بزيّ الجهلاءِ ﴿ وَلاَ تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ ﴿ فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ ﴿ وَلَاكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ ما صدر من العصاةِ من المعاصى فبسبب جهلهم ﴿ عَمِلُواْ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ﴾ ليكن جوابك لخطاب الجاهلين سلاماً طلباً للسّلامة ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُواْ سَلاَماً ﴾ ﴿ لاَ نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾ .

والجهل نقيض العلم ، جهله يَجْهَله جَهْلاً وجَهَالة .

وجَهِل عليه : أَظهر الجَهْل كتجاهل .

وهو جاهل .

والجمع جُهُل وجُهْل وجُهّل وجُهّال وجُهَلاءُ .

والجهل على ثلاثة أَضرب :

الأَول : خلوّ النّفس من العِلْم ، هذا هو الأَصل .

وقد جَعَل بعض المتكلّمين الجهل معنًى مقتضياً للأَفعال الخارجة عن النّظام ، كما جعل العِلْم معنًى مقتضياً للأَفعال الجارية على النّظام .

الثانى : اعتقاد الشئ على خلاف ما هو عليه .

الثالث : فعل الشئ بخلاف ما حقَّه أَن يُفعل ، سواءٌ اعتقد فيه اعتقاداً صحيحاً أَو فاسداً كنت يترك الصّلاة عمداً .

وعلى ذلك قوله ﴿ أَتَتَّخِذنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ .

فجعل فعل الهُزُو جهلاً .

والجاهل يُذكر تارة على سبيل الذمّ وهو الأَكثر ، وتارة لا على سبيل الذمّ نحو ﴿ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ التَّعَفُّفِ ﴾ أَى مَنْ لا يَعْرِف حالهم .

وليس المراد المتَّصف بالجهل المذموم .

والمَجْهل كَمَقْعد : الأَمر والأَرض والخَصْلة التى تحمل الإِنسان على الاعتقاد بالشئ بخلاف ما هو عليه .

واستجهلت الرّيح الغُصْن : حَرّكته كأَنها حملته على تعاطى الجهل .

وذلك استعارة حسنة .

والمَجْهلة : ما يحملك على الجهل .

والمِجْهَل والمِجْهلة - بكسر ميمهما - والْجَيْهَل والْجَيْهَلة : خَشَبَةٌ يُحَرّك بها الجَمْر . انتهى انتهى . اهـ ﴾ بصائر ذوى التمييز حـ 2 صـ 404.406 ﴾

(34/55)

ومن فوائد ابن كثير فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (67) ﴾

يقول تعالى : واذكروا - يا بني إسرائيل - نعمتي عليكم في خرق العادة لكم في شأن البقرة ، وبيان القاتل من هو بسببها وإحياء الله المقتول ، ونصه على من قتله منهم . [مسألة الإبل تنحر والغنم تذبح واختلفوا في البقر فقيل : تذبح ، وقيل : تنحر ، والذبح أولى لنص القرآن ولقرب منحرها من مذبحها . قال ابن المنذر : ولا أعلم خلافا صحيحًا بين ما ينحر أو نحر ما يذبح ، غير أن مالكا كره ذلك . وقد يكره الإنسان ما لا يحرم ، وقال أبو عبد الله : أعلم أن نزول قصة البقرة على موسى ، عليه السلام ، في أمر القتيل قبل نزول القسامة في التوراة . بسط القصة] (1) - كما قال ابن أبي حاتم - :

(35/55)

حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح، حدثنا يزيد بن هارون، أنبأنا هشام بن حسان، عن محمد بن سيرين، عن عبيدة السلماني، قال: كان رجل من بني إسرائيل عقيمًا لا يولد له، وكان له مال كثير، وكان ابن أخيه وارثه، فقتله ثم احتمله ليلا فوضعه على باب رجل منهم، ثم أصبح يدعيه عليهم حتى تسلحوا، وركب بعضهم إلى بعض، فقال ذوو الرأي منهم والنهى: علام يقتل بعضكم بعضًا وهذا رسول الله فيكم؟ فأتوا موسى، عليه السلام، فذكروا ذلك له، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ قال: فلو لم يعترضوا [البقر] لأجزأت عنهم أدنى بقرة، ولكنهم شددوا فشدد عليهم، حتى انتهوا إلى البقرة التي أمروا بذبحها فوجدوها عند رجل ليس له بقرة غيرها، فقال: والله لا أنقصها من ملء جلدها ذهبا، فأخذوها بملء جلدها ذهبًا فذبحوها، فضربوه ببعضها فقام فقالوا: من قتلك؟ فقال: هذا، لابن أخيه. ثم مال ميتًا، فلم يعط من ماله شيئًا، فلم يورث قاتل بعد.

(36/55)

ورواه ابن جرير من حديث أيوب ، عن محمد بن سيرين ، عن عبيدة بنحو من ذلك (1) والله أعلم .

ورواه عبد بن حميد في تفسيره : أنبأنا يزيد بن هارون ، به .

ورواه آدم بن أبي إياس في تفسيره ، عن أبي جعفر – هو الرازي – عن هشام بن حسان ، به . وقال آدم بن أبي إياس في تفسيره : أنبأنا أبو جعفر الرازي ، عن الربيع ، عن أبي العالية ، في قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً ﴾ قال : كان رجل من بني إسرائيل ، وكان غنيًا ، ولم يكن له ولد ، وكان له قريب وكان وارثه ، فقتله ليرثه ، ثم ألقاه على مجمع الطريق ، وأتى موسى ، عليه السلام ، فقال له : إن قريبي قتل وإني إلى أمر عظيم ، وإني لا أجد أحدًا يبين [لي] من قتله غيرك يا نبي الله . قال : فنادى موسى في الناس ، فقال : أنشد الله من كان عنده من هذا علم إلا بينه لنا ، [قال] : فلم يكن عندهم علم ، فأقبل القاتل على موسى عليه السلام ، فقال له : أنت نبي الله فاسأل لنا ربك أن يبين لنا ، فسأل ربه فأوحى الله إليه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً ﴾ فعجبوا من

---

(1) تفسير ابن أبي حاتم (214/1) وتفسير الطبري (337/1) .

ذلك ، فقالوا : ﴿ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ* قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ ﴾ يعني : لا هرمة ﴿ وَلَا بِكْرٌ ﴾ يعني : ولا صغيرة ﴿ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ ﴾ أي : نصف بين البكر والهرمة ﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا ﴾ أي : صاف لونها ﴿ تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴾ أي : تعجب الناظرين ﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ* قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ ﴾ أي : لم يذللها العمل ﴿ تُثِيرُ الْأَرْضَ ﴾ يعني : وليست بذلول تثير الأرض ﴿ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ ﴾ يقول : ولا تعمل في الحرث ﴿ مُسَلَّمَةٌ ﴾ يعني : مسلمة من العيوب ﴿ لَا شِيَةَ فِيهَا ﴾ يقول : لا بياض فيها ﴿ قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾ قال : ولو أن القوم حين أمروا أن يذبحوا بقرة ، استعرضوا بقرة من البقر فذبحوها ، لكانت إياها ، ولكنهم شددوا على أنفسهم فشدد عليهم ، ولولا أن القوم استثنوا فقالوا : ﴿ وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴾ لما هدوا إليها أبدًا . فبلغنا أنهم لم يجدوا البقرة التي نعتت لهم إلا عند عجوز عندها يتامى ، وهي القيمة عليهم ، فلما علمت أنه لا يزكو لهم غيرها ، أضعفت عليهم الثمن . فأتوا موسى فأخبروه أنهم لم يجدوا هذا النعت إلا عند فلانة ، وأنها سألتهم أضعاف ثمنها . فقال لهم موسى : إن الله قد كان خفف عليكم فشددتم على أنفسكم فأعطوها رضاها

وحكمها . ففعلوا ، واشتروها فذبحوها ، فأمرهم موسى ، عليه السلام ، أن يأخذوا عظمًا منها فيضربوا

(38/55)

به القتيل ، ففعلوا ، فرجع إليه روحه ، فسمى لهم قاتله ، ثم عاد ميتًا كما كان ، فأخذ قاتله - وهو الذي كان أتى موسى فشكا إليه [مقتله] - فقتله الله على أسوأ عمله .

وقال محمد بن جرير : حدثني ابن سعد حدثني أبي ، حدثني عمي ، حدثني أبي ، عن أبيه [عن جده] عن ابن عباس ، في قوله في شأن البقرة : وذلك أن شيخًا من بني إسرائيل على عهد موسى ، عليه السلام ، كان مكثرًا من المال ، وكان بنو أخيه فقراء لا مال لهم ، وكان الشيخ لا ولد له وبنو أخيه ورثته فقالوا : ليت عمنا قد مات فورثنا ماله ، وإنه لما تطاول عليهم ألا يموت عمهم ، أتاهم الشيطان فقال لهم : هل لكم إلى أن تقتلوا عمكم ، فترثوا ماله ، وتُغْرِمُوا أهل المدينة التي لستم بها ديته ، وذلك أنهما كانتا مدينتين ، كانوا في إحداهما وكان القتيل إذا قتل فطرح بين المدينتين قيس ما بين القتيل والقريتين فأيهما كانت أقرب إليه غرمت الدية ، وأنهم لما سول لهم الشيطان ذلك ، وتطاول عليهم ألا يموت عمهم عمدوا

إليه فقتلوه ، ثم عمدوا فطرحوه على باب المدينة التي ليسوا فيها . فلما أصبح أهل المدينة جاء بنو أخي الشيخ ، فقالوا : عمنا قتل على باب مدينتكم ، فوالله

(39/55)

لتغرمن لنا دية عمنا . قال أهل المدينة : نقسم بالله ما قتلنا ولا علمنا قاتلا ولا فتحنا باب مدينتنا منذ أغلق حتى أصبحنا . وإنهم عمدوا إلى موسى ، عليه السلام ، فلما أتوه قال بنو أخي الشيخ : عمنا وجدناه مقتولا على باب مدينتهم . وقال أهل المدينة : نقسم بالله ما قتلناه ولا فتحنا باب المدينة من حين أغلقناه حتى أصبحنا ، وإنه جبريل جاء بأمر السميع العليم إلى موسى ، عليه السلام ، فقال : قل لهم : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً ﴾ فتضربوه ببعضها .

(40/55)

وقال السدي : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً ﴾ قال : كان رجل من بني إسرائيل مكثرًا من المال وكانت له ابنة ، وكان له ابن أخ محتاج ، فخطب إليه ابن

أخيه ابنته ، فأبى أن يزوجه ، فغضب الفتى ، وقال : والله لأقتلن عمي ، ولآخذن ماله ، ولأنكحن ابنته ، ولآكلن ديته . فأتاه الفتى وقد قدم تجار في بعض أسباط بني إسرائيل ، فقال : يا عم انطلق معي فخذ لي من تجارة هؤلاء القوم ، لعلي أن أصيب منها فإنهم إذا رأوك معي أعطوني . فخرج العم مع الفتى ليلا فلما بلغ الشيخ ذلك السبط قتله الفتى ، ثم رجع إلى أهله . فلما أصبح جاء كأنه يطلب عمه ، كأنه لا يدري أين هو ، فلم يجده . فانطلق نحوه ، فإذا هو بذلك السبط مجتمعين عليه ، فأخذهم وقال : قتلتم عمي ، فأدوا إليّ ديته فجعل يبكي ويحثو التراب على رأسه ، وينادي : واعماه . فرفعهم إلى موسى ، فقضى عليهم بالدية ، فقالوا له : يا رسول الله ، ادع الله لنا حتى يبين لنا من صاحبه ، فيؤخذ صاحب الجريمة فوالله إن ديته علينا لهينة ، ولكنا نستحيي أن نعير به فذلك حين يقول الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ فقال لهم موسى ، عليه السلام : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً ﴾ قالوا : نسألك عن القتيل وعمن قتله ، وتقول : اذبحوا بقرة . أتهزأ بنا ! ﴿ قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ .

وكان رجل في بني إسرائيل ، من أبر الناس بأبيه ، وإن رجلا مر به معه لؤلؤ يبيعه ، وكان أبوه نائمًا تحت رأسه المفتاح ، فقال له الرجل : تشتري مني هذا اللؤلؤ بسبعين ألفًا ؟ فقال له الفتى : كما أنت حتى يستيقظ أبي فآخذه منك بثمانين ألفًا . فقال الآخر : أيقظ أباك وهو لك بستين ألفًا ، فجعل التاجر يحط له حتى بلغ ثلاثين ألفًا ، وزاد الآخر على أن ينتظر أباه حتى يستيقظ حتى بلغ مائة ألف ، فلما أكثر عليه قال : والله لا أشتريه منك بشيء أبدًا ، وأبى أن يوقظ أباه ، فعوضه الله من ذلك اللؤلؤ أن جعل له تلك البقرة ، فمرت به بنو إسرائيل يطلبون البقرة وأبصروا البقرة عنده ، فسألوه أن يبيعهم إياها بقرة ببقرة ، فأبى ، فأعطوه ثنتين فأبى ، فزادوه حتى بلغوا عشرا ، فأبى ، فقالوا : والله لا نتركك حتى نأخذها منك . فانطلقوا به إلى موسى ، عليه السلام ، فقالوا : يا نبي الله ، إنا وجدناها عند هذا فأبى أن يعطينا ها وقد أعطيناه ثمنًا فقال له موسى : أعطهم بقرتك . فقال : يا رسول الله ، أنا أحق بمالي . فقال : صدقت . وقال للقوم : أرضوا صاحبكم ، فأعطوه وزنها ذهبًا ، فأبى ، فأضعفوا له مثل ما أعطوه وزنها ، حتى أعطوه وزنها عشر مرات ذهبًا ، فباعهم إياها وأخذ ثمنها ، فذبحوها . قال : اضربوه ببعضها ، فضربوه بالبضعة التي بين الكتفين ، فعاش ، فسألوه : من قتلك ؟ فقال لهم : ابن أخي ، قال : أقتُلُهُ ، فآخذُ مالَه ، وأنكح ابنتَه . فأخذوا الغلام فقتلوه .

وقال سنيد : حدثنا حجاج، هو ابن محمد ، عن ابن جريج ، عن مجاهد ، وحجاج، عن أبي معشر ، عن محمد بن كعب القرظي ومحمد بن قيس – دخل حديث بعضهم في حديث بعض – قالوا : إن سبطًا من بني إسرائيل لما رأوا كثرة شرور الناس ، بنوا مدينة فاعتزلوا شرور الناس ، فكانوا إذا أمسوا لم يتركوا أحدًا منهم خارجًا إلا أدخلوه ، وإذا افتتحوا قام رئيسهم فنظر وأشرف ، فإذا لم ير شيئًا فتح المدينة ، فكانوا مع الناس حتى يمسوا . قال : وكان رجل من بني إسرائيل له مال كثير ، ولم يكن له وارث غير أخيه ، فطال عليه حياته فقتله ليرثه ، ثم حمله فوضعه على باب المدينة ، ثم كمن في مكان هو وأصحابه . قال : فأشرف رئيس المدينة على باب المدينة فنظر ، فلم ير شيئًا ففتح الباب ، فلما رأى القتيل رد الباب ، فناداه أخو المقتول وأصحابه : هيهات ! قتلتموه ثم تردون الباب . وكان موسى لما رأى القتل كثيرًا في أصحابه بني إسرائيل ، كان إذا رأى القتيل بين ظهراني القوم أخذهم ، فكاد يكون بين أخى المقتول وبين أهل المدينة قتال ، حتى لبس الفريقان السلاح ، ثم كف بعضهم عن بعض ، فأتوا موسى فذكروا له شأنهم . قالوا : يا رسول الله ، إن هؤلاء قتلوا قتيلا ثم ردوا الباب ، وقال أهل المدينة : يا رسول الله قد عرفت اعتزالنا الشرور وبنينا مدينة ، كما رأيت ، نعتزل شرور الناس ، والله ما قتلنا ولا علمنا قاتلا . فأوحى الله تعالى إليه أن يذبحوا بقرة فقال لهم موسى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً ﴾ .

وهذه السياقات [كلها] عن عبيدة وأبي العالية والسدي وغيرهم ، فيها اختلاف ما ، والظاهر أنها مأخوذة من كتب بني إسرائيل وهي مما يجوز نقلها ولكن لا نصدق ولا نكذب فلهذا لا نعتمد عليها إلا ما وافق الحق عندنا ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن كثير حـ 1 صـ 293 ـ 298 ﴾ . باختصار يسير .

ومن فوائد ابن عرفة فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةً . . . ﴾ .

قال ابن عرفة : هذا الأمر (على الوجوب) على تقدير عدم العفو من أولياء القتيل لأن ما يتوصّل (إلى الواجب) إلاّ به فهو واجب .

قوله تعالى : ﴿ قالوا أَتَتَّخِذنَا هُزُواً . . . ﴾ .

هذا على سبيل الغفلة والذهول من غير تأمل ، (وإن) قالوه بعد تأمل فهو كفر ، لأن نسبة الاستهزاء إلى النبيء كفر .

وقوله تعالى : ﴿ اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ من مجاز المقابلة كَ ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ اللَّهُ ﴾ لا أنه حقيقة ، وقُرِىء "يَتَّخِذنَا " بياء الغيبة ، فإن كان فاعله عائدا على الله تعالى فهو أشد في الكفر والتعنت ، وإن كان عائدا على موسى عليه السلام فهو أخف من (اقترانه) (بتاء) الخطاب لأنهم حينئذ (يكون) قالوا ذلك بعضهم لبعض في (حالة) غيبة موسى عنهم ، ولم يباشروه بهذه المقالة .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَعُوذُ بالله أَنْ أَكُونَ مِنَ الجاهلين ﴾ .

من باب نفي الشيء بنفي لازمه ، لأن الاستهزاء ملزوم للجهل فينتفي الأمران : الاستهزاء والجهل ، وجميع ما هو من لوازم الجهل ، ولو نفي الاستهزاء وحده لما نفي الجهل ولا ما (عد) من لوازمه .

قيل لابن عرفة : قد يكون الاستهزاء مع العلم ؟

فقال : من غير (النبيء أما من النبيء المعصوم) فَلاَ ، والاستعاذة بالله فيها إقرار بالتوحيد ونسبة كل الأمور إليه عز وجل .

قلت : ونظير الآية قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ السجن أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يدعونني إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ

عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الجاهلين ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عرفة صـ 324.323 ﴾

ومن فوائد الإمام القرطبى فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ موسى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً ﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ ﴾ حُكي عن أبي عمرو أنه قرأ "يَأْمُرُكُمْ" بالسكون ، وحذف الضمة من الراء لثقلها .

قال أبو العباس المبرد : لا يجوز هذا لأن الراء حرف الإعراب ، وإنما الصحيح عن أبي عمرو أنه كان يختلس الحركة .

﴿ أَنْ تَذْبَحُوا ﴾ في موضع نصب ب "يأمركم" ؛ أي بأن تذبحوا .

﴿ بَقَرَةً ﴾ نصب ب "تذبحوا" .

وقد تقدّم معنى الذبح ، فلا معنى لإعادته .

الثانية : قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً ﴾ مقدّم في التلاوة ، وقوله : " قَتَلْتُمْ نَفْساً " مقدّم في المعنى على جميع ما ابتدأ به من شأن البقرة .

ويجوز أن يكون قوله : " قتلتم " في النزول مقدّماً ، والأمر بالذبح مؤخراً .

ويجوز أن يكون ترتيب نزولها على حسب تلاوتها ؛ فكأن الله أمرهم بذبح البقرة حتى ذبحوها ثم وقع ما وقع من أمر القتل ، فأُمروا أن يضربوه ببعضها ؛ ويكون " وإذ قتلتم " مقدّماً في المعنى على القول الأوّل حسب ما ذكرنا ، لأن الواو لا توجب الترتيب .

ونظيره في التنزيل في قصة نوح بعد ذكر الطُّوفان وانقضائه في قوله : ﴿ حتى إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التنور قُلْنَا احمل فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثنين ﴾ إلى قوله : ﴿ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ [هود : 40] .

فذكر إهلاكَ من هلك منهم ثم عطف عليه بقوله : ﴿ وَقَالَ اركبوا فِيهَا بِسْمِ اللهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ﴾ [هود : 41] .

فذكر الركوب متأخراً في الخطاب ؛ ومعلومٌ أن ركوبهم كان قبل الهلاك .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ الحمد لِلَّهِ الذي أَنْزَلَ على عَبْدِهِ الكتاب وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا قَيِّماً ﴾ [الكهف : 1] .

وتقديره : أنزل على عبده الكتاب قَيِّماً ولم يجعل له عوجا ؛ ومثله في القرآن كثير .

الثالثة : لا خلاف بين العلماء أن الذّبح أوْلى في الغنم ، والنحر أوْلى في الإبل ، والتخيّر في

البقر .

وقيل : الذبح أوْلى ؛ لأنه الذي ذكره الله ، ولقُرب المنحرَ من المذبح .

قال ابن المنذر : لا أعلم أحداً حَرّم أكل ما نُحر مما يُذبح ، أو ذُبح مما يُنحر .

وكره مالك ذلك .

وقد يكره المرء الشيء ولا يحرّمه .

وسيأتي في سورة " المائدة" أحكام الذبح والذابح وشرائطهما عند قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ ﴾ مستوفىً إن شاء الله تعالى .

قال الماوردي : وإنما أمروا والله أعلم بذبح بقرة دون غيرها ؛ لأنها من جنس ما عبدوه من العجل ليهوّن عندهم ما كان يرونه من تعظيمه ، وليعلم بإجابتهم ما كان في نفوسهم من عبادته .

وهذا المعنى علّة في ذبح البقرة ، وليس بعلة في جواب السائل ؛ ولكن المعنى فيه أن يحيا القتيل بقتل حيّ ، فيكون أظهر لقدرته في اختراع الأشياء من أضدادها .

الرابعة : قوله تعالى : ﴿ بَقَرَةً ﴾ البقرة اسم للأنثى ، والثَّور اسم للذكر ؛ مثل ناقة وجمل ،

وامرأة ورجل .

وقيل : البقرة واحد البقر ؛ الأنثى والذكر سواء .

وأصله من قولك : بقَرَ بطنه ؛ أي شقه ؛ فالبقرة تشقّ الأرض بالحرث وتثيره .

ومنه الباقر لأبي جعفر محمد بن علي زين العابدين ؛ لأنه بَقَر العلم وعرف أصله ، أي شقّه .

والبَقِيرة : ثوب يُشقّ فتلقيه المرأة في عنقها من غير كُمَّين .

وفي حديث ابن عباس في شأن الهُدهد " فبقر الأرض " .

قال شَمِر : بَقَر نَظَر موضع الماء ، فرأى الماء تحت الأرض .

قال الأزهريّ : البقر اسم للجنس وجمعه باقر .

ابن عرفة : يقال بقير وباقر ويَبْقور .

وقرأ عكرمة وابن يَعمر " إن الباقر " .

والثَّور : واحد الثيران .

والثّور : السيّد من الرجال .

والثّور القطعة من الأَقِطِ .

والثّور : الطُّحْلُب .

وثَوْر : جبل .

وثَوْر : قبيلة من العرب .

وفي الحديث : " ووقت العشاء ما لم يغب ثَور الشّفق " يعني انتشاره ؛ يقال : ثار يثور ثوراً وثوراناً إذا انتشر في الأفق .

وفي الحديث : " من أراد العلم فَلْيُثَوِّر القرآن " قال شَمِر : تثوير القرآن قراءته ومفاتشة العلماء به .

قوله تعالى : ﴿ قالوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً ﴾ هذا جواب منهم لموسى عليه السلام لما قال لهم : ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً ﴾ وذلك أنهم وجدوا قتيلاً بين أظهرهم قيل : اسمه عاميل واشتبه أمر قاتله عليهم ، ووقع بينهم خلاف ؛ فقالوا : نقتتل ورسول الله بين أظهرنا ؛ فأَتَوْه وسألوه البيان وذلك قبل نزول القَسَامة في التوراة ، فسألوا موسى أن يدعو الله فسأل موسى عليه السلام ربه فأمرهم بذبح بقرة ؛ فلما سمعوا ذلك من موسى وليس في ظاهره جواب عما سألوه عنه واحتكموا فيه عنده ؛ قالوا : أتتخذنا هزؤاً ؟ والهزء : اللّعب والسُّخرية ؛ وقد تقدّم .

وقرأ الجحدَرِي " أيتخذنا " بالياء ؛ أي قال ذلك بعضهم لبعض فأجابهم موسى عليه السلام

بقوله : ﴿ أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الجاهلين ﴾ لأن الخروج عن جواب السائل المسترشد إلى الهزء جهل ؛ فاستعاذ منه عليه السلام ؛ لأنها صفة تنتفي عن الأنبياء .

والجهل نقيض العلم .

فاستعاذ من الجهل ، كما جهلوا في قولهم : أتتخذنا هزؤاً ؛ لمن يخبرهم عن الله تعالى ، وظاهر هذا القول يدلّ على فساد اعتقاد مَن قاله .

ولا يصحّ إيمان مَن قال لنبيٍّ قد ظهرت معجزته ، وقال : إن الله يأمرك بكذا : أتتّخذنا هُزُوًا ؟ ولو قال ذلك اليوم أحد عن بعض أقوال النبيّ صلى الله عليه وسلم لوجب تكفيره .

وذهب قوم إلى أن ذلك منهم على جهة غلظ الطبع والجفاء والمعصية ؛ على نحو ما قال القائل للنبيّ صلى الله عليه وسلم في قسمة غنائم حُنَين : إن هذه لَقِسمةٌ ما أريد بها وجه الله .

وكما قال له الآخر : اعدل يا محمد .

وفي هذا كلّه أدلّ دليل على قبح الجهل ، وأنه مفسد للدّين .

قوله تعالى : ﴿ هُزُواً ﴾ مفعول ثان ، ويجوز تخفيف الهمزة تجعلها بين الواو والهمزة .

وجَعَلَها حَفْص واواً مفتوحة ، لأنها همزة مفتوحة قبلها ضمة فهي تجري على البدل ؛ كقوله : " السفهاء ولكن " .

ويجوز حذف الضمة من الزاي كما تحذفها من عَضُد ، فتقول : هزْؤاً ، كما قرأ أهل الكوفة ؛ وكذلك : ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص : 4] .

وحكى الأخفش عن عيسى بن عمر أن كل اسم على ثلاثة أحرف أوّله مضموم ففيه لغتان : التخفيف والتثقيل ؛ نحو العسر واليسر والهزء .

ومثله ما كان من الجمع على فُعْل ككُتُب وكُتْب ، ورُسُل ورُسْل ، وعُوُن وعُوْن .

وأما قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا ﴾ [الزخرف : 15] فليس مثل هزء وكفء ؛ لأنه على فُعْل من الأصل .

على ما يأتي في موضعه إن شاء الله تعالى .

مسألة : في الآية دليل على منع الاستهزاء بدين الله ودين المسلمين ومن يجب تعظيمه ، وأن ذلك جهل وصاحبه مستحقّ للوعيد .

وليس المُزاح من الاستهزاء بسبيل ؛ ألاَ ترى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يمزح والأئمة بعده .

قال ابن خُوَيْزِ مَنْداد : وقد بلغنا أن رجلاً تقدّم إلى عبيد اللَّه بن الحسن وهو قاضي الكوفة فمازحه عبيد الله فقال : جُبّتُك هذه من صوف نعجة أو صوف كَبْش ؟ فقال له : لا تجهل أيها القاضي ! فقال له عبيد الله : وأين وجدت المزاح جهلا ! فتلاَ عليه هذه الآية ؛

فأعرض عنه عبيد اللَّه ؛ لأنه رآه جاهلاً لا يعرف المزح من الاستهزاء ، وليس أحدهما من الآخر بسبيل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 1 صـ 444. 447 ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

والجمهور على ضم الرَّاء في "يَأْمُرُكم " ؛ لأنه مضارع معرب مُجَرّد عن ناصب وجازم ، وروي عن أبي عمرو سكونها سكوناً محضاً ، واختلاس الحركة ، وذلك لتوالي الحركات ، لأن الراء حرف تكرير ، فكأنها حرفان ، وحركتها حركتان .

وقيل : شبَّهها بـ " عَضْد " فَسُكّن أوسطه إجراء للمنفصل مجرى المتصلن وهذا كما تقدم في قراءة ﴿ بَارِئِكُمْ ﴾ [البقرة : 54] وقد تقدم ذكر من استضعفها من النُّحَاة ، وتقدّم ذكر الأجوبة عنه .

ويجوز إبدال همزة "يَأْمُرُكمْ " ألفاً ، وهذا مطرد .

و " يأمركم " هذه الجُمْلة في محلّ رفع خبر لـ " إن " ، و " إن " وما في حيّزها في محلّ نصب مفعولاً بالقول ، والقول وما في حيّزه في محلّ جرّ بإضافة الظرف إليه ، والظرف معمول لفعل

محذوف أى : اذكر .

قوله : ﴿ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً ﴾ أن وما حيّزها مفعول ثانٍ لـ " يأمركم " ، فموضعها يجوز أن يكون نصباً ، وأن يكون جرّاً على ما مضى من الخلاف ، لأن الأصل على إسقاط حرف الجر أي بأن تَذْبَحُوا ، يجوز أن يوافق الخليل هنا على أن موضعها نصب ؛ لأن هذا الفعل يجوز حذف الباء معه ، ولو لم تكن الباء في " أن " نحو : " أمرتكم الخير " .

و" البقرة " واحدة البقر ، تقع على الذّكر والأنثى نحو : " حَمَامة " ، والصّفة تميز الذّكر من الأنثى ، تقول : بقرة ذكر ، وبقرة أنثى .

وقيل : بقرة اسم للأنثى خاصّة من هذا الجنس مقابل الثور ، نحو : نَاقَة وجَمَل ، وأَتَان وحِمَار .

وسمي هذا الجنس بذلك ، لأنه يَبْقُر الأرض ، أي : يشقّها بالحرث ، ومنه : بَقَرَ بطنه ، والباقر أبو جعفر ، لشقّه العلم ، والجمع " بَقَر وبَاقِر وبَيْقُور وبَقِير " .

و" البَقِيرة " : ثوب يشقّ فتلقيه المرأة في عنقها من غير كُمَّين .

قوله : " أَتَتَّخِذُنَا هُزواً " المفعول الثاني لـ " أتتخذنا " هو " هُزواً " ، وفي وقوع " هزواً " مفعولاً ثانياً ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه على حَذْف مضاف ، أي : ذوي هزء .

الثاني : أنه مصدر واقع المفعول به ، أي مهزوءاً بنا .

الثالث : أنهم جعلوا نفس الهزء مُبَالغة .

وهذا أولى .

وقال الزمخشري : وبدأ بـ " أَتَجْعَلُنَا " مكان هُزْءٍ ، وهو قريب من هذا .

وفي " هزواً " ستّ قراءات ، المشهور منها ثلاث : " هُزُؤًا " بضمتين مع الهمز ، و" هُزْءًا " بسكون الزَّاي مع الهمز وصلاً ، وهي قراءة حمزة رحمه الله ، فإذا وقف أبدلها واواً ، وليس قياس تخفيفها ، وإنما قياسه إلقاء حركتها على الساكن قبلها .

وإنما اتبع رسْمَ المصحف ، فإنها رسمت فيه " واو " ، ولذلك لم يُبْدِلها في " جزءاً " واواً وقفاً لأنها لم تُرْسَم فيه واواً كما سيأتين وقراءته أصلها الضم كقراءة الجماعة إلاّ أنه خُفِّفَ كقولهم في عنق : عُنْق .

وقيل : بل هي أصل بنفسها ليست مخففةً من ضم .

كى مكّي عن الأخفش عن عيسى بن عمر : " كل اسم ثلاثي أوله مضموم يجوز فيه لغتانك التخفيف والتثقيل " .

و" هُزُواً " بضمتين مع الواو وصلاً ووقفاً ، وهي قراءة حفص عن عاصم ، كأنه أبدل الهمزة

واواً تخفيفاً ، وهو قياس مطرد في كل همزة مفتوحة مضموم ما قبلها نحو : جُوَن في جُؤن ، وحكم [كُفْواً] في قوله : ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص : 4] حكم " هزواً " في جميع ما تقدم قراءةً وتوجيهاً .

و " هْزاً " بإلقاء حركة الهمزة على الزاي وحذفها ، وهو أيضاً قياس مطرد .

و " هُزْواً " بسكون العين مع الواو .

و " هُزًّا " بتشديد لزاي من غير همزة ، ويروى عن أبي جعفر [وتقدم معنى " الهزء " في أول سورة] .

وقال الثعلبي في تفسيره : قرىء : " هُزُؤًا " و " كُفُؤًا " مثقلات ومهموزات ، وهي قراءة أبي عمرو وأهل " الشام " و " الحجاز " واختار الكسائي ، وأبو عبيد ، وأبو حاتم " هُوُزًا " و " كُفُوًّا " مثقلات بغير همز قال : وكلّها لغات صحيحة فصيحة معناها : الاستهزاء .

قوله : " أَنْ أَكُونَ " أي من أن أكون ، فيجيء فيه الخلاف المعروف .

و " مِنَ الْجَاهِلِيْنَ " خبرها ، وهو أبلغ من قولك : أن أكون جاهلاً .

فإن المعنى أنّ انتظم في سلك قوم اتصفوا بالجهل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 2 صـ 153 . 157 ﴾ . باختصار .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً ﴾ .

كان الواجب عليهم استقبال الأمر بالاعتناق ولكنهم تعللوا ببقاء الأشكال توهماً بأن يكون لهم (. . .) تُفضِي بالإخلاد إلى الاعتدال عن عهدة الإلزام فتضاعفت عليهم المشقة وحل بهم ما حَذِرُوه من الافتضاح . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 97 ﴾

(51/55)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (67) ﴾

تعرضنا إلى هذه الآية الكريمة في بداية سورة البقرة . . لأن السورة سميت بهذا الاسم . .

ونلاحظ هنا أن الله سبحانه وتعالى أتى بحرف : " وإذ " . . يعني واذكروا : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً ﴾ . . ولم يقل لماذا أمرهم بأن يذبحوا البقرة . .

ولابد أن نقرأ الآيات إلى آخر القصة لنعرف السبب في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً

فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ * فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: 72-73]

والمفروض في كل الأمور أن الأمر تسبقه علته . . ولكن هذه عظمة القرآن الكريم . . لأن السؤال عن العلة أولا معناه أن الأمر صادر من مساو لك . . فإذا قال لك إنسان إفعل كذا . . تسأله لماذا حتى أطيع الأمر وأنفذه . . إذن الأمر من المساوي هو الذي تسأل عن علته . . ولكن الأمر من غير المساوي . . كأمر الأب لإبنه والطبيب لمريضه والقائد لجنوده . . مثل هذا الأمر لا يسأل عن علته قبل تنفيذه . . لأن الذي أصدره أحكم من الذي صدر إليه الأمر . . ولو أن كل مكلف من الله أقبل على الأمر يسأل عن علته أولا . . فيكون قد فعل الأمر بعلته . فكأنه قد فعله من أجل العلة . . ومن هنا يزول الإيمان . . ويستوي أن يكون الإنسان مؤمنا أو غير مؤمن . . ويكون تنفيذ الأمر بلا ثواب من الله . .

إن الإيمان يجعل المؤمن يتلقى الأمر من الله طائعا . . عرف علته أو لم يعرف . . ويقوم بتنفيذه لأنه صادر من الله . . ولذلك فإن تنفيذ أي أمر إيماني يتم لأن الأمر صادر من الله . . وكل تكليف يأتي . . علة حدوثه هي الإيمان بالله . . ولذلك فإن الحق سبحانه وتعالى يبدأ كل

تكليف بقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ﴾ . . أي يا من آمنت بالله ربا وإلها وخالقا . . خذ عن الله وافعل لأنك آمنت بمن أمرك .

في هذه الآيات التي نحن بصددها أراد الله تعالى أن يبين لنا ذلك . فجاء بالأمر بذبح البقرة أولا . . وبالعلة في الآيات التي روت لنا علة القصة . . وأنت حين تعبد الله فكل ما تفعله هو طاعة لله سبحانه وتعالى . . سواء عرفت العلة أو لم تعرفها ؛ فأنت تؤدي الصلاة لأن الله تبارك وتعالى أمرك بأن تصلي . . فلو أديت الصلاة على أنها رياضة أو أنها وسيلة للاستيقاظ المبكر . . أو أنها حركات لازمة لليونة المفاصل فإن صلاتك تكون بلا ثواب ولا أجر . . إن أردت الرياضة فاذهب إلى أحد النوادي وليدربك أحد المدربين لتكون الرياضة على أصولها .

. وأن أردت اللياقة البدنية فهناك ألف طريقة لذلك . . وإن أردت عبادة الله كما أمرك الله فلتكن صلاتك التي فرضها الله عليك لأن الله فرضها . . وكذلك كل العبادات الأخرى . .

الصوم ليس شعورا بإحساس الجائع . . ولا هو طريقة لعمل الرجيم ولكنه عباده . . إن لم تصم تنفيذا لأمر الله بالصوم فلا ثواب لك . . وإن جعلت للصيام أي سبب إلا العبادة فإنه صيام لا يقبله الله . . والله أغنى الشركاء عن الشرك . . فمن أشرك معه أحدا ترك الله عمله لمن أشركه . . وكذلك كل العبادات .

هذا هو المفهوم الإيماني الذي أراد الله سبحانه وتعالى أن يلفتنا إليه في قصة بقرة بني إسرائيل . . ولذلك لم يأت بالعلة أو السبب أولا . . بل أتى بالقصة ثم أخبرنا سبحانه في آخرها عن السبب . . وسواء أخبرنا الله عن السبب أو لم يخبرنا فهذا لا يغير في إيماننا بحقيقة ما حدث . . وإن القصة لها حكمة وإن خفيت علينا فهي موجودة .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً ﴾ . . أعطى الله تبارك وتعالى الأمر أولا ليختبر قوة إيمان بني إسرائيل . . ومدى قيامهم بتنفيذ التكليف دون تلكؤ أو تمهل . . ولكنهم بدلا من أن يفعلوا ذلك أخذوا في المساومة والتباطؤ : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ ﴾ . . كلمة قوم تطلق على الرجال فقط . . ولذلك يقول القرآن الكريم : ﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْراً مِّنْهُمْ وَلاَ نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ ﴾ [الحجرات : 11]

إذن قوم هم الرجال . . لأنهم يقومون على شئون أسرهم ونسائهم . . ولذلك يقول الشاعر العربي : وما أدري ولست أخال أدري أَقَوْمٌ آل حصنٍ أم نساءُ فالقوامة للرجال . . والمرأة حياتها مبنية على الستر في بيتها . . والرجال يقومون لها بما تحتاج إليه من شئون . .

والمفروض أن المرأة سكن لزوجها وبيتها وأولادها وهي في هذا لها مهمة أكبر من مهمة الرجال . . قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ ﴾ . . الأمر طلب فعل . وإذا كان الآمر أعلى من المأمور نسميه أمرا . . وإذا كان مساويا له نسميه إلتماسا . . وإذا كان إلى أعلى نسميه رجاء ودعاء . . على أننا لابد أن نلتفت إلى قوله تعالى على لسان زكريا : ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ﴾[آل عمران : 38]

هل هذا أمر من زكريا ؟ طبعا لا . لأنه دعاء والدعاء رجاء من الأدنى إلى الأعلى . . قوله تعالى : ﴿ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ ﴾ . . لو أن إنسانا يعقل أدنى عقل ثم يطلب منه أن يذبح بقرة . . أهذه تحتاج إلى إيضاح ؟ لو كانوا ذبحوا بقرة لكان كل شيء قد تم دون أي جهد . . فما دام الله قد طلب منهم أن يذبحوا بقرة . . فكل ما عليهم هو التنفيذ . .

ولكن أنظر إلى الغباء حتى في السؤال . . إنهم يريدون أن يفعلوا أي شيء لإبطال التكليف . . لقد قالوا لموسى نبيهم إنك تهزأ بنا . . أي أنهم استنكروا أن يكلفهم الله تبارك وتعالى بذبح بقرة على إطلاقها دون تحديد . . فاتهموا موسى أنه يهزأ بهم . . كأنهم يرون أن المسألة صعبة على الله سبحانه وتعالى . . لا يمكن أن تحل بمجرد ذبح بقرة . . وعندما

سمع موسى كلامهم ذهل . . فهل هناك نبي يهزأ بتكليف من تكليفات الله تبارك وتعالى . . أينقل نبي الله لهم أمرا من أوامر الله جل جلاله على سبيل الهزل ؟

هنا عرف موسى أن هؤلاء اليهود هم جاهلون . . جاهلون بربهم وبرسولهم وجاهلون بآخرتهم . . وأنهم يحاولون أن يأخذوا كل شيء بمقاييسهم وليس بمقاييس الله سبحانه وتعالى . . فاتجه إلى السماء يستعيذ بالله من هؤلاء الجاهلين . . الذين يأتيهم اليسر فيريدونه عسرا . ويأتيهم السهل فيريدونه صعبا . . ويطلبون من الله أن يعنتهم وأن يشدد عليهم وأن يجعل كل شيء في حياتهم صعبا وشاقا . انتهى انتهى . اهـ ﴾ تفسير الشعراوى صـ 388 . 391 ﴾

(55/55)

قوله تعالى ﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ (68) ﴾

فصل

قال البقاعى :

﴿ قالوا ﴾ تمادياً في الغلظة ﴿ ادع لنا ربك ﴾ أي المحسن إليك فكان تخصيصهم له

بالإضافة غاية في الجفاء "يبين" من التبيين وهو اقتطاع الشيء ، والمعنى مما يلابسه ويداخله – قاله الحرالي .

والمراد المبالغة في البيان بما يفهمه صيغة التفعيل "لنا ما هي" تلك البقرة "قال إنه يقول" .

ولما كانوا يتعنتون أكد فقال ﴿ إنها بقرة لا فارض ﴾ أي مسنة فرضت سنها أي قطعتها ﴿ ولا بكر ﴾ أي فتية صغيرة ﴿ عوان ﴾ أي نصف وهو خبر مبتدأ محذوف ، وبين هذا الخبر بقوله ﴿ بين ذلك ﴾ أي سني الفارض والبكر ﴿ فافعلوا ما تؤمرون ﴾ فإن الاعتراض على من يجب التسليم له كفر فلم يفعلوا بل سألوا بيان اللون بعد بيان السن بأن ﴿ قالوا ادع لنا ربك ﴾ تمادياً في الجفاء بعدم الاعتراف بالإحسان ﴿ يبين لنا ما لونها ﴾ بعد بيان سنها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 169 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أن القوم سألوا موسى عليه السلام عن أمور ثلاثة مما يتعلق بالبقرة :

السؤال الأول : ما حكى الله تعالى عنهم أنهم : ﴿ قَالُواْ ادعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنَ لَّنَا مَا هِيَ ﴾ فأجاب موسى عليه السلام بقوله : ﴿ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذلك فافعلوا مَا تُؤْمَرونَ ﴾ واعلم أن في الآية أبحاثاً :

الأول : أنا إذا قلنا إن قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةً ﴾ يدل على الأمر بذبح بقرة معينة في نفسها غير مبين التعيين حسن موقع سؤالهم ، لأن المأمور به لما كان مجملاً حسن الاستفسار والاستعلام .

أما على قول من يقول : إنه في أصل اللغة للعموم فلا بد من بيان أنه ما الذي حملهم على هذا الاستفسار ؟ وفيه وجوه .

أحدها : أن موسى عليه السلام لما أخبرهم بأنهم إذا ذبحوا البقرة وضربوا القتيل ببعضها صار حياً تعجبوا من أمر تلك البقرة ، وظنوا أن تلك البقرة التي يكون لها مثل هذه الخاصة لا تكون إلا بقرة معينة ، فلا جرم استقصوا في السؤال عن وصفها كعصا موسى المخصوصة من بين سائر العصي بتلك الخواص ، إلا أن القوم كانوا مخطئين في ذلك ، لأن هذه الآية العجيبة ما كانت خاصية البقرة ، بل كانت معجزة يظهرها الله تعالى على يد موسى عليه السلام .

وثانيها : لعل القوم أرادوا بقرة ، أي بقرة كانت ، إلا أن القاتل خاف من الفضيحة ، فألقى الشبهة في التبيين وقال المأمور به بقرة معينة لا مطلق البقرة ، لما وقعت المنازعة فيه ، رجعوا عند ذلك إلى موسى .

وثالثها : أن الخطاب الأول وإن أفاد العموم إلا أن القوم أرادوا الاحتياط فيه ، فسألوا طلباً

لمزيد البيان وإزالة لسائر الاحتمالات ، إلا أن المصلحة تغيرت واقتضت الأمر بذبح البقرة المعينة .

(57/55)

البحث الثاني : أن سؤال " ما هي " طلب لتعريف الماهية والحقيقة ، لأن " ما " سؤال ، و " هي " إشارة إلى الحقيقة ، فما هي لا بد وأن يكون طلباً للحقيقة وتعريف الماهية والحقيقة لا يكون إلا بذكر أجزائها ومقدماتها لا بذكر صفاتها الخارجة عن ماهيتها ، ومعلوم أن وصف السن من الأمور الخارجة عن الماهية فوجب أن لا يكون هذا الجواب مطابقاً لهذا السؤال : والجواب عنه : أن الأمر وإن كان كما ذكرتم لكن قرينة الحال تدل على أنه ما كان مقصودهم من قولهم : ما البقر طلب ماهيته وشرح حقيقته بل كان مقصودهم طلب الصفات التي بسببها يتميز بعض البقر عن بعض ، فلهذا حسن ذكر الصفات الخارجة جواباً عن هذا السؤال .

البحث الثالث : قال صاحب " الكشاف " : الفارض المسنة وسميت فارضاً لأنها فرضت سنها ، أي قطعتها وبلغت آخرها ، والبكر : الفتية والعوان النصف ، قال القاضي : أما البكر ، فقيل : إنها الصغيرة وقيل ما لم تلد ، وقيل : إنها التي ولدت مرة واحدة ، قال

المفضل بن سلمة (الضبي) : إنه ذكر في الفارض أنها المسنة وفي البكر أنها الشابة وهي من النساء التي لم توطأ ومن الإبل التي وضعت بطناً واحداً .

قال القفال : البكر يدل على الأول ومنه الباكورة لأول الثمر ومنه بكرة النهار ويقال : بكرت عليهما البارحة إذا جاء في أول الليل ، وكأن الأظهر أنها هي التي لم تلد لأن المعروف من اسم البكر من الإناث في بني آدم ما لم ينز عليها الفحل ، وقال بعضهم : العوان التي ولدت بطناً بعد بطن .

وحرب عوان : إذا كانت حرباً قد قوتل فيها مرة بعد مرة ، وحاجة عوان : إذا كانت قد قضيت مرة بعد مرة .

البحث الرابع : احتج العلماء بقوله تعالى : ﴿ عَوَانٌ بَيْنَ ذلك ﴾ على جواز الاجتهاد واستعمال غالب الظن في الأحكام إذ لا يعلم أنها بين الفارض والبكر إلا من طريق الاجتهاد وههنا سؤالان :

الأول : لفظة " بين " تقتضي شيئين فصاعداً فمن أين جاز دخوله على ذلك ؟ الجواب : لأنه في معنى شيئين حيث وقع مشاراً به إلى ما ذكر من الفارض والبكر .

السؤال الثاني : كيف جاز أن يشار بلفظه : (ذلك) إلى مؤنثين مع أنه للإشارة إلى واحد مذكر ؟ الجواب : جاز ذكر ذلك على تأويل ما ذكر أو ما تقدم للاختصار في الكلام . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 109. 110 ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ ادعُ لَنَا رَبَّكَ ﴾ هذا تعنيت منهم وقلّة طواعية ؛ ولو امتثلوا الأمر وذبحوا أيّ بقرة كانت لحصل المقصود ، لكنهم شدّدوا على أنفسهم فشدّد الله عليهم ؛ قاله ابن عباس وأبو العالية وغيرهما .

ونحو ذلك روى الحسن البصريّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم .

ولغة بني عامر " ادع" وقد تقدم .

و ﴿ يُبَيِّنَ ﴾ مجزوم على جواب الأمر .

﴿ مَا هِيَ ﴾ ابتداء وخبر .

وماهِيّة الشيء : حقيقته وذاته التي هو عليها .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذلك ﴾ في هذا دليل على جواز النسخ قبل وقت الفعل ؛ لأنه لما أمر ببقرة اقتضى أيّ بقرة كانت ، فلما زاد في الصفة نسخ الحكم الأوّل بغيره ؛ كما لو قال : في ثلاثين من الإبل بنتُ مَخَاض ، ثم نَسَخه بابنة لَبُون أو حِقة .

وكذلك ها هنا لما عيّن الصفة صار ذلك نسخاً للحكم المتقدّم.

والفارض: المُسِنّة.

وقد فَرَضَت تَفْرِض فروضاً؛ أي أسَنَّت.

ويقال للشيء القديم فارض؛ قال الراجز:

شَيّبَ أصداغِي فرأسِي أبيضُ . . .

مَحامِلٌ فيها رجال فُرّضُ

يعني هَرْمَي؛ قال آخر:

لَعَمرُك قد أعطيتَ جارك فارضاً . . .

تُساق إليه ما تقوم على رِجْلِ

أي قديماً؛ وقال آخر:

يا رُبّ ذي ضِغْن عليّ فارِض . . .

له قُروء كقُروء الحائِض

أي قديم.

و﴿لَّا فَارِضٌ﴾ رفع على الصفة لبقرة.

﴿وَلَا بِكْرٌ﴾ عطف.

وقيل : ﴿ لاَّ فَارِضٌ ﴾ خبر مبتدأ مضمر ؛ أي لا هي فارض وكذا " لا ذلول " ، وكذلك " لاَ تَسْقِي الْحَرْثَ" وكذلك " مُسَلَّمَةٌ" فاعلمه .

وقيل : الفارض التي قد ولدت بطوناً كثيرة فيتّسع جَوْفها لذلك ؛ لأن معنى الفارض في اللغة الواسع ؛ قاله بعض المتأخرين .

والبِكر : الصغيرة التي لم تحمل .

وحكى القُتَبِيّ أنها التي ولدت .

والبكر : الأوّل من الأولاد ؛ قال :

يا بِكْرِ بِكْرَيْنِ ويا خِلْبَ الكَبِدْ . . .

أصبحتَ مِنّي كذراعٍ مِن عَضُدْ

والبِكْرُ أيضاً في إناث البهائم وبني آدم : ما لم يَفْتَحِلْه الفحل ؛ وهي مكسورة الباء .

وبفتحها الفَتِيّ من الإبل .

والعَوَان : النَّصَف التي قد ولدت بطناً أو بطنين ؛ وهي أقوى ما تكون من البقر وأحسنه ، بخلاف الخيل ؛ قال الشاعر يصف فرساً :

كُمَيْت بَهِيم اللّوْنِ ليس بفارضٍ . . .

ولا بِعَوان ذاتِ لَوْنٍ مُخَصّفِ

فرس أَخْصَف : إذا ارتفع البَلَق من بطنه إلى جنبه .

وقال مجاهد : العَوَان من البقر هي التي قد ولدت مَرّة بعد مَرّة .

وحكاه أهل اللغة .

ويقال : إن العَوَان النّخلة الطويلة ؛ وهي فيما زعموا لغة يمانية .

وحَرْبٌ عَوَانٌ : إذا كان قبلها حَرْب بِكرٌ ؛ قال زُهير :

إذا لَقِحتْ حربٌ عَوانٌ مُضِرّةٌ . . .

ضَروسٌ تُهِرّ الناسَ أنيابُها عُصْلُ

أي لا هي صغيرة ولا هي مُسِنّة ؛ أي هو عَوان ، وجمعها " عُوْنٌ" بضم العين وسكون الواو ؛

وسُمع " عُوُن" بضم الواو كرُسُل . وقد تقدم .

وحكى الفَرّاء من العوان عَوَنت تَعْوينا ً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 1 صـ 449.448 ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ ﴾

جيء في مراجعتهم لنبيهم بالطريقة المألوفة في حكاية المحاورات ، وهي طريقة حذف العاطف بين أفعال القول وقد بيناها لكم في قصة خلق آدم .

ومعنى ﴿ ادع لنا ﴾ يحتمل أن يراد منه الدعاء الذي هو طلب بخضوع وحرص على إجابة المطلوب فيكون في الكلام رغبتهم في حصول البيان لتحصيل المنفعة المرجوة من ذبح بقرة مستوفية للصفات المطلوبة في القرابين المختلفة المقاصد ، بنوه على ما ألفوه من الأمم عبدة الأوثان من اشتراط صفات وشروط في القرابين المقربة تختلف باختلاف المقصود من الذبيحة ، ويحتمل أنهم أرادوا مطلق السؤال فعبروا عنه بالدعاء لأنه طلب من الأدنى إلى الأعلى ، ويحتمل أنهم أرادوا من الدعاء النداء الجهير بناء على وهمهم أن الله بعيد المكان ، فسائله يجهر بصوته ، وقد نهي المسلمون عن الجهر بالدعاء في صدر الإسلام .

واللام في قوله ﴿ لنا ﴾ لام الأجل أي ادع عنا ، وجزم ﴿ يبين ﴾ في جواب ﴿ ادع ﴾ لتنزيل المسبب منزلة السبب ، أي إن تدعه يسمع فيبين وقد تقدم .

وقوله : ﴿ ما هي ﴾ حكى سؤالهم بما يُدل عليه بالسؤال بـ (ما) في كلام العرب وهو السؤال عن الصفة لأن (ما) يسأل بها عن الصفة ، كما يقول من يسمع الناس يذكرون حاتماً أو الأحنف وقد علم أنهما رجلان ولم يعلم صفتيهما ما حاتم ؟ أو ما الأحنف ؟ فيقال : كريم أو حليم .

وليس (ما) موضوعة للسؤال عن الجنس كما توهمه بعض الواقفين على كلام " الكشاف " فتكلفوا لتوجيهه حيث إن جنس البقرة معلوم بأنهم نزلوا هاته البقرة المأمور بذبحها منزلة

فرد من جنس غير معلوم لغرابة حكمة الأمر بذبحها وظنوا أن الموقع هنا للسؤال بـ (أي) أو (كيف) وهو وهم نبه عليه التفتازاني في " شرح الكشاف" واعتضد له بكلام " المفتاح" إذ جعل الجنس والصفة قسمين للسؤال بما .

والحق أن المقام هنا للسؤال بما لأن أيًّا إنما يسأل بها عن مميز الشيء عن أفراد من نوعه التبستْ به وعلامة ذلك ذكر المضاف إليه مع أي نحو : ﴿ أي الفريقين خير ﴾ [مريم : 73] وأي البقرتين أعجبتك وليس لنا هنا بقرات معينات يراد تمييز إحداها .

(61/55)

وقوله : ﴿ قال إنه يقول إنها بقرة ﴾ أكد مقول موسى ومقول الله تعالى بإن لمحاكاة ما اشتمل عليه كلام موسى من الاهتمام بحكاية قول الله تعالى فأكده بإن ، وما اشتمل عليه مدلول كلام الله تعالى لموسى من تحقيق إرادته ذلك تنزيلاً لهم منزلة المنكرني لما بدا من تعنتهم وتنصلهم ، ويجوز أن يكون التأكيد الذي في كلام موسى لتنزيلهم منزلة أن يكون الله قال لموسى ذلك جرياً على اتهامهم السابق في قولهم : ﴿ أتتخذنا هزؤاً ﴾ [البقرة : 67] جواباً عن قوله : ﴿ إن الله يأمركم ﴾ .

ووقع قوله : ﴿ لا فارض ولا بكر ﴾ موقع الصفة لبقرة وأقحم فيه حرف (لا) لكون الصفة

بنفي وصف ثم بنفي آخر على معنى إثبات وصف واسطة بين الوصفين المنفيين فلما جيء بحرف (لا) أجري الإعراب على ما بعده لأن (لا) غير عاملة شيئاً فيعتبر ما قبل لا على عمله فيما بعدها سواء كان وصفاً كما هنا وقوله تعالى :

﴿ زيتونة لا شرقية ولا غربية ﴾ [النور : 35] وقول جويرية أو حويرثة بن بدر الرامي :

وقد أدركْتني والحوادثُ جمة . . .

أسنة قوم لا ضعاف ولا عُزْلِ

أو حالاً كقول الشاعر وهو من شواهد النحو :

قهرْتَ العِدَا لا مستعيناً بعُصبة . . .

ولكنْ بأنواع الخدائع والمكر

أو مضافاً كقول النابغة :

وشيمة لا وَان لا وَاهِن القُوى . . .

وجَدَ إذا خَاب المُفيدونَ صَاعِدِ

أو خبر مبتدأ كما وقع في حديث أم زرع قول الأولى : " لا سهل فيرتقى ، ولا سمين فينتقل " على رواية الرفع أي هو أي الزوج لا سهل ولا سمين .

وجمهور النحاة أن لا هذه يجب تكريرها في الخبر والنعت والحال أي بأن يكون الخبر ونحوه شيئين فأكثر فإن لم يكن كذلك لم يجز إدخال (لا) في الخبر ونحوه وجعلوا بيت جويرية أو

حويرثة ضرورة وخالف فيه المبرد .

وليست (لا) في مثل هذا بعاملة عمل ليس ولا عمل إن ، وذكر النحاة لهذا الاستعمال في أحد هذين البابين لمجرد المناسبة .

واعلم أن نفي وصفين بحرف (لا) قد يستعمل في إفادة إثبات وصف ثالث هو وسط بين حالي ذينك الوصفين مثل ما في هذه الآية بدليل قوله : ﴿ عوان بين ذلك ﴾ ومثل قوله تعالى : ﴿ مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ﴾ [النساء : 143] وقد يستعمل في إرادة مجرد نفي ذينك الوصفين لأنهما مما يطلب في الغرض الواردين فيه ولا يقصد إثبات وصف آخر وسط بينهما وهو الغالب كقوله تعالى : ﴿ في سموم وحميم وظل من يحموم لا بارد ولا كريم ﴾ [الواقعة : 42 44] .

والفارض المسنة لأنها فرضت سنها أي قطعتها ، والفرض القطع ويقال للقديم فارض .

والبكر الفتية مشتقة من البكرة بالضم وهي أول النهار لأن البكر في أول السنوات عمرها

والعوان هي المتوسطة السن .

وإنما اختيرت لهم العوان لأنها أنفس وأقوى ولذلك جعلت العوان مثلاً للشدة في قول النابغة

:

ومن يتَرَبّص الحَدَثَانَ تنزل . . .

بمَولاه عوان غيرُ بكر

أي مصيبة عوان أي عظيمة .

ووصفوا الحرب الشديدة فقالوا : حرب عوان .

وقوله : ﴿ بين ذلك ﴾ أي بين هذين السنين ، فالإشارة للمذكور المتعدد .

ولهذا صحت إضافة بين لاسم الإشارة كما تضاف للضمير الدال على متعدد وإن كان كلمة واحدة في نحو بينها .

وإفراد اسم الإشارة على التأويل بالمذكور كما تقدم قريباً عند قوله تعالى : ﴿ ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ﴾ [البقرة : 61] .

وجاء في جوابهم بهذا الإطناب دون أن يقول من أول الجواب إنها عوان تعريضاً بغباوتهم واحتياجهم إلى تكثير التوصيف حتى لا يترك لهم مجالاً لإعادة السؤال .

فإن قلت : هم سألوا عن صفة غير معينة فمن أين علم موسى أنهم سألوا عن السن ؟ ومن أين علم من سؤالهم الآتي بـ ﴿ ما هي ﴾ أيضاً أنهم سألوا عن تدربها على الخدمة ؟

قلت : يحتمل أن يكون ﴿ ما هي ﴾ اختصاراً لسؤالهم المشتمل على البيان وهذا الاختصار من إبداع القرآن اكتفاء بما يدل عليه الجواب ، ويحتمل أن يكون ما حكى في القرآن مرادف سؤالهم فيكون جواب موسى عليه السلام بذلك لعلمه بأن أول ما تتعلق به أغراض الناس في معرفة أحوال الدواب هو السن فهو أهم صفات الدابة ولما سألوه عن اللون ثم سألوا السؤال الثاني المبهم علم أنه لم يبق من الصفات التي تختلف فيها مقاصد الناس من الدواب غير حالة الكرامة أي عدم الخدمة لأن ذلك أمر ضعيف إذ قد تخدم الدابة النفيسة ثم يكرمها من يكتسبها بعد ذلك فتزول آثار الخدمة وشعثها . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 1 صـ 531.533 ﴾

قوله تعالى ﴿ فافعلوا مَا تُؤْمَرونَ ﴾

فصل

قال الفخر :

قوله تعالى : ﴿ فافعلوا مَا تُؤْمَرونَ ﴾ فيه تأويلان :

الأول : فافعلوا ما تؤمرون به من قولك : أمرتك الخير .

والثاني : أن يكون المراد فافعلوا أمركم بمعنى مأموركم تسمية للمفعول بالمصدر كضرب الأمير .

واعلم أن المقصود الأصلي من هذا الجواب كون البقرة في أكمل أحوالها ، وذلك لأن الصغيرة تكون ناقصة لأنها بعد ما وصلت إلى حالة الكمال ، والمسنة كأنها صارت ناقصة وتجاوزت عن حد الكمال ، فأما المتوسطة فهي التي تكون في حالة الكمال . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 110 ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ فافعلوا مَا تُؤْمَرونَ ﴾ تجديد للأمر وتأكيد وتنبيه على ترك التعنّت فما تركوه .

وهذا يدل على أن مقتضى الأمر الوجوب كما تقوله الفقهاء ؛ وهو الصحيح على ما هو مذكور في أصول الفقه ، وعلى أن الأمر على الفَوْر ؛ وهو مذهب أكثر الفقهاء أيضاً .

ويدلّ على صحة ذلك أنه تعالى استقصرهم حين لم يبادروا إلى فعل ما أُمِروا به فقال : ﴿ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾ .

وقيل : لا ، بل على التراخي ؛ لأنه لم يَعنّفهم على التأخير والمراجعة في الخطاب .

قاله ابن خُوَيْزِ مَنْدَاد . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 1 صـ 449. 450 ﴾

وقال ابن عاشور :

وقوله : ﴿ فافعلوا ما تؤمرون ﴾ الفاء للفصيحة وموقعها هنا موقع قطع العذر مع الحث على الامتثال كما هي في قول عباس بن الأحنف :

قالوا خراسانُ أقْصَى ما يُراد بنا . . .

ثم القُفُولُ فقد جئْنا خُرَاسَانا

أي فقد حصل ما تعللتم به من طول السفر .

والمعنى فبادروا إلى ما أمرتم به وهو ذبح البقرة ، و (ما) موصولة والعائد محذوف بعد حذف جاره على طريقة التوسع لأنهم يقولون أمرتك الخير ، فتوسلوا بحذف الجار إلى حذف الضمير .

وفي حث موسى إياهم على المبادرة بذبح البقرة بعد ما كلفوا به من اختيارها عواناً دليل على أنهم مأمورون بذبح بقرة مّا غير مراد منها صفة مقيدة لأنه لما أمرهم بالمبادرة بالذبح حينئذ علمنا وعلموا أن ما كلفوا به بعد ذلك من طلب أن تكون صفراء فاقعة وأن تكون سالمة من آثار الخدمة ليس مما أراده الله تعالى عند تكليفهم أول الأمر وهو الحق ، إذ كيف تكون تلك الأوصاف مرادة مع أنها أوصاف طردية لا أثر لها في حكمة الأمر بالذبح لأنه سواء كان أمراً بذبحها للصدقة أو للقربان أو للرش على النجس أو للقسامة فليس لشيء من هاته الصفات مناسبة للحكم ، وبذلك يعلم أن أمرهم بهاته الصفات كلها هو تشريع

طارىء قصد منه تأديبهم على سؤالهم فإن كان سؤالهم للمطل والتنصل فطلب تلك الصفات المشقة عليهم تأديب على سوء الخلق والتذرع للعصيان ، وإن كان سؤالاً ناشئاً عن ظنهم أن الاهتمام بها ته البقرة يقتضي أن يراد منها صفات نادرة كما هو ظاهر قولهم بعد : ﴿ وإنا إن شاء الله لمهتدون ﴾ [البقرة : 70] فتكليفهم بها ته الصفات العسير وجودها مجتمعة تأديب علمي على سوء فهمهم في التشريع كما يؤدَّب طالب العلم إذا سأل سؤالاً لايليق برتبته في العلم .

وقد قال عمر لأبي عبيدة في واقعة الفرار من الطاعون " لو غيرك قالها يا أبا عبيدة" .

(65/55)

ومن ضروب التأديب الحمل على عمل شاق ، وقد أدب رسول الله صلى الله عليه وسلم عمه عباساً رضي الله عنه على الحرص حين حمل من خمس مال المغنم أكثر من حاجته فلم يستطع أن يقله فقال له : مر أحداً رفعه لي فقال : لا آمر أحداً فقال له : ارفعه أنت لي فقال : لا ، حتى جعل العباس يحثو من المال ويرجعه لصبرته إلى أن استطاع أن يحمل ما بقي فذهب والنبيء صلى الله عليه وسلم يتبعه بصره تعجباً من حرصه كما في " صحيح البخاري" .

ومما يدل على أنه تكليف لقصد التأديب أن الآية سيقت مساق الذم لهم ، وعدت القصة في عداد قصص مساويهم وسوءِ تلقيهم للشريعة بأصناف من التقصير عملاً وشكراً وفهماً بدليل قوله تعالى آخر الآيات : ﴿ وما كادوا يفعلون ﴾ [البقرة : 71] مع ما روي عن ابن عباس أنه قال : لو ذبحوا أي بقرة أجزأتهم ولكن شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم . وبهذا تعلمون أن ليس في الآية دليل على تأخير البيان عن وقت الخطاب ولا على وقوع النسخ قبل التمكن لأن ما طرأ تكليف خاص للإعنات ، على أن الزيادة على النص ليست بنسخ عند المحققين ، وتسميتها بالنسخ اصطلاح القدماء . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 1 صـ 534.535 ﴾

ومن فوائد ابن عرفة فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ ادعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنَّ لَنَا مَا هِيَ . . . ﴾ .

قال الطيبي : إنما يسأل بـ " ما " عن جنس الشيء أو نوعه فكأنهم اعتقدوا أنها خارجة عن جنس البقرة إذ لم يعهد في البقرة إحياء الموتى .

قال ابن عرفة : هو مثل قول المنطقيين : الجنس هو المقول على كثيرين ((مختلفين بالحقيقة ، في جواب ما هو ؟ و (النّوع) المقول على كثيرين متفقين في الحقيقة)) في جواب ما هو ؟ وكقول ابن مالك في أول المصباح : إن السؤال بما هو ؟ يكون عن حقيقة الشيء .

وأورد الفخر هنا سؤالا قال : إن السؤال بـ " ما " (إنما) هو عن الحقيقة فكيف سألوا عن الصفة ؟

(66/55)

قال ابن عرفة : وجوابه ظاهر على مذهبه (لأنه) قال في تأليفه في المنطق كالآيات البينات والمحصول (وغيرهما) : (إن) الأمر اللازم العرضي حكمه كحكم الذاتي مثلا الألوان (فصحّ) السؤال (هنا) بما هي ؟ لأن الصفة هناك كالذاتي وأما عندنا فنقول السؤال عن الذات بصفتها ، أو السؤال عن حقيقة تلك الصفة (فهو) سؤال عن الحقيقة .

قوله تعالى : ﴿ فافعلوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴾ .

قال ابن عرفة : اختلف الأصوليون في لفظ الأمر هل هو أبلغ من صيغة افعل أو لا ؟

فقيل : أنّ أمرتك بالقيام أبلغ من قم ، لأن صيغة افعل ، قد تكون للإباحة (كما في قوله جل ذكره ﴿ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فاصطادوا ﴾ وللوجوب بخلاف الأمر ، فإن لفظ أمرتك لا يكون للإباحة) .

وقيل : إن قم أبلغ ، واستدلوا بهذه الآية .

فلولا أنه أبلغ لما احتيج إلى قوله ﴿ فافعلوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴾ وإلا (كان يلزم) عليه تأكيد الأقوى

(بالأضعف) ؟ والجواب بأن القرينة هنا أفادت أن صيغة افعل للوجوب ، فهو من تأكيد الأقوى بالقوي .

واحتجّ بها بعض الأصوليين على (صحة) تأخير البيان عن وقت الحاجة .

وقال الآخرون : بل هو تأخير إلى وقت الحاجة .

((أو يجاب) بقول ابن عباس رضي الله عنه (إنهم) إنما أمروا بذبح بقرة (على الإطلاق) ، فلو بادروا وذبحوا من غير سؤال لحصل لهم الغرض ، ولكن شددوا فشدد (الله) عليهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عرفة صـ 324. 326 ﴾

ومن فوائد الآلوسى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ قَالُواْ ادعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ ﴾ أي سل لأجلنا ربك الذي عوّدك ما عوّدك يظهر لنا ما حالها وصفتها ، فالسؤال في الحقيقة عن الصفة ، لأن الماهية ومسمى الاسم معلومان ولا ثالث لهما لتستعمل ﴿ مَا ﴾ فيه ، أما إذا أريد بقرة معينة فظاهر لأنه استفسار لبيان المجمل وإلا فلمكان التعجب وتوهم أن مثل هذه البقرة لا تكون إلا معينة ، والجواب على الأول : بيان .

وعلى الثاني : نسخ وتشديد ، وهكذا الحال فيما سيأتي من السؤال والجواب .

وكان مقتضى الظاهر على الأول : أي لأنها للسؤال عن المميز وصفا كان أو ذاتياً .

وعلى الثاني : كيف ؟ لأنها موضوعة للسؤال عن الحال ، و ﴿ مَا ﴾ وإن سئل بها عن الوصف لكنه على سبيل الندور ، وهو إما مجاز أو اشتراك كما صرح به في " المفتاح" والغالب السؤال بها عن الجنس ، فإن أجريت هنا على الاستعمال الغالب نزل مجهول الصفة لكونه على صفة لم يوجد عليها جنسه وهو إحياء الميت بضرب بعضه منزلة مجهول الحقيقة فيكون سؤالا عن الجنس تنزيلاً ، وعن الصفة حقيقة .

وإن أجريت على النادر لم يحتج إلى التنزيل المذكور ، والقول إنه يمكن أن يجعل ﴿ مَا هِيَ ﴾ على حذف مضاف أي ما حالها ؟ فيكون سؤالاً عن نوع حال تفرع عليه هذه الخاصية على بعده خال عن اللطافة اللائقة بشأن الكتاب العزيز .

و ﴿ مَا ﴾ استفهامية خبر مقدم لهي والجملة في موضع نصب ببيبن لأنه معلق عنها ، وجاز فيه ذلك لشبهه بأفعال القلوب ، والمعنى : يبين لنا جواب هذا السؤال .

﴿ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ ﴾ الفارض اسم للمسنة التي انقطعت ولادتها من الكبر ، والفعل فرضت بفتح الراء وضمها ويقال لكل ما قدم وطال أمره فارض ومنه قوله :

يا رب ذي ضعن على (فارض) . . .

له قروء كقروء الحائض

(68/55)

وكأن المسنة سميت فارضا لأنها فرضت سنها أي قطعتها وبلغت آخرها ، والبكر اسم للصغيرة ، وزاد بعضهم التي لم تلد من الصغر وقال ابن قتيبة : هي التي ولدت ولداً واحداً ، والبكر من النساء التي لم يمسها الرجال ، وقيل : هي التي لم تحمل ، والبكر من الأولاد الأول ، ومن الحاجات الأولى والبكر بفتح الباء الفتيّ من الإبل ، والأنثى بكرة وأصله من التقدم في الزمان ، ومنه البكرة والباكورة والاسمان صفة بقرة ولم يؤت بالتاء لأنهما اسمان لما ذكر ، واعترضت ﴿ لا ﴾ بين الصفة والموصوف وكررت لوجوب تكريرها مع الخبر والنعت والحال إلا في الضرورة خلافاً للمبرد وابن كيسان كقوله :

قهرت العدا (لا مستعينا) بعصبة . . .

ولكن بأنواع الخدائع والمكر

ومن جعل ذلك من الوصف بالجمل فقدر مبتدأ أي لا هي فارض ولا بكر فقد أبعد ، إذ الأصل الوصف بالمفرد ، والأصل أيضاً أن لا حذف ، وذكر (يقول) للإشارة إلى أنه من

عند الله تعالى لا من عند نفسه .

﴿ عَوَانٌ بَيْنَ ذلك ﴾ أي متوسطة السن ، وقيل : هي التي ولدت بطناً أو بطنين ، وقيل : مرة بعد مرة ويجمع على فعل كقوله :

طوال مثل أعناق الهوادي . . .

نواعم بين أبكار (وعون)

ويجوز ضم عين الكلمة في الشعر ، وفائدة هذا بعد ﴿ لاَّ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ ﴾ نفي أن تكون عجلاً أو جنيناً ، وأراد من ذلك ما ذكر من الوصفين السابقين وبهذا صح الإفراد وإضافة (بين) إليه فإنه لا يضاف إلا إلى متعدد وكون الكلام مما حذف منه المعطوف لدلالة المعنى عليه والتقدير عوان بين ذلك وهذا أي الفارض والبكر فيكون نظير قوله :

فما كان بين الخير لو جاء سالما . . .

أبو حجر (إلا ليال) قلائل

حيث أراد بين الخير وباعثه تكلف مستغنى عنه بما ذكر .

واختار السجاوندي أن المراد في وسط زمان الصلاح للعوان واعتداله تقول : سافرت إلى الروم وطفت بين ذلك ، فالمشار إليه عوان وارتضاه بعض المحققين مدعياً أو أولى لئلا يفوت معنى بين ذلك لأن أهل اللغة قالوا : بقرة عوان (لا فارض ولا بكر) وعلى الشائع ربما يحتاج الأمر إلى تجريد كما لا يخفى ، ثم إن عود الضمائر المذكورة في السؤال والجواب وإجراء تلك الصفات على بقرة يدل على أن المراد بها معينة لأن الأول : يدل على أن الكلام في البقرة المأمور بذبحها ، والثاني : يفيد أن المقصد تعيينها وإزالة إبهامها بتلك الصفات كما هو شأن الصفة لا أنها تكاليف متغايرة بخلاف ما إذا ذكر تلك الصفات بدون الإجراء ، وقيل : (إنها لا فارض ولا بكر) فإنه يحتمل أن يكون المقصود منه تبديل الحكم السابق ، والقول : بأنهم لما تعجبوا من بقرة ميتة يضرب ببعضها ميت فيحيا ظنوها معينة خارجة عما عليه الجنس فسألوا عن حالها وصفتها فوقعت الضمائر لمعينة باعتقادهم فعينت تشديداً عليهم وإن لم يكن المراد منها أول الأمر معينة ليس بشيء لأنه حينئذ لم تكن الضمائر عائدة إلى ما أمروا بذبحها بل ما اعتقدوها ، والظاهر خلافه واللازم على هذا تأخير البيان عن وقت الخطاب وليس بممتنع والممتنع تأخيره عن وقت الحاجة إلا عند من يجوز التكليف بالمحال وليس بلازم إذ لا دليل على أن الأمر هنا للفور حتى يتوهم ذلك ومن الناس من أنكروا ذلك وادعوا أن المراد بها بقرة من نوع البقر بلا تعيين وكان يحصل الامتثال لو ذبحوا أي بقرة كانت إلا أنها انقلبت مخصوصة بسؤالهم وإليه ذهب جماعة من أهل التفسير

وتمسكوا بظاهر اللفظ فإنه مطلق فيترك على إطلاقه مع ما أخرجه ابن جرير بسند صحيح عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما موقوفاً لو ذبحوا أي بقرة أرادوا لأجزأتهم ولكن شددوا على أنفسهم فشدد الله تعالى عليهم ، وأخرجه سعيد بن منصور في " سننه" عن عكرمة مرفوعاً مرسلاً وبأنه لو كانت معينة لما عنفهم

(70/55)

على التمادي وزجرهم عن المراجعة إلى السؤال ، واللازم حينئذ النسخ قبل الفعل بناءاً على مذهب من يقول الزيادة على الكتاب نسخ كجماهير الحنفية القائلين بأن الأمر المطلق يتضمن التخيير وهو حكم شرعي والتقييد يرفعه وهو جائز بل واقع كما في حديث فرض الصلاة ليلة المعراج ، والممتنع النسخ قبل التمكن من الاعتقاد بالاتفاق لأنه بداء وقبل التمكن من الفعل عند المعتزلة وليس بلازم على ما قيل على أنه قيل : يمكن أن يقال : ليس ذلك بنسخ لأن البقرة المطلقة متناولة للبقرة المخصوصة وذبح البقرة المخصوصة ذبح للبقرة مطلقاً فهو امتثال للأمر الأولي فلا يكون نسخاً ، واعترض على كون التخيير حكماً شرعياً الخ بالمنع مستنداً بأن الأمر المطلق إنما يدل على إيجاب ماهية من حيث هي بلا شرط لكن لما تتحقق إلا في ضمن فرد معين جاء التخيير عقلاً من غير دلالة النص عليه وإيجاب

الشيء لا يقتضي إيجاب مقدمته العقلية إذ المراد بالوجوب الوجوب الشرعي ، ومن الجائز أن يعاقب المكلف على ترك ما يشمله مقدمة عقلية ولا يعاقب على ترك المقدمة ، ونسب هذا الاعتراض لمولانا القاضي في منهياته وفيه تأمل وذكر بعض المحققين أن تحقيق هذا المقام أنه إن كان المراد بالبقرة المأمور بذبحها مطلق البقرة أي بقرة كانت فالنسخ جائز لأن شرط النسخ التمكن من الاعتقاد وهو حاصل بلا ريب ، وإن كان البقرة المعينة فلا يجوز النسخ لعدم التمكن من الاعتقاد حينئذ لأنه إنما حصل بعد الاستفسار فاختلاف العلماء في جواز النسخ وعدمه في هذا المقام من باب النزاع اللفظي فتدبر .

(71/55)

﴿ فافعلوا مَا تُؤْمَرونَ ﴾ أي من ذبح البقرة ولا تكرروا السؤال ولا تتعنتوا ، وهذه الجملة يحتمل أن تكون من قول الله تعالى لهم ، ويحتمل أن تكون من قول موسى عليه السلام حرضهم على امتثال ما أمروا به شفقة منه عليهم ، و ﴿ مَا ﴾ موصولة والعائد محذوف أي ما تؤمرونه بمعنى ما تؤمرون به ، وقد شاع حذف الجار في هذا الفعل حتى لحق بالمتعدي إلى مفعولين فالمحذوف من أول الأمر هو المنصوب ، وأجاز بعضهم أن تكون ﴿ مَا ﴾ مصدرية أي فافعلوا أمركم ويكون المصدر بمعنى المفعول كما في قوله تعالى :

﴿ واللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات : 96] على أحد الوجهين ، وفيه بعد لأن ذلك في الحاصل بالسبك قليل وإنما كثر في صيغة المصدر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 286. 288 ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " قَالُوا : ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ " ف " يبيّن " مجزوز على جواب الأمر كقوله : ﴿ فادعْ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا ﴾ [البقرة : 61] .

قوله : " مَا هِيَ " ، " ما " استفهامية في محلّ رفع بالابتداء ، تقديره : أي شيء هي ؟ وما [الاستفهامية] يطلب بها شرح الاسم تارة ، نحو : ما العَنْقَاء ؟ وماهية المسمى أخرى ، نحو : ما الحركة ؟ .

وقال السكاكي : " يسأل بـ " ما " عن الجنس ، تقول : ما عندك " أي : أيّ أجناس الأشياء عندك ؟ وجوابه " كتاب " ونحوه ، أو عن الوصف ، تقول : ما زيد ؟ وجوابه : " كريم " ، وهذا هو المراد في الآية .

و " هي " ضمير مرفوع منفصل في محلّ رفع خبراً لـ " ما " والجلمة في محلّ نصب بـ " يبيّن " ؛ لأنه معلّق عن الجلمة بعده ، وجاز ذلك ، لأنه شبيه بأفعال القلوب .

قوله : " لاَّ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ " لا " نافية " ن و " فارض " صفة لـ " بقرة " .

واعترض بـ " لا " بين الصفة والموصوف ، نحوك " مررت برجل لا طويل ولا قصير " .

وأجاز أبو البقاء : أن يكون خبر المبتدأ محذوف ، أي : لا هي فَارِضٌ .

(72/55)

وقوله : " ولا بِكْر " مثل ما تقدّم .

وتكررت " لا " لأنها متى وقعت قبل خبر ، أو نعت ، أَو حال وجب تكريرها تقول : " زيد لا قائم ولا قاعد " ، و " مررت به لا ضحاكاً ولا باكياً " .

ولا يجوز عدم التكرار إلا في ضرورة خلافاً للمبرّد وابن كَيْسَان ؛ فمن ذلك : [الطويل]

وَأَنْتَ امْرُؤٌ مِنَّا خُلِقْتَ لِغَيْرِنا . . .

حَيَاتُكَ لاَ نَفْعٌ وَمَوْتُكَ فَاجِعُ

وقوله : [الطويل]

قَهَرْتُ الْعِدَا لاَ مُسْتَعِيناً بِعُصْبَةٍ . . .

وَلَكِنْ بِأَنْوَاعِ الْخَدَائِعِ وَالْمَكْرِ

فلم يكررها في الخبر ، ولا في الحال .

و " الفارض " : المُسِنّة الهَرِمَة ، قال الزمخشريُّ : كأنها سميْت بذلك ؛ لأنها فَرَضَتْ سِنَّهَا ،

أي : قَطَعَتْهَا وبلغت آخرها ؛ قال : [الطويل]

لَعَمْرِي لَقَدْ أَعْطَيْتَ ضَيْفَكَ فَارِضاً . . .

تُسَاقُ إِلَيْهِ مَا تَقُومُ عَلَى رِجْلِ

ويقال لكل ما قَدُمَ : فارض ؛ قال [الرجز]

شَيَّبَ أَصْدَاعِيْ فَرَأْسِي أَبْيَضُ . . .

مَحَامِلٌ فِيهَا رِجَالٌ فُرَّضُ

أي : كبار قدماء .

وقال آخر : [الرجز]

يَارُبَّ ذِي ضِغْنٍ عَلَيَّ فَارِضِ . . .

لَهُ قُرُوءٌ كَقُرُوءِ الْحَائِضِ

وقال الرَّاغب : سميت فارضاً ، لأنها تقطعه الأرض ، والْفَرْضُ في الأصل القطع ، وقيل : لأنها تحمل الأعمال الشاقة .

وقيل : لأن فريضة البقر تَبِيعٌ ومُسِنَّةٌ ، قال : فعلى هذا تكون الفارض اساً إسلاميّاً .

وقيل : " الفَارِضُ " : التي ولدت بطوناً كثيرة فيتسّع جوفها لذلك ؛ لأن معنى الفارض في اللغة الواسع ، نقله القرطبي عن بعض المتأخرين .

ويقال : فَرَضَتْ تَفْرِضُ بالفتح فُرُوضاً .

وقيل : فَرُضَتْ بالضم أيضاً .

وقال المفضَّل بن سَلَمَةَ : الفارض : المُسِنَّة .

و" البِكْر " : ما لم تحمل .

وقيل : ما ولَدَتْ بطناً واحداً ، وذلك الولد بِكْرٌ أيضاً .

قال : الرجز]

يَا بِكْرَ بَكْرَيْنِ ويَا خِلْبَ الْكَبِدْ . . .

أَصْبَحْتَ مِنّي كِذِرَاعٍ مِنْ عَضُدْ

(73/55)

و " البِكْر " من الحيوان : من لم يطرقه فحل ، و" البَكْر " بالفتح الْفَتِيُّ من الإِبل ، والبَكَارة بالفتح المصدر .

وقال المفضَّل بن سلمة : البِكْر : الشابة .

قال القفال رحمه الله تعالى : اشتقاق البكر يدل على الأول ، ومنه الباكورة لأول الثمرة ، ومنه : بُكْرَة النهار ، ويقال : بكرت عليه البارحة ، إذا جاء في أول الليل .

والأظهر أنها هي التي لم تلد ؛ لأن المعروف من اسم البكر من إناث بني آدم : ما لم يَنْزُ عليها

الفحل .

قوله : عَوَانٌ صفة لـ " بقرة " ، ويجوز أن يكون خبر المبتدأ محذوف أي : هي عَوانٌ كما تقدم في ﴿ لاَّ فَارِضٌ ﴾ [البقرة : 68] والعوان : النَّصَف ، وهو التوسُّط بين الشيئين ، وذلك أقوى ما يكون وأحسنه ؛ قال : [الوافر]

. . . . . .

نَوَاعِمُ بَيْنَ أَبْكَارٍ وَعُون

وقال الشاعر يصف فرساً [الطويل]

كُمَيْتٍ بَهِيمِ اللَّونِ لَيْسَ بِفَارِضٍ . . .

وَلاَ بِعَوانٍ ذَاتِ لَوْنٍ مُخَصَّفِ

" فرس أخصف " إذا ارتفعَ البَلَق من بطنه إلى جنبه ، ويقال للنخلة الطويلة : عوان ، وهي فيما زعموا لغة عَانِيَة ، حكاه القرطبي .

وقيل : هي التي ولدت مرة بعد أخرى منه " الحرب العوان " أي التي جاءت بعد حرب أخرى ؛ قال زهير : [الطويل]

إِذَا لَحِقَتْ حَرْبٌ عَوَانٌ مُضِرَّةٌ . . .

ضَرُوسٌ تُهِمُّ النَّاسَ أَنْيَابُهَا عُصْلُ

والعُوْن بسكون الواو الجمع ، وقد يضم ضرورة كقوله : [السريع]

. . . . . .

في الأَكُفِّ اللاَّمِعَاتِ سُوُرْ

بضم الواو .

ونظيره في الصحيح " قَذَال وقُذُل " و" حِمَار وحُمُر " .

قوله : " بين ذلك " صفة لعوان " [فهي] في محلّ رفع ، ويتعلق بمحذوف ، أي : كائن بين ذلك ، و" بين " إنما تضاف لشيئين فصاعداً ، وجاز أن تضاف هنا إلى مفرد ؛ لأنه يشار به إلى المُثَنَّى والمجموع ؛ كقوله : [الرمل]

إِنَّ لِلْخَيْرِ وَلِلشَّرِّ مَدًى . . .

وَكِلاَ ذَلِكَ وَجْهٌ وَقَبَلْ

كأنه قيل : بين ما ذكر من الفارض البكر .

قال الزمخشري :

فإن قلت : كيف جاز أن يشار به إلى مؤنثين ، وإنما هو لإشارة المذكر ؟

قلت : لأنه في تأويل ما ذكر وما تقدم ، وقال : وقد يجرى الضمير مجرى اسم الإشارة في هذا

، قال أبو عبيدة : قلت لرؤبة في قوله : [الرجز]

فِيهَا خُطُوطٌ مِنْ سَوَادٍ وَبَلَقْ . . .

كَأَنَّهُ فِي الْجِلْدِ تَوْلِيعُ الْبَهَقْ

إن أردت الخطوط فقل : كأنها ، وإن أردت السواد والبَلَق فقل : كأنهما ، فقال : أردتُ : ذَاكَ وَلَكَ .

والذي حسن منه أن أسماء الإشارة تثنيتها ، وجمعها ، وتأنيثهما ليست على الحقيقة ، وكذلك الموصولات ، ولذلك جاء " الذي " بمعنى الجمع واحتج بعض العلماء بقوله : " عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ " على جواز الاجتهاد ، واستعمال غلبة النَّص في الأحكام ، إذ لا يعلم أنها بين الفَارِض والبِكْر إلا من طريق الاجتهاد .

قوله : ﴿ مَا تُؤْمَرونَ ﴾ " ما " موصولة بمعنى " الذي " ، والعائد محذوف تقديره : تؤمرون به ، فحذفت الباء ، وهو حذف مطرد ، فاتصل الضمير فحذفت " الهاء " ، وليس هو نظير : ﴿ كالذي خاضوا ﴾ [التوبة : 69] فإن الحذف هناك غير مقيس .

ويضعف أن تكون " ما " نكرة موصوفة .

قال أبو البقاء : لأن المعنى على العموم ، وهو بـ " الذي " أشبه ، ويجوز أن تكون مصدرية أي : أمركم بمعنى مأموركم ، تسمية للمفعول بالمصدر كـ " ضَرْب الأمير " قاله الزمخشري .

و" تؤمرون " مبني للمفعول ، و" الواو " قائم مقام الفاعل ، ولا محلّ لهذه الجملة لوقوعها صلة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 2 صـ 157 . 161 ﴾ . باختصار .

(75/55)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ (68) ﴾

وكان سؤالهم يبين نقص درجة الإيمان عندهم . . لم يقولوا ادع لنا ربنا . . بل قالوا إدع لنا ربك ، وكأنه رب موسى وحده . . ولقد تكررت هذه الطريقة في كلام بني إسرائيل عدة مرات . . حتى إنهم قالوا كما يروي لنا القرآن الكريم : ﴿ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ [المائدة : 24]

ولقد استمر الحوار بينهم وبين موسى فترة طويلة . . يوجهون السؤال لموسى فيدعو الله فيأتيه الجواب من الله تبارك وتعالى . . فبدلا من أن ينفذوا الأمر وتنتهي المسألة يوجهون سؤالا آخر . . فيدعو موسى ربه فيأتيه الجواب ، ويؤدي الجواب إلى سؤال في غير محله

منهم . . ثم يقطع الحق سبحانه وتعالى عليهم أسباب الجدل . . بأن يعطيهم أوصافا لبقرة لا تنطبق إلا على بقرة واحدة فقط . . فكأنهم شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم . .

نأتي إلى أسئلة بني إسرائيل . . يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ ﴾ . . سؤال لا معنى له ولا محل . . لأن الله تبارك وتعالى قال لهم إنها بقرة . . ولم يقل مثلا إنها حيوان على إطلاقه فلم يكن هناك محل للسؤال . . فجاء الحق تبارك وتعالى يقول لهم : ﴿ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ ﴾ . . الفارض في اللغة هو الواسع والمراد به بقرة غير مسنة . . ولكن ما العلاقة بين سن البقرة وبين الواسع ؟ البقرة تتعرض للحمل كثيرا وأساسا هي للبن وللإنجاب . . ومادامت قد تعرضت للحمل كثيرا يكون مكان اللبن فيها في اتساع . . أي أن بطنها يزداد اتساعا مع كل حمل جديد . . وعندما يكون بطن البقرة واسعاً يعرف أنها مسنة وولدت كثيرا وصارت فارضا .

(76/55)

وكلمة " بكر " لها معانٍ متعددة منها أنه لم يطأها فحل . . ومنها أنها بكر ولدت مرة واحدة . . ومنها أنها ولدت مرارا ولكن لم يظهر ذلك عليها لأنها صغيرة السن .

وقوله تعالى : ﴿ عَوَانٌ بَيْنَ ذَالِكَ ﴾ . . يعني وسط بين هذه الأوصاف كلها . . الحق بعد

ذلك يقرعهم فيقول : ﴿ فَافْعَلُواْ مَا تُؤْمَرونَ ﴾ . . يعني كفاكم مجادلة ونفذوا أمر الله واذبحوا البقرة . . ولكنهم لم يسكتوا أنهم يريدون أن يحاوروا . . ولذلك غيروا صيغة السؤال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 392. 393 ﴾

(77/55)

قوله تعالى ﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ (69) ﴾

فصل

قال البقاعى :

﴿ قال ﴾ وأكد لما مضى من تلددهم فقال ﴿ إنه يقول ﴾ وأكد إشارة إلى مزيد تعنتهم فقال ﴿ إنها بقرة صفراء ﴾ وأكد شدة صفرتها بالعدول عن فاقعة إلى قوله معبراً باللون ﴿ فاقع لونها ﴾ أي خالص في صفرته .

قال الحرالي : نعت تخليص للون الأصفر بمنزلة قانىء في الأحمر فهي إذن متوسطة اللون بين الأسود والأبيض كما كانت متوسطة السن ، ﴿ تسر الناظرين ﴾ أي تبهج نفوسهم بأنك إذا نظرت إليها خيل إليك أن شعاع الشمس يخرج من جلدها – قاله وهب . انتهى .

اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 169 ﴾

فصل

قال الفخر :

ثم إنه تعالى حكى سؤالهم الثاني وهو قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ ادعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ﴾ واعلم أنهم لما عرفوا حال السن شرعوا بعده في تعرف حال اللون فأجابهم الله تعالى بأنها : ﴿ صَفْرَاء فَاقِعٌ لَّوْنُهَا ﴾ ، والفقوع أشدها يكون من الصفرة وأنصعه ، يقال في التوكيد أصفر فاقع وأسود حالك وأبيض يقق وأحمر قانٍ وأخضر ناضر ، وههنا سؤالان :

الأول : " فاقع" ههنا واقع خبراً عن اللون فكيف يقع تأكيداً لصفراء ؟ الجواب : لم يقع خبراً عن اللون إنما وقع تأكيداً لصفراء إلا أنه ارتفع اللون به ارتفاع الفاعل واللون سببها وملتبس بها ، فلم يكن فرق بين قولك : صفراء فاقعة وصفراء فاقع لونها .

السؤال الثاني : فهلا قيل صفراء فاقعة وأي فائدة في ذكر اللون ؟ الجواب : الفائدة فيه التوكيد لأن اللون اسم للهيئة وهي الصفرة ، فكأنه قيل شديدة الصفرة صفرتها فهو من قولك : جد جده وجنون مجنون .

وعن وهب : إذ نظرت إليها خيل إليك أن شعاع الشمس يخرج من جلدها .

أما قوله تعالى : ﴿ تَسُرُّ الناظرين ﴾ فالمعنى أن هذه البقرة لحسن لونها تسر من نظر إليها ، قال الحسن : الصفراء ههنا بمعنى السوداء ، لأن العرب تسمي الأسود أصفر ، نظيره قوله تعالى في صفة الدخان : ﴿ كَأَنَّهُ جمالة صُفْرٌ ﴾ [المرسلات : 33] أي سود ، واعترضوا على هذا التأويل بأن الأصفر لا يفهم منه الأسود ألبتة ، فلم يكن حقيقة فيه ، وأيضاً السواد لا ينعت بالفقوع ، إنما يقال : أصفر فاقع وأسود حالك والله أعلم ، وأما السرور فإنه حالة نفسانية تعرض عند حصول اعتقاد أو علم أو ظن بحصول شيء لذيذ أو نافع . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 110. 111 ﴾

(79/55)

فصل

قال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ . . . قَالَ : إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ ﴾ حُكِيَ عن الحسن البصري ، أن المراد بقوله صفراء ، أي سوداء شديدة السواد ، كما تقول العرب : ناقة صفراء أي سوداء ، ومنه قول الشاعر :

تلك خيلي منه وتلك ركابي . . . هُنّ صفر أولادها كالزبيب

وقال الراجز :

وصفرٍ ليست بمصفرّة . . . ولكنّ سوداءَ مثل الخُمُر

وقال سائر المفسرين : إنها صفراء اللون ، من الصفرة المعروفة ، وهو أصح ، لأنه الظاهر ، ولأنه قال : ﴿ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا ﴾ والفاقع من صفات الصفرة ، وليس يوصف السواد بذلك ، وإنما يقال : أسود حالكٌ ، وأحمر قانٍ ، وأبيضُ ناصعٌ ، وأخضرُ ناضرٌ ، وأصفرُ فاقعٌ .

ثم فيما أُرِيدَ بالصفرة قولان :

أحدهما : صفراء القرن والظلف ، وهو قول سعيد بن جبير .

والثاني : صفراء اللون كله ، وهذا قول مجاهد .

وفي قوله تعالى : ﴿ فاقع لونها ﴾ ثلاثة تأويلات :

أحدها : الشديدة الصفرة ، وهذا قول ابن عباس ، والحسن .

والثاني : الخالص الصفرة ، وهذا قول قطرب .

والثالث : الصافي ، وهذا قول أبي العالية ، وقتادة .

﴿ تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : تعجب الناظرين بصفرتها ، فتعجب بالسرور ، وهو ما يتأثر به القلب ، والفرح ما فرحت به العين ، ويحتمل قوله : ﴿ تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴾ وجهين :

أحدهما : بحسن لونها فتكون . . . . لصفرتها .

والثاني : حسن سمتها ، وصفت بذلك ، ليكون ذلك زيادة شرط في صفتها ، غير ما تقدم من ذكر صفرتها ، فتصير البقرة على الوجه الأول ، ذات وصف واحد ، وعلى الوجه الثاني ، ذات وصفين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 1 صـ 139 . 140 ﴾

(80/55)

فائدة

قال الآلوسى :

إسناد البيان في كل مرة إلى الله عز وجل لإظهار كمال المساعدة في إجابة مسؤولهم وصيغة الاستقبال لاستحضار الصورة والفقوع أشد ما يكون من الصفرة وأبلغه والموصف به للتأكيد كأمس الدابر وكذا في قولهم أبيض ناصع ، وأسود حالك ، وأحمر قان ، وأخضر ناضر ، و(لونها) مرفوع بفاقع ولم يكتف بقوله صفراء فاقعة لأنه أراد تأكيد نسبة الصفرة فحكم عليها أنها صفراء ثم حكم على اللون أنه شديد الصفرة فابتدأ أولاً بوصف البقرة بالصفرة ثم أكد ذلك بوصف اللون بها فكأنه قال : هي صفراء ولونها شديد الصفرة ، وعن الحسن سوداء شديدة السواد ولا يخفى أنه خلاف الظاهر لأن الصفرة وإن استعملها

العرب بهذا المعنى نادراً كما أطلقوا الأسود على الأخضر لكنه في الإبل خاصة على ما قيل في قوله تعالى : ﴿ جمالة صُفْرٌ ﴾ [المراسلات : 33] لأن سواد الإبل تشوبه صفرة وتأكيده بالفقوع ينافيه لأنه من وصف الصفرة في المشهور ، نعم ذكر في " اللمع " أنه يقال : أصفر فاقع ، وأحمر فاقع ، ويقال : في الألوان كلها فاقع وناصع إذا أخلصت فعليه لا يرد ما ذكر ، ومن الناس من قال : إن الصفرة استعيرت هنا للسواد ، وكذا فاقع لشديد السواد وهو ترشيح ويجعل سواده من جهة البريق واللمعان وليس بشيء ، وجوز بعضهم أن يكون (لونها) مبتدأ وخبره إما (فاقع) أو الجملة بعده ، والتأنيث على أحد معنيين ، أحدهما : لكونه أضيف إلى مؤنث كما قالوا : ذهبت بعض أصابعه ؛ والثاني : أنه يراد به المؤنث إذ هو الصفرة فكأنه قال : صفرتها تسر الناظرين ولا يخفى بعد ذلك .

والسرور أصله لذة في القلب عند حصول نفع أو توقعه أو رؤية أمر معجب رائق ، وأما نفسه فانشراح مستبطن فيه وبين السرور ، والحبور ، والفرح تقارب لكن السرور هو الخالص المنكتم سمي بذلك اعتباراً بالاسرار ، والحبور ما يرى حبره أي أثره في ظاهر البشرة وهما يستعملان في المحمود .

وأما الفرح فما يحصل بطراً وأشراً ولذلك كثيراً ما يذم كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الفرحين ﴾ [القصص : 76] والمراد به هنا عند بعض الإعجاب مجازاً للزومه له غالباً ، والجملة صفة البقرة أي تعجب الناظرين إليها .

وجمهور المفسرين يشيرون إلى أن الصفرة من الألوان السارة ولهذا كان علي كرم الله تعالى وجهه يرغب في النعال الصفر ويقول من لبس نعلاً أصفر قل همه ، ونهى ابن الزبير ويحيى بن أبي كثير عن لباس النعال السود لأنها تغم ، وقرىء يسر بالياء فيحتمل أن يكون (لونها) مبتدأ ويسر خبره ويكون (فاقع) صفة تابعة لصفراء على حد قوله :

وإني لأسقي الشرف (صفراء فاقعا) . . .

كأن ذكى المسك فيها يفتق

إلا أنه قليل حتى قيل : بابه الشعر ، ويحتمل أن يكون لونها فاعلاً بفاقع ويسر إخبار مستأنف . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 288 . 289 ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا ﴾

سألوا بـ (ما) عن ماهية اللون وجنسه لأنه ثاني شيء تتعلق به أغراض الراغبين في الحيوان .

والقول في جزم : ﴿ يبين ﴾ وفي تأكيد ﴿ إنه يقول إنها بقرة ﴾ كالقول في الذي تقدم .

وقوله : ﴿ صفراء فاقع لونها ﴾ احتيج إلى تأكيد الصفرة بالفقوع وهو شدة الصفرة لأن صفرة البقر تقرب من الحمرة غالباً فأكده بفاقع والفقوع خاص بالصفرة ، كما اختص الأحمر بقان والأسود بحالك ، والأبيض بيقق ، والأخضر بمدهامّ ، والأورق بخطباني (نسبة إلى الخطبان بضم الخاء وهو نبت كالهليون) ، والأرمك وهو الذي لونه لون الرماد بُردَاني (براء في أوله) والردان الزعفران كذا في الطيبي (ووقع في " الكشاف " و " الطيبي " بألف بعد الدال ووقع في " القاموس " أنه بوزن صاحب) وضبط الراء في نسخة من " الكشاف " ونسخة من " حاشية القطب " عليه ونسخة من " حاشية الهمداني " عليه بشكل ضمة على الراء وهو مخالف لما في " القاموس " .

(82/55)

والنصوع يعم جميع الألوان ، وهوخلوص اللون من أن يخالطه لون آخر .

ولونها إما فاعل بفاقع أو مبتدأ مؤخر وإضافته لضمير البقرة دلت على أنه اللون الأصفر فكان وصفه بفاقع وصفاً حقيقياً ولكن عدل عن أن يقال صفراء فاقعة إلى ﴿ صفراء فاقع لونها ﴾ ليحصل وصفها بالفقوع مرتين إذ وُصف اللون بالفقوع ، ثم لما كان اللون مضافاً لضمير الصفراء كان ما يجري عليه من الأوصاف جارياً على سببيه (على نحوما

قاله صاحب " المفتاح" في كون المسند فعلاً من أن الفعل يستند إلى الضمير ابتداء ثم بواسطة عود ذلك الضمير إلى المبتدأ يستند إلى المبتدأ في الدرجة الثانية) وقد ظن الطيبي في " شرح الكشاف" أن كلام صاحب " الكشاف" مشير إلى أن إسناد (فاقع) للونها مجاز عقلي وهو وهم إذ ليس من المجاز العقلي في شيء .

وأما تمثيل صاحب " الكشاف" بقوله جد جده فهو تنظير في مجرد إفادة التأكيد .

وقوله : ﴿ تسر الناظرين ﴾ أي تُدخل رؤيتها عليهم مسرة في نفوسهم ، والمسرة لذة نفسية تنشأ عن الإحساس بالملائم أو عن اعتقاد حصوله ومما يوجبها التعجب من الشيء والإعجاب به .

وهذا اللون من أحسن ألوان البقر فلذلك أسند فعل ﴿ تسر ﴾ إلى ضمير البقرة لا إلى ضمير اللون فلا يقتضي أن لون الأصفر مما يسر الناظرين مطلقاً .

والتعبير بالناظرين دون الناس ونحوه للإشارة إلى أن المسرة تدخل عليهم عند النظر إليها من باب استفادة التعليل من التعليق بالمشتق . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 1 صـ 535.536 ﴾

ومن فوائد ابن عرفة فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا . . . ﴾ .

لم يقل فاقعة مع أنّه من صفة البقرة (جعلوه) مبالغة مثل : جدّ جدّه ، وجعله الطيبي مجازا ، ورده ابن عرفة بأنه آكد ، والتأكيد ينافي المجاز ألا ترى أن أهل السنة)) استدلّوا على وقوع الكلام من الله لموسى بقوله تعالى : ﴿ وَكَلَّمَ اللهُ موسى تَكْلِيماً ﴾ لأنه (مؤكد) بالمصدر والتأكيد (ينفي) المجاز .

ذكره الإمام المازري في شرح التلقين في كتاب الطهارة في قوله : ﴿ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عرفة صـ 326. 327 ﴾

(83/55)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ (69) ﴾

بحثوا عن سؤال آخر : ما لونها ؟ كأن الله تبارك وتعالى حين حدثهم عن السن فتحوا الأبواب ليسألوا ما لونها ؟ مع أنه سبحانه وتعالى قال لهم : ﴿ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴾ . . فلم يفعلوا بل سألوا ما لونها ؟ ﴿ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ ﴾ والصفرة لون من

الألوان . . ثم قال جل جلاله : ﴿ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا ﴾ . . يعني صفرة شديدة . . ثم قال : ﴿ تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴾ . . يعني أن كل من ينظر إليها يُسر لنضارتها ونظافتها وحسن مظهرها وتناسق جسدها . .

وصف البقرة بأنها صفراء هذا لون معروف . . وفي الألوان لا يمكن أن تحدد لونا إلا برؤيته . . ولذلك فإن المحسَّات في الألوان لابد أن تسبق معرفتها وبعد ذلك تأتي باللون المطلوب . . لذلك لا يقال صفراء فقط لأنك لا تستطيع تحديده ؛ لأن اللون الأصفر له درجات لا نهاية لها . . ومزج الألوان يعطيك عدداً لا نهائيا من درجاتها . . ولذلك فإن المشتغلين بدهان المنازل لا يستطيعون أن يقوموا بدهان شقة بلون إلا إذا قام بعمل مزيج اللون كله مرة واحدة . . حتى يخرج الدهان كله بدرجة واحدة من اللون . . ولكن إذا طلبت منه أن يدهن الشقة باللون نفسه . . بشرط أن يدهن حجرة واحدة كل يوم فإنه لا يستطيع . . فإذا سمعت صفراء يأتي اللون الأصفر إلى ذهنك . . فإذا سمعت " فاقع " فكل لون من الألوان له وصف يناسبه يعطينا دقة اللون المطلوب . . " فاقع " أي شديد الصفرة .

أظن أن المسألة قد أصبحت واضحة . . إنها بقرة لونها أصفر فاقع تسر الناظرين . .

وكان من المفروض أن يكتفي بنو إسرائيل بذلك ولكنهم عادوا إلى السؤال مرة أخرى .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 394 ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ مَا لَوْنُهَا ﴾ كقوله : " مَا هِيَ " .

وقرأ الضحاك : " لونها " بالنصب .

وقال أبو البقاء : لو قرىء : لَوْنَهَا " بالنصب لكان له وَجْهٌ ، وهو أن تكون " ما " زائدة كهي في قوله ﴿ أَيَّمَا الأجلين قَضَيْتُ ﴾ [القصص : 28] ويكون التقدير : يبين لنا لَوْنَهَا وهذا تجديد للأمر ، وتأكيد وتنبيه على ترك التعنّتن وهذا يدل على أن الأمر يقتضي الوجوب ، ويدل على أن الأمر على الفور ؛ لأنه تعالى ذمهم على التأخير بقوله : ﴿ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ [البقرة : 71] .

واستدل بعضهم على أن الأمر على التراخي ؛ لأنه تعالى لم يعنفهم على التأخير والمُرَاجعة في الخطاب ، قاله القرطبي عن ابن خُوَيْزِمَنْداد .

قال الثعلبي : وقرأ الضحاك : " لونهَا " بالنصب .

وأما " ما هي " فابتداء وخبر لا غَيْرُ ، إذ لا يمكن جعل " ما " زائدة ؛ لأن " هي " لا يصح

أن يكون مفعول "يبين" يعني: أنها بصيغة الرفع، وهذا ليس من مواضع زيادة "ما" فلا حاجة إلى هذا.

واللَّوْن عبارة عن الحُمْرة والسَّوَاد ونحوهما، واللَّوْن أيضاً النَّوع، وهو الدَّقَل نوع من النخل.

قال الأَخْفَشُ: "هو جماعة واحدها لِينَة" وفلان يَتَلَوَّنُ، أي: لا يثبتُ على حال؛ قال الشاعر: [الرمل]

كُلَّ يَوْمٍ تَتَلَوَّنْ...

غَيْرُ هَذَا بِكَ أَحْمَلُ

و"صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا" يجوز أن يكون "فاقع" صفة، و"لونها" فاعل به، وأن يكون خبراً مقدماً و"لونها" مبتدأ مؤخر، والجملة صفة ذكرهما أبو البقاء.

وفي الوجه الأول نظر، وذلك أن بعضهم ذكر أن هذه التوابع للألوان لا تعمل عمل الأفعال.

(85/55)

فإن قيل: يكون العمل لـ"صفراء" لا لـ"فاقع" كما تقول: "مررت برجل أبيض ناصع لونه" ف"لونه" مرفوع بـ"أبيض" لا بـ"ناصع".

فالجواب: أن ذلك ها هنا ممنوع من جهة أخرى، وهو أن "صفراء" مؤنث اللفظ، ولو كان

رافعاً لـ "لَوْنُها" لقيل : أصفر لونها ، كما تقول : مررت بأمرأة أصفر لونها ، ولا يجوز : صفراء لونها ؛ لأن الصفة كالفعل ، إلاَّ أن يقال : إنه لما أضيف إلى مؤنث اكتسب منه التأنيث ، فعومل معاملته كما سيأتي .

ويجوز أن يكون "لونها" مبتدأ و "تَسُرُّ" خبره ، وإنما أنث الفعل لاكتسابه بالإضافة معنى التأنيث ؛ كقوله : [الطويل]

مَشَيْنَ كَمَا اهْتَزَّتْ رِمَاحٌ تَسَفَّهَتْ . . .

أَعَالِيهَا مَرُّ الرِّيَاحِ النَّوَاسِمِ

وقول الآخر : [الطويل]

وَتَشْرَقُ [بِالقَوْلِ] الَّذِي قَدْ أَذَعْتَهُ . . .

كَمَا شَرِقَتْ صَدْرُ القَنَاةِ مِنَ الدَّمِ

أنّث فعل المَرِّ والصَّدْرِ لما أَضيفا لمؤنث ، وقرىء : ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السيارة﴾ [يوسف : 10] .

وقيل : لأن المراد باللَّون هنا الصُّفرة ، وهي مؤنّثة ، فحمل على المعنى في ذلك ، ويقال : أصفر فاقع ، وأبيض ناصع ، ويَقِقٌ ولَهِقٌ ولِهَاقٌ ، وأخضر ناضر ، وأحمر قانىء ، وأسود حالك وحائك وَحُلْكُوك ، ودَجُوجِيٌّ وغِرْبِيبُ ، وبَهِيم .

وقيل : " البهيم الخالص من كل لون " .

وبهذا يظهر أن " صفراء " على بابها من اللون المعروف لا سَوْدَاء كما قاله بعضهم : فإن الفُقُوع من صفة الأصفر خاصّة ، وأيضاً فإنه مجاز بعدي ، ولا يستعمل ذلك إلا في الإبل لِقُرْبِ سوادها من الصّفرة ، كقوله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ ﴾ [المرسلات : 33]

وقال [الخفيف]

تِلْكَ خَيْلِي مِنْهُ وتِلْكَ رِكَابِي . . .

هُنَّ صُفْرٌ أَوْلاَدُهَا كَالزَّبِيبِ

فإن قيل : هلاّ قيل : صفراء فاقعة ؟ وأي فائدة في ذلك اللون ؟

(86/55)

فالجواب : فائدته التأكيد ؛ لأن اللون اسم للهَيْئَةِ ، وهي الصّفرة ، فكأنه قال : شديدة الصفرة صفرتها فهو من قولك : جدّ جدّه .

وعن وهب : إذا نظرت إليها خُيِّل إليك أن شعاع الشمس يخرج من جِلْدِهَا ، فمعنى قوله : " تَسُرُّ النَّاظِرِينَ " أي : يعجبهم حسنها وصَفَاءُ لونها ، لأن العين تسر بالنظر إلى الشيء الحسن .

قال الكسائي ؛ يقال : فَقَع لونها يَفْقَعُ فُقُوعاً ، إذا خَلَصَت صفرته ، والإِفْقَاع : سوء الحال ،

وفَوَاقِعُ الدهر : بَوَائِقُه ، وفَقَّع بأصابعه : إذا صوَّت ، ومنه حديث أبن عباس : " نَهَى عن التَّفقيع في الصلاة " ، وهي الفرقعة ، هي غَمْزُ الأصابع حتى تُنْقِض ، قاله القرطبي .

وفي قوله " فاقع " لطيفة ، وهي أنه وصفها باسم الفاعل الذي هو نعت للدوام والاستمرار .

يعني : في الماضي والمستقبل .

وفي قوله : " تَسُرُّ " لطيفةٌ ، وهي أنه أتى بصيغة المضارع وهو يقتضي التجدُّد والحدوث ، بخلاف الماضي .

وفي قوله : " النَّاظرين " آية لطيفة ، وهي أنه أتى بصيغة الجمع المُحَلّى بالألف واللام ، ليعمّ كلّ ناضر منفردين ومجتمعين .

وقيل : المراد بالنظر نظر البصر للمرء والمرأة أو المراد به النظر بعين اليقين ، وهو التفكر في المخلوقات .

قوله : ﴿ تَسُرُّ الناظرين ﴾ جملة في محل رفع صفة لـ " بقرة " أيضاً ، وقد تقدم أنه يجوز أن تكون خبراً عن " لونها " بالتأويلين المذكورين .

و " السرور " لذّة في القلب عند حصول نفع أو توقّعه ، ومنه [السرير] الذي يُجْلس عليه إذا كان لأولي النعمة ، وسرير الميت تشبيهاً به في الصورة وتفاؤلاً بذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 2 صـ 161.164 ﴾ . باختصار .

قوله تعالى ﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (70) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

﴿ قالوا ادع لنا ربك ﴾ المحسن إليك بالإجابة في كل ما سألته ﴿ يبين لنا ما هي ﴾ ثم عللوا تكريرهم لذلك بقولهم ﴿ إن البقر ﴾ أي الموصوف بما قدمته ﴿ تشابه ﴾ أي وقع تشابهه ﴿ علينا ﴾ وذكر الفعل لأن كل جمع حروفه أقل من حروف واحدة فإن العرب تذكره نقل عن سيبويه ؛ ثم أدركتهم العناية فقالوا ﴿ وإنا إن شاء الله ﴾ أي الذي له صفات الكمال وأكدوا لما أوجب توقفهم من ظن عنادهم وقدموا التبرك بالمشية لذلك على خبر إن ﴿ لمهتدون ﴾ أي إلى المراد فتبركوا بما لا تكون بركة إلا به . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 169 ﴾

فصل

قال الفخر :

قال الحسن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنه قال : " والذي نفس محمد بيده لو لم يقولوا إن شاء الله لحيل بينهم وبينها أبداً " ، واعلم أن ذلك يدل على أن التلفظ بهذه الكلمة

مندوب في كل عمل يراد تحصيله ، ولذلك قال الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم :

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ [الكهف : 23] ، وفيه استعانة بالله وتفويض الأمر إليه ، والاعتراف بقدرته ونفاذ مشيئته . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 111 ﴾

فائدة

قال الآلوسى :

﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ ﴾ إعادة للسؤال عن الحال والصفة لا لرد الجواب الأول بأنه غير مطابق وأن السؤال باق على حاله بل لطلب الكشف الزائد على ما حصل وإظهار أنه لم يحصل البيان التام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 289 ﴾

فصل

قال الفخر :

احتج أصحابنا بهذا على أن الحوادث بأسرها مرادة لله تعالى فإن عند المعتزلة أن الله تعالى لما أمرهم بذلك فقد أراد اهتداءهم لا محالة ، وحينئذ لا يبقى لقولهم إن شاء الله فائدة .

أما على قول أصحابنا فإنه تعالى قد يأمر بما لا يريد فحينئذ يبقى لقولنا إن شاء الله فائدة .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 111 ﴾

فائدة

قال الفخر :

احتجت المعتزلة على أن مشيئة الله تعالى محدثة بقوله : ﴿ إِن شَاء الله ﴾ من وجهين :

الأول : أن دخول كلمة " أن " عليه يقتضي الحدوث .

والثاني : وهو أنه تعالى علق حصول الاهتداء على حصول مشيئة الاهتداء ، فلما لم يكن حصول الاهتداء أزلياً وجب أن لا تكون مشيئة الاهتداء أزلية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 111 ﴾

فائدة

قال الفخر :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ البقر تشابه عَلَيْنَا ﴾ المعنى أن البقر الموصوف بالتعوين والصفرة كثير فاشتبه علينا أيها نذبح ، وقرىء تشابه بمعنى تتشابه بطرح التاء وإدغامها في الشين و (قرىء) تشابهت ومتشابهة ومتشابه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 111 ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ إِنَّ البقر تشابه عَلَيْنَا ﴾ تعليل لقوله تعالى : ﴿ ادع ﴾ كما في قوله تعالى : ﴿ صَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صلاتك سَكَنٌ لَّهُمْ ﴾ [التوبة : 103] وهو اعتذار لتكرير السؤال أي إن البقر الموصوف بما ذكر كثير فاشتبه علينا ، والتشابه مشهور في البقر ، وفي الحديث : " فتن كوجوه البقر " أي يشبه بعضها بعضاً ، وقرأ يحيى وعكرمة والباقران الباقر وهو اسم لجماعة البقر ، والبقر اسم جنس جمعي يفرق بينه وبين واحده بالتاء ومثله يجوز تذكيره وتأنيثه ك ﴿ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾ [القمر : 20] ﴿ والنخل باسقات ﴾ [ق : 10] وجمعه أباقر ، ويقال فيه : بيقور وجمع بواقر ، وفي " البحر " إنما سمي هذا الحيوان بذلك لأنه يبقر الأرض أي يشقها للحرث ، وقرأ الحسن ﴿ تشابه ﴾ بضم الهاء جعله مضارعاً محذوف التاء وماضيه (تشابه) وفيه ضمير يعود على البقر على أنه مؤنث ، والأعرج كذلك إلا أنه شدد الشين ، والأصل تتشابه فأدغم ، وقرىء تشبه بتشديد الشين على صيغة المؤنث من المضارع المعلوم ، ويشبه بالياء والتشديد على صيغة المضارع المعلوم أيضاً ، وابن مسعود يشابه بالياء والتشديد جعله مضارعاً من تفاعل لكنه أدغم التاء في الشين ، وقرىء

مشتبه ومتشبه ويتشابه والأعمش متشابه ، ومتشابهة وقرىء تشابهت بالتخفيف ، وفي مصحف أبيّ بالتشديد ، واستشكل بأن التاء لا تدغم إلا في المضارع ، وليس في زنة الأفعال فعل ماض على تفاعل بتشديد الفاء ووجه بأن أصله إن البقرة تشابهت فالتاء الأولى من البقرة ؛ والثانية من الفعل فلما اجتمع مثلان أدغم نحو الشجرة تمايلت إلا أن جعل التشابه في بقرة ركيك ، والأهون القول بعدم ثبوت هذه القراءة فإن دون تصحيحها على وجه وجيه خرط القتاد ، ويشكل أيضاً تشابه من غير تأنيث لأنه كان يجب ثبوت علامته إلا أن يقال : إنه على حد قوله :

ولا أرض أبقل إبقالها . . .

وابن كيسان يجوزه في السعة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 289 . 290 ﴾

(90/55)

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّا إِن شَاء اللهُ لَمُهْتَدُونَ ﴾

فصل

قال الفخر :

فيه وجوه ذكرها القفال .

أحدها : وإنا بمشيئة الله نهتدي للبقرة المأمور بذبحها عند تحصيلنا أوصافها التي بها تمتاز عما عداها .

وثانيها : وإنا إن شاء الله تعريفها إيانا بالزيادة لنا في البيان نهتدي إليها .

وثالثها : وإنا إن شاء الله على هدى في استقصائنا في السؤال عن أوصاف البقرة أي نرجوا أنا لسنا على ضلالة فيما نفعله من هذا البحث .

ورابعها : إنا بمشيئة الله نهتدي للقاتل إذا وصفت لنا هذه البقرة بما به تمتاز هي عما سواها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 111 ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وَإِنَّا إِن شَاء اللهُ لَمُهْتَدُونَ ﴾ أي إلى عين البقرة المأمور بذبحها ، أو لما خفي من أمر القاتل ، أو إلى الحكمة التي من أجلها أمرنا ، وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس مرفوعاً معضلاً وسعيد عن عكرمة مرفوعاً مرسلاً وابن أبي حاتم عن أبي هريرة مرفوعاً موصولاً أنه صلى الله عليه وسلم قال : " لو لم يستثنوا لما تبينت لهم آخر الأبد " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 290 ﴾

فائدة

قال ابن عاشور :

وقولهم : ﴿ وإنا إن شاء الله لمهتدون ﴾ تنشيط لموسى ووعد له بالامتثال لينشط إلى دعاء ربه بالبيان ولتندفع عنه سآمة مراجعتهم التي ظهرت بوارقها في قوله : فافعلوا ما تؤمرون ﴾ [البقرة : 68] ولإظهار حسن المقصد من كثرة السؤال وأن ليس قصدهم الإعنات .

تفادياً من غضب موسى عليهم .

والتعليق بـ ﴿ إن شاء الله ﴾ للتأدب مع الله في رد الأمر إليه في طلب حصول الخير . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 1 صـ 537 ﴾

(91/55)

فائدة

قال الآلوسى :

واحتج بالآية على أن الحوادث بإرادة الله تعالى حيث علق فيما حكاه وجود الاهتداء الذي هو من جملة الحوادث بتعلق المشيئة وهي نفس الإرادة وما قصه الله تعالى في كتابه من غير نكير فهو حجة على ما عرف في محله ، وهذا مبني على القول بترادف المشيئة والإرادة ، وفيه خلاف وأن كون ما ذكر بالإرادة مستلزم لكون جميع الحوادث بها وفيه نظر واحتج

أيضاً بها على أن الأمر قد ينفك عن الإرادة وليس هو الإرادة كما يقوله المعتزلة لأنه تعالى لما أمرهم بالذبح فقد أراد اهتداءهم في هذه الواقعة فلا يكون لقوله : إن شاء الله الدال على الشك وعدم تحقق الاهتداء فائدة بخلاف ما إذا قلنا : إنه تعالى قد يأمر بما لا يريد ، والقول بأنه يجوز أن يكون أولئك معتقدين على خلاف الواقع للانفكاك ، أو يكون مبنياً على ترددهم في كون الأمر منه تعالى يدفعه التقرير إلا أنه يرد أن الاحتجاج إنما يتم لو كان معنى ﴿ لَمُهْتَدُونَ ﴾ الاهتداء إلى المراد بالأمر أما لو كان المراد إن شاء الله اهتداءنا في أمر ما لكنا مهتدين فلا إلا أنه خلاف الظاهر كالقول بأن اللازم أن يكون المؤمور به وهو الذبح مراداً ولا يلزمه الاهتداء إذ يجوز أن يكون لتلك الإرادة حكمة أخرى بل هذا أبعد بعيد ، والمعتزلة والكرامية يحتجون بالآية على حدوث إرادته تعالى بناء على أنها والمشيئة سواء لأن كلمة (إن) دالة على حصول الشرط في الاستقبال وقد تعلق الاهتداء الحادث بها ، ويجاب بأن التعليق باعتبار التعلق فاللازم حدوث التعلق ولا يلزمه حدوث نفس الصفة وتوسط الشرط بين اسم (إن) وخبرها لتتوافق رؤوس الآي ، وجاء خبر (إن) اسماً لأنه أدل على الثبوت وعلى أن الهداية حاصلة لهم وللاعتناء بذلك أكد الكلام . انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 290 ﴾

لطيفة

قال فى روح البيان :

وفي " الحكم العطائية" أخرج من أوصاف بشريتك عن كل وصف مناقض لعبوديتك لتكون لنداء الحق مجيباً ومن حضرته قريباً بالاستسلام لقهره ، وذلك يقتضي وجود الحفظ من الله تعالى حتى لا يلم العبد بمعصية وإن ألم بها فلا تصدر منه وإذا صدرت منه فلا يصر عليها إذ الحفظ الامتناع من الذنب مع جواز الوقوع فيه والعصمة الامتناع من الذنب مع استحالة الوقوع في العصمة للأنبياء والحفظ للأولياء فقوله : ﴿ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ ﴾ يدل على الرجوع من الهفوة وعدم الإصرار وهذا إيمان محض . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح البيان حـ 1 صـ 205 ﴾

(93/55)

ومن فوائد ابن عرفة فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّآ إِن شَآءَ اللهُ لَمُهْتَدُونَ ﴾ .

احتج بها الفخر على أن جميع الأشياء من الخير والشر مخلوقة لله تعالى ومرادة له .

ورده ابن عرفة بإجماعنا على أن الداعي خلق الله تعالى فيقول الخصم : نحمل الآية عليه .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عرفة صـ 327 ﴾

ومن فوائد أبى حيان فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي ﴾ ، قال أبو عبد الله محمد بن أبي الفضل المرسي في ري الظمآن وجه الاشتباه عليهم ، إن كل بقرة لا تصلح عندهم أن تكون آية ، لما علموا من ناقة صالح وما كان فيها من العجائب ، فظنوا أن الحيوان لا يكون آية إلا إذا كان على ذلك الأسلوب ، وذلك لما نبؤا أنها آية ، سألوا عن ماهيتها وكيفيتها ، ولذلك لم يسألوا موسى عن ذلك ، بل سألوه أن يسأل الله لهم عن ذلك ، إذ الله تعالى هو العالم بالآيات ، وإنما سألوا عن التعيين ، وإن كان اللفظ مقتضاه الإطلاق ، لأنهم لو عملوا بمطلقه لم يحصل التقصي عن الأمر بيقين .

انتهى كلامه .

وقال غيره : لما لم يمكن التماثل من كل وجه ، وحصل الاشتباه ، ساغ لهم السؤال ، فأخبروا بسنها ، فوجدوا مثلها في السن كثيراً ، فسألوا عن اللون ، فأخبروا بذلك ، فلم يزل اللبس بذلك ، فسألوا عن العمل ، فأخبروا بذلك ، وعن بعض أوصافها الخاص بها ، فزال اللبس

بتبيين السن واللون والعمل وبعض الأوصاف ، إذ وجود بقر كثير على هذه الأوصاف يندر ، فهذا هو السبب الذي جرأهم على تكرار السؤال : ﴿ قالوا ادعُ لنا ربك يبين لنا ما هي ﴾ ، تقدم الكلام على هذه الجملة .

﴿ إن البقر تشابه علينا ﴾ : هذا تعليل لتكرار هذا السؤال إلى أن الحامل على استقصاء أوصاف هذه البقرة ، وهو تشابهها علينا ، فإنه كثير من البقر يماثلها في السن واللون .

وقرأ عكرمة ويحيى بن يعمر : إن الباقر ، وقد تقدم أنه اسم جمع ، قال الشاعر :

ما لي رأيتك بعد عهدك موحشاً . . .

خلقاً كحوض الباقر المتهدم

وقرأ الجمهور : تشابه ، جعلوه فعلاً ماضياً على وزن تفاعل ، مسند الضمير البقر ، على أن البقر مذكر .

وقرأ الحسن : تشابه ، بضم الهاء ، جعله مضارعاً محذوف التاء ، وماضيه تشابه ، وفيه ضمير يعود على البقر ، على أن البقر مؤنث .

وقرأ الأعرج : كذلك ، إلا أنه شدّد الشين ، جعله مضارعاً وماضيه تشابه ، أصله :

تتشابه ، فأدغم ، وفيه ضمير يعود على البقر .

وروي أيضاً عن الحسن ، وقرأ محمد المعيطي ، المعروف بذي الشامة : تشبه علينا .

وقرأ مجاهد : تشبه ، جعله ماضياً على تفعل .

وقرأ ابن مسعود : يشابه ، بالياء وتشديد الشين ، جعله مضارعاً من تفاعل ، ولكنه أدغم التاء في الشين .

وقرئ : متشبه ، اسم فاعل من تشبه .

وقرأ بعضهم : يتشابه ، مضارع تشابه ، وفيه ضمير يعود على البقر .

وقرأ أُبي : تشابهت .

وقرأ الأعمش : متشابه ومتشابهة .

وقرأ ابن أبي إسحاق : تشابهت ، بتشديد الشين مع كونه فعلاً ماضياً ، وبتاء التأنيث آخره .

فهذه اثنا عشر قراءة .

وتوجيه هذه القراءات ظاهر ، إلا قراءة ابن أبي إسحاق تشابهت ، فقال بعض الناس : لا وجه لها .

وتبيين ما قاله : إن تشديد الشين إنما يكون بإدغام التاء فيها ، والماضي لا يكون فيه تاءان ، فتبقى إحداهما وتدغم الأخرى .

ويمكن أن توجه هذه القراءة على أن أصله : اشابهت ، والتاء هي تاء البقرة ، وأصله أن البقرة اشابهت علينا ، ويقوي ذلك لحاق تاء التأنيث في آخر الفعل ، أو اشابهت أصله : تشابهت ، فأدغمت التاء في الشين واجتلبت همزة الوصل .

فحين أدرج ابن أبي إسحاق القراءة ، صار اللفظ : أن البقرة اشابهت ، فظن السامع أن تاء البقرة هي تاء في الفعل ، إذ النطق واحد ، فتوهم أنه قرأ : تشابهت ، وهذا لا يظن بابن أبي إسحاق ، فإنه رأس في علم النحو ، وممن أخذ النحو عن أصحاب أبي الأسود الدؤلي مستنبط علم النحو .

(95/55)

وقد كان ابن أبي إسحاق يزري على العرب وعلى من يستشهد بكلامهم ، كالفرزدق ، إذا جاء في شعرهم ما ليس بالمشهور في كلام العرب ، فكيف يقرأ قراءة لا وجه لها ، وإن البقر تعليل للسؤال ، كما تقول : أكرم زيداً إنه عالم ، فالحامل لهم على السؤال هو حصول تشابه البقر عليهم .

﴿ وإنا إن شاء الله لمهتدون ﴾ : أي لمهتدون إلى عين البقرة المأمور بذبحها ، أو إلى ما خفي من أمر القاتل ، أو إلى الحكمة التي من أجلها أمرنا بذبح البقرة .

وفي تعليق هدايتهم بمشيئة الله إنابة وانقياد ودلالة على ندمهم على ترك موافقة الأمر .

وقد جاء في الحديث : " ولو لم يستثنوا لما بينت لهم آخر الأبد " .

وجواب هذا الشرط محذوف يدل عليه مضمون الجملة ، أي إن شاء الله اهتدينا ، وإذ حذف الجواب كان فعل الشرط ماضياً في اللفظ ومنفياً بلم ، وقياس الشرط الذي حذف جوابه أن يتأخر عن الدليل على الجواب ، فكان الترتيب أن يقال في الكلام : إن زيداً لقائم إن شاء الله ، أي : إن شاء الله فهو قائم ، لكنه توسط هنا بين اسم إن وخبرها ، ليحصل توافق رؤوس الآي ، وللاهتمام بتعليق الهداية بمشيئة الله ، وجاء خبر إن اسماً ، لأنه أدل على الثبوت وعلى أن الهداية حاصلة لهم ، وأكد بحرفي التأكيد إن واللام ، ولم يأتوا بهذا الشرط إلا على سبيل الأدب مع الله تعالى ، إذ أخبروا بثبوت الهداية لهم .

وأكدوا تلك النسبة ، ولو كان تعليقاً محضاً لما احتيج إلى تأكيد ، ولكنه على قول القائل : أنا صانع كذا إن شاء الله ، وهو متلبس بالصنع ، فذكر إن شاء الله على طريق الأدب .

(96/55)

قال الماتريدي : إن قوم موسى ، مع غلظ أفهامهم وقلة عقولهم ، كانوا أعرف بالله وأكمل توحيداً من المعتزلة ، لأنهم قالوا : ﴿ وإنا إن شاء الله لمهتدون ﴾ ، والمعتزلة يقولون : قد

شاء الله أن يهتدوا ، وهم شاؤوا أن لا يهتدوا ، فغلبت مشيئتهم مشيئة الله تعالى ، حيث كان الأمر على : ما شاؤوا إلا كما شاء الله تعالى ، فتكون الآية حجة لنا على المعتزلة .

انتهى كلامه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 1 صـ 418. 420 ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ إِنَّ البقر تَشَابَهَ عَلَيْنَا ﴾ البَقَر : اسم إن ، وهو اسم جنس كما تقدم .

وقرأ محمد ذو الشامة الأموي : " إنّ البَاقِرَ " وهو جمع البَقَر كـ " الجَامِل " جماعة الجَمَل ؛ قال الشاعر : [الكامل]

مَالِي رَأَيْتُكَ بَعْدَ عَهْدِكَ مُوحِشاً . . .

خَلِقاً كَحَوْضِ البَاقِرِ المُتَهَدِّمِ

قال قطرب : " يقال لجمع البقرة : بَقَر وبَاقِر وبَاقُور ويَيْقُور " .

وقال الأَصْمَعِيّ : " الباقر " جمع باقرة ، قال : ويجمع بقر على بَاقُورة ، حكاه النّحاس .

قال القرطبي : والباقر والبقر والبيقور والبقير لُغَات بمعنى واحد والعرب تذكره وتؤنثه ، وإلى ذلك ترجع معاني القراءات في " تشابه " .

و " تشابه " جملة فعلية في محل رفع خبر لـ " إن " ، وقرىء : " تَشَّابَهُ " مشدّداً ومخفّفاً ، وهو مضارع الأصل : " تَتَشَابَهُ " بتاءين ، فَأُدْغِمَ تارةً ، وحذف منه أخرى ، وكلا الوجهين

مقيس .

وقرىء أيضاً : "يَشَّابَهُ" بالياء من تحت ، [وأصله : يَتَشَابَهُ فأدغم أيضاً ، وتذكير الفعل وتأنيثه جائزات ؛ لأن فاعله اسم جنس] وفيه لغتان : التذكيرُ والتأنيثُ ، قال تعالى : ﴿ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ [الحاقة : 7] فأنَّث ، و ﴿ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾ [القمر : 20] فذكر ، وقيل : ذكر الفعل لتذكير لفظ "البقرة" ؛ كقوله : ﴿ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾ .

(97/55)

وقال المبرّد : سئل سِيبَوَيْهِ عن هذه الآية ، فقال : "كل جمع حروفه أقل من حروف وَاحِده ، فإن العرب تذكره" ؛ واحتج بقول الأعشى : [البسيط]

وَدِّعْ هُرَيْرَةَ إنَّ الرَّكْبَ مُرْتَحِلْ . . .

[وَهَلْ تُطِيقُ وَدَاعاً أيُّهَا الرَّجُلُ]

ولم يقل : "مرتحلون" .

وفي "تشابه" قراءاتك "تَشَابَهَ" بتخفيف الشين وفتح الباء والهاء ، وهي قراءة العامة .

و "تَتَشَابَه" بتاءين على الأصل .

و" تَشَّبَه " بتشديد الشين والباء من غير ألف ، والأصل : تَتَشَبَّهُ .

و" تَشَابَهَتْ " على وزن " تَفَاعلت " وهو في مصحف أُبَيّ كذلك أنّثه لتأنيث البقرة .

و" مُتَشَابِهَة " و" مُتَشَبِّهة " على اسم الفاعل من تشابه وتشبّه .

وقرىء : " تَشَبَّهَ " ماضياً .

وقرأ ابن أبي إسحاق : " تَشَّابَهَتْ " بتشديد الشين ، قال أبو حاتم : هذا غلط ، لأن التاء في هذا الباب لا تدغم إلاّ في المضارع .

وهو معذور في ذلك .

وقرىء : " تَشَّابَهَ " كذلك ، إلاّ أنه بطرح تاء التأنيث ، ووجهها على إشكالها أن يكون الأصل : إن القرة تشابهت ، فالتاء الأولى من البقرة و[التاء] الثانية من الفعل ، فلما اجتمع مثلان أدغم نحو : الشجرة تمايلت ، إلاّ أنه يُشكِل أيضاً في تَشَّابَه من غير تاء ؛ لأنه كان يجب ثبوت علامة التأنيث .

وجوابه : أنه مثل : [المتقارب]

. . . . . .

وَلاَ أَرْضَ أَبْقَلَ إِبْقَالَهَا

مع أن ابن كيسان لا يلتزم ذلك في السّعَةِ .

وقرأ الحسن " تَشَابَهُ " بتاء مفتوحة وهاء مضمومة وتخفيف الشين أراد : تتشابه .

وقرأ الأعرج: "تَشَّابَهُ" بفتح التاء وتشديد الشين وضمّ الهاء على معنى: تتشابه.

وقرأ مجاهد: "تَشَّبَّه" كقراءة الأعرج، إلا أنه بغير ألف.

ومعنى الآية: [التلبيس] والتشبه.

(98/55)

قيل: إنما قالوا: "إِنَّ البَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا" أي: اشتبه أمره علينا، فلا نهتدي إليه؛ لأن وجوه البقر [تتشابه] يريد: أنها يشبه بعضها بعضاً، ووجوه البقر تتشابه.

قوله: ﴿إِن شَآءَ اللهُ﴾ هذا شرط جوابه محذوف لدلالة "إنْ"، ما في حيّزها عليه، والتقدير: إن شاء الله هِدَايتنا للبقرة، اهتدينا، ولكنهم أخرجوه في جملة اسمية مؤكدة بحرفي تأكيد مبالغة في طلب الهِدَاية، واعترضوا بالشرط تيمُّناً بمشيئة الله تعالى.

"المهتدون" اللام: لام الابتداء داخلة على خبر "إن".

وقال أبو البقاء: جواب الشرط "إن" وما عملت فيه عند سيبويه.

وجاز ذلك لما كان الشرط متوسطاً، وخبر "إنَّ" هو جواب الشرط في المعنى، وقد وقع بعده، فصار التقدير: إن شاء الله هدايتنا اهتدينا.

وهذا الذي قاله لا يجوز، فإنه متى وقع جواب الشرط ما لا يصلح أن يكون شرطاً وجب

اقترانه بالفَاءِ ، وهذه الجملة لا تصلح أن تقع شرطاً ، فلو كانت جواباً لزمتها الفاء ، ولا تحذف إلا ضرورة ، ولا جائز أن يريد أبو البقاء أنه دالّ على الجواب ، وسماه جواباً مجازاً ؛ لأنه جعل ذلك مذهباً للمبرد مقابلاً لمذهب سيبويه فقال : وقال المبرد : والجواب محذوف دلت عليه الجملة ؛ لأن الشرط معترض ، فالنية به التأخير ، فيصير كقولك : أنت ظالم إن فعلت .

وهذا الذي نقله عن المبرد هو المنقول عن سيبويه ، والذي نقله عن سيبويه قريبٌ مما نقل عن الكوفيين وأبي زيد من أنه يجوز تقديم جواب الشَّرْط عليه ، وقد ردّ عليهم البصريون بقول العرب : " أنت ظالم إن فعلت " .

إذ لو كان جواباً لوجب اقترانه بالفاء لما ذكرت ذلك .

وأصل " مُهْتَدُون " : " مُهْتَدِيُون " ، فأعلّ بالحذف ، وهو واضح . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير ابن عادل حـ 2 صـ 164 . 167 ﴾

(99/55)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (70) ﴾

وبرغم أن ما قيل لبني إسرائيل . . واضح تمام الوضوح عن البقرة . . وعمرها وشكلها ولونها ومنظرها . . فإن الله سبحانه وتعالى أراد أن يؤدبهم فجعلهم ينظرون إلى البقر . . وهذا يقول هذه هي والآخر يقول لا بل هي في مكان كذا . . والثالث يقول لا بل هي في موقع كذا . . وعادوا إلى موسى يسألونه أن يعود إلى ربه ليبين لهم لأن البقر تشابه عليهم . . وهنا ذكروا الله الذي نسوه ولم ينفذوا أمره منذ أن قال لهم اذبحوا بقرة ثم قال لهم : ﴿ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴾ . . فطلبوا منه الهداية بعد أن تاهوا وضاعوا بسبب عنادهم وجدلهم . . وجاء الجواب من الله سبحانه وتعالى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 395 ﴾

(100/55)

قوله تعالى ﴿ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ (71) ﴾

فصل

قال البقاعى :

﴿ قال إنه يقول إنها ﴾ أي هذه البقرة التي أطلتم التعنت في أمرها ﴿ بقرة لا ذلول ﴾ من الذل وهو حسن الانقياد – قاله الحرالي ثم وصف الذلول بقوله ﴿ تثير الأرض ﴾ أي يتجدد منها إثارتها بالحرث كل وقت من الإثارة قال الحرالي : وهي إظهار الشيء من الثرى ، كأنها تخرج الثرى من محتوى اليبس ؛ ولما كان الذل وصفاً لازماً عبر في وصفها بانتفائه بالاسم المبالغ فيه ، أي ليس الذل وصفاً لازماً لها لا أنها بحيث لا يوجد منها ذل أصلاً ، فإنها لو كانت كذلك كانت وحشية لا يقدر عليها أصلاً .

(101/55)

ولما كان لا يتم وصفها بانتفاء الذل إلا بنفي السقي عنها وكان أمراً يتجدد ليس هو صفة لازمة كالذل عبر فيه بالفعل وأصحبه لا عطفاً على الوصف لا على تثير لئلا يفسد المعنى فقال واصفاً للبقرة ﴿ ولا تسقي الحرث ﴾ أي لا يتجدد منها سقيه بالسانية كل وقت ، ويجوز أن يكون إثبات لا فيه تنبيهاً على حذفها قبل تثير ، فيكون الفعلان المنفيان تفسيراً على سبيل الاستئناف للاذلول ، وحذف لا قبل تثير لئلا يظن أنه معها وصف لذلول فيفسد المعنى ، والمراد أنها لم تذلل بحرث ولا سقي ومعلوم من القدرة على ابتياعها

وتسلمها للذبح أنها ليست في غاية الإباء كما آذن به الوصف بذلول ، كل ذلك لما في التوسط من الجمع لأشتات الخير ﴿ مسلّمة ﴾ أي من العيوب ﴿ لا شية ﴾ أي علامة ﴿ فيها ﴾ تخالف لونها بل هي صفراء كلها حتى قرنها وظلفها ﴿ قالوا الآن ﴾ أي في هذا الحد من الزمان الكائن الفاصل بين الماضي والآتي ﴿ جئت بالحق ﴾ أي الأمر الثابت المستقر البين من بيان وصف البقرة فحصلوها ﴿ فذبحوها ﴾ أي فتسبب عما تقدم كله أنهم ذبحوها ﴿ وما كادوا ﴾ أي قاربوا قبل هذه المراجعة الأخيرة ﴿ يفعلون ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : لو ذبحوا بقرة ما لأجزأتهم لكنهم شددوا في السؤال فشدد الله عليهم – يعني أنهم كلفوا بالأسهل فشددوا فنسخ بالأشق ، وهو دليل جواز النسخ قبل الفعل ، أو يقال إنه لما كان السبت إنما وجب عليهم وابتلوا بالتشديد فيه باقتراحهم له وسؤالهم إياه بعد إبائهم للجمعة كما يأتي إن شاء الله تعالى بيانه عند قوله تعالى ﴿ إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه ﴾ [النحل : 124] كان أنسب الأشياء تعقيبه بقصة البقرة التي ما شدد عليهم في أمرها إلا لتعنتهم فيه وإبائهم لذبح أيّ بقرة تيسرت ، ويجوز أن يقال إنه لما كان من جملة ما استخفوا به السبت المسارعة إلى إزهاق ما لا يحصى من الأرواح الممنوعين منها من الحيتان وكان في قصة البقرة التعنت والتباطؤ عن إزهاق نفس واحدة أمروا بها

تلاه بها ، ومن أحاسن المناسبات أن في كل من آيتي القردة والبقرة تبديل حال الإنسان بمخالطة لحم بعض الحيوانات العجم ، ففي الأولى إخراسه بعد نطقه بلحم السمك ، وفي الثانية إنطاقه بعد خرسه بالموت بلحم البقر ، ولعل تخصيص لحم البقر بهذا الأمر لإيقاظهم من رقدتهم وتنبيههم من غفلتهم عن عظيم قدرة الله تعالى لينزع من قلوبهم التعجب من خوار العجل الذي عبدوه .

وقال الإمام أبو الحسن الحرالي : وفي ذلك تشامّ بين أحوالهم في اتخاذهم العجل وفي طلبهم ذلك ، وفي كل ذلك مناسبة بين طباعهم وطباع البقرة المخلوقة للكدّ وعمل الأرض التي معها التعب والذل والتصرف فيما هو من الدنيا توغلاً فيها وفيه نسمة مطلبهم ما تنبت الأرض الذي هو أثر الحرث – يعني الذي أبدلوا الحطة به وهو حبة في شعرة ، فكأنهم بذلك أرضيون ترابيون لا تسمو طباع أكثرهم إلى الأمور الروحانية العلوية ، فإن جبلة كل نفس تناسب ما تنزع إليه وتلهج به من أنواع الحيوان ﴿ جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ومن الأنعام أزواجاً ﴾ [الشورى : 11] – انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 169 . 171 ﴾

فصل

قال الفخر :

ثم أجاب الله تعالى عن سؤالهم بقوله تعالى : ﴿ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأرض ﴾ وقوله : ﴿ لاَّ ذَلُولٌ ﴾ صفة لبقرة بمعنى بقرة غير ذلول بمعنى لم تذلل للكراب وإثارة الأرض ولا هي من البقر التي يسقى عليها فتسقى الحرث و " لا" الأولى للنفي والثانية مزيدة لتوكيد الأولى ، لأن المعنى لا ذلول تثير وتسقي على أن الفعلين صفتان لذلول كأنه قيل لا ذلول مثيرة وساقية ، وجملة القول أن الذلول بالعمل لا بد من أن تكون ناقصة فبين تعالى أنها لا تثير الأرض ولا تسقى الحرث لأن هذين العملين يظهر بهما النقص .

أما قوله تعالى : ﴿ مُّسَلَّمَةٌ ﴾ ففيه وجوه .

أحدها : من العيوب مطلقاً .

وثانيها : من آثار العمل المذكور .

وثالثها : مسلمة أي وحشية مرسلة عن الحبس .

(103/55)

ورابعها : مسلمة من الشية التي هي خلاف لونها أي خلصت صفرتها عن اختلاط سائر الألوان بها ، وهذا الرابع ضعيف وإلا لكان قوله : ﴿ لاشية فيها ﴾ تكراراً غير مفيد ، بل الأولى حمله على السلامة من العيوب واللفظ يقتضي ذلك لأن ذلك يفيد السلامة الكاملة

عن العلل والمعايب ، واحتج العلماء به على جواز استعمال الظاهر مع تجويز أن يكون الباطن بخلافه لأن قوله : ﴿ مُّسَلَّمَةٌ ﴾ إذا فسرناها بأنها مسلمة من العيوب فذلك لا نعلمه من طريق الحقيقة إنما نعلمه من طريق الظاهر : أما قوله تعالى : ﴿ لاشية فيها ﴾ فالمراد أن صفرتها خالصة غير ممتزجة بسائر الألوان لأن البقرة الصفراء قد توصف بذلك إذا حصلت الصفرة في أكثرها فأراد تعالى أن يبين عموم ذلك بقوله : ﴿ لاشية فيها ﴾ روي أنها كانت صفراء الأظلاف صفراء القرون ، والوشي خلط لون بلون .

ثم أخبر الله تعالى عنهم بأنهم وقفوا عند هذا البيان واقتصروا عليه فقالوا : ﴿ الآن جئت بالحق ﴾ أي الآن بانت هذه البقرة عن غيرها لأنها بقرة عوان صفراء غير مذللة بالعمل ، قال القاضي : قوله تعالى : ﴿ الآن جئت بالحق ﴾ كفر من قبلهم لا محالة لأنه يدل على أنهم اعتقدوا فيما تقدم من الأوامر أنها ما كانت حقه ، وهذا ضعيف لاحتمال أن يكون المراد الآن ظهرت حقيقة ما أمرنا به حتى تميزت من غيرها فلا يكون كفراً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 111.112 ﴾

فائدة

قال ابن عاشور :

وقوله : ﴿ قالوا الآن جئت بالحق ﴾ أرادوا بالحق الأمر الثابت الذي لا احتمال فيه كما

تقول جاء بالأمر على وجهه ، ولم يريدوا من الحق ضد الباطل لأنهم ما كانوا يكذبون نبيهم .

فإن قلت : لماذا ذكر هنا بلفظ الحق ؟ وهلا قيل قالوا : الآن جئت بالبيان أو بالثبت ؟

(104/55)

قلت : لعل الآية حكت معنى ما عبر عنه اليهود لموسى بلفظ هو في لغتهم محتمل للوجهين فحكى بما يرادفه من العربية تنبيهاً على قلة اهتمامهم بانتقاء الألفاظ النزيهة في مخاطبة أنبيائهم وكبرائهم كما كانوا يقولون للنبيء صلى الله عليه وسلم ﴿ راعنا ﴾ ، فنهينا نحن عن أن نقوله بقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا ﴾ [البقرة : 104] وهم لقلة جدارتهم بفهم الشرائع قد توهموا أن في الأمر بذبح بقرة دون بيان صفاتها تقصيراً كأنهم ظنوا الأمر بالذبح كالأمر بالشراء فجعلوا يستوصفونها بجميع الصفات واستكملوا موسى لما بين لهم الصفات التي تختلف بها أغراض الناس في الكسب للبقر ظناً منهم أن في علم النبيء بهذه الأغراض الدنيوية كمالاً فيه ، فلذا مدحوه بعد البيان بقولهم ﴿ الآن جئت بالحق ﴾ كما يقول الممتحن للتلميذ بعد جمع صور السؤال : الآن أصبت الجواب ، ولعلهم كانوا لا يفرقون بين الوصف الطردي وغيره في التشريع ، فليحذر المسلمون أن يقعوا في فهم الدين على شيء مما وقع فيه أولئك وذموا لأجله . انتهى انتهى . ا

هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 1 صـ 538 ﴾

قوله تعالى ﴿ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴾

فائدة

قال الفخر :

أما قوله تعالى : ﴿ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ فالمعنى فذبحوا البقرة وما كادوا يذبحونها ، وههنا بحث : وهو أن النحويين ذكروا " لكاد " تفسيرين .

الأول : قالوا : إن نفيه إثبات وإثباته نفي .

فقولنا : كاد يفعل كذا معناه قرب من أن يفعل لكنه ما فعله وقولنا : ما كاد يفعل كذا معناه قرب من أن يفعل لكنه فعله .

(105/55)

والثاني : وهو اختيار الشيخ عبد القاهر (الجرجاني) النحوي أن كاد معناه المقاربة فقولنا كاد يفعل معناه قرب من الفعل وقولنا ما كاد يفعل معناه ما قرب منه وللأولين أن يحتجوا على فساد هذا الثاني بهذه الآية لأن قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ معناه وما قاربوا الفعل ونفي المقاربة من الفعل يناقض إثبات وقوع الفعل ، فلو كان كاد للمقاربة لزم وقوع التناقض في

هذه الآية . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 112 ﴾

قال الطبرى :

والصواب من التأويل عندنا ، أن القوم لم يكادوا يفعلون ما أمرهم الله به من ذبح البقرة ، للخلتين كلتيهما : إحداهما غلاء ثمنها ، مع ما ذكر لنا من صغر خطرها وقلة قيمتها ؛ والأخرى خوف عظيم الفضيحة على أنفسهم ، بإظهار الله نبيه موسى صلوات الله عليه وأتباعه – على قاتله . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الطبرى حـ 1 صـ 220 ﴾

وقال ابن عاشور :

عطفت الفاء جملة ﴿ فذبحوها ﴾ على مقدر معلوم وهو فوجدوها أو فظفروا بها أو نحو ذلك وهذا من إيجاز الحذف الاقتصاري ، ولما ناب المعطوف في الموقع عن المعطوف عليه صح أن تقول الفاء فيه للفصيحة لأنها وقعت موقع جملة محذوفة فيها فاء للفصيحة ولك أن تقول إن فاء الفصيحة ما أفصحت عن مقدر مطلقاً كما تقدم .

وقوله : ﴿ وما كادوا يفعلون ﴾ تعريض بهم بذكر حال من سوء تلقيهم الشريعة ، تارة بالإعراض والتفريط ، وتارة بكثرة التوقف والإفراط ، وفيه تعليم للمسلمين بأصول التفقه في الشريعة ، والأخذ بالأوصاف المؤثرة في معنى التشريع دون الأوصاف الطردية ، ولذلك قال ابن عباس : لو ذبحوا أية بقرة لأجزأتهم ولكن شددوا فشدد الله عليهم .

وروى ابن مردويه والبزار وابن أبي حاتم بسندهم إلى الحسن البصري عن رافع عن أبي

هريرة أن النبيء صلى الله عليه وسلم قال : " لو اعترضوا أدنى بقرة فذبحوها لكفتهم ولكن شددوا فشدد الله عليهم " وفي سنده عبادة بن منصور وهو ضعيف ، وكان النبيء صلى الله عليه وسلم ينهى أصحابه عن كثرة السؤال وقال : " فإنما أهلك الذين من قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم" وبين للذي سأله عن اللقطة ما يفعله في شأنها فقال السائل : فضالّة الغنم قال : " هي لك أو لأخيك أو للذئب ، قال السائل فضالة الإبل فغضب رسول الله وقال مالك ولها ، معها حذاؤها وسقاؤها تشرب الماء وترعى الشجر حتى يأتيها ربها " .

(106/55)

وجملة : ﴿ وما كادوا يفعلون ﴾ تحتمل الحال والاستئناف ، والأول أظهر لأنه أشد ربطاً للجملة وذلك أصل الجمل أي ذبحوها في حال تقرب من حال من لا يفعل ، والمعنى أنهم ذبحوها مكرهين أو كالمكرهين لما أظهروا من المماطلة وبذلك يكون وقت الذبح ووقت الاتصاف بمقاربة انتفائه وقتاً متحداً اتحاداً عرفياً بحسب المقامات الخطابية للإشارة إلى أن مماطلتهم قارنت أول أزمنة الذبح .

وعلى الاستئناف يصح اختلاف الزمنين أي فذبحوها عند ذلك أي عند إتمام الصفات ،

وكان شأنهم قبل ذلك شأن من لم يقارب أن يفعل .

ثم إن ﴿ ما كادوا يفعلون ﴾ يقتضي بحسب الوضع نفي مدلول كاد فإن مدلولها المقاربة ونفي مقاربة الفعل يقتضي عدم وقوعه بالأولى فيقال أنى يجتمع ذلك مع وقوع ذبحها بقوله : ﴿ فذبحوها ﴾ ؟ فأما على وجه الاستئناف فيمكن الجواب بأن نفي مقاربة الفعل كان قبل الذبح حين كرروا السؤال وأظهروا المطال ثم وقع الذبح بعد ذلك ، وقد أجاب بمثل هذا جماعة يعنون كأن الفعل وقع فجأة بعد أن كانوا بمعزل عنه على أنه مبني على جعل الواو استئنافاً وقد علمتم بعده .

فالوجه القالع للإشكال هو أن أئمة العربية قد اختلفوا في مفاد كاد المنفية في نحو ما كاد يفعل فذهب قوم منهم الزجاجي إلى أن نفيها يدل على نفي مقاربة الفعل وهو دليل على انتفاء وقوع الفعل بالأولى فيكون إثبات كاد نفياً لوقوع الخبر الذي في قولك كاد يقوم أي قارب فإنه لا يقال إلا إذا قارب ولم يفعل ونفيها نفياً للفعل بطريق فحوى الخطاب فهو كالمنطوق وأن ما ورد مما يوهم خلاف ذلك مؤول بأنه باعتبار وقتين فيكون بمنزلة كلامين ومنه قوله تعالى : ﴿ وما كادوا يفعلون ﴾ في هذه الآية أي فذبحوها الآن وما كادوا يفعلون قبل ذلك ، ولعلهم يجعلون الجمع بين خبرين متنافيين في الصورة قرينة على قصد زمانين ، وإلى هذا ذهب ابن مالك في " الكافية" إذ قال :

وبثُبوت كاد يُنفَى الخبرُ . . .

وحينَ ينفى كادَ ذاك أَجدر

(107/55)

وغير ذَا على كَلاَمَيْن يَرِدْ . . .

كَوَلَدَتْ هند ولم تَكَد تَلِد

وهذا المذهب وقوف مع قياس الوضع .

وذهب قوم إلى أن إثبات كاد يستلزم نفي الخبر على الوجه الذي قررناه في تقرير المذهب الأول وأن نفيها يصير إثباتاً على خلاف القياس وقد اشتهر هذا بين أهل الأعراب حتى ألغز فيه أبو العلاء المعري بقوله :

أَنحويَّ هذا العَصر ما هي لفظة . . .

أَنت في لسانَيْ جُرهم وثَمود

إذا استُعْمِلَتْ في صورة الجَحْدِ أَثْبَتَتْ . . .

وإن أُثْبِتَتْ قامت مقامَ جُحُود

وقد احتجوا لذلك بقوله تعالى : ﴿ فذبحوها وما كادوا يفعلون ﴾ وهذا من غرائب

الاستعمال الجاري على خلاف الوضع اللغوي .

وقد جرت في هذا نادرة أدبية ذكرها الشيخ عبد القاهر في " دلائل الإعجاز" وهي أن عنبسة العنسي الشاعر قال : قدم ذو الرمة الكوفة فوقف على ناقته بالكناسة ينشد قصيدته الحائية التي أولها :

أَمَنْزِلَتَيْ مَيَ سلام عليكم . . .

على النَّأْيِ والنَّائِي يَوَدُّ وينصَح

حتى بلغ قوله فيها :

إذا غَيَّرَ النَّأْيُ المُحبين لم يَكَدُ . . .

رَسِيسُ الهَوَى من حُبِّ مَيَّةَ يَبْرَحُ

وكان في الحاضرين ابن شبرمة فناداه ابن شبرمة يا غيلان أراه قد برح قال : فشنق ناقته وجعل يتأخر بها ويتفكر ثم قال : " لم أجد " عوض " لم يكد " قال عنبسة : فلما انصرفت حدثت أبي فقال لي : أخطأ ابن شبرمة حين أنكر على ذي الرمة ، وأخطأ ذو الرمة حين غَيَّر شعره لقول ابن شبرمة : إنما هذا كقول الله تعالى : ﴿ ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يَكَدْ يراها ﴾ [النور : 40] وإنما هو لم يرها ولم يكد .

وذهب قوم منهم أبو الفتح بن جني وعبد القاهر وابن مالك في " التسهيل " إلى أن أصل كاد أن يكون نفيها لنفي الفعل بالأولى كما قال الجمهور إلا أنها قد يستعمل نفيها للدلالة على وقوع الفعل بعد بطء وجهد وبعد أن كان بعيداً في الظن أن يقع وأشار عبد القاهر إلى أن ذلك استعمال جرى في العرف وهو يريد بذلك أنها مجاز تمثيلي بأن تشبه حالة من فعل الأمر بعد عناء بحالة من بعد عن الفعل فاستعمل المركب الدال على حالة المشبه به في حالة المشبه ، ولعلهم يجعلون نحو قوله ﴿ فذبحوها ﴾ قرينة على هذا القصد .

قال في " التسهيل " : " وتنفي كاد إعلاماً بوقوع الفعل عسيراً أو بعدمه وعدم مقاربته" واعتذر في ﴿ شرحه للتسهيل ﴾ عن ذي الرمة في تغييره بيته بأنه غيره لدفع احتمال هذا الاستعمال .

وذهب قوم إلى أن كاد إن نفيت بصيغة المضارع فهي لنفي المقاربة وإن نفيت بصيغة الماضي فهي للإثبات وشبهته أن جاءت كذلك في الآيتين ﴿ لم يكد يراها ﴾ [النور : 40] ﴿ وما كادوا يفعلون وأن نفي الفعل الماضي لا يستلزم الاستمرار إلى زمن الحال بخلاف نفي المضارع .

وزعم بعضهم أن قولهم ما كاد يفعل وهم يريدون أنه كاد ما يفعل إن ذلك من قبيل القلب الشائع .

وعندي أن الحق هو المذهب الثاني وهو أن نفيها في معنى الإثبات وذلك لأنهم لما وجدوها في حالة الإثبات مفيدة معنى النفي جعلوا نفيها بالعكس كما فعلوا في لو ولولا ويشهد لذلك مواضع استعمال نفيها فإنك تجد جميعها بمعنى مقاربة النفي لا نفي المقاربة ولعل ذلك من قبيل القلب المطرد فيكون قولهم ما كاد يفعل ولم يكد يفعل بمعنى كاد ما يفعل ، ولا يبعد أن يكون هذا الاستعمال من بقايا لغة قديمة من العربية تجعل حرف النفي الذي حقه التأخير مقدماً ولعل هذا الذي أشار إليه المعري بقوله : جرت في لساني جرهم وثمود ويشهد لكون ذلك هو المراد تغيير ذي الرمة بيته وهو من أهل اللسان وأصحاب الذوق ، فإنه وإن كان من عصر المولدين إلا أنه لانقطاعه إلى سكنى باديته كان في مرتبة شعراء العرب حتى عد فيمن يحتج بشعره ، وما كان مثله ليغير شعره بعد التفكر لو كان لصحته وجه فما اعتذر به عنه ابن مالك في شرح التسهيل ﴾ ضعيف .

وأما دعوى المجاز فيه فيضعفها اطراد هذا الاستعمال حتى في آية ﴿ لم يكد يراها ﴾ فإن الواقف في الظلام إذا مد يده يراها بعناء وقال تأبط شراً " فأُبت إلى فهم وما كدت آيباً "

وقال تعالى : ﴿ ولا يكاد يبين ﴾ [الزخرف : 52] .

وإنما قال : ﴿ وما كادوا يفعلون ولم يقل يذبحون كراهية إعادة اللفظ تفنناً في البيان . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 1 صـ 538.542 ﴾

فصل

قال الفخر :

ههنا أبحاث :

البحث الأول : روي أنه كان في بني إسرائيل شيخ صالح له عجلة فأتى بها الغيضة وقال : اللهم إني استودعتكها لابني حتى تكبر وكان براً بوالديه فشبت وكانت من أحسن البقر واسمنها فتساوموها اليتيم وأمه حتى اشتروها بملء مسكها ذهباً وكانت البقرة إذ ذاك بثلاثة دنانير ، وكانوا طلبوا البقرة الموصوفة أربعين سنة . (1)

---

(1) في هذا الخبر إبطال للحكمة في ذبح البقرة وضرب القتيل ببعضها ليظهر القاتل ، لأن في الأربعين سنة تكون الجثة قد أتلفت وتغيرت وتلاشت والقوم قد فنى منهم ناس ، وهذا إضعاف لمعجزة موسى إذ الشأن في المعجزة أن تظهر ثمرتها عن قرب . وإلا فإن كثيراً من حوادث القتل المشابهة لهذه المسألة تقع الآن في مصر ويكشف القناع عنها في الأيام اليسيرة ، بل في الساعات .

البحث الثاني : روي عن الحسن أن البقرة تذبح ولا تنحر وعن عطاء أنها تنحر ، قال : فتلوت الآية عليه فقال : الذبح والنحر سواء ، وحكي عن قتادة والزهري إن شئت نحرت وإن شئت ذبحت وظاهر الآية يدل على أنهم أمروا بالذبح وأنهم فعلوا ما يسمى ذبحاً والنحر وإن أجزأ عن الذبح فصورته مخالفة لصورة الذبح ، فالظاهر يقتضي ما قلناه حتى لو نحروا ولا دليل يدل على قيامه مقام الذبح لكان لا يجزي .

البحث الثالث : اختلفوا في السبب الذي لأجله ما كادوا يذبحون ، فعن بعضهم لأجل غلاء ثمنها وعن آخرين أنهم خافوا الشهرة والفضيحة ، وعلى كلا الوجهين ، فالاحجام عن المأمور به غير جائز ، أما الأول : فلأنهم لما أمروا بذبح البقرة المعينة ، وذلك الفعل ما كان يتم إلا بالثمن الكثير وجب عليهم أداؤه لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب إلا أن يدل الدليل على خلافه ، وإنما لا يلزم المصلي أن يتطهر بالماء إذا لم يجده إلا بغلاء من حيث الشرع ، ولولاه للزم ذلك إذا وجب التطهر مطلقاً .

وأما الثاني : وهو خوف الفضيحة فذاك لا يرفع التكليف ، فإن القود إذا كان واجباً عليه لزمه تسليم النفس من ولي الدم إذا طالب وربما لزمه التعريف ليزول الشر والفتنة وربما لزمه ذلك لتزول التهمة في القتل عن القوم الذين طرح القتيل بالقرب منهم ، لأنه الذي عرضهم للتهمة فيلزمه إزالتها فكيف يجوز جعله سبباً للتثاقل في هذا الفعل .

البحث الرابع : احتج القائلون بأن الأمر للوجوب بهذه الآية ، وذلك لأنه لم يوجد في هذه الصورة إلا مجرد الأمر ، ثم إنه تعالى ذم التثاقل فيه والتكاسل في الاشتغال بمقتضاه ، وذلك يدل على أن الأمر للوجوب .

(111/55)

قال القاضي : إذا كان الغرض من المأمور إزالة شر وفتنة دل ذلك على وجوبه وإنما أمر تعالى بذبحها لكي يظهر القاتل فتزول الفتنة والشر المخوف فيهم ، والتحرز عن هذا الجنس الضار واجب ، فلما كان العلاج إزالته بهذا الفعل صار واجباً وأيضاً فغير ممتنع أن في تلك الشريعة أن التعبد بالقربان لا يكون إلا سبيل الوجوب ، فلما تقدم علمهم بذلك كفاهم مجرد الأمر .

وأقول : حاصل هذين السؤالين يرجع إلى حرف واحد وهو أنا وإنا كنا لا نقول إن الأمر يقتضي الوجوب فلا نقول : إنه ينافي الوجوب أيضاً فلعله فهم الوجوب ههنا بسبب آخر سوى الأمر ، وذلك السبب المنفصل إما قرينة حالية وهي العلم بأن دفع المضار واجب ، أو مقالية وهي ما تقدم بيانه من أن القربان لا يكون مشروعاً إلا على وجه الوجوب .

والجواب : أن المذكور مجرد قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةً ﴾ فلما ذكر الذم

والتوبيخ على ترك الذبح المأمور به علمنا أن منشأ ذلك هو مجرد ورود الأمر به لما ثبت في أصول الفقه أن ترتيب الحكم على الوصف مشعر بكون الوصف علة لذلك الحكم .

البحث الخامس : احتج القائلون بأن الأمر يفيد الفور بهذه الآية ، قالوا : لأنه ورد التعنيف على ترك المأمور به عند ورود الأمر المجرد فدل على أنه للفور . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 112.113 ﴾

فائدة

قال أبو حيان :

وهذا الذي تظافرت عليه أقاويل أكثر المفسرين ، وذكروا في ذلك اختلافاً وقصصاً كثيراً مضطرباً أضربنا عن نقله صفحاً كعادتنا في أكثر القصص الذي ينقلونه ، إذ لا ينبغي أن ينقل من ذلك إلا ما صح عن الله تعالى ، أو عن رسوله في قرآن أو سنّة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ البحر المحيط حـ 1 صـ 422.423 ﴾

(112/55)

فصل

قال السيوطى :

قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ (68) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ (69) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (70) قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ (71)

أخرج البزار عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن بني إسرائيل لو أخذوا أدنى بقرة لأجزاهم ذلك أو لأجزأت عنهم " .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لولا أن بني إسرائيل قالوا ﴿ وإنا إن شاء الله لمهتدون ﴾ ما أعطوا أبداً ، ولو أنهم اعترضوا بقرة من البقر فذبحوها لأجزأت عنهم ، ولكنهم شددوا فشدد الله عليهم " .

وأخرج الفريابي وسعيد بن منصور وابن المنذر عن عكرمة يبلغ به النبي صلى الله عليه وسلم " فقال لو أن بني إسرائيل أخذوا أدنى بقرة فذبحوها أجزأت عنهم ولكنهم شددوا ولولا أنهم قالوا ﴿ إنا إن شاء الله لمهتدون ﴾ ما وجدوها " .

وأخرج ابن جرير عن ابن جريج قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إنما أمروا بأدنى بقرة ولكنهم لما شددوا على أنفسهم شدد الله عليهم ، ولو لم يستثنوا ما بينت لهم آخر الأبد " .

وأخرج ابن جرير عن قتادة قال : ذكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه وسلم كان يقول " إنما أمر القوم بأدنى بقرة ولكنهم لما شددوا على أنفسهم شدد عليهم ، والذي نفس محمد بيده لو لم يستثنوا ما بينت لهم " .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم من طرق عن ابن عباس قال : لو أخذوا أدنى بقرة فذبحوها لأجزأت عنهم ولكنهم شددوا وتعنتوا موسى فشدد الله عليهم .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طرق عن ابن عباس في قوله ﴿ لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك ﴾ قال : الفارض الهرمة ، والبكر الصغيرة ، والعوان النصف .

وأخرج الطستي في مسائله عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق قال له : أخبرني عن قوله عز وجل ﴿ لا فارض ﴾ قال : الكبيرة الهرمة . قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم ، أما سمعت الشاعر وهو يقول ؟ :

لعمري لقد أعطيت ضيفك فارضاً . . . تساق إليه ما تقوم على رجل

قال : أخبرني عن قوله ﴿ صفراء فاقع لونها ﴾ قال : الفاقع الصافي اللون من الصفرة قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم ، أما سمعت لبيد بن ربيعة وهو يقول ؟ :

سدماً قليلاً عهده بانيسه . . . من بين اصفر فاقع ودفان

وأخرج ابن جرير عن مجاهد قال : الفارض الكبيرة ، والبكر الصغيرة ، والعوان النصف .

وأخرج عبد بن حميد عن سعيد بن جبير . أنه كان يستحب أن يسكت على بكر ، ثم يقول : عوان بين ذلك .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ عوان بين ذلك ﴾ قال : بين الصغيرة والكبيرة ، وهي أقوى ما يكون وأحسنه .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ صفراء فاقع لونها ﴾ قال : شديدة الصفرة ، تكاد من صفرتها تبيض .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عمر في قوله ﴿ صفراء ﴾ قال : صفراء الظلف ﴿ فاقع لونها ﴾ قال : صافي .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن قتادة ﴿ فاقع لونها ﴾ قال : صاف لونها ﴿ تسر الناظرين ﴾ قال : تعجب الناظرين .

وأخرج ابن أبي حاتم والطبراني والخطيب والديلمي عن ابن عباس قال : من لبس نعلاً صفراء لم يزل في سرور ما دام لابسها ، وذلك قوله ﴿ صفراء فاقع لونها تسر الناظرين ﴾ .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير عن الحسن في قوله ﴿ صفراء فاقع لونها ﴾ قال : سوداء شديدة السواد .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة . أنه قرأ ﴿ أن الباقر تشابه علينا ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد عن يحيى عن يعمر . أنه قرأ ﴿ إن الباقر تشابه علينا ﴾ وقال : إن الباقر أكثر من البقر .

وأخرج ابن أبي داود في المصاحف عن الأعمش قال : في قراءتنا ﴿ إن البقر متشابه علينا ﴾ .

وأخرج ابن جرير عن أبي العالية في قوله ﴿ إنها بقرة لا ذلول ﴾ أي لم يذله العمل ﴿ تثير الأرض ﴾ يعني ليست بذلول فتثير الأرض ﴿ ولا تسقي الحرث ﴾ يقول : ولا تعمل في الحرث ﴿ مسلمة ﴾ قال : من العيوب .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد في قوله ﴿ لا ذلول تثير الأرض ﴾ يقول : ليست بذلول فتفعل ذلك ﴿ مسلمة ﴾ قال : من الشبه قال ﴿ لا شية فيها ﴾ قال : لا بياض ولا سواد .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس ﴿ مسلمة ﴾ قال : لا عوار فيها .

وأخرج ابن جرير عن عطية ﴿ لا شية فيها ﴾ قال : لونها واحد ليس فيها لون سوى لونها .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة في قوله ﴿ لا ذلول ﴾ يعني صنفة يقول : لم يذلها العمل ﴿ مسلمة ﴾ قال : من العيوب ﴿ لا شية فيها ﴾ قال : لا بياض فيها ﴿ قالوا الآن جئت بالحق ﴾ قالوا : الآن بينت لنا ﴿ فذبحوها وما كادوا يفعلون ﴾ .

وأخرج ابن جرير عن محمد بن كعب في قوله ﴿ فذبحوها وما كادوا يفعلون ﴾ لغلاء ثمنها .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس . أن أصحاب البقرة بني إسرائيل طلبوها أربعين سنة ، حتى وجدوها عند رجل في بقر له وكانت بقرة تعجبه ، فجعلوا يعطونه بها فيأبى حتى أعطوه ملء مسكها دنانير ، فذبحوها فضربوه بعضو منها ، فقام تشخب اوداجه دماً ، فقالوا له : من قتلك ؟ قال : قتلني فلان .

(115/55)

وأخرج وكيع وابن أبي حاتم عن عطاء قال : الذبح والنحر في البقر سواء ، لأن الله يقول ﴿ فذبحوها ﴾ .

وأخرج وكيع وعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد ، قال :

كان لبني إسرائيل وأنتم لكم النحر ، ثم قرأ ﴿ فذبحوها ﴾ ﴿ فصل لربك وانحر ﴾ [الكوثر : 2] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 1 صـ 192.189 ﴾

(116/55)

ومن فوائد ابن عرفة فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ . . . ﴾ .

فسره الزمخشري بوجهين : إما نفي الإشارة فهو على إضمار " لاَ " أي لا تثير الأرض ولا تسقي الحرث ، وإما على إثبات الإشارة ونفي السقي أي هي تحرث ولا تسقي .

ورد هذا بأنها إذا انتفى عنها أنّها ذلول ثبت كونها صعبة غير مذللةٍ فلا تطاق لا إلى الحرث ولا إلى سقي .

وأُجيب عنه بأن ذلولا من أبنية المبالغة فما انتفى عنها إلا الأخص

((من) الذلة فهو نفي (للاخص) ، ولم ينتف عنها مطلق الذلة (فهي متوسطة) فلولا كانت صعبة جدا ما حرثت ولا سقت ، ولو كانت ذليلة)) فهي منقادة لا صعبة ولا مذللة .

وقال الطيبي : يحتمل أن يكون من نفي الشيء بنفي لازمه مثل قول امرىء القيس :

على لاَحِبٍ لا يهتدى بمناره . . .

ابن عطية : إنما ذلك حيث يذكر لازم الشيء فقط فيكون نفيه نفيا للملزوم وهنا (ذكر) (الملزوم) ولازمه منفيين فليس من ذلك القبيل إلا لو قيل : لا تثير الأرض ولا تسقي الحرث ولم يقل : لا ذلول .

ورد هذا بأن مراد الطيبي (أنّ) نفي (الذلّة) عنها ونفي السقي يستلزمان نفي (إثارتها) الأرض ، لأن الإثارة في (الآية) مثبتة غير منفية ، وهو مثل قول الله تعالى : ﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ قال الزمخشري : إنه مثل قوله .

على لاَحِب لا يهتدى بمناره . . .

((أي ليس هناك خبير فينبئك ، وكذا (كمثل) قولهم هذا يوم (لا) ينادي وليد أي ليس فيه وليد فينادي)) ومثل قول صاحب البردة :

فذلك حينَ بُلوغٍ من نُبُوَّتِهِ . . .

فليس يُنْكَر حالُ محتلِمِ

أي ليست له حال محتلم فتنكر .

فإن قلت : الذّلة والإثارة متلازمان ؟

قلنا : الذلة في الآية منفية ، والإثارة مثبتة ، و (لا) يتم ما قال الطيبي إلا إذا (أعرب) " تثير الأرض " صفة ل " ذلول " فمعناه لا ذلول مثيرة (الأرض) أي ليست مثيرة الأرض فيكون ذلولا كمعنى البيت المتقدم أي ليس له منار يهتدي (به) ، وإن أعربناه صفة للبقرة أو استئنافا أو حالا (فما يجيء) فيه ذلك التفسير ، وإذا كان صفة ل " ذلول " فيكون النفي مسلطاً على الموصوف وصفته ، (وقصده) ثبوت أحدهما فتكون إما ذلول غير مثيرة ولا مسقية وإما ذلول فقط كقولك : لا رجل صالح في الدار .

وضده احتمال كونه : فيها رجل غير صالح ، (أو أنها ليس) فيها أحد .

قال ابن عرفة : وأخذوا من الآية أن الأمور الجزئية المشخّصة يمكن تعريفها بالخاصة ، لأن التعريف بالخواص إنما يكفي عندهم في الأمور الكلية ، أما الجزئية فإنها تعرف بتعيينها والإشارة إليها ، إذ في الممكن أن يكون في الوجود غيرها مختصا بتلك الصفات .

قال : وعادتهم يجيبون بأن الزمان والمكان هنا معينان ، فلذلك اكتفى بالتعريف بالخواص ولو كان الزمان (مُبْهَما) لقلنا : في الجائز أن يوجد من هو على تلك الصفة في زمن من الأزمان ، أو في غير ذلك المكان إما في ذلك الزمان وإما في ذلك المكان (فيتعين) أن الموصوف شيء واحد لا يحتمل غيره .

واحتجوا بهذه الآية على أبي حنيفة رضي الله عنه لأنه (يمنع) السلم في الحيوان على

الصفة ، وقال : لا (تخصصه) الصفة ، فنقل عنه القرطبي هنا وابن يونس المنع في الحيوان بالإطلاق ، ونقل عنه غيرهما أنه خصص ذلك (ببني) آدم .

قال ابن عرفة : وله أن يجيب بأن الغرور في البيع معتبر ، وهذا ليس ببيع (فلا) يلزم من جواز الاكتفاء (بالصفة) هنا الاكتفاء بها هنالك . انتهى . ا هـ ﴾ تفسير ابن عرفة صـ 327. 331 ﴿

(118/55)

ومن فوائد الإمام القرطبى فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ ﴾ قرأ الجمهور " لا ذلولٌ " بالرفع على الصفة لبقرة .

قال الأخفش : ﴿ لَّا ذَلُولٌ ﴾ نعته ولا يجوز نصبه .

وقرأ أبو عبد الرحمن السُّلَمِي " لَّا ذَلُولَ " بالنصب على النفي والخبر مضمر .

ويجوز لا هي ذلول ، لا هي تسقي الحرث ، هي مُسَلَّمة .

ومعنى ﴿ لَّا ذَلُولٌ ﴾ لم يذلّلها العمل ؛ يقال : بقرة مذلَّلة بيّنة الذِّل (بكسر الذال) .

ورجل ذليل بيّن الذُّلّ (بضم الذال) .

أي هي بقرة صعبة غير رَيّضة لم تذلَّل بالعمل .

قوله تعالى : ﴿ تُثِيرُ الأرض ﴾ " تُثير" في موضع رفع على الصفة للبقرة ؛ أي هي بقرة لا ذُلُلٌ مُثيرة .

قال الحسن : وكانت تلك البقرة وحْشِيّة ، ولهذا وصفها الله تعالى بأنها لا تثير الأرض ولا تسقي الحرث ، أي لا يُسْنَى بها لَسقْي الزرع ولا يُسقى عليها .

والوقف ها هنا حسن .

وقال قوم : " تثير" فعل مستأنف ، والمعنى إيجاب الحرث لها ، وأنها كانت تحرث ولا تسقي .

والوقف على هذا التأويل " لا ذلول" .

والقول الأوّل أصح لوجهين : أحدهما : ما ذكره النحاس عن عليّ بن سليمان أنه قال : لا يجوز أن يكون " تثير" مستأنفاً ؛ لأن بعده " ولا تسقي الحرث" ، فلو كان مستأنفاً لما جمع بين الواو و " لا" .

الثاني : أنها لو كانت تثير الأرض لكانت الإثارة قد ذلّلتها ، والله تعالى قد نفى عنها الذّل بقوله : " لا ذلول" .

قلت : ويحتمل أن تكون " تثير الأَرْضَ" في غير العمل مرحاً ونشاطاً ؛ كما قال امرؤ القيس

:

يُهِيل ويُذرِي تُرُبَه ويُثيره . . .

إثارةَ نَبّاث الهواجرِ مُخْمِسِ

فعلى هذا يكون " تثير" مستأنفاً ، " ولا تسقي" معطوف عليه ؛ فتأمله .

وإثارة الأرض : تحريكها وبحثها ؛ ومنه الحديث : " أَثِيروا القرآن فإنه عِلْم الأوّلين والآخرين

" وفي رواية أخرى : " من أراد العلم فَلْيُثَوِّر القرآن " وقد تقدّم .

وفي التنزيل : ﴿ وَأَثَارُواْ الأرض ﴾ [الروم : 9] أي قَلبوها للزراعة .

(119/55)

والحرث : ما حُرِث وزُرِع .

وسيأتي .

مسألة : في هذه الآية أدل دليل على حصر الحيوان بصفاته ، وإذا ضُبط بالصفة وحُصر بها

جاز السَّلَم فيه .

وبه قال مالك وأصحابه والأوزاعيّ واللّيث والشافعيّ .

وكذلك كل ما يُضبط بالصفة ؛ لوصف الله تعالى البقرة في كتابه وصفاً يقوم مقام التعيين ؛

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تصف المرأةُ المرأةَ لزوجها حتى كأنه ينظر إليها " أخرجه مسلم .

فجعل النبيّ صلى الله عليه وسلم الصّفة تقوم مقام الرؤية ، وجعل صلى الله عليه وسلم دِيَة الخطأ في ذِمّة من أوجبها عليه دَيْناً إلى أجل ولم يجعلها على الحلول .

وهو يرد قول الكوفيين أبي حنيفة وأصحابه والثورِيّ والحسن بن صالح حيث قالوا : لا يجوز السَّلَم في الحيوان .

ورُوِيَ عن ابن مسعود وحُذيفة وعبد الرحمن بن سَمُرة ؛ لأن الحيوان لا يوقف على حقيقة صفته من مشي وحركة ، وكل ذلك يزيد في ثمنه ويرفع من قيمته .

وسيأتي حكم السَّلَم وشروطه في آخر السورة في آية الدَّيْن ، إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ مُسَلَّمَةٌ ﴾ أي هي مُسَلّمة .

ويجوز أن يكون وصفاً ؛ أي أنها بقرة مُسَلّمة من العَرَج وسائر العيوب ؛ قاله قتادة وأبو العالية .

ولا يقال : مُسَلّمة من العمل لنفي الله العمل عنها .

وقال الحسن : يعني سليمة القوائم لا أثر فيها للعمل .

قوله تعالى : ﴿ لاَّ شِيَةَ فِيهَا ﴾ أي ليس فيها لَوْن يخالف معظم لونها ، وهي صفراء كلها لا بياض فيها ولا حمرة ولا سواد ؛ كما قال : ﴿ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا ﴾ .

وأصل " شِيَة" وَشِي ، حُذفت الواو كما حذفت من يشي ، والأصل يوشي ؛ ونظيره الزِّنَة والعِدَة والصِّلَة .

والشِّيَة مأخوذة من وَشْيِ الثوب إذا نُسج على لونين مختلفين .

وثَوْرَ مُوَشَّى : في وجهه وقوائمه سواد .

قال ابن عرفة : الشِّيَة اللّون .

ولا يقال لمن نمّ : واشٍ ، حتى يُغَيّر الكلام ويُلَوّنه فيجعله ضروبا ويزّين منه ما شاء .

والوَشْيُ : الكثرة .

(120/55)

ووَشَى بنو فلان : كثروا .

ويقال : فَرَسٌ أبلقُ ، وكَبْشٌ أَخْرَجُ ، وتَيس أَبْرَقُ ، وغرابٌ أَبْقَعُ ، وثور أَشْيَهُ .

كل ذلك بمعنى البُلْقَة ؛ هكذا نصّ أهل اللغة .

وهذه الأوصاف في البقرة سببها أنهم شدّدوا فشدّد الله عليهم ، ودِين اللهِ يُسْرٌ ، والتعمّق في سؤال الأنبياء وغيرهم من العلماء مذموم ، نسأل الله العافية .

وروي في قصص هذه البقرة روايات تلخيصها : أن رجلاً من بني إسرائيل وُلد له ابن ،

وكانت له عجلة فأرسلها في غَيْضَة وقال : اللَّهُمّ إني أستودعك هذه العجلة لهذا الصبي .

ومات الرجل ، فلما كبر الصبي قالت له أمّه وكان بَرًّا بها : إن أباك استودع الله عجلة لك

فاذهب فخذها ؛ فذهب فلما رأته البقرة جاءت إليه حتى أخذ بقرنيها وكانت

مستوحِشة فجعل يقودها نحو أمّه ؛ فلقيَه بنو إسرائيل ووجدوا بقرة على الصفة التي أُمِروا

بها ؛ فساموُه فاشتطّ عليهم .

وكان قيمتها على ما رُوي عن عكرمة ثلاثة دنانير ، فأَتَوْا به موسى عليه السلام وقالوا : إن

هذا اشتط علينا ؛ فقال لهم : أرْضُوه في مِلكه ، فاشتروْها منه بوزنها مَرّة ؛ قاله عَبيدة .

السُّدِّيّ : بوزنها عشر مرات .

وقيل : بملء مَسْكِها دنانير .

وذكر مَكّيّ : أن هذه البقرة نزلت من السماء ولم تكن من بقر الأرض .

فالله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ الآن جِئْتَ بالحق ﴾ أي بيّنت الحق ؛ قاله قتادة .

وحكى الأخفش : " قالوا الآن" قطع ألفَ الوصل ؛ كما يقال : يا الله .

وحكى وجهاً آخر " قالوا لاَنَ" بإثبات الواو .

نظيره قراءة أهل المدينة وأبي عمرو " عاداً لُولى" .

وقرأ الكوفيون " قالوا الآن" بالهمز .

وقراءة أهل المدينة " قال لُاَن" بتخفيف الهمز مع حذف الواو لالتقاء الساكنين .

قال الزجاج : " الآن" مبنيّ على الفتح لمخالفته سائر ما فيه الألف واللام ؛ لأن الألف واللام دخلتا لغير عهد ؛ تقول : أنت إلى الآن هنا ؛ فالمعنى إلى هذا الوقت .

فبُنِيت كما بُنِيَ هذا ، وفُتحت النون لالتقاء الساكنين .

(121/55)

وهو عبارة عما بين الماضي والمستقبل .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾ أجاز سيبويه : كاد أن يفعل ؛ تشبيهاً بعسى .

وقد تقدّم أوّل السورة .

وهذا إخبار عن تثبيطهم في ذبحها وقلّة مبادرتهم إلى أمر الله .

وقال القُرَظيّ محمد بن كعب : لغلاء ثمنها .

وقيل : خوفاً من الفضيحة على أنفسهم في معرفة القاتل منهم ؛ قاله وهب بن مُنَبِّه . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 1 صـ 452. 455 ﴾

ومن فوائد الآلوسى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ ﴾ صفة ﴿ إِنَّهَا بَقَرَةٌ ﴾ وهو من الوصف بالمفرد ، ومن قال : هو من الوصف بالجملة ، وأن التقدير لا هي ذلول فقد أبعد عن الصواب ، و ﴿ لا ﴾ بمعنى غير ، وهو اسم على ما صرح به السخاوي وغيره لكن لكونها في صورة الحرف ظهر إعرابها فيما بعدها ، ويحتمل أن تكون حرفاً كالا التي بمعنى غير في مثل قوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء : 22] والذلول الريض الذي زالت صعوبته يقال : دابة ذلول بينة الذي بالكسر ، ورجل ذلول بين الذل بالضم .

﴿ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ ﴾ ﴿ لا ﴾ صلة لازمة لوجوب التكرار في هذه الصورة وهي مفيدة للتصريح بعموم النفي إذ بدونها يحتمل أن يكون لنفى الاجتماع ، ولذا تسمى المذكرة والإثارة قلب الأرض للزراعة من أثرته إذا هيجته ، والحرث الأرض المهيأة للزرع أو هي شق الأرض ليبذر فيها ، ويطلق على ما حرث وزرع ، وعلى نفس الزرع أيضاً ، والفعلان صفتا ذلول والصفة يجوز وصفها على ما ارتضاه بعض النحاة وصرح به السمين والفعل الأول داخل في حيز النفي والمقصود نفي إثارتها الأرض أي لا تثير الأرض فتذل فهو من باب :

على لا حب لا يتهدي بمناره . . .

ففيه نفي للأصل والفرع معاً ، وانتفاء الملزوم بانتفاء اللازم ، قال الحسن : كانت هذه البقرة وحشية ولهذا وصفت بأنها ﴿ لا تُثِيرُ الأرض ﴾ الخ ، وذهب قوم إلى أن تثير مثبت لفظاً ومعنى ؛ وأنه أثبت للبقرة أنها تثير الأرض وتحرثها ونفى عنها سقي الحرث ، ورد بأن ما كان يحرث لا ينتفي عنه كونه ذلولاً ، وقال بعض : المراد إنها تثير الأرض بغير الحرث بطراً ومرحاً ، ومن عادة البقر إذا بطرت تضرب بقرونها وأظلافها فتثير تراب الأرض فيكون هذا من تمام قوله : ﴿ لاَّ ذَلُولٌ ﴾ لأن وصفها بالمرح والبطر دليل على ذلك وليس عندي بالبعيد وذهب بعضهم كما في الكواشي إلى أن جملة ﴿ تُثِيرُ ﴾ في محل نصب على الحال ، قال ابن عطية : ولا يجوز ذلك لأنها من نكرة ، واعترض بأنه إن أراد بالنكرة بقرة فقد وصفت ، والحال من النكرة الموصوفة جائزة جوازاً حسناً وإن أراد بها ﴿ لاَّ ذَلُولٌ ﴾ فمذهب سيبويه جواز مجيء الحال من النكرة وإن لم توصف ، وقد صرح بذلك في مواضع من كتابه اللهم إلا أن يقال : إنه تبع الجمهور في ذلك وهم على المنع وجعل الجملة حالاً من الضمير المستكن في ذلول أي : لا ذلول في حال إثارتها ليس بشيء ، وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي : ﴿ لاَّ ذَلُولٌ ﴾ بالفتح فلا للتبرئة ، والخبر محذوف أي هناك ، والمراد مكان وجدت هي فيه ، والجملة صفة ذلول ، وهو نفي لأن توصف بالذل ، ويقال : هي ذلول بطريق الكناية لأنه لو كان في مكان البقرة لكانت موصوفة به ضرورة اقتضاء الصفة

للموصوف ، فلما لم يكن في مكانها لم تكن موصوفة به ، فهذا كقولهم محل فلان مظنة الجود والكرم ، وهذا أولى مما قيل : إن ﴿ تُثِيرُ ﴾ خبر ﴿ لا ﴾ والجملة معترضة بين الصفة والموصوف لأنه أبلغ كما لا يخفى ، وبعضهم خرج القراءة على البناء نظراً إلى صورة ﴿ لا ﴾ كما في كنت بلا مال بالفتح ، وليس بشيء لأن ذلك مقصور على مورد السماع ، وليس بقياسي على ما يشعر به كلام الرضى وقرئ ﴿ تَسْقِى ﴾ بضم

(123/55)

حرف المضارعة من أسقى بمعنى سقى ، وبعض فرق بينهما بأن سقى لنفسه ، وأسقى لغيره كما شيته وأرضه .

﴿ فالآن باشروهن ﴾ [البقرة : 187] إذا الأمر نص في الاستقبال ، وادعى بعضهم إعرابها لقوله :

كأنهما ملآن لم يتغيرا . . .

يريد من الآن فجره وهو يحتمل البناء على الكسر ، و(أل) فيها للحضور عند بعض ، وزائدة عند آخرين ، وبنيت لتضمنها معنى الإشارة ، أو لتضمنها معنى أل التعريفية كسحر وقرئ (آلآن) بالمد على الاستفهام التقريري إشارة إلى استبطائه وانتظارهم له .

وقرأ نافع بحذف الهمزة وإلقاء حركتها على اللام وعنه روايتان حذف واو ﴿ قَالُواْ ﴾ وإثباتها فَذَبَحُوهَا أي فطلبوا هذه البقرة الجامعة للأوصاف السابقة وحصلوها ﴿ فَذَبَحُوهَا ﴾ فالفاء فصيحة عاطفة على محذوف إذ لا يترتب الذبح على مجرد الأمر بالذبح ، وبيان صفتها وحذف لدلالة الذبح عليه ؛ وتحصيلها كان باشترائها من الشاب البار بأبويه كما تظافرت عليه أقوال أكثر المفسرين والقصة مشهورة ، وقيل : كانت وحشية فأخذوها ، وقيل : لم تكن من بقر الدنيا بل أنزلها الله تعالى من السماء وهو قول هابط إلى تخوم الأرض ، قيل : ووجه الحكمة في جعل البقرة آلة دون غيرها من البهائم أنهم كانوا يعبدون البقر والعجاجيل وحبب ذلك في قلوبهم ، لقوله تعالى : ﴿ وَأُشْرِبُواْ فِى قُلُوبِهِمُ العجل ﴾ [البقرة : 93] ثم بعد ما تابوا أراد الله تعالى أن يمتحنهم بذبح ما حبب إليهم ليكون حقيقة لتوبتهم ، وقيل : ولعله ألطف وأولى إن الحكمة في هذا الأمر إظهار توبيخهم في عبادة العجل بأنكم كيف عبدتم ما هو في صورة البقرة مع أن الطبع لا يقبل أن يخلق الله تعالى فيه خاصية يحيا به ميت بمعجزة نبي ؟! وكيف قبلتم قول السامري إنه إلهكم وها أنتم لا تقبلون قول الله سبحانه : إنه يحيا بضرب لحمة منه الميت سبحان الله تعالى هذا الخرق العظيم

﴿ وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ كنى على الذبح بالفعل أي وما كادوا يذبحون واحتمال أن يكون المراد : وما كادوا يفعلون ما أمروا به بعد الذبح من ضرب بعضها على الميت بعيد ، وكاد موضوعة لدنوّ الخبر حصولاً ولا يكون خبرها في المشهور إلا مضارعاً دالاً على الحال لتأكيد القرب ، واختلف فيها فقيل : هي في الإثبات نفي وفي النفي إثبات ، فمعنى كاد زيد يخرج قارب ولم يخرج وهو فاسد لأن معناها مقاربة الخروج ، وأما عدمه فأمر عقلي خارج عن المدلول ولو صح ما قاله لكان قارب ونحوه كذلك ولم يقل به أحد ، وقيل : هي في الإثبات إثبات وفي النفي الماضي إثبات وفي المستقبل على قياس الأفعال .

(125/55)

وتمسك القائل بهذه الآية لأنه لو كان معنى ﴿ وَمَا كَادُواْ ﴾ هنا نفياً للفعل عنهم لناقض قوله تعالى : ﴿ فَذَبَحُوهَا ﴾ حيث دل على ثبوت الفعل لهم والحق أنها في الإثبات والنفي كسائر الأفعال ، فمثبتها لإثبات القرب ، ومنفيها لنفيه ، والنفي والإثبات في الآية محمولان على اختلاف الوقتين أو الاعتبارين فلا تناقض إذ من شرطه اتحاد الزمان والاعتبار ، والمعنى أنهم ما قاربوا ذبحها حتى انقطعت تعللاتهم فذبحوا كالملجأ أو فذبحوها ائتماراً

وما كادوا من الذبح خوفاً من الفضيحة أو استثقالاً لغلو ثمنها حيث روى أنهم اشتروها بملء جلدها ذهباً ، وكانت البقرة إذ ذاك بثلاثة دنانير ؛ واستشكل القول باختلاف الوقتين بأن الجملة حال من فاعل ﴿ ذبحوها ﴾ فيجب مقارنة مضمونها لمضمون العامل ، والجواب بأنهم صرحوا بأنه قد يقيد بالماضي فإن كان مثبتاً قرب بقد لتقربه من الحال وإن كان منفياً كما هنا لم يقرن بها لأن الأصل استمرار النفي فيفيد المقاربة لا يجدي نفعاً لأن عدم مقاربة الفعل لا يتصور مقارنتها له ، ولهذا عول بعض المتأخرين في الجواب على أن ﴿ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ كناية عن تعسر الفعل وثقله عليهم وهو مستمر باق ، وقد صرح في " شرح التسهيل " أنه قد يقول القائل لم يكد زيد يفعل ومراده أنه فعل بعسر لا بسهولة وهو خلافا الظاهر الذي وضع له اللفظ فافهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 290. 293 ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ ذَلُولٌ ﴾ المشهور " ذَلُولٌ " بالرفع على أنها صفة لـ " بقرة " ، وتوسطت " لا " للنفي كما تقدم في " لاَ فَارِضٌ " ، أو على أنها خبر مبتدأ محذوف ، أي : لا هي ذلول ، والجملة من هذا المبتدأ أو الخبر في [محل] رفع صفة لـ " بقرة " .

وقرىء : "لاَ ذَلُولَ" بفتح اللام على أنها "لا" التي للتَّبرئة والخبر محذوف تقديره : لا ذلول ثَمَّ أو ما أشبهه ، وليس المعنى على هذه القراءة ، ولذلك قال الأخفس : "لا ذلول نعت ، ولا يجوز نصبه" .

و"الذَّلول" : التي ذُلِّلَت بالعمل ، يقال : بقرة ذَلُوث بَيِّنَةُ الذِّل بكسر الذال ، ورجل ذَلِيل : بين الذُّل بضمّها ، وقدم عند قوله : ﴿ الذلة ﴾ [البقرة : 61] .

[قوله] : ﴿ تُثِيرُ الأرض ﴾ في هذه الجملة أقوال كثيرة : أظهرها : أنها في محلّ نصب على الحال من الضمير المستكن في "ذلول" تقديره : لا تُذَلُّ حال إثارتها .

وقال ابن عطية : وهي عند قوم جملة في موضع الصفة لـ "بقرة" أي : لا ذلولٌ مثيرة .

وقال أيضاً : "ولا يجوز أن تكون هذه الجملة في موضع الحال ، لأنها نكرة" .

أما قوله : في موضع الصفة فإنه يلزم منه أن البقرة كانت مثيرة للأرض ، وهذا لم يقل به الجمهور ، بل قال به بعضهم ، وسيأتي إن شاء الله .

وأما قوله : لا يجوز أن تكون حالاً يعني من "بقرة" ؛ لأنها نكرة .

فالجواب : أنَّا لا نسلم أنها حال من "بقرة" ، بل من الضمير في "ذلول" كما تقدم ، أو تقول : بل هي حال من النكرة ؛ لأن النكرة قد وصفت وتخصصت بقوله : "لا ذلول" ، وإذا وصفت النكرة ساغ إتيان الحال منها اتفاقاً .

وقيل : إنها مستأنفة ، [واستئنافها على وجهين :

أحدهما : أنها خبر مبتدأ محذوف ، أي : هي تثير .

والثاني : أنها مستأنفة] بنفسها من غير تقدير مبتدأ ، بل تكون جملة فعلية ابْتُدِىءَ بها لمجرد الإخبار بذلك .

وقد منع من القول باستئنافها جماعة منه الأَخْفَشُ عليّ بن سليمان ، وعلل ذلك بوجهينك أحدهما : أن بعده : " وَلاَ تَسْقِي الحَرْثَ " فلو كان مستأنفاً لما صحّ دخول " لا " بينه وبين الواو " .

(127/55)

والثّاني : إنها لو كانت تثير الأرض لكانت الإثارة قد ذللتها ، والله تعالى نفى عنها ذلك بقوله : " لا ذُلُول " وهذا المعنى هو الذي منع أن يكون " تُثِير " صفة بـ " بقرة " ؛ لأن اللازم مشترك ، ولذلك قال أبو البقاء : ويجوز على قول مَنْ أثبت هذا الوجه [يعني : كونه تثير الأرض ولا تسقي أن تكون " تثير " في موضع رفع صفة لـ " بقرة " .

وقد أجاب بعضهم عن الوجه الثاني] ، فإن إثارة الأرض عبارة عن مَرَحِهَا ونَشَاطِهَا ؛ كما قال امرؤ القيس : [الطويل]

يُهِيلُ وَيُذْرِي تُرْبَهُ وَيُثِيرُهُ . . .

إِثَارَةَ نَبَّاثِ الهَوَاجِرِ مُخْمِسِ

أي : تثير الأرض مرحاً ونشاطاً لا حَرثاً وعملاً .

وقال أبو البقاء : وقيل : هو مستأنف ، ثم قال : وهو بعيد عن الصّحة لوجهين :

أحدهما : أنه عطف عليه قوله : " وَلَا تَسْقِي الحَرْثَ " ، فنفى المعطوف ، فيجب أن يكون المعطوف عليه كذلك ؛ لأنه في المعنى واحد ، ألا ترى أنك لا تقول : مررت برجل قائم ولا قاعد ، بل تقول : لا قاعد بغير واو ، كذلك يجب أن يكون هذا .

وذكر الوجه الثاني لما تقدم ، وأجاز أيضاً أن يكون " تثير " في محلّ رفع صفة لـ " ذلول " ، وقد تقدم خلاف هل يوصف الوصف أم لا ؟

فهذه ستة أوجه تلخيصها : أنها حال من الضمير في " ذلُول " ، أو من " بقرة " ، أو صفة لـ " بقرة " ، أو لـ " ذلول " ، أو مستأنفة بإضمار مبتدأ ، أو دونه .

قوله : ﴿ وَلَا تَسْقِي الحرث مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ﴾ الكلام فيه هذه كالكلام فيما قبلها من كونها صفة لـ " بقرة " ، أو خبر لمبتدأ محذوف .

وقال الزمخشري : و " لا " الأولى للنفي يعني الدّاخلة على " ذلول " .

والثانية مزيدة لتأكيد الأولى ؛ لأن المعنى : لا ذلول تثير [الأرض] وتسقي ، على أن الفعلين

صفتان لـ " ذُلُول " ، كأنه قيل : لا ذلول مثيرة وساقية .

وقرئ : " تُسْقى " بضم التاء من " أَسْقى " .

(128/55)

وإثارة الأرض : تحريكها وبَحْثُهَا ، ومنه : ﴿ وَأَثَارُواْ الأرض ﴾ [الروم : 9] أي : بالحَرْث والزراعة ، وفي الحديث : " أَثِيرُوا القُرْآنَ فَإِنَّهُ عِلْمُ الأَوَّلِينَ وَالأَخِرِينَ " .

وفي رواية : " مَنْ أَرَادَ العِلْمَ فَلْيُثوِّر القُرْآن " .

وجملة القول أن القرة لا يكون بها نَقْص ، فإن الذلول بالعمل لكونها تثير الأرض ، وتسقي الحرث لابد وأن يظهر بها النقص .

قال القرطبي : قال الحسن : وكانت تلك البقرة وَحْشِية ، ولهذا وصفها الله تعالى بأنها لا تثير الأرض ، ولا تسقي الحرث .

وقال : الوقف ها هنا حسن .

و " مُسَلَّمة " قيل : من العيوب مطلقاً .

وقيل : من آثار العمل المذكور .

وقيل : مسلمة من الشّبه التي هي خلاف لونها ، أي : خلصت صُفْرتها عن اختلاط سائر

الألوان بها ، وهذا ضعيف ؛ لأن قوله : " لاَ شِيَةَ فِيهَا " يصير تكراراً .

و " شِيَة " : مصدر وَشَيْتُ الثوب أَشِيه وَشْياً وَشِيَةً ، حذفت فاؤها ؛ لوقوعها بين ياء وكيرة في المضارع ، ثم حمل باقي الباب عليه ، ووزنها " عِلَةٌ " ومثلها : " صِلَةٌ وعِدَةٌ وَزِنَة " .

وهي عبارة عن اللُّمْعَة المخالفة للون ، ومنه : ثوب مَوْشِيٌّ : أي : منسوج بلونين فأكثر ، وثور مَوْشِيُّ القَوَائم ، أي : أَبْلَقُهَا ؛ قال : [البسيط]

مِنْ وَحْشِ وَجْرَةَ مَوْشِيٍّ أَكَارِعُهُ . . .

طَاوِي المَصِيرِ كَسَيْفِ الصَّيْقَلِ الفَرِدِ

ومنه : الواشي للنَّمَّام ؛ لأنه يَشِي حديثه ، أي يزينه ويخلطه بالكذب .

وقال بعضهم : ولا يقال له وَاشٍ حتى يغير كلامه ويزينه .

ويقال : ثور أَشْيَهُ ، وفرس أَبْلَقُ ، وكَبْش أَخْرَجُ ، وتَيْس أَبْرَق ، وغُراب أَبْقَع ، كل ذلك بمعنى البلقة .

و " شية " اسم " لا " ، و " فيها " خبرها .

قوله : ﴿ الآن جِئْتَ ﴾ الآن منصوب بـ " جئت " ، وهي ظَرْف للزّمان يقتضي الحال ، ويخلص المضارع له عند جمهور النّحاة .

وقال بعضهم : هذا هو الغالب ، وقد جاء حيث لا يمكن أن يكون للحال ، كقوله : ﴿ فَمَن يَسْتَمِعِ الآن ﴾ [الجن : 2] ﴿ فالآن بَاشِرُوهُنَّ ﴾ [البقرة : 187] فلو كان يقتضي لحال لما جاء مع فعل الشرط والأمر اللذين هما نصّ في الاستقبال ، وعبر عنه هذا القائل بعبارة تُوافق مذهبه وهي : " الآن " لوقت حصر جميعه أو بعضه يريد بقوله : " أو بعضه " نحو : " فَمَنْ يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ " ، وهو مبني .

واختلف في علّة بنائه : فقال الزَّجَّاج : لأنه تضمن معنى الإشارة ؛ لأن معنى أفعل الآن ، أي : هذا الوقت .

وقيل : لأنه أشبه الحرف في لزوم لَفْظ واحد ، من حيث إنه لا يُثَنَّى ولا يُجْمع ولا يصغّر .

وقيل : لأنه تضمّن معنى حرف التعريف ، وهو الألف واللام كـ " أمس " ، وهذه الألف واللام زائدة فيه بدليل بنائه ، ولم يُعْهَد مُعرفٌ بـ " أل " إلا معرباً ، ولزمت فيه الألف واللام كما لزمت في " الذي والّتي " وبابهما ، ويعزى هذا للفارسي ، وهو مردود بأن التضمين اختصار ، فكيف يختصر الشيء ، ثم يؤتى بمثل لفظه .

وهو لازم للنظر فيه ، ولا يتصرف غالباً ، وقد وقع مبتدأ في قوله عليه الصلاة والسلام : " فَهُوَ يَهْوِي فِي قَعْرِهَا الآنَ حِينَ انْتَهَى " .

فـ " الآن " مبتدأ ، وبني على الفتح لما تقدم ، و " حين " خبره ، بُنِيَ لإضافته إلى غير متمكّن

، ومجروراً في قوله :

أَإِلَى الآنِ لاَ يَبِينُ ارْعِوَاءُ . . . . . .

وادعى بعضهم إعرابه مستدلاً بقوله : [الطويل]

كَأَنَّهُمَا مِلآنِ لَمْ يَتَغَيَّرَا . . .

وَقَدْ مَرَّ لِلدَّارَيْنِ مِنْ بَعْدِنَا عَصْرُ

يريد : " مِنَ الآنِ " فجره بالكسرة ، وهذا يحتمل أن يكون بني على الكسر ، وزعم الفراء أنه منقول من فعل ماضي ، وأن أصله " آنَ " بمعنى : " حان " فدخلت عليه " أل " زائدة ، واسْتُصْحِب بناؤه على الفَتْح ، وجعله مثل قولهم " ما رأيته من شب إلى دُبَّ " .

(130/55)

وقوله عليه الصلاة والسلام : " وأُنْهَاكُمْ عَنْ قِيلٍ وَقَال " .

ورد عليه بأن " أل " لا تدخل على المنقول من فعل ماض ، وبأنه كان ينبغي أن يجوز إعرابه كنظائره .

وعنه قول آخر أن أصله " أوان " فحذفت الألف ، ثم قلبت الواو ألفاً ، فعلى هذا ألفعه عن واو .

وأدخله الرَّاغب في باب " أين " ، فتكون ألفه عن " ياء " .

والصواب الأول .

وقرئ : قالوا : ألْآن بتحقيق الهمزة من غير نَقْل ، وهي قراءة الجمهور .

و" قَالُ : لأنَ " بنقل حركة الهمزة على اللام قبلها ، وحذف الهمزة ، وهو قياس مطّرد ، وبه قرأ نافع وحمزة باختلاف عنه .

و" قَالُوا : لآنَ " بثبوت " الواو " من " قالوا " ؛ لأنها إنما حذفت لالتقاء السكانين ، وقد تحركت " اللام " لنقل حركة " الهمزة " إليها ، واعتدوا بذلك كما قالوا في الأحمر " مَحْمَر " .

وسيأتي تحقيق هذا إن شاء الله تعالى في ﴿ عَاداً الأولى ﴾ [النجم : 50]

ويحكى وجه رابع " قَالُوا : آلآنَ " بقطع همزة الوصل ، وهو بعيد ، و" بِالحَق " يجوز فيه وجهان :

أحدهما : أن تكون باء التَّعدية كالهمزة كأنه قيل : " أَجَأْتَ الحق " ، أي : ذكرته .

الثاني : أن يكون في محلّ نصب على الحال من فاعل " جئت " أي : جئت ملتبساً بالحق ، أو " ومعك الحق " .

قوله : " فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ " أي : فذبحوا البقرة .

و" كَادُوا " كاد واسمها وخبرها ، والكثير في خبرها تجرده من " أن " .

وشذ قوله : [الرجز]

قَدْ كَادَ مِنْ طُولِ الْبِلَى أَنْ يَمْصَحَا . . .

وهي عكس "عسى" وذكروا لـ "كاد" تفسيرين :

أحدهما : قالوا : نفيها إثبات وإثباتها نفي ، فقوله : كاد يفعل كذا ، معناه : قرب من أن يفعل ، لكنه ما فعله .

والثاني : قال عبد القاهر النحوي : إن "كاد" لمقاربة الفعل ، فقوله : "كاد يفعل" [معناه] قرب من فعله .

وقوله : "ما كاد يفعل" معناه : ما قرب منه .

(131/55)

وللأولين أن يحتجوا بهذه الآية ؛ لأن قوله : "ومَا كَادُوا" معناه ما قاربوا الفعل ، ونفى المقاربة من الفعل يناقض إثبات وقوع الفعل ، فلو كانت "كاد" للمقاربة لزم وقوع التناقض في الآية ، وقد تقدم الكلام معلى كاد عند قوله : ﴿يَكَادُ البرق﴾ [البقرة : 20] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 2 صـ 168 . 174 ﴾ . باختصار .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ قَالُوا الآنَ جِئْتَ بِالحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾ .

طلبوا الحيلة ما أمكنهم فلما ضاقت بهم الحِيَل استسلموا للحكم فتخلصوا من شدائد المطالبات ، ولو أنهم فعلوا ما أمِروا به لما تضاعفت عليهم المشاق . انتهى انتهى . اهـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 99 ﴾

(132/55)

ومن فوائد القاسمى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ ﴾ .

أي : لم تذلل لإثارة الأرض وسقي الحرث . و : ﴿ لاذلول ﴾ صفة لبقرة . بمعنى غير ذلول . و : ﴿ لا ﴾ الأولى للنفي ، والثانية مزيدة لتوكيد الأولى . لأن المعنى : لا ذلول تثير وتسقي ، على أن الفعلين صفتان لذلول ، كأنه قيل : لا ذلول مثيرة وساقية ، والمقصود : إنها مكرمة ليست مذللة بالحراثة ، ولا معدة للسقي في السانية ﴿ مُسَلَّمَةٌ ﴾ ، سلمها الله من العيوب ، أو معفاة من العلم ، سلمها أهلها منه ، أو مخلصة اللون لم يشب صفرتها شيء

من الألوان . من : سلم له كذا ، إذا خلص له : ﴿ لاَشِيَةَ فِيهَا ﴾ ، أي : لا لون فيها يخالف لون جلدها من بياض وسواد وحمرة ، فهي صفراء كلها ، وهي في الأصل مصدر : وشاه وشيا وشية ، إذا خلط بلونه لونا آخر . في الصحاح : الشية : كل لون يخالف معظم لون الفرس وغيره . والهاء عوض من الواو الذاهبة من أوله . والجمع : شيات . يقال : ثور أشيه ، كما يقال : فرس أبلق .

(133/55)

﴿ قَالُواْ الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ ﴾ أي : بحقيقة وصف البقرة بحيث ميزتها عن جميع ما عداها ، ولم يبق لنا في شأنها اشتباه أصلاً . بخلاف المرتين الأوليين ، فإن ما جئت به فيهما لم يكن في التعيين بهذه المرتبة : ﴿ فَذَبَحُوهَا ﴾ ، الفاء فصيحة ، كما في : ﴿ فَانْفَجَرَتْ ﴾ ، أي : فحصلوا البقرة فذبحوها : ﴿ وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ كاد من أفعال المقاربة ، وضع لدنوّ الخبر من الحصول ، والجملة حال من ضمير ذبحوا ، أي : فذبحوها والحال أنهم كانوا قبل ذلك بمعزل منه . اعتراض تذييليّ . ومآله استثقال استقصائهم واستبطاء لهم ، وأنهم لفرط تطويلهم وكثرة مراجعاتهم ما كاد ينتهي خيط إسهابهم فيها .

تنبيه :

قال الراغب : قال بعض الناس : في هذه الآية دلالة على نسخ الشيء قبل فعله . فإن في الأول أمروا بذبح بقرة غير معينة ، وكان لهم أن يذبحوا أي : بقرة شاؤوا . وفي الثاني والثالث أمروا بذبح بقرة مخصوصة . فكأنهم نهوا عما كانوا أمروا به من قبل . وليس كذلك ، فإن الأول أمر مطلق ، والثاني والثالث كالبيان له ، لمّا راجعوا ، ولم يسقط عنهم ذبح البقرة . بل زيد في أوصافها ، وكشف عن المراد بالأمر الأول . وفي الآية دلالة على جواز تأخير البيان إلى وقت الحاجة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 2 صـ 363.362 ﴾

(134/55)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ (71) ﴾

" بقرة لا ذلول " . . البقرة الذلول هي البقرة المروضة الممرنة تؤدي مهمتها بلا تعب . . تماما مثل الخيل المروضة التي لا تتعب راكبها لأنها تم ترويضها . . وسيدنا إسماعيل هو أول من

روض الخيل وساسها . . وقال الله سبحانه وتعالى لهم أول وصف للبقرة أنها ليست مروضة . . لا أحد قادها ولا قامت بعمل . . إنها انطلقت على طبيعتها وعلى سجيتها في الحقول بدون قائد . . ﴿ تُثِيرُ الأَرْضَ ﴾ أي لم تستخدم في حراثة الأرض أو فلاحتها . . ﴿ وَلاَ تَسْقِي الْحَرْثَ ﴾ . . أي لم تستخدم في إدارة السواقي لسقية الزرع . . ﴿ مُسَلَّمَةٌ لاَّ شِيَةَ فِيهَا ﴾ أي خالية من العيوب لا أذنها مثقوبة . ولا فيها أي علامة من العلامات التي يميز الناس أبقارهم بها . . ولا رجلها عرجاء ، خالية من البقع والألوان غير اللون الأصفر الفاقع . . وكلمة ﴿ لاَّ شِيَةَ فِيهَا ﴾ . . أي لا شيء فيها .

(135/55)

والمتأمل في وصف البقرة كما جاء في الآيات يرى الصعوبة والتشدد في اختيار أوصافها . . كأن الحق تبارك وتعالى يريد أن يجازيهم على أعمالهم . . ولم يجد بنو إسرائيل إلا بقرة واحدة تنطبق عليها هذه المواصفات فقالوا ﴿ الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ ﴾ كأن ما قاله موسى قبل ذلك كان خارجا عن نطاق الحق . وذبحوا البقرة ولكن عن كره منهم . . لأنهم كانوا حريصين على ألا يذبحوها ، حرصهم على عدم تنفيذ المنهج . هم يريدون أن يماطلوا الله سبحانه وتعالى . . والله يقول لنا أن سمة المؤمنين أن يسارعوا إلى تنفيذ تكاليفه . . واقرأ

قوله تعالى : ﴿ وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران : 133]

وهذه السرعة من المؤمنين في تنفيذ التكاليف . . دليل على عشق التكليف . . لأنك تسارع لتفعل ما يطلبه منك من تحبه . . وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ . . يدلنا على أنهم حاولوا الإبطاء في التنفيذ والتلكو .

إننا لابد أن نلتفت إلى أن تباطؤ بني إسرائيل في التنفيذ خدم قضية إيمانية أخرى . . فالبقرة التي طلبها الله منهم بسبب عدم قيامهم بتنفيذ الأمر فور صدوره لهم بقرة نادرة لا تتكرر . . والمواصفات التي أعطيت لهم في النهاية . . لم تكن تنطبق إلا على بقرة واحدة ليتحكم صاحبها في ثمنها ويبيعها بأغلى الأسعار . .

والقصة أنه كان هناك في بني إسرائيل رجل صالح . . يتحرى الحلال في الرزق والصدق في القول والإيمان الحقيقي بالله . وعندما حضرته الوفاة كان عنده عجلة وكان له زوجة وابنهما الصغير . . ماذا يفعل وهو لا يملك سوى العجلة . اتجه إلى الله وقال : اللهم إني استودعك هذه العجلة لولدي ، ثم أطلقها في المراعي .

. لم يوصِ عليها أحداً ولكن استودعها الله . استودعها يد الله الأمينة على كل شيء . . ثم قال لامرأته إني لا أملك إلا هذه العجلة ولا آمن عليها إلا الله . . ولقد أطلقتها في المراعي . .

(136/55)

وعندما كبر الولد قالت له أمه : إن أباك قد ترك لك وديعة عند الله وهي عجلة . . فقال يا أمي وأين أجدها ؟ . . قالت كن كأبيك هو توكل واستودع ، وأنت توكل واسترد . . فقال الولد : اللهم رب إبراهيم ورب موسى . . رد إلي ما استودعه أبي عندك . . فإذا بالعجلة تأتي إليه وقد أصبحت بقرة فأخذها ليريها لأمه . . وبينما هو سائر رآه بنو إسرائيل . فقالوا إن هذه البقرة هي التي طلبها الرب . . وذهبوا إلى صاحب البقرة وطلبوا شراءها فقال بكم . . قالوا بثلاثة دنانير . . فذهب ليستشير أمه فخافوا أن ترفض وعرضوا عليه ستة دنانير . . قالت أمه لا . . لا تباع . . فقال الابن لن أبيعها إلا بملء جلدها ذهبا ، فدفعوا له ما أراد . . وهكذا نجد صلاح الأب يجعل الله حفيظا على أولاده يرعاهم ويسر لهم أمورهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 396 . 397 ﴾

(137/55)

قوله تعالى ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (72) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما قسمت القصة شطرين تنبيهاً على النعمتين : نعمة العفو عن التوقف عن الأمر ونعمة البيان للقاتل بالأمر الخارق ، وتنبيهاً على أن لهم بذلك تقريعين : أحدهما بإساءة الأدب في الرمي بالاستهزاء والتوقف عن الامتثال والثاني على قتل النفس وما تبعه ، ولو رتبت ترتيبها في الوجود لم يحصل ذلك ، وقدم الشطر الأنسب لقصة السبت اتبعه الآخر .

وقال الحرالي : قدم نبأ قول موسى عليه السلام على ذكر تدارئهم في القتيل ابتداء بأشرف القصدين من معنى التشريع الذي هو القائم على أفعال الاعتداء وأقوال الخصومة – انتهى .

فقال تعالى ﴿ وإذ ﴾ أي واذكروا إذ ، وأسند القتل إلى الكل والقاتل واحد لأن ذلك عادة العرب ، لأن عادة القبيلة المدافعة عن أحدهم فقال ﴿ قتلهم نفساً ﴾ فأقبل عليهم بالخطاب توبيخاً لهم وإشارة إلى أن الموجودين منهم راضون بما مضى من أسلافهم وأن من ودّ شيئاً كان من عملته .

ولما كانوا قد أنكروا القتل سبب عنه قوله مشيراً إلى إخفائه بالإدغام ﴿ فادارأتم فيها ﴾ أي تدافعتم فكان كل فريق منكم يردّ القتل إلى الآخر فكان لكم بذلك ثلاثة آثام : إثم الكبيرة وإثم الإصرار وإثم الافتراء بالدفع ؛ قال الكلبي : وذلك قبل نزول القسامة في التوراة ، كأنه

يشير إلى ما أذكره عنها قريباً .

ولما كان فعلهم في المدارة فعل غافل عن إحاطة علم الخالق سبحانه قال يحكي حالهم إذ ذاك ﴿ والله ﴾ أي والحال أن الذي له الأمر كله ﴿ مخرج ﴾ بلطيف صنعه وعظيم شأنه ﴿ وما كنتم تكتمون ﴾ وفي تقديمه أيضاً زيادة تبكيت لهم بتوقفهم في ذبح بقرة أمروا بذبحها لمصلحة لهم عظيمة بعد مبادرة بعضهم إلى قتل إنسان مثله بعد النهي الشديد عنه وقال منبهاً بالالتفات إلى أسلوب العظمة على ما في الفعل المأمور به منها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 171. 172 ﴾

فصل

قال الفخر :

أما قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فادرأتم فِيهَا ﴾ فاعلم أن وقوع ذلك القتل لا بد وأن يكون متقدماً لأمره تعالى بالذبح .

أما الإخبار عن وقوع ذلك القتل وعن أنه لا بد وأن يضرب القتيل ببعض تلك البقرة فلا يجب أن يكون متقدماً على الإخبار عن قصة البقرة ، فقول من يقول : هذه القصة يجب أن تكون متقدمة في التلاوة على الأولى خطأ ، لأن هذه القصة في نفسها يجب أن تكون متقدمة على الأول في الوجود ، فأما التقدم في الذكر فغير واجب لأنه تارة يتقدم ذكر السبب على ذكر الحكم وأخرى على العكس من ذلك ، فكأنه لما وقعت لهم تلك الواقعة أمرهم تعالى بذبح

البقرة فلما ذبحوها قال : وإذ قتلتم نفساً من قبل واختلفتم وتنازعتم فإني مظهر لكم القاتل الذي سترتموه بأن يضرب القتيل ببعض هذه البقرة المذبوحة ، وذلك مستقيم .

(138/55)

فإن قيل : هب أنه لا خلل في هذا النظم ، ولكن النظم الآخر كان مستحسناً فما الفائدة في ترجيح هذا النظم ؟ قلنا : إنما قدمت قصة الأمر بذبح البقرة على ذكر القتيل لأنه لو عمل على عكسه لكانت قصة واحدة ولو كانت قصة واحدة لذهب الغرض من بينية التفريع .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 113. 114 ﴾

قوله تعالى ﴿ فادرأتم فِيهَا ﴾

فصل

قال الفخر :

أما قوله تعالى : ﴿ فادرأتم فِيهَا ﴾ ففيه وجوه .

أحدها : اختلفتم واختصمتم في شأنها لأن المتخاصمين يدرأ بعضهم بعضاً أي يدافعه ويزاحمه .

وثانيها : " أدارأتم" ينفي كل واحد منكم القتل عن نفسه ويضيفه إلى غيره .

وثالثها : دفع بعضكم بعضاً عن البراءة والتهمة ، وجملة القول فيه أن الدرء هو الدفع . فالمتخاصمون إذا تخاصموا فقد دفع كل واحد منهم عن نفسه تلك التهمة ، ودفع كل واحد منهم حجة صاحبه عن تلك الفعلة ، ودفع كل واحد منهم حجة صاحبه في إسناد تلك التهمة إلى غيره وحجة صاحبه في براءته عنه ، قال القفال : والكناية في (فيها) للنفس ، أي فاختلفتم في النفس ويحتمل في القتلة لأن قوله : ﴿ قُتِلْتُمْ ﴾ يدل على المصدر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 114 ﴾

فائدة

قال الآلوسى :

﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا ﴾ أي شخصاً أو ذا نفس ، ونسبة القتل إلى المخاطبين لوجوده فيهم على طريقة العرب في نسبة الأشياء إلى القبيلة إذا وجد من بعضها ما يذم به أو يمدح ، وقول بعضهم : إنه لا يحسن إسناد فعل أو قول صدر عن البعض إلى الكل إلا إذا صدر عنه بمظاهرتهم أو رضا منهم غير مسلم ، نعم لا بد لإسناده إلى الكل من نكتة ما ، ولعلها هنا الإشارة إلى أن الكل بحيث لا يبعد صدور القتل منهم لمزيد حرصهم وكثرة طمعهم وعظم جرأتهم :

فهم كأصابع الكفين طبعا . . .

وكل منهم طمع جسور

وقيل : إن القاتل جمع وهم ورثة المقتول ، وقد روي أنهم اجتمعوا على قتله ؛ ولهذا نسب القتل إلى الجمع

(139/55)

﴿ وَأَنزَلْنَا فِيهَا ﴾ أصله تدارأتم من الدرء وهو الدفع فاجتمعت التاء والدال مع تقارب مخرجيهما وأريد الإدغام فقلبت التاء دالاً وسكنت للإدغام فاجتلبت همزة الوصل للتوصل إلى الإبتداء بها ، وهذا مطرد في كل فعل على تفاعل أو تفعل فاؤه تاء أو طاء ، أو ظاء ، أو صاد ، أو ضاد والتدارؤ هنا إما مجاز عن الاختلاف والاختصام ، أو كناية عنه إذ المتخاصمان يدفع كل منهما الآخر ، أو مستعمل في حقيقته أعني التدافع بأن طرح قتلها كل عن نفسه إلى صاحبه فكل منهما من حيث إنه مطروح عليه يدفع الآخر من حيث إنه طارح ، وقيل : إن طرح القتل في نفسه نفس دفع الصاحب وكل من الطارحين دافع فتطارحهما تدافع ، وقيل : إن كلاً منهما يدفع الآخر عن البراءة إلى التهمة فإذا قال أحدهما : أنا بريء وأنت متهم يقول الآخر : بل أنت المتهم وأنا البريء ، ولا يخفى أن ما ذكر على كل ما فيه بالمجاز أليق ، ولهذا عد ذلك أبو حيان من المجاز ، والضمير في ﴿ فِيهَا ﴾ عائد على النفس ، وقيل : على القتلة المفهومة من الفعل ، وقيل : على التهمة الدال عليها معنى الكلام

، وقرأ أبو حيوة ﴿ فتدارأتم ﴾ على الأصل ، وقيل : قرأ هو وأبو السوار فادرأتم بغير ألف قبل الراء ، وإن طائفة أخرى قرءوا فتدارأتم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 293 ﴾

قوله تعالى ﴿ واللهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾

قال الفخر :

أما قوله تعالى : ﴿ واللهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ أي مظهر لا محالة ما كتمتم من أمر القتل .

فإن قيل : كيف أعمل " مخرج " وهو في معنى المضي ؟ قلنا : قد حكى ما كان مستقبلاً في وقت التدارء كما حكى الحاضر في قوله : ﴿ باسط ذِرَاعَيْهِ ﴾ [الكهف : 18] وهذه الجملة اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه وهما " ادارأتم ، فقلنا " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 114 ﴾

(140/55)

وقال الآلوسى :

﴿ واللهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ أي مظهر لا محالة ما كنتم تكتمونه من أمر القتيل ،

والقاتل كما يشير إليه بناء الجملة الاسمية وبناء اسم الفاعل على المبتدأ المفيد لتأكيد الحكم وتقويه وذلك بطريق التفضل عندنا والوجوب عند المعتزلة وتقدير المتعلق خاصاً هو ما عليه الجمهور ، وقيل : يجوز أن يكون عاماً في القتيل وغيره ، ويكون القتيل من جملة أفراده ، وفيه نظر إذ ليس كل ما كتموه عن الناس أظهره الله تعالى ، وأعمل ﴿ مُخْرِجَ ﴾ لأنه مستقبل بالنسبة للحكم الذي قبله ، وهو التدارؤ ومضيه الآن لا يضر والجمع بين صيغتي الماضي والمستقبل للدلالة على الاستمرار .

وفي " البحر " إن كان للدلالة على تقدم الكتمان . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 293 ﴾

فصل

قال الفخر :

قالت المعتزلة قوله : ﴿ واللهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ أي لا بد وأن يفعل ذلك وإنما حكم بأنه لا بد وأن يفعل ذلك ، لأن الاختلاف والتنازع في باب القتل يكون سبباً للفتن والفساد والله لا يحب الفساد فلأجل هذا قال : لا بد وأن يزيل هذا الكتمان ليزول ذلك الفساد ، فدل ذلك على أنه سبحانه لا يريد الفساد ولا يرضى به ولا يخلقه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 114 ﴾

فصل

قال القرطبي :

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فادارأتم فِيهَا ﴾ هذا الكلام مقدّم على أوّل القصة ، التقدير : وإذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها : فقال موسى : إن الله يأمركم بكذا .

وهذا كقوله : ﴿ الحمد لِلَّهِ الذي أَنْزَلَ على عَبْدِهِ الكتاب وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا قَيِّماً ﴾ [الكهف : 1] أي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ قَيِّماً وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً ؛ ومثله كثير ، وقد بيّناه أوّل القصة .

وفي سبب قتله قولان : أحدهما : لابنة له حسناء أحب أن يتزوجها ابن عَمّها فمنعه عَمُّه ؛ فقتله وحمله من قريته إلى قرية أخرى فألقاه هناك .

وقيل : ألقاه بين قريتين .

(141/55)

الثاني : قتله طلباً لميراثه ، فإنه كان فقيراً وادعى قتله على بعض الأسباط .

قال عِكرمة : كان لبني إسرائيل مسجد له اثنا عشر باباً لكل باب قوم يدخلون منه ، فوجدوا قتيلاً في سِبط من الأسباط ، فادّعى هؤلاء على هؤلاء ، وادعى هؤلاء على هؤلاء ، ثم أتوا موسى يختصمون إليه فقال : ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً ﴾ الآية .

ومعنى ﴿ فادارأتم ﴾ : اختلفتم وتنازعتم ؛ قاله مجاهد .

وأصله تدارأتم ثم أدغمت التاء في الدال ؛ ولا يجوز الابتداء بالمدغم ؛ لأنه ساكن فزيد ألف الوصل .

﴿ واللهُ مُخْرِجٌ ﴾ ابتداء وخبر .

﴿ مَّا كُنْتُمْ ﴾ في موضع نصب ب " مُخْرِج " ؛ ويجوز حذف التنوين على الإضافة .

﴿ تَكْتُمُونَ ﴾ جملة في موضع خبر كان ، والعائد محذوف ؛ التقدير تكتمونه .

وعلى القول بأنه قتله طلباً لميراثه لم يَرِث قاتلُ عمدٍ من حينئذ ؛ قاله عَبِيدة السَّلْمانِيّ .

قال ابن عباس : قَتل هذا الرجلُ عمَّه ليرثه .

قال ابن عطية : وبمثله جاء شرعنا .

وحكى مالك رحمة الله في " مُوَطَّئه " أن قصة أُحَيْحَة بن الجُلاَح في عَمّه هي كانت سبب ألا يَرِث قاتلٌ ؛ ثم ثبّت ذلك الإسلام كما ثبّت كثيراً من نوازل الجاهلية .

ولا خلاف بين العلماء أنه لا يَرِث قاتلُ العمدِ من الدّية ولا من المال ، إلا فرقة شذّت عن الجمهور كلهم أهل بدع .

ويرِث قاتل الخطأ من المال ولا يرث من الدّية في قول مالك والأوزاعي وأبي ثور والشافعي ؛ لأنه لا يُتَّهم على أنه قتله ليرثه ويأخذ ماله .

وقال سفيان الثَّوْرِيّ وأبو حنيفة وأصحابه ، والشافعي في قول له آخر : لا يرث القاتل عمداً

ولا خطأً شيئاً من المال ولا من الدّية .

وهو قول شُرَيح وطاوس والشَّعْبيّ والنَّخَعِيّ .

ورواه الشَّعْبِيّ عن عمر وعليّ وزيد قالوا : لا يرِث القاتل عمداً ولا خطأً شيئاً .

وروي عن مجاهد القولان جميعاً .

وقالت طائفة من البصريين : يَرِث قاتل الخطأ من الدّية ومن المال جميعاً ؛ حكاه أبو عمر .

(142/55)

وقول مالك أصح ، على ما يأتي بيانه في آية المواريث إن شاء الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 1 صـ 455.456 ﴾

فائدة

قال الفخر :

الآية تدل على أنه تعالى عالم بجميع المعلومات وإلا لما قدر على إظهار ما كتموه . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 114 ﴾

فصل

قال الفخر :

تدل الآية على أن ما يسره العبد من خير أو شر ودام ذلك منه فإن الله سيظهره .

قال عليه الصلاة والسلام : " إن عبداً لو أطاع الله من وراء سبعين حجاباً لأظهر الله ذلك على ألسنة الناس " وكذلك المعصية .

وروي أن الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام : " قل لبني إسرائيل يخفون لي أعمالهم وعلي أن أظهرها لهم " . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 114 ﴾

فائدة

قال الفخر :

دلت الآية على أنه يجوز ورود العام لإرادة الخاص لأن قوله : ﴿ مَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ يتناول كل المكتومات ثم إن الله تعالى أراد هذه الواقعة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 114 ﴾

(143/55)

فصل

قال السيوطى :

﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (72) ﴾

أخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد في قوله ﴿ وإذ قتلتم نفساً فأدّارأتم فيها ﴾ قال : اختلفتم فيها ﴿ والله مخرج ما كنتم تكتمون ﴾ قال : ما تغيبون .

وأما قوله تعالى : ﴿ والله مخرج ما كنتم تكتمون ﴾ .

أخرج ابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الإيمان عن المسيب بن رافع قال : ما عمل رجل حسنة في سبعة أبيات إلا أظهرها الله ، وما عمل رجل سيئة في سبعة أبيات إلا أظهرها الله ، وتصديق ذلك كتاب الله ﴿ والله مخرج ما كنتم تكتمون ﴾ .

وأخرج أحمد والحاكم وصححه والبيهقي عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لو أن رجلاً عمل عملاً في صخرة صماء لا باب فيها ولا كوة خرج عمله إلى الناس كائنا ما كان " .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد والبيهقي عن عثمان بن عفان قال : من عمل عملاً كساه الله رداءه ، وإن خيراً فخير وإن شراً فشر .

وأخرج البيهقي من وجه آخر عن عثمان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من كانت له سريرة صالحة أو سيئة أظهر الله عليه منها رداء يعرف به . قال البيهقي : الموقوف أصح " .

وأخرج أبو الشيخ والبيهقي وضعفه عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه " من المؤمن ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : المؤمن الذي لا يموت حتى يملأ الله مسامعه مما يحب ، ولو أن عبداً اتقى الله في جوف بيت إلى سبعين بيتاً على كل بيت باب من حديد لألبسه الله رداء عمله حتى يتحدث به الناس ويزيدون . قالوا : وكيف يزيدون يا رسول الله ؟ قال : لأن التقي لو يستطيع أن يزيد في بره لزاد . ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من الكافر ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : الكافر الذي لا يموت حتى يملأ الله مسامعه مما يكره ، ولو أن فاجراً فجر في جوف بيت إلى سبعين بيتاً على كل بيت باب من حديد لألبسه الله رداء عمله حتى يتحدث به الناس ويزيدون . قالوا : وكيف يزيدون يا رسول الله ؟ قال : لأن الفاجر لو يستطيع أن يزيد في فجوره لزاد " .

وأخرج ابن عدي عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " إن الله مرد كل امرىء رداء عمله " .

وأخرج البيهقي عن ثابت قال : كان يقال لو أن ابن آدم عمل بالخير في سبعين بيتاً لكساه الله تعالى رداء عمله حتى يعرف به .

وأخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي عن سعيد بن المسيب قال : الناس يعملون أعمالهم من تحت كنف الله ، فإذا أراد الله بعبد فضيحة أخرجه من تحت كنفه فبدت عورته .

وأخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي عن أبي إدريس الخولاني رفعه قال : لا يهتك الله عبداً وفيه مثقال حبة من خير .

وأخرج ابن أبي شيبة عن إبراهيم قال : لو أن عبداً اكتتم بالعبادة كما يكتتم بالفجور لأظهر الله ذلك منه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 1 صـ 192 . 193 ﴾

(145/55)

ومن فوائد ابن عرفة فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً . . . ﴾ .

قال ابن عرفة : لِمَ نسب (القتل) إلى الجميع والقاتل إنّما هو واحد ؟

قال : وأجيب بأنه راعى في ذلك من رضي (بفعله) .

قال ابن عرفة : إنّما يتمّ لو كان ظاهرا بحيث علم به البعض ورضي (بالقتل) أما هذا (فهو واحد منهم) ، وقد قتل واحد منهم غيلة فلم يعلم به أحد (حتى) يقال : إنّه رضي بقتله .

قال ابن عرفة : وإنما الجواب أنه جمعهم باعتبار الدعوى لأن المتهم (بالقتل) ينفيه عن نفسه ويدعيه (على) غيره وذلك الغير ينفيه أيضا عن نفسه ويدعيه (عليه) .

قال الزمخشري : (خوطبوا مخاطبة) الجماعة لوجود القتل فيهم .

قال : فإن قلت : لم يذكر القصة (على ترتيبها) ؟ فهلا قدم ذكر القتيل والضرب ببعض البقرة على الأمر بذبحها ؟ ثم قال : هلاّ قدم الأمر بالقتل ثم الذبح ثم الضرب ؟

قال ابن عرفة : ظاهر كلامه هذا (متناقض) لأنه قال : الأولى بتقديم الضرب ثم رجع إلى أنّ الأولى تقديم الذّبح ولكن جوابه أنّ الأمر بالذبح (متقدم) على الذبح .

انتهى .

قوله تعالى : ﴿ واللهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ .

لم يقل : ما كنتم تجحدون ، لأن الجاحد للشيء المنكر له قد يكون على الحق فيكون موافقا لظاهره بخلاف الكاتم (فإن) باطنه مخالف لظاهره فهو على الباطل بلا شك .

قال الفخر الرازي : يؤخذ من عمومه أنّ الله تعالى يظهر جميع الأشياء من الخير والشر .

قال ابن عرفة : يلزم عليه (الخلف) في الخبر لأن الله تعالى يستر على العبيد كثيرا من المعاصي .

قال الرازي : هو عام مخصوص لأن المراد ما كنتم تكتمون من أمر القتل ، واحتج بها الفقهاء في قول القتيل : (دمي) عند فلان ، إنّه (لَوْثٌ) يوجب القسامة .

قال ابن رشد في المقدمات في كتاب القسامة : قول الميّت : دمي عن فلان ، لم يختلف قول الإمام مالك : إنه لوث في العمد يوجب القسامة والقَوَد عدلا أو مسخوطا .

(وخالفه) الجمهور ، وحجة الإمام مالك رضي الله عنه هذه الآية ، وأبطله ابن عبد البرّ بأن هذه الآية (معجزة لنبي وآية له فلا يصح الاستدلال بها) .

وأجاب ابن رشد : بأن الآية إنما كانت في الإحياء ، وأما في قوله بعد أن حيى : فلان قتلني ، فليس فيه آية .

وقد كان الله قادرا على أن يحيي غيره من الأموات فيقول : إن فلانا قتل فلانا .

(قلت) : ورده ابن عرفة بأن موسى عليه السلام أخبرهم أن الميت يحيا ويخبرهم بمن قتله فكان الأمر كذلك فكلا الأمرين آية .

وقد قال الأصوليون (إذا) قال النبي : دليل صدقي أن هذا الميّت يحيا (فصار حيا) .

((وقال : هذا الرجل كاذب .

فقال القاضي أبو بكر الباقلاني : (إنّ) ذلك دليل على كذبه .

وقال الإمام)) لا يكون دليلا على كذبه .

(146/55)

قالوا : وأمّا إن قال : دليل صدقي أن هذا الميت يحيا ويقول لكم : إني صادق ، (فيحيا) فيقول : إنه صادق ، فلا خوف بينهم أنه دليل على صدقة .

فكذلك هذا (هو) معجزة (بلا) شك ، فهو خاص بهذه القضية لا يصحّ القياس عليه .

وجعل الفقهاء وجود القتيل في محلة قوم لوثا يوجب القسامة .

وكانوا يحكون أن مسجد الشماسين بتونس كان دار لبعض الموحدين وبجواره قوم لهم ولد صغير يجلس على باب الدار بكسوة رفيعة ففقدوه ، فبحثوا عليه فوجدوه ميتا بمطمور تلك الدار ، فرأوا ذلك لوثا فعوقب الموحد وهدمت داره وبنيت مسجدا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عرفة صـ 331. 334 ﴾

ومن فوائد أبى حيان فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وإذ قتلتم نفساً ﴾ : معطوف على قوله تعالى : ﴿ وإذ قال موسى لقومه ﴾ ويجوز أن يكون ترتيب وجودهما ونزولهما على حسب تلاوتهما ، فيكون الله تعالى قد أمرهم بذبح البقرة ، فذبحوها وهم لا يعلمون بما له تعالى فيها من السر ، ثم وقع بعد ذلك أمر القتيل ، فأظهر لهم ما كان أخفاه عنهم من الحكمة بقوله : اضربوه ببعضها ، ولا شيء يضطرنا إلى اعتقاد تقدم قتل القتيل .

ثم سألوا عن تعيين قاتله ، إذ كانوا قد اختلفوا في ذلك ، فأمرهم الله تعالى بذبح بقرة ، فيكون الأمر بالذبح متقدّماً في النزول ، والتلاوة متأخراً في الوجود ، ويكون قتل القتيل متأخراً في النزول ، والتلاوة متقدّماً في الوجود ، ولا إلى اعتقاد كون الأمر بالذبح وما بعده

مؤخراً في النزول ، متقدّماً في التلاوة ، والإخبار عن قتلهم مقدّماً في النزول ، متأخراً في التلاوة ، دون تعرض لزمان وجود القصتين .

وإنما حمل من حمل على خلاف الظاهر ، اعتبار ما رووا من القصص الذي لا يصح ، إذ لم يرد به كتاب ولا سنة ، ومتى أمكن حمل الشيء على ظاهره كان أولى ، إذ العدول عن الظاهر إلى غير الظاهر ، إنما يكون لمرجح ، ولا مرجح ، بل تظهر الحكمة البالغة في تكليفهم أولاً ذبح بقرة .

(147/55)

هل يمتثلون ذلك أم لا ؟ وامتثال التكاليف التي لا يظهر فيها بادىء الرأي حكمة أعظم من امتثال ما تظهر فيه حكمة ، لأنها طواعية صرف ، وعبودية محضة ، واستسلام خالص ، بخلاف ما تظهر له حكمة ، فإن في العقل داعية إلى امتثاله ، وحضاً على العمل به .

وقال صاحب المنتخب : إن وقوع ذلك القتيل لا بدّ أن يكون متقدّماً لأمره تعالى بالذبح ، فأما الإخبار عن وقوع ذلك القتيل ، وعن أنه لا بد أن يضرب القتيل ببعض تلك البقرة ، فلا يجب أن يكون متقدّماً على الإخبار عن قصة البقرة .

فقول من يقول : هذه القصة يجب أن تكون متقدمة على الأولى خطأ ، لأن هذه القصة في

نفسها يجب أن تكون متقدّمة على الأولى في الوجود .

فأما التقديم في الذكر فغير واجب ، لأنه تارة يقدّم ذكر السبب على ذكر الحكم ، وأخرى على العكس من ذلك ، فكأنه لما وقعت لهم تلك الواقعة أمرهم بذبح البقرة ، فلما ذبحوها قال : ﴿ وإذ قتلتم نفساً ﴾ من قبل واختلفتم فإني مظهر لكم القاتل الذي سترتموه ، بأن يضرب القتيل ببعض هذه البقرة المذبوحة .

وتقدّمت قصة الأمر بذبح البقرة على ذكر القتيل ، لأنه لو عكس ، لما كانت قصة واحدة ، ولذهب الغرض في تثنية التقريع .

انتهى كلامه ، وهو مبني على أن القتل وقع أولاً ، ثم أمروا بعد ذلك بذبح البقرة ، وليس له دليل على ذلك إلا نقل شيء من القصص التي لم تثبت في كتاب ولا سنة .

وقد بينا حمل الآيتين على أن الأمر بالذبح يكون متقدّماً وأن القتل تأخر ، كحالهما في التلاوة .

وقال بعض الناس : التقديم والتأخير حسن ، لأن ذلك موجود في القرآن ، في الجمل ، وفي الكلمات ، وفي كلام العرب .

وأورد من ذلك جملاً ، من ذلك : قصة نوح عليه السلام في إهلاك قومه ، وقوله : ﴿ وقال اركبوا فيها ﴾ وفي حكم من مات عنها زوجها بالتربص بالأربعة الأشهر وعشر ، وبمتاع إلى الحول ، إذ الناسخ مقدّم ، والمنسوخ متأخر .

وذكر من تقديم الكلمات في القرآن والشعر على زعمه كثيراً ، والتقديم والتأخير ، ذكر أصحابنا أنه من الضرائر ، فينبغي أن ينزه القرآن عنه .

ونسبة القتيل إلى جمع ، إما لأن القاتلين جمع ، وهم ورثة المقتول ، وقد نقل أنهم اجتمعوا على قتله ، أو لأن القاتل واحد ، ونسب ذلك إليهم لوجود ذلك فيهم ، على طريقة العرب في نسبة الأشياء إلى القبيلة ، إذا وجد من بعضها ما يذم به أو يمدح .

﴿ فادّارأتم فيها ﴾ قرأ الجمهور : بالإدغام وقرأ أبو حيوة ؛ فتدارأتم ، على وزن تفاعلتم ، وهو الأصل ، هكذا نقل بعض من جمع في التفسير .

وقال ابن عطية : قرأ أبو حيوة ، وأبو السوار الغنوي : ﴿ وإذ قتلتم نفساً فادّرأتم ﴾ ، وقرأت فرقة : فتدارأتم على الأصل . انتهى كلامه .

ونقل من جمع في التفسير أن أبا السوار قرأ : فدرأتم ، بغير ألف قبل الراء .

ويحتمل هذا التدارؤ ، وهو التدافع ، أن يكون حقيقة ، وهو أن يدفع بعضهم بعضاً بالأيدي ، لشدة الاختصام .

ويحتمل المجاز ، بأن يكون بعضهم طرح قتله على بعض ، فدفع المطروح عليه ذلك إلى

الطارح، أو بأن دف بعضهم بعضاً بالتهمة والبراءة.

والضمير في: فيها عائد على النفس، وهو ظاهر، وقيل: على القتلة، فيعود على المصدر المفهوم من الفعل، وقيل: على التهمة، فيعود على ما دل عليه معنى الكلام.

﴿ والله مخرج ما كنتم تكتمون ﴾، ما: منصوب باسم الفاعل، وهو موصول معهود، فلذلك أتى باسم الفاعل لأنه يدل على الثبوت، ولم يأت بالفعل الذي هو دال على التجدد والتكرار، ولا تكرار، إذ لا تجدد فيه، لأنها قصة واحدة معروفة، فلذلك، والله أعلم، لم يأت الفعل.

وجاء اسم الفاعل معملاً، ولم يضف، وإن كان من حيث المعنى ماضياً، لأنه حكى ما كان مستقبلاً وقت التدارؤ، وذلك مثل ما حكى الحال في قوله تعالى: ﴿ وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد ﴾ ودخلت كان هنا ليدل على تقدم الكتمان، والعائد على ما محذوف تقديره: ما كنتم تكتمونه.

(149/55)

والظاهر أن المعنى ما كنتم تكتمون من أمر القتيل وقاتله، وعلى هذا ذهب الجمهور.

وقيل: يجوز أن يكون عاماً في القتيل وغيره، فيكون القتيل من جملة أفراده، وفي ذلك نظر،

إذ ليس كل ما كتموه عن الناس أظهره الله تعالى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 1 صـ 424.423 ﴾

ومن فوائد ابن عاشور فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (72) ﴾

تصديره بإذ على طريقة حكاية ما سبق من تعداد النعم والألطاف ومقابلتهم إياها بالكفران والاستخفاف يومىء إلى أن هذه قصة غير قصة الذبح ولكنها حدثت عقب الأمر بالذبح لإظهار شيء من حكمة ذلك الأمر الذي أظهروا استنكاره عند سماعه إذ قالوا ﴿ أتتخذنا هزؤاً ﴾ [البقرة : 67] وفي ذلك إظهار معجزة لموسى .

وقد قيل إن ما حكى في هذه الآية هو أول القصة وإن ما تقدم هو آخرها ، وذكروا للتقديم نكتة تقدم القول في بيانها وتوهينها .

وليس فيما رأيت من كتب اليهود ما يشير إلى هذه القصة فلعلها مما أدمج في قصة البقرة المتقدمة لم تتعرض السورة لذكرها لأنها كانت معجزة لموسى عليه السلام ولم تكن تشريعاً بعده .

وأشار قوله : ﴿ قتلتم ﴾ إلى وقوع قتل فيهم وهي طريقة القرآن في إسناد أفعال البعض إلى الجميع جرياً على طريقة العرب في قولهم : قتلت بنو فلان فلاناً ، قال النابغة يذكر بني حُنّ :

وهم قتلوا الطائي بالجوعنوة . . .

أباجابر واستنكحوا أم جابر

(150/55)

وذلك أن نفراً من اليهود قتلوا ابن عمهم الوحيد ليرثوا عمهم وطرحوه في محلة قوم وجاءوا موسى يطالبون بدم ابن عمهم بهتاناً وأنكر المتهمون فأمره الله بأن يضرب القتيل ببعض تلك البقرة فينطق ويخبر بقاتله ، والنفس الواحد من الناس لأنه صاحب نفس أي روح وتنفس وهي مأخوذة من التنفس وفي الحديث " ما من نفس منفوسة " ولإشعارها بمعنى التنفس اختلف في جواز إطلاق النفس على الله وإضافتها إلى الله فقيل يجوز لقوله تعالى حكاية عن كلام عيسى : ﴿ تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك ﴾ [المائدة : 116] ولقوله في الحديث القدسي : " وإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي " وقيل : لا يجوز إلا للمشاكلة كما في الآية والحديث القدسي والظاهر الجواز ولا عبرة بأصل مأخذ الكلمة من التنفس فالنفس الذات قال تعالى : ﴿ يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها ﴾ [النحل : 111] . وتطلق النفس على روح الإنسان وإدراكه ومنه قوله تعالى : ﴿ تعلم ما في نفسي ﴾ وقول العرب قلت في نفسي أي في تفكري دون قول لفظي ، ومنه إطلاق العلماء الكلام النفسي

على المعاني التي في عقل المتكلم التي يعبر عنها باللفظ .

و(ادَّارأْتم) افتعال ، وادارأتم أصله تدارأتم تفاعل من الدرء وهو الدفع لأن كل فريق يدفع الجناية عن نفسه فلما أريد إدغام التاء في الدال على قاعدة تاء الافتعال مع الدال والذال جلبت همزة الوصل لتيسير التسكين للإدغام .

وقوله : ﴿ والله مخرج ﴾ جملة حالية من ﴿ ادارأتم ﴾ أي تدارأتم في حال أن الله سيخرج ما كتمتموه فاسم الفاعل فيه للمستقبل باعتبار عامله وهو ﴿ ادارأتم ﴾ .

والخطاب هنا على نحو الخطاب في الآيات السابقة المبني على تنزيل المخاطبين منزلة أسلافهم لحمل تبعتهم عليهم بناءً على ما تقرر من أن خُلُقَ السلف يسري إلى الخلف كما بيناه فيما مضى وسنبينه إن شاء الله تعالى عند قوله : ﴿ أفتطمعون أن يؤمنوا لكم ﴾ [البقرة : 75] .

(151/55)

وإنما تعلقت إرادة الله تعالى بكشف حال قاتلي هذا القتيل مع أن دمه ليس بأول دم طل في الأمم إكراماً لموسى عليه السلام أن يضيع دم في قومه وهو بين أظهرهم ويمرأى منه ومسمع لا سيما وقد قصد القاتلون استغفال موسى ودبروا المكيدة في إظهارهم المطالبة بدمه فلو لم

يظهر الله تعالى هذا الدم في أمة لضعف يقينها برسولها ولكان ذلك مما يزيدهم شكاً في صدقه فينقلبوا كافرين فكان إظهار هذا الدم كرامة لموسى ورحمة بالأمة لئلا تضل فلا يشكل عليكم أنه قد ضاع دم في زمن نبينا صلى الله عليه وسلم كما في حديث حويصة ومحيصة الآتي لظهور الفرق بين الحالين بانتفاء تدبير المكيدة وانتفاء شك الأمة في رسولها وهي خير أمة أخرجت للناس. انتهى انتهى. اهـ ﴿التحرير والتنوير حـ 1 صـ 542. 543﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

" فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا " فعل وفاعل ، والفاء للسببية ؛ لأن التَّدَارُؤَ كان مسبباً عن القتل ، ونَسَبَ القتل إلى الجميع ، وإن لم يصدر إلا من واحد أو اثنين كما قيل ؛ لأنه وُجِد فيهم وهو مجاز شائع .

وأصل " ادّارأتم " : تدارأتم تَفَاعلتم من الدَّرْء هو الدّفع ، فاجتمعت " التاء " مع " الدال " وهي مُقارِبتها ، فأريد الإدغام فقلبت التاء دالاً ، وسكنت لأجل الإدغام ، ولا يمكن الابتداء بساكن ، فاجتلبت همزة الوصل ليبتدأ بها فبقي " ادارأتم " ، والأصل ادْدَارأتم فأدغم ، وهذا مطرد في كل فعل على " تفاعل " أو " تفعّل " فاؤه دال نحو : " تَدَايَنَ وادَّايَنَ ، وتَدَيَّنَ وأدَّيَنَ " أو طاء ، أو ظاء ، أو صاداً ، أو ضاداً نحو : " تطاير واطَّايَر " وتطير واطّير

[وتظاهر واظَّاهر ، وتطهر واطَّهَّر ، والمصدر على التفاعل أو التفعّل نحو : تَدَارُؤ وتَطَهُّر] نظراً إلى الأصل .

وهذا أصل نافع في جميع الأبواب .

معنى : " ادرأتم " : اختلفتم واختصمتم في شأنها .

وقيل : [تدافعتم] أي كل واحد ينفي القتل عن نفسه ويضيفه إلى غيره .

(152/55)

والكناية في قوله : " فيها " للنفس .

وقال القفال : ويحتمل إلى القتلة ؛ لأن قوله : " قتلتم " يدل على المصدر .

قوله : " واللهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ " الله رفع بالابتداء و" مخرج " خبره ، و" ما " موصولة منصوبة المحل باسم الفاعل .

فإن قيل : اسم الفاعل لا يعمل بمعنى الماضي إلا محلّى بالألف واللام ،

فالجواب : أن هذه حكاية حال ماضية ، واسم الفاعل فيها غير ماض وهذا كقوله تعالى : ﴿ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بالوصيد ﴾ [الكهف : 18] .

والكسائي يُعْمِله مطلقاً ، ويستدل بهذا ونحوه .

و" ما " يجوز أن تكون موصولة اسمية ، فلا بد من عائد ، تقديره : مخرج الذي كنتم تكتمونه ، ويجوز أن تكون مصدرية ، والمصدر واقع موضع المفعول به ، أي : مخرج مكتومكم وهذه الجملة لا محلّ لها من الاعراب ؛ لأنها معترضة بين المعطوف والمعطوف عليه وهما : " فَادَّارَأْتُمْ " وقوله : " فَقُلْنَا : اضْرِبُوهُ " قاله الزمخشري . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 2 صـ 178 . 179 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (72) ﴾

الخائن خائف ، ولخشية أن يظهر سرُّه يركن إلى التلبيس والتدليس ، والإنكار والجحود ولا محالة ينكشف عوارُه ، وتتضح أسرارُه ، وتهتك عن شَيْنِ فعله أستارُه . قال الله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 99 ﴾

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (72) ﴾

قصة القتيل هي أن رجلا ثريا من بني إسرائيل لم يكن له ولد يرثه . . وكان له أقارب كل منهم يريد أن يستأثر بأموال هذا الرجل . . والمال والذهب هما حياة بني إسرائيل . . فتآمر على هذا الرجل الثري ابن أخيه فقتله ليرثه ويستولي على أمواله . . ولكنه أراد أن يبعد التهمة عن نفسه فحمل الجثة وألقاها على باب قرية مجاورة ليتهم أهلها بقتل الثري . . وفي الصباح قام أهل القرية ووجدوا جثة الثري أمام قريتهم . . ووجدوه غريبا عن القرية فسألوا من هو ؟ حتى وصلوا إلى ابن أخيه . . فتجمع أهل القتيل واتهموهم بقتله . . وكان أشدهم تحمسا في الاتهام القاتل ابن أخيه . .

وقوله تعالى ﴿ فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ﴾ الدرأ هو الشيء حين يجئ إليك وكل واحد ينفيه عن نفسه . . إدارأتم أي أن كلا منكم يريد أن يدفع الجريمة عن نفسه فكل واحد يقول لست أنا . .

وليس من الضروري أن يتهم أحد آخر غيره . . المهم أن يدفعها عن نفسه .

ولقد حاول أهل القريتين . . قرية القتيل ، والقرية التي وجدت أمامها الجثة . أن يدفع كل منهما شبهة الجريمة عن نفسه وربما يتهم بها الآخر . . ولم يكن هناك دليل دامغ يرجح اتهاما

محددا . بل كانت الأدلة ضائعة ولذلك استحال توجيه اتهام لشخص دون آخر أو لقرية دون أخرى .

وكان التشريع في ذلك الوقت ينص على أنه إذا وجد قتيل على باب قرية ولم يستدل على قاتله . . فإن قرية القتيل وأهله يأخذون خمسين رجلا من أعيان القرية التي وجدت بجوارها الجثة . . فيلقوا اليمين بأنهم ما قتلوه . . ولا علموا قاتله . . وإذا كان الأعيان والأكابر أقل من خمسين رجلا . . تكررت الأيمان حتى تصير خمسين يمينا . . فيحلفون أنهم ما قتلوه ولا يعرفون قاتله . . عندما يتحمل بيت المال دية القتيل . .

(154/55)

ولكن الله كان يريد شيئا آخر . . يريد أن يرد بهذه الجريمة على جحود بني إسرائيل باليوم الآخر . . ويجعل الميت يقف أمامهم وينطق اسم قاتله . . ويجعلهم يرون البعث وهم أحياء . . ولذلك قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ . . أي أن بني إسرائيل أو أولئك الذين ارتكبوا الجريمة دبروها على أن تبقى في طي الكتمان فلا يعلم أحد عنها شيئا . . ولذلك جاء الشاب وقتل عمه دون أن يراه أحد . . ثم حمل الجثة خفية في ظلام الليل وخرج بها فلم يلتفت أحد إليه . . ثم ذهب إلى قرية مجاورة وألقى بالجثة على

باب القرية وأهلها نائمون وانصرف عائدا . .

كانت كل هذه الخطوات في رأيه ستجعل الجريمة غامضة لا تنكشف أبدا ولا يعرف سرها أحد . ولكن الله تبارك وتعالى أراد غير ذلك . . أراد أن يكشف الجريمة بطريقة لا تحتمل الجدل ، وفي نفس الوقت يرد على جحود بني إسرائيل للبعث . . بأن يريهم البعث وهم أحياء . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 398 . 399 ﴾

(155/55)

قوله تعالى ﴿ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (73) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

﴿ فقلنا ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿ اضربوه ﴾ وأضمر ذكر البقرة ولم يظهر دلالة على اتحاد هذا الشق الأول من القصة الذي جعل ثانياً بالشق الذي قبله في أنهما قصة واحدة فقال ﴿ ببعضها ﴾ قال الإمام أبو علي الفارسي في كتاب الحجة : قلنا اضربوا المقتول ببعض البقرة فضربوه به فحيي ، يعني والدليل على هذا المحذوف قوله ﴿ كذلك ﴾ أي مثل

هذا الإحياء العظيم على هذه الهيئة الغريبة ﴿ يحيي الله ﴾ أي الذي له صفات الكمال ﴿ الموتى ﴾ مثل هذا الإحياء الذي عوين وشوهد – انتهى .

روي أنهم لما ضربوه قام وقال : قتلني فلان وفلان لابني عمه ثم سقط ميتاً فأخذا وقتلا ولم يورّث قاتل بعد ذلك ؛ وهذه الخارقة كما أَخْبَرَ نَبِيَّنا صلى الله عليه وسلم ذراعُ الشاة المسمومة بأنه مسموم لما سمته اليهودية التي كانت في قومها هذه الآية ، وجعل هذا التنبيه على البعث في قصصهم ، لأنه من أعظم الأدلة عليه ، وقد وقع منهم ما ساغ معه عدهم منكرين وهو قولهم للمشركين : دينكم خير من دين محمد ، أو أن هذا تنبيه مقصود به حث العرب على سؤال من استنصحوهم في السؤال عن النبي صلى الله عليه وسلم لكونهم أهل العلم الأول ، فهو ملزِم لهم باعتقاد البعث أو اعتقاد كذب اليهود ، وعبر بالاسم العلم لأن الإحياء من أخص الآيات بصفة الإلهية كما أن الإرزاق أخص الآيات بالربوبية ﴿ ويريكم آياته ﴾ فيما يشهد بصحته ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ أي لتكونوا برؤية تلك الآيات الشاهدة له على رجاء من أن يحصل لكم عقل فيرشدكم إلى اعتقاد البعث وغيره مما تخبر به الرسل عن الله تعالى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 172. 173 ﴾

(156/55)

فصل

قال الفخر :

المروي عن ابن عباس أن صاحب بقرة بني إسرائيل طلبها أربعين سنة حتى وجدها ، ثم ذبحت إلا أن هذه الرواية على خلاف ظاهر القرآن لأن الفاء في قوله تعالى : ﴿ فَقُلْنَا اضربوه بِبَعْضِهَا ﴾ للتعقيب ، وذلك يدل على أن قوله : ﴿ اضربوه بِبَعْضِهَا ﴾ حصل عقيب قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 114 ﴾

فائدة

قال الفخر :

الهاء في قوله تعالى : ﴿ اضربوه ﴾ ضمير وهو إما أن يرجع إلى النفس وحينئذ يكون التذكير على تأويل الشخص والإنسان وإما إلى القتيل وهو الذي دل عليه قوله : ﴿ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 115 ﴾

فائدة

قال الفخر :

يجوز أن يكون الله تعالى إنما أمر بذبح البقرة ، لأنه تعلق بذبحها مصلحة لا تحصل إلا بذبحها ويجوز أن يكون الحال فيها وفي غيرها على السوية والأقرب هو الأول ، لأنه لو قام غيرها

مقامها لما وجبت على التعيين ، بل على التخير بينها وبين غيرها . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 115 ﴾

سؤالان :

السؤال الأول : ما الفائدة في ضرب المقتول ببعض البقرة مع أن الله تعالى قادر على أن يحييه ابتداء ؟

الجواب : الفائدة فيه لتكون الحجة أوكد وعن الحيلة أبعد فقد كان يجوز لملحد أن يوهم أن موسى عليه السلام إنما أحياه بضرب من السحر والحيلة ، فإنه إذا حيي عندما يضرب بقطعة من البقرة المذبوحة انتفت الشبهة في أنه لم يحي بشيء انتقل إليه من الجسم الذي ضرب به ، إذا كان ذلك إنما حيي بفعل فعلوه هم ، فدل ذلك على أن إعلام الأنبياء إنما يكون من عند الله لا بتمويه من العباد وأيضاً فتقديم القربان مما يعظم أمر القربان .

السؤال الثاني : هلا أمر بذبح غير البقرة ؟

(157/55)

وأجابوا بأن الكلام في غيرها لو أمروا به كالكلام فيه ، ثم ذكروا فيها فوائد ، منها التقرب بالقربان الذي كانت العادة به جارية ولأن هذا القربان كان عندهم من أعظم القرابين ولما

فيه من مزيد الثواب لتحمل الكلفة في تحصيل هذه البقرة على غلاء ثمنها ، ولما فيه من حصول المال العظيم لمالك البقرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 115 ﴾

فصل

قال الفخر :

اختلفوا في أن ذلك البعض الذي ضربوا القتيل به ما هو ؟ والأقرب أنهم كانوا مخيرين في أبعاض البقرة لأنهم أمروا بضرب القتيل ببعض البقرة وأي بعض من أبعاض البقرة ضربوا القتيل به ، فإنهم كانوا ممتثلين لمقتضى قوله : ﴿ اضربوه بِبَعْضِهَا ﴾ والإتيان بالمأمور به يدل على الخروج عن العهدة على ما ثبت في أصول الفقه ، وذلك يقتضي التخيير .

واختلفوا في البعض الذي ضرب به القتيل فقيل : لسانها وقيل : فخذها اليمنى وقيل : ذنبها وقيل : العظم الذي يلي الغضروف وهو أصل الآذان ، وقيل : البضعة بين الكتفين ، ولا شك أن القرآن لا يدل عليه فإن ورد خبر صحيح قبل وإلا وجب السكوت عنه . (1) انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 115 ﴾

---

(1) هذا أصل عظيم وضعه الإمام الفخر – رحمه الله في أمثال هذه الأمور ، ولقد تميز به عن كثير من المفسرين ورد به كثيراً من الدسائس والمنكرات التي وضعها الزنادقة في كتب التفسير من أجل إفساد المعنى بعد أن عجزوا – وإلى يوم القيامة – عن إفساد اللفظ ، ولكن الله قيض للقرآن من يدافع عنه إلى يوم القيامة ، فهيهات لهم ثم هيهات أن يفلحوا ،

فليموتوا كمداً وغيظاً " قل موتوا بغيظكم " وقد ذكر بعض المفسرين اختلافات أخرى منها ما ذكره ابن عطية حـ 1 صـ 165 ، قال " فقيل اضربوه ، وقيل اضربوا قبره ، لأن ابن عباس ذكر أن أمر القتيل وقع قبل جواز البحر ، وأنهم داموا في طلب البقرة أربعين سنة وقال القرطبي : لقد أمروا بطلبها وما هي في صلب ولا رحم بعد " انتهى كلام ابن عطية ، وأنت ترى ما يشتمل عليه من أمور في غاية البعد ، مما يجعلنا تنشكك في نسبتها إلى ابن عباس . أهـ

(158/55)

فائدة

قال الفخر :

في الكلام محذوف والتقدير ، فقلنا اضربوه ببعضها فضربوه ببعضها فحيي إلا أنه حذف ذلك لدلالة قوله تعالى : ﴿ كذلك يُحْيِ الله الموتى ﴾ وعليه هو كقوله تعالى : ﴿ اضرب بّعَصَاكَ الحجر فانفجرت ﴾ [البقرة : 60] أي فضرب فانفجرت ، روي أنهم لما ضربوه قام بإذن الله وأوداجه تشخب دماً ، وقال قتلني فلان ، وفلان لابني عمه ثم سقط ميتاً : وقتلاً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 115 ﴾

فصل

قال الآلوسى :

﴿ فَقُلْنَا اضربوه بِبَعْضِهَا ﴾ عطف على قوله تعالى : ﴿ فادرأتم ﴾ [البقرة : 72] وما بينهما اعتراض يفيد أن كتمان القاتل لا ينفعه ، وقيل : حال أي والحال أنكم تعلمون ذلك .

(159/55)

والهاء في ﴿ اضربوه ﴾ عائد على النفس بناء على تذكيرها إذ فيها التأنيث وهو الأشهر والتذكير ، أو على تأويل الشخص أو القتيل ، أو على أن الكلام على حذف مضاف أي ذا نفس ، وبعد الحذف أقيم المضاف إليه مقامه ، وقيل : الأظهر أن التذكير لتذكير المعنى ، وإذا كان اللفظ مذكراً والمعنى مؤنثاً أو بالعكس فوجهان ، وذكر هذا الضمير مع سبق التأنيث تفنناً أو تمييزاً بين هذا الضمير والضمير الذي بعده توضيحاً ، والظاهر أن المراد بالبعض أي بعض كان إذ لا فائدة في تعينه ولم يرد به نقل صحيح واختلف بم ضربوه فقيل : بلسانها أو بأصغريها أو بفخذها اليمنى أو بذنبها أو بالغضروف أو بالعظم الذي يليه أو بالبضعة التي بين الكتفين أو بالعجب أو بعظم من عظامها ، ونقل أن الضرب كان على جيد القتيل ، وذلك قبل دفنه ، ومن قال : إنهم مكثوا في تطلبها أربعين سنة أو أنهم أمروا بطلبها

ولم تكن في صلب ولا رحم قال : إن الضرب على القبر بعد الدفن ، والأظهر أنه المباشر بالضرب لا القبر ، وفي بعض الآثار أنه قام وأوداجه تشخب دماً ؛ فقال : قتلني ابن أخي ، وفي رواية فلان وفلان لابني عمه ثم سقط ميتاً فأخذا وقتلا وما ورث قاتل بعد ذلك ، وفي بعض القصص أن القاتل حلف بالله تعالى ما قتلته فكذب بالحق بعد معاينته قال الماوردي : وإنما كان الضرب بميت لا حياة فيه لئلا يلتبس على ذي شبهة أن الحياة إنما انقلبت إليه مما ضرب به فلازالة الشبهة وتأكد الحجة كان ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 293.294 ﴾

قوله تعالى ﴿ كذلك يُحْيِ الله الموتى ﴾

فصل

قال الفخر :

في هذه الآية وجهان :

أحدهما : أن يكون إشارة إلى نفس ذلك الميت .

والثاني : أنه احتجاج في صحة الإعادة ، ثم هذا الاحتجاج أهو على المشركين أو على غيرهم ؟ فيه وجهان .

الأول : قال الأصم : إنه على المشركين لأنه إن ظهر لهم بالتواتر أن هذا الإحياء قد كان على هذا الوجه علموا صحة الإعادة ، وإن لم يظهر ذلك بالتواتر فإنه يكون داعية لهم إلى التفكر .

قال القاضي : وهذا هو الأقرب لأنه تقدم منه تعالى ذكر الأمر بالضرب وأنه سبب إحياء ذلك الميت ، ثم قال : ﴿ كذلك يُحْيِ الله الموتى ﴾ فجمع ﴿ الموتى ﴾ ولو كان المراد ذلك القتيل لما جمع في القول فكأنه قال : دل بذلك على أن الإعادة كالابتداء في قدرته .

الثاني : قال القفال : ظاهر الكلام يدل على أن الله تعالى قال لبني إسرائيل : إحياء الله تعالى لسائر الموتى يكون مثل هذا الإحياء الذي شاهدتم ، لأنهم وإن كانوا مؤمنين بذلك إلا أنهم لم يؤمنوا به إلا من طريق الاستدلال ولم يشاهدوا شيئاً منه ، فإذا شاهدوه اطمأنت قلوبهم وانتفت عنهم الشبهة التي لا يخلو منها المستدل ، وقد قال إبراهيم عليه السلام : ﴿ رَبّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْيِ الموتى ﴾ إلى قوله : ﴿ لّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ﴾ [البقرة : 26] فأحيا الله تعالى لبني إسرائيل القتيل عياناً ، ثم قال لهم : ﴿ كذلك يُحْيِ الله الموتى ﴾ أي كالذي أحياه في الدنيا يحيي في الآخرة من غير احتياج في ذلك الإيجاد إلى مادة ومدة ومثال وآلة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 115. 116 ﴾

وقال ابن عاشور :

وقوله : ﴿ كذلك يحي الله الموتى ﴾ الإشارة إلى محذوف للإيجاز أي فضربوه فحيي فأخبر بمن قتله أي كذلك الإحياء يحي الله الموتى فالتشبيه في التحقق وإن كانت كيفية المشبه أقوى وأعظم لأنها حياة عن عدم بخلاف هاته فالمقصد من التشبيه بيان إمكان المشبه كقول المتنبي :

فإن تفق الأنام وأنت منهم . . .

فإن المسك بعض دم الغزال

(161/55)

وقوله : ﴿ كذلك يحي الله الموتى ﴾ من بقية المقول لبني إسرائيل فيتعين أن يقدر وقلنا لهم كذلك يحي الله الموتى لأن الإشارة لشيء مشاهد لهم وليس هو اعتراضاً أريد به مخاطبة الأمة الإسلامية لأنهم لم يشاهدوا ذلك الإحياء حتى يشبه به إحياء الله الموتى .

وقوله : ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ رجاء لأن يعقلوا فلم يبلغ الظن بهم مبلغ القطع مع هذه الدلائل كلها .

وقد جرت عادة فقهائنا أن يحتجوا بهذه الآية على مشروعية اعتبار قول المقتول : دمي عند فلان موجباً للقسامة ويجعلون الاحتجاج بها لذلك متفرعاً على الاحتجاج بشرع من

قبلنا ، وفي ذلك تنبيه على أن محل الاستدلال بهذه الآية على مشروعية ذلك هو أن إحياء الميت لم يقصد منه إلاَّ سماع قوله فدل على أن قول المقتول كان معتبراً في أمر الدماء .

والتوراة قد أجملت أمر الدماء إجمالاً شديداً في قصة ذبح البقرة التي قدمناها ، نعم إن الآية لا تدل على وقوع القسامة مع قول المقتول ولكنها تدل على اعتبار قول المقتول سبباً من أسباب القصاص ، ولما كان الظن بتلك الشريعة أن لا يقتل أحد بمجرد الدعوى من المطعون تعين أن هنالك شيئاً تقوى به الدعوى وهو القسامة .

وقد أورد على احتجاج المالكية بها أن هذا من خوارق العادات وهي لا تفيد أحكاماً وأجاب ابن العربي بأن المعجزة في إحياء الميت فلما حيي صار كلامه ككلام سائر الأحياء ، وهو جواب لطيف لكنه غير قاطع .

والخلاف في القضاء بالقسامة إثباتاً ونفياً وفي مقدار القضاء بها مبسوط في كتب الفقه وقد تقصاه القرطبي وليس من أغراض الآية . انتهى انتهى . اهـ ﴿التحرير والتنوير حـ 1 صـ 544.543﴾

فائدة

قال الفخر :

من الناس من استدل بقوله تعالى : ﴿كذلك يُحْيِ الله الموتى﴾ على أن المقتول ميت وهو

ضعيف لأنه تعالى قاس على إحياء ذلك القتيل إحياء الموتى ، فلا يلزم من هذا كون القتيل ميتاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 116 ﴾

(162/55)

قوله تعالى ﴿ وَيُرِيكُمْ ءاياته ﴾

سؤال : لقائل أن يقول : إن ذلك كان آية واحدة فلم سميت بالآيات ؟

والجواب : أنها تدل على وجود الصانع القادر على كل المقدورات .

العالم بكل المعلومات ، المختار في الإيجاد والإبداع ، وعلى صدق موسى عليه السلام ، وعلى براءة ساحة من لم يكن قاتلاً . (1)

وعلى تعين تلك التهمة على من باشر ذلك القتل ، فهي وإن كانت آية واحدة إلا أنها لما دلت على هذه المدلولات الكثيرة لا جرم جرت مجرى الآيات الكثيرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 116 ﴾

وقال أبو حيان :

والظاهر أن الآيات جمع في اللفظ والمعنى ، وهي ما أراهم من إحياء الميت ، والعصا ، والحجر ، والغمام ، والمنّ والسلوى ، والسحر ، والبحر ، والطور ، وغير ذلك .

وكانوا مع ذلك أعمى الناس قلوباً ، وأشد قسوة وتكذيباً لنبيهم في تلك الأوقات التي شاهدوا فيها تلك العجائب والمعجزات .

وقال صاحب المنتخب : ﴿ ويريكم آياته ﴾ ، وإن كانت آية واحدة ، لأنها تدل على وجود الصانع القادر على كل المقدورات ، العالم بكل المعلومات ، المختار في الإيجاد والإبداع ، وعلى صدق موسى عليه الصلاة والسلام ، وعلى براءة ساحة من لم يكن قاتلاً ، وعلى تعين تلك التهمة على من باشر ذلك القتل . انتهى كلامه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 1 صـ 425 ﴾

وقال أبو السعود :

[ويريكم آياته] ودلائله الدالة على أنه تعالى على كل شيء قدير, ويجوز أن يراد بالآيات هذا الإحياء, والتعبير عنه بالجمع, لاشتماله على أمور بديعة من ترتب الحياة على عضو ميت وإخباره بقاتله, وما يلابسه من الأمور الخارقة للعادة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 1 صـ 114 ﴾

---

(1) وما المانع أن يكون المعنى والله أعلم ويريكم آياته مثل ما أراكم هذه الآية ، وهي آية واحدة من آيات الله التي لا حصر لها والله أعلم .

وقال الآلوسى :

﴿ كذلك يُحْيِ الله الموتى ﴾ جملة اعتراضية تفيد تحقق المشبه وتيقنه بتشبيه الموعود بالموجود ، والمماثلة في مطلق الإحياء ، وفي الكلام حذف دلت عليه الجملة أي فضربوه فحيي ، والتكلم من الله تعالى مع من حضر وقت الحياة والكاف خطاب لكل من يصح أن يخاطب ويسمع هذا الكلام لأن أمر الإحياء عظيم يقتضي الاعتناء بشأنه أن يخاطب به كل من يصح منه الاستماع فيدخل فيه أولئك دخولاً أولياً ، ويدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ وَيُرِيكُمْ ﴾ الخ ولا بد على هذا من تقدير القول أي قلنا أو وقلنا لهم كذلك ليرتبط الكلام بما قبله ، وقيل : حرف الخطاب مصروف إليهم ، وكان الظاهر كذلكم على وفق ما بعده إلا أنه أفرده بإرادة كل واحد أو بتأويل فريق ونحوه قصداً للتخفيف ، ويحتمل أن يكون التكلم مع من حضر نزول الآية ، وعليه لا تقدير إذ ينتظم بدونه بل ربما يخرج معه من الانتظام ، وأبعد الماوردي فجعله خطاباً من موسى نفسه عليه السلام

﴿ وَيُرِيكُمْ ءاياته ﴾ مستأنف أو معطوف على ما قبله ، والظاهر أن الآيات جمع في اللفظ والمعنى ، والمراد بها الدلائل الدالة على أن الله تعالى على كل شيء قدير ، ويجوز أن يراد بها هذا الإحياء ، والتعبير عنه بالجمع لاشتماله على أمور بديعة من ترتب الحياة على الضرب بعضو ميت ، وإخبار الميت بقاتله وما يلابسه من الأمور الخارقة للعادات ، وفي "

المنتخب" أن التعبير عن الآية الواحدة بالآيات لأنها تدل على وجود الصانع القادر على كل المقدورات العالم بكل المعلومات المختار في الإيجاد والإبداع، وعلى صدق موسى عليه السلام، وعلى براءة ساحة من لم يكن قاتلاً، وعلى تعين تلك التهمة على من باشر القتل.

انتهى انتهى. اهـ ﴿روح المعانى حـ 1 صـ 394﴾

قوله تعالى ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾

قال الآلوسى:

﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي لكي تعقلوا الحياة بعد الموت والبعث والحشر فإن من قدر على إحياء نفس واحدة قدر على إحياء الأنفس كلها لعدم الاختصاص.

(164/55)

﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ واحدة﴾ [لقمان: 28] أو لكي يكمل عقلكم أو لعلكم تمتنعون من عصيانه وتعملون على قضية عقولكم، وقد ذكر المفسرون أحكاماً فقهية انتزعوها واستدلوا عليها من قصة هذا القتيل ولا يظهر ذلك من الآية ولا أرى لذكر ذلك طائلاً سوى الطول هذا. انتهى انتهى. اهـ ﴿روح المعانى حـ 1 صـ 394﴾

فصل

قال الفخر :

إن القوم كانوا عقلاء قبل عرض هذه الآيات عليهم وإذا كان العقل حاصلاً امتنع أن يقال : إني عرضت عليك الآية الفلانية لكي تصير عاقلاً ، فإذن لا يمكن إجراء الآية على ظاهرها بل لا بد من التأويل وهو أن يكون المراد لعلكم تعملون على قضية عقولكم وأن من قدر على إحياء نفس واحدة قدر على إحياء الأنفس كلها لعدم الاختصاص ، حتى لا ينكروا البعث ، هذا آخر الكلام في تفسير الآية .

واعلم أن كثيراً من المتقدمين ذكر أن من جملة أحكام هذه الآية أن القاتل هل يرث أم لا ؟ قالوا : لا .

لأنه روي عن عبيدة السلماني أن الرجل الذي كان قاتلاً في هذه الواقعة حرم من الميراث لأجل كونه قاتلاً .

قال القاضي : لا يجوز جعل هذه المسألة من أحكام هذه الآية لأنه ليس في الظاهر أن القاتل هل كان وارثاً لقتيله أم لا ؟ وبتقدير أن يكون وارثاً له فهل حرم الميراث أم لا ؟ وليس يجب إذا روي عن أبي عبيدة أن القاتل حرم لمكان قتله الميراث أن يعد ذلك في جملة أحكام القرآن إذا كان لا يدل عليه لا مجملاً ولا مفصلاً ، وإذا كان لم يثبت أن شرعهم كشرعنا وأنه لا يلزم الاقتداء بهم ، فإدخال هذا الكلام في أحكام القرآن تعسف .

واعلم أن الذي قاله القاضي حق ، ومع ذلك فلنذكر هذه المسألة فنقول : اختلف المجتهدون في أن القاتل هل يرث أم لا ، فعند الشافعي رضي الله عنه لا يرث سواء كان القتل غير مستحق عمداً كان أو خطأً أو كان مستحقاً كالعادل إذا قتل الباغي ، وعند أبي حنيفة رحمه الله ، لا يرث في العمد والخطأ إلا أن العادل إذا قتل الباغي فإنه يرثه ، وكذا القاتل إذا كان صبياً أو مجنوناً يرثه لا من ديته ولا من سائر أمواله ، وهو قول علي وعمر وابن عباس وسعيد بن المسيب ، وقال عثمان البتي : قاتل الخطأ يرث وقاتل العمد لا يرث ، وقال مالك : لا يرثه من ديته ويرثه من سائر أمواله وهو قول الحسن ومجاهد والزهري والأوزاعي .

واحتج الشافعي رضي الله عنه بعموم الخبر المشهور المستفيض أنه صلى الله عليه وسلم قال : " ليس للقاتل من الميراث شيء " إلا أن الاستدلال بهذا الخبر إنما يصح لو جوزنا تخصيص عموم الكتاب بخبر الواحد ، والكلام فيه مذكور في أصول الفقه ، ثم ههنا دقيقة وهي أن تطرق التخصيص إلى العام يفيد نوع ضعف فلو خصصنا هذا الخبر ببعض الصور فحينئذ يتوالى عليه أسباب الضعف ، فإن كونه خبر واحد يوجب الضعف وكونه على مصادمة الكتاب سبب آخر وكونه مخصوصاً سبب آخر ، فلو خصصنا عموم الكتاب به لكنا قد رجحنا الضعيف جداً على القوي جداً .

أما إذا لم يخصص هذا الخبر ألبتة اندفع عنه بعض أسباب الضعف فحينئذ لا يبعد تخصيص عموم الكتاب به .

واحتج أبو بكر الرازي على أن العادل إذا قتل الباغي فإنه لا يصير محروماً عن الميراث بأنا لا نعلم خلافاً أن من وجب له القود على إنسان فقتله قوداً أنه لا يحرم من الميراث ، واعلم أن الشافعية يمنعون هذه الصورة . والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 117.116 ﴾

(166/55)

فصل

قال أبو حيان :

قال الزمخشري : في الأسباب والشروط حكم وفوائد ، وإنما شرط ذلك لما في ذبح البقرة في من التقرب ، وأداء التكليف ، واكتساب الثواب ، والإشعار بحسن تقديم القربة على الطلب ، وما في التشديد عليهم ، لتشديدهم من اللطف لهم والآخرين في ترك التشديد ، والمسارعة إلى امتثال أوامر الله تعالى ، وارتسامها على الفور من غير تفتيش وتكثير سؤال ، ونفع اليتيم بالتجارة الرابحة ، والدلالة على بركة البر بالأبوين ، والشفقة على الأولاد ،

وتجهيل الهازئ بما لا يعلم كنهه ، ولا يطلع على حقيقته من كلام الحكماء .

وبيان أن من حق المتقرب إلى ربه : أن يتنوق في اختيار ما يتقرب به ، وأن يختاره فتى السن غير فخم ولا ضَرِعٍ ، حسن اللون بريئاً من العيوب ، يونق من ينظر إليه ، وأن يغالي بثمنه ، كما روي عن عمر رضي الله تعالى عنه ، أنه ضحى بنجيبة بثلاثمائة دينار ، وأن الزيادة في الخطاب نسخ له ، وأن النسخ قبل الفعل جائز ، وإن لم يجز قبل وقت الفعل وإمكانه لأدائه إلى البدء ، وليعلم بما أمر من مس الميت بالميت ، وحصول الحياة عقيبه ، وأن المؤثر هو المسبب لا الأسباب ، لأن الموتين الحاصلين في الجسمين لا يعقل أن يتولد منهما حياة .

انتهى كلامه ، وهو حسن .

وقد ذكر المفسرون أحكاماً فقهية ، انتزعوها واستدلوا عليها من قصة هذا القتل ، ولا يظهر استنباطهم ذلك من هذه الآية .

قالوا : هذه الآية دليل على حرمان القاتل ميراث المقتول ، وإن كان ممن يرثه .

وأقول : لا تدل هذه الآية على ذلك ، وإنما القصة ، إن صحت ، تدل على ذلك ، لأن في آخرها : فما ورث قاتل بعدها ممن قتله .

وروي عن عمر وعلي وابن عباس وابن المسيب أنه لا ميراث له ، عمداً كان أو خطأً ، لا من ديته ، ولا من سائر ماله .

وبه قال أبو حنيفة والثوري والأوزاعي وأبو يوسف ، إلا أن أصحاب أبي حنيفة قالوا : إن

كان صبياً أو مجنوناً ، ورث .

وقال عثمان الليثي : يرث قاتل الخطأ .

(167/55)

وقال ابن وهب ، عن مالك : لا يرث قاتل العمد من ديته ، ولا من ماله .

وإن قتله خطأ ، يرث من ماله دون ديته .

ويروى مثله عن الحسن ومجاهد والزهري ، وهو قول الأوزاعي .

وقال المزني ، عن الشافعي : إذا قتل الباغي العادل ، أو العادل الباغي ، لا يتوارثان لأنهما قاتلان .

وقالوا : استدل مالك في رواية ابن القاسم وابن وهب بهذه القصة ، على صحة القول بالقسامة ، بقول المقتول : دمي عند فلان ، أو فلان قتلني ، وقال الجمهور خلافه .

وقالوا في صفة البقرة استدلال لمن قال : إن شرع من قبلنا شرع لنا ، وهو مذهب مالك وجماعة من الفقهاء ، قالوا : في هذه الآيات أدل دليل على حصر الحيوان بصفاته ، أنه إذا حصر بصفة يعرف بها جاز السلم فيه ، وبه قال مالك والأوزاعي والليث والشافعي ، وقال أبو حنيفة : لا يجوز السلم في الحيوان .

ودلائل هذه المسائل مذكورة في كتب خلاف الفقهاء ، ولا يظهر استنباط شيء من هذا من هذه القصة . انتهى انتهى . اهـ ﴿البحر المحيط حـ 1 صـ 425. 427﴾

(168/55)

فائدة

قال السعدى :

اعلم أن كثيرا من المفسرين رحمهم الله ، قد أكثروا في حشو تفاسيرهم من قصص بني إسرائيل ، ونزلوا عليها الآيات القرآنية ، وجعلوها تفسيرا لكتاب الله ، محتجين بقوله صلى الله عليه وسلم : " حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج "

والذي أرى أنه وإن جاز نقل أحاديثهم على وجه تكون مفردة غير مقرونة ، ولا منزلة على كتاب الله ، فإنه لا يجوز جعلها تفسيرا لكتاب الله قطعا إذا لم تصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذلك أن مرتبتها كما قال صلى الله عليه وسلم : " لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم " فإذا كانت مرتبتها أن تكون مشكوكا فيها ، وكان من المعلوم بالضرورة من دين الإسلام أن القرآن يجب الإيمان به والقطع بألفاظه ومعانيه ، فلا يجوز أن تجعل تلك القصص المنقولة بالروايات المجهولة ، التي يغلب على الظن كذبها أو كذب أكثرها ، معاني

لكتاب الله ، مقطوعا بها ولا يستريب بهذا أحد ، ولكن بسبب الغفلة عن هذا حصل ما حصل ، والله الموفق . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير السعدى صـ 55. 56 ﴾

(169/55)

فصل

قال السيوطى :

﴿ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (73) ﴾

أخرج وكيع والفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ فقلنا اضربوه ببعضها ﴾ قال : ضرب بالعظم الذي يلي الغضروف .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة قال : ذكر لنا أنهم ضربوه بفخذها ، فلما فعلوا أحياه الله حتى أنبأهم بقاتله الذي قتله ، وتكلم ثم مات .

وأخرج وكيع وابن جرير عن عكرمة في الآية قال : ضربوه بفخذها فحي ، فما زاد على أن قال : قتلني فلان ، ثم عاد فمات .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد في الآية قال : ضرب بفخذ البقرة فقام حياً فقال : قتلني فلان ، ثم عاد في ميتته .

وأخرج ابن جرير عن السدي قال : ضرب بالبضعة التي بين الكتفين .

وأخرج ابن جرير عن أبي العالية قال : أمرهم أن يأخذوا عظماً فيضربوا به القتيل ، ففعلوا فرجع الله روحه فسمى قاتله ، ثم عاد ميتاً كما كان .

وأما قوله تعالى : ﴿ كذلك يحيي الله الموتى ﴾ الآية .

أخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ في العظمة عن وهب بن منبه قال : إن فتى من بني إسرائيل كان براً بوالدته ، وكان يقوم ثلث الليل يصلي ، ويجلس عند رأس والدته ثلث الليل ، فيذكرها بالتسبيح والتهليل والتكبير والتحميد ، ويقول : يا أمه إن كنت ضعفت عن قيام الليل فكبري الله وسبيحه وهلليه ، فكان ذلك عملهما الدهر كله ، فإذا أصبح أتى الجبل فاحتطب على ظهره فيأتي به السوق فيبيعه بما شاء الله أن يبيعه ، فيتصدق بثلثه ويبقي لعبادته ثلثاً ويعطي الثلث أمه ، وكانت أمه تأكل النصف وتتصدق بالنصف ، وكان ذلك عملهما الدهر كله .

(170/55)

فلما طال عليها قالت : يا بني اعلم أني قد ورثت من أبيك بقرة وختمت عنقها ، وتركتها في البقر على اسم إله إبراهيم وإسمعيل وإسحق ويعقوب ، قالت وسأبين لك ما لونها وهيئتها

، فإذا أتيت البقر فادعها باسم إله إبراهيم وإسمعيل وإسحق ويعقوب فأنها تفعل كما وعدتني ، وقالت : إن علامتها ليست بهرمة ولا فتية ، غير أنها بينهما وهي صفراء فاقع لونها تسر الناظرين ، إذا نظرت إلى جلدها يخيل إليك أن شعاع الشمس يخرج من جلدها ، وليست بالذلول ، ولا صعبة تثير الأرض ، ولا تسقي الحرث ، مسلمة لا شية فيها ولونها واحد ، فإذا رأيتها فخذ بعنقها فإنها تتبعك بإذن إله إسرائيل .

فانطلق الفتى وحفظ وصية والدته ، وسار في البرية يومين أو ثلاثاً ، حتى إذا كان صبيحة ذلك اليوم انصرف فصاح بها فقال : بإله إبراهيم وإسمعيل واسحق ويعقوب إلا ما أتيتني ، فأقبلت البقرة إليه وتركت الرعي ، فقامت بين يدي الفتى ، فأخذ بعنقها فتكلمت البقرة وقالت : يا أيها الفتى البر بوالدته اركبني فإنه أهون عليك . قال الفتى : لم تأمرني والدتي أن أركب عليك ولكنها أمرتني أن أسوقك سوقاً فأحب أن أبلغ قولها .

فقالت : بإله إسرائيل لو ركبتني ما كنت لتقدر علي ، فانطلق يا أيها الفتى البر بوالدته ، لو أنك أمرت هذا الجبل أن ينقلع لك من أصله لانقلع لبرك بوالدتك ولطاعتك إلهك .

(171/55)

فانطلق حتى إذا كان من مسيرة يوم من منزله استقبله عدوّ الله إبليس ، فتمثل له على صورة راع من رعاة البقر ، فقال : يا أيها الفتى من أين جئت بهذه البقرة ، ألا تركبها فإني أراك قد أعييت ؟ أظنك لا تملك من الدنيا مالاً غير هذه البقرة ، فإني أعطيك الأجر ينفعك ولا يضرها ، فإني من رعاة البقر اشتقت إلى أهلي ، فأخذت ثوراً من ثيراني فحملت عليه طعامي وزادي ، حتى إذا بلغت شطر الطريق أخذني وجع بطني ، فذهبت لأقضي حاجتي فعدا وسط الجبل وتركني وأنا أطلبه ولست أقدر عليه ، فأنا أخشى على نفسي الهلاك وليس معي زاد ولا ماء ، فإن رأيت أن تحملني على بقرتك فتبلغني مراعي وتنجيني من الموت وأعطيك أجرها بقرتين .

قال الفتى : إن بني آدم ليس بالذي يقتلهم اليقين وتهلكهم أنفسهم ، فلو علم الله منك اليقين لبلغك بغير زاد ولا ماء ، ولست براكب أمراً لم أومر به ، إنما أنا عبد مأمور ولو علم سيدي أني أعصيه في هذه البقرة لأهلكني وعاقبني عقوبة شديدة ، وما أنا بمؤثر هواك على هوى سيدي ، فانطلق يا أيها الرجل بسلام فقال له إبليس : أعطيك بكل خطوة تخطوها إلى منزلي درهماً فذلك مال عظيم وتفدي نفسي من الموت في هذه البقرة . قال الفتى : إن سيدي له ذهب الأرض وفضتها ، فإن أعطيتني شيئاً منها علم أنه من ماله ، ولكن أعطني من ذهب السماء وفضتها ، فأقول أنه ليس هذا من مالك فقال إبليس : وهل في السماء

ذهب أو فضة ، أو هل يقدر أحد على هذا ؟ قال الفتى : أو هل يستطيع العبد بما لم يأمر به سيده كما لا تستطيع أنت ذهب السماء وفضتها .

(172/55)

قال له إبليس : أراك أعجز العبيد في أمرك . قال له الفتى : إن العاجز من عصى ربه . قال له إبليس : ما لي لا أرى معك زاداً ولا ماء ؟ قال الفتى : زادي التقوى ، وطعامي الحشيش ، وشرابي من عيون الجبال ، قال إبليس : ألا آمرك بأمر يرشدك ؟ قال الفتى : مر به نفسك فإني على رشاد إن شاء الله . قال له إبليس : ما أراك تقبل نصيحة ! قال له الفتى : الناصح لنفسه من أطاع سيده وأدى الحق الذي عليه ، فإن كنت شيطاناً فأعوذ بالله منك ، وإن كنت آدمياً فاخرج فلا حاجة لي في صحابتك . فجمد إبليس عند ذلك ثلاث ساعات مكانه ، ولو ركبها له إبليس ما كان الفتى يقدر عليها ولكن الله حبسه عنها .

فبينما الفتى يمشي إذ طار طائر من بين يديه فاختلس البقرة ، ودعاها الفتى وقال : بإله إبراهيم وإسمعيل وإسحق ويعقوب إلا ما آتيتني ، فأتت البقرة إليه وقامت بين يديه ، فقالت : يا أيها الفتى ألم تر إلى ذلك الطائر الذي طار من بين يديك ؟ ، فإنه إبليس عدو الله

اختلسني ، فلما ناديتني بإله إسرائيل جاء ملك من الملائكة فانتزعني منه فردني إليك لبرك بوالدتك وطاعتك إلهك ، فانطلق فلست ببارحتك حتى تأتي أهلك إن شاء الله .

(173/55)

قال : فدخل الفتى إلى أمه يخبرها الخبر ، فقالت : يا بني إني أراك تحتطب على ظهرك الليل والنهار فتشخص ، فاذهب بهذه البقرة فبعها وخذ ثمنها فتقوّ به وودع به نفسك . قال الفتى : بكم أبيعها ؟ قالت : بثلاثة دنانير على رضا مني . فانطلق الفتى إلى السوق فبعث الله إليه من الملائكة ليري خلقه قدرته ، فقال للفتى : بكم تبيع هذه البقرة أيها الفتى ؟ فقال : أبيعها بثلاثة دنانير على رضا من والدتي . قال : لك ستة دنانير ولا تستأمر والدتك . فقال : لو أعطيتني زنتها لم أبعها حتى أستأمرها ، فخرج الفتى فأخبر والدته الخبر ، فقالت : بعها بستة دنانير على رضا مني . فانطلق الفتى وأتاه الملك فقال : ما فعلت ؟ فقال : أبيعها بستة دنانير على رضا من والدتي . قال : فخذ اثني عشر ديناراً ولا تستأمرها . قال : لا .

فانطلق الفتى إلى أمه فقالت : يا بني إن الذي يأتيك ملك من الملائكة في صورة آدمي ، فإذا أتاك فقل له : إن والدتي تقرأ عليك السلام ، وتقول : بكم تأمرني أن أبيع هذه البقرة ؟ قال

له الملك : يا أيها الفتى يشتري بقرتك هذه موسى بن عمران لقتيل يقتل من بني إسرائيل ، وله مال كثير ولم يترك أبوه ولداً غيره ، وله أخ له بنون كثيرون ، فيقولون كيف لنا أن نقتل هذا الغلام ونأخذ ماله ، فدعوا الغلام إلى منزلهم فقتلوه فطرحوه إلى جانب دارهم ، فأصبح أهل الدار فأخرجوا الغلام إلى باب الدار ، وجاء بنو عم الغلام فأخذوا أهل الدار ، فانطلقوا بهم إلى موسى ، فلم يدر موسى كيف يحكم بينهم من أجل أن أهل الدار برآء من الغلام . . . ! فشق ذلك على موسى فدعا ربه ، فأوحى الله إليه : أن خذ بقرة صفراء فاقعاً لونها فاذبحها ، ثم اضرب الغلام ببعضها .

(174/55)

فعمدوا إلى بقرة الفتى فاشتروها على أن يملأوا جلدها دنانير ، ثم ذبحوها ثم ضربوا الغلام ببعضها ، فقام يخبرهم فقال : إن بني عمي قتلوني وأهل الدار مني برآء ، فأخذهم موسى فقالوا : يا موسى أتتخذنا هزواً قد قتل ابن عمنا مظلوماً ، وقد علموا أن سيفضحوا ، فعمدوا إلى جلد البقرة فملأوه دنانير ثم دفعوه إلى الفتى ، فعمد الفتى فتصدق بالثلثين على فقراء بني إسرائيل وتقوّى بالثلث و ﴿كذلك يحيي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿الدر المنثور حـ 1 صـ 194 ـ 197﴾

فائدة

قال ابن الجوزى :

وفي الذي ضرب به ستة أقوال .

أحدها : أنه ضرب بالعظم الذي يلي الغضروف ، رواه عكرمة عن ابن عباس .

قال أبو سليمان الدمشقي : وذلك العظم هو أصل الأذن ، وزعم قوم أنه لا يكسر ذلك العظم من أحد فيعيش .

قال الزجاج : الغضروف في الأذن ، وهو : ما أشبه العظم الرقيق من فوق الشحمة ، وجميع أعلى صدفة الأذن ، وهو معلق الشنوف ، فأما العظمان اللذان خلف الأذن الناتئان من مؤخر الأذن ، فيقال لهما : الخشّاوان ، والخششاوان ، واحدهما : خُشّاء ، وخُشُشاء .

والثاني : أنه ضرب بالفخذ ، روي عن ابن عباس أيضاً ، وعكرمة ، ومجاهد ، وقتادة ، وذكر عكرمة ومجاهد أنه الفخذ الأيمن .

والثالث : أنه البضعة التي بين الكتفين .

رواه السدي عن أشياخه .

والرابع : أنه الذنب ، رواه ليث عن مجاهد .

والخامس : أنه عجب الذنب ، وهو عظم بني عليه البدن ، روي عن سعيد بن جبير .

والسادس : أنه اللسان ، قاله الضحاك .

وفي الكلام اختصار تقديره : فقلنا : اضربوه ببعضها ليحيا ، فضربوه فحيي ، فقام فأخبر بقاتله .

وفي قاتله أربعة أقوال .

أحدها : بنو أخيه ، رواه عطية عن ابن عباس .

والثاني : ابنا عمه ، رواه أبو صالح عن ابن عباس ، وهذان القولان يدلان على أن قاتله أكثر من واحد .

والثالث : ابن أخيه ، قال السدي عن أشياخه وعبيدة .

والرابع : أخوه ، قاله عبد الرحمن ابن زيد .

قوله تعالى : ﴿كذلك يحيي الله الموتى﴾ : فيه قولان .

أحدهما : أنه خطاب لقوم موسى .

والثاني : لمشركي قريش ، احتج عليهم إذ جحدوا البعث بما يوافق عليه أهل الكتاب ، قال أبو عبيدة : وآياته : عجائبه . انتهى انتهى . اهـ ﴿زاد المسير حـ 1 صـ 101 .

﴿102﴾

(176/55)

فائدة

قال الشوكانى :

واختلف في تعيين البعض الذي أمروا أن يضربوا القتيل به ، ولا حاجة إلى ذلك مع ما فيه من القول بغير علم ، ويكفينا أن نقول : أمرهم الله بأن يضربوه ببعضها ، فأيّ : بعض ضربوا به ، فقد فعلوا ما أمروا به ، وما زاد على هذا ، فهو من فضول العلم ، إذ لم يرد به برهان . انتهى انتهى . اهـ ﴿ فتح القدير حـ 1 صـ 100 ﴾

(177/55)

لطيفة

قال البيضاوى :

﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ لكي يكمل عقلكم وتعلموا أن من قدر على إحياء نفس قدر على إحياء الأنفس كلها ، أو تعملوا على قضيته . ولعله تعالى إنما لم يحيه ابتداء وشرط فيه ما

شرط لما فيه من التقرب وأداء الواجب ، ونفع اليتيم والتنبيه على بركة التوكل والشفقة على الأولاد ، وأن من حق الطالب أن يقدم قربة ، والمتقرب أن يتحرى الأحسن ويغالي بثمنه ، كما روي عن عمر رضي الله تعالى عنه : أنه ضحى بنجيبة اشتراها بثلاثمائة دينار . وأن المؤثر في الحقيقة هو الله تعالى ، والأسباب أمارات لا أثر لها ، وأن من أراد أن يعرف أعدى عدوه الساعي في إماتته الموت الحقيقي ، فطريقُه أن يذبح بقرة نفسه التي هي القوة الشهوية حين زال عنها شره الصبا ، ولم يلحقها ضعف الكبر ، وكانت معجبة رائقة المنظر غير مذللة في طلب الدنيا ، مسلمة عن دنسها لا سمة بها من مقابحها بحيث يصل أثره إلى نفسه ، فتحيا حياة طيبة ، وتعرب عما به ينكشف الحال ، ويرتفع ما بين العقل والوهم من التدارؤ والنزاع . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 1 صـ 344. 345 ﴾

وقال النسفى :

﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ فتعملون على قضية عقولكم وهي أن من قدر على إحياء نفس واحدة قدر على إحياء جميعها لعدم الاختصاص ، والحكمة في ذبح البقرة وضربه ببعضها وإن قدر على إحيائه بلا واسطة التقرب به ، الإشعار بحسن تقديم القربة على الطلب والتعليم لعباده ترك التشديد في الأمور والمسارعة إلى امتثال أوامر الله من غير تفتيش وتكثير سؤال وغير ذلك .

وقيل : إنما أمروا بذبح البقرة دون غيرها من البهائم لأنها أفضل قرابينهم ، ولعبادتهم العجل فأراد الله تعالى أن يهون معبودهم عندهم ، وكان ينبغي أن يقدم ذكر القتيل والضرب ببعض البقرة على الأمر بذبحها وأن يقال : وإذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها فقلنا اذبحوا بقرة واضربوه ببعضها ، ولكنه تعالى إنما قص قصص بني إسرائيل تعديداً لما وجد منهم من الجنايات وتقريعاً لهم عليها ، وهاتان القصتان وإن كانتا متصلتين فتستقل كل واحدة منهما بنوع من التقريع .

فالأولى لتقريعهم على الاستهزاء وترك المسارعة إلى الامتثال وما يتبع ذلك ، والثانية للتقريع على قتل النفس المحرمة وما تبعه من الآية العظيمة .

وإنما قدمت قصة الأمر بذبح البقرة على ذكر القتيل لأنه لو عمل على عكسه لكانت قصة واحدة ولذهب المراد في تثنية التقريع ، ولقد روعيت نكتة بعد ما استؤنفت الثانية استئناف قصة برأسها إن وصلت بالأولى بضمير البقرة لا باسمها الصريح في قوله " اضربوه ببعضها " ليعلم أنهما قصتان فيما يرجع إلى التقريع وقصة واحدة بالضمير الراجع إلى البقرة .

وقيل : هذه القصة تشير إلى أن من أراد إحياء قلبه بالمشاهدات فليمت نفسه بأنواع المجاهدات . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير النسفى حـ 1 صـ 56. 57 ﴾

مسألة

قال البغوى :

إذا وجد قتيل في موضع ولا يعرف قاتله فإن كان ثم (لوث) على إنسان – واللوث : أن يغلب على القلب صدق المدعي ، بأن اجتمع جماعة في بيت أو صحراء فتفرقوا عن قتيل يغلب على القلب أن القاتل فيهم ، أو وجد قتيل في محلة أو قرية كلهم أعداء للقتيل لا يخالطهم غيرهم ، فيغلب على القلب أنهم قتلوه – فادعى الولي على بعضهم ، يحلف المدعي خمسين يمينا على من يدعي عليه ، وإن كان الأولياء جماعة توزع الأيمان عليهم ، ثم بعد ما حلفوا أخذوا الدية من عاقلة المدعى عليه إن ادعوا قتل خطأ ، وإن ادعوا قتل عمد فمن ماله ، ولا قود على قول الأكثرين وذهب بعضهم إلى وجوب القود ، وهو قول عمر بن عبد العزيز وبه قال مالك وأحمد ، وإن لم يكن على المدعى عليه لوث فالقول قول المدعى عليه مع يمينه ثم هل يحلف يمينا واحدة أم خمسين يمينا ؟ فيه قولان : (أحدهما) يمينا واحدة كما في سائر الدعاوي (والثاني) يحلف خمسين يمينا تغليظا لأمر الدم ، وعند أبي حنيفة رضي الله عنه : لا حكم للوث [ولا يزيد بيمين المدعي] وقال : إذا وجد قتيل في

محلة يختار الإمام خمسين رجلا من صلحاء أهلها فيحلفهم أنهم ما قتلوه ولا عرفوا له قاتلا ثم يأخذ الدية من سكانها ، والدليل على أن البداية بيمين المدعي عند وجود اللوث :

(180/55)

[ما أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب أنا عبد العزيز بن أحمد الخلال أنا أبو العباس محمد بن يعقوب الأصم أنا الربيع أنا الشافعي أنا عبد الوهاب بن عبد المجيد الثقفي عن يحيى بن سعيد عن بشير بن يسار] عن سهل بن أبي حثمة أن عبد الله بن سهل ومحيصة بن مسعود خرجا إلى خيبر فتفرقا لحاجتهما فقتل عبد الله بن سهل فانطلق هو وعبد الرحمن أخو المقتول وحويصة بن مسعود إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكروا له قتل عبد الله بن سهل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " تحلفون خمسين يمينا وتستحقون دم صاحبكم أو قاتلكم" فقالوا يا رسول الله لم نشهد ولم نحضر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " فتبرئكم يهود بخمسين يمينا" فقالوا يا رسول الله كيف نقبل أيمان قوم كفار ؟ فعزم النبي صلى الله عليه وسلم عقله من عنده (1) [وفي لفظ آخر فزعم أن النبي صلى الله عليه وسلم عقله من عنده] قال بشير بن يسار : قال سهل لقد ركضتني فريضة من تلك الفرائض في مربد لنا ، وفي رواية : لقد ركضتني ناقة حمراء من تلك الفرائض في مربد لنا"

أخرجه مسلم عن محمد بن المثنى عن عبد الوهاب .

وجه الدليل من الخبر : أن النبي صلى الله عليه وسلم بدأ بأيمان المدعين لتقوي جانبهم باللوث ، وهو أن عبد الله بن سهل وجد قتيلا في خيبر ، وكانت العداوة ظاهرة بين الأنصار وأهل خيبر ، وكان يغلب على القلب أنهم قتلوه ، واليمين أبدا تكون حجة لمن يقوى جانبه وعند عدم اللوث يقوى جانب المدعى عليه من حيث أن الأصل براءة ذمته وكان القول قوله مع يمينه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير البغوى حـ 1 صـ 109. 110 ﴾

---

(1) رواه البخاري : في الجزية والموادعة – باب : الموادعة والمصالحة مع المشركين بالمال وغيره : 6 / 275 . ومسلم : في القسامة والمحاربين والقصاص والديات – باب القسامة برقم (1669) 3 / 1291 . والبغوى في شرح السنة : 10 / 211 وما بعدها دون زيادة فعزم النبي صلى الله عليه وسلم عقله من عنده .

(181/55)

ومن فوائد ابن عرفة فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ فَقُلْنَا اضربوه بِبَعْضِهَا . . . ﴾ .

قال ابن عرفة : لم (يتعنّتوا) في هذا ولو مكن الله إبليس منهم لقالوا (لموسى) : عيّن لنا ذلك البعض ما هو ؟ وانظر قضية عمر ابن عبد العزيز مع الأمير .

وأورد (ابن عرفة هنا سؤالا قائلا : لمّا أمروا بذبح بقرة مطلقة انتصبوا للسؤال : على أى بقرة هي ، والأمر دائر بين أن يكون هذا منهم تعنتا أو استرشادا فإذا تقرر هذا فلأي شيء لم يسألوا هنا ما هو البعض الذي يضربون به ميتهم فيحيِيَ ؟

وأجيب : بأن تفاوت أفراد الجنس والصنف ثابت بخلاف أجزاء الكلّ من حيث هو كل .

وأجيب أيضا بأنهم قادرون على أن يضربوا بكل بعض من أبعاض تلك البقرة حتى يوافقوا البعض المراد بخلاف الآخر فإنهم غير قادرين على ذبح جميع البقر كلها .

قلت : وهذا قريب من الأول .

قوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ يُحْيِي اللهُ الموتى . . . ﴾ .

أفرد الخطاب والمخاطبون جماعة : إما لقلة من يتأثر بهذه الآية (منهم) ، ثم جمعهم في قوله " وَيُرِيكُمْ " اعتبارا (بظاهر) الأمر ، وإما لأن المخاطب واحد بالنوع .

واستقرأ الفخر الرازي من الآية فوائد كثيرة : منها أن الزيادة في خطاب نسخ له .

ومنها أن النسخ قبل الفعل (جائز وإن لم يجز) قبل وقت الفعل وإمكانه لأدائه إلى (البدء) .

وردّ ابن عرفة الأول بأنها زيادة على النص .

والصحيح أنها ليست (بنصّ) خلافا لأبي حنيفة .

وقال الطيبي : إنه من باب (تقييد) المطلق ، أو تخصيص العام ، لأن البقرة مطلقة . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عرفة صـ 335.336 ﴾

ومن فوائد الإمام القرطبى فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ فَقُلْنَا اضربوه بِبَعْضِهَا ﴾ قيل : باللسان لأنه آلة الكلام .

وقيل : بعَجْب الذَّنَب ؛ إذ فيه يُرَكّب خَلْق الإنسان .

وقيل : بالفخذ .

وقيل : بعظم من عظامها ؛ والمقطوع به عضو من أعضائها ؛ فلما ضُرِب به حَيِيَ وأخبر بقاتله ثم عاد ميتاً كما كان .

مسألة : استدل مالك رحمه الله في رواية ابن وهب وابن القاسم على صحة القول بالقَسَامة بقول المقتول : دمي عند فلان ، أو فلانُ قتلني .

ومنعه الشافعي وجمهور العلماء ، قالوا : وهو الصحيح ؛ لأن قول المقتول : دمي عند فلان ، أو فلان قتلني ، خبر يحتمل الصدق والكذب .

ولا خلاف أن دم المدّعَى عليه معصوم ممنوع إباحته إلا بيقين ، ولا يقين مع الاحتمال ؛ فبطل اعتبار قول المقتول دمي عند فلان .

وأما قتيل بني إسرائيل فكانت معجزة وأخبر تعالى أنه يحييه ، وذلك يتضمّن الإخبارَ بقاتله خبراً جزماً لا يدخله احتمال ؛ فافترقا .

قال ابن العربيّ : المعجزة كانت في إحيائه ؛ فلما صار حيًّا كان كلامه كسائر كلام الناس كلهم في القبول والرد .

وهذا فَنٌّ دقيق من العلم لم يتفطّن له إلا مالك ، وليس في القرآن أنه إذا أخبر وجب صدقه ، فلعله أمرهم بالقسامة معه .

(182/55)

واستبعد ذلك البخاريّ والشافعيّ وجماعة من العلماء فقالوا : كيف يُقبل قوله في الدّم وهو لا يقبل قوله في درهم .

مسألة : اختلف العلماء في الحُكْم بالقَسامة ؛ فرُوِيَ عن سالم وأبي قِلاَبة وعمر بن عبد العزيز والحكم بن عيينة التَّوَقّف في الحُكم بها .

وإليه مال البخاري ؛ لأنه أتى بحديث القَسامة في غير موضعه .

وقال الجمهور : الحُكْم بالقسامة ثابت عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ، ثم اختلفوا في كيفيّة الحُكم بها ؛ فقالت طائفة : يبدأ فيها المدّعون بالأيمان فإن حَلفوا استحقوا ، وإن نَكَلُوا

حلَف المدّعَى عليهم خمسين يميناً وبَرَأُوا .

هذا قول أهل المدينة واللَّيث والشافعي وأحمد وأبي ثور .

وهو مقتضى حديث حُوَيِّصَة ومُحَيِّصة ، خرّجه الأئمة مالك وغيره .

وذهبت طائفة إلى أنه يبدأ بالأيمان المدّعَى عليهم فيحلفون ويبرأون .

رُوِيَ هذا عن عمر بن الخطاب والشَّعْبِي والنَّخَعِي ، وبه قال الثَّوْرِي والكوفيّون ؛ واحتجوا بحديث سعيد بن عبيد عن بُشير بن يسار ؛ وفيه : فبدأ بالأيمان المدّعَى عليهم وهم اليهود .

وبما رواه أبو داود عن الزُّهْرِي " عن أبي سَلَمة بن عبد الرحمن عن رجال من الأنصار أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال لليهود وبدأ بهم : " أيحلف منكم خمسون رجلاً" .

فأبوا ؛ فقال للأنصار : " استحقوا" فقالوا : نحلف على الغيب يا رسول الله ! فجعلها رسول الله صلى الله عليه وسلم دِيَةً على يهود ؛ لأنه وُجد بين أظهرهم .

وبقوله عليه السلام : " ولكن اليمين على المدّعَى عليه" " فعُيِّنُوا .

قالوا : وهذا هو الأصل المقطوع به في الدعاوى الذي نَبّه الشرع على حكمته بقوله عليه السلام :

" لو يُعْطَى الناسُ بدعواهم لادّعى ناس دماء رجال وأموالهم ولكن اليمين على المدّعى عليه " رَدّ عليهم أهل المقالة الأولى فقالوا : حديث سعيد بن عُبيد في تبدية اليهود وَهَم عند أهل الحديث ، وقد أخرجه النسائي وقال : ولم يتابع سعيد في هذه الرواية فيما أعلم ، وقد أسند حديث بُشير عن سهل أن النبيّ صلى الله عليه وسلم بدأ بالمدّعين يحيى بنُ سعيد وابن عُيينة وحمّاد بن زيد وعبدُ الوهاب الثّقَفيّ وعيسى بنُ حماد وبشرُ بن المفضَّل ؛ فهؤلاء سبعة .

وإن كان أرسله مالك فقد وصله جماعة الحفاظ ، وهو أصح من حديث سعيد بن عُبيد .

قال أبو محمد الأصيلي : فلا يجوز أن يعترض بخبر واحد على خبر جماعة ، مع أن سعيد بن عُبيد قال في حديثه : فوَادَه رسول الله صلى الله عليه وسلم مائةً من إبل الصدقة ؛ والصدقةُ لا تعطَى في الدّيات ولا يُصالح بها عن غير أهلها ، وحديث أبي داود مرسل فلا تعارض به الأحاديث الصحاح المتصلة ، وأجابوا عن التمسك بالأصل بأن هذا الحكم أصل بنفسه لحُرْمة الدماء .

قال لابن المنذر .

ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل البيّنة على المدّعِي واليمينَ على المدّعَى عليه ، والحُكْم بظاهر ذلك يجب ، إلا أن يخصّ الله في كتابه أو على لسان نبيّه صلى الله

عليه وسلم حكماً في شيء من الأشياء فيُستثنى من جملة هذا الخبر.

فما دلّ عليه الكتاب إلزام القاذف حدّ المقذوف إذا لم يكن معه أربعة شهداء يشهدون له على صدق ما رمى به المقذوف.

وخصّ مَن رمى زوجته بأن أسقط عنه الحدّ إذا شهد أربع شهادات.

ومما خصّته السُّنَّة حكم النبيّ صلى الله عليه وسلم بالقَسَامة.

وقد روى ابن جُرَيج عن عطاء عن أبي هريرة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: "البيّنةُ على مَن ادعى واليمينُ على مَن أنكر إلاّ في القَسَامة" خرّجه الدّارَقُطنِيّ.

وقد احتج مالك لهذه المسألة في مُوَطَّئه بما فيه كفاية؛ فتأمّله هناك.

(184/55)

مسألة: واختلفوا أيضاً في وجوب القَوَد بالقسامة؛ فأوجبت طائفة القَوَد بها؛ وهو قول مالك واللّيث وأحمد وأبي ثَوْر؛ "لقوله عليه السلام لحُوَيِّصة ومُحَيِّصة وعبد الرحمن: "أتحلفون وتستحقون دمَ صاحبِكم" " وروى أبو داود عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قتل رجلاً بالقَسَامة من بني نضر بن مالك.

قال الدّارَقُطْنِي: نسخة عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه صحيحة؛ وكذلك أبو عمر

بن عبد البر يصحّح حديث عمرو بن شعيب ويحتج به .

وقال البخاري : رأيت عليّ بن المدِيني وأحمد بن حنبل والحُمَيْدِي وإسحاق بن رَاهْوَيْه يحتجّون به ؛ قاله الدارقطني في السنن .

وقالت طائفة : لا قَوَد بالقسامة ، وإنما توجب الدّية .

رُوي هذا عن عمر وابن عباس ؛ وهو قول النَّخَعي والحسن ، وإليه ذهب الثَّوْري والكوفيون والشافعي وإسحاق ، واحتجوا بما رواه مالك عن ابن أبي ليلى بن عبد اللَّه عن سهل بن أبي حَثْمة " عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قوله للأنصار : " إما أن يَدُوا صاحبَكم وإما أن يؤذنوا بحرب " " قالوا : وهذا يدل على الدّية لا على القَوَد ؛ قالوا : ومعنى قوله عليه السلام : " وتستحقّون دَمَ صاحبِكم " دية دمِ قتيلِكم ؛ لأن اليهود ليسوا بأصحاب لهم ؛ ومن استحق دية صاحبه فقد استحق دمه ؛ لأن الدّية قد تؤخذ في العمد فيكون ذلك استحقاقا للدم .

مسألة : الموجب للقسامة اللَّوْثُ ولا بُدّ منه .

واللّوْثُ : أمارة تغلب على الظن صدق مدّعي القتل ؛ كشهادة العدل الواحد على رؤية القتل ، أو يرى المقتول يَتَشَحّط في دمه ، والمتَّهم نحوه أو قُرْبه عليه آثار القتل .

وقد اختلف في اللّوث والقول به ؛ فقال مالك : هو قول المقتول دمي عند فلان .

والشاهد العدل لوث .

كذا في رواية ابن القاسم عنه .

وروى أشهب عن مالك أنه يُقسم مع الشاهد غير العدل ومع المرأة .

وروى ابن وهب أن شهادة النساء لَوث .

(185/55)

وذكر محمد عن ابن القاسم أن شهادة المرأتين لَوث دون شهادة المرأة الواحدة .

قال القاضي أبو بكر بن العربي : اختلف في اللّوث اختلافا كثيراً ؛ مشهور المذهب أنه الشاهد العدل .

وقال محمد : هو أحبّ إليّ .

قال : وأخذ به ابن القاسم وابن عبد الحكم .

ورُوِي عن عبد الملك بن مروان : أن المجروح أو المضروب إذا قال دمي عند فلان ومات كانت القَسَامة .

وبه قال مالك واللّيث بن سعد .

واحتج مالك بقتيل بني إسرائيل أنه قال : قتلني فلان .

وقال الشافعيّ : اللَّوْث الشاهد العدل ، أو يأتي ببيّنة وإن لم يكونوا عدولاً .

وأوْجب الثوريّ والكوفيون القسامة بوجود القتيل فقط ، واستغنوا عن مراعاة قول المقتول وعن الشاهد ، قالوا : إذا وُجد قتيل في مَحلّة قومٍ وبه أثرٌ حلف أهل ذلك الموضع أنهم لم يقتلوه ويكون عَقْلُه عليهم ؛ وإذا لم يكن به أثر لم يكن على العاقلة شيء إلا أن تقوم البيّنة على واحد .

وقال سفيان : وهذا مما أُجمع عليه عندنا ؛ وهو قول ضعيف خالفوا فيه أهل العلم ، ولا سلف لهم فيه ، وهو مخالف للقرآن والسُّنة ؛ ولأن فيه إلزامَ العاقلة مالاً بغير بيّنة ثبتت عليهم ولا إقرارٍ منهم .

وذهب مالك والشافعيّ إلى أن القتيل إذا وجُد في مَحلّة قومٍ أنه هَدَر ، لا يؤخذ به أقرب الناس داراً ؛ لأن القتيل قد يُقتل ثم يُلقى على باب قوم ليلطخوا به ؛ فلا يؤاخذ بمثل ذلك حتى تكون الأسباب التي شرطوها في وجوب القسامة .

وقد قال عمر بن عبد العزيز : هذا مما يؤخر فيه القضاء حتى يقضي الله فيه يوم القيامة .

مسألة : قال القاسم بن مسعدة قلت للنّسائي : لا يقول مالك بالقسامة إلا باللَّوْث ، فلم أوْرَد حديث القسامة ولا لَوث فيه ؟ قال النسائي : أنزل مالك العداوة التي كانت بينهم وبين اليهود بمنزلة اللوث ، وأنزل اللّوث أو قول الميت بمنزلة العداوة .

قال ابن أبي زيد : وأصل هذا في قصة بني إسرائيل حين أحيا الله الذي ضُرب ببعض البقرة فقال : قتلني فلان ؛ وبأن العداوة لَوْث .

قال الشافعي : ولا نرى قول المقتول لوثاً ؛ كما تقدّم .

قال الشافعي : إذا كان بين قوم وقوم عداوة ظاهرة كالعداوة التي كانت بين الأنصار واليهود ، ووجد قتيل في أحد الفريقين ولا يخالطهم غيرهم وَجَبت القسامة فيه .

مسألة : واختلفوا في القتيل يوجد في المحلة التي أكراها أربابها ؛ فقال أصحاب الرأي : هو على أهل الخِطّة وليس على السكان شيء ، فإن باعوا دُورهم ثم وُجد قتيل فالدّيَةُ على المشتري وليس على السكان شيء ، وإن كان أرباب الدُّور غُيَّباً وقد أكروا دُورهم فالقسامة والدية على أرباب الدور الغُيَّب وليس على السكان الذي وُجد القتيل بين أظهرهم شيء .

ثم رجع يعقوب من بينهم عن هذا القول فقال : القسامة والدّية على السكان في الدُّور .

وحكى هذا القول عن ابن أبي ليلى ، واحتج بأن أهل خَيْبَر كانوا عُمَّالاً سُكَّاناً يعملون فوُجِد القتيل فيهم .

قال الثوري ونحن نقول : هو على أصحاب الأصل ، يعني أهل الدور .

وقال أحمد : القول قول ابن أبي ليلى في القسامة لا في الدية .

وقال الشافعي : وذلك كله سواء ، ولا عَقْل ولا قَوَد إلا ببيّنة تقوم ، أو ما يوجب القسامة فيُقسم الأولياء .

قال ابن المنذر : وهذا أصح .

مسألة : ولا يحلف في القسامة أقلّ من خمسين يميناً ؛ " لقوله عليه السلام في حديث حُوَيصة ومُحَيّصة : "يُقسم خمسين منكم على رجل منهم" " فإن كان المستحقّون خمسين حلف كل واحد منهم يميناً واحدة ، فإن كانوا أقل من ذلك أو نَكَل منهم من لا يجوز عفوه رُدّت الأيمان عليهم بحسب عددهم .

ولا يحلف في العمد أقل من اثنين من الرجال ، لا يحلف فيه الواحد من الرجال ولا النساء ، يحلف الأولياء ومن يستعين بهم الأولياء من العَصَبة خمسين يميناً .

هذا مذهب مالك واللّيث والثَّوْري والأوزاعيّ وأحمد وداود .

(187/55)

وروى مُطَرِّف عن مالك أنه لا يحلف مع المدّعَى عليه أحدٌ ويحلف هم أنفُسهم كما لو كانوا واحداً فأكثر خمسين يميناً يبرئون بها أنفسهم ؛ وهو قول الشافعي .

قال الشافعي : لا يُقسم إلا وارث ، كان القتل عمداً أو خطأ .

ولا يحلف على مال ويستحقه إلا من له الملك لنفسه أو من جعل الله له الملك من الورثة ؛ والورثة يُقسمون على قدر مواريثهم .

وبه قال أبو ثَوْر واختاره ابن المنذر وهو الصحيح ؛ لأن من لم يدّع عليه لم يكن له سبب يتوجّه عليه فيه يمين .

ثم مقصود هذه الأيمان البراءة من الدعوى ومن لم يدّع عليه برئ .

وقال مالك في الخطأ : يحلف فيها الواحد من الرجال والنساء ، فمهما كملت خمسين يميناً من واحد أو أكثر استحق الحالف ميراثه ، ومَن نَكَل لم يستحق شيئاً ؛ فإن جاء من غاب حلف من الأيمان ما كان يجب عليه لو حضر بحسب ميراثه .

هذا قول مالك المشهور عنه ؛ وقد رُوِيَ عنه أنه لا يرى في الخطأ قسامة .

وتتميم مسائل القسامة وفروعها وأحكامها مذكور في كتب الفقه والخلاف ، وفيما ذكرناه كفاية ، والله الموفق .

مسألة : في قصة البقرة هذه دليل على أن شَرْع مَن قبلنا شَرْعٌ لنا ؛ وقال به طوائف من المتكلمين وقومٌ من الفقهاء ، واختاره الكرخي ونصّ عليه ابن بُكير القاضي من علمائنا ، وقال القاضي أبو محمد عبد الوهاب : هو الذي تقتضيه أصول مالك ومَنازعه في كتبه ، وإليه مال الشافعي ، وقد قال الله : ﴿ فَبِهُدَاهُمُ اقتده ﴾ [الأنعام : 90] على ما يأتي إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ يُحْيِي اللهُ الموتى ﴾ أي كما أحْيَا هذا بعد موته كذلك يحيي الله كل من مات .

فالكاف في موضع نصب ، لأنه نعت لمصدر محذوف .

﴿ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ ﴾ أي علاماته وقدرته .

﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ كي تعقلوا .

وقد تقدّم .

أي تمتنعون من عصيانه .

وعقلتُ نفسي عن كذا أي منعتها منه .

والمعاقل : الحصون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 1 صـ 457.462 ﴾

(188/55)

من فوائد الإمام الجصاص فى الآيات السابقة

قال رحمه الله :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ إنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ﴾ إلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاَللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ﴾ إلَى آخَرِ

الْآيَةِ ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ : فِي هَذِهِ الْآيَاتِ وَمَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ مِنْ قِصَّةِ الْمَقْتُولِ وَذَبْحِ الْبَقَرَةِ ضُرُوبٌ مِنْ الْأَحْكَامِ وَالدَّلَائِلِ عَلَى الْمَعَانِي الشَّرِيفَةِ : فَأَوَّلُهَا : أَنَّ قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا ﴾ وَإِنْ كَانَ مُؤَخَّرًا فِي التِّلَاوَةِ فَهُوَ مُقَدَّمٌ فِي الْمَعْنَى عَلَى جَمِيعِ مَا ابْتَدَأَ بِهِ مِنْ شَأْنِ الْبَقَرَةِ ؛ لِأَنَّ الْأَمْرَ بِذَبْحِ الْبَقَرَةِ إنَّمَا كَانَ سَبَبُهُ قَتْلُ النَّفْسِ وَقَدْ قِيلَ فِيهِ وَجْهَانِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّ ذِكْرَ الْقَتْلِ وَإِنْ كَانَ مُؤَخَّرًا فِي التِّلَاوَةِ فَهُوَ مُقَدَّمٌ فِي النُّزُولِ ، وَالْآخَرُ : أَنَّ تَرْتِيبَ نُزُولِهَا عَلَى حَسَبِ تَرْتِيبِ تِلَاوَتِهَا وَنِظَامِهَا وَإِنْ كَانَ مُقَدَّمًا فِي الْمَعْنَى لِأَنَّ الْوَاوَ لَا تُوجِبُ التَّرْتِيبَ ، كَقَوْلِ الْقَائِلِ : " اُذْكُرْ ؛ إذْ أَعْطَيْت أَلْفَ دِرْهَمٍ زَيْدًا ؛ إذْ بَنَى دَارِي " وَالْبِنَاءُ مُقَدَّمٌ عَلَى الْعَطِيَّةِ وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ ذِكْرَ الْبَقَرَةِ مُقَدَّمٌ فِي النُّزُولِ قَوْله تَعَالَى : ﴿ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ﴾ .

(189/55)

فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الْبَقَرَةَ قَدْ ذُكِرَتْ قَبْلَ ذَلِكَ وَلِذَلِكَ أُضْمِرَتْ وَنَظِيرُ ذَلِكَ قَوْله تَعَالَى فِي قِصَّةِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعْدَ ذِكْرِ الطُّوفَانِ وَانْقِضَائِهِ : ﴿ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إلَّا قَلِيلٌ ﴾ .

وَمَعْلُومٌ أَنَّ ذَلِكَ كَانَ قَبْلَ هَلَاكِهِمْ ؛ لِأَنَّ تَقْدِيمَ الْكَلَامِ وَتَأْخِيرَهُ إذَا كَانَ بَعْضُهُ مَعْطُوفًا عَلَى

بَعْض بِالْوَاوِ غَيْرُ مُوجِب تَرْتِيبَ الْمَعْنَى عَلَى تَرْتِيب اللَّفْظِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً ﴾ قَدْ دَلَّ عَلَى جَوَاز وُرُودِ الْأَمْرِ بِذَبْحِ الْبَقَرَةِ بَقَرَةً مَجْهُولَةً غَيْرَ مَعْرُوفَةٍ وَلَا مَوْصُوفَةٍ وَيَكُونُ الْمَأْمُورُ مُخَيَّرًا فِي ذَبْحِ أَدْنَى مَا يَقَعُ الِاسْمُ عَلَيْهِ وَقَدْ تَنَازَعَ مَعْنَاهُ الْفَرِيقَانِ مِنْ نُفَاةِ الْعُمُومِ وَمَنْ مُثْبِتِيهِ ، وَاحْتَجَّ بِهِ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ الْفَرِيقَيْنِ لِمَذْهَبِهِ ، فَأَمَّا الْقَائِلُونَ بِالْعُمُومِ فَاحْتَجُّوا بِهِ مِنْ جِهَةِ وُرُودِهِ مُطْلَقًا فَكَانَ ذَلِكَ أَمْرًا لَازِمًا فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ آحَادِ مَا تَنَاوَلَهُ الْعُمُومُ ، وَأَنَّهُمْ لَمَّا تَعَنَّتُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْمُرَاجَعَةِ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى شَدَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ التَّكْلِيفَ وَذَمَّهُمْ عَلَى مُرَاجَعَتِهِ بِقَوْلِهِ : ﴿ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾ .

(190/55)

وَرَوَى الْحَسَنُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْ اعْتَرَضُوا أَدْنَى بَقَرَةٍ فَذَبَحُوهَا لَأَجْزَتْ عَنْهُمْ وَلَكِنَّهُمْ شَدَّدُوا فَشَدَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ وَرُوِيَ نَحْوُ ذَلِكَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَعُبَيْدَةَ وَأَبِي الْعَالِيَةِ وَالْحَسَنِ وَمُجَاهِدٍ وَاحْتَجَّ مَنْ أَبَى الْقَوْلَ بِالْعُمُومِ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يُعَنِّفْهُمْ عَلَى الْمُرَاجَعَةِ بَدْءًا ، وَلَوْ كَانَ قَدْ لَزِمَهُمْ تَنْفِيذُ ذَلِكَ عَلَى مَا ادَّعَيْتُمُوهُ مِنْ اقْتِضَاءِ عُمُومِ اللَّفْظِ لَوَرَدَ النَّكِيرُ فِي بَدْءِ الْمُرَاجَعَةِ ، وَهَذَا لَيْسَ بِشَيْءٍ ؛ لِأَنَّ

التَّكِيرَ ظَاهِرٌ عَلَيْهِمْ فِي اللَّفْظِ مِنْ وَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا : تَغْلِيظُ الْمِحْنَةِ عَلَيْهِمْ وَهَذَا ضَرْبٌ مِنْ التَّكِيرِ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَبِظُلْمٍ مِنْ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾ .

وَالثَّانِي : قَوْلُهُ : ﴿ وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾ وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ كَانُوا تَارِكِينَ لِلْأَمْرِ بَدْءًا وَأَنَّهُ قَدْ كَانَ عَلَيْهِمْ الْمُسَارَعَةُ إلَى فِعْلِهِ فَقَدْ حَصَلَتْ الْآيَةُ عَلَى مَعَانٍ : أَحَدِهَا :

وُجُوبُ اعْتِبَارِ عُمُومِ اللَّفْظِ فِيمَا يُمْكِنُ اسْتِعْمَالُهُ وَالثَّانِي : أَنَّ الْأَمْرَ عَلَى الْفَوْرِ وَأَنَّ عَلَى الْمَأْمُورِ الْمُسَارَعَةَ إلَى فِعْلِهِ عَلَى حَسَبِ الْإِمْكَانِ حَتَّى تَقُومَ الدَّلَالَةُ عَلَى جَوَازِ التَّأْخِيرِ وَالثَّالِثُ : جَوَازُ وُرُودِ الْأَمْرِ بِشَيْءٍ مَجْهُولِ الصِّفَةِ مَعَ تَخْيِيرِ الْمَأْمُورِ فِي فِعْلِ مَا يَقَعُ الِاسْمُ عَلَيْهِ مِنْهُ .

(191/55)

وَالرَّابِعُ : وُجُوبُ الْأَمْرِ وَأَنَّهُ لَا يُصَارُ إلَى النَّدْبِ إلَّا بِدَلَالَةٍ ؛ إذْ لَمْ يَلْحَقْهُمْ الذَّمُّ إلَّا بِتَرْكِ الْأَمْرِ الْمُطْلَقِ مِنْ غَيْرِ ذِكْرِ وَعِيدٍ وَالْخَامِس : جَوَازُ النَّسْخِ قَبْلَ وُقُوعِ الْفِعْلِ بَعْدَ التَّمَكُّنِ مِنْهُ ؛ ذَلِكَ أَنَّ زِيَادَةَ هَذِهِ الصِّفَاتِ فِي الْبَقَرَةِ كُلٌّ مِنْهَا قَدْ نَسَخَ مَا قَبْلَهَا ؛ لِأَنَّ قَوْله تَعَالَى : ﴿ إنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً ﴾ اقْتَضَى ذَبْحَ بَقَرَةٍ أَيَّهَا كَانَتْ وَعَلَى أَيِّ وَجْهٍ شَاءُوا ، وَقَدْ كَانُوا

مُتَمَكِّنِينَ مِنْ ذَلِكَ .

فَلَمَّا قَالُوا : ﴿ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ ﴾ فَقَالَ : ﴿ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴾ نَسَخَ التَّخْيِيرَ الَّذِي أَوْجَبَهُ الْأَمْرُ الْأَوَّلُ فِي ذَبْحِ الْبَقَرَةِ الْمَوْصُوفَةِ بِهَذِهِ الصِّفَةِ وَذَبْحِ غَيْرِهَا ، وَقَصَرُوا عَلَى مَا كَانَ مِنْهَا بِهَذِهِ الصِّفَةِ وَقِيلَ لَهُمْ ﴿ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴾ فَأَبَانَ أَنَّهُ كَانَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَذْبَحُوا مِنْ غَيْرِ تَأْخِيرٍ عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ أَيَّ لَوْنٍ كَانَتْ وَعَلَى أَيِّ حَالٍ كَانَتْ مِنْ ذُلُولٍ أَوْ غَيْرِهَا ، فَلَمَّا قَالُوا : ﴿ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا ﴾ نَسَخَ التَّخْيِيرَ الَّذِي كَانَ فِي ذَبْحِ أَيِّ لَوْنٍ شَاءُوا مِنْهَا وَبَقِيَ التَّخْيِيرُ فِي الصِّفَةِ الْأُخْرَى مِنْ أَمْرِهَا ، فَلَمَّا رَاجَعُوا نُسِخَ ذَلِكَ أَيْضًا وَأُمِرُوا بِذَبْحِهَا عَلَى الصِّفَةِ الَّتِي ذَكَرَ وَاسْتَقَرَّ الْفَرْضُ عَلَيْهَا بَعْدَ تَغْلِيظِ الْمِحْنَةِ وَتَشْدِيدِ التَّكْلِيفِ وَهَذَا الَّذِي ذَكَرْنَا فِي أَمْرِ النَّسْخِ

(192/55)

دَلَّ أَنَّ الزِّيَادَةَ فِي النَّصِّ بَعْدَ اسْتِقْرَارِ حُكْمِهِ يُوجِبُ نَسْخَهُ ؛ لِأَنَّ جَمِيعَ مَا ذَكَرْنَا مِنْ الْأَوَامِرِ الْوَارِدَةِ بَعْدَ مُرَاجَعَةِ الْقَوْمِ إنَّمَا كَانَ زِيَادَةً فِي نَصٍّ كَانَ قَدْ اسْتَقَرَّ حُكْمُهُ فَأَوْجَبَ نَسْخَهُ .

وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَحْتَجُّ بِهَذِهِ الْقِصَّةِ فِي جَوَازِ نَسْخِ الْفَرْضِ قَبْلَ مَجِيءِ وَقْتِهِ ؛ لِأَنَّهُ قَدْ كَانَ مَعْلُومًا أَنَّ الْفَرْضَ عَلَيْهِمْ بَدْءًا قَدْ كَانَ بَقَرَةً مُعَيَّنَةً فَنُسِخَ ذَلِكَ عَنْهُمْ قَبْلَ مَجِيءِ وَقْتِ الْفِعْلِ

وَهَذَا غَلَطٌ ؛ لِأَنَّ كُلَّ فَرْضٍ مِنْ ذَلِكَ قَدْ كَانَ وَقْتُ فِعْلِهِ عَقِيبَ وُرُودِ الْأَمْرِ فِي أَوَّلِ أَحْوَالِ الْإِمْكَانِ وَاسْتَقَرَّ الْفَرْضُ عَلَيْهِمْ وَثَبَتَ ثُمَّ نُسِخَ قَبْلَ الْفِعْلِ ، فَلَا دَلَالَةَ فِيهِ إذَا عَلَى جَوَازِ النَّسْخِ قَبْلَ مَجِيءِ وَقْتِ الْفِعْلِ ، وَقَدْ بَيَّنَّا ذَلِكَ فِي أُصُولِ الْفِقْهِ .

وَالسَّادِسُ : دَلَالَةُ قَوْلِهِ : ﴿ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ ﴾ عَلَى جَوَازِ الِاجْتِهَادِ وَاسْتِعْمَالِ غَالِبِ الظَّنِّ فِي الْأَحْكَامِ ؛ إذْ لَا يُعْلَمُ أَنَّهَا بَيْنَ الْبِكْرِ وَالْفَارِضِ إلَّا مِنْ طَرِيقِ الِاجْتِهَادِ .

وَالسَّابِعُ اسْتِعْمَالُ الظَّاهِرِ مَعَ تَجْوِيزِ أَنْ يَكُونَ فِي الْبَاطِنِ خِلَافُهُ بِقَوْلِهِ : ﴿ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا ﴾ يَعْنِي وَاَللَّهُ أَعْلَمُ مُسَلَّمَةٌ مِنْ الْعُيُوبِ بَرِيئَةٌ مِنْهَا ، وَذَلِكَ لَا نَعْلَمُهُ مِنْ طَرِيقِ الْحَقِيقَةِ وَإِنَّمَا نَعْلَمُهُ مِنْ طَرِيقِ الظَّاهِرِ مَعَ تَجْوِيزِ أَنْ يَكُونَ بِهَا عَيْبٌ بَاطِنٌ .

(193/55)

وَالثَّامِنُ : مَا حَكَى اللَّهُ عَنْهُمْ فِي الْمُرَاجَعَةِ الْأَخِيرَةِ : ﴿ وَإِنَّا إنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴾ لَمَّا قَرَنُوا الْخَبَرَ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ وُفِّقُوا لِتَرْكِ الْمُرَاجَعَةِ بَعْدَهَا وَلِوُجُودِ مَا أُمِرُوا بِهِ ، وَقَدْ رُوِيَ أَنَّهُمْ لَوْ لَمْ يَقُولُوا " إنْ شَاءَ اللَّهُ " لَمَا اهْتَدَوْا لَهَا أَبَدًا وَلَدَامَ الشَّرُّ بَيْنَهُمْ ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾ فَأَعْلَمَنَا اللَّهُ ذَلِكَ لِنَطْلُبَ نَجَاحَ الْأُمُورِ عِنْدَ الْإِخْبَارِ عَنْهَا فِي الْمُسْتَقْبَلِ بِذِكْرِ

الِاسْتِثْنَاءِ الَّذِي هُوَ مَشِيئَةُ اللَّهِ ، وَقَدْ نَصَّ اللَّهُ تَعَالَى لَنَا فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ عَلَى الْأَمْرِ بِهِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ فَفِيهِ اسْتِعَانَةٌ بِاللَّهِ وَتَفْوِيضُ الْأَمْرِ إِلَيْهِ وَالِاعْتِرَافُ بِقُدْرَتِهِ وَنَفَاذِ مَشِيئَتِهِ وَأَنَّهُ مَالِكُهُ وَالْمُدَبِّرُ لَهُ .

وَالتَّاسِعُ : دَلَالَةُ قَوْلِهِ : ﴿ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ عَلَى أَنَّ الْمُسْتَهْزِئَ يَسْتَحِقُّ سِمَةَ الْجَهْلِ ، لِانْتِفَاءِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَكُونَ مِنْ أَهْلِ الْجَهْلِ بِنَفْيِهِ الِاسْتِهْزَاءَ عَنْ نَفْسِهِ .

(194/55)

وَيَدُلُّ أَيْضًا عَلَى أَنَّ الِاسْتِهْزَاءَ بِأَمْرِ الدِّينِ مِنْ كَبَائِرِ الذُّنُوبِ وَعَظَائِمِهَا ، لَوْلَا ذَلِكَ لَمْ يَبْلُغْ مَأْثَمُهُ النِّسْبَةَ إِلَى الْجَهْلِ وَذَكَرَ مُحَمَّدُ بْنُ مِسْعَرٍ أَنَّهُ تَقَدَّمَ إِلَى عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَسَنِ الْعَنْبَرِيِّ الْقَاضِي قَالَ : وَعَلَيَّ جُبَّةُ صُوفٍ وَكَانَ عُبَيْدُ اللَّهِ كَثِيرَ الْمَزْحِ ، قَالَ : فَقَالَ لَهُ : أَصُوفُ نَعْجَةٍ جُبَّتُكَ أَمْ صُوفُ كَبْشٍ ؟ فَقُلْتُ لَهُ : لَا تَجْهَلْ أَبْقَاكَ اللَّهُ قَالَ : وَأَنَّى وَجَدْتَ الْمِزَاحَ جَهْلًا ؟ فَتَلَوْتُ عَلَيْهِ : ﴿ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ قَالَ : فَأَعْرَضَ وَاشْتَغَلَ بِكَلَامٍ آخَرَ وَفِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَكُنْ مُتَعَبِّدًا بِقَتْلِ مَنْ ظَهَرَ مِنْهُ الْكُفْرُ ، وَإِنَّمَا كَانَ مَأْمُورًا بِالنَّظَرِ بِالْقَوْلِ ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُمْ لِنَبِيِّ اللَّهِ ﴿ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ﴾

كُفْرٌ وَهُوَ كَقَوْلِهِمْ لِمُوسَى ﴿ اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾ وَيَدُلُّ أَيْضًا عَلَى أَنَّ كُفْرَهُمْ هَذَا لَمْ يُوجِبْ فُرْقَةً بَيْنَ نِسَائِهِمْ وَبَيْنَهُمْ ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَأْمُرْ بِفِرَاقِهِنَّ وَلَا تَقْرِيرِ نِكَاحٍ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُنَّ .

وَقَوْله تَعَالَى : ﴿ وَاَللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَا يَسَّرَهُ الْعَبْدُ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ وَدَامَ ذَلِكَ مِنْهُ أَنَّ اللَّهَ سَيُظْهِرُهُ ، وَهُوَ كَمَا رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿ إنَّ عَبْدًا لَوْ أَطَاعَ اللَّهَ مِنْ وَرَاءِ سَبْعِينَ حِجَابًا لَأَظْهَرَ اللَّهُ لَهُ ذَلِكَ عَلَى أَلْسِنَةِ النَّاسِ وَكَذَلِكَ الْمَعْصِيَةُ ﴾ .

(195/55)

وَرُوِيَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَوْحَى إلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ : قُلْ لِبَنِي إسْرَائِيلَ يُخْفُوا لِي أَعْمَالَهُمْ وَعَلَيَّ أَنْ أُظْهِرَهَا وَقَوْله تَعَالَى : ﴿ وَاَللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ عَامٌّ وَالْمُرَادُ خَاصٌّ ؛ لِأَنَّ كُلَّهُمْ مَا عَلِمُوا بِالْقَاتِلِ بِعَيْنِهِ وَلِذَلِكَ اخْتَلَفُوا وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ : ﴿ وَاَللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ عَامًّا فِي سَائِرِ النَّاسِ لِأَنَّهُ كَلَامٌ مُسْتَقِلٌّ بِنَفْسِهِ وَهُوَ عَامٌّ فِيهِمْ وَفِي غَيْرِهِمْ .

وَفِي هَذِهِ الْقِصَّةِ سِوَى مَا ذَكَرْنَا حِرْمَانُ مِيرَاثِ الْمَقْتُولِ ، رَوَى أَبُو أَيُّوبَ عَنْ ابْنِ سِيرِينَ عَنْ عُبَيْدَةَ السَّلْمَانِيِّ : أَنَّ رَجُلًا مِنْ بَنِي إسْرَائِيلَ كَانَ لَهُ ذُو قَرَابَةٍ وَهُوَ وَارِثُهُ ، فَقَتَلَهُ لِيَرِثَهُ ، ثُمَّ ذَهَبَ فَأَلْقَاهُ عَلَى بَابِ قَوْمٍ آخَرِينَ وَذَكَرَ قِصَّةَ الْبَقَرَةِ وَذَكَرَ بَعْدَهَا : فَلَمْ يُورَّثْ بَعْدَهَا قَاتِلٌ وَقَدْ اُخْتُلِفَ فِي مِيرَاثِ الْقَاتِلِ .

وَرُوِيَ عَنْ عُمَرَ وَعَلِيٍّ وَابْنِ عَبَّاسٍ وَسَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ أَنَّهُ لَا مِيرَاثَ لَهُ سَوَاءٌ كَانَ الْقَتْلُ عَمْدًا أَوْ خَطَأً ، وَأَنَّهُ لَا يَرِثُ مِنْ دِيَتِهِ وَلَا مِنْ سَائِرِ مَالِهِ وَهُوَ قَوْلُ أَبِي حَنِيفَةَ وَالثَّوْرِيِّ وَأَبِي يُوسُفَ وَمُحَمَّدٍ وَزُفَرَ إلَّا أَنَّ أَصْحَابَنَا قَالُوا : إنْ كَانَ الْقَاتِلُ صَبِيًّا أَوْ مَجْنُونًا وَرِثَ وَقَالَ عُثْمَانُ الْبَتِّيُّ : قَاتِلُ الْخَطَإِ يَرِثُ دُونَ قَاتِلِ الْعَمْدِ وَقَالَ ابْنُ شُبْرُمَةَ : لَا يَرِثُ قَاتِلُ الْخَطَإِ وَقَالَ ابْنُ وَهْبٍ عَنْ مَالِكٍ : لَا يَرِثُ الْقَاتِلُ عَمْدًا مِنْ دِيَةِ مَنْ قَتَلَ شَيْئًا وَلَا مِنْ مَالِهِ ، وَإِنْ قَتَلَهُ خَطَأً وَرِثَ مِنْ مَالِهِ وَلَمْ يَرِثْ مِنْ دِيَتِهِ .

وَرُوِيَ مِثْلُهُ عَنْ الْحَسَنِ وَمُجَاهِدٍ وَالزُّهْرِيِّ ، وَهُوَ قَوْلُ الْأَوْزَاعِيِّ وَقَالَ الْمُزَنِيّ عَنْ الشَّافِعِيِّ : إذَا قَتَلَ الْبَاغِي الْعَادِلَ أَوْ الْعَادِلُ الْبَاغِيَ لَا يَتَوَارَثَانِ لِأَنَّهُمَا قَاتِلَانِ قَالَ أَبُو بَكْرٍ : لَمْ يَخْتَلِفْ الْفُقَهَاءُ فِي أَنَّ قَاتِلَ الْعَمْدِ لَا يَرِثُ الْمَقْتُولَ إذَا كَانَ بَالِغًا عَاقِلًا بِغَيْرِ حَقٍّ ، وَاخْتُلِفَ فِي قَاتِلِ الْخَطَإِ عَلَى الْوُجُوهِ الَّتِي ذَكَرْنَا وَقَدْ حَدَّثَنَا عَبْدُ الْبَاقِي قَالَ : حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ عَنْبَسَةَ بْنِ لَقِيطٍ الضَّبِّيُّ قَالَ : حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ حَجَرٍ قَالَ : حَدَّثَنَا إسْمَاعِيلُ بْنُ عَيَّاشٍ عَنْ ابْنِ جُرَيْجٍ وَالْمُثَنَّى وَيَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ : قَالَ

رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ لَيْسَ لِلْقَاتِلِ مِنْ الْمِيرَاثِ شَيْءٌ ﴾ .

(197/55)

وَحَدَّثَنَا عَبْدُ الْبَاقِي قَالَ : حَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ زَكَرِيَّا التُّسْتَرِيُّ قَالَ : حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُد قَالَ : حَدَّثَنَا حَفْصُ بْنُ غِيَاثٍ عَنْ الْحَجَّاجِ عَنْ عَمْرِو بْنُ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ عَنْ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ : ﴿ لَيْسَ لِلْقَاتِلِ شَيْءٌ ﴾ وَرَوَى اللَّيْثُ عَنْ إِسْحَاقَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي فَرْوَةَ عَنْ الزُّهْرِيِّ عَنْ حُمَيْدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ الْقَاتِلُ لَا يَرِثُ ﴾ .

وَرَوَى يَزِيدُ بْنُ هَارُونَ قَالَ : حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ رَاشِدٍ عَنْ مَكْحُولٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ الْقَاتِلُ عَمْدًا لَا يَرِثُ مِنْ أَخِيهِ وَلَا مِنْ ذِي قَرَابَتِهِ شَيْئًا وَيَرِثُ أَقْرَبُ النَّاسِ إلَيْهِ نَسَبًا بَعْدَ الْقَاتِلِ ﴾ ، وَرَوَى حِصْنُ بْنُ مَيْسَرَةَ قَالَ : حَدَّثَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ حَرْمَلَةَ عَنْ ﴿ عَدِيٍّ الْجُذَامِيِّ قَالَ : قُلْت : يَا رَسُولَ اللَّهِ كَانَتْ لِي امْرَأَتَانِ فَاقْتَتَلَتَا فَرَمَيْت إحْدَاهُمَا ؟ فَقَالَ : اعْقِلْهَا وَلَا تَرِثْهَا ﴾ ، فَثَبَتَ بِهَذِهِ الْأَخْبَارِ حِرْمَانُ الْقَاتِلِ مِيرَاثَهُ

مِنْ سَائِرِ مَالِ الْمَقْتُولِ ، وَأَنَّهُ لَا فَرْقَ فِي ذَلِكَ بَيْنَ الْعَامِدِ وَالْمُخْطِئِ لِعُمُومِ لَفْظِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِيهِ .

(198/55)

وَقَدْ اسْتَعْمَلَ الْفُقَهَاءُ هَذَا الْخَبَرَ وَتَلَقَّوْهُ بِالْقَبُولِ فَجَرَى مَجْرَى التَّوَاتُرِ كَقَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿ لَا وَصِيَّةَ لِوَارِثٍ ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿ لَا تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ عَلَى عَمَّتِهَا وَلَا عَلَى خَالَتِهَا ﴾ ﴿ وَإِذَا اخْتَلَفَ الْبَيِّعَانِ فَالْقَوْلُ مَا قَالَهُ الْبَائِعُ أَوْ يَتَرَادَّانِ ﴾ وَمَا جَرَى مَجْرَى ذَلِكَ مِنْ الْأَخْبَارِ الَّتِي مَخْرَجُهَا مِنْ جِهَةِ الْإِفْرَادِ وَصَارَتْ فِي حَيِّزِ التَّوَاتُرِ لِتَلَقِّي الْفُقَهَاءِ لَهَا بِالْقَبُولِ مِنْ اسْتِعْمَالِهِمْ إيَّاهَا فَجَازَ تَخْصِيصُ آيَةِ الْمَوَارِيثِ بِهَا وَيَدُلُّ عَلَى

تَسْوِيَةِ حُكْمِ الْعَامِدِ وَالْمُخْطِئِ فِي ذَلِكَ مَا رُوِيَ عَنْ عَلِيٍّ وَعُمَرَ وَابْنِ عَبَّاسٍ مِنْ غَيْرِ خِلَافٍ مِنْ أَحَدٍ مِنْ نُظَرَائِهِمْ عَلَيْهِمْ وَغَيْرُ جَائِزٍ فِيمَا كَانَ هَذَا وَصْفُهُ مِنْ قَوْلِ الصَّحَابَةِ فِي شُيُوعِهِ وَاسْتِفَاضَتِهِ أَنْ يُعْتَرَضَ عَلَيْهِ بِقَوْلِ التَّابِعِينَ وَلَمَّا وَافَقَ مَالِكٌ عَلَى أَنَّهُ لَا يَرِثُ مِنْ دِيَتِهِ وَجَبَ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ حُكْمَ سَائِرِ مَالِهِ مِنْ وُجُوهٍ .

(199/55)

أَحَدُهَا : أَنَّ دِيَتَهُ مَالُهُ وَمِيرَاثٌ عَنْهُ بِدَلِيلِ أَنَّهُ تُقْضَى مِنْهَا دُيُونُهُ وَتُنَفَّذُ مِنْهَا وَصَايَاهُ وَيَرِثُهَا سَائِرُ وَرَثَتِهِ عَلَى فَرَائِضِ اللَّهِ تَعَالَى كَمَا يَرِثُونَ سَائِرَ أَمْوَالِهِ ، فَلَمَّا اتَّفَقُوا عَلَى أَنَّهُ لَا يَرِثُ مِنْ دِيَتِهِ كَانَ ذَلِكَ حُكْمَ سَائِرِ مَالِهِ فِي الْحِرْمَانِ كَمَا أَنَّهُ إذَا وَرِثَ مِنْ سَائِرِ مَالِهِ وَرِثَ مِنْ دِيَتِهِ ، فَمِنْ حَيْثُ كَانَ حُكْمُ سَائِرِ مَالِهِ حُكْمَ دِيَتِهِ فِي الِاسْتِحْقَاقِ وَجَبَ أَنْ يَكُونَ حُكْمُ سَائِرِ مَالِهِ حُكْمَ دِيَتِهِ فِي الْحِرْمَانِ ؛ إذْ كَانَ الْجَمِيعُ مُسْتَحَقًّا عَلَى سِهَامِ وَرَثَتِهِ وَأَنَّهُ مَبْدُوءٌ بِهِ فِي الدَّيْنِ عَلَى الْمِيرَاثِ وَمِنْ جِهَةٍ أُخْرَى أَنَّهُ لَمَّا ثَبَتَ أَنَّهُ لَا يَرِثُ مِنْ دِيَتِهِ لِمَا اقْتَضَاهُ الْأَثَرُ وَجَبَ أَنْ يَكُونَ حُكْمُ سَائِرِ مَالِهِ كَذَلِكَ ؛ لِأَنَّ الْأَثَرَ لَمْ يَفْصِلْ فِي وُرُودِهِ بَيْنَ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ ، وَقَالَ مَالِكٌ : إنَّمَا وَرِثَ قَاتِلُ الْخَطَإِ مِنْ سَائِرِ مَالِهِ سِوَى الدِّيَةِ لِأَنَّهُ لَا يُتَّهَمُ أَنْ يَكُونَ قَتَلَهُ لِيَرِثَهُ وَهَذِهِ الْعِلَّةُ مَوْجُودَةٌ فِي دِيَتِهِ ؛ لِأَنَّهَا مِنْ التُّهْمَةِ أَبْعَدُ .

فَوَاجِبٌ عَلَى مُقْتَضَى عِلَّتِهِ أَنْ يَرِثَ مِنْ دِيَتِهِ وَمِنْ جِهَةٍ أُخْرَى أَنَّهُمْ لَا يَخْتَلِفُونَ فِي قَاتِلِ الْعَمْدِ وَشِبْهِ الْعَمْدِ أَنَّهُ لَا يَرِثُ سَائِرَ مَالِهِ كَمَا لَا يَرِثُ مِنْ دِيَتِهِ إذَا وَجَبَتْ ، فَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ حُكْمَ قَاتِلِ الْخَطَإِ لِاتِّفَاقِهِمَا فِي حِرْمَانِ الْمِيرَاثِ مِنْ دِيَتِهِ وَأَيْضًا إذَا كَانَ قَتْلُ الْعَمْدِ وَشِبْهُ الْعَمْدِ

إِنَّمَا حَرَّمَا الْمِيرَاثَ لِلتُّهْمَةِ فِي إِحْرَازِ الْمِيرَاثِ بِقَتْلِهِ فَهَذَا الْمَعْنَى مَوْجُودٌ فِي قَتْلِ الْخَطَإِ ؛ لِأَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ إِنَّمَا أَظْهَرَ رَمْيَ غَيْرِهِ وَهُوَ قَاصِدٌ بِهِ قَتْلَهُ لِئَلَّا يُقَادَ مِنْهُ وَلَا يَحْرُمُ الْمِيرَاثَ ، فَلَمَّا كَانَتْ التُّهْمَةُ مَوْجُودَةً مِنْ هَذَا الْوَجْهِ وَجَبَ أَنْ يَكُونَ فِي مَعْنَى الْعَمْدِ وَشِبْهِهِ وَأَيْضًا تَوْرِيثُهُ بَعْضَ الْمِيرَاثِ دُونَ بَعْضٍ خَارِجٌ مِنْ الْأُصُولِ ؛ لِأَنَّ فِيهَا أَنَّ مَنْ وَرِثَ بَعْضَ تَرِكَةٍ وَرِثَ جَمِيعَهَا وَمَنْ حُرِمَ بَعْضُهَا حُرِمَ جَمِيعُهَا .

وَإِنَّمَا قَالَ أَصْحَابُنَا : إِنَّ الصَّبِيَّ وَالْمَجْنُونَ لَا يُحْرَمَانِ الْمِيرَاثَ بِالْقَتْلِ مِنْ قِبَلِ أَنَّهُمَا غَيْرُ مُكَلَّفَيْنِ ، وَحِرْمَانُ الْمِيرَاثِ عَلَى وَجْهِ الْعُقُوبَةِ فِي الْأُصُولِ فَأُجْرِيَ قَاتِلُ الْخَطَإِ مَجْرَاهُ وَإِنْ لَمْ يَسْتَحِقَّ الْعِقَابَ بِقَتْلِ الْخَطَإِ تَغْلِيظًا لِأَمْرِ الدَّمِ ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ قَدْ قَصَدَ الْقَتْلَ بِرَمْيِهِ أَوْ بِضَرْبِهِ وَأَنَّهُ أَوْهَمَ أَنَّهُ قَاصِدٌ لِغَيْرِهِ فَأُجْرِيَ فِي ذَلِكَ مَجْرَى مَنْ عَلِمَ مِنْهُ ذَلِكَ ، وَالصَّبِيُّ وَالْمَجْنُونُ عَلَى أَيِّ وَجْهٍ كَانَ مِنْهُمَا ذَلِكَ لَا يَسْتَحِقَّانِ الدَّمَ ، قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿ رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلَاثٍ : عَنْ النَّائِمِ حَتَّى يَنْتَبِهَ ، وَعَنْ الْمَجْنُونِ حَتَّى يُفِيقَ ، وَعَنْ الصَّبِيِّ حَتَّى يَحْتَلِمَ ﴾ .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ : فَظَاهِرُ هَذَا الْخَبَرِ يَقْتَضِي سُقُوطَ حُكْمِ قَتْلِهِ رَأْسًا مِنْ سَائِرِ الْوُجُوهِ ، وَلَوْلَا قِيَامُ الدَّلَالَةِ لَمَا وَجَبَتْ الدِّيَةُ أَيْضًا .

فَإِنْ قِيلَ : فَإِنَّهُ يُحْرَمُ النَّائِمُ الْمِيرَاثَ إِذَا انْقَلَبَ عَلَى صَبِيٍّ فَقَتَلَهُ ؟ قِيلَ لَهُ : هُوَ مِثْلُ قَاتِلِ الْخَطَإِ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ أَظْهَرَ أَنَّهُ نَائِمٌ وَلَمْ يَكُنْ نَائِمًا فِي الْحَقِيقَةِ وَأَمَّا قَوْلُ الشَّافِعِيِّ فِي الْعَادِلِ إِذَا قَتَلَ الْبَاغِيَ حُرِمَ الْمِيرَاثَ ، فَلَا وَجْهَ لَهُ ؛ لِأَنَّهُ قَتَلَهُ بِحَقٍّ وَقَدْ كَانَ الْبَاغِي مُسْتَحِقًّا لِلْقَتْلِ ، فَغَيْرُ

جَائِزٍ أَنْ يُحْرَمَ الْمِيرَاثَ وَلَا نَعْلَمُ خِلَافًا أَنَّ مَنْ وَجَبَ لَهُ الْقَوَدُ عَلَى إِنْسَانٍ فَقَتَلَهُ قَوَدًا أَنَّهُ لَا يُحْرَمُ الْمِيرَاثَ وَأَيْضًا فَلَوْ كَانَ قَتْلُ الْعَادِلِ الْبَاغِيَ يُحْرِمُهُ الْمِيرَاثَ لَوَجَبَ أَنَّهُ إِذَا كَانَ مُحَارِبًا فَاسْتَحَقَّ الْقَتْلَ حَدًّا أَنْ لَا يَكُونَ مِيرَاثُهُ لِجَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ ؛ لِأَنَّ الْإِمَامَ قَامَ مَقَامَ الْجَمَاعَةِ فِي إِجْرَاءِ الْحُكْمِ عَلَيْهِ فَكَأَنَّهُمْ قَتَلُوهُ ، فَلَمَّا كَانَ الْمُسْلِمُونَ هُمُ الْمُسْتَحِقِّينَ لِمِيرَاثِ مَنْ ذَكَرْنَا أَمْرُهُ وَإِنْ كَانَ الْإِمَامُ قَامَ مَقَامَهُمْ فِي قَتْلِهِ ثَبَتَ بِذَلِكَ أَنَّ مَنْ قُتِلَ بِحَقٍّ لَا يُحْرَمُ قَاتِلُهُ مِيرَاثَهُ ، وَقَالَ أَصْحَابُنَا فِي حَافِرِ الْبِئْرِ وَوَاضِعِ الْحَجَرِ فِي الطَّرِيقِ إِذَا عَطِبَ بِهِ إِنْسَانٌ : إِنَّهُ لَا يُحْرَمُ الْمِيرَاثَ ؛ لِأَنَّهُ غَيْرُ قَاتِلٍ فِي الْحَقِيقَةِ ؛ إِذْ لَمْ يَكُنْ فَاعِلًا لِلْقَتْلِ وَلَا لِسَبَبٍ اتَّصَلَ بِالْمَقْتُولِ ، وَالدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ الْقَتْلَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَوْجُهٍ : عَمْدٌ ، وَخَطَأٌ ، وَشِبْهُ الْعَمْدِ ، وَحَافِرُ الْبِئْرِ وَوَاضِعُ الْحَجَرِ خَارِجٌ عَنْ ذَلِكَ .

(202/55)

فَإِنْ قِيلَ : حَفْرُ الْبِئْرِ وَوَضْعُ الْحَجَرِ سَبَبٌ لِلْقَتْلِ كَالرَّامِي وَالْجَارِحِ أَنَّهُمَا قَاتِلَانِ لِفِعْلِهِمَا السَّبَبَ قِيلَ لَهُ : الرَّمْيُ وَمَا تَوَلَّدَ مِنْهُ مِنْ مُرُورِ السَّهْمِ هُوَ فِعْلُهُ وَبِهِ حَصَلَ الْقَتْلُ ، وَكَذَلِكَ الْجُرْحُ فَعَلَهُ فَصَارَ قَاتِلًا بِهِ لِاتِّصَالِ فِعْلِهِ بِالْمَقْتُولِ ؛ وَعِثَارُ الرَّجُلِ بِالْحَجَرِ وَوُقُوعُهُ فِي الْبِئْرِ لَيْسَ مِنْ فِعْلِهِ فَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ بِهِ قَاتِلًا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أحكام القرآن للجصاص حـ 1 صـ 40 . 46﴾

(203/55)

ومن فوائد ابن العربى فى الآيات السابقة

قال رحمه الله :

قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنْ الْجَاهِلِينَ﴾

هَذِهِ الْآيَةُ عَظِيمَةُ الْمَوْقِعِ ، مُشْكِلَةٌ فِي النَّظَرِ ؛ لِتَعَلُّقِهَا بِالْأُصُولِ وَمِنْ الْفُرُوعِ بِالْكَلَامِ فِي الدَّمِ ،

وَفِي كُلِّ فَصْلٍ إِشْكَالٌ ، وَذَلِكَ يَنْحَصِرُ فِي خَمْسِ مَسَائِلَ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : فِي سَبَبِ ذَلِكَ : رُوِيَ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ كَانَ فِيهَا مَنْ قَتَلَ رَجُلًا غِيلَةً بِسَبَبٍ مُخْتَلَفٍ فِيهِ ؛ وَطَرَحَهُ بَيْنَ قَوْمٍ ، وَكَانَ قَرِيبُهُ ، فَادَّعَى بِهِ عَلَيْهِمْ ، تَرَافَعُوا إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ لَهُ الْقَاتِلُ : قَتَلَ قَرِيبِي هَذَا هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ ، وَقَدْ وَجَدْتُهُ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ ، فَانْتَفُوا مِنْ ذَلِكَ ، وَسَأَلُوا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَحْكُمَ بَيْنَهُمْ بِرَغْبَةٍ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي تَبْيِينِ الْحَقِّ لَهُمْ ؛ فَدَعَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ رَبَّهُ تَعَالَى ؛ فَأَمَرَهُمْ بِذَبْحِ بَقَرَةٍ وَأَخْذِ عُضْوٍ مِنْ أَعْضَائِهَا يُضْرَبُ بِهِ الْمَيِّتُ فَيَحْيَا فَيُخْبِرُهُمْ بِقَاتِلِهِ ؛ فَسَأَلُوا عَنْ أَوْصَافِهَا وَشَدَّدُوا فَشَدَّدَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَلَيْهِمْ حَتَّى انْتَهَوْا إِلَى صِفَتِهَا الْمَذْكُورَةِ فِي الْقُرْآنِ ، فَطَلَبُوا تِلْكَ الْبَقَرَةَ فَلَمْ يَجِدُوهَا إِلَّا عِنْدَ رَجُلٍ بَرٍّ بِأَبَوَيْهِ أَوْ بِأَحَدِهِمَا ؛ فَطَلَبَ مِنْهُمْ فِيهَا مِسْكَهَا مَمْلُوءًا ذَهَبًا ، فَبَذَلُوهُ فِيهَا ، فَاسْتَغْنَى ذَلِكَ الرَّجُلُ بَعْدَ فَقْرِهِ ، وَذَبَحُوهَا فَضَرَبُوهُ بِبَعْضِهَا ، فَقَالَ : فُلَانٌ قَتَلَنِي ، لِقَاتِلِهِ .

(204/55)

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : فِي الْحَدِيثِ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ : كَثُرَ اسْتِرْسَالُ الْعُلَمَاءِ فِي الْحَدِيثِ عَنْهُمْ فِي كُلِّ طَرِيقٍ ، وَقَدْ ثَبَتَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ حَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ ﴾ .

وَمَعْنَى هَذَا [الْخَبَرِ] الْحَدِيثُ عَنْهُمْ بِمَا يُخْبِرُونَ [بِهِ] عَنْ أَنْفُسِهِمْ وَقِصَصِهِمْ لَا بِمَا يُخْبِرُونَ بِهِ عَنْ غَيْرِهِمْ ؛ لِأَنَّ أَخْبَارَهُمْ عَنْ غَيْرِهِمْ مُفْتَقِرَةٌ إلَى الْعَدَالَةِ وَالثُّبُوتِ إلَى مُنْتَهَى الْخَبَرِ ، وَمَا يُخْبِرُونَ بِهِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ ، فَيَكُونُ مِنْ بَابِ إقْرَارِ الْمَرْءِ عَلَى نَفْسِهِ أَوْ قَوْمِهِ ؛ فَهُوَ أَعْلَمُ بِذَلِكَ .

وَإِذَا أَخْبَرُوا عَنْ شَرْعٍ لَمْ يَلْزَمْ قَوْلُهُ ؛ فَفِي رِوَايَةِ مَالِكٍ ، عَنْ ﴿ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : رَآنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنَا أُمْسِكُ مُصْحَفًا قَدْ تَشَرَّمَتْ حَوَاشِيهِ ، فَقَالَ : مَا هَذَا ؟ قُلْت : جُزْءٌ مِنْ التَّوْرَاةِ ؛ فَغَضِبَ وَقَالَ : وَاَللَّهِ لَوْ كَانَ مُوسَى حَيًّا مَا وَسِعَهُ إلَّا اتِّبَاعِي ﴾ .

(205/55)

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : أَخْبَرَهُمْ سُبْحَانَهُ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ عَنْ حُكْمٍ جَرَى فِي زَمَنِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ هَلْ يَلْزَمُنَا حُكْمُهُ أَمْ لَا ؟ : اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي ذَلِكَ ، وَالْمَسْأَلَةُ تُلَقَّبُ بِأَنَّ شَرْعَ مَنْ قَبْلَنَا مِنْ الْأَنْبِيَاءِ هَلْ هُوَ شَرْعٌ لَنَا حَتَّى يَثْبُتَ نَسْخُهُ أَمْ لَا ؟ فِي ذَلِكَ خَمْسَةُ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : أَنَّهُ شَرْعٌ لَنَا وَلِنَبِيِّنَا ؛ لِأَنَّهُ كَانَ مُتَعَبِّدًا بِالشَّرِيعَةِ مَعَنَا ، وَبِهِ قَالَ طَوَائِفُ مِنْ الْمُتَكَلِّمِينَ ، وَقَوْمٌ مِنْ الْفُقَهَاءِ ؛ وَاخْتَارَهُ الْكَرْخِيُّ وَنَصَّ عَلَيْهِ ابْنُ بُكَيْرٍ الْقَاضِي مِنْ عُلَمَائِنَا .

وَقَالَ الْقَاضِي عَبْدُ الْوَهَّابِ : هُوَ الَّذِي تَقْتَضِيهِ أُصُولُ مَالِكٍ وَمَنَازِعُهُ فِي كُتُبِهِ ، وَإِلَيْهِ مَيْلُ الشَّافِعِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ .

الثَّانِي : أَنَّ التَّعَبُّدَ وَقَعَ بِشَرْعِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَاخْتَارَهُ جَمَاعَةٌ مِنْ أَصْحَابِ الشَّافِعِيِّ .

الثَّالِثُ : أَنَّا تَعَبَّدْنَا بِشَرْعِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ .

الرَّابِعُ : أَنَّا تَعَبَّدْنَا بِشَرْعِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ .

الْخَامِسُ : أَنَّا لَمْ نَتَعَبَّدْ بِشَرْعِ أَحَدٍ ، وَلَا أُمِرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمِلَّةِ بَشَرٍ ، وَهَذَا الَّذِي اخْتَارَهُ الْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ .

(206/55)

وَمَا مِنْ قَوْلٍ مِنْ هَذِهِ الْأَقْوَالِ إِلَّا وَقَدْ نَزَعَ فِيهِ بِآيَةٍ ، وَتَلَا فِيهَا مِنْ الْقُرْآنِ حَرْفًا ؛ وَقَدْ مَهَّدْنَا ذَلِكَ فِي أُصُولِ الْفِقْهِ ، وَبَيَّنَّا أَنَّ الصَّحِيحَ الْقَوْلُ بِلُزُومِ شَرْعِ مَنْ قَبْلَنَا لَنَا مِمَّا أَخْبَرَنَا بِهِ نَبِيُّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْهُمْ دُونَ مَا وَصَلَ إلَيْنَا مِنْ غَيْرِهِ ؛ لِفَسَادِ الطُّرُقِ إلَيْهِمْ ؛ وَهَذَا هُوَ صَرِيحُ مَذْهَبِ مَالِكٍ فِي أُصُولِهِ كُلِّهَا ، وَسَتَرَاهَا مَوْرُودَةً بِالتَّبْيِينِ حَيْثُ تَصَفَّحْت الْمَسَائِلَ مِنْ كِتَابِنَا هَذَا أَوْ غَيْرِهِ .

وَنُكْتَةُ ذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَخْبَرَنَا عَنْ قَصَصِ النَّبِيِّينَ ، فَمَا كَانَ مِنْ آيَاتِ الِازْدِجَارِ وَذِكْرِ

الِاعْتِبَارِ فَفَائِدَتُهُ الْوَعْظُ ، وَمَا كَانَ مِنْ آيَاتِ الْأَحْكَامِ فَالْمُرَادُ بِهِ الِامْتِثَالُ لَهُ وَالِاقْتِدَاءُ بِهِ .

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمْ اقْتَدِهْ ﴾ فَنَبِيُّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِمَّنْ أُمِرَ أَنْ يَقْتَدِيَ بِهِمْ ، وَبِهَذَا يَقَعُ الرَّدُّ عَلَى ابْنِ الْجُوَيْنِيِّ حَيْثُ قَالَ : إنَّ نَبِيَّنَا لَمْ يُسْمَعْ قَطُّ أَنَّهُ رَجَعَ إلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ ، وَلَا بَاحَثَهُمْ عَنْ حُكْمٍ ، وَلَا اسْتَفْهَمَهُمْ ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ لِفَسَادِ مَا عِنْدَهُمْ .

أَمَّا الَّذِي نَزَلَ بِهِ عَلَيْهِ الْمَلَكُ فَهُوَ الْحَقُّ الْمُفِيدُ لِلْوَجْهِ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ ، وَلَا مَعْنَى لَهُ غَيْرُهُ .

(207/55)

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : لَمَّا ضَرَبَ بَنُو إسْرَائِيلَ الْمَيِّتَ بِتِلْكَ الْقِطْعَةِ مِنْ الْبَقَرَةِ قَالَ : دَمِي عِنْدَ فُلَانٍ ؛ فَتَعَيَّنَ قَتْلُهُ ، وَقَدْ اسْتَدَلَّ مَالِكٌ فِي رِوَايَةِ ابْنِ الْقَاسِمِ وَابْنِ وَهْبٍ عَنْهُ عَلَى صِحَّةِ الْقَوْلِ بِالْقَسَامَةِ بِقَوْلِ الْمَقْتُولِ : دَمِي عِنْدَ فُلَانٍ بِهَذَا ، وَقَالَ مَالِكٌ : هَذَا مِمَّا يُبَيِّنُ أَنَّ قَوْلَ الْمَيِّتِ : دَمِي عِنْدَ فُلَانٍ مَقْبُولٌ وَيُقْسِمُ عَلَيْهِ .

فَإِنْ قِيلَ : كَانَ هَذَا آيَةً وَمُعْجِزَةً عَلَى يَدِي مُوسَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِبَنِي إسْرَائِيلَ قُلْنَا : الْآيَةُ وَالْمُعْجِزَةُ إنَّمَا كَانَتْ فِي إحْيَاءِ الْمَيِّتِ ، فَلَمَّا صَارَ حَيًّا كَانَ كَلَامُهُ كَسَائِرِ كَلَامِ الْآدَمِيِّينَ كُلِّهِمْ فِي الْقَبُولِ وَالرَّدِّ ، وَهَذَا فَنٌّ دَقِيقٌ مِنْ الْعِلْمِ لَا يَتَفَطَّنُ لَهُ إلَّا مَالِكٌ .

وَلَقَدْ حَقَّقْنَاهُ فِي كِتَابِ الْمُقْسِطِ فِي ذِكْرِ الْمُعْجِزَاتِ وَشُرُوطِهَا ، فَإِنْ قِيلَ : فَإِنَّمَا قَتَلَهُ مُوسَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْآيَةِ .

قُلْنَا : لَيْسَ فِي الْقُرْآنِ أَنَّهُ إذَا أَخْبَرَ وَجَبَ صِدْقُهُ ، فَلَمَّا أَمَرَهُمْ بِالْقَسَامَةِ مَعَهُ ، أَوْ صَدَّقَهُ جِبْرِيلُ فَقَتَلَهُ مُوسَى بِعِلْمِهِ ، كَمَا قَتَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْحَارِثَ بْنَ سُوَيْد ، بِالْمُجَذِّرِ بْنِ زِيَادٍ بِإِخْبَارِ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَهُ بِذَلِكَ حَسْبَمَا تَقَدَّمَ ، وَهِيَ مَسْأَلَةُ خِلَافٍ كُبْرَى قَدْ بَيَّنَّاهَا فِي مَوْضِعِهَا .

(208/55)

وَرَوَى مُسْلِمٌ ، وَفِي الْمُوَطَّإِ ، وَغَيْرِهِ ، ﴿ حَدِيثَ حُوَيِّصَةَ وَمُحَيِّصَةَ قَالَ فِيهِ : فَتَكَلَّمَ مُحَيِّصَةُ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَذَكَرَهُ إلَى قَوْلِهِ : فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِحُوَيِّصَةَ وَمُحَيِّصَةَ ، وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ : أَتَحْلِفُونَ وَتَسْتَحِقُّونَ دَمَ صَاحِبِكُمْ ﴾ .

وَفِي مُسْلِمٍ : ﴿ يَحْلِفُ خَمْسُونَ رَجُلًا مِنْكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ فَيُدْفَعُ إلَيْكُمْ بِرُمَّتِهِ ﴾ .

وَرَوَى أَبُو دَاوُد عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ أَنَّهُ قَتَلَ رَجُلًا بِالْقَسَامَةِ مِنْ بَنِي نَصْرِ بْنِ مَالِكٍ .

وَقَالَ الدَّارَقُطْنِيُّ : نُسْخَةُ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ صَحِيحَةٌ ، وَقَدْ بَيَّنَّا ذَلِكَ فِي

أُصُولِ الْفِقْهِ ، وَاسْتَبْعَدَ ذَلِكَ الْبُخَارِيُّ وَالشَّافِعِيُّ وَجَمَاعَةٌ مِنْ الْعُلَمَاءِ ، قَالُوا : كَيْفَ يُقْبَلُ قَوْلُهُ فِي الدَّمِ ، وَهُوَ لَا يُقْبَلُ قَوْلُهُ فِي دِرْهَمٍ .

وَإِنَّمَا تُسْتَحَقُّ بِالْقَسَامَةِ الدِّيَةُ ، وَقَدْ أَحْكَمْنَا الْجَوَابَ وَالِاسْتِدْلَالَ فِي مَوْضِعِهِ ، وَنُشِيرُ إلَيْهِ الْآنَ بِوَجْهَيْنِ : أَحَدِهِمَا : أَنَّ السُّنَّةَ هِيَ الَّتِي تَمْضِي وَتَرِدُ لَا اعْتِرَاضَ عَلَيْهَا ، وَلَا تَنَاقُضَ فِيهَا ، وَقَدْ تَلَوْنَا أَحَادِيثَهَا .

(209/55)

الثَّانِي : أَنَّهُ مَعَ أَنَّ قَوْلَهُ : لَا يُقْبَلُ فِي دِرْهَمٍ قَدْ قُلْتُمْ : إنَّ قَتِيلَ الْمَحَلَّةِ يُقْسَمُ فِيهِ عَلَى الدِّيَةِ ، وَلَيْسَ هُنَالِكَ قَوْلٌ لِأَحَدٍ ، وَإِنَّمَا هِيَ حَالَةٌ مُحْتَمِلَةٌ لِلتَّأْوِيلِ وَالْحَقِّ وَالْبَاطِلِ ، إذْ يَجُوزُ أَنْ يَقْتُلَهُ رَجُلٌ وَيَجْعَلَهُ عِنْدَ دَارِ آخَرَ ؛ بَلْ هَذَا هُوَ الْغَالِبُ مِنْ أَفْعَالِهِمْ ، وَبَاقِي النَّظَرِ فِي مَسَائِلِ الْخِلَافِ وَشَرْحِ الْحَدِيثِ مُسْتَطَرٌ .

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ : فِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى حَصْرِ الْحَيَوَانِ [فِي الْمُعَيَّنِ] بِالصِّفَةِ خِلَافًا لِأَبِي حَنِيفَةَ حَيْثُ يَقُولُ : لَا يُحْصَرُ الْحَيَوَانُ بِصِفَةٍ وَلَا يَتَعَيَّنُ بِحِلْيَةٍ .

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : لَوْ أَنَّ بَنِي إسْرَائِيلَ لَمَّا قِيلَ لَهُمْ : اذْبَحُوا بَقَرَةً بَادَرُوا إلَى أَيِّ بَقَرَةٍ كَانَتْ فَذَبَحُوهَا لَأَجْزَأَ ذَلِكَ عَنْهُمْ ، وَامْتَثَلُوا مَا طُلِبَ ، وَلَكِنَّهُمْ شَدَّدُوا فَشَدَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ، فَمَا

زَالُوا يَسْأَلُونَ وَيُوصَفُ لَهُمْ حَتَّى تَعَيَّنَتْ.

وَهَذَا كَلَامٌ صَحِيحٌ، وَدَلِيلٌ مَلِيحٌ، وَاَللَّهُ أَعْلَمُ. انتهى انتهى. اهـ ﴿أحكام القرآن لابن العربى حـ 1 صـ 36. 41﴾

(210/55)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

والضمير في : فاضربوه " يعود على " النفس " لتأويلها بمعنى الشخص والإنسان، أو على القتيل المدلول عليه بقوله : " واللهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ " والجملة من " اضربوه " في محلّ نصب بالقول.

وفي الكلام محذوف والتقدير : قلنا : اضربوه ببعضها فضربوه ببعضها فحيي، إلا أنه حذف ذلك لدلالة قوله : " يُحْيِي اللهُ الموتى " عليه، فهو كقوله : ﴿ اضرب بِّعَصَاكَ الحجر فانفجرت ﴾ [البقرة : 60] أي فضرب فانفجرت [وقوله : ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ على سَفَرٍ فَعِدَّةٌ ﴾ [البقرة : 184] أي : فأفطر فعدّة] وقوله : ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ ﴾ [البقرة : 196] أي : فحلق ففدية.

قوله : "كَذَلِكَ يُحْيِي اللهُ المَوْتَى " "كذلك" في محلّ نصب ؛ لأنه نعت لمصدر محذوف تقديره : يحيي الله الموتى إحياء مثل ذلك الإحياء ، فيتعلّق بمحذوف ، أي : إحياء كائناً كذلك الإحياء ، أو لأنه حال من المصدر المعروف ، أي : ويريكم الإراءة حال كونها مُشَبِهَةً ذلك الإحياء ، وقد تقدم أنه مذهب سيبويه .

و" الموتى " جمع مَيّت ، وفي هذه الإشارة وجهان :

أحدهما : أنها إشارة إلى نفس ذلك الميت .

والثاني : أنها احتجاج على صحّة الإعادة .

قال الأصم : إنه على المشركين ؛ لأنه إن ظهر لهم بالتَّوَاتر [أن هذا الإحياء قد كان على هذه الوجه علموا صحّة الإعادة ، وإن لم يظهر ذلك بالتواتر] ، فإنه داعية إلى التفكُّر .

قوله : " وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ " الرؤيا هنا بَصَرية ، فالهمزة للتعدية أكسبت الفعل مفعولاً ثانياً وهو " آياته " ، والمعنى : يجعلكم مُبْصرين آياته .

و" كم " هو المفعول الأول ، وأصل " يريكم " : يُأَرْئِيكم ، فحذفت همزة " أفعل " في المضارعة لما تقدم في ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة : 3] وبابه ، [فبقي يُرْئيكم] ، فنقلبت حركة الهمزة على " الراء " ، وحذفت " الهمزة " تخفيفاً ، وهو نقل لازم في مادة " رأى " وبابه دون غيره مما عينه همزة نحو : " نأى ينأى " ولا يجوز عدم النقل في " رأي " وبابه إلا ضرورة كقوله : [الوافر]

أُرِي عَيْنَيَّ مَالَمْ تَرْأَيَاهُ . . .

كِلاَنَا عَالِمٌ بِالتُّرَّهَاتِ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 2 صـ 180 .

182 ﴾ . باختصار .

(211/55)

(بحث علمي وأخلاقي)

قال صاحب الميزان :

أكثر الأمم الماضية قصة في القرآن أمة بني إسرائيل ، وأكثر الأنبياء ذكرا فيه موسى بن عمران عليه السلام ، فقد ذكر اسمه في القرآن ، في مائة وستة وثلاثين موضعا ضعف ما ذكر إبراهيم عليه السلام الذي هو أكثر الأنبياء ذكرا بعد موسى ، فقد ذكر في تسعة وستين موضعا على ما قيل فيهما ، والوجه الظاهر فيه أن الإسلام هو الدين الحنيف المبني على التوحيد الذي أسس أساسه إبراهيم عليه السلام وأتمه الله سبحانه وأكمله لنبيه محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) قال تعالى : (ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل) الحج - 78 ، وبنو إسرائيل أكثر الأمم لجاجا وخصاما ، وأبعدهم من الانقياد للحق ، كما أنه كان كفار العرب الذين ابتلى بهم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) على هذه

الصفة ، فقد آل الأمر إلى أن نزل فيهم : (إن الذين كفروا سواء عليهم ءأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون) البقرة – 6 .

ولا ترى رذيلة من رذائل بني إسرائيل في قسوتهم وجفوتهم مما ذكره القرآن إلا وهو موجود فيهم ، وكيف كان فأنت إذا تأملت قصص بني إسرائيل المذكورة في القرآن ، وأمعنت فيها ، وما فيها من أسرار أخلاقهم وجدت أنهم كانوا قوما غائرين في المادة مكبين على ما يعطيه الحس من لذائذ الحياة الصورية ، فقد كانت هذه الامة لا تؤمن بما وراء الحس ، ولا تنقاد إلا إلى اللذة والكمال المادي وهم اليوم كذلك .

(212/55)

وهذا الشأن هو الذي صير عقلهم وإرادتهم تحت انقياد الحس والمادة ، لا يعقلون إلا ما يجوزانه ، ولا يريدون إلا ما يرخصان لهم ذلك فانقياد الحس يوجب لهم أن لا يقبلوا قولا إلا إذا دل عليه الحس ، وإن كان حقا وانقياد المادة اقتضى فيهم أن يقبلوا كل ما يريده أو يستحسنه لهم كبراؤهم ممن أوتي جمال المادة ، وزخرف الحياة وإن لم يكن حقا ، فأنتج ذلك فيهم التناقض قولا وفعلا ، فهم يذمون كل اتباع باسم أنه تقليد وإن كان مما ينبغي إذا كان بعيدا من حسهم ، ويمدحون كل اتباع باسم أنه حظ الحياة ، وان كان مما لا ينبغي إذا كان

ملائما لهوساتهم المادية ، وقد ساعدهم على ذلك وأعانهم على مكثهم الممتد وقطونهم الطويل بمصر تحت إستذلال المصريين ، واسترقاقهم ، وتعذيبهم ، يسومونهم سوء العذاب ويذبحون أبناءهم ويستحيون نساءهم وفي ذلك بلاء من ربهم عظيم .

وبالجملة فكانوا لذلك صعبة الانقياد لما يأمرهم به أنبيائهم ، والربانيون من علمائهم مما فيه صلاح معاشهم ومعادهم (تذكر في ذلك مواقفهم مع موسى وغيره) وسريعة اللحوق إلى ما يدعوهم المغرضون والمستكبرون منهم .

وقد ابتليت الحقيقة والحق اليوم بمثل هذه البلية بالمدنية المادية التي أتحفها إليها عالم الغرب ، فهي مبنية القاعدة على الحس والمادة فلا يقبل دليل فيما بعد عن الحس ولا يسأل عن دليل فيما تضمن لذة مادية حسية ، فأوجب ذلك إبطال الغريزة الإنسانية في أحكامها وارتحال المعارف العالية والأخلاق الفاضلة من بيننا فصار يهدد الإنسانية بالانهدام ، وجامعة البشر بأشد الفساد وليعلمن نبأه بعد حين .

واستيفاء البحث في الأخلاق ينتج خلاف ذلك ، فما كل دليل بمطلوب ، وما كل تقليد بمذموم ، بيان ذلك : أن النوع الإنساني بما أنه إنسان إنما يسير إلى كماله

الحيوي بأفعاله الإرادية المتوقفة على الفكر والإرادة منه مستحيلة التحقق إلا عن فكر ، فالفكر هو الاساس الوحيد الذي يبتني عليه الكمال الوجودي الضروري فلا بد للإنسان من تصديقات عملية أو نظرية يرتبط بها كماله الوجودي ارتباطا بلا واسطة أو بواسطة ، وهي القضايا التي نعلل بها أفعالنا الفرديه أو الاجتماعية أو نحضرها في أذهاننا ، ثم نحصلها في الخارج بأفعالنا هذا .

ثم إن في غريزة الإنسان أن يبحث عن علل ما يجده من الحوادث ، أو يهاجم إلى ذهنه من المعلومات ، فلا يصدر عنه فعل يريد به إيجاد ما حضر في ذهنه في الخارج إلا إذا حضر في ذهنه علته الموجبة ، ولا يقبل تصديقا نظريا إلا إذا اتكئ على التصديق بعلته بنحو ، وهذا شأن الإنسان لا يتخطاه البته ، ولو عثرنا في موارد على ما يلوح منه خلاف ذلك فبالتأمل والإمعان تنحل الشبهة ، ويظهر البحث عن العلة ، والركون والطمأنينة إليها فطري ، والفطرة لا تختلف ولا يتخلف فعلها ، وهذا يؤدي الإنسان إلى ما فوق طاقته من العمل الفكري والفعل المتفرع عليه لسعة الاحتياج الطبيعي ، بحيث لا يقدر الإنسان الواحد إلى رفعه معتمدا على نفسه ومتكئا إلى قوة طبيعتة الشخصية فاحتالت الفطرة إلى بعثه نحو الاجتماع وهو المدينة والحضارة ووزعت أبواب الحاجة الحيوية بين أفراد الاجتماع ، ووكل بكل باب من أبوابها طائفة كاعضاء الحيوان في تكاليفها المختلفة المجتمعة فائدتها وعائدتها في نفسه ، ولا تزال الحوائج الإنسانية تزداد كمية واتساعا وتنشعب الفنون والصناعات

والعلوم ، ويتربى عند ذلك الاخصائيون من العلماء والصناع ، فكثير من العلوم والصناعات كانت علما أو صنعة واحدة يقوم بأمرها الواحد من الناس ، واليوم نرى كل باب من أبوابه علما أو علوما أو صنعة أو صنائع ، كالطب المعدود قديما فنا واحدا من فروع الطبيعيات وهو اليوم فنون لا يقوم الواحد من العلماء الاخصائيين بأزيد من أمر فن واحد منها .

(214/55)

وهذا يدعو الإنسان بالالهام الفطري ، أن يستقل بما يخصه من الشغل الإنساني في البحث عن علته ويتبع في غيره من يعتمد على خبرته ومهارته .

فبناء العقلاء من أفراد الاجتماع على الرجوع إلى أهل الخبرة وحقيقة هذا الاتباع ، والتقليد المصطلح والركون إلى الدليل الاجمالي فيما ليس في وسع الانسان أن ينال دليل تفاصيله كما أنه مفطور على الاستقلال بالبحث عن دليله التفصيلي فيما يسعه أن ينال تفصيل علته و دليله ، وملاك الأمر كله أن الإنسان لا يركن إلى غير العلم ، فمن الواجب عند الفطرة الاجتهاد ، وهو الاستقلال في البحث عن العلة فيما يسعه ذلك والتقليد وهو الاتباع ورجوع الجاهل إلى العالم فيما لا يسعه ذلك ، ولما استحال أن يوجد فرد من هذا النوع الإنساني مستقلا بنفسه قائما بجميع شؤون الأصل الذي يتكي عليه الحياة استحال أن

يوجد فرد من الإنسان من غير اتباع وتقليد ، ومن ادعى خلاف ذلك أو ظن من نفسه أنه غير مقلد في حياته فقد سفه نفسه .

نعم : التقليد فيما للإنسان أن ينال علته وسببه كالاجتهاد فيما ليس له الورود عليه والنيل منه ، من الرذائل التي هي من مهلكات الاجتماع ، ومفنيات المدنية الفاضلة ولا يجوز الاتباع المحض إلا في الله سبحانه لأنه السبب الذي إليه تنتهي الأسباب . انتهى انتهى . اهـ

﴿ الميزان حـ 1 صـ 209.212 ﴾

(215/55)

ومن فوائد القاسمى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [73]

﴿ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ ﴾ أي : المقتول : ﴿ بِبَعْضِهَا ﴾ أي : البقرة . يعني فضربوه فحيى وأخبر بقاتله . كما دل عليه قوله : ﴿ كَذَلِكَ ﴾ أي : مثل هذا الإحياء العظيم على هذه الهيئة الغريبة : ﴿ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى ﴾ يوم القيامة : ﴿ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ ﴾ أي : دلائله الدالة على أنه تعالى على كل شيء قدير .

ويجوز أن يراد بالآيات هذا الإحياء . والتعبير عنه بالجمع لاشتماله على أمور بديعة من ترتب الحياة على عضو ميت . وإخباره بقاتله ، وما يلابسه من الأمور الخارقة للعادة : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ لتكونوا برؤية تلك الآيات على رجاء من أن يحصل لكم عقل ، فيرشدكم إلى اعتقاد البعث وغيره ، مما تخبر به الرسل عن الله تعالى .

قال الراغب : وقوله : ﴿ كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى ﴾ قيل هو حكاية عن قول موسى عليه السلام لقومه ، وقيل بل هو خطاب من الله تعالى لهذه الأمة ، تنبيهاً على الاعتبار بإحيائه الموتى .

تنبيهات :

الأول : قال الزمخشري : فإن قلت : فما للقصة لم تقص على ترتيبها ، وكان حقها أن يقدم ذكر القتيل والضرب ببعض البقرة على الأمر بذبحها ؟ فيقال : وإذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها ، فقلنا اذبحوا بقرة واضربوه ببعضها ؟

(216/55)

أجيب : بأن كل ما قص من قصص بني إسرائيل ، إنما قص تعديداً لما وجد منهم من الجنايات ، وتقريعاً لهم عليها ، ولما جدد فيهم من الآيات العظام . وها تان قصتان كل

واحدة منهما مستقلة بنوع من التقريع وإن كانتا متصلتين متحدتين . فالأولى لتقريعهم على الاستهزاء ، وترك المسارعة إلى الامتثال وما يتبع ذلك . والثانية للتقريع على قتل النفس المحرمة ، وما يتبعه من الآية العظيمة . وإنما قدمت قصة الأمر بذبح البقرة على ذكر القتيل ، لأنه لو عمل على عكسه لكانت قصة واحدة ، ولذهب الغرض في تثنية التقريع . ولقد روعيت نكتة ، بعد ما استؤنفت الثانية ، استئناف قصة برأسها أن وصلت بالأولى دلالة على اتحادهما بضمير البقرة لا باسمها الصريح في قوله : ﴿ اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ﴾ ، حتى تبين أنهما قصتان فيما يرجع إلى التقريع ، وتثنيته بإخراج الثانية مخرج الاستئناف مع تأخيرها ، وأنها قصة واحدة بالضمير الراجع إلى البقرة .

وقال الحراليّ : قدم نبأ قول موسى عليه السلام على ذكر ندائهم في القتيل ، ابتداء بأشرف القصدين من معنى التشريع الذي هو القائم على أفعال الاعتداء وأقوال الخصومة . والله أعلم .

التنبيه الثاني : قال الراغب : قد استبعد بعض الناس ذلك وما حكاه الله منه ، وأنكر حصول ذلك الفعل على الحقيقة . وقال : ذلك ممتنع من حيث الطبيعة ، وأيضاً فإن ذلك لا يعرف فيه حكمة إلهية . فأما استبعاده ذلك من حيث الطبيعة فإنما هو استبعاد للإحياء والنشور ، ولذلك موضع لا يختص بالتفسير . ومن كان ذلك طريقته فلا خوض معه في تفسير القرآن . وأما الحكمة فيه فظاهرة إذ هو من المعجزات المحسوسة الباهرة للعقول .

وأما تخصيص البقرة ، فإن كثيراً من حكمة الله تعالى لا يمكن للبشر الوقوف عليه . ولو لم يكن في تخصيص بقرة على وصف مخصوص إلاّ توافر المأمورين بذلك على طلبها ، واستيجاب الثواب في بذل ثمنها ، وجلب نفع توفر إلى صاحبها لكان في ذلك حكمة عظيمة .

(217/55)

وفي الآية تنبيه على أن الجماعة التي حكمهم واحد يجوز أن ينسب الفعل إليهم ، وإن كان واقعاً من بعضهم ، ولا يكون ذلك كذباً ، كأن الجملة المركبة من شخص واحد يصح أن ينسب إليها ما وقع من عضو منها .

وقد ذكر أكثر المفسرين قصة البقرة وصاحبها بروايات مختلفة لم نورد شيئاً منها لأنه لم يرو بسند صحيح إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم ، ولا يتعلق به كبير فائدة ، كما أن البعض من البقرة لم يجئ من طريق صحيح عن معصوم بيانُه . فنحن نبهمه كما أبهمه الله تعالى ؛ إذ ليس في تعيينه لنا فائدة دينية ولا دنيوية ، وإن كان معيناً في نفس الأمر ، وأيّاً كان فالمعجزة حاصلة به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 2 صـ 363. 365 ﴾

(218/55)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (73) ﴾

احتدم الخلاف بين بني إسرائيل وكادت تحدث فتنة كبيرة . . فقرروا أن يلجأوا إلى موسى عليه السلام ليطلب من الله تبارك وتعالى أن يكشف لهم لغز هذه الجريمة ويدلهم على القاتل . . وجاء الأمر من الله سبحانه وتعالى أن اذبحوا البقرة ولو ذبحوا بقرة أية بقرة لانتهت المشكلة . . ولكنهم ظلوا يقولون ما لونها وما شكلها إلى آخر ما رويناه . . حتى وصلوا إلى البقرة التي كان قد استودعها الرجل الصالح عند الله حتى يكبر ابنه فاشتروها وذبحوها . . فأمرهم الله أن يضربوه ببعضها . أي أن يضربوا القتيل بجزء من البقرة المذبوحة بعد أن سال دمها وماتت . .

وانظر إلى العظمة في القصة . . جزء من ميت يُضرب به ميت فيحيا . . إذن المسألة أعدها الحق بصورة لا تجعلهم يشكون أبدا . . فلو أن الله أحياه بدون أن يضرب بجزء من البقرة. لقالوا لم يكن قد مات ، كانت فيه حياه ثم أفاق بعد اغماءة. ولكن الله أمرهم أن يذبحوا بقرة حتى تموت ليعطيهم درسا إيمانيا بقدرة الله وهم الماديون الذين لا يؤمنون إلا بالماديات . . وأن يأخذوا جزءاً أو أجزاء منها وأن يضربوا به القتيل فيحيا وينطق باسم

قاتله ويميته الله بعد ذلك . .

يقول الحق جل جلاله . . ﴿ كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ليرى بنو إسرائيل وهم على قيد الحياة كيف يحيى الله الموتى وليعرفوا أن الإنسان لا يبقى حيا بأسباب الحياة . . ولكن بإرادة مسبب الحياة في أن يقول "كن فيكون" . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 400 ﴾

(219/55)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (73) ﴾

أراد الله سبحانه أن يحي ميتهم ليفضح بالشهادة على قاتله فأمر بقتل حيوان لهم فجعل سبب حياة مقتولهم قتل حيوان لهم ، صارت الإشارة منه :

أن من أراد حياة قلبه لا يصل إليه إلا بذبح نفسه ؛ فمن ذبح نفسه بالمجاهدات حَيِيَ قلبُه بأنوار المشاهدات ، وكذلك من أراد الله حياةَ ذِكْرِه في الأبدال أمات في الدنيا ذكره بالخمول . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 99 ﴾ .

بسم الله الرحمن الرحيم

الكتاب / الحَاوِي فِي تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

ويسمى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فِي تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العَاجِزُ الْفَقِيرُ

عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مُحَمَّدٍ الْقَمَّاش

إِمَامُ وَخَطِيبُ مَسْجِدِ بُورُسْلِي - رَأْسُ الْخَيمَةِ

دَوْلَةُ الإِمَارَاتِ الْعَرَبِيَّةِ الْمُتَّحِدَةِ

(عَفَا اللهُ عَنْهُ وَغَفَرَ لَهُ)

الجزء السادس والخمسون

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء السادس والخمسون

من الآية ﴿ 74 ﴾ سورة البقرة

وحتى الآية ﴿ 74 ﴾ نفس الآية من السورة

قوله تعالى ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (74) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان حصول المعصية منهم بعد رؤية هذه الخارقة مستبعد التصور فضلاً عن الوقوع أشار إليه بقوله ﴿ ثم قست ﴾ من القسوة وهي اشتداد التصلب والتحجر ﴿ قلوبكم ﴾ ولما كانت لهم حالات يطيعون فيها أتى بالجار فقال ﴿ من بعد ذلك ﴾ أي من بعد ما تقدم وصفه من الخوارق في المراجعات وغيرها تذكيراً لهم بطول إمهاله لهم سبحانه مع توالي كفرهم وعنادهم ، وتحذيراً من مثل ما أحل بأهل السبت ﴿ فهي ﴾ أي فتسبب عن

قسوتها أن كانت ﴿كالحجارة﴾ التي هي أبعد الأشياء عن حالها ، فإن القلب أحيى حيّ والحجر أجمد جامد ، ولم يشبهها بالحديد لما فيه من المنافع ، ولأنه قد يلين .

ولما كانت القلوب بالنظر إلى حياتها ألين لين وبالنظر إلى ثباتها على حالة أصلب شيء كانت بحيث تحير الناظر في أمرها فقال ﴿أو﴾

قال الحرالي : هي كلمة تدل على بَهم الأمر وخفيته فيقع الإبهام والإيهام – انتهى .

وهذا الإبهام بالنسبة إلى الرائين لهم من الآدميين ، وأما الله تعالى فهو العالم بكل شيء قبل خلقه كعلمه به بعد خلقه وزاد أشد مع صحة بناء أفعل من قسى للدلالة على فرط القسوة فقال ﴿أشد قسوة﴾ لأنها لا تلين لما حقه أن يلينها والحجر يلين لما حقه أن يلينه وكل وصف للحي يشابه به ما دونه أقبح فيه مما دونه من حيث إن الحي مهيأ لضد تلك المشابهة بالإدراك .

ولما كان التقدير فإن الحجارة تنفعل بالمزاولة عطف عليه مشيراً إلى مزيد قسوتهم وجلافتهم بالتأكيد قوله : ﴿وإن من الحجارة﴾ وزاد في التأكيد تأكيداً لذلك قوله ﴿لما يتفجر﴾ أي يتفتح بالسعة والكثرة ﴿منه الأنهار﴾ ذكر الكثير من ذلك وتذكيراً بالحجر

المتفجر لهم منه الأنهار بضرب العصا ثم عطف على ذلك ما هو دونه فقال : ﴿ وإن منها لما يشقق ﴾ أي يسيراً بتكلف بما يشير إليه الإدغام والتفعل من التشقق وهو تفعل صيغة التكلف من الشق وهو مصير الشيء في الشقين أي ناحيتين متقابلتين – قاله الحرالي .

﴿ فيخرج منه الماء ﴾ الذي هو دون النهر ، ثم عطف على هذا ما هو أنزل من ذلك فقال : ﴿ وإن منها لما يهبط من خشية الله ﴾ أي ينتقل من مكانه من أعلى الجبل إلى أسفله لأمر الملك الأعلى له بذلك وقلوبكم لانتقاد لشيء من الأوامر فجعل الأمر في حق القلوب لما فيها من العقل كالإرادة في حق الحجارة لما لها من الجمادية وفي ذلك تذكير لهم بالحجارة المتهافتة من الطور عند تجلي الرب .

قال الحرالي : والخشية وجل نفس العالم مما يستعظمه .

ولما كان التقدير : فما أعمالكم – أو : فما أعمالهم ، على قراءة الغيب – مما يرضي الله ؟ عطف عليه ﴿ وما ﴾ ويجوز أن يكون حالاً من قلوبكم أي قست والحال أنه ما ﴿ الله ﴾ أي الذي له الكمال كله ﴿ بغافل ﴾ والغفلة فقد الشعور بما حقه أن يشعر به ﴿ عما تعملون ﴾ فانتظروا عذاباً مثل عذاب أصحاب السبت إما في الدنيا وإما في الآخرة ، ولم

أر ذكر قصة البقرة في التوراة فلعله مما أخفوه لبعض نجاساتهم كما أشير إليه بقوله تعالى :

﴿ تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً ﴾ [الأنعام : 91] والذي رأيت فيها مما يشبه ذلك ويمكن أن يكون مسبباً عنه أنه قال في السفر الخامس منها ما نصه : فإذا وجدتم قتيلاً في الأرض التي يعطيكم الله ربكم مطروحاً لا يعرف قاتله يخرج أشياخكم وقضاتكم ويذرعون ما بين القتيل والقرية ، فأية قرية كانت قريبة من القتيل يأخذ أشياخ تلك القرية عجلاً لم يعمل به عمل ولم يحرث به حرث ، فينزل أشياخ تلك القرية العجل إلى الوادي الذي لم يزرع ولم يحرث فيه حرث يذبحون العجل في ذلك الوادي ويتقدم الأحبار بنو لاوى الذين اختارهم الله ربكم أن يخدموا ويباركوا اسم الرب وعن قولهم يقضي كل قضاء ويضرب كل مضروب ، وجميع أشياخ تلك القرية القريبة من القتيل يغسلون أيديهم فوق العجل المذبوح في الوادي ويحلفون ويقولون : ما سفكت أيدينا هذا الدم وما رأينا من قتله فاغفر يا رب لآل إسرائيل شعبك الذين خلصت ، ولا تؤاخذ شعبك بالدم الزكي ، ويغفر لهم على الدم وأنتم فافحصوا عن الدم واقضوا بالحق وأبعدوا عنكم الإثم واعملوا الحسنات بين يدي الله ربّكم - انتهى .

وهو كما ترى يشبه أن يكون فرع هذا الأصل المذكور في القرآن العظيم . والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 173 . 175 ﴾

فصل

قال الفخر :

الشيء الذي من شأنه بأصل ذاته أن يقبل الأثر عن شيء آخر ثم إنه عرض لذلك القابل ما لأجله صار بحيث لا يقبل الأثر فيقال لذلك القابل : إنه صار صلباً غليظاً قاسياً ، فالجسم من حيث إنه جسم يقبل الأثر عن الغير إلا أن صفة الحجرية لما عرضت للجسم صار جسم الحجر غير قابل وكذلك القلب من شأنه أن يتأثر عن مطالعة الدلائل والآيات والعبر وتأثره عبارة عن ترك التمرد والعتو والاستكبار وإظهار الطاعة والخضوع لله والخوف من الله تعالى ، فإذا عرض للقلب عارض أخرجه عن هذه الصفة صار في عدم التأثر شبيهاً بالحجر فيقال : قسا القلب وغلظ ، ولذلك كان الله تعالى وصف المؤمنين بالرِّقة فقال : ﴿ كتابا متشابها مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الذين يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ [الزمر : 23] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 117 ﴾

فائدة

قال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِّن بَعْدِ ذلك ﴾ القسوة : الصلابة والشدّة واليُبْس .

وهي عبارة عن خلوّها من الإنابة والإذعان لآيات الله تعالى .

قال أبو العالية وقتادة وغيرهما : المراد قلوب جميع بني إسرائيل .

وقال ابن عباس : المراد قلوب ورثة القتيل ؛ لأنهم حين حَيِيَ وأخبر بقاتله وعاد إلى موته أنكروا قتله ، وقالوا : كَذَب ؛ بعد ما رأوا هذه الآية العظمى ؛ فلم يكونوا قط أعمى قلوباً ، ولا أشدّ تكذيباً لنبيّهم منهم عند ذلك ، لكن نفذ حكم الله بقتله .

روى الترمذي عن عبد اللَّه بن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب وإن أبعد الناس من الله القلب القاسي " وفي مسند البزار عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أربعة من الشقاء جمود العين وقساء القلب وطول الأمل والحرص على الدنيا " . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 1 صـ 463 ﴾

فصل

قال الفخر :

قال القفال : يجوز أن يكون المخاطبون بقوله : ﴿ قُلُوبُكُمْ ﴾ أهل الكتاب الذين كانوا في زمان محمد صلى الله عليه وسلم ، أي اشتدت قلوبكم وقست وصلبت من بعد البينات التي جاءت أوائلكم والأمور التي جرت عليهم والعقاب الذي نزل بمن أصر على المعصية منهم والآيات التي جاءهم بها أنبياؤهم والمواثيق التي أخذوها على أنفسهم وعلى كل من دان بالتوراة ممن سواهم ، فاخبر بذلك عن طغيانهم وجفائهم مع ما عندهم من العلم بآيات الله التي تلين عندها القلوب ، وهذا أولى لأن قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ خطاب مشافهة ، فحمله على الحاضرين أولى ، ويحتمل أيضاً أن يكون المراد أولئك اليهود الذين كانوا في زمن موسى عليه السلام خصوصاً ، ويجوز أن يريد من قبلهم من سلفهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 117. 118 ﴾

فصل

قال الفخر :

قوله تعالى : ﴿ مِن بَعْدِ ذلك ﴾ يحتمل أن يكون المراد من بعد ما أظهره الله تعالى من إحياء ذلك القتيل عند ضربه ببعض البقرة المذبوحة حتى عين القاتل ، فإنه روي أن ذلك القتيل لما عين القاتل نسبه القاتل إلى الكذب وما ترك الإنكار ، بل طلب الفتنة وساعده عليه جمع ، فعنده قال تعالى واصفاً لهم : إنهم بعد ظهور مثل هذه الآية قست قلوبهم ، أي صارت قلوبهم بعد ظهور مثل هذه الآية في القسوة كالحجارة ويحتمل أن يكون قوله : ﴿ مِن بَعْدِ

ذلك ﴾ إشارة إلى جميع ما عدد الله سبحانه من النعم العظيمة والآيات الباهرة التي أظهرها على يد موسى عليه السلام ، فإن أولئك اليهود بعد أن كثرت مشاهدتهم لها ما خلوا من العناد والاعتراض على موسى عليه السلام وذلك بين في أخبارهم في التيه لمن نظر فيها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 118 ﴾

قوله تعالى ﴿ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾

فصل

قال الفخر :

كلمة " أو " للترديد وهي لا تليق بعلام الغيوب ، فلا بد من التأويل وهو وجوه .

أحدها : أنها بمعنى الواو كقوله تعالى : ﴿ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ [الصافات : 147] بمعنى ويزيدون ، وكقوله تعالى : ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لبعولتهن أو آبائهن ﴾ [النور : 31] والمعنى وآبائهن وكقوله : ﴿ أن تأكلوا من بيوتكم أو بيوت آبائكم ﴾ [النور : 61] يعني وبيوت آبائكم .

ومن نظائره قوله تعالى : ﴿ لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يخشى ﴾ [طه : 44] ، ﴿ فالملقيات ذكراً

عذراً أو نذراً ﴾ [المرسلات : 5 ، 6] .

وثانيها : أنه تعالى أراد أن يبهمه على العباد فقال ذلك كما يقول المرء لغيره : أكلت خبزاً أو تمراً وهو لا يشك أنه أكل أحدهما إذا أراد أن يبينه لصاحبه .

وثالثها : أن يكون المراد فهي كالحجارة ، ومنها ما هو أشد قسوة من الحجارة ، ورابعها : أن الآدميين إذا اطلعوا على أحوال قلوبهم قالوا : إنها كالحجارة أو هي أشد قسوة من الحجارة وهو المراد في قوله : ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أدنى ﴾ [النجم : 9] أي في نظركم واعتقادكم .

وخامسها : أن كلمة " أو " بمعنى بل وأنشدوا :

فوالله ما أدري أسلمى تغولت . . أم القوم أو كل إلي حبيب

قالوا : أراد بل كل .

وسادسها : أنه على حد قولك ما آكل إلا حلواً أو حامضاً أي طعامي لا يخرج عن هذين ، بل يتردد عليهما ، وبالجملة : فليس الغرض إيقاع التردد بينهما ، بل نفي غيرهما .

وسابعها : أن " أو " حرف إباحة كأنه قيل بأي هذين شبهت قلوبهم كان صدقاً كقولك : جالس الحسن أو ابن سيرين أي أيهما جالست كنت مصيباً ولو جالستهما معاً كنت مصيباً أيضاً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 118 ﴾

فائدة

قال الفخر :

إنما وصفها بأنها أشد قسوة لوجوه .

أحدها : أن الحجارة لو كانت عاقلة ولقيتها هذه الآية لقبلتها كما قال : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هذا القرءان على جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خاشعا مُّتَصَدّعاً مّنْ خَشْيَةِ الله ﴾ [الحشر : 21] .

(10/56)

وثانيها : أن الحجارة ليس فيها امتناع مما يحدث فيها بأمر الله تعالى وإن كانت قاسية بل هي منصرفة على مراد الله غير ممتنعة من تسخيره ، وهؤلاء مع ما وصفنا من أحوالهم في اتصال الآيات عندهم وتتابع النعم من الله عليهم يمتنعون من طاعته ولا تلين قلوبهم لمعرفة حقه وهو كقوله تعالى : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى الأرض وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ ﴾ [الأنعام : 38] إلى قوله تعالى : ﴿ والذين كَذَّبُواْ بِاياتنا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى الظلمات ﴾ [الأنعام : 39] كأن المعنى أن الحيوانات من غير بني آدم أمم سخر كل واحد منها لشيء وهو منقاد لما أريد منه وهؤلاء الكفار يمتنعون عما أراد الله منهم .

وثالثها : أو أشد قسوة ، لأن الأحجار ينتفع بها من بعض الوجوه ، ويظهر منها الماء في بعض الأحوال ، أما قلوب هؤلاء فلا نفع فيها ألبتة ولا تلين لطاعة الله بوجه من الوجوه . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 119 ﴾

فصل

قال الفخر :

قال القاضي : إن كان تعالى هو الخالق فيهم الدوام على ما هم عليه من الكفر ، فكيف يحسن ذمهم بهذه الطريقة ولو أن موسى عليه السلام خاطبهم فقالوا له : إن الذي خلق الصلابة في الحجارة هو الذي خلق في قلوبنا القسوة والخالق في الحجارة انفجار الأنهار هو القادر على أن ينقلنا عما نحن عليه من الكفر بخلق الإيمان فينا ، فإذا لم يفعل فعذرنا ظاهر لكانت حجتهم عليه أوكد من حجته عليهم ، وهذا النمط من الكلام قد تقدم تقريراً وتفريعاً مراراً وأطواراً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 119 ﴾

فائدة

قال الفخر :

إنما قال : ﴿ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ ولم يقل أقسى ، لأن ذلك أدل على فرط القسوة ووجه آخر وهو أن لا يقصد معنى الأقسى ، ولكن قصد وصف القسوة بالشدة كأنه قيل : اشتدت قسوة الحجارة وقلوبهم أشد قسوة ، وقرىء " قساوة" وترك ضمير المفضل عليه لعدم الالباس كقولك : زيد كريم وعمرو أكرم .

ثم إنه سبحانه وتعالى فضل الحجارة على قلوبهم بأن بين أن الحجارة قد يحصل منها ثلاثة أنواع من المنافع ، ولا يوجد في قلوب هؤلاء شيء من المنافع .

فأولها : قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنَ الحجارة لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأنهار ﴾ . انتهى انتهى . اهـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 119 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَإِنَّ مِنَ الحجارة لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأنهار ﴾ .

فصل

قال الفخر :

التفجر التفتح بالسعة والكثرة ، يقال : انفجرت قرحة فلان ، أي انشقت بالمدة ومنه الفجر والفجور .

وقرأ مالك بن دينار " ينفجر " بمعنى وإن من الحجارة ما ينشق فيخرج منه الماء الذي يجري حتى تكون منه الأنهار .

قالت الحكماء : إن الأنهار إنما تتولد عن أبخرة تجتمع في باطن الأرض ، فإن كان ظاهر الأرض رخواً انشقت تلك الأبخرة وانفصلت ، وإن كان ظاهر الأرض صلباً حجرياً اجتمعت تلك الأبخرة ، ولا يزال يتصل تواليها بسوابقها حتى تكثر كثرة عظيمة فيعرض حينئذ من كثرتها وتواتر مدها أن تنشق الأرض وتسيل تلك المياه أودية وأنهاراً .

وثانيها : قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الماء ﴾ ، أي من الحجارة لما ينصدع فيخرج منه الماء فيكون عيناً لا نهراً جارياً ، أي أن الحجارة قد تندى بالماء الكثير وبالماء القليل ، وفي ذلك دليل تفاوت الرطوبة فيها ، وأنها قد تكثر في حال حتى يخرج منها ما يجري منه الأنهار ، وقد تقل ، وهؤلاء قلوبهم في نهاية الصلابة لا تندى بقبول شيء من المواعظ ولا تنشرح لذلك ولا تتوجه إلى الاهتداء وقوله تعالى : ﴿ يَشَّقَّقُ ﴾ أي يتشقق ، فأدغم التاء كقوله : ﴿ يَذَّكَّرُ ﴾ أي يتذكر وقوله : ﴿ يا أيها المزمل ﴾ [المزمل : 1] ، ﴿ يا أيها المدثر ﴾ [المدثر : 1] .

وثالثها : قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ الله ﴾ .

واعلم أن فيه إشكالاً وهو أن الهبوط من خشية الله صفة الأحياء العقلاء ، والحجر جماد فلا يتحقق ذلك فيه ، فلهذا الإشكال ذكروا في هذه الآية وجوهاً .

أحدها : قول أبي مسلم خاصة وهو أن الضمير في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنْهَا ﴾ راجع إلى القلوب ، فإنه يجوز عليها الخشية والحجارة لا يجوز عليها الخشية : وقد تقدم ذكر القلوب كما تقدم ذكر الحجارة ، أقصى ما في الباب أن الحجارة أقرب المذكورين ، إلا أن هذا

الوصف لما كان لائقاً بالقلوب دون الحجارة وجب رجوع هذا الضمير إلى القلوب دون الحجارة ، واعترضوا عليه من وجهين .

الأول : أن قوله تعالى : ﴿ فَهِيَ كالحجارة أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ جملة تامة ، ثم ابتدأ تعالى فذكر حال الحجارة بقوله : ﴿ وَإِنَّ مِنَ الحجارة لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأنهار ﴾ فيجب في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ الله ﴾ أن يكون راجعاً إليها ، الثاني : أن الهبوط يليق بالحجارة لا بالقلوب ، فليس تأويل الهبوط أولى من تأويل الخشية ، وثانيها : قول جمع من المفسرين : إن الضمير عائد إلى الحجارة ، لكن لا نسلم أن الحجارة ليست حية عاقلة ، بيانه أن المراد من ذلك جبل موسى عليه السلام حين تقطع وتجلى له ربه ، وذلك لأن الله سبحانه وتعالى خلق فيه الحياة والعقل والإدراك ، وهذا غير مستبعد في قدرة الله ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُواْ أَنطَقَنَا الله الذى أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ [فصلت : 21] ، فكما جعل الجلد ينطق ويسمع ويعقل ، فكذلك الجبل وصفه بالخشية ، وقال أيضاً : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هذا القرءان على جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خاشعا مُّتَصَدّعاً مّنْ خَشْيَةِ الله ﴾ [الحشر : 21] ، والتقدير أنه تعالى لو جعل فيه العقل والفهم لصار كذلك ، وروي أنه حن

الجزع لصعود رسول الله صلى الله عليه وسلم المنبر ، وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه لما أتاه الوحي في أول المبعث وانصرف النبي صلى الله عليه وسلم إلى منزله سلمت عليه الأحجار والأشجار ، فكلها كانت تقول : السلام عليك يا رسول الله ، قالوا : فغير ممتنع أن يخلق في بعض الأحجار عقل وفهم حتى تحصل الخشية فيه ، وأنكرت المعتزلة هذا التأويل لما أن عندهم البنية واعتدال المزاج شرط قبول الحياة والعقل ، ولا دلالة لهم على اشتراط البنية إلا مجرد الاستبعاد ، فوجب أن لا يلتفت إليهم .

(14/56)

وثالثها : قول أكثر المفسرين وهو أن الضمير عائد إلى الحجارة ، وأن الحجارة لا تعقل ولا تفهم ، وذكروا على هذا القول أنواعاً من التأويل .

الأول : أن من الحجارة ما يتردى من الموضع العالي الذي يكون فيه فينزل إلى أسفل وهؤلاء الكفار مصرون على العناد والتكبر ، فكأن الهبوط من العلو جعل مثلاً للانقياد ، وقوله : ﴿ مِّنْ خَشْيَةِ اللهِ ﴾ ، أي ذلك الهبوط لو وجد من العاقل المختار لكان به خاشياً لله وهو كقوله : ﴿ فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ ﴾ [الكهف : 77] ، أي جداراً قد ظهر فيه الميلان ومقاربة السقوط ما لو ظهر مثله في حي مختار لكان مريداً للانقضاض ،

ونحو هذا قول بعضهم :

بخيل تضل البلق من حجراته . . ترى الأكم فيه سجداً للحوافر

وقول جرير :

لما أتى خبر الزبير تضعضعت . . سور المدينة والجبال الخشع

فجعل الأول ما ظهر في الأكم من أثر الحوافر مع عدم امتناعها من دفع ذلك عن نفسها كالسجود منها للحوافر ، وكذلك الثاني : جعل ما ظهر في أهل المدينة من آثار الجزع كالخشوع .

وعلى هذا الوجه تأول أهل النظر قوله تعالى : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السموات السبع والأرض وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ [الإسرا : 44] ، وقوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى السموات وَمَا فِى الأرض ﴾ [النحل : 49] الآية ، وقوله تعالى : ﴿ والنجم والشجر يَسْجُدَانِ ﴾ [الرحمن : 6] .

الوجه الثاني : في التأويل : أن قوله تعالى : ﴿ مِّنْ خَشْيَةِ الله ﴾ أي ومن الحجارة ما ينزل وما ينشق ويتزايل بعضه عن بعض ، عند الزلازل من أجل ما يريد الله بذلك من خشية عباده له وفزعهم إليه بالدعاء والتوبة .

وتحقيقه أنه لما كان المقصود الأصلي من إهباط الأحجار في الزلازل الشديدة أن تحصل خشية الله تعالى في قلوب العباد صارت تلك الخشية كالعلة المؤثرة في حصول ذلك الهبوط ، فكلمة " من " لابتداء الغاية فقوله : ﴿ مِّنْ خَشْيَةِ الله ﴾ ، أي بسبب أن تحصل خشية الله في القلوب ، الوجه الثالث : ما ذكره الجبائي وهو أنه فسر الحجارة بالبرد الذي يهبط من السحاب تخويفاً من الله تعالى لعباده ليزجرهم به .

قال وقوله تعالى : ﴿ مِّنْ خَشْيَةِ الله ﴾ أي خشية الله ، أي ينزل بالتخويف للعباد أو بما يوجب الخشية لله كما يقال : نزل القرآن بتحريم كذا وتحليل كذا أي بإيجاب ذلك على الناس ، قال القاضي : هذا التأويل ترك للظاهر من غير ضرورة لأن البرد لا يوصف بالحجارة ، لأنه وإن اشتد عند النزول فهو ماء في الحقيقة ولأنه لا يليق ذلك بالتسمية .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 119 . 121 ﴾

قال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ الله ﴾ يقول : إنّ من الحجارة ما هو أنفع من قلوبكم ؛ لخروج الماء منها وتردّيها .

قال مجاهد : ما تردّى حجر من رأس جبل ، ولا تفجّر نهر من حجر ، ولا خرج منه ماء إلا من خشية الله ؛ نزل بذلك القرآن الكريم .

ومثله عن ابن جُرَيج .

وقال بعض المتكلمين في قوله : ﴿ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ ﴾ : البَرَد الهابط من السحاب .

وقيل : لفظة الهبوط مجاز ؛ وذلك أن الحجارة لما كانت القلوب تعتبر بخلقها ، وتخشع بالنظر إليها ، أضيف تواضع الناظر إليها ؛ كما قالت العرب : ناقة تاجرة ؛ أي تبعث من يراها على شرائها .

وحكى الطبريّ عن فرقة أن الخشية للحجارة مستعارة ؛ كما استعيرت الإرادة للجدار في قوله : ﴿ يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ ﴾ [الكهف : 77] ، وكما قال زيد الخيل :

لما أتى خبر الزبير تواضعت . . .

سورُ المدينة والجبالُ الخُشَّعُ

وذكر ابن بحر أن الضمير في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنْهَا ﴾ راجع إلى القلوب لا إلى الحجارة ؛ أي من القلوب لما يخضع من خشية الله .

قلت : كل ما قيل يحتمله اللفظ ، والأوّل صحيح ؛ فإنه لا يمتنع أن يعطى بعض الجمادات

المعرفة فيعقل ، كالذي رُوِيَ عن الجِذع الذي كان يستند إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خطب ، فلما تحوّل عنه حنّ ؛ وثبت عنه أنه قال : " إن حجراً كان يسلّم عليّ في الجاهلية إني لأعرفه الآن " وكما روي أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " قال لي ثَبِير اهبط فإني أخاف أن يقتلوك على ظهري فيعذبني الله " فناداه حراء : إليّ يا رسول الله .

وفي التنزيل : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأمانة عَلَى السماوات والأرض والجبال ﴾ [الأحزاب : 72] الآية .

وقال : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هذا القرآن على جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُّتَصَدّعاً مِّنْ خَشْيَةِ الله ﴾ [الحشر : 21] يعني تذللاً وخضوعاً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 1 صـ 466.465 ﴾

فصل

قال الفخر :

قوله تعالى ﴿ وَمَا الله بغافل عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

فصل

قال الفخر :

أما قوله تعالى : ﴿ وَمَا الله بغافل عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ فالمعنى أن الله تعالى بالمرصاد لهؤلاء القاسية قلوبهم وحافظ لأعمالهم محصي لها فهو يجازيهم بها في الدنيا والآخرة وهو كقوله

تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً ﴾ [مريم : 64] وفي هذا وعيد لهم وتخويف كبير لينزجروا .

فإن قيل : هل يصح أن يوصف الله بأنه ليس بغافل ؟ قلنا : قال القاضي : لا يصح لأنه يوهم جواز الغفلة عليه وليس الأمر كذلك لأن نفي الصفة عن الشيء لا يستلزم ثبوت صحتها عليه ، بدليل قوله تعالى : ﴿ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ ﴾ [البقرة : 255] ﴿ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ ﴾ [الأنعام : 14] والله أعلم . انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 121 ﴾

(17/56)

لطيفة

قال فى البحر المديد :

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ ﴾ [البَقَرَة : 74] كذلك القلوب القاسية إذا لانت بالإنابة إلى ربها ، والرجوع عن مألوفاتها ، تتفجر منها أنهار العلوم ، وتشقق منها أسرار الحِكَم ، ومنها من تذوب من هيبة المتجلي لها ، فتندك جبالها ، وتزلزل أرض نفوسها ، كما قال القائل :

لَو عَايَنتْ عَينَاكَ يومَ تزلزلتْ . . . أَرضُ النفُوس ودُكَّتِ الأَجْبَالُ

لَرأَيتَ شَمسَ الحقِّ يسطعُ نورُها . . . حِينَ التزَلْزلِ ، والرجَالُ رجالُ . والله تعالى أعلم .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المديد حـ 1 صـ 122 ﴾

(18/56)

فصل

قال البغوى :

قوله تعالى ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ يبست وجفت ، جفاف القلب : خروج الرحمة واللين عنه ، وقيل : غلظت ، وقيل : اسودت ، ﴿ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ ﴾ بعد ظهور الدلالات . قال الكلبي : قالوا بعد ذلك : نحن لم نقتله ، فلم يكونوا قط أعمى قلبا ولا أشد تكذيبا لنبيهم منهم عند ذلك ﴿ فهي ﴾ أي في الغلظة والشدة ﴿ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ قيل : أو بمعنى بل وقيل : بمعنى الواو كقوله تعالى : " مائة ألف أو يزيدون " (147 - الصافات) أي : بل يزيدون أو ويزيدون ، وإنما لم يشبهها بالحديد مع أنه أصلب من الحجارة ، لأن الحديد قابل للين فإنه يلين بالنار ، وقد لان لداود عليه السلام ، والحجارة لا تلين قط ، ثم فضل الحجارة على القلب القاسي فقال : ﴿ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ ﴾

قيل : أراد به (جميع) الحجارة ، وقيل : أراد به الحجر الذي كان يضرب عليه موسى للأسباط ﴿ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الماء ﴾ أراد به عيونا دون الأنهار ﴿ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ ﴾ ينزل من أعلى الجبل إلى أسفله ﴿ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ وقلوبكم لا تلين ولا تخشع يا معشر اليهود . فإن قيل : الحجر جماد لا يفهم ، فكيف (يخشى) ؟

قيل : الله يفهمه ويلهمه فيخشى بإلهامه .

(19/56)

ومذهب أهل السنة والجماعة أن لله تعالى علما في الجمادات وسائر الحيوانات سوى العقل ، لا يقف عليه غيره ، فلها صلاة وتسبيح وخشية كما قال جل ذكره : " وإن من شيء إلا يسبح بحمده " (44 - الإسراء) وقال " والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه " (41 - النور) وقال : " ألم تر أن الله يسجد له من في السماوات ومن في الأرض والشمس والقمر " (18 - الحج) الآية ، فيجب على (المؤمن) الإيمان به ويكل علمه إلى الله سبحانه وتعالى ، ويروى أن النبي صلى الله عليه وسلم كان على ثبير والكفار يطلبونه فقال الجبل : انزل عني فإني أخاف أن تؤخذ علي فيعاقبني الله بذلك فقال له جبل حراء : إلي يا رسول الله " .

أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي ثنا السيد أبو الحسن محمد بن الحسين العلوي أنا أحمد بن محمد بن عبد الوهاب النيسابوري أنا محمد بن إسماعيل الصائغ أنا يحيى بن أبي بكر أنا إبراهيم بن طهمان عن سماك بن حرب عن جابر بن سمرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إني لأعرف حجرا بمكة كان يسلم علي قبل أن أبعث وإني لأعرفه الآن" (1) [هذا حديث صحيح أخرجه مسلم عن أبي بكر بن أبي شيبة عن يحيى بن أبي بكر . وصح عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم طلع على أحد فقال : " هذا جبل يحبنا ونحبه" (2) وروي عن أبي هريرة يقول ، صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الصبح ثم أقبل على الناس بوجهه وقال : " بينما رجل يسوق بقرة إذ عيي فركبها فضربها فقالت : إنا لم نخلق لهذا ، إنما خلقنا لحراثة الأرض" فقال الناس : سبحان الله بقرة تتكلم ! ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " فإني أومن به أنا وأبو بكر وعمر وما هما ثم" وقال : " بينما رجل في غنم له إذ عدا الذئب على شاة منها فأدركها صاحبها فاستنقذها ، فقال الذئب : فمن لها يوم السبع ؟ أي يوم القيامة ، يوم لا راعي لها غيري" فقال الناس : سبحان الله ذئب

---

(1) رواه مسلم : في الفضائل : باب فضل نسب النبي صلى الله عليه وسلم وتسليم الحجر عليه قبل النبوة برقم (2277) 4 / 1782 . والبغوي في شرح السنة : 13 / 287 ، وعنه أصلحنا بعض الأغلاط في السند الذي سقط من الأصل .

(2) رواه البخاري : في الجهاد – باب فضل الخدمة في الغزو 6 / 83 – 84 . وفي الأطعمة وفي الزكاة وفي الأنبياء . ومسلم : في الفضائل – باب : في معجزات النبي صلى الله عليه سلم برقم (1392) 4 / 1785 . والبغوى في شرح السنة : 11 / 25 .

يتكلم ؟ فقال " أومن به أنا وأبو بكر وعمر وما هما ثم" (1) ، وصح عن أبي هريرة قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم على حراء وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير فتحركت الصخرة فقال النبي صلى الله عليه وسلم " اهدأ أي : اسكن . فما عليك إلا نبي أو صديق أو شهيد " (2) صحيح أخرجه مسلم .

أنا أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أبو سعيد يحيى بن أحمد بن علي الصانع أنا أبو الحسن علي بن إسحاق بن هشام الرازي أنا محمد بن أيوب بن ضريس البجلي الرازي أنا محمد بن الصباح عن الوليد بن أبي ثور عن السدي عن عبادة بن أبي يزيد] عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : "كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة فخرجنا في نواحيها خارجا من مكة بين الجبال والشجر ، فلم يمر بشجرة ولا جبل إلا قال السلام عليك يا رسول الله" (3) .

---

(1) رواه البخاري في الأنبياء : 6 / 512 ، وفي الحرث والمزارعة ، وفي فضائل أصحاب النبي ، ومسلم في فضائل الصحابة ، باب من فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، برقم (2388) 4 / 1857 . والمصنف في شرح السنة : 14 / 96 - 97 .

(2) رواه البخاري : في فضائل أصحاب النبي - باب : مناقب عثمان بن عفان : 7 / 53 . ومسلم : في فضائل الصحابة - باب : من فضائل طلحة والزبير رضي الله عنهما برقم (2417) 4 / 1480 . والمصنف في شرح السنة : 14 / 127 بلفظ :

فتحركت الصخرة فقال النبي صلى الله عليه وسلم : اهدئي فما عليك إلا

. . . . . .

(3) رواه الترمذي : في المناقب باب : الشجر والحجر يسلمان على النبي 10 / 99 - 100 وقال : حسن غريب ، والدارمي في المقدمة : 1 / 12 . والمصنف في شرح السنة : 13 / 287 وقال هذا حديث غريب وفي سنده إسماعيل بن عبد الرحمن بن أبي كريمة السدي وعباد بن أبي يزيد ضعيف ومجهول التقريب ، ميزان الاعتدال 2 / 378 .

أنا أبو الحسن عبد الوهاب بن محمد الخطيب أنا عبد العزيز بن أحمد الخلال أنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أنا الشافعي أنا عبد المجيد بن عبد العزيز عن ابن جريج أخبرني أبو الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله رضي الله عنه يقول : "كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا خطب استند إلى جذع نخلة من سواري المسجد ، فلما صنع له المنبر فاستوى عليه اضطربت تلك السارية وحنت كحنين الناقة حتى سمعها أهل المسجد ، حتى نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعتنقها فسكنت" (1) .

قال مجاهد : لا ينزل حجر من أعلى إلى الأسفل إلا من خشية الله ، ويشهد لما قلنا قوله تعالى " لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون" (21 – الحشر) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البغوى حـ 1 صـ 110.112 ﴾

ومن فوائد الماوردى فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم ﴾ اختلف في المُشَار إليه بالقسوة ، على قولين :

---

(1) رواه الترمذي : 10 / 100 – 101 عن أنس ، وقال حديث أنس هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه . وابن ماجه : في إقامة الصلاة برقم (1414) .

وأحمد : 1 / 349 ومواضع أخرى ، والدارمي في المقدمة – باب : ما أكرم الله النبي صلى الله عليه وسلم بحنين المنبر : 1 / 16 وعند البخاري والنسائي بمعناه .

أحدهما : بنو أخي الميت حين أنكروا قتله ، بعد أن سمعوه منه عند إحياء الله له ، وهو قول ابن عباس .

والثاني : أنه أشار إلى بني إسرائيل كلهم ، ومن قال بهذا قال : من بعد ذلك : أي من بعد آياته كلها التي أظهرها على موسى .

وفي قسوتها وجهان :

أحدهما : صلابتها حتى لا تلين .

والثاني : عنفها حتى لا ترأف .

وفي قوله تعالى : ﴿ مِّنْ بَعْدِ ذِلِكَ ﴾ وجهان :

أحدهما : من بعد إحياء الموتى ، ويكون هذا الخطاب راجعاً إلى جماعتهم .

والثاني : من بعد كلام القتيل ، ويكون الخطاب راجعاً إلى بني أخيه .

وقوله تعالى : ﴿ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ يعني القلوب التي قست .

واختلف العلماء في معنى ﴿ أَوْ ﴾ في هذا الموضع وأشباهه كقوله تعالى : ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوسَينِ أَوْ أَدْنَى ﴾ [النجم : 9] على خمسة أقاويل :

أحدها : أنه إبهام على المخاطبين ، وإن كان الله تعالى عالماً ، أي ذلك هو ، كما قال أبو الأسود الدؤلي :

أحب محمداً حباً شديداً . . . وعباساً وحمزة أو علياً

فإن يك حبهم رشداً أُصِبه . . . ولستُ بمخطئ إن كان غياً

ولا شَكَّ ، أن أبا الأسود الدؤلي ، لم يكن شاكّاً في حبّهم ، ولكن أَبْهَمَ على مَنْ خاطبه ، وقد قِيل لأبي الأسود حين قال ذلك : شَكَكْتُ ، فقال كلا ، ثم استشهد بقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّا إِيَّاكُم لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [سبأ : 24] وقال : أفكان شاكاً مَنْ أخبر بهذا ؟

والثاني : أن ﴿ أَوْ ﴾ ها هنا بمعنى الواو ، وتقديره فهو كالحجارة وأشد قسوة ، ومثله قول جرير :

جاءَ الخلافة أو كانت له قدرا . . . كما أتى ربَّه موسى على قَدَرِ

والثالث : أن ﴿ أَوْ ﴾ في هذا الموضع ، بمعنى بل أشد قسوة ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلى مائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ [الصافات : 147] يعني بل يزيدون .

والرابع : أن معناها الإباحة وتقديره ، فإن شبهتموها بالحجارة كانت مثلها ، وإن شبهتموها بما هو أشد ، كانت مثلها .

والخامس : فهي كالحجارة ، أو أشد قسوة عندكم .

ثم قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ ﴾ يعني أن من الحجارة ما هو أنفع من قلوبكم القاسية ، لِتَفَجّرِ الأنهار منها .

ثم قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ ﴾ فاختلفوا في ضمير الهاء في " منها " ، إلى ماذا يرجع ؟ على قولين :

أحدهما : إلى القلوب لا إلى الحجارة ، فيكون معنى الكلام : وإن من القلوب لما يخضع من خشية الله ، ذكره ابن بحر .

والقول الثاني : أنها ترجع إلى الحجارة ، لأنها أقرب مذكور .

واختلف من قال بهذا ، في هذه الحجارة على قولين :

أحدهما : أنها البرد الهابط من السَّحاب ، وهذا قول تفرد به بعض المتكلمين .

والثاني : وهو قول جمهور المفسرين : أنها حجارة الجبال الصلدة ، لأنها أشد صلابة .

واختلف من قال بهذا على قولين :

أحدهما : أنه الجبل الذي جعله الله دَكاً ، حين كلم موسى .

والثاني : أنه عام في جميع الجبال .

واختلف من قال بهذا ، في تأويل هبوطها ، على أربعة أقاويل :

أحدها : إن هبوط ما هبط من خشية الله ، نزل في ذلك القرآن .

والثاني : . . . . . .

والثالث : أن مِنْ عَظَم مَنْ أمر الله ، يُرَى كأنه هابط خاشع ، كما قال جرير :

لما أتى خبر الزبير تواضعت . . . سور المدينة والجبال الخشّع

(24/56)

والرابع : أن الله أعطى بعض الجبال المعرفة ، فعقل طاعة الله ، فأطاعه ، كالذي رُوِيَ عن الجذع ، الذي كان يستند إليه النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما تحول عنه حَنَّ ، رُوِيَ عن النبي أنه قال : " إِنَّ حَجَراً كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ فِي الجاهِلِيَّةِ إِنِّي لأَعْرِفُهُ الآنَ " ويكون معنى الكلام ، إِنَّ من الجبال ما لو نزل عليه القرآن ، لهبط من خشية الله تذللاً وخضوعاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 1 صـ 144 . 147 ﴾

ومن فوائد ابن عطية فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ قست ﴾ أي صلبت وجفت ، وهي عبارة عن خلوها من الإنابة والإذعان لآيات الله تعالى ، وقال ابن عباس : المراد قلوب ورثة القتيل ، لأنهم حين حيي قال : إنهم قتلوه وعاد إلى حال موته موته أنكروا قتله ، وقالوا : كذب بعد ما رأوا هذه الآية العظمى ، لكن نفذ حكم الله تعالى بقتلهم ، قال عبيدة السلماني : ولم يرث قاتل من حينئذ .

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه : وبمثله جاء شرعنا ، وحكى مالك رحمه الله في الموطأ ، أن قصة أحيحة بن الجلاح في عمه هي التي كانت سبباً لأن لا يرث قاتل : ثم ثبت ذلك الإسلام ، كما ثبت كثيراً من نوازل الجاهلية ، وقال أبو العالية وقتادة وغيرهما : إنما أراد الله قلوب بني إسرائيل جميعاً في معاصيهم وما ركبوه بعد ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ فهي كالحجارة ﴾ الآية ، الكاف في موضع رفع خبر ل " هي " ، تقديره : فهي مثل الحجارة ﴿ أو أشد ﴾ مرتفع بالعطف على الكاف ، ﴿ أو ﴾ على خبر ابتداء بتقدير تكرار هي ، و ﴿ قسوة ﴾ نصب على التمييز ، والعرف في ﴿ أو ﴾ أنها للشك ، وذلك لا يصح في هذه الآية ، واختلف في معنى ﴿ أو ﴾ هنا ، فقالت طائفة ، هي بمعنى الواو ، كما قال تعالى : ﴿ آثماً أو كفوراً ﴾ [الإنسان : 24] أي وكفوراً ، وكما قال الشاعر [جرير] : [البسيط]

نال الخلافة أو كانَتْ له قدراً . . . كما أتى ربَّهُ موسى على قَدَر

أي وكانت له . وقالت طائفة هي بمعنى بل ، كقوله تعالى : ﴿ إلى مائة ألف أو يزيدون ﴾ [الصافات : 147] المعنى بل يزيدون ، وقالت طائفة : معناها التخيير ، أي : شبهوها بالحجارة تصيبوا ، أو بأشد من الحجارة تصيبوا ، وقالت فرقة : هي على بابها في الشك . ومعناه : عندكم أيها المخاطبون وفي نظركم ، أن لو شاهدتم قسوتها لشككتم أهي كالحجارة أو أشد من الحجارة . وقالت فرقة : هي على جهة الإبهام على المخاطب ، ومنه قول أبي الأسود الدؤلي :

أحب محمّداً حباً شديداً . . . وعباساً وحمزة أو عليّا

ولم يشك أبو الأسود ، وإنما قصد الإبهام على السامع ، وقد عورض أبو الأسود في هذا ، فاحتجّ بقول الله تعالى : ﴿ وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين ﴾ [سبأ : 24] ، وهذه الآية مفارقة لبيت أبي الأسود ، ولا يتم معنى الآية إلا ب " أو " ، وقالت فرقة : إنما أراد الله تعالى أن فيهم من قلبه كالحجر ، وفيهم من قلبه أشد من الحجر ، فالمعنى فهي فرقتان كالحجارة أو أشد ، ومثل هذا قولك : أطعمتك الحلو أو الحامض ، تريد أنه لم يخرج ما أطعمته عن هذين ، وقالت فرقة : إنما أراد عز وجل أنها كانت كالحجارة يترجى لها الرجوع والإنابة ، كما تتفجر الأنهار ويخرج الماء من الحجارة ، ثم زادت قلوبهم بعد ذلك

قسوة بأن صارت في حد من لا ترجى إنابته ، فصارت أشد من الحجارة ، فلم تخل أن كانت كالحجارة طوراً أو أشد طوراً ، وقرأ أبو حيوة : " قساوة " ، والمعنى واحد .

وقوله تعالى : ﴿ وإن من الحجارة ﴾ الآية ، معذرة للحجارة وتفضيل لها على قلوبهم في معنى قلة القسوة ، وقال قتادة : عذر الله تعالى الحجارة ولم يعذر شقيّ بني آدم ، وقرأ قتادة : " وإنْ " مخففة من الثقيلة ، وكذلك في الثانية والثالثة ، وفرق بينها وبين النافية لام التأكيد ، في ﴿ لما ﴾ ، وما في موضع نصب اسم ل ﴿ إن ﴾ ، ودخلت اللام على اسم ﴿ إن ﴾ لمّا حال بينهما المجرور ، ولو اتصل الاسم ب ﴿ إن ﴾ لم يصح دخول اللام لثقل اجتماع تأكيدين ، وقرأ مالك بن دينار : " ينفجِر " بالنون وياء من تحت قبلها وكسر الجيم ، ووحد الضمير في ﴿ منه ﴾ حملاً على لفظ " ما " ، وقرأ أبي بن كعب والضحاك " منها الأنهار " حملاً على الحجارة ، و ﴿ الأنهار ﴾ جمع نهر وهو ما كثر ماؤه جرياً من الأخاديد ، وقرأ طلحة بن مصرف : " لّما " بتشديد الميم في الموضعين ، وهي قراءة غير متجهة ، ﴿ ويشقق ﴾ أصله يتشقق أدغمت التاء في الشين ، وهذه عبارة عن العيون التي لم تعظم حتى تكون أنهاراً ، أو عن الحجارة التي تشقق وإن لم يجر ماء منسفح ، وقرأ ابن مصرف

ينشقق بالنون ، وقيل في هبوط الحجارة تفيؤ ظلالها ، وقيل المراد : الجبل الذي جعله الله دكاً ، وقيل : إن الله تعالى يخلق في بعض الأحجار خشية وحياة يهبطها من علو تواضعاً ، ونظير هذه الحياة حياة الحجر المسلم على النبي صلى الله عليه وسلم ، وحياة الجذع الذي أَنَّ لفقد النبي صلى الله عليه وسلم ، وقيل لفظة الهبوط مجاز لما كانت الحجارة يعتبر بخلقها ويخشع بعض مناظرها ، أضيف تواضع الناظر إليها ، كما قالت العرب : ناقة تاجرة أي : تبعث من يراها على شرائها ، وقال مجاهد ، ما تدرى حجر من رأس جبل ولا تفجر نهر من حجر ولا خرج ماء منه إلا ﴿ من خشية الله ﴾ ، نزل بذلك القرآن ، وقال مثله ابن جريج ، وحكى الطبري عن فرقة أن الخشية للحجارة مستعارة كما استعيرت الإرادة للجدار في قوله تعالى ﴿ يريد أن ينقض ﴾ [الكهف : 77] ،

وكما قال زيد الخيل : [الطويل]

بِجمعٍ تضِل البُلْقُ في حَجَراتِهِ . . . ترى الأكَمَ فيه سجداً للحوافرِ

وكما قال جرير : والجبال الخشع ، أي من رأى الحجر هابطاً تخيل فيه الخشية .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله : وهذا قول ضعيف : لأن براعة معنى الآية تختل به ، بل

القوي أن الله تعالى يخلق للحجارة قدراً ما من الإدراك تقع به الخشية والحركة ، و ﴿ بغافل ﴾ في موضع نصب خبر ﴿ ما ﴾ ، لأنها الحجازية ، يقوي ذلك دخول الباء في الخبر ، وإن كانت الباء قد تجيء شاذة مع التميمية ، وقرأ ابن كثير " يعملون " بالياء ، والمخاطبة على هذا لمحمد صلى الله عليه وسلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 1 صـ 166 . 167 ﴾

ومن فوائد أبى السعود فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ الخطاب لمعاصري النبي صلى الله عليه وسلم . والقسوةُ عبارةٌ عن الغِلَظ والجفاء والصَّلابة كما في الحَجَر استُعيرت لنُبوّ قلوبهم عن التأثر بالعِظات والقوارعِ التي تميعُ منها الجبالُ وتلينُ بها الصخور ، وإيرادَ الفعل المفيدِ لحدوث القساوة مع أن قلوبَهم لم تزل قاسيةً لما أن المرادَ بيانُ بلوغِهم إلى مرتبة مخصوصةٍ من مراتبِ القساوة حادثةٍ ، وإما لأن الاستمرارَ على شيء بعدَ ورودِ ما يوجب الإقلاعَ عنه أمرٌ جديد وصنعٌ حادث . و (ثم) لاستبعاد القسوةِ بعد مشاهدةِ ما يُزيلها كقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ الذين كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾

﴿ مِن بَعْدِ ذلك ﴾ إشارةٌ إلى ما ذكر من إحياء القتيلِ أو إلى جميع ما عُدِّد من الآيات الموجبة للين القلوبِ وتوجُّهِها نحوَ الحقِّ أيْ من بعد سماعِ ذلك وما فيه من معنى البُعد للإيذان ببُعد منزلتِه وعلوِّ طبقتِه. وتوحيدُ حرفِ الخطاب مع تعدُّد المخاطبين إما بتأويل الفريقِ أو لأن المرادَ مجردُ الخطاب لا تعيينُ المخاطَب كما هو المشهور، ﴿ فَهِيَ كالحجارة ﴾ في القساوة، ﴿ أَوْ أَشَدَّ ﴾ منها، ﴿ قَسْوَةً ﴾ أي هي في القسوة مثلُ الحجارة أو زائدةٌ عليها فيها أو أنها مثلُها أو مثلُ ما هو أشدُّ منها قسوةً كالحديد، فحُذِف (المضاف) وأقيمَ المضاف إليه مُقامه ويعضُده القراءة بالجر عطفاً على الحجارة. وإيرادُ الجملة اسمية مع كون ما سبق فعلية للدلالة على استمرارِ قساوةِ قلوبهم، والفاء إما لتفريع مشابَهتِها لها على ما ذكر من القساوة تفريعَ التشبيه على بيان وجه الشبه في قولك: أحمرُ خدُّه فهو كالورد وإما للتعليل كما في قولك: اعبُدْ ربك فالعبادةُ حقٌّ له، وإنما لم يقل أو أقسى منها لما في التصريح بالشدة من زيادةِ مبالغةٍ، ودلالةٍ ظاهرة على اشتراك القسوتين في الشدة واشتمالِ المفضَّل على زيادة، وأو للتخيير أو للترديدِ بمعنى أن مَنْ عرفَ حالَها شبَّهها بالحجارة أو بما هو أقسى، أو من عَرَفها شبهها بالحجارة أو قال هي أقسى من الحجارة، وترْكُ ضميرِ المفضَّل عليه للأمن من الالتباس ﴿ وَإِنَّ مِنَ الحجارة لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأنهار ﴾ بيانٌ لأشَدِّية قلوبِهم من الحجارة في القساوة وعدمِ التأثر واستحالةِ صدورِ الخيرِ منها، يعني

أن الحجارةَ ربما تتأثّرُ حتى كان منها ما يتفجر منه المياهُ العظيمة ﴿ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ ﴾ أي يتشقق ﴿ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الماء ﴾ أي العيونُ ﴿ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ الله ﴾ أي يتردَّى من الأعلى إلى الأسفل بقضية ما أودعه الله عز وجل

فيها من الِثقل الداعي إلى المركز ، وهو مجازٌ من الانقياد لأمره تعالى ، والمعنى أن الحجارةَ ليس منها فردٌ إلا وهو منقادٌ لأمره عز وعلا آتٍ بما خُلق له من غير استعصاء ، وقلوبُهم ليست كذلك فتكونُ أشدَّ منها قسوةً لا محالة ، واللام في (لَما) لامُ الابتداء دخلت على اسم إن لتقدُّم الخبر وقرئ (أن) على أنها مُخفّفة من الثقيلة ، واللامُ فارقةٌ ، وقرئ يهبُط بالضم ﴿ وَمَا الله بغافل عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (عن) متعلقةٌ بغافل ، و (ما) موصولة والعائدُ محذوف أو مصدرية ، وهو وعيدٌ شديد على ما هو عليه من قساوة القلوب وما يترتب عليها من الأعمال السيئة ، وقرئ بالياء على الالتفات . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 1 صـ 114. 115 ﴾

ومن فوائد ابن عرفة فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم . . . ﴾ .

جعل الزمخشري العطف بـ " ثم " لبعد ما بين منزلة الإيمان والكفر .

قال ابن عرفة : ولا (يبعد) أن تكون على بابها .

(فرد عليه بأن جعل) بعد ذلك لابتداء الغاية (فتناقض) مهلة " ثم " ؟

فأجاب بأن دلالة " ثمّ " على المهلة نص لا يحتمل غيره ، فهو أقوى من دلالة " من " على ابتداء الغاية .

وقال أبو حيان : السياق يقتضي أنها لبعد ما بين المنزلتين .

ورده ابن عرفة بأن الأصوليين رجّحوا الدلالة باللّفظ على الدلالة المفهومة من السياق .

قيل لابن عرفة : يلزم (على ما قلت) أن يكونوا مرّ عليهم (زمَن) هم فيه مؤمنون ؟ فقال : نعم وهو المناسب وهو الزمن الذي كان فيه الرّسول موسى بين أظهرهم ، وظاهر الآية أن العقل في القلب .

قوله تعالى : ﴿ فَهِيَ كَالحِجارةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً . . . ﴾ .

منع أبو حيان أن تكون الكاف بمعنى " مثل " محتجا بأنه ليس مذهب سيبويه .

وأجاب ابن عرفة بأن ذلك إنما هو إذا جعلها حرفا .

ونحن نقول : إنها اسم .

وأورد الشيخ الطيبي : ان القلوب شبهت بالحجارة مع أن المشبه بالحجارة إنما هو قسوتها (شبيهة) بقسوة الحجارة .

وأجاب : بأن التشبيه في الحقيقة راجع للقسوة ، أي (صلبت) وخلت من (الإنابة) والإذعان (لآيات الله تعالى) .

قاله (ابن عطية) .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : المراد قلوب (ورثة) القتيل لَمّا (أخبرَ) بمن قتله ومات قالوا : كذب .

قال ابن عرفة : فالمراد أنّها دامت على القسوة ، أو زادت قسوتها لأنهم لم يزالوا قبل ذلك منكرين للقتل ، قال : ويضعف هذا بأنه لما قتل قاتل القتيل انقطعت تلك القسوة فلم يبق من هو متصف بها .

وجعل السّكاكي هذا من (ترشيح) المجاز .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنَ الحجارة لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأنهار . . . ﴾ .

قال الطيبي : إنّها تذليل لما قبلها لأنها في معناها .

قال ابن عرفة : الصواب أنها تعليل أو بيان للوجه الّذي كانت به أشدّ من الحجارة ودليل عليه .

(31/56)

وهذا تدلي أو ترقي الذمّ وهو أولى من العكس لأن الحجارة التي تتفجر منها (الأنهار) أفضل وأعلى من الحجارة التي تنشق فيخرج منها الماء .

ويلزم من كونها أشد قسوة من التي تنشق فيخرج منها الماء أن تكون أشد قسوة من المتفجرة عن الأنهار فلذلك أتى به بعده .

ولو قيل : إن من الحجارة لما (ينشق) فيخرج (منها) الماء ، وإن منها لما يتفجر منه الأنهار لكان تأكيدا .

انتهى .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ . . . ﴾ .

قال ابن عرفة : يؤخذ من الآية أنّ الأفضلية ثبتت للجنس بثبوتها لبعض أفراده لأنّ الحجارة الموصوفة بذلك هي بعض من كل ، وقد ثبت التفضيل للجميع بقوله : فهي كالحجارة ، ولم يقل فهي كالحجارة الموصوفة بكذا ، والحجارة عام إما بالألف واللام (أو) بالسياق فقد

فضل عليهم جميع الحجارة.

قيل لابن عرفة: هذا تقسيم مستوفى فليس (من الحجارة) شيء إلا داخل فيه؟

فقال: الحجارة التي تتفجر منها الأنهار، والتي تنشق عن الماء لا قساوة فيها بوجه، وهم إنّما ذمّوا بمشاركتهم للأحجار في القساوة مع الزيادة عليها فقد فضلت عليهم الحجارة القاسية لكونها من جنس ما هو غير قاس.

قيل له: فكل ما نراه من الأحجار ساقطا من فوق، هلا تقول: إنه (هبط) من خشية الله؟ فقال: ((الآية إنما دلت على (أن) بعض الحجارة يهبط)) من خشية الله لا كلها، وكل ما نراه هابطا يجوز أن يكون هبوطه من خشية الله.

قال الفخر: وهذا مثل قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هذا القرءان على جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ الله﴾ قال ابن عرفة: ليست مثلها لأن تلك شرطية، والشرط قد يتركب من المحال بخلاف هذه.

قال: وقوله: ﴿مِنْ خَشْيَةِ الله﴾ هو قيد في الجميع، لأن تفجر الأنهار أيضا من خشية الله. انتهى انتهى. اهـ ﴿تفسير ابن عرفة حـ 1 صـ 336. 340﴾

ومن فوائد أبى حيان فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ ثم قست قلوبكم من بعد ذلك ﴾ ، قال الزمخشري ، معنى ثم قست : استبعاد القسوة بعد ما ذكر ما يوجب لين القلوب ورقتها ونحوه ، ثم أنتم تمترون . انتهى .

وهو يذكر عنه أن العطف بثم يقتضي الاستبعاد ، ولذلك قيل عنه في قوله : ﴿ ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ﴾ وهذا الاستبعاد لا يستفاد من العطف بثم ، وإنما يستفاد من مجيء هذه الجمل ووقوعها بعد ما تقدّم مما لا يقتضي وقوعها ، ولأن صدور هذا الخارق العظيم الخارج عن مقدار البشر ، فيه من الاعتبار والعظات ما يقتضي لين القلوب والإنابة إلى الله تعالى ، والتسليم لأقضيته ، فصدر مهم غير ذلك من غلظ القلوب وعدم انتفاعها ، بما شاهدت ، والتعنت والتكذيب ، حتى نقل أنهم بعد ما حيي القتيل ، وأخبر بمن قتله قالوا : كذب .

والضمير في قلوبكم ضمير ورثة القتيل ، قاله ابن عباس ، وهم الذين قتلوه ، وأنكروا قتله .

وقيل : قلوب بني إسرائيل جميعاً قست بمعاصيهم وما ارتكبوه ، قاله أبو العالية وغيره .

وكنى بالقسوة عن نبوّ القلب عن الاعتبار ، وأن المواعظ لا تحول فيها .

وأتى بمن في قوله : ﴿ من بعد ذلك ﴾ إشعاراً بأن القسوة كان ابتداؤها عقيب مشاهدة ذلك الخارق ، ولكن العطف بثم يقتضي المهلة ، فيتدافع معنى ثم ، ومعنى من ، فلا بد من

تجوّز في أحدهما .

والتجوز في ثم أولى ، لأن سجاياهم تقتضي المبادرة إلى المعاصي بحيث يشاهدون الآية العظيمة ، فينحرفون إثرها إلى المعصية عناداً وتكذيباً ، والإشارة بذلك قيل : إلى إحياء القتيل ، وقيل : إلى كلام القتيل ، وقيل : إشارة إلى ما سبق من الآيات من مسخهم قردة وخنازير ، ورفع الجبل ، وانبجاس الماء ، وإحياء القتيل ، قاله الزجاج .

﴿ فهي كالحجارة ﴾ : يريد في القسوة .

وهذه جملة ابتدائية حكم فيها بتشبيه قلوبهم بالحجارة ، إذ الحجر لا يتأثر بموعظة ، ويعني أن قلوبهم صلبة ، لا تخلخلها الخوارق ، كما أن الحجر خلق صلباً .

وفي ذلك إشارة إلى أن اعتياص قلوبهم ليس لعارض ، بل خلق ذلك فيها خلقاً أولياً ، كما أن صلابة الحجر كذلك .

والكاف المفيدة معنى التشبيه : حرف وفاقاً لسيبويه وجمهور النحويين ، خلافاً لمن ادّعى أنها تكون اسماً في الكلام ، وهو عن الأخفش .

فتعلقه هنا بمحذوف ، التقدير : فهي كائنة كالحجارة ، خلافاً لابن عصفور ، إذ زعم أن

كاف التشبيه لا تتعلق بشيء ، ودلائل ذلك مذكورة في كتب النحو .

والألف واللام في الحجارة لتعريف الجنس .

وجمعت الحجارة ولم تفرد ، فيقال كالحجر ، فيكون أخصر ، إذ دلالة المفرد على الجنس كدلالة الجمع ، لأنه قوبل الجمع بالجمع ، لأن قلوبهم جمع ، فناسب مقابلته بالجمع ، ولأن قلوبهم متفاوتة في القسوة ، كما أن الحجارة متفاوتة في الصلابة .

فلو قيل : كالحجر ، لأفهم ذلك عدم التفاوت ، إذ يتوهم فيه من حيث الإفراد ذلك .

﴿ أو أشدّ قسوة ﴾ ، أو : بمعنى الواو ، أو بمعنى أو للابهام ، أو للإباحة ، أو للشك ، أو للتخيير ، أو للتنويع ، أقوال : وذكر المفسرون مثلاً لهذه المعاني ، والأحسن القول الأخير .

وكأن قلوبهم على قسمين : قلوب كالحجارة قسوة ، وقلوب أشدّ قسوة من الحجارة ، فأجمل ذلك في قوله : ﴿ ثم قست قلوبكم ﴾ ، ثم فصل ونوع إلى مشبه بالحجارة ، وإلى أشدّ منها ، إذ ما كان أشدّ ، كان مشاركاً في مطلق القسوة ، ثم امتاز بالأشدية .

وانتصاب قسوة على التمييز ، وهو من حيث المعنى تقتضيه الكاف ويقتضيه أفعل التفضيل ، لأن كلاً منهما ينتصب عنه التمييز .

تقول : زيد كعمرو حلماً ، وهذا التمييز منتصب بعد أفعل التفضيل ، منقول من المبتدأ ، وهو نقل غريب ، فتؤخر هذا التمييز وتقيم ما كان مضافاً إليه مقامه .

تقول : زيد أحسن وجهاً من عمرو ، وتقديره : وجه زيد أحسن من وجه عمرو ، فأخرت وجهاً وأقمت ما كان مضافاً مقامه ، فارتفع بالابتداء ، كما كان وجه مبتدأ ، ولما تأخر أدى إلى حذف وجه من قولك : من وجه عمرو ، وإقامة عمرو مقامه ، فقلت : من عمرو ، وإنما كان الأصل ذلك ، لأن المتصف بزيادة الحسن حقيقة ليس الرجل إنما هو الوجه ، ونظير هذا : مررت بالرجل الحسن الوجه ، أو الوجه أصل هذا الرفع ، لأن المتصف بالحسن حقيقة ليس هو الرجل إنما هو الوجه ، وإنما أوضحنا هذا ، لأن ذكر مجيء التمييز منقولاً من المبتدأ غريب ، وأفرد أشدّ ، وإن كانت خبراً عن جمع ، لأن استعمالها هنا هو بمن ، لكنها حذفت ، وهو مكان حسن حذفها ، إذ وقع أفعل التفضيل خبراً عن المبتدأ وعطف ، أو أشد ، على قوله : كالحجارة ، فهو عطف خبر على خبر من قبيل عطف المفرد ، كما تقول : زيد على سفر ، أو مقيم ، فالضمير الذي في أشدّ عائد على القلوب ، ولا حاجة إلى ما أجازه الزمخشري من أن ارتفاعه يحتمل وجهين آخرين : أحدهما : أن يكون التقدير : أو هي أشدّ قسوة ، فيصير من عطف الجمل .

والثاني : أن يكون ، التقدير : أو مثل أشدّ ، فحذف مثل وأقيم أشدّ مقامه ، ويكون الضمير في أشدّ إذ ذاك غير عائد على القلوب ، إذ كان الأصل أو مثل شيء أشدّ قسوة من الحجارة ، فالضمير في أشدّ عائد على ذلك الموصوف بأشدّ المحذوف .

ويعضد هذا الاحتمال الثاني قراءة الأعمش ، بنصب الدال عطفاً على ، كالحجارة ، قاله الزمخشري .

وينبغي أن لا يصار إلى هذا إلا في هذه القراءة خاصة .

وأما على قراءة الرفع ، فلها التوجيه السابق الذي ذكرناه ، ولا إضمار فيه ، فكان أرجح .

(35/56)

وقد رد أبو عبد الله بن أبي الفضل في منتخبه على الزمخشري قوله : إنه معطوف على الكاف ، فقال : هو على مذهب الأخفش ، لا على مذهب سيبويه ، لأنه لا يجيز أن يكون إسماً إلا في الشعر ، ولا يجيز ذلك في الكلام ، فكيف في القرآن ؟ فأولى أن يكون : أشدّ ، خبر مبتدأ مضمر ، أي وهي أشدّ .

انتهى كلامه .

وما ذهب إليه الزمخشري صحيح ، ولا يريد بقوله : معطوف على الكاف ، أن الكاف اسم ، إنما يريد معطوفاً على الجار والمجرور ، لأنه في موضع مرفوع ، فاكتفى بذكر الكاف عن الجار والمجرور .

وقوله : فالأولى أن يكون أشدّ خبر مبتدأ مضمر ، أي هي أشدّ ، قد بينا أن الأولى غير

هذا ، لأنه تقدير لا حاجة إليه .

قال الزمخشري : فإن قلت : لم قال أشدّ قسوة ؟ وفعل القسوة مما يخرج منه أفعل التفضيل وفعل التعجب ، قلت : لكونه أبين وأدل على فرط القسوة .

ووجه آخر ، وهو أن لا يقصد معنى الأقسى ، ولكن قصد وصف القسوة بالشدّة ، كأنه قيل : اشتدّت قسوة الحجارة ، وقلوبهم أشدّ قسوة .

انتهى كلامه .

ومعنى قوله : وفعل القسوة مما يخرج منه أفعل التفضيل ، وفعل التعجب أن قسا يجوز أن يبني منه أفعل التفضيل ، وفعل التعجب بجواز اجتماع الشرائط المجوزة لبناء ذلك ، وهي كونه من فعل ثلاثي مجرد متصرف تام قابل للزيادة ، والنقص مثبت .

وفي كونه من أفعل ، أو من كون ، أو من مبني للمفعول خلاف .

وقرأ أبو حياة : أو أشدّ قساوة ، وهو مصدر لقسا أيضاً .

﴿ وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار ﴾ : لما شبه تعالى قلوبهم بالحجارة في القسوة ، ثم ذكر أنها أشد قسوة على اختلاف الناس في مفهوم ، أو بين أن هذا التشبيه إنما هو بالنسبة لما علمه المخاطب من صلابة الأحجار ، وأخذ يذكر جهة كون قلوبهم أشدّ قسوة : والمعنى أن قلوب هؤلاء جاسية صلبة لا تلينها المواعظ ، ولا تتأثر للزواجر ، وإن من

الحجارة ما يقبل التخلخل ، وأنها متفاوتة في قبول ذلك ، على حسب التقسيم الذي أشار إليه تعالى وتكلم عليه .

(36/56)

فقد فضلت الأحجار على قلوبهم في أن منها ما يقبل التخلخل ، وأن قلوب هؤلاء في شدّة القساوة .

واختلف المفسرون في هذه الآية ، فقال قوم : إن قوله : ﴿ وإن من الحجارة ﴾ إلى آخره ، هو على سبيل المثل ، بمعنى أنه لو كان الحجر ممن يعقل لسقط من خشية الله تعالى ، وتشقق من هيبته ، وأنتم قد جعل الله فيكم العقل الذي به إدراك الأمور ، والنظر في عواقب الأشياء ، ومع ذلك فقلوبكم أشدّ قسوة ، وأبعد عن الخير .

وقال قوم : ليس ذلك على جهة المثل : بل أخبر عن الحجارة بعينها ، وقسمها لهذه الأقسام ، وتبين بهذا التقسيم كون قلوبهم أشدّ قسوة من الحجارة .

وقرأ الجمهور : وإنّ مشدّدة ، وقرأ قتادة : وإن مخففة ، وكذا في الموضعين بعد ذلك ، وهي المخففة من الثقيلة ، ويحتمل وجهين : أحدهما : أن تكون معملة ، ويكون من الحجارة في موضع خبرها ، وما في موضع نصب بها ، وهو اسمها ، واللام لام الابتداء ، أدخلت على

الاسم المتأخر ، والاسم إذا تأخر جاز دخول اللام عليه ، نحو قوله : ﴿ وإن لك لأجراً ﴾ ، وأعمالها مخففة لا يجيزه الكوفيون ، وهم محجوجون بالسماع الثابت من العرب ، وهو قولهم : إن عمرو لمنطلق ، بسكون النون ، إلا أنها إذا خففت لا تعمل في ضمير لا ، تقول : إنك منطلق ، إلا أن ورد في الشعر .

والوجه الثاني : أن لا تكون معملة ، بل تكون ملغاة ، وما في موضع رفع بالابتداء ، والخبر في الجار والمجرور قبله .

واللام في لما مختلف فيها ، فمنهم من ذهب إلى أنها لام الابتداء لزمت للفرق بين أن المؤكدة وإن النافية ، وهو مذهب أبي الحسن علي بن سليمان الأخفش الصغير .

وأكثر نحاة بغداد ، وبه قال : من نحاة بلادنا أبو الحسن بن الأخضر ، ومنهم من ذهب إلى أنها لام اختلست للفرق ، وليست لام الابتداء ، وبه قال أبو علي الفارسي .

ومن كبراء بلادنا ابن أبي العالية ، والكلام على ذلك مذكور في علم النحو .

(37/56)

ولم يذكر المفسرون والمعربون في إن المخففة هنا إلا هذا الوجه الثاني ، وهو أنها الملغاة ، وأن اللام في لما لزمت للفرق .

قال المهدوي : من خفف إن ، فهي المخففة من الثقيلة ، واللام لازمة للفرق بينها وبين إن التي بمعنى ما .

وقال ابن عطية : فرق بينها وبين النافية لام التوكيد في لما .

وقال الزمخشري : وقرئ : وإن بالتخفيف ، وهي إن المخففة من الثقيلة التي يلزمها اللام الفارقة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وإن كلّ لما جميع ﴾ وجعلهم إن هي المخففة من الثقيلة ، هو مذهب البصريين .

وأما الفراء فزعم فيما ورد من ذلك أنّ إن هي النافية ، واللام بمعنى إلا ، فإذا قلت : إن زيد لقائم ، فمعناه عنده : ما زيد إلا قائم .

وأما الكسائي فزعم أنها إن وليها فعل ، كانت إن نافية ، واللام بمعنى إلا ، وإن وليها اسم ، كانت المخففة من الثقيلة .

وذهب قطرب إلى أنها إذا وليها فعل ، كانت بمعنى قد ، والكلام على هذا المذهب في كتب النحو .

وقرأ الجمهور : لما بميم مخففة وهي موصولة .

وقرأ طلحة بن مصرف : لما بالتشديد ، قاله في الموضعين ، ولعله سقطت واو ، أي وفي الموضعين .

قال محمد بن عطية : وهي قراءة غير متجهة ، وما قاله ابن عطية من أنها غير متجهة لا يتمشى إلا إذا نقل عنه أنه يقرأ وإنّ بالتشديد ، فحينئذ يعسر توجيه هذه القراءة .

(38/56)

أما إذا قرأ بتخفيف إن ، وهو المظنون به ذلك ، فيظهر توجيهها بعض ظهور ، إذ تكون إن نافية ، وتكون لما بمنزلة إلا ، كقوله تعالى : ﴿ إن كل نفس لما عليها حافظ ﴾ ﴿ وإن كل لما جميع لدينا محضرون ﴾ ﴿ وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا ﴾ في قراءة من قرأ لما بالتشديد ، ويكون مما حذف منه المبتدأ لدلالة المعنى عليه ، التقدير : وما من الحجارة حجر إلا يتفجر منه الأنهار ، وكذلك ما فيها ، كقوله تعالى : ﴿ وما منا إلا له مقام معلوم ﴾ أي وما منا أحد إلا له مقام معلوم ، ﴿ وإن من أهل الكتاب ليؤمن به قبل موته ﴾ أي وما من أهل الكتاب أحد ، وحذف هذا المبتدأ أحسن ، لدلالة المعنى عليه ، إلا أنه يشكل معنى الحصر ، إذ يظهر بهذا التفضيل أن الأحجار متعدّدة ، فمنها ما يتفجر منه الأنهار ، ومنها ما يشقق فيخرج منه الماء ، ومنها ما يهبط من خشية الله .

وإذا حصرت ، أفهم المفهوم قبله أن كل فرد فرد من الأحجار فيه هذه الأوصاف كلها ، أي تتفجر منه الأنهار ، ويتشقق منه الماء ، ويهبط من خشية الله .

ولا يبعد ذلك إذا حمل اللفظ على القابلية ، إذ كل حجر يقبل ذلك ، ولا يمتنع فيه ، إذا أرد الله ذلك .

فإذا تلخص هذا كله كانت القراءة متوجهة على تقدير : أن يقرأ طلحة ، وإن بالتخفيف .

وأما إن صح عنه أنه يقرأ وإن بالتشديد ، فيعسر توجيه ذلك .

وأما من زعم أن إن المشدّدة هي بمعنى ما النافية ، فلا يصح قوله ، ولا يثبت ذلك في لسان العرب .

ويمكن أن توجه قراءة طلحة لما بالتشديد ، مع قراءة إن بالتشديد ، بأن يكون اسم إن محذوفاً لفهم المعنى ، كما حذف في قوله :

ولكن زنجيّ عظيم المشافر . . .

وفي قوله :

فليت دفعت الهم عني ساعة . . .

وتكون لما بمعنى حين ، على مذهب الفارسي ، أو حرف وجوب لوجوب ، على مذهب سيبويه .

والتقدير : وإن منها منقاداً ، أو ليناً ، وما أشبه هذا .

فإذا كانوا قد حذفوا الاسم والخبر على ما تأوله بعضهم في لعن الله ناقة حملتني إليك ، فقال : إن وصاحبها ، فحذف الاسم وحده أسهل .

وقرأ الجمهور : يتفجر بالياء ، مضارع تفجر .

وقرأ مالك بن دينار : ينفجر بالياء ، مضارع انفجر ، وكلاهما مطاوع .

أما يتفجر فمطاوع تفجر ، وأما ينفجر فمطاوع فجر مخففاً .

والتفجر : التفتح بالسعة والكثرة ، والانفجار دونه ، والمعنى : إن من الحجارة ما فيه خروق واسعة يندفق منها الماء الكثير الغمر .

وقرأ أبيّ والضحاك : منها الأنهار .

وقرأ الجمهور منه .

فالقراءة الأولى حمل على المعنى ، وقراءة الجمهور على اللفظ ، لأن ما لها هنا لفظ ومعنى ، لأن المراد به الحجارة ، ولا يمكن أن يراد به مفرداً لمعنى ، فيكون لفظه ومعناه واحداً ، إذ ليس المعنى ﴿ وإن من الحجارة ﴾ للحجر الذي يتفجر منه الماء ، إنما المعنى للأحجار التي يتفجر منها الأنهار .

وقد سبق الكلام على الأنهار في قوله تعالى : ﴿ وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ الآية .

وقد ذهب بعضهم إلى أن الحجر الذي يتفجر منه الأنهار ، هو الحجر الذي ضربه موسى بعصاه ، فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً .

﴿ وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء ﴾ ، التشقق : التصدّع بطول أو بعرض ، فينبع منه الماء بقلة حتى لا يكون نهراً .

وقرأ الجمهور : يشقق ، بتشديد الشين ، وأصله يتشقق ، فأدغم التاء في الشين .

وقرأ الأعمش : تشقق ، بالتاء والشين المخففة على الأصل ، ورأيتها معزوّة لابن مصرّف .

وفي النسخة التي وقفت عليها من تفسير ابن عطية .

ما نصه : وقرأ ابن مصرّف : ينشقق ، بالنون وقافين ، والذي يقتضيه اللسان أن يكون بقاف واحدة مشدّدة ، وقد يجيء الفك في شعر ، فإن كان المضارع مجزوماً ، جاز الفك فصيحاً ، وهو هنا مرفوع ، فلا يجوز الفك ، إلا أنها قراءة شاذة ، فيمكن أن يكون ذلك فيها ، وأما أن يكون المضارع بالنون مع القافين وتشديد الأولى منهما ، فلا يجوز .

قال أبو حاتم : لما تتفجر بالتاء ، ولا يجوز تتشقق بالتاء ، لأنه إذا قال : تتفجر فأنثه لتأنيث الأنهار ، ولا يكون في تشقق .

وقال أبو جعفر النحاس : يجوز ما أنكره أبو حاتم حملاً على المعنى ، لأن المعنى : وإن منها للحجارة التي تشقق ، وإمّا يشقق بالياء ، فمحمول على اللفظ .

انتهى ، وهو كلام صحيح .

ولم ينقل هنا أن أحداً قرأ منها الماء ، فيعيد على المعنى ، إنما نقل ذلك في قوله : لما يتفجر منه الأنهار ، فكان قوله يتفجر حملاً على اللفظ ومنها حملاً على المعنى ومحسن هذا هنا انه ولى الضمير جمع وهو الأنهار ، فناسب الجمع الجمع ، ولأن الأنهار من حيث هي جمع ، يبعد في العادة أن تخرج من حجر واحد ، وإنما تخرج الأنهار من أحجار ، فلذلك ناسب مراعاة المعنى هنا .

وأما فيخرج منه الماء ، فالماء ليس جمعاً ، فلا يناسب في حمل منه على المعنى ، بل أجرى يشقق ، ومنه على اللفظ .

﴿ وإن منها لما يهبط من خشية الله ﴾ ، الهبوط هنا : التردّي من علو إلى أسفل .

وقرأ الأعمش : يهبط ، بضم الباء ، وقد تقدم أنها لغة .

وخشية الله : خوفه .

واختلف المفسرون في تفسير هذا ، فذهب قوم إلى أن الخشية هنا حقيقة .

واختلف هؤلاء ، فقال قوم معناه : من خشية الحجارة لله تعالى ، فهي مصدر مضاف للمفعول ، وأن الله تعالى جعل لهذه الأحجار التي تهبط من خشية الله تعالى تمييزاً قام لها

مقام الفعل المودع فيمن يعقل ، واستدل على ذلك بأن الله تعالى وصف بعض الحجارة بالخشية ، وبعضها بالإرادة ، ووصف جميعها بالنطق والتحميد والتقديس والتأويب والتصدّع ، وكل هذه صفات لا تصدر إلا عن أهل التمييز والمعرفة .

(41/56)

قال تعالى : ﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل ﴾ الآية ، ﴿ وإن من شيء إلا يسبح بحمده ﴾ ﴿ يا جبال أوّبي معه والطير ﴾ وفي الحديث الصحيح : " إني لأعرف حجراً كان يسلم عليّ قبل أن أبعث وأنه بعد مبعثه ما مرّ بحجر ولا مدر إلا سلم عليه ، وفي الحجر الأسود إنه يشهد لمن يستلمه " وفي حديث الحجر الذي فرّ بثوب موسى عليه السلام وصار يعدو خلفه ويقول : " ثوبي حجر ثوبي حجر " .

وفي الحديث عن أحد : " أن هذا جبل يحبنا ونحبه " وفي حديث حراء : " لما اهتز أسكن حراء " وفي حديث : " تسبيح صغار الحصى بكف رسول الله صلى الله عليه وسلم " وقد دلت هذه الجملة وأحاديث أخر على نطق الحيوانات والجمادات ، وانقياد الشجر وغير ذلك .

فلولا أنه تعالى أودع فيها قوة مميزة ، وصفة ناطقة ، وحركة اختيارية ، لما صدر عنها شيء

من ذلك ، ولا حسن وصفها به .

وإلى هذا ذهب مجاهد وابن جريج وجماعة .

وقال قوم : الخشية هنا حقيقة ، وهو مصدر أضيف إلى فاعل .

والمراد بالحجر الذي يهبط من خشية الله هو البرد ، والمراد بخشية الله : إخافته عباده ، فأطلق الخشية ، وهو يريد الإخشاء ، أي نزول البرد به ، يخوّف الله عباده ، ويزجرهم عن الكفر والمعاصي .

وهذا قول متكلف ، وهو مخالف للظاهر .

والبرد ليس بحجارة ، وإن كان قد اشتدّ عند النزول ، فهو ماء في الحقيقة .

وقال قوم : الخشية هنا حقيقة ، وهو مصدر مضاف للمفعول ، وفاعله محذوف ، وهو العباد .

والمعنى : أن من الحجارة ما ينزل بعضه عن بعض عند الزلزلة من خشية عباد الله إياه .

وتحقيقه : أنه لما كان المقصود منها خشية الله تعالى ، صارت تلك الخشية كالعلة المؤثرة في ذلك الهبوط ، فكان المعنى : لما يهبط من أجل أن يحصل لعباد الله تعالى .

وذهب أبو مسلم إلى أن الخشية حقيقة ، وأن الضمير في قوله : ﴿ وإن منها لما يهبط من خشية الله ﴾ عائد على القلوب ، والمعنى : أن من القلوب قلوباً تطمئن وتسكن ، وترجع إلى الله تعالى ، فكنى بالهبوط عن هذا المعنى ، ويريد بذلك قلوب المخلصين .

وهذا تأويل بعيد جداً ، لأنه بدأ بقوله : ﴿ وإن من الحجارة ﴾ ، ثم قال : ﴿ وإن منها ﴾ ، فظاهر الكلام التقسيم للحجارة ، ولا يعدل عن الظاهر إلا بدليل واضح ، والهبوط لا يليق بالقلوب ، إنما يليق بالحجارة .

وليس تأويل الهبوط بأولى من تأويل الخشية إن تأوّلناها .

وقد أمكن في الوجوه التي تضمنت حملها على الحقيقة ، وإن كان بعض تلك الأقوال أقوى من بعض .

وذهب بعضهم إلى أن الذي يهبط من خشية الله هو الجبل الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام ، إذ جعله دكاً .

وذهب قوم إلى أن الخشية هنا مجاز من مجاز الاستعارة ، كما استعيرت الإرادة للجدار في قوله تعالى : ﴿ يريد أن ينقضّ ﴾ وكما قال زيد الخيل :

بجمع تضل البلق في حجراته . . .

ترى الأكم منه سجداً للحوافر

وكما قال الآخر :

لما أتى خبر الزبير تضعضعت . . .

سور المدينة والجبال الخشع

أي من رأى الحجر متردّياً من علوّ إلى أسفل ، تخيل فيه الخشية ، فاستعار الخشية ، كناية عن الانقياد لأمر الله ، وأنها لا تمتنع على ما يريد الله تعالى فيها .

فمن يراها يظنّ أن ذلك الانفعال السريع هو مخافة خشية الله تعالى .

وهذا قول من ذهب إلى أن الحياة والنطق لا يحلان في الجمادات ، وذلك ممتنع عندهم .

وتأوّلوا ما ورد في القرآن والحديث ، مما يدل على ذلك على أن الله تعالى قرن بها ملائكة ، هي التي تسلم وتتكلم ، كما ورد أن الرحم معلقة بالعرش ، تنادي : اللهم صِل من وصلني ، واقطع من قطعني .

والأرحام ليست بجسم ، ولا لها إدراك ، ويستحيل أن تسجد المعاني ، أو تتكلم ، وإنما قرن الله تعالى بها ملكاً يقول ذلك القول .

وتأوّلوا : هذا جبل يحبنا ونحبه ، أي يحبه أهله ونحب أهله ، كقوله تعالى : ﴿ واسأل القرية ﴾ واختيار ابن عطية ، رحمه الله تعالى ، أن الله يخلق للحجارة قدراً مّا من الإدراك

، تقع به الخشية والحركة .

واختيار الزمخشري أن الخشية مجاز عن الانقياد لأمر الله تعالى وعدم امتناعها ، وترتيب تقسيم هذه الحجارة ترتيب حسن جداً ، وهو على حسب الترقي .

فبدأ أولاً بالذي تتفجر منه الأنهار ، أي خلق ذا خروق متسعة ، فلم ينسب إليه في نفسه تفعل ولا فعل ، أي أنها خلقت ذات خروق بحيث لا يحتاج أن يضاف إليها صدور فعل منها .

ثم ترقى من هذا الحجر إلى الحجر الذي ينفعل انفعالاً يسيراً ، وهو أن يصدر منه تشقق بحيث ينبع منه الماء .

ثم ترقى من هذا الحجر إلى الحجر الذي ينفعل انفعالاً عظيماً ، بحيث يتحرك ويتدهده من علو إلى أسفل ، ثم رسخ هذا الانفعال التامّ بأن ذلك هو من خشية الله تعالى ، من طواعيته وانقياده لما أراد الله تعالى منه ، فكنى بالخشية عن الطواعية والانقياد ، لأن من خشي أطاع وانقاد .

﴿ وما الله بغافل عما تعملون ﴾ : هذا فيه وعيد ، وذلك أنه لما قال : ﴿ ثم قست قلوبكم من بعد ذلك ﴾ ، أفهم أنه ينشأ عن قسوة القلوب أفعال فاسدة وأعمال قبيحة ، من مخالفة الله تعالى ، ومعاندة رسله ، فأعقب ذلك بتهديدهم بأن الله تعالى ليس بغافل عن أعمالهم ، بل هو تعالى يحصيها عليهم ، وإذا لم يغفل عنها كان مجازياً عليها .

والغفلة إن أريد بها السهو ، فالسهو لا يجوز على الله تعالى ، وإن أريد بها الترك عن عمد ، فذكروا أنه مما يجوز أن يوصف الله تعالى به .

وعلى كلا التقديرين ، فنفى الله تعالى الغفلة عنه .

وانتفاء الشيء عن الشيء قد يكون لكونه لا يمكن منه عقلاً ، ولكونه لا يقع منه مع إمكانه .

(44/56)

وقد ذهب القاضي إلى أنه لا يصح أن يوصف الله تعالى بأنه ليس بغافل ، قال : لأنه يوهم جواز الغفلة عليه ، وليس الأمر كما ذهب إليه ، لأن نفي الشيء عن الشيء لا يستلزم إمكانه .

ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ لا تأخذه سنة ولا نوم ﴾ وقوله : ﴿ وهو يطعم ولا يطعم ﴾ فقد نفى عنه تعالى ما لا يستلزم إمكانه له .

وبغافل : في موضع نصب ، على أن تكون ما حجازية .

ويجوز أن تكون في موضع رفع ، على أن تكون ما تميمية ، فدخلت الباء في خبر المبتدأ ، وسوّغ ذلك النفي .

ألا ترى أنها لا تدخل في الموجب ؟ لا تقول : زيد بقائم ، ولا : ما زيد إلا بقائم .

قال ابن عطية : وبغافل في موضع نصب خبر ما ، لأنها الحجازية ، يقوي ذلك دخول الباء في الخبر ، وإن كانت الباء قد تجيء شاذة مع التميمية .

انتهى كلامه .

وهذا الذي ذهب إليه أبو محمد بن عطية ، من أن الباء مع التميمية قد تجيء شاذة ، لم يذهب إليه نحوي فيما علمناه ، بل القائلون قائلان ، قائل : بأن التميمية لا تدخل الباء في خبر المبتدأ بعدها ، وهو مذهب أبي علي الفارسي في أحد قوليه ، وتبعه الزمخشري .

وقائل : بأنه يجوز أن يجر بالباء ، وهو الصحيح .

وقال الفرزدق :

لعمرك ما معن بتارك حقه . . .

وأشعار بني تميم تتضمن جر الخبر بالباء كثيراً .

وقرأ الجمهور : تعملون بالتاء ، وهو الجاري على نسق قوله : ﴿ ثم قست قلوبكم ﴾ .

وقرأ ابن كثير بالياء ، فيحتمل أن يكون الخطاب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويحتمل أن يكون الخطاب مع بني إسرائيل ، ويكون ذلك التفاتاً ، إذ خرج من الخطاب في قوله تعالى : ﴿ ثم قست قلوبكم ﴾ إلى الغيبة في قوله : ﴿ يعملون ﴾ .

وحكمة هذا الالتفات أنه أعرض عن مخاطبتهم ، وأبرزهم في صورة من لا يقبل عليهم بالخطاب ، وجعلهم كالغائبين عنه ، لأن مخاطبة الشخص ومواجهته بالكلام إقبال من

المخاطب عليه ، وتأنيس له ، فقطع عنهم مواجهته لهم بالخطاب ، لكثرة ما صدر عنهم من المخالفات .

وقد تضمنت هذه الآيات الكريمة فصولاً عظيمة ، ومحاورات كثيرة ، وذلك أن موسى ، على نبينا وعليه الصلاة والسلام ، شافههم بأن الله تعالى يأمرهم بذبح البقرة ، وذلك امتحان من الله تعالى لهم ، فلم يبادروا لامتثال أمر الله تعالى ، وأخرجوا ذلك مخرج الهزؤ ، إذ لم يفهموا سر الأمر .

وكان ينبغي أن يبادروا بالامتثال ، فأجابهم موسى باستعاذته بالله الذي أمره أن يكون ممن جهل ، فيخبر عن الله بما لم يأمره به ، فردّ عليهم بأن استعمال الهزؤ في التبليغ عن الله تعالى ، وفي غيره ، وهو يستعيذ منه ، فرجعوا إلى قوله ، وتعنتوا في البقرة ، وفي أوصافها ، وكان يجزئهم أن يذبحوا بقرة ، إذ المأمور به بقرة مطلقة ، فسألوا ما هي ؟ وسألوا موسى أن يدعو الله تعالى أن يبينها لهم ، إذ كان دعاؤه أقرب للإجابة من دعائهم ، فأخبر عن الله تعالى بسنها .

ثم خاف من كثرة سؤالهم ، ومن تعنتهم ، كما جاء ، إنما أهلك بني إسرائيل كثرة سؤالهم ،

واختلافهم على أنبيائهم ، فبادر إلى أمرهم بأن يفعلوا ما يؤمرون ، حتى قطع سؤالهم ، فلم يلتفتوا إلى أمره ، وسألوا أن يسأل الله تعالى ثانياً عن لونها ، إذ قد أخبروا بسنها ، فأخبرهم عن الله تعالى بلونها ، ولم يأمرهم ثانياً أن يفعلوا ما يؤمرون به ، إذ علم منهم تعنتهم ، لأنهم خالفوا أمر الله أولاً في قوله : ﴿ إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة ﴾ ، وخالفوا أمر موسى ثانياً في قوله : ﴿ فافعلوا ما تؤمرون ﴾ .

فلم يكن إلا أن أبقاهم على طبيعتهم من كثرة السؤال .

فسألوا ثالثاً أن يسأل الله عنها ، فأخبرهم عن الله تعالى بحالها بالنسبة إلى العمل وباقي الأوصاف التي ذكرها ، فحينئذ صرحوا بأن موسى جاء بالحق الواضح الذي بين أمر هذه البقرة ، فالتمسوها حتى حصلوها وذبحوها امتثالاً لأمر الله تعالى ، وذلك بعد ترديد كثير وبطء عظيم ، وقبل ذلك ما قاربوا ذبحها ، بل بقوا متطلبين أشياء ليتأخر عنهم تحصيلها وذبحها .

ثم أخبر تعالى عنهم بقتل النفس ، وتدافعهم فيمن قتلها ، واختلافهم في ذلك ، فأمروا بأن يضربوا ذلك القتيل ببعض هذه البقرة المذبوحة ، فضربوه فحيي بإذن الله ، وانكشف لهم

سرّ أمر الله بذبح البقرة ، وأنه ترتب على ذلك من الأمر المعجز الخارق ، ما يحصل به العلم الضروري الدال على صدق موسى عليه السلام ، وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام .

ثم بين تعالى أن مثل هذ الإحياء يحيي الموتى ، إذ لا فرق بين الإحياءين في مطلق الإحياء .

ثم أخبر تعالى بأنه يريهم آياته ، لينتج عن تلك الإراءة كونهم يصيرون من أولي العقل ، الناظرين في عواقب الأمور ، المفكرين في المعاد .

ثم أخبر تعالى بعد ذلك أنهم على مشاهدتهم هذا الخارق العظيم ، ورؤيتهم الآيات قبل ذلك ، لم يتأثروا لذلك ، بل ترتب على ذلك عكس مقتضاه من القسوة الشديدة ، حتى شبه قلوبهم بالحجارة ، أو هي أشد من الحجارة .

ثم استطرد لذكر الحجارة بالتقسيم الذي ذكره ، على أن الحجارة تفضل قلوبهم في كون بعضها يتأثر تأثيراً عظيماً ، بحيث يتحرك ويتدهده ، وكون بعضها يتشقق فيتأثر تأثيراً قليلاً ، فينبع منه الماء ، وكون بعضها خلق منفرجاً تجري منه الأنهار ، وقلوبهم على سجية واحدة ، لا تقبل موعظة ، ولا تتأثر لذكري ، ولا تنبعث لطاعة .

ثم ختم ذلك بأنه تعالى لا يغفل عما اجترحوه في دار الدنيا ، بل يجازيهم بذلك في الدار الأخرى .

وكان افتتاح هذه الآيات بأن الله تعالى يأمر ، واختتامها بأن الله لا يغفل .

فهو العالم بمن امتثل ، وبمن أهمل ، فيجازي ممتثل أمره بجزيل ثوابه ، ومهمل أمره بشديد عقابه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 1 صـ 427.434 ﴾

ومن فوائد الآلوسى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ القسوة في الأصل اليبس والصلابة وقد شبهت هنا حال قلوبهم وهي نبوها عن الاعتبار بحال قسوة الحجارة في أنها لا يجري فيها لطف العمل ففي ﴿ قَسَتْ ﴾ استعارة تبعية أو تمثيلية ، و﴿ ثُمَّ ﴾ لاستبعاد القسوة بعد مشاهدة ما يزيلها ، وقيل : إنها للتراخي في الزمان لأنهم قست قلوبهم بعد مدة حين قالوا إن الميت كذب عليهم أو أنه عبارة عن قسوة عقبهم ، والضمير في ﴿ قُلُوبُكُمْ ﴾ لورثة القتيل عند ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، وعند أبي العالية وغيره لبني إسرائيل ﴿ مِن بَعْدِ ذلك ﴾ أي إحياء القتيل ، وقيل : كلامه ، وقيل : ما سبق من الآيات التي علموها كمسخهم قردة وخنازير ، ورفع الجبل ، وانبجاس الماء ، والإحياء وإلى ذلك ذهب الزجاج ، وعليه تكون ﴿ ثُمَّ قَسَتْ ﴾ الخ عطفاً على مضمون جميع القصص السابقة والآيات المذكورة ، وعلى

سابقه تكون عطفاً على قصة ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ ﴾ [البقرة : 72] ﴿ فَهِيَ كَالحِجارة ﴾ أي في القسوة وعدم التأثر والجمع لجمع القلوب وللإشارة إلى أنها متفاوتة في القسوة كما أن الحجارة متفاوتة في الصلابة والكاف للتشبيه وهي حرف عند سيبويه وجمهور النحويين .

والأخفش يدعى اسميتها وهي متعلقة هنا بمحذوف أي كائنة كالحجارة خلافاً لابن عصفور إذ زعم أن كاف التشبيه لا تتعلق بشيء ﴿ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ أي من الحجارة فهي كالحديد مثلاً أو كشيء لا يتأثر أصلاً ولو وهماً ، و﴿ أَوْ ﴾ لتخيير المبالغ ويكون في التشبيه كما يكون بعد الأمر ، أو للتنويع أي بعض كالحجارة وبعض أشدّ أو للترديد بمعنى تجويز الأمرين مع قطع النظر عن الغير على ما قيل ، أو بمعنى بل ويحتاج إلى تقدير مبتدأ إذا قلنا باختصاص ذلك بالجمل ، أو بمعنى الواو أو للشك وهو لاستحالته عليه تعالى يصرف إلى الغير والعلامة لا يرتضي ذلك لما أنه يؤدي إلى تجويز أن يكون معاني الحروف بالقياس إلى السامع ، وفيه إخراج للألفاظ عن أوضاعها فإنها إنما وضعت ليعبر بها المتكلم عما في ضميره ، والحق جواز اعتبار السامع في معاني الألفاظ عند امتناع جريها على الأصل بالنظر إلى المتكلم فلا بأس بأن يسلك ب ﴿ أَوْ ﴾ في الشك مسلك لعل في الترجي الواقع

في كلامه تعالى فتلك جادة مسلوكة لأهل السنة .

وقد مرت الإشارة إلى ذلك فتذكر ، و ﴿ أَشَدَّ ﴾ عطف على ﴿ كالحجارة ﴾ من قبيل عطف المفرد على المفرد كما تقول : زيد على سفر أو مقيم ، وقدر بعضهم أو هي أشد فيصير من عطف الجمل ، ومن الناس من يقدر مضافاً محذوفاً أي مثل ما هو أشد ، ويجعله معطوفاً على الكاف إن كان اسماً أو مجموع الجار والمجرور إذا كان حرفاً ، ثم لما حذف المضاف أقيم المضاف إليه مقامه فأعرب بإعرابه ، ولا يخفى أن اعتبار التشبيه في جانب المعطوف بدون عطفه على المجرور بالكاف مستبعد جداً ، وقرأ الأعمش ﴿ أَوْ أَشَدَّ ﴾ مجروراً بالفتحة لكونه غير منصرف للوصف ووزن الفعل وهو عطف على الحجارة واعتبار التشبيه حينئذ ظاهر وإنما لم يقل سبحانه وتعالى أقسى مع أن فعل القسوة مما يصاغ منه أفعل وهو أخصر وارد في الفصيح كقوله :

كل خمصانة أرق من الخم . . .

ر بقلب (أقسى) من الجلمود

لما في أشد المبالغة لأنه يدل على الزيادة بجوهره وهيئته بخلاف أقسى فإن دلالته بالهيئة فقط ، وفيه دلالة على اشتداد القسوتين ولو كان أقسى لكان دالاً على اشتراك القلوب والحجارة في القسوة ، واشتمال القلوب على زيادة القسوة لا في شدة القسوة وليس هذا مثل قولك زيد أشد إكراماً من عمرو حيث ذكروا أن ليس معناه إلا أنهما مشتركان في الإكرام وإكرام زيد زِيدَ على إكرام عمرو لا أنهما مشتركان في شدة الإكرام ، وشدة إكرام زيد زائدة على شدة إكرام عمرو للفرق بين ما بني للتوصل وما بني لغيره وما نحن فيه من الثاني وإن كان الأول أكثر .

والاعتراض بأن أشد محمول على القلوب دون القسوة ليس بشيء لأنه محمول عليها بحسب المعنى لكونها تمييزاً محولاً عن الفاعل أو منقولاً عن المبتدأ كما في " البحر " ، ويمكن أن يقال : إن الله تعالى أبرز القساوة في معرض العيوب الظاهرة تنبيهاً على أنها من العيوب بل العيب كل العيب ما صد عن عالم الغيب ﴿ فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الابصار ولكن تعمى القلوب التى فِى الصدور ﴾ [الحج : 46] .

﴿ وَإِنَّ مِنَ الحجارة لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأنهار وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الماء وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ ﴾ تذييل لبيان تفضيل قلوبهم على الحجارة أو اعتراض بين قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ وبين الحال عنها وهو ﴿ وَمَا الله بغافل ﴾ لبيان سبب ذلك فإنه لغرابته يحتاج إلى بيان السبب كما في قوله :

فلا هجره يبدو وفي اليأس راحة . . .

ولا وصفه يصفو لنا (فنكارمه)

(50/56)

وجعله جملة حالية مشعرة بالتعليل يأباه الذوق إذ لا معنى للتقييد ، وكونه بياناً وتقريراً من جهة المعنى لما تقدم مع كونه بحسب اللفظ معطوفاً على جملة هي كالحجارة أو أشد كما قاله العلامة مما لا يظهر وجهه لأنه إذا كان بياناً في المعنى كيف يصح عطفه ويترك جعله بياناً ، والمعنى إن الحجارة تتأثر وتنفعل ، وقلوب هؤلاء لا تتأثروا لا تنفعل عن أمر الله تعالى أصلاً ، وقد ترقى سبحانه في بيان التفضيل كأنه بين أولاً تفضيل قلوبهم في القساوة على الحجارة التي تتأثر تأثراً يترتب عليه منفعة عظيمة من تفجر الأنهار ، ثم على الحجارة التي تتأثر تأثراً ضعيفاً يترتب عليه منفعة قليلة من خروج الماء ، ثم على الحجارة التي تتأثر من غير منفعة فكأنه قال سبحانه : قلوب هؤلاء أشد قسوة من الحجارة لأنها لا تتأثر بحيث يترتب عليه المنفعة العظيمة بل الحقيرة بل لا تتأثر أصلاً ومما ذكر يظهر نكتة ذكر تفجر الأنهار وخروج الماء ، وترك فائدة الهبوط ، وذكر غير واحد أن الآية واردة على نهج التتميم دون الترقي كالرحمن الرحيم إذ لو أريد الترقي لقيل وإن منها لما يشقق فيخرج منه

الماء وإن منها لما يتفجر منه الأنهار وفائدته استيعاب جميع الانفعالات التي على خلاف طبيعة هذا الجوهر ، وهو أبلغ من الترقي ، ويكون ﴿ وَإِنَّ مِنْهَا ﴾ الأخير تتميماً للتتميم ، ولا يخفى أنه يرد عليه منع إفادته لاستيعاب جميع الانفعالات وخلوه عن لطافة ما ذكرناه ، والتفجر التفتح بسعة وكثرة كما يدل عليه جوهر الكلمة وبناء التفعل ، والمراد من الأنهار الماء الكثير الذي يجري في الأنهار ، والكلام إما على حذف المضاف ، أو ذكر المحل وإرادة الحال أو الإسناد مجازي ، قال بعض المحققين : وحملها على المعنى الحقيقي وَهمٌ إذ التفتح لا يمكن إسناده إلى الأنهار اللهم إلا بتضمين معنى الحصول بأن يقال : يتفجر ويحصل منه الأنهار على أن تفجير الحجارة بحيث تصير نهراً غير معتاد فضلاً عن كونها

أنهاراً ، والتشقق التصدع بطول أو بعرض ، والخشية الخوف ، واختلف في المراد منها فذهب قوم وهو المروي عن مجاهد وغيره أنها هنا حقيقة ، وهي مضافة إلى الاسم الكريم من إضافة المصدر إلى مفعوله أي من خشية الحجارة الله ويجوز أن يخلق الله تعالى العقل والحياة في الحجر ، واعتدال المزاج والبنية ليسا شرطاً في ذلك خلافاً للمعتزلة ، وظواهر الآيات ناطقة بذلك ، وفي " الصحيح "

"إني لأعرف حجراً كان يسلم عليّ قبل أن أبعث" وأنه صلى الله عليه وسلم بعد مبعثه ما مر بحجر ولا مدر إلا سلم عليه، وورد في الحجر الأسود أنه يشهد لمن استلمه، وحديث تسبيح الحصى بكفه الشريف صلى الله عليه وسلم مشهور، وقيل: هي حقيقة، والإضافة هي الإضافة إلا أن الفاعل محذوف هو العباد، والمعنى: أن من الحجارة ما ينزل بعضه عن بعض عند الزلزال من خشية عباد الله تعالى إياه؛ وتحقيقه أنه لما كان المقصود منها خشية الله تعالى صارت تلك الخشية كالعلة المؤثرة في ذلك الهبوط فيؤل المعنى أنه يهبط من أجل أن يحصل خشية العباد الله تعالى.

وذهب أبو مسلم إلى أن الخشية حقيقة، وأن الضمير في ﴿ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ ﴾ عائد على القلوب، والمعنى أن من القلوب قلوباً تطمئن وتسكن وترجع إلى الله تعالى، وهي قلوب المخلصين، فكنى عن ذلك بالهبوط، وقيل: إنها حقيقة إلا أن إضافتها من إضافة المصدر إلى الفاعل، والمراد بالحجر البرد، وبخشيته تعالى إخافته عباده بإنزاله وهذا القول أبرد من الثلج وما قبله أكثف من الحجر وما قبلهما بين بين وقال قوم: إن الخشية مجاز عن الانقياد لأمر الله تعالى إطلاقاً لاسم الملزوم على اللازم، ولا ينبغي أن تحمل على حقيقتها، أما على القول بأن اعتدال المزاج والبنية شرط وما ورد مما يقتضي خلافه محمول على أن الله تعالى قرن ملائكته بتلك الجمادات، ومنها هاتيك الأفعال ونحو "هذا جبل يحبنا ونحبه" على حذف مضاف أي يحبنا أهله ونحب أهله فظاهر.

وأما على القول بعدم الاشتراط فلأن الهبوط والخشية على تقدير خلق العقل والحياة لا يصح أن يكون بياناً لكون الحجارة في نفسها أقل قسوة وهو المناسب للمقام والاعتراض بأن قلوبهم إنما تمتنع عن الانقياد لأمر التكليف بطريق القصد والاختيار ولا تمتنع عما يراد بها على طريق القسر والإلجاء كما في الحجارة وعلى هذا لا يتم ما ذكر ، فالأولى الحمل على الحقيقة أجيب عنه بأن المراد أن قلوبهم أقسى من الحجارة لقبولها التأثر الذي يليق بها وخلقت لأجله بخلاف قلوبهم فإنها تنبو عن التأثر الذي يليق بها وخلقت له ، والجواب بأن ما رأوه من الآيات مما يقسر القلب ويلجؤه فلما لم تتأثر قلوبهم عن القاسرات الكثيرة ويتأثر الحجر من قاسر واحد تكون قلوبهم أشد قسوة لا يخلو عن نظر لأنه إن أريد بذلك المبالغة في الدلالة على الصدق فلا ينفع ، وإن أريد به حقيقة الإلجاء فممنوع ، وإلا لما تخلف عنها التأثر ولما استحق من آمن بعد رؤيتها الثواب لكونه إيماناً اضطرارياً ولم يقل به أحد ثم الظاهر على هذا تعلق خشية الله بالأفعال الثلاثة السابقة وقرىء ﴿ وَأَنْ ﴾ على أنها المخففة من الثقيلة ويلزمها اللام الفارقة بينها وبين النافية ، والفراء يقول : إنها النافية واللام بمعنى إلا وزعم الكسائي أن ﴿ إن ﴾ إن وليها اسم كانت المخففة ، وإن فعل كانت

النافية ، وقطرب إنها إن وليها فعل كانت بمعنى قد وقرأ مالك بن دينار ﴿ ينفجر ﴾ مضارع انفجر والأعمش ﴿ يتشقق ﴾ و﴿ لَمَا يَهْبِطُ ﴾ بالضم.

﴿ وَمَا اللهُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ وعيد على ما ذكر كأنه قيل : إن الله تعالى لبالمرصاد لهؤلاء القاسية قلوبهم حافظ لأعمالهم محص لها ، فهو مجازيهم بها في الدنيا والآخرة ، وقرأ ابن كثير ﴿ يَعْمَلُونَ ﴾ بالياء التحتانية ضماً إلى ما بعده من قوله سبحانه : ﴿ أَنْ يُؤْمِنُواْ ﴾ و﴿ يَسْمَعُونَ ﴾ [البقرة : 57] وفريق منهم ، وقرأ الباقون بالتاء الفوقانية لمناسبة ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ فادرأتم ﴾ [البقرة : 72] وتكتمون الخ وقيل : ضماً إلى قوله تعالى : ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ ﴾ [البقرة : 75] بأن يكون الخطاب فيه للمؤمنين وعدلهم ، ويبعده أنه لا وجه لذكر وعد المؤمنين تذييلاً لبيان قبائح اليهود . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 295.298 ﴾

(53/56)

ومن فوائد القاسمى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ ﴾

المخاطبون إما أهل الكتاب الذين كانوا في زمنه صلى الله عليه وسلم ، أي : اشتدت قلوبكم وقست وصلبت من بعد البينات التي جاءت أوائلكم ، والأمور التي جرت عليهم ، والعقاب الذي نزل بمن أصرّ على المعصية منهم ، والآيات التي جاءهم بها أنبياؤهم ، والمواثيق التي أخذوها على أنفسهم ، وعلى كل من دان بالتوراة ممن سواهم . فأخبر بذلك عن طغيانهم وجفائهم مع ما عندهم من العلم بآيات الله التي تلين عندها القلوب . وهذا أَولى ؛ لأن قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم ﴾ ، خطاب مشافهة . فحمله على الحاضرين أولى . وإما [في المطبوع : وأما] أن يكون المراد أولئك اليهود الذين كانوا في زمن موسى عليه السلام خصوصاً ، أو من قبل المخاطبين من سلفهم . والله أعلم ﴿ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ ﴾ في القساوة : ﴿ أَوْ أَشَدُّ ﴾ منها : ﴿ قَسْوَةً ﴾ أي : هي في القسوة مثل الحجارة أو زائد عليها فيها . و : ﴿ أَوْ ﴾ للتخيير أو للترديد . بمعنى أن من عرف حالها شبهها بالحجارة ، أو بما هو أقسى كالحديد ، أو من عرفها شبهها بالحجارة ، أو قال هي أقسى من الحجارة ، وترك ضمير المُفَضَّل عليه للأمن من الالتباس : ﴿ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ ﴾ أي : يتفتح بالسعة والكثرة : ﴿ مِنْهُ الأَنْهَارُ ﴾ بيان لأشدّية قلوبهم من الحجارة في القساوة وعدم التأثر بالعظات ، والقوارع التي تميع منها الجبال وتلين بها الصخور ، يعني أن الحجارة ربما تتأثر حيث يكون منها ما يتفجر منه المياه

العظيمة : ﴿ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ ﴾ أي : يتشقق : ﴿ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاء ﴾ أي : العيون التي هي دون الأنهار : ﴿ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللّهِ ﴾ أي : يتردى من رأس الجبل من خشية الله ، انقياداً لما سخره له من الميل إلى المركز بالسلاسة ، قاله القاشانيّ .

وقد ذهب بعض المفسرين إلى الاستدلال بظاهر الآية على خلق التمييز في الجماد حتى يخشى ويسبح . والمحققون على أن هذه الآية وأمثالها من المجاز البليغ ، وأن الإطلاق لا ينحصر في الحقيقة ، لاسيما وأن المجاز أكثر في اللسان منها ، كما بسط في مطولات البيان .

وقد رد الإمام ابن حزم ، في أول كتابه " الفصل " على من زعم أن للحيوان والجماد تمييزاً ، رداً مسهباً . وقال : من ادعى ذلك أكذبه العيان . ثم استثنى ما كان معجزة للأنبياء عليهم السلام .

قال : ولعل معترضاً يعترض بقوله تعالى يصف الحجارة : ﴿ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ ، فقد علمنا بالضرورة أن الحجارة لم تؤمر بشريعة ولا بعقل ولا بعث إليها نبيّ . فإذْ لا شك في هذا ، فإن القول منه تعالى يخرج على أحد ثلاثة أوجه :

أحدها أن يكون الضمير في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ ﴾ راجع إلى القلوب المذكورة في أول الآية في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ فذكر تعالى أن من تلك القلوب القاسية ما يقبل الإيمان يوماً ما ، فيهبط عن القسوة إلى اللين من خشية الله تعالى ، وهذا أمر يشاهد بالعيان ، فقد تلين القلوب القاسية بلطف الله تعالى ، ويخشى العاصي . وقد أخبر عز وجلّ : ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [آل عِمْرَان : 199] ، وكما أخبر تعالى أن : ﴿ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ ﴾ [التوبة : 99] من بعد أن أخبر أن : ﴿ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً ﴾ [التوبة : 97] . قال : فهذا وجه ظاهر متيقن الصحة .

والوجه الثاني : أن الخشية المذكورة في الآية إنما هي التصرف بحكم الله تعالى وجري أقداره ، كما قلنا في قوله تعالى حاكياً عن السماء والأرض : ﴿ قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ [فصلت : 11] .

والوجه الثالث : أن يكون الله تعالى عنى بقوله : ﴿ وإنّ منها لما يهبط من خشية الله ﴾ الجبل الذي صار دكّاً ، إذ تجلى الله تعالى له يوم سأله كليمه عليه السلام الرؤية ، فذلك

الجبل بلا شك من جملة الحجارة ، وقد هبط عن مكانه من خشية الله تعالى ، وهذه معجزة وآية وإحالة طبيعة في ذلك الجبل خاصة . ويكون : ﴿ يهبط ﴾ بمعنى : هبط ؛ كقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [الأنفال : 30] معناه : وإذ مكر ، وبين قوله تعالى ، مصدقاً إبراهيم خليله صلى الله عليه وسلم في إنكاره على أبيه عُبَادَة الحجارة : ﴿ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ ﴾ [مريم : 42] وقوله تعالى : ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلا يَعْقِلُونَ ﴾ [الزمر : 43] فصح بهذا ، صحة لا مجال للشك فيها ، أن الحجارة لا تعقل . وإذ تيقن ذلك بالنص وبالضرورة والمشاهدة فقد انتفى عنها النطق والتمييز والخشية ، المعهود كل ذلك عندنا .

وأما الأحاديث المأثورة في أن الحجر له لسان وشفتان ، والكعبة كذلك ، وأن الجبال تطاولت ، وخشع جبل كذا ، فخرافات موضوعة نقلها كل كذاب وضعيف ، لا يصح منها شيء من طريق الإسناد أصلاً . ويكفي من التطويل في ذلك أنه لم يدخل شيئاً منها من انتدب من الأئمة لتصنيف الصحيح من الحديث ، أو ما يستجاز روايته ، مما يقارب الصحة . انتهى كلام ابن حزم .

وقال ابن جرير : اختلف أهل النحو في معنى الهبوط ؛ ما هبط من الأحجار من خشية الله فقال بعضهم : إن هبوط ما هبط منها من خشية الله تفيّؤ ظلاله . وقال آخرون : ذلك الجبل الذي صار دكاً إذ تجلى له ربه . وقال آخرون : قوله : ﴿ يهبط من خشية الله ﴾ كقوله : ﴿ جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ ﴾ [الكهف : 77] لا إرادة له . قالوا : وإنما أريد بذلك أنه من عظم أمر الله يرى كأنه هابط خاشع من ذلّ خشية الله . قال زيد الخيل :

~بِجَمْعٍ تَضِلُّ الْبُلْقُ فِي حَجَرَاتِهِ تَرَى الْأُكْمَ مِنْهُ سُجَّداً لِلْحَوَافِرِ

وكما قال سويد بن أبي كاهل ، يصف عدوّاً له :

~سَاجِدَ الْمَنْخِرِ لَا يَرْفَعُهُ خَاشِعَ الطَّرْفِ أَصَمَّ الْمُسْتَمَعْ

يريد أنه ذليل .

وكما قال جرير بن عطية :

~لَمَّا أَتَى خَبَرُ الزُّبَيْرِ تَوَاضَعَتْ سُوْرُ الْمَدِينَةِ وَالْجِبَالُ الْخُشَّعُ

وقال آخرون : معنى قوله : ﴿ يهبط من خشية الله ﴾ أي : يوجب الخشية لغيره بدلالته على صانعه . كما قيل : ناقة تاجرة إذا كانت ، من نجابتها وفراهتها ، تدعو الناس إلى الرغبة فيها ، كما قال جرير بن عطية :

~وَأَعْوَرَ مِنْ نَبْهَانَ ، أَمَّا نَهَارُهُ فَأَعْمَى ، وَأَمَّا لَيْلُهُ فَبَصِيْرُ

فجعل الصفة لليل والنهار ، وهو يريد بذلك صاحبه النبهانيّ الذي يهجوه . من أجل أنه

فيهما كان ما وصفه به . ثم اختار ابن جرير ما يقتضيه ظاهر الآية . وتقدم رد ابن حزم له مبرهناً عليه .

(58/56)

ثم رأيت الإمام الراغب حاول هنا تقريب ما نقل من الوقوف على ظاهرها بتأويله .

وعبارته : قال مجاهد وابن جريج : كل حجر تردى من رأس جبل فخشية الله نزلت به ، وقال الزجاج : الهابط منها قد جعل له معرفة ، قال ويدل على ذلك قوله : ﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ [الحشر : 21] ، وقال : ﴿ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ﴾ [الحج : 18] ، إلى قوله : ﴿ النُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ ﴾ [الحج : 18] وقد روي مثل هذا عن السلف ، ولا بد في معرفة ذلك من مقدمة تكشف عن وجه هذا القول ، وحقيقته . فإن قوماً استسلموا لما حكي لهم من هذا النحو ، فانطووا على شبهة ، وقوماً استبعدوا ذلك واستخفوا عقل رواته وقائليه ، فيقال وبالله التوفيق : إن قوماً من المتقدمين ذكروا أن جميع المعارف على أضرب :

الأول المعرفة التامة التي هي العلم التام . وذلك لعلاّم الغيوب الذي أحاط بكل شيء علماً

.

والثاني معرفة متزايدة ، وهي للإنسان ، وذاك أن الله تعالى جعل له معرفة غريزية ، وجعل له بذلك سبيلاً إلى تعريف كثير مما لم يعرفه ، وليس ذلك إلا للإنسان .

والثالث معرفة دون ذلك ، وهي معرفة الحيوانات التي سخرها لإيثار أشياء نافعة لها والسعي إليها . واسترذال أشياء هي ضارة لها وتجنبها ، ودفع مضار عن أنفسها .

والرابع : معرفة الناميات من الأشجار والنبات ، وهي دون ما للحيوانات ، وليس ذلك إلا في استجلاب المنافع وما ينميها .

(59/56)

والخامس : معرفة العناصر ، فإن كل واحد منها مسخر لأن يشغل المكان المختص به كالحجر في طلب السفل ، والنار في طلب العلّو ، وذلك بتسخير الله تعالى ، بلا اختيار منه . قالوا : والدلالة على ذلك أن كل واحدٍ من هذه العناصر إذا نقل من مركزه قهراً ، أبى إلا العود إليه طوعاً . قالوا ويوضح ذلك أن السراج يجتذب الأدهان التي تبقيه ، ويأبى الماء الذي يطفيه ، وأن المغناطيس يجر الحديد ولا يجر غيره . هذا ما حكوه .

فعلى هذا إذا قيل : لهذه الأشياء معرفة ، فليس ببعيد ، متى سلم لهم أن هذه القوى

تسمى معرفة ، فأما إذا قيل إن للجمادات معارف الْإِنْسَانْ في أنها تميز وتختار وتريد ، فهذا مما تعافه العقول . انتهى قول الراغب .

وهو تأويل حسن ، ومبناه على أن اصطلاح السلف في كثير من الإطلاقات غير اصطلاحات الخلف . وهو مسلم في كثير من الإطلاقات .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ فيه من التهديد وتشديد الوعيد ما لا يخفى . فإن الله عز وجل إذا كان عالماً بما يعملونه ، مطلعاً عليه غير غافل عنه ، كان لمجازاتهم بالمرصاد . انتهى انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 2 صـ 365. 369 ﴾

(60/56)

ومن فوائد ابن عاشور فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾

(ثم) هنا للترتيب الرتبي الذي تتهيأ له (ثم) إذا عَطفت الجمل ، أي ومع ذلك كله لم تلن قلوبكم ولم تنفعكم الآيات ﴿ فقست قلوبكم ﴾ وكان من البعيد قسوتها .

وقوله : ﴿ من بعد ذلك ﴾ زيادة تعجيب من طرق القساوة للقلب بعد تكرر جميع الآيات

السابقة المشار إلى مجموعها بذلك على حد قول القطامي :

أكفراً بعد ردِّ الموتِ عني . . .

وبعدَ عَطائك المائة الرِّتاعَا

أي كيف أكفر نعمتك أي لا أكفرها مع إنجائك لي من الموت إلخ .

ووجه استعمال (بعد) في هذا المعنى أنها مجاز في معنى (مع) لأن شأن المسبب ، أن يتأخر عن السبب ولما لم يكن المقصد التنبيه على تأخره للعلم بذلك وأريد التنبيه على أنه معه إثباتاً أو نفياً عُبر ببعد عن معنى (مع) مع الإشارة إلى التأخر الرتبي .

والقسوة والقساوة توصف بها الأجسام وتوصف بها النفوس المعبر عنها بالقلوب فالمعنى الجامع للوصفين هو عدم قبول التحول عن الحالة الموجودة إلى حالة تخالفها .

وسواء كانت القساوة موضوعة للقدر المشترك بين هذين المعنيين الحسي والقلبي وهو احتمال ضعيف أم كانت موضوعة للأجسام حقيقة واستعملت في القلوب مجازاً وهو الصحيح ، فقد شاع هذا المجاز حتى ساوى الحقيقة وصار غير محتاج إلى القرينة فآل اللفظ إلى الدلالة على القدر المشترك بالاستعمال لا بأصل الوضع وقد دل على ذلك

العطف في قوله : ﴿ أو أشد قسوة ﴾ كما سيأتي .

وقوله : ﴿ فهي حجارة ﴾ تشبيه فرع بالفاء لإرادة ظهور التشبيه بعد حكاية الحالة المعبر عنها بقست لأن القسوة هي وجه الشبه ولأن أشهر الأشياء في هذا الوصف هو الحجر فإذا ذكرت القسوة فقد تهيأ التشبيه بالحجر ولذا عطف بالفاء أي إذا علمت أنها قاسية فشبهها بالحجارة كقول النابغة يصف الحجيج :

عليهن شعثٌ عامدون لربهم . . .

فهُنّ كأطراف الحَنِيِّ خواشع

وقد كانت صلابة الحجر أعرف للناس وأشهر لأنها محسوسة فلذلك شبه بها ، وهذا الأسلوب يسمى عندي تهيئة التشبيه وهو من محاسنه ، وإذا تتبعت أساليب التشبيه في كلامهم تجدها على ضربين ضرب لا يهيأ فيه التشبيه وهو الغالب وضرب يهيأ فيه كما هنا والعطف بالفاء في مثله حسن جداً وأما أن يأتي المتكلم بما لا يناسب التشبيه فذلك عندي يعد مذموماً .

وقد رأيت بيتاً جمع تهيئة التشبيه والبعد عنه وهو قول ابن نباتة :

في الريق سُكْر وفي الأَصداغ تجعيد . . .

هذا المُدَام وهاتيك العناقيد

فإنه لما ذكر السكر تهيأ التشبيه بالخمر ولكن قوله : تجعيد لا يناسب العناقيد .

فإن قلت لم عددته مذموماً وما هو إلا كتجريد الاستعارة ؟

قلت : لا لأن التجريد يجيء بعد تكرر الاستعارة وعلم بها فيكون تفنناً لطيفاً بخلاف ما يجيء قبل العلم بالتشبيه .

وقوله : ﴿ أو أشد قسوة ﴾ مرفوع على أنه خبر مبتدأ دل عليه قوله : ﴿ فهي كالحجارة ﴾ و (أو) بمعنى بل الانتقالية لتوفر شرطها وهو كون معطوفها جملة .

(62/56)

وهذا المعنى متولد من معنى التخيير الموضوعة له (أو) لأن الانتقال ينشأ عن التخيير فإن القلوب بعد أن شبهت بالحجارة وكان الشأن يكون المشبه أضعف في الوصف من المشبه به يُبنى على ذلك ابتداءُ التشبيه بما هو أشهر ثم عقب التشبيه بالترقي إلى التفضيل في وجه الشبه على حد قول ذي الرمة :

بَدَتْ مثل قرن الشمس في رونق الضُّحى . . .

وصورتِها أو أنتِ في العين أَمْلَح

فليست (أو) للتخيير في التشبيه أي ليست عاطفة على قوله الحجارة المجرورة بالكاف لأن تلك لها موقع مَا إذا كُرر المشبه به كما قدمناه عند قوله تعالى : ﴿ أَوْ كصيب من

السماء ﴾ [البقرة : 19] .

ويجوز أن تكون للتخيير في الأخبار عطفاً على الخبر الذي هو ﴿ كالحجارة ﴾ أي فهي مثل الحجارة أو هي أقوى من الحجارة والمقصود من التخيير أن المتكلم يشير إلى أنه لا يرمي بكلامه جزافاً ولا يذمهم تحاملاً بل هو متثبت متحر في شأنهم فلا يُثْبِت لهم إلا ما تبين له بالاستقراء والتقصي فإنه ساواهم بالحجارة في وصف ثم تَقَصَّى فرأى أنهم فيه أقوى فكأنه يقول للمخاطب إن شئت فسَوِّهم بالحجارة في القسوة ولك أن تقول هم أشد منها وذلك يفيد مفاد الانتقال الذي تدل عليه بل وهو إنما يحسن في مقام الذم لأن فيه تلطفاً وأما في مقام المدح فالأحسن هو التعبير ببل كقول الفرزدق :

فقالت لنا أهلاً وسهلاً وزوَّدَتْ . . .

جَنَى النَّحْل بل ما زوّدتْ منه أطيب

ووجه تفضيل تلك القلوب على الحجارة في القساوة أن القساوة التي اتصفت بها القلوب مع كونها نوعاً مغايراً لنوع قساوة الحجارة قد اشتركا في جنس القساوة الراجعة إلى معنى عدم قبول التحول كما تقدم فهذه القلوب قساوتها عند التمحيص أشد من قساوة الحجارة لأن الحجارة قد يعتريها التحول عن صلابتها وشدتها بالتفرق والتشقق وهذه القلوب لم تُجْدِ فيها محاولة .

وقوله : ﴿ وإن من الحجارة لما يتفجَّر ﴾ إلخ تعليل لوجه التفضيل إذ من شأنه أن يُستغرب ، وموقع هذه الواو الأولى في قوله : ﴿ وإن من الحجارة ﴾ عسير فقيل : هي للحال من الحجارة المقدَّرة بعد (أَشَد) أي أشد من الحجارة قسوةً ، أي تفضيل القلوب على الحجارة في القسوة يظهرُ في هذه الأحوال التي وُصِفت بها الحجارة ومعنى التقييد أن التفضيل أظهر في هذه الأحوال ، وقيل هي الواو للعطف على قوله : ﴿ فهي كالحجارة أو أشد قسوة ﴾ قاله التفتازاني ، وكأنه يجعل مضمون هذه المعطوفات غير راجع إلى معنى تشبيه القلوب بالحجارة في القساوة بل يجعلها إخباراً عن مزايا فَضُلت بها الحجارة على قلوب هؤلاء بما يحصل عن هذه الحجارة من منافع في حين تُعطَّلُ قلوب هؤلاء من صدور النفع بها ، وقيل : الواو استئنافية وهو تذييل للجملة السابقة وفيه بعد كما صرح به ابن عرفة ، والظاهر أنها الواو الاعتراضية وأن جملة ﴿ وإن من الحجارة وما عطف عليها معترضاتٌ بين قوله : ثم قست قلوبكم ﴾ وبين جملة الحال منها وهي قوله : ﴿ وما الله بغافل عما تعملون ﴾ .

والتوكيد بإنَّ للاهتمام بالخبر وهذا الاهتمام يؤذن بالتعليل ووجود حرف العطف قبلها لا يُناكدُ ذلك كما تقدم عند قوله تعالى : ﴿ فإن لكم ما سألتم ﴾ [البقرة : 61] .

ومن بديع التخلص تأخُّر قوله تعالى : ﴿ وإنَّ منها لَمَا يهبط من خشية الله ﴾ والتعبير عن

التَسخُّر لأمر التكوين بالخشية ليتم ظهور تفضيل الحجارة على قلوبهم في أحوالها التي نهايتها الامتثال للأمر التكليفي مع تعاصي قلوبهم عن الامتثال للأمر التلكيفي ليتأتى الانتقال إلى قوله : ﴿ وما الله بغافل عما تعملون ﴾ وقوله : ﴿ أفتطعمون أن يؤمنوا لكم ﴾ [البقرة : 75] .

(64/56)

وقد أشارت الآية إلى أن انفجار الماء من الأرض من الصخور منحصر في هذين الحالين وذلك هو ما تقرر في علم الجغرافيا الطبيعية أن الماء النازل على الأرض يخرق الأرض بالتدريج لأن طبع الماء النزول إلى الأسفل جرياً على قاعدة الجاذبية فإذا أضغط عليه بثقل نفسه مِن تكاثُره أو بضاغطٍ آخر من أهْوية الأرض تطلب الخروج حتى إذا بلغ طبقة صخرية أو صلصالية طفا هناك فالحجر الرملي يشرب الماء والصخور والصلصال لا يخرقها الماءُ إلا إذا كانت الصخور مركبة من مواد كلسية وكان الماءُ قد حمل في جريته أجزاء من معدن الحامض الفحمي فإن له قوة على تحليل الكلس فيحدث ثقباً في الصخور الكلسية حتى يخرقها فيخرج منها نابعاً كالعيون .

وإذا اجتمعت العيون في موضع نشأت عنها الأنهار كالنيل النابع من جبال القمر ، وأما

الصخور غير الكلسية فلا يفتتها الماء ولكن قد يعرض لها انشقاق بالزلازل أو بفلق الآلات فيخرج منها الماء إما إلى ظاهر الأرض كما نرى في الآبار وقد يخرج منها الماء إلى طبقة تحتها فيختزن تحتها حتى يخرج بحالة من الأحوال السابقة .

وقد يجد الماء في سيره قبل الدخول تحت الصخر أو بعدَه منفذاً إلى أرض ترابية فيخرج طافياً من سطح الصخور التي جرى فوقها .

وقد يجد الماء في سيره منخفضات في داخل الأرض فيستقر فيها ثم إذا انضمت إليه كميات أخرى تَطَلَّبَ الخروج بطريق من الطرق المتقدمة ولذلك يكثر أن تنفجر الأنهار عقب الزلازل .

والخشية في الحقيقة الخوفُ الباعث على تقوى الخائف غيرَه .

وهي حقيقة شرعية في امتثال الأمر التكليفي لأنها الباعث على الامتثال .

وجُعلت هنا مجازاً عن قبول الأمر التكويني إما مرسلاً بالإطلاق والتقييد ، وإما تمثيلاً للهيئة عند التكوين بهيئة المكلَّف إذ ليست للحجارة خشية إذ لا عقل لها .

وقد قيل إن إسناد (يهبط) للحجر مجاز عقلي والمراد هبوط القلوب أي قلوب الناظرين إلى الصخور والجبال أي خضوعها فأسند الهبوط إليها لأنها سببه كما قالوا ناقة تاجرة أي تبعث من يراها على المساومة فيها .

وقوله : ﴿ وما الله بغافل عما تعملون ﴾ تذييل في محل الحال أي فعلتم ما فعلتم وما الله بغافل عن كل صنعكم .

وقد قرأه الجمهور بالتاء الفوقية تكملة خطاب بني إسرائيل ، وقرأ ابن كثير ويعقوب وخلف (يعملون) بالياء التحتية وهو انتقال من خطابهم إلى خطاب المسلمين فلذلك غُيِّر أسلوبه إلى الغيبة وليس ذلك من الالتفات لاختلاف مرجع الضميرين لأن تفريع قوله : ﴿ أفتطمعون أن يؤمنوا لكم ﴾ [البقرة : 75] عليه دل على أن الكلام نقل من خطاب بني إسرائيل إلى خطاب المسلمين .

وهو خبر مراد به التهديد والوعيد لهم مباشرة أو تعريضاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 1 صـ 544. 548 ﴾

ومن فوائد صاحب المنار فى الآيات السابقة

قال رحمه الله :

(وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ)

هَذِهِ الْقِصَّةُ مِمَّا أَرَادَ اللَّهُ – تَعَالَى – أَنْ يَقُصَّهُ عَلَيْنَا مِنْ أَخْبَارِ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي قَسْوَتِهِمْ وَفُسُوقِهِمْ لِلِاعْتِبَارِ بِهَا . وَمِنْ وُجُوهِ الِاعْتِبَارِ : أَنَّ التَّنَطُّعَ فِي الدِّينِ وَالْإِحْفَاءَ فِي السُّؤَالِ ، مِمَّا يَقْتَضِي التَّشْدِيدَ فِي الْأَحْكَامِ ، فَمَنْ شَدَّدَ شُدِّدَ عَلَيْهِ ؛ وَلِذَلِكَ نَهَى اللَّهُ – تَعَالَى – هَذِهِ الْأُمَّةَ عَنْ كَثْرَةِ السُّؤَالِ بِقَوْلِهِ : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ

أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللهُ عَنْهَا وَاللهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ) (5 : 101 ، 102) وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ (وَيَكْرَهُ لَكُمْ قِيلَ وَقَالَ ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ) وَقَدِ امْتَثَلَ سَلَفُنَا الْأَمْرَ فَلَمْ يُشَدِّدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ فَكَانَ الدِّينُ عِنْدَهُمْ فِطْرِيًّا سَاذَجًا وَحَنِيفِيًّا سَمْحًا ، وَلَكِنْ مِمَّنْ خَلَفَهُمْ مَنْ عَمَدَ إِلَى مَا عَفَا اللهُ عَنْهُ فَاسْتَخْرَجَ لَهُ أَحْكَامًا اسْتَنْبَطَهَا بِاجْتِهَادِهِ ، وَأَكْثَرُوا مِنْهَا حَتَّى صَارَ الدِّينُ حِمْلًا ثَقِيلًا عَلَى الْأُمَّةِ فَسَئِمَتْهُ وَمَلَّتْ ، وَأَلْقَتْهُ وَتَخَلَّتْ .

قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : جَاءَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ عَلَى أُسْلُوبِ الْقُرْآنِ الْخَاصِّ الَّذِي لَمْ يُسْبَقْ إِلَيْهِ وَلَمْ يُلْحَقْ فِيهِ ، فَهُوَ فِي هَذِهِ الْقَصَصِ لَمْ يَلْتَزِمْ تَرْتِيبَ الْمُؤَرِّخِينَ ، وَلَا طَرِيقَةَ الْكُتَّابِ فِي تَنْسِيقِ الْكَلَامِ وَتَرْتِيبِهِ عَلَى حَسَبِ الْوَقَائِعِ حَتَّى فِي الْقِصَّةِ الْوَاحِدَةِ ، وَإِنَّمَا يُنَسِّقُ الْكَلَامَ فِيهِ بِأُسْلُوبٍ يَأْخُذُ بِمَجَامِعِ الْقُلُوبِ ، وَيُحَرِّكُ الْفِكْرَ إِلَى النَّظَرِ تَحْرِيكًا ، وَيَهُزُّ النَّفْسَ لِلِاعْتِبَارِ هَزًّا . وَقَدْ رَاعَى فِي قَصَصِ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْوَاعَ الْمِنَنِ الَّتِي مَنَحَهُمُ اللهُ – تَعَالَى – إِيَّاهَا ، وَضُرُوبَ الْكُفْرَانِ وَالْفُسُوقِ الَّتِي قَابَلُوهَا بِهَا ، وَمَا كَانَ فِي أَثَرِ كُلِّ ذَلِكَ مِنْ تَأْدِيبِهِمْ

بِالْعُقُوبَاتِ ، وَابْتِلَائِهِمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ، وَكَيْفَ كَانُوا يُحْدِثُونَ فِي أَثَرِ كُلِّ عُقُوبَةٍ تَوْبَةً ، وَيُحْدِثُ لَهُمْ فِي أَثَرِ كُلِّ تَوْبَةٍ نِعْمَةً ، ثُمَّ يَعُودُونَ إِلَى بَطَرِهِمْ ، وَيَنْقَلِبُونَ إِلَى كُفْرِهِمْ .

(69/56)

كَانَ فِي الْآيَاتِ السَّابِقَةِ يَذْكُرُ النِّعْمَةَ ، فَالْمُخَالَفَةَ ، فَالْعُقُوبَةَ ، فَالتَّوْبَةَ ، فَالرَّحْمَةَ كَالتَّفْضِيلِ عَلَى الْعَالَمِينَ ، وَأَخْذِ الْمِيثَاقِ ، وَالْإِنْجَاءِ مِنْ فِرْعَوْنَ ، وَمَا كَانَ فِي أَثَرِ ذَلِكَ عَلَى مَا أَشَرْنَا الْآنَ وَأَجْمَلْنَا ، وَأَوْضَحْنَا مِنْ قَبْلُ وَفَصَّلْنَا ، وَفِي هَذِهِ الْقِصَّةِ اخْتَلَفَ النَّسَقُ فَذَكَرَ الْمُخَالَفَةَ بَعْدُ فِي قَوْلِهِ : (وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا) (2 : 72) ثُمَّ الْمِنَّةَ فِي الْخَلَاصِ مِنْهَا فِي قَوْلِهِ : (فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا) (2 : 73) . . . إِلَخْ ، وَقَدَّمَ عَلَى ذَلِكَ ذِكْرَ وَسِيلَةِ الْخَلَاصِ ، وَهِيَ ذَبْحُ الْبَقَرَةِ بِمَا يُعْجِبُ السَّامِعَ وَيُشَوِّقُهُ إِلَى مَعْرِفَةِ مَا وَرَاءَهَا (حَيْثُ لَمْ يَسْبِقْ فِي الْكَلَامِ عَهْدٌ لِسَبَبِ أَمْرِ مُوسَى لِقَوْمِهِ أَنْ يَذْبَحُوا بَقَرَةً ، فَالْمُفَاجَأَةُ بِحِكَايَةِ مَا كَانَ مِنْ ذَلِكَ الْأَمْرِ ، وَالْجِدَالِ الَّذِي وَقَعَ فِيهِ يُثِيرُ الشَّوْقَ فِي الْأَنْفُسِ إِلَى مَعْرِفَةِ السَّبَبِ ، فَتَتَوَجَّهُ الْفِكْرَةُ بِأَجْمَعِهَا إِلَى تَلَقِّيهِ) إِذِ الْحِكْمَةُ فِي أَمْرِ اللهِ أُمَّةً مِنَ الْأُمَمِ بِذَبْحِ بَقَرَةٍ خَفِيَّةٌ وَجَدِيرَةٌ بِأَنْ يَعْجَبَ مِنْهَا السَّامِعُ وَيَحْرِصَ عَلَى طَلَبِهَا ، لَا سِيَّمَا إِذَا لَمْ يَعْتَدْ فَهْمَ

الْأَسَالِيبِ الْأَخَّاذَةِ بِالنُّفُوسِ الْهَازَّةِ لِلْقُلُوبِ . وَأَقُولُ : قَدْ جَرَى عَلَى هَذَا الْأُسْلُوبِ كُتَّابُ الْقِصَصِ الْمُخْتَرَعَةِ وَالْأَسَاطِيرِ الَّتِي يُسَمُّونَهَا الرِّوَايَاتِ فِي هَذَا الْعَصْرِ .

(70/56)

يَقُولُ أَهْلُ الشُّبُهَاتِ فِي الْقُرْآنِ : إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا يَعْرِفُونَ هَذِهِ الْقِصَّةَ ؛ إِذْ لَا وُجُودَ لَهَا فِي التَّوْرَاةِ ، فَمِنْ أَيْنَ جَاءَ بِهَا الْقُرْآنُ ؟ وَنَقُولُ : إِنَّ الْقُرْآنَ جَاءَ بِهَا مِنْ عِنْدِ اللهِ الَّذِي يَقُولُ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ الْمُتَأَخِّرِينَ : إِنَّهُمْ نَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ، وَإِنَّهُمْ لَمْ يُؤْتَوْا إِلَّا نَصِيبًا مِنَ الْكُتَّابِ ، عَلَى أَنَّ هَذَا الْحُكْمَ مَنْصُوصٌ فِي التَّوْرَاةِ ، وَهُوَ أَنَّهُ إِذَا قُتِلَ قَتِيلٌ لَمْ يُعْرَفْ قَاتِلُهُ ، فَالْوَاجِبُ أَنْ تُذْبَحَ بَقَرَةٌ غَيْرُ ذَلُولٍ فِي وَادٍ دَائِمِ السَّيَلَانِ ، وَيُغْسَلَ جَمِيعُ شُيُوخِ الْمَدِينَةِ الْقَرِيبَةِ مِنَ الْمَقْتَلِ أَيْدِيَهُمْ عَلَى الْعِجْلَةِ الَّتِي كُسِرَ عُنُقُهَا فِي الْوَادِي ، ثُمَّ يَقُولُونَ : إِنَّ أَيْدِينَا لَمْ تَسْفِكْ هَذَا الدَّمَ ، اغْفِرْ لِشَعْبِكَ إِسْرَائِيلَ ، وَيُتِمُّونَ دَعَوَاتٍ يَبْرَأُ بِهَا مَنْ يَدْخُلُ فِي هَذَا الْعَمَلِ مِنْ دَمِ الْقَتِيلِ ، وَمَنْ لَمْ يَفْعَلْ يَتَبَيَّنُ أَنَّهُ الْقَاتِلُ ، وَيُرَادُ بِذَلِكَ حَقْنُ الدِّمَاءِ ، فَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْحُكْمُ هُوَ مِنْ بَقَايَا تِلْكَ الْقِصَّةِ ، أَوْ كَانَتْ هِيَ السَّبَبَ فِيهِ ، وَمَا هَذِهِ بِالْقِصَّةِ الْوَحِيدَةِ الَّتِي صَحَّحَهَا الْقُرْآنُ ، وَلَا هَذَا الْحُكْمُ بِالْحُكْمِ الْأَوَّلِ الَّذِي حَرَّفُوهُ أَوْ أَضَاعُوهُ وَأَظْهَرَهُ اللهُ –

تَعَالَى . (قَالَ الْأُسْتَاذُ) : وَقَدْ قُلْتُ لَكُمْ غَيْرَ مَرَّةٍ : إِنَّهُ يَجِبُ الِاحْتِرَاسُ فِي قِصَصِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَعَدَمِ الثِّقَةِ بِمَا زَادَ

(71/56)

عَلَى الْقُرْآنِ مِنْ أَقْوَالِ الْمُؤَرِّخِينَ وَالْمُفَسِّرِينَ ، فَالْمُشْتَغِلُونَ بِتَحْرِيرِ التَّارِيخِ وَالْعِلْمِ الْيَوْمَ يَقُولُونَ مَعَنَا : إِنَّهُ لَا يُوثَقُ بِشَيْءٍ مِنْ تَارِيخِ تِلْكَ الْأَزْمِنَةِ الَّتِي يُسَمُّونَهَا أَزْمِنَةَ الظُّلُمَاتِ إِلَّا بَعْدَ التَّحَرِّي وَالْبَحْثِ وَاسْتِخْرَاجِ الْآثَارِ ، فَنَحْنُ نَعْذُرُ الْمُفَسِّرِينَ الَّذِينَ حَشَوْا كُتُبَ التَّفْسِيرِ بِالْقِصَصِ الَّتِي لَا يُوثَقُ بِهَا لِحُسْنِ قَصْدِهِمْ ، وَلَكِنَّنَا لَا نُعَوِّلُ عَلَى ذَلِكَ بَلْ نَنْهَى عَنْهُ ، وَنَقِفُ عِنْدَ نُصُوصِ الْقُرْآنِ لَا نَتَعَدَّاهَا ، وَإِنَّمَا نُوَضِّحُهَا بِمَا يُوَافِقُهَا إِذَا صَحَّتْ رِوَايَتُهُ .

(وَأَقُولُ) : إِنَّ مَا أَشَارَ إِلَيْهِ الْأُسْتَاذُ مِنْ حُكْمِ التَّوْرَاةِ الْمُتَعَلِّقِ بِقَتْلِ الْبَقَرَةِ هُوَ فِي أَوَّلِ الْفَصْلِ الْحَادِي وَالْعِشْرِينَ مِنْ سِفْرِ تَثْنِيَةِ الِاشْتِرَاعِ وَنَصُّهُ :

(1) إِذَا وُجِدَ قَتِيلٌ فِي الْأَرْضِ الَّتِي يُعْطِيكَ الرَّبُّ إِلَهُكَ لِتَمْتَلِكَهَا وَاقِعًا فِي الْحَقْلِ لَا يُعْلَمُ مَنْ قَتَلَهُ .

(2) يَخْرُجُ شُيُوخُكَ وَقُضَاتُكَ وَيَقِيسُونَ إِلَى الْمُدُنِ الَّتِي حَوْلَ الْقَتِيلِ .

(3) فَالْمَدِينَةُ الْقُرْبَى مِنَ الْقَتِيلِ يَأْخُذُ شُيُوخُ تِلْكَ الْمَدِينَةِ عِجْلَةً مِنَ الْبَقَرِ لَمْ يُحْرَثْ عَلَيْهَا لَمْ

تَجُرَّ بالنِّيرِ .

(4) وَيَنْحَدِرُ شُيُوخُ تِلْكَ الْمَدِينَةِ بِالْعِجْلَةِ إِلَى وَادٍ دَائِمِ السَّيَلَانِ لَمْ يُحْرَثْ فِيهِ وَلَمْ يُزْرَعْ وَيَكْسِرُونَ عُنُقَ الْعِجْلَةِ فِي الْوَادِي .

(72/56)

---

(5) ثُمَّ يَتَقَدَّمَ الْكَهَنَةُ بَنُو لاَوِى . لأَنَّهُ إِيَّاهُمُ اخْتَارَ الرَّبُّ إِلَهُكَ لِيَخْدِمُوهُ وَيُبَارِكُوا بِاسْمِ الرَّبِّ ، وَحَسَبَ قَوْلِهِمْ تَكُونُ كُلُّ خُصُومَةٍ وَكُلُّ ضَرْبَةٍ .

(6) وَيَغْسِلُ جَمِيعُ شُيُوخِ تِلْكَ الْمَدِينَةِ الْقَرِيبِينَ مِنَ الْقَتِيلِ أَيْدِيَهُمْ عَلَى الْعِجْلَةِ الْمَكْسُورَةِ الْعُنُقِ فِي الْوَادِي .

(7) وَيُصَرِّحُونَ وَيَقُولُونَ : أَيْدِينَا لَمْ تَسْفِكْ هَذَا الدَّمَ وَأَعْيُنُنَا لَمْ تُبْصِرْ .

(8) اغْفِرْ لِشَعْبِكَ إِسْرَائِيلَ الَّذِي فَدَيْتَ يَا رَبُّ ، وَلاَ تَجْعَلْ دَمَ بَرِيٍّ فِي وَسَطِ شَعْبِكَ إِسْرَائِيلَ . فَيُغْفَرُ لَهُمُ الدَّمُ ا هـ .

(73/56)

فَعُلِمَ مِنْ هَذَا أَنَّ الْأَمْرَ بِذَبْحِ الْبَقَرَةِ كَانَ لِفَصْلِ النِّزَاعِ فِي وَاقِعَةِ قَتْلٍ ، وَيَرْوُونَ فِي قِصَّتِهِ رِوَايَاتٍ مِنْهَا أَنَّ الْقَاتِلَ كَانَ أَخَ الْمَقْتُولِ ، قَتَلَهُ لِأَجْلِ الْإِرْثِ ، وَأَنَّهُ اتَّهَمَ أَهْلَ الْحَيِّ بِالدَّمِ وَطَالَبَهُمْ بِهِ ، وَمِنْهَا أَنَّهُ كَانَ ابْنَ أَخِيهِ ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِمَّا لَا حَاجَةَ إِلَيْهِ ، وَكَانُوا طَلَبُوا مِنْ مُوسَى الْفَصْلَ فِي الْمَسْأَلَةِ وَبَيَانَ الْقَاتِلِ ، وَلَمَّا أَمَرَهُمْ بِذَبْحِ الْبَقَرَةِ اسْتَغْرَبُوهُ لِمَا فِيهِ مِنَ الْمُبَايَنَةِ لِمَا يَطْلُبُونَ وَالْبُعْدِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا يُرِيدُونَ ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ – تَعَالَى – : (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا) أَيْ سُخْرِيَةً يُهْزَأُ بِنَا ، وَهَذَا الْقَوْلُ مِنْ سَفَهِهِمْ وَخِفَّةِ أَحْلَامِهِمْ وَجَهْلِهِمْ بِعَظَمَةِ اللهِ – تَعَالَى – وَمَا يَجِبُ أَنْ يُقَابَلَ بِهِ أَمْرُهُ مِنَ الِاحْتِرَامِ وَالِامْتِثَالِ ، وَإِنْ لَمْ تَظْهَرْ حِكْمَتُهُ

بَادِيَ الرَّأْيِ ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَامْتَثَلُوا وَانْتَظَرُوا النَّتِيجَةَ بَعْدَ ذَلِكَ . وَلَمَّا كَانَ فِي جَوَابِهِمْ هَذَا رَمْيٌ لِمُوسَى – عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ – بِالسَّفَهِ وَالْجَهَالَةِ (قَالَ أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ) أَيْ أَلْتَجِئُ إِلَى اللهِ وَأَعْتَصِمُ بِتَأْدِيبِهِ إِيَّايَ مِنَ الْجَهَالَةِ وَالْهُزْءِ بِالنَّاسِ .

(قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ) أَيْ مَا الصِّفَاتُ الْمُمَيِّزَةُ لَهَا ؟ قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : إِنَّ السُّؤَالَ مِمَّا هِيَ لَيْسَ جَارِيًا هُنَا عَلَى اصْطِلَاحِ عُلَمَاءِ

الْمَنْطِقِ مِنْ جَعْلِهِ سُؤَالًا عَنْ حَقِيقَةِ الْمَاهِيَّةِ ، وَإِنَّمَا هُوَ عَلَى حَسَبِ أُسْلُوبِ اللُّغَةِ ، وَالْعَرَبُ يَسْأَلُونَ بِ " مَا " عَنِ الصِّفَاتِ الَّتِي تَمَيَّزُ الشَّيْءَ فِي الْجُمْلَةِ كَالَّذِي ذَكَرَهُ فِي الْجَوَابِ (قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ) أَيْ غَيْرُ مُسِنَّةٍ ، انْقَطَعَتْ وِلَادَتُهَا (وَلَا بِكْرٌ) لَمْ تَلِدْ بِالْمَرَّةِ ، وَالْمُرَادُ بِهَا الَّتِي لَمْ تَلِدْ كَثِيرًا (عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ) الْعَوَانُ : النَّصَفُ فِي السِّنِّ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَهَائِمِ ، أَيْ هِيَ بَيْنَ مَا ذُكِرَ مِنَ السِّنَّيْنِ الْفَارِضِ وَالْبِكْرِ ، فَالْمُشَارُ إِلَيْهِ بِكَلِمَةِ (ذَلِكَ) مُتَعَدِّدٌ فِي الْمَعْنَى وَإِنْ كَانَ لَفْظُهُ مُنْفَرِدًا . وَ (بَيْنَ) مِنَ الْكَلِمِ الَّتِي تَخْتَصُّ بِالْمُتَعَدِّدِ تَقُولُ : جَلَسْتُ بَيْنَهُمْ أَوْ بَيْنَهُمَا ، وَلَا تَقُولُ : جَلَسْتُ بَيْنَهُ ، وَاسْتِعْمَالُ الْإِشَارَةِ وَالضَّمِيرِ الْمُفْرَدَيْنِ فِيمَا هُوَ بِمَعْنَى الْجَمْعِ عَلَى تَقْدِيرِ : التَّعْبِيرُ عَنْهُ بِالْمَذْكُورِ ، أَوْ " مَا ذُكِرَ " كَثِيرٌ فِي كَلَامِهِمْ وَمِنْهُ قَوْلُ رُؤْبَةَ :

فِيهَا خُطُوطٌ مِنْ سَوَادٍ وَبَلَقْ . . . كَأَنَّهُ فِي الْجِسْمِ تَوْلِيعُ الْبَهَقْ

(75/56)

ذَكَرَ هَذَا الْوَصْفَ الْمُمَيِّزَ لِلْبَقَرَةِ فِي الْجُمْلَةِ وَقَالَ : (فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ) وَكَانَ يَجِبُ عَلَيْهِمُ الِاكْتِفَاءُ بِهِ وَالْمُبَادَرَةُ بَعْدَهُ لِلِامْتِثَالِ ، وَلَكِنَّهُمْ أَبَوْا إِلَّا تَنَطُّعًا وَاسْتِقْصَاءً فِي السُّؤَالِ (قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ) الْفَاقِعُ :

الشَّدِيدُ الصُّفْرَةِ فِي صَفَاءٍ بِحَيْثُ لَا يُخَالِطُهُ لَوْنٌ آخَرُ ، وَبَعْضُ أَهْلِ اللُّغَةِ لَا يَخُصُّهُ بِالْأَصْفَرِ ، بَلْ يَجْعَلُهُ وَصْفًا لِكُلِّ لَوْنٍ صَافٍ .

(76/56)

وَكَانَ يَجِبُ أَنْ يَكْتَفُوا بِهَذِهِ الْمُمَيِّزَاتِ وَلَكِنَّهُمْ زَادُوا تَنَطُّعًا إِذْ (قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ) وَقَدْ أَرَادُوا بِهَذَا السُّؤَالِ زِيَادَةَ التَّمْيِيزِ كَكَوْنِهَا عَامِلَةً أَوْ سَائِمَةً (قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ) سَائِمَةٌ (لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ) أَيْ غَيْرُ مُذَلَّلَةٍ بِالْعَمَلِ فِي الْحِرَاثَةِ وَلَا فِي السَّقْيِ (مُسَلَّمَةٌ) مِنَ الْعُيُوبِ ، أَوْ مِنْ سَائِرِ الْأَعْمَالِ (لَا شِيَةَ فِيهَا) أَيْ لَيْسَ فِيهَا لَوْنٌ آخَرُ غَيْرَ الصُّفْرَةِ الْفَاقِعَةِ . وَالشِّيَةُ : مَصْدَرٌ كَالْعِدَةِ مِنْ وَشَى الثَّوْبَ يَشِيهُ إِذَا جَعَلَ فِيهِ خُطُوطًا مِنْ غَيْرِ لَوْنِهِ بِنَحْوِ تَطْرِيزٍ . وَلَمَّا اسْتَوْفَى جَمِيعَ الْمُمَيِّزَاتِ وَالْمُشَخِّصَاتِ وَلَمْ يَرَوْا سَبِيلًا إِلَى سُؤَالٍ آخَرَ (قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ) أَيْ وَمَا قَارَبُوا أَنْ يَذْبَحُوهَا إِلَّا بَعْدَ أَنِ انْتَهَتْ أَسْئِلَتُهُمْ ، وَانْقَطَعَ مَا كَانَ مِنْ تَنَطُّعِهِمْ وَتَعَنُّتِهِمْ .

رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ فِي التَّفْسِيرِ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ مَوْقُوفًا (لَوْ ذَبَحُوا

أَيِّ بَقَرَةٍ أَرَادُوا لَأَجْزَأَتْهُمْ ، وَلَكِنْ شَدَّدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ فَشَدَّدَ اللهُ عَلَيْهِمْ) وَأَخْرَجَهُ سَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ فِي سُنَنِهِ عَنْ عِكْرِمَةَ مَرْفُوعًا مُرْسَلًا .

(77/56)

وَهَا هُنَا يَذْكُرُ الْمُفَسِّرُونَ قِصَّةً فِي حِكْمَةِ هَذَا التَّشْدِيدِ ، وَهُوَ الْمَصِيرُ إِلَى بَقَرَةٍ مُعَيَّنَةٍ لِشَخْصٍ مُعَيَّنٍ كَانَ بَارًّا بِوَالِدَتِهِ ، وَقَدْ يَكُونُ هَذَا صَحِيحًا ، غَيْرَ أَنَّهُ لَا دَاعِيَ إِلَيْهِ فِي التَّفْسِيرِ وَبَيَانِ الْمَعْنَى . وَقَدْ يَشْتَبِهُ بَعْضُ النَّاسِ فِيمَا ذُكِرَ بِأَنَّ أَحْكَامَ اللهِ – تَعَالَى – لَا تَكُونُ تَابِعَةً لِأَفْعَالِ النَّاسِ الْعَارِضَةِ ، وَيَرُدُّ هَذِهِ الشُّبْهَةَ أَنَّ التَّكْلِيفَ كَثِيرًا مَا يَكُونُ عُقُوبَةً ؛ لِأَنَّهُ تَرْبِيَةٌ لِلنَّاسِ ، وَقَدْ وَرَدَتِ الْأَسْئِلَةُ وَالْأَجْوِبَةُ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ مَفْصُولَةً غَيْرَ مَوْصُولَةٍ بِالْفَاءِ ، وَذَلِكَ مَا يَقْتَضِيهِ الْأُسْلُوبُ الْبَلِيغُ ، فَقَدْ تَقَرَّرَ فِي الْبَلَاغَةِ أَنَّ الْقَوْلَ إِذَا أَشْعَرَ بِسُؤَالٍ ، كَانَ مَا يَأْتِي بَعْدَهُ مِمَّا يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ جَوَابًا لِلسُّؤَالِ الْمُقَدَّرِ مَفْصُولًا عَمَّا قَبْلَهُ ، وَقَوْلُهُ : (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً) يُشْعِرُ بِسُؤَالٍ ، كَأَنَّهُ قِيلَ : مَاذَا كَانَ مِنْهُمْ بَعْدَ الْأَمْرِ ؟ فَأُجِيبَ عَنْهُ بِقَوْلِهِ (قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا) وَهَذَا يُشْعِرُ بِسُؤَالٍ أَيْضًا ، كَأَنَّهُ قِيلَ : مَاذَا قَالَ مُوسَى إِذْ قَالُوا ذَلِكَ ؟ فَأَجَابَ : (قَالَ أَعُوذُ بِاللهِ) . . . إِلَخْ . وَهَكَذَا وَرَدَ غَيْرُهَا مِنَ الْمُرَاجَعَاتِ فِي التَّنْزِيلِ ، كَمَا تَرَى فِي قِصَّةِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ .

(وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)

(78/56)

هَذَا هُوَ أَوَّلُ الْقِصَّةِ الْمُحْتَوِيَةِ عَلَى الْمُخَالَفَةِ عَلَى مَا أَشَرْنَا إِلَيْهِ وَهِيَ الْقَتْلُ ، ثُمَّ التَّنَازُعُ فِي الْقَاتِلِ ثُمَّ تَشْرِيعُ الْحُكْمِ لِكَشْفِ الْحَقِيقَةِ بِذَبْحِ الْبَقَرَةِ وَمَا كَانَ مِنْ إِلْحَاحِهِمْ فِي السُّؤَالِ عَلَى مَا سَبَقَ .

فَقَوْلُهُ – تَعَالَى – : (وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا) أُسْنِدَ فِيهِ الْقَتْلُ إِلَى الْأُمَّةِ ، وَإِنْ كَانَ الْقَاتِلُ وَاحِدًا بِاعْتِبَارِ مَا تَقَدَّمَ مِنْ كَوْنِهَا فِي مَجْمُوعِهَا وَتَكَافُلِهَا كَالشَّخْصِ الْوَاحِدِ .

وَالتَّدَارُؤُ : تَفَاعُلٌ مِنَ الدَّرْءِ وَهُوَ الدَّفْعُ ، فَمَعْنَاهُ : التَّدَافُعُ ، وَهُوَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ كَانَ خِصَامٌ وَاتِّهَامٌ ، وَكَانَ كُلٌّ يَدْرَأُ عَنْ نَفْسِهِ وَيَدَّعِي الْبَرَاءَةَ وَيَتَّهِمُ غَيْرَهُ ، وَكَانَ لِلْقَاتِلِينَ وَالْعَارِفِينَ بِهِمْ حُظُوظٌ وَأَهْوَاءٌ كَتَمُوا فِيهَا

الْحَقِيقَةَ ، وَلِذَلِكَ قَالَ – تَعَالَى – بَعْدَ التَّذْكِيرِ بِالْجَرِيمَةِ : (وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ) مِنَ الْإِيقَاعِ بِقَوْمٍ بُرَآءَ تَتَّهِمُونَهُمْ بِالْقَتْلِ لِإِخْفَاءِ الْقَاتِلِ ؛ لِأَنَّهُ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مَكْرُكُمْ .

وَأَمَّا قَوْلُهُ : (فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى) فَهُوَ بَيَانٌ لِإِخْرَاجِ مَا يَكْتُمُونَ .

وَيَرْوُونَ فِي هَذَا الضَّرْبِ رِوَايَاتٍ كَثِيرَةً . قِيلَ : إنَّ الْمُرَادَ اضْرِبُوا الْمَقْتُولَ بِلِسَانِهَا ، وَقِيلَ : بِفَخِذِهَا

(79/56)

وَقِيلَ : بِذَنَبِهَا . وَقَالُوا : إنَّهُمْ ضَرَبُوهُ فَعَادَتْ إلَيْهِ الْحَيَاةُ وَقَالَ : قَتَلَنِي أَخِي أَوِ ابْنُ أَخِي فُلَانٍ إلَى آخِرِ مَا قَالُوهُ ، وَالْآيَةُ لَيْسَتْ نَصًّا فِي مُجْمَلِهِ فَكَيْفَ بِتَفْصِيلِهِ ؟ وَالظَّاهِرُ مِمَّا قَدَّمْنَا أَنَّ ذَلِكَ الْعَمَلَ كَانَ وَسِيلَةً عِنْدَهُمْ لِلْفَصْلِ فِي الدِّمَاءِ عِنْدَ التَّنَازُعِ فِي الْقَاتِلِ إذَا وُجِدَ الْقَتِيلُ قُرْبَ بَلَدٍ وَلَمْ يُعْرَفْ قَاتِلُهُ ؛ لِيُعْرَفَ الْجَانِي مِنْ غَيْرِهِ ، فَمَنْ غَسَلَ يَدَهُ وَفَعَلَ مَا رُسِمَ لِذَلِكَ فِي الشَّرِيعَةِ بَرِيءٌ مِنَ الدَّمِ ، وَمَنْ لَمْ يَفْعَلْ ثَبَتَتْ عَلَيْهِ الْجِنَايَةُ . وَمَعْنَى إحْيَاءِ الْمَوْتَى – عَلَى هَذَا – حِفْظُ الدِّمَاءِ الَّتِي كَانَتْ عُرْضَةً لِأَنْ تُسْفَكَ ، بِسَبَبِ الْخِلَافِ فِي قَتْلِ تِلْكَ النَّفْسِ ، أَيْ يُحْيِيهَا بِمِثْلِ هَذِهِ الْأَحْكَامِ ، وَهَذَا الْإِحْيَاءُ عَلَى حَدِّ قَوْلِهِ – تَعَالَى – : (وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا) (5 : 32) وَقَوْلِهِ : (وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ) (2 : 179) فَالْإِحْيَاءُ هُنَا مَعْنَاهُ الِاسْتِبْقَاءُ كَمَا هُوَ الْمَعْنَى فِي الْآيَتَيْنِ . ثُمَّ قَالَ : (وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ) بِمَا يَفْصِلُ فِي الْخُصُومَاتِ ، وَيُزِيلُ مِنْ أَسْبَابِ الْفِتَنِ وَالْعَدَاوَاتِ ، فَهُوَ كَقَوْلِهِ – تَعَالَى – : (إنَّا أَنْزَلْنَا إلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ) (4 : 105) ، وَأَكْثَرُ مَا

يُسْتَعْمَلُ مِثْلُ هَذَا التَّعْبِيرِ فِي آيَاتِ اللهِ فِي خَلْقِهِ الدَّالَّةِ عَلَى صِدْقِ رُسُلِهِ ، وَلَيْسَ عِنْدِي شَيْءٌ عَنْ شَيْخِنَا فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْجُمْلَةِ ، وَلَكِنَّهُ قَالَ فِي تَعْلِيلِهَا مَا

يُرَجِّحُ الْقَوْلَ الْأَوَّلَ وَهُوَ (لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) أَيْ تَفْقَهُونَ أَسْرَارَ الْأَحْكَامِ ، وَفَائِدَةَ الْخُضُوعِ لِلشَّرِيعَةِ ، فَلَا تَتَوَهَّمُونَ أَنَّ مَا وَقَعَ مُخْتَصٌّ بِهَذِهِ الْوَاقِعَةِ فِي هَذَا الْوَقْتِ ، بَلْ يَجِبُ أَنْ تَتَلَقَّوْا أَمْرَ اللهِ فِي كُلِّ وَقْتٍ بِالْقَبُولِ مِنْ غَيْرِ تَعَنُّتٍ .

قَالَ – تَعَالَى – : (ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

(أَقُولُ) : وَصَفَهُمُ اللهُ – تَعَالَى – بِأَنَّهُ قَدْ طَرَأَ عَلَيْهِمْ بَعْدَ رُؤْيَةِ تِلْكَ الْآيَاتِ مَا أَزَالَ أَثَرَهَا مِنْ قُلُوبِهِمْ ، وَذَهَبَ بِعِبْرَتِهَا مِنْ عُقُولِهِمْ ، فَقَالَ : (ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً) فَالْعَطْفُ بِ (ثُمَّ) يُفِيدُ أَنَّ الْأَوَّلِينَ مِنْهُمْ قَدْ خَشَعَتْ قُلُوبُهُمْ لِمَا رَأَوْا فِي زَمَنِ مُوسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ – مَا رَأَوْا ، ثُمَّ خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ كَانَ أَمْرُ قَسْوَتِهَا مَا وَصَفَهُ – عَزَّ وَجَلَّ . وَالْقَسْوَةُ الصَّلَابَةُ وَهِيَ مِنْ صِفَاتِ الْأَجْسَامِ ، وَوَصْفُ الْقُلُوبِ بِالْقَسْوَةِ مَجَازٌ

تَشْبِيهٍ مِمَّا يُسَمُّونَهُ الِاسْتِعَارَةَ بِالْكِنَايَةِ ، وَيَصِحُّ فِي (أَوْ) التَّرْدِيدُ وَالتَّشْكِيكُ ، وَهُوَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْمُخَاطَبِينَ لَا إِلَى الْمُتَكَلِّمِ

(81/56)

بِاعْتِبَارِ مَا يُعْهَدُ فِي التَّخَاطُبِ الْعَرَبِيِّ ، كَأَنَّ عَرَبِيًّا يُحَدِّثُ آخَرَ وَيَقُولُ لَهُ : إِنَّ هَذِهِ الْقُلُوبَ فِي قَسْوَتِهَا تُشْبِهُ الْحِجَارَةَ أَوْ تَزِيدُ عَلَيْهَا . وَيَصِحُّ فِيهَا التَّقْسِيمُ ، أَيْ أَنَّ الْقَسْوَةَ عَمَّتْ قُلُوبَكُمْ ، فَأَقَلُّهَا قَسْوَةً تُشْبِهُ الْحَجَرَ الصَّلْدَ ، وَمِنْهَا مَا هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قَسْوَةً ، وَأَظْهَرُ مِنْهُمَا أَنْ تَكُونَ لِلْإِضْرَابِ عَلَى طَرِيقَةِ الْمُبَالَغَةِ ، أَيْ بَلْ هِيَ أَشَدُّ قَسْوَةً مِنَ الْحِجَارَةِ ؛ إِذْ لَا شُعُورَ فِيهَا يَأْتِي بِخَيْرٍ ، وَلَا عَاطِفَةَ تَفِيضُ مِنْهَا بِعِبْرَةٍ ، وَالْحِجَارَةُ لَيْسَتْ كَذَلِكَ ؛ لِأَنَّ مِنْهَا مَا يَفِيضُ بِالْخَيْرَاتِ ، وَمِنْهَا مَا يَكُونُ مَوْضِعَ ظُهُورِ آثَارِ الْقُدْرَةِ الْإِلَهِيَّةِ فِي الْجَمَادَاتِ .

(82/56)

وَصَفَ الْحِجَارَةَ بِالصِّفَاتِ الثَّلَاثَةِ الْآتِيَةِ بَعْدَ أَنْ شَبَّهَ الْقُلُوبَ بِهَا فِي الصَّلَابَةِ الْمُطْلَقَةِ ، وَفَرَّقَ بَيْنَ الْقُلُوبِ وَبَيْنَهَا بِالْإِضْرَابِ ، وَالِانْتِقَالِ إِلَى أَنَّ الْقُلُوبَ أَشَدُّ صَلَابَةً ، وَأَرَادَ أَنْ يُبَيِّنَ بِهَذِهِ

الصِّفَاتِ وَجْهَ ضَعْفِ الصَّلَابَةِ فِي الْحِجَارَةِ وَشِدَّتِهَا فِي الْقُلُوبِ ، فَكَأَنَّ الْكَلَامَ يُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ عُذْرًا عَنِ الْحِجَارَةِ دُونَ الْقُلُوبِ ، وَالْمُرَادُ بِالْقُلُوبِ مَا اعْتُبِرَتْ عُنْوَانًا لَهُ وَهُوَ الْوِجْدَانُ وَالْعَقْلُ ، وَأَكْثَرُ مَا اسْتُعْمِلَ فِي الْأَوَّلِ ؛ لِأَنَّهُ سَابِقُ الْإِقْنَاعِ وَالْإِذْعَانِ ، وَيُطْلَقُ لَفْظُ الْقَلْبِ عَلَى النَّفْسِ النَّاطِقَةِ ؛ لِأَنَّ مِنْ شَأْنِ الْقَلْبِ أَنْ يَتَأَثَّرَ مِمَّا يَتَأَثَّرُ مِنْهُ الْوِجْدَانُ أَوِ الْعَقْلُ أَوِ الرُّوحُ مُطْلَقًا ، وَفِي الْكَلَامِ مِنَ الْمُبَالَغَةِ أَنَّ هَذِهِ الْقُلُوبَ فَقَدَتْ خَاصِّيَّةَ التَّأَثُّرِ وَالِانْفِعَالِ بِمَا يَرِدُ عَلَيْهَا مِنَ الْمَوَاعِظِ وَالْآيَاتِ الَّتِي هِيَ مِنْ خَوَاصِّ الرُّوحِ الْإِنْسَانِيِّ ، حَتَّى كَأَنَّ أَصْحَابَهَا هَبَطُوا مِنْ دَرَجَةِ الْحَيَوَانِ

(83/56)

إِلَى دَرَكَةِ الْجَمَادِ كَالْحِجَارَةِ ، بَلْ نَزَلُوا عَنْ دَرَكَةِ الْحِجَارَةِ أَيْضًا ، وَذَلِكَ مَا أَفَادَهُ قَوْلُهُ – تَعَالَى – : (وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ) التَّفَجُّرُ : تَفَعُّلٌ مِنَ الْفَجْرِ وَهُوَ الشَّقُّ الْوَاسِعُ يَكُونُ لِلْمُطَاوَعَةِ ، كَفَجَّرْتُهُ فَتَفَجَّرَ (بِالتَّشْدِيدِ فِيهِمَا) وَيَكُونُ لِتَكَرُّرِ الْفِعْلِ وَحُصُولِهِ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى ، وَمِثْلُهُ التَّشَقُّقُ إِلَّا أَنَّهُ أَعَمُّ ، وَلِمَا فِي التَّفَجُّرِ مِنْ مَعْنَى السَّعَةِ عَبَّرَ بِهِ عَنْ خُرُوجِ الْأَنْهَارِ مِنَ الصُّخُورِ الْكِبَارِ وَهُوَ مَعْهُودٌ فِي الْجِبَالِ ، وَعَبَّرَ بِالتَّشَقُّقِ لِخُرُوجِ الْمَاءِ الَّذِي يُصَدَّقُ بِالْقَلِيلِ مِنْهُ .

وَالْمَعْنَى : أَنَّ الْحِجَارَةَ عَلَى صَلَابَتِهَا وَقَسْوَتِهَا تَتَأَثَّرُ بِالْمَاءِ الرَّقِيقِ اللَّطِيفِ فَيَشُقُّهَا وَيَنْفُذُ مِنْهَا بِقِلَّةٍ أَوْ كَثْرَةٍ ، فَيُحْيِي الْأَرْضَ وَيَنْفَعُ النَّبَاتَ وَالْحَيَوَانَ . وَأَمَّا هَذِهِ الْقُلُوبُ فَلَمْ تَعُدْ تَتَأَثَّرُ بِالْحِكَمِ وَالنُّذُرِ وَلَا بِالْعِظَاتِ وَالْعِبَرِ ، فَالْحِكَمُ لَا تَقْوَى عَلَى شَقِّهَا وَالنُّفُوذِ مِنْهَا إِلَى أَعْمَاقِ الْوِجْدَانِ ، وَأَنْوَارُ الْفِطْرَةِ قَدِ انْطَفَأَتْ فِيهَا فَلَا يَظْهَرُ شُعَاعُهَا عَلَى إِنْسَانٍ ، وَمِنَ الْحِجَارَةِ مَا يَشُقُّهُ الْمَاءُ الْقَلِيلُ كَمَاءِ الْعُيُونِ وَالْيَنَابِيعِ الْحَجَرِيَّةِ ، وَمِنْهَا مَا لَا يُفَجِّرُهُ إِلَّا الْمَاءُ الْقَوِيُّ الْغَمْرُ الَّذِي يُسَمَّى نَهْرًا . (وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ) وَهُوَ مَا يَنْحَطُّ مِنْ أَعْلَى الْجَبَلِ ، وَمِنْ أَثْنَائِهِ بِسَبَبِ أَثَرٍ مِنْ آثَارِ الْقَهْرِ الْإِلَهِيِّ كَالْبَرَاكِينِ وَالصَّوَاعِقِ الَّتِي تَهْبِطُ بِهَا الصُّخُورُ وَتَنْدَكُّ الْجِبَالُ ، وَقَدْ جُعِلَ هَذَا شَبَهًا لِلْآيَاتِ الْإِلَهِيَّةِ الَّتِي أَظْهَرَهَا عَلَى يَدِ عَبْدِهِ وَنَبِيِّهِ مُوسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ – ، فَهِيَ حَوَادِثُ عَظِيمَةٌ فِي الْكَوْنِ تَفْزَعُ بِهَا نُفُوسُ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى اللهِ ، وَتَخْشَعُ لِأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ لِعَظَمَتِهَا وَخَفَاءِ سِرِّ إِيجَادِهَا ،

كَمَا تَفْزَعُ النُّفُوسُ مِنْ حَوَادِثِ الْبَرَاكِينِ وَالصَّوَاعِقِ الَّتِي تَدُكُّ الصُّخُورَ وَتُدَمِّرُ الْحُصُونَ ، وَقَدْ أَصْبَحَتْ تِلْكَ الْقُلُوبُ بَعْدَ مُشَاهَدَةِ الْآيَاتِ لَا تَتَأَثَّرُ بِهَا وَلَا تَزْدَادُ إِيمَانًا .

فَمُلَخَّصُ التَّشْبِيهِ : أَنَّ قُلُوبَكُمْ تُشْبِهُ الْحِجَارَةَ فِي الْقَسْوَةِ ، بَلْ قَدْ تَزِيدُ فِي الْقَسَاوَةِ عَنْهَا ، فَإِنَّ الْحِجَارَةَ الصُّمَّ تَتَأَثَّرُ فِي بَاطِنِهَا بِالْمَاءِ اللَّطِيفِ النَّافِعِ ، بَعْضُهَا بِالْقَوِيِّ مِنْهُ وَبَعْضُهَا بِالضَّعِيفِ ، وَلَكِنَّ قُلُوبَكُمْ لَا تَتَأَثَّرُ بِالْحِكَمِ وَالْمَوَاعِظِ الَّتِي مِنْ شَأْنِهَا التَّأْثِيرُ فِي الْوِجْدَانِ وَالنُّفُوذُ إِلَى الْجَنَانِ ، وَالْحِجَارَةُ تَتَأَثَّرُ بِالْحَوَادِثِ الْهَائِلَةِ الَّتِي يُحْدِثُهَا اللهُ فِي الْكَوْنِ كَالصَّوَاعِقِ وَالزَّلَازِلِ ، وَلَكِنَّ قُلُوبَكُمْ لَمْ تَتَأَثَّرْ بِتِلْكَ الْآيَاتِ الْإِلَهِيَّةِ الَّتِي تُشْبِهُهَا ، فَلَا أَفَادَتْ فِيهَا الْمُؤَثِّرَاتُ الدَّاخِلِيَّةُ ، وَلَا الْمُؤَثِّرَاتُ الْخَارِجِيَّةُ كَمَا أَفَادَتْ فِي الْأَحْجَارِ ، فَبِذَلِكَ كَانَتْ قُلُوبُكُمْ أَشَدَّ قَسْوَةً . ثُمَّ هَدَّدَهُمْ بِقَوْلِهِ : (وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) أَيْ فَهُوَ سَيُرَبِّيكُمْ بِضُرُوبِ النِّقَمِ ، إِذَا لَمْ تَتَرَبَّوْا بِصُنُوفِ النِّعَمِ .

(أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ)

كَانَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَأَصْحَابُهُ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ – يَرَوْنَ أَنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِالْإِيمَانِ وَأَقْرَبَهُمْ مِنْهُ الْيَهُودُ ؛ لِأَنَّهُمْ مُوَحِّدُونَ وَمُصَدِّقُونَ بِالْوَحْيِ وَالْبَعْثِ فِي الْجُمْلَةِ ؛ وَلِذَلِكَ كَانُوا يَطْمَعُونَ بِدُخُولِهِمْ فِي الْإِسْلَامِ أَفْوَاجًا ؛ لِأَنَّهُ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ فِي الْجُمْلَةِ ، وَمُجْمِلٌ لِجَمِيعِ شُبُهَاتِ الدِّينِ ، وَحَالٌّ لِجَمِيعِ إِشْكَالَاتِهِ بِالتَّفْصِيلِ ، وَوَاضِعٌ لَهُ عَلَى قَوَاعِدَ لَا تُرْهِقُ النَّاسَ عُسْرًا (وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ) (7 : 157) .

(87/56)

كَانَ هَذَا الطَّمَعُ فِي إِيمَانِهِمْ مَبْنِيًّا عَلَى وَجْهٍ نَظَرِيٍّ مَعْقُولٍ ، لَوْلَا أَنَّهُمُ اكْتَفَوْا بِجَعْلِ الدِّينِ رَابِطَةً جِنْسِيَّةً ، وَلَمْ يَجْعَلُوهُ هِدَايَةً رُوحِيَّةً ؛ وَلِذَلِكَ كَانُوا يَتَصَرَّفُونَ فِيهِ بِاخْتِلَافِ الْمَذَاهِبِ وَالْآرَاءِ ، وَيُحَرِّفُونَ كَلِمَهُ عَنْ مَوَاضِعِهَا بِحَسَبِ الْأَهْوَاءِ ، وَمَا أَعْذَرَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ فِي طَمَعِهِمْ هَذَا إِلَّا بَعْدَ مَا قَصَّ عَلَيْهِمْ مِنْ نَبَأِ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، الَّذِينَ كَانُوا عَلَى عَهْدِ التَّشْرِيعِ ، وَشَاهَدُوا مِنَ الْآيَاتِ مَا عُلِمَ بِهِ أَنَّهُمْ فِي الْمُجَاحَدَةِ وَالْمُعَانَدَةِ عَلَى عِرْقٍ رَاسِخٍ وَنَحِيزَةٍ مَوْرُوثَةٍ لَا يَكْفِي فِي زِلْزَالِهَا كَوْنُ الْقُرْآنِ مُبِينًا فِي نَفْسِهِ لَا يَتَطَرَّقُ إِلَيْهِ رَيْبٌ ، وَلَا يَتَسَرَّبُ إِلَيْهِ

شَكٌّ ؛ وَلِذَلِكَ بَدَأَ السُّورَةَ بِوَصْفِ الْكِتَابِ بِهَذَا وَكَوْنِهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَغَيْرِهِمْ ، وَثَنَّى بِبَيَانِ أَنَّ مِنَ النَّاسِ

(88/56)

مَنْ يُعَانِدُهُ وَيُبَاهِتُهُ ، وَمِنْهُمُ الْمُذْبَذَبُ الَّذِي يَمِيلُ مَعَ الرِّيحَيْنِ فَلَا يَثْبُتُ مَعَ أَحَدِ الْفَرِيقَيْنِ ، ثُمَّ أَفَاضَ فِي شَرْحِ حَالِ بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ لَمْ يُؤْمِنْ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالتَّقْوَى ، وَكَانَ الْأَكْثَرُونَ أَشَدَّ النَّاسِ اسْتِكْبَارًا عَنِ الْإِيمَانِ وَإِيذَاءً لِلرَّسُولِ وَلِمَنِ اتَّبَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . وَبَعْدَ هَذَا كُلِّهِ أَنْكَرَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ذَلِكَ الطَّمَعَ بِدُخُولِ الْيَهُودِ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا ، وَوَصَلَ الْإِنْكَارَ بِحُجَّةٍ وَاقِعَةٍ نَاهِضَةٍ ، تَجْعَلُ تِلْكَ الْحُجَّةَ النَّظَرِيَّةَ دَاحِضَةً ، فَعُلِمَ بِهَذَا أَنَّ الْكَلَامَ لَا يَزَالُ مُتَّصِلًا فِي مَوْضُوعِ الْكِتَابِ وَأَصْنَافِ النَّاسِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْإِيمَانِ بِهِ وَعَدَمِ الْإِيمَانِ ، كُلَّمَا بَعُدَ الْعَهْدُ جَاءَ مَا يُذَكِّرُ بِهِ تَذْكِيرًا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير المنار حـ 1 صـ 286.

﴿ 294

(89/56)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاء وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللّهِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ(74)

سورة البقرة

لماذا ذكر الحق سبحانه وتعالى القلب ووصفه بأنه يقسو ولم يقل نفوسكم. لأن القلب هو موضوع الرقة والرحمة والعطف . . وإذا ما جعلنا القلب كثير الذكر لله فإنه يمتلئ رحمة وعطفا . . والقلب هو العضو الذي يحسم مشاكل الحياة . . فإذا كان القلب يعمر باليقين والإيمان . . فكل جارحة تكون فيها خميرة الإيمان . وحتى نعرف قوة وقدرة وسعة القلب على الإيمان واحتوائه أوضح الله تعالى هذا المعنى في كتابه العزيز حيث يقول :

اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ(23)

(سورة الزمر)

وهكذا نرى أن الجلود تقشعر من هول الوعيد بالنار . . ومجرد قراءة ما ذكره القرآن عنها

. . وبعد ذلك تأتي الرحمة ، وفي هذه الحالة لا تلين الجلود فقط ولكن لابد أن تلين القلوب لأنها هي التي تعطي اللمحة الإيمانية لكل جوارح الجسد . .

<ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

" ألا وإن في الجسد مضغطة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب" > رواه البخارى ومسلم

(90/56)

إذن فالقلب هو منبع اليقين ومصب الإيمان ، وكما أن الإيمان في القلب فإن القسوة والكفر في القلب . . فالقلب حينما ينسى ذكر الله يقسو . . لماذا ؟ . . لأنه يعتقد أنه ليس هناك إلا الحياة الدنيا وإلا المادة فيحاول أن يحصل منها على أقصى ما يستطيع وبأي طريقة فلا تأتي إلا بالظلم والطغيان وأخذ حقوق الضعفاء ، ثم لا يفرط فيها أبدا لأنها هي منتهى حياته فلا شيء بعدها . أنه يجد إنساناً يموت أمامه من الجوع ولا يعطيه رغيفا . . وإذا خرج الإيمان من القلب خرجت منه الرحمة وخرج منه كل إيمان الجوارح . . فلمحة الإيمان التي في اليد تخرج فتمتد اليد إلي السرقة والحرام . . ولمحة الإيمان التي في العين تخرج فتنظر العين إلي كل ما حرم الله . ولمحة الإيمان التي في القدم تخرج فلا تمشي القدم إلي المسجد أبدا

ولكنها تمشي إلي الخمارة وإلي السرقة . . لأنه كما قلنا القلب مخزن الإيمان في الجسم .

ويشبه الحق تبارك وتعالى قسوة قلوبهم فيقول : " فهي كالحجارة أو أشد قسوة" . .

الحجارة هي الشيء القاسي الذي تدركه حواسنا ومألوف لنا ومألوف لبني إسرائيل أيضا . . لأن لهم مع الحجارة شوطا كبيرا عندما تاهوا في الصحراء . . وعندما عطشوا وكان موسى يضرب لهم الحجر بعصاه . الله تبارك وتعالى لفتهم إلي أن المفروض أن تكون قلوبهم لينة ورفيقة حتى ولو كانت في قسوة الحجارة . . ولكن قلوبهم تجاوزت هذه القسوة فلم تصبح في شدة الحجارة وقسوتها بل هي أشد . ولكن كيف تكون القلوب أشد قسوة من الحجارة . . لا تنظر إلي ليونة مادة القلوب ولكن انظر إلي أدائها لمهمتها .

(91/56)

الجبل قسوته مطلوبة لأن هذه مهمته أن يكون وتداً للأرض صلبا قويا ، ولكن هذه القسوة ليست مطلوبة من القلب وليست مهمته . . أما قلوب بني إسرائيل فهي أشد قسوة من الجبل . . والمطلوب في القلوب اللين ، وفي الحجارة القسوة . . فكل صفة مخلوقة لمخلوق ومطلوبة لمهمة . . فالخطاف مثلا أعوج هذا العوج يجعله يؤدي مهمته على الوجه الأكمل . . فعوج الخطاف استقامة لمهمته . . وحين تفسد القلوب وتخرج عن مهمتها تكون أقسى

من الحجارة . . وتكون على العكس تماما من مهمتها . . ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاء

(من الآية 74 سورة البقرة)

هنا يذكرهم الله لما رأوه من الرحمة الموجودة في الحجارة . . عندما ضرب موسى الحجر بالعصا فانفجرت منه العيون . وذلك مثل حسي شهدوه . يقول لهم الحق جل جلاله : أن الرحمة تصيب الحجارة فيتفجر منها الأنهار ويخرج منها الماء ويقول سبحانه : " وإن منها لما يهبط من خشية الله" . . إذن فالحجارة يصيبها اللين والرحمة فيخرج منها الماء . ولكن قلوبكم إذا قست لا يصيبها لين ولا رحمة فلا تلين أبدا ولا تخشع أبدا . والله سبحانه وتعالى نزل عليكم التوراة وأعطاكم من فضله ورحمته وستره ومغفرته الكثير . . كان المفروض أن تلين قلوبكم لذكر الله .

ولكن ما الفرق بين تفجر الأنهار من الحجارة وبين تشققها ليخرج منها الماء ؟ عندما تتفجر الحجارة يخرج منها الماء . نحن نذهب إلي مكان الماء لنأخذ حاجتنا . . ولكن عندما تتفجر منها الأنهار فالماء هو الذي يأتي إلينا ونحن في أماكننا . . وفرق بين عطاء تذهب إليه وعطاء يأتي إليك . . أما هبوط الحجر من خشية الله فذلك حدث عندما تجلى الله للجبل فجعله دكا . واقرأ قوله تعالى :

فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا

(من الآية 143 سورة الأعراف)

(92/56)

يذكرهم الحق سبحانه كيف أن الجبل حين تجلى الله له هبط وانهار من خشية الله .

وهكذا لا يعطيهم الأمثلة مما وقع لهم . وقوله تعالى : " وما الله بغافل عما تعملون " أي تذكروا أن الله سبحانه وتعالى لا يغيب عنه شيء وأن كل ما تعلمونه يعرفه وأنكم ملاقونه يوم القيامة ومحتاجون إلي رحمته ومغفرته ، فلا تجعلوا قلوبكم تقسو حتى لا يطردكم الله من رحمته كما خلت قلوبكم من ذكره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 401 . 404 ﴾

(93/56)

فوائد بلاغية

أولا : قوله تعالى : [فذبحوها وما كادوا يفعلون] من إيجاز القرآن وإبداعه أن حذف من

صدر هذه الجملة ، جملتين مفهومتين من نظم الكلام والتقدير : فطلبوا البقرة الجامعة للأوصاف السابقة ، وحصلوها ، فلما اهتدوا إليها ذبحوها ، وهذا من الإيجاز بالحذف اللطيف ، لأن الفهيم يدركه .

ثانيا : قوله تعالى : [والله مخرج ما كنتم تكتمون] هذه الجملة اعتراضية بين قوله : [فادارأتم] وقوله : [فقلنا اضربوه] والجملة المعترضة بين ما شأنهما الاتصال ، تجيء تحلية يزداد بها الكلام البليغ حسناً ، وفائدة الاعتراض هنا إشعار المخاطبين بأن الحقيقة ستنجلي لا محالة .

ثالثا : [ثم قست قلوبكم] وصف القلوب بالصلابة والغلظ ، يراد منه نبوها عن الاعتبار ، وعدم تأثرها بالمواعظ والنصائح ، ففيه استعارة تصريحية ، قال أبو السعود : القسوة عبارة عن الغلظ والجفاء والصلابة كما في الحجر ، استعيرت لنبو قلوبهم عن التأثر بالعظات ، والقوارع التى تميع منها الجبال ، وتلين بها الصخور .

رابعا : [فهي كالحجارة] فيه تشبيه يسمى (مرسلا مجملا) لأن أداة التشبيه مذكورة وهي الكاف ، ووجه الشبه محذوف وهو الصلابة والقسوة .

خامسا : [لما يتفجر منه الأنهار] أي ماء الأنهار ، والعرب يطلقون اسم المحل كالنهر ، على الحال فيه كالماء ، والقرينة ظاهرة لأن التفجر إنما يكون للماء ويسمى هذا (مجازاً مرسلا) . !

الفوائد :

الفائدة الأولى : نبه قوله تعالى : [قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين] على أن الاستهزاء بأمر من أمور الدين جهل كبير ، وقد منع المحققون من أهل العلم استعمال الآيات ، كأمثال يضربونها في مقام المزاح والهزل ، وقالوا إنما أنزل القرآن للتدبر والخشوع ، لا للتسلي والتفكه والمزاح ، ويخشى على من فعل ذلك من الكفر ، لقوله تعالى : [قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون ؟ لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم] .

(94/56)

الثانية : الخطاب في قوله : [وإذ قتلتم نفسا] لليهود المعاصرين للنبى (ص) وقد جرى على الأسلوب المعروف في مخاطبة الأقوام ، إذ ينسب إلى الخلف ما فعل السلف ، إذا كانوا سائرين على نهجهم ، راضين بفعلهم ، وفيه توبيخ وتقريع للغابرين والحاضرين .

الثالثة : هذه الواقعة (واقعة قتل النفس) جرت قبل أمرهم بذبح البقرة ، وإن وردت في الذكر بعده ، والسر في ذلك : التشويق إلى معرفة السبب في ذبح البقرة ، والتكرير في التقريع والتوبيخ ، قال العلامة أبو السعود : وإنما غير الترتيب لتكرير التوبيخ وتثنية التقريع ، فإن كل واحد من قتل النفس المحرمة ، والاستهزاء بموسى عليه السلام والافتيات على أمره ،

جناية عظيمة جديرة بأن تنعى عليهم .

الرابعة : ذكر تعالى إحياء الموتى في هذه السورة الكريمة فى خمسة مواضع :

-الأول : في قوله : [ثم بعثناكم من بعد موتكم]

-الثاني : وفي هذه القصة [فقلنا اضربوه ببعضها]

-الثالث : في قصة القوم الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت [فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم]

-الرابع : فى قصة عزير [فأماته الله مائة عام ثم بعثه]

-الخامس : في قصة إبراهيم [رب أرني كيف تحي الموتى] ؟ .

الخامسة : [أو] في قوله تعالى : [فهي كالحجارة أو أشد قسوة] بمعنى " بل " أي بل أشد قسوة كقوله تعالى : [وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون] أي بل يزيدون .

السادسة : ذهب بعض المفسرين إلى أن الخشية هنا حقيقية ، وأن الله تعالى جعل لهذه الأحجار خشية بقدرها كقوله تعالى : [وإن من شيء إلا يسبح بحمده] وقال آخرون : بل هو من باب المجاز كقول القائل : قال الحائط للمسمار : لم تشقني ؟ قال : سل من يدقني ؟ فهو بطريق التمثيل لروعة التأثير حتى على الجماد ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ صفوة التفاسير حـ 1 صـ 68. 70 ﴾

" فصل "

قال السيوطى :

ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (74)

أخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة في قوله ﴿ ثم قست قلوبكم من بعد ذلك ﴾ قال : من بعد ما أراهم الله من إحياء الموتى ، ومن بعد ما أراهم من أمر القتيل . ﴿ فهي كالحجارة أو أشد قسوة ﴾ ثم عذر الله الحجارة ولم يعذر شقي ابن آدم فقال ﴿ وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله ﴾ .

وأخرج ابن إسحق وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ وإن من الحجارة . . . ﴾ الآية . أي أن من الحجارة لألين من قلوبكم ، لما تدعون إليه من الحق .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد قال : كل حجر يتفجر منه الماء ، أو يشقق عن ماء أو يتردى من رأس جبل فمن خشية الله . نزل بذلك القرآن .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ وإن منها لما

يهبط من خشية الله ﴾ قال : إن الحجر ليقع على الأرض ، ولو اجتمع عليه كثير من الناس ما استطاعوه ، وإنه ليهبط من خشية الله . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 1 صـ 198.197 ﴾

(96/56)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً " " أو " هذه كـ " أو " التي في قوله : ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ ﴾ [البقرة : 19] فكل ما قبل ثمة يمكن القول به هنا ، ولما قال أبو الأسود : [الوافر]

593 أُحِبُّ مُحَمَّداً حُبًّا شَدِيداً . . .

وَعَبَّاساً وَحَمْزَةَ أَوْ عَلِيًّا

اعترضوا عليه في قوله : " أو " التي تقتضي الشك ، وقالوا له : أشككت ؟ فقال : كلا ، واستدل بقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لعلى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ ﴾ [سبأ : 24] فقال : أو كان شاكًّا من أخبر بهذا ؟ وإنما قصد رحمه الله الإبهام على المخاطب .

و " أَشَدّ " مرفوع لعطفه على محل " كَالحِجَارةِ " أي : فهي مِثْلُ الحجارة أو أشد .

والكاف يجوز أن تكون حرفاً فتتعلّق بمحذوف ، وأن كون اسماً فلا تتعلّق بشيء ، ويجوز أن يكون خبر المبتدأ محذوفاً أي : أو هي أشد .

و" قسوة " منصوب على التمييز ؛ لأن الإبهَامَ حصل في نسبة التفضيل إليهما ، والمفضل عليه محذوف للدلالة عليه ، أي : أشدّ قسوة من الحِجَارَةِ .

وقرىء : " أَشَدْ " بالفتح وَوَجْهُهَا : أنه عطفها على " الحجارة " أي : فهي كالحجارة أو [كأشد] منها .

قال الزمخشري موجهاً للرفع : و" أشد " معطوف على الكاف ، إما على معنى : أو مثل أشد ، فحذف المضاف ، وأقيم المضاف إليه مقامه ، وتعضده قراءة الأعمش بنصب الدال عطفاً على " الحجارة " ويجوز على ما قاله أن يكون مجروراً بالمضاف المحذوف ترك على حاله ، كقراءة : ﴿ واللهُ يُرِيدُ الآخرة ﴾ [الأنفال : 67] بجر " الآخرة " أي : ثواب الآخرة ، فيحصل من هذا أن فتحه الدال يُحتمل أن تكون للنصب ، وأن تكون للجر .

وقال الزمخشري أيضاً : فإن قلت : لم قيل : أشدُّ قسوة مما يَخْرُج منه " أفعل " التفضيل وفعل التعجب ؟ يعني : أنه [مستكمل] للشروط من كونه ثلاثياً تاماً غير لون ولا عاهة متصرفاً غير ملازم للنفي .

ثم قال : قلت : لكونه أبين وأدلّ على فرط القسوة ، ووجهٌ آخر وهو ألاّ يقصد معنى الأقسى ، ولكنه [قصد] وصف القسوة بالشدة ، كأنه " اشتدت قسوة الحجارة ،

وقلوبهم أشد قسوة" .

وهذا الكلام حسن ، إلا أن كون "القسوة" جوز بناء التعجّب منها فيه نظر من حيث إنها من الأمور الخِلْقِية أو من العيوب ، وكلاهما ممنوع منه بناء البابين .

وقرئ : "قاسوة" .

قوله : ﴿ وَإِنَّ مِنَ الحجارة لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأنهار ﴾ .

واعلم أنه سبحانه وتعالى فَضَّل الحجارة على قلوبهم بأنه قد يحصل في الحجارة أنواع من المنافع ، ولا يوجد في قلوب هؤلاء شيء من المنافع .

(97/56)

فأولها : قوله : "وَإِنَّ مِنَ الحجارة لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأنهار" واللاّم في "لَمَا" لام الابتداء دخلت على اسم "إن" لتقدم الخبر ، وهو "من الحجارة" ، وهي "ما" التي بمعنى "الذي" في محلّ النصب ، ولو لم يتقدم الخبر لم يَجُزْ دخول اللام على الاسم ؛ لئلاَّ يتوالى حَرْفاً تأكيد ، وإن كان الأصل يقتضي ذلك ، والضمير في "منه" يعود على "ما" حملاً على اللفظ .

قال أبو البقاء : ولو كان في غير القرآن لجاز "منها" على المعنى .

وهذا الذي قاله قد قرأ به أُبَي بن كعب والضحاك .

وقرأ مالك بن دينار "يَنْفَجِر" من الانفجار.

وقرأ قتادة: "وَإِنْ مِنَ الْحِجَارَةِ" بتخفيف "إنْ" من الثقيلة، وأتى باللام فارقة بينها وبين "إن" النافية، وكذلك: "وَإِنْ منْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ" و"إنْ مِنْهَا لَمَا يَهْبِط"، وهذه القرءاة تحتمل أن تكون "ما" فيها في محل رفع وهو المشهور، وأن تكون في محلّ نصب؛ لأن "إنْ" المخففة سمع فيها الإعمال والإهمال، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ كُلاًّ لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ ﴾ [هود: 111] في قراءة من قرأه.

وقال في موضع آخر: ﴿ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا ﴾ [يس: 32] إلا أن المشهور الإهمال.

والتفجير: الفتح بالسّعة والكثرة؛ يقال: انفجرت قرحة فلان أي: انشقت بالمدّة، ومنه: الفَجْر والفُجُور.

قوله: ﴿ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَآءُ ﴾ أي: وإنّ من الحجارة لما يتصدّع، فينبع الماء منه فيكون عَيْناً لا نهراً جارياً.

و"يَشَّقَّقُ" أصله: يَتَشَقّق، فأدغم وبالأصل قرأ الأعمش، وقرأ طلحة بن مصرف: "لَمَّا بتشديد "الميم" في الموضعين قال ابن عطية: "وهي قراءة غير متّجهة".

وقرأ أيضا: "ينشقّ" بالنون وفاعله ضمير "ما".

وقال أبو البقاء : ويجوز أن يكون فاعله ضمير " الماء " لأن " يَشَّقَّقُ " يجوز أن يُجْعل لـ " الماء " على المعنى ، فيكون معك فِعْلان ، فيعمل الثاني منهما في الماء ، وفاعل الأول مضمر على شريطة التفسير .

وعند الكوفيين يعمل الأول ، فيكون في الثاني ضمير ، يعني : أنه من باب التنازع ، ولا بد من حذف عائد من " يشقق " على " ما " الموصولة دلَّ عليه قوله : " منه " ، والتقدير : وإن من الحجارة لما يشقق الماء منه ، فيخرج الماء منه .

وقال أيضاً : ولو قرئ : " تتفجّر " بالتاء جاز .

قال أبو حاتم : يجوز " لما تتفجر " بالتاء ؛ لأنه أنثه بتأنيث الأنهار ، وهذا لا يكون في " تشقق " يعني التأنيث .

قال النَّحَّاس : يجوز ما أنكره على المعنى ، لأن المعنى : وإن منها الحجارة تتشقق يعني فيراعى به معنى " لما " ، فإنها واقعة على الحجارة .

قوله : " وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ " .

قال أبو مُسْلم : " الضمير في قوله : " وَإِنَّ مِنْها " راجع إلى " القلوب " ، فإنه يجوز عليهما الخَشْيَة ، والحجارة لا يجوز عليها الخَشْيَة .

وقد تقدم ذكر القلوب كما تقدم ذكر الحجارة ، وأقصى ما في الباب أن الحجارة أقرب

المذكورين إلاّ أنّ هذا الوصف أليَقُ بالقلوب من الحجارة ، فوجب رجوع الضمير إلى " القلوب " دون " الحجارة " ، وفيه بعد لتنافر الضّمائر .

وقال الجمهور المفسرين : الضمير عائد إلى " الحجارة " .

وقالوا : يجوز أن يكون حقيقة على معنى أن الله خلق فيها قَابليَّةً لذلك ، وأن المراد من ذلك جَبَلُ موسى عليه الصلاة والسلام حين تقطع وتجلّى له ربه ، وذلك لأن الله تعالى خلق فيه الحياة والعقل والإدْرَاك ، وهذا غير مستعبد في قدرة الله تعالى .

ونظيره قوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قالوا أَنطَقَنَا الله الذي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [فصلت : 21] .

فكما جعل الجِلْد ينطق ويسمع ويعقل ، فكذلك الجَبَل وصفه بالخشية .

قوله : " مِنْ خَشْيَةِ اللهِ " منصوب المحل متعلق بـ " يهبط " ، و " من " للتعليل .

وقال أبو البقاء : " من " في موضع نصب بـ " يهبط " ، كما تقول : يهبط بخشية الله ، فجعلها بمعنى " الباء " [المعدية] وهذا فيه نظر لا يخفى .

و " خشية " مصدر مضاف للمفعول تقديره : من أن يخشى الله ، وإسناد الهبوط إليها

استعارة؛ كقوله : [الكامل]

597 لَمَّا أَتَى خَبَرُ الزُّبَيْرِ تَواضَعَتْ . . .

سُورُ الْمَدِينَةِ والْجِبَالُ الْخُشَّعُ

ويجوز أن يكون حقيقة على معنى : أن الله خلق فيها قابليّةً لذلك .

وقيل : الضمير في " منها " يعود على " القلوب " ، وفيه بُعْد لتنافر الضمائر .

قوله : " وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ " قد تقدم في قوله : " وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ " .

قال القرطبي : " بغافل " في موضع نصب على لغة " الحِجَاز " ، وعلى لغة " تميم " في موضع رفع .

قوله : " عَمَّا تَعْمَلُونَ " متعلّق بـ " غافل " ، و " ما " موصولة اسمية ، والعائد الضمير ، أي : تعملونه ، أو مصدرية فلا يحتاج إليه أي : عن عملكم ، ويجوز أن يكون واقعاً موقع المفعول به ، ويجوز ألاّ يكون .

وقرىء : يَعْمَلُونَ " بالياء والتاء . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 2 صـ 184 . 191 ﴾ . باختصار .

(100/56)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (74) ﴾

بَيَّن أنهم – وإن شاهدوا عظيم الآيات وطالعوا واضح البينات – فحين لم تساعدهم العناية ولم يخلق الله (لهم) الهداية ، لم تزدهم كثرة الآيات إلا قسوة ، ولم تبرز لهم من مكامن التقدير إلا شقوة (على شقوة ، وشبَّه قلوبهم بالحجارة لأنها لا تنبت ولا تزكو ، وكذلك قلوبهم لا تفهم ، ولا تغنى . ثم بيَّن أنها أشد (. . . .) من الحجارة ، فإنَّ من الحجارة لما يتفجّر منه الأنهار ، ومنها ما تظهر عليه آثار خشية الله ، وأمَّا قلوبهم فخالية عن كل خير ، وكيف لا وقد مُنِيَتْ بإعراض الحقّ عنها ، وخُصَّتْ بانتزاع الخيرات منها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 100 ﴾

ومن فوائد العلامة الزمخشرى فى الآيات

قال رحمه الله :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً ﴾

كان في بنى إسرائيل شيخ موسر فقتل ابنه بنو أخيه ليرثوه ، وطرحوه على باب مدينة ثم جاءوا يطالبون بديته ، فأمرهم اللَّه أن يذبحوا بقرة ويضربوه ببعضها ليحيا فيخبرهم بقاتله قالُوا أَتَتَّخِذُنا هُزُواً أتجعلنا مكان هزو ، أو أهل هزو ، أو مهزوا بنا ، أو الهزو نفسه لفرط الاستهزاء مِنَ الْجاهِلِينَ لأن الهزو في مثل هذا من باب الجهل والسفه . وقرئ «هزؤا» بضمتين . «و هزءاً» بسكون الزاى ، نحو كفؤا وكفؤا . وقرأ حفص «هزوا» بالضمتين والواو وكذلك «كفوا» . والعياذ واللياذ من واد واحد .

في قراءة عبد اللَّه : سل لنا ربك ما هي ؟ سؤال عن حالها وصفتها . وذلك أنهم تعجبوا من بقرة ميتة يضرب ببعضها ميت فيحيا ، فسألوا عن صفة تلك البقرة المجيبة الشأن الخارجة عما عليه البقر . والفارض : المسنة ، وقد فرضت فروضا فهي فارض . قال خفاف بن ندبة :

لَعَمْرِى لَقَدْ أَعْطَيْتُ ضَيْفَكَ فَارِضاً تُسَاقُ إِلَيْهِ مَا تَقُومُ عَلَى رِجْلِ «1»

وكأنها سميت فارضا لأنها فرضت سنها أى قطعتها وبلغت آخرها . والبكر : الفتية . والعوان النصف . قال :

نَوَاعِمُ بَيْنَ أَبْكَارٍ وَعُونِ «2»

وقد عوّنت «3» . فإن قلت : (بين) يقتضى شيئين فصاعدا «4» فمن أين جاز دخوله على (ذلك) : قلت لأنه في معنى شيئين حيث وقع مشارا به إلى ما ذكر من الفارض والبكر . فإن قلت :

كيف جاز أن يشار به إلى مؤنثين ، وإنما هو للإشارة إلى واحد مذكر ؟ قلت : جاز ذلك على تأويل ما ذكر وما تقدّم ، للاختصار في الكلام ، كما جعلوا «فعل» نائبا عن أفعال جمة تذكر قبله : تقول للرجل : نعم ما فعلت ، وقد ذكر لك أفعالا كثيرة وقصة طويلة ، كما تقول له :

ما أحسن ذلك . وقد يجرى الضمير مجرى اسم الإشارة في هذا . قال أبو عبيدة قلت لرؤبة في قوله :

فِيهَا خُطُوطٌ مِنْ سَوَادٍ وَبَلَقْ كَأَنَّهُ فِى الْجِلْدِ تَوْلِيعُ الْبَهَقْ «5»

---

(1) . لخفاف بن ندبة يهجو العباس بن مرداس بالبخل . والفارض : الناقة المسنة تساق إليه ، أى لا تركب ، بل تحتاج إلى من يضربها ويسوقها من خلفها . لا تقوم على رجل : أى لا

رجل لها قوية تعتمد عليها في قيامها . [. . . . .]

(2) ظعائن كنت أعهدهن قدما وهن لدى الاقامة غير جون

حصان مواضع القب الأعالى نواعم بين أبكار وعون

للطرماح. والظعائن النساء في الهوادج. والضعائن – بالضاد – : المطايا . والضغائن – بالغين – : جمع ضغينة ، وهي الحقد والميل والاعوجاج. وضغنته : إذا أخذته في حضنك . وفرس ضاغن : لا يعطى ما عنده من الجري. وناقة ذات ضغن : أى حنين إلى وطنها . وامرأة ذات ضغن تحب غير زوجها . والجون – بالضم جمع جوناء أى سوداء . والحصان – بالفتح – : المحصنة . والنقب : جمع نقاب ، ككتب وكتاب . والعون أصله بضم الواو جمع عوان ، وهي النصف – بفتحتين – أى الوسط من النساء والبهائم ، فسكن تخفيفاً . يقول : تلك النساء ظعائن أى مسافرات غير لونهن السفر ، وكنت أعهدهن في قديم الزمان حين الاقامة غير سود وهن محصنات الوجوه ، وإذا حفظت حفظن كلهن عادة . والأعالى : صفة للنقب أو المواضع ، وهذا لا يكون إلا في النساء كما ترى . وروى بعضهم «ضغائن» بدل «ظعائن» ولعله تحريف . وهن ناعمات ، دائرات بين أبكار صغيرات وعون أواسط .

(3) . قوله «وقد عونت» في الصحاح : وتقول منه عونت المرأة تعوينا ، وعانت تعون عونا . (ع)

(4) . قال محمود رحمه اللَّه : «فان قلت بين يقتضى شيئين . . . الخ» قال أحمد رحمه اللَّه : وقد مر نظير هذا عند قوله : (فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا) فجدد به عهدا .

(5) . لرؤبة بن العجاج يصف بقرة وحشية ، وقيل فرساً ، وقيل خيلا فيها لون السواد ولون البلق – أى البياض – ويروى : من بياض وباق فلعل البياض بياض يرهقه قترة ، كأنه : أى ذلك المذكور أو المجتمع منهما ، توليع البهق في الجلد . أو كأنه حال كونه في الجلد توليع البهق ، أى تخطيطه من البياض المشوب بكدرة الناشئ من البهق ، وهو داء يتغير منه لون الجلد . روى أن أبا عبيدة قال له : إن أردت الخطوط فقل : كأنها . وإن أردت السواد والبلق فقل : كأنهما . فقال أردت كأن ذاك ، فقد أجرى الضمير مجرى اسم الاشارة في صحة الاشارة بالمفرد منه إلى المتعدد بتأويله بالمذكور ونحوه .

(103/56)

إن أردت الخطوط فقل : كأنها . وإن أردت السواد والبلق فقل : كأنهما . فقال : أردت كأن ذاك ، ويلك ! والذي حسن منه أنّ أسماء الإشارة تثنيتها وجمعها وتأنيثها ليست على الحقيقة وكذلك الموصولات . ولذلك جاء الذي بمعنى الجمع ما تُؤْمَرُونَ أى ما تؤمرونه بمعنى تؤمرون به من قوله أمرتك الخير أو أمركم بمعنى مأموركم تسمية للمفعول به بالمصدر ،

كضرب الأمير .

الفقوع أشد ما يكون من الصفرة وأنصعه . يقال في التوكيد : أصفر فاقع ووارس ، كما يقال أسود حالك وحانك ، وأبيض يقق ولهق . وأحمر قانى وذريحى . وأخضر ناضر ومدهامّ . وأورق خطبانىّ وأزمك ردانىّ . فإن قلت : فاقع ها هنا واقع خبرا عن اللون ، فلم يقع توكيداً لصفراء قلت : لم يقع خبرا عن اللون إنما وقع توكيداً لصفراء ، إلا أنه ارتفع اللون به ارتفاع الفاعل واللون من سببها وملتبس بها ، فلم يكن فرق بين قولك صفراء فاقعة وصفراء فاقع لونها . فإن قلت : فهلا قيل صفراء فاقعة ؟ وأى فائدة في ذكر اللون ؟ قلت : الفائدة فيه التوكيد ، لأنّ اللون اسم للهيئة وهي الصفرة ، فكأنه قيل : شديدة الصفرة صفرتها ، فهو من قولك : جدّ جدّه ، وجنونك مجنون . وعن وهب : إذا نظرت إليها خيل إليك أن شعاع الشمس يخرج من جلدها والسرور لذة في القلب عند حصول نفع أو توقعه . وعن على رضى اللَّه عنه : «من لبس نعلا صفراء قل همه «1» لقوله تعالى تسرّ الناظرين» وعن الحسن البصري صَفْراءُ فاقِعٌ لَوْنُها سوداء شديدة السواد . ولعله مستعار من صفة الإبل لأن سوادها تعلوه صفرة . وبه فسر قوله تعالى : (جِمالَتٌ صُفْرٌ) . قال الأعشى :

تِلْكَ خَيْلِى مِنْهُ وَتِلْكَ رِكَابِى هُنَّ صُفْرٌ أَوْلَادُهَا كَالزَّبِيبِ «2»

---

(1) . موقوف لم أجده : لكن أخرجه العقيلي والطبراني والخطيب من حديث ابن عباس

رضى اللَّه عنهما . قال «من لبس نعلا صفراء لم يزل في سرور ما دام لابسها» وقال ابن أبى حاتم : سألت أبى عنه : فقال : كذب . موضوع .

(2) إن قيس أقيس الفعال أبا الأشعث أمست أصداؤه لشعوب

كل عام يمدني بجموم عند وضع للضأن أو بنجيب

تلك خيلى منه وتلك ركابي هن صفر أولادها كالزبيب

للأعشى في أبى الأشعث بن قيس . والفعال - بالفتح - : فعل الخير . والأصداء : جمع صدى ، وهو ذكر البوم .

كانت العرب تزعم أن عظام رأس القتيل تصير بومة وتصبح : أدركونى . حتى يؤخذ بثأره . وشعوب : اسم للمنية ، ويمكن أنه جمع شعب بمعنى طريق ، أى أمست متفرقة في الطرق . وذلك كناية عن قتله . والجمع للتعظيم ، أو اعتباري . والجموم : جمع جم بتثليث أوله بمعنى الكثير . والنجيب : الكريم من الخيل والإبل . والركاب : المطايا . هن أى الركاب ، صفر : جمع أصفر أو صفراء ، أولادها يغلب عليها السواد كالزبيب . والمراد بالصفرة سواد ترهقه صفرة ، لأن هذا أعز ألوان الإبل عندهم .

ما هِيَ مرة ثانية تكرير للسؤال عن حالها وصفتها ، واستشكاف زائد ليزدادوا بيانا لوصفها . وعن النبي صلى اللَّه عليه وسلم «لو اعترضوا أدنى بقرة فذبحوها لكفتهم ، «1» ولكن شدّدوا فشدّد اللَّه عليهم» والاستقصاء شؤم . وعن بعض الخلفاء أنه كتب إلى عامله بأن يذهب إلى قوم فيقطع أشجارهم ويهدم دورهم ، فكتب إليه : بأيهما أبدأ ؟ فقال : إن قلت لك بقطع الشجر سألتنى :

بأى نوع منها أبدأ ؟ وعن عمر بن عبد العزيز : إذا أمرتك أن تعطى فلانا شاة سألتنى : أضائن أم ماعز ؟ فإن بينت لك قلت : أذكر أم أنثى ؟ فإن أخبرتك قلت : أسوداء أم بيضاء ؟ فإذا أمرتك بشيء فلا تراجعني . وفي الحديث «أعظم الناس جرما من سأل عن شيء لم يحرم فحرم لأجل مسألته» «2» إِنَّ الْبَقَرَ تَشابَهَ عَلَيْنا أى إنّ البقر الموصوف بالتعوين والصفرة كثير فاشتبه علينا أيها نذبح . وقرئ : تشابه ، بمعنى تتشابه بطرح التاء وإدغامها في الشين . وتشابهت ومتشابهة ومتشابه . وقرأ محمد ذو الشامة : إن الباقر يشابه ، بالياء والتشديد . جاء في الحديث «لو لم يستثنوا لما بينت لهم آخر الأبد» «3» أى : لو لم يقولوا إن شاء اللَّه . والمعنى : إنا لمهتدون إلى البقرة المراد ذبحها ، أو إلى ما خفى علينا من أمر القاتل لا ذُلُولٌ صفة لبقرة بمعنى بقرة غير ذلول ، يعنى لم تذلل للكراب «4» وإثارة الأرض ، ولا هي من النواضح التي يسنى عليها لسقى الحروث ، و«لا» الأولى للنفي ، والثانية مزيدة لتوكيد الأولى ، لأن المعنى : لا ذلول تثير وتسقى . على أنّ الفعلين صفتان

لذلول ، كأنه قيل : لا ذلول مثيرة وساقية . وقرأ أبو عبد الرحمن السلمى : لا ذلول ، بمعنى لا ذلول هناك : أى حيث هي ، وهو نفى لذلها ولأن توصف به فيقال : هي ذلول . ونحوه قولك : مررت بقوم لا بخيل ولا جبان . أى فيهم ، أو حيث هم .

---

(1) . ابن مردويه والبزار وابن أبى حاتم كلهم من طريق الحسن عن أبى رافع عن أبى هريرة مرفوعا وفي سنده عباد بن منصور ، وفيه ضعف والطبري من كلام ابن عباس موقوفا . ومن كلام أبى العالية ، دون قوله «و الاستقصاء شؤم» فليس هو في المرفوع ولا الموقوف قلت قوله «و الاستقصاء شؤم» من كلام الزمخشري

(2) . متفق عليه من حديث سعد بن أبى وقاص رضى اللَّه عنه .

(3) . قلت : أخرجه ابن جرير من طريق ابن جريج مرفوعا . وهو معضل .

(4) . قوله «لم تذلل للكراب» في الصحاح : كربت الأرض إذا قلبتها للحرث . وفي المثل : الكراب على البقر ، ويقال : الكلاب على البقر . (ع)

وقرئ تسقى بضم التاء من أسقى مُسَلَّمَةٌ سلمها اللَّه من العيوب أو معفاة من العمل سلمها أهلها منه كقوله :

أَوْ مَعْبَرَ الظَّهْرِ يُنْبِى عَنْ وَلِيَّتِهِ مَا حَجَّ رَبُّهُ فِى الدُّنْيَا وَلَا اعْتَمَرَا «1»

أو مخلصة اللون ، من سلم له كذا إذا خلص له ، لم يشب صفرتها شيء من الألوان لا شِيَةَ فِيها لا لمعة في نقبتها «2» من لون آخر سوى الصفرة ، فهي صفراء كلها حتى قرنها وظلفها . وهي في الأصل مصدر وشاه وشيا وشية ، إذا خلط بلونه لونا آخر ، ومنه ثور موشى القوائم جِئْتَ بِالْحَقِّ أى بحقيقة وصف البقرة ، وما بقي إشكال في أمرها فَذَبَحُوها أى فحصلوا البقرة الجامعة لهذه الأوصاف كلها فذبحوها . وقوله وَما كادُوا يَفْعَلُونَ استثقال لاستقصائهم واستبطاء لهم ، وأنهم لتطويلهم المفرط وكثرة استكشافهم ، ما كادوا يذبحونها ، وما كادت تنتهي سؤالاتهم ، وما كاد ينقطع خيط إسهابهم فيها وتعمقهم . وقيل : وما كادوا يذبحونها لغلاء ثمنها . وقيل : لخوف الفضيحة في ظهور القاتل .

وروى أنه كان في بنى إسرائيل شيخ صالح له عجلة فأتى بها الغيضة «3» وقال : اللهم إنى أستودعكها لابنى حتى يكبر ، وكان براً بوالديه ، فشبت وكانت من أحسن البقر وأسمنه ، فساوموها اليتيم وأمّه حتى اشتروها بملء مسكها ذهباً ، وكانت البقرة إذ ذاك بثلاثة دنانير

---

(1) . أنشده سيبويه . ويقال : أعبرت الشاة فهي معبرة ، إذا كثر صوفها لتركها سنة من غير جز ، فالظهر المعبر : المتروك من الجز فيكثر وبره ، أو لأنه لا وبر عليه فيحز . ولعل

المراد هنا المتروك من الحمل عليه . وقيل :

المنجرد الشعر . ونبا عنه ينبو : انحرف . وأنبيته : حرفته وأبعدته ، فما هنا معناه يمنع غيره عن ركوب وليته .

وظاهر كلام بعضهم أنه يقال : نبى ينبي ، كرمى يرمى ، إذا انحرف . وأن ما هنا منه ، أى ينفر عن وليته : أى برذعته ، لأنها تلى الجلد . وربه باختلاس الحركة للوزن ، بمعنى صاحبه . والمعنى : أنه بعير متروك من العمل فهو مصعب ينفر من الراكب ، لأنه لم يسافر أصلا حتى أن صاحبه لا حج ولا اعتمر : وظاهر كلام بعضهم أن «ربه» هي رب التي هي حرف جر ، فتكون جارة للضمير بلا تمييز لتقدم مرجعه ، ودالة على تحقيق النفي مجازاً عن معنى التكثير وهي اعتراض بين المتعاطفين . وإسناد الفعلين لضمير البعير مجاز عقلى ، لأنه من آلات الحج والاعتمار .

وقائل ذلك فسره بأنه منجرد الظهر ينفر من برذعته لدبره من كثرة الأسفار . ما سافر لحج ولا اعتمار ، وإنما يسافر إلى الأعداء . ولو جعل معناه كما تقدم لجاز . فالمعنى أنه مصعب لم يركب ولم يسافر أصلا ، حتى أنه لم يسافر لحج ولا عمرة وهو ظاهر .

(2) . قوله «لا لمعة في نقبتها» في الصحاح : النقبة اللون والوجه . (ع)

(3) . قوله «فأتى بها الغيضة» في الصحاح : الغيضة الأجمة ، وهي مغيض ماء يجتمع فيه فينبت فيه الشجر . (ع)

وكانوا طلبوا البقرة الموصوفة أربعين سنة . فإن قلت : كانت البقرة التي تناولها الأمر بقرة من شق البقر غير مخصوصة ، ثم انقلبت مخصوصة بلون وصفات ، فذبحوا المخصوصة ، فما فعل الأمر الأوّل ؟ قلت : رجع منسوخا لانتقال الحكم إلى البقرة المخصوصة ، والنسخ قبل الفعل جائز . على أنّ الخطاب كان لإبهامه متناولا لهذه البقرة الموصوفة كما تناول غيرها . ولو وقع الذبح عليها بحكم الخطاب قبل التخصيص لكان امتثالا له ، فكذلك إذا وقع عليها بعد التخصيص وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً خوطبت الجماعة لوجود القتل فيهم فَادَّارَأْتُمْ فاختلفتم واختصمتم في شأنها ، لأنّ المتخاصمين يدرأ بعضهم بعضاً ، أى يدفعه ويزحمه . أو تدافعتم ، بمعنى طرح قتلها بعضكم على بعض ، فدفع المطروح عليه الطارح . أو لأنّ الطرح في نفسه دفع . أو دفع بعضكم بعضاً عن البراءة واتهمه وَاللَّهُ مُخْرِجٌ ما كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ مظهر لا محالة ما كتمتم من أمر القتل لا يتركه مكتوماً . فإن قلت : كيف أعمل مخرج وهو في معنى المضىّ ؟

قلت : وقد حكى ما كان «1» مستقبلا في وقت التدارؤ . كما حكى الحاضر في قوله : (باسِطٌ ذِراعَيْهِ) وهذه الجملة اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه وهما (فَادَّارَأْتُمْ)

و(فَقُلْنا)

والضمير في اضْرِبُوهُ

إمّا أن يرجع إلى النفس والتذكير على تأويل الشخص والإنسان، وإمّا إلى القتيل لما دل عليه من قوله: (ما كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ). بِبَعْضِها

ببعض البقرة. واختلف في البعض الذي ضرب به، فقيل: لسانها، وقيل: فخذها اليمنى، وقيل: عجبها، وقيل: العظم الذي يلي الغضروف وهو أصل الأذن، وقيل: الأذن، وقيل: البضعة بين الكتفين. والمعنى:

فضربوه فحيى، فحذف ذلك لدلالة قوله: (كَذلِكَ يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتى)

. وروى أنهم لما ضربوه قام بإذن اللَّه وأوداجه تشخب دماً وقال: قتلني فلان وفلان لابنى عمه، ثم سقط ميتاً، فأخذا وقتلا ولم يورّث قاتل بعد ذلك. كَذلِكَ يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتى

إما أن يكون خطابا للذين حضروا حياة القتيل بمعنى وقلنا لهم: كذلك يحيى اللَّه الموتى يوم القيامة وَيُرِيكُمْ آياتِهِ

ودلائله على أنه قادر على كل شيء لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ

تعملون على قضية عقولكم. وأن من قدر على إحياء نفس واحدة قدر على إحياء الأنفس كلها لعدم الاختصاص حتى لا تنكروا البعث. وإما أن يكون خطابا للمنكرين في زمن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم. فإن قلت: هلا أحياه ابتداء؟ ولم شرط في إحيائه

ذبح البقرة وضربه ببعضها ؟ قلت : في الأسباب والشروط

---

(1) . قوله «قلت وقد حكى ما كان» لعله «قد» بدون واو . (ع) [. . . . .]

حكم وفوائد . وإنما شرط ذلك لما في ذبح البقرة من التقرّب وأداء التكاليف واكتساب الثواب والإشعار بحسن تقديم القربة على الطلب ، وما في التشديد عليهم لتشديدهم من اللطف لهم ، ولآخرين في ترك التشديد والمسارعة إلى امتثال أوامر اللَّه تعالى وارتسامها على الفور ، من غير تفتيش وتكثير سؤال ، ونفع اليتيم بالتجارة الرابحة ، والدلالة على بركة البرّ بالوالدين ، والشفقة على الأولاد ، وتجهيل الهازئ بما لا يعلم كنهه ولا يطلع على حقيقته من كلام الحكماء ، وبيان أنّ من حق المتقرّب إلى ربه أن يتنوّق «1» في اختيار ما يتقرب به ، وأن يختاره فتىّ السنّ غير قحم ولا ضرع ، حسن اللون بريا من العيوب يونق من ينظر إليه ، وأن يغالى بثمنه ، كما يروى عن عمر رضى اللَّه عنه أنه ضحى بنجيبة «2» بثلاثمائة دينار ، وأنّ الزيادة في الخطاب نسخ له ، وأن النسخ قبل الفعل جائز وإن لم يجز قبل وقت الفعل وإمكانه لأدائه إلى البداء ، وليعلم بما أمر من مس الميت بالميت وحصول الحياة عقيبه أن المؤثر هو المسبب لا الأسباب ، لأن الموتين الحاصلين في الجسمين لا يعقل أن تتولد منهما

حياة. فإن قلت: فما للقصة لم تقص على ترتيبها، وكان حقها أن يقدّم ذكر القتيل والضرب ببعض البقرة على الأمر بذبحها، وأن يقال: وإذ قتلتم نفسا فادّارأتم فيها فقلنا اذبحوا بقرة واضربوه ببعضها؟ قلت: كل ما قص من قصص بنى إسرائيل إنما قص تعديداً لما وجد منهم من الجنايات، وتقريعا لهم عليها، ولما جدّد فيهم من الآيات العظام. وها تان قصتان كل واحدة منهما مستقلة بنوع من التقريع وإن كانتا متصلتين متحدتين، فالأولى لتقريعهم على الاستهزاء وترك المسارعة إلى الامتثال وما يتبع ذلك. والثانية للتقريع على قتل النفس المحرّمة وما يتبعه من الآية العظيمة.

وإنما قدّمت قصة الأمر بذبح البقرة على ذكر القتيل لأنه لو عمل على عكسه لكانت قصة واحدة، ولذهب الغرض في تثنية التقريع. ولقد روعيت نكتة بعد ما استؤنفت الثانية استئناف قصة برأسها أن وصلت بالأولى، دلالة على اتحادهما بضمير البقرة لا باسمها الصريح في قوله: (اضْرِبُوهُ بِبَعْضِها)

حتى تبين أنهما قصتان فيما يرجع إلى التقريع وتثنيته بإخراج الثانية مخرج الاستئناف مع تأخيرها، وأنها قصة واحدة بالضمير الراجع إلى البقرة.

---

(1). قوله «أن يتنوق» في الصحاح: تنوق في الأمر، أى تأنق فيه. ويفيد أيضاً أن «القحم» المسن الفاني، و«الضرع» بالتحريك الضعيف النحيف. و«الأنق» الفرح والسرور. (ع)

(2) . أخرجه أبو داود من رواية الجهم بن الجارود عن سالم عن أبيه . قال : «أهدى عمر رضى اللَّه عنه نجيبة فأعطى بها ثلاثمائة دينار . فقال يا رسول اللَّه أفأبيعها وأشترى بثمنها بدنا ؟ قال : لا ، أنحرها إياها» .

(108/56)

[سورة البقرة (2) : آية 74]

ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجارَةِ لَما يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهارُ وَإِنَّ مِنْها لَما يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْماءُ وَإِنَّ مِنْها لَما يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (74)

معنى ثُمَّ قَسَتْ استبعاد القسوة من بعد ما ذكر مما يوجب لين القلوب ورقتها ونحوه : (ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ) وصفة القلوب بالقسوة والغلظ مثل لنبوّها عن الاعتبار وأنّ المواعظ لا تؤثر فيها . وذٰلِكَ إشارة إلى إحياء القتيل ، أو إلى جميع ما تقدّم من الآيات المعدودة فَهِيَ كَالْحِجارَةِ فهي في قسوتها مثل الحجارة أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً منها ، وأشد معطوف على الكاف ، إما على معنى أو مثل أشد قسوة ، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه . وتعضده قراءة الأعمش بنصب الدال عطفاً على الحجارة . وإما على : أو هي أنفسها أشدّ قسوة .

والمعنى :

أن من عرف حالها شبهها بالحجارة ، أو بجوهر أقسى منها وهو الحديد مثلا . أو من عرفها شبهها بالحجارة ، أو قال : هي أقسى من الحجارة . فإن قلت : لم قيل : أشد قسوة ، وفعل القسوة مما يخرج منه أفعل التفضيل وفعل التعجب « 1 » ؟ قلت : لكونه أبين وأدلّ على فرط القسوة . ووجه آخر ، وهو أن لا يقصد معنى الأقسى ولكن قصد وصف القسوة بالشدة ، كأنه قيل : اشتدت قسوة الحجارة ، وقلوبهم أشدّ قسوة . وقرئ : قساوة . وترك ضمير المفضل عليه لعدم الإلباس ، كقولك : زيد كريم وعمرو أكرم . وقوله وَإِنَّ مِنَ الْحِجارَةِ بيان لفضل قلوبهم على الحجارة في شدّة القسوة ، وتقرير لقوله : (أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً) . وقرئ «وإن» بالتخفيف ، وهي «إن» المخففة من الثقيلة التي تلزمها اللام الفارقة . ومنها قوله تعالى : (وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ) . والتفجر : التفتح بالسعة والكثرة . وقرأ مالك بن دينار (ينفجر) بالنون .

يَشَّقَّقُ يتشقق . وبه قرأ الأعمش . والمعنى إنّ من الحجارة ما فيه خروق واسعة يتدفق منها الماء الكثير الغزير ، ومنها ما ينشق انشقاقا بالطول أو بالعرض فينبع منه الماء أيضا يَهْبِطُ يتردّى من أعلى الجبل . وقرئ بضم الباء . والخشية مجاز عن انقيادها لأمر اللَّه تعالى ، وأنها

---

(1) . قال محمود رحمه اللَّه : «فان قلت : لم قيل : أشد قسوة . . . الخ» ؟ قال أحمد

رحمه اللَّه : ولأن سياق هذه الأقاصيص قصد فيه الأسباب لزيادة التقريع ، حتى جعلت القصة الواحدة قصتين كما مر الآن . ولا شك أن قوله (أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً) أدخل في الأسباب من قول القائل : أو أقسى .

(109/56)

لا تمتنع على ما يريد فيها ، وقلوب هؤلاء لا تنقاد ولا تفعل ما أمرت به . وقرئ (يعملون) بالياء والتاء ، وهو وعيد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشاف حـ 1 صـ 148.156 ﴾

(110/56)

(بحث علمي وأخلاقي)

قال فى الميزان :

أكثر الأمم الماضية قصة في القرآن أمة بني إسرائيل ، وأكثر الأنبياء ذكرا فيه موسى بن عمران عليه السلام ، فقد ذكر اسمه في القرآن ، في مائة وستة وثلاثين موضعا ضعف ما ذكر إبراهيم عليه السلام الذي هو أكثر الأنبياء ذكرا بعد موسى ، فقد ذكر في تسعة وستين

موضعا على ما قيل فيهما ، والوجه الظاهر فيه أن الإسلام هو الدين الحنيف المبني على التوحيد الذي أسس أساسه إبراهيم عليه السلام وأتمه الله سبحانه وأكمله لنبيه محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) قال تعالى : (ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل) الحج – 78 ، وبنو إسرائيل أكثر الأمم لجاجا وخصاما ، وأبعدهم من الانقياد للحق ، كما أنه كان كفار العرب الذين ابتلى بهم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) على هذه الصفة ، فقد آل الأمر إلى أن نزل فيهم : (إن الذين كفروا سواء عليهم ءأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون) البقرة – 6 .

ولا ترى رذيلة من رذائل بني إسرائيل في قسوتهم وجفوتهم مما ذكره القرآن إلا وهو موجود فيهم ، وكيف كان فأنت إذا تأملت قصص بني إسرائيل المذكورة في القرآن ، وأمعنت فيها ، وما فيها من أسرار أخلاقهم وجدت أنهم كانوا قوما غائرين في المادة مكبين على ما يعطيه الحس من لذائذ الحياة الصورية ، فقد كانت هذه الامة لا تؤمن بما وراء الحس ، ولا تنقاد إلا إلى اللذة والكمال المادي وهم اليوم كذلك .

(111/56)

وهذا الشأن هو الذي صير عقلهم وإرادتهم تحت انقياد الحس والمادة ، لا يعقلون إلا ما يجوزانه ، ولا يريدون إلا ما يرخصان لهم ذلك فانقياد الحس يوجب لهم أن لا يقبلوا قولا إلا إذا دل عليه الحس ، وإن كان حقا وانقياد المادة اقتضى فيهم أن يقبلوا كل ما يريده أو يستحسنه لهم كبراؤهم ممن أوتي جمال المادة ، وزخرف الحياة وإن لم يكن حقا ، فأنتج ذلك فيهم التناقض قولا وفعلا ، فهم يذمون كل اتباع باسم أنه تقليد وإن كان مما ينبغي إذا كان بعيدا من حسهم ، ويمدحون كل اتباع باسم أنه حظ الحياة ، وان كان مما لا ينبغي إذا كان ملائما لهوساتهم المادية ، وقد ساعدهم على ذلك وأعانهم على مكثهم الممتد وقطونهم الطويل بمصر تحت إستذلال المصريين ، واسترقاقهم ، وتعذيبهم ، يسومونهم سوء العذاب ويذبحون أبناءهم ويستحيون نساءهم وفي ذلك بلاء من ربهم عظيم .

وبالجملة فكانوا لذلك صعبة الانقياد لما يأمرهم به أنبيائهم ، والربانيون من علمائهم مما فيه صلاح معاشهم ومعادهم (تذكر في ذلك مواقفهم مع موسى وغيره) وسريعة اللحوق إلى ما يدعوهم المغرضون والمستكبرون منهم .

وقد ابتليت الحقيقة والحق اليوم بمثل هذه البلية بالمدنية المادية التي أتحفها إليها عالم الغرب ، فهي مبنية القاعدة على الحس والمادة فلا يقبل دليل فيما بعد عن الحس ولا يسأل عن دليل فيما تضمن لذة مادية حسية ، فأوجب ذلك إبطال الغريزة الإنسانية في أحكامها وارتحال

المعارف العالية والأخلاق الفاضلة من بيننا فصار يهدد الإنسانية بالانهدام ، وجامعة البشر بأشد الفساد وليعلمن نبأه بعد حين .

(112/56)

واستيفاء البحث في الأخلاق ينتج خلاف ذلك ، فما كل دليل بمطلوب ، وما كل تقليد بمذموم ، بيان ذلك : أن النوع الإنساني بما أنه إنسان إنما يسير إلى كماله الحيوي بأفعاله الإرادية المتوقفة على الفكر والإرادة منه مستحيلة التحقق إلا عن فكر ، فالفكر هو الاساس الوحيد الذي يبتني عليه الكمال الوجودي الضروري فلا بد للإنسان من تصديقات عملية أو نظرية يرتبط بها كماله الوجودي ارتباطا بلا واسطة أو بواسطة ، وهي القضايا التي نعلل بها أفعالنا الفرديه أو الاجتماعية أو نحضرها في أذهاننا ، ثم نحصلها في الخارج بأفعالنا هذا .

(113/56)

ثم إن في غريزة الإنسان أن يبحث عن علل ما يجده من الحوادث ، أو يهاجم إلى ذهنه من المعلومات ، فلا يصدر عنه فعل يريد به إيجاد ما حضر في ذهنه في الخارج إلا إذا حضر في ذهنه علته الموجبة ، ولا يقبل تصديقا نظريا إلا إذا اتكئ على التصديق بعلته بنحو ، وهذا شأن الإنسان لا يتخطاه البته ، ولو عثرنا في موارد على ما يلوح منه خلاف ذلك فبالتأمل والإمعان تنحل الشبهة ، ويظهر البحث عن العلة ، والركون والطمأنينة إليها فطري ، والفطرة لا تختلف ولا يتخلف فعلها ، وهذا يؤدي الإنسان إلى ما فوق طاقته من العمل الفكري والفعل المتفرع عليه لسعة الاحتياج الطبيعي ، بحيث لا يقدر الإنسان الواحد إلى رفعه معتمدا على نفسه ومتكئا إلى قوة طبيعتة الشخصية فاحتالت الفطرة إلى بعثه نحو الاجتماع وهو المدينة والحضارة ووزعت أبواب الحاجة الحيوية بين أفراد الاجتماع ، ووكل بكل باب من أبوابها طائفة كأعضاء الحيوان في تكاليفها المختلفة المجتمعة فائدتها وعائدتها في نفسه ، ولا تزال الحوائج الإنسانية تزداد كمية واتساعا وتتشعب الفنون والصناعات والعلوم ، ويتربى عند ذلك الاخصائيون من العلماء والصناع ، فكثير من العلوم والصناعات كانت علما أو صنعة واحدة يقوم بأمرها الواحد من الناس ، واليوم نرى كل باب من أبوابه علما أو علوما أو صنعة أو صنائع ، كالطب المعدود قديما فنا واحدا من فروع الطبيعيات وهو اليوم فنون لا يقوم الواحد من العلماء الاخصائيين بأزيد من أمر فن واحد منها .

وهذا يدعو الإنسان بالالهام الفطري ، أن يستقل بما يخصه من الشغل الإنساني في البحث عن علته ويتبع في غيره من يعتمد على خبرته ومهارته .

(114/56)

فبناء العقلاء من أفراد الاجتماع على الرجوع إلى أهل الخبرة وحقيقة هذا الاتباع ، والتقليد المصطلح والركون إلى الدليل الاجمالي فيما ليس في وسع الإنسان أن ينال دليل تفاصيله كما أنه مفطور على الاستقلال بالبحث عن دليله التفصيلي فيما يسعة أن ينال تفصيل علته و دليله ، وملاك الأمر كله أن الإنسان لا يركن إلى غير العلم ، فمن الواجب عند الفطرة الاجتهاد ، وهو الاستقلال في البحث عن العلة فيما يسعه ذلك والتقليد وهو الاتباع ورجوع الجاهل إلى العالم فيما لا يسعه ذلك ، ولما استحال أن يوجد فرد من هذا النوع الإنساني مستقلا بنفسه قائما بجميع شؤون الأصل الذي يتكي عليه الحياة استحال أن يوجد فرد من الإنسان من غير اتباع وتقليد ، ومن ادعى خلاف ذلك أو ظن من نفسه أنه غير مقلد في حياته فقد سفه نفسه .

نعم : التقليد فيما للإنسان أن ينال علته وسببه كالاجتهاد فيما ليس له الورود عليه والنيل منه ، من الرذائل التي هي من مهلكات الاجتماع ، ومفنيات المدنية الفاضلة ولا يجوز الاتباع

المحض إلا في الله سبحانه لأنه السبب الذي إليه تنتهي الأسباب . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الميزان حـ 1 صـ 209 . 211 ﴾

(115/56)

من الإعجاز العلمى فى الآية الكريمة / للدكتور زغلول النجار

قال حفظه الله :

الآية الرابعة والسبعون , وقبل البدء في ذلك لابد من استعراض سريع لآراء عدد من المفسرين في شرح دلالتها .

من أقوال المفسرين

في تفسير قوله (تعالي) :

ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون

(البقرة : 74) .

ذكر ابن كثير (رحمه الله) ما نصه : يقول تعالي توبيخا لبني إسرائيل وتقريعا لهم علي ما

شاهدوه من آيات الله وإحيائه الموتي : (ثم قست قلوبكم من بعد ذلك) كله فهي كالحجارة التي لا تلين أبدا , ولهذا نهي الله المؤمنين عن مثل حالهم , فقال : (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون) .

فصارت قلوب بني إسرائيل مع طول الأمد قاسية بعيدة عن الموعظة , بعد ما شاهدوه من الآيات والمعجزات , فهي في قسوتها كالحجارة التي لا علاج للينها , أو أشد قسوة من الحجارة , فإن من الحجارة ما يتفجر منها العيون بالأنهار الجارية , ومنها ما يشقق فيخرج منه الماء , وإن لم يكن جاريا , ومنها ما يهبط من رأس الجبل من خشية الله وفيه إدراك لذلك بحسبه , كما قال تعالي : (وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا) . والمعني : وإن من الحجارة لألين من قلوبكم لما تدعون إليه من الحق . . وأضاف ابن كثير أن (أو) ههنا بمعني (الواو) وتقديره : فهي كالحجارة وأشد قسوة , وقد تكون بمعني (بل) فيصير تقديره : فهي كالحجارة بل أشد قسوة .

وذكر أعداد من المفسرين من القدامي والمعاصرين كلاما مشابها لا أري داعيا لتكراره هنا .

ومن الألفاظ التي تحتاج إلي شرح في الآية الكريمة الفعل (يتفجر) , و (الفجر) هو شق الشيء شقا واسعا , يقال : (فجرته) (فانفجر) , و (فجرته) (فتفجر) ; ومنه قيل للصبح (فجر) لكونه فجر الليل , و (الفجور) شق ستر الديانة , يقال : (فجر) (فجورا) أي فسق فسوقا فهو (فاجر) أي فاسق , وجمعه (فجار) و (فجرة) أي فساق وفسقة , ويقال : (فجر) الماء (فانفجر) أي بجسه فانبجس ; و (انفجر) الماء و (تفجر) بمعني اندفع بقوة من تحت سطح الأرض فظهر وسال علي سطحها .

من الدلالات العلمية للآية الكريمة

أولا : كشف دخائل النفس اليهودية المريضة :

جاءت هذه الآية الكريمة في سياق الخطاب الإلهي إلي العصاة من بني إسرائيل , وقد قست قلوبهم أمام كل صور الهداية الربانية التي أنزلت إليهم . . . فرفضوها , وكل النعم التي أفاء الله (تعالي) بها عليهم . . . فكفروا بها , ولم يشكروها , وكل الآيات والمعجزات المبهرة التي شاهدوها وجحدتها نفوسهم المريضة , ولم تتحرك بها قلوبهم القاسية التي تصفها الآية الكريمة بأنها كالحجارة أو أشد قسوة , وتضيف :

. . . وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار , وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء , وإن

منها لما يهبط من خشية الله . . . .

ومن قبل رأي العصاة من بني إسرائيل كيف ضرب نبي الله موسي الحجر بعصاه فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا , وكيف اندك الجبل لما تجلي الله (تعالي) عليه , وخر موسي (عليه السلام) صعقا , ولم تلن قلوبهم لذلك لأنها قلوب كافرة , قاسية , جاحدة , ولذلك جاء ختام الآية الكريمة بهذا التهديد والوعيد الإلهي :

. . . وما الله بغافل عما تعملون .

ويهود اليوم ألعن من يهود بني إسرائيل بملايين المرات . والآية تنطبق عليهم كما انطبقت علي العصاة من بني إسرائيل سواء بسواء . . . ! !

(117/56)

ومن ذلك يتضح أن اليهودية ليست دينا من الأديان , بقدر ما هي حالة مرضية تعتري الفطرة السوية فتخرجها عن إطارها الإنساني إلي دائرة الشياطين , فكما كفر شياطين بني إسرائيل علي عهد موسي (عليه السلام) فعبدوا العجل , وكفروا علي عهد أنبيائهم فقاتلوهم وقتلوهم , وتجرأوا علي دين

الله فحرفوه , وابتدعوا فيه . . . , وكذبوا علي رب العالمين , وضللوا الملايين ; ونقضوا كل

العهود والمواثيق , وكتموا ما أنزل الله (تعالي) عليهم من كتاب , واشتروا به ثمنا قليلا , وتآمروا علي خيانة خلق الله , وإفسادهم , وإشاعة الفاحشة بينهم , من أجل ابتزازهم وسرقة أموالهم . . . , وكفروا بالله علي عهد نبي الله عيسي ابن مريم (عليهما السلام) , فكذبوه , وطاردوه , وحرضوا عليه كفرة الرومان , وأساءوا إلي سمعته وحاولوا تلطيخ شرف أمه (شرفها الله) , كما حاولوا قتله وصلبه , وتشويه رسالته ; وكفروا بالله علي عهد خاتم الأنبياء والمرسلين (صلي الله عليه وسلم) فنقضوا كل عهودهم معه , وتآمروا مع عبدة الأوثان ضده , وألبوا كل أهل الكفر عليه , وحاولوا سمه وقتله , كما حاولوا الدس علي رسالته لولا أن الله (تعالي) قد تعهد بحفظها فحفظت .

(118/56)

والدليل علي أن اليهودية حالة من حالات الأمراض النفسية المستعصية أن متهودي اليوم وليسوا في غالبيتهم من سلالات بني إسرائيل لهم القلوب القاسية نفسها التي تفوق الحجارة قسوة , فاشتهروا بالكفر والشرك والفسوق والعصيان , والكذب والتحايل , واللجاجة , والمناورة , والالتواء , والتآمر , والدس , والخديعة , والخيانة , والغدر , والظلم , والإرهاب , ونقض العهود والمواثيق , والتزوير والتزييف , وأكل أموال الناس بالباطل ,

وخيانة الأمانات , والقسوة البالغة , والغلظة المتناهية إذا كان بيدهم شيء من القوة , والتظاهر بالاستكانة والذلة والضعف حتي يتمكنوا إذا كانوا أمام من هو أقوي منهم ; ولذلك لعبوا دور شياطين الإنس عبر التاريخ . . . في كل عصر وفي كل مصر ; وأتقنوا التآمر في الظلام حتي ملكوا زمام العالم وأصبحوا يديرونه حسب أهدافهم الشريرة , ومطامعهم الكثيرة , ونفسياتهم المريضة , ولا حول ولا قوة لنا إلا بالله العلي العظيم . . . ! !

وليس أدل علي

(119/56)

قسوة قلوب اليهود من جرائمهم التي ارتكبوها في حق كل الأمم التي احتضنتهم وآوتهم بدءا من دولة الخلافة الإسلامية التي أسقطوها , إلي الاتحاد السوفيتي الذي دمروه , إلي الولايات المتحدة ودول أوروبا الشرقية والغربية التي حطموا كل قيمة إنسانية وأخلاقية فيها . . . , ويتعاظم إجرام متهودي اليوم علي أرض فلسطين , الدولة العربية الإسلامية لأكثر من أربعة عشر قرنا , والتي سرقها اليهود من أهلها , واغتصبوها من بين أيدي أبنائها بمؤامرة دولية حقيرة , وفجروا في معاملة المدنيين العزل , الذين يقاتلونهم اليوم بشراسة لم تعرف لها

البشرية مثيلا في غلظتها وقسوتها , وتجبرها , واستعلائها , موظفين في ذلك أحدث الآلات العسكرية الأمريكية تطورا : من الطائرات , والدبابات , والمصفحات , والمدافع , والصواريخ , وغير ذلك من الأسلحة المحرمة دوليا وغير المحرمة التي تستخدم في كل يوم لهدم المنازل , والمدارس , والمستشفيات , والمساجد , وغيرها من دور العبادات , كما توظف في تجريف الأراضي الزراعية وحرق كل ما عليها من الأشجار والثمار والمحاصيل , وفي حصار المدن وتدمير جميع بنياتها الأساسية , والخدمات الواصلة إليها ; والحيلولة دون إسعاف المصابين , وتركهم ينزفون حتي الموت , ومنع علاج الحوامل والمرضي المزمنين , وحرمانهم من الإسعافات الأولية , والعلاجات الضرورية لهم , وقتل الأطفال , والنساء , والشيوخ , والشبان , واعتقال من لا يقتلون منهم لتعذيبهم بوحشية بشعة في سجونهم ومعتقلاتهم . . . وإن ينس المجتمع الدولي كل هذه الجرائم اللاإنسانية , واللاأخلاقية . . . فلن ينسي اغتيال الطفل (محمد الدرة) بدم بارد وهو يحتمي بحضن أبيه الفزع المفجوع . . . , ولن ينسي تجريد الأسري من ملابسهم , واقتيادهم إلي ساحات التعذيب معصوبي الأعين , ومقيدي الأيدي والأرجل كما فعل الأمريكان المتهودون من قبل . . . ! ! ! ولن ينسي مذابح

ديرياسين , وقبية , وصابرا وشاتيلا , وبحر البقر , وأبي زعبل , وبيروت , وجنين , وغيرها , ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . . . ! ! ! .

ثانيا : بين القسوة المادية للحجارة والقسوة المعنوية لقلوب اليهود :

في هذه الآية الكريمة يعقد ربنا (تبارك وتعالي) ـ وهو العليم الخبير ـ مقارنة بين القسوة المادية للحجارة , والقسوة المعنوية لقلوب الفسقة العصاة من يهود بني إسرائيل مؤكدا أن قلوبهم ـ المليئة بالكراهية لجميع من غايرهم من البشر , وبالحقد عليهم , والغل لهم , والرغبة الدفينة في خيانتهم , وإيذائهم والغدر بهم ـ هي أشد قسوة من الحجارة لأنها لا تلين أبدا , بينما من الحجارة ما يلين فتتفجر منه الأنهار , أو يتشقق فيخرج منه الماء , أو يهبط من خشية الله . . . ! !

وبقدر دقة هذا الوصف الإلهي للنفسية اليهودية المريضة , والخارجة علي منهج الله وهدايته , والمليئة بالأسقام والعلل , جاء هذا الوصف العلمي الدقيق للحجارة , وتفاوتها في درجات القساوة علي قدر كبير من الدقة العلمية والشمول والاحاطة علي الرغم من ورود ذلك في مقام التشبيه .

ثالثا : قسوة الحجارة :

تعتبر قسوة الحجارة

(StiffnessofStones)

من أهم خصائصها الميكانيكية , وتعتمد علي نشأة الحجر , وتركيبه الكيميائي والمعدني , وبنيته ونسيجه , كما تعتمد علي تاريخه في الأرض , والتغيرات البعدية التي تعرض لها , ويؤثر ذلك كله في شدة تماسك مكوناته , وقدرته علي مقاومة العديد من العمليات الارضية من مثل الانضغاط

(CompressibilityorCompaction),

والإجهاد القصي

(TenacityorResistancetoShearStressorStressStain),

وهي أبعاد لابد من قياسها عند تقويم درجة متانة الحجر , وقدرته علي تحمل المنشآت عليه , أو الحفر فيه (للتعدين أو شق الترع والخنادق وغيرها) .

وانضغاطية الحجر أو قابليته للانضغاط

(Compaction)

تعني قابليته للهبوط تحت تأثير

الأحمال الواقعة عليه , ويعتمد ذلك فيما يعتمد من عوامل عديدة علي مسامية الحجر , وقدرته علي إنفاذ الموائع (نفاذيته) , وتركيبه البنيوي , ووزن الأحمال المسلطة عليه . وفي ذلك تقسم الأحجار إلي قليلة , ومتوسطة , وشديدة الانضغاط .

وبالنسبة لمتانة الأحجار (أو قدرتها علي مقاومة الإجهاد القصي أو الاستجابة له مما يؤدي إلي إعادة توزيع القوي الداخلية للحجارة) فإنها تقاس بمعاملي القدرة علي مقاومة الاحتكاك , وشدة تلاصق المكونات , وكلاهما يعتمد كذلك علي نشأة الحجر , وتركيبه المعدني والحبيبي (الميكانيكي) , والروابط بين مكوناته , ودرجة الرطوبة فيه .

وتتعرض الحجارة في الأرض لأنواع مختلفة من الإجهاد الخارجي والداخلي , ويتم ذلك في الحالة الأولي نتيجة للضغط الخارجي عليها بواسطة وزن كتلة الصخور التي تعلوها أو بواسطة الضغوط الجانبية الناتجة عن تحرك ألواح الغلاف الصخري للأرض في اتجاه التصادم والتضاغط , أو في اتجاه الشد والتباعد , مما ينتج عنه العديد من البنيات الأرضية من مثل خطوط التصدع , والفواصل والتشققات الأرضية التي تؤدي إلي تفجر الماء المخزون تحت سطح الأرض .

وفي حالة الضغوط الداخلية فإن ذلك يتم بواسطة الموائع المختزنة في الحجارة (من مثل الماء , أو النفط , أو الغاز) .

وكل نوع من هذين النوعين من إجهاد الأحجار قد يكون قويا أو ضعيفا , وقد يكون سريعا

أو بطيئًا , وقد يكون في اتجاه واحد أو في أكثر من اتجاه , والنتيجة النهائية تعتمد علي شدة ذلك الإجهاد , وعلي نوع الحجارة , وعلي الظروف المحيطة بها من الضغط ودرجة الحرارة , وتتمثل في استجابة الحجارة للإجهاد بتغيرات ملحوظة في الحجم والهيئة قد تنتهي بتقليل قسوتها وتكييفها بتصدعها , أو بتشققها وتكسرها , وحينئذ يفيض الماء منها .

وكل من الجبال والمرتفعات الناتجة عن العمليات الأرضية المختلفة يتم بريها بواسطة عمليات

التعرية المختلفة ومنها النحر الرأسي للمجاري المائية , وتكوين المساقط والشرف النهرية والقنوات العميقة التي تعين علي تفجير الماء المخزون تحت سطح الأرض .

رابعا : الخصائص المائية للحجارة ودورها في تليين قسوتها :

ينزل علي الأرض سنويا ما مجموعه 380.000 كيلو متر مكعب من ماء المطر , الذي يتبخر أصلا من بحارها ومحيطاتها , ومن المسطحات والمجاري المائية علي اليابسة , ومن الأنشطة الحياتية المختلفة كنتح النباتات وتنفس وإخراج كل من الإنسان والحيوان .

ويتسرب جزء من ماء المطر إلي ما تحت سطح الأرض عن طريق كل من التربة , والطبقات

المسامية , والحجارة والصخور الممزقة المنفذة للماء .

ويتحرك الماء المتجه إلي ما تحت سطح الأرض أولا في الاتجاه الرأسي بفعل الجاذبية حتي يصل إلي المخزون المائي , ثم يتبع ميل الطبقات المنفذة الحاملة للماء إذا كانت مائلة حتي يظهر الماء علي سطح الأرض مرة أخري علي هيئة تدفق مائي بشكل من الأشكال التي منها العيون والينابيع , والمجاري المائية المختلفة , والبرك , والبحيرات , والرطوبة الأرضية .

ويعتمد ذلك أساسا علي معدل سقوط الأمطار (أو انصهار الجليد في المناطق المكسوة بالجليد) , وعلي نوعية كل من التربة والصخور السطحية , وعلي حجم الكساء الخضري في المنطقة , وعلي معدلات البخر , وعلي غير ذلك من عوامل .

وذلك لأن أكثر من ثلث ماء المطر النازل علي مناطق الكساء الخضري يقع علي أوراق الأشجار فيتعرض للبخر قبل أن يصل إلي سطح الأرض , ويصل نحو الربع إلي سطح الأرض ولكنه إما يتبخر , أو يحتبس علي هيئة بحيرة داخلية أو سمك من الجليد , أو يتحرك علي هيئة مجري مائي يفيض في النهاية إلي البحار والمحيطات , وباقي ماء المطر يتسرب إلي ما تحت سطح الأرض إذا كانت نوعية كل من التربة والحجارة المكونة لسطح الأرض تسمح بذلك , وتلعب جذور النباتات دورا مهما في المساعدة علي تشقق كل

من التربة والحجارة السطحية , وبالتالي تزيد من قدرتها علي خزن الماء .

كذلك تلعب تضاريس سطح الأرض دورا مهما في خزن الماء تحته , فكلما كانت التضاريس لطيفة الانحدار سمح ذلك ببقاء ماء المطر لفترة أطول فوق سطح أرض المنطقة مما يساعد علي تشبع كل من التربة وأحجار سطح الأرض بماء المطر , وعلي العكس من ذلك فإنه كلما زاد انحدار سطح الأرض قلت الفرص لتحقيق ذلك .

ويتحرك الماء المخزون تحت سطح الأرض بفعل الجاذبية من المناطق المرتفعة إلي المنخفضات من الأرض تماما كما يجري الماء في مختلف مجاريه السطحية , إلا أن الماء المخزون تحت سطح الأرض يتأثر بفروق الضغط الداخلي عليه من وزن كم الماء الذي يعلوه , ومن ضغوط الصخور المحيطة به , وبزيادة تلك الضغوط قد يتحرك هذا الماء ضد الجاذبية فيفيض مكونا عددا من العيون أو الينابيع أو البحيرات في مستويات عليا من الأرض , أو يتحرك ليغذي الأنهار . وعلي ذلك فإن تحرك الماء تحت سطح الأرض تحكمه قوانين الجاذبية بين نقطتين مختلفتين في المنسوب , وقوانين الأواني المستطرقة بين نقطتين بينهما فارق كبير في الضغط .

وفي صخور متوسطة النفاذية يتحرك الماء المخزون تحت سطح الأرض ببطء شديد يتراوح بين نصف السنتيمتر والسنتيمتر ونصف في اليوم الكامل , ويرتفع ذلك إلي مائة متر في

اليوم وسط صخور عالية المسامية و النفاذية من مثل الحصي والبازلت الممزق بالشروخ والشقوق , وقد تتدني حركة الماء وسط الصخور المتبلورة إلي عشرات قليلة من السنتيمترات في السنة , بينما تبلغ سرعة تحرك الماء الجاري علي سطح الأرض إلي مترين في الثانية الواحدة , وذلك في أبطأ المجاري المائية المعروفة .

وبطء حركة الماء المخزون تحت سطح الأرض يمثل صورة من صور الحكمة الإلهية في إبداع الخلق , وذلك لكي يبقي هذا الماء المخزون لأطول مدة ممكنة في المنطقة التي خزن فيها (تصل إلي عشرات الآلاف من السنين) لأنه خزن في

وقت كان المطر فيه غزيرا , وكانت المجاري المائية السطحية كافية لسد حاجات السكان , وبعد تغير المناخ , وندرة المطر , يبقي المخزون من الماء تحت سطح الأرض هو مصدر الماء الرئيسي لساكني المنطقة , وبتغير المناطق المناخية يبقي المخزون المائي تحت سطح الأرض شاهدا لله (تعالي) بتدبير أمر الكون بعلمه وحكمته وقدرته أبلغ تدبير , وبأعظم تقدير , فسبحان الذي خزنه حتي آن الأوان لاستخدامه . . . ! !

خامسا : تباين الصفات المائية لتربة الأرض ولحجارتها وصخورها :

تتباين الصفات المائية لتربة الأرض ولحجارتها بتباين صفاتها الطبيعية , والكيميائية , والميكانيكية , ومنها المسامية والنفاذية , والصفات الشعرية , وقدرة حبيباتها علي الاحتفاظ بالماء حول كل حبة منها علي هيئة أغشية تحيط بها , وقدرة كل منها علي التوصيل الحراري , والكهربي , وعلي توصيل الموجات الصوتية , والاهتزازية , وعلي احتواء نسب معينة من الأملاح القابلة للذوبان في الماء أو التفاعل معه , ومنها درجة اللدونة أو المرونة

(Plasticity),

والقدرة علي الانتفاخ

(InfiationCapacity),

وعلي التشرب بالماء

(SoakingCapacity),

وعلي الانكماش

(Shrinkagecapacity),

وعلي الهبوط

(SutbsidenceCapacity) .

فالحجارة الصلصالية علي سبيل المثال يتغير شكلها بتغير كمية الماء المقيد فيها , لأنها

تتحول من صخور صلبة أو شبه صلبة إلي الحالة المائعة تماما بزيادة كمية الماء فيها , وبذلك يمكن الحكم علي إمكان مقاومتها للأحمال الخارجية , وعلي قدرتها علي الثبات فوق المنحدرات أو هبوطها منها .

وبتمدد المسام الدقيقة للحجر بعد تشربه بالماء يمكن أن ينتفخ حجمه وأن يتغير شكله , فإذا سحب منه الماء انكمش , وتصاحب عملية الانكماش في الحجم عادة بتشقق الحجارة وانفلاقها فيخرج منها الماء إذا كانت خازنة له بكميات كبيرة .

وتتباين تربة الأرض وحجارتها كذلك في قدرتها علي

(125/56)

الانتفاخ بالماء والانكماش بفقده تباينا كبيرا ; كما تتباين في قابليتها للهبوط بتأثير وزنها الذاتي , ويزيد ذلك بصورة ملحوظة كلما دقت حبيبات الحجر أو التربة , وزادت فيها نسب تجانسها , ومساميتها , وخاصيتها الشعرية , والأملاح القابلة للذوبان في الماء .

ويشاهد هبوط كل من التربة والحجارة المكونة لسطح الأرض بصفة خاصة في المناطق التي يضخ من مخزونها المائي تحت سطح الأرض بكميات مبالغ فيها , كما هو الحال في حوض لندن الذي يهبط بمعدل يتراوح بين ربع ونصف المتر في السنة , وأرض المكسيك التي وصل

الهبوط فيها إلي أكثر من عشرة أمتار خلال السنوات القليلة الماضية .

سادسا : تباين زاوية الانحدار للتربة أو للحجارة :

تعتبر قيمة زاوية الانحدار الطبيعي للتربة أو للحجارة المكونة لسطح الأرض عاملا أساسيا لثباتها فوق المنحدرات , ولكل نوع منها زاوية انحدار قصوي إذا تعدتها فإنها تنهار فورا , وتعتمد قيمة هذه الزاوية علي نوع التربة أو الحجارة , وعلي تركيبها الكيميائي والمعدني والميكانيكي , وعلي درجة تشبعها بالماء . وتقل قيمة هذه الزاوية بزيادة كل من الرطوبة , وكمية الماء المخزون . وإذا وصل أي جزء من التربة أو الحجر إلي زاوية انحداره فإنه ينهار في الحال هابطا من أعلي مناسيب سفوح الجبال إلي أخفض مستوياتها .

ويلعب الماء المخزون في تربة وحجارة وصخور الأرض دورا مهما في انهيارها وهبوطها بالكامل .

سابعا : أنواع الماء المخزون تحت سطح الأرض :

يقسم الماء المخزون تحت سطح الأرض من أعلي إلي أسفل إلي النطق التالية :

(1) نطاق الارتشاح

(VadoseWaterZone) :

وهو نطاق سطحي رقيق يتراوح سمكه بين نصف متر وعشرة أمتار , ويتسرب عبره كل من الماء السطحي وماء المطر إلي المخزون المائي تحت سطح الأرض , والماء فيه طليق ,

ولكنه غير ثابت فيظهر في مواسم الأمطار والفيضانات والرشح الشديد , ويختفي في مواسم

الجفاف , والجزء الأكبر من مسام هذا النطاق مشغول بالهواء , ولذا يعرف باسم نطاق التهوية (AeriationZone) .

(2) نطاق الماء الشعري

(CapillaryWaterZone) :

ويوجد بين نطاق الارتشاح إلي أعلي , ونطاق التشبع إلي أسفل , وتمتلئ مساماته الشعرية الدقيقة بالماء , والكبيرة بالهواء .

(3) نطاق التشبع

(SaturationZone) :

ويتكون عادة من الحجارة , عالية المسامية والنفاذية أو عالية التشقق , وفيها يكون الماء حرا غير حبيس , ولكنه قد يكون محصورا حصرا محليا (أي في أجزاء من الخزان) , ويمتاز النظام المائي هنا بأنه مرتبط ارتباطا وثيقا بمستويات الأحواض والمجاري المائية

المفتوحة , من مثل الأنهار , والبحيرات والمستنقعات , وموصول بالعوامل الجوية المحيطة به , وتوجد أسفل نطاق التشبع عادة صخور غير منفذة أو ضعيفة النفاذية للماء تعرف باسم الصخور الصادة للماء , وهي حجارة تقل نفاذيتها مئات إلي آلاف المرات عن نفاذية الحجارة الحاملة للماء , وذلك لأنه لا يوجد في حجارة الأرض وصخورها وتربتها ما تنعدم فيه النفاذية انعداما تاما .

وتتم تغذية مخزون الماء في نطاق التشبع من كل من الأمطار , والأنهار , وغيرها من المجاري والمسطحات المائية العذبة علي سطح اليابسة , وقد يتكون النهر ابتداء من تفجر الماء من نطاق التشبع , وفي هذه الحالة يقع الخزان المائي في مسار مجري النهر قريبا من منابعه , وكما يعطي نطاق التشبع الماء للنهر , فإنه قد يتغذي من مائه , فيصل معدل التغير في مستوي الماء المخزون بين ثلاثة وأربعة أمتار في فترة فيضان الأنهار الكبيرة الجارية بالقرب من الخزان المائي والماء في نطاق التشبع يتغير تركيبه الكيميائي , وكمياته , ومعدلات تدفقه مع الزمن .

(4) الماء الارتوازي

(ArtesianWater) :

وهو ماء حبيس , محصور , يوجد علي أعماق كبيرة نسبيا في صخور ذات أعمار متباينة , عالية المسامية والنفاذية ,

أو شديدة التشقق , ومحفوظة بين نطاقين من الصخور الصادة للماء , وهذه إما يحفر عليها , أو تظهرها الحركات الأرضية علي هيئة أعداد من العيون والينابيع , وقد تتفجر منها الأنهار كذلك , وكلها حقائق لم تصل إليها العلوم المكتسبة إلا في نهاية القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين , ولم تكتمل معرفة الإنسان بها إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين .

من جوانب الإعجاز العلمي في الآية الكريمة

هكذا يتضح لنا جانب من جوانب الإعجاز العلمي والنفسي في هذا النص القرآن المعجز , وتتضح روعة التعبير فيه بهذه الدقة العلمية الفائقة , والشمول للحقائق الكونية والإحاطة بها , والتشخيص لدخائل النفس اليهودية المريضة وقسوة قلوب أصحابها وذلك بقول الحق (تبارك وتعالي) مخاطبا هذه الشرذمة الظالمة الباغية , والمجرمة المعتدية من اليهود القدامي , والمتهودين الجدد :

ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة , وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار , وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء , وإن منها لما يهبط من خشية الله وما الله

بغافل عما تعملون

(البقرة : 74) .

وذلك لأن الحجارة الخازنة للماء قد تتفجر منها الأنهار بفعل الضغوط الداخلية الهائلة عليها , ومنها ضغط الماء المخزون فيها , أو بفعل الضغوط الخارجية عليها , أو بهما معا , ومن أهم الضغوط الخارجية ما يحدثه تحرك ألواح الغلاف الصخري للأرض .

وقد تتشقق تلك الحجارة فيخرج منها الماء علي هيئة الينابيع , والعيون , والنافورات الطبيعية , والآبار الارتوازية , وقد تنهار تلك الحجارة من قمم الجبال وعلي سفوحها هابطة من خشية الله القائل : تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا .

(الإسراء : 44) .

أما قلوب شياطين الإنس من اليهود القدامي والمتهودين الجدد , وقد طبعت علي الكفر

والإلحاد والشرك , وعلي كراهية الخلق , والحقد عليهم , وعلي تحريف الدين وتزييف الحقائق , وعلي الغرور الكاذب , والعلوية المصطنعة فإنها لم تلن ولن تلين أبدا . . . ! !

وليس أدل علي ذلك من ممارساتهم الوحشية علي أرض فلسطين التي اغتصبوها بمؤامرة دولية خسيسة , وظلوا ينكلون بشعبها الأعزل علي مدي قرن من الزمان أو يزيد , في قسوة وهمجية لم يعرف لهما التاريخ مثيلا . . . ! !

ولن يفلت هؤلاء المجرمون السفاحون القتلة واللصوص من العقاب في الدنيا قبل الآخرة , فالأيام دول , وكما تدين تدان . . . ! ! ولابد من إزالة كيانهم الغاصب إن عاجلا أو آجلا . . . ! ! ولن تبق أمريكا حامية لظلمهم وجورهم أبد الدهر , فقد بدأ نجمها في الأفول , وسوف تنهار بأسرع مما انهار به الاتحاد السوفيتي إن شاء الله (تعالي) , وقلوب الملايين من الخلق تدعو عليهم ليل نهار , ولعل الله (تعالي) أن يرينا فيهم يوما كيوم عاد وثمود , وفي ربيبتهم الفاجرة الغادرة التي تسمت زورا باسم نبي من أنبياء الله (هو يعقوب أو إسرائيل) عليه السلام , والله وأنبياؤه جميعا أبرياء منهم ومن جرائمهم التي سوف يلقون الجزاء عليها . . وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون . . والله غالب علي أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون . . . ! !

ونحن نستقرئ ذلك كله من هذا النص القرآني الموجز المعجز من سورة البقرة الذي يشهد لكل ذي بصيرة بأن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق , وأن النبي الخاتم الذي تلقاه كان موصولا بالوحي , ومعلما من قبل خالق السماوات والأرض , فصلي الله وسلم وبارك

عليه , وعلي آله وصحبه , ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلي يوم الدين . . والحمد لله رب العالمين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الإعجاز العلمى للقرآن / للدكتور زغلول النجار ﴾

(129/56)

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (67) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ (68) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ (69) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (70) قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ (71) وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (72) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (73) ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا

يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (74)

﴿

التفسير : عن ابن عباس أن رجلاً من بني إسرائيل قتل قريباً له لكي يرثه ثم رماه في مجمع الطريق ثم شكا ذلك إلى موسى عليه السلام ، فاجتهد موسى في تعرف القاتل .

(130/56)

فلما لم يظهر قالوا له : سل لنا ربك حتى يبينه ، فسأله فأوحى الله إليه إن الله يأمرهم أن يذبحوا بقرة . فعجبوا من ذلك فشددوا على أنفسهم بالاستفهام حالاً بعد حال ، واستقصوا في طلب الوصف ، فلما تعين لم يجدوها بذلك النعت إلا عند يتيم . وذلك أنه كان في بني إسرائيل شيخ صالح له عجلة فأتى بها الغيضة وقال : اللهم إني أستودعكها لابني حتى يكبر ، وكان براً بوالديه ، فشبت وكانت من أحسن البقر وأسمنه ، فساوموها اليتيم وأمه حتى اشتروها بملء مسكها ذهباً ، وكانت البقرة إذ ذاك بثلاثة دنانير ، وكانوا طلبوا البقرة الموصوفة أربعين سنة فذبحوها ، وأمر موسى عليه السلام أن يأخذوا عضواً منها فيضربوا به القتيل فصار المقتول حياً وسمى لهم قاتله وهو الذي ابتدأ بالشكاية فقتلوه قوداً . واعلم أن تأخير البيان عن وقت الحاجة ممتنع بالاتفاق إلا عند مجوّز تكليف ما لا

يطاق ، وأما تأخيره إلى وقت الحاجة فمختلف فيه ، فالمجوزون استدلوا بالآية قالوا : أمروا بذبح بقرة معينة بدليل تعيينها بسؤالهم آخراً ، وبدليل أنه لم يؤمر بتجدد بل المأمور به في الثانية هو المأمور به في الأولى بالاتفاق ، وبدليل المطابقة لما ذبح .

(131/56)

والمانعون قالوا : معناه اذبحوا أية بقرة شئتم بدليل تنكير بقرة ، وهو ظاهر في أن المراد بقرة غير معينة ، وبدليل أن ابن عباس قال : لو ذبحوا بقرة ما لأجزأهم ، ولكنهم شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم ، وبدليل التعنيف في قوله ﴿ وما كادوا يفعلون ﴾ ولو كانت معينة لما استحقوا التعنيف على السؤال . وأجيب بأن ترك الظاهر يجوز لموجب راجح ، وما نقل عن ابن عباس خبر الواحد ، والتعنيف يجوز أن يكون لتفريطهم في الامتثال بعد حصول البيان التام . ويتفرع على قول المانعين أن التكليف يكون متغايراً فكلفوا في الأول أيّ بقرة كانت ، وثانياً أن تكون لا فارضاً ولا بكراً بل عواناً ، فلما لم يفعلوا ذلك كلفوا أن تكون صفراء ، فلما لم يفعلوا كلفوا أن تكون لا ذلولاً تثير الأرض ولا تسقي الحرث . ثم اختلف القائلون بهذا المذهب . منهم من قال في التكليف الواقع أخيراً يجب أن يكون مستوفياً كل صفة تقدمت حتى تكون البقرة مع الصفة الأخيرة لا فارضاً ولا بكراً وصفراء فاقعاً لونها

. ومنهم من يقول : إنما يجب كونها بالصفة الأخيرة فقط ، وهذا أشبه بظاهر الكلام إذا كان تكليفاً بعد تكليف ، وإن كان الأول أشبه بالروايات وبطريقة التشديد عليهم عند ترك الامتثال . وإذا ثبت أن البيان لا يتأخر وأنه تكليف بعد تكليف ، دل على أن الأسهل قد ينسخ بالأشق ، فإن المربي لولده قد يأمره بالسهل اختباراً ، فإذا امتنع الولد منه فقد يرى المصلحة في أن يأمره بالصعب . ويدل أيضاً على جواز النسخ قبل الفعل وإن لم يجز قبل وقت الفعل وإمكانه لأدائه إلى البداء ، ويدل على وقوع النسخ في شرع موسى عليه السلام ، ويدل أيضاً على أن الزيادة في الخطاب نسخ له .

(132/56)

﴿ أتتخذنا هزواً ﴾ استفهام بطريقة الإنكار ، معناه لا تجعلنا مكان هزء أو أهل هزء أو مهزوءاً بنا ، أو الهزء نفسه لفرط الاستهزاء . كان القوم ظنوا أنه يداعبهم لأنه من المحتمل أن موسى عليه السلام أمرهم بذبح البقرة ، وما أعلمهم أنهم إذا ذبحوا البقرة وضربوا القتيل ببعضها صار حياً ، فلا جرم وقع هذا القول منهم موقع الهزء . ويحتمل أنه وإن كان قد تبين لهم كيفية الحال إلا أنهم تعجبوا من أن القتيل كيف يحيا بأن يضرب ببعض أجزاء البقرة . واختلف العلماء ههنا فعن بعضهم تكفيرهم بهذا القول لأنهم إن شكوا في قدرة الله تعالى

على إحياء الموتى فقد كفروا ، وإن شكوا في أن الذي أمرهم به موسى عليه السلام هل هو بأمر الله فقد جوزوا الخيانة على موسى عليه السلام في الوحي ، وذلك أيضاً كفر . وعن آخرين أنه لا يوجب الكفر لأن المداعبة على الأنبياء جائزة ، فلعلهم ظنوا أنه يداعبهم مداعبة حقة ، أو المراد ما أعجب هذا الجواب كأنك تستهزئ بنا لا أنهم حققوا على موسى الاستهزاء ﴿ من الجاهلين ﴾ إطلاقاً لاسم السبب على المسبب ، فإن الاشتغال بالاستهزاء لا يكون إلا بسبب الجهل ، ومنصب النبوّة يجل عن ذلك كما يقول الرجل عند مثل ذلك : أعوذ بالله من عدم العقل وغلبة الهوى ، أو أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين لما في الاستهزاء من نقصان الدين والعقاب الشديد .

(133/56)

وقيل : نفس الهزء قد يسمى جهلاً ، فإن الجهل ضد الحلم ، كما أنه ضد العلم . ثم إن قيل : إن المأمور بذبحه بقرة معينة في نفسها غير مبينة التعيين حسن موقع سؤالهم ، لأن المأمور به لما كان مجملاً حسن الاستفسار والاستعلام . أما على قول القائل إنها للعموم فلا بد من بيان أنه ما الذي حملهم على هذا الاستفسار فذكروا وجوهاً أحدها : أنه لما أخبرهم بشأن البقرة تعجبوا وظنوا أن البقرة التي لها مثل هذه الخاصية لا تكون إلا بقرة معينة ، فلا

جرم استقصوا في السؤال عن وصفها كعصا موسى المخصوصة من سائر العصي بتلك الخواص ، إلا أن القوم كانوا مخطئين في ذلك لأن هذه الآية العجيبة لا تكون خاصية البقرة ، بل كانت معجزة يظهرها الله على يد موسى ، أو لعل القوم أرادوا قتل أي بقرة كانت إلا أن القاتل خاف من الفضيحة فألقى شبهة في البين وقال : المأمور به بقرة معينة لا مطلق البقرة ، فلما وقعت المنازعة رجعوا إلى موسى ، أو الخطاب وإن أفاد العموم إلا أن القوم أرادوا الاحتياط فسألوا مزيد البيان وإزالة الاحتمال ، إلا أن المصلحة تغيرت واقتضت الأمر بذبح البقرة المعينة . فإن قيل : السؤال بما هو لطلب الحقيقة والحقيقة لا تعلم إلا بأجزائها ومقوماتها لا بصفاتها الخارجة ، فالجواب بالأوصاف الخارجة لا يكون مطابقاً للسؤال . قلنا : من البين أن مقصودهم من قولهم " ما البقرة " ليس طلب ماهيتها النوعية فإن ذلك كالمفروغ منه عندهم ، وإنما وقع السؤال عن المشخصات . فالظاهر يقتضي أن يقال : أي بقرة هي ؟ فإن مطلب " أي " السؤال عن الصفات الذاتية والخواص . فسبب العدول إما إقامة الحقيقة الشخصية مقام الحقيقة النوعية فإن الشخص من حيث هو شخص حقيقة أيضاً قد يطلب تصورها ، وإما لأنهم تصوروا أن البقرة التي لها هذه الخاصية العجيبة حقيقتها مغايرة لحقيقة سائر البقرات وإن كانت صورتها موافقة لصورتها ، وإما لأن السؤال عن الجزئيات كزيد وعمرو إنما يكون ب " من "

إذا كان طلباً للعوارض ، وههنا الجزئي غير ذي عقل فناسب أن يقام ما مقام " من " .

الفارض المسنة ، وقد فرضت فروضاً فهي فارض كطالق كأنها فرضت سنها أي قطعتها وبلغت آخرها . والبكر الفتية ، وكان الأظهر أنها التي لم تلد كما في الإنسان .

والعوان النصف قال :

نواعم بين أبكار وعون . . . . وقد غونت وقال :

فإن أتوك وقالوا إنها نصف . . . فإن أطيب نصفيها الذي ذهبا

(135/56)

وقد يستدل من هذا على جواز الاجتهاد واستعمال غلبة الظن في الأحكام إذ لا يعلم أنها بين الفارض والبكر إلا بطريق الاجتهاد . وإنما جاز دخول " بين " على لفظة " ذلك " مع أنه لا يدخل إلا على متعدد ، لأنها في معنى شيئين حيث وقع مشاراً به إلى ما ذكر من الفارض والبكر . وإنما أشير بذلك إلى مؤنثين وهو للإشارة إلى واحد مذكر على تأويل ما ذكر وما تقدم للاختصار في الكلام ﴿ ما تؤمرون ﴾ مثل : أمرتك الخير فافعل ما أمرت به . بمعنى ما تؤمرون به ، أو أمركم بمعنى مأموركم تسمية المفعول بالمصدر كضرب الأمير ، ولما بين لهم

كمال حالها في السن شرعوا في تعرف حال اللون . والفقوع أشد ما يكون من الصفرة . يقال في التوكيد أصفر فاقع مثل أسود حالك ، وأحمر قانئ ، وارتفع اللون على أنه فاعل سببي لفاقع . والفرق بين قولك " صفراء فاقعة " و " صفراء فاقع لونها " أن في الثاني تأكيداً ليس في الأول ، لأن اللون اسم للهيئة وهي الصفرة فكأنه قيل : شديد الصفرة صفرتها مثل جد جده ، وجنونه مجنون . وعن وهب : إذا نظرت إليها خيل إليك أن شعاع الشمس يخرج من جلدها . والسرور حالة نفسانية تعرض عند اعتقاد أو علم أو ظن بحصول شيء لذيذ أو نافع . وعن علي عليه السلام : من لبس نعلاً صفراء قل همه لقوله ﴿ سر الناظرين ﴾ وعن الحسن البصري : صفراء فاقع لونها سوداء شديدة السواد ، ولعله مستعار من صفة الإبل لأن سوادها يعلوه صفرة وبه فسر قوله تعالى ﴿ جمالات صفر ﴾ [المرسلات : 33] ﴿ إن البقر تشابه علينا ﴾ لأن البقر الموصوف بالتعوين والصفرة كثير ﴿ وإنا إن شاء الله لمهتدون ﴾ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال " والذي نفس محمد بيده لو لم يقولوا إن شاء الله لحيل بينهم وبينها أبداً " وفيه دليل على أن الاستثناء مندوب في كل عمل صالح يراد تحصيله ، ففيه استعانة بالله وتفويض للأمر إليه ، والاعتراف بقدرته ونفاذ مشيئته الأزلية وإرادته السرمدية ، ما شاء الله كان

وما لم يشاء لم يكن . والمعنى إنا بمشيئة الله نهتدي للبقرة المأمور بذبحها عند تحصيلنا أوصافها التي بها تمتاز عما عداها ، أو إنا إن شاء الله على هدى في استقصاء السؤال أي نرجو أنا لسنا على ضلالة فيما نفعله من هذا البحث ، أو إنا إن شاء الله تعريفنا إياها بالزيادة لنا في البيان نهتدي لها ، أو إنا إن شاء الله نهتدي للقاتل ﴿ لا ذلول ﴾ صفة لبقرة مثل لا فارض أي بقرة غير ذلول لم تذلل للكراب وإثارة الأرض ، ولا هي من النواضح التي يسنى عليها لسقي الحرث .

(137/56)

" لا " الأولى للنفي والثانية مزيدة للتوكيد ، لأن المعنى لا ذلول تثير وتسقي ، على أن الفعلين صفتان لذلول كأنه قيل : لا ذلول مثيرة وساقية . والذل بالكسر اللين ضد الصعوبة ، ودابة ذلول بينة الذل " فعول " بمعنى " فاعل " ، ولهذا استوى فيه المذكر والمؤنث . تقول : رجل صبور وامرأة صبور ﴿ مسلمة ﴾ سلمها الله تعالى من العيوب مطلقاً ، أو معفاة من العلم وحشية مرسلة عن الحبس ، أو مخلسة اللون لم يشب صفرتها شيء من الألوان . وعلى هذا يكون ﴿ لا شية فيها ﴾ كالبيان . والشية كل لون يخالف معظم لون الفرس وغيره أي

لا لون فيها يخالف سائر لونها فهي صفراء كلها حتى قرنها وظلفها ، وهي في الأصل مصدر " وشاة " إذا خلط بلونه لوناً آخر ، أصلها وشية حذف فاؤها كما هو " عدة " و " زنة " ﴿ الآن ﴾ اسم للوقت الذي أنت فيه وهو ظرف غير متمكن وقع معرفة ، وليس الألف واللام فيه للتعريف لأنه ليس له ما يشركه وهو يائي ﴿ جئت بالحق ﴾ أي بحقيقة وصف البقرة أو ما بقي إشكال في أمرها فحصلوا البقرة الجامعة لهذه الأوصاف ﴿ فذبحوها ﴾ والذبح هو قطع أعلى العنق وهو المستحب في الغنم والبقر . والنحر هو قطع اللبة أسفل العنق وهو المستحب في الإبل . والمرعي في الحالتين قطع الحلقوم والمرئ لكن عنق الإبل طويل ، فإذا قطع أعلاه تباطأ الزهوق . ولا يكره الذبح في الإبل والنحر في البقر والغنم وإن كان خلاف المستحب ﴿ وما كادوا يفعلون ﴾ استبطاء لهم ، وأنهم لكثرة استكشافهم ما كاد ينقطع خيط أشباههم . وقيل : وما كادوا يذبحونها لغلاء ثمنها . وقيل : لخوف الفضيحة في ظهور القاتل . وقد يستدل بهذا على أن الأمر للوجوب بل للفور وإلا لما ترتب هذا الذم على تثاقلهم ﴿ وإذ قتلتم نفساً ﴾ خوطبت الجماعة لوجود القتل فيهم ﴿ فادارأتم فيها ﴾ فاختلفتم واختصمتم في شأنها لأن المتخاصمين يدرأ بعضهم بعضاً أي يدفعه ويزحمه ، أو ينفي كل واحد منكم القتل عن نفسه ويضيفه إلى غيره أو يدفع

بعضكم بعضاً عن البراءة ويتهمه . وأصله تدارأتم أدغمت التاء في الدال فاحتيج إلى همزة الوصل ، ويحتمل أن يرجع الضمير في " فيها " إلى القتلة المعلومة من قتلتم ﴿ والله مخرج ﴾ مظهر لا محالة ما كتمتم من أمر القتيل . وقد حكي ما كان مستقبلاً في وقت التدارؤ كما حكي الحاضر في قوله ﴿ وكلبهم باسط ذراعيه ﴾ [الكهف : 18] فلهذا صح عمل اسم الفاعل . وهذه الجملة معترضة ، وفيها دليل على جواز عموم النص الوارد على السبب الخاص ، لأن هذا يتناول كل المكتومات . وفيها دليل على أن الله لا يحب الفساد ، وأنه سيجعل إلى زواله سبيلاً ، وأن ما يسّره العبد من خير أو شر ودام ذلك منه فالله سيظهره ، ويعضده قوله صلى الله عليه وسلم

(139/56)

" إن عبداً لو أطاع الله من وراء سبعين حجاباً لأظهر الله ذلك على ألسنة الناس " وكذلك المعصية والضمير في ﴿ اضربوه ﴾ عائد إلى النفس ، والتذكير على تأويل الشخص أو الإنسان ، ويحتمل أن يعود إلى القتيل بدلالة ﴿ قتلتم ﴾ أو ﴿ ما كنتم تكتمون ﴾ واختلف في البعض من البقرة فقيل لسانها ، وقيل : فخذها اليمنى ، وقيل : عجبها ، وقيل

: العظم الذي يلي الغضروف وهو أصل الأذن ، وقيل : الأذن ، وقيل : البضعة من بين الكتفين ، والظاهر أنهم كانوا مخيرين بين أيّ بعض أرادوا ، وههنا محذوف بدلالة الفاء الفصيحة والمعنى فضربوه فحيي فقلنا كذلك يحيي الله الموتى . روي أنهم لما ضربوه قام بإذن الله وأوداجه تشخب دماً وقال : قتلني فلان وفلان – وهما ابنا عمه – ثم سقط ميتاً فأخذا وقتلا ولم يورّث قاتل بعد ذلك ، ويؤيده قوله نبينا صلى الله عليه وسلم " ليس للقاتل من الميراث شيء " والسر فيه أنه استعجل الميراث فناسب أن يعارض بنقيض مقصوده وهو قول الشافعي . ولم يفرق بين أن يكون القتل مستحقاً كالعادل إذا قتل الباغي ، أو غير مستحق عمداً كان أو خطأ . وعند أبي حنيفة لا يرث في العمد والخطأ إلا أن العادل إذا قتل الباغي فإنه يرثه . وقال مالك : لا يرثه من ديته ويرثه من سائر أمواله . ومحل ﴿ كذلك ﴾ نصب على المصدر أي يحيي الله الموتى مثل ذلك الإحياء . وهذا الكلام إما مع الذين حضروا حياة القتيل لأنهم وإن كانوا مؤمنين بذلك إلا أنهم لم يؤمنوا بذلك من طريق العيان والمشاهدة ، وشتان بين عين اليقين وعلم اليقين . وإما أن يكون مع منكري البعث في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وعلى هذا لا يحتاج إلى تقدير " فقلنا " بعد تقدير " فضربوه فحيي " ﴿ ويريكم آياته ﴾ دلائله على أنه قادر على كل شيء . فدلالة هذه القصة على وجود الصانع القادر على كل المقدورات العالم بكل المعلومات المختار في الإيجاد والإعدام آية ، ودلالتها على صدق موسى عليه السلام آية ،

ودلالتها على براءة ساحة من سوى القاتل آية ، ودلالتها على حشر الأموات آية ، فهي وإن كانت واحدة إلا أنها في الحقيقة آيات عدة . ويمكن أن يراد بالآيات غير هذه أي مثل هذه الإراءة يريكم سائر الإرا آت ، كما أن مثل هذا الإحياء يحيي سائر الأموات . وفي قوله ﴿ كذلك ﴾ دون أن يقال كهذا تعظيم للمشار إليه بتبعيده كما قلنا في ﴿ ذلك الكتاب ﴾ ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ تعملون على قضية عقولكم ، فإن من قدر على إحياء نفس واحدة قدر على إحياء الأنفس كلها إذ لا أثر للمخصصات في ذلك . فإن قيل : ما الفائدة في ضرب المقتول ببعض البقرة مع أنه قادر على إحيائه ابتداء ؟ قلنا : الفائدة فيه كون الحجة آكد وعن الحيلة أبعد ، فقد كان يجوز لملحد أن يتوهم أن موسى عليه السلام إنما أحياه بضرب من السحر ، وليعلم بما أمر من مس الميت بالميت وحصول الحياة عقيبه ، أن المؤثر هو المسبب لا الأسباب ، ولما في ذبح البقرة من القربان وأداء التكليف واكتساب الثواب والإشعار بحسن تقديم القربة على طلب الحوائج ، وما في التشديد عليهم لأجل تشديدهم من اللطف لهم وللآخرين في ترك التشديد والمسارعة إلى امتثال أوامر الله على الفور ونفع اليتيم بالتجارة الرابحة ، والدلالة على بركة البر بالأبوين والإشفاق على الأولاد ، وتجهيل

المستهزئ بما لا يعلم تأويله من كلام الحكيم ، وبيان أن من حق المتقرب به إلى الرب أن يكون من أحسن ما يتقرب به ، فتيّ السن حسن اللون بريئاً من العيوب ثميناً نفيساً " أسمنوا ضحاياكم فإنها على الصراط مطاياكم " فإن قيل : هلا قدم ذكر القتيل على الأمر بذبح البقرة كما هو حق القصة ؟ قلنا : لأنها كانت تكون حينئذ قصة واحدة ويذهب الغرض في ثنية التقريع بالاستهزاء وترك المبادرة بالامتثال أولاً ، وبقتل النفس المحرمة وما تبعه من الآية ثانياً ، على أنها دلت على اتحاد القصتين برجوع الضمير في ﴿ ببعضها ﴾ إلى البقرة وهي مذكورة في الأولى .

(141/56)

قوله ﴿ ثم قست قلوبكم ﴾ الآية . خطاب لأولئك اليهود الذين كانوا في زمن موسى ، أو للذين هم في زمن محمد صلى الله عليه وسلم من بعد ذلك الإحياء ، أو من بعد ذلك الذي عددنا من جميع الآيات الباهرات والمعجزات الظاهرات . ومعنى " ثم " استبعاد القسوة من بعد ما يوجب اللين والرقة . وصفة القلوب بالقسوة والغلظ مثل لنبوّها عن الاعتبار والاتعاظ فهي كالحجارة مثلها في القسوة ، أو هي أشد قسوة من الحجارة . فمن عرفها شبهها بالحجارة أو قال هي أقسى من الحجارة ، ويجوز أن يقدر مضاف أي هي كالحجارة

أو مثل أشد قسوة . فمن عرفها شبهها بالحجارة أو بجوهر أقسى من الحجارة كالحديد مثلاً . وإنما قيل : أشد قسوة مع إمكان بناء أفعل التفضيل من فعل القسوة ، لكونه أدل على فرط القسوة ، أو لأنه لم يقصد معنى الأقسى ولكن قصد وصف القسوة بالشدة كأنه قيل : اشتدت قسوة الحجارة وقلوبهم أشد قسوة منها ، وحذف هذا الراجع لعدم الالتباس نحو : زيد كريم وعمر أكرم . وكلمة " أو " ههنا ليست للشك ، فعلام الغيوب لا يشك في شيء ، وإنما هي للتخيير بأيهما شئت شبهت فكنت صدوقاً ، ولو جمعت بينهما جاز . ثم أخذ في بيان فضل قلوبهم على الحجارة في شدة القسوة فقال ﴿ وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار ﴾ أي إن منها للذي فيه خروق واسعة يتدفق منها الماء الغزير ، وإن منها للذي ينشق انشقاقاً طولاً أو عرضاً فينبع منه الماء وذلك بحسب كثرة المادة وقلتها ، فإن الأبخرة تجمع في باطن الأرض .

(142/56)

ثم إن كان ظاهر الأرض رخواً نفشت وانفصلت ، وإن كان صلباً حجرياً اجتمعت وصارت مياهاً ، ولا يزال يتواتر مددها إلى أن تنشق الأرض من مزاحمتها وتسيل أنهاراً أو عيوناً . وأما قلوب هؤلاء فلا تنشرح للحق ولا تتأثر من الوعظ والنصح بعد مشاهدة

الآيات ومعاينة الدلائل . ويشقق أصله يتشقق فأدغم التاء في الشين كقولهم " يذكر " في " يتذكر " ﴿ لما يهبط ﴾ للذي يتردى من أعلى الجبل وذلك من خشية الله ، إما لأنه تعالى خلق فيه الحياة والعقل والإدراك كما يروى من تسبيح الحصى في كف النبي صلى الله عليه وسلم ، وإما لأن الخشية مجاز عن انقيادها لأمر الله وأنها لا تمتنع عما يريد بها من الإهباط والانفصال عن كلها ، وقلوب هؤلاء لا تنقاد ولا تأتمر ، وقيل : أن يتزلزل من أجل أن تحصل خشية الله في قلوب عباده فيفزعون إليه بالتضرع والدعاء ﴿ وما الله بغافل عما تعملون ﴾ وعيد ، والمعنى أنه بالمرصاد لهؤلاء القاسية قلوبهم وحافظ لأعمالهم فيجازيهم في الدنيا والآخرة ﴿ فلا تعجل عليهم إنما نعد لهم عداً ﴾ [مريم : 84] ووصفه تعالى بأنه ليس بغافل لا يوهم جواز الغفلة عليه لأن نفي الصفة عن الشيء لا يستلزم ثبوت ضحتها مثل ﴿ لا تأخذه سنة ولا نوم ﴾ [البقرة : 255] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 1 صـ 307. 314 ﴾

(143/56)

فصل

قال الشيخ سيد قطب فى الآيات السابقة :

﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (40) ﴾

إلى قوله تعالى :

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (74) ﴾

ابتداء من هذا المقطع في السورة يواجه السياق بني إسرائيل ، أولئك الذين واجهوا الدعوة في المدينة مواجهة نكرة ؛ وقاوموها مقاومة خفية وظاهرة ؛ وكادوا لها كيداً موصولاً ، لم يفتر لحظة منذ أن ظهر الإسلام بالمدينة ؛ وتبين لهم أنه في طريقه إلى الهيمنة على مقاليدها ، وعزلهم من القيادة الأدبية والاقتصادية التي كانت لهم ، مذ وحد الأوس والخزرج ، وسد الثغرات التي كانت تنفذ منها يهود ، وشرع لهم منهجاً مستقلاً ، يقوم على أساس الكتاب الجديد . . هذه المعركة التي شنها اليهود على الإسلام والمسلمين منذ ذلك التاريخ البعيد ثم لم يخب أوارها حتى اللحظة الحاضرة ، بنفس الوسائل ، ونفس الأساليب ، لا يتغير إلا شكلها ؛ أما حقيقتها فباقية ، وأما طبيعتها فواحدة ، وذلك على الرغم من أن العالم كله كان يطاردهم من جهة إلى جهة ، ومن قرن إلى قرن ، فلا يجدون لهم صدراً حنوناً إلا في

العالم الإسلامي المفتوح، الذي ينكر الاضطهادات الدينية والعنصرية، ويفتح أبوابه لكل مسالم لا يؤذي الإسلام ولا يكيد للمسلمين!

(144/56)

ولقد كان المنتظر أن يكون اليهود في المدينة هم أول من يؤمن بالرسالة الجديدة ويؤمن للرسول الجديد؛ مذ كان القرآن يصدق ما جاء في التوراة في عمومه؛ ومذ كانوا هم يتوقعون رسالة هذا الرسول، وعندهم أوصافه في البشارات التي يتضمنها كتابهم؛ وهم كانوا يستفتحون به على العرب المشركين.

وهذا الدرس هو الشطر الأول من هذه الجولة الواسعة مع بني إسرائيل؛ بل هذه الحملة الشاملة لكشف موقفهم وفضح كيدهم؛ بعد استنفاد كل وسائل الدعوة معهم لترغيبهم في الإسلام، والانضمام إلى موكب الإيمان بالدين الجديد.

يبدأ هذا الدرس بنداء علوي جليل إلى بني إسرائيل، يذكرهم بنعمته - تعالى - عليهم ويدعوهم إلى الوفاء بعهدهم معه ليوفي بعهده معهم، وإلى تقواه وخشيته؛ يمهد بها لدعوتهم إلى الإيمان بما أنزله مصدقا لما معهم. ويندد بموقفهم منه، وكفرهم به أول من يكفر! كما يندد بتلبيسهم الحق بالباطل وكتمان الحق ليموهوا على الناس - وعلى المسلمين خاصة -

ويشيعوا الفتنة والبلبلة في الصف الإسلامي ، والشك والارتياب في نفوس الداخلين في الإسلام الجديد . ويأمرهم أن يدخلوا في الصف . فيقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ويركعوا مع الراكعين ، مستعينين على قهر نفوسهم وتطويعها للاندماج في الدين الجديد بالصبر والصلاة . وينكر عليهم أن يكونوا يدعون المشركين إلى الإيمان ، وهم في الوقت ذاته يأبون أن يدخلوا في دين الله مسلمين !

ثم يبدأ في تذكيرهم بنعم الله التي أسبغها عليهم في تاريخهم الطويل . مخاطباً الحاضرين منهم كما لو كانوا هم الذين تلقوا هذه النعم على عهد موسى – عليه السلام – وذلك باعتبار أنهم أمة واحدة متضامنة الأجيال ، متحدة الجبلة .

كما هم في حقيقة الأمر وفق ما بدا من صفاتهم ومواقفهم في جميع العصور !

ويعاود تخويفهم باليوم الذي يُخاف ، حيث لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ، ولا يقبل منها شفاعة ، ولا يؤخذ منها فدية ، ولا يجدون من ينصرهم ويعصمهم من العذاب .

(145/56)

ويستحضر أمام خيالهم مشهد نجاتهم من فرعون وملئه كأنه حاضر . ومشهد النعم الأخرى التي ظلت تتوالى عليهم من تظليل الغمام إلى المن والسلوى إلى تفجير الصخر

بالماء . . ثم يذكرهم بما كان منهم بعد ذلك من انحرافات متوالية ، ما يكاد يردهم عن واحدة منها حتى يعودوا إلى أخرى ، وما يكاد يعفو عنهم من معصية حتى يقعوا في خطيئة ، وما يكادون ينجون من عثرة حتى يقعوا في حفرة . . ونفوسهم هي هي في التوائها وعنادها وإصرارها على الالتواء والعناد ، كما أنها هي هي في ضعفها عن حمل التكاليف ، ونكولها عن الأمانة ، ونكثها للعهد ، ونقضها للمواثيق مع ربها ومع نبيها . . حتى لتبلغ أن تقتل أنبياءها بغير الحق ، وتكفر بآيات ربها ، وتعبد العجل وتجدف في حق الله فترفض الإيمان لنبيها حتى ترى الله جهرة ؛ وتخالف عما أوصاها به الله وهي تدخل القرية فتفعل وتقول غير ما أمرت به ؛ وتعتدي في السبت ، وتنسى ميثاق الطور ، وتماحل وتجادل في ذبح البقرة التي أمر الله بذبحها لحكمة خاصة . . .

وهذا كله مع الإدعاء العريض بأنها هي وحدها المهتدية ؛ وأن الله لا يرضى إلا عنها ، وأن جميع الأديان باطلة وجميع الأمم ضالة عداها ! مما يبطله القرآن في هذه الجولة ، ويقرر أن كل من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا من جميع الملل ، فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون . .

هذه الحملة – سواء ما ورد منها في هذا الدرس وما يلي منها في سياق السورة – كانت ضرورية أولاً وقبل كل شيء لتحطيم دعاوى يهود ، وكشف كيدها ، وبيان حقيقتها وحقيقة دوافعها في الدس للإسلام والمسلمين . كما كانت ضرورية لتفتيح عيون المسلمين

وقلوبهم لهذه الدسائس والمكايد التي توجه إلى مجتمعهم الجديد ، وإلى الأصول التي يقوم عليها ؛ كما توجه إلى وحدة الصف المسلم لخلخلته وإشاعة الفتنة فيه .

(146/56)

ومن جانب آخر كانت ضرورية لتحذير المسلمين من مزالق الطريق التي عثرت فيها أقدام الأمة المستخلفة قبلهم ، فحرمت مقام الخلافة ، وسلبت شرف القيام على أمانة الله في الأرض ، ومنهجه لقيادة البشر . وقد تخللت هذه الحملة توجيهات ظاهرة وخفية للمسلمين لتحذيرهم من تلك المزالق كما سيجيء في الشطر الثاني منها .

وما كان أحوج الجماعة المسلمة في المدينة إلى هذه وتلك . وما أحوج الأمة المسلمة في كل وقت إلى تملي هذه التوجيهات ، وإلى دراسة هذا القرآن بالعين المفتوحة والحس البصير ، لتتلقى منه تعليمات القيادة الإلهية العلوية في معاركها التي تخوضها مع أعدائها التقليديين ؛ ولتعرف منها كيف ترد على الكيد العميق الخبيث الذي يوجهونه إليها دائبين ، بأخفى الوسائل ، وأمكر الطرق .

وما يملك قلب لم يهتد بنور الإيمان ، ولم يتلق التوجيه من تلك القيادة المطلعة على السر والعلن والباطن والظاهر ، أن يدرك المسالك والدروب الخفية الخبيثة التي يتدسس فيها

ذلك الكيد الخبيث المريب . . .

ثم نلحظ من جانب التناسق الفني والنفسي في الأداء القرآني ، أن بدء هذه الجولة يلتحم بختام قصة آدم ، وبالإيحاءات التي أشرنا إليها هناك ، وهذا جانب من التكامل في السياق القرآني بين القصص والوسط الذي تعرض فيه :

لقد مضى السياق قبل ذلك بتقرير أن الله خلق ما في الأرض جميعاً للإنسان . ثم بقصة استخلاف آدم في الأرض بعهد الله الصريح الدقيق ؛ وتكريمه على الملائكة ؛ والوصية والنسيان ، والندم والتوبة ، والهداية والمغفرة ، وتزويده بالتجربة الأولى في الصراع الطويل في الأرض ، بين قوى الشر والفساد والهدم ممثلة في إبليس ، وقوى الخير والصلاح والبناء ممثلة في الإنسان المعتصم بالإيمان .

(147/56)

مضى السياق بهذا كله في السورة . ثم أعقبه بهذه الجولة مع بني إسرائيل ، فذكر عهد الله معهم ونكثهم له ؛ ونعمته عليهم وجحودهم بها ؛ ورتب على هذا حرمانهم من الخلافة ، وكتب عليهم الذلة ، وحذر المؤمنين كيدهم كما حذرهم مزالقهم . فكانت هناك صلة ظاهرة بين قصة استخلاف آدم وقصة استخلاف بني إسرائيل ، واتساق في السياق

واضح وفي الأداء .

والقرآن لا يعرض هنا قصة بني إسرائيل ، إنما يشير إلى مواقف منها ومشاهد باختصار أو بتطويل مناسب . وقد وردت القصة في السور المكية التي نزلت قبل هذا ، ولكنها هناك كانت تذكر – مع غيرها – لتثبيت القلة المؤمنة في مكة بعرض تجارب الدعوة وموكب الإيمان الواصل منذ أول الخليقة ، وتوجيه الجماعة المسلمة بما يناسب ظروفها في مكة . فأما هنا فالقصد هو ما أسلفنا من كشف حقيقة نوايا اليهود ووسائلهم وتحذير الجماعة المسلمة منها ، وتحذيرها كذلك من الوقوع في مثل ما وقعت فيه قبلها يهود . . وبسبب اختلاف الهدف بين القرآن المكي والقرآن المدني اختلفت طريقة العرض ؛ وإن كانت الحقائق التي عرضت هنا وهناك عن انحراف بني إسرائيل ومعصيتهم واحدة (كما سيجيء عند استعراض السور المكية السابقة في ترتيب النزول) .

ومن مراجعة المواضع التي وردت فيها قصة بني إسرائيل هنا وهناك يتبين أنها متفقة مع السياق الذي عرضت فيه ، متممة لأهدافه وتوجيهاته . . وهي هنا متسقة مع السياق قبلها . سياق تكريم الإنسان ، والعهد إليه والنسيان . متضمنة إشارات إلى وحدة الإنسانية ، ووحدة دين الله المنزل إليها ، ووحدة رسالاته ، مع لفتات ولمسات للنفس البشرية ومقوماتها ، وإلى عواقب الانحراف عن هذه المقومات التي نيطت بها خلافة

الإنسان في الأرض ؛ فمن كفر بها كفر بإنسانيته وفقد أسباب خلافته ، وارتكس في عالم الحيوان .

(148/56)

وقصة بني إسرائيل هي أكثر القصص وروداً في القرآن الكريم ؛ والعناية بعرض مواقفها وعبرتها عناية ظاهرة ، توحي بحكمة الله في علاج أمر هذه الأمة المسلمة ، وتربيتها وإعدادها للخلافة الكبرى .

.

فلننظر بعد هذا الإجمال في استعراض النص القرآني :

﴿ يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم ، وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإياي فارهبون . وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم ، ولا تكونوا أول كافر به ، ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً ، وإياي فاتقون . ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون . وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين . أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب ؟ أفلا تعقلون ؟ واستعينوا بالصبر والصلاة ، وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين . الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم ، وأنهم إليه راجعون ﴾ . .

إن المستعرض لتاريخ بني إسرائيل ليأخذه العجب من فيض الآلاء التي أفاضها الله عليهم ، ومن الجحود المنكر المتكرر الذي قابلوا به هذا الفيض المدرار . . وهنا يذكرهم الله بنعمته التي أنعمها عليهم إجمالاً ، قبل البدء في تفصيل بعضها في الفقر التالية . يذكرهم بها ليدعوهم بعدها إلى الوفاء بعهدهم معه – سبحانه – كي يتم عليهم النعمة ويمد لهم في الآلاء :

﴿ يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم ، وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم ﴾ . .

(149/56)

فأي عهد هذا الذي يشار إليه في هذا المقام ؟ أهو العهد الأول ، عهد الله لآدم : ﴿ فإما يأتينكم مني هدى ، فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ . . ؟ أم هو العهد الكوني السابق على عهد الله هذا مع آدم . العهد المعقود بين فطرة الإنسان وبارئه : أن يعرفه ويعبده وحده لا شريك له . وهو العهد الذي لا يحتاج إلى بيان ، ولا يحتاج إلى برهان ، لأن فطرة الإنسان بذاتها تتجه إليه بأشواقها اللدنية ، ولا يصدها عنه إلا الغواية والانحراف ؟ أم هو العهد الخاص الذي قطعه الله لإبراهيم جد إسرائيل . والذي سيجيء في سياق السورة : ﴿

وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن ، قال : إني جاعلك للناس إماماً ، قال : ومن ذريتي ؟ قال : لا ينال عهدي الظالمين ﴾ . . ؟ أم هو العهد الخاص الذي قطعه الله على بني إسرائيل وقد رفع فوقهم الطور ، وأمرهم أن يأخذوا ما فيه بقوة والذي سيأتي ذكره في هذه الجولة ؟ إن هذه العهود جميعاً إن هي إلا عهد واحد في صميمها . إنه العهد بين البارئ وعباده أن يصغوا قلوبهم إليه ، وأن يسلموا أنفسهم كلها له . وهذا هو الدين الواحد . وهذا هو الإسلام الذي جاء به الرسل جميعاً ؛ وسار موكب الإيمان يحمله شعاراً له على مدار القرون .

ووفاء بهذا العهد يدعو الله بني إسرائيل أن يخافوه وحده وأن يفردوه بالخشية :

﴿ وإياي فارهبون ﴾ . .

ووفاء بهذا العهد كذلك يدعو الله بني إسرائيل أن يؤمنوا بما أنزله على رسوله ، مصدقاً لما معهم ؛ وألا يسارعوا إلى الكفر به ، فيصبحوا أول الكافرين ؛ وكان ينبغي أن يكونوا أول المؤمنين :

﴿ وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ﴾ .

.

فما الإسلام الذي جاء به محمد – صلى الله عليه وسلم – إلا الدين الواحد الخالد . جاء به في صورته الأخيرة ؛ وهو امتداد لرسالة الله ، ولعهد الله منذ البشرية الأولى ، يضم جناحيه على ما مضى ، ويأخذ بيد البشرية فيما سيأتي ؛ ويوحد بين " العهد القديم " و " العهد الجديد " ويضيف ما أراده الله من الخير والصلاح للبشرية في مستقبلها الطويل ؛ ويجمع بذلك بين البشر كلهم إخوة متعارفين ؛ يلتقون على عهد الله ، ودين الله ؛ لا يتفرقون شيعاً وأحزاباً ، وأقواماً وأجناساً ؛ ولكن يلتقون عباداً لله ، مستمسكين جميعاً بعهده الذي لا يتبدل منذ فجر الحياة .

وينهى الله بني إسرائيل أن يكون كفرهم بما أنزله مصدقاً لما معهم ، شراء للدنيا بالآخرة ، وإيثاراً لما بين أيديهم من مصالح خاصة لهم – وبخاصة أحبارهم الذين يخشون أن يؤمنوا بالإسلام فيخسروا رياستهم ، وما تدره عليهم من منافع وإتاوات – ويدعوهم إلى خشيته وحده وتقواه . .

﴿ ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً ، وإياي فاتقون ﴾ . .

والثمن والمال والكسب الدنيوي المادي . . كله شنشنة يهود من قديم ! ! وقد يكون المقصود بالنهي هنا هو ما يكسبه رؤساؤهم من ثمن الخدمات الدينية والفتاوى المكذوبة ، وتحريف الأحكام حتى لا تقع العقوبة على الأغنياء منهم والكبراء ، كما ورد في مواضع

أخرى ، واستبقاء هذا كله في أيديهم بصد شعبهم كله عن الدخول في الإسلام ، حيث تفلت منهم القيادة والرياسة . . على أن الدنيا كلها – كما قال بعض الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم في تفسير هذه الآية – ثمن قليل ، حين تقاس إلى الإيمان بآيات الله ، وإلى عاقبة الإيمان في الآخرة عند الله .

ويمضي السياق يحذرهم ما كانوا يزاولونه من تلبيس الحق بالباطل ، وكتمان الحق وهم يعلمونه ، بقصد بلبلة الأفكار في المجتمع المسلم ، وإشاعة الشك والاضطراب :

﴿ ولا تلبسوا الحق بالباطل . وتكتموا الحق وأنتم تعلمون ﴾ . .

(151/56)

ولقد زاول اليهود هذا التلبيس والتخليط وكتمان الحق في كل مناسبة عرضت لهم ، كما فصل القرآن في مواضع منه كثيرة ؛ وكانوا دائما عامل فتنة وبلبلة في المجتمع الإسلامي ، وعامل اضطراب وخلخلة في الصف المسلم . وسيأتي من أمثلة هذا التلبيس الشيء الكثير !

ثم يدعوهم إلى الاندماج في موكب الإيمان ، والدخول في الصف ، وأداء عباداته المفروضة ، وترك هذه العزلة والتعصب الذميم ، وهو ما عرفت به يهود من قديم :

﴿ وأقيموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، واركعوا مع الراكعين ﴾ . .

ثم ينكر عليهم – وبخاصة أحبارهم – أن يكونوا من الدعاة إلى الإيمان بحكم أنهم أهل كتاب بين مشركين ، وهم في الوقت ذاته يصدون قومهم عن الإيمان بدين الله ، المصدق لدينهم القديم :

﴿ أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب ؟ أفلا تعقلون ؟ ﴾ .

.

ومع أن هذا النص القرآني كان يواجه ابتداء حالة واقعة من بني إسرائيل ، فإنه في إيحائه للنفس البشرية ، ولرجال الدين بصفة خاصة ، دائم لا يخص قوماً دون قوم ولا يعني جيلا دون جيل .

إن آفة رجال الدين – حين يصبح الدين حرفة وصناعة لا عقيدة حارة دافعة – أنهم يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم ؛ يأمرون بالخير ولا يفعلونه ؛ ويدعون إلى البر ويهملونه ؛ ويحرفون الكلم عن مواضعه ؛ ويؤولون النصوص القاطعة خدمة للغرض والهوى ، ويجدون فتاوى وتأويلات قد تتفق في ظاهرها مع ظاهر النصوص ، ولكنها تختلف في حقيقتها عن حقيقة الدين ، لتبرير أغراض وأهواء لمن يملكون المال أو السلطان ! كما كان يفعل أحبار يهود !

والدعوة إلى البر والمخالفة عنه في سلوك الداعين إليه ، هي الآفة التي تصيب النفوس بالشك لا في الدعاة وحدهم ولكن في الدعوات ذاتها . وهي التي تبلبل قلوب الناس وأفكارهم ، لأنهم يسمعون قولاً جميلاً ، ويشهدون فعلاً قبيحاً ؛ فتتملكهم الحيرة بين القول والفعل ؛ وتخبو في أرواحهم الشعلة التي توقدها العقيدة ؛ وينطفىء في قلوبهم النور الذي يشع الإيمان ؛ ولا يعودون يثقون في الدين بعد ما فقدوا ثقتهم برجال الدين .

إن الكلمة لتنبعث ميتة ، وتصل هامدة ، مهما تكن طنانة رنانة متحمسة ، إذا هي لم تنبعث من قلب يؤمن بها . ولن يؤمن إنسان بما يقول حقاً إلا أن يستحيل هو ترجمة حية لما يقول ، وتجسيماً واقعياً لما ينطق . . عندئذ يؤمن الناس ، ويثق الناس ، ولو لم يكن في تلك الكلمة طنين ولا بريق . . إنها حينئذ تستمد قوتها من واقعها لا من رنينها ؛ وتستمد جمالها من صدقها لا من بريقها . . إنها تستحيل يومئذ دفعة حياة ، لأنها منبثقة من حياة .

والمطابقة بين القول والفعل ، وبين العقيدة والسلوك ، ليست مع هذا أمراً هيناً ، ولا طريقاً معبداً . إنها في حاجة إلى رياضة وجهد ومحاولة . وإلى صلة بالله ، واستمداد منه ، واستعانة بهديه ؛ فملابسات الحياة وضروراتها واضطراراتها كثيراً ما تنأى بالفرد في واقعه عما يعتقده في ضميره ، أو عما يدعو إليه غيره . والفرد الفاني ما لم يتصل بالقوة الخالدة ضعيف مهما كانت قوته ، لأن قوى الشر والطغيان والإغواء أكبر منه ؛ وقد يغالبها

مرة ومرة ومرة ؛ ولكن لحظة ضعف تنتابه فيتخاذل ويتهاوى ، ويخسر ماضيه وحاضره ومستقبله ؛ فأما وهو يركن إلى قوة الأزل والأبد فهو قوي قوي ، أقوى من كل قوي . قوي على شهوته وضعفه . قوي على ضروراته واضطراراته . قوي على ذوي القوة الذين يواجهونه .

(153/56)

ومن ثم يوجه القرآن اليهود الذين كان يواجههم أولاً ، ويوجه الناس كلهم ضمناً ، إلى الاستعانة بالصبر والاستعانة بالصلاة . . وفي حالة اليهود كان مطلوباً منهم أن يؤثروا الحق الذي يعلمونه على المركز الخاص الذي يتمتعون به في المدينة ، وعلى الثمن القليل – سواء كان ثمن الخدمات الدينية أو هو الدنيا كلها – وأن يدخلوا في موكب الإيمان وهم يدعون الناس إلى الإيمان ! وكان هذا كله يقتضي قوة وشجاعة وتجرداً .

واستعانة بالصبر والصلاة :

﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة . وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين ، الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم ، وأنهم إليه راجعون ﴾ . .

والغالب أن الضمير في أنها ضمير الشأن ، أي إن هذه الدعوة إلى الاعتراف بالحق في وجه

هذه العوامل كبيرة وصعبة وشاقة ، إلا على الخاشعين الخاضعين لله ، الشاعرين بخشيته وتقواه ، الواثقين بلقائه والرجعة إليه عن يقين .

والاستعانة بالصبر تتكرر كثيراً ؛ فهو الزاد الذي لا بد منه لمواجهة كل مشقة ، وأول المشقات مشقة النزول عن القيادة والرياسة والنفع والكسب احتراماً للحق وإيثاراً له ، واعترافاً بالحقيقة وخضوعاً لها .

فما الاستعانة بالصلاة ؟

إن الصلاة صلة ولقاء بين العبد والرب . صلة يستمد منها القلب قوة ، وتحس فيها الروح صلة ؛ وتجد فيها النفس زاداً أنفس من أعراض الحياة الدنيا . . ولقد كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة ، وهو الوثيق الصلة بربه الموصول الروح بالوحي والإلهام . . وما يزال هذا الينبوع الدافق في متناول كل مؤمن يريد زاداً للطريق ، وريّاً في الهجير ، ومدداً حين ينقطع المدد ، ورصيداً حين ينفد الرصيد . .

(154/56)

واليقين بلقاء الله – واستعمال ظن ومشتقاتها في معنى اليقين كثير في القرآن وفي لغة العرب عامة – واليقين بالرجعة إليه وحده في كل الأمور . . هو مناط الصبر والاحتمال ؛ وهو

مناط التقوى والحساسية . كما أنه مناط الوزن الصحيح للقيم : قيم الدنيا وقيم الآخرة .

ومتى استقام الميزان في هذه القيم بدت الدنيا كلها ثمناً قليلاً ، وعرضاً هزيلاً ؛ وبدت الآخرة على حقيقتها ، التي لا يتردد عاقل في اختيارها وإيثارها .

وكذلك يجد المتدبر للقرآن في التوجيه الذي قصد به بنو إسرائيل أول مرة ، توجيهاً دائماً مستمر الإيحاء للجميع . .

ومن ثم عودة إلى نداء بني إسرائيل ، وتذكيرهم بنعمة الله عليهم ، وتخويفهم ذلك اليوم المخيف إجمالاً قبل الأخذ في التفصيل :

﴿ يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم ، وأني فضلتكم على العالمين . واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ، ولا يقبل منها شفاعة ، ولا يؤخذ منها عدل ، ولا هم ينصرون ﴾ .

وتفضيل بني إسرائيل على العالمين موقوت بزمان استخلافهم واختيارهم ، فأما بعد ما عتوا عن أمر ربهم ، وعصوا أنبياءهم ، وجحدوا نعمة الله عليهم ، وتخلوا عن التزاماتهم وعهدهم ، فقد أعلن الله حكمه عليهم باللعنة والغضب والذلة والمسكنة ، وقضى عليهم بالتشريد وحق عليهم الوعيد .

وتذكيرهم بتفضيلهم على العالمين ، هو تذكير لهم بما كان لهم من فضل الله وعهده ؛ وإطماع لهم لينتهزوا الفرصة المتاحة على يدي الدعوة الإسلامية ، فيعودوا إلى موكب الإيمان .

وإلى عهد الله ؛ شكراً على تفضيله لآبائهم ، ورغبة في العودة إلى مقام التكريم الذي يناله المؤمنون .

ومع الإطماع في الفضل والنعمة ، التحذير من اليوم الذي يأتي وصفه :

﴿ لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ﴾ . .

(155/56)

فالتبعة فردية ، والحساب شخصي ، وكل نفس مسؤولة عن نفسها ، ولا تغني نفس عن نفس شيئاً . . وهذا هو المبدأ الإسلامي العظيم . مبدأ التبعة الفردية القائمة على الإرادة والتمييز من الإنسان ، وعلى العدل المطلق من الله . وهو أقوم المبادئ التي تشعر الإنسان بكرامته ، والتي تستجيش اليقظة الدائمة في ضميره . وكلاهما عامل من عوامل التربية ، فوق أنه قيمة إنسانية تضاف إلى رصيده من القيم التي يكرمه بها الإسلام .

﴿ ولا يقبل منها شفاعة . ولا يؤخذ منها عدل ﴾ .

فلا شفاعة تنفع يومئذ من لم يقدم إيماناً وعملاً صالحاً ؛ ولا فدية تؤخذ منه للتجاوز عن كفره ومعصيته .

﴿ ولا هم ينصرون ﴾ . .

فما من ناصر يعصمهم من الله ، وينجيهم من عذابه . . وقد عبر هنا بالجمع باعتبار مجموع النفوس التي لا تجزي نفس منها عن نفس ، ولا يقبل منها شفاعة ، ولا يؤخذ منها عدل ، وانصرف عن الخطاب في أول الآية إلى صيغة الغيبة في آخرها للتعميم . فهذا مبدأ كلي ينال المخاطبين وغير المخاطبين من الناس أجمعين .

بعدئذ يمضي يعدد آلاء الله عليهم ، وكيف استقبلوا هذه الآلاء ، وكيف جحدوا وكفروا وحادوا عن الطريق . وفي مقدمة هذه النعم كانت نجاتهم من آل فرعون ومن العذاب الأليم :

﴿ وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ، يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم . وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون ﴾ . .

إنه يعيد على خيالهم ويستحيي في مشاعرهم صورة الكرب الذي كانوا فيه – باعتبار أنهم أبناء هذا الأصل البعيد – ويرسم أمامهم مشهد النجاة كما رسم أمامهم مشاهد العذاب .

يقول لهم : واذكروا إذ نجيناكم من آل فرعون حالة ما كانوا يديمون عذابكم ، (من سام الماشية أي جعلها سائمة ترعى دائماً) وكأن العذاب كان هو الغذاء الدائم الذي يطعمونهم إياه ! ! ثم يذكر لوناً من هذا العذاب . هو تذبيح الذكور واستيحاء الإناث . كي يضعف ساعد بني إسرائيل وتثقل تبعاتهم !

وقبل أن يعرض مشهد النجاة يعقب بأن ذلك التعذيب كان فيه بلاء من ربهم عظيم . ليلقي في حسهم – وحس كل من يصادف شدة – أن إصابة العباد بالشدة هي امتحان وبلاء ، واختبار وفتنة . وأن الذي يستيقظ لهذه الحقيقة يفيد من الشدة ، ويعتبر بالبلاء ، ويكسب من ورائهما حين يستيقظ . والألم لا يذهب ضياعاً إذا أدرك صاحبه أنه يمر بفترة امتحان لها ما بعدها إن أحسن الانتفاع بها . والألم يهون على النفس حين تعيش بهذا التصور وحين تدخر ما في التجربة المؤلمة من زاد للدنيا بالخبرة والمعرفة والصبر والاحتمال ، ومن زاد للآخرة باحتسابها عند الله ، وبالتضرع لله وبانتظار الفرج من عنده وعدم اليأس من رحمته .

. ومن ثم هذا التعقيب الموحى : ﴿ وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم ﴾ . .

فإذا فرغ من التعقيب جاء بمشهد النجاة بعد مشاهد العذاب . .

﴿ وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون ﴾ . .

وقد وردت تفصيلات هذه النجاة في السور المكية التي نزلت من قبل . أما هنا فهو مجرد

التذكير لقوم يعرفون القصة . سواء من القرآن المكي ، أو من كتبهم وأقاصيصهم المحفوظة . إنما يذكرهم بها في صورة مشهد ، ليستعيدوا تصورها ، ويتأثروا بهذا التصور ، وكأنهم هم الذين كانوا ينظرون إلى فرق البحر ، ونجاة بني إسرائيل بقيادة موسى – عليه السلام – على مشهد منهم ومرأى ! وخاصية الاستحياء هذه من أبرز خصائص التعبير القرآني العجيب .

ثم يمضي السياق قدماً مع رحلة بني إسرائيل بعد خروجهم من مصر ناجين :

(157/56)

﴿ وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ، ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون . ثم عفونا عنكم من بعد ذلك لعلكم تشكرون . وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون . وإذ قال موسى لقومه : يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل ، فتوبوا إلى بارئكم ، فاقتلوا أنفسكم ، ذلكم خير لكم عند بارئكم ، فتاب عليكم ، إنه هو التواب الرحيم ﴾ . .

وقصة اتخاذ بني إسرائيل للعجل ، وعبادته في غيبة موسى – عليه السلام – عندما ذهب إلى ميعاد ربه على الجبل ، مفصلة في سورة طه السابقة النزول في مكة . وهنا فقط يذكرهم

بها ، وهي معروفة لديهم . يذكرهم بانحدارهم إلى عبادة العجل بمجرد غيبة نبيهم ، الذي أنقذهم باسم الله ، من آل فرعون يسومونهم سوء العذاب . ويصف حقيقة موقفهم في هذه العبادة : ﴿ وأنتم ظالمون ﴾ . . ومن أظلم ممن يترك عبادة الله ووصية نبيه ليعبد عجلاً جسداً ، وقد أنقذه الله ممن كانوا يقدسون العجول !

ومع هذا فقد عفا الله عنهم ، وآتى نبيهم الكتاب – وهو التوراة – فيه فرقان بين الحق والباطل ، عسى أن يهتدوا إلى الحق البين بعد الضلال .

ولم يكن بد من التطهير القاسي ؛ فهذه الطبيعة المنهارة الخاوية لا تقومها إلا كفارة صارمة ، وتأديب عنيف . عنيف في طريقته وفي حقيقته :

﴿ وإذ قال موسى لقومه : يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل ، فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم . ذلكم خير لكم عند بارئكم ﴾ . .

أقتلوا أنفسكم . ليقتل الطائع منكم العاصي . ليطهره ويطهر نفسه . . هكذا وردت الروايات عن تلك الكفارة العنيفة . . وإنه لتكليف مرهق شاق ، أن يقتل الأخ أخاه ، فكأنما يقتل نفسه برضاه . ولكنه كذلك كان تربية لتلك الطبيعة المنهارة الخوارة ، التي لا تتماسك عن شر ، ولا تتناهى عن نكر . ولو تناهوا عن المنكر في غيبة نبيهم ما عبدوا العجل . وإذ لم يتناهوا بالكلام فليتناهوا بالحسام ؛ وليؤدوا الضريبة الفادحة الثقيلة التي تنفعهم وتربيهم !

وهنا تدركهم رحمة الله بعد التطهير :

﴿ فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم ﴾ .

.

ولكن إسرائيل هي إسرائيل ! هي هي كثافة حس ، ومادية فكر ، واحتجاباً عن مسارب الغيب . . فإذا هم يطلبون أن يروا الله جهرة ، والذي طلب هذا هم السبعون المختارون منهم ، الذين اختارهم موسى لميقات ربه – الذي فصلت قصته في السور المكية من قبل – ويرفضون الإيمان لموسى إلا أن يروا الله عياناً . والقرآن يواجههم هنا بهذا التجديف الذي صدر من آبائهم ، لينكشف تعنتهم القديم الذي يشابه تعنتهم الجديد مع الرسول الكريم ، وطلبهم الخوارق منه ، وتحريضهم بعض المؤمنين على طلب الخوارق للتثبت من صدقه :

﴿ وإذ قلتم : يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة . فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون . ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون . وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى . كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ . .

إن الحس المادي الغليظ هو وحده طريقهم إلى المعرفة . . أم لعله التعنت والمعاجزة . .

والآيات الكثيرة ، والنعم الإلهية ، والعفو والمغفرة . . كلها لا تغير من تلك الطبيعة الجاسية ، التي لا تؤمن إلا بالمحسوس ، والتي تظل مع ذلك تجادل وتماحل ولا تستجيب إلا تحت وقع العذاب والتنكيل ، مما يوحي بأن فترة الإذلال التي قضوها تحت حكم فرعون الطاغية قد أفسدت فطرتهم إفساداً عميقاً . وليس أشد إفساداً للفطرة من الذل الذي ينشئه الطغيان الطويل ، والذي يحطم فضائل النفس البشرية ، ويحلل مقوّماتها ، ويغرس فيها المعروف من طباع العبيد : استخذاء تحت سوط الجلاد ، وتمرداً حين يرفع عنها السوط ، وتبطراً حين يتاح لها شيء من النعمة والقوة . . وهكذا كانت إسرائيل ، وهكذا هي في كل حين . .

ومن ثم يجدفون هذا التجديف . ويتعنتون هذا التعنت :

﴿ وإذ قلتم : يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ﴾ :

(159/56)

ومن ثم يأخذهم الله جزاء ذلك التجديف ، وهم على الجبل في الميقات المعلوم :

﴿ فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون ﴾ . .

ومرة أخرى تدركهم رحمة الله ، وتوهب لهم فرصة الحياة عسى أن يذكروا ويشكروا ، ويذكرهم هنا مواجهة بهذه النعمة :

﴿ ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون ﴾ . .

ويذكرهم برعايته لهم في الصحراء الجرداء حيث يسر لهم طعاماً شهياً لا يجهدون فيه ولا يكدون ، ووقاهم هجير الصحراء وحر الشمس المحرق بتدبيره اللطيف :

﴿ وظللنا عليكم الغمام ، وأنزلنا عليكم المن والسلوى . كلوا من طيبات ما رزقناكم . وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ . .

وتذكر الراويات أن الله ساق لهم الغمام يظللهم من الهاجرة . والصحراء بغير مطر ولا سحب ، جحيم يفور بالنار ، ويقذف بالشواظ . وهي بالمطر والسحاب رخية ندية تصح فيها الأجسام والأرواح . . وتذكر الروايات كذلك أن الله سخر لهم ﴿ المن ﴾ يجدونه على الأشجار حلواً كالعسل ، وسخر لهم ﴿ السلوى ﴾ وهو طائر السماني يجدونه بوفرة قريب المنال . وبهذا توافر لهم الطعام الجيد ، والمقام المريح ، وأحلت لهم هذه الطيبات . . ولكن أتراهم شكروا واهتدوا .

. إن التعقيب الأخير في الآية يوحي بأنهم ظلموا وجحدوا . وإن كانت عاقبة ذلك عليهم ، فما ظلموا إلاَّ أنفسهم !

﴿ وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ . .

ويمضي السياق في مواجهتهم بما كان منهم من انحراف ومعصية وجحود :

﴿ وإذ قلنا : ادخلوا هذه القرية ، فكلوا منها حيث شئتم رغداً ، وادخلوا الباب سجداً

، وقولوا : حطة . نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين . فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم ، فأنزلنا على الذين ظلموا رجزا من السماء ، بما كانوا يفسقون ﴾ . .

(160/56)

وتذكر بعض الروايات أن القرية المقصودة هنا هي بيت المقدس ، التي أمر الله بني إسرائيل بعد خروجهم من مصر أن يدخلوها ، ويخرجوا منها العمالقة الذين كانوا يسكنونها ، والتي نكص بنو إسرائيل عنها وقالوا : ﴿ يا موسى إن فيها قوماً جبارين ، وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون ﴾ والتي قالوا بشأنها لنبيهم موسى – عليه السلام – : ﴿ إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون ! ﴾ ومن ثم كتب عليهم ربهم التيه أربعين سنة ، حتى نشأ جيل جديد بقيادة يوشع بن نون ، فتح المدينة ودخلها . . ولكنهم بدلاً من أن يدخلوها سجداً كما أمرهم الله ، علامة على التواضع والخشوع ، ويقولوا : حطة . . أي حط عنا ذنوبنا واغفر لنا . . دخلوها على غير الهيئة التي أمروا بها ، وقالوا قولاً آخر غير الذي أمروا به . .

والسياق يواجههم بهذا الحادث في تاريخهم ؛ وقد كان مما وقع بعد الفترة التي يدور عنها الحديث هنا – وهي عهد موسى – ذلك أنه يعتبر تاريخهم كله وحدة ، قديمه كحديثه ،

ووسطه كطرفيه . . كله مخالفة وتمرد وعصيان وانحراف !

وأيًّا كان هذا الحادث ، فقد كان القرآن يخاطبهم بأمر يعرفونه ، ويذكرهم بحادث يعلمونه . . فلقد نصرهم الله فدخلوا القرية المعينة ؛ وأمرهم أن يدخلوها في هيئة خشوع وخضوع ، وأن يدعوا الله ليغفر لهم ويحط عنهم ؛ ووعدهم أن يغفر لهم خطاياهم ، وأن يزيد المحسنين من فضله ونعمته . فخالفوا عن هذا كله كعادة يهود :

﴿ فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم ﴾ . .

ويخص الذين ظلموا بالذكر . إما لأنهم كانوا فريقاً منهم هو الذي بدل وظلم . وإما لتقرير وصف الظلم لهم جميعاً ، إذا كان قد وقع منهم جميعاً .

﴿ فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون ﴾ . .

والرجز : العذاب . والفسوق : المخالفة والخروج . . وكانت هذه واحدة من أفاعيل بني إسرائيل !

(161/56)

وكما يسر الله لبني إسرائيل الطعام في الصحراء والظل في الهاجرة ، كذلك أفاض عليهم الري بخارقة من الخوارق الكثيرة التي أجراها الله على يدي نبيه موسى – عليه السلام –

والقرآن يذكرهم بنعمة الله عليهم في هذا المقام ، وكيف كان مسلكهم بعد الإفضال والإنعام :

﴿ وإذ استسقى موسى لقومه ، فقلنا : اضرب بعصاك الحجر ، فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً .

قد علم كل أناس مشربهم . كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين ﴾ . .

لقد طلب موسى لقومه السقيا . طلبها من ربه فاستجاب له . وأمره أن يضرب حجراً معيناً بعصاه ، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا بعدة أسباط بني إسرائيل ، وكانوا يرجعون إلى اثني عشر سبطاً بعدة أحفاد يعقوب – وهو إسرائيل الذي ينتسبون إليه – وأحفاد إسرائيل – أو يعقوب – هم المعروفون باسم الأسباط ، والذين يرد ذكرهم مكرراً في القرآن ، وهم رؤوس قبائل بني إسرائيل . وكانوا ما يزالون يتبعون النظام القبلي ، الذي تنسب فيه القبيلة إلى رأسها الكبير .

ومن ثم يقول : ﴿ قد علم كل أناس مشربهم ﴾ . . أي العين الخاصة بهم من الاثنتي عشرة عيناً . وقيل لهم ، على سبيل الإباحة والإنعام والتحذير من الاعتداء والإفساد :

﴿ كلوا واشربوا من رزق الله ، ولا تعثوا في الأرض مفسدين ﴾ . .

لقد كانوا بين الصحراء بجدبها وصخورها ، والسماء بشواظها ورجومها . فأما الحجر فقد أنبع الله لهم منه الماء ، وأما السماء فأنزل لهم منها المن والسلوى : عسلاً وطيراً . . ولكن البنية النفسية المفككة ، والجبلة الهابطة المتداعية ، أبت على القوم أن يرتفعوا إلى مستوى الغاية التي من أجلها أخرجوا من مصر ، ومن أجلها ضربوا في الصحراء . . لقد أخرجهم الله – على يدي نبيهم موسى – عليه السلام – من الذل والهوان ليورثهم الأرض المقدسة ، وليرفعهم من المهانة والضعة . . وللحرية ثمن ، وللعزة تكاليف ، وللأمانة الكبرى التي ناطهم الله بها فدية . ولكنهم لا يريدون أن يؤدوا الثمن ، ولا يريدون أن ينهضوا بالتكاليف ، ولا يريدون أن يدفعوا الفدية . حتى بأن يتركوا مألوف حياتهم الرتيبة الهينة . حتى بأن يغيروا مألوف طعامهم وشرابهم ، وأن يكيفوا أنفسهم بظروف حياتهم الجديدة ، في طريقهم إلى العزة والحرية والكرامة . إنهم يريدون الأطعمة المنوعة التي ألفوها في مصر . يريدون العدس والثوم والبصل والقثاء . . وما إليها ! وهذا ما يذكرهم القرآن به . وهم يدعون في المدينة دعاواهم العريضة :

﴿ وإذ قلتم : يا موسى لن نصبر على طعام واحد ، فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها . قال : أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير ؟ اهبطوا مصراً فإن لكم ما سألتم . . وضربت عليهم الذلة والمسكنة ، وباؤوا

بغضب من الله ، ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق . ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾ . .

ولقد تلقى موسى – عليه السلام – طلبهم بالاستنكار :

﴿ أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير ؟ ﴾ . .

أتريدون الدنية وقد أراد الله لكم العلية ؟

﴿ اهبطوا مصراً فإن لكم ما سألتم ﴾ . .

(163/56)

إما بمعنى أن ما يطلبونه هين زهيد ، لا يستحق الدعاء ؛ فهو موفور في أي مصر من الأمصار ، فاهبطوا أية مدينة فإنكم واجدوه فيها . . وإما بمعنى عودوا إذن إلى مصر التي أخرجتم منها .

. عودوا إلى حياتكم الدارجة المألوفة . إلى حياتكم الخانعة الذليلة . . حيث تجدون العدس والبصل والثوم والقثاء ! ودعوا الأمور الكبار التي ندبتم لها . . ويكون هذا من موسى – عليه السلام – تأنيباً لهم وتوبيخاً . .

وأنا أرجح هذا التأويل الذي استبعده بعض المفسرين ، أرجحه بسبب ما أعقبه في

السياق من قوله تعالى :

﴿ وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباؤوا بغضب من الله ﴾ . .

فإن ضرب الذلة والمسكنة عليهم ، وعودتهم بغضب الله ، لم يكن – من الناحية التاريخية – في هذه المرحلة من تاريخهم ؛ إنما كان فيما بعد ، بعد وقوع ما ذكرته الآية في ختامها :

﴿ ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ، ويقتلون النبيين بغير الحق . ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾ .

وقد وقع هذا منهم متأخراً بعد عهد موسى بأجيال . إنما عجل السياق بذكر الذلة والمسكنة والغضب هنا لمناسبته لموقفهم من طلب العدس والبصل والثوم والقثاء !

فناسب أن يكون قول موسى لهم ، ﴿ اهبطوا مصراً ﴾ هو تذكير لهم بالذل في مصر ، وبالنجاة منه ، ثم هفوة نفوسهم للمطاعم التي ألفوها في دار الذل والهوان !

ولم يشهد تاريخ أمة ما شهده تاريخ إسرائيل من قسوة وجحود واعتداء وتنكر للهداة .

فقد قتلوا وذبحوا ونشروا بالمناشير عدداً من أنبيائهم – وهي أشنع فعلة تصدر من أمة مع دعاة الحق المخلصين – وقد كفروا أشنع الكفر ، واعتدوا أشنع الاعتداء ، وعصوا أبشع المعصية . وكان لهم في كل ميدان من هذه الميادين أفاعيل ليست مثلها أفاعيل !

ومع هذا كله فقد كانت لهم دعاوى عريضة عجيبة . كانوا دائما يدعون أنهم هم وحدهم المهتدون ، وهم وحدهم شعب الله المختار ، وهم وحدهم الذين ينالهم ثواب الله ؛ وأن فضل الله لهم وحدهم دون شريك . . وهنا يكذب القرآن هذه الدعوى العريضة ، ويقرر قاعدة من قواعده الكلية ، التي تتخلل القصص القرآني ، أو تسبقه أو تتلوه . يقرر قاعدة وحدة الإيمان . . ووحدة العقيدة ، متى انتهت إلى إسلام النفس لله ، والإيمان به إيماناً ينبثق منه العمل الصالح . وإن فضل الله ليس حجراً محجوراً على عصبية خاصة ، إنما هو للمؤمنين أجمعين ، في كل زمان وفي كل مكان ، كل بحسب دينه الذي كان عليه ، حتى تجيء الرسالة التالية بالدين الذي يجب أن يصير المؤمنون إليه :

﴿ إن الذين آمنوا ، والذين هادوا ، والنصارى ، والصابئين – من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً – فلهم أجرهم عند ربهم ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ . .

والذين آمنوا يعني بهم المسلمين . والذين هادوا هم اليهود – إما بمعنى عادوا إلى الله ، وإما بمعنى أنهم أولاد يهوذا – والنصارى هم اتباع عيسى – عليه السلام – والصابئون :

الأرجح أنهم تلك الطائفة من مشركي العرب قبل البعثة ، الذين ساورهم الشك فيما كان عليه قومهم من عبادة الأصنام ، فبحثوا لأنفسهم عن عقيدة يرتضونها ، فاهتدوا إلى التوحيد ، وقالوا : إنهم يتعبدون على الحنيفية الأولى ، ملة إبراهيم ، واعتزلوا عبادة قومهم

دون أن تكون لهم دعوة فيهم .

فقال عنهم المشركون : إنهم صبأوا – أي مالوا عن دين آبائهم – كما كانوا يقولون عن المسلمين بعد ذلك . ومن ثم سموا الصابئة . وهذا القول أرجح من القول بأنهم عبدة النجوم كما جاء في بعض التفاسير .

(165/56)

والآية تقرر أن من آمن بالله واليوم الآخر من هؤلاء جميعاً وعمل صالحاً ، فإن لهم أجرهم عند ربهم ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون . فالعبرة بحقيقة العقيدة ، لا بعصبية جنس أو قوم . . وذلك طبعاً قبل البعثة المحمدية . أما بعدها فقد تحدد شكل الإيمان الأخير .

ثم يمضي السياق يستعرض مواقف بني إسرائيل في مواجهة يهود المدينة بمسمع من المسلمين . .

﴿ وإذ أخذنا ميثاقكم ، ورفعنا فوقكم الطور : خذوا ما آتيناكم بقوة ، واذكروا ما فيه لعلكم تتقون . ثم توليتم من بعد ذلك ، فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين ﴾ . .

وتفصيل هذا الميثاق وارد في سور أخرى ، وبعضه ورد في هذه السورة فيما بعد . والمهم

هنا هو استحضار المشهد ، والتناسق النفسي والتعبيري بين قوة رفع الصخرة فوق رؤوسهم وقوة أخذ العهد ، وأمرهم أن يأخذوا ما فيه بقوة . وأن يعزموا فيه عزيمة . فأمر العقيدة لا رخاوة فيه ولا تميع ، ولا يقبل أنصاف الحلول ولا الهزل ولا الرخاوة . . إنه عهد الله مع المؤمنين . . وهو جد وحق ، فلا سبيل فيه لغير الجد والحق . . وله تكاليف شاقة ، نعم ! ولكن هذه هي طبيعته . إنه أمر عظيم . أعظم من كل ما في هذا الوجود . فلا بد أن تقبل عليه النفس إقبال الجاد القاصد العارف بتكاليفه ، المتجمع الهم والعزيمة المصمم على هذه التكاليف . ولا بد أن يدرك صاحب هذا الأمر أنه إنما يودع حياة الدعة والرخاء والرخاوة ، كما قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وقد نودي للتكليف : " مضى عهد النوم يا خديجة " . وكما قال له ربه : ﴿ إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً ﴾ وكما قال لبني إسرائيل :

﴿ خذوا ما آتيناكم بقوة ﴾ . ﴿ واذكروا ما فيه لعلكم تتقون ﴾ . .

(166/56)

ولا بد مع أخذ العهد بقوة وجد واستجماع نفس وتصميم . . لا بد مع هذا من تذكر ما فيه ، واستشعار حقيقته ، والتكيف بهذه الحقيقة ، كي لا يكون الأمر كله مجرد حماسة وحمية

وقوة. فعهد الله منهج حياة، منهج يستقر في القلب تصوراً وشعوراً، ويستقر في الحياة وضعاً ونظاماً، ويستقر في السلوك أدباً وخلقاً، وينتهي إلى التقوى والحساسية برقابة الله وخشية المصير.

ولكن هيهات! لقد أدركت إسرائيل نحيزتها، وغلبت عليها جبلتها:

﴿ ثم توليتم من بعد ذلك ﴾..

ثم أدركتها رحمة الله مرة أخرى وشملها فضله العظيم؛ فأنقذها من الخسار المبين:

﴿ فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين ﴾..

ومرة أخرى يواجههم بمظهر من مظاهر النكث والنكسة، والتحلل من العهد والعجز عن الاستمساك به، والضعف عن احتمال تكاليفه، والضعف أمام الهوى أو النفع القريب:

﴿ ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت: فقلنا لهم: كونوا قردة خاسئين، فجعلناها نكالاً لما بين يديها وما خلفها، وموعظة للمتقين ﴾.

.

وقد فصل القرآن حكاية اعتدائهم في السبت في موضع آخر فقال: ﴿ واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعاً، ويوم لا يسبتون لا تأتيهم ﴾ فلقد طلبوا أن يكون لهم يوم راحة مقدس، فجعل الله لهم يوم السبت راحة مقدساً لا يعملون فيه للمعاش. ثم ابتلاهم بعد ذلك بالحيتان تكثر يوم السبت،

وتختفي في غيره ! وكان ابتلاء لم تصمد له يهود ! وكيف تصمد وتدع هذا الصيد القريب يضيع ؟ أتتركه وفاء بعهد واستمساكاً بميثاق ؟ إن هذا ليس من طبع يهود !

ومن ثم اعتدوا في السبت اعتدوا على طريقتهم الملتوية . راحوا يحوطون على الحيتان في يوم السبت ، ويقطعونها عن البحر بحاجز ، ولا يصيدونها ! حتى إذا انقضى اليوم تقدموا وانتشلوا السمك المحجوز !

﴿ فقلنا لهم : كونوا قردة خاسئين ﴾ . .

(167/56)

لقد حق عليهم جزاء النكول عن عهدهم مع الله ، والنكوص عن مقام الإنسان ذي الإرادة . فانتكسوا بهذا إلى عالم الحيوان والبهيمة ، الحيوان الذي لا إرادة له ، والبهيمة التي لا ترتفع على دعوة البطون ! انتكسوا بمجرد تخليهم عن الخصيصة الأولى التي تجعل من الإنسان إنساناً . خصيصة الإرادة المستعلية المستمسكة بعهد الله .

وليس من الضروري أن يستحيلوا قردة بأجسامهم ، فقد استحالوا إليها بأرواحهم وأفكارهم ، وانطباعات الشعور والتفكير تعكس على الوجوه والملامح سمات تؤثر في السحنة وتلقي ظلها العميق !

ومضت هذه الحادثة عبرة رادعة للمخالفين في زمانها وفيما يليه ، وموعظة نافعة للمؤمنين في جميع العصور :

﴿ فجعلناها نكالاً لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين ﴾ . . وفي نهاية هذا الدرس تجيء قصة " البقرة " . . تجيء مفصلة وفي صورة حكاية ، لا مجرد إشارة كالذي سبق ، ذلك أنها لم ترد من قبل في السور المكية ، كما أنها لم ترد في موضع آخر ؛ وهي ترسم سمة اللجاجة والتعنت والتلكؤ في الاستجابة ، وتمحل المعاذير ، التي تتسم بها إسرائيل :

﴿ وإذ قال موسى لقومه : إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة . قالوا : أتتخذنا هزواً ؟ قال : أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين . قالوا : ادع لنا ربك يبين لنا ما هي ؟ قال : إنه يقول : إنها بقرة لا فارض ولا بكر ، عوان بين ذلك ، فافعلوا ما تؤمرون . قالوا : ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها ؟ قال : إنه يقول : إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين . قالوا : ادع لنا ربك يبين لنا ما هي ، إن البقر تشابه علينا ، وإنا إن شاء الله لمهتدون . قال : إنه يقول : إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقي الحرث ، مسلمة لا شية فيها .

قالوا : الآن جئت بالحق . فذبحوها وما كادوا يفعلون . . وإذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها ، والله مخرج ما كنتم تكتمون . فقلنا : اضربوه ببعضها ، كذلك يحيي الله الموتى ، ويريكم آياته لعلكم تعقلون ﴾ . .

وفي هذه القصة القصيرة – كما يعرضها السياق القرآني – مجال للنظر في جوانب شتى . .

جانب دلالتها على طبيعة بني إسرائيل وجبلتهم الموروثة . وجانب دلالتها على قدرة الخالق ، وحقيقة البعث ، وطبيعة الموت والحياة . ثم جانب الأداء الفني في عرض القصة بدءاً ونهاية واتساقاً مع السياق . .

إن السمات الرئيسية لطبيعة إسرائيل تبدو واضحة في قصة البقرة هذه : انقطاع الصلة بين قلوبهم ، وذلك النبع الشفيف الرقراق : نبع الإيمان بالغيب ، والثقة بالله ، والاستعداد لتصديق ما يأتيهم به الرسل . ثم التلكؤ في الاستجابة للتكاليف ، وتلمس الحجج والمعاذير ، والسخرية المنبعثة من صفاقة القلب وسلاطة اللسان !

لقد قال لهم نبيهم : ﴿ إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة ﴾ . . وكان هذا القول بهذه الصيغة يكفي للاستجابة والتنفيذ . فنبيهم هو زعيمهم الذي أنقذهم من العذاب المهين ، برحمة من الله ورعاية وتعليم ؛ وهو ينبئهم أن هذا ليس أمره وليس رأيه ، إنما هو أمر الله ، الذي يسير بهم على هداه . . فماذا كان الجواب ؟ لقد كان جوابهم سفاهة وسوء أدب ، واتهاماً لنبيهم الكريم بأنه يهزأ بهم ويسخر منهم ! كأنما يجوز لإنسان يعرف الله – فضلاً على أن يكون رسول الله – أن يتخذ اسم الله وأمره مادة مزاح وسخرية بين الناس :

﴿ قالوا : أتتخذنا هزواً ؟ ﴾ .

وكان رد موسى على هذه السفاهة أن يستعيذ بالله ؛ وأن يردهم برفق ، وعن طريق التعريض والتلميح ، إلى جادة الأدب الواجب في جانب الخالق جل علاه ؛ وأن يبين لهم أن ما ظنوه به لا يليق إلا بجاهل بقدر الله ، لا يعرف ذلك الأدب ولا يتوخاه :

﴿ قال : أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين ﴾ . .

وكان في هذا التوجيه كفاية ليثوبوا إلى أنفسهم ، ويرجعوا إلى ربهم ، وينفذوا أمر نبيهم . .

ولكنها إسرائيل !

(169/56)

نعم . لقد كان في وسعهم – وهم في سعة من الأمر – أن يمدوا أيديهم إلى أية بقرة فيذبحوها ، فإذا هم مطيعون لأمر الله ، منفذون لإشارة رسوله . ولكن طبيعة التلكؤ والالتواء تدركهم ، فإذا هم يسألون : ﴿ قالوا : ادع لنا ربك يبين لنا ما هي ؟ ﴾ . . والسؤال بهذه الصيغة يشي بأنهم ما يزالون في شكهم أن يكون موسى هازئاً فيما أنهى إليهم ! فهم أولاً : يقولون : ﴿ ادع لنا ربك ﴾ . . فكأنما هو ربه وحده لا ربهم كذلك ! وكأن المسألة لا تعنيهم هم إنما تعني موسى وربه ! وهم ثانياً : يطلبون منه أن يدعو ربه ليبين لهم : ﴿ ما هي ؟ ﴾ والسؤال عن الماهية في هذا المقام – وإن كان المقصود الصفة – إنكار واستهزاء . . ما

هي ؟ إنها بقرة . وقد قال لهم هذا من أول الأمر بلا تحديد لصفة ولا سمة .

بقرة وكفى !

هنا كذلك يردهم موسى إلى الجادة ، بأن يسلك في الإجابة طريقاً غير طريق السؤال . إنه لا يجبههم بانحرافهم في صيغة السؤال كي لا يدخل معهم في جدل شكلي . . إنما يجيبهم كما ينبغي أن يجيب المعلم المربي من يبتليه الله بهم من السفهاء المنحرفين . يجيبهم عن صفة البقرة :

﴿ قال : إنها بقرة لا فارض ولا بكر ، عوان بين ذلك ﴾ . .

إنها بقرة لا هي عجوز ولا هي شابة ، وسط بين هذا وذاك . ثم يعقب على هذا البيان المجمل بنصيحة آمرة حازمة :

﴿ فافعلوا ما تؤمرون ﴾ . .

ولقد كان في هذا كفاية لمن يريد الكفاية ؛ وكان حسبهم وقد ردهم نبيهم إلى الجادة مرتين ، ولمح لهم بالأدب الواجب في السؤال وفي التلقي . أن يعمدوا إلى أية بقرة من أبقارهم ، لا عجوز ولا صغيرة ، متوسطة السن ، فيخلصوا بها ذمتهم ، وينفذوا بذبحها أمر ربهم ، ويعفوا أنفسهم من مشقة التعقيد والتضييق . . ولكن إسرائيل هي إسرائيل !

لقد راحوا يسألون :

﴿ قالوا : ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها ؟ ﴾ . .

هكذا مرة أخرى : ﴿ ادع لنا ربك ﴾ ! ولم يكن بد – وقد شققوا الموضوع وطلبوا التفصيل – أن يأتيهم الجواب بالتفصيل :

(170/56)

﴿ قال : إنه يقول ، إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين ﴾ . .

وهكذا ضيقوا على أنفسهم دائرة الاختيار – وكانوا من الأمر في سعة – فأصبحوا مكلفين أن يبحثوا لا عن بقرة . . مجرد بقرة . . بل عن بقرة متوسطة السن ، لا عجوز ولا صغيرة ، وهي بعد هذا صفراء فاقع لونها ؛ وهي بعد هذا وذلك ليست هزيلة ولا شوهاء : ﴿ تسر الناظرين ﴾ . . وسرور الناظرين لا يتم إلا أن تقع أبصارهم على فراهة وحيوية ونشاط والتماع في تلك البقرة المطلوبة ؛ فهذا هو الشائع في طباع الناس : أن يعجبوا بالحيوية والاستواء ويسروا ، وأن ينفروا من الهزال والتشويه ويشمئزوا .

ولقد كان فيما تلكأوا كفاية ، ولكنهم يمضون في طريقهم ، يعقدون الأمور ، ويشددون على أنفسهم ، فيشدد الله عليهم . لقد عادوا مرة أخرى يسألون عن الماهية :

﴿ قالوا : ادع لنا ربك يبين لنا ما هي ﴾ . .

ويعتذرون عن هذا السؤال وعن ذلك التلكؤ بأن الأمر مشكل :

﴿ إن البقر تشابه علينا ﴾ . .

وكأنما استشعروا لحاجتهم هذه المرة . فهم يقولون :

﴿ وإنا إن شاء الله لمهتدون ﴾ . .

ولم يكن بد كذلك أن يزيد الأمر عليهم مشقة وتعقيداً ، وأن تزيد دائرة الاختيار المتاحة لهم حصراً وضيقاً ، بإضافة أوصاف جديدة للبقرة المطلوبة ، كانوا في سعة منها وفي غنى عنها :

﴿ قال : إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقي الحرث ، مسلمة لا شية فيها ﴾ . .

وهكذا لم تعد بقرة متوسطة العمر . صفراء فاقع لونها فارهة فحسب . بل لم يعد بد أن تكون – مع هذا – بقرة غير مذللة ولا مدربة على حرث الأرض أو سقي الزرع ؛ وأن تكون كذلك خالصة اللون لا تشوبها علامة .

هنا فقط . . وبعد أن تعقد الأمر ، وتضاعفت الشروط ، وضاق مجال الاختيار :

﴿ قالوا : الآن جئت بالحق ﴾ . .

الآن ! كأنما كان كل ما مضى ليس حقاً . أو كأنهم لم يستيقنوا أن ما جاءهم به هو الحق إلا اللحظة ! ﴿ فذبحوها وما كادوا يفعلون ﴾ ! !

عندئذ – وبعد تنفيذ الأمر والنهوض بالتكليف – كشف الله لهم عن الغاية من الأمر والتكليف :

﴿ وإذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها ، والله مخرج ما كنتم تكتمون ، فقلنا : اضربوه ببعضها . كذلك يحيي الله الموتى ، ويريكم آياته لعلكم تعقلون ﴾ . .

وهنا نصل إلى الجانب الثاني من جوانب القصة . جانب دلالتها على قدرة الخالق ، وحقيقة البعث ، وطبيعة الموت والحياة . وهنا يتغير السياق من الحكاية إلى الخطاب والمواجهة :

لقد كشف الله لقوم موسى عن الحكمة من ذبح البقرة . . لقد كانوا قد قتلوا نفسا منهم ؛ ثم جعل كل فريق يدرأ عن نفسه التهمة ويلحقها بسواه . ولم يكن هناك شاهد ؛ فأراد الله أن يظهر الحق على لسان القتيل ذاته ؛ وكان ذبح البقرة وسيلة إلى إحيائه ، وذلك بضربه ببعض من تلك البقرة الذبيح . . وهكذا كان ، فعادت إليه الحياة ، ليخبر بنفسه عن قاتله ، وليجلو الريب والشكوك التي أحاطت بمقتله ؛ وليحق الحق ويبطل الباطل بأوثق البراهين . ولكن . فيم كانت هذه الوسيلة ، والله قادر على أن يحيي الموتى بلا وسيلة ؟ ثم ما مناسبة البقرة المذبوحة مع القتيل المبعوث ؟

إن البقر يذبح قرباناً كما كانت عادة بني إسرائيل . . وبضعة من جسد ذبيح ترد بها الحياة

إلى جسد قتيل . وما في هذه البضعة حياة ولا قدرة على الأحياء . . إنما هي مجرد وسيلة ظاهرة تكشف لهم عن قدرة الله ، التي لا يعرف البشر كيف تعمل . فهم يشاهدون آثارها ولا يدركون كنهها ولا طريقتها في العمل و : ﴿ كذلك يحيي الله الموتى ﴾ . . كذلك بمثل هذا الذي ترونه واقعاً ولا تدرون كيف وقع ؛ وبمثل هذا اليسر الذي لا مشقة فيه ولا عسر .

(172/56)

إن المسافة بين طبيعة الموت وطبيعة الحياة مسافة هائلة تدير الرؤوس . ولكنها في حساب القدرة الإلهية أمر يسير . . كيف ؟ . . هذا ما لا أحد يدريه . وما لا يمكن لأحد إدراكه . . إن إدراك الماهية والكيفية هنا سر من أسرار الألوهية ، لا سبيل إليه في عالم الفانين ! وإن يكن في طوق العقل البشري إدراك دلالته والاتعاظ بها : ﴿ ويريكم آياته لعلكم تعقلون ﴾ . .

وأخيراً نجيء إلى جمال الأداء وتناسقه مع السياق . .

هذه قصة قصيرة نبدؤها ، فإذا نحن أمام مجهول لا نعرف ما وراءه . نحن لا نعرف في مبدأ عرض القصة لماذا يأمر الله بني إسرائيل أن يذبحوا بقرة ، كما أن بني إسرائيل إذ ذاك لم يعرفوا

، وفي هذا اختبار لمدى الطاعة والاستجابة والتسليم .

ثم تتابع الحوار في عرض القصة بين موسى وقومه ، فلا نرى الحوار ينقطع ليثبت ما دار بين موسى وربه ؛ على حين أنهم كانوا في كل مرة يطلبون منه أن يسأل ربه ، فكان يسأله ، ثم يعود إليهم بالجواب .

. ولكن سياق القصة لا يقول : إنه سأل ربه ولا إن ربه أجابه . . إن هذا السكوت هو اللائق بعظمة الله ، التي لا يجوز أن تكون في طريق اللجاجة التي يزاولها بنو إسرائيل !

ثم تنتهي إلى المباغتة في الخاتمة – كما بوغت بها بنو إسرائيل – انتفاض الميت مبعوثا ناطقاً ، على ضربة من بعض جسد لبقرة بكماء مذبوحة ، ليس فيها من حياة ولا مادة حياة !

ومن ثم يلتقي جمال الأداء التعبيري بحكمة السياق الموضوعية في قصة قصيرة من القصص القرآني الجميل .

وتعقيباً على هذا المشهد الأخير من القصة ، الذي كان من شأنه أن يستجيش في قلوب بني إسرائيل الحساسية والخشية والتقوى ؛ وتعقيبا كذلك على كل ما سلف من المشاهد و الأحداث والعبر والعظات ، تجيء هذه الخاتمة المخالفة لكل ما كان يتوقع ويرتقب :

﴿ ثم قست قلوبكم من بعد ذلك ، فهي كالحجارة أو أشد قسوة . وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار ، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء . وإن منها لما يهبط من خشية الله . وما الله بغافل عما تعملون ﴾ . .

والحجارة التي يقيس قلوبهم إليها ، فإذا قلوبهم منها أجدب وأقسى . . هي حجارة لهم بها سابق عهد . فقد رأوا الحجر تتفجر منه اثنتا عشرة عيناً ، ورأوا الجبل يندك حين تجلى عليه الله وخر موسى صعقاً ! ولكن قلوبهم لا تلين ولا تندى ، ولا تنبض بخشية ولا تقوى . . قلوب قاسية جاسية مجدبة كافرة . . ومن ثم هذا التهديد :

﴿ وما الله بغافل عما تعملون ﴾ .

وبهذا يختم هذا الشطر من الجولة مع بني إسرائيل في تاريخهم الحافل بالكفر والتكذيب ، والالتواء واللجاجة ، والكيد والدس ، والقسوة والجدب ، والتمرد والفسوق . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الظلال حـ 1 صـ 55 . 81 ﴾

(174/56)

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى الآيات السابقة

[سورة البقرة (2) : آية 26]

إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً ما بَعُوضَةً فَما فَوْقَها فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ ما ذا أَرادَ اللَّهُ بِهذا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَما يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفاسِقِينَ (26)

الإعراب :

(إنّ) حرف مشبّه بالفعل للتوكيد (اللّه) لفظ الجلالة اسم إنّ منصوب (لا) نافية (يستحيي) مضارع مرفوع وعلامة رفعه الضمّة المقدّرة ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (أن) حرف مصدري ونصب (يضرب) مضارع منصوب والفاعل هو (مثلا) مفعول به منصوب (ما) زائدة للتوكيد " 1 " ، (بعوضة) بدل أو صفة أو عطف بيان من (مثلا) منصوب مثله (الفاء) عاطفة (ما) اسم موصول في محل نصب معطوف على بعوضة " 2 " ، (فوق) ظرف مكان منصوب متعلّق بمحذوف صلة ما ، و(ها) ضمير متّصل في محلّ جرّ مضاف إليه .

والمصدر المؤوّل من (أن) والفعل في محل جر بـ (من) محذوف متعلّق بـ (يستحيي) ، أي : لا يستحيي من أن يضرب مثلا .

(الفاء) استئنافيّة (أمّا) حرف شرط وتفصيل (الذين) مبتدأ في محل رفع (آمنوا) فعل وفاعل (الفاء) رابطة لجواب الشرط (يعلمون) مضارع مرفوع و(الواو) فاعل (أنّ) كالسابق و(الهاء) ضمير في محل نصب اسم أنّ (الحقّ) خبر أنّ مرفوع (من ربّ) جارّ ومجرور متعلّق

بمحذوف حال من الحقّ و(هم) ضمير متّصل في محلّ جرّ مضاف إليه . (الواو) عاطفة (أمّا الذين كفروا فيقولون) تعرب كنظيرها . . (ما) اسم استفهام في محل

---

(1) أو نكرة موصوفة في محلّ نصب مفعول به ثان أي : يضرب مثلا شيئا من الأشياء أو هي صفة لـ (مثلا) أو بدل ، و(بعوضة) بدل من (ما) .

(2) أو نكرة موصوفة في محلّ نصب معطوفة على بعوضة .

(175/56)

رفع مبتدأ (ذا) اسم موصول في محل رفع خبر " 1 " – أي : فما الذي – (أراد) فعل ماض (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (الباء) حرف جرّ (ها) حرف تنبيه (ذا) اسم إشارة في محلّ جرّ بالباء متعلّق بـ (أراد) (مثلا) تمييز لاسم الإشارة منصوب أو حال أي ممثلا به . (يضلّ) مضارع مرفوع والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (الباء) حرف جرّ و(الهاء) ضمير متّصل في محلّ جرّ بالباء متعلّق بـ (يضلّ) . (كثيرا) مفعول به منصوب (الواو) عاطفة (يهدي به كثيرا) تعرب كنظيرها المتقدّمة . (الواو) استئنافيّة أو حاليّة (ما) نافية (يضلّ) مثل الأول ، وكذلك (به) ، (إلا) أداة حصر (الفاسقين) مفعول به منصوب وعلامة نصبه الياء . جملة : " إنّ اللّه لا يستحيي . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : "لا يستحيي . . . "في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : "الذين آمنوا . . . "لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : "آمنوا "لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : "يعلمون . . . "في محلّ رفع خبر المبتدأ (الذين) "2" .

وجملة : "الذين كفروا . . "لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة الثانية .

وجملة : "كفروا "لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الثاني .

---

(1) يجوز إعراب (ماذا) كلمة واحدة : اسم استفهام في محلّ نصب مفعول به مقدّم لفعل أراد ، والتقدير : أي شيء أراد اللّه .

(2) في هذا التعبير ، وجوب اقتران جواب (أمّا) بالفاء . . وقد تدخل الفاء على خبر المبتدأ ، وذلك لأن قوله : أما الذين آمنوا فيعلمون . . . أصله : مهما يكن من أمر فالذين آمنوا يعلمون . . فحين استبدل (أمّا) بـ (مهما) وفعلها انتقلت الفاء الرابطة إلى الخبر حكما . وهكذا في كلّ تعبير جاء المبتدأ تاليا (أمّا) تقترن الفاء بالخبر .

وجملة : " يقولون . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (الذين) الثاني " 1 " وجملة : " ما ذا . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " أراد اللّه . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ذا) .

وجملة : " يضلّ به كثيرا " في محلّ نصب نعت لـ (مثلا) " 2 " .

وجملة : " يهدي به . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة يضلّ .

وجملة : " ما يضلّ به . . . " لا محلّ لها استئنافيّة أو في محلّ نصب حال .

الصرف :

(بعوضة) ، اسم جامد مفرد للحشرة المعروفة ، والجمع بعوض ، وزنه فعولة بفتح الفاء .

(فوق) اسم ، ظرف للمكان نقيض تحت ، وقد يستعمل للزمان : أقام في المدينة فوق شهر . ويدلّ على الزيادة : هذا فوق ذاك . وزنه فعل بفتح فسكون .

(الحقّ) ، مصدر حقّ يحقّ باب نصر وضرب . . وزنه فعل بفتح فسكون .

(أراد) ، فيه إعلال بالقلب ، أصله أرود بفتح الواو وزنه أفعل لأن ماضيه المجرّد راد يرود بمعنى طلب ، نقلت حركة الواو إلى الراء قبلها ، ثمّ قلبت الواو ألفا لانفتاح ما قبلها وتحركها في الأصل فأصبح أراد .

(يضل) ، فيه حذف همزته التي في الماضي أضل وأصله يؤضلل ، وجرى فيه الحذف مجرى يؤمن ويقيم وينفق .

---

(1) انظر الملاحظة رقم (2) في الصفحة السابقة .

(2) يجوز أن تكون في محل نصب حال من لفظ الجلالة . أو لا محلّ لها استئنافيّة لبيان ما سبق وهو رأي أبي حيّان وقد رفض كونها نعتا حتى لا تكون من كلام الكافرين .

(177/56)

(كثيرا) ، صفة مشبّهة من كثر يكثر باب كرم وزنه فعيل .

(الفاسقين) ، جمع الفاسق ، اسم فاعل من فسق يفسق باب نصر وزنه فاعل . . أو من باب ضرب لغة حكاها الأخفش .

البلاغة

1 – التمثيل : في هذه الآية الكريمة مثل ضرب للدنيا وأهلها فإن البعوضة تحيا ما جاعت وإذا شبعت ماتت ، كذلك أهل الدنيا إذا امتلأوا منها هلكوا . وهذا اشارة إلى حسن التمثيل في الآية .

الفوائد

– أمّا : تأتي لثلاث حالات : للشرط والتفصيل والتوكيد .

وقد نجد الشرط والتفصيل واردا في الآية الكريمة : فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا . . .

وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا . . وأما الشرط والتوكيد ففي قول سيدنا علي : أمّا بعد فإن الجهاد باب من أبواب الجنة . وهذه سمة من سمات الخطابة وسنة متبعة لدى خطباء المنابر . وفي الرسائل التقليدية .

[سورة البقرة (2) : آية 27]

الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثاقِهِ وَيَقْطَعُونَ ما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ (27)

الإعراب :

(الذين) اسم موصول مبني في محل نصب نعت لـ (الفاسقين) " 1 " . (ينقضون) مضارع مرفوع ، و(الواو) فاعل (عهد) مفعول به منصوب (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (من بعد) جارّ ومجرور متعلّق بـ (ينقضون) . (ميثاق) مضاف إليه مجرور و(الهاء) في محل جرّ مضاف إليه . (الواو)

---

(1) يجوز أن يكون في محلّ رفع خبر لمبتدأ محذوف تقديره هم ، والجملة لا محلّ لها استئنافيّة .

عاطفة (يقطعون) مثل ينقضون (ما) اسم موصول في محل نصب مفعول به " 1 " ، (أمر) فعل ماض (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (الباء) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ بالباء متعلّق بـ (أمر) . (أن) حرف مصدريّ ونصب (يوصل) مضارع منصوب مبنيّ للمجهول ، ونائب الفاعل ضمير مستتر تقديره هو يعود على (ما) .

والمصدر المؤوّل من (أن) والفاعل في محلّ نصب بدل من (ما) ، أي :

يقطعون وصل ما أمر اللّه ، أو بدل من الهاء في (به) أي يقطعون ما أمر اللّه بوصله .

جملة : " ينقضون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " يقطعون . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة : " أمر اللّه " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

(الواو) عاطفة (يفسدون) مثل ينقضون (في الأرض) جار ومجرور متعلّق بـ (يفسدون) – (أولاء) اسم إشارة مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ و(الكاف) حرف خطاب . (هم) ضمير فصل " 2 " الخاسرون خبر المبتدأ أولاء مرفوع ، وعلامة الرفع الواو .

وجملة : " يفسدون . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ينقضون .

وجملة : أولئك هم الخاسرون " لا محلّ لها استئنافيّة .

الصرف :

(عهد) مصدر سماعيّ لفعل عهد يعهد باب فرح وزنه فعل بفتح فسكون .

---

(1) أو نكرة موصوفة في محلّ نصب ، وجملة أمر اللّه . . في محلّ نصب نعت لـ (ما) .

(2) أو ضمير منفصل في محلّ رفع مبتدأ خبره الخاسرون ، وجملة : هم الخاسرون خبر المبتدأ أولئك

(179/56)

(بعد) اسم ، ظرف للزمان ضد قبل يلزم الإضافة ، فإن قطع عنها بني على الضمّ ، أو نصب منوّنا وزنه فعل بفتح فسكون .

(ميثاق) ، مصدر ميميّ على غير القياس من وثق يثق الباب السادس ، وزنه مفعال بكسر الميم ، وفي الكلمة إعلال بالقلب ، أصله موثاق جاءت الواو ساكنة بعد كسر قلبت ياء فأصبح (ميثاق) .

(الخاسرون) ، جمع الخاسر وهو اسم فاعل من خسر الثلاثيّ ، على وزن فاعل .

(يفسدون) ، فيه حذف الهمزة أصله يؤفسدون لأن ماضيه أفسد . . .

البلاغة

1 – الاستعارة المكنية : في قوله تعالى : الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ .

استعمال النقض في إبطال العهد من حيث استعارة الحبل له لما فيه من ارتباط أحد كلامي

المتعاهدين بالآخر .

2 – المقابلة : وهي تعدّد الطباق في الكلام ، فقد طابق بين يضل ويهدي وبين يقطعون ويوصل .

الفوائد

1 – كيف : من الأسماء المبنية وبناؤها على الفتح وأكثر ما تكون للاستفهام ولها أربعة أحوال من الاعراب : تأتي خبرا كما تأتي مفعولا ثانيا لأفعال " ظن وأخواتها " .

وتأتي حالا لما بعدها وتأتي مفعولا مطلقا مثل " أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحابِ الْفِيلِ

. . .

(180/56)

[سورة البقرة (2) : آية 28]

كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْواتاً فَأَحْياكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (28)

الإعراب :

(كيف) اسم استفهام للتعجّب مبنيّ في محلّ نصب حال من الواو في (تكفرون) ، وهو العامل مضارع مرفوع و(الواو) فاعل (بالله) جار ومجرور متعلّق بـ (تكفرون) ، (الواو)

حاليّة (كنتم) فعل ماض ناقص مبنيّ على السكون و(تم) ضمير متّصل في محلّ رفع اسم كان (أمواتا) خبر كان منصوب (الفاء) عاطفة (أحيا) فعل ماض مبنيّ على الفتح المقدّر و(كم) ضمير في محلّ نصب مفعول به ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (ثمّ) حرف عطف في المواضع الثلاثة (يميت) مضارع مرفوع (كم) مفعول به والفاعل هو (يحييكم) مثل يميتكم . . . (إلى) حرف جرّ و(الهاء) ضمير متّصل في محلّ جرّ متعلّق بـ (ترجعون) وهو مضارع مبنيّ للمجهول مرفوع و(الواو) ضمير متّصل في محلّ رفع نائب فاعل .

جملة : " تكفرون باللّه " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : "كنتم أمواتا " في محلّ نصب حال مع تقدير (قد) .

وجملة : " أحياكم " في محل نصب معطوفة على جملة كنتم أمواتا .

وجملة : " يميتكم " في محلّ نصب معطوفة على جملة أحياكم .

وجملة : " يحييكم " في محل نصب معطوفة على جملة يميتكم .

وجملة : " ترجعون " في محل نصب معطوفة على جملة يحييكم .

الصرف :

(كيف) اسم مبهم ، مبنيّ على الفتح ، قد يأتي للاستفهام وقد يأتي للشرط ، وزنه فعل بفتح فسكون ثم البناء على الفتح .

(أحياكم) ، الألف في (أحيا) تكتب طويلة ولو لم يتّصل به ضمير النصب أو غيره ، ذلك لأن الألف سبقت بياء ، ولو لا الياء لرسمت قصيرة برسم الياء غير المنقوطة لأنها رابعة .

(181/56)

(أمواتا) ، جمع ميّت وزنه فيعل فيه إعلال بالقلب ، أصله ميوت لأن ألفه واو ، مصدره الموت . فلمّا اجتمعت الواو والياء وكانت الأولى ساكنة قلبت الواو ياء وأدغمت مع الياء الأولى فأصبح (ميّت) ، جمعه أموات وزنه أفعال .

[سورة البقرة (2) : آية 29]

هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (29)

الإعراب :

(هو) ضمير منفصل في محل رفع مبتدأ (الذي) اسم موصول في محل رفع خبر (خلق) فعل ماض والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (اللام) حرف جرّ و(كم) ضمير متصل في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (خلق) ، (ما) اسم موصول في محلّ نصب مفعول به (في الأرض) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف صلة ما (جميعا) حال منصوبة أي مجتمعا (ثمّ) حرف عطف

(استوى) فعل ماض مبني على الفتح المقدّر على الألف والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (إلى السماء) جارّ ومجرور متعلّق بـ(استوى) بتضمينه معنى عمد أو قصد . (الفاء) عاطفة (سوّى) مثل استوى ، و(الهاء) ضمير متّصل في محلّ نصب مفعول به و(النون) حرف لجمع الإناث ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو . (سبع) مفعول به ثان منصوب (سموات) مضاف إليه مجرور (الواو) عاطفة أو حاليّة (هو) ضمير في محلّ رفع مبتدأ (بكلّ) جارّ ومجرور متعلق بـ(عليم) ، (شيء) مضاف إليه مجرور (عليم) خبر المبتدأ مرفوع.

وجملة : " هو الذي . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة : " خلق . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " استوى . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة.

وجملة : " سوّاهن . . . " لا محل لها معطوفة على جملة استوى.

وجملة : " هو . . عليم " لا محلّ لها معطوفة على جملة الاستئناف ويجوز أن تكون في محلّ نصب حال والعامل فيها الأفعال المتقدّمة.

الصرف :

(جميعا) اسم بمعنى الجماعة وضدّ التفرّق وزنه فعيل ، وقد يستعمل استعمال الصفة .

(استوى) ، فيه إعلال بالقلب أصله استوي - بياء مفتوحة في آخره - تحرّكت الياء وانفتح ما قبلها قلبت ألفا ، ورسمت الألف برسم الياء لأنها خماسيّة .

(سوّاهنّ) ، فيه إعلال مثل استوى .

(عليم) ، صفة مشتقّة مبالغة اسم الفاعل من علم المتعدّي ومنه فعيل .

[سورة البقرة (2) : آية 30]

وَإِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قالُوا أَتَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيها وَيَسْفِكُ الدِّماءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قالَ إِنِّي أَعْلَمُ ما لا تَعْلَمُونَ (30)

الإعراب :

(الواو) استئنافية (إذ) ظرف للزمن الماضي مبنيّ في محلّ نصب متعلّق بفعل قالوا الآتي " 1 " ، (قال) فعل ماض (ربّ) فاعل مرفوع و(الكاف) في محلّ جرّ مضاف إليه (للملائكة) جارّ ومجرور متعلّق بـ (قال) . (إنّ) حرف مشبّه بالفعل للتوكيد و(الياء) ضمير متّصل في محلّ

(1) أو هو في محلّ نصب مفعول به لفعل محذوف تقديره قول ربّك . . . [. . . . .]

نصب اسم ، (جاعل) خبر مرفوع (في الأرض) جارّ ومجرور متعلّق بـ (جاعل) . (خليفة) مفعول به لاسم الفاعل جاعل ، منصوب . (قالوا) فعل ماض مبنيّ على الضم و(الواو) فاعل ، (الهمزة) للاستفهام (تجعل) فعل مضارع مرفوع والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت (في) حرف جرّ و(الهاء) ضمير متّصل في محلّ جرّ متعلّق بـ (تجعل) . (من) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به (يفسد) مضارع مرفوع ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (فيها) مثل الأول متعلّق بـ (يفسد) . (الواو) عاطفة (يسفك) مثل يفسد (الدماء) مفعول به منصوب (الواو) حاليّة (نحن) ضمير منفصل في محلّ رفع مبتدأ (نسبّح) فعل مضارع مرفوع والفاعل ضمير مستتر تقديره نحن (بحمد) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف حال من فاعل نسبّح أي : مشتملين بحمدك و(الكاف) مضاف إليه (الواو) عاطفة (نقدّس) مثل نسبّح (اللام) حرف جرّ و(الكاف) ضمير متّصل في محلّ جرّ متعلّق بـ (نقدّس) . (قال) مثل الأول (إنّي) سبق إعرابها (أعلم) مضارع مرفوع هو (اللام) حرف جرّ و(كم) ضمير متّصل في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (خلق) ، (ما) اسم موصول في محلّ نصب مفعول به (في الأرض) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف صلة ما (جميعا) حال منصوبة أي مجتمعا (ثمّ)

حرف عطف (استوى) فعل ماض مبني على الفتح المقدّر على الألف والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (إلى السماء) جارّ ومجرور متعلّق بـ (استوى) بتضمينه معنى عمد أو قصد . (الفاء) عاطفة (سوّى) مثل استوى ، و(الهاء) ضمير متّصل في محلّ نصب مفعول به و(النون) حرف لجمع الإناث ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو . (سبع) مفعول به ثان منصوب (سموات) مضاف إليه مجرور (الواو) عاطفة أو حاليّة (هو) ضمير في محلّ رفع مبتدأ (بكلّ) جارّ ومجرور متعلق بـ (عليم) ، (شيء) مضاف إليه مجرور (عليم) خبر المبتدأ مرفوع.

وجملة : " هو الذي . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

(184/56)

وجملة : " خلق . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " استوى . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة.

وجملة : " سوّاهن . . . " لا محل لها معطوفة على جملة استوى.

وجملة : " هو . . عليم " لا محلّ لها معطوفة على جملة الاستئناف ويجوز أن تكون في محلّ نصب حال والعامل فيها الأفعال المتقدّمة.

الصرف :

(جميعا) اسم بمعنى الجماعة وضدّ التفرّق وزنه فعيل ، وقد يستعمل استعمال الصفة .

(استوى) ، فيه إعلال بالقلب أصله استوي – بياء مفتوحة في آخره – تحرّكت الياء وانفتح ما قبلها قلبت ألفا ، ورسمت الألف برسم الياء لأنها خماسيّة .

(سوّاهنّ) ، فيه إعلال مثل استوى .

والفاعل ضمير مستتر تقديره أنا (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به " 1 " (لا) نافية (تعلمون) مضارع مرفوع ، و(الواو) فاعل .

جملة : " قال ربّك . . . " في محلّ جرّ بإضافة إذ إليها .

وجملة : " إنّي جاعل . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها استئناف بياني .

وجملة : " تجعل فيها . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " يفسد فيها " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

---

(1) أو نكرة موصوفة والجملة بعدها نعت لها .

وجملة : " يسفك الدماء " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة : " نحن نسبّح . . . " في محلّ نصب حال .

وجملة : " نسبّح . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ نحن .

وجملة : " نقدّس . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة نسبّح .

وجملة : " قال الثانية " لا محلّ لها استئناف بياني .

وجملة : " إني أعلم . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " أعلم . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " تعلمون " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

الصرف :

(إذ) ظرف للزمن الماضي لا يأتي بعده إلا جملة ، وقد تحذف الجملة ويستعاض منها بالتنوين ، وقد تكون للمفاجاة : بينما أنا جالس إذ جاء زيد .

(ملائكة) ، قيل جمع مألك وزن مفعل مشتقّ من الألوكة وهي الرسالة ، فالهمزة فاء الكلمة ثمّ أخّرت فجعلت بعد اللام فقالوا ملأك فأصبح وزنه معفل والجمع ملائكة على معافلة . وقيل أصل الكلمة لأك فعين الكلمة همزة ، وأصل ملك ملأك من غير نقل ، وألقيت حركة الهمزة على اللام وحذفت الهمزة ، فلمّا جمع الاسم ردّت الهمزة فوزنه الآن مفاعلة . وقال قوم : عين الكلمة واو وهو من لاك يلوك أدار أراد الشيء في فيه ، فكأن صاحب الرسالة

يدير الرسالة في فيه ، فيكون أصل ملك ملاك مثل معاذ ، ثمّ حذفت عينه تخفيفا فيكون أصل ملائكة ملاوكة مثل مقاولة فأبدلت الواو همزة كما أبدلت واو مصائب . وقال آخرون ملك مثل من

الملك وهي القوّة ، فالميم أصل ولا حذف فيه ولكنّه جمع على فعائلة شاذّا " 1 " .

(جاعل) ، اسم فاعل من جعل الثلاثيّ ، وزنه فاعل .

(خليفة) ، فعيلة بمعنى فاعل وزيدت التاء للمبالغة ، فهو صفة مشبّهة .

(الدماء) ، جمع دم ، ولامه محذوفة ، أصله دمي بياء في آخره لأن المثنّى دميان " 2 " .

وفي كلمة (الدماء) قلب الياء همزة لتطرّفها بعد ألف ساكنة وأصله الدماي .

(حمد) ، مصدر سماعيّ لفعل حمد يحمد باب فرح وزنه فعل بفتح فسكون .

البلاغة

1 – الاستفهام : الوارد في قوله تعالى أَتَجْعَلُ خروج لمعناه الأصلي عن موضوعه .

فهو استكشاف عن الحكمة الخفية وعما يزيل الشبهة وليس استفهاما عن الجعل نفسه والاستخلاف لأنهم قد علموه قبل ، فالمسئول عنه هو الجعل ولكن لا باعتبار ذاته بل باعتبار حكمته ومزيل شبهته ، أو تعجب من أن يستخلف لعمارة الأرض وإصلاحها من يفسد فيها .

---

(1) العكبري من كتاب (إملاء ما منّ به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات في جميع

القرآن) .

(2) كما جاء في القاموس المحيط .

(186/56)

الفوائد

1 - إذ ظرف لما مضى من الزمن ويأتي بعدها جملة ، وفي إعرابها خمسة أوجه :

أ- ظرف . .

ب - مفعول به . .

ج - بدلا من مفعول به . .

د - مضاف إليه على أن يكون المضاف اسم زمان .

ه - وتقع بعد بينا وبينما وحينئذ تكون للمفاجاة " فبينما العسر إذ دارت معاسير .

[سورة البقرة (2) : آية 31]

وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْماءَ كُلَّها ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْماءِ هؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ

صادِقِينَ (31)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (علّم) فعل ماض والفاعل ضمير مستتر تقديره هو أي اللّه (آدم) مفعول به منصوب (الأسماء) مفعول به ثان منصوب (كلّ) توكيد معنوي منصوب و(الهاء) ضمير متّصل في محلّ جرّ مضاف إليه (ثمّ) حرف عطف (عرض) مثل علّم و(هم) ضمير متّصل في محلّ نصب مفعول به (على الملائكة) جارّ ومجرور متعلّق بـ (عرضهم) (الفاء) عاطفة (قال) مثل علّم (أنبئوا) فعل أمر مبنيّ على حذف النون و(الواو) فاعل و(النون) للوقاية و(الياء) مفعول به (بأسماء) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أنبئوني) . (ها) حرف تنبيه (أولاء) اسم إشارة في محلّ جرّ مضاف إليه (إن) حرف شرط جازم (كنتم) فعل ماض ناقص مبنيّ على السكون في محلّ جزم فعل الشرط و(تم) ضمير متّصل في

محلّ رفع اسم كان . (صادقين) خبر كان منصوب وعلامة النصب الياء .

جملة : "علّم . . . "لا محلّ لها استئنافيّة" 1 " .

وجملة : "عرضهم . . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة علّم .

وجملة : "قال . . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة عرضهم .

وجملة : "أنبئوني . . . "في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : "كنتم صادقين" لا محلّ لها استئنافيّة ، وجواب الشرط ، محذوف دلّ عليه ما قبله أي : إن كنتم صادقين فأنبئوني بأسمائهم .

الصرف :

(آدم) ، اسم علم ، والمدّة فيه منقلبة عن همزتين الأولى مفتوحة والثانية ساكنة زنة أفعل وهو مشتق من أديم الأرض أو الأدمة .

(الأسماء) ، جمع اسم . . . انظر البسملة من سورة الفاتحة .

[سورة البقرة (2) : آية 32]

قالُوا سُبْحانَكَ لا عِلْمَ لَنا إِلاَّ ما عَلَّمْتَنا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (32)

الإعراب :

(قالوا) فعل وفاعل (سبحان) مفعول مطلق لفعل محذوف تقديره نسبّح (الكاف) مضاف إليه (لا) نافية للجنس (علم) اسم لا مبنيّ على الفتح في محلّ نصب (اللام) حرف جرّ و(نا) ضمير متّصل في محلّ جر باللام متعلّق بمحذوف خبر لا (إلا) أداة استثناء (ما) حرف مصدريّ " 2 " (علّمت) فعل ماض مبني على السكون و(التاء) فاعل

---

(1) يجوز أن تكون معطوفة بالواو على جملة : قال ربك للملائكة . . . فتكون في محلّ جرّ .

(2) أو اسم موصول في محلّ رفع بدل من محلّ الضمير في خبر لا .

و (نا) مفعول به (إنّ) حرف مشبّه بالفعل للتوكيد و(الكاف) اسم إنّ (أنت) ضمير فصل "1" لا محلّ له (العليم) خبر إنّ مرفوع (الحكيم) خبر ثان مرفوع.

جملة: "قالوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "(نسبّح) سبحان" لا محلّ لها اعتراضيّة دعائية.

وجملة: "لا علم لنا . . . " في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: "علّمتنا" لا محلّ لها صلة الموصول الحرفي (ما).

وجملة: "إنّك أنت العليم" لا محلّ لها تعليلية.

والمصدر المؤوّل (ما علّمتنا) في محلّ رفع بدل من محلّ الضمير المستكنّ في خبر لا وهو كائن أو موجود.

الصرف:

(سبحانك) مصدر سماعيّ لفعل سبح يسبح باب فتح الثلاثي وزنه فعلان بضمّ الفاء.

(علم)، مصدر سماعيّ لفعل علم يعلم باب فرح وزنه فعل بكسر الفاء.

(الحكيم)، صفة مشبّهة من حكم يحكم باب نصر، وزنه فعيل.

[سورة البقرة (2): آية 33]

قالَ يا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمائِهِمْ قالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ ما تُبْدُونَ وَما كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (33)

الإعراب :

(قال) فعل ماض والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (ياء)

---

(1) أو ضمير منفصل في محلّ رفع مبتدأ خبره العليم ، والجملة خبر إنّ .

(188/56)

أداة نداء (آدم) منادى مفرد علم مبنيّ على الضمّ في محلّ نصب (أنبئ) فعل أمر و(هم) ضمير متّصل في محلّ نصب مفعول به ، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت (بأسماء) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أنبئ) و(هم) مضاف اليه . (الفاء) استئنافيّة (لمّا) ظرف بمعنى حين يتضمّن معنى الشرط متعلّق بالجواب قال (أنبأ) فعل ماض و(هم) مفعول به والفاعل هو ، (بأسمائهم) مثل الأول متعلّق بـ (أنبأ) . (قال) مثل الأول (الهمزة) للاستفهام التوبيخي (لم) حرف نفي وقلب وجزم (أقل) مضارع مجزوم ، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنا (اللام) حرف جرّ و(كم) ضمير متّصل في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (أقل) . (إنّ) حرف مشبّه بالفعل و(الياء) اسم إنّ (أعلم) مضارع مرفوع والفاعل أنا (غيب) مفعول به منصوب (السموات) مضاف إليه مجرور (الواو) عاطفة (الأرض) معطوف على السموات مجرور مثله (الواو) عاطفة (أعلم) مثل الأول (ما) اسم موصول في محلّ نصب مفعول به " 1 " ، (تبدون) فعل

مضارع مرفوع و(الواو) فاعل . (الواو) عاطفة (ما) موصول معطوف على ما الأول " 2 " (كنتم) فعل ماض ناقص مبنيّ على السكون (تم) ضمير متّصل في محل رفع اسم كان (تكتمون) مثل تبدون .

جملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " النداء وجوابها " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " أنبئهم . . . " لا محلّ لها جواب النداء وهي من نوع الاستئناف .

---

(1) أو حرف مصدريّ . . والمصدر المسئول في محلّ نصب مفعول به .

(2) أو حرف مصدريّ ، والمصدر المؤوّل في محل نصب معطوف على المصدر المؤوّل الأول .

وجملة : " أنبأهم . . . " في محل جرّ مضاف إليه .

وجملة : " قال الثانية لا محلّ لها جواب الشرط غير الجازم .

وجملة : " لم أقل في محلّ نصب مقول القول لفعل قال .

وجملة : " إنّي أعلم . . . " في محلّ نصب مقول القول لفعل أقل .

وجملة : " أعلم في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " أعلم الثانية في محلّ رفع معطوفة على جملة أعلم الأولى .

وجملة : " تبدون " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : "كنتم " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الثاني وجملة : " تكتمون " في محلّ نصب خبر كنتم .

الصرف :

(أقل) فيه إعلال بالحذف لمناسبة الجزم ، وأصله (أقول) ، وزنه أفل .

(تبدون) ، فيه إعلال بالتسكين وإعلال بالحذف ، أصله تبديون ، استثقلت الضمّة على الياء فسكّنت ونقلت الضمّة إلى الدال – وهو إعلال بالتسكين – ثمّ حذفت ، الياء لالتقائها ساكنة مع واو الجماعة الساكنة وزنه تفعون . وفي الفعل تحذف الهمزة تخفيفا كما حذفت من يؤمنون ويقيمون (انظر الآية 3) .

البلاغة

– المقابلة : حيث طابق بين السموات وبين الأرض وبين تبدون وتكتمون .

هذا وإن الطباق من الألفاظ التي خالفت مضمونها ولذلك سماه بعضهم التضاد والتكافؤ وهو الجمع بين معنيين متضادين .

[سورة البقرة (2) : آية 34]

وَإِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبى وَاسْتَكْبَرَ وَكانَ مِنَ الْكافِرِينَ (34)

الإعراب :

(190/56)

(الواو) استئنافيّة (إذ قلنا للملائكة) سبق إعراب نظيرها " 1 " (اسجدوا) فعل أمر وفاعله . (لآدم) جار ومجرور متعلّق بـ (اسجدوا) ، وعلامة الجرّ الفتحة لامتناعه من الصرف للعلميّة والعجمة (الفاء) استئنافيّة (سجدوا) فعل ماض وفاعله (إلا) أداة استثناء (إبليس) مستثنى بـ (إلا) منصوب ممتنع من التنوين للعلمية والعجمة . (أبى) فعل ماض مبنيّ على الفتح المقدّر على الألف ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو أي إبليس (الواو) عاطفة (استكبر) فعل ماض والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (الواو) اعتراضيّة أو حاليّة (كان) فعل ماض ناقص واسمه ضمير مستتر تقديره هو (من الكافرين) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف خبر كان ، وعلامة الجرّ الياء .

وجملة : " قلنا . . . " في محلّ جرّ بإضافة (إذ) إليها .

وجملة : " اسجدوا . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " سجدوا " لا محلّ لها استئنافية مرتبطة مع ما قبلها برابط السببيّة .

وجملة : " أبى " في محلّ نصب حال بتقدير قد ، أي ترك السجود آبيا له " 2 " .

وجملة : " استكبر " في محلّ نصب معطوفة على جملة أبى .

---

(1) انظر الآية (20) .

(2) يجوز إعرابها استئنافيّة جاءت لتأكيد الاستثناء في إبليس . أو هو استئناف بياني جاء جوابا عن سؤال مقدّر

وجملة : " كان من الكافرين " لا محلّ لها اعتراضيّة ، أو في محلّ نصب حال بتقدير قد .

الصرف :

(قلنا) فيه إعلال بالحذف لمناسبة البناء على السكون ، وهذا يطّرد في كلّ فعل معتلّ أجوف ، وزنه فلنا بحذف عينه .

(إبليس) هو لفظ أعجمي وزنه إفعيل ، وقيل هو عربيّ مشتقّ من الإبلاس وهو اليأس ومنع من الصرف للعلميّة فقط شذوذا .

(أبى) ، فيه إعلال بالقلب ، فالألف أصلها ياء ، والفعل أصله أبي يأبى باب فتح أو أبي يأبى

باب ضرب ، جاءت الياء متحرّكة بعد فتح قلبت ألفا .

(كان) ، فيه إعلال بالقلب ، فالألف منقلبة عن واو ، مضارعه يكون وأصله كون بفتح الواو ، جاءت الواو متحرّكة بعد فتح قلبت ألفا .

[سورة البقرة (2) : آية 35]

وَقُلْنا يا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْها رَغَداً حَيْثُ شِئْتُما وَلا تَقْرَبا هذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونا مِنَ الظَّالِمِينَ (35)

الإعراب :

(الواو) عاطفة (قلنا) فعل ماض مبنيّ على السكون و(نا) فاعل (يا) أداة نداء (آدم) منادى مفرد علم مبنيّ على الضم في محلّ نصب (اسكن) فعل أمر والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت (أنت) ضمير منفصل في محلّ رفع توكيد للفاعل المستتر (الواو) عاطفة (زوج) معطوف على الضمير المستتر تبعه في الرفع " 1 " و(الكاف) مضاف إليه في محلّ

---

(1) هذا الإعراب يصحّ استنادا للقاعدة التي تقول : يغتفر في الثواني ما لا يغتفر في الأوائل . . لأن الأصل ألا يصحّ في النثر مثلا أن يقال : اسكن زوجك – بضمّ الجيم – على أنه فاعل ، بل يقال : لتسكن زوجك . وعلى هذا فإن (زوجك) في الآية الكريمة

جرّ (الجنّة) مفعول به منصوب (الواو) عاطفة (كلا) فعل أمر مبنيّ على حذف النون و(الألف) ضمير متّصل مبنيّ في رفع فاعل (من) حرف جرّ و(الهاء) ضمير متّصل في محلّ جرّ متعلّق بـ (كلا) (رغدا) مفعول مطلق نائب عن المصدر لأنه صفته أي أكلا رغد " 1 " (حيث) ظرف مكان مبنيّ على الضمّ في محلّ نصب متعلّق بـ (كلا) ، (شئتما) فعل وفاعل . . (التاء) فاعل و(ما) حرف عماد دالّ على التثنية (الواو) عاطفة (لا) ناهية جازمة (تقرب) مضارع مجزوم وعلامة جزمه حذف النون و(الألف) ضمير متّصل في محلّ رفع فاعل (ها) حرف تنبيه (ذه) اسم إشارة مبنيّ على الكسر في محلّ نصب مفعول به (الشجرة) بدل من ذه " 2 " تبعه في الجرّ (الفاء) فاء السببيّة (تكونا) مضارع ناقص منصوب بـ (أن) مضمرة بعد فاء السببيّة ، و(الألف) ضمير متّصل في محل رفع اسم تكون (من الظالمين) جار ومجرور متعلّق بمحذوف خبر تكون ، وعلامة الجرّ الياء .

جملة : " قلنا . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة قلنا للملائكة في الآية السابقة .

وجملة : " يا آدم اسكن " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " اسكن . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " كلا منها " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب النداء .

وجملة : " شئتما " في محلّ جرّ بإضافة (حيث) إليها .

عند ابن مالك هو فاعل لفعل محذوف تقديره لتسكن زوجك ، والعطف هو من عطف الجمل لا عطف المفردات .

(1) يجوز أن يكون مصدرا في موضع الحال أي كلا مستطيبين متهنّئين .

(2) أو عطف بيان منه . [. . . . .]

(193/56)

وجملة : " لا تقربا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة النداء .

الصرف :

(كلا) ، فيه حذف فاء الكلمة وهي الهمزة ، ماضيه أكل . .

وزنه علا .

(رغدا) مصدر سماعيّ لفعل رغد يرغد باب فرح ، وزنه فعل بفتحتين .

(حيث) ، ظرف للمكان مبنيّ على الضمّ ، وقد يأتي للزمان أيضا وزنه فعل بفتح فسكون ثمّ البناء على الضمّ .

(شئتما) فيه إعلال بالحذف ، حذفت عينه لالتحاق تاء الفاعل وبناء الفعل على السكون ، وتمّ الحذف لالتقاء الساكنين وزنه فلتما بكسر الفاء .

(الظالمين) جمع الظالم ، اسم فاعل من الثلاثي ظلم وزنه فاعل والجميع فاعلين .

[سورة البقرة (2) : آية 36]

فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطانُ عَنْها فَأَخْرَجَهُما مِمَّا كانا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتاعٌ إِلى حِينٍ (36)

الإعراب :

(الفاء) استئنافيّة (أزلّ) فعل ماض و(هما) ضمير متّصل في محل نصب مفعول به

(الشيطان) فاعل مرفوع (عن) حرف جرّ و(ها) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (أزلّهما) ،

(الفاء) عاطفة (أخرجهما) مثل أزلّهما (من) حرف جرّ (ما) اسم موصول في محل جرّ بـ

(من) " 1 " متعلّق بـ (أخرجهما) . (كان) فعل ماض ناقص و(الألف) ضمير في محلّ رفع

اسم كان (في) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف

---

(1) أو هو نكرة موصوفة بمعنى نعيم أو عيش في محلّ جرّ ، والجملة بعده نعت له .

خبر كان (الواو) عاطفة (قلنا) فعل ماض وفاعله (اهبطوا) فعل أمر مبنيّ على حذف

النون . . والواو فاعل (بعض) مبتدأ مرفوع و(كم) ضمير متّصل في محلّ جرّ مضاف إليه

(لبعض) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف حال من عدوّ – نعت تقدّم على المنعوت – (عدوّ) خبر المبتدأ بعضكم (الواو) عاطفة أو استئنافيّة (اللام) حرف جرّ و(كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف خبر مقدّم (في الأرض) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف الخبر (مستقرّ) مبتدأ مؤخّر مرفوع (متاع) معطوف بالواو على مستقرّ مرفوع مثله (الى حين) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف نعت لـ (متاع) " 1 " .

جملة : " أزلّهما الشيطان " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " أخرجهما " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " كانا فيه " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " قلنا . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " اهبطوا " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " بعضكم لبعض عدو " في محلّ نصب حال أي اهبطوا متعادين " 2 " .

وجملة : " لكم في الأرض مستقرّ " في محلّ نصب معطوفة على جملة الحال أو هي مستأنفة .

الصرف :

(بعض) اسم للجزء أو الطائفة أو الفرد من الشيء ، وزنه فعل بفتح فسكون ، جمعه أبعاض .

(1) أو متعلّق بـ (متاع) لأنه في حكم المصدر .

(2) أو هي استئنافيّة لا محلّ لها .

(195/56)

(عدوّ) ، اسم أشبه المصدر في وزنه ، وعدّه بعضهم مصدرا وزنه فعول ، وقد أدغمت الواو واللام معا لأنهما من ذات الحرف .

(مستقرّ) ، اسم مكان من فعل استقرّ السداسيّ ، فهو على وزن اسم المفعول . وقد يكون مصدرا ميميا بمعنى الاستقرار .

(متاع) ، اسم لما ينتفع به ، وزنه فعال بفتح الفاء ، وقد يكون اسم مصدر لفعل تمتّع واستمتع بكذا . .

(حين) ، اسم بمعنى الوقت والمدّة ، وزنه فعل بكسر الفاء وسكون العين ، والجمع أحيان وجمع الجمع أحايين .

[سورة البقرة (2) : آية 37]

فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِماتٍ فَتابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (37)

الإعراب :

(الفاء) عاطفة (تلقّى) فعل ماض مبنيّ على الفتح المقدّر على الألف (آدم) فاعل مرفوع (من ربّ) جار ومجرور متعلّق بـ (تلقّى) و(الهاء) ضمير متّصل في محلّ جرّ مضاف إليه (كلمات) مفعول به منصوب وعلامة نصبه الكسرة (الفاء) عاطفة (تاب) فعل ماض والفاعل هو أي اللّه (على) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (تاب) .

(إنّ) حرف توكيد ونصب و(الهاء) ضمير متّصل في محلّ نصب اسم إنّ (هو) ضمير فصل " 1 " (التوّاب) خبر إنّ مرفوع (الرحيم) خبر ثان مرفوع.

جملة : " تلقّى آدم . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئناف في الآية السابقة.

وجملة : " تاب عليه " لا محلّ لها معطوفة على جملة تلقّى آدم.

وجملة : " إنّه هو التوّاب " لا محلّ لها تعليليّة.

---

(1) أو ضمير منفصل في محلّ رفع مبتدأ خبره التّواب ، والجملة خبر إنّ .

الصرف :

(تلقّى) ، فيه إعلال بالقلب ، أصله تلقّي بفتح الياء ، تحرّكت الياء بعد فتح قلبت ألفا فأصبح وزنه تفعّل .

(كلمات) ، جمع كلمة اسم لما يتلفّظ به الإنسان مفردا كان أو مركّبا وزنه فعلة بفتح فكسر ففتح أو بكسر فسكون ففتح أو بفتح فسكون ففتح .

(تاب) ، فيه إعلال بالقلب ، أصله توب بفتح الواو لأن المضارع يتوب ، تحرّكت الواو بعد فتح قلبت ألفا قيل تاب .

(التوّاب) ، مشتقّ من تاب يتوب باب نصر فهو مبالغة اسم الفاعل ، وزنه فعّال بفتح الفاء .

(الرحيم) ، انظر الفاتحة الآية (1)

[سورة البقرة (2) : آية 38]

قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْها جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (38)

الإعراب :

(قلنا) فعل وفاعل (اهبطوا) فعل أمر مبنيّ على حذف النون . . والواو فاعل (من) حرف جرّ و(ها) ضمير متّصل في محلّ جرّ متعلّق بـ (اهبطوا) . (جميعا) حال منصوبة أي مجتمعين (الفاء) استئنافيّة (إن) حرف شرط جازم (ما) زائدة (يأتينّ) مضارع مبنيّ على الفتح في محلّ جزم فعل الشرط و(النون) نون التوكيد الثقيلة و(كم) ضمير متّصل في محلّ نصب مفعول به (من) حرف جرّ و(النون) للوقاية و(الياء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (يأتينّ) ، (هدى) فاعل مرفوع وعلامة رفعه الضمّة المقدّرة على الألف ، (الفاء) رابطة

لجواب الشرط إن (من) اسم شرط جازم مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (تبع) فعل ماض والفاعل هو (هدى) مفعول به منصوب وعلامة نصبه الفتحة المقدّرة على الألف و(الياء) مضاف إليه (الفاء) رابطة لجواب الشرط الثاني (لا) نافية مهملة " 1 " .

(خوف) مبتدأ مرفوع (على) حرف جرّ و(هم) ضمير متّصل في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف خبر المبتدأ (الواو) عاطفة (لا) زائدة لتأكيد النفي (هم) ضمير منفصل في محلّ رفع مبتدأ (يحزنون) فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعه ثبوت النون و(الواو) ضمير متّصل في محلّ رفع فاعل .

وجملة : " قلنا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " اهبطوا " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " يأتينّكم " لا محلّ لها استئنافيّة " 2 " .

وجملة : " من تبع هداي " في محلّ جزم جواب الشرط إن مقترنة بالفاء .

وجملة : " تبع هداي " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) " 3 " .

وجملة : " لا خوف عليهم " في محلّ جزم جواب الشرط (من) مقترنة بالفاء .

وجملة : " هم يحزنون " في محل جزم معطوفة على جملة جواب الشرط .

---

(1) أو عاملة عمل ليس ، وخوف اسمها وعليهم خبرها . . هذا وإذا تكرّرت (لا) بالعطف يصحّ في المعطوف والمعطوف عليه الحالات التالية : 1 – إن رفع المعطوف عليه –

بإهمال لا أو بإعمالها عمل ليس - جاز في المعطوف وجهان :

آ - البناء على الفتح . ب - الرفع . 2 - إن نصب المعطوف عليه ، أو بني على الفتح جاز في المعطوف ثلاثة أوجه : آ - النصب . ب - البناء على الفتح - ج - الرفع .

(2) يجوز أن تكون جواب شرط مقدّر ، أي إن تهبطوا منها فإني أنعم عليكم بالهداية .

(3) يجوز أن يكون الخبر جملتي الشرط والجواب معا .

(197/56)

وجملة : " يحزنون " في محل رفع خبر المبتدأ (هم) .

الصرف :

(خوف) مصدر سماعيّ لفعل خاف يخاف باب فرح ، وزنه فعل بفتح فسكون .

الفوائد

" فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً . .

1 - يكثر وقوع " ما " بعد " إن " الشرطية فتدغم فيها نطقا وكتابة كقوله تعالى " إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُما ، أَوْ كِلاهُما فَلا تَقُلْ لَهُما أُفٍّ " وقوله تعالى : " فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ " وتسمّى في هذه الصورة " إن المؤكدة بما " .

وثمة أنواع أخرى لـ " إن " منها " إن " المخفّفة من الثقيلة ، و " إن " النافية الناسخة و " إن " النافية التي لا تعمل " و إن " الشرطية التي لا تجزم وهي أقلها ورودا في كلام العرب والأفضل إهمالها . . .

2 - إذا وقع اسم الشرط مبتدأ كقولهم " مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ " ففي الخبر ثلاثة أقوال : الأول جملة فعل الشرط . والثاني جملة جواب الشرط والثالث الجملتان معا وهذا ما نرتاح اليه .

[سورة البقرة (2) : آية 39]

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (39)

الإعراب :

(الواو) عاطفة (الذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (كفروا) فعل ماض وفاعله (الواو) عاطفة (كذّبوا) مثل كفروا (بآيات) جارّ ومجرور متعلّق بـ (كذّبوا) و(نا) ضمير متّصل في محلّ جرّ مضاف إليه (أولاء) اسم إشارة مبنيّ على الكسر في محلّ رفع مبتدأ و(الكاف) حرف خطاب ، (أصحاب) خبر مرفوع (النار) مضاف إليه مجرور (هم) ضمير منفصل في محلّ رفع مبتدأ (في) حرف جرّ و(ها) ضمير متّصل في محلّ جرّ متعلّق بـ (خالدون) وهو خبر المبتدأ هم مرفوع وعلامة رفعه الواو .

جملة : " الذين كفروا " في محلّ جزم معطوفة على جملة من تبع هداي في الآية السابقة " 1 "

.

وجملة : "كفروا " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : "كذّبوا " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة : " أولئك أصحاب النار " في محلّ رفع خبر المبتدأ (الذين) .

(198/56)

وجملة : " هم فيها خالدون " في محلّ نصب حال من أصحاب أو من النار .

الصرف :

(آيات) ، جمع آية ، اسم بمعنى العلامة ، وأصلها أيية ، فاؤها همزة وعينها ولأمها ياءان لأنها من تأيّى القوم إذا اجتمعوا . . ثم أبدلوا الياء الأولى ألفا لتحرّكها وانفتاح ما قبلها ، فاجتمعت الهمزة والألف الساكنة فأدغمتا ووضع فوقهما مدّة . ووزن آيات فعلات .

(أصحاب) ، جمع صاحب ، وهو اسم فاعل من صحب يصحب باب فرح ، وزنه فاعل .

[سورة البقرة (2) : آية 40]

يا بَنِي إِسْرائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (40)

الإعراب :

(يا) أداة نداء (بني) منادى مضاف منصوب وعلامة نصبه

---

(1) يجوز قطعها على الاستئناف فلا محلّ لها .

الياء لأنه ملحق بجمع المذكر السالم ، (إسرائيل) مضاف إليه مجرور وعلامة جرّه الفتحة فهو ممنوع من الصرف للعلميّة والعجمة (اذكروا) فعل أمر مبنيّ على حذف النون . . والواو فاعل (نعمة) مفعول به منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدرة على ما قبل ياء المتكلّم منع من ظهورها اشتغال المحلّ بحركة المناسبة و(الياء) ضمير متّصل في محلّ جرّ مضاف إليه (التي) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب نعت لـ (نعمتي) ، (أنعمت) فعل ماض وفاعله (على) حرف جرّ و(كم) ضمير متّصل في محلّ جرّ متعلّق بـ (أنعمت) ، (الواو) عاطفة (أوفوا) مثل اذكروا (بعهد) جار ومجرور وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على ما قبل الياء متعلّق بـ (أوفوا) ، (الياء) مضاف إليه (أوف) فعل مضارع مجزوم بجواب الطلب وعلامة الجزم حذف حرف العلّة ، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنا (بعهدكم) جارّ ومجرور ومضاف إليه متعلّق بـ (أوف) . (الواو) عاطفة (إيّاي) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ نصب

مفعول به لفعل محذوف تقديره ارهبوا (الفاء) زائدة " 1 " ، (ارهبوا) فعل أمر مبني على حذف النون . . والواو فاعل و(النون) للوقاية ، وقت الفعل من الكسر باتّصاله بياء المتكلّم التي حذفت للتخفيف وهي مفعول به .

جملة : " يا بني إسرائيل . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " اذكروا . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " أنعمت . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (التي) .

---

(1) جاءت لتوكيد المعنى وتزيين اللفظ – عند الفارسيّ – وهي عاطفة عند غيره ، عطفت الجملة المذكورة على الجملة المقدّرة ارهبوا أو على جملة مقدّرة جديدة ، أي تنبّهوا فارهبوني وهو اختيار أبي حيّان .

وجملة : " أوفوا . . " لا محل لها معطوفة على جملة النداء .

وجملة : " أوف . . . " لا محلّ لها جواب شرط مقدّر غير مقترنة بالفاء أي : إن توفوا أوف .

وجملة : " (ارهبوا) المقدّرة " لا محلّ لها معطوفة على جملة النداء .

وجملة : " ارهبون " لا محلّ لها تفسير للجملة المقدّرة .

الصرف :

(بني) ، جمع ابن ، والألف في ابن عوض من لام الكلمة المحذوفة فأصلها بنو .

(إسرائيل) ، علم أعجمي ، وقد يلفظ بتخفيف الهمزة إسرايبل ، وقد تبقى الهمزة وتحذف الياء أي إسرائل ، وقد تحذف الهمزة والياء معا أي :

إسرال .

(نعمة) ، الاسم لما ينعم به لفعل نعم ينعم بابي نصر وفتح ونعم ينعم باب فرح ، وزنه فعلة بكسر فسكون .

(أوفوا) ، فيه إعلال بالحذف مع الإعلال بالتسكين ، أصله أوفيوا ، بضمّ الياء ، استثقلت الضمّة على الياء فسكّنت ونقلت حركتها إلى الفاء – وهو إعلال بالتسكين – ثمّ حذفت الياء لسكونها وسكون واو الجماعة ، فقيل أوفوا ، وزنه أفعوا .

(أوف) ، فيه إعلال بالحذف لمناسبة الجزم ، وزنه أفع .

[سورة البقرة (2) : آية 41]

وَآمِنُوا بِما أَنْزَلْتُ مُصَدِّقاً لِما مَعَكُمْ وَلا تَكُونُوا أَوَّلَ كافِرٍ بِهِ وَلا تَشْتَرُوا بِآياتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ (41)

الإعراب :

(الواو) عاطفة (آمنوا) فعل آمر . . والواو فاعل ، (الباء) حرف جرّ (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ بالباء متعلّق بـ (آمنوا) ،

والعائد محذوف (أنزلت) فعل ماض وفاعله (مصدّقا) حال من الضمير المفعول في أنزلت

(اللام) لام التقوية زائدة (ما) اسم موصول في محلّ نصب مفعول به لاسم الفاعل " 1 " .

(201/56)

(مع) ظرف مكان منصوب متعلّق بمحذوف صلة الموصول و(كم) ضمير متّصل في محلّ جرّ مضاف إليه (الواو) عاطفة (لا) ناهية جازمة (تكونوا) مضارع ناقص مجزوم وعلامة الجزم حذف النون و(الواو) ضمير متّصل في محلّ رفع اسم تكون (أول) خبر تكون منصوب (كافر) مضاف إليه مجرور (الباء) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جر متعلّق بـ (كافر) ، (الواو) عاطفة (لا تشتروا) مثل لا تكونوا ولكنّه تام بتضمينه معنى تستبدلوا (بآيات) جارّ ومجرور متعلّق بـ (تشتروا) ، و(الياء) مضاف إليه (ثمنا) مفعول به منصوب (قليلا) نعت لـ (ثمنا) منصوب مثله (الواو) عاطفة (إياي فاتّقون) مثل اياي فارهبون في الآية السابقة .

جملة : " آمنوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب النداء في الآية السابقة .

وجملة : " أنزلت " لا محلّ لها صلة الموصول .

وجملة : " لا تكونوا " لا محلّ لها معطوفة على جملة آمنوا .

وجملة : " لا تشتروا " لا محلّ لها معطوفة على جملة آمنوا .

وجملة : " (اتقوا) المقدّر " لا محلّ لها معطوفة على جملة آمنوا .

وجملة : " اتّقون " لا محلّ لها تفسيريّة للجملة المقدّرة .

---

(1) هذا المحلّ الأبعد ، أما الأقرب ففي محلّ جرّ باللام ، ويجوز تعليق اللام بـ (مصدّقا) .

الصرف :

(مصدّقا) ، اسم فاعل من صدّق الرباعيّ ، فهو على وزن مضارعه بإبدال حرف المضارعة ميما مضمومة وكسر ما قبل الآخر .

(أوّل) ، وزنه أفعل وفاؤه وعينه واوان ، ولم يتصرّف منه فعل لاعتلال الفاء والعين ، وقال بعضهم أنه من آل يؤول ، فأصل الكلمة أأول ثمّ أخّرت الهمزة الثانية فجعلت بعد الواو أوأل ، ثمّ خفّفت الهمزة الثانية بإبدالها واوا ، ثمّ أدغمت مع الواو الأولى . . وهذا رأي بعض الكوفيين .

(تشتروا) ، فيه إعلال بالتسكين وبالحذف ، أصله تشتريوا بضمّ الياء ، استثقلت الضمّة

على الياء فنقلت حركتها إلى الراء وتسكينها ، ثمّ حذفت الياء لسكونها وسكون الواو بعدها ، فأصبح تشتروا وزنه تفتعوا .

(اتّقون) ، فيه إعلال بالتسكين وبالحذف جرى فيه مجرى تشتروا ، كما أنّ فيه إبدال الواو – فاء الكلمة – تاء كما جرى في تتّقون . . انظر الآية (21) . . وحذف منه ياء المتكلّم تخفيفا ليناسب اللفظ فواصل الآيات .

(قليلا) ، صفة مشبّهة من قلّ يقلّ باب ضرب ، وزنه فعيل .

الفوائد

– " وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ . فضمير النصب " إيّا " منصوب على الاشتغال وبيان ذلك أن مفعول الفعل " اتقى " محذوف للتخفيف بدليل وجود نون الوقاية التي تفصل بين الفعل ومفعوله وتقديره " اتقوني " أما الضمير " إيّا " فهو منصوب بفعل محذوف يفسره الفعل المذكور .

[سورة البقرة (2) : آية 42]

وَلا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْباطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (42)

الإعراب :

(الواو) عاطفة (لا تلبسوا) مثل لا تكونوا في الآية السابقة

ولكنّه تام (الحقّ) مفعول به منصوب (بالباطل) جارّ ومجرور متعلّق بـ (تلبسوا) ، (الواو) عاطفة أو واو المعيّة (تكتموا) مضارع مجزوم معطوف على تلبسوا – أو منصوب بـ (أن)

مضمرة بعد واو المعيّة - " 1 " . . والواو فاعل (الحق) مفعول به منصوب (الواو) حاليّة (أنتم) ضمير منفصل في محل رفع مبتدأ (تعلمون) مضارع مرفوع . . الواو فاعل .

جملة : "لا تلبسوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة النهي في السابقة .

وجملة : " تكتموا . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة تلبسوا .

وجملة : " أنتم تعلمون " في محلّ نصب حال .

وجملة : " تعلمون " في محلّ رفع خبر المبتدأ (أنتم) .

الصرف :

(الباطل) ، اسم فاعل من بطل يبطل باب كرم ، وهو ضدّ الحقّ ، وزنه فاعل .

[سورة البقرة (2) : آية 43]

وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ (43)

الإعراب :

(الواو) عاطفة ، (أقيموا) فعل أمر مبنيّ على حذف النون . . والواو فاعل (الصلاة) مفعول به منصوب (الواو) عاطفة (آتوا) مثل أقيموا (الزكاة) مفعول به منصوب ، (الواو) عاطفة (اركعوا) مثل أقيموا (مع) ظرف مكان منصوب متعلّق بـ (اركعوا) ، (الراكعين) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الياء .

وجملة : " قيموا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة لا تلبسوا . . في الآية السابقة .

(1) والمصدر المؤوّل من (أنّ) والفعل معطوف على مصدر متصيّد من الكلام السابق أي : لا يكن منكم لبس للحقّ بالباطل وكتم للحقّ .

(203/56)

وجملة : " آتوا الزكاة " لا محلّ لها معطوفة على جملة أقيموا .

وجملة : " اركعوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أقيموا .

الصرف :

(أقيموا) ، فيه إعلال بالقلب ، أصله أقوموا ، جرى فيه مجرى (يقيمون) في الآية (3) .

(الصلاة) ، اسم مصدر من صلّى الرباعيّ ، والألف فيه منقلبة عن واو لأنّ جمعها صلوات ، جاءت الواو متحرّكة وفتح ما قبلها قلبت ألفا وزنه فعلة بتحريك الفاء والعين واللام بالفتح . . انظر الآية (3) .

(آتوا) ، فيه إعلال بالتسكين وبالحذف ، أصله آتيوا بضمّ الياء ، استثقلت الضمّة على الياء فسكنت – وهو إعلال بالتسكين – ثمّ حذفت لالتقائها ساكنة مع الواو الساكنة – وهو إعلال بالحذف – ثمّ حرّكت التاء بالضمّ بحركة الياء المحذوفة .

(الزكاة) ، فيه إعلال بالقلب ، فالألف منقلبة عن واو لقولهم زكا يزكو ، جاءت الواو

متحرّكة بعد فتح قلبت ألفا . وزنه فعلة بتحريك الفاء والعين واللام بالفتح .

(الراكعين) ، جمع الراكع ، وهو اسم فاعل من ركع يركع باب فتح ، وزنه فاعل .

البلاغة

(204/56)

- المجاز المرسل : في قوله تعالى وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ ، وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ أي صلوا مع المصلين ، فعبّر بالجزء وهو الركوع وأراد الكل وهو الصلاة . فعلاقة هذا المجاز جزئية .

[سورة البقرة (2) : آية 44]

أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ (44)

الإعراب :

(الهمزة) للاستفهام الإنكاري (تأمرون) مضارع مرفوع . .

والواو فاعل (الناس) مفعول به منصوب (بالبرّ) جارّ ومجرور متعلّق بـ (تأمرون) ، (الواو) عاطفة (تنسون) مثل تأمرون (أنفس) مفعول به منصوب و(كم) ضمير متّصل في محل جرّ مضاف إليه (الواو) حاليّة (أنتم) ضمير منفصل في محل رفع مبتدأ (تتلون) مثل تأمرون (الكتاب) مفعول به منصوب . (الهمزة) للاستفهام التوبيخي الإنكاري (الفاء) عاطفة (لا)

نافية (تعقلون) مثل تأمرون .

جملة : " تأمرون . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

جملة : " تنسون . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

جملة : " أنتم تتلون . . . " في محلّ نصب حال من فاعل تنسون .

جملة : " تتلون . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (أنتم) .

جملة : " تعقلون " لا محلّ لها (معطوفة) على الاستئنافيّة "

.

الصرف :

(البرّ) ، اسم لجميع أنواع الخير وفعله برّ يبرّ باب فرح ، وزنه فعل بكسر فسكون .

(تنسون) ، فيه إعلال بالحذف ، أصله تنساون ، التقى سكونان الألف والواو ، فحذفت الألف تخلّصا من الساكنين وبقي ما قبل الواو مفتوحا دلالة عليها ، وزنه تفعون .

---

(1) الزمخشري يعطفها على جملة مقدّرة بعد الهمزة أي : أ تغفلون فلا تعقلون ؟

(تتلون) ، فيه إعلال بالحذف ، أصله تتلوون ، التقى ساكنان لام الكلمة وواو الجماعة ، حذفت لام الكلمة تخلّصا من التقاء الساكنين ، وزنه تفعون .

البلاغة

- قوله تعالى وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتابَ حيث صدّر الكلام بالضمير للتبكيت وزيادة التقبيح .

[سورة البقرة (2) : آية 45]

وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّها لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخاشِعِينَ (45)

الإعراب :

(الواو) عاطفة (استعينوا) فعل أمر مبنيّ على حذف النون . . والواو فاعل (بالصبر) جارّ ومجرور متعلّق بـ (استعينوا) ، (الصلاة) معطوف بالواو على الصبر مجرور مثله . (الواو) حاليّة (إن) حرف مشبّه بالفعل للتوكيد و(الهاء) اسم إنّ و(اللام) هي المزحلقة تفيد التوكيد (كبيرة) خبر إنّ مرفوع (إلا) أداة حصر " 1 " . (على الخاشعين) جارّ ومجرور متعلّق بـ (كبيرة) .

جملة : " استعينوا . . " لا محل لها معطوفة على جملة أقيموا الإنشائية الواردة في الآية (43) ، وما بين الجملتين من نوع الاعتراض .

وجملة : " إنها لكبيرة . . " في محلّ نصب حال .

الصرف :

(الصبر) ، مصدر سماعيّ لفعل صبر يصبر باب ضرب ، وزنه فعل بفتح فسكون .

---

(1) النفي قبلها مقدّر ، أي : إنّها لا تخفّ ولا تسهل إلا على الخاشعين .

(كبيرة) ، مؤنّث كبير وهو صفة مشبّهة من كبر الثلاثي باب فرح وزنه فعيل .

(الخاشعين) ، جمع الخاشع اسم فاعل من خشع الثلاثي باب فتح ، وزنه فاعل .

[سورة البقرة (2) : آية 46]

الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ راجِعُونَ (46)

الإعراب :

(الذين) اسم موصول في محلّ جرّ نعت لـ (الخاشعين) " 1 " ، (يظنّون) فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعه ثبوت النون . . الواو فاعل (أنّ) حرف توكيد ونصب و(هم) ضمير متّصل في محلّ نصب اسم أنّ (ملاقو) خبر أنّ مرفوع وعلامة رفعه الواو ، وحذفت النون للإضافة .

وأنّ واسمها وخبرها في تأويل مصدر سدّ مسدّ مفعولي يظنّون .

(الواو) عاطفة (أنّهم) مثل سابقه (الى) حرف جرّ (الهاء) مضاف إليه ، متعلّق بـ

(راجعون) خبر أنّ ، والمصدر المؤول من أنّ واسمها وخبرها معطوف على المصدر المؤوّل السابق .

جملة : " يظنون . . " لا محلّ لها صلة الموصول .

الصرف :

(ملاقو) ، جمع الملاقي ، اسم فاعل من لاقى الرباعيّ ، فهو على وزن مضارعه بإبدال حرف المضارعة ميما مضمومة وكسر ما قبل آخره ، و(ملاقو) فيه إعلال بالحذف ، أصله ملاقيو بضمّ الياء ، استثقلت الضمّة على الياء فسكّنت ونقلت حركتها إلى القاف – وهو إعلال بالتسكين – ثمّ حذفت الياء تخلّصا من التقاء الساكنين .

---

(1) يجوز أن يكون خبرا لمبتدأ محذوف تقديره هم ، والجملة استئنافيّة . [. . . . .]

(راجعون) ، جمع راجع اسم فاعل من رجع الثلاثي باب ضرب ، على وزن فاعل .

الفوائد

اللام في قوله تعالى " وَإِنَّها لَكَبِيرَةٌ " تدعى اللام المزحلقة لأن الأصل أن تكون في أول المبتدأ ولكن عند ما اجتمع مؤكدان أقواهما " إنّ " فقد استقلّت " إنّ " في أول المبتدأ ودفعت بـ "

اللام " إلى أول الخبر فقيل انها تزحلقت وسميت المزحلقة .

[سورة البقرة (2) : آية 47]

يا بَنِي إِسْرائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعالَمِينَ (47)

الإعراب :

يا بَنِي إِسْرائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ مرّ إعرابها مفردات وجملا (الآية 40) .

(الواو) عاطفة (أنّ) حرف مشبّه بالفعل و(الياء) ضمير في محلّ نصب اسم أنّ (فضّلت) فعل وفاعل و(كم) ضمير في محلّ نصب مفعول به (على العالمين) جارّ ومجرور متعلّق بـ (فضّلتكم) ، وعلامة الجرّ الياء لأنه ملحق بجمع المذّكر السالم.

والمصدر المؤوّل من (أنّ) واسمها وخبرها في محلّ نصب معطوف على المصدر (نعمة) في قوله اذكروا نعمتي . . .

[سورة البقرة (2) : آية 48]

وَاتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلا يُقْبَلُ مِنْها شَفاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْها عَدْلٌ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ (48)

الإعراب :

(الواو) عاطفة (اتّقوا) فعل أمر وفاعله (يوما) مفعول به منصوب على حذف مضاف أي أهوال يوم (لا) نافية (تجزي) مضارع مرفوع وعلامة رفعه الضمّة المقدّرة على الياء (نفس)

فاعل مرفوع (عن نفس) جارّ ومجرور متعلّق بـ (تجزي) " 1 " ، (شيئا) مفعول مطلق نائب عن

---

(1) أو بمحذوف حال من (شيئا) .

المصدر أي لا تجزي جزاء لا قليلا ولا كثيرا أو لا تجزي شيئا من الجزاء . (الواو) عاطفة (لا) نافية (يقبل) مضارع مبنيّ للمجهول مرفوع (من) حرف جرّ و(ها) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (يقبل) ، (شفاعة) نائب فاعل مرفوع . (الواو) عاطفة (لا يؤخذ منها عدل) تعرب كنظيرتها المتقدّمة . (الواو) عاطفة (لا) نافية مهملة (هم) ضمير منفصل في محل رفع مبتدأ (ينصرون) مضارع مبنيّ للمجهول مرفوع وعلامة رفعه ثبوت النون . . . والواو نائب فاعل .

جملة : " اتّقوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب النداء في الآية (47) .

وجملة : " لا تجزي نفس " في محلّ نصب نعت لـ (يوما) ، والرابط محذوف تقديره فيه أي : لا تجزي فيه .

وجملة : " لا يقبل منها شفاعة في محلّ نصب معطوفة على جملة لا تجزي والرابط مقدّر .

وجملة : " لا يؤخذ منها عدل " في محلّ نصب معطوفة على جملة لا تجزي والرابط مقدّر .

وجملة : " لا هم ينصرون " في محلّ نصب معطوفة على جملة لا تجزي والرابط مقدّر " 1 "

.

وجملة : " ينصرون " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هم) .

الصرف :

(نفس) ، اسم بمعنى الروح أو الجسد أو الشخص ، وزنه فعل بفتح فسكون .

---

(1) عاد الضمير مذكّرا جمعا على النفس لأنها هنا بمعنى العباد أو الأناسيّ .

(شفاعة) ، مصدر شفع يشفع باب فتح وزنه فعالة بفتح الفاء .

(عدل) ، مصدر عدل يعدل باب ضرب ، بمعنى الفداء ، وزنه فعل بفتح فسكون .

البلاغة

- أتى بالجملة المعطوفة الأخيرة وهي " وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ " اسمية مع أن الجمل التي قبلها فعلية للمبالغة والدلالة على الثبات والدّيمومة أي أنهم غير منصورين دائما ولا عبرة بما يصادفونه من نجاح .

[سورة البقرة (2) : آية 49]

وَإِذْ نَجَّيْناكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذابِ يُذَبِّحُونَ أَبْناءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِساءَكُمْ وَفِي ذلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (49)

الإعراب :

(الواو) عاطفة (إذا) اسم ظرفي في محلّ نصب مفعول به لفعل محذوف تقديره اذكروا (نجينا) فعل ماض وفاعله و(كم) ضمير في محلّ نصب مفعول به (من آل) جارّ ومجرور متعلّق بـ (نجّينا) ، (فرعون) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الفتحة لامتناعه من الصرف للعلميّة والعجمة (يسومون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل و(كم) مفعول به (سوء) مفعول به ثان منصوب (العذاب) مضاف إليه مجرور (يذبّحون) مضارع مرفوع وفاعله (أبناء) مفعول به منصوب و(كم) مضاف إليه (الواو) عاطفة (يستحيون نساءكم) مثل يذبّحون أبناءكم . (الواو) استئنافية (في) حرف جرّ (ذا) اسم اشارة مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف خبر مقدّم ، و(اللام) للبعد و(الكاف) للخطاب و(الميم) لجمع الذكور (بلاء) مبتدأ مؤخّر مرفوع (من ربّ) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف نعت لـ (بلاء) و(كم) مضاف إليه (عظيم) نعت ثان لـ (بلاء) مرفوع مثله .

جملة : " نجّيناكم . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " يسومونكم " في محل نصب حال من (آل فرعون) .

وجملة : " يذبّحون " في محلّ نصب بدل من جملة يسومونكم " 1 " .

وجملة : " يستحيون " في محلّ نصب معطوفة على جملة يذبّحون .

وجملة : " في ذلكم بلاء " لا محلّ لها استئنافيّة " 2 " .

الصرف :

(210/56)

(آل) ، أصل الهمزة هاء أي أهل فأبدلت الهاء بالهمزة لقربها منها في المخرج ثمّ قلبت الهمزتان مدة لأن الأولى مفتوحة والثانية ساكنة ، وقيل : أصل آل أول من آل يؤول لأن الإنسان يؤول إلى أهله .

(فرعون) ، اسم أعجميّ معرفة ، لقب لمن ملك مصر . قيل : ولا يعرف لفرعون تفسير بالعربيّة . وقد اشتقّ من هذا اللقب – لعتوّ صاحبه وجبروته – فعل تفرعن أي أصبح ذا دهاء ومكر .

(سوء) ، اسم لما يزعج الإنسان من أمر دنيوي أو أخروي ، وهو في الأصل مصدر ويؤنّث بالألف السوءى ، وزنه فعل بضمّ فسكون .

(العذاب) ، اسم مصدر لفعل عذّب لأن حروفه نقصت عن حروف المصدر وهو

تعذيب . وزنه فعال بفتح الفاء . . وانظر الآية (7) من هذه السورة .

(أبناء) ، جمع ابن – انظر الآية 40 – (يستحيون) ، فيه إعلال بالحذف ، أصله يستحييون بكسر الياء الأولى ، وقد جرى فيه الحذف مجرى تشتروا (الآية 41) .

(نساء) ، الهمزة فيه منقلبة عن واو لظهورها في مرادفه نسوة أو

---

(1) أو هي حال من فاعل يسومونكم .

(2) أو معترضة بين جمل الحديث عن بني إسرائيل .

نسوان ، أصله نساو ، فلمّا جاءت الواو متطرّفة بعد الألف قلبت همزة وهذا القلب مطّرد . وهو جمع لا مفرد له من لفظه ، مفرده امرأة .

(بلاء) مصدر سماعيّ لفعل بلا يبلو باب نصر ، والهمزة فيه منقلبة عن واو – كما ظهر في الفعل – وزنه فعال بفتح الفاء .

البلاغة

1 – المجاز المرسل : في قوله تعالى يُذَبِّحُونَ أَبْناءَكُمْ فقد ذبحوا بعض الأبناء فقط ، لأنهم لم يذبحوا الأصاغر والأكابر فعلاقة هذا المجاز العموم .

[سورة البقرة (2) : آية 50]

وَإِذْ فَرَقْنا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْناكُمْ وَأَغْرَقْنا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (50)

الإعراب :

(الواو) عاطفة (إذ فرقنا) مثل إذ نجّينا في الآية السابقة (الباء) حرف جرّ و(كم) ضمير في محلّ جر متعلّق بـ (فرقنا) والباء للسببيّة ، (البحر) مفعول به منصوب (الفاء) عاطفة (أنجينا) فعل ماض مبنيّ على السكون و(نا) ضمير في محلّ رفع فاعل و(كم) ضمير في محلّ نصب مفعول به (الواو) عاطفة (أغرقنا) مثل أنجينا (آل) مفعول به منصوب (فرعون) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الفتحة ، (الواو) حاليّة (أنتم) ضمير منفصل في محلّ رفع مبتدأ (تنظرون) مضارع مرفوع . .

والواو فاعل .

جملة : " فرقنا . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " أنجيناكم " في محلّ جرّ معطوفة على جملة فرقنا .

وجملة : " أغرقنا . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة فرقنا .

وجملة : " أنتم تنظرون " في محلّ نصب حال .

وجملة : " تنظرون " في محلّ رفع خبر المبتدأ (أنتم) .

الصرف :

(البحر) ، اسم جامد للماء الكثير والمالح ، وزنه فعل بفتح فسكون .

[سورة البقرة (2) : آية 51]

وَإِذْ واعَدْنا مُوسى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظالِمُونَ (51)

الإعراب :

(الواو) عاطفة (إذ واعدنا) مثل إذ فرقنا . . . أو نجّينا (موسى) مفعول به منصوب وعلامة نصبه الفتحة المقدّرة على الألف (أربعين) مفعول به ثان منصوب وعلامة النصب الياء فهو ملحق بجمع المذكّر السالم (ليلة) تمييز منصوب (ثمّ) حرف عطف (اتّخذتم) فعل ماض وفاعله (العجل) مفعول به منصوب وهو المفعول الأول ، أمّا الثاني فمحذوف تقديره (إلها) . (من بعد) جار ومجرور متعلّق بـ (اتّخذتم) ، و(الهاء) ضمير متّصل مضاف إليه ، (الواو) حاليّة (أنتم) ضمير منفصل مبتدأ (ظالمون) خبر مرفوع وعلامة الرفع الواو .

جملة : " واعدنا . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " اتخذتم . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة واعدنا .

وجملة : " أنتم ظالمون " في محلّ نصب حال .

الصرف :

(موسى) ، اسم أعجمي علم . وقيل هو من أوسيت رأسه إذا حلقته ، فهو على وزن اسم المفعول وقيل هو فعلى بضمّ الفاء من ماس يميس إذا تبختر ، فالواو في موسى على هذا بدل من الياء لسكونها وانضمام ما قبلها ، ولكنّ هذا الكلام لا ينطبق على اسم النبيّ ، بل ينطبق على الموسى الذي يقطع .

(أربعين) ، اسم من أسماء ألفاظ العقود في الأعداد ، وهو ملحق بجمع المذكر .

(ليلة) ، مؤنث ليل من مغرب الشمس إلى طلوع الفجر ، وقيل الليلة واحدة الليل على أنّه اسم جمع ، وقيل الليل والليلة بمعنى واحد ، والجمع الليالي .

(العجل) ، اسم جامد للحيوان المعروف وزنه فعل بكسر فسكون .

[سورة البقرة (2) : آية 52]

ثُمَّ عَفَوْنا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (52)

الإعراب :

(ثمّ) حرف عطف للتراخي (عفونا) فعل ماض وفاعله (عن) حرف جرّ و(كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (عفونا) ، (من بعد) جارّ ومجرور متعلّق بـ (عفونا) ، (ذا) اسم إشارة مبنيّ في محلّ جرّ مضاف إليه و(اللام) للبعد و(الكاف) للخطاب (لعلّ) حرف مشبّه بالفعل و(كم) اسم لعلّ في محلّ نصب ، (تشكرون) مضارع مرفوع و(الواو) فاعل .

جملة : عفونا في محلّ جرّ معطوفة على جملة اتخذتم العجل في الآية السابقة .

وجملة : " لعلّكم تشكرون " لا محلّ لها تعليليّة " 1 " .

وجملة : " تشكرون " في محلّ رفع خبر لعلّ .

الصرف :

(عفونا) ، أعيدت الألف إلى أصلها حين أسند الفعل إلى ضمير جمع المتكلّم .

---

(1) أو في محلّ نصب حال من الضمير في عنكم أي : مرتجين تقديم الشكر .

[سورة البقرة (2) : آية 53]

وَإِذْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ وَالْفُرْقانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (53)

الإعراب :

(الواو) عاطفة (إذا آتينا) مثل إذ نجّيناكم " 1 " ، (موسى) مفعول به منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على الألف (الكتاب) مفعول به ثان منصوب (الفرقان) معطوف بالواو على الكتاب منصوب مثله (لعلّكم تهتدون) مثل لعلّكم تشكرون في الآية السابقة .

جملة : " آتينا . . . " في محلّ جرّ بإضافة إذ إليها .

وجملة : " لعلّكم تهتدون " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " تهتدون " في محلّ رفع خبر لعلّ .

الصرف :

(آتينا) ، المدّة منقلبة عن همزتين : الأولى مفتوحة والثانية ساكنة لأن المضارع يؤتي ، وقد عادت الألف لام الكلمة إلى أصلها لاتّصالها بضمير المتكلّم الجمع ، وزن آتينا أفعلنا .

(الفرقان) ، هو في الأصل مصدر سماعيّ لفعل فرق يفرق من بابي نصر وضرب ، ثمّ جعل اسما للقرآن الكريم ، وزنه فعلان بضمّ فسكون .

(تهتدون) ، فيه إعلال بالحذف ، وأصله تهتديون بضمّ الياء ، والحذف فيه جرى مجرى (تشتروا) ، في الآية (41) . وزنه تفتعون .

[سورة البقرة (2) : آية 54]

وَإِذْ قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ يا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلى بارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بارِئِكُمْ فَتابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (54)

الإعراب :

(الواو) عاطفة (إذ) اسم دال على ما مضى من الزمن في

---

(1) في الآية (49) من هذه السورة .

محلّ نصب معطوف على إذ المفعول به في الآية السابقة (قال) فعل ماض (موسى) فاعل مرفوع وعلامة رفعه الضمّة المقدّرة على الألف (لقوم) جارّ ومجرور متعلّق بـ (قال) ، و(الهاء) مضاف إليه . (يا) أداة نداء (قوم) منادى مضاف منصوب وعلامة نصبه الفتحة المقدّرة على ما قبل الياء المحذوفة للتخفيف ، و(الياء) المحذوفة مضاف إليه (إنّ) حرف مشبّه بالفعل للتوكيد و(كم) ضمير متّصل في محلّ نصب اسم إنّ (ظلمتم) فعل ماض وفاعله (أنفس) مفعول به منصوب و(كم) مضاف إليه (باتّخاذ) جارّ ومجرور متعلّق بـ (ظلمتم) ، والباء للسببيّة و(كم) مضاف إليه (العجل) مفعول به للمصدر اتّخاذ ، والمفعول الثاني محذوف تقديره إلها . (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر ربط السبب بالمسبّب (توبوا) فعل أمر مبنيّ على حذف النون . . . والواو فاعل (الى بارئ) جارّ ومجرور متعلّق بـ (توبوا) و(كم) مضاف إليه (الفاء) عاطفة (اقتلوا) مثل توبوا (أنفس) مفعول به منصوب و(كم) مضاف إليه . (ذا) اسم إشارة في محلّ رفع مبتدأ والإشارة إلى القتل و(اللام) للبعد و(الكاف) للخطاب و(الميم) لجمع الذكور (خير) خبر مرفوع (اللام) حرف جرّ و(كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (خير) ، (عند) ظرف مكان منصوب متعلّق بـ (خير) ، (بارئ)

مضاف إليه مجرور و(كم) ضمير في محلّ جرّ . (الفاء) عاطفة (تاب) فعل ماض والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (على) حرف جرّ (وكم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (تاب) . (إنّ) حرف مشبّه بالفعل للتوكيد و(الهاء) اسم إنّ (هو) ضمير فصل " 1 " ، (التوّاب) خبر انّ مرفوع (الرحيم) خبر ثان مرفوع .

جملة : " قال موسى . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

(1) أو ضمير منفصل مبتدأ خبره التّواب ، والجملة خبر إنّ .

وجملة : " النداء وجوابها " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " إنّكم ظلمتم . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " ظلمتم . . . " في محل رفع خبر إنّ .

(215/56)

وجملة : " توبوا . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي : إن أردتم عفو اللّه وغفرانه فتوبوا إليه " 1 " .

وجملة : " اقتلوا " في محلّ جزم معطوفة على جملة توبوا .

وجملة : " ذلكم خير لكم " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " تاب عليكم " معطوفة على جملة مقدّرة أي فعلتم فتاب عليكم .

وجملة : إنّه هو التوّاب لا محلّ لها تعليليّة .

الصرف :

(قوم) اسم جمع لا واحد له من لفظه ، مفرده رجل ، اشتقاقه من فعل قام يقوم ، ويطلق على الرجال ولا يطلق على النساء وحدهنّ البتة . . وانظر الآية (60) من هذه السورة .

(اتّخاذكم) ، مصدر قياسيّ لفعل اتّخذ الخماسيّ ، وزنه افتعال على وزن ماضيه بكسر الحرف الثالث وإضافة ألف قبل الآخر .

(عند) ، اسم للمكان وللزمان ، ولا يقع إلا ظرفا أو مجرورا بـ (من) .

(بارئ) ، اسم فاعل من برأ يبرأ باب فتح ، وزنه فاعل .

(خير) ، اسم تفضيل حذف منه الهمزة لكثرة الاستعمال وزنه فعل بفتح الفاء .

---

(1) يجوز أن تكون معطوفة على جملة جواب النداء . . . وطلب التوبة مسبّب عن ظلم الأنفس .

البلاغة

1 - المجاز المرسل : في قوله تعالى فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ .

روي أنه أمر من لم يعبد العجل أن يقتل من عبده ، والمعنى عليه استسلموا أنفسكم للقتل ، وسمى الاستسلام للقتل قتلا على سبيل المجاز .

2 - الالتفات : في قوله تعالى فَتَابَ عَلَيْكُمْ فهو خطاب منه سبحانه وتعالى على نهج الالتفات من التكلم الذي يقتضيه النظم الكريم وسياقه إلى الغيبة إذ كان مقتضى المقام أن يقول : فوفقتكم فتبت عليكم .

[سورة البقرة (2) : آية 55]

وَإِذْ قُلْتُمْ يا مُوسى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (55)

الإعراب :

(الواو) عاطفة (إذا) مثل إذ في الآية السابقة (قلتم) فعل وفاعل (يا) أداة نداء (موسى) منادى مفرد علم مبنيّ على الضمّ المقدّر في محلّ نصب (لن) حرف نفي ونصب (نؤمن) مضارع منصوب ، والفاعل ضمير مستتر تقديره نحن (اللام) حرف جرّ و(الكاف) ضمير متّصل في محلّ جرّ متعلّق بـ (نؤمن) بتضمينه معنى نقرّ أو اللام للتعليل (حتّى) حرف غاية وجرّ (نرى) مضارع منصوب بـ (أن) مضمرة بعد حتّى ، وعلامة النصب الفتحة المقدّرة

على الألف والفاعل نحن (اللّه) لفظ الجلالة مفعول به منصوب به منصوب (جهرة) مصدر في موضع الحال من لفظ الجلالة أي تراه ظاهرا " 1 " . (الفاء) عاطفة عطفت المسبّب

---

(1) أو مفعول مطلق لفعل محذوف أي : جهرتم القول جهرة . . أو مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو يلاقي فعل الرؤية في المعنى .

والمصدر المؤوّل من (أن) والفعل نرى في محلّ جرّ بـ (حتّى) متعلّق بـ (نؤمن) .

(217/56)

على السبب (أخذ) فعل ماض و(التاء) للتأنيث و(كم) مفعول به (الصاعقة) فاعل مرفوع (الواو) حاليّة (أنتم) ضمير منفصل في محلّ رفع مبتدأ (تنظرون) مضارع مرفوع . . . والواو فاعل .

جملة : " قلتم . . . " في محل جرّ مضاف إليه .

وجملة : " النداء وجوابها " في محل نصب مقول القول .

وجملة : " لن نؤمن . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " أخذتكم الصاعقة " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب النداء .

وجملة : " أنتم تنظرون " في محلّ نصب حال .

وجملة : " تنظرون " في محلّ رفع خبر المبتدأ (أنتم) .

الصرف :

(قلتم) ، فيه إعلال بالحذف ، حذفت عين الفعل لمناسبة البناء على السكون ، فلمّا التقى ساكنان حذفت الألف ، وأصله (قالتم) ، ثمّ ضمّ الحرف الأول من الفعل دلالة على نوع الحرف المحذوف فأصل الألف واو . وزنه فلتم بضمّ الفاء .

(نرى) ، فيه حذف الهمزة – وهي عين الكلمة – تخفيفا ، وأصله نرأى وزنه نفل بفتحتين

(جهرة) مصدر جهر مجهر باب فتح ، وزنه فعلة بفتح فسكون ، وثّمة مصدر آخر للفعل هو جهارا بكسر الجيم .

(الصاعقة) ، اسم للشرارة الكهربائية الناتجة من احتكاك الغيوم المختلفة الشحنة . وهو على وزن اسم الفاعل وبمعناه .

[سورة البقرة (2) : آية 56]

ثُمَّ بَعَثْناكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (56)

الإعراب :

(ثمّ) حرف عطف للتراخي (بعثنا) فعل ماض وفاعله و(كم) ضمير متّصل في محلّ نصب مفعول به (من بعد) جار ومجرور

متعلّق بـ (بعثنا) ، (موت) مضاف إليه مجرور و(كم) مضاف إليه في محلّ جرّ . (لعلّكم

تشكرون) سبق إعرابها " 1 " .

جملة : " بعثناكم " لا محلّ لها معطوفة على جملة أخذ تكم الصاعقة .

وجملة : " لعلّكم تشكرون " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " تشكرون " في محلّ رفع خبر لعلّ .

[سورة البقرة (2) : آية 57]

وَظَلَّلْنا عَلَيْكُمُ الْغَمامَ وَأَنْزَلْنا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوى كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ وَما ظَلَمُونا وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (57)

الإعراب :

(الواو) ، عاطفة (ظلّلنا) مثل بعثنا في الآية السابقة (على) حرف جرّ و(كم) ضمير متصل في محلّ جرّ متعلّق بـ (ظلّلنا) ، (الغمام) مفعول به منصوب (الواو) عاطفة (أنزلنا) مثل بعثنا و(عليكم) سبق إعرابه متعلّق بـ (أنزلنا) ، (المنّ) مفعول به منصوب (السلوى) معطوف بالواو على المنّ منصوب مثله وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على الألف .

(كلوا) فعل أمر مبنيّ على حذف النون . . والواو فاعل (من طيّبات) جارّ ومجرور متعلق بـ(كلوا) ، (ما) اسم موصول " 2 " ، في محلّ جرّ مضاف إليه (رزقنا) مثل بعثنا و(كم) ضمير في محلّ نصب مفعول به . (الواو) استئنافيّة (ما) نافية (ظلمونا) فعل ماض وفاعله ومفعوله (الواو) عاطفة (لكن) حرف استدراك (كانوا) فعل ماض ناقص مبنيّ على الضمّ . .

والواو اسم كان (أنفس) مفعول به مقدّم و(هم) ضمير متّصل في محلّ جرّ مضاف إليه (يظلمون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل .

---

(1) في الآية (52) .

(2) أو نكرة موصوفة . . والجملة بعدها نعت لها في محلّ جرّ .

وجملة : ظلّلنا . . لا محلّ لها معطوفة على جملة بعثناكم في الآية السابقة .

وجملة : " أنزلنا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ظلّلنا .

وجملة : " كلوا . . . " في محلّ نصب مقول القول لفعل محذوف تقديره قلنا .

وجملة : " رزقناكم " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " ما ظلمونا " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " لكن كانوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ما ظلمونا .

وجملة : " يظلمون " في محلّ نصب خبر كانوا .

الصرف :

(المنّ) ، اسم جنس من النبات أو الحلوى ، جاء في المعجم : هو الذي أنزله اللّه بأعجوبه في البرية على بني إسرائيل ، وزنه فعل بفتح فسكون .

(كلوا) ، فيه تغيير بالحذف ، حذفت منه الهمزة على غير القياس ، وزنه علوا .

(طيّبات) ، جمع طيّب صفة مشبّهة من فعل طاب يطيب ، وزنه فيعل ، وقد أدغمت الياءان معا .

(السلوى) ، اسم جنس لطير السماني ، أو هو نوع منه ، ووزن السلوى فعلى بفتح فسكون .

[سورة البقرة (2) : آية 58]

وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْها حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَادْخُلُوا الْبابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطاياكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (58)

الإعراب :

(الواو) عاطفة (إذ) مفعول به لفعل محذوف تقديره اذكر

(قلنا) فعل ماض وفاعله (ادخلوا) فعل أمر مبنيّ على حذف النون والواو فاعل (ها) حرف تنبيه (ذه) اسم إشارة مبنيّ على الكسر في محلّ نصب مفعول به (القرية) بدل من ذه أو عطف بيان له منصوب (الفاء) عاطفة (كلوا) مثل ادخلوا . . (من) حرف جرّ و(ها) ضمير متّصل في محلّ جرّ متعلّق بـ (كلوا) ، (حيث) ظرف مكان مبنيّ على الضمّ متعلّق بـ (كلوا) ، (شئتم) فعل ماض مبنيّ على السكون و(التاء) فاعل و(الميم) حرف لجمع الذكور (رغدا) مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو صفته أي أكلا رغدا " 1 " . (الواو) عاطفة (ادخلوا) سبق إعرابه (الباب) مفعول به منصوب ، (سجّدا) حال منصوبة من فاعل ادخلوا (الواو) عاطفة (قولوا) مثل ادخلوا (حطّة) خبر لمبتدأ محذوف تقديره سؤالنا أو مسألتنا . (نغفر) مضارع مجزوم جواب الطلب ، والفاعل ضمير مستتر تقديره نحن (اللام) حرف جرّ و(كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (نغفر) . (خطايا) مفعول به منصوب ، وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على الألف و(كم) ضمير في محلّ جرّ مضاف إليه . (الواو) استئنافيّة (السين) للاستقبال (نزيد) مضارع مرفوع ، والفاعل ضمير مستتر تقديره نحن (المحسنين) مفعول به منصوب وعلامة النصب الياء .

جملة : " قلنا . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " ادخلوا . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : "كلوا . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة ادخلوا .

وجملة : " شئتم " في محلّ جرّ بإضافة (حيث) إليها .

---

(1) ويجوز أن يكون حالا بتقدير هانئين .

وجملة : " ادخلوا الثانية " في محلّ نصب معطوفة على جملة ادخلوا الأولى .

وجملة : " قولوا . . . " في محل نصب معطوفة على جملة ادخلوا الثانية .

وجملة : " (مسألتنا) حطّة " في محل نصب مقول القول .

وجملة : " نغفر . . . " لا محلّ لها جواب شرط مقدّر غير مقترنة بالفاء .

وجملة : " سنزيد المحسنين " لا محلّ لها استئنافيّة .

الصرف :

(القرية) ، اسم جامد . . وقد يكون مأخوذا من قريت أي جمعت ، لجمعها لأهلها . .

وهو في الأصل اسم للمكان ، ولكن قد يطلق على من يسكن فيه مجازا .

(شئتم) ، فيه إعلال بالحذف لمناسبة بناء الفعل على السكون ، فالتقى سكونان فحذفت

الألف المنقلبة عن ياء ، وهذا مطّرد في كلّ فعل معتلّ أجوف ، وكسرت فاء الفعل لدلالة الحرف المحذوف وهو الياء ، وزنه فلتم .

(سجّدا) ، جمع ساجد ، اسم فاعل من سجد يسجد باب نصر ، وزنه فاعل . . ووزن سجّد فعّل بضمّ الفاء وفتح العين المشدّدة .

(حطّة) ، مصدر هيئة من فعل حطّ يحطّ باب نصر وزنه فعلة بكسر الفاء ، وقيل هو لفظ أمروا به ولا يدرى معناه " 1 " .

(خطايا) ، جمع خطيئة ، اسم بمعنى الذنب وزنه فعيلة ، قيل : إنّ خطايا وزنه فعائل أصله خطايئ بياء مكسورة قبل الهمزة ، ثمّ قلبت الياء

---

(1) حاشية الجمل على الجلالين . . وقيل هي التوبة .

همزة مكسورة " 1 " ، فاجتمع همزتان فقلبت الثانية ياء " 2 " ، ثمّ تحرّكت الهمزة بالفتح للخفّة ، وكذلك الياء الأخيرة ، ثمّ قلبت الياء ألفا لتحرّكها وانفتاح ما قبلها ، ثمّ قلبت الهمزة ياء للهرب من الثقل فأصبح خطايا .

وقيل – وهو قول سيبويه – إنّ خطايا أصله خطائئ ، ثمّ أبدلت الهمزة الثانية ياء بحسب

قواعد الإبدال . ثمّ أبدل من الكسرة في الهمزة فتحة فانقلبت الياء ألفا ، ثمّ أبدلت الهمزة ياء " 3 " .

(المحسنين) ، جمع المحسن وهو اسم فاعل من أحسن الرباعيّ ، فهو على وزن مضارعه بإبدال حرف المضارعة ميما مضمومة وكسر ما قبل آخره .

[سورة البقرة (2) : آية 59]

فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِنَ السَّماءِ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ (59)

الإعراب :

(الفاء) عاطفة (بدّل) فعل ماض (الذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع فاعل (ظلموا) فعل ماض وفاعله (قولا) مفعول به منصوب (غير) نعت لـ (قولا) منصوب مثله (الذي) موصول مضاف إليه في محلّ جرّ (قيل) فعل ماض مبنيّ للمجهول ، ونائب الفاعل ضمير مستتر تقديره هو أي القول (اللام) حرف جرّ و(هم) ضمير متّصل في محلّ جرّ متعلّق بـ (قيل) .

(الفاء) عاطفة (أنزلنا) فعل ماض مبنيّ على السكون . . و(نا) فاعل (على) حرف جرّ (الذين) موصول في محلّ جرّ متعلّق بـ (أنزلنا) ، (ظلموا) سبق إعرابه (رجزا) مفعول به منصوب (من

---

(1) تقلب الواو أو الياء همزة بعد ألف مفاعل أو فعائل . [. . . . .]

(2) تبدل الهمزة المتطرفة ياء إذا جاءت بعد همزة.

(3) انظر النحو الوافي ج 4 ص 578.)

(223/56)

السماء) جارّ ومجرور متعلق بـ (أنزلنا) " 1 "، (الباء) حرف جرّ للسببيّة (ما) حرف مصدري (كانوا) فعل ماض ناقص مبنيّ على الضمّ و(الواو) اسم كان (يفسقون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل.

جملة: " بدّل الذين ظلموا " في محلّ جرّ معطوفة على جملة قلنا في الآية السابقة.

وجملة: " ظلموا " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين).

وجملة: " قيل لهم " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي).

وجملة: " أنزلنا " في محلّ جرّ معطوفة على جملة بدّل.

وجملة: " ظلموا الثانية " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الثاني.

وجملة: " كانوا يفسقون " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفي (ما).

وجملة: " يفسقون " في محلّ نصب خبر كانوا.

والمصدر المؤوّل من (ما) والفعل في محلّ جرّ بالباء . . . متعلّق بـ (أنزلنا).

الصرف :

(قولا) مصدر سماعي لفعل قال يقول ، وزنه فعل بفتح فسكون ولم تعلّ الواو لسكونها .

(رجزا) ، اسم لكلّ قبيح أو مكروه ، وزنه فعل بكسر فسكون .

البلاغة

- قوله تعالى فَأَنْزَلْنا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا وضع الظاهر موضع المضمر للتعليل والمبالغة في الذم والتقريع وللتصريح بأنهم بما فعلوا قد ظلموا أنفسهم بتعريضها لسخط اللّه تعالى .

---

(1) أو بمحذوف نعت لـ (رجزا) .

[سورة البقرة (2) : آية 60]

وَإِذِ اسْتَسْقى مُوسى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُناسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (60)

الإعراب :

(الواو) عاطفة (إذ استسقى موسى لقومه) مثل إذ قال موسى لقومه " 1 " . (الفاء) عاطفة (قلنا) فعل ماض مبنيّ على السكون و(نا) ضمير متّصل في محلّ رفع فاعل

(اضرب) فعل أمر والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت (بعصا) جارّ ومجرور متعلّق بـ (اضرب) ، والباء للاستعانة وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على الألف و(الكاف) مضاف إليه (الحجر) مفعول به منصوب (الفاء) عاطفة (انفجر) فعل ماض و(التاء) للتأنيث ، (من) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (انفجرت) ، (اثنتا) فاعل مرفوع وعلامة الرفع الألف فهو ملحق بالمثنّى (عشرة) جزء عدديّ مبنيّ على الفتح لا محلّ له (عينا) تمييز منصوب (قد) حرف تحقيق (علم) فعل ماض (كلّ) فاعل مرفوع (أناس) مضاف إليه مجرور (مشرب) مفعول به منصوب (هم) ضمير متّصل في محلّ جرّ مضاف اليه . (كلوا) فعل أمر مبنيّ على حذف النون . . . و(الواو) فاعل (الواو) عاطفة (اشربوا) مثل كلوا (من رزق) جارّ ومجرور متعلّق بالفعلين المتقدّمين من باب التنازع في إعمال الثاني (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور . (الواو) عاطفة (لا) ناهية جازمة (تعثوا) مضارع مجزوم وعلامة الجزم حذف النون . . و(الواو) فاعل (في الأرض) جارّ ومجرور متعلّق بـ (تعثوا) ، (مفسدين) حال مؤكّدة منصوبة وعلامة النصب الياء .

جملة " استسقى موسى " في محلّ جرّ مضاف اليه .

---

(1) في الآية (54) من هذه السورة .

وجملة : " قلنا . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة استسقى .

وجملة : " اضرب . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " انفجرت منه اثنتا عشرة " لا محلّ لها معطوفة على جملة مقدّرة أي : فضرب فانفجرت .

وجملة : " علم كلّ أناس . . . " لا محلّ لها استئنافيّة " 1 " .

وجملة : " كلوا " لا محلّ لها استئنافيّة " 2 " .

وجملة : " اشربوا " لا محلّ لها معطوفة على جملة كلوا .

وجملة : " لا تعثوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة كلوا .

الصرف :

(استسقى) ، فيه إعلال بالقلب أصله استسقي بفتح الياء ، جاءت الياء متحرّكة بعد فتح قلبت ألفا .

(عصا) ، الألف فيه منقلبة عن واو لأن المثنّى عصوان ، وتقول :

عصوت بالعصا أي ضربت ، ووزن عصا فعل بفتحتين .

(الحجر) ، اسم جامد وزنه فعل لفتحتين .

(اثنتان) ، مؤنّث اثنان ، وهو اسم ضعف الواحد ، وفيه حذف لام الكلمة ، والألف

والنون مزيد تا ن للتثنيه ، فهو ملحق بالمثنّى لأنه لا واحد له من لفظه ، وحذفت النون من اثنتا عشرة لأنه شبيه بالتركيب الإضافي .

(عشرة) ، اسم لأول العقود مؤنّث العشر ، وجاء مؤنّثا موافقا للمعدود لأنه مركب مع ما قبله .

(1 ، 2) أو في محلّ نصب حال من (اثنتا عشرة عينا) ، والرابط محذوف تقديره منها .

(عينا) ، اسم جامد بمعنى الينبوع جمعه أعين وعيون ، وزنه فعل بفتح فسكون .

(أناس) ، جمع انس ، اسم جمع بمعنى البشر ، واحده المنسوب إليه أي إنسيّ . وثّة جمع آخر له هو أناسيّ بفتح الهمزة ، ووزن أناس فعال بضمّ الفاء .

(مشرب) ، اسم مكان من شرب يشرب باب فرح وزنه مفعل بفتح الميم والعين لأن عين المضارع مفتوحة وهو فعل صحيح .

(تعثوا) ، فيه إعلال بالحذف ، أصله تعثاوا ، جاءت الألف ساكنة قبل الواو الساكنة فحذفت الألف لالتقاء الساكنين ، وزنه تفعوا . فعله عثا يعثو ، وعثي يعثى من بابي نصر وفرح .

[سورة البقرة (2) : آية 61]

وَإِذْ قُلْتُمْ يا مُوسى لَنْ نَصْبِرَ عَلى طَعامٍ واحِدٍ فَادْعُ لَنا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِها وَقِثَّائِها وَفُومِها وَعَدَسِها وَبَصَلِها قالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُمْ ما سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَباؤُ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كانُوا يَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذلِكَ بِما عَصَوْا وَكانُوا يَعْتَدُونَ (61)

الإعراب :

(الواو) عاطفة (إذ قلتم يا موسى) سبق إعرابها في الآية (55) ، (لن) حرف ناصب وناف (نصبر) مضارع منصوب والفاعل ضمير مستتر تقديره نحن (على طعام) جارّ ومجرور متعلّق بـ (نصبر) ، (واحد) نعت لـ (طعام) مجرور مثله (الفاء) لربط المسبّب بالسبب ، أو رابطة لجواب شرط مقدّر (ادع) فعل أمر مبني على حذف حرف العلّة ، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت (اللام) حرف جرّ ، و(نا) ضمير متّصل في محل جرّ متعلّق بـ (ادع) ، (ربّ) مفعول به منصوب و(الكاف) ضمير مضاف إليه (يخرج) مضارع مجزوم جواب الطلب ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (لنا) مثل الأول متعلّق بـ (يخرج) . (من) حرف جرّ (ما) اسم موصول في محل جرّ بـ (من) " 1 " متعلّق بـ (يخرج) ، ومفعول يخرج محذوف تقديره شيئا (تنبت) فعل مضارع مرفوع

(الأرض) فاعل مرفوع (من بقل) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف حال من مفعول تنبت المحذوف أي: ممّا تنبته الأرض من بقل " 2 " . و(ها) ضمير متّصل في محلّ جرّ مضاف إليه. (وقثّائها وفومها وعدسها وبصلها) أسماء مضافة معطوفة بحروف العطف على بقلها مجرورة مثله.

جملة: " قلتم . . . " في محلّ جرّ بإضافة (إذ) إليها .

وجملة: " النداء وجوابها " في محلّ نصب مقول القول.

(227/56)

وجملة: " لن نصبر . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة: " ادع . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب النداء لأنها في حيّز النداء . . أو في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي إن كنّا بحاجة إلى أكثر من نوع من الطعام فادع لنا ربّك . .

وجملة: " يخرج . . " لا محلّ لها جواب شرط مقدّر غير مقترنة بالفاء .

وجملة: " تنبت الأرض " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

(قال) فعل ماض والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (الهمزة) للاستفهام الإنكاري

(تستبدلون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل (الذي) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به (هو) ضمير منفصل في محلّ رفع مبتدأ

---

(1) أو نكرة موصوفة . . والجملة بعدها نعت لها .

(2) أو هو بدل من (ما) بإعادة الجارّ .

(228/56)

(أدنى) خبر مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الألف (الباء) حرف جرّ (الذي) موصول في محلّ جرّ متعلّق بفعل تستبدلون . (هو خير) مثل هو أدنى . (اهبطوا) فعل أمر مبني على حذف النون و(الواو) فاعل (مصرا) مفعول به منصوب (الفاء) تعليلية . . أو رابطة لجواب شرط مقدّر (إنّ) حرف مشبّه بالفعل (اللام) حرف جرّ (كم) ضمير متصل في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف خبر مقدّم (ما) اسم موصول في محلّ نصب اسم إنّ مؤخّر ، (سألتم) فعل ماض مبنيّ على السكون . . وفاعله . (الواو) استئنافيّة (ضرب) فعل ماض مبنيّ للمجهول بتضمينه معنى جعلت و(التاء) للتأنيث (على) حرف جرّ و(هم) ضمير متّصل في محلّ جرّ متعلّق بـ (ضربت) ، (الذلّة) نائب فاعل مرفوع (المسكنة) معطوفة بالواو على الذلّة مرفوع مثله (الواو) عاطفة (باءوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ . .

والواو فاعل (بغضب) جار ومجرور متعلّق بمحذوف حال من الواو والباء للملابسة (من اللّه) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف نعت لـ (غضب) . (ذا) اسم إشارة مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ و(اللام) للبعد و(الكاف) للخطاب (الباء) حرف جرّ (أنّ) حرف مشبّه بالفعل للتوكيد و(هم) ضمير متّصل في محلّ نصب اسم أنّ (كانوا) فعل ماض ناقص مبنيّ على الضمّ . . والواو اسم كان (يكفرون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل .

والمصدر المؤوّل من (أنّ) واسمها وخبرها في محلّ جرّ بالباء متعلّق بمحذوف خبر المبتدأ ذلك ، أي ذلك الغضب مستحقّ بكفرهم .

(بآيات) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يكفرون) ، (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور . (الواو) عاطفة (يقتلون) مثل يكفرون (النبيين) مفعول به منصوب وعلامة النصب الياء (بغير) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف حال من

فاعل يقتلون ، أي يقتلونهم مبطلين " 1 " ، (الحق) مضاف إليه مجرور .

(229/56)

(ذلك) سبق اعرابه (الباء) حرف جرّ للسببيّة (ما) حرف مصدريّ (عصوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ . . والواو فاعل ، والضمّ مقدّر على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين .

والمصدر المؤوّل (ما عصوا) في محلّ جرّ بالباء متعلّق بخبر المبتدأ ذلك .

(الواو) عاطفة (كانوا) مثل الأول (يعتدون) مثل يكفرون .

جملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئناف بياني لسؤال مقدّر .

وجملة : " تستبدلون . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " هو أدنى " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) الأول .

وجملة : " هو خير " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) الثاني .

وجملة : " اهبطوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة " 2 " .

وجملة : " إنّ لكم ما سألتم " لا محلّ لها تعليليّة " 3 " .

وجملة : " سألتم " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " ضربت " عليهم الذلّة لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " باءوا . . . " لا محل لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " ذلك بأنهم كانوا . . . " لا محلّ لها تعليليّة أو استئناف من غير

---

(1) يجوز تعليقه بمحذوف نعت لمصدر محذوف – أي مفعول مطلق نائب عن المصدر – أي قتلا حاصلا بغير الحق .

(2) يجوز أن تكون في محلّ نصب مقول القول لقول مقدّر .

(3) يجوز أن تكون جوابا لشرط مقدّر أي : إن تهبطوا فإنّ لكم ما سألتم .

تعليل .

وجملة : "كانوا يكفرون" في محلّ رفع خبر أنّ .

وجملة : "يكفرون" في محلّ نصب خبر (كانوا) وجملة : "يقتلون" في محل نصب معطوفة على جملة يكفرون .

وجملة : "ذلك بما عصوا" لا محلّ لها بدل من جملة ذلك بأنهم كانوا . . .

وجملة : "عصوا" لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

وجملة : "كانوا يعتدون" لا محلّ لها معطوفة على جملة عصوا .

وجملة : "يعتدون" في محلّ نصب خبر كانوا .

الصرف :

(طعام) ، اسم للمأكول من أي نوع ، وزنه فعال بفتح الفاء .

(واحد) ، اسم يدلّ على الفرد بالمذكّر ، أو صفة مشتقّة على وزن فاعل .

(ادع) ، فيه إعلال بالحذف لمناسبة البناء ، وزنه افع بضمّ العين .

(بقل) ، اسم لما تنبته الأرض من النجم ممّا لا ساق له ، وزنه فعل بفتح فسكون ، جمعه بقول

بضمّ الباء .

(قثّاء) ، اسم للنبات المعروف ، وهو اسم جمع واحدته قثّاءة بكسر القاف وفتح الثاء المشدّدة ، والهمزة أصليّة لقولهم : أقثأت الأرض أي كثر قثّاؤها .

(فوم) ، اسم جامد للنبات المعروف وهو الثوم ، وقيل هو الحنطة ،

وزنه فعل بضمّ الفاء وسكون العين .

(عدس) ، اسم جامد ، اسم جمع واحدته عدسة زنة فعلة بفتحتين ، وكذلك عدس وزنه فعل بفتحتين .

(بصل) ، اسم جامد للنبات المعروف ، وزنه فعل بفتحتين .

(أدنى) ، ألفه منقلبة عن واو لأنه من دنا يدنو ، وزنه أفعل صفة مشبّهة ، وقيل الألف مبدلة من همزة لأنه مأخوذ من دنؤ يدنؤ باب كرم فهو دنيء أي خسيس .

(مصرا) ، اسم بمعنى بلد أو مصر بعينها ، وزنه فعل بكسر فسكون .

(الذلّة) ، مصدر سماعيّ لفعل ذلّ يذلّ باب ضرب ، وزنه فعلة بكسر فسكون ، وثمّة مصادر أخرى للفعل هي : ذلّ بضم الذال ، وذلالة بفتح الذال ، ومصدر ميميّ هو مذلّة .

(المسكنة) ، مصدر ميميّ من السكون لأن المسكين قليل الحركة ، وزنه مفعلة ، والتاء للمبالغة .

(غضب) ، مصدر سماعيّ لفعل غضب يغضب باب فرح ، وزنه فعل بفتحتين .

(النبيين) ، جمع النبيّ وهو صفة مشبّهة على وزن فعيل ، وأصله النبيء ، لأنه من النبأ وهو الخبر لأنه يخبر عن اللّه ، وخفّف بقلب الهمزة ياء ، ثمّ أدغمت الياءان معا . أو هو مأخوذ من النبوة أي الارتفاع لأن رتبة النبيّ ارتفعت عن رتب سائر الخلق " 1 " .

---

(1) العكبري : كتاب (وجوه الإعراب والقراءات . . .) .

(عصوا) ، فيه إعلال بالحذف جرى فيه مجرى (تعثوا) في الآية السابقة .

(يعتدون) ، فيه إعلال بالحذف جرى فيه مجرى (تهتدون) في الآية (53) .

البلاغة

- الكناية : في قوله تعالى وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ أي جعلتا محيطتين بهم إحاطة القبة بمن ضربت عليه أو الصقتا بهم وجعلتا ضربة لازب لا تنفكان عنهم مجازاة لهم على كفرانهم من ضرب الطين على الحائط بطريق الاستعارة بالكناية .

[سورة البقرة (2) : آية 62]

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هادُوا وَالنَّصارى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (62)

الإعراب :

(إنّ) حرف مشبّه بالفعل للتوكيد (الذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب اسم إنّ (آمنوا) فعل ماضي مبني على الضمّ . .

والواو فاعل (الواو) عاطفة (الذين) اسم موصول معطوف على الاسم الأول في محلّ نصب (هادوا) مثل آمنوا (والنصارى والصابئين) اسمان معطوفان بحرفي العطف على الاسم الموصول الأول ، منصوبان وعلامة النصب في الأول الفتحة المقدرة على الألف وعلامة نصب الثاني الياء .

(من) اسم موصول في محلّ نصب بدل من الأسماء السابقة " 1 " ، (آمن)

---

(1) يجوز أن يكون في محلّ رفع مبتدأ وهو امّا اسم شرط أو اسم موصول ، خبر جملة لهم أجرهم . . والجملة الاسمية خبر إنّ

فعل ماض ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (باللّه) جارّ ومجرور متعلّق بـ (آمن) ، (اليوم) معطوف بالواو على لفظ الجلالة مجرور مثله (الآخر) نعت لـ (اليوم) مجرور مثله ، (الواو) عاطفة (عمل) مثل آمن (صالحا) مفعول به منصوب (الفاء) زائدة (اللام) حرف جرّ

و(هم) ضمير متّصل في محلّ جرّ باللام متعلّق بمحذوف خبر مقدّم (أجر) مبتدأ مؤخر مرفوع و(هم) متّصل مضاف إليه ، (عند) ظرف متعلّق بمحذوف حال من أجر (ربّ) مضاف إليه مجرور و(هم) متّصل مضاف إليه (الواو) عاطفة (لا) نافية مهملة " 1 " (خوف) مبتدأ مرفوع (على) حرف جرّ و(هم) متّصل في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف خبر المبتدأ (الواو) عاطفة (لا) زائدة لتأكيد النفي (هم) ضمير منفصل في محلّ رفع مبتدأ (يحزنون) مضارع مرفوع وعلامة الرفع ثبوت النون و(الواو) ضمير متّصل في محلّ رفع فاعل .

جملة : " إنّ الذين آمنوا " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " آمنوا " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الأول .

وجملة : " هادوا " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الثاني .

وجملة : " آمن . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " لهم أجرهم " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " لا خوف عليهم " في محلّ رفع معطوفة على جملة لهم أجرهم .

---

(1) أو تعمل عمل ليس ، و(خوف) اسمها و(عليهم) خبرها . . وانظر الآية (38) من هذه السورة .

وجملة : "لا هم يحزنون" في محلّ رفع معطوفة على جملة لهم أجرهم .

وجملة : "يحزنون" في محل رفع خبر (هم) .

الصرف :

(هادوا) ، فيه إعلال بالقلب إذ الألف منقلبة عن واو لأنه من هاد يهود إذا تاب . وبعضهم قال إن أصلها ياء من هاد يهيد إذا تحرّك .

(النصارى) ، جمع نصرانيّ نسبة إلى نصران أو ناصرة . . وهي من النسبة الشاذّة في اللغة .

(الصابئين) ، جمع الصابئ ، اسم فاعل من صبأ الثلاثي وزنه فاعل .

(صالحا) ، اسم فاعل من صلح الثلاثي ، وزنه فاعل .

(أجر) ، في الأصل مصدر أجره اللّه يأجره من بابي نصر وضرب ، وقد يعبّر به عن الشيء نفسه المجازي به ، والآية الكريمة تحتمل المعنيين ، وزنه فعل بفتح فسكون .

[سورة البقرة (2) : آية 63]

وَإِذْ أَخَذْنا مِيثاقَكُمْ وَرَفَعْنا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا ما آتَيْناكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا ما فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ

(63)

الإعراب :

(الواو) عاطفة (إذ) اسم مبنيّ على السكون في محلّ نصب مفعول به لفعل محذوف تقديره اذكروا (أخذ) فعل ماض مبنيّ على السكون و(نا) ضمير فاعل (ميثاق) مفعول به منصوب و(كم) ضمير متّصل في محلّ جرّ مضاف إليه (الواو) حاليّة (رفعنا) مثل أخذنا (فوق) ظرف مكان منصوب متعلّق بـ (رفعنا) و(كم) مضاف إليه (الطور) مفعول به منصوب. (خذوا) فعل أمر مبنيّ على حذف النون . .

والواو فاعل (ما) اسم موصول في محلّ نصب مفعول به (آتينا) مثل أخذنا و(كم) مفعول به ، والمفعول الثاني محذوف أي آتيناكموه (بقوّة) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف حال من مفعول آتيناكم أي متمتعين بقوة (الواو) عاطفة (اذكروا) مثل خذوا (ما) اسم موصول في محلّ نصب مفعول به (في) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف صلة ما (لعلّ) حرف مشبّه بالفعل للترجّي و(كم) ضمير متّصل في محل نصب اسم لعل (تتّقون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل .

جملة : " أخذنا . . . " في محلّ جرّ بإضافة (إذ) إليها .

وجملة : " رفعنا . . " في محلّ نصب حال بتقدير (قد) .

وجملة : " خذوا . . . " في محل نصب مقول القول لقول محذوف " 1 " ، والجملة المقدّرة في

موضع الحال .

وجملة : " آتيناكم " لا محلّ لها صلة الموصول .

وجملة : " اذكروا . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة خذوا .

وجملة : " لعلّكم تتقون " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " تتّقون " في محلّ رفع خبر لعلّ .

الصرف :

(الطور) ، اسم عام يطلق على كلّ جبل أو خاص يطلق على جبل بعينه ، وزنه فعل بضمّ فسكون .

(خذوا) ، فيه حذف الهمزة من أوّله تخفيفا ، وزنه علوا بضمّ العين .

(قوّة) ، مصدر سماعيّ لفعل قوي يقوى باب فرح ، وزنه فعلة بضمّ فسكون ، وقد أدغمت عينه ولامه بعد القلب ، وأصله قوية ، اجتمعت الواو والياء وكانت الأولى منهما ساكنة فقلبت الواو إلى ياء فقيل قيّة بضمّ

---

(1) يجوز أن تكون الجملة جوابا للقسم لأن أخذ الميثاق قسم . [. . . . .]

القاف ولمجي ء الياء الأولى ساكنة وقبلها مضموم قلبت واوا ولحقت بها الياء الساكنة لمناسبة التضعيف ، فقيل قوّة .

[سورة البقرة (2) : آية 64]

ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ فَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخاسِرِينَ (64)

الإعراب :

(ثمّ) حرف عطف (تولّيتم) فعل ماض مبنيّ على السكون . . وفاعله (من بعد) جارّ ومجرور متعلّق بـ (تولّيتم) ، (ذا) اسم إشارة مبنيّ في محلّ جرّ مضاف إليه و(اللام) للبعد و(الكاف) للخطاب .

(الفاء) استئنافيّة (لولا) حرف امتناع لوجود ، شرط غير جازم (فضل) مبتدأ مرفوع ، والخبر محذوف وجوبا تقديره موجود (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (على) حرف جرّ و(كم) ضمير متّصل في محلّ جرّ متعلّق بـ (فضل) ، (الواو) عاطفة (رحمة) معطوفة على فضل مرفوع مثله و(الهاء) مضاف إليه ، (اللام) واقعة في جواب لولا (كنتم) فعل ماض ناقص مبنيّ على السكون . . و(تم) ضمير متّصل اسم كان (من الخاسرين) جار ومجرور متعلّق بمحذوف خبر كنتم وعلامة الجرّ الياء .

جملة : تولّيتم في محلّ جرّ معطوفة على جملة أخذنا في الآية السابقة .

وجملة : " لولا فضل اللّه . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : "كنتم من الخاسرين " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

الصرف :

(فضل) مصدر سماعيّ لفعل فضل يفضل باب كرم ، وزنه فعل بفتح فسكون .

(235/56)

(رحمة) ، مصدر سماعيّ لفعل رحم يرحم باب فرح ، وزنه فعلة بفتح فسكون .

[سورة البقرة (2) : آية 65]

وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خاسِئِينَ (65)

الإعراب :

(الواو) ، عاطفة (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (قد) حرف تحقيق (علمتم) فعل وفاعل ، وهو يقتضي مفعولا واحدا لأنه بمعنى عرف (الذين) اسم موصول في محلّ نصب مفعول به (اعتدوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ المقدّر على الألف المحذوفة . . والواو فاعل (من) حرف جرّ و(كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف حال من فاعل اعتدوا (في السبت) جارّ ومجرور متعلّق بـ (اعتدوا) وفيه حذف مضاف أي في يوم السبت (الفاء) عاطفة (قلنا) فعل وفاعل (اللام) حرف جرّ و(هم) ضمير متّصل في محلّ جرّ متعلّق بـ (قلنا) ،

(كونوا) فعل أمر ناقص مبنيّ على حذف النون . . والواو اسم كان (قردة) خبر كان منصوب (خاسئين) نعت لـ (قردة) منصوب مثله " 1 " .

جملة : " علمتم . . " لا محلّ لها جواب قسم مقدّر .

وجملة : " اعتدوا . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " قلنا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة علمتم .

وجملة : " كونوا قردة " في محلّ نصب مقول القول .

الصرف :

(اعتدوا) ، فيه إعلال بالحذف أصله اعتداوا ، التقى ساكنان الألف والواو فحذفت الألف ، وزنه افتعوا .

(السبت) ، في الأصل هو مصدر فعل سبت يسبت من بابي نصر وضرب بمعنى استراح أو بمعنى قطع ، ثمّ سمّي اليوم سبتا " 2 " . وزنه فعل

---

(1) يجوز أن يكون حالا من اسم كان ، وأن يكون خبرا ثانيا لـ (كونوا) .

(2) حاشية الجمل على الجلالين . . ومادة سبت موجودة في لسان العرب .

بفتح فسكون ، فإذا قيل يوم السبت فقد استعمل مصدرا .

(قردة) ، جمع قرد وهو اسم للحيوان المعروف ، وزنه فعل بكسر فسكون ، ووزن قردة فعلة بكسر ففتح ثمّ فتح .

(خاسئين) ، جمع خاسئ ، اسم فاعل من خسئ يخسأ باب فرح ، وهو من اللازم بمعنى بعد وانزجر وخسأ يخسأ الكلب أي طرده من باب فتح وقد يرد هذا الباب لازما أيضا .

ووزن خاسئ فاعل .

[سورة البقرة (2) : آية 66]

فَجَعَلْناها نَكالاً لِما بَيْنَ يَدَيْها وَما خَلْفَها وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (66)

الإعراب :

(الفاء) استئنافيّة (جعلنا) فعل وفاعل و(ها) ضمير في محل نصب مفعول به أوّل ويعود إلى العقوبة (نكالا) مفعول به ثان منصوب (اللام) حرف جرّ (ما) اسم موصول مبنيّ في محل جرّ متعلّق بـ (نكالا) ، (بين) ظرف مكان منصوب متعلّق بمحذوف صلة ما (يدي) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الياء فهو مثنّى و(ها) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (ما) موصول معطوف على الأول (خلف) ظرف مكان منصوب متعلّق بمحذوف صلة ما و(ها) ضمير مضاف إليه (موعظة) معطوف بالواو على (نكالا) منصوب مثله (للمتّقين) جارّ ومجرور متعلّق بـ (موعظة) .

جملة: "جعلناها . . . "لا محلّ لها من الإعراب استئنافيّة.

الصرف:

(نكالا) ، اسم لما نكلت به غيرك أي عاقبته ، أو اسم لما يجعل عبرة للآخرين أو منعا لهم ، وزنه فعال بفتح الفاء .

(بين) اسم بمعنى وسط ، ظرف مكان وقد يدخله ما الحرف المصدريّ الظرفي : بينما ، أو تدخله الألف عوض من ما : بينا .

(يديها) ، مثنّى يد ، وفيه حذف اللام ، أصله يدو لأن الواو تعود حين النسب يدوي .

وانظر الآية (79) من هذه السورة.

(موعظة) ، مصدر ميميّ من وعظ يعظ باب ضرب ، وزنه مفعلة بكسر العين ، والتاء للمبالغة.

[سورة البقرة (2) : آية 67]

وَإِذْ قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قالُوا أَتَتَّخِذُنا هُزُواً قالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجاهِلِينَ (67)

الإعراب :

(وإذ قال موسى لقومه) سبق إعرابها " 1 " . (إنّ) حرف مشبّه بالفعل للتوكيد (اللّه) لفظ الجلالة اسم إنّ منصوب (يأمر) مضارع مرفوع و(الكاف) ضمير مفعول به و(الميم) حرف لجمع الذكور ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (أن) حرف مصدري ونصب (تذبحوا) مضارع منصوب وعلامة النصب حذف النون . . والواو فاعل (بقرة) مفعول به منصوب . والمصدر المؤوّل من (أن) والفعل في محلّ جرّ بحرف جرّ محذوف متعلّق بـ (يأمركم) " 2 " أي يأمركم بذبح بقرة .

(قالوا) فعل وفاعل (الهمزة) للاستفهام الإنكاري (تتّخذ) مضارع مرفوع ، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت و(نا) ضمير في محلّ نصب مفعول به (هزوا) مفعول به ثان منصوب

(قال) فعل ماض والفاعل هو (أعوذ) مضارع مرفوع والفاعل ضمير مستتر تقديره أنا (باللّه) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أعوذ) ، (أن) حرف ناصب (أكون) مضارع ناقص منصوب واسمه ضمير مستتر تقديره أنا (من الجاهلين) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف خبر أكون وعلامة الجرّ الياء .

---

(1) في الآية (54) من هذه السورة .

(2) يجوز نصبه على أنّه مفعول به ثان عامله يأمركم ، أي : يأمركم ذبح بقرة .

والمصدر المؤوّل (أن أكون . .) في محلّ جرّ بحرف جرّ محذوف متعلّق بـ (أعوذ) أي من أن أكون من الجاهلين.

وجملة: "قال موسى . . . " في محلّ جرّ بإضافة (إذ) إليها.

وجملة: "إنّ اللّه يأمركم" في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: "يأمركم . . " في محلّ رفع خبر إنّ.

وجملة: "قالوا . . . " لا محلّ لها استئناف بياني.

وجملة: "أتتّخذنا هزوا" في محل نصب مقول القول.

وجملة: "قال . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "أعوذ باللّه" في محلّ نصب مقول القول.

الصرف:

(بقرة)، اسم جامد لواحد البقر، وزنه فعلة بثلاث فتحات - وقد يقع على الذكر والأنثى - وسمي هذا الجنس بقرا لأنه يبقر الأرض أي يشقّها بالحرث، ومنه بقر بطنه.

(هزوا)، مخفّف من هزؤا وهو مصدر سماعيّ لفعل هزأ يهزأ باب فتح وهزئ يهزأ باب فرح

. . وقد استعمل في الآية بمعنى المهزوء (الجاهلين) ، جمع الجاهل ، اسم فاعل من جهل يجهل باب فرح ، وزنه فاعل .

[سورة البقرة (2) : آية 68]

قالُوا ادْعُ لَنا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنا ما هِيَ قالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّها بَقَرَةٌ لا فارِضٌ وَلا بِكْرٌ عَوانٌ بَيْنَ ذلِكَ فَافْعَلُوا ما تُؤْمَرُونَ (68)

الإعراب :

(قالوا) فعل وفاعل (ادع) فعل أمر مبنيّ على حذف حرف العلّة ، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت (اللام) حرف جرّ و(نا) ضمير متّصل مبنيّ في محل جرّ متعلّق بـ (ادع) ، (ربّ) مفعول به منصوب و(الكاف) مضاف إليه (يبيّن) مضارع مجزوم جواب الطلب ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (لنا) مثل الأول متعلّق بـ (يبيّن) ، (ما) اسم استفهام في محل رفع مبتدأ (هي) ضمير منفصل في محل رفع خبر ، (قال) فعل ماض والفاعل هو (إنّ) حرف مشبّه بالفعل للتوكيد و(الهاء) ضمير اسم إنّ (يقول) مضارع مرفوع والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (إنّها) مثل إنّه (بقرة) خبر إنّها مرفوع (لا) نافية مهملة (فارض) نعت لـ (بقرة) مرفوع مثله " 1 " ، (الواو) عاطفة (لا) نافية واجبة (بكر) معطوفة على فارض مرفوع مثله ، (عوان) نعت ثان لـ (بقرة) مرفوع (بين) ظرف مكان منصوب متعلّق بـ (عوان) ، (ذا) اسم إشارة في محل جرّ مضاف إليه

و(اللام) للبعد و(الكاف) للخطاب (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (افعلوا) فعل أمر مبنيّ على حذف النون . . والواو فاعل (ما) اسم موصول في محلّ نصب مفعول به والعائد محذوف (تؤمرون) مضارع مبنيّ للمجهول مرفوع و(الواو) ضمير متّصل في محلّ رفع نائب فاعل .

جملة : " قالوا . . . " لا محلّ استئناف بياني .

وجملة : " ادع " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " يبيّن " لا محلّ لها جواب شرط مقدّر غير مقترنة بالفاء .

وجملة : " ما هي " في محلّ نصب مفعول به لفعل يبيّن " 2 " .

وجملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

---

(1) يجوز جعله خبرا لمبتدأ محذوف تقديره لا هي فارض . . . ومثله (لا بكر) .

(2) وقد علّق الفعل بالاستفهام (ما) . . ويجوز أن يكون المفعول محذوفا فالجملة استئناف بيانيّ لا محل لها .

وجملة : " إنّه يقول " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " يقول . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " إنها بقرة " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " افعلوا . . . " في محل جزم جواب شرط مقدّر أي إن عرفتم ذلك فافعلوا .

وجملة : " تؤمرون " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

الصرف :

(فارض) ، اسم فاعل من فرض سنّه أي قطعه ، وزنه فاعل من بابي ضرب وكرم .

(بكر) ، صفة مشبّهة من بكر يبكر باب فرح وزنه فعل بكسر فسكون ، وهو مستعمل للمذكّر والمؤنّث ، جمعه أبكار .

(عوان) ، في المصباح العوان النصف في السنّ من النساء والبهائم ، والجمع عون بضمّ العين وسكون الواو ، والأصل بضمّ الواو لكن سكّن تخفيفا . هو صفة مشبّهة ، ووزن عوان فعال بفتح الفاء .

[سورة البقرة (2) : آية 69]

قالُوا ادْعُ لَنا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنا ما لَوْنُها قالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّها بَقَرَةٌ صَفْراءُ فاقِعٌ لَوْنُها تَسُرُّ النَّاظِرِينَ (69)

الإعراب :

(قالوا ادع . . . يقول إنّها بقرة) سبق إعراب نظيرها في الآية السابقة مفردات وجملا . .

(صفراء) نعت لـ (بقرة) مرفوع مثله (فاقع) نعت ثان لـ (بقرة) مرفوع مثله " 1 " ، (لون) فاعل لاسم الفاعل فاقع مرفوع (ها) ضمير مضاف إليه (تسرّ) مضارع مرفوع والفاعل ضمير مستتر تقديره هي (الناظرين) مفعول به منصوب وعلامة النصب الياء .

---

(1) يجوز أن يكون خبرا مقدّما و(لونها) مبتدأ مؤخّرا . . والجملة نعت لـ (بقرة) .

وجملة : تسرّ الناظرين في محلّ رفع نعت لـ (بقرة) .

الصرف :

(لون) اسم لحال الشيء في منظره وهيئته من حيث بياضه وسواده ، وزنه فعل بفتح فسكون .

(صفراء) ، صفة مشبّهة مؤنّث أصفر ، والهمزة زائدة للتأنيث ، وزنه فعلاء .

(فاقع) ، اسم فاعل من فقع يفقع بابي نصر وفتح ، وزنه فاعل .

(الناظرين) ، جمع الناظر وهو اسم فاعل من نظر ينظر باب نصر ، وزنه فاعل .

[سورة البقرة (2) : آية 70]

قالُوا ادْعُ لَنا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنا ما هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشابَهَ عَلَيْنا وَإِنَّا إِنْ شاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (70)

الإعراب :

(قالوا ادع لنا ربّك يبيّن لنا ما هي) مرّ إعرابها " 1 " ، (إنّ) حرف مشبه بالفعل (البقر) اسم إن منصوب (تشابه) فعل ماض ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (على) حرف جرّ و(نا) ضمير متّصل في محلّ جرّ متعلّق به (تشابه) ، (الواو) عاطفة (إنّ) كالأول و(نا) اسم انّ ، (إن) حرف شرط جازم (شاء) فعل ماض مبني في محلّ جزم فعل الشرط (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (اللام) المزحلقة تفيد التوكيد (مهتدون) خبر إنّ مرفوع وعلامة الرفع الواو .

جملة : " إن البقر تشابه " لا محلّ لها تعليليّة أو استئناف بيانيّ .

وجملة : " تشابه علينا " في محلّ رفع خبر (إنّ) .

وجملة : " إنّا . . . لمهتدون " لا محلّ لها معطوفة على التعليلية أو استئنافيّة .

---

(1) انظر الآية (68) مفردات وجملا .

وجملة : " إن شاء اللّه " لا محلّ لها اعتراضيّة . . وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله أي : فهدايتنا حاصلة .

[سورة البقرة (2) : آية 71]

قالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّها بَقَرَةٌ لا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لا شِيَةَ فِيها قالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوها وَما كادُوا يَفْعَلُونَ (71)

الإعراب :

(قال إنّه يقول إنّها بقرة) مرّ إعرابها " 1 " . (لا) نافية (ذلول) نعت لـ (بقرة) مرفوع مثله " 2 " ، (تثير) فعل مضارع مرفوع ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هي (الأرض) مفعول به منصوب (الواو) عاطفة (لا) نافية (تسقي) فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعه الضمّة المقدّرة على الياء ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هي (الحرث) مفعول به منصوب (مسلّمة) نعت لـ (بقرة) مرفوع مثله (لا) نافية للجنس (شية) اسم لا مبنيّ على الفتح في محلّ نصب (في) حرف جرّ و(ها) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف خبر لا . (قالوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ . . والواو فاعل (الآن) ظرف زمان مبنيّ على الفتح في محلّ نصب متعلّق بـ (جئت) وهو فعل وفاعل (بالحقّ) جارّ ومجرور متعلّق بـ (جئت) والباء للتعدية " 3 " .

(الفاء) عاطفة (ذبحوا) مثل قالوا و(ها) مفعول به (الواو) حاليّة (ما) نافية (كادوا) فعل

ماض ناقص مبنيّ على الضمّ . . والواو اسم كاد (يفعلون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل .

جملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " إنّه يقول " في محلّ نصب مقول القول .

---

(1) انظر الآية (68) .

(2) أو خبر لمبتدأ محذوف تقديره هي . . والجملة نعت لـ (بقرة) .

(3) يجوز تعليق الجار بمحذوف حال من التاء من جئت أي : جئت متلبسا بالحق .

وجملة : " يقول . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " إنّها بقرة " في محلّ نصب مقول القول لفعل يقول .

وجملة : " تثير الأرض " في محلّ رفع نعت لـ (بقرة) داخلة في حكم النفي قبلها أي لا ذلول ولا تثير الأرض .

وجملة : " لا تسقي الحرث " في محلّ رفع معطوفة على جملة تثير الأرض .

وجملة : " لا شية فيها " في محلّ رفع نعت لـ (بقرة) .

وجملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " جئت بالحقّ " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " ذبحوها " لا محلّ لها معطوفة على جملة مستأنفة مقدّرة أي بحثوا عنها .

فوجدوها فذبحوها .

وجملة : " ما كادوا يفعلون " في محلّ نصب حال . . أي : ذبحوها في حال نصب انتفاء مقاربتهم لفعل الذبح ، وكان زمن الانتفاء سابقا لزمن الذبح .

وجملة : " يفعلون " في محلّ نصب خبر كادوا .

الصرف :

(ذلول) ، صفة مشبّهة من فعل ذلّ يذل باب ضرب وزنه فعول بفتح الفاء ، وهي من الصفات التي يستوي فيها التذكير والتأنيث .

(الحرث) ، اسم جامد للأرض أو المزروع ، وزنه فعل بفتح فسكون ، وفعله من باب نصر . واللفظ مصدر سماعيّ للفعل أيضا .

(مسلّمة) مؤنّث مسلّم ، اسم مفعول من سلّم الرباعيّ بمعنى سليم ، وزنه على وزن مضارعه المبنيّ للمجهول ، بحذف حرف المضارعة وإبداله ميما مضمومة .

(شية) ، هو في الأصل مصدر فعل وشيء من باب وعد إذا خلط لونا بلون آخر . والمراد هنا اللون نفسه . وفي الكلمة إعلال بالحذف ، حذفت فاؤه كما جرى ذلك في عدة وزنه

علة .

(الآن) ، الألف واللام فيه زائدة لازمة ، وهو ظرف للزمان ملازم للبناء .

(جئت) ، فيه إعلال بالحذف لمناسبة البناء ، حذفت عينه لمجيئها ساكنة بعد لامه المبنيّة على السكون ، فحذفت العين لالتقاء الساكنين وزنه فلت بكسر الفاء لدلالة نوع حرف العلّة المحذوف وهو الياء .

(كاد) فيه إعلال بالقلب ، أصله كود بكسر الواو ، جاءت الواو متحرّكة بعد فتح قلبت ألفا فأصبح كاد . ألفه منقلبة عن واو لأن مصدره كود زنة فعل بفتح فسكون ، وإنّما يكسر فاؤه مع إسناده لضمير الرفع بسبب حركة عينه المكسورة فهو من باب فرح .

البلاغة

1 – في هذه الآيات المتقدمة فن التكرير وهو داخل في باب الإطناب .

2 – قوله تعالى وَما كادُوا صورة مجسدة لطبائع اليهود ولجوئهم إلى اللجاج والمكابرة ، فقد فعلوا الذبح بعد لجاج طويل .

[سورة البقرة (2) : آية 72]

وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيها وَاللَّهُ مُخْرِجٌ ما كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (72)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (إذ) ظرف للزمن الماضي في محلّ نصب مفعول به لفعل محذوف تقديره اذكروا . (قتلتم) فعل وفاعل (نفسا) مفعول به منصوب (الفاء) عاطفة (ادّارأتم) فعل ماض مبنيّ على السكون و(التاء) فاعل و(الميم) لجمع الذكور (في) حرف جرّ و(ها) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (ادّارأتم) ، (الواو) اعتراضيّة (اللّه) مبتدأ مرفوع (مخرج) خبر مرفوع (ما) اسم موصول " 1 " في محلّ نصب مفعول به لاسم الفاعل مخرج ، والعائد محذوف (كنتم) فعل ماض ناقص . . و(تم) اسم كان (تكتمون) فعل مضارع مرفوع . . والواو فاعل .

جملة : " قتلتم . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " ادّارأتم " في محلّ جرّ معطوفة على جملة قتلتم .

وجملة : " اللّه مخرج " لا محلّ لها اعتراضيّة بين المعطوف والمعطوف عليه .

وجملة : " كنتم تكتمون " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " تكتمون : في " محلّ نصب خبر (كنتم) .

الصرف :

(ادّارأتم) ، أصله تدارأتم من الدرء وهو الدفع ، اجتمعت التاء مع الدال وهما قريبتا

المخرج فسهل الإدغام بينهما ولكن بقلب التاء دالا . فلمّا بدأ الفعل بالساكن بسبب الإدغام أضيفت همزة الوصل فقيل ادّارأتم وزنه أ تفاعلتم المنقلب من تفاعلتم ، ويجوز أن يكون افّاعلتم .

(مخرج) ، اسم فاعل من أخرج الرباعيّ ، فهو على وزن مضارعه بإبدال حرف المضارعة ميما مضمومة وكسر ما قبل آخره .

البلاغة

- المجاز المرسل : في قوله تعالى وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيها وَاللَّهُ مُخْرِجٌ ما كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ

---

(1) يجوز أن تكون (ما) مصدريّة ، والمصدر المؤوّل في محلّ نصب مفعول به .

أي : ألقى كل منكم تهمة القتل على الآخر ، والقتل لم يصدر عن الجميع وإنما صدر عن واحد منهم فعبّر بالعام وأراد الخاص . فعلاقة المجاز العموم .

[سورة البقرة (2) : آية 73]

فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِها كَذلِكَ يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتى وَيُرِيكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (73)

الإعراب :

(الفاء) عاطفة (قلنا) فعل وفاعل (اضربوا) فعل أمر مبنيّ على حذف النون . . والواو فاعل و(الهاء) ضمير مفعول به (ببعض) جارّ ومجرور متعلّق بـ (اضربوه) ، و(الهاء) مضاف إليه . (الكاف) حرف جرّ " 1 " (ذا) اسم إشارة مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف مفعول مطلق و(اللام) للبعد و(الكاف) للخطاب (يحيي) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (الموتى) مفعول به منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على الألف (الواو) عاطفة (يري) مضارع مرفوع وعلامة رفعه الضمّة المقدّرة على الياء و(كم) ضمير في محلّ نصب مفعول به (آيات) مفعول به ثان منصوب وعلامة النصب الكسرة و(الهاء) مضاف إليه . (لعلّ) حرف مشبّه بالفعل للترجّي و(كم) ضمير في محلّ نصب اسم لعلّ (تعقلون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل .

جملة : " قلنا . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة ادّارأتم في الآية السابقة .

وجملة : " اضربوه " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " يحيي . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

---

(1) أو اسم بمعنى مثل في محلّ نصب مفعول مطلق نائب عن المصدر لأنه صفته أي : إحياء مثل ذلك .

وجملة : " يريكم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يحيي .

وجملة : " لعلّكم تعقلون " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " تعقلون " في محلّ رفع خبر لعلّ .

الصرف :

(الموتى) ، جمع ميّت . . انظر الآية (28) من هذه الآية .

[سورة البقرة (2) : آية 74]

ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجارَةِ لَما يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهارُ وَإِنَّ مِنْها لَما يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْماءُ وَإِنَّ مِنْها لَما يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (74)

الإعراب :

(ثمّ) حرف عطف (قست) فعل ماض مبنيّ على الفتح المقدّر على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين (التاء) للتأنيث (قلوب) فاعل مرفوع و(كم) مضاف إليه (من بعد) جارّ ومجرور متعلّق بـ (قست) ، (ذا) اسم إشارة مبنيّ في محلّ جرّ مضاف إليه و(اللام) للبعد و(الكاف) للخطاب . (الفاء) تعليليّة (هي) ضمير منفصل في محلّ رفع مبتدأ (كالحجارة) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف خبر المبتدأ (أو) حرف عطف للإباحة (أشدّ) خبر لمبتدأ

محذوف تقديره هي " 1 " . (قسوة) تمييز منصوب . (الواو) استئنافيّة أو حاليّة (إنّ) حرف مشبّه بالفعل للتوكيد (من الحجارة) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف خبر إنّ مقدّم (اللام) للتوكيد (ما) اسم موصول في محلّ نصب اسم إنّ مؤخّر (يتفجّر) مضارع مرفوع (من) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (يتفجّر) (الأنهار) فاعل مرفوع (الواو) عاطفة (إنّ منها) مرّ إعرابهما (لما يشّقق) مثل لما يتفجّر (الفاء) عاطفة (يخرج) مضارع مرفوع (من) حرف جرّ و(الهاء) ضمير متّصل في

---

(1) يجوز عطفه على الخبر المتقدّم الذي تعلّق به الجار والمجرور (كالحجارة) . [. . . . .]

محلّ جرّ متعلّق بـ (يخرج) ، (الماء) فاعل مرفوع . (الواو) عاطفة (إنّ منها لما يهبط) سبق اعراب نظيرها (من خشية) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يهبط) (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (الواو) استئنافيّة (ما) نافية عاملة عمل ليس (اللّه) لفظ الجلالة اسم ما مرفوع (الباء) حرف جرّ زائد (غافل) مجرور لفظا منصوب محلا خبر ما (عن) حرف جرّ (ما) اسم موصول " 1 " مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق باسم الفاعل غافل والعائد محذوف أي تعملونه .

جملة : " قست قلوبكم " لا محلّ لها معطوفة على جملة مقدّرة أي فضربوها فحييت . .

وجملة : " هي كالحجارة " لا محلّ لها تعليلية .

وجملة : " (هي) أشدّ قوّة " لا محلّ لها معطوفة على التعليليّة .

وجملة : " إن من الحجارة . . . " لا محلّ لها استئنافيّة أو في محلّ نصب حال .

وجملة : " يتفجّر منه الأنهار " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الأول .

وجملة : " إنّ منها لما . . . " معطوفة على جملة إنّ من الحجارة . . .

وجملة : " يشّقّق " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الثاني .

وجملة : " يخرج منه الماء " لا محلّ لها معطوفة على جملة يشّقّق .

وجملة : " إنّ منها لما يهبط " معطوفة على جملة إنّ من الحجارة . . .

وجملة : " يهبط " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الثالث .

---

(1) أو حرف مصدري . . و(ما) والفعل في تأويل مصدر في محلّ جرّ بحرف الجرّ متعلّق باسم الفاعل غافل .

وجملة : " ما اللّه بغافل " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " تعملون " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الرابع .

الصرف :

(قست) ، فيه إعلال بالحذف ، أصله قسات ، جاءت الألف ساكنة قبل تاء التأنيث الساكنة فحذفت تخلّصا من التقاء الساكنين ، وزنه فعت .

(الحجارة) ، جمع الحجر (انظر الآية 60) من هذه السورة .

(أشدّ) ، اسم تفضيل من فعل شدّ ، وزنه أفعل ، وقد أدغمت العين من اللام .

(قسوة) ، مصدر سماعيّ لفعل قسا يقسو باب نصر ، وثمة مصادر أخرى للفعل منها قسوا بفتح فسكون وقساوة بفتح القاف وقساءة بقلب الواو همزة . وزن قسوة فعلة بفتح فسكون .

(يشقق) ، أصله يتشقق ، قلبت التاء شينا وأدغمت مع الشين الثانية ، وزنه يفعّل وأصله يتفعّل .

(خشية) ، مصدر سماعيّ لفعل خشي يخشى باب فرح ، وزنه فعلة بفتح فسكون ، وثمّة مصادر أخرى للفعل هي خشي بفتح الخاء وكسرها وخشاة بفتح الخاء وخشيان بفتح الخاء والشين ومخشية بفتح الميم وكسر الشين ومخشاة بقلب الياء ألفا وفتح ما قبلها .

(غافل) ، اسم فاعل من غفل يغفل باب فرح ومنه . فاعل .

البلاغة

1 - الاستعارة المكنية التبعية : في قوله تعالى ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ حيث استعيرت القسوة لنبو قلوبهم عن التأثر بالعظات والقوارع التي تميع منها الجبال وتلين بها الصخور .

2 - التشبيه المرسل : حيث شبه قلوبهم بالحجارة أو بما هو أقسى من الحجارة وقد ذكر أداة التشبيه فكان التشبيه مرسلا .

3 - وإيراد الجملة أسميه مع كون ما سبق فعليه للدلالة على استمرار قساوة قلوبهم .

4 - المجاز العقلي : في قوله تعالى وَإِنَّ مِنْها لَما يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ فهو مجاز من الانقياد لأمره تعالى والمعنى أن الحجارة ليس منها فرد إلا وهو منقاد لأمره عز وعلا آت بما خلق له من غير استعصاء وقلوبهم ليست كذلك . انتهى . ا هـ ﴿ الجدول فى إعراب القرآن الكريم / لمحمود صافى حـ 1 صـ 166.84 ﴾

(248/56)

وقال العلامة محيي الدين الدرويش :

[سورة البقرة (2) : الآيات 26 إلى 27]

إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً ما بَعُوضَةً فَما فَوْقَها فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ

مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ ما ذا أَرادَ اللَّهُ بِهذا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَما يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفاسِقِينَ (26) الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثاقِهِ وَيَقْطَعُونَ ما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ (27)

اللغة :

(يَسْتَحْيِي) الحياء : تغيّر وانكسار يعتري الإنسان من تخوّف ما يعاب به ويذمّ . ومن أقوال العرب : " فلان أحيا من مخدّرة " وقالت ليلى :

وأحيا حياء من فتاة حييّة وأشجع من ليث بخفّان حادر

(البعوض) الحيوان العضوض المعروف واشتقاقه من البعض وهو القطع ومنه بعض الشيء لأنه قطعة منه .

(النقض) : الفسخ وفك الترتيب .

الاعراب :

(

إِنَّ) حرف مشبه بالفعل (اللَّهَ) اسمها المنصوب (لا) نافية (يَسْتَحْيِي) فعل مضارع مرفوع وفاعله مستتر فيه جوازا تقديره هو يعود على اللّه والجملة الفعلية في محل رفع خبر إن (أَنْ يَضْرِبَ) أن حرف مصدري ونصب ويضرب فعل مضارع منصوب بأن مضمرة جوازا وأن

وما بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول به إن كان يستحيي يتعدّ بنفسه أو في محل نصب بنزع الخافض وقد تقدم

(249/56)

بحثه قريبا (مَثَلًا) مفعول به ليضرب (ما) فيها أقوال عديدة أرجحها فيما نرى أنها الإبهامية وهي التي إذا اقترنت باسم نكرة زادته شيوعا وعموما وإبهاما تقول: أعطني كتابا ما تريد أي كتاب شئت وتعرب صفة للاسم قبلها (بَعُوضَةً) بدل من مثلا (فَما) الفاء عاطفة وما اسم موصول في محل نصب معطوف على بعوضة (فَوْقَها) ظرف مكان متعلق بمحذوف لا محل له من الاعراب لأنه صلة الموصول المراد:

فما تجاوزها في المعنى الذي ضربت فيه مثلا وهو القلّة والحقارة أو فما تجاوزها في الحجم كأنه قصد بذلك ردّ ما استهجنوه من ضرب المثل بالذباب والعنكبوت لأنهما أكبر من البعوضة تقول: فلان لا يبالي أن يبخل بنصف درهم فما فوقه تريد الدرهم والدرهمين وجميل حديث رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فيما يرويه مسلم عن ابراهيم عن الأسود قال: دخل شباب قريش على عائشة رضي اللّه عنها وهي بمنى وهم يضحكون فقالت: ما يضحككم؟ قالوا: خرّ على طنب فسطاط فكادت عنقه أو عينه أن تذهب فقالت:

لا تضحكوا إني سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال : ما من مسلم يشاك شوكة فما فوقها إلا كتبت له بها درجة ومحيت عنه خطيئة . يحتمل فيما عدا الشوكة وتجاوزها في القلة ويحتمل ما هو أشد من الشوكة وأوجع (فَأَمَّا) الفاء استئنافية وأما حرف شرط وتفصيل (الَّذِينَ) اسم موصول في محل رفع مبتدأ (آمَنُوا) فعل وفاعل والجملة لا محل لها من الاعراب لأنها صلة الذين (فَيَعْلَمُونَ) الفاء : رابطة لجواب الشرط ويعلمون فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعه ثبوت النون والواو فاعل وجملة يعلمون في محل رفع خبر الذين (أَنَّهُ) أنّ : حرف مشبه بالفعل والهاء ضمير متصل في محل نصب اسمها (الْحَقُّ) خبرها وان وما في حيزها سدت مسدّ

(250/56)

مفعولي يعلمون (مِنْ رَبِّهِمْ) الجار والمجرور متعلقان بمحذوف حال (وَأَمَّا) الواو حرف عطف واما حرف شرط وتفصيل (الَّذِينَ) اسم موصول في محل رفع مبتدأ (كَفَرُوا) فعل وفاعل والجملة لا محل لها صلة الموصول (فَيَقُولُونَ) الفاء : رابطة لجواب الشرط ويقولون : فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعه ثبوت النون والواو فاعل والجملة خبر الموصول (ما ذا) اسم استفهام في محل نصب مفعول به مقدم لأراد أو ما اسم استفهام وذا اسم موصول- هنا

خاصة- في محل رفع خبر ما والجملة في محل نصب مقول القول وعلى الوجه الأول تعرب جملة أراد مقولا للقول (أَرادَ) فعل ماض مبني على الفتح (اللَّهَ) فاعل أراد (بِهذا) الجار والمجرور متعلقان بأراد (مَثَلًا) تمييز مؤكد أو حال من اسم الاشارة أي ممثلا به أو من الفاعل أي ممثلا (يُضِلُّ) فعل مضارع مرفوع وفاعله مستتر فيه جوازا تقديره هو والجملة الفعلية مستأنفة جارية مجرى التفسير والبيان للجملتين المصدرتين بأمّا وقيل : في محل نصب صفة مثلا والمعنى : مثلا يفترق الناس به إلى ضالين ومهتدين (بِهِ) الجار والمجرور متعلقان بيضل (كَثِيراً) مفعول به (وَيَهْدِي) عطف على يضل (بِهِ) الجار والمجرور متعلقان بيهدي (كَثِيراً) مفعول به (وَما يُضِلُّ) الواو حالية أو استئنافية وما نافية (بِهِ) الجار والمجرور متعلقان بيضل (إِلَّا) أداة حصر (الْفاسِقِينَ) مفعول به والجملة لا محل لها من الاعراب أو حالية (الَّذِينَ) اسم موصول في محل جر لأنه صفة للفاسقين (يَنْقُضُونَ) فعل مضارع مرفوع والجملة لا محل لها لأنها صلة الموصول (عَهْدَ اللَّهِ) مفعول به ومضاف إليه (مِنْ بَعْدِ) الجار والمجرور متعلقان بينقضون (مِيثاقِهِ)

مضاف اليه والضمير يعود على اسم اللّه أو على العهد وسيأتي تفسير طريف في الميثاق في باب الفوائد (وَيَقْطَعُونَ) عطف على قوله ينقضون (ما) اسم موصول في محل نصب مفعول به (أَمَرَ) فعل ماض مبني على الفتح (اللَّهِ) فاعل أمر (بِهِ) جار ومجرور متعلقان بأمر (أَنْ يُوصَلَ) أن حرف مصدري ونصب ويوصل فعل مضارع مبني للمجهول ونائب الفاعل ضمير مستتر تقديره هو وأن وما في حيزها في تأويل مصدر بدل من الضمير في به والمعنى ويقطعون ما أمر اللّه بوصله ، أو مفعول لأجله والتقدير كراهية أن يوصل أو لئلا يوصل (وَيُفْسِدُونَ) عطف على يقطعون (فِي الْأَرْضِ) الجار والمجرور متعلقان بيفسدون (أُولَئِكَ) اسم اشارة مبني على الكسر في محل رفع مبتدأ (هُمُ) ضمير فصل أو عماد لا محل له (الْخاسِرُونَ) خبر أولئك ولك أن تعرب هم مبتدأ والخاسرون خبره والجملة الاسمية في محل رفع خبر أولئك .

البلاغة :

1 – التمثيل : عني العرب بالتمثيل عناية كبيرة وذكر علماء البلاغة له مظهرين :

آ – أحدهما أن يظهر المعنى ابتداء في صورة التمثيل .

ب – وثانيهما : ما يجيء في أعقاب المعاني لإيضاحها وتقريرها في النفوس وهو على الحالين يكسو المعاني بهجة وجمالا ويرفع من أقدارها ، ويبعث فيها الحركة والحياة ، ويجسدها للقارىء حتى ليكاد يتقرّاها بلمس ، وما زال الناس يضربون الأمثال بالبهائم والطيور

والحشرات . ومن أروع ما صنف العرب في ذلك كتاب كليلة ودمنة الذي قيل إنه ترجمه عن الفارسية عبد اللّه بن المقفع وفي الفرنسية قصص لافونتين .

وعن الحسن وقتادة : لما ذكر اللّه الذباب والعنكبوت في كتابه ، وضرب للمشركين بهما المثل ضحكت اليهود ، وقالت : ما يشبه هذا كلام اللّه فأنزل اللّه سبحانه الآية ، ومما يرجّح أنها أنزلت فيهم انها اشتملت على نقض العهد وهو من أبرز سماتهم . وأدبنا العربي حافل بضرب الأمثال بمختلف الهوامّ وسائر الحشرات قال شاعرهم :

وإنّي لألقى من ذوي الضغن منهم وما أصبحت تشكو من الوجد ساهره

كما لقيت ذات الصفا من خليلها وما انفكت الأمثال في الناس سائره

وذات الصفاحية تقول الأسطورة العربية : انها كانت قتلت قرابة حليفها فتواثقا باللّه على أنها تدي ذلك القتيل إلى آخر تلك الأسطورة الممتعة .

2- الاستعارة المكنية وذلك في قوله : " ينقضون عهد اللّه " فقد شبه العهد بالحبل المبرم ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشيء من خصائصه أو لوازمه وهو النقض لأنه إحدى حالتي الحبل وهما النقض والإبرام .

3- المقابلة : وهي تعدّد الطباق في الكلام ، فقد طابق بين يضل ويهدي وبين يقطعون ويوصل .

الفوائد :

1- (أمّا) حرف شرط وتفصيل وقد تبدل ميمها الأولى ياء استثقالا للتضعيف كقول عمرو بن أبي ربيعة :

رأت رجلا أيما إذا الشمس عارضت فيضحي وأيما بالعشيّ فيخصر

ويفصل بين أما والفاء الجوابية بواحد من ستة :

آ- المبتدأ : كالآية الآنفة الذكر .

ب- الخبر : نحو : أما في الدار فعلي .

ج- جملة الشرط كقوله تعالى : " فأمّا إن كان من المقربين فروح وريحان " .

د- اسم معمول لمحذوف كقوله تعالى : " وأما ثمود فهديناهم " .

ه- اسم منصوب لفظا أو محلّا بالجواب نحو قوله تعالى :

" فأما اليتيم فلا تقهر " .

و- ظرف معمول لأما لما فيها من معنى الفعل الذي نابت عنه نحو : أما اليوم فإني ذاهب .

هذا وتكون أما للتوكيد والشرط فتنوب عن مهما نحو : اما بعد فإن الجهاد باب من أبواب الجنة ، والتقدير مهما يكن من شيء .

وقد تنوب الواو عن أما فيقال وبعد ، وهذا الاستعمال شائع في الخطب والمكاتبات والى ذلك أشار الشاعر بقوله :

لقد علمت قيس بن عيلان أنني إذا قلت : أما بعد أني خطيبها

2- ماذا : فيها وجهان :

آ- أن تكون ذا مركبة مع ما مجهولتين اسما واحدا للاستفهام وتعرب حسب موقعها .

(253/56)

ب- أن تكون ذا اسما موصولا بمعنى الذي فتكون خبرا لما الاستفهامية ويظهر أثر ذلك في جوابه ولهذا أوردنا الوجهين معا في الاعراب وقد قرىء قوله تعالى : " يسألونك ماذا ينفقون ؟ قل العفو " بنصب العفو ورفعه على التقديرين وقال لبيد :

ألا تسألان المرء ماذا يحاول أنحب فيقضى أم ضلال وباطل

فقد روي أنحب مرفوعا على البدلية من ذا على الوجه الثاني ولو قال أنحبا على البدلية من ماذا كلها المنصوبة على المفعولية ليحاول لجاز .

[سورة البقرة (2) : الآيات 28 إلى 29]

كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْواتاً فَأَحْياكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (28) هُوَ

الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (29)

اللغة :

(اسْتَوى) : اعتدل واستقام وانتصب كالسهم المرسل .

(فَسَوَّاهُنَّ) : خلقهنّ أو صيرهنّ .

الاعراب :

)

كَيْفَ) : اسم استفهام مبني على الفتح في محل نصب على الحال ومعنى الاستفهام هنا : التوبيخ (تَكْفُرُونَ) : فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعه ثبوت النون ، والواو ضمير متصل في محل رفع فاعل (بِاللَّهِ) الجار والمجرور متعلقان بتكفرون (وَكُنْتُمْ) : الواو . حالية وقد مقدرة بعدها على القاعدة المقررة وهي إن الفعل الماضي إذا وقع جملة حالية فلا بد من قد ظاهرة أو مقدرة وكان واسمها (أَمْواتاً) خبر كان المنصوب والجملة الفعلية في محل نصب على الحال (فَأَحْياكُمْ) الفاء حرف عطف وأحيا فعل ماض مبني على الفتح المقدر على الألف والفاعل ضمير مستتر تقديره هو والكاف مفعول به (ثُمَّ) حرف عطف للترتيب مع التراخي (يُمِيتُكُمْ) فعل مضارع مرفوع والفاعل ضمير مستتر تقديره هو يعود على اللّه (ثُمَّ يُحْيِيكُمْ) عطف أيضا وإنما عطف

بثم للتراخي الممتدّ بين الحالين (ثُمَّ) حرف عطف أيضا (إِلَيْهِ) جار ومجرور متعلقان بترجعون (تُرْجَعُونَ) فعل مضارع مرفوع والواو فاعل والجملة معطوفة (هُوَ) ضمير منفصل في محل رفع مبتدأ (الَّذِي) اسم موصول في محل رفع خبر (خَلَقَ) فعل ماض مبني على الفتح وفاعله ضمير مستتر تقديره هو (لَكُمْ) جار ومجرور متعلقان بخلق (ما) اسم موصول مبني على السكون في محل نصب مفعول به (فِي الْأَرْضِ) جار ومجرور متعلقان بمحذوف لا محل له من الاعراب لأنه صلة الموصول (جَمِيعاً) حال من المفعول به الذي هو ما خلافا لمن أعربه من المفسرين توكيدا لما ولو كان ذلك لقيل جميعه (ثُمَّ) حرف عطف للترتيب مع التراخي (اسْتَوى) فعل ماض معطوف على خلق (إِلَى السَّماءِ) جار ومجرور متعلقان باستوى (فَسَوَّاهُنَّ) الفاء حرف عطف وسوى فعل ماض مبني على الفتح المقدر على الألف والفاعل ضمير مستتر تقديره هو والهاء ضمير متصل في محل نصب مفعول به (سَبْعَ سَماواتٍ) حال إذا كانت سوّى بمعنى الخلق المجرد لأنه دل على العدد المجرد ومثله قوله تعالى: " فتمّ ميقات ربه أربعين ليلة " أو على البدلية من الضمير في فسواهن، وإذا كانت سوّى بمعنى صيّر كانت مفعولا ثانيا وأنكر أبو حيان هذا الاعراب ولا مسوغ لانكاره

(وَهُوَ) الواو استئنافية وهو مبتدأ (بِكُلِّ شَيْءٍ) الجار والمجرور متعلقان بعليم (عَلِيمٌ) خبر هو.

الفوائد :

كيف : اسم مبني على الفتح وأكثر ما تستعمل استفهاما ومحلها من الإعراب إما خبر لما بعدها إن وقعت قبل ما لا يستغنى عنها نحو :

كيف أنت ؟ وكيف كنت ، وإما مفعول ثان لظن وأخواتها نحو : كيف تظن الأمر وإما نصب على الحال مما بعدها إذا وقعت قبل ما يستغني عنها نحو. كيف جاء أخوك ؟ أي على أية حال جاء ؟ وإما نصب على المفعولية المطلقة نحو " ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل " .

[سورة البقرة (2) : آية 30]

(255/56)

وَإِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قالُوا أَتَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيها وَيَسْفِكُ الدِّماءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قالَ إِنِّي أَعْلَمُ ما لا تَعْلَمُونَ (30)

الإعراب :

(وَإِذْ) الواو استئنافية وإذ : ظرف لما مضى من الزمن في محل نصب مفعول به لفعل محذوف تقديره اذكر وهذا الاعراب هو الغالب على إذ المذكورة في أوائل القصص في القرآن واختاره الزمخشري وابن عطية وغيرهما من المعربين وقد ردّه أبو حيّان والكرخي ولعلّ من الممتع أن نورد نصا طريفا لأبي حيان بهذا الصدد قال : " وليس بشيء لأن فيه إخراج إذ عن بابها وهو أنه لا يتصرّف فيه بغير الظرفية أو بإضافة الظرف الزماني إليها " وردّ عليه ابن هشام بما تراه مفصّلا في باب الفوائد ومضى أبو حيان يقول : " والذي تقتضيه العربية نصبه بقوله : قالوا أتجعل أي وقت قول اللّه للملائكة : إني جاعل في الأرض خليفة قالوا : أتجعل كما تقول في الكلام : إذ جئتني أكرمتك أي وقت مجيئك أكرمتك وإذ قلت لي كذا قلت لك كذا فانظر إلى هذا الوجه السهل الواضح كيف لم يوفق أكثر الناس إلى القول به وارتكبوا في دهياء ، وخبطوا خبط عشواء " (قالَ) فعل ماض والجملة الفعلية في

محل جر باضافة الظرف إليها (رَبُّكَ) فاعل (لِلْمَلائِكَةِ) : الجار والمجرور متعلقان بقال (إِنِّي) إن حرف مشبه بالفعل والياء اسمها (جاعِلٌ) خبرها (فِي الْأَرْضِ) الجار والمجرور متعلقان بجاعل إذا كانت بمعنى خالق وفي محل نصب مفعول به ثان إذا كانت اسم فاعل من الجعل

بمعنى التّصيير وجملة اني جاعل في محل نصب مقول القول (خَلِيفَةً) مفعول به لجاعل لأنه اسم فاعل (قالُوا) : فعل ماض مبني على الضم لاتصاله بواو الجماعة والواو فاعل والجملة لا محل لها لأنها استئنافية (أَتَجْعَلُ) الهمزة للاستفهام التعجبي المجرّد كأنهم يطلبون استكناه ما خفي عليهم من الحكمة الباهرة ، وتجعل فعل مضارع مرفوع وفاعله ضمير مستتر فيه وجوبا تقديره أنت (فِيها) جار ومجرور لك أن تعلقهما بجعل إذا كانت بمعنى الخلق وأن تجعلهما في موضع المفعول الثاني المقدم إذا كانت بمعنى التصيير (يُفْسِدُ) فعل مضارع وفاعله ضمير مستتر تقديره هو والجملة لا محل لها من الاعراب لأنها صلة الموصول (فِيها) جار ومجرور متعلقان بيفسد (وَيَسْفِكُ) فعل مضارع معطوف على يفسد داخل حيّز الصلة (الدِّماءَ) مفعول به (وَنَحْنُ) الواو حالية ونحن ضمير منفصل في محل رفع مبتدأ (نُسَبِّحُ) فعل مضارع وفاعله ضمير مستتر تقديره نحن والجملة الفعلية في محل رفع خبر نحن (بِحَمْدِكَ) الجار والمجرور متعلقان بمحذوف حال أي متلبّسين بحمدك (وَنُقَدِّسُ) فعل مضارع معطوف على نسبح (لَكَ) جار ومجرور متعلقان بنقدس وجعلها بعضهم زائدة والكاف مفعول لنقدس ، (قالَ) فعل ماض وفاعله مستتر تقديره هو والجملة مستأنفة (إِنِّي) إن واسمها (أَعْلَمُ) فعل مضارع مرفوع وفاعله ضمير مستتر تقديره أنا والجملة خبر انّ (ما) اسم موصول في محل نصب مفعول

به (لا) نافية (تَعْلَمُونَ) فعل مضارع مرفوع بثبوت النون والجملة لا محل لها لأنها صلة الموصول وجملة إني أعلم الاسمية في محل نصب مقول القول .

البلاغة :

في الاستفهام الوارد في قوله : أتجعل ، خروج لمعناه الأصلي عن موضوعه فهو للتعجب كما اخترنا في الاعراب وقيل : هي للاسترشاد أي أتجعل فيها من يفسد كمن كان فيها من قبل ، وقيل استفهموا عن أحوال أنفسهم أي أتجعل فيها مفسدا ونحن مقيمون على طاعتك لا نفتر عنها طرفة عين ، وقال آخرون هي للايجاب ، والواقع أن كل لفظ استفهام ورد في كتاب اللّه تعالى لا يخلو من أحد الوجوه الستة الآتية :

1- التوبيخ ، 2- التعجب ، 3- التسوية ، 4- الإيجاب ، 5- الأمر ، 6- التقرير . أما الاستفهام الصريح فلا يقع من اللّه تعالى في القرآن لأن المستفهم متعلّم ما ليس عنده واللّه عالم بالأشياء قبل كونها ، فالتوبيخ نحو : " أذهبتم طيباتكم " والتقرير : " أأنت قلت للناس " ؟ والتسوية نحو : " سواء عليهم أأنذرتهم " والإيجاب نحو :

" أتجعل فيها من يفسد فيها " ، والأمر نحو : " أأسلمتم " فعلى هذا يعرف ما جاء في كتاب اللّه فاعرف مواضعه وتدبر .

الفوائد :

1- إذ ظرف للزمن الماضي ولا تقع بعدها إلا الجملة وقد تحذف الجملة ويعوض عنها بالتنوين ويسمى تنوين العوض نحو :

" ويومئذ يفرح المؤمنون " والأصل يوم إذ غلبت الروم يفرح المؤمنون فحذت جملة غلبت الروم وجيء بالتنوين عوضا عنها فالتقى ساكنان : ذال والتنوين فكسرت الذال على أصل التقاء الساكنين ويتلخص إعرابها بخمسة أوجه :

آ- أن تكون ظرفا نحو : " فقد نصره اللّه إذا أخرجه الذين كفروا " .

ب- أن تكون مفعولا به : وهو الغالب على إذ المذكورة في أوائل التنزيل .

ج- أن تكون بدلا من المفعول نحو : " واذكر في الكتاب مريم إذا انتبذت " فإذ بدل اشتمال من مريم .

د- أن يضاف إليها اسم زمان صالح للاستغناء عنه نحو :

" يومئذ تحدث أخبارها " .

ه- وترد إذ للمفاجأة وتقع بعد بينا وبينما . قال الشاعر :

استقدر اللّه خيرا وارضينّ به فبينما العسر إذ دارت مياسير

وعند ما تكون إذ للمفاجأة ماذا يكون إعرابها ؟ عندئذ يكون الأرجح اعتبارها حرفا للمفاجأة .

2- هذا وقد اختلفت الأقوال كثيرا في معرفة الكيفية التي عرف الملائكة أن ذرية آدم يفسدون في الأرض وأقرب ما رأيناه فيها إلى المنطق أنهم علموا ذلك من لفظ خليفة قالوا : الخليفة هو الذي يحكم بين الخصوم ، والخصم إما أن يكون ظالما أو مظلوما ومتى حصل التظالم بينهم حصل الفساد في الأرض واستشرى .

[سورة البقرة (2) : الآيات 31 إلى 33]

وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْماءَ كُلَّها ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْماءِ هؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (31) قالُوا سُبْحانَكَ لا عِلْمَ لَنا إِلاَّ ما عَلَّمْتَنا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (32) قالَ يا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمائِهِمْ قالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ ما تُبْدُونَ وَما كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (33)

اللغة :

(آدَمَ) : اسم علم أعجمي كآذر وعابر وعاذر وهو ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة ، وأخطأ من زعم أنه مشتق من الأدمة أي السمرة أو من أديم الأرض أي وجهها لأن الاشتقاق من خصائص العربية . وللإمام الطبري زعم لا نعلم كيف صدر عنه وهو أنه فعل رباعيّ سمّي به ومن هذا الخطأ محاولتهم اشتقاق يعقوب من العقب وإبليس من الإبلاس ،

وإذن يحق لنا أن نتساءل : لم منعت هذه الأعلام من الصرف لولا العلمية والعجمة ؟ فتنبّه لهذا الفصل .

الإعراب :

)

(259/56)

وَعَلَّمَ) الواو حرف عطف وعلم فعل ماض مبني على الفتح وفاعله ضمير مستتر فيه تقديره هو يعود على اللّه ، والجملة معطوفة على جمل محذوفة تقديرها : فجعل في الأرض خليفة وسماه آدم (آدَمَ)

مفعول به أول (الْأَسْماءَ) مفعول به ثان (كُلَّها) تأكيد للأسماء (ثُمَّ) حرف عطف للترتيب مع التراخي (عَرَضَهُمْ) عطف على جملة وعلّم أي وعرض المسميات أو ألقاها في قلوبهم وغلب العقلاء على غير العقلاء وتلك سنة من سنن العرب في كلامهم (عَلَى الْمَلائِكَةِ) جار ومجرور متعلقان بعرضهم (فَقالَ) عطف على جملة عرضهم (أَنْبِئُونِي) فعل أمر والمقصود من الأمر هنا التعجيز وهو مبني على حذف النون لأن مضارعه من الأفعال الخمسة والواو فاعل والنون للوقاية والياء ضمير متصل في محل نصب مفعول به (بِأَسْماءِ)

الجار والمجرور في موضع المفعول الثاني (هؤُلاءِ) اسم الاشارة مبني على الكسر في محل جر بالإضافة (إِنْ) حرف شرط جازم (كُنْتُمْ) فعل ماض ناقص والتاء اسمها (صادِقِينَ) خبرها وكنتم في محل جزم فعل الشرط والجواب محذوف تقديره فأنبئوني ، (قالُوا) فعل وفاعل (سُبْحانَكَ) مفعول مطلق وهو مصدر لا يكاد يستعمل إلا مضافا منصوب بإضمار فعله كمعاذ اللّه (لا) نافية للجنس من أخوات إن المشبهة بالفعل (عِلْمَ) اسمها المبني على الفتح (لَنا) الجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر لا (إِلَّا) أداة حصر (ما) مصدرية أو اسم موصول وهي مع مدخولها أو هي وحدها في موضع الرفع على البدلية من محل لا واسمها نحو لا إله إلا اللّه وسيأتي تفصيل ذلك في موضعه (عَلَّمْتَنا) فعل وفاعل ومفعول والجملة لا محل لها لأنها صلة الموصول (إِنَّكَ) ان واسمها (أَنْتَ) ضمير فصل أو عماد لا محل لها (الْعَلِيمُ) خبر إن الأول (الْحَكِيمُ) خبر إن الثاني ويجوز أن تعرب أنت مبتدأ خبراه العليم الحكيم والجملة الاسمية في محل رفع خبر إن (

قالَ) فعل ماض وفاعله ضمير مستتر تقديره هو والجملة ابتدائية لا محل لها (يا آدَمُ) ياء حرف نداء للمتوسط وآدم

منادى مفرد علم مبني على الضم (أَنْبِئْهُمْ) فعل أمر مبني على السكون وفاعله ضمير مستتر تقديره أنت والهاء مفعول به والجملة الفعلية في محل نصب مقول القول (بِأَسْمائِهِمْ) في موضع المفعول الثاني (فَلَمَّا) الفاء عاطفة على جملة محذوفة والتقدير : فأنبأهم بأسمائهم فلما أنبأهم وحذفت الجملة لوضوح المعنى ولما ظرفية بمعنى حين أو رابطة متضمنة معنى الشرط على كل حال (أَنْبَأَهُمْ) الجملة في محل جر باضافة الظرف إليها إن جعلت لما ظرفية أو معطوفة إن كانت للربط (بِأَسْمائِهِمْ) الجار والمجرور متعلقان بأنبأهم (قالَ) الجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم (أَلَمْ) الهمزة للاستفهام التقريري والهمزة إذا دخلت على النفي أفادت التقرير ولم حرف نفي وقلب وجزم (أَقُلْ) فعل مضارع مجزوم بلم وفاعله ضمير مستتر فيه تقديره أنا (لَكُمْ) الجار والمجرور متعلقان بأقل (إِنِّي) ان واسمها (أَعْلَمُ) فعل مضارع مرفوع والجملة الفعلية خبر إن وجملة إن وما في حيزها في محل نصب مقول القول (غَيْبَ السَّماواتِ) مفعول اعلم (وَالْأَرْضِ) عطف على السموات (وَأَعْلَمُ) عطف على أعلم الأولى (ما) اسم موصول في محل نصب مفعول به (تُبْدُونَ) فعل مضارع مرفوع وجملة تبدون لا محل لها لأنها صلة (وَما) عطف على ما الأولى (كُنْتُمْ) كان واسمها (تَكْتُمُونَ) الجملة الفعلية في محل نصب خبر كنتم .

البلاغة :

الطباق بين السموات والأرض وبين تبدون وتكتمون . هذا وإن الطباق من الألفاظ التي

خالفت مضمونها ولذلك سماه بعضهم التضاد والتكافؤ وهو الجمع بين معنيين متضادين ولا مناسبة بين معنى

(261/56)

المطابقة لغة واصطلاحا فإنها في اللغة الموافقة . يقال : طابقت بين الشيئين إذا جعلت أحدهما على حذو الآخر . وابن الأثير يعجب لأنه لا يعرف من أين اشتقت هذه التسمية إذ لا مناسبة بين الاسم ومسمّاه ، وقدامة يسميه التكافؤ ، ولا فرق بين أن يكون التقابل حقيقيا أو اعتباريا أو تقابل السلب والإيجاب . ومن طباق السلب قول السوءل :

وننكر إن شئنا على الناس قولهم ولا ينكرون القول حين نقول

فقد طابق بين ننكر وهو إيجاب ، وبين ولا ينكرون وهو سلب ويصبح الطباق مقابلة حين يؤتى بمعنيين أو أكثر ثم يؤتى بما يقابل ذلك على الترتيب كقول البحتري :

فإذا حاربوا أذلوا عزيزا وإذا سالموا أعزّوا ذليلا

وما زال الناس يعجبون من جمع البحتري بين ثلاث مطابقات في قوله :

وأمة كان قبح الجور يشحطها دهرا فأصبح حسن العدل يرضيها

حتى جاء أبو الطيب فزاد عليه مع عذوبة اللفظ ورشاقة الصنعة وطابق بين خمسة

وخمسة :

أزورهم وسود الليل يشفع لي وأنثني وبياض الصبح يغري بي

فقد طابق بين الزيارة والانثناء وبين السواد والبياض وبين الليل والصبح وبين يشفع ويغري وبين لي وبي .

[سورة البقرة (2) : الآيات 34 إلى 36]

وَإِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبى وَاسْتَكْبَرَ وَكانَ مِنَ الْكافِرِينَ (34) وَقُلْنا يا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْها رَغَداً حَيْثُ شِئْتُما وَلا تَقْرَبا هذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونا مِنَ الظَّالِمِينَ (35) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطانُ عَنْها فَأَخْرَجَهُما مِمَّا كانا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتاعٌ إِلى حِينٍ (36)

اللغة :

)

إِبْلِيسَ) اختلف فيه أهو مشتق أم لا ؟ والصحيح انه علم أعجميّ ولهذا لم ينصرف للعلمية العجمية ولو كان مشتقا من الإبلاس أي اليأس لانصرف وقد تقدمت الاشارة إلى ذلك .

(رَغَداً) يقال : رغد العيش بالضم رغادة اتسع ولان فهو رغيد ورغد بالكسر رغدا بفتحتين فهو راغد .

(فَأَزَلَّهُمَا) يحتمل معنيين أولهما : أظهر زلّتهما وثانيهما أبعدهما .

الاعراب :

(وَإِذْ) الواو حرف عطف وإذ ظرف لما مضى من الزمن (قُلْنا) :

فعل وفاعل والجملة الفعلية في محل جرّ بإضافة الظرف إليها (لِلْمَلائِكَةِ) جار ومجرور متعلقان بقلنا (اسْجُدُوا) فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعل والجملة الفعلية في محل نصب مقول القول (لِآدَمَ) جار ومجرور متعلقان باسجدوا (فَسَجَدُوا) الفاء عاطفة وسجدوا فعل وفاعل (إِلَّا) أداة استثناء (إِبْلِيسَ) مستثنى بإلا متصل إن كان إبليس في الأصل من الملائكة وقبل منقطع لأنه ليس منهم (أَبى) فعل ماض مبني على الفتح المقدر على الألف والجملة الفعلية في محل نصب على الحال أي حال كونه رافضا للأمر مستكبرا له كافرا به (وَاسْتَكْبَرَ) الواو حرف عطف واستكبر فعل ماض معطوف على أبى (وَكانَ) الواو حرف عطف وكان فعل ماض ناقص واسمها ضمير مستتر تقديره هو (مِنَ الْكافِرِينَ)

الجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر كان (وَقُلْنا) الواو حرف عطف وقلنا فعل وفاعل معطوف على قلنا واختلاف الزّمانين ليس علة مانعة من عطف الفعل على الفعل (يا آدَمُ) يا حرف نداء للمتوسط وآدم منادى مفرد علم مبني على الضم في محل نصب (اسْكُنْ) فعل أمر وفاعله ضمير مستتر تقديره أنت (أَنْتَ) تأكيد للفاعل المستتر في اسكن (وَزَوْجُكَ) الواو حرف عطف وزوجك معطوف على الضمير المستكن في اسكن وحسن عطف الظاهر على الضمير توكيده بالضمير المنفصل (الْجَنَّةَ) مفعول به على السعة (وَكُلا) الواو حرف عطف وكلا فعل أمر مبني على حذف النون لأن مضارعه من الأفعال الخمسة والألف ضمير متصل في محل رفع فاعل (مِنْها) الجار والمجرور متعلقان بكلا (رَغَداً) صفة لمصدر محذوف أي أكلا رغدا فهو مفعول مطلق ويجوز

(264/56)

أن يعرب حالا مؤوّلة بالمشتق أي راغدين هانئين (حَيْثُ) ظرف مكان مبني على الضم متعلق بكلا وقد أطلق لهما الأكل والرغد في الجنة حتى يقطع عليهما منافذ العذر إذا خطرت لهما شجرة واحدة معينة وفي أشجار الجنة الكثيرة مندوحة عنها (شِئْتُما) الجملة الفعلية في محل جر بإضافة ظرف المكان إليها (وَلا تَقْرَبا) الواو حرف عطف ولا ناهية

وتقربا فعل مضارع مجزوم بلا وعلامة جزمه حذف النون والألف فاعل (هذِهِ) اسم اشارة في محل نصب مفعول به (الشَّجَرَةَ) بدل من اسم الاشارة (فَتَكُونا) الفاء فاء السببية وتكونا فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد فاء السببية والألف ضمير متصل في محل رفع اسم تكونا (مِنَ الظَّالِمِينَ) الجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر تكونا (فَأَزَلَّهُمَا) الفاء عاطفة على محذوف مقدر يقتضيه سياق الكلام أي فأكلا من الشجرة عينها وأزلهما فعل ماض مبني على الفتح والهاء ضمير متصل في محل نصب مفعول به والميم والألف حرفان دالّان على التثنية (الشَّيْطانُ) فاعل أزلّ (عَنْها) الجار والمجرور متعلقان بأزلهما أو بمحذوف حال (فَأَخْرَجَهُما) عطف على أزلهما (مِمَّا) جار ومجرور متعلقان بأخرجهما (كانا) فعل ماض ناقص والألف اسمها (فِيهِ) جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر كانا (وَقُلْنَا) معطوف على ما تقدم وجملة كان لا محل لها لأنها صلة الموصول (اهْبِطُوا) فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعل والجملة مقول القول (بَعْضُكُمْ) مبتدأ (لِبَعْضٍ) متعلق بقوله (عَدُوٌّ) وهو خبر المبتدأ أو متعلق بمحذوف حال لأنه كان في الأصل صفة لعدو وتقدمت عليه . وجملة بعضكم إلخ جملة اسمية في محل نصب حال أي متعادين (وَلَكُمْ) الواو حرف عطف ولكم متعلقان بمحذوف خبر مقدم

)

فِي الْأَرْضِ) متعلقان بالاستقرار الذي تعلق به الخبر أو بمحذوف حال (مُسْتَقَرٌّ) مبتدأ مؤخر (وَمَتَاعٌ) عطف على مستقر (إِلى حِينٍ) الجار والمجرور متعلقان بمحذوف صفة لمتاع أي ممتد إلى يوم القيامة.

الفوائد :

(أَبى) من الأفعال الواجبة التي معناها النفي ولهذا يفرغ ما بعد إلا معها كما يفرغ الفعل المنفي قال تعالى : " ويأبى اللّه إلا أن يتم نوره " ولا يجوز ضربت إلا زيدا على أن يكون استثناء مفرغا لأن إلا لا تدخل في الواجب.

[سورة البقرة (2) : الآيات 37 إلى 38]

فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِماتٍ فَتابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (37) قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْها جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (38)

الإعراب :

(فَتَلَقَّى) الفاء استئنافية وتلقى فعل ماض مبني على الفتح المقدّر (آدَمُ) فاعل (مِنْ رَبِّهِ) الجار والمجرور متعلقان بتلقّى (كَلِماتٍ) مفعول به ونصب بالكسرة لأنه جمع مؤنث سالم (فَتابَ) الفاء حرف عطف على محذوف يقتضيه المقام أي فقالها فتاب (عَلَيْهِ) متعلقان بتاب (إِنَّهُ) ان واسمها (هُوَ) ضمير فصل أو عماد لا محل

نه ويجوز أن يكون مبتدأ (التَّوَّابُ) خبر ان الاول (الرَّحِيمُ) خبر إن الثاني ويجوز أن يكونا خبرين لهو والجملة الاسمية خبر لأن (قُلْنَا) فعل وفاعل (اهْبِطُوا) الجملة الفعلية مقول القول (مِنْها) متعلقان باهبطوا (جَمِيعاً) حال من الواو وجملة قلنا اهبطوا تابعة لجملة وقلنا اهبطوا تأكيدا لها ولتناط بها زيادة جديدة (فَإِمَّا) الفاء عاطفة وإن شرطية وما زائدة للتأكيد (يَأْتِيَنَّكُمْ) فعل الشرط مجزوم وبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة والكاف ضمير متصل في محل نصب مفعول به (مِنِّي) الجار والمجرور متعلقان بيأتينكم (هُدىً) فاعل مرفوع وعلامة رفعه الضمة المقدّرة على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين (فَمَنْ) الفاء رابطة لجواب الشرط ومن اسم شرط جازم في محلّ مبتدأ (تَبِعَ) فعل ماض في محل جزم فعل الشرط والفاعل مستتر تقديره هو (هُدايَ) مفعول تبع وعلامة نصبه الفتحة المقدرة على ما قبل ياء المتكلم المضافة إلى هدى والفاء ومدخولها في محل جزم جواب الشرط (فَلا) الفاء رابطة لجواب الشرط وهو من ولا نافية (خَوْفٌ) مبتدأ وساغ الابتداء به وهو نكرة لتقدم النفي عليه وهو أحد مسوّغات الابتداء بالنكرة (عَلَيْهِمْ) الجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر خوف ولك أن تعمل لا عمل ليس فيكون خوف اسمها وعليهم

خبرها (وَلا) عطف على لا الأولى و(هُمْ) مبتدأ أو اسم لا العاملة عمل ليس (يَحْزَنُونَ) الجملة الفعلية في محل رفع أو نصب خبرهم أو خبر لا وجملة فعل الشرط وجوابه خبر من .

الفوائد :

الراجح عند النحاة أن اسم الشرط إذا وقع مبتدأ وذلك إذا وقع بعده فعل لازم نحو : من يذهب أذهب معه ، أو فعل متعدّ استوفى

مفعوله نحو : " من يعمل سوءا يجز به " فالخبر هو جملة فعل الشرط وهناك من النحاة من يجعل جملة الجواب هي الخبر ومنهم من يجعل الخبر جملة فعل الشرط وجوابه معا وهذا ما وقع اختيارنا عليه .

(267/56)

[سورة البقرة (2) : الآيات 39 إلى 41]

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (39) يا بَنِي إِسْرائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (40) وَآمِنُوا بِما أَنْزَلْتُ مُصَدِّقاً لِما مَعَكُمْ وَلا تَكُونُوا أَوَّلَ كافِرٍ بِهِ وَلا تَشْتَرُوا بِآياتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ (41)

اللغة :

(إِسْرائِيلَ) : اختلفوا فيه والأصح أنه علم أعجمي ولهذا منع من الصرف وهو مركب تركيب الاضافة فإن إسرا هو العبد بالعبرية وإيل هو اللّه وقد تصرّفت العرب فيه بلغات أصحها لغة القرآن ، وهو لقب ليعقوب وقرأ أبو جعفر والأعمش إسرائيل بياء بعد الألف من غير همز وروي عن ورش اسرائل بهمزة بعد الألف دون ياء واسرال بألف محضة بين الراء واللام وتروى قراءة عن نافع : اسرائين ابدلوا من اللام نونا كأصيلان ، هذا وتتعاقب اللام والنون في كلمات مسموعة منها : عنوان الكتاب وعلوانه وأبّنت وأبّلته إذا أثنيت عليه بعد موته وغيرها .

الاعراب :

)

(268/56)

وَالَّذِينَ) الواو حرف عطف والذين مبتدأ والجملة معطوفة على قوله في الآية السابقة فمن تبع هداي لأنها قسيمه وكان مقتضى التقسيم أن يقول : ومن لم يتبع هداي ، ولكنه عدل عنه ليبرز القسيم مسجلا عليه الكفر (كَفَرُوا) الجملة الفعلية لا محل لها لأنها صلة الموصول

(وَكَذَّبُوا) معطوف على كفروا داخل في حيّز الصلة (بِآياتِنا) الجار والمجرور متعلقان بكذبوا (أُولئِكَ) اسم اشارة مبتدأ ثان (أَصْحابُ النّارِ) خبر أولئك والجملة الاسمية خبر الذين (هُمْ) ضمير منفصل في محل رفع مبتدأ (فِيها) الجار والمجرور متعلقان بخالدون (خالِدُونَ) خبرهم والجملة الاسمية في محل رفع خبر ثان للمبتدأ الذي هو أولئك ويحتمل أن تكون في محل نصب على الحال وأعربها بعضهم مفسرة لا محل لها لقوله : " أولئك أصحاب النار " لبيان أن صحبتهم للنار ليست لمجرد الاقتران بل هي للديمومة والخلود وهو إعراب سائغ وجميل (يا بَنِي) يا حرف نداء وبني منادى مضاف وعلامة نصبه الياء نيابه عن الفتحة لأنه ملحق بجمع المذكر السالم وقد تغيّر بناء مفرده وأصل ابن واويّ والبنوّة دليل عليه وقيل : أصله يائيّ لأنه مشتق من البناء وهو وضع الشيء على الشيء والابن فرع عن الأب فهو موضوع عليه وجمع جمع تكسير فقالوا أبناء وجمع جمع سلامة فقالوا بنون (إِسْرائِيلَ) مضاف اليه مجرور وعلامة جرّه الفتحة نيابة على الكسرة لأنه ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة (اذْكُرُوا) فعل أمر مبني على حذف النون لاتصاله بواو الجماعة والواو فاعل (نِعْمَتِيَ) مفعول به منصوب وعلامة نصبه الفتحة المقدرة على ما قبل ياء المتكلم والياء مضاف اليه (الَّتِي) اسم موصول في محل

نصب نعت لنعمتي (أَنْعَمْتُ) فعل وفاعل (عَلَيْكُمْ) الجار والمجرور متعلقان بأنعمت وجملة أنعمت لا محل لها لأنها صلة الموصول (وَأَوْفُوا) عطف على اذكروا (بِعَهْدِي) الجار والمجرور متعلقان بأوفوا (أُوفِ) فعل مضارع مجزوم لأنه جواب الطلب (بِعَهْدِكُمْ) الجار والمجرور متعلقان بأوف (وَإِيَّايَ) الواو عطف وإياي ضمير منفصل في محل نصب مفعول به مقدم لا رهبوا مقدّر لاستيفاء فارهبون مفعوله وهو الياء المقدرة والأصل فارهبوني (فَارْهَبُونِ) الفاء في هذا التركيب الذي تكرّر في القرآن كثيرا فيها قولان : أحدهما أنها جواب مقدّر تقديره تنبّهوا أو نحوه كقولك : الكتاب فخذ ، أي تنبّه فخذ الكتاب ثم قدم المفعول إصلاحا للّفظ لئلا تقع الفاء صدرا ، وثانيهما : أنها زائدة (وَآمِنُوا) عطف على ما تقدم (بِما) الجار والمجرور متعلقان بآمنوا (أَنْزَلْتُ) فعل وفاعل والجملة لا محل لها لأنها صلة الموصول (مُصَدِّقاً) حال من اسم الموصول (لِما) اللام حرف جر مقوّية للتعدية وما اسم موصول مبني على السكون في محل جر باللام والجار والمجرور متعلقان بمصدقا (مَعَكُمْ) ظرف مكان متعلق بمحذوف لا محلّ له من الإعراب لأنه صلة الموصول (وَلا) الواو حرف عطف ولا ناهية (تَكُونُوا) فعل مضارع مجزوم بلا وعلامة جزمه حذف النون والواو اسمها (أَوَّلَ) خبر تكونوا (كافِرٍ) مضاف اليه (بِهِ) متعلقان بكافر (وَلا تَشْتَرُوا) عطف على ولا تكونوا (بِآياتِي) الجار والمجرور متعلقان بتشتروا (ثَمَناً) مفعول به لتشتروا (قَلِيلاً) صفة

(وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ) تقدم اعراب هذا التركيب .

البلاغة :

(270/56)

في قوله تعالى : " أوف بعهدكم " فن يقال له التعطف وفحواه إعادة اللفظة بعينها في الجملة من الكلام ويسميه بعضهم فن المشاركة ، ويدخل في عموم العهد عهد اللّه الذي أخذه عليهم وعلى البشر كافة وهو التدبّر ، ووزن كل ما يعرض لهم في حياتهم بميزان العقل والنظر وهو ميزان لا يطيش ، لا بميزان الهوى والغرور وهو ميزان طائش .

الفوائد :

انطوت هذه الآيات الآنفة على فوائد متعددة ندرجها فيما يلي :

1 – مقتضى القياس أن يقول : أول كافرين به ليطابق الواو في قوله : تكونوا ولكنه عدل عن ذلك لأسباب هي :

آ – أنه على حذف الموصوف والتقدير أول فريق كافر به .

ب – النكرة المضاف إليها اسم التفضيل يجب افرادها نحو :

أنت أفضل رجل وأنتما أفضل رجل وأنتم أفضل رجل .

2- نحو قوله : " واياي فارهبون " هو من باب الاشتغال وايا فيه منصوبة بفعل محذوف يفسره المذكور ولا يصح أن يكون الضمير مفعولا مقدما للفعل الذي يليه لأن الفعل نصب الضمير الذي بعد نون الوقاية والمحذوف للتخفيف .

[سورة البقرة (2) : الآيات 42 إلى 43]

وَلا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْباطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (42) وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ (43)

اللغة :

(وَلا تَلْبِسُوا) يقال : لبست الشيء بالشيء : خلطته به والمصدر اللّبس بفتح اللام المشددة .

الاعراب :

)

(271/56)

وَلا تَلْبِسُوا) الواو حرف عطف ولا ناهية وتلبسوا : فعل مضارع مجزوم بلا وعلامة جزمه حذف النون لأنه من الأفعال الخمسة والواو فاعل (الْحَقَّ) مفعول به (بِالْباطِلِ) الجار

والمجرور متعلقان بتلبسوا والباء للملابسة أو للاستعانة (وَتَكْتُمُوا) : الواو عاطفة وتكتموا فعل مضارع مجزوم عطفا على تلبسوا داخلة تحت حكم النهي ولك أن تجعلها للمعية وتكتموا فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعدها وهي مسبوقة بالنهي (الْحَقَّ) مفعول به (وَأَنْتُمْ) الواو حالية وأنتم ضمير منفصل في محل رفع مبتدأ (تَعْلَمُونَ) فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعه ثبوت النون والواو فاعل وجملة تعلمون الفعلية خبر أنتم وجملة وأنتم تعلمون الاسمية حالية (وَأَقِيمُوا) الواو عاطفة وأقيموا فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعل (الصَّلاةَ) مفعول به (وَآتُوا الزَّكاةَ) عطف على أقيموا الصلاة (وَارْكَعُوا) عطف أيضا (مَعَ) ظرف ظرف مكان متعلق باركعوا (الرَّاكِعِينَ) مضاف اليه .

[سورة البقرة (2) : الآيات 44 إلى 46]

أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ (44) وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّها لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخاشِعِينَ (45) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ راجِعُونَ (46)

اللغة :

(بِالْبِرِّ) البر بكسر الباء الصلة والطاعة والصلاح والصدق والبر بفتح الباء الصحراء والبر بضمها القمح والواحدة برّة .

(الْخاشِعِينَ) الخشوع : الخضوع والذل ومن مجاز هذه المادة أرض خاشعة أي متطامنة

وخشعت الجبال وخشعت دونه الابصار .

الإعراب :

)

(272/56)

أَ تَأْمُرُونَ) الهمزة للاستفهام الإنكاريّ بل تجاوز هنا الإنكار إلى التوبيخ والتقريع والتعجب من حال هؤلاء اليهود لأنه ليس هناك أقبح في العقول من أن يأمر الإنسان غيره بخير وهو لا يأتيه ، وتأمرون فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعه ثبوت النون والواو فاعل (النَّاسَ) مفعول به (بِالْبِرِّ) الجار والمجرور متعلقان بتأمرون (وَتَنْسَوْنَ) عطف على تأمرون (أَنْفُسَكُمْ) مفعول به (وَأَنْتُمْ) الواو واو الحال وأنتم ضمير منفصل في محل رفع مبتدأ (تَتْلُونَ) فعل مضارع مرفوع وعلامة

رفعه ثبوت النون وجملة تتلون الفعلية خبر أنتم وجملة وأنتم الاسمية حالية من فاعل تنسون (الْكِتَابَ) مفعول به (أَفَلا) الهمزة للاستفهام الإنكاري والفاء حرف عطف ولا نافية (تَعْقِلُونَ) فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعه ثبوت النون والواو فاعل وسيأتي سر هذا التركيب (وَاسْتَعِينُوا) عطف على ما تقدم (بِالصَّبْرِ) جار ومجرور متعلقان باستعينوا

(وَالصَّلاةِ) عطف على الصبر (وَإِنَّها) الواو حالية وان واسمها (لَكَبِيرَةٌ) اللام هي المزحلقة وكبيرة خبر إن (إِلَّا) أداة حصر (عَلَى الْخاشِعِينَ) الجار والمجرور متعلقان بكبيرة فهو استثناء مفرّغ لأن ما قبل إلا ليس فيه ما يتعلق بكبيرة لتستثنى منه فهو كقولك هو كبير عليّ ولأن الكلام مؤول بالنفي أي وإنها لا تخف ولا تسهل إلا على الخاشعين فتنبه لهذا فإنه من الدقائق (الَّذِينَ) اسم موصول مبني على الفتح في محل جر صفة للخاشعين (يَظُنُّونَ) فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعه ثبوت النون والواو فاعل والجملة لا محل لها لأنها صلة الموصول (أَنَّهُمْ) ان واسمها (مُلاقُوا) خبرها (رَبِّهِمْ) مضاف اليه وإن وما في حيزها سدت مفعولي يظنون (وَأَنَّهُمْ) عطف على انهم (إِلَيْهِ) جار ومجرور متعلقان براجعون (راجِعُونَ) خبر انهم.

البلاغة:

(273/56)

في قوله: وأنتم تتلون الكتاب فقد صدّر الكلام بالضمير زيادة في المبالغة وتسجيلا للتبكيت والتوبيخ عليهم بعد أن عبّر عن تركهم فعلهم البر بالنسيان زيادة في مبالغة الترك أي فكأن البرّ لا يخالج نفوسهم ولا يدور لهم في خلد لأن نسيان الشيء يترتب عليه تركه أو استعمال

السبب في المسبب .

الفوائد :

1- القاعدة في العربية أن ضمير الغائب لا يعود على غير الأقرب إلا بدليل وقد كان مقتضى الظاهر أن يعود الضمير في قوله : انها على الصلاة لأنها الأقرب جريا على مقتضى الظاهر وكف عن خبر الأول لعلم المخاطب بأن الأول داخل ضمنا فيما دخل فيه الآخر وهو مطرّد في كلامهم . قال الانصاري :

نحن بما عندنا وأنت بما عندك راض والأمر مختلف

أراد نحن راضون وأنت بما عندك راض فكف عن خبر الأول إذ قام دليل على معناه . ومنه قول الآخر :

إن شرخ الشباب والشعر الأسود ما لم يعاص كان جنونا وقيل يعود على المصدر المفهوم من قوله واستعينوا أي الاستعانة .

2- إذا اجتمعت همزة الاستفهام وحرف العطف ففيها مذهبان :

آ- مذهب سيبويه وهو أن الهمزة في نية التأخير عن حرف العطف ولما كان لها صدر الكلام قدمت عليه وذلك بخلاف هل .

ب- مذهب الزمخشري وهو أن الواو والفاء وثم بعد الهمزة واقعة موقعها وليس في الأمر تقديم ولا تأخير ويجعل بين الهمزة وحرف العطف جملة مقدرة يصح العطف عليها وتلائم

سياق الكلام فيقدر هنا : أتفعلون فلا تعقلون ولا نرى مرجحا لأحد المذهبين على الآخر .

3- اللام المزحلقة : هي لام الابتداء زحلقت إلى الخبر لدخول إن عليها وقد تزحلق إلى الاسم نحو : " إن من الشعر لحكمة وإن من البيان لسحرا " .

[سورة البقرة (2) : الآيات 47 إلى 48]

(274/56)

يا بَنِي إِسْرائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعالَمِينَ (47) وَاتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلا يُقْبَلُ مِنْها شَفاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْها عَدْلٌ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ (48)

اللغة :

(عَدْلٌ) بفتح العين وهو الفداء لأنه معادل للمفديّ قيمة وقدرا وإن لم يكن من جنسه ، وبكسر العين هو المساوي في الجنس والجرم ويقال : عدل وعديل .

الاعراب :

)

يا) حرف نداء للمتوسط (بَنِي إِسْرائِيلَ) منادى مضاف وقد تقدم القول فيها قريبا (اذْكُرُوا) فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعل (نِعْمَتِيَ) مفعول به (الَّتِي) اسم موصول في محل نصب صفة لنعمتي (أَنْعَمْتُ) فعل وفاعل والجملة لا محل لها من الاعراب لأنها صلة الموصول (عَلَيْكُمْ) جار ومجرور متعلقان بأنعمت وقد تقدمت هذه الجملة بنصها وإنما أعيدت رور متعلقان بفضّلتكم وال في العالمين للعهد لا للجنس لئلا يلتزم تفضيلهم على جميع الناس والمراد على عالمي زمانهم (وَاتَّقُوا) الواو حرف عطف واتقوا فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعل (يَوْماً) مفعول به على حذف مضاف أي عذاب يوم أو هول يوم ويجوز نصبه على الظرفية والمفعول به محذوف تقديره اتقوا العذاب يوما (لا) نافية (تَجْزِي) فعل مضارع (نَفْسٌ) فاعل تجزي والجملة الفعلية في محل نصب صفة ليوما (عَنْ نَفْسٍ) الجار والمجرور متعلقان بتجزي (شَيْئاً) مفعول به ويجوز أن يكون انتصابه على المصدر أي لا تجزي شيئا من الجزاء فيه وفيه إشارة إلى القلة والضآلة (وَلا) الواو حرف عطف ولا نافية (يُقْبَلُ) فعل مضارع مبني للمجهول (مِنْها) جار ومجرور متعلقان بتقبل (شَفاعَةٌ) نائب فاعل (وَلا) عطف على ما تقدم (يُؤْخَذُ) فعل مضارع مبني

للمجهول (مِنْها) جار ومجرور متعلقان بيؤخذ (عَدْلٌ) نائب فاعل (وَلا) عطف أيضا (هُمْ) ضمير منفصل في محل رفع مبتدأ (يُنْصَرُونَ) فعل مضارع مبني للمجهول والواو ضمير متصل في محل رفع نائب فاعل والجملة الفعلية خبرهم.

البلاغة:

أتى بالجملة المعطوفة الأخيرة وهي "ولا هم ينصرون" اسمية مع أن الجمل التي قبلها فعلية للمبالغة والدلالة على الثبات والدّيمومة أي أنهم غير منصورين دائما ولا عبرة بما يصادفونه من نجاح مؤقت.

[سورة البقرة (2): آية 49]

وَإِذْ نَجَّيْناكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذابِ يُذَبِّحُونَ أَبْناءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِساءَكُمْ وَفِي ذلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (49)

اللغة:

(يَسُومُونَكُمْ) من سامه خسفا إذا أولاه ظلما. قال عمرو بن كلثوم:

إذا الملك سام الناس خسفا أبينا أن نقرّ الذّل فينا

وأصله من سام السلعة إذا طلبها .

(بَلاءٌ) محنة واختبار .

الاعراب :

(وَإِذْ) الواو عاطفة ، وإذ : ظرف لما مضى من الزّمن متعلق بأذكر مقدرة وقد تقدم القول فيها (نَجَّيْناكُمْ) فعل ماض مبني على السكون ونا ضمير متصل في محل رفع فاعل والكاف ضمير متصل في محل نصب مفعول به والجملة في محل جر بإضافة الظرف إليها (مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ) الجار والمجرور متعلقان بنجيناكم وفرعون مضاف اليه وعلامة جره الفتحة نيابة عن الكسرة لأنه ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة وفرعون يطلق على كل من ملك العمالقة بمصر كقيصر لملك الروم وكسرى لملك الفرس (يَسُومُونَكُمْ) الجملة في محل نصب على الحال ويحتمل أن تكون مستأنفة (سُوءَ الْعَذابِ) مفعول به ثان لأن سام يتعدى لاثنين ويحتمل أن تكون منصوبة على المصدرية فهي صفة لمصدر محذوف أي يسومونكم سوما سوء العذاب (يُذَبِّحُونَ) الجملة تفسيرية لا محل لها ولك أن تجعلها بدلا من جملة يسومونكم (أَبْناءَكُمْ) مفعول به (وَيَسْتَحْيُونَ) عطف على يذبحون والاستحياء :

الاستبقاء (نِساءَكُمْ) مفعول يستحيون والنساء جمع نسوة ونسوة جمع امرأة من حيث المعنى وقيل النسوة والنساء جمعان لامرأة على المعنى (وَفِي ذلِكُمْ) الواو مستأنفة والجار والمجرور خبر مقدم (بَلاءٌ) مبتدأ مؤخر (مِنْ رَبِّكُمْ) الجار والمجرور متعلقان بمحذوف صفة

لبلاء (عَظِيمٌ) صفة ثانية لبلاء .

[سورة البقرة (2) : الآيات 50 إلى 52]

(277/56)

وَإِذْ فَرَقْنا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْناكُمْ وَأَغْرَقْنا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (50) وَإِذْ واعَدْنا مُوسى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظالِمُونَ (51) ثُمَّ عَفَوْنا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (52)

اللغة :

(واعَدْنا) ووعدنا بمعنى واحد وليس هو من باب المفاعلة التي تقتضي المشاركة مثل قولك : عافاه اللّه وعاقبت اللص .

(مُوسى) علم أعجمي لا ينصرف وهو في الأصل مركب والأصل موشى بالشين المعجمة لأن الماء بالعبرية يقال له مو والشجر يقال له شا

فعربته العرب وقالوا : موسى ، أما موسى الحلق المعروفة فهي مشتقة من ماس يميس إذا تبختر في مشيته وقلبت الياء واوا لأنها وقعت بعد ضم كموقن لأن الموسى تتحرك عند الحلق بها وقيل : هي مشتقة من اوسيت رأسه إذا حلقته والموسى تذكّر وتؤنث وتجمع

على مواسي وموسيات .

الاعراب :

)

(278/56)

وَإِذْ) تقدم إعرابها كثيرا (فَرَقْنا) فعل وفاعل والجملة في محل جر بإضافة الظرف إليها (بِكُمُ) الجار والمجرور متعلقان بفرقنا أو بمحذوف حال أي فصلناه ملتبسا بكم والمعنى أن فرق البحر حصل بدخولكم إياه (الْبَحْرَ) مفعول به (فَأَنْجَيْناكُمْ وَأَغْرَقْنا) عطف أيضا (آلَ فِرْعَوْنَ) مفعول به وفرعون مضاف اليه (وَأَنْتُمْ) ضمير منفصل في محل رفع مبتدأ (تَنْظُرُونَ) الجملة الفعلية في محل رفع خبر أنتم والجملة الاسمية في محل نصب على الحال من الكاف في أنجيناكم (وَإِذْ) عطف على وإذا الأولى (واعَدْنا) الجملة في محل جر بإضافة الظرف إليها (مُوسى) مفعول به أول (أَرْبَعِينَ) مفعول به ثان ولا يجوز أن ينصب على الظرفية لفساد المعنى إذ ليس وعده في أربعين ليلة وعلامة نصبه الياء لأنه ملحق بجمع المذكر السالم (لَيْلَةً) تمييز ملفوظ والعامل في هذا النوع اسم العدد قبله (ثُمَّ) حرف عطف للترتيب مع التراخي (اتَّخَذْتُمُ) معطوف على واعدنا (الْعِجْلَ) مفعول به أول والمفعول الثاني محذوف لأنه مفهوم

من سياق الكلام أي إليها (مِنْ بَعْدِهِ) الجار والمجرور متعلقان بمحذوف حال (وَأَنْتُمْ) الواو حالية وأنتم مبتدأ (ظالِمُونَ) خبره والجملة الاسمية في محل نصب على الحال (ثُمَّ عَفَوْنا) عطف على ما تقدم (عَنْكُمْ) الجار والمجرور متعلقان بعفونا (مِنْ بَعْدِ ذلِكَ) الجار والمجرور متعلقان بمحذوف حال والاشارة إلى المصدر المفهوم من اتخذ أي من بعد ذلك الاتخاذ (لَعَلَّكُمْ) لعل واسمها (تَشْكُرُونَ) الجملة الفعلية في محل رفع خبر لعل وجملة الرجاء حالية.

[سورة البقرة (2) : الآيات 53 إلى 54]

(279/56)

وَإِذْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ وَالْفُرْقانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (53) وَإِذْ قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ يا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلى بارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بارِئِكُمْ فَتابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (54)

اللغة :

(لِقَوْمِهِ) : القوم : اسم جمع لا واحد له من لفظه وإنما واحده امرؤ وقياسه أن لا يجمع وشذّ جمعه قالوا : أقوام وجمع جمعه قالوا :

أقاويم قيل : يختص بالرجال قال تعالى : " لا يسخر قوم من قوم . . .

. . ولا نساء من نساء " وقال زهير :

وما أدري وسوف إخال أدري أقوم آل حصن أم نساء

وقيل : لا يختص بالرجال بل يطلق على الرجال والنساء قال تعالى :

" إنا أرسلنا نوحا إلى قومه " والقول الأول أصوب واندراج النساء في القوم هنا على سبيل الاتساع وتغليب الرجال على النساء وسمّوا قوما لأنهم يقومون بالأمور .

(بارِئِكُمْ) : البارئ : الخالق يقال : برأ اللّه الخلق ، أي خلقهم وأصل مادة برأ يدل على انفصال شيء وتميّزه عنه يقال : برأ المريض من مرضه إذا زال عنه المرض وانفصل ، وبرئ المدين من دينه إذا زال عنه الدّين وسقط ، ومنه البارئ في أوصاف اللّه تعالى لأنه الذي أخرج الخلق من العدم وفصلهم عنه إلى الوجود .

الاعراب :

)

(280/56)

وَإِذْ) تقدم القول فيها (آتَيْنا) فعل وفاعل والجملة في محل جر بإضافة الظرف إليها (مُوسَى) مفعول به أول (الْكِتابَ) مفعول به ثان (وَالْفُرْقانَ) الواو حرف عطف والفرقان معطوف

على الكتاب والمراد بالكتاب التوراة والفرقان ما يفرق بين الحق والباطل ، والهدى والضلالة عطف عليه وان كان المعنى واحدا (لَعَلَّكُمْ) لعل واسمها (تَهْتَدُونَ) الجملة الفعلية خبر لعل وجملة الرجاء حالية (وَإِذْ قالَ مُوسى) عطف على ما تقدم (لِقَوْمِهِ) الجار والمجرور متعلقان بقال (يا قَوْمِ) يا حرف نداء وقوم منادى مضاف لياء المتكلم المحذوفة (إِنَّكُمْ) إن واسمها (ظَلَمْتُمْ) الجملة الفعلية خبر إن (أَنْفُسَكُمْ) مفعول به (بِاتِّخاذِكُمُ) الجار والمجرور متعلقان بظلمتم والباء للسببية أي بسبب اتخاذكم (الْعِجْلَ) مفعول به للمصدر : اتخاذ (فَتُوبُوا) الفاء تعليلية لأن الظلم سبب التوبة وتوبوا فعل أمر مبني على حذف النون (إِلى بارِئِكُمْ) الجار والمجرور متعلقان بتوبوا (فَاقْتُلُوا) الفاء للعطف والتعقيب (أَنْفُسَكُمْ) مفعول به وسيأتي معنى القتل في باب البلاغة (ذِلِكُمْ) اسم إشارة مبتدأ (خَيْرٌ) خبر (لَكُمْ) الجار والمجرور متعلقان بخير لأنه اسم تفضيل على غير القياس إذا القياس أخير ومثله شر والقياس أشر (عِنْدَ) ظرف متعلق بمحذوف حال (بارِئِكُمْ) مضاف إليه (فَتابَ) الفاء عاطفة على محذوف والتقدير ففعلتم ما أمركم فتاب (عَلَيْكُمْ) الجار والمجرور متعلقان بتاب (إِنَّهُ) إن واسمها (هُوَ) ضمير فصل أو عماد لا محل له (التَّوَّابُ) خبر ان الاول (الرَّحِيمُ) خبر إن الثاني أو هو مبتدأ خبراه التواب الرحيم والجملة الاسمية خبر إن .

البلاغة :

1- في قوله تعالى : " فاقتلوا أنفسكم " مجاز مرسل علاقته اعتبار ما يئول إليه أي أسلموها للقتل تطهيرا لها أي لينفذ هذا الحكم الصادر وهذا أحد الأقوال في القتل وقيل المراد بقتل الأنفس تذليلها وكبح جماحها فإن القتل يرد بمعنى التذليل ومنه قول حسان بن ثابت في وصف الخمر :

إن التي ناولتني فرددتها قتلت ، قتلت ، فهاتها لم تقتل

أراد مزجها بالماء لتذهب سورتها .

2- الالتفات في قوله : " فتاب عليكم " والالتفات هنا من التكلم الذي يتطلبه سياق الكلام إذ كان مقتضى المقام أن يقول :

فوفقتكم فتبت عليكم .

[سورة البقرة (2) : الآيات 55 إلى 56]

وَإِذْ قُلْتُمْ يا مُوسى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (55) ثُمَّ بَعَثْناكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (56)

الاعراب :

)

(282/56)

وَإِذْ) تقدم القول فيها (قُلْتُمْ) فعل وفاعل والجملة في محل جر بإضافة الظرف إليها (يا) حرف نداء للمتوسط (مُوسى) منادى مفرد علم (لَنْ) حرف نفي ونصب واستقبال (نُؤْمِنَ) فعل مضارع منصوب بلن ، وفاعله ضمير مستتر تقديره نحن ، والجملة مقول القول (لَكَ) الجار والمجرور متعلقان بنؤمن (حَتَّى) حرف غاية وجر (نَرَى) فعل مضارع منصوب بأن مضمرة وجوبا بعد حتى (اللَّهَ) مفعول به (جَهْرَةً) مفعول مطلق لأنها مصدر جهر أي قرأ بصوت عال فهي بمثابة الذي يرى بالعين ويجوز أن تعرب نصبا على الحال أي جاهرين بالرؤية (فَأَخَذَتْكُمُ) الفاء عاطفة وأخذ تكم فعل ماض والتاء تاء التأنيث الساكنة والكاف ضمير متصل في محل نصب مفعول به مقدم (الصَّاعِقَةُ) فاعل والجملة معطوفة على قلتم (وَأَنْتُمْ) الواو حالية وأنتم ضمير منفصل في محل رفع مبتدأ (تَنْظُرُونَ) فعل مضارع والواو فاعل وجملة تنظرون خبر أنتم وجملة أنتم تنظرون في محل نصب حال (ثُمَّ) حرف عطف للترتيب والتراخي (بَعَثْناكُمْ) فعل ماض وفاعل ومفعول به (مِنْ بَعْدِ) الجار والمجرور

متعلقان ببعثناكم (مَوْتِكُمْ) مضاف إليه (لَعَلَّكُمْ) لعل واسمها وجملة (تَشْكُرُونَ) خبرها وجملة بعثناكم عطف على جملة فأخذتكم.

[سورة البقرة (2) : آية 57]

وَظَلَّلْنا عَلَيْكُمُ الْغَمامَ وَأَنْزَلْنا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوى كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ وَما ظَلَمُونا وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (57)

اللغة:

(الغمام) : السحاب الأبيض.

(وَظَلَّلْنا) جعلناه يظلّلكم.

(الْمَنَّ) : نبات خاص يستعمل طعاما ويسمى الترنجبين.

(السَّلْوى) : طير معروف يسمى السمانى بضم السين وفتح النون بعدها ألف مقصورة ويعرف في بلاد الشام بالفرّي.

الاعراب:

)

وَظَلَّلْنا) الواو عاطفة وظللنا فعل وفاعل (عَلَيْكُمُ) جار ومجرور متعلقان بظللنا (الْغَمامَ) مفعول به وهذه الجملة متصلة بما قبلها في سياق الذكرى منفصلة عنها في الوقوع فإن التظليل استمر إلى دخولهم أرض الميعاد ولو لا أن ساق اللّه إليهم الغمام يظلّلهم في التّيه لسفعتهم الشمس ولفحت وجوههم ولا معنى لوصف الغمام بالرقيق كما قال كثير من المفسرين بل السياق يقتضي كثافته إذ لا يحصل الظل الظليل الذي يفيده حرف التظليل إلا بحساب كثيف يمنع حر الشمس ووهجها (وَأَنْزَلْنا) عطف على وظلّلنا (عَلَيْكُمُ) جار ومجرور متعلقان بأنزلنا (الْمَنَّ) مفعول به (وَالسَّلْوى) عطف على المن (كُلُوا) فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعل وجملة كلوا في محل نصب مقول القول أي وقلنا : كلوا (مِنْ طَيِّباتِ) جار ومجرور متعلقان بكلوا (ما) اسم موصول في محل جر بالإضافة (رَزَقْناكُمْ) فعل وفاعل ومفعول

والجملة لا محل لها لأنها صلة الموصول (وَما) الواو حرف عطف وما نافية (ظَلَمُونا) فعل وفاعل ومفعول والجملة معطوفة على محذوف يقتضيه سياق الكلام والتقدير فظلموا أنفسهم بكفران تلك النعمة السابغة (وَلكِنْ) الواو حالية ولكن حرف استدراك أهمل لتخفيف نونه (كانُوا) كان واسمها (أَنْفُسَهُمْ) مفعول به مقدّم ليظلمون (يَظْلِمُونَ) فعل مضارع والواو فاعل والجملة الفعلية خبر كانوا وجملة لكن وما في حيزها في محل نصب على الحال .

[سورة البقرة (2) : آية 58]

وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْها حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَادْخُلُوا الْبابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطايا كُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (58)

اللغة :

)

(284/56)

الْقَرْيَةَ) مشتقة من قريت أي جمعت لجمعها أهلها تقول : قريت الماء في الحوض أي جمعته واختلف في القرية فقيل : هي بيت المقدس وقيل : هي أريحا وهي قرية بغور الأردن .

(حِطَّةٌ) : فعلة بكسر الحاء من الحطّ .

الاعراب :

(وَإِذْ) تقدم القول فيها (قُلْنَا) فعل وفاعل والجملة في محل جر بإضافة الظرف إليها (ادْخُلُوا) فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعل والجملة في محل نصب مقول القول (هذِهِ) الهاء حرف تنبيه

وذه اسم إشارة في محل نصب على المفعولية اتساعا (الْقَرْيَةَ) بدل من اسم الاشارة (فَكُلُوا) الفاء حرف عطف وكلوا عطف على ادخلوا (مِنْها) الجار والمجرور متعلقان بكلوا

(حَيْثُ) ظرف مكان مبنى على الضم متعلق بمحذوف حال أي متنقلين (شِئْتُمْ) فعل وفاعل والجملة في محل جر بإضافة الظرف إليها (رَغَداً) مفعول مطلق أو حال (وَادْخُلُوا) عطف على ادخلوا (الْبابَ) مفعول به على السعة (سُجَّداً) حال أي متواضعين متطامين كحال الساجد (وَقُولُوا) عطف على وادخلوا (حِطَّةٌ) خبر لمبتدأ محذوف أي مسألتنا حطة أو أمرنا خطة والجملة الاسمية مقول القول والأصل فيها النصب لأن معناها حط عنا ذنوبنا ولكنه عدل إلى الرفع للدلالة على ديمومة الحط والثبات عليه (نَغْفِرْ) فعل مضارع مجزوم لأنه جواب الطلب (لَكُمْ) الجار والمجرور متعلقان بنغفر (خَطاياكُمْ) مفعول به (وَسَنَزِيدُ) الواو استئنافية ونزيد فعل مضارع وفاعله ضمير مستتر تقديره نحن (الْمُحْسِنِينَ) مفعول به.

الفوائد :

كل ما كان من ظروف المكان محدودا غير مشتق لا يجوز نصبه على الظرفية بل يجب جرّه بفي نحو جلست في الدار وأقمت في البلد وصليت في المسجد ، إلا إذا وقع بعد دخل ونزل وسكن فيجوز نصبه على الظرفية أو على نزع الخافض والصحيح أنه منصوب على المفعولية اتّساعا .

[سورة البقرة (2) : آية 59]

فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِنَ السَّماءِ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ (59)

اللغة :

(الرجز) بكسر الراء وسكون الجيم : العذاب .

الاعراب :

(فَبَدَّلَ) الفاء استئنافية وبدل فعل ماض (الَّذِينَ) اسم موصول فاعل وجملة (ظَلَمُوا) لا محل لها لأنها صلة الموصول (قَوْلًا) مفعول به (غَيْرَ) صفة لقولا (الَّذِي) اسم موصول مضاف اليه (قِيلَ) فعل ماض مبني للمجهول (لَهُمْ) الجار والمجرور متعلقان بقيل (فَأَنْزَلْنا) الفاء حرف عطف وأنزلنا عطف على الجملة السابقة (عَلَى الَّذِينَ) جار ومجرور متعلقان بأنزلنا (ظَلَمُوا) الجملة لا محل لها لأنها صلة الموصول (رِجْزاً) مفعول به (مِنَ السَّماءِ) جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة لرجزا أو بأنزلنا (بِما) الباء حرف جر وما مصدرية مؤولة مع ما بعدها بمصدر مجرور بالباء أي بسبب فسقهم (كانُوا) كان واسمها وجملة (يَفْسُقُونَ) خبرها .

البلاغة :

في هذه الآية ضرب من البلاغة دقيق المسلك وهو وضع الظاهر موضع المضمر زيادة في

تقبيح أمرهم وقد رمقه البحتري في مطلع سينيته فقال :

صنت نفسي عما يدنّس نفسي وترفعت عن جدا كلّ جبس

فلم يقل يدنسها وإنما وضع الظاهر موضع المضمر لهذا الغرض الجليل .

[سورة البقرة (2) : آية 60]

وَإِذِ اسْتَسْقى مُوسى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُناسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (60)

اللغة :

(تَعْثَوْا) يقال عثا يعثوا وعثي يعثى أي أفسد .

الاعراب :

)

(286/56)

وَإِذِ) تقدم القول فيها (اسْتَسْقى) فعل ماض (مُوسى) فاعل (لِقَوْمِهِ) جار ومجرور متعلقان باستسقى (فَقُلْنَا) الفاء عاطفة وقلنا :

فعل وفاعل (اضْرِبْ) فعل أمر وفاعله ضمير مستتر تقديره أنت والجملة في محل نصب

مقول القول (بِعَصاكَ) الجار والمجرور متعلقان باضرب (الْحَجَرَ) مفعول به (فَانْفَجَرَتْ) الفاء هي الفصيحة وسيأتي الحديث عنها في الفوائد وانفجرت فعل ماض والتاء تاء التأنيث الساكنة أي فامتثل الأمر فضرب أو فإن ضربت فقد انفجرت (مِنْهُ) الجار والمجرور متعلقان بانفجرت (اثْنَتا عَشْرَةَ) فاعل انفجرت وعلامة رفعه الألف لأنه ملحق بالمثنى وعشرة جزء العدد المركب مبني على الفتح دائما (عَيْناً) تمييز ملفوظ (قَدْ) حرف تحقيق (عَلِمَ) فعل ماض مبني على الفتح

(كُلُّ أُناسٍ) فاعل (مَشْرَبَهُمْ) مفعول به والجملة لا محل لها لأنها مستأنفة (كُلُوا وَاشْرَبُوا) فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعل واشربوا عطف على كلوا (مِنْ رِزْقِ اللَّهِ) الجار والمجرور متعلقان بأي الفعلين شئت (وَلا تَعْثَوْا) الواو عاطفة ولا ناهية وتعثوا فعل مضارع مجزوم بلا وعلامة جزمه حذف النون والواو فاعل (فِي الْأَرْضِ) جار ومجرور متعلقان بتعثوا وجملة كلوا واشربوا : مقول قول محذوف وقد تقدم نظيره (مُفْسِدِينَ) حال وعلامة نصبه الياء لأنه جمع مذكر سالم.

الفوائد :

الفاء الفصيحة : سميت بذلك لأنها أفصحت عن مقدر ذلك لأنه لما ذكر عقب الأمر بالضرب الانفجار دل على أن المطلوب بالأمر الانفجار فلذا حذف الضرب على تقدير فضربه دلالة على أن المأمور التزم الأمر أي أن المحذوف قد يكون جملة هي السبب المذكور

فسميت فصيحة من باب المجاز العقلي .

[سورة البقرة (2) : آية 61]

(287/56)

وَإِذْ قُلْتُمْ يا مُوسى لَنْ نَصْبِرَ عَلى طَعامٍ واحِدٍ فَادْعُ لَنا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِها وَقِثَّائِها وَفُومِها وَعَدَسِها وَبَصَلِها قالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُمْ ما سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَباؤُ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كانُوا يَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذلِكَ بِما عَصَوْا وَكانُوا يَعْتَدُونَ

(61)

اللغة :

(البقل) : كل ما تنبته الأرض من النّجم مما لا ساق له وجمعه بقول .

(القثّاء) : معروف والواحدة قثاءة بكسر القاف وضمها والهمزة أصلية لأن الفعل اقثأت الأرض أي كثر قثاؤها .

(الفوم) : الحنطة وقيل الثوم ولعله أرجح بدليل قراءة ابن مسعود " وثومها " .

(الْمَسْكَنَةُ) مصدر ميمي من السكون والخزي لأن المسكين قليل الحركة والنهوض لما به من

الفقر والمسكين مفعيل مبالغة منه قالوا :

ولا يوجد يهودي غني النفس .

(باؤُ) : رجعوا .

الاعراب :

(وَإِذْ قُلْتُمْ يا مُوسى) تقدم اعرابها قريبا (لَنْ نَصْبِرَ) لن حرف نفي ونصب واستقبال ونصبر فعل مضارع منصوب بلن وفاعله ضمير مستتر وجوبا تقديره نحن (عَلى طَعامٍ) الجار والمجرور متعلقان بنصبر (واحِدٍ) صفة لطعام (فَادْعُ) الفاء استئنافية وادع فعل أمر مبني على

حذف حرف العلة وفاعله ضمير مستتر تقديره أنت (لَنا) جار ومجرور متعلقان بادع (رَبَّكَ) مفعول به (يُخْرِجْ) فعل مضارع مجزوم لأنه جواب الطلب (لَنا) جار ومجرور متعلقان بيخرج (مِمَّا) جار ومجرور متعلقان بيخرج (تُنْبِتُ) فعل مضارع (الْأَرْضُ) فاعل وجملة تنبت الأرض لا محل لها لأنها صلة الموصول (مِنْ بَقْلِها) الجار والمجرور بدل بإعادة الجار أو بمحذوف حال من الضمير المحذوف وهو العائد على الموصول أي تنبته (وَقِثَّائِها وَفُومِها

وَعَدَسِها وَبَصَلِها) أسماء معطوفة على بقلها (قالَ) فعل ماض مبني على الفتح وفاعله ضمير مستتر تقديره هو والجملة استئنافية (أَتَسْتَبْدِلُونَ) الهمزة للاستفهام الانكاري مع التوبيخ وجملة أتستبدلون مقول القول (الَّذِي) اسم موصول مفعول به (هُوَ) مبتدأ (أَدْنى) خبر والجملة الاسمية لا محل لها من الاعراب لأنها صلة (بِالَّذِي) الجار والمجرور متعلقان بتستبدلون (هُوَ) مبتدأ (خَيْرٌ) خبر (اهْبِطُوا) فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعل والجملة مقول قول محذوف أي قلنا (مِصْراً) مفعول به بمعنى انزلوا (فَإِنَّ) الفاء تعليلية وإن حرف مشبه بالفعل (لَكُمْ) جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر إن المقدم (ما) اسم موصول في محل نصب اسم إن وجملة (سَأَلْتُمْ) لا محل لها من الإعراب لأنها صلة (وَضُرِبَتْ) الواو استئنافية وضربت فعل ماض مبني للمجهول والتاء تاء التأنيث الساكنة (عَلَيْهِمُ) جار ومجرور متعلقان بضربت (الذِّلَّةُ) نائب فاعل ضربت (وَالْمَسْكَنَةُ) عطف على الذّلة (وَباؤُ) عطف على ضربت (بِغَضَبٍ) جار ومجرور متعلقان بباءوا (مِنَ اللَّهِ) الجار والمجرور متعلقان بمحذوف صفة لغضب (ذلِكَ) اسم إشارة مبتدأ

(بِأَنَّهُمْ) الباء حرف جر وان واسمها ، وان ما في حيزها في محل جر بالباء أي ذلك كله بسبب كفرهم والجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر والجملة استئنافية لا محل لها (كانُوا) كان واسمها والجملة خبر ان (يَكْفُرُونَ) الجملة الفعلية خبر كانوا (بِآياتِ اللَّهِ) الجار والمجرور متعلقان بيكفرون (وَيَقْتُلُونَ) عطف على يكفرون (النَّبِيِّينَ) مفعول به (بِغَيْرِ الْحَقِّ) الجار والمجرور متعلقان بمحذوف حال أي حالة كونهم ظالمين متنكرين للحق في اعتقادهم ولو أنصفوا لاعترفوا بالواقع (ذلِكَ) اسم الاشارة مبتدأ (بِما عَصَوْا) الباء حرف جر وما مصدرية مؤولة مع الفعل بمصدر مجرور بالباء والجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر ذلك (وَكانُوا) عطف على عصوا وكان واسمها (يَعْتَدُونَ) جملة فعلية في محل نصب خبر كانوا .

البلاغة :

الكناية في ضرب الذلة والمسكنة وهي كناية عن نسبة أراد أن يثبت ديمومة الذلة والمسكنة عليهم فكنى بضربها عليهم كما يضرب البناء وقد رمق الشعراء سماء هذه الكناية فقال الفرزدق بهجو جرير :

ضربت عليك العنكبوت بنسجها وقضى عليك به الكتاب المنزل

الفوائد :

الباء مع الابدال تدخل على المتروك لا على المأتيّ به .

[سورة البقرة (2) : آية 62]

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هادُوا وَالنَّصارى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (62)

اللغة :

(هادُوا) تهوّدوا يقال : هاد يهود وتهوّد ويتهوّد إذا دخل في اليهودية وهو هائد والجمع هود .

(النَّصارى) جمع نصران ونصرانيّ ، يقال : رجل نصران ونصرانيّ وامرأة نصرانة ونصرانيّة والياء في نصرانيّ للمبالغة سمّوا بذلك لأنهم نصروا السيد المسيح أو لأنهم كانوا معه في قرية يقال لها :

نصران أو ناصرة فسموا باسمها قال سيبويه : لا يستعمل في الكلام إلا مع ياء النسب .

(الصَّابِئِينَ) : جمع صابىء من صبأ فلان إذا خرج من الدين والصابئة قوم كانوا يعبدون النجوم ومنهم أبو اسحق الصابىء الكاتب الشاعر المشهور .

الاعراب :

(إِنَّ) حرف مشبه بالفعل (الَّذِينَ) اسم موصول اسمها (آمَنُوا) الجملة الفعلية لا محل لها من

الاعراب لأنها صلة الموصول (وَالَّذِينَ) عطف على الذين الأولى وجملة (هادُوا) لا محل لها وجملة إن وما تلاها مستأنفة (وَالنَّصارى وَالصَّابِئِينَ) عطف على اسم ان (مَنْ) اسم موصول بدل من اسم إن وجملة (آمَنَ) صلة الموصول لك أن تجعلها شرطية في محل رفع مبتدأ (بِاللَّهِ) الجار والمجرور متعلقان بآمن (وَالْيَوْمِ الْآخِرِ) عطف على اللّه (وَعَمِلَ) عطف على آمن (صالِحاً) مفعول به لعمل أو مفعول مطلق

أي عمل عملا صالحا (فَلَهُمْ) الفاء جيء بها لتضمن الموصول معنى الشرط أو رابطة لجواب الشرط ولهم جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم (أَجْرُهُمْ) مبتدأ مؤخر والجملة خبر إن إذا جعلنا من موصولة أو في محل جزم جواب الشرط إذا جعلناها شرطية والجملة بكاملها في محل رفع خبر إن (عِنْدَ رَبِّهِمْ) الظرف متعلق بمحذوف حال أي مستحقا أو مستقرا (وَلا خَوْفٌ) الواو عاطفة ولا نافية وخوف مبتدأ ساغ الابتداء به لتقدم النفي عليه (عَلَيْهِمْ) الجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر خوف (وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ) عطف على ما تقدم وقد تقدم إعراب نظيرها تماما .

[سورة البقرة (2) : الآيات 63 إلى 64]

وَإِذْ أَخَذْنا مِيثاقَكُمْ وَرَفَعْنا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا ما آتَيْناكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا ما فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (63) ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ فَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخاسِرِينَ (64)

اللغة :

)

(291/56)

الطُّورَ) : من جبال فلسطين ويطلق على كل جبل كما في القاموس .

الاعراب :

(وَإِذْ أَخَذْنا) تقدم اعراب نظائرها وجملة أخذنا في محل جر بإضافة الظرف إليها

(مِيثاقَكُمْ) مفعول به (وَرَفَعْنا) عطف على أخذنا (فَوْقَكُمُ) الظرف متعلق برفعنا (الطُّورَ)

مفعول به (خُذُوا) فعل

أمر مبني على حذف النون والواو فاعل والجملة مقول قول محذوف أي قلنا : خذوا وجملة

القول حالية والتقدير قائلين خذوا (ما) اسم موصول مفعول خذوا وجملة (آتَيْناكُمْ) لا محل

لها من الاعراب لأنها صلة ما (بِقُوَّةٍ) الجار والمجرور في محل نصب حال والمعنى خذوا ما

آتيناكم حال كونكم عازمين على الجد والعمل (وَاذْكُرُوا) عطف على خذوا (ما) اسم

موصول مفعول اذكروا (فِيهِ) الجار والمجرور متعلقان بمحذوف لا محل له لأنه صلة الموصول

(لَعَلَّكُمْ) لعل واسمها وجملة (تَتَّقُونَ) خبرها (ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ) عطف يفيد التراخي إشعارا بأن

هناك امتثالا للأمر ثم إعراضا عنه (مِنْ بَعْدِ ذلِكَ) الجار والمجرور متعلقان بتوليتم (فَلَوْلا) الفاء عاطفة ولو لا حرف امتناع لوجود متضمن معنى الشرط (فَضْلُ اللَّهِ) مبتدأ خبره محذوف تقديره موجود (عَلَيْكُمْ) جار ومجرور متعلقان بفضل (وَرَحْمَتُهُ) عطف على فضل (لَكُنْتُمْ) اللام واقعة في جواب لو لا وكان واسمها (مِنَ الْخاسِرِينَ) جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر كنتم والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم.

الفوائد :

)

لو لا) حرف امتناع لوجود وتختصّ بالجملة الاسمية والاسم الواقع بعدها مبتدأ خبره واجب الحذف لدلالة الكلام عليه وسدّ جواب لو لا مسده في حصول الفائدة وحكم اللام في جوابها أن الكلام إن كان مثبتا فالكثير دخول اللام كما في هذه الآية ونظائرها وإن كان منفيا فإن كان حرف النفي ما فالكثير فيه حذف اللام ويقلّ الإتيان بها .

قال المتنبي :

لولا مفارقة الأحباب ما وجدت لها المنايا إلى أرا وحنا سبلا

وإن كان حرف النفي غير ما فترك اللام واجب .

قال عمر بن أبي ربيعة :

عوجي علينا ربة الهودج لولاك في ذا العام لم أحجج

لئلا يتوالى لامان ومثل لولا في جميع أحكامها لو ما .

[سورة البقرة (2) : الآيات 65 إلى 66]

وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خاسِئِينَ (65) فَجَعَلْناها نَكالاً لِما بَيْنَ يَدَيْها وَما خَلْفَها وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (66)

اللغة :

(السَّبْتِ) : في الأصل مصدر سبت أي قطع العمل وهو إما مأخوذ من السبوت الذي هو الراحة والدّعة وإما من السّبت وهو القطع لأن الأشياء فيه سبتت وتمّ خلقها ثم سمي به هذا اليوم من الآسبوع (خاسِئِينَ) : مبعدين مطرودين من الخسوء وهو الصّغار والطرد .

(نَكالًا) : النكال : المنع والنكل اسم للقيد من الحديد وسمي العقاب نكالا لأنه يمنع غير المعاقب أن يفعل فعله ويمنع المعاقب أن يعود إلى فعله الأول .

الاعراب :

)

وَلَقَدْ) الواو استئنافية واللام جواب قسم محذوف وقد حرف تحقيق (عَلِمْتُمُ) فعل وفاعل (الَّذِينَ) اسم موصول مفعول به (اعْتَدَوْا) فعل وفاعل والجملة لا محل لها من الاعراب لأنها صلة الموصول (مِنْكُمْ) الجار والمجرور متعلقان بمحذوف حال من الضمير في اعتدوا (فِي السَّبْتِ) والجار والمجرور متعلقان باعتدوا لأنه ظرف الاعتداء وقيامهم بصيد السمك وقد نهوا عنه (فَقُلْنا) الفاء عاطفة وقلنا : فعل وفاعل والجملة معطوفة على جملة اعتدوا (لَهُمْ) جار ومجرور متعلقان بقلنا (كُونُوا) فعل أمر ناقص مبني على حذف النون والواو اسمها (قِرَدَةً) خبرها (خاسِئِينَ) خبر ثان ولا مانع من جعلها صفة وقيل كلاهما خبر وانهما نزلا منزلة الكلمة الواحدة وهو قول جيد (فَجَعَلْناها) الجملة معطوفة على ما تقدم (نَكالًا) مفعول جعلنا الثاني وانما أتى الضمير في جعلناها لأنه يعود على المسخة المفهومة من مطاوي الكلام (لِما) اللام حرف جر وما اسم موصول في محل جر باللام والجار والمجرور صفة لنكالا (بَيْنَ يَدَيْها) الظرف معلق بمحذوف لا محل له لأنه صلة الموصول (وَما) عطف على ما (خَلْفَها) ظرف متعلق بمحذوف صلة ما الثانية (وَمَوْعِظَةً) عطف على نكالا (لِلْمُتَّقِينَ) الجار والمجرور صفة لموعظة .

الفوائد :

للمفسرين كلام طويل في قصة هذا الاعتداء وخلاصتها أنه تعالى حرّم العمل عليهم وصبد الحيتان في يوم السبت ، فكان يكثر ظهورها فيه وتذهب بذهابه فتحيلوا في صيده بأنواع الحيل كحفر حفيرة أو

ربط الحيتان فإذا مضى السبت أخذوه ثم كثر ذلك حتى صار ديدنا لهم إلى آخر تلك القصة الممتعة التي تصور طبيعة اليهود وتفننهم في الكيد .

[سورة البقرة (2) : آية 67]

(294/56)

وَإِذْ قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قالُوا أَتَتَّخِذُنا هُزُواً قالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجاهِلِينَ (67)

الإعراب :

(وَإِذْ قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ) : تكرر إعراب نظائرها (إِنَّ اللَّهَ) إن واسمها وجملة (يَأْمُرُكُمْ) خبرها (إِنَّ) حرف مصدريّ ونصب (تَذْبَحُوا) فعل مضارع منصوب بأن ، وان وما في حيّزها في تأويل مصدر منصوب بنزع الخافض أي بأن تذبحوا بقرة (بَقَرَةً) مفعول به (قالُوا) :

فعل وفاعل (أَتَتَّخِذُنا) الهمزة للاستفهام الاستنكاري وتتخذنا : فعل وفاعل مستتر ومفعول به أول (هُزُواً) مفعول به ثان والجملة الفعلية مقول القول (قالَ) فعل ماض وفاعله هو وجملة (أَعُوذُ بِاللَّهِ) مقول القول (أَنْ أَكُونَ) أن وما في حيزها مصدر منصوب بنزع الخافض أي من أن أكون واسم أكون مستتر تقديره أنا (مِنَ الْجاهِلِينَ) خبرها .

[سورة البقرة (2) : آية 68]

قالُوا ادْعُ لَنا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنا ما هِيَ قالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّها بَقَرَةٌ لا فارِضٌ وَلا بِكْرٌ عَوانٌ بَيْنَ ذلِكَ فَافْعَلُوا ما تُؤْمَرُونَ (68)

اللغة :

(الفارض) : المسنّة لأنها فرضت سنّها أي قطعتها وبلغت آخرها .

(البكر) الفتية الصغيرة .

(العوان) النصف في السنّ والجمع عون بضم العين وسكون الواو وقال الكسائي . العوان :

التي قد كان لها زوج ومنه قيل :

حرب عوان .

الاعراب :

)

قالُوا) فعل وفاعل (ادْعُ) فعل أمر مبني على حذف حرف العلة وفاعله ضمير مستتر تقديره أنت والجملة مقول القول (لَنا) جار ومجرور متعلقان بادع (رَبَّكَ) مفعول به (يُبَيِّنْ) فعل مضارع مجزوم لأنه جواب الطلب (لَنا) جار ومجرور متعلقان بيبين (ما) اسم استفهام في محل رفع مبتدأ (هِيَ) ضمير منفصل في محل رفع خبر والجملة الاسمية في محل نصب مفعول يبين (قالَ) فعل ماض (إِنَّهُ) ان واسمها وكسرت همزة إن لسبقها بالقول وجملة (يَقُولُ إِنَّها بَقَرَةٌ) خبر إن وجملة ان وما في حيزها مقول القول (لا) نافية (فارِضٌ) صفة بقرة (وَلا بِكْرٌ) عطف على ما تقدم وإذا وصفت النكرة بما دخل عليه لا كررت وكذلك الخبر والحال (عَوانٌ) صفة أيضا لبقرة (بَيْنَ ذلِكَ) الظرف متعلق بمحذوف صفة لعوان وذلك مضاف إليه وقد نابت الاشارة عن الشيئين حيث وقعت مشارا بها إلى الفارض والبكر معا ومثله قول عبد اللّه بن الزبعرى يوم أحد قبل إسلامه :

إن للخير وللشرّ مدى وكلا ذلك وجه وقبل

(فَافْعَلُوا) الفاء هي الفصيحة وافعلوا فعل وفاعل (ما) اسم موصول مفعول به وجملة (تُؤْمَرُونَ) صلة الموصول والعائد محذوف أي به وأجاز بعضهم أن تكون ما مصدرية أي فافعلوا أمركم ويكون المصدر بمعنى المفعول أي مأموركم .

[سورة البقرة (2) : الآيات 69 إلى 71]

قالُوا ادْعُ لَنا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنا ما لَوْنُها قالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّها بَقَرَةٌ صَفْراءُ فاقِعٌ لَوْنُها تَسُرُّ النَّاظِرِينَ (69) قالُوا ادْعُ لَنا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنا ما هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشابَهَ عَلَيْنا وَإِنَّا إِنْ شاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (70) قالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّها بَقَرَةٌ لا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لا شِيَةَ فِيها قالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوها وَما كادُوا يَفْعَلُونَ (71)

اللغة :

(فاقِعٌ) : شديد الصفرة يقال في التوكيد أصفر فاقع كما يقال :

أسود حالك وأبيض يقق وأحمر قان وأخضر ناضر .

(لا ذَلُولٌ) لم تذلل للحراثة وإثارة الأرض .

(الشية) بكسر الشين : العلامة والمراد لا لمعة فيها من لون آخر سوى الصفرة .

الاعراب :

)

قالُوا) فعل وفاعل (ادْعُ) فعل أمر مبني على حذف حرف العلة وفاعله مستتر تقديره أنت والجملة مقول القول (لَنا) جار ومجرور متعلقان بادع (رَبَّكَ) مفعول به (يُبَيِّنْ) جواب الطلب (لَنا) متعلقان ببيبين (ما) اسم استفهام مبتدأ (لَوْنُها) خبر والجملة في محل نصب مفعول (قالَ) فعل ماض (إِنَّهُ) ان واسمها وجملة (يَقُولُ) خبرها (إِنَّها بَقَرَةٌ) ان واسمها وخبرها والجملة مقول القول (صَفْراءُ) نعت لبقرة (فاقِعٌ) صفة ثانية (لَوْنُها) فاعل فاقع ويجوز أن يكون فاقع خبرا مقدّما ولونها مبتدأ مؤخر والجملة صفة ثانية لبقرة وكلاهما جيد (تَسُرُّ النّاظِرِينَ) فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به والجملة صفة ثالثة لبقرة (قالُوا ادْعُ لَنا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنا ما هِيَ) تقدم إعرابها بحروفه فجدّد به عهدا (إِنَّ) حرف مشبه بالفعل (الْبَقَرَ) اسمها والجملة تعليل للسؤال لا محل لها (تَشابَهَ) فعل ماض وفاعله هو والجملة خبر إن (عَلَيْنا) جار ومجرور متعلقان بتشابه (وَإِنَّا) الواو حرف عطف وان واسمها (إِنَّ) حرف شرط جازم (شاءَ) فعل ماض في محل جزم فعل الشرط (اللَّهُ) فاعل وجواب إن محذوف تقديره اهتدينا (لَمُهْتَدُونَ) اللام المزحلقة ومهتدون خبر إن (قالَ) فعل ماض (إِنَّهُ يَقُولُ) ان واسمها وجملة يقول خبرها (إِنَّها بَقَرَةٌ) تقدم إعراب نظيرها تماما (لا) نافية (ذَلُولٌ) صفة بقرة (تُثِيرُ الْأَرْضَ) الجملة الفعلية في محل رفع صفة ثانية والمقصود نفي اثارتها للارض (وَلا) الواو حرف عطف ولا مزيدة لتأكيد الأولى لأن المعنى لا ذلول تثير وتسقي على أن الفعلين

صفتان لذلول فكأنه قيل لا ذلول صفتها انها مثيرة وساقية فالنفي مسلط على الموصوف وصفته

(298/56)

و نرجىء القول في هذا التركيب العجيب إلى باب الفوائد (تَسْقِي الْحَرْثَ) فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به (مُسَلَّمَةٌ) صفة ثالثة أي سلمها اللّه من العيوب (لا) نافية للجنس من أخوات إن (شِيَةَ) اسمها المبني على الفتح (فِيها) الجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر والجملة صفة رابعة (قالُوا) فعل وفاعل (الْآنَ) ظرف زمان متعلق بجئت (جِئْتَ) جملة جئت مقول القول (بِالْحَقِّ) الجار والمجرور متعلقان بمحذوف حال أي متلبسا بالحق (فَذَبَحُوها) معطوف على محذوف يتطلبه السياق أي فطلبوها فوجدوها وذبحوها ولك أن تجعل الفاء فصيحة أي فلما حصلت لهم هذه البقرة الجامعة لأشتات هذا الوصف ذبحوها (وَما) الواو عاطفة وما نافية (كادُوا) كاد واسمها لأنها من أفعال المقاربة العاملة عمل كان وجملة (يَفْعَلُونَ) خبر كادوا .

البلاغة :

1- في هذه الآيات المتقدمة فن التكرير وهو داخل في باب الاطناب كأنهم يكررون السؤال

استكناها لحقيقة البقرة وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم : " لو اعترضوا أدنى بقرة فذبحوها لكفتهم ولكن شدّدوا فشدّد اللّه عليهم " .

2- أسرار كاد في العربية كثيرة فهي تدخل على الفعل لإفادة معنى المقاربة في الخبر فإذا دخلت عليها النفي لم تكن إلا لنفي الخبر كأنك قلت : إذا أخرج يده يكاد لا يراها فكاد هذه إذا استعملت بلفظ الإيجاب كان الفعل غير واقع وإذا اقترن بها حرف النفي كان الفعل بعدها قد وقع ولهذا اختلف في معنى الكيدودة هنا وعلى كل حال هي صورة مجسدة لطبائع اليهود ولجوئهم إلى اللجاج والمكابرة ، فقد فعلوا الذبح بعد لجاج طويل وتعنت ما عليه مزيد .

الفوائد :

1- احتدم الخلاف بين المعربين حول قوله ولا تسقي الحرث فقد شجر الخلاف بين أبي حاتم وأبي البقاء من جهة وبين الزمخشري وأبي حيان من جهة ثانية وقد اخترنا في الاعراب أسهل الأوجه وأقربها إلى المنطق .

(299/56)

2- الآن : ظرف زمان يقتضي الحال ويخلص المضارع وهو لازم للظرفية لا يتصرّف وبني لتضمنه معنى الاشارة كأنك قلت :

هذا الوقت ، واختلف في حرف التعريف الداخل عليه فقيل هو لمحض التعريف الحضوري وقيل : هو حرف زائد لازم .

[سورة البقرة (2) : الآيات 72 إلى 73]

وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادّارَأْتُمْ فِيها وَاللَّهُ مُخْرِجٌ ما كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (72) فَقُلْنا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِها كَذلِكَ يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتى وَيُرِيكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (73)

اللغة :

(ادّارأتم) : تدافعتم لأن المتخاصمين يدرأ بعضهم بعضا أي يدفعه ويزحمه والمعنى . اتهم بعضكم بعضا لطمس معالم الجريمة ودرء الشبهة عنه .

الاعراب :

(وَإِذْ) عطف على القصة الآنفة ونزولهما على ترتيب وجودهما فيكون أنه تعالى قد أمرهم بذبح البقرة فذبحوها وهم لا يعلمون ما وراء ذلك الأمر ثم وقع بعد ذلك أمر القتل فأظهر لهم سبحانه ما كان قد أخفاه من الحكمة (قَتَلْتُمْ) الجملة في محل جر بإضافة الظرف إليها (نَفْساً) مفعول به (فَادّارَأْتُمْ) عطف على قتلتم (فِيها) جار ومجرور متعلقان بادارأتم (وَاللَّهُ) الواو اعتراضية والله مبتدأ (مُخْرِجٌ) خبر والجملة لا محل لها لأنها اعتراضية (ما)

اسم موصول مفعول به لمخرج لأنه اسم فاعل (كُنْتُمْ) كان واسمها (تَكْتُمُونَ) جملة فعلية في

محل نصب خبر كنتم والجملة لا محل لها لأنها صلة ما (فَقُلْنا)

عطف (اضْرِبُوهُ)

فعل أمر مبني على حذف النون وواو الجماعة فاعل والهاء مفعول به والجملة مقول القول

(بِبَعْضِها)

جار ومجرور متعلقان باضربوه (كَذلِكَ يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتى)

جار ومجرور في محل نصب مفعول مطلق مقدم لأنه في الأصل وصف للمصدر والتقدير

يحيي اللّه الموتى إحياء مثل ذلك الإحياء (وَيُرِيكُمْ)

عطف على يحيي والكاف مفعول به أول (آياتِهِ)

مفعول به ثان (لَعَلَّكُمْ)

(300/56)

لعل واسمها (تَعْقِلُونَ)

الجملة في محل رفع خبر لعل.

[سورة البقرة (2) : آية 74]

ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجارَةِ لَما يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهارُ وَإِنَّ مِنْها لَما يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْماءُ وَإِنَّ مِنْها لَما يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (74)

الإعراب :

(ثُمَّ) حرف عطف للتراخي واستبعاد القسوة من بعد ما ذكر من موجبات الليونة للقلوب (قَسَتْ) فعل ماض مبني على الفتح المقدر على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين والتاء تاء التأنيث الساكنة (قُلُوبُكُمْ) فاعل (مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ) جار ومجرور متعلقان بقست وذلك مضاف إليه (فَهِيَ) الفاء عاطفة وهي مبتدأ (كَالْحِجارَةِ) الكاف اسم بمعنى مثل خبر والحجارة مضاف إليه ولك أن تجعلها جارة والجار والمجرور خبر هي (أَوْ) حرف عطف للتخيير أو للابهام أو للتنويع (أَشَدُّ) معطوف على الكاف إذا كانت اسما أو على كالحجارة لأن الجار والمجرور في موضع رفع (قَسْوَةً) تمييز وكان القياس أن يقول :

أقسى لأن اسم التفضيل يأتي من الثلاثي المستوفي شروطه ولكنه عدل عن ذلك لأن سياق القصة يقتضي العدول إلى الإسهاب وزيادة التهويل بذكر لفظ الشّدّة (وَإِنَّ) الواو استئنافية

وإن حرف مشبه (مِنَ الْحِجارَةِ) جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبرها المقدم (لَما) اللام هي المزحلقة وما اسم موصول في محل نصب اسمها المؤخر (يَتَفَجَّرُ) فعل مضارع مرفوع والجملة صلة لا محل لها (مِنْهُ) جار ومجرور متعلقان بيتفجر (الْأَنْهارُ) فاعل يتفجر (وَإِنَّ) عطف على أن الأولى (مِنْها) جار ومجرور خبر مقدم (لَما) اللام المزحلقة وما اسم موصول اسم ان المؤخر (يَشَّقَّقُ) فعل مضارع مرفوع (فَيَخْرُجُ) عطف على يشقق (وَإِنَّ مِنْها لَما يَهْبِطُ) عطف على ما تقدم (مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ) الجار

والمجرور متعلقان بيهبط بمثابة التعليل له (وَمَا) الواو استئنافية وما نافية حجازية تعمل عمل ليس (اللَّهِ) اسمها المرفوع (بِغافِلٍ) الباء حرف جر زائد وغافل مجرور لفظا بالباء منصوب محلا على أنه خبر ما (عَمَّا) جار ومجرور متعلقان بغافل (تَعْمَلُونَ) الجملة لا محل لها لأنها صلة الموصول.

البلاغة:

1- التشبيه المرسل فقد شبه قلوبهم في نبوّها عن الحق، وتجافيها مع أحكامه بالحجارة القاسية ثم ترقى في التشبيه، فجعل الحجارة أكثر لينا من قلوبهم.

2- الاستعارة المكنية التبعية في قوله تعالى: "ثم قست قلوبكم" تشبيها لحال القلوب في عدم الاعتبار والاتعاظ بما هو ماثل أمامها، ناطق بلسان الحال، بالحجارة النابية التي من خصائصها القسوة والصلابة.

3- المجاز العقلي في إسناد الخشية إلى الحجارة وهو كثير في ألسنة العرب.

الفوائد :

(ما الحجازية) سميت حجازية لأنها تعمل عمل ليس في لغة أهل الحجاز ، وهي نافية مهملة في لغة تميم ويشترط لاعمالها أربعة شروط :

آ- أن لا يتقدم خبرها على اسمها وإلا أهملت وفي أمثالهم :

ما مسيء من أعتب.

(302/56)

ب- أن لا يتقدم معمول خبرها على اسمها وإلا أهملت نحو :

ما بك أنا منتصر.

ج- أن لا ترد بعدها إن وإلا بطل عملها كقوله :

بني غدانة ما إن أنتم ذهب ولا صريف ولكن أنتم الخزف

د- أن لا ينتقض نفيها بإلا وإلا بطل عملها نحو : " وما محمد إلا رسول " . انتهى انتهى. اهـ

﴿ إعراب القرآن وبيانه حـ 1 صـ 130.67 ﴾

(303/56)

بسم الله الرحمن الرحيم

الكتاب / الحَاوِي فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

ويسمى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العَاجِزُ الْفَقِيرُ

عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مُحَمَّدٍ الْقَمَّاش

إِمَامُ وَخَطِيبُ مَسْجِدِ بُورُسْلِى - رَأْسُ الْخَيمَةِ

دَوْلَةُ الإِمَارَاتِ الْعَرَبِيَّةِ الْمُتَّحِدَةِ

(عَفَا اللهُ عَنْهُ وَغَفَرَ لَهُ)

الجزء السابع والخمسون

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء السابع والخمسون

من الآية ﴿ 75 ﴾ سورة البقرة

وحتى الآية ﴿ 82 ﴾ من نفس السورة

قوله تعالى ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (75) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما بيّن سبحانه أن قلوبهم صارت من كثرة المعاصي وتوالي التجرّؤ على بارئها محجوبة بالرين كثيفة الطبع بحيث إنها أشد قسوة من الحجارة تسبب عن ذلك بعدهم عن الإيمان فالتفت إلى المؤمنين يؤيسهم من فلاحهم تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم عما كان يشتد حرصه عليه من طلب إيمانهم في معرض التنكيت عليهم والتبكيت لهم منكراً للطمع في إيمانهم بعد ما قرر أنه تكرر من كفرانهم فقال : ﴿ أفتطمعون ﴾ والطمع تعلق البال بالشيء من غير تقدم سبب له ﴿ أن يؤمنوا ﴾ أي هؤلاء الذين بين أظهركم وقد سمعتم ما اتفق

لأسلافهم من الكثافة وهم راضون بذلك وإلا لآمنوا بمجرد هذا الإخبار عن هذه القصص من هذا النبي الأمي الذي يحصل التحقيق بأنه لا معلم له بها إلاّ الله معترفين "لكم وقد" أي والحال أنه قد ﴿كان فريق﴾ أي ناس يقصدون الفرقة والشتات ﴿منهم﴾ قال الحرالي : من الفرق وهو اختصاص برأي وجهة عمن حقه أن يتصل به ويكون معه – انتهى .

و ﴿يسمعون كلام الله﴾ المستحق لجميع صفات الكمال والكلام قال الحرالي : هو إظهار ما في الباطن على الظاهر لمن يشهد ذلك الظاهر بكل نحو من أنحاء الإظهار – انتهى .

﴿ثم يحرفونه﴾ أي يزيلونه عن وجهه برده على حرفه ، وفي ذكر الفريق مع المعطوفات عليه تأكيد لعظيم تهمّكهم في العصيان بأنهم كانوا بعد ما وصف من أحوالهم الخبيثة فرقاً في الكفر والعدوان والتبرء من جلباب الحياء ، وقوله : ﴿من بعد ما عقلوه﴾ مع كونه توطية لما يأتي من أمر الفسخ مشيراً إلى أن تحريفهم لم يكن في محل إشكال لكونه مدركاً بالبديهة ، وأثبت الجار لاختلاف أحوالهم .

ولما كان هذا مع أنه إشارة إلى أنهم على جبلات إبائهم وإلى أن من اجترأ على الله لم ينبغ لعباد الله أن يطمعوا في صلاحه لهم ، لأنه إذا اجترأ على العالم بالخفيات كان على غيره

أجراً مشيراً إلى أنه لا يفعله عاقل ختمه بقوله : ﴿ وهم يعلمون ﴾ أي والحال أنهم مع العقل حاملون للعلم فاهمون له غير غافلين بل متعمدون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 176.175 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أنه سبحانه لما ذكر قبائح أفعال أسلاف اليهود إلى ههنا ، شرح من هنا قبائح أفعال اليهود الذين كانوا في زمن محمد صلى الله عليه وسلم ،

قال القفال رحمه الله : إن فيما ذكره الله تعالى في هذه السورة من أقاصيص بني إسرائيل وجوهاً من المقصد ، أحدها : الدلالة بها على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم لأنه أخبر عنها من غير تعلم ، وذلك لا يمكن أن يكون إلا بالوحي ويشترك في الانتفاع بهذه الدلالة أهل الكتاب والعرب ، أما أهل الكتاب فلأنهم كانوا يعلمون هذه القصص فلما سمعوها من محمد من غير تفاوت أصلاً ، علموا لا محالة أنه ما أخذها إلا من الوحي .

وأما العرب فلما يشاهدون من أن أهل الكتاب يصدقون محمداً في هذه الأخبار .

وثانيها : تعديد النعم على بني إسرائيل وما منّ الله تعالى به على أسلافهم من أنواع الكرامة والفضل كالإنجاء من آل فرعون بعد ما كانوا مقهورين مستعبدين ونصره إياهم وجعلهم أنبياء وملوكاً وتمكينه لهم في الأرض وفرقه بهم البحر وإهلاكه عدوهم وإنزاله النور والبيان عليهم بواسطة إنزال التوراة والصفح عن الذنوب التي ارتكبوها من عبادة العجل ونقض المواثيق ومسألة النظر إلى الله جهرة ، ثم ما أخرجه لهم في التيه من الماء العذب من الحجر وإنزاله عليهم المن والسلوى ووقايتهم من حر الشمس بتظليل الغمام ، فذكرهم الله هذه النعم القديمة والحديثة ، وثالثها : إخبار النبي عليه السلام بتقديم كفرهم وخلافهم وشقاقهم وتعنتهم مع الأنبياء ومعاندتهم لهم وبلوغهم في ذلك ما لم يبلغه أحد من الأمم قبلهم ، وذلك لأنهم بعد مشاهدتهم الآيات الباهرة عبدوا العجل بعد مفارقة موسى عليه السلام إياهم بالمدة اليسيرة ، فدل على بلادتهم ، ثم لما أمروا بدخول الباب سجداً وأن يقولوا حطة ووعدهم أن يغفر لهم خطاياهم ويزيد في ثواب محسنهم بدلوا القول وفسقوا ، ثم سألوا الفوم والبصل بدل المن والسلوى ، ثم امتنعوا من قبول التوراة بعد إيمانهم بموسى وضمانهم له بالمواثيق أن يؤمنوا به وينقادوا لما يأتي به حتى رفع فوقهم الجبل ثم استحلوا الصيد في السبت واعتدوا ، ثم لما أمروا بذبح البقرة شافهوا موسى عليه السلام بقولهم : ﴿ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ﴾ [البقرة : 67] ، ثم لما شاهدوا إحياء الموتى ازدادوا قسوة ، فكأن الله تعالى يقول : إذا كانت هذه أفعالهم فيما بينهم ومعاملاتهم مع نبيهم الذي أعزهم الله به

وأنقذهم من الرق والآفة بسببه ، فغير بديع ما يعامل به أخلافهم محمداً عليه السلام ، فليهن عليكم أيها النبي والمؤمنون ما ترونه من عنادهم وإعراضهم عن الحق .

ورابعها : تحذير أهل الكتاب الموجودين في زمان النبي صلى الله عليه وسلم من نزول العذاب عليهم كما نزل بأسلافهم في تلك الوقائع المعدودة .

وخامسها : تحذير مشركي العرب أن ينزل العذاب عليهم كما نزل على أولئك اليهود ،

وسادسها : أنه احتجاج على مشركي العرب المنكرين للإعادة مع إقرارهم بالابتداء ، وهو المراد من قوله تعالى : ﴿كذلك يُحْيِي اللهُ الموتى﴾ [البقرة : 73] إذا عرفت هذا فنقول : إنه عليه السلام كان شديد الحرص على الدعاء إلى الحق وقبولهم الإيمان منه ، وكان يضيق صدره بسبب عنادهم وتمردهم ، فقص الله تعالى عليه أخبار بني إسرائيل في العناد العظيم مع مشاهدة الآيات الباهرة تسلية لرسوله فيما يظهر من أهل الكتاب في زمانه من قلة القبول والاستجابة ، فقال تعالى : ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾ . . انتهى انتهى . اهـ

﴿مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 121 . 122﴾

اللغة :

[أفتطمعون] الطمع : تعلق النفس بشيء مطلوب تعلقا قويا ، فإذا اشتد فهو طمع ، وإذا ضعف كان رجاء ورغبة

[فريق] الفريق : الجماعة وهو اسم جمع ، لا واحد له من لفظه كالرهط والقوم .

[يحرفونه] التحريف : التبديل والتغيير وأصله من الانحراف عن الشيء

[عقلوه] عقل الشيء أدركه بعقله ، والمراد فهموه وعرفوه

[أميون] جمع أمي وهي وهو الذي لا يحسن القراءة والكتابة ، سمى بذلك نسبة إلى الأم ، لأنه باق على الحالة التي ولدته عليه أمه ، من عدم المعرفة

[أماني] جمع أمنية وهي ما يتمناه الإنسان ويشتهيه ، أو يقدره في نفسه من منى ، ولذلك تطلق على الكذب ، قال أعرابي لإنسان : " أهذا شيء رأيته أم تمنيته " أي اختلقته ، وتأتي بمعنى قرأ ، قال حسان : تمنى كتاب الله أول ليله

[فويل] الويل : الهلاك والدمار ، وقيل : الفضيحة والخزي ، وهي كلمة تستعمل في الشر والعذاب ، قال القاضي : هي نهاية الوعيد والتهديد كقوله : [ويل للمطففين] وقال سيبويه : (ويل) لمن وقع في الهلكة ، و(ويح) لمن أشرف عليها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 1 صـ 70 ﴾

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ إلا أماني ﴾ حيث كان خفيفاً : يزيد إلا قوله ﴿ تلك أمانيهم ﴾ ﴿ وليس بأمانيكم ولا أماني ﴾ ﴿ وغرتكم الأماني ﴾ فإن أربعتهن بالإسكان عنده ﴿ بأيديهم ﴾ بضم الهاء : يعقوب ، وكذلك كل هاء كناية قبلها ياء ساكنة ﴿ خطياآته ﴾ بالجمع : أبو جعفر ونافع .

الوقوف : ﴿ يعلمون ﴾ (5) ﴿ آمنا ﴾ (ج) والوصل أجوز لبيان حالتيهما المتناقضتين وهو المقصود ﴿ عند ربكم ﴾ (ط) ﴿ أفلا تعقلون ﴾ (5) ﴿ يعلنون ﴾ (5) ﴿ يظنون ﴾ (ج) ﴿ قليلاً ﴾ (ط) ﴿ يكسبون ﴾ (5) ﴿ معدودة ﴾ (ط) ﴿ ما لا تعلمون ﴾ (5) ﴿ النار ﴾ (ج) لأن الجملة مبتدأ وخبر بعد خبر . ﴿ خالدون ﴾ (5) ﴿ الجنة ﴾ (ج) ﴿ خالدون ﴾ (5) . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 1 صـ 316 ﴾

فصل

قال الفخر :

في قوله تعالى : ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ ﴾ وجهان :

الأول : وهو قول ابن عباس أنه خطاب مع النبي صلى الله عليه وسلم خاصة لأنه هو الداعي وهو المقصود بالاستجابة واللفظ وإن كان للعموم ، لكنا حملناه على الخصوص لهذه القرينة ، روي أنه عليه السلام حين دخل المدينة ودعا اليهود إلى كتاب الله وكذبوه فأنزل الله تعالى هذه الآية .

الثاني : وهو قول الحسن أنه خطاب مع الرسول والمؤمنين .

قال القاضي : وهذا أليق بالظاهر لأنه عليه السلام وإن كان الأصل في الدعاء فقد كان في الصحابة من يدعوهم إلى الإيمان ويظهر لهم الدلائل وينبههم عليها ، فصح أن يقول تعالى : ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ ﴾ ويريد به الرسول ومن هذا حاله من أصحابه وإذا كان ذلك صحيحاً فلا وجه لترك الظاهر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 122 ﴾

فائدة

قال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ ﴾ هذا استفهام فيه معنى الإنكار ، كأنه أيأسهم من إيمان هذه الفرقة من اليهود ؛ أي إن كفروا فلهم سابقة في ذلك .

والخطاب لأصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم .

وذلك أن الأنصار كان لهم حرص على إسلام اليهود للحلف والجِوار الذي كان بينهم .

وقيل : الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم خاصة ؛ عن ابن عباس .

أي لا تحزن على تكذيبهم إياك ، وأخبره أنهم من أهل السوء الذين مضوا .

و " أنْ" في موضع نصب ، أي في أن يؤمنوا ؛ نصب بأن ، ولذلك حذفت منه النون .

يقال : طَمِع فيه طَمَعاً وَطَماعِيَة مخفف فهو طَمِعٌ ؛ على وزن فَعِل .

وأطمعه فيه غيره .

ويقال في التعجب : طَمُع الرجل بضم الميم أي صار كثير الطمع .

والطمع : رِزق الجُنْد ؛ يقال : أمرَ لهم الأمير بأطماعهم ؛ أي بأرزاقهم .

وامرأة مِطماع : تُطمِع ولا تُمَكّن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 2 صـ 1 ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ أَفَتَطْمَعُونَ ﴾ الاستفهام للاستبعاد أو للإنكار التوبيخي ، والجملة قيل : معطوفة على

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ ﴾ [البقرة : 47] أو على مقدر بين الهمزة والفاء عند غير سيبويه ، أي تحسبون أن قلوبكم صالحة للإيمان فتطمعون والطمع تعلق النفس بإدراك مطلوب تعلقاً قوياً وهو أشد من الرجاء لا يحدث إلا عن قوة رغبة وشدة إرادة والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم : والمؤمنين أو للمؤمنين قاله أبو العالية وقتادة ، أو للأنصار قاله النقاش والمروي عن ابن عباس ومقاتل أنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة ، والجمع للتعظيم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 298 ﴾

فائدة

قال الفخر :

المراد بقوله : ﴿ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ ﴾ هم اليهود الذين كانوا في زمن الرسول عليه السلام لأنهم الذين يصح فيهم الطمع في أن يؤمنوا وخلافه لأن الطمع إنما يصح في المستقبل لا في الواقع . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 122 ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ ﴾ أي يصدقوا مستجيبين لكم ، فالإيمان بالمعنى اللغوي والتعدية باللام

للتضمين كما في قوله تعالى : ﴿ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ ﴾ [العنكبوت : 26] أو يؤمنوا لأجل دعوتكم لهم فالفعل منزل منزلة اللازم والمراد بالإيمان المعنى الشرعي واللام لام الأجل وعلى التقديرين ﴿ أَن يُؤْمِنُواْ ﴾ معمول لـ تطمعون على إسقاط حروف الجر وهو في موضع نصب عند سيبويه ، وجر عند الخليل والكسائي ، وضمير الغيبة لليهود المعاصرين له صلى الله عليه وسلم لأنهم المطموع في إيمانهم ، وقيل : المراد جنس اليهود ليصح جعل طائفة منهم مطموع الإيمان وطائفة محرّفين وفيه ما لا يخفى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 298 ﴾

فصل

قال الفخر :

ذكروا في سبب الاستبعاد وجوهاً .

أحدها : أفتطمعون أن يؤمنوا لكم مع أنهم ما آمنوا بموسى عليه السلام ، وكان هو السبب في أن الله خلصهم من الذل وفضلهم على الكل ، ومع ظهور المعجزات المتوالية على يده وظهور أنواع العذاب على المتمردين .

الثاني : أفتطمعون أن يؤمنوا ويظهروا التصديق ومن علم منهم الحق لم يعترف بذلك ، بل غيره وبدله .

الثالث : أفتطمعون أن يؤمن لكم هؤلاء من طريق النظر والاستدلال وكيف وقد كان فريق

من أسلافهم يسمعون كلام الله ويعلمون أنه حق ثم يعاندونه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 123 ﴾

سؤال : لقائل أن يقول : القوم مكلفون بأن يؤمنوا بالله .

فما الفائدة في قوله : ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ ﴾ [العنكبوت : 26] ؟

الجواب : أنه يكون إقراراً لهم بما دعوا إليه ولو كان الإيمان لله كما قال تعالى : ﴿ فَـَٔامَنَ لَهُ لُوطٌ ﴾ لما أقر بنبوته وبتصديقه ، ويجوز أن يراد بذلك أن يؤمنوا لأجلكم ولأجل تشددكم في دعائهم إليه فيكون هذا معنى الإضافة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 123 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ ﴾

فصل

قال الفخر :

أما قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ ﴾ فقد اختلفوا في ذلك الفريق ، منهم من قال : المراد بالفريق من كان في أيام موسى عليه السلام لأنه تعالى وصف هذا الفريق بأنهم

يسمعون كلام الله .

والذين سمعوا كلام الله هم أهل الميقات ، ومنهم من قال : بل المراد بالفريق من كان في زمن محمد عليه الصلاة والسلام ، وهذا أقرب لأن الضمير في قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ ﴾ راجع إلى ما تقدم وهم الذين عناهم الله تعالى بقوله : ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ ﴾ وقد بينا أن الذين تعلق الطمع بإيمانهم هم الذين كانوا في زمن محمد عليه الصلاة والسلام .

فإن قيل : الذين سمعوا كلام الله هم الذين حضروا الميقات ، قلنا : لا نسلم بل قد يجوز فيمن سمع التوراة أن يقال : إنه سمع كلام الله كما يقال لأحدنا سمع كلام الله إذا قرئ عليه القرآن .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 123 ﴾

وقال القرطبى :

المراد السبعون الذين اختارهم موسى عليه السلام ؛ فسمعوا كلام الله فلم يمتثلوا أمره ، وحرّفوا القول في إخبارهم لقومهم .

هذا قول الربيع وابن إسحاق ؛ وفي هذا القول ضعف .

ومن قال : إن السبعين سمعوا ما سمع موسى فقد أخطأ ، وأذهب بفضيلة موسى واختصاصه بالتكليم .

وقد قال السُّدِّي وغيره : لم يطيقوا سماعه ، واختلطت أذهانهم ورغِبوا أن يكون موسى

يسمع ويعيده لهم ؛ فلما فرغوا وخرجوا بدّلت طائفة منهم ما سمعت من كلام الله على لسان نبيهم موسى عليه السلام ؛ كما قال تعالى : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ المشركين استجارك فَأَجِرْهُ حتى يَسْمَعَ كَلاَمَ الله ﴾ [التوبة : 6] فإن قيل : فقد روى الكلبيّ عن أبي صالح عن ابن عباس أن قوم موسى سألوا موسى أن يسأل ربه أن يسمعهم كلامه ، فسمعوا صوتاً كصوت الشَّبُّور : " إني أنا الله لا إله إلا أنا الحيّ القيوم أخرجتكم من مصر بيد رفيعة وذراع شديدة" .

قلت : هذا حديث باطل لا يصح ، رواه ابن مَرْوان عن الكلبيّ وكلاهما ضعيف لا يحتج به ، وإنما الكلام شيء خُصّ به موسى من بين جميع ولد آدم ؛ فإن كان كلّم قومه أيضاً حتى أسمعهم كلامه فما فَضْلُ موسى عليهم ؛ وقد قال وقوله الحق : ﴿ إِنِّي اصطفيتك عَلَى الناس بِرِسَالاَتِي وَبِكَلاَمِي ﴾ [الأعراف : 144] وهذا واضح .

الثالثة : واختلف الناس بماذا عرف موسى كلام الله ولم يكن سمع قبل ذلك خطابه ؛ فمنهم من قال : إنه سمع كلاماً ليس بحروف وأصوات ، وليس فيه تقطيع ولا نفس ؛ فحينئذ علم أن ذلك ليس هو كلام البشر وإنما هو كلام رب العالمين .

وقال آخرون : إنه لمّا سمع كلاماً لا من جهة ، وكلامُ البشر يُسمع من جهة من الجهات الستّ ؛ علم أنه ليس من كلام البشر .

وقيل : إنه صار جسده كله مسامع حتى سمع بها ذلك الكلام ؛ فعلم أنه كلام الله .

وقيل فيه : إن المعجزة دلّت على أن ما سمعه هو كلام الله ؛ وذلك أنه قيل له : ألق عصاك ، فألقاها فصارت ثعباناً ؛ فكان ذلك علامة له على صدق الحال ، وأن الذي يقول له : ﴿ إِنِّي أَنَاْ رَبُّكَ ﴾ [طه : 12] هو الله جلّ وعز .

وقيل : إنه قد كان أضمر في نفسه شيئاً لا يقف عليه إلا علام الغيوب ، فأخبره الله تعالى في خطابه بذلك الضمير ؛ فعلم أن الذي يخاطبه هو الله جل وعز .

وسيأتي في سورة " القصص " بيان معنى قوله تعالى : ﴿ نُودِيَ مِن شَاطِئِ الوادي الأيمن فِي البقعة المباركة مِنَ الشجرة ﴾ [القصص : 30] إن شاء الله تعالى . انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 2 صـ 3.1 ﴾

فائدة

قال الطبرى :

وأولى التأويلين اللذين ذكرت بالآية ، وأشبههما بما دل عليه ظاهر التلاوة ، ما قاله الربيع بن أنس ، والذي حكاه ابن إسحاق عن بعض أهل العلم : من أن الله تعالى ذكره إنما عنى بذلك من سمع كلامه من بني إسرائيل ، سماع موسى إياه منه ، ثم حرف ذلك وبدل ، من بعد سماعه وعلمه به وفهمه إياه . وذلك أن الله جل ثناؤه إنما أخبر أن التحريف كان من فريق منهم كانوا يسمعون كلام الله عز وجل ، استعظاما من الله لما كانوا يأتون من البهتان ، بعد توكيد الحجة عليهم والبرهان ، وإيذانا منه تعالى ذكره عبادَه المؤمنين ، قطع أطماعهم من إيمان بقايا نسلهم بما أتاهم به محمد من الحق والنور والهدى ، فقال لهم : كيف تطمعون في تصديق هؤلاء اليهود إياكم وإنما تخبرونهم - بالذي تخبرونهم من الأنباء عن الله عز وجل - عن غيب لم يشاهدوه ولم يعاينوه وقد كان بعضهم يسمع من الله كلامه وأمره ونهيه ، ثم يبدله ويحرفه ويجحده ، فهؤلاء الذين بين أظهركم من بقايا نسلهم ، أحرى أن يجحدوا ما أتيتموهم به من الحق ، وهم لا يسمعونه من الله ، وإنما يسمعونه منكم - وأقرب إلى أن يحرفوا ما في كتبهم من صفة نبيكم محمد صلى الله عليه وسلم ونعته ويبدلوه ، وهم به عالمون ، فيجحدوه ويكذبوا - من أوائلهم الذين باشروا كلام الله من الله جل ثناؤه ، ثم حرفوه من بعد ما عقلوه وعلموه متعمدين التحريف .

ولو كان تأويل الآية على ما قاله الذين زعموا أنه عني بقوله : (يسمعون كلام الله) ، يسمعون التوراة ، لم يكن لذكر قوله : (يسمعون كلام الله) معنى مفهوم . لأن ذلك قد سمعه المحرف

منهم وغير المحرف ، فخصوص المحرف منهم بأنه كان يسمع كلام الله – إن كان التأويل على ما قاله الذين ذكرنا قولهم – دون غيرهم ممن كان يسمع ذلك سماعهم لا معنى له .

(15/57)

فإن ظن ظان [أنه] إنما صلح أن يقال ذلك لقوله : (يحرفونه) ، فقد أغفل وجه الصواب في ذلك . وذلك أن ذلك لو كان كذلك لقيل : أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يحرفون كلام الله من بعد ما عقلوه وهم يعلمون . ولكنه جل ثناؤه أخبر عن خاص من اليهود ، كانوا أعطوا – من مباشرتهم سماعَ كلام الله – ما لم يعطه أحد غير الأنبياء والرسل ، ثم بدلوا وحرفوا ما سمعوا من ذلك . فلذلك وصفهم بما وصفهم به ، للخصوص الذي كان خص به هؤلاء الفريق الذي ذكرهم في كتابه تعالى ذكره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الطبرى حـ 2 صـ 347.348 ﴾

(16/57)

فائدة

قال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ . . . وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُم يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ ﴾ في ذلك قولان :

أحدهما : أنهم علماء اليهود والذين يحرفونه التوراة فيجعلون الحلال حراماً والحرام حلالاً ابتاعاً لأهوائهم وإعانة لراشيهم وهذا قول مجاهد والسدي .

والثاني : أنهم الذين اختارهم موسى من قومه ، فسمعوا كلام الله فلم يمتثلوا أمره وحرفوا القول في إخبارهم لقومهم ، وهذا قول الربيع بن أنس وابن إسحاق .

وفي كلام الله الذي يسمعونه قولان :

أحدهما : أنها التوراة التي عَلِمَها علماء اليهود .

والثاني : الوحي الذي كانوا يسمعونه كما تسمعه الأنبياء .

وفي قوله تعالى : ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ وجهان :

أحدهما : من بعد ما سمعوه ، وهم يعلمون أنهم يحرفونه .

والثاني : من بعد ما عقلوه ، وهم يعلمون ، ما في تحريفه من العقاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 1 صـ 147 . 148 ﴾

فائدة

قال الثعالبى :

قلْتُ : وعن ابن إسحاق ؛ أن المراد ب " الفريقِ " هنا طائفةٌ من السبعين الذين سمعوا كلامَ اللَّه مع موسى . انتهى من " مختصر الطبريِّ " ؛ وهذا يحتاج إلى سند صحيح . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الجواهر الحسان حـ 1 صـ 80 ﴾

قوله تعالى ﴿ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ ﴾

فائدة

قال الفخر :

قال القفال : التحريف التغيير والتبديل وأصله من الانحراف عن الشيء والتحريف عنه ، قال تعالى : ﴿ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلى فِئَةٍ ﴾ [الأنفال : 16] والتحريف هو إمالة الشيء عن حقه ، يقال : قلم محرف إذا كان رأسه قط مائلاً غير مستقيم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 123 ﴾

فائدة

قال الآلوسى :

﴿ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ ﴾ أي طائفة من أسلافهم وهم الأحبار ﴿ يَسْمَعُونَ كلام الله ثُمَّ

﴿ يُحَرِّفُونَهُ ﴾ أي يسمعون التوراة ويؤولونها تأويلاً فاسداً حسب أغراضهم ، وإلى ذلك ذهب ابن عباس رضي الله تعالى عنهما والجمهور على أن تحريفها بتبديل كلام من تلقائهم كما فعلوا ذلك في نعته صلى الله عليه وسلم فإنه روي أن من صفاته فيها أنه أبيض ربعة فغيروه بأسمر طويل وغيروا آية الرجم بالتسخيم وتسويد الوجه كما في البخاري وقيل : المراد بكلام الله تعالى ما سمعوه على الطور ، فيكون المراد من الفريق طائفة من أولئك السبعين ، وقد روى الكلبي أنهم سألوا موسى عليه السلام أن يسمعهم كلامه تعالى ، فقال لهم : اغتسلوا والبسوا الثياب النظيفة ففعلوا فأسمعهم الله تعالى كلامه ، ثم قالوا : سمعنا يقول في آخره : إن استطعتم أن تفعلوا هذه الأشياء فافعلوا ، وإن شئتم فلا تفعلوا . والتحريف على هذا الزيادة .

ثم لا يخفى أن فيما افتروا شاهداً على فساده حيث علقوا الأمر بالاستطاعة والنهي بالمشيئة وهما لا يتقابلان وكأنهم أرادوا بالأمر غير الموجب على معنى افعلوا إن شئتم وإن شئتم فلا تفعلوا كذا أفاده العلامة ومقصوده بيان منشأ تحريفهم الفاسد ، فلا ينافي كون عدم التقابل شاهداً على فساده ، ومقتضى هذه الرواية أن هؤلاء سمعوا كلامه تعالى بلا واسطة كما سمعه موسى عليه السلام ، والمصحح أنهم لم يسمعوا بغير واسطة ، وأن ذلك مخصوص به عليه السلام ، وقيل : المراد به الوحي المنزل على نبينا صلى الله عليه وسلم ، كان جماعة من اليهود يسمعونه فيحرفونه قصداً أن يدخلوا في الدين ما ليس منه ، ويحصل

التضاد في أحكامه ﴿ ويأبى الله إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ ﴾ [التوبة : 32] وقرأ الأعمش ﴿ كلام الله ﴾ .

(18/57)

﴿ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ ﴾ أي ضبطوه وفهموه ولم يشتبه عليهم صحته و ﴿ مَا ﴾ مصدرية أي من بعد عقلهم إياه ، والضمير في ﴿ عَقَلُوهُ ﴾ عائد على كلام الله ، وقيل : ﴿ مَا ﴾ موصولة والضمير عائد عليها وهو بعيد .

﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ متعلق العلم محذوف ، أي إنهم مبطلون كاذبون ، أو ما في تحريفه من العقاب ، وفي ذلك كمال مذمتهم ، وبهذا التقرير يندفع توهم تكرار ما ذكر بعد ما عقلوه وحاصل الآية استبعاد الطمع في أن يقع من هؤلاء السفلة إيمان ، وقد كان أحبارهم ومقدموهم على هذه الحالة الشنعاء ، ولا شك أن هؤلاء أسوأ خلقاً وأقل تمييزاً من أسلافهم أو استبعاداً لطمع في إيمان هؤلاء الكفرة المحرفين ، وأسلافهم الذين كانوا زمن نبيهم فعلوا ذلك فلهم فيه سابقة ، وبهذا يندفع ما عسى أن يختلج في الصدر من أنه كيف يلزم من إقدام بعضهم على التحريف حصول اليأس من إيمان باقيهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 298 . 299 ﴾

فصل

قال الفخر :

قال القاضي : إن التحريف إما أن يكون في اللفظ أو في المعنى ، وحمل التحريف على تغيير اللفظ أولى من حمله على تغيير المعنى ، لأن كلام الله تعالى إذا كان باقياً على جهته وغيروا تأويله فإنما يكونون مغيرين لمعناه لا لنفس الكلام المسموع ، فإن أمكن أن يحمل على ذلك كما روي عن ابن عباس من أنهم زادوا فيه ونقصوا فهو أولى ، وإن لم يمكن ذلك فيجب أن يحمل على تغيير تأويله وإن كان التنزيل ثابتاً ، وإنما يمتنع ذلك إذا ظهر كلام الله ظهوراً متواتراً كظهور القرآن ، فأما قبل أن يصير كذلك فغير ممتنع تحريف نفس كلامه ، لكن ذلك ينظر فيه ، فإن كان تغييرهم له يؤثر في قيام الحجة به فلا بد من أن يمنع الله تعالى منه وإن لم يؤثر في ذلك صح وقوعه فالتحريف الذي يصح في الكلام يجب أن يقسم على ما ذكرناه ، فأما تحريف المعنى فقد يصح على وجه ما ، لم يعلم قصد الرسول باضطرار فإنه متى علم ذلك امتنع منهم التحريف لما تقدم من علمهم بخلافه كما يمتنع الآن أن يتأول متأول تحريم لحم الخنزير والميتة والدم على غيرها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 123 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أنا إن قلنا بأن المحرفين هم الذين كانوا في زمن موسى عليه السلام ، فالأقرب أنهم حرفوا ما لا يتصل بأمر محمد صلى الله عليه وسلم .

روي أن قوماً من السبعين المختارين سمعوا كلام الله حين كلم موسى بالطور وما أمر به موسى وما نهى عنه ، ثم قالوا : سمعنا الله يقول في آخره : إن استطعتم أن تفعلوا هذه الأشياء فافعلوا وإن شئتم أن لا تفعلوا فلا بأس ، وأما إن قلنا : المحرفون هم الذين كانوا في زمن محمد عليه الصلاة والسلام فالأقرب أن المراد تحريف أمر محمد عليه الصلاة والسلام ، وذلك إما أنهم حرفوا نعت الرسول وصفته أو لأنهم حرفوا الشرائع كما حرفوا آية الرجم وظاهر القرآن لا يدل على أنهم أي شيء حرفوا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 124 ﴾

سؤال : لقائل أن يقول : كيف يلزم من إقدام البعض على التحريف حصول اليأس من إيمان الباقين ، فإن عناد البعض لا ينافي إقرار الباقين ؟

أجاب القفال عنه فقال : يحتمل أن يكون المعنى كيف يؤمن هؤلاء وهم إنما يأخذون دينهم ويتعلمونه من قوم هم يتعمدون التحريف عناداً ، فأولئك إنما يعلمونهم ما حرفوه وغيروه عن وجهه والمقلدة لا يقبلون إلا ذلك ولا يلتفتون إلى قول أهل الحق وهو كقولك للرجل : كيف تفلح وأستاذك فلانا أي وأنت عنه تأخذ ولا تأخذ عن غيره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 124 ﴾

فائدة

قال الفخر :

اختلفوا في قوله : ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ ﴾ فقال قائلون : آيسهم الله تعالى من إيمان هذه الفرقة وهم جماعة بأعيانهم .

وقال آخرون : لم يؤيسهم من ذلك إلا من جهة الاستبعاد له منهم مع ما هم عليه من التحريف والتبديل والعناد ، قالوا : وهو كما لا نطمع لعبيدنا وخدمنا أن يملكوا بلادنا .

ثم إنا لا نقطع بأنهم لا يملكون بل نستبعد ذلك .

ولقائل أن يقول : إن قوله تعالى : ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ ﴾ استفهام على سبيل الإنكار ، فكان ذلك جزماً بأنهم لا يؤمنون ألبتة فإيمان من أخبر الله عنه أنه لا يؤمن ممتنع ، فحينئذ تعود الوجوه المقررة للخبر على ما تقدم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 124 ﴾

قوله تعالى ﴿ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾

فصل

قال الفخر :

أما قوله تعالى : ﴿ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ ﴾ ، فالمراد أنهم علموا بصحته وفساد ما خلقوه فكانوا معاندين مقدمين على ذلك بالعمد ، فلأجل ذلك يجب أن يحمل الكلام على أنهم العلماء منهم وأنهم فعلوا ذلك لضرب من الأغراض على ما بينه الله تعالى من بعد في قوله تعالى : ﴿ واشتروا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً ﴾ [آل عمران : 187] وقال تعالى : ﴿ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمُ ﴾ [البقرة : 146] [الأنعام : 20] ويجب أن يكون في عددهم قلة لأن الجمع العظيم لا يجوز عليهم كتمان ما يعتقدون لأنا إن جوزنا ذلك لم يعلم المحق من المبطل وإن كثر العدد .

أما قوله تعالى : ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ فلقائل أن يقول : قوله تعالى : ﴿ عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ تكرار لا فائدة فيه : أجاب القفال عنه من وجهين ، الأول : من بعد ما عقلوه مراد الله فأولوه تأويلاً فاسداً يعلمون أنه غير مراد الله تعالى .

الثاني : أنهم عقلوا مراد الله تعالى ، وعلموا أن التأويل الفاسد يكسبهم الوزر والعقوبة من الله تعالى ، ومتى تعمدوا التحريف مع العلم بما فيه من الوزر كانت قسوتهم أشد وجراءتهم أعظم ، ولما كان المقصود من ذلك تسلية الرسول عليه الصلاة والسلام وتصبيره على عنادهم فكلما كان عنادهم أعظم كان ذلك في التسلية أقوى . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 124 ﴾

فصل

قال الفخر :

قال القاضي قوله تعالى : ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ ﴾ على ما تقدم تفسيره ، يدل على أن إيمانهم من قبلهم لأنه لو كان بخلق الله تعالى فيهم لكان لا يتغير حال الطمع فيهم بصفة الفريق الذي تقدم ذكرهم ، ولما صح كون ذلك تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين لأن على هذا القول أمرهم في الإيمان موقوف على خلقه تعالى ذلك ، وزواله موقوف على أن لا يخلقه فيهم ومن وجه آخر وهو أعظامه تعالى لذنبهم في التحريف من حيث فعلوه وهم يعلمون صحته ، ولو كان ذلك من خلقه لكان بأن يعلموا أو لا يعلموا لا

يتغير ذلك وإضافته تعالى التحريف إليهم على وجه الذم تدل على ذلك ، واعلم أن الكلام عليه قد تقدم مراراً وأطواراً فلا فائدة في الإعادة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 124.125 ﴾

فائدة

قال الفخر :

قال أبو بكر الرازي : تدل الآية على أن العالم المعاند فيه أبعد من الرشد وأقرب إلى اليأس من الجاهل ، لأن قوله تعالى : ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ ﴾ يفيد زوال الطمع في رشدهم لمكابرتهم الحق بعد العلم به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 125 ﴾

ومن فوائد ابن عرفة فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ . . . ﴾ .

استفهام على (سبيل) الاستغراب فيتناول النّبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، (أو على الإنكار فيتناول المؤمنين فقط) .

قوله تعالى : ﴿ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ . . . ﴾ .

(ابن عطية : قال ابن إسحاق : وهم السبعون الّذين سمعوا كلام الله مع موسى ، ثم بدلوه . ابن عطية) : وهذا ضعيف وخطأ لأن فيها (إذهابا) لفضيلة موسى في اختصاصه (

بالتّكليم) .

قال ابن عرفة : بل هو مقرر للفضيلة لأنهم (إنما) سمعوا كلام الله بحضرته من أجله وعلى سبيل التّبعية له .

وقيل : المراد سماعهم تلاوة التوراة والصحف من موسى ، وكونهم بدلوا فيها وغيّروا ، فالسماع الأول حقيقة وهذا شبه مجاز في المسموع لا في نفس السّماع ، لأن مسموعهم ليس هو كلام الله تعالى ، إنما هو كلام موسى عليه السلام ، ومدلوله كلام الله ، ونظيره سماعك كلام زيد من ناقل (نقله عنه) .

قال الزمخشري : والمراد (بالتحريف) ما يتلونه من التوراة ، ثم يحرفونه كما حرفوا صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم وآية الرجم .

قيل لابن عرفة : لم يبدلوا آية الرجم إنما وضع مدرّسهم يده عليها فقط ؟

فقال : المراد بالتحريف الكتم أو عدم العمل بمقتضاها .

قيل لابن عرفة : إن الشيخ أبا علي ناصر الدين البجائي المشذالي كان يحتج بهذه الآية على إثبات العمل بالقياس ، وقرره بأنه سجل على هؤلاء بالكفر قياسا على أحبارهم ومن

سلف (منهم) الذين شاهدوا الآيات البينات وسمعوا كلام الله إمّا مشافهة أو بواسطة ؟

فقال ابن عرفة : إنما فيها استحالة ثبوت المعنى وهو الإيمان لوجود المانع (منه) وهو أحبارهم (يحدثونهم) بتحريف من سلف (منهم) وكفرهم .

واللام في قوله عز وجل ﴿ يُؤْمِنُواْ لَكُمْ ﴾ الأصوب (أن تكون بمعنى " مع " ويبعد كونها) للتعليل أي يؤمنوا لأجلكم لأن مفهومه حصول الإيمان منهم بسبب آخر غير المؤمنين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عرفة حـ 1 صـ 340.342 ﴾

ومن فوائد أبى حيان فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ أفتطمعون أن يؤمنوا لكم ﴾ :

ذكروا في سبب نزول هذه الآية أقاويل :

أحدها : أنها نزلت في الأنصار ، وكانوا حلفاء لليهود ، وبينهم جوار ورضاعة ، وكانوا يودون لو أسلموا .

وقيل : كان النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنون يودون إسلام من بحضرتهم من أبناء اليهود ، لأنهم كانوا أهل كتاب وشريعة ، وكانوا يغضبون لهم ويلطفون بهم طمعاً في إسلامهم .

وقيل : نزلت فيمن بحضرة النبي صلى الله عليه وسلم من أبناء السبعين الذين كانوا مع موسى عليه السلام في الطور ، فسمعوا كلام الله ، فلم يمتثلوا أمره ، وحرّفوا القول في أخبارهم لقومهم ، وقالوا : سمعناه يقول إن استطعتم أن تفعلوا هذه الأشياء فافعلوا ، وإن شئتم فلا تفعلوا .

وقيل : نزلت في علماء اليهود الذين يحرفون التوراة ، فيجعلون الحلال حراماً ، والحرام حلالاً ، اتباعاً لأهوائهم .

وقيل : إن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لا يدخل علينا قصبة المدينة إلا مؤمن " قال كعب بن الأشرف ووهب بن يهوذا وأشباههما : اذهبوا وتجسسوا أخبار من آمن ، وقولوا لهم آمنا ، واكفروا إذا رجعتم ، فنزلت .

وقيل : نزلت في قوم من اليهود قالوا لبعض المؤمنين : نحن نؤمن أنه نبي ، لكن ليس إلينا ، وإنما هو إليكم خاصة ، فلما خلوا ، قال بعضهم : أتقرون بنبوّته وقد كنا قبل نستفتح به ؟ فهذا هو الذي فتح الله عليهم من علمه .

وقيل : نزلت في قوم من اليهود كانوا يسمعون الوحي ، ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه .

وهذه الأقاويل كلها لا تخرج عن أن الحديث في اليهود الذين كانوا في زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأنهم الذين يصح فيهم الطمع أن يؤمنوا ، لأن الطمع إنما يصح في المستقبل ،

والضمير في ﴿ أن يؤمنوا لكم ﴾ لليهود .

والمعنى : استبعاد إيمان اليهود ، إذ قد تقدّم لأسلافهم أفاعيل ، وجزى أبناؤهم عليها .

فبعيد صدور الإيمان من هؤلاء ، فإن قيل : كيف يلزم من إقدام بعضهم على التحريف حصول اليأس من إيمان الباقين ؟ قيل : قال القفال : يحتمل أن يكون المعنى : كيف يؤمن هؤلاء وهم إنما يأخذون دينهم ويتعلمونه من قوم يحرفون عناداً ؟ فإنما يعلمونهم ما حرفوه وغيروه عن وجهه ، والمقلدون يقبلون ذلك منهم ، فلا يلتفتون إلى الحق .

وقيل : إياسهم من إيمان فرقة بأعيانهم .

والهمزة في أفتطعمون للاستفهام ، وفيها معنى التقرير ، كأنه قال : قد طمعتم في إيمان هؤلاء وحالهم ما ذكر .

وقيل : فيه ضرب من النكير على الرغبة في إيمان من شواهد امتناعه قائمة .

واستبعد إيمانهم ، لأنهم كفروا بموسى ، مع ما شاهدوا من الخوارق على يديه ، ولأنهم ما اعترفوا بالحق ، مع علمهم ، ولأنهم لا يصلحون للنظر والاستدلال .

والخطاب في أفتطعمون ، للنبي صلى الله عليه وسلم خاصة .

خاطبه بلفظ الجمع تعظيماً له ، قاله ابن عباس ومقاتل ، أو للمؤمنين ، قاله أبو العالية وقتادة ، أو للأنصار ، قاله النقاش ، أو لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، أو لجماعة من المؤمنين ، أو لجماعة من الأنصار .

والفاء بعد الهمزة أصلها التقديم عليها ، والتقدير : أفتطعمون ، فالفاء للعطف ، لكنه اعتنى بهمزة الاستفهام ، فقدمت عليها .

والزمخشري يزعم أن بين الهمزة والفاء فعل محذوف ، ويقر الفاء على حالها ، حتى تعطف الجملة بعدها على الجملة المحذوفة قبلها ، وهو خلاف مذهب سيبويه ، ومحجوج بمواضع لا يمكن تقدير فعل فيها ، نحو قوله : ﴿ أو من ينشأ في الحلية ﴾ ﴿ أفمن يعلم أنما أنزل إليك ﴾ ﴿ أفمن هو قائم ﴾ أن يؤمنوا معمول لتطعمون على إسقاط حرف الجر ، التقدير : في أن يؤمنوا ، فهو في موضع نصب ، على مذهب سيبويه ، وفي موضع جر ، على مذهب الخليل والكسائي .

ولكم : متعلق بيؤمنوا ، على أن اللام بمعنى الباء ، وهو ضعيف ، ولام السبب أي أن يؤمنوا لأجل دعوتكم لهم .

﴿ وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ﴾ ، الفريق : قيل : الأحبار الذين حرفوا التوراة في صفة محمد صلى الله عليه وسلم ، قاله مجاهد والسدّي .

وقيل : جماعة من اليهود كانوا يسمعون الوحي ، إذا نزل على رسول الله صلى الله عليه

وسلم فيحرفونه ، قصد أن يدخلوا في الدين ما ليس فيه ، ويحصل التضاد في أحكامه .

وقيل : كل من حرف حكماً ، أو غيره ، كفعلهم في آية الرجم ونحوها .

(26/57)

وقيل : هم السبعون الذين سمعوا مع موسى عليه السلام كلام الله ، ثم بدلوا بعد ذلك ، وقد أنكر أن يكونوا سمعوا كلام الله تعالى .

قال ابن الجوزي : أنكر ذلك أهل العلم ، منهم : الترمذي ، صاحب النوادر ، وقال : إنما خص موسى عليه السلام بالكلام وحده .

وكلام الله الذي حرفوه ، قيل : هو التوراة ، حرفوها بتبديل ألفاظ من تلقائهم ، وهو قول الجمهور .

وقيل : بالتأويل ، مع بقاء لفظ التوراة ، قاله ابن عباس .

وقيل : هو كلام الله الذي سمعوه على الطور .

وقيل : ما كانوا يسمعونه من الوحي المنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقرأ الأعمش : كلم الله ، جمع كلمة ، وقد يراد بالكلمة : الكلام ، فتكون القراءتان بمعنى واحد .

وقد يراد المفردات ، فيحرفون المفردات ، فتتغير المركبات ، وإسنادها بتغير المفردات .

﴿ ثم يحرّفونه ﴾ : التحريف الذي وقع ، قيل : في صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنهم وصفوه بغير الوصف الذي هو عليه ، حتى لا تقوم عليهم به الحجة .

وقيل : في صفته ، وفي آية الرجم .

﴿ من بعد ما عقلوه ﴾ أي من بعد ما ضبطوه وفهموه ، ولم تشتبه عليهم صحته .

وما مصدرية ، أي من بعد عقلهم إياه ، والضمير في عقلوه عائد على كلام الله .

وقيل : ما موصولة ، والضمير عائد عليها ، وهو بعيد .

﴿ وهم يعلمون ﴾ : ومتعلق العلم محذوف ، أي أنهم قد حرفوه ، أو ما في تحريفه من العقاب ، أو أنه الحق ، أو أنهم مبطلون كاذبون .

والواو في قوله : ﴿ وقد كان فريق ﴾ ، وفي قوله : ﴿ وهم يعلمون ﴾ ، واو الحال .

ويحتمل أن يكون العامل في الحال قوله : ﴿ أفتطعمون ﴾ ؟ ويحتمل أن يكون : ﴿ أن يؤمنوا ﴾ .

فعلى الأول يكون المعنى : أفيكون منكم طمع في إيمان اليهود ؟ وأسلافهم من عادتهم تحريف كلام الله ، وهم سالكو سننهم ومتبعوهم في تضليلهم ، فيكون الحال قيداً في الطمع المستبعد ، أي يستبعد الطمع في إيمان هؤلاء وصفتهم هذه .

وعلى الثاني يكون المعنى استبعاد الطمع في أن يقع من هؤلاء إيمان ، وقد كان أسلافهم على ما نص من تحريف كلام الله تعالى .

فعلى هذا يكون الحال قيداً في أيمانهم .

وعلى كلا التقديرين ، فكل منهما ، أعني من : أفتطعمون ، ومن يؤمنوا ، مقيد بهذه الحال من حيث المعنى .

وإنما الذي ذكرناه تقتضيه صناعة الإعراب .

وبيان التقييد من حيث المعنى أنك إذا قلت : أتطمع أن يتبعك زيد ؟ وهو متبع طريقة أبيه ، فاستبعاد الطمع مقيد بهذه الحال ، ومتعلق الطمع ، الذي هو الاتباع المفروض وقوعه ، مقيد بهذه الحال .

فمحصوله أن وجود هذه الحال لا يجامع الاتباع ، ولا يناسب الطمع ، بل إنما كان يناسب الطمع ويتوقع الاتباع ، مع انتفاء هذه الحال .

وأما العامل في قوله : ﴿ وهم يعلمون ﴾ ، فقوله : ﴿ ثم يحرفونه ﴾ ، أي يقع التحريف منهم بعد تعقله وتفهمه ، عالمين بما في تحريفه من شديد العقاب ، ومع ذلك فهم يقدمون على ذلك ، ويجترئون عليه .

والإنكار على العالم أشدّ من الإنكار على الجاهل ، لأن عند العالم دواعي الطاعة ، لما علم

من ثوابها ، وتواني المعصية لما علم من عقابها .

وذهب بعضهم إلى أن العامل في قوله : ﴿ وهم يعلمون ﴾ ، قوله : ﴿ عقلوه ﴾ ، والظاهر القول الأول ، وهو قوله : ﴿ يحرفونه ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 1 صـ 438. 439 ﴾

ومن فوائد أبى السعود فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله تعالى : ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ ﴾ تلوينٌ للخطاب وصرْفٌ له عن اليهود إثرَ ما عُدَّت سيئاتُهم ونُعيتْ عليهم جناياتُهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين ، والهمزةُ لإنكار الواقع واستبعادِه كما في قولك : أتضربُ أباك ؟ لا لإنكار الوقوعِ كما في قولك : أأضربُ أبي ؟ والفاء للعطف على مقدّرٍ يقتضيه المقامُ ويستدعيه نظامُ الكلام ، لكن لا على قصد توجيهِ الإنكار إلى المعطوفين معاً كما في (أفلا تبصرون) على تقدير المعطوفِ عليه منفياً أي ألا تنظُرون فلا تبصرون ؟ فالمُنْكَر كلا الأمرين بل إلى ترتب الثاني على الأول مع وجوب أن يترتَّبَ عليه نقيضُه كما إذا قُدِّر الأول مُثْبتاً ، أي أتنظرون فلا تبصرون

؟ فالمنْكَرَ ترتُّبُ الثاني على الأول مع وجوب أن يترتب عليه نقيضُه أي أتسمعون أخبارَهم وتعلمون أحوالَهم فتطمعون ؟ ومآلُ المعنى : أبَعْدَ أنْ عِلمتم تفاصيلَ شؤونِهم المُؤْيِسةِ عنهم تطمعون ؟ ﴿ أَن يُؤْمِنُواْ ﴾ فإنهم متماثلون في شدة الشكيمةِ والأخلاقِ الذميمة ، لا يتأتى من أخلاقِهم إلا مثلُ ما أتى من أسلافِهم ، وأنْ مصدريةٌ حذف عنها الجارُّ ، والأصلُ : في أن يؤمنوا ، وهي مع ما في حيّزها في محل النصبِ أو الجرّ على الخلاف المعروف . واللام في (لَكُمْ) لتضمين معنى الاستجابة كما في قوله عز وجل : ﴿ فَئَامَنَ لَهُ لُوطٌ ﴾ أي في إيمانهم مستجيبين لكم ، أو للتعليل أي في أن يُحدثوا الإيمان لأجل دعوتكم ، وصلةُ الإيمان محذوفةٌ لظهور أن المرادَ به معناه الشرعيُّ ، وستقف على ما فيه من المزية بإذن الله تعالى ﴿ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مّنْهُمْ ﴾ الفريقُ اسمُ جمعٍ لا واحد له من لفظه كالرهط والقومِ ، والجار والمجرور في محل الرفعِ ، أي فريق كائنٌ منهم ، وقوله تعالى : ﴿ يَسْمَعُونَ كلام الله ﴾ خبرُ كان وقرىء كِلَمَ الله ، والجملة حاليةٌ مؤكّدة للإنكار حاسمةٌ لمادة الطمَع مثلُ أحوالِهم الشنيعةِ المحْكيةِ

فيما سلف على منهاج قوله تعالى : ﴿ وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ﴾ بعد قوله تعالى : ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاء مِن دُونِى ﴾ أي والحال أن طائفةً منهم . قال ابن عباس رضي الله عنهما : هم قومٌ من السبعين المختارين للميقات كانوا يسمعون كلامَه تعالى حين كلّم موسى عليه السلام بالطور وما أُمِرَ به ونُهيَ عنه ﴿ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ ﴾ عن مواضعه لا لقصورِ فهمِهم عن الإحاطة بتفاصيله على ما ينبغي لاستيلاء الدهشةِ والمهابةِ حسبما يقتضيه مقامُ الكبرياء بل ﴿ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ ﴾ أي فهموه وضبَطوه بعقولهم ، ولم تبقَ لهم في مضمونه ولا في كونه كلامَ ربِّ العزةِ ريبةٌ أصلاً ، فلما رجَعوا إلى قومهم أدّاه الصادقون إليهم كما سمعوا . وهؤلاء قالوا : سمعنا الله تعالى يقول في آخر كلامه : إن استطعتم أن تفعلوا هذه الأشياءَ فافعلوا ، وإن شئتم فلا تفعلوا فلا بأس ، فثُم للتراخي زماناً أو رتبةً قال القفال : سمِعوا كلامَ الله وعقَلوا مرادَه تعالى منه فأوّلوه تأويلاً فاسداً وقيل : هم رؤساءُ أسلافِهم الذين تولَّوْا تحريفَ التوراة بعد ما أحاطوا بما فيها علماً وقيل : هم الذين غيّروا نعتَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم في عصره وبدّلوا آيةَ الرجْم ، ويأباه الجمعُ بين صيغتي الماضي والمستقبل الدالِّ على وقوع السماعِ والتحريفِ فيما سلف إلا أن يُحملَ ذلك على تقدّمه على زمانِ نزولِ الآية الكريمةِ لا على تقدمه على عهده عليه الصلاة والسلام .

هذا والأول هو الأنسبُ بالسماع والكلام إذ التوراةُ وإن كانت كلامَ الله عز وعلا لكنها باسم الكتاب أشهرُ وأثرُ التحريفِ فيه أظهر ، ووصفُ اليهودِ بتلاوتها أكثر ، لا سيما رؤساؤُهم المباشرون للتحريف فإن وظيفتهم التلاوةُ دون السماع فكان الأنسبَ حينئذ أن يقالَ : يتلون كتابَ الله تعالى فالمعنى أفتطمعون في أن يؤمنَ هؤلاءِ بواسطتكم ويستجيبوا لكم والحالُ أن أسلافَهم الموافقين لهم في خِلال السوءِ كانوا يسمعون كلامَ الله بلا واسطةٍ ثم يحرّفونه من بعد ما عِلموه يقيناً ولا يستجيبون له ؟ هيهاتَ . ومن ههنا ظهر ما في إيثار (لكم) على بالله من الفخامة والجزالة .

وقوله عز وجل : ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ جملة حالية من فاعل (يحرّفونه) مفيدةٌ لكمال قباحةِ حالِهم مُؤْذِنةٌ بأن تحريفَهم ذلك لم يكن بناءً على نسيان ما عقَلوه أو على الخطأ في بعض مقدّماته بل كان ذلك حالَ كونهم عالمين مستحضِرين له أو وهم يعلمون أنهم كاذبون ومُفترون . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 1 صـ 116. 117 ﴾

ومن فوائد ابن عاشور فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾

هذا اعتراض استطرادي بين القصة الماضية والقصة التي أولها : ﴿ وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون ﴾ [البقرة : 83] فجميع الجمل من قوله تعالى : ﴿ أفتطمعون إلى قوله : وإذ أخذنا ﴾ داخلة في هذا الاستطراد .

والفاء لتفريع الاستفهام الإنكاري أو التعجيبي على جملة ﴿ ثم قست ﴾ [البقرة : 74] أو على مجموع الجمل السابقة لأن جميعها مما يقتضي اليأس من إيمانهم بما جاء به النبيء صلى الله عليه وسلم فكأَنَّه قيل : فلا تطمعوا أن يؤمنوا لكم أو فَاعْجَبُوا من طمعكم ، وسيأتي تحقيق موقع الاستفهام مع حرف العطف في مثله عند قوله تعالى : ﴿ أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ﴾ [البقرة : 87] .

والطمع ترقب حصول شيء محبوب وهو يرادف الرجاء وهو ضد اليأس ، والطمع يتعدى بفي حذفت هنا قبل (أَنْ) .

فإن قلت ، كيف يُنهى عن الطمع في إيمانهم أو يُعَجَّب به والنبيء والمسلمون مأمورون بدعوة أولئك إلى الإيمان دائماً ؟ وهل لمعنى هذه الآية ارتباط بمسألة التكليف بالمحال الذي

استحالته لتعلق عِلْمِ الله بعدم وقوعه ؟

قلت : إنما نُهينا عن الطمع في إيمانهم لا عن دعائهم للإيمان لأننا ندعوهم للإيمان وإن كنا آيسين منه لإقامة الحجة عليهم في الدنيا عند إجراء أحكام الكفر عليهم وفي الآخرة أيضاً ، ولأن الدعوة إلى الحق قد تصادف نفساً نيّرة فتنفعها ، فإن استبعاد إيمانه حُكم على غالبهم وجَمْهَرتهم أما الدعوة فإنها تقع على كل فرد منهم والمسألة أخص من تلكَ المسألة لأن مسألة التكليف بالمحال لتعلق العلم بعدم وقوعه مفروضة فيما عَلِمَ الله عدمَ وقوعه وتلك قد كنا أجبنا لكم فيها جواباً واضحاً وهو أن الله تعالى وإن عَلِمَ عدم إيمان مثل أبي جهل إلا أنه لم يطلعنا على ما عَلمه فيه والأوامر الشرعية لم تجيءْ بتخصيص أحد بدعوة حتى يقال كيف أُمر مع علم الله بأنه لا يؤمن ، وأما هذه الآية فقد أظهرت نفي الطماعية في إيمان من كان دأبهم هذه الأحوال فالجواب عنها يرجع إلى الجواب الأعم وهو أن الدعاء لأجل إقامة الحجة وهو الجواب الأعم لأصحابنا في مسألة التكليف بما علم الله عدم وقوعه ، على أن بعض أحوالهم قد تتغير فيكون للطماعية بعدَ ذلك حظ .

واللام في قوله : ﴿ لكم ﴾ لتضمين ﴿ يؤمنوا ﴾ معنى يُقِرُّوا وكأنَّ فيه تلميحاً إلى أن إيمانهم بصدق الرسول حاصل ولكنهم يكابرون ويجحدون على نحو قوله تعالى : ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ﴾ [البقرة : 146] الآية فما أبدعَ نسج القرآن .

ويجوز حمل اللام على التعليل وجعل ﴿ يؤمنوا ﴾ مُنزّلاً منزلة اللازم تعريضاً بهم بأنهم لم يؤمنوا بالحق الذي جاءهم على ألسنة أنبيائهم وهم أخص الناس بهم أفتطمعون أن يعترفوا به لأجلكم .

وقوله : ﴿ وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ﴾ جملة حالية هي قيدُ إنكار الطمع في إيمانهم فيكون قد عُلل هذا الإنكار بعلتين إحداهما بالتفريع على ما عَلِمْناه ، والثانية بالتقييد بما عَلَّمَنَاه .

وقوله : ﴿ فريق منهم ﴾ يحتمل أن يريد من قومهم الأقدمين أو من الحاضرين في زمن نزول الآية .

وسماعهم كلامَ الله على التقديرين هو سماع الوحي بواسطة الرسول إن كان الفريق من الذين كانوا زمن موسى أو بواسطة النقل إن كان من الذين جاءوا من بعده .

أما سماع كلام الله مباشرة فلم يقع إلا لموسى عليه السلام .

وأيًّا ما كان فالمقصود بهذا الفريق جمع من علمائهم دون عامتهم .

والتحريف أصله مصدر حَرَّف الشيء إذا مال به إلى الحرف وهو يقتضي الخروج عن جادة الطريق ، ولَمَّا شاع تشبيه الحق والصواب والرشد والمكارم بالجادة وبالصراط المستقيم شاع في عكسه تشبيه ما خالف ذلك بالانحراف وببنيات الطريق .

قال الأشتر :

بقَّيْتُ وفْرى وانحرفتُ عن العُلا . . .

ولَقِيتُ أَضْيَافِي بوَجْهٍ عَبُوسٍ

ومن فروع هذا التشبيه قولهم : زَاغ ، وحاد ومَرق ، وأْلحَد وقوله تعالى : ﴿ ومن الناس من يعبد الله على حرف ﴾ [الحج : 11] .

فالمراد بالتحريف إخراج الوحي والشريعة عما جاءت به ، إما بتبديل وهو قليل وإما بكتمان بعض وتناسيه وإما بالتأويل البعيد وهو أكثر أنواع التحريف .

(33/57)

وقوله : ﴿ وهم يعلمون ﴾ حال من ﴿ فريق ﴾ وهو قيد في القَيد يعني يسمعونه ثم يعقلونه ثم يحرفونه وهم يعلمون أنهم يحرفون ، وأن قوماً توارثوا هذه الصفة لا يطمع في إيمانهم لأن الذين فعلوا هذا إما أن يكونوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو بني عمهم فالغالب أن

يكون خلقهم واحداً وطباعهم متقاربة كما قال نوح عليه السلام : ﴿ ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً ﴾ [نوح: 27] وللعرب والحكماء في هذا المعنى أقوال كثيرة مرجعها إلى أن الطباع تورث ، ولذلك كانوا يصفون القبيلة بصفات جمهورها ، أو أراد بالفريق علماءهم وأحبارهم ، فالمراد لا طمع لكم في إيمان قوم هذه صفات خاصتهم وعلمائهم فكيف ظنكم بصفات دهمائهم لأن الخاصة في كل أمة هم مظهر محامدها وكمالاتها فإذا بلغت الخاصة في الانحطاط مبلغاً شنيعاً فاعلم أن العامة أفظع وأشنع ، وأراد بالعامة الموجودين منهم زمن القرآن لأنهم وإن كان فيهم علماء إلا أنهم كالعامة في سوء النظر ووهن الوازع .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 1 صـ 549. 551 ﴾

(34/57)

ومن فوائد القاسمى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [75]

﴿ أَفَتَطْمَعُونَ ﴾ أيها المؤمنون بعد أن علمتم تفاصيل شؤون أسلافهم المؤيسة عنهم : ﴿

أَن يُؤْمِنُواْ ﴾ أي : هؤلاء اليهود الذين بين أظهركم ، وهم متماثلون في الأخلاق الذميمة ، لا يأتي من أخلاقهم إلا مثل ما أتى من أسلافهم . واللام في قوله : ﴿ لَكُمْ ﴾ لتضمن معنى الاستجابة . كما في قوله عز وجل : ﴿ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ ﴾ [العنكبوت : 26] ، أي : في إيمانهم مستجيبين لكم ، أو للتعليل أي : في أن يحدثوا الإيمان لأجل دعوتكم : ﴿ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ ﴾ أي : طائفة فيمن سلف منهم : ﴿ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللّهِ ﴾ وهو ما يتلونه من التوراة : ﴿ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ ﴾ قال ابن كثير : أي : يتأولونه على غير تأويله . وقال ابن جرير : يعني بقوله : ﴿ يحرفونه ﴾ يبدلون معناه وتأويله ويغيّرونه ، أصله من انحراف الشيء عن جهته وهو ميله عنها إلى غيرها . فكذلك قوله : ﴿ يحرفونه ﴾ أي : يميلونه عن وجهه ، ومعناه الذي هو معناه ، إلى غيره : ﴿ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ ﴾ أي : فهموه على الجلية ، ومع هذا يخالفونه على بصيرة : ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ أنهم مخطئون فيما ذهبوا إليه من تحريفه وتأويله .

قال ابن جرير : هذا إخبار عن إقدامهم على البهت ومناصبتهم العداوة له ولرسوله موسى عليه السلام . وأن بقاياهم في العصر المحمديّ على مثل ما كان عليه أوائلهم في العصر

الموسويّ بغياً وحسداً . وهذا المقام شبيه بقوله تعالى : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ﴾ [المائدة : 13] ، والظاهر أن المراد ، بالفريق منهم ، أحبارهم ، وإنما فعلوا ذلك لضرب من الأغراض على ما بينه الله تعالى ، من بعد ، في قوله تعالى : ﴿ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً ﴾ [آل عِمْرَان : 187] ، وقال : ﴿ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ [البقرة : 146] .

ولقائلٍ أن يقول ، كيف يلزم من إقدام البعض على التحريف حصول اليأس من إيمان الباقين ، فإن عناد البعض لا ينافي إقرار الباقين . وأجاب القفال عنه فقال : يحتمل أن يكون المعنى : كيف يؤمن هؤلاء ، وهم إنما يأخذون دينهم ، ويتعلمونه من قوم هم يتعمدون التحريف عناداً ، فأولئك إنما يعلمونهم ما حرفوه وغيّروه عن وجهه ، والمقلدة لا يقبلون إلا ذلك ، ولا يلتفتون إلى أقوال أهل الحق ، وهو قولك للرجل كيف تفلح ، وأستاذك فلان ؟ أي : وأنت عنه تأخذ ، ولا تأخذ عن غيره .

ونحوه قول الراغب : لما كان الإيمان هو العلم الحقيقيّ مع العمل بمقتضاه ، فمتى لم يتحر ذلك من حصل له بعض العلوم ، فحقيق أن لا يحصل لمن غَبِيَ عن كل العلوم . فذكر ذلك تبعيداً لإيمانهم لا يأساً للحكم بذلك ؛ إذ ليس كل ما لا يطمع فيه كان مأيوساً . ثم قال الراغب : وفي الآية تنبيه أن ليس المانع للإنسان من تحري الإيمان الجهل به فقط ، بل يكون عناداً وغلبة

شهوة .

تنبيه :

ما نقلناه عن ابن جرير وابن كثير في تفسير : ﴿ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ ﴾ هو الأنسب باعتبار سوق الآية الكريمة ، ولا يتوهم من ذلك دفع تحريفهم اللفظيّ عن التوراة ، فإنه واقع بلا ريب ؛ فقد بدلوا بعضاً منها وحرفوا لفظة ، وأوّلوا بعضاً منها بغير المراد منه ، وكذا يقال في الإنجيل . ويشهد لذلك كلام أحبارهم ، فقد نقل العلامة الجليل الشيخ رحمه الله الهندي في كتابه " إظهار الحق " : أن أهل الكتاب سلفاً وخلفاً ، عادتهم جارية بأنهم يترجمون غالباً الأسماء في تراجمهم ، ويوردون بدلها معانيها ، وهذا خبط عظيم ومنشأ للفساد ، أنهم يزيدون تارة شيئاً بطريق التفسير في الكلام ، الذي هو كلام الله في زعمهم ، ولا يشيرون إلى الامتياز ، وهذان الأمران بمنزلة الأمور العادية عندهم ، ومن تأمل في تراجمهم المتداولة بألسنةٍ مختلفة وجد شواهد تلك الأمور كثيرة . ثم ساق بعضاً منها فانظره .

وفي " ذخيرة الألباب " ، لأحد علماء النصارى ، ما مثاله : إن بعضهم ذهب إلى أن الروح القدس لم يقِ الكتبة عثرة الخطأ الطفيف ، ولا كفاهم زلة القدم حتى لم يستحِل أنهم خلطوا

البشريات بالإلهيات . وفيه أيضاً : إن بين النسخة العبرانية والسامرية واليونانية من الأسفار الخمسة خلافاً عظيماً في أمر التاريخ . فإذاً تحريف الأسفار الخمسة أمر بيّن . وفيه أيضاً في الفصل " 31 " : أن بعض علمائهم زعم أنه وجد في الترجمة اللاتينية العامية للعهدين العتيق والجديد نيفاً وأربعة آلاف غلطة ، ورأى آخر فيها ما يزيد على الثمانية آلاف خطأ . انتهى . فثبت من شهادتهم وقوع التحريف اللفظيّ فيها . وهو المقصود . وأما القول بتحريف الأسفار كلها أو جلها ، فهو إفراط . قال الحافظ ابن حجر في آواخر شرح الصحيح في باب قول الله تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ﴾ [البروج : 21]

إن القول بأنها بدلت كلها مكابرة . والآيات والأخبار كثيرة في أنه بقي منها أشياء كثيرة لم تبدل . من ذلك قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴾ [الأعراف : 157] الآية . ومن ذلك قصة رجم اليهوديين وفيه وجود آية الرجم ، ويؤيده قوله تعالى : ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [آل عِمْرَان : 93] .

وقد أسلفنا تتمة هذا البحث في مقدمة التفسير في الكلام على الإسرائيليات . فارجع إليه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 2 صـ 370. 372 ﴾

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (75) ﴾

يعطينا الحق تبارك وتعالى هنا الحكمة . . فيما رواه لنا عن بني إسرائيل وعن قصصهم . لأنهم سيكون لهم دور مع المسلمين في المدينة ، ثم في بيت المقدس ، ثم في المسجد الأقصى . . فهو يروي لنا كيف أتعبوا نبيهم وكيف عصوا ربهم . وكيف قابلوا النعمة بالمعصية والرحمة بالجحود . وإذا كان هذا موقفهم يا محمد مع الله ومع نبيهم . . فلا تطمع أن يؤمنوا لك ولا أن يدخلوا في الإسلام ، مع أنهم عندهم التوراة تدعوهم إلى الإيمان بمحمد عليه الصلاة والسلام . .

هذه الآيات تحمل أعظم تعزية للرسول الكريم . وتطالبه ألا يحزن على عدم إيمان اليهود به

لأنه عليه البلاغ فقط ؛ ولكن حرص رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن يؤمن كل أهل الأرض يهود ونصارى وكفاراً ، ليس معناه أنه لم يفهم مهمته ، ولكن معناه أنه أدرك حلاوة التكليف من ربه ، بحيث يريد أن يهدي كل خلق الله في الأرض . . فيطمئنه الله ويقول له لا تعتقد أنهم سيؤمنون لك . وليس معنى عدم إيمانهم أنك لست صادقا . . فتكذيبهم لك لا ينبغي أن يؤثر فيك . . فلا تطمع يا محمد أن يؤمنوا لك . .

ما هو الطمع ؟ . . الطمع هو رغبة النفس في شيء غير حقها وإن كان محبوبا لها . .

والأصل في الإنسان العاقل ألا يطمع إلا في حقه . . والإنسان أحيانا يريد أن يرفه حياته ويعيش مترفا ولكن بحركة حياته كما هي . نقول له إذا أردت أن تتوسع في ترفك فلابد أن تتوسع في حركة حياتك ؛ لأنك لو أترفت معتمدا على حركة حياة غيرك فسيفسد ميزان حركة الحياة في الأرض ، أي إن كنت تريد أن تعيش حياة متزنة فعش على قدر حركة حياتك ؛ لأنك إن فعلت غير ذلك تسرق وترتش وتفسد . فإن كان عندك طمع فليكن فيما تقدر عليه .

إذن فكلمة " افتطمعون " هنا تحدد أنه يجب ألا نطمع إلا فيما نقدر عليه . هؤلاء اليهود هل نقدر على أن نجعلهم يؤمنون ؟ يقول الله تبارك وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم . .

هذا أمر زائد على ما كلفت به . . لأن عليك البلاغ ، وحتى لو كان محببا إلى نفسك . .

فإن مقدماتهم مع الله لا تعطيك الأمل في أنك ستصل إلى النتيجة التي ترجوها . .

وهذه الآية فيها تسرية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عما سيلاقيه مع اليهود . وتعطيه الشحنة الإيمانية التي تجعله يقابل عدم إيمان هؤلاء بقوة وعزيمة . . لأنه كان يتوقعه فلا يحزن ولا تذهب نفسه حسرات ، لأن الله تبارك وتعالى قد وضع في نفسه التوقع لما سيحدث منهم . . فإذا جاء تصرفهم وفق ما سيحدث .

. يكون ذلك أمرا محتملا من النفس . .

والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللَّهِ ﴾ انظر إلى الأمانة والدقة . . فريق منهم ليس كلهم . . هذا هو ما استنبط منه العالم نظرية صيانة الاحتمال . . وهي عدم التعميم بحيث تقول أنهم جميعا كذا . لابد أن تضع احتمالا في أن شخصا ما سيؤمن أو سيشذ أو سيخالف . . هنا فريق من أهل الكتاب عرفوا صفات رسول الله صلى الله عليه وسلم من التوراة والإنجيل . . وعندما بعث آمنوا به ، وهؤلاء لم يحرفوا كلام الله . لو أن القرآن جاء بالحكم عاما لتغيرت نظرة الكافرين للإسلام . . ولقالوا لقد قال عنا هذا الدين أننا حرفنا كتاب الله ولكننا لم نحرفه ونحن ننتظر رسوله . . فكأن

هذا الحكم غير دقيق . . ولابد أن شيئا ما خطأ . . لأن الله الذي نزل هذا القرآن لا يخفي عليه شيء ويعرف ما في قلوبنا جميعا . . ولكن لأن الآية الكريمة تقول أن فريقا منهم كانوا يسمعون كلام الله ثم يحرفونه . . الكلام بلا تعميم ومنطبق بدقة على كل حال . .

(40/57)

والحق جل جلاله يقول : ﴿ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ . هذه معصية مركبة سمعوا كلام الله وعقلوه وعرفوا العقوبة على المعصية ثم بعد ذلك حرفوه . . لقد قرأوه في التوراة وقرأوا وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أنهم يعرفونه كأبنائهم . . ثم حرفوا كلام الله وهم يعلمون . . ومعنى التحريف تغيير معنى الكلمة . . كانوا يقولون السَّأم عليكم بدلا من السلام عليكم . . ولم يتوقف الأمر عند التحريف بل تعداه إلى أن جاءوا بكلام من عندهم وقالوا أنه من التوراة . انتهى انتهى . اهـ ﴾ تفسير الشعراوى صـ 405.406 ﴾

(41/57)

" فصل "

قال السيوطى :

أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (75)

أخرج ابن إسحق وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : ثم قال الله لنبيه ومن معه من المؤمنين يؤيسهم منهم ﴿ أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ﴾ وليس قوله التوراة كلهم ، وقد سمعها ولكنهم الذين سألوا موسى رؤية ربهم فأخذتهم الصاعقة فيها .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد في قوله ﴿ أفتطمعون أن يؤمنوا لكم . . . ﴾ الآية . قال : فالذين يحرفونه والذين يكتبونه هم العلماء منهم ، والذين نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم هؤلاء كلهم يهود .

وأخرج ابن جرير عن السدي في قوله ﴿ يسمعون كلام الله ﴾ قال : هي التوراة حرفوها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 1 صـ 198 ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

فصل في إعراب الآية

قوله : " أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ " ناصب ومنصوب ، وعلامة النصب حذف النون والأصل في " أن " وموضعها نصب أو جر على ما عرف ، وعدي " يؤمنوا " باللاّم لتضمّنه معنى أن يحدثوا الإيمان لأجل دعوتكم قاله الزمخشري .

فإن قيل : ما معنى الإضافة في قوله : " يُؤْمِنُواْ لَكُمْ " والإيمان إنما هو لله ؟

فالجواب : أن الإيمان وإن كان الله فهم الدّاعون إليه كما قال تعالى : ﴿ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ ﴾ [العنكبوت : 26] لما آمن بنبوّته وتصديقه ، ويجوز أن يراد أن يؤمنوا لأجلكم ، ولأجل تشدّدكم في دعائهم .

قوله : " وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ " " الواو " : للحال .

قال بعضهم : وعلامتها أن يصلح موضها " إذ " ، والتقدير : أفتطمعون في إيمانهم ، والحال أنهم كاذبون محرفون لكلام الله تعالى .

و " قد " مقربة للماضي من الحال سوّغت وقوعه حالاً .

و "يَسْمَعُون " خبر "كان " .

و " منهم " في محلّ رفع صفة لـ " فريق " ، أي : فريق كائن منهم .

قال سيبويه : واعلم أن ناساً من ربيعة يقولون : " مِنْهِم " بكسر الهاء إتباعاً لكسرة الميم .

لم يكن المسكن حاجزاً حصيناً عندهم .

و " الفريق " اسم جمع لا واحد له من لفظه كـ " رَهْط وَقَوْم " ، وجمعه في أدنى العدد " أَفْرقه " ، وفي الكثير " أَفْرِقَاء " .

و "يَسْمَعُون " نعت لـ " فريق " ، وفيه بعد ، و "كان " وما في حَيّزها في محلّ نصب على ما تقدم .

وقرىء : " كَلِمَ اللهِ " وهو اسم جنس واحدة كلمة ، وفرّق النحاة بين الكلام والكلم ، بأن الكلام شرطه الإفادة ، والكلم شرطه التركيب من ثلاث فصاعداً ؛ لأنه جمع في المعنى ، وأقلّ الجمع ثلاثة ، فيكون بينهما عموم وخصوص من وجه ، وهل " الكلام " مصدر أو اسم مصدر ؟ خلاف .

والمادة تدل على التأثير ، ومنه الكَلْم وهو الجُرْح ، والكَلاَم يؤثر في المخاطب .

قال الشاعر : [المتقارب]

598 . . . . . .

وَجُرْحُ اللِّسَانِ كَجُرْحِ الْيَدِ

ويطلق الكلام لغة على الخَطّ والإشارة؛ كقوله: [الطويل]

599 إِذَا كَلَّمَتْنِي بِالعُيُونِ الفَوَاتِرِ . . .

رَدَدْتُ عَلَيْهَا بِالدُّمُوعِ الْبَوادِرِ

وعلى النفساني؛ قال الأخطل: [الكامل]

600 إِنَّ الْكَلاَمَ لَفِي الْفُؤَادِ وَإِنَّمَا . . .

جُعِلَ اللِّسَانُ عَلَى الْفُؤَادِ دَلِيلاً

وقيل: لم يوجد هذا البيت في ديون الأخطل.

وأما عند النحويين [فيطلق] على اللّفظ المركب المفيد بالوضع.

و"ثم" للتراخي إما في الزمان أو الرتبة.

و"التحريف": الإمالة والتحويل، وأصله من الانحراف عن الشيء، ويقال: قلم محرّف إذا كان مائلاً.

قوله: "مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ" متعلق بـ"يحرفونه"، و"ما" يجوز أن تكن موصولة اسمية، أي: ثم يحرفون الكلام من بعد المعنى الذي فهموه وعرفوه، ويجوز أن تكون مصدرية.

والضمير في "عقلوه" يعود حينئذ على الكلام أي: من بعد تعقلهم إياه.

قوله: "وَهُمْ يَعْلَمُونَ" جملة حالية، وفي العامل قولان:

أحدهما: "عقلوه"، ولكن يلزم منه أن تكون حالاً مؤكدة؛ لأن معناها قد فهم من قوله: "عقلوه".

والثاني وهو الظاهر: أنه "يحرفونه"، أي: يحرفونه حال علمهم بذلك. انتهى انتهى. اهـ ﴿تفسير ابن عادل حـ 2 صـ 193 ـ 195﴾. باختصار.

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة:

﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (75)﴾

أنبأهم عن إيمانهم، وذكر أنهم بعد سماع الخطاب من الله – سبحانه – حرَّفوا وبدّلوا فكيف يؤمنون لكم وإنما يسمعون بواسطة الرسالة، ومن لم يَبقَ على الإيمان بعد العيان فكيف يؤمن بالبرهان، والذي لم يصلح للحق لا يصلح لكم، ومن لم (يحتشم من الحق) فكيف يحتشم منكم؟. انتهى انتهى. اهـ ﴿لطائف الإشارات حـ 1 صـ 100﴾

قوله تعالى ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آَمَنُوا قَالُوا آَمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (76) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان الكلام مرشداً إلى أن التقدير فهم لجرأتهم على الله إذا سمعوا كتابكم حرفوه وإذا حدثوا عباد الله لا يكادون يصدقون عطف عليه قوله ﴿ وإذا لقوا الذين آمنوا ﴾ بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ قالوا ﴾ نفاقاً منهم ﴿ آمنا وإذا خلا بعضهم ﴾ أي المنافقين ﴿ إلى بعض قالوا ﴾ لائمين لهم ظنّاً منهم جهلاً بالله لما وجدوا كثيراً من أسرارهم وخفي أخبارهم مما هو في كتابهم من الدقائق وغير ذلك عند المؤمنين مع اجتهاده في إخفائها أن بعضهم أفشاها فعلمت من قبله ﴿ أتحدثونهم ﴾ من التحديث وهو تكرار حدث القول أي واقعه ﴿ بما فتح الله ﴾ ذو الجلال والجمال ﴿ عليكم ﴾ من العلم القديم الذي أتاكم على ألسنة رسلكم أو بما عذب به بعضكم .

والفتح قال الحرالي توسعة الضيق حساً ومعنى ﴿ ليحاجوكم ﴾ أي المؤمنون ﴿ به عند

ربكم ﴾ والمحاجة تثبيت القصد والرأي بما يصححه .

ولما كان عندهم أن إفشاءهم لمثل هذا من فعل من لا يفعل قالوا إنكاراً من بعضهم على بعض ﴿ أفلا تعقلون ﴾ ويمكن أن يكون خطاباً للمؤمنين المخاطبين يتطمعون ، أي أفلا يكون لكم عقل ليردكم ذلك عن تعليق الأمل بإيمانهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 176 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أن هذا هو النوع الثاني من قبائح أفعال اليهود الذين كانوا في زمن محمد صلى الله عليه وسلم والمروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن منافقي أهل الكتاب كانوا إذا لقوا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم قالوا لهم : آمنا بالذي آمنتم به ونشهد أن صاحبكم صادق وأن قوله حق ونجده بنعته وصفته في كتابنا ، ثم إذا خلا بعضهم إلى بعض قال الرؤساء لهم : أتحدثونهم بما فتح الله عليكم في كتابه من نعته وصفته ليحاجوكم به ، فإن المخالف إذا اعترف بصحة التوراة واعترف بشهادة التوراة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فلا حجة أقوى من ذلك ، فلا جرم كان بعضهم يمنع بعضاً من الاعتراف بذلك عند محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه ،

قال القفال : قوله : ﴿ فَتَحَ اللهُ عَلَيْكُمْ ﴾ مأخوذ من قولهم قد فتح على فلان في علم كذا أي رزق ذلك وسهل له طلبه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 125 ﴾

قوله تعالى ﴿ عِندَ رَبِّكُمْ ﴾

فصل

قال الفخر :

أما قوله : ﴿ عِندَ رَبِّكُمْ ﴾ ففيه وجوه .

أحدها : أنهم جعلوا محاجتهم به وقوله هو في كتابكم هكذا محاجة عند الله ، ألا تراك تقول هو في كتاب الله هكذا وهو عند الله هكذا بمعنى واحد .

وثانيها : قال الحسن : أي ليحاجوكم في ربكم لأن المحاجة فيما ألزم الله تعالى من اتباع الرسل تصح أن توصف بأنها محاجة فيه لأنها محاجة في دينه .

وثالثها : قال الأصم : المراد يحاجوكم يوم القيامة وعند التساؤل فيكون ذلك زائداً في توبيخكم وظهور فضيحتكم على رؤوس الخلائق في الموقف لأنه ليس من اعتراف بالحق ثم كتم كمن ثبت على الإنكار فكان القوم يعتقدون أن ظهور ذلك مما يزيد في انكشاف فضيحتهم في الآخرة .

ورابعها : قال القاضي أبو بكر : إن المحتج بالشيء قد يحتج ويكون غرضه من إظهار تلك

الحجة حصول السرور بسبب غلبة الخصم وقد يكون غرضه منه الديانة والنصيحة ، فقط ليقطع عذر خصمه ويقرر حجة الله عليه فقال القوم عند الخلوة قد حدثتموهم بما فتح الله عليكم من حجتهم في التوراة فصاروا يتمكنون من الاحتجاج به على وجه الديانة والنصيحة ، لأن من يذكر الحجة على هذا الوجه قد يقول لصاحبه قد أوجبت عليك عند الله وأقمت عليك الحجة بيني وبين ربي فإن قبلت أحسنت إلى نفسك وإن جحدت كنت الخاسر الخائب .

وخامسها : قال القفال : يقال : فلان عندي عالم أي في اعتقادي وحكمي ، وهذا عند الشافعي حلال وعند أبي حنيفة حرام ، أي في حكمهما وقوله : ﴿ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ ﴾ أي لتصيروا محجوجين بتلك الدلائل في حكم الله .

وتأول بعض العلماء قوله تعالى : ﴿ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاء فَأُولَئِكَ عِندَ اللهِ هُمُ الكاذبون ﴾ [النور : 13] أي في حكم الله وقضائه لأن القاذف إذا لم يأت بالشهود لزمه حكم الكاذبين وإن كان في نفسه صادقاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 125 .

﴿ 126

قال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا لَقُواْ الذين آمَنُواْ قالوا آمَنَّا ﴾ هذا في المنافقين .

وأصل " لقوا " لِقِيُوا وقد تقدم .

﴿ وَإِذَا خَلاَ بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ ﴾ الآية في اليهود ، وذلك أن ناساً منهم أسلموا ثم نافقوا ، فكانوا يحدّثون المؤمنين من العرب بما عُذِّب به آباؤهم ؛ فقالت لهم اليهود : ﴿ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ الله عَلَيْكُمْ ﴾ أي حكم الله عليكم من العذاب ، ليقولوا نحن أكرم على الله منكم ، عن ابن عباس والسُّدِّي .

وقيل : " إن عليًّا لما نازل قُرَيظة يوم خَيْبر سَمع سبّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فانصرف إليه وقال : يا رسول الله ، لا تبلغ إليهم ، وعرَّض له ؛ فقال : " أظنك سمعت شتمي منهم لو رأوني لكفّوا عن ذلك " ونهض إليهم ، فلما رأوه أمسكوا ، فقال لهم : " أنقضتم العهد يا إخوة القردة والخنازير أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته " " فقالوا : ما كنت جاهلاً يا محمد فلا تجهل علينا ، من حدّثك بهذا ؟ ما خرج هذا الخبر إلا من عندنا روي هذا المعنى عن مجاهد .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا خَلاَ ﴾ الأصل في " خلا " خَلَوَ ، قُلبت الواو ألفاً لتحرّكها وانفتاح ما قبلها ؛ وتقدّم معنى " خلا " في أوّل السورة .

ومعنى " فَتَحَ " حَكَم .

والفتح عند العرب : القضاء والحُكم ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا افتح بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بالحق وَأَنتَ خَيْرُ الفاتحين ﴾ أي الحاكمين .

والفَتَّاح : القاضي بلغة اليمن ؛ يقال : بيني وبينك الفَتّاح ؛ قيل ذلك لأنه ينصر المظلوم على الظالم .

(48/57)

والفتح : النصر ؛ ومنه قوله : ﴿ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الذين كَفَرُواْ ﴾ [البقرة : 89] ، وقوله : ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ الفتح ﴾ [الأنفال : 19] ويكون بمعنى الفرق بين الشيئين .

قوله تعالى : ﴿ لِيُحَآجُّوكُم ﴾ نصب بلام كيّ ، وإن شئت بإضمار أنْ ، وعلامة النصب حذف النون .

قال يونس : وناس من العرب يفتحون لام كي .

قال الأخفش : لأن الفتح الأصل .

قال خلف الأحمر : هي لغة بني العنبر .

ومعنى ﴿ لِيُحَآجُّوكُم ﴾ ليعيّروكم ، ويقولوا نحن أكرم على الله منكم .

وقيل : المعنى ليحتجوا عليكم بقولكم ؛ يقولون كفرتم به بعد أن وقفتم على صدقه .

وقيل : إن الرجل من اليهود كان يلقى صديقه من المسلمين فيقول له : تمسّك بدين محمد فإنه نبيّ حقًّا .

﴿ عِندَ رَبِّكُمْ ﴾ قيل في الآخرة ؛ كما قال : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ القيامة عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ [الزمر : 31] .

وقيل : عند ذكر ربكم .

وقيل : " عند " بمعنى " في " أي ليحاجّوكم به في ربكم ؛ فيكونوا أحق به منكم لظهور الحجة عليكم ؛ روي عن الحسن .

والحجة : الكلام المستقيم على الإطلاق ؛ ومن ذلك مَحَجّةُ الطريق .

وحاججتُ فلاناً فحججته ، أي غلبته بالحجة ؛ ومنه الحديث : " فحجّ آدمُ موسى " .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 2 صـ 3 ـ 4 ﴾

فائدة

قال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا خَلاَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ ﴾ فيهم قولان :

أحدهما : أنهم اليهود ، إذا خلوا مع المنافقين ، قال لهم المنافقون : أتحدثون المسلمين ، بما فتح الله عليكم . والثاني : أنهم اليهود ، قال بعضهم لبعض : ﴿ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللهُ عَلَيكُم ﴾ وفيه أربعة أقاويل :

أحدها : بما فتح الله عليكم ، أي مما أذكركم الله به ، رواه الضحاك عن ابن عباس .

والثاني : بما أنزل الله عليكم في التوراة ، من نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وبعثه ، ﴿ لِيُحَآجُّوكم بِهِ عِنْدَ رَبِّكُم ﴾ رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس ، وهو قول أبي العالية وقتادة .

والثالث : أنهم أرادوا قول يهود بني قريظة ، حين شبههم النبي صلى الله عليه وسلم ، بأنهم إخوة القردة ، فقالوا : من حدثك بهذا ؟ وذلك حين أرسل إليهم ، علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، وهذا قول مجاهد .

والرابع : أن ناساً من اليهود أسلموا ، ثم نافقوا فكانوا يحدثون المسلمين من العرب ، بما عُذِّبَ به (آباؤهم) ، فقال بعضهم لبعض ، أتحدثونهم بما فتح الله عليكم من العذاب ، وهذا قول السدي .

وفي ﴿ فتح الله ﴾ وجهان :

أحدهما : بما علمكم الله .

والثاني : بما قضاه الله ، والفتح عند العرب القضاء والحكم ، ومنه قول الشاعر :

ألا أبلغ بني عُصُم رسولاً . . . بأني عن فِتاحِكُم غنيُّ

ويُقَالُ للقاضي : الفتّاح ، ومنه قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَينَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ ﴾ [الأعراف : 89] .

قوله تعالى : ﴿ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِنْدَ رَبِّكُم ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : ﴿ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِنْدَ رَبِّكُم ﴾ ، فَحُذِفَ ذِكْرُ الكتاب إيجازاً .

والثاني : ﴿ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِنْدَ رَبِّكُم ﴾ فتظهر له الحُجَّة عليكم ، فيكونوا أولى بالله منكم ، وهذا قول الحسن .

والثالث : ﴿ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِنْدَ رَبِّكُم ﴾ يوم القيامة ، كما قال تعالى : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُم يَومَ القِيامَةِ عِنْدَ رَبِّكُم تَخْتَصِمُونَ ﴾ [الزمر : 31] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 1 صـ 148 . 149 ﴾

فصل

قال أبو السعود :

﴿ وَإِذَا لَقُواْ ﴾ جملةٌ مستأنفة سيقتْ إثرَ بيانِ ما صدر عن أشباههم لبيان ما صدرَ عنهم بالذات من الشنائع المُؤْيسةِ عن إيمانهم من نفاق بعضٍ وعتابِ آخَرين عليهم ، أو معطوفةٌ على ما سبق من الجملة الحالية ، والضميرُ لليهود لما ستقف على سره لا لمنافقيهم خاصةً كما قيل تحرّياً لاتحاد

(51/57)

الفاعل في فعلي الشرط والجزاءِ حقيقةً ﴿ الذين آمنواْ ﴾ من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ قَالُواْ ﴾ أي اللاقون لكن لا بطريق تصدّي الكلِّ للقول حقيقةً بل بمباشرة منافقيهم وسكوتِ الباقين ، كما يقال : بنو فلان قتلوا فلاناً والقاتلُ واحد منهم ، وهذا أدخلُ في تقبيح حال الساكتين أولاً العاتبين ثانياً لما فيه من الدلالة على نفاقهم واختلافِ أحوالهم وتناقضِ آرائهم من إسناد القول إلى المباشرين خاصةً بتقدير المضافِ أي قال منافقوهم ﴿ آمنا ﴾ لم يقتصروا على ذلك بل عللوه بأنهم وجدوا نعتَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم في التوراة وعلموا أنه النبيُّ المبشَّر به ، وإنما لم يصرّحْ به تعويلاً على شهادة التوبيخِ الآتي : ﴿ وَإِذَا خَلاَ بَعْضُهُمْ ﴾ أي بعض المذكورين وهم الساكتون منهم أي إذا فرَغوا من الاشتغال بالمؤمنين متوجّهين ومنضمّين ﴿ إِلَى بَعْضٍ ﴾ آخرَ منهم وهم منافقوهم بحيث لم

يبقَ معهم غيرُهم ، وهذا نصٌّ على اشتراك الساكتين في لقاء المؤمنين كما أشير إليه آنفاً إذِ الخلوُّ إنما يكون بعد الاشتغال ، ولأن عتابَهم معلقٌ بمحض الخلوِ ، ولولا أنهم حاضرون عند المقاولة لوجب أن يُجعلَ سماعُهم لها من تمام الشرط ، ولأن فيه زيادةَ تشنيعٍ لهم على ما أتَوْا من السكوت ثم العتاب ﴿ قَالُواْ ﴾ أي الساكتون موبّخين لمنافقيهم على ما صنعوا ﴿ أَتُحَدّثُونَهُم ﴾ يعنون المؤمنين ﴿ بِمَا فَتَحَ اللهُ عَلَيْكُمْ ﴾ (ما) موصولةٌ والعائدُ محذوفٌ أي بيّنه لكم خاصةً في التوراة من نعْت النبي صلى الله عليه وسلم والتعبيرِ عنه بالفتْح للإيذان بأنه

سرٌّ مكنونٌ وباب مغلَقٌ لا يقف عليه أحدٌ . وتجويزُ كونِ هذا التوبيخ من جهة المنافقين لأعقابهم إراءةً للتصلُّب في دينهم كما ذهب إليه عصابةٌ مما لا يليق بشأن التنزيل الجليلِ ، واللامُ في قوله عز وجل : ﴿ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ ﴾ متعلقةٌ بالتحديث دون الفتح ، والمرادُ تأكيدُ النكير وتشديدُ التوبيخ ، فإن التحديثَ بذلك وإن كان مُنْكراً في نفسه ، لكن التحديثَ به لأجل هذا الغرَض مما لا يكاد يصدُرُ عن العاقل أي أتحدّثونهم بذلك ليحتجّوا عليكم به فيُبَكّتوكم ؟ والمحدّثون به وإن لم يحوموا حولَ ذلك الغرضِ لكن فعلَهم ذلك لما كان

مستتبِعاً له ألبتة جُعلوا فاعلين للغرض المذكور إظهاراً لكمال سخافةِ عقولِهم وركاكة آرائهم.

﴿ عِندَ رَبِّكُمْ ﴾ أي في حُكمه وكتابه كما يقال: هو عند الله كذا أي في كتابه وشرعه، وقيل: عند ربكم يومَ القيامة، ورُدَّ عليه بأن الإخفاءَ لا يدفعه إذ هم عالمون بأنهم محجوجون يومئذ حدَّثوا به أو لم يحدثوا، والاعتذارُ بأنه إلزامَ المؤمنين إياهم وتبكيتَهم بأن يقولوا لهم: ألم تحدِّثونا بما في كتابكم في الدنيا من حقّية دينِنا وصدقِ نبيِّنا أفحشُ، فيجوز أن يكون المحذورُ عندهم هذا الإلزامَ بإرجاع الضمير في (به) إلى التحديث دون المحدَّث به، ولا ريب في أنه مدفوعٌ بالإخفاء لا تساعده الآيةُ الكريمة الآتيةُ كما ستقف عليه بإذن الله عز وجل ﴿ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ من تمام التوبيخ والعتابِ، والفاءُ للعطف على مقدَّر ينسحبُ عليه الكلام أي ألا تلاحظون فلا تعقلون هذا الخطأَ الفاحشَ أو شيئاً من الأشياء التي من جملتها هذا؟ فالمنْكرُ عدمُ التعقُّل ابتداءً.

أو أتفعلون ذلك فلا تعقلون بُطلانَه مع وضوحه حتى تحتاجوا إلى التنبيه عليه؟ فالمنكرُ حينئذ عدمُ التعقل بعد الفعل، هذا وأما ما قيل من أنه خطابٌ من جهة الله سبحانه

للمؤمنين متصلٌ بقوله تعالى : أَفَتَطْمَعُونَ والمعنى أفلا تعقلون حالَهم وأن لا مطْمَعَ لكم في إيمانهم فيأباه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 1 صـ 117. 118 ﴾

(54/57)

وقال الآلوسى :

﴿ وَإِذَا لَقُواْ الذين ءامَنُواْ قَالُواْ ءامَنَّا ﴾ جملة مستأنفة سيقت إثر بيان ما صدر عن أسلافهم لبيان ما صدر عنهم بالذات من الشنائع المؤيسة عن إيمانهم من نفاق بعض وعتاب آخرين عليهم ، ويحتمل أن تكون معطوفة على ﴿ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مّنْهُمْ ﴾ [البقرة : 75] الخ ، وقيل : معطوف على ﴿ يَسْمَعُونَ ﴾ [البقرة : 75] وقيل : على قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا ﴾ [البقرة : 72] عطف القصة على القصة وضمير ﴿ لَقُواْ ﴾ لليهود على طبق ﴿ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ ﴾ [البقرة : 75] وضمير ﴿ قَالُواْ ﴾ للاقين لكن لا يتصدى الكل للقول حقيقة ، بل بمباشرة منافقيهم وسكوت الباقين ، فهو إسناد ما للبعض للكل ومثله أكثر من أن يحصى وهذا أدخل ، كما قال مولانا مفتي الديار الرومية في تقبيح حال الساكتين أولاً : العاتبين ثانياً لما فيه من الدلالة على نفاقهم واختلاف أحوالهم وتناقض آرائهم من إسناد القول إلى المباشرين خاصة بتقدير المضاف ، أي قال منافقوهم كما فعله

البعض وقيل : الضمير الأول لمنافقي اليهود كالثاني ليتحد فاعل الشرط والجزاء مراعاة لحق النظم ويؤيده ما روي عن ابن عباس والحسن وقتادة في تفسير ﴿ وَإِذَا لَقُواْ ﴾ يعني منافقي اليهود المؤمنين الخّلص قالوا : إلا أن السباق واللحاق كما رأيت وسترى يبعدان ذلك ، وقرأ ابن السميقع ﴿ لاقوا ﴾ .

(55/57)

﴿ وَإِذَا خَلاَ بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ ﴾ أي إذا انفرد بعض المذكورين وهم الساكتون منهم بعد فراغهم عن الاشتغال بالمؤمنين متوجهين منضمين إلى بعض آخر منهم وهم من نافق ، وهذا كالنص على اشتراك الساكتين في لقاء المؤمنين ، إذ الخلو إنما يكون بعد الاشتغال ، ولأن عتابهم معلق بمحض الخلو ولولا إنهم حاضرون عند المقاولة لوجب أن يجعل سماعهم من تمام الشرط ، ولأن فيه زيادة تشنيع لهم على ما أوتوا من السكوت ثم العتاب ﴿ قَالُواْ ﴾ أي أولئك البعض الخالي موبخين لمنافقيهم على ما صنعوا بحضرتهم .

﴿ أَتُحَدّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ الله عَلَيْكُمْ ﴾ أي تخبرون المؤمنين بما بينه الله تعالى لكم خاصة من نعت نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أو من أخذ العهود على أنبيائكم بتصديقه صلى الله عليه وسلم ونصرته ، والتعبير عند بالفتح للإيذان بأنه سر مكتوم وباب مغلق ، وفي الآية

إشارة إلى أنهم لم يكتفوا بقولهم : ﴿ مِنَ ﴾ بل عللوه بما ذكر ، وإنما لم يصرح به تعويلاً على شهادة التوبيخ ، ومن الناس من جوّز كون هذا التوبيخ من جهة المنافقين لأعقابهم وبقاياهم الذين لم ينافقوا ، وحينئذ يكون البعض الذي هو فاعل خلا عبارة عن المنافقين ، وفيه وضع المظهر موضع المضمر تكثيراً للمعنى والاستفهام إنكار ونهي عن التحديث في الزمان المستقبل وليس بشيء وإن جل قائله اللهم إلا أن يكون فيه رواية صحيحة ، ودون ذلك خرط القتاد .

(56/57)

﴿ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ ﴾ متعلق بالتحديث دون الفتح خلافاً لمن تكلف له ، والمراد تأكيد النكير وتشديد التوبيخ ، فإن التحديث وإن كان منكراً في نفسه لكنه لهذا الغرض مما لا يكاد يصدر عن العاقل ، والمفاعلة هنا غير مرادة ، والمراد ليحتجوا به عليكم ، إلا أنه إنما أتى بها للمبالغة ، وذكر ابن تمجيد أنه لو ذهب أحد إلى المشاركة بين المحتج والمحتج عليه بأن يكون من جانب احتجاج ومن جانب آخر سماع لكان له وجه كما في بايعت زيداً وقد تقدم ما ينفعك هنا فتذكر .

والكلام هذه لام كي والنصب بأن مضمرة بعدها أو بها ، وهي مفيدة للتعليل ولعله هنا

مجاز لأن المحدثين لم يحوموا حول ذلك الغرض ، لكن فعلهم ذلك لما كان مستتبعاً له ألبتة جعلوا كأنهم فاعلون له إظهاراً لكمال سخافة عقولهم وركاكة آرائهم ، وضمير ﴿ بِهِ ﴾ راجع إلى ﴿ بِمَا فَتَحَ الله ﴾ على ما يقتضيه الظاهر

﴿ عِندَ رَبِّكُمْ ﴾ أي في كتابه وحكمه وهو عند عصابة بدل من ﴿ بِهِ ﴾ ، ومعنى كونه بدلاً منه أن عامله الذي هو نائب عنه بدل منه إما بدل الكل إن قدر صيغة اسم الفاعل أو بدل اشتمال إن قدر مصدراً ، وفائدته بيان جهة الاحتجاج بما فتح الله تعالى ، فإن الاحتجاج به يتصور على وجوه شتى ، كأنه قيل : ليحاجوكم به بكونه في كتابه ، أي يقولوا : إنه مذكور في كتابه الذي آمنتم به ، وبما ذكر يظهر وجه الجمع بين قوله تعالى : ﴿ بِهِ ﴾ أي (بما فتح الله عليكم) وقوله تعالى : ﴿ عِندَ رَبِّكُمْ ﴾ واندفع ما قيل لا يصح جعله بدلاً لوجوب اتحاد البدل والمبدل منه في الإعراب ، وههنا ليس كذلك لكون الثاني ظرفاً والأول مفعولاً به بالواسطة ، وقيل : المعنى بما عند ربكم فيكون الظرف حالاً من ضمير ﴿ بِهِ ﴾ وفائدته التصريح بكون الاحتجاج بأمر ثابت عنده تعالى وإن كان ذلك مستفاداً من كونه بما فتح الله تعالى ، وقيل : عند ذكر ربكم ، فالكلام على حذف مضاف ، والمراد من

الذكر الكتاب وجعل المحاجة بما فتح الله تعالى باعتبار أنه في الكتاب محاجة عنده توسعاً وهذه الأقوال مبنية على أن المراد بالمحاجة في الدنيا وهو ظاهر لأنها دار المحاجة والتأويل في قوله تعالى : ﴿ عِندَ رَبِّكُمْ ﴾ وقيل : عند ربكم على ظاهره والمحاجة يوم القيامة واعترض بأن الإخفاء لا يدفع هذه المحاجة لأنه إما لأجل أن لا يطلع المؤمنون على ما يحتجون به وهو حاصل لهم بالوحي أو ليكون للمحتج عليهم طريق إلى الإنكار ، وذا لا يمكن عنده تعالى يوم القيامة ولا يظن بأهل الكتاب أنهم يعتقدون أن إخفاء ما في الكتاب في الدنيا يدفع المحاجة بكونه فيه في العقبى لأنه اعتقاد منهم بأنه تعالى لا يعلم ما أنزل في كتابه وهم برآء منه ، والقول بأن المراد : ليحاجوكم يوم القيامة وعند المسائل ، فيكون زائداً في ظهور فضيحتكم وتوبيخكم على رؤس الأشهاد في الموقف العظيم ، فكان القوم يعتقدون أن ظهور ذلك في

الدنيا يزيد ذلك في الآخرة للفرق بين من اعترف وكتم ، وبين من ثبت على الإنكار ، أو بأن المحاجة بأنكم بلغتم وخالفتم تندفع بالإخفاء يرد عليه أن الإخفاء حينئذ إنما يدفع الاحتجاج بإقرارهم لا بما فتح الله عليهم على أن المدفوع في الوجه الأول زيادة التوبيخ

والفضيحة لا المحاجة وقيل : ﴿ عِندَ رَبِّكُمْ ﴾ بتقدير من عند ربكم وهو معمول لقوله تعالى : ﴿ بِمَا فَتَحَ اللهُ عَلَيْكُمْ ﴾ وهو مما لا ينبغي أن يرتكب في فصيح الكلام ، وجوّز الدامغاني أن يكون ﴿ عِندَ ﴾ للزلفى أي : ليحاجوكم به متقربين إلى الله تعالى وهو بعيد أيضاً كقول بعض المتأخرين : إنه يمكن أن تجعل المحاجة به عند الرب عبارة عن المباهلة في تحقق ما يحدثونه ، وعليه تكون المحاجة على مقتضى المفاعلة وعندي أن رجوع ضمير به لما فتح الله من حيث إنه محدث ﴿ بِهِ ﴾ وجعل القيد هو المقصود ، أو للتحديث المفهوم من ﴿ أَتُحَدِّثُونَهُم ﴾ وحمل ﴿ عِندَ رَبِّكُمْ ﴾ على يوم القيامة ، والتزام أن الإخفاء يدفع هذا الاحتجاج ليس بالبعيد إلا أن أحداً لم يصرح به ولعله أولى من بعض الوجوه فتدبر .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 299. 300 ﴾

فائدة

قال ابن عاشور :

وقوله : ﴿ أتحدثونهم ﴾ استفهام للإنكار أو التقرير أو التوبيخ بقرينة أن المقام دل على أنهم جرى بينهم حديث في ما ينزل من القرآن فاضحاً لأحوال أسلافهم ومثالب سيرتهم مع أنبيائهم وشريعتهم .

والظاهر عندي أن معناه أنهم لما سمعوا من القرآن ما فيه فضيحة أحوالهم وذكر ما لا يعلمه إلا خاصتهم ظنوا أن ذلك خلص للنبيء من بعض الذين أظهروا الإيمان من أتباعهم وأن

نفاقهم كان قد بلغ بهم إلى أن أخبروا المسلمين ببعض قصص قومهم ستراً لكفرهم الباطن فوبخوهم على ذلك توبيخ إنكار أي كيف يبلغ بكم النفاق إلى هذا وأن في بعض إظهار المودة للمسلمين كفاية على حد قول المثل الذي حكاه بشار بقوله :

واسعدْ بما قال في الحلم ابنُ ذي يَزَن . . .

(59/57)

يَلْهُو الكِرام ولا يَنْسَوْن أحسابا

فحكى الله ذلك عنهم حكاية لحيرتهم واضطراب أمرهم لأنهم كانوا يرسلون نفراً من قومهم جواسيس على النبيء والمسلمين يظهرون الإسلام ويبطنون اليهودية ثم اتهموهم بخرق الرأي وسوء التدبير وأنهم دهبوا يتجسسون فكشفوا أحوال قومهم ، ويدل لهذا عندي قوله تعالى بعد : ﴿ أو لا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون وأخبار مروية عن بعض التابعين بأسانيد لبيان المتحدث به ، فعن السدي كان بعض اليهود يحدث المسلمين بما عذب به أسلافهم ، وعن أبي العالية قال بعض المنافقين : إن النبيء مذكور في التوراة ، وعن ابن زيد كانوا يخبرون عن بعض قصص التوراة .

والمراد بما فتح الله ﴾ إما ما قضى الله به من الأحوال والمصائب فإن الفتح بمعنى القضاء

وعليه قوله تعالى : ﴿ ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق ﴾ [الأعراف : 89] والفتاح القاضي بلغة اليمن ، وإما بمعنى البيان والتعليم ، ومنه الفتح على الإمام في الصلاة بإظهار الآية له وهو كناية مشهورة لأن القضاء يستلزم بيان الحق ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا ﴾ [البقرة : 89] أي يسألونهم العلم بالأمور التشريعية على أحد وجهين ، فالمعنى بما علمكم الله من الدين .

وقوله : ﴿ ليحاجوكم به عند ربكم ﴾ صيغة المفاعلة غير مقصود بها حصول الفعل من جانبين بل هي لتأكيد الاحتجاج أي ليحتجوا عليكم به أي بما فتح الله عليكم .

(60/57)

واللام في قوله تعالى : ﴿ ليحاجوكم ﴾ لام التعليل لكنها مستعملة في التعقيب مجازاً أو ترشيحاً لاستعمال الاستفهام في الإنكار أو التقرير مجازاً فإنه لما كان الاستفهام الموضوع لطلب العلم استعمل هنا في الإنكار أو التقرير مجازاً لأن طلب العلم يستلزم الإقرار والمقرر عليه يقتضي الإنكار لأن المقر به مما ينكر بداهة وكانت المحاجة به عند الله فرعاً عن التحديث بما فتح الله عليهم جعل فرع وقوع التحديث المنكر كأنه علة مسؤول عنها أي لكان فعلكم هذا معللاً بأن يحاجوكم ، وهو غاية في الإنكار إذ كيف يسعى أحد في إيجاد

شيء تقوم به عليه الحجة فالقرينة هي كون المقام للإنكار لا للاستفهام ولذلك كانت اللام ترشيحاً متميزاً به أيضاً .

(61/57)

والأظهر أن قوله : ﴿ عند ربكم ﴾ ظرف على با به مراد منه عندية التحاكم المناسب لقوله : ﴿ يحاجوكم ﴾ وذلك يوم القيامة لا محالة أي يجعلون ذلك حجة عليكم أمام الله على صدق رسولهم وعلى تبعتكم في عدم الإيمان به وذلك جار على حكاية حال عقيدة اليهود من تشبيههم الرب سبحانه وتعالى بحكام البشر في تمشي الحيل عليه وفي أنه إنما يأخذ المسببات من أسبابها الظاهرية فلذلك كانوا يرتكبون التحيل في شرعهم وتجد كتبهم ملأى بما يدل على أن الله ظهر له كذا وعلم أن الأمر الفلاني كان على خلاف المظنون وكقولهم في سفر التكوين " وقال الرب هوذا الإنسان قد صار كواحد منا يعرف الخير والشر" وقال فيه : " ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثر فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض وتأسف في قلبه فقال : أمحو عن وجه الأرض الإنسان الذي خلقته" وجاء في التكوين أيضاً " لما شاخ إسحاق وكلت عيناه عن النظر دعا ابنه الأكبر عيسو وقال له : إني شخت ولست أعرف يوم وفاتي فالآن خذ عدتك وأخرج إلى البرية فتصيد لي صيداً واصنع لي أطعمة حتى

أباركك قبل أن أموت فسمعت (رفقة) أمهما ذلك فكلمت ابنها يعقوب وقالت : اذهب إلى الغنم وخذ جديين جيدين من المعزى فاصنعهما أطعمة لأبيك حتى يباركك قبل وفاته فقال : يعقوب لأمه إن عيسو أخي رجل أشعر وأنا رجل أملس ربما يجسني أبي فأكون في عينيه كمتهاون وأجلب على نفسي لعنة فقالت : اسمع لقولي فذهب وصنعت له أمه الطعام وأخذت ثياب ابنها الأكبر عيسو وألبستها يعقوب وألبست يديه وملاسة عنقه جلود الجديين فدخل يعقوب إلى أبيه وقال : يا أبي أنا ابنك الأكبر قد فعلت كما كلمتني فجسه إسحاق وقال الصوت صوت يعقوب ولكن اليدين يدا عيسو فباركه (أي جعله نبيئاً) وجاء عيسو وكلم أباه وعلم الحيلة ثم قال لأبيه : باركني أنا فقال قد جاء أخوك بكرة وأخذ بركتك" إلخ فما ظنك بقوم هذه مبالغ عقائدهم أن لا يقولوا لا تعلموهم لئلا يحاجوكم عند الله يوم القيامة وبهذا

يندفع استبعاد البيضاوي وغيره أن يكون المراد بعند ربكم يوم القيامة بأن إخفاء الحقائق يوم القيامة لا يفيد من يحاوله حتى سلكوا في تأويل معنى قوله ﴿ عند ربكم ﴾ مسالك في غاية التكلف قياساً منهم لحال اليهود على حال عقائد الإسلام ففسروا (عند) بمعنى

الكتاب أو على حذف مضاف أو حذف موصول ثم سلك متعقبوهم في إعرابه غاية الإغراب. انتهى انتهى. اهـ ﴿التحرير والتنوير حـ 1 صـ 552. 554﴾

قوله تعالى ﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾

فصل

قال الفخر:

أما قوله: ﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ ففيه وجوه.

أحدها: أنه يرجع إلى المؤمنين فكأنه تعالى قال: أفلا تعقلون لما ذكرته لكم من صفتهم أن الأمر لا مطمع لكم في إيمانهم.

وهو قول الحسن.

وثانيها: أنه راجع إليهم فكأن عند ما خلا بعضهم ببعض قالوا لهم أتحدثونهم بما يرجع وباله عليكم وتصيرون محجوجين به، أفلا تعقلون أن ذلك لا يليق بما أنتم عليه.

وهذا الوجه أظهر لأنه من تمام الحكاية عنهم فلا وجه لصرفه عنهم إلى غيرهم. انتهى انتهى. اهـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 126﴾

وقال الآلوسى:

﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ عطف إما على ﴿أَتُحَدّثُونَهُم﴾ والفاء لإفادة ترتب عدم عقلهم على تحديثهم، وإما على مقدر أي ألا تتأملون فلا تعقلون، والجملة مؤكدة لإنكار

التحديث ، وهو من تمام كلام اللائمين ، ومفعوله إما ما ذكر أولاً ، أو لا : مفعول له وهو أبلغ وقيل : هو خطاب من الله تعالى للمؤمنين متصل بقوله تعالى : ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ ﴾ [البقرة : 75] والمعنى : أفلا تعقلون حال هؤلاء اليهود وأن لا مطمع في إيمانهم ، وهم على هذه الصفات الذميمة والأخلاق القبيحة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 300 ﴾

(63/57)

وقال الطبرى :

وقوله : (أفلا تعقلون) ، خبر من الله تعالى ذكره – عن اليهود اللائمين إخوانهم على ما أخبروا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بما فتح الله لهم عليهم – أنهم قالوا لهم : أفلا تفقهون أيها القوم وتعقلون ، أن إخباركم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بما في كتبكم أنه نبي مبعوث ، حجة لهم عليكم عند ربكم ، يحتجون بها عليكم ؟ أي : فلا تفعلوا ذلك ، ولا تقولوا لهم مثل ما قلتم ، ولا تخبروهم بمثل ما أخبرتموهم به من ذلك . فقال جل ثناؤه : (أولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الطبرى حـ 2 صـ 355.356 ﴾

وقال ابن عاشور :

وقوله : ﴿ أفلا تعقلون ﴾ من بقية مقولهم لقومهم ولا يصح جعله خطاباً من الله للمسلمين تذييلاً لقوله : ﴿ أفتطمعون أن يؤمنوا لكم ﴾ [البقرة : 75] لأن المسلمين وفيهم الرسول صلى الله عليه وسلم ليسوا جديرين بمثل هذا التوبيخ وحسبهم ما تضمنه الاستفهام من الاستغراب أو النهي .

فإن قلت : لم لم يذكر في الآية جواب المخاطبين بالتبرؤ من أن يكونوا حدثوا المؤمنين بما فتح الله عليهم كما ذكر في قوله المتقدم : ﴿ وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزؤن ؟

قلت : ليس القرآن بصدد حكاية مجادلاتهم وأحوالهم فإنها أقل من ذلك وإنما يحكي منها ما فيه شناعة حالهم وسوء سلوكهم ودوام إصرارهم وانحطاط أخلاقهم فتبريهم مما نسب إليه كبراؤهم من التهمة معلوم ، للقطع بأنهم لم يحدثوا المسلمين بشيء ولما دل عليه قوله الآتي أو لا يعلمون أن الله يعلم ﴾ إلخ .

وأما ما في الآية المتقدمة من تنصلهم بقولهم ﴿ إنا معكم ﴾ فلأن فيه التسجيل عليهم في

قولهم فيه : ﴿ إنما نحن مستهزئون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 1 صـ 554 .555 ﴾

ومن فوائد ابن عرفة فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا لَقُواْ الذين ءَامَنُواْ . . . ﴾ .

عبر بـ " إذا " مع أنهم يكرهون لقاء المؤمنين لوجهين : إما لعلم الله تعالى أنهم لا بد لهم من لقائهم ، وإما لأنّ النبي عليه السلام مأمور بتبليغ الوحي لهم ولغيرهم فلا بدّ (لهم) من لقائه ، وإنما قال ﴿ وَإِذَا لَقُواْ ﴾ ولم يقل وإذا أتوا ، إشارة إلى أن لقاءهم للمؤمنين إنما يكون فجأة غير مقصود (ومن خبثهم أنّهم) ﴿ قالوا ءَامَنَّا ﴾ من غير تأكيد نزّلوا أنفسهم منزلة البريء (الغير متّهم) ، ولم يذكروا بمن آمنوا حتى يبقى الكلام مطلقا يفهمه المخاطب على شيء ، ويقصد به المتكلم شيئا آخر .

قوله تعالى : ﴿ قالوا أَتُحَدّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ الله عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبّكُمْ . . . ﴾ .

قال ابن عرفة : هذا من رؤسائهم المنكرين عليهم قصور الإنكار والمناسب لحالهم المبالغة في الإنكار (عليهم) لأنهم ما أنكروا عليهم إلا التحدث الموجب للحاجة فمفهومه أنهم أباحوا (لهم) مطلق الحديث مع المؤمنين لكن يبقى النظر / هل اللام في "لِيُحَآجُّوكُم" تعليل للحديث أو للإنكار ؟ (وهل) اللام سابقة على الهمزة ، (ثم) دخلت الهمزة على الحديث لأجل (المصاحبة) فأنكرته بعلته أو الهمزة سابقة فدخل التعليل بعدها فكان علة الإنكار ؟ (وهل) قبل حديثهم لأجل (المحاججة) هو المنكر أو المراد أن الحديث في (الإطلاق) وأنكر (خوف) المحاجة به ؟

وجعل أبو حيان اللام في "لِيُحَآجُّوكُمْ" للصيرورة بناء عنده على أنه تعليل للتحدث وإذا جعلناها للإنكار (تبقى) اللام (على بابها) من التعليل الحقيقي ويكون الإنكار بليغا لا قصور فيه بوجه .

قلت : ورده بعضهم بأنه على هذا يكون المعنى لا تحدثوهم بما فتح الله عليكم لئلا يحاجوكم به عند ربكم ، فيكون الرؤساء أقروا (أن) للمؤمنين عليهم حجة بذلك يوم القيامة ، وهم إنما غرضهم (التمويه) على العوام ، وتنفيرهم من الإيمان فكيف يقرون لهم بصحة هذا الدين ؟

وأعرب الطيبي "عِندَ رَبِّكُمْ" بدلا (مما) ﴿ فَتَحَ اللهُ عَلَيْكُمْ ﴾ لأنه هو .

ورده ابن عرفة : إنما يكون (هُوَ إن لَوْ) قيل : ليحاجوكم .

قوله تعالى : ﴿ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ .

إما من كلام الله أو من (قول) المنكرين ، وعلى هذا حمله ابن عطية على العقل التكليفي

فقال : العقل علوم ضرورية .

قال ابن عرفة : والصواب أنه العقل النّافع أي أَفَلاَ تَعْقِلُونَ من أجل هذا . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير ابن عرفة حـ 1 صـ 342.344 ﴾

(66/57)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آَمَنُوا قَالُوا آَمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (76) ﴾

هذه صور من صور نفاق اليهود . والناس مقسمون إلى ثلاث : مؤمنون وكافرون

ومنافقون . . المؤمن انسجم مع نفسه ومع الكون الذي يعيش فيه . . والكافر انسجم مع

نفسه ولم ينسجم مع الكون ، والكون يلعنه . . والمنافق لا انسجم مع نفسه ولا انسجم مع

الكون ، والآية تعطينا صورة من صور النفاق وكيف لا ينسجم المنافق مع نفسه ولا مع

الكون . . فهو يقول ما لا يؤمن به . . وفي داخل نفسه يؤمن بما لا يقول . والكون كله يلعنه ، وفي الآخرة هو في الدرك الأسفل من النار . وهذه الآية تتشابه مع آية تحدثنا عنها في أول هذه السورة . . وهي قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴾ [البقرة : 14]

في الآية الأولى كان الدور لليهود ، وكان هناك منافقون من غير اليهود وشياطينهم من اليهود . . وهنا الدور من اليهود والمنافقين من اليهود . الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا ﴾ وهل الإيمان كلام ؟ . . الإيمان يقين في القلب وليس كلاما باللسان . . والاستدلال على الإيمان بالسلوك فلا يوجد إنسان يسلك سبيل المؤمنين نفاقا أو رياء . . يقول آمنت نفاقا ولكن سلوكه لا يكون سلوك المؤمن . . ولذلك كان سلوكهم هو الذي يفضحهم . يقول تعالى : ﴿ وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ . . وفي سورة أخرى يقول الحق : ﴿ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ ﴾ [آل عمران : 119]

وفي سورة المائدة يقول سبحانه : ﴿ وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَّخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ

خَرَجُواْ بِهِ ﴾[المائدة: 61]

هنا أربع صور من صور المنافقين. . كلها فيها التظاهر بإيمان كاذب. . في الآية الأولى ﴿ وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ ﴾ وفي الآية الثانية: ﴿ وَإِذَا خَلاَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ . وفي الآية الثالثة: ﴿ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ ﴾ . وفي الآية الرابعة: ﴿ وَقَدْ دَّخَلُواْ بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِ ﴾ .

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما بعث كان اليهود يقولون للمؤمنين هذا هو نبيكم موجود عندنا في التوراة أوصافه كذا . . حينئذ كان أحبار اليهود ينهونهم عن ذلك ويقولون لهم: ﴿ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ ﴾ فكأنهم علموا صفات رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكنهم أرادوا أن يخفوها . . إن الغريب أنهم يقولون: ﴿ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ . وإذا كان هذا فتحا من الله فلا فضل لهم فيه . . ولو أراد الله لهم الفتح لآمنت القلوب . .

قوله تعالى: ﴿ لِيُحَآجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ ﴾ يدل على أن اليهود المنافقين والكفار وكل خلق الأرض يعلمون أنهم من خلق الله، وأن الله هو الذي خلقهم.

. وماداموا يعلمون ذلك فلماذا يكفرون بخالقهم ؟ ﴿ لِيُحَآجُّوكُم بِهِ ﴾ أي لتكون حجتهم عليكم قوية عند الله . . ولكنهم لم يقولوا عند الله بل قالوا ﴿ عِنْدَ رَبِّكُمْ ﴾ والمحاجة معناها أن يلتقي فريقان لكل منهما وجهة نظر مختلفة . وتقام بينهما مناظرة يدلي فيها كل فريق بحجته . واقرأ قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ ﴾ [البقرة : 258]

هذه هي المناظرة التي حدثت بين إبراهيم عليه السلام والنمرود الذي آتاه الله الملك . .

ماذا قال إبراهيم ؟ ﴿ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ [البقرة : 258]

هذه كانت حجة إبراهيم في الدعوة إلى الله ، فرد عليه النمرود بحجة مزيفة . قال أنا أحيي وأميت . . ثم جاء بواحد من جنوده وقال لحراسه اقتلوه . . فلما اتجهوا إليه قال اتركوه . . ثم التفت إلى إبراهيم : ﴿ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ﴾ [البقرة : 258]

جدل عقيم لأن هذا الذي أمر النمرود بقتله . كان حيا وحياته من الله . . والنمرود حين قال اقتلوه لم يمته ولكن أمر بقتله . . وفرق بين الموت والقتل . . القتل أن تهدم بنية الجسد فتخرج الروح منه لأنه لا يصلح لإقامتها . . والموت أن تخرج الروح من الجسد والبنية سليمة

لم تهدم . . الذي يميت هو الله وحده ، ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ﴾ [آل عمران : 144]

والنمرود لو قتل هذا الرجل ما كان يستطيع أن يعيده إلى الحياة . . ولكن إبراهيم عليه السلام . . لم يكن يريد أن يدخل في مثل هذا الجدل العقيم . . الذي فيه مقارعة الحجة . بالحجة يمكن فيه الجدال ولوزيفا . . ولذلك جاء بالحجة البالغة التي لا يستطيع النمرود أن يجادل فيها : ﴿ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة : 258]

هذا هو معنى الحاجّة . . كل طرف يأتي بحجته ، وما داموا يحاجونكم عند ربكم وهم يعتقدون أن القضية لن تمر أمام الله بسلام لأنه رب الجميع وسينصف المظلوم من الظالم . .

إذا كانت هذه هي الحقيقة فهل أنتم تعملون لمصلحة أنفسكم ؟ الجواب لا . . لو كنتم تعلمون الصواب ما كنتم وقعتم في هذا الخطأ فهذا ليس فتحا . .

وقوله تعالى : ﴿ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ ختام منطقي للآية . . لأن من يتصرف تصرفهم ويقول كلامهم لا يكون عنده عقل . . الذي يقول ﴿ لِيُحَآجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ ﴾ يكون مؤمنا بأن له ربا ، ثم لا يؤمن بهذا الإله ولا يخافه لا يمكن أن يتصف بالعقل . انتهى انتهى . اهـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ 407 . 410 ﴾

"فصل"

قال السيوطى :

وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آَمَنُوا قَالُوا آَمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (76)

أخرج ابن إسحق وابن جرير عن ابن عباس في قوله ﴿ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ﴾ أي بصاحبكم رسول الله ولكنه إليكم خاصة ، وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا : لا تحدثوا العرب بهذا ، فإنكم قد كنتم تستفتحون به عليهم فكان منهم ﴿ ليحاجلوكم به عند ربكم ﴾ أي يقرون بأنه نبي وقد علمتم أنه قد أخذ عليكم الميثاق باتباعه ، وهو يخبرهم أنه النبي الذي كان ينتظر ، ونجده في كتابنا اجحدوه ولا تقروا به .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله ﴿ وإذا لقوا الذين آمنوا . . . ﴾ الآية . قال : هذه الآية في المنافقين من اليهود . وقوله ﴿ بما فتح الله عليكم ﴾ يعني بما أكرمكم به .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد قال : قام النبي صلى الله عليه وسلم يوم قريظة تحت حصونهم فقال " يا إخوان القردة والخنازير ، ويا عبدة

الطاغوت . فقالوا : من أخبر هذا الأمر محمداً ، ما خرج هذا الأمر إلا منكم ﴿ أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ﴾ بما حكم الله ليكون لهم حجة عليكم " .

(71/57)

وأخرج ابن جرير عن ابن زيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لا يدخلن علينا قصبة المدينة إلا مؤمن . فقال : رؤساء اليهود : اذهبوا فقولوا آمنا واكفروا إذا رجعتم إلينا ، فكانوا يأتون المدينة بالبكر ويرجعون إليهم بعد العصر ، وهو قوله ﴿ وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره ﴾ [آل عمران : 72] وكانوا يقولون : إذا دخلوا المدينة نحن مسلمون ليعلموا خبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمره ، فكان المؤمنون يظنون أنهم مؤمنون ، فيقولون لهم : أليس قد قال لكم في التوراة كذا وكذا ؟ فيقولون : بلى . فإذا رجعوا إلى قومهم قالوا ﴿ أتحدثونهم بما فتح الله عليكم . . . ﴾ الآية " .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي قال : نزلت هذه الآية في ناس من اليهود آمنوا ثم نافقوا ، فكانوا يحدثون المؤمنين من العرب بما عذبوا به ، فقال بعضهم لبعض ﴿ أتحدثونهم بما فتح الله به عليكم ﴾ من العذاب ليقولوا نحن أحب إلى الله منكم وأكرم على الله منكم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة " أن امرأة من اليهود أصابت فاحشة ، فجاؤوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم يبتغون منه الحكم رجاء الرخصة ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عالمهم وهو ابن صوريا ، فقال له : احكم . . . قال : فجبؤه . والتجبئة يحملونه على حمار ويجعلون على وجهه إلى ذنب الحمار . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أبحكم الله حكمت ؟ قال : لا . ولكن نساءنا كن حساناً ، فأسرع فيهن رجالنا فغيرنا الحكم ، وفيه أنزلت ﴿ وإذا خلا بعضهم إلى بعض . . . ﴾ الآية " .

(72/57)

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة في قوله ﴿ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ﴾ قالوا : هم اليهود ، وكانوا إذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، فصانعوهم بذلك ليرضوا عنهم ، وإذا خلا بعضهم إلى بعض نهى بعضهم بعضاً أن يحدثوا بما فتح الله عليهم ، ويبين لهم في كتابه من أمر محمد عليه السلام رفعته ونبوته ، وقالوا : إنكم إذا فعلتم ذلك احتجوا عليكم بذلك عند ربكم ﴿ أفلا تعقلون ، أوَلا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون ﴾ قال : ما يعلنون من أمرهم وكلامهم إذا لقوا الذين آمنوا ، وما يسرون إذا خلا بعضهم إلى بعض من كفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم وتكذيبهم به ، وهم يجدونه مكتوباً عندهم .

وأخرج ابن جرير عن أبي العالية في قوله ﴿ أو لا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون ﴾ يعني من كفرهم بمحمد وتكذيبهم به ﴿ وما يعلنون ﴾ حين قالوا للمؤمنين : آمنا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 1 صـ 198. 200 ﴾

(73/57)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

فصل في إعراب الآية

قد تقدّم على نظير قوله : " وإذا لَقُوا " في أول السورة وهذه الجملة الشرطية تحتمل وجهين :

أحدهما : أن تكون مستأنفة كاشفة عن أحوال اليهود والمنافقين .

والثاني : أن تكون في محلّ نصب على الحال معطوفة على الجملة الحالية قبلها وهي : " وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ " والتقدير : كيف تطمعون في إيمانهم وحالهم كيت وكيت ؟

وقرأ ابن السّميفع : " لاَقوا " وهو بمعنى " لقوا " فَاعَل بمعنى فَعِل نحو : " سافر " وطارقت النعل :

وأصل " خلا " : " خَلَو " قلبت الواو ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها ، وتقدم معنى " خلا "

و" إلى " في أول السورة .

قوله : ﴿ بِمَا فَتَحَ اللهُ ﴾ متعلق بـ " التحديث " قبله ، و" ما " موصولة بمعنى " الذي " والعائد محذوف ، أي : فتحه .

وأجاز أبو البَقَاءِ أن تكون نكرة موصوفة أو مصدرية ، أي : شيء فتحه ، فالعائد محذوف أيضاً ، أو بِفَتْحِ الله عليكم .

وفي جعلها مصدرية إشكال من حيث إنَّ الضمير في قوله بعد ذلك : " لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ " عائد على " ما " و" ما " المصدرية حرف لا يعود عليها ضمير على المشهور خلافاً للأخفش ، وأبي بكر بن السراج ، إلاّ أن يُتَكَلّف فيقال : الضمير يعود على المصدر المفهوم من قوله : " أَتُحَدِّثُونَهُمْ " أو من قوله : " فتح " ، أي : ليحاجُّوكم بالتحديث الذي حدّثتموهم ، أو بالفتح الذي فتحه الله عليكم .

والجملة في قوله : " أَتُحَدِّثُونَهُمْ " في محلّ نصب بالقول ، قال القُرْطبي : ومعنى فتح : حكم .

والفتح عند العرب : القضاء والحكم ، ومنه قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا افتح بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بالحق وَأَنتَ خَيْرُ الفاتحين ﴾ [الأعراف : 89] أي : الحاكمين .

والفتاح : القاضي بلغة " اليمن " ، يقال : بيني وبينك الفَتّاح ، قيل ذلك لأنه ينصر المظلوم على الظالم .

والفتح : النصر ، ومنه قوله : ﴿ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الذين كَفَرُواْ ﴾ [البقرة : 89] وقوله : ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ الفتح ﴾ [الأنفال : 19] .

(74/57)

قوله : " لِيُحَاجُّوكُمْ " أي : ليخاصموكم ، ويحتجوا بقولكم عليكم ، وهذه اللام تسمى لام " كي " بمعنى أنها للتعليل ، كما أن " كي " كذلك لا بمعنى أنها تنصب ما بعدها بإضمار بـ " كي " كما سيأتي ، وهي حرف جر ، وإنما دخلت على الفعل ؛ لأنه منصوب بـ " أن " المصدرية مقدّرة بعدها ، فهو معرب بتأويل المصدر أي : للمُحَاجَّة ، فلم تدخل إلاّ على اسم ، لكنه غير صريح .

والنصب بـ " أن " المضمرة كما تقدم لا بـ " كي " خلافاً لابن كَيْسَان والسّيرافي ، وإن ظهرت بعدها نحو قوله تعالى : ﴿ لِّكَيْلاَ تَأْسَوْاْ ﴾ [الحديد : 23] لأن " أن " هي أم الباب ، فادعاء إضمارها أولى من غيرها .

وقال الكوفيون : النَّصْب بـ " اللام " نفسها ، وأن ما يظهر بعدها من " كي " ، ومن " أَنْ " إنما هو على سبيل التأكيد ، وللاحتجاج موضعٌ غير هذا .

ويجوز إظهار " أن " وإضمارها بعد هذه " اللام " إلاَّ في صورة واحدة ، وهي إذا وقع

بعدها "لا" نحو قوله: ﴿ لِّئَلاَّ يَعْلَمَ ﴾ [الحديد: 29] ﴿ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ ﴾ [البقرة: 150] وذلك لما يلزم من توالي لاَمَيْنِ، فَيَثْقُل اللفظ.

والمشهور في لغة العرب كسر هذه اللام؛ لأنها حرف جر، وفيها لغة شاذة وهي الفتح.

قال الأخفش: "لأن الفتح الأصل".

قال خلف الأحمر: هي لغة بني العَنْبَر.

وهذه اللام متعلّقة بقوله: "أُتَحَدِّثُونَهُمْ".

وذهب بعضهم إلى أنها متعلّقة بـ "فتح" وليس بظاهر؛ لأن المُحَاجَّة ليست علّة للفتح، وإنما هي نشأت عن التحديث، اللّهم إلا أن يقال: تتعلّق به على أنها لام العاقبة، وهو قول قيل به، فصار المعنى أن عاقبة الفتح ومآله صار إلى أن يحاجُّوكم.

أو تقول: إن اللاَّم لام العلة على بابها، وإنما تعلّقت بـ "فتح"؛ لأنه سبب للتحديث، والسبب والمسبب في هذا واحد.

والحُجّة: الكلام المستقيم على الإطلاق، ومن ذلك محجّة الطريق، وحاججت فلاناً [فحججته] أي: غالبته، ومنه الحديث: "فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى"، وذلك لأن الحجّة نفي

الطَّريق المسلوك الموصّلة للمراد .

والضمير في " به " يعود على " ما " من قوله تعالى : ﴿ بِمَا فَتَحَ اللهُ ﴾ وقد تقدم أنه يضعف القول بكونها مصدرية ، وأنه يجوز أن يعود على أحد المصدرين المفهومين من " أُتَحَدِّثُونَهُمْ " و " فتح " .

قوله : " عِنْدَ رَبِّكُمْ " ظرف معمول لقوله : " لِيُحَاجُّوكُمْ " بمعنى : ليحاجُوكم يوم القيامة ، فيكون ذلك زائداً في ظهور فضيحتكم على رؤوس الخَلاَئق في الموقف ، فكنى عنه بقوله : " عِنْدَ رَبِّكُمْ " قاله الأصم وغيره .

وقال الحسن : " عند " بمعنى " في " أي : ليحاجُّوكم في ربكم أي : فيكونون أحقّ به منكم .

وقيل : ثم مضاف محذوف أي : عند ذكر ربكم .

وقال القَفّال رحمه الله تعالى : يقال : فلان عندي عالم أي : في اعتقادي وحُكْمي ، وهذا عند الشَّافعي حَلاَل ، وعند أبي حنيفة رحمه الله تعالى حرام أي : في حكمهما وقوله : " لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ " أي : لتصيروا محجوجين [عند ربكم] بتلك الدلائل في حكم الله .

ونظيره تأويل بعض العلماء قوله : ﴿ يَأْتُواْ بِالشُّهَدَآءِ فأولئك عِندَ الله هُمُ الكاذبون ﴾ [النور : 13] أى : في حكم الله وقضائه أن القاذف إذا لم يأت بالشهود لزمه حكم الكاذبين وإن كان في نفسه صادقاً .

وقيل : هو معمول لقوله : " بِمَا فَتَحَ اللهُ " أي : بما فتح الله من عند ربّكم ليحاجّوكم ، وهو نَعْته عليه الصلاة والسلام وأخذ ميثاقهم بتصديقه .

ورجّحه بعضهم وقال : هو الصحيح ؛ لأن الاحتجاج عليهم هو بما كان في الدّنيا .

(76/57)

وفي هذا نظر من جهة الصناعة ، وذلك أن " لِيُحَاجُّوكُمْ " متعلق بقوله : " أَتُحَدِّثُونَهُمْ " على الأظهر كما تقدم ، فيلزم الفَصْل به بين العامل وهو " فتح " وبين معمول وهو عند ربك وذلك لا يجوز ؛ لأنه أجنبي منهما .

قوله : " أَفَلاَ تَعْقِلُونَ " في هذه الجملة قولان :

أحدهما : أنها مندرجة في حَيِّز القول ، أي : إذا خَلاَ بعضهم ببعض قالوا لهم : أتحدثونهم بما يرجع وَبَاله عليكم وصِرْتُم محجوجين به ، أفلا تعقلون أن ذلك لا يليق ، وهذا أظهر لأنه من تمام الحكاية عنهم ، فَعَلَى هذا محلها النصب .

والثاني : أنها من خطاب الله تعالى للمؤمنين ، وكأنه قدح في إيمانهم ، لقوله : ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ ﴾ [البقرة : 75] قاله الحسن .

فعلى هذا لا محلّ له ، ومفعول " تعقلون " يجوز أن يكون مراداً ، ويجوز ألاّ يكون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 2 صـ 198 . 201 ﴾ . باختصار .

(77/57)

قوله تعالى ﴿ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (77) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان ظنهم هذا أقبح الفساد لأنه لو لم يكن علمه من قبل الله لم يقدر غيره أن يعبر عنه بعبارة تعجز الخلائق عن مماثلتها وصل به قوله موبخاً لهم ﴿ أولا ﴾ أي ألا يعلمون أن علم المؤمنين لذلك لم يكن إلا عن الله لما قام عليه من دليل الإعجاز أو لا ﴿ يعلمون أن الله ﴾ الذي له الإحاطة بكل شيء ﴿ يعلم ما يسرون ﴾ أي يخفون من قولهم لأصحابهم ومن غيره ﴿ وما يعلنون ﴾ أي يظهرون من ذلك فيخبر به أولياءه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 176 ﴾

فصل

قال الفخر :

أما قوله تعالى : ﴿ أَوَلاَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ ففيه قولان :

الأول : وهو قول الأكثرين إن اليهود كانوا يعرفون الله ويعرفون أنه تعالى يعلم السر والعلانية فخوفهم الله به .

(78/57)

الثاني : أنهم ما علموا بذلك فرغبهم بهذا القول في أن يتفكروا فيعرفوا أن لهم رباً يعلم سرهم وعلانيتهم وأنهم لا يأمنون حلول العقاب بسبب نفاقهم ، وعلى القولين جميعاً ، فهذا الكلام زجر لهم عن النفاق ، وعن وصية بعضهم بعضاً بكتمان دلائل نبوة محمد .

والأقرب أن اليهود المخاطبين بذلك كانوا عالمين بذلك ، لأنه لا يكاد يقال على طريق الزجر : أولا يعلم كيت وكيت إلا وهو عالم بذلك الشيء ، ويكون ذلك الشيء زاجراً له عن ذلك الفعل ، وقال بعضهم : هؤلاء اليهود كيف يستجيزون أن يسر إلى إخوانهم النهي عن إظهار دلائل نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وهم ليسوا كالمنافقين الذين لا يعلمون الله ولا يعلمون كونه عالماً بالسر والعلانية ، فشأنهم من هذه الجهة أعجب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 126 ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ أَوَلا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون ﴾ : هذا توبيخ من الله لهم ، أي إذا كان علم الله محيطاً بجميع أفعالهم ، وهم عالمون بذلك ، فكيف يسوغ لهم أن ينافقوا ويتظاهروا للمؤمنين بما يعلم الله منهم خلافه ، فلا يجامع حالة نفاقهم بحالة علمهم بأن الله عالم بذلك والأولى حمل ما يسرون وما يعلنون على العموم ، إذ هو ظاهر اللفظ .

وقيل : الذي أسرّوه الكفر ، والذي أعلنوه الإيمان .

وقيل : العداوة والصداقة .

وقيل : قولهم لشياطينهم إنا معكم ، وقولهم للمؤمنين آمنا .

وقيل : صفة النبي صلى الله عليه وسلم ، وتغيير صفته إلى صفة أخرى ، حتى لا تقوم عليهم الحجة .

وقرأ ابن محيصن : أو لا تعلمون بالتاء ، قالوا : فيكون ذلك خطاباً للمؤمنين ، وفيه تنبيه لهم على جهلهم بعالم السر والعلانية ، ويحتمل أن يكون خطاباً لهم ، وفائدته التنبيه على سماع ما يأتي بعده ، ثم أعرض عن خطابهم وأعاد الضمير إلى الغيبة ، إهمالاً لهم ، فيكون ذلك من باب الالتفات ، ويكون حكمته في الحالتين ما ذكرناه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 1 صـ 441 ﴾

فائدة

قال ابن عطية :

وقرأ الجمهور " أولا يعلمون " بالياء من أسفل ، وقرأ ابن محيصن " أولا تعلمون " بالتاء خطاباً للمؤمنين ، والذي أسروه كفرهم ، والذي أعلنوه قولهم آمنا ، هذا في سائر اليهود ، والذي أسره الأحبار صفة محمد صلى الله عليه وسلم والمعرفة به ، والذي أعلنوه الجحد به ، ولفظ الآية يعم الجميع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 1 صـ 169 ﴾

(80/57)

فصل

قال الفخر :

قال القاضي : الآية تدل على أمور .

أحدها : أنه تعالى إن كان هو الخالق لأفعال العباد فكيف يصح أن يزجرهم عن تلك الأقوال والأفعال .

وثانيها : أنها تدل على صحة الحجاج والنظر وأن ذلك كان طريقة الصحابة والمؤمنين وأن

ذلك كان ظاهراً عند اليهود حتى قال بعضهم لبعض ما قالوه ، وثالثها : أنها تدل على أن الحجة قد تكون إلزامية لأنهم لما اعترفوا بصحة التوراة وباشتمالها على ما يدل على نبوة محمد عليه الصلاة والسلام لا جرم لزمهم الاعتراف بالنبوة ولو منعوا إحدى تينك المقدمتين لما تمت الدلالة .

ورابعها : أنها تدل على أن الآتي بالمعصية مع العلم بكونها معصية يكون أعظم جرماً ووزراً . والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 126 ﴾

وقال ابن عاشور :

وقوله : أو لا يعلمون ﴾ الآية ، الاستفهام فيه على غير حقيقته فهو إما مجاز في التقرير أي ليسوا يعلمون ذلك والمراد التقرير بلازمه وهو أنه إن كان الله يعلمه فقد علمه رسوله وهذا لزوم عرفي ادعائي في المقام الخطابي أو مجاز في التوبيخ والمعنى هو هو ، أو مجاز في التحضيض أي هل كان وجود أسرار دينهم في القرآن موجباً لعلمهم أن الله يعلم ما يسرون والمراد لازم ذلك أي يعلمون أنه منزل عن الله أي هلا كان ذلك دليلاً على صدق الرسول عوض عن أن يكون موجباً لتهمة قومهم الذين تحققوا صدقهم في اليهودية ، وهذا الوجه هو الظاهر لي ويرجحه التعبير بيعلمون بالمضارع دون علموا .

وموقع الاستفهام مع حرف العطف في قوله : ﴿ أفلا تعقلون ﴾ وقوله : ﴿ أو لا يعلمون ﴾ سيأتي على نظائره وخلاف علماء العربية فيه عند قوله تعالى : ﴿ أفكلما جاءكم

رسول بما لا تهوى أنفسكم ﴾ [البقرة : 87] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 1 صـ 555 ﴾

ومن فوائد ابن عرفة فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾

عطْف "يُعْلِنُونَ" على "يُسِرُّونَ" تأكيدٌ ليدل اللفظ عليه بالمطابقة واللّزوم ، وأفاد العطف التسوية بين علمه السر (والجهر) كما قال الأصوليون في عطف صيغة افعل المحتملة للوجوب والندب على ما هو نص في أحدهما ، وكما قال (ابن بشير) في سبب الخلاف في النوم : هل هو حدث أو سبب في الحدث ؟ . انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عرفة حـ 1 صـ 344 ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " أَوَلاَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ " تقدم أن مذهب الجمهور أن النّية بالواو والتقديم على الهمزة ؛

لأنها عاطفة ، وإنما أخرت عنها ، لقوة همزة الاستفهام ، وأن مذهب الزمخشري تقدير فعل بعد الهمزة و" لا " للنفي .

و" أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ " في محلّ نصب وفيها حينئذ تقديران :

أحدهما : أنها سادّة مسدّ مفرد إن جعلنا " علم " بمعنى " عرف " .

والثاني : أنها سادّة مسدّ مفعولين إن جعلناها متعدية لاثنين كـ" ظننت " ، وقد تقدم أن هذا مذهب سيبويه والجمهور ، وأن الأخفش يدعي أنها سدّت مسدّ الأول ، والثاني محذوف .

و" ما " يجوز أن تكون بمعنى " الذي " ، وعائدها محذوف ، أى : ما يسرونه ويعلنونه ، وأن تكون مصدرية ، أي يعلم سرهم وعلانيتهم .

[والسر] والعلانية يتقابلان .

وقرأ ابن محيصن " تسرون " و" تعلنون " بالتاء على الخطاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 2 صـ 201 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآيتين

قال عليه الرحمة :

﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (76) أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا

يُعْلِنُونَ (77) ﴾

تواصوا فيما بينهم بإنكار الحق ، وإخفاء الحال على المسلمين ، ولم يعلموا أن الله يُطْلِعُ رسولَه عليه السلام على أسرارهم ، وأن نوراً أظهره الغيب لا ينطفئ بمزاولة الأغيار . وموافقةُ اللِّسانِ مع مخالفة العقيدة لا يزيد إلا زيادة الفُرقة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 100 ﴾

(82/57)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (77) ﴾

يبين الله لنا بأنه يعلم أمرهم وما يفعلون . لقد ظنوا أن الله غافل عندما خلا بعضهم إلى بعض وقالوا : ﴿ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ ﴾ . . الله علم وسمع . . وعندما يلاقي المنافقون المؤمنين ويقولون آمنا . . ﴿ وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ ﴾ هذا انفعال حركي ليس فيه كلام يقال ولكن فيه واقع يرى . . ومع ذلك فهو ليس سرا .

ما هو السر وما هو العلن ؟ . . الأمر المعلن هو الذي يخرج منك إلى من عنده آلة السماع ليسمعك . . والأمر المعلن يخرج منك إلى من عنده آلة الرؤية ليراك . . فإن كان حركة بلا صوت فهذا عدته العين . . وإن كان بصوت فعدته الأذن . . هذه وسائل الإدراك الأصلية .

وقوله تعالى ﴿ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ ألم يكن أولى أن يقول سبحانه يعلم ما يعلنون وما يسرون . . وإذا كان يعلم ما نسر أفلا يعلم ما نعلن ؟ . . لاشك أنه يعلم . . ولكنها دقة في البلاغة القرآنية ؛ ذلك أن المتكلم هو الله سبحانه .

ونحن نعلم أن الله غيب . . وغيب يعني مستور عن حواسنا . . وما دام الله غيبا فهو يعلم الغيب المستور . . ربما كان العلن الظاهر له قوانين أخرى . . فمثلا إذا كان هناك شخص في المنزل ، ثم يقول " أنا اعلم ما في المنزل وما هو خارج المنزل . . لو قال أنا اعلم ما في المنزل لقلنا له أنت داخله فلا غرابة في ذلك . . ولكنك مستور عما في الخارج فكيف تعلمه ؟ وما دام الله غيباً فقوله ما يسرون أقرب لغيبه . وما يعلنون هي التي تحتاج وقفة . لا تظنوا أن الله تبارك وتعالى لأنه غيب لا يعلم إلا ما هو مستور وخفي فقط . . لا . . إنه يعلم المشهود والغائب . . إذن فالمناسب لأن الله غيب عن أبصارنا وكوننا لا ندركه أن يقول ما يسرون أولا . .

ما معنى ما يسرون ؟ . . السر هو ما لم تهمس به إلى غيرك . . لأن همسك للغير بالشيء لم يعد سرا . . ولكن السر هو ما تسره في نفسك ولا تهمس به لأحد من الناس . . وإذا كان السر هو ما تسره في نفسك ، فالعلن هو ما تجاهر به . ويكون علنا مادام قد علمه اثنان . . والعلن عند الناس واضح والسر عندهم خفي . . والله سبحانه وتعالى حين يخبرنا أنه غيب . . فليس معنى ذلك أنه لا يعلم إلا غيباً . إنه يعلم السر والعلن . . والله جل جلاله يقول في القرآن الكريم : ﴿ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ [طه : 7]

فإذا كان السر هو ما تخفيه في نفسك وله واقع داخلك . . " ما هو أخفى " هو أن الله يعلم أنك ستفعله قبل أن تفعله . ويعلم أنه سيحدث منك قبل أن يحدث منك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 412.411 ﴾

(84/57)

قوله تعالى ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (78) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما ذكر سبحانه هذا الفريق الذي هو من أعلاهم كفراً وأعتاهم أمراً عطف عليه قسماً أعتى منه وأفظ لأن العالم يرجى لفته عن رأيه أو تخجيله بالحجاج بخلاف المقلد العاتي الكثيف الجافي فقال ﴿ ومنهم أميون ﴾ ويجوز أن يراد بهم من لا يحسن الكتابة ومن يحسنها وهو غليظ الطبع بعيد عن الفهم ، لأن الأمي في اللغة من لا يكتب أو من على خلقة الأمة لم يتعلم الكتابة وهو باق على جبلته وحال ولادته والغبي الجلف الجافي القليل الكلام ، فالمعنى أنهم قسمان : كتبة وغير كتبة ، وهم المراد بالأميين ، وهؤلاء مع كونهم لا يحسنون الكتاب يجوز أن يتعلموا القراءة تلقيناً ولا يفهمون المعاني ، ويجوز أن يكون المعنى أنهم قسمان : علماء نحارير عارفون بالمعاني وجهلة غبيون لا حظ لهم من التوراة إلا القراءة الخالية عن التدبر المقرونة بالتمني ولذلك قال : ﴿ لا يعلمون الكتاب ﴾ أي بخلاف القسم الذي أكد فيه كونهم من أهل العلم .

ولما كان المراد سلب العلم عنهم رأساً أبرز الاستثناء مع كونه منقطعاً في صورة المتصل فقال : ﴿ إلاّ أماني ﴾ جمع أمنية ، وهي تقدير الوقوع فيما يترامى إليه الأمل ، ويقال إن معناه يجري في التلاوة للفظ كأنها تقدير بالإضافة لمن يتحقق له المعنى – قاله الحرالي .

أي إن كانت الأماني مما يصح وصفه بالعلم فهي لهم لا غيرها من جميع أنواعه .

ولما أفهم ذلك أن التقدير ما هم ألا يقدرون تقديرات لا علم لهم بها عطف عليه قوله :

﴿ وإن هم إلا يظنون ﴾ تأكيداً لنفي العلم عنهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 176. 177 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أن المراد بقوله : ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ ﴾ اليهود لأنه تعالى لما وصفهم بالعناد وأزال الطمع عن إيمانهم بين فرقهم ، فالفرقة الأولى هي الفرقة الضالة المضلة ، وهم الذين يحرفون الكلم عن مواضعه .

والفرقة الثانية : المنافقون ، والفرقة الثالثة : الذين يجادلون المنافقين ، والفرقة الرابعة : هم المذكورون في هذه الآية وهم العامة الأميون الذين لا معرفة عندهم بقراءة ولا كتابة وطريقتهم التقليد وقبول ما يقال لهم ، فبين الله تعالى أن الذين يمتنعون عن قبول الإيمان ليس سبب ذلك الامتناع واحداً بل لكل قسم منهم سبب آخر ومن تأمل ما ذكره الله تعالى في هذه الآية من شرح فرق اليهود وجد ذلك بعينه في فرق هذه الأمة ، فإن فيهم من يعاند الحق ويسعى في إضلال الغير وفيهم من يكون متوسطاً ، وفيهم من يكون عامياً محضاً مقلداً .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 127 ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ ﴾ أي من اليهود .

وقيل : من اليهود والمنافقين أميون ؛ أي من لا يكتب ولا يقرأ ، واحدهم أُمِّيّ ، منسوب إلى الأُمَّة الأُمِّيّة التي هي على أصل ولادة أمهاتها لم تتعلم الكتابة ولا قراءتها ؛ ومنه قوله عليه السلام : " إنّا أُمّة أمِيّة لا نكتب ولا نحسب " الحديث .

وقد قيل لهم إنهم أُمِّيُّون لأنهم لم يصدّقوا بأمّ الكتاب ؛ عن ابن عباس .

وقال أبو عبيدة : إنما قيل لهم أُمِّيُّون لنزول الكتاب عليهم ، كأنهم نُسبوا إلى أمّ الكتاب ؛ فكأنه قال : ومنهم أهل الكتاب لا يعلمون الكتاب .

عكرمة والضحاك : هم نصارى العرب .

وقيل : هم قوم من أهل الكتاب ؛ رُفع كتابهم لذنوب ارتكبوها فصاروا أُمِّيِّين .

عليّ رضي الله عنه : هم المجوس .

(86/57)

قلت : والقول الأوّل أظهر ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 2 صـ 5 ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ ومنهم أمّيون ﴾ : ظاهر الكلام أنها نزلت في اليهود المذكورين في الآية التي قبل هذه ، قاله ابن عباس .

وقيل : في المجوس ، قاله عليّ بن أبي طالب .

وقيل : في اليهود والمنافقين .

وقال عكرمة والضحاك : في نصارى العرب ، فإنهم كانوا لا يحسنون الكتابة .

وقيل : في قوم من أهل الكتاب ، رفع كتابهم لذنوب ارتكبوها ، فصاروا أمّيين .

وقيل : في قوم لم يؤمنوا بكتاب ولا برسول ، فكتبوا كتابهم وقالوا : هذا من عند الله ، فسموا : أمّيين ، لجحودهم الكتاب ، فصاروا بمنزلة من لا يحسن شيئاً .

والقول الأول هو الأظهر ، لأن سياق الكلام إنما هو مع اليهود ، فالضمير لهم .

ومناسبة ارتباط هذه الآية : أنه لما بين أمر الفرقة الضالة التي حرفت كتاب الله ، وهم قد عقلوه وعلموا بسوء مرتكبهم ، ثم بين أمر الفرقة الثانية ، المنافقين ، وأمر الثالثة : المجادلة ، أخذ يبين أمر الفرقة الرابعة ، وهي : العامة التي طريقها التقليد ، وقبول ما يقول لهم .

قال أبو العالية ومجاهد وغيرهما ومن هؤلاء اليهود المذكورون ، فالآية منبهة على عامتهم وأتباعهم ، أي أنهم لا يطمع في إيمانهم .

وقرأ أبو حياة وابن أبي عبلة : أميون ، بتخفيف الميم ، وقد تقدم أن الأمي هو الذي لا

يكتب ولا يقرأ في كتاب ، أي لا يحسنون الكتب ، فيطالعوا التوراة ويتحققوا ما فيها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 1 صـ 441. 442 ﴾

فائدة

قال الفخر :

اختلفوا في الأمي فقال بعضهم هو من لا يقر بكتاب ولا برسول .

وقال آخرون : من لا يحسن الكتابة والقراءة وهذا الثاني أصوب لأن الآية في اليهود وكانوا مقرين بالكتاب والرسول ولأنه عليه الصلاة والسلام قال : " نحن أمة أمية لا نكتب ولا نحسب " وذلك يدل على هذا القول ، ولأن قوله : ﴿ لاَ يَعْلَمُونَ الكتاب ﴾ لا يليق إلا بذلك . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 127 ﴾

فصل

قال الفخر :

" الأماني " جمع أمنية ولها معانٍ مشتركة في أصل واحد ، أحدها : ما تخيله الإنسان فيقدر في نفسه وقوعه ويحدثها بكونه ، ومن هذا قولهم : فلان يعد فلاناً ويمنيه ومنه قوله تعالى :

﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشيطان إِلاَّ غُرُوراً ﴾ [النساء : 120] فإن فسرنا الأماني بهذا كان قوله : (إلا أماني إلا ما هم عليه من أمانيهم في أن الله تعالى لا يؤاخذهم بخطاياهم) وأن آباءهم الأنبياء يشفعون لهم وما تمنيهم أحبارهم من أن النار لا تمسهم إلا أياماً معدودة .

وثانيها : ﴿ إِلاَّ أَمَانِيَّ ﴾ إلا أكاذيب مختلقة سمعوها من علمائهم فقبلوها على التقليد ، قال أعرابي لابن دأب في شيء حدث به : أهذا شيء رويته أم تمنيته أم اختلقته .

وثالثها : ﴿ إِلاَّ أَمَانِيَّ ﴾ أي إلا ما يقرأون من قوله : تمنى كتاب الله أول ليلة .

قال صاحب " الكشاف " والاشتقاق منى من ، إذا قدر لأن المتمني يقدر في نفسه ويجوز ما يتمناه ، وكذلك المختلق والقاريء يقدر أن كلمة كذا بعد كذا ، قال أبو مسلم : حمله على تمني القلب أولى بدليل قوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الجنة إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نصارى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ﴾ [البقرة : 111] أي تمنيهم .

وقال الله تعالى : ﴿ لَّيْسَ بأمانيكم وَلا أَمَانِيّ أَهْلِ الكتاب مَن يَعْمَلْ سُوءا يُجْزَ بِهِ ﴾ [النساء : 123] وقال : ﴿ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُواْ برهانكم ﴾ [البقرة : 111] وقال تعالى : ﴿ وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدنيا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدهر وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يظنون ﴾ [الجاثية : 24] بمعنى يقدرون ويخرصون .

وقال الأكثرون : حمله على القراءة أولى كقوله تعالى : ﴿ إِذَا تمنى أَلْقَى الشيطان فِى أُمْنِيَّتِهِ ﴾ [الحج : 52] ولأن حمله على القراءة أليق بطريقة الاستثناء لأنا إذا حملناه على ذلك كان له به تعلق فكأنه قال : لا يعلمون الكتاب إلا بقدر ما يتلى عليهم فيسمعونه وبقدر ما يذكر لهم فيقبلونه ، ثم إنهم لا يتمكنون من التدبر والتأمل ، وإذا حمل على أن المراد الأحاديث والأكاذيب أو الظن والتقدير وحديث النفس كان الاستثناء فيه نادراً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 127. 128 ﴾

فصل

قال الآلوسى :

﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الكتاب ﴾ مستأنفة مسوقة لبيان قبائح جهلة اليهود أثر بيان شنائع الطوائف السالفة ، وقيل : عطف على ﴿ قَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ ﴾ [البقرة : 75] وعليه الجمع ، وقيل : على ﴿ وَإِذَا لَقُواْ ﴾ [البقرة : 76] واختار بعض المتأخرين أنه وهذا الذي عطف عليه اعتراض وقع في البين لبيان أصناف اليهود استطراداً لأولئك المحرفين ، والأميون جمع أمي وهو كما في " المغرب " مَن لا يكتب ولا يقرأ منسوب إلى أمة العرب الذين كانوا لا يكتبون ولا يقرءون ، أو إلى الأم بمعنى أنه كما ولدته أمه ، أو إلى أم القرى لأن أهلها لا يكتبون غالباً ، والمراد أنهم جهلة ، و(الكتاب) التوراة كما يقتضيه

سياق النظم وسياقه فاللام فيه إما للعهد أو أنه من الأعلام الغالبة ، وجعله مصدر كتب كتاباً واللام للجنس بعيد ، وقرأ ابن أبي عبلة : ﴿ أُمِّيُّونَ ﴾ بالتخفيف .

(89/57)

﴿ إِلاَّ أَمَانِىَّ ﴾ جمع أمنية وأصلها أمنونة ، أفعولة وهو في الأصل ما يقدره الإنسان في نفسه من منى إذا قدر ، ولذلك تطلق على الكذب وعلى ما يتمنى وما يقرأ ، والمروى عن ابن عباس ومجاهد رضي الله عنهم أن الأماني هنا الأكاذيب أي إلا أكاذيب أخذوها تقليداً من شياطينهم المحرفين ، وقيل : إلا ما هم عليه من أمانيهم أن الله تعالى يعفو عنهم ويرحمهم ، ولا يؤاخذهم بخطاياهم وأن آبائهم الأنبياء يشفعون لهم ، وقيل إلا مواعيد مجردة سمعوها من أحبارهم من أن الجنة لا يدخلها إلا من كان هوداً ، وأن النار لا تمسهم إلا أياماً معدودة واختاره أبو مسلم والاستثناء على ذلك منقطع لأن ما هم عليه من الأباطيل ، أو سمعوه من الأكاذيب ليس من الكتاب ، وقيل : إلا ما يقرؤن قراءة عادية عن معرفة المعنى وتدبره ، فالاستثناء حينئذٍ متصل بحسب الظاهر ، وقيل : منقطع أيضاً إذ ليس ما يتلى من جنس علم الكتاب ، واعترض هذا الوجه بأنه لا يناسب تفسير الآتي بما في " المغرب " ، وأجيب بأن معناه أنه لا يقرأ من الكتاب ولا يعلم الخط ؛ وإما على سبيل الأخذ من الغير

فكثيراً ما يقرؤن من غير علم بالمعاني ، ولا بصور الحروف ، وفيه تكلف إذ لا يقال للحافظ الأعمى : إنه أمي ، نعم إذا فسر الأمي بمن لا يحسن الكتابة والقراءة على ما ذهب إليه جمع لا ينافي أن يكتب ويقرأ في الجملة واستدل على ذلك بما روى البخاري ومسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم صلح الحديبية أخذ الكتاب وليس يحسن الكتب فكتب : " هذا ما قضى عليه محمد بن عبد الله" الخ ، ومن فسر الأمي بما تقدم أول الحديث بأن كتب فيه بمعنى أمر بالكتابة ، وأطال بعض شراح الحديث الكلام في هذا المقام وليس هذا محله .

وقرأ أبو جعفر والأعرج وابن جماز عن نافع ، وهارون عن أبي عمرو ﴿ أَمَانِىّ ﴾ بالتخفيف . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 302.301 ﴾

(90/57)

وقال ابن عاشور :

﴿ أَوَلا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون ﴾

معطوف على قوله : ﴿ وقد كان فريق منهم يسمعون ﴾ [البقرة : 75] عطف الحال على الحال و ﴿ منهم ﴾ خبر مقدم وتقديمه للتشويق إلى المسند إليه كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ ومن الناس من يقول ﴾ [البقرة : 8] والمعنى كيف تطمعون أن يؤمنوا لكم وقد

كان فريق منهم محرفين وفريق جهلة وإذا انتفى إيمان أهل العلم منهم المظنون بهم تطلب الحق المنجي والاهتداء إلى التفرقة بينه وبين الباطل فكانوا يحرفون الدين ويكابرون فيما يسمعون من معجزة القرآن في الإخبار عن أسرار دينهم فكيف تطمعون أيضاً في إيمان الفريق الأميين الذين هم أبعد عن معرفة الحق وألهى عن تطلبه وأضل في التفرقة بين الحق والباطل وأجدر بالاقتداء بأئمتهم وعلمائهم فالفريق الأول هم الماضون .

وعلى هذا فجملة ﴿ ومنهم أميون ﴾ معطوفة على جملة ﴿ وقد كان فريق منهم ﴾ إلخ باعتبار كونها معادلاً لها من جهة ما تضمنته من كونها حالة فريق منهم وهذه حالة فريق آخر .

وأما قوله : ﴿ وإذا لقوا ﴾ [البقرة : 76] وقوله : ﴿ وإذا خلا ﴾ [البقرة : 76] فتلك معطوفات على جملة ﴿ وقد كان فريق ﴾ عطف الحال على الحال أيضاً لكن باعتبار ما تضمنته الجملة الأولى من قوله : ﴿ يسمعون ﴾ الذي هو حال من أحوال اليهود وبهذا لا يجيء في جملة ﴿ ومنهم أميون ﴾ التخيير المبني على الخلاف في عطف الأشياء المتعددة بعضها على بعض هل يجعل الأخير معطوفاً على ما قبله من المعطوفات أو معطوفاً على المعمول الأول لأن ذلك إذا كان مرجع العطف جهة واحدة وهنا قد اختلفت الجهة .

والأمي من لا يعرف القراءة والكتابة والأظهر أنه منسوب إلى الأمة بمعنى عامة الناس فهو يرادف العامي ، وقيل : منسوب إلى الأم وهي الوالدة أي إنه بقي على الحالة التي كان عليها مدة حضانة أمه إياه فلم يكتسب علماً جديداً ولا يعكر عليه أنه لو كان كذلك لكان الوجه في النسب أن يقولوا أمهى بناء على أن النسب يرد الكلمات إلى أصولها وقد قالوا في جمع الأم : أمهات فردُّوا المفرد إلى أصله فدلوا على أن أصل أم أمهة لأن الأسماء إذا نقلت من حالة الاشتقاق إلى جعلها أعلاماً قد يقع فيها تغيير لأصلها .

وقد اشتهر اليهود عند العرب بوصف أهل الكتاب فلذلك قيل هنا : ﴿ ومنهم أميون ﴾ أي ليس جميعهم أهل كتاب .

ولم تكن الأمية في العرب وصف ذم لكنها عند اليهود وصف ذم كما أشار إليه قوله تعالى : ﴿ ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل ﴾ [آل عمران : 75] وقال ابن صَيَّاد للنبيء صلى الله عليه وسلم " أشهد أنك رسول " وذلك لما تقتضيه الأميين من قلة المعرفة ومن أجل ذلك كانت الأمية معجزة للنبيء صلى الله عليه وسلم حيث كان أعلم الناس مع كونه نشأ أميًّا قبل النبوءة وقد قال أبو الوليد الباجي : إن الله علّم نبيه القراءة والكتابة بعد تحقق معجزة الأمية بأن يطلعه على ما يعرف به ذلك عند الحاجة استناداً لحديث البخاري في صلح الحديبية وأيده جماعة من العلماء في هذا وأنكر عليه أكثرهم مما هو مبسوط في

ترجمته في كتاب "المدارك" لعياض وما أراد إلا إظهار رأيه.

والكتاب إما بمعنى التوراة اسم للمكتوب وإما مصدر كتب أي لا يعلمون الكتابة ويبعده قوله بعده: ﴿ إلا أماني ﴾ فعلى الوجه الأول يكون قوله: ﴿ لا يعلمون الكتاب ﴾ أثراً من آثار الأمية أي لا يعلمون التوراة إلا علماً مختلطاً حاصلاً مما يسمعونه ولا يتقنونه، وعلى الوجه الثاني تكون الجملة وصفاً كاشفاً لمعنى الأميين كقول أوس بن حجر:

الألمعي الذي يظن بك الظ . . .

ن كأن قد رأى وقد سمعا

(92/57)

والأمانيُّ بالتشديد جمع أُمْنِيَّة على وزن أفاعيل وقد جاء بالتخفيف فهو جمع على وزن أفاعل عند الأخفش كما جمع مفتاح على مفاتِح ومفاتيح، والأمنية كأُثْفِيَّة وأُضحية أُفْعُولة كالأعجوبة والأضحوكة والأكذوبة والأغلوطة، والأماني كالأعاجيب والأضاحيك والأكاذيب والأغاليط، مشتقة من مَنَى كرمى بمعنى قدَّر الأمرَ ولذلك قيل تمنى بمعنى تكلف تقدير حصول شيء متعذر أو متعسر، ومنّاه أي جعله مَانياً أي مقدّراً كناية عن الوعد الكاذب لأنه ينقل الموعود من تقدير حصول الشيء اليومَ إلى تقدير حصوله

غداً ، وهكذا كما قال كعب بن زهير :

فلا يَغُرَّنْك ما مَنَّت وما وعدت . . .

إن الأَماني والأحلامَ تضليل

ولأن الكاذب ما كذب إلا لأنه يتمنى أن يكون ما في نفس الأمر موافقاً لخبره فمن أجل ذلك حدثت العلاقة بين الكذب والتمني فاستعملت الأمنية في الأكذوبة ، فالأماني هي التقادير النفسية أي الاعتقادات التي يحسبها صاحبها حقاً وليست بحق أو هي الفعال التي يحسبها العامة من الدين وليست منه بل ينسون الدين ويحفظونها ، وهذا دأب الأمم الضالة عن شرعها أن تعتقد مالها من العوائد والرسوم والمواسم شرعاً ، أو هي التقادير التي وضعها الأحبار موضع الوَحي الإلهي إما زيادة عليه حتى أنستهم الأصل وإما تضليلاً وهذا أظهر الوجوه .

وقيل : الأماني هنا الأكاذيب أي ما وضعه لهم الذين حرفوا الدين ، وقد قيل الأماني القراءة أي لا يعلمون الكتاب إلا كلمات يحفظوها ويدرسونها لا يفقهون منها معنى كما هو عادة الأمم الضالة إذ تقتصر من الكتب على السرد دون فهم وأنشدوا على ذلك قول حسان في رثاء عثمان رضي الله عنه :

تمَنَّى كتابَ الله أوّلَ لَيْلِهِ . . .

وآخِرَه لاَقى حمام المَقَادِر

أي قرأ القرآن في أول الليل الذي قُتل في آخره .

(93/57)

وعندي أن الأماني هنا التمنيات وذلك نهاية في وصفهم بالجهل المركب أي هم يزعمون أنهم يعلمون الكتاب وهم أميون لا يعلمونه ولكنهم يدَّعون ذلك لأنهم تمنوا أن يكونوا علماءَ فلما لم ينالوا العلم ادعوه باطلاً فإن غي العالم إذا اتهم بميسم العلماء دل ذلك على أنه يتمنى لو كان عالماً ، وكيفما كان المراد فالاستثناء منقطع لأن واحداً من هاته المعاني ليس من علم الكتاب . انتهى انتهى . اهـ ﴿التحرير والتنوير حـ 1 صـ 555.557﴾

فائدة

قال الفخر :

قوله تعالى : ﴿إِلاَّ أَمَانِىَّ﴾ من الاستثناء المنقطع ، قال النابغة :

حلفت يميناً غير ذي مثنوية . . ولا علم إلا حسن ظن بغائب

وقرىء "إلا أماني" بالتخفيف .

أما قوله تعالى : ﴿وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ﴾ فكالمحقق لما قلناه لأن الأماني إن أريد بها التقدير

والفكر لأمور لا حقيقة لها ، فهي ظن ويكون ذلك تكراراً .

ولقائل أن يقول : حديث النفس غير والظن غير فلا يلزم التكرار وإذا حملناه على التلاوة عليهم يحسن معناه ، فكأنه تعالى قال : ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا بأن يتلى عليهم فيسمعوه وإلا بأن يذكرهم تأويله كما يراد فيظنون ، وبين تعالى أن هذه الطريقة لا توصل إلى الحق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 128 ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ لاَ يَعْلَمُونَ الكتاب إِلاَّ أَمَانِيَّ ﴾ "إلاّ" ها هنا بمعنى لكن ، فهو استثناء منقطع ؛ كقوله تعالى : ﴿ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتباع الظن ﴾ وقال النابغة :

حلفتُ يميناً غير ذي مَثْنَوِيةٍ . . .

ولا عِلْمَ إلاَّ حُسْنَ ظنٍ بصاحِب

وقرأ أبو جعفر وشيبة والأعرج "إلاّ أمانِيَ" خفيفة الياء ؛ حَذفوا إحدى الياءين استخفافا .

قال أبو حاتم : كل ما جاء من هذا النحو واحده مشدّد ، فلك فيه التشديد والتخفيف ؛ مثل أثاني وأغاني وأماني ، ونحوه .

وقال الأخفش : هذا كما يقال في جمع مفتاح : مفاتيح ومفاتح ، وهي ياء الجمع .

قال النحاس : الحذف في المعتل أكثر ؛ كما قال الشاعر :

وهل يَرجع التسليمَ أو يكشفُ العَمَى . . .

ثلاثُ الأثفي والرّسومُ البلاقع

والأماني جمع أمنِيّة وهي التلاوة ؛ وأصلها أمْنُوَية على وزن أُفعولة ، فأدغمت الواو في الياء فانكسرت النون من أجل الياء فصارت أُمنية ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ إِلَّا إِذَا تمنى أَلْقَى الشيطان في أُمْنِيَّتِهِ ﴾ [الحج : 52] أي إذا تلا ألقى الشيطان في تلاوته .

وقال كعب بن مالك :

تمَنَّى كتابَ الله أوّلَ ليلهِ . . .

وآخِرَه لاقَى حِمَامَ المقادر

وقال آخر :

تمَنَّى كتابَ الله آخِرَ لَيْله . . .

تَمَنّى داودَ الزَّبُورَ على رِسْلِ

والأماني أيضاً الأكاذيب ؛ ومنه قول عثمان رضي الله عنه : ما تمنّيت منذ أسلمت ؛ أي ما كذبت .

وقول بعض العرب لابن دَأْب وهو يحدّث : أهذا شيء رَوَيْتَه أم شيء تمنّيته ؟ أي افتعلته .

وبهذا المعنى فسّر ابن عباس ومجاهد "أمانيّ" في الآية.

ولأمانيّ أيضاً ما يتمنّاه الإنسان ويشتهيه.

قال قتادة: "إلا أمانيّ" يعني أنهم يَتَمَنَّوْن على الله ما ليس لهم.

وقيل: الأماني التقدير؛ يقال: مَنَى له أي قدّر؛ قاله الجوهري، وحكاه ابن بحر، وأنشد قول الشاعر:

لا تأمَنَنّ وإن أمسيتَ في حَرَمٍ . . .

حتى تُلاقِي ما يَمْنِي لك المانِي

أي يقدّر لك المقدّر. انتهى انتهى. اهـ ﴿تفسير القرطبى حـ 2 صـ 6.5﴾

فصل

قال الفخر:

وفي الآية مسائل.

أحدها: أن المعارف كسبية لا ضرورية فلذلك ذم من لا يعلم ويظن.

وثانيها: بطلان التقليد مطلقاً وهو مشكل لأن التقليد في الفروع جائز عندنا.

وثالثها: أن المضل وإن كان مذموماً فالمغتر بإضلال المضل أيضاً مذموم لأنه تعالى ذمهم وإن كانوا بهذه الصفة، ورابعها: أن الاكتفاء بالظن في أصول الدين غير جائز. والله أعلم.

انتهى انتهى. اهـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 128﴾

فائدة

قال القرطبى :

(95/57)

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ ﴾ "إِنْ" بمعنى ما النافية ؛ كما قال تعالى : ﴿ إِنِ الكافرون إِلاَّ فِي غُرُورٍ ﴾ [الملك : 20] .

و(يَظُنُّون) يكذبون ويحدثون ؛ لأنهم لا علم لهم بصحة ما يتلون ، وإنما هم مقلّدون لأحبارهم فيما يقرأون به .

قال أبو بكر الأنباري : وقد حدّثنا أحمد بن يحيى النحوي أن العرب تجعل الظنّ عِلْماً وشكًّا وكذباً ، وقال : إذا قامت براهين العلم فكانت أكثر من براهين الشك فالظنّ يقين ، وإذا اعتدلت براهين اليقين وبراهين الشك فالظنّ شك ، وإذا زادت براهين الشك على براهين اليقين فالظن كذب ؛ قال الله عز وجل : ﴿ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ ﴾ أراد إلا يكذبون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 2 صـ 6 ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ ﴾ الاستثناء مفرغ والمستثنى محذوف أقيمت صفته مقامه ، أي ما

هم إلا قوم قصارى أمرهم الظن من غير أن يصلوا إلى مرتبة العلم فأنى يرجى منهم الإيمان المؤسس على قواعد اليقين وقد يطلق الظن على ما يقابل العلم اليقيني عن دليل قاطع سواء قطع بغير دليل ، أو بدليل غير صحيح ، أو لم يقطع ، فلا ينافي نسبة الظن إليهم إن كانوا جازمين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 302 ﴾

لطيفة

قال القرطبى :

قال علماؤنا رحمة الله عليهم : نَعتَ الله تعالى أحبارهم بأنهم يبدّلون ويحرّفون فقال وقوله الحق : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الكتاب بِأَيْدِيهِمْ ﴾ [البقرة : 79] الآية .

وذلك أنه لما درس الأمر فيهم ، وساءت رعيّة علمائهم ، وأقبلوا على الدنيا حِرْصاً وطمعاً ، طلبوا أشياء تصرف وجوه الناس إليهم ، فأحدثوا في شريعتهم وبدّلوها ، وألحقوا ذلك بالتوراة ، وقالوا لسفهائهم : هذا من عند الله ؛ ليقبلوها عنهم فتتأكد رياستهم وينالوا به حطام الدنيا وأوساخها .

وكان مما أحدثوا فيه أن قالوا : ليس علينا في الأُمِّيين سبيل ؛ وهم العرب ، أي ما أخذنا من أموالهم فهو حِلّ لنا .

وكان مما أحدثوا فيه أن قالوا : لا يضرّنا ذنب ، فنحن أحبّاؤه وأبناؤه ؛ تعالى الله عن ذلك ! وإنما كان في التوراة " يا أحباري ويا أبناء رسلي " فغيّروه وكتبوا " يا أحبّائي ويا أبنائي " فأنزل الله تكذيبهم : ﴿ وَقَالَتِ اليهود والنصارى نَحْنُ أَبْنَاءُ الله وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ﴾ [المائدة : 18] .

فقالت : لن يعذّبنا الله ، وإن عذّبنا فأربعين يوماً مقدار أيام العجل ؛ فأنزل الله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النار إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ الله عَهْداً ﴾ [البقرة : 80] .

قال ابن مِقْسم : يعني توحيداً ، بدليل قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ مَنِ اتخذ عِندَ الرحمن عَهْداً ﴾ [مريم : 87] يعني لا إله إلا الله ﴿ فَلَنْ يُخْلِفَ الله عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى الله مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : 80] .

ثم أكذبهم فقال : ﴿ بلى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خطيائته فأولئك أَصْحَابُ النار هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ والذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات أولئك أَصْحَابُ الجنة هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة : 81-82] .

فبيّن تعالى أن الخلود في النار والجنة إنما هو بحسب الكفر والإيمان ؛ لا بما قالوه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبي حـ 2 صـ 76 ﴾

فائدة

قال ابن عطية :

و ﴿ أميون ﴾ هنا عبارة عن جهلة بالتوراة ، قال أبو العالية ومجاهد وغيرهما : المعنى ومن هؤلاء اليهود المذكورين ، فالآية منبهة على عامتهم وأتباعهم ، أي إنهم ممن لا يطمع في إيمانهم لما غمرهم من الضلال ، وقيل : المراد هنا بالأميين قوم ذهب كتابهم لذنوب ركبوها فبقوا أميين ، وقال عكرمة والضحاك : هم في الآية نصارى العرب ، وقيل عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه إنه قال : هم المجوس . والضمير في ﴿ منهم ﴾ على هذه الأقوال هو للكفار أجمعين ، قال القاضي أبو محمد رحمه الله : وقول أبي العالية ومجاهد أوجه هذه الأقوال ، وقرأ أبو حيوة وابن أبي عبلة " أميون " بتخفيف الميم ، والأمي في اللغة الذي لا يكتب ولا يقرأ في كتاب ، نسب إلى الأم : إما لأنه بحَال أمه من عدم الكتاب لا بحال أبيه ، إذ النساء ليس من شغلهن الكتاب ، قاله الطبري ، وإما لأنه بحال ولدته أمه فيها لم ينتقل عنها ، وقيل نسب إلى الأمة وهي القامة والخلقة ، كأنه ليس له من الآدميين إلا ذلك ، وقيل نسب إلى الأمة على سذاجتها قبل أن تعرف المعارف ، فإنها لا تقرأ لا تكتب ، ولذلك قال النبي

صلى الله عليه وسلم في العرب : " إنا أمة أميّة لا نحسب ولا نكتب " ، والحديث : والألف واللام في ﴿ الكتاب ﴾ للعهد ، ويعني به التوراة في قول أبي العالية ومجاهد . والأماني جمع أمنية ، وقرأ أبو جعفر وشيبة ونافع في بعض ما روي عنه " أماني " بتخفيف الياء ، وأصل أمنية أمنوية على وزن أفعولة ، ويجمع هذا الوزن على أفاعل ، وعلى هذا يجب تخفيف الياء ، ويجمع على أفاعيل فعلى هذا يجيء أمانيي أدغمت الياء في الياء فجاء " أماني " .

(98/57)

واختلف في معنى ﴿ أماني ﴾ ، فقالت طائفة : هي هنا من تمني الرجل إذا ترجى ، فمعناه أن منهم من لا يكتب ولا يقرأ وإنما يقول بظنه شيئاً سمعه ، فيتمنى أنه من الكتاب ، وقال آخرون : هي من تمنى إذا تلا ، ومنه قوله تعالى ﴿ إلا إذا ألقى الشيطان في أمنيته ﴾ [الحج : 52] ومنه قول الشاعر [كعب بن مالك] : [الطويل]

تمنى كتاب الله أول ليله . . . وآخرة لاقى حمام المقادِرِ

فمعنى الآية أنهم لا يعلمون الكتاب إلا سماع شيء يتلى لا علم لها بصحته ، وقال الطبري : هي من تمنى الرجل إذا حدث بحديث مختلق كذب ، وذكر أهل اللغة أن العرب تقول تمنى الرجل إذا كذب واختلق الحديث ، ومنه قول عثمان رضي الله عنه : " ما تمنيت ولا

تغنيت منذ أسلمت " .

فمعنى الآية أن منهم أميين لا يعلمون الكتاب إلا أنهم يسمعون من الأحبار أشياء مختلقة يظنونها من الكتاب ، وإن نافية بمعنى ما ، والظن هنا على بابه في الميل إلى أحد الجائزين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 1 صـ 169. 170 ﴾

وقال البيضاوى :

﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الكتاب ﴾ جهلة لا يعرفون الكتابة فيطالعوا التوراة ، ويتحققوا ما فيها . أو التوراة ﴿ إِلاَّ أَمَانِيَّ ﴾ استثناء منقطع . والأماني : جمع أمنية وهي في الأصل ما يقدره الإنسان في نفسه من منى إذا قدر ، ولذلك تطلق ، على الكذب وعلى ما يتمنى وما يقرأ والمعنى لكن يعتقدون أكاذيب أخذوها تقليداً من المحرفين أو مواعيد فارغة . سمعوها منهم من أن الجنة لا يدخلها إلا من كان هوداً ، وأن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودة . وقيل إلا ما يقرأون قراءة عارية عن معرفة المعنى وتدبره من قوله :

تَمَنَّى كِتَابَ اللهِ أَوَّلَ لَيْلِه . . . تَمني دَاودَ الزبُورَ على رِسْلِ

وهو لا يناسب وصفهم بأنهم أميون . ﴿ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ ﴾ ما هم إلا قوم يظنون لا علم لهم ، وقد يطلق الظن بإزاء العلم على كل رأي واعتقاد من غير قاطع ، وإن جزم به صاحبه : كاعتقاد المقلد والزائغ عن الحق لشبهة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 1 صـ 349 ﴾

(100/57)

ومن فوائد ابن عرفة فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الكتاب إِلاَّ أَمَانِيَّ . . . ﴾ .

قال ابن عطية : الأميون عامة اليهود وأتباعهم لا بطمع في إيمانهم .

قال ابن عرفة : يؤخذ منه ذم التقليد لكن في الباطل ، ولا نزاع فيه .

ابن عطية : وقيل : قوم ذهب كتابهم .

وقيل : نصارى العرب .

وعن عليّ هم المجوس .

واستبعده ابن عرفة لأنهم لا كتاب لهم ، (وقد) جعلهم منهم .

ووجهه ابن عطية : بأن الضمير في " مِنْهُم " على هذا يرجع للكفار أجمعين (لا أنه) خاص بأهل الكتاب .

قال أبو حيان : والاستثناء منفصل .

قال الطيبي : يعلمون (بمعنى) يعرفون .

ولا يصح أن تكون " أَمَانِيَّ " مفعولا ثانيا لها لأن عَلِمَ المتعدية إلى اثنين داخله على المبتدأ والخبر والكتاب ليس هو الأماني بل غيرها .

ورده ابن عرفة بأن ذلك إنما هو في الإثبات ، وأما في النفي فيجوز أن تقول : لا أعلم زيدا حمارا .

قيل له : هذا الثاني مثبت ولا يجوز أن تقول : لا أعلم زيد إلا حمارا ؟

فقال : الأَمَانِي (هنا) في معنى النفي إذ ليس المراد إلا النفي المطلق .

قال ابن عرفة : والأَمَانِيّ ، إمّا بمعنى التلاوة أي لا يعلمون معنى الكتاب بل يحفظون ألفاظه فقط ، وأنشدوا عليه قولا في عثمان :

(تمنّى) كتاب الله أول ليله . . .

وآخره لاقى حمام المقاد

وإِمَّا معنى (التمني) أي أنهم يتمنون أن يكونوا يحفظونه ويعلمونه .

قلت : وتقدم لنا في الختمة الأخرى أنه من تأكيد الذّم بما يشبه المدح كقوله :

هو الكلب إلاّ أنّ فيه ملالة . . .

وسوء مراعاة وما ذاك في الكلب

وعكسه كقوله :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم . . .

بهن فلول من قراع الكتائب

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ ﴾ .

ابن عطية : الظن على بابه

ونقل عن الشيخ أبي علي ناصر الدين أنه معنى يَشُكونَ .

وردّه ابن عرفة : بأن فروع الشريعة عندنا يكفي فيها الظنّ والأمور الاعتقادية لا بد فيها من العلم وهذا أمر اعتقادي فالظن (فيه) غير (كاف) فلذلك سجل (عليهم بوصف الظنّ) دون الاتصاف بالعلم فلا يحتاج إلى جعله بمعنى الشك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عرفة حـ 1 صـ 345. 347 ﴾

(101/57)

ومن فوائد القاسمى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ ﴾

أي : لا يحسنون الكتب فيطالعوا التوراة ويتحققوا ما فيها من دلائل النبوة ، فيؤمنوا ﴿ لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ ﴾ أي : التوراة ، أي : لا يدرون ما فيها من حدود وأحكام ومواثيق : ﴿ إِلاَّ أَمَانِيَّ ﴾ بالتشديد جمع أمنية ، أصلها أُمْنُوِيَة " أُفْعُوْلَة " فأعلَّت إعلال سيّد ، وميّت . مأخوذة من تمنَّى الشيء : قدّرة وأحب أن يصير إليه . أو من تمنَّى : كذب . أو من تمنَّى الكتاب : قرآه . وعلى كلٍّ فالاستثناء منقطع ؛ إذ ليس ما يُتمنى ، وما يُختلق وما يُتلى ، من جنس علم الكتاب أي : لا يعلمون الكتاب . لكن يتمنون أمانيّ حسبما منَّتْهم أحبارهم من أن الله سبحانه يعفو عنهم ، وأن آباءهم الأنبياء يشفعون لهم ، وغير ذلك من أمانيهم الفارغة ، المستندة إلى الكتاب ، على زعم رؤسائهم . أو لا يعلمون الكتاب ، لكن أكاذيب مختلفة سمعوها من علمائهم ، فتقبلوها على التقليد . أو لا يعلمون الكتاب لكن يتلقونه قدر ما يتلى عليهم ، فيقبلونه من غير أن يتمكنوا من التدبر والتأمل فيه .

قال ابن جرير : وأولى ما روينا في تأويل قوله : ﴿ إِلاَّ أَمَانِيَّ ﴾ أن هؤلاء الأميين لا يفقهون ، من الكتاب الذي أنزله الله ، شيئاً . ولكنهم يتخرصون الكذب ويتقوّلون الأباطيل كذباً وزوراً . والتمني في هذا الموضع هو تخلقّ الكذب وتخرّصه وافتعاله . بدليل قوله تعالى بعدُ

: ﴿ إن هم إلا يظنون ﴾ فأخبر عنهم أنهم يتمنون ما يتمنون من الأكاذيب ظناً منهم ، لا يقنياً .

(102/57)

وقال أبو مسلم الأصفهانيّ : حمله على تمني القلب أولى . بدليل قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ﴾ [البقرة : 111] أي : تمنيهم . وقال الله تعالى : ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ ﴾ [النساء : 123] ، وقال : ﴿ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة : 111] ، ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ [الجاثية : 24] بمعنى يقدّرون ويخرصون .

ورجح كثيرون حمله على القراءة ، كقوله تعالى : ﴿ ذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ﴾ [الحج : 52] إذ في الاستثناء ، حينئذاً ، نوع تعلق بما قبله . فيكون أليقَ في طريقة الاستثناء . و : ﴿ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ ما هم إلاّ قوم قصارى أمرهم الظن والتقليد . من غير أن يصلوا إلى رتبة العلم . فأنى يُرجى منهم الإيمان المؤسس على قواعد اليقين ؟

تنبيه :

قال الراغب : قد أنبأ الله عن جهل الأميين وذمهم ، والمبالغة في ذم علمائهم وأحبارهم ؛ فإن الأميين لم يعرفوا إلا مجرد التلاوة ، واعتمدوا على زعمائهم وأحبارهم ، وهم قد ضلوا وأضلوا ، ونبهنا الله تعالى بذم الأميين ، على اكتساب المعارف لئلا يُحتاج إلى التقليد والاعتماد على من لا يؤمن كذبه ، وبذم زعمائهم ، على تحريّ الصدق وبجنب الإضلال ؛ إذ هو أعظم من الضلال .

ولما بين حال هؤلاء في تمسكهم بحبال الأماني واتباع الظن ، عقب ببيان حال الذين أوقعوهم في تلك الورطة ، وهم الدعاة إلى الضلال بالزور والكذب على الله ، وأكل أموال الناس بالباطل ، فقيل على وجه الدعاء عليهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 2 صـ 375.374 ﴾

(103/57)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (78) ﴾

الله سبحانه وتعالى لازال يتحدث عن أهل الكتاب . . فبعد أن بين لنا الذين يقول : ﴿

أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ ﴾ . . انتقل سبحانه وتعالى إلى طائفة أخرى وهم من أسماهم بالأميين . . وأصح قول في الأمي هو أنه كما ولدته أمه . أي لم يعلم شيئاً من ثقافة وعلم في الوجود منذ لحظة نزوله من بطن أمه . ولذلك فإن الأمي على إطلاقه هو الذي لا يكتسب شيئاً من ثقافة الوجود حوله ، بصرف النظر عن أن يقال كما ولدته أمه . . لأن الشائع في المجتمعات أن الذي يعلم هم الخاصة لا العامة . . وعلى أية حال فالمعاني كلها ملتقية في تعريف الأمي .

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ ﴾ . . تلاحظ أن هناك معسكرات من الأميين واجهت الدعوة الإسلامية . . فالمعسكر الأول كان المشركين في مكة ، والمعسكر الثاني كان أهل الكتاب في المدينة . وأهل الكتاب تطلق على أتباع موسى وأتباع المسيح . . ولكن في الجزيرة العربية كان هناك عدد لا يذكر من النصارى . . وكان هناك مجتمع . والمقصود من قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ ﴾ هم اليهود الذين كان لهم مجتمع في المدينة . . ومادام الحق سبحانه وتعالى قال : ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ ﴾ . . معنى هذا أنه لابد أن يكون هناك منهم غير أميين . . وهؤلاء هم الذين سيأتي قول الله تعالى عنهم في الآية التالية : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ [البقرة : 79]

هنا قسّم الله تبارك وتعالى اليهود إلى أقسام . . منهم قسم أُمّي لا يعرفون الكتاب وما يقوله لهم أحبارهم هو الذي يعرفونه فقط . . وهؤلاء ربما لو كانوا يعلمون ما في التوراة . . من صفات رسول الله صلى الله عليه وسلم لآمنوا به . . والكتاب هنا يقصد به التوراة . . والله سبحانه وتعالى لم ينف عنهم مطلق العلم . . ولكنه نفى خصوصية العلم ، لأنه قال لا يعلمون إلا أماني . . فكأن الأماني يعلمونها من الكتاب .

ولكن ما الأماني ؟ . . إنها تطلق مرة بدون تشديد الياء ومرة بتشديد الياء . . فإن كانت التخفيف تكون جمع أمنية . . وإن كانت بالتشديد تكون جمع أمنية بالتشديد على الياء . . الأمنية تجدها في القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾ [النساء : 123]

هذه بالنسبة للجمع . أما بالنسبة للمفرد . . في قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ﴾ [الحج : 52]

ما هي الأمنية ؟ . . الأمنية هي الشيء الذي يحب الإنسان أن يحدث ولكن حدوثه مستحيل . . إذن لن يحدث ولن يكون له وجود .

. ولذلك قالوا إن من معاني التمني اختلاق الأشياء . . الشاعر الذي قال : أَلا لَيْتَ الشَّبَابَ يعودُ يوماً فَأُخْبِرُهُ بما فَعَلَ المَشِيبُ هل الشباب يمكن أن يعود ؟ . . طبعاً مستحيل . . هذا شيء لن يحدث . . والشاعر الذي قال : لَيْتَ الكواكبَ تَدْنُو لي فَأَنْظِمَهَا عُقُودَ مَدْحٍ فَما أَرْضَى لَكُمْ كَلِمِهل النجوم ستنزل من السماء وتأتي إلى هذا الشاعر . . ينظمها أبيات شعر إلى حبيبته . . إذن من معاني التمني الكذب والاختلاق . ولقد فسر بعض المستشرقين قول الله تبارك وتعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّى ﴾ (أي قرأ) : ﴿ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ﴾ (أي في قراءته) . . وطبعا الشيطان لن يلقي في قراءة الرسول إلا كذبا وإفتراء وكفرا . . إقرأ قوله سبحانه : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى * أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنْثَى * تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى ﴾ [النجم : 19-22]

قال أعداء الإسلام مادام قد ذكر في القرآن أسماء الغرانيق . . وهي الأصنام التي كان يعبدها الكفار . . ومنها اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى . . إذن فشفاعة هذه الأصنام ترتجى في الآخرة . . وهذا كلام لا ينسجم مع منطق الدين كله يدعو لعبادة الله وحده . . وخرج المستشرقون من ذلك بأن الدين فعلا يدعو لعبادة الله وحده . . إذن فيكون الشيطان قد ألقى في أمنيته فيما يقوله رسول الله . . ثم أحكم الله سبحانه آياته

فقال تعالى : ﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ﴾[النجم : 23]

هم يريدون بذلك أن يشككوا . . في أنه من الممكن أن يلقي الشيطان بعض أفكاره في قول رسول الله صلى الله عليه وسلم . . ولكن الله سبحانه ينسخ ما يلقي الشيطان ويحكم آياته .

(106/57)

إن الله جل جلاله لم يترك وحيه لعبث الشيطان . . ولذلك سنبحث الآية بعيداً عن كل ما قيل . . نقول لو أنك تنبهت إلى قول الله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى ﴾ لو قلنا تمنى بمعنى قرأ ، ثم أن الله ينسخ ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته . . إذن هو سبحانه لن يترك رسوله يخطئ . . وبذلك ضمنا أن كل ما ينتهي إليه الرسول صواب . . وأن كل ما وصلنا عن الرسول محكم . . فنطمئن إلى أنه ليس هناك شيء يمكن أن يلقيه الشيطان في تمني الرسول ويصلنا دون أن ينسخ .

فإذا قلنا : إن الله ينسخ ما يلقي الشيطان فما الذي جعلكم تعرفون ما ألقاه الشيطان ما دام رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقل لكم إلا المحكم . . ثم من هو الرسول ؟ بَشَرٌ أُوحِيَ

إليه بمنهج من السماء وأمر بتبليغه . . ومن هو النبي ؟ . . بشر أوحي إليه بمنهج .

ولم يؤمر بتبليغه . . ومادام لم يؤمر بتبليغه يكون خاصا بهذا النبي . . ويكون النبي قدوة سلوكية . . لأنه يطبق منهج الرسول الذي قبله فهو لم يأت بجديد .

الآية الكريمة جاءت بكلمتي رسول أو نبي . . إذا كان معنى أمنية الشيطان مستقيما بالنسبة للرسول فهو غير مستقيم بالنسبة للنبي . . لأن النبي لا يقرأ شيئاً ، ومادام النبي ذكر في الآية الكريمة فلابد أن يكون للتمني معنى آخر غير القراءة . . لأن النبي لم يأت بكلام يقرؤه على الناس . . فكأنه سيقرأ كلاما محكما ليس فيه أمنية الشيطان أي قراءته .

إن التمني لا يأتي بمعنى قراءة الشيطان . . وأمنية الرسول والنبي أن ينجحا في مهمتهما . . فالرسول كمبلغ لمنهج الله ، النبي كأسوة سلوكية . . المعنى هنا يختلف . . الرسول أمنيته أن يبلغ منهج الله . . والشيطان يحاول أن ينزع المنهج من قلوب الناس . . هذا هو المعنى . . والله سبحانه وتعالى حين يحكم آياته ينصر الإيمان ليسود منهج الله في الأرض وتنتظم حركة الناس . . هذا هو المعنى .

(107/57)

وكلمة تمني في هذه الآية الكريمة بمعنى أن الرسول أو النبي يحب أن يسود منهجه الأرض . .

والشيطان يلقي العراقيل والله يحكم آياته وينصر الحق . ويجب أن نفهم الآية على هذا المعنى . . وبهذا ينتفي تماما ما يدعيه المستشرقون من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما كان يقرأ ما يوحى إليه يستطيع الشيطان أن يتدخل ويضع كلاما في الوحي . . مستحيل .

وقوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ ﴾ . . معناها أنه يأتي قوم لا يعرفون شيئاً عن الكتاب إلا ظنا . . فيصدقهم هؤلاء الأميون دون علم . . وكان الله سبحانه يريد أن يلفتنا إلى أن كثيرا من المذاهب الدينية في الأرض ينشأ عن المبلغين لها . . فهناك أناس يأتمنون آخرين ليقولوا لهم ما إنتهت إليه الأحكام الدينية . . فيأتي الأمي أو غير المثقف يسأل عالما عن حكم من الأحكام الشرعية . . ثم يأخذ منه الحكم ويطبقه دون أن يناقشه . . لأن علمه قد إنتهى عند السؤال عن الفتوى . . والحق سبحانه وتعالى كما يقول : ﴿ وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ [الأنعام : 164]

أي لا يحمل أحد ذنب أحد يوم القيامة . . فيقول تعالى : ﴿ لِيَحْمِلُواْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [النحل : 25]

بعض الناس يظن أن الآيتين بينهما تعارض . . نقول لا . . ومن يرتكب إثما يحاسب عليه . . ومن يضل غيره بفتوى غير صحيحة يحل له بها ما حرم الله . . فإنه يحمل معاصيه

ومعاصي من أضل . . فيكون له وزر لأنه ضل ، ووزر لأنه أضل غيره . . بل وأكثر من ذلك . . فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

" من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً "

(108/57)

ولابد أن نتنبه إلى خطورة الفتوى في الدين بغير علم . . الفتوى في الدنيا أقصى ما يمكن أن تؤدي إليه هو أن تجعلك تخسر صفقة . . لكن الفتوى في الدين ستدوم عمرا طويلا . . الحق تبارك وتعالى يقول : ﴿ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ ﴾ . . والظن كما قلنا هو نسبة راجحة ولكن غير مؤكدة . . وإذا كان التمني كما ورد في اللغة هو القراءة . . فهؤلاء الأمّيون لا يعلمون الكتاب إلا قراءة لسان بلا فهم . . ولذلك قال الله سبحانه وتعالى عن اليهود : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً ﴾ [الجمعة : 5] وهكذا نرى أن هناك صنفا يحمل التوراة وهو لا يعرف عنها شيئا . . والله جل جلاله قال إن مثله كالحمار . . ولكن أقل من الحمار ، لأن الحمار مهمته أن يحمل الأثقال . . ولكن

الإنسان ليست مهمته أن يحمل ما يجهل . . ولكن لابد أن يقرأ الكتاب ويعلم المطلوب منه .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 419.413 ﴾

(109/57)

" فصل "

قال السيوطى :

وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (78)

أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : الأميون قوم لم يصدقوا رسولاً أرسله الله ، ولا كتاباً أنزله ، فكتبوا كتاباً بأيديهم ، ثم قالوا لقوم سفلة جهال : هذا من عند الله . وقال : قد أخبرهم أنهم يكتبون بأيديهم ، ثم سماهم أميين لجحودهم كتب الله ورسله .

وأخرج ابن جرير عن إبراهيم النخعي في قوله ﴿ ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب ﴾ قال : منهم من لا يحسن أن يكتب .

وأخرج ابن إسحق وابن جرير عن ابن عباس في قوله ﴿ ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب ﴾ قال : لا يدرون ما فيه ﴿ وإن هم إلا يظنون ﴾ وهم يجحدون نبوّتك بالظن .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد في قوله ﴿ ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب ﴾ قال : ناس من

يهود لم يكونوا يعلمون من الكتاب شيئاً ، وكانوا يتكلمون بالظن بغير ما في كتاب الله ، ويقولون هو من الكتاب أماني تمنونها .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ إلا أماني ﴾ قال : إلا أحاديث .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله ﴿ إلا أماني ﴾ قال : إلا قولاً يقولون بأفواههم كذباً .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد في قوله ﴿ إلا أماني ﴾ قال : إلا كذباً ﴿ وإن هم إلا يظنون ﴾ قال : الا يكذبون . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 1 صـ 201.200 ﴾

(110/57)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله " مِنْهُمْ " خبر مقدم ، فتعلّق بمحذوف .

و " أمّيون " مبتدأ مؤخر ، ويجوز على رأي الأخفش أن يكون فاعلاً بالظرف قبله ، وإن لم

يعتمد .

وقد بنيت على ماذا يعتمد فيما تقدم .

و" أُمِّيُّونَ " جمع " أمّي " وهو من لا يَكْتب ولا يَقْرأ .

واختلف في نسبته فقيل : إلى " الأمّ " وفيه معنيان :

أحدهما : أنه بحال أُمّه التي ولدته من عدم معرفة الكتابة ، وليس مثل أبيه ؛ لأن النساء ليس من شُغْلهن الكتابة .

والثاني : أنه بحاله التي ولدته أمه عليها لم يتغير عنها ، ولم ينتقل .

وقيل : نسب إلى " الأُمَّة " وهي القَامَة والخِلْقَة ، بمعنى أنه ليس له من النَّاس إلا ذلك .

وقيل : نسب إلى " الأُمَّة " على سَذَاجتها قبل أن يَعْرِف الأشياء ، كقولهم : عامي أي : على عادة العامة .

وعن ابن عَبَّاس : " قيل لهم : أميون ؛ لأنهم لم يصدقوا بأم الكتاب " .

وقال أبو عبيدة : " قيل لهم : أُميون ، لإنْزَال الكتاب عليهم ، كأنهم نسبوا لأم الكتاب " .

وقرأ ابن أبي عَبْلة : " أُمِّيُون " بتخفيف الياء كأنه استثقل توالي تضعيفين .

وقيل : الأمي : من لا يُقِرّ بكتاب ولا رسول .

قوله : " لا يَعْلَمُونَ " جملة فعلية في محلّ رفع صفة بـ " أميون " ، كأنه قيل : أميون غير عالمين .

قوله : " إلاَّ أَمَانِيَّ " هذا استثناء منقطع ؛ لأن " الأماني " ليست من جنس " الكتاب " ،

ولا مندرجة تحت مدلوله ، وهذا هو المُنْقطع ، ولكن شرطه أن يتوهّم دخوله بوجه ما ، كقوله : ﴿ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتباع الظن ﴾ [النساء : 157] وقوله النَّابغة : [الطويل]

601 حَلَفْتُ يَمِيناً غَيْرَ ذِي مَثْنَوِيَّةٍ . . .

وَلاَ عِلْمَ إِلاَّ حُسْنَ ظَنٍّ بِصَاحِبِ

لأن بذكر العلم اسْتُحضِر الظن ، ولهذا لا يجوز : صَهَلَتِ الخيل إلاَّ حماراً .

واعلم أن المنقطع على ضربين : ضرب يصحّ توجه العامل عليه ، نحو : جاء القوم إلاّ حماراً .

وضرب لا يتوجه نحو ما مثل به النحاة : " ما زاد إلا ما نقص " ، و" ما نفع إلا ما ضر " فالأول فيه لُغَتَان : لغة " الحجاز " وجوب نصبه ، ولغة " تميم " أنه كالمتّصل ، فيجوز فيه بعد النفي وشبهه النصب والإتباع .

والآية الكريمة من الضرب الأولن فيحتمل في نصبها وَجْهَان :

أحدهما : على الاستثناء المنقطع .

والثاني : أنه بدل من " الكتاب " .

و" إلاّ " في المنقطع تقدر عند البصريين بـ " لَكِنَّ " ، وعند الكوفيين بـ " بل " ، وظاهر كلام أبي البقاء أن نصبه على المصدر بفعل مَحْذُوف ، فإنه قال : " إلا أماني " استثناء منقطع ؛ لأن الأماني ليس من جنس العلم ، وتقدير " إلاّ " في مثل هذا بـ " لكن " أي : لكن يتمنونه أماني ، فيكون عنده من باب الاستثناء المفرّغ المنقطع ، فيصير نظير : " ما علمت إلا ظنّاً " . [وفيه نظر] .

الأَمَاني مع " أُمْنِيَّة " بتشديد الياء فيها .

وقال أبو البَقَاءِ : " يجوز تخفيفها فيها " .

وقرأ أبو جعفر بتخفيفها ، حَذَفَ إحدى الياءين تخفيفاً .

قال الأخفش " هذا كما يقال في جمع مفتاح : مفتاح ومفاتيح " .

قال النّحّاس : " الحذف في المعتلّ أكثر " ؛ وأنشد قول النابغة : [الطويل]

602 وَهَلْ يُرْجِعُ التَّسْلِيمَ أَوْ يَكْشِفُ العَمَى . . .

ثَلاثُ الأَثَافِي والرُّسُومُ البَلاَقِعُ

وقال أبو حَاتِمٍ : " كلّ ما جاء واحده مشدداً من هذا النوع فلك في الجمع الوجهان " .

وأصله يرجع إلى ما قال الأخفش .

ووزن "أمنية" : "أُفْعُولَة" من تَمَنَّى يَتَمَنَّى : إذا تلا وقرأ ؛ قال : [الطويل]

603 تَمَنَّى كِتَابَ اللهِ آخِرَ لَيْلِهِ . . .

تَمَنِّيَ دَاوُدَ الزَّبُورَ عَلَى رِسْلِ

وقال كعب بن مالك : [الطويل]

604 تَمَنَّى كِتَابَ اللهِ أَوَّلَ لَيْلِهِ . . .

وآخِرُهُ لاَقَى حِمَامَ المقَادِرِ

وقال تعالى : ﴿ إِلاَّ إِذَا تمنى أَلْقَى الشيطان فِي أُمْنِيَّتِهِ ﴾ [الحج : 52] أي : قرأ وتلا .

والأصل على هذا : "أُمْنُوِيَة" فأعلت إعلال "ميت" و"سيد" وقد تقدم .

وقيل : الأمنية : الكذب والاختلاق .

قال أعرابي لابن دَأْب في شيء يحدث به : أهذا الشيء رويته أم تمنيته أي : اختلقته .

وقيل : ما يتمّناه الإنسان ويشتهيه .

وقيل : : ما يقدره ويحزره من مَتَّى : إذا كذب ، أو تمنى ، أو قدر ؛ كقوله : [البسيط]

605 لاَ تَأْمَنَنَّ وَإِنْ أَمْسَيْتَ فِي حَرَمٍ . . .

حَتَّى تُلاَقِيَ مَا يَمْنِي لَكَ المَانِي

أي : يقدر لك المقدر .

قال الراغب : والمني : التقدير ، ومنه " المَنَا " الذي يُوزَن به ، ومنه " المنية " وهو الأجل المقدر للحيوان ، " والتَّمَنّي " : تقدير شيء في النفس وتصويره فيها ، وذلك قد يكون عن ظنّ وتخمين ، وقد يكون بناء على رَوِيَّةٍ وأصل ، لكن لما كان أكثره عن تخمين كان الكذب أملك له ، فأكثر التمني تصوّر ما لاحقيقة له [والأمنية : الصورة الحاصلة في النفس من تمني الشيء] .

ولما كان الكذب تصوّر ما لا حقيقة له وإيراده باللفظ الدّال صار التمني كالمبدأ للكذب فعبر عنه .

ومنه قوله عثمان : " ما تغنيت ولا تمنيت منذ أسلمت " .

وقال الزمخشري : والاشتقاق من منَى : إذا قدّر ؛ لأن المتمني يُقَدّرُ في نفسه ، ويَحْزر ما يتمناه ، وكذلك المختلق ، والقارىء يقدر أن كلمة كذا بعد كذا ، فجعل بين هذه المعاني قدراً مشتركاً وهو واضح .

وقال أبو مسلم : حَمْله على تمني القلب أولى بقوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الجنة إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نصارى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ﴾ [البقرة : 111] .

وقال الأكثرون : حمله على القراءة أليق ؛ لأنا إذا حَمَلْنَاه على ذلك كان له به تعلّق ، فكأنه

قال : لا يعلمون الكتاب إلاَّ بقدر ما يتلى عليهم فيسمعونه ، وبقدر ما يذكر لهم فيقبلونه ، ثم إنَّهُمْ لا يتمكّنون من التدبُّر والتأمل ، وإذا حمل على أن المراد الأحاديث والأكاذيب أو الظن والتقدير وحديث النفس كان الاستثناء فيه نادراً .

قوله : ﴿ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ ﴾ "إن" نافية بمعنى "ما" وإذا كانت نافية المشهور أنها لا تعمل عمل "ما" الحِجَازية .

وأجاز بعضهم ذلك ونسبه لسيبويه ، وأنشد : [المنسرح]

(113/57)

---

606 إنْ هُوَ مُسْتَوْلِياً عَلَى أَحَدٍ . . .

إلاَّ عَلَى أَضْعَفِ المَجَانِينِ

"هو" اسمها ، و"مستولياً" خبرها .

فقوله : "هم" في محل رفع الابتداء لا سام "إن" لأنها لم تعمل على المشهور ، و"إلا" للأستثناء المفرغ ، ويظنون في محلّ الرفع خبراً لقوله "هم" .

وحذف مفعولي الظَّن للعمل بهما واقتصاراً ، وهي مسألة خلاف . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير ابن عادل حـ 2 صـ 202 . 206 ﴾

قوله تعالى ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ (79) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أثبت لهذا الفريق القطع على الله بما لا علم لهم به وكان هذا معلوم الذم محتوم الإثم سبب عنه الذم والإثم بطريق الأولى لفريق هو أردؤهم وأضرهم لعباد الله وأعداهم فقال : ﴿ فويل ﴾ والويل جماع الشر كله – قاله الحرالي .

﴿ للذين يكتبون ﴾ أي منهم ومن غيرهم ﴿ الكتاب ﴾ أي الذي يعلمون أنه من عندهم لا من عند الله ﴿ بأيديهم ﴾ وأشار إلى قبح هذا الكذب وبعّدَ رتبته في الخبث بأداة التراخي فقال ﴿ ثم يقولون ﴾ لما كتبوه كذباً وبهتاناً ﴿ وهذا من عند الله ﴾ الملك الأعظم ثم بين بالعلة الحاملة لهم على ذلك خساستهم وترامیهم إلى النجاسة ودناءتهم فقال : ﴿ ليشتروا به ﴾ أي بهذا الكذب الذي صنعوه ﴿ ثمناً قليلاً ﴾ ثم سبب عنه قوله : ﴿ فويل لهم مما كتبت أيديهم ﴾ من ذلك الكذب على الله ﴿ وويل لهم مما يكسبون ﴾ أي يجدون كسبه مما

اشتروه به ، وجرد الفعل لوضوح دلالته على الخبث بقرينة ما تقدم وإذا كان المجرد كذلك كان غيره أولى قال الحرالي : والكسب ما يجري من الفعل والقول والعمل والآثار على إحساس بمنة فيه وقوة عليه – انتهى .

(115/57)

وفي هذه الآية بيان لما شرف به كتابنا من أنه لإعجازه لا يقدر أحد أن يأتي من عنده بما يدسه فيه فيلبس به – فلله المنّة علينا والفضل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 177 ﴾

فصل

قال الفخر :

أما قوله تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ ﴾ فقالوا : الويل كلمة يقولها كل مكروب ، وقال ابن عباس : إنه العذاب الأليم .

وعن سفيان الثوري : إنه مسيل صديد أهل جهنم ، وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنه واد في جهنم يهوي فيه الكافر أربعين خريفاً قبل أن يبلغ قعره " قال القاضي : " ويل " يتضمن نهاية الوعيد والتهديد فهذا القدر لا شبهة فيه سواء كان الويل عبارة عن وادٍ في

جهنم أو عن العذاب العظيم .

أما قوله تعالى : ﴿ يَكْتُبُونَ الكتاب بِأَيْدِيهِمْ ﴾ ففيه وجهان .

الأول : أن الرجل قد يقول كتبت إذا أمر بذلك ففائدة قوله : ﴿ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ أنه لم يقع منهم إلا على هذا الوجه .

الثاني : أنه تأكيد وهذا الموضع مما يحسن فيه التأكيد كما تقول لمن ينكر معرفة ما كتبه : يا هذا كتبته بيمينك .

أما قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يَقُولُونَ هذا مِنْ عِندِ الله ﴾ فالمراد أن من يكتب هذه الكتابة ويكسب هذا الكسب في غاية الرداءة لأنهم ضلوا عن الدين وأضلوا وباعوا آخرتهم بدنياهم ، فذنبهم أعظم من ذنب غيرهم ، فإن المعلوم أن الكذب على الغير بما يضر يعظم إثمه فكيف بمن يكذب على الله ويضم إلى الكذب الإضلال ويضم إليهما حب الدنيا والاحتيال في تحصيلها ويضم إليها أنه مهد طريقاً في الإضلال باقياً على وجه الدهر ، فلذلك عظم تعالى ما فعلوه .

فإن قيل : إنه تعالى حكى عنهم أمرين .

أحدهما : كتبة الكتاب والآخر : إسناده إلى الله تعالى على سبيل الكذب ، فهذا الوعيد مرتب على الكتبة أو على إسناد المكتوب إلى الله أو عليهما معاً ؟ قلنا : لا شك أن كتبة الأشياء الباطلة لقصد الإضلال من المنكرات والكذب على الله تعالى أيضاً كذلك والجمع

بينهما منكر عظيم جداً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 128 ﴾

فائدة

(116/57)

قال أبو حيان :

﴿ فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ﴾ الآية .

قيل : نزلت في الذين غيروا صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبدّلوا نعته ، فجعلوه آدم سبطاً طويلاً ، وكان في كتابهم على الصفة التي هو بها ، فقالوا لأصحابهم وأتباعهم : انظروا إلى صفة هذا النبي الذي يبعث في آخر الزمان ، ليس يشبه نعت هذا ، وكانت الأحبار من اليهود يخافون أن يذهب مأكلتهم بإبقاء صفة النبي صلى الله عليه وسلم على حالها ، فلذلك غيروها .

وقيل : خاف ملوكهم على ملكهم ، إذا آمن الناس كلهم ، فجاءوا إلى أحبار اليهود فجعلوا لهم عليهم وضائع ومآكل ، وكشطوها من التوراة ، وكتبوا بأيديهم كتاباً ، وحللوا فيه ما اختاروا ، وحرموا ما اختاروا .

وقيل : نزلت في الذين لم يؤمنوا بنبي ، ولم يتبعوا كتاباً ، بل كتبوا بأيديهم كتاباً ، وحللوا فيه ما

اختاروا ، وحرموا ما اختاروا ، وقالوا : هذا من عند الله .

وقال أبو مالك : نزلت في عبد الله بن سعد بن سرح ، كاتب النبي صلى الله عليه وسلم ، كان يغيره فارتد .

وقد تقدم شرح ويل عند الكلام على المفردات ، وذكر عن عثمان ، عن النبي صلى الله عليه وسلم : أنه جبل من نار جهنم ، وذكر أن أبا سعيد روى : أنه واد في جهنم بين جبلين ، يهوي فيه الهاوي ، وذكر أن سفيان وعطاء بن يسار رويا أنه واد يجري بفناء جهنم من صديد أهل النار .

وحكى الزهراوي وجماعة : أنه باب من أبواب جهنم .

وقيل : هو صهريج في جهنم .

وقيل ، عن سعيد بن جبير ، إنه واد في جهنم ، لو سجرت فيه جبال الدنيا لانماعت من حره ، ولو صح في تفسير الويل شيء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لوجب المصير إليه .

(117/57)

وقد تكلمت العرب في نظمها ونثرها بلفظة الويل قبل أن يجيء القرآن ، ولم تطلقه على شيء من هذه التفاسير ، وإنما مدلوله ما فسره أهل اللغة ، وهو نكرة فيها معنى الدعاء ، فلذلك جاز الابتداء بها ، إذ الدعاء أحد المسوّغات لجواز الابتداء بالنكرة ، وهي تقارب ثلاثين مسوّغاً ، وذكرناها في كتاب (منهج المسالك) من تأليفنا .

والكتابة معروفة ، ويقال أول من كتب بالقلم إدريس ، وقيل : آدم .

والكتاب هنا قيل : كتبوا أشياء اختلقوها ، وأحكاماً بدلوها من التوراة حتى استقر حكماً بينهم .

وقيل : كتبوا في التوراة ما يدل على خلاف صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبنوها في سفهائهم ، وفي العرب ، وأخفوا تلك النسخ التي كانت عندهم بغير تبديل ، وصار سفهاؤهم ، ومن يأتيهم من مشركي العرب ، إذا سألوهم عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقولون : ما هو هذا الموصوف عندنا في التوراة المبدلة المغيرة ، ويقرأُونها عليهم ويقولون لهم : هذه التوراة التي أنزلت من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً .

بأيديهم : تأكيد يرفع توهم المجاز ، لأن قولك : زيد يكتب ، ظاهره أنه يباشر الكتابة ، ويحتمل أن ينسب إليه على طريقة المجاز ، ويكون آمراً بذلك ، كما جاء في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب ، وإنما المعنى : أمر بالكتابة ، لأن الله تعالى قد أخبر أنه النبي الأمي ، وهو الذي لا يكتب ولا يقرأ في كتاب .

وقد قال تعالى : ﴿ وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمنك إذاً لارتاب المبطلون ﴾ ونظير هذا التأكيد ﴿ يطير بجناحيه ﴾ ، ﴿ ويقولون بأفواههم ﴾ ، وقوله :

نظرت فلم تنظر بعينيك منظراً . . .

فهذه كلها أتى بها لتأكيد ما يقتضيه ظاهر اللفظ ، ولرفع المجاز الذي كان يحتمله .

وفي هذا التأكيد أيضاً تقبيح لفعلهم ، إذ لم يكتفوا بأن يأمروا بالاختلاق والتغيير ، حتى كانوا هم الذين تعاطوا ذلك بأنفسهم ، واجترحوه بأيديهم .

(118/57)

وقال ابن السرّاح : ذكر الأيدي كناية عن أنهم اختلقوا ذلك من تلقائهم ، ومن عند أنفسهم ، من غير أن ينزل عليهم .

انتهى كلامه .

ولا يدل على ما ذكر ، لأن مباشرة الشيء باليد لا تقتضي الاختلاق ، ولا بد من تقدير حال محذوفة يدل عليها ما بعدها ، التقدير : يكتبون الكتاب بأيديهم محرّفاً ، أو نحو مما يدل على هذا المعنى لقوله بعد ثم : ﴿ يقولون هذا من عند الله ﴾ ، إذ لا إنكار على من يباشر الكتاب بيده إلا إذا وضعه غير موضعه ، فلذلك قدرنا هذه الحال .

﴿ ثم يقولون ﴾ : أي لأتباعهم الأميين الذين لا يعلمون إلا ما قرىء لهم ، ومعمول القول هذه الجملة التي هي : ﴿ هذا من عند الله ليشتروا ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 1 صـ 443.444 ﴾

(119/57)

قال الآلوسى :

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الكتاب بِأَيْدِيهِمْ ﴾ الويل مصدر لا فعل له من لفظه ، وما ذكر من قولهم : وال مصنوع كما في " البحر " ومثله ويح وويب وويس وويه وعول ، ولا يثنى ولا يجمع ويقال : ويلة ويجمع على ويلات وإذا أضيف فالأحسن فيه النصب ولا يجوز غيره عند بعض وإذا أفردته اختير الرفع ومعناه الفضيحة والحسرة وقال الخليل : شدة الشر ؛ وابن المفضل الحزن وغيرها الهلكة

وقال الأصمعي : هي كلمة تفجع وقد تكون ترحماً ومنه ويل أمه مسعر حرب وورد من طرق صححها الحفاظ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " الويل واد في جهنم يهوي به الكافر أربعين خريفاً قبل أن يبلغ قعره " وفي بعض الروايات : " إنه جبل فيها " وإطلاقه على ذلك إما حقيقة شرعية ، وإما مجاز لغوي من إطلاق لفظ الحال على المحل

ولا يمكن أن يكون حقيقة لغوية لأن العرب تكلمت به في نظمها ونثرها قبل أن يجيء القرآن ولم تطلقه على ذلك وعلى كل حال هو هنا مبتدأ خبره ﴿ لِلَّذِينَ ﴾ فإن كان علماً لما في الخبر فظاهر ، وإلا فالذي سوغ الابتداء به كونه دعاء ، وقد حول عن المصدر المنصوب للدلالة على الدوام والثبات ، ومثله يجوز فيه ذلك لأنه غير مخبر عنه ، وقيل : لتخصص النكرة فيه بالداعي كما تخصص سلام في سلام عليك بالمسلم فإن المعنى سلامي عليك وكذلك المعنى ههنا دعائي عليهم بالهلك ثابت لهم والكتابة معروفة .

(120/57)

وذكر الأيدي تأكيداً لدفع توهم المجاز ، ويقال : أول من كتب بالقلم إدريس ، وقيل : آدم عليهما السلام ، والمراد بالكتاب المحرف ، وقد روي أنهم كتبوا في التوراة ما يدل على خلاف صورة النبي صلى الله عليه وسلم وبثوها في سفهائهم وفي العرب وأخفوا تلك النسخ التي كانت عندهم بغير تبديل وصاروا إذا سئلوا عن النبي صلى الله عليه وسلم يقولون : ما هذا هو الموصوف عندنا في التوراة ويخرجون التوراة المبدلة ويقرؤنها ويقولون : هذه التوراة التي أنزلت من عند الله ، ويحتمل أن يكون المراد به ما كتبوه من التأويلات الزائغة وروّجوه على العامة ، وقد قال بعض العلماء : ما انفك كتاب منزل من السماء من تضمن ذكر النبي

صلى الله عليه وسلم ولكن بإشارة لا يعرفها إلا العالمون ، ولو كان متجلياً للعوام لما عوتب علماؤهم في كتمانه ، ثم ازداد ذلك غموضاً بنقله من لسان إلى لسان ، وقد وجد في التوراة ألفاظ إذا اعتبرتها وجدتها دالة على صحة نبوته عليه الصلاة والسلام بتعريض هو عند الراسخين جلي ، وعند العامة خفي ، فعمد إلى ذلك أحبار من اليهود فأوّلوه ، وكتبوا تأويلاتهم المحرفة بأيديهم .

﴿ ثُمَّ يَقُولُونَ هذا مِنْ عِندِ الله ﴾ إعظاماً لشأنه وتمكيناً له في قلوب أتباعهم الأميين ، و﴿ ثُمَّ ﴾ للتراخي الرتبي ، فإن نسبة المحرفة والتأويل الزائغ إلى الله سبحانه صريحاً أشد شناعة من نفس التحريف والتأويل ، والإشارة إما إلى الجميع ، أو إلى الخصوص . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 302 ﴾

قوله تعالى ﴿لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً ﴾

فصل

قال الفخر :

أما قوله تعالى : ﴿لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً ﴾ فهو تنبيه على أمرين .

الأول : أنه تنبيه على نهاية شقاوتهم لأن العاقل يجب أن لا يرضى بالوزر القليل في الآخرة لأجل الأجر العظيم في الدنيا ، فكيف يليق به أن يرضى بالعقاب العظيم في الآخرة لأجل النفع الحقير في الدنيا ، الثاني : أنه يدل على أنهم ما فعلوا ذلك التحريف ديانة بل إنما فعلوه طلباً للمال والجاه ، وهذا يدل على أن أخذ المال على الباطل وإن كان بالتراضي فهو محرم ، لأن الذي كانوا يعطونه من المال كان على محبة ورضا ، ومع ذلك فقد نبه تعالى على تحريمه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 128 . 129 ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً ﴾ أي ليحصلوا بما أشاروا إليه غرضاً من أغراض الدنيا الدنيئة ، وهو وإن جل أقل قليل بالنسبة إلى ما استوجبوه من العذاب الدائم ، وحرموه من الثواب المقيم ، وهو علة للقول كما في " البحر " ولا أرى في الآية دليلاً على المنع من أخذ الأجرة على كتابة المصاحف ، ولا على كراهية بيعها ، والأعمش تأول الآية واستدل بها على الكراهة وطرف المنصف أعمى عن ذلك نعم ذهب إلى الكراهة جمع منهم : ابن عمر رضي الله تعالى عنهما وبه قال بعض الأئمة : لكن لا أظنهم يستدلون بهذه الآية ، وتمام البحث في محله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 303 ﴾

قوله تعالى ﴿ فَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾

فصل

قال الفخر :

أما قوله تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ فالمراد أن كتبتهم لما كتبوه ذنب عظيم بانفراده ، وكذلك أخذهم المال عليه ، فلذلك أعاد ذكر الويل في الكسب ، ولو لم يعد ذكره كان يجوز أن يقال : إن مجموعهما يقتضي الوعيد العظيم دون كل واحد منهما ، فأزال الله تعالى هذه الشبهة واختلفوا في قوله تعالى : ﴿ مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ هل المراد ما كانوا يأخذون على هذه الكتابة والتحريف فقط أو المراد بذلك سائر معاصيهم والأقرب في نظام الكلام أنه راجع إلى المذكور من المال المأخوذ على هذا الوجه وإن كان الأقرب من حيث العموم أنه يشمل الكل ، لكن الذي يرجح الأول أنه متى لم يقيد كسبهم بهذا القيد لم يحسن الوعيد عليه لأن الكسب يدخل فيه الحلال والحرام ، فلا بد من تقييده وأولى ما يقيد به ما تقدم ذكره .

قال القاضي : دلت الآية على أن كتابتهم ليست خلقاً لله تعالى ، لأنها لو كانت خلقاً لله تعالى لكانت إضافتها إليه تعالى بقولهم : ﴿ هُوَ مِنْ عِندِ اللهِ ﴾ ذلك حقيقة لأنه تعالى إذا خلقها فيهم فهب أن العبد مكتسب إلا أن انتساب الفعل إلى الخالق أقوى من انتسابه إلى المكتسب فكان اسناد تلك الكتبة إلى الله تعالى أولى من إسنادها إلى العبد ، فكان يجب

أن يستحقوا الحمد على قولهم فيها .

أنها من عند الله ولما لم يكن كذلك علمنا أن تلك الكتبة ليست مخلوقة لله تعالى .

والجواب : أن الداعية الموجبة لها من خلق الله تعالى بالدلائل المذكورة فهي أيضاً تكون كذلك . والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 129 ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل مما يكسبون ﴾ : كتابتهم مقدمة ، نتيجتها كسب المال الحرام ، فلذلك كرر الويل في كل واحد منهما ، لئلا يتوهم أن الوعيد هو على المجموع فقط . فكل واحد من هذين متوعد عليه بالهلاك .

وظاهر الكسب هو ما أخذوه على تحريفهم الكتاب من الحرام ، وهو الأليق بمساق الآية .

وقيل : المراد بما يكسبون الأعمال السيئة ، فيحتاج في كلا القولين إلى اختصاص ، لأن ما يكسبون عام ، والأولى أن يقيد بما ذكرناه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 1 صـ 444 ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ فَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ الفاء لتفصيل ما أجمل في قوله تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ﴾ الخ ، حيث يدل على ثبوت الويل للموصوفين بما ذكر لأجل اتصافهم به بناءً على التعليق بالوصف من غير دلالة على أن ثبوته لأجل مجموع ما ذكر أو لا بل كل واحد فبين ذلك بقوله : ﴿ وَيْلٌ لَّهُمْ ﴾ الخ مع ما فيه من التنصيص بالعلة ، ولا يخفى ما في هذا الإجمال والتفصيل من المبالغة في الوعيد والزجر والتهويل .

و(من) تعليلية متعلقة بويل أو بالاستقرار في الخبر ، و(ما) قيل : موصولة اسمية ، والعائد محذوف ، أي : كتبته وقيل : مصدرية والأول : أدخل في الزجر عن تعاطي المحرف والثاني : في الزجر عن التحريف و(ما) الثانية مثلها ، ورجح بعضهم المصدرية في الموضعين لفظاً ومعنى لعدم تقدير العائد ، ولأن مكسوب العبد حقيقة فعله الذي يعاقب عليه ويثاب ، وذكر بعض المحققين أن التحقيق أن العبد كما يعاقب على نفس فعله ، يعاقب على أثر فعله ، لإفضائه إلى حرام آخر وهو هنا يفضي إلى إضلال الغير وأكل الحرام وغاير بين الآيتين بأنه بين في الأولى : استحقاقهم العقاب بنفس الفعل وفي الثانية : استحقاقهم له بأثره ، ولذا جاء بالفاء ولا يخفى أنه كلام خال عن التحقيق كما لا يخفى على أرباب التدقيق ومما ذكرنا ظهر فائدة ذكر الويل ثلاث مرات ، وقيل : فائدته أن اليهود جنوا ثلاث جنايات .

تغيير صفة النبي صلى الله عليه وسلم ، والافتراء على الله تعالى ، وأخذ الرشوة .

فهددوا بكل جناية بالويل وكأنه جعل محط الفائدة في قوله تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ﴾ إلى آخر المعطوف كما في خبر " لا يؤمّن الرجل قوماً فيخص نفسه بالدعاء " وهو على بعده لا يظهر عليه وجه إيراد الفاء في الثاني ، ثم الظاهر أن مفعول الكسب خاص وهو ما دل عليه سياق الآية وقيل : المراد ب ﴿ مَا يَكْسِبُونَ ﴾ جميع الأعمال السيئة ليشمل القول ولا يخفى بُعده وعدم التعرض للقول لما أنه من مبادىء ترويج (ما كتبت أيديهم) والآية نزلت في أحبار اليهود الذين خافوا أن تذهب رياستهم بإبقاء صفة النبي صلى الله عليه وسلم على حالها فغيروها ، وقيل : خاف ملوكهم على مُلكهم إذا آمن الناس فرشوهم فحرفوا ، والقول بأنها نزلت في الذين لم يؤمنوا بنبي ولم يتبعوا كتاباً ، بل كتبوا بأيديهم كتاباً وحللوا فيه ما اختاروا ، وحرّموا ما اختاروا ، وقالوا : هذا من عند الله غير مرضي ، كالقول بأنها نزلت في عبد الله بن سرح كاتب النبي صلى الله عليه وسلم كان يغير القرآن فارتد . انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 303.304 ﴾

سؤال : إن قال لنا قائل : ما وجه قوله : (فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم) ؟ وهل تكون الكتابة بغير اليد ، حتى احتاج المخاطبون بهذه المخاطبة ، إلى أن يخبروا عن هؤلاء – القوم الذين قص الله قصتهم – أنهم كانوا يكتبون الكتاب بأيديهم ؟

قيل له : إن الكتاب من بني آدم ، وإن كان منهم باليد ، فإنه قد يضاف الكتاب إلى غير كاتبه وغير المتولي رسم خطه فيقال : كتب فلان إلى فلان بكذا" ، وإن كان المتولي كتابته بيده ، غير المضاف إليه الكتاب ، إذا كان الكاتب كتبه بأمر المضاف إليه الكتاب . فأعلم ربنا بقوله : (فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم) عباده المؤمنين ، أن أحبار اليهود تلي كتابة الكذب والفرية على الله بأيديهم ، على علم منهم وعمد للكذب على الله ، ثم تنحله إلى أنه من عند الله وفي كتاب الله ، تَكَذُّبا على الله وافتراء عليه . فنفى جل ثناؤه بقوله : (يكتبون الكتاب بأيديهم) ، أن يكون ولي كتابة ذلك بعض جهالهم بأمر علمائهم وأحبارهم . وذلك نظير قول القائل : " باعني فلان عينُه كذا وكذا ، فاشترى فلان نفسه كذا" ، يراد بإدخال" النفس والعين" في ذلك ، نفي اللبس عن سامعه ، أن يكون المتولي بيع ذلك أو شراءه ، غير الموصوف له أمره ،

ويوجب حقيقة الفعل للمخبر

عنه ، فكذلك قوله : (فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الطبرى حـ 1 صـ 372. 373 ﴾

فائدة

قال فى روح البيان :

وفي الآيات إشارات :

الأولى : إن علم الرجل ويقينه ومعرفته ومكالمته مع الله لا يفيده الإيمان الحقيقي إلا أن يتداركه الله بفضله ورحمته قال الله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا ﴾ (النور : 21) وإن الله تعالى كلم إبليس وخاطبه بقوله : يا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ (ص : 75)

وما أفاده الإيمان الحقيقي إذا لم يكن مؤيداً من الله بفضله ورحمته ولم يبق على الإيمان بعد العيان فكيف يؤمن بالبرهان .

والثانية : إن العالم المعاند والعامي المقلد سواء في الضلال لأن العالم عليه أن يعمل بعلمه وعلى العامي أن لا يرضى بالتقليد والظن وهو متمكن من العلم وأن الدين ليس بالتمني فالذين ركنوا إلى التقليد المحض واغتروا بظنون فاسدة وتخمينات مبهمة فهم الذين لا تصيب لهم من كتبهم إلا قراءتها دون معرفة معانيها وإدراك أسرارها وحقائقها وهذا حال

أكثر أهل زماننا من مدعي الإسلام فالمدعي والمتمني عاقبتهما خسران وضلال وحسرة وندامة ووبال .

والثالثة : أن من بدل أو غير أو ابتدع في دين الله ما ليس منه فهو داخل في الوعيد المذكور وقد حذر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أمته لما علم ما يكون في آخر الزمان فقال : " ألا أن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على اثنتين وسبعين ملة وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين كلها في النار إلا واحدة" فحذرهم أن يحدثوا من تلقاء أنفسهم في الدين خلاف كتاب الله أو سنته أو سنة أصحابه فيضلوا به الناس وقد وقع ما حذره وشاع وكثر وذاع فإنا لله وإنا إليه راجعون .

(127/57)

والرابعة : إن بعض المتسمين بالصوفية ينضم إلى الأولياء وأرباب القلوب ظاهراً ثم لا يصدق الإرادة ويميل إلى أهل الغفلة ويصغي إلى أقوالهم ويشتهي ارتكاب أفعالهم وكلما دعته هواتف الحظوظ سارع إلى الإجابة طوعاً وإذا قادته دواعي الحق تكلف كرهاً ليس له إخلاص في الصحبة في طريق الحق فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون من الإلحاد عن الحق واعتقاد السوء وإغراء الخلق وإضلالهم فهم الذين ضلوا وأضلوا كثيراً .

فعلى السالك أن يجتهد في الوصول إلى الموجود الحق ويتخلص من الموهوم المطلق ولا يغتر بظواهر الحالات غافلاً عن بطون الاعتبارات فإن طريق الحق أدق من كل دقيق وماء عميق وفج سحيق وأجهل الناس من يترك يقين ما عنده من صفات نفسه التي لا شك فيها الظن ما عند الناس من صلاحية حاله .

قال حارث بن أسد المحاسبي رضي الله عنه الراضي بالمدح بالباطل كمن يهزأ به فالعاقل لا يغتر بمثله بل يجتهد إلى أن يصل إلى الحقيقة فويل لواعظ تكبر وافتخر بتقبيل الناس يده ورأى نفسه خيراً من السامعين ويتقيد بالمدح والذم اللهم إلا أن يخرج ذلك من قلبه والمعيار مساواة المقبل واللاطم عنده بل رجحان اللاطم والضارب .

قال في مجلس وعظه جنيد البغدادي لو لم أسمع قوله صلى الله عليه وسلّم " إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر " لما اجترأت على الوعظ فأنا ذلك الرجل الفاجر . انتهى انتهى . اهـ

﴿ روح البيان حـ 1 صـ 214.216 ﴾

(128/57)

فائدة

قال الماوردى :

وفي قوله تعالى : ﴿ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً ﴾ تأويلان :

أحدهما : ليأخذوا به عرض الدنيا ، لأنه قليل المدة ، كما قال تعالى : ﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ ﴾ وهذا قول أبي العالية .

والثاني : أنه قليل لأنه حرام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 1 صـ 152 ﴾

لطيفة

قال أبو السعود :

﴿ لِيَشْتَرُواْ بِهِ ﴾ أي يأخذوا لأنفسهم بمقابلته ﴿ ثَمَناً ﴾ هو ما أخذوه من الرّشا بمقابلة ما فعلوا من التحريف والتأويل ، وإنما عُبر عن المشترى الذي هو المقصودُ بالذات في عقد المعاوضة بالثمن الذي هو وسيلةٌ فيه إيذاناً بتعكيسهم حيث جعلوا المقصود بالذات وسيلةً والوسيلةَ مقصوداً بالذات ﴿ قَلِيلاً ﴾ لأُعبأ به فإن ذلك وإن جل في نفسه فهو أقلُّ قليلاً عند ما استوجبوا به من العذاب الخالد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 1 صـ 120 ﴾

ومن فوائد البغوى فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ فَوَيْل ﴾ قال الزجاج : ويل كلمة يقولها كل واقع في هلكة ، وقيل : هو دعاء الكفار على أنفسهم بالويل والثبور ، وقال ابن عباس : شدة العذاب ، وقال سعيد بن

المسيب : ويل واد في جهنم لو سيرت فيه جبال الدنيا لانماعت من شدة حره .

أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الله بن أبي توبة أنا أبو طاهر محمد بن أحمد بن الحارث أنا أبو الحسن محمد بن يعقوب الكسائي أنا عبد الله بن محمود أنا أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله الخلال أنا عبد الله بن المبارك عن رشدين بن سعد [عن عمرو بن الحارث أنه حدث عن أبي السمح عن أبي الهيثم] (3) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " الويل واد في جهنم يهوي فيه الكافر أربعين خريفا قبل أن يبلغ قعره ، والصعود جبل من نار يتصعد فيه سبعين خريفا ثم يهوي فهو كذلك" (4) .

(129/57)

﴿ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلا ﴾

وذلك أن أحبار اليهود خافوا ذهاب مأكلتهم وزوال رياستهم حين قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة ، فاحتالوا في تعويق اليهود عن الإيمان به فعمدوا إلى صفته في التوراة ، وكانت صفته فيها : حسن الوجه ، حسن الشعر ، أكحل العينين ، ربعة ، فغيروها وكتبوا مكانها طوال أزرق سبط الشعر فإذا سألهم سفلتهم عن صفته قرءوا ما كتبوا فيجدونه مخالفا لصفته فيكذبونه وينكرونه ، قال الله تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ يعني

ما كتبوا

---

(3) ساقط من "أ" وهو في "ب" وشرح السنة.

(4) أخرجه الترمذي: في التفسير - سورة الأنبياء: 9 / 5 وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه مرفوعا إلا من حديث ابن لهيعة وأحمد: 3 / 75 وفي شرح السنة: 15 / 247. (وفي سنده: رشدين بن سعد ودراج بن سمعان وكلاهما ضعيف). انظر الضعفاء والمتروكين ص102، 107. ميزان الاعتدال 2 / 24 و49. الجرح والتعديل 3 / 441 - 513 تهذيب التهذيب 3 / 208 - 277 التقريب 1 / 235 - 251.

بأنفسهم اختراعا من تغيير نعت محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ المآكل ويقال: من المعاصي. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير البغوى حـ 1 صـ 115. 116 ﴾

(130/57)

"فصل"

قال الخازن:

قوله عز وجل : ﴿ أفتطمعون ﴾ خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم لأنه هو الداعي إلى الإيمان وإنما ذكره بلفظ الجمع تعظيماً له ، وقيل : هو خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه لأنهم كانوا يدعون إلى الإيمان أيضاً ومعنى أفتطمعون أفترجعون ﴿ أن يؤمنوا لكم ﴾ أي يصدقكم اليهود بما تخبرونهم وقيل : معناه أفتطمعون أن يؤمنوا لكم مع أنهم لم يؤمنوا بموسى عليه الصلاة والسلام وكان هو سبب في خلاصهم من الذل وظهور المعجزات على يده ﴿ وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ﴾ قيل المراد بالفريق : هم الذين كانوا مع موسى يوم الميقات ، وهم الذين سمعوا كلام الله تعالى ، وقيل المراد بهم : الذي كانوا في زمن النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو الأقرب لأن الضمير راجع إليهم في أفتطمعون أن يؤمنوا لكم ، فعلى هذا يكون معنى يسمعون كلام الله يعني التوراة ، لأنه يصح أن يقال لمن يسمع التوراة يسمع كلام الله ﴿ ثم يحرفونه ﴾ أي يغيرون كلام الله ، ويبدلونه فمن فسر الفريق الذين يسمعون كلام الله بالفريق الذين كانوا مع موسى عليه السلام استدل بقول ابن عباس رضي الله عنهما إنها نزلت في السبعين الذين اختارهم موسى لميقات ربه ، وذلك لأنهم لما رجعوا إلى قومهم بعد ما سمعوا كلام الله أما الصادقون منهم فإنهم أدوا كما سمعوا وقالت طائفة منهم : سمعنا الله يقول في آخر كلامه إن استطعتم أن تفعلوا فافعلوا وإن شئتم فلن تفعلوا ، فكان هذا تحريفهم ومن فسر الفريق الذين كانوا يسمعون كلام الله بالذين في زمن النبي صلى الله عليه وسلم قال كان تحريفهم تبديلهم صفة النبي صلى الله عليه وسلم

وآية الرجم في التوراة ﴿ من بعد ما عقلوه ﴾ أي علموا صحة كلام الله ومراده فيه ثم مع ذلك خالفوه ﴿ وهم يعلمون ﴾ أي فساد مخالفته ويعلمون أيضاً أنهم كاذبون . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 1 صـ 76.75 ﴾

(131/57)

ومن فوائد السعدى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ 79 ﴾ ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلا فَوَيْلٌ لَّهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ .

توعد تعالى المحرفين للكتاب ، الذين يقولون لتحريفهم وما يكتبون : ﴿ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ وهذا فيه إظهار الباطل وكتم الحق ، وإنما فعلوا ذلك مع علمهم ﴿ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلا ﴾ والدنيا كلها من أولها إلى آخرها ثمن قليل ، فجعلوا باطلهم شركا يصطادون به ما في أيدي الناس ، فظلموهم من وجهين : من جهة تلبيس دينهم عليهم ، ومن جهة أخذ أموالهم بغير حق ، بل بأبطل الباطل ، وذلك أعظم ممن يأخذها غصبا وسرقة ونحوهما ، ولهذا توعدهم بهذين الأمرين فقال : ﴿ فَوَيْلٌ لَّهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ أي : من التحريف

والباطل ﴿ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ من الأموال ، والويل : شدة العذاب والحسرة ، وفي ضمنها الوعيد الشديد .

قال شيخ الإسلام لما ذكر هذه الآيات من قوله : ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ ﴾ إلى ﴿ يَكْسِبُونَ ﴾ فإن الله ذم الذين يحرفون الكلم عن مواضعه ، وهو متناول لمن حمل الكتاب والسنة ، على ما أصله من البدع الباطلة .

وذم الذين لا يعلمون الكتاب إلا أماني ، وهو متناول لمن ترك تدبر القرآن ولم يعلم إلا مجرد تلاوة حروفه ، ومتناول لمن كتب كتابا بيده مخالفا لكتاب الله ، لينال به دنيا وقال : إنه من عند الله ، مثل أن يقول : هذا هو الشرع والدين ، وهذا معنى الكتاب والسنة ، وهذا معقول السلف والأئمة ، وهذا هو أصول الدين ، الذي يجب اعتقاده على الأعيان والكفاية ، ومتناول لمن كتم ما عنده من الكتاب والسنة ، لئلا يحتج به مخالفه في الحق الذي يقوله .

وهذه الأمور كثيرة جدا في أهل الأهواء جملة ، كالرافضة ، وتفصيلا مثل كثير من المنتسبين إلى الفقهاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير السعدى صـ 56 ـ 57 ﴾

(132/57)

ومن فوائد ابن عرفة فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الكتاب بِأَيْدِيهِمْ . . . ﴾ .

الفاء للاستئناف أو للسبب .

ابن عطية : قال الخليل : الويل شدة الشر .

وقال الأصمعي : الويل (القبائح) وهو مصدر (لا فعل له) ينصب على الدعاء .

واستبعده ابن عرفة أن يراد به القبائح قال : إنما يفهم منه العقوبة المترتبة على القبائح قال :

وويل وويح (وويس وريب) (متقاربة) وقد فرق بينها قوم .

قلت : قال : القاضي عياض في الإكمال في كتاب الإيمان في حديث خرّجه مسلم من رواية واقد بن محمد أنه سمع أباه يحدث عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، عن النّبي صلى الله عليه وسلم قال في حجة الوداع : " ويحكم ، أو قال : وَيْلَكم لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض " .

قال القاضي عياض : ويح ، وويل للتّعجب والتوجّع كما قال سيبويه ويل (لمن) (وقع) في مهلكه ، وويح يترحم بمعناها ، وحكى عنه ويح لمن أشرف على (المهلكة) .

قال غيره : ولا يراد بها الدعاء بإيقاع الهلاك ولكن الترحم .

وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه : ويح ترحم .

قال الهروي : ويح لمن وقع في مهلكة لا يستحقها / (فيرثى) له ويترحم عليه ، وويل للذي يستحقها ولا يترحم عليه .

وقال الأصمعي : ويح ترحم ، وابن عباس : الويل المشقة .

قال ابن عرفة : هو الحزن (وقيل الهلاك) .

قلت : وقال القاضي في حديث (ويحك يَا أَنجشة) (رويدك بالقوارير) .

قال سيبويه : هي لمن وقع في مهلكة (لا يستحقها) فيرثى له ويترحم عليه ، وويل بضده ، وويس تصغير أي (دونها ذكره في كتاب الفضائل) .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يَقُولُونَ هذا مِنْ عِندِ اللهِ . . . ﴾ .

(" ثم ") لبعد ما بين منزلة الكتب والقول .

قيل لابن عرفة : (الكتاب) لا شيء فيه ، إنما العقوبة على نسبته إلى الله .

فقال : لا بل على الأمرين كمن يكتب (عقودا) يضرب فيها على الخطوط والشهادات (ويخليها) عنده ، فإنه قد ارتكب محظورا فإن أظهرها ونسبها إلى تلك الشهود وطلب بها فهو قد فعل محظورا (آخر) .

قيل لابن عرفة : نص ابن التلمساني في آخر باب النسخ على أنهم أجمعوا على تكفير من كَذَّب الله ، واختلفوا في تكفير من كذَب على الله .

فقال ابن عرفة : هذا مشكل فمن يفتي بالخطأ كاذبا على الله يلزم أن يكون كافرا وليس

كذلك .

قوله تعالى : ﴿ لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً . . . ﴾ .

قال ابن عرفة : إما أن يراد (يبيعونه) بشئ تافه ، أو بلا شيء كقول سيبويه : مررت بأرض فلمّا تنبت (البقلا) أي لا تنبت شيئا ونحوه .

(133/57)

قال الزمخشري في قوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ وفي قَوْلِهِ في النساء : ﴿ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ وأنشد :

(قليل التشكي للمهمّ يصيبه . . .

كثير الهوى شتى النوى والمسالك)

وأنكره أبو حيان وذكره أيضا الزمخشري في سورة النّمل في قول الله عز وجل : ﴿ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ الأرض أءلاه مَّعَ اللهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ قال : المعنى نفي التذكير .

والقلة تستعمل في معنى النفي .

قال ابن عرفة : معنى كتبهم : إما أنهم يكتبون زيادات يدلّون فيها (صفات) النّبي صلى الله عليه وسلم وغير ذلك ممّا يقصدون تبديله لغرض ما ويعطون ذلك لعوام ويقولون لهم : إنّه

منقول من التوراة ، وإما أنهم يخبرونهم بذلك بالقول : إنه (من) التوراة دون (كتب) ، وأما (تبديلهم) ذلك في نفس التوراة فلا ، (وقد قال ابن فورك : إنّ صفاته صلى الله عليه وسلم الآن موجودة في التوراة) .

وقال المازرى في الأحوذى له عن (الجوزقى) إن اسمه فيها بالعبرانية " وار كليط " وما زالت تقع في (الكتبيين للبيع) .

والفرق بينهما أن القرآن أخبرنا اللهُ تعالى فيه أنّه تكفل بحفظه والتوراة أمر أهلها بحفظها ونحن لا نثق بهم في قولهم : إنّهم حفظوها ، فلعلهم عصوا ذلك ، لأمر ولم يمتثلوه .

.

وبرهان هذا واضح بالبحث عن القرآن في الأقطار كلها المحصل للعلم والتواتر .

قيل لابن عرفة : قال بعضهم : الدليل على أنّ التوراة لم تزل في نفسها على ما كانت عليه غير مبدلة أنها في الأقطار كلها متساوية الجرم على نوع واحد ولو بدلوها لاختلفت في الأقطار ؟ قالوا : وهي لا تقع إلا في خمسة أسفار (وصفات) النبي صلى الله عليه وسلّم في الخامس منها .

قال ابن عطية : قال ابن إسحاق : كانت صفته في التواة أسمر اللون ربعة ، فردوه آدم طويلا .

قال ابن عرفة : نصوا على أنّه لا يُقَال فيه عليه الصلاة والسلام : أسمر لأنه نقص .

قيل له : ذكروا في صفاته عليه الصلاة والسلام أنه أبيض بياضا مشوبا بحمرة .

وهذا أحد ما تصدق عليه السمرة .

فقال : لفظ (أسمر) موهم لإطلاقه على القريب من الأسود .

قوله تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ .

أي من كل خطيئة يكسبونها بالإطلاق كتبا أو غيره ، فهو من عطف العام على الخاص .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عرفة حـ 1 صـ 347. 353 ﴾

ومن فوائد الإمام القرطبى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ (79) ﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى : قوله : ﴿ فَوَيْلٌ ﴾ اختلف في الوَيْل ما هو ؛ فروى عثمان بن عفّان عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه جبل من نار .

وروى أبو سعيد الخُدْرِي أن الويل وادٍ في جهنم بين جبلين يهوي فيه الهاوي أربعين خريفاً .

وروى سفيان وعطاء بن يَسار : أن الويل في هذه الآية وادٍ يجري بفناء جهنم من صديد أهل النار .

وقيل : صهريج في جهنم .

وحكى الزّهراوي عن آخرين : أنه باب من أبواب جهنم .

وعن ابن عباس : الويل المشقة من العذاب .

وقال الخليل : الويل شدّة الشر .

الأصمعي : الويلُ تفجُّعٌ ، والوَيْحُ ترحُّمٌ .

سيبويه : وَيْلٌ لمن وقع في الهَلَكة ، ووَيْحٌ زجرٌ لمن أشرف على الهَلَكة .

ابن عرفة : الويل الحزن ؛ يقال : تَوَيّل الرجل اذا دعا بالويل ؛ وإنما يقال ذلك عند الحزن والمكروه ؛ ومنه قوله : ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الكتاب بِأَيْدِيهِمْ ﴾ .

وقيل : أصله الهَلَكة ، وكل من وقع في هَلَكة دعا بالويل ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ ياويلتنا مَا لهذا الكتاب ﴾ [الكهف : 49] .

(135/57)

وهي الوَيْل والوَيْلة ، وهما الهَلَكة ، والجمع الويلات ؛ قال :

له الوَيْل إن أمْسَى ولا أمّ هاشم . . .

وقال أيضاً :

فقالت لك الوَيْلات إنك مُرْجِلي . . .

وارتفع " وَيْلٌ " بالابتداء ، وجاز الابتداء به وإن كان نكرة لأن فيه معنى الدعاء .

قال الأخفش : ويجوز النصب على إضمار فعل ؛ أي ألزمهم الله وَيْلاً .

وقال الفَرّاء : الأصل في الويل " وَيْ " أي حُزْن ؛ كما تقول : وَيْ لفلان ؛ أي حُزْن له ، فوصلته العرب باللام وقدّروها منه فأعربوها .

والأحسن فيه إذا فُصل عن الإضافة الرفع ؛ لأنه يقتضي الوقوع .

ويصحّ النصب على معنى الدعاء ؛ كما ذكرنا .

قال الخليل : ولم يُسمع على بنائه إلا وَيْح ووَيْس وَوَيْه ووَيْك ووَيْل ووَيْب ؛ وكله يتقارب في المعنى .

وقد فرّق بينها قوم ؛ وهي مصادر لم تنطق العرب منها بفعل .

قال الجَرْمِيّ : ومما ينتصب انتصاب المصادر وَيْله وعَوْله ووَيْحه ووَيْسَه ؛ فإذا أدخلت اللام رفعت فقلت : وَيْلٌ له ، ووَيْح له .

الثانية : قوله تعالى : ﴿ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ﴾ الكتابة معروفة .

وأوّل من كتب بالقلم وخطّ به إدريس عليه السلام ؛ وجاء ذلك في حديث أبي ذرّ ، خرّجه الآجُرّي وغيره .

وقد قيل : إن آدم عليه السلام أعطي الخط فصار وراثة في ولده .

الثالثة : قوله تعالى : ﴿ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ تأكيد ، فإنه قد عُلم أن الكَتْب لا يكون إلا باليد ؛ فهو مثل قوله : ﴿ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ ﴾ [الأنعام : 38] ، وقوله : ﴿ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم ﴾ [آل عمران : 167] .

وقيل : فائدة ﴿ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ بيان لجُرْمهم وإثبات لمجاهرتهم ، فإن مَن تولّى الفعل أشدّ مواقعة ممن لم يتولّه وإن كان راضياً له .

وقال ابن السّراج : ﴿ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ كناية عن أنهم من تلقائهم دون أن ينزل عليهم ، وإن لم تكن حقيقة في كَتْبِ أيديهم .

الرابعة : في هذه الآية والتي قبلها التحذير من التبديل والتغيير والزيادة في الشرع ، فكل من بدّل وغيّر أو ابتدع في دين الله ما ليس منه ولا يجوز فيه فهو داخل تحت هذا الوعيد الشديد ، والعذاب الأليم ؛ وقد حذّر رسول الله صلى الله عليه وسلم أمّته لما قد علم ما

يكون في آخر الزمان فقال : " ألا إنّ مَن قبلكم مِن أهل الكتاب افترقوا على اثنتين وسبعين مِلّة وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة " الحديث ، وسيأتي .

فحذّرهم أن يُحدِثوا من تلقاء أنفسهم في الدّين خلاف كتاب الله أو سنته أو سنة أصحابه فيُضِلّوا به الناس ؛ وقد وقع ما حذّره وشاع ، وكثر وذاع ؛ فإنا لله وإنّا إليه راجعون .

الخامسة : قوله تعالى : ﴿ لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً ﴾ وصف الله تعالى ما يأخذونه بالقِلة ؛ إمّا لفنائه وعدم ثباته ، وإمّا لكونه حراماً ؛ لأن الحرام لا بركة فيه ولا يربو عند الله .

قال ابن إسحاق والكلبي : كانت صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في كتابهم رَبْعة أسمر ؛ فجعلوه آدم سَبْطاً طويلاً ، وقالوا لأصحابهم وأتباعهم : انظروا إلى صفة النبيّ صلى الله عليه وسلم الذي يُبعث في آخر الزمان ليس يشبهه نعت هذا .

وكانت للأحبار والعلماء رياسة ومكاسب ؛ فخافوا إن بيّنُوا أن تذهب مآكلهم ورياستهم ؛ فمِن ثَمّ غيّروا .

ثم قال تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ قيل من المآكل .

وقيل من المعاصي .

وكرّر الويل تغليظاً لفعلهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 1 صـ 7 . 9 ﴾

ومن فوائد القاسمى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ [79]

﴿ فَوَيْلٌ ﴾ فإن أضيف ، نُصب . نحو : ويلك وويحك وإذا فُصل عن الإضافة ، رفع . نحو : ويلٌ له . الويل : الهلاك وشدة العذاب : ﴿ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ ﴾ أي : المحرّف ، أو ما كتبوه من التأويلات الزائفة : ﴿ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ تأكيد لدفع توهم المجاز . كقولك : كتبته بيميني . وقد يقال في مثل هذا : إن فائدته تصوير الحالة في النفس كما وقعت حتى يكاد السامع لذلك أن يكون مشاهداً للهيئة : ﴿ ثُمَّ يَقُولُونَ ﴾ لما كتبوه ، كذباً وبهتاناً : ﴿ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ﴾ أي : يأخذوا لأنفسهم بمقابلته : ﴿ ثَمَناً قَلِيلاً ﴾ أي : عرضاً يسيراً .

(138/57)

ويجوز في الآية معنى آخر ؛ أي : فويل للذين يكتبون كتاب التوراة بأيديهم ثم يقولون : هذا من عند الله ، فيشهدون بذلك ، وكان من مقتضى كتابتهم بأيديهم التي تقفهم من الكتاب على ما لا يقفون عليه ، لو كان كتابة غيرهم ، ومقتضى قولهم وإقرارهم بأنه من عند الله الوقوف مع عهوده ومواثيقه ، إجلالاً لمنزله وموحيه ، ودعوى الناس إلى ظواهره وخوافيه ، ولكن لم يكن ذلك منهم ، بل كان أن حرّفوا كلمه عن مواضعه ليشتروا به ثمناً قليلاً . وحاصل هذا الوجه إبقاء الكتاب المكتوب على أصله ، وصدقهم في قولهم : هذا من عند الله . ثم مخالفتهم لذلك . فيكون قوله تعالى : ﴿ لِيَشْتَرُواْ بِهِ ﴾ تعليلاً لمحذوف دل عليه السياق . أي : ثم بعد ذلك يحرفونه ثم ليشتروا به ، وهو وجه جيد يوافق آية : ﴿ يحرفون الكلم عن مواضعه ﴾ وربما يشير إلى هذا الوجه قول مجاهد فيما رواه ابن جرير : هؤلاء الذين عرفوا أنه من عند الله يحرفونه : ﴿ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ أي : فشدة العذاب لهم مما غيرت أيديهم : ﴿ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ يصيبون من الحرام والسحت .

قال الراغب : إن قيل : لِمَ ذكر : ﴿ يكسبون ﴾ بلفظ المستقبل و : ﴿ كتبت ﴾ بلفظ الماضي ؟ قيل : تنبيهاً على ما قال النبي صلى الله عليه وسلم < من سنّ سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة >

فنبه بالآية أن ما أضلّوه وأثبتوه من التأويلات الفاسدة ، التي يعتمدها الجهلة ، هو اكتساب وزر يكتسبونه حالاً فحالاً . وإن قيل : لم ذكر الكتابة دون القول . قيل : لمّا كانت الكتابة

متضمنة للقول وزائدة عليه ؛ إذ هو كذب باللسان واليد ، صار أبلغ ؛ لأن كلام اليد يبقى رسمه والقول يضمحل أثره .

(139/57)

إن قيل : ما الذي كانوا يكتبونه ؟ قيل : روي عن بعض السلف أن رؤساء اليهود كانوا يغيرون من التوراة نعت النبي صلى الله عليه وسلم . ثم يقولون هذا من عند الله . وهذا فصل يحتاج إلى فضل شرح . وهو أنه يجب أن يتصور أن كل نبيّ أتى بوصف لنبيّ بعده ، فإنه أتى بلفظة معرّضة وإشارة مدرجة ، لا يعرفها إلا الراسخون في العلم . وقد قال العلماء : ما انفك كتاب منزل من السماء من تضمن ذكر النبي صلى الله عليه وسلم ، لكن بإشارات ، ولو كان ذلك متجلياً للعوامّ لما عوتب علماؤهم في كتمانه ، ثم ازداد ذلك غموضاً بنقله من لسان إلى لسان ؛ من العبرانيّ إلى السريانيّ إلى العربيّ ، وقد ذكر المحصلة ألفاظاً من التوراة والإنجيل ، إذا اعتبرت وجدت دالة على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بتعريض ، هو عند الراسخين في العلم جليّ ، وعند العامة خفيّ . فبان بهذه الجملة أن ما كتبت أيديهم كانت تأويلات محرّفة ، وقد نبه الله تعالى بالآية على التحذير من تغيير أحكامه ، وتبديل آياته ، وكتمان الحق عن أهله ، وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، طمعاً في

عرض الدنيا ، وقد تقدم أنه عنى بالثمن القليل ، أعراض الدنيا وإن كثرت ؛ لقوله تعالى : ﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ ﴾ [النساء : 77] . [إلى هنا] كلام الراغب رحمه الله . انتهى انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 2 صـ 375. 377 ﴾

(140/57)

ومن فوائد ابن عاشور فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً ﴾

الفاء للترتيب والتسبب فيكون ما بعدها مترتباً على ما قبلها والظاهر أن ما بعدها مترتب على قوله : ﴿ وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون ﴾ [البقرة : 75] الدال على وقوع تحريف منهم عن عمد فرُتب عليه الإخبار باستحقاقهم سوء الحالة ، أو رتب عليه إنشاء استفظاع حالهم ، وأعيد في خلال ذلك ما أجمل في الكلام المعطوف عليه إعادة تفصيل .

ومعنى : ﴿ يكتبون الكتاب بأيديهم ﴾ أنهم يكتبون شيئاً لم يأتهم من رسلهم بل يضعونه ويبتكرونه كما دل عليه قوله : ﴿ ثم يقولون هذا من عند الله ﴾ المشعر بأن ذلك قولهم :

بأفواههم ليس مطابقاً لما في نفس الأمر .

و(ثم) للترتيب الرتبي لأن هذا القول أدخل في استحقاقهم الويل من كتابة الكتاب بأيديهم إذ هو المقصود .

وليس هذا القول متراخياً عن كتابتهم ما كتبوه في الزمان بل هما متقارنان .

والويل لفظ دال على الشر أو الهلاك ولم يسمع له فعل من لفظه فلذلك قيل هو اسم مصدر ، وقال ابن جني : هو مصدر امتنع العرب من استعمال فعله لأنه لو صُرِّف لوجوب اعتلال فائه وعينه بأن يجتمع فيه إعلالان أي فيكون ثقيلاً ، والويلة : البلية .

وهي مؤنث الويل قال تعالى : ﴿ قالوا يا ويلتنا ﴾ [الكهف : 49] وقال امرىء القيس :

فقالت لك الويلات إنَّك مُرْجِلِي . . .

ويستعمل الويل بدون حرف نداء كما في الآية ويستعمل بحرف النداء كقوله تعالى : ﴿ قالوا يا ويلنا إنا كنا ظالمين ﴾ [الأنبياء : 14] كما يقال يا حسرتا .

(141/57)

فأما موقعه من الإعراب فإنه إذا لم يضف أُعْرِب إعرابَ الأسماء المبتدإ بها وأُخْبر عنه بلام الجر كما في هذه الآية وقوله : ﴿ ويل للمطففين ﴾ [المطففين : 1] قال الجوهري :

وينصب فيقال : ويلاً لزيد وجعل سيبويه ذلك قبيحاً وأوجب إذا ابتدىء به أن يكون مرفوعاً ، وأما إذا أضيف فإنه يضاف إلى الضمير غالباً كقوله تعالى : ﴿ وَيْلَكم ثوابُ الله خير لمن آمن ﴾ [القصص : 80] وقوله : ﴿ وَيْلك آمِن ﴾ [الأحقاف : 17] فيكون منصوباً وقد يضاف إلى الاسم الظاهر فيعرب إعراب غير المضاف كقول النبي صلى الله عليه وسلم لأبي بصير : " وَيْلُ أُمّه مِسْعَرَ حَرْبٍ "

ولما أشبه في إعرابه المصادر الآتية بدلاً من أفعالها نصباً ورفعاً مثل : حمداً لله وصبرٌ جميل كما تقدم عند قوله تعالى : ﴿ الحمدُ لله ﴾ [الفاتحة : 2] قال أكثر أئمة العربية : إنه مصدر أُميتَ فعله ، ومنهم من زعم أنه اسم وجعل نصبَهَ في حالة الإضافة نصباً على النداء بحذف حرف النداء لكثرة الاستعمال فأصل وَيلَه يا ويله بدليل ظهور حرف النداء معه في كلامهم .

وربما جعلوه كالمندوب فقالوا : وَيْلاَه وقد أعربه الزجاج كذلك في سورة طه .

ومنهم من زعم أنه إذا نصب فعلى تقدير فعل ، قال الزجاج في قوله تعالى : ﴿ وَيْلَكم لا تفتروا على الله كذباً ﴾ [طه : 61] في طه يجوز أن يكون التقدير ألزمكم الله ويلاً .

وقال الفراء إن ويل كلمة مركبة من وَيْ بمعنى الحُزن ومن مجرورٍ باللام المكسورة فلما كثر استعمال اللام مع وَيْ صيروهما حرفاً واحداً فاختاروا فتح اللام كما قالوا يَالَ ضَبَّةَ ففتحوا

اللام وهي في الأصل مكسورة .

وهو يستعمل دعاء وتعجباً وزجراً مثل قولهم : لا أب لك ، وثكلتك أمك .

(142/57)

ومعنى : فويل للذين يكتبون الكتاب ﴿ دعاء مستعمل في إنشاء الغضب والزجر ، قال سيبويه : لا ينبغي أن يقال ﴿ ويل للمطففين ﴾ دعاء لأنه قبيح في اللفظ ولكن العباد كُلموا بكلامهم وجاء القرآن على لغتهم على مقدار فهمهم أي هؤلاء ممن وجب هذا القول لهم .

وقد جاء على مثال ويل ألفاظ وهي وَيْح ووَيْس ووَيْب ووَيْه ووَيْكَ .

وذكر ﴿ بأيديهم ﴾ تأكيد مثل نَظَرْتُه بعيني ومثل : ﴿ يقولون بأفواههم ﴾ [آل عمران : 167] وقوله : ﴿ ولا طائر يطير بجناحيه ﴾ [الأنعام : 38] والقصد منه تحقيق وقوع الكتابة ورفع المجاز عنها وأنهم في ذلك عامدون قاصدون .

وقوله : ﴿ ليشتروا به ثمناً قليلاً ﴾ هو كقوله : ﴿ ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً ﴾ [البقرة : 41] والثمن المقصود هنا هو إرضاء العامة بأن غيّروا لهم أحكام الدين على ما يوافق أهواءهم أو انتحال العلم لأنفسهم مع أنهم جاهلون فوضعوا كتباً تافهة من القصص والمعلومات البسيطة ليتفيهقوا بها في المجامع لأنهم لما لم تصل عقولهم إلى العلم الصحيح

وكانوا قد طمعوا في التصدر والرئاسة الكاذبة لفقوا نتفاً سطحية وجمعوا موضوعات وفراغات لا تثبت على محك العلم الصحيح ثم أشاعوها ونسبوها إلى الله ودينه وهذه شنشنة الجهلة المتطلعين إلى الرئاسة عن غير أهلية ليظهروا في صور العلماء لدى أنظار العامة ومن لا يميز بين الشحم والورم .

وقوله : ﴿ فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون ﴾ تفصيل لجنس الويل إلى ويلين وهما ما يحصل لهم من الشر لأجل ما وضعوه وما يحصل لهم لأجل ما اكتسبوه من جراء ذلك فهو جزاء بالشر على الوسيلة وعلى المقصد ، وليس في الآية ثلاث وٍيلات كما قد توهم ذلك .

(143/57)

وكأن هذه الآية تشير إلى ما كان في بني إسرائيل من تلاشي التوراة بعد تخريب بيت المقدس في زمن بختنصر ثم في زمن طيطس القائد الروماني وذلك أن التوراة التي كتبها موسى عليه السلام قد أمر بوضعها في تابوت العهد حسبما ذلك مذكور في سفر التثنية وكان هذا التابوت قد وضعه موسى في خيمة الاجتماع ثم وضعه سليمان في الهيكل فلما غزاهم بختنصر سنة 588 قبل المسيح أحرق الهيكل والمدينة كلها بالنار وأخذ معظم اليهود

فباعهم عبيداً في بلده وترك فئة قليلة بأورشليم قصرهم على الغراسة والزراعة ثم ثاروا على بختنصر وقتلوا نائبه وهربوا إلى مصر ومعهم أرميا فخربت مملكة اليهود .

ومن المعلوم أنهم لم يكونوا يومئذ يستطيعون إنقاذ التوراة وهم لم يكونوا من حفظتها لأن شريعتهم جعلت التوراة أمانة بأيدي اللاويين كما تضمنه سفر التثنية وأمر موسى القوم بنشر التوراة لهم بعد كل سبع سنين تمضي وقال موسى ضعوا هذا الكتاب عند تابوت العهد ليكون هناك شاهداً عليكم لأني أعرف تمردكم وقد صرتم تقاومون ربكم وأنا حي فأحرى أن تفعلوا ذلك بعد موتي ولا يخفى أن اليهود قد نبذوا الديانة غير مرة وعبدوا الأصنام في عهد رحبعام بن سليمان ملك يهوذا وفي عهد يوربعام غلام سليمان ملك إسرائيل قبل تخريب بيت المقدس وذلك مؤذن بتناسي الدين ثم طرأ عليه التخريب المشهور ثم أعقبه التخريب الروماني في زمن طيطس سنة 40 للمسيح ثم في زمن أدريان الذي تم على يده تخريب بلد أورشليم بحيث صيرها مزرعة وتفرق من أبقاه السيف من اليهود في جهات العالم .

ولهذا اتفق المحققون من العلماء الباحثين عن تاريخ الدين على أن التوراة قد دخلها التحريف والزيادة والتلاشي وأنهم لما جمعوا أمرهم عقب بعض مصائبهم الكبرى افتقدوا التوراة فأرادوا أن يجمعوها من متفرق أوراقهم وبقايا مكاتبهم .

وقد قال : (لنجرك) أحد اللاهوتيين من علماء الإفرنج إن سفر التثنية كتبه يهودي كان مقيماً بمصر في عهد الملك يوشيا ملك اليهود وقال غيره : إن الكتب الخمسة التي هي مجموع التوراة قد دخل فيها تحريف كثير من علم صموئيل أو عزير (عزرا) .

ويذكر علماؤنا أن اليهود إنما قالوا عزير ابن الله لأنه ادعى أنه ظفر بالتوراة .

وكل ذلك يدل على أن التوراة قد تلاشت وتمزقت والموجود في سفر الملوك الثاني من كتبهم في الإصحاح الحادي والعشرين أنهم بينما كانوا بصدد ترميم بيت المقدس في زمن يوشيا ملك يهوذا ادعى حلقيا الكاهن أنه وجد سفر الشريعة في بيت الرب وسلمه الكاهن لكاتب الملك فلما قرأه الكاتب على الملك مزق ثيابه وتاب من ارتداده عن الشريعة وأمر الكهنة بإقامة كلام الشريعة المكتوب في السفر الذي وجده حلقيا الكاهن في بيت الرب أ هـ .

فهذا دليل قوي على أن التوراة كانت مجهولة عندهم منذ زمان . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 1 صـ 557. 560 ﴾

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ(79)

سورة البقرة

هذه الآية الكريمة جاءت في القسم الثاني من اليهود وهو المقابل للأميين . . وهم إما أميون لا يعلمون الكتاب . . وإما يعلمون ولكنهم يغيرون فيه ويكتبونه بأيديهم ويقولون هذا من عند الله . ولذلك توعدهم الله تبارك وتعالى فقال : ويل لهم ، وبدأ الآية بالوعيد بالجزاء مباشرة . نلاحظ أن كلمة ويل في اللغة تستعمل معها كلمتي ويح وويس . . وكلها تعني الهلاك والعذاب . . وتستعمل للتحسر على غفلة الإنسان عن العذاب . . واقرأ قوله تعالى :

يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا

(من الآية 49 سورة الكهف)

وقوله جل جلاله :

يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا

(من الآية 97 سورة الأنبياء)

هذه الويلات تعني الحسرة وقت رؤية العذاب . . وقيل إن الويل وادٍ في جهنم يهوي الإنسان فيه أربعين خريفا والعياذ بالله . . والحق تبارك وتعالى ينذر الذين يكتبون الكتاب بأيديهم أن عذابهم يوم القيامة سيكون مضاعفا . . لأن كل من ارتكب إثما نتيجة لتزييفهم للكتاب سيكونون شركاء وسيحملون عذابهم معهم يوم القيامة ، وسيكون عذابهم مضاعفا أضعافا كثيرة . يقول الحق سبحانه وتعالى : " فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم " . . ألم يكن يكفي أن يقول الحق فويل للذين يكتبون الكتاب ويكون المعنى مفهوما . . يكتبون الكتاب بماذا ؟ بأيديهم . . نقول لا . . لأن الفعل قد يتم بالأمر وقد يتم بالفعل . . رئيس الدولة مثلا يتصل بأحد وزرائه ويقول له ألم أكتب إليك كتابا بكذا فلماذا لم تنفذه ؟ هو لم يكتب هذا الكتاب بيده ولكنهم كتبوه بأمره ، ورؤساء الدولة نادرا ما يكتبون كتبا بأيديهم .

إن الله سبحانه وتعالى يريد هنا أن يبين لنا مدى تعمد هؤلاء للإثم . . فهم لا يكتفون مثلا بأن يقولوا لغيرهم اكتبوا . . ولكن لاهتمامهم بتزييف كلام الله سبحانه وتزويره يقومون بذلك بأيديهم ليتأكدوا بأن الأمر قد تم كما يريدون تماما . . فليس المسألة نزوة عابرة . .

ولكنها مع سبق الإصرار والترصد . . وهم يريدون بذلك أن يشتروا ثمنا قليلا ، هو المال أو ما يسمى بالسلطة الزمنية . . يحكمون ويكون لهم نفوذ وسلطان . ولقد كان أهل الكتاب في الماضي إذا اختلفوا في شيء . . ذهبوا إلي الكهان والرهبان وغيرهم ليقضوا بينهم . . لماذا ؟ لأن الناس حين يختلفون يريدون أن يستتروا وراء ما يحفظ كبرياءهم إن كانوا مخطئين . . يعني لا أنهزم أمامه ولا ينهزم أمامي . . وإنما يقولون ارتضينا حكم فلان . . فإذا كنا سنلجأ إلي تشريع السماء ليحكم بيننا . . لا يكون هناك غالب ومغلوب أو منهزم ومنتصر . . ذلك حين أخضع أنا وأنت لحكم الله يكون كل منا راضيا بنتيجة هذا الحكم .

(147/57)

ولكن رجال الدين اليهودي والمسيحي أخذوا يصدرون فتاوى متناقضة . . كل منهم حسب مصلحته وهواه . . ولذلك تضاربت الأحكام في القضايا المتشابهة . . لأنه لم يعد الحكم بالعدل . . بل أصبح الحكم خاضعا لأهواء ومصالح وقضايا البشر . . وحين يكتبون الكتاب بأيديهم ويقولون هذا من عند الله . . إنما يريدون أن يخلعوا على المكتوب قداسة تجعل الإنسان يأخذه بلا مناقشة . . وبذلك يكونون هم المشرعين باسم الله ،

ويكتبون ما يريدون ويسجلونه كتابه ، وحين أحس أهل الكتاب بتضارب حكم الدين بما أضافه الرهبان والأحبار ، بدأوا يطلبون تحرير الحكم من سلطة الكنيسة .

ولكن لماذا يكتب هؤلاء الناس الكتاب بأيديهم ويقولون هذا من عند الله ؟ ! . . الحق سبحانه وتعالى يقول : " ليشتروا به ثمنا قليلا" . . وقد قلنا إن الإنسان لا يشتري الثمن . . ولكن يدفع الثمن ويشتري السلعة . . ولكنك هنا تدفع لتأخذ ثمنا . . تدفع من منهج الله وحكم الله فتغيره وتبدله لتأخذ ثمنا موقوتا . . والله سبحانه وتعالى يعطيك في الآخرة ولكنك تبيعه بالقليل وكل ثمن مهما بلغ تأخذه مقابل منهج الله يعتبر ثمنا قليلا . والحق سبحانه وتعالى : " فويل لهم مما كتبت أيديهم" . . الآية الكريمة بدأت بقوله تعالى : " فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم" . . ثم جاء قوله تعالى : " فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون" . . فساعة الكتابة لها ويل وعذاب . . وساعة بيع الصفقة لها ويل وعذاب . . والذي يكسبونه هو ويل وعذاب .

(148/57)

لقد انتشرت هذه المسألة في كتابة صكوك الغفران التي كانت تباع في الكنائس لمن يدفع أكثر . والحق سبحانه وتعالى يقول : " وويل لهم مما يكسبون" . . وكلمة كسب تدل على

عمل من أعمال جوارحك يجلب لك خيرا أو نفعا وهناك كسب وهناك اكتسب . .

كسب تأتي بالشيء النافع ، واكتسب تأتي بالشيء الضار . . ولكن في هذه الآية الكريمة الحق سبحانه وتعالى قال : " وويل لهم مما يكسبون " . . وفي آية ثانية قال : " بلى من كسب سيئة " . فلماذا تم هذا الاستخدام ؟ نقول إن هذا ليس كسبا طبيعيا ، إنما هو افتعال في الكسب . . أي اكتساب . . ولابد أن نفهم إنه بالنسبة لجوارح الإنسان . . فإن هناك القول والفعل والعمل . . بعض الناس يعتقد إن هناك القول والعمل . . نقول لا . . هناك قول هو عمل اللسان . . وفعل هو عمل الجوارح الأخرى غير اللسان . . وعمل وهو أن يوافق القول الفعل . . لذلك فإن الله سبحانه وتعالى يقول :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ(2) كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ(3)

(سورة الصف)

إذن هناك قول وفعل وعمل . . والإنسان إذا استخدم جوارحه استخداما سليما بفعل ما هو صالح له . . فإذا انتقل إلي ما هو صالح إلي ما يغضب الله فإن جوارحه لا تفعل ولكنها تفتعل . . تتصادم ملكاتها بعضها مع بعض والإنسان وهو يفتح الخزانة ليأخذ من ماله يكون

مطمئنا لا يخاف شيئا والإنسان حين يفتح خزانة غيره يكون مضطربا وتصرفاته كلها افتعال . . والإنسان مع زوجته منسجم في هيئة طبيعية ، بعكس ما يكون في وضع مخالف . . إنها حالة افتعال . . وكل من يكسب شيئا حراما افتعله . . ولذلك يقال عنه اكتسب . . إلا إذا تمرس وأصبح الحرام لا يهزه ، أو ممن نقول عنهم معتادو الإجرام . . في هذه الحالة يفعل الشيء بلا افتعال لأنه اعتاد عليه . . هؤلاء الذين وصلوا إلي الحد الذي يكتبون فيه بأيديهم ويقولون من عند الله . . أصبح الإثم لا يهزهم ، ولذلك توعدهم الله بالعذاب مرتين في آية واحدة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 419. 422﴾

(150/57)

" فصل "

قال السيوطى :

فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ (79)

أخرج وكيع وابن المنذر والنسائي عن ابن عباس في قوله ﴿ فويل للذين يكتبون الكتاب

بأيديهم ﴾ قال : نزلت في أهل الكتاب .

وأخرج أحمد وهناد بن السري بن الزهد وعبد بن حميد والترمذي وابن أبي الدنيا في صفة النار وأبو يعلى وابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني وابن حبان في صحيحه والحاكم في المستدرك وصححه وابن مردويه والبيهقي في البعث عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ويل وادٍ في جهنم يهوي فيه الكافر أربعين خريفاً قبل أن يبلغ قعره " .

وأخرج ابن جرير عن عثمان بن عفان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم " في قوله ﴿ فويل لهم مما كتبت أيديهم ﴾ قال : الويل جبل في النار ، وهو الذي أنزل في اليهود لأنهم حرفوا التوراة ، زادوا فيها ما أحبوا ، ومحوا منها ما كانوا يكرهون ، ومحوا اسم محمد صلى الله عليه وسلم من التوراة " .

وأخرج البزار وابن مردويه عن سعد بن أبي وقاص قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن في النار حجراً يقال لها ويل يصعد عليه العرفاء وينزلون فيه " .

وأخرج الحربي في فوائده عن عائشة قالت : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم " ويحك يا عائشة . . . ! فجزعت منها . فقال لي : يا حميراء إن ويحك أو ويك رحمة فلا تجزعي منها ، ولكن اجزعي من الويل " .

وأخرج أبو نعيم في دلائل النبوّة عن علي بن أبي طالب قال : الويح والويل بابان . فأما الويح

فباب رحمة ، وأما الويل فباب عذاب .

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر والطبراني والبيهقي في البعث عن ابن مسعود قال : ويل وادٍ في جهنم يسيل من صديد أهل النار .

(151/57)

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن النعمان بن بشير قال : الويل واد من فيح في جهنم .

وأخرج ابن المبارك في الزهد وابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي في البعث عن عطاء بن يسار قال : ويل واد في جهنم لو سيرت فيه الجبال لماعت من شدة حره .

وأخرج هناد في الزهد وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : ويل سيل من صديد في أصل جهنم وفي لفظ ويل واد في جهنم يسيل فيه صديده .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عمر مولى عفرة قال : إذا سمعت الله يقول : ويل هي النار .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ فويل للذين يكتبون الكتاب . . . ﴾ الآية . قال : هم أحبار اليهود ، وجدوا صفة النبي صلى الله عليه وسلم مكتوبة في التوراة أكحل أعين ربعة ، جعد الشعر ، حسن الوجه ، فلما وجدوه في التوراة محوه حسداً وبغياً ، فأتاهم نفر من قريش فقالوا : تجدون في التوراة نبياً أمياً ؟ فقالوا : نعم ، نجده طويلاً أزرق

سبط الشعر ، فانكرت قريش وقالوا : ليس هذا منا .

وأخرج البيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال : وصف الله محمداً صلى الله عليه وسلم في التوراة ، فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم حسده أحبار اليهود فغيَّروا صفته في كتابهم ، وقالوا : لا نجد نعته عندنا ، وقالوا للسفلة : ليس هذا نعت النبي الذي يحرم كذا وكذا كما كتبوه ، وغيَّروا نعت هذا كذا كما وصف فلبسوا على الناس ، وإنما فعلوا ذلك لأن الأحبار كانت لهم مأكلة يطعمهم إياها السفلة لقيامهم على التوراة ، فخافوا أن تؤمن السفلة فتنقطع تلك المأكلة .

(152/57)

وأخرج عبد الرزاق في المصنف والبخاري وابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الإِيمان عن ابن عباس أنه قال : يا معشر المسلمين كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء وكتابكم الذي أنزل الله على نبيه أحدث أخباراً لله تعرفونه غضاً محضاً لم يشب ، وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب قد بدلوا كتاب الله وغيروه ، وكتبوا بأيديهم الكتاب وقالوا : هو من عند الله ليشتروا به ثمناً ، أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسائلهم ، ولا والله ما رأينا منهم أحداً قط سألكم عن الذي أنزل إليكم ؟ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في الآية قال كان ناس من اليهود يكتبون كتاباً من عندهم، ويبيعونه من العرب، ويحدثونهم أنه من عند الله، فيأخذون ثمناً قليلاً.

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في الآية قال: كان ناس من بني إسرائيل كتبوا كتاباً بأيديهم ليتأكلوا الناس، فقالوا: هذه من عند الله وما هي من عند الله.

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله ﴿ ليشتروا به ثمناً قليلاً ﴾ قال: عرضاً من عرض الدنيا ﴿ فويل لهم مما يكسبون ﴾ يقول: مما يأكلون به الناس السفلة وغيرهم.

وأخرج عبد الرزاق وابن أبي داود في المصاحف وابن أبي حاتم عن إبراهيم النخعي. أنه كره كتابة المصاحف بالأجر، وتلا هذه الآية ﴿ فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم... ﴾ الآية.

وأخرج وكيع عن الأعمش. أنه كره أن يكتب المصاحف بالأجر، وتأوّل هذه الآية ﴿ فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ﴾.

وأخرج وكيع وابن أبي داود عن محمد بن سيرين أنه كان يكره شراء المصاحف وبيعها.

وأخرج عبد الرزاق وأبو عبيد وابن أبي داود عن أبي الضحى قال: سألت ثلاثة من أهل الكوفة عن شراء المصاحف. عبد الله بن يزيد الخطمي، ومسروق بن الأجدع، وشريحاً، فكلهم قال: لا نأخذ لكتاب الله ثمناً.

وأخرج ابن أبي داود من طريق قتادة عن زرارة عن مطرف قال : شهدت فتح تستر مع الأشعري ، فأصبنا دانيال بالسوس ، وأصبنا معه ربطتين من كتان ، وأصبنا معه ربعة فيها كتاب الله ، وكان أول من وقع عليه رجل من بلعنبر يقال له حرقوص ، فأعطاه الأشعري الربطتين وأعطاه مائتي درهم ، وكان معنا أجير نصراني يسمى نعيماً فقال : بيعوني هذه الربعة بما فيها ، فقالوا : إن يكن فيها ذهب أو فضة أو كتاب الله ؟ قال : فإن الذي فيها كتاب الله ، فكرهوا أن يبيعوه الكتاب فبعناه الربعة بدرهمين ووهبنا له الكتاب .

قال قتادة : فمن ثم كره بيع المصاحف لأن الأشعري وأصحابه كرهوا بيع ذلك الكتاب .

وأخرج ابن أبي داود من طريق قتادة عن سعيد بن المسيب والحسن : أنهما كرها بيع المصاحف .

وأخرج ابن أبي داود عن حماد بن أبي سليمان أنه سئل عن بيع المصاحف فقال : كان إبراهيم يكره بيعها وشراءها .

وأخرج ابن أبي داود عن سالم قال : كان ابن عمر إذا أتى على الذي يبيع المصاحف قال : بئس التجارة .

وأخرج ابن أبي داود عن عبادة بن نسي . أن عمر كان يقول : لا تبيعوا المصاحف ولا تشتروها .

وأخرج ابن أبي داود عن ابن سيرين وإبراهيم . أن عمر كان يكره بيع المصاحف وشراءها .

وأخرج ابن أبي داود عن ابن مسعود : أنه كره بيع المصاحف وشراءها .

وأخرج ابن أبي داود من طريق نافع عن ابن عمر قال : وددت أن الأيدي تقطع على بيع المصاحف .

وأخرج عبد الرزاق وابن أبي داود من طريق سعيد بن جبير قال : وددت أن الأيدي قطعت على بيع المصاحف وشرائها .

وأخرج ابن أبي داود عن عكرمة قال : سمعت سالم بن عبد الله يقول : بئس التجارة المصاحف .

وأخرج ابن أبي داود عن جابر بن عبد الله : أنه كره بيع المصاحف وشراءها .

وأخرج عبد الرزاق وابن أبي داود عن عبد الله بن شقيق العقيلي : أنه كان يكره بيع المصاحف قال : وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يشددون في بيع المصاحف ويرونه عظيماً .

وأخرج ابن أبي داود عن ابن شهاب عن سعيد بن المسيب : أنه كره بيع المصاحف كراهية شديدة ، وكان يقول : أعن أخاك بالكتاب أو هب له .

وأخرج ابن أبي داود عن علي بن حسين قال : كانت المصاحف لا تباع ، وكان الرجل يأتي بورقة عند المنبر فيقول من الرجل يحتسب فيكتب لي ؟ ثم يأتي الآخر فيكتب حتى يتم المصحف .

وأخرج ابن أبي داود عن مسروق وعلقمة وعبد الله بن يزيد الأنصاري وشريح وعبادة . أنهم كرهوا بيع المصاحف وشراءها ، وقالوا : لا نأخذ لكتاب الله ثمناً .

وأخرج ابن أبي داود عن إبراهيم عن أصحابه قال : كانوا يكرهون بيع المصاحف وشراءها .

وأخرج ابن أبي داود عن أبي العالية . أنه كان يكره بيع المصاحف ، وقال : وددت أن الذين يبيعون المصاحف ضربوا .

وأخرج ابن أبي داود عن ابن سيرين قال : كانوا يكرهون بيع المصاحف وكتابتها بالأجر .

وأخرج ابن أبي داود عن ابن جريج قال : قال عطاء : لم يكن من مضى يبيعون المصاحف إنما حدث ذلك الآن ، وإنما يجلسون بمصاحفهم في الحجر فيقول أحدهم للرجل إذا كان كاتباً وهو يطوف : يا فلان إذا فرغت تعال فاكتب لي . قال : فيكتب المصحف وما كان

من ذلك حتى يفرغ من مصحفه .

وأخرج ابن أبي داود عن عمرو بن مرة قال : كان في أوّل الزمان يجتمعون فيكتبون المصاحف ، ثم أنهم استأجروا العباد فكتبوها لهم ، ثم أن العباد بعد أن كتبوها باعوها ، وأوّل من باعها هم العباد .

وأخرج أبو عبيد وابن أبي داود عن عمران بن جرير قال : سألت أبا مجلز عن بيع المصاحف قال : إنما بيعت في زمن معاوية فلا تبعها .

وأخرج ابن أبي داود عن محمد بن سيرين قال : كتاب الله أعز من أن يباع .

وأخرج ابن سعيد عن حنظلة قال : كنت أمشي مع طاوس فمر بقوم يبيعون المصاحف فاسترجع .

ذكر من رخص في بيعها وشرائها

أخرج ابن أبي داود عن ابن عباس أنه سئل عن بيع المصاحف فقال : لا بأس ، إنما يأخذون أجور أيديهم .

(155/57)

وأخرج ابن أبي داود عن ابن الحنفية أنه سئل عن بيع المصاحف قال : لا بأس ، إنما يبيع الورق .

وأخرج عبد الرزاق وأبو عبيد وابن أبي داود عن الشعبي قال : لا بأس ببيع المصاحف ، إنهم لا يبيعون كتاب الله إنما يبيعون الورق وعمل أيديهم .

وأخرج ابن أبي داود عن جعفر عن أبيه قال : لا بأس بشراء المصاحف وأن يعطى الأجر على كتابتها .

وأخرج عبد الرزاق وأبو عبيد وابن أبي داود عن مطر الوراق . أنه سئل عن بيع المصاحف فقال : كان خيرا أو حبرا هذه الأمة لا يريان ببيعها بأساً ، الحسن والشعبي .

وأخرج ابن أبي داود عن حميد . أن الحسن كان يكره بيع المصاحف ، فلم يزل به مطر الوراق حتى رخص فيه .

وأخرج ابن أبي داود من طرق عن الحسن قال : لا بأس ببيع المصاحف وشرائها ونقطها بالآجر .

وأخرج ابن أبي داود عن الحكم : أنه كان لا يرى بأساً بشراء المصاحف وبيعها .

وأخرج أبو عبيد وابن أبي داود عن أبي شهاب موسى بن نافع قال : قال لي سعيد بن جبير : هل لك في مصحف عندي قد كفيتك عرضه فتشتريه ؟

وأخرج عبد الرزاق وأبو عبيد وابن أبي داود من طرق عن ابن عباس قال : اشتر

المصاحف ولا تبعها .

وأخرج ابن أبي داود عن ابن عباس قال : رخص في شراء المصاحف وكره في بيعها . قال ابن أبي داود : كذا قال رخص كأنه صار مسنداً .

وأخرج أبو عبيد وابن أبي داود عن جابر بن عبد الله في بيع المصاحف قال : ابتعها ولا تبعها .

وأخرج ابن أبي داود عن سعيد بن المسيب وسعيد بن جبير . مثله .

وأخرج عبد الرزاق عن ابن عمر . مثله . انتهى انتهى . ا هـ ﴾ الدر المنثور حـ 1 صـ 206.201 ﴿

(156/57)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الكتاب ﴾ " ويل " مبتدأ ، وجاز الابتداء به وإن كان نكرة ، لأنه دعاء عليهم ، والدعاء من المسوغات ، سواء كان دعاء له نحو : " سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ " أو دعاء عليه كهذه الآية ، والجار بعده الخبر ، فيتعلّق بمحذوف .

وقال أبو البقاء : ولو نصب لكان له وجه على تقدير : ألزمهم الله ويلاً ، واللام للتبيين ؛ لأن الاسم لم يذكر قبل المصدر يعني : أن اللام بعد المنصوب للبيان ، فيتعلّق بمحذوف .

وقوله : لأن الاسم لم يذكر قبل ، يعني أنه لو ذكر قبل " ويل " فقلت : " ألزم الله زيداً ويلاً " لم يحتج إلى تبيين بخلاف ما لو تأخر .

وعبارة الجرمي توهم وجوب الرفع في المقطوع عن الإضافة ؛ ونصّ الأخفش على جواز النّصب ، فإنه قال : ويجوز النصب على إضمار فعل أي : ألزمهم الله ويلاً .

(157/57)

واعلم أن " وَيْلاً " وأخواته وهي : " وَيْح " و " وَيْس " و " وَيْب " و " وَيْه " و " ويك " و " عَوْل " من المصادر المنصوبة بأفعال من غير لفظها ، وتلك الأَفْعَال واجبة الإضمار ، لا يجوز إظهارها ألبتة ؛ لأنها جعلت بدلاً من اللفظ بالفعل ، وإذا فصل عن الإضافة فالأحسن فيه الرفع نحو " ويل له " وإن أضيف نصب على ما تقدم ، وإن كانت عبارة الجرمي توهم وجوب الرفع عند قَطْعه عن الإضافة ، فإنه قال : فإذا أدخلت اللاّم رفعت فقلت : " ويل له " و " ويح له " كأنه يريد على الأكثر ، ولم يستعمل العرب منه فعلاً ؛ لاعتلال عينه وفائه .

وقد حكى ابن عرفة : " تَوَيَّلَ الرجل " إذا دعا بالوَيْلِ .

وهذا لا يرد ؛ لأنه مثل قولهم : سَوَّفْتَ ولَوْلَيت إذا قلت له : سَوْفَ وَلَوْ .

ومعنى الويل : شدة الشر ، قاله الخليل .

وقال الأَصْمَعِيّ : الويل : التفجُّع ، والويح : الترحم .

وقال سيبويه : وَيْلٌ لمن وقع في الهَلكة ، وويح زجر لمن أشرف على الهلاك .

وقيل : الويل : الحزن .

وهل " ويل وويح وويس وويب " بمعنى واحد أو بينها فرق ؟ خلاف فيه ، وقد تقدم ما فرقه به سيبويه في بعضها .

وقال قوم : " ويل " في الدعاء عليه ، و" ويح " وما بعده ترحم عليه .

وزعم الفراء أنّ أَصْل " ويل " : وَيْ ، أي : حزن ، كما تقول : وي لفلان أي حُزْنٌ له ، فوصلته العرب باللاّم ، وقدرت أنها منه فأعربوها ، وهذا غريب جدّاً .

ويقال : وَيْلٌ وَوَيْلَة .

وقال امرؤ القيس [الطويل]

607 لَهُ الوَيْلُ إنْ اَمْسَى ولَا أُمُّ عَامِرٍ . . .

لَدَيْه ولَا البَسْبَاسَةُ ابْنَةُ يَشْكُرَا

وقال أيضاً : [الطويل]

608 ويَوْمَ دَخَلْتُ الخِدْرَ خِدْرَ عُنَيْزَةٍ . . .

فَقَالَتْ : لَكَ الوَيْلاَتُ إِنَّكَ مُرْجِلِي

ف " وَيْلات " جمع " وَيْلة " لاجمع " وَيْل " كما زعم ابن عطية ؛ لأن جمع المذكر بالألف والتاء لا ينقاس .

(158/57)

قال ابن عباس رضي الله عنه : " الويل العذاب الأليم " ، وعن سفيان الثورى أنه قال : " صديد أهل جهنم " .

[وروى أبو سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم أَنَّه قال : " الوَيْلُ وَادٍ فِي جَهَنَّمَ يَهْوِي فِيهِ الكَافِرُ أَرْبَعِينَ خَرِيفاً قَبْلَ أَنْ يَبْلُغَ قَعْرَهُ "

] .

وقال سعيد بن المسيب : " وَادٍ في جهنم لو سيرت فيه جبال الدّنيا لانماعت من شدّة حره " .

وقال ابن يزيد : " جبل من قَيح ودم " .

وقيل : صهريج في جهنم .

وحكى الزهراوي عن آخرين : أنه باب من أبواب جَهَنَّم .

وعن ابن عباس : الويل المشقّة من العذاب .

وقيل : ما تقدم في اللغة .

قوله : " بِأَيْدِيهِمْ " متعلّق بـ " يكتبون " ، ويبعد جعله حالاً من " الكتاب " ، والكتاب هنا بعض المكتوب ، فنصبه على المفعول به ، ويبعد جعله مصدراً على بابه ، وهذا من باب التأكيد ، فإن [الكتابة] لا [تكون] بغير اليد ، [ونظيره] :

﴿ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ ﴾ [الأنعام : 38] ﴿ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم ﴾ [آل عمران : 167] .

وقيل : فائدة ذكره أنهم باشروا ذلك بأنفسهم ، ولم يأمروا به غيرهم ، فإنّ قولهم : فعل كذا يحتمل أنه أمر بفعله ولم يباشره ، نحو : " بنى الأمير المدينة " فأتى بذلك رفعاً لهذا المجاز .

وقيل : فائدة [ذكره أنهم باشروا ذلك بأنفسهم ، ولم يأمروا به غيرهم .

ففائدته] بيان جرأتهم ومجاهرتهم ، فإن المُبَاشر للفعل أشدّ مواقعة ممن لم يباشره .

وهذان القولان قريبان من التأكيد ، فإنَّ أصل التأكيد رفع توهّم المجاز .

وقال ابن السراج : ذكر الأيدي كناية عن أنهم اختلقوا ذلك من تِلْقَائِهِمْ ، ومن عند أنفسهم ، وهذا الذي قاله لا يلزم .

والأيدي: جمع "يد"، والأصل: أَيْدُيٌ بضم الدال كـ "فلس وأفلس" في القِلّة، فاستثقلت الضمة قبل الياء، فقلبت كسرة للتجانُس، نحو: "بيض" جمع "أبيض"، والأصل "بُيْض" بضم الباء كـ "حمر" جمع "أحمر"، وهذا رأي سيبويه، أعني أنه يقر الحرف ويغير الحركة، ومذهب الأخفش عكسه، وسيأتي تحقيق مذهبهما عند ذكر "معيشة" إن شاء الله تعالى.

وأصل "يد": يَدْيٌ بسكون العين.

وقيل: يَدَيٌ بتحريكها فتحرّكَ حرف العلة وانفتح ما قبله فقلب ألفاً، فصار: يَدا كـ "رَحًى" وعليه التثنية: يَدَيَانِ [وعليه أيضاً قوله: [الزجز]

609 يَارُبَّ سَارٍ بَاتَ مَا تَوَسَّدَا . . .

إلاَّ ذِرَاعَ العَنْزِ أَوْ كَفَّ اليَدَا]

[والمشهور في تثنيتها عدم ردّ لامها، قال تعالى: ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ [المائدة: 64] ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ [المسد: 1] وقد شذّ الردُّ في قوله: يَدَيَانِ؛ قال: [الكامل]

610 يَدَيَانِ بَيْضَاوَانِ عِنْدَ مُحَلِّمٍ . . .

قَدْ يَمْنَعَانِكَ أَنْ تُضَامَ وَتُقْهَرَا

و" أياد " جمع الجمع ، نحو : كلب وأكلب وأكالب ، ولا بد في قوله : " يَكْتُبُونَ الكِتَابَ " من حذف يصح معه المعنى ، فقدره الزمخشري : " يكتبون لكتاب المحرف " ، وقدره غيره حالاً من الكتاب تقديره : ويكتبون الكتاب محرفاً ، وإنما [أحوج] إلى هذا الإضمار ؛ لأن الإنكار لا يتوجّه على من كتب الكتاب بيده إلا إذا حرفه غيره .

قوله : " لِيَشْتَرُوا " اللام : لام كي ، وقد تقدمت ، والضمير في " به " يعود على ما أشاروا إليه بقوله " هذا من عند الله " .

و" ثَمَناً " مفعوله .

وقد تقدّم تحقيق دخول الباء على غير الثمن عند قوله : ﴿ وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً ﴾ [البقرة : 41] فليلتفت إليه ، واللاّم متعلقة بـ " يقولون " أي : يقولون ذلك لأجل الاشتراء .

(160/57)

وأبعد من جعلها متعلّقة بالاستقرار الذي تضمنه قوله : " مِنْ عِنْدِ اللهِ " .

قوله : " مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ " متعلّق بـ " ويل " أو بالاستقرار في الخبر .

و" من " للتعليل و" ما " موصولة اسمية ، والعائد محذوف ، ويجوز أن تكون نكرة موصوفة .

والأول أقوى ، والعائد أيضاً محذوف أي : كتبته ، ويجوز أن تكون مصدرية ، أي : من كَتْبِهِمْ .

و " وَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ " مثل ما تقدم قبله ، وإنما كرر الوَيْل ؛ ليفيد أن الهَلَكَة متعلقة بكل واحد من الفعلين على حِدَته لا بمجموع الأمرين ، وإنا قدم قوله : " كَتَبَتْ " على " يَكْسِبُون " ؛ لأن الكتابة مقدمة ، فنتيجتها كَسْب المال ، فالكَتْب سبب والكَسْب مسبب ، فجاء النظم على هذا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 2 صـ 206. 210 ﴾ .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآيتين

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً ﴾ .

أخبر أنهم متفاوتون في نقائص كفرهم ، فقومٌ منهم أخَسُّ درجةً وأكثر جهلاً ركنوا إلى التقليد ، ولم يملكهم استيلاء شبهة بل اغتروا بظنّ وتخمين ، فهم الذين لا نصيب لهم من كتبهم إلا قراءتها ، دون معرفة معانيها . ومنهم مَنْ أكثرُ شأنه ما يتمناه في نفسه ، ولا يساعده إمكان ، ولا لظنونه قط تحقيق . ثم أخبر عن سوء عاقبتهم بقوله جل ذكره : ﴿ فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ .

أي خَسِروا في الحال والمآل ، والإشارة في هذه الآية لمن عَدِم الإخلاص في الصحبة في طريق الحق ؛ يَنْضَمُّ إلى الأولياء ظاهراً ثم لا تَصْدُقُ له إرادة فهو مع أهل الغفلة مُصَاحِب ، وله مع هذه الطريقة جانب ، كلما دَعَتْهُ هواتف الحظوظ تَسَارَعَ إلى الإجابة طوعاً ، وإذا قادته دواعي الحق – سبحانه – يتكلف شيئاً ، فَبِئْسَتْ الحالة حين لم يخلص ، وما أشد ندمه فيما ادَّخَرَ عن الله ثم لا يُفْلِحْ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 101 ﴾

(162/57)

قوله تعالى ﴿ وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (80) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أرشد الكلام إلى أن التقدير : فحرفوا كثيراً في كتاب الله وزادوا ونقصوا ، عطف عليه ما بين به جرأتهم وجفاهم وعدم اكتراثهم بما يرتكبونه من الجرائم التي هم أعلم الناس بأن بعضها موجب للخلود في النار فقال تعالى : ﴿ وقالوا لن تمسّنا ﴾ من المس وهو ملاقاة

ظاهر الشيء ظاهر غيره ﴿ النار ﴾ أي المعدة في الآخرة ﴿ إلا أياماً ﴾ ولما كان مرادهم بذلك أنهم لا يخلدون فيها وكان جمع القلة وإن كان يدل على ذلك لكنه ربما استعير للكثرة فدل على ما لا آخر له أو ما يعسر عده زادوا المعنى تأكيداً وتصريحاً بقولهم :

﴿ معدودة ﴾ أي منقضية ، لأن كل معدود منقض .

قال الحرالي : والعدّ اعتبار الكثرة بعضها ببعض ، واقتصر على الوصف بالمفرد لكفايته في هذا المعنى بخلاف ما في آل عمران .

(163/57)

ولما ادعوا ذلك ادعوا أن المسلمين يخلفونهم بعد ذلك فيها ، روى البخاري في الجزية والمغازي والطب والدارمي في أول المسند عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : لما فتحت خيبر أهديت للنبي صلى الله عليه وسلم شاة فيها سم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " اجمعوا لي من كان ههنا من يهود ، فجمعوا له فقال : إن سائلكم عن شيء فهل أنتم صادقي عنه ؟ فقالوا : نعم ، فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم : من أبوكم ؟ قالوا فلان ، فقال : كذبتم ، بل أبوكم فلان ، قالوا : صدقت وبررت ، قال : فهل أنتم صادقي عن شيء إن سألتكم عنه ؟ قالوا : نعم يا أبا القاسم ، وإن كذبنا عرفت كذبنا كما عرفته في

أبينا ، فقال لهم : من أهل النار ؟ قالوا : نكون فيها يسيراً ثم تخلفونا فيها ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : اخسؤوا فيها ! والله لا نخلفكم فيها أبداً ، ثم قال : هل أنتم صادقي عن شيء إن سألتكم عنه ؟ فقالوا : نعم يا أبا القاسم ، قال : هل جعلتم في هذه الشاة سماً ؟ قالوا : نعم ، قال : ما حملكم على ذلك ؟ قالوا : أردنا إن كنت كاذباً أن نستريح منك ، وإن كنت نبياً لم يضرك " ولما ادعوا ذلك كان كأنه قيل : فيما ذا نرد عليهم ؟ فقال ﴿ قل ﴾ منكراً لقولهم ﴿ اتخذتم ﴾ في ذلك ﴿ عند الله ﴾ أي الذي له الأمر كله ﴿ عهداً فلن ﴾ أي فيتسبب عن ذلك أنه يوفي بعهده ، لأنه ﴿ يخلف الله ﴾ الذي له صفات الكمال ﴿ عهده أم ﴾ لم يكن ذلك فأنتم ﴿ تقولون على الله ﴾ المحيط بكل شيء قدرة وعلماً ﴿ ما لا تعلمون ﴾ ومعنى الإنكار في الاستفهام أنه ليس واحد من الأمرين واقعاً ، لا اتخذتم عهداً ولا قلتم ذلك جهلاً ، بل قلتموه وأنتم تعلمون خلافه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 177.178 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أن هذا هو النوع الثالث من قبائح أقوالهم وأفعالهم وهو جزمهم بأن الله تعالى لا يعذبهم إلا أياماً قليلة ، وهذا الجزم لا سبيل إليه بالعقل ألبتة أما على قولنا ، فلأن الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا اعتراض لأحد عليه في فعله ، فلا طريق إلى معرفة ذلك إلا بالدليل السمعي ، وأما على قول المعتزلة فلأن العقل يدل عندهم على أن المعاصي يستحق بها من الله العقاب الدائم ، فلما دل العقل على ذلك احتج في تقدير العقاب مدة ثم في زواله بعدها إلى سمع يبين ذلك ، فثبت أن على المذهبين لا سبيل إلى معرفة ذلك إلا بالدليل السمعي ، وحيث توجد الدلالة السمعية لم يجز الجزم بذلك . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 129 ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ وَقَالُواْ ﴾ بيانٌ لبعضٍ آخرَ من جناياتهم ، وفصلُه عما قبله مُشعرٌ بكونه من الأكاذيب التي اختلقوها ولم يكتبوها في الكتاب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 1 صـ 121 ﴾

فائدة

قال ابن عاشور :

﴿ وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً ﴾

قيل : الواو لعطف الجملة على جملة : ﴿ وقد كان فريق منهم ﴾ [البقرة : 75] فتكون

حالاً مثلها أي كيف تطمعون أن يؤمنوا لكم وهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه ويقولون : ﴿ لن تمسنا النار ﴾ .

والأظهر عندي أن الواو عطف على قوله ﴿ يكتبون ﴾ [البقرة : 79] إلخ أي فعلوا ذلك وقالوا لن تمسنا النار .

ووجه المناسبة أن قولهم ﴿ لن تمسنا النار ﴾ دل على اعتقاد مقرر في نفوسهم يشيعونه بين الناس بألسنتهم قد أنبأ بغرور عظيم من شأنه أن يقدمهم على تلك الجريمة وغيرها إذ هم قد أمنوا من المؤاخذة إلا أياماً معدودة تعادل أيام عبادة العجل أو أياماً عن كل ألف سنة من العالم يوم وإن ذلك عذاب مكتوب على جميعهم فهم لا يتوقون الإقدام على المعاصي لأجل ذلك ، فبالعطف على أخبارهم حصلت فائدة الإخبار عن عقيدة من ضلالاتهم .

(165/57)

ولموقع هذا العطف حصلت فائدة الاستئناف البياني إذ يعجب السامع من جرأتهم على هذا الإجرام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 1 صـ 560 ﴾

فصل فى سبب نزول الآية

قال القرطبى :

اختلف في سبب نزولها ؛ فقيل : " إن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال لليهود : " مَنْ أهل النار " .

قالوا : نحن ، ثم تخْلُفونا أنتم .

فقال : "كذبتم لقد علمتم أنّا لا نخلفكم" " فنزلت هذه الآية ؛ قاله ابن زيد .

وقال عكرمة عن ابن عباس : قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة واليهود تقول : إنما هذه الدنيا سبعة آلاف ، وإنما يعذّب الناس في النار لكل ألف سنة من أيام الدنيا يوم واحد في النار من أيام الآخرة ، وإنما هي سبعة أيام ؛ فأنزل الله الآية ؛ وهذا قول مجاهد .

وقالت طائفة : قالت اليهود إن في التوراة أن جهنم مسيرة أربعين سنة ، وأنهم يقطعون في كل يوم سنة حتى يكملوها وتذهب جهنم .

ورواه الضحاك عن ابن عباس .

وعن ابن عباس : زعم اليهود أنهم وجدوا في التوراة مكتوباً أن ما بين طرفي جهنم مسيرة أربعين سنة إلى أن ينتهوا إلى شجرة الزقوم .

وقالوا : إنما نعذّب حتى ننتهي إلى شجرة الزقوم فتذهب جهنم وتهلك .

وعن ابن عباس أيضاً وقتادة : أن اليهود قالت إن الله أقسم أن يدخلهم النار أربعين يوماً عدد عبادتهم العجل ؛ فأكذبهم الله ، كما تقدّم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 2 صـ 10 ﴾

فصل

قال الفخر :

ذكروا في تفسير الأيام المعدودة وجهين .

الأول : أن لفظ الأيام لا تضاف إلا إلى العشرة فما دونها ، ولا تضاف إلى ما فوقها .

فيقال : أيام خمسة وأيام عشرة ولا يقال أيام أحد عشر إلا أن هذا يشكل بقوله تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصيام كَمَا كُتِبَ عَلَى الذين مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ أَيَّامًا معدودات ﴾ [البقرة : 183 ، 184] هي أيام الشهر كله ، وهي أزيد من العشرة .

(166/57)

ثم قال القاضي : إذا ثبت أن الأيام محمولة على العشرة فما دونها فالأشبه أن يقال : إنه الأقل أو الأكثر لأن من يقول ثلاثة يقول أحمله على أقل الحقيقة فله وجه ، ومن يقول عشرة يقول أحمله على الأكثر وله وجه ، فأما حمله على الواسطة أعني على ما هو أقل من العشرة وأزيد من الثلاثة فلا وجه له ، لأنه ليس عدد أولى من عدد اللهم إلا إذا جاءت في تقديرها رواية صحيحة فحينئذ يجب القول بها ، وجماعة من المفسرين قدروها بسبعة أيام ، قال مجاهد : إن اليهود كانت تقول : الدنيا سبعة آلاف سنة فالله تعالى يعذبهم مكان كل ألف

سنة يوماً ، فكانوا يقولون : إن الله تعالى يعذبنا سبعة أيام .

وحكى الأصم عن بعض اليهود أنهم عبدوا العجل سبعة أيام فكانوا يقولون إن الله تعالى يعذبنا سبعة أيام وهذان الوجهان ضعيفان .

أما الأول : فلأنه ليس بين كون الدنيا سبعة آلاف سنة وبين كون العذاب سبعة أيام مناسبة وملازمة ألبتة .

وأما الثاني : فلأنه لا يلزم من كون المعصية مقدرة بسبعة أيام أن يكون عذابها كذلك .

أما على قولنا فلأنه يحسن من الله كل شيء بحكم المالكية ، وأما عند المعتزلة فلأن العاصي يستحق على عصيانه العقاب الدائم ما لم توجد التوبة أو العفو ،

فإن قيل : أليس أنه تعالى منع من استيفاء الزيادة فقال : ﴿ وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ [الشورى : 40] فوجب أن لا يزيد العقاب على المعصية ؟

قلنا : إن المعصية تزداد بقدر النعمة .

فلما كانت نعم الله على العباد خارجة عن الحصر والحد لا جرم كانت معصيتهم عظيمة جداً .

الوجه الثاني : روي عن ابن عباس أنه فسر هذه الأيام بالأربعين ، وهو عدد الأيام التي عبدوا العجل فيها ، والكلام عليه أيضاً كالكلام على السبعة .

الوجه الثالث : قيل في معنى " معدودة" قليلة ، كقوله تعالى : ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دراهم

مَعْدُودَةٍ ﴾ [يوسف : 20] ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 130.129 ﴾

(167/57)

قال ابن عاشور :

وقوله : ﴿ وقالوا ﴾ أراد به أنهم قالوه عن اعتقاد لأن الأصل الصدق في القول حتى تقوم القرينة على أنه قول على خلاف الاعتقاد كما في قوله ﴿ قالوا آمنا ﴾ [البقرة : 14] ولأجل أن أصل القول أن يكون على وفق الاعتقاد ساغ استعمال القول في معنى الظن والاعتقاد في نحو قولهم : قال مالك ، وفي نحو قول عمرو بن معد يكرب :

علام تقول الرمح يثقل عاتقي . . .

والمس حقيقته اتصال اليد بجرم من الأجرام وكذلك اللمس قال تعالى : ﴿ والذين كذبوا بآياتنا يمسهم العذاب ﴾ [الأنعام : 49] .

وعبر عن نفيهم بحرف (لن) الدال على تأبيد النفي تأكيداً لانتفاء العذاب عنهم بعد تأكيد ، ولدلالة (لن) على استغراق الأزمان تأتّى الاستثناء من عموم الأزمنة بقوله : ﴿ إلا أياماً معدودة ﴾ على وجه التفريع فهو منصوب على الظرفية .

والوصف بمعدودة مؤذن بالقلة لأن المراد بالمعدود الذي يعده الناس إذا رأوه أو تحدثوا عنه ، وقد شاع في العرف والعوائد أن الناس لا يعمدون إلى عد الأشياء الكثيرة دفعاً للملل أو لأجل الشغل سواء عرفوا الحساب أم لم يعرفوه لأن المراد العد بالعين واللسان لا العد بجمع الحسابات إذ ليس مقصوداً هنا .

وتأنيث (معدودة) وهو صفة (أياماً) مراعى فيه تأويل الجمع بالجماعة وهي طريقة عربية مشهورة ولذلك كثر في صفة الجمع إذا أنثوها أن يأتوا بها بصيغة الإفراد إلا إذا أرادوا تأويل الجمع بالجماعات ، وسيأتي ذلك في قوله تعالى : ﴿ أياماً معدودات ﴾ [البقرة : 184] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 1 صـ 561 ﴾

فصل

قال الفخر :

ذهبت الحنفية إلى أن أقل الحيض ثلاثة أيام وأكثره عشرة ، واحتجوا عليه بقوله صلى الله عليه وسلم : " دعي الصلاة أيام أقرائك " فمدة الحيض ما يسمى أياماً وأقل عدد يسمى أياماً ثلاثة وأكثره عشرة على ما بيناه ، فوجب أن يكون أقل الحيض ثلاثة وأكثره عشرة ، والإشكال عليه ما تقدم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 130 ﴾

قال القرطبى :

في هذه الآية رَدٌّ على أبي حنيفة وأصحابه حيث استدلوا بقوله عليه السلام : " دَعِي الصلاة أيامَ أقرائك " في أن مدة الحيض ما يُسمَّى أيام الحيض ، وأقلها ثلاثة وأكثرها عشرة ؛ قالوا : لأن ما دون الثلاثة يسمَّى يوماً ويومين ، وما زاد على العشرة يقال فيه أحد عشر يوماً ولا يقال فيه أيام ؛ وإنما يقال أيام من الثلاثة إلى العشرة ؛ قال الله تعالى : ﴿ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الحج ﴾ [البقرة : 196] ، ﴿ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ﴾ [هود : 65] ، ﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً ﴾ [الحاقة : 7] فيقال لهم : فقد قال الله تعالى في الصوم : ﴿ أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ ﴾ يعني جميع الشهر ؛ وقال : ﴿ لَن تَمَسَّنَا النار إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ ﴾ [آل عمران : 24] يعني أربعين يوماً .

وأيضاً فإذا أضيفت الأيام إلى عارض لم يُرَد به تحديد العدد ؛ بل يقال : أيامُ مَشْيِك وسَفرِك وإقامتك ، وإن كان ثلاثين وعشرين وما شئت من العدد ؛ ولعله أراد ما كان معتاداً لها ، والعادة ستّ أو سبع ؛ فخرّج الكلام عليه ، والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 2 صـ 10 ﴾

فائدة

قال الفخر :

ذكر ههنا : ﴿ وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النار إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ﴾ وفي آل عمران : ﴿ إِلا أَيَّامًا معدودات ﴾ [آل عمران : 24] ولقائل أن يقول : لم كانت الأولى معدودة والثانية معدودات والموصوف في المكانين موصوف واحد وهو " أياماً " ؟ والجواب : أن الاسم إن كان مذكراً فالأصل في صفة جمعه التاء .

يقال : كوز وكيزان مكسورة وثياب مقطوعة وإن كان مؤنثاً كان الأصل في صفة جمعه الألف والتاء ، يقال : جرة وجرار مكسورات وخابية وخوابي مكسورات .

(169/57)

إلا أنه قد يوجد الجمع بالألف والتاء فيما واحده مذكر في بعض الصور نادراً نحو حمام وحمامات وجمل سبطر وسبطرات وعلى هذا ورد قوله تعالى : ﴿ فِى أَيَّامٍ معدودات ﴾ و ﴿ فِى أَيَّامٍ معلومات ﴾ فالله تعالى تكلم في سورة البقرة بما هو الأصل وهو قوله : ﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ﴾ وفي آل عمران بما هو الفرع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 130 ﴾

قال الآلوسى :

﴿ وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النار إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ﴾ جملة حالية معطوفة على قوله تعالى : ﴿

وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ ﴾ [البقرة: 75] عند فريق منهم، وعند آخرين على ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ ﴾ [البقرة: 72] عطف قصة على قصة، واختار بعض المحققين أنها اعتراض لرد ما قالوا حين أوعدوا على ما تقدم بالوليل بل جميع الجمل عنده من قوله تعالى: ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا ميثاق ﴾ [البقرة: 83 75] الخ، ذكر استطراداً بين القصتين المعطوفتين، فالضمير في ﴿ قَالُواْ ﴾ عائد على ﴿ الَّذِينَ يَكْتُبُونَ الكتاب ﴾ [البقرة: 79] والمس اتصال أحد الشيئين بآخر على وجه الإحساس والإصابة وذكر الراغب أنه كاللمس، لكن اللمس قد يقال لطلب الشيء وإن لم يوجد كقوله:

وألمسه فلا أجده...

(170/57)

والمراد من النار نار الآخرة، ومن المعدودة المحصورة القليلة، وكنى بالمعدودة عن القليلة لما أن الأعراب لعدم علمهم بالحساب وقوانينه تصوّر القليل متيسر العدد والكثير متعسره، فقالوا: شيء معدود أي قليل وغير معدود أي كثير والقول بأن القلة تستفاد من أن الزمان إذا كثر لا يعد بالأيام، بل بالشهور والسنة والقرن يشكل بقوله تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ

الصيام ﴾ إلى ﴿ أَيَّامًا معدودات ﴾ [البقرة : 183 ، 184] وبقوله سبحانه : ﴿ إِذْ واعدنا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ [البقرة : 51] وروي عنهم أنهم يعذبون أربعين يوماً عدد عبادتهم العجل ؛ ثم ينادى أخرجوا كل محتون من بني إسرائيل ، وفي رواية أنهم يعذبون سبعة أيام لكل ألف سنة من أيام الدنيا يوم ، وهي سبعة آلاف سنة .

وروي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، أنهم زعموا أنهم وجدوا مكتوباً في التوراة إن ما بين طرفي جهنم مسيرة أربعين سنة إلى أن ينتهوا إلى شجرة الزقوم ، وأنهم يقطعون في كل يوم مسيرة سنة فيكملونها ، وقد قالوا ذلك حين دخل النبي صلى الله عليه وسلم المدينة وسمعه المسلمون فنزلت هذه الآية . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 304 ﴾

" فصل "

قال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَةً ﴾ والفرق بين اللمس والمس ، أن مع اللمس إحساساً .

وفي الأيام المعدودة قولان :

أحدهما : أنها أربعون يوماً ، وهذا قول قتادة ، والسدي ، وعكرمة ، وأبي العالية ، ورواه الضحاك عن ابن عباس ، ومن قال بهذا اختلفوا في تقديرهم لها بالأربعين :

فقال بعضهم : لأنها عدد الأيام التي عبدوا فيها العجل .

وقال ابن عباس : أن اليهود يزعمون أنهم ، وجدوا في التوراة مكتوباً ، أن ما بين طرفي جهنم مسيرة أربعين سنة ، وهم يقطعون مسيرة كل سنة في يوم ، فإذا انقطع المسير انقضى العذاب ، وهلكت النار ، وهذا قول من قدر " المعدودة " بالأربعين .

(171/57)

والقول الثاني : أن المعدودة التي تمسهم فيها النار سبعة أيام ، لأنهم زعموا ، أن عمر الدنيا سبعة آلاف سنة ، وأنهم يُعَذَّبُون عن كل ألف سنة يوماً ، وهذا قول مجاهد ، ورواية سعيد بن جبير ، عن ابن عباس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 1 صـ 152 .

﴿ 153

قوله تعالى ﴿ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ ﴾

فائدة

قال الفخر :

العهد في هذا الموضع يجري مجرى الوعد والخبر ، وإنما سمي خبره سبحانه عهداً لأن خبره سبحانه أوكد من العهود المؤكدة منا بالقسم والنذر ، فالعهد من الله لا يكون إلا بهذا الوجه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 131 ﴾

فائدة

قال الفخر :

قوله تعالى : ﴿ أتخذتم ﴾ ليس باستفهام ، بل هو إنكار لأنه لا يجوز أن يجعل تعالى حجة رسوله في إبطال قولهم أن يستفهمهم ، بل المراد التنبيه على طريقة الاستدلال وهي أنه لا سبيل إلى معرفة هذا التقدير إلا بالسمع ، فلما لم يوجد الدليل السمعي وجب ألا يجوز الجزم بهذا التقدير . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 131 ﴾

فصل

قال الفخر :

قوله تعالى : ﴿ فَلَن يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ ﴾ يدل على أنه سبحانه وتعالى منزه عن الكذب وعده ووعيده .

قال أصحابنا : لأن الكذب صفة نقص ، والنقص على الله محال ، وقالت المعتزلة : لأنه سبحانه عالم بقبح القبيح وعالم بكونه غنياً عنه ، والكذب قبيح لأنه كذب والعالم بقبح القبيح وبكونه غنياً عنه يستحيل أن يفعله ، فدل على أن الكذب منه محال ، فلهذا قال : ﴿ فَلَن يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ ﴾ ، فإن قيل : العهد هو الوعد وتخصيص الشيء بالذكر يدل على نفي ما عداه ، فلما خص الوعد بأنه لا يخلفه علمنا أن الخلف في الوعيد جائز ، ثم العقل يطابق ذلك ، لأن الخلف في الوعد لؤم وفي الوعيد كرم .

قلنا : الدلالة المذكورة قائمة في جميع أنواع الكذب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 131 ﴾

(172/57)

قال الآلوسى :

﴿ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللهِ عَهْدًا ﴾ تبكيت لهم وتوبيخ والعهد مجاز عن خبره تعالى ، أو وعده بعدم مساس النار لهم سوى الأيام المعدودة وسمي ذلك عهداً لأنه أوكد من العهود المؤكدة بالقسم والنذر ، وفسره قتادة هنا بالوعد مستشهداً بقوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ عاهد الله ﴾ إلى قوله سبحانه : ﴿ بِمَا أَخْلَفُواْ اللهَ مَا وَعَدُوهُ ﴾ [التوبة : 75 77] .

واعترض : بأنه لا وجه للتخصيص ، فإن ﴿ لَن تَمَسَّنَا ﴾ الخ فرع الوعد والوعيد لأن مساس النار وعيد ، وأجيب بأنه إنما لم يتعرض للوعيد ، لأن المقصود بالاستفهام الوعد لا الوعيد فإنه ثابت في حقهم .

وروي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن معنى الآية هل قلتم لا إله إلا الله ، وآمنتم وأطعتم فتستدلون بذلك وتعلمون خروجكم من النار ؟ ويؤول إلى هل أسلفتم عند الله أعمالاً توجب ما تدعون ؟ والمعنى الأول أظهر .

وقرأ ابن كثير وحفص بإظهار الذال والباقون بإدغامه ، وحذفت من اتخذ همزة الوصل لوقوعها في الدرج.

﴿ فَلَن يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ ﴾ جواب شرط مقدر ، أي إن اتخذتم عند الله عهداً فلن يخلف وقدره العلامة إن كنتم اتخذتم إذ ليس المعنى على الاستقبال وهو مبني على أن حرف الشرط لا يغير معنى كان وفيه خلاف معروف فإن قلت : لا يصح جعل ﴿ فَلَن يُخْلِفَ اللهُ ﴾ جزاء لامتناع السببية والترتب لكون ﴿ لَنْ ﴾ لمحض الاستقبال قلت : ذلك ليس بلازم في الفاء الفصيحة كقوله :

قالوا خراسان أقصى ما يراد بنا . . .

ثم القفول فقد جئنا خراسانا

ولو سلم فقد ترتب على اتخاذ العهد الحكم بأنه لا يخلف العهد فيما يستقبل من الزمان فقط ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ ﴾ [النحل : 53] كذا أفاده العلامة ، والجواب الأول : مبني على أن الفاء الفصيحة لا تنافي تقدير الشرط ، وأنها تفيد كون مدخولها سبباً عن المحذوف سواء ترتب عليه أو تأخر لتوقفه على أمر آخر بدليل أن قوله :

فقد جئنا خراسانا . . .

علم عندهم في الفصيحة مع كونه بتقدير الشرط وعدم الترتب كما في " شرح المفتاح" الشريفي ومبنى الثاني : على أن المراد حكمهم لا حكمه تعالى حين النزول ، ولخفاء ذلك قال المولى عصام : الأظهر أنه دليل الجزاء وضع موضعه ، أي إن كنتم اتخذتم عند الله عهداً فقد نجوتم لأنه لن يخلف الله عهده فافهم .

ومن الناس من لا يقدر محذوفاً ويجعل الفاء سببية ليكون اتخاذ العهد مترتباً عليه عدم إخلاف الله تعالى عهده ويكون المنكر حينئذٍ المجموع فتفطن .

وهذه الجملة كما قال ابن عطية اعتراضية بين ﴿ اتخذتم ﴾ والمعادل فلا موضع لها من الإعراب ، وإظهار الاسم الجليل للإشعار بعلة الحكم فإن عدم الاختلاف من قضية الألوهية والعهد مضاف إلى ضميره تعالى لذلك أيضاً ، أو لأن المراد به جميع عهوده لعمومه بالإضافة ، فيدخل العهد المعهود مع التجافي عن التصريح بتحقق مضمون كلامهم ، وإن كان معلقاً على الاتخاذ المعلق بحبال العدم واستدل بالآية من ذهب إلى نفي الخلف في الوعد والوعيد بحمل العهد على الخبر الشامل لهما ، وادعى بعضهم أن العهد ظاهر في الوعد بل حقيقة عرفية فيه فلا دليل فيها على نفي الخلف في الوعيد . انتهى انتهى . اهـ

﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 304. 305 ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ قُلْ ﴾ تبكيتاً لهم وتوبيخاً ﴿ أتخذتم ﴾ بإسقاط الهمزة المجتَلَبة لوقوعها في الدَّرْج وبإظهار الذال وقرئ بإدغامها في التاء ﴿ عِندَ اللهِ عَهْدًا ﴾ خبَراً أو وعداً بما تزعمون ، فإن ما تدّعون لا يكون إلا بناءً على وعدٍ قوي ولذلك عَبَّر عنه بالعهد ﴿ فَلَن يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ ﴾ الفاءُ فصيحة معربة عن شرط محذوفٍ كما في قول من قال :

قالوا خراسانُ أقصى ما يُراد بنا . . . ثم القُفولُ فقد جئنا خُراسانا

(174/57)

أي إن كان الأمر كذلك فلن يُخلِفَه ، والجملةُ اعتراضيةٌ وإظهارُ الاسمِ الجليل للإشعار بعِلّة الحُكم فإن عدم الإخلاف من قضية الألوهية ، وإظهارُ العهدِ مضافاً إلى ضميره عز وجل لما ذكر ، أو لأن المرادَ به جميعُ عهوده لعمومه بالإضافة فيدخل فيه العهدُ المعهودُ دخولاً أولياً ، وفيه تجافٍ عن التصريح بتحقق مضمونِ كلامِهم وإن كان معلقاً بما لم يكَدْ يشَمُّ رائحةَ الوجود قطعاً أعني اتخاذَ العهد . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 1 صـ 121 ﴾

وقال ابن عاشور :

وقوله : ﴿ قل أتخذتم عند الله عهداً ﴾ جواب لكلامهم ولذلك فصل على طريقة المحاورات كما قدمناه في قوله تعالى : ﴿ قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ﴾ [البقرة : 30] والاستفهام غير حقيقي بدليل قوله بعده ﴿ بلى ﴾ فهو استفهام تقريري للإلجاء إلى الاعتراف بأصدق الأمرين وليس إنكاري لوجود المعادل وهو ﴿ أم تقولون ﴾ لأن الاستفهام الإنكاري لا معادل له .

والمراد بالعهد الوعد المؤكد فهو استعارة ، لأن أصل العهد هو الوعد المؤكد بقسم والتزام ، ووعد الذي لا يخلف الوعد كالعهد ، ويجوز أن يكون العهد هنا حقيقة لأنه في مقام التقرير دال على انتفاء ذلك .

وذكر الاتخاذ دون أعاهدتم أو عاهدكم لما في الاتخاذ من توكيد العهد و" عند " لزيادة التأكيد يقولون اتخذ يداً عند فلان .

وقوله : ﴿ فلن يخلف الله عهده ﴾ الفاء فصيحة دالة على شرط مقدر وجزائه وما بعد الفاء هو علة الجزاء والتقدير فإن كان ذلك فلكم العذر في قولكم لأن الله لا يخلف عهده وتقدم ذلك عند قوله تعالى : ﴿ فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً ﴾ [البقرة : 60] .

ولكون ما بعد فاء الفصيحة دليل شرط وجزائه لم يلزم أن يكون ما بعدها مسبباً عما قبلها ولا مترتباً عنه حتى يشكل عليه عدم صحة ترتب الجزاء في الآية على الشرط المقدر لأن (لن) للاستقبال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 1 صـ 562 ﴾

فصل

قال الفخر :

قال الجبائي : دلت الآية على أنه تعالى لم يكن وعد موسى ولا سائر الأنبياء بعده على أنه تعالى يخرج أهل المعاصي والكبائر من النار بعد التكذيب ، لأنه لو وعدهم بذلك لما جاز أن ينكر على اليهود هذا القول ، وإذا ثبت أنه تعالى ما دلهم على ذلك وثبت أنه تعالى دلهم على وعيد العصاة إذا كان بذلك زجرهم عن الذنوب ، فقد وجب أن يكون عذابهم دائماً على ما هو قول الوعيدية ، وإذا ثبت ذلك في سائر الأمم وجب ثبوته في هذه الأمة ، لأن حكمه تعالى في الوعد والوعيد لا يجوز أن يختلف في الأمم ، إذ كان قدر المعصية من الجميع لا يختلف ، واعلم أن هذا الوجه في نهاية التعسف فنقول : لا نسلم أنه تعالى ما وعد موسى أنه يخرج أهل الكبائر من النار ، قوله : لو وعدهم بذلك لما أنكر على اليهود قولهم ، قلنا : لم قلت إنه تعالى لو وعدهم ذلك لما أنكر على اليهود ذلك ، وما الدليل على هذه الملازمة ؟ ثم إنا نبين شرعاً أن ذلك غير لازم من وجوه .

أحدها : لعل الله تعالى إنما أنكر عليهم لأنهم قللوا أيام العذاب ، فإن قولهم : ﴿ لَن تَمَسَّنَا

النار إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ﴾ ، يدل على أيام قليلة جداً ، فالله تعالى أنكر عليهم جزمهم بهذه القلة لا أنه تعالى أنكر عليهم انقطاع العذاب .

وثانيها : أن المرجئة يقطعون في الجملة بالعفو ، فأما في حق الشخص المعين فلا سبيل إلى القطع ، فلما حكموا في حق أنفسهم بالتخفيف على سبيل الجزم لا جرم أنكر الله عليهم ذلك .

(176/57)

وثالثها : أنهم كانوا كافرين وعندنا عذاب الكافر دائم لا ينقطع ، سلمنا أنه تعالى ما وعد موسى عليه السلام أنه يخرج أهل الكبائر من النار ، فلم قلت أنه لا يخرجهم من النار ؟ بيانه أنه فرق بين أن يقال إنه تعالى ما وعده إخراجهم من النار وبين أن يقال : إنه أخبره أنه لا يخرجهم من النار والأول لا مضرة فيه ، فإنه تعالى ربما لم يقل ذلك لموسى إلا أنه سيفعله يوم القيامة ، وإنما رد على اليهود وذلك لأنهم جزموا به من غير دليل ، فكان يلزمهم أن يتوقفوا فيه وأن لا يقطعوا لا بالنفي ولا بالإثبات ، سلمنا أنه تعالى لا يخرج عصاة قوم موسى من النار ، فلم قلت : إنه لا يخرج عصاة هذه الأمة من النار ، وأما قول الجبائي : لأن حكمه تعالى في الوعد والوعيد لا يجوز أن يختلف في الأمم .

فهو تحكم محض ، فإن العقاب حق الله تعالى ، فله أن يتفضل على البعض بالإسقاط وأن لا يتفضل بذلك على الباقين ، فثبت أن هذا الاستدلال ضعيف . انتهى انتهى . اهـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 131.132 ﴾

قوله تعالى ﴿ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾

فصل

قال الفخر :

أما قوله تعالى : ﴿ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ فهو بيان لتمام الحجة المذكورة ، فإنه إذا كان لا طريق إلى التقدير المذكور إلا السمع وثبت أنه لم يوجد السمع ، كان الجزم بذلك التقدير قولاً على الله تعالى بما لا يكون معلوماً لا محالة ، وهذه الآية تدل على فوائد .

أحدها : أنه تعالى لما عاب عليهم القول الذي قالوه لا عن دليل علمنا أن القول بغير دليل باطل .

وثانيها : أن كل ما جاز وجوده وعدمه عقلاً لم يجز المصير إلى الإثبات أو إلى النفي إلا بدليل سمعي .

وثالثها : أن منكري القياس وخبر الواحد يتمسكون بهذه الآية .

قالوا : لأن القياس وخبر الواحد لا يفيد العلم ، فوجب أن لا يكون التمسك به جائزاً لقوله تعالى : ﴿ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ ذكر ذلك في معرض الإنكار .

والجواب : أنه لما دلت الدلالة على وجوب العمل عند حصول الظن المستند إلى القياس أو إلى خبر الواحد كان وجوب العمل معلوماً ، فكان القول به قولاً بالمعلوم لا بغير المعلوم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 132 ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ أَمْ تَقُولُونَ ﴾ مفترين ﴿ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ وقوعَه ، وإنما عُلّق التوبيخ بإسنادهم إليه سبحانه ما لا يعلمون وقوعَه مع أن ما أسندوه إليه تعالى من قبيل ما يعلمون عدمَ وقوعِه للمبالغة في التوبيخ والنكير فإن التوبيخَ على الأدنى مستلزِمٌ للتوبيخ على الأعلى بالطريق الأَوْلى ، وقولُهم المحكيُّ وإن لم يكن تصريحاً بالافتراء عليه سبحانه مستلزِمٌ له ، لأن ذلك الجزمَ لا يكون إلا بإسناد سببِه إليه تعالى ، وأمْ إما متصلةٌ والاستفهام للتقرير المؤدي إلى التبكيت لتحقق العلم بالشق الأخيرِ كأنه قيل : أم لم تتخذوه بل تتقوّلون عليه تعالى ، وإما منقطعةٌ والاستفهام لإنكار الاتخاذِ ونفيِه ومعنى بل فيها الإضرابُ والانتقالُ من التوبيخ بالإنكار على اتخاذ العهدِ إلى ما تفيد همزتُها من التوبيخ على التقوُّل على الله سبحانه ، كما

في قوله عز وجل : قل آللهُ أذِنَ لكم أم على الله تفترون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 1 صـ 121 ﴾

(178/57)

وقال الآلوسى :

﴿ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ ﴿ أَمْ ﴾ يحتمل أن تكون متصلة للمعادلة بين شيئين بمعنى أي هذين واقع اتخاذكم العهد أم قولكم على الله ما لا تعلمون وخرج ذلك مخرج المتردد في تعيينه على سبيل التقرير لأولئك المخاطبين لعلم المستفهم وهو النبي صلى الله عليه وسلم بوقوع أحدهما ، وهو قولهم بما لا يعلمون على التعيين فلا يكون الاستفهام على حقيقته ، ويعلم من هذا أن الواقع بعد ﴿ أَمْ ﴾ المتصلة قد يكون جملة لأن التسوية قد تكون بين الحكمين وبهذا صرح ابن الحاجب في " الإيضاح" ، ويحتمل أن تكون منقطعة بمعنى بل والتقدير بل أتقولون ، ومعنى بل فيها الإضراب والانتقال من التوبيخ بالإنكار على الاتخاذ إلى ما تفيد همزتها من التوبيخ على القول ، وظاهر كلام صاحب " المفتاح" تعين الانقطاع حيث جعل علامة المنقطعة كون ما بعدها جملة ، وإنما علق التوبيخ بإسنادهم إليه سبحانه وتعالى ما لا يعلمون وقوعه مع أن ما أسندوه إليه تعالى من قبيل ما يعلمون عدم

وقوعه المبالغة في التوبيخ ، فإن التوبيخ على الأدنى يستلزم التوبيخ على الأعلى بطريق الأولى ، وقولهم المحكي وإن لم يكن صريحاً بالافتراء عليه جل شأنه لكنه مستلزم له لأن ذلك الجزم لا يكون إلا بإسناد سببه إليه تعالى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 305 ﴾

فصل

قال ابن عاشور :

و(أم) في قوله : ﴿ أم تقولون على الله ما لا تعلمون ﴾ معادلة همزة الاستفهام فهي متصلة وتقع بعدها الجملة كما صرح به ابن الحاجب في " الإيضاح" وهو التحقيق كما قال عبد الحكيم ، فما قاله صاحب " المفتاح" من أن علامة أم المنقطعة كون ما بعدها جملة أمر أغلبي ولا معنى للانقطاع هنا لأنه يفسد ما أفاده الاستفهام من الإلجاء والتقرير . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 1 صـ 562 ﴾

(179/57)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : " وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة " وفى سورة آل عمران : " ذلك بأنهم

قالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودات " فأفرد فى البقرة الوصف وجمع فى آل عمران فقيل معدودات والجارى عليه الوصف فى السورتين قوله تعالى : " أياما " بلفظ واحد فيسأل عن موجب اختلاف الوصف فأقول : إن المجموع بالألف والتاء منحصر فى أربعة أضرب : ثلاثة متفق علها والرابع مختلف فيه .

فأما الثلاثة فكل علم لمؤنث نحو : هند ودعد ، وكل ما فيه تاء التأنيث لمذكر كان أو لمؤنث عاقل أو غير عاقل نحو : طلحة وحوزة وشجرة ، وكل مصغر لغير العاقل نحو دريهمات وما أشبه ذلك ، فهذه الضروب الثلاثة متفق عليها وضرب رابع مختلف فيه وهو كل اسم مكبر لغير العاقل مذكرا كان أو مؤنثا لم يسمع فيه عن العرب جمع تكسير نحو حمام وحمامات وسبطر وسبطرات وجمل سبحل وسبحلات وسرادق وسرادقات وايوان وايوانات وربجل وربجلات فإن سمع من العرب شئ من هذا جمع جمع تكسير لم يجز جمعه بالألف والتاء .

قال سيبويه رحمه الله : " قالوا جوالق وجواليق فلم يقولوا جوالقات حين قالوا جواليق يعنى حين كسروا وقالوا فى المؤنث عيدات حين لم يكسروها على بناء يكسر عليه مثلها " .

ثم إن صفة كل مؤنث جارية عليه فى حكمه من التأنيث إلا أربعة أضرب وهى : فعلى وأفعل ، وفعلى فعلان ، وما يشترك فيه المذكر والمؤنث من الصفات كمعطار ومذكار

وميناث ، وما ينفرد به المؤنث كحائض وطامث ، فهذه الضروب الأربعة لا يجمع شئ منها بالألف والتاء وسائر ما يجرى على المؤنث من الصفات لا يمتنع من ذلك .

(180/57)

ثم إن ما يجمع جمه التكسير من مذكر غير عاقل قد يتبع بالصفة المفردة مؤنثه بالتاء كما يفعل فى الخبر تقول : ذنوب مغفورة وأعمال محسوبة ، وقال تعالى : " فيها سرر مرفوعة وأكواب موضوعة ونمارق مصفوفة وزرابى مبثوثة " ومنه قوله تعالى مخبرا عن يهود : " وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة " ، ثم قد يجمع هذا الضرب بالألف والتاء رعيا لمفرده وان لم يكثر الا أنه فصيح ومنه : " واذكروا الله فى أيام معدودات " .

وإذ تبين ما ذكرناه وانه الجارى الكثير مع ما وقع فى آية البقرة من الإيجاز وفى الأخرى من الاطالة ألا ترى قوله تعالى : " فى آية آل عمران : " ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودات " وفى البقرة : " وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة " واخباره تعالى باغترارهم بقوله : " وغرهم فى دينهم ما كانوا يفترون " ، وهذا بسط لحالهم الحامل على سوء مرتكبهم ولم يقع فى سورة البقرة تعرض لشئ من ذلك بل أوجز القول ولم يذكر سببه فناسب الإفراد الإيجاز وناسب الجمع الاسهاب ولو جمه فى سورة البقرة وأفرد فى سورة

آل عمران أو أفرد فيهما أو جمع فيهما لما ناسب فورد كل على ما يناسب ويجب . والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ ملاك التأويل صـ 46. 47 ﴾

(181/57)

ومن فوائد ابن عرفة فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللهِ عَهْداً فَلَن يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ . . . ﴾ .

قال الزمخشري : الفاء جواب شرط مقدر أي أن اتخذتم عند الله عهدا .

قال ابن عرفة : لا يحتاج إلى هذا لأنَّ (الثاني) ملزوم للأول ، فاتخاذ (العهد) ملزوم للوفاء به فيصح عطفه عليه ، ودخل (العهد) الإنكار على الفعل وما عطف عليه فهو كالنفي سواء ينفي الفعل وما عطف عليه .

وكذا قال الطيبي : إن كلام الزمخشري هنا مبني على أن ﴿ فَلَن يُخْلِفَ اللهُ ﴾ كلام مستأنف ولو كان عنده معطوفا على ﴿ أَتَّخَذْتُمْ ﴾ لما احتاج إلى تقدير شيء .

قال ابن عرفة : وكان (يظهر) لنا أنه يخرج لنا من الآية أن النّافي للدعوة مطالب بالدليل على ذلك (لأنه) أنكر عليهم قولهم ﴿ لَن تَمَسَّنَا النار ﴾ قال : (وكان) ابن عبد السلام

يجيب عنه بأنهم ادعوا أمرا مشتملا على نفي وإثبات فطولبوا بالدليل على طرف الإثبات .

ورد بأن من ادعى ما يوافقه الخصم عليه لا يحتاج إلى دليل ، ونحن نوافقهم على مس النار لهم أيّاما ونخالفهم في طرف النفي .

وأجيب عنه بأن الإنكار في طرف النفي لكنه نفي ما قد حصل وتقرر ثبوته لأنهم وافقوا على مسّ النار إياهم أربعين يوما .

ومن ادعى على رجل حقا فأقرّ به ، وقال : دفعته ، يطالب بالدليل على براءته منه .

قال ابن عرفة : الكلام معهم في مدة النفي لا في مدة الإقرار .

وأجيب أيضا بأنّ هذا النّفي يستلزم ثبوتا ، لأنه ليس هناك إلا جنة أو نار ، فإذا نفوا عنهم النار فقد / ادعوا أنهم في الجنّة ، فقال : إنما علمنا الجنة أو النار بالشرع ، وكلامنا الآن في الدليل العقلي ، لأن الدليل العقلي اقتضى أنّ النافي لا يطالب بالدليل .

فقيل له : بل ذلك أيضا معلوم من الشرع لحديث " البينة على من ادّعى واليمين على من أنكر " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عرفة حـ 1 صـ 353.354 ﴾

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (80) ﴾

هنا يكشف الله سبحانه وتعالى فكر هؤلاء الناس . . لقد زين لهم الشيطان الباطل فجعلهم يعتقدون أنهم كسبوا فعلا وأنهم أخذوا المال والجاه الدنيوي وفازوا به . . لأنهم لن يعذبوا في الآخرة إلا عذابا خفيفا قصيرا . . ولذلك يفضح الله تبارك وتعالى ما يقولونه بعضهم مع بعض . . ماذا قالوا ؟ : ﴿ وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَّعْدُودَةً ﴾ .

المس يعني اللمس الخفيف أو اقتراب شيء من شيء . . ولكن لا يحس أحدهما بالآخر إلا إحساسا خفيفا لا يكاد يذكر . . فإذا أتيت إلى إنسان ووضعت أَنَا مِلَكَ على يده يقال مسست . . ولكنك لم تستطع بهذا المس أن تحس بحرارة يده أو نعومة جلده . . ولكن اللمس يعطيك إحساسا بما تلمس : ﴿ وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَّعْدُودَةً ﴾ وهكذا أخذوا أقل الأقل في العذاب . . ثم أقل الأقل في الزمن فقالوا أياما معدودة . . الشيء إذا قيل عن معدود فهو قليل . . أما الشيء الذي لا يحصى فهو الكثير . . ولذلك حين يتحدث الله عن نعمه يقول سبحانه : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ [النحل : 18]

فمجرد الإقبال على العد معناه أن الشيء يمكن إحصاؤه . . فإن لم يكن ممكنا لا يُقبل أحد

على عده ، ولا نرى من حاول عدَّ حبات الرمل أو ذرات الماء في البحار . . نِعَمُ الله سبحانه وتعالى ظاهرة وخفية لا يمكن أن تحصى ، ولذلك لا يقبل لا يُقبل أحد على إحصائها . . وإذا سمعت كلمة " أياما معدودة " فأعلم أنها أيام قليلة . . ولذلك نرى في سورة يوسف قول الحق جل جلاله : ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ ﴾ [يوسف : 20]

(183/57)

قولهم لن تمسنا النار إلا أياما معدودة . . دليل على غبائهم لأن مدة المس لا تكون إلا لحظة . . ولكنها أماني وضعها الشيطان في عقولهم ليأتي الرد من الله في قوله سبحانه : ﴿ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ﴾ أي إذا كان ذلك وعداً من الله ، فالله لا يخلف وعده . والله يأمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم لستم أنتم الذين تحكمون وتقررون ماذا سيفعل الله سبحانه وتعالى بكم . . بل هو جل جلاله الذي يحكم . . فإن كان قد أعطاكم عهدا فالله لا يخلف وعده .

وقوله تعالى : ﴿ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ . . هنا أدب النبوة والخلق العظيم لرسول الله صلى الله عليه وسلم . . فبدلا من أن يقول لهم أتفترون على الله أو أتكذبون

على الله . . أو أتختلقون على الله ما لم يقله . . قال : ﴿ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ إن الذي يختلق الكلام يعلم أنه مختلق .

. إنه أول من يعلم كذب ما يقول ، وقد يكون له حجة ويقنع من أمامه فيصدقه ، ولكنه يظل يعلم إن ما قاله مختلق رغم أنهم صدقوه . . ولذلك فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إليّ فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له على نحو ما أسمع فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار فليأخذها أو ليتركها "

إذن مختلق الشيء يعرف إن هذا الشيء مختلق . وهؤلاء اليهود هم أول من يعلم إن قولهم . . ﴿ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَةً ﴾ قول مختلق . . ولكن لمن يقولون على الله ما هو افتراء وكذب ؟ يقولون للأميين الذين لا يعرفون الكتاب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 423. 424 ﴾

(184/57)

" فصل "

قال السيوطى :

وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (80)

أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والواحدي عن ابن عباس أن يهود كانوا يقولون : مدة الدنيا سبعة آلاف سنة ، وإنما نعذب لكل ألف سنة من أيام الدنيا يوماً واحداً في النار ، وإنما هي سبعة أيام معدودات ثم ينقطع العذاب ، فأنزل الله فيه ذلك ﴿ وقالوا لن تمسنا النار ﴾ إلى قوله ﴿ هم فيها خالدون ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد . مثله .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والواحدي عن ابن عباس قال : وجد أهل الكتاب مسيرة ما بين طرفي جهنم مسيرة أربعين ، فقالوا : لن يعذب أهل النار إلا قدر أربعين ، فإذا كان يوم القيامة أُلجموا في النار فساروا فيها حتى انتهوا إلى سقر ، وفيها شجرة الزقوم إلى آخر يوم من الأيام المعهودة ، فقال لهم خزنة النار : يا أعداء الله زعمتم أنكم لن تعذبوا في النار إلا أياماً معدودة فقد انقضى العدد وبقي الأبد ، فيأخذون في الصعود يرهقون على وجوههم .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس . أن اليهود قالوا : لن تمسنا النار إلا أربعين يوماً مدة عبادة العجل .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عكرمة قال : اجتمعت

يهود يوماً فخاصموا النبي صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات وسموا أربعين يوماً ، ثم يخلفنا فيها ناس وأشاروا إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ورد يده على رؤوسهم كذبتم بل أنتم خالدون مخلدون فيها لا نخلفكم فيها إن شاء الله تعالى أبداً ، ففيهم أنزلت هذه الآية ﴿ وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة ﴾ يعنون أربعين ليلة " .

(185/57)

وأخرج ابن جرير عن زيد بن أسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لليهود " أنشدكم بالله وبالتوراة التي أنزل الله على موسى يوم طور سيناء من أهل النار الذين أنزلهم الله في التوراة ؟ قالوا : إن ربهم غضب عليهم غضبة فنمكث في النار أربعين ليلة ، ثم نخرج فتخلفوننا فيها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كذبتم والله لا نخلفكم فيها أبداً ، فنزل القرآن تصديقاً لقول النبي صلى الله عليه وسلم وتكذيباً لهم ﴿ وقالوا لن تمسنا النار ﴾ إلى قوله ﴿ وهم فيها خالدون ﴾ " .

وأخرج أحمد والبخاري والدارمي والنسائي والبيهقي في الدلائل عن أبي هريرة قال " لما افتتحت خيبر أهديت لرسول الله صلى الله عليه وسلم شاة فيها سم ، فقال رسول الله

صلى الله عليه وسلم : اجمعوا لي من كان ههنا من اليهود ، فقال لهم : من أبوكم ؟ قال : فلان . قال : كذبتم ، بل أبوكم فلان . قالوا : صدقت وبررت . ثم قال لهم : هل أنتم صادقيّ عن شيء إن سألتكم عنه ؟ قالوا : نعم يا أبا القاسم ، وإن كذبناك عرفت كذبنا كما عرفته في أبينا . فقال لهم : من أهل النار ؟ قالوا : نكون فيها يسيراً ثم تخلفوننا فيها . فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : اخسئوا – والله – لا نخلفكم فيها أبداً " .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد في قوله ﴿ قل أتخذتم عند الله عهداً ﴾ أي موثقاً من الله بذلك أنه كما تقولون .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : لما قالت اليهود ما قالت قال الله لمحمد ﴿ قل أتخذتم عند الله عهداً ﴾ يقول : أدخرتم عند الله عهداً . يقول : اقلتم لا إله إلا الله لم تشركوا ولم تكفروا به ، فإن كنتم قلتموها فارجوا بها ، وإن كنتم لم تقولوها فلم تقولون على الله ما لا تعلمون .

(186/57)

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة في قوله ﴿ قل أتخذتم عند الله ﴾ قال : بفراكم وبزعمكم أن النار ليس تمسكم إلا أياماً معدودة ، يقول : إن كنتم اتخذتم عند الله عهداً بذلك فلن

يخلف الله عهده ﴿ أم تقولون على الله ما لا تعلمون ﴾ قال : قال القوم : الكذب والباطل ، وقالوا عليه ما لا يعلمون . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 1 صـ 207 . 208 ﴾

(187/57)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " إلاّ أَيَّاماً مَعْدُودَةً " استثناء مفرّغ ، و " أَيَّاماً " منصوب على الظرف بالفعل قبله ، والتقدير : لن تَمّسنا النار أبداً إلاّ أياماً قلائل يَحْصُرُها العَدُّ ؛ لأن العد يحصر القليل ، وأصل : " أيام " : أَيْوَام ؛ لأنه جمع يوم ، نحو : " قوم وأقوام " ، فاجتمع الياء والواو ، وسبقت إحداهما بالسكون ، فوجب قلب الواو ياء ، وإدغام الياء في الياء مثل : " هَيّت وميّت " ؟

فإن قيل : " وَقَالُوا : لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَعْدُودَةً " وقال في مكان آخر : ﴿ أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ ﴾ [آل عمران : 24] والمصروف في المكانين واحد وهو " أيام " .

فالجواب : أن الاسم إن كان مذكراً ، فالأصل في صفة جمعه التاء ، يقال : كُوز وكِيزان مكسورة ، وثياب مَقْطوعة ، وإن كان مؤنثاً كان الأصل في صفة جمعه الألف والتاء يقال :

جرّة وجِرَار مكسورات ، وخَابِية وخَوَابي مكسورات ، إلا أنه قد يوجد الجمع بالألف والتاء فيما واحده مذكّر في بعض الصور ، وعلى هذا ورد قوله : ﴿ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ ﴾ [البقرة : 203] ، و ﴿ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ ﴾ [الحج : 28] .

قوله : " أَتَّخَذْتُمْ " الهمزة للاستفهام ، ومعناها الإنكار والتَّقْرِيع ، وبها استغني عن همزة الوصل الدّاخلة على " أتخذتم " كقوله : ﴿ أفترى عَلَى الله ﴾ [سبأ : 8] ﴿ أَصْطَفَى ﴾ [الصافات : 153] وبابه .

وقد تقدم القول في تصريف " أَتَّخَذْتُمْ " وخلاف أبي علي فيها .

ويحتمل أن تكون هنا لواحد .

وقال أبو البقاء : وهو بمعنى " جَعَلتم " المتعدية لواحد .

ولا حاجة إلى جعلها بمعنى " جعل " لتعديها لواحد ، بل المعنى : هلأ أخذتم من الله عهداً ؟ ويُحتمل أن يتعدّى لاثنين ، الأول " عهد " ، والثاني " عند الله " مقدماً عليه ، فعلى الأول يتعلّق " عند الله " بـ " اتَّخَذْتُمْ " .

وعلى الثاني يتعلّق بمحذوف .

ويجوز نقل حركة همزة الاستفهام إلى لام " قل " قبلها ، فتفتح وتحذف الهمزة .

وهي لغة مطّردة قرأ بها نافع في رواية وَرْش عنه .

قوله : " فَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ " هذا جواب الاستفهام المقدم في قوله : " أَتَّخَذْتُمْ " .

وهل هذا بطريق تضمين الاستفهام معنى الشرط ، أو بطريق إضمار الشَّرط بعد الاستفهام وأخواته ؟

قولان [تقدم تحقيقها] واختار الزمخشري القول الثاني ، فإنه قال : " فَلَنْ يُخْلِفَ " متعلّق بمحذوف تقديره : إن اتخذتم عند الله عهداً فلن يخلف الله عهده .

وقال ابن عطية " فلن يخلف الله عَهْده : اعتراض بين أثناء الكلام " كأنه يعني بذلك أن قوله : " أم تقولون " مُعَادل لقوله : " أتخذتم " فوقعت هذه الجملة بين المتعادلين مُعْترضة ، والتقدير أيّ هذين واقع اتخاذكم العهد أم قولكم بغير علم ؟ فعلى هذا لا محلّ لها من الإعراب ، وعلى الأول محلها الجزم .

قوله : " أَمْ تَقُولُونَ " " أم " هذه يجوز فيها وجهان :

أحدهما : أن تكون متّصلة ، فتكون للمعادلة بين الشيئين ، أي : أيّ هذين واقع ، وأخرجه مُخْرج المتردّد فيه ، وإن كان قد علم وقوع أحدهما ، وهو قولهم على الله ما لا يعلمون للتقرير ، ونظيره : ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لعلى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [سبأ : 24] علم أيهما على هدى ، وأيهما في ضلال ، وقد عرف شروط المتصلة أول السورة .

ويجوز أن تكون منقطعة ، فتكون غير عاطفة ، وتقدر بـ " بل " والهمزة ، والتقدير : بل أتقولون ، ويكون الاستفهام للإنكار ؛ لأنه قد وقع القول منهم بذلك ، هذا هو المشهور في " أم " المنقطعة ، وزعم جماعة أنها تقدر بـ " بل " وحدها دون همزة استفهام ، فيعطف ما بعدها [على ما قبلها] في الإعراب ؛ واستدّل عليه بقولهم : " إن لنا إبلاً أَمْ شَاءً " بنصب " شَاءً " وقول الآخر : [الطويل]

611 فَلَيْتَ سُلَيْمَى في الْمَمَاتِ ضَجِيعَتِي . . .

هُنَالِكَ أَمْ فِي جَنَّةٍ أَمْ جَهَنَّمِ

(189/57)

التقدير : بل في جهنّم ، ولو كانت همزة الاستفهام مقدّرةً بعدها لوجب الرفع في " شاء " ، و " جهنم " على أنها خبر لمبتدأ محذوف ، وليس لقائل أن يقول : هي في هذين الموضعين مُتَّصلة لما عرف أن من شرطها أن تتقدّمها الهمزة لفظاً أو تقديراً ، ولا يصلح ذلك هنا .

قوله : " مَا لاَ تَعْلَمُونَ " ما منصوبة بـ " تقولون " ، وهي موصولة بمعنى " الذي " أو نكرة موصوفة ، والعائد على كلا القولين محذوف ، أي : ما لا تعلمونه ، فالجملة لا محلّ لها على

القول الأول ، ومحلّها النصب على الثاني . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 2 صـ 215.212 ﴾ . باختصار .

(190/57)

قوله تعالى ﴿ بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (81) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما انتفى الأمران علم أن الكائن غير ما ادعوه فصرح به في قوله : ﴿ بلى ﴾ أي لتمسنكم على خلاف ما زعمتموه ، فإنّ بلى كلمة تدل على تقرير يفهم من إضراب عن نفي كأنها بل وصلت بها الألف إثباتاً لما أضرب عن نفيه – قاله الحرالي .

ونعم جواب لكلام لا جحد فيه .

ولما أضرب سبحانه عما قالوه من القضاء في الأعيان قاضياً عليهم بالخسران علل ذلك بوصف هم به متلبسون معلماً بأن من حق الجاهل بالغيب الحكم على الأوصاف التي ناط علام الغيوب بها الأحكام فقال : ﴿ من كسب سيئة ﴾ أي عملاً من حقه أن يسوء

﴿ وأحاطت به خطيئة ﴾ بحيث لم يكن شيء من أحواله خارجاً عن الخطيئة بل كانت غامرة لكل ما سواها من أعماله ، ولا يكون ذلك إلاّ للكفر الهادم لأساس الأعمال الذي لا يتأتى بقاء الأعمال بدونه .

ولما كان إفراد الضمير أنصّ على جزاء كل فرد والحكم بالنكال على الكل أنكأ وأروع وأقبح وأفظع وأدل على القدرة أفرد ثم جمع فقال آتياً بالفاء دليلاً أن أعمالهم سبب دخولهم النار : ﴿ فأولئك ﴾ أي البعداء البغضاء ﴿ أصحاب النار هم ﴾ خاصة ﴿ فيها خالدون ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 178 ﴾

فصل

قال القرطبى :

﴿ بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (81) ﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ بلى ﴾ أي ليس الأمر كما ذكرتم .

قال سيبويه : ليس " بلى " و " نعم " اسمين .

وإنما هما حرفان مثل " بل " وغيره ؛ وهي رَدٌّ لقولهم : لن تمسّنا النار .

وقال الكوفيون : أصلها بل التي للإضراب عن الأوّل ، زيدت عليها الياء ليحسن الوقف ،

وضُمّنت الياء معنى الإيجاب والإنعام.

ف "بَلْ" تدلّ على رَدّ الجَحْد، والياء تدلّ على الإيجاب لما بعدُ.

قالوا: ولو قال قائل: ألم تأخذ ديناراً؟ فقلت: نعم؛ لكان المعنى لا، لم آخذ؛ لأنك حقّقت النفي وما بعده.

فإذا قلت: بلى؛ صار المعنى قد أخذت.

قال الفراء: إذا قال الرجل لصاحبه: مالك عليّ شيء؛ فقال الآخر: نعم؛ كان ذلك تصديقاً؛ لأن لا شيء له عليه؛ ولو قال: بلى، كان ردّاً لقوله؛ وتقديره: بلى لي عليك.

وفي التنزيل ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بلى ﴾ [الأعراف: 172] ولو قالوا نعم لكفروا.

الثانية: قوله تعالى: ﴿ سَيِّئَةً ﴾ السيئة الشِّرك.

قال ابن جُرَيج قلت لعطاء: "مَن كَسب سيئة"؟ قال: الشّرك؛ وتلا ﴿ وَمَن جَآءَ بالسيئة فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النار ﴾.

وكذا قال الحسن وقتادة، قالا: والخطيئة الكبيرة.

الثالثة : لما قال تعالى : ﴿ بلى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خطيائته ﴾ دلّ على أن المعلّق على شرطين لا يتم بأقلهما ؛ ومثله قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين قَالُواْ رَبُّنَا الله ثُمَّ استقاموا ﴾ [فصلت : 30] ، وقوله عليه السلام لسُفيان بن عبد اللَّه الثَّقَفِي وقد قال له : يا رسول الله ، قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك .

قال : " قل آمنت بالله ثم استقم " رواه مسلم .

وقد مضى القول في هذا المعنى وما للعلماء فيه عند قوله تعالى لآدم وحواء : ﴿ وَلاَ تَقْرَبَا هذه الشجرة فَتَكُونَا مِنَ الظالمين ﴾ [البقرة : 35] .

وقرأ نافع " خطيئاته" بالجمع ، الباقون بالإفراد ؛ والمعنى الكثرة ، مثل قوله تعالى : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ الله لاَ تُحْصُوهَا ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 2 صـ 11 . 12 ﴾

فصل

قال الفخر :

قال صاحب الكشاف : " بلى " إثبات لما بعد حرف النفي وهو قوله تعالى : ﴿ لَن تَمَسَّنَا النار ﴾ ، أي بلى تمسكم أبداً بدليل قوله : ﴿ هُمْ فِيهَا خالدون ﴾ .

أما السيئة فإنها تتناول جميع المعاصي .

قال تعالى : ﴿ وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ [الشورى : 40] ، ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ

بِهِ ﴾ [النساء : 123] ولما كان من الجائز أن يظن أن كل سيئة صغرت أو كبرت فحالها سواء في أن فاعلها يخلد في النار لا جرم بين تعالى أن الذي يستحق به الخلود أن يكون سيئة محيطة به ، ومعلوم أن لفظ الإحاطة حقيقة في إحاطة جسم بجسم آخر كإحاطة السور بالبلد والكوز بالماء وذلك ههنا ممتنع فنحمله على ما إذا كانت السيئة كبيرة لوجهين .

(192/57)

أحدهما : أن المحيط يستر المحاط به والكبيرة لكونها محيطة لثواب الطاعات كالساترة لتلك الطاعات ، فكانت المشابهة حاصلة من هذه الجهة ، والثاني : أن الكبيرة إذا أحبطت ثواب الطاعات فكأنها استولت على تلك الطاعات وأحاطت بها كما يحيط عسكر العدو بالإنسان ، بحيث لا يتمكن الإنسان من التخلص منه ، فكأنه تعالى قال : بلى من كسب كبيرة وأحاطت كبيرته بطاعاته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ، فإن قيل : هذه الآية وردت في حق اليهود ، قلنا : العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، هذا هو الوجه الذي استدلت المعتزلة به في إثبات الوعيد لأصحاب الكبائر .

واعلم أن هذه المسألة من معظمات المسائل ، ولنذكرها ههنا فنقول : اختلف أهل القبلة في وعيد أصحاب الكبائر ، فمن الناس من قطع بوعيدهم وهم فريقان ، منهم من أثبت

الوعيد المؤبد وهو قول جمهور المعتزلة والخوارج.

ومنهم من أثبت وعيداً منقطعاً وهو قول بشر المريسي والخالد ، ومن الناس من قطع بأنه لا وعيد لهم وهو قول شاذ ينسب إلى مقاتل بن سليمان المفسر ، والقول الثالث : أنا نقطع بأنه سبحانه وتعالى يعفو عن بعض المعاصي ولكنا نتوقف في حق كل أحد على التعيين أنه هل يعفو عنه أم لا ، ونقطع بأنه تعالى إذا عذب أحداً منهم مدة فإنه لا يعذبه أبداً ، بل يقطع عذابه ، وهذا قول أكثر الصحابة والتابعين وأهل السنة والجماعة وأكثر الإمامية ، فيشتمل هذا البحث على مسألتين.

إحداهما : في القطع بالوعيد ، والأخرى : في أنه لو ثبت الوعيد فهل يكون ذلك على نعت الدوام أم لا ؟

المسألة الأولى :

في الوعيد ولنذكر دلائل المعتزلة أولاً.

ثم دلائل المرجئة الخالصة ثم دلائل أصحابنا رحمهم الله.

أما المعتزلة فإنهم عولوا على العمومات الواردة في هذا الباب وتلك العمومات على جهتين.

بعضها وردت بصيغة " من " في معرض الشرط وبعضها وردت بصيغة الجمع ، أما النوع الأول فآيات ، إحداها : قوله تعالى في آية المواريث : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللهِ ﴾ [النساء : 13] إلى قوله :

﴿ وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خالدا فِيهَا ﴾ [النساء : 14] ، وقد علمنا أن من ترك الصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد وارتكب شرب الخمر والزنا وقتل النفس المحرمة فهو متعد لحدود الله ، فيجب أن يكون من أهل العقاب ، وذلك لأن كلمة " من " في معرض الشرط تفيد العموم على ما ثبت في أصول الفقه ، فمتى حمل الخصم هذه الآية على الكافر دون المؤمن كان ذلك على خلاف الدليل ثم الذي يبطل قوله وجهان .

(194/57)

أحدهما : أنه تعالى بين حدوده في المواريث ثم وعد من يطيعه في تلك الحدود وتوعد من يعصيه فيها ، ومن تمسك بالإيمان والتصديق به تعالى فهو أقرب إليها إلى الطاعة فيها ممن يكون منكراً لربوبيته ومكذباً لرسله وشرائعه ، فترغيبه في الطاعة فيها أخص ممن هو أقرب إلى الطاعة فيها وهو المؤمن ، ومتى كان المؤمن مراداً بأول الآية فكذلك بآخرها ، الثاني :

أنه قال : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللهِ ﴾ ولا شبهة في أن المراد به الحدود المذكورة ، ثم علق بالطاعة فيها الوعد وبالمعصية فيها الوعيد ، فاقتضى سياق الآية أن الوعيد متعلق بالمعصية في هذه الحدود فقط دون أن يضم إلى ذلك تعدي حدود أخر ، ولهذا كان مزجوراً بهذا الوعيد في تعدي هذه الحدود فقط ولو لم يكن مراداً بهذا الوعيد لما كان مزجوراً به ، وإذا ثبت أن المؤمن مراد بها كالكافر بطل قول من يخصها بالكافر ، فإن قيل : إن قوله تعالى : ﴿ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ ﴾ [النساء : 14] جمع مضاف والجمع المضاف عندكم يفيد العموم ، كما لو قيل : ضربت عبيدي ، فإنه يكون ذلك شاملاً لجميع عبيده ، وإذا ثبت ذلك اختصت هذه الآية بمن تعدى جميع حدود الله وذلك هو الكافر لا محالة دون المؤمن ، قلنا : الأمر وإن كان كما ذكرتم نظراً إلى اللفظ لكنه وجدت قرائن تدل على أنه ليس المراد ههنا تعدي جميع الحدود ، أحدها : أنه تعالى قدم على قوله : ﴿ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ ﴾ قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللهِ ﴾ فانصرف قوله : ﴿ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ ﴾ إلى تلك الحدود ، وثانيها : أن الأمة متفقون على أن المؤمن مزجور بهذه الآية عن المعاصي ، ولو صح ما ذكرتم لكان المؤمن غير مزجور بها ، وثالثها : أنا لو حملنا الآية على تعدي جميع الحدود لم يكن للوعيد بها فائدة لأن أحداً من المكلفين لا يتعدى جميع حدود الله ، لأن في الحدود ما لا يمكن الجمع بينها في التعدي لتضادها ، فإنه لا يتمكن أحد من أن يعتقد في حالة واحدة مذهب الثنوية

والنصرانية وليس يوجد في المكلفين من يعصي الله بجميع المعاصي ، ورابعها : قوله تعالى في قاتل المؤمن عمداً : ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا ﴾ [النساء : 93] ، دلت الآية على أن ذلك جزاؤه ، فوجب أن يحصل له هذا الجزاء لقوله تعالى : ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ ﴾ [النساء : 123] .

وخامسها : قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين ءامَنُواْ إِذَا لَقِيتُمُ الذين كَفَرُواْ ﴾ [الأنفال : 15] إلى قوله : ﴿ وَمَن يُوَلّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرّفاً لّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاء بِغَضَبٍ مّنَ الله وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ المصير ﴾ [الأنفال : 16] .

وسادسها : قوله تعالى : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ ﴾ [الزلزلة : 7 ، 8] .

وسابعها : قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين ءامَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ أموالكم بَيْنَكُمْ بالباطل ﴾ [النساء : 29] إلى قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذلك عدوانا وَظُلْماً فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَاراً ﴾ [النساء : 30] .

وثامنها : قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يحيى * وَمَن

يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصالحات فَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الدرجات العلى ﴾ [طه : 74 ، 75] فبين تعالى أن الكافر والفاسق من أهل العقاب الدائم كما أن المؤمن من أهل الثواب .

(196/57)

وتاسعها : قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً ﴾ [طه : 111] وهذا يوجب أن يكون الظالم من أهل الصلاة داخلاً تحت هذا الوعيد ، وعاشرها : قوله تعالى بعد تعداد المعاصي : ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذلك يَلْقَ أَثَاماً * يضاعف لَهُ العذاب يَوْمَ القيامة وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً ﴾ [الفرقان : 68 ، 69] بين أن الفاسق كالكافر في أنه من أهل الخلود ، إلا من تاب من الفساق أو آمن من الكفار ، والحادية عشرة : قوله تعالى : ﴿ مَن جَاء بالحسنة فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُمْ مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءامِنُونَ وَمَن جَاء بالسيئة ﴾ [النمل : 89 ، 90] الآية ، وهذا يدل على أن المعاصي كلها متوعد عليها كما أن الطاعات كلها موعود عليها ، والثانية عشرة : قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَن طغى وَءاثَرَ الحياة الدنيا فَإِنَّ الجحيم هِيَ المأوى ﴾ [النازعات : 37 – 39] .

والثالثة عشرة : قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَعْصِ الله وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ ﴾ [الجن : 23] الآية ولم يفصل بين الكافر والفاسق ، والرابعة عشرة : قوله تعالى : ﴿ بلى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً

وأحاطت بِهِ خَطِيئَتُهُ ﴾ الآية ، فحكي في أول الآية قول المرجئة من اليهود فقال : ﴿ وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النار إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ﴾ [البقرة : 80] ثم إن الله كذبهم فيه ، ثم قال : ﴿ بلى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وأحاطت بِهِ خَطِيئَتُهُ فأولئك أصحاب النار هُمْ فِيهَا خالدون ﴾ فهذه هي الآيات التي تمسكوا بها في المسألة لاشتمالها على صيغة " من " في معرض الشرط واستدلوا على أن هذه اللفظة تفيد العموم بوجوه .

(197/57)

أحدها : أنها لو لم تكن موضوعة للعموم لكانت إما موضوعة للخصوص أو مشتركة بينهما والقسمان باطلان ، فوجب كونها موضوعة للعموم ، أما أنه لا يجوز أن تكون موضوعة للخصوص فلأنه لو كان كذلك لما حسن من المتكلم أن يعطي الجزاء لكل من أتى بالشرط ، لأن على هذا التقدير لا يكون ذلك الجزاء مرتباً على ذلك الشرط ، لكنهم أجمعوا على أنه إذا قال : من دخل داري أكرمته أنه يحسن أن يكرم كل من دخل داره فعلمنا أن هذه اللفظة ليست للخصوص ، وأما أنه لا يجوز أن تكون موضوعة للاشتراك ، أما أولاً : فلأن الاشتراك خلاف الأصل ، وأما ثانياً : فلأنه لو كان كذلك لما عرف كيفية ترتب الجزاء على الشرط إلا بعد الاستفهام عن جميع الأقسام الممكنة مثل أنه إذا قال : من دخل داري

أكرمته ، فيقال له : أردت الرجال أو النساء ، فإذا قال : أردت الرجال يقال له : أردت العرب أو العجم ، فإذا قال : أردت العرب يقال له : أردت ربيعة أو مضر وهلم جراً إلى أن يأتي على جميع التقسيمات الممكنة ، ولما علمنا بالضرورة من عادة أهل اللسان قبح ذلك علمنا أن القول بالاشتراك باطل .

وثانيها : أنه إذا قال : من دخل داري أكرمته حسن استثناء كل واحد من العقلاء منه والاستثناء يخرج من الكلام ما لولاه لوجب دخوله فيه لأنه لا نزاع في أن المستثنى من الجنس لا بد وأن يكون بحيث يصح دخوله تحت المستثنى منه ، فإما أن يعتبر مع الصحة الوجوب أو لا يعتبر والأول باطل ، أما أولاً : فلأنه يلزم أن لا يبقى بين الاستثناء من الجمع المنكر كقوله : جاءني الفقهاء إلا زيداً وبين الاستثناء من الجمع المعرف كقوله : جاءني الفقهاء إلا زيداً فرق لصحة دخول زيد في الكلامين ، لكن الفرق بينهما معلوم بالضرورة .

(198/57)

وأما ثانياً : فلأن الاستثناء من العدد يخرج ما لولاه لوجب دخوله تحته فوجب أن يكون هذا فائدة الاستثناء في جميع المواضع لأن أحداً من أهل اللغة لم يفصل بين الاستثناء الداخل على العدد وبين الداخل على غيره من الألفاظ ، فثبت بما ذكرنا أن الاستثناء

يخرج من الكلام ما لولاه لوجب دخوله فيه وذلك يدل على أن صيغة " من " في معرض الشرط للعموم ، وثالثها : أنه تعالى لما أنزل قوله : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ [الأنبياء : 98] الآية قال ابن الزبعرى : لأخصمن محمداً ثم قال : يا محمد أليس قد عبدت الملائكة أليس قد عبد عيسى ابن مريم فتمسك بعموم اللفظ والنبي عليه الصلاة والسلام لم ينكر عليه ذلك (1) ، فدل على أن هذه الصيغة تفيد العموم .

النوع الثاني : من دلائل المعتزلة : التمسك في الوعيد بصيغة الجمع المعرفة بالألف واللام وهي في آيات .

إحداها : قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ الفجار لَفِى جَحِيمٍ ﴾ [الإنفطار : 14] واعلم أن القاضي والجبائي وأبا الحسن يقولون : إن هذه الصيغة تفيد العموم ، وأبو هاشم يقول : إنها لا تفيد العموم ، فنقول : الذي يدل على أنها للعموم وجوه .

أحدها : أن الأنصار لما طلبوا الإمامة احتج عليهم أبو بكر رضي الله عنه بقوله عليه الصلاة والسلام : " الأئمة من قريش " والأنصار سلموا تلك الحجة ولو لم يدل الجمع المعرف بلام الجنس على الاستغراق لما صحت تلك الدلالة ، لأن قولنا : بعض الأئمة من قريش لا ينافي وجود إمام من قوم آخرين .

أما كون كل الأئمة من قريش ينافي كون بعض الأئمة من غيرهم ، وروي أن عمر رضي الله عنه قال لأبي بكر لما هم بقتال مانعي الزكاة : أليس قال النبي صلى الله عليه وسلم :

(1) الرواية المشهورة

أنه عليه الصلاة والسلام أنكر عليه قوله هذا وقال له : ما أجهلك بلغة قومك «ما» لما لا يعقل .

(199/57)

" أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله " احتج على أبي بكر بعموم اللفظ ثم لم يقل أبو بكر ولا أحد من الصحابة : إن اللفظ لا يفيده بل عدل إلى الاستثناء ، فقال إنه عليه الصلاة والسلام قال : " إلا بحقها " وإن كان الزكاة من حقها ، وثانيها : أن هذا الجمع يؤكد بما يقتضي الاستغراق ، فوجب أن يفيد الاستغراق ، أما أنه يؤكد فلقوله تعالى : ﴿ فَسَجَدَ الملائكة كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ [ص : 73] وأما أنه بعد التأكيد يقتضي الاستغراق ، فبالاجماع ، وأما أنه متى كان كذلك وجب كون المؤكد في أصله للاستغراق لأن هذه الألفاظ مسماة بالتأكيد إجماعاً ، والتأكيد هو تقوية الحكم الذي كان ثابتاً في الأصل ، فلو لم يكن الاستغراق حاصلاً في الأصل ، وإنما حصل بهذه الألفاظ ابتداء لم يكن تأثير هذه الألفاظ في تقوية الحكم ، بل في إعطاء حكم جديد ، وكانت مبينة للمجمل لا مؤكدة ، وحيث أجمعوا على أنها مؤكدة علمنا أن اقتضاء الاستغراق كان حاصلاً في الأصل .

وثالثها : أن الألف واللام إذا دخلا في الاسم صار الاسم معرفة ، كذا نقل عن أهل اللغة فيجب صرفه إلى ما به تحصل المعرفة ، وإنما تحصل المعرفة عند إطلاقه بصرفه إلى الكل ، لأنه معلوم للمخاطب ، وأما صرفه إلى ما دون الكل فإنه لا يفيد المعرفة ، لأنه ليس بعض الجمع أولى من بعض ، فكان يبقى مجهولاً .

فإن قلت : إذا أفاد جمعاً مخصوصاً من ذلك الجنس فقد أفاد تعريف ذلك الجنس ، قلت : هذه الفائدة كانت حاصلة بدون الألف واللام ، لأنه لو قال : رأيت رجالاً ، أفاد تعريف ذلك الجنس وتميزه عن غيره ، فدل على أن للألف واللام فائدة زائدة وما هي إلا الاستغراق .

ورابعها : أنه يصح استثناء أي واحد كان منه وذلك يفيد العموم .

(200/57)

وخامسها : الجمع المعرف في اقتضاء الكثرة فوق المنكر ، لأنه يصح انتزاع المنكر من المعرف ولا ينعكس فإنه يجوز أن يقال : رأيت رجالاً من الرجال ، ولا يقال رأيت الرجال من رجال ، ومعلوم بالضرورة أن المنتزع منه أكثر من المنتزع ، إذا ثبت هذا ، فنقول : إن المفهوم من الجمع المعرف ، إما الكل أو ما دونه ، والثاني : باطل لأنه ما من عدد دون الكل إلا

ويصح انتزاعه من الجمع المعرف ، وقد علمت أن المنتزع منه أكثر فوجب أن يكون الجمع المعرف مفيداً للكل والله أعلم .

أما على طريقة أبي هاشم ، وهي أن الجمع المعرف لا يفيد العموم فيمكن التمسك بالآية من وجهين آخرين .

الأول : أن ترتيب الحكم على الوصف مشعر بالعلية فقوله : ﴿ وَإِنَّ الفجار لَفِى جَحِيمٍ ﴾ يقتضي أن الفجور هي العلة ، وإذا ثبت ذلك لزم عموم الحكم لعموم علته وهو المطلوب ، وفي هذا الباب طريقة ثالثة يذكرها النحويون وهي أن اللام في قوله : ﴿ وَإِنَّ الفجار ﴾ ليست لام تعريف ، بل هي بمعنى الذي ، ويدل عليه وجهان .

أحدهما : أنها تجاب بالفاء كقوله تعالى : ﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا أَيْدِيَهُمَا ﴾ [المائدة : 38] ، وكما تقول الذي يلقاني فله درهم .

الثاني : أنه يصح عطف الفعل على الشيء الذي دخلت هذه اللام عليه قال تعالى : ﴿ إِنَّ المصدقين والمصدقات وَأَقْرَضُواْ الله قَرْضاً حَسَناً ﴾ [الحديد : 18] فلولا أن قوله : ﴿ إِنَّ المصدقين ﴾ بمعنى : إن الذين أصدقوا لما صح أن يعطف عليه قوله : ﴿ وَأَقْرِضُواْ الله ﴾ وإذا ثبت ذلك كان قوله : ﴿ وَإِنَّ الفجار لَفِى جَحِيمٍ ﴾ معناه : إن الذين فجروا فهم في الجحيم ، وذلك يفيد العموم .

الآية الثانية في هذا الباب : قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ المتقين إِلَى الرحمن وَفْداً وَنَسُوقُ المجرمين إلى جَهَنَّمَ وِرْداً ﴾ [مريم : 85 ، 86] ولفظ المجرمين صيغة جمع معرفة بالألف واللام وثالثها : قوله تعالى : ﴿ وَّنَذَرُ الظالمين فِيهَا جِثِيّاً ﴾ [مريم : 72] ورابعها : قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ الله الناس بِظُلْمِهِمْ مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ ولكن يُؤَخّرُهُمْ ﴾ [النحل : 61] بين أنه يؤخر عقابهم إلى يوم آخر وذلك إنما يصدق أن لو حصل عقابهم في ذلك اليوم .

النوع الثالث : من العمومات : صيغ الجموع المقرونة بحرف الذي ، فأحدها : قوله تعالى : ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ الذين إِذَا اكتالوا عَلَى الناس يَسْتَوْفُونَ ﴾ [المطففين : 1 ، 2] .

وثانيها : قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين يَأْكُلُونَ أموال اليتامى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَاراً ﴾ [النساء : 10] .

وثالثها : قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين تتوفاهم الملائكة ظَالِمِى أَنفُسِهِمْ ﴾ [النحل : 28] فبين ما يستحق على ترك الهجرة وترك النصرة وإن كان معترفاً بالله ورسوله .

ورابعها : قوله تعالى : ﴿ والذين كَسَبُواْ السيئات جَزَاء سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾ [يونس : 27] ولم يفصل في الوعيد بين الكافر وغيره ، وخامسها : قوله تعالى : ﴿ والذين يَكْنِزُونَ الذهب والفضة وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ الله ﴾ [التوبة : 34] .

وسادسها ؛ قوله تعالى : ﴿ وَلَيْسَتِ التوبةِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السيئات ﴾ [النساء : 18] ولو لم يكن الفاسق من أهل الوعيد والعذاب لم يكن لهذا القول معنى ، بل لم يكن به إلى التوبة حاجة ، وسابعها : قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا جَزَاء الذين يُحَارِبُونَ الله وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِى الأرض فَسَاداً أَن يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ ﴾ [المائدة : 33] فبين ما على الفاسق من العذاب في الدنيا والآخرة ، وثامنها : قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ الله وأيمانهم ثَمَنًا قَلِيلا أولئك لاَ خلاق لَهُمْ فِى الأخرة ﴾ [آل عمران : 77] .

النواع الرابع : من العمومات ، قوله تعالى : ﴿ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِ يَوْمَ القيامة ﴾ [آل عمران : 180] توعد على منع الزكاة .

النوع الخامس من العمومات : لفظة "كل" وهو قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى الأرض لاَفْتَدَتْ بِهِ ﴾ [يونس : 54] فبين ما يستحق الظالم على ظلمه .

النوع السادس : ما يدل على أنه سبحانه لا بد وأن يفعل ما توعدهم به وهو قوله تعالى : ﴿ قَالَ لاَ تَخْتَصِمُواْ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بالوعيد مَا يُبَدَّلُ القول لَدَىَّ وَمَا أَنَاْ بظلام لِّلْعَبِيدِ ﴾ [ق : 28 ، 29] بين أنه لا يبدل قوله في الوعيد والاستدلال بالآية من وجهين .

أحدهما : أنه تعالى جعل العلة في إزاحة العذر تقديم الوعيد ، أي بعد تقديم الوعيد لم يبق لأحد علة ولا مخلص من عذابه ، والثاني : قوله تعالى : ﴿ مَا يُبَدَّلُ القول لَدَيَّ ﴾ وهذا صريح في أنه تعالى لا بد وأن يفعل ما دل اللفظ عليه ، فهذا مجموع ما تمسكوا به من عمومات القرآن .

أما عمومات الأخبار فكثيرة .

(203/57)

فالنوع الأول : المذكور بصيغة " من " أحدها : ما روى وقاص بن ربيعة عن المسور بن شداد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من أكل بأخيه أكلة أطعمه الله من نار جهنم ، ومن أخذ بأخيه كسوة كساه الله من نار جهنم ومن قام مقام رياء وسمعة أقامه الله يوم القيامة مقام رياء وسمعة " وهذا نص في وعيد الفاسق ، ومعنى أقامه : أي جازاه على ذلك ، وثانيها : قال عليه السلام : " من كان ذا لسانين وذا وجهين كان في النار ذا لسانين وذا وجهين " ولم يفصل بين المنافق وبين غيره في هذا الباب ، وثالثها : عن سعيد بن زيد قال عليه السلام : " من ظلم قيد شبر من أرض طوقه يوم القيامة من سبع أرضين " ورابعها : عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " المؤمن من أمنه الناس والمسلم من

سلم المسلمون من لسانه ويده والمهاجر من هاجر السوء والذي نفسي بيده لا يدخل الجنة عبد لا يأمن جاره بوائقه " .

وهذا الخبر يدل على وعيد الفاسق الظالم ويدل على أنه غير مؤمن ولا مسلم على ما يقوله المعتزلة من المنزلة بين المنزلتين .

وخامسها : عن ثوبان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من جاء يوم القيامة بريئاً من ثلاثة ، دخل الجنة : الكبر والغلول والدين " وهذا يدل على أن صاحب هذه الثلاثة لا يدخل الجنة وإلا لم يكن لهذا الكلام معنى ، والمراد من الدين من مات عاصياً مانعاً ولم يرد التوبة ولم يتب عنه .

وسادسها : عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من سلك طريقاً يطلب به علماً سهل الله له طريقاً من طرق الجنة ، ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه " .

وهذا نص في أن الثواب لا يكون إلا بالطاعة ، والخلاص من النار لا يكون إلا بالعمل الصالح ،

وسابعها : عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " كل مسكر خمر وكل خمر حرام ومن شرب الخمر في الدنيا ولم يتب منها لم يشربها في الآخرة "

وهو صريح في وعيد الفاسق وأنه من أهل الخلود ، لأنه إذا لم يشربها لم يدخل الجنة لأن فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين .

وثامنها : عن أم سلمة قالت : قال عليه السلام : " إنما أنا بشر مثلكم ولعلكم تختصمون إلي ولعل بعضكم ألحن بحجته من بعض فمن قضيت له بحق أخيه فإنما قطعت له قطعة من النار " .

وتاسعها : عن ثابت بن الضحاك قال : قال عليه السلام : " من حلف بملة سوى الإسلام كاذباً متعمداً فهو كما قال ومن قتل نفسه بشيء يعذب به في نار جهنم " .

وعاشرها : عن عبد الله بن عمر قال : قال عليه الصلاة والسلام في الصلاة : " من حافظ عليها كانت له نوراً وبرهاناً ونجاة يوم القيامة ومن لم يحافظ عليها لم تكن له نوراً ولا برهاناً ولا نجاة ولا ثواباً وكان يوم القيامة مع قارون وهامان وفرعون وأبي بن خلف " .

(205/57)

وهذا نص في أن ترك الصلاة يحبط العمل ويوجب وعيد الأبد ، الحادي عشر : عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال عليه السلام : " من لقي الله مدمن خمر لقيه كعابد وثن "

ولما ثبت أنه لا يكفر علمنا أن المراد منه إحباط العمل ، الثاني عشر : عن أبي هريرة قال : قال عليه السلام : " من قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يجأ بها بطنه يهوي في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً ، ومن تردى من جبل متعمداً فقتل نفسه فهو متردٍ في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً " الثالث عشر : عن أبي ذر قال عليه السلام : " ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم ، قلت يا رسول الله من هم خابوا وخسروا ؟ قال : المسبل والمنان والمنفق سلعته بالحلف كاذباً " يعني بالمسبل المتكبر الذي يسبل إزاره ، ومعلوم أن من لم يكلمه الله ولم يرحمه وله عذاب أليم فهو من أهل النار ، وورود في الفاسق نص في الباب ، الرابع عشر : عن أبي هريرة قال : قال عليه الصلاة والسلام : " من تعلم علماً مما يبتغي به وجه الله لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة ، ومن لم يجد عرف الجنة " .

فلا شك أنه في النار لأن المكلف لا بد وأن يكون في الجنة أو في النار الخامس عشر : عن أبي هريرة قال : قال عليه السلام : " من كتم علماً ألجم بلجام من نار يوم القيامة " .

السادس عشر : عن ابن مسعود قال : قال عليه السلام : " من حلف على يمين كاذباً ليقطع بها مال أخيه لقي الله وهو عليه غضبان " وذلك لأن الله تعالى يقول :

﴿ إِنَّ الذين يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ الله وأيمانهم ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ [آل عمران : 77] إلى آخر الآية ، وهذا نص في الوعيد ونص في أن الآية واردة في الفساق كورودها في الكفار ، السابع عشر : عن أبي أمامة قال : قال عليه السلام : " من حلف على يمين فاجرة ليقطع بها مال امرئ مسلم بغير حقه حرم الله عليه الجنة وأوجب له النار ، قيل يا رسول الله : وإن كان شيئاً يسيراً ، قال : وإن كان قضيباً من أراك " .

الثامن عشر : عن سعيد بن جبير قال : كنت عند ابن عباس فأتاه رجل وقال : إني رجل معيشتي من هذه التصاوير ، فقال ابن عباس : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " من صور فإن الله يعذبه حتى ينفخ فيه الروح وليس بنافخ ، ومن استمع إلى حديث قوم يفرون منه صب في أذنيه الآنك ومن يرى عينيه في المنام ما لم يره كلف أن يعقد بين شعرتين " .

التاسع عشر : عن معقل بن يسار قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت ، وهو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة " .

العشرون : عن ابن عمر في مناظرته مع عثمان حين أراد أن يوليه القضاء قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " من كان قاضياً يقضي بالجهل كان من أهل النار ، ومن كان قاضياً يقضي بالجور كان من أهل النار " .

الحادي والعشرون : قال عليه السلام : " من ادعى أباً في الإسلام وهو يعلم أنه غير أبيه فالجنة عليه حرام " .

الثاني والعشرون : عن الحسن عن أبي بكرة قال عليه السلام : " من قتل نفساً معاهداً لم يرح رائحة الجنة " وإذا كان في قتل الكفار هكذا فما ظنك بقتل أولاد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الثالث والعشرون : عن أبي سعيد الخدري قال : قال عليه السلام : " من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة " وإذا لم يلبسه في الآخرة وجب أن لا يكون من أهل الجنة لقوله تعالى : ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأنفس ﴾ [الزخرف : 71] .

(207/57)

النوع الثاني : من العمومات الإخبارية الواردة لا بصيغة " من " وهي كثيرة جداً ، الأول : عن نافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : قال عليه السلام : " لا يدخل الجنة مسكين متكبر ولا شيخ زان ولا منان على الله بعمله " .

ومن لم يدخل الجنة من المكلفين فهو من أهل النار بالإجماع الثاني : عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال عليه السلام : " ثلاثة يدخلون الجنة : الشهيد ، وعبد نصح سيده وأحسن عبادة ربه ، وعفيف متعفف ، وثلاثة يدخلون النار : أمير مسلط ، وذو ثروة من مال لا

يؤدي حق الله ، وفقير فخور " .

الثالث : عن أبي هريرة قال : قال عليه السلام : " إن الله خلق الرحم ، فلما فرغ من خلقه قامت الرحم ، فقالت هذا مقام العائذ من القطيعة ، قال : نعم ألا ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك ؟ قالت : بلى .

قال : فهو ذاك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فاقرؤوا إن شئتم ، ﴿ فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم ﴾ ، ﴿ أَوْلَئِكَ الذين لَعَنَهُمُ الله فَأَصَمَّهُمْ وأعمى أبصارهم ﴾ " [محمد : 23] ، وهذا نص في وعيد قاطع الرحم وتفسير الآية ، وفي حديث عبد الرحمن بن عوف قال الله تعالى : " أنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسماً من اسمي فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته " وفي حديث أبي بكرة أنه عليه السلام قال : " ما من ذنب أجدر أن يعجل الله لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدخره في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم " .

الرابع : عن معاذ بن جبل قال : قال عليه السلام لبعض الحاضرين : " ما حق الله على العباد ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم .

قال : أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً .

قال : فما حقهم على الله إذا فعلوا ذلك ؟ قال : أن يغفر لهم ولا يعذبهم " .

ومعلوم أن المعلق على الشرط عدم عند عدم الشرط فيلزم أن لا يغفر لهم إذا لم يعبدوه .

الخامس : عن أبي بكرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا اقتتل المسلمان بسيفيهما فقتل أحدهما صاحبه فالقاتل والمقتول في النار ، فقال : يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول ؟ قال : إنه كان حريصاً على قتل صاحبه " رواه مسلم .

السادس : عن أم سلمة قالت : قال عليه السلام : " الذي يشرب في آنية الذهب والفضة إنما يجرجر في بطنه نار جهنم " .

السابع : عن أبي سعيد الخدري قال : قال عليه السلام : " والذي نفسي بيده لا يبغض أهل البيت رجل إلا أدخله الله النار " وإذا استحقوا النار ببعضهم فلأن يستحقوها بقتلهم أولى .

الثامن : في حديث أبي هريرة : أنا خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في عام خيبر إلى أن كنا بوادي القرى ، فبينما يحفظ رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ جاءه سهم وقتله فقال الناس هنيئاً له الجنة ، قال رسول الله : " كلا والذي نفسي بيده إن الشملة التي أخذها يوم حنين من الغنائم لم يصبها المقاسم لتشتعل عليه ناراً " .

فلما سمع الناس بذلك جاء رجل بشراك أو بشراكين إلى رسول الله فقال عليه السلام :

شراك من نار أو شراكين من النار .

التاسع : عن أبي بردة عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ثلاثة لا يدخلون الجنة : مدمن الخمر وقاطع الرحم ومصدق السحر " .

العاشر : عن أبي هريرة قال عليه السلام : " ما من عبد له مال لا يؤدي زكاته إلا جمع الله له يوم القيامة عليه صفائح من نار جهنم يكوي بها جبهته وظهره حتى يقضي الله بين عباده في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة مما تعدون " .

هذا مجموع استدلال المعتزلة بعمومات القرآن والأخبار .

أجاب أصحابنا عنها من وجوه .

أولها : أنا لا نسلم أن صيغة " من " في معرض الشرط للعموم ، ولا نسلم أن صيغة الجمع إذا كانت معرفة باللام للعموم والذي يدل عليه أمور .

(209/57)

الأول : أنه يصح إدخال لفظتي الكل والبعض على هاتين اللفظتين ، كل من دخل داري أكرمته وبعض من دخل داري أكرمته ، ويقال أيضاً : كل الناس كذا ، وبعض الناس كذا ، ولو كانت لفظة " من " للشرط تفيد الاستغراق لكان إدخال لفظ الكل عليه تكريراً

وإدخال لفظ البعض عليه نقضاً ، وكذلك في لفظ الجمع المعرف ، فثبت أن هذه الصيغ لا تفيد العموم .

الثاني : وهو أن هذه الصيغ جاءت في كتاب الله ، والمراد منها تارة الاستغراق وأخرى البعض ، فإن أكثر عمومات القرآن مخصوصة ، والمجاز والاشتراك خلاف الأصل ولا بد من جعله حقيقة في القدر المشترك بين العموم والخصوص وذلك هو أن يحمل على إفادة الأكثر من غير بيان أنه يفيد الاستغراق أو لا يفيد .

الثالث : وهو أن هذه الصيغ لو أفادت العموم إفادة قطعية لاستحال إدخال لفظ التأكيد عليها ، لأنها تحصيل الحاصل محال فحيث حسن إدخال هذه الألفاظ عليها علمنا أنها لا تفيد معنى العموم لا محالة ، سلمنا أنها تفيد معنى ولكن إفادة قطعية أو ظنية ؟ الأول : ممنوع وباطل قطعاً لأن من المعلوم بالضرورة أن الناس كثيراً ما يعبرون عن الأكثر بلفظ الكل والجميع على سبيل المبالغة كقوله تعالى : ﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [النمل : 23] فإذا كانت هذه الألفاظ تفيد معنى العموم إفادة ظنية ، وهذه المسألة ليست من المسائل الظنية لم يجز التمسك فيها بهذه العمومات ، سلمنا أنها تفيد معنى العموم إفادة قطعية ولكن لا بد من اشتراط أن لا يوجد شيء من المخصصات ، فإنه لا نزاع في جواز تطرق التخصيص إلى العام ، فلم قلتم : إنه لم يوجد شيء من المخصصات ؟ أقصى ما في الباب أن يقال : بحثنا فلم نجد شيئاً من المخصصات لكنك تعلم أن عدم الوجدان لا يدل على عدم الوجود .

وإذا كانت إفادة هذه الألفاظ لمعنى الاستغراق متوقفة على نفي المخصصات ، وهذا الشرط غير معلوم كانت الدلالة موقوفة على شرط غير معلوم ، فوجب أن لا تحصل الدلالة ، ومما يؤكد هذا المقام قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين كَفَرُواْ سَوَاء عَلَيْهِمْ ءأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾

[البقرة : 6] حكم على كل الذين كفروا أنهم لا يؤمنون ، ثم إنا شاهدنا قوماً منهم قد آمنوا فعلمنا أنه لا بد من أحد الأمرين : إما لأن هذه الصيغة ليست موضوعة للشمول أو لأنها وإن كانت موضوعة لهذا المعنى إلا أنه قد وجدت قرينة في زمان الرسول صلى الله عليه وسلم كانوا يعلمون لأجلها أن مراد الله تعالى من هذا العموم هو الخصوص .

وأما ما كان هناك فلم يجوز مثله ههنا ؟ سلمنا أنه لا بد من بيان المخصص ، لكن آيات العفو مخصصة لها والرجحان معنا لأن آيات العفو بالنسبة إلى آيات الوعيد خاصة بالنسبة إلى العام والخاص ، مقدم على العام لا محالة ، سلمنا أنه لم يوجد المخصص ولكن عمومات الوعيد معارضة بعمومات الوعد ، ولا بد من الترجيح وهو معنا من وجوه ، الأول : أن الوفاء بالوعد أدخل في الكرم من الوفاء بالوعيد ، والثاني : أنه قد اشتهر في الأخبار أن

رحمة الله سابقة على غضبه وغالبة عليه فكان ترجيح عمومات الوعد أولى .

الثالث : وهو أن الوعيد حق الله تعالى والوعد حق العبد ، وحق العبد أولى بالتحصيل من حق الله تعالى ، سلمنا أنه لم يوجد المعارض ولكن هذه العمومات نزلت في حق الكفار ، فلا تكون قاطعة في العمومات ، فإن قيل العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، قلنا : هب أنه كذلك ، ولكن لما رأينا كثيراً من الألفاظ العامة وردت في الأسباب الخاصة ، والمراد تلك الأسباب الخاصة فقط علمنا أن إفادتها للعموم لا يكون قوياً ، والله أعلم .

أما الذين قطعوا بنفي العقاب عن أهل الكبائر فقد احتجوا بوجوه .

(211/57)

الأول : قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الخزى اليوم والسوء عَلَى الكافرين ﴾ [النحل : 27] وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَا أَنَّ العذاب على مَن كَذَّبَ وتولى ﴾ [طه : 48] دلت هذه الآية على أن ماهية الخزي والسوء والعذاب مختصة بالكافر ، فوجب أن لا يحصل فرد من أفراد هذه الماهية لأحد سوى الكافرين .

الثاني : قوله تعالى : ﴿ قُلْ يا أهل عِبَادِى الذين أَسْرَفُواْ على أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ الله إِنَّ الله يَغْفِرُ الذنوب جَمِيعاً ﴾ [الزمر : 53] ، حكم تعالى بأنه يغفر كل الذنوب ولم

يعتبر التوبة ولا غيرها ، وهذا يفيد القطع بغفران كل الذنوب .

الثالث : قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ على ظُلْمِهِمْ ﴾ [الرعد : 6] وكلمة " على " تفيد الحال كقولك : رأيت الملك على أكله ، أي رأيته حال اشتغاله بالأكل ، فكذا ههنا وجب أن يغفر لهم الله حال اشتغالهم بالظلم وحال الاشتغال بالظلم يستحيل حصول التوبة منهم ، فعلمنا أنه يحصل الغفران بدون التوبة ومقتضى هذه الآية أن يغفر للكافر لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان : 13] إلا أنه ترك العمل به هناك فبقي معمولاً به في الباقي .

والفرق أن الكفر أعظم حالاً من المعصية .

الرابع : قوله تعالى : ﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَاراً تلظى * لاَ يصلاها إِلاَّ الأشقى الذى كَذَّبَ وتولى ﴾

[الليل : 14 16] ، وكل نار فإنها متلظية لا محالة ، فكأنه تعالى قال إن النار لا يصلاها إلا الأشقى الذي هو المكذب المتولي .

(212/57)

الخامس : قوله تعالى : ﴿ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴾ [الملك : 8 ، 9] ، دلت الآية على أن جميع أهل النار مكذب لا يقال هذه الآية خاصة في الكفار ، ألا ترى أنه يقول قبله : ﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ * إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ ﴾ [الملك : 6- 8] .

وهذا يدل على أنها مخصوصة في بعض الكفار وهم الذين قالوا : ﴿ بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللهُ مِن شَيْءٍ ﴾ [الملك : 9] ، وليس هذا من قول جميع الكفار لأنا نقول : دلالة ما قبل هذه الآية على الكفار لا تمنع من عموم ما بعدها .

أما قوله : إن هذا ليس من قول الكفار قلنا : لا نسلم ، فإن اليهود والنصارى كانوا يقولون : ما نزل الله من شيء على محمد ، وإذا كان كذلك فقد صدق عليهم أنهم كانوا يقولون ما نزل الله من شيء .

السادس : قوله تعالى : ﴿ وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴾ [سبأ : 17] وهذا بناء المبالغة فوجب أن يختص بالكفر الأصلي .

السابع : أنه تعالى بعد ما أخبر أن الناس صنفان : بيض الوجوه وسودهم قال : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴾ [آل عمران : 106] فذكر أنهم الكفار .

والثامن : أنه تعالى بعد ما جعل الناس ثلاثة أصناف ، السابقون وأصحاب الميمنة ، وأصحاب المشأمة ، بين أن السابقين وأصحاب الميمنة في الجنة وأصحاب المشأمة في النار ، ثم بين أنهم كفار بقوله : ﴿ وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وعظاما أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ [الواقعة : 47] .

(213/57)

التاسع : إن صاحب الكبيرة لا يخزى وكل من أدخل النار فإنه يخزى فإذن صاحب الكبيرة لا يدخل النار وإنما قلنا إن صاحب الكبيرة لا يخزى لأن صاحب الكبيرة مؤمن والمؤمن لا يخزى ، وإنما قلنا : إنه مؤمن لما سبق بيانه في تفسير قوله : ﴿ الذين يُؤْمِنُونَ بالغيب ﴾ [البقرة : 3] من أن صاحب الكبيرة مؤمن ، وإنما قلنا : إن المؤمن لا يخزى لوجوه .

أحدها : قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه ﴾ [التحريم : 8] .

وثانيها : قوله : ﴿ إِنَّ الخزى اليوم والسوء عَلَى الكافرين ﴾ [النحل : 27] .

وثالثها : قوله تعالى : ﴿ الذين يَذْكُرُونَ الله قياما وَقُعُوداً وعلى جُنُوبِهِمْ ﴾ [آل عمران : 191] إلى أن حكى عنهم أنهم قالوا : ﴿ وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ القيامة ﴾ [آل عمران : 194] ، ثم إنه تعالى قال : ﴿ فاستجاب لَهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ [آل عمران : 195] ومعلوم أن الذين

يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض يدخل فيه العاصي والزاني وشارب الخمر ، فلما حكى الله عنهم أنهم قالوا : ﴿ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ القيامة ﴾ ثم بين أنه تعالى استجاب لهم في ذلك ثبت أنه تعالى لا يخزيهم ، فثبت بما ذكرنا أنه تعالى لا يخزي عصاة أهل القبلة ، وإنما قلنا : إن كل من أدخل النار فقد أخزي لقوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النار فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ ﴾ [آل عمران : 192] ، فثبت بمجموع هاتين المقدمتين أن صاحب الكبيرة لا يدخل النار .

(214/57)

العاشر : العمومات الكثيرة الواردة في الوعد نحو قوله : ﴿ والذين يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وبالأخرة هُمْ يُوقِنُونَ أولئك على هُدًى مّن رَّبِّهِمْ وأولئك هُمُ المفلحون ﴾ [البقرة : 4 5] ، فحكم بالفلاح على كل من آمن ، وقال : ﴿ إِنَّ الذين ءامَنُواْ والذين هَادُواْ والنصارى والصابئين مَنْ ءامَنَ بالله واليوم الآخر وَعَمِلَ صالحا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ هم يحزنون ﴾ [البقرة : 62] .

فقوله : ﴿ وَعَمِلَ صالحا ﴾ نكرة في الإثبات فيكفي فيه الإثبات بعمل واحد وقال : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصالحات مِن ذَكَرٍ أَوْ أنثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الجنة ﴾ [النساء :

124] وإنها كثيرة جداً ، ولنا فيه رسالة مفردة من أرادها فليطالع تلك الرسالة .

والجواب عن هذه الوجوه : أنها معارضة بعمومات الوعيد ، والكلام في تفسير كل واحد من هذه الآيات يجيء في موضعه إن شاء الله تعالى ، أما أصحابنا الذين قطعوا بالعفو في حق البعض وتوقفوا في البعض فقد احتجوا من القرآن بآيات .

(215/57)

الحجة الأولى : الآيات الدالة على كون الله تعالى عفواً غفوراً كقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الذى يَقْبَلُ التوبة عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُواْ عَنِ السيئات وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الشورى : 25] وقوله تعالى : ﴿ وَمَا أصابكم مّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ [الشورى : 30] وقوله : ﴿ وَمِنْ ءاياته الجوار فِى البحر كالاعلام ﴾ [الشورى : 32] إلى قوله : ﴿ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِير ﴾ [الشورى : 34] وأيضاً أجمعت الأمة على أن الله يعفو عن عباده وأجمعوا على أن من جملة أسمائه العفو فنقول : العفو إما أن يكون عبارة عن إسقاط العقاب عمن يحسن عقابه أو عمن لا يحسن عقابه ، وهذا القسم الثاني باطل ، لأن عقاب من لا يحسن عقابه قبيح ، ومن ترك مثل هذا الفعل لا يقال : إنه عفا ، ألا ترى أن الإنسان إذا لم يظلم أحداً لا يقال : إنه عفا عنه ، إنما يقال له : عفا إذا كان له أن يعذبه

فتركه ولهذا قال : ﴿ وَأَن تَعْفُواْ أَقْرَبُ للتقوى ﴾ [البقرة : 237] ولأنه تعالى قال : ﴿ وَهُوَ الذى يَقْبَلُ التوبة عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُواْ عَنِ السيئات ﴾ [الشورى : 25] ، فلو كان العفو عبارة عن إسقاط العقاب عن التائب لكان ذلك تكريراً من غير فائدة ، فعلمنا أن العفو عبارة عن إسقاط العقاب عمن يحسن عقابه وذلك هو مذهبنا .

الحجة الثانية : الآيات الدالة على كونه تعالى غافراً وغفوراً وغفاراً ، قال تعالى : ﴿ غَافِرِ الذنب وَقَابِلِ التوب ﴾ [غافر : 3] وقال : ﴿ وَرَبُّكَ الغفور ذُو الرحمة ﴾ [الكهف : 58] وقال : ﴿ وَإِنّى لَغَفَّارٌ لّمَن تَابَ ﴾ [طه : 82] وقال : ﴿ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ المصير ﴾ [البقرة : 285] .

(216/57)

والمغفرة ليست عبارة عن إسقاط العقاب عمن لا يحسن عقابه فوجب أن يكون ذلك عبارة عن إسقاط العقاب عمن يحسن عقابه ، وإنما قلنا : إن الوجه الأول باطل لأنه تعالى يذكر صفة المغفرة في معرض الامتنان على العباد ولو حملناه على الأول لم يبق هذا المعنى لأن ترك القبيح لا يكون منة على العبد بل كأنه أحسن إلى نفسه فإنه لو فعله لاستحق الذم واللوم والخروج عن حد الإلهية فهو بترك القبائح لا يستحق الثناء من العبد ، ولما بطل ذلك

تعين حمله على الوجه الثاني وهو المطلوب .

فإن قيل : لم يجوز حمل العفو والمغفرة على تأخير العقاب من الدنيا إلى الآخرة والدليل على أن العفو مستعمل في تأخير العذاب عن الدنيا قوله تعالى في قصة اليهود : ﴿ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّن بَعْدِ ذلك ﴾ [البقرة : 52] والمراد ليس إسقاط العقاب ، بل تأخيره إلى الآخرة وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَا أصابكم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ [الشورى : 30] أي ما يعجل الله تعالى من مصائب عقابه إما على جهة المحنة أو على جهة العقوبة المعجلة فبذنوبكم ولا يعجل المحنة والعقاب على كثير منها ، وكذا قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ ءاياته الجوار فِى البحر كالاعلام ﴾ [الشورى : 32] إلى قوله : ﴿ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴾ [الشورى : 34] أي لو شاء إهلاكهن لأهلكهن ولا يهلك على كثير من الذنوب .

(217/57)

والجواب : العفو أصله من عفا أثره أي أزاله ، وإذا كان كذلك وجب أن يكون المسمى من العفو الإزالة لهذا قال تعالى : ﴿ فَمَنْ عُفِىَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَىْء ﴾ [البقرة : 178] وليس المراد منه التأخير ، بل الإزالة وكذا قوله : ﴿ وَأَن تَعْفُواْ أَقْرَبُ للتقوى ﴾ [البقرة : 237]

وليس المراد منه التأخير إلى وقت معلوم ، بل الإسقاط المطلق ، ومما يدل على أن العفو لا يتناول التأخير أن الغريم إذا أخر المطالبة لا يقال : إنه عفا عنه ولو أسقطه يقال : إنه عفا عنه فثبت أن العفو لا يمكن تفسيره بالتأخير .

الحجة الثالثة : الآيات الدالة على كونه تعالى رحماناً رحيماً والاستدلال بها أن رحمته سبحانه إما أن تظهر بالنسبة إلى المطيعين الذين يستحقون الثواب أو إلى العصاة الذين يستحقون العقاب ، والأول : باطل لأن رحمته في حقهم إما أن تحصل لأنه تعالى أعطاهم الثواب الذي هو حقهم أو لأنه تفضل عليهم بما هو أزيد من حقهم .

والأول : باطل لأن أداء الواجب لا يسمى رحمة ، ألا ترى أن من كان له على إنسان مائة دينار فأخذها منه قهراً وتكليفاً لا يقال في المعطي إنه أعطى الآخذ ذلك القدر رحمة ، والثاني : باطل لأن المكلف صار بما أخذ من الثواب الذي هو حقه كالمستغني عن ذلك التفضل فتلك الزيادة تسمى زيادة في الإنعام ولا تسمى ألبتة رحمة ، ألا ترى أن السلطان المعظم إذا كان في خدمته أمير له ثروة عظيمة ومملكة كاملة ، ثم إن السلطان ضم إلى ماله من الملك مملكة أخرى ، فإنه لا يقال : إن السلطان رحمه بل يقال : زاد في الإنعام عليه فكذا ههنا .

أما القسم الثاني : وهو أن رحمته إنما تظهر بالنسبة إلى من يستحق العقاب ، فإما أن تكون رحمته لأنه تعالى ترك العذاب الزائد على العذاب المستحق ، وهذا باطل لأن ترك ذلك واجب والواجب لا يسمى رحمة ولأنه يلزم أن يكون كل كافر وظالم رحيماً علينا لأجل أنه ما ظلمنا ، فبقي أنه إنما يكون رحيماً لأنه ترك العقاب المستحق وذلك لا يتحقق في حق صاحب الصغيرة ولا في حق صاحب الكبيرة بعد التوبة ، لأن ترك عقابهم واجب ، فدل على أن رحمته إنما حصلت لأنه ترك عقاب صاحب الكبيرة قبل التوبة ، فإن قيل : لم لا يجوز أن تكون رحمته لأجل أن الخلق والتكليف والرزق كلها تفضل ، ولأنه تعالى يخفف عن عقاب صاحب الكبيرة ؟ قلنا : أما الأول فإنه يفيد كونه رحيماً في الدنيا فأين رحمته في الآخرة مع أن الأمة مجتمعة على أن رحمته في الآخرة أعظم من رحمته في الدنيا .

وأما الثاني : فلأن عندكم التخفيف عن العذاب غير جائز هكذا قول المعتزلة الوعيدية ، إذا ثبت حصول التخفيف بمقتضى هذه الآية ثبت جواز العفو لأن كل من قال بأحدهما قال بالآخر .

الحجة الرابعة : قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء ﴾ [النساء : 48] ، فنقول : " لمن يشاء " لا يجوز أن يتناول صاحب الصغيرة ولا صاحب

الكبيرة بعد التوبة ، فوجب أن يكون المراد منه صاحب الكبيرة قبل التوبة ، وإنما قلنا : لا يجوز حمله على الصغيرة ولا على الكبيرة بعد التوبة لوجوه .

(219/57)

أحدها : أن قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ ﴾ ، معناه أنه لا يغفره تفضلاً لا أنه لا يغفره استحقاقاً دل عليه العقل والسمع وإذا كان كذلك لزم أن يكون معنى قوله : ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء ﴾ أي ويتفضل بغفران ما دون ذلك الشرك حتى يكون النفي والإثبات متوجهين إلى شيء واحد ، ألا ترى أنه لو قال : فلان لا يتفضل بمائة دينار ويعطي ما دونها لمن استحق لم يكن كلاماً منتظماً ، ولما كان غفران صاحب الصغيرة وصاحب الكبيرة بعد التوبة مستحقاً امتنع كونهما مرادين بالآية .

وثانيها : أنه لو كان قوله : ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء ﴾ أنه يغفر المستحقين كالتائبين وأصحاب الصغائر لم يبق لتمييز الشرك مما دون الشرك معنى لأنه تعالى كما يغفر ما دون الشرك عند الاستحقاق ولا يغفره عند عدم الاستحقاق فكذلك يغفر الشرك عند الاستحقاق ولا يغفره عند عدم الاستحقاق ، فلا يبقى للفصل والتمييز فائدة ، وثالثها : أن غفران التائبين وأصحاب الصغائر واجب والواجب غير معلق على المشيئة ، لأن المعلق

على المشيئة هو الذي إن شاء فاعله فعله يفعله وإن شاء تركه يتركه فالواجب هو الذي لا بد من فعله شاء أو أبى ، والمغفرة المذكورة في الآية معلقة على المشيئة فلا يجوز أن تكون للمغفرة المذكورة في الآية مغفرة التائبين وأصحاب الصغائر ، واعلم أن هذه الوجوه بأسرها مبينة على قول المعتزلة من أنه يجب غفران صاحب الصغيرة وصاحب الكبيرة بعد التوبة ، وأما نحن فلا نقول ذلك .

(220/57)

ورابعها : أن قوله : ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء ﴾ يفيد القطع بأنه يغفر كل ما سوى الشرك وذلك يندرج فيه الصغيرة والكبيرة بعد التوبة وقبل التوبة إلا أن غفران كل هذه الثلاثة يحتمل قسمين ، لأنه يحتمل أن يغفر كلها لكل أحد وأن يغفر كلها للبعض دون البعض فقوله : ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ ﴾ يدل على أنه تعالى يغفر كل هذه الثلاثة ، ثم قوله : ﴿ لِمَن يَشَاء ﴾ يدل على أنه تعالى يغفر كل تلك الأشياء لا للكل بل للبعض .

وهذا الوجه هو اللائق بأصولنا ، فإن قيل : لا نسلم أن المغفرة تدل على أنه تعالى لا يعذب العصاة في الآخرة بيانه أن المغفرة إسقاط العقاب وإسقاط العقاب أعم من إسقاط العقاب دائماً أو لا دائماً واللفظ الموضوع بإزاء القدر المشترك لا إشعار له بكل واحد من ذينك

القيدين ، فإذن لفظ المغفرة لا دلالة فيه على الإسقاط الدائم .

إذا ثبت هذا فنقول : لم لا يجوز أن يكون المراد أن الله تعالى لا يؤخر عقوبة الشرك عن الدنيا ويؤخر عقوبة ما دون الشرك عن الدنيا لمن يشاء ، لا يقال : كيف يصح هذا ونحن لا نرى مزيداً للكفار في عقاب الدنيا على المؤمنين لأنا نقول : تقدير الآية أن الله لا يؤخر عقاب الشرك في الدنيا لمن يشاء ويؤخر عقاب ما دون الشرك في الدنيا لمن يشاء فحصل بذلك تخويف كلا الفريقين بتعجيل العقاب للكفار والفساق لتجويز كل واحد من هؤلاء أن يعجل عقابه ، وإن كان لا يفعل ذلك بكثير منهم .

سلمنا أن الغفران عبارة عن الإسقاط على سبيل الدوام فلم قلتم إنه لا يمكن حمله على مغفرة التائب ومغفرة صاحب الصغيرة ؟ أما الوجوه الثلاثة الأول : فهي مبنية على أصول لا يقولون بها وهي وجوب مغفرة صاحب الصغيرة وصاحب الكبيرة بعد التوبة ، وأما الوجه الرابع : فلا نسلم أن قوله : ﴿ مَا دُونَ ذَلِكَ ﴾ يفيد العموم ، والدليل عليه أنه يصح إدخال لفظ "كل" و "بعض" على البدل عليه مثل أن يقال : ويغفر كل ما دون ذلك .

ويغفر بعض ما دون ذلك ولو كان قوله : ﴿ مَا دُونَ ذَلِكَ ﴾ يفيد العموم لما صح ذلك ، سلمنا أنه للعموم ولكنا نخصصه بصاحب الصغيرة وصاحب الكبيرة بعد التوبة ، وذلك لأن الآيات الواردة في الوعيد كل واحد منها مختص بنوع واحد من الكبائر مثل القتل والزنا ، وهذه الآية متناولة لجميع المعاصي والخاص مقدم على العام ، فآيات الوعيد يجب أن تكون مقدمة على هذه الآية .

والجواب عن الأول : أنا إذا حملنا المغفرة على تأخير العقاب وجب بحكم الآية أن يكون عقاب المشركين في الدنيا أكثر من عقاب المؤمنين وإلا لم يكن في هذا التفصيل فائدة ، ومعلوم أنه ليس كذلك بدليل قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلاَ أَن يَكُونَ الناس أُمَّةً واحدة لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بالرحمن لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِّن فِضَّةٍ ﴾ [الزخرف : 33] الآية .

قوله : لم قلتم إن قوله : ﴿ مَا دُونَ ذَلِكَ ﴾ يفيد العموم ؟ قلنا : لأن قوله : " ما " تفيد الإشارة إلى الماهية الموصوفة بأنها دون الشرك ، وهذه الماهية ماهية واحدة ، وقد حكم قطعاً بأنه يغفرها ، ففي كل صورة تتحقق فيها هذه الماهية وجب تحقق الغفران ، فثبت أنه للعموم ولأنه يصح استثناء أي معصية كانت منها وعند الوعيدية صحة الاستثناء تدل على العموم ، أما قوله : آيات الوعيد أخص من هذه الآية ، قلنا : لكن هذه الآية أخص منها لأنها تفيد العفو عن البعض دون البعض وما ذكرتموه يفيد الوعيد للكل ، ولأن ترجيح آيات العفو أولى لكثرة ما جاء في القرآن والأخبار من الترغيب في العفو .

الحجة الخامسة : أن نتمسك بعمومات الوعد وهي كثيرة في القرآن ، ثم نقول : لما وقع التعارض فلا بد من الترجيح أو من التوفيق ، والترجيح معناه من وجوه .

(222/57)

أحدها : أن عمومات الوعد أكثر والترجيح بكثرة الأدلة أمر معتبر في الشرع ، وقد دللنا على صحته في أصول الفقه ، و ثانيها : أن قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الحسنات يُذْهِبْنَ السيئات ﴾ [هود : 114] يدل على أن الحسنة إنما كانت مذهبة للسيئة لكونها حسنة على ما ثبت في أصول الفقه ، فوجب بحكم هذا الإيماء أن تكون كل حسنة مذهبة لكل سيئة ترك العمل به في حق الحسنات الصادرة من الكفار ، فإنها لا تذهب سيئاتهم فيبقى معمولاً به في الباقي .

وثالثها : قوله تعالى : ﴿ مَن جَاء بالحسنة فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاء بالسيئة فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا ﴾ [الأنعام : 160] ، ثم إنه تعالى زاد على العشرة فقال : ﴿ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلّ سُنبُلَةٍ مّائَةُ حَبَّةٍ ﴾ ثم زاد عليه فقال : ﴿ والله يضاعف لِمَن يَشَاء ﴾ [البقرة : 261] وأما في جانب السيئة فقال : ﴿ وَمَن جَاء بالسيئة فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا ﴾ ، وهذا في غاية الدلالة على أن جانب الحسنة راجح عند الله تعالى على جانب

السيئة.

ورابعها: أنه تعالى قال في آية الوعد في سورة النساء: ﴿ والذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات سَنُدْخِلُهُمْ جنات تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار خالدين فِيهَا أَبَداً وَعْدَ الله حَقّاً وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ الله قيلاً ﴾ [النساء: 122] فقوله: ﴿ وَعْدَ الله حَقّاً ﴾ إنما ذكره للتأكيد ولم يقل في شيء من المواضع وعيد الله حقاً.

أما قوله تعالى: ﴿ مَا يُبَدَّلُ القول لَدَىَّ ﴾ [ق: 29] الآية، يتناول الوعد والوعيد.

(223/57)

وخامسها: قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ الله يَجِدِ الله غَفُوراً رَّحِيماً * وَمَن يَكْسِبْ إِثْماً فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ على نَفْسِهِ وَكَانَ الله عَلِيماً حَكِيماً ﴾ [النساء: 110 111] والاستغفار طلب المغفرة وهو غير التوبة، فصرح ههنا بأنه سواء تاب أو لم يتب فإذا استغفر غفر الله له، ولم يقل ومن يكسب إثماً فإنه يجد الله معذباً معاقباً، بل قال: ﴿ فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ على نَفْسِهِ ﴾ فدل هذا على أن جانب الحسنة راجح ونظيره قوله تعالى: ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِانفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ [الإسراء: 7] ولم يقل: وإن أسأتم أسأتم لها فكأنه تعالى أظهر إحسانه بأن أعاده مرتين وستر عليه إساءته بأن لم

يذكرها إلا مرة واحدة ، وكل ذلك يدل على أن جانب الحسنة راجح .

وسادسها : أنا قد دللنا على أن قوله تعالى : ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ لِمَن يَشَاء ﴾ [النساء : 48] لا يتناول إلا العفو عن صاحب الكبيرة ثم إنه تعالى أعاد هذه الآية في السورة الواحدة مرتين والإعادة لا تحسن إلا للتأكيد ، ولم يذكر شيئاً من آيات الوعيد على وجه الإعادة بلفظ واحد ، لا في سورة واحدة ولا في سورتين ، فدل على أن عناية الله بجانب الوعد على الحسنات والعفو عن السيئات أتم .

وسابعها : أن عمومات الوعد والوعيد لما تعارضت فلا بد من صرف التأويل إلى أحد الجانبين وصرف التأويل إلى الوعيد أحسن من صرفه إلى الوعد لأن العفو عن الوعيد مستحسن في العرف وإهمال الوعد مستقبح في العرف ، فكان صرف التأويل إلى الوعيد أولى من صرفه إلى الوعد .

(224/57)

وثامنها : أن القرآن مملوء من كونه تعالى غافراً غفوراً غفاراً وأن له الغفران والمغفرة ، وأنه تعالى رحيم كريم ، وأن له العفو والإحسان والفضل والإفضال ، والأخبار الدالة على هذه الأشياء قد بلغت مبلغ التواتر وكل ذلك مما يؤكد جانب الوعد وليس في القرآن ما يدل على

أنه تعالى بعيد عن الرحمة والكرم والعفو ، وكل ذلك يوجب رجحان جانب الوعد على جانب الوعيد .

وتاسعها : أن هذا الإنسان أتى بما هو أفضل الخيرات وهو الإيمان ولم يأت بما هو أقبح القبائح وهو الكفر ، بل أتى بالشر الذي هو في طبقة القبائح ليس في الغاية والسيد الذي له عبد ثم أتى عبده بأعظم الطاعات وأتى بمعصية متوسطة فلو رجع المولى تلك المعصية المتوسطة على الطاعة العظيمة لعد ذلك السيد لئيماً مؤذياً فكذا ههنا ، فلما لم يجز ذلك على الله ثبت أن الرجحان لجانب الوعد .

وعاشرها : قال يحيى بن معاذ الرازي : إلهي إذا كان توحيد ساعة يهدم كفر خمسين سنة فتوحيد خمسين سنة كيف لا يهدم معصية ساعة إلهي لما كان الكفر لا ينفع معه شيء من الطاعات كان مقتضى العدل أن الإيمان لا يضر معه شيء من المعاصي وإلا فالكفر أعظم من الإيمان !فإن يكن كذلك فلا أقل من رجاء العفو .

وهو كلام حسن ،

الحادي عشر : أنا قد بينا بالدليل أن قوله : ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء ﴾ لا يمكن حمله على الصغيرة ولا على الكبيرة بعد التوبة ، فلو لم تحمله على الكبيرة قبل التوبة لزم تعطيل الآية ، أما لو خصصنا عمومات الوعيد بمن يستحلها لم يلزم منه إلا تخصيص العموم ، ومعلوم أن التخصيص أهون من التعطيل ، قالت المعتزلة : ترجيح جانب الوعيد أولى من

وجوه.

أولها : هو أن الأمة اتفقت على أن الفاسق يلعن ويحد على سبيل التنكيل والعذاب وأنه أهل الخزي وذلك يدل على أنه مستحق للعقاب وإذا كان مستحقاً للعقاب استحال أن يبقى في تلك الحالة مستحقاً للثواب ، وإذا ثبت هذا كان جانب الوعيد راجحاً على جانب الوعد .

(225/57)

أما بيان أنه يلعن ، فالقرآن والإجماع ، أما القرآن فقوله تعالى في قاتل المؤمن : ﴿ وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ ﴾ [النساء : 93] وكذا قوله : ﴿ أَلَا لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظالمين ﴾ [الأعراف : 44] وأما الإجماع فظاهر ، وأما أنه يحد على سبيل التنكيل فلقوله تعالى : ﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نكالا مِّنَ اللهِ ﴾ [المائدة : 38] وأما أنه يحد على سبيل العذاب فلقوله تعالى في الزاني : ﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ المؤمنين ﴾ [النور : 2] ، وأما أنهم أهل الخزي فلقوله تعالى في قطاع الطريق : ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الذين يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ ذلك لَهُمْ خِزْيٌ فِى الدنيا وَلَهُمْ فِى الآخرة عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [المائدة : 33] .

وإذا ثبت كون الفاسق موصوفاً بهذه الصفات ثبت أنه مستحق للعذاب والذم ، ومن كان مستحقاً لهما دائماً ومتى استحقهما دائماً امتنع أن يبقى مستحقاً للثواب ، لأن الثواب والعقاب متنافيان ، فالجمع بين استحقاقهما محال ، وإذا لم يبق مستحقاً للثواب ثبت أن جانب الوعيد راجح على جانب الوعد ، وثانيها : أن آيات الوعد عامة وآيات الوعيد خاصة والخاص مقدم على العام .

وثالثها : أن الناس جبلوا على الفساد والظلم فكانت الحاجة إلى الزجر أشد ، فكان جانب الوعيد أولى ، قلنا : الجواب عن الأول من وجوه : الأول : كما وجدت آيات دالة على أنهم يلعنون ويعذبون في الدنيا بسبب معاصيهم كذلك أيضاً وجدت آيات دالة على أنهم يعظمون ويكرمون في الدنيا بسبب إيمانهم .

(226/57)

قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا جَاءكَ الذين يُؤْمِنُونَ بآياتنا فَقُلْ سلام عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ على نَفْسِهِ الرحمة ﴾ [الأنعام : 54] ، فليس ترجيح آيات الوعيد في الآخرة بالآيات الدالة على أنهم يذمون ويعذبون في الدنيا بأولى من ترجيح آيات الوعد في الآخرة بالآيات الدالة على أنهم يعظمون بسبب إيمانهم في الدنيا .

الثاني : فكما أن آيات الوعد معارضة لآيات الوعيد في الآخرة فهي معارضة لآيات الوعيد والنكال في الدنيا ، فلم كان ترجيح آيات وعيد الدنيا على آيات وعيد الآخرة أولى من العكس .

الثالث : أنا أجمعنا على أن السارق وإن تاب إلا أنه تقطع يده لا نكالاً ولكن امتحاناً ، فثبت أن قوله : ﴿ جَزَاء بِمَا كَسَبَا نكالا ﴾ [المائدة : 38] مشروط بعدم التوبة ، فلم لا يجوز أيضاً أن يكون مشروطاً بعدم العفو .

والرابع : أن الجزاء ما يجزي ويكفي وإذا كان كافياً وجب أن لا يجوز العقاب في الآخرة وإلا قدح ذلك في كونه مجزياً وكافياً ، فثبت أن هذا ينافي العذاب في الآخرة ، وإذا ثبت فساد قولهم في ترجيح جانب الوعيد فنقول : الآيتان الدالتان على الوعد والوعيد موجودتان فلا بد من التوفيق بينهما ، فأما أن يقال : العبد يصل إليه الثواب ثم ينقل إلى دار العقاب وهو قول باطل بإجماع الأمة ، أو يقال : العبد يصل إليه العقاب ثم ينقل إلى دار الثواب ويبقى هناك أبد الآباد وهو المطلوب .

أما الترجيح الثاني فهو ضعيف لأن قوله : ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ ﴾ لا يتناول الكفر وقوله : ﴿ وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ ﴾ [النساء : 14] [الأحزاب : 36] يتناول الكل فكان قولنا هو الخاص والله أعلم .

الحجة السادسة : أنا قد دللنا على أن تأثير شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم في إسقاط

العقاب وذلك يدل على مذهبنا في هذه المسألة.

الحجة السابعة: قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذنوب جَمِيعاً﴾ [الزمر: 53] وهو نص في المسألة.

(227/57)

فإن قيل: هذه الآية إن دلت فإنما تدل على القطع بالمغفرة لكل العصاة، وأنتم لا تقولون بهذا المذهب، فما تدل الآية عليه لا تقولون به وما تقولون به لا تدل الآية عليه؟ سلمنا ذلك، لكن المراد بها أنه تعالى يغفر جميع الذنوب مع التوبة وحمل الآية على هذا المحمل أولى لوجهين: أحدهما: أنا إذا حملناها على هذا الوجه فقد حملناها على جميع الذنوب من غير تخصيص، الثاني: أنه تعالى ذكر عقيب هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَأَنِيبُواْ إِلى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ العذاب﴾ [الزمر: 54] والإنابة هي التوبة.

فدل على أن التوبة شرط فيه، والجواب عن الأول.

أن قوله: ﴿يَغْفِرُ الذنوب جَمِيعاً﴾ وعد منه بأنه تعالى سيسقطها في المستقبل، ونحن نقطع بأنه سيفعل في المستقبل ذلك، فإنا نقطع بأنه تعالى سيخرج المؤمنين من النار لا محالة، فيكون هذا قطعاً بالغفران لا محالة، وبهذا ثبت أنه لا حاجة في إجراء الآية على ظاهرها

على قيد التوبة ، فهذا تمام الكلام في هذه المسألة وبالله التوفيق .

ولنرجع إلى تفسير الآية فنقول : إن المعتزلة فسروا كون الخطيئة محبطة بكونها كبيرة محبطة لثواب فاعلها ، والاعتراض عليه من وجوه ، الأول : أنه كما أن من شرط كون السيئة محيطة بالإنسان كونها كبيرة فكذلك شرط هذه الإحاطة عدم العفو ، لأنه لو تحقق العفو لما تحققت إحاطة السيئة بالإنسان ، فإذن لا يثبت كون السيئة محيطة بالإنسان إلا إذا ثبت عدم العفو ، وهذا أول المسألة ويتوقف الاستدلال بهذه الآية على ثبوت المطلوب وهو باطل .

(228/57)

الثاني : أنا لا نفسر إحاطة الخطيئة بكونها كبيرة ، بل نفسرها بأن يكون ظاهره وباطنه موصوفاً بالمعصية ، وذلك إنما يتحقق في حق الكافر الذي يكون عاصياً لله بقلبه ولسانه وجوارحه ، فأما المسلم الذي يكون مطيعاً لله بقلبه ولسانه ويكون عاصياً لله تعالى ببعض أعضائه دون البعض فههنا لا تتحقق إحاطة الخطيئة بالعبد ، ولا شك أن تفسير الإحاطة بما ذكرناه أولى ، لأن الجسم إذا مس بعض أجزاء جسم آخر دون بعض لا يقال : إنه محيط به ، وعند هذا يظهر أنه لا تتحقق إحاطة الخطيئة بالعبد إلا إذا كان كافراً .

إذا ثبت هذا فنقول قوله : ﴿ فأولئك أصحاب النار ﴾ يقتضي أن أصحاب النار ليسوا إلا هم وذلك يقتضي أن لا يكون صاحب الكبيرة من أهل النار ، الثالث : أن قوله تعالى : ﴿ فأولئك أصحاب النار ﴾ يقتضي كونهم في النار في الحال وذلك باطل ، فوجب حمله على أنهم يستحقون النار .

ونحن نقول بموجبه : لكن لا نزاع في أنه تعالى هل يعفو عن هذا الحق وهذا أول المسألة ، ولنختم الكلام في هذه الآية بقاعدة فقهية : وهي أن الشرط ههنا أمران ، أحدهما : اكتساب السيئة ، والثاني : إحاطة تلك السيئة بالعبد والجزاء المعلق على وجود الشرطين لا يوجد عند حصول أحدهما .

وهذا يدل على أن من عقد اليمين على شرطين في طلاق أو إعتاق أنه لا يحنث بوجود أحدهما والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 148 ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ بلى من كسَب سيئة ﴾ : بلى : بمنزلة " نعم " إلا أن " بلى " جواب النفي ، و " نعم " جواب الإيجاب ، قال الفراء : إذا قال الرجل لصاحبه : مالك عليَّ شيء ، فقال الآخر : نعم ، كان تصديقاً أن لا شيء له عليه .

ولو قال : بلى ؛ كان رداً لقوله .

قال ابن الأنباري : وإنما صارت " بلى " تتصل بالجحد ، لأنها رجوع عن الجحد إلى التحقيق

، فهي بمنزلة " بل " .

و" بل " سبيلها أن تأتي بعد الجحد ، كقولهم : ما قام أخوك ، بل أبوك .

(229/57)

وإذا قال الرجل للرجل : ألا تقوم ؟ فقال له : بلى ؛ أراد : بل أقوم ، فزاد الألف على " بل " ليحسن السكوت عليها ، لأنه لو قال : بل ؛ كان يتوقع كلاماً بعد بل ؛ فزاد الألف ليزول هذا التوهم عن المخاطب .

ومعنى : ﴿ بلى من كسب سيئة ﴾ : بل من كسب .

قال الزجاج : بلى رد لقولهم : ﴿ لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة ﴾ والسيئة ها هنا : الشرك في قول ابن عباس ، وعكرمة ، وأبي وائل ، وأبي العالية ، ومجاهد ، وقتادة ، ومقاتل .

﴿ وأحاطت به ﴾ أي : أحدقت به خطيئته .

وقرأ نافع " خطيئاته " بالجمع .

قال عكرمة : مات ولم يتب منها ، وقال أبو وائل : الخطيئة : صفة للشرك .

قال أبو علي : إما أن يكون المعنى : أحاطت بحسنته خطيئته ، أي : أحبطتها ، من حيث

أن المحيط أكثر من المحاط به ، فيكون كقوله تعالى : ﴿ وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ﴾ [التوبة : 49] وقوله ﴿ أحاط بهم سرادقها ﴾ [الكهف : 29] أو يكون معنى أحاطت به أهلكته : كقوله : ﴿ إلا أن يحاط بكم ﴾ [يوسف 66] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير حـ 1 صـ 107 . 108 ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ بلى ﴾ : حرف جواب يثبت به ما بعد النفي ، فإذا قلت : ما قام زيد ، فقلت : نعم ، كان تصديقاً في نفي قيام زيد .

وإذا قلت : بلى ، كان نقضاً لذلك النفي .

فلما قالوا : ﴿ لن تمسنا النار ﴾ ، أجيبوا بقوله : بلى ، ومعناها : تمسكم النار .

والمعنى على التأبيد ، وبين ذلك بالخلود .

﴿ من كسب سيئة ﴾ من : يحتمل أن تكون شرطية ، ويحتمل أن تكون موصولة ، والمسوّغات لجواز دخول الفاء في الخبر ، إذا كان المبتدأ موصولاً ، موجودة هنا ، ويحسنه المجيء في قسيمة بالذين ، وهو موصول .

والسيئة : الكفر والشرك ، قاله ابن عباس ومجاهد .

وقيل : الموجبة للنار ، قاله السدي ، وعليه تفسير من فسر السيئة بالكبائر ، لأنها هي التي توجب النار ، أي يستحق فاعلها النار إن لم تغفر له .

﴿ وأحاطت به خطيئته ﴾ : قرأ الجمهور بالإفراد ، ونافع : خطيئاته جمع سلامة ، وبعض القراء : خطاياه جمع تكسير ، والمعنى أنها أخذته من جميع نواحيه .

ومعنى الإحاطة به أنه يوافي على الكفر والإشراك ، هذا إذا فسرت الخطيئة بالشرك .

ومن فسرها بالكبيرة ، فمعنى الإحاطة به أن يموت وهو مصر عليها ، فيكون الخلود على القول الأول المراد به الإقامة ، لا إلى انتهاء .

وعلى القول الثاني المراد به الإقامة دهراً طويلاً ، إذ مآله إلى الخروج من النار .

قال الكلبي : أوثقته ذنوبه .

وقال ابن عباس : أحبطت حسناته .

وقال مجاهد : غشيت قلبه .

وقال مقاتل : أصرّ عليها .

وقال الربيع : مات على الشرك .

قال الحسن : بكل ما توعد الله عليه بالنار فهو الخطيئة المحيطة .

ومن ، كما تقدم ، لها لفظ ومعنى ، فحمل أولاً على اللفظ ، فقال : من كسب سيئة

وأحاطت به خطيئته ، وحمل ثانياً على المعنى ، وهو قوله : ﴿ فأولئك ﴾ ، إلى آخره .

وأفرد سيئة لأنه كنى به عن مفرد ، وهو الشرك .

ومن أفرد الخطيئة أراد بها الجنس ومقابلة السيئة ، لأن السيئة مفردة ، ومن جمعها فلأن الكبائر كثيرة ، فراعى المعنى وطابق به اللفظ .

وذهب قوم إلى أن السيئة والخطيئة واحدة ، وأن الخطيئة وصف للسيئة .

وفرق بعضهم بينهما فقال : السيئة الكفر ، والخطيئة ما دون الكفر من المعاصي ، قاله مجاهد وأبو وائل والربيع بن أنس .

وقيل : إن الخطيئة الشرك ، والسيئة هنا ما دون الشرك من المعاصي .

قال الزمخشري : وأحاطت به خطيئته تلك ، واستولت عليه ، كما يحيط العدو ، ولم ينقص عنها بالتوبة .

انتهى كلامه .

وهذا من دسائسه التي ضمنها كتابه ، إذ اعتقاد المعتزلة أن من أتى كبيرة ، ولم يتب منها ، ومات ، كان خالداً في النار .

وفي قوله : ﴿ أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ : إشارة إلى أن المراد : الكفار ، ويدل على ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : " أما أهل النار الذين هم أهلها فلا يموتون ولا يحيون " وقد رتب كونهم أصحاب النار على وجود أمرين : أحدهما ، كسب السيئة ، والآخر : إحاطة الخطيئة .

وما رتب على وجود شرطين لا يترتب على وجود أحدهما ، فدل ذلك على أن من لم يكسب سيئة ، وهي الشرك وإن أحاطت به خطيئته ، وهي الكبائر ، لا يكون من أصحاب النار ، ولا ممن يخلد فيها .

ويعني بأصحاب النار : الذين هم أهلها حقيقة ، لا من دخلها ثم خرج منها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 1 صـ 445.446 ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (81) ﴾

جواب عن قولهم المحكي وإبطال له على وجه أعم شامل لهم ولسائر الكفرة ، كأنه قال : بل تمسكم وغيركم دهراً طويلاً وزماناً مديداً لا كما تزعمون ويكون ثبوت الكلية كالبرهان على إبطال ذلك بجعله كبرى لصغرى سهلة الحصول فبلى داخلة على ما ذكر بعدها وإيجاز الاختصار أبلغ من إيجاز الحذف ، وزعم بعضهم أنها داخلة على محذوف وأن المعنى على

تمسكم أياماً معدودة وليس بشيء وهي حرف جواب كجير ونعم إلا أنها لا تقع جواباً إلا لنفي متقدم سواء دخله استفهام أم لا ، فتكون إيجاباً له ، وهي بسيطة .

(232/57)

وقيل : أصلها بل فزيدت عليها الألف والكسب جلب النفع والسيئة الفاحشة الموجبة للنار ، قاله السدي ، وعليه تفسير من فسرها بالكبيرة لأنها التي توجب النار أي يستحق فاعلها النار إن لم يغفر له وذهب كثير من السلف إلى أنها هنا الكفر وتعليق الكسب بالسيئة على طريقة التهكم ، وقيل : إنهم بتحصيل السيئة استجلبوا نفعاً قليلاً فانياً ، فبهذا الاعتبار أوقع عليه الكسب ، والمراد بالإحاطة الاستيلاء والشمول وعموم الظاهر والباطن والخطيئة السيئة ، وغلبت فيما يقصد بالعرض أي لا يكون مقصوداً في نفسه بل يكون القصد إلى شيء آخر ، لكن تولد منه ذلك الفعل كمن رمى صيداً فأصاب إنساناً ، وشرب مسكراً فجنى جناية ، قال بعض المحققين : ولذلك أضاف الإحاطة إليها إشارة إلى أن السيئات باعتبار وصف الإحاطة داخلة تحت القصد بالعرض لأنها بسبب نسيان التوبة ، ولكونها راسخة فيه متمكنة حال الإحاطة أضافها إليه بخلاف حال الكسب فإنها متعلق القصد بالذات وغير حاصلة فيه فضلاً عن الرسوخ ؛ فلذا أضاف الكسب

إلى سيئة ونكرها ، وإضافة الأصحاب إلى النار على معنى الملازمة لأن الصحبة وإن شملت القليل والكثير لكنها في العرف تخص بالكثرة والملازمة ، ولذا قالوا : لو حلف من لاقى زيداً أنه لم يصحبه لم يحنث ، والمراد بالخلود الدوام ، ولا حجة في الآية على خلود صاحب الكبيرة لأن الإحاطة إنما تصح في شأن الكافر لأن غيره إن لم يكن له سوى تصديق قلبه وإقرار لسانه فلم تحط خطيئته به لكون قلبه ولسانه منزهاً عن الخطيئة ، وهذا لا يتوقف على كون التصديق والإقرار حسنتين ، بل على أن لا يكونا سيئتين فلا يرد البحث بأن الخصم يجعل العمل شرطاً لكونهما حسنتين كما يجعل الاعتقاد شرطاً لكون الأعمال حسنات فلا يتم عنده أن الإحاطة إنما تصح في شأن الكافر ، ولا يحتاج إلى الدفع بأن المقصود أنه لا حجة له في الآية ، وهذا يتم بمجرد كون الإحاطة ممنوعة في غير الكافر ، فلو ثبت أن العمل

داخل في الإيمان صارت الآية حجة ودون إثباته خرط القتاد ثم إن نفي الحجية بحمل الإحاطة على ما ذكر إنما يحتاج إليه إذا كانت السيئة والخطيئة بمعنى واحد وهو مطلق الفاحشة أما إذا فسرت السيئة بالكفر أو الخطيئة به حسبما أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن

عباس رضي الله تعالى عنهما وأبي هريرة رضي الله تعالى عنه وابن جرير عن أبي وائل ومجاهد وقتادة وعطاء والربيع ، فنفي الحجية أظهر من نار على علم .

(234/57)

ومن الناس من نفاها بحمل الخلود على أصل الوضع وهو اللبث الطويل وليس بشيء لأن فيه تهوين الخطب في مقام التهويل مع عدم ملائمته حمل الخلود في الجنة على الدوام ؛ وكذا لا حجة في قوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النار ﴾ [البقرة : 80] الخ بناءً على ما زعمه الجبائي حيث قال : دلت الآية على أنه تعالى ما وعد موسى ولا سائر الأنبياء بعده بإخراج أهل الكبائر والمعاصي من النار بعد التعذيب ، وإلا لما أنكر على اليهود بقوله تعالى : ﴿ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ ﴾ [البقرة : 80] الخ وقد ثبت أنه تعالى أوعد العصاة بالعذاب زجراً لهم عن المعاصي فقد ثبت أن يكون عذابهم دائماً وإذا ثبت في سائر الأمم وجب ثبوته في هذه الأمة إذ الوعيد لا يجوز أن يختلف في الأمم إذا كان قدر المعصية واحداً لأن ما أنكر الله عليهم جزمهم بقلة العذاب لانقطاعه مطلقاً على أن ذلك في حق الكفار لا العصاة كما لا يخفى و ﴿ مِنْ ﴾ تحتمل أن تكون شرطية ، وتحتمل أن تكون موصولة ، والمسوغات لجواز دخول الفاء في الخبر إذا كان المبتدأ موصولاً موجودة ، ويحسن الموصولية مجيء الموصول في

قسيمه وإيراد اسم الإشارة المنبىء عن استحضار المشار إليه بما له من الأوصاف للإشعار بعليتها لصاحبية النار وما فيه من معنى البعد للتنبيه على بعد منزلتهم في الكفر والخطايا ، وإنما أشير إليهم بعنوان الجمعية مراعاة لجانب المعنى في كلمة ﴿ مِنْ ﴾ بعد مراعاة جانب اللفظ في الضمائر الثلاثة لما أن ذلك هو المناسب لما أسند إليهم في تينك الحالتين ، فإن كسب السيئة وإحاطة الخطيئة به في حالة الإفراد وصاحبية النار في حالة الاجتماع قاله بعض المحققين ولا يخلو عن حسن وقرأ نافع : ﴿ خطياآته ﴾ وبعض ﴿ خطياه ﴾ و﴿ خطيته ﴾ و﴿ خطياته ﴾ بالقلب والإدغام ، واستحسنوا قراءة الجمع بأن الإحاطة لا تكون بشيء واحد ، ووجهت قراءة الإفراد بأن الخطيئة وإن كانت مفردة لكنها لإضافتها متعددة ، مع أن الشيء الواحد

قد يحيط كالحلقة فلا تغفل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 305. 307 ﴾

(235/57)

وقال ابن عاشور :

وقوله : ﴿ بلى ﴾ إبطال لقولهم : ﴿ لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة ﴾ ، وكلمات الجواب تدخل على الكلام السابق لا على ما بعدها فمعنى بلى بل أنتم تمسكم النار مدة

طويلة .

وقوله : ﴿ من كسب سيئة ﴾ سند لما تضمنته (بلى) من إبطال قولهم ، أي ما أنتم إلا ممن كسب سيئة إلخ ومن كسب سيئة وأحاطت به خطيئاته فأولئك أصحاب النار فأنتم منهم لا محالة على حد قول لبيد :

تمنَّى ابنتاي أن يعيش أبوهما . . .

وهل أَنا إلا من ربيعةَ أو مُضَرْ

أي فلا أخلد كما لم يخلد بنو ربيعة ومضر ، فمَنْ في قوله : ﴿ من كسب سيئة ﴾ شرطية بدليل دخول الفاء في جوابها وهي في الشرط من صيغ العموم فلذلك كانت مؤذنة بجملة محذوفة دل عليها تعقيب (بلى) بهذا العموم لأنه لو لم يرد به أن المخاطبين من زمر هذا العموم لكان ذِكر العموم بعدها كلاماً متناثراً ففي الكلام إيجاز الحذف ليكون المذكور كالقضية الكبرى لبرهان قوله : ﴿ بلى ﴾ .

والمراد بالسيئة هنا السيئة العظيمة وهي الكفر بدليل العطف عليها بقوله : ﴿ وأحاطت به خطيئاته ﴾ .

وقوله : ﴿ وأحاطت به خطيئاته ﴾ الخطيئة اسم لما يقترفه الإنسان من الجرائم وهي فعيلة بمعنى مفعولة من خطى إذا أساء ، والإحاطة مستعارة لعدم الخلو عن الشيء لأن ما يحيط بالمرء لا يترك له منفذاً للإقبال على غير ذلك قال تعالى : ﴿ وظنوا أنهم أحيط بهم

﴾ [يونس : 22] وإحاطة الخطيئات هي حالة الكفر لأنها تجريء على جميع الخطايا ولا يعتبر مع الكفر عمل صالح كما دل عليه قوله : ﴿ ثم كان من الذين آمنوا ﴾ [البلد : 17] .

فلذلك لم تكن في هذه الآية حجة للزاعمين خلود أصحاب الكبائر من المسلمين في النار إذ لا يكون المسلم محيطة به الخطيئات بل هو لا يخلو من عمل صالح وحسبك من ذلك سلامة اعتقاده من الكفر وسلامة لسانه من النطق بكلمة الكفر الخبيثة .

(236/57)

والقصر المستفاد من التعريف في قوله : ﴿ فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ قصر إضافي لقلب اعتقادهم .

وقوله : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴾ تذييل لتعقيب النذارة بالبشارة على عادة القرآن .

والمراد بالخلود هنا حقيقته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 1 صـ 562 . 563 ﴾

فائدة

قال الثعالبى :

قال محمَّد بن عبد اللَّه اللَّخْمِيُّ في مختصره للطبريّ : أجمعتِ الأمَّة على تخليد مَنْ مات كافراً ، وتظاهرت الرواياتُ الصحيحةُ عن الرسُول صلى الله عليه وسلم والسلفِ الصالح ، بأن عصاة أهل التوحيد لا يخلَّدون في النار ، ونطق القرآن ب ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾ [النساء : 116] لكن من خاف على لَحْمه ودَمِه ، اجتنب كل ما جاء فيه الوعيدُ ، ولم يتجاسَرْ على المعاصي ؛ اتكالا على ما يرى لنفسه من التوحيد ، فقد كان السلف وخيار الأمة يخافُون سلْب الإيمان على أنفسهم ، ويخافون النفاقَ عليها ، وقد تظاهرتْ بذلك عنهم الأخبار . انتهى . ا هـ ﴿ الجواهر الحسان حـ 1 صـ 82 ﴾

(237/57)

ومن فوائد ابن عرفة فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ بلى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً . . . ﴾ .

قال ابن عرفة : وجه مناسبتها لما قبلها أنه لما تضمن الكلام السابق (ادّعاء) الكفار أنّهم لا

يعذبون بالنار إلا زمانا (مخصوصا) يسيرا ، رد عليهم ذلك بوجهين :

- الأول : مطالبتهم بالدّليل على ذلك حسبما تضمنه ﴿ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللهِ عَهْداً ﴾ -

الثاني : أنّهم لما عجزوا عن الإتيان بالدليل (احتمل) أن يكون دعواهم في نفس الأمر صحيحة ، فأتى بهذا الدليل على بطلانها .

فقال : ﴿ بلى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً ﴾ .

ظاهر الآية حجة لأهل السنة في إثبات الكسب لأنهم اصطلحوا على إطلاق هذا اللفظ مرادا به القدرة على الفعل مع العلم بما فيه من مصلحة أو مفسدة ، والأصل عدم النقل ،

فإن قلت : المراد به معناه اللّغوي ؟

قلنا : الأصل موافقة اللغة للاصطلاح ، وعدم النقل فلعله كذلك في اللغة .

فإن قلت بقول (المعتزلة) : المراد به عندي استقلال العبد بقدرته وأنه يخلق أفعاله ، والأصل عدم النقل ، فلعله كذلك في اللغة ؟

قلنا : قد أبطلنا مذهبهم في الأصول بموافقتهم على الدّاعي .

و " مَن " إما موصولة أو شرطية ، والظاهر الأول لعطف الموصول عليها ولأنّ الشرط (قد) يتركب من المحال .

تقول : (لو اجتمع) النقيضان لكان زيد متحركا ساكنا ، وهذا صادق مع أنه محال ،

وكسب السيئة قيل : المراد به ما سوى الكفر من المعاصي .

﴿ وَأَحَاطَتْ بِهِ خطيائته ﴾ المراد به الكفر .

وقيل : بالعكس .

قيل لابن عرفة : أو المراد بالجميع الكفر ؟

فقال : يكون العطف تكرارا .

(قيل له) : بل المعنى كسب السيئة وأحاطت به تلك السيئة ؟

(قال) : والخلود إن كان كسب السيئة مرادا به المعاصي سوى الكفر ، والخطيئة المراد بها الكفر ، فيكون من استعمال اللّفظ الواحد في حقيقته ومجازه لأن خلود الكفار حقيقة وإن كان شيئا واحدا ، (فيجوز) فيه أنّ الكفار مخاطبون بفروع الشريعة .

(238/57)

ويفرع على القول الأول بأن معنى الخطاب بذلك راجع إلى تضعيف العذاب على المخالفة في الدار الآخرة ، فيكون هذا خلودا خاصا .

والآية حجة لأهل السّنّة (بدليل) أداة الحصر .

(فالمعنى) : هم الخالدون لا غيرهم .

قيل لابن عرفة : يخرج من حافظ منهم على الفروع فيلزم أن يكون غير (مخلد) ؟

فقال : السياق يبين أنّ هذا خلود خاص .

قال الطيبي : يحتمل أن يراد بالسّيئة كل ما فعل عن قصد ، وبالخطيئة ما فعل غير مقصود كمن شرب الخمر فلما سكر ضرب رجلا (أو قتله) .

الزمخشري : قال الحسن : كل آية نهى الله عنها ، وأخبرك أن من عمل بها أدخله النار فهي الخطيئة المحيطة .

قال ابن عرفة : صوابه كل نهي .

قال ابن عرفة : وزيادة لفظ الخلود دليل على أن الصحبة (تطلق) على مطلق الاجتماع وإن لم يكن معه دوام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عرفة حـ 1 صـ 354. 357 ﴾

(239/57)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (81) ﴾

أراد الله سبحانه وتعالى أن يوضح كذبهم . . فجاء القرآن قائلا : " بلى " وهي حرف

جواب مثل نعم تماما . . ولكن " بلى " حرف جواب في النفي . . يعني ينفي الذي قبله . . هم قالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة ورسول الله سألهم هل اتخذوا عند الله عهدا أو يقولون على الله ما لا يعلمون ، فجاء القرآن ليقول : ﴿ بَلَى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ . . بداية الجواب ببلى تنفي ما قالوا . . لأن بلى تأتي بعد النفي . . ونعم تأتي بعد الإجابة . . فإذا قال إنسان ليس لك عندي شيء وقلت نعم ، فمعناها أنه صحيح أنك ليس لك عندي شيء . . أما إذا قلت بلى ، فمعنى ذلك أن لك عندي شيئا أو أشياء . . ولذلك بعد قولهم ﴿ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَةً ﴾ . . لو جاء بعدها نعم ، لكان قولهم صحيحا ، ولكن بلى نفت . . وجاء الكلام بعدها مؤكدا النفي :

﴿ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ هم قالوا لن تمسنا النار . . قال لن تمسكم فقط بل أنتم فيها خالدون . . وقوله تعالى : ﴿ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ . . الصحبة تقتضي نوعا من الملازمة فيها تجاذب المتصاحبين . . ومعنى ذلك أنه سيكون هناك تجاذب بينهم وبين النار . .

هنا نلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى قال : ﴿ بَلَى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً ﴾ . . وكان السياق يقتضي أن يقال اكتسب . . ولكن لأنهم ظنوا أنهم كسبوا . . كما بينا في الآية السابقة . . وقوله تعالى : ﴿ وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ ﴾ . . إحاطة بحيث لا يوجد منفذ للإفلات من الخطيئة لأنها محيطة به . وأنسب تفسير لقوله تعالى : ﴿ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ ﴾ . . أن المراد الشرك . . لأن الشرك هو الذي يحيط بالإنسان ولا مغفرة فيه . . والله تعالى يقول : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء : 48]

ولذلك فهؤلاء لم يكونوا عصاة فقط . . ولكنهم كانوا كافرين مشركين . والدليل قوله تعالى : ﴿ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ . . وأصحاب الصغائر أو الكبائر الذين يتوبون منها لا يخلدون في النار . . ولكن المشرك بالله والكافر به هم الخالدون في النار . . وكل من لم يؤمن بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم كافر . . لأن الله سبحانه وتعالى قال : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [آل عمران : 85]

ولذلك قلت هناك فرق بين . . الإنسان الذي يرتكب معصية لأنه لا يقدر على نفسه فيندم ويتوب . . وبين إنسان يفرح بالمعصية . . ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ ﴾ [النساء : 17]

وهناك من يندم على المعصية وهذا له توبة . . وهناك من يفرح بالمعصية وهذا يزداد معصية . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 425.426 ﴾

(241/57)

" فصل "

قال السيوطى :

بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (81)

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ بلى من كسب ﴾ قال : الشرك .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد وعكرمة وقتادة . مثله .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي هريرة في قوله ﴿ وأحاطت به خطيئته ﴾ قال : أحاط به شركه .

وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ بلى من كسب سيئة ﴾ أي من عمل مثل أعمالكم وكفر بما كفرتم به حتى يحيط كفره بما له من حسنة ﴿ فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ، والذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ أي من آمن بما كفرتم به ، وعمل بما تركتم من دينه ، فلهم الجنة خالدين فيها يخبرهم أن الثواب

بالخير والشر ، مقيم على أهله أبداً لا انقطاع له أبداً .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة في قوله ﴿ وأحاطت به خطيئته ﴾ قال : هي الكبيرة الموجبة لأهلها النار .

وأخرج وكيع وابن جرير عن الحسن أنه سئل عن قوله ﴿ وأحاطت به خطيئته ﴾ ما الخطيئة ؟ قال : اقرأوا القرآن ، فكل آية وعد الله عليها النار فهي الخطيئة .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد في قوله ﴿ وأحاطت به خطيئته ﴾ قال : الذنوب تحيط بالقلب ، فكلما عمل ذنباً ارتفعت حتى تغشى القلب حتى يكون هكذا وقبض كفه ، ثم قال : والخطيئة كل ذنب وعد الله عليه النار .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير عن الربيع بن خيثم في قوله ﴿ وأحاطت به خطيئته ﴾ قال : هو الذي يموت على خطيئته قبل أن يتوب .

وأخرج وكيع وابن جرير عن الأعمش في قوله ﴿ وأحاطت به خطيئته ﴾ قال : مات بذنبه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 1 صـ 208 . 209 ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

" بلى " حرف جواب كـ " نعم وجير وأَجَل وإي " ، إلا أن " بلى " جواب لنفي متقدم ، سواءً دخله استفهام أم لا فيكون إيجاباً له نحو قول زيد ، فتقول : بلى ، أي : قد قام ، وتقول : أليس زيد قائماً فتقول : بلى أيى هو قائم قال تعالى : ﴿ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بلى ﴾ [الأعراف : 172] ويروى عن ابن عَبّاس أنهم لو قالوا نعم لكفروا .

وقال بعضهم : إن " بلى " قد تقع جواباً لنفي متقدّم وقد تقع جواباً لاستفهام إثبات كما قال عليه الصّلاة والسلام للذي سأله عن عطية أولاده : أَتُحِبُّ أَنْ تُسَاوِيَ بَيْنَ أَوْلاَدِكَ فِي البِرِّ " قال : " بَلَى " .

وقوله عليه الصلاة والسلام لرجل : أَلَسْتَ أَنْتَ الَّذِي لَقِيتُهُ بـ " مكة " ؟ قال : " بلى " فأما قوله : [الوافر]

612 أَلَيْسَ اللَّيْلُ يَجْمَعُ أُمَّ عَمْرٍو . . .

وَإِيَّانَا ، فَذَاكَ بِنَا تَدَانِي

نَعَمْ وَتَرَى الْهِلاَلَ كَمَا أَرَاهُ . . .

وَيَعْلُوهَا النَّهَارُ كَمَا عَلاَنِي

فقيل : ضرورة .

وقيل : نظر إلى المعنى ؛ لأن الاستفهام إذا دخل على النفي قرره وبهذا يقال : فيكف نقل عن ابن عباس أنهم لو قالوا لكفروا مع أنّ النفي صار إيجاباً .

وقيل : قوله : " نعم " ليس جواباً بـ " أليس " إنما هو جواب لقوله : " فَذَاكَ بَنَا تَدانِي " فقوله تعالى : " بَلَى " رد لقولهم : " لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ " أي : بلى تمسّكم أبداً ، في مقابلة قولهم : " إِلاَّ أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ " وهو تقدير حسن .

والبصريون يقولون : إن " بلى " حرف بَسِيْط ، وزعم الكوفيون أن أصلها " بلى " التي للإضراب زيدت عليها " الباء " ليحسن الوَقْف عليها ، وضمنت الياء معنى الإيجاب قيل : تدّل على رد النفي ، والياء تدلّ على الإيجاب يعنون بالياء الألف .

وإنما سموها ياء ؛ لأنها حرف عال وتكتب بالياء .

و " مَنْ " يجوز فيها وَجْهَان .

أحدهما : أن تكون موصولة بمعنى " الذي " والخبر قوله : " فأولئك " ، وجاز دخول الفاء في الخبر لاستكمال الشروط ، ويؤيد كونها موصولة ، وذكر قسيمها موصولاً وهو قوله : " وَالَّذِينَ كَفَرُوا " ، ويجوز أن تكون شرطية ، والجواب قوله " فَأُوْلَئِكَ " ، وعلى كلا القولين فحملّها الرفع بالابتداء ، ولكن إذا قلنا : إنها موصولة كان الخبر : " فأولئك " وما بعدها بلا خلاف ، ولا يكون لقوله : " كَسَبَ سَيِّئَةً " وما عطف عليه محلّ من الإعراب ؛ لوقوعة صلة .

وإذا قلنا : إنها شرطية جاء في خبرها الخلاف المشهور ، إما الشرط أو الجزاء ، أو هما حسب ما تقدم ، ويكون قوله : "كَسَبَ" وما عطف عليه في محلّ جزم بالشرط .

"سَيِّئَة" مفعول به ، وأصلها : "سَيْوِئَة" ؛ لأنها من ساء يسوءُ فوزنها "فَيْعِلَة" فاجتمع الياء والواو ، وسبقت إحداهما بالسكون ، فأعلت إعلال "سَيِّد ومَيِّت" كما تقدم .

(243/57)

وراعى لفظ "مَن" فأفرد في قوله : "كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ" والمعنى مرة أخرى مجمع في قوله : "فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ" .

وقرأ نافع وأهل "المدينة" "خَطِيئَاتِه" بجمع السلامة والجمور : "خَطِيْئَة" بالإفراد ، ووجه القراءتين ينبني على معرفة السّيئة والخطيئة .

وفيهما أقوال :

أحدها : أنهما عبارتان عن الكُفْر بلفظين مُخْتلفين .

الثاني : أنهما عبارتان عن الكُفْر بلفظين مُخْتلفين .

الثالث : [عكس الثاني] .

فوجه قراءة الجماعة على الأول والثالث أن المراد بالخطيئة الكفر ، وهو مفرد ، وعلى

الوجه الثَّاني أن المراد به جنس الكبيرة ، ووجه قراءة نافع على الوَجْه الأول والثالث أن المراد بالخَطِيئات أنواع الكُفْر المتجددة في كلّ وقت ، وعلى الوجه الثاني أن المراد به الكبائر وهي جماعة .

وقيل المراد بالخطيئة نفس السّيئة المتقدمة ، فسماها بهذين الاسمين تقبيحاً لها كأنه قال : وأحاطت به خطيئتُهُ تلك أي السيئة ، ويكون المراد بالسّيئة الكُفْر ، أو يراد بهم العُصَاة ، ويكون أراد بالخلود المُكث الطويل ، ثم بعد ذلك يخرجون .

وقوله : " فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ " إلى آخره تقدم نظيره .

وقرى " خطاياه " تكسيراً وهذه مخالفة لسواد المصحف ؛ فإنه رسم " خطيئتُهُ " بلفظ التوحيد ، وتقدم القول في تعريف خَطَايا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 2 صـ 218.216 ﴾

(244/57)

قوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (82) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما بان بهذا ما لهم ولكل من شاركهم في هذا الوصف عطف عليه ما لمن ادّعوا أنهم يخلفونهم في النار ولكل من شاركهم في وصفهم الذي استحقوا به ذلك فقال : ﴿ والذين آمنوا ﴾ أي أقروا بالوحدانية بألسنتهم ﴿ وعملوا الصالحات ﴾ بياناً لأن قلوبهم مطمئنة بذلك ﴿ أولئك ﴾ العالو المراتب الشريفو المناقب ، ولم يأت بالفاء دلالة على أن سبب سعادتهم إنما هو الرحمة ﴿ أصحاب الجنة ﴾ لا غيرهم ﴿ وهم ﴾ أي خاصة ﴿ فيها خالدون ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 178 ـ 179 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أنه سبحانه وتعالى ما ذكر في القرآن آية في الوعيد إلا وذكر بجنبها آية في الوعد ، وذلك لفوائد : أحدها : ليظهر بذلك عدله سبحانه ، لأنه لما حكم بالعذاب الدائم على المصرين على الكفر وجب أن يحكم بالنعيم الدائم على المصرين على الإيمان ، وثانيها : أن المؤمن لا بد وأن يعتدل خوفه ورجاؤه على ما قال عليه الصلاة والسلام : " لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا " ، وذلك الاعتدال لا يحصل إلا بهذا الطريق ، وثالثها : أنه يظهر بوعده كمال رحمته وبوعيده كمال حكمته فيصير ذلك سبباً للعرفان . انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 148 ﴾

فائدة

قال أبو حيان :

﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم خالدون ﴾ : لما ذكر أهل النار ، وما أعد لهم من الهلاك : أتبع ذلك بذكر أهل الإيمان ، وما أعد لهم في الخلود في الجنان .

والمراد بالذين آمنوا : أمّة محمد صلى الله عليه وسلم ، ومؤمنو الأمم قبله ، قاله ابن عباس وغيره ، وهو ظاهر اللفظ ، وقال ابن زيد : هو خاص بالنبي صلى الله عليه وسلم وأمّته ، وقلّ ما ذكر في القرآن آية في الوعيد ، إلا وذكرت آية في الوعد .

وفائدة ذلك ظهور عدله تعالى ، واعتدال رجاء المؤمن وخوفه ، وكمال رحمته بوعده وحكمته بوعيده .

(245/57)

وقد تضمنت هذه الآيات الكريمة استبعاد طمع المؤمنين في إيمان من سبق من آبائه التشريف بسماع كلام الله ، ثم مقابلة ذلك بعظيم التحريف ، هذا على علم منهم بقبيح ما ارتكبوه .

وهؤلاء المطموع في إيمانهم هم أبناء أولئك المحرفين ، فهم على طريقة آبائهم في الكفر ، ثم قد انطووا من حيث السريرة على مداجاة المؤمنين ، بحيث إذا لقوهم أفهموهم أنهم مؤمنون ، وإذا خلا بعضهم إلى بعض ، أنكروا عليهم ما يتكلمون به مع المؤمنين من إخبار بشيء مما في كتبهم ، وذلك مخافة أن يحتج المؤمنون عليهم بما في كتابهم ، ثم أنكر تعالى عليهم ذلك بأنهم قد علموا أن الله يعلم سرّهم ونجواهم ، فلا يناسب ذلك إلا الانقياد إلى كتاب الله ، والإخبار بما فيه ، واتباع ما تضمنه من الأمر ، باتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والإيمان بما يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ، ولكنهم كفروا عناداً وجحدوا بها ، واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً .

ثم لما ذكر حال هؤلاء الذين هم من أهل العلم ، ولم ينتفعوا بعلمهم ، ذكر أيضاً مقلدتهم وعوامّهم ، وأنهم لا يعلمون من الكتاب إلا ألفاظاً مسموعة ، وأن طريقهم في أصول ديانتهم إنما هو حسن ظنهم بعلمائهم المحرّفين المبدّلين .

ثم توعد الله تعالى بالهلاك والحسرة ، من حرّف كلام الله وادّعى أنه من عند الله ، لتحصيل غرض من الدنيا تافه نزر لا يبقي ، فباع باقياً بفان .

ثم كرّر الوعيد على ما فعلوه ، ثم أخبر عنهم بما صدر عنهم من الكذب البحت ، بأن لبثهم في النار أياماً معدودة ، وأن ذلك إخبار ليس صادراً عن عهد اتخذوه عند الله ، بل قول على الله بما لا علم لهم به ، ثم ردّ عليهم دعواهم تلك بقوله : ﴿ بلى ﴾ ، ثم قسم الناس إلى قسمين كافر ، وهو صاحب النار ، ومؤمن وهو صاحب الجنة ، وأنهم اندرجوا تحت قسم الكافر ، لأنهم كسبوا السيئات ، وأحاطت بهم الخطيئات ، وناهيك ما اقتص الله فيهم من أول السورة إلى هنا ، وما يقص بعد ذلك مما ارتكبوه من الكفر والمخالفات . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 1 صـ 446. 447 ﴾

(247/57)

وقال الآلوسى :

لما ذكر سبحانه أهل النار وما أعد لهم من الهلاك أتبع ذلك بذكر أهل الإيمان وما أعد لهم من الخلود في الجنان ، وقد جرت عادته جل شأنه على أن يشفع وعده بوعيده مراعاة لما تقتضيه الحكمة في إرشاد العباد من الترغيب تارة والترهيب أخرى ، وقيل : إن في الجمع تربية الوعيد بذكر ما فات أهله من الثواب ، وتربية الوعد بذكر ما نجا منه أهله من العقاب ، وعطف العمل على الإيمان يدل على خروجه عن مسماه إذ لا يعطف الجزء على الكل

ولا يدل على عدم اشتراطه به حتى يدل على أن صاحب الكبيرة غير خارج عن الإيمان ، وتكون الآية حجة على الوعيدية كما قاله المولى عصام فإن قلت : للمخالف أن يقول : العطف للتشريف لكون العمل أشق وأحمز من التصديق وأفضل الأعمال أحمزها ، أجيب بأن الإيمان أشرف من العمل لكونه أساس جميع الحسنات إذ الأعمال ساقطة عن درجة الاعتبار عند عدمه ويخطر في البال إنه يمكن أن يكون لذكر العمل الصالح هنا مع الإيمان نكتة ، وهو أن يكون الإيمان في مقابلة السيئة المفسرة بالكفر عند بعض والعمل الصالح في مقابلة الخطيئة المفسرة بما عداه والمراد من (الذين آمنوا) أمة محمد صلى الله عليه وسلم ومؤمنو الأمم قبلهم ، قاله ابن عباس وغيره وهو الظاهر وقال ابن زيد : المراد بهم النبي صلى الله عليه وسلم وأمته خاصة وذكر الفاء فيما سبق وتركها هنا إما لأن الوعيد من الكريم مظنة الخلف دون الوعد فكان الأول حرياً بالتأكيد دون الثاني ، وإما للإشارة إلى سبق الرحمة فإن النحاة قالوا : من دخل داري فأكرمه يقتضي إكرام كل داخل لكن على خطر أن لا يكرم وبدون الفاء يقتضي إكرامه ألبتة ، وإما للإشارة إلى أن خلودهم في النار بسبب أفعالهم السيئة وعصيانهم وخلودهم في الجنة بمحض لطفه تعالى وكرمه ، وإلا فالإيمان والعمل الصالح لا يفي بشكر ما حصل للعبد من النعم العاجلة وإلى كل ذهب بعض والقول بأن ترك الفاء هنا لمزيد الرغبة في ذكر ما لهم ليس بشيء . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 307 ﴾

فصل

قال الفخر :

العمل الصالح خارج عن مسمى الإيمان لأنه تعالى قال : ﴿ والذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ فلو دل الإيمان على العمل الصالح لكان ذكر العمل الصالح بعد الإيمان تكراراً أجاب القاضي بأن الإيمان وإن كان يدخل فيه جميع الأعمال الصالحة ، إلا أن قوله : آمن لا يفيد إلا أنه فعل فعلاً واحداً من أفعال الإيمان ، فلهذا حسن أن يقول : ﴿ والذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ .

والجواب : أن فعل الماضي يدل على حصول المصدر في زمان مضى والإيمان هو المصدر ، فلو دل ذلك على جميع الأعمال الصالحة لكان قوله : آمن دليلاً على صدور كل تلك الأعمال منه ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 148 ﴾

فائدة

قال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ والذين آمنوا ﴾ الآية .

يدل هذا التقسيم على أن قوله ﴿ من كسب سيئة ﴾ الآية في الكفار لا في العصاة ، ويدل على ذلك أيضاً قوله : ﴿ أحاطت ﴾ لأن العاصي مؤمن فلم تحط به خطيئته ، ويدل على ذلك أيضاً أن الرد كان على كفار ادعوا أن النار لا تمسهم إلا أياماً معدودة فهم المراد بالخلود ، والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 1 صـ 171 ﴾

فصل

قال الفخر :

هذه الآية تدل على أن صاحب الكبيرة قد يدخل الجنة لأنا نتكلم فيمن أتى بالإيمان وبالأعمال الصالحة ، ثم أتى بعد ذلك بالكبيرة ولم يتب عنها ، فهذا الشخص قبل إتيانه بالكبيرة كان قد صدق عليه أنه آمن وعمل الصالحات في ذلك الوقت ، ومن صدق عليه ذلك صدق عليه أنه آمن وعمل الصالحات وإذا صدق عليه ذلك وجب اندراجه تحت قوله : ﴿ أُوْلَئِكَ أصحاب الجنة هُمْ فِيهَا خالدون ﴾ ، فإن قيل قوله تعالى : ﴿ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ لا يصدق عليه إلا إذا أتى بجميع الصالحات ومن جملة الصالحات التوبة ، فإذا لم يأت بها لم يكن آتياً بالصالحات ، فلا يندرج تحت الآية .

قلنا : قد بينا أنه قبل الإتيان بالكبيرة صدق عليه أنه آمن وعمل الصالحات ، لأنه متى صدق المركب يجب صدق المفرد ، بل إنه إذا أتى بالكبيرة لم يصدق عليه أنه آمن وعمل الصالحات في كل الأوقات ، لكن قولنا : آمن وعمل الصالحات أعم من قولنا : إنه كذلك في كل الأوقات أو في بعض الأوقات ، والمعتبر في الآية هو القدر المشترك ، فثبت أنه مندرج تحت حكم الوعد .

بقي قولهم : إن الفاسق أحبط عقاب معصيته ثواب طاعته فيكون الترجيح لجانب الوعيد إلا أن الكلام عليه قد تقدم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 149 ﴾

فصل

قال الفخر :

احتج الجبائي بهذه الآية على أن من يدخل الجنة لا يدخلها تفضلاً ، لأن قوله : ﴿ أُوْلَئِكَ أصحاب الجنة ﴾ للحصر ، فدل على أنه ليس للجنة أصحاب إلا هؤلاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات ،

قلنا : لم لا يجوز أن يكون المراد أنهم هم الذين يستحقونها فمن أعطى الجنة تفضلاً لم يدخل تحت هذا الحكم ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 149 ﴾

ومن فوائد صاحب المنار فى الآيات السابقة

قال رحمه الله :

(أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) كَانَ الظَّاهِرُ أَنْ يَكُونَ الْخِطَابُ لِلنَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – خَاصَّةً ، وَلَكِنْ خَاطَبَ الْمُؤْمِنِينَ مَعَهُ ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يُشَارِكُونَهُ فِي الْأَلَمِ مِنْ إِيذَائِهِمْ وَالطَّمَعِ بِهِدَايَتِهِمْ فَأَشْرَكَهُمْ بِالتَّسْلِيَةِ كَمَا سَبَقَ ؛ وَلِأَنَّ طَمَعَ الْمُؤْمِنِينَ بِإِيمَانِهِمْ كَانَ يَحْمِلُهُمْ عَلَى الِانْبِسَاطِ مَعَهُمْ فِي الْمُعَاشَرَةِ إِلَى حَدِّ الْإِفْضَاءِ إِلَيْهِمْ بِبَعْضِ الشُّئُونِ الْمِلِّيَّةِ الْمَحْضَةِ وَاتِّخَاذِهِمْ بِطَانَةً ، وَكَانَ يَعْقُبُ ذَلِكَ مِنَ الضَّرَرِ مَا يَعْقُبُ حَتَّى نَهَاهُمُ اللهُ – تَعَالَى – عَنِ اتِّخَاذِ الْبِطَانَةِ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا كَانُوا مَوْصُوفِينَ بِأَوْصَافِ هَؤُلَاءِ ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ – تَعَالَى – : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ) (3 : 118) وَالْآيَةُ التَّالِيَةُ تَدُلُّ عَلَى هَذَا الْإِفْضَاءِ أَيْضًا .

أَمَّا الْحُجَّةُ الَّتِي وَصَلَهَا بِإِنْكَارِ الطَّمَعِ بِإِيمَانِهِمْ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّهُ طَمَعٌ فِي غَيْرِ مَطْمَعٍ ؛ فَهِيَ تَعْمُدُ تَحْرِيفِ كَلَامِ اللهِ مِمَّنْ سَمِعَهُ مِنْهُمْ . وَذَلِكَ أَنَّ مُوسَى اخْتَارَ بِأَمْرِ اللهِ سَبْعِينَ رَجُلًا مِنْ قَوْمِهِ لِسَمَاعِ الْوَحْيِ وَمُشَاهَدَةِ الْحَالِ الَّتِي يُكَلِّمُهُ اللهُ – تَعَالَى – بِهَا ، وَقَدْ سَمِعُوا كَلَامَ اللهِ – تَعَالَى –

عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي لَا نَعْرِفُهُ ، وَإِنَّمَا نَعْرِفُ أَنَّهُمْ صَحِبُوهُ إِلَى حَيْثُ كَانَ يُنَاجِي اللهَ – تَعَالَى – ، وَكَانَ مِنْ شَأْنِ اللهِ – تَعَالَى – مَعَهُمْ أَنْ صَدَّقُوا بِأَنَّ مَا جَاءَ بِهِ مُوسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ – هُوَ وَحْيٌ مِنَ اللهِ – تَعَالَى – ، وَالتَّصْدِيقُ بِذَلِكَ لَا يَتَوَقَّفُ عَلَى مَعْرِفَةِ كَيْفِيَّتِهِ وَكُنْهِهِ ، فَإِنَّ أَكْثَرَ مَا نُصَدِّقُ بِهِ تَصْدِيقَ يَقِينٍ لَا نَعْرِفُ حَقِيقَتَهُ وَكُنْهَهُ وَلَا كَيْفِيَّةَ تَكْوِينِهِ وَإِيجَادِهِ . وَقَدْ كَانَ مِنْ أُولَئِكَ الْمُخْتَارِينَ أَنَّهُمْ لَمَّا رَجَعُوا إِلَى

قَوْمِهِمْ ، حَرَّفُوا كَلَامَ اللهِ الَّذِي حَضَرُوا وَحْيَهُ وَأَذْعَنُوا لَهُ ، بِأَنْ صَرَفُوهُ عَنْ وَجْهِهِ بِالتَّأْوِيلِ – كَمَا حَقَّقَهُ ابْنُ جَرِيرٍ الطَّبَرِيّ وَغَيْرُهُ – وَهَذَا التَّحْرِيفُ ثَابِتٌ عِنْدَهُمْ ، مَنْصُوصٌ فِي التَّوْرَاةِ وَالتَّارِيخِ الدِّينِيِّ الَّذِي يُسَمَّى التَّارِيخَ الْمُقَدَّسَ .

فَدَلَّ هَذَا مَا سَبَقَهُ عَلَى أَنَّ الْقَسْوَةَ الْمَانِعَةَ مِنَ التَّأَثُّرِ وَالتَّدَبُّرِ وَمُكَابَرَةَ الْحَقِّ وَالتَّفَصِّي مِنْ عِقَالِ الشَّرِيعَةِ ، كَانَ شَنْشَنَةً قَدِيمَةً فِيهِمْ ، ثُمَّ تَأَصَّلَ فَصَارَ غَرِيزَةً مَطْبُوعَةً ، فَإِعْرَاضُهُمْ عَنِ الْقُرْآنِ لَا يَسْتَلْزِمُ الطَّعْنَ عَلَيْهِ ، وَلَا الْقَوْلَ بِجَوَازِ تَسَلُّقِ شَيْءٍ مِنَ الرِّيبِ إِلَيْهِ ، فَإِنَّهُمْ قَدْ حَرَّفُوا وَبَدَّلُوا وَعَانَدُوا وَجَاحَدُوا وَهُمْ يُشَاهِدُونَ الْآيَاتِ الْحِسِّيَّةَ ، وَيُؤْخَذُونَ بِالْعُقُوبَاتِ الْمَعَاشِيَّةِ ، فَكَيْفَ يُسْتَنْكَرُ بَعْدَ هَذَا أَنْ يُعْرِضُوا عَنْ دِينٍ دَلَائِلُهُ عَقْلِيَّةٌ ، وَآيَتُهُ الْكُبْرَى مَعْنَوِيَّةٌ ! وَهِيَ الْقُرْآنُ الْمُعْجِزُ بِمَا فِيهِ مِنْ عُلُومِ الْهِدَايَةِ ، وَدَقَائِقِ الْبَلَاغَةِ ، وَأَنْبَاءِ الْغَيْبِ ، عَلَى أَنَّهُ مِنْ أُمِّيٍّ عَاشَ أَرْبَعِينَ سَنَةً لَمْ يُؤْثَرْ عَنْهُ فِيهَا شَيْءٌ مِنَ الْعِلْمِ ، وَلَمْ يُزَاحِمْ فُحُولَ الْبَلَاغَةِ فِي نَثْرٍ وَلَا نَظْمٍ ، وَفَهْمُ تِلْكَ الدَّلَائِلِ إِنَّمَا يَكُونُ مِنْ ذَوِي الْعُقُولِ الْحُرَّةِ وَالْقُلُوبِ السَّلِيمَةِ ، الَّذِينَ لَطُفَ شُعُورُهُمْ وَرَقَّ وِجْدَانُهُمْ ، وَصَحَّتْ أَذْوَاقُهُمْ .

(253/57)

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : لَوْ كَانَ الْمُرَادُ بِمَا هُنَا تَحْرِيفَ كَلَامِ التَّوْرَاةِ الْمَكْتُوبِ لَمَا قَالَ : (يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ) ، فَزِيَادَةُ (يَسْمَعُونَ) هُنَا لَا بُدَّ لَهَا مِنْ حِكْمَةٍ ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَجَاءَ الْكَلَامُ عَلَى نَسَقِ الْآيَاتِ الْأُخْرَى الَّتِي ذَكَرَ فِيهَا التَّحْرِيفَ ، كَأَنْ يَقُولَ : وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يُحَرِّفُ كَلَامَ اللَّهِ . وَقَوْلُهُ – تَعَالَى – : (مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ) نَصٌّ فِي التَّعَمُّدِ وَسُوءِ الْقَصْدِ ، وَإِبْطَالٌ لِمَا

عَسَاهُ يُعْتَذَرُ لَهُمْ بِهِ مِنْ سُوءِ الْفَهْمِ . ثُمَّ قَالَ : (وَهُمْ يَعْلَمُونَ) أَيْ كَانُوا يَفْعَلُونَ فِعْلَتَهُمُ الشَّنْعَاءَ فِي حَالِ الْعِلْمِ بِالصَّوَابِ وَاسْتِحْضَارِهِ ، لَا أَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى نِسْيَانٍ أَوْ ذُهُولٍ ، وَفِي هَذَيْنِ الْقَيْدَيْنِ مِنَ النَّعْيِ وَالتَّشْنِيعِ عَلَيْهِمْ مَا لَا مَزِيدَ عَلَيْهِ ، وَكَيْفَ وَقَدْ بَطَلَ بِهِمَا عُذْرُ الْخَطَأِ وَالنِّسْيَانِ وَسَجَّلَ عَلَيْهِمْ تَعَمُّدَ الْفُسُوقِ وَالْعِصْيَانِ !

ثُمَّ بَعْدَ هَذَا الِاحْتِجَاجِ انْتَقَلَ إِلَى بَيَانِ بَعْضِ أَحْوَالِ الَّذِينَ كَانُوا فِي زَمَنِ التَّنْزِيلِ وَقَدْ غَيَّرَ الْأُسْلُوبَ هُنَا ، فَإِنَّهُ كَانَ يَحْكِي سَيِّئَاتِهِمْ مُبْتَدِئًا بِكَلِمَةِ (وَإِذْ) لِأَنَّهُ تَذْكِيرٌ بِمَا كَانَ فِي الزَّمَانِ الْمَاضِي ، وَالِابْتِدَاءُ بِكَلِمَةِ (إِذَا) هُنَا هُوَ الْمُنَاسِبُ فِي الْحِكَايَةِ عَنْ حَالٍ وَاقِعَةٍ فِي الْحَالِ مُسْتَمِرَّةٍ فِي الِاسْتِقْبَالِ ، وَالْمُرَادُ مِنْ حِكَايَةِ

أَحْوَالِ الْحَاضِرِينَ بَيَانُ أَنَّهَا مُسَاوِيَةٌ لِأَحْوَالِ سَلَفِهِمُ الْغَابِرِينَ ، وَأَنَّهُ لَا يُرْجَى مِنْ هَؤُلَاءِ أَفْضَلُ مِمَّا كَانَ مِنْ أُولَئِكَ ، قَالَ : (وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) ؟ .

تُرْشِدُ هَذِهِ الْآيَةُ إِلَى طَوْرٍ مِنْ أَطْوَارِ الْبَشَرِ فِي زَمَنِ الْإِصْلَاحِ ، وَهِيَ أَنَّ جَمَاهِيرَ النَّاسِ يَقَعُونَ فِي الْحَيْرَةِ بَيْنَ الْهِدَايَةِ الْجَدِيدَةِ وَالتَّقَالِيدِ الْقَدِيمَةِ ، لَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْحَقِّ فَيَتَحَرَّوْا

اتّبَاعَهُ أَيْنَ كَانَ ، وَلَكِنَّهُمْ يُفَكِّرُونَ فِي مَنْفَعَتِهِمُ الْخَاصَّةِ ، يَقُولُونَ : نَخْشَى أَنْ نَجْهَرَ بِالْجَدِيدِ فَيُخْذَلَ حِزْبُهُ وَيَتَفَرَّقَ شَمْلُهُ فَنَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ، وَلَا نَأْمَنُ إِنْ بَقِينَا عَلَى الْقَدِيمِ أَنْ يَتَقَلَّصَ ظِلُّهُ ، وَيُذَلَّ أَهْلُهُ فَنَكُونَ مَعَ الضَّالِّينَ . فَالْحَزْمُ أَنْ نُوَافِقَ كُلَّ حِزْبٍ نَخْلُو بِهِ ، وَنَعْتَذِرَ إِلَى الْآخَرِ إِذَا هُوَ عَلِمَ بِمَا كَانَ مِنَّا إِلَى أَنْ نَتَبَيَّنَ الْفَوْزَ فِي أَحَدِ الْفَرِيقَيْنِ ، فَيَكُونُونَ هَكَذَا مُذَبْذَبِينَ ، كَمَا قَالَ اللهُ – تَعَالَى – : (وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللهُ عَلَيْكُمْ) . . . إِلَخْ .

(255/57)

الضَّمِيرُ فِي (قَالُوا) الثَّانِيَةِ غَيْرُ الضَّمِيرِ فِي (قَالُوا) الْأُولَى كَمَا هُوَ ظَاهِرٌ مِنَ السِّيَاقِ وَلَا لَبْسَ فِيهِ وَلَا اشْتِبَاهَ ، وَمِثْلُهُ مُسْتَفِيضٌ فِي كَلَامِ الْبُلَغَاءِ ، وَفِي التَّنْزِيلِ أَيْضًا كَقَوْلِهِ – تَعَالَى – : (وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ) (2 : 232) فَإِنَّ الْمَنْهِيَّ عَنِ الْعَضْلِ الْأَوْلِيَاءُ لَا الْمُطَلِّقُونَ . وَالْكَلَامُ فِي الْقُرْآنِ لِلْمُكَلَّفِينَ كَافَّةً ، فَيُوَجَّهُ كُلُّ كَلَامٍ إِلَى صَاحِبِهِ الَّذِي يَتَعَيَّنُ أَنْ يَكُونَ لَهُ بِقَرِينَةِ الْحَالِ أَوِ الْمَقَالِ . فَإِذَا وَجَّهَ الْخِطَابَ بِالطَّلَاقِ إِلَى الْأَزْوَاجِ ؛ لِأَنَّهُ لَا يَكُونُ إِلَّا مِنْهُمْ ، فَكَذَلِكَ يُوَجِّهُ الْخِطَابَ بِالنَّهْيِ عَنِ الْعَضْلِ – وَهُوَ مَنْعُ الْمَرْأَةِ مِنَ التَّزَوُّجِ – إِلَى الْأَوْلِيَاءِ ؛ لِأَنَّهُ لَا يَكُونُ إِلَّا مِنْهُمْ . وَعَلَى هَذِهِ الطَّرِيقَةِ يَتَخَرَّجُ قَوْلُهُ : (قَالُوا آمَنَّا) وَقَوْلُهُ :

(قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ) فَالْكَلَامُ فِي مَجْمُوعِ الْيَهُودِ ، وَيُوَجِّهُ الْأَوَّلَ إلَى الَّذِينَ يُلَاقُونَ الْمُؤْمِنِينَ (وَالثَّانِي) إلَى الَّذِينَ يُلَاقِيهِمْ هَؤُلَاءِ مِنْ قَوْمِهِمْ وَيَعْذِلُونَهُمْ عَلَى الْإِفْضَاءِ إلَى الْمُؤْمِنِينَ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ .

(256/57)

الْمُرَادُ بِالْفَتْحِ هُنَا : الْإِنْعَامُ بِالشَّرِيعَةِ وَالْأَحْكَامِ ، وَالْبِشَارَةُ بِالنَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، شَبَّهَ الَّذِي يُعْطَى الشَّرِيعَةَ بِالْمَحْصُورِ يُفْتَحُ عَلَيْهِ فَيَخْرُجُ مِنَ الضِّيقِ ، أَوْ مَعْنَى (بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ) بِمَا حَكَمَ بِهِ وَأَخَذَ بِهِ الْمِيثَاقَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْإِيمَانِ بِالنَّبِيِّ

(257/57)

الَّذِي يَجِيئُكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَنَصْرِهِ ، وَقَوْلُهُ : (لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ) مَعْنَاهُ يُقِيمُونَ بِهِ عَلَيْكُمُ الْحُجَّةَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكُمْ وَهُوَ التَّوْرَاةُ مِنْ حَيْثُ أَنَّ مَا تُحَدِّثُونَهُمْ بِهِ مُوَافِقٌ لِمَا فِي الْقُرْآنِ ، فَلَهُمْ أَنْ يَقُولُوا : لَوْلَا أَنَّ مُحَمَّدًا نَبِيٌّ لَمَا عَلِمَ بِهَذَا الَّذِي حَكَاهُ عَنْكُمْ ، وَقَدْ كَانَ مِثْلُنَا لَا يَعْرِفُ مِنْ أَمْرِ الْكِتَابِ شَيْئًا . هَذَا مَا جَرَى عَلَيْهِ الْمُحَقِّقُونَ فِي تَفْسِيرِ (عِنْدَ رَبِّكُمْ) وَهُوَ

أَنَّهُ بِمَعْنَى فِي كِتَابِهِ ، فَهُوَ كَقَوْلِهِ فِي أَهْلِ الْإِفْكِ (فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ) (24 : 13) أَيْ فِي حُكْمِهِ الْمُبَيَّنِ فِي كِتَابِهِ . وَذَهَبَ مُفَسِّرُنَا (الْجَلَالُ) إِلَى أَنَّ مَعْنَاهُ الْمُحَاجَّةُ فِي الْآخِرَةِ ، وَالنَّظْمُ لَا يَأْبَاهُ ، وَلَكِنَّ فِيهِ اعْتِرَافًا مِنَ اللَّائِمِينَ الْمُؤَنِّبِينَ بِأَنَّ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْحَقِّ الَّذِي لَا يُنْجِي عِنْدَ اللهِ سِوَاهُ ، وَمَنِ اعْتَقَدَ هَذَا لَا يَجْعَلُهُ تَعْلِيلًا لِلْإِنْكَارِ عَلَى مَنْ يَرَاهُ مِنْ قَوْمِهِ ، يُحَدِّثُ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا يُوَافِقُهُمْ وَيُقَوِّي حُجَّتَهُمْ ، بَلْ فِيهِ أَيْضًا أَنَّ تَرْكَ تَحْدِيثِهِمْ لَا يَمْنَعُهَا فِي الْآخِرَةِ .

(258/57)

مِثْلُ هَذِهِ الذَّبْذَبَةِ تَكُونُ مِنَ الْأُمَمِ فِي طَوْرِ الضَّعْفِ وَلَا سِيَّمَا ضَعْفُ الْإِرَادَةِ وَالْعِلْمِ ، وَلَوْ كَانَ لِأُولَئِكَ الْقَوْمِ إِرَادَةٌ قَوِيَّةٌ لَثَبَتُوا ظَاهِرًا عَلَى مَا يَعْتَقِدُونَهُ بَاطِلًا ، وَلَمْ يُصَانِعُوا مُخَالِفِيهِمْ مِنْ أَهْلِ الْمِلَّةِ الْأُولَى أَوِ الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ ، وَقَدْ وَبَّخَهُمُ اللهُ – تَعَالَى – وَأَنْكَرَ عَلَيْهِمْ هَذَا التَّلَوُّنَ وَالدِّهَانَ فِي الدِّينِ ، وَلِقَاءَ كُلِّ فَرِيقٍ بِوَجْهٍ يُظْهِرُونَ لَهُ مَا يُسِرُّونَ مِنْ أَمْرِ الْآخَرِ ، فَقَالَ : (أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ) يَعْنِي أَيَقُولُ اللَّائِمُونَ أَوِ الْمُنَافِقُونَ كُلُّهُمْ مَا قَالُوا ، وَيَكْتُمُونَ مِنْ صِفَاتِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مَا كَتَمُوا ، وَيُحَرِّفُونَ مِنْ كِتَابِهِمْ مَا حَرَّفُوا ، وَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ مِنْ كُفْرٍ وَكَيْدٍ ، وَمَا يُعْلِنُونَ مِنْ إِظْهَارِ إِيمَانٍ وَوُدٍّ ،

فَإِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ بِإِحَاطَةِ عِلْمِهِ - تَعَالَى - ، فَلِمَ لَا يَحْفَلُونَ بِاطِّلَاعِهِ عَلَى ظَوَاهِرِهِمْ ، وَإِحَاطَتِهِ بِمَا يَجُولُ فِي أَطْوَاءِ ضَمَائِرِهِمْ ، وَبِمَا يَتَرَتَّبُ عَلَى عِلْمِهِ مِنْ خِزْيٍ فِي الدُّنْيَا وَعَذَابٍ فِي الْآخِرَةِ .

قَالَ - تَعَالَى - : (وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ)

(259/57)

ذَلِكَ الَّذِي تَقَدَّمَ هُوَ شَأْنُ عُلَمَائِهِمْ ، يُحَرِّفُونَ كِتَابَ اللهِ وَيَخْرُجُونَ مِنْ حُكْمِهِ بِالتَّأْوِيلِ ، وَهَذَا هُوَ شَأْنُ عَامَّتِهِمْ ، لَا عِلْمَ لَهُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْكِتَابِ ، وَلَا مَعْرِفَةَ لَهُمْ بِالْأَحْكَامِ ، وَمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الدِّينِ فَهُوَ أَمَانِيٌّ يَتَمَنَّوْنَهَا وَتَجُولُ صُوَرُهَا فِي خَيَالَاتِهِمْ ، وَهَذِهِ الصُّوَرُ هِيَ كُلُّ مَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ بِدِينِهِمْ ، وَمَا هُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهَا ، وَإِنَّمَا هِيَ ظُنُونٌ

(260/57)

يَلْهَوْنَ بِهَا ، وَهَذَا هُوَ مَحِلُّ الذَّمِّ لَا مُجَرَّدُ كَوْنِهِمْ أُمِّيِّينَ ، فَإِنَّ الْأُمِّيَّ قَدْ يَتَلَقَّى الْعِلْمَ عَنِ الْعُلَمَاءِ الثِّقَاتِ وَيَعْقِلُهُ عَنْهُمْ بِدَلِيلِهِ فَيَكُونُ عِلْمُهُ صَحِيحًا ، وَهَؤُلَاءِ لَمْ يَكُونُوا كَذَلِكَ . فَإِنْ قِيلَ : لِمَ

سُمِّيَ مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الْأَمَانِيِّ ظَنًّا مَعَ أَنَّهُمْ أَخَذُوهُ عَنْ رُؤَسَاءِ دِينِهِمُ الْمَوْثُوقِ بِهِمْ عِنْدَهُمْ وَسَلَّمُوهُ تَسْلِيمًا ، فَلَمْ يَكُنْ فِي نُفُوسِهِمْ مَا يُخَالِفُهُ ، وَمِثْلُ هَذَا يُسَمَّى اعْتِقَادًا وَعِلْمًا ؟ نَقُولُ : إِنَّمَا الْعِلْمُ بِالدَّلِيلِ وَلَا يُسَمِّي مِثْلَ ذَلِكَ عِلْمًا إِلَّا مَنْ لَا يَعْرِفُ مَعْنَى الْعِلْمِ . عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ رَاجِحًا وَمُسَلَّمًا إِلَّا لِأَنَّ مُقَابِلَهُ لَمْ يَخْطُرْ بِبَالِهِمْ ، وَلَوْ أُرِدَ عَلَيْهِمْ لَتَزَلْزَلَ مَا عِنْدَهُمْ ثُمَّ زَالَ ، أَوْ ظَهَرَ فِيهِ الشَّكُّ وَتَطَرَّقَ إِلَيْهِ الِاحْتِمَالُ ، وَيَصِحُّ أَنْ يُقَالَ فِي مِثْلِ هَؤُلَاءِ : إِنَّ الظَّنَّ أَوِ التَّرَدُّدَ كَانَ نَائِمًا فِي نُفُوسِهِمْ ، وَهُوَ عُرْضَةٌ لِأَنْ يُوقِظَهُ نَقِيضُهُ وَيَذْهَبَ بِهِ مَتَى طَرَأَ ، وَنَوْمُ الظَّنِّ لَا يَصِحُّ أَنْ يُسَمَّى اعْتِقَادًا .

(261/57)

قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : هَذِهِ الْأَمَانِيُّ تُوجَدُ فِي كُلِّ الْأُمَمِ فِي حَالِ الضَّعْفِ وَالِانْحِطَاطِ ، يَفْتَخِرُونَ بِمَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ مِنَ الشَّرِيعَةِ ، وَبِسَلَفِهِمُ الَّذِينَ كَانُوا مُهْتَدِينَ بِهَا ، وَبِمَا لَهُمْ مِنَ الْآثَارِ الَّتِي كَانَتْ ثَمَرَةَ تِلْكَ الْهِدَايَةِ ، وَتُسَوِّلُ لَهُمُ الْأَمَانِيُّ أَنَّ ذَلِكَ كَافٍ فِي نَجَاتِهِمْ وَسَعَادَتِهِمْ وَفَضْلِهِمْ عَلَى سَائِرِ النَّاسِ . هَكَذَا كَانَ الْيَهُودُ فِي زَمَنِ التَّنْزِيلِ ، وَقَدِ اتَّبَعْنَا سُنَنَهُمْ وَتَلَوْنَا تُلُوَّهُمْ ، فَظَهَرَ فِينَا تَأْوِيلُ الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ (لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا

بِذِرَاعٍ) وَإِنَّنَا نَقْرَأُ أَخْبَارَهُمْ فَنَسْخَرُ مِنْهُمْ وَلَا نَسْخَرُ مِنْ أَنْفُسِنَا ، وَنَعْجَبُ لَهُمْ كَيْفَ رَضُوا بِالْأَمَانِيِّ ، وَنَحْنُ غَارِقُونَ فِيهَا !

(262/57)

ثُمَّ إِنَّ الْآيَةَ تَدُلُّ عَلَى بُطْلَانِ التَّقْلِيدِ وَعَدَمِ الِاعْتِدَادِ بِإِيمَانِ صَاحِبِهِ ، وَقَدْ مَضَى عَلَى هَذَا إِجْمَاعُ الصَّدْرِ الْأَوَّلِ وَأَهْلِ الْقُرُونِ الثَّلَاثَةِ ، وَإِنَّمَا كَانَ الْجَاهِلُ يَأْخُذُ عَنِ الْعَالِمِ الْعَقِيدَةَ بِبُرْهَانِهَا ، وَالْأَحْكَامَ بِرِوَايَتِهَا ، وَلَا يَتَقَلَّدُ رَأْيَهُ كَيْفَمَا كَانَ مِنْ غَيْرِ بَيِّنَةٍ وَلَا بُرْهَانٍ ، وَفَسَّرَ بَعْضُهُمُ الْأَمَانِيَّ بِالْأَكَاذِيبِ ابْتِدَاءً ، وَمِنْهُمْ مَنْ فَسَّرَهَا بِالْقِرَاءَاتِ ، أَيْ أَنَّهُمْ لَا حَظَّ لَهُمْ مِنَ الْكِتَابِ إِلَّا قِرَاءَةَ أَلْفَاظِهِ مِنْ غَيْرِ فَهْمٍ وَلَا اعْتِبَارٍ يَظْهَرُ أَثَرُهُمَا فِي الْعَمَلِ ، فَهُوَ عَلَى حَدِّ (مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا) (62 : 5) وَقَدْ وَرَدَ التَّمَنِّي بِمَعْنَى الْقِرَاءَةِ ، وَمِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ :

تَمَنَّى كِتَابَ اللهِ أَوَّلَ لَيْلِهِ . . . تَمَنِّيَ دَاوُدَ الزَّبُورَ عَلَى رِسْلِ

وَهَذَا النَّوْعُ مِنَ التَّمَنِّي قَدْ بَرَزَ فِيهِ الْمُسْلِمُونَ حَتَّى سَبَقُوا مَنْ قَبْلَهُمْ ، فَقَدْ أَمْسَوْا أَكْثَرَ الْأُمَمِ تِلَاوَةً لِكِتَابِهِمْ ، وَأَقَلَّهُمْ فَهْمًا لَهُ وَاهْتِدَاءً بِهِ .

(263/57)

قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : إِنَّمَا يُحْسِنُ تَفْسِيرَ هَذِهِ الْآيَاتِ مَنْ كَانَ عَلَى عِلْمٍ بِتَارِيخِ الْيَهُودِ فِي ذَلِكَ الْعَصْرِ وَوُقُوفٍ عَلَى حَالِهِمْ ، وَإِنْ كَانَتْ إِلَّا نُسْخَةً مِنْ حَالِ بَعْضِ الشُّعُوبِ الْمَوْجُودِينَ الْآنَ . . . كَانُوا أَكْثَرَ النَّاسِ مِرَاءً وَجِدَالًا فِي الْحَقِّ وَإِنْ كَانَ بَيِّنًا بَاهِرًا ، وَأَشَدَّ النَّاسِ كَذِبًا وَغُرُورًا وَأَكْلًا لِأَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ كَالرِّبَا الْفَاحِشِ ، وَغِشًّا وَتَدْلِيسًا وَتَلْبِيسًا ، وَكَانُوا مَعَ ذَلِكَ يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُمْ شَعْبُ اللهِ الْخَاصُّ وَأَفْضَلُ النَّاسِ كَمَا يَعْتَقِدُ أَشْبَاهُهُمْ فِي هَذَا الزَّمَانِ ، فَهَذِهِ هِيَ الْأَمَانِيُّ الَّتِي صَدَّتْهُمْ عَنْ قَبُولِ الْإِسْلَامِ .

وَأَمَّا اللَّفْظُ وَالنَّظْمُ فَفِيهِ أَنَّ قَوْلَهُ – تَعَالَى – : (إِلَّا أَمَانِيَّ) اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ ، وَالْعِلْمُ الْمَنْفِيُّ قَاصِرٌ لَا يَشْمَلُ الْأَمَانِيَّ ، وَيَصِحُّ أَنْ يَكُونَ مُتَعَدِّيًا ، وَالْآيَةُ عَلَى حَدِّ قَوْلِهِمْ : مَا عَلِمْتُ فُلَانًا إِلَّا فَاضِلًا ، وَيَكُونُ الْمَعْنَى أَنَّهُمْ إِنَّمَا يَعْلَمُونَ مِنَ الْكِتَابِ أَنَّهُ مَجْمُوعَةُ أَمَانِيَّ يُمَنُّونَهَا أَنْفُسَهُمْ ، فَهُمْ لَا يَأْخُذُونَ مِنْهُ إِلَّا مَا هُوَ لَهُمْ وَيُمِدُّهُمْ فِي غُرُورِهِمْ ، وَأَمَّا مَا يُنَبِّهُهُمْ عَلَى سَيِّئَاتِ أَعْمَالِهِمْ فَكَأَنَّهُ غَيْرُ مَعْرُوفٍ لَهُمْ مِنَ الْكِتَابِ .

ثُمَّ قَالَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ : (فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ)

قَالَ الْمُفَسِّرُ (الْجَلَالُ) : إنَّهُمْ كَانُوا يَكْتُبُونَ الْأَحْكَامَ عَلَى خِلَافِ مَا هِيَ عَلَيْهِ فِي الْكِتَابِ ، كَآيَةِ الرَّجْمِ وَوَصْفِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وَقَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : لَوْ كَانَ هَذَا هُوَ الْمُرَادُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ لَمَا بُدِئَ الْكَلَامُ بِالْفَاءِ ، وَإِنَّمَا الْآيَةُ وَعِيدٌ عَلَى أَنْ لَبَّسُوا عَلَى النَّاسِ بِالْكِتَابَةِ ، وَتَأْلِيفِ الْكُتُبِ الدِّينِيَّةِ وَإِيهَامِ الْعَامَّةِ أَنَّ كُلَّ مَا كَتَبُوهُ فِيهَا مَأْخُوذٌ مِنْ كِتَابِ اللهِ كَمَا يَعْتَقِدُ الْمُقَلِّدُونَ مِنْ كُلِّ مِلَّةٍ بِكُتُبِ الدِّينِ الَّتِي يُؤَلِّفُهَا عُلَمَاؤُهُمْ فِي الْأُصُولِ وَالْفُرُوعِ ، حَتَّى إنَّ بَعْضَهُمْ يَقُولُ : إنَّ اخْتِلَافَهَا لَا يُنَافِي كَوْنَهَا مِنْ عِنْدِ اللهِ ، خِلَافًا لِقَوْلِهِ - تَعَالَى - : (وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا) (4 : 82) ، فَهَذِهِ الْكُتُبُ هِيَ مَثَارُ الْأَمَانِيِّ وَالْغُرُورِ ؛ وَلِذَلِكَ أُنْزِلَ عَلَى أَصْحَابِهَا الْهَلَاكُ بَعْدَ مَا ذَكَرَ أَصْنَافَ الْيَهُودِ مِنْ مُنَافِقِينَ وَمُحَرِّفِينَ وَأُمِّيِّينَ فَقَالَ : (فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ) .

أَقُولُ : أَيْ وَيْلٌ وَهَلَاكٌ عَظِيمٌ لِأُولَئِكَ الْعُلَمَاءِ الَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكُتُبَ بِأَيْدِيهِمْ وَيُودِعُونَهَا آرَاءَهُمْ وَيَحْمِلُونَ النَّاسَ عَلَى التَّعَبُّدِ بِهَا قَائِلِينَ : إنَّ مَا فِيهَا مِنْ عِنْدِ اللهِ وَيُمْكِنُ الِاسْتِغْنَاءُ بِهَا عَنِ

الْكِتَابِ الَّذِي نَفْهَمُ مِنْهُ مَا لَا يَفْهَمُ غَيْرُنَا ، يَخْطُبُونَ بِتِلْكَ الْكُتُبِ مَيْلَ الْعَامَّةِ وَوُدَّهُمْ ، وَيَبْتَغُونَ الْجَاهَ عِنْدَهُمْ وَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالدِّينِ ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ : (لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا) ، وَكُلُّ مَا يُبَاعُ بِهِ الْحَقُّ وَيُتْرَكُ لِأَجْلِهِ فَهُوَ قَلِيلٌ ؛ لِأَنَّ الْحَقَّ أَثْمَنُ الْأَشْيَاءِ وَأَغْلَاهَا ، وَأَرْفَعُهَا وَأَعْلَاهَا ؛ وَلِذَلِكَ كَرَّرَ الْوَعِيدَ فَقَالَ : (فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ) ، فَالْهَلَاكُ وَالْوَيْلُ مُحِيطٌ بِهِمْ مِنْ أَقْطَارِهِمْ ، وَنَازِلٌ بِهِمْ مِنْ جَانِبِ الْوَسِيلَةِ وَمِنْ جَانِبِ الْمَقْصِدِ .

(266/57)

قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : مَنْ شَاءَ أَنْ يَرَى نُسْخَةً مِمَّا كَانَ عَلَيْهِ أُولَئِكَ الْيَهُودُ ، فَلْيَنْظُرْ فِيمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَإِنَّهُ يَرَاهَا وَاضِحَةً جَلِيَّةً ، يَرَى كُتُبًا أُلِّفَتْ فِي عَقَائِدِ الدِّينِ وَأَحْكَامِهِ حَرَّفُوا فِيهَا مَقَاصِدَهُ وَحَوَّلُوهَا إِلَى مَا يَغُرُّ النَّاسَ وَيُمَنِّيهِمْ وَيُفْسِدُ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ، وَيَقُولُونَ : هِيَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَمَا هِيَ مِنْ عِنْدِ اللهِ ، وَإِنَّمَا هِيَ صَادَّةٌ عَنِ النَّظَرِ فِي كِتَابِ اللهِ وَالِاهْتِدَاءِ بِهِ ، وَلَا يَعْمَلُ هَذَا إِلَّا أَحَدُ رَجُلَيْنِ : رَجُلٌ مَارِقٌ مِنَ الدِّينِ يَتَعَمَّدُ إِفْسَادَهُ وَيَتَوَخَّى إِضْلَالَ أَهْلِهِ ، فَيَلْبَسُ لِبَاسَ الدِّينِ وَيَظْهَرُ بِمَظْهَرِ أَهْلِ الصَّلَاحِ ، يُخَادِعُ بِذَلِكَ النَّاسَ لِيَقْبَلُوا مَا يَكْتُبُ وَيَقُولُ ، وَرَجُلٌ يَتَحَرَّى التَّأْوِيلَ وَيَسْتَنْبِطُ الْحِيَلَ لِيُسَهِّلَ عَلَى النَّاسِ مُخَالَفَةَ الشَّرِيعَةِ ابْتِغَاءَ الْمَالِ وَالْجَاهِ .

ثُمَّ ذَكَرَ الْأُسْتَاذُ وَقَائِعَ ، طَابَقَ فِيهَا بَيْنَ مَا كَانَ عَلَيْهِ الْيَهُودُ مِنْ قَبْلُ ، وَمَا عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ الْآنَ

، ذَكَرَ وَقَائِعَ لِلْقُضَاةِ وَالْمَأْذُونِينَ ، وَلِلْعُلَمَاءِ وَالْوَاعِظِينَ ، فَسَقَوا فِيهَا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَتَأَوَّلُ وَيَغْتَرُّ بِأَنَّهُ يَقْصِدُ نَفْعَ أُمَّتِهِ ، كَمَا كَانَ أَحْبَارُ الْيَهُودِ يُفْتُونَ بِأَكْلِ الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً لِيَسْتَغْنِيَ شَعْبُ إِسْرَائِيلَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَفْعَلُ مَا يَفْعَلُ عَامِدًا عَالِمًا أَنَّهُ مُبْطِلٌ ، وَلَكِنْ تَغُرُّهُ أَمَانِيُّ الشَّفَاعَاتِ وَالْمُكَفِّرَاتِ .

(267/57)

(وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

(268/57)

هَذَا ضَرْبٌ مِنْ ضُرُوبِ غُرُورِهِمْ ، عَطَفَهُ عَلَى مَا قَبْلَهُ فَقَالَ : (وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً) قِيلَ : هِيَ أَرْبَعُونَ يَوْمًا مُدَّةُ عِبَادَتِهِمُ الْعِجْلَ ، وَالَّذِي عَلَيْهِ أَكْثَرُ الْيَهُودِ أَنَّهَا

سَبْعَةُ أَيَّامٍ ؛ لِأَنَّ عُمْرَ الدُّنْيَا عِنْدَهُمْ سَبْعَةُ آلَافِ سَنَةٍ ، فَالْإِسْرَائِيلِيُّ الَّذِي لَا تُدْرِكُهُ الشَّفَاعَةُ يَمْكُثُ فِي النَّارِ سَبْعَةَ أَيَّامٍ عَنْ كُلِّ أَلْفِ سَنَةٍ يَوْمًا ، وَمِثْلُ هَذَا الْحُكْمِ لَا يُمْكِنُ الْقَوْلُ بِهِ إِلَّا بِعَهْدٍ مِنَ اللهِ – تَعَالَى – مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ وَالْجَزَاءِ ، وَإِلَّا كَانَ افْتِئَاتًا عَلَيْهِ سُبْحَانَهُ ، وَقَوْلًا عَلَيْهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، وَهَذَا مَا رَدَّ بِهِ عَلَيْهِمْ ، وَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ، وَأَمَرَ رَسُولَهُ أَنْ يُخَاطِبَهُمْ بِهِ بِقَوْلِهِ : (قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ) ، أَيْ هَلْ عَهِدَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذَلِكَ وَوَعَدَ بِهِ فَكَانَ حَقًّا لَكُمْ عِنْدَهُ ؛ لِأَنَّ اللهَ لَا يُخْلِفُ عَهْدَهُ ؟ وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ وَبَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ : مَعْنَاهُ : هَلِ اتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللهِ عَهْدًا بِاتِّبَاعِ شَرِيعَتِهِ اعْتِقَادًا وَائْتِمَارًا وَانْتِهَاءً وَتَخَلُّقًا ، فَأَنْتُمْ وَاثِقُونَ بِعَهْدِ اللهِ فِي كِتَابِهِ لِمَنْ كَانَ كَذَلِكَ بِالنَّجَاةِ مِنَ النَّارِ وَدُخُولِ الْجَنَّةِ وَمَغْفِرَةِ مَا عَسَاهُ يَفْرُطُ مِنْهُ مِنَ السَّيِّئَاتِ أَوِ الْعُقُوبَةِ عَلَيْهِ مُدَّةً قَصِيرَةً ؟ !

وَالِاسْتِفْهَامُ لِلْإِنْكَارِ ، أَيْ لَسْتُمْ عَلَى عَهْدٍ مِنَ اللهِ – تَعَالَى – وَلِذَلِكَ كَذَّبَهُمْ بِقَوْلِهِ : (أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) ، أَيْ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ شَيْئًا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ ، إِذِ الْعِلْمُ بِمِثْلِهِ لَا يَكُونُ إِلَّا بِوَحْيٍ مِنْهُ يُبَلِّغُهُ عَنْهُ رُسُلُهُ ، وَالْقَوْلُ عَلَى اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ جُرْأَةٌ وَافْتِيَاتٌ عَلَيْهِ وَكُفْرٌ بِهِ ، وَالْمَعْنَى أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ أَحَدِ الْأَمْرَيْنِ إِذْ لَا وَاسِطَةَ بَيْنَهُمَا : إِمَّا اتِّخَاذُ عَهْدِ اللهِ ، وَإِمَّا الْقَوْلُ

عَلَى اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، وَإِذَا كَانَ اتِّخَاذُ الْعَهْدِ لَمْ يَحْصُلْ ، تَعَيَّنَ أَنَّكُمْ تَكْذِبُونَ عَلَى اللهِ بِجَهْلِكُمْ وَغُرُورِكُمْ ، (بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً) الْآيَةِ ، (بَلَى) مُبْطِلَةٌ لِدَعْوَاهُمْ ،

وَقَالَ الْأُسْتَاذُ : لِلسَّيِّئَةِ هُنَا إِطْلَاقُهَا ، وَخَصَّهَا مُفَسِّرُنَا (الْجَلَالُ) وَبَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ بِالشِّرْكِ ، وَلَوْ صَحَّ هَذَا لَمَا كَانَ لِقَوْلِهِ - تَعَالَى - : (وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ) مَعْنًى ؛ فَإِنَّ الشِّرْكَ أَكْبَرُ السَّيِّئَاتِ ، وَهُوَ يَسْتَحِقُّ هَذَا الْوَعِيدَ لِذَاتِهِ كَيْفَمَا كَانَ ، وَمَعْنَى إِحَاطَةِ الْخَطِيئَةِ هُوَ حَصْرُهَا لِصَاحِبِهَا ، وَأَخْذُهَا بِجَوَانِبِ إِحْسَاسِهِ وَوِجْدَانِهِ ، كَأَنَّهُ مَحْبُوسٌ فِيهَا لَا يَجِدُ لِنَفْسِهِ

مَخْرَجًا مِنْهَا ، يَرَى نَفْسَهُ حُرًّا مُطْلَقًا وَهُوَ أَسِيرُ الشَّهَوَاتِ ، وَسَجِينُ الْمُوبِقَاتِ ، وَرَهِينُ الظُّلُمَاتِ ، وَإِنَّمَا تَكُونُ الْإِحَاطَةُ بِالِاسْتِرْسَالِ فِي الذُّنُوبِ ، وَالتَّمَادِي عَلَى الْإِصْرَارِ ، قَالَ - تَعَالَى - : (كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) (83 : 14) أَيْ مِنَ الْخَطَايَا وَالسَّيِّئَاتِ ، فَفِي كَلِمَةِ (يَكْسِبُونَ) مَعْنَى الِاسْتِرْسَالِ وَالِاسْتِمْرَارِ ، وَرَانَ عَلَيْهِ : غَطَّاهُ وَسَتَرَهُ ، أَيْ أَنَّ قُلُوبَهُمْ قَدْ أَصْبَحَتْ فِي غُلْفٍ مِنْ ظُلُمَاتِ الْمَعَاصِي ، حَتَّى لَمْ يَبْقَ مَنْفَذٌ لِلنُّورِ يَدْخُلُ إِلَيْهَا مِنْهُ ، وَمَنْ أَحْدَثَ لِكُلِّ سَيِّئَةٍ يَقَعُ فِيهَا تَوْبَةً نَصُوحًا وَإِقْلَاعًا صَحِيحًا ، لَا

تُحِيطُ بِهِ الْخَطَايَا ، وَلَا تَرِينُ عَلَى قَلْبِهِ السَّيِّئَاتُ . رَوَى أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالْحَاكِمُ – وَصَحَّحَاهُ – وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَهْ وَابْنُ حِبَّانَ وَغَيْرُهُمْ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ : (إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَذْنَبَ ذَنْبًا نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ ، فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ صُقِلَ قَلْبُهُ ، وَإِنْ عَادَ زَادَتْ حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ ، فَذَلِكَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ – تَعَالَى – فِي الْقُرْآنِ : (كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) (83 : 14) .

لِمِثْلِ هَذَا كَانَ السَّلَفُ يَقُولُونَ : الْمَعَاصِي بَرِيدُ الْكُفْرِ .

(271/57)

قَوْلُهُ : (فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) خَبَرُ (مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ) ، أَيْ هُمْ أَصْحَابُ دَارِ الْعَذَابِ فِي الْآخِرَةِ الْأَحِقَّاءُ بِهَا دُونَ مَنْ لَمْ يَصِلْ إِلَى دَرَجَتِهِمْ فِي الدُّنْيَا ، وَهُوَ مَنْ فِي قَلْبِهِ شَيْءٌ مِنْ نُورِ الْإِيمَانِ وَتَوْحِيدِ اللَّهِ – تَعَالَى – وَمَا يَتْبَعُهُ مِنَ الْخَيْرِ .

قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : وَمِنَ الْمُفَسِّرِينَ مَنْ تَرَكَ السَّيِّئَةَ فِي الْآيَةِ عَلَى إِطْلَاقِهَا فَلَمْ يُؤَوِّلْهَا بِالشِّرْكِ ، وَلَكِنَّهُمْ أَوَّلُوا جَزَاءَهَا فَقَالُوا : إِنَّ الْمُرَادَ بِالْخُلُودِ طُولُ مُدَّةِ الْمُكْثِ ؛ لِأَنَّ الْمُؤْمِنَ مَنْ لَا يَخْلُدُ فِي النَّارِ وَإِنِ اسْتَغْرَقَتِ الْمَعَاصِي عُمْرَهُ وَأَحَاطَتِ الْخَطَايَا بِنَفْسِهِ فَانْهَمَكَ فِيهَا طُولَ

حَيَاتِهِ .

أَوَّلُوا هَذَا التَّأْوِيلَ هُرُوبًا مِنْ قَوْلِ الْمُعْتَزِلَةِ : إِنَّ أَصْحَابَ الْكَبَائِرِ يُخَلَّدُونَ فِي النَّارِ ، وَتَأْيِيدًا لِمَذْهَبِهِمْ أَنْفُسِهِمُ الْمُخَالِفِ لِلْمُعْتَزِلَةِ ، وَالْقُرْآنُ فَوْقَ الْمَذَاهِبِ يُرْشِدُ إِلَى أَنَّ مَنْ تُحِيطُ بِهِ خَطِيئَتُهُ ، لَا يَكُونُ أَوْ لَا يَبْقَى مُؤْمِنًا .

(272/57)

(وَأَقُولُ) - : إِنَّ فَتْحَ بَابِ تَأْوِيلِ الْخُلُودِ يُجَرِّئُ أَصْحَابَ اسْتِقْلَالِ الْفِكْرِ فِي هَذَا الزَّمَانِ عَلَى الدُّخُولِ فِيهِ ، وَالْقَوْلُ بِأَنَّ مَعْنَى خُلُودِ الْكَافِرِينَ فِي الْعَذَابِ طُولُ مُكْثِهِمْ فِيهِ ؛ لِأَنَّ الرَّحْمَنَ الرَّحِيمَ الَّذِي سَبَقَتْ رَحْمَتُهُ غَضَبَهُ ، مَا كَانَ لِيُعَذِّبَ خَلْقَهُ عَذَابًا لَا نِهَايَةَ لَهُ ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَهْتَدُوا بِالدِّينِ الَّذِي شَرَعَهُ لِمَنْفَعَتِهِمْ لَا لِمَنْفَعَتِهِ ، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَفْقَهُوا الْمَنْفَعَةَ ، وَإِذَا كَانَ التَّقْلِيدُ مَقْبُولًا عِنْدَ اللهِ كَمَا يَرَى فَاتِحُو الْبَابِ ، فَقَدْ وَضَحَ عُذْرُ الْأَكْثَرِينَ ؛ لِأَنَّهُمْ مُقَلِّدُونَ لِعُلَمَائِهِمْ إِلَى آخِرِ مَا يَتَكَلَّمُ بِهِ النَّاسُ وَلَا سِيَّمَا فِي هَذَا الْعَصْرِ ، فَإِنَّ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ قَدِيمَةٌ ، وَهِيَ أَكْبَرُ مُشْكِلَاتِ الدِّينِ .

نَعَمْ ، إِنَّ الْعُلَمَاءَ يَحْتَجُّونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِجْمَاعِ - وَلَوْ سُكُوتِيًّا - وَلَكِنَّ التَّأْوِيلَ بَابٌ لَا يَكَادُ يُسَدُّهُ - مَتَى فُتِحَ - شَيْءٌ .

ثُمَّ ذَكَرَ فِي مُقَابَلَةِ أَهْلِ النَّارِ أَضْدَادَهُمْ أَهْلَ الْجَنَّةِ عَلَى سُنَّتِهِ فِي كِتَابِهِ ، فَقَالَ : (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) ،

(273/57)

وَأَمَّا الَّذِينَ جَمَعُوا بَيْنَ الْإِيمَانِ الصَّحِيحِ وَمَا يَلْزَمُهُ مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَاتِ فَ (أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) . أَقُولُ : أَيْ أُولَئِكَ دُونَ غَيْرِهِمْ أَصْحَابُهَا الْحَقِيقِيُّونَ بِهَا ، بِحَسَبِ وَعْدِ اللهِ وَفَضْلِهِ هُمْ خَالِدُونَ فِيهَا . وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْوَعْدَ عَلَى الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ مَعًا ، إِذْ لَا يَنْفَكُّ أَحَدُهُمَا عَنِ الْآخَرِ ، إِلَّا مَنْ آمَنَ فَمَاتَ وَلَمْ يَتَّسِعْ لَهُ الْوَقْتُ لِلْعَمَلِ ، فَهُوَ مِنْ أَهْلِهِ بِمُقْتَضَى إِيمَانِهِ الصَّحِيحِ ، وَمَا حَالَ دُونَهُ مِنَ الْآجَالِ عُذْرٌ ؛ لِأَنَّهُ لَا ذَنْبَ لَهُ فِيهِ .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير المنار حـ 1 صـ 294. 302 ﴾

(274/57)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (82) ﴾

عندما يذكر الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم . . العذاب والنار ، يأتي بالمقابل وهو النعيم والجنة . . وذلك أن المقابلة ترينا الفرق . . وتعطي للمؤمن إحساسا بالسعادة . . لأنه زحزح عن عذاب الآخرة ، وليس هذا فقط . . بل دخل الجنة ليقيم خالدا في النعيم . . ولذلك يقول سبحانه : ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ [آل عمران : 185]

إذن الفوز في الآخرة ليس على درجة واحدة ولكن على درجتين . . أولى درجات الفوز أن يزحزح الإنسان على النار ولو إلى الأعراف وهذا فوز عظيم . . يكفي إنك تمر على الصراط المضروب فوق النار وترى ما فيها من ألوان العذاب ، ثم بعد ذلك تنجو من هذا الهول كله . . يكفي ذلك ليكون فوزا عظيما . . لأن الكافر في هذه اللحظة يتمنى لو كان ترابا حتى لا يدخل النار . . فمرور المؤمن فوق الصراط ورؤيته للنار نعمة لأنه يحس بما نجا منه . . فإذا تجاوز النار ودخل إلى الجنة لينعم فيها نعيما خالدا كان هذا فوزا آخر . .

ولذلك حرص الله تبارك وتعالى أن يعطينا المرحلتين . فلم يقل : من زحزح عن النار فاز . . ولم يقل من أدخل الجنة فاز . . بل قال ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ . . وجاءت هذه الآية الكريمة بعد آيات العذاب لتعطينا المقارنة . انتهى انتهى . اهـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ 427 ﴾

"فصل"

قال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (75) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (76) أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (77) وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (78) فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ (79) وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (80) بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (81) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (82) ﴾

التفسير : لما ذكر الله سبحانه وتعالى قبائح أسلاف اليهود وسوء معاملتهم مع نبيهم ،

أردفها قبائح أخلافهم المعاصرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم فكأنه قيل : إذا كان هذا أفعالهم فيما بينهم ، فكيف تطمعون أيها النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنون في أن يؤمنوا أي يحدثوا

(276/57)

الإيمان لأجل دعوتكم ويستجيبوا لكم ؟ كقوله ﴿ فآمن له لوط ﴾ ﴿ وقد كان فريق منهم ﴾ طائفة من أسلافهم ﴿ يسمعون كلام الله ﴾ وهو ما يتلونه من التوراة ﴿ ثم يحرفونه ﴾ كما حرفوا صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم وآية الرجم . وقيل : هم قوم من الذين حضروا الميقات ، سمعوا كلام الله حين كلم موسى بالطور وما أمر به ونهى عنه ثم قالوا : سمعنا الله يقول في آخره إن استطعتم أن تفعلوا هذه الأشياء فافعلوا وإن شئتم فلا تفعلوا فلا بأس ﴿ من بعد ما عقلوه ﴾ فهموه وضبطوه بعقولهم من غير ما شبهة ﴿ وهم يعلمون ﴾ أنهم مفترون كذابون . والمعنى إن كفر هؤلاء وحرفوا فلهم سابقة في ذلك كما تقول للرجل : كيف تطمع أن يفلح فلان وأستاذه فلان يأخذ عنه لا عن غيره ؟ فهؤلاء المقلدة لا يقبلون إلا قول معلميهم وأحبارهم الذين تعمدوا التحريف عناداً أو لضرب من الأغراض الدنيوية ﴿ وإذا لقوا ﴾ أي اليهود قال منافقوهم : آمنا بأنكم على الحق ونشهد

أن صاحبكم صادق ، ونجده بنعته وصفته في كتابنا . ﴿ وإذا خلا بعضهم ﴾ الذين لم ينافقوا ﴿ إلى بعض ﴾ الذين نافقوا ﴿ قالوا ﴾ عاتبين عليهم ﴿ أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ﴾ بما بين لكم في التوراة من نعته وصفته مأخوذ من قولهم " قد فتح على فلان في علم كذا أي رزق ذلك وسهل له طلبه ، أو قال المنافقون لغيرهم يرونهم التصلب في دينهم : أتحدثونهم إنكاراً عليهم أن يفتحوا عليهم شيئاً في كتابهم فينافقون المؤمنين وينافقون اليهود ﴿ ليحاجوكم به عند ربكم ﴾ ليحتجوا عليكم بما أنزل ربكم في كتابه . جعلوا محاجتهم به وقولهم " هو في كتابكم هكذا " محاجة عند الله . ألا

(277/57)

تراك تقول : هو في كتاب الله كذا وهو عند الله كذا بمعنى واحد ؟ وعن الحسن : ليحاجوكم في ربكم لأن المحاجة فيما ألزم تعالى من اتباع الرسل محاجة فيه أي دينه .

(278/57)

وقال الأصم : يحاجوكم يوم القيامة عند المساءلة فيكون زيادة في توبيخكم ، فكان القوم يعتقدون أن ذلك مما يزيد في فضيحتهم في الآخرة . وقيل : ليحاجوكم به على وجه الديانة والنصيحة ، لأن من يذكر الحجة على هذا الوجه قد يقول لصاحبه : أزحت علتك عند الله وأقمت عليك الحجة بيني وبين ربي ، فإن قبلت أحسنت إلى نفسك ، وإن جحدت كنت الخاسر الخائب . وقيل : لتصيروا محجوجين بتلك الدلائل في حكم الله كما يقال : فلان عندي عالم أي في اعتقادي وحكمي . وهذا عند الشافعي كذا ، وعند أبي حنيفة كذا ﴿ أفلا تعقلون ﴾ أن ذلك لا يليق بما أنتم عليه فإنكم إذا حدثتموهم بالذي يحاجونكم به رجع وباله عليكم ﴿ أو لا يعلمون أن الله يعلم ﴾ جميع ﴿ ما يسرون وما يعلنون ﴾ ومن ذلك إسرارهم الكفر وإعلانهم الإيمان ، خوّفهم الله تعالى بذلك لأنهم كانوا يعرفون أن الله يعلم السر والعلانية ﴿ ومنهم أميون ﴾ لا يحسنون الكتب فيطالعوا التوراة ويتحققوا ما فيها كأنه منسوب إلى الأم وهو أصل الشيء ، فالأمي على أصل فطرته لم يكتسب علماً وكتابة ﴿ لا يعلمون الكتاب ﴾ التوراة ﴿ إلا أماني ﴾ وأحدها أمنية على أفعولة من مني إذا قدر . تقول : منه تمنيت الشيء ومنيته غيري تمنية ، لأن المتمني يقدر في نفسه ويجوّز ما يتمناه ، وأماني اليهود هي أن الله يعفو عنهم ويرحمهم ولا يؤاخذهم بخطاياهم ، وأن آباءهم الأنبياء يشفعون لهم ، وما يمنيهم الأحبار من أن النار لا تمسهم إلا أياماً معدودة . وقيل : الأماني الأكاذيب المختلفة التي سمعوها من علمائهم فقبلوها على

التقليد . يقال : أهذا شيء رويته أم تمنيته أم اختلقته ؟ وذلك أن المختلق يقدر أن كلمة كذا بعد كذا . وفي الصحاح أنه مقلوب المين وهو الكذب . وقيل : إلا ما يقرأون من قولهم " تمنيت الكتاب قرأته " قال الشاعر يرثي عثمان :

تمنى كتاب الله أوّل ليلة . . . وآخرها لاقى حمام المقادر

(279/57)

والقارئ مقدر الكلمات كالمختلق ، وعلى هذا يكون الاستثناء متصلاً كأنه قيل : لا يعلمون الكتاب إلا بقدر ما يتلى عليهم فيسمعونه ، وبقدر ما يذكر لهم فيقبلونه . ثم إنهم لا يتمكنون من التدبر والتأمل ، وعلى الأول يكون استثناء منقطعاً . ومن قرأ ﴿ أماني ﴾ بالتخفيف حذف المد كما يقال مفاتح ﴿ وإن هم إلا يظنون ﴾ كالمحقق لما تقدمه من قوله ﴿ لا يعلمون الكتاب إلا أماني ﴾ ذكر الفرقة الضالة المضلة المحرفة ، ثم الفرقة المنافقين منهم ، ثم الفرقة المجادلة لأهل النفاق ، ثم العوام المقلدة ، ونبه على أنهم في الضلال سواء ، لأن للعالم أن يعمل بعلمه وعلى العامي أن لا يرضى بالتقليد والظن إن كان متمكناً من العلم ولا سيما في أصول الدين ، الويل كلمة يقولها كل مكروب ، وعن ابن عباس : أنه العذاب الأليم .

وعن الثوري : صديد أهل الجحيم . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم : " واد في جهنم يهوي فيه الكافر أربعين خريفاً قبل أن يبلغ قعره " . وقال عطاء بن يسار : الويل واد في جهنم ، لو أرسلت فيه الجبال لماعت من حره . ولا شبهة في دلالتها على نهاية الوعيد والتهديد ﴿ يكتبون الكتاب ﴾ المحرف ﴿ بأيديهم ﴾ تأكيد كما تقول للمنكر هذا ما كتبته بيمينك . حكى عنهم أمرين : كتبة الكتاب وإسناده إلى الله . فالوعيد مرتب على كل منهما وعلى مجموعهما إلا أنه على الثاني أبلغ ولهذا جيء ب " ثم " وقوله ﴿ ليشتروا به ثمناً قليلاً ﴾ تنبيه على شقاوتهم ، فإنهم استبدلوا النفع الحقير العاجل الزائل بالأجر العظيم الآجل الدائم ﴿ فويل لهم مما كتبت أيديهم ﴾ أي مما أسلفت من كتبها ما لم يكن يحل لهم ﴿ وويل لهم مما يكسبون ﴾ بذلك بعد من الرشا على التحريف وفي إعادة الويل في الكسب دليل على أن الوعيد كما يلحقهم بسبب الكتبة وإسنادها إلى الله ، فكذلك يلحقهم بسبب أخذ المال عليه ليعلم أن أخذ المال على الباطل محرم وإن كان بالتراضي ﴿ وقالوا لن تمسنا النار ﴾ نوع آخر من قبائح أفعالهم وهو جزمهم بأن الله تعالى لا يعذبهم إلا أياماً معدودة قليلة ، وهذا الجزم مما لا سبيل إليه بالعقل ألبتة ، ولا دليل له سمعياً فلا يجزم به

عاقل . والأيام المعدودة قالوا : أربعون يوماً هي أيام عبادة العجل . وعن مجاهد قالوا : مدة الدنيا سبعة آلاف سنة ، وإنما نعذب مكان كل ألف سنة يوماً لأن يوماً عند الله ألف سنة . وأيام معدودة ومعدودات كلاهما فصيح مثل الأيام مضت ومضين . والعهد ههنا يجري مجرى الوعد والخبر ، لأن خبره سبحانه كالعهود المؤكدة منا بالقسم والنذر . و ﴿ أتخذتم ﴾ استفهام بطريق الإنكار ، وإنه يدل على عدم الدليل السمعي . ﴿ فلن يخلف الله عهده ﴾ لتنزهه سبحانه عن كل نقيصة وخلاف الخبر أنقص النقائص . فإن قيل : هب أن الخلف في الوعد لؤم ونقيصة ، لكنه في الوعيد كرم

ولطف . قلنا : الخلف من حيث هو كذب قبيح لا يجوّزه كامل ، ولعل للكرم طريقاً آخر سوى هذا فتأمل . و " أم " إما معادلة بمعنى أي الأمرين كائن على سبيل التقدير لأن العلم واقع بكون أحدهما وهذا من الكامل المنصف نحو ﴿ وأنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين ﴾ [سبأ : 8] ، ويجوز أن تكون منقطعة بمعنى " بل أتقولون " كأنه أعرض عن الاستفهام الأول واستأنف سؤالاً ثانياً . فالاستفهام الأول لتقرير النفي ، والاستفهام الثاني لتقرير الإثبات . وفي الآية تنبيه على أن القول بغير دليل باطل وأن كل ما جاز وجوده

وعدمه عقلا لم يجز المصير إلى الإثبات أو إلى النفي إلا بدليل سمعي . ولا حجة لمنكري القياس وخبر الواحد فيه لأنه لما دل الدليل على وجوب العمل عند حصول الظن المستند إلى القياس أو إلى خبر الواحد ، كان وجوب العمل معلوماً فكان القول به قولاً بالمعلوم ﴿ بلى ﴾ إثبات لما بعد حرف النفي وهو قوله ﴿ لن تمسنا النار ﴾ أي بلى تمسكم أبداً بدليل قوله تعالى ﴿ هم فيها خالدون ﴾ عن ابن عباس : وجد أهل الكتاب ما بين طرفي جهنم مسيرة أربعين فقالوا : لن نعذب في النار إلا ما وجدنا في التوراة ، وإذا كان يوم القيامة أقحموا في النار فساروا في العذاب حتى انتهوا إلى شفير سقر وفيها شجرة الزقوم إلى آخر يوم من الأيام المعدودة قال لهم خزنة أهل النار : يا أعداء الله ، زعمتم أنكم لن تعذبوا في النار إلا أياماً معدودة ، فقد انقضى العدد وبقي الأبد .

(282/57)

قلت : وفي مثل حالهم ضلال الفلاسفة القائلين بأن الأرواح وإن صارت مكدرة بقبائح أفعال الأشباح ، إلا أنها بعد المفارقة ورجوع العناصر إلى أصلها تصير إلى حظائر القدس ، ولا يزاحمها شيء من قبائح الأعمال إلا أياماً معدودة بقدر فطام الأرواح عن لبان التمتعات الحيوانية ، ثم تتخلص من العذاب وترجع إلى حسن المآب . ومنهم من زعم أن استيفاء

اللذات الحسية يقلل التعلقات الدنيوية ويسهل عروج الروح إلى عالمه العلوي ، وكل هذا خيال فاسد ومتاع كاسد ، وإنه قول من لم يجرب ولم يجد من نفسه أنها كيف تتدنس وتتكدر بالأخلاق الذميمة البهيمية والسبعية ، ويكف تتصفى وتتطهر بالأخلاق الحميدة الروحانية الملكية ، فغمر بصدإ مرآة القلب بحيث لا يبقى فيه شيء من الصفاء الفطري ﴿ كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾ [المطففين : 14] فلا يجلوها إلا مرور الدهور وكرور الأعصار . وقد ينضم الكفر إلى تلك الأخلاق فيبقى خالداً مخلداً في النار ، في ويل طويل وزفير وعويل ، نعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا . والسيئة أصلها سيوئة من ساءه يسوءه سوأ ومساءة ، فقلبت الواو ياء وأدغمت ، وهي من الصفات الغالبة . وقوله ﴿ سيئة ﴾ يتناول جميع المعاصي صغرت أو كبرت ، فضم إليها شرط آخر وهو كون السيئة محيطة به ليختص بالكبيرة . ولفظ الإحاطة حقيقة في المجسمات إحاطة السور بالبلد والظرف بالمظروف ، فنقل إلى الخطيئة وهي عرض لمعنيين من جهة أن المحيط يستر المحاط به . والكبيرة تستر الطاعات ، ومن جهة أن الكبيرة تحبط الطاعات وتستولي عليها إحاطة العدو بالإنسان بحيث لا يتمكن الإنسان من الخلاص عنهم . والآية وإن وردت في اليهود فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، وبمثلها تتمسك المعتزلة في إثبات الوعيد لأصحاب الكبائر إذا ماتوا قبل التوبة ، وفسر غيرهم

الخطيئة المحيطة بالكفر فيه تتحقق الإحاطة التامة . واعلم أن في المسألة خلافاً لأهل القبلة . منهم من قطع

(283/57)

بوعيدهم إما مؤبداً – وهو قول جمهور المعتزلة والخوارج – وإما منقطعاً – وهو قول بشر المريسي والخالدي ومنهم من قطع بأنه وعيد لهم وينسب إلى مقاتل بن سليمان المفسر .

(284/57)

والذي عليه أكثر الصحابة والتابعين وأهل السنة والإمامية ، القطع بأنه سبحانه يعفو عن بعض العصاة ، وأنه إذا عذب أحدهم فلا يعذبه أبداً ، لكنا نتوقف في حق البعض المعفو عنه والبعض المعذب على التعيين . أما المعتزلة فاستدلوا بعمومات وردت في وعيد الفساق كقوله ﴿ ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها ﴾ [النساء : 14] وقوله ﴿ وإن الفجار لفي جحيم ﴾ [الإنفطار : 14] وقوله ﴿ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً ﴾ [النساء : 10] ومن

الحديث " من شرب الخمر في الدنيا ولم يتب منها لم يشربها في الآخرة . ومن قتل نفساً معاهداً لم يرح رائحة الجنة ، الذي يشرب في آنية الذهب والفضة إنما يجرجر في بطنه نار جهنم " وعن أبي سعيد الخدري قال صلى الله عليه وسلم " والذي نفسي بيده لا يبغضنا أهل البيت رجل إلا دخل النار " وإذا استحقوا النار ببغضهم فلأن يستحقوا النار بقتلهم أولى . وأجيب بالمنع من أن هذه الصيغ للعموم بدليل صحة إدخال الكل والبعض عليها نحو : كل من دخل داري فله كذا ، أو بعض من دخل . ولا يلزم منه تكرير ولا تناقض ، ولأن الأكثر قد يطلق عليه لفظ الكل ، ولاحتمال المخصصات . القاطعون بنفي العقاب عن أهل الكبائر احتجوا بنحو قوله تعالى ﴿ إن الخزي اليوم والسوء على الكافرين ﴾ [النحل : 27] ﴿ يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ﴾ [الزمر : 53] ﴿ وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم ﴾ [الرعد : 6] ﴿ لا يصلاها إلا الأشقى . الذي كذب وتولى ﴾ [الليل : 15 ، 16] وبالعمومات الواردة في الوعد مثل ﴿ والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ﴾ [البقرة : 3] الآية . حكم بالفلاح على كل من آمن . وعورض بعمومات الوعيد . أما أصحابنا الذين قطعوا بالعفو في حق البعض والتوقف في البعض ، فقد تمسكوا بنحو قوله عز من قائل ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون

ذلك لمن يشاء ﴾ [النساء : 48] وبأن عمومات الوعد والوعيد لما تعارضتا فلا بد من الترجيح لجانب الوعد بصرف التأويل إليه ، لأن العفو عن الوعيد مستحسن في العرف ، وإهمال الوعد باضد . وأيضاً القرآن مملوء من قوله ﴿ عفواً غفوراً ﴾ ﴿ رحيماً ﴾ ﴿ كريماً ﴾ . وكذا الأخبار في هذا المعنى تكاد تبلغ حد التواتر . وأيضاً إن صاحب الكبيرة أتى بما هو أفضل الخيرات وهو الإيمان ، ولم يأت بما هو أقبح القبائح وهو الكفر ، ولا يهدمه ما سوى الكفر من المعاصي ، ولهذا قال يحيى بن معاذ الرازي : إلهي إذا كان توحيد ساعة يهدم كفر خمسين سنة ، فتوحيد خمسين سنة كيف لا يهدم معصية ساعة ؟ إلهي لما كان الكفر لا ينفع معه شيء من الطاعات ، كان مقتضى العدل أن الإيمان لا يضر معه شيء من المعاصي ، وإذا دلت الآيات على الوعد والوعيد فلا بد من التوفيق بينهما .

فإما أن يصل العبد إلى دار الثواب ثم إلى دار العقاب وهو باطل بالإجماع ، أو يصل إليه العقاب ثم ينقل إلى دار الثواب ويبقى هناك أبد الآباد وهو المطلوب . واعلم أن مذهب الأصحاب إلى الأدب أقرب من حيث إنهم يصفونه بصفات الجمال كالعفو والمغفرة ، وبصفات الجلال كالقهر والانتقام ، ولكن لا يوجبون عليه ثواباً ولا عقاباً ، لأنه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد . ومن حيث إنهم لا يعينون البعض المستحق للثواب ولا البعض المستحق للعقاب من المسلمين ، لأن فعله مبرأ عن التعلل بلواحق الغايات وسوابق البواعث .

ومذهب المعتزلة إلى الاحتياط أقرب ، فإن من خوّفك حتى تبلغ الأمن خير ممن أمنك حتى تبلغ الخوف . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 1 صـ 316. 321 ﴾

(286/57)

" فوائد بلاغية "

أولا : قوله تعالى : [وهم يعلمون] جملة حالية مفيدة لكمال قبح صنيعهم ، فتحريفهم للتوراة كان عن قصد وتصميم ، لا عن جهل أو نسيان ، ومن يرتكب المعصية عن علم ، يستحق الذم والتوبيخ ، أكثر ممن يرتكبها وهو جاهل بحكمها وبشناعتها .

ثانيا : قوله : [يكتبون الكتاب بأيديهم] ذكر الأيدى هنا لدفع توهم المجاز ، وللتأكيد بأن الكتابة باشروها بأنفسهم ، كما يقول القائل : كتبته بيميني ، وسمعته بأذني ، ورأيته بعيني ، فهي لزيادة التأكيد ، وتقرير الجناية .

ثالثا : قوله : [ما يسرون وما يعلنون] فيه من المحسنات البديعية ما يسمى بـ (الطباق) حيث جمع بين لفظتي " يسرون " و " يعلنون " وهو من نوع طباق الإيجاب ، وهو أن يأتي باللفظ وضده ، كقوله تعالى (أضحك وأبكى) .

رابعا : التكرير في قوله : [فويل للذين يكتبون الكتاب] وقوله : [فويل لهم مما كتبت أيديهم]

وقوله : [وويل لهم مما يكتبون] تكرار الويل : للتوبيخ والتقريع ، ولبيان أن جريمتهم بلغت من القبح والشناعة الغاية القصوى .

خامسا : قوله : [وأحاطت به خطيئته] فيه استعارة لطيفة ، حيث شبه (الذنوب) و(الخطايا) بجيش من الأعداء ، نزل على قوم من كل جانب ، فأحاط بهم إحاطة السوار بالمعصم ، واستعار لفظة الإحاطة لغلبة السيئات على الحسنات ، فكأنها أحاطت بها من جميع الجهات . انتهى انتهى . اهـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 1 صـ 72 . 73 ﴾

(287/57)

فوائد مهمة :

قال فى صفوة التفاسير :

الفائدة الأولى : تحريف كلام الله ، يكون بتأويله تأويلا فاسدا ، ويكون بمعنى : التغيير وتبديل كلام بكلام ، وقد وقع من أحبار اليهود التحريف بالأمرين : بالتأويل ، وبالتغيير ، كما فعلوا في صفته (صلى الله عليه وسلم) ، قال العلامة أبو السعود : روي أن أحبار اليهود خافوا زوال رياستهم ، فعمدوا إلى صفة النبى (صلى الله عليه وسلم) في التوراة ، وكانت هي فيها (حسن الوجه ، حسن الشعر ، أكحل العينين ، أبيض ، ربعة) الخ ،

فغيروها وكتبوا مكانها " طوال ، أزرق ، سبط الشعر " فإذا سألهم العامة عن ذلك قرءوا ما كتبوا فيجدونه مخالفا لما في التوراة ، فيكذبونه .

الثانية : التحريف بقسمية وقع في الكتب السماوية كالتوراة والإنجيل كما قال تعالى : [يحرفون الكلم عن مواضعه] أما التحريف بمعنى التأويل الباطل فقد وقع في القرآن ، من الجهلة أو الملاحدة (1)

وأما التحريف بمعنى إسقاط الآية ووضع كلام بدلها ، فقد حفظ الله منه كتابه العزيز بقوله سبحانه [إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون] والحمد لله أن الله تكفل بحفظه بنفسه ، ولم يتركه للخلق ، كما هو شأن التوراة والإنجيل .

---

(1) هذا الكلام لا نوافقه عليه لمعارضته لقوله تعالى ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ ولأن أقوال أهل البدع كالمعتزلة والخوارج والرافضة وغيرهم لا يقرها أحد من أهل الحق بل يتصدون لدحضها بخلاف ما وقع فى الكتب السماوية السابقة فالتحريف الذى يلحق ويلصق بها ـ زورا وبهاتا ـ يقره أهل الكتاب . والله أعلم .

الثالثة : روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : " لما فتحت خيبر ، أهديت لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) شاة فيها سم ، فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : اجمعوا لي من كان من اليهود هنا ، فقال لهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : إني سائلكم عن شيء ، فهل أنتم صادقي فيه ؟ قالوا : نعم ، يا أبا القاسم ، فقال لهم (صلى الله عليه وسلم) : من أبوكم ؟ قالوا : فلان قال : كذبتم ، بل أبوكم فلان ، فقالوا صدقت وبررت يا أبا القاسم ، ثم قال لهم : هل أنتم صادقي عن شيء إن سألتكم عنه ؟ قالوا : نعم يا أبا القاسم ، وإن كذبناك عرفت كذبنا كما عرفته في أبينا ، فقال لهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : من أهل النار ؟ فقالوا : نكون فيها يسيرا ثم تخلفونا فيها ! ! فقال لهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : اخسئوا والله لا نخلفكم فيها أبدا ، ثم قال لهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : هل أنتم صادقي عن شئ إن سألتكم عنه ؟ قالوا : نعم يا أبا القاسم ، قال : هل جعلتم فى هذه الشاة سما ؟ فقالوا : نعم ، قال : فما حملكم على ذلك ؟ فقالوا : أردنا إن كنت كاذبا أن نستريح منك ، وإن كنت نبيا لم يضرك ؟ .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 1 صـ 73 ﴾ .

بسم الله الرحمن الرحيم

الكتاب / الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

ويسمى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العَاجِزُ الْفَقِيرُ

عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مُحَمَّدٍ الْقَمَّاش

إِمَامُ وَخَطِيبُ مَسْجِدِ بُورُسْلِى - رَأْسُ الْخَيمَةِ

دَوَلَةُ الإِمَارَاتِ الْعَرَبِيَّةِ الْمُتَّحِدَةِ

(عَفَا اللهُ عَنْهُ وَغَفَرَ لَهُ)

الجزء الثامن والخمسون

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الثامن والخمسون

من الآية ﴿ 83 ﴾ سورة البقرة

وحتى الآية ﴿ 86 ﴾ من نفس السورة

قوله تعالى ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ (83) ﴾

فصل

قال البقاعي :

ثم شرع سبحانه يقيم الدليل على أنهم ممن أحاطت به خطيئته فقال : ﴿ وإذ ﴾ أي اذكروا ما تعلمون في كتابكم من حال من كسب سيئة محيطة واذكروا إذ ﴿ أخذنا ﴾ بما لنا من تلك العظمة التي أشهدناكم كثيراً منها ميثاقكم ولكنه أظهر لطول الفصل بذكر وصف يعمهم وغيرهم فقال : ﴿ ميثاق بني إسرائيل ﴾ ويجوز أن يكون معطوفاً على ﴿ نعمتي ﴾ في قوله تعالى : ﴿ يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم ﴾ لأن الكل

في مخاطبتهم وبيان أمورهم .

ولما كان الدين إنما هو الأدب مع الخالق والخلق ذكر المعاهد عليه من ذلك مرتباً له على الأحق فالأحق فقال ذاكراً له في صيغة الخبر مريداً به النهي والأمر وهو أبلغ من حيث إنه كأنه وقع امتثاله ومضى ودل على إرادة ذلك بعطف ﴿ وقولوا ﴾ عليه : ﴿ لا تعبدون إلا الله ﴾ المنعم الأول الذي له الأمر كله لتكونوا محسنين بذلك إحساناً هو الإحسان كله ﴿ و ﴾ أحسنوا أو تحسنون ﴿ بالوالدين ﴾ ولو كانا كافرين .

قال الحرالي : تثنية والد من الولادة لاستبقاء ما يتوقع ذهابه بظهور صورة منه تخلف صورة نوعه – انتهى ﴿ إحساناً ﴾ عظيماً لا يبلغ كنهه ، لكونهما في الرتبة الثانية لجعلهما سبحانه السبب في نعمة الإيجاد الأول والمباشرين للتربية ، وغيّر السياق فلم يقل : ولا تحسنون إلا إلى الوالدين ، إفهاماً لأن الإحسان إليهما يشركهما فيه من بعدهما ، لو جبر فوات هذا الحصر بتقديمهما إيذاناً بالاهتمام ﴿ وذي القربى ﴾ وهم المتوسلون بالوالدين لما لهم من أكيد الوصلة ﴿ واليتامى ﴾ لضعفهم ، واليُتم قال الحرالي : فقد الأب حين الحاجة ، ولذلك أثبته مثبت في الذكر إلى البلوغ ، وفي البنت إلى الثيوبة لبقاء حاجتها بعد البلوغ ، والقربى فعلى من القرابة وهو قرب في النسب الظاهر أو الباطن – انتهى ﴿ المساكين ﴾ لكسرهم .

ولما لم يكن وسع الناس عامة بالإحسان بالفعل ممكناً أمر بجعل ذلك بالقول فقال عطفاً على

الخبر الذي معناه الإنشاء : ﴿ وقولوا للناس ﴾ عامة ﴿ حسناً ﴾ أي حَسَناً بالتحريك وهو لغة فيه كالبُخْل والبَخَل ، وذلك بأن يأمروهم بما أمر الله به وينهوهم عما نهى عنه .

(5/58)

ولما أمرهم بما إن امتثلوه اجتمعت كلمتهم ذكر أعظم جامع على الله من الأعمال فقال : ﴿ وأقيموا الصلاة ﴾ ثم ذكر ما به تمام الجمع ودوامه فقال : ﴿ وآتوا الزكاة ﴾ ولما كان الإعراض عن هذه المحاسن في غاية البعد فكيف إذا كانت بعهد فكيف إذا كان من الله أشار إلى ذلك بأداة التراخي فقال : ﴿ ثم توليتم ﴾ أي عن ذلك أو عن كثير منه ، وأشار بصيغة التفعل إلى أن الأمور الدينية لحسنها لا يعرض عنها إلا بعلاج بين الفطرة الأولى والأمارة ﴿ إلا قليلاً منكم وأنتم ﴾ أي والحال أنكم ﴿ معرضون ﴾ عادتكم ذلك ، لم يكن ذلك منكم عن غير علم ، والإعراض صرف الشيء إلى العُرض التي هي الناحية .

قال السمين : وروى عن أبي عمرو وغيره : إلا قليل – بالرفع ، وفيه أقوال ، أصحها رفعه على الصفة بتأويل إلا وما بعدها بمعنى غير – انتهى .

ويأتي إن شاء الله تعالى بسط هذا الإعراب عند قوله : ﴿ فشربوا منه إلا قليلاً منهم ﴾ [البقرة : 249] ذكر ما يشهد لذلك من التوراة ، قال في السفر الثاني منها لما ذكر أمر

المناجاة وحضورهم عند الجبل وقال الله جميع هذه الآيات كلها : أنا الرب إلهك الذي أصعدتك من أرض مصر من العبودية والرق ، لا تكون لك آلهة غيري ، لا تعملن شيئاً من الأصنام والتماثيل التي مما في السماء فوق وفي الأرض من تحت ومما في الماء أسفل الأرض ، لا تسجدن لها ولا تعبدنها ، لأني أنا الرب ، إلهك إله غيور ، أجازي الأبناء بذنوب الآباء إلى ثلاثة أحقاب وأربعة من أعدائي ، وأثبت النعمة إلى ألف حقب لأحبائي وحافظي وصاياي ، لا تقسم بالرب إلهك كذباً ، لأن الرب لا يزكي من حلف باسمه كذباً .

أكرم أباك وأمك ليطول عمرك في الأرض التي يعطيكها الرب إلهك ، لا تقتل ، لا تزن ، لا تسرق ، لا تشهد على صاحبك شهادة زور ، لا تتمن بنت صاحبك ، ولا تشتهين امرأة صاحبك ولا كل شيء لصاحبك – وكان جميع الشعب يسمعون الأصوات ويرون المصابيح .

(6/58)

وقال في موضع آخر من السفر الثالث : لا تسرقوا ، ولا تغدروا ، ولا تحلفوا باسمي كذباً ، ولا تنجسوا اسم الرب إلهكم ، أنا الرب وليس غيري ، لا تظلمن صاحبك ، ولا تشتمن الأخرس ، ولا تضع عثرة بين يدي الضرير ، اتق الله ربك ، لا تحيفوا في القضاء ، ولا تأثموا ،

ولا تحايين المسكين ولا تحاب الكبير أيضاً بل أقض بالبر والعدل ، لا تبغض أخاك في قلبك بل بكّت صاحبك ووبخه بالحق لكيلا يلزمك خطيئة في سببه ، ولا تحقدن على أحد بل أحبب صاحبك كما تحب نفسك ، ولا تتطيروا بسنح الطير ، ولا يكونن فيكم عراف ، ولا تُطوّلن شعر رؤوسكم ، ولا تحلقوا عنافق لحاكم ، ولا تخدشوا وجوهكم على الميت ، ولا تكتبوا على لحومكم بالإبر ، أنا الله ربكم ، لا تتبعوا العرّافين والقافة ولا تنطلقوا إليهم ولا تسألوهم عن شيء لئلا تتنجسوا بهم ، أكرم الشيخ وقم إليه إذا رأيته ، وأكرم من هو أكبر منك ، واتق الله ربك ، أنا الله ربكم ، وإذا سكن بينكم الذي يقبل إليّ فلا تظلموه بل أنزلوه منزلة أحدكم وصيروه منكم ، الذين يقبلون إليّ ويسكنون معكم أحبوهم كما تحبون أنفسكم لأنكم كنتم سكاناً بأرض مصر ، أنا الله ربكم ، لا تأثموا في القضاء ولا تأثموا في الأوزان والمكاييل بل اتخذوا ميزان الحق واتخذوا مكاييل الحق ، أنا الله ربكم الذي أخرجكم من أرض مصر احفظوا جميع وصاياي وأحكامي بها ، أنا الرب وليس غيري .

(7/58)

وقال في الثاني : ومن تبع العرافين والقافة وضل بهم أنزل به غضبي الشديد وأهلكه من شعبي ، وأي رجل شتم والديه يقتل قتلاً ودمه في عنقه ؛ ثم قال بعده : وأي رجل أو امرأة

صار عرافاً أو منجماً يقتلان قتلاً ، ويكون قتلهما الرجم بالحجارة ، ودمهما في أعناقهما ؛ وقال قبل ذلك : وكل من ضرب رجلاً فمات فليقتل قتلاً ، ومن ضرب أباه وأمه فليقتل قتلاً ، ومن سرق إنساناً فوجد معه يريد بيعه فليقتل قتلاً ، ومن شتم أباه وأمه فليقتل قتلاً ، ثم قال : لا يؤذّن الساكن بينكم ولا تعقّوهم تحوّجوهم ، لأنكم كنتم سكاناً بأرض مصر ، ولا تؤذوا الأرامل والأيتام ، فإن آذيتموهم فصلوا بين يدي أسمع صلاتهم وأستجيب لهم فيشتد غضبي وأقتلكم في الحرب وتكون نساؤكم أرامل وبنوكم يصيرون يتامى ، وإن أسلفت رزقك للمسكين الذي معك من شعبي فلا تكونن له كالغريم ، ولا تأخذن منه رباً ؛ ثم قال : ولا تقبلن الرشوة ، فإن الرشوة تعمي أبصار الحكماء في القضاء وترد فلج الصالحين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 180.182 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أن هذا نوع آخر من أنواع النعم التي خصهم الله بها ، وذلك لأن التكليف بهذه الأشياء موصل إلى أعظم النعم وهو الجنة ، والموصل إلى النعمة نعمة ، فهذا التكليف لا محالة من النعم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 149 ﴾

اللغة :

[ميثاق] الميثاق : العهد المؤكد باليمين غاية التأكيد ، فإن لم يكن مؤكدا سمي عهدا

[حسنا] الحسن : اسم عام جامع لمعاني الخير ، ومنه لين القول ، والأدب الجميل ، والخلق الكريم ، وضده القبح ، والمعنى : قولوا قولا حسنا فهو صفة لمصدر محذوف

[توليتم] التولي عن الشيء : الإعراض عنه ورفضه وعدم قبوله كقوله : [فأعرض عمن تولى عن ذكرنا] وفرق بعضهم بين التولي والإعراض ، فقال : التولي بالجسم ، والإعراض بالقلب

[تظاهرون] تتعاونون وهو مضارع حذف منه أحد التاءين ، كأن المتظاهرين يسند كل واحد منهما ظهره الى الآخر ، والظهير : المعين

[الإثم] الذنب الذي يستحق صاحبه الملامة وجمعه آثام

[العدوان] تجاوز الحد في الظلم

[خزي] الخزي : الهوان والمقت والعقوبة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 1 صـ 74 ﴾

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ لا يعبدون ﴾ بالياء للغيبة . ابن كثير وحمزة وعلي والمفضل ﴿ القربى ﴾ بالإمالة المفرطة : حمزة وعلي وخلف ، وقرأ أبو عمرو بالإمالة اللطيفة وكذلك كل كلمة على وزن " فعلى " ﴿ حسنا ﴾ وصفاً : يعقوب وحمزة وعلي وخلف والمفضل ﴿ تظاهرون ﴾ خفيفاً : عاصم وحمزة وعلي وخلف ، وحذف إحدى التاءين للتخفيف ، الباقون بالتشديد ووجهه إدغام التاء في الظاء ﴿ أسارى ﴾ بالإمالة ﴿ تفدوهم ﴾ أبو عمرو وخلف . ﴿ أسارى ﴾ مفخماً ﴿ تفدوهم ﴾ ابن كثير وابن عامر ﴿ أسرى ﴾ بالإمالة ﴿ تفدوهم ﴾ حمزة . ﴿ أسارى ﴾ بالإمالة ﴿ تفادوهم ﴾ علي والنجاري عن ورش والخزاز عن هبيرة ، والباقون ﴿ أسارى ﴾ مفخماً ﴿ تفادوهم ﴾ ﴿ تردون ﴾ بتاء الخطاب : أبو زيد عن المفضل ﴿ يعلمون ﴾ بياء الغيبة : ابن كثير ونافع وخلف ويعقوب وأبو بكر وحماد بناء لآخر الكلام على أوّله ، الباقون بالتاء تغليباً للمخاطبين على الغيب .

الوقوف : ﴿ الزكاة ﴾ لأن " ثم " لترتيب الأخبار أي مع ذلك توليتم و ﴿ معرضون ﴾ و ﴿ تشهدون ﴾ (5) ﴿ من ديارهم ﴾ (ز) لأن ﴿ تظاهرون ﴾ يشبه استئنافاً ،

وكونه حالاً أوجه و ﴿ العدوان ﴾ (ط) ﴿ إخراجهم ﴾ (ط) ﴿ ببعض ﴾ (ج) لابتداء الاستفهام أو النفي مع فاء التعقيب ﴿ الدنيا ﴾ (ط) لعطف الجملتين المختلفتين ﴿ العذاب ﴾ (ط) ﴿ يعملون ﴾ (5) ﴿ الآخرة ﴾ (ز) لأن الفعل مستأنف وفيه فاء التعقيب للجزاء ﴿ ينصرون ﴾ (5) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 1 صـ 322.321 ﴾

قوله تعالى ﴿ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللهَ ﴾

فصل

قال الفخر :

قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي " يعبدون" بالياء والباقون بالتاء ، ووجه الياء أنهم غيب أخبر عنهم ، ووجه التاء أنهم كانوا مخاطبين والاختيار التاء ، قال أبو عمرو : ألا ترى أنه جل ذكره قال : ﴿ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ فدلت المخاطبة على التاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 149 ﴾

فصل

قال الفخر :

اختلفوا في موضع " يعبدون" من الإعراب على خمسة أقوال :

القول الأول : قال الكسائي : رفعه على أن لا يعبدوا كأنه قيل : أخذنا ميثاقهم بأن لا يعبدوا إلا أنه لما أسقطت " أن" رفع الفعل كما قال طرفة :

ألا أيهذا اللائمي أحضر الوغى . . وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدي

أراد أن أحضر ولذلك عطف عليه " أن" وأجاز هذا الوجه الأخفش والفراء والزجاج وقطرب وعلي بن عيسى وأبو مسلم .

القول الثاني : موضعه رفع على أنه جواب القسم ، كأنه قيل : وإذ أقسمنا عليهم لا يعبدون ، وأجاز هذا الوجه المبرد والكسائي والفراء والزجاج وهو أحد قولي الأخفش .

القول الثالث : قول قطرب : أنه يكون في موضع الحال فيكون موضعه نصباً كأنه قال : أخذنا ميثاقكم غير عابدين إلا الله .

القول الرابع : قول الفراء أن موضع " لا تعبدون" على النهي إلا أنه جاء على لفظ الخبر كقوله تعالى : ﴿ لاَ تُضَارَّ والدة بِوَلَدِهَا ﴾ [البقرة : 233] بالرفع والمعنى على النهي ، والذي يؤكد كونه نهياً أمور .

أحدها : قوله : ﴿ أَقِيمُواْ ﴾ ، وثانيها ؛ أنه ينصره قراءة عبد الله وأبي : ﴿ لاَّ تَعْبُدُواْ

﴾ .

وثالثها : أن الإخبار في معنى الأمر والنهي آكد وأبلغ من صريح الأمر والنهي ، لأنه كأنه سورع إلى الامتثال والانتهاء فهو يخبر عنه .

القول الخامس : التقدير أن لا تعبدوا تكون " أن" مع الفعل بدلاً عن الميثاق ، كأنه قيل : أخذنا ميثاق بني إسرائيل بتوحيدهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 150.149 ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ لاَ تَعْبُدُونَ ﴾ قال سيبويه : " لا تعبدون" متعلّق بقَسَم ؛ والمعنى وإذ استخلفناهم والله لا تعبدون ؛ وأجازه المبرّد والكسائي والفرّاء .

وقرأ أبيّ وابن مسعود " لا تعبدوا" على النَهي ، ولهذا وصل الكلام بالأمر فقال : " وقوموا ، وقولوا ، وأقِيموا ، وآتوا" .

وقيل : هو في موضع الحال ؛ أي أخذنا ميثاقهم موحّدين ، أو غير معاندين ؛ قاله قُطْرب والمبرّد أيضاً .

وهذا إنما يَتجه على قراءة ابن كثير وحمزة والكسائي "يعبدون" بالياء من أسفل.

وقال الفرّاء والزجاج وجماعة: المعنى أخذنا ميثاقهم بألا يعبدوا إلا الله، وبأن يحسنوا للوالدين، وبألا يَسفكوا الدماء؛ ثم حذفت أنْ والباء فارتفع الفعل لزوالهما، كقوله تعالى: ﴿ أَفَغَيْرَ اللهِ تأمروني ﴾.

قال المبرّد: هذا خطأ؛ لأن كل ما اضمر في العربية فهو يعمل عمله مظهراً؛ تقول: وبلدٍ قطعت؛ أي رُبّ بلد.

قلت: ليس هذا بخطأ، بل هما وجهان صحيحان، وعليهما أنشد سيبويه:

ألا أيُّها ذا الزّاجري أحْضرَ الْوَغَى . . .

وأنْ أشهدَ اللّذاتِ هل أنت مُخْلِدِي

بالنصب والرفع؛ فالنصب على إضمار أن، والرفع على حذفها. انتهى انتهى. اهـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 2 صـ 13 ﴾

فصل

قال الفخر:

هذا الميثاق يدل على تمام ما لا بد منه في الدين لأنه تعالى لما أمر بعبادة الله تعالى ونهى عن عبادة غيره، ولا شك أن الأمر بعبادته والنهي عن عبادة غيره مسبوق بالعلم بذاته سبحانه، وجميع ما يجب ويجوز ويستحيل عليه وبالعلم بوحدانيته وبراءته عن الأضداد والأنداد

والبراءة عن الصاحبة والأولاد ، ومسبوق أيضاً بالعلم بكيفية تلك العبادة التي لا سبيل إلى معرفتها إلا بالوحي والرسالة ، فقوله : ﴿ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللهَ ﴾ يتضمن كل ما اشتمل عليه علم الكلام وعلم الفقه والأحكام لأن العبادة لا تتأتى إلا معها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 150 ﴾

قال القرطبى :

واختلف في الميثاق هنا ؛ فقال مَكي : هو الميثاق الذي أُخذ عليهم حين أخرجوا من صلب آدم كالذرّ .

وقيل : هو ميثاق أخذ عليهم وهم عقلاء في حياتهم على ألسنة أنبيائهم وهو قوله : ﴿ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللهَ ﴾ وعبادةُ الله إثبات توحيدِه ، وتصديقُ رُسُلِه ، والعملُ بما أنزل في كتبه .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 2 صـ 12 ﴾

قوله تعالى ﴿ وبالوالدين إحسانا ﴾

فائدة

قال الفخر :

إنما أردف عبادة الله بالإحسان إلى الوالدين لوجوه .

أحدها : أن نعمة الله تعالى على العبد أعظم ، فلا بد من تقديم شكره على شكر غيره ثم بعد نعمة الله فنعمة الوالدين أعم النعم ، وذلك لأن الوالدين هما الأصل والسبب في كون الولد ووجوده كما أنهما منعمان عليه بالتربية ، وأما غير الوالدين فلا يصدر عنه الإنعام بأصل الوجود ، بل بالتربية فقط ، فثبت أن إنعامهما أعظم وجوه الإنعام بعد إنعام الله تعالى .

وثانيها : أن الله سبحانه هو المؤثر في وجود الإنسان في الحقيقة والوالدان هما المؤثران في وجوده بحسب العرف الظاهر ، فلما ذكر المؤثر الحقيقي أردفه بالمؤثر بحسب العرف الظاهر .

وثالثها : أن الله تعالى لا يطلب بإنعامه على العبد عوضاً ألبتة بل المقصود إنما هو محض الإنعام والوالدان كذلك ، فإنهما لا يطلبان على الإنعام على الولد عوضاً مالياً ولا ثواباً ، فإن من ينكر الميعاد يحسن إلى ولده ويربيه ، فمن هذا الوجه أشبه إنعامهما إنعام الله تعالى .

الرابع : أن الله تعالى لا يمل من الإنعام على العبد ولو أتى العبد بأعظم الجرائم ، فإنه لا يقطع عنه مواد نعمه وروادف كرمه ، وكذا الوالدان لا يملان الولد ولا يقطعان عنه مواد منحهما وكرمهما ، وإن كان الولد مسيئاً إلى الوالدين .

الخامس : كما أن الوالد المشفق يتصرف في مال ولده بالاسترباح وطلب الزيادة ويصونه عن

البخس والنقصان ، فكذا الحق سبحانه وتعالى متصرف في طاعة العبد فيصونها عن الضياع ثم إنه سبحانه يجعل أعماله التي لا تبقى كالشيء الباقي أبد الآباد كما قال : ﴿ مَّثَلُ الذين يُنفِقُونَ أموالهم فِي سَبِيلِ الله كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ ﴾ [البقرة : 261] .

(13/58)

السادس : أن نعمة الله وإن كانت أعظم من نعمة الوالدين ولكن نعمة الله معلومة بالاستدلال ونعمة الوالدين معلومة بالضرورة ، إلا أنها قليلة بالنسبة إلى نعم الله فاعتدلا من هذه الجهة والرجحان لنعم الله فلا جرم جعلنا نعم الوالدين كالتالية لنعم الله تعالى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 150 . 151 ﴾

وقال القرطبي :

قوله تعالى : ﴿ وبالوالدين إِحْسَاناً ﴾ أي وأمرناهم بالوالدين إحسانا .

وقَرَن الله عز وجل في هذه الآية حق الوالدين بالتوحيد ، لأن النَّشأة الأولى من عند الله ، والنَّشء الثاني وهو التربية من جهة الوالدين ؛ ولهذا قَرَن تعالى الشكر لهما بشكره فقال : ﴿ أَنِ اشكر لِي وَلِوَالِدَيْكَ ﴾ [لقمان : 14] .

والإحسان إلى الوالدين : معاشرتهما بالمعروف ، والتواضعُ لهما ، وامتثال أمرهما ، والدعاءُ بالمغفرة بعد مماتهما ، وصلةُ أهلِ ودّهما ؛ على ما يأتي بيانه مفصّلاً في " الإسراء" إن شاء الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 2 صـ 13 ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ وبالوالدين إحساناً ﴾ ، المعنى : الأمر بالإحسان إلى الوالدين وبرهما وإكرامهما .

وقد تضمنت آي من القرآن وأحاديث كثيرة ذلك ، حتى عد العقوق من الكبائر ، وناهيك احتفالاً بهما كون الله قرن ذلك بعبادته تعالى ، ومن غريب الحكايات : أن عمر رأى امرأة تطوف بأبيها على ظهرها ، وقد جاءت به على ظهرها من اليمن ، فقال لها : جزاك الله خيراً ، لقد وفيت بحقه ، فقالت : ما وفيته ولا أنصفته ، لأنه كان يحملني ويود حياتي ، وأنا أحمله وأود موته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 1 صـ 451 ﴾

فصل

قال الفخر :

اتفق أكثر العلماء على أنه يجب تعظيم الوالدين وإن كانا كافرين ، ويدل عليه وجوه .

أحدها : أن قوله في هذه الآية : ﴿ وبالوالدين إحسانا ﴾ غير مقيد بكونهما مؤمنين أم لا ، ولأنه ثبت في أصول الفقه أن الحكم المرتب على الوصف مشعر بعلية الوصف ، فدلت هذه الآية على أن الأمر بتعظيم الوالدين لمحض كونهما والدين وذلك يقتضي العموم ، وهكذا الاستدلال بقوله تعالى : ﴿ وقضى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إياه وبالوالدين إحسانا ﴾ .

وثانيها : قوله تعالى : ﴿ فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا ﴾ الآية ، وهذا نهاية المبالغة في المنع من إيذائهما ، ثم إنه تعالى قال في آخر الآية : ﴿ وَقُل رَّبّ ارحمهما كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾ [الإسراء : 23 ، 24] فصرح ببيان السبب في وجوب هذا التعظيم .

وثالثها : أن الله تعالى حكى عن إبراهيم عليه السلام أنه كيف تلطف في دعوة أبيه من الكفر إلى الإيمان في قوله : ﴿ يا أبت لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يَبْصِرُ وَلاَ يُغْنِى عَنكَ شَيْئاً ﴾ [مريم : 42] ثم إن أباه كان يؤذيه ويذكر الجواب الغليظ وهو عليه السلام كان يتحمل ذلك ، وإذا ثبت ذلك في حق إبراهيم عليه السلام ثبت مثله في حق هذه الأمة لقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتبع مِلَّةَ إبراهيم حَنِيفاً ﴾ [النحل : 123] . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 151 ﴾

فائدة

قال الفخر :

اعلم أن الإحسان إليهما هو ألا يؤذيهما ألبتة ويوصل إليهما من المنافع قدر ما يحتاجان إليه ،

فيدخل فيه دعوتهما إلى الإيمان إن كانا كافرين وأمرهما بالمعروف على سبيل الرفق إن كانا فاسقين. انتهى انتهى. اهـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 151﴾

قوله تعالى ﴿وَذِى القربى﴾

فصل

قال الفخر:

قال الشافعي رضي الله عنه: لو أوصى لأقارب زيد دخل فيه الوارث المحرم وغير المحرم، ولا يدخل الأب والابن لأنهما لا يعرفان بالقريب، ويدخل الأحفاد والأجداد، وقيل: لا يدخل الأصول والفروع وقيل بدخول الكل.

(15/58)

وههنا دقيقة، وهي أن العرب يحفظون الأجداد العالية فيتسع نسلهم وكلهم أقارب، فلو ترقينا إلى الجد العالي وحسبنا أولاده كثروا، فلهذا قال الشافعي رضي الله عنه: يرتقي إلى أقرب جد ينتسب هو إليه ويعرف به وإن كان كافراً، وذكر الأصحاب في مثاله: أنه لو أوصى لأقارب الشافعي رضي الله عنه فإنا نصرفه إلى بني شافع دون بني المطلب وبني عبد مناف وإن كانوا أقارب، لأن الشافعي ينتسب في المشهور إلى شافع دون عبد

مناف .

قال الشيخ الغزالي : وهذا في زمان الشافعي ، أما في زماننا فلا ينصرف إلا إلى أولاد الشافعي رضي الله عنه ولا يرتقي إلى بني شافع لأنه أقرب من يعرف به أقاربه في زماننا ، أما قرابة الأم فإنها تدخل في وصية العجم ولا تدخل في وصية العرب على الأظهر ، لأنهم لا يعدون ذلك قرابة ، أما لو قال لأرحام فلان دخل فيه قرابة الأب والأم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 151 . 152 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أن حق ذي القربى كالتابع لحق الوالدين لأن الإنسان إنما يتصل به أقرباؤه بواسطة اتصالهم بالوالدين والاتصال بالوالدين مقدم على الاتصال بذي القربى ، فلهذا أخر الله ذكره عن الوالدين ، وعن أبي هريرة أنه عليه الصلاة والسلام قال : " إن الرحم سجنة من الرحمن فإذا كان يوم القيامة يقول : أي رب إني ظلمت ، إني أسيء إلي ، إني قطعت .

قال فيجيبها ربها : ألا ترضين أني أقطع من قطعك وأصل من وصلك ، ثم قرأ ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِى الأرض وَتُقَطِّعُواْ أَرْحَامَكُمْ " ، والسبب العقلي في تأكيد رعاية هذا الحق أن القرابة مظنة الاتحاد والألفة والرعاية والنصرة ، فلو لم يحصل شيء من ذلك لكان ذلك أشق على القلب وأبلغ في الإيلام والإيحاش والضرورة ، وكلما كان أقوى

كان دفعه أوجب ، فلهذا وجبت رعاية حقوق الأقارب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 152 ﴾

قوله تعالى ﴿ واليتامى ﴾

فصل

قال الفخر :

اليتيم الذي مات أبوه حتى يبلغ الحلم وجمعه أيتام ويتامى ، كقولهم : نديم وندامى ، ولا يقال لمن ماتت أمه إنه يتيم .

قال الزجاج : هذا في الإنسان ، أما في غير الإنسان فيتمه من قبل أمه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 152 ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ واليتامى ﴾ اليتامى عطف أيضاً ، وهو جمع يتيم ؛ مثل نَدَامَى جمع نَدِيم . واليُتْم في بني آدم بفقد الأب ، وفي البهائم بفقد الأم .

وحكى الماورديّ أن اليتيم يقال في بني آدم في فقد الأم ؛ والأوّل المعروف .

وأصله الانفراد ؛ يقال : صبيٌّ يتيم ، أي منفرد من أبيه .

وبيت يتيم : أي ليس قبله ولا بعده شيء من الشّعْر .

ودُرّة يتيمة : ليس لها نظير .

وقيل : أصله الإبطاء ؛ فسُمّيَ به اليتيم ؛ لأن البِرّ يبطىء عنه .

ويقال : يَتُمَ يَيْتُمُ يُتْماً ؛ مثل عَظُمَ يَعْظُمُ .

ويَتِمَ يَيْتَمُ يُتْماً ويَتَماً ؛ مثل سَمِعَ يَسْمَعُ ؛ ذكر الوجهين الفرّاء .

وقد أيتمه الله .

ويدلّ هذا على الرأفة باليتيم والحضّ على كفالته وحفظ ماله ؛ على ما يأتي بيانه في " النساء " .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " كافِل اليتيم له أو لغيره أنا وهو كهاتين في الجنة " وأشار مالك بالسبابة والوسطى ؛ رواه أبو هريرة أخرجه مسلم .

وخرّج الإمام الحافظ أبو محمد عبد الغني بن سعيد من حديث الحسن بن دينار أبي سعيد البصريّ وهو الحسن بن واصل قال حدّثنا الأسود بن عبد الرحمن عن هِصّان عن أبي

موسى الأشعري عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " ما قَعدَ يتيم مع قوم على قَصْعتهم فَيَقْرَب قَصْعتهم الشيطان " وخرّج أيضاً من حديث حسين بن قيس وهو أبو علي الرَّحبي عن عكرمة عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " مَن ضَمّ يتيماً من بين مسلمين إلى طعامه وشرابه حتى يُغْنِيَه الله عز وجل غُفرت له ذنوبه أُلْبَتَّةَ إلاّ أن يعمل عملاً لا يُغفر ومن أذهب الله كريمتيه فصبَر واحتسب غُفرت له ذنوبه قالوا : وما كريمتاه ؟ قال : عيناه ومن كان له ثلاث بنات أو ثلاث أخوات فأنفق عليهن وأحسن إليهن حتى يَبِنّ أو يمتن غُفرت له ذنوبه أُلْبَتَّةَ إلا أن يعمل عملا لا يُغفر " فناداه رجل من الأعراب ممن هاجر فقال : يا رسول الله أو اثنتين ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أو اثنتين " فكان ابن عباس إذا حدّث بهذا الحديث قال : هذا والله من غرائب الحديث وغُرَرِه .

فائدة :

السبّابة من الأصابع هي التي تلي الإبهام ، وكانت في الجاهلية تدعى بالسبابة ؛ لأنهم كانوا يَسُبُّون بها ؛ فلما جاء الله بالإسلام كرهوا هذا الاسم فسمّوْها المشيرة ؛ لأنهم كانوا يشيرون بها إلى الله في التوحيد .

وتُسمَّى أيضاً بالسبّاحة ، جاء تسميتها بذلك في حديث وائل بن حُجْر وغيره ؛ ولكن اللغة سارت بما كانت تعرفه في الجاهلية فغلبت .

وروي عن أصابع رسول الله صلى الله عليه وسلم أن المشيرة منها كانت أطول من الوسطى ، ثم الوسطى أقصر منها ، ثم البنصر أقصر من الوسطى .

(18/58)

روى يزيد بن هارون قال : أخبرنا عبد اللَّه بن مِقْسم الطائفيّ قال حدّثتني عمتي سارة بنت مِقْسَم أنها سمعت ميمونة بنت كَرْدَم قالت : خرجتُ في حجّة حجّها رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم على راحلته وسأله أبي عن أشياء ؛ فلقد رأيتني أتعجّب وأنا جارية من طول أصبعه التي تلي الإبهام على سائر أصابعه .

فقوله عليه السلام : " أنا وهو كهاتين في الجنة " ، وقوله في الحديث الآخر :

" أُحشَر أنا وأبو بكر وعمر يوم القيامة هكذا " وأشار بأصابعه الثلاث ؛ فإنما أراد ذكر المنازل والإشراف على الخلق فقال : نحشر هكذا ونحن مشرفون ، وكذا كافل اليتيم تكون منزلته رفيعة .

فمن لم يعرف شأن أصابع رسول الله صلى الله عليه وسلم حمل تأويل الحديث على الانضمام والاقتراب بعضهم من بعض في محل القربة .

وهذا معنى بعيد ؛ لأن منازل الرسل والنبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين مراتب

متباينة ، ومنازل مختلفة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 2 صـ 15.14 ﴾ .

بتصرف يسير .

فصل

قال الفخر :

اليتيم كالتالي لرعاية حقوق الأقارب وذلك لأنه لصغره لا ينتفع به وليتمه وخلوه عمن يقوم به ، يحتاج إلى من ينفعه والإنسان قلما يرغب في صحبة مثل هذا ، وإذا كان هذا التكليف شاقاً على النفس لا جرم كانت درجته عظيمة في الدين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 152 ﴾

قوله تعالى ﴿ والمساكين ﴾

فصل

قال الفخر :

" والمساكين" واحدها مسكين ، أخذ من السكون كأن الفقر قد سكنه وهو أشد فقراً من الفقير عند أكثر أهل اللغة وهو قول أبي حنيفة رضي الله عنه واحتجوا بقوله تعالى : ﴿ أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾ [البلد : 16] وعند الشافعي رضي الله عنه : الفقير أسوأ حالاً ، لأن الفقير اشتقاقه من فقار الظهر كأن فقاره انكسر لشدة حاجته وهو قول ابن الأنباري .

واحتجوا عليه بقوله تعالى : ﴿ أَمَّا السفينة فَكَانَتْ لمساكين يَعْمَلُونَ فِى البحر ﴾ [الكهف : 79] جعلهم مساكين مع أن السفينة كانت ملكاً لهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 152 ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ والمساكين ﴾ "المساكين" عطف أيضاً ؛ أي وأمرناهم بالإحسان إلى المساكين ، وهم الذين أسكنتهم الحاجة وأذلتهم .

وهذا يتضمّن الحضّ على الصدقة والمؤاساة وتفقّد أحوال المساكين والضعفاء .

روى مسلم عن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " السّاعِي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله وأحسِبه قال وكالقائم لا يَفْتُرُ وكالصائم لا يُفْطِر " قال ابن المنذر : وكان طاوس يرى السعي على الأخوات أفضل من الجهاد في سبيل الله . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 2 صـ 15. 16 ﴾ .

فائدة

قال الفخر :

إنما تأخرت درجتهم عن اليتامى لأن المسكين قد يكون بحيث ينتفع به في الاستخدام فكان الميل إلى مخالطته أكثر من الميل إلى مخالطة اليتامى ، ولأن المسكين أيضاً يمكنه الاشتغال

بتعهد نفسه ومصالح معيشته ، واليتيم ليس كذلك فلا جرم قدم الله ذكر اليتيم على المسكين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 152 ﴾

وقال أبو حيان :

وتأخرت درجة المساكين ، لأنه يمكنه أن يتعهد نفسه بالاستخدام ، ويصلح معيشته ، بخلاف اليتامى ، فإنهم لصغرهم لا ينتفع بهم ، وهم محتاجون إلى من ينفعهم .

وأول هذه التكاليف هو إفراد الله بالعبادة ، ثم الإحسان إلى الوالدين ، ثم إلى ذي القربى ، ثم إلى اليتامى ، ثم إلى المساكين .

فهذه خمسة تكاليف تجمع عبادة الله ، والحض على الإحسان للوالدين ، والمواساة لذي القربى واليتامى والمساكين ، وأفرد ذا القربى ، لأنه أراد به الجنس ، ولأن إضافته إلى المصدر يندرج فيه كل ذي قرابة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 1 صـ 452 . 453 ﴾

فائدة

قال الفخر :

الإحسان إلى ذي القربى واليتامى ، لا بد وأن يكون مغايراً للزكاة لأن العطف يقتضي التغاير . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 153 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾

فصل

قال الفخر :

قرأ حمزة والكسائي : (حسناً) بفتح الحاء والسين على معنى الوصف للقول ، كأنه قال : قولوا للناس قولاً حسناً ، والباقون بضم الحاء وسكون السين ، واستشهدوا بقوله تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإنسان بِوَالِدَيْهِ حُسْناً ﴾ [العنكبوت : 8] وبقوله : ﴿ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوء ﴾ [النمل : 11] وفيه أوجه ، الأول : قال الأخفش : معناه قولاً ذا حسن .

الثاني : يجوز أن يكون حسناً في موضع حسناً كما تقول : رجل عدل .

الثالث : أن يكون معنى قوله : ﴿ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ أي ليحسن قولكم نصب على مصدر الفعل الذي دل عليه الكلام الأول .

الرابع : حسناً أي قول هو حسن في نفسه لإفراط حسنه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 153 ﴾

قال القرطبي :

قوله تعالى : ﴿ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً ﴾ " حُسْناً " نصب على المصدر على المعنى ؛ لأن

المعنى ليَحْسُن قولُكم .

وقيل : التقدير وقولوا للناس قولاً ذا حُسْن ؛ فهو مصدر لا على المعنى .

وقرأ حمزة والكسائي " حَسَناً " بفتح الحاء والسين .

قال الأخفش : هما بمعنىً واحد ؛ مثل البُخْل والبَخَل ، والرُّشْد والرَّشَد .

وحكى الأخفش : " حُسْنَى " بغير تنوين على فُعْلى .

قال النحاس : " وهذا لا يجوز في العربية ، لا يقال من هذا شيء إلا بالألف واللام ، نحو الفُضْلَى والكُبْرَى والحُسْنَى ؛ هذا قول سيبويه .

وقرأ عيسى بن عمر " حُسُناً " بضمتين ؛ مثل " الحُلُم " .

قال ابن عباس : المعنى قولوا لهم لا إله إلا الله ومُرُوهم بها .

ابن جُرَيج : قولوا للناس صدقاً في أمر محمد صلى الله عليه وسلم ولا تغيّروا نعته .

سُفيان الثَّوْرِي : مُروهم بالمعروف وانهوهم عن المنكر .

أبو العالية : قولوا لهم الطيّب من القول ، وجازوهم بأحسن ما تحبون أن تجازوا به .

وهذا كله حض على مكارم الأخلاق ؛ فينبغي للإنسان أن يكون قوله للناس لَيناً ووجهه

منبسطاً طَلْقاً مع البَرّ والفاجر ، والسُّني والمبتدع ، من غير مداهنة ، ومن غير أن يتكلم معه بكلام يظن أنه يُرضي مذهبه ؛ لأن الله تعالى قال لموسى وهارون : ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّناً ﴾ [طه : 44] .

فالقائل ليس بأفضل من موسى وهارون ؛ والفاجر ليس بأخبث من فرعون ، وقد أمرهما الله تعالى باللين معه .

وقال طلحة بن عمر : قلت لعطاء إنك رجل يجتمع عندك ناس ذوو أهواء مختلفة ، وأنا رجل فيّ حِدّة فأقول لهم بعض القول الغليظ ؛ فقال : لا تفعل ! يقول الله تعالى : ﴿ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً ﴾ .

فدخل في هذه الآية اليهود والنصارى فكيف بالحنيفيّ .

وروي " عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال لعائشة : " لا تكوني فحّاشة فإن الفحش لو كان رجلاً لكان رجل سوء " "

وقيل : أراد بالناس محمداً صلى الله عليه وسلم ؛ كقوله : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَآ آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ [النساء : 54] .

فكأنه قال : قولوا للنبيّ صلى الله عليه وسلم حُسْناً .

وحكى المهدَوِيّ عن قتادة أن قوله : ﴿ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً ﴾ منسوخ بآية السيف .

وحكاه أبو نصر عبد الرحيم عن ابن عباس .

قال ابن عباس : نزلت هذه الآية في الابتداء ثم نسختها آية السيف .

قال ابن عطية : وهذا يدلّ على أن هذه الأمة خوطبت بمثل هذا اللفظ في صدر الإسلام ؛ وأما الخبر عن بني إسرائيل وما أُمِروا به فلا نسخ فيه ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 2 صـ 16 ﴾ .

وقال فى الميزان :

قوله تعالى : [حسناً] مصدر بمعنى الصفة جيء به للمبالغة, وفي بعض القراءات حسناً – بفتح الحاء والسين – صفة مشبهة . , والمعنى قولوا للناس قولاً حسناً , وهو كناية عن حسن المعاشرة مع الناس كافرهم ومؤمنهم, ولا ينافي حكم القتال حتى تكون آية القتال ناسخة له, لأن مورد القتال غير مورد المعاشرة, فلا ينافي الأمر بحسن المعاشرة, كما أن القول الخشن في مقام التأديب لا ينافي حسن المعاشرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الميزان حـ 1 صـ 219 ﴾

فائدة

قال الفخر :

يقال : لم خوطبوا بقولوا بعد الإخبار ؟

والجواب من ثلاثة أوجه : أحدها : أنه على طريقة الالتفات كقوله تعالى : ﴿ حتى إِذَا كُنتُمْ فِى الفلك وَجَرَيْنَ بِهِم ﴾ [يونس : 22] .

وثانيها : فيه حذف أي قلنا لهم قولوا .

وثالثها : الميثاق لا يكون إلا كلاماً كأنه قيل : قلت لا تعبدوا وقولوا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 153 ﴾

فصل

قال الفخر :

اختلفوا في أن المخاطب بقوله : ﴿ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ من هو ؟

فيحتمل أن يقال : إنه تعالى أخذ الميثاق عليهم أن لا يعبدوا إلا الله وعلى أن يقولوا للناس حسناً ويحتمل أن يقال : إنه تعالى أخذ الميثاق عليهم أن لا يعبدوا إلا الله ثم قال لموسى وأمته : قولوا للناس حسناً والكل ممكن بحسب اللفظ وإن كان الأول أقرب حتى تكون القصة قصة واحدة مشتملة على محاسن العادات ومكارم الأخلاق من كل الوجوه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 153 ﴾

فصل

قال الفخر :

منهم من قال : إنما يجب القول الحسن مع المؤمنين ، أما مع الكفار والفساق فلا ، والدليل عليه وجهان ، الأول : أنه يجب لعنهم وذمهم والمحاربة معهم ، فكيف يمكن أن يكون القول معهم حسناً ، والثاني : قوله تعالى : ﴿ لاَّ يُحِبُّ اللهُ الجهر بالسوء مِنَ القول إِلاَّ مَن ظُلِمَ ﴾ [النساء : 148] فأباح الجهر بالسوء لمن ظلم ، ثم إن القائلين بهذا القول منهم من زعم أن هذا الأمر صار منسوخاً بآية القتال ، ومنهم من قال : إنه دخله التخصيص ، وعلى هذا التقدير يحصل ههنا احتمالان ، أحدهما : أن يكون التخصيص واقعاً بحسب المخاطب وهو أن يكون المراد وقولوا للمؤمنين حسناً .

والثاني : أن يقع بحسب المخاطب وهو أن يكون المراد قولوا للناس حسناً في الدعاء إلى الله تعالى .

وفي الأمر المعروف ، فعلى الوجه الأول : يتطرق التخصيص إلى المخاطب دون الخطاب وعلى الثاني : يتطرق إلى الخطاب دون المخاطب ، وزعم أبو جعفر محمد بن علي الباقر أن هذا العموم باق على ظاهره وأنه لا حاجة إلى التخصيص ، وهذا هو الأقوى والدليل عليه أن موسى وهرون مع جلال منصبهما أمرا بالرفق واللين مع فرعون ، وكذلك محمد صلى

الله عليه وسلم مأمور بالرفق وترك الغلظة وكذلك قوله تعالى : ﴿ ادع إلى سَبيلِ رَبّكَ بالحكمة والموعظة الحسنة ﴾ [النحل : 125] وقال تعالى : ﴿ وَلاَ تَسُبُّواْ الذين يَدْعُونَ مِن دُونِ الله فَيَسُبُّواْ الله عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الأنعام : 108] وقوله : ﴿ وَإِذَا مَرُّواْ بِاللَّغْوِ مَرُّواْ كِراماً ﴾ [الفرقان : 72] وقوله : ﴿ وَأَعْرِض عَنِ الجاهلين ﴾ [الأعراف : 199] أما الذي تمسكوا به أولاً من أنه يجب لعنهم وذمهم فلا يمكنهم القول الحسن معهم ، قلنا : أولاً لا نسلم أنه يجب لعنهم وسبهم والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَسُبُّواْ الذين يَدْعُونَ مِن دُونِ الله ﴾ [الأنعام : 108] سلمنا أنه يجب لعنهم لكن لا نسلم أن اللعن ليس قولاً حسناً بيانه : أن القول الحسن ليس عبارة عن القول الذي يشتهونه ويحبونه ، بل القول الحسن هو الذي يحصل انتفاعهم به ونحن إذا لعناهم وذممناهم ليرتدعوا به عن الفعل القبيح كان ذلك المعنى نافعاً في حقهم فكان ذلك اللعن قولاً حسناً ونافعاً ، كما أن تغليظ الوالد في القول قد يكون حسناً ونافعاً من حيث إنه يرتدع به عن الفعل القبيح ، سلمنا أن لعنهم ليس قولاً حسناً ولكن لا نسلم أن وجوبه ينافي وجوب القول الحسن ، بيانه أنه لا منافاة بين كون الشخص مستحقاً للتعظيم بسبب إحسانه إلينا ومستحقاً للتحقير بسبب كفره ، وإذا كان كذلك فلم لا يجوز أن يكون وجوب القول الحسن معهم ، وأما الذي تمسكوا به ثانياً وهو قوله تعالى : ﴿ لاَّ يُحِبُّ الله الجهر بالسوء مِنَ القول إِلاَّ مَن

ظُلِمَ ﴾ [النساء : 148]

فالجواب لم لا يجوز أن يكون المراد منه كشف حال الظالم ليحترز الناس عنه ؟ وهو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم : " اذكروا الفاسق بما فيه كي يحذره الناس " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 153. 154 ﴾

فصل

قال الفخر :

قال أهل التحقيق : كلام الناس مع الناس إما أن يكون في الأمور الدينية أو في الأمور الدنيوية ، فإن كان في الأمور الدينية فإما أن يكون في الدعوة إلى الإيمان وهو مع الكفار أو في الدعوة إلى الطاعة وهو مع الفاسق ، أما الدعوة إلى الإيمان فلا بد وأن تكون بالقول الحسن كما قال تعالى لموسى وهارون : ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يخشى ﴾ [طه : 44] أمرهما الله تعالى بالرفق مع فرعون مع جلالتهما ونهاية كفر فرعون وتمرده وعتوه على الله تعالى ، وقال لمحمد صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ القلب لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران : 159] الآية ، وأما دعوة الفساق فالقول الحسن فيه معتبر ، قال تعالى : ﴿ ادع إلى سَبِيلِ رَبِّكَ بالحكمة والموعظة الحسنة ﴾ [النحل : 125] وقال : ﴿ ادفع بالتى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا الذى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت : 34] وأما

في الأمور الدنيوية فمن المعلوم بالضرورة أنه إذا أمكن التوصل إلى الغرض بالتلطف من القول لم يحسن سواه ، فثبت أن جميع آداب الدين والدنيا داخلة تحت قوله تعالى : ﴿ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 154 ﴾

فصل

قال الفخر :

ظاهر الآية يدل على أن الإحسان إلى ذي القربى واليتامى والمساكين كان واجباً عليهم في دينهم ، وكذا القول الحسن للناس كان واجباً عليهم ، لأن أخذ الميثاق يدل على الوجوب ، وذلك لأن ظاهر الأمر للوجوب ولأنه تعالى ذمهم على التولي عنه وذلك يفيد الوجوب والأمر في شرعنا أيضاً ، كذلك من بعض الوجوه ، وروي عن ابن عباس أنه قال : إن الزكاة نسخت كل حق ، وهذا ضعيف لأنه لا خلاف أن من اشتدت به الحاجة وشاهدناه بهذه الصفة فإنه يلزمنا التصدق عليه ، وإن لم يجب علينا الزكاة حتى أنه إن لم تندفع حاجتهم بالزكاة كان التصدق واجباً ولا شك في وجوب مكالمة الناس بطريق لا يتضررون به . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 154 ﴾

قوله تعالى ﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ ﴾

فصل

قال الفخر :

التكليف السابع والثامن :

قوله تعالى : ﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾ وقد تقدم تفسيرهما .

واعلم أنه تعالى لما شرح أنه أخذ الميثاق عليهم في هذه التكاليف الثمانية ، بين أنه مع إنعامه عليهم بأخذ الميثاق عليهم بكل ذلك ليقبلوا فتحصل لهم المنزلة العظمى عند ربهم ، تولوا وأساءوا إلى أنفسهم ولم يتلقوا نعم ربهم بالقبول مع توكيد الدلائل والمواثيق عليهم ، وذلك يزيد في قبح ما هم عليه من الإعراض والتولي ، لأن الإقدام على مخالفة الله تعالى بعد أن بلغ الغاية في البيان والتوثق يكون أعظم من المخالفة مع الجهالة ، واختلفوا فيمن المراد بقوله : ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ ﴾ على ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه من تقدم من بني إسرائيل ، وثانيها : أنه خطاب لمن كان في عصر النبي صلى الله عليه وسلم من اليهود ، يعني أعرضتم بعد ظهور المعجزات كإعراض أسلافكم ، وثالثها : المراد بقوله : ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ ﴾ من تقدم بقوله : ﴿ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ ومن تأخر .

أما وجه القول الأول أنه إذا كان الكلام الأول في المتقدمين منهم فظاهر الخطاب يقتضي أن آخره فيهم أيضاً إلا بدليل يوجب الانصراف عن هذا الظاهر ، يبين ذلك أنه تعالى ساق الكلام الأول سياقة إظهار النعم بإقامة الحجج عليهم ، ثم بين من بعد أنهم تولوا إلا قليلاً منهم فإنهم بقوا على ما دخلوا فيه .

أما وجه القول الثاني أن قوله : ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ ﴾ خطاب مشافهة وهو بالحاضرين أليق وما تقدم حكاية ، وهو بسلفهم الغائبين أليق ، فكأنه تعالى بين أن تلك العهود والمواثيق كما لزمهم التمسك بها فذلك هو لازم لكم لأنكم تعلمون ما في التوراة من حال محمد صلى الله عليه وسلم وصحة نبوته ، فيلزمكم من الحجة مثل الذي لزمهم وأنتم مع ذلك قد توليتم وأعرضتم عن ذلك إلا قليلاً منكم وهم الذين آمنوا وأسلموا ، فهذا محتمل ، وأما وجه القول الثالث فهو أنه تعالى لما بين أنه أنعم عليهم بتلك النعم ، ثم إنهم تولوا عنها كان ذلك دالاً على نهاية قبح أفعالهم ويكون قوله : ﴿ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴾ مختصاً بمن في زمان محمد صلى الله عليه وسلم أي أنكم بمنزلة المتقدمين الذين تولوا بعد أخذ هذه المواثيق فإنكم بعد اطلاعكم على دلائل صدق محمد صلى الله عليه وسلم أعرضتم عنه وكفرتم به ، فكنتم في هذا الإعراض بمثابة أولئك المتقدمين في ذلك التولي ، والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 154 . 155 ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ ثم توليتم إلا قليلاً منكم وأنتم معرضون ﴾ : ظاهره أنه خطاب لبني إسرائيل الذين أخذ الله عليهم الميثاق .

وقيل : هو خطاب لمعاصري رسول الله صلى الله عليه وسلم من بني إسرائيل ، أسند إليهم تولي أسلافهم ، إذ هم كلهم بتلك السبيل ، قال نحوه ابن عباس وغيره .

والمعنى : ثم توليتم عما أخذ عليكم من الميثاق ، والمعنيُّ بالقليل القليل في عدد الأشخاص .

فقيل : هذا القليل هو عبد الله بن سلام وأصحابه .

وقيل : من آمن قديماً من أسلافهم ، وحديثاً كعبد الله بن سلام وغيره .

قال ابن عطية : ويحتمل أن تكون القلة في الإيمان ، أي لم يبق حين عصوا وكفر آخرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم إلا إيمان قليل ، إذ لا ينفعهم ، والأول أقوى .

انتهى كلامه ، وهو احتمال بعيد من اللفظ ، إذ الذي يتبادر إليه الفهم إنما هو استثناء أشخاص قليلين من الفاعل الذي هو الضمير في توليتم ، ونصب : قليلاً ، على الاستثناء ،

وهو الأفصح ، لأن قبله موجب .

وروي عن أبي عمرو أنه قرأ : إلا قليل ، بالرفع .

وقرأ بذلك أيضاً قوم ، قال ابن عطية : وهذا على بدل قليل من الضمير في توليتم ، وجاز ذلك ، يعني البدل ، مع أن الكلام لم يتقدم فيه نفي ، لأن توليتم معناه النفي ، كأنه قال : لم يفوا بالميثاق إلا قليل ، انتهى كلامه .

والذي ذكر النحويون أن البدل من الموجب لا يجوز ، لو قلت : قام القوم إلا زيد ، بالرفع على البدل ، لم يجز ، قالوا : لأن البدل يحلّ محلّ المبدل منه ، فلو قلت : قام إلا زيد ، لم يجز لأن إلا لا تدخل في الموجب .

وأما ما اعتلّ به من تسويغ ذلك ، لأن معنى توليتم النفي ، كأنه قيل : لم يفوا إلا قليل ، فليس بشيء ، لأن كل موجب ، إذا أخذت في نفي نقيضه أو ضدّه ، كان كذلك ، فليجز : قام القوم إلا زيد ، لأنه يؤوّل بقولك : لم تجلسوا إلا زيد .

ومع ذلك لم تعتبر العرب هذا التأويل ، فتبني عليه كلامها ، وإنما أجاز النحويون : قام القوم إلا زيد بالرفع ، على الصفة .

وقد عقد سيبويه في ذلك باباً في كتابه فقال : هذا باب ما يكون فيه إلا وما بعده وصفاً بمنزلة غير ومثل .

وذكر من أمثلة هذا الباب : لو كان معنا رجل إلا زيد لغلبنا ، ﴿ ولو كان فيهما آلهة إلا الله

لفسدتا ﴾ .

وقليل بها الأصوات إلا بغامها . . .

(28/58)

وسوى بين هذا ، وبين قراءة من قرأ : ﴿ لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر ﴾ برفع غير ، وجوّز في نحو : ما قام القوم إلا زيد ، بالرفع البدل والصفة ، وخرّج على ذلك قول عمرو بن معدى كرب :

وكلّ أخ مفارقه أخوه . . .

لعمر أبيك إلا الفرقدان

قال : كأنه قال : وكل أخ غير الفرقدين مفارقه أخوه ، كما قال الشماخ :

وكل خليل غيرها ضم نفسه . . .

لوصل خليل صارم أو معارز

ومما أنشده النحويون :

لدم ضائع نأت أقربوه . . .

عنه إلا الصبا وإلا الجنوب

وأنشدوا أيضاً :

وبالصريمة منهم منزل خلق . . .

عاف تغير إلا النؤى والوتد

قال الأستاذ أبو الحسن بن عصفور : ويخالف الوصف بإلا الوصف بغيره ، من حيث أنها يوصف بها النكرة والمعرفة والظاهر والمضمر .

وقال أيضاً : وإنما يعني النحويون بالوصف بإلا : عطف البيان .

وقال غيره : لا يوصف بإلا إلا إذا كان الموصوف نكرة أو معرفة بلام الجنس .

وقال المبرد : لا يوصف بإلا إلا إذا كان الوصف في موضع يصلح فيه البدل ، وتحرير ذلك نتكلم عليه في علم النحو ، وإنما نبهنا على أن ما ذهب إليه ابن عطية في تخريج هذه القراءة ، لم يذهب إليه نحوي .

ومن تخليط بعض المعربين أنه أجاز رفعه بفعل محذوف ، كأنه قال : امتنع قليل أن يكون توكيداً للمضمر المرفوع المستثنى منه .

ولولا أن هذين القولين مسطران في الكتب ما ذكرتهما .

وأجاز بعضهم أن يكون رفعه على الابتداء والخبر محذوف ، كأنه قال : إلا قليل منكم لم يتول ، كما قالوا : ما مررت بأحد إلا رجل من بني تميم خير منه .

وهذه أعاريب من لم يمعن في النحو .

وأنتم معرضون : جملة حالية ، قالوا : مؤكدة .

وهذا قول من جعل التولي هو الإعراض بعينه ، ومن خالف بينهما تكون الحال مبينة ، وكذلك تكون مبينة إذا اختلف متعلق التولي والإعراض ، كما قال بعضهم ؛ إن معناه : ثم توليتم عن عهد ميثاقكم وأنتم معرضون عن هذا النبي صلى الله عليه وسلم .

(29/58)

وجاءت الجملة الحالية اسمية مصدرة بأنتم ، لأنها آكد .

وكان الخبر اسماً ، لأنه أدل على الثبوت ، فكأنه قيل : وأنتم عادتكم الإعراض عن الحق والتولية عنه .

وفي المواجهة بأنتم تقبيح لفعلهم وكونهم ارتكبوا ذلك الفعل القبيح الذي من شأنه أن لا يقع ، كقولك : يحسن إليك زيد وأنت مسيء إليه ، فكان المعنى : أن من واثقه الله وأخذ عليه العهد في أشياء بها انتظام دينه ودنياه ، جدير أن يثبت على العهد ، وأن لا ينقضه ، ولا يعرض عنه .

وقيل : التولي والإعراض مأخوذ من سلوك الطريق ، ومن ترك سلوك الطريق فله حالتان : إحداهما : أن يرجع عوده على بدئه ، وذلك هو التولي ، والثانية : أن يأخذ في عرض

الطريق ، وذلك هو الإعراض .

وعلى هذا التفسير في التولي والإعراض لا يكون في الآية دليل على الاختلاف ، إلا إن قصد أن ناساً تولوا وناساً أعرضوا ، وجمع ذلك لهم ، أو يتولون في وقت ، ويعرضون في وقت .

وقال القشيري : التعبد بهذه الخصال حاصل لنا في شرعنا ، وأولها التوحيد ، وهو إفراد الله بالعبادة والطاعة ، ثم ردّك إلى مراعاة حق مثلك ، إظهاراً أن من لا يصلح لصحبة شخص مثله ، كيف يقوم بحق معبود ليس كمثله شيء ؟ فإذا كانت التربية المتضمنة حقوق الوالدين توجب عظيم هذا الحق ، فما حق تربية سيدك لك ؟ كيف تؤدي شكره ؟ ثم ذكر عموم رحمته لذي القربى ، واليتامى والمساكين ، وأن يقول للناس حسناً .

وحقيقة العبودية الصدق مع الحق ، والرفق مع الخلق .

انتهى ، وبعضه مختصر .

وقال بعض أهل الإشارات : الأسباب المتقرّب بها إلى الله تعالى : اعتقاد وقول وعمل ونية .

فنبه بقوله : ﴿ لا تعبدون إلا الله ﴾ ، على مقام التوحيد ، واعتقاد ما يجب له على عباده من الطاعات والخضوع منفرداً بذلك ، ومالية محضة وهي : الزكاة ، وبدنية محضة وهي : الصلاة ، وبدنية ومالية وهو : برّ الوالدين والإحسان إلى اليتيم والمسكين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 1 صـ 455. 457 ﴾

لطيفة

قال فى البحر المديد :

ذكر الحق تعالى في هذا العهد أربعة أعمال : عمل خاص بالقلب ، وهو التوحيد ، وعمل خاص بالبدن ، وهو الصلاة ، وعمل خاص بالمال ، وهو الزكاة ، وعمل عام وهو الإحسان ، ورتَّبها باعتبار الأهم فالأهم ، فقدّم الوالدين لتأكيد حقهما الأعظم ، ثم القرابة لأن فيهم أجر الإحسان وصلة الرحم ، ثم اليتامى لقلّة حيلتهم ، ثم المساكين لضعفهم ، والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿البحر المديد حـ 1 صـ 127﴾

(30/58)

فائدة

قال الجصاص :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إحْسَانًا ﴾ يَدُلّ عَلَى تَأْكِيدِ حَقّ الْوَالِدَيْنِ وَوُجُوب الْإِحْسَان إلَيْهِمَا كَافِرَيْنِ كَانَا أَوْ مُؤْمِنَيْنِ ؛ لِأَنَّهُ قَرَنَهُ إلَى الْأَمْر بِعِبَادَتِهِ تَعَالَى وَقَوْلُهُ : ﴿ وَذِي الْقُرْبَى ﴾ يَدُلُّ عَلَى وُجُوب صِلَةِ الرَّحِمِ وَالْإِحْسَانِ إلَى الْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ .

﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ رُوِيَ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ : " وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا كُلُّهُمْ " ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ : وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ كَانُوا مُتَعَبَّدِينَ بِذَلِكَ فِي الْمُسْلِمِ وَالْكَافِرِ وَقَدْ قِيلَ : إنَّ ذَلِكَ عَلَى مَعْنَى قَوْله تَعَالَى ﴿ ادْعُ إلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ وَالْإِحْسَانُ الْمَذْكُورُ فِي الْآيَةِ إنَّمَا هُوَ الدُّعَاءُ إلَيْهِ وَالنُّصْحُ فِيهِ لِكُلِّ أَحَدٍ وَرُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةَ أَنَّهَا مَنْسُوخَةٌ بِالْأَمْرِ بِالْقِتَالِ .

وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنْ الْقَوْلِ إلَّا مَنْ ظُلِمَ ﴾ وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِلَعْنِ الْكُفَّارِ وَالْبَرَاءَةِ مِنْهُمْ وَالْإِنْكَارِ عَلَى أَهْلِ الْمَعَاصِي ، وَهَذَا مِمَّا لَا يَخْتَلِفُ فِيهِ شَرَائِعُ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمْ السَّلَامُ ، فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ الْمَأْمُورَ بِهِ مِنْ الْقَوْلِ الْحَسَنِ أَحَدُ وَجْهَيْنِ : إمَّا أَنْ يَكُونَ خَاصًّا فِي الْمُسْلِمِينَ وَمَنْ لَا يَسْتَحِقُّ اللَّعْنَ وَالنَّكِيرَ ، وَإِنْ كَانَ عَامًّا فَهُوَ الدُّعَاءُ إلَى اللَّهِ تَعَالَى وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنْ الْمُنْكَرِ ، وَذَلِكَ كُلُّهُ حَسَنٌ وَأَخْبَرَنَا اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُ كَانَ أَخَذَ الْمِيثَاقَ عَلَى بَنِي إسْرَائِيلَ بِمَا ذُكِرَ ، وَالْمِيثَاقُ هُوَ الْعَقْدُ الْمُؤَكَّدُ إمَّا بِوَعِيدٍ أَوْ بِيَمِينٍ ، وَهُوَ نَحْوُ أَمْرِ اللَّهِ الصَّحَابَةَ بِمُبَايَعَةِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى شَرَائِطِهَا الْمَذْكُورَةِ .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 1 صـ 46 . 47 ﴾

ومن فوائد ابن عرفة فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ . . . ﴾ .

قال ابن عرفة : هذا دليل على أن الاستثناء من النفي إثبات .

قيل لابن عرفة : نقول إنه محتمل للإثبات والنفي ، والدليل العقلي عين هنا أحد المحتملات ، وهو الإثبات ، فقد تقرر عند الجدليين والأصوليين أنه إذا تعارض حمل الكلام على فائدة (احتمل أن تكون) فهمت من مجرد اللّفظ ، (أو) من خارج ، فالأولى (ترجيح) فهمها من اللّفظ .

وتقرر عند الجدليين أنّ جواز الإرادة موجب (للإرادة) بجواز إرادة أن الاستثناء من النفي إثبات موجب لإرادة ذلك .

قال : ولا يصح أن يكون ﴿ لَا تَعْبُدُونَ ﴾ بدلا من ﴿ مِيثَاقَ ﴾ فإنه متعلق الميثاق لا نفس الميثاق .

قلت : يكون بدل اشتمال ، أو بدل شيء من شيء على تقدير مضاف أي ميثاق لا تعبدون إلاّ الله .

قوله تعالى : ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا . . . ﴾ .

قال ابن عرفة : المراد هو الحسن شرعا ، فيدخل فيه تغيير المنكر ، فإنّه من القول الحسن ، وليس المراد به القول الملائم للناس ، ومجرد تحسين الخلق معهم ، فإنه يخرج عنه تغيّر المنكر مع أن الأمر يتناوله هو وغيره ، ويحتمل أن التكليف به لهم في شريعتهم أو في شريعتنا بعد (إيمانهم ، أو بعد التوفيه بذلك) ، وتقيده بالإعراض إشارة إلى دوامهم على ذلك ، والإصرار عليه فإن (المتولي) على قسمين : فواحد يطمع في رجوعه ، وآخر لا يطمع فيه بوجه فهذا هو المعرض . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عرفة حـ 1 صـ 357 .

﴿ 358 ﴾

ومن فوائد السمرقندى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا ميثاق بَنِى إِسْرءيلَ ﴾ ، أي وقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل في التوراة ، يعني بمجيء محمد صلى الله عليه وسلم .

ويقال : الميثاق الأول حين أخرجهم من صلب آدم عليه السلام .

قوله : ﴿ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ الله ﴾ ، قرأ حمزة والكسائي وابن كثير ﴿ لا تَعْبُدُونَ ﴾ بالياء ، وقرأ الباقون بالتاء بلفظ المخاطبة ؛ فمن قرأ بالياء ، معناه وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل بأن لا يعبدوا إلا الله ؛ ومن قرأ بالتاء فمعناه : وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل وقلنا لهم : لا

تعبدوا إلا الله ، يعني أخذنا عليهم الميثاق بأن لا يعبدوا إلا الله ، يعني لا توحدوا إلا الله .

﴿ وبالوالدين إحسانا ﴾ ، نصب إحساناً على معنى أحسنوا إحساناً فيكون إحساناً بدلاً من اللفظ ، أي أحسنوا إلى الوالدين براً بهما وعطفاً عليهما .

وفي هذه الآية بيان حرمة الوالدين ، لأنه قرن حق الوالدين بعبادة نفسه .

ويقال : ثلاث آيات نزلت مقرونة بثلاث لا يقبل إحداها بغير قرينتها .

إحداها : قوله عز وجل : ﴿ وَأَطِيعُواْ الله وَأَطِيعُواْ الرسول واحذروا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فاعلموا أَنَّمَا على رَسُولِنَا البلاغ المبين ﴾ [المائدة : 92] ، والثانية : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإنسان بوالديه حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً على وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِى عَامَيْنِ أَنِ اشكر لِى ولوالديك إِلَىَّ المصير ﴾ [لقمان : 14] ، والثالثة : ﴿ وَأَقِيمُواْ الصلاة وَآتُواْ الزكواة واركعوا مَعَ الراكعين ﴾ [البقرة : 43 وغيرها] .

وقوله تعالى : ﴿ وَذِى القربى ﴾ ، يعني أحسنوا إلى ذي القربى ﴿ واليتامى ﴾ ، ﴿ و ﴾ إلى ﴿ الْمَسَاكِينِ ﴾ .

والإحسان إلى اليتامى والمساكين أن يحسن إليهم بالصدقة وحسن القول .

﴿ والمساكين وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ ، قرأ حمزة والكسائي بنصب الحاء والسين ، وقرأ الباقون برفع الحاء وسكون السين .

فمن قرأ بالنصب فمعناه : قولوا للناس حَسَناً يعني قولوا لهم قولاً صدقاً في نعت محمد صلى الله عليه وسلم وصفته كما بيّن في كتابكم .

ونظيرها في سورة طه ﴿ فَرَجَعَ موسى إِلى قَوْمِهِ غضبان أَسِفاً قَالَ يا قوم أَلَمْ يَعِدكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ العهد أَمْ أَرَدتُمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَّوْعِدِى ﴾ [طه : 86] ، أي وعداً صدقاً .

ومن قرأ بالرفع ، فمعناه قولوا لجميع الناس حَسَناً يعني : خالقوا الناس بالخُلُق الحسن ، فكأنه يأمر بحسن المعاشرة وحسن الخلق مع الناس .

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا ﴾ ، يعني أقروا بها وأدوها في مواقيتها .

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا ﴾ ، المفروضة ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ ﴾ ، يعني أعرضتم عن الإيمان والميثاق ، ﴿ إِلاَّ قَلِيلاً مِنْكُمْ ﴾ ، وهو عبد الله بن سلام وأصحابه .

﴿ وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ ، أي تاركون لما أخذ عليكم من المواثيق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ 95.96 ﴾

ومن فوائد ابن الجوزى فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ وإِذ أخذنا ميثاق بني إِسرائيل ﴾ هذا الميثاق مأخوذ عليهم في التوراة .

قوله تعالى : ﴿ لا تعبدون ﴾ قرأ عاصم ونافع وأبو عمرو ، وابن عامر : بالتاء على الخطاب لهم .

وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي : بالياء على الإخبار عنهم .

قوله تعالى : ﴿ وبالوالدين إحساناً ﴾ أي : ووصيناهم بآبائهم وأمهاتهم خيراً ، قال الفراء .

والعرب تقول : أوصيك به خيراً وآمرك به خيراً والمعنى : آمرك أن تفعل به ، ثم تحذف " أن" فيوصل الخير بالوصية والأمر .

قال الشاعر :

عجبت من دهماء إذ تشكونا . . .

ومن أبي دهماء إذ يوصينا

خيراً بها كأننا جافونا . . .

وأما الإحسان إلى الوالدين ؛ فهو برهما .

قال ابن عباس : لا تنفض ثوبك فيصيبهما الغبار .

وقالت عائشة : ما بر والده من شدَّ النظر إليه .

وقال عروة : لا تمتنع عن شيء أحبَّاه .

قوله تعالى : ﴿ وذي القربى ﴾ أي : ووصيناهم بذي القربى أن يصلوا أرحامهم .

وأما اليتامى ؛ فجمع : يتيم .

قال الأصمعي : اليتم في الناس ، من قبل الأب ، وفي غير الناس : من قبل الأم .

قال ابن الأنباري : قال ثعلب : اليتم معناه في كلام العرب : الانفراد .

فمعنى صبي يتيم : منفرد عن أبيه .

وأنشدنا :

أفاطم إني هالك فتبيَّني . . .
ولا تجزعي كلُّ النساء يتيم

قال : يروى : يتيم ويئيم .

فمن روى يتيم بالتاء ؛ أراد : كل النساء ضعيف منفرد .

ومن روى بالياء أراد : كل النساء يموت عنهن أزواجهن .

وقال : أنشدنا ابن الأعرابي :

ثلاثة أحباب : فحب علاقة . . .

وحبِ تملاَّق وحبٌّ هو القتل

قال : فقلنا له : زدنا ، فقال : البيت يتيم : أي : منفرد .

وقرأت على شيخنا أبي منصور اللغوي ، قال : إذا بلغ الصبي ، زال عنه اسمه اليتم .

يقال منه : يتم يِيتم يُتما ويَتما .

وجمع اليتيم : يتامى ، وأيتام .

وكل منفرد عند العرب يتيم ويتيمة .

قال : وقيل : أصل اليتم : الغفلة ، وبه سمي اليتيم ، لأنه يتغافل عن بره .

(35/58)

والمرأة تدعى : يتيمة مالم تزوج ، فاذا تزوجت زال عنها اسم اليتم ، وقيل : لا يزول عنها اسم اليتم أبداً .

وقال أبو عمرو اليتم : الإبطاء ، ومنه أخذ اليتيم ، لأن البر يبطئ عنه .

" والمساكين " : جمع مسكين ، وهو اسم مأخوذ من السكون ، كأن المسكين قد أسكنه الفقر .

قوله تعالى : ﴿ وقولوا للناس حسناً ﴾ قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، ونافع ، وعاصم ، وابن

عامر ﴿ حُسنا ﴾ : بضم الحاء والتخفيف ، وقرأ حمزة والكسائي : ﴿ حَسَناً ﴾ بفتح الحاء والتثقيل .

قال أبو علي : من قرأ " حُسْناً " فجائز أن يكون الحسن لغة في الحسن ، كالبُخْل ، والبَخَل ، والرُشد والرشَد .

وجاء ذلك في الصفة كما جاء في الاسم ، ألا تراهم قالوا : العُرب والعرَب ويجوز أن يكون الحسن مصدراً كالكفر والشكر والشغل ، وحذف المضاف معه ، كأنه قال : قولوا قولاً ذا حسن .

ومن قرأ ﴿ حَسَناً ﴾ جعله صفة ، والتقدير عنده : قولوا للناس قولاً حسناً ، فحذف الموصوف .

واختلفوا في المخاطب بهذا على قولين .

أحدهما : أنهم اليهود ، قاله ابن عباس ، وابن جبير ، وابن جريج .

ومعناه : اصدقوا وبينوا صفة النبي .

والثاني : أنهم أمة محمد صلى الله عليه وسلم قال أبو العالية : قولوا للناس معروفاً ، وقال محمد بن علي بن الحسين : كلموهم بما تحبون أن يقولوا لكم .

وزعم قوم أن المراد بذلك مساهلة الكفار في دعائهم إلى الإسلام .

فعلى هذا ؛ تكون منسوخة بآية السيف .

قوله تعالى : ﴿ ثم توليتم ﴾ أي : أعرضتم إلا قليلاً منكم .

وفيهم قولان .

أحدهما : أنهم أوّلوهم الذين لم يبدلوا .

والثاني : أنهم الذين آمنوا بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم في زمان . انتهى انتهى . اهـ

﴿ زاد المسير حـ 1 صـ 108.110 ﴾

(36/58)

ومن فوائد العلامة النيسابورى فى الآية

قال رحمه الله :

إنه سبحانه كلفهم بأشياء : الأوّل : قوله ﴿ لا تعبدون إلا الله ﴾ من قرأ بياء الغيبة فلأنهم غيب ، ومن قرأ بتاء الخطاب فلحكاية ما خوطبوا به ، وفي إعرابه أقوال : أحدها : أنه إخبار في معنى النهي كقولك " تذهب إلى فلان " تريد الأمر وهو أبلغ من صريح الأمر والنهي كأنه سورع إلى الامتثال فهو يخبر عنه . ويؤيد هذا القول عطف ﴿ وقولوا ﴾ ﴿ وأقيموا ﴾ عليه . وثانيها : التقدير أن لا تعبدوا فلما حذفت " أن " رفعت كقوله " ألا أبهذا الزاجري أحضر الوغى " ويحتمل أن تكون " أن " مفسرة وأن تكون مع الفعل بدلاً من

الميثاق كأنه قيل : أخذنا ميثاق بني إسرائيل توحيدهم . وثالثها : هو جواب قوله ﴿ أخذنا ميثاق بني إسرائيل ﴾ إجراء له مجرى القسم كأنه قيل : وإذ أقسمنا عليهم لا تعبدون . وهذا التكليف بالحقيقة يتضمن جميع ما لا بد منه في الدين ، لأن الأمر بعبادته والنهي عن عبادة غيره مسبوق بالعلم بذاته سبحانه وبجميع ما يجب له ويستحيل عليه ، ومسبوق أيضاً بالعلم بكيفية تلك العبادة التي لا سبيل إلى معرفتها إلا بالوحي والرسالة .

التكليف الثاني : قوله : ﴿ وبالوالدين إحساناً ﴾ معناه يحسنون بالوالدين إحساناً ليناسب ﴿ لا تعبدون ﴾ أو أحسنوا ليناسب ﴿ وقولوا ﴾ ويمكن أن يقدر " وصيناهم " عطفاً على ﴿ أخذنا ﴾ وهذا أنسب لمكان الباء ، ولا بد من تقدير القول إما قبل ﴿ لا تعبدوا ﴾ وإما قبل ﴿ أحسنوا ﴾ وإما قبل ﴿ قولوا ﴾ وإنما جعل الإحسان إلى الوالدين تالياً لعبادة الله لوجوه منها : أنهما سبب وجود الولد كما أنهما سبب التربية ، وغير الوالدين قد يكون سبب التربية فقط فلا إنعام بعد إنعام الله تعالى أعظم من إنعام الوالدين .

ومنها أن إنعامهما يشبه إنعام الله تعالى من حيث إنهما لا يطلبان بذلك ثناء ولا ثواباً ﴿ إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً ﴾ [الإنسان : 9] . ومنها أنه تعالى لا يمل من إنعامه على العبد وإن أتى بأعظم الجرائم ، فكذا الوالدان لا يقطعان عنه مواد كرمهما وإن كان غير بارٍ بهما ، ومنها أن الوالد المشفق يتصرف في مال ولده بالاسترباح والغبطة ، والله سبحانه يأخذ الحبة فيربيها مثل جبل أحد . ومنها أن المناسبة والميل والحبة بين الوالد وولده ذاتية حتى عمت جميع الحيوان ، كما أن المناسبة بين الواجب والممكن ذاتية لا عرضية ، وههنا أسرار فليتأمل . ومنها أنه لا كمال يمكن للولد إلا ويطلبه الوالد لأجله ويريده عليه ، كما أن الله تعالى لا خير يمكن للعبد إلا وهو يريده عليه ، ولهذا أرسل الرسل وأنزل الكتب ونصب الأدلة وأزاح العلة ، ومن غاية شفقة الوالدين أنهما لا يحسدان ولدهما إذا كان خيراً منهما بل يتمنيان ذلك بخلاف غيرهما فإنه لا يرضى أن يكون غيره خيراً منه . وتعظيم الوالدين أمر معتبر في جميع الشرائع ومركوز في كل العقول ، وقد ورد " أطع الوالدين وإن كانا كافرين " وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه نهى حنظلة بن أبي عامر الراهب عن قتل أبيه وكان مشركاً ، ولهذا أطلق الإحسان إليهما في الآية إطلاقاً . وقد تلطف إبراهيم عليه السلام في دعوة أبيه من الكفر إلى الإيمان في قوله ﴿ يا أبت ، يا أبت ﴾ والإحسان إليهما أن يحبهما من صميم القلب ويراعي دقائق الأدب والخدمة والشفقة ويبذل وسعه في رضاهما قولاً وفعلاً ، ولا يمنع أعز أوقاته وكرائم أمواله

عنهما ، ويجتهد في تنفيذ وصاياهما ويذكرهما في صالح دعائه كما أرشد الله تعالى إلى جميع ما ذكرنا في قوله ﴿ فلا تقل لهما أف ﴾ [الإسراء : 23] إلى آخر الآية .

(38/58)

التكليف الثالث : الإحسان إلى ذوي القرابة ويعبر عنه بصلة الرحم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم " الرحم شجنة من الرحمن قال الله : من وصلك وصلته ومن قطعك قطعته " والشجنة الاشتباك أي الرحم مشتقة من الرحمن يعني أنها قرابة من الله مشتبكة كاشتباك العروق والسبب العقلي في تأكيد رعاية هذا الحق أن القرابة مظنة الاتحاد والألفة والرعاية والنصرة ، ولهذا صار كالتابع لحق الوالدين لأن الإنسان إنما يتصل به أقرباؤه بواسطة اتصالهم بالوالدين قال الشافعي : لو أوصى لأقارب زيد دخل فيه الوارث وغير الوارث ، والمحرم وغير المحرم ، والمسلم والكافر ، والذكر والأنثى ، والغني والفقير ، والأجداد والأحفاد ، لا الأبوان والولد على الأظهر ، لأن الوالد والولد لا يعرفان في العرف بالقريب .

(39/58)

وههنا دقيقة وهي أن العرب يحفظون الأجداد العالية ليرتفع نسبهم ، ونحن لو ترقينا إلى الجد العالي وحسبنا أولاده كثروا ، فلهذا قال الشافعي : نرتقي إلى أقرب جد ينسب هو إليه ويعرف به . وذكروا في مثاله أنه لو أوصى لأقارب الشافعي فإنا نصرفه إلى أولاد شافع فإنه منسوب إليه ، ولا يدخل فيها أولاد علي والعباس وإن كان شافع وعلي والعباس كلهم أولاد السائب بن عبيد ، والشافعي هو محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب ابن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف . قال المحققون : هذا في زمان الشافعي ، وأما في زماننا فلا نصرفه إلا إلى أولاد الشافعي ولا نرتقي إلى بني شافع لأنه أقرب من يعرف به أقاربه في زماننا ، ولا يدخل الأقارب من الأم في وصية العرب لأن قرابة الأم لا تعدها العرب قرابة ولا تفتخر بها أما لو أوصى لذي رحم زيد فيدخل فيه قرابة الأم في وصية العرب والعجم ، لأن لفظ الرحم لا يختص بطرف الأب بحال . وذهبت طائفة إلى أن الأقوى على ما أجاب به العراقيون ومال إليه أبو حنيفة ، هو أن أقارب الأم تدخل في الوصية سواء كانت في وصية العرب أو وصية العجم ، وتوجيه الفارق ممنوع لقوله صلى الله عليه وسلم " سعد خالي فليرني امرؤ خاله " . والإحسان إلى الأقارب قريب من الإحسان إلى الوالدين ، وذلك بأن يجتهد في رضاهم بما تيسر له عرفاً وشرعاً ، وينفق عليهم بالمعروف إن كانوا معسرين وهو موسر .

التكليف الرابع : الإحسان إلى اليتامى واليتيم من الأطفال الذي مات أبوه إلى أن يبلغ الحلم ، فيجب على وليه حفظ ماله واستنماؤه قدر النفقة والزكاة ومؤن الملك بما أمكنه والقيام بمصالحه مع رعاية دقائق الغبطة وقضاء حقوق النصيحة . قال ابن عباس : يرفق بهم ويدنيهم ويمسح رأسهم . واليتم في غير الإنسان من قبل أمه ، واليتيم من الدر ما لا أخت له وإنما يجمع " يتيم " على " يتامى " لأن اليتم لما كان من صفات الابتلاء حمل على الوجع والحبط . فكما قالوا في وجع وحبط للمنتفخ البطن ، وجاعي وحباطي ، قيل في يتيم يتامى . وفي الكشاف : إنه أجرى يتيم مجرى الأسماء نحو " صاحب " و " فارس " فقيل " يتائم " ثم " يتامى " على القلب وكذا في اليتيمة .

التكليف الخامس : الإحسان إلى المساكين واحدها مسكين أخذ من السكون ، كأن الفقر سكنه ، أو لأنه الدائم السكون إلى الناس ، لأنه لا شيء له كالسكير الدائم السكر وهو أسوأ حالاً من الفقير عند أكثر أهل اللغة وهو قول أبي حنيفة ومالك ، واحتجوا عليه بقوله تعالى ﴿ أو مسكيناً ذا متربة ﴾

[البلد : 16] وعند الشافعي وأحمد : الأمر بالعكس قالوا : اشتقاق الفقير من فقار

الظهر ، كأن فقاره انكسرت لشدة حاجته ، والمسكين قد يملك ما يتعلل به كما في قوله تعالى ﴿ أما السفينة فكانت لمساكين ﴾ [الكهف : 79] ويظهر أثر الخلاف فيما لو أوصى للفقراء دون المساكين أو بالعكس . والإحسان إلى ذوي القربى واليتامى والمساكين ينبغي أن يكون مغايراً للزكاة لأن العطف يقتضي التغاير .

(41/58)

التكليف السادس : ﴿ وقولوا للناس حسناً ﴾ بالوصف أي قولاً حسناً . وحسناً على المصدر أي قولاً ذا حسن ، أو قولاً هو الحسن في نفسه لإفراط حسنه ، أو ليحسن قولكم حسناً . والظاهر أن المخاطبين بذلك هم الذين أخذ ميثاقهم لاتحاد القصة . قيل : إنه مخصوص إما بتخصيص الناس أي قولوا للمؤمنين حسناً بدليل آية القتال ﴿ أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾ [الفتح : 29] وإما بتخصيص القول أي قولوا للناس حسناً في الدعاء إلى الله والأمر بالمعروف . وقال أهل الحقيقة : إنه على العموم وذلك أن كلام الناس مع الناس في الأمور الدينية إن كان بالدعوة إلى الإيمان وجب أن يكون بالرفق واللين كما قال لموسى ﴿ فقولا له قولاً ليناً ﴾ [طه : 44] وقال لمحمد صلى الله عليه وسلم ﴿ ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ﴾ [آل عمران : 159] وإن كان بالدعوة إلى

الطاعة كالفساق فحسن القول أيضاً معتبر ﴿ أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ﴾ [النحل : 125] ﴿ ادفع بالتي هي أحسن ﴾ [فصلت : 34] وأما في الأمور الدنيوية فمن المعلوم أنه إذا أمكن التوصل إلى الغرض باللطيف من القول لم يعدل إلى غيره ، وما دخل الرفق في شيء إلا زانه ، وما دخل الخرق في شيء إلا شانه ، فثبت أن جميع آداب الدين والدنيا داخل تحت هذا القول . وعن الباقر : قولوا للناس ما تحبون أن يقال لكم .

التكليف السابع والثامن : قوله ﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾ وقد تقدم تفسيرهما . ولا شك في وجوب هذه التكاليف عليهم بدليل : أخذ الميثاق ، ولأن ظاهر الأمر للوجوب ولترتب الذم عليه بتوليهم ، وهذه التكاليف أيضاً واجبة في شرعنا . وعن ابن عباس : أن الزكاة نسخت كل حق . وضعف بأن إغاثة المضطر واجبة وإن لم تجب علينا الزكاة . واعلم أن التكليف إما بدني أو مالي وكل منهما إما عام أو خاص . فالبدني العام هو العبادة المطلقة ، وهي أن يكون بكل الجوارح والقوى منقاداً مطيعاً مؤتمراً لأمر الله تعالى ، بحيث لا يرى لنفسه شيئاً من التصرف والاختيار كالعبد الماثل بين يدي مولاه وإليه الإشارة بقوله

تعالى ﴿ لا تعبدون إلا الله ﴾ . والبدني الخاص هو الصلاة وأشار إليه بقوله ﴿ وأقيموا الصلاة ﴾ فللصلاة أوقات مخصوصة وأركان وشروط معدودة . والمالي الخاص هو الزكاة لتخصصها بالأصناف الزكوية وبالنصاب وبالحول وغير ذلك . والمالي العام لكونه منوطاً بالقدرة . والإمكان سببه إما نسب أولاً ، والنسب إما سابق أو مقارن أو لاحق . فالسابق الوالدان ، والمقارن الأقارب ، واللاحق اليتامى ، لأنهم أولاد .

وذلك إذا كان الولي جداً أو بمنزلة الأولاد ، وذلك إذا كان الولي غيره . وغير النسب إما الاحتياج والفقر وهو المساكين ، أو الاشتراك في النوع ، ولا يمكن إلا بالقول الحسن ، وما ينخرط في سلكه من مكارم الأخلاق الفعلية " إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم ولكن سعوهم بأخلاقكم " فالقول الحسن يشمل الأصناف المتقدمة أيضاً بهذا الاعتبار ، وحين هذا الترتيب مما لا مزيد عليه ، وقد كرر أكثر هذه المعاني في سورة النساء بضرب من التأكيد ، فأكد العبادة بقوله ﴿ ولا تشركوا به شيئاً ﴾ [النساء : 36] وأكد الإحسان إلى ذي القربى . وما يتلوه بتكرير الجار وهو الباء وبضم أصناف أخر وهم الجار وغيره إليهم فكأنه كالتفصيل لقوله ﴿ وقولوا للناس حسناً ﴾ .

قوله تعالى ﴿ ثم توليتم ﴾ قيل الخطاب لمتقدمي بني إسرائيل على طريقة الالتفات ، ووجهه أن أول الكلام معهم فكذا آخره إلا بدليل يوجب الانصراف عن هذا الظاهر ، وقيل : إنه خطاب لمن كان في عصر النبي صلى الله عليه وسلم من اليهود ، كأنه تعالى بين أن تلك المواثيق كما لزمهم التمسك بها فكذلك هي لازمة لكم لأنكم تعلمون ما في التوراة من نعت محمد صلى الله عليه وسلم وصحة نبوته ، فيلزمكم من الحجة مثل الذي لزمهم وأنتم مع ذلك قد توليتم إلا قليلاً منكم وهم الذين آمنوا وأنتم معرضون . الواو للاعتراض أي وأنتم قوم من عادتكم الإعراض ، أعرضتم بعد ظهور المعجزات كإعراض أسلافكم . وقيل : ثم توليتم للمتقدمين وأنتم معرضون للمتأخرين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 1 صـ 326.322 ﴾

ومن فوائد الآلوسى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا ميثاق بَنِى إسرائيل ﴾

شروع في تعداد بعض آخر من قبائح أسلاف اليهود مما ينادي باستبعاد إيمان أخلافهم ، وقيل : إنه نوع آخر من النعم التي خصهم الله تعالى بها ، وذلك لأن التكليف بهذه الأشياء موصل إلى أعظم النعم وهو الجنة والموصل إلى النعمة نعمة ، وهذا الميثاق ما أخذ عليهم على لسان موسى وغيره من أنبيائهم عليهم السلام ، أو ميثاق أخذ عليهم في التوراة ، وقول

مكي : إنه ميثاق أخذه الله تعالى عليهم وهم في أصلاب آبائهم كالذر لا يظهرهم وجهه هنا .

(44/58)

﴿ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللهَ ﴾ على إرادة القول أي قلنا أو قائلين ليرتبط بما قبله وهو إخبار في معنى النهي كقوله تعالى : ﴿ لاَ يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلاَ شَهِيدٌ ﴾ [البقرة : 282] وكما تقول : تذهب إلى فلان وتقول له كيت وكيت ، وإلى ذلك ذهب الفراء ، ويرجحه أنه أبلغ من صريح النهي لما فيه من إيهام أن المنهي كأنه سارع إلى ذلك فوقع منه حتى أخبر عنه بالحال أو الماضي أي ينبغي أن يكون كذلك فلا يرد أن حال المخبر عنه على خلافه وأنه قرأ ابن مسعود ﴿ لاَّ تَعْبُدُواْ ﴾ على النهي وأن ﴿ قُولُواْ ﴾ عطف عليه فيحصل التناسب المعنوي بينهما في كونهما إنشاء ، وإن كان يجوز عطف الإنشاء على الإخبار فيما له محل من الإعراب ، وقيل : تقديره أن لا تعبدوا ، فلما حذف الناصب ارتفع الفعل ، ولا يجب الرفع بعد الحذف في مثل ذلك خلافاً لبعضهم وإلى هذا ذهب الأخفش ونظيره من نثر العرب مره يحفرها ومن نظمها :

ألا أيها الزاجري احضر الوغى . . .

وإن أشهد اللذات هل أنت مخلدي

ويؤيد هذا قراءة ﴿ أَن لاَّ تَعْبُدُواْ ﴾ ويضعفه أن (أن) لا تحذف قياساً في مواضع ليس هذا منها ؛ فلا ينبغي تخريج الآية عليه ، وعلى تخريجها عليه فهو مصدر مؤول بدل من الميثاق أو مفعول به بحذف حرف الجر أي بأن لا أو على أن لا ، وقيل : إنه جواب قسم دل عليه الكلام ، أي حلفنا هم لا تعبدون ، أو جواب الميثاق نفسه لأن له حكم القسم ، وعليه يخلو الكلام عما مر في وجه رجحان الأول ، وقرأ نافع ، وابن عامر ، وأبو عمرو ، وعاصم ، ويعقوب ، بالتاء حكاية لما خوطبوا به والباقون بالياء لأنهم غيب ، وفي الآية حينئذٍ التفاتان في لفظ الجلالة و(يعبدون) .

(45/58)

﴿ وبالوالدين إِحْسَاناً ﴾ متعلق بمضمر تقديره وتحسنون ، أو أحسنوا ، والجملة معطوفة على (تعبدون) وجوّز تعلقه ب (إحساناً) وهو يتعدى بالباء ، وإلى كـ ﴿ أَحْسَنَ بِى إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ السجن ﴾ [يوسف : 100] ﴿ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ الله إِلَيْكَ ﴾ [القصص : 77] ومنع تقدم معمول المصدر عليه مطلقاً ممنوع ، ومن المعربين من قدر استوصوا فبالوالدين متعلق به و(إحساناً) مفعوله ، ومنهم من قدر ووصينا هم فإحساناً

مفعول لأجله ، والوالدان تثنية والد لأنه يطلق على الأب والأم أو تغليب بناءً على أنه لا يقال إلا للأب كما ذهب إليه الحلبي ، وقد دلت الآية على الحث ببر الوالدين وإكرامهما ، والآيات والأحاديث في ذلك كثيرة ، وناهيك احتفالاً بهما أن الله عز اسمه قرن ذلك بعبادته .

﴿ وَذِى القربى واليتامى والمساكين ﴾ عطف على (الوالدين) والقربى مصدر كالرجعى والألف فيه للتأنيث وهي قرابة الرحم والصلب .

واليتامى وزنه فعالى وألفه للتأنيث ، وهو جمع يتيم كنديم وندامى ، ولا ينقاس ، ويجمع على أيتام .

واليتم أصل معناه الانفراد ، ومنه : الدرة اليتيمة ، وقال ثعلب : الغفلة ، وسمي اليتيم يتيماً لأنه يتغافل عن بره ، وقال أبو عمرو : الإبطاء لإبطاء البر عنه ، وهو في الآدميين من قبل الآباء ولا يتم بعد بلوغ وفي البهائم من قبل الأمهات ، وفي الطيور من جهتهما .

وحكى الماوردي أنه يقال في الآدميين لمن فقدت أمه أيضاً والأول هو المعروف والمساكين جمع مسكين على وزن مفعيل مشتق من السكون ، كأن الحاجة أسكنته فالميم زائدة كمحضر من الحضور ، وروي تمسكن فلان والأصح تسكن أي صار مسكيناً والفرق بينه

وبين الفقير معروف وسيأتي إن شاء الله تعالى وقد جاء هذا الترتيب اعتناءً بالأوكد فالأوكد ، فبدأ بالوالدين إذ لا يخفى تقدمهما على كل أحد في الإحسان إليهما ، ثم بذي القربى لأن صلة الأرحام مؤكدة ، ولمشاركة الوالدين في القرابة وكونهما منشأ لها وقد ورد في الأثر " إن الله تعالى خاطب الرحم فقال : أنت الرحم وأنا الرحمن أصل من وصلك وأقطع من قطعك " ، ثم باليتامى لأنهم لا قدرة لهم تامة على الاكتساب ، وقد جاء : " أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين " وأشار صلى الله عليه وسلم إلى السبابة والوسطى وتأخرت درجة المساكين لأن المسكين يمكنه أن يتعهد نفسه بالاستخدام ويصلح معيشته مهما أمكن بخلاف اليتيم فإنه لصغره لا ينتفع به ويحتاج إلى من ينفعه وأفرد (ذي القربى) كما في " البحر " لأنه أريد به الجنس ، ولأن إضافته إلى المصدر يندرج فيه كل ذي قرابة ، وكأن فيه إشارة إلى أن ذوي القربى وإن كثروا كشيء واحد لا ينبغي أن يضجر من الإحسان إليهم .

﴿ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ أي قولاً حسناً سماه به للمبالغة وقيل : هو لغة في الحسن كالبخل والبخل والرشد والرشد ، والعرب والعرب ، والمراد قولوا لهم القول الطيب وجاوبوهم بأحسن ما يحبون قاله أبو العالية وقال سفيان الثوري : مروهم بالمعروف

وانهوهم عن المنكر ، وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : قولوا لهم لا إله إلا الله مروهم بها ، وقال ابن جريج : أعلموهم بما في كتابكم من صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقول أبي العالية في المرتبة العالية والظاهر أن هذا الأمر من جملة الميثاق المأخوذ على بني إسرائيل : ومن قال : إن المخاطب به الأمة وهو محكم أو منسوخ بآية السيف أو إن الناس مخصوص بصالحي المؤمنين إذ لا يكون القول الحسن مع الكفار والفساق لأنا أمرنا بلعنهم وذمهم ومحاربتهم فقد أبعد وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب ﴿ حَسَنًا ﴾ بفتحتين وعطاء وعيسى بضمتين وهي لغة الحجاز وأبو طلحة بن مصرف ﴿ حسنى ﴾ على وزن فعلى ، واختلف في وجهه فقيل : هو مصدر كرجعى ، واعترضه أبو حيان بأنه غير مقيس ولم يسمع فيه ، وقيل : هو صفة كحبلى أي مقالة أو كلمة حسنى وفي الوصف بها وجهان أحدهما : أن تكون باقية على أنها للتفضيل واستعمالها بغير الألف واللام والإضافة للمعرفة نادر وقد جاء ذلك في الشعر كقوله :

وإن دعوت إلى جلى ومكرمة . . .

يوماً كرام سراة الناس فادعينا

وثانيهما : أن تجرد عن التفضيل فتكون بمعنى حسنة كما قالوا ذلك في : (يوسف أحسن إخوته) وقرأ الجحدري : ﴿ وبالوالدين إحسانا ﴾ على أنه مصدر أحسن الذي همزته

للصيرورة كما تقول : أعشبت الأرض إعشاباً أي صارت ذا عشب فهو حينئذٍ نعت لمصدر محذوف أي قولاً ذا حسن .

(48/58)

﴿ وَأَقِيمُواْ الصلاة وَءاتُواْ الزكواة ﴾ أراد سبحانه بهما ما فرض عليهم في ملتهم لأنه حكاية لما وقع في زمان موسى عليه السلام وكانت زكاة أموالهم كما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قرباناً تهبط إليها نار فتحملها وكان ذلك علامة القبول وما لا تفعل النار به كذلك كان غير متقبل ، والقول بأن المراد بهما هذه الصلاة وهذه الزكاة المفروضتان علينا ، والخطاب لمن بحضرة النبي صلى الله عليه وسلم من أبناء اليهود لا غير ، والأمر بهما كناية عن الأمر بالإسلام ، أو للإيذان بأن الكفار مخاطبون بالفروع أيضاً ليس بشيء كما لا يخفى .

﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ ﴾ أي أعرضتم عن الميثاق ورفضتموه .

و﴿ ثُمَّ ﴾ للاستبعاد أو لحقيقة التراخي فيكون توبيخاً لهم بالارتداد بعد الانقياد مدة مديدة وهو أشنع من العصيان من الأول ، وقد ذكر بعض المحققين أنه إذا جعل ناصب الظرف خطاباً له صلى الله عليه وسلم والمؤمنين فهذا التفات إلى خطاب بني إسرائيل

جميعاً بتغليب أخلافهم على أسلافهم لجريان ذكرهم كلهم حينئذٍ على نهج الغيبة ، فإن الخطابات السابقة للأسلاف محكية بالقول المقدر قبل لا تعبدون كأنهم استحضروا عند ذكر جناياتهم فنعيت عليهم وإن جعل خطاباً لليهود المعاصرين فهذا تعميم للخطاب بتنزيل الأسلاف منزلة الأخلاف كما أنه تعميم للتولي بتنزيل الأخلاف منزلة الأسلاف للتشديد في التوبيخ ، وقيل : الالتفات إنما يجيء على قراءة ﴿ لاَ يَعْبُدُونَ ﴾ بالغيبة ، وأما على قراءة الخطاب فلا التفات ومن الناس من جعل هذا الخطاب خاصاً بالحاضرين في زمنه عليه الصلاة والسلام وما تقدم خاصاً بمن تقدم ، وجعل الالتفات على القراءتين لكنه بالمعنى الغير المصطلح عليه أن كون الالتفات بين خطابين لاختلافهما لم يقل به أهل المعاني لكنه وقع مثله في كلام بعض الأدباء وما ذكرناه من التغليب أولى وأحرى خلافاً لمن التفت عنه .

﴿ إِلاَّ قَلِيلاً مِنْكُمْ ﴾ وهم من الأسلاف من أقام اليهودية على وجهها قبل النسخ ، ومن الأخلاف من أسلم كعبد الله بن سلام وأضرابه فالقلة في عدد الأشخاص ، وقول ابن عطية : إنه يحتمل أن تكون في الإيمان أي لم يبق حين عصوا وكفر آخرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم إلا إيمان قليل إذ لا ينفعهم لا يقدم عليه إلا القليل ممن لم يعط فهماً في الألفاظ

العربية ، وروي عن أبي عمرو وغيره رفع قليل والكثير المشهور في أمثال ذلك النصب لأن ما قبله موجب ، واختلفوا في تخريج الرفق فقيل : إن المرفوع تأكيد للضمير أو بدل منه ، وجاز لأن (توليتم) في معنى النفي أي لم يفوا ، وقد خرّج غير واحد قوله صلى الله عليه وسلم : فيما صح على الصحيح : " العالمون هلكى إلا العالمون ، والعالمون هلكى إلا العاملون ، والعاملون هلكى إلا المخلصون ، والمخلصون على خطر " وقول الشاعر :

وبالصريمة منهم منزل خلق . . .

عاف تغير إلا النوء والوتد

على ذلك ، وقول أبي حيان إنه ليس بشيء إذ ما من إثبات إلا ويمكن تأويله بنفي فيلزم جواز قام القوم إلا زيد بالرفع على التأويل والإبدال ولم يجوزه النحويون ليس بشيء كما لا يخفى ، وقيل : إن (إلا) صفة بمعنى غير ظهر إعرابها فيما بعدها ، وقد عقد سيبويه لذلك باباً في "كتابه" فقال : هذا باب ما يكون فيه إلا وما بعدها وصفاً بمنزلة غير ومثل ، وذكر من أمثلة هذا الباب لو كان معنا رجل إلا زيد لغلبنا و ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء : 22] وقوله :

أينخت فألقت بلدة فوق بلدة . . .

قليل بها الأصوات إلا بغامها

وخرج جمع جميع ما سلف على هذا ، وفيه أن ذلك فيما نحن فيه لا يستقيم إلا على مذهب ابن عصفور حيث ذهب إلى أن الوصف ب (إلا) يخالف الوصف بغيرها من حيث إنه يوصف بها النكرة والمعرفة ، والظاهر والمضمر وأما على مذهب غيره وهو ابن شاهين بالنسبة إليه من أنه لا يوصف بها إلا إذا كان الموصوف نكرة أو معرفة بلام الجنس فلا ، والمبرد يشترط في الوصف بها صلاحية البدل في موضعه ؛ وقيل : إنه مبتدأ خبره محذوف أي لم يقولوا ولا يرد عليه شيء مما تقدم إلا أن فيه كلاماً سنذكره إن شاء الله تعالى عند قوله تعالى : ﴿ إِلا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ الساجدين ﴾ [الأعراف : 11] .

﴿ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ جملة معترضة أي وأنتم قوم عادتكم الإعراض والتولي عن المواثيق ، ويؤخذ كونه عادتهم من الاسمية الدالة على الثبوت ، وقيل : حال مؤكدة والتولي والإعراض شيء واحد ويجوز فصل الحال المؤكدة بالواو عند المحققين وفرق بعضهم بين التولي والإعراض بأن الأول قد يكون لحاجة تدعو إلى الانصراف مع ثبوت العقد والإعراض هو الانصراف عن الشيء بالقلب .

وقيل : إن التولي أن يرجع عوده إلى بدئه ، والإعراض أن يترك المنهج ويأخذ في عرض الطريق والمتولي أقرب أمراً من المعرض لأنه متى عزم سهل عليه العود إلى سلوك المنهج والمعرض حيث ترك المنهج وأخذ في عرض الطريق يحتاج إلى طلب منهجه فيعسر عليه العود إليه .

ومن الناس من جوز أن يكون (معرضون) على ظاهره ، والجملة حال مقيدة أي لم يتول القليل وأنتم معرضون عنهم ساخطون لهم فيكون في ذلك مزيد توبيخ لهم ومدحاً للقليل فهو بعيد كالقول بأنها مقيدة ومتعلق التولي والإعراض مختلف أي توليتم على المضي في الميثاق وأعرضتم عن اتباع هذا النبي صلى الله عليه وسلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴾ روح المعانى حـ 1 صـ 307.310 ﴿

(51/58)

ومن فوائد ابن عاشور فى الآية

قال رحمه الله :

أعيد ذكر أحوال بني إسرائيل بعد ذلك الاستطراد المتفنن فيه ، فأعيد الأسلوب القديم وهو العطف بإعادة لفظ (إذ) في أول القصص .

وأظهر هنا لفظ ﴾ بني إسرائيل ﴿ وعدل عن الأسلوب السابق الواقع فيه التعبير بضمير الخطاب المراد به سلف المخاطبين وخلفهم لوجهين : أحدهما أن هذا رجوع إلى مجادلة بني إسرائيل وتوقيفهم على مساويهم فهو افتتاح ثان جرى على أسلوب الافتتاح الواقع في قوله تعالى : ﴾ يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعدكم ﴿

[البقرة : 40] الآية .

ثانيهما : أن ما سيذكر هنا لما كان من الأحوال التي اتصف بها السلف والخلف وكان المقصود الأول منه إثبات سوء صنيع الموجودين في زمن القرآن تعين أن يعبر عن سلفهم باللفظ الصريح ليتأتى توجيه الخطاب من بعد ذلك إلى المخاطبين حتى لا يظن أنه من الخطاب الذي أريد به أسلافهم على وزان ﴿ وإذ نجيناكم من آل فرعون ﴾ [البقرة : 49] أو على وزان ﴿ ثم اتخذتم العجل من بعده ﴾ [البقرة : 51] .

وقوله : ﴿ ميثاق بني إسرائيل ﴾ أريد به أسلافهم لأنهم الذين أعطوا الميثاق لموسى على امتثال ما أنزل الله من التوراة كما قدمناه ، أو المراد بلفظ (بني إسرائيل) المتقدمون والمتأخرون ، والمراد بالخطاب في ﴿ توليتم ﴾ خصوص من بعدهم لأنهم الذين تولوا فليس في الكلام التفات ما ، وهو أولى من جعل ما صدق ﴿ بني إسرائيل ﴾ هو ما صدق ضمير ﴿ توليتم ﴾ وأن الكلام التفات .

وقوله : ﴿ لا تعبدون إلا الله ﴾ خبر في معنى الأمر ومجيء الخبر للأمر أبلغ من صيغة الأمر لأن الخبر مستعمل في غير معناه لعلاقة مشابهة الأمر الموثوق بامتثاله بالشيء الحاصل حتى إنه يخبر عنه .

وجملة ﴿ لا تعبدون ﴾ مبدأ بيان للميثاق فلذلك فصلت وعطف ما بعدها عليها ليكون مشاركاً لها في معنى البيانية سواء قَدَّرْت أنْ أو لم تقدِّرْها أو قدَّرت قولاً محذوفاً .

وقوله : ﴿ وبالوالدين إحساناً ﴾ هو مما أخذ عليهم الميثاق به وهو أمر مؤكد لما دل عليه تقديم المتعلق على متعلقه وهما ﴿ بالوالدين إحساناً ﴾ وأصله وإحساناً بالوالدين ، والمصدر بدل من فعله والتقدير وأحسنوا بالوالدين إحساناً .

ولا يريبكم أنه معمول مصدر وهو لا يتقدم على عامله على مذهب البصريين لأن تلك دعوى واهية دعاهم إليها أن المصدر في معنى أنْ والفعل فهو في قوة الصلة ومعمول الصلة لا يتقدم عليها مع أن أن والفعل هي التي تكون في معنى المصدر لا العكس ، والعجب من ابن جني كيف تابعهم في " شرحه للحماسة" على هذا عند قول الحماسي :

وبعض الحلم عند الجهل للذلة إذعان . . .

وعلى طريقتهم تعلق قوله : ﴿ بالوالدين ﴾ بفعل محذوف تقديره وأحسنوا ، وقوله : ﴿ إحساناً ﴾ مصدر ويرد عليهم أن حذف عامل المصدر المؤكد ممتنع لأنه تبطل به فائدة التأكيد الحاصلة من التكرير فلا حاجة إلى جميع ذلك .

ونجزم بأن المجرور مقدم على المصدر ، على أن التوسع في المجرورات أمر شائع وأصل مفروغ منه . أهـ

واليتامى جمع يتيم كالندامى للنديم وهو قليل في جمع فعيل .

وجعل الإحسان لسائر الناس بالقول لأنه القدر الذي يمكن معاملة جميع الناس به وذلك أن أصل القول أن يكون عن اعتقاد ، فهم إذا قالوا للناس حسناً فقد أضمروا لهم خيراً وذلك أصل حسن المعاملة مع الخلق قال النبيء صلى الله عليه وسلم " لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه " وقد علمنا الله تعالى ذلك بقوله : ﴿ ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ﴾ [الحشر : 10] على أنه إذا عرض ما يوجب تكدر الخاطر فإن القول الحسن يزيل ما في نفس القائل من الكدر ويرى للمقول له الصفاء فلا يعامله إلا بالصفاء قال المعري :

والخل كالماء يبدي لي ضمائره . . .

مع الصفاء ويُخيفها مع الكدر

على أن الله أمر بالإحسان الفعلي حيث يتعين ويدخل تحت قدرة المأمور وذلك الإحسان للوالدين وذي القربى واليتامى والمساكين وإيتاء الزكاة ، وأمر بالإحسان القولي إذا تعذر الفعلي على حد قول أبي الطيب :

فليسعد النطق إن لم تسعد الحال . . .

وقوله : ﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾ أطلقت الزكاة فيه على الصدقة مطلقاً أو على الصدقة الواجبة على الأموال : وليس المراد الكناية عن شريعة الإسلام لما علمت من أن هاته المعاطيق تابعة لبيان الميثاق وهو عهد موسى عليه السلام .

وقوله : ﴿ ثم توليتم إلا قليلاً منكم ﴾ خطاب للحاضرين وليس بالتفات كما علمت آنفاً . والمعنى أخذنا ميثاق الأمة الإسرائيلية على التوحيد وأصول الإحسان فكنتم ممن تولى عن ذلك وعصيتم شرعاً اتبعتموه .

والتولي الإعراض وإبطال ما التزموه ، وحذف متعلقه لدلالة ما تقدم عليه ، أي توليتم عن جميع ما أخذ علكيم الميثاق به أي أشركتم بالله وعبدتم الأصنام وعققتم الوالدين وأسأتم لذوي القربى واليتامى والمساكين وقلتم للناس أفحش القول وتركتم الصلاة ومنعتم الزكاة .

ويجوز أن يكون المراد بالخطاب في ﴿ توليتم ﴾ المخاطبين زمن نزول الآية ، وبعض من تقدمهم من متوسط عصور الإسرائيليين فيكون ضمير الخطاب تغليباً ، نكتته إظهار براءة الذين أخذ عليهم العهد أولاً من نكثه وهو من الإخبار بالجمع والمراد التوزيع أي توليتم فمنكم من لم يحسن للوالدين وذي القربى إلخ وهذا من صفات اليهود في عصر نزول الآية كما سيأتي في تفسير الآية التي بعدها ، ومنكم من أشرك بالله وهذا لم ينقل عن يهود زمن النزول وإنما هو من صفات من تقدمهم من بعد سليمان فقد كانت من ملوك إسرائيل عبدة أصنام وتكرر ذلك فيهم مراراً كما هو مسطور في سفري الملوك الأول والثاني من التوراة .

و(ثم) للترتيبين الترتبي والخارجي .

وقوله : ﴿ إلا قليلاً منكم ﴾ إنصاف لهم في توبيخهم ومذمتهم وإعلان بفضل من حافظ على العهد .

(54/58)

وقوله : ﴿ وأنتم معرضون ﴾ جملة حالية ولكونها اسمية أفادت أن الإعراض وصف ثابت لهم وعادة معروفة منهم كما أشار إليه في " الكشاف" وهو مبني على اعتبار اسم الفاعل مشتقاً من فعل منزل منزلة اللازم ولا يقدر له متعلق ويجوز أن يقدر مشتقاً من فعل حذف متعلقه تعويلاً على القرينة أي وأنتم معرضون عن الوصايا التي تضمنت ذلك الميثاق أي توليتم عن تعمد وجرأة وقلة اكتراث بالوصايا وتركاً للتدبر فيها والعمل بها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 1 صـ 563.566 ﴾

ومن فوائد السعدى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ

وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ .

وهذه الشرائع من أصول الدين ، التي أمر الله بها في كل شريعة ، لاشتمالها على المصالح العامة ، في كل زمان ومكان ، فلا يدخلها نسخ ، كأصل الدين ، ولهذا أمرنا بها في قوله : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ إلى آخر الآية .

فقوله : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ هذا من قسوتهم أن كل أمر أمروا به ، استعصوا ؛ فلا يقبلونه إلا بالأيمان الغليظة ، والعهود الموثقة ﴿ لا تَعْبُدُونَ إِلا اللَّهَ ﴾ هذا أمر بعبادة الله وحده ، ونهى عن الشرك به ، وهذا أصل الدين ، فلا تقبل الأعمال كلها إن لم يكن هذا أساسها ، فهذا حق الله تعالى على عباده ، ثم قال : ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ أي : أحسنوا بالوالدين إحسانا ، وهذا يعم كل إحسان قولي وفعلي مما هو إحسان إليهم ، وفيه النهي عن الإساءة إلى الوالدين ، أو عدم الإحسان والإساءة ، لأن الواجب الإحسان ، والأمر بالشيء نهي عن ضده .

(55/58)

وللإحسان ضدان : الإساءة ، وهي أعظم جرما ، وترك الإحسان بدون إساءة ، وهذا محرم ، لكن لا يجب أن يلحق بالأول ، وكذا يقال في صلة الأقارب واليتامى ، والمساكين ،

وتفاصيل الإحسان لا تنحصر بالعد ، بل تكون بالحد ، كما تقدم .

ثم أمر بالإحسان إلى الناس عموما فقال : ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ ومن القول الحسن أمرهم بالمعروف ، ونهيهم عن المنكر ، وتعليمهم العلم ، وبذل السلام ، والبشاشة وغير ذلك من كل كلام طيب .

ولما كان الإنسان لا يسع الناس بماله ، أمر بأمر يقدر به على الإحسان إلى كل مخلوق ، وهو الإحسان بالقول ، فيكون في ضمن ذلك النهي عن الكلام القبيح للناس حتى للكفار ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ .

ومن أدب الإنسان الذي أدب الله به [ص 58] عباده ، أن يكون الإنسان نزيها في أقواله وأفعاله ، غير فاحش ولا بذيء ، ولا شاتم ، ولا مخاصم ، بل يكون حسن الخلق ، واسع الحلم ، مجاملا لكل أحد ، صبورا على ما يناله من أذى الخلق ، امتثالا لأمر الله ، ورجاء لثوابه .

ثم أمرهم بإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، لما تقدم أن الصلاة متضمنة للإخلاص للمعبود ، والزكاة متضمنة للإحسان إلى العبيد .

﴿ ثُمَّ ﴾ بعد هذا الأمر لكم بهذه الأوامر الحسنة التي إذا نظر إليها البصير العاقل ، عرف أن من إحسان الله على عباده أن أمرهم بها ، وتفضل بها عليهم وأخذ المواثيق عليكم ﴿ تَوَلَّيْتُمْ ﴾ على وجه الإعراض ، لأن المتولي قد يتولى ، وله نية رجوع إلى ما تولى عنه ،

وهؤلاء ليس لهم رغبة ولا رجوع في هذه الأوامر ، فنعوذ بالله من الخذلان .

وقوله : ﴿ إِلا قَلِيلا مِنْكُمْ ﴾ هذا استثناء ، لئلا يوهم أنهم تولوا كلهم ، فأخبر أن قليلا منهم ، عصمهم الله وثبتهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير السعدى صـ 57 ﴾

(56/58)

فصل

قال ابن كثير :

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلا قَلِيلا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ (83) ﴾

يُذكّر تبارك وتعالى بني إسرائيل بما أمرهم به من الأوامر ، وأخذ ميثاقهم على ذلك ، وأنهم تولوا عن ذلك كله ، وأعرضوا قصدًا وعمدًا ، وهم يعرفونه ويذكرونه ، فأمرهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا . وبهذا أمر جميع خلقه ، ولذلك خلقهم كما قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء : 25]

وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾

[النحل : 36] وهذا هو أعلى الحقوق وأعظمها ، وهو حق الله تعالى ، أن يعبد وحده لا شريك له ، ثم بعده حق المخلوقين ، وآكدهم وأولاهم بذلك حق الوالدين ، ولهذا يقرن الله تعالى بين حقه وحق الوالدين ، كما قال تعالى : ﴿ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾ [لقمان : 14] وقال تعالى : ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ الآية إلى أن قال : ﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ﴾ [الإسراء : 23 - 26]

وفي الصحيحين ، عن ابن مسعود ، قلت : يا رسول الله ، أي العمل أفضل ؟ قال : " الصلاة على وقتها " . قلت : ثم أي ؟ قال : " بر الوالدين " . قلت : ثم أيّ ؟ قال : " الجهاد في سبيل الله " (1) .

ولهذا جاء في الحديث الصحيح : أن رجلا قال : يا رسول الله ، من أبر ؟ قال : " أمك " . قال : ثم من ؟ قال : " أمك " . قال : ثم من ؟ قال : " أباك . ثم أدناك أدناك " (2) .

---

(1) صحيح البخاري برقم (527 ، 5970 ، 7534) وصحيح مسلم برقم (85) .

(2) جاء من حديث معاوية بن حيدة ، رواه أبو داود في السنن برقم (5139) ، ومن حديث كليب بن منفعة عن أبيه عن جده ، رواه أبو داود في السنن برقم (5140) .

[وقوله : ﴿ لا تَعْبُدُونَ إِلا اللَّهَ ﴾ قال الزمخشري : خبر بمعنى الطلب ، وهو آكد . وقيل : كان أصله : ألا تعبدوا كما قرأها بعض السلف فحذفت أن فارتفع ، وحكي عن أبي وابن مسعود ، رضي الله عنهما ، أنهما قرآها : "لا تَعْبُدُوا إِلا اللَّه" . وقيل : ﴿ لا تَعْبُدُونَ ﴾ مرفوع على أنه قسم ، أي : والله لا تعبدون إلا الله ، ونقل هذا التوجيه القرطبي في تفسيره عن سيبويه . وقال : اختاره المبرد والكسائي والفراء] .

قال : ﴿ وَالْيَتَامَى ﴾ وهم : الصغار الذين لا كاسب لهم من الآباء . [وقال أهل اللغة : اليتيم في بني آدم من الآباء ، وفي البهائم من الأم ، وحكى الماوردي أن اليتيم أطلق في بني آدم من الأم أيضا] ﴿ وَالْمَسَاكِينَ ﴾ الذين لا يجدون ما ينفقون على أنفسهم وأهليهم ، وسيأتي الكلام على هذه الأصناف عند آية النساء ، التي أمرنا الله تعالى بها صريحًا في قوله : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ الآية [النساء : 36] .

وقوله تعالى : ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ أي : كلموهم طيبًا ، ولينُوا لهم جانبًا ، ويدخل في ذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالمعروف ، كما قال الحسن البصري في قوله : ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ فالحُسْن من القول : يأمُر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويحلم ، ويعفو ، ويصفح ، ويقول للناس حسنًا كما قال الله ، وهو كل خُلُق حسن رضيه الله .

وقال الإمام أحمد : حدثنا روح، حدثنا أبو عامر الخَزّاز ، عن أبي عمران الجَوْني ، عن عبد الله بن الصامت ، عن أبي ذر ، رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لا تحقرن من المعروف شيئًا ، وإن لم تجد فَالْقَ أخاك بوجه منطلق " .

وأخرجه مسلم في صحيحه ، والترمذي [وصححه] من حديث أبي عامر الخزّاز ، واسمه صالح بن رستم ، به (1) .

وناسب أن يأمرهم بأن يقولوا للناس حسنًا ، بعد ما أمرهم بالإحسان إليهم بالفعل ، فجمع بين طرفي الإحسان الفعلي والقولي . ثم أكد الأمر بعبادته والإحسان إلى الناس بالمُعيّن من ذلك ، وهو الصلاة والزكاة ، فقال : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ وأخبر أنهم تولوا عن ذلك كله ، أي : تركوه وراء ظهورهم ، وأعرضوا عنه على عمد بعد العلم به ، إلا القليل منهم ، وقد أمر تعالى هذه الأمة بنظير ذلك في سورة النساء ، بقوله : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ [النساء : 36]

فقامت هذه الأمة من ذلك بما لم تقم به أمة من الأمم قبلها ، ولله الحمد والمنة .

ومن النقول الغريبة هاهنا ما ذكره ابن أبي حاتم في تفسيره :

---

(1) المسند (173/5) وصحيح مسلم برقم (2626) وسنن الترمذي برقم (1833) .

حدثنا أبي ، حدثنا محمد بن خلف العسقلاني ، حدثنا عبد الله بن يوسف – يعني التِّنِّيسِي – حدثنا خالد بن صَبِيح ، عن حميد بن عقبة ، عن أسد بن وَدَاعة : أنه كان يخرج من منزله فلا يلقى يهوديًا ولا نصرانيًا إلا سلم عليه ، فقيل له : ما شأنك ؟ تسلم على اليهودي والنصراني . فقال : إن الله يقول : ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ وهو : السلام . قال : وروي عن عطاء الخراساني ، نحوه .

قلت : وقد ثبت في السنة أنهم لا يبدؤون بالسلام ، والله أعلم (1) . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير ابن كثير حـ 1 صـ 316.318 ﴾

---

(1) أخرجه مسلم في صحيحه برقم (2166) عن أبي هريرة ، رضي الله عنه ، أن

رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا تبدؤوا اليهود ولا النصارى بالسلام ، وإذا لقيتم أحدهم في طريق فاضطروه إلى أضيقه" .

(60/58)

" فصل "

قال السيوطي :

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ (83)

أخرج ابن إسحق وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال ﴿ وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل ﴾ أي ميثاقكم .

وأخرج ابن جرير عن أبي العالية في قوله ﴿ وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل . . . ﴾ الآية .

قال : أخذ مواثيقهم أن يخلصوا له وأن لا يعبدوا غيره .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة في قوله ﴿ وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل ﴾ قال : ميثاق أخذه الله على بني إسرائيل فاسمعوا على ما أخذ ميثاق القوم ﴿ لا تعبدون إلا الله

وبالوالدين إحساناً . . . ﴾ الآية.

وأخرج عبد بن حميد عن عيسى بن عمر قال: قال الأعمش: نحن نقرأ ﴿ لا يعبدون إلا الله ﴾ بالياء لأنا نقرأ آخر الآية ﴿ ثم تولوا ﴾ عنه وأنتم تقرأون ﴿ ثم توليتم ﴾ فاقرأوها لا تعبدون.

وأخرج ابن جرير من طريق الضحاك عن ابن عباس في قوله ﴿ وقولوا للناس حسناً ﴾ قال: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أمرهم أن يأمروا بلا إله إلا الله من لم يقلها.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ وقولوا للناس حسناً ﴾ قال: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن علي بن أبي طالب في قوله ﴿ وقولوا للناس حسناً ﴾ قال: يعني الناس كلهم.

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن عطاء وأبي جعفر في قوله ﴿ وقولوا للناس حسناً ﴾ قالا: للناس كلهم.

وأخرج أبو عبيد وسعيد بن منصور وابن المنذر عن عبد الملك بن سليمان أن زيد بن ثابت كان يقرأ ﴿ وقولوا للناس حسناً ﴾ وكان ابن مسعود يقرأ ﴿ وقولوا للناس حسناً ﴾.

وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ ثم توليتم ﴾ أي تركتم ذلك كله .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله ﴿ ثم توليتم ﴾ قال : أعرضتم عن طاعتي ﴿ إلا قليلاً منكم ﴾ وهم الذين اخترتهم لطاعتي . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 1 صـ 210.209 ﴾

(62/58)

ومن فوائد القاسمى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾

ثم بيّن الميثاق بقوله تعالى : ﴿ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللّهَ ﴾ وهو إخبار في معنى النهي ، كقوله تعالى : ﴿ وَلاَ يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلاَ شَهِيدٌ ﴾ [البقرة : 282] ، وكما تقول : تذهب إلى فلان وتقول له كذا ، وهو أبلغ من صريح الأمر والنهي . وقد بدئ بأعلى الحقوق وأعظمها ، وهو حق الله تبارك وتعالى . أن يعبد وحده ولا يشرك به شيئاً . وبهذا أمر جميع خلقه .

ولذلك خلقهم . كما قال تعالى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء : 25] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل : 36] ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً ﴾ والإحسان نهاية البر ، فيدخل فيه جميع ما يجب من الرعاية والعناية ، وقد أكد الله الأمر بإكرام الوالدين . حتى قرن تعالى الأمر بالإحسان إليهما ، بعبادته التي هي توحيده ، والبراءة عن الشرك ، اهتماماً به وتعظيماً له .

(63/58)

قال حكيم مصر في تفسيره : العلة الصحيحة في وجوب هذا الإحسان على الولد ، هي العناية الصادقة التي بذلاها في ترتيبه ، والقيام بشؤونه أيام كان ضعيفاً عاجزاً جاهلاً . لا يملك لنفسه نفعاً ولا يدفع عنها ضرراً . وكانا يحوطانه بالعناية والرعاية ، ويكفلانه ، حتى يقدر على الاستقلال والقيام بشأن نفسه . فهذا هو الإحسان الذي يكون منهما ، عن علمٍ واختيارٍ ، بل مع الشغف الصحيح والحنان العظيم ، وما جزاء الإحسان إلا الإحسان ، وإذا وجب على الْإِنْسَانْ أن يشكر ، لكل من يساعده على أمر عسير فضلَه ، ويكافئه بما

يليق به على حسب الحال في المساعد ، وما كانت به المساعدة ، فكيف لا يجب أن يكون الشكر للوالدين بعد الشكر لله تعالى ، وهما اللذان كانا يساعدانه [في المطبوع : يسعدانه] على كل شيء ، أيام كان يتعذر عليه كل شيء : ﴿ وَذِي الْقُرْبَى ﴾ أي : القرابة .

قال الأستاذ الحكيم : الإحسان هو الذي يقوي غرائز الفطرة ، ويوثق الروابط الطبيعية ، حتى تبليغ البيوت ، في وحدة المصلحة ، درجة الكمال ، والأمة تتألف من البيوت ، أي : العائلات . فصلاحها صلاحها . ومن لم يكن له بيت لا تكون له أمة ، وذلك أن عاطفة التراحم وداعية التعاون إنما تكونان على أشدّهما وأكملهما في الفطرة بين الوالدين والأولاد ، ثم بين سائر الأقربين ، فمن فسدت فطرته حتى لا خير فيه لأهله ، فأي خير يرجى منه للبعداء والأبعدين ؟ ومن لا خير فيه للناس لا يصلح أن يكون جزءاً من بنية أمته ؛ لأنه لم تنفع فيه اللحمة النسبية التي هي أقوى لحمة طبيعية تصل بين الناس ، فأي لحمة بعدها تصله بغير الأهل فتجعله جزءاً منهم ، يسره ما يسرهم ويؤلمه ما يؤلمهم ، ويرى منفعتهم عين منفعته ، ومضرتهم عين مضرته ؟ قضى نظام الفطرة بأن تكون نعرة القرابة أقوى من كل نعرة ، وصلتها أمتن من كل صلة ، فجاء الدين يقدّم حقوق الأقربين على سائر الحقوق .

وجعل حقوقهم على حسب قربهم من الشخص ، ثم ذكر تعالى حقوق أهل الحاجة من سائر الناس فقال سبحانه : ﴿ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ ﴾ . اليتامى جمع يتيم . وهو من مات أبوه وهو صغير . قدم تعالى الوصية به على الوصية بالمسكين ، ولم يقيدها بفقر ولا مسكنة ، فعُلم أنها مقصودة لذاتها . وقد أكد تعالى في الوحي الوصية باليتيم ، وفي القرآن والسنة كثير من هذه الوصايا ، وحسبك أن القرآن نهى عن قهر اليتيم ، وشدد الوعيد على أكل ماله تشديداً خاصاً ، والسرّ في ذلك هو كون اليتيم لا يجد ، قي الغالب ، من تبعثه عاطفة الرحمة الفطرية على العناية بتربيته والقيام بحفظ حقوقه ، والعناية بأموره الدينية والدنيوية ؛ فإن الأم ، إن وجدت ، تكون في الأغلب عاجزة ، لاسيما إذا تزوجت بعد أبيه . فأراد الله تعالى ، وهو أرحم الراحمين ، بما أكد من الوصية بالأيتام ، أن يكونوا من الناس بمنزلة أبنائهم ، يربونهم تربية دينية دنيوية ، لئلا يفسدوا ويفسد بهم غيرهم ، فينتشر الفساد في الأمة فتنحل انحلالاً . فالعناية بتربية اليتامى هي الذريعة لمنع كونهم قدوة سيئة لسائر الأولاد . والتربية لا تتيسر مع وجود هذه القدوة . فإهمال اليتامى إهمال لسائر أولاد الأمة .

وأما المساكين فلا يراد بهم هؤلاء السائلون الشحاذون الملحّفون الذين يقدرون على كسب ما يفي بحاجاتهم ، أو يجدون ما ينفقون ولو لم يكتسبوا ، إلا أنهم قد اتخذوا السؤال حرفة

يبتغون بها الثروة من حيث لا يعملون عملاً ينفع الناس ، ولكن المسكين من يعجز عن كسب ما يكفيه .

(65/58)

﴿ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً ﴾ أي : قولاً حسناً . أي : كلموهم طيباً ولينوا لهم جانباً . وفيه من التأكيد والتحضيض على إحسان مقاولة الناس ، أنه وضع المصدر فيه موضع الاسم ، وهذا إنما يستعمل للمبالغة في تأكيد الوصف ، كرجل عدل وصوم وفطر ﴿ وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ ﴾ خطاب لبني إسرائيل . فالمراد الصلاة التي كانوا يصلونها ، والزكاة التي كانوا يخرجونها ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ ﴾ أي : أعرضتم عن المضي على مقتضى الميثاق الذي فيه سعادتكم ورفضتموه . وقوله : ﴿ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنكُمْ ﴾ استثناء لبعض من كانوا في زمن سيدنا موسى عليه السلام ، أو في كل زمن ، فإنه لا تخلو أمة من الأمم ، من المخلصين الذين يحافظون على الحق بحسب معرفتهم وقدر طاقتهم .

والحكمة في ذكر هذا الاستثناء عدم بخس المحسنين حقهم ، وبيان أن وجود قليل من الصالحين في الأمة لا يمنع عنها العقاب الإلهيّ إذا فشا فيها المنكر ، وقلَّ المعروف ﴿ وَأَنتُم

مّعْرِضُونَ ﴾ عادتكم الإعراض عن الطاعة، ومراعاة حقوق الميثاق. انتهى انتهى. اهـ

﴿ محاسن التأويل حـ 2 صـ 379. 381 ﴾

(66/58)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله:

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ (83)

آخذ الله سبحانه وتعالى على بني إسرائيل ثمانية أشياء: الميثاق.. وهو العهد الموثق المربوط ربطا دقيقا وهو عهد الفطرة أو عهد الذر.. مصداقا لقوله تعالى:

وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى

(من الآية 172 سورة الأعراف)

وهناك عهد آخر أخذه سبحانه وتعالى على رسله جميعا.. أن يبشروا برسالة رسول

الله صلى الله عليه وسلم . . ويطلبوا من أتباعهم أن يؤمنوا به عند بعثه . . أو ألا يكتموا ما في كتبهم وإلا يغيروه . . والميثاق هو كل شيء فيه تكليف من الله . . ذلك أنك تدخل في عقد إيماني مع الله سبحانه وتعالى بأن يفعل ما يأمر به وتترك ما نهى عنه . . هذا هو الميثاق . . كلمة الميثاق وردت في القرآن الكريم بوصف غليظ . . في علاقة الرجل بالمرأة . . قال سبحانه وتعالى :

وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَاراً فَلاَ تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْئاً أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً (20) وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقاً غَلِيظاً (21)

(سورة النساء)

نقول نعم لأن هذا الميثاق سيحل للمرأة أشياء لا تكون إلا به . . أشياء لا تحل لأبيها أو لأخيها أو أي إنسان عدا زوجها . . والرجل إذا دخل على ابنته وكانت ساقها مكشوفة تسارع بتغطيته . . فإذا دخل عليها زوجها فلا شيء عليها . . إذن هو ميثاق غليظ لأنه دخل مناطق العورة وأباح العورة للزوج والزوجة . . ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ

(من الآية 187 سورة البقرة)

إن كلا منهما يغطي ويخفي ويستر عورة الآخر . . والأب لا يفرح من انتقال ولاية ابنته إلي غيره . . إلا انتقال هذه الولاية لزوجها . . ويشعر بالقلق عندما تكبر الفتاة ولا تتزوج.

الحق يقول : " وإذا أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله" هذا الميثاق شمل ثلاثة شروط : " لا تعبدون الا الله وحده . . وتؤمنون بالتوراة وبموسى نبيا . . لماذا ؟ لأن عبادة الله وحده هي قمة الإيمان . . ولكن لا تحدد أنت منهج عبادته سبحانه . . بل الذي يحدد منهج العبادة هو المعبود وليس العابد . . لابد أن تتخذ المنهج المنزل من الله وهو التوراة وتؤمن به . . ثم بعد ذلك تؤمن بموسى نبياً . . لأنه هو الذي نزلت عليه التوراة . . وهو الذي سيبين لك طريق العبادة الصحيحة. وبدون هذه الشروط الثلاثة لا تستقيم عبادة بني إسرائيل . .

وقوله تعالى : " وبالوالدين إحسانا " لأنهما السبب المباشر في وجودك . . ربياك وأنت صغير ، ورعياك ، وقوله تعالى : " إحسانا " معناه زيادة على المفروض. لأنك قد تؤدي الشيء بالقدر المفروض منك . . فالذي يؤدي الصلاة مثلا بقدر الغرض يكون قد أدى . . أما الذي يصلي النوافل ويقوم الليل يكون قد دخل في مجال الإحسان . . أي عطاؤه اكثر من المفروض . . والله تبارك وتعالى يقول :

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ(15) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ(16) كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ(17) وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ(18) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ(19)

(سورة الذاريات)

وهكذا نرى أن الإحسان زيادة على المفروض في الصلاة والتسبيح والصدقة والله تبارك وتعالى يريد منك أن تعطي لوالديك أكثر من المفروض أو من الواجب عليك . . وقوله تعالى : " وذوي القربى " . . يحدد الله لنا فيها المرتبة الثانية بالنسبة للإحسان . . فالله جل جلاله أوصانا أن نحسن لوالدينا ونرعى أقاربنا . . ولو أن كل واحد منا قام بهذه العملية ما وجد محتاج أو فقير أو مسكين في المجتمع . . والله يريد مجتمعا لا فقر فيه ولا حقد . . وهذا لا يتأتى إلا بالتراحم والإحسان للوالدين والأقارب . . فيكون لكل محتاج في المجتمع من يكفله . . ويقول الله سبحانه : " واليتامى " . . واليتيم هو من فقد أباه وهو طفل لم يبلغ مبلغ الرجال . . هذا في الإنسان . . أما في الحيوان فإن اليتيم من فقد أمه . . لأن الأمومة في الحيوان هي الملازمة للطفل ، ولأن الأب غير معروف في الحيوان ولكن الأم معروفة . .

اليتيم الذي فقد أباه فقد من يعوله ومن يسعى من أجله ومن يدافع عنه . . والله سبحانه وتعالى جعل الأم هي التي تربي وترعى . . والأب يكافح من أجل توفير احتياجات الأسرة . . ولكن الحال انقلب الآن ولذلك يقول شوقي رحمه الله :

ليس اليتيم من انتهى أبواه من إن اليتيم هو الذي تلقى له هم الحياة وخلفاه ذليلا أما تخلت أو أباً مشغولا

إن اليتيم يكون منكسرا لأنه فقد والده فأصبح لا نصير له . . فإذا رأينا في المجتمع الإسلامي أن كل يتيم يرعاه رعاية الأب كل رجال المجتمع . . فذلك يجعل الأب لا يخشى أن يترك ابنه بعد وفاته . . إذن فرعاية المجتمع لليتيم تضمن أولا حماية حقه ، لأنه إذا كان يتيما وله مال فإن الناس كلهم يطمعون في ماله ، لأنه لا يقدر أن يحميه . . هذه واحدة . .

والثانية أن هذا التكافل يذهب الحقد من المجتمع ويجعل كل إنسان مطمئنا على أولاده . .

وقوله سبحانه وتعالى : " والمساكين " . . في الماضي كنا نقول إن المساكين هم الذين لا يملكون شيئا على الإطلاق ليقيموا به حياتهم . . إلي أن نزلت الآية الكريمة في سورة الكهف :

أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ

(من الآية 79 سورة الكهف)

فعرفنا أن المسكين قد يملك . . ولكنه لا يملك ما يكفيه . . وهذا نوع من التكافل الاجتماعي لابد أن يكون موجودا في المجتمع . . حتى يتكافل المجتمع كله . . فأنت إن كنت فقيرا أو مسكينا ويأتيك من رجل غني ما يعينك على حياتك . . فإنك ستتمنى له الخير لأن هذا الخير يصيبك . . ولكن إذا كان هذا الغني لا يعطيك شيئا . . هو يزداد غنى وأنت تزداد فقرا . . تكون النتيجة أن حقده يزداد عليك . ويقول الحق سبحانه وتعالى : " وقولوا للناس حسنا " . . كلمة حسنا بضم الحاء ترد بمعنى حسن بفتح الحاء . . والحسن هو ما حسنه الشرع . . ذلك أن العلماء اختلفوا : هل الحسن هو ما حسنه الشرع أو ما حسنه العقل ؟ نقول : ما حسنه العقل مما لم يرد فيه نص من تحسين الشرع . . لأن العقل قد يختلف في الشيء الواحد . . هذا يعتبره حسنا وهذا يعتبره قبيحا . . والله تبارك وتعالى يقول :

ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ

(من الآية 125 سورة النحل)

هذا هو معنى قوله تعالى : " وقولوا للناس حسنا " . . ثم جاء قوله جل جلاله : " وأقيموا الصلاة" وقد تكلمنا عن معنى إقامة الصلاة وما يجعلها مقبولة عند الله . وهناك فرق بين أن تقول صلوا . . وبين أن تقول أقيموا الصلاة . . أقيموا الصلاة معناها صل ولكن صلاة على مستواها الذي يطلب منك . . وإقامة الصلاة كما قلنا هي الركن الذي لا يسقط أبدا عن الإنسان . . ويقول الحق : " وآتوا الزكاة " . . بالنسبة للزكاة عندا يقول الله سبحانه : " وذي القربى واليتامى والمساكين " . . نقول أن الأقارب واليتامى والمساكين لهم حق في الزكاة ماداموا فقراء . . لنحس جميعا أننا نعيش في بيئة إيمانية متكاملة متكافلة . . يحاول كل منا أن يعاون الآخر . . فالزكاة في الأساس تعطي للفقير ولو لم يكن يتيما أو قريبا . . فإن لكل فقير حقوقا ورعاية . . فإذا كان هناك فقراء أقارب أو يتامى يصبح لهم حقان . . حق القريب وحق الفقير . .

وإن كان يتيما فله حق اليتيم وحق الفقير . . بعد أن ذكر الحق سبحانه وتعالى عناصر الميثاق الثمانية . . قال : " ثم توليتم " . . تولى يعني أعرض أو لم يطع أو لم يستمع . . يقول الحق سبحانه : " ثم توليتم إلا قليلا منكم وأنتم معرضون " . . هذا هو واقع تاريخ بني إسرائيل . . لأن بعضهم تولى ولم يطع الميثاق وبعضهم أطاع . . إن القرآن لم يشن حملة على اليهود ، وإنما شن حملة على المخالفين منهم . ولذلك احترم الواقع وقال : " إلا قليلا " . .

وهذا يقال عنه بالنسبة للبشر قانون صيانة الاحتمال . . إن الحق جل جلاله يتكلم بإنصاف الخالق للمخلوق . . لذلك لم يقل " ثم توليتم " بل قال إلا قليلا . " توليتم " يعني أعرضتم ، ولكن الله تبارك وتعالى يقول : " ثم توليتم إلا قليلا منكم وأنتم معرضون " نريد أن نأخذ الدقة الأدائية . . إذا أردنا أن نفسر تولي . . فمعناها أعرض أو رفض الأمر . . ولكن الدقة لو نظرنا للقرآن لوجدنا أنه حين يلتقي المؤمن بالكافر في معركة . . فالله سبحانه وتعالى يقول :

(71/58)

وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاء بِغَضَبٍ مِّنَ اللّهِ

(من الآية 16 سورة الأنفال)

إذن فالتولي هو الإعراض . . والحق سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة بين لنا أن الإعراض يتم بنوايا مختلفة . . المقاتل يوم الزحف يعرض أو يتولى ليس بنية الهرب من المعركة . . ولكن بنية أن يذهب ليقاتل في مكان آخر أو يعاون إخوانه الذين تكاثر عليهم الأعداء . . هذا إعراض ولكن ليس بنية الهرب من المعركة . . ولكن بنية القتال بشكل أنسب للنصر . . نفرض أن إنسانا مدين لك رأيته وهو قادم في الطريق فتوليت عنه . . أنت لم

تعرض عنه كرها . . ولكن رحمة لأنك لا تريد المساس بكرامته . . إذن هناك تول أو إعراض ليس بنية الإعراض . والله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلي أن هؤلاء اليهود تولوا بنية الإعراض ، ولم يتولوا بأي نية أخرى . . أي أنهم أعرضوا وهم متعمدون أن يعرضوا . . وليس لهدف آخر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 428.433 ﴾

(72/58)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

" إذْ " معطوف على الظرف قبله ، وقد تقدم ما فيه من كونه متصرفاً أو لا .

و" أَخَذْنَا " في محلّ خفض ، أي : واذكر وَقْت أَخْذنا ميثاقهم ، أو نحو ذلك .

" لا تَعْبُدُونَ " قرأ ابن كثير وغيره والكِسائي بالياء ، والباقون بالتاء .

فمن قرأ فلأن الأسماء الظَّاهرة حكمها الغيبة ، ومن قرأ بالخطاب هو الْتِفَات ، وحكمته أنه أدعى لِقَبُول المخاطب الأمر والنهي الواردين عليه .

وجعل أبو البقاء قراءة الخِطَاب على إضمار القول .

قال : يقرأ بالتاء على تقدير : قلنا لهم : لا تعبدون إلا الله وكونه التفاتاً أحسن .

وفي هذه الجملة المنفيّة من الإعراب ثمانية أوجه :

أظهرها : أنها مفسرة لأخذ الميثاق ، وذلك لأنه تعالى لما ذكر أنه أخذ ميثاق بني إسرائيل كان ذلك في إبْهَام للميثاق ما هو ؟ فأتى بهذه الجُمْلة مفسرة له ، ولا محلّ لها حينئذ من الإعراب .

الثاني : أنها في محلّ نصب على الحال من " بَنِي إِسْرَائِيْلَ " وفيها حينئذ وجهان :

أحدهما : أنها حال مقدّرة بمعنى : أخذنا ميثاقهم مقدّرين التوحيد أبداً ما عاشوا .

والثَّاني : أنَّها حال مقارنة بمعنى : أخذنا مِيْثَاقهم ملتزمين الإقامة على التوحيد ، قاله أبو البقاء [وسبقه إلى ذلك قطرب والمبرد] .

وفيه نظر من حيث مجيء الحال من المضاف إليه في غير المواضع الجائز فيها ذلك على الصحيح ، خلافاً لمن أجاز مجيئها من المُضَاف إليه مطلقاً ، لا يقال : المضاف إليه معمول له في المعنى لـ " ميثاق " ؛ لأن ميثاقاً إما مصدر أو في حكمه ، فيكون ما بعده إما فاعلاً أو مفعولاً ، وهو غير جائز " لأن من شرط عمل المصدر غير الواقع موقع الفعل أن ينحل إلى حرف مصدري ، وفعل هذا لا ينحل لهما ، لو قدرت : وإذ أخذنا أن نواثق بني إسرائيل ، أو أن يواثقنا بنو إسرائيل ، لم يصح ألا ترى أنك لو قلت : أخذت علم زيد لم يتقدر بقول : أخذت أن يعلم زيد ، ولذلك منع ابن الطَّراوة في ترجمة سيبويه : " هذا باب علم ما الكلم من العربية " أن يقدر المصدر بحرف مصدري والفعل ، ورده وأنكر على من أجازه .

الثالث : أن يكون جواباً لقسم محذوف دلّ عليه لفظ المِيْثَاق ، أي : استحلفناهم ، أو قلنا لهم : بالله لا تعبدون ، ونسب هذا الوجه لسيبويه ، ووافقه الكسائي والفَرّاء والمبرد .

الرابع : أن يكون على تقدير حذف حرف الجر ، وحذف " أن " ، والتقدير : أخذنا ميثاقهم على ألاَّ تعبدوا ، فَحُذِف حرف الجر ؛ لأن حذفه مطرد مع " أنَّ وأنْ " كما تقدم ، ثم حذفت " أن " الناصبة ، فارتفع الفعل بعدها ؛ كقول طرفة : [الطويل]

613 أَلاَ أَيُّهَذَا الزَّاجِرِي أَحْضُرُ الْوَغَى . . .

وَأَنْ أَشْهَدَ اللَّذَّاتِ ، هَلْ أَنْتَ مُخْلِدِي

(73/58)

وحكي عن العرب : " مُرْهُ يَحْفِرَهَا " أي : بأن يحفرها ، والتقدير : عن أن يحضر ، أو بأن يحفرها ، وفيه نظر ، فإن [إضمار] " أن " لا ينقاس ، إنما يجوز في مواضع عدها النحويون ، وجعلوا ما سواها شاذّاً قليلاً ، وهو الصحيح خلافاً للكوفيين ، وإذا حذفت " أن " ، فالصحيح جواز [النصب والرفع] ، وروي " مُرْهُ يَحْفِرهَا " و " أحضر الوَغَى " بالوجهين ، وهذا رأي المبرد والكوفيين خلافاً لأبي الحسن ، حيث التزم رفعه .

وأيد الزمخشري هذا الوجه الرابع بقراءة عبد الله : " لاَ تَعْبُدُوا " على النهي ، قال : إلاَّ أنه

جاء على لفظ الخبر لقوله تعالى : ﴿ لاَ تُضَآرَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا ﴾ [البقرة : 233] ، قال : والذي يؤكد كونه نهياً [قوله : " وأقيموا الصلاة "] فإنه تنصره قراءة عبد الله وأُبي : " لا تعبدوا " .

الخامس : أن يكون في محلّ نصب بالقول المحذوف ، وذلك القول حال تقديره : قائلين لهم : لا تعبدون إلا الله ، ويكون خبراً في معنى النهي ، ويؤيده قراءة أُبَي المتقدمة ، ولهذا يصح عطف " قُولُوا " عليه ، وبه قال الفَرّاء .

السادس : أَنَّ " أنْ " الناصبة مضمرة كما تقدم ، ولكنها هي وما في حَيّزها في محلّ نصب على أنها بدل من " مِيْثَاق : ، وهذا قريب من القول الأول من حيث إن هذه الجملة مفسرة للميثاق ، وفيه النظر المتقدم أعني حذف أن في غير المواضع المقيسة .

السابع : أن يكون منصوباً بقول محذوف ، وذلك القول ليس حالاً ، بل مجرد أخبار ، والتقدير : وقلنا لهم ذلك ، ويكون خبراً في معنى النهي .

قال الزمخشري : كما تقول : تذهب إلى فلان تقول له : كذا تريد الأمر ، وهو أبلغ من صريح الأمر والنهي ؛ لأنه كأنه سُورِعَ إلى الامتثال والانتهاء ، فهو يخبر عنه ، وتَنْصره قراءى عبد الله وأُبَيّ : " لاَ تَعْبُدُوا " ولا بد من إرادة القول بهذا .

الثامن : أن يكون التقدير : " أَلاَّ تَعْبُدُونَ " وهي " أن " المفسرة ؛ لأن في قوله : أَخَذْنَا مِيْثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ " إيهاماً كما تقدم ، وفيه معنى القول ، ثم حذف " أن " المفسرة ، ذكره الزَّمخشري .

وفي ادعاء حذف حرف التفسير نظر لا يخفى .

قوله : " إِلاَّ اللهَ " استثناء مفرغ ؛ لأن ما قبله مفتقر إليه وقد تقدم تحقيقه أولاً .

وفيه التفات من التكلّم إلى الغيبة ، إذ لو جرى الكَلاَم على نسقه لقيل : لا تعبدون إلاَّ إيانا ، لقوله : " أَخَّذْنَا " .

وفي هذا الالتفات من الدّلالة على عظم هذا الاسم والتفرد به ما ليس في المضمر ، وأيضاً الأسماء الواقعة ظاهرة ، فناسب أن يجاوز الظاهرُ الظاهرَ .

و " بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً " فيه خمسة أوجه :

أحدها : أن تتعلق الباء بـ " إحساناً " على أنه مصدر واقع [موقع] فعل الأمر ، والتقدير وأحسنوا وبالوالدين ، والباء ترادف " إلى " في هذا المعنى ، تقول : أحسنت به وإليه ، بمعنى أن يكون على هذا الوجه ثَمَّ مضافٌ محذوف ، وأحسنوا بر الوالدين بمعنى : أحسنوا إليهما برّهما .

قال ابن عطية : يعترض على هذا القول ، أن يتقدّم على المصدر معمولُهُ ، وهذا الاعتراض

لا يتم على مَذْهَب الجمهور ، فإن مذهبهم جواز تقديم معمول المَصْدر النَّائب عن فعل الأمر عليه ، تقول : " ضرباً زيداً " وإن شئت " زيداً ضرباً " وسواء عندهم إن جعلنا العمل للفعل المقدر ، أم للمصدر النائب عن فعله ، فإن التقديم عندهم جائز ، وإنما يمتنع تقدم معمول المَصْدر المنحل لحرف مصدري والفعل كما تقدم وإنما يتم على مذهب أبي الحسن ، فإنه منع تقديم معمول المصدر النائب عن الفعل ، ويخالف الجمهور في ذلك .

(75/58)

الثاني : أنها متعلّقة بمحذوف وذلك المحذوف يجوز أن يقدر فعل أمر مُرَاعاة لقوله : " لاَ تَعْبُدُونَ " فإنه في معنى النهي كما تقدم ، كأنه قال : لا تبعدوا إلا الله وأحسنوا بالوالدين ، ويجوز أن يقدر خبراً مراعاةِ لِلَفْظِ " لاَ تَعْبُدُونَ " والتقدير : وتحسنون [وإن كان معناه الأمر ، وبهذين] الاحتمالين قدره الزمخشري ، وينتصب " إحساناً " حينئذ على المصدر المؤكّد لذلك الفعل المحذوف .

وفيه نظر من حيث إن حذف عامل المؤكّد منصوصٌ على عدم جوازه ، وفيه بحث ليس هذا موضعه .

الثالث : أن يكون التقدير : واستوصوا بالوالدين ، ف " البَاء " متعلّقة [بهذا الفعل المقدر]

أيضاً ، وينتصب " إحساناً " حينئذ على أنه مفعول به .

الرابع : تقديره : وَوَصَّيْنَاهُمْ بالوالدين ، فالباء متعلّقة بالمحذوف أيضاً ، وينتصب " إحساناً " [حينئذ] على أنه مفعول لأجله ، أي : لأجل إحساننا إلى الموصى بهم من حيث إنّ الإحسان متسبّب عن وصيتنا بهم ، أو الموصى لما يترتب الثواب منّا لهم إذا أحسنوا إليهم .

الخامس : أن تكون الباء وما عملت فيه عطفاً على قوله : " لاَ تَعْبُدُونَ " إذا قيل بأن " أن " المصدرية مقدرة فينسبك منها ومما بعدها مصدر يعطف عليه هذا المجرور ، والتقدير : أخذنا ميثاقهم بإفراد الله بالعبادة وبالوالدين ، أي : وببرّ الوالدين ، أو : بإحسان إلى الوالدين ، فتتعلّق " الباء " حينئذ بـ " الميثاق " لما فيه من مَعْنَى الفعل ، فإن الظرف وشبهه تعمل فيه رَوَائح الأفعال ، وينتصب " إحساناً " حينئذ على المصدر من ذلك المضاف المحذوف ، وهو " البر " لأنه بمعناه ، أو الإحسان الذي قدرناه .

والظّاهر من هذه الأوجه هو الثّاني ، لعدم الإضمار اللازم في غيره ، أو لأن ورود المصدر نائباً عن فعل الأمر مطّرد شائع .

وإنما تقدّم المعمول اهتماماً به وتنبيهاً على أنه أولى بالإحسان إليه ممن ذُكِرَ معه .

و "الوالِدَان" الأب والأم، يقال لكل واحدٍ منهما : والد ؛ قال : [الطويل]

614 عَجِبْتُ لِمَوْلُودٍ وَلَيْسَ لَهُ أَبٌ . . .

وَذِي وَلَدٍ لَمْ يَلْدَهُ أَبَوَانِ

وقيل : لا يقال في الأم : والدة بالتاء ، وإنما قيل فيها وفي الأب : والدان تغليباً للذكر .

و "الإحسان" : الإنعام على الغير .

وقيل : بل هو أعم من الإنعام .

وقيل : هو النَّافع لكل شيء .

و "ذِي الْقُرْبى" وما بعده عطف على المجرور بالباء ، وعلامة الجر فيها الياء ؛ لأنها من الأسماء الستة التي ترفع بالواو ، وتنصب بالألف ، وتجر بالياء بشروط مذكورة ، وهل إعرابها بالحروف أو بغيرها ؟ عشرة مذاهب للنَّحويين فيها .

وهي من الأسماء اللاَّزمة للإضافة لفظاً ومعنى إلى أسماء الأجناس الظاهرة ؛ ليتوصّل بذلك إلى وصف النكرة باسم الجنس ؛ نحو : "مَرَرْتُ بِرَجُلٍ ذِي مَالٍ" وإضافته إلى المضمر ممنوعةٌ إلا في ضرورة أو نادر كلام ؛ كقوله : [الوافر]

615 صَبَحْنَا الْخزرَجِيَّةَ مُرْهَفَاتٍ . . .

أَبَانَ ذَوِي أَرُومَتِهَا ذَوُوهَا

وأنشد الكسائِيُّ : [الرمل]

616 إِنَّما يَعْرِفُ الْمَعْرُوفَ . . .

فِي النَّاسِ ذَوُوهُ

وعلى هذا قولهم : " اللهم صَلِّ على محمد وذويه " .

وإضافته إلى العلم قليلة جدًّا ، وهي على ضربين :

واجبة : وذلك إذا اقترنا وضعاً ، نحو : " ذي يزن " و " ذي رعين " .

وجائزة وذلك إذا لم يقترنا وضعاً ، نحو : " ذي قطري " و " ذي عمرو " أي : صاحب هذا الاسم .

وأقل من ذلك إضافتها إلى ضمير المخاطب ؛ كقوله : [الطويل]

617 وَإِنَّا لَنَرْجُو عَجِلاً مِنْكَ مِثْلَ مَا . . .

رَجَوْنَاهُ قِدْماً مِنْ ذَوِيكَ الأَفَاضِلِ

وتجيء " ذو " موصولة بمعنى " الَّذِي " وفروعه ، والمشهورُ حينئذٍ بِنَاؤها وتذكيرها ، ولها أحكام كثيرة .

و " القربى " مضاف إليه ، وألفه للتَّأنيث ، وهو مصدر كـ " الرُّجْعَى والعُقْبَى " ، ويطلق على قرابة الصُّلْب والرَّحِم ؛ قال طَرَفَةُ : [الطويل]

618 وَظُلْمُ ذَوِي القُرْبَى أَشَدُّ مَضَاضَةً . . .

عَلَى الْحُرِّ مِنْ وَقْعِ الْحُسَامِ الْمُهَنَّدِ

وقال أيضاً : [الطويل]

619 وَقَرَّبْتُ بِالْقُرْبَى وَجَدِّكَ إِنَّهُ . . .

مَتَى يَكُ أَمْرٌ لِلنَّكِيثَةِ أَشْهَدِ

والمادة تدلّ على الدّنو عند البعد .

قوله : " وَاليَتَامَى " وزنه " فَعَالى " ، وألفه للتأنيث ، وهو جمع " يتيم " ك " نديم ونَدَامى " ولا ينقاس هذا الجمع .

وقال ابن الخطيب : جمعه " أَيْتَام ويتامى " واليُتْم : الانفراد ، ومنه اليتيم ؛ لانفراده عن أبويه أو أحدهما ، ودرة يتيمة : إذا لم يكن لها نظير .

وقيل : اليَتِيم : الإبطاء ، ومنه : صبي يتيم ؛ لأنه يبطىء عنه البرّ وقيل : هو التغافل ، لأن الصبيّ يتغافل عما يصلحه .

قال الأَصْمَعيّ : " اليتيم في الآدميين من فَقَدَ الآباء ، وفي غيرهم من فقد الأمّهات " .

وقال المَاوَرْدِي : إن اليتم أيضاً في الناس من قبل فقد الأمهات .

والأول هو المعروف عند أهل اللغة ، ويسمى يتيماً إلى أن يبلغ ، يقال : يَتِمَ يَيْتَمُ يَتْماً مثل :

سَمِعَ يَسْمَعُ سَمْعاً ويَتُمَ يَيْتُمُ يُتْماً مثل : عَظُمَ يَعْظُمُ عُظْماً ، فهاتان لُغَتان مشهورتان حكاهما الفرّاء ، ويقال : أيتمه الله إيتاماً ، أي : فعل به ذلك .

وعلامة الجَرّ في " القربى " و" اليَتامى " كسرة مقدرة على الألف ، وإن كانت للتأنيث ؛ لأنَّ ما لا ينصرف إذا أضيف أو دخلته " أل " انجرّ بالكسرة ، وهل يسمّى حينئذ منجرّاً أو منصرفاً .

ثلاثة أقوال ، يفصل في الثالث بين أن يكون أحدَ سببيه العلمية ، فيسمى منصرفاً نحو : " يَعْمُرُكُمْ " أو لا يسمى منجراً نحو : " بالأحمر " ، و" القربى واليتامى " من هذا الأخير .

قوله : " والمساكين " جمع " مسكين " ، ويسمونه جمعاً لا نظير له من الآحاد ، وجمعاً على صيغة منتهى الجُمُوع ، وهو من العِلَلِ القائمة مقام علّتين ، وسيأتي تحقيقه قريباً إن شاء الله تعالى .

وتقدم القول في اشتقاقه عند ذكر المسكنة .

واختلف فيه : هل هو بمعنى الفقير أو أسوأ حالاً منه كقوله : ﴿ أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾ [البلد : 16] أي : لصق جلده بالتراب ، وهو قول أبي حنيفة وغيره بخلاف القير ؛ فإن له

شيئاً ما .

قال : [البسيط]

620 أَمَّا الْفَقِيرُ الَّذِي كَانَتْ حَلُوبَتُهُ . . .

وَفْقَ الْعِيَالِ فَلَمْ يُتْرَكْ لَهُ سَبَدُ

أو أكمل حالاً ؛ لأن الله جعل لهم ملكاً ما ، قال : ﴿ أَمَّا السفينة فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ ﴾ [الكهف : 79] وهو قول الشافعي وغيره .

قوله : " وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً " هذه الجملة عَطْفٌ على قوله : " لاَ تَعْبُدُونَ " في المعنى ، كأنه قال : لا تعبدوا إلا الله ، وأحسنوا بالوالدين وقولوا ، أو على " أحسنوا " المقدر ، كما تقدم تقريره في قوله تعالى : " وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً " .

وأجاز أبو البقاء أن يكون معمولاً لقول محذوف تقديره : وقلنا لهم : قولُوا .

وقرأ حمزة والكسائي : " حَسَناً " بفتحتين ، و " حُسُناً " بضمتين ، و " حُسْنَى " من غير تنوين كـ " حُبْلى " و " إِحْسَاناً " من الرباعي .

فأما من قرأ : " حُسْناً " بالضم والإسكان ، فيحتمل أوجهاً :

أحدها وهو الظَّاهر أنه مصدر وقع صفةً لمحذوف تقديره : وقولوا للناس حُسناً أي : ذا حسن .

الثاني : أن يكون وصف به مُبَالغة كأنه جعل القول نفسه حسناً .

الثالث : أنه صفة على وزن " فُعْل " ، وليس أصله المصدر ، بل هو كالحلو والمر ، فيكون بمعنى " حَسَنٍ " بفتحتين ، فيكون فيه لغتان : حُسْن وحَسَن كـ " البُخْل والبَخَل ، والحُزْن والحَزَن ، والعُرْب والْعَرب " .

الرابع : أنه منصوب على المَصْدر من المعنى ، فإن المعنى : وَلْيَحْسُنْ قَوْلُكم حُسْناً .

وأما قراءة : " حَسَناً " بفتحتين فصفة لمصدر محذوف تقديره : قولاً حسناً ، كما تقدم في أحد أوجه " حُسْناً " .

(79/58)

وأما " حُسْناً " بضمتين ، فضمة السين لإتباع الحاء ، فهو بمعنى " حُسْناً " بالسكون ، وفيه الأوجه المتقدمة .

وأما " حُسْنَى " بغير تنوين فمصدر كـ " البُشْرَى والرُّجْعَى " .

وقال النحاس في هذه القراءة : ولا يجوز هذا في العربية ، لا يقال من هذا شيء إلا بالألف واللام ، نحو : الكُبْرَى والفُضْلى .

هذا قول سيبويه ، وتابعه ابن عطية على هذا ، فإنه قال : ورده سيبويه ؛ لأن " أفعل " و" فعلى " لا يجيء إلا معرفة إلاَّ أن يزال عنها معنى التَّفضيل ، ويبقى مصدراً كـ " العُقْبى " ،

فذلك جائز ، وهو وجه القراءة بها .

انتهى وناقشه أبو حيان وقال : في كلامه ارْتباك ؛ لأنه قال : لأن " أفعل " و" فعلى " لا يجيء إلا معرفة ، وهذا ليس بصحيح .

أما " أَفْعل " فله ثلاثة استعمالات .

أحدها : أن يكون معها " مِنْ " ظاهرة أو مقدرة ، أو مضافاً إلى نكرة ، ولا يتعرف في هذين بحال .

الثاني : أن تدخل عليه " أل " فيتعرف بها .

الثالث : أن يضاف إلى معرفة فيتعرف على الصحيح .

وأما " فُعْلى " فلها استعمالان :

أحدهما : بالألف واللام .

والثاني : الإضافة لمعرفة ، وفيها الخلاف السابق .

(80/58)

وقوله : " إلا أن يزال عنها معنى التفضيل ، وتبقى مصدراً " ظاهر هذا أن " فُعْلى " أنثى " أفعل " إذا زال عنها معنى التفضيل تبقى مصدراً وليس كذلك ، بل إذا زال عن " فعلى "

أنثى "أفعل" معنى التفضيل صارت بمنزلة الصفة التي لا تفضيل فيها ؛ ألا ترى إلى تأويلهم "كُبْرى" بمعنى كبيرة ، "وصُغْرى" بمعنى صغيرة ، وأيضاً فإن "فعلى" مصدر لا يَنْقَاسُ ، إنما جاءت منها الألفاظ كـ "العُقْبَى والبُشْرَى" ثم أجاب الشيخ عن هذا الثاني بما معناه أن الضمير في قوله : "عنها" عائد إلى "حسنى" لا إلى "فعلى" أنثى "أفعل" ، ويكون استثناء منقطعاً كأنه قال : إلا أن يزال عن "حسنى" التي قرأ بها أُبَيّ معنى التفضيل ، ويصير المعنى : إلا أن يُعْتقد أن "حسنى" مصدر لا أنثى "أفعل" .

وقوله : "وهو وجه القراءة بها" أي والمصدر وجه القراءة بها .

وتخريج هذه القراءة على وجهين :

أحدهما : المصدر كـ "البُشْرى" وفيه الأوجه المتقدمة في "حسناً" مصدراً ، إلا أنه يحتاج إلى إثبات "حُسْنى" مصدراً من قول العرب : حَسُن حُسْنَى ، كقولهم : رَجَع رُجْعَى ، إذا مجيء "فُعْلى" مصدراً لا يَنْقَاسُ .

والوجه الثاني : أن تكون صفةً لموصوف محذوف ، أي : وقولوا للناس كلمةً حُسْنَى ، أو مقالةً حسنى ، وفي الوصف بها حينئذ وجهان :

أحدهما : أن تكون للتفضيل ، ويكون قد شَذَّ استعمالها غير معرفة بـ "أل" ، ولا مضافة إلى معرفة ، كما شذَّ قوله : [البسيط]

621 وَإِنْ دَعَوتِ إِلَى جُلَّى وَمَكْرُمَةٍ . . .

يَوْماً سَرَاةَ كِرَامِ النَّاسِ فَادْعِينَا

وقوله : [الرجز]

622 فِي سَعْيِ دُنْيَا طَالَمَا قَدْ مَدَّتِ . . .

والوجه الثاني : أن تكون لغير التفضيل ، فيكون معنى حُسْنى : حَسَنة كـ "كبرى " في معنى كبيرة ، أي : وقولوا للناس مَقَالة حَسَنة ، كما قال : يوسف أحسن إخوته في معنى حسن إخوته انتهى .

وبهذا يعلم فساد قول النحاس .

(81/58)

وأما من قرأ : " إحساناً " فهو مصدر وقع صفةً لمصدر محذوف ، أي : قولاً إحساناً [وفيه تأويل مشهور] ، ف " أحساناً " مصدر من أحسن الذي همزته للصيرورة ، أي : قولاً ذا حُسْن ، كما تقول : أعشبت الأرض ، أي : صارت ذا عُشْب .

قوله : " ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِنْكُمْ " .

قال الزمخشري : " وهذا على طريقة الالتفات " وهذا الذي قاله إنما يجيء على قراءة : " لاَ يَعْبُدُونَ " بالغيبة ، وأما على قراءة الخطاب فلا التفات ألبتَّة ، ويجوز أن يكون أراد

بالالتفات الخروج من خطاب بني إسرائيل القدماء إلى خطاء الحاضرين في زمن النبيّ صلى الله عليه وسلم [وقد قيل ذلك] ويؤيده قوله تعالى : " إِلاَّ قَلِيلاً مِنْكُمْ " .

قيل : يعني بهم الذين أسلموا في زمانه عليه الصلاة والسلام كعبد الله بن سَلام وأضرابه ، فيكون التفاتاً على القِرَاءتين .

و" قليلاً " منصوب على الاستثناء ؛ لأنه من موجب .

وقال القرطبي : المستثنى عند سيبويه منصوب ؛ لأنه مشبه بالمَفْعُول .

وقال محمد بن يزيد : هو المفعول حقيقة ؛ لأن معناه : استثنيت قليلاً .

وروي عن أبي عمرو وغيره : " إِلاَّ قَلِيلٌ " بالرفع ، وفيه ستّة أقوال :

أصحها : أن رفعه على الصفة بتأويل " إلاّ " وما بعدها بمعنى " غَيْر " ، وقد عقد سيبويه رحمه الله في كتابه لذلك باباً فقال : " هذا باب ما يكن فيه " إلاَّ " ما بعدها وصفاً بمنزلة غَيْر ومثل " وذكر من أمثلة هذا الباب : " لو كان معنا رجلٌ إلا زيدٌ لغُلِبْنَا " و ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء : 22] .

قال الطويل :

623 . . . . . .

قَلِيلٌ بِهَا الأَصْوَاتُ إِلاَّ بُغَامُهَا

وسَوَّى بين هذا وبين قراءة : ﴿ لاَّ يَسْتَوِي القاعدون مِنَ المؤمنين غَيْرُ أُوْلِي الضرر ﴾ [

النساء : 95] برفع " غير " وجوز في نحو : " ما قام القومُ إلا زيدٌ " بالرفع البدل والصّفة

وخرج على ذلك قوله : [الوافر]

---

624 وَكُلّ أَخٍ مُفَارِقُهُ أَخُوهُ . . .

لَعَمْرُ أَبِيكَ إِلاَّ الفَرْقَدَانِ

كأنه قيل : " وكلُّ أَخٍ غيرُ الفَرْقَدَين مُفَارِقُهُ أَخُوهُ " ؛ كما قال الشَّمَّاخ : [الطويل]

625 وَكُلُّ خَلِيلٍ غَيْرُ هَاضِمِ نَفْسِهِ . . .

لِوَصلِ خَلِيلٍ صَارِمٌ أَو مُعَارِزُ

وأنشد غيره : [الرمل]

626 لِدَمٍ ضَائِعٍ تَغَيَّبَ عَنْهُ . . .

أَقْرُبُوهُ إِلاَّ الصَّبَا والجَنُوبُ

وقوله : [البسيط]

627 وَبِالصَّرِمَةِ مِنْهُمْ مَنْزِلٌ خَلَقٌ . . .

عَافٍ تَغَيَّرَ إِلاَّ النُّؤْيُ والوَتِدُ

والفرق بين الوصف "إلاَّ" والوصْفِ بغيرها أنَّ "إلاَّ" توصف بها المعارفُ والنكرات، والظاهرُ والمضمرُ.

وقال بعضهم: "لا توصف بها إلا النكرة أو المعرفة بلام الجنس، فإنه في قوة النكرة".

وقال المبرِّد: "شرطه صلاحية البدلِ في موضعه".

الثاني: أنه عطف بيان، قاله ابن عصفور.

وقال: "إنما يعني النحويون بالوصف "إلاَّ" عطف البيان"، [وفيه نظرٌ].

الثالث: أنه مرفوع بفعل مَحْذُوف، كأنه قال: امتنع قليل.

الرابع: أن يكون مبتدأ وخبره محذوف، أي إلاَّ قليل منكم لم يتولّوا، كما قالوا "ما مررت بأحد إلاّ رجلٌ من بني تميم خيرٌ منه".

الخامس: أنه توكيد للضمير المرفوع، ذكر هذه الأوجه أبو البقاء.

وقال: سيبويه وأصحابه يسمونه نعتاً ووصفاً يعني التوكيد، وفي هذه الأوجه التي ذكرها ما لا يخفى، ولكنها قد قيلت.

السادس: أنه بدلٌ من الضمير "تولّيتم".

قال ابن عطية: وجاز ذلك مع أن الكلام لم يتقدم فيه نفي؛ لأنَّ "توليتم" معناه النفي كأنه قال: لم تَفُوا بالميثاق إلا قليل، وهذا الذي ذكره مِنْ جَوَاز البدل منعه النحويون، فلا يجيزون

" قام القوم إلا زيد " على البدل .

قالوا : لأن البدل يَحُلّ محلّ المبدل منه فيؤول إلى قولك : " قام إلا زيد " ، وهو ممتنع .

(83/58)

وأما قوله : إنه في تأويل النفي ، فما من موجب إلاَّ يمكن فيه ذلك ، ألا ترى أن قولك : " قام القوم إلا زيد " في حكم قوله : " لم يجلسوا إلاَّ زيد " ، فكل موجب إذا أخذت نفي نقيضه أو ضده كان كذلك ، ولم تعتبر العرب هذا في كلامها ، وإنما أجاز النحويون :

" قام القوم إلا زيد " بالرفع على الصيغة كما تقدم تقديره .

و" منكم " صفة لـ " قَلِيلاً " فيه في محل نصب ، أو رفع على حسب القراءتين ، والظاهر أن القليل مراد بهم الأشخاص لوصفه بقوله : " مِنْكُمْ " .

وقال ابن عطية : " ويُحْتَمَل أن تكون القلة في الإيمان ، أي : لم يبق حينَ عَصَوا وكفروا آخرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم إلا إيمان قليل ، إذ لا ينفعهم ، والأول أقوى " انتهى .

وهذا قول بعيد جدّاً أو ممتنع .

" وأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ " جملة من مبتدأ وخبر في محلّ نصب على الحال من فاعل " تَوَلَّيْتُمْ " وفيها قولان :

أحدهما : أنها حال مؤكّدة ؛ لأن التولّي والإعراضَ مُتَرَادفان ، وقيل مبيّنة ، فإن التولي باليدين والإعراض بالقلب ، قاله أبو البقاء .

وقال بعده : وقيل : " تَوَلَّيْتُمْ " يعني آباءهم ، و" وأنتم معرضون " يعني أنفسهم ، كما قال : ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾ [البقرة : 49] أي آباءهم انتهى .

وهذا يؤدّي إلى أن جملة قوله : " وأَنْتُمْ معْرِضُونَ " لا تكون حالاً ؛ لأن فاعل التولّي في الحقيقة ليس هو صَاحِبَ الحال والله أعلم .

وكذلك تكون " مبيّنة " إذا اختلف متعلّق التولي والإراض كما قال بعضهم : ثم توليتم عن أخذ ميثاقكم ، وأنتم معرضون عن هذا النبي صلى الله عليه وسلم .

وقيل : التولّي والإعراض مأخوذان من سلوك الطريق ، وذلك أنه إذا سلك طريقاً ورجع عَوْدَه على بَدْئه سمي ذلك توليا ً ، وإن سلك في عُرْض الطريق سمي إعراضاً .

وجاءت الحال جملة اسمية مصدرة بـ " أنتم " ؛ لأنه أكد .

وجيء بخبر المبتدأ اسماً ، لأنه أولّ على الثبوت فكأنه قيل : وأنتم عادتكم التولي والإعراض عن الحق . انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 2 صـ 226 . 244 ﴾ . باختصار .

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : ذبح البقرة إشارة إلى ذبح النفس البهيمية ، فإن في ذبحها حياة القلب الروحاني وهو الجهاد الأكبر موتوا قبل أن تموتوا .

اقتلوني يا ثقاتي . . . إن في قتلي حياتي

وحياتي في مماتي . . . ومماتي في حياتي

مت بالإرادة تحيا بالطبيعة . وقال بعضهم : مت بالطبيعة تحيا بالحقيقة ﴿ ما هي إنها بقرة ﴾ نفس تصلح للذبح بسيف الصدق ﴿ لا فارض ﴾ في سن الشيخوخة فيعجز عن وظائف سلوك الطريق لضعف القوى البدنية كما قيل : الصوفي بعد الأربعين بارد ﴿ ولا بكر ﴾ في سن شرخ الشباب يستهويه سكره ﴿ عوان بين ذلك ﴾ لقوله ﴿ حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة ﴾ [الأحقاف : 15] . ﴿ بقرة صفراء ﴾ إشارة إلى صفرة وجوه أصحاب الرياضيات ﴿ فاقع لونها ﴾ يريد أنها صفرة زين لا صفرة شين فإنها سيماء الصالحين . ﴿ لا ذلول تثير الأرض ﴾ لا تحتمل ذلة الطمع ولا تثير بآلة الحرص أرض الدنيا لطلب زخارفها ومشتهياتها ﴿ ولا تسقي ﴾ حرث الدنيا بماء وجهه عند الخلق وبماء وجاهته عند الخالق ، فيذهب ماؤه عند الحق وعند الخلق ﴿ مسلمة ﴾ من

آفات صفاتها ليس فيها علامة طلب غير الله ﴿ وما كادوا يفعلون ﴾ بمقتضى الطبيعة لولا فضل الله وحسن توفيقه . ﴿ وإذ قتلتم نفساً ﴾ يعني القلب ﴿ فادّارأتم ﴾ فاختلفتم أنه كان من الشيطان أم من الدنيا أو من النفس الأمارة ﴿ فقلنا اضربوه ببعضها ﴾ ضرب لسان بقرة النفس المذبوحة بسكين الصدق على قتيل القلب بمداومة الذكر فحيي بإذن الله تعالى وقال

(85/58)

﴿ إن النفس لأمارة بالسوء ﴾ [يوسف : 53] ﴿ وأن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار ﴾ مراتب القلوب في القسوة مختلفة ، فالتي يتفجر منها الأنهار قلوب يظهر عليها الغليان أنوار الروح يترك اللذات والشهوات بعض الأشياء المشبهة بخرق العادات كما يكون لبعض الرهبانيين والهنود ، والتي تشقق فيخرج منها الماء هي التي يظهر عليها في بعض الأوقات عند انخراق الحجب البشرية من أنوار الروح فيريه بعض الآيات والمعاني المعقولة كما يكون لبعض الحكماء ، والتي تهبط من خشية الله ما يكون لبعض أهل الأديان والملل من قبول عكس أنوار الروح من وراء الحجب فيقع فيها الخوف والخشية ، وهذه المراتب مشتركة بين المسلمين وغيرهم . والفرق أنها في المسلمين مؤيدة بنور الإيمان فيزيدوا في

قربهم وقبولهم ودرجاتهم ، ولغيرهم ليست مؤيدة بالإيمان فيزيدوا في غرورهم وعجبهم وبعدهم واستدراجهم ، والمسلمون مخصوصون بكرامات وفراسات تظهر لهم من تجلي أنوار الحق ورؤية برهانه . فإراءة الآيات للخواص ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم ﴾ [فصلت : 53] ﴿ ويريكم آياته لعلكم تعقلون ﴾ [البقرة : 73] لكن إراءة البرهان لأخص الخواص كما في حق يوسف ﴿ لولا أن رأى برهان ربه ﴾ [يوسف : 24] سئل الحسن بن منصور عن البرهان فقال : واردات ترد على القلوب فتعجز النفوس عن تكذيبها . والله أعلم .

أهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 1 صـ 315.314 ﴾

(86/58)

قوله تعالى ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (84) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان أكبر الكبائر بعد الشرك القتل تلاه بالتذكير بما أخذ عليهم فيه من العهد ، وقرن به

الإخراج من الديار لأن المال عديل الروح والمنزل أعظم المال وهو للجسد كالجسد للروح فقال : ﴿ وإذ أخذنا ميثاقكم ﴾ يا بني إسرائيل ﴿ لا تسفكون دماءكم ﴾ أي لا يسفك بعضكم دماء بعض ﴿ ولا تخرجون أنفسكم ﴾ بإخراج بعضكم لبعض لأن المتواصلين بنسب أو دين كالنفس الواحدة ﴿ من دياركم ﴾ ، قال الحرالي : وأصلها ما أدارته العرب من البيوت كالحلقة استحفاظاً لما تحويه من أموالها – انتهى .

ولما كانوا قد نكصوا عند حقوقِ الأمر فلم يقبلوا ما أتاهم من الخير حتى خافوا الدمار بسقوط الطور عليهم أشار إلى ذلك بقوله : ﴿ ثم أقررتم ﴾ أي بذلك كله بعد ليّ وتوقف ، والإقرار إظهار الالتزام بما خفي أمره – قاله الحرالي : ﴿ وأنتم تشهدون ﴾ بلزومه وتعاينون تلك الآيات الكبار الملجئة لكم إلى ذلك ، وقد مضى مما يصدق هذا عن التوراة آنفاً ما فيه كفاية للموفق ، وسيأتي في المائدة بقيته ، إن شاء الله تعالى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 182 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أن هذه الآية تدل على نوع آخر من نعم الله عليهم وهو أنه تعالى كلفهم هذا التكليف وأنهم أقروا بصحته ثم خالفوا العهد فيه .

وأما قوله : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا ميثاقكم ﴾ ففيه وجوه .

أحدها : أنه خطاب لعلماء اليهود في عصر النبي صلى الله عليه وسلم ، وثانيها : أنه خطاب مع أسلافهم ، وتقديره وإذ أخذنا ميثاق آبائكم .

وثالثها : أنه خطاب للأسلاف وتقريع للأخلاف ومعنى : ﴿ أَخَذْنَا ميثاقكم ﴾ أمرناكم وأكدنا الأمر وقبلتم وأقررتم بلزومه ووجوبه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 155 ﴾

فصل

قال الفخر :

(87/58)

أما قوله تعالى : ﴿ لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءكُمْ ﴾ ففيه إشكال ، وهو أن الإنسان ملجأ إلى أن لا يقتل نفسه ، وإذا كان كذلك فلا فائدة في النهي عنه .

والجواب عنه من أوجه :

أحدها : أن هذا الإلجاء قد يتغير كما ثبت في أهل الهند أنهم يقدرون في قتل النفس التخلص من عالم الفساد واللحوق بعالم النور والصلاح أو كثير ممن صعب عليه الزمان ، وثقل عليه أمر من الأمور ، فيقتل نفسه ، فإذا انتفى كون الإنسان ملجأ إلى ترك قتله نفسه

صح كونه مكلفاً به ،

وثانيها : المراد لا يقتل بعضكم بعضاً ، وجعل غير الرجل نفسه إذا اتصل به نسباً ودیناً وهو كقوله تعالى : ﴿ فاقتلوا أَنفُسَكُمْ ﴾ [البقرة : 54]

وثالثها : أنه إذا قتل غيره فكأنما قتل نفسه لأنه يقتص منه ،

ورابعها : لا تتعرضوا لمقاتلة من يقتلكم فتكونوا قد قتلتم أنفسكم ،

وخامسها : لا تسفكون دماءكم من قوامكم في مصالح الدنيا بهم فتكونون مهلكين لأنفسكم .

أما قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُمْ ﴾ ففيه وجهان ، الأول : لا تفعلوا ما تستحقون بسببه أن تخرجوا من دياركم ، الثاني : المراد النهي عن إخراج بعضهم بعضاً من ديارهم لأن ذلك مما يعظم فيه المحنة والشدة حتى يقرب من الهلاك .

أما قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾ ففيه وجوه ، أحدها : وهو الأقوى ، أي : ثم أقررتم بالميثاق واعترفتم على أنفسكم بلزومه وأنتم تشهدون عليها كقولك فلان مقر على نفسه بكذا أي شاهد عليها ، وثانيها : اعترفتم بقبوله وشهد بعضكم على بعض بذلك لأنه كان شائعاً فيما بينهم مشهوراً .

وثالثها : وأنتم تشهدون اليوم يا معشر اليهود على إقرار أسلافكم بهذا الميثاق ، ورابعها : الإقرار الذي هو الرضاء بالأمر والصبر عليه كأن يقال : فلان لا يقر على الضيم فيكون المعنى أنه تعالى يأمركم بذلك ورضيتم به فأقمتم عليه وشهدتم بوجوبه وصحته ، فإن قيل : لم قال : ﴿ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾ والمعنى واحد ، قلنا فيه ثلاثة أقوال : الأول : أقررتم يعني أسلافكم وأنتم تشهدون الآن يعني على إقرارهم ، الثاني : أقررتم في وقت الميثاق الذي مضى وأنتم بعد ذلك تشهدون ، الثالث : أنه للتأكيد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 155. 156 ﴾

قال القرطبى :

فإن قيل : وهل يَسفِك أحد دمه ويُخرج نفسه من داره ؟ قيل له : لما كانت ملّتهم واحدة وأمرهم واحد وكانوا في الأمم كالشخص الواحد جعل قتل بعضهم بعضاً وإخراج بعضهم بعضاً قتلاً لأنفسهم ونَفياً لها .

وقيل : المراد القصاص ؛ أي لا يَقتل أحد فيُقتل قصاصاً ، فكأنه سفك دمه .

وكذلك لا يزني ولا يرتدّ ، فإن ذلك يبيح الدم .

ولا يُفْسِد فيُنْفَى ، فيكون قد أخرج نفسه من دياره .

وهذا تأويل فيه بُعْدٌ وإن كان صحيح المعنى .

وإنما كان الأمر أن الله تعالى قد أخذ على بني إسرائيل في التوراة ميثاقاً ألاّ يقتل بعضهم بعضاً ؛ ولا ينفيه ولا يسترقّه ، ولا يدعه يسرق ؛ إلى غير ذلك من الطاعات .

قلت : وهذا كله محرّم علينا ، وقد وقع ذلك كله بالفتن فينا ؛ فإنا لله وإنا إليه راجعون ! وفي التنزيل : ﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ [الأنعام : 65] وسيأتي .

قال ابن خُوَيْزِ منداد : وقد يجوز أن يراد به الظاهر ، لا يقتل الإنسان نفسه ، ولا يخرج من داره سفهاً ؛ كما تقتل الهند أنفسها .

أو يقتل الإنسان نفسه من جَهد وبلاء يصيبه ، أو يَهيم في الصحراء ولا يأوي البيوت جهلاً في ديانته وسفهاً في حِلمه ؛ فهو عموم في جميع ذلك .

وقد " روي أن عثمان بن مَظْعُون بايع في عشرة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فعزموا أن يلبسوا المسوح ، وأن يَهيموا في الصحراء ولا يأوُوا البيوت ، ولا يأكلوا اللحم ولا يغشوا النساء ؛ فبلغ ذلك النبيّ صلى الله عليه وسلم فجاء إلى دار عثمان بن مظعون فلم يجده ، فقال لامرأته : " ما حديثٌ بلغني عن عثمان " ؟ وكَرِهت أن تُفشي سِرّ زوجها ، وأن تكذِب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقالت : يا رسول الله ، إن كان قد بلغك

شيء فهو كما بلغك ؛ فقال : " قولي لعثمان أخلاف لسُنتي أم على غير مِلّتي إني أصلّي وأنام وأصوم وأُفطِر وأَغْشَى النساء وآوي البيوت وآكل اللحم فمن رَغِب عن سُنتي فليس مني " فرجع عثمان وأصحابه عما كانوا عليه " . انتهى انتهى . ا هـ ﴾ تفسير القرطبى حـ 2 صـ 19.18 ﴿

قال ابن عاشور :

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا ميثاقكم لاَ تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلاَ تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُمْ مِّن دياركم ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾ .

تفنن الخطاب هنا فجاء على نسق ما قبل الآية السابقة ، إذ عبر هنا عن جميع بني إسرائيل بضمير الخطاب على طريق التغليب لأن المخاطبين حين نزول القرآن هم المقصودون من هذه الموعظة أو على طريق تنزيل الخلف منزلة السلف كما تقدم ، لأن الداعي للإظهار عند الانتقال من الاستطراد إلى بقية المقصود في الآية السابقة قد أخذ ما يقتضيه فعاد أسلوب الخطاب إلى ما كان عليه .

والقول في ﴿ لا تسفكون ﴾ كالقول في ﴿ لا تعبدون إلا الله ﴾ [البقرة : 83] والسفك الصب .

وإضافة الدماء إلى ضمير فاعل ﴿ تسفكون ﴾ اقتضت أن مفعول ﴿ تسفكون ﴾ هو دماء السافكين وليس المراد النهي عن أن يسفك الإنسان دم نفسه أو يخرج نفسه من داره لأن مثل هذا مما ينزع المرء عنه وازعه الطبيعي فليس من شأن الشريعة الاهتمام بالنهي عنه ، وإنما المراد أن لا يسفك أحد دم غيره ولا يخرج غيره من داره على حد قوله تعالى : ﴿ فإذا دخلتم بيوتاً فسلموا على أنفسكم ﴾ [النور : 61] أي فليسلم بعضكم على بعض .

فوجه إضافة الدماء إلى ضمير السافكين أن هذه الأحكام المتعلقة بالأمة أو القبيلة يكون مدلول الضمائر فيها مجموع الناس ، فإذا تعلقت أحكام بتلك الضمائر من إسناد أو مفعولية أو إضافة أرجع كل إلى ما يناسبه على طريقة التوزيع وهذا كثير في استعمال القرآن ونكتته الإشارة إلى أن المغايرة في حقوق أفراد الأمة مغايرة صورية وأنها راجعة إلى شيء واحد وهو المصلحة الجامعة أو المفسدة الجامعة ، ومثله قوله تعالى : ﴿ لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ﴾ [البقرة : 188] ومن هذا القبيل قول الحماسي الحارث بن وعلة الذهلي :

قومي هم قتلوا أُميم أخي . . .

فإذا رميت يصيبني سهمي

فلئن عفوت لأعفون جللا . . .

ولئن سطوت لأوهنن عظمي

يريد أن سهمه إذا أصاب قومه فقد أضرَّ بنفسه وإلى هذا الوجه أشار ابن عطية وسماه اللف في القول ، أي الإجمال المراد به التوزيع ، وذهب صاحب " الكشاف" إلى أنه من تشبيه الغير بالنفس لشدة اتصال الغير بالنفس في الأصل أو الدين فإذا قتل المتصل به نسباً أو ديناً فكأنما قتل نفسه وهو قريب من الأول ومبناه على المجاز في الضمير المضاف إليه في قوله : ﴿ دماءكم ﴾ و ﴿ أنفسكم ﴾ .

وقيل : إن المعنى لا تسفكون دماءكم بالتسبب في قتل الغير فيقتص منكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم بالجناية على الغير فتنفوا من دياركم ، وهذا مبني على المجاز التبعي في ﴿ تسفكون ﴾ و ﴿ تخرجون ﴾ بعلاقة التسبب .

(91/58)

وأشارت هذه الآية إلى وصيتين من الوصايا الإلهية الواقعة في العهد المعروف بالكلمات العشر المنزلة على موسى عليه السلام من قوله : " لا تقتل ، لا تشته بيت قريبك" فإن النهي عن شهوة بيت القريب لقصد سد ذريعة السعي في اغتصابه منه بفحوى الخطاب .

وعليه فإضافة (ميثاق) إلى ضمير المخاطبين مراعى فيها أنهم لما كانوا متدينين بشريعة

التوراة فقد التزموا بجميع ما تحتوي عليه .

وقوله : ﴿ ثم أقررتم وأنتم تشهدون ﴾ مرتب ترتيباً رتبياً أي أخذ عليكم العهد وأقررتموه أي عملتم به وشهدتم عليه فالضميران في ﴿ أقررتم وأنتم تشهدون ﴾ راجعان لما رجع له ضمير ﴿ ميثاقكم ﴾ وما بعده لتكون الضمائر على سنن واحد في النظم .

وجملة ﴿ وأنتم تشهدون ﴾ حالية أي لا تنكرون إقراركم بذلك إذ قد تقلدتموه والتزمتم التدّين به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 1 صـ 567 . 568 ﴾

" فصل "

قال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلاَ تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُمْ مِّن دِيَارِكُمْ ﴾ أما النفس فمأخوذة من النفاسة ، وهي الجلالة ، فنفس الإنسان أنفس ما فيه ، وأما الديار فالمنزل ، الذي فيه أبنية المقام ، بخلاف منزل الارتحال ، وقال الخليل : كل موضع حَلَّهُ قوم ، فهو دار لهم ، وإن لم يكن فيه أبنية .

فإن قيل : فهل يسفك أحد دمه ، ويخرج نفسه من داره ؟ ففيه قولان :

أحدهما : معناه لا يقتل بعضكم بعضاً ، ولا يخرجه من داره ، وهذا قول قتادة ، وأبي العالية .

والثاني : أنه القصاص الذي يقتص منهم بمن قتلوه .

وفيه قول ثالث : أن قوله " أنفسكم " أي إخوانكم فهو كنفس واحدة .

قوله تعالى : ﴿ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالإِثْمِ وَالعُدْوَانِ ﴾ يعني تتعاونون ، والإثم هو الفعل الذي يستحق عليه الذم ، وفي العدوان قولان :

أحدهما : أنه مجاوزة الحق .

والثاني : أنه في الإفراط في الظلم .

(92/58)

﴿ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُم ﴾ وقرأ حمزة ﴿ أُسْرَى ﴾ . وفي الفرق بين أَسْرَى وأُسَارَى قولان :

أحدهما : أن أَسْرَى جمع أسير ، وأُسَارَى جمع أَسْرَى .

والثاني : أن الأَسْرى الذين في اليد وإنْ لم يكونوا في وَثَاق ، وهذا قول أبي عمرو بن العلاء ، والأُسارَى : الذين في وَثَاق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 1 صـ 154 . 155 ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا ميثاقكم ﴾ منصوب بفعل مُضمرٍ خوطب به اليهودُ قاطبةً على ما ذكر من التغليب ونُعي عليهم

(93/58)

إخلالُهم بمواجب الميثاق المأخوذِ منهم في حقوق العبادِ على طريقة النهي إثرَ بيانِ ما فعلوا بالميثاق المأخوذِ منهم في حقوق الله سبحانه وما يجري مَجراه على سبيل الأمرِ فإن المقصودَ الأصليَّ من النهي عن عبادة غيرِ الله تعالى هو الأمرُ بتخصيص العبادةِ به تعالى أي واذكروا وقت أخذِنا ميثاقَكم في التوراة وقوله تعالى : ﴿ لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءكُمْ وَلاَ تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُمْ مّن دياركم ﴾ كما قبله إخبارٌ في معنى النهي غُيِّر السبكُ إليه لما ذكر من نُكتة المبالغة . والمرادُ به النهيُ الشديدُ عن تعرُّض بعضِ بني إسرائيل لبعضٍ بالقتل والإجلاءِ ، والتعبيرُ عن ذلك بسفك دماءِ أنفسِهم وإخراجها من ديارهم بناءً على جَرَيان كلِّ واحدٍ منهم مجرى أنفسِهم لما بينهم من الاتصال القويِّ نسَباً ودِيناً ، للمبالغة في الحمل على مراعاة حقوقِ الميثاق بتصوير المنهيِّ عنه بصورةٍ تكرَهها كلُّ نفس وتنفِرُ عنها كلُّ طبيعةٍ . فضميرُ (أنفسَكم) للمخاطبين حتماً إذ به يتحقق تنزيلُ المخْرِجين منزلتَهم كما أن ضميرَ (دياركم) للمخرَجين قطعاً ، إذ المحذورُ إنما هو إخراجُهم من ديارهم لا من ديار المخاطَبين من حيث

إنهم مخاطبون كما يفصحُ عنه ما سيأتي من قوله تعالى : ﴿ مِن ديارهم ﴾ وإنما الخطابُ ههنا باعتبار تنزيلِ ديارِهم منزلةَ ديارِ المخاطَبين بناءً على تنزيل أنفسِهم منزلتَهم لتأكيد المبالغةِ وتشديدِ التشنيع ، وأما ضميرُ (دماءَكم) فمحتملٌ للوجهين : مَفادُ الأول كونُ المسفوكِ دماءً ادعائيةً للمخاطَبين حقيقةً ، ومَفادُ الثاني كونُه دماءً حقيقيةً للمخاطبين ادعاءً وهما متقاربان في إفادة المبالغةِ فتدَّبرْ .

(94/58)

وأما ما قيل من أن المعنى لا تباشروا ما يؤديّ إلى قتل أنفسِكم قِصاصاً ، أو ما يبيح سفكَ دمائِكم وإخراجَكم من دياركم ويصرِفُكم عن دياركم ، أو لا تفعلوا ما يُرديكم ويصرِفُكم عن الحياة الأبدية فإنه القتلُ في الحقيقة ولا تقترفوا ما تُحْرَمون به عن الجنة التي هي داركم فإنه الجلاءُ الحقيقيُّ فمما لا يساعده سياقُ النظمِ الكريم بل هو نصٌّ فيما قلناه كما ستقف عليه ﴿ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ ﴾ أي بالميثاق وما يوجب المحافظةَ عليه ، ﴿ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾ توكيدٌ للإقرار كقولك : أقرَّ فلانٌ شاهداً على نفسه ، وقيل : وأنتم أيها الحاضرون تشهدون اليوم على إقرار أسلافِكم بهذا الميثاق . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 1 صـ 124.123 ﴾

ومن فوائد ابن عرفة فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ . . . ﴾ .

تضمن الكلام السابق أمرا اعتقاديا وأمرا فرعيا ، (وهذا تضمّن أمرا فرعيا فقط) وسفك الدماء أشد من الإخراج من الديار ، فالنّهي عنه لا يستلزم النهي عن الإخراج من الديار ، فكان ذلك ترقيا في الذمّ .

وقراءة " يسفكون " بالتخفيف أعم من (قراءة) التشديد لأنه نهي عن مطلق السفك .

ووجه قراءة التشديد أنّ النّهي أتى على وفق حالهم/ في سفك الدّماء ، وكانوا قد تَنَاهَوْا وبلغوا الغاية .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾ .

قال ابن عرفة : إما أنّ المراد أقررتم بذلك إقرارا يتضمن أنّكم حصل لكم بذلك العلم اليقيني ، فهو يبلغ إلى درجة الشهادة ، لأنّ الإنسان يُقِرّ بها : يظن ولا يشهد إلا بما يعلم .

قلت : وأشار الزمخشري إليه حيث جعله كقولك : فلان مُقر على نفسه بكذا ، شاهد عليه .

قال ابن عرفة : وإمّا أن يراد أقر كل واحد منكم على نفسه وشهد على غيره .

الزمخشري : وقيل : وأنتم تشهدون اليوم يا معشر اليهود على إقرار أسلافكم بهذا الميثاق .

زاد ابن عطية : أقررتم (خلفا بعد سلف) أنّ هذا الميثاق أخذ عليكم ، والتزمتموه ، فيتجه في هذه اللفظة أن تكون من الإقرار الذي هو ضد الجحد ، ويتعدى بالباء ، وأن تكون من الإقرار الذي هو إبقاء الأمر على حاله أي أقررتم هذا الميثاق ملتزما .

" وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ " أي تحضرون أخذ الميثاق والإقرار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عرفة حـ 1 صـ 358. 359 ﴾

ومن فوائد الآلوسى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا ميثاقكم لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءكُمْ وَلاَ تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُمْ مّن دياركم ﴾ على نحو ما سبق في ﴿ لاَ تَعْبُدُونَ ﴾ [البقرة : 38] والمراد أن لا يتعرض بعضكم بعضاً بالقتل والإجلاء وجعل قتل الرجل غيره قتل نفسه لاتصاله نسباً أو ديناً ، أو لأنه يوجبه قصاصاً ، ففي الآية مجاز ، إما في ضمير كم حيث عبر به عمن يتصل به أو في ﴿ تَسْفِكُونَ ﴾ حيث أريد به ما هو سبب السفك .

وقيل : معناه لا ترتكبوا ما يبيح سفك دمائكم وإخراجكم من دياركم ، أو لا تفعلون ما

يرديكم ويصرفكم عن لذات الحياة الأبدية فإنه القتل في الحقيقة ولا تقترفوا ما تمنعون به عن الجنة التي هي داركم ، وليس النفي في الحقيقة جلاء الأوطان بل البعد من رياض الجنان ولعل ما يسعده سياق النظم الكريم هو الأول .

والدماء جمع دم معروف وهو محذوف اللام وهي ياء عند بعض لقوله :

جرى الدميان بالخبر اليقين . . .

وواو عند آخرين لقولهم دموان ووزنه فعل أو فعل ، وقد سمع مقصوراً وكذا مشدداً ، وقرأ طلحة وشعيب ﴿ تَسْفِكُونَ ﴾ بضم الفاء وأبو نهيك بضم التاء وفتح السين وكسر الفاء مشددة وابن أبي إسحاق كذلك إلا أنه سكن السين وخفف الفاء ﴿ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ ﴾ أي بالميثاق واعترفتم بلزومه خلفاً بعد سلف فالإقرار ضد الجحد ويتعدى بالباء قيل ويحتمل أنه بمعنى إبقاء الشيء على حاله من غير اعتراف به وليس بشيء إذ لا يلائمه حينئذ

﴿ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾ حال مؤكدة رافعة احتمال أن يكون الإقرار ذكر أمر آخر لكنه يقتضيه ، ولا يجوز العطف لكمال الاتصال ولا الاعتراض إذ ليس المعنى وأنتم عادتكم الشهادة بل المعنى على التقييد وقيل : وأنتم أيها الموجودون تشهدون على إقرار أسلافكم

فيكون إسناد الإقرار إليهم جازاً ، وضعف بأن يكون حينئذ استبعاد القتل والإجلاء منهم مع أن أخذ الميثاق والإقرار كان من أسلافهم لاتصالهم بهم نسباً ودیناً بخلاف ما إذا اعتبر نسبة الإقرار إليهم على الحقيقة فإنه يكون بسبب إقرارهم وشهادتهم وهو أبلغ في بيان قبيح صنيعهم وادعى بعضهم أن الأظهر : أن المراد أقررتم حال كونكم شاهدين على إقراركم بأن شهد كل أحد على إقرار غيره كما هو طريق الشهادة ولا يخفي انحطاط المبالغة حينئذ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 310. 311 ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

هذا الخطاب كله كالذي قبله : وقوله : " لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ " كقوله : " لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللهَ " في الإعراب سواء .

و " تُسْفِكُونَ " من " أَسْفَك " الرّباعي .

وقرأ طلحة بن مصرف ، وشعيب بن أبي حمزة بضم الفاء وهي لغة وأبو نهيك " تُسَفْكُونَ " بضم التاء ، وفتح السين وتشديد الفاء .

و " وَلاَ تُخْرِجُونَ " معطوف .

" مِنْ دِيَارِكُمْ " متعلّق بـ " تخرجون " ، و " من " لابتداء الغاية ، و " ديار " جمع دار الاصل : دَوَرَ ؛ لأنه من دَارَ يَدُورُ دَوَرَاناً ، فأصل دِيَار : دِوَار ، وإنما قلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها

، واعتلالها في الواحد .

وهذه قاعدة مطّردة [في كل جمع على " فِعَالٍ " صحيح اللام قد اعتلت عين مفردة ، أو سكنت حرف علة نحو :] ديار وثياب ، ولذلك صحّ " رِوَاء " لاعتلال لامه ، و" طِوَال " لتحرك عين مفردة ، وهو " طويل " .

فأما " طيال " في " طوال " فَشَاذّ ، وحكم المصدر حكم هذا نحو قام قياماً ، وصام صياماً ، ولذلك صح " لِوَاذ " لصحة فعله في قولهم : " لاوذ " .

(97/58)

وأما دَيَّار فهو من لفظه الدار ، وأصله : ديوان ، فاجتمع الياء والواو فأعلاً على القاعدة المعروفة فوزنه : " فَيْعَال " لا " فَعَّال " ، إذ لو كان " فَعَّالاً " لقيل : دَوَّار كـ " صَوَّام وقَوَّام "

والدَّار : مجتمع القوم من الأَبنية .

وقال الخَلِيلُ : كل موضع حَلَّه الناس ، وإن لم يكن أبنية .

[وقيل : سميت داراً لدورها على سكانها ، كما سمي الحائط حائطاً لإحاطته على ما يحويه] .

و" النفس " مأخوذ من التّنَفاسة ، فنفس الإنسان أشرف ما فيه .

وقوله : " ثم أقررتم " .

قال أبو البقاء : فيه وجهان :

أحدهما : أن " ثُمّ " على بابها في إفادة العطف والتراخي ، والمعطوف عليه محذوف تقديره : فَقَبِلْتُمْ ، ثم أقررتم .

والثاني : أن تكون " ثم " جاءت لترتيب الخبر لا لترتيب المخبر عنه ، كقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ اللهُ شَهِيدٌ ﴾ [يونس : 46] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 2 صـ 244 . 246 ﴾ . باختصار .

(98/58)

قوله تعالى ﴿ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (85) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان هذا بما أكد به من ذكر الميثاق في مظهر العظمة وإضافة الجناية إلى نفس الجاني جديراً بالبعد منه أشار إلى ذلك بقوله : ﴿ ثم أنتم هؤلاء ﴾ الحقيرون المقدور عليهم المجهولون الذين لا يعرف لهم اسم ينادون به ، أو الموجودون الآن ؛ ثم استأنف البيان عن هذه الجملة فقال : ﴿ تقتلون أنفسكم ﴾ من غير التفات إلى هذا العهد الوثيق ﴿ وتخرجون فريقاً منكم ﴾ أي ناساً هم أشقّاء لكم فهم جديرون منكم بالإحسان لا بالإخراج ﴿ من ديارهم ﴾ .

ولما كان من المستبعد جداً بعد الاستبعاد الأول أن يقعوا في ذلك على طريق العدوان استأنف البيان لذلك بقوله : ﴿ تظاهرون ﴾ أي تتعاونون ، من التظاهر ، وهو تكلف المظاهرة وهي تساند القوة كأنه استناد ظهر إلى ظهر – قاله الحرالي : ﴿ عليهم بالإثم ﴾ أي مصاحبين للإثم وهو أسوأ الاعتداء في قول أو فعل أو حال ، ويقال لكذوب : أثوم ، لاعتدائه بالقول على غيره ، والإثم الخمر لما يقع بها من العدواة والعدوى – قاله الحرالي : ﴿ والعدوان ﴾ أي والامتلاء في مجاوزة الحدود ﴿ وإن يأتوكم ﴾ أي هؤلاء الذين تعاونتم أو عاونتم عليهم ﴿ أسارى ﴾ جمع أسرى جمع أسير ، وأصله المشدود بالأسر ، وهو القد وهو ما يقد أي يقطع من السير ﴿ تفادوهم ﴾ أي تخلصوهم بالمال ، من الفداء وهو الفكاك بعوض ، و ﴿ تفادوهم ﴾ من المفاداة وهي الاستواء في العوضين . قاله الحرالي .

ثم أكد تحريم الإخراج بزيادة الضمير والجملة الاسمية في قوله : ﴿ وهو محرم ﴾ من التحريم وهو تكرار الحرمة بالكسر وهي المنع من الشيء لدنايته ، والحرمة بالضم المنع من الشيء لعلوه – قاله الحرالي : ﴿ عليكم ﴾ ولما كان يُظن أن الضمير للفداء عينه فقال : ﴿ إخراجهم ﴾ ثم أنكر عليهم التفرقة بين الأحكام فقال : ﴿ أفتؤمنون ببعض الكتاب ﴾ أي التوراة وهو الموجب للمفاداة ﴿ وتكفرون ببعض ﴾ وهو المحرم للقتل والإخراج ، ثم سبب عن ذلك قوله : ﴿ فما جزاء من يفعل ذلك ﴾ الأمر العظيم الشناعة ﴿ منكم إلا خزي ﴾ ضد ما قصدتم بفعلكم من العز ، والخزي إظهار القبائح التي يستحي من إظهارها عقوبة – قاله الحرالي : ﴿ في الحياة الدنيا ﴾ تعجيلاً للعقوبة له في الدار التي جعلها محط قصده .

وقد فعل سبحانه ذلك بأنواع الذل والقتل فما دونه ، ﴿ ويوم القيامة ﴾ هي فعالة تفهم فيها التاءُ المبالغةَ والغلبة ، وهو قيام أمر مستعظم ، والقيام هو الاستقلال بأعباء ثقيلة ﴿ يردون ﴾ أي بالبعث ، والرد هو الرجوع إلى ما كان منه بدء المذهب – قاله الحرالي : ﴿ إلى أشد العذاب ﴾ لأنه الخزي الأعظم .

ولما كانت المواجهة بالتهديد أدل على الغضب التفت إليهم في قراءة الجماعة فعطف على ما تقديره ذلك بأن الله عالم بما قصدتموه في ذلك فهو يجازيكم بما تستحقون قوله : ﴿ وما

الله ﴾ أي المحيط علماً وقدرة ﴿ بغافل عما ﴾ أي عن شيء بما ﴿ تعملون ﴾ من ذلك ومن غيره ، وقراءة نافع وابن كثير بالغيب على الأسلوب الماضي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 182. 183 ﴾

فائدة

قال الفخر :

أما قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَنتُمْ هؤلاء ﴾ ففيه إشكال لأن قوله : ﴿ أَنتُمْ ﴾ للحاضرين و ﴿ هَؤُلاء ﴾ للغائبين فكيف يكون الحاضر نفس الغائب ، وجوابه من وجوه ، أحدها : تقديره ثم أنتم يا هؤلاء ، وثانيها : تقديره ثم أنتم أعني هؤلاء الحاضرين ، وثالثها : أنه بمعنى الذي وصلته " تقتلون" وموضع تقتلون رفع إذا كان خبراً ولا موضع له إذا كان صلة .

(100/58)

قال الزجاج : ومثله في الصلة قوله تعالى : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يا موسى ﴾ [طه : 17] يعني وما تلك التي بيمينك ، ورابعها : هؤلاء تأكيد لأنتم ، والخبر " تقتلون" ، وأما قوله تعالى : ﴿ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ ﴾ فقد ذكرنا فيه الوجوه ، وأصحها أن المراد يقتل بعضكم بعضاً ، وقتل البعض للبعض قد يقال فيه إنه قتل للنفس إذ كان الكل بمنزلة النفس الواحدة وبينا

المراد بالإخراج من الديار ما هو. انتهى انتهى. اهـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 156. 157﴾

قوله تعالى ﴿تظاهرون عليْهِم بالإثم والعدوان﴾

فائدة

قال الفخر:

اعلم أن التظاهر هو التعاون، ولما كان الإخراج من الديار وقتل البعض بعضاً مما تعظم به الفتنة واحتيج فيه إلى اقتدار وغلبة بين الله تعالى أنهم فعلوه على وجه الاستعانة بمن يظاهرهم على الظلم والعدوان. انتهى انتهى. اهـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 157﴾

فصل

قال الفخر:

الآية تدل على أن الظلم كما هو محرم فكذا إعانة الظالم على ظلمه محرمة، فإن قيل: أليس أن الله تعالى لما أقدر الظالم على الظلم وأزال العوائق والموانع وسلط عليه الشهوة الداعية إلى الظلم كان قد أعانه على الظلم، فلو كانت إعانة الظالم على ظلمه قبيحة لوجب أن لا يوجد ذلك من الله تعالى، والجواب: أنه تعالى وإن مكن الظالم من ذلك فقد زجره عن الظلم بالتهديد والزجر، بخلاف المعين للظالم على ظلمه فإنه يرغبه فيه ويحسنه في عينه ويدعوه إليه فظهر الفرق. انتهى انتهى. اهـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 157﴾

فصل

قال الفخر :

الآية لا تدل على أن قدر ذنب المعين مثل قدر ذنب المباشر ، بل الدليل دل على أنه دونه لأن الإعانة لو حصلت بدون المباشرة لما أثرت في حصول الظلم ولو حصلت المباشرة بدون الإعانة لحصل الضرر والظلم ، فعلمنا أن المباشرة أدخل في الحرمة من الإعانة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 157 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَإِن يَأْتُوكُمْ أسارى تفادوهم ﴾

فصل

قال الفخر :

قرأ نافع وعاصم والكسائي : (أسارى تفادوهم) بالألف فيهما ، وقرأ حمزة وحده بغير ألف فيهما والباقون : " أسارى " بالألف و " تفدوهم " بغير ألف و " الأسرى " جمع أسير كجريح وجرحى ، وفي أسارى قولان : أحدهما : أنه جمع أسرى كسكرى وسكارى ، والثاني : جمع أسير ، وفرق أبو عمرو بين الأسرى والأسارى ، وقال : الأسارى الذين في

وثاق ، والأسرى الذين في اليد ، كأنه يذهب إلى أن أسارى أشد مبالغة ، وأنكر ثعلب ذلك ، وقال علي بن عيسى : الاختيار أسارى بالألف لأن عليه أكثر الأئمة ولأنه أدل على معنى الجمع إذ كان يقال بكثرة فيه ، وهو قليل في الواحد نحو شكاعى ولأنها لغة أهل الحجاز . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 157 ﴾

فائدة

قال الثعالبى :

وقَالَ الثَّعْلَبِيُّ : يقال : فدى ، إذا أعطى مالاً ، وأخذ رجلاً ، وفادى ، إذا أعطى رجلاً ، وأخذ رجُلاً فتُفْدُوهم : معناه بالمال ، وتُفَادُوهم ، أي : مفادات الأسير بالأسير . انتهى .

* ت * : وفي الحديث من قوْل العَبَّاس رضي اللَّه عنه : " فَإِنِّي فَادَيْتُ نَفْسِي وعَقِيلاً " ، وظاهره لا فَرْق بينهما . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الجواهر الحسان حـ 1 صـ 85 ﴾

فصل

قال الفخر :

جمهور المفسرين قالوا : المراد من قوله : ﴿ تفادوهم ﴾ وصف لهم بما هو طاعة وهو

التخليص من الأسر ببذل مال أو غيره ليعودوا إلى كفرهم ، وذكر أبو مسلم أنه ضد ذلك ، والمراد أنكم مع القتل والإخراج إذا وقع أسير في أيديكم لم ترضوا منه إلا بأخذ مال ، وإن كان ذلك محرماً عليكم ثم عنده تخرجونه من الأسر ، قال أبو مسلم والمفسرون : إنما أتوا من جهة قوله تعالى : ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الكتاب وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴾ ، وهذا ضعيف لأن هذا القول راجع إلى ما تقدم من ذكر النبي صلى الله عليه وسلم وما أنزل عليهم ، والمراد أنه إذا كان في الكتاب الذي معكم نبأ محمد فجحدتموه فقد آمنتم ببعض الكتاب وكفرتم ببعض ، وكلا القولين يحتمل لفظ المفاداة لأن الباذل عن الأسير يوصف بأنه فاداه والأخذ منه للتخليص يوصف أيضاً بذلك ، إلا أن الذي أجمع المفسرون عليه أقرب ، لأن عود قوله : ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الكتاب وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴾ إلى ما تقدم ذكره في هذه الآية أولى من عوده إلى أمور تقدم ذكرها بعد آيات . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 157 ، 158 ﴾

فائدة

قال الفخر :

قال بعضهم : الذين أخرجوا والذين فودوا فريق واحد ، وذلك أن قريظة والنضير كانا أخوين كالأوس والخزرج ، فافترقوا فكانت النضير مع الخزرج وقريظة مع الأوس .

فكان كل فريق يقاتل مع حلفائه وإذا غلبوا خربوا ديارهم وأخرجوهم وإذا أسر رجل من

الفريقين جمعوا له حتى يفدوه ، فعيرتهم العرب وقالوا : كيف تقاتلونهم ثم تفدونهم فيقولون : أمرنا أن نفديهم وحرم علينا قتالهم ، ولكنا نستحي أن نذل حلفاءنا ، وقال آخرون : ليس الذين أخرجوهم فودوا ولكنهم قوم آخرون فعابهم الله عليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 158 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ﴾

فصل

قال الفخر :

(103/58)

في قوله : ﴿ وَهُوَ ﴾ وجهان ، الأول : أنه ضمير القصة والشأن كأنه قيل والقصة محرم عليكم إخراجهم ، الثاني : أنه كناية عن الإخراج أعيد ذكره توكيداً لأنه فصل بينهما بكلام فموضعه على هذا رفع كأنه قيل وإخراجهم محرم عليكم ، ثم أعيد ذكر إخراجهم مبيناً للأول . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 158 ﴾

قوله تعالى ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴾

فصل

قال الفخر :

أما قوله : ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الكتاب وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴾

فقد اختلف العلماء فيه على وجهين .

أحدهما : أخراجهم كفر ، وفداؤهم إيمان ، وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما وقتادة وابن جريج ، ولم يذمهم على الفداء ، وإنما ذمهم على المناقضة إذ أتوا ببعض الواجب وتركوا البعض ، وقد تكون المناقضة أدخل في الذم لا يقال هب أن ذلك الإخراج معصية ، فلم سماها كفراً مع أنه ثبت أن العاصي لا يكفر ، لأنا نقول لعلهم صرحوا أن ذلك الإخراج غير واجب مع أن صريح التوراة كان دالاً على وجوبه .

وثالثهما : المراد منه التنبيه على أنهم في تمسكهم بنبوة موسى عليه السلام مع التكذيب بمحمد صلى الله عليه وسلم مع أن الحجة في أمرهما على سواء يجري مجرى طريقة السلف منهم في أن يؤمنوا ببعض ويكفروا ببعض والكل في الميثاق سواء . انتهى انتهى . اهـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 158 ﴾

قوله تعالى ﴿ إلا خزي في الحياة الدنيا ﴾

فصل

قال الفخر :

أما قوله تعالى : ﴿ إلا خزي في الحياة الدنيا ﴾ فأصل الخزي الذل والمقت .

يقال : أخزاه الله ، إذا مقته وأبعده ، وقيل : أصله الاستحياء ، فإذا قيل : أخزاه الله كأنه قيل : أوقعه موقعاً يستحيا منه ، وبالجملة فالمراد منه الذم العظيم ، واختلفوا في هذا الخزي على وجوه .

(104/58)

أحدها : قال الحسن : المراد الجزية والصغار ، وهو ضعيف لأنه لا دلالة على أن الجزية كانت ثابتة في شريعتهم ، بل إن حملنا الآية على الذين كانوا في زمان محمد صلى الله عليه وسلم صح هذا الوجه ، لأن من جملة الخزي الواقع بأهل الذمة أخذ الجزية منهم .

وثانيها : إخراج بني النضير من ديارهم ، وقتل بني قريظة وسبي ذراريهم ، وهذا إنما يصح لو حملنا الآية على الحاضرين في زمان محمد صلى الله عليه وسلم ، وثالثها : وهو الأولى أن المراد منه الذم العظيم والتحقير البالغ من غير تخصيص ذلك ببعض الوجوه دون بعض والتنكير في قوله : " خزي " يدل على أن الذم واقع في النهاية العظمى . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 158 . 159 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَيَوْمَ القيامة يُرَدُّونَ إلى أَشَدّ العذاب ﴾

سؤال :

قال الفخر :

أما قوله : ﴿ وَيَوْمَ القيامة يُرَدُّونَ إلى أَشَدّ العذاب ﴾ ففيه سؤال وهو أن عذاب الدهرية الذين ينكرون الصانع يجب أن يكون أشد من عذاب اليهود ، فكيف قال في حق اليهود : ﴿ يُرَدُّونَ إلى أَشَدّ العذاب ﴾

والجواب : المراد منه أنه أشد من الخزي الحاصل في الدنيا ، فلفظ " الأشد " وإن كان مطلقاً إلا أن المراد أشد من هذه الجهة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 159 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَمَا الله بغافل عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

فصل

قال الفخر :

قرأ ابن كثير ونافع وعاصم بتاء الخطاب والباقون بياء الغيبة ، وجه الأول : البناء على أول الكلام ، أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ، ووجه الثاني : البناء على أنه آخر الكلام واختيار الخطاب لأن عليه الأكثر ولأنه أدل على المعنى لتغليب الخطاب على الغيبة إذا اجتمعا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 159 ﴾

فائدة

قال الفخر :

قوله تعالى : ﴿ وَمَا اللهُ بغافل عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ تهديد شديد وزجر عظيم عن المعصية وبشارة عظيمة على الطاعة ، لأن الغفلة إذا كانت ممتنعة عليه سبحانه مع أنه أقدر القادرين وصلت الحقوق لا محالة إلى مستحقيها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 159 ﴾

ومن فوائد ابن عرفة فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ بالإثم والعدوان ﴾

يحتمل أن يكون الإثم هو مواقعة الذنب خطأ من غير قصد ، والعدوان مواقعة (الذنب عن قصد) .

قوله تعالى : ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الكتاب . . . ﴾ .

أنكر عليهم تناقضهم كما هو في قول الله عز وجل ﴿ أَتَأْمُرُونَ الناس بالبر وَتَنْسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ﴾ ليس المنكر كل واحد (من الأمرين) على حدته ، لأن الإيمان (بالبعض) وأمر الناس بالبر غير منكر ، إنما المنكر (الكفر) بالبعض (وعدم) الاتصاف بالبر ، والمنكر (الجمع بين) الأمرين .

وعبر بالفعل المضارع للتصوير والدوام .

قيل لابن عرفة : في الآية حجة لمن يقول بوجوب فِدَاء الأسارى لقوله تعالى : ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الكتاب ﴾ بعد أن قالوا : ﴿ وَإِن يَأْتُوكُمْ أسارى تُفَادُوهُمْ ﴾ فدل على أن (فداء) الأسارى (من جملة) ما في كتابهم .

فإذا قلنا : إن شرع من قبلنا شرع لنا ، نقول : إن الفداء في شرعنا واجب ؟

(فقال : نعم) .

قوله تعالى : ﴿ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذلك مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ . . . ﴾ .

ولم يقل : من فعل .

قال ابن عرفة : في التعبير بالمضارع ترج وإطماع لهم في العفو ، (لأن) من فعل ذلك في الماضي وتاب لا يجازى بالخزي ، إنما يجازى به من لم يتب .

قوله تعالى : ﴿ يُرَدُّونَ إلى أَشَدِّ العذاب . . . ﴾ .

إن قلت : (الرد) يقتضي تقدم الحلول في المردود إليه ؟

قلنا : هؤلاء كانوا فيما هو من جنس ذلك العذاب لأن العذاب نالهم في الدنيا .

قال الله تعالى : ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ ﴾ فإن قلت : كيف هو أشد وعذاب المنافقين أشد وعذاب الدهرية أشد لنفيهم الصانع ؟

قلنا : الأشديّة مقولة بالتشكيك ، أو المراد أشد العذاب الّذي علم الله حلوله بهم في الدنيا والآخرة ، فلا ينافي أن يحل بغيرهم ما هو أشد منه .

فعذاب الدهرية أشد ، وعذاب المجوس أشد ، وكان بعضهم يقول : إن الدهرية لم يدّعوا نفي وجود الصّانع إنّما قالوا : ﴿ وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاّ الدهر ﴾ فادّعوا أن لهم خالقا أوجدهم فقط ، أو (يقال) : قوله تعالى : ﴿ إِنَّ المنافقين فِي الدرك الأسفل مِنَ النار ﴾ لم يعين أنه أسفل الطبقات نصا فالمراد أنه أسفل من غيره بالإطلاق فيصدق بكونه أسفل من طبقة (ما منها) .

قلت : الآية خرجت مخرج الذم للمنافقين و " الدَّرْكِ " معرّف بالألف واللام العهدية ، والمعهود (هنا) في الأسفل إنما هو ما بلغ الغاية في الانخفاض لا سيما إن قلنا : (الأصح) الأخذ بأواخر الأشياء .

قيل لابن عرفة : ظاهر الآية أنّ من كفر بالجميع عذابه أخف من عذاب من آمن ببعض الكتاب وكفر ببعضه مع أن كفر الأول أشد ؟

فأجاب : بأن الإيمان بالبعض دليل على حصول (العلم) وكفر العالم أشد من كفر الجاهل .

قلنا : أو يجاب بأن (عذاب) الجميع (متساو) فيصدق على كل فريق أن عذابه أشد ،

وهم مستوون في الأشدية ، أو المراد أشد العذاب المعهود في الدنيا ، لأن عذاب الدنيا على أنواع : (منها) الضَّرب والسجن ، وأشدها عذابا النّار أي يردون إلى عذاب النار . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عرفة حـ 1 صـ 359. 362 ﴾

ومن فوائد الإمام القرطبى فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَنْتُمْ هؤلاء ﴾ "أنتم" في موضع رفع بالابتداء ، ولا يعرب ؛ لأنه مضمَر . وضُمت التاء من "أنتم" لأنها كانت مفتوحة إذا خاطبت واحداً مذكّراً ، ومكسورة إذا خاطبت واحدة مؤنثة ؛ فلما ثنّيت أو جمعت لم يبق إلا الضمة .

(107/58)

﴿ هؤلاء ﴾ قال القُتَبِيّ : التقدير يا هؤلاء .

قال النحاس : هذا خطأ على قول سيبويه ، ولا يجوز هذا أقبل .

وقال الزجاج : هؤلاء بمعنى الذين .

و ﴿ تَقْتُلُونَ ﴾ داخل في الصلة ؛ أي ثم أنتم الذين تقتلون .

وقيل : "هؤلاء" رفع بالابتداء ، و "أنتم" خبر مقدم ، و "تقتلون" حال من أولاء .

وقيل : " هؤلاء " نصب بإضمار أعني .

وقرأ الزُّهْرِيّ " تُقَتِّلون " بضم التاء مشدّداً ، وكذلك ﴿ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَآءَ اللهِ ﴾ [البقرة : 91] .

وهذه الآية خطاب للمواجهين لا يحتمل ردّه إلى الأسلاف .

نزلت في بني قَيْنُقاع وقُرَيظة والنَّضِير من اليهود ؛ وكانت بنو قَيْنُقاع أعداء قُريظة ، وكانت الأَوْس حلفاء بني قَيْنُقاع ، والخَزْرج حلفاء بني قُريظة .

والنَّضير والأوس والخزرج إخوان ، وقريظة والنضير أيضاً إخوان ، ثم افترقوا فكانوا يقتتلون ، ثم يرتفع الحرب فيفدون أساراهم ؛ فعيّرهم الله بذلك فقال : " وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ " .

قوله تعالى : ﴿ تَظَاهَرُونَ ﴾ معنى " تظاهرون " تتعاونون ، مشتقّ من الظَّهر ؛ لأن بعضهم يقوّي بعضاً فيكون له كالظهر ؛ ومنه قول الشاعر :

تظاهرتُم أسْتاه بيتٍ تجّمعت . . .

على واحد لا زِلْتُمُ قِرْنَ واحدِ

والإثم : الفعل الذي يستحق عليه صاحبه الذم .

والعدوان : الإفراط في الظلم والتجاوز فيه .

وقرأ أهل المدينة وأهل مكة " تَظّاهرون " بالتشديد ، يُدغمون التاء في الظاء لقربها منها ؛

والأصل تتظاهرون.

وقرأ الكوفيون "تَظَاهرون" مخفّفاً، حذفوا التاء الثانية لدلالة الأولى عليها؛ وكذا ﴿ وَإِنْ تَظَاهَرا عَلَيْهِ ﴾ [التحريم: 4].

وقرأ قتادة "تَظْهرون عليهم" وكله راجع إلى معنى التعاون؛ ومنه: ﴿ وَكَانَ الكافر على رَبِّهِ ظَهِيراً ﴾ [الفرقان: 55] وقوله: ﴿ وَالْمَلاَئِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ [التحريم: 4] فاعلمه.

(108/58)

قوله تعالى: ﴿ وَإِن يَأْتُوكُمْ أسارى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ﴾ فيه ست مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ وَإِن يَأْتُوكُمْ أسارى ﴾ شَرْط، وجوابه "تفادوهم" و "أُسارَى" نصب على الحال.

قال أبو عبيد وكان أبو عمرو يقول: ما صار في أيديهم فهم الأسارى، وما جاء مستأسِراً فهم الأَسْرَى.

ولا يعرف أهل اللغة ما قال أبو عمرو، إنما هو كما تقول: سَكارى وسَكْرى.

وقراءة الجماعة "أُسارى" ما عدا حمزة فإنه قرأ "أَسْرَى" على فَعْلَى ، جمع أسير بمعنى مأسور ؛ والباب في تكسيره إذا كان كذلك فَعْلَى ، كما تقول : قتيل وقتلى ، وجريح وجرحى .

قال أبو حاتم : ولا يجوز أَسَارى .

وقال الزجاج : يقال أسارى كما يقال سَكارى ، وفَعالى هو الأصل ، وفُعَالَى داخلة عليها .

وحُكي عن محمد بن يزيد قال : يقال أسير وأُسراء ؛ كظريف وظُرفاء .

قال ابن فارس : يقال في جمع أسير أسرى وأسارى ؛ وقرئ بهما .

وقيل : أَسارى (بفتح الهمزة) وليست بالعالية .

الثانية : الأسير مشتق من الإسار ، وهو القِدّ الذي يُشدّ به المحمل فسمّيَ أسيراً ؛ لأنه يشدّ وثاقه ؛ والعرب تقول : قد أَسَرَ قَتَبه ، أي شدّه ؛ ثم سُمّيَ كل أَخِيذ أسيراً وإن لم يؤسر ؛

وقال الأعشى :

وَقَيّدني الشّعرُ في بَيْتِهِ . . .

كما قَيّد الآسِراتُ الحِمارا

أي أنا في بيته ؛ يريد بذلك بلوغه النهاية فيه .

فأمّا الأَسْر في قوله عز وجل : ﴿ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ ﴾ [الإنسان : 28] فهو الخَلْق .

وأُسرة الرجل رهطه ؛ لأنه يتقوّى بهم .

الثالثة : قوله تعالى : ﴿ تُفَادُوهُمْ ﴾ كذا قرأ نافع وحمزة والكسائي .

والباقون " تَفْدُوهم" من الفداء .

والفداء : طلب الفِدية في الأسير الذي في أيديهم .

قال الجوهري : " الفداء إذا كُسِر أوله يُمدّ ويقصر ، وإذا فُتح فهو مقصور ؛ يقال : قُمْ فدًى لك أبي .

(109/58)

ومن العرب من يكسر " فِداءً" بالتنوين إذا جاور لام الجر خاصة ؛ فيقول : فِداءٍ لك ، لأنه نكرة يريدون به معنى الدعاء .

وأنشد الأصمعي للنابغة :

مَهْلاً فِداءٍ لك الأقوامُ كلُّهمُ . . .

وما أُثَمِّرُ من مالٍ ومن وَلَدِ

ويقال : فَداه وفاداه إذا أعطى فِداءه فأنقذه .

وفَداه بنفسه ، وفدّاه يُفَدّيه إذا قال جعلت فَداك .

وتَفَادَوْا ؛ أي فَدَى بعضهم بعضاً " .

والفِدية والفَدَى والفِداء كله بمعنىً واحد .

وفاديت نفسي إذا أطلقتها بعد أن دفعت شيئاً ، بمعنى فديت ؛ ومنه قول العباس للنبيّ صلى الله عليه وسلم : فاديتُ نفسي وفاديتُ عَقِيلاً .

وهما فعلان يتعدّيان إلى مفعولين الثاني منهما بحرف الجر ؛ تقول : فديت نفسي بمالي وفاديته بمالي ؛ قال الشاعر :

قِفِي فادِي أسيرَكِ إن قومي . . .

وقومَك ما أرى لهمُ اجتماعا

الرابعة : قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ﴾ "هو" مبتدأ وهو كناية عن الإخراج ، و "مُحَرَّمٌ" خبره ؛ و "إخراجُهم" بدل من "هو" وإن شئت كان كناية عن الحديث والقصة ، الجملة التي بعده خبره ؛ أي والأمر محرّم عليكم إخراجهم .

ف "إخراجهم" مبتدأ ثان .

و "محرم" خبره ، والجملة خبر عن "هو" ؛ وفي "محرّم" ضمير ما لم يسم فاعله يعود على الإخراج .

ويجوز أن يكون "محرمٌ" مبتدأ ، و "إخراجهم" مفعول ما لم يُسَمّ فاعله يسدّ مسدّ خبر "محرم" ، والجملة خبر عن "هو" .

وزعم الفراء أن "هو" عماد ؛ وهذا عند البصريين خطأ لا معنى له ؛ لأن العماد لا يكون

في أول الكلام .

ويُقرأ " وهْوَ" بسكون الهاء لثقل الضمة ؛ كما قال الشاعر :

فَهْو لا تَنْمِي رَمِّيتُه . . .

مالَه لا عُدّ مِن نَفَرِهْ

وكذلك إن جئت باللام وثم ؛ وقد تقدم .

(110/58)

قال علماؤنا : كان الله تعالى قد أخذ عليهم أربعة عهود : ترك القتل ، وترك الإخراج ، وترك المظاهرة ، وفداء أساراهم ؛ فأعرضوا عن كل ما أمِروا به إلا الفداء ؛ فوبّخهم الله على ذلك توبيخاً يُتْلَى فقال : ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الكتاب ﴾ وهو التوراة ﴿ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴾ ! !

قلت : ولَعَمْرُ الله لقد أعرضنا نحن عن الجميع بالفتن فتظاهر بعضنا على بعض ! ليت بالمسلمين ، بل بالكافرين ! حتى تركنا إخواننا أذِلّاء صاغرين يجري عليهم حكم المشركين ؛ فلا حول ولا قوّة إلا بالله العلي العظيم ! .

قال علماؤنا : فداء الأسارى واجب وإن لم يبق درهم واحد .

قال ابن خُوَيزِ مَنْداد : تضمّنت الآية وجوب فَكّ الأسرى ، وبذلك وردت الآثار عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه فكّ الأسارى وأمر بفكّهم ، وجرى بذلك عمل المسلمين وانعقد به الإجماع .

ويجب فك الأسارى من بيت المال ، فإن لم يكن فهو فرض على كافة المسلمين ؛ ومن قام به منهم أسقط الفرض عن الباقين .

وسيأتي .

الخامسة : قوله تعالى : ﴿ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الحياة الدنيا ﴾ ابتداء وخبر .

والخِزْيُ الهوان .

قال الجوهري : وخَزِيَ بالكسر يَخْزَى خِزْيًا إذا ذَلّ وهان .

قال ابن السكّيت : وقع في بلية .

وأخزاه الله ، وخَزِي أيضاً يَخْزَى خِزاية إذا استحيا ، فهو خَزْيان .

وقوم خَزَايا وامرأة خَزْيا .

السادسة : قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ القيامة يُرَدُّونَ ﴾ "يردون" بالياء قراءة العامة ، وقرأ الحسن "تردون" بالتاء على الخطاب .

﴿ إِلَىٰ أَشَدِّ العذاب وَمَا الله بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ تقدّم القول فيه ، وكذلك : ﴿ أولئك

الذين اشتروا ﴾ الآية؛ فلا معنى للإعادة.

"يومَ" منصوب ب "يُرَدُّون" . انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 1 صـ 19.

23 ﴾

(111/58)

ومن فوائد أبى السعود فى الآية

قال عليه الرحمة:

﴿ ثُمَّ أَنتُمْ هؤلاء ﴾ خطابٌ خاصٌّ بالحاضرين فيه توبيخ شديدٌ واستبعادٌ قويٌّ لما ارتكبوه بعد ما كان من الميثاق والإقرارِ به والشهادةِ عليه، وأنتم مبتدأ هؤلاءِ خبرُه، ومَناطُ الإفادةِ اختلافُ الصفاتِ المنزّلَةِ منزلةَ اختلافِ الذات، والمعنى أنتم بعد ذلك هؤلاءِ المشاهِدون الناقضون المتناقضون حسبما تُعربُ عنه الجملُ الآتية، فإن قوله عز وجل: ﴿ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ ﴾ الخ بيانٌ له وتفصيلٌ لأحوالهم المُنْكَرة المندرجةِ تحت الإشارةِ ضمناً كأنهم قالوا: كيف نحن؟ فقيل: تقتُلون أنفسَكم أي الجارين مَجرى أنفسِكم كما أشير إليه، وقرئ تُقتّلون بالتشديد للتكثير ﴿ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مّنكُم ﴾ الضمير إما للمخاطبين والمضافُ محذوفٌ أي من أنفسكم، وإما للمقتولين والخطابُ

باعتبار أنهم جُعلوا أنفُسَ المخاطَبين ، وإلا فلا يتحقق التكافُؤُ بين المقتولين والمخرجين في ذلك العنوان الذي عليه يدور فلَكُ المبالغة في تأكيد الميثاقِ حسبما نُصَّ عليه ، ولا يظهر كمالُ قُباحةِ جناياتِهم في نقضه ﴿ مِن ديارهم ﴾ الضمير للفريق ، وإيثارُ الغَيْبة مع جواز الخِطاب أيضاً بناءً على اعتبار العنوان المذكورِ كما مر في الميثاق للاحتراز عن توهّم كونِ المرادِ إخراجَهم من ديار المخاطَبين من حيث هي ديارُهم لا من حيث هي ديارُ المخرِجين ، وقيل : هؤلاءِ موصولٌ والجملتان في حيّز الصلةِ ، والمجموعُ هو الخبرُ لأنتم ﴿ تظاهرون عليْهِم ﴾ بحذف إحدى التاءين ، وقرئ بإثباتهما وبالإدغام وتظّهرون بطرح إحدى التاءين من تتظهرون ومعنى الكل تتعاونون وهي حالٌ من فاعل تَخرجون أو من مفعوله أو منهما جميعاً ، مبينةٌ لكيفية الإخراج دافعةٌ لتوهم اختصاصِ الحُرمة بالإخراج بطريق الأصالةِ والاستقلالِ ، دون المظاهرةِ والمعاونة ﴿ بالإثم ﴾ متعلقٌ بتظاهرون حال من فاعله أي متلبسين بالإثم وهو الفعلُ الذي يستحق فاعلُه الذمَّ واللومَ ، وقيل : وهو ما

ينفِرُ عنه النفسُ ولا يطمئن إليه القلب ﴿ والعدوان ﴾ وهو التجاوزُ في الظلم ﴿ وَإِن يَأْتُوكُمْ أسارى ﴾ جمعُ أسير وهو من يؤخذ قهراً ، فعيل بمعنى مفعول من الأسر أي الشدّ أو

جمعُ أسرى وهو جمع أسير كجرحى وجريح ، وقد قرئ أسْرى ، ومحله النصبُ على الحالية ﴿ تفادوهم ﴾ أي تخرجوهم من الأسر ، بإعطاء الفداء وقرئ تَفْدوهم .

(113/58)

قال السدي إن الله تعالى أخذ على بني إسرائيلَ في التوراة الميثاقَ أن لا يقتُلَ بعضُهم بعضاً ولا يُخرِجَ بعضُهم بعضاً من ديارهم وأيُّما عبدٍ أو أمةٍ وجدتموه من بني إسرائيلَ فاشتروه وأعتِقوه ، وكانت قريظةُ حلفاءَ الأوسِ والنضيرُ حلفاءَ الخزرج حتى كان بينهما ما كان من العداوة والشَنَآن ، فكان كلٌّ فريقٍ يقاتل مع حُلفائه فإذا غلَبوا خرَّبوا ديارَهم وأخرجوهم منها ، ثم إذا أُسر رجل من الفريقين جمعوا له مالاً فيَفدُونه ، فعيَّرتهم العربُ وقالت : كيف تقاتلونهم ثم تَفْدونهم ؟ فيقولون : أُمرنا أن نفديَهم وحُرِّم علينا قتالُهم ، ولكن نستحْيي أن نُذِلَّ حلفاءَنا ، فذمهم الله تعالى على المناقضة ﴿ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ﴾ ضميرُ الشأن وقع مبتدأ ومحرمٌ فيه ضمير قائم مقامَ الفاعلِ وقع خبراً عن إخراجهم والجملة خبرٌ لضمير الشأن ، وقيل : محرَّمٌ خبرٌ لضمير الشأن وإخراجُهم مرفوع على أنه مفعولُ ما لم يُسمَّ فاعلُه ، وقيل : الضميرُ مُبهم يفسّره إخراجهم ، أو راجعٌ إلى ما يدل عليه تُخرجون من المصدر ، وإخراجُهم تأكيدٌ أو بيانٌ ، والجملةُ حالٌ من الضمير في تخرجون أو من فريقاً أو

منهما كما مر بعد اعتبار القيد بالحال السابقة ، وتخصيصُ بيان الحرمةِ ههنا بالإخراج مع كونه قريناً للقتل عند أخذ الميثاقِ لكونه مِظنّةً للمساهلة في أمره بسبب قِلة خَطَره بالنسبة إلى القتل ، ولأن مساقَ الكلام لذمّهم وتوبيخِهم على جناياتهم وتناقض أفعالهم معاً ، وذلك مختصٌّ بصورة الإخراجِ حيث لم يُنقلْ عنهم تدارُك القتلى بشيءٍ من دِيَةٍ أو قِصاصٍ هو السر في تخصيص التظاهرِ به فيما سبق ، وأما تأخيرُه من الشرطية المعترضةِ مع أن حقه التقديمُ كما ذكره الواحدي فلأن نظْمَ أفاعيلِهم المتناقضةِ في سَمْطٍ واحدٍ من الذكر أدخَلُ في إظهار بطلانها ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الكتاب ﴾ أي التوراة التي أُخذ فيها الميثاقُ المذكور

(114/58)

، والهمزةُ للإنكار التوبيخيّ والفاءُ للعطف على مقدّر يستدعيه المقامُ أي أتفعلون ذلك فتؤمنون ببعض الكتاب وهو المفاداة ، ﴿ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴾ وهو حرمةُ القتالِ والإخراج مع أن مِن قضية الإيمان ببعضه الإيمانُ بالباقي لكون الكلِّ من عند الله تعالى داخلاً في الميثاق ، فمناطُ التوبيخ كفرُهم بالبعض مع إيمانهم بالبعض حسبما يفيده ترتيبُ النظمِ الكريم ، فإن التقديمَ يستدعي في المقام الخطابي أصالةَ المقدَّم وتقدُّمَه بوجهٍ من الوجوه حتماً ، وإذ ليس ذلك ههنا باعتبار الإنكارِ والتوبيخ عليه وهو باعتبار الوقوعِ قطعاً لا

إيمانُهم بالبعض مع كفرهم بالبعض كما هو المفهومُ لو قيل : أفتكفرون ببعض الكتاب وتؤمنون ببعض ؟ ولا مجردُ كفرِهم بالبعض ، وإيمانِهم بالبعض كما يفيده أن يقال : أفتَجْمعون بين الإيمان ببعض الكتابِ والكفرِ ببعضٍ أو بالعكس

(115/58)

﴿ فَمَا جَزَاء مَن يَفْعَلُ ذلك ﴾ ما نافية و (مَنْ) إن جُعلت موصولةً فلا محلَّ ليفعلُ من الإعراب وإن جعلت موصوفةً فمحله الجر على أنه صفتُها ، وذلك إشارةٌ إلى الكفر ببعض الكتاب مع الإيمان ببعضٍ أو إلى ما فعلوا من القتل والإجلاء مع مُفاداةِ الأسارى ﴿ مّنكُمْ ﴾ حالٌ من فاعل يفعل ﴿ إِلاَّ خِزْىٌ ﴾ استثناءٌ مُفرَّغٌ وقع خبراً للمبتدأ ، والخزيُ الذلُّ والهوانُ مع الفضيحة ، والتنكيرُ للتفخيم ، وهو قتلُ بني قُرَيظةَ وإجلاءُ بني النَّضير إلى أذْرِعاتَ وأريحاءَ من الشام وقيل : الجزية ﴿ فِي الحياة الدنيا ﴾ في حيز الرفع على أنه صفةُ خزيٌ أي خزيٌ كائن في الحياة الدنيا أو في حيز النصب على أنه ظرفُ الخزي ، ولعل بيانَ جزائِهم بطريق القصر على ما ذكر لقطع أطماعِهم الفارغةِ من ثمرات إيمانهم ببعض الكتاب وإظهارِ أنه لا أثرَ له أصلاً مع الكفر ببعض ﴿ وَيَوْمَ القيامة يُرَدُّونَ ﴾ وقرىء بالتاء ، أوثرَ صيغةُ الجمع نظراً إلى المعنى (مَنْ) بعد ما أُوثِرَ الإفرادُ نظراً إلى لفظها لما أن الردَّ إنما

يكون بالاجتماع ﴿ إلى أَشَدّ العذاب ﴾ لما أن معصيتَهم أشدُّ المعاصي وقيل : أشدُّ العذاب بالنسبة إلى ما لهم في الدنيا من الخزي والصَّغار ، وإنما غيَّر سبكُ النظمِ الكريم حيث لم يقُلْ مثلاً وأشدُّ العذاب يوم القيامة للإيذان بكمال التنافي بين جزاءَي النشأتين وتقديم يوم القيامة على ذكر ما يقع فيه لتهويل الخطبِ وتفظيعِ الحال من أول الأمر ، ﴿ وَمَا الله بغافل عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ من القبائح التي من جملتها هذا المنكَرُ .

وقرىء بالياء على نهج (يُردّون) وهو تأكيد للوعيد . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 1 صـ 124. 126 ﴾

(116/58)

ومن فوائد الآلوسى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ ثُمَّ أَنتُمْ هؤلاء تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ ﴾ نزلت كما في " البحر " في بني قينقاع وبني قريظة وبني النضير من اليهود ، كان بنو قينقاع أعداء بني قريظة ، وكانت الأوس حلفاء بني قينقاع ، والخزرج حلفاء بني قريظة ، والنضير والأوس والخزرج إخوان ؛ وبنو قريظة والنضير إخوان ثم افترقوا فصارت بنو النضير حلفاء الخزرج ، وبنو قريظة حلفاء الأوس ، فكانوا يقتتلون

ويقع منهم ما قص الله تعالى فعيرهم الله تعالى بذلك .

و﴿ ثُمَّ ﴾ للاستبعاد في الوقوع لا للتراخي في الزمان لأنه الواقع في نفس الأمر كما قيل به و(أنتم) مبتدأ ، وهؤلاء خبره على معنى أنتم بعد ذلك المذكور من الميثاق والإقرار والشهادة هؤلاء الناقضون ، كقولك : أنت : ذلك الرجل الذي فعل كذا ، وكان مقتضى الظاهر ، ثم أنتم بعد ذلك التوكيد في الميثاق نقضتم العهد فتقتلون أنفسكم الخ أي صفتكم الآن غير الصفة التي كنتم عليها ، لكن أدخل (هؤلاء) وأوقع خبراً ليفيد أن الذي تغير هو الذات نفسها نعياً عليهم لشدة وكادت الميثاق ثم تساهلهم فيه وتغيير الذات فهم من وضع اسم الإشارة الموضوع للذات موضع الصفة لا من جعل ذات واحد في خطاب واحد مخاطباً وغائباً ، وإلا لفهم ذلك من نحو ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ [النمل : 55] أيضاً .

(117/58)

وصح الحمل مع اعتبار التغير لأنه ادعائي وفي الحقيقة واحد وعدوا حضوراً مشاهدين باعتبار تعلق العلم بما أسند إليهم من الأفعال المذكورة سابقاً وغيباً باعتبار عدم تعلق العلم بهم لما سيحكى عنهم من الأفعال بعد ، لا لأن المعاصي توجب الغيبة عن غير الحضور إذ المناسب حينئذ الغيبة في (تقتلون) و(تخرجون) قاله الساليكوتي ، و(تقتلون) إما حال

والعامل فيه معنى الإشارة أو بيان كأنه لما قيل : ﴿ ثُمَّ أَنتُمْ هؤلاء ﴾ قالوا كيف نحن فجيء ب ﴿ تَقْتُلُونَ ﴾ تفسيراً له ، ويحتمل أن تجعل مفسرة لها من غير تقدير سؤال ، وذهب ابن كيسان وغيره إلى أن ﴿ أَنتُمْ ﴾ مبتدأ و ﴿ تَقْتُلُونَ ﴾ الخبر و ﴿ هَؤُلاء ﴾ تخصيص للمخاطبين لما نبهوا على الحال التي هم عليها مقيمون فيكون إذ ذاك منصوباً بأعنى وفيه أن النحاة نصوا على أن التخصيص لا يكون بأسماء الإشارة ولا بالنكرة والمستقر من لسان العرب أنه يكون يأيتها كاللهم اغفر لنا أيتها العصابة وبالمعرف باللام كنحن العرب أقرى الناس للضيف أو الإضافة كنحن معاشر الأنبياء لا نورث وقد يكون بالعلم كـ

بنا تميما نكشف الضبابا . . . .

وأكثر ما يأتي بعد ضمير متكلم وقد يجيء بعد ضمير المخاطب كبك الله نرجو الفضل ، وقيل : (هؤلاء) تأكيد لغوي (لأنتم) فهو إما بدل منه أو عطف بيان عليه وجعله من التأكيد اللفظي بالمرادف توهم ، والكلام على هذا خال عن تلك النكتة ، وقيل : هؤلاء بمعنى الذين والجملة صلته والمجموع هو الخبر ، وهذا مبني على مذهب الكوفيين حيث جوزوا كون جميع أسماء الإشارة موصولة سواء كانت بعد (ما) أولا والبصريون يخصونه إذا وقعت بعد (ما) الاستفهامية وهو المصحح على أن الكلام يصير حينئذ من قبيل :

أنا الذي سمتني أمي حيدرة . . .

وهو ضعيف كما قاله الشهاب وقرأ الحسن ﴿ تَقْتُلُونَ ﴾ على التكثير وفي " تفسير المهدوي" أنها قراءة أبي نهيك

(118/58)

﴿ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مّنكُم مّن دياركم ﴾ عطف على ما قبله وضمير ديارهم للفريق وإيثار الغيبة مع جواز دياركم كما في الأول للاحتراز عن توهم كون المراد إخراجهم من ديار المخاطبين من حيث ديارهم لا ديار المخرجين ﴿ تظاهرون عليْهِم بالإثم والعدوان ﴾ حال من فاعل ﴿ تُخْرَجُونَ ﴾ أو من مفعوله قيل : أو من كليهما لأنه لاشتماله على ضميرهما يبين هيئتهما ، والمعنى على الأول تخرجون متظاهرين عليهم وعلى الثاني تخرجون فريقاً متظاهراً عليهم ، وعلى الثالث تخرجون واقعاً التظاهر منهم عليهم والتظاهر التعاون وأصله من الظهر كأن المتعاونين يسند كل واحد منهما ظهره إلى صاحبه و(الاثم) الفعل الذي يستحق عليه صاحبه الذم واللوم ، وقيل : ما تنفر منه النفس ولا يطمئن إليه القلب ، وفي الحديث : " الاثم ما حاك في صدرك" وهو متعلق بتظاهرون حال من فاعله أي متلبسين بالإثم ، وكونه هنا مجازاً عما يوجبه من إطلاق المسبب على سببه كما سميت الخمر إثماً في قوله :

شربت (الاثم) حتى ضل عقلي . . .

كذال (الاثم) تذهب بالعقول

مما لا يدعو إليه داع ، والعدوان تجاوز الحد في الظلم ، وقرأ عاصم وحمزة والكسائي ﴿ تظاهرون ﴾ بتخفيف الظاء وأصله بتاءين حذفت ثانيتهما عند أبي حيان وأولاهما عند هاشم وقرأ باقي السبعة بالتشديد على ادغام التاء في الظاء وأبو حيوة ﴿ تظاهرون ﴾ بضم التاء وكسر الهاء ومجاهد وقتادة باختلاف عنهما ﴿ تُظْهِرُونَ ﴾ بفتح التاء والظاء والهاء مشددتين دون ألف ورويت عن أبي عمرو أيضاً وبعضهم تتظاهرون على الأصل .

(119/58)

﴿ وَإِن يَأْتُوكُمْ أسارى تفادوهم ﴾ أي تخرجوهم من الأسر باعطاء الفداء ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة وابن عامر (تفدوهم) وعليه حمل بعض قراءة الباقين إذ لا مفاعلة ، وفرق جمع بين فادى وفدى بأن معنى الأول : بادل أسيراً بأسير والثاني : جمع الفداء ويعكر عليه قول العباس رضي الله تعالى عنه فاديت نفسي وفاديت عقيلا إذ من المعلوم إنه ما بادل أسيراً بأسير ، وقيل : (تفادوهم) بالعنف و(تفدوهم) بالصلح ؛ وقيل : (تفادوهم

) تطلبوا الفدية من الأسير الذي في أيديكم من أعدائكم ومنه قوله :

قفي فادي أسيرك إن قومي . . .

وقومك لا أرى لهم احتفالاً

وقال أبو علي : معناه لغة تطلقونهم بعد أن تأخذوا منهم شيئاً ، وأراه هنا كسابقه في غاية البعد ، والقول بأن معنى الآية وإن يأتوكم أسارى في أيدي الشياطين تتصدون لانقاذهم بالإرشاد والوعظ من تضييعكم أنفسكم إلى البطون أقرب كما لا يخفى ، والأسارى قيل : جمع أسير بمعنى مأسور وكأنهم حملوا أسيراً على كسلان فجمعوه جمعه كما حملوا كسلان عليه فقالوا كسلى كذا قال سيبويه ، ووجه الشبه أن الأسير محبوس عن كثير من تصرفه للأسر والكسلان محبوس عن ذلك لعادته ، وقيل : إنه مجموع كذا ابتداء من غير حمل كما قالوا في قديم قدامى ، وسمع بفتح الهمزة وليست بالعالية خلافاً لبعضهم حيث زعم أن الفتح هو الأصل والضم ليزداد قوة ، وقيل : جمع أسرى وبه قرأ حمزة وهو جمع أسير كجريح وجرحى فيكون أسارى جمع الجمع قاله المفضل ، وقال أبو عمرو : الأسرى من في اليد ، والأسارى من في الوثاق ولا أرى فرقاً بل المأخوذون على سبيل القهر والغلبة مطلقاً أسرى وأسارى .

﴿ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ﴾ حال من فاعل ﴿ تُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم ﴾ أو مفعوله بعد اعتبار التقييد بالحال السابقة ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِن يَأْتُوكُمْ ﴾ اعتراض بينهما لا معطوف على ﴿ تظاهرون ﴾ لأن الإتيان لم يكن مقارناً للإخراج وقيد الإخراج بهذه الحال لإفادة أنه لم يكن عن استحقاق ومعصية موجبة له ، وتخصيصه بالتقييد دون القتل للإهتمام بشأنه لكونه أشد منه ﴿ والفتنة أَشَدُّ مِنَ القتل ﴾ [البقرة : 191] وقيل : لا بل لكونه أقل خطراً بالنسبة إلى القتل فكان مظنة التساهل ، ولأن مساق الكلام لذمهم وتوبيخهم على جناياتهم وتناقض أفعالهم وذلك مختص بصورة الإخراج إذ لم ينقل عنهم تدارك القتلى بشيء من دية أو قصاص وهو السر في تخصيص التظاهر فيما سبق ، وقيل : النكتة في إعادة تحريم الإخراج وقد أفاده لا تخرجون أنفسكم بأبلغ وجه ، وفي تخصيص تحريم الإخراج بالإعادة دون القتل أنهم امتثلوا حكماً في باب المخرج وهو الفداء وخالفوا حكماً وهو الإخراج فجمع مع الفداء حرمة الإخراج ليتصل به ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ ﴾ الخ أشد اتصال ويتضح كفرهم بالبعض وإيمانهم بالبعض كمال اتضاح حيث وقع في حق شخص واحد ، والضمير للشأن والجملة بعده خبره .

وقيل : خبره (محرم) و(إخراجهم) نائب فاعل وهو مذهب الكوفيين وتبعهم المهدوي ، وإنما ارتكبوه لأن الخبر المتحمل ضميراً مرفوعاً لا يجوز تقديمه على المبتدأ فلا يجيزون قائم زيد على أن يكون قائم خبراً مقدماً ، والبصريون يجوزون ذلك ولا يجيزون هذا الوجه لأن ضمير الشأن لا يخبر عنه عندهم إلا بجملة مصرح بجزأيها ، وقيل : إنه ضمير مبهم مبتدأ أيضاً و(محرم) خبره و(إخراجهم) بدل منه مفسر له ، وهذا بناء على جواز إبدال الظاهر من الضمير الذي لم يسبق ما يعود إليه ، ومنهم من منعه وأجازه الكسائي ، وقيل : راجع إلى الإخراج المفهوم من (تخرجون) و(إخراجهم) عطف بيان له أو بدل منه أو من ضمير محرم ، وضعف بأنه بعد عوده إلى الإخراج لا وجه لإبداله منه .

ومن الغريب ما نقل عن الكوفيين أنه يحتمل أن يكون هو ضمير فصل ، وقد تقدم مع الخبر والتقدير وإخراجهم هو محرم عليكم فلما قدم خبر المبتدأ عليه قدم هو معه ولا يجوزه البصريون لأن وقوع الفصل بين معرفة ونكرة لا تقارب المعرفة لا يجوز عندهم وتوسطه بين المبتدأ والخبر أو بين ما هما أصله شرط عندهم أيضاً ، ولابن عطية في هذا الضمير كلام يجب إضماره

﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الكتاب وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴾ عطم على ﴿ تَقْتُلُونَ ﴾ أو على محذوف أي أتفعلون ما ذكر فتؤمنون الخ والاستفهام للتهديد والتوبيخ على التفريق بين أحكام الله تعالى إذ العهد كان بثلاثة أشياء ترك القتل وترك الإخراج ومفاداة الأسارى فقتلوا وأخرجوا على خلاف العهد وفدوا بمقتضاه ، وقيل : المواثيق أربعة فزيد ترك المظاهرة ، وقد أخرج ابن جرير عن أبي العالية أن عبد الله بن سلام مر على رأس الجالوت بالكوفة وهو يفادى من النساء ما لم يقع عليه العرب ولا يفادى من وقع عليه العرب فقال له عبد الله بن سلام : أما إنه مكتوب عندك في كتابك أن فادوهن كلهن ، وروى محيي السنة عن السدي أن الله تعالى أخذ على بني إسرائيل في التوراة أن لا يقتل بعضهم بعضاً ولا يخرج بعضهم بعضاً من ديارهم وأيما عبد أو أمة وجدتموه من بني إسرائيل فاشتروه بما قام من ثمنه فأعتقوه ، ولعل كفرهم بما ارتكبوا لاعتقادهم عدم الحرمة مع دلالة صريح التوراة عليها لكن ما في " الكشاف " من أنه قيل لهم : كيف تقاتلونهم ثم تفدونهم ؟ فقالوا : أمرنا بالفداء وحرم علينا القتال لكنا نستحي من حلفائنا يدل على أنهم لا ينكرون حرمة القتال فاطلاق الكفر حينئذ على فعل ما حرم إما لأنه كان في شرعهم كفراً أو أنه للتغليظ كما أطلق على ترك الصلاة ونحوه ذلك في شرعنا ، والقول بأن المعنى أتستعملون البعض وتتركون البعض فالكلام محمول على المجاز بهذا الاعتبار لا اعتبار به كالقول بأن المراد بالبعض المؤمن به نبوة

موسى عليه السلام ، والبعض الآخر نبوة نبينا صلى الله عليه وسلم .

﴿ فَمَا جَزَاء مَن يَفْعَلُ ذلك مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الحياة الدنيا ﴾ الإشارة إلى الكفر ببعض الكتاب والإيمان ببعض ، أو إلى ما فعلوه من القتل والإجلاء مع مفاداة الأسارى والجزاء المقابلة ؛ ويطلق في الخير والشر .

(123/58)

والخزي الهوان ، والماضي خزي بالكسر ، وقال ابن السكيت : معنى خزي وقع في بلية وخزي الرجل خزاية إذا استحى وهو خزيان وقوم خزايا وامرأة خزيا والمراد به هنا الفضيحة والعقوبة أو ضرب الجزية غابر الدهر أو غلبة العدو أو قتل قريظة وإجلاء النضير من منازلهم إلى أريحاء وأذرعات .

وقد روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال : كان عادة بني قريظة القتل وعادة بني النضير الإخراج فلما غلب رسول الله صلى الله عليه وسلم أجلى بني النضير وقتل رجال قريظة وأسر نساءهم وأطفالهم وتنكير الخزي للإيذان بفظاعة شأنه وأنه بلغ مبلغاً لا يكنه كنهه ، ومن هنا لم يخصه بعضهم ببعض الوجوه ، وادعى أن الأظهر ذلك وجعل الإشارة إلى الكفر ببعض الكتاب والإيمان ببعض أي بعض كان ولذلك أفردها ، وحينئذ

يتناول الكفرة بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ونظيره من يفعل جميع ذلك ، و(الدنيا) مأخوذة من دنا يدنو ويائوها منقلبة عن واو ولا يحذف منها الألف واللام إلا قليلاً ، وخصه أبو حيان في الشعر ، و(ما) نافية و(مَنْ) إن جعلت موصولة فلا محل ليفعل من الإعراب ، وإن جعلت موصوفة فمحله الجر على أنه صفتها ، و(منكم) حال من فاعل يفعل .

و(إلا خزي) استثناء مفرغ وقع خبراً للمبتدأ ولا يجوز النصب في مثل ذلك على المشهور . ونقل عن يونس إجازته في الخبر بعد (إلا) كائنا ما كان ، وقال بعضهم : إن كان (ما) بعد إلا هو الأول في المعنى أو منزل منزلته لم يجز فيه إلا الرفع عند الجمهور ، وأجاز الكوفيون النصب فيما كان الثاني فيه منزلاً منزلة الأول ، وإن كان وصفاً أجاز فيه الفراء النصب ومنعه البصريون وحكى عنهم أنهم لا يجوزون النصب في غير المصادر إلا أن يعرف المعنى فيضمر ناصب حينئذ وتحقيقه في محله .

﴿ وَيَوْمَ القيامة يُرَدُّونَ إلى أَشَدّ العذاب ﴾ أي يصيرون إليه فلا يلزم كينونتهم قبل ذلك في أشد العذاب ، وقد يراد بالرد الرجوع إلى ما كانوا فيه كما في قوله تعالى : ﴿ فرددناه إلى أُمّهِ ﴾ [القصص : 13] وكأنهم كانوا في الدنيا ، أو في القبور في أشد العذاب أيضاً فردوا إليه

، والمراد به الخلود في النار وأشديته من حيث إنه لا انقضاء له ، أو المراد أشد جميع أنواع العذاب ولكن بالنسبة إلى عذاب من لم يفعل هذا العصيان لأن عصيانهم أشد من عصيان هؤلاء وجزاء سيئة سيئة مثلها ويدل على ما قررناه قوله تعالى : ﴿ مَن يَفْعَلُ ذلك مِنكُمْ ﴾ فلا يرد ما أورده الإمام الرازي أنه كيف يكون عذاب اليهود أشد من الدهرية المنكرين للصانع ولا يفيد ما قيل لأنهم كفروا بعد معرفتهم إنه كتاب الله تعالى وإقرارهم وشهادتهم إذ الكافر الموحد كيف يقال إنه أشد عذاباً من المشرك ؟! أو النافي للصانع وإن كان كفره عن علم ومعرفة ، وضمير (يردون) راجع إلى (مَنْ) وأوثر صيغة الجمع نظراً إلى معناها بعد ما أوثر الإفراد نظراً إلى لفظها لما أن الرد إنما يكون بالاجتماع وغير السبك حيث لم يقل مثلا وأشد العذاب يوم القيامة للايذان بكمال التنافي بين جزاءي النشأتين ، وتقديم اليوم على ذكر ما يقع فيه لتهويل الخطب وتفظيع الحال من أول الأمر ، وقرأ الحسن وابن هرمز باختلاف عنهما ، وعاصم في رواية المفضل تردون على الخطاب ، والجمهور على الغيبة ، ووجه ذلك أن (يردون) راجع إلى من يفعل فمن قرأ بصيغة الغيبة نظر إلى صيغة (مَنْ) ومن قرأ بصيغة الخطاب نظر إلى دخوله في (منكم) لا أن الضمير حينئذ راجع إلى (كُمْ) كما وهم

﴿ وَمَا اللهُ بغافل عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ اعتراض وتذييل لتأكيد الوعيد المستفاد مما قبله أي إنه بالمرصاد لا يغفل عما تعملون من القبائح التي من جملتها هذا المنكر ؛ والمخاطب به من كان مخاطباً بالآية قبل ، وروي عن عمر رضي الله تعالى عنه أنه قال : إن بني إسرائيل قد مضوا وأنتم تعنون بهذا يا أمة محمد وبما يجري مجراه ، وقرأ نافع وابن كثير وأبو بكر يعملون بالياء على أن الضمير لمن والباقون بالتاء من فوق . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 315.311 ﴾

ومن فوائد ابن عاشور فى الآية

قال رحمه الله :

والعطف بثم في قوله : ﴿ ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم ﴾ للترتيب الرتبي أي وقع ذلك كله وأنتم هؤلاء تقتلون ، والخطاب لليهود الحاضرين في وقت نزول القرآن بقرينة قوله : ﴿ هؤلاء ﴾ لأن الإشارة لا تكون إلى غائب وذلك نحو قولهم : ها أنا ذا وها أنتم أولاء ، فليست زيادة اسم الإشارة إلا لتعيين مفاد الضمير وهذا استعمال عربي يختص غالباً بمقام التعجب من حال المخاطب وذلك لأن أصل الإخبار أن يكون بين المخبر والمخبر عنه تخالف في المفهوم واتحاد في الصدق في الخارج وهو المعروف عند المناطقة بحمل الاشتقاق نحو أنت صادق ، ولذلك لزم اختلاف المسند والمسند إليه بالجمود والاشتقاق غالباً أو

الاتحاد في الاشتقاق ولا تجدهما جامدين إلا بتأويل .

ثم إن العرب قد تقصد من الإخبار معنى مصادفة المتكلم الشيءَ عينَ شيء يبحث عنه في نفسه نحو " أنت أبا جهل" قاله له ابن مسعود يوم بدر إذ وجده مثخناً بالجراح صريعاً ومصادفة المخاطب ذلك في اعتقاد المتكلم نحو " قال أنا يوسف وهذا أخي" فإذا أرادوا ذلك توسعوا في طريقة الإخبار فمن أجل ذلك صح أن يقال : " أنا ذلك" إذا كانت الإشارة إلى متقرر في ذهن السامع وهو لا يعلم أنه عين المسند إليه كقول خفاف بن نَدبة :

تَأَمَّلْ خُفَافاً إنني أنا ذلكا . . .

وقول طريف العنبري :

فتوسموني إنني أنا ذالكم . . .

وأوسع منه عندهم نحوُ قول أبي النجم :

أنا أبو النجم وشعري شعري . . .

ثم إذا أرادوا العناية بتحقيق هذا الاتحاد جاءوا " بها التنبيهِ" فقالوا : هَا أنا ذا يقوله المتكلم لمن قد يشك أنه هو نحو قول الشاعر :

إن الفتى مَن يقول ها أنا ذا . . .

فإذا كان السبب الذي صحح الإخبار معلوماً اقتصَر المتكلم على ذلك وإلا أُتْبَع مثلَ ذلك التركيب بجملة تدل على الحال التي اقتضت ذلك الإخبار ولهم في ذلك مراتب : الأولى ﴿ ثم أنتم هؤلاء تقتلون ﴾ ، الثانية : ﴿ ها أنتم أولاء تحبونهم ﴾ [آل عمران : 119] . ومنه " ها أنا ذا لديكما " قاله أمية بن أبي الصلت .

الثالثة ﴿ ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا ﴾ [النساء : 109] ويستفاد معنى التعجب في أكثر مواقعه من القرينة كما تقول لمن وجدته حاضراً وكنت لا تترقب حضوره ها أنت ذا ، أو من الجملة المذكورة بعده إذا كان مفادها عجيباً كما رأيت في الأمثلة .

والأظهر أن يكون الضمير واسم الإشارة مبتدأ وخبراً والجملة بعدهما حالاً ، وقيل : هي مستأنفة لبيان منشأ التعجب ، وقيل : الجملة هي الخبر واسم الإشارة منادى معترض ومنعه سيبويه ، وقيل : اسم الإشارة منصوب على الاختصاص وهذا ضعيف .

وعلى الخلاف في موقع الجملة اختلف فيما لو أتى بعدها أنت ذَا ونحوِه بمفرد فقيل يكون منصوباً على الحال وقيل : مرفوعاً على الخبر ولم يسمع من العرب إلا مثال أنشده النحاة وهو قوله :

أبا حَكَم ها أنتَ نَجْمٌ مُجَالد . . .

ولأجل ذلك جاء ابن مالك في خطبة "التسهيل" بقوله: وها أنا ساع فيما انتدبت إليه، وجاء ابن هشام في خطبة "المغني" بقوله: وها أنا مبيح بما أسررته.

واختلف النحاة أيضاً في أن وقوع الضمير بعد (ها) التنبيه هل يتعين أن يعقبه اسم الإشارة فقال في "التسهيل" هو غالب لا لازم وقال ابن هشام هو لازم صرح به في "حواشي التسهيل" بنقل الدماميني في "الحواشي المصرية" في الخطبة وفي الهاء المفردة.

(127/58)

وقال الرضى إن دخول (ها) التنبيه في الحقيقة إنما هو على اسم الإشارة على ما هو المعروف في قولهم هذا وإنما يفصل بينها وبين اسم الإشارة بفاصل فمنه الضمير المرفوع المنفصل كما رأيت ومنه القسم نحو قول الشاعر من "شواهد الرضي":

تَعَلَّمَنْ هَا لعمرُ اللهِ ذا قسما . . .

فاقدر بذرعك فانظر أين تنسلك

وشذ بغير ذلك نحو قول النابغة:

ها إنّ تَاعذرة إن لا تكن نفعت . . .

فإن صاحبها قد تاه في البلد

وقوله : ﴿ تقتلون ﴾ حال أو خبر .

وعبر بالمضارع لقصد الدلالة على التجدد وأن ذلك من شأنكم وكذلك قوله : ﴿ وتخرجون فريقاً منكم ﴾ .

وجعل في " الكشاف" المقصود بالخطابات كلها في هذه الآية مراداً به أسلاف الحاضرين وجعل قوله : ﴿ ثم أنتم هؤلاء تقتلون ﴾ مع إشعاره بمغايرة المشار إليهم للذين وجه إليهم الخطاب مراداً منه مغايرة تنزيلية لتغير صفات المخاطب الواحد وذلك تكلف ساقه إليه محبة جعل الخطابات في هذه الآية موافقة للخطابات التي في الآي قبلها ، وقد علمت أنه غير لازم وأن المغايرة مقصودة هنا وقد استقامت فلا داعي إلى التكلف .

وقد أشارت هذه الآية إلى ما حدث بين اليهود من التخاذل وإهمال ما أمرتهم به شريعتهم والأظهر أن المقصود يهود قريظة والنضير وقَيْنُقَاعَ .

وأراد من ذلك بخاصة ما حدث بينهم في حروب بُعَاث القائمة بين الأوس والخزرج وذلك أنه لما تَقَاتَل الأوسُ والخزرجُ اعتزل اليهودُ الفريقين زمناً طويلاً والأوسُ مغلوبون في سائر أيام القتال فدبر الأوس أن يخرجوا يسعون لمحالفة قُرَيظة والنَّضِير فلما علم الخزرج توعدوا اليهود إن فعلوا ذلك فقالوا لهم : إنا لا نحالف الأوس ولا نحالفكم فطلب الخزرجُ على اليهود رهائنَ أربعين غلاماً من غلمان قريظة والنضير فسلموهم لهم .

ثم إن عمرو بن النعمان البياضي الخزرجي أطمع قومه أن يتحولوا لقريظة والنضير لحسن أرضهم ونخلهم وأرسل إلى قريظة والنضير يقول لهم : إما أن تخلوا لنا دياركم وإما أن نقتل الرهائن فخشي القوم على رهائنهم واستشاروا كعب بن أسيد القُرظي فقال لهم : " يا قوم امنعوا دياركم وخلوه يقتل الغلمان فما هي إلا ليلة يصيب أحدكم فيها امرأتَه حتى يولد له مثل أُحدهم " فلما أجابت قريظة والنضير عمراً بأنهم يمنعون ديارهم عدا عمروٌ على الغلمان فقتلهم فلذلك تحالفت قريظة والنضير مع الأوس فسعى الخزرج في محالفة بني قينقاع من اليهود وبذلك نشأ قتال بين فِرق اليهود وكان بينهم يوم بعاث قبل الهجرة بخمس سنين فكانت اليهود تتقاتل وتجلي المغلوبين من ديارهم وتأسرهم ، ثم لمَّا ارتفعت الحرب جمعوا مالاً وفدوا به أسرى اليهود الواقعين في أسر أحلاف أحد الفريقين من الأوس أو الخزرج فعيرت العربُ اليهودُ بذلك وقالت : كيف تقاتلونهم ثم تفدونهم بأموالكم فقالوا : قد حرم علينا قتالهم ولكنا نستحي أن نخذل حلفاءنا وقد أُمرنا أن نفدي الأسرى فذلك قوله تعالى : ﴿ وإن يأتوكم أُسارى تفادوهم وهو محرم عليكم إخراجهم ﴾ .

الواو في قوله : ﴿ وإن يأتوكم أُسارى ﴾ يجوز أن تكون للعطف فهو عطف على قوله : ﴿ تقتلون أنفسكم وتخرجون ﴾ فهو من جملة ما وقع التوبيخ عليه مما نكث فيه العهد وهو وإن لم يتقدم في ذِكر ما أُخذ عليهم العهدُ مَا يدل عليه إلا أنه لما رجع إلى إخراج الناس من ديارهم

كان في جملة المنهيات .

ولك أن تجعل الواو للحال من قوله : ﴿ وتخرجون فريقاً ﴾ أي تخرجونهم والحال إن أسرتموهم تفدونهم .

(129/58)

وكيفما قدرت فقوله : ﴿ وهو محرم عليكم إخراجهم ﴾ جملة حالية من قوله : ﴿ يأتوكم ﴾ إما حال من معطوف وإما حال من حال إذ ليس فداء الأسير بمذموم لذاته ولكن ذمه باعتبار ما قارنه من سبب الفداء فحمل التوبيخ هو مجموع المفاداة مع كون الإخراج محرماً وبعد أن قتلوهم وأخرجوهم ، فجملة ﴿ وهو محرم عليكم إخراجهم ﴾ حالية من ضمير ﴿ تفادوهم ﴾ .

وصُدرت بضمير الشأن للاهتمام بها وإظهار أن هذا التحريم أمر مقرر مشهور لديهم وليست معطوفة على قوله : ﴿ وتخرجون فريقاً منكم ﴾ وما بينهما اعتراض لقلة جدواه إذ قد تحقق ذلك بقوله : ﴿ ولا تخرجون أنفسكم ﴾ .

وفي قوله : ﴿ وهو محرم عليكم إخراجهم ﴾ تشنيع وتبليد لهم إذ توهموا القُربة فيما هو من آثار المعصية أي كيف ترتكبون الجناية وتزعمون أنكم تتقربون بالفداء وإنما الفداء

المشروع هو فداء الأسرى من أيدي الأعداء لا من أيديكم فهلا تركتم موجب الفداء ؟ .

وعندي أن في الآية دلالةً على ترجيح قول إمام الحرمين في أن الخارج من المغصوب ليس آتياً بواجب ولا بحرام ولكنه انقطع عنه تكليف النهي وأن القُربة لا تكون قربة إلا إذا كانت غير ناشئة عن معصية .

والأُسارى بضم الهمزة جمع أسير حَمْلاً له على كَسْلان كما حملوا كسلان على أسير فقالوا : كَسْلَى هذا مذهب سيبويه لأن قياس جمعه أَسرى كقتلى .

وقيل : هو جمع نادر وليس مبنياً على حمل ، كما قالوا قدَامى جمع قديم .

وقيل : هو جمعُ جمعٍ فالأسير يجمع على أسرى ثم يجمع أسرى على أُسارى وهو أظهر .

والأسير فَعِيل بمعنى مفعول من أَسَرَه إذا أوثقه وهو فعل مشتق من الاسم الجامد فإن الإسَار هو السَّيْر من الجِلد الذي يوثق به المَسجون والمَوثوق وكانوا يُوثِقون المغولبين في الحرب بسيور من الجِلد ، قال النابغة :

لم يبقَ غيرُ طريدٍ غيرِ مُنْفَلِت . . .

أو موثَقٍ في حِباله القدّ مسلوبِ

وقرأ الجمهور (أُسارى) ، وقرأه حمزة (أَسْرَى) .

وقرأ نافع والكسائي وعاصم ويعقوب ﴿ تفادوهم ﴾ بصيغة المفاعلة المستعملة في المبالغة في الفداء أي تفدوهم فداء حريصاً ، فاستعمال فادى هنا مسلوب المفاضلة مثل عافاه الله وقول امرىء القيس :

فعادَى عداء بين ثور ونعجة . . .

دراكاً فلم ينضح بماء فيغسل

وقرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو وحمزة وأبو جعفر وخلف ﴿ تفدوهم ﴾ بفتح الفوقية وإسكان الفاء دون ألف بعد الفاء .

والمحرم الممنوع ومادة حرم في كلام العرب للمنع ، والحرام الممنوع منعاً شديداً أو الممنوع منعاً من قبل الدين ، ولذلك قالوا : الأشهر الحرم وشهر المحرم .

وقوله : ﴿ أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ﴾ استفهام إنكاري توبيخي أي كيف تعمدتم مخالفة التوراة في قتال إخوانكم واتبعتموها في فداء أسراهم ، وسمي الاتباع والإعراض إيماناً وكفراً على طريقة الاستعارة لتشويه المشبه وللإنذار بأن تعمد المخالفة للكتاب قد تفضي بصاحبها إلى الكفر به ، وإنما وقع ﴿ تؤمنون ﴾ في حيز الإنكار تنبيهاً على أن الجمع بين الأمرين عجيب وهو مؤذن بأنهم كادوا أن يجحدوا تحريم إخراجهم أو لعلهم جحدوا ذلك وجحد ما هو قطعي من الدين مروق من الدين .

والفاء عاطفة على ﴿ تقتلون أنفسكم ﴾ ، وما عطف عليه ، عطفت الاستفهام أو عطفت مقدراً دل عليه الاستفهام وسيأتي تحقيق ذلك قريباً عند قوله ﴿ أفكلما جاءكم رسول ﴾ [البقرة : 87] .

والفاء في قوله : ﴿ فما جزاء من يفعل ذلك منكم ﴾ فصيحة عاطفة على محذوف دل عليه الاستفهام الإنكاري أو عاطفة على نفس الاستفهام لما فيه من التوبيخ .

وقال عبد الحكيم : إن الجملة معترضة والاعتراض بالفاء وهذا بعيد معنى ولفظاً ، وأما الأول فلأن الاعتراض في آخر الكلام المعبر عنه بالتذييل لا يكون إلا مفيداً لحاصل ما تقدم وغير مفيد حكماً جديداً وأما الثاني فلأن اقتران الجملة المعترضة بحرف غير الواو غير معروف في كلامهم .

(131/58)

والخزي بالكسر ذل في النفس طارىء عليها فجأة لإهانة لحقتها أو معرة صدرت منها أو حيلة وغلبة تمشت عليها وهو اسم لما يحصل من ذلك وفعله من باب سمع فمصدره بفتح الخاء ، والمراد بالخزي ما لحق باليهود بعد تلك الحروب من المذلة بإجلاء النضير عن ديارهم وقتل قريظة وفتح خيبر وما قدر لهم من الذل بين الأمم .

وقرأ الجمهور (يُردون) و (يعملون) بياء الغيبة ، وقرأ عاصم في رواية عنه (تردون) بتاء الخطاب نظراً إلى معنى (من) وإلى قوله (منكم) ، وقرأ نافع وابن كثير ويعقوب : (يعملون) بياء الغيبة وقرأه الجمهور بتاء الخطاب .

وقد دلت هذه الآية على أن الله يعاقب الحائدين عن الطريق بعقوبات في الدنيا وعقوبات في الآخرة .

وقد وقع اسم الإشارة وهو قوله : ﴿ أولئك الذين اشتروا ﴾ موقع نظيره في قوله : ﴿ أولئك على هدى من ربهم ﴾ [البقرة : 5] .

والقول في ﴿ اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة ﴾ كالقول في : ﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدي ﴾ [البقرة : 16] .

والقول في ﴿ فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون ﴾ قريب من القول في ﴿ ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون ﴾ .

وموقع الفاء في قوله : ﴿ فلا يخفف عنهم العذاب ﴾ هو الترتب لأن المجرم بمثل هذا الجرم العظيم يناسبه العذاب العظيم ولا يجد نصيراً يدفع عنه أو يخفف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 1 صـ 568. 574 ﴾

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلاء تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاء مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (85) ﴾

يخاطب الحق جل جلاله اليهود ليفضحهم لأنهم طبقوا من التوراة ما كان على هواهم . . ولم يطبقوا ما لم يعجبهم ويقول لهم : " أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض " . إنه يذكرهم بأنهم وافقوا على الميثاق وأقروه . ولقد نزلت هذه الآية عندما زنت امرأة يهودية وأرادوا ألا يقيموا عليها الحد بالرجم . . فقالوا نذهب إلي محمد ظانين أنه سيعفيهم من الحد الموجود في كتابهم . . أو أنه لا يعلم ما في كتابهم . . فلما ذهبوا إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهم هذا الحكم موجود عندكم في التوراة . . قالوا عندنا في التوراة أن نلطخ وجه الزاني والزانية بالقذارة ونطوف به على الناس . . قال لهم رسول الله لا . . عندكم آية الرجم موجودة في التوراة فانصرفوا . . فكأنهم حين يحسبون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سيخفف حدا من حدود الله . . يذهبون إليه ليستفتوه .

والحق سبحانه وتعالى يقول : " ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم " . . أي بعد أن أخذ عليكم الميثاق ألا تفعلوا . . تقتلون أنفسكم . . يقتل بعضكم بعضا ، أو أن من قتل سيقتل . فكأنه هو الذي قتل نفسه . . والحق سبحانه قال : " ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم " . . لماذا جاء بكلمة هؤلاء هذه ؟ لإنها إشارة للتنبيه لكي نلتف إلي الحكم .

(133/58)

وقوله تعالى : " وتخرجون فريقا منكم من ديارهم " وحذرهم بقوله : " ولا تخرجون أنفسكم من دياركم " . . وجاء هذا في الميثاق . ما هو الحكم الذي يريد الحق تبارك وتعالى أن يلفتنا إليه ؟ نقول إن رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما هاجر إلي المدينة انتقل من دار شرك إلي دار إيمان . . ومعنى دار إيمان أن هناك مؤمنين سبقوا . . فهناك من آمن من أهل المدينة . . لقد هاجر المسلمون قبل ذلك إلي الحبشة ولكنها كانت هجرة إلي دار أمن وليست دار إيمان . . ولكن حين حدثت بيعة العقبة وجاء جماعة من المدينة وعاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وآمنوا به . . أرسل معهم الرسول مصعب بن عمير ليعلمهم دينهم . . وجاءت هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام على خميرة إيمانية موجودة . . لما جاء الرسول صلى الله عليه وسلم إلي المدينة أفسد على اليهود خطة حياتهم . . فاليهود كانوا

ممثلين في بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة . . وكان هناك في المدينة الأوس والخزرج . . وبينهما حروب دائمة قبل أن يأتي الإسلام . . فاليهود قسموا أنفسهم إلي قوم مع الأوس وقوم مع الخزرج حتى يضمنوا استمرار العداوة . . فكلما هدأ القتال أهاجوا أحد المعسكرين على الآخر ليعود القتال من جديد . . وهم كذلك حتى الآن وهذه طبيعتهم . إن الذي صنع الشيوعية يهودي ، والذي صنع الرأسمالية يهودي . . والذي يحرك العداوة بين المعسكرين يهودي . . وكان بنو النضير وبنو قينقاع مع الخزرج وبنو قريظة مع الأوس . . فإذا اشتبك الأوس والخزرج كان مع كل منهم حلفاؤه من اليهود . عندما تنتهي المعركة ماذا كان يحدث ؟ إن المأسورين من بني النضير وبني قينقاع يقوم بنو قريظة بالمساعدة في فك أسرهم . . مع أنهم هم المتسببون في هذا الأسر . . فإذا انتصرت الأوس وأخذوا أسرى من الخزرج ومن حلفائهم اليهود . . يأتي اليهود ويعملون على إطلاق سراح الأسرى اليهود . . لأن عندهم نصا أنه إذا وجد أسير من بني إسرائيل فلابد من فك أسره .

سبحانه وتعالى :

(134/58)

مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ

(من الآية 16 سورة الأنفال)

ولكن القرآن أتى بها أسارى . . واللغة أحيانا تأتي على غير ما تقضيه قياسها لتلفتك إلي معنى من المعاني . . فكسلان تجمع كسالى . والكسالى هو هابط الحرة . . الأسير أيضا أنت قيدت حركته . . فكأن جمع أسير على أسارى إشارة إلي تقييد الحركة . . القرآن الكريم جاء بأسارى وأسرى . . ولكنه حين استخدم أسارى أراد أن يلفتنا إلي تقييد الحركة مثل كسالى . . ومعنى وجود أسرى أن حربا وقعت . . لحرب تقتضي الالتقاء والالتحام . . ويكون كل واحد منهم يريد أن يقتل عدوه .

كلمة الأسر هذه أخذت من أجل تهدئة سعار اللقاء . . فكأن الله أراد أن يحمي القوم من شراسة نفوسهم وقت الحرب فقال لهم إستأسروهم . . لا تقتلوهم إلا إذا كنتم مضطرين للقتل . . ولكن خذوهم أسرى وفي هذا مصلحة لكم لأنكم ستأخذون منهم الفدية . . وهذا تشريع من ضمن تشريعات الرحمة . . لأنه لو لم يكن الأسر مباحا . . لكان لابد إذا إلتقى مقاتلان أن يقتل أحدهما الآخر . . لذلك يقال خذه أسيرا إلا إذا كان وجوده خطراً على حياتك . وقول الحق تبارك وتعالى : " وإن يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم إخراجهم " . . كانت كل طائفة من اليهود مع حليفتها من الأوس أو الخزرج . . وكانت

تخرج المغلوب من دياره وتأخذ الديار . . وبعد أن تنتهي الحرب يفادوهم . . أي يأخذون منهم الفدية ليعيدوا إليهم ديارهم وأولادهم .

(135/58)

لماذا يقسم ال يهود أنفيهم هذه القسمة . . أنها ليست تقسيمة إيمانية ولكنها تقسيمة مصلحة دنيوية . . لماذا ؟ لأنه ليس من المعقول وأنتم أهل كتاب . . ثم تقسمون أنفسكم قسما مع الأوس وقسما مع الخزرج . . ويكون بينكم إثم وعدوان . وقوله تعالى : " تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان " . . تظاهرون عليهم . أي تعاونون عليهم وأنتم أهل دين واحد : " بالإثم " . . والإثم هو الشيء الخبيث الذي يستحي منه الناس : " والعدوان " . . أي التعدي بشراسة . . وقوله تعالى : " أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض " . . أي تأخذون القضية على أساس المصلحة الدنيوية . . وتقسمون أنفسكم مع الأوس والخزرج . . تفعلون ذلك وأنتم مؤمنون بإله ورسول وكتاب . . مستحيل أن يكون دينكم أو نبيكم قد أمركم بهذا .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : " فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا " أي إنكم فعلتم ذلك وخالفتم لتصلوا إلي مجد دنيوي ولكنكم لم تصلوا إليه . . سيصيبكم الله

بخزي في الدنيا . . أي أن الجزاء لن يتأخر إلي الآخرة بل سيأتيكم خزي وهو الهوان والذل في الدنيا . . وماذا في الآخرة ؟ يقول الله تعالى : " ويوم القيامة يردون إلي أشد العذاب" الخزي في الدنيا أصابهم على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين وأخرج بنو قينقاع من ديارهم في المدينة . . كذلك ذبح بنو قريظة بعد أن خانوا العهد وخانوا رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين . . وهكذا لا يؤخر الله سبحانه وتعالى جزاء بعض الذنوب إلي الآخرة . . وجزاء الظلم في الدنيا لا يؤجل إلي الآخرة ، لأن المظلوم لابد أن يرى مصرع ظالميه حتى يعتدل نظام الكون . . ويعرف الناس أن الله موجود وأنه سبحانه لكل ظالم بالمرصاد . . اليهود أتاهم خزي الدنيا سريعا : " يوم القيامة يردون إلي أشد العذاب" .

(136/58)

قد يتساءل الناس ألا يكفيهم الخزي في الدنيا عن عذاب الآخرة ؟ نقول لا . . لأن الخزي لم ينلهم في الدنيا حدا . . ولم يكن نتيجة إقامة حدود الله عليهم . . فالخزي حين ينال الإنسان كحد من حدود الله عليهم . . فالخزي حين ينال الإنسان كحد من حدود الله يعفيه من عذاب الآخرة . . فالذي سرق وقطعت يده والذي زنا ورجم . . هؤلاء نالهم

عذاب من حدود الله فلا يحاسبون في الآخرة . . أما الظالمون فالأمر يختلف . . لذلك فإننا نجد إناسا من الذين ارتكبوا إثما في الدنيا يلحون على إقامة الحد عليهم لينجو من عذاب الآخرة . . مع أنه لم يرهم أحد أو يعلم بهم أحد أو يشهد عليهم أحد . . حتى لا يأتي واحد ليقول : لماذا لا يعفي الظالمون الذي أصابهم خزي في الدنيا من عذاب الآخرة ؟ نقول إنهم في خزي الدنيا لم يحاسبوا عن جرائمهم . . أصابهم ضر وعذاب . . ولكن أشد العذاب ينتظرهم في الآخرة الذي هو بقدرة الله سبحانه وتعالى ، كما أن هذه الدنيا تنتهي فيها حياة الإنسان بالموت ، أما الآخرة فلا موت فيها بل خلود في العذاب .

ثم يقول الحق جل جلاله : " وما الله بغافل عما تعملون " . . أي لا تحاسب أن الله سبحانه وتعالى يغفل عن شيء في كونه فهو لا تأخذه سنة نوم . . وهو بكل شيء محيط . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 436 . 440 ﴾

(137/58)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلاَءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ " فيه سبعة أقوال :

أحدها : وهو الظاهر أن " أنتم " في محل رفع بالابتداء ، وهؤلاء خبره و" تقتلون " " حال ، والعامل فيها اسم الإشارة لما فيه من معنى الفِعْل ، وهي حال منه ليتّحد ذُوا الحال وعاملها .

وقد قالت العرب : " ها أنت ذا قائماً " و" ها أنا ذا قائماً " و" ها هوذَا قائماً " فأخبروا باسم الإشارة عن الضَّمير في اللَّفظ والمعنى على الإخبار بالحال ، فكأنه قال : " أنت الحاضر " ، وأنا الحاضر " ، وهو الحاضر " في هذه الحالة .

ويدل على أن الجملة من قوله : " تَقْتُلُونَ " حال وقوع الحال الصريحة موقعها كما تقدم في : " ها أنا ذا قائماً " ونحوه إلى هذا المعنى نَحَا الزمخشري فقال : " ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلاَءِ " استبعاد لما أسند إليهم من القتل والإجلاء بعد أخذ الميثاق منهم وإقرارِهم وشَهَادتِهم ، والمعنى : ثم أنتم بعد ذلك هؤلاء المشاهدون : يعني أنكم قوم آخرون غيرُ أولئك المقربين ، تنزيلاً لتغير الصّفة منزلة تغير الذَّات كما تقول : رجعت بغير الوجه الذي خرجت به .

وقوله : " تَقْتُلُونَ " بيان لقوله : " ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلاَءِ " .

واعترضه أبو حَيَّان فقال : الظاهر أن المشار إليهم بقوله : " ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلاَءِ " هم المخاطبون أولاً ، فليسوا قوماً آخرين ، ألا ترى أن التقدير الذي قَدَّره الزمخشري من تقدير [تغير الصّفة منزلة] تغيّر الذات لا يتأتى في نحو : ها أنا ذا قائماً ، ولا في نحو : ها أنتم هؤلاء ، بل المُخَاطب هو المشار إليه من غير تَغَيُّرٍ .

وأجيب بأن هذا الإيراد بعيد غير واضح .

والثاني : أن " أنتم " أيضاً مبتدأ ، و" هؤلاء " خبره ، ولكن بتأويل حذف مضاف تقديره : ثم أنتم مِثْلُ هؤلاء ، و" تقتلون " حال أيضا ، العامل فيها معنى التشبيه ، إلا أنه يلزم منه الإشَارة إلى غائبين ؛ لأن المراد بهم أَسْلاَفهم على هذا ، وقد يقال : إنه نزل الغائب منزلة الحاضر .

الثالث : ونقله " ابن عطية " عن شيخه " ابن الباذش " أن " أنتم " خبر متقدم ، و" هؤلاء " مبتدأ مؤخر .

وهذا فاسد ؛ لأن المبتدأ أو الخبر متى استويا تعريضاً وتنكيراً لم يَجُزْ تقدم الخبر ، وإن ورد منه ما يوهم فمتأول .

(138/58)

الرابع : أن " أنتم " مبتدأ و" هؤلاء " مُنَادى حذف منه حرف النِّدَاء ، وتقتلون خبر المبتدأ ، وفصل بالنداء بين المبتدأ وخبره .

وهذا لا يجيزه جمهور البصريين إنما قال به " الفراء " وجماعة ؛ أنشدوا : [البسيط]

629 إِنَّ الأُولى وَصَفُوا قَوْمِي لَهُمْ فَبِهِمْ . . .

هَذَا اعْتَصِمْ تَلْقَ مَنْ عَادَاكَ مَخْذُولاَ

أي : يا هذا ، وهذا لا يجوز عند البصريين ، ولذلك لُحِّنَ المتنبي في قوله : [الكامل]

630 هَذِي بَرَزْتِ لَنَا فَهِجْتِ رَسِيَا . . . . . .

وفي البيت كلام طويل .

الخامس : أن " هؤلاء " موصول بمعنى " الذي " ، و " تقتلون " صلته ، وهو خبر عن " أنتم "

أي : أنتم الذين تقتلون .

وهذا لا يجيزه جمهور البصريين إنما قال به " الفراء " وجماعة ؛ أنشدوا : [البسيط]

631 . . . . . .

نَجَوْتِ وَهَذَا تَحْمِلِينَ طَلِيقُ

أي : والذي تحملين ، ومثله : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ ﴾ [طه : 17] يعني : وما التي ؟

السادس : أنَّ " هؤلاء " منصوب على الاختصاص ، بإضمار " أعني " و " أنتم " مبتدأ ، و " يقتلون " خبره ، اعترض بينهما بجملة الاختصاص ، وإليه ذهب ابن كَيْسَان .

وهذا لا يجوز ، لأن النحويين قد نصّوا على أن الاختصاص لا يَكُون بالنكرات ، ولا أسماء الإشارة ، والمستقرأ من لسان العرب أن المنصوب على الاختصاص : إما " أي " نحو : " اللهم اغفر لنا أيتها العِصَابة " أو معرف بـ " أل " نحو : نحن العَرَبَ أَقْرَى النَّاس للضيف ، أو بالإضافة نحو : نحن مَعَاشِرَ الأنبياء لا نورّث ، وقد يجيء كقوله : [الرجز]

632 بِنَا تَمِيماً يُكْشَفُ الضَّبَابُ . . .

وأكثر ما يجيء بعد ضمير تكلُّم كما تقدم ، وقد يجيء مخاطب كقولهم : " بك الله نرجو الفضل " .

(139/58)

السابع : أن يكون " أَنْتُمْ هَؤُلاَءِ " على ما تقدّم من كونهما مبتدأ أو خبر ، والجُمْلة من " تقتلون " مستأنفة مبينة للجملة قبلها ، يعني : أنتم هؤلاء الأشخاص الحَمْقَى ، وبيان حَمَاقتكم وقلّة عقلوكم أنكم تقتلون أنفسكم ، وتخرجون فريقاً منكم من دِيَارِهِمْ ، وهذا ذكره الزَّمخشري في آل عمران في قوله : ﴿ هاأنتم هؤلاء حَاجَجْتُمْ ﴾ [آل عمران : 66] ولم يذكر هنا ، وسيأتي بنصه إن شاء الله تعالى .

قوله : " تَظَاهَرُونَ " هذه الجملة في محلّ نصب على الحال من فاعل " تُخْرجون " وفيها خمس قراءات : " تَظَّاهرُون " بتشديد الظَّاء ، والأصل : تتظاهرون فأُدغم لقرب الظاء من التاء .

و " تَظَاهَرُون " مخففاً ، والأصل كما تقدم ، إلا أنه خفّفه بالحذف ، وهل المحذوف الثانية وهو الأَوْلَى ؛ لحصول الثقل بها ، ولعدم دلالتها على معنى المُضَارعة ، أو الأُولَى كما زعم

هشام؛ قال الشاعر : [البسيط]

633 تَعَاطَسُونَ جَمِيعاً حَوْلَ دَارِكُمُ . . .

فَكُلُّكُمْ يَا بَنِي حَمْدَانِ مَزْكُومُ

أراد : تتعاطسون فحذف .

و" تَظَّهَّرُون " بتشديد الظاء والهاء .

و" تَظَاهَرُون " من " تَظَاهر " و" تَتَظَاهَرُونَ " على الأصل من غير حذف ، ولا إدْغَام وكلهم يرجع إلى معنى المعاونة والتَّنَاصُر من المظاهرة ، كأن كل واحد منهم يسند ظَهْرَهُ للآخر ليتقوّى به ، فيكون له كالظَّهر ؛ قال : [الطويل]

634 تَظَاهَرْتُمُ أَسْتَاهَ بَيْتٍ تَجَمَّعَتْ . . .

عَلَى وَاحِدٍ لاَ زِلْتُمُ قِرْنَ وَاحِدِ

قال ابن الخطيب : الآية تدلّ على أن الظُّلم كما هو محرم ، فإعانة الظالم على ظلمه محرمة .

فإن قيل : أليس أن الله تعالى لما أقدر الظَّالم على الظّلم ، وأزال العوائق والموانع ، وسلط عليه الشهوة الدّاعية إلى الظلم كما ن قد أعانه على الظلم ، فلو كانت إعانة الظالم على ظلمه قبيحةً لوجب ألاَّ يوجد ذلك من الله تعالى ؟

والجواب : أنه تعالى وإن مكّن الظَّالم من ذلك فقد زَجَرَهُ عن الظلم بالتَّهْديد والزجر ، بخلاف المعني للظالم على ظلمه ، فإنه يرغبه فيه ، ويحسنه له ويدعوه إليه فظهر الفرق .

و " الإثم " في الأصل : الذنب ، وجمعه " آثام " ، ويطلق على الفعل الذي يستحقّ به صاحبه الذّم واللوم .

وقيلك هو ما تَنْفِرُ منه النفس ، ولا يطمئنّ إليه القَلْب ، فالإثْمُ في الآية يحتمل إن يكون مراداً به [أحد] هذه المعاني ويحتمل أن يتجوّز به عما يوجب الإثم من إقامة السَّبب مقام السَّبب مقام المسبب كقوله : [الوافر]

635 شَرِبْتُ الإِثْمَ حَتَّى ضَلَّ عَقْلِي . . .

كَذَاكَ الإِثْمُ يَذْهَبُ بِالعُقُولِ

فعبر عن الخمر بالإثم ، لما كان مسبَّباً عنها .

فصل في معنى العدوان واشتقاقه

و " العُدْوَان " : التجاوز في الظلم ، وقد تقدم في ﴿ يَعْتَدُونَ ﴾ [البقرة : 61] وهو مصدر كـ " الكُفْرَان والغُفْرَان " والمشهور ضمّ فائه ، وفيه لغة بالكَسْر .

قوله : " وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ " " إن " شرطية ، و " يأتوكم " مجزوم بها بحذف النون والمخاطب مفعول .

و"أسارى" حال من الفاعل في "يأتوكم" .

وقرأ الجماعة غير حمزة "أُسارى" وقرأ هو: "أَسْرَى" وقرء: : أَسَارَى" بتفح الهمزة، فقراءة الجماعة تحتمل أربعة أوجه:

أحدها: أنه جُمِعَ جَمْع "كَسْلاَن" لما جمعهما من عدم النَّشَاط والتصرف، فقالوا: "أسير وأسارى" بضم الهمزة كـ"كَسْلاَن وكُسَالَى" و"سَكْرَان وسُكَارى"، كما أنه قد شبه كَسْلان وسَكْران به فجمعا جمعه الأصلي الذي هو على "فعلى" فقالوا: كسلان وكَسْلى، وسكران وسَكْرى لقولهم: أسير وأسرى.

قال سيبويه: فقالوا: في جمع كَسْلان كَسْلَى شبّهوه بـ"أَسْرَى".

كما قالوا: أُسارى شبّهوه بـ"كَسَالى"، ووجه الشبه أنَّ الأسْر يدخل على المرء كرهاً كما يدخل الكَسَل.

(141/58)

قال بعضهم: والدّليل على اعتبار هذا المعنى أنهم جمعوا "مريضاً وميتاً وهالكاً" على "فَعْلَى" فقالوا: "مرضى وموتى وهَلْكَى" لما جمعها المَعْنَى الذي في "قَتْلَى وجَرْحَى".

الثَّاني: أنَّ "أُسَارى" جمع "أسير"، وقد وجدنا "فَعِيلاً" يجمع على "فُعَالى" قالوا:

شيخ قديم ، وشيوخ قُدَامى .

وفيه نظر ، فإن هذا شاذ لا يقاس عليه .

الثالث : أنه جمع " أسير " أيضاً ، وإنما ضموا الهمزة من " أُسَارى " وكان أصلها الفَتْح كـ " نديم ونُدَامى " كما ضمت الكاف والسين من " كُسَالى " و " سُكَارى " وكان الأصل فيهما الفتح نحو " عَطْشَان وعَطَاشى " .

الرابع : أنه جمع " أسرى " الذي هو جمع " أسير " فيكون جمع الجمع .

وأما قراءة حمزة فواضحة ؛ لأن " فَعْلَى " ينقاس في " فعيل " نحو : " جريح وجرحى " و " قتيل وقَتْلَى " و " مريض ومرضى " .

وأما " أَسَارَى " بالفتح فقد تقدم أنها أصل أُسَارَى بالضم عند بعضهم ، ولم يَعْرِفْ أهل اللُّغَة فرقاً بين " أُسَارَى " و " أَسْرَى " إلاَّ ما حكاه أبو عُبَيْدَة عن أبي عمرو بن العلاء ، فإنه قال : " ما كان في الوَثَاقِ " فهم الأُسَارَى ، وما كان في اليد ، فهم الأَسْرَى " ونقل بعضهم عنه الفرقَ بمعنًى آخر ، فقال : " ما جاء مستأسراً فهم الأسْرَى ، وما صار في أيديهم ، فهم الأُسَارَى " ، وحكى النقَّاشُ من ثَعْلَبٍ ؛ أنه لما سمع هذا الفَرْق قال : " هذا كلامُ المَجَانِينِ " ، وهي جُرْآة منه على أبي عمرو ، وحكى عن المبرّد أنه يقال : " أَسِير وأُسَرَاء " كـ " شَهِيدٍ وشُهَدَاء " و " الأَسير " : مشتقٌّ من " الإسَارِ " وهو القَيْدُ الذي يُرْبَطُ به من المحمل ، فسمي الأسير أسيراً ، وإن لم يُرْبَط ، والأَسْر : الخَلْقُ في قوله :

﴿ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ﴾ [الإنسان : 29] وأُسْرَة الرَّجُل : من يتقوَّى بهم ، والأُسْر : احتباس البَوْل ، ورجل مَأْسُور : أصابه ذلك ؛ وقالت العربُ : أسَرَ قَتَبَهُ : أي : شَدَّه ؛ قال الأعشى : [المتقارب]

636 وَقَيَّدَنِي الشِّعْرُ فِي بَيْتِهِ . . .

كَمَا قَيَّدَ الآسِرَاتُ الحَمَارَا

يريد : أنه بلغ في الشعر النّهاية ؛ حتى صار له كالبيت الذي لا يَبْرَحُ عنه .

قوله : " تُفَادُوهُمْ " قرأ نافع وعاصم والكسائي " تُفَادُوهُمْ " ، وهو جواب الشرط ، فلذلك حذف نون الرفع ، وقرأ الباقون : " تَفْدُوهُمْ " ، وهل القراءتان بمعنى واحد ، ويكون معنى " فَاعَل " مثل معنى " فَعَل " المجرد مثل : " عاقبت وسَافرت " أو بينهما فرق ؟ خلاف مشهور ، ثم اختلف الناس في ذلك الفرق ما هو ؟

فقيلك معنى " فَدَاه " أعطى فيه فِدَاء من مال ، و " فَادَاهُ " : أعطى فيه أسيراً مثله ؛ وأنشد : [الطويل]

637 وَلَكِنَّنِي فَادَيْتُ أُمِّي بَعْدَمَا . . .

عَلاَ الرَّأْسَ مِنْهَا كَبْرَةٌ وَمَشِيبُ

وهذا القول يرده قوله العباس رضي الله عنه : فَادَيْتُ نفسي وفاديت عقيلاً ، ومعلوم أن لم يُعْط أسيره في مقابلة نفسه ولا وَلَدِهِ .

وقيل : تفدوهم بالصّلح ، وتفادوهم بالعنف .

وقيل : تفدوهم تعطوا فديتهم ، وتفادوهم تطلبون من أعدائكم فِدْيَةَ الأسير الذي في أيديكم ؛ ومنه : [الوافر]

638 قِفِي فَادِي أَسِيرَكِ إنَّ قَوْمِي . . .

وَقَوْمَكِ مَا أَرَى لَهُمُ اجْتِمَاعَا

والظاهر أن " تفادوهم " على أصله من أثنين ، وذلك أن الأسير يعطى المال والأسير يعطى الإطلاق ، وتفدوهم على بابه من غير مُشَاركة ، وذلك أن الفريقين يَفدي صاحبه من الآخر بمال أو غيره ، فالفعل على الحقيقة من واحد .

و" الفِدَاء " ما يفتدى به ، فإذا كسروا فاءه ، جاز فيه وجهان :

المدُّ والقَصْر ، فمن المَدّ قول النابغة [البسيط]

639 مَهْلاً فِدَاءَ لَكَ الأَقْوَامُ كُلُّهُمُ . . .

وَمَا أُثَمِّرُ مِنْ مَالٍ وَمِنْ وَلَدِ

ومن القصر قوله : [الطويل]

640 . . . . . .

فِدَى لَكَ مِنْ رَبٍّ طَرِيفِي وتَالِدِي

ومن العرب من يكسر : " فدى " مع لام الجر خاصّة ، نحو : فِدًى لَكَ أَبي وأمي " يريدون الدعاء له بذلك ، وفدى يتعدّيان لاثنين أحدهما بنفسه ، والآخر بحرف جر ، تقول : " فديت أو فاديت الأسير بمال " ، وهو محذوف في الآية الكريمة .

قال ابن عطية : وحَسُنَ لفظ الإتْيَان من حيث هو في مُقابلة الإخراج ، فيظهر التَّضادّ المقبح لفعلهم في الإخراج .

يعني : أنه لا يناسب من أسأتم إليه بالإخراج من داره أن تحسنوا إليه بالفداء .

قوله : " وَهُوَ مُحَرَّمٌ " فيه وجوه .

والظاهر منها : أن يكون " هو " ضمير الشأن والقصّة ، فيكون في محلّ رفع بالابتداء ، و" محارم " خبر مقدم ، وفيه ضمير قائم مقام الفاعل ، و" إخراجهم " مبتدأ مؤخر ، والجملة من هذه المبتدأ والخبر في محل رفع خبراً لضمير الشأن ، ولم تَحْتَجْ هنا إلى عائد على المبتدأ ؛ لأن الخبر نفس المبتدأ أو عينه .

وهذه الجملة مفسرة لهذا الضمير ، وهو أحد المواضع التي يفسر فيها الضمير بما بعده وقد تقدّمت ، ولسي لنا من الضَّمائر ما يفسَّر بجلمة غيرُ هذا الضمير ، ومن شرطه أن يؤتى به في مَوَاضع التَّعْظيم ، وأن يكون معمولاً للابتداء أو نواسخه فقط ، وأن يفسر بجملة مصرح بجزئيها ، ولا يُتبع بتابع من التَّوَابع الخمسة ، ويجوز تذكيره وتأنيثه مطلقاً خلافاً لما فصل ، فتذكيره باعتبار الأمر والشأن ، وتأنيثه باعتبار القصّة فتقول :

" هو زيد قائم " ، ولا يثنى ولا يجمع ، ولا يحذف إلا في مواضع تذكر إن شاء الله تعالى ، والكوفيُّون يسمونه ضمير المَجْهُول ، وله أحكام كثيرة .

الوجه الثاني : أن يكون " هو " ضمير الشأن أيضاً ، و" محرم " خبره ، و" أخراجهم " مرفوع على أنه مفعول لَمْ يسمّ فاعله .

(144/58)

وهذا مذهب الكوفيين ، وإنما فَرُّوا من الوجه الأول ؛ لأن عندهم أن الخبر المحتمل ضميراً مرفوعاً لا يجوز تقديمه على المبتدأ ، فلا يقال : قائم زيد على أن يكون " قائم " خبراً مقدماً ، وهذا عند البصريين ممنوع لما عرفته أن ضمير الشأن لا يفسّر إلا بجملة ، والاسلا المشتق الرافع لما بعده من قبيل المُفْرَدَات لا الجمل ، فلا يفسر به ضمير الشَّأن .

الثَّالث : أن يكون " هو " كناية عن الإخْرَاج ، وهو مبتدأ ، و " محرم " خبره ، و " إخراجهم " بدل منه ، وهذا على أحد القولين .

وهو جواز إبدال الظَّاهر من المضمر قبله ليفسره ، واستدلّ من أجاز ذلك بقوله : [الطويل]

641 عَلَى حَالَةٍ لَوْ أَنَّ . . .

فِي الْقَوْمِ حَاتِماً

عَلَى جُودِهِ لَضَنَّ بِالْمَاءِ حَاتِمِ . . .

ف " حَاتم " بَدلٌ عن الضمير في " جُودِهِ " .

الرابع : أن يكون " هو " ضمير الإخراج المَدْلُولَ عليه بقوله : " وَتُخْرِجُونَ " و " مُحَرَّمٌ " خبره ، و " إخْرَاجُهُمْ " بدل من الضمير المستتر في " محرم " .

الخامس : كذلك ، إلا أن " أخراجهم " بدلٌ من " هو " .

نقل هذين الوجيهن أبو البقاء ، وفي هذا الأخير نظر ، وذلك أنك إذا جعلت " هو " ضمير الإخراج المدلول عليه بالفعل كان الضمير مفسراً به نحو : ﴿ اعدلوا هُوَ أَقْرَبُ للتقوى ﴾ [المائدة : 8] فإذا أبدلت منه " أخراجهم المَلْفُوظَ به كان مَفسّراً به أيضاً ، فيلزم تفسيره بشيئين ، إلاَّ أن يقال : هذان الشيئان في الحقيقة شيء واحد فيُحتمل ذلك .

السادس : أجاز الكوفيون أن يكن " هو " عماداً ، وهو الذي يسميه البصريون ضمير

الفَصْل قُدّم مع الخبر ، والأصل : وإخراجهم هو محرم عليكم ، و" إخراجهم " مبتدأ ، و" محرم " خبره ، و" هو " عِمَاد ، فلما قدم الخبر قدم معه .

قال الفراء : لأن الواو هنا تطلب الاسم ، وكل موضع تطلب فيه الاسم فالعماد جائز وهذا عند البصريين ممنوع من وجهين :

(145/58)

أحدهما : أنَّ الفصل عندهم من شرطه أن يقع بين معرفتين أو بين معرفة ونكرة قريبة من المعرفة في امتناع دخول ألأكـ " أفعل من " ومثل وأخواتها .

والثاني : أن الفَصْل عندهم لا يجوز تقديمه مع ما اتصل به .

والسابع : قال ا بن عطية : وقيل في " هو " : إنه ضمير الأمر ، والتقدير : والأمر محرم عليكم ، وإخراجهم في هذا القول بدل من " هو " .

وقال أبو حَيَّان : وهذا خطأ من وجهين :

أحدهما : تفسير ضمير الأمر بمفرده ، وذلك لا يجيزه بَصْري ولا كُوفي ، أما البصري فلا شتراطه جملة ، وأما الكوفي فلا بد أن يكون المفرد قد انتظم منه [نحو " ظننته قائماً الزيدان " .

والثاني : أنه جعل " إخراجهم "] بدلاً من ضمير الأمر ، وقد تقدم " أَلاَّ يُتْبَعِ بِتَابِعٍ " .

الثامن : قال ابن عطيّة أيضاً : وقيل : هو فاصلة ، وهذا مذهب الكوفيين ، وليست هنا بالتي هي عماد ، و" مُحَرّم " على هذا ابتداء ، و" إخراجهم " خبر .

قال : أبو حيان والمنقول عن الكوفيين عكس هذا الإعراب ، أي : يكون " إخراجهم " مبتدأ مؤخراً ، " محرم " خبر مقدم قُدّم مع الفَصْل كما تقدم ، وهو الموافق للقواعد ، ولا يلزم منه الإخبار بمعرفة عن نكرة من غير ضرورة تدعو إلى ذلك .

التاسع : نقله ابن عطيّة أيضاً عن بعضهم أن " هو " الضمير المقدر في " محرم " قدم وأَظْهِر .

قال الشيخ : وهذا ضعيف جدّاً ؛ إذ لا ضرورة تدعو إلى انفصال هذا الضمير بعد اسْتِتَارِهِ وتقديره ، وأيضاً فإنه يلزم خلوّ اسم المفعول من ضمير ؛ إذ على هذا القول يكون " محرم " خبراً مقدماً ، و" إخراجهم " مبتدأ مؤخراً ولا يوجد اسم فاعل ، ولا مفعول خالياً من الضمير إلاَّ إذا رفع الظَّاهر ، ثم يبقى هذا الضمير لا ندري ما إعرابه ، إذ لا يجوز مبتدأ ، ولا فاعلاً مقدماً وفي قول الشيخ : " يلزم خُلُّوه من ضمير " نظر ؛ إذ هو ضمير مرفوع به ، فلم يخل منه غاية ما في الباب أنه انفصل للتقديم .

وقوله : " لا ندري ما إعرابه " ؟ قد دري ، وهو الرفع بالفاعلية .

وقوله : والفاعل لا يقدم "ممنوع" فإن الكوفي يجيز تقديم الفَاعِلِ ، فيحتمل أن يكون هذا القاتل يرى ذلك ، ولا شكّ أن هذا قول رديء منكر لا ينبغي أن يجوز مثله في الكلام ، فكيف في القرآن ! فالشيخ معذور ، والعجب من ابن عطية كيف يورد هذه الأشياء حاكياً لها ولم يُعَقِّبْها بنكير ؟

وهذه الجملة يجوز أن تكون محذوفةً من الجمل المذكورة قبلها ، وذلك أنه قد تقدم ذكر أربعة أشياء كلها محرمة وهي قوله : تقتلون أنفسكم وتخرجون [فَرِيقاً مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ] ، وتظاهرون ، وتفادون فيكون التقدير : تقتلون أنفسكم وهو محرّم عليكم قتلها وكذلك مع البواقي .

ويجوز أن يكون خصّ الإخراج بذكر التحريم ، وإن كانت كلها حراماً ، لما فيه من معرَّة الجلاء والنّفي الذي لا ينقطع شرّه إلا بالموت والقَتْل ، وإن كان أعظمَ منه إلاَّ أن فيه قطعاً للشر ، فالإخراج من الدِّيَار أصعب الأربعة بهذا الاعتبار .

و" المحرم " : الممنوع ، فإن التَّحريم هو المَنْع من كذا ، والحَرَام : الشَّيء الممنوع منه يقال : حَرَامٌ عليك وسيأتي تحقيقه في " الأنبياء " إن شاء الله تعالى .

قوله : ﴿ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ﴾ " ما " يجوز فيها وجهان :

أحدهما : أن تكون نافية ، و" جزاء " مبتدأ ، و" إلاَّ خِزْيٌ " خبره وهو استثناء مفرّغ وبَطَلَ

علمها عند الحِجَازيين لانتقاض النفي بـ " إلاّ " ، وفي ذلك خلاف وتفصيل وتلخيصه : أن خبرها الواقع بعد " إلا " جمهور البصريين على وجوب رفعه مطلقاً سواءً كان هو الأول ، أمر منزلاً منزلته ، أو صفة أو لم يكن ، ويأولون قوله : [الطويل]

642 وَمَا الدَّهْرُ إِلاَّ مَنْجَنُوناً بِأَهْلِهِ . . .

وَمَا صَاحِبُ الْحَاجَاتِ إِلاَّ مُعَذَّبَا

على أن الناصب لـ " منجنوناً " و " معذباً " محذوف ، أي : يدور دَوَرَان منجنون ، ويعذب مُعَذَّباً تَعْذِيباً .

(147/58)

وأجاز يونس النصب مطلقاً ، وإن كان النَّحَّاس نقل عدم الخلاف في رفع ما زيد إِلاَّ أخوك فإن كان الثَّاني منزلاً منزلة الأوّل نحو : " ما أنت إِلاَّ عمامتك تحسيناً وإِلاَّ رداءك تزييناً " .

فأجاز الكوفيون نصبه ، وإنْ كان صفة نحو " ما زيد إلا قائم " فأجاز الفراء أيضاً .

والثاني : أن تكون استفهامية في محلّ رفع بالابتداء ، و " جزاء " خبره ، و " إِلاَّ خِزْيٌ " بدل من " جزاء " نقله أبو البَقَاءِ .

و " الجزاء " : المقابلة خَيْراً كان أو شَرّاً .

و" مَنْ " موصولة ، أو نكرة موصوفة ، و" يفعل " لا محلّ لها على الأول ، ومحلها الجر على الثاني .

" مِنْكُم " في محلّ نصب على الحال من فاعل " يفعل " ، فيتعلّق بمحذوف ، أي : يفعل ذلك حال كونه منكم .

و" الخِزْي " : الهَوَان والذّل والمَقْت ، يقال : أخزاه الله إذا مَقَتَهُ وأبعده ، ويقال : خَزِيَ بالكسر يَخْزى خِزْياً فهو خَزْيَان ، وامرأة خَزْيَا ، والجمع خَزَايَا .

وقال ابن السِّكّيت : الخزي الوقوع في بَلِيَّةٍ ، وخَزِيَ الرجل في نفسه يخزى خزايةً إذا استحيا .

وإذا قيل : أخْزَاه الله ، كأنه قيل : أوقعه موقعاً يُستحيى منه ، فأصله على هذا الاستحياء .

قوله : " فِي الْحَيَاةِ " يجوز فيه وَجْهَان :

أحدهما : أن يكون محلّه النصب على أنه ظرف لـ " خِزْي " ، فهو منصوب به تقديراً .

و" الدُّنْيَا " " فُعْلَى " تأنيث الأدنى من الدَّنو ، وهو القُرْب ، وألفها للتأنيث ، ولا تحذف منها " أل " إلا لضرورة كقوله : [الرجز]

643 يَوْمَ تَرَى النُّفُوسُ مَا أَعَدَّتِ . . .

فِي سَعْيِ دُنْيَا طَالَمَا قَدْ مُدَّتِ

وياؤها عن واو ، وهذه قاعدة مطردة ، وهي : كل " فُعْلَى " صفة لامها واو تبدل ياء .

نحو " الدنيا والعُلْيَا " .

فأما قولهم : " القُصْوَى " عند غير " تميم " ، و " الحُلْوَى " عند الجميع فَشَاذٌّ .

فلو كانت " فُعْلَى " اسماً صحّت الواو ؛ كقوله : [الطويل]

(148/58)

---

644 أَدَارًا بِحُزْوَى هِجْتِ لِلْعَيْنِ عَبْرَةً . . .

فَمَا الْهَوَى يَرْفَضُّ أَوْ يَتَرَقْرَقُ

وقد استعملت استعمال الأسماء ، فلم يذكر [موصوفها ، قال تعالى : ﴿ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدنيا ﴾ [الأنفال : 67] وقال ابن السّراج في " المقصور والممدود " : و " الدنيا "] مؤنّثة مقصورة ، تكتب بالألف ، هذه لغة " نجد " و " تميم " ، إلاَّ أن " الحجاز " ، " وبني اسد " يلحقونها ونظائرَهَا بالمَصَادر ذوات الواو ، فيقولون : دَنْوَى مثل شَرْوَى وكذلك يفعلون بكل " فُعْلَى " موضع لامها واو ، ويفتحون أولها ، ويقلبون باءها واواً ، وأما أهل اللغة الأولى ، فيضمون الدال ، ويقلبون من الواو ياء لاستثقالهم الواو مع الضمة .

[وقوله] يُرَدُّونَ [قرىء] بالغيبة على المشهور وفيه وجهان .

أحدها : أن يكون التفاتاً ، فيكون راجعاً إلى قوله " أَفَتُؤْمِنُونَ " فخرج من ضمير الخطاب إلى الغيبة .

والثَّاني : أنه لا التفات فيه ، بل هو راجع إلى قوله : " مَنْ يَفْعَلْ " .

وقرأ الحسن " تُرَدُّون " بالخطاب وفيه الوجهان المتقدمان :

فالالتفات نظراً لقوله : " مَنْ يَفْعَلْ " ، وعدم الالتفات نظراً لقوله : " أَفَتُؤْمِنُونَ " .

وكذلك : ﴿ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ قرىء في المشهور بالغيبة والخطاب والكلام فيهما كما تقدم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 2 صـ 246 . 259 ﴾ .

باختصار .

(149/58)

قوله تعالى ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (86) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كانت هذه الآيات كلها كالدليل على قوله تعالى : ﴿ وضربت عليهم الذلة والمسكنة –

ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ﴾ [البقرة : 61] فذلكة ذلك قوله تعالى :

﴿ أولئك ﴾ أي البعداء البغضاء ﴿ الذين اشتروا ﴾ أي لجوا فأخذوا ﴿ الحياة الدنيا ﴾ على خساستها ﴿ بالآخرة ﴾ مع نفاستها ، والدنيا فُعلى من الدنو وهو الأنزل رتبة ، في مقابلة عليا ، ولأنه لزمتها العاجلة صارت في مقابلة الأخرى اللازمة للعلو ، ففي الدنيا نزول قدر وتعجل وفي الأخرى علو قدر وتأخر ، فتقابلتا على ما يفهم تقابلين من معنى كل واحدة منهما – قاله الحرالي : فالآية من الاحتكاك ، ذكر الدنيا أولاً يدل على حذف العليا ثانياً ، وذكر الآخرة ثانياً يدل على حذف العاجلة أولاً .

(150/58)

﴿ فلا ﴾ أي فتسبب عن ذلك أنه لا ﴿ يخفف ﴾ من التخفيف وهو مصير الثقيل والمستفل إلى حال الطافي المستعلي كحال ما بين الحجر والهواء – قاله الحرالي : ﴿ عنهم العذاب ﴾ في واحدة من الدارين ﴿ ولا هم ينصرون ﴾ وهو أيضاً من أعظم الأدلة على خذلان من غزا لأجل المغنم أو غل ، وقد ورد في كثير من الأحاديث والآثار التصريح بذلك ، منها ما رواه مالك عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " ما ظهر الغلول في قوم إلا ألقى الله في قلوبهم الرعب " وهو أيضاً شرع قديم ففي سفر يوشع بن

نون عليه الصلاة والسلام أنه لما فتح مدينة أريحا بعد موت موسى عليه السلام بعث إلى مدينة عاي ثلاث آلاف مقاتل ليفتحوها ، فقتل منهم أهل عاي جماعة وهزموهم ، فاضطربت قلوبهم وصارت كالماء ، فسجد يشوع على الأرض أمام تابوت الرب هو ومشيخة بني إسرائيل ، فقال له الرب : انهض قائماً ، وأخبره أن قومه قد غلوا فلا يقدرون الآن أن يثبتوا لأعدائهم حتى ينحوا الحرام عنهم ، وقال الله له : وإذا كان غد فقدموا أسباطكم ليقترعوا ، والسبط الذي تصيبه قرعة الرب تتقدم عشائره ، والعشيرة التي تصيبها القرعة تتقدم بيوتاتها ، والبيت الذي يصيبه قرعة الرب ويصاب الحرام عنده يحرق بالنار هو وكل شيء له ، لأنه تعدى على أمر الرب ولأنه أثم بإسرائيل ؛ ففعل ما أمره الرب فأصابت القرعة عاجار بن كرمى من سبط يهودا ، فأحضره وبنيه وبناته ومواشيه وخيمته وكل من كان له ، فأصعدهم إلى غور عاجار ، ورجمهم جميع بني إسرائيل بالحجارة ، وأحرقوهم بالنار ، وجعلوا فوقه تلاً من الحجارة الكبار إلى اليوم ، ولذلك دعي اسم ذلك الموضع غور عاجار إلى اليوم ، ثم أتوا من الغد إلى عاي فقتلوا جميع من فيها من بني آدم الذكور والإناث وأحرقوها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 183 . 184 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أن الجمع بين تحصيل لذات الدنيا ولذات الآخرة ممتنع غير ممكن والله سبحانه مكن المكلف من تحصيل أيهما شاء وأراد ، فإذا اشتغل بتحصيل أحدهما فقد فوت الآخر على نفسه ، فجعل الله ما أعرض اليهود عنه من الإيمان بما في كتبهم وما حصل في أيديهم من الكفر ولذات الدنيا كالبيع والشراء ، وذلك من الله تعالى في نهاية الذم لهم لأن المغبون في البيع والشراء في الدنيا مذموم حتى يوصف بأنه تغير في عقله فبأن يذم مشتري متاع الدنيا بالآخرة أولى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 159 ﴾

قوله تعالى ﴿ فَلا يخفف عَنْهُمُ العذاب ﴾

فصل

قال الفخر :

في دخول الفاء في قوله : ﴿ فَلاَ يُخَفَّفُ ﴾ قولان ، أحدهما : العطف على ﴿ اشتروا ﴾ والقول الآخر بمعنى جواب الأمر ، كقولك أولئك الضلال انتبه فلا خير فيهم والأول أوجه لأنه لا حاجة فيه إلى الإضمار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 159 ﴾

فائدة

قال الفخر :

بعضهم حمل التخفيف على أنه لا ينقطع بل يدوم ، لأنه لو انقطع لكان قد خف ، وحمله آخرون على شدته لا على دوامه والأولى أن يقال : إن العذاب قد يخف بالانقطاع وقد يخف بالقلة في كل وقت أو في بعض الأوقات ، فإذا وصف تعالى عذابهم بأنه لا يخفف اقتضى ذلك نفي جميع ما ذكرناه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 159 . 160 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ ﴾

فصل

قال الفخر :

أما قوله تعالى : ﴿ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ ففيه وجهان : الأكثرون حملوه على نفي النصرة في الآخرة يعني أن أحداً لا يدفع هذا العذاب عنهم ولا هم ينصرون على من يريد عذابهم ومنهم من حمله على نفي النصرة في الدنيا ، والأول أولى لأنه تعالى جعل ذلك جزاء على صنيعهم ، ولذلك قال : ﴿ فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ العذاب ﴾ وهذه الصفة لا تليق إلا بالآخرة ، لأن عذاب الدنيا وإن حصل فيصير كالحدود التي تقام على المقصر ولأن الكفار قد يصيرون غالبين للمؤمنين في بعض الأوقات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ

﴿160﴾

فصل

(152/58)

قال الآلوسى :

﴿ أُولَئِكَ الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة ﴾ أي آثروا الحياة الدنا واستبدلوها بالآخرة وأعرضوا عنها مع تمكنهم من تحصيلها ﴿ فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ العذاب ﴾ الموعودون به يوم القيامة أو مطلق (العذاب) دنيوياً كان أو أخروياً .

﴿ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ بدفع الخزي إلى آخر الدنيا أو بدفع الجزية في الدنيا ، والتعذيب في العقبى ، وعلى الاحتمال الأول في الأمرين يستفاد نفي دفع العذاب من نفي تخفيفه بأبلغ وجه وآكده ، ورجحه بعضهم بأن المقام على الثاني يستدعي تقديم نفي الدفع على نفي التخفيف ، وتقديم المسند إليه لرعاية الفاصلة والتقوى لا للحصر إذ ليس المقام مقامه ، ولذا لم يقل فلا عنهم يخفف العذاب ، والجملة معطوفة على الصلة .

ويجوز أن يوصل الموصول بصلتين مختلفتين زماناً ، وجوز أن يكون (أولئك) مبتدأ و(الذين) خبره ، وهذه الجملة خبر بعد خبر ، والفاء لما أن الموصول إذا كانت صلته فعلاً كان فيها

معنى الشرط ، وفيه أن معنى الشرطية لا يسري إلى المبتدأ الواقعة خبراً عنه ، وجوز أيضاً أن يكون (أولئك) مبتدأ و(الذين) مبتدأ ثان ، وهذه الجملة خبر الثاني ، والمجموع خبر الأول ، ولا يحتاج إلى رابط لأن الذين هم أولئك ، ولا يخفى ما فيه هذا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 315 ﴾

ومن فوائد ابن عرفة فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ اشتروا الحياة . . . ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ العذاب وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ ﴾

قال ابن عرفة : هذا ليس بتكرار :

- فالأول اقتضى أن ذلك العذاب لا يرجى من فاعله شفقة على المفعول ولا تخفيفا عنه .

- والثاني اقتضى أنه لا يقدر أحد على (استخلاص) المفعول من ذلك العذاب ونصرته بوجه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عرفة حـ 1 صـ 363 ﴾

ومن فوائد أبى حيان فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون ﴾

: قال ابن عباس : نزلت في اليهود ، الذين تقدّم ذكرهم أنهم آمنوا ببعض الكتاب وكفروا ببعض ، وفي اسم الإشارة دليل على أنه أشير به إلى الذين جمعوا الأوصاف السابقة الذميمة .

وقد تقدّم الكلام على ذلك عند الكلام على قوله : ﴿ أولئك على هدى من ربهم ﴾ وأنه إذا عدّدت أوصاف لموصوف ، أشير إلى ذلك الموصوف تنبيهاً على أنه هو جامع تلك الأوصاف .

والذين : خبر عن أولئك ، وتقدّم الكلام في قوله : ﴿ اشتروا ﴾ ، وتقدّم أن الشراء والبيع يقتضيان عوضاً ومعوّضاً أعياناً .

فتوسعت العرب في ذلك إلى المعاني ، وجعل إيثارهم بهجة الدنيا وزينتها على النعيم السرمدي اشتراء ، إيثاراً للعاجل الفاني على الآجل الباقي ، إذ المشتري ليس هو المؤثر لتحصيله ، والثمن المبذول فيه مرغوب عنه عنده ، ولا يفعل ذلك إلا مغبون الرأي فاسد العقل .

قال بعض أرباب المعاني : إن الدنيا : ما دنا من شهوات القلب ، والآخرة : ما اتصلت برضا

الرب .

فلا يخفف معطوف على الصلة ، ويجوز أن يوصل الموصول بصلتين مختلفتين زماناً ، تقول : جاءني الذي قتل زيداً بالأمس ، وسيقتل غداً أخاه ، إذ الصلاة هي جمل ، فمن يشترط اتحاد زمان أفعالها بخلاف ما ينزل من الأفعال منزلة المفردات ، فإنهم نصوا على اشتراط اتحاد الزمان مضياً أو غيره ، وعلى اختيار التوافق في الصيغة ، وجوّز أن يكون أولئك مبتدأ والذين بصلته خبراً .

وفلا : يخفف خبر بعد خبر ، وعلل دخول الفاء لأن الذين ، إذا كانت صلته فعلاً ، كان فيها معنى الشروط ، وهذا خطأ ، لأن الموصول هنا أعربه خبراً عن أولئك ، فليس قوله فلا يخفف خبراً عن الموصول ، إنما هو خبر عن أولئك ، ولا يسري للمبتدأ الشرطية من الموصول الواقع خبراً عنه .

وجوز أيضاً أن يكون أولئك مبتدأ ، والذين مبتدأ ثان ، وفلا يخفف خبر عن الذين ، والذين وخبره خبر عن أولئك .

(154/58)

قيل : ولم يحتج إلى عائد ، لأن الذين هم أولئك ، كما تقول : هذا زيد منطلق ، وهذا خطأ ، لأن كل جملة وقعت خبراً لمبتدأ فلا بد فيها من رابط ، إلا إن كانت نفس المبتدأ في المعنى ، فلا يحتاج إلى ذلك الرابط .

وقد أخبرت عن أولئك بالمبتدأ الموصول وبخبره ، فلا بد من الرابط .

وليس نظير ما مثل به من قوله : هذا زيد منطلق ، لأن زيد منطلق خبران عن هذا ، وهما مفردان ، أو يكون زيد بدلاً من هذا ، ومنطلق خبراً .

وأما أن يكون هذا مبتدأ ، وزيد مبتدأ ثانياً ، ومنطلق خبراً عن زيد ، ويكون زيد منطلق جملة في موضع الخبر عن هذا ، فلا يجوز لعدم الرابط .

وأيضاً فلو كان هنا رابط ، لما جاز هذا الإعراب ، لأن الذين مخصوص بالإشارة إليه ، فلا يشبه اسم الشرط ، إذ يزول العموم باختصاصه ، ولأن صلة الذين ماضية لفظاً ومعنى .

ومع هذين الأمرين لا يجوز دخول الفاء في الجملة الواقعة خبراً .

والتخفيف هو التسهيل ، وقد حمل نفي التخفيف على الانقطاع ، وحمل أيضاً على التشديد .

والأولى جملة على نفي التخفيف بالانقطاع ، أو بالتقليل منه ، أو في وقت ، أو في كل الأوقات ، لأنه نفي للماهية ، فيستلزم نفي أشخاصها وصورها .

والظاهر من النفي بلا والكثير فيها أنه نفي في المستقبل .

وقد فسر الزمخشري نفي التخفيف بأن ذلك في الدنيا والآخرة ، ففي الدنيا بنقصان الجزية ، وكذلك نفى النصر في الدنيا والآخرة .

ومعنى نفى النصر : أنهم لا يجدون من يدفع عنهم ما حل بهم من عذاب الله .

﴿ ولا هم ينصرون ﴾ : جملة إسمية معطوفة على جملة فعلية ، ويجوز أن تكون فعلية وتكون المسألة من باب الاشتغال ، فيكون هم مرفوعاً بفعل محذوف يفسره ما بعده ، على حدّ قوله :

وإن هو لم يحمل على النفس ضيمها . . .

(155/58)

ويقوي هذا الوجه ويحسنه كونه تقدم قوله : ﴿ فلا يخفف ﴾ ، وهو جملة فعلية ، إذ لولا تقدّم الجملة الفعلية لكان الأرجح الرفع على الابتداء ، وذلك أن لا ليست مما تطلب الفعل ، لا اختصاصاً ولا أولوية ، فتكون كان والهمزة خلافاً لأبي محمد بن السيد ، إذ زعم أن الحمل على الفعل فيما دخلت عليه لا ، أولى من الابتداء ، وبناء الفعل للمفعول أولى من بنائه للفاعل ، لأنه أعم ، إلا إن جعل الفاعل عاماً ، فيكون ولا هم ينصرهم أحد ، فكان يفوت بذلك اختتام الفواصل بما اختتمت به قبل وبعد ، ويفوت الإيجاز ، مع أن قوله : ﴿

ولا هم ينصرون ﴾ يفيد ذلك ، أعني العموم .

وقد تضمنت هذه الآيات الكريمة أخبار الله تعالى ، أنه أخذ الميثاق على بني إسرائيل بإفراد العبادة ، والإحسان إلى الوالدين ، وإلى ذي القربى ، واليتامى ، والمساكين ، وبالقول الحسن للناس ، وإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وأنهم نقضوا الميثاق بتوليهم وإعراضهم ، وأنه أخذ عليهم أن لا يسفكوا دماءهم ، ولا يخرجون أنفسهم من ديارهم ، وأنهم أقروا والتزموا ذلك .

فكان الميثاق الأول يتضمن الأوامر ، والميثاق الثاني يتضمن النواهي ، لأن التكاليف الإلهية مبنية على الأوامر والنواهي .

وكان البدء بالأوامر آكد ، لأنها تتضمن أفعالاً ، والنواهي تتضمن تروكاً ، والأفعال أشق من التروك .

وكان من الأوامر الأمر بإفراد الله بالعبادة ، وهو رأس الإيمان ، إذ متعلق أشرف المتعلقات ، فكان البدء به أولى .

ثم نعى عليهم التباسهم بما نهوا عنه ، وإن كان قد تقدم أخباره أنهم خالفوا في الأمر بقوله : ﴿ ثم توليتم ﴾ ، لأن فعل المنهيات أقبح من ترك المأمورات ، لأنها تروك كما ذكرنا .

ثم قرّعهم بمخالفة نواهي الله ، وأنهم مستعينون في ذلك بغير الحق ، بل بالإثم والعدوان .

ثم ذكر تناقض آرائهم وسخف عقولهم ، بفداء من أتى إليهم منهم ، مع أنهم هم السبب في إخراجهم وأسرهم ، مع علمهم بتحريم إخراجهم ، وبذكر أنهم آمنوا ببعض الكتاب وكفروا ببعض .

هذا مع أنه كله حق وصدق ، فلا يناسب ذلك الكفر ببعض ، والإيمان ببعض .

ثم ذكر أن الجزاء لفاعل ذلك هو الخزي في الدنيا ، وأشد العذاب في الآخرة ، وأن الله تعالى لا يغفل عما عملوه ، فيجازيهم على ذلك .

ثم أشار إلى من تحلى بهذه الأوصاف الذميمة ، وخالف أمر الله ونهيه ، هو قد اشترى عاجلاً تافهاً بآجل جليل ، وآثر فانياً مكدراً على باق صاف .

وأن نتيجة هذا الشراء أن لا يخفف عنهم ما حل بهم من العذاب ، ولا يجدوا ناصراً يدفع عنهم سوء العقاب .

لقد خسروا تجارة ، وبدلوا بالنعيم السرمدي ناراً وقودها الناس والحجارة .

وإذا كان التخفيف قد نفى ، فالرفع أولى .

وهل هذا إلا من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى ؟ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 1 صـ 462. 463 ﴾

"فصل"

قال السيوطي :

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (84) ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (85) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (86) ﴾

أخرج عبد بن حميد عن عاصم . أنه قرأ ﴿ لا تسفكون دماءكم ﴾ بنصب التاء وكسر الفاء ورفع الكاف .

وأخرج عبد بن حميد عن طلحة بن مصرف أنه قرأها ﴿ تسفكون ﴾ برفع الفاء .

وأخرج ابن جرير عن أبي العالية في قوله ﴿ وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ﴾

يقول : لا يقتل بعضكم بعضاً ﴿ ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ﴾ يقول : لا يخرج بعضكم بعضاً من الديار ، ثم أقررتم بهذا الميثاق وأنتم تشهدون . يقول : وأنتم شهود .

(158/58)

وأخرج ابن إسحق وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ ثم أقررتم وأنتم تشهدون ﴾ إن هذا حق من ميثاقي عليكم ﴿ ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم ﴾ أي أهل الشرك حتى تسفكوا دماءكم معهم ﴿ وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم ﴾ قال : تخرجونهم من ديارهم معهم ﴿ تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان ﴾ فكانوا إذا كان بين الأوس والخزرج حرب خرجت بنو قينقاع مع الخزرج ، وخرجت النضير وقريظة مع الأوس ، وظاهر كل واحد من الفريقين حلفاءه على إخوانه حتى تسافكوا دماءهم ، فإذا وضعت الحرب أوزارها افتدوا أسراهم تصديقاً لما في التوراة ﴿ وإن يأتوكم أسارى تفادوهم ﴾ وقد عرفتم أن ذلك عليكم في دينكم ﴿ وهو محرم عليكم ﴾ في كتابكم ﴿ إخراجهم ﴾ ﴿ أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ﴾ أتفادونهم مؤمنين بذلك وتخرجونهم كفراً بذلك .

وأخرج ابن جرير عن أبي العالية . أن عبد الله بن سلام مر على رأس الجالوت بالكوفة ،

وهو يفادي من النساء من لم يقع عليه العرب ، ولا يفادي من وقع عليه العرب ، فقال له عبد الله بن سلام : أما أنه مكتوب عندك في كتابك أن فادوهن كلهن .

وأخرج سعيد بن منصور عن إبراهيم النخعي أنه قرأ ﴿ وإن يأتوكم أسارى تفدوهم ﴾ .

وأخرج سعيد بن منصور عن الحسن أنه قرأ ﴿ أسارى تفادوهم ﴾ .

وأخرج ابن أبي داود في المصاحف عن الأعمش قال : في قراءتنا ﴿ وإن يؤخذوا تفدوهم ﴾ .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي عبد الرحمن السلمي ، قال : يكون أول الآية عاماً وآخرها خاصاً ، وقرأ هذه الآية ﴿ ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون ﴾ .

وأخرج ابن جرير عن قتادة في قوله ﴿ أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة ﴾ قال : استحبوا قليل الدنيا على كثير الآخرة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 1 صـ 211 212. ﴾

(159/58)

ومن فوائد صاحب المنار فى الآيات السابقة

قال رحمه الله :

(وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ)

الْآيَاتُ السَّابِقَةُ كَانَتْ تَذْكِيرًا بِالنِّعَمِ التَّارِيخِيَّةِ الْمِلِّيَّةِ ، وَبِالتَّقْصِيرِ فِي الشُّكْرِ وَعَوَاقِبِهِ ، وَذَلِكَ كَالتَّفْضِيلِ عَلَى الْعَالَمِينَ الَّذِي يَرْفَعُ النَّفْسَ ، وَالْإِنْجَاءِ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ وَمِنَ الْغَرَقِ ، وَإِيتَاءِ مُوسَى الْكِتَابَ وَالْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ ، وَتَسْهِيلِ الْمَعِيشَةِ عَلَيْهِمْ فِي التِّيهِ بِمَا سَاقَ اللهُ إِلَيْهِمْ مِنَ الْمَنِّ وَالسَّلْوَى ، ثُمَّ مَا كَانَ مِنْهُمْ فِي أَثَرِ كُلِّ نِعْمَةٍ وَمَا أَعْقَبَهُ كُفْرُ النِّعَمِ مِنَ النِّقَمِ . وَلَمْ يَذْكُرْ فِيمَا سَبَقَ مِنَ الْأَحْكَامِ الْعَمَلِيَّةِ إِلَّا مَا جَاءَ عَلَى سَبِيلِ التَّبَعِ لِهَذِهِ الْأُصُولِ . وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ وَمَا بَعْدَهَا التَّذْكِيرُ بِأُمَّهَاتِ الْأَحْكَامِ فِي الْعِبَادَاتِ وَالْمُعَامَلَاتِ وَمَا كَانَ مِنْ إِهْمَالِهَا وَتَرْكِ الْعَمَلِ بِهَا . هَذَا هُوَ الْمُرَادُ أَوَّلًا وَبِالذَّاتِ عَلَى أَنَّ فِيمَا يَأْتِي إِعَادَةَ الْإِشَارَةِ إِلَى بَعْضِ مَا مَضَى ، قَضَى بِهَا مَا كَانَ عَلَيْهِ الْيَهُودُ مِنْ سُوءِ الْفَهْمِ وَغِلَظِ الْقُلُوبِ وَكَثْرَةِ الْمُشَاغَبَاتِ وَالْمُمَارَاةِ ، فَالْخِطَابُ مَعَهُمْ دَائِمًا فِي بَابِ الْإِطْنَابِ .

قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : لَاحَظَ بَعْضُ الْبُلَغَاءِ وَالْمُفَسِّرِينَ أَنَّ الْقُرْآنَ يُطْنِبُ وَيُبْدِئُ وَيُعِيدُ فِي خِطَابِ الْيَهُودِ خَاصَّةً ، وَذَلِكَ لِمَا كَانَتْ شُحِنَتْ بِهِ أَذْهَانُهُمْ مِمَّا يُسَمَّى عِلْمًا أَوْ فِقْهًا ، فَأَبْعَدَهُمْ عَنْ أَنْ يَصِلَ شُعَاعُ الْحَقِّ إِلَى مَا وَرَاءَ ذَلِكَ فِي نُفُوسِهِمْ وَيَكْتَفِي بِالْإِيجَازِ ، بَلْ بِالْإِشَارَةِ الدَّقِيقَةِ فِي خِطَابِ الْعَرَبِ لِمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ سُرْعَةِ الْفَهْمِ وَرِقَّةِ الْإِحْسَاسِ لِقُرْبِهِمْ مِنَ السَّذَاجَةِ الْفِطْرِيَّةِ ، فَالْإِشَارَةُ إِلَى الْبُرْهَانِ فِي ضِمْنِ تَمْثِيلٍ يُغْنِي عِنْدَهُمْ عَنِ الْإِسْهَابِ وَالتَّطْوِيلِ ؛ وَلِذَلِكَ خَاطَبَهُمْ بِمِثْلِ قَوْلِهِ فِي الْأَصْنَامِ : (وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ) (22 : 73) .

قَوْلُهُ – تَعَالَى – : (وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ) أَيْ وَاذْكُرْ أَيُّهَا الرَّسُولُ إِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُ أَخْذِ الْمِيثَاقِ عَلَيْهِمْ فِي سِيَاقِ خِطَابِهِمْ ، وَلَمْ يُبَيِّنْهُ لِعِلْمِهِمْ بِهِ ، وَقَوْلُهُ هُنَا : (لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ) . . . إِلَخْ بَيَانٌ لَهُ – أَيْ لِلْمِيثَاقِ – لَا مَقُولُ قَوْلٍ مَحْذُوفٍ كَمَا قَالَ الْمُفَسِّرُ .

يُقَالُ : أَخَذْتُ عَلَيْكَ عَهْدًا تَفْعَلُ كَذَا ، كَمَا تَقُولُ : أَنْ تَفْعَلَ كَذَا سَوَاءٌ ، وَهُوَ خَبَرٌ بِمَعْنَى النَّهْيِ لِلْمُبَالَغَةِ وَالتَّأْكِيدِ ، يُلَاحَظُ فِيهِ أَنَّ الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ قَدِ امْتَثَلَ فَيُخْبِرُ بِوُقُوعِهِ ، أَوْ إِنَّهُ – لِتَوْثِيقِهِ وَالتَّشْدِيدِ فِي تَأْكِيدِهِ – سَيَمْتَثِلُ حَتْمًا فَيُخْبِرُ بِأَنَّهُ كَائِنٌ لَا مَحَالَةَ . (أَقُولُ) وَهَذَا النَّهْيُ عَنْ عِبَادَةِ غَيْرِ اللهِ مُسْتَلْزِمٌ لِلْأَمْرِ بِعِبَادَتِهِ – تَعَالَى – وَلَمْ يُصَرِّحْ بِهِ ؛ وَلِأَنَّهُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ اللهَ ، وَإِنَّمَا يَخْشَى عَلَيْهِمُ الشِّرْكَ بِهِ كَمَا وَقَعَ مِنْهُمْ فِي بَعْضِ الْأَجْيَالِ وَمِنْ غَيْرِهِمْ مِنَ الشُّعُوبِ ، فَالْأَصْلُ الْأَوَّلُ لِدِينِ اللهِ عَلَى أَلْسِنَةِ جَمِيعِ رُسُلِهِ هُوَ أَنْ يُعْبَدَ اللهُ وَحْدَهُ ، وَلَا يُشْرَكَ بِهِ عِبَادَةُ أَحَدٍ سِوَاهُ مِنْ مَلَكٍ وَلَا بَشَرٍ وَلَا مَا دُونَهُمَا بِدُعَاءٍ وَلَا بِغَيْرِهِ مِنْ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ ، كَمَا قَالَ : (وَاعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا) (4 : 36) فَالتَّوْحِيدُ لَا يَحْصُلُ إِلَّا بِالْجَمْعِ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ .

قَالَ – تَعَالَى – : (وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا) أَيْ وَتُحْسِنُونَ بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ، وَالْإِحْسَانُ

نِهَايَةُ الْبِرِّ فَيَدْخُلُ فِيهِ جَمِيعُ مَا يَجِبُ مِنَ الرِّعَايَةِ وَالْعِنَايَةِ ، وَقَدْ أَكَّدَ اللهُ الْأَمْرَ بِإِكْرَامِ الْوَالِدَيْنِ فِي التَّوْرَاةِ حَتَّى إِنَّهُ يُوجَدُ فِيهَا الْآنَ أَنَّ مَنْ يَسُبُّ وَالِدَيْهِ يُقْتَلُ ، وَقَدْ قَرَنَ الْأَمْرَ بِالْإِحْسَانِ بِالْوَالِدَيْنِ إِلَى الْأَمْرِ بِالتَّوْحِيدِ أَوِ النَّهْيِ عَنِ الشِّرْكِ ، فَهُوَ كَقَوْلِهِ – تَعَالَى – : (وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا

تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا) (17 : 23) . وَلَيْسَتْ هَذِهِ الْعِنَايَةُ بِأَمْرِ الْوَالِدَيْنِ فِي الْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ لِكَوْنِهِمَا سَبَبَ وُجُودِ الْوَلَدِ كَمَا يَقُولُ النَّاسُ ، فَإِنَّهُ لَا مِنَّةَ لَهُمَا عَلَى الْوَلَدِ بِهَذِهِ السَّبَبِيَّةِ ؛ لِأَنَّهَا لَمْ تَكُنْ إِكْرَامًا لَهُ وَلَا عِنَايَةً بِهِ ، كَيْفَ وَهُوَ لَمْ يَكُنْ مَعْرُوفًا أَوْ مَوْجُودًا فَيُكْرَمُ ! ، وَإِنَّمَا كَانَتْ بِبَاعِثِ الشَّهْوَةِ وَإِرْضَاءِ النَّفْسِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ يَكُنْ يَخْطُرُ بِبَالِهِ الْوَلَدُ إِلَّا بَعْدَ الزَّوَاجِ بِزَمَنٍ طَوِيلٍ ، وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ يَوَدُّ أَلَّا يُولَدَ لَهُ ، أَوْ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ وَاحِدٌ أَوْ وَلَدَانِ فَقَطْ فَيَكُونَ لَهُ أَكْثَرُ . فَإِذَا كَانَ وُجُوبُ الْإِحْسَانِ بِالْوَالِدَيْنِ مَعْلُولًا لِإِرَادَتِهِمَا الْوَلَدَ ، فَيَنْبَغِي أَنْ يُخَصَّ هَذَا الْإِحْسَانُ بِوَلَدٍ لَمْ يَكُنْ لَهُمَا مِنَ الزَّوْجِيَّةِ حَظٌّ سِوَاهُ بِعَيْنِهِ ، وَهُوَ مَا لَا وُجُودَ لَهُ ، ذَلِكَ كَلَامٌ شِعْرِيٌّ ، وَالْعِلَّةُ الصَّحِيحَةُ فِي وُجُوبِ هَذَا الْإِحْسَانِ عَلَى الْوَلَدِ هِيَ الْعِنَايَةُ الصَّادِقَةُ الَّتِي بَذَلَاهَا فِي تَرْبِيَتِهِ ، وَالْقِيَامِ بِشُئُونِهِ أَيَّامَ كَانَ

ضَعِيفًا عَاجِزًا جَاهِلًا ، لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ نَفْعًا ، وَلَا يَقْدِرُ أَنْ يَدْفَعَ عَنْهَا ضَرَرًا ، إِذْ كَانَا يَحُوطَانِهِ بِالْعِنَايَةِ وَالرِّعَايَةِ ، وَيَكْفُلَانِهِ حَتَّى يَقْدِرَ عَلَى الِاسْتِقْلَالِ وَالْقِيَامِ بِشَأْنِ نَفْسِهِ ، فَهَذَا هُوَ الْإِحْسَانُ الَّذِي يَكُونُ مِنْهُمَا عَنْ عِلْمٍ وَاخْتِيَارٍ ، بَلْ مَعَ الشَّغَفِ الصَّحِيحِ وَالْحَنَانِ الْعَظِيمِ ، وَمَا جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ، وَإِذَا وَجَبَ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَشْكُرَ لِكُلِّ مَنْ

يُسَاعِدُهُ عَلَى أَمْرٍ عَسِيرٍ فَضْلَهُ ، وَيُكَافِئُهُ بِمَا يَلِيقُ بِهِ عَلَى حَسَبِ الْحَالِ فِي الْمُسَاعِدِ ، وَمَا كَانَتْ بِهِ الْمُسَاعَدَةُ ، فَكَيْفَ لَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ الشُّكْرُ لِلْوَالِدَيْنِ بَعْدَ الشُّكْرِ لِلَّهِ – تَعَالَى – وَهُمَا اللَّذَانِ كَانَا يُسَاعِدَانِهِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ أَيَّامَ كَانَ يَتَعَذَّرُ عَلَيْهِ كُلُّ شَيْءٍ ؟ ! .

(164/58)

وَكَذَلِكَ حُبُّ الْوَالِدَيْنِ لِلْوَلَدِ لَيْسَتْ عِلَّتُهُ – كَمَا يَقُولُ النَّاسُ – كَوْنَهُ جُزْءًا مِنْهُمَا وَفِلْذَةَ كَبِدِهِمَا ، هَذَا كَلَامٌ شِعْرِيٌّ لَا حَقِيقِيٌّ أَيْضًا ، فَإِنَّ جِسْمَ الْإِنْسَانِ مُرَكَّبٌ مِنَ الْأَغْذِيَةِ النَّبَاتِيَّةِ وَالْحَيَوَانِيَّةِ ، فَلَوْ كَانَتِ الْعِلَّةُ صَحِيحَةً ، لَكَانَ يَنْبَغِي أَنْ يُحِبَّ الْحِنْطَةَ وَالْغَنَمَ أَكْثَرَ مِمَّا يُحِبُّ وَالِدَيْهِ ، وَإِنَّمَا لِحُبِّ الْوَالِدَيْنِ الْوَلَدَ مَنْبَعَانِ : (أَحَدُهُمَا) : حَنَانٌ فِطْرِيٌّ أَوْدَعَهُ اللهُ – تَعَالَى – فِيهِمَا لِإِتْمَامِ حِكْمَتِهِ (وَثَانِيهُمَا) : مَا جَرَتْ بِهِ سُنَّةُ الْبَشَرِ مِنَ التَّفَاخُرِ بِالْأَوْلَادِ ، وَمِنَ الْأَمَلِ بِالِاسْتِفَادَةِ مِنْهُمْ فِي الْمُسْتَقْبَلِ ، وَلَيْسَتِ الْفَائِدَةُ مَحْصُورَةً فِي الْمَالِ وَالْعَوْنِ عَلَى الْمَعِيشَةِ ، وَإِنَّمَا تَتَنَاوَلُ الشَّرَفَ وَالْجَاهَ أَيْضًا .

وَكَمْ أَبٍ قَدْ عَلَا بِابْنٍ لَهُ شَرَفًا . . . كَمَا عَلَا بِرَسُولِ اللهِ عَدْنَانُ

وَلَمَّا كَانَ حُبُّ الْوَالِدَيْنِ لِلْأَوْلَادِ بِمَكَانَةٍ مِنَ الْقُوَّةِ لَا يُخْشَى زَوَالُهَا ، تَرَكَ النَّصَّ عَلَى الْإِحْسَانِ بِهِمْ وَثَنَّى بِالْإِحْسَانِ بِمَنْ دُونَهُمْ فِي النَّسَبِ ، فَقَالَ : (وَذِي الْقُرْبَى) .

(165/58)

الْإِحْسَانُ هُوَ الَّذِي يُقَوِّي غَرَائِزَ الْفِطْرَةِ ، وَيُوَثِّقُ الرَّوَابِطَ الطَّبِيعِيَّةَ بَيْنَ الْأَقْرَبِينَ حَتَّى تَبْلُغَ الْبُيُوتُ فِي وَحْدَةِ الْمَصْلَحَةِ دَرَجَةَ الْكَمَالِ ، وَالْأُمَّةُ : تَتَأَلَّفُ مِنَ الْبُيُوتِ (الْعَائِلَاتِ) ، فَصَلَاحُهَا صَلَاحُهَا ، وَهَاهُنَا قَالَ الْأُسْتَاذُ كَلِمَةً جَلِيلَةً وَهِيَ : (وَمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ بَيْتٌ لَا تَكُونُ لَهُ أُمَّةٌ) ، وَذَلِكَ أَنَّ عَاطِفَةَ التَّرَاحُمِ وَدَاعِيَةَ التَّعَاوُنِ إِنَّمَا تَكُونَانِ عَلَى أَشَدِّهِمَا وَأَكْمَلِهِمَا فِي الْفِطْرَةِ بَيْنَ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَوْلَادِ ، ثُمَّ بَيْنَ سَائِرِ الْأَقْرَبِينَ ، فَمَنْ فَسَدَتْ فِطْرَتُهُ حَتَّى لَا خَيْرَ فِيهِ لِأَهْلِهِ ، فَأَيُّ خَيْرٍ يُرْجَى مِنْهُ لِلْبُعَدَاءِ وَالْأَبْعَدِينَ ؟ وَمَنْ لَا خَيْرَ فِيهِ لِلنَّاسِ لَا يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ جُزْءًا مِنْ بِنْيَةِ أُمَّةٍ ؛ لِأَنَّهُ لَمْ تَنْفَعْ فِيهِ اللُّحْمَةُ النَّسَبِيَّةُ الَّتِي هِيَ أَقْوَى لُحْمَةٍ طَبِيعِيَّةٍ تَصِلُ بَيْنَ النَّاسِ ، فَأَيُّ لُحْمَةٍ بَعْدَهَا تَصِلُهُ بِغَيْرِ الْأَهْلِ فَتَجْعَلُهُ جُزْءًا مِنْهُمْ يَسُرُّهُ مَا يَسُرُّهُمْ وَيُؤْلِمُهُ مَا يُؤْلِمُهُمْ ، وَيَرَى مَنْفَعَتَهُمْ عَيْنَ مَنْفَعَتِهِ وَمَضَرَّتَهُمْ عَيْنَ مَضَرَّتِهِ ، وَهُوَ مَا يَجِبُ عَلَى كُلِّ شَخْصٍ لِأُمَّتِهِ ؟ قَضَى نِظَامُ الْفِطْرَةِ بِأَنْ تَكُونَ نَعْرَةُ الْقَرَابَةِ أَقْوَى مِنْ كُلِّ نَعْرَةٍ ، وَصِلَتُهَا أَمْتَنَ مِنْ كُلِّ صِلَةٍ ، فَجَاءَ الدِّينُ يُقَدِّمُ حُقُوقَ الْأَقْرَبِينَ عَلَى سَائِرِ الْحُقُوقِ ، وَجَعَلَ حُقُوقَهُمْ عَلَى حَسَبِ قُرْبِهِمْ مِنَ الشَّخْصِ .

(166/58)

ثُمَّ ذَكَرَ حُقُوقَ أَهْلِ الْحَاجَةِ مِنْ سَائِرِ النَّاسِ فَقَالَ : (وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ) ، وَالْيَتِيمُ هُوَ مَنْ مَاتَ أَبُوهُ وَهُوَ صَغِيرٌ ، وَقَدْ قَدَّمَ الْوَصِيَّةَ بِهِ عَلَى الْوَصِيَّةِ بِالْمِسْكِينِ ، وَلَمْ يُقَيِّدْهَا بِفَقْرٍ وَلَا مَسْكَنَةٍ ، فَعُلِمَ أَنَّهَا مَقْصُودَةٌ لِذَاتِهَا .

قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : أَكَّدَ اللهُ – تَعَالَى – الْوَصِيَّةَ بِالْيَتِيمِ ، وَفِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ كَثِيرٌ مِنْ هَذِهِ الْوَصَايَا ، وَحَسْبُكَ أَنَّ الْقُرْآنَ نَهَى عَنْ قَهْرِ الْيَتِيمِ وَشَدَّدَ الْوَعِيدَ عَلَى أَكْلِ مَالِهِ تَشْدِيدًا خَاصًّا ، وَلَوْ كَانَ السِّرُّ فِي ذَلِكَ غَلَبَةَ الْمَسْكَنَةِ عَلَى الْيَتَامَى ، لَاكْتَفَى هُنَا بِذِكْرِ الْمَسَاكِينِ . كَلَّا إِنَّ السِّرَّ فِي ذَلِكَ هُوَ كَوْنُ الْيَتِيمِ لَا يَجِدُ فِي الْغَالِبِ مَنْ تَبْعَثُهُ عَاطِفَةُ الرَّحْمَةِ الْفِطْرِيَّةِ عَلَى الْعِنَايَةِ بِتَرْبِيَتِهِ وَالْقِيَامِ بِحِفْظِ حُقُوقِهِ ، وَالْعِنَايَةِ بِأُمُورِهِ الدِّينِيَّةِ وَالدُّنْيَوِيَّةِ ، فَإِنَّ الْأُمَّ إِنْ وُجِدَتْ تَكُونُ فِي الْأَغْلَبِ عَاجِزَةً ، وَلَا سِيَّمَا إِذَا تَزَوَّجَتْ بَعْدَ أَبِيهِ ، فَأَرَادَ اللهُ – تَعَالَى – وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ بِمَا أَكَّدَ مِنَ الْوَصِيَّةِ بِالْأَيْتَامِ

أَنْ يَكُونُوا مِنَ النَّاسِ بِمَنْزِلَةِ أَبْنَائِهِمْ يُرَبُّونَهُمْ تَرْبِيَةً دِينِيَّةً دُنْيَوِيَّةً ؛ لِئَلَّا يَفْسُدُوا وَيُفْسِدَ بِهِمْ غَيْرُهُمْ ، فَيَنْتَشِرُ الْفَسَادُ فِي الْأُمَّةِ فَتَنْحَلُّ انْحِلَالًا ، فَالْعِنَايَةُ بِتَرْبِيَةِ الْيَتَامَى هِيَ الذَّرِيعَةُ لِمَنْعِ كَوْنِهِمْ

قُدْوَةً سَيِّئَةً لِسَائِرِ الْأَوْلَادِ . وَالتَّرْبِيَةُ لَا تَتَيَسَّرُ مَعَ وُجُودِ هَذِهِ الْقُدْوَةِ ، فَإِهْمَالُ الْيَتَامَى إِهْمَالٌ لِسَائِرِ أَوْلَادِ الْأُمَّةِ .

أَمَّا الْمَسَاكِينُ فَلَا يُرَادُ بِهِمْ هَؤُلَاءِ السَّائِلُونَ الشَّحَّاذُونَ الْمُلْحِفُونَ الَّذِينَ يَقْدِرُونَ عَلَى كَسْبِ مَا يَفِي بِحَاجَاتِهِمْ ، أَوْ يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ وَلَوْ لَمْ يَكْتَسِبُوا ، إِلَّا أَنَّهُمُ اتَّخَذُوا السُّؤَالَ حِرْفَةً ، يَبْتَغُونَ بِهَا الثَّرْوَةَ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْمَلُونَ عَمَلًا يَنْفَعُ النَّاسَ ، وَلَكِنَّ الْمِسْكِينَ مَنْ يَعْجِزُ عَنْ كَسْبٍ يَكْفِيهِ .

وَأَمَّا قَوْلُهُ – عَزَّ وَجَلَّ : (وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا) فَهُوَ كَلَامٌ جَدِيدٌ لَهُ شَأْنٌ مَخْصُوصٌ ، وَلِذَلِكَ تَغَيَّرَ فِيهِ الْأُسْلُوبُ ، فَلَمْ يَرِدْ عَلَى النَّسَقِ الَّذِي قَبْلَهُ مَعَ دُخُولِهِ فِي الْمِيثَاقِ ، فَإِنَّهُ بَيَّنَ فِيمَا سَبَقَ الْحُقُوقَ الْعَمَلِيَّةَ وَعَبَّرَ عَنْهَا بِالْإِحْسَانِ ، وَيَسْتَحِيلُ أَنْ يُحْسِنَ الْإِنْسَانُ بِالْفِعْلِ إِلَى جَمِيعِ النَّاسِ ؛ لِأَنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يُعَامِلَ جَمِيعَ النَّاسِ ، فَالَّذِينَ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ مُعَامَلَتِهِمْ هُمْ أَهْلُ بَيْتِهِ وَأَقَارِبِهِ الَّذِينَ يَنْشَأُ فِيهِمْ وَيَتَرَبَّى بَيْنَهُمْ ، فَجَاءَ النَّصُّ بِوُجُوبِ الْإِحْسَانِ فِي مُعَامَلَتِهِمْ لِتَصْلُحَ بِذَلِكَ حَالُ الْبُيُوتِ .

ثُمَّ إِنَّ الْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ مِنْ قَوْمِهِ هُمُ الَّذِينَ لَا يَسْتَغْنُونَ عَنْ إِحْسَانِهِ وَإِحْسَانِ أَمْثَالِهِ بِالْفِعْلِ ؛ لِأَنَّهُ لَا قِيَمَ لِلْأَوَّلِينَ ، وَلَا غَنَاءَ عِنْدَ الْآخِرِينَ ، فَفَرَضَ عَلَيْهِ أَنْ يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا مِنْهُ . ثُمَّ بَعْدَ بَيَانِ مَا بِهِ إِصْلَاحُ الْبُيُوتِ مِنْ إِعَانَةِ الْأَقْرَبِينَ ، وَمَا بِهِ صَلَاحُ بَعْضِ الْعَامَّةِ مِنْ مَعُونَةِ الْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ عَلَى إِصْلَاحِ بُيُوتِهِمْ ، بَقِيَ بَيَانُ حُقُوقِ سَائِرِ الْأُمَّةِ ، وَهِيَ النَّصِيحَةُ لَهُمْ ، وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ فِيهِمْ ، فَهَذَا هُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ – تَعَالَى – : (وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا) ، وَلَيْسَ مَعْنَاهُ مُجَرَّدَ التَّلَطُّفِ بِالْقَوْلِ وَالْمُجَامَلَةِ فِي الْخِطَابِ ، فَالْحُسْنُ هُوَ النَّافِعُ فِي الدِّينِ أَوِ الدُّنْيَا ، وَهُوَ لَا يَخْرُجُ عَمَّا ذَكَرْنَا ، فَلَمَّا كَانَ هَذَا النَّوْعُ مِنَ الْحُقُوقِ مُسْتَقِلًّا بِذَاتِهِ جَاءَ بِأُسْلُوبٍ آخَرَ ، وَلَا شَكَّ أَنَّ فِي الْقِيَامِ بِهَذِهِ الْفَرَائِضِ إِصْلَاحَ الْأُمَّةِ كُلِّهَا .

جَاءَ الْأَمْرُ بِالْعِبَادَةِ مُجْمَلًا لِيَعْلَمَ الْإِنْسَانُ أَنَّهُ مُكَلَّفٌ بِكُلِّ فَرْدٍ مِنْ أَفْرَادِهَا

(169/58)

بِحَسْبِ الطَّاقَةِ ، وَلَكِنْ مِنَ الْعِبَادَةِ مَا لَا يَهْتَدِي إِلَيْهِ الْإِنْسَانُ إِلَّا بِهِدَايَةٍ إِلَهِيَّةٍ ، وَأَكْبَرُ ذَلِكَ النَّوْعِ إِقَامَةُ الصَّلَاةِ لِإِصْلَاحِ نُفُوسِ الْأَفْرَادِ ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ لِإِصْلَاحِ شُئُونِ الِاجْتِمَاعِ ؛ لِذَلِكَ قَالَ – تَعَالَى – بَعْدَ مَا تَقَدَّمَ : (وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ) ، وَإِنَّمَا إِقَامَةُ الصَّلَاةِ بِالْإِخْلَاصِ لِلَّهِ وَالصِّدْقِ فِي التَّوَجُّهِ إِلَيْهِ وَالْخُشُوعِ لِعَظَمَتِهِ وَجَلَالِهِ وَالِاسْتِكَانَةِ لِعِزِّ سُلْطَانِهِ ، وَلَا تَكُونُ

بِمُجَرَّدِ الْإِتْيَانِ بِصُورَةِ الصَّلَاةِ وَرُسُومِهَا الظَّاهِرَةِ ، وَلَوْ كَانَ هَذَا هُوَ الْمُرَادُ لَمَا وَصَفَهُمْ بِالتَّوَلِّي وَالْإِعْرَاضِ عَنْهُ ؛ فَإِنَّهُمْ مَا أَعْرَضُوا عَنْ صُورَةِ الصَّلَاةِ إلَى ذَلِكَ الْيَوْمِ الَّذِي ذَكَّرَهُمْ فِيهِ بِهَذِهِ الْآيَاتِ وَإِلَى هَذَا الْيَوْمِ أَيْضًا . وَأَمَّا الزَّكَاةُ فَقَدْ كَانَ بَعْضُ أَحْبَارِهِمْ يَزْعُمُ أَنَّهَا تِلْكَ الْمُحْرَقَاتُ وَالْقَرَابِينُ الْمَفْرُوضَةُ لِتَكْفِيرِ الْخَطَايَا أَوْ شُكْرِ اللهِ – تَعَالَى – عَلَى إخْرَاجِهِمْ مِنْ مِصْرَ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ النِّعَمِ . وَلَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ ،

فَإِنَّ لَهُمْ زَكَوَاتٍ مَالِيَّةٍ ، مِنْهَا مَالٌ مَخْصُوصٌ يُؤَدَّى لِآلِ هَارُونَ وَهُوَ إلَى الْآنِ فِي (اللَّاوِيِّينَ) ، وَمِنْهَا مَالٌ لِلْمَسَاكِينِ ، وَمِنْهَا مَا يُؤْخَذُ مِنْ ثَمَرَاتِ الْأَرْضِ ، وَمِنْهَا سَبْتُ الْأَرْضِ ، وَهُوَ تَرْكُهَا فِي كُلِّ سَبْعِ سِنِينَ مَرَّةً بِلَا حَرْثٍ وَلَا زَرْعٍ ، وَكُلُّ مَا يَخْرُجُ مِنْهَا فِي تِلْكَ السَّنَةِ ، فَهُوَ صَدَقَةٌ .

(170/58)

قَالَ – تَعَالَى – : (ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ) أَيْ ثُمَّ كَانَ مِنْ أَمْرِكُمْ بَعْدَ هَذَا الْمِيثَاقِ الَّذِي فِيهِ سَعَادَتُكُمْ ، أَنْ تَوَلَّيْتُمْ عَنِ الْعَمَلِ بِهِ ، وَأَنْتُمْ فِي حَالَةِ الْإِعْرَاضِ عَنْهُ وَعَدَمِ الِاكْتِرَاثِ لَهُ ، وَقَدْ يَتَوَلَّى الْإِنْسَانُ مُنْصَرِفًا عَنْ شَيْءٍ وَهُوَ عَازِمٌ عَلَى أَنْ يَعُودَ إلَيْهِ وَيُوَفِّيَهُ حَقَّهُ ، فَلَيْسَ كُلُّ مُتَوَلٍّ عَنْ شَيْءٍ مُعْرِضًا عَنْهُ وَمُهْمِلًا لَهُ عَلَى الدَّوَامِ ؛ لِذَلِكَ كَانَ ذِكْرُ هَذَا الْقَيْدِ (وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ) لَازِمًا لَا بُدَّ مِنْهُ ، وَلَيْسَ تَكْرَارًا كَمَا يُتَوَهَّمُ ، وَإِنَّمَا هُوَ مُتَمِّمٌ لِلْمَعْنَى ،

وَمُؤَكِّدٌ لِلْمُبَالَغَةِ فِي التَّرْكِ الْمُسْتَفَادِ مِنَ التَّوَلِّي .

قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : وَلَا حَاجَةَ إِلَى مَا زَادَهُ الْمُفَسِّرُ مِنْ قَوْلِهِ : (فَقَبِلْتُمْ ذَلِكَ) لِيَعْطِفَ عَلَيْهِ (ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ) ، فَالْمَقَامُ مَقَامُ وَعِيدٍ وَزَجْرٍ وَتَوْبِيخٍ ، وَفِي كَلِمَةِ (ثُمَّ) نَفْسِهَا مَا يُفِيدُ أَنَّ التَّوَلِّيَ لَمْ يَكُنْ عَقِبَ أَخْذِ الْمِيثَاقِ .

وَقَدْ كَانَ سَبَبُ ذَلِكَ التَّوَلِّي مَعَ الْإِعْرَاضِ أَنَّ اللهَ أَمَرَهُمْ أَنْ لَا يَأْخُذُوا الدِّينَ إِلَّا فِي كِتَابِهِ ، فَاتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ يُحِلُّونَ بِرَأْيِهِمْ وَيُحَرِّمُونَ ،

وَيُبِيحُونَ بِاجْتِهَادِهِمْ وَيَحْظُرُونَ ، وَيَزِيدُونَ فِي الْأَحْكَامِ وَالشَّرَائِعِ ، وَيَضَعُونَ مَا شَاءُوا مِنَ الِاحْتِفَالَاتِ وَالشَّعَائِرِ ، فَصَدَقَ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمُ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ شُرَكَاءَ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ ، فَإِنَّ اللهَ هُوَ الَّذِي يَضَعُ الدِّينَ وَحْدَهُ ، وَإِنَّمَا الْعُلَمَاءُ أَدِلَّاءُ يُسْتَعَانُ بِهِمْ عَلَى فَهْمِ كِتَابِهِ وَمَا شَرَعَ عَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ ، وَقَدِ اتَّبَعَ سَنَنَ الْيَهُودِ فِي هَذَا التَّشْرِيعِ جَمِيعُ مَنْ بَعْدَهُمْ مِنْ أَهْلِ الْمِلَلِ ، وَحُكْمُ الْجَمِيعِ عِنْدَ اللهِ – تَعَالَى – وَاحِدٌ لَا يَخْتَلِفُ ، فَهُوَ لَا يُحَابِي أَحَدًا (وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا) (18 : 49) وَكَذَلِكَ كَانُوا قَدْ قَطَعُوا صِلَاتِ الْقَرَابَةِ ، وَبَخِلُوا بِالنَّفَقَةِ الْوَاجِبَةِ ، وَتَرَكُوا النَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَفَقَدُوا رُوحَ الصَّلَاةِ وَمَنَعُوا الزَّكَاةَ ، وَلَكِنَّهُمُ الْآنَ

عَادُوا إِلَى بَعْضِ مَا تَرَكُوا ، وَلَمْ يَعُدِ الَّذِينَ تَشَبَّهُوا بِهِمْ أَوِ اتَّبَعُوا بِغَيْرِ شُعُورٍ سُنَنَهُمْ ، وَالْأَمْرُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ .

(172/58)

وَأَمَّا قَوْلُهُ : (إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ) فَهُوَ اسْتِثْنَاءٌ لِبَعْضِ مَنْ كَانُوا فِي زَمَنِ سَيِّدِنَا مُوسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ – أَوْ فِي كُلِّ زَمَنٍ ، فَإِنَّهُ لَا تَخْلُو أُمَّةٌ مِنَ الْأُمَمِ مِنَ الْمُخْلِصِينَ الَّذِينَ يُحَافِظُونَ عَلَى الْحَقِّ بِحَسَبِ مَعْرِفَتِهِمْ وَقَدْرِ طَاقَتِهِمْ . وَالْحِكْمَةُ فِي ذِكْرِ هَذَا الِاسْتِثْنَاءِ عَدَمُ بَخْسِ الْمُحْسِنِينَ حَقَّهُمْ ، وَبَيَانُ أَنَّ وُجُودَ قَلِيلٍ مِنَ الصَّالِحِينَ فِي الْأُمَّةِ لَا يَمْنَعُ عَنْهَا الْعِقَابَ الْإِلَهِيَّ إِذَا فَشَا فِيهَا الْمُنْكَرُ ، وَقَلَّ الْمَعْرُوفُ .

لَوْ تَدَبَّرَ جُهَّالُنَا هَذِهِ الْآيَةَ ، لَعَلِمُوا أَنَّهُمْ مَغْرُورُونَ بِالِاعْتِمَادِ عَلَى الْأَقْطَابِ وَالْأَوْتَادِ وَالْأَبْدَالِ فِي تَحَمُّلِ الْبَلَاءِ عَنْهُمْ ، وَمَنْعِ الْعَذَابِ أَنْ يَنْزِلَ بِالْأُمَّةِ بِبَرَكَتِهِمْ ، فَلَوْ فُرِضَ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْأَقْطَابَ مَوْجُودُونَ حَقِيقَةً ، فَإِنَّ وُجُودَهُمْ لَا يُغْنِي عَنِ الْأُمَّةِ شَيْئًا ، وَقَدْ عَصَى اللهَ جَمَاهِيرُهَا وَقَضَوْا مِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَهُمْ بِهِ ، فَقَدْ جَرَتْ سُنَّتُهُ – تَعَالَى – فِي خَلْقِهِ بِأَنَّ بَقَاءَ الْأُمَمِ عَزِيزَةً إِنَّمَا يَكُونُ بِمُحَافَظَةِ الْجَمَاهِيرِ فِيهَا عَلَى الْأَخْلَاقِ وَالْأَعْمَالِ الَّتِي تَكُونُ بِهَا الْعِزَّةُ وَيُحْفَظُ بِهَا الْمَجْدُ وَالشَّرَفُ .

وَمَنْ لَمْ يَعْتَبِرْ بِآيَاتِ اللهِ فِي كِتَابِهِ ، لَا يَعْتَبِرْ بِآيَاتِهِ وَسُنَنِهِ فِي خَلْقِهِ ، فَقَدْ فُتِنَ الْمُسْلِمُونَ فِي دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ ، وَحَلَّ بِجَمِيعِ بِلَادِهِمْ مَا حَلَّ مِنَ الْبَلَاءِ وَهُمْ لَا يَعْتَبِرُونَ ، (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا) (47 : 24) ، (أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ) (9 : 126) .

(وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ)

كَانَ التَّذْكِيرُ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ بِأَهَمِّ الْمَأْمُورَاتِ الَّتِي أَخَذَ اللهُ – تَعَالَى – الْمِيثَاقَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِهَا بَعْدَ تَوْحِيدِ اللهِ – تَعَالَى – وَإِفْرَادِهِ بِالْعِبَادَةِ وَبَيَانِ أَنَّهُمْ نَقَضُوا مِيثَاقَ اللهِ – تَعَالَى – وَلَمْ يَأْتَمِرُوا بِهَا ، وَفِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ التَّذْكِيرُ بِأَهَمِّ الْمَنْهِيَّاتِ الَّتِي أَخَذَ اللهُ – تَعَالَى – الْمِيثَاقَ عَلَيْهِمْ بِاجْتِنَابِهَا ، وَبَيَانُ أَنَّهُمْ نَقَضُوا مِيثَاقَهُ وَلَمْ يَنْتَهُوا عَنْهَا ، وَقَدْ قَالَ هُنَاكَ : (وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ) أَيِ الَّذِينَ نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ التَّوْرَاةُ ، ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَى خِطَابِ الْحَاضِرِينَ فِي زَمَنِ التَّنْزِيلِ فَقَالَ : (ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ) وَقَالَ هُنَا : (وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ) تَمَادِيًا فِي سِيَاقِ الِالْتِفَاتِ ، وَتَذْكِيرًا بِوَحْدَةِ الْأُمَّةِ وَاعْتِبَارِهَا كَالشَّخْصِ الْوَاحِدِ ، يُصِيبُ الْخَلَفَ أَثَرُ مَا كَانَ عَلَيْهِ السَّلَفُ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ مَا اسْتَنُّوا بِسُنَّتِهِمْ ، وَجَرَوْا عَلَى طَرِيقَتِهِمْ ، كَمَا تُؤَثِّرُ أَعْمَالُ الشَّخْصِ السَّابِقَةُ فِي قُوَاهُ النَّفْسِيَّةِ ، وَطَبْعِ مَلَكَاتِهِ

بَعْدَ انْحِلَالِ مَادَّةِ تِلْكَ الْأَعْضَاءِ الَّتِي ابْتَدَأَتِ الْعَمَلَ ، وَحُلُولِ مَوَادَّ أُخْرَى فِي مَحِلِّهَا تَتَمَرَّنُ عَلَى مِثْلِ ذَلِكَ الْعَمَلِ ، فَمَا يَفْعَلُهُ الشَّخْصُ فِي صِغَرِهِ ، يَبْقَى أَثَرُهُ فِي قُوَاهُ فِي كِبَرِهِ ، فَكَذَلِكَ الْأُمَمُ .

وَقَدْ أَوْرَدَ النَّهْيَ عَنْ سَفْكِ بَعْضِهِمْ دَمَ بَعْضٍ ، وَإِخْرَاجِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَوْطَانِهِمْ بِعِبَارَةٍ تُؤَكِّدُ مَعْنَى وَحْدَةِ الْأُمَّةِ ، وَتُحْدِثُ فِي النَّفْسِ أَثَرًا شَرِيفًا يَبْعَثُهَا عَلَى الِامْتِثَالِ إِنْ كَانَ هُنَاكَ قَلْبٌ يَشْعُرُ ، وَوِجْدَانٌ يَتَأَثَّرُ ، فَقَالَ : (لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ) فَجَعَلَ دَمَ كُلِّ فَرْدٍ مِنْ أَفْرَادِ الْأُمَّةِ كَأَنَّهُ دَمُ الْآخَرِ عَيْنُهُ ، حَتَّى إِذَا سَفَكَهُ كَانَ كَأَنَّهُ بَخَعَ نَفْسَهُ وَانْتَحَرَ بِيَدِهِ . وَقَالَ : (وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ) عَلَى هَذَا النَّسَقِ . وَهَذَا التَّعْبِيرُ الْمُعْجِزُ بِبَلَاغَتِهِ خَاصٌّ بِالْقُرْآنِ . فَهَذِهِ الْأَحْكَامُ لَا تَزَالُ مَحْفُوظَةً عِنْدَ الْإِسْرَائِيلِيِّينَ فِي الْكِتَابِ وَإِنْ لَمْ يَجْرُوا عَلَيْهَا فِي الْعَمَلِ ، وَلَكِنَّ الْعِبَارَةَ عَنْهَا عِنْدَهُمْ لَا تُطَاوِلُ هَذِهِ الْعِبَارَةَ الَّتِي تُدْهِشُ صَاحِبَ الذَّوْقِ السَّلِيمِ وَالْوِجْدَانِ الرَّقِيقِ ، فَهَذَا إِرْشَادٌ حَكِيمٌ طَلَعَ مِنْ ثَنَايَا الْأَحْكَامِ يَهْدِي إِلَى أَسْرَارِهَا وَيُومِئُ إِلَى مَشْرِقِ أَنْوَارِهَا ، مَنْ تَدَبَّرَهُ عَلِمَ أَنَّهُ لَا قِوَامَ لِلْأُمَمِ إِلَّا بِالتَّحَقُّقِ بِمَا تَضَمَّنَتْهُ هَذِهِ الْحِكَمُ ، وَشُعُورِ كُلِّ فَرْدٍ مِنْ أَفْرَادِهَا بِأَنَّ نَفْسَهُ نَفْسُ الْآخَرِينَ وَدَمَهُ دَمُهُمْ ، لَا فَرْقَ فِي الِاحْتِرَامِ بَيْنَ الرُّوحِ الَّتِي تَجُولُ فِي بَدَنِهِ وَالدَّمِ الَّذِي يَجْرِي فِي عُرُوقِهِ ، وَبَيْنَ الْأَرْوَاحِ وَالدِّمَاءِ الَّتِي يَحْيَا بِهَا إِخْوَانُهُ الَّذِينَ وُحِّدَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمُ الشَّرِيعَةُ الْعَادِلَةُ وَالْمَصَالِحُ الْعَامَّةُ ، هَذَا هُوَ

الْوَجْهُ الْوَجِيهُ فِي الْآيَةِ ، وَقِيلَ : مَعْنَاهَا لَا تَرْتَكِبُوا مِنَ الْجَرَائِمِ مَا تُجَازَوْنَ عَلَيْهِ بِالْقَتْلِ وَالْإِخْرَاجِ مِنَ الدِّيَارِ . وَيُقَالُ فِي قَوْلِهِ : (لَا تَسْفِكُونَ) كَمَا قِيلَ قَبْلَهُ فِي قَوْلِهِ : (لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ) مِنْ تَضَمُّنِ صِيغَةِ الْخَبَرِ لِلتَّأْكِيدِ .

وَقَوْلُهُ - تَعَالَى - : (ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ) فِيهِ وَجْهَانِ :

(أَحَدُهُمَا) : أَنَّهُ يُخَاطِبُهُمْ بِمَا كَانَ مِنِ اعْتِرَافِ سَلَفِهِمْ بِالْمِيثَاقِ وَقَبُولِهِ ، وَشُهُودِهِمُ الْوَحْيَ الَّذِي نَزَلَ بِهِ عَلَى مُوسَى - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ .

(ثَانِيهُمَا) : أَنَّ الْمُرَادَ الْحَاضِرُونَ أَنْفُسُهُمْ ، أَيْ أَنَّكُمْ أَيُّهَا الْمُخَاطَبُونَ بِالْقُرْآنِ قَدْ أَقْرَرْتُمْ بِهَذَا الْمِيثَاقِ وَتَعْتَقِدُونَهُ فِي قُلُوبِكُمْ ، وَلَا تُنْكِرُوا بِأَلْسِنَتِكُمْ ، بَلْ تَشْهَدُونَ بِهِ وَتُعْلِنُونَهُ ، فَالْحُجَّةُ نَاهِضَةٌ عَلَيْكُمْ بِهِ .

ثُمَّ بَعْدَ بَيَانِ هَذَا الْمِيثَاقِ وَتَسْجِيلِهِ عَلَيْهِمْ بِأَنَّهُمْ يَعْرِفُونَهُ لَا يُنْكِرُونَ مِنْهُ شَيْئًا ، ذَكَرَ نَقْضَهُمْ إِيَّاهُ فَقَالَ : (ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ) الْحَاضِرُونَ الشَّاهِدُونَ الْمُشَاهِدُونَ (تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ) أَيْ يَقْتُلُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا ، كَمَا كَانَ يَفْعَلُ مَنْ قَبْلَكُمْ ، مَعَ اعْتِرَافِكُمْ

بِأَنَّ الْمِيثَاقَ مَأْخُوذٌ عَلَيْكُمْ كَمَا كَانَ مَأْخُوذًا عَلَيْهِمْ ؛ كَانَ (بَنُو قَيْنُقَاعَ) مِنَ الْيَهُودِ أَعْدَاءَ بَنِي قُرَيْظَةَ إِخْوَانِهِمْ فِي الدِّينِ ، وَكَانَ الْأَوَّلُونَ حُلَفَاءَ الْأَوْسِ ، وَالْآخَرُونَ مَعَ بَنِي النَّضِيرِ حُلَفَاءَ الْخَزْرَجِ ، ثُمَّ افْتَرَقُوا فَبَقِيَ بَنُو النَّضِيرِ مَعَ الْخَزْرَجِ ، وَخَالَفَ بَنُو قُرَيْظَةَ الْأَوْسَ ، وَكَانَ الْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ قَبْلَ الْإِسْلَامِ أَعْدَاءً ، وَكَانُوا يَقْتَتِلُونَ ، وَمَعَ كُلٍّ حُلَفَاؤُهُ ، فَهَذَا مَا احْتَجَّ اللهُ – تَعَالَى – عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِقَتْلِهِمْ

أَنْفُسِهِمْ فِي عَصْرِ التَّنْزِيلِ ، وَيَتْبَعُ هَذَا الْقِتَالَ الْأَسْرُ ، وَمِنْ لَوَازِمِهِ الْإِخْرَاجُ مِنَ الدِّيَارِ وَلِذَلِكَ قَالَ : (وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ) . وَالتَّظَاهُرُ : التَّعَاوُنُ ، وَتَظَاهَرُونَ أَصْلُهُ تَتَظَاهَرُونَ كَمَا قَرَأَ الْجُمْهُورُ ، وَقَرَأَ عَاصِمٌ وَحَمْزَةُ وَالْكِسَائِيُّ بِحَذْفِ إِحْدَى التَّاءَيْنِ لِلتَّخْفِيفِ وَهُوَ مَقِيسٌ مَشْهُورٌ . كَانَ كُلُّ فَرِيقٍ مِنَ الْيَهُودِ يُظَاهِرُ حُلَفَاءَهُ مِنَ الْعَرَبِ وَيُعَاوِنُهُمْ عَلَى إِخْوَانِهِ مِنَ الْيَهُودِ بِالْإِثْمِ كَالْقَتْلِ وَالسَّلْبِ ، وَبِالْعُدْوَانِ كَالْإِخْرَاجِ مِنَ الدِّيَارِ .

(178/58)

وَمِنْ مَثَارَاتِ الْعَجَبِ أَنَّهُ كَانُوا إِذَا اتَّفَقُوا عَلَى فِدَاءِ الْأَسْرَى يَفْدِي كُلُّ فَرِيقٍ مِنَ الْيَهُودِ أَسْرَى أَبْنَاءِ جِنْسِهِ ، وَإِنْ كَانُوا مِنْ أَعْدَائِهِ ، وَيَعْتَذِرُونَ عَنْ هَذَا بِأَنَّهُمْ مَأْمُورُونَ فِي الْكِتَابِ بِفِدَاءِ

أَسْرَى شَعْبِ إِسْرَائِيلَ ، فَإِنْ كَانُوا مُسْتَمْسِكِينَ بِالْكِتَابِ ، فَلِمَ قَاتَلُوا شَعْبَ إِسْرَائِيلَ وَأَخْرَجُوهُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ ، وَهُمْ مَنْهِيُّونَ عَنْ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ ؟ هَذَا لَعِبٌ بِالْكِتَابِ وَاسْتِهْزَاءٌ بِالدِّينِ وَلِذَلِكَ قَالَ – تَعَالَى – : (وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ) بَعْدَ أَنْ كُنْتُمْ أَسَرْتُمُوهُمْ وَأَخْرَجْتُمُوهُمْ بِالتَّظَاهُرِ عَلَيْهِمْ مَعَ الْعَرَبِ ، (وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ) بِمِيثَاقٍ أَغْلَظَ مِنْ طَلَبِ مُفَادَاتِهِمْ . (أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ) وَهُوَ فِدَاءُ الْأَسْرَى ، (وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ) آخَرَ مِنْهُ وَهُوَ النَّهْيُ عَنِ الْقَتْلِ وَالْإِخْرَاجِ ؟ أَلَيْسَ مِنَ الْحَمَاقَةِ وَالْهُزْءِ وَالسُّخْرِيَةِ أَنَّ يَدَّعِيَ مُدَّعٍ مِثْلَ هَذَا الْإِيمَانِ بِأَهْوَنِ الْأُمُورِ مَعَ الْكُفْرِ بِأَعْظَمِهَا ؟ وَالْإِيمَانُ لَا يَتَجَزَّأُ ، فَالْكُفْرُ بِالْبَعْضِ كَالْكُفْرِ بِالْكُلِّ .

(179/58)

قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : فِي التَّعْبِيرِ عَنِ الْمُخَالَفَةِ وَالْمَعْصِيَةِ بِالْكُفْرِ دَلِيلٌ عَلَى مَا سَبَقَ بَيَانُهُ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ – تَعَالَى – : (وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ) فَالْقُرْآنُ يُصَرِّحُ هُنَا فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ بِأَنَّ مَنْ يُقْدِمُ عَلَى الذَّنْبِ لَا تَضْطَرِبُ نَفْسُهُ قَبْلَ إِصَابَتِهِ ، وَلَا يَتَأَلَّمُ وَيَنْدَمُ بَعْدَ وُقُوعِهِ فَيَرْجِعُ إِلَى اللهِ – تَعَالَى – تَائِبًا ، بَلْ يَسْتَرْسِلُ فِيهِ بِلَا مُبَالَاةٍ بِنَهْيِ اللهِ – تَعَالَى – عَنْهُ وَتَحْرِيمِهِ لَهُ ، فَهُوَ كَافِرٌ بِهِ ؛ لِأَنَّ الْمُؤْمِنَ بِأَنَّ هَذَا شَيْءٌ حَرَّمَهُ اللهُ – تَعَالَى – ، الْمُصَدِّقَ

بِأَنَّهُ مِنْ أَسْبَابِ سُخْطِهِ وَمُوجِبَاتِ عُقُوبَتِهِ لَا يُمْكِنُ أَلَّا يَكُونَ لِإِيمَانِ قَلْبِهِ أَثَرٌ فِي نَفْسِهِ ، فَإِنَّ مِنَ الضَّرُورِيَّاتِ أَنَّ لِكُلِّ اعْتِقَادٍ أَثَرًا فِي النَّفْسِ ، وَلِكُلِّ أَثَرٍ فِي النَّفْسِ تَأْثِيرٌ فِي الْأَعْمَالِ . وَهَذَا هُوَ الْوَجْهُ فِي الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ النَّاطِقَةِ بِأَنَّهُ (لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ ، وَلَا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ، وَلَا يَشْرَبُ الْخَمْرَ شَارِبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ) .

(180/58)

وَلَقَدْ سَمَّى اللَّهُ الذَّنْبَ هَاهُنَا كُفْرًا لِمَا تَقَدَّمَ ، وَتَوَعَّدَ عَلَيْهِ بِوَعِيدِ الْكُفْرِ فَقَالَ : (فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) . . . إِلَخْ . أَوْعَدَهُمُ اللَّهُ - تَعَالَى - كَمَا أَوْعَدَ مَنْ قَبْلَهُمْ وَمَنْ بَعْدَهُمْ بِأَنَّهُمْ يُعَاقَبُونَ عَلَى نَقْضِ مِيثَاقِ الدِّينِ الَّذِي يَجْمَعُهُمْ ، وَالشَّرِيعَةِ الَّتِي هِيَ مَنَاطُ وِحْدَتِهِمْ وَرِبَاطِ جِنْسِيَّتِهِمْ بِالْخِزْيِ الْعَاجِلِ ، وَالْعَذَابِ الْآجِلِ ، وَقَدْ دَلَّ الْمَعْقُولُ ، وَشَهِدَ الْوُجُودُ بِأَنَّهُ مَا مِنْ أُمَّةٍ فَسَقَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا ، وَاعْتَدَتْ حُدُودَ شَرِيعَتِهَا ، إِلَّا وَانْتَكَثَ فَتْلُهَا ، وَتَفَرَّقَ شَمْلُهَا ، وَنَزَلَ بِهَا الذُّلُّ وَالْهَوَانُ ، وَهُوَ الْخِزْيُ الْمُرَادُ فِي الْقُرْآنِ ، وَهَذِهِ هِيَ سُنَّةُ الْخَلِيقَةِ ، ذَكَرَهَا لِيَعْتَبِرَ بِهَا مَنْ صَرَفَتْهُ الْغَفْلَةُ عَنْهَا .

(181/58)

وَأَمَّا الْعَذَابُ الْآجِلُ الَّذِي عَبَّرَ عَنْهُ بِقَوْلِهِ : (وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ) فَهُوَ عَلَى كَوْنِهِ مِنْ عَالَمِ الْغَيْبِ مَعْقُولَ الْمَعْنَى ، وَهَادٍ إِلَى حِكْمَةٍ عُلْيَا ؛ ذَلِكَ أَنَّ النُّفُوسَ الْبَشَرِيَّةَ إِذَا سَحَلَ مَرِيرُهَا ، وَاخْتَلَّتْ بِفَسَادِ الْأَخْلَاقِ أُمُورُهَا ، وَكَثُرَتْ فِي ذَا الْعَالَمِ شُرُورُهَا ، حَتَّى سَلَبَتْ مَا أَعَدَّهُ اللهُ – تَعَالَى – لِمَنْ حَافَظُوا عَلَى الْحَقِيقَةِ ، وَاسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ ، تَكُونُ جَدِيرَةً بِأَنْ تُسْلَبَ فِي الْآخِرَةِ مَا أَعَدَّهُ اللهُ – تَعَالَى – لِلْأَرْوَاحِ الْعَالِيَةِ ، وَمَا وَعَدَ بِهِ أَصْحَابَ النُّفُوسِ الزَّكِيَّةِ ، فَإِنَّ سَعَادَةَ الدَّارِ الدُّنْيَا لَمْ تَكُنْ أَجْرًا عَلَى أَعْمَالٍ بَدَنِيَّةٍ لَا تَتَعَلَّقُ بِصَلَاحِ النَّفْسِ فِي خُلُقٍ وَلَا نِيَّةٍ ، وَإِنَّمَا هِيَ ثَمَرَةُ تَزْكِيَةِ النَّفْسِ الَّتِي يُتَوَسَّلُ إِلَيْهَا بِعَمَلِ الْحِسِّ ، فَإِذَا كَانَ هَذَا شَأْنَ سَعَادَةِ الدُّنْيَا ، فَكَيْفَ يَكُونُ نَعِيمُ الْآخِرَةِ جَزَاءَ حَرَكَاتٍ جَسَدِيَّةٍ ، وَهِيَ الدَّارُ الَّتِي تَغْلِبُ فِيهَا الرُّوحَانِيَّةُ ؟ (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا) (91 : 7 – 10) .

(وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) بَلْ هُوَ مُحِيطٌ بِهِ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْهُ شَيْءٌ . وَقَدْ قَرَأَ عَاصِمٌ فِي رِوَايَةِ الْمُفَضَّلِ (تُرَدُّونَ) بِالْخِطَابِ لِمُنَاسَبَةِ قَوْلِهِ : (مِنْكُمْ) كَمَا قَرَأَ

الْجُمْهُورُ (تَعْمَلُونَ) بِالْخِطَابِ لِذَلِكَ ، وَقَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ وَنَافِعٌ وَعَاصِمٌ فِي رِوَايَةِ أَبِي بَكْرٍ وَيَعْقُوبَ (يَعْمَلُونَ) عَلَى الْغِيبَةِ لِرُجُوعِ الضَّمِيرِ إِلَى (مَنْ يَفْعَلُ) .

(183/58)

ثُمَّ أَكَّدَ اللهُ – تَعَالَى – ذَلِكَ الْوَعِيدَ الشَّدِيدَ وَبَيَّنَ سَبَبَهُ بِقَوْلِهِ : (أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ) أَيْ جَعَلُوا حُظُوظَهُمْ مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا بَدَلًا مِنَ الْآخِرَةِ بِمَا فَرَّطُوا فِي جَنْبِ اللهِ ، وَأَهْمَلُوا مِنْ شَرِيعَتِهِ ، حَتَّى لَمْ يَتَّبِعُوا مِنْهَا إِلَّا مَا يُوَافِقُ أَهْوَاءَهُمْ ، وَلَا يُعَارِضُ شَهَوَاتِهِمْ كَالْحَمِيَّةِ الَّتِي حَمَلَتْ كُلَّ حَلِيفٍ عَلَى الِانْتِصَارِ لِمُحَالِفِهِ الْمُشْرِكِ وَمُظَاهَرَتِهِ إِيَّاهُ عَلَى قَوْمِهِ الَّذِينَ تَجْمَعُهُ بِهِمْ رَابِطَةُ الدِّينِ وَالنَّسَبِ (فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ) ؛ لِأَنَّ عِلَّتَهُ ذَاتِيَّةٌ فِيهِمْ ، وَهِيَ ظُلْمَةُ أَرْوَاحِهِمْ وَفَسَادُ أَخْلَاقِهِمْ (وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ) بِشَفَاعَةِ شَافِعٍ ، أَوْ وِلَايَةِ وَلِيٍّ مِنْ دُونِ اللهِ (مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ) (2 : 255) ؟ وَأَنَّى يُؤْذَنُ بِالشَّفَاعَةِ لِمَنْ سَجَّلَتْ عَلَيْهِمُ الشَّقَاءَ أَعْمَالُهُمْ بِإِحَاطَةِ الْخَطَايَا بِهِمْ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ، حَتَّى أَخَذَتْ عَلَيْهِمْ طَرِيقَ الرَّحْمَةِ ، وَقَطَعَتْ عَلَيْهِمْ بِاخْتِيَارِهِمْ سَبِيلَ الرِّضْوَانِ الْإِلَهِيِّ ، فَمِنَ الْجَهْلِ إِهْمَالُهُمُ الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ ، وَنَقْضُهُمْ مِيثَاقَ اللهِ – تَعَالَى – فِي أَهَمِّ مَا وَاثَقَهُمْ بِهِ ، وَاعْتِمَادُهُمْ مَعَ هَذَا كُلِّهِ عَلَى الشُّفَعَاءِ (وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ) (21 : 28) .

(184/58)

وَمِنْ مَبَاحِثِ الْأَلْفَاظِ فِي قَوْلِهِ : (وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ) أَنَّ الضَّمِيرَ لِلشَّأْنِ عِنْدَ الْمُفَسِّرِ وَالْجَمَاهِيرِ . وَقَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : إِنَّ الْمَعْهُودَ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ أَنَّ الْجُمْلَةَ الَّتِي تَقْضِي الْحَالُ فِيهَا بِتَقَدُّمِ الِاسْمِ وَتَأَخُّرِ الْفِعْلِ ، أَوْ مَا يُشْتَقُّ مِنْهُ لَا بُدَّ أَنْ تُصَدَّرَ بِضَمِيرٍ تَعْتَمِدُ عَلَيْهِ ، وَلِهَذَا شَوَاهِدُ فِي كَلَامِ الْبُلَغَاءِ يَتَّفِقُ فِيهَا ذَوْقُهُمْ ، وَإِنِ اخْتَلَفَ النُّحَاةُ فِي إِعْرَابِهَا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المنار حـ 1 صـ 303. 310 ﴾

(185/58)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (86) ﴾

ويذكر لنا الله سبحانه وتعالى سبب خيبة هؤلاء وضلالهم لأنهم اشتروا الحياة الدنيا

بالآخرة . . جعلوا الآخرة ثمنا لنزواتهم ونفوذهم في الدنيا . . هم نظروا إلي الدنيا فقط . . ونظرة الإنسان إلي الدنيا ومقارنتها بالآخرة تجعلك تطلب في كل ما تفعله ثواب الآخرة . . فالدنيا عمرك فيها محدود . . ولا تقل عمر الدنيا مليون أو مليونان أو ثلاثة ملايين سنة . . عمر الدنيا بالنسبة لك هو مدة بقائك فيها . . فإذا خرجت من الدنيا انتهت بالنسبة لك . . والخروج من الدنيا بالموت . . والموت لا أسباب له ولذلك فإن الإسلام لا يجعل الدنيا هدفا لأن عمرنا فيها مظنون . . هناك من يموت في بطن أمه ومن يعيش ساعة أو ساعات ، ومن يعيش إلي أرذل العمر . . إذن فاتجه إلي الآخرة ، ففيها النعيم الدنيا والحياة بلا موت المتعة على قدرات الله . . ولكن خيبة هؤلاء أنهم اشتروا الدنيا بالآخرة . . ولذلك يقول الحق عنهم : " فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون " . . لا يخفف عنهم العذاب أي يجب ألا يأمنوا أن العذاب في الآخرة سيخفف عنهم . . أو ستقل درجته أو تنقص مدته . . أو سيأتي يوما ولا يأتي يوما وقوله : " ولا هم ينصرون " . . النصرة تأتي على معنيين . . تأتي بمعنى أنه لا يغلب . . وتأتي بمعنى أن هناك قوة تنتصر له أي تنصره . . كونه يغلب . . الله سبحانه وتعالى غالب على أمره فلا أحد يملك لنفسه نفعا ولا ضرا . . ولكن الله يملك النفع والضر لكل خلقه . . ويملك تبارك وتعالى أن يقهر خلقه على ما يشاء . . ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ

(من الآية 188 سورة الأعراف)

(186/58)

أما مسألة أن ينصره أحد . . فمن الذي يستطيع أن ينصر أحدا من الله واقرأ قوله سبحانه وتعالى عن نوح عليه السلام :

وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللّهِ

(من الآية 30 سورة هود)

يقول الحق سبحانه وتعالى : " فلا يخفف عنهم العذاب " . . أمر لم يقع بعد بل سيقع مستقبلا . . يتحدث الله سبحانه وتعالى عنه بلهجة المضارع . . نقول إن كل أحداث الكون ما سيقع منها هو عند الله تم وانتهى وقضى فيه . . لذلك نجد في القرآن الكريم قوله سبحانه :

أَتَى أَمْرُ اللّهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ

(من الآية 1 سورة النحل)

أتى فعل ماضي . . ولا تستعجلوه مستقبل . . كيف يقول الله سبحانه وتعالى أتى ثم يقول

لا تستعجلوه ؟ إنه مستقبل بالنسبة لنا . . أما بالنسبة لله تبارك وتعالى فما دام قد قال أتى . . فمعنى ذلك أنه حدث . . فلا أحد يملك أن يمنع أمرا من أمور الله من الحدوث . . فالعذاب آت لهم آت . . ولا يخفف عنهم لأن أحدا لا يملك تخفيفه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ 442.441 ﴾

(187/58)

" فوائد بلاغية "

قال فى صفوة التفاسير :

البلاغة :

1- [لا تعبدون إلا الله] خبر فى معنى النهي ، وهو أبلغ من صريح النهي ، كما قال أبو السعود لما فيه من إيهام أن المنهي ، حقه أن يسارع إلى الانتهاء ، فكأنه انتهى عنه ، فجاء بصيغة الخبر ، وأراد به النهي .

2- [وقولوا للناس حسنا] وقع المصدر موقع الصفة أي قولاً حسنا أو ذا حسن للمبالغة ، فإن العرب تضع المصدر مكان اسم الفاعل أو الصفة ، بقصد المبالغة فيقولون : هو عدل ، كأنه لشدة عدالته عين العدل .

3- التنكير فى قوله : [خزي في الحياة الدنيا] للتفخيم والتهويل .

4- [تقتلون أنفسكم] عبر عن قتل الغير بقتل النفس ، لأن من أراق دم غيره ، فكأنما أراق دم نفسه ، لأن الناس كأنهم جسد واحد ، فالعدوان عليهم عدوان على النفس الإنسانية .

5- [أفتؤمنون] ؟ الهمزة للإنكار التوبيخي ، والتوبيخ أسلوب من أساليب البيان . انتهى انتهى . اهـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 1 صـ 76 ﴾

(188/58)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قد تقدم إعراب نظائرها إلا أنّ بعضهم ذكر وجوهاً مردودة لا بُدّ من التنبيه عليها ، فأجاز أن يكون " أولئك " مبتدأ ، و" الذين اشتروا " خبره ، " فلا يُخَفَّف عنهم العَذَاب " خبراً ثانياً لـ " أولئك " .

قال : ودخلت الفاء في جواب الخبر لأجل الموصول المشبه بالشرط وهذا خطأ فإن قوله : " فَلا يُخَفَّفُ " لم يجعله خبراً للموصول حتى تدخل " الفاء " في خبره ، وإنما جعله خبراً عن

"أولئك" وأين هذا من ذاك ؟

وأجاز أيضاً أن يكون الذين مبتدأ ثانياً ن و" فلا يخفف " خبَره ، دخلت لكونه خبراً للموصول ، والجملة خبراً عن "أولئك" .

قال : ولم يَحْتَج هذا إلى عائد ؛ لأن " الذين " هم " أولئك "كما تقول : " هذا زيد منطلق " ، وهذا أيضاً خطأ لثلاثة أوجه :

أحدها : خلوّ الجملة من رابط ، وقوله : " لأن الذين " هم " أولئك " لا يفيد ، فإن الجملة المستغنية لا بُدّ وأن تكون نفس المبتدأ .

(189/58)

وأما تنظيره بـ " هذا زيد منطلق " فليس بصحيح ، فإن " هذا " مبتدأ و" زيد " خبره ، و" منطلق " خبر ثانٍ ، ولا يجوز أن يكون " زيد " مبتدأ ثانياً ، و" منطلق " خبره ، والجملة خبر عن الأول ، للخلو من الرابط .

الثاني : أن الموصول هنا لقوم معيّنين وليس عامّاً ، فلم يُشبه الشرط ، فلم تدخل " الفاء " في خبره .

الثالث : أن صلته ماضية لفظاً ومعنى ، فلم تشبه فعل الشرط في الاستقبال ، فلا يجوز

دخول الفاء في الخبر .

فتعيّن أن يكون " أولئك " مبتدأ والموصول بصلته خبَره ، و " فلا يخفف " معطوف على الصِّلَةِ ، ولا يضر تَحَالُف الفعلين في الزمان ، فإنّ الصِّلاتِ من قبيل الجُمَل ، وعطف الجمل لا يشترط فيه اتحاد الزمان ، فيجوز أن تقول : جاء الذي قتل زيداً أمس ، وسيقتل عَمْراً غداً ، وإنما الذي يشترط فيه ذلك حيث كانت الأفعال منزلة منزلة المفردات .

وقيل : دخلت " الفاء " بمعنى جواب الأمر كقوله : أولئك الضّلال انتبه فلا خير فيهم .

قوله : " وَلاَ هُمْ يُنْصَرُونَ " يجوز في " هو " وجهان :

أحدهما : أن يكون محلّ رفع بالابتداء ، وما بعده خبره ، ويكون قد عطف جملة اسمية على جملة فعلية وهي : " فلا يخفف " .

والثاني : أن يكون مرفوعاً بفعل محذوف يفسره هذا الظاهر ، وتكون المسألةُ مِنْ باب الاشتغال ، فما حذف الفعل انفصل الضَّمير ؛ ويكون كقوله : [الطويل]

645 فإِنْ هُوَ لَمْ يَحْمِلْ عَلَى النَّفْسِ ضَيْمَهَا . . .

فَلَيْسَ إِلَى حُسْنِ الثَّنَاءِ سَبِيلُ

وله مرجّح على الأول بكونه قد عطف جملة على مثلها ، وهو من المواضع المرجح فيها الحمل على الفعل في باب الاشْتِغَال .

وليس المرجوح كونه تقدمه " لا " النافية ، فإنها ليست من الأدوات المختصة بالفعل ولا

الاولى به ، خلافاً لابن السيد حيث زعم أَنَّ "لا" النافية من المرجّحات لإضمار الفِعْل ، وهو قول [مرغوب عنه] ولكنه قَوِيَ من حيث البحث .

(190/58)

فقوله : "ينصرون" لا محلّ له على هذا ؛ لأنه مُفَسِّرٌ ، ومحلّه الرفع على الأولى لوقوعه موقع الخبر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 2 صـ 259 . 260 ﴾ . باختصار .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (86) ﴾

إن الذين آثروا عليه شيئاً خسروا في الدنيا والآخرة كما قالوا :

أناسٌ أعرضوا عنّا . . . بلا جُرْمٍ ولا معنى

فإن كانوا قد استَغْنَوْا . . . فإنّا عنهم أغنى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 103 . 104 ﴾

(191/58)

ومن فوائد العلامة الزمخشرى فى الآيات

قال رحمه الله :

﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ ما عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (75) ﴾

أَفَتَطْمَعُونَ الخطاب لرسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم والمؤمنين أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ أن يحدثوا الإيمان لأجل دعوتكم ويستجيبوا لكم ، كقوله : (فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ) يعنى اليهود ، وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ طائفة فيمن سلف منهم يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ وهو ما يتلونه من التوراة ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ كما حرّفوا صفة رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم وآية الرّجم ، وقيل كان قوم من السبعين المختارين سمعوا كلام اللَّه حين كلم موسى بالطور وما أمر به ونهى ، ثم قالوا : سمعنا اللَّه يقول في آخره : إن استطعتم أن تفعلوا هذه الأشياء فافعلوا ، وإن شئتم فلا تفعلوا فلا بأس . وقرئ : كلم اللَّه ، مِنْ بَعْدِ ما عَقَلُوهُ من بعد ما فهموه وضبطوه بعقولهم ولم تبق لهم شبهة في صحته وَهُمْ يَعْلَمُونَ أنهم كاذبون مفترون . والمعنى : إن كفر هؤلاء وحرّفوا فلهم سابقة في ذلك . وَإِذا لَقُوا يعنى اليهود قالُوا قال منافقوهم « 1 » آمَنَّا بأنكم على الحق ، وأنّ محمدا هو الرسول المبشر به وَإِذا خَلا بَعْضُهُمْ الذين لم ينافقوا إِلى بَعْضٍ الذين نافقوا قالُوا عاتبين عليهم أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِما فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ بما بين لكم في التوراة من صفة محمد . أو قال المنافقون

لأعقابهم يرونهم التصلب في دينهم : أتحدّثونهم ، إنكارا عليهم أن يفتحوا عليهم شيئا في كتابهم فينافقون المؤمنين وينافقون اليهود لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ ليحتجوا عليكم بما أنزل ربكم في

---

(1) . قال محمود رحمه اللَّه : «قال منافقوهم . . . الخ» . قال أحمد رحمه اللَّه : وصح عود الضمير في اللفظ إلى جهة واحدة مع اختلاف المرجوع إليه ، لأنهما صنفان مندرجان في الأول . ونظيره قوله تعالى : (إِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا تَعْضُلُوهُنَّ) فالضمير الأول للأزواج ، والثاني للأولياء وهو راجع إلى جهة واحدة وهي جهة المخاطبين لاشتمالهم على الصنفين جميعا ، واللَّه أعلم .

(192/58)

كتابه ، جعلوا محاجتهم به ، وقولهم هو في كتابكم هكذا محاجة عند اللَّه . ألا تراك تقول : هو في كتاب اللَّه هكذا . وهو عند اللَّه هكذا ، بمعنى واحد يَعْلَمُ جميع ما يُسِرُّونَ وَما يُعْلِنُونَ ومن ذلك إسرارهم الكفر وإعلانهم الإيمان .

[سورة البقرة (2) : الآيات 78 إلى 79]

وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتابَ إِلاَّ أَمانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ (78) فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ

الْكِتابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هذا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ (79)

وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يحسنون الكتب فيطالعوا التوراة ويتحققوا ما فيها لا يَعْلَمُونَ الْكِتابَ التوراة إِلَّا أَمانِيَّ إلا ما هم عليه من أمانيهم ، وأن اللَّه يعفو عنهم ويرحمهم ولا يؤاخذهم بخطاياهم ، وأن آباءهم الأنبياء يشفعون لهم وما تمنيهم أحبارهم من أنّ النار لا تمسهم إلا أياما معدودة . وقيل : إلا أكاذيب مختلفة سمعوها من علمائهم فتقبلوها على التقليد . قال أعرابى لابن دأب في شيء حدث به : أهذا شيء رويته ، أم تمنيته ، أم اختلقته «1» وقيل : إلا ما يقرؤن من قوله :

تَمَنَّى كِتَابَ اللَّهِ أَوَّلَ لَيْلَةٍ «2»

والاشتقاق من منى إذا قدّر ، لأن المتمنى يقدّر في نفسه ويحزر ما يتمناه ، وكذلك المختلق والقارئ يقدر أن كلمة كذا بعد كذا . وإلا أمانىّ : من الاستثناء المنقطع . وقرئ : أمانى ، بالتخفيف . ذكر العلماء الذين عاندوا بالتحريف مع العلم والاستيقان ، ثم العوامّ الذين قلدوهم ، ونبه على أنهم في الضلال سواء ، لأن العالم عليه أن يعمل بعلمه ، وعلى العامي أن لا يرضى بالتقليد والظن وهو متمكن من العلم . يَكْتُبُونَ الْكِتابَ المحرّف بِأَيْدِيهِمْ «3» تأكيد ، وهو

---

(1) . قوله «أم تمنيته أم اختلفته» لعله أى أم الخ (ع)

(2) تمنى كتاب اللَّه أول ليلة تمنى داود الزبور على رسل

لحسان بن ثابت في مرثية عثمان بن عفان رضى اللَّه عنهما . يقول : تمنى كتاب اللَّه ، أى تلاه وتابع في تلاوته كتمني داود عليه السلام الزبور : أى كتلاوته الزبور على رسل بالكسر : أى تؤدة وسكينة . وروى بدل الشطر الثاني

وآخرها لاقى حمام المقادر

والحمام : الموت ، لأنه مقدر ، من حم اللَّه الشيء : قدره .

(3) . قال محمود : «إن قلت : ما فائدة قوله بأيديهم . . . الخ» ؟ قال أحمد رحمه اللَّه : وربما قال الزمخشري في مثل هذا : إن فائدته تصوير الحالة في النفس كما وقعت ، حتى يكاد السامع لذلك أن يكون مشاهداً للهيئة .

(193/58)

من مجاز التأكيد ، كما تقول لمن ينكر معرفة ما كتبه : يا هذا كتبته بيمينك هذه . مِمَّا يَكْسِبُونَ من الرشا .

[سورة البقرة (2) : الآيات 80 إلى 82]

وَقالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النّارُ إِلاّ أَيّاماً مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْداً فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ

تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (80) بَلى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (81) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (82)

إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً أربعين يوما عدد أيام عبادة العجل. وعن مجاهد: كانوا يقولون مدّة الدنيا سبعة آلاف سنة، وإنما نعذب مكان كل ألف سنة يوما. فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ متعلق بمحذوف تقديره: إن اتخذتم عند اللَّه عهدا فلن يخلف اللَّه عهده. وأَمْ إمّا أن تكون معادلة بمعنى أى الأمرين كائن على سبيل التقرير، لأن العلم واقع بكون أحدهما. ويجوز أن تكون منقطعة بَلى إثبات لما بعد حرف النفي وهو قوله: (لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ) أى بلى تمسكم أبدا، بدليل قوله: (هُمْ فِيها خالِدُونَ). مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً من السيئات، يعنى كبيرة من الكبائر «1» وَأَحاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ تلك واستولت عليه، كما يحيط العدوّ ولم يتفص عنها «2» بالتوبة. وقرئ: خطاياه، وخطيئاته. وقيل في الإحاطة: كان ذنبه أغلب من طاعته. وسأل رجل الحسن عن الخطيئة قال: سبحان اللَّه: ألا أراك ذا لحية وما تدرى ما الخطيئة، انظر في المصحف فكل آية نهى فيها اللَّه عنها وأخبرك أنه من عمل بها أدخله النار فهي الخطيئة المحيطة.

[سورة البقرة (2): آية 83]

وَإِذْ أَخَذْنا مِيثاقَ بَنِي إِسْرائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً وَذِي الْقُرْبى وَالْيَتامى

وَالْمَساكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ (83)

---

(1) . قوله «يعنى كبيرة من الكبائر» فسرها بذلك لتنطبق الآية على مذهب المعتزلة ، وهو أن فاعل الكبيرة مخلد في النار ، ومذهب أهل السنة أنه لا يخلد فيها إلا الكافر . وفسروا الخطيئة بالشرك . وفي الخازن قال ابن عباس : هي الشرك يموت عليه صاحبه اه وهو الذي يحيط بفاعله ويسد أبواب النجاة أمامه في كل جهة . (ع)

(2) . قوله «و لم يتفص عنها» أى يتخلص . (ع)

لا تَعْبُدُونَ إخبار في معنى النهى «1» ، كما تقول : تذهب إلى فلان تقول له كذا ، تريد الأمر ، وهو أبلغ من صريح الأمر والنهى ، لأنه كأنه سورع إلى الامتثال والانتهاء ، فهو يخبر عنه وتنصره قراءة عبد اللَّه وأبىّ (لا تعبدوا) ولا بدّ من إرادة القول ، ويدل عليه أيضا قوله : (وَقُولُوا) .

وقوله وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً إما أن يقدّر : وتحسنون بالوالدين إحسانا . أو وأحسنوا . وقيل :

هو جواب قوله : (أَخَذْنا مِيثاقَ بَنِي إِسْرائِيلَ) «2» إجراء له مجرى القسم ، كأنه قيل : وإذ أقسمنا عليهم لا تعبدون . وقيل : معناه أن لا تعبدوا ، فلما حذفت «أن» رفع ، كقوله :

أَلَا أَيُّهذَا الزّاجِرِي أَحْضُرَ الوَغَى «3»

ويدل عليه قراءة عبد اللَّه (أن لا تعبدوا) ويحتمل (أن لا تعبدوا) أن تكون «إن» فيه مفسرة ، وأن تكون أن مع الفعل بدلا عن الميثاق ، كأنه قيل : أخذنا ميثاق بنى إسرائيل توحيدهم وقرئ بالتاء حكاية لما خوطبوا به ، وبالياء لأنهم غيب . حُسْناً قولا هو حسن في نفسه «4» لإفراط حسنه . وقرئ حسنا . وحسنى - على المصدر - كبشرى . ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ على طريقه الالتفات أى توليتم عن الميثاق ورفضتموه . إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ قيل : هم الذين أسلموا منهم وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ وأنتم قوم عادتكم الإعراض عن المواثيق ، والتولية .

---

(1) . قال محمود رحمه اللَّه تعالى : «لا تعبدون إخبار في معنى النهى . . . الخ» قال أحمد رحمه اللَّه : وجه الدليل منه أن الأول لو لم يكن في معنى النهى لما حسن عطف الأمر عليه ، لما بين الأمر والخبر المحض من التنافر . ولا كذلك الأمر والنهى لالتقائهما في معنى الطلب .

(2) . قال محمود رحمه اللَّه : «وقيل هو جواب قوله : (وَإِذْ أَخَذْنا مِيثاقَ بَنِي إِسْرائِيلَ) . . . الخ» . قال أحمد رحمه اللَّه : لو قدر القسم مضافا إلى المذكورين لكان أوجه ، فيقول (وإذ أقسمتم لا تعبدون إلا اللَّه . . . الخ)

(3) ألا أيهذا الزاجري أحضر الوغى وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدى

لطرفة بن العبد من معلقته . وألا أداة استفتاح . وحرف النداء محذوف . وأى منادى . واسم الاشارة نعت له .

والزاجر نعت لاسم الاشارة مضاف لياء المتكلم إضافة الوصف لمفعوله . وروى بدله «اللائمي» : وروى «أحضر» منصوبا بإضمار أن ، ومرفوعا على إهمالها وحسن حذفها ذكرها فيما بعد . يقول : يا أيها الزاجر لي عن حضور الحرب وشهود لذات النصر والظفر والغنيمة ، أو شهود لذات الشراب ومغازلة النساء المستدعين لاتلاف المال ، لست مخلداً لي لو طاوعتك . فالاستفهام إنكارى .

(4) . قال محمود : «أى قولا هو حسن في نفسه . . . الخ» . قال أحمد : وفيه من التأكيد والتخصيص على إحسان مناولة الناس ، أنه وضع الصدر فيه موضع الاسم . وهذا إنما يستعمل للمبالغة في تأكيد الوصف ، كرجل عدل ، وصوم وفطر . وقرئ حسنا فهو على هذا من الصفات المشبهة .

(195/58)

[سورة البقرة (2) : الآيات 84 إلى 86]

وَإِذْ أَخَذْنا مِيثاقَكُمْ لا تَسْفِكُونَ دِماءَكُمْ وَلا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ

تَشْهَدُونَ (84) ثُمَّ أَنْتُمْ هؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِنْكُمْ مِنْ دِيارِهِمْ تَظاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسارى تُفادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْراجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَما جَزاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَيَوْمَ الْقِيامَةِ يُرَدُّونَ إِلى أَشَدِّ الْعَذابِ وَمَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (85) أُولئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَياةَ الدُّنْيا بِالْآخِرَةِ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذابُ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ (86)

لا تَسْفِكُونَ دِماءَكُمْ وَلا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ لا يفعل ذلك بعضكم ببعض. جعل غير الرجل نفسه. إذا اتصل به أصلا أو دينا. وقيل: إذا قتل غيره فكأنما قتل نفسه، لأنه يقتص منه ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ بالميثاق واعترفتم على أنفسكم بلزومه وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ عليها كقولك: فلان مقرّ على نفسه بكذا شاهد عليها. وقيل: وأنتم تشهدون اليوم يا معشر اليهود على إقرار أسلافكم بهذا الميثاق ثُمَّ أَنْتُمْ هؤُلاءِ استبعاد لما أسند اليهم «1» من القتل والإجلاء والعدوان بعد أخذ الميثاق منهم وإقرارهم وشهادتهم. والمعنى ثم أنتم بعد ذلك هؤلاء المشاهدون، يعنى أنكم قوم آخرون «2» غير أولئك المقرّين تنزيلا، لتغير الصفة منزلة تغير الذات، كما تقول: رجعت بغير الوجه الذي خرجت به. وقوله تَقْتُلُونَ بيان لقوله ثُمَّ أَنْتُمْ هؤُلاءِ وقيل: هؤلاء موصول بمعنى الذي «3». وقرئ (تظاهرون) بحذف التاء وإدغامها، وتتظاهرون بإثباتها، وتظهرون بمعنى تتظهرون: أى تتعاونون عليهم. وقرئ: تفدوهم، وتفادوهم. وأسرى، وأسارى وَهُوَ ضمير الشأن. ويجوز أن يكون مبهما

تفسيره إِخْراجُهُمْ ، أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتابِ

(1) . قال محمود رحمه اللَّه : أدخل ثم استبعاداً . . . الخ؟ قال أحمد رحمه اللَّه : وهذا نظير ما تقدم آنفاً في قوله تعالى :

(ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ) الآية . [. . . . .]

(2) . قال محمود رحمه اللَّه : «والمعنى : ثم أنتم بعد ذلك هؤلاء الشاهدون ، يعنى أنكم قوم آخرون غير أولئك . . .

الخ» . قال أحمد رحمه اللَّه : هو بيان لتغير الصفة الموجب لتنزيلهم منزلة المغايرين لهم بالذات .

(3) . قوله «موصول بمعنى الذي» لعله الذين . (ع)

(196/58)

أى بالفداء وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ أى بالقتال والإجلاء . وذلك أنّ قريظة كانوا حلفاء الأوس ، والنضير كانوا خلفاء الخزرج ، فكان كل فريق يقاتل مع حلفائه ، وإذا غلبوا خربوا ديارهم وأخرجوهم ، وإذا أسر رجل من الفريقين جمعوا له حتى يفدوه . فعيرتهم العرب وقالت كيف تقاتلونهم ثم تفدونهم ، فيقولون : أمرنا أن نفديهم وحرم علينا قتالهم ، ولكنا نستحيى

أن نذل حلفاءنا . والخزي : قتل بنى قريظة وأسرهم وإجلاء بنى النضير . وقيل الجزية . وإنما ردّ من فعل منهم ذلك إلى أشد العذاب ، لأن عصيانه أشدّ . وقرئ : يردّون ، ويعملون - بالياء والتاء - فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ عذاب الدنيا بنقصان الجزية ، ولا ينصرهم أحد بالدفع عنهم . وكذلك عذاب الآخرة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الكشاف حـ 1 صـ 156 . ﴾ 161

(197/58)

وقال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ ﴾

التفسير : إنه سبحانه كلفهم بأشياء : الأوّل : قوله ﴿ لا تعبدون إلا الله ﴾ من قرأ بياء الغيبة فلأنهم غيب ، ومن قرأ بتاء الخطاب فلحكاية ما خوطبوا به ، وفي إعرابه أقوال : أحدها : أنه إخبار في معنى النهي كقولك " تذهب إلى فلان

(198/58)

" تريد الأمر وهو أبلغ من صريح الأمر والنهي كأنه سورع إلى الامتثال فهو يخبر عنه . ويؤيد هذا القول عطف ﴿ وقولوا ﴾ ﴿ وأقيموا ﴾ عليه . وثانيها : التقدير أن لا تعبدوا فلما حذفت " أن " رفعت كقوله " ألا أبهذا الزاجري أحضر الوغى " ويحتمل أن تكون " أن " مفسرة وأن تكون مع الفعل بدلاً من الميثاق كأنه قيل : أخذنا ميثاق بني إسرائيل توحيدهم . وثالثها : هو جواب قوله ﴿ أخذنا ميثاق بني إسرائيل ﴾ إجراء له مجرى القسم كأنه قيل : وإذ أقسمنا عليهم لا تعبدون . وهذا التكليف بالحقيقة يتضمن جميع ما لا بد منه في الدين ، لأن الأمر بعبادته والنهي عن عبادة غيره مسبوق بالعلم بذاته سبحانه وبجميع ما يجب له ويستحيل عليه ، ومسبوق أيضاً بالعلم بكيفية تلك العبادة التي لا سبيل إلى معرفتها إلا بالوحي والرسالة .

التكليف الثاني : قوله : ﴿ وبالوالدين إحساناً ﴾ معناه يحسنون بالوالدين إحساناً ليناسب ﴿ لا تعبدون ﴾ أو أحسنوا ليناسب ﴿ وقولوا ﴾ ويمكن أن يقدر " وصيناهم " عطفاً على ﴿ أخذنا ﴾ وهذا أنسب لمكان الباء ، ولا بد من تقدير القول إما قبل ﴿ لا تعبدوا ﴾ وإما قبل ﴿ أحسنوا ﴾ وإما قبل ﴿ قولوا ﴾ وإنما جعل الإحسان إلى الوالدين تالياً لعبادة الله لوجوه منها : أنهما سبب وجود الولد كما أنهما سبب التربية ، وغير الوالدين قد يكون سبب التربية فقط فلا إنعام بعد إنعام الله تعالى أعظم من إنعام الوالدين .

ومنها أن إنعامهما يشبه إنعام الله تعالى من حيث إنهما لا يطلبان بذلك ثناء ولا ثواباً ﴿ إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً ﴾ [الإنسان : 9] . ومنها أنه تعالى لا يمل من إنعامه على العبد وإن أتى بأعظم الجرائم ، فكذا الوالدان لا يقطعان عنه مواد كرمهما وإن كان غير بارٍ بهما ، ومنها أن الوالد المشفق يتصرف في مال ولده بالاسترباح والغبطة ، والله سبحانه يأخذ الحبة فيربيها مثل جبل أحد . ومنها أن المناسبة والميل والحبة بين الوالد وولده ذاتية حتى عمت جميع الحيوان ، كما أن المناسبة بين الواجب والممكن ذاتية لا عرضية ، وههنا أسرار فليتأمل . ومنها أنه لا كمال يمكن للولد إلا ويطلبه الوالد لأجله ويريده عليه ، كما أن الله تعالى لا خير يمكن للعبد إلا وهو يريده عليه ، ولهذا أرسل الرسل وأنزل الكتب ونصب الأدلة وأزاح العلة ، ومن غاية شفقة الوالدين أنهما لا يحسدان ولدهما إذا كان خيراً منهما بل يتمنيان ذلك بخلاف غيرهما فإنه لا يرضى أن يكون غيره خيراً منه . وتعظيم الوالدين أمر معتبر في جميع الشرائع ومركوز في كل العقول ، وقد ورد " أطع الوالدين وإن كانا كافرين " وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه نهى حنظلة بن أبي عامر الراهب عن قتل أبيه وكان مشركاً ، ولهذا أطلق الإحسان إليهما في الآية

إطلاقاً . وقد تلطف إبراهيم عليه السلام في دعوة أبيه من الكفر إلى الإيمان في قوله ﴿ يا أبت ، يا أبت ﴾ والإحسان إليهما أن يحبهما من صميم القلب ويراعي دقائق الأدب والخدمة والشفقة ويبذل وسعه في رضاهما قولاً وفعلاً ، ولا يمنع أعز أوقاته وكرائم أمواله عنهما ، ويجتهد في تنفيذ وصاياهما ويذكرهما في صالح دعائه كما أرشد الله تعالى إلى جميع ما ذكرنا في قوله ﴿ فلا تقل لهما أف ﴾ [الإسراء : 23] إلى آخر الآية .

(200/58)

التكليف الثالث : الإحسان إلى ذوي القرابة ويعبر عنه بصلة الرحم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم " الرحم شجنة من الرحمن قال الله : من وصلك وصلته ومن قطعك قطعته " والشجنة الاشتباك أي الرحم مشتقة من الرحمن يعني أنها قرابة من الله مشتبكة كاشتباك العروق والسبب العقلي في تأكيد رعاية هذا الحق أن القرابة مظنة الاتحاد والألفة والرعاية والنصرة ، ولهذا صار كالتابع لحق الوالدين لأن الإنسان إنما يتصل به أقرباؤه بواسطة اتصالهم بالوالدين قال الشافعي : لو أوصى لأقارب زيد دخل فيه الوارث وغير الوارث ، والمحرم وغير المحرم ، والمسلم والكافر ، والذكر والأنثى ، والغني والفقير ،

والأجداد والأحفاد ، لا الأبوان والولد على الأظهر ، لأن الوالد والولد لا يعرفان في العرف بالقريب .

(201/58)

وههنا دقيقة وهي أن العرب يحفظون الأجداد العالية ليرتفع نسبهم ، ونحن لو ترقينا إلى الجد العالي وحسبنا أولاده كثروا ، فلهذا قال الشافعي : نرتقي إلى أقرب جد ينسب هو إليه ويعرف به . وذكروا في مثاله أنه لو أوصى لأقارب الشافعي فإنا نصرفه إلى أولاد شافع فإنه منسوب إليه ، ولا يدخل فيها أولاد علي والعباس وإن كان شافع وعلي والعباس كلهم أولاد السائب بن عبيد ، والشافعي هو محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب ابن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف . قال المحققون : هذا في زمان الشافعي ، وأما في زماننا فلا نصرفه إلا إلى أولاد الشافعي ولا نرتقي إلى بني شافع لأنه أقرب من يعرف به أقاربه في زماننا ، ولا يدخل الأقارب من الأم في وصية العرب لأن قرابة الأم لا تعدها العرب قرابة ولا تفتخر بها أما لو أوصى لذي رحم زيد فيدخل فيه قرابة الأم في وصية العرب والعجم ، لأن لفظ الرحم لا يختص بطرف الأب بحال . وذهبت طائفة إلى أن الأقوى على ما أجاب به العراقيون ومال إليه أبو حنيفة ، هو أن أقارب الأم تدخل في

الوصية سواء كانت في وصية العرب أو وصية العجم ، وتوجيه الفارق ممنوع لقوله صلى الله عليه وسلم " سعد خالي فليرني امرؤ خاله " . والإحسان إلى الأقارب قريب من الإحسان إلى الوالدين ، وذلك بأن يجتهد في رضاهم بما تيسر له عرفاً وشرعاً ، وينفق عليهم بالمعروف إن كانوا معسرين وهو موسر .

(202/58)

التكليف الرابع : الإحسان إلى اليتامى واليتيم من الأطفال الذي مات أبوه إلى أن يبلغ الحلم ، فيجب على وليه حفظ ماله واستنماؤه قدر النفقة والزكاة ومؤن الملك بما أمكنه والقيام بمصالحه مع رعاية دقائق الغبطة وقضاء حقوق النصيحة . قال ابن عباس : يرفق بهم ويدنيهم ويمسح رأسهم . واليتم في غير الإنسان من قبل أمه ، واليتيم من الدر ما لا أخت له وإنما يجمع " يتيم " على " يتامى " لأن اليتم لما كان من صفات الابتلاء حمل على الوجع والحبط . فكما قالوا في وجع وحبط للمنتفخ البطن ، وجاعي وحباطي ، قيل في يتيم يتامى . وفي الكشاف : إنه أجرى يتيم مجرى الأسماء نحو " صاحب " و " فارس " فقيل " يتائم " ثم " يتامى " على القلب وكذا في اليتيمة .

التكليف الخامس : الإحسان إلى المساكين واحدها مسكين أخذ من السكون ، كأن الفقر

سكنه ، أو لأنه الدائم السكون إلى الناس ، لأنه لا شيء له كالسكير الدائم السكر وهو أسوأ حالاً من الفقير عند أكثر أهل اللغة وهو قول أبي حنيفة ومالك ، واحتجوا عليه بقوله تعالى ﴿ أو مسكيناً ذا مترية ﴾

[البلد : 16] وعند الشافعي وأحمد : الأمر بالعكس قالوا : اشتقاق الفقير من فقار الظهر ، كأن فقاره انكسرت لشدة حاجته ، والمسكين قد يملك ما يتعلل به كما في قوله تعالى ﴿ أما السفينة فكانت لمساكين ﴾ [الكهف : 79] ويظهر أثر الخلاف فيما لو أوصى للفقراء دون المساكين أو بالعكس . والإحسان إلى ذوي القربى واليتامى والمساكين ينبغي أن يكون مغايراً للزكاة لأن العطف يقتضي التغاير .

(203/58)

التكليف السادس : ﴿ وقولوا للناس حسناً ﴾ بالوصف أي قولاً حسناً . وحسناً على المصدر أي قولاً ذا حسن ، أو قولاً هو الحسن في نفسه لإفراط حسنه ، أو ليحسن قولكم حسناً . والظاهر أن المخاطبين بذلك هم الذين أخذ ميثاقهم لاتحاد القصة . قيل : إنه مخصوص إما بتخصيص الناس أي قولوا للمؤمنين حسناً بدليل آية القتال ﴿ أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾ [الفتح : 29] وإما بتخصيص القول أي قولوا للناس حسناً في

الدعاء إلى الله والأمر بالمعروف . وقال أهل الحقيقة : إنه على العموم وذلك أن كلام الناس مع الناس في الأمور الدينية إن كان بالدعوة إلى الإيمان وجب أن يكون بالرفق واللين كما قال لموسى ﴿ فقولا له قولاً ليناً ﴾ [طه : 44] وقال لمحمد صلى الله عليه وسلم ﴿ ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ﴾ [آل عمران : 159] وإن كان بالدعوة إلى الطاعة كالفساق فحسن القول أيضاً معتبر ﴿ أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ﴾ [النحل : 125] ﴿ ادفع بالتي هي أحسن ﴾ [فصلت : 34] وأما في الأمور الدنيوية فمن المعلوم أنه إذا أمكن التوصل إلى الغرض باللطيف من القول لم يعدل إلى غيره ، وما دخل الرفق في شيء إلا زانه ، وما دخل الخرق في شيء إلا شانه ، فثبت أن جميع آداب الدين والدنيا داخل تحت هذا القول . وعن الباقر : قولوا للناس ما تحبون أن يقال لكم .

(204/58)

التكليف السابع والثامن : قوله ﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾ وقد تقدم تفسيرهما . ولا شك في وجوب هذه التكاليف عليهم بدليل : أخذ الميثاق ، ولأن ظاهر الأمر للوجوب ولترتب الذم عليه بتوليهم ، وهذه التكاليف أيضاً واجبة في شرعنا . وعن ابن عباس : أن

الزكاة نسخت كل حق . وضعف بأن إغاثة المضطر واجبة وإن لم تجب علينا الزكاة .

واعلم أن التكليف إما بدني أو مالي وكل منهما إما عام أو خاص . فالبدني العام هو العبادة المطلقة ، وهي أن يكون بكل الجوارح والقوى منقاداً مطيعاً مؤتمراً لأمر الله تعالى ، بحيث لا يرى لنفسه شيئاً من التصرف والاختيار كالعبد الماثل بين يدي مولاه وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ لا تعبدون إلا الله ﴾ . والبدني الخاص هو الصلاة وأشار إليه بقوله ﴿ وأقيموا الصلاة ﴾ فللصلاة أوقات مخصوصة وأركان وشروط معدودة . والمالي الخاص هو الزكاة لتخصصها بالأصناف الزكوية وبالنصاب وبالحول وغير ذلك . والمالي العام لكونه منوطاً بالقدرة . والإمكان سببه إما نسب أولاً ، والنسب إما سابق أو مقارن أو لاحق .

فالسابق الوالدان ، والمقارن الأقارب ، واللاحق اليتامى ، لأنهم أولاد .

وذلك إذا كان الولي جداً أو بمنزلة الأولاد ، وذلك إذا كان الولي غيره . وغير النسب إما الاحتياج والفقر وهو المساكين ، أو الاشتراك في النوع ، ولا يمكن إلا بالقول الحسن ، وما ينخرط في سلكه من مكارم الأخلاق الفعلية " إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم ولكن سعوهم بأخلاقكم " فالقول الحسن يشمل الأصناف المتقدمة أيضاً بهذا الاعتبار ، وحين هذا الترتيب مما لا مزيد عليه ، وقد كرر أكثر هذه المعاني في سورة النساء بضرب من التأكيد ، فأكد العبادة بقوله ﴿ ولا تشركوا به شيئاً ﴾ [النساء : 36] وأكد الإحسان

إلى ذي القربى . وما يتلوه بتكرير الجار وهو الباء وبضم أصناف أخر وهم الجار وغيره إليهم فكأنه كالتفصيل لقوله ﴿ وقولوا للناس حسناً ﴾ .

(205/58)

قوله تعالى ﴿ ثم توليتم ﴾ قيل الخطاب لمتقدمي بني إسرائيل على طريقة الالتفات ، ووجهه أن أول الكلام معهم فكذا آخره إلا بدليل يوجب الانصراف عن هذا الظاهر ، وقيل : إنه خطاب لمن كان في عصر النبي صلى الله عليه وسلم من اليهود ، كأنه تعالى بين أن تلك المواثيق كما لزمهم التمسك بها فكذلك هي لازمة لكم لأنكم تعلمون ما في التوراة من نعت محمد صلى الله عليه وسلم وصحة نبوته ، فيلزمكم من الحجة مثل الذي لزمهم وأنتم مع ذلك قد توليتم إلا قليلاً منكم وهم الذين آمنوا وأنتم معرضون . الواو للاعتراض أي وأنتم قوم من عادتكم الإعراض ، أعرضتم بعد ظهور المعجزات كإعراض أسلافكم . وقيل : ثم توليتم للمتقدمين وأنتم معرضون للمتأخرين .

(206/58)

وأما قوله تعالى ﴿ وإذ أخذنا ميثاقكم ﴾ فقيل : خطاب لعلماء اليهود في عصر النبي صلى الله عليه وسلم . وقيل : المراد أخذنا ميثاق آبائكم . وقيل : خطاب للأسلاف وتقريع للأخلاف . وفي قوله ﴿ لا تسفكون دماءكم ﴾ إشكال ، وهو أن الإنسان ملجأ إلى أن لا يقتل نفسه فأي فائدة في النهي ؟ والجواب أن هذا الإلجاء قد يتغير كما ثبت من أهل الهند أنهم يقدرون في قتل النفس التخلص من عالم الفساد واللحوق بعالم النور ، وككثير ممن يصعب عليه الزمان ، أو المراد لا يفعل ذلك بعضكم ببعض جعل غير الرجل نفسه إذا اتصل به أصلاً أو ديناً ، أو أنه إذا قتل غيره فكأنما قتل نفسه لأنه يقتص منه ، أو لا تتعرضوا لمقاتلة من يغلبكم فتكونوا قد قتلتم أنفسكم . ﴿ ولا تخرجون أنفسكم ﴾ لا تفعلوا ما تستحقون بسببه أن تخرجوا من دياركم . والمراد إخراج بعضهم بعضاً من ديارهم لأن ذلك مما تعظم فيه الفتنة حتى يقرب من الهلاك . وإعراب ﴿ لا تسفكون ﴾ و ﴿ لا تخرجون ﴾ على قياس ما تقرر في ﴿ لا تعبدون ﴾ ﴿ ثم أقررتم وأنتم تشهدون ﴾ أي ثم أقررتم بالميثاق واعترفتم على أنفسكم بلزومه ، وأنتم تشهدون عليها كقولك " فلان مقر على نفسه بكذا شاهد عليها " أو اعترفتم بقبوله وشهد بعضكم على بعض بذلك ، لأنه كان شائعاً فيما بينهم مشهوراً ، وأنتم تشهدون اليوم يا معشر اليهود على إقرار أسلافكم بهذا الميثاق .

﴿ ثم أنتم ﴾ معنى " ثم " الاستبعاد لما أسند إليهم من القتل ، والاجلاء والعدوان بعد أخذ الميثاق منهم ، وإقرارهم وشهادتهم . " وأنتم " مبتدأ و " هؤلاء " خبره أي أنتم بعد ذلك هؤلاء المشاهدون يعني أنكم قوم آخرون غير أولئك المقرين تنزيلاً لتغير الصفة منزلة تغير الذات كما تقول : خرجت بغير الوجه الذي دخلت به ، و " تقتلون " بيان " لأنتم هؤلاء " وقيل " هؤلاء " موصول بمعنى الذين وهذا عند الكوفيين فإنهم يجوزون كون جميع أسماء الإشارة بمعنى الموصول . والتظاهر التعاون ، ولما كان الإخراج من الديار وقتل البعض بعضاً مما تعظم به الفتنة واحتيج فيه إلى اقتدار وغلبة ، بيّن تعالى أنهم فعلوه على وجه الاستعانة بمن يظاهرهم على الظلم والعدوان ، وفيه دليل على أن الظلم كما هو محرم فكذا إعانة الظالم على ظلمه محرمة . ولا يشكل هذا بتمكين الله تعالى الظالم من الظلم فإنه كما مكنه فقد زجره عنه ونهاه بخلاف معين الظالم فإنه يدعوه إلى الظلم ويحسنه في عينه مع أنه تعالى لا يسأل عما يفعل . أسرى جمع أسير كجرحى في جريح ، وأسارى جمع أسرى كسكرى وسكارى . وقيل : أسارى من الجموع التي ترك مفردها كأنه جمع " إسران " كعجالى وعجلان . وقوله ﴿ تفادوهم ﴾ جمهور المفسرين على أنه وصف لهم بما هو طاعة وهو التخليص من الأسر ببذل مال أو غيره ليعودوا إلى كفرهم و ﴿ هو ﴾ ضمير الشأن و ﴿ إخراجهم ﴾ مبتدأ و ﴿ محرم ﴾ خبره والجملة خبر الضمير . ويجوز أن

يكون ﴿ هو ﴾ مبتدأ مبهماً و ﴿ محرم ﴾ خبره و ﴿ إخراجهم ﴾ تفسيره ، ﴿ أفتؤمنون ببعض الكتاب ﴾ أي بالفداء ﴿ وتكفرون ببعض ﴾ أي بالقتال والإجلاء . وذلك أن قريظة كانوا حلفاء الأوس والنضير كانوا حلفاء الخزرج ، فكان كل فريق يقاتل مع حلفائه ، وإذا غلبوا خربوا ديارهم وأخرجوهم ، وإذا أسر رجل من الفريقين جمعوا له حتى يفدوه فعيرتهم العرب فقالت :

كيف تقاتلونهم ثم تفدونهم ؟

(208/58)

فيقولون : أمرنا أن نفديهم وحرم علينا قتالهم ولكنا نستحيي أن يذل حلفاؤنا فذمهم الله تعالى على المناقضة إذا أتوا ببعض الواجب وتركوا البعض ، ولعلهم صرحوا باعتقاد عدم وجوبه فلهذا سماه كفراً ، وقد تكون المناقضة أدخل في الذم وفي ذلك تنبيه على أنهم في تصديقهم بنبوة موسى مع التكذيب بمحمد صلى الله عليه وسلم والحجة في أمرهما على سواء ، يجرون مجرى طريقة السلف منهم في الإيمان ببعض والكفر ببعض وكل في الميثاق سواء . الخزي الذل والهوان خزي بالكسر يخزي خزياً أي ذل وهان ، وخزي أيضاً يخزى خزاية أي استحيا فهو خزيان . فإذا قيل : أخزاه الله . فالمراد أهانه أو أوقعه موقعاً

يستحيي منه وتنكير " خزي " يدل على فظاعة شأنه وأنه بلغ مبلغاً لا يكتنه كنهه ، والأظهر أنه غير مختص ببعض الوجوه .

وقيل : هو قتل بني قريظة وأسرهم وإجلاء بني النضير ، وقيل : الجزية ، وعلى هذين القولين يختص الخزي بمن في عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم وبمن يخلفهم دون أسلافهم ، فإن قيل : عذاب منكري الصانع كالدهرية يجب أن يكون أشد ، فكيف يقال في حق اليهود يردون إلى أشد العذاب ؟ قلنا : إما لأن كفر العناد أغلظ ، وإما لأن المراد أشد من الخزي لا الأشد مطلقاً . وفي قوله : ﴿ وما الله بغافل ﴾ وعيد شديد للعاصين وبشارة عظيمة للمطيعين ، لأن القدرة الكاملة مع عدم الغفلة تدل على وصول الحقوق إلى مستحقها لا محالة . ﴿ أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة ﴾ استبدلوها بها ﴿ فلا يخفف عنهم العذاب ﴾ لا ينقطع ولا يفتر بل يدوم على حالة واحدة ﴿ ولا هم ينصرون ﴾ بدفع هذا العذاب عنهم . وفيه تنبيه على أن الجمع بين تحصيل لذات الدنيا إذا كانت على وفق الهوى لا الشرع ، وبين لذات الآخرة ممتنع يستتبع وجود إحداهما عدم الأخرى والله ولي التوفيق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 1 صـ 322 . 328 ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

الكتاب / الحَاوِي فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

ويسمى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العَاجِزُ الْفَقِيرُ

عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مُحَمَّدٍ الْقَمَّاش

إِمَامُ وَخَطِيبُ مَسْجِدِ بُورُسْلِى - رَأْسُ الْخَيمَةِ

دَوْلَةُ الإِمَارَاتِ الْعَرَبِيَّةِ الْمُتَّحِدَةِ

(عَفَا اللهُ عَنْهُ وَغَفَرَ لَهُ)

الجزء التاسع والخمسون

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء التاسع والخمسون

من الآية ﴿ 87 ﴾ سورة البقرة

وحتى الآية ﴿ 90 ﴾ من نفس السورة

قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ (87) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما بين لهم أنهم نقضوا العهود فأحاطت بهم الخطايا فاستحقوا الخلود في النار توقع السائل الإخبار عن سبب وقوعهم في ذلك هل هو جهل أو عناد فبشع سبحانه ذلك عليهم بما افتتحه بحرف التوقع فقال : ﴿ ولقد ﴾ باللام التي هي توكيد لمضمون الكلام ، و " قد " هي لوقوع مرتقب مما كان خبراً أو مما سيكون علماً – قاله الحرالي .

﴿ آتينا ﴾ أي بعظمتنا ﴿ موسى الكتاب ﴾ أي نقضتم تلك العهود مع أن عندكم فيها

كتاب الله التوراة تدرسونه كل حين ، فلم ندعكم هملاً بعد موسى عليه السلام بل ضبطنا أمركم بالكتاب ﴿ وقفينا ﴾ من التقفية وهي متابعة شيء شيئاً كأنه يتلو قفاه ، وقفاء الصورة منها خلفها المقابل الموجه – قاله الحرالي : ﴿ من بعده ﴾ أي بعد موسى ﴿ بالرسل ﴾ أي ثم لم نقتصر على الضبط بالكتاب الذي تركه فيكم موسى بل واترنا من بعده إرسال الرسل مواترة ، وجعلنا بعضهم في قفاء بعض ليجددوا لكم أمر الدين ويؤكدوا عليكم العهود والرسالة انبعاث أمر من المرسل إلى المرسل إليه ﴿ وآتينا ﴾ بما لنا من العظمة ﴿ عيسى ﴾ اسم معرب .

أصله يسوع ﴿ ابن مريم ﴾ الذي أرسلناه لنسخ بعض التوراة تجديد ما درس من بقيتها ﴿ البينات ﴾ من الآيات العظيمة التي لا مرية فيها لذي عقل ، والبينة من القول والكون ما لا ينازعه منازع لوضوحه – قاله الحرالي : ﴿ وأيدناه ﴾ أي قويناه على ذلك كله ، من التأييد وهو من الأيد وهو القوة ، كأنه يأخذ معه بيده في الشيء الذي يقويه فيه ، كأخذ قوة المظاهرة من الظهر ، لأن الظهر موضع قوة الشيء في ذاته ، واليد موضع قوة تناوله لغيره – قاله الحرالي : ﴿ بروح القدس ﴾ أي الروح الطاهر وهو جبريل عليه السلام كما أيدنا به غيره من أولي العزم .

قال الحرالي : والروح لمحة من لمحات أمر الله ، وأمر الله قيوميته في كلية خلقه ملكاً وملكوتاً ، فما هو قوام الخلق كله ملكاً وملكوتاً هو الأمر ﴿ ألا له الخلق والأمر ﴾ ، [الأعراف : 54] ، وما هو قوام صورة من جملة الخلق هو الروح الذي هو لمحة من ذلك الأمر ؛ ولقيام عالم الملكوت وخصوصاً جملة العرش بعالم الملك وخصوصاً أمر الدين الباقي سماهم الله روحاً ، ومن أخصهم روح القدس ، والقدس الطهارة العلية التي لا يلحقها تنجس على ما تقدم ، ومن أخص الروح به جبريل عليه السلام بما له من روح الأمر الديني ، وإسرافيل عليه السلام بما له من روح النفخ الصوري – انتهى .

وقد كان لعيسى عليه السلام بالروح مزيد اختصاص لكثرة ما أحيى من الموتى ؛ والمعنى فعلنا بكم يا بني إسرائيل ذلك ولم تزالوا في عهد جميع من ذكرنا قضين للعهود ، فلا أحد أحق منكم بالخلود في النار ، ثم جاء محمد صلى الله عليه وسلم فلم تصدقوه .

ذكر شيء من الإنجيل يدل على أنه عليه السلام أتى بالبينات مع تأييده بروح القدس

مستخلصاً من الأناجيل الأربعة وقد جمعت بين ألفاظها ، قال متى – ومعظم السياق له : فلما سمع يسوع أن يوحنا – يعني يحيى بن زكريا عليهما السلام – قد أسلم – يعني خذله أصحابه مضى إلى الجليل وترك الناصرة وجاء وسكن كَفَرناحوم التي على ساحل البحر في تخوم زابلون وبغتاليم ليكمل ما قيل في أشعيا النبي إذ يقول : أرض زابلون أرض بغتاليم طريق

البحر عبر الأردن جليل الأمم الشعب الجالس في الظلمة أبصر نوراً عظيماً الجلوس في الكورة وظلال الموت نوراً أشرق عليهم ، ومن ذلك بعد حبس يوحنا وافى يسوع إلى الجليل يكرز بإنجيل ملكوت الله قائلاً : قد كمل الزمان وقربت ملكوت الله ! فتوبوا وآمنوا بالإنجيل .

(6/59)

قال متى : وكان يمشي على بحر الجليل فأبصر أخوين سمعان الذي يدعى بطرس واندراوس أخاه يلقيان شباكهما في البحر لأنهما كانا صيادين ، فقال لهما : اتبعاني أجعلكما تكونان صيادي الناس وللوقت تركا شباكهما وتبعاه ؛ وجاز من هناك فرأى أخوين آخرين يعقوب بن زبدي ويوحنا أخاه في سفينة مع أبيهما زبدي يصلحون شباكهم فدعاهما ، فللوقت تركا السفينة وأباهما زبدي وتبعاه وفي إنجيل يوحنا بعد قصة يحيى بن زكريا الآتية في آل عمران : هذا كان في بيت عينا في عبر الأردن حيث كان يوحنا يعمد ، ومن الغد نظر يسوع مقبلاً إليه فقال : هذا حمل الله الذي يرفع خطيئة العالم ! هذا ذلك الذي قلت من أجله : إنه يأتي وهو كان قبلي لأنه أقدم مني وأنا لم أكن أعرفه لكن ليظهر لإسرائيل ، من أجل هذا جئت أنا لأعمد بالماء ؛ وشهد يوحنا وقال : إني رأيت الروح نزل

من السماء مثل حمامة وحل عليه ولم أعرفه ، لكن من أرسلني لأعمد بالماء هو الذي قال : الذي ترى الروح ينزل ويثبت عليه هو يعمد بروح القدس .

(7/59)

وأنا عاينت وشهدت : وفي الغد كان يوحنا واقفاً واثنان من تلاميذه فنظر يسوع فقال : هذا حمل الله ! فسمع تلميذاه كلامه فتبعا يسوع ، فالتفت يسوع فرآهما يتبعانه فقال لهما : ماذا تريدان ؟ قالا له : ربي – الذي تأويله يا معلم – أين تكون ؟ فقال لهما : تعاليا لتنظرا ، فأتيا وأبصرا موضعه أين يكون ، وأقاما عنده يومهما ذلك وكان نحو عشر ساعات ، وإن واحداً من اللذين سمعا من يوحنا وتبعا يسوع كان اندراوس أخا سمعان وإنه أبصر أولاً سمعان أخاه وقال له : قد وجدنا مسيا – الذي تأويله المسيح – فجاء به إلى يسوع ؛ فلما نظر إليه يسوع قال له : أنت سمعان بن يونان الذي يدعى الصفا – الذي تأويله بطرس ومن الغد أراد الخروج إلى الجليل فلقي فيليس ناتانايل وقاله له : الذي كتب موسى من أجله في الناموس والأنبياء وجدناه وهو يسوع الذي من الناصرة ، فقال له : ناتانايل هل يمكن أن يخرج من الناصرة شيء فيه صلاح ؟ فقال له فيليس : تعال وانظر ، فلما رأى يسوع ناتانايل مقبلاً إليه قال : من أجله هذا حقاً إسرائيلي لا غش فيه ، فقال له ناتانايل : من أين

تعرفني ؟ فقال له يسوع : قبل أن يدعوك فيليس وأنت تحت التينة رأيتك فقال له : يا معلم ! أنت هو ملك إسرائيل ، قال له يسوع : لأني قلت لك إني رأيتك تحت التينة آمنت سوف تعاين ما هو أعظم من هذا ، وقال له : الحق الحق أقول لكم ، إنكم من الآن ترون السماء مفتحة وملائكة الله ينزلون ويصعدون على ابن البشر .

(8/59)

وفي اليوم الثالث كان عرس في قانا الجليل وكانت أم يسوع هناك ودُعي يسوع وتلاميذه إلى العرس وكان الخمر قد فرغ ، فقالت أم يسوع له : ليس لهم خمر ، فقال لها يسوع : ما لي ولك أيتها المرأة لم تأت ساعتي بعد ؟ فقالت أمه للخدام : افعلوا ما يأمركم به ، وكان هناك ستة أجاجين من حجارة موضوعة لتطهير اليهود تسع كل واحدة مطرين أو ثلاثة ، فقال لهم يسوع : املؤوا الأجاجين ماء ، فملؤوها إلى فوق ، وقال لهم : اغرفوا الآن وناولوا رئيس السقاة ، فلما ذاق رئيس السقاة ذلك الماء المتحول خمراً لم يعلم من أين هو ، فدعا رئيس السقاة العريس وقال له : كل إنسان إنما يأتي بالشراب الجيد أولاً فإذا سكروا عند ذلك يأتي بالدون وأنت أبقيت الجيد إلى الآن ! هذه الآية الأولى التي فعلها يسوع في قانا الجليل وأظهر مجده وآمن به تلاميذه .

وبعد هذا انحدر إلى كفرناحوم هو وأمه وإخوته وتلاميذه فأقاموا هناك أياماً يسيرة ؛ ثم قال : وعلم السيد يسوع أن الفريسيين سمعوا أنه قد اتخذ تلاميذ كثيرة وأنه يعمد أكثر من يوحنا إذ ليس هو يعمد بل تلاميذه فترك اليهودية ومضى إلى الجليل وكان قد أزمع أن يعبر على موضع السامرة ، فأقبل إلى مدينة السامرة التي تسمى بسوخار إلى جانب القرية التي كان يعقوب وهبها ليوسف ابنه وكان هناك بئر يعقوب وكان يسوع قد عيى من تعب الطريق ، فجلس على البئر في ست ساعات ، فجاءت امرأة من السامرة تستقي ماء ، فقال لها يسوع أعطيني أشرب – وكان تلاميذه قد دخلوا إلى المدينة ليبتاعوا لهم طعاماً – فقالت له تلك المرأة : كيف وأنت يهودي تستقي الماء وأنا امرأة سامرية واليهود لا يختلطون بالسامرة ! أجاب يسوع وقال لها : لو كنت تعرفين عطية الله ومن هذا الذي قال لك : ناوليني أشرب ، لكنت أنت تسألينه أن يعطيك ماء الحياة ! قالت المرأة : يا سيد ! إنه لا دلو لك والبئر عميقة فمن أين لك ماء الحياة ؛ لعلك أعظم من أبينا يعقوب الذي أعطانا هذه البئر ومنها شرب هو وبنوه وماشيته ! فقال لها : كل من يشرب من هذا الماء يعطش أيضاً ، فأما من يشرب من الماء الذي أعطيه لا يعطش إلى الأبد ، قالت المرأة : يا سيد ! أعطني من

هذا الماء لئلا أعطش ولا أجيء ولا أستقي من ههنا ، فقال : انطلقي وادعي زوجك وتعالي إلى هاهنا ، قالت : ليس لي زوج ، قال لها : حسناً قلت : إنه لا بعل لي ، لأنه قد كان لك خمسة بعولة والذي هو لك الآن ليس هو زوجك ، أما هذا فحقاً قلت ، قالت : يا سيد ! إني أرى أنك نبي ، آباؤنا سجدوا في هذا الجبل وأنتم تقولون : إنه يا روشليم المكان الذي ينبغي أن يسجد فيه ، قال : أيتها المرأة ! آمني به ، إنه ستأتي ساعة لا في هذا الجبل ولا في يروشليم يسجدون للأب ، أنتم تسجدون لما لا تعلمون ونحن نسجد لما نعلم ، لكن ستأتي ساعة وهي الآن لكيما الساجدون المحقون يسجدون بالروح

(10/59)

والحق ، والرب إنما يريد مثل هؤلاء الساجدين ، والذين يسجدون له بالروح والحق ينبغي أن يسجدوا ، قالت المرأة : قد علمت أن مَسيا الذي هو المسيح يأتي ، فإذا جاء ذاك فهو يعلمنا كل شيء ، فقال : أنا هو الذي أكلمك وفي هذا جاء تلاميذه وتعجبوا من كلامه مع امرأة ولم يقل أحد : ماذا تريد ولم تكلمها فتركت المرأة جرّتها ومضت إلى المدينة وقالت للناس : تعالوا انظروا رجلاً أعلمني كل ما فعلت ، لعل هذا هو المسيح ، فخرجوا من المدينة وأقبلوا نحوه ؛ وفي هذا سأله تلاميذه قائلين : يا معلم ! كل ، فقال : إن لي طعاماً لا

تعرفونه أنتم ، فقالوا فيما بينهم : لعل إنساناً وافاه بشيء فطعمه ، فقال : طعامي أنا أن أعمل مسرة من أرسلني وأتم عمله أليس أنتم تقولون : إن الحصاد يأتي بعد أربعة أشهر ، وأنا قائل لكم : ارفعوا أعينكم وانظروا إلى الكور قد ابيضت وبلغت الحصاد ، والذي يحصد يأخذ الأجرة ويجمع ثمار الحياة الدائمة ، والزارع والحاصد يفرحان معاً ، لأنه في هذا توجد كلمة الحق ، إن واحداً يزرع وآخر يحصد ، أنا أسألكم تحصدون شيئاً ليس أنتم تعبتم فيه بل آخرون تعبوا فيه وأنتم دخلتم على تعب أولئك ؛ فآمن به في تلك المدينة سامريون كثيرون من أجل كلمة تلك المرأة ، ولما صار إليه السامريون طلبوا إليه أن يقيم عندهم ، فمكث عندهم يومين فآمن به كثير ، وكانوا يقولون للمرأة : لسنا من أجل قولك نؤمن به لكنا قد سمعنا وعلمنا أن هذا هو المسيح بالحقيقة مخلص العالم .

(11/59)

وبعد يومين خرج يسوع إلى الجليل ومضى من هناك ، لأنه شهد أن النبي لا يكرم في مدينته ، ولما صار إلى الجليل قبله الجليليون ، لأنهم عاينوا كل ما عمل بايروشليم في العيد ؛ ثم جاء يسوع حيث صنع الماء خمراً وكان في كفرناحوم عند الملك ابن مريض فسمع أن يسوع قد جاء من يهودا إلى الجليل ، فمضى إليه وسأله أن ينزل ويبرىء ولده ، لأنه قد كان قارب

الموت ، فقال له يسوع : إن لم تعاينوا الآيات الأعاجيب لا تؤمنون ، فقال له الملك : انزل يا سيد قبل أن يموت فتاي ، قال له يسوع : امض فابنك حي ، فآمن الرجل بالكلمة التي قالها يسوع ومضى ، وفيما هو ماض استقبله علمانه وبشروه بأن ابنه قد عاش ، فسألهم : في أي وقت ؟ فقالوا له : أمس في الساعة السابعة تركته الحمى ، فعلم أبوه أنه في تلك الساعة التي قال له يسوع فيها : إن ابنك قد حيي ، فآمن هو وبيته بأسره ؛ وهذه أيضاً آية ثانية عملها يسوع لما جاء من يهودا إلى الجليل .

قال مرقس : فأقبل إلى كفرناحوم وبقي يعلم في مجامعهم يوم السبت ، فتعجبوا من تعليمه لأنه كان كالمسلط .

قال متى : وكان يسوع يطوف في كل الجليل ويعلم في مجامعهم ويكرز ببشارة الملكوت ويبرىء كل برص ووجع في الشعب ، فخرج خبره في جميع الشام فقدم إليه كل من به أصناف الأمراض والأوجاع المختلفة والذين بهم الشياطين والمعترين في رؤوس الأهلة والمخلعين فأبرأهم ، وتبعه جموع كثيرة من الجليل والعشرة المدن ويروشليم واليهودية وعبر الأردن ، فلما أبصر الجميع صعد إلى الجبل وجلس ، وجاء إليه تلاميذه وفتح فاه يعلمهم قائلاً :

طوبى للمساكين بالروح ! فإن لهم ملكوت السماوات ، طوبى للحزانى ! فإنهم يعزون ، طوبى للمتواضعين ! فإنهم يرثون الأرض ، طوبى للجياع والعطاش من أجل البر ! فإنهم يشبعون ، طوبى للرحماء ! فإنهم يرحمون ، طوبى للنقية قلوبهم ! فإنهم يعاينون الله ، طوبى لفاعلي السلامة ! فإنهم بني الله يُدعون ، طوبى للمطرودين من أجل البر ! فإن لهم ملكوت السماوات طوبى لكم إذا طردوكم وعَيَّروكم وقالوا فيكم كل كلمة شر من أجلي ؛ افرحوا وتهللوا ، فإن أجركم عظيم في السماوات ، لأن هكذا طردوا الأنبياء الذين قبلكم .

وقال لوقا : هكذا كان آباؤكم يصنعون بالأنبياء الويل لكم أيها الأغنياء ! لأنكم قد أخذتم عزاكم ، الويل لكم أيها الشباعى الآن ! فإنكم ستجوعون ؛ الويل لكم أيها الضاحكون الآن ! فإنكم ستبكون وتحزنون ، الويل لكم إذا قال الناس فيكم قولاً حسناً ! لأن آباءهم كذلك فعلوا بالأنبياء الكذبة – يعني المتنبئين – وفيه من الألفاظ التي لا يجوز إطلاقها في شرعنا حمل الله والأب ، وقوله : بني الله ، وسيأتي إن شاء الله تعالى في آل عمران تأويل مثل هذا على تقدير صحته عنه وأنه يرد إلى المحكم على أوضح وجه مثل الألفاظ التي وردت في شرعنا ورددناها إلى المحكم ، وضل بها من حملها على ظاهرها ممن يدعي الإسلام والله الموفق .

ولما كان هذا حالهم مع الرسل مع أنسهم بهم ومعرفتهم بأحوالهم واتصالهم بالله وكمالهم علم أنهم في منابذتهم لهم عبيد الهوى وأسرى الشهوات ، فتسبب عن ذلك الإنكار عليهم فقال : ﴿ أفكلما ﴾ أي أفعلتم ما فعلتم من نقض العهود مع مواترة الرسل ووجود الكتاب فكلما ﴿ جاءكم رسول ﴾ أي من عند الله ربكم ﴿ بما لا تهوى أنفسكم ﴾ من الهوى وهو نزوع النفس لسفل شهوتها في مقابلة معتلى الروح لمنبعث انبساطه ، كأن النفس ثقيل الباطن بمنزلة الماء والتراب ، والروح خفيف الباطن بمنزلة الهواء والنار ، وكأن العقل متسع الباطن بمنزلة اتساع النور في كلية الكون علواً وسفلاً – قاله الحرالي : وقد دل على أن المراد الباطل بالتعبير بالهوى والنفس ﴿ استكبرتم ﴾ أي طلبتم الكبر وأوجدتموه بما لكم من الرئاسة على قومكم عن قبول الحق ميلاً إلى سنة إبليس مع إعطائكم العهد قبل ذلك على الدوام على اتباعه ﴿ ففريقاً ﴾ أي فتسبب عن طلبكم الكبر أنكم فريقاً ﴿ كذبتم ﴾ كعيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام ﴿ وفريقاً تقتلون ﴾ أي قتلتم ولم تندموا على قتلهم بل عزمتم على مثل ذلك الفعل كلما جاءكم أحد منهم بما يخالف الهوى وهم لم يبعثوا إلا لصرف الأنفس عن الهوى لأن دعوة الرسول إلى الأعلى الذي هو ضد هوى النفس ؛

والظاهر أنه سبحانه أشار بهذه الصيغة المستقبلة إلى قتلهم النبي صلى الله عليه وسلم بالسم في خيبر كما أشار إليه الحديث الماضي آنفاً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 1

﴿ صـ 184.189 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أن هذا نوع آخر من النعم التي أفاضها الله عليهم ثم إنهم قابلوه بالكفر والأفعال القبيحة ، وذلك لأنه تعالى لما وصف حال اليهود من قبل بأنهم يخالفون أمر الله تعالى في قتل أنفسهم وإخراج بعضهم بعضاً من ديارهم وبين أنهم بهذا الصنيع اشتروا الدنيا بالآخرة ، زاد في تبكيتهم بما ذكره في هذه الآية .

(14/59)

أما الكتاب فهو التوراة آتاه الله إياها جملة واحدة ، روي عن ابن عباس أن التوراة لما نزلت أمر الله تعالى موسى بحملها فلم يطق ذلك ، فبعث الله لكل حرف منها ملكاً فلم يطيقوا حملها فخففها الله على موسى فحملها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 160 ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وَلَقَدْ ءاتَيْنَا موسى الكتاب ﴾ شروع في بيان بعض آخر من جناياتهم ، وتصديره

بالجملة القسمية لإظهار كمال الاعتناء به ، والإيتاء الإعطاء ، و(الكتاب) التوراة في قول الجمهور وهو مفعول ثان لآتينا وعند السهيلي مفعول أول ، والمراد باتيانها له إنزالها عليه . وقد روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن التوراة نزلت جملة واحدة فأمر الله تعالى موسى عليه السلام بحملها فلم يطق فبعث بكل حرف منها ملكاً فلم يطيقوا حملها فخففها الله تعالى لموسى عليه السلام فحملها ، وقيل : يحتمل أن يكون آتينا الخ أفهمناه ما انطوى عليه من الحدود والأحكام والأنباء والقصص وغير ذلك مما فيه ، والكلام على حذف مضاف أي علم الكتاب أو فهمه وليس بالظاهر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 316 ﴾

(15/59)

اللغة :

[الكتاب] التوراة

[وقفينا] أردفنا وأتبعنا ، وأصله من القفا يقال : قفاه إذا اتبعه ، وقفاه بكذا إذا اتبعه إياه

[البينات] المعجزات الباهرات كإبراء الأعمى والأبرص ، وإحياء الموتى

[أيدناه] قويناه مأخوذ من الأيد وهو القوة

[روح القدس] جبريل عليه السلام ، والقدس : الطهر والبركة

[تهوى] تحب من هوي إذا أحب ومصدره الهوى

[غلف] جمع أغلف ، والغلاف : الغطاء ، يقال : سيف أغلف إذا كان في غلافه ، وقلب أغلف أي مستور عن الفهم والتمييز ، مستعار من (الأغلف) وهو الذى لم يختن

[لعنهم] أصل اللعن فى كلام العرب : الطرد والإبعاد ، يقال : ذئب لعين أي مطرود مبعد ، والمراد : أقصاهم وأبعدهم عن رحمته

[يستفتحون] يستنصرون من الاستفتاح وهو طلب الفتح أي النصرة

[بئسما] أصلها بئس ما أي بئس الذي ، وبئس فعل للذم ، كما أن " نعم " للمدح

[بغيا] البغي : الحسد والظلم ، وأصله الفساد من بغى الجرح إذا فسد ، قاله الأصمعي

[باءوا] رجعوا ، وأكثر ما يستعمل في الشر ، كقولهم : باء بالخزي واللعنة .

[مهين] مخز مذل ، مأخوذ من الهوان بمعنى الذل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 1 صـ 76 . 77 ﴾

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ القدس ﴾ بسكون الدال حيث كان : ابن كثير . ﴿ بئسما ﴾ وبابه بغير همز : أبو عمرو ويزيد والأعشى وورش وحمزة في الوقف . ﴿ ينزل ﴾ خفيفاً : ابن كثير وأبو عمرو وسهل ويعقوب .

الوقوف : ﴿ القدس ﴾ (ط) ﴿ استكبرتم ﴾ (ج) لتناهي الاستفهام مع تعقب فاء التعقيب بعده ﴿ كذبتم ﴾ (ز) لعطف المستقبل على الماضي مع تقدم المفعولين فيهما ﴿ تقتلون ﴾ (5) ﴿ غلف ﴾ (ط) (ز) لأن " بل " إعراض عن الأول وتحقيق للثاني ﴿ يؤمنون ﴾ (5) ﴿ لما معهم ﴾ (ط) " لأن " الواو للحال ﴿ كفروا ﴾ (ج) لأن " لما " متضمنة للشرط وجوابها منتظر والوصل أجوز لأن " لما " مكرر وجوابهما متحد ، وقوله : ﴿ وكانوا من قبل ﴾ حال معترض ﴿ كفروا به ﴾ (ج) لأن ما بعده مبتدأ لكن الفاء تقتضي تعجيل ذكر جوابهم ﴿ الكافرين ﴾ (5) ﴿ من عباده ﴾ (ج) لطول الكلام مع فاء التعقيب ﴿ على غضب ﴾ (ط) ﴿ مهين ﴾ (5) ﴿ لما معهم ﴾ (ط) ﴿ مؤمنين ﴾ (ط) . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 1 صـ 329 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ الرسل ﴾

فصل

قال الفخر :

روي أن بعد موسى عليه السلام إلى أيام عيسى عليه السلام كانت الرسل تتواتر ويظهر بعضهم في أثر بعض ، والشريعة واحدة إلى أيام عيسى عليه السلام ، فإنه صلوات الله عليه جاء بشريعة مجددة ، واستدلوا على صحة ذلك بقوله تعالى : ﴿ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بالرسل ﴾ فإنه يقتضي أنهم على حد واحد في الشريعة يتبع بعضهم بعضاً فيها ، قال القاضي : إن الرسول الثاني لا يجوز أن يكون على شريعة الأول حتى لا يؤدي إلى تلك الشريعة بعينها من غير زيادة ولا نقصان ، مع أن تلك الشريعة محفوظة يمكن معرفتها بالتواتر عن الأول ، لأن الرسول إذا كان هذا حاله لم يمكن أن يعلم من جهة إلا ما كان قد علم من قبل أو يمكن أن يعلم من قبل ، فكما لا يجوز أن يبعث الله تعالى رسولاً لا شريعة معه أصلاً ، تبين العقليات لهذه العلة ، فكذا القول في مسألتنا : فثبت أنه لا بد في الرسل الذين جاؤوا من بعد موسى عليه السلام أن يكونوا قد أتوا بشريعة جديدة إن كانت الأولى محفوظة أو محيية لبعض ما اندرس من الشريعة الأولى .

والجواب : لم لا يجوز أن يكون المقصود من بعثة هؤلاء الرسل تنفيذ تلك الشريعة السالفة على الأمة أو نوع آخر من الألطاف لا يعلمها إلا الله ، وبالجملة ، فالقاضي ما أتى في هذه الدلالة إلا بإعادة الدعوى ، فلم قال : إنه لا يجوز بعث هؤلاء الرسل إلا لشريعة جديدة أو لإحياء شريعة اندرست وهل النزاع وقع إلا في هذا ؟ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 160 . 161 ﴾

فائدة

قال الآلوسى :

﴿ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بالرسل ﴾ يقال قفاه إذا اتبعه وقفاه به إذا أتبعه إياه من القفا وأصل هذه الياء واو لأنها متى وقعت رابعة أبدلت كما تقول عريت من العرو أي أرسلناهم على أثره كقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى ﴾ [المؤمنون : 44] وكانوا إلى زمن عيسى عليه السلام أربعة آلاف ، وقيل : سبعين ألفاً وكلهم على شريعته عليه السلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 316 ﴾

فائدة

قال الفخر :

هؤلاء الرسل هم : يوشع ، وشمويل ، وشمعون ، وداود ، وسليمان وشعياء ، وأرمياء ، وعزير ، وحزقيل ، وإلياس ، واليسع ، ويونس ، وزكريا ، ويحيى ، وغيرهم . انتهى انتهى .

اهـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 161﴾

قوله تعالى ﴿وآتينا عيسى ابن مريم البينات﴾

فائدة

قال الفخر :

السبب في أن الله تعالى أجمل ذكر الرسول ثم فصل ذكر عيسى لأن من قبله من الرسل جاءوا بشريعة موسى فكانوا متبعين له ، وليس كذلك عيسى ، لأن شرعه نسخ أكثر شرع موسى عليه السلام . انتهى انتهى . اهـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 161﴾

فائدة

قال الفخر :

قيل عيسى بالسريانية أيشوع ، ومريم بمعنى الخادم ، وقيل : مريم بالعبرانية من النساء كزير من الرجال ، وبه فسر قول رؤبة

قلت لزير لم تصله مريمة . . المسألة الثالثة : في البينات وجوه .

أحدها : المعجزات من إحياء الموتى ونحوها عن ابن عباس ، وثانيها : أنها الإنجيل .

وثالثها : وهو الأقوى أن الكل يدخل فيه ، لأن المعجز يبين صحة نبوته كما أن الإنجيل يبين كيفية شريعته فلا يكون للتخصيص معنى . انتهى انتهى . ا هـ ﴾ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 161 ﴿

(19/59)

وقال الآلوسى :

﴿ وَءاتَيْنَا عِيسَى ابن مَرْيَمَ البينات ﴾ أي الحجج الواضحة الدالة على نبوته فتشمل كل معجزة أوتيها عليه السلام وهو الظاهر ، وقيل : الانجيل ، وعيسى أصله بالعبرانية أيشوع بهمزة ممالة بين بين ، أو مكسورة ومعناه السيد وقيل : المبارك فعرب ، والنسبة إليه عيسي وعيسوي وجمعه عيسون بفتح السين وقد تضم وأفرده عن الرسل عليه السلام لتميزه عنهم لكونه من أولي العزم وصاحب كتاب ، وقيل : لأنه ليس متبعاً لشريعة موسى عليه السلام حيث نسخ كثيراً من شريعته ، وأضافه إلى أمه رداً على اليهود إذ زعموا أن له أباً ، ومريم بالعبرية الخادم وسميت أم عيسى به لأن أمها نذرتها لخذمة بيت المقدس ، وقيل : العابدة ، وبالعربية من النساء من تحب محادثة الرجال فهي كالزير من الرجال ، وهو الذي يحب محادثة النساء ، قيل : ولا يناسب مريم أن يكون عربياً لأنها كانت برية عن محبة محادثة

الرجال اللهم إلا أن يقال سميت بذلك تمليحاً كما يسمى الأسود كافوراً ، وقال بعض المحققين : لا مانع من تسميتها بذلك بناء على أن شأن من تخدم من النساء ذلك ، وفي " القاموس" هي التي تحب محادثة الرجال ولا تفجر وعليه لا بأس بالتسمية كما ذكره المولى عصام والأولى عندي أن التسمية وقعت بالعبري لا بالعربي بل يكاد يتعين ذلك كما لا يخفى على المنصف ؛ وعن الأزهري المريم المرأة التي لا تحب مجالسة الرجال وكأنه قيل لها ذلك تشبيهاً لها بمريم البتول ووزنه عربياً مفعلاً لا فعيلاً لأنه لم يثبت في الأبينة على المشهور ، وأثبته الصاغاني في " الذيل" ، وقال : إنه مما فات سيبويه ، ومنه عثير للغبار ، وضهيد بالمهملة والمعجمة للصلب واسم موضع ، ومدين على القول بأصالة ميمه ، وضهيا بالقصر وهي المرأة التي لا تحيض أو لا ثدي لها من المضاهاة كأنها أطلق عليها ذلك بمشابهتها الرجل ؛ وابن جني يقول : إن ضهيد وعثير مصنوعان فلا دلالة فيهما على إثبات فعيل ، وذكر الساليكوتي أن عثير بمعنى الغبار

بكسر العين وإذا كان مفعلاً فهو أيضاً على خلاف القياس إذ القياس إعلاله بنقل حركة الياء إلى الراء وقبلها ألفاً نحو مباع لكنه شذ كما شذ مدين ، ومزيد ، وإذا كان من رام يريم

إذا فارق وبرح فالقياس كسريائه أيضاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 316 ﴾

قوله تعالى ﴿ وأيدناه بِرُوحِ القدس ﴾

فصل

قال الفخر :

اختلفوا في الروح على وجوه .

أحدها : أنه جبريل عليه السلام وإنما سمي بذلك لوجوه .

الأول : أن المراد من روح القدس الروح المقدسة كما يقال : حاتم الجود ورجل صدق فوصف جبريل بذلك تشريفاً له وبياناً لعلو مرتبته عند الله تعالى .

الثاني : سمي جبريل عليه السلام بذلك لأنه يحيا به الدين كما يحيا البدن بالروح فإنه هو المتولي لإنزال الوحي إلى الأنبياء والمكلفون في ذلك يحيون في دينهم .

الثالث : أن الغالب عليه الروحانية وكذلك سائر الملائكة غير أن روحانيته أتم وأكمل .

الرابع : سمي جبريل عليه السلام روحاً ، لأنه ما ضمته أصلاب الفحول وأرحام الأمهات ، وثانيها : المراد بروح القدس الإنجيل ، كما قال في القرآن : ﴿ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ [الشورى : 52] وسمي به لأن الدين يحيا به ومصالح الدنيا تنتظم لأجله .

وثالثها : أنه الاسم الذي كان يحيي به عليه السلام الموتى ، عن ابن عباس وسعيد بن جبير

، ورابعها : أنه الروح الذي نفخ فيه والقدس هو الله تعالى فنسب روح عيسى عليه السلام إلى نفسه تعظيماً له وتشريفاً ، كما يقال : بيت الله وناقة الله ، عن الربيع ، وعلى هذا ب المراد به الروح الذي يحيا به الإنسان .

(21/59)

واعلم أن اطلاق اسم الروح على جبريل وعلى الإنجيل وعلى الاسم الأعظم مجاز لأن الروح هو الريح المتردد في مخارق الإنسان ومنافذه ومعلوم أن هذه الثلاثة ما كانت كذلك إلا أنه سمي كل واحد من هذه الثلاثة بالروح على سبيل التشبيه من حيث أن الروح كما أنه سبب لحياة الرجل ، فكذلك جبريل عليه السلام سبب لحياة القلوب بالعلوم ، والإنجيل سبب لظهور الشرائع وحياتها ، والاسم الأعظم سبب لأن يتوسل به إلى تحصيل الأغراض إلا أن المشابهة بين مسمى الروح وبين جبريل أتم لوجوه .

أحدها : لأن جبريل عليه السلام مخلوق من هواء نوراني ، لطيف فكانت المشابهة أتم ، فكان إطلاق اسم الروح على جبريل أولى .

وثانيها : أن هذه التسمية فيه أظهر منها فيما عداه ، وثالثها : أن قوله تعالى : ﴿ وأيدناه بِرُوحِ القدس ﴾ يعني قويناه ، والمراد من هذه التقوية الإعانة وإسناد الإعانة إلى جبريل عليه

السلام حقيقة وإسنادها إلى الإنجيل والاسم الأعظم مجاز ، فكان ذلك أولى ، ورابعها : وهو أن اختصاص عيسى بجبريل عليهما السلام من آكد وجوه الاختصاص بحيث لم يكن لأحد من الأنبياء عليهم السلام مثل ذلك لأنه هو الذي بشر مريم بولادتها وإنما ولد عيسى عليه السلام من نفخة جبريل عليه السلام وهو الذي رباه في جميع الأحوال وكان يسير معه حيث سار وكان معه حين صعد إلى السماء . انتهى انتهى . ا هـ ﴾ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 162.161 ﴿

قوله تعالى ﴿ أَفَكُلَّمَا جَاءكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُم استكبرتم ﴾

فصل

قال الفخر :

أما قوله تعالى : ﴿ أَفَكُلَّمَا جَاءكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُم استكبرتم ففَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ فهو نهاية الذم لهم ، لأن اليهود من بني إسرائيل كانوا إذا أتاهم الرسول بخلاف ما يهوون كذبوه ، وإن تهيأ لهم قتله قتلوه .

وإنما كانوا كذلك لإرادتهم الرفعة في الدنيا وطلبهم لذاتها والترؤس على عامتهم وأخذ أموالهم بغير حق ، وكانت الرسل تبطل عليهم ذلك فيكذبونهم لأجل ذلك ويوهمون عوامهم كونهم كاذبين ويحتجون في ذلك بالتحريف وسوء التأويل ، ومنهم من كان يستكبر على الأنبياء استكبار إبليس على آدم .

أما قوله تعالى : ﴿ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ فلقائل أن يقول : هلا قيل وفريقاً قتلتم ؟ وجوابه من وجهين : أحدهما : أن يراد الحال الماضية لأن الأمر فظيع فأريد استحضاره في النفوس وتصويره في القلوب .

الثاني : أن يراد فريقاً تقتلونهم بعد لأنكم حاولتم قتل محمد صلى الله عليه وسلم لولا أني أعصمه منكم ولذلك سحرتموه وسممتم له الشاة .

وقال عليه السلام عند موته : " ما زالت أكلة خيبر تعاودني . فهذا أوان انقطاع أبهري " والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 162 ﴾

قال الآلوسى :

﴿ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ ﴾ مسبب عن قوله تعالى : ﴿

وَلَقَدْ ءاتَيْنَا ﴾ بحيث لا يتم الكلام السابق بدونه كالشرط بدون الجزاء ، وقد أدخلت الهمزة بين السبب والمسبب للتوبيخ على تعقيبهم ذلك بهذا ، والتعجيب من شأنهم على معنى) ولقد آتينا موسى الكتاب وأنعمنا عليكم بكذا وكذا لتشكروا بالتلقي بالقبول فعكستم بأن كذبتم ويحتمل أن يكون ابتداء كلام والفاء للعطف على مقدر كأنه قيل : أفعلتم ما فعلتم فكلما جاءكم ثم المقدر يجوز أن يكون عبارة عما وقع بعد الفاء فيكون العطف للتفسير ، وأن يكون غيره مثل ﴿ أَكَفَرْتُمْ النعمة عَنِ الهوى ﴾ فيكون لحقيقة التعقيب ، وضعف هذا الاحتمال بما ذكره الرضى أنه لو كان كذلك لجاز وقوع الهمزة في الكلام قبل أن يتقدمه ما كان معطوفاً عليه ولم تجيء إلا مبنية على كلام متقدم ، وفي كون الهمزة الداخلة على جملة معطوفة بالواو ، أو الفاء ، أو ثم في محلها الأصلي ، أو مقدمة من تأخير حيث إن محلها بعد العاطف خلاف مشهور بين أهل العربية ، وبعض المحققين يحملها في بعض المواضع على هذا وفي البعض على ذلك بحسب مقتضى المقام ومساق الكلام والقلب يميل إليه قيل : ولا يلزم بطلان صدارة الهمزة إذ لم يتقدمها شيء من الكلام الذي دخلت هي عليه ، وتعلق معناها بمضمونه غاية الأمر أنها توسطت بين كلامين لإفادة إنكار جمع الثاني مع الأول ، أو لوقوعه بعده متراخياً أو غير متراخ ، وهذا مراد من قال : إنها مقحمة مزيدة لتقرير معنى الإنكار أو التقرير ، أي مقحمة على المعطوف مزيدة بعد اعتبار

عطفه ، ولم يرد أنها صلة و(تهوى) من هوي بالكسر إذا أحب ، ومصدره هوى بالقصر ، وأما هوى بالفتح فبمعنى سقط ، ومصدره هوى بالضم وأصله فعول فأعل .

(24/59)

وقال المرزوقي : هوى انقض انقضاض النجم والطائر ، والأصمعي يقول : هوت العقاب إذا انقضت لغير الصيد ، وأهوت إذا انقضت للصيد ، وحكى بعضهم أنه يقال : هوى يهوي هوياً بفتح الهاء إذا كان القصد من أعلى إلى أسفل ، وهوى يهوي هوياً بالضم إذا كان من أسفل إلى أعلى وما ذكرناه أولا هو المشهور والهوى يكون في الحق وغيره ، وإذا أضيف إلى النفس فالمراد به الثاني في الأكثر ، ومنه هذه الآية .

وعبر عن المحبة بذلك للإيذان بأن مدار الرد والقبول عندهم هو المخالفة لأهواء أنفسهم والموافقة لها لا شيء آخر ، ومتعلق (استكبرتم) محذوف أي عن الإيمان بما جاء به مثلاً ، واستفعل هنا بمعنى تفعل .

﴿ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ الظاهر أنه عطف على ﴿ استكبرتم ﴾ والفاء للسببية إن كان التكذيب والقتل مرتبين على الاستكبار ، وللتفصيل إن كانا نوعين منه ، وجوز الراغب أن يكون عطفاً على ﴿ وأيدناه ﴾ ويكون ﴿ أَفَكُلَّمَا ﴾ مع ما بعده

فصلا بينهما على سبيل الإنكار ، وقدم ﴿ فَرِيقاً ﴾ في الموضعين للاهتمام وتشويق السامع إلى ما فعلوا بهم لا للقصر ، وثمّ محذوف أي : فريقاً منهم ، وبدأ بالتكذيب لأنه أول ما يفعلونه من الشر ولأنه المشترك بين المكذب والمقتول ، ونسب القتل إليهم مع أن القاتل آباؤهم لرضاهم به ولحوق مذمته بهم ، وعبر بالمضارع حكاية للحال الماضية واستحضاراً لصورتها لفظاعتها واستعظامها ، أو مشاكلة للأفعال المضارعة الواقعة في الفواصل فيما قبل ، أو للدلالة على أنكم الآن فيه فإنكم حول قتل محمد صلى الله عليه وسلم ولولا أني أعصمه لقتلتموه ولذلك سحرتموه وسممتم له الشاة ، فالمضارع للحال ولا ينافيه قتل البعض .

والمراد من القتل مباشرة الأسباب الموجبة لزوال الحياة سواء ترتب عليه أولا ، وقيل : لا حاجة إلى التعميم لأنه صلى الله عليه وسلم قتل حقيقة بالسم الذي ناولوه على ما وقع في الصحيح بلفظ " وهذا أوان وجدت انقطاع أبهري من ذلك السم " وفيه أنه لم يتحقق منهم القتل زمان نزول الآية بل مباشرة الأسباب فلا بد من التعميم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 317.318 ﴾

فائدة

قال الشيخ الشنقيطي :

قوله تعالى : ﴿ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ ﴾ .

هذه الآية تدل على أنهم قتلوا بعض الرسل, ونظيرها قوله تعالى : ﴿ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ ﴾ الآية .

وقوله : ﴿ كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقاً كَذَّبُوا وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ ﴾ .

وقد جاء في آيات أخر ما يدل على أن الرسل غالبون منصورون كقوله : ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ﴾ , وكقوله : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ , وقوله تعالى : ﴿ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ وبيّن تعالى أن هذا النصر في دار الدنيا أيضا كما في هذه الآية الأخيرة وكما في قوله : ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ الآية .

والذي يظهر في الجواب عن هذا أن الرسل قسمان : قسم أمروا بالقتال في سبيل الله, وقسم أمروا بالصبر والكف عن الناس, فالذين أمروا بالقتال وعدهم الله بالنصر والغلبة في الآيات المذكورة, والذين أمروا بالكف والصبر هم الذين قتلوا ليزيد الله رفع درجاتهم العلية بقتلهم

مظلومين, وهذا الجمع مفهوم من الآيات لأن النصر والغلبة فيه الدلالة بالالتزام على جهاد ومقاتلة, ولايرد على هذا الجمع قوله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ﴾ الآية.

(26/59)

أما على قراءة ﴿ قُتِلَ ﴾ بالبناء للمفعول فنائب الفاعل قوله : ﴿ رِبِّيُّونَ ﴾ لا ضمير نبي وتطرق الاحتمال يرد الاستدلال, وأما على القول بأن غلبة الرسل ونصرهم بالحجة والبرهان فلا إشكال في الآية. والله أعلم. انتهى انتهى. اهـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 25.23 ﴾

(27/59)

فائدة

قال صاحب [الأمثل]

القرآن في حديثه عن اليهود لا يوبّخ الجميع بسبب ذنوب الأكثرية ، بل يستعمل كلمات مثل "

فريق" "أكثر" ليصون حق الأقلية المؤمنة المتقية ، وطريقة القرآن هذه في حديثه عن الأُمم درس لنا كي لا نحيد في أحاديثنا ومواقفنا عن الحقّ والحقيقة . انتهى انتهى . ا هـ [الأمثل حـ 1 صـ 313]

وقال في الميزان :

قوله تعالى : [فلم تقتلون أنبياء الله من قبل] الفاء للتفريع, والسؤال متفرع على قولهم : نؤمن بما أنزل علينا , أي : لو كان قولكم : نؤمن بما أنزل علينا حقاً وصدقاً , فلم تقتلون أنبياء الله, ولم كفرتم بموسى باتخاذ العجل, ولم قلتم عند أخذ الميثاق ورفع الطور : سمعنا وعصينا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الميزان حـ 1 صـ 222 ﴾

ومن فوائد ابن عرفة فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا موسى الكتاب . . . ﴾ .

إن قلت : الخطاب لليهود وهم معترفون بنبوة موسى عليه السلام فما فائدة القَسم على ذلك ؟

قلنا : فائدته التنبيه على مساواة غيره من الرسل الآتين بعده (له) في النبوة ، وأن نبوتهم حق كما (هي) نبوة موسى عندهم حق .

قال ابن عرفة : وهذه معجزة للنَّبي صلى الله عليه وسلّم ، لأنّ القاعدة أن من ادّعى أمرا محالا لم يسمع منه ، وإن ادعى أمرا ممكنا (سمع منه وطلب) بالدّليل على صحّته .

والدليل قسمان : جدلي برهاني للخواص ، ودليل للعوام ، فبين لهم أولا أنه ادّعى أمرا ممكنا ، (واستدلّ عليه لهم بدليل برهاني) خاص بالخواص ، ثم استدلّ لهم الآن بالدليل الّذي يفهمه العوام ، وهو أنّه إنّما (ادّعى) أمرا تكرر أمثاله قبله فلم يأتكم بأمر غريب فهو ممكن عقلا ، (واقع) أمثاله بالمشاهدة ، فحقكم أن تنظروا في معجزته فتؤمنوا به .

فإن قلت : ما أفاد " مِن بَعْدِهِ " مع أنّ (القبلية) تفيد معنى البعدية ؟

قلت : لإفائدة أول أزمنة البعدية إشارة إلى أنّ موسى عليه السلام من حين أرسله لم تزل شريعته باقية معمولا بها حتى أرسل رسولا آخرا فكان مقرر لها كيوشع بن نون أو ناسخا كعيسى .

وعين موسى وعيسى دون غيرهما إما لأن المخاطبين بهذه الآية اليهود والنصارى ، أو لأن المتبعين لشريعة موسى وعيسى باقون قيام الساعة ، ولم يبق أحد (ممن) تشرع بشريعة غيرهما من الأنبياء .

فإن قلت : لِم خصّص عيسى بذكر (الآيات) البينات ؟

قلنا لوجهين : إما لأنه بَشّر بنبينا سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم حيث قال : ﴿ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسمه أَحْمَدُ ﴾ واستظهر على صحة قوله بمعجزات واضحات ، وإمّا لأنّ الخطاب لليهود وهم كافرون بعيسى ، (فمعناه) أرسلنا من بعده موسى رسلا ، منهم عيسى ورسالته ، (قام) الدليل على صحتها ، وأنها نسخت شريعة نبيكم موسى عليه الصلاة والسلام فكذلك هذه الرسالة .

قوله تعالى : ﴿ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تهوى أَنفُسُكُمُ . . . ﴾ .

قال ابن عرفة : هذا نهي عليهم ، ومبالغة في ذمّهم ، لأن ما لا تهواه (النفس) أعمّ مما تكرهه (النّفس) ، والمعنى أنهم مهما أتاهم رسول من عند الله تعالى بأمر (لا يحبونه) سواء كانوا يكرهونه أو لا ، فإنّهم (يستكبرون) ويكفرون به ونظيره قوله تعالى في سورة العقود : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ الله فأولئك هُمُ الظالمون ﴾ ولم يقل : ومن حكم بغير ما أنزل الله ، فيتناول من ترك الحكم ولم يحكم بشيء ، لأن الفصل بين المسلمين بالحق واجب .

وأورد الزمخشري سؤالا قال : لم قال " فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ " بالماضي " وفَرِيقاً تَقْتُلُونَ " بالمضارع ؟ وأجاب بان التكذيب في أفراد متعلقاته كله ماض ، والقتل في (بعض) آحاد متعلقاته مستقبل ، لأنهم كانوا يحبون أن يقتلوا النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد أهدت له يهودية في (

خيبر) شاة مصلية وسمت فيها الذراع ، لأنه كان صلى الله عليه وسلم يحبه ، وأخبره الذراع بالسم بعد أن لاكه في فيه ، ثم ألقاه منه ، ثم قال عليه الصلاة والسلام في مرضه الذي (انتقل فيه إلى الفردوس الأعلى) : ما زالت من الأكلة التي أكلت بخيبر (فهذا أوان انقطاع) أبهري .

ولهذا يقال : إن النبي صلى الله عليه مات شهيدا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عرفة حـ 1 صـ 363. 366 ﴾

(30/59)

ومن فوائد ابن عاشور فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ ﴾

انتقال من الإنحاء على بني إسرائيل في فعالهم مع الرسول موسى عليه السلام بما قابلوه به من العصيان والتبرم والتعلل في قبول الشريعة وبما خالفوا من أحكام التوراة بعد موته إلى قرب مجيء الإسلام إلى الإنحاء عليهم بسوء مقابلتهم للرسل الذين أتوا بعد موسى مثل يوشع وإلياس وأرمياء وداوود مؤيدين لشريعته ومفسرين وباعثين للأمة على تجديد العمل

بالشريعة مع تعدد هؤلاء الرسل واختلاف مشاربهم في الدعوة لذلك المقصد من لين وشدة ، ومن رغبة ورهبة ، ثم جاء عيسى مؤيداً وناسخاً ومبشراً فكانت مقابلتهم لأولئك كلهم بالإعراض والاستكبار وسوء الصنيع وتلك أمارة على أنهم إنما يعرضون عن الحق لأجل مخالفة الحق أهواءَهم وإلا فكيف لم يجدوا في خلال هاته العصور ومن بين تلك المشارب ما يوافق الحق ويتمحض للنصح .

وإن قوماً هذا دأبهم يرثه الخلف عن السلف لجديرون بزيادة التوبيخ ليكون هذا حجة عليهم في أن تكذيبهم للدعوة المحمدية مكابرة وحسد حتى تنقطع حجتهم إذ لو كانت معاندتهم للإسلام هي أُولى فعلاتهم لأوهموا الناس أنهم ما أعرضوا إلا لِمَا تبين لهم من بطلان فكان هذا مرتبطاً بقوله : ﴿ وآمنوا بما أنزلت مصدقاً ﴾ [البقرة : 41] ومقدمة للإنحاء عليهم في مقابلتهم للدعوة المحمدية الآتي ذكرها في قوله تعالى : ﴿ وقالوا قلوبنا غُلف ﴾ [البقرة : 88] .

فقوله تعالى : ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب ﴾ تمهيد للمعطوف وهو قوله : ﴿ وقفَّينا من بعده بالرسل ﴾ الذي هو المبني عليه التعجب في قوله : ﴿ أفكلما جاءكم رسول ﴾

فقوله : ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب ﴾ تمهيد التمهيد وإلا فهو قد عُلم من الآيات السابقة فلا مقتضى للإعلام به استقلالاً هنا ولكنه ذكر ليبنى عليه ما بعده فكأنه تحصيل لما تقدم أي ولقد كان ما كان مما تقدم وهو إيتاء موسى الكتاب وقفينا أيضاً بعده بالرسل فهو كالعلاوة أو كقول القائل هذا وقد كان كذا .

و(قفى) مضاعف قفا تقول قفوت فلاناً إذا جئت في إثره لأنك حينئذ كأنك تقصد جهة قفاه فهو من الأفعال المشتقة من الجوامد مثل جبهه ، فصار المضاعف قفاه بفلان تقفية وذلك أنك جعلته مأموراً بأن يقفو بجعل منك لا من تلقاء نفسه أي جعلته يقفوه غيره ولكون المفعول واحداً جعلوا المفعول الثاني عند التضعيف متعلقاً بالفعل بباء التعدية لئلا يلتبس التابع بالمتبوع فقالوا : قفَّى زيداً بعمرو عوض أن يقولوا : قفى زيداً عمراً .

فمعنى ﴿ قفينا من بعه بالرسل ﴾ أرسلنا رسلاً وقد حذف مفعول ﴿ قفينا ﴾ للعلم به وهو ضمير موسى .

وقوله : ﴿ من بعده ﴾ أي من بعد ذهابه أي موته ، وفيه إيماء إلى التسجيل على اليهود بأن مجيء الرسل بعد موسى ليس ببدع .

والجمع في الرسل للعدد والتعريف للجنس وهو مراد به التكثير قاله صاحب " الكشاف" أي لأن شأن لفظ الجنس المعرف إذا لم يكن عهد أن يدل على الاستغراق فلما كان الاستغراق هنا متعذراً دل على التكثير مجازاً لمشابهة الكثير بجميع أفراد الجنس كقولك لم

يبق أحد في البلد لم يشهد الهلال إذا شهده جماعات كثيرة وهو قريب من معنى الاستغراق العرفي .

(32/59)

وسمي أنبياء بني إسرائيل الذين من بعد موسى رسلاً مع أنهم لم يأتوا بشرع جديد اعتباراً بأن الله لما أمرهم بإقامة التوراة وتفسيرها والتفريع منها فقد جعل لهم تصرفاً شرعياً وبذلك كانوا زائدين على مطلق النبوة التي لا تعلق لها بالتشريع لا تأصيلاً ولا تفريعاً .

وقال الباقلاني فيما نقله عنه الفخر : لا بد أن يكون هؤلاء الرسل جاءوا بشرع جديد ولو مع المحافظة على الشرع الأول أو تجديد ما اندرس منه وهو قريب مما قلناه قال تعالى : ﴿ وإن إلياس لمن المرسلين ﴾ [الصافات : 123] وقال : ﴿ وإن يونس لمن المرسلين ﴾ [الصافات : 139] وما كان عيسى عليه السلام إلا مثلهم في أنه ما أتى بأحكام جديدة إلا شيئاً قليلاً وخص عيسى بالذكر من بين سائر الأنبياء الذين جاءوا بعد موسى زيادة في التنكيل على اليهود لأنهم يكفرون به ويكذبونه ولذلك أيضاً خصه بقوله : ﴿ وأيدناه بروح القدس ﴾ ولأن من جاء بعد موسى من الرسل لم يخبروا أن جبريل جاءهم بوحي وعيسى كان أوسع منهم في الرسالة .

وعيسى اسم معرب من يشوع أو يسوع وهو اسم عيسى ابن مريم قلبوه في تعريبه قلباً مكانياً ليجري على وزن خفيف كراهية اجتماع ثقل العجمة وثقل ترتيب حروف الكلمة فإن حرفي علة في الكلمة وشيناً والختم بحرف حلق لا يجري هذا التنظيم على طبيعة ترتيب الحروف مع التنفس عند النطق بها فقدموا العين لأنها حلقية فهي مبدأ النطق ثم حركوا حروفه بحركات متناسبة وجعلوا شينه المعجمة الثقيلة سيناً مهملة فلله فصاحة العربية.

ومعنى يشوع بالعبرانية السيد أو المبارك.

(33/59)

ومريم هي أم عيسى وهذا اسمها بالعبرانية نقل للعربية على حاله لخفته ولا معنى لمريم في العربية غير العلمية إلا أن العرب المتنصرة عاملوه معاملة الصفة في معنى المرأة المتباعدة عن مشاهدة النساء لأن هاته الصفة اشتهرت بها مريم إذ هي أول امرأة عبرانية خدمت بيت المقدس فلذلك يقولون امرأةٌ مريمٌ أي معرضة عن صفات النساء كما يقولون رجل حاتم بمعنى جواد وذلك معلوم منهم في الأعلام المشتهرة بالأوصاف ولذلك قال رؤبة:

قلت لزيرٍ لم تزره مريمه...

فليس هو مشتقاً من رام يريم كما قد يتوهم .

وينبغي أن يكون وزنها فعيل بفتح الفاء وإن كان نادراً .

وعيسى عليه السلام هو ابن مريم كونه الله في بطنها بدون مس رجل ، وأمه مريم ابنة عمران من سبط يهوذا .

ولد عيسى في مدة سلطنة أغسطس ملك رومية وفي مدة حكم هيرودس على القدس من جهة سلطان الرومان وذلك في سنة 430 عشرين وستمائة قبل الهجرية المحمدية ، وكانت ولادته بقرية تعرف ببيت لحم اليهودية ، ولما بلغ ثلاثين سنة بعث رسولاً إلى بني إسرائيل وبقي في الدنيا إلى أن بلغ سنه ثلاثاً وثلاثين سنة .

وأما مريم أمه فهي مريم ابنة عمران بن ماثان من سبط يهوذا ولدت عيسى وهي ابنة ثلاث عشرة سنة فتكون ولادتها في سنة ثلاث عشرة قبل ميلاد عيسى وتوفيت بعد أن شاخت ولا تعرف سنة وفاتها ، وكان أبوها مات قبل ولادتها فكفلها زكرياء من بني أبيا وهو زوج اليصابات خالة مريم وكان كاهناً من أحبار اليهود كما سيأتي في سورة آل عمران .

والبينات صفة لمحذوف أي الآيات والمعجزات الواضحات ، ﴿ وأيدناه ﴾ قويناه وشددنا عضده ونصرناه وهو مشتق من اسم جامد وهو اليد فأيد بمعنى جعله ذا يد واليد مجاز في القوة والقدرة فوزن أيد أفعل ، ولك أن تجعله مشتقاً من الأيد وهو القوة فوزنه فعل .

والتأييد التقوية والإقدار على العمل النفسي وهو مشتق من الأيد وهو القوة قال تعالى : ﴿ واذكر عبدنا داود ذا الأيد ﴾ [ص : 17] والأيد مشتق من اليد لأنها آلة القدرة والأحسن أن يكون مشتقاً من اليد أي جعله ذا يد أي قوة ، والمراد هنا قوة معنوية وهي قوة الرسالة وقوة الصبر على أذى قومه وسيأتي في الأنفال (62) قوله ؛ ﴿ وهو الذي أيدك بنصره ﴾

والروح جوهر نوراني لطيف أي غير مدرك بالحواس فيطلق على النفس الإنساني الذي به حياة الإنس ، ولا يطلق على ما به حياة العجماوات إلا لفظ نفس ، قال تعالى : ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي ﴾ [الإسراء : 85] ويطلق على قوة من لدن الله تعالى يكون بها عمل عجيب ومنه قوله : ﴿ فنفخنا فيها من روحنا ﴾ [التحريم : 12] ، ويطلق على جبريل كما في قوله : ﴿ نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين ﴾ [الشعراء : 193 ، 194] وهو المراد في قوله تعالى : ﴿ تنزل الملائكة والروح فيها ﴾ [القدر : 4] وقوله : ﴿ يوم يقوم الروح والملائكة ﴾ [النبأ : 38] .

والقدس بضمتين وبضم فسكون مصدر أو اسم مصدر بمعنى النزاهة والطهارة .

والمقدس المطهر وتقدم في قوله تعالى : ﴿ ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ﴾ [البقرة : 30] .

(35/59)

وروح القدس روح مضاف إلى النزاهة فيجوز أن يكون المراد به الروح الذي نفخ الله في بطن مريم فتكوّن منه عيسى وإنما كان ذلك تأييداً له لأن تكوينه في ذلك الروح اللدني المطهر هو الذي هيأه لأن يأتي بالمعجزات العظيمة ، ويجوز أن يكون المراد به جبريل والتأييد به ظاهر لأنه الذي يأتيه بالوحي وينطق على لسانه في المهد وحين الدعوة إلى الدين وهذا الإطلاق أظهر هنا ، وفي الحديث الصحيح " إن روح القدس نفث في روعي أن نفساً لن تموت حتى تستوفي أجلها " وعلى كلا الوجهين فإضافة (روح) إلى (القدس) إما من إضافة ما حقه أن يكون موصوفاً إلى ما حقه أن تشتق منه الصفة ولكن اعتبر طريق الإضافة إلى ما منه اشتقاق الصفة لأن الإضافة أدل على الاختصاص بالجنس المضاف إليه لاقتضاء الإضافة ملابسة المضاف بالمضاف إليه وتلك الملابسة هنا تؤول إلى التوصيف وإلى هذا قال التفتازاني في " شرح الكشاف " وأنكر أن يكون المضاف إليه في مثله صفة حقيقة حتى يكون في الوصف بالمصدر .

وقوله تعالى : ﴿ أفكلما جاءكم رسول ﴾ هو المقصود من الكلام السابق ، وما قبله من قوله : ﴿ ولقد آتينا ﴾ تمهيد له كما تقدم ، فالفاء للسببية والاستفهام للتعجيب من طغيانهم ومقابلتهم جميع الرسل في جميع الأزمان بمقابلة واحدة ساوى فيها الخلف السلف مما دل على أن ذلك سجية في الجميع .

(36/59)

وتقديم همزة الاستفهام على حرف العطف المفيد للتشريك في الحكم استعمال متبع في كلام العرب وظاهره غريب لأنه يقتضي أن يكون الاستفهام متسلطاً على العاطف والمعطوف وتسلط الاستفهام على حرف العطف غريب فلذلك صرفه علماء النحو عن ظاهره ولهم في ذلك طريقتان : إحداهما طريقة الجمهور قالوا : همزة الاستفهام مقدمة من تأخير وقد كان موقعها بعد حرف العطف فقدمت عليه لاستحقاق الاستفهام التصدير في جملته ، وإنما خصوا التقديم بالهمزة دون غيرها من كلمات الاستفهام لأن الهمزة متأصلة في الاستفهام إذ هي الحرف الموضوع للاستفهام الأكثر استعمالاً فيه ، وأما غيرها فكلمات أشربت معنى الاستفهام منها ما هو اسم مثل (أين) ، ومنها حرف تحقيق وهو (هل) فإنه بمعنى قد فلما كثر دخول همزة الاستفهام عليه حذفوا الهمزة لكثرة الاستعمال فأصل هل

فعلت أهل فعلت فالتقدير فأكلما جاءكم رسول فقلب ، وقيل : أفكلما جاءكم رسول فعلى هذه الطريقة يكون الاستفهام معطوفاً وتكون الجملة معطوفة على التي قبلها أو معطوفة على محذوف بحسب ما يسمح به المقام .

الطريقة الثانية طريقة صاحب " الكشاف " وفي " مغني اللبيب " أن الزمخشري أول القائلين بها وادعى الدماميني أن الزمخشري مسبوق في هذا ولم يعين من سبقه فإنه قد جوز طريقة الجمهور وجوز أن تكون همزة الاستفهام هي مبدأ الجملة وأن المستفهم عنه محذوف دل عليه ما عطف عليه بحرف العطف والتقدير في مثله أتكذبونهم فكلما جاءكم رسول إلخ .

وعلى هذه الطريقة تكون الجملة استفهامية مستأنفة محذوفاً بقيتها ثم عطف عليها ما عطف ، ولا أثر لهذا إلا في اختلاف الاعتبار والتقدير فأما معنى الكلام فلا يتغير على كلا الاعتبارين لأن العطف والاستفهام كليهما متوجهان إلى الجملة الواقعة بعدهما .

والظاهر من كلام صاحب " الكشاف " في هذه الآية وفي قوله تعالى في سورة آل عمران (165) : ﴿ أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها ﴾ أن الطريقتين جائزتان في جميع مواقع الاستفهام مع حرف العطف وهو الحق وأما عدم تعرضه لذلك عند آيات ﴿

أفتطمعون أن يؤمنوا لكم ﴾ [البقرة : 75] ﴿ أفلا تعقلون ﴾ [البقرة : 44] .

﴿ أفتؤمنون ببعض الكتاب ﴾

[البقرة : 85] فيما مضى من هذه السورة فذلك ذهول منه وقد تداركه هنا .

وعندي جواز طريقة ثالثة وهي أن يكون الاستفهام عن العطف والمعنى أتزيدون على مخالفاتكم استكباركم كلما جاءكم رسول إلخ وهذا متأت في حروف التشريك الثلاثة كما تقدم من أمثلة الواو والفاء وكقوله تعالى : ﴿ أثم إذا ما وقع آمنتم به ﴾ في سورة يونس (51) وقوله النابغة :

أثم تَعذَّران إلى منها . . .

فإني قد سمعتُ وقد رأيتُ

وقد استقريت هذا الاستعمال فوجدت مواقعه خاصة بالاستفهام غير الحقيقي كما رأيت من الأمثلة .

ومعنى الفاء هنا تسبب الاستفهام التعجيبي الإنكاري على ما تقرر عندهم من تقفية موسى بالرسل أي قفينا موسى بالرسل فمن عجيب أمركم أن كل رسول جاءكم استكبرتم وجوز صاحب الكشاف ﴾ كون العطف على مقدر أي آتينا موسى الكتاب إلخ ففعلتم ثم وبخهم بقوله : ﴿ أفكلما ﴾ ، فالهمزة للتوبيخ والفاء حينئذ عاطفة مقدراً معطوفاً

على المقدر المؤهل للتوبيخ ، وهو وجه بعيد ، ومرمى الوجهين إلى أن جملة ﴿ آتينا موسى الكتاب ﴾ إلخ غير مراد منها الإخبار بمدلولها .

(38/59)

وانتصب (كلما) بالنيابة عن الظرف لأنه أضيف إلى ما الظرفية المصدرية والعامل فيه قوله : ﴿ استكبرتم ﴾ ، وقدم الظرف ليكون موالياً للاستفهام المراد منه التعجيب ليظهر أن محل العجب هو استمرار ذلك منهم الدال على أنه سجية لهم وليس ذلك لعارض عرض في بعض الرسل وفي بعض الأزمنة ، والتقدير أفاستكبرتم كلما جاءكم رسول فقدم الظرف للاهتمام لأنه محل العجب ، وقد دل العموم الذي في (كلما) على شمول التكذيب أو القتل لجميع الرسل المرسلين إليهم لأن عموم الأزمان يستلزم عموم الأفراد المظروفة فيها .

و ﴿ تهوى ﴾ مضارع هوي بكسر الواو إذا أحب والمراد به ما تميل إليه أنفسهم من الانخلاع عن القيود الشرعية والانغماس في أنواع الملذات والتصميم على العقائد الضالة .

والاستكبار الاتصاف بالكبر وهو هنا الترفع عن اتباع الرسل وإعجاب المتكبرين بأنفسهم واعتقاد أنهم أعلى من أن يطيعوا الرسل ويكونوا أتباعاً لهم ، فالسين والتاء في ﴿ استكبرتكم ﴾ للمبالغة كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ إلا إبليس أبى واستكبر ﴾ [البقرة :

34] وقوله : ﴿ ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون ﴾ مسبب عن الاستكبار فالفاء للسببية فإنهم لما استكبروا بلغ بهم العصيان إلى حد أن كذبوا فريقاً أي صرحوا بتكذيبهم أو عاملوهم معاملة الكاذب وقتلوا فريقاً وهذا كقوله تعالى عن أهل مدين : ﴿ قالوا يا شعيب ما نفقه كثيراً مما تقول وإنا لنراك فينا ضعيفاً ولولا رهطك لرجمناك ﴾ [هود : 9] .

وتقديم المفعول هنا لما فيه من الدلالة على التفصيل فناسب أن يقدم ليدل على ذلك كما في قوله تعالى : ﴿ فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة ﴾ [الأعراف : 30] .

وهذا استعمال عربي كثير في لفظ فريق وما في معناه نحو طائفة إذا وقع معمولاً لفعل في مقام التقسيم نحو ﴿ يغشى طائفة منكم وطائفة قد أهمتهم أنفسهم ﴾ [آل عمران : 159] .

والتفصيل راجع إلى ما في قوله : ﴿ رسول ﴾ من الإجمال لأن (كلما جاءكم رسول) أفاد عموم الرسول وشمل هذا موسى عليه السلام فإنهم وإن لم يكذبوه بصريح اللفظ لكنهم عاملوه معاملة المكذبين به إذ شكوا غير مرة فيما يخبرهم عن الله تعالى وأساءوا الظن به مراراً في أوامره الاجتهادية وحملوه على قصد التغرير بهم والسعي لإهلاكهم كما قالوا حين

بلغوا البحر الأحمر وحين أَمرهم بالحضور لسماع كلام الله تعالى ، وحين أمرهم بدخول أريحا ، وغير ذلك ، وأما بقية الرسل فكذبوهم بصريح القول مثل عيسى وقتلوا بعض الرسل مثل أشعياء وزَكرياء ويحيى ابنه وأرمياء .

وجاء في ﴿ تقتلون ﴾ بالمضارع عوضاً عن الماضي لاستحضار الحالة الفظيعة وهي حالة قتلهم رسلهم كقوله : ﴿ الله الذي أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه ﴾ [الروم : 48] مع ما في صيغة ﴿ تقتلون ﴾ من مراعاة الفواصل فاكتمل بذلك بلاغة المعنى وحسن النظم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 1 صـ 574. 581 ﴾

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ (87) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم عن أبي مالك في قوله ﴿ وقفينا ﴾ اتبعنا .

وأخرج ابن عساكر من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس في قوله ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب ﴾ يعني التوراة جملة واحدة مفصلة محكمة ﴿ وقفينا من بعده بالرسل ﴾ يعني رسولاً يدعى اشمويل بن بابل، ورسولاً يدعي مشتانيل، ورسولاً يدعى شعيا بن أمصيا، ورسولاً يدعى حزقيل، ورسولاً يدعى أرميا بن حلقيا وهو الخضر، ورسولاً يدعى داود بن أيشا وهو أبو سليمان، ورسولاً يدعى المسيح عيسى ابن مريم، فهؤلاء الرسل ابتعثهم الله وانتخبهم للأمة بعد موسى بن عمران، وأخذ عليهم ميثاقاً غليظاً أن يؤدوا إلى أممهم صفة محمد صلى الله عليه وسلم وصفة أمته.

وأما قوله تعالى: ﴿ وآتينا عيسى ابن مريم البينات ﴾.

أخرج ابن إسحق وابن جرير وابن أبي حاتم قال: هي الآيات التي وضعت على يده من إحياء الموتى، وخلقه من الطين كهيئة الطير، وإبراء الأسقام، والخبر بكثير من الغيوب، وما رد عليهم من التوراة مع الإنجيل الذي أحدث الله إليه.

وأما قوله تعالى: ﴿ وأيدناه بروح القدس ﴾.

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ وأيدناه ﴾ قال: قوّيناه.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: روح القدس. الاسم الذي كان عيسى يحيي به الموتى.

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد قال: القدس لله تعالى.

وأخرج ابن أبي حاتم عن الربيع بن أنس قال : القدس هو الرب تعالى .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : القدس الطهر .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي قال : القدس البركة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن إسمعيل بن أبي خالد في قوله ﴿ وأيدناه بروح القدس ﴾ قال : أعانه جبريل .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال : روح القدس جبريل .

وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " روح القدس جبريل " .

وأخرج ابن سعيد وأحمد والبخاري وأبو داود والترمذي عن عائشة " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وضع لحسان منبراً في المسجد ، فكان ينافح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم أيد حسان بروح القدس كما نافح عن نبيه " .

وأخرج ابن حبان عن ابن مسعود " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن روح

القدس نفث في روعي : أن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب " .

وأخرج الزبير بن بكار في أخبار المدينة عن الحسن قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من كلمة روح القدس لن يؤذن للأرض أن تأكل من لحمه " .

وأما قوله تعالى : ﴿ ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون ﴾ .

أخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله ﴿ فريقاً ﴾ يعني طائفة . انتهى انتهى . اهـ

﴿ الدر المنثور حـ 1 صـ 212 . 214 ﴾

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ (87) ﴾

وبعد أن بين الحق سبحانه وتعالى لنا ما فعله اليهود مع نبيهم موسى عليه السلام . . أراد أن

يبين لنا ما فعله بنو إسرائيل بعد نبيهم موسى . . وأراد أن يبين لنا موقفهم من رسول جاءهم منهم . . ولقد جاء لبني إسرائيل رسل كثيرون لأن مخالفاتهم للمنهج كانت كثيرة . . ولكن الآية الكريمة ذكرت عيسى عليه السلام . . لأن الديانتين الكبيرتين اللتين سبقتا الإسلام هما اليهودية والنصرانية . . ولكن لابد أن نعرف أنه قبل مجيء عيسى . . وبين رسالة موسى ورسالة عيسى عليهما السلام رسل كثيرون . . منهم داود وسليمان وزكريا ويحيى وغيرهم . . فكأنه في كل فترة كان بنو إسرائيل يبتعدون عن الدين . . ويرتكبون المخالفات وتنتشر بينهم المعصية . . فيرسل الله رسولا يعدل ميزان حركة حياتهم . . ومع ذلك يعودون مرة أخرى إلي معصيتهم وفسقهم . . فيبعث الله رسولا جديداً . . ليزيل الباطل وهوى النفس من المجتمع ويطبق شرع الله . . ولكنهم بعده يعودون مرة أخرى إلي المعصية والكفر .

وقال الله سبحانه وتعالى : " ولقد آتينا موسى الكتاب" والقائل هو الله جل جلاله . . والكتاب هو التوراة : " وقفينا من بعده بالرسل" . . والله تبارك وتعالى بين لنا موقف بني إسرائيل من موسى . . وموقفهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء

والمرسلين . . ولكنه لم يبين لنا موقفهم من الرسل الذين جاءوا بعد موسى حتى عيسى ابن مريم . الحق سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا . . إلي أنه لم يترك الأمر لبني إسرائيل بعد موسى . . أن يعملوا بالكتاب الذي أرسل معه فقط . . ولكنه أتبع ذلك بالرسل حين تسمع " قفينا " . . أي اتبعنا بعضهم بعضا . . كل يخلف الذي سبقه " وقفينا " مشتقة من قفا . . وقفا الشيء خلفه . . وتقول قفوت فلاناً أي سرت خلفه قريباً منه .

إن الحق يريد أن يلفتنا إلي أن رسالة موسى لم تقف عند موسى وكتابه . . ولكنه سبحانه أرسل رسلاً وأنبياء ليذكروا وينبهوا . . ولقد قلنا إن كثرة الأنبياء لبني إسرائيل ليست شهادة لهم ولكنها شهادة عليهم . . إنهم يتفاخرون أنهم أكثر الأمم أنبياءً . . ويعتبون ذلك ميزة لهم ولكنهم لم يفهموا . . فكثرة الأنبياء والرسل دلالة على كثرة فساد الأمة ، لأن الرسل إنما يجيئون لتخليص البشرية من فساد وأمراض وإنقاذها من الشقاء . . وكلما كثر الرسل والأنبياء دل ذلك على أن القوم قد انحرفوا بمجرد ذهاب الرسول عنهم ، ولذلك كان لابد من رسول جديد . . تماما كما يكون المريض في حالةٍ خطرةٍ فيكثر أطباؤه بلا فائدةٍ . . وليقطع الله سبحانه وتعالى عليهم الحجة يوم القيامة . . لم يترك لهم فترة من غفلةٍ . . بل كانت الرسل تأتيهم واحدا بعد الآخر على فتراتٍ قريبةٍ .

وإذا نظرنا إلي يوشع وأشمويه وشمعون . وداود وسليمان وشعيب وأرميا . وحزقيل وإلياس واليسع ويونس وزكريا ويحيى . . نرى موكبا طويلاً جاء بعد موسى . . حتى إنه لم تمر فترة ليس فيها نبي أو رسول . . وحتى نفرق بين النبي والرسول . . نقول النبي مرسل والرسول مرسل . . كلاهما مرسل من الله ولكن النبي لا يأتي بتشريع جديد . . وإنما هو مرسل على منهج الرسل الذي سبقه . . واقرأ قوله سبحانه :

وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ

(من الآية 52 سورة الحج)

إذن فالنبي مرسل أيضاً . . ولكنه أسوة سلوكية لتطبيق منهج الرسول الذي سبقه . وهل الله سبحانه وتعالى قص علينا قصص كل الرسل والأنبياء الذين أرسلهم ؟ اقرأ قوله تبارك وتعالى :

وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيماً (164)

(سورة النساء)

إذن هناك رسل وأنبياء أرسلوا إلي بني إسرائيل لم نعرفهم . . لأن الله لم يقصص علينا نبأهم . . ولكن الآية الكريمة التي نحن بصددها لم تذكر إلا عيسى عليه السلام . . باعتباره من

أكثر الرسل أتباعا . . والله تبارك وتعالى حينما أرسل عيسى أيده بالآيات والبينات التي تثبت صدق بلاغه عن الله . . ولذلك قال جل جلاله : " وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس " . . وعيسى ابن مريم عليه السلام جاء ليرد على المادية التي سيطرت على بني إسرائيل . . وجعلتهم لا يعترفون إلا بالشيء المادي المحسوس . . فعقولهم وقلوبهم أغلقت من ناحية الغيب . . حتى إنهم قالوا لموسى : " أرنا الله جهرة " . . وحين جاءهم المن والسلوى رزقاً من الله . . خافوا أن ينقطع عنهم لأنه رزق غيبي فطلبوا نبات الأرض . . لذلك كان لابد أن يأتي رسول كل حياته ومنهجه أمور غيبية . . مولده أمر غيبي ، وموته أمر غيبي ورفعه أمر غيبي ومعجزاته أمور غيبية حتى ينقلهم من طغيان المادية إلي صفاء الروحانية .

لقد كان أول أمره أن يأتي عن غير طريق التكاثر المادي . . أي الذي يتم بين الناس عن طريق رجل وأنثى وحيوان منوي . . والله سبحانه وتعالى أراد أن يخلع من أذهان بني إسرائيل أن الأسباب المادية تحكمه . . وإنما هو الذي يحكم السبب . هو الذي يخلق الأسباب ومتى قال : " كن " كان . . بصرف النظر عن المادية المألوفة في الكون . . وفي

قضية الخلق أراد الله جل جلاله للعقول أن تفهم أن مشيته هي السبب وهي الفاعلة . .

واقرأ قوله سبحانه :

لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ(49) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ(50)

(سورة الشورى)

فكأن الله سبحانه وتعالى جعل الذكورة والأنوثة هما السبب في الإنجاب . . ولكنه جعل طلاقة القدرة مهيمنة على الأسباب . . فيأتي رجل وامرأة ويتزوجان ولكنهما لا ينجبان . . فكأن الأسباب نفسها عاجزة عن أن تفعل شيئاً إلا بإرادة المسبب . والله سبحانه وتعالى يقول : " وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس " . . لماذا قال الحق تبارك وتعالى : " وأيدناه بروح القدس " . . ألم يكن باقي الرسل والأنبياء مؤيدين بروح القدس ؟

نقول : لقد ذكر هنا تأييد عيسى بروح القدس لأن الروح ستشيع في كل أمر له . . ميلاداً ومعجزة وموتاً . . والروح القدس هو جبريل عليه السلام لم يكن يفارقه أبدا . . لقد جاء عيسى عليه السلام على غير مألوف الناس وطبيعة البشر مما جعله معرضاً دائما للهجوم . . ولذلك لابد أن يكون الوحي في صحبته لا يفارقه . . ليجعل من مهابته على القوم ما

يرد الناس عنه . . وعندما يتحدث القرآن أنه رفع إلي السماء . . اختلف العلماء هل رفع إلي السماء حيا ؟ أو مات ثم رفع إلي السماء ؟ نقول :

لو أننا عرفنا أنه رفع حيا أو مات فما الذي يتغير في منهجنا ؟ لا شيء . وعندما يقال إنه شيء عجيب أن يرفع إنسان إلي السماء ، ويظل هذه الفترة ثم يموت . . نقول إن عيسى ابن مريم لم يتبرأ من الوفاة . . إنه سيتوفى كما يتوفى سائر البشر . . ولكن هل كان ميلاده طبيعياً ؟ الإجابة لا . . إذن فلماذا تتعجب إذا كانت وفاته غير طبيعية ؟ لقد خلق من أم بدون أب . . فإذا حدث أنه رفع إلي السماء حياً وسينزل إلي الأرض فما العجب في ذلك ؟ ألم يصعد رسولنا صلى الله عليه وسلم إلي السماء حيا ؟ ثم نزل لنا بعد ذلك إلي الأرض حياً ؟ لقد حدث هذا لمحمدٍ عليه الصلاة والسلام . . إذن فالمبدأ موجود . . فلماذا تستبعد صعود عيسى ثم نزوله في آخر الزمان ؟ والفرق بين محمد صلى الله عليه وسلم وعيسى هو أن محمداً لم يمكث طويلاً في السماء ، بينما عيسى بقى . . والخلاف على الفترة لا ينقض المبدأ .

< عن ابن المسيب أنه سمع أبا هريرة رضي الله عنه يقول قال رسول الله صلى الله عليه

وسلم " والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم صلى الله عليه وسلم حكما مقسطا فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد " >

رواه البخارى فى المظالم ومسلم فى الإيمان وابو داود فى الملاحم والترمذى فى الفتن وابن ماجة فى الفتن ورواه احمد فى المسند

وهذا الحديث موجود في صحيح البخاري . . فقد جعله الله مثلا لبني إسرائيل . . واقرأ قوله سبحانه :

إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ(59)

(سورة الزخرف)

قوله تعالى : " وآتينا عيسى ابن مريم البينات " . . البينات هي المعجزات مثل إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله وغير ذلك من المعجزات . . وهي الأمور البينة الواضحة على صدق رسالته . لكننا إذا تأملنا في هذه المعجزات . . نجد أن بعضها نسبت لقدرة الله كإحياء الموتى جاء بعدها بإذن الله . . وبعضها نسبها إلي معجزته كرسول . . ومعروف إنه كرسول يؤيده الله بمعجزات تخرق قوانين الكون . . ولكن هناك

فرق بين معجزة تعطي كشفاً للرسول . . وبين معجزة لابد أن تتم كل مرة من الله مباشرة . . واقرأ الآية الكريمة :

وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ(49)

(سورة آل عمران)

وهكذا نرى في الآية الكريمة أنه بينما كان إخبار عيسى لما يأكل الناس وما يدخرون في بيوتهم كشفاً من الله . . كان إحياء الموتى في كل مرة بإذن الله . . وليس كشفا ولا معجزة ذاتية لعيسى عليه السلام . . إن كل رسول كان مؤيداً بروح القدس وهو جبريل عليه السلام . . ولكن الله أيد عيسى بروح القدس دائما معه . . وهذا معنى قوله تعالى : " وأيدناه بروح القدس " . . وأيدناه مشتقة من القوة ومعناها قويناه بروح القدس في كل أمر من الأمور . . وكلمة روح تأتي على معنيين . . المعنى الأول ما يدخل الجسم فيعطيه الحركة والحياة . . وهناك روح أخرى هي روح القيم تجعل الحركة نافعة ومفيدة . . ولذلك سمى الحق سبحانه وتعالى القرآن بالروح . . واقرأ قوله تعالى :

وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا

(من الآية 52 سورة الشورى)

والقرآن روح . . من لا يعمل به تكون حركة حياته بلا قيم . . إذن كل ما يتصل بالمنهج فهو روح . . والقدس هذه الكلمة تأتي مرة بضم القاف وتسكين الدال . . ومرة بضم القاف وضم الدال . . وكلا اللفظيين صحيح وهي تفيد الطهر والتنزه عن كل ما يعيب ويشين . . والقدس يعني عن كل شائبة . قوله تبارك وتعالى : أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم . . أي إن اليهود جعلوا أنفسهم مشرعين من دون الله . . وهم يريدون أن يشرعوا لرسلهم . . فإذا جاء الرسول بما يخالف هواهم كذبوه أو قتلوه .

وقوله تعالى : " بما لا تهوى أنفسكم " . . هناك هوى بالفتحة على الواو وهوى بالكسرة على الواو . . هوى بالفتحة على الواو بمعنى سقط إلي أسفل . . وهوى بالكسرة على الواو معناه أحب وأشتهى . . اللفظان ملتقيان . . الأول معناه الهبوط ، والثاني حب الشهوة والهوى يؤدي إلي الهبوط . . ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى حينما يشرع يقول (تعالوا) ومعناها ارتفعوا من موقعكم الهابط . . إذن فالمنهج جاء ليعصمنا من السقوط . .

< ورسول الله صلى الله عليه وسلم . . يعطينا هذا المعنى ، وكيف أن الدين يعصمنا من

أن نهوى ونسقط في جهنم يقول : " إنما مثلي ومثل أمتي كمثل رجل استوقد ناراً فجعلت الدواب والفراش يقعن فيه فأنا آخذ بحجزكم وأنتم موحمون فيه" > رواه مسلم فى الزهد وابن ماجه فى الزهد ورواه أحمد

ومعنى آخذ بحجزكم أي آخذ بكم . . وكأننا نقبل على النار ونحن نشتهيها باتباعنا شهوتنا . . ورسول الله بمنهج الله يحاول أن ينقذنا منها . . ولكن رب نفسٍ عشقت مصرعها . . والحق تبارك وتعالى يقول :

اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ

(من الآية 87 سورة البقرة)

معنى استكبرتم أي أعطيتم لأنفسكم كبرا لستم أهلاله . . ادعيتم أنكم كبار ولستم كباراً . . ولكن هل المشروع مساولك حتى تتكبر على منهجه ؟ طبعا لا . . قوله تعالى : " ففريقا كذبتم" . . والكذب كلام يخالف الواقع . . أي أنكم اتهمتم الرسل بأنهم يقولون كلاما يخالف الواقع . لأنه يخالف ما تشتهيه أنفسكم . . وقوله تعالى : " وفريقا تقتلون" . . التكذيب مسألة منكرة . . ولكن القتل أمر بشع . . وحين ترى إنسانا يتخلص من

خصمه بالقتل فاعلم أنها شهادة بضعفه أمام خصمه . . وإن طاقته وحياته لا تطيق وجود الخصم . . ولو أنه رجل مكتمل الرجولة لما تأثر بوجود خصمه . . ولكن لأنه ضعيف أمامه قتله . . قوله تعالى : " وفريقا تقتلون " . . مثل نبي الله يحيى ونبي الله زكريا . . وهناك قصص وروايات تناولت قصة سالومي . . وهي قصة راقصة جميلة أرادت إغراء يحيى عليه السلام فرفض أن يخضع لإغرائها . . فجعلت مهرها أن يأتوها برأسه . . وفعلا قتلوه وجاءوها برأسه على صينية من الفضة . انتهى انتهى . اهـ ﴾ تفسير الشعراوى صـ 443. 449 ﴾

(50/59)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

[قوله] : ﴿ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بالرسل ﴾ التضعيف في " قَفَّيْنَا " ليس للتَّعدية ؛ إذْ لو كان كذلك لتعدّى إلى اثنين ؛ لأنه قيل : التضعيف يتعدّى لواحد ، نحو : " قَفَوْتُ زَيْداً " ، ولكنه ضُمِّن معنى " جئنا " كأنه قيل وجئنا من بعده الرُّسل .

فإن قيل : يجوز أن يكون متعدياً لاثنين على معنى أنَّ الأول محذوف ، والثاني " بالرسل "

والباء فيه زائدة تقديره : " وَقَفَّيْنَا من بعده الرسل " .

فالجَواب : أن كثرة مجيئه في القرآن كذلك يبعد هذا التَّقْدِير ، وسيأتي لذلك مزيد بيان في " المائدة " [الآية : 46] إن شاء الله تعالى .

و " قَفَّيْنَا " أصله : قَفَوْنَا / ولكن لما وقعت " الواو " رابعة قلبت " ياء " ، واشتقاقه من " قَفَوْتَ " ، وقَفَوْتُه إذا اتَّبَعْتُ قَفَاه ، ثم اتُّسِع فيه ، فأطلف على تابع ، وإن بَعُدَ زمان التابع عن زمان المتبوع .

قال أميَّةُ : [البسيط]

646 قَالَتْ لأُخْتٍ لَهُ قُصِّيهِ عَنْ جُنُبٍ . . .

وَكَيْفَ تَقْفُو وَلاَ سَهْلٌ وَلاَ جَبَلُ

و " القَفَا " : مؤخّر العُنُق ، ويقال له : القافية أيضاً ، ومنه الحديث : " يعقد الشيطان على قَافِيَة رَأْس أَحَدِكُمْ "

والقَفَاوَة : ما يدّخر من اللّبن وغيره لمن تريد إكرامه ، وقفوت الرجل : قذفته بِفُجُور ، " وفلان قِفْوتِي " : أي تُهْمتي ، وقِفْوتي أي خيرتي .

قال ابن دريد : كأنه من الأضداد .

ومنه قافية الشعر ؛ لأنها يتلو بعضها بعضاً ، ومعنى قفّينا : أي أتبعنا ، كقوله : ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى ﴾ [المؤمنون : 44] .

و" مِنْ بَعْدِهِ " متعلق به ، وكذلك : " بالرُّسُل " وهو جمع رسول بمعنى مُرْسَل ، وفُعُل غير مقيس في " فعيل " بمعنى " مفعول " وسكون العين لغة " الحجاز " وبها قرأ الحسن ، والضم لغة " تميم " وبها قرأ السَّبعة إلاَّ أبا عمر ، وفيما أضيف إلى " ن " أو " كم " أو " هم " ، فإنه قرأ بالسكون لتوالي الحركات .

فصل في لفظ عيسى

[قوله] : " عيسى " : علم أعجمي فلذلك لم ينصرف ، وقد تكلم النحويون في وَزْنِهِ ، واستقاقه على تقدير كونه عَرَبيَّ الوضع فقال سيبويه : وزنه " فِعْلَى " والياء فيه ملحقة ببنات الأربعة كياء " مِعْزى " بالياء لا الألف ، سمّاها ياء لكتابتها بالياء .

وقال الفارسي : ألفه ليست للتأنيث كـ " ذِكْرَى " ، بدلالة صرفهم له في النكرة .

وقال عثمان بن سعيد الصيرفي : وزنه " فِعْلَل " فالألف عنده أصيلة بمعنى أنها مُنْقلبة عن أصل .

ورد عليه ذلك ابن البَاذش بأن الياء والواو لا يكونان أصليين في بنات الأربعة ، فمن قال : إن " عيسى " مشتق من " الْعَيْس " : وهو بياض تُخالطه شُقْرة ليس بمصيب ، لأن الأعجمي لا يدخله اشتقاق ولا تصريف .

وقل الزمخشري : " وقيل : عيسى بالسُّريانية يشوع " .

قوله : " ابن مريم " عطف بيان له أو بدل ، ويجوز أن يكون صفة إلا أن الأول أولى ؛ لأن " ابن مريم " جرى مجرى العلم له ، وللوصف بـ " ابن " أحكام تخصّه ، ستأتي إن شاء الله تعالى مبينة ، وقد تقدم اشتقاق " ابن " وأصله .

و " مريم " أصله بالسّريانية صفة بمعنى الخَادِمِ ، ثم سُمِّيَ به ؛ فلذلك لم ينصرف ، وفي لغة العرب : هي المرأة التي تُكْثِر مخالطة الرجَال كـ " الزِّير " من الرجال ، وهو الذي يكثر مُخالطتَهُن .

قال رؤبة : [الرجز]

647 قُلْتُ لِزِيرٍ لَمْ تَصِلْهُ مَرْيَمُهْ . . .

و " ياء " الزِّير عن واو ؛ لأنه من " زار يزور " فقلبت للكسرة قبلها كـ " الريح " ، فصار لفظ " مريم " مشتركاً بين اللّسَانين ، ووزنه عند النحويين " مَفْعَل " لا " فَعْيَل " ، قال الزمخشري : لأن " فَعْيلاً " ، بفتح الفاء لم يثبت في الأبنية كما ثبت نحو : " عثير وعِلَيْب " وقد أثبت بعضهم " فَعْيلاً " ، وجعل منه نحو : " ضهيد " : اسم مكان و " مَدْيَن " على القول بأصالة ميمه و " ضهياً " بالقَصْر وهي المرأة التي لا تحيض ، أو لا ثَدْيَ لها ، مشتقّة من " ضَاهَأَت " أي : " شابهت " ؛ لأنها شابهت الرجال في ذلك ، ويجوز مدّها قاله الزَّجَّاج .

وقال ابن جني : وأما " ضهيد وعثير " فمصنوعان فلا دلالة فيهما على ثبوت " فَعْيَل " ،

وصحة الياء في " مريم " على خلاف القياس ، إذْ كان من حقّها الإعلال بنقل حركة الياء إلى الراء ، ثم قَلْب الياء ألفاً نحو " مُبَاع " من البيع ، ولكنه شذّ كما شذ " مَزُيد ومدين " .

وقال أبو البقاء : ومريم على أعجمي ، ولو كان مشتقّاً من " رام يَرِيم " لكان مَرِيْماً بسكن الياء .

وقد جاء في الأعلام فتح الياء نحو : [مزيد] وهو على خلاف القياس .

و " البَيِّنَات " قيل : هي المُعْجِزَات المذكورة في سورة " آل عمران " و " المائدة " .

وقيل : الإنجيل .

وقيل : أعم ذلك .

قوله : " وَأَيَّدْنَاهُ " معطوف على قوله : " وَآتَيْنَا عِيسَى " .

وقرأ الجمهور : " وَأَيَّدْنَاهُ " على " فَعَّلْنَاهُ " ، وقرأ مجاهد وابن محيصن ويروى عن أبي عمرو : " وَآيَدْنَاهُ " على " أَفْعَلْنَاهُ " ، والأصل فيه : " أَأْيَد " بهمزتين ثانيتهما ساكنة ، فوجب إبدال الثانية ألفاً نحو : " آمن " وبابه ، وصححت العين كما صحّت في " أغليت وأغميت " وهو تصحيح شاذّ إلا في فعل العجّب نحو : ما أبين أطول .

وحكي عن أبي زيد أن تصحيح " أغليت " مقيس .

فإن قيل : لم لا أعلّ " أَيَّدْنَاه " كما أعلّ نحو : أَبَعْنَاهُ حتى لا يلزم حلمه على الشّاذ ؟ .

فالجواب : أنه لو أعلّ بأن ألقيت حركة العَيْن على الفاء ، فيلتقي ساكنان العين واللام ، فتحذف العين لالتقاء السكانين ، فتجتمع همزتان مَفْتُوحتان ، فيجب قلب الثانية واواً نحو : " أوادم " فتتحرك الواو بعد فتحة ، فتقلب ألفاً فيصير اللفظ : أَأَدْنَاهُ ؛ لأدّى إلى إعلال الفاء والعين ، فالأجل ذلك رُفِضَ بخلاف أَبَعْنَاه وأقمناه ، فإنه ليس فيه إلاَّ إعلال العَيْن فقط ، قال أبو البقاء : فإن قلت : فلم لم تحذف الياء التي هي عَيْن كما حذفت من نحو : " أسلناه " من " سال يسيل " ؟ .

قيل : لو فعلوا ذلك لتوالى إعْلاَلاَن :

أحدهما : قلب الهمزة الثانية ألفاً ، ثم حَذْفُ الألف المبدلة من الياء لسكونها ، وسكون الألف قبلها ، فكان يصير اللَّفظ أدْنَاه ، فتحذف الفاء والعين ، وليس " أَسَلْنَاه " كذلك ؛ لأن هناك حذفت العين فقط .

وقال الزمخشري في " المائدة " : " أَيَّدْتُك على أَفْعَلْتُكَ " .

وقال ابن عطية : " على فاعَلْتُكَ " ، ثم قال : " ويظهر أنَّ الأصل في القراءتين : أفعلتك ، ثم اختلف الإعلال ، والذي يظهر أن " أَيَّدَ " " فَعَّلَ لمجيء مضارعه على يُؤَيِّد بالتشديد ، ولو كان أَيَّدّ بالتشديد بزنة " أَفْعَل " لكان مضارعه " يُؤْيِدُ " كـ " يُؤْمِنُ " من " آمن " وأما آيَدَ بالمدّ فَيحْتَاج في نقل مُضَارعة إلى سماع ، فإن سُمِع " يُؤايِد " كـ " يُقَاتل " فهو " فَاعَلَ " فإن سمع " يُؤْيِد " كـ " يكرم " و " آيد " فهو أَفْعَلَ ، ذكر جميع ذلك أبو حَيّان في " المائدة " ، ثم قال : إنه لم يظهر كلام ابن عطيّة في قوله : اختلف الإعلال " ، وهو صحيح ، إلاَّ أن قوله : والذي يظهر أن " أَيَّد " في قراءة الجمهور " فَعَّل " لا " أَفْعَل " إلى آخره فيه نظر ؛ لأنه يُشْعِرُ بجواز شيء آخر متعذّر .

كيف يتوهّم أن " أَيَّدَ " بالتشديد في قراءة الجمهور بزنة " أَفَعْلَ " ، هذا ما لا يقع .

و " الأَيد " : القوة .

قال عبد المطّلب : [الرجز]

648 أَلْحَمْدُ لِلَّهِ الأَعَزِّ الأَكْرَمِ . . .

أَيَّدَنَا يَوْمَ زُحُوفِ الأَشْرَمِ

والصحيح أن " فَعَّلَ " و " أَفْعَل " هنا بمعنى واحد وهو " قَوَّيْنَاهُ " ، وقد فرق بعضهم بينهما ، فقال : " أما المَدُّ فمعناه : القوة ، وأما القَصْر فمعناه : التأييد والنصر " وهذا في الحقيقة ليس بفرق ، وقد أبدلت بعض العرب في آيَدَ على أَفْعَلَ الياء جميعاً فقالت : آجَدَهُ أي قواه .

قال الزمخشري : " يقال : الحمد لله الذي آجَدَني بعد ضَعْف ، وأوجدني بعد فَقْر " .

وهذا كما أبدلوا من يائه جيماً فقالوا : لا أفعل ذلك جَدَ الدَّهْرِ أو مد الدهر ، وهو إبدال لا يطّرد .

ومن إبدال الياء جميعاً قول الراجز : [الرجز]

649 خَالِي عُوَيْفٌ وَأَبُو عَلِجّ . . .

أُلْمُطْعِمَانِ اللَّحْمَ بِالْعَشِجّ

يريد : " وأبو علي " و " بالعشي " .

قوله : " بِرُوحِ القُدُسِ " متعلق بـ " أيدناه " .

(54/59)

وقرأ ابن كثير : " القُدْس " بإسكان الدال ، والباقون بضمها ، وهما لغتان : الضم لـ " الحجاز " والإسكان لـ " تميم " ، وقد تقدم ذلك ، وقرأ أبو حيوة : " القُدُّوس " بواو ، فيه لغة فتح القاف والدال معناه : الطَّهارة أو البركة كما [تقدم عند قوله : ﴿ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ [البقرة : 30]] و " الروح " في الأصل : اسم للجزء الذي تحصل به الحياة في الحيوان ، قاله الرَّاغب .

قوله : ﴿ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ ﴾ الهمزة هنا للتوبيخ والتَّقريع ، والفاء للعطف عَطَفَتْ هذه الجملة على ما قَبْلَها ، واعْتُنِيَ بحرف الاستفهام فَقُدِّم ، وتقدم تحقيق ذلك ، وأن الزمخشري يقدر بين الهمزة حرف العطف جملةً ليعطف عليها ، وهذه الجملة يجوز أن تكون معطوفة على ما قبلها من غير حذف شيء كأنه قال : ولقد آتينا يا بني إسرائيل أنبيائكم ما آتيناهم فكلما جاءكم رسول .

ويجوز أن يُقَدَّر قبله محذوف أي : ففعلتم ما فعلتم فكلما جاءكم رسول ، وقد تقدّم الكلام في "كلما " عند قوله "كُلَّمَا أَضَاءَ " ، والناصب لها هنا استكبرتم .

و" جاء " يتعدّى بنفسه تارة كهذه الآية ، وبحرف الجر أخرى ، نحو : " جئت إليه " و" رسول " " فَعُول " بمعنى " مفعول " أي : مُرْسَل ، وكون " فَعُول " بمعنى " المفعول " قليل ، جاء منه : " الرَّكُوب والحَلُوب " ، ويكون مصدراً بمعنى : الرِّسالة قاله الزمخشري ؛ وأنشد : [الطويل]

651 لَقَدْ كَذَبَ الوَاشُونَ ما فُهْتُ عِنْدَهُمْ . . .

بِسِرٍّ وَلا أَرْسَلْتُهُمْ بِرَسُولِ

أي : برسالة ، ومن عنده : ﴿ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ العالمين ﴾ [الشعراء : 16] .

قوله : ﴿ بِمَا لاَ تهوى أَنْفُسُكُمْ ﴾ متعلّق بقوله : " جاءكم " و" ما " موصولة بمعنى الَّذِي ، والعائد محذوف لاستكمال الشّروط والتقدير : بما لا تَهْوَاه ، و" تهوى " مضارع " هَوِي " بكسر العين ولامه من ياء ؛ لأن عينه واو ، وباب " طويت وشويت " أكثر من باب " قُوَّةٌ وحُوَّةٌ " ولا دليل في " هَوِي " لانكسار العين ، وهو مثل " شَقِي " من الشّقاوة ، وقولهم في تثنية مصدر هوي : هَوَيان أدلُّ على ذلك .

ومعنى تهوى : تحبّ وتختار ، وأصل الهَوَى : الميل ، سمي بذلك ؛ لأنه يَهْوي بصاحبه في النار ، ولذلك لا يستعمل غالباً إلاّ فيما لا خير فيه ، وقد يستعمل فيما هو خير ، ففي الحديث الصحيح قول عمر في أسارى " بدر " : فهوي رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال أبو بكر ، ولم يَهْوَ ما قلت " .

وعن عائشة رضي الله عنها : " والله ما أرى ربَّك إلاّ يُسَارع في هواك " .

وجمعه " أهواء " .

قال تعالى : ﴿ بِأَهْوَائِهِم ﴾ [الأنعام : 119] ولا يجمع على " أَهْوِية " ، وإن كان قد جاء " نَدَى " و" أَنْدِية " ؛ قال الشاعر : [البسيط]

652 فِي لَيْلَةٍ مِنْ جُمَادَى ذَاتِ أَنْدِيَةٍ . . .

لاَ يُبْصِرُ الكَلْبُ مِن ظَلْمَائِهَا الطُّنُبَا

وأما " هَوَى يَهْوِي " بفتحها في الماضي وكسرها في المضارع فمعناه السُّقوط ، و" الهَوِيُّ " بفتح الهاء ، ذهاب في انْحِدَار .

و" الهُوِيُّ " : ذهاب في صعود وسيأتي تحقيق ذلك إن شاء الله تعالى .

وأسند الفعل إلى " الأنفس " دون المُخَاطب فلم يقل : " بما لا تَهْوُون " تنبيهاً على أنّ النفس يُسْند إليها الفعل السيّىء غالباً نحو : ﴿ إِنَّ النفس لأَمَّارَةٌ بالسواء ﴾ [يوسف : 53] ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ ﴾ [يوسف : 18] و" استكبر " بمعنى : " تكبر " .

قوله : " فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ " " الفاء " عاطفة جملة " كذبتم " على " استكبرتم " ، و" فريقاً " مفعول مقدم ، قدم لتتفق رؤوس الآي ، وكذا : " فَرِيقاً تَقْتُلُونَ " ، ولا بُدّ من محذوف ، أي : فريقاً منهم ، والمعنى أنه نشأ عن اسْتِكْبَارهم مُبَادرة فريق من الرسل بالتكذيب ، ومبادرةُ آخرين بالقتل .

وقدم التكذيب ؛ لأنه أول ما يفعلونه من الشَّر ؛ ولأنه مشترك بين المقتول وغيره ، فإنَّ المقتولين قد كذبوهم أيضاً ، وإنما لما يُصَرّح به ؛ لأنه ذكر أقبح منه في الفِعل .

وجيء بـ " يقتلون " مضارعاً ، إما لكونه مستقبلاً ؛ لأنهم كانوا يَرُومُونَ قتل رسول الله صلى

الله عليه وسلم ولذلك سحروه ، وسَمُّوا له الشاة ، وقال عليه الصلاة والسلام عند موته : " مَا زَالَتْ أُكْلَةُ خَيْبَرَ تُعَاوِدُنِي ، فَهَذَا أوان انْقِطَاعِ أَبْهَرِي " ولما فيه من مُنَاسبة رؤوس الآي والفَوَاصل ، وإما أن يراد به الحال الماضية ؛ لأن الأمر فظيع ، فأريد استحضاره في النُّفوس ، وتصويره في القلوب .

وأجاز الرَّاغب أنْ يكون " ففريقاً كَذّبتم " معطوفاً على قوله : " وآتيناه " ، ويكون " أفكلّما " مع ما بعده فصلاً بينهما على سبيل الإنْكَارِ .

والأظهر الأول وإن كان ما قاله محتملاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 2 صـ 269.261 ﴾ . باختصار .

(57/59)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ . . . الآية (87) ﴾

الإشارة : أوصلنا لهم الخطاب ، وأردفنا رسولاً بعد رسول ، والجميع دَعَوْا إلى واحد .

ولكنهم أضغَوْا إلى دعاء الداعين بسمع الهوى ، فما استلذته النفوس قَبلُوه ، وما استثقلته أهواؤهم جحدوه ، فإذا كان الهوى صفتهم ثم عبدوه ، صارت للمعبود صفات العابد ، فلا جَرَمَ الويل لهم ثم الويل ! . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 104 ﴾

(58/59)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : ﴿ وإذ أخذنا ميثاقكم ﴾ في عهد ﴿ ألست بربكم ﴾ ﴿ لا تسفكون دماءكم ﴾ بامتثال أوامر الشيطان واتباع خطواته كما قيل :

إلى حتفي مشى قدمي . . . أرى قدمي أراق دمي

﴿ ولا تخرجون أنفسكم ﴾ من ديار عبوديتكم التي كنتم فيها في أصل الفطرة ﴿ وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم ﴾ لا تقتصرون على ضلالكم بل يعاون بعضكم بعضاً على الإعراض عن حقوق الله والإقبال على حظوظ النفس ﴿ وإن يأتوكم أسارى تفادوهم ﴾ فمن أسر في قيد الهوى فإنقاذه بالدلالة على الهدى ، ومن أسر في قيد حب الدنيا فخلاصه في كثرة ذكر المولى ، ومن أسر في أيدي الشكوك والشبهات ففداؤه إرشاده

إلى اليقين بلوائح البراهين ولوامع البينات ، ومن أسر في حبس وجود فنجاته فيما يحل عنه وثاق الكون ويوصله إلى معبوده ، ومن أسر في قبضة الحق فليس لأسراهم فداء ولا لقتلاهم قود ولا لرهطهم خلاص ولا لقومهم مناص ولا منهم فرار ولا معهم قرار ولا إليهم بغيره سبيل ولا لديهم دليل ﴿ أفتؤمنون ببعض الكتاب ﴾ وهو ما سمعتم في أول الخطاب ﴿ ألست بربكم ﴾ فقلتم بلى ﴿ وتكفرون ببعض ﴾ وهو الذي عاهدتم عليه ألا تعبدوا غير الله من الشيطان والنفس والهوى الله حسبي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 1 صـ 328. 329 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ (88) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما بين سبحانه مخازيهم حتى ختمها بعظيم ما ارتكبوا من الرسل من القتل المعنوي بالتكذيب والحسي بإزهاق الروح مع العلم بأنهم أتوا بالبينات والآيات المعجزات فأرشد المقام إلى أن التقدير فقالوا للأنبياء لما أتوهم أموراً كثيرة يعجب من صدورها عن عاقل

وأتوا في الجواب عن تكذيبهم وقتلهم من التناقضات بما لا يرضاه عالم ولا جاهل عطف عليه أو على ﴿ وقالوا لن تمسّنا النار ﴾ [البقرة : 80] قوله – بياناً لشدة بهتهم وقوة عنادهم : ﴿ وقالوا ﴾ في جواب ما كانوا يلقون إليهم من جواهر العلم التي هي أوضح من الشمس ﴿ قلوبنا غلف ﴾ جمع أغلف وهو المغشى الذكر بالقلفة التي هي جلدته ، كأن الغلفة في طرفي المرء : ذكره وقلبه ، حتى يتم الله كلمته في طرفيه بالختان والإيمان – قاله الحرالي .

فالمعنى : عليها أغطية فهي لا تفهم ما تقولون .

فكان المراد بذلك مع أنهم أعلم الناس أن ما يقولونه ليس بأهل لأن يوجه إليه الفهم ، ولذلك أضرب الله سبحانه عنه بقوله : ﴿ بل ﴾ أي ليس الأمر كما قالوا من أن هناك غلفاً حقيقة بل ﴿ لعنهم الله ﴾ أي طردهم الملك الأعظم عن قبول ذلك لأنهم ليسوا بأهل للسعادة بعد أن خلقهم على الفطرة الأولى القويمة لا غلف على قلوبهم ، لأن اللعن إبعاد في المعنى والمكانة إلى أن يصير الملعون بمنزلة النعل في أسفل القامة يلاقي به ضرر الموطي – قاله الحرالي .

ثم بين علة ذلك بقوله : ﴿ بكفرهم ﴾ .

قال الحرالي : أعظم الذنوب ما تكون عقوبة الله تعالى عليها الإلزام بذنوب أشد منها ، فأعقب استكبارهم اللعن كما كان في حق إبليس مع آدم عليه السلام ، فانتظم صدر هذه

السورة إظهار الشيطنتين من الجن والإنس الذي اختتم به القرآن في قوله : ﴿ من الجنة والناس ﴾ [الناس : 6] ليتصل طرفاه ، فيكون ختماً لا أول له ولا آخر ، والفاتحة محيطة به لا يقال : هي أوله ولا آخره ، ولذلك ختم بعض القراء بوصله حتى لا يتبين له طرف ، كما قالت العربية لما سئلت عن بنيها : هم كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها .

ولما أخبر بلعنهم سبب عنه قوله : ﴿ فقليلاً ما يؤمنون ﴾ ، فوصفه بالقلة وأكده بما إيذاناً بأنه مغمور بالكفر لا غناء له . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 190 .

﴿ 191 ﴾

فصل

قال الفخر :

أما الغلف ففيه ثلاثة أوجه .

أحدها : أنه جمع أغلف والأغلف هو ما في غلاف أي قلوبنا مغشاة بأغطية مانعة من وصول أثر دعوتك إليها ، وثانيها : روى الأصم عن بعضهم أن قلوبهم غلف بالعلم ومملوءة بالحكمة فلا حاجة معها بهم إلى شرع محمد عليه السلام ، وثالثها : غلف أي كالغلاف الخالي لا شيء فيه مما يدل على صحة قولك .

أما المعتزلة فإنهم اختاروا الوجه الأول ، ثم قالوا : هذه الآية تدل على أنه ليس في قلوب الكفار ما لا يمكنهم معه الإيمان ، لا غلاف ولا كن ولا سد على ما يقوله المجبرة لأنه لو كان كذلك لكان هؤلاء اليهود صادقين في هذا القول ، فكان لا يكذبهم الله بقوله : ﴿ بَل لَّعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ ﴾ لأنه تعالى إنما يذم الكاذب المبطل لا الصادق المحق المعذور ، قالوا : وهذا يدل على أن معنى قوله : ﴿ إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً ﴾ [الكهف : 57] وقوله : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِى أعناقهم أغلالا ﴾ وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً ﴾ [يس : 8 ، 9] ليس المراد كونهم ممنوعين من الإيمان ، بل المراد إما منع الألطاف أو تشبيه حالهم في إصرارهم على الكفر بمنزلة المجبور على الكفر .

قالوا : ونظير ذم الله تعالى اليهود على هذه المقالة ذمه تعالى الكافرين على مثل هذه المقالة وهو قوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِى أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِى ءاذانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾ [فصلت : 5] ولو كان الأمر على ما يقوله المجبرة لكان هؤلاء القوم صادقين في ذلك ، ولو كانوا صادقين لما ذمهم بل كان الذي حكاه عنهم إظهاراً لعذرهم ومسقطاً للومهم .

واعلم أنا بينا في تفسير الغلف وجوهاً ثلاثة فلا يجب الجزم بواحد منها من غير دليل .

سلمنا أن المراد منه ذلك الوجه لكن لم قلت إن الآية تدل على أن ذلك القول مذموم ؟ .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 162 . 163 ﴾

(61/59)

قال الآلوسى :

﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾ عطف على ﴿ استكبرتم ﴾ [البقرة : 78] أو على ﴿ كَذَّبْتُمْ ﴾ [البقرة : 87] فتكون تفسيراً للاستكبار ، وعلى التقديرين فيه التفات من الخطاب إلى الغيبة إعراضاً عن مخاطبتهم وإبعاداً لهم عن الحضور ، والقائلون هم الموجودون في عصر النبي صلى الله عليه وسلم ، والغلف جمع أغلف كأحمر وحمر وهو الذي لا يفقه ، قيل : وأصله ذو الغلفة الذي لم يختن ، أو جمع غلاف ويجمع على غلف بضمتين أيضاً .

وبه قرأ ابن عباس وغيره ، وأرادوا على الأول قلوبنا مغشاة بأغشية خلقية مانعة عن نفوذ ما جئت به فيها ، وهذا كقولهم : ﴿ قُلُوبُنَا فِى أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ ﴾ [فصلت : 5] قصدوا به إقناط النبي صلى الله عليه وسلم عن الإجابة وقطع طمعه عنهم بالكلية ، وقيل : مغشاة بعلوم من التوراة نحفظها أن يصل إليها ما تأتي به ، أو بسلامة من الفطرة كذلك ،

وعلى الثاني أنها أوعية العلم فلو كان ما تقوله حقاً وصدقاً لوعته قاله ابن عباس وقتادة والسدي أو مملوءة علماً فلا تسع بعد شيئاً فنحن مستغنون بما عندنا عن غيره ، روي ذلك عن ابن عباس أيضاً ، وقيل : أرادوا أنها أوعية العلم فكيف يحل لنا اتباع الأمي ولا يخفى بعده . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 318.319 ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾

إما عطف على قوله : ﴿ استكبرتم ﴾ [البقرة : 87] أو على ﴿ كذبتم ﴾ [البقرة : 87] فيكون على الوجه الثاني تفسيراً للاستكبار أي يكون على تقدير عطفه على ﴿ كذبتم ﴾ من جملة تفصيل الاستكبار بأن أشير إلى أن استكبارهم أنواع : تكذيبٌ وتقتيل وإعراض .

وعلى الوجهين ففيه التفات من الخطاب إلى الغيبة وإبعاد لهم عن مقام الحضور فهو من الالتفات الذي نكتته أن ما أجري على المخاطب من صفات النقص والفظاعة قد أوجب إبعاده عن البال وإعراضَ البال عنه فيشار إلى هذا الإبعاد بخطابه بخطاب البعد فهو كناية .

وقد حسَّن الالتفاتَ أنه مؤذن بانتقال الكلام إلى سوء مقابلتهم للدعوة المحمدية وهو غرض جديد فإنهم لما تحدث عنهم بما هو من شؤونهم مع أنبيائهم وجه الخطاب إليهم ، ولما أريد الحديث عنهم في إعراضهم عن النبيء صلى الله عليه وسلم صار الخطاب جارياً مع المؤمنين وأجرى على اليهود ضمير الغيبة .

على أنه يحتمل أن قولهم ﴿ قلوبنا غلف ﴾ لم يصرحوا به علَنا ويدل لذلك أن أسلوب الخطاب جرى على الغيبة من مبدأ هذه الآية إلى قوله تعالى : ﴿ ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل ﴾ [البقرة : 92] .

والقلوبُ مستعملة في معنى الأذهان على طريقة كلام العرب في إطلاق القلب على العقل .

والغُلْف بضم فسكون جمع أغلف وهو الشديد الغلاف مشتق من غَلَّفه إذا جعل له غِلافاً وهو الوعاء الحافظ للشيء والساتر له من وصول ما يُكره له .

وهذا كلام كانوا يقولونه للنبيء صلى الله عليه وسلم حين يدعوهم للإسلام قصدوا به التهكم وقطع طمعه في إسلامهم وهو كقول المشركين : ﴿ قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب ﴾ [فصلت : 5] .

وفي الكلام توجيه لأن أصل الأغلف أن يكون محجوباً عما لا يلائمه فإن ذلك معنى الغِلاف فهم يُخيَلون أن قلوبهم مستورة عن الفهم ويريدون أنها محفوظة من فهم الضلالات ولذلك

قال المفسرون : إنه مؤذن بمعنى أنها لا تعي ما تقول ولو كان حقاً لوعته ، وهذان المعنيان اللذان تضمنهما لتوجيه يلاقيهما الرد بقوله تعالى : ﴿ بل لعنهم الله بكفرهم ﴾ أي ليس عدم إيمانهم لقصور في أفهامهم ولا لريبوها عن قبول مثل ما دعوا إليه ولكن لأنهم كفروا فلعنهم الله بكفرهم وأبعدهم عن الخير وأسبابه .

وبهذا حصل المعنيان المرادان لهم من غير حاجة إلى فرض احتمال أن يكون (غلف) جمع غلاف لما فيه من التكلف في حذف المضاف إليه حتى يقدر أنها أوعية للعلم والحق فلا يتسرب إليها الباطل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 1 صـ 581 ﴾

(63/59)

قوله تعالى ﴿ بَل لَّعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ ﴾

فصل

قال الفخر :

أما قوله تعالى : ﴿ بَل لَّعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ ﴾ ففيه أجوبة .

أحدها : هذا يدل على أنه تعالى لعنهم بسبب كفرهم ، إما لم قلتم بأنه إنما لعنهم بسبب هذه المقالة فلعله تعالى حكى عنهم قولاً ثم بين أن من حالهم أنهم ملعونون بسبب كفرهم .

وثانيها : المراد من قوله : ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾ أنهم ذكروا ذلك على سبيل الاستفهام بمعنى الإنكار يعني ليست قلوبنا في أغلاف ولا في أغطية ، بل قوية وخواطرنا منيرة ثم إنا بهذه الخواطر والأفهام تأملنا في دلائلك يا محمد ، فلم نجد منها شيئاً قوياً .

فلما ذكروا هذا التصلف الكاذب لا جرم لعنهم الله على كفرهم الحاصل بسبب هذا القول

،

وثالثها ؛ لعل قلوبهم ما كانت في الأغطية بل كانوا عالمين بصحة نبوة محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم كما قال تعالى : ﴿ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمُ ﴾ [الأنعام : 20] [البقرة : 146] إلا أنهم أنكروا تلك المعرفة وادعوا أن قلوبهم غلف وغير واقفة على ذلك فكان كفرهم كفر العناد فلا جرم لعنهم الله على ذلك الكفر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 163 ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ بَل لَّعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ ﴾ رد لما قالوه ، وتكذيب لهم فيما زعموه ، والمعنى أنها خلقت على فطرة التمكن من النظر الصحيح الموصل إلى الحق لكن الله تعالى أبعدهم ، وأبطل استعدادهم الخلقي للنظر الصحيح بسبب اعتقاداتهم الفاسدة وجهالاتهم الباطلة الراسخة في قلوبهم ، أو أنها لم تأب قبول ما تقوله لعدم كونه حقاً وصدقاً بل لأنه سبحانه طردهم وخذلهم بكفرهم فأصمهم وأعمى أبصارهم أو أن الله تعالى أقصاهم عن رحمته

فأنى لهم ادعاء العلم الذي هو أجل آثارها ، ويعلم من هذه الوجوه كيفية الرد على ما قيل قبل من الوجوه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 319 ﴾

(64/59)

وقال ابن عاشور :

وقوله : ﴿ بل لعنهم الله بكفرهم ﴾ تسجيل عليهم وفضح لهم بأنهم صمموا على الكفر والتمسك بدينهم من غير التفات لحجة النبيء صلى الله عليه وسلم فلما صمموا على ذلك عاقبهم الله باللعن والإبعاد عن الرحمة والخير فحرمهم التوفيق والتبصر في دلائل صدق الرسول ، فاللعنة حصلت لهم عقاباً على التصميم على الكفر وعلى الإعراض عن الحق وفي ذلك رد لما أوهموه من أن قلوبهم خلقت بعيدة عن الفهم لأن الله خلقهم كسائر العقلاء مستطيعين لإدراك الحق لو توجهوا إليه بالنظر وترك المكابرة وهذا معتقد أهل الحق من المؤمنين عدا الجبرية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 1 صـ 582 ﴾

قوله تعالى ﴿ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾

فصل

قال الفخر :

في تفسيره ثلاثة أوجه .

أحدها : أن القليل صفة المؤمن ، أي لا يؤمن منهم إلا القليل عن قتادة والأصم وأبي مسلم .

وثانيها : أنه صفة الإيمان ، أي لا يؤمنون إلا بقليل مما كلفوا به لأنهم كانوا يؤمنون بالله ، إلا أنهم كانوا يكفرون بالرسل .

وثالثها : معناه لا يؤمنون أصلاً لا قليلاً ولا كثيراً كما يقال : قليلاً ما يفعل بمعنى لا يفعل ألبتة .

قال الكسائي : تقول العرب : مررنا بأرض قليلاً ما تنبت ، يريدون ولا تنبت شيئاً .

والوجه الأول أولى لأنه نظير قوله : ﴿ بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلا ﴾ [النساء : 155] ولأن الجملة الأولى إذا كان المصرح فيها ذكر القوم فيجب أن يتناول الاستثناء بعض هؤلاء القوم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 163 ﴾

(65/59)

وقال الآلوسى :

﴿ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ الفاء لسببية اللعن لعدم الإيمان ، وقليلاً نصب على أنه نعت لمصدر محذوف أي إيماناً قليلاً ، وهو إيمانهم ببعض الكتاب و(ما) مزيدة لتأكيد معنى

القلة لا نافية لأن ما في حيزها لا يتقدمها ولأنه وإن كان بمعنى لا يؤمنون قليلاً فضلاً عن الكثير لكن ربما يتوهم لا سيما مع التقديم أنهم لا يؤمنون قليلاً بل كثيراً ، ولا مصدرية لاقتضائها رفع القليل بأن يكون خبراً ، والمصدر المعرف بالإضافة مبتدأ ، والتقدير فإيمانهم قليل ، وجوز بعضهم كونها نافية بناء على مذهب الكوفيين من جواز تقدم ما في حيزها عليها ولم يبال بالتوهم وآخرون كونها مصدرية ، والمصدر فاعل ﴿ قَلِيلاً ﴾ وكانوا مقدرة في نظم الكلام فتكون على طرز ﴿ كَانُواْ قَلِيلاً مّن الليل مَا يَهْجَعُونَ ﴾ [الذريات : 17] ولا يخفى ما فيه من التكلف ، وجوز أيضاً انتصاب قليلاً على الحال إما من ضمير الإيمان أو من فاعل ﴿ يُؤْمِنُونَ ﴾ والتقدير فيؤمنونه أي الإيمان في حال قلته ، وهو المروي عن سيبويه أو فيؤمنون حال كونهم جمعاً قليلاً أي المؤمن منهم قليل ، وهو المروي عن ابن عباس وطلحة وقتادة ، ولذا جوز كونه نعتاً للزمان أي زماناً قليلاً وهو زمان الاستفتاح أو بلوغ الروح التراقي ، أو ما قالوا : ﴿ ءامِنُواْ بالذي أُنزِلَ عَلَى الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره ﴾ [آل عمران : 72] وأولى الوجوه أولها ، والظاهر أن المراد بالإيمان المعنى اللغوي ، والقلة مقابل الكثرة ، وقال الزمخشري : يجوز أن تكون بمعنى العدم ، وكأنه أخذه من كلام الواقدي لا قليلاً ولا كثيراً ؛ واعترضه في " البحر " بأن القلة بمعنى النفي ، وإن صحت لكن في غير هذا التركيب لأن قليلاً انتصب بالفعل المثبت ، فصار نظير قمت قليلاً أي قياماً قليلاً ، ولا

يذهب ذاهب إلى أنك إذا أتيت بفعل مثبت ، وجعلت قليلاً صفة لمصدره يكون المعنى في المثبت الواقع على صفة أو هيئة انتفاء ذلك

(66/59)

المثبت رأساً ، وعدم وقوعه بالكلية ، وإنما الذي نقل النحويون أنه قد يراد بالقلة النفي المحض في قولهم أقل رجل يقول ذلك ، وقلما يقوم زيد فحملها هنا على ذلك ليس بصحيح ، وليت شعري أي معنى لقولنا يؤمنون إيماناً معدوماً ، وما نقل الكسائي عن العرب أنهم يقولون : مررنا بأرض قليلاً ما تنبت ويريدون لا تنبت شيئاً فإنما ذلك لأن قليلاً حال من الأرض ، وإن كان نكرة ، و(ما) مصدرية والتقدير قليلاً إنباتها فلا مانع فيه من حمل القلة على العدم وأين ما نحن فيه من ذاك اللهم إلا على بعض الوجوه المرجوحة لكن الزمخشري غير قائل به ، ويمكن أن يقال : إن ذلك على طريق الكناية فإن قلة الشيء تستتبع عدمه في أكثر الأوقات لا على أن لفظ القلة مستعمل بمعنى العدم فإنه هنا قول بارد جداً ولو أوقد عليه الواقدي ألف سنة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 319 ﴾

وقال ابن عاشور :

وقوله : ﴿ فقليلاً ما يؤمنون ﴾ تفريع على ﴿ لَعَنهم ﴾ و ﴿ قليلاً ﴾ صفة لمحذوف دل

عليه الفعل والتقدير فإيماناً قليلاً وما زائدة للمبالغة في التقليل والضمير لمجموع بني إسرائيل

ويجوز أن يكون (قليلاً) صفة للزمان الذي يستلزمه الفعل أي فحيناً قليلاً يؤمنون .

وقيل يجوز أن يكون باقياً على حقيقته مشاراً به إلى إيمانهم ببعض الكتاب أو إلى إيمانهم

ببعض ما يدعوله النبيء صلى الله عليه وسلم مما يوافق دينهم القديم كالتوحيد ونبوءة

موسى أو إلى إيمان أفراد منهم في بعض الأيام فإن إيمان أفراد قليلة منهم يستلزم صدور إيمان

من مجموع بني إسرائيل في أزمنة قليلة أو حصول إيمانات قليلة .

ويجوز أن يكون (قليلاً) هنا مستعملاً في معنى العدم فإن القلة تستعمل في العَدَم في كلام

العرب قال أبو كبير الهذلي :

قليلُ التشكي للمهم يصيبه . . .

كثيرُ الهوى شتى النوى والمسالك

(67/59)

أراد أنه لا يتشكى ، وقال عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود في أرض نصيبين "كثيرة

العقارب قليلة الأقارب" أراد عديمة الأقارب ويقولون : فلان قليل الحياء وذلك كله إما مجاز

لأن القليل شبه بالعدم وإما كناية وهو أظهر لأن الشيء إذا قل آل إلى الاضمحلال فكان

الانعدام لازماً عرفياً للقلة ادعائياً فتكون (ما) مصدرية والوجهان أشار إليهما في " الكشاف" باختصار واقتصر على الوجه الثاني منهما في تفسيره قولَه تعالى : ﴿ ءإله مع الله قليلاً ما تذكرون ﴾ في سورة النمل (62) فقال : والمعنى نفي التذكير والقلة تستعمل في معنى النفي وكأنَّ وجه ذلك أن التذكر من شأنه تحصيل العلم فلو تذكر المشركون المخاطبون بالآية لحصل لهم العلم بأن الله واحد لا شريك له ، كيف وخطابهم بقوله : ءإله مع الله ﴾ المقصود منه الإنكار بناء على أنهم غير معتقدين ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 1 صـ 582. 583 ﴾

فائدة

قال الطبرى :

وأولى التأويلات في قوله : (فقليلا ما يؤمنون) بالصواب ، ما نحن متقنوه إن شاء الله . وهو أن الله جل ثناؤه أخبر أنه لعن الذين وصف صفتهم في هذه الآية ، ثم أخبر عنهم أنهم قليلو الإيمان بما أنزل الله إلى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم . ولذلك نصب قوله : (فقليلا) ، لأنه نعت للمصدر المتروك ذكره . ومعناه : بل لعنهم الله بكفرهم ، فإيمانا قليلا ما يؤمنون . فقد تبين إذاً بما بينا فساد القول الذي روي عن قتادة في ذلك . لأن معنى ذلك ، لو كان على ما روي من أنه يعني به : فلا يؤمن منهم إلا قليل ، أو فقليل منهم من يؤمن ، لكان" القليل" مرفوعا لا منصوبا . لأنه إذا كان ذلك تأويله ، كان" القليل" حينئذ مرافعا" ما" . فإذْ

نصب "القليل" – و "ما" في معنى "من" أو "الذي" – [فقد] بقيت "ما" لا مرافع لها .

وذلك غير جائز في لغة أحد من العرب .

(68/59)

فأما أهل العربية فإنهم اختلفوا في معنى "ما" التي في قوله : (فقليلا ما يؤمنون) . فقال بعضهم : هي زائدة لا معنى لها ، وإنما تأويل الكلام : فقليلا يؤمنون ، كما قال جل ذكره : (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ) [آل عمران : 159] وما أشبه ذلك ، فزعم أن "ما" في ذلك زائدة ، وأن معنى الكلام : فبرحمة من الله لنت لهم ، وأنشد في ذلك محتجا لقوله ذلك – بيت مهلهل :

لو بأبانين جاء يخطبها . . . خضب ما أنف خاطب بدم

وزعم أنه يعني : خضب أنف خاطب بدم ، وأن "ما" زائدة .

وأنكر آخرون ما قاله قائل هذا القول في "ما" ، في الآية وفي البيت الذي أنشده ، وقالوا : إنما ذلك من المتكلم على ابتداء الكلام بالخبر عن عموم جميع الأشياء ، إذ كانت "ما" كلمة تجمع كل الأشياء ، ثم تخص وتعم ما عمته بما تذكره بعدها .

وهذا القول عندنا أولى بالصواب . لأن زيادة ما لا يفيد من الكلام معنى في الكلام ، غير

جائز إضافته إلى الله جل ثناؤه .

ولعل قائلا أن يقول : هل كان للذين أخبر الله عنهم أنهم قليلا ما يؤمنون – من الإيمان قليل أو كثير ، فيقال فيهم : " فقليلا ما يؤمنون" ؟

قيل : إن معنى " الإيمان" هو التصديق . وقد كانت اليهود التي أخبر الله عنها هذا الخبر تصدق بوحدانية الله ، وبالبعث والثواب والعقاب ، وتكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم ونبوته ، وكل ذلك كان فرضا عليهم الإيمان به ، لأنه في كتبهم ، ومما جاءهم به موسى ، فصدقوا ببعض – وذلك هو القليل من إيمانهم – وكذبوا ببعض ، فذلك هو الكثير الذي أخبر الله عنهم أنهم يكفرون به .

(69/59)

وقد قال بعضهم : إنهم كانوا غير مؤمنين بشيء ، وإنما قيل : (فقليلا ما يؤمنون) ، وهم بالجميع كافرون ، كما تقول العرب : " قلما رأيت مثل هذا قط" . وقد روي عنها سماعا منها : مررت ببلاد قلما تنبت إلا الكراث والبصل" يعني : ما تنبت غير الكراث والبصل ، وما أشبه ذلك من الكلام الذي ينطق به بوصف الشيء بـ " القلة" ، والمعنى فيه نفي جميعه . انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الطبرى حـ 2 صـ 329 . 331 ﴾

ومن فوائد ابن عرفة فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ . . . ﴾ .

الظّاهر أنه بلسان المقال لا بلسان الحال ، واختلفوفي تفسيرها ؟

فقال الزمخشري : أي خلقت قلوبهم غير قابلة (للإيمان) بوجه .

ونقل ابن عطية عن ابن عباس رضي الله عنه : أن المعنى قلوبنا ذات غلاف يمنعها من (قبول) الإيمان .

والأول أشد ، أو معناه أنّها ممتنعة من القبول لذاتها وهذا يقتضي أنّ المانع لها غير ما قال الزمخشري .

وقيل : غُلْف مخفف غَلَفَ جمع غِلاَفٍ أي قلوبنا غِلاَف لغيرها ، والغلاف الوعاءُ ، أي هو وعاء للعلم ، وهو نقيض الأول لأنه يقتضي أنها مستغنية بعلمها عن علم الرّسول الذي (جاء) به .

وعلى الأول يكونون : إما قصدوا الاستهزاء به ، وإما الاستعذار (له) بأنّهم جاهلون (لا يفهمون ذلك ولا يطيقون ، فعلى أنّهم قصدوا الإخبار) بأنّهم (غنِيّون بعلمهم عن علمه) يكون الإضراب يدلّ على ذلك الكلام حقيقة ، وكذلك إن أرادوا أنها خلقت غير قابلة للإيمان فالإضراب عن لازم ذلك وهو الاستعذار أي لا عذر لهم في ذلك بوجه لأن كونها

ذات مانع هو الثابت في نفس الأمر فلا يصح (إبطاله) . انتهى انتهى . ا هـ ﴾ تفسير ابن عرفة حـ 1 صـ 366. 367 ﴾

(70/59)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ (88) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : إنما سمي القلب لتقلبه .

وأخرج الطبراني في الأوسط عن ابن عباس أنه كان يقرأ ﴿ قلوبنا غلف ﴾ مثقلة ، كيف تتعلم وإنما قلوبنا غلف للحكمة أي أوعية للحكمة .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ وقالوا قلوبنا غلف ﴾ مملوءة علماً لا تحتاج إلى علم محمد صلى الله عليه وسلم ولا غيره .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن عطية في قوله ﴿ وقالوا قلوبنا غلف ﴾ قال : هي القلوب المطبوع عليها .

وأخرج وكيع عن عكرمة في قوله ﴿ قلوبنا غلف ﴾ قال : عليها طابع .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد ﴿ وقالوا قلوبنا غلف ﴾ عليها غشاوة.

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة في قوله ﴿ وقالوا قلوبنا غلف ﴾ قال: قالوا لا تفقه.

وأخرج ابن أبي شيبة وابن أبي الدنيا في كتاب الإخلاص وابن جرير عن حذيفة قال: القلوب أربعة: قلب أغلف فذلك قلب الكافر، وقلب مصفح فذلك قلب المنافق، وقلب أجرد فيه مثل السراج فذلك قلب المؤمن، وقلب فيه إيمان ونفاق، فمثل الإيمان كمثل شجرة يمدها ماء طيب، ومثل النفاق كمثل قرحة يمدها القيح والدم، فأي المادتين غلبت صاحبتها أهلكته.

وأخرج الحاكم وصححه عن حذيفة قال: تعرض فتنة على القلوب، فأي قلب أنكرها نكتت في قلبه نكتة بيضاء، وأي قلب لم ينكرها نكتت في قلبه نكتة سوداء، ثم تعرض فتنة أخرى على القلوب فإن أنكرها القلب الذي أنكرها نكتت في قلبه نكتة بيضاء، وإن لم ينكرها نكتت نكتة سوداء، ثم تعرض فتنة أخرى فإن أنكرها ذلك القلب الذي اشتد وابيض وصفاً ولم تضره فتنة أبداً، وإن لم ينكرها في المرتين الأوليتين أسود وارتد ونكس، فلا يعرف حقاً ولا ينكر منكراً.

وأخرج ابن أبي شيبة في كتاب الايمان والبيهقي في شعب الإيمان عن علي رضي الله عنه قال : إن الإيمان يبدو لحظة بيضاء في القلب ، فكلما ازداد الإيمان عظماً ازداد ذلك البياض ، فإذا استكمل الإيمان ابيض القلب كله ، وإن النفاق لحظة سوداء في القلب ، فكلما ازداد النفاق عظماً ازداد ذلك السواد ، فإذا استكمل النفاق اسود القلب كله ، وأيم الله لو شققتم على قلب مؤمن لوجدتموه أبيض ، ولو شققتم عن قلب منافق لوجدتموه أسود .

وأخرج أحمد بسند جيد عن أبي سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " القلوب أربعة : قلب أجرد فيه مثل السراج يزهر ، وقلب أغلف مربوط على غلافه ، وقلب منكوس ، وقلب مصفح ، فأما القلب الأجرد فقلب المؤمن سراجه فيه نوره ، وأما القلب الأغلف فقلب الكافر ، وأما القلب المنكوس فقلب المنافق الكافر عرف ثم أنكر ، وأما القلب المصفح فيه إيمان ونفاق ، ومثل الإيمان كمثل البقلة يمدها الماء الطيب ، ومثل النفاق كمثل القرحة يمدها القيح والدم ، فأي المدتين غلبت على الأخرى غلبت عليه " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سلمان الفارسي موقوفاً مثله سواء .

وأما قوله تعالى : ﴿ فقليلاً ما يؤمنون ﴾ .

أخرج عبد الرزاق وابن جرير عن قتادة في قوله ﴿ فقليلاً ما يؤمنون ﴾ قال : لا يؤمن منهم إلا قليل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 1 صـ 214. 215 ﴾

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّه بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ (88) ﴾

الله سبحانه وتعالى يذكر لنا كيف برر بنو إسرائيل عدم إيمانهم وقتلهم الأنبياء وكل ما حدث منهم . . فماذا قالوا ؟ لقد قالوا " قلوبنا غلف" والغلف مأخوذ من الغلاف والتغليف . . وهناك غلف بسكون اللام ، وغلف بضم اللام . . مثل كتاب وكتب " قلوبنا غلف" أي مغلفة وفيها من العلم ما يكفيها ويزيد ، فكأنهم يقولون إننا لسنا في حاجة إلي كلام الرسل . . أو " قلوبنا غلف" أي مغلفة ومطبوع عليها . . أي أن الله طبع على قلوبهم وختم عليها حتى لا ينفذ إليها شعاع من الهداية ولا يخرج منها شعاع من الكفر .

إذا كان الله سبحانه وتعالى قد فعل هذا . . ألم تسألوا أنفسكم لماذا ؟ ما هو السبب ؟ والحق تبارك وتعالى يرد عليهم فيقول : " بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يؤمنون" : لفظ " بل" يؤكد لنا أن كلامهم غير صحيح . . فهم ليس عندهم كفاية من العلم بحيث لا يحتاجون إلي منهج الرسل . . ولكنهم ملعونون ومطرودون من رحمة الله . . فلا تنفذ إشعاعات

النور ولا الهداية إلي قلوبهم . . ولكن ذلك ليس لأن ختم عليها بلا سبب . . ولكنه جزاء على أنهم جاءهم النور والهدى . . فصدوه بالكفر أولا . . ولذلك فإنهم أصبحوا مطرودين من رحمة الله . . لأن من يصد الإيمان بالكفر يطرد من رحمة الله ، ولا ينفذ إلي قلبه شعاع من أشعة الإيمان .

وهنا يجب أن نتنبه إلي أن الله سبحانه وتعالى لم يبدأهم باللعنة . وبعض الناس الذين يريدون أن يهربوا من مسئولية الكفر علها تنجيهم من العذاب يوم القيامة يقولون إن الله سبحانه وتعالى قال :

فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ

(من الآية 8 سورة فاطر)

تلك هي حجة الكافرين الذين يظنون إنها ستنجيهم من العذاب يوم القيامة . . إنهم يريدون أن يقولوا إن الله يضل من يشاء . . وما دام الله قد شاء أن يضلني فما ذنبي أنا ؟ وهل أستطيع أن أمنع مشيئة الله . . نقول له : إن الله إذا قيد أمرا من الأمور المطلقة فيجب أن نلجأ إلي التقييد . . والله تبارك وتعالى يقول :

وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ

(من الآية 37 سورة التوبة)

ويقول سبحانه :

وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ

(من الآية 19 سورة التوبة)

ويقول جل جلاله :

وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ

(من الآية 24 سورة التوبة)

والحق سبحانه وتعالى أخبرنا أنه منع إعانته للهداية عن ثلاثة أنواع من الناس . . الكافرين والظالمين والفاسقين . . ولكن هل هو سبحانه وتعالى منع معونة الهداية أولا ؟ أم أنهم هم الذين ارتكبوا من الضلال ما جعلهم لا يستحقون هداية الله ؟ ! إنسان واجه الله بالكفر . . كفر بالله . . رفض أن يستمع لآيات الله ورسله . . ورفض أن يتأمل في كون الله . . ورفض أن يتأمل في خلقه هو نفسه ومن الذي خلقه . . ورفض أن يتأمل في خلق السماوات والأرض . . كل هذا رفضه تماما . . ومضى يصنع لنفسه طريق الضلال ويشرع لنفسه الكفر . . لأنه فعل ذلك أولا . . ولأنه بدأ بالكفر برغم أن الله سبحانه

وتعالى وضع له في الكون وفي نفسه آيات تجعله يؤمن بالله ، وبرغم ذلك رفض . هو الذي بدأ والله سبحانه وتعالى ختم على قلبه .

(74/59)

الإنسان الظالم يظلم الناس ولا يخشى الله . . يذكرونه بقدره الله وقوة الله فلا يلتفت . . يختم الله على قلبه . . كذلك الإنسان الفاسق الذي لا يترك منكرا إلا فعله . . ولا إثما إلا ارتكبه . . ولا معصية إلا أسرع إليها . . لا يهديه الله . . أكنت تريد أن يبدأ هؤلاء الناس بالكفر والظلم والفسوق ويصرون عليه ثم يهديهم الله ؟ يهديهم قهرا أو قسراً ، والله سبحانه وتعالى خلقنا مختارين ؟ طبعا لا . . ذلك يضع الاختيار البشري في أن يطيع الإنسان أو يعصى .

والحق تبارك وتعالى أثبت طلاقة قدرته فيما نحن مقهورون فيه . . في أجسادنا التي تعمل أعضاءها الداخلية بقهر من الله سبحانه وتعالى وليس بإرادة منا كالقلب والتنفس والدورة الدموية . . والمعدة والأمعاء والكبد . . كل هذا وغيره مقهور لله جل جلاله . . لا نستطيع أن نأمره ليفعل فيفعل . . وأن نأمره ألا يفعل فلا يفعل . . وأثبت الله سبحانه وتعالى طلاقة قدرته فيما يقع علينا من أحداث في الكون . . فهذا يمرض ، وهذا تدهمه

سيارة، وهذا يقع عليه حجر . . وهذا يسقط، وهذا يعتدي عليه إنسان . . كل الأشياء التي تقع عليك لا دخل لك فيها ولا تستطيع أن تمنعها . . بقى ذلك الذي يقع منك وأهمه تطبيق منهج الله في افعل ولا تفعل . . هذا لك اختيار فيه .

(75/59)

إن الله سبحانه وتعالى أوجد لك هذا الاختيار حتى يكون الحساب في الآخرة عدلا . . فإذا اخترت الكفر لا يجبرك الله على الإيمان . . وإذا اخترت الظلم لا يجبرك الله على العدل . . وإذا اخترت الفسوق لا يجبرك الله على الطاعة . . إنه يحترم اختيارك لأنه أعطاك هذا الاختيار ليحاسبك عليه يوم القيامة . لقد أثبت الله لنفسه طلاقة القدرة بأنه يهدي من يشاء ويضل من يشاء . ولكنه سبحانه قال إنه لا يهدي القوم الكافرين ولا القوم الظالمين ولا القوم الفاسقين . . فمن يرد أن يخرج من هداية الله فليكفر أو يظلم أو يفسق . . ويكون في هذه الحالة هو الذي اختار فحق عليه عقاب الله . . لذلك فقد قال الكافرون من بني إسرائيل إن الله ختم على قلوبهم فهم لا يهتدون، ولكنهم هم الذين اختاروا هذا الطريق ومشوا فيه . . فاختاروا عدم الهداية . .

لقد أثارت هذه القضية جدلاً كبيراً بين العلماء ولكنها في الحقيقة لا تستحق هذا الجدل

. . فالله سبحانه وتعالى قال : " بل لعنهم الله بكفرهم" . . واللعن هو الطرد والإبعاد من رحمة الله . . ويتم ذلك بقدرة الله سبحانه وتعالى . . لأن الطرد يتناسب مع قوة الطارد . فمثلا . . ابنك الصغير يطرد حجرا أمامه تكون قوة الطرد متناسبة مع سنه وقوته . . والأكبر أشد فأشد . . فإذا كان الطارد هو الله سبحانه وتعالى فلا يكون هناك مقدار لقوة اللعن والطرد يعرفه العقل البشري. قوله تعالى : " بل لعنهم الله بكفرهم" . . أي طردهم الله بسبب كفرهم . . والله تبارك وتعالى لا يتودد للناس لكي يؤمنوا . . ولا يريد للرسل أن يتعبوا أنفسهم في حمل الناس على الإيمان . . إنما وظيفة الرسول هي البلاغ حتى يكون الحساب حقا وعدلا . . واقرأ قوله جل جلاله :

لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ(3) إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ(4)

(سورة الشعراء)

أي أهم لا يستطيعون ألا يؤمنون إذا أردناهم مؤمنين قهرا . . ولكننا نريدهم مؤمنين اختيارا . . وإيمان العبد هو الذي ينتفع به . . فالله لا ينتفع بإيمان البشر . . وقولنا لا إله إلا الله لا

يسند عرش الله . . قلناها أو لم نقلها فلا إله إلا الله . . ولكننا نقولها لتشهد علينا يوم القيامة . . نقولها لتنجينا من أهوال يوم القيامة ومن غضب الله . . وقوله تعالى : " بكفرهم" يعطينا قضية مهمة هي : أنه تبارك وتعالى أغنى الشركاء عن الشرك . فمن يشرك معه أحدا فهو لمن أشرك . . لذلك يقول الحق جل جلاله في الحديث القدسي : (أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه) . رواه مسلم

وشهادة الله سبحانه وتعالى لنفسه بالألوهية . . هي شهادة الذات للذات . . وذلك في قوله تعالى :

شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ

(من الآية 18 سورة آل عمران)

فالله سبحانه وتعالى قبل أن يخلق خلقا يشهدون أنه لا إله إلا الله . . شهد لنفسه بالألوهية . . ولنقرأ الآية الكريمة :

شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ

(من الآية 18 سورة آل عمران)

والله سبحانه وتعالى شهد لنفسه شهادة الذات للذات . والملائكة شهدوا بالمشاهدة . . وأولو العلم بالدليل . . والحق تبارك وتعالى يقول : " فقليلا ما يؤمنون " . . عندما تقول قليلا ما يحدث كذا ، فإنك تقصد به هنا صيانة الاحتمال ، لأنه من الممكن أن يثوب واحد منهم إلي رشده ويؤمن . . فيبقى الله الباب مفتوحا لهؤلاء . ولذلك نجد الذين أسرفوا على أنفسهم في شبابهم قد يأتون في آخر عمرهم ويتوبون . . في ظاهر الأمر أنهم أسرفوا على أنفسهم . . ولكنهم عندما تابوا واعترفوا بخطاياهم وعادوا إلي طريق الحق تقبل الله إيمانهم . . لذلك يقول الله جل جلاله : " فقليلا ما يؤمنون " أي أن الأغلبية تظل على كفرها . . والقلة هي التي تعود إلي الإيمان . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 450 . 454 ﴾

(78/59)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

" قُلُوبُنَا غُلْفٌ " مبتدأ وخبر ، والجملة في محلّ نصب بالقول قبله ، وقرأ الجمهور : " غُلْف "

بسكون اللام، وفيها وجهان: أحدهما: وهوالأظهر أن يكن جمع "أَغْلَف" ك "أحمَر وحُمْر" و "أصفر وصُفْر"، والمعنى على هذا: أنها خلقت وجعلت مغشّاة لا يصل إليها الحَقّ، فلا تفهمه ونظيره: ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ ﴾ [فصلت: 5] قال مجاهد وقتادة استعارة من الأَغْلَف الذي لم يَخْتَتِنْ.

والثاني: أن يكون جمع "غلاف"، ويكون أصل اللام الضم، فتخفف نحو: "حمار وحمر"، و "كتاب وكتب"، إلاّ أن تخفيف "فُعُل" إنما يكون في المفرد غالباً نحو: "عُنُق" في "عُنْق" وأما "فُعْل" الجمع فقال ابن عطية: "لا يجوز تخفيفه إلاَّ في ضرورة"، وليس كذلكن بل هو قليل، وقرأ ابن عَبَّاس والأعرج ويروى عن أبي عمرو بضمّ اللام، وهو جمع "غلاف"، ولا يجوز أن يكون "فُعُل" في هذه القراءة جمع أَغْلَف؛ لأن تثقيل "فعل" الصحيح العين، لا يجوز إلاَّ في شعر، والمعنى على هذه القراءة: أن قلوبنا أوعية فهي غير محتاجة إلى علم آخر، وهو قول ابن عباس وعَطَاء.

وقال الكلبي: "معناه "أوعية لكلّ علم فهي لا تسمع حديثاً إلا وَعَتْهُ إلاَّ حديثك لا تعلقه ولا تعيه، ولو كان فيه خبر لفهمته ووعته".

وقيل: غلف كالغلاف الذي لا شيء فيه مما يدلّ على صحة قولك: التغليف كالتعمية في المعنى.

قوله: "بَل لَّعَنَهُمُ اللهُ" "بل": حرف إضراب، والإضراب راجع إلى ما تضمَّنه قولهم من

أن قلوبهم غُلْف ، فردّ الله عليهم ذلك بأن سببه لعنهم بكفرهم السّابق ، والإضراب على قسمين : إبطال ، وانتقال .

فالأول ، نحو : " ما قام زيد بل عمرو " ، والانتقال كهذه الآية ، ولا تعطف " بل " إلا المفردات ، وتكون في الإيجاب والنفي والنهي ، ويزاد قبلها " لا " تأكيداً .

(79/59)

واللَّعن : الطَّرد والبُعْد ، ومنه : شأْو لَعِينٌ ، أي : بعيد ؛ قال الشَّمَّاخ : [الوافر]

653 ذَعَرْتُ بِهِ القَطَا وَنَفَيْتُ عَنْهُ . . .

مَقَامَ الذِّئْبِ كَالرَّجُلِ اللَّعِينِ

أي : الرجل البعيد ، وكان وجه الكلام أن يقول : " مقام الذّئب اللّعين كالرجل " والباء في " بكفرهم " للسبب ، وهي متعلّقة بـ " لَعَنَهُم " .

وقال الفارسي : النية به التقدم أي : وقالوا : قلوبنا غلف بسبب كفرهم ، فتكون الباء متعلقة بـ " قالوا " ، وتكون " بل لعنهم " جملة معترضة ، وفيه بُعْد ، ويجوز أن تكون حالاً من المفعول في " لعنهم " أي : لعنهم كافرين ، أي : ملتبسين بالكُفْرِ كقوله ﴿ وَقَدْ دَّخَلُواْ بالكفر ﴾ [المائدة : 61] .

قوله : " فَقَلِيلاً مَا يؤْمِنُونَ " في نصب " قليلاً " ستة أوجه :

أحدها : أنه نَعْت لمصدر محذوف ، أي : فإيماناً قليلاً يؤمنون ؛ لأنهم كانوا يؤمنون بالله ، ويكفرون بالرسل .

الثاني : أنه حال من ضمير ذلك [المصدر] المحذوف ، أي : فيؤمنونه أي : الإيمان في حال قلّته ، وقد تقدم أنه مذهب سيبويه ، وتقدّم تقريره .

الثالث : أنه صفة لزمان محذوف ، أي : فزماناً قليلاً يؤمنون ، وهو كقوله : ﴿ آمِنُواْ بالذي أُنْزِلَ عَلَى الذين آمَنُواْ وَجْهَ النهار واكفروا آخِرَهُ ﴾ [آل عمران : 72] .

الرابع : أنه على إسقاط الخافض ، والأصل : فبقليل يؤمنون ، فلما حذف حرف الجرّ انتصب ، ويعزى لأبي عبيدة .

الخامس : أن يكون حالاً من فاعل " يؤمنون " أي : فَجَمْعاً قليلاً يؤمنون ، أي : المؤمن فيهم قليلٌ ، قال معناه ابن عباس وقتادة والأصم وأبو مسلم .

قال ابن الخطيب : " وهو الأولى ؛ لأن نظيره قوله : ﴿ بَلْ طَبَعَ الله عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [النساء : 155] ، ولأن الجملة الأولى إذا كان المصرح فيها [ذكر] القوم فيجب أن يتناول الاستثناء بعض هؤلاء القوم " .

وقال المهدوي : ذهب قتادة إلى أن المعنى : فقليل منهم يؤمن ، وأنكره النحويون ، وقالوا : لو كان كذلك للزم رفع " قليل " .

وأجيب : بأنه لا يلزم الرَّفْع مع القول بالمعنى الذي ذهب إليه قَتَادَةُ لما تقدم من أنَّ نصبه على الحال وافٍ بهذا المعنى .

و " ما " على هذه الأقوال كلها مزيدة للتأكيد .

السادس : أن تكون " ما " نافية ، أي فما يؤمنون قليلاً ولا كثيراً ، ومثله : ﴿ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [الأعراف : 10] ﴿ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف : 3] ، كما يقال : قليلاً ما يغفل أي : لا يعقل ألبتة .

قال الكِسَائي : " تقول العرب : مررنا بأرض قليلاً ما تنبت " ، يريدون : لا تنبت شيئاً ، وهذا قول الوَاقِدِيّ .

وهو قوي من جهة المعنى ، وإنما يضعف من جهة تقديم ما في حَيّزها عليها قاله أبو البقاء [وإليه ذهب ابن الأنباري] ، إلا أن تقديم ما في حيّزها عليها لم يُجِزْه البصريون ، وأجازه الكوفيون .

قال أبو البقاء : " ولا يجوز أن تكون " ما " مصدرية ؛ لأن " قليلاً " يبقى بلا ناصب " ، يعني : أنك إذا جعلتها مصدرية كان ما بعدها صلتها ، ويكون المصدر مرفوعاً بـ " قليلاً " على

أنه فاعل به فأين الناصب له ؟ وهذا بخلاف قوله تعالى : ﴿ كَانُواْ قَلِيلاً مِّن الليل مَا يَهْجَعُونَ ﴾ [الذاريات : 17] فإن " ما " هاهنا يجوز أن تكون مصدرية ؛ لأن " قليلاً " منصوب بـ " كان " وقال الزمخشري : " يجوز أن تكون القلّة بمعنى العدم " .

(81/59)

وقال أبو حَيَّان : وما ذهب إليه من أن " قليلاً " يراد به النَّفي فصحيح ، لكن في غير هذا التركيب ، أعني قوله تعالى : " فَقَلِيلاً ما يُؤْمِنُونَ " لأن " قليلاً " انتصب بالفعل المثبت ، فصار نظير : " قمت قليلاً " أي : قمت قياماً قليلاً ، ولا يَذْهب ذاهب إلى أنك إذا أتيت بفعل مثبت ، وجعلت " قليلاً " منصوباً نعتاً لمصدر ذلك الفِعْل يكون المعنى في المثبت الواقع على صفة ، أو هيئة انتفاء ذلك المثبت رأساً وعدم وقوعه بالكلية ، وإنما الذي نقل النحويون : أنه قد يراد بالقلّة النفي المحض في قولهم : " أقل رجل يقول ذلك وقلّما يقوم زيد " ، وإذا تقرر هذا فحمل القلّة على النفي المحض هنا ليس بصحيح " انتهى .

وأجيب [بأن ما] قاله الزمخشري من أن معنى التقليل هنا النَّفي قد قال به الوَاقِدِيّ قبله ، كما تقدم فإنه قال : " أي : لا قليلاً ولا كثيراً " ، كما تقول : قلّما يفعل كذا ، أي : ما يفعله أصلاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 2 صـ 269 ـ 273 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ (88) ﴾

لو كان منهم شيء بمجرد الدعوى لهان وجود المعاني ، ولكن عند مطالبات التحقيق تَفْتَرُّ أنيابُ المُتَلَبِّسِين عن أسنانٍ شاحذة بل (. . . .) وقيل :

إذا انسكبت دموعٌ في خدود . . . تبيَّن مَنْ بكى ممن تباكى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 104 ﴾

(82/59)

قوله تعالى ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (89) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما ذكر سبحانه من جلافتهم ما ختمه بلعنهم وكان قد قدم ذكر كتابهم مراراً وأشار إلى الإنجيل بإيتاء عيسى عليه السلام البينات ذكر سبحانه كفرهم بهذا الكتاب الذي

مقصود السورة وصفه بالهدى وبهذا الرسول الآتي به دليلاً على إغراقهم في الكفر ، لأنهم مع استفتاحهم به صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه على من يعاديهم واستبشارهم به وإشهادهم أنفسهم بالسرور بمجيئه كانوا أبعد الناس من دعوته تمادياً في الكفر وتقيداً بالضلال ، فكان هذا الدليل أبين من الأول عند أهل ذلك العصر وذلك قوله تعالى : ﴿ ولما جاءهم كتاب ﴾ أي جامع لجميع الهدى لعظمته لكونه ﴿ من عند الله ﴾ الجامع لجميع صفات الكمال ، ثم ذكر من المحببات لهم في اتباعه قوله ﴿ مصدقاً لما معهم ﴾ على لسان نبي يعرفون صحة أمره بأمور يشهد بها كتابهم ، وبتصديق هذا الكتاب له بإعجاز نظمه وتصديق معناه لكتابهم ، والجواب محذوف ودل ما بعد على أنه كفروا به ، وفي ذلك قاصمة لهم لأن كتابهم يكون شاهداً على كفرهم ، ولما بين شهادة كتابهم أتبعه شهادتهم لئلا يحرفوا معنى ذلك فقال ﴿ وكانوا ﴾ أي والحال أنهم كانوا ، ولما كان استفتاحهم في بعض الزمان أثبت الجار فقال : ﴿ من قبل ﴾ أي قبل مجيئه ﴿ يستفتحون ﴾ أي يسألون الله الفتح بالاسم الآتي به تيمناً بذكره ! ! ﴿ على الذين كفروا ﴾ يعني أنهم لم يكونوا في غفله عنه بل كانوا أعلم الناس به وقد وطنوا أنفسهم على تصديقه ومع ذلك كله ﴿ فلما

جاءهم ﴿ برسالة محمد صلى الله عليه وسلم علم ﴿ ما عرفوا ﴾ أي ما صدقه بما ذكر من نعوته في كتابهم ﴿ كفروا به ﴾ اعتلالاً بأنواع من العلل البينة الكذب ، منها زعمهم أن جبريل عليه السلام عدوهم وهو الآتي به ؛ قال الثعلبي والواحدي : " روى ابن عباس رضي الله عنهما أن عبد الله بن صوريا حاجّ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أشياء ، فلما اتجهت الحجة عليه قال : أي ملك يأتيك من السماء ؟ قال : جبريل ، ولم يبعث الله نبياً إلا وهو وليه – وفي رواية

(84/59)

: وسأله عمن يهبط عليه بالوحي ، فقال : جبريل – فقال : ذاك عدونا ، ولو كان غيره لآمنا بك " وقال ابن إسحاق في السيرة : حدثني عبد الله ابن عبد الرحمن بن أبي حسين المكي عن شهر بن حوشب الأشعري " أن نفراً من أحبار يهود جاؤوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : خبرنا عن أربع نسألك عنهن ، فإن فعلت اتبعناك وصدقناك وآمنا بك ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : عليكم بذلك عهد الله وميثاقه لئن أنا أخبرتكم بذلك لتصدقني ، قالوا : نعم ، قال : فاسألوا عما بدا لكم ! قالوا : فأخبرنا : كيف يشبه الولد أمه وإنما النطفة من الرجل ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنشدكم بالله

وبأيامه عند بني إسرائيل هل تعلمون أن نطفة الرجل بيضاء غليظة ونطفة المرأة صفراء رقيقة فأيتهما علت صاحبتها كان الشبه لها ؟ قالوا : اللهم نعم ، قالوا : فأخبرنا عن كيف نومك ؟ قال : أنشدكم بالله وبأيامه عند بني إسرائيل هل تعلمون أن نوم الذي تزعمون أني لست به تنام عينه وقلبه يقظان ؟ قالوا : اللهم نعم ، قال : فكذلك نومي ، تنام عيني وقلبي يقظان ، قالوا : فأخبرنا عما حرم إسرائيل على نفسه ، قال : أنشدكم بالله وبأيامه عند بني إسرائيل هل تعلمون أنه كان أحب الطعام والشراب إليه ألبان الإبل ولحومها وأنه اشتكى شكوى فعافاه الله منها فحرم على نفسه أحب الطعام والشراب إليه شكراً لله فحرم على نفسه لحوم الإبل وألبانها ؟ قالوا : اللهم نعم ؛ قالوا : فأخبرنا عن الروح ، قال : أنشدكم بالله وبأيامه هل تعلمون جبريل وهو الذي يأتيني ؟ قالوا : اللهم نعم ولكنه يا محمد لنا عدو ، وهو ملك إنما يأتي بالشدة وسفك الدماء ، ولولا ذلك لاتبعناك .

(85/59)

فأنزل الله فيهم (قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقاً لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين) [البقرة : 97] إلى قوله : (أوكلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم بل أكثرهم لا يؤمنون) [البقرة : 100] ، وأصل ذلك في البخاري في خلق آدم

والهجرة والتفسير عن أنس بن مالك رضي الله عنه – من روايات جمعت بين ألفاظها – قال : (أقبل نبي الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة أي في الهجرة – إلى أن قال : فأقبل يسير حتى نزل إلى جانب دار أبي أيوب رضي الله عنه ، فإنه ليحدث أهله إذ سمع به عبد الله بن سلام وهو في نخل لأهله يخترف لهم ، فعجل أن يضع التي يخترف لهم فيها فجاء وهي معه ، فسمع من نبي الله (صلى الله عليه وسلم) ثم رجع إلى أهله ، فقال نبي الله (صلى الله عليه وسلم) : (أي بيوت أهلنا أقرب (– فذكر نزوله على أبي أيوب رضي الله عنه ثم قال : (فلما جاء نبي الله (صلى الله عليه وسلم) جاء عبد الله بن سلام رضي الله عنه فقال : أشهد أنك رسول الله وأنك جئت بحق وقد علمت يهود أني سيد هم وابن سيد هم وأعلمهم وابن أعلمهم فادعهم فسلهم عني قبل أن يعلموا أني قد أسلمت ، فإنهم إن يعلموا أني قد أسلمت قالوا فيّ ما ليس فيّ (وفي رواية : (بلغ عبد الله بن سلام مقدم النبي (صلى الله عليه وسلم) وهو في أرض يخترف فأتاه فقال : إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي ( ) ما أول اشراط الساعة ؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة ؟ ومن أي شيء ينزع الولد إلى أبيه ومن أي شيء ينزع إلى أخواله (وفي رواية : (وما ينزع الولد إلى أبيه أو إلى أمه – فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : أخبرني بهن جبريل آنفاً ، فقال عبد الله : ذاك عدو اليهود من الملائكة ، فقرأ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) هذه الآية :

(من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله) [البقرة : 97]

أما أول أشراط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب ، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد حوت) وفي رواية (الحوت) (وأما الشبه في الولد فإن الرجل إذا غشي المرأة فسبقها ماؤه كان الشبه له ، وإذا سبقت كان الشبه لها) وفي رواية : (وإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد ، وإذا سبق ماء المرأة نزعت) (قال : اشهد أنك رسول الله ثم قال : يا رسول الله إن اليهود قوم بهت ، إن علموا بإسلامي قبل أن تسألهم بهتوني عندك ، فأرسل نبي الله (صلى الله عليه وسلم) فدخلوا عليه) وفي رواية : (فجاءت اليهود ودخل عبد الله البيت – فقال لهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : يا معشر اليهود ويلكم اتقوا الله ، فوالله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أني رسول الله وأني جئتكم بحق فأسلموا ، قالوا : ما نعلمه – قالوا للنبي (صلى الله عليه وسلم) وقالها ثلاث مرار ، قال : فأي رجل فيكم عبد الله بن سلام ؟ قالوا : ذاك سيدنا وابن سيدنا وأعلمنا وابن أعلمنا وأخيرنا وابن أخيرنا ، قال : أفرأيتم إن أسلم قالوا : حاشا لله ما كان ليسلم) وفي رواية : (أعاذه الله من ذلك) قال : (يا ابن سلام اخرج عليهم) ، فخرج فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، يا معشر اليهود اتقوا الله فوالله الذي لا إله إلا هو إنكم

لتعلمون أنه رسول الله وأنه جاء بحق ، قالوا : كذبت ، وقالوا : شرنا وابن شرنا ، ووقعوا فيه فانتقصوه ، قال : فهذا الذي كنت أخاف يا رسول الله فأخرجهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) (وللواحدي في أسباب النزول عن عمر رضي الله عنه قال : (كنت آتي اليهود عند دراستهم التوراة فأعجب من موافقة القرآن التوراة وموافقة التوراة القرآن ، فقالوا : يا عمر ما أحد أحب إلينا منك ، قلت : ولم ؟ قالوا : لأنك تأتينا وتغشانا ، قلت : إنما أجيء لأعجب من تصديق كتاب الله بعضه بعضاً وموافقة التوراة القرآن وموافقة القرآن

(87/59)

التوراة ، فبينا أنا عندهم ذات يوم إذ مر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) خلف ظهري فقالوا : إن هذا صاحبك فقم إليه ، فالتفت فإذا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قد دخل خوخة من المدينة ، فأقبلت عليهم فقلت : أنشدكم الله وما أنزل عليكم من كتاب أتعلمون أنه رسول الله ؟ قال سيدهم : قد نشدكم بالله فأخبروه ، فقالوا : أنت سيدنا فأخبره ، فقال سيدهم : نعلم أنه رسول الله ، قلت : فأني أهلككم إن كتم تعلمون أنه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ثم لم تتبعوه ، فقالوا : إن لنا عدواً من الملائكة وسلماً

من الملائكة ، فقلت : من عدوكم ومن سلمكم ؟ قالوا : عدونا جبريل ، قلت : ومن سلمكم ؟ قالوا : ميكائيل ، قلت : فإني اشهد ما يحل لجبريل أن يعادي سلم ميكائيل ، وما يحل لميكائيل ، قلت : فإني أشهد ما يحل لجبريل أن يعادي سلم ميكائيل ، وما يحل لميكائيل ، أن يسالم عدو جبريل ، وإنهما جميعاً ومن معهما أعداء لمن عادوا وسلم لمن سالموا ، ثم قمت فاستقبلني – يعني رسول الله (صلى الله عليه وسلم) – فقالوا : يا ابن الخطاب ألا أقرئك آيات ؟ فقرأ

(من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك (حتى بلغ) وما يكفر بها إلا الفاسقون) [البقرة : 99] قلت والذي بعثك بالحق ما جئتك إلا أخبرك بقول اليهود فإذا اللطيف الخبير قد سبقني بالخبر قال عمر : (فلقد رأيتني في دين الله أشد من حجر) انتهى .

وقد سألت بعض فضلاء اليهود الموجودين في زماننا عن عداوتهم لجبريل عليه السلام فلم يسمح بالتصريح وقال : ما يعطى ذلك .

وقد روى هذا الحديث أيضاً إسحاق بن راهويه في مسنده عن الشعبي عن عمر رضي الله عنه ، قال شيخنا البوصيري : وهو مرسل صحيح الإسناد وفيه : أنه قال لهم : (وكيف منزلتهما من ربهما ؟ قالوا : أحدهما عن يمينه والآخر من الجانب الآخر ، وإني أشهد أنهما وربهما سلم لمن سالموا وحرب لمن حاربوا) .

ولما بين سبحانه بهذا أنهم أعتى الناس وأشدهم تدليساً وبهتاً بل كذباً وفسقاً كانوا أحق الناس بوصف الكفر فسبب عن ذلك قوله : (فلعنة الله) أي الذي له الأمر كله) على الكافرين (فأظهر موضع الإضمار تعليقاً للحكم بالوصف ليعم وإشعاراً بصلاح من شاء الله منهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 191. 195 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أن هذا نوع من قبائح اليهود .

أما قوله تعالى : ﴿ كِتَابٌ ﴾ فقد اتفقوا على أن هذا الكتاب هو القرآن لأن قوله تعالى : ﴿ مُصَدّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ يدل على أن هذا الكتاب غير ما معهم وما ذاك إلا القرآن . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 164 ﴾

قوله تعالى ﴿ مُصَدّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ ﴾

فصل

قال الفخر :

لا شبهة في أن القرآن مصدق لما معهم في أمر يتعلق بتكليفهم بتصديق محمد صلى الله عليه وسلم في النبوة واللائق بذلك هو كونه موافقاً لما معهم في دلالة نبوته إذ قد عرفوا أنه ليس

بموافق لما معهم في سائر الشرائع وعرفنا أنه لم يرد الموافقة في باب أدلة القرآن ، لأن جميع كتب الله كذلك ولما بطل الكل ثبت أن المراد موافقته لكتبهم فيما يختص بالنبوة وما يدل عليها من العلامات والنعوت والصفات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 164 ﴾

فصل

قال الفخر :

في جواب " لما " ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه محذوف كقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الجبال ﴾ [الرعد : 31] فإن جوابه محذوف وهو .

لكان هذا القرآن ، عن الأخفش والزجاج ، وثانيها : أنه على التكرير لطول الكلام والجواب : كفروا به كقوله تعالى : ﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ أَنَّكُمْ مُّخْرَجُونَ ﴾ [المؤمنون : 35] عن المبرد ، وثالثها : أن تكون الفاء جواباً لـ (لما) الأولى ﴿ وَكَفَرُواْ بِهِ ﴾ جواباً لـ (لما) الثانية وهو كقوله : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ [البقرة : 38] [طه : 133] الآية عن الفراء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح

الغيب حـ 3 صـ 164 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الذين كَفَرُواْ ﴾

فصل في سبب النزول

قال الفخر :

في سبب النزول وجوه .

أحدها : أن اليهود من قبل مبعث محمد عليه السلام ونزول القرآن كانوا يستفتحون ، أي يسألون الفتح والنصرة وكانوا يقولون : اللهم افتح علينا وانصرنا بالنبي الأمي .

وثانيها ؛ كانوا يقولون لمخالفيهم عند القتال : هذا نبي قد أظل زمانه ينصرنا عليكم ، عن ابن عباس .

وثالثها : كانوا يسألون العرب عن مولده ويصفونه بأنه نبي من صفته كذا وكذا ، ويتفحصون عنه على الذين كفروا أي على مشركي العرب ، عن أبي مسلم .

ورابعها : نزلت في بني قريظة والنضير ، كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله قبل المبعث .

عن ابن عباس وقتادة والسدي .

وخامسها : نزلت في أحبار اليهود كانوا إذا قرؤوا وذكروا محمداً في التوراة وأنه مبعوث وأنه من العرب سألوا مشركي العرب عن تلك الصفات ليعلموا أنه هل ولد فيهم من يوافق حاله

حال هذا المبعوث . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 164.165 ﴾

قوله تعالى ﴿ فَلَمَّا جَاءهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ ﴾

فصل

قال الفخر :

(90/59)

تدل الآية على أنهم كانوا عارفين بنبوته وفيه سؤال : وهو أن التوراة نقلت نقلاً متواتراً ، فأما أن يقال : إنه حصل فيها نعت محمد صلى الله عليه وسلم على سبيل التفصيل ، أعني بيان أن الشخص الموصوف بالصورة الفلانية والسيرة الفلانية سيظهر في السنة الفلانية في المكان الفلاني ، أو لم يوجد هذا الوصف على هذا الوجه ، فإن كان الأول كان القوم مضطرين إلى معرفة شهادة التوراة على صدق محمد عليه الصلاة والسلام ، فكيف يجوز على أهل التواتر إطباقهم على الكذب وإن لم يكن الوصف على هذه الصفة لم يلزم من الأوصاف المذكورة في التوراة كون محمد صلى الله عليه وسلم رسولاً ، فكيف قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ ﴾ ؟ والجواب : أن الوصف المذكور في التوراة كان وصفاً إجمالياً وأن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يعرفوا نبوته بمجرد تلك الأوصاف ، بل بظهور

المعجزات صارت تلك الأوصاف كالمؤكدة ، فلهذا ذمهم الله تعالى على الإنكار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 165 ﴾

فائدة

قال الفخر :

يحتمل أن يقال : كفروا به لوجوه .

أحدها : أنهم كانوا يظنون أن المبعوث يكون من بني إسرائيل لكثرة من جاء من الأنبياء من بني إسرائيل وكانوا يرغبون الناس في دينه ويدعونهم إليه ، فلما بعث الله تعالى محمداً من العرب من نسل إسماعيل صلوات الله عليه ، عظم ذلك عليهم فأظهروا التكذيب وخالفوا طريقهم الأول .

وثانيها : اعترافهم بنبوته كان يوجب عليهم زوال رياساتهم وأموالهم فأبوا وأصروا على الإنكار .

وثالثها : لعلهم ظنوا أنه مبعوث إلى العرب خاصة فلا جرم كفروا به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 165 ﴾

فائدة

قال الفخر :

إنه تعالى كفرهم بعد ما بين كونهم عالمين بنبوته ، وهذا يدل على أن الكفر ليس هو الجهل

بالله تعالى فقط . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 165 ﴾

قوله تعالى ﴿ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الكافرين ﴾

فصل

قال الفخر :

(91/59)

أما قوله تعالى : ﴿ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الكافرين ﴾ فالمراد الإبعاد من خيرات الآخرة ، لأن المبعد من خيرات الدنيا لا يكون ملعوناً .

فإن قيل : أليس أنه تعالى ذكر في الآية المتقدمة : ﴿ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ [البقرة : 83] وقال : ﴿ وَلاَ تَسُبُّواْ الذين يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ فَيَسُبُّواْ اللهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الأنعام : 108]

قلنا : العام قد يتطرق إليه التخصيص على أنا بينا فيما قبل أن لعن من يستحق اللعن من القول الحسن . والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 165 ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ فلعنة الله على الكافرين ﴾ : لما كان الكتاب جائياً من عند الله إليهم ، فكذبوه

وستروا ما سبق لهم عرفانه ، فكان ذلك استهانة بالمرسل والمرسل به .

قابلهم الله بالاستهانة والطرد ، وأضاف اللعنة إلى الله تعالى على سبيل المبالغة ، لأن من لعنه الله تعالى هو الملعون حقيقة .

﴿ قل هل أنبئكم بشرّ من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله ﴾ ﴿ ومن يعلن الله فلن تجد له نصيراً ﴾ ثم إنه لم يكتف باللعنة حتى جعلها مستعلية عليهم ، كأنه شيء جاءهم من أعلاهم ، فجللهم بها ، ثم نبه على علة اللعنة وسببها ، وهي الكفر ، كما قال قبل : ﴿ بل لعنهم الله بكفرهم ﴾ ، وأقام الظاهر مقام المضمر لهذا المعنى ، فتكون الألف واللام للعهد ، أو تكون للعموم ، فيكون هؤلاء فرداً من أفراد العموم .

قال الزمخشري : ويجوز أن تكون للجنس ، ويكون فيه دخولاً أولياً .

ونعني بالجنس العموم ، وتخيله أنهم يدخلون فيه دخولاً أولياً ليس بشيء ، لأن دلالة العلة على إفراده ليس فيها بعض الإفراد أولى من بعض ، وإنما هي دلالة على كل فرد فرد ، فهي دلالة متساوية .

وإذا كانت دلالة متساوية ، فليس فيها شيء أول ولا أسبق من شيء . انتهى انتهى . اهـ

﴿ البحر المحيط حـ 1 صـ 472 ﴾

وقال الخطيب الشربينى :

﴿ فلعنة الله ﴾ أي : عذابه وطرده ﴿ على الكافرين ﴾ أي : عليهم ، وإنما أتى بالمظهر

للدلالة على أنهم لعنوا لكفرهم فتكون اللام للعهد ويجوز أن تكون للعموم ويدخلون فيه دخولاً أولياً أو قصدياً لأنهم المقصودون بالذات وتناول الكلام لغيرهم على سبيل التبع فهو كما إذا ظلمك إنسان فقلت : ألا لعنة الله على الظالمين كان ذلك الظالم أوّلياً أو مقصوداً في الدعاء والباقون تبعاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ السراج المنير حـ 1 صـ 122 . 123 ﴾

(92/59)

ومن فوائد ابن عرفة فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ . . . ﴾

قال الزمخشري : أي ما عرفوا من الحق كفروا به بغيا وحسدا وحرصا على الرئاسة .

قال ابن عطية : المراد بقوله " مَّا عَرَفُواْ " الرّسول صلى الله عليه وسلم ؟

قال ابن عرفة : واستشكلوه لأنّ " ما " لا تقع إلا على (ما لا يعقل) (أو على أنواع من يعقل) .

وأجيب بأنها واقعة على صفة من يعقل لا على ذاته ، أي ما عرفوا من نبوته وصفاته وصحّة رسالته كفروا به ، وكان بعضهم يأخذ من الآية جواز الاكتفاء في الشهادة والأحكام

بالصفة دون تعريف .

وأجيب : بأنه احتفت به قرائن تقوم مقام التّعيين ، وهي المعجزات التي جاءهم بها .

وردَّ بأن المعجزات خارجة عن هذا وكافية وحدها ، وليست مذكورة في الآية إنما المذكور فيها معرفتهم له من حيث الصفة التي في كتابهم فقط من غير ضميمة إلى ذلك .

وفي كتاب اللقطة : وإذا وصل كتاب القاضي إلى قاض آخر ، وثبت عنه بشاهدين ، فإن كان الفعل موافقا لما في كتاب القاضي من صفته ، وخاتم القاضي في عنقه لم يكلف الذي جاء به أن يقيم بينة أنّ هذا (الحكم) هو الذي حكم به عليه .

قوله تعالى : ﴿ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الكافرين ﴾

قال ابن عرفة : وانظر هل هذا إنشاء أو إخبار لقول متقدم ؟ ثم قال : لا يبعد أن يكون إنشاء ، وتكون اللّعنة مقولة بالتشكيك والتفاوت ، / لأن هؤلاء كفروا وهم جاهلون ، إذا بنينا على أن ذلك (استعذار) ، وهؤلاء كفروا بعد علمهم ومجيء الكتاب لهم فاللّعنة في حقهم أشد . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عرفة حـ 1 صـ 367.369 ﴾

ومن فوائد أبى السعود فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَلَمَّا جَاءهُمْ كتاب ﴾ هو القرآن ، وتنكيرُه للتفخيم ووصفُه بقوله عز وجل ﴿ مِنْ عِندِ الله ﴾ أي كائنٌ من عنده تعالى للتشريف ﴿ مُصَدّقٌ لّمَا مَعَهُمْ ﴾ من التوراة عُبر عنها بذلك لما أن المعيةَ من موجبات الوقوفِ على ما في تضاعيفها المؤدّي إلى العلم بكونه مصدقاً لهما ، وقرئ (مصدّقاً) على أنه حال من كتاب لتخصصه بالوصف ﴿ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ ﴾ أي من قبل مجيئِه ﴿ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الذين كَفَرُواْ ﴾ أي وقد كانوا قبل مجيئه يستفتحون به على المشركين ويقولون : اللهم انصرنا بالنبي المبعوث في آخر الزمانِ الذي نجد نعته في التوراة ويقولون لهم : قد أظل زمانُ نبيَ يخرج بتصديق ما قلنا فنقتلُكم معه قتلَ عادٍ وإرَمَ . قال ابن عباس وقتادة والسدي : نزلت في بني قُرَيظةَ والنضير كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله صلى الله عليه وسلم قبل مبعثِه وقيل : معنى يستفتحون يفتحون عليهم ويُعرّفونهم بأن نبياً يُبعث منهم قد قرُب أوانُه والسين للمبالغة كما في استعجب أي يسألون من أنفسهم الفتحَ عليهم أو يسأل بعضُهم بعضاً أن يَفتحَ عليهم . وعلى التقديرين فالجملة حاليةٌ مفيدةٌ لكمال مكابرتهم وعنادِهم ، وقولُه عز وعلا : ﴿ فَلَمَّا جَاءهُمُ ﴾ تكريرٌ للأول لطول العهد بتوسط الجملةِ الحاليةِ ، وقولُه تعالى : ﴿ مَّا عَرَفُواْ ﴾ عبارةٌ عما سلف من الكتاب لأن معرفةَ من أنزل عليه هو معرفةٌ له ، والاستفتاحُ به

استفتاح به ، وإيرادُ الموصولِ دون الاكتفاء بالإضمار لبيان كمالِ مكابرتهم ، فإن معرفةَ ما جاءهم من مبادىء الإيمان به ودواعيه لا محالةَ والفاء للدلالة على تعقيب مجيئِه للاستفتاح به من غير أن يتخلل بينهما مدةٌ منسيةٌ له وقوله تعالى : ﴿ كَفَرُواْ بِهِ ﴾ جوابُ (لّما) الأولى كما هو رأيُ المبرّد أو جوابُهما معاً كما قاله أبو البقاء وقيل : جوابُ الأولى محذوفٌ لدلالة المذكورِ عليه فيكونُ قولُه تعالى :

وكانوا الخ جملةً معطوفةً على الشرطية عطفَ القصة على القصة والمرادُ (بما عرفوا) النبيُّ صلى الله عليه وسلم ، كما هو المراد بما (كانوا يستفتحون به) فالمعنى ولما جاءهم كتابٌ مصدقٌ لكتابهم كذّبوه وكانوا من قبل مجيئِه يستفتحون بمن أُنزل عليه ذلك الكتابُ فلما جاءهم النبيُّ الذي عرَفوه كفروا به ﴿ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الكافرين ﴾ اللامُ للعهد أي عليهم ، ووضعُ المظهرِ موضِعَ المُضْمَرِ للإيذان بأن حلولَ اللعنةِ بسبب كفرِهم كما أن الفاءَ للإيذان بترتبها عليه ، أو للجنس وهم داخلون في الحُكم دخولاً أولياً إذ الكلامُ فيهم ، وأياً ما كان فهو محقّقٌ لمضمون قوله تعالى : ﴿ بَل لَّعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ . ﴾ . انتهى انتهى . اهـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 1 صـ 128 . 129 ﴾

ومن فوائد الآلوسى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَلَمَّا جَاءهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللهِ ﴾ وهو القرآن وتنكيره للتعظيم ووصفه بما عنده للتشريف والإيذان بأنه جدير بأن يقبل ما فيه ويتبع لأنه من خالقهم وإلههم الناظر في مصالحهم ، والجملة عطف على ﴿ قَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾ [البقرة : 88] أي وكذبوا لما جاءهم الخ ﴿ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ من كتابهم أن نازل حسبما نعت أو مطابق له ، و(مصدق) صفة ثانية لكتاب وقدمت الأولى عليها لأن الوصف بكينونته من عنده تعالى آكد ووصفه بالتصديق ناشىء عنها وجعله مصدقاً لكتابهم لا مصدقاً به إشارة إلى أنه بمنزلة الواقع ونفس الأمر لكتابهم لكونه مشتملاً على الإخبار عنه محتاجاً في صدقه إليه ؛ وإلى أنه باعجازه مستغن عن تصديق الغير ، وفي مصحف أبيّ ﴿ مُصَدِّقاً ﴾ بالنصب ، وبه قرأ ابن أبي عبلة ، وهو حينئذ حال من الضمير المستقر في الظرف ، أو من كتاب لتخصيصه بالوصف المقرب له من المعرفة ، واحتمال أن الظرف لغو متعلق بجاء بعيد فلا يضر على أن سيبويه جوّز مجيء الحال من النكرة بلا شرط

﴿ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الذين كَفَرُواْ ﴾ نزلت في بني قريظة والنضير كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه قاله ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وقتادة والمعنى يطلبون من الله تعالى أن ينصرهم به على المشركين ، كما روى السدي أنهم كانوا إذا اشتد الحرب بينهم وبين المشركين أخرجوا التوراة ووضعوا أيديهم على موضع ذكر النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا : اللهم إنا نسألك بحق نبيك الذي وعدتنا أن تبعثه في آخر الزمان أن تنصرنا اليوم على عدوّنا فينصرون فالسين للطلب والفتح متضمن معنى النصر بواسطة (على) أو يفتحون عليهم من قولهم : فتح عليه إذا علمه ووقفه كما في قوله تعالى : ﴿ أَتُحَدّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ الله عَلَيْكُمْ ﴾ [البقرة : 76] أي يعرفون المشركين أن نبياً يبعث منهم وقد قرب زمانه فالسين زائدة للمبالغة ، كأنهم فتحوا بعد طلبه من أنفسهم والشيء بعد الطلب أبلغ وهو من باب التجريد ، جرّدوا من أنفسهم أشخاصاً وسألوهم الفتح كقولهم : استعجل كأنه طلب العجلة من نفسه ، ويؤول المعنى إلى يا نفس عرّفي المشركين أن نبياً يبعث منهم ، وقيل : (يستفتحون) بمعنى يستخبرون عنه صلى الله عليه وسلم ، هل ولد مولود صفته كذا وكذا ؟ نقله الراغب وغيره ، وما قيل : إنه لا يتعدى بعلى لا يسمع بمجرد التشهي .

﴿ فَلَمَّا جَاءهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ ﴾ كنى عن الكتاب المتقدم بما عرفوا لأن معرفة من أنزل عليه معرفة له ، والاستفتاح به استفتاح به ، وإيراد الموصول دون الاكتفاء بالإضمار لبيان كمال مكابرتهم ، ويحتمل أن يراد به النبي صلى الله عليه وسلم وما قد يعبر بها عن صفات من يعقل ، وبعضهم فسره بالحق إشارة إلى وجه التعبير عنه عليه الصلاة والسلام بما وهو أن المراد به الحق لا خصوصية ذاته المطهرة وعرفانهم ذلك حصل بدلالة المعجزات والموافقة لما نعت في كتابهم فإنه كالصريح عند الراسخين فلا يرد أن نعت الرسول في التوراة إن كان مذكوراً على التعيين فكيف ينكرونه فإنه مذكور بالتواتر وإلا فلا عرفان للاشتباه على أن الإيراد في غاية السقوط ، لأن الآية مساقة على حد قوله تعالى : ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا واستيقنتها أَنفُسُهُمْ ﴾ [النمل : 14] أي جحدوه مع علمهم به وهذا أبلغ في ذمهم و ﴿ كَفَرُواْ ﴾ جواب لما الأولى ولما الثانية تكرير لها لطول العهد كما في قوله تعالى : ﴿ لاَ تَحْسَبَنَّ الذين يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلاَ تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مّنَ العذاب ﴾ [آل عمران : 188] وإلى ذلك ذهب المبرد ، وقال الفراء : لما الثانية مع جوابها جواب الأولى كقوله تعالى : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مّنّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ ﴾ [البقرة : 38] الخ ، وعلى الوجهين يكون قوله سبحانه : ﴿ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ ﴾ جملة حالية بتقدير قد مقررة ، واختار الزجاج والأخفش أن جواب الأولى محذوف أي كذبوا به مثلاً وعليه

يكون ﴿ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ ﴾ الخ مع ما عطف عليه من قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءهُمُ ﴾ من الشرط ، والجزاء جملة معطوفة على لما جاءهم بعد تمامها ، تدل الأولى على معاملتهم مع الكتاب المصدق ، والثانية مع الرسول المستفتح به ، وارتضاه بعض المحققين لما في الأول من

لزوم التأكيد والتأسيس أولى منه واستعمال الفاء للتراخي الرتبي فإن مرتبة المؤكد بعد مرتبة المؤكد ، ولما في الثاني من دخول الفاء في جواب (لما) مع أنه ماض وهو قليل جداً حتى لم يجوزه البصريون ولو جوز وقوعها زائدة (فلما) لا تجاب بمثلها لا يقال لما جاء زيد ، لما قعد عمرو أكرمتك بل هو كما ترى تركيب معقود في لسانهم مع خلو الوجهين عن فائدة عظيمة وهو بيان سوء معاملتهم مع الرسول واستلزامهما جعل و(كانوا) حالاً ، واختار أبو البقاء إن (كفروا) جواب لما الأولى ، والثانية ولا حذف لأن مقتضاهما واحد وليس بشيء كجعل ﴿ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الكافرين ﴾ .

جواباً للأولى وما بينهما اعتراض واللام في الكافرين للعهد أي عليهم ووضع المظهر موضع المضمر للإشعار بأن حلول اللعنة عليهم بسبب كفرهم كما أن الفاء للإيذان بترتبها عليه ، وجوز كونها للجنس ويدخلون فيه دخولاً أولياً ، واعترض بأن دلالة العام متساوية فليس

فيها شيء أول ولا أسبق من شيء ، والجواب أن المراد دخولاً قصدياً لأن الكلام سيق بالأصالة فيهم ويكون ذلك من الكناية الإيمائية ويصار إليها إذا كان الموصوف مبالغاً في ذلك الوصف ومنهمكاً فيه حتى إذا ذكر خطر ذلك الوصف بالبال كقولهم لمن يقتني رذيلة ويصر عليها أنا إذا نظرتك خطر ببالي سبابك وسباب كل من هو من أبناء جنسك فاليهود لما بالغوا في الكفر والعناد وكتمان أمر الرسول صلى الله عليه وسلم ونعى الله تعالى عليهم ذلك صار الكفر كأنه صفة غير مفارقة لذكرهم وكان هذا الكلام لازماً لذكرهم ورديفه وأنهم أولى الناس دخولاً فيه لكونهم تسببوا استجلاب هذا القول في غيرهم وجعل السكاكي من هذا القبيل قوله :

إذا الله لم يسق إلا الكراما . . .

فيسقي وجوه بني حنبل

فإنه في إفادة كرم بني حنبل كما ترى لا خفاء فيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 320 . 321 ﴾

(98/59)

ومن فوائد ابن عاشور فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾

معطوف على قوله : ﴿ وقالوا قلوبنا غلف ﴾ [البقرة : 88] لقصد الزيادة في الإنحاء عليهم بالتوبيخ فإنهم لو أعرضوا عن الدعوة المحمدية إعراضاً مجرداً عن الأدلة لكان في إعراضهم معذرة ما ولكنهم أعرضوا وكفروا بالكتاب الذي جاء مصدقاً لما معهم والذي كانوا من قبل يستفتحون به على المشركين .

فقوله : ﴿ من عند الله ﴾ متعلق بجاءهم وليس صفة لأنه ليس أمراً مشاهداً معلوماً حتى يوصف به .

وقوله : ﴿ مصدق لما معهم ﴾ وصف شأن لقصد زيادة التسجيل عليهم بالمذمة في هذا الكفر والقول في تفسيره قد مضى عند قوله تعالى : ﴿ وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم ﴾ [البقرة : 41] .

والاستفتاح ظاهره طلب الفتح أي النصر قال تعالى : ﴿ إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح ﴾ [الأنفال : 19] وقد فسروه بأن اليهود كانوا إذا قاتلوا المشركين أي من أهل المدينة استنصروا عليهم بسؤال الله أن يبعث إليهم الرسول الموعود به في التوراة .

وجوز أن يكون ﴿ يستفتحون ﴾ بمعنى يفتحون أي يعلمون ويخبرون كما يقال فتح على القارىء أي علمه الآية التي ينساها فالسين والتاء لمجرد التأكيد مثل زيادتهما في استعصم واستصرخ واستعجب والمراد كانوا يخبرون المشركين بأن رسولاً سيبعث فيؤيد المؤمنين ويعاقب المشركين .

5 وقوله : ﴿ فلما جاءهم ما عرفوا ﴾ أي ما كانوا يستفتحون به أي لما جاء الكتاب الذي عرفوه كفروا به وقد عدل عن أن يقال فلما جاءهم الكتاب ليكون اللفظ أشمل فيشمل الكتاب والرسول الذي جاء به فإنه لا يجيء كتاب إلا مع رسول .

ووقع التعبير بما الموصولة دون مَن لأجل هذا الشمول ولأن الإبهام يناسبه الموصول الذي هو أعم فإن الحق أن ما تجيء لما هو أعم من العاقل .

والمراد بما عرفوا القرآن أي أنهم عرفوه بالصفة المتحققة في الخارج وإن جهلوا انطباقها على القرآن لضلالهم لأن الظاهر أن بني إسرائيل لم يكن أكثرهم يعتقد صدق القرآن وصدق الرسول وبعضهم كان يعتقد ذلك ولكنه يتناسى ويتغافل حسداً قال تعالى : ﴿ حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق ﴾ [البقرة : 109] ويصير معنى الآية : " وما

جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم" وعرفوا أنه الذي كانوا يستفتحون به على المشركين.

وجملة: ﴿ وكانوا من قبل يستفتحون ﴾ في موضع الحال وفائدتها هنا استحضار حالتهم العجيبة وهي أنهم كذبوا بالكتاب والرسول في حال ترقبهم لمجيئه وانتظار النصر به وهذا منتهى الخذلان والبهتان.

وقوله: ﴿ فلما جاءهم ما عرفوا ﴾ بالفاء عطف على جملة ﴿ كانوا يستفتحون ﴾.

(100/59)

و(لما) الثانية تتنازع مع (لما) الأولى الجواب وهو قوله: ﴿ كفروا به ﴾ فكان موقع جملة (وكانوا) إلخ بالنسبة إلى كون الكتاب مصدقاً موقع الحال لأن الاستنصار به أو التبشير به يناسب اعتقاد كونه "مصدقاً لما معهم" وموقعها بالنسبة إلى كون الكتاب والرسول معروفين لهم بالأمارات والدلائل موقع المنشإ من المتفرع عنه مع أن مفاد جملة ﴿ لما جاءهم كتاب من عند الله ﴾ إلخ وجملة ﴿ لما جاءهم ما عرفوا ﴾ إلخ واحد وإعادة (لما) في الجملة الثانية دون أن يقول: وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فجاءهم ما عرفوا إلخ قصد إظهار اتحاد مفاد الجملتين المفتتحتين بلما وزيادة الربط بين المعنيين حيث

انفصل بالجملة الحالية فحصل بذلك نظم عجيب وإيجاز بديع ، وطريقة تكرير العامل مع كون المعمول واحداً طريقة عربية فصحى ، قال تعالى : ﴿ لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ﴾ [آل عمران : 188] وقال : ﴿ أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً أنكم مخرجون ﴾ [المؤمنون : 35] فأعاد (أنكم) قبل خبر الأولى وقد عدلنا في هذا البيان عن طريقة الزجاج وطريقة المبرد وطريقة الفراء المذكورات في ﴿ حاشية الخفاجي وعبد الحكيم ﴾ وصغناه من محاسن تلك الطرائق كلها لما في كل طريقة منها من مخالفة للظاهر .

وقوله : ﴿ فلعنة الله على الكافرين ﴾ جملة دعاء عليهم وعلى أمثالهم والدعاء من الله تعالى تقدير وقضاء لأنه تعالى لا يعجزه شيء وليس غيره مطلوباً بالأدعية وهذا كقوله : ﴿ وقالت اليهود الله مغلولة غلت أيديهم ﴾ [المائدة : 64] وقوله : ﴿ قاتلهم الله أنى يؤفكون ﴾ [التوبة : 30] وسيأتي بيانه عند قوله تعالى : ﴿ عليهم دائرة السوء ﴾ في سورة براءة (98) .

والفاء للسببية والمراد التسبب الذكري بمعنى أن ما قبلها وهو المعطوف عليه يسبب أن ينطق المتكلم بما بعدها كقول قيس بن الخطيم :

وكنت امرءاً لا أسمع الدهر سبة . . .

أسب بها إلا كشفت غطاءها

فإني في الحرب الضروس موكل . . .

بإقدام نفس ما أريد بقاءها

فعطف قوله : (فإني) على قوله كشفت غطاءها لأن هذا الحكم يوجب بيان أنه في الحرب مقدام .

واللام في (الكافرين) للاستغراق بقرينة مقام الدعاء يشمل المتحدث عنهم لأنهم من جملة أفراد هذا العموم بل هم أول أفراده سبقاً للذهن لأن سبب ورود العام قطعي الدخول ابتداء في العموم .

وهذه طريقة عربية فصيحة في إسناد الحكم إلى العموم والمراد ابتداءً بعض أفراده لأن دخول المراد حينئذ يكون بطريقة برهانية كما تدخل النتيجة في القياس قال بَشَامَةُ بن حَزن النهشلي :

إنَّا محيوك يا سَلْمى فحيينا . . .

وإن سَقَيْتِ كرام الناس فاسقِينا

أراد الكناية عن كرمهم بأنهم يُسقون حين يُسقى كرام الناس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير

والتنوير حـ 1 صـ 583.585 ﴾

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (89) ﴾

أخرج عبد حميد وابن جرير عن قتادة في قوله ﴿ ولما جاءهم كتاب من عند الله ﴾ قال : هو القرآن ﴿ مصدق لما معهم ﴾ قال : من التوراة والإنجيل .

وأما قوله تعالى : ﴿ وكانوا من قبل يستفتحون ﴾ الآية .

(102/59)

أخرج ابن إسحق وابن جرير وابن المنذر وأبو نعيم والبيهقي كلاهما في الدلائل من طريق عاصم بن عمر بن قتادة الأنصاري حدثني أشياخ منا قالوا : لم يكن أحد من العرب أعلم بشأن رسول الله صلى الله عليه وسلم منا ، كان معنا يهود ، وكانوا أهل كتاب وكنا أصحاب وثن ، وكنا إذا بلغنا منهم ما يكرهون قالوا : إن نبياً يبعث الآن قد أظل زمانه نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فلما بعث الله رسوله اتبعناه وكفروه به ، ففينا - والله -

وفيهم أنزل الله ﴿ وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا . . . ﴾ الآية كلها .

وأخرج البيهقي في الدلائل من طريق السدي عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وناس من الصحابة في الآية قال : كانت العرب تمر باليهود فيؤذونهم ، وكانوا يجدون محمداً في التوراة فيسألون الله أن يبعثه نبياً فيقاتلون معه العرب ، فلما جاءهم محمد كفروا به حين لم يكن من بني إسرائيل .

وأخرج أبو نعيم في الدلائل من طريق عطاء والضحاك عن ابن عباس قال : كانت يهود بني قريظة والنضير من قبل أن يبعث محمد صلى الله عليه وسلم يستفتحون الله ، يدعون على الذين كفروا ويقولون : اللهم إنا نستنصرك بحق النبي الأمي إلاَّ نصرتنا عليهم فينصرون ﴿ فلما جاءهم ما عرفوا ﴾ يريد محمداً ولم يشكوا فيه ﴿ كفروا به ﴾ .

وأخرج أبو نعيم في الدلائل من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال : كان يهود أهل المدينة قبل قدوم النبي صلى الله عليه وسلم إذا قاتلوا من يليهم من مشركي العرب من أسد ، وغطفان ، وجهينة ، وعذرة ، يستفتحون عليهم ويستنصرون ، يدعون عليهم باسم نبي الله فيقولون : اللهم ربنا انصرنا عليهم باسم نبيك وبكتابك الذي تنزل عليه ، الذي وعدتنا إنك باعثه في آخر الزمان .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وأبو نعيم عن قتادة قال : كانت اليهود تستفتح بمحمد على كفار العرب ، يقولون : اللهم ابعث النبي الذي نجده في التوراة يعذبهم ويقتلهم ، فلما بعث الله محمداً كفروا به حين رأوه بعث من غيرهم حسداً للعرب ، وهم يعلمون أنه رسول الله .

وأخرج الحاكم والبيهقي في الدلائل بسند ضعيف عن ابن عباس قال : كانت يهود خيبر تقاتل غطفان فكلما التقوا هزمت يهود ، فعاذت بهذا الدعاء : اللهم إنا نسألك بحق محمد النبي الأمي الذي وعدتنا أن تخرجه لنا في آخر الزمان إلا نصرتنا عليهم ، فكانوا إذا التقوا دعوا بهذا فهزموا غطفان ، فلما بعث النبي صلى الله عليه وسلم كفروا به ، فأنزل الله ﴿ وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا ﴾ يعني وقد كانوا يستفتحون بك يا محمد إلى قوله ﴿ فلعنة الله على الكافرين ﴾ .

وأخرج ابن إسحق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس . أن يهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه ، فلما بعثه الله من العرب كفروا به وجحدوا ما كانوا يقولون فيه ، فقال لهم معاذ بن جبل ، وبشر بن البراء ، وداود بن سلمة : يا معشر يهود اتقوا الله وأسلموا ، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ونحن أهل شرك ، وتخبرونا بأنه مبعوث ، وتصفونه بصفته . فقال

سلام بن مشكم أحد بني النضير : ما جاءنا بشيء نعرفه ، وما هو بالذي كنا نذكر لكم ، فأنزل الله ﴿ ولما جاءهم كتاب من عند الله . . . ﴾ الآية .

(104/59)

وأخرج أحمد وابن قانع والطبراني والحاكم وصححه وأبو نعيم والبيهقي كلاهما في الدلائل عن سلمة بن سلامة وقش وكان من أهل بدر قال : كان لنا جار يهودي في بني عبد الأشهل ، فخرج علينا يوماً من بيته قبل مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بيسير حتى وقف على مجلس بني الأشهل ، قال سلمة : وأنا يومئذ أحدث من فيه سناً ، عليّ بردة مضطجعاً فيها بفناء أهلي ، فذكر البعث والقيامة والحساب والميزان والجنة والنار ، قال : ذلك لأهل شرك أصحاب أوثان لا يرون أن بعثاً كائن بعد الموت . فقالوا له : ويحك يا فلان . . ! ترى هذا كائناً أن الناس يبعثون بعد موتهم إلى دار فيها جنة ونار يجزون فيها بأعمالهم ؟ فقال : نعم ، والذي يحلف به يودّ أن له بحظه من تلك النار أعظم تنور في الدنيا يحمونه ثم يدخلونه إياه فيطينونه عليه وأن ينجو من تلك النار غداً . قالوا له : ويحك وما آية ذلك ؟ ! قال : نبي يبعث من نحو هذه البلاد ، وأشار بيده نحو مكة واليمن . فقالوا : ومتى نراه ؟ قال : فنظر إليّ من أحدثهم سناً أن يستنفذ هذا الغلام عمره يدركه ، قال سلمة : فوالله ما ذهب الليل

والنهار حتى بعث الله رسوله صلى الله عليه وسلم وهو بين أظهرنا ، فآمنا به وكفر به بغياً وحسداً ، فقلنا ويلك يا فلان ألست بالذي قلت لنا ؟ ! قال : بلى ، وليس به .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس ﴿ وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا ﴾ يقول يستنصرون بخروج محمد على مشركي العرب يعني بذلك أهل الكتاب ، فلما بعث الله محمداً ورأوه من غيرهم كفروا به وحسدوه .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن سعيد بن جبير في قوله ﴿ فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ﴾ قال : نزلت في اليهود عرفوا محمداً أنه نبي وكفروا به . انتهى انتهى . اهـ

﴿ الدر المنثور حـ 1 صـ 215 . 218 ﴾

(105/59)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " مِنْ عِنْدِ اللهِ " فيه وجهان :

أحدهما : أنه في محلّ رفع صفة لـ " كتاب " ، فيتعلّق بمحذوف ، أي كتاب كائن من عند الله .

والثاني : أن يكون في محلّ نصب لابتداء غاية المجيء قاله أبو البقاء .

وقد رد أبو حيان هذا الوجه فقال لا يقال : إنه يحتمل أن يكون " من عند الله " متعلقاً بـ " جَاءَهُمْ " ، فلا يكون صفةً ، للفصل بين الصفة والموصوف بما هو معمول لغير أحدهما يعني أنه ليس معمولاً للموصوف ولا للصفة ، فلا يفتقر الفصل به بينهما .

والجمهور على رفع " مصدق " على أنه صفة ثانية ، وعلى هذا يقال : قد وجد صفتان إحداهما صريحة ، والأخرى مؤولة ، وقد قدّمت المؤولة .

وقد تقدم أن ذلك ممتنع ، وإن زعم بعضهم أنه لا يجوز إلا ضَرُورَةً .

والذي حسن تقديم غير الصريحة أن الوصف بيكنونته من عند الله آكد ، وأن وصفه بالتصديق ناشىء عن كونه من عند الله .

وقرأ ابن أبي عبلة : " مصدقاً " نصباً ، وكذلك هو في مصحف أُبَيّ ، ونصبه على الحال ، وفي صاحبها قولان :

أحدهما : أنه " كتاب " .

فإن قيل : كيف جاءت الحال من النكرة ؟

فالجواب : أنها قربت من المعرفة لتخصيصها بالصفة وهو " مِنْ عِنْد اللهِ " كما تقدم .

على أن سيبويه أجاز مجيئها منها بلا شَرْطٍ ، وإلى هذا الوجه أشار الزمخشري .

والثاني : أنه الضَّمير الذي تحمله الجار والمجرور لوقوعه صفةً ، والعامل فيها إما الظرف ، أو

ما يتعلق به ، ولهذا اعترض بعضهم على سيبويه في قوله : ﴿ مجزوء الوافر]

654 لِمَيَّةَ مَوحِشاً طَلَلُ . . .

يَلوحُ كَأَنَّه خِلَلُ

إن " موحشاً " حال من " طَلَل " ، وساغ ذلك لتقدمه ، فقال : لا حاجة إلى ذلك ، إذ يمكن أن يكون حالاً من الضمير المستكنّ في قوله : " لِمَيَّةَ " الواقع خبراً لـ " طَلَل " ، وجوابه في موضع غير هذا .

واللام في " لما معهم " وقعت لتعدية " مصدق " لكونه فرعاً .

(106/59)

و " ما " موصولة ، والظَّرف صلتها ، ومعنى كون مصدقاً ، أي : موافقاً لما معهم من التوراة في أمر يتعلّق بتكاليفهم بتصديق محمد صلى الله عليه وسلم في النبوة ، وما يدلّ عليها من العلامات والنعوت ، فإنهم عرفوا أنه ليس بموافق لما مَعَهُمْ في سائر الشَّرائع ، وعلمنا أنه لم ترد الموافقة في أدلّة القرآن ؛ لأن جميع كتب الله كذلك ، فلم تبق إلاَّ الموافقة فيما ذكرناه .

قوله : " وكَانُوا " يجوز فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أن يكون معطوفاً على " جاءهم " فيكون جوابا " لما " مرتباً على المجيء

والكون .

والثاني : أن يكون حالاً ، أي : وقد كانوا ، فيكون جواب " لما " مرتباً على المجيء بقيد في مفعوله ، وهم كونهم يستفتحون .

قال أبو حيان : وظاهر كلام الزمخشري أن " وكانوا " ليست معطوفة على الفعل بعد " لما ، ولا حالاً لأنه قدر جواب " لما " محذوفاً قبل قبل تفسيره يستفتحون ، فدلَّ على أن قوله : " وكانوا " جملة معطوفة على مجموع الجملة من قوله : " ولما " .

وهذا هو الثالث .

و " مِنْ قَبْلُ " متعلق بـ " يستفتحون " ، والأصل : من قبل ذلك ، فلما قطع بني على الضم .

و " يَسْتَفْتِحُونَ " في محل نصب على أنه خبر " كان " .

واختلف النحويون في جواب " لما " الأولى الثانية .

فذهب الأخفش والزَّجاج إلى أن جواب الأولى محذوف تقديره : ولما جاءهم كتاب كفروا به ، وقدّره الزمخشري : " كذبوا به واستهانوا بمجيئه " .

وهو حسن ، ونظيره قوله : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الجبال ﴾ [الرعد : 31] أي : لكان هذا القرآن .

وذهب الفَرّاء إلى أن جوابها الفاء الداخلة على " لما " ، وهو عنده نظير قوله : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ ﴾ [البقرة : 38] قال : لا يجوز أن تكون

الفاء ناسقة ، إذ لا يصلح موضعها " الواو " .

و" كَفَرُوا " جواب " لما " الثانية على القولين .

(107/59)

وقال أبو البَقَاءِ : في جواب " لما " الأولى وجهان :

أحدهما : جوابها " لما " الثانية وجوابها ، وهذا ضعيف ؛ لأن " الفاء " مع " لما " الثانية ، و" لما " لا تجاب بالفاء إلاَّ أن يعتقد زيادة " الفاء " على ما يجيزه الأخفش .

قال شهاب الدين : ولو قيل برأي الأخفش في زيادة " الفاء " من حيث الجملة ، فإنه لا يمكن هاهنا لأن " لما " لا يجاب بمثلها ، لا يقال : " لما جاء زيد لما قعد أكرمتك " على أن يكون " لما قعد " جواب " لما جاء " والله أعلم .

وذهب المبرد إلى أن " كفروا " جواب " لما " الأولى ، وكررت الثَّانية لطول الكلام ، ويفيد ذلك تقرير الذنب وتأكيده كقوله تعالى : ﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ ﴾ [المؤمنون : 35] إلى قوله : ﴿ أَنَّكُمْ مُّخْرَجُونَ ﴾ [المؤمنون : 35] ، وهو حسن لولا أن " الفاء " تمنع من ذلك .

وقال أبو البقاء بعد أن حكى وجهاً أول : والثاني : أن " كفروا " جواب الأولى والثانية ؛ لأن

مقتضاها واحد .

وقيل : الثانية تكرير ، فلم تحتج إلى جواب .

فقوله : وقيل : الثانية تكرير ، هو قول المبرّد ، وهو في الحقيقة ليس مغايرةً للوجه الذي ذكره قبله من كون "كفروا" جواباً لهما بل هو هو .

قوله : ﴿ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الكافرين ﴾ جملة من مبتدأ أو خبر متسببة عمّا تقدم ، والمصدر هنا مضاف للفاعل ، وأتى بـ "على" تنبيهاً على أن اللَّعْنة قد استعلت عليهم وشملتهم .

وقال : "على الكافرين" ولم يقل : "عليهم" إقامة للظَّاهر مقام المضمر ، لينبّه على السبب المقتضي لذلك وهو الكفر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 2 صـ 273 . 277 ﴾ . باختصار .

(108/59)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى عَرَفَ)

عرفه يعرِفه مَعْرِفة وعِرْفاناً فهو عارِف وعَرِيف وعَرُوفة : عَلِمَهُ .

وقرأَ الكسائى : ﴿ عَرَّفَ بَعْضَهُ ﴾ مخفَّفة أَى جازى حفصَة ببعض ما فعلتْ .

ومنه : أَعرِف للمحسن والمسىءِ ، أَى لا يخفى علىَّ ذلك ولا مقابلته بما يوافقه .

والمعرفة : إِدراك الشىءِ بتفكُّر وتدبّر لأَثره ، وهو أَخَصّ من العلم ، ويقال : فلان يعرف اللهَ ، ولا يقال : يعلم اللهَ متعدّياً إِلى مفعول واحد ، لَمَّا كان معرفة البشر لله هى بتدبّر آثاره دون إِدراك ذاته .

ويقال : اللهُ يعلم كذا ولا يقال : يعرف كذا ، لَمَّا كان المعرفة تستعمل فى العلم القاصر المتوصَّل إِليه بتفكُّر وتدبّر .

وقد ورد فى القرآن لفظ المعرفة ولفظ العلم .

فلفظ المعرفة كقوله تعالى : ﴿ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ﴾ ، ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ .

وأَمّا لفظ العلم فهو أَكثر وأَوسع إِطلاقاً كقوله تعالى : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ اله إِلاَّ اللَّهُ ﴾ ، ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ اله إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ ﴾ ، وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾ ، وقوله : ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً ﴾ ،

وقوله : ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى ﴾ ، وقوله : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ، وقوله : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ ﴾ ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ ﴾ ، وقوله : ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ ، وقوله : ﴿ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ ﴾ ، وقوله : ﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ ، وقوله : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ ، وقوله : ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ ، ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ ﴾ ﴿ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ ﴾ وغير ذلك من الآيات .

واختار الله لنفسه اسم العلم وما يتصرّف منه كالعالِم والعلِيم والعَلاَّم ، وعَلِم ويَعْلم ، وأَخبر أَن له عِلماً دون لفظ المعرفة ، ومعلوم أَنَّ الاسم الذى اختاره لنفسه أَكمل نوعى المشارِك له فى معناه .

(110/59)

وإِنما جاءَ لفظ المعرفة فى مؤمنى أَهل الكتاب خاصّة كقوله : ﴿ ذلك بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ

الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ ﴾ ، وقوله : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ وقد تقدّمت الآيتان .

وإِنَّ الطائفة المتصوّفة -نفع الله بهم- يُرجّحون المعرفة على العلم ، وكثير منهم لا يرفع بالعلم رأساً ، ويراه قاطعاً وحجاباً دون المعرفة ، وأَهل الاستقامة منهم أَشدّ الناس وصِيّة للمريدين بالعلم .

وعندهم أَنه لا يكون وليٌّ لله كامل الولاية من غير أولى / العلم أَبدًا ، فما اتَّخذ الله ولا يتَّخذ وليًّا جاهلا .

فالجهل رأْس كلّ بدعة وضلال ونقص ، والعلم أَصل كلّ خير وهدى .

والفرق بين المعرفة والعلم من وجوه لفظاً ومعنى :

أَمّا اللفظ : ففعل المعرفة يقع على مفعول واحد ، تقول : عرفت الدّيار وعرفت زيداً ، قال تعالى : ﴿ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴾ ، وقال : ﴿ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ .

وفعل العلم يقتضى مفعولين ، كقوله تعالى : ﴿ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ ﴾ ، وإِذا وقع على مفعول كان بمعنى المعرفة كقوله تعالى : ﴿ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ .

وأَمّا الفرق من جهة المعنى فمن وجوه :

أَحدها : أَنَّ المعرفة تتعلَّق بذات الشيءِ والعلم يتعلَّق بأَحواله ، فتقول : عرفت أَباك وعلِمته صالِحاً ، ولذلك جاءَ الأَمر فى القرآن بالعلم دون المعرفة كقوله تعالى : ﴿ فَاعْلَمْ

أَنَّهُ لاَ اله إِلاَّ اللَّهُ ﴾ ، وقوله : ﴿ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ ، ﴿ فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ ﴾ .

(111/59)

فالمعرفة : تصوّر صورة الشيءِ ومثالِه العلميّ فى النَّفس ، والعلم : حضور أَحواله وصفاته ونسبتها إليه .

فالمعرفة : نسبة التصوّر ، والعلم : نسبة التصديق .

الثانى : أَنَّ المعرفة فى الغالب تكونِ لِمَا غاب عن القلب بعد إدراكِه ، فإذا أَدركه قيل : عرفه ، أَو تكونِ لِمَا وُصف له بصفات قامت فى نفسه فإذا رآه وعلم أَنَّه الموصوف بها قيل : عرفه ، قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُواْ إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ﴾ ، وقال : ﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴾ ، وفى الحديث : " إِنَّ الله سبحانه يقول لآخر أَهل الجنّة دخولا : أَتعرف الزمان الذى كنت فيه فيقول : نعم . فيقول : تمنَّ .

فيتمنَّى على ربّه" .

وقال تعالى : ﴿ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ

بِهِ ﴾ .

فالمعرفة نسبة الذِكر النفسىّ وهو حضور ما كان غائباً عن الذاكر ، ولهذا كان ضدّها الإنكار وضدّ العلم الجهل ، قال تعالى : ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾ ويقال : عرف الحقَّ فأَقرّ به ، وعرفه فأنكره .

الوجه الثالث : أَنَّ المعرفة تفيد تمييز المعروف عن غيره ، والعلم يفيد تمييز ما يوصف به عن غيره .

وهذا الفرق غير الأَوّل ، فإِنَّ ذلك يرجع

إِلى إِدراك الذات وإِدراك صفاتها ، وهذا يرجع إِلى تخليص الذات من غيرها ، وتخليص صفاتها من صفات غيرها .

الفرق الرابع : أَنك إِذا قلت : علمت زيداً لم تفد المخاطب شيئاً ، لأَنَّه يَنتظر أَن تخبره على أَىّ حال علمته ، فإِذا قلت : كريماً أَو شجاعاً حصلت له الفائدة ، وإِذا قلت : عرفت زيدا استفاد المخاطب أَنك أَثبتَّه وميّزته عن غيره ولم يبق ينتظر شيئاً آخر .

وهذا الفرق فى التحقيق إِيضاح الذى قبله .

(112/59)

الفرق الخامس : أَنَّ المعرفة علم بعين الشيءِ مفصّلاً عمّا سواه ، بخلاف العلم فإنه قد يتعلَّق بالشيءِ مُجملاً ، فلا يتصوّر أَن يعرف الله البتَّة ، ويستحيل هذا الباب بالكلّيّة ؛ فإن الله سبحانه لا يحاط به علمًا ولا معرفة ولا رؤية ، فهو أَكبر من ذلك وأَعظم .

قال تعالى : ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ ﴾ .

والفرق بين العلم والمعرفة عند المحقّقين أَنَّ المعرفة عندهم هى العلم الذى يقوم العالِم بموجَبه ومقتضاه ، فلا يطلقون المعرفة على مدلول / العلم وحده ، بل لا يصفون بالمعرفة إلَّا من كان عالِمًا بالله وبالطَّريق الموصِّل إليه وبآفاتها وقواطعها وله حال مع الله يشهد له بالمعرفة .

فالعارف عندهم مَن عرف الله سبحانه بأَسمائه وصفاته وأَفعاله ، ثمّ صَدَق الله فى معاملاته ، ثمّ أَخلص له فى قصوده ونيَّاته ، ثمّ انسلخ من أَخلاقه الرّديئة وآفاته ، ثمّ تطهَّر من أَوساخه وأَدرانه ومخالفاته ، ثم صبر على أَحكامه فى نعمه وبليّاته ، ثمّ دعا [إلى] الله على بصيرة بدينة وإيمانه ، ثم جرّد الدّعوة إليه وحده بما جاءَ به رسوله صلَّى الله عليه وسلَّم ولم يَشُبْهَا بآراءِ الرّجال وأَذواقهم ومواجيدهم ومقاييسهم ومعقولاتهم ، ولم يزِنْ بها ما جاءَ به الرّسول صلَّى الله عليه وسلَّم ، فهذا الذى يستحقُّ اسم العارف على الحقيقة ، وإذا سمّى به غيره فعلى الدّعوى والاستعارة .

وقد تكلَّموا فى المعرفة بآثارها وشواهدها ، فقال بعضهم : مِن أَمارات المعرفة بالله حصول الهيبة ، فمن ازدادت معرفته ازدادت هيبته .

وقال أَيضا : المعرفة توجب السكينة .

وقيل : علامتها أَن يحس بقرب قلبه من الله فيجده قريباً منه .

وقال الشّبلى : ليس لعارف عَلاَقة ، ولا لمحبّ شكوى ، ولا لعبد دَعْوَى ، ولا لخائف قرار ، ولا لأَحد من اللهِ فِرار .

(113/59)

وهذا كلامٌ جيّد ، فإِن المعرفة الصّحيحة تقطع من القلب العلائق كلَّها ، وتعلّقه بمعروفه فلا يبقى فيه عَلاَقة لغيره ، ولا يمرّ به العلائق إِلاَّ وهى مجْتازة .

وقال أَحمد بن عاصم : من كان بالله أَعرف كان من الله أَخوف .

ويدلّ على هذا قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ ، وقول النَّبى صلَّى الله عليه وسلَّم : " أَنا أَعرفكم بالله وأَشدّكم له خَشْية " .

وقال آخر : من عرف الله ضاقت عليه الأَرضُ بسعتها ؛ وقال غيره : من عرف الله اتَّسَع عليه كلُّ ضيق .

ولا تنافى بين هذين الكلامين فإِنَّه يضيق عليه كلَّ مكان لاتّساعه فيه على شأْنه ومطلوبه ، ويتَّسع له ما ضاق على غيره لأَنَّه ليس فيه ولا هو مساكن له بقلبه ، فقلبه غير محبوس فيه .

والأَوّل فى بداية المعرفة والثانى فى غايتها التى يصل اليها العبد .

وقال : من عرف الله تعالى صفا له العيش ، وطابت له الحياة ، وهابه كلّ شىءٍ ، وذهب عنه خوف المخلوقين ، وأَنس بالله .

وقال غيره : من عرف الله قرّت عينه بالله وقرّت به كلُّ عين ، ومن لم يعرف الله تقطَّع قلبه على الدّنيا حَسَرَاتٍ ، ومن عرف الله يلم يبق له رغبة فيما سواه .

وعلامة العارف أَن يكون قلبه مرآةٍ إذا نظر فيها رأَى فيها الغَيْب الذى دعا إِلى الإِيمان به ، فعلى قَدْر جلاءِ تلك المرآة يتراءَى فيها سبحانه والدّارُ الآخرة والجنّة والنار والملائكة والرُّسُل ، كما قيل :

*إِذا سكن الغَديرُ على صَفاءٍ * فيُشْبه أَن يحرّكه النسيمُ*

*بَدَتْ فيه السماءُ بلا مِرَاءٍ * كذلك الشمسُ تبدو والنجومُ*

*كذلك قلوبُ أَربابِ التَجلّى * يُرى فى صَفْوِهَا اللهُ العظيمُ*

ومن علامات المعرفة أَن يبدو لك الشاهد وتَفْنَى الشّواهد ، وتنجلى العَلائق وتنقطع العَوائق ، وتجلس بين يدى الرّب ، وتقوم وتضطجع على التأَهب للقائه كما يجلس الذى قد شدّ أَحماله وأَزمع السفر على تأَهب له ويقوم على ذلك ويضطجع عليه .

ومن علامات العارف أَنه لا يطالِب ولا يخاصِم ولا يعاقب ولا يرى له على أَحد حقًّا ، ولا يأْسف على فائت ولا يفرح بآت لأَنه ينظر فى الأَشياءِ الفناءَ والزَّوال ، وأَنَّها فى الحقيقة كالظِّلال والخيال .

وقال الجنيد : لا يكون العارف عارفاً حتىَّ يكون كالأَرض يطؤها البَرّ والفاجر ، وكالسّحاب يُظل كلّ شىءٍ ، وكالمطر يَسقى ما يحِبُّ وما لا يحبّ .

وقال يحيى بن مُعاذ : يخرج العارف من الدنيا ولم يقض وطره من شيئين : بكاؤه على نفسه ، وثناؤه على ربّه .

وهذا من أَحسن ما قيل ، لأَنَّه يدلُّ على معرفته بنفسه وعلى معرفته بربّه وجماله وجلاله ، فهو شديد الإِزراءِ على نفسه لهِجٌ بالثناءِ على ربّه .

وقال أَبو يزيد : إِنَّما نالوا المعرفة بتضييع ما لَهُم ، والوقوف مع ما لَه .

يريد تضييع حظوظهم والوقوف مع حقوق الله تعالى .

وقال آخر : لا يكون العارف عارفاً حتى لو أُعطى مُلْك سليمان لم يشغله عن الله طَرْفة عين .

وهذا يحتاج إِلى شرح ، فإِنَّ ما هو دون ذلك يشغل القلب ، لكن إِذا كان اشتغاله بغير الله لله فذلك اشتغال بالله .

وقال ابن عطاء : المعرفة على ثلاثة أَركان : الهيبة ، والحَياءُ ، والأُنس .

وقيل : العارف ابن وقته .

وهذا من أَحسن الكلام وأَخصَره .

فهو مشغول بوظيفة وقته عمّا مضى وصار فى العدم ، وعمّا لم يدخل بعد فى الوجود ،

فهمّه عمارة وقته الذى هو مادّة حياته الباقية .

ومن علاماته أَنه مستوحش ممّن يقطعه عنه .

ولهذا قيل : العارف من أَنس بالله فأَوحشه من الخَلْق ، وافتقر إِلى الله فأَغناه عنهم ، وذلَّ لله فأَعزَّه فيهم ، وتواضع لله فرفعه

بينهم ، واستغنى بالله فأَحوجهم إِليه .

وقيل : العارف فوق ما يقول ، والعالم دون ما يقول .

يعنى أَنَّ العالِم علمُه أَوسع من حاله وصفته ، والعارف حاله وصفته فوق كلامه وخبره .

وقال أَبو سليمان الدارانى : إِن الله يفتح للعارف وهو على فراشه ما لا يفتح لغيره وهو قائم يصلِّى .

(115/59)

وقال ذو النون : لكل شيءٍ عقوبة ، وعقوبة العارف انقطاعه عن ذكر الله

وقال بعضهم : رياءُ العارفين أَفضل من إِخلاص المريدين .

وهذا كلام ظاهره منكر ومحتاج إِلى شرح ؛ فإِن العارف لا يرائى المخلوق طلباً لمنزلة فى قلبه ، وإِنما يكون ذلك منه نصيحة وإِرشادا وتعليما ، فهو يدعو إِلى الله بَعمله كما يدعو إِلى الله بقوله ، وإِخلاصُ المريد مقصور على نفسه .

وقال ذو النون : الزُّهَّاد ملوك الآخرة ، وهم فقراءُ العارفين .

وسئل الجُنَيد عن العارف فقال : لون الماءِ لون إِنائِه .

وهذه كلمة رمز بها إِلى حقيقة العبوديّة ، وهو أَنَّه يتلوّن فى أَقسام العبوديّة ، فبينا تراه مصلِّيًا إِذْ رأَيته ذاكرًا أَو قارئًا أَو متعلمًا أَو معلِّمًا أَو مجاهدًا أَو حاجّاً أَو مساعدًا للضَّيف أَو معيناً للملهوف ، فيضرب فى كلِّ غنيمة بسهم .

فهو مع المنتسبين منتسب ، ومع المتعلِّمين متعلِّم ، ومع الغُزَاة غاز ، ومع المصلِّين مصلٍّ ، ومع المتصدّقين متصدّق [و] هكذا ينتقل فى منازل العبوديّة من عبوديّة إِلى عبوديّة ، وهو مستقيم على معبود واحد لا ينتقل عنه إِلى غيره .

وقال يحيى بن مُعاذ : العارف كائن بائن .

وقد فسّر كلامه على وجوه : منها أَنه كائن مع الخَلْق بظاهره بائن عن / نفسه .

ومنها أَنَّه كائِن مع أَبناءِ الآخرة بائِن عن أَبناءِ الدّنيا .

ومنها أَنَّه كائن مع الله بموافقته ، بائن عن النَّاسِ لمخالفته .

ومنها أَنَّه داخل فى الأَشياءِ خارج عنها ، يعنى [أَن] المريد لا يقدر على الدّخول فيها والعارف داخل فيها خارج منها .

وقال ذو النون رحمه الله : علامة العارف ثلاثة : لا يطفئُ نور معرفته نورَ ورعه ، ولا يعتقد باطنًا من العلم ينقض عليه ظاهرًا من الحكم ، ولا يحمله كثرة نعم الله على هتك أَستار محارم الله .

وهذا أَحسن ما قيل فى المعرفة .

(116/59)

وقال : ليس بعارفٍ مَن وصف المعرفة عند أَبناءِ الآخرة فكيف عند أَبناءِ الدّنيا ؟ يريد أَنه ليس من المعرفة وصف المعرفة لغير أَهلها سواءٌ كانوا عُبَّادًا أَو من أَبناءِ الدنيا .

وسئل ذو النون عن العارف فقال : كان هاهُنا فذهب .

فسئل الجنيد عن معناه فقال : لا يحصرُه حال عن حال ، ولا يحجبه منزل عن التنقّل فى المنازل ، فهو مع أهل كل منزل (على الَّذِى هم) فيه ، يجد مثل الذى يجدون ، وينطق بمعالمها ليتبلغوا .

وقال بعض السّلف : نوم العارف يقظة ، وأَنفاسه تسبيح ، ونومه أَفضل من صلاة الغافل .

إنما كان نومه يقظة لأَنَّ قلبه حيّ فعيناه تنامان وروحه ساجدة تحت العرش بين يَدَىْ ربّها ؛ وإِنَّمَا كان نومه أَفضل من صلاة الغافل لأَنَّ بدنه فى الصلاة واقف وقلبه يَسْبح فى حُشُوش الدنيا والأَمانىّ .

وقيل : مجالسة العارف تدعوك من ستٍّ إِلى ستّ : من الشك إِلى اليقين ، ومن الرياءِ إِلى الإِخلاص ، ومن الغفلة إِلى الذكر ، ومن الرغبة فى الدنيا إِلى الرغبة فى الآخرة ، ومن الكِبْر إِلى التواضع ، ومن سوءِ الطوِيّة إِلى النصيحة .

وللكلام فى المعرفة تتمة نذكرها فى محلّها فى المقصد المشتمل على علوم الصوفية إِن شاءَ الله .

وتعارفوا : عَرَف بعضهم بعضاً .

وعرّف : جعل له عَرْفاً أَى ريحاً طيبة .

قال تعالى : ﴿ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾ أَى طيّبَهَا وزيّنَهَا .

وقيل : عرّفها لهم من المعرفة أَى وصفها وشوّقهم إِليها .

وعَرَفَات : موقف الحاجّ فى تاسع ذى الحِجّة ببطن نَعْمان .

سميّت لأَن آدم وحوّاءَ تعارفا بها ، أَو لقول جبريل عليه السّلام لإِبراهيم عليه السّلام لمّا أَعلمه المناسك : أَعَرَفْتَ ، أَو لأَنها مقدّسة معظَّمة كأَنَّها عُرّفت أَى طيّبت ، أَو لأَن النّاس

يتعارفون فيه ، أَو لتعرّف

العباد إِلى الله تعالى بالعبادات والأَدعية .

ويوم عرفة يوم الوقوف .

وهو اسم فى لفظ الجمع فلا يجمع .

(117/59)

وهى معرفة وإِن كانت جمعاً ؛ لأَن الأَماكن لا تزول فصارت كالشىءِ الواحد ، مصروفة لأَنَّ التاءَ بمنزلة الياء والواو فى مسلمين ومسلمون ، والنسبة إِليه عَرَفىّ .

والمعروف : اسم لكلّ فعل يُعرف بالشرع والعقل حُسنُه .

وقوله : ﴿ وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ أَى بالاقتصاد والإِحسان .

وقوله : ﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ﴾ أَى رَدّ جميل ودعاءٌ خير من صدقة هكذا .

والعُرْف : المعروف من الإِحسان .

وجاءَت القَطَا عُرْفًا أَى متتابعة ، قال تعالى : ﴿ وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفاً ﴾ .

والعرّاف : الكاهن ، غير أَن العَرَّاف يخصّ بمن يخبر بالأَحوال المستقبلة ، والكاهن

بالماضية.

والتعريف مَن يعرف الناس ويعرّفهم، وسيّد القوم.

والاعتراف: الإقرار بالذنب، وأَصله إظهار معرفة الذَّنب. انتهى انتهى. ا هـ ﴾ بصائر ذوي التمييز حـ 4 صـ 47. 57 ﴿

(118/59)

" فصل فى إنْذارُ يَهُودَ بِرَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ "

قال السهيلى:

قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ: وَحَدّثَنِي عَاصِمُ بْنُ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ، عَنْ رِجَالٍ مِنْ قَوْمِهِ قَالُوا: إنّ مِمّا دَعَانَا إلَى الْإِسْلَامِ، مَعَ رَحْمَةِ اللّهِ تَعَالَى وَهُدَاهُ لَمّا كُنّا نَسْمَعُ مِنْ رِجَالِ يَهُودَ كُنّا أَهْلَ شِرْكٍ أَصْحَابَ أَوْثَانٍ وَكَانُوا أَهْلَ كِتَابٍ عِنْدَهُمْ عِلْمٌ لَيْسَ لَنَا، وَكَانَتْ لَا تَزَالُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ شُرُورٌ فَإِذَا نِلْنَا مِنْهُمْ بَعْضَ مَا يَكْرَهُونَ قَالُوا لَنَا: إنّهُ تَقَارَبَ زَمَانُ نَبِيّ يُبْعَثُ الْآنَ نَقْتُلُكُمْ مَعَهُ قَتْلَ عَادٍ وَإِرَمَ، فَكُنّا كَثِيرًا مَا نَسْمَعُ ذَلِكَ مِنْهُمْ فَلَمّا بَعَثَ اللّهُ رَسُولَهُ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ أَجَبْنَاهُ حِينَ دَعَانَا إلَى اللّهِ تَعَالَى، وَعَرَفْنَا مَا كَانُوا يَتَوَعّدُونَنَا بِهِ فَبَادَرْنَاهُمْ إلَيْهِ فَآمَنّا بِهِ وَكَفَرُوا بِهِ فَفِينَا وَفِيهِمْ نَزَلَ هَؤُلَاءِ الْآيَاتِ مِنْ الْبَقَرَةِ ﴿ وَلَمّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللّهِ

مُصَدّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الّذِينَ كَفَرُوا فَلَمّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [الْبَقَرَةُ 79] . قَالَ اْبْنُ هِشَامٍ : يَسْتَفْتِحُونَ يَسْتَنْصِرُونَ وَيَسْتَفْتِحُونَ أَيْضًا : يَتَحَاكَمُونَ وَفِي كِتَابِ اللّهِ تَعَالَى : ﴿ رَبّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾ [الْأَعْرَافُ 89] . قَالَ اْبْنُ إسْحَاقَ : وَحَدّثَنِي صَالِحُ بْنُ إبْرَاهِيمَ بْنِ عَبْدِ الرّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ عَنْ مَحْمُودِ بْنِ لَبِيدٍ أَخِي بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ عَنْ سَلَمَةَ بْنِ سَلَامَةَ بْنِ وَقّشٍ – وَكَانَ سَلَمَةُ مِنْ أَصْحَابِ بَدْرٍ – قَالَ كَانَ لَنَا

(119/59)

جَارٌ مِنْ يَهُودَ فِي بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ قَالَ فَخَرَجَ عَلَيْنَا يَوْمًا مِنْ بَيْتِهِ حَتّى وَقَفَ عَلَى بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ – قَالَ سَلَمَةُ وَأَنَا يَوْمَئِذٍ أَحْدَثُ مَنْ فِيهِ سِنّا ، عَلَيّ بُرْدَةٌ لِي ، مُضْطَجِعٌ فِيهَا بِفِنَاءِ أَهْلِي – فَذَكَرَ الْقِيَامَةَ وَالْبَعْثَ وَالْحِسَابَ وَالْمِيزَانَ وَالْجَنّةَ وَالنّارَ قَالَ فَقَالَ ذَلِكَ لِقَوْمٍ أَهْلِ شِرْكٍ أَصْحَابِ أَوْثَانٍ لَا يَرَوْنَ أَنّ بَعْثًا كَائِنٌ بَعْدَ الْمَوْتِ فَقَالُوا لَهُ وَيْحَكَ يَا فُلَانُ أَوَتَرَى هَذَا كَائِنًا ، أَنّ النّاسَ يُبْعَثُونَ بَعْدَ مَوْتِهِمْ إلَى دَارٍ فِيهَا جَنّةٌ وَنَارٌ يُجْزَوْنَ فِيهَا بِأَعْمَالِهِمْ ؟ قَالَ نَعَمْ وَالّذِي يَحْلِفُ بِهِ وَيَوَدّ أَنّ لَهُ بِحَظّهِ مِنْ تِلْكَ النّارِ أَعْظَمُ تَنّورٍ فِي الدّارِ يَحْمُونَهُ ثُمّ يُدْخِلُونَهُ إيّاهُ فَيُطِيعُونَهُ عَلَيْهِ بِأَنْ يَنْجُوَ مِنْ تِلْكَ النّارِ غَدًا ، فَقَالُوا لَهُ وَيْحَكَ يَا فُلَانُ فَمَا آيَةُ ذَلِكَ ؟ قَالَ نَبِيّ

مَبْعُوثٌ مِنْ نَحْوِ هَذِهِ الْبِلَادِ - وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى مَكَّةَ وَالْيَمَنِ - فَقَالُوا : وَمَتَى تَرَاهُ ؟ قَالَ فَنَظَرَ إِلَيّ وَأَنَا مِنْ أَحْدَثِهِمْ سِنّا ، فَقَالَ إِنْ يَسْتَنْفِدْ هَذَا الْغُلَامُ عُمْرَهُ يُدْرِكْهُ . قَالَ سَلَمَةُ فَوَاَللّٰهِ مَا ذَهَبَ اللّيْلُ وَالنّهَارُ حَتّى بَعَثَ اللّٰهُ مُحَمّدًا رَسُولَهُ - صَلّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ - وَهُوَ حَيّ بَيْنَ أَظْهُرِنَا ، فَآمَنّا بِهِ وَكَفَرَ بِهِ بَغْيًا وَحَسَدًا . قَالَ فَقُلْنَا لَهُ وَيْحَك يَا فُلَانُ أَلَسْت الّذِي قُلْت لَنَا فِيهِ مَا قُلْت ؟ قَالَ بَلَى . وَلَكِنْ لَيْسَ بِهِ . قَالَ اِبْنُ إِسْحَاقَ : وَحَدّثَنِي عَاصِمُ بْنُ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ عَنْ شَيْخٍ مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ

(120/59)

قَالَ قَالَ لِي : هَلْ تَدْرِي عَمّ كَانَ إِسْلَامُ ثَعْلَبَةَ بْنِ سَعْيَةَ وَأُسَيْدِ بْنِ سَعْيَةَ وَأَسَدِ بْنِ عُبَيْدٍ نَفَرٌ مِنْ بَنِي هَدَلَ إِخْوَةُ بَنِي قُرَيْظَةَ كَانُوا مَعَهُمْ فِي جَاهِلِيّتِهِمْ ثُمّ كَانُوا سَادَاتِهِمْ فِي الْإِسْلَامِ . قَالَ قُلْت : لَا ، قَالَ فَإِنّ رَجُلًا مِنْ يَهُودَ مِنْ أَهْلِ الشّامِ ، يُقَالُ لَهُ اِبْنُ الْهَيْبَانِ قَدِمَ عَلَيْنَا قُبَيْلَ الْإِسْلَامِ بِسِنِينَ فَحَلّ بَيْنَ أَظْهُرِنَا ، لَا وَاَللّٰهِ مَا رَأَيْنَا رَجُلًا قَطّ لَا يُصَلّي الْخَمْسَ أَفْضَلَ مِنْهُ فَأَقَامَ عِنْدَنَا فَكُنّا إِذَا قَحَطَ عَنّا الْمَطَرُ قُلْنَا لَهُ اُخْرُجْ يَا بْنَ الْهَيّبَانِ فَاسْتَسْقِ لَنَا ، فَيَقُولُ لَا وَاَللّٰهِ حَتّى تُقَدّمُوا بَيْنَ يَدَيْ مَخْرَجِكُمْ صَدَقَةً فَنَقُولُ لَهُ كَمْ ؟ فَيَقُولُ صَاعًا مِنْ تَمْرٍ أَوْ مُدّيْنِ مِنْ شَعِيرٍ . قَالَ فَنُخْرِجُهَا ، ثُمّ يَخْرُجُ بِنَا إِلَى ظَاهِرِ حَرّتِنَا ، فَيَسْتَسْقِي اللّٰهَ لَنَا . فَوَاَللّٰهِ مَا يَبْرَحُ

مَجْلِسَهُ حَتّى تَمُرّ السّحَابَةُ وَنُسْقَى ، قَدْ فَعَلَ ذَلِكَ غَيْرَ مَرّةٍ وَلَا مَرّتَيْنِ وَلَا ثَلَاثٍ . قَالَ ثُمّ حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ عِنْدَنَا . فَلَمّا عَرَفَ أَنّهُ مَيّتٌ قَالَ يَا مَعْشَرَ يَهُودَ مَا تَرَوْنَهُ أَخْرَجَنِي مِنْ أَرْضِ الْخَمْرِ وَالْخَمِيرِ إلَى أَرْضِ الْبُؤْسِ وَالْجُوعِ ؟ قَالَ قُلْنَا : إنّك أَعْلَمُ قَالَ فَإِنّي إنّمَا قَدِمْت هَذِهِ الْبَلْدَةَ أَتَوَكّفُ خُرُوجَ نَبِيّ قَدْ أَظَلّ زَمَانُهُ وَهَذِهِ الْبَلْدَةُ مُهَاجَرُهُ فَكُنْت أَرْجُو أَنْ يُبْعَثَ فَأَتّبِعُهُ وَقَدْ أَظَلّكُمْ زَمَانُهُ فَلَا تُسْبَقُنّ إلَيْهِ يَا مَعْشَرَ يَهُودَ فَإِنّهُ يُبْعَثُ بِسَفْكِ الدّمَاءِ وَسَبْيِ الذّرَارِيّ وَالنّسَاءِ مِمّنْ خَالَفَهُ فَلَا

(121/59)

يَمْنَعُكُمْ ذَلِكَ مِنْهُ . فَلَمّا بُعِثَ رَسُولُ اللّهِ – صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ – وَحَاصَرَ بَنِي قُرَيْظَةَ قَالَ هَؤُلَاءِ الْفِتْيَةُ وَكَانُوا شَبَابًا أَحْدَاثًا : يَا بَنِي قُرَيْظَةَ وَاَللّهِ إنّهُ لَلنّبِيّ الّذِي كَانَ عَهِدَ إلَيْكُمْ فِيهِ ابْنُ الْهَيّبَانِ قَالُوا : لَيْسَ بِهِ قَالُوا : بَلَى وَاَللّهِ إنّهُ لَهُوَ بِصِفَتِهِ فَنَزَلُوا وَأَسْلَمُوا ، وَأَحْرَزُوا دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ . قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ : فَبِهَذَا مَا بَلَغَنَا عَنْ أَخْبَارِ يَهُودَ .

حَدِيثُ سَلَمَةَ فَضْلٌ وَذَكَرَ ابْنُ إسْحَاقَ حَدِيثَ سَلَمَةَ بْنِ سَلَامَةَ بْنِ وَقْشٍ ، وَمَا سَمِعَ مِنْ الْيَهُودِيّ حِينَ ذَكَرَ الْجَنّةَ وَالنّارَ وَقَالَ آيَةُ ذَلِكَ نَبِيّ : مَبْعُوثٌ قَدْ أَظَلّ زَمَانُهُ إلَى آخِرِ الْحَدِيثِ

وَلَيْسَ فِيهِ إِشْكَالٌ وَابْنُ وَقّشٍ يُقَالُ فِيهِ وَقَشٌ بِتَحْرِيكِ الْقَافِ وَتَسْكِينِهَا ، وَالْوَقْشُ الْحَرَكَةُ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الروض الأنف حـ 2 صـ 212.216 ﴾

(122/59)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى فتح)

قد ورد فى القرآن على وجوه :

الأَوَّل : بمعنى القضاءِ والحكومة ، نحو قوله تعالى : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً ﴾ ، أَى حكمنا وقضينا ، ﴿ ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ ﴾ أَى يقضى ، ﴿ مَتَى هذا الْفَتْحُ ﴾ أَى القضاء ، ﴿ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ ﴾ أَى يوم القضاء

الثانى : بمعنى إِرسال الرَّحمة : ﴿ مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ ﴾ ، أَى ما يُرسل .

الثالث : بمعنى النُصْرة : ﴿ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ ﴾ أَى بالنصرة .

الرَّابع : بمعنى إِزالة الأَغلاق .

وهذا يأْتى على وجوه :

الأَوَّل : بمعنى فتح أَبواب النُّصْرة : ﴿ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ .

الثانى : بمعنى فتح أَبواب الغنيمة والظفر بها : ﴿ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ ﴾ .

الثالث : فتح خزائن القدرة : ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ ﴾ .

الرَّابع : فتح أَبواب النعمة : ﴿ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ .

الخامس : فتح أَبواب السَّماءِ : ﴿ لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَآءِ ﴾ .

السَّادس : فتح مغاليق الخُصومات : ﴿ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ ﴾ .

السَّابع : فتح أَبواب البركة : ﴿ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَآءِ ﴾ .

الثامن : فتح أَبواب القتل والإِهلاك : ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ الْفَتْحُ ﴾ .

التاسع : فتح باب البضاعة : ﴿ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَاعَهُمْ ﴾ .

العاشر : فتح أَبواب السَّمَاءِ على طريق الإِعجاز : ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ .

الحادى عشر : فتح السَّدّ يوم القيامة : ﴿ حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ ﴾ .

الثانى عشر : فتح أَبواب العذاب : ﴿ حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ .

الثالث عشر : فتح بيوت الأَصدقاء وَذوى القُرْبى : ﴿ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَّفَاتِحهُ أَوْصَدِيقِكُمْ ﴾ .

الرَّابع عشر : فتح باب الدُّعاءِ رجاءً للإِجابة : ﴿ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً ﴾ .

الخامس عشر : فتح أَبواب الجَنَّة : ﴿ جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الأَبوَابُ ﴾ ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ .

السَّادس عشر : فتح أَبواب جهنَّم : ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ .

السَّابع عشر : فتح أَبواب الثواب والكرامة : ﴿ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً ﴾ .

الثَّامن عشر : فتح أَبواب الطوفان : ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَابَ السَّمَآءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴾ .

التَّاسع عشر : فتح البلاد على يَدىْ أَهل الإِسلام : ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ .

قال أَبو القاسم الأَصبهانىّ : الفَتْح ضروب :

أَحدها : ما يُدرك بالبصر ، كفتح الباب والقُفْل والمتاع .

والثانى : ما يدرك بالبصيرة ، كفتح الهمّ و [هو] إزالة الغمّ ، وذلك ضربان : غَمّ يُفَرَّج ، وفقر يزال ، ونحوه قوله : ﴿ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ ، أَى وسَّعنا عليهم : ﴿ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَآءِ وَالأَرْضِ ﴾ ، أَى أَقبل عليهم الخيرات من كلّ جانب .

/ والثالث : فتح المستغلق من العلوم .

قلت : وذلك على ضربين : الأَوّل بتوفيق الاستكثار من العلوم الظَّاهرة وتحقيق معانيها ، والثانى بفتح باب القلب إلى العلم اللَّدنّى كما تقدَّم بيانه فى " بصيرة العلم"

وقيل فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً ﴾ إنه عنى فتح مكَّة .

وقيل : بل عنى ما فتح عليه من العلوم والهدايات التى هى ذريعة إلى الثواب العظيم ، والمقامات المحمودة التى صارت سبباً لغفران ذنوبه .

(124/59)

وفاتحة كل شىء مبدؤه الذى يفتح به ما بعده ، وبه سمّى فاتحة الكتاب .

ويقال : افتتح فلان كذا أَى ابتدأَه ، وفتح عليه كذا : أَعلمه

ووقَّفه عليه : ﴿ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ .

وقيل : فى قوله تعالى : ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ يحتمل النَّصر والظفر والحكم وما يفتح الله من المعارف ، وعلى ذلك : ﴿ نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾ وقوله : ﴿ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ ﴾ أَى يوم الحكم ، وقيل يوم إزالة الشُّبهة بإقامة القيامة ، وقيل : ما كانوا يستفتحون من العذاب ويطلبونه .

والاستفتاح : طلب الفتح [أَو الفِتَاح قال : ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ الْفَتْحُ ﴾] أَى إن

طلبتم الظفر أَو الفِتَاح أَى الحُكْم ، أَو طلبتم مبدأَ الخيرات ، فقد جَاءَكم ذلك بمجىء النبىّ صلَّى الله عليه وسلَّم .

وقوله : ﴿ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ أَى يستنصرون ببَعثة محمدّ صلَّى الله عليه وسلَّم ، وقيل : يستعلمون خبره من النَّاس مرَّة ، ويستنبطونه من الكُتُب مرَّة ، وقيل : يطلبون من الله الظفر بذكره ، وقيل : كانوا يقولون إِنا نُنْصر بمحمّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم على عَبَدة الأَوْثان .

وقوله : ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ ﴾ ، أَى ما يتوصَّل به إِلى غَيْبه المذكور فى قوله : ﴿ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً ﴾ .

وقوله : ﴿ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ ﴾ أَى مفاتح خزائنه ، وقيل : عنى بالمفاتح الخزائن نفسها ، قال الشَّاعر :

*يا سيد الأُمراء والأَلباب * أَشكو إِليك فظاظة البوّاب*

*قد كنت جئت لخدمةٍ أَبغى بها * عزّا فقابلنى بذلّ حجاب*

*إِن كنت ترغب سيدى فى خدمتى * فأَقلُّ ما فى الباب فتح الباب* . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 4 صـ 161 . 165 ﴾

كلام نفيس لابن القيم فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾

هذه حجة أخرى على اليهود في تكذيبهم بمحمد صلى الله عليه وسلم فإنهم كانوا يحاربون جيرانهم من العرب في الجاهلية ويستنصرون عليهم بالنبي صلى الله عليه وسلم قبل ظهوره فيفتح لهم وينصرون فلما ظهر النبي صلى الله عليه وسلم كفروا به وجحدوا نبوته فاستفتاحهم به وجحد نبوته مما لا يجتمعان فإن كان استفتاحهم به لأنه نبي كان جحد نبوته محالا وإن كان جحد نبوته كما يزعمون حقا كان استفتاحهم به باطلا فإن كان استفتاحهم به حقا فنبوته حق وإن كانت نبوته كما يقولون باطلا فاستفتاحهم به باطل وهذا مما لا جواب لأعدائه عنه البتة ويمكن تقريرها على صورة عديدة :

منها : أن يقال قد أقررتم قبل ظهوره باستفتاحكم به فتعين عليكم الإقرار بها بعد ظهوره

الثانية : أن يقال كنتم تستفتحون به وذلك إقرار منكم بنبوته قبل ظهوره استناد إلى ما عندكم من العلم بظهوره فلما شاهدتموه وصار المعلوم معاينا بالرؤية فالتصديق به حينئذ يكون أولى فكفرتم به عند كمال المعرفة وآمنتم به حين كانت غيبا لم تكمل فآمنتم به على

تقدير وجوده وكفرتم به عند تحقق وجوده فأي تناقض وعناد أبلغ من هذا .

الثالثة : أن يقال إيمانكم به لازم لاستفتاحكم به ووجود الملزوم بدون لازمه محال

الرابعة : أن يقال استفتاحكم به هل كان عن دليل أولا عن دليل فلا بد أن يقولوا كان عن دليل وحينئذ يجب طرد الدليل والقول بموجبه حيث وجد فأما أن يقال بموجبه في موضع ويجحد موجبه في موضع أقوى منه فمن أبطل الباطل .

(126/59)

الخامسة : أن يقال إن كان الاستفتاح به تصديقا للنبي الذي أخبر بظهوره وقامت البراهين على صدقه فالإيمان به متعين تصديقا للنبي الأول أيضا وإن كان ترك الإيمان قبل ظهوره تكذيبا للنبي الأول فترك الإيمان به بعد ظهوره أشد تكذيبا فأنتم في كفركم به مكذبون للنبي الأول والثاني وهذا من أحسن الوجوه .

السادسة : أن يقال إن كان الاستفتاح به حقا لما ظهر على يد النبي صلى الله عليه وسلم المبشر به من المعجزات فالإيمان به عند ظهوره يكون أقوى لانضمام المعجزات التي ظهرت على يده وهي تستلزم لصدقه إلى المعجزات التي ظهرت على يد النبي صلى الله عليه وسلم المبشر به فقويت أدلة الصدق وتظافرت براهينه .

السابع : أن يقال أحد الأمرين لازم

ولا بد إما خطؤكم في استفتاحكم به وإما في كفركم وتكذيبكم به فإنهما لا يمكن اجتماعهما فأيهما كان خطأ كان الآخر صوابا لكن استفتاحكم به مستند إلى الإيمان بالنبي صلى الله عليه وسلم الأول فهو مستند إلى حق فتعين أن يكون كفرهم به هو الباطل ولا يمكن أن يقال إن التكذيب به هو الحق والاستفتاح به كان باطلا لأنه يستلزم تكذيب من أقررتم بصدقة ولا بد .

الثامنة : أن يقال التصديق به قبل ظهوره من لوازم التصديق بالنبي صلى الله عليه وسلم الأول والتكذيب به حينئذ كفر فالتصديق به بعد ظهوره كذلك وإن كان تكذيب به قبل ظهوره مستلزما للكفر بالنبي صلى الله عليه وسلم الأول فهو بعد ظهوره أشد استلزاما فلا يجتمع التكذيب به والإيمان بالنبي صلى الله عليه وسلم الأول أبدا لا قبل ظهوره ولا بعده أما قبل ظهوره فباعترافكم وإما بعد ظهوره فلأن دلالة صدقه حينئذ أظهر وأقوى كما تقدم بيانه .

(127/59)

التاسعة : أن يقال الاستفتاح به تصديق وإقرار بنبوته وتكذيبه جحد وكفر بها والإيمان والتصديق برسالة الرجل الواحد والتكذيب والجحد بها مستلزم للكفر ولا بد فإنه يستلزم أحد الأمرين إما التصديق بنبوة من ليس بنبي وإما جحد نبوة من هو نبي وأيهما كان فهو كفر وقد أقررتم على أنفسكم بالكفر ولا بد فلعنه الله على الكافرين .

العاشرة : تقرير الاستدلال بطريقة استسلاف المقدمات المؤاخذة بالاعتراف فيقال لهم ألستم كنتم تستفتحون به فيقولون بلى فيقال أليس الاستفتاح به إيمان به فلا بد من الاعتراف بذلك فيقال أفليس ظهور من كنتم تؤمنون به قبل وجوده موجبا عليكم الإيمان به فلا بد من الاعتراف أو العناد الصريح وليس لأعداء الله على هذا الوجوه اعتراض البتة سوى أن قالوا هذا كله حق ولكن ليس هذا الموجود بالذي كنا نستفتح به وهذا من أعظم البهت والعناد وإن الصفات والعلامات التي فيه طابقت ما كانت عندهم مطابقة المعلوم لعلمه فإنكار أن يكون هو إنما يكون جحدا للحق وإنكارا له باللسان والقلب يعرفه ولهذا قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ فأغني عن هذه الوجوه والتقريرات كلها قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ والمادة الحق يمكن إبرازها في الصورة المتعددة وفي أي قالب أفرغت وصورة أبرزت ظهرت صحيحة وهذا شأن مواد براهين القرآن في أي صورة أبرزتها ظهرت في غاية

الصحة والبيان والحمد لله المان بالهدى على عباده المؤمنين .

فصل :

(128/59)

وتأمل قوله تعالى في هذه الآية : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ ﴾ كيف تجد تحته برهانا عظيما على صدقه وهو مجيء الرسول الثاني بما يطابق ما جاء به الرسول الأول ويصدقه مع تباعد زمانها وشهادة أعدائه وإقرارهم له بأنه لم يتلقه من بشر ولهذا كانوا يمتحنونه بأشياء يعلمون أنه لا يخبر بها إلا بني أو من أخذ عنه وهم يعلمون أنه لم يأخذ عن أحد البتة ولو كان ذلك لوجد أعداؤه السبيل إلى الطعن عليه ولعارضوه بمثل ما جاء به إذ من الممكن أن لو كان ما جاء به مأخوذا عن بشر أن يأخذوهم عن ملك أو عن نظيره فيعارضوا ما جاء به والمقصود أن مطابقة ما جاء به لما أخبر به الرسول الأول من غير مواطأة ولا تشاعر ولا تلقي منه ولا ممن أخذ عنه دليل قاطع على صدق الرسولين معا .

ونظير هذا أن يشهد رجل بشهادة فيخبر فيها بما يقطع به أنه صادق في شهادته صدقا لا يتطرق إليه شبهة فيجيء آخر من بلاد أخرى لم يجتمع بالأول ولم يتواطأ معه فيخبر بنظير

تلك الشهادة سواء مع القطع بأنه لم يجتمع به ولا تلقاها عن أحد اجتمع به فهذا يكفى في صدقه إذا تجرد الأخبار فكيف إذا اقترن بأدلة يقطع بها بأنه صادق أعظم من الأدلة التي اقترنت بخبر الأول فيكفي في العلم بصدق الثاني مطابقة خبره لخبر الأول فكيف إذا بشر به الأول فكيف إذا أقترن بالثاني من البراهين الدالة على صدقة نظير ما اقترن بالأول وأقوى منها والله أعلم. انتهى انتهى. اهـ ﴿ بدائع الفوائد حـ 4 صـ 144. 148 ﴾

(129/59)

قوله تعالى ﴿ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ (90) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما استحقوا بهذا وجوه المذامّ كلها وصل به قوله (بئسما (فأتى بالكلمة الجامعة للمذام المقابلة لنعم الجامعة لوجوه المدائح كلها أي بئس شيء) اشتروا به أنفسهم) أي حظوظهم ، فقدموها وأقروها فكان ذلك عين فأخبرها عكس ما فعل المؤمنون من بيعهم لأنفسهم وخروجهم عنها بتعبدهم لله بإيثار ما يرضيه على هوى أنفسهم ، فكان ذلك عين تحصيلها

وتقديمها ، ثم فسر الضمير العائد على المبهم المأخوذ في إحراز النفس فقال : (أن يكفروا) أي يستروا على التجدد والاستمرار علمهم) بما أنزل الله (الذي لا كفؤ له ، أي اشتروا أنفسهم فأبقوها لهم على زعمهم بالكفر ولم يجعلوها تابعة ؛ ويجوز أن يكون) اشتروا (بمعنى باعوا ، لأنهم بذلوها للشيطان بالكفر كما بذل المؤمنون أنفسهم لله بالإيمان .

ثم علل كفرهم بقوله : (بغياً) أي حسداً وظلماً لأن تكون النبوة في بني إسماعيل عليه السلام .

وقال الحرالي : هو اشتداد في طلب شيء ما – انتهى .

وأصله مطلق الطلب والإرادة ، كأن الإنسان لما كان مجبولاً على النقصان ومطبوعاً على الشر والعصيان إلا من عصم الله وأعان كان مذموماً على مطلق الإرادة ، لأن من حقه أن لا تكون له خيرة ولا إرادة بل تكون إرادته تابعة لإرادة مولاه كما هو شأن العبد – والله الموفق .

ثم علل بغيهم بقوله : (أن ينزل الله (ذو الجلال والإكرام) من فضله (وفي صيغة) ينزل (إشعار بتمادي ما يغيظهم فيما يستقبل ، وبشرى للنبي (صلى الله عليه وسلم) والمؤمنين (على من يشاء من عباده) من العرب الذين حسدوهم .

ثم سبب عن ذلك قوله) فباؤوا) أي رجعوا لأجل ذلك) بغضب (في حسدهم لهذا النبي

(صلى الله عليه وسلم) لكونه من العرب) على غضب (كانوا استحقوه بكفرهم بأنبيائهم عناداً .

(130/59)

ثم علق الحكم الذي استحقوه بوصفهم تعميماً وإشارة غلى أنه سيؤمن بعضهم فقال : (وللكافرين) أي الذين هم راسخون في هذا الوصف منهم ومن غيرهم (عذاب مهين) من الإهانة وهي الإطراح إذلالاً واحتقاراً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 195. 196 ﴾

فصل

قال الفخر :

في الشراء ههنا قولان :

أحدهما : أنه بمعنى البيع ، وبيانه أنه تعالى لما مكن المكلف من الإيمان الذي يفضي به إلى الجنة والكفر الذي يؤدي به إلى النار صار اختياره لأحدهما على الآخر بمنزلة اختيار تملك سلعة على سلعة فإذا اختار الإيمان الذي فيه فوزه ونجاته .

قيل : نعم ما اشترى ، ولما كان الغرض بالبيع والشراء هو إبدال ملك بملك صلح أن يوصف

كل واحد منهما بأنه بائع ومشتر لوقوع هذا المعنى من كل واحد منهما فصح تأويل قوله تعالى : ﴿ بِئْسَمَا اشتروا بِهِ أَنفُسَهُمْ ﴾ بأن المراد باعوا أنفسهم بكفرهم لأن الذي حصلوه على منافع أنفسهم لما كان هو الكفر صاروا بائعين أنفسهم بذلك ، الوجه الثاني : وهو الأصح عندي أن المكلف إذا كان يخاف على نفسه من عقاب الله يأتي بأعمال يظن أنها تخلصه من العقاب فكأنه قد اشترى نفسه بتلك الأعمال ، فهؤلاء اليهود لما اعتقدوا فيما أتوا به أنها تخلصهم من العقاب ، وتوصلهم إلى الثواب فقد ظنوا أنهم اشتروا أنفسهم بها ، فذمهم الله تعالى ، وقال : ﴿ بِئْسَمَا اشتروا بِهِ أَنفُسَهُمْ ﴾ وهذا الوجه أقرب إلى المعنى واللفظ من الأول ، ثم إنه تعالى بين تفسير ما اشتروا به أنفسهم بقوله تعالى : ﴿ أَن يَكْفُرُواْ بِمَا أَنزَلَ الله ﴾ ولا شبهة أن المراد بذلك كفرهم بالقرآن لأن الخطاب في اليهود وكانوا مؤمنين بغيره ، ثم بين الوجه الذي لأجله اختاروا هذا الكفر بما أنزل الله فقال : ﴿ بَغِيّاً ﴾ وأشار بذلك إلى غرضهم بالكفر كما يقال يعادي فلان فلاناً حسداً تنبيهاً بذلك على غرضه ولولا هذا القول لجوزنا أن يكفروا جهلاً لا بغياً .

واعلم أن هذه الآية تدل على أن الحسد حرام .

(131/59)

ولما كان البغي قد يكون لوجوه شتى بين تعالى غرضهم من هذا البغي بقوله : ﴿ أَن يُنَزِّلُ اللهُ مِن فَضْلِهِ على مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ والقصة لا تليق إلا بما حكيناه من أنهم ظنوا أن هذا الفضل العظيم بالنبوة المنتظرة يحصل في قومهم فلما وجدوه في العرب حملهم ذلك على البغي والحسد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 167 ﴾

قال الآلوسى :

﴿ بِئْسَمَا اشتروا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُواْ بِمَا أَنزَلَ اللهُ ﴾ أي باعوا ، فالأنفس بمنزلة المثمن ، والكفر بمنزلة الثمن لأن أنفسهم الخبيثة لا تشترى بل تباع وهو على الاستعارة أي إنهم اختاروا الكفر على الإيمان وبذلوا أنفسهم فيه ، وقيل : هو بمعناه المشهور لأن المكلف إذا خاف على نفسه من العقاب أتى بأعمال يظن أنها تخلصه فكأنه اشترى نفسه بها فهؤلاء اليهود لما اعتقدوا فيما أتوا به أنه يخلصهم من العقاب ظنوا أنهم اشتروا أنفسهم وخلصوها فذمهم الله تعالى عليه ، واعترض بأنه كيف يدعي أنهم ظنوا ذلك مع قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ ﴾ [البقرة : 89] فإذا علموا مخالفة الحق كيف يظنون نجاتهم بما فعلوا وإرادة العقاب الدنيوي كترك الرياسة غير صحيح لأنه لا يشتري به الأنفس .

ويمكن الجواب بأن المراد أنهم ظنوا على ما هو ظاهر حالهم من التصلب في اليهودية والخوف فيما يأتون ويذرون وادعاء الحقية فيه فلا ينافي عدم ظنهم في الواقع على ما تدل عليه الآية ، والمراد بما أنزل الله الكتاب المصدق ، وفي تبديل المجيء بالإنزال المشعر بأنه من العالم العلوي مع الإسناد إليه تعالى إيذان بعلو شأنه وعظمه الموجب للإيمان به ، وقيل : يحتمل أن يراد به التوراة والإنجيل وأن يراد الجميع ، والكفر ببعضها كفر بكلها ، واختلف في (ما) الواقعة بعد بئس ألها محل من الإعراب أم لا ؟ فذهب الفراء إلى أنها لا محل لها وأنها مع بئس شيء واحد كحبذا ، وذهب الجمهور إلى أن لها محلاً ، واختلف أهو نصب أم رفع ؟ فذهب الأخفش إلى الأول على أنها تمييز ، والجملة بعدها في موضع نصب على الصفة ، وفاعل بئس مضمر مفسر بها ، والتقدير بئس هو شيئاً اشتروا به ، و ﴿ أَن يَكْفُرُواْ ﴾ هو المخصوص بالذمّ والتعبير بصيغة المضارع لإفادة الاستمرار على الكفر فإنه الموجب للعذاب المهين ، ويحتمل على هذا الوجه أن يكون المخصوص محذوفاً ، و(اشتروا) صفة له ، والتقدير بئس شيء اشتروا به ، و ﴿ أَن يَكْفُرُواْ ﴾ بدل من المحذوف أو خبر مبتدأ محذوف ، وذهب الكسائي إلى النصب على التمييز أيضاً إلا أنه قدر بعدها (ما) أخرى موصولة هي المخصوص بالذم ، و(اشتروا) صلتها ، والتقدير بئس شيئاً الذي اشتروا ، وذهب سيبويه إلى الثاني على أنها فاعل (بئس) وهي معرفة تامة ، والمخصوص محذوف أي : شيء اشتروا ، وعزي هذا إلى الكسائي أيضاً ، وقيل :

موصولة وهو أحد قولي الفارسي ، وعزاه ابن عطية إلى سيبويه وهو وهم ، ونقل المهدوي عن الكسائي أن (ما) مصدرية والمتحصل فاعل (بئس) واعترض بأن (بئس) لا تدخل على اسم معين يتعرف بالإضافة إلى الضمير ، ولك على هذا التقدير أن لا تجعل ذلك فاعلاً بل تجعله المخصوص والفاعل مضمر والتمييز محذوف لفهم المعنى ، والتقدير بئس اشتراء

(133/59)

اشتراؤهم فلا يلزم الاعتراض ، نعم يرد عود ضمير به على (ما) والمصدرية لا يعود عليها الضمير لأنها حرف عند غير الأخفش فافهم .

(134/59)

﴿ بَغْيًا أَن يُنَزِّلُ اللهُ ﴾ البغي في الأصل الظلم والفساد من قولهم بغى الجرح فسد قاله الأصمعي ، وقيل : أصله الطلب ، وتختلف أنواعه ففي طلب زوال النعمة حسد ، والتجاوز على الغير ظلم ، والزنا فجور ، والمراد به هنا بمعونة المقام طلب ما ليس لهم فيؤل إلى الحسد ، وإلى ذلك ذهب قتادة وأبو العالية والسدي ، وقيل : الظلم وانتصابه على أنه

مفعول له ليكفرون فيفيد أن كفرهم كان لمجرد العناد الذي هو نتيجة الحسد لا للجهل وهو أبلغ في الذم لأن الجاهل قد يعذر ، وذهب الزمخشري إلى أنه علة (اشتروا) ورد بأنه يستلزم الفصل بالأجنبي وهو المخصوص بالذم وهو وإن لم يكن أجنبياً بالنسبة إلى فعل الذم وفاعله لكن لا خفاء في أنه أجنبي بالنسبة إلى الفعل الذي وصف به تمييز الفاعل ، والقول بأن المعنى على ذم ما باعوا به أنفسهم حسداً وهو الكفر لا على ذم ما باعوا به أنفسهم وهو الكفر حسداً تحكم ، نعم قد يقال : إنما يلزم الفصل بأجنبي إذا كان المخصوص مبتدأ خبره بئسما أما لو كان خبر مبتدأ محذوف وهو المختار فلا لأن الجملة حينئذٍ جواب للسؤال عن فاعل (بئس) فيكون الفصل بين المعلول وعلته بما هو بيان للمعلول ولا امتناع فيه ، وجعله بعضهم علة ل (اشتروا) محذوفاً فراراً من الفصل ، ومنهم من أعربه حالاً ومفعولاً مطلقاً لمقدر أي بغوا بغياً ، و ﴿ أَن يُنَزِّلَ ﴾ إما مفعول من أجله للبغي أي حسداً لأجل تنزيل الله ، وإما على إسقاط الخافض المتعلق بالبغي أي حسداً على أن ينزل والقول بأنه في موضع خفض على أنه بدل اشتمال من (ما) في قوله : ﴿ بِمَا أَنزَلَ اللهُ ﴾ بعيد جداً ، وربما يقرب منه ما قيل : إنه في موضع المفعول الثاني ، والبغي بمعنى طلب الشخص ما ليس له يتعدى إليه بنفسه تارة ، وباللام أخرى ، والمفعول الأول ههنا أعني محمداً عليه الصلاة والسلام محذوف لتعينه ؛ وللدلالة على أن الحسد مذموم في نفسه كائناً ما كان المحسود كما لا يخفى وقرأ ابن

كثير وأبو عمرو ويعقوب ﴿ يُنَزّلِ ﴾ بالتخفيف .

﴿ مِن فَضْلِهِ ﴾ أراد به الوحي ، و(من) لابتداء الغاية صفة لموصوف محذوف أي شيئاً كائناً من فضله وجوّز أبو البقاء أن تكون زائدة على مذهب الأخفش ﴿ على مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ ﴾ أي على من يختاره للرسالة ، وفي " البحر " أن المراد به محمد صلى الله عليه وسلم لأنهم حسدوه لما لم يكن منهم ، وكان من العرب ومن ولد إسماعيل ولم يكن من ولده نبي سواه عليه الصلاة والسلام وإضافة العباد إلى ضميره تعالى للتشريف ، و﴿ مِنْ ﴾ إما موصولة أو موصوفة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 321.323 ﴾

قوله تعالى ﴿ فَبَاءو بِغَضَبٍ على غَضَبٍ ﴾

فصل

قال الفخر :

في تفسير الغضبين وجوه :

أحدها : أنه لا بد من إثبات سببين للغضبين .

أحدهما : ما تقدم وهو تكذيبهم عيسى عليه السلام وما أنزل عليه والآخر تكذيبهم محمد

عليه الصلاة والسلام وما أنزل عليه فصار ذلك دخولاً في غضب بعد غضب وسخط بعد سخط من قبله تعالى لأجل أنهم دخلوا في سبب بعد سبب ، وهو قول الحسن والشعبي وعكرمة وأبي العالية وقتادة ، الثاني : ليس المراد إثبات غضبين فقط بل المراد إثبات أنواع من الغضب مترادفة لأجل أمور مترادفة صدرت عنهم نحو قولهم : ﴿ عَزِيزٌ ابن الله ﴾ [التوبة : 30] .

﴿ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ [المائدة : 64] .

﴿ إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاء ﴾ [آل عمران : 181] وغير ذلك من أنواع كفرهم ، وهو قول عطاء وعبيد بن عمير ، الثالث : أن المراد به تأكيد الغضب وتكثيره لأجل أن هذا الكفر وإن كان واحداً إلا أنه عظم ، وهو قول أبي مسلم .

الرابع : الأول بعبادتهم العجل والثاني بكتمانهم صفة محمد وجحدهم نبوته عن السدي .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 168 ﴾

وقال ابن الجوزى :

وفي قوله تعالى ﴿ بغضب على غضب ﴾ خمسة أقوال .

أحدها : أن الغضب الأول لاتخاذهم العجل .

والثاني : لكفرهم بمحمد ، حكاه السدي عن ابن مسعود وابن عباس .

والثاني : أن الأول لتكذيبهم رسول الله .

والثاني : لعداوتهم لجبريل .

رواه شهر عن ابن عباس .

والثالث : أن الأول حين قالوا : ﴿ يد الله مغلولة ﴾ [المائدة : 64] .

والثاني : حين كذّبوا نبي الله .

رواه أبو صالح عن ابن عباس ، واختاره الفراء .

والرابع : أن الأول لتكذيبهم بعيسى والإنجيل .

والثاني : لتكذيبهم بمحمد والقرآن .

قاله الحسن ، والشعبي ، وعكرمة ، وأبو العالية ، وقتادة ، ومقاتل .

والخامس : أن الأول لتبديلهم التوراة .

والثاني : لتكذيبهم محمداً صلى الله عليه وسلم قاله مجاهد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 1 صـ 114 ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ فَبَاءو بِغَضَبٍ على غَضَبٍ ﴾ تفريع على ما تقدم ، أي فرجعوا متلبسين بغضب كائن على غضب مستحقين له حسبما اقترفوا من الكفر والحسد .

وروي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن الغضب الأول : لعبادة العجل والثاني : لكفرهم به صلى الله عليه وسلم ، وقال قتادة : الأول : كفرهم بالإنجيل والثاني : كفرهم بالقرآن ، وقيل : هما الكفر بعيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام ، أو قولهم : ﴿ عُزَيْرٌ ابن الله ﴾ [التوبة : 30] و ﴿ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ [المائدة : 64] وغير ذلك من أنواع كفرهم ، وكفرهم الأخير بالنبي صلى الله عليه وسلم ولا يخفى أن فاء العطف يقتضي صيرورتهم أحقاء بترادف الغضب لأجل ما تقدم ، وقولهم : ﴿ عُزَيْرٌ ابن الله ﴾ مثلاً غير مذكور فيما سبق ، ويحتمل أن يراد بقوله سبحانه : ﴿ بِغَضَبٍ على غَضَبٍ ﴾ الترادف والتكاثر لا غضبان فقط ، وفيه إيذان بتشديد الحال عليهم جداً كما في قوله :

ولو كان رمحاً واحداً لاتقيته . . .

ولكنه رمح (وثان وثالث)

ومن الناس من زعم أن الفاء فصيحة والمعنى فإذا كفروا وحسدوا على ما ذكر باءوا الخ ، وليس بشيء . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعاني حـ 1 صـ 323 ﴾

(137/59)

فصل

قال الفخر :

الغضب عبارة عن التغير الذي يعرض للإنسان في مزاجه عند غليان دم قلبه بسبب مشاهدة أمر مكروه وذلك محال في حق الله تعالى ، فهو محمول على إرادته لمن عصاه الإضرار من جهة اللعن والأمر بذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 168 ﴾

فائدة

قال الفخر :

إنه يصح وصفه تعالى بالغضب وأن غضبه يتزايد ويكثر ويصح فيه ذلك كصحته من العذاب فلا يكون غضبه على من كفر بخصلة واحدة كغضبه على من كفر بخصال كثيرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 168 ﴾

قوله تعالى ﴿ وللكافرين عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾

فائدة

قال الفخر :

قوله : ﴿ وللكافرين عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ له مزية على قوله ولهم عذاب مهين لأن العبارة الأولى يدخل فيها أولئك الكفار وغيرهم والعبارة الثانية لا يدخل فيها إلا هم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 168 ﴾

وقال أبو حيان :

ووصف العذاب بالإهانة ، وهي الإذلال ، قال تعالى : ﴿ وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين ﴾ وجاء في الصحيح ، في حديث عبادة ، وقد ذكر أشياء محرّمة فقال : " فمن أصاب شيئاً من ذلك فعوقب به فهو كفارة له " فهذا العذاب إنما هو لتكفير السيئات ، أو لأنه يقتضي الخلود خلوداً لا ينقطع ، أو لشدته وعظمته واختلاف أنواعه ، أو لأنه جزاء على تكبرهم عن اتباع الحق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 1 صـ 474 ﴾

قال الآلوسى :

﴿ وللكافرين عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ اللام في الكافرين للعهد ، والإظهار في موضع الإضمار للإيذان بعلية كفرهم لما حاق بهم ؛ ويحتمل أن تكون للعموم فيدخل المعهودون فيه على طرز ما مر .

والمهين المذل ، وأصله مهون فأعل ، وإسناده إلى العذاب مجاز من الإسناد إلى السبب والوصف به للتقييد والاختصاص الذي يفهمه تقديم الخبر بالنسبة إليه ، فغير الكافرين إذا عذب فإنما يعذب للتطهير لا للإهانة والإذلال ولذا لم يوصف عذاب غيرهم به في القرآن فلا تمسك للخوارج بأنه خص العذاب بالكافرين فيكون الفاسق كافراً لأنه معذب ولا للمرجئة أيضاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 323 ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ يُهانون فلا يُعزُون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 1 صـ 235 ﴾

وقال الخطيب الشربينى :

﴿ وللكافرين عذاب مهين ﴾ أي : ذو إهانة بخلاف عذاب العاصي فإنه طهرة لذنوبه .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ السراج المنير حـ 1 صـ 123 ﴾

(138/59)

فصل

قال الفخر :

العذاب في الحقيقة لا يكون مهيناً لأن معنى ذلك أنه أهان غيره وذلك مما لا يتأتى إلا فيما يعقل ، فالله تعالى هو المهين للمعذبين بالعذاب الكثير إلا أن الإهانة لما حصلت مع العذاب جاز أن يجعل ذلك من وصفه ،

فإن قيل : العذاب لا يكون إلا مع الإهانة فما الفائدة في هذا الوصف ؟

قلنا : كون العذاب مقروناً بالإهانة أمر لا بد فيه من الدليل ، فالله تعالى ذكر ذلك ليكون

دليلاً عليه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 168 ﴾

فائدة

قال الطبرى :

فإن قال قائل : أي عذاب هو غير مهين صاحبه ، فيكون للكافرين المهين منه ؟

قيل : إن المهين هو الذي قد بينا أنه المورث صاحبه ذلة وهوانا ، الذي يخلد فيه صاحبه ، لا ينتقل من هوانه إلى عز وكرامة أبدا ، وهو الذي خص الله به أهل الكفر به وبرسله . وأما الذي هو غير مهين صاحبه ، فهو ما كان تمحيصا لصاحبه . وذلك هو كالسارق من أهل الإسلام ، يسرق ما يجب عليه به القطع فتقطع يده ، والزاني منهم يزني فيقام عليه الحد ، وما أشبه ذلك من العذاب والنكال الذي جعله الله كفارات للذنوب التي عذب بها أهلها ، وكأهل الكبائر من أهل الإسلام الذين يعذبون في الآخرة بمقادير جرائمهم التي ارتكبوها ، ليمحصوا من ذنوبهم ، ثم يدخلون الجنة . فإن كل ذلك ، وإن كان عذابا ، فغير مهين من عذب به . إذ كان تعذيب الله إياه به ليمحصه من آثامه ، ثم يورده معدن العز والكرامة ، ويخلده في نعيم الجنان . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الطبرى حـ 2 صـ 347 . 348 ﴾

فصل

قال الفخر :

قال قوم : قوله تعالى : ﴿ وللكافرين عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ يدل على أنه لا عذاب إلا للكافرين ، ثم

بعد تقرير هذه المقدمة احتج بهذه الآية فريقان ، أحدهما : الخوارج قالوا : ثبت بسائر الآيات أن الفاسق يعذب ، وثبت بهذه الآية أنه لا يعذب إلا الكافر فيلزم أن يقال الفاسق كافر .

وثانيها : المرجئة قالوا : ثبت بهذه الآية أنه لا يعذب إلا الكافر وثبت أن الفاسق ليس بكافر ، فوجب القطع بأنه لا يعذب وفساد هذين القولين لا يخفى . (1) انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 168 ﴾

---

(1) وعندنا أن وصف العذاب الواقع بالكافر بأنه مهين يدل على أن العذاب غير المهين ليس للكافرين . ولما كان الأصل في المطيع أنه لا يعذب فحينئذ يكون العذاب غير المهين لصاحب المرتبة الوسطى وهو الفاسق لأن مرتبته دون المطيع وفوق الكافر .

ومن فوائد ابن عرفة فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ بِئْسَمَا اشتروا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُواْ . . . ﴾ .

قال ابن عرفة : نص النحويون على أنّ (اسم) الممدوح في "نعم" أو المذموم في "بئس" لا

يكون إلا أخص من فاعلها أو مساويا ، ولا يكون أعمّ منه ، والشراء والكفر بينهما عموم وخصوص من وجه ، فالشّراء يطلق على المعارضة من غير الكفر وعلى المعارضة في الكفر ، والكفر أيضا أعم من وجه ، لأن من كفر بعد أن آمن اشترى الكفر (بالإيمان) ، ومن كان كافرا بالإصالة لم يشتر شيئا بشيء .

قوله تعالى : ﴿ فَبَآءُو بِغَضَبٍ على غَضَبٍ . . . ﴾ .

أي رجعوا ، ومنه قولهم : بُؤْ بِشسع نعل كليب ، أي ارجع بشسعِ نعل كليب وهي من كلام المهلهل أخي كليب قالها في حرب (داحس) للحارث .

قال ابن عرفة : وتنكير الغضب بدل على أن الثّاني غير الأول كما قالوا في قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ مَعَ العسر يُسْراً إِنَّ مَعَ العسر يُسْراً ﴾ لن يغلب عسر (يسرين) ووجّهوه بأن العسر معرف فكان شيئا واحدا ، واليسر منكر فكان يسرين .

قال ابن عرفة : وإنما قال : " عَلى غَضَبٍ " ، ولم يقل بعد غضب إشعارا (بشدته) ، فإنه مجتمع متراكم بعضه على بعض .

قيل لابن عرفة : والغضب إن كن صفة فعل فالتعدد فيه متصور صحيح وإن كان صفة معنى امتنع فيه التعدد ، لأنه في (هذه الحالة يصير) راجعا إلى الإرادة ، وهي شيء واحد ، فكيف يفهم أنهما غضبان ؟ ثم أجاب بأنّهما متغايران باعتبار المتعلق ، فمتعلّق الإرادة

متعددة ، وهو (أنواع) العذاب ، فالمعنى على الأول : فباؤوا بعذاب على عذاب .

وعلى الثاني : فباؤوا بإرادة عذاب على عذاب .

(140/59)

وأوقع الظاهر موقع المضمر في قوله ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ ولم يقل : ولهم عذاب مهين ، مبالغة في إسناد العذاب على كل من اتصف بالكفر بالإطلاق . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير ابن عرفة حـ 1 صـ 369.370 ﴾

ومن فوائد ابن عطية فى الآية

قال رحمه الله :

" وبيس " أصله " بئس " سهلت الهمزة ونقلت إلى الباء حركتها ، ويقال في " بئس " " بيس " اتباعاً للكسرة ، وهي مستوفية للذم كما نعم مستوفية للمدح ، واختلف

(141/59)

النحويون في ﴿ بيسما ﴾ في هذا الموضع ، فمذهب سيبويه أن " ما " فاعلة ببيس ، ودخلت عليها بيس كما تدخل على أسماء الأجناس والنكرات لما أشبهتها " ما " في الإبهام ، فالتقدير على هذا القول : بيس الذي ﴿ اشتروا به أنفسهم أن يكفروا ﴾ ، كقولك : بيس الرجل زيد ، و" ما " في هذا القول موصولة ، وقال الأخفش : " ما " في موضع نصب على التمييز كقولك " بيس رجلاً زيد " ، فالتقدير " بيس شيئاً أن يكفروا " ، و﴿ اشتروا به أنفسهم ﴾ في هذا القول صفة " ما " ، وقال الفراء " بيسما بجملته شيء واحد ركب كحبذا " ، وفي هذا القول اعتراض لأنه فعل يبقى بلا فاعل ، و" ما " إنما تكف أبداً حروفاً ، وقال الكسائي : " ما " ، و﴿ اشتروا ﴾ بمنزلة اسم واحد قائم بنفسه ، فالتقدير بيس اشتراؤهم أنفسهم أن يكفروا ، وهذا أيضاً معترض لأن " بيس " لا تدخل على اسم معين متعرف بالإضافة إلى الضمير ، وقال الكسائي أيضاً : إن " ما " في موضع نصب على التفسير وثم " ما " أخرى مضمرة ، فالتقدير بيس شيئاً ما اشتروا به أنفسهم ، و﴿ أن يكفروا ﴾ في هذا القول بدل من " ما " المضمرة ، ويصح في بعض الأقوال المتقدمة أن يكون ﴿ أن يكفروا ﴾ في موضع خفض بدلاً من الضمير في ﴿ به ﴾ ، وأما في القولين الأولين ف ﴿ أن ﴾ ﴿ يكفروا ﴾ ابتداء وخبره فيما قبله ، و﴿ اشتروا ﴾ بمعنى باعوا ، يقال : شرى واشترى بمعنى باع ، وبمعنى ابتاع ، و﴿ بما أنزل الله ﴾ يعني به القرآن ، ويحتمل أن يراد به التوراة لأنهم إذ كفروا بعيسى ومحمد عليهما السلام فقد كفروا بالتوراة

، ويحتمل أن يراد به الجميع من توراة وإنجيل وقرآن ، لأن الكفر بالبعض يلزم الكفر بالكل ، و﴿ بغياً ﴾ مفعول من أجله ، وقيل نصب على المصدر ، و﴿ أن ينزل ﴾ نصب على المفعول من أجله أو في

موضع خفض بتقدير بأن ينزل .

وقرأ أبو عمرو وابن كثير " أن ينزل " بالتخفيف في النون والزاي ، و﴿ من فضله ﴾ يعني من النبوة والرسالة . و﴿ من يشاء ﴾ يعني به محمداً صلى الله عليه وسلم لأنهم حسدوه لما لم يكن منهم وكان من العرب . ويدخل في المعنى عيسى عليه السلام لأنهم قد كفروا به بغياً ، والله قد تفضل عليه ، و" باؤوا " معناه : مضوا متحملين لما يذكر أنهم باؤوا به ، و﴿ بغضب ﴾ معناه من الله تعالى لكفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم على غضب متقدم من الله تعالى عليهم ، قيل لعبادتهم العجل ، وقيل لقولهم عزير ابن الله ، وقيل لكفرهم بعيسى عليه السلام .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله : فالمعنى على غضب قد باء به أسلافهم حظ هؤلاء وافر بسبب رضاهم بتلك الأفعال وتصويبهم لها .

وقال قوم : المراد بقوله ﴿ بغضب على غضب ﴾ التأكيد وتشديد الحال عليهم لا أنه أراد غضبين معللين بقصتين ، و﴿ مهين ﴾ مأخوذ من الهوان وهو ما اقتضى الخلود في النار لأن من لا يخلد من عصاة المسلمين إنما عذابه كعذاب الذي يقام عليه الحد لا هوان فيه بل هو تطهير له . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 1 صـ 178.179 ﴾

(143/59)

وقال أبو السعود :

﴿ بِئْسَمَا اشتروا بِهِ أَنفُسَهُمْ ﴾ ما نكرةٌ بمعنى شيء ، منصوبةٌ مفسّرةٌ لفاعلِ بئس ، واشتَروا صفتُه أو بئس شيئاً باعُوا به أنفسَهم ، وقيل : اشتَروْها به في زعمهم حيث يعتقدون أنهم بما فعلوا خلّصوها من العقاب ويأباه أنه لا بد أن يكون المذمومُ ما كان حاصلاً لهم لا ما كان زائلاً عنهم ، والمخصوصُ بالذم قولُه تعالى : ﴿ أَن يَكْفُرُواْ بِمَا أَنزَلَ الله ﴾ أي الكتابِ المصدّقِ لما معهم بعد الوقوف على حقيقته ، وتبديلُ الإنزال بالمجيء للإيذان بعلوّ شأنه الموجبِ للإيمان به ﴿ بَغِيّاً ﴾ حسداً وطلباً لما ليس لهم ، وهو علةٌ لأن يكفُروا حتماً دون (اشتروا) لما قيل من الفصل بما هو أجنبيٌّ بالنسبة إليه وإن لم يكن أجنبياً بالنسبة إلى فعل الذمِّ وفاعِله ، ولأن البغيَ مما لا تعلقَ له بعُنوان البيعِ قطعاً لا سيما وهو معلَّلٌ

بما سيأتي من تنزيل الله تعالى من فضله على من يشاؤه وإنما الذي بينه وبينه علاقةٌ هو كفرُهم بما أنزل الله ، والمعنى بئس شيئاً باعُوا به أنفسَهم كفرُهم المعلَّلُ بالبغي الكائنِ لأجل ﴿ أَن يُنَزّلُ اللهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ الذي هو الحي ﴿ على مَن يَشَاء ﴾ أي يشاؤه ويصطفيه ﴿ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ المستأهِلين لتحمُّل أعباءِ الرسالةِ ، ومآلُه تعليلُ كُفرِهم بالمنزل عليه ، وإيثارُ صيغةِ التفعيل ههنا للإيذان بتجدد بغْيهم حسَب تجدُّدِ الإنزالِ وتكثُّره حسب تكثره ﴿ فَبَاءو بِغَضَبٍ على غَضَبٍ ﴾ أي رجعوا متلبسين بغضبٍ كائن على غضب مستحقين له حسب ما اقترفوا مِنْ كفر على كفر فإنهم كفروا بنبيّ الحقّ وبغَوْا عليه وقيل كفروا بمحمد عليه الصلاة والسلام بعد عيسى ، وقيل : بعد قولِهم : عزيرٌ بن الله وقولهم : يد الله مغلولة وغير ذلك من فنون كفرهم ﴿ وللكافرين ﴾ أي لهم والإظهار في موقع الإضمارِ للإشعار بعلية كفرهم لما حاق بهم ﴿ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ يراد به إهانتُهم وإذلالُهم لما أن كفرَهم بما أنزل الله

(144/59)

تعالى كان مبيناً على الحسد المبنيّ على طمع المنزولِ عليهم وادعاءِ الفضلِ على الناس والاستهانةِ بمن أنزل عليه عليه السلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 1 صـ

" فصل "

قال السيوطى :

بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ (90)

أخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة في قوله ﴿ بئسما اشتروا به أنفسهم . . . ﴾ الآية . قال : هم اليهود كفروا بما أنزل الله وبمحمد صلى الله عليه وسلم ، بغياً وحسداً للعرب ﴿ فباؤوا بغضب على غضب ﴾ قال : غضب الله عليهم مرتين بكفرهم بالإنجيل وبعيسى ، وبكفرهم بالقرآن وبمحمد .

وأخرج الطستي في مسائله عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق قال له : أخبرني عن قوله عز وجل ﴿ بئسما اشتروا به أنفسهم ﴾ قال : بئس ما باعوا به أنفسهم حيث باعوا نصيبهم من الآخرة بطمع يسير من الدنيا . قال : وهل تعرف ذلك ؟ قال : نعم ، أما سمعت الشاعر وهو يقول :

يعطى بها ثمناً فيمنعها . . . ويقول صاحبها ألا تشرى

وأخرج ابن إسحق وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ بغياً أن ينزل الله ﴾ أي أن الله جعله من غيرهم ﴿ فباؤوا بغضب ﴾ بكفرهم بهذا النبي ﴿ على غضب ﴾

كان عليهم فيما ضيعوه من التوراة .

وأخرج ابن جرير عن عكرمة ﴿ فباؤوا بغضب على غضب ﴾ قال : كفرهم بعيسى وكفرهم بمحمد .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد ﴿ فباؤوا بغضب ﴾ اليهود غضب بما كان من تبديلهم التوراة قبل خروج النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ على غضب ﴾ جحودهم النبي صلى الله عليه وسلم وكفرهم بما جاء به . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 1 صـ 218 ﴾

(145/59)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ بِئْسَمَا اشْتَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُواْ بِمَا أَنزَلَ اللّهُ بَغْياً أَن يُنَزِّلُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَآؤُواْ بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ (90) ﴾

عندما رفض اليهود الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم وطردهم الله من رحمته . .

بين لنا أنهم : " بئسما اشتروا به أنفسهم " . . وكلمة اشترى سبق الحديث عنها وقلنا إننا عادة ندفع الثمن ونأخذ السلعة التي نريدها . . ولكن الكافرين قلبوا هذا رأسا على عقب

وجعلوا الثمن سلعة . . على أننا لابد أن نتحدث أولا عن الفرق بين شرى واشترى . .

شرى بمعنى باع . . واقرأ قوله عز وجل :

وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ(20)

(سورة يوسف)

ومعنى الآية الكريمة أنهم باعوه بثمن قليل . . واشترى يعني ابتاع . . ولكن اشترى قد تأتي بمعنى شرى . . لأنك في بعض الأحيان تكون محتاجا إلي سلعة ومعك مال . . وتذهب وتشتري السلعة بمالك وهذا هو الوضع السليم . . ولكن لنفرض أنك احتجت لسلعة ضرورية كالدواء مثلا . . وليس عندك المالك ولكن عندك سلعة أخرى كأن يكون عندك ساعة أو قلم فاخر . . فتذهب إلي الصيدلية وتعطي الرجل سلعة مقابل سلعة . . أصبح الثمن في هذه الحالة مشترى . . إذن فمرة يكون البيع مشتري ومرة يكون مبيعاً . .

(146/59)

والحق تبارك وتعالى يقول : " بئسما اشتروا به أنفسهم " . . وكأنما يعيرهم بأنهم يدعون الذكاء والفطنة . . ويؤمنون بالمادية وأساسها البيع والشراء . . لو كانوا حقيقة يتقنون

هذا لعرفوا أنهم قد أتموا صفقة خاسرة . . الصفقة الرابحة كانت أن يشتروا أنفسهم مقابل التصديق بما أنزل الله على محمد صلى الله عليه وسلم . . ولكنهم باعوا أنفسهم واشتروا الكفر فخسروا الصفقة لأنهم أخذوا الخزي في الدنيا والعذاب في الآخرة . . والله سبحانه وتعالى يجعل بعض العذاب في الدنيا ليستقيم ميزان الأمور حتى عند من لم يؤمن بالآخرة . . فعندما يرى ذلك من لا يؤمن بالآخرة عذابا دنيويا يقع على ظالم . . يخاف من الظلم ويبتعد عنه حتى لا يصيبه عذاب الدنيا ويعرف أن في الدنيا مقاييس في الثواب والعقاب . . وحتى لا ينتشر في الأرض فساد من لا يؤمن بالله ولا بالآخرة . . وضع الحق تبارك وتعالى قصاصا في الدنيا . . واقرأ قوله جل جلاله :

وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ(179)

(سورة البقرة)

والله سبحانه وتعالى في قصاصه يلفت المؤمن وغير المؤمن إلى عقوبة الحياة الدنيا . . فيأتي للمرابي الذي يمتص دماء الناس ويصيبه بكارثة لا يجد بعدها ما ينفقه . . ولذلك نحن نقول يا رب إن القوم غرهم حلمك واستبطأوا آخرتك فخذهم ببعض ذنوبهم أخذ عزيز مقتدر حتى يعتدل الميزان .

والله تبارك وتعالى جعل مصارع الظالمين والباغين والمتجبرين في الدنيا . . جعلها الله عبرة لمن لا يعتبر بمنهج الله . فتجد إنسانا ابتعد عن دينه وأقبلت عليه الدنيا بنعيمها ومجدها وشهرتها ثم تجده في آخر أيامه يعيش على صدقات المحسنين . . وتجد امرأة غرها المال فانطلقت تجمع من كل مكان حلالا أو حراما وأعطتها الدنيا بسخاء . . وفي آخر أيامها تزول عنها الدنيا فلا تجد ثمن الدواء . . وتموت فيجمع لها الناس مصاريف جنازتها . . كل هذه الأحداث وغيرها عبرة للناس . . ولذلك فهي تحدث على رؤوس الأشهاد . . يحضرها عدد كبير من الناس . . إما لأنها تنشر في الصحف وإما أنها تذاع بين أهل الحي فيتناقلونها . . المهم أنها تكون مشهور .

وتجد مثلا أن اليهود الذين كانوا زعماء المدينة تجار الحرب والسلاح . . ينتهي بهم الحال أن يطردوا من ديارهم وتؤخذ أموالهم وتسبى نساؤهم . . أليس هذا خزيا ؟ قوله تعالى : " أن يكفروا بما أنزل الله بغيا " . . البغي تجاوز الحد ، والله جعل لكل شيء حدا من تجاوزه بغى . . والحدود التي وضعها الله سبحانه هي أحكام . . ومرة تكون أوامر ومرة تكون نواهي . ولذلك يقول الحق بالنسبة للأوامر :

تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا

(من الآية 229 سورة البقرة)

ويقول تعالى بالنسبة للنواهي :

تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا

(من الآية 229 سورة البقرة)

(148/59)

ولكن ما سبب بغيهم ؟ ببغيهم حسد على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تأتي إليه الرسالة . . وعلى العرب أن يكون الرسول منهم . . واليهود اعتقدوا لكثرة أنبيائهم أنهم الذين ورثوا رسالات الله إلي الأرض . . وعندما جاءت التوراة والإنجيل يبشران برسول خاتم قالوا إنه منا . . الرسالة والنبوة لن تخرج عنا فنحن شعب الله المختار . . ولذلك كانوا يعلنون أنهم سيتبعون النبي القادم وينصرونه . . ولكنهم فوجئوا بأنه ليس منهم . . حينئذ ملأهم الكبر والحسد وقالوا مادام ليس منا فلن نتبعه بل سنحاربه . . لقد خلعت منهم الرسالات لأنهم ليسوا أهلا لها . . وكان لابد أن يعاقبهم الله على كفرهم ومعصيتهم ويجعل الرسالة في أمة غيرهم . . والله تبارك وتعالى يقول :

إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (16) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (17)

(سورة فاطر)

لقد اختبرهم الله في رسالات متعددة ولكنهم كما قرأنا في الآيات السابقة . . كذبوا فريقا من الأنبياء . ومن لم يكذبوه قتلوه . . لذلك كان لابد أن ينزع الله منهم هذه الرسالات ويجعلها في أمة غيرهم . . لتكون أمة العرب فيها ختام رسالات السماء إلي الأرض . . ولذلك بغوا .

(149/59)

وقوله تعالى : " بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده" . . ومن هنا نعرف أن الرسالات واختيار الرسل . . فضل من الله يختص به من يشاء . . والله سبحانه حين يطلق أيدينا ويملكنا الأسباب . . فإننا لا نخرج عن مشيئته بل نخضع لها . . ونعرف أنه لا ذاتية في هذا الكون . . وذلك حتى لا يغتر الإنسان بنفسه . . فإن بطل العالم في لعبة معينة هو قمة الكمالات البشرية في هذه اللعبة . . ولكن هذه الكمالات ليست ذاتية فيه لأن غيره يمكن أن يتغلب عليه . . ولأنه قد يصيبه أي عائق يجعله لا يصلح للبطولة . . وعلى كل حال فإن بطولته لا تدوم . . لأنها ليست ذاتية فيه ومن وهبها له وهو الله سيهبها لغيره متى شاء . . ولذلك لابد أن يعلم الإنسان أن الكمال البشري متغير لا يدوم لأحد . . وأن كل من يبلغ القمة ينحدر بعد ذلك لأننا في عالم أغيار . . ولابد لكل من علا أن ينزل . .

فالكمال لله وحده . . والله سبحانه يحرس كماله بذاته .

إذن اليهود حسدوا رسول الله . . حسدوا نزول القرآن على العرب . . والحق سبحانه يقول : " فباءوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين" . . والله جل جلاله يخبرنا أنه غضب عليهم مرتين . الغضب الأول أنهم لم ينفذوا ما جاء في التوراة فغضب الله عليهم . . والغضب الثاني حين جاءهم رسول مذكور عندهم في التوراة ومطلوب منهم أن يؤمنوا به فكفروا به . . وكان المفروض أن يؤمنوا حتى يرضى الله عنهم . . ولذلك غضب الله عليهم مرة أخرى عندما كفروا برسول الله صلى الله عليه وسلم . .

(150/59)

وقوله تعالى : " وللكافرين عذاب مهين" . . العذاب في القرآن الكريم وصف بأنه أليم . . ووصف بأنه عظيم ووصف بأنه مهين . . أليم أي شديد الألم يصيب من يعذب بألم شديد . . ولكن لنفرض أن الذي يعذب يتجلد . . ويحاول ألا يظهر الألم حتى لا يشمت فيه الناس . . يأتيه الله بعذاب عظيم لا يقدر على احتماله . . ذلك أن عظمة العذاب تجعله لا يستطيع أن يحتمل . . فإذا كان الإنسان من الذين تزعموا الكفر في الدنيا . . ووقفوا أمام دين الله يحاربونه وتزعموا قومهم . . يأتيهم الله تبارك وتعالى بعذاب مهين . . ويكون هذا

أكثر إيلاما للنفس من الألم . . تماما كما تأتي لرجل هو أقوى من في المنطقة يخافه الناس جميعا ثم تضربه بيدك وتسقطه على الأرض . . تكون في هذه الحالة قد أهنته أمام الناس . . فلا يستطيع بعد ذلك أن يتجبر أو يتكبر على واحد منهم . . ويكون هذا أشد إيلاما للنفس من ألم العذاب نفسه ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيّاً (69) ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيّاً (70)

(سورة مريم)

وقوله جل جلاله :

ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (49)

(سورة الدخان)

ذلك هو العذاب المهين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 457 . 461 ﴾

(151/59)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

" بِئْس " فعل ماض غير متصرّف ، معناه الذَّمُّ ، فلا يعمل إلاَّ في معرَّف بـ " أل " أو فيما أضيف إلى ما هُمَا فيه ، أو في مضمر مفسَّر بنكرة ، أو في " مَا " على قول سيبويه .

وفيه لغات : بَئِسَ بكسر العين وتخفيف هذا الأصل ، وبِئسَ بكسر الفاء إتباعاً للعين ، وتخفيف هذا الإتباع ، وهو أشهر الاستعمالات ومثلها " نِعْمَ " في جميع ما تقدم من الأحكام واللغات .

قال ابن الخطيب : ما كان ثانية حرف حَلْق وهو مكسورٌ يجوز فيه أربع لغات :

الأول : على الأصل أعني : بفتح الأول وكسر الثاني .

والثاني : إتباع الاول للثاني ، وهو أن يكون بكسر النون والعين ، كما يقال : " فِخِذٌ " بكسر الفاء والخاء ، وهم وإن كانوا يفرُّون من الجمع بين الكَسْرتين إلاَّ أنهم جوّزوه ها هنا ؛ لكون الحرف الحَلْقيِّ مستتبعاً لما يجاوره .

الثالث : إسكان الحرف الحَلْقيِّ المكسور ، وترك ما قبله ما كان ، فيقال : نَعْمَ وبَأْسَ بفتح الأول وإسكان الثاني ؛ كما يقال : " فَخْذٌ " .

الرابع : أن يسكن الحرف الحَلْقِيُّ ، وتنقل كسرته إلى ما قبله فيقال : " نِعْم " بكسر النون وإسكان العين ؛ كما يقال : " فِخْذٌ " بكسر الفاء وإسكان الخاء .

واعلم أن هذا التغيير الأخير ، وإن كان في حدّ الجواز عند إطلاق هاتين الكلمتين ، إلاّ أنهم جعلوه لازماً لهما ؛ لخروجهما عمَّا وضعت له الأفعالُ الماضية من الإخبار عن وجود

المصدر في الزمان والماضي ، وصيرورتهما كلمتي مَدْحٍ وذَمٍّ ، ويراد بهما المُبَالغة في المدح والذم ؛ ليدلّ هذا التَّغيير اللازم في اللَّفظ على التغيير عن الأصل ، وفي المعنى ؛ فيقولون : " نِعْمَ الرَّجُلُ زَيْدٌ " ولا يذكرونه على الأصل إلا في ضرورة الشِّعْر ؛ كما أنشد المبرِّد : [الرمل]

655 فَفِدَاءً لِبَنِي قَيْسٍ عَلَى . . .

مَا أَصَابَ النَّاسَ مِنْ شَرٍّ وَضُرْ

مَا أَقَلَّتْ قَدَمَايَ إِنَّهُمْ . . .

نِعِمَ السَّاعُونَ فِي الأَمْرِ المُبِرْ

(152/59)

وهما فعلان من نَعِمَ يَنْعَمُ وبِئْسَ يَبْأَسُ .

والدليل عليه دخول التاء التي هي علامة التأنيث فيهما ، فيقال : نعمتْ وبئستْ .

وزعم الكوفيون أنهما اسمان ؛ مستدلين بدخول حرف الجر عليهما في قول حسان : [الطويل]

656 أَلَسْتُ بِنِعْمَ الجَارُ يُؤْلِفُ بَيْتَهُ . . .

مِنَ النَّاسِ ذَا مَالٍ كَثِيرٍ وَمُعْدِمَا

وبما روي أن أعرابيًّا بشر بمولوده فقيل له : نعم المولودة مولودتك ! فقال : " والله ما هي بنعم المولودة : نُصْرتها بكاء ، وبرّها سرقة " و" نِعْمَ السَّيْر على بِئْسَ العِيرِ " .

وقوله : [الرجز]

657 صَبَّحَكَ اللهُ بِخَيْرٍ بَاكِرِ . . .

بِنِعْمَ طَيْرٍ وَشَبَابٍ فَاخِرِ

وخرجه البصريون على حذف موصوف ، قامت صفته مقامه ، تقديره : والله ما هي بمولدة مَقُول فيها : نعم المولودة .

فصل في نعم وبئس

اعلم أنَّ " نعم وبئس " أصلان للصّلاح والرَّدَاءة ، ويكون فالعها اسماً يستغرق الجنس إما مظهراً وإما مضمراً ، فالمظهر على وجهين :

الأول : كقولك : " نعم الرجل زيد " لا تريد رجلاً دون رجل ، وإنما تقدص الرَّدل على الإطلاق .

والثاني : نحو قولك : " نعم غلام الرَّجل زيد " .

وأما قوله : [البسيط]

658 فَنِعْمَ صَاحِبُ قَوْمٍ لاَ سِلاَحَ لَهُمْ . . .

وَصَاحِبُ الرَّكْبِ عُثْمَانُ بْنُ عَفانا

فنادر .

وقيل : كان ذلك لأجل أن قوله : " وَصَاحِبُ الرَّكْبِ " قد دل على المقصود ؛ إذ المراد واحد ، فإذا أتى بالمركّب بالألف واللام ، فكأنه قد أتى به في القوم ، وأما المضمر فكقولك : " نعم رجلاً زيد " الأصل : نعم الرجل رَجُلاً زيد الأصل ثم ترك ذكر الأول ؛ لأن النكرة المنصوبة تدل عليه .

(153/59)

ف " رجلاً نصب على التمييز ، مثله في قولك عشرون رَجُلاً والمميّز لا يكون إلا نكرة ، ألا ترى أن أحداً لا يقول : " عشرون الدّرهم " ولو أدخلوا الألف واللام على هذا فقالوا : " نعم الرجلُ " بالنصب لكان نقضاً لِلْغَرَضِ ، وإذ لو كانوا يريدون الإتيان بالألف واللام لرفعوا ، وقالوا : : " نعم الرجلُ " وكَفَوْا أنفسهم مؤنة الإضمار ، وإنما أضمروا الفاعل قصداً للاختصار ، إذ كان " نعم رجلاً " يدل على الجنس الذي فضل عليه .

فصل في إعراب المخصوص بالمدح في أسلوب " نِعْمَ "

إذا قلت : " نعم الرجل زيد " فهو على [وجهين] :

أحدهما : أن يكون متبدأ مؤخراً ، كأنه قيل : " زيد نعم الرجل " أخرت " زيداً " والنية به التقديم كما تقول : مررت به المسكين تريدك المسكين ممرت به ، فأما الراجع إلى المبتدأ ، فإن الرجل لما كان شائعاً ينتظر فيه الجِنْس كان " زيد " داخلاً تحته ، فصار بمنزلة الذكر الذي يعود إليه .

والوجه الآخر : أن يكون " زيد " في قولك : " نعم الرجل زيد " خبرا مبتدأ محذوف ، كأنه لما قبلك نعم الرجل قيل : من هذا الذي أثنى عليه ؟ فقيل : زيد ، أي : هو زيد .

فصل في شرط نعم وبئس

ولا بد بعد هذين الفعلين من خصوصين من المَدْح أو الذم ، وقد يحذف لقرينة وأما " ما " الواقعة بعد " بئس " كهذه الآية ، فاختلف فيها النحاة ، هل لها محلّ من الإعراب أم لا ؟

فذهب الفراء : إلى أنها مع " بئس " شيء واحد ركّب تركيب " حَبَّذا " ، نقله ابن عطية عنه نقل عنه المَهْدوي أنه يجوز أن تكون " ما " مع " بئس " بمنزلة " كلما " ، فظاهر هذين النقلين أنها لا محل لها .

وذهب الجمهور أن لها محلاً ، ثم اختلفوا في محلّها هل هو رفع أو نصب ؟ .

فذهب الأخفش إلى أنها في محلّ نصب على التمييز ، والجملة بعدها في محل نصب صفة لها ، وفاعل " بئس " مضمر تفسره " ما " ، والمخصوص بالذم هو قوله : " أَنْ يَكْفُرُوا " لأنه في تأويل مصدر ، والتقدير : بئس هو شيئاً اشتروا به أنفسهم كُفْرهم ، وبه قال الفارسي [في أحد قوليه] ، واختاره الزَّمخشري ، ويجوز على هذا أن يكون المخصوص بالذَّم محذوفاً و" اشتروا " صفة له في محلّ رفع تقديره : بئس شيئاً شيء أو كفر اشتروا به ، كقوله : [الطويل]

659 لَنِعْمَ الْفَتَى أَضْحَى بِأَكْنَافِ حَائِلٍ . . . . . .

أي : فَتًى أَضْحَى .

و" أَنْ يَكْفُرُوا " بدل من ذلك المحذوف أو خبر مبتدأ محذوف ، أي : هو أن يكفروا .

وذهب الكسائي إلى أن ، " ما " منصوبة المحل أيضاً ، [لكنه] قدر بعدها " ما " موصولة أخرى بمعنى " الذي " ، وجعل الجملة من قوله : " اشْتَرَوا " صلتها ، و" ما " هذه الموصولة هي المخصوص بالذم ، والتقدير : بئس شيئاً الذي اشتروا به أنفسهم ، فلا محلّ لـ " اشتروا " على هذا ، أو يكون " أن يكفروا " على هذا القول خبراً لمبتدأ محذوف كما تقدم .

فتلخّص في الجملة الواقعة بعد " ما " على القول بنصبها ثلاثة أقوال :

الأول : أنها صفة لها ، فتكون في محلّ نصب ، أو صلة لـ " ما " المحذوفة ، فلا محلّ لها ، أو صفة للمخصوص بالذم فتكون في محل رفع .

وذهب سيبويه : إلى أن موضعها رفع على أنها فاعل " بئس " ، فقال سيبويه : هي معرفة تامّة ، التقدير : بئس الشيء ، والمخصوص بالذم على هذا محذوف ، أي : شيء اشتروا به أنفسهم وعزي هذا القول أيضاً للكسائي .

وذهب الفراء والكسائي أيضاً إلى أن " ما " موصولة بمعنى " الذي " ، والجملة اشتروا به أنفسهم أن يكفروا ، ف " أن يكفروا " هو المخصوص بالذم .

(155/59)

قال أبو حَيَّان : وما نقله ابن عطية عن سيبويه هم عليه ونقل المَهْدوي وابن عطيّة عن الكسائي أيضاً أن " ما " يجوز أن تكون مصدرية ، والتقدير : بئس اشتراؤهم ، فتكون " ما " وما في حيّزها في محل رفع .

قال ابن عطيية : وهذا معترض ؛ لأن " بئس " لا تدخل على اسم معيّن يتعرف بالإضافة إلى الضمير .

قال أبو حَيَّان : وهذا لا يلزم ، إلاَّ إذا نصّ أنه مرفوع " بئس " ؛ أما إذا جعله المخصوص بالذم ، وجعل فاعل " بئس " مضمراً ، والتمييز محذوفاً لفهم المعنى ، والتقدير : بئس اشتراء اشتراؤهم ، فلا يلزم الاعتراض .

قال شهاب الدين : وبهذا أعني : بجعل فاعل " بئس " مضمراً فيها جوز أبو البقاء في " ما " أن تكون مصدرية ، فإنه قال

والرابع : أن تكون مصدرية ، أي بئس شراؤهم ، وفاعل " بئس " على هذا مضمر ؛ لأن المصدر هنا مخصوص ليس بجنس يعني فلا يكون فاعلاً ، لكن يبطل هذا القول عود الضمير في " به " على " ما " والمصدرية لا يعود عليها ؛ لأنه حذف عند الجمهور .

قوله : " أو يكفروا " قد تقدم فيه أنه يجوز أن يكون هو المخصوص بالذم ، ففيه الأوجه الثلاثة إما مبتدأ أو خبره الجملة قبله ، ولا حاجة إلى الرابط ؛ لأن العموم قائم مقامه ، إذ الألف واللام في فاعل " نعم وبئس " للجنس ، أو لأن الجملة نفس المبتدأ ، وإما خبر لمبتدأ محذوف وإما مبتدأ أو خبره محذوف ، وتقدم أنه يجوز أن يكون بدلاً أو خبراً لمبتدأ حسبما تقرّر وتحرر .

وأجاز الفراء أن يكون في محلّ جر بدلاً من الضمير في " به " إذا جعلت " ما " تامة .

قوله : " بَمَا أَنْزَلَ اللهُ " متعلّق بـ " كفروا " ، وتقدّم أن " كفر " يتعدّى بنفسه تارة ، وبحرف الجر أخرى ، و " ما " موصولة بمعنى " الذي " ، والعائد محذوف تقديره : أنزله ، ويضعف جعلها نكرة موصوفة ، وكذلك جعلها مصدريّة ، والمصدر قائم مقام المفعول ، أي : بإنزاله يعني : بالمنزل .

قوله : " بَغْياً " فيه ثلاثة أوجه :

أظهرها : أنه مفعول من أجله وهومستوفٍ لشروط النصب ، وفي الناصب له قولان :

أحدهما وهو الظاهر أنه يكفروا ، أي علة كفرهم البَغْي ، وهذا تنبيه على أن كفرهم [بَغْي وحَسَد] ، ولولا هذا القول لجوزنا أن يكون كفرهم جهلاً ، والمراد بذلك : كفرهم بالقرآن ، لأن الخطاب لليهود ، وكانوا مؤمنين بغيره فبيّن تعالى غرضهم من هذا البَغْي بقوله : ﴿ أَن يُنَزِّلُ اللهُ مِن فَضْلِهِ على مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ [البقرة : 90] وهذا لا يليق إلا باليهود ؛ لأنهم ظنوا أن ذلك الفضل العظيم بالنبوّة المنتظرة تحصل في قومهم ، فلما وجدوه في العرب حملهم ذلك على الحَسَد والبَغْي .

والقول الثاني : أن الناصب لقوله "بَغْياً" "اشْتَروا" ، وإليه ينحو كلام الزمشخري ، فإنه قال : "وهو علّة" اشتروا .

الوجه الثاني : أنه منصوب على المصدر بفعل مَحْذوف يدل عليه ما تقدم ، أي : بَغَوا بغياً .

والثالث : أنه في موضع حالٍ ، وفي صاحبها القَوْلاَن المتقدّمان : إما فاعل "اشتروا" ، وإما فاعل "يكفروا" ، تقديره : اشتروا باغين ، أو يكفروا باغين .

والبَغْي : أصله الفَسَاد ، من قولهم : بغي الجرح أي : فسد ، قاله الأَصْمعي .

وقيل : هو شدة الطلب ، ومنه قوله تعالى : ﴿ مَا نَبْغِي ﴾ [يوسف : 65] ومنه البّغِيّ للزانية ، لشدة طلبها له وقال القُرْطبي : البغي معناه : الحَسَد ، قاله قتادة والسُّدي ، وهو مفعول من أجله ، وهو في الحقيقة مصدر .

[وقال الراجز : [السريع أو الرجز]

660 أُنْشُدُوا الْبَاغِي يُحِبُّ الْوِجْدَانْ . . .

قَلاَئِصاً مُخْتَلِفَاتِ الأَلْوَانْ]

قوله : " أَنْ يُنَزِّلَ اللهُ " فيه وجهان :

أحدهما : أنه مفعول من أجله ، والناصب له " بغياً " أي : علّة البغي إنزال الله فَضْله على محمد عليه الصلاة والسلام .

(157/59)

والثاني : أنه على إسقاط الخافض ، والتقدير : بغياً على أن ينزل ، أى : حسداً على أن ينزل ، فجيء فيه الخلاف المَشْهُور ، أهو في موضع نصب أو جر ؟

والثالث : أنه في محل جر بدلاً من " ما " في قوله تعالى : " بِمَا أَنْزَلَ اللهُ " [بدل اشتمال أي بإنزال الله] فيكون كقول امرىء القيس : [الطويل]

661 أَمِنْ ذِكْرِ سَلْمَى أَنْ نَأَتْكَ تَنُوصُ . . .

فَتَصْرُ عَنْهَا خُطْوَةً أَوْ تُبُوصُ

وقرأ أبو عمرو وابن كثير جميع المضارع مُخَففاً من "أنزل" إلا ما وقع الإجماع على تشديده في "الحجر" ﴿ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ ﴾ [الحجر: 21] وقد خالفا هذا الأصل. أما أبو عمرو فإنه شدد ﴿ على أَن يُنَزِّلَ آيَةً ﴾ [الأنعام: 37] في "الأنعام". وأما ابن كثير فإنه شدّد في الإسراء ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ القرآن ﴾ [الإسراء: 82] ﴿ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً ﴾ [الإسراء: 93]

والباقون بالتشديد في جميع المضارع إلاّ حمزة والكسائي، فإنهما خالفا هذا الأصل مخففاً ﴿ وَيُنَزِّلُ الغيث ﴾ آخر لقمان [لقمان: 34] ﴿ وَهُوَ الذي يُنَزِّلُ الغيث ﴾ في الشورى [الآية: 28].

والهمزة والتضعيف للتعدية، وقد تقدم: هل بينهما فَرْق؟ وتحقيق كلّ من القولين، وقد ذكر القراء مناسبات الإجماع على الشديد في تلك المواضع، ومخالفة كلّ واحد أصله؟ لماذا بما يطول ذكره والأظهر من ذلك كله أنه جمع بين اللغات.

قوله: "مِنْ فَضْلِهِ" من لابتداء الغاية، وفيه قولان:

أحدهما: أنه صفة لموصوف محذوف هو مفعول "ينزل" أي: ينزل الله شيئاً كائناً من فَضْله، فيكون في محلّ نصب.

والثاني : أن " من " زائدة ، وهو رأي الأخفش ، وحينئذ فلا تعلق له ، والمجرور بها هو المفعول أي : أن ينزل الله فضله .

(158/59)

قوله : " عَلَى مَنْ يَشَاءُ " متعلّق بـ " ينزل " و " من " يجوز أن تكون موصولةً ، أو نكرة موصوفة ، والعائد على الموصول أو الموصوف محذوف لاستكمال الشُّروط المجوزة للحذف ، والتقدير : على الذي يَشَاؤه ، أو على رجل يَشَاؤه .

وقدره أبو البقاء مجروراً فإنه قال بعد تجوزه في " من " أن تكون موصوفة أو موصولة " ومفعول يشاء محذوف ، أي : يشاء نزوله عليه ، ويجوز أن يكون يشاء يختار ويَصْطفي " انتهى .

وقد عرفت أن العائد المجرور لا يحذف إلاَّ بشروط ، وليست موجودة هنا فلا حاجة إلى هذا التقدير .

قوله : " مِنْ عِبَادِهِ " فيه قولان .

أحدهما : أنه حال من الضَّمير المحذوف الذي هو عائد على الموصوف أو الموصول ، والإضافة تقتضي التشريف .

والثاني : أن يكون صفةً لـ " من " بعد صفة على القول بكونها نكرة ، قاله أبو البقاء وهو ضعيف ؛ لأن البداية بالجار والمجرور على الجملة في باب النعت عند اجتماعهما أولى لكونه أقرب إلى المفرد فهو في محلّ نصب على الأول وجرّ على الثاني ، وفي كلا القولين متعلّق بمحذوف وجوباً لما تقرر .

قوله : " فَبَاءُوا بِغَضَبٍ " الباء للحال ، أي : رجعوا ملتبسين بغضب ، أي مغضوباً عليهم ، وقد تقدم ذلك .

قوله : " عَلَى غَضَبٍ " في محلّ جر ؛ لأنه صفة لقوله : " بِغَضَبٍ " أي : كائن على غضب أي بغضب مترادف .

قوله " مهين " صفة لـ " عذاب " .

وأصله : " مُهْوِن " ؛ لأنه من الهوان ، وهو اسم فاعل من أهان يُهِين إهانة مثل : أقام يقيم إقامة ، فنقلت كسرة " الواو " على الساكن قبلها ، فسكنت " الواو " بعد كسرة ، فقلبت ياء .

والإهانة : الإِذْلال والخِزْي .

وقال " وَلِلْكَافِرِيْنَ " ولم يقل : " ولهم " تنبيهاً على العلّة المقتضية للعذاب المُهين ، فيدخل فيها أولئك الكفّار وغيرهم . انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 2 صـ 277 . 284 ﴾ . باختصار .

(159/59)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ (90) ﴾

أنزلهم التحاسُد عن مقر العِزّ إلى حضيض الخزي ، وسامهم ذُلَّ الصّغِرَ حين لم يَرْضُوا بمقتضى الحُكْم ، فأضافوا استيجاب مقتٍ آنفٍ إلى استحقاق مَقْتٍ سالف . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 105 ﴾ .

(160/59)

بسم الله الرحمن الرحيم

الكتاب / الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

ويسمى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العَاجِزُ الْفَقِيرُ

عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مُحَمَّدٍ الْقَمَّاش

إِمَامُ وَخَطِيبُ مَسْجِدِ بُورُسْلِى - رَأْسُ الْخَيمَةِ

دَوْلَةُ الإِمَارَاتِ الْعَرَبِيَّةِ الْمُتَّحِدَةِ

(عَفَا اللهُ عَنْهُ وَغَفَرَ لَهُ)

الجزء الستون

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الستون

من الآية ﴿ 91 ﴾ سورة البقرة

وحتى الآية ﴿ 101 ﴾ من نفس السورة

قوله تعالى ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (91) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أقام سبحانه الدليل على استحقاقهم للخلود في النار بكفرهم بالكتاب الذي كانوا يستفتحون بالآتي به أقام دليلاً آخر على ذلك أبين منه وذلك بكفرهم بكتابهم نفسه فقال : (وإذا قيل لهم) أي هؤلاء الذين نقضوا عهود كتابهم) آمنوا بما أنزل الله) أي الملك الذي له الأمر كله مطلقاً .

وعلى جهة العموم من الكتب والصحف .

ولما رفع مقدارهم بالدعاء إلى الإيمان بما أسند إلى هذا الاسم الأعظم) قالوا (تسفيلاً لأنفسهم (نؤمن بما أنزل علينا) فأسقطوا اسم من يتشرف بذكره ويتبرك باسمه وخصوا بعض ما أنزله .

ثم عجب من دعواهم هذه بقوله : (ويكفرون) أي قالوا ذلك والحال أنهم يكفرون (بما وراءه) أي وراء ما أنزل عليهم مما أنزل الله على رسله ، وهو يشمل ما قبل التوراة وما بعدها ، لأن وراء يراد بها تارة خلف وتارة قدام ، فإذا قلت : زيد ورائي ، صح أن يراد في

المكان الذي أورايه أنا بالنسبة غلى من خلفي فيكون أمامي ، وأن يراد في المكان الذي هو متوار عني فيكون خلفي .

(5/60)

وقال الحرالي : وراء ما لا يناله الحس ولا العلم حيث ما كان من المكان ، فربما اجتمع أن يكون الشيء وراء من حيث إنه لا يعلم ويكون أماماً في المكان – انتهى .

(وهو) أي والحال أن ذلك الذي وراءه هو (الحق) الواصل إلى أقصى غاياته بما دلت عليه (أل) قال الحرالي : فأنهاه لغاية الحق بكلمة (أل) لأن ما ثبت ولا زوال له لانتهائه هو (الحق) وما ثبت وقتاً ما ثم يتعقبه تكملة أو يقبل زيادة فإنما هو (حق) منكر اللفظ ، فإن بين المعروف بكلمة (أل) وبين المنكر أشد التفاوت في المعنى – انتهى .

) مصدقاً لما معهم (فصح أنهم كافرون بما عندهم ، لأن المكذب بالمصدق لشيء مكذب بذلك الشيء .

ثم كشف ستر مقالتهم هذه بأبين نقض فقال (قل فلم) أي تسبب عن دعواكم هذه أن يقال لكم : لم (تقتلون أنبياء الله) الملك الأعظم مع أن كتابكم محرم لمطلق القتل فكيف بقتل الأنبياء ثم بين أن كفرهم بهذا القتل إنما هو بطريق الرضى بقتل أسلافهم بقوله مثبتاً الجار لأن

ذلك كان منهم في بعض الأزمان الماضية (من قبل) وفي صيغة المضارع تصوير لشناعة هذا القتل بتلك الحال الفظيعة ورمز إلى أنهم لو قدروا الآن فعلوا فعلهم ، لأن التقدير : وتُصرّون على قتلهم من بعد ؛ وفيه إيماء إلى حرصهم على قتل النبي (صلى الله عليه وسلم) تحذيراً منهم ، ولقد صدق هذا الإيماء الواقع ، فقد عزم بنو النضير على أن يلقوا عليه صخرة ، وسمّه أهل خيبر .

ثم أورد مضمون دعواهم بأداة الشك فقال (إن كنتم مؤمنين) إشعاراً بأن مثل ذلك لا يصدر من متلبس بالإيمان . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 196 . 197 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أن هذا النوع أيضاً من قبائح أفعالهم : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ﴾ يعني به اليهود : ﴿ آمنوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ﴾ أي بكل ما أنزل الله ، والقائلون بالعموم احتجوا بهذه الآية على أن لفظة " ما " بمعنى الذي تفيد العموم ، قالوا : لأن الله تعالى أمرهم بأن يؤمنوا بما أنزل الله فلما آمنوا بالبعض دون البعض ذمهم على ذلك ولولا أن لفظة " ما " تفيد العموم لما حسن هذا الذم ،

ثم إنه تعالى حكى عنهم أنهم لما أمروا بذلك : ﴿ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا ﴾ يعني بالتوراة وكتب سائر الأنبياء الذين أتوا بتقرير شرع موسى عليه السلام ثم أخبر الله تعالى عنهم أنهم يكفرون بما وراءه وهو الإنجيل والقرآن .

وأورده هذه الحكاية عنهم على سبيل الذم لهم وذلك أنه لا يجوز أن يقال لهم آمنوا بما أنزل الله إلا ولهم طريق إلى أن يعرفوا كونه منزلاً من عند الله وإلا كان ذلك تكليف ما لا يطاق وإذا دل الدليل على كونه منزلاً من عند الله وجب الإيمان به ، فثبت أن الإيمان ببعض ما أنزل الله دون البعض تناقض .

أما قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الحق مُصَدّقاً لّمَا مَعَهُمْ ﴾ فهو كالإشارة إلى ما يدل على وجوب الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وبيانه من وجهين : الأول : ما دل عليه قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الحق ﴾ أنه لما ثبتت نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بالمعجزات التي ظهرت عليه ، إنه عليه الصلاة والسلام أخبر أن هذا القرآن منزل من عند الله تعالى وأنه أمر المكلفين بالإيمان به وكان الإيمان به واجباً لا محالة ، وعند هذا يظهر أن الإيمان ببعض الأنبياء وبعض الكتب مع الكفر ببعض الأنبياء وبعض الكتب محال .

الثاني : ما دل عليه قوله : ﴿ مُصَدّقاً لّمَا مَعَهُمْ ﴾ وتقريره من وجهين ، الأول : أن محمداً صلوات الله وسلامه عليه لم يتعلم علماً ولا استفاد من أستاذ ، فلما أتى بالحكايات والقصص موافقة لما في التوراة من غير تفاوت أصلاً علمنا أنه عليه الصلاة والسلام إنما استفادها من الوحي والتنزيل .

الثاني : أن القرآن يدل على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فلما أخبر الله تعالى عنه أنه مصدق للتوراة وجب اشتمال التوراة على الإخبار عن نبوته ، وإلا لم يكن القرآن مصدقاً للتوراة بل مكذباً لها وإذا كانت التوراة مشتملة على نبوة محمد عليه الصلاة والسلام وهم قد اعترفوا بوجوب الإيمان بالتوراة لزمهم من هذه الجهة وجوب الإيمان بالقرآن وبنبوة محمد عليه الصلاة والسلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 169 ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ وَإِذَا قِيلَ ﴾ من جانب المؤمنين ﴿ لَهُمْ ﴾ أي لليهود ، وتقديمُ الجار والمجرور قد مر وجهه لا سيما في لام التبليغ ﴿ آمنوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ﴾ من الكتب الإلهية جميعاً والمرادُ به الأمرُ بالإيمان بالقرآن لكن سُلك مسلكُ التعميم إيذاناً بتحتُّم الامتثالِ من حيث مشاركتُه

لما آمنوا به فيما في حيّزِ الصلةِ وموافقتِه له في المضمون وتنبيهاً على أن الإيمانَ بما عداه من غيرِ إيمانٍ به ليس بإيمان بما أنزل الله ﴿ قَالُواْ نُؤْمِنُ ﴾ أي نستمر على الإيمان ﴿ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا ﴾ يعنون به التوراةَ وما نزَلَ على أنبياءِ بني إسرائيلَ لتقرير حكمَها ، ويدسُّون فيه أن ما عدا ذلك غيرُ منزّلٍ عليهم ، ومرادُهم بضمير المتكلم إما أنفسُهم فمعنى الإنزالِ عليهم تكليفُهم بما في المنزَّل من الأحكام ، وإما أنبياءُ بني إسرائيلَ وهو الظاهرُ لاشتماله على مزيَّة الإيذانِ بأن عدمَ إيمانِهم بالفُرقان لما مرَّ من بغيهم وحَسَدِهم على نزوله على من ليس منهم ، ولأن مرادَهم بالموصول وإن كان هو التوراةُ وما في حكمها خاصةً لكنّ إيرادَها بعنوان الإنزالِ عليهم مبنيٌّ على ادعاء أن ما عداها ليس كذلك على وجه التعريضِ كما أشير إليه فلو أريد بالإنزال عليهم ما ذكر من تكليفهم يلزَمُ من مغايرَةَ القرآنِ لما أُنزل عليهم حسبما يُعرب عنه قوله عز وجل : ﴿ وَيَكْفُرونَ بِمَا وَرَاءهُ ﴾ عدمُ كونِهم مكلَّفين بما فيه كما يلزَم عدمَ كونِه نازلاً على واحد من بني إسرائيلَ على الوجه الأخير ، وتجريدُ الموصول عن الإضمارِ عما عرَّضوا به تعسُّفٌ لا يخفى ، والوراء في الأصل مصدر جُعل ظرفاً ويضاف إلى الفاعل فيرادُ به ما يتوارى به وهو خلْفُه ، وإلى المفعول فيراد به ما يواريه وهو أمامُه ، والجملةُ حال من ضمير قالوا بتقدير مبتدأ أي قالوا ما قالوا وهم يكفرون بما عداه وليس المرادُ مجردَ بيانِ أن إفرادَ إيمانِهم بما أنزل عليهم بالذكر لنفي

إيمانِهم بما وراءه ، بل بيانِ أن ما يدّعون من الإيمان ليس بإيمانٍ بما أنزل عليهم حقيقةً فإن قولَه عز اسمُه : ﴿ وَهُوَ الحق ﴾ أي المعروفُ بالحقيقة بأن يُخَصَّ به اسمُ الحقِ على الإطلاق ، حال من فاعل يكفُرون وقوله تعالى : ﴿ مُصَدّقاً ﴾ حالٌ مؤكدة لمضمون الجملةِ صاحبُها إما ضميرُ الحق وعاملَها ما فيه من معنى الفعل قاله أبو البقاء ، وإما ضميرٌ دل عليه الكلامُ وعاملها فعلٌ مضمرٌ ، أي أُحِقُّه مصدّقاً ﴿ لّمَا مَعَهُمْ ﴾ من التوراة والمعنى قالوا نؤمن بما أنزل علينا وهم يكفُرون بالقرآن والحال أنه حقٌّ مصدّقٌ لما آمنوا به فيلزمهم الكفرُ بما آمنوا به وما آلُه أنهم ادَّعَوا الإيمانَ بالتوراة والحال أنهم يكفُرون بما يلزَمُ من الكفر به الكفرُ بها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 1 صـ 129. 130 ﴾

قوله تعالى ﴿ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاء اللهِ مِن قَبْلُ ﴾

فصل

قال الفخر :

إنه سبحانه وتعالى بين من جهة أخرى أن دعواهم كونهم مؤمنين بالتوراة متناقضة من وجوه أخر ، وذلك لأن التوراة دلت على أن المعجزة تدل على الصدق ودلت على أن من كان صادقاً في ادعاء النبوة فإن قتله كفر ، وإذا كان الأمر كذلك كان السعي في قتل يحيى وزكريا

وعيسى عليهم السلام كفراً فلم سعيتم في ذلك إن صدقتم في ادعائكم كونكم مؤمنين بالتوراة. انتهى انتهى. اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 169. 170 ﴾

(10/60)

وقال ابن عطية:

وقوله تعالى: ﴿ قل فلم تقتلون ﴾ الآية

رد من الله تعالى عليهم في أنهم آمنوا بما أنزل عليهم، وتكذيب منه لهم في ذلك، واحتجاج عليهم. ولا يجوز الوقف على ﴿ فلم ﴾ لنقصان الحرف الواحد إلا أن البزي وقف عليه بالهاء، وسائر القراء بسكون الميم. وخاطب الله من حضر محمداً صلى الله عليه وسلم من بني إسرائيل بأنهم قتلوا الأنبياء لما كان ذلك من فعل أسلافهم. وجاء ﴿ تقتلون ﴾ بلفظ الاستقبال وهو بمعنى المضي لما ارتفع الإشكال بقوله ﴿ من قبل ﴾ وإذا لم يشكل فجائز سوق الماضي بمعنى المستقبل وسوق المستقبل بمعنى الماضي. قال الحطيئة [الكامل أخذ مضمر].

شهد الحطيئة يوم يلقى ربه... أن الوليد أحق بالعذر

وفائدة سوق الماضي في موضع المستقبل، الإشارة إلى أنه في الثبوت كالماضي الذي قد

وقع . وفائدة سوق المستقبل في معنى الماضي الإعلام الأمر مستمر . ألا ترى أن حاضري محمد صلى الله عليه وسلم لما كانوا راضين بفعل أسلافهم بقي لهم من قتل الأنبياء جزء . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 1 صـ 179 ﴾

وقال الماوردى :

﴿ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللهِ مِن قَبْلُ ﴾ معناه فلم قتلتم ، فعبر عن الفعل الماضي بالمستقبل ، وهذا يجوز ، فيما كان بمنزلة الصفة ، كقوله تعالى : ﴿ وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ ﴾ أي ما تلت ، وقال الشاعر :

وإني لآتيكم بشكر ما مضى . . . من الأمر واستحباب ما كان في غد

يعني ما يكون في غد ، وقيل معناه : فلم ترضون بقتل أنبياء الله ، إن كنتم مؤمنين ؟ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ النكت والعيون حـ 1 صـ 159 ﴾

وقال ابن الجوزى :

وتقتلون بمعنى : قتلتم ، فوضع المستقبل في موضع الماضي ، لأن الوهم لا يذهب إلى غيره .

وأنشدوا في ذلك :

شهدَ الحطيئةُ حين يلقى ربَّه . . .

أنَ الوليدَ أحقُّ بالعذرِ

أراد : يشهد . انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير حـ 1 صـ 115 ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ قُلْ ﴾ تبكيتاً لهم من جهة الله عز من قائل ببيان التناقضِ بين أقوالِهم وأفعالِهم بعد بيانِ التناقضِ في أقوالهم ﴿ فَلِمْ ﴾ أصلُه لِمَا حُذفت عنه الألفُ فرقاً بين الاستفهامية والخبرية ﴿ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاء اللهِ مِن قَبْلُ ﴾ الخطابُ للحاضرين من اليهود والماضين على طريق التغليب ، وحيث كانوا مشاركين في العقد والعمل كان الاعتراضُ على أسلافهم اعتراضاً على أخلافِهم ، وصيغةُ الاستقبال لحكايةِ الحالِ الماضية ، وهو جوابُ شرطٍ محذوفٍ أي قل لهم إن كنتم مؤمنين بالتوراة كما تزعُمون فلأيّ شيء كنتم تقتلون أنبياءَ الله من قبلُ وهو فيها حرامٌ ، وقرىء أنبئاءَ الله مهموزاً ، وقولُه تعالى : ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ تكريرٌ للاعتراض لتأكيد الإلزامِ وتشديدِ التهديدِ أي إن كنتم مؤمنين فلمَ تقتلونهم ، وقد حُذف من كل واحدة من الشرطيتين ما حُذف ثقةً بما أُثبتَ في الأخرى وقيل : لا حذفَ فيه بل تقديمُ الجواب على الشرط وذلك لا يتأتى إلا على رأي الكوفيين وأبي زيد وقيل : (إن) نافية أي ما كنتم مؤمنين وإلا لم قتلتموهم ؟ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 1 صـ 130 ﴾

وقال الطبرى :

فإن قال قائل : وكيف قيل لهم : (فلم تقتلون أنبياء الله من قبل) ، فابتدأ الخبر على لفظ المستقبل ، ثم أخبر أنه قد مضى ؟

قيل : إن أهل العربية مختلفون في تأويل ذلك . فقال بعض البصريين : معنى ذلك : فلم قتلتم أنبياء الله من قبل ، كما قال جل ثناؤه : (وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ) [سورة البقرة : 102] ، أي : ما تلت ، وكما قال الشاعر :

ولقد أمر على اللئيم يسبني . . . فمضيت عنه وقلت لا يعنيني

يريد بقوله : " ولقد أمر" ولقد مررت . واستدل على أن ذلك كذلك ، بقوله : " فمضيت عنه" ، ولم يقل : فأمضي عنه . وزعم أن" فعل" و" يفعل" قد تشترك في معنى واحد ، واستشهد على ذلك بقول الشاعر :

وإني لآتيكم تَشَكُّرَ ما مضى . . . من الأمر ، واسْتِيجابَ ما كان في غد

يعني بذلك : ما يكون في غد ، وبقول الحطيئة :

شهد الحطيئة يوم يلقى ربه . . . أن الوليد أحق بالعذر

يعني : يشهد . وكما قال الآخر :

فما أضحي ولا أمسيت إلا . . . أراني منكم في كَوَّفان

فقال : أضحي ، ثم قال : " ولا أمسيت " .

وقال بعض نحويي الكوفيين : إنما قيل : (فلم تقتلون أنبياء الله من قبل) ، فخاطبهم بالمستقبل من الفعل ، ومعناه الماضي ، كما يعنف الرجل الرجل على ما سلف منه من فعل فيقول له : ويحك ، لم تكذب ؟ ولم تبغض نفسك إلى الناس ؟ كما قال الشاعر :

إذا ما انتسبنا ، لم تلدني لئيمة . . . ولم تجدي من أن تُقِري به بُدّاَ

فالجزاء للمستقبل ، والولادة كلها قد مضت . وذلك أن المعنى معروف ، فجاز ذلك . قال : ومثله في الكلام : " إذا نظرت في سيرة عمر ، لم تجده يسيء " .

المعنى : لم تجده أساء . فلما كان أمر عمر لا يشك في مضيه ، لم يقع في الوهم أنه مستقبل .

فلذلك صلحت " من قبل " مع قوله : (فلم تقتلون أنبياء الله من قبل) .

قال : وليس الذين خوطبوا بالقتل هم القتلة ، إنما قتل الأنبياء أسلافهم الذين مضوا ، فتولوهم على ذلك ورضوا به ، فنسب القتل إليهم .

قال أبو جعفر : والصواب فيه من القول عندنا ، أن الله خاطب الذين أدركوا رسول الله صلى الله عليه وسلم من يهود بني إسرائيل – بما خاطبهم في سورة البقرة وغيرها من سائر السور – بما سلف من إحسانه إلى أسلافهم ، وبما سلف من كفران أسلافهم نعمه ، وارتكابهم معاصيه ، واجترائهم عليه وعلى أنبيائه ، وأضاف ذلك إلى المخاطبين به ، نظير قول العرب بعضها لبعض : فعلنا بكم يوم كذا كذا وكذا ، وفعلتم بنا يوم كذا كذا وكذا – على نحو ما قد بيناه في غير موضع من كتابنا هذا – ، يعنون بذلك أن أسلافنا فعلوا ذلك بأسلافكم ، وأن أوائلنا فعلوا ذلك بأوائلكم . فكذلك ذلك في قوله : (فلم تقتلون أنبياء الله من قبل) ، إذْ كان قد خرج على لفظ الخبر عن المخاطبين به خبرا من الله تعالى ذكره عن فعل السالفين منهم – على نحو الذي بينا – جاز أن يقال" من قبل" ، إذْ كان معناه : قل : فلم يقتل أسلافكم أنبياء الله من قبل" ؟ وكان معلوما بأن قوله : (فلم تقتلون أنبياء الله من قبل) ، إنما هو خبر عن فعل سلفهم .

وتأويل قوله : (من قبل) ، أي : من قبل اليوم .

وأما قوله : (إن كنتم مؤمنين) ، فإنه يعني : إن كنتم مؤمنين بما نزل الله عليكم كما زعمتم . وإنما عنى بذلك اليهود الذين أدركوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأسلافهم – إن كانوا وكنتم ، كما تزعمون أيها اليهود ، مؤمنين . وإنما عيرهم جل ثناؤه بقتل أوائلهم أنبياءه ، عند قولهم حين قيل لهم : (آمنوا بما أنزل الله . قالوا : نؤمن بما أنزل علينا . لأنهم كانوا لأوائلهم –

الذين تولوا قتل أنبياء الله ، مع قيلهم : نؤمن بما أنزل علينا – متولين ، وبفعلهم راضين . فقال لهم : إن كنتم كما تزعمون مؤمنين بما أنزل عليكم ، فلم تتولون قتلة أنبياء الله ؟ أي : ترضون أفعالهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الطبرى حـ 1 صـ 350.354 ﴾

فائدة

قال النسفى :

قيل : قتلوا في يوم واحد ثلثمائة نبي في بيت المقدس . (1) انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 1 صـ 62 ﴾

---

(1) هذا القول يحتاج إلى سند وإن كان صدوره متوقع من اليهود عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة .

فائدة

قال الفخر :

هذه الآية دالة على أن المجادلة في الدين من حرف الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وإن إيراد المناقضة على الخصم جائز . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 170 ﴾

فصل

قال الفخر :

قوله : ﴿ فَلِمَ تَقْتُلُونَ ﴾ وإن كان خطاب مشافهة لكن المراد من تقدم من سلفهم ويدل عليه وجوه :

أحدها : أن الأنبياء في ذلك الزمان ما كانوا موجودين .

وثانيها : أنهم ما أقدموا على ذلك ، وثالثها : أنه لا يتأتى فيه من قبل .

فأما المراد به الماضي فظاهر لأن القرينة دالة عليه .

فإن قيل قوله : ﴿ ءامَنُواْ ﴾ خطاب لهؤلاء الموجودين : ﴿ ولم تَقْتُلُونَ ﴾ حكاية فعل أسلافهم فكيف وجه الجمع بينهما ؟ قلنا معناه : أنكم بهذا التكذيب خرجتم من الإيمان بما آمنتم كما خرج أسلافكم بقتل بعض الأنبياء عن الإيمان بالباقين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 170 ﴾

سؤال : يقال كيف جاز قوله : لم تقتلون من قبل ولا يجوز أن يقال : أنا أضربك أمس ؟

والجواب فيه قولان .

أحدهما : أن ذلك جائز فيما كان بمنزلة الصفة اللازمة كقولك لمن تعرفه بما سلف من قبح فعله : ويحك لم تكذب ؟ كأنك قلت : لم يكن هذا من شأنك .

قال الله تعالى : ﴿ واتبعوا مَا تَتْلُواْ الشياطين ﴾ [البقرة : 102] ولم يقل ما تلت لأنه أراد

من شأنها التلاوة.

والثاني: كأنه قال: لم ترضون بقتل الأنبياء من قبل إن كنتم آمنتم بالتوراة. والله أعلم.

انتهى انتهى. اهـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 170﴾

فائدة

قال السمرقندى:

وفي الآية دليل أن من رضي بالمعصية فكأنه فاعل لها، لأنهم كانوا راضين بقتل آباءهم الأنبياء، فسماهم الله تعالى قاتلين.

وفي الآية دليل أن من ادعى أنه مؤمن، ينبغي أن تكون أفعاله مصدقة لقوله، لأنهم كانوا يدعون أنهم مؤمنون بما معهم.

قال الله تعالى: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاء اللهِ﴾، يعني أي كتاب يجوّز قتل نبي من الأنبياء عليهم السلام وأي دين وإيمان جوّز فيه ذلك يعني قتل الأنبياء. انتهى انتهى. اهـ ﴿بحر العلوم حـ 1 صـ 100﴾

ومن فوائد ابن عرفة فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ وَيَكْفُرونَ بِمَا وَرَآءَهُ . . . ﴾ .

إما معطوف على " قَالُوا نُؤْمِنُ " فيكون جوابا لِ " إذا " ، أي إذَا قيل لهم : آمنوا بما أنزل الله يكفرون بما وراء كتابهم ، وإما حال مع أن المضارع لا يأتي حالا بالواو إلا قليلا ، لكنه هنا على إضمار المبتدإ أي وهم يكفرون بما وراءه .

أخبر الله عن تناقضهم بأن إيمانهم بكتابهم يستلزم إيمانهم بما سواه من الكتب التي من جملتها القرآن ، وكفرهم بالقرآن يستلزم كفرهم بكتابهم المنزل عليهم ، لأنّ الكتب كلّها يصدق بعضها بعضا .

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الحق مُصَدّقاً لِّمَا مَعَهُمْ . . . ﴾ .

أبو حيان " مُصَدّقاً " حال مؤكدة .

قال ابن عرفة : بل هي مبنية ، لأن الحقّ قد يكون مصدقا لما معهم ، وقد لا يكون مصدقا ولا مكذبا ، لأن النّبي عليه الصلاة والسلام أتى بشرائع بعضها في كتابهم ، وبعضها ليس موجودا في كتابهم (بوجه) ، فكتابنا حق (ومصدق لما في كتابهم) (بالنسبة إلى ما تكرر في الكتابين) ، وليس بمصدق أو مكذب بالنسبة إلى ما زاد به على كتابهم ، وأما أنه مكذب فَلاَ لأن كلا الكتابين حق ، فليس من لوازم كون القرآن حقا يصدق ما معهم إنّما من لوازمه أنْ لا يكذبه لأن الحق لا يكذب الحق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عرفة حـ 1

﴿ صـ370.371 ﴾

ومن فوائد الآلوسى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ﴾ ظرف لقالوا والجملة عطف على ﴿ قَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾ [البقرة : 88] ولا غرض يتعلق بالقائل ، فلذا بني الفعل لما لم يسم فاعله ، والظاهر أنه من جانب المؤمنين .

(16/60)

﴿ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُواْ ﴾ الجمهور على أنه القرآن ، وقيل : سائر ما أنزل من الكتب الإلهية إجراء لما على العموم ومع هذا : جُلّ الغرض الأمر بالإيمان بالقرآن لكن سلك مسلك التعميم منه إشعاراً بتحتم الامتثال من حيث مشاركته لما آمنوا به فيما في حيز الصلة وموافقته له في المضمون ، وتنبيهاً على أن الإيمان بما عداه من غير إيمان به ليس إيماناً بما أنزل الله .

﴿ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا ﴾ أي نستمر على الإيمان بالتوراة وما في حكمها مما أنزل لتقرير حكمها ، وحذف الفاعل للعلم به إذ من المعلوم أنه لا ينزل الكتب إلا هو سبحانه ، ولجريان

ذكره في الخطاب ومرادهم بضمير المتكلم إما أنبياء بني إسرائيل وهو الظاهر وفيه إيماء إلى أن عدم إيمانهم بالقرآن كان بغياً وحسداً على نزوله على من ليس منهم وإما أنفسهم ومعنى الإنزال عليهم تكليفهم بما في المنزل من الأحكام ، وذموا على هذه المقالة لما فيها من التعريض بشأن القرآن ودسائس اليهود مشهورة أو لأنهم تأولوا الأمر المطلق العام ونزلوه على خاص هو الإيمان بما أنزل عليهم كما هو ديدنهم في تأويل الكتاب بغير المراد منه .

(17/60)

﴿ وَيَكْفُرونَ بِمَا وَرَاءهُ ﴾ عطف على ﴿ قَالُواْ ﴾ ؛ والتعبير بالمضارع لحكاية الحال استغراباً للكفر بالشيء بعد العلم بحقيته أو للتنبيه على أن كفرهم مستمر إلى زمن الإخبار ، وقيل : استئناف وعليه ابن الأنباري ويجوز أن يكون حالاً إما على مذهب من يجوز وقوع المضارع المثبت حالاً مع الواو ، وإما على تقدير مبتدأ أي وهم يكفرون ، والتقييد بالحال حينئذٍ لإفادة بيان شناعة حالهم بأنهم متناقضوا في إيمانهم لأن كفرهم بما وراءه حال الإيمان بالتوراة يستلزم عدم الإيمان به وهذا أدخل في رد مقالتهم ولهذا اختار هذا الوجه بعض الوجوه ، ووراء في الأصل مصدر لاشتقاق المواراة والتواري منه ، والمزيد فرع المجرد إلا أنه لم يستعمل فعله المجرد أصلاً ثم جعل ظرف مكان ويضاف إلى الفاعل فيراد به المفعول

وإلى المفعول فيراد به الفاعل أعني الساتر ، ولصدقه على الضدين الخلف ، والأمام عد من الأضداد وليس موضوعاً لهما ، وفي " الموازنة" للأموي تصريح بأنه ليس منها وإنما هو من المواراة والاستتار فما استتر عنك فهو وراء خلفاً كان أو قداماً إذا لم تره فأما إذا رأيته فلا يكون وراءك .

والمراد هنا بما بعده قاله قتادة أو بما سواه وبه فسر ﴿ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَّا وَرَاءَ ذَلِكُمْ ﴾ [النساء : 24] وأريد به القرآن كما عليه الجمهور .

وقال الواحدي : هو والإنجيل ، واحتمال أن يراد بما وراءه باطن معاني ما أنزل عليهم التي هي وراء ألفاظها ، وفيه إشعار بأن إيمانهم بظاهر اللفظ ليس بشيء إلا أن يراد بذلك الباطن القرآن ولا يخفى بعده .

﴿ وَهُوَ الحق ﴾ الضمير عائد لما وراءه حال منه ، وقيل : من فاعل (يكفرون) والجملة الحالية المقترنة بالواو لا يلزم أن يعود منها ضمير إلى ذي الحال كجاء زيد والشمس طالعة وعلى فرض اللزوم ينزل وجود الضمير فيما هو من تتمتها منزلة وجوده فيها ، والمعنى وهم مقارنون لحقيته أي عالمون بها وهو أبلغ في الذم من كفرهم بما هو حق في نفسه ، والأول أولى

لظهوره ولا تفوت تلك الأبلغية عليه أيضاً إذ تعريف الحق للإشارة إلى أن المحكوم عليه مسلم الاتصاف به معروفه من قبيل والدك العبد فيفيد أن كفرهم به كان لمجرد العناد ، وقيل : التعريف لزيادة التوبيخ والتجهيل بمعنى أنه خاصة الحق الذي يقارن تصديق كتابهم ولولا الحال أعني (مصدقاً) لم يستقم الحصر لأنه في مقابلة كتابهم وهو حق أيضاً ، وفيه أنه لا يستقيم ولو لوحظ الحال بناءً على تخصيص ذي الضمير بالقرآن لأن الإنجيل حق مصدق للتوراة أيضاً ، نعم لو أريد بالحق الثابت المقابل للمنسوخ لاستقام الحصر مطلقاً إلا أنه بعيد .

﴿ مُصَدّقًا لّمَا مَعَهُمْ ﴾ حال مؤكدة لأن كتب الله تعالى يصدق بعضها بعضاً ، فالتصديق لازم لا ينتقل ، وقد قررت مضمون الخبر لأنها كالاستدلال عليه ، ولهذا تضمنت رد قولهم : ﴿ نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا ﴾ حيث إن من لم يصدق بما وافق التوراة لم يصدق بها ، واحتمال أن يراد مما معهم التوراة والإنجيل كما في " البحر " لأنهما أنزلا على بني إسرائيل وكلاهما غير مخالف للقرآن مخالف لما يقتضيه الذوق سباقاً وسياقاً .

﴿ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاء اللهِ مِن قَبْلُ ﴾ أمر للنبي صلى الله عليه وسلم أن يقول ذلك تبكيتاً لهم حيث قتلوا الأنبياء مع ادعاء الإيمان بالتوراة وهي لا تسوّغه ، ويحتمل أن يكون أمراً لمن يريد جدالهم كائناً من كان .

والفاء جواب شرط مقدر أي : إن كنتم مؤمنين ﴿ فَلِمْ ﴾ الخ ، و(ما) استفهامية حذفت ألفها لأجل لام الجر ويقف البزي في مثل ذلك بالهاء وغيره بغير هاء ، وإيراد صيغة المضارع مع الظرف الدال على المضي للدلالة على استمرارهم على القتل في الأزمنة الماضية ، وقيل : لحكاية تلك الحال ، والمراد بالقتل معناه الحقيقي وإسناده إلى الأخلاف المعاصرين له صلى الله عليه وسلم مع أن صدوره من الأسلاف مجاز للملابسة بين الفاعل الحقيقي وما أسند إليه ، وهذا كما يقال لأهل قبيلة أنتم قتلتم زيداً إذا كان القاتل آباءهم ، وقيل : القتل مجاز عن الرضا أو العزم عليه ، ولا يخفى أن الاعتراض على الوجه الأول أقوى تبكيتاً منه على الآخرين فتدبر ، وفي إضافة (أنبياء) إلى الاسم الكريم تشريف عظيم وإيذان بأنه كان ينبغي لمن جاء من عند الله تعالى أن يعظم وينصر لا أن يقتل .

﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ تكرير للاعتراض لتأكيد الإلزام وتشديد التهويل أي : إن كنتم مؤمنين فلم تقتلونهم وقد حذف من كل واحدة من الشرطيتين ما حذف ثقة بما أثبت في الأخرى على طريق الاحتباك ، وقيل : إن المذكور قبل جواب لهذا الشرط بناءً على جواز تقديمه وهو رأي الكوفيين وأبي زيد ، واختاره في " البحر " ، وقال الزجاج : (إن) هنا نافية ولا يخفى بعده . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعاني حـ 1 صـ 323. 325 ﴾

ومن فوائد ابن عاشور فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ ﴾

معطوف على قوله : ﴿ ولما جاءهم كتاب من عند الله ﴾ [البقرة : 89] المعطوف على قوله : ﴿ وقالوا قلوبنا غلف ﴾ [البقرة : 88] وبهذا الاعتبار يصح اعتباره معطوفاً على ﴿ وقالوا قلوبنا غلف ﴾ على المعروف في اعتبار العطف على ما هو معطوف وهذا كله من عطف حكايات أحوالهم في معاذيرهم عن الإعراض عن الدعوة الإسلامية فإذا دعوا قالوا : قلوبنا غلف وإذا سمعوا الكتاب أعرضوا عنه بعد أن كانوا منتظريه حسداً أن نزل على رجل من غيرهم ، وإذا وعظوا وأنذروا ودعوا إلى الإيمان بالقرآن وبأنه أنزله الله وأن ينظروا في دلائل كونه منزلاً من عند الله أعرضوا وقالوا : نؤمن بما أنزل علينا أي بما أنزله الله على رسولنا موسى ، وهذا هو مجمع ضلالاتهم ومنبع عنادهم فلذلك تصدى القرآن لتطويل المحاجة فيه بما هنا وما بعده تمهيداً لقوله الآتي : ﴿ ما ننسخ من آية ﴾ [

البقرة: 106] الآيات.

وقولهم: ﴿ نؤمن بما أنزل علينا ﴾ أرادوا به الاعتذار وتعلة أنفسهم لأنهم لما قيل لهم ﴿ آمنوا بما أنزل الله ﴾ علموا أنهم إن امتنعوا امتناعاً مجرداً عدت عليهم شناعة الامتناع من الإيمان بما يدعى أنه أنزله الله فقالوا في معذرتهم ولإرضاء أنفسهم ﴿ نؤمن بما أنزل علينا ﴾ أي أن فضيلة الانتساب للإيمان بما أنزل الله قد حصلت لهم أي فنحن نكتفي بما أنزل علينا وزادوا إذ تمسكوا بذلك ولم يرفضوه.

وهذا وجه التعبير في الحكاية عنهم بلفظ المضارع ﴿ نؤمن ﴾ أي ندوم على الإيمان بما أنزل علينا وقد عرضوا بأنهم لا يؤمنون بغيره لأن التعبير بنؤمن بما أنزل علينا في جواب من قال لهم ﴿ آمنوا بما أنزل الله ﴾ وقد علم أن مراد القائل الإيمان بالقرآن مشعر بأنهم يؤمنون بما أنزل عليهم فقط لأنهم يرون الإيمان بغيره مقتضياً الكفر به فههنا مستفاد من مجموع جملتي ﴿ آمنوا بما أنزل الله ﴾ وجوابها بقولهم ﴿ نؤمن بما أنزل علينا ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ ويكفرون بما وراءه ﴾ جيء بالمضارع محاكاة لقولهم ﴿ نؤمن بما أنزل علينا ﴾ وتصريح بما لوحوا إليه ورد عليهم أي يدومون على الإيمان بما أنزل عليهم

ويكفرون كذلك بما وراءه فهم يرون أن الإيمان به مقتض للكفر بغيره على أن للمضارع تأثيراً في معنى التعجب والغرابة .

وفي قرنه بواو الحال إشعار بالرد عليهم وزاد ذلك بقوله ﴿ وهو الحق مصدقاً لما معهم ﴾ .

والوراء في الأصل اسم مكان للجهة التي خلف الشيء وهو عريق في الظرفية وليس أصله مصدراً .

جعل الوراء مجازاً أو كناية عن الغائب لأنه لا يبصره الشخص واستعمل أيضاً مجازاً عن المجاوز لأن الشيء إذا كان أمام السائر فهو صائر إليه فإذا صاروا وراءه فقد تجاوزه وتباعد عنه قال النابغة :

وليس وراء الله للمرء مطلب . . .

واستعمل أيضاً بمعنى الطلب والتعقب تقول ورائي فلان بمعنى يتعقبني ويطلبني ومنه قول الله تعالى : ﴿ وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً ﴾ [الكهف : 79] وقول لبيد :

أليس ورائي أن تراخت منيتي . . .

لزوم العصا تحني عليها الأصابع

فمن ثم زعم بعضهم أن الوراء يطلق على الخلف والأمام إطلاق اسم الضدين واحتج ببيت لبيد وبقرآن وكان أمامهم ملك وقد علمت أنه لا حجة فيه ولذلك أنكر الآمدي في "

الموازنة"كونه ضداً .

فالمراد بما وراءه في الآية بما عداه وتجاوزه أي بغيره والمقصود بهذا الغير هنا خصوص القرآن بقرينة السياق لتقدم قوله : ﴿ وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله ﴾ ولتعقيبه بقوله : ﴿ وهو الحق مصدقاً ﴾ .

وجملة ﴿ وهو الحق ﴾ حالية واللام في (الحق) للجنس والمقصود اشتهار المسند إليه بهذا الجنس أي وهو المشتهر بالحقية المسلم ذلك له على حد قول حسان :

وإن سنام المجد من آل هشام . . .

بنو بنت مخزوم ووالدك العبد

لم يرد حسان انحصار العبودية في الوالد وإنما أراد أنه المعروف بذلك المشتهر به فليست اللام هنا مفيدة للحصر لأن تعريف المسند باللام لا تطرد إفادته الحصر على ما في " دلائل الإعجاز" .

وقيل يفيد الحصر باعتبار القيد أعني قوله ﴿ مصدقاً ﴾ أي هو المنحصر في كونه حقاً مع كونه مصدقاً فإن غيره من الكتب السماوية حق لكنه ليس مصدقاً لما معهم ولعل صاحب

هذا التفسير يعتبر الإنجيل غير متعرض لتصديق التوراة بل مقتصراً على تحليل بعض المحرمات وذلك يشبه عدم التصديق .

ففي الآية صد لبني إسرائيل عن مقابلة القرآن بمثل ما قابلوا به الإنجيل وزيادة في توبيخهم .

وقوله : ﴿ مصدقاً ﴾ حال مؤكدة لقوله : ﴿ وهو الحق ﴾ وهذه الآية علم في التمثيل للحال المؤكدة وعندي أنها حال مؤسسة لأن قوله ﴿ مصدقاً لما معهم ﴾ مشعر بوصف زائد على مضمون ﴿ وهو الحق ﴾ إذ قد يكون الكتاب حقاً ولا يصدق كتاباً آخر ولا يكذبه وفي مجيء الحال من الحال زيادة في استحضار شؤونهم وهيئاتهم .

وقوله : ﴿ قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين ﴾ فصله عما قبله لأنه اعتراض في أثناء ذكر أحوالهم قصد به الرد عليهم في معذرتهم هذه لإظهار أن معاداة الأنبئاء دأب لهم وأن قولهم : ﴿ نؤمن بما أنزل علينا ﴾ كذب إذ لو كان حقاً لما قتل أسلافهم الأنبئاء الذين هم من قومهم ودعوهم إلى تأييد التوراة والأمر بالعمل بها ولكنهم يعرضون عن كل ما لا يوافق أهواءهم .

وهذا إلزام للحاضرين بما فعله أسلافهم لأنهم يرونهم على حق فيما فعلوا من قتل الأنبئاء .

والإتيان بالمضارع في قوله : ﴿ تقتلون ﴾ مع أن القتل قد مضى لقصد استحضار الحالة الفظيعة وقرينة ذلك قوله : ﴿ من قبل ﴾ فذلك كما جاء الحطيئة بالماضي مراداً به الاستقبال في قوله :

شهد الحطيئة يوم يلقى ربه . . .

أن الوليد أحق بالعذر

بقرينة قوله يوم يلقى ربه .

والمراد بأنبئاء الله الذين ذكرناهم عند قوله تعالى : ﴿ ويقتلون النبيئين بغير الحق ﴾ [البقرة : 61] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 1 صـ 588 . 591 ﴾

" فوائد بلاغية "

البلاغة :

1 - تقديم المفعول في الموضعين [فريقا كذبتم] و[فريقا تقتلون] للاهتمام وتشويق السامع إلى ما يلقى إليه .

2 - التعبير بالمضارع [وفريقا تقتلون] ولم يقل " قتلتم " كما قال كذبتم ، لأن الفعل المضارع - كما هو المألوف في أساليب البلاغة - يستعمل فى الأفعال الماضية ، التي بلغت من الفظاعة مبلغاً عظيما ، فكأنه أحضر صورة قتل الأنبياء أمام السامع ، وجعله ينظر إليها بعينه ، فيكون إنكاره لها أبلغ ، واستفظاعه لها أعظم .

3- وضع الظاهر مكان الضمير [فلعنة الله على الكافرين] ولم يقل " عليهم " ليشعر بأن سبب حلول اللعنة هو كفرهم الفظيع .

4- الإخبار في قوله : [ولقد جاءكم موسى بالبينات] يراد به التبكيت والتوبيخ على عدم اتباع الرسول (صلى الله عليه وسلم) .

5- أسندت الإهانة إلى العذاب فقال : [عذاب مهين] لأن الإهانة تحصل بعذابهم ، ومن أساليب البيان إسناد الأفعال إلى أسبابها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 1 صـ 79.78 ﴾

ومن فوائد صاحب المنار فى الآيات السابقة

قال رحمه الله :

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ)

عُهِدَ فِي سِيرَةِ الْبَشَرِ أَنَّ الْأُمَّةَ تُوعَظُ وَتُنْذَرُ ، فَتَتَّعِظُ وَتَتَدَبَّرُ ، فَإِذَا طَالَ عَلَيْهَا الْأَمَدُ بَعْدَ

النَّذِيرِ تَقْسُو الْقُلُوبُ ، وَيَذْهَبُ أَثَرُ الْمَوْعِظَةِ مِنَ الصُّدُورِ ، وَتَفْسُقُ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا ، وَتَنْسَى مَا لَمْ تَعْمَلْ بِهِ مِمَّا أُنْذِرَتْ بِهِ ، أَوْ تُحَرِّفُهُ عَنْ مَوْضِعِهِ بِضُرُوبِ التَّأْوِيلِ ، وَزُخْرُفِ الْقَالِ وَالْقِيلِ ، وَلَقَدْ يَكُونُ لِلْمُتَأَخِّرِ مِنْهَا بَعْضُ الْعُذْرِ لِجَهْلِهِ بِمَا فَعَلَ الْمُتَقَدِّمُ ، وَأَخْذِهِ مَا يُؤْثَرُ عَنْهُ بِالتَّسْلِيمِ لِكَمَالِ الثِّقَةِ وَحُسْنِ الظَّنِّ .

بَيَّنَ اللهُ – تَعَالَى – هَذِهِ السُّنَّةَ الِاجْتِمَاعِيَّةَ فِي سُورَةِ الْحَدِيدِ بِقَوْلِهِ : (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ) (57 : 16) وَلِهَذَا كَانَ – تَعَالَى – يُرْسِلُ الرُّسُلَ بَعْضُهُمْ فِي أَثَرِ بَعْضٍ حَتَّى لَا يَطُولَ أَمَدُ الْإِنْذَارِ عَلَى النَّاسِ فَيَفْسُقُوا وَيَضِلُّوا ، وَلَا يَعْرِفُ التَّارِيخُ شَعْبًا جَاءَتْ فِيهِ الرُّسُلُ تَتْرَى كَشَعْبِ إِسْرَائِيلَ ؛ لِذَلِكَ كَانُوا بِمَعْزِلٍ عَنْ صِحَّةِ الْعُذْرِ بِطُولِ الْأَمَدِ عَلَى الْإِنْذَارِ ، وَفِي نَاحِيَةٍ عَمَّا يُرْجَى قَبُولُهُ مِنَ التَّعَلُّلِ وَالِاعْتِذَارِ ؛ لِهَذَا قَالَ – تَعَالَى – بَعْدَ كُلِّ مَا تَقَدَّمَ : (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ) فَلَمْ يَمُرَّ زَمَنٌ بَيْنَ مُوسَى وَعِيسَى آخِرِ أَنْبِيَائِهِمْ إِلَّا وَكَانَ فِيهِ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ ، أَوْ أَنْبِيَاءُ مُتَعَدِّدُونَ يَأْمُرُونَ وَيَنْهَوْنَ ، كَأَنَّهُ يَقُولُ : اعْلَمُوا يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ إِنْ كَانَ لِطُولِ الْأَمَدِ عَلَى النُّبُوَّةِ وَبَعْدَ

الْعَهْدِ بِالرُّسُلِ يَدٌ فِي تَغْيِيرِ الْأَوْضَاعِ وَنِسْيَانِ الشَّرَائِعِ ، وَكَانَ فِي ذَلِكَ وَجْهٌ لِاعْتِذَارِ بَعْضِ الْمُتَأَخِّرِينَ ، فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَتَنَاوَلُكُمْ ، فَإِنَّ الرُّسُلَ قَدْ جَاءَتْكُمْ تَتْرَى ثُمَّ كَانَ مِنْ أَمْرِكُمْ مَعَهُمْ مَا كَانَ .

ذَكَرَ رُسُلَ بَنِي إسْرَائِيلَ بِالْإِجْمَالِ لِبَيَانِ مَا ذَكَرَ ، ثُمَّ خَصَّ بِالذِّكْرِ الْمَسِيحَ – عَلَيْهِ السَّلَامُ – فَقَالَ : (وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ) ، فَأَمَّا الْبَيِّنَاتُ : فَهِيَ مَا يَتَبَيَّنُ بِهِ الْحَقُّ مِنَ الْحُجَجِ الْقَيِّمَةِ وَالْآيَاتِ الْبَاهِرَةِ . وَقَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : الْمُرَادُ بِهَا مَا عَادَ إلَيْهِ مِنْ أَحْكَامِ التَّوْرَاةِ . وَأَمَّا رُوحُ الْقُدُسِ فَهُوَ رُوحُ الْوَحْيِ الَّذِي يُؤَيِّدُ اللهُ – تَعَالَى – بِهِ أَنْبِيَاءَهُ فِي عُقُولِهِمْ وَمَعَارِفِهِمْ

وَهُوَ هُوَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ – تَعَالَى – : (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا وَمَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ) (42 : 52) الْآيَةَ . وَيُطْلَقُ عَلَيْهِ رُوحُ الْقُدُسِ ؛ لِأَنَّ التَّعْلِيمَ الَّذِي يَكُونُ بِهِ مُقَدَّسٌ ، أَوْ لِأَنَّهُ يُقَدِّسُ النُّفُوسَ كَمَا يُطْلَقُ عَلَيْهِ " الرُّوحُ الْأَمِينُ " ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ الْمُوحَى إلَيْهِ يَكُونُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ فِيهِ

يَأْمَنُ مَعَهَا التَّلْبِيسَ فِيمَا يُلْقَى إِلَيْهِ ، قَالَ – تَعَالَى – فِي الْقُرْآنِ : (نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ) (26 : 193 ، 194) .

(ثُمَّ قَالَ الْأُسْتَاذُ) : ذَهَبَ جُمْهُورُ الْمُفَسِّرِينَ إِلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِرُوحِ الْقُدُسِ الْمَلَكُ الْمُسَمَّى بِجِبْرِيلَ الَّذِي يَنْزِلُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ ، وَمِنْهُ يَسْتَمِدُّونَ الشَّرَائِعَ عَنِ اللهِ – تَعَالَى – ، وَهُوَ عَلَى حَدِّ قَوْلِهِمْ " حَاتِمُ الْجُودِ " ، وَذَكَرَ بَعْضُهُمْ وَجْهًا آخَرَ ، وَهُوَ أَنَّ الْمُرَادَ بِهَا رُوحُ عِيسَى نَفْسِهِ ، وَوَصْفُهَا بِالْقَدَاسَةِ وَالطَّهَارَةِ بِمَعْنَى إِعَاذَتِهِ مِنَ الشَّيْطَانِ أَنْ يَكُونَ لَهُ حَظٌّ فِيهِ ، أَوْ لِأَنَّهُ أُنْزِلَ عَلَيْهِ الْإِنْجِيلُ بِالتَّعَالِيمِ الَّتِي تُقَدِّسُ النُّفُوسَ ، بَلْ قَالَ بَعْضُهُمْ : إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ هُوَ الْإِنْجِيلُ ، وَالْمُرَادُ مِنَ الْكُلِّ وَاحِدٌ ، وَهُوَ أَنَّ اللهَ – تَعَالَى – أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ عِيسَى بَعْدَ ظُهُورِ رُسُلٍ كَثِيرِينَ فِيهِمْ بَعْدَ مُوسَى ، وَأَعْطَاهُ مَا لَمْ يُعْطِ كُلَّ رَسُولٍ مِنْ أُولَئِكَ مِنَ الْوَحْيِ أَوْ مِنْ قُوَّةِ الرُّوحِ ، وَزَكَاءِ النَّفْسِ وَمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ ، وَنَسْخِ بَعْضِ الْأَحْكَامِ ، وَقَدْ كَانَ حَظُّهُ مَعَ ذَلِكَ مِنْهُمْ كَحَظِّ سَابِقِيهِ الَّذِينَ لَمْ يُؤْتَوْا مِنَ الْمَوَاهِبِ مِثْلَ مَا أُوتِيَ .

مَاذَا كَانَ حَظُّ أُولَئِكَ الرُّسُلِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ؟ كَانَ حَظُّهُمْ مِنْهُمْ مَا أَفَادَهُ الِاسْتِفْهَامُ التَّوْبِيخِيُّ فِي قَوْلِهِ : (أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ) ، فَاتَّبَعْتُمُ الْهَوَى وَأَطَعْتُمُ الشَّهَوَاتِ ، وَعَصَيْتُمُ الرُّسُلَ وَاحْتَمَيْتُمْ عَلَيْهِمْ أَنْ أَنْذَرُوكُمْ وَدَعَوْكُمْ إِلَى أَحْكَامِ كِتَابِكُمْ ، (فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ) كَانَ الْمَعْهُودُ فِي التَّخَاطُبِ وَكَلَامِ النَّاسِ أَنْ تُذْكَرَ هَذِهِ الْمَسَاوِئُ ثُمَّ يُوَبَّخُونَ عَلَيْهَا ، وَلَكِنْ طَوَاهَا فِي الْخِطَابِ وَأَدْمَجَهَا فِي الِاسْتِفْهَامِ لِتُفَاجِئَ النُّفُوسَ بِقُوَّةِ التَّشْنِيعِ وَالتَّقْبِيحِ ، وَتَبْرُزَ لَهَا فِي ثَوْبِ الْإِنْكَارِ وَالتَّوْبِيخِ ، وَفِي ذَلِكَ الْإِيمَاءُ إِلَى أَنَّ هَذِهِ الْمُعَامَلَةَ السُّوءَى مِمَّا لَا يَخْفَى خَبَرُهَا ، وَلَا تَغِيبُ عَنِ الْإِنْكَارِ صُوَرُهَا ، فَلَا يَنْبَغِي الْإِلْمَاعُ إِلَيْهَا إِلَّا فِي سِيَاقِ تَقْرِيعٍ مُجْتَرِحِيهَا ، وَهَذَا مِنْ إِيجَازِ الْقُرْآنِ الَّذِي لَا يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِكْرُ الْإِنْسَانِ ، وَانْظُرْ كَيْفَ أَوْرَدَ خَبَرَ الْقَتْلِ بِصِيغَةِ الْمُضَارِعِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى الْحَالِ لِاسْتِحْضَارِ تِلْكَ الصُّورَةِ الْفَظِيعَةِ ، وَتَمْثِيلِهَا لِلسَّامِعِ حَتَّى يُمَثِّلَهَا فِي الْخَيَالِ ، وَإِنْ مَرَّتْ عَلَيْهَا الْقُرُونُ وَالْأَحْوَالُ ؛ لِأَنَّهَا أَفَاعِيلُ لَا تَخْلَقُ جِدَّتُهَا ، وَدِمَاءٌ لَا تَطِيرُ رَغْوَتُهَا ، وَإِنَّ مِثْلَ هَذَا التَّعْبِيرِ لَيُمَثِّلُ

تِلْكَ الصُّورَةَ الْمُشَوَّهَةَ ؛ لِأَنَّ الْأَلْفَاظَ إِذَا قَرَعَتِ الذِّهْنَ بِمَفْهُومِهَا ، يَتَنَاوَلُ الْخَيَالُ ذَلِكَ الْمَفْهُومَ وَيُصَوِّرُهُ بِالصُّورَةِ اللَّائِقَةِ بِهِ ، فَيَكُونُ لَهُ مِنَ التَّأْثِيرِ مَا يُنَاسِبُهُ .

قَتَلُوا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ الْمُرْسَلِينَ زَكَرِيَّا وَيَحْيَى – عَلَيْهِمَا السَّلَامُ – وَيُرْوَى أَنَّهُمْ قَتَلُوا فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ مِائَةً وَخَمْسِينَ نَبِيًّا ، فَإِنْ صَحَّ هَذَا ، فَالْمُرَادُ بِأُولَئِكَ الْأَنْبِيَاءِ مَنْ كَانَتْ نُبُوَّتُهُمْ مَحْصُورَةً فِي الدَّعْوَةِ

إِلَى إِقَامَةِ التَّوْرَاةِ ، وَدَلِيلُهَا مَحْصُورٌ فِي الْإِنْبَاءِ بِبَعْضِ الْمُغَيَّبَاتِ ، وَكَانَ هَذَا الْفَرِيقُ مُنْتَشِرًا فِي أَسْبَاطِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَثِيرًا بِكَثْرَتِهِمْ .

وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ حُجَّتَانِ لِلنَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : حُجَّةٌ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَحُجَّةٌ عَلَى الَّذِينَ يَعْجَبُونَ لِعَدَمِ إِيمَانِهِمْ بِهِ وَإِجَابَتِهِمْ دَعْوَتَهُ ، وَبَيَانُ أَنَّ الْمُجَاحَدَةَ وَالْمُعَانَدَةَ مِنْ شَأْنِهِمْ ، وَمِمَّا عُرِفَ مِنْ شَنْشَنَتِهِمْ ، وَنَاسَبَ بَعْدَ هَذَا أَنْ يَذْكُرَ مَا كَانُوا يَعْتَذِرُونَ بِهِ عَنِ الْإِيمَانِ بِهِ ، وَالِاهْتِدَاءِ بِكِتَابِهِ بَعْدَ تَقْرِيرِ الدَّعْوَةِ وَإِقَامَةِ الْحُجَّةِ ، فَقَالَ : (وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ) وَالْغُلْفُ : بِضَمٍّ وَسُكُونٍ وَبِضَمَّتَيْنِ جَمْعُ أَغْلَفَ ، وَهُوَ مَا يُحِيطُ بِهِ غِلَافٌ يَمْنَعُ أَنْ يُصِيبَهُ شَيْءٌ . وَالْمُرَادُ أَنَّنَا لَا نَعْقِلُ قَوْلَكَ ، وَلَا يَنْفُذُ إِلَى قُلُوبِنَا مَفْهُومُ دَعْوَتِكَ ؛ فَهُوَ بِمَعْنَى قَوْلِهِ –

تَعَالَى - : (وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ) (5:41) .

(31/60)

وَقَدْ رَدَّ اللهُ - تَعَالَى - عَلَيْهِمْ بِمَا يُشْعِرُ بِكَذِبِهِمْ وَعِنَادِهِمْ فَقَالَ : (بَلْ لَعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ) أَيْ أَنَّ قُلُوبَهُمْ لَيْسَتْ غُلْفًا لَا تَفْهَمُ الْحَقَّ بِطَبْعِهَا ، وَإِنَّمَا أَبْعَدَهُمُ اللهُ - تَعَالَى - مِنْ رَحْمَتِهِ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ بِالْأَنْبِيَاءِ السَّابِقِينَ ، وَبِالْكِتَابِ الَّذِي تَرَكُوا الْعَمَلَ بِهِ وَحَرَّفُوهُ اتِّبَاعًا لِأَهْوَائِهِمْ ، فَهُمْ قَدْ أَنِسُوا بِالْكُفْرِ وَانْطَبَعُوا عَلَيْهِ ، فَكَانَ ذَلِكَ سَبَبًا فِي حِرْمَانِهِمْ مِنْ قَبُولِ الرَّحْمَةِ الْكُبْرَى بِإِجَابَةِ دَعْوَةِ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ ، هَذَا هُوَ مَعْنَى اللَّعْنِ ، وَقَدْ ذَكَرْتُ مَعَهُ عِلَّتَهُ ؛ لِيُعْلَمَ أَنَّهُ جَرَى عَلَى سُنَّةِ اللهِ - تَعَالَى - فِي الْأَسْبَابِ وَالْمُسَبَّبَاتِ ، وَأَنَّ اللهَ لَمْ يَظْلِمْهُمْ بِهَذَا ، وَإِنَّمَا ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بِالْكُفْرِ الَّذِي يَسْتَتْبِعُ الْكُفْرَ ، وَالْعِصْيَانَ الَّذِي يَجُرُّ إِلَى التَّمَادِي فِي الْعِصْيَانِ ، كَمَا هِيَ السُّنَّةُ فِي أَخْلَاقِ الْإِنْسَانِ ، وَلَمَّا ذَكَرَ اللَّعْنَ مُعَلَّلًا بِالْكُفْرِ الَّذِي هُوَ نَتِيجَةُ تَأْثِيرِ أَعْمَالِهِمُ السَّابِقَةِ فِي أَنْفُسِهِمْ ، وَكَانَ مِمَّا يَخْطُرُ بِالْبَالِ أَنَّ أُولَئِكَ الْقَوْمَ لَمْ يَكُونُوا كَافِرِينَ بَلْ مُؤْمِنِينَ بِاللهِ وَكِتَابِهِ وَرُسُلِهِ إِلَيْهِمُ اسْتَدْرَكَ فَقَالَ : (فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ) ، وَإِنَّمَا الْقِلَّةُ فِي الْإِيمَانِ

بِاعْتِبَارِ مَا يُؤْمَنُ بِهِ مِنْ أُصُولِ الدِّينِ وَأَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ ، وَبِالنِّسْبَةِ إِلَى الْيَقِينِ فِي الْإِيمَانِ وَتَحْكِيمِهِ فِي الْفِكْرِ وَالْوِجْدَانِ .

(32/60)

وَلَقَدْ كَانَ الْقَوْمُ يُؤْمِنُونَ بِالشَّرِيعَةِ فِي الْجُمْلَةِ وَكَمَا تُعْطِيهِ ظَوَاهِرُ الْأَلْفَاظِ ، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَلْبِسُوهَا مُفَصَّلَةً تَفْصِيلًا وَلَمْ يَفْقَهُوا حِكَمَهَا وَأَسْرَارَهَا ، فَلَمْ يَكُنْ لَهَا سُلْطَانٌ عَلَى قُلُوبِهِمْ ، وَلَمْ تَكُنْ هِيَ الْمُحَرِّكَةَ لِإِرَادَتِهِمْ فِي أَعْمَالِهِمْ ، وَإِنَّمَا كَانَ يُحَرِّكُهَا الْهَوَى وَالشَّهْوَةُ ، وَيُصَرِّفُهَا عَامِلُ اللَّذَّةِ ، فَالْإِيمَانُ إِنَّمَا كَانَ عِنْدَهُمْ قَوْلًا بِاللِّسَانِ ، وَرَسْمًا يَلُوحُ فِي الْخَيَالِ ، تُكَذِّبُهُ الْأَعْمَالُ وَتَطْمِسُهُ السَّجَايَا الرَّاسِخَةُ وَالْخِلَالُ ، وَهَذَا هُوَ الْإِيمَانُ الَّذِي لَا قِيمَةَ لَهُ عِنْدَ اللهِ – تَعَالَى – ، وَمِنَ الْعَجَبِ أَنْ نَرَى آيَاتِ الْقُرْآنِ تُبْطِلُهُ بِالْحُجَجِ الْقَيِّمَةِ وَالْأَسَالِيبِ الْمُؤَثِّرَةِ ، وَأَهْلُ الْقُرْآنِ عَنْ ذَلِكَ غَافِلُونَ ، فَقَلِيلًا مَا يَعْتَبِرُونَ وَيَتَذَكَّرُونَ .

وَمِنْ مَبَاحِثِ اللَّفْظِ فِي الْآيَةِ : أَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْمُفَسِّرِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّ (مَا) زَائِدَةٌ وَمَا هِيَ بِزَائِدَةٍ وِفَاقًا لِابْنِ جَرِيرٍ الطَّبَرِيِّ ، وَجَلَّ الْقُرْآنُ أَنْ يَكُونَ فِيهِ كَلِمٌ زَائِدٌ ، وَإِنَّمَا تَأْتِي (مَا) هَذِهِ لِإِفَادَةِ الْعُمُومِ تَارَةً وَلِتَفْخِيمِ الشَّيْءِ تَارَةً ، وَيَقُولُ ابْنُ جَرِيرٍ : إِنَّمَا يُؤْتَى بِهَا فِي مِثْلِ هَذَا

(33/60)

الْمُقَامِ كَمُبْتَدَإِ كَلَامٍ جَدِيدٍ يُفِيدُ الْعُمُومَ ، كَأَنَّهُ قَالَ : فَإِيمَانًا قَلِيلًا ذَلِكَ الَّذِي يُؤْمِنُونَ بِهِ . وَأَمَّا الَّتِي لِتَفْخِيمِ الشَّيْءِ فَكَقَوْلِهِ - تَعَالَى - : (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ) (3 : 159) أَيْ فَبِسَبَبِ رَحْمَةٍ عَظِيمَةِ الشَّأْنِ خَصَّكَ اللهُ بِهَا لِنْتَ لَهُمْ عَلَى مَا لَقِيتَ مِنْهُمْ ، وَقَدْ بَيَّنَ - تَعَالَى - هَذِهِ الرَّحْمَةَ بِقَوْلِهِ فِي وَصْفِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : (بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ) (9 : 128) وَقَوْلِهِ : (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ) (21 : 107) .

هَذَا مَا اخْتَارَهُ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ - تَعَالَى - : (فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ) ، وَهُنَاكَ وَجْهٌ آخَرُ أَوْرَدَهُ ابْنُ جَرِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ ، وَهُوَ أَنَّهُ لَا يُؤْمِنُ بِالنَّبِيِّ وَمَا جَاءَ بِهِ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ ، وَإِلَى اسْتِدْرَاكُ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ أَظْهَرُ ؛ فَإِنَّهُ لَمَّا بَيَّنَ أَنَّ كُفْرَهُمُ الْمُسْتَقِرَّ ، وَعِصْيَانَهُمُ الْمُسْتَمِرَّ ، كَانَ سَبَبًا فِي لَعْنِهِمْ وَإِبْعَادِهِمْ ، كَانَ لِلْوَهْمِ أَنْ يَذْهَبَ إِلَى أَنَّهُمْ قَوْمٌ قَدْ سَجَّلَ عَلَيْهِمُ الشَّقَاءَ وَعَمَّهُمْ حَتَّى لَا مَطْمَعَ فِي إِيمَانِ أَحَدٍ مِنْهُمْ ، فَجَاءَ قَوْلُهُ - تَعَالَى - : (فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ) يُبَيِّنُ أَنَّ هَذَا الْوَهْمَ لَا يَصِحُّ أَنْ يَنْطَلِقَ عَلَى إِطْلَاقِهِ ، وَأَنَّ تَأْثِيرَ مَا ذُكِرَ فِي مَجْمُوعِ الشَّعْبِ لَمْ يَسْتَغْرِقْ أَفْرَادَهُ اسْتِغْرَاقًا ، وَإِنَّمَا غَمَرَ الْأَكْثَرِينَ ، وَيُرْجَى أَنْ يَنْجُوَ مِنْهُ النَّفَرُ الْقَلِيلُ ، وَكَذَلِكَ كَانَ .

أَقُولُ : وَفِيهِ مِنْ دِقَّةِ الْقُرْآنِ فِي الصِّدْقِ وَتَحْدِيدِ الْحَقِّ مَا لَا يُعْهَدُ فِي كَلَامِ النَّاسِ .

(وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : إِنَّ قَوْلَهُ – تَعَالَى – : (وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ) . . . إِلَخْ مُتَّصِلٌ بِقَوْلِهِ قَبْلَهُ : (فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ) ، وَالْمَعْنَى أَنَّ إِيمَانَهُمْ كَانَ قَلِيلًا حَالَ كَوْنِهِمْ كَانُوا يَنْتَظِرُونَ نَبِيًّا وَكِتَابًا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ ، وَكَانُوا يَسْتَفْتِحُونَ بِهِ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ، فَكَيْفَ لَا يَكُونُ قَلِيلًا أَوْ أَقَلَّ بَعْدَمَا جَاءَ مَا كَانُوا يَنْتَظِرُونَ وَعَرَفُوا أَنَّهُ الْحَقُّ ثُمَّ كَفَرُوا ؟ فَالْجُمْلَةُ حَالِيَّةٌ ، وَيَصِحُّ أَيْضًا هَذَا الِاتِّصَالُ الَّذِي ذَكَرَهُ عَلَى الْوَجْهِ الثَّانِي فِي تَفْسِيرِ (فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ) ،

وَالْكِتَابُ هُنَا الْقُرْآنُ ، نَكَّرَهُ لِلتَّفْخِيمِ ، وَقَوْلُهُ : (مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ) مَعْنَاهُ أَنَّهُ مُوَافِقٌ لَهُ فِي التَّوْحِيدِ وَأُصُولِ الدِّينِ وَمَقَاصِدِهِ ، وَالِاسْتِفْتَاحُ فِي قَوْلِهِ : (وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا) مَعْنَاهُ طَلَبُ الْفَتْحِ وَهُوَ الْفَصْلُ فِي الشَّيْءِ وَالْحُكْمِ ، وَيُسْتَعْمَلُ بِمَعْنَى النَّصْرِ ؛ لِأَنَّهُ فَصْلٌ بَيْنَ الْمُتَحَارِبِينَ ، وَكَانَتِ الْيَهُودُ تَسْتَفْتِحُ عَلَى مُشْرِكِي الْعَرَبِ بِالنَّبِيِّ الْمُنْتَظَرِ ، يَقُولُونَ : إِنَّهُ سَيَظْهَرُ فَيَنْصُرُ كِتَابُهُ التَّوْحِيدَ الَّذِي نَحْنُ عَلَيْهِ ، وَيَخْذُلُ الْوَثَنِيَّةَ الَّتِي تَنْتَحِلُونَهَا وَيُبْطِلُهَا ، فَيَكُونُ مُؤَيِّدًا لِدِينِ مُوسَى .

(36/60)

أَقُولُ : رَوَى مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنْ أَشْيَاخٍ مِنَ الْأَنْصَارِ أَنَّ هَذَا نَزَلَ فِيهِمْ وَفِي يَهُودِ الْمَدِينَةِ ، قَالُوا : كُنَّا قَدْ عَلَوْنَاهُمْ قَهْرًا دَهْرًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَنَحْنُ أَهْلُ شِرْكٍ وَهُمْ أَهْلُ كِتَابٍ ، وَهُمْ يَقُولُونَ : إِنَّ نَبِيًّا سَيُبْعَثُ الْآنَ نَتَّبِعُهُ قَدْ أَظَلَّ زَمَانُهُ ، نَقْتُلُكُمْ مَعَهُ قَتْلَ عَادَ وَإِرَمَ . . . إِلَخْ .

وَرَوَى الضَّحَّاكُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي تَفْسِيرِ (يَسْتَفْتِحُونَ) : يَسْتَنْصِرُونَ ، يَقُولُونَ : نَحْنُ نُعِينُ مُحَمَّدًا عَلَيْهِمْ . . . إِلَخْ .

(37/60)

وَتَتِمَّتُهُ فِي تَفْسِيرِ الْعِمَادِ ابْنِ كَثِيرٍ . وَشَذَّ بَعْضُهُمْ كَالْبَغَوِيِّ فِي تَفْسِيرِهِ فَقَالَ : إنَّهُمْ كَانُوا يَقُولُونَ إذَا حَزَبَهُمْ أَمْرٌ أَوْ دَهَمَهُمْ عَدُوٌّ : اللَّهُمَّ انْصُرْنَا عَلَيْهِمْ بِالنَّبِيِّ الْمَبْعُوثِ فِي آخِرِ الزَّمَانِ الَّذِي نَجِدُ صِفَتَهُ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ ، فَكَانُوا يُنْصَرُونَ ، وَفِيهِ رِوَايَاتٌ ضَعِيفَةٌ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ، لَمْ يُعَرِّجِ ابْنُ كَثِيرٍ عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا ، وَلَعَلَّهُ تَرَكَهَا لِأَنَّهَا عَلَى ضَعْفِ رِوَايَتِهَا وَمُخَالَفَتِهَا لِلرِّوَايَاتِ الْمَعْقُولَةِ شَاذَّةُ الْمَعْنَى – بِجَعْلِ الِاسْتِفْتَاحِ دُعَاءً بِشَخْصِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَفِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ " بِحَقِّهِ " وَهَذَا غَيْرُ مَشْرُوعٍ ، وَلَا حَقَّ لِأَحَدٍ عَلَى اللَّهِ فَيُدْعَى بِهِ ، كَمَا قَالَ الْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ وَغَيْرُهُ ، وَكَذَلِكَ فَعَلَ ابْنُ جَرِيرٍ ، لَمْ يَذْكُرْ شَيْئًا مِنْ رِوَايَاتِ الدُّعَاءِ بِحَقِّهِ وَالِاسْتِنْصَارِ بِشَخْصِهِ ، بَلْ ذَكَرَ عِدَّةَ رِوَايَاتٍ فِي أَنَّهُمْ كَانُوا يَدْعُونَ اللَّهَ بِأَنْ يَبْعَثَهُ لِيَقْتُلَ الْمُشْرِكِينَ ، وَفِي بَعْضِهَا أَنَّهُمْ كَانُوا يَرْجُونَ أَنْ يَكُونَ مِنْهُمْ ، وَالْكَلَامُ هُنَا فِي مَجِيءِ الْكِتَابِ لَا فِي مَجِيءِ الرَّسُولِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – الَّذِي يَأْتِي ذِكْرُ مَجِيئِهِ قَرِيبًا ، عَلَى أَنَّهُمَا مُتَلَازِمَانِ (فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ) . أَعَادَ (فَلَمَّا جَاءَهُمْ) وَهِيَ عَيْنُ الْأُولَى لِطُولِ الْفَصْلِ ، وَوَصَلَ بِهِ الْجَوَابَ وَهُوَ (كَفَرُوا بِهِ) ذَلِكَ أَنَّهُ رَاعَهُمْ كَوْنُهُ بُعِثَ فِي الْعَرَبِ فَحَسَدُوهُ ، فَحَمَلَهُمُ الْحَسَدُ

عَلَى الْكُفْرِ بِهِ جُحُودًا وَبَغْيًا ، فَسُجِّلَتْ عَلَيْهِمُ اللَّعْنَةُ الَّتِي أَصَابَتْهُمْ بِكُفْرِهِمُ الْأَوَّلِ بِأَنَّ الْكُفْرَ صَارَ وَصْفًا لَازِمًا لَهُمْ ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ : (فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ) وَلَمْ يَقُلْ عَلَيْهِمْ ؛ لِأَنَّ الْمَظْهَرَ أَبْلَغُ وَأَعَمُّ وَأَشْمَلُ .

ثُمَّ ذَكَرَ عِلَّةَ هَذَا الْكُفْرِ وَسَبَبَهُ ، وَبَيَّنَ فَسَادَ رَأْيِهِمْ فِيهِ بِقَوْلِهِ : (بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ)

أَيْ بِئْسَ شَيْئًا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ ، هُوَ كُفْرُهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ كَمَا كَانُوا يَنْتَظِرُونَ . شَرَى الشَّيْءَ وَاشْتَرَاهُ : يُسْتَعْمَلُ كُلٌّ مِنْهُمَا بِمَعْنَى بَاعَ الشَّيْءَ ، وَبِمَعْنَى ابْتَاعَهُ ؛ لِأَنَّ الْحَرْفَ يَدُلُّ عَلَى الْمُعَاوَضَةِ . وَقَدْ ذَهَبَ جُمْهُورُ الْمُفَسِّرِينَ إِلَى أَنَّ (اشْتَرَوْا) هُنَا بِمَعْنَى بَاعُوا ؛ أَيْ أَنَّهُمْ بَذَلُوا أَنْفُسَهُمْ وَبَاعُوهَا بِمَا حَرَصُوا عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ بَغْيًا وَحَسَدًا لِلنَّبِيِّ وَحُبًّا فِي الرِّيَاسَةِ وَاعْتِزَازًا

بِالْجِنْسِيَّةِ ، وَبِمَا كَانَ لِكُلٍّ مِنَ الرُّؤَسَاءِ وَالْمَرْءُوسِينَ مِنَ الْمَنَافِعِ الْمُتَبَادَلَةِ فِي الْمُحَافَظَةِ عَلَيْهَا ، فَهَذَا كُلُّهُ يُعَدُّ ثَمَنًا لِأَنْفُسِهِمُ الَّتِي خَسِرُوهَا بِالْكُفْرِ ، حَتَّى كَأَنَّهُمْ فَقَدُوهَا كَمَا يَفْقِدُ

الْبَائِعُ الْمَبِيعَ ، وَذَكَرَ ابْنُ جَرِيرٍ وَجْهًا آخَرَ وَهُوَ أَنَّ (اشْتَرَوْا) هُنَا بِمَعْنَى ابْتَاعُوا ، أَيْ أَنَّهُمْ جَعَلُوا أَنْفُسَهُمْ ثَمَنًا لِلْكُفْرِ الَّذِي ذُكِرَتْ عِلَّتُهُ آنِفًا . وَفِيهِ مِنَ الزِّيَادَةِ عَلَى مَعْنَى الْمُعَاوَضَةِ فِي الْوَجْهِ الْأَوَّلِ أَنَّهُمْ قَدْ أَنْقَذُوا أَنْفُسَهُمْ بِذَلِكَ الْكُفْرِ ، أَيْ أَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ ذَلِكَ وَيَدَّعُونَهُ فِي الظَّاهِرِ ، وَإِنْ كَانُوا فِي الْبَاطِنِ قَدْ عَرَفُوا أَنَّ مَا جَاءَهُمْ هُوَ الْحَقُّ الَّذِي كَانُوا يَنْتَظِرُونَ ، وَأَنَّهُمْ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ، وَلَكِنَّهُمْ يَكْتُمُونَ .

وَقَدْ فُهِمَ مِمَّا تَقَدَّمَ مَعْنَى قَوْلِهِ – تَعَالَى – : (بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ) ، فَهُوَ تَعْلِيلٌ لِكُفْرِهِمْ لَا لِشِرَائِهِمْ ، أَيْ كَفَرُوا بِهِ لِمَحْضِ الْبَغْيِ الَّذِي أَثَارَهُ الْحَسَدُ كَرَاهَةَ أَنْ يُنْزِلَ اللَّهُ الْوَحْيَ مِنْ فَضْلِهِ بِمُقْتَضَى مَشِيئَتِهِ ، وَأَيُّ بَغْيٍ أَقْبَحُ مِنْ بَغْيِ مَنْ يُرِيدُ أَنْ يَحْجُرَ عَلَى فَضْلِ اللَّهِ ، وَيُقَيِّدَ رَحْمَتَهُ ، فَلَا يَرْضَى مِنْهُ أَنْ يَجْعَلَ الْوَحْيَ فِي آلِ إِسْمَاعِيلَ كَمَا جَعَلَهُ فِي آلِ أَخِيهِ إِسْحَاقَ ؟ قَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ وَأَبُو عَمْرٍو (يُنْزِلَ) بِالتَّخْفِيفِ مِنَ الْإِنْزَالِ ، وَالْبَاقُونَ بِالتَّشْدِيدِ مِنَ التَّنْزِيلِ : وَأَمَّا قَوْلُهُ : (فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ) فَهُوَ الْغَضَبُ الَّذِي اسْتَوْجَبُوهُ حَدِيثًا بِالْكُفْرِ بِالنَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فَوْقَ ذَلِكَ الْغَضَبِ الَّذِي لَحِقَهُمْ مِنْ قَبْلُ بِإِعْنَاتِ مُوسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ – وَالْكُفْرِ بِهِ ، وَقَدْ ذُكِرَ فِي قَوْلِهِ : (وَضُرِبَتْ

عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ) (2 : 61) ، ثُمَّ تَوَعَّدَهُمْ بَعْدَ الْغَضَبِ الْمُزْدَوِجِ فَقَالَ : (وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ) أَيْ مَقْرُونٌ بِالْإِهَانَةِ وَالْإِذْلَالِ ، وَبِذَلِكَ صَارَ بِمَعْنَى الْآيَةِ السَّابِقَةِ ، فَكَأَنَّ الْجَزَاءَ وَاحِدٌ تَكَرَّرَ بِتَكَرُّرِ الذَّنْبِ .

وَقَالَ : (وَلِلْكَافِرِينَ) وَلَمْ يَقُلْ (وَلَهُمْ) لِمَا فِي الْمَظْهَرِ مِنْ بَيَانِ التَّعْلِيلِ بِالْوَصْفِ الَّذِي سَجَّلَهُ عَلَيْهِمْ كَمَا تَقَدَّمَ آنِفًا ، وَهَذَا الْعَذَابُ مُطْلَقٌ ، يَشْمَلُ عَذَابَ الدُّنْيَا وَعَذَابَ الْآخِرَةِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ ذُنُوبَ الْأُمَمِ تَتْبَعُهَا عُقُوبَتُهَا فِي الدُّنْيَا ؛ لِأَنَّهَا أَثَرٌ طَبِيعِيٌّ لَهَا ، وَإِنَّمَا جَعَلَهَا اللهُ كَذَلِكَ لِتَكُونَ عِبْرَةً يَتَأَدَّبُ الْمُتَأَخِّرُونَ بِمَا أَصَابَ مِنْهَا الْمُتَقَدِّمِينَ ، وَكَذَلِكَ الْحَالُ فِي عُقُوبَةِ الْآخِرَةِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْأَفْرَادِ ؛ فَإِنَّ عَذَابَ كُلِّ شَخْصٍ إِنَّمَا يَكُونُ بِحَسَبِ تَأْثِيرِ الْجَهْلِ فِي عَقْلِهِ وَفَسَادِ الْأَخْلَاقِ وَسُوءِ الْأَعْمَالِ فِي نَفْسِهِ .

اعْتَذَرَ بَعْضُ الْيَهُودِ فِي عَصْرِ التَّنْزِيلِ عَنْ عَدَمِ الْإِيمَانِ بِأَنَّ قُلُوبَهُمْ غُلْفٌ لَمْ تَفْهَمِ الدَّعْوَةَ وَلَمْ تَعْقِلِ الْخِطَابَ ، فَرَدَّ اللهُ – تَعَالَى – عَلَيْهِمْ بِبَيَانِ السَّبَبِ الْحَقِيقِيِّ فِي تَرْكِ الْإِيمَانِ ، وَمَا اسْتَحَقُّوهُ عَلَيْهِ

مِنَ الْغَضَبِ وَالْهَوَانِ ، ثُمَّ ذَكَرَ اعْتِذَارًا آخَرَ لَهُمْ مَقْرُونًا بِالرَّدِّ وَالْإِبْطَالِ ، وَإِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ بِهِ فَقَالَ : (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا) صِيغَةُ الدَّعْوَةِ تُشْعِرُ بِوُجُوبِ الْإِيمَانِ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ – تَعَالَى – ؛ لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَهُ لَا لِأَنَّ الْمُنَزَّلَ عَلَيْهِ فُلَانٌ ، وَلِذَلِكَ لَمْ يَقُلْ : آمِنُوا بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ؛ فَإِنَّ مَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ لَوْ أُنْزِلَ عَلَى غَيْرِهِ لَوَجَبَ الْإِيمَانُ بِهِ ، فَإِنَّ الْوَحْيَ هُوَ الْمَقْصُودُ بِالذَّاتِ وَالْأَنْبِيَاءُ إنَّمَا هُمْ مُبَلِّغُونَ ، فَتَقْيِيدُ الْخُضُوعِ لِوَحْيِ اللهِ بِكَوْنِهِ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مُنَزَّلًا عَلَى شَخْصٍ مِنْ شَعْبِ كَذَا بِعَيْنِهِ تَحَكُّمٌ عَلَى اللهِ – تَعَالَى – وَقَضَاءٌ عَلَيْهِ بِأَنْ تَكُونَ رَحْمَتُهُ مُقَيَّدَةً بِأَهْوَاءِ فَرِيقٍ مِنْ خَلْقِهِ ، فَإِيرَادُ الدَّعْوَةِ بِمَا ذُكِرَ مِنَ الْإِطْلَاقِ مَعَ إيرَادِ الْجَوَابِ مُقَيَّدًا بِقَيْدِ (نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا) يُشْعِرُ بِقُوَّةِ حُجَّةِ الدَّعْوَةِ ، وَوَهَنِ مَا بُنِيَ عَلَيْهِ الْجَوَابُ مِنَ الشُّبْهَةِ ، ثُمَّ صَرَّحَ بِالْحَقِيقَةِ وَهِيَ أَنَّهُمْ إنَّمَا يَدَّعُونَ هَذَا الْإِيمَانَ بِأَلْسِنَتِهِمْ (وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ) مِنْ مَدْلُولٍ وَلَازِمٍ لَا يَنْفَكُّ عَنْهُ ، كَالْبِشَارَةِ بِرَسُولٍ مِنْ بَنِي إخْوَتِهِمْ أَيْ وَلَدِ إسْمَاعِيلَ ، وَكَوْنِ مَا تَثْبُتُ بِهِ نُبُوَّةُ مُحَمَّدٍ بِمُسَاوَاتِهِ لِمَا تَثْبُتُ بِهِ نُبُوَّةُ مُوسَى يَسْتَلْزِمُ وُجُوبَ اتِّبَاعِ مُحَمَّدٍ كَمَا اتُّبِعَ مُوسَى ؛ لِأَنَّ الْمَدْلُولَ يَتْبَعُ

دَلِيلَهُ فِي كُلِّ زَمَنٍ وَكُلِّ مَوْضُوعٍ ، قَالَ : إِنَّهُمْ يَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَ الْمَنزَّلِ إِلَيْهِمْ (وَهُوَ الْحَقُّ) أَيْ وَالْحَالُ أَنَّهُ الْحَقُّ الثَّابِتُ فِي نَفْسِهِ بِالدَّلِيلِ حَالَ كَوْنِهِ (مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ) ، فَهُوَ مُؤَيَّدٌ عِنْدَهُمْ بِالْعَقْلِ وَالنَّقْلِ ، وَقَدْ كَانَ مِنْ مُكَابَرَتِهِمْ وَعِنَادِهِمْ مَا كَانَ ، فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا إِلْزَامُهُمُ الْحُجَّةَ بِمَا اقْتَرَفُوا مِنْ فُحْشِ الْمُخَالَفَةِ لِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ ، وَالْفُسُوقِ عَنْهُ لِيُعْلَمَ أَنَّهُمْ يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ، وَيُحَكِّمُونَ شَهَوَاتِهِمْ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ ، وَمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَلِذَلِكَ قَالَ : (قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَلَيْسَ فِيهِ الْأَمْرُ بِقَتْلِ الْأَنْبِيَاءِ ، بَلْ فِيهِ النَّهْيُ الشَّدِيدُ عَنْ قَتْلِ أَنْفُسِكُمْ .

وَمِنْ مَبَاحِثِ اللَّفْظِ أَوِ الْبَلَاغَةِ : أَنَّهُ جَاءَ بِالْجُمْلَةِ الْحَالِيَّةِ فِي بَيَانِ كَوْنِ مَا كَفَرُوا بِهِ هُوَ الْحَقُّ ؛ لِأَنَّ الْجُمْلَةَ الْحَالِيَّةَ تَدُلُّ عَلَى تَقَدُّمِ ثُبُوتِ مَضْمُونِهَا عَلَى حُدُوثِ مَا جُعِلَتْ قَيْدًا لَهُ ، وَمَا كَفَرُوا بِهِ كَذَلِكَ هُوَ الْحَقُّ مِنْ قَبْلِ كُفْرِهِمْ ، وَهَذَا الْمَعْنَى لِلْجُمْلَةِ الْحَالِيَّةِ

هُوَ مَا حَقَّقَهُ الْإِمَامُ عَبْدُ الْقَاهِرِ فِي دَلَائِلِ الْإِعْجَازِ ، وَلَمْ يُشِرْ إِلَيْهِ شَيْخُنَا هُنَا ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ عِنْدَ تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَاتِ قَدْ قَرَأَ دَلَائِلَ الْإِعْجَازِ ، وَقَوْلُهُ : (مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ) حَالٌ مُفْرَدَةٌ مُؤَكِّدَةٌ وَالْأَصْلُ فِيهَا الْمُقَارَنَةُ لِمَا هِيَ قَيْدٌ لَهُ ، وَهُوَ يَتَضَمَّنُ إِثْبَاتَ كُفْرِهِمْ بِالتَّوْرَاةِ بِالتَّبَعِ

لِكُفْرِهِمْ بِالْقُرْآنِ الْمُصَدِّقِ لَهَا ، وَلَوْ فِيمَا صَدَّقَهَا فِيهِ ، وَالْكُفْرُ بِبَعْضِهِ كَالْكُفْرِ بِهِ كُلِّهِ كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ قَرِيبًا . وَمِنْ مَبَاحِثِ اللَّفْظِ أَيْضًا : وَضْعُ الْمُضَارِعِ (تَقْتُلُونَ) مَوْضِعَ الْمَاضِي (قَتَلْتُمْ) لِمَا سَبَقَ بَيَانُهُ فِي مِثْلِ هَذَا التَّعْبِيرِ مِنْ إِرَادَةِ اسْتِحْضَارِ صُورَةِ هَذَا الْجُرْمِ الْفَظِيعِ مُبَالَغَةً فِي التَّقْرِيعِ ، وَإِغْرَاقًا فِي التَّشْنِيعِ . وَلَمَّا كَانَتْ هَذِهِ الصِّيغَةُ تَدُلُّ عَلَى الْحَالِ ، فَتُوهِمُ أَنَّ الَّذِينَ فِي زَمَنِ التَّنْزِيلِ كَانُوا لَا يَزَالُونَ يَقْتَرِفُونَ هَذِهِ الْجَرِيمَةَ ، عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي ذَلِكَ الْعَهْدِ أَنْبِيَاءُ إِلَّا مَنْ يُبَكِّتُهُمْ وَيَحْتَجُّ عَلَيْهِمْ ، وَصَلَهَا بِقَوْلِهِ : (مِنْ قَبْلُ) دَفْعًا لِذَلِكَ الْوَهْمِ . وَالْفَاءُ فِي قَوْلِهِ : (فَلِمَ) وَاقِعَةٌ فِي جَوَابِ شَرْطٍ دَلَّ عَلَيْهِ مَا بَعْدَهُ .

وَقَدْ سَبَقَ الْقَوْلُ غَيْرَ مَرَّةٍ بِأَنَّ خِطَابَ الْخَلَفِ بِإِسْنَادِ مَا كَانَ مِنْ سَلَفِهِمْ إِلَيْهِمْ مَقْصُودٌ لِبَيَانِ وَحْدَةِ الْأُمَّةِ وَتَكَافُلِهَا وَكَوْنِهَا فِي الْأَخْلَاقِ وَالسَّجَايَا الْمُشْتَرَكَةِ بَيْنَ أَفْرَادِهَا كَالشَّخْصِ الْوَاحِدِ ، وَبَيَانِ أَنَّ مَا تُبْلَى بِهِ الْأُمَمُ مِنَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ إِنَّمَا هُوَ أَثَرُ الْأَخْلَاقِ الْغَالِبَةِ عَلَيْهَا ، وَالْأَعْمَالُ الْفَاشِيَةُ فِيهَا مُنْبَعِثَةٌ عَنْ تِلْكَ الْأَخْلَاقِ ، فَمَا جَرَى مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْمُنْكَرَاتِ لَمْ يَكُنْ مِنْ قَذَفَاتِ الْمُصَادَفَةِ ، وَإِنَّمَا كَانَ عَنْ أَخْلَاقٍ رَاسِخَةٍ فِي الشَّعْبِ تَبِعَ الْآخِرُونَ فِيهَا الْأَوَّلِينَ ، إِمَّا بِالْعَمَلِ وَإِمَّا بِالْإِقْرَارِ وَتَرْكِ الْإِنْكَارِ . وَلَوْ أَنْكَرَ الْمَجْمُوعُ مَا كَانَ مِنْ

بَعْضِ الْأَفْرَادِ لَمَا تَفَاقَمَ الْأَمْرُ ، وَلَمَا تَمَادَى وَاسْتَمَرَّ .

فَالْحُجَّةُ تَقُومُ عَلَى الْحَاضِرِينَ بِأَنَّ الْغَابِرِينَ قَتَلُوا الْأَنْبِيَاءَ ، فَأَقَرَّهُمْ مَنْ كَانَ مَعَهُمْ ، وَلَمْ يَعُدُّوا ذَلِكَ خُرُوجًا مِنَ الدِّينِ وَلَا رَفْضًا لِلشَّرِيعَةِ ، وَتَبِعَهُمْ مَنْ بَعْدَهُمْ عَلَى ذَلِكَ ، وَفَاعِلُ الْكُفْرِ وَمُجِيزُهُ وَاحِدٌ ، وَقَدْ سَبَقَ تَقْرِيرُ هَذَا غَيْرَ مَرَّةٍ . انتهى انتهى . اهـ ﴾ تفسير المنار حـ 1 صـ 318.311 ﴿

(46/60)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (91) ﴾

يبين لنا الحق سبحانه وتعالى موقف اليهود . . من عدم الإيمان برسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم . . مع أنهم أومروا بذلك في التوراة . . فيقول جل جلاله : " وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله " أي إذا دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يؤمنوا بالإسلام وأن يؤمنوا بالقرآن رفضوا ذلك " وقالوا نؤمن بما أنزل علينا " أي نؤمن بالتوراة ونكفر بما وراءه ، أي بما

نزل بعده . ونحن نعرف أن الكفر هو الستر . . ولو أن محمدا صلى الله عليه وسلم جاء يناقض ما عندهم ربما قالوا : جاء ليهدم ديننا ولذلك نكفر به . . ولكنه جاء بالحق مصدقا لما معهم .

إذن حين يكفرون بالقرآن يكفرون أيضا بالتوراة . . لأن القرآن يصدق ما جاء في التوراة . وهنا يقيم الله تبارك وتعالى عليهم الحجة البالغة . . إن كفركم هذا وسلوكك ضد كل نبي جاءكم . . ولو أنكم تستقبلون الإيمان حقيقة بصدر رحب . . فقولوا لنا لم قتلتم أنبياء الله ؟ . . ولذلك يقول الحق : " فلم تقتلون أنبياء الله من قبل " . . هل هناك في كتابكم التوراة أن تقتلوا أولياء الله . . كأن الحق سبحانه وتعالى قد أخذ الحجة من قولهم : " نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وارءه " . . إذا كان هذا صحيحا وأنكم تؤمنون بما أنزل عليكم فهاتوا لنا مما أنزل إليكم وهي التوراة ما يبيح لكم قتل الأنبياء إن كنتم مؤمنين بالتوراة . . وطبعا لم يستطيعوا ردا لأنهم كفروا بما أنزل عليهم . . فهم كاذبون في قولهم نؤمن بما أنزل علينا . . لأن ما ينزل عليهم لم يأمرهم بقتل الأنبياء . . فكأنهم كفروا بما أنزل عليهم . . وكفروا بما أنزل على محمد عليه الصلاة والسلام .

والقرآن يأتينا بالحجة البالغة التي تخرس أفواه الكافرين وتؤكد أنهم عاجزون غير قادرين على الحجة في المناقشة . . وهنا لابد أن نتنبه إلي قوله تعالى : " فلم تقتلوا أنبياء الله من قبل " . . قوله تعالى : " من قبل " طمأنة لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلي أن قتلهم الأنبياء انتهى ، وفي الوقت نفسه قضاء على آمال اليهود في أن يقتلوا محمدا عليه الصلاة والسلام . . والله يريد نزع الخوف من قلوب المؤمنين على رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن ما جرى للرسل السابقين من بني إسرائيل لن يجري على رسول الله صلى الله عليه وسلم . . وبذلك قطع القرآن خط الرجعة على كل من يريد أذى لرسول الله صلى الله عليه وسلم . . لأن ذلك كان عهدا وانتهى . . وأنهم لو تآمروا على قتله عليه الصلاة والسلام فلن يفلحوا ولن يصلوا إلي هدفهم .

واليهود بعد نزول هذه الآية الكريمة لم يتراجعوا عن تآمرهم ولن يكفوا عن بغيهم في قتل الرسل والأنبياء . . فحاولوا قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر من مرة . . مرة وهو في حيهم ألقوا فوقه حجرا ولكن جبريل عليه السلام أنذره فتحرك رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكانه قبل إلقاء الحجر . . ومرة دسوا له السم ، ومحاولات أخرى فشلت

كلها . إذن فقوله تعالى : " من قبل" معناها . . إن كنتم تفكرون في التخلص من محمد صلى الله عليه وسلم بقتله كما فعلتم في أنبيائكم نقل لكم : إنكم لن تستطيعوا أن تقتلوه . ولقد كانت هذه الآية كافية لإلقاء اليأس في نفوسهم حتى يكفوا عن أسلوبهم في قتل الأنبياء ولكنهم ظلوا في محاولاتهم ، وفي الوقت نفسه كانت الآية تثبيتا لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين . بأن اليهود مهما تآمروا فلن يمكنهم الله من شيء . . وقوله تعالى : " إن كنتم مؤمنين" . . أي بما أنزل إليكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴾ تفسير الشعراوى صـ 462. 463 ﴿

(49/60)

" فوائد بلاغية "

قال فى صفوة التفاسير :

البلاغة :

1- تقديم المفعول في الموضعين [فريقا كذبتم] و[فريقا تقتلون] للاهتمام وتشويق السامع إلى ما يلقى إليه .

2- التعبير بالمضارع [وفريقا تقتلون] ولم يقل " قتلتم " كما قال كذبتم ، لأن الفعل المضارع

- كما هو المألوف في أساليب البلاغة - يستعمل فى الأفعال الماضية ، التي بلغت من الفظاعة مبلغاً عظيما ، فكأنه أحضر صورة قتل الأنبياء أمام السامع ، وجعله ينظر إليها بعينه ، فيكون إنكاره لها أبلغ ، واستفظاعه لها أعظم .

3- وضع الظاهر مكان الضمير [فلعنة الله على الكافرين] ولم يقل " عليهم " ليشعر بأن سبب حلول اللعنة هو كفرهم الفظيع .

4- الإخبار في قوله : [ولقد جاءكم موسى بالبينات] يراد به التبكيت والتوبيخ على عدم اتباع الرسول (صلى الله عليه وسلم) .

5- أسندت الإهانة إلى العذاب فقال : [عذاب مهين] لأن الإهانة تحصل بعذابهم ، ومن أساليب البيان إسناد الأفعال إلى أسبابها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 1 صـ 79.78 ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ " يجوز في هذه الجملة وَجْهَان :

أحدهما : أن تكون : استئنافية استؤنفت] للإخبار بأنهم يكفرون بما عدا التَّوْراة ، فلا محل لها من الإعراب .

والثاني : أن تكون خبراً لمبتدأ محذوف ، أي : وهم يكفرون ، والجملة في محلّ نصب على الحال ، والعامل فيها " قالوا " ، أي قالوا : نؤمن حال كونهم كافرين بكذا ، ولا يجوز أن يكون العامل فيها " نؤمن " .

قال أبو البقاء : إذا لو كان كذلك لكان لفظ الحال نكفر ، أي ونحن نكفر .

يعني : فكان يجب المُطَابقة .

ولا بد من إضمار هذا المبتدأ لما تقدم من أن المضارع المثبت لا يقترن بالواو ، وهو نظير قوله : [المتقارب]

662 . . . . . .

نَجَوْتُ وَأَرْهَنُهُمْ مَالِكَا

وحُذِفَ الفاعل من قوله تعالى : " بِمَا أُنْزِلَ " وأقيم المفعولُ مقامه للعلم به ، إذ لا يُنَزِّل الكتب السماوية إلا الله ، أو لتقدم ذكره في قوله : " بِمَا أَنْزَلَ اللهُ " .

قوله : " بِمَا وَرَاءَهُ " متعلّق بـ " يكفرون " و " ما " موصولة ، والظروف صلتها ، فمتعلّقةُ فعل ليس إلا و " الهاء " في " وراءه " تعود على " ما " في قوله : " نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِل " .

و " وَرَاء " من الظروف المتوسّطة التصرف ، وهو ظرف مكان ، والمشهور أنه بمعنى "

خلف " وقد يكون بمعنى " أمام " قال تعالى : ﴿ وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً ﴾ [الكهف : 79] .

وقال : ﴿ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً ﴾ [الإنسان : 27] فهو من الأضداد ، وفسره الفراء هُنَا بمعنى " سوى " التي بمعنى " غير " .

وفسره أبو عبيدة وقتادة بمعنى " بعد " .

وفي همزة قولان :

أحدهما : أنه أصل بنفسه [وإليه ذهب ابن جني مستدلاً] بثبوتها في التصغير في قولهم : " وريئة " .

الثاني : أنها مبدلة من ياء ، لقولهم : تواريت .

قال أبو البقاء : ولا يجوز أن تكون من الهمز بدلاً من واو ؛ لأن ما فاؤه واو ، لا تكون لامه واواً إلاّ نادراً نحو : " واو " اسم حرف هجاء ، وحكم " وَرَاء " حكم " قَبْلُ " و " بَعْدُ " في كونه إذا أضيف أعرب ، وإذا قطع بني على الضم .

وأنشد الأخفش على ذلك قول الشاعر : [الطويل]

663 إِذَا أَنَا لَمْ أُومَنْ عَلَيْكَ وَلَمْ يَكُنْ . . .

لِقَاؤُكَ إِلاَّ مِنْ وَرَاءُ وَرَاءُ

وفي الحديث عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام : "كُنْتُ خَلِيْلاً مِنْ وَرَاءُ وَرَاءُ" .

وثبوت الهاء في تصغيرها شاذّ ؛ لأن ما زاد من المؤنث على ثلاثة لا تثبت الهاء في مصغره إلا في لفظتين شذتا وهما : "ورئية" و"قديديمة" : تصغير "وراء" و"قدام" .

وقال ابن عصفور : لأنهما لم يتصرفا فلو لم يُؤَنَّثَا في التصغير لتُوُهِّمَ تذكيرهما .

والوراء : ولد الولد أيضاً .

قوله : "وَهُوَ الْحَقُّ" مبتدأ أو خبر ، والجملة في محلّ نصب على الحال والعامل فيها قوله "يكفرون" [وصاحبها فاعل يكفرون] وأجاز أبو البقاء أن يكون العامل الاستقرار الذي في قوله : "بما وراءه" أي بالذي ا ستقرّ وراءه ، وهو الحق .

وهذا إشارة إلى وجوب الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه لما ثبت نبوّته بالمعجزات التي ظهرت عليه ، ثم إنه عليه الصَّلاة والسَّلام أخر أن هذا القرآن منزّل من عند الله ، وأن فيه أمر المكلفين به ، فكان الإيمان به محقّق لا مَحَالة .

قوله : "مُصَدِّقاً" حال مؤكدة ، لأن قوله : "وَهُوَ الْحَقُّ" قد تضمّن معناها ، والحال المؤكدة : إما أن تؤكد عاملها ، نحو :

﴿ وَلَا تَعْثَوْا فِي الأَرض مُفْسِدِينَ ﴾ [البقرة : 60] وإما أن تؤكد مضمون جملة ، فإن كان الثاني التزم بإضمار عاملها ، وتأخيرها عن الجملة ، ومثله أنشد سيبويه : [البسيط]

664 أَنا ابْنُ دَارَةَ مَعْرُوفاً بِهَا نَسَبِي . . .

وَهَلْ بِدَارَةَ يَا لَلنَّاسِ مِنْ عَارِ

والتقدير : وهو الحق أُحقّه مصدقاً وابنَ دَارَةَ أعْرَف معروفاً ، هذا تقرير كلام النحويين ، وأما أبو البقاء ، فإنه قال : مصدقاً حال مؤكّدة ، والعامل فيها ما في " الحق " من معنى الفعل ، إذ المعنى : وهو ثابت مصدقاً ، وصاحب الحال الضمير المستتر في " الحَقّ " عند قوم ، وعند آخرين صاحب الحال ضمير دلّ عليه الكلام ، و" الحق " : مصدر لا يتحمّل الضمير على حسب تحمّل اسم الفاعل له عندهم .

فقوله : " وعند آخرين " هو القول الذي قدّمناه وهو الصواب ، و" ما " في قوله : " لِمَا مَعَهُمْ " في موضع خفض باللام ، و" معهم " صلتها ، و" معهم " نصب بالاستقرار .

قوله : " فلم تقتلون " الفاء جواب شرط مقدر وتقديره : إن كنتم آمنتم بما أنزل عليكم فلم قتلتم الأنبياء ؟ وهذا تكذيب لهم ؛ [لأن الإيمان بالتوراة مناف لقتل أشرف خلقه وذلك] لأن التوراة دلّت على أن المعجزات تدلّ على الصدق ، وتدل على أنّ من كان صادقاً في ادعاء النبوة كان قتله كفراً ، وإذا كان الأمر كذلك كان السعي في قَتْل يحيى وزكريا وعيسى

عليهم السلام كفراً فلم سعيتم في ذلك إن صدقتم في ادّعائكم كونكم مؤمنين بالتوراة ؟

و" لم " جار ومجرور ، واللام حرف ، و" ما " استفهامية في محلّ جرن أي : لأي شيء ؟

ولكن حذف ألفها فرقاً بينها وبين " ما " الخبرية .

وقد تحمل الاستفهامية على الخبرية فتثبت ألفها ؛ قال الشاعر : [الوافر]

665 عَلَى مَا قَامَ يَشْتُمُنِي لَئِيمٌ . . .

كَخِنْزِيرٍ تَمَرَّغَ فِي التُّرَابِ

(53/60)

وهذا ينبغي أن يُخَصّ بالضرورة ، كما نص عليه بعضهم ، والزمخشري يجيز ذلك ، ويخرج عليه بعض أي القرآن ، كما قد تحمل الخبرية على الاستفهامية في الحَذْف في قولهم : اصنع بم شئت وهذا لمجرد التشبيه اللفظي .

وإذا وُقِفَ على " ما " الاستفهامية المجرورة ، فإن كانت مجرورة باسم وَجَبَ لَحاقُ هاء السَّكْت نحو مجيء " مه " ، وإن كانت مجرورة بحرف فالاختيار اللحاق ، والفرق أن الحرف يمتزج بما يدخل عليه فتقوى به الاستفهامية ، بخلاف الاسم المضاف إليها ، فإنه في نيّة الانفصال ، وهذا الوَقْف إنما يجوز ابتداء ، أو بقطع نفس ، ولا جَرَمَ أن بعضهم منع

الوَقْف على هذا النحو قال : " إنه إن وقف بغير هاء كان خطأ ؛ لنقصان الحرف ، وإن وقف بها خالف السَّواد " .

لكن البزي قد وقف بالهاء ، ومثل ذلك لا يُعد مخالفة للسَّواد ، ألا ترى إلى إثباتهم بعضَ ياءات الزوائد .

والجار متعلق بقوله : " تقتلون " ، ولكنه قُدِّم عليه وجوباً ، لأن مجروره له صدر الكلام ، والفاء وما بعدها من " تقتلون " في محلّ جزم ، وتقتلون وإن كان بصيغة المضارع ، فهو في معنى الماضي [لفهم المعنى] ، وأيضاً فمعه قوله " مِنْ قَبْل " [وأيضاً فإن الأنبياء عليهم السلام إنما كانوا في ذلك الزمان ، وأيضاً فالحاضرون لم يفعلوا ذلك ولا يتأتى لهم قتل الماضيين] ، وجاز إسناد القتل إليهم وإن لم يَتَعَاطَوه ؛ لأنهم لما كانوا راضين بفعل أَسْلَافهم جعلوا كأنهم فعلوا هم أنفسهم .

فإن قيل : كيف جاز قوله : " فَلِمَ تَقْتُلُونَ " من قبل ، ولا يجوز أن يقال : أنا أضربك أمس ؟

فالجواب من وَجْهَيْن :

الأول : أن ذلك جائز فيما كان بمنزلة الصّفة اللازمة كقولك لمن تعرفه بما سلف من قبح فعله : ويحك لم تكذب ؟ كأنك قلت : لم يكن هذا من شأنك .

قال الله تعالى : ﴿ واتبعوا مَا تَتْلُواْ الشياطين ﴾ [البقرة : 102] ولم يقل : ما تلت الشياطين ؛ لأنه أراد من شأنها التلاوة .

والثاني : كأنه قال : لم ترضون بقتل الأنبياء من قبل إن كنتم مؤمنين بالتوراة ؟

قال بعضهم : جاء " تقتلون " بلفظ الاستقبال ، وهو بمعنى المُضِيّ لما ارتفع الإشكال بقوله : " من قبل " وإذا لم يشكل فجائز أن يأتي الماضي بمعنى المستقبل وبالعكس .

قال الحطيئة : [الكامل]

666 شَهِدَ الْحُطَيْئَةُ يَوْمَ يَلْقَى رَبَّهُ . . .

أَنَّ الْوَلِيدَ أَحَقُّ بِالْعُذْرِ

شهد بمعنى يشهد .

قوله : " إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ " .

في : " إِنْ " قولان :

أحدهما : أنها شرطية ، وجوابه محذوف تقديره : إن كنتم مؤمنين فلم فعلتم ذلك ؟

ويكون الشرط وجوابه قد ذكر مرتين فَحُذِفَ الشَّرْط من الجملة الأولى ، وبقي جوابه وهو : فلم تقتلون ، وحذف الجواب من الثَّانية ، وبقي شرطه ، فقد حذف من كلّ واحدة ما أثبت في الأخرى .

قال ابن عطية رحمه الله : جوابها متقدم ، وهوقوله " فلم " وهذا إنما يتأتى على قول الكُوفيين ، وإبي زيد .

والثاني : أن " إن " نافية بمعنى " ما " أي : ما كنتم مؤمنين لمُنَافَاةِ ما صدر منكم الإيمان .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 2 صـ 285. 290 ﴾ . باختصار .

(55/60)

كلام نفيس لابن القيم فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ هذه حكاية مناظرة بين الرسول وبين اليهود لما قال لهم آمنوا بما أنزل الله تعالى فأجابوه بأن قالوا ﴿ نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا ﴾ ومرادهم بهذا التخصيص أن نؤمن بالمنزل علينا دون غيره فظهرت عليهم الحجة بقولهم هذا من وجهين دل عليهما قوله تعالى : ﴿ وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ ﴾ إلى آخر الآية . قال إن كنتم قد آمنتم بما أنزل عليكم لأنه حق فقد وجب عليكم أن تؤمنوا بما جاء به محمد لأنه حق مصدق لما معكم وحكم الحق الإيمان به أين كان ومع من كان

فلزمكم الإيمان بالحقين جميعا أو الكفر الصراح وفي وقوله : ﴿ وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ ﴾ نكتة بديعة جدا وهي أنهم لما كفروا به وهو حق لم يكن إيمانهم بما انزل عليهم لأجل أنه حق فإذا لم يتبعوا الحق فيما أنزل عليهم ولا فيما جاء به محمد لأنهم لو آمنوا بالمنزل عليهم أنه حق لآمنوا بالحق الثاني وأعطوا الحق حقه من الإيمان ففي ضمن هذه الشهادة عليهم بأنهم لم يؤمنوا بالحق الأول ولا بالثاني وهكذا الحكم في كل من فرق الحق فآمن ببعضه وكفر ببعضه كمن آمن ببعض الكتاب وكفر ببعض وكمن آمن ببعض الأنبياء وكفر ببعض لم ينفعه إيمانه بما كفر به حتى يؤمن بالجميع .

(56/60)

ونظير هذا التفريق من يرد آيات الصفات وأخبارها ويقبل آيات الأوامر والنواهي فإن ذلك لا ينفعه لأنه آمن ببعض الرسالة وكفر ببعض فإن كانت الشبهة التي عرضت لمن كفر ببعض الأنبياء غير نافعة له فالشبهة التي عرضت لمن رد بعض ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم أولى أن لا تكون نافعة وإن كانت هذه عذرا له فشبهة من كذب بعض الأنبياء مثلها وكما أنه لا يكون مؤمنا حتى يؤمن بجميع الأنبياء ومن كفر بنبي من الأنبياء فهو كمن كفر بعضه ورد بجميعهم فكذلك لا يكون مؤمنا حتى يؤمن بجميع ما جاء به الرسول فإذا آمن

ببعضه فهو كمن كفر به كله .

فتأمل هذا الموضع واعتبر به الناس على اختلاف طوائفهم يتبين لك أن أكثر من يدعى الإيمان برىء من الإيمان ولا حول ولا قوة إلا بالله .

الوجه الثاني من النقض قوله : ﴿ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ ووجه النقض أنكم إن زعمتم أنكم تؤمنون بما أنزل إليكم وبالأنبياء الذين بعثوا فيكم فلم قتلتموهم من قبل وفيم أنزل إليكم الإيمان بهم وتصديقهم فلا آمنتم بما انزل إليكم ولا بما أنزل على محمد ثم كأنه توقع منهم الجواب بأنا لم نقتل من ثبتت نبوته ولم نكذب به فأجيبوا على تقدير هذا الجواب الباطل منهم بأن موسى قد جاءكم بالبينات وما لا ريب في صحة نبوته ثم عبدتم بعد غيبته عنكم وأشركتم بالله وكفرتم به وقد علمتم نبوة موسى وقيام البراهين على صدقة فقال : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴾ فهكذا تكون الحجج والبراهين ومناظرات الأنبياء لخصومهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بدائع الفوائد حـ 4 صـ 148 . 149 ﴾

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابوري في الآيات السابقة :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ (87) وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ (88) وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (89) بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ (90) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (91) ﴾

التفسير : لما ذكر سبحانه في الآي المتقدمة صنيع اليهود في مخالفتهم أمره تعالى ومناقضة حالهم ، أكد ذلك في هذه الآي بذكر نعم أفاضها عليهم ثم إنهم قابلوها بالكفران ونقيض المقصود زيادة في تبكيتهم . أما الكتاب فهو التوراة

آتاه الله تعالى إياه جملة واحدة . عن ابن عباس أنها لما نزلت أمر الله موسى بحملها فلم يطق ذلك ، فبعث الله لكل آية منها ملكاً فلم يطيقوا حملها ، فبعث الله لكل حرف منها ملكاً فلم يطيقوا حملها ، فخففها الله على موسى عليه السلام فحملها . القفو والتقفية الإتباع وهو من القفا كالتذنيب من الذنب أي أتبعنا على أثره رسلاً كثيرين وهم يوشع وأشمويل وشمعون وداود وسليمان وشعيا وأرميا وعزير وحزقيل وإلياس واليسع ويونس وزكريا ويحيى وغيرهم . روي أن هؤلاء الرسل كانوا على شريعة واحدة إلى أيام عيسى عليه السلام فإنه جاء بشريعة مجددة ناسخة لأكثر شرع موسى ، وكان المقصود من بعثة ؤلاء تنفيذ الشريعة السالفة وإحياء بعض ما اندرس منها ومن هنا قال صلى الله عليه وسلم " علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل " " إن الله سيبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة من يجدد لها دينها " فقيل عيسى بالسريانية أيشوع أي المبارك ، ومريم بمعنى الخادم . وقيل مريم بالعبرية من النساء كالزير من الرجال وهو الذي يحب محادثة النساء ومجالستهن ، سمي بذلك لكثرة زيارته لهن وبه فسر قول رؤبة :

قلت لزير لم تصله مريمه . . . ووزن " مريم " عند أهل الصرف " مفعل " لأن فعيلاً بفتح الفاء لم يثبت في الأبنية كما ثبت نحو " عثير " للغبار " وعليب " اسم واد . البينات المعجزات الواضحات كإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص وغير ذلك ، أيدناه قويناه من الأيد القوة ، وبروح القدس الروح المقدس كما يقال حاتم الجود ورجل صدق أي بجبريل سمي بذلك لأنه سبب حياة الدين كما أن الروح سبب حياة البدن ، ولأنه الغالب عليه الروحانية ، ولأنه لم تضمه أصلاب الفحول ولا أرحام الأمهات ، وقيل بالإنجيل كما قال ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ﴾ [الشورى : 52] لأن العلم سبب حياة القلوب ، وقيل : باسم الله الأعظم الذي كان يحيي الموتى بذكره ، عن ابن عباس وسعيد بن جبير . وقيل : الروح الذي نفخ فيه ، والقدس والقدوس هو الله ، وإضافة الروح إليه تشريف وتعظيم كما يقال " بيت الله " و " ناقة الله " . عن الربيع : وكون الروح ههنا جبريل أظهر لأن اختصاصه بعيسى أكثر لأنه الذي بشر مريم بولادتها وقد تولد عليه السلام من نفخة جبريل في أمه وهو الذي رباه في جميع الأحوال وكان يسير معه حيث سار وكان معه حين صعد إلى السماء .

قوله تعالى : ﴿ أفكلما ﴾ وسطت الهمزة بين الفاء وما تعلقت به من قوله : ﴿ ولقد آتينا ﴾ لإفادة التوبيخ والتعجيب من شأنهم ، ويجوز أن تكون الفاء للعطف على مقدر معناه أأعرضتم فكلما ﴿ جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ﴾ الباء للتعدية أو بمعنى " مع " ، وذلك أنهم كانوا إذا أتاهم رسول بخلاف ما يهوون كذبوه وإن تهيأ لهم قتله قتلوه ترفعاً وترؤساً على عامتهم . وأخذ أموالهم بغير حق يوهمون عوامهم أنهم على الحق والنبي صلى الله عليه وسلم على الباطل ، ويحتجون على ذلك بالتحريف وسوء التأويل ، ومنهم من كان يستكبر على الأنبياء استكبار إبليس على آدم عليه السلام ﴿ ففريقاً كذبتم ﴾ على التمام وما بقي منه غير مكذب ﴿ وفريقاً تقتلون ﴾ أي ما تيسر لكم قتله بعد على التمام لأنكم تحومون حول قتل محمد صلى الله عليه وسلم لولا أني أعصمه منكم ولذلك سحرتموه وسممتم له الشاة . قال صلى الله عليه وسلم عند وفاته : " ما زالت أكلة خيبر تعادّني فهذا أوان قطعت أبهري " . والعداد اهتياج وجع اللديغ بعد كل سنة ، والأبهر عرق يخرج من القلب إذا انقطع مات صاحبه . ويجوز أن يراد الحال الماضية لأن الأمر فظيع فأريد استحضاره في النفوس وتصويره في القلوب كقوله :

فأضربها بلا دهش فخرت . . . وفائدة تقديم المفعول به على الفعلين بعد رعاية الفاصلة في ﴿ يقتلون ﴾ بيان غاية عنادهم وفرط عتوهم حيث جعلوا الرسل فريقين : أحدهما مخصص بالتكذيب والآخر بالقتل ، كأن وصف الرسالة عندهم هو الذي اقتضى عندهم

أحد هذين حتى خص المنعوت به دون سائر الناس بأحد الأمرين ، وهذا نهاية الجهالة حيث استقبلوا أشرف الأصناف لأكرم الأوصاف بغاية الاستخفاف . غلف جمع أغلف وهو كل ما فيه غلاف ومنه الأغلف للذي لم يختن ، أي قلوبنا مغشاة بأغطية فلا تتأثر من دعوتك لمكان الحائل بينهما .

(61/60)

وقيل : غلف تخفيف غلف بضمتين جمع غلاف أي قلوبنا أوعية للعلم والحكمة فنحن مستغنون بما عندنا عن غيره لا حاجة بنا إلى شرعك . ﴿ بل لعنهم الله ﴾ رد لقولهم وأن تكون قلوبهم مخلوقة كذلك لأنها خلقت على الفطرة ، والتمكن من قبول الحق ولكنهم لعنوا أي طردوا عن رحمة الله وأبعدوا عن الخيرات بسبب كفرهم الذي أحدثوه بعد نصب الأدلة وإزاحة العلة . وفي هذا لطف للمكلفين أن لا يتسلقوا إلى المعاصي بإبلاء نحو هذا العذر وإبداء مثل هذه الحجة ، ولكن يشمرون عن ساق الاجتهاد " فكل ميسر لما خلق " له ﴿ فقليلاً ما يؤمنون ﴾ أي إيماناً قليلاً يؤمنون . و " ما " مزيدة وهو إيمانهم ببعض الكتاب أو بقليل مما كلفوا به . يؤمنون ، فانتصب بنزع الخافض . و " ما " صفة أي بشيء قليل من الأشياء المكلف بها . ويجوز أن تكون القلة بمعنى العدم أي لا يؤمنون أصلاً لا

قليلاً ولا كثيراً كما يقال : قليلاً ما تفعل . أي لا تفعل ألبتة . وذلك أن الإيمان بالله إنما يعبأ به إذا كان مؤمناً بجميع ما أنزل الله ، فإذا فرق بين أوامره فهو عن الإيمان بمعزل . ﴿ ولما جاءهم ﴾ جوابه محذوف وهو نحو : كذبوا به واستهانوا بمجيئه . ويجوز أن يكون جوابه هو جواب " لما " الثانية المكررة للتأكيد لطول الكلام نحو قوله ﴿ فلا تحسبنهم بمفازة ﴾ [آل عمران : 188] بعد قوله ﴿ لا تحسبن ﴾ [آل عمران : 188] . واتفقوا على أن المراد بالكتاب هو القرآن ، ووجه تصديقه لما معهم ليس هو الموافقة في أصول الشرائع ، لأن جميع كتب الله كذلك ، بل المراد ما يختص بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم من العلامات والنعوت والصفات . والتحقيق أن ذكر الكتاب ههنا كناية عن الرسول لأن الرسول يلزمه الكتاب عرفاً أو مجازاً لأن الكتاب مستلزم للرسول لا محالة يدل على ذلك قوله ﴿ يستخفون على الذين كفروا ﴾ [البقرة : 89] وذلك أن اليهود قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم ونزول القرآن كانوا يسألون به الفتح والنصرة

على المشركين إذا قاتلوهم يقولون : اللهم انصرنا بالنبي المبعوث في آخر الزمان الذي نجد نعته وصفته في التوراة . وكانوا يقولون لأعدائهم من المشركين : قد أظل زمان نبي يخرج بتصديق

ما قلنا فنقتلكم معه قتل عاد وإرم . وقيل : معنى يستفتحون يفتحون عليهم ويعرفونهم أن نبياً يبعث منهم قد قرب أوانه . والسين للمبالغة أي يسألون أنفسهم الفتح عليهم كالسين في " استعجب " و " استخسر " ، أو يسأل بعضهم بعضاً أن يفتح عليه ، ﴿ فلما جاءهم ما عرفوا من الحق ﴾ وهو نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، ويجوز أن تكون " ما " بمعنى " من " نحو : سبحان ما سخركن لنا أي فلما جاءهم النبي صلى الله عليه وسلم الذي كانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ﴿ كفروا به ﴾ ، إما لأنهم كانوا يظنون أن المبعوث يكون من بني إسرائيل لكثرة مجيء الرسل منهم فيرغبون الناس في دينه ويدعونهم إليه فلما بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم من العرب من ذرية إسماعيل عليه السلام عظم ذلك عليهم فأظهروا التكذيب بغياً وحسداً وعناداً ولدداً ، وإما لأنهم ظنوا أنه صلى الله عليه وسلم مبعوث إلى العرب خاصة ، وإما لأن اعترافهم بنبوته كان يوجب عليهم زوال رياساتهم ومكاسبهم فأبوا وأصروا على الإنكار .

(63/60)

فكفرهم إذاً كفر عناد ، ﴿ فلعنة الله ﴾ وهي الإبعاد عن الخيرات الحقيقية الباقية) ﴿ على الكافرين ﴾ أي عليهم ، فوضع الظاهر موضع المضمر ليدل على أن اللعنة إنما لحقتهم

لكفرهم ، واللام للعهد أو للجنس ويدخلون فيه دخولاً أولياً . فإن قيل : أليس أنه تعالى ذكر ﴿ وقولوا للناس حسناً ﴾ [البقرة : 83] قلنا : العام قد يخص ، وأيضاً لعن من يستحق اللعن حسن ، وأيضاً أولئك بالنسناس أشبه منهم بالناس ﴿ أولئك كالأنعام بل هم أضل ﴾ [الأعراف : 179] " بئس " لإنشاء الذم ، وفاعله قد يكون مظهراً نحو " بئس الرجل زيد " ، وقد يكون مضمراً يعود إلى معهود ذهني فيفسر حينئذ بنكرة منصوبة وبعدهما المخصوص بالذم ف " ما " نكرة منصوبة مفسرة : لفاعل " بئس " أي بئس شيئاً اشتروا به أنفسهم ، والمخصوص بالذم ﴿ أن يكفروا ﴾ واختلف في إعراب المخصوص فقيل : مبتدأ والجملة قبله خبره . وقيل خبر مبتدأ محذوف أي هو أن يكفروا . واشتروا بمعنى باعوا لأن الكفر حاصل تعلق نفوسهم بأبدانهم كما أ ، الثمن حاصل ملك المالك . وقيل : إن المكلف إذا كان يخاف على نفسه من عقاب الله تعالى فأتى بأعمال يظن بها أنها تخلصه من العقاب فكأنه قد اشترى نفسه بتلك الأعمال ، وهؤلاء اليهود لما اعتقدوا فيما أتوا به أنه يخلصهم من العقاب ويوصلهم إلى الثواب ، فقد ظنوا أنهم قد اشتروا أنفسهم بها ، والمراد بما أنزل الله القرآن لأنهم كانوا مؤمنين بغيره . ثم بين الوجه الذي لأجله اختاروا هذا الكفر فقال ﴿ بغياً ﴾ أي حسداً وطلباً لما ليس لهم ، ولولا هذا البيان لجاز أن يكون الباعث لهم على ذلك الكفر هو الجهل لا البغي ولما كان الباعث على البغي قد يكون وجوهاً شتى بين أن الحامل لهم على البغي هو ﴿ أن ينزل الله من فضله ﴾ الذي هو

الوحي ﴿ على من يشاء ﴾ وتقتضي حكمته إرساله وهذا هو اللائق بما حكينا من أنهم ظنوا أن هذا الفضل العظيم يحصل في قومهم ، فلما وجدوه في العرب حملهم ذلك على

البغي والحسد ، وعلى هذا يكون الجار المحذوف هو لام الغرض أي لأجل أن ينزل ، ويحتمل أني قال المحذوف على أي حسدوه على أن ينزل .

﴿ فباءوا بغضب على غضب ﴾ لا بد من إثبات سببي غضبين : أحدهما تكذيبهم عيسى وما أنزل عليه ، والثاني تكذيبهم محمد صلى الله عليه وسلم وما أنزل عليه ، فصار ذلك سبباً بعد سبب لسخط بعد سخط وهو قول الحسن والشعبي وعكرمة وأبي العالية وقتادة .

وقيل : الأول لعبادتهم العجل ، والثاني لكتمانهم نعت محمد صلى الله عليه وسلم وجحدهم نبوته عن السدي . وقيل : ليس المراد إثبات الغضبين فقط ، بل المراد إثبات

أنواع من الغضب مترادفة لأجل أمور متوالية صدرت عنهم كقولهم ﴿ عُزير ابن الله ﴾ [التوبة : 30] ﴿ يد الله مغلولة ﴾ [المائدة : 64] ﴿ إن الله فقير ونحن أغنياء ﴾ [آل عمران : 181] عن عطاء وعبيد بن عمير . وقيل : المراد تأكيد الغضب وتكثير له لأجل أن هذا الكفر وإن كان واحداً إلا أنه عظيم ، وهو قول أبي مسلم . ومعنى الغضب في حقه تعالى قد عرفت مراراً أنه عبارة عن لازمه وهو إرادة الانتقام ، وأما تزايده وتكثره فيصح فيه ذلك كصحته في العذاب ، فلا يكون غضبه على من كفر بخصال كثيرة كمن كفر بخصلة واحدة ﴿ وللكافرين عذاب مهين ﴾ من وضع الظاهر مقام المضمر أي ولهم عذاب ، وفائدته ما ذكرنا في قوله ﴿ فلعنة الله على الكافرين ﴾ ووصف العذاب بالمهين والمهين هو المعذب لأن الإهانة لما حصلت مع العذاب جاز أن يجعل ذلك من وصفه لأنها بسبب منه ، ولا يلزم من اقتران العذاب بالإهانة تكرار فقد يكون العذاب ولا إهانة كالوالد يؤدب ولده ﴿ آمنوا بما أنزل الله ﴾ بكل ما أنزل الله من كتاب وقد يستدل به على عموم " ما " ﴿ قالوا نؤمن بما أنزل علينا ﴾ أي بالتوراة وكتب سائر الأنبياء الذين آتوا بتقرير شرع موسى عليه السلام ﴿ ويكفرون بما وراءه ﴾ أي قالوا ذلك والحال أنهم يكفرون بما وراء التوراة وهو الإنجيل والقرآن ﴿ وهو الحق ﴾ الضمير يعود إلى " ما وراءه " أو إلى القرآن فقط . و ﴿ مصدقاً ﴾ حال مؤكدة لوجود شرطها وهو كونها مقررة لمضمون جملة اسمية ، أو كون مضمونها لازماً لمضمون الجملة الاسمية ، فإن التصديق لازم حقية القرآن

فصار كأنه هو والعامل في ﴿ مصدقاً ﴾ محذوف وهو يبدو أو يثبت على الأصح . وأما الواو في ﴿ وهو الحق ﴾ فيجوز أن تكون معترضة فلا محل للجملة ، ويجوز أن تكون للحال وحينئذ إما

أن يكون العامل فيها هو العامل في قوله ﴿ ويكفرون ﴾ على أن كلاً منهما حال بجيالها ، وإما أن يكون العامل فيها هو يكفرون على أنهما حالان متداخلتان . وفي قوله ﴿ وهو الحق مصدقاً لما معهم ﴾ دلالة على وجوب الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم لأنه لما أثبت نبوته بالمعجزات ثم إنه أخبر أن هذا القرآن منزل من عند الله وأنه صلى الله عليه وسلم أمر المكلفين بالإيمان ، كان الإيمان به واجباً لا محالة ، وعند هذا يظهر أن الإيمان ببعض الأنبياء وبعض الكتب مع الكفر ببعضهم وبعضها محال .

وأيضاً أنه صلى الله عليه وسلم لم يتعلم علماً ولم يقرأ ولم يخط ، ثم إنه صلى الله عليه وسلم أتى بالقصص والأخبار مطابقة لما في التوراة ، فيعلم بالضرورة أنه صلى الله عليه وسلم استفادها من قبل الوحي وأيضاً القرآن يدل على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، فلما أخبر الله تعالى عنه أنه مصدق التوراة وجب اشتمال التوراة على الأخبار عن نبوته .

فمدعي الإيمان بالتوراة يجب أن يؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم وإلا كان كاذباً . ثم إنه تعالى بين من وجه آخر كذب دعواهم ، وهو أن التوراة لا تسوغ قتل الأنبياء وأنهم سوغوا ذلك ، وفيه دليل على أن إيراد المناقضة على الخصم الألد جائز . والكلام وإن كان على وجه الخطاب إلا أن المراد بذلك أسلافهم بدليل ﴿ من قبل ﴾ وتقتلون حكاية حال ماضية . وأصل " لم " لما بإدخال لام التعليل في " ما " الاستفهامية ، حذفت الألف للتخفيف أي لأي غرض وبأي حجة كان أسلافكم يقتلون الأنبياء . وفي قوله ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ تشكيك في إيمانهم وقدح في صحة دعواهم الإيمان ، وجواب الشرط محذوف يدل عليه ما تقدمه . وفيه تنبيه على أن اليهود المعاصرين خرجوا بتكذيب محمد صلى الله عليه وسلم من الإيمان بالتوراة كما أن أسلافهم خرجوا بقتل بعض الأنبياء عن الإيمان بها والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 1 صـ 329. 334 ﴾

(67/60)

قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (92) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما دل على كذبهم في دعوى الإيمان بما فعلوا بعد موسى مما استحقوا به الخلود في النار أقام دليلاً آخر أقوى من كل ما تقدمه ، فإنه لم يعهد إليهم في التوراة ما عهد إليهم في التوحيد والبعد عن الإشراك وهو في النسخ الموجودة بين أظهرهم الآن ، وقد نقضوا جميع ذلك باتخاذ العجل في أيام موسى وبحضرة هارون عليهما السلام كما هو منصوص الآن فيما بين أيديهم منها فقال تعالى : (ولقد جاءكم موسى بالبينات) من الآيات .

ولما كان كفرهم مع ذلك في غاية الاستبعاد عبر عنه بأداته مصوراً لزيادة قبحه بترتبه على أظهر البيان وموبخاً لهم فقال : (ثم اتخذتم) أي مع العلاج لفطركم الأولى وعقولكم السليمة) العجل (ونبه بالجار على أن الاتخاذ في بعض زمن البعد فقال : من بعده أي بعد مفارقة موسى لكم إلى الطور كما في الآية الأخرى

(فتنا قومك من بعدك) [طه : 85] (وأنتم) أي والحال أنكم (ظالمون) أي لم تزعموا أنه إلهكم على جهل منكم بل بعد مجيء البينات إليكم أن إلهكم إنما هو الله الذي أنقذكم من العبودية وأراكم من العجائب الخوارق ما لا يقبل شكاً وسمعتم كلامه فعلمتم أنه ليس بجسم ولا يشبه الجسم ، فلم تفعلوا ذلك غلا لأن الظلم وهو المشي على غير نظام خبط عشواء وصف لكم لازم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 197 . 198 ﴾

" القراءات "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

(68/60)

القراءات : ﴿ ولقد جاءكم ﴾ مدغمة الدال في الجيم كل القرآن : أبو عمرو وحمزة وعلي خلف وهشام ﴿ جاءكم ﴾ وبابه بالإمالة : حمزة وخلف وابن ذكوان ﴿ قلوبهم العجل ﴾ بكسر الهاء والميم : أبو عمرو وسهل ويعقوب ، وقرأ حمزة وعلي وخلف بضم الهاء والميم ، الباقون بكسر الهاء وضم الميم وكذلك كل ما لقي الميم حرف ساكن وقبل الهاء كسرة ﴿ بما تعملون ﴾ بتاء الخطاب : يعقوب .

والوقوف : ﴿ ظالمون ﴾ (5) ﴿ الطور ﴾ (ط) لتقدير القول ﴿ واسمعوا ﴾ (ط) ﴿ بكفرهم ﴾ (ط) ﴿ مؤمنين ﴾ (5) ﴿ صادقين ﴾ (5) ﴿ أيديهم ﴾ (ط) ﴿ بالظالمين ﴾ (5) ﴿ على حياة ﴾ (ج) على تقدير : ومن الذين أشركوا قوم يود أحدهم ، ومن وقف على ﴿ أشركوا ﴾ فتقديره أحرص الناس على حياة وأحرص من الذين أشركوا و ﴿ يود ﴾ مستأنف للبيان وإنما لم يدخل من في الناس وأدخل في الذين أشركوا لأن اليهود من الناس وليسوا من المشركين كقولك " الياقوت أفضل الحجارة وأفضل

من الديباج" ﴿ سنة ﴾ (ط) لأن ما بعده يصلح مستأنفاً وحالاً ﴿ أن يعمر ﴾ (ط) ﴿ يعملون ﴾ (5) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 1 صـ 335.336 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أن تكرير هذه الآية يغني عن تفسيرها والسبب في تكريرها أنه تعالى لما حكى طريقة اليهود في زمان محمد صلى الله عليه وسلم ووصفهم بالعناد والتكذيب ومثلهم بسلفهم في قتلهم الأنبياء الذي يناسب التكذيب لهم بل يزيد عليه ، أعاد ذكر موسى عليه السلام وما جاء به من البينات وأنهم مع وضوح ذلك أجازوا أن يتخذوا العجل إلهاً وهو مع ذلك صابر ثابت على الدعاء إلى ربه والتمسك بدينه وشرعه فكذلك القول في حالي معكم وإن بالغتم في التكذيب والإنكار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 170 ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ موسى بالبينات ﴾ اللام لام القَسَم .

والبينات قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا موسى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ [الإسراء : 101] وهي العصا ، والسِّنون ، واليد ، والدّم ، والطُّوفان ، والجراد ، والقُمّل ، والضفادع ، وفلق البحر .

وقيل : البينات التوراة ، وما فيها من الدلالات .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ اتخذتم العجل ﴾ توبيخ ، و " ثُمّ " أبلغ من الواو في التقريع ؛ أي بعد النظر في الآيات والإتيان بها اتخذتم .

وهذا يدلّ على أنهم إنما فعلوا ذلك بعد مهلة من النظر في الآيات ؛ وذلك أعظم لجرمهم .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 2 صـ 30 ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وَلَقَدْ جَاءكُم موسى بالبينات ﴾ داخل تحت الأمر فهو من تمام التبكيت والتوبيخ وكذا ما يأتي بعد لا تكرير لما قص من قبل ، والمراد بالبينات الدلائل الدالة على صدقه عليه السلام في دعوته والمعجزات المؤيدة لنبوته كالعصا واليد ، وانفلاق البحر مثلاً ؛ وقيل : الأظهر أن يراد بها الدلائل الدالة على الوحدانية فإنه أدخل في التقريع بما بعد ، وعندي الحمل على العموم بحيث يشمل ذلك أيضاً أولى وأظهر .

﴿ ثُمَّ اتخذتم العجل ﴾ أي الذي صنعه لكم السامري من حليكم إلهاً ﴿ مِن بَعْدِهِ ﴾ أي بعد مجىء موسى عليه السلام بها ومن عد التوراة وانفجار الماء منها لم يرد الجميع بل

الجنس لأن ذلك كان بعد قصة العجل وكلمة (ثم) على هذا للاستبعاد لئلا يلغو القيد .

وقد يقال : الضمير لمتقدم معنى وهو الذهاب إلى الطور فكلمة (ثم) على حقيقتها ، وعد ما ذكرنا من البينات حينئذٍ ظاهر ، ويشير هذا العطف على أنهم فعلوا ذلك بعد مهلة من النظر في الآيات وذلك أعظم ذنباً وأكثر شناعة لحالهم ، والتزم بعضهم رجوع الضمير إلى البينات بحذف المضاف أي من بعد تدبر الآيات ليظهر ذلك ، وعود الضمير إلى العجل ، والمراد بعد وجوده أي عبدتم الحادث الذي حدث بمحضركم ليكون فيه التوبيخ العظيم لا يخفى ما فيه من البعد العظيم المستغنى عنه بما أشرنا إليه .

﴿ وَأَنتُمْ ظالمون ﴾ أي واضعون الشيء في غير محله اللائق به أو مخلون بآيات الله تعالى ، والجملة حال مؤكدة للتوبيخ والتهديد وهي جارية مجرى القرينة على إرادة العبادة من الاتخاذ ، وفيها تعريض بأنهم صرفوا العبادة عن موضعها الأصلي إلى غير موضعها وإيهام المبالغة من حيث إن إطلاق الظلم يشعر بأن عبادة العجل كل الظلم وأن من ارتكبها لم يترك شيئاً من الظلم .

واختار بعضهم كونها اعتراضاً لتأكيد الجملة بتمامها دون تعرض لبيان الهيئة الذي تقتضيه

الحالية أي وأنتم قوم عادتكم الظلم واستمر منكم ، ومنه عبادة العجل ، والذي دعاه إلى ذلك زعم أنه يلزم على الحالية أن يكون تكراراً محضاً فإن عبادة العجل لا تكون إلا ظلماً بخلافه على هذا فإنه يكون بياناً لرذيلة لهم تقتضي ذلك ، وفيه غفلة عما ذكرنا ، وإذا حمل الاتخاذ على الحقيقة نحو اتخذت خاتماً تكون الحالية أولى بلا شبهة لأن الاتخاذ لا يتعين كونه ظلماً إلا إذا قيد بعبادته كما لا يخفى . انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 325 ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (92) ﴾

عطف على قوله : ﴿ فلم تقتلون أنبياء الله ﴾ [البقرة : 91] والقصد منه تعليم الانتقال في المجادلة معهم إلى ما يزيد إبطال دعواهم الإيمان بما أنزل إليهم خاصة ، وذلك أنه بعد أن أكذبهم في ذلك بقوله : ﴿ فلم تقتلون أنبياء الله من قبل ﴾ كما بينا ، ترقى إلى ذكر أحوالهم في مقابلتهم دعوة موسى الذي يزعمون أنهم لا يؤمنون إلا بما جاءهم به فإنهم مع ذلك قد قابلوا دعوته بالعصيان قولاً وفعلاً فإذا كانوا أعرضوا عن الدعوة المحمدية بمعذرة أنهم لا يؤمنون إلا بما أنزل عليهم فلماذا قابلوا دعوة أنبيائهم بعد موسى بالقتل ؟ ولماذا قابلوا ؟ دعوة موسى بما قابلوا .

فهذا وجه ذكر هذه الآيات هنا وإن كان قد تقدم نظائرها فيما مضى ، فإن ذكرها هنا في محاجة أخرى وغرض جديد ، وقد بينتُ أن القرآن ليس مثل تأليف في علم يُحال فيه على ما تقدم بل هو جامع مواعظ وتذكيرات وقوارع ومجادلات نزلت في أوقات كثيرة وأحوال مختلفة فلذلك تتكرر فيه الأغراض لاقتضاء المقام ذكرها حينئذ عند سبب نزول تلك الآيات .

وفي " الكشاف" أن تكرير حديث رفع الطور هنا لما نيط به من الزيادة على ما في الآية السابقة معنى في قوله : ﴿ قالوا سمعنا وعصينا ﴾ الآية وهي نكتة في الدرجة الثانية .

وقال البيضاوي إن تكرير القصة للتنبيه على أن طريقتهم مع محمد صلى الله عليه وسلم طريقة أسلافهم مع موسى وهي نكتة في الدرجة الأولى وهذا إلزام لهم بعمل أسلافهم بناءً على أن الفرع يَتْبَع أصله والولد نسخة من أبيه ، وهو احتجاج خطابي .

والقول في هاته الآيات كالقول في سابقتها [البقرة : 63] وكذلك القول في (البينات) .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 1 صـ 592.591 ﴾

ومن فوائد ابن عرفة فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُم موسى بالبينات . . . ﴾ .

إن قلت : لِم أقسم على مجيئه لهم بالبينات ، وهم موافقون عليه .

وإنما يتوهم مخالفتهم في اتخاذهم العجل فقط ؟ فهلاَ قيل : ولقد اتخذتم العجل من بعد ما جَاءكم موسى بالبينات ؟

فالجواب : أنه ظهرت عليه مخائل الإنكار لمجيئه لهم بالبيّنات بسبب اتخاذهم العجل ، فلذلك عطفه عليه (بيانا لسببه) الموجب للقسم .

قال ابن عطية : البينات : التوراة ، والعصا ، وفرق البحر ، وغير ذلك من آيات موسى عليه الصّلاة والسلام .

قال ابن عرفة : إن أراد بالبينات الظاهرة فظاهر ، وإن أراد المعجزات فليست التوراة منها ، لأنها غير معجزة وإنما الإعجاز بالقرآن فقط .

فإن قلتم : إنّها معجزة باعتبار اشتمالها على الإخبار بالمغيبات .

قلنا : الإعجاز فيها حينئذ (ليس هو من حيث المجيء بها بل من حيث الإخبار بالمغيبات فقط) .

قال ابن عرفة : وذمهم أولا بكفرهم فيما يرجع إلى النّبوة بقوله : ﴿ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَآءَ اللهِ مِن قَبْلُ ﴾ ثم ذمهم بكفرهم فيما يرجع إلى الألوهية باتخاذهم العجل إلاها فهو ترق في الذم .

قال : ومفعول " اتّخَذْتُمُ " محذوف أي العجل إلاها ، وحذفه مناسب ، لأنه مستكره مذموم ، فحذفه إذا دل السياق عليه أحسن من ذكره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عرفة حـ 1 صـ 372.371 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (92) ﴾

أي دعاكم إلى التوحيد ، وإفراد المعبود عن كل معبود ومحدود ، ولكنكم لم تجنحوا إلا إلى عبادة ما يليق بكم من عِجْلٍ اتخذتموه ، وصنمٍ تمنيتموه . فرفع ذلك من بين أيديهم ، ولكن بقيت آثاره في قلوبهم وقلوب أعقابهم ، ولذلك يقول أكثرُ اليهود بالتشبيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 106 ﴾

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ (92) ﴾

بعد أن بين لنا الله سبحانه وتعالى رفضهم للإيمان بما أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم . . بحجة أنهم يؤمنون بما أنزل إليهم فقط . . أوضح لنا أن هذه الحجة كاذبة وأنهم في طبيعتهم الكفر والإلحاد . . فقال سبحانه : " ولقد جاءكم موسى عليه السلام أيده الله ببينات ومعجزات كثيرة كانت تكفي لتملأ قلوبكم بالإيمان وتجعلكم لا تعبدون إلا الله . . فلقد شق لكم البحر ومررتم فيه وأنتم تنظرون وترون . . أي أن المعجزة لم تكن غيبا عنكم بل حدثت أمامكم ورأيتموها . . ولكنكم بمجرد أن تجاوزتم البحر وذهب موسى للقاء الله . . بمجرد أن حدث ذلك اتخذتم العجل إلها من دون الله وعبدتموه . . فكيف تدعون أنكم آمنتم بما أنزل إليكم . . لو كنتم قد آمنتم به ما كنتم اتخذتم العجل إلها .

والحق تبارك وتعالى يريد أن ينقض حجتهم في أنهم يؤمنون بما أنزل إليهم . . ويرينا أنهم ما آمنوا حتى بما أنزل إليهم . . فجاء بحكاية قتل الأنبياء . . ولو أنهم كانوا مؤمنين حقا بما أنزل إليهم فليأتوا بما يبيح لهم قتل أنبيائهم ولكنهم كاذبون . . أما الحجة الثانية فهي إن كنتم تؤمنون بما أنزل إليكم . . فقولوا لنا كيف وقد جاءكم موسى بالآيات الواضحة من العصا التي تحولت إلي حية واليد البيضاء من غير سوء والبحر الذي شققناه لكم لتنجو من قوم

فرعون . . والقتيل الذي أحياه الله أمامكم بعد أن ضربتموه ببعض البقرة التي ذبحتموها . . آيات كثيرة ولكن بمجرد أن تركككم موسى وذهب للقاء ربه عبدتم العجل . إذن فقولكم نؤمن بما أنزل إلينا غير صحيح . . فلا أنتم مؤمنون بما أنزل إليكم ولا أنتم مؤمنون بما أنزل من بعدكم . . وكل هذه حجج الهدف منها عدم الإيمان أصلا .

(74/60)

وقوله تعالى : " ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون " . . واتخاذ العجل في ذاته ليس معصية إذا اتخذته للحرث أو للذبح لتأكل لحمه . . ولكن المعصية هي اتخاذ العجل معبودا . . وقوله تعالى : " اتخذتم العجل " . . أي أن ذلك أمر مشهود ولا إلي شهادة لأنه حدث علنا وأمام الناس كلهم . . وذكر حكاية العجل هذه ليشعروا بذنبهم في حق الله . . كأن يرتكب الإنسان خطأ ثم يمر عليه وقت . . وكلما أردنا أن نؤنبه ذكرناه بما فعل . . وقوله تعالى : " وأنتم ظالمون " . . أي ظالمون في إيمانكم . . ظالمون في حق الله بكفركم به . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 464.466 ﴾

(75/60)

ومن فوائد العلامة الزمخشري في الآيات

قال رحمه الله :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ وَقَفَّيْنا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّناتِ وَأَيَّدْناهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾

الْكِتابَ التوراة ، آتاه إياها جملة واحدة . ويقال : قفاه إذا أتبعه من القفا . نحو ذنبه ، من الذنب . وقفاه به : أتبعه إياه ، يعنى : وأرسلنا على أثره الكثير من الرسل ، كقوله تعالى : (ثُمَّ أَرْسَلْنا رُسُلَنا تَتْرا) وهم يوشع وأشمويل وشمعون وداود وسليمان وشعيا وأرميا وعزير وحزقيل وإلياس واليسع ويونس وزكريا ويحيى وغيرهم . وقيل (عِيسَى) بالسريانية أيشوع . و(مَرْيَمَ) بمعنى الخادم . وقيل : المريم بالعربية من النساء ، كالزير من الرجال «1» . وبه فسر قول رؤبة :

قُلْتُ لِزَيْرٍ لَمْ تَصِلْهُ مَرْيَمُهْ «2»

---

(1) . قوله «كالزير من الرجال» في الصحاح : هو الذي يحب محادثة النساء ومجالستهن . (ع)

(2) قلت لزير لم تصله مريمه ضليل أهواء الصبا تندمه

لرؤبة بن العجاج يعاتب أبا جعفر الدوانيقي على البطالة ومغازلة النساء . سمى بذلك لأنه زاد في الخراج دوانق أيام خلافته ، كذا في الكشف . والزير من يكثر مودة النساء وزيارتهن . والمريم : من تكثر مودة الرجال وزيارتهم .

قال أبو عمرو : من رام بريم ، ومعناه بقي أو ذهب . وريمت السحابة تريما : دامت ، لدوامها على المودة ، أو لخروجها من بيتها . والضليل كثير الضلال . والصبا : الميل إلى الجهل والفتوة . وتندمه : بمعنى ندمه ، فهو مصدر مرفوع فاعل ضليل . ولعل معناه أن ندمه ضال ضائع في أهواء الصبا . ويروى «مندمه» بصيغة اسم الفاعل . وضليل : مرفوع على الابتداء ، ومندمه خبره . ولعل معناه أن الرجل كثير الضلال يعنى نفسه هو الذي يندمه ويجعله نادما ، أى يأمره بالندم . وقال عبد الحكيم على البيضاوي نقلا عن الكشف : أى قلت له من كثر ضلاله يكون مندم نفسه وموقعها في الندامة . واللام في قوله لزير للتعليل أى قلت ذلك القول لأجله ، هذا توجيه ما قيل فيه . ولو جعلت ضليل صفة زير كالوجه الأول ، وتندمه فعل أمر مقول القول ، حرك بالضم لالتقائه ساكناً مع هاء السكت ولمناسبة القافية لجاز : أى قلت له تندم وتب ، لكن فيه تكلف شاذ .

(76/60)

ووزن «مريم» عند النحويين «مفعل» لأن فعيلا بفتح الفاء لم يثبت في الأبنية كما ثبت نحو عثير وعليب «1» الْبَيِّناتِ المعجزات الواضحات والحجج، كإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص والإخبار بالمغيبات. وقرئ: وآيدناه. ومنه: آجده بالجيم «2» إذا قوّاه. يقال: الحمد للَّه الذي آجدنى بعد ضعف، وأوجدنى بعد فقر. بِرُوحِ الْقُدُسِ بالروح المقدّسة، كما تقول: حاتم الجود، ورجل صدق. ووصفها بالقدس كما قال: (وَرُوحٌ مِنْهُ) فوصفه بالاختصاص والتقريب للكرامة. وقيل: لأنه لم تضمه الأصلاب، ولا أرحام الطوامث. وقيل بجبريل. وقيل بالإنجيل كما قال في القرآن: (رُوحاً مِنْ أَمْرِنا) وقيل باسم اللَّه الأعظم الذي كان يحيى الموتى بذكره.

والمعنى: ولقد آتينا يا بنى إسرائيل أنبياءكم ما آتيناهم أَفَكُلَّما جاءَكُمْ رَسُولٌ منهم بالحق اسْتَكْبَرْتُمْ عن الإيمان به، فوسط بين الفاء وما تعلقت به همزة التوبيخ والتعجيب من شأنهم. ويجوز أن يريد: ولقد آتيناهم ما آتيناهم ففعلتم ما فعلتم. ثم وبخهم على ذلك. ودخول الفاء لعطفه على المقدّر.

فإن قلت: هلا قيل وفريقا قتلتم؟ «3». قلت: هو على وجهين: أن تراد الحال الماضية، «4» لأنّ الأمر فظيع فأريد استحضاره في النفوس وتصويره في القلوب، وأن يراد: وفريقا تقتلونهم بعد لأنكم تحومون حول قتل محمد صلى اللَّه عليه وسلم لولا أنى أعصمه منكم. ولذلك سحرتموه وسممتم

(1) . قوله «عثير وعليب» العثير: الغبار. وعليب: اسم واد. (ع)

(2) . قوله «و منه آجده بالجيم» وأصله ما يقال: ناقة أجد، أى قوية موثقة الخلق أفاده الصحاح. (ع)

(3) . قال محمود رحمه اللَّه: «إن قلت هلا قيل وفريقاً قتلتم . . . الخ» قال أحمد رحمه اللَّه: والتعبير بالمضارع يفيد ذلك دون الماضي، كقوله تعالى: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً) فعبر بالماضي ثم قال: فتصبح الأرض مخضرة، فعدل عنه إلى المضارع إرادة لتصوير اخضرارها في النفس. وعليه قوله ابن معديكرب يصور شجاعته وجرأته:

فانى قد لقيت القرن أسعى بسهب كالصحيفة صحصحان

فآخذه فأضربه فيهوى صريعا لليدين وللجران

(4) . قوله «أن تراد الحال الماضية» لعله: أن تراد حكاية الحال. (ع)

له الشاة. وقال صلى اللَّه عليه وسلم عند موته «ما زالت أُكلة خيبر تعادّنى، فهذا أوان قطعت أبهرى» «1» غُلْفٌ جمع أغلف، أى هي خلقة وجبلة مغشاة بأغطية لا يتوصل إليها ما جاء به محمد صلى اللَّه عليه وسلم ولا تفقهه، مستعار من الأغلف الذي لم يختن،

(1) . أخرجه البزار وأبو نعيم في الطب وابن عدى في الكامل . من طريق سعيد بن محمد الوراق عن محمد بن عمرو عن أبى سلمة عن أبى هريرة رضى اللَّه عنه . وسعيد ضعيف ، لكن رواه الحاكم من طريق حماد بن سلمة عن محمد بن عمر بسنده «أن امرأة يهودية أتت النبي صلى اللَّه عليه وسلم بشاة مصلية – فذكر القصة – وفيها : أن هذه الشاة مسمومة ، وأن بشر بن البراء مات منها . فقتلها رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم» . وأخرج هذا القدر أبو داود من رواية خالد الطحان عن محمد بن عمرو عن أبى سلمة مرسلا . ورواه الطبري من حديث بريدة قال «خرجنا إلى خيبر – فذكر القصة . قال : فلما اطمأن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم – يعنى بخيبر – أهدت زينب بنت الحارث إليه شاة – فذكر القصة فيه وقال : يا أم بشر ، ما زالت أكلة خيبر التي أكلت مع ابنك تعادني . فهذا أوان قطعت أبهرى» قلت : من قوله «فلما اطمأن الخ» ليس هو في حديث بريدة ، وإنما هو من كلام الطبري . وهو في مغازي ابن إسحاق بهذا اللفظ الأول . وفيه قال ابن إسحاق : فحدثني مروان بن عثمان عن أبى سعيد بن المعلى «أن النبي صلى اللَّه عليه وسلم قال لأم بشر – وقد دخلت عليه : يا أم بشر إن هذا لأوان وجدت انقطاع أبهرى – الحديث» وكذا أخرجه الطبراني وأبو نعيم في الدلائل من رواية أبى الأسود عن عروة مختصراً . وذكره الواقدي في المغازي مطولا بغير سند . وذكره ابن سعد في الطبقات عنه بأسانيد وفيه : ورفعها إلى ولاة بشر بن البراء فقتلوها . وروى أبو عبيدة والحربي في غريبهما من حديث

أبى جعفر الباقر نحو الأول مرسلا . قال الأصمعى : تعادني من العداد .

وهو الشيء الذي يأتى لوقت دون وقت وذكره البخاري تعليقا من رواية عيينة عن يونس عن الزهري عن عروة عن عائشة رضى اللَّه عنها ووصله البزار والحاكم من هذا الوجه واتفق الشيخان على حديث أنس رضى اللَّه عنه «أن امرأة يهودية أتت النبي صلى اللَّه عليه وسلم بشاة مسمومة» فأكل منها الحديث وفيه : فقال : ما زلت أعرفها في لهوات النبي صلى اللَّه عليه وسلم» وروى أحمد والحاكم من حديث الزهري عن عبد الرحمن بن عبد اللَّه بن كعب بن مالك عن أبيه عن أم بشر قالت «دخلت على رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم في وجعه الذي قبض فيه ، فقلت : ما يتهم نفسك ، فانى لا أتهم بابى إلا الطعام الذي أكله معك بخيبر . قال : وأنا لا أتهم غيرها . فهذا أوان انقطع أبهرى» وأخرج البيهقي في الدلائل هذه القصة عن الزهري وفيها قال الزهري : قال جابر : «واحتجم يومئذ على الكاهل وبقي ثلاث سنين حتى كان وجعه الذي توفى فيه . قال : ما زلت أجد من الأكلة التي أكلت من الشاة يوم خيبر عدادا حتى كان هذا أوان انقطاع الأبهر منى» وأخرج أبو داود من رواية الزهري عن جابر كذلك . وروى الطبراني والدارقطني من رواية يحيى بن عبد الرحمن بن لبيبة عن أبيه عن جده لبيبة الأنصارى رضى اللَّه عنه قال «أهدت يهودية إلى النبي صلى اللَّه عليه وسلم شاة مصلية مسمومة . فأكل منهما هو وبشر ابن البراء بن مصرور . فمرضا مرضا شديداً – فذكر القصة . وفيها : ثم أمر بها فصلبت» وروى

معمر عن الزهري أنه قال : أسلمت . فتركها رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم . قال معمر : هكذا قال . والناس يقولون : أنها لم تسلم وإنها قتلت . قال البيهقي : ثم السهيلي : يجمع بينهما بأنه صفح عنها فلم يقتلها ، لأنه كان لا ينتقم لنفسه . فلما مات بشر من تلك الأكلة قتلها به قصاصاً .

(78/60)

كقولهم : قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه . ثم ردّ اللَّه أن تكون قلوبهم مخلوقة «1» كذلك لأنها خلقت على الفطرة والتمكن من قبول الحق ، بأن اللَّه لعنهم وخذلهم بسبب كفرهم ، فهم الذين غلفوا قلوبهم بما أحدثوا من الكفر الزائغ عن الفطرة وتسببوا بذلك لمنع الألطاف التي تكون للمتوقع إيمانهم وللمؤمنين فَقَلِيلًا ما يُؤْمِنُونَ فإيمانا قليلا يؤمنون . وما مزيدة ، وهو إيمانهم ببعض الكتاب . ويجوز أن تكون القلة بمعنى العدم . وقيل «غلف» تخفيف «غلف» جمع غلاف ، أى قلوبنا أوعية للعلم فنحن مستغنون بما عندنا عن غيره . وروى عن أبى عمرو : قلوبنا غلف ، بضمتين كِتابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هو القرآن مُصَدِّقٌ لِما مَعَهُمْ من كتابهم لا يخالفه . وقرئ : مصدّقا ، على الحال . فإن قلت : كيف جاز نصبها عن النكرة ؟ قلت : إذا وصف النكرة تخصص فصح انتصاب الحال عنه ، وقد وصف

«كتاب» بقوله «من عند اللَّه» وجواب لما محذوف وهو نحو :

كذبوا به ، واستهانوا بمجيئه ، وما أشبه ذلك يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا يستنصرون على المشركين ، إذا قاتلوهم قالوا : اللهم انصرنا بالنبي المبعوث في آخر الزمان الذي نجد نعته وصفته في التوراة ، ويقولون لأعدائهم من المشركين : قد أظل زمان نبىّ يخرج بتصديق ما قلنا فنقتلكم معه قتل عاد وإرم : وقيل معنى (يَسْتَفْتِحُونَ) يفتحون عليهم ويعرفونهم أنّ نبيا يبعث منهم قد قرب أوانه . والسين للمبالغة ، أى يسألون أنفسهم الفتح عليهم ، كالسين في استعجب واستسخر ، أو يسأل بعضهم بعضا أن يفتح عليهم فَلَمَّا جاءَهُمْ ما عَرَفُوا من الحق كَفَرُوا بِهِ بغيا وحسداً وحرصا على الرياسة . عَلَى الْكافِرِينَ أى عليهم وضعا للظاهر موضع المضمر للدلالة على أنّ

---

(1) . قال محمود رحمه اللَّه : «ثم رد اللَّه أن تكون قلوبهم مخلوقة . . . الخ» . قال أحمد رحمه اللَّه : وهذا من نوائب الزمخشري على تنزيل الآيات على عقائدهم الباطلة ، وأنى له ذلك في الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . ألا تراه كيف أخذ من رد اللَّه على هذه الطائفة أن تكون قلوبهم مخلوقة على الكفر ، أن الكفر والامتناع من قبول الحق هم خلقوه لأنفسهم ، تمهيداً لقاعدته الفاسدة في خلق الأعمال . وسبيل الرد عليه : أن اللَّه تعالى إنما كذبهم ورد عليهم في ادعائهم عدم الاستطاعة للايمان وسلب التمكن وعللوا ذلك بأن قلوبهم غلف وصدق اللَّه ورسوله في أنه إنما خلقهم على الفطرة والتمكن

من الايمان والتأتى والتيسر له . وإنما هم اختاروا الكفر على الايمان فوقع اختيارهم الكفر مقارنا لخلق اللَّه تعالى إياه في قلوبهم بعد ما أنشأهم على الفطرة ، بقيام حجة اللَّه تعالى عليهم : بأنه خلقهم متمكنين من الايمان غير مقسورين على الكفر ، وذلك لا ينافي توجيه أهل السنة في اعتقاد أن اللَّه تعالى خالق ذلك في قلوبهم على وفق اختيارهم . هذا هو الحق الأبلج والصراط الأبهج واللَّه الموفق . وقول الزمخشري : إن كفرهم إنما خلقوه لأنفسهم بسبب منع ألطاف اللَّه تعالى التي تسبب المؤمنون في حصولها لهم وكانت سبباً في خلقهم الايمان في قلوبهم : كل هذا تستر من الاشراك واعتقاد آلهة غير اللَّه تخلق لنفسها ما شاءت من إيمان وكفر تعالى اللَّه عما يشركون علواً كبيرا - .

اللعنة لحقتهم لكفرهم . واللام للعهد . ويجوز أن تكون للجنس ويدخلوا فيه دخولا أوّليا .

[سورة البقرة (2) : الآيات 90 إلى 91]

بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِما أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْياً أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ فَباؤُ بِغَضَبٍ عَلى غَضَبٍ وَلِلْكافِرِينَ عَذابٌ مُهِينٌ (90) وَإِذا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِما أَنْزَلَ اللَّهُ قالُوا نُؤْمِنُ بِما أُنْزِلَ عَلَيْنا وَيَكْفُرُونَ بِما وَراءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِما مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ

تَقْتُلُونَ أَنْبِياءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (91)

بِئْسَمَا نكرة منصوبة مفسرة لفاعل بئس بمعنى بئس شيئًا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ والمخصوص بالذم أَنْ يَكْفُرُوا واشتروا بمعنى باعوا بَغْياً حسداً وطلبا لما ليس لهم، وهو علة اشتروا أَنْ يُنَزِّلَ لأن ينزل أو على أن ينزل، أى حسدوه على أن ينزّل اللَّه مِنْ فَضْلِهِ الذي هو الوحى عَلى مَنْ يَشاءُ وتقتضي حكمته إرساله فَباؤُ بِغَضَبٍ عَلى غَضَبٍ فصاروا أحقاء بغضب مترادف، لأنهم كفروا بنبىّ الحق وبغوا عليه. وقيل كفروا بمحمد بعد عيسى. وقيل بعد قولهم: عزيز ابن اللَّه، وقولهم: يد اللَّه مغلولة، وغير ذلك من أنواع كفرهم بِما أَنْزَلَ اللَّهُ مطلق فيما أنزل اللَّه من كل كتاب قالُوا نُؤْمِنُ بِما أُنْزِلَ عَلَيْنا مقيد بالتوراة وَيَكْفُرُونَ بِما وَراءَهُ أى قالوا ذلك والحال أنهم يكفرون بما وراء التوراة وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِما مَعَهُمْ منها غير مخالف له، وفيه ردّ لمقالتهم لأنهم إذا كفروا بما يوافق التوراة فقد كفروا بها «1» ثم اعترض عليهم بقتلهم الأنبياء مع ادّعائهم الإيمان بالتوراة والتوراة لا تسوّغ قتل الأنبياء. انتهى انتهى. اهـ ﴿الكشاف حـ 1 صـ 161. 165﴾

---

(1). قال محمود رحمه اللَّه: «أنهم إذا كفروا بما يوافق التوراة... الخ». قال أحمد رحمه اللَّه: وهذه النكتة بعينها هي الموجب لكفر القدرية على أحد قولي مالك والشافعي والقاضي رضى اللَّه عنهم، فان العقائد الصحيحة السنية متلازمة متوافقه يصدق بعضها بعضاً، فجحد أحدها كفر به ثم كفر بالجميع، نسأل اللَّه تعالى العصمة.

قوله تعالى ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (93) ﴾

" فصل "

قال البقاعى :

ثم ذكر أمراً آخر هو أبين في عنادهم وأنهم إنما هم مع الهوى فقال مقبلاً على خطابهم لأنه أشد في التقريع (وإذ أخذنا) وأظهره في مظهر العظمة تصويراً لمزيد جرأتهم (ميثاقكم) على الإيمان والطاعة (ورفعنا فوقكم الطور) الجبل العظيم الذي جعلناه زاجراً لكم عن الرضى بالإقامة في حضيض الجهل ورافعاً إلى أوج العلم وقلنا لكم وهو فوقكم (خذوا ما آتيناكم) من الأصول والفروع في هذا الكتاب العظيم (بقوة) .

ولما كانت فائدة السماع القبول ومن سمع فلم يقبل كان كمن لم يسمع قال (واسمعوا) وإلا دفناكم به ، وذلك حيث يكفي غيركم في التأديب رفع الدرة والسوط عليه فينبعث للتعلم الذي أكثر النفوس الفاضلة تتحمل فيه المشاق الشديدة لما له من الشرف ولها به من الفخار

؛ ولما ضلوا بعد هذه الآية الكبرى وشيكاً مع كونها مقتضية للثبات على الإيمان بعد أخذ الميثاق الذي لا ينقضه ذو مروءة فكان ضلالهم بعده منبئاً عن أن العناد لهم طبع لازم فكانوا كأنهم عند إعطاء العهد عاصون قال مترجماً عن أغلب أحوال أكثرهم في مجموع أزمانهم وهو ما عبر عنه في الآية السالفة بقوله :

(ثم توليتم) [البقرة : 83] مؤذناً بالغضب عليهم بالإعراض عن خطابهم بعد إفحامهم بالمواجهة في تقريعهم حيث ناقضوا ما قال لهم من السماع النافع لهم فأخبروا أنهم جعلوه ضاراً (قالوا سمعنا) أي بآذاننا (وعصينا) أي وعملنا بضد ما سمعنا ؛ وساقه لغرابته مساق جواب سائل كأنه قال : رفع الطور فوقهم أمر هائل جداً مقتض للمبادرة إلى إعطاء العهد ظاهراً وباطناً والثبات عليه فما فعلوا ؟ فقيل : بادروا إلى خلاف ذلك (وأشربوا) فأعظم الأمر بإسناد الفعل إليهم ثم إلى قلوبهم ، وهو من الإشراب وهو مداخلة نافذة سائغة كالشراب وهو الماء المداخل كلية الجسم للطافته ونفوذه – قاله الحرالي :

وقال الكشاف : وخلط لون بلون (في قلوبهم العجل) أي حبه وحذفه للإيذان بشدة التمكن بحيث صار المضاف هو المضاف إليه (بكفرهم) وفيه إشارة إلى أن من أعرض عن امتثال الأمر استحق الإبعاد عن مقام الأنس .

قال الإمام أبو الحسن الحرالي في المفتاح الباب الثامن في وجوه بيان الإقبال والإعراض في القرآن :

اعلم أن كل مربوب يخاطب بحسب ما في وسعه لقنه وينفى عنه ما ليس في وسعه لقنه فلكل سن من أسنان القلوب خطاب إقبال بحسب لقنه ، وربما كان له إباء عن بعض ذلك فيقع عنه الإعراض بحسب بادي ذلك الإباء ، وربما تلافته النعمة فعاد الإقبال إليه بوجه ما دون صفاء الإقبال الأول ، وربما تناسقت الإقبالات مترتبة فيعلو البيان والإفهام بحسب رتبة من توجه إليه الإقبال ، ويشتد الإدبار بحسب بادي الإدبار ، وربما تراجع لفف البيان فيها بعضها على بعض ، فخطاب الإقبال على النبي (صلى الله عليه وسلم) أعظم إفهام في القرآن .

﴿ ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ﴾ [الفرقان : 45] الآية ﴿ وهو الذي جعل لكم الليل لباساً ﴾ [الفرقان : 47] الآية : تفاوت الخطابين بحسب تفاوت المخاطبين ، ﴿ أو لم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما ﴾ [الأنبياء : 30] أعرض عنهما الخطاب ونفى عنهم ما ليس في حالهم رؤيته .

﴿ خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا قالوا سمعنا وعصينا وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم قل بئسما يأمركم به إيمانكم ﴾ خاطبهم وأمرهم ، فلما عصوا أعرض وجه الخطاب عنهم

ثم تلافاهم بخطاب لسان نبي الرحمة لهم ، واستمر إعراضه هو تعالى عنهم في تمادي الخطاب ﴿ يا أيها النبي إذا طلقتم النساء ﴾ [الطلاق : 1] تنزل الخطاب في الرتبتين ليبين للأعلى ما يبينه للأدنى ﴿ ذلك خير لكم وأطهر ﴾ [المجادلة : 12] وهذا الباب عظيم النفع في الفهم لمن استوضح بيانه والتفاف موارده في القرآن – انتهى .

(82/60)

والدليل الوجودي على إشرابهم حب العجل مسارعتهم إلى عبادة ما يشبهه في عدم الضر والنفع والصورة ، ففي السفر الرابع من التوراة في قصة بالاق ملك الأمورانيين الذي استنجد بلعام بن بعور ما نصه : وسكن بنو إسرائيل ساطيم وبدأ الشعب أن يسفح ببنات مواب ودعين الشعب إلى ذبائح آلهتهم وأكل الشعب من ذبائحهم وسجدوا لآلهتهم وكمل بنو إسرائيل العبادة بعليون الصنم واشتد غضب الله على بني إسرائيل – انتهى .

ولما بين سبحانه عظيم كفرهم وعنادهم مع وقاحتهم بادعاء الإيمان والاختصاص بالجنان أمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم على وجه التهكم بهم مؤكداً لذمهم بالتعبير بما وضع لجامع الذم فقال ﴿ قل بئسما ﴾ أي بئس شيئاً الشيء الذي ﴿ يأمركم به ﴾ من الكفر ﴿ إيمانكم ﴾ هذا الذي ادعيتموه ؛ وأوضح هذا التهكم بقوله على سبيل الفرض

والتشكيك ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ على ما زعمتم ، فحصل من هذا أنهم إما كاذبون في دعواهم ، وإما أنهم أجهل الجهلة حيث عملوا ما لا يجامعه الإيمان وهم لا يعلمون . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 198 . 200 ﴾

(83/60)

اللغة :

[ميثاقكم] الميثاق : العهد المؤكد بيمين

[الطور] هو الجبل الذى كلم الله عليه موسى عليه السلام

[بقوة] بعزم وجد

[أشربوا] أشرب : سقي أي جعلت قلوبهم تشربه ، يقال : أشرب قلبه حب كذا ، قال زهير :

فصحوت عنها بعد حب داخل والحب تشربه فؤادك داء

[خالصة] مصدر كالعافية والعاقبة بمعنى الخلوص ، أي خاصة بكم لا يشارككم فيها أحد

[أحرص] الحرص : شدة الرغبة في الشيء وفي الحديث " احرص على ما ينفعك "

[بمزحزحه] الزحزحة : الإبعاد والتنحية قال تعالى : [فمن زحزح عن النار] أي أبعد ، وقال الشاعر : خليلي ما بال الدجى لا يزحزح وما بال ضوء الصبح لا يتوضح ؟ أهـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 1 صـ 79 ﴾

(84/60)

فائدة

قال الفخر :

اعلم أن في الإعادة وجوهاً :

أحدها : أن التكرار في هذا وأمثاله للتأكيد وإيجاب الحجة على الخصم على عادة العرب ، وثانيها : أنه إنما ذكر ذلك مع زيادة وهي قولهم : ﴿ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾ وذلك يدل على نهاية لجاجهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 171 ﴾

قال الآلوسى :

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا ميثاقكم وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطور خُذُواْ مَا ءاتيناكم بِقُوَّةٍ ﴾ أي قلنا لهم خذوا ما أمرتكم به في التوراة بجد وعدم فتور ﴿ واسمعوا ﴾ أي سماع تقبل وطاعة إذ لا فائدة في الأمر بالمطلق بعد الأمر بالأخذ بقوة بخلافه على تقدير التقييد فإنه يؤكده ويقرره

لاقتضائه كمال إبائهم عن قبول ما آتاهم إياه ولذا رفع الجبل عليهم ، وكثيراً ما يراد من السماع القبول ومن ذلك سمع الله لمن حمده وقوله :

دعوت الله حتى خفت أن لا . . .

يكون الله (يسمع) ما أقول . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 325 ﴾

فائدة

قال الفخر :

إن إظلال الجبل لاشك أنه من أعظم المخوفات ومع ذلك فقد أصروا على كفرهم وصرحوا بقولهم ﴿ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾ وهذا يدل على أن التخويف وإن عظم لا يوجب الانقياد .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 171 ﴾

قوله تعالى ﴿ قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾

فصل

قال الفخر :

الأكثرون من المفسرين اعترفوا بأنهم قالوا هذا القول ، قال أبو مسلم : وجائز أن يكون المعنى سمعوه فتلقوه بالعصيان فعبر عن ذلك بالقول وإن لم يقولوه كقوله تعالى : ﴿ أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [البقرة : 177] وكقوله : ﴿ قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ [فصلت : 11]

والأول أولى لأن صرف الكلام عن ظاهره بغير الدليل لا يجوز . انتهى انتهى . ا هـ ﴾ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 171 ﴿

(85/60)

وقال الآلوسى :

﴿ قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾ أي سمعنا قولك : (خذوا واسمعوا) وعصينا أمرك فلا نأخذ ولا نسمع سماع الطاعة ، وليس هذا جواباً ل (اسمعوا) باعتبار تضمنه أمرين لأنه يبقى (خذوا) بلا جواب ، وذهب الجم إلى ذلك وأوردوا هنا سؤالاً وجواباً ، حاصل الأول أن السماع في الأمر إن كان على ظاهره فقولهم سمعنا طاعة وعصينا مناقض وإن كان القبول فإن كان في الجواب كذلك كذب وتناقض وإلا لم يكن له تعلق بالسؤال ، وزبدة الجواب أن السماع هناك مقيد والأمر مشتمل على أمرين سماع قوله وقبوله بالعمل فقالوا : نمتثل أحدهما دون الآخر ، ومرجعه إلى القول بالموجب ، ونظيره ﴿ يَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ ﴾ [التوبة : 61] وقيل : المعنى قالوا بلسان القال سمعنا وبلسان الحال عصينا ، أو سمعنا أحكاماً قبل وعصينا فنخاف أن نعصي بعد سماع قولك هذا ، وقيل : (سمعنا) جواب (اسمعوا) و(عصينا) جواب (خذوا) وقال أبو منصور : إن قولهم (عصينا)

ليس على أثر قولهم : (سمعنا) بل بعد زمان كما في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ ﴾ [البقرة : 64] فلا حاجة إلى الدفع بما ذكر ، وأنت تعلم أنه لا حاجة إلى جميع ذلك بعد ما سمعت كما لا يخفى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 325. 326 ﴾

(86/60)

فائدة

قال ابن عاشور :

قوله : ﴿ واسمعوا ﴾ مراد به الامتثال فهو كناية كما تقول فلان لا يسمع كلامي أي لا يمتثل أمري إذ ليس الأمر هنا بالسماع بمعنى الإصغاء إلى التوراة فإن قوله : ﴿ خذوا ما آتيناكم بقوة ﴾ يتضمنه ابتداء لأن المراد من الأخذ بالقوة الاهتمام به وأول الاهتمام بالكلام هو سماعه والظاهر أن قوله : ﴿ خذوا ما آتيناكم بقوة ﴾ لا يشمل الامتثال فيكون قوله : ﴿ واسمعوا ﴾ دالاً على معنى جديد وليس تأكيداً ، ولك أن تجعله تأكيداً لمدلول ﴿ خذوا ما آتيناكم بقوة ﴾ بأن يكون الأخذ بقوة شاملاً لنية الامتثال وتكون نكتة التأكيد حينئذ هي الإشعار بأنهم مظنة الإهمال والإخلال حتى أكد عليهم ذلك قبل تبين عدم امتثالهم فيما يأتي ففي هذه الآية زيادة بيان لقوله في الآية الأولى : ﴿ واذكروا ما فيه ﴾ [البقرة :

. [63

واعلم أن من دلائل النبوة والمعجزات العلمية إشارات القرآن إلى العبارات التى نطق بها موسى في بني إسرائيل وكتبت في التوراة فإن الأمر بالسماع تكرر في مواضع مخاطباتِ موسى لملإ بني إسرائيل بقوله : اسمع يا إسرائيل ، فهذا من نكت اختيار هذا اللفظ للدلالة على الامتثال دون غيره مما هو أوضح منه وهذا مثل ما ذكرنا في التعبير بالعهد .

(87/60)

وقوله : ﴿ قالوا سمعنا وعصينا ﴾ يحتمل أنهم قالوه في وقت واحد جواباً لقوله : ﴿ واسمعوا ﴾ وإنما أجابوه بأمرين لأن قوله : ﴿ اسمعوا ﴾ تضمن معنيين معنى صريحاً ومعنى كنائياً فأجابوا بامتثال الأمر الصريح وأما الأمر الكنائي فقد رفضوه وذلك يتضمن جواب قوله : ﴿ خذوا ما آتيناكم بقوة ﴾ أيضا لأنه يتضمن ما تضمنه ﴿ واسمعوا ﴾ وفي هذا الوجه بعد ظاهر إذ لم يعهد منهم أنهم شافهوا نبيهم بالعزم على المعصية وقيل : إن قوله : ﴿ سمعنا ﴾ جواب لقوله : ﴿ خذوا ما آتيناكم ﴾ أي سمعنا هذا الكلام ، وقوله : ﴿ وعصينا ﴾ جواب لقوله : ﴿ واسمعوا ﴾ لأنه بمعنى امتثلوا ليكون كل كلام قد أجيب عنه ويبعده أن الإتيان في جوابهم بكلمة ﴿ سمعنا ﴾ مشير إلى كونه جواباً لقوله :

﴿ اسمعوا ﴾ لأن شأن الجواب أن يشتمل على عبارة الكلام المجاب به وقوله : ليكون كل كلام قد أجيب عنه قد علمت أن جعل ﴿ سمعنا وعصينا ﴾ جواباً لقوله : ﴿ واسمعوا ﴾ يغني عن تطلب جواب لقوله : ﴿ خذوا ﴾ ففيه إيجاز ، فالوجه في معنى هذه الآية هو ما نقله الفخر عن أبي مسلم أن قولهم : ﴿ عصينا ﴾ كان بلسان الحال يعني فيكون ﴿ قالوا ﴾ مستعملاً في حقيقته ومجازه أي قالوا : سمعنا وعصوا فكأن لسانهم يقول عصينا . : ويحتمل أن قولهم ﴿ عصينا ﴾ وقع في زمن متأخر عن وقت نزول التوراة بأن قالوا عصينا في حثهم على بعض الأوامر مثل قولهم لموسى حين قال لهم : ادخلوا القرية ﴿ لن ندخلها أبداً ﴾ [المائدة : 24] وهذان الوجهان أقرب من الوجه الأول .

وفي هذا بيان لقوله في الآية الأولى : ﴿ ثم توليتم من بعد ذلك ﴾ [البقرة : 64] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 1 صـ 592. 593 ﴾

(88/60)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ واسمعوا ﴾ .

قال بعض العلماء : هو من السمع بمعنى الإجابة ، ومنه قولهم سمعاً وطاعة أي : إجابة وطاعة ، ومنه : سمع الله لمن حمده في الصلاة أي : أجاب دعاء من حمده ، ويشهد لهذا المعنى قوله : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ المؤمنين إِذَا دعوا إِلَى الله وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ [النور : 51] ، وهذا قول الجمهور ، وقيل : إن المراد بقوله : ﴿ واسمعوا ﴾ أي : بآذانكم ، ولا تمتنعوا من أصل الاستماع .

ويدل لهذا الوجه : أن بعض الكفار ربما امتنع من أصل الاستماع خوف أن يسمع كلام الأنبياء ، كما في قوله تعالى عن نوح مع قومه : ﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جعلوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ واستغشوا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ واستكبروا استكبارا ﴾ [نوح : 7] .

وقوله عن قوم نبينا صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لاَ تَسْمَعُواْ لهذا القرآن والغوا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ [فصلت : 26] ، وقوله : ﴿ وَإِذَا تتلى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الذين كَفَرُواْ المنكر يَكَادُونَ يَسْطُونَ بالذين يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَ ﴾ [الحج : 72] ، وقوله : ﴿ قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾ . لأن السمع الذي لا ينافي العصيان هو السمع بالآذان دون السمع بمعنى الإجابة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 1 صـ 41.40 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَأُشْرِبُواْ فِى قُلُوبِهِمُ العجل ﴾

فصل

قال الفخر :

وأشربوا في قلوبهم حب العجل ، وفي وجه هذا الاستعارة وجهان :

الأول : معناه تداخلهم حبه والحرص على عبادته كما يتداخل الصبغ الثوب ، وقوله : ﴿ فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ بيان لمكان الإشراف كقوله : ﴿ وَإِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَاراً ﴾ [النساء : 10] .

الثاني : كما أن الشرب مادة لحياة ما تخرجه الأرض فكذا تلك المحبة كانت مادة لجميع ما صدر عنهم من الأفعال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 171 ﴾

قال الآلوسى :

﴿ وَأُشْرِبُواْ فِى قُلُوبِهِمُ العجل ﴾ عطف على ﴿ قَالُواْ ﴾ أو مستأنف أو حال بتقدير قد أو بدونه .

والعامل (قالوا) والإشراب مخالطة المائع الجامد ، وتوسع فيه حتى صار في اللونين ، ومنه بياض مشرب بحمرة ، والكلام على حذف مضاف أي حب العجل ، وجوز أن يكون العجل مجازاً عن صورته فلا يحتاج إلى الحذف ، وذكر القلوب لبيان مكان الإشراب ، وذكر

المحل المتعين يفيد مبالغة في الإثبات ؛ والمعنى داخلهم حب العجل ورسخ في قلوبهم صورته لفرط شغفهم به كما داخل الصبغ الثوب وأنشدوا :

إذا ما القلب (أشرب) حب شيء . . .

فلا تأمل له عنه انصرافاً

وقيل : أشربوا من أشربت البعير إذا شددت في عنقه حبلاً كأن العجل شد في قلوبهم لشغفهم به ؛ وقيل : من الشراب ومن عادتهم أنهم إذا عبروا عن مخامرة حب أو بغض استعاروا له اسم الشراب إذ هو أبلغ منساغ في البدن ، ولذا قال الأطباء : الماء مطية الأغذية والأدوية ومركبها الذي تسافر به إلى أقطار البدن ، وقال الشاعر :

تغلغل حيث لم يبلغ (شراب) . . .

ولا حزن ولم يبلغ سرور

وقيل : من الشرب حقيقة ، وذلك أن السدي نقل أن موسى عليه السلام برد العجل بالمبرد ورماه في الماء وقال لهم : اشربوا فشربوا جميعهم فمن كان يحب العجل خرجت برادته على شفتيه ، ولا يخفى أن قوله تعالى : ﴿ فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ يبعد هذا القول جداً على أن ما قص الله تعالى لنا في كتابه عما فعل موسى عليه السلام بالعجل يبعد ظاهر هذه الرواية أيضاً ، وبناء أشربوا للمفعول يدل على أن ذلك فعل بهم ولا فاعل سواه تعالى .

وقالت المعتزلة : هو على حد قول القائل أنسيت كذا ولم يرد أن غيره فعل ذلك به وإنما المراد نسيت وأن الفاعل من زين ذلك عندهم ودعاهم إليه كالسامري .

(90/60)

﴿ بِكُفْرِهِمْ ﴾ أي بسبب كفرهم لأنهم كانوا مجسمة يجوزون أن يكون جسم من الأجسام إلهاً أو حلولية يجوزون حلوله فيه تعالى عن ذلك علواً كبيراً ، ولم يروا جسماً أعجب منه فتمكن في قلوبهم ما سول لهم ، وثعبان العصا كان لا يبقى زماناً ممتداً ولا يبعد من أولئك أن يعتقدوا عجلاً صنعوه على هيئة البهائم إلهاً وإن شاهدوا ما شاهدوا من موسى عليه السلام لما ترى من عبدة الأصنام الذين كان أكثرهم أعقل من كثير من بني إسرائيل ، وقيل : الباء بمعنى مع أي مصحوباً بكفرهم فيكون ذلك كفراً على كفر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 326 ﴾

فائدة

قال القرطبى :

وإنما عبرّ عن حُبّ العجل بالشُّرب دون الأكل لأن شرب الماء يتغلغل في الأعضاء حتى يصل إلى باطنها ، والطعام مجاور لها غير متغلغل فيها .

وقد زاد على هذا المعنى أحد التابعين فقال في زوجته عَثْمَة ، وكان عَتَب عليها في بعض الأمر فطلّقها وكان مُحِباً لها :

تغلغل حُبُّ عَثْمَةَ في فؤادي . . .

فباديه مع الخافي يسير

تغلغل حيث لم يبلغ شراب . . .

ولا حزن ولم يبلغ سرور

أكاد إذا ذكرتُ العهد منها . . .

أطير لوَ أن إنساناً يطير

وقال السُّدّي وابن جُرَيج : إن موسى عليه السلام بَرَد العجل وذرّاه في الماء ، وقال لبني إسرائيل : اشربوا من ذلك الماء ؛ فشرب جميعهم ، فمن كان يحبّ العجل خرجت بُرادة الذهب على شَفَتَيْه .

ورُوِيَ أنه ما شربه أحد إلا جُنّ ؛ حكاه القُشيري .

قلت : أمّا تذريتُه في البحر فقد دلّ عليه قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴾ [طه : 97] وأمّا شُرْبُ الماء وظهور البُرادة على الشِّفاه فيردّه قوله تعالى : ﴿ وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ ﴾ . والله تعالى أعلم . انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 2 صـ 32 ﴾

وقال ابن عطية :

وقوله تعالى : ﴿ وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم ﴾ التقدير حب العجل ، والمعنى جعلت قلوبهم تشربه ، وهذا تشبيه ومجاز ، عبارة عن تمكن أمر العجل في قلوبهم ، وقال قوم : إن معنى قوله ﴿ وأشربوا في قلوبهم العجل ﴾ شربهم الماء الذي ألقى فيه موسى برادة العجل ، وذلك أنه برده بالمبرد ورماه في الماء ، وقيل لبني إسرائيل : اشربوا من ذلك الماء فشرب جميعهم ، فمن كان يحب العجل خرجت برادة الذهب على شفتيه .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله : وهذا قول يرده قوله تعالى : ﴿ في قلوبهم ﴾ ، وروي أن الذين تبين فيهم حب العجل أصابهم من ذلك الماء الجبن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 1 صـ 180 ﴾

فصل

قال الفخر :

قوله : ﴿ وأشربوا ﴾ يدل على أن فاعلاً غيرهم فعل بهم ذلك ، ومعلوم أنه لا يقدر عليه سوى الله ، أجابت المعتزلة عنه من وجهين : الأول : ما أراد الله أن غيرهم فعل بهم ذلك

لكنهم لفرط ولوعهم وإلفهم بعبادته أشربوا قلوبهم حبه فذكر ذلك على ما لم يسم فاعله كما يقال فلان : معجب بنفسه ،

الثاني : أن المراد من أَشْرب أي زَيَّنه عندهم ودعاهم إليه كالسامري وإبليس وشياطين الإنس والجن .

أجاب الأصحاب عن الوجهين بأن كلا الوجهين صرف اللفظ عن ظاهره وذلك لا يجوز المصير إليه إلا لدليل منفصل ، ولما أقمنا الدلائل العقلية القطعية على أن محدث كل الأشياء هو الله لم يكن بنا حاجة إلى ترك هذا الظاهر .

أما قوله تعالى : ﴿ بِكُفْرِهِمْ ﴾ فالمراد باعتقادهم التشبيه على الله وتجويزهم العبادة لغيره سبحانه وتعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 171 ﴾

وقال ابن عاشور :

وإنما جعل حبهم العجل إشراباً لهم للإشارة إلى أنه بلغ حبهم العجل مبلغ الأمر الذي لا اختيار لهم فيه كأن غيرهم أشربهم إياه كقولهم أُولِع بكذا وشُغِف .

والعجلَ مفعول ﴿ أشربوا ﴾ على حذف مضاف مشهور في أمثاله من تعليق الأحكام وإسنادها إلى الذوات مثل

﴿ حُرِّمت عليكم الميتة ﴾ [المائدة : 3] أي أكل لحمها .

وإنما شغفوا به استحساناً واعتقاداً أنه إلههم وأن فيه نفعهم لأنهم لما رأوه من ذهب قدسوه من فرط حبهم الذهب .

وقد قوي ذلك الإعجاب به بفرط اعتقادهم ألوهيته ولذلك قال تعالى : ﴿ بكفرهم ﴾ فإن الاعتقاد يزيد المعتقد توغلاً في حب معتقده .

وإسناد الإشراب إلى ضمير ذواتهم ثم توضيحه بقوله : ﴿ في قلوبهم ﴾ مبالغة وذلك مثل ما يقع في بدل البعض والاشتمال وما يقع في تمييز النسبة .

وقريب منه قوله تعالى : ﴿ إنما يأكلون في بطونهم ناراً ﴾ [النساء : 10] وليس هو مثل ما هنا لأن الأكل متمحض لكونه منحصراً في البطن بخلاف الإشراب فلا اختصاص له بالقلوب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 1 صـ 593.594 ﴾

قوله تعالى ﴿ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمانكم ﴾

فائدة

قال الفخر :

المراد بئسما يأمركم به إيمانكم بالتوراة لأنه ليس في التوراة عبادة العجل وإضافة الأمر إلى إيمانهم تهكم كما قال في قصة شعيب : ﴿ أَصلاتُكَ تَأْمُرُكَ ﴾ [هود : 87] وكذلك إضافة الإيمان إليهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 171 ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمانكم ﴾ أي بما أنزل عليكم من التوراة حسبما تدعون ، وإسناد الأمر إلى الإيمان وإضافته إلى ضميرهم للتهكم كما في قوله تعالى : ﴿ أصلواتك تَأْمُرُكَ ﴾ [هود : 87] والمخصوص بالذم محذوف أي قتل الأنبياء وكذا وكذا ، وجوّز أن يكون المخصوص مخصوصاً بقولهم : عصينا أمرك ، وأراه على القرب بعيداً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 326 ﴾

فائدة

قال الفخر :

الإيمان عرض ولا يصح منه الأمر والنهي لكن الداعي إلى الفعل قد يشبه بالآمر كقوله تعالى : ﴿ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾ [العنكبوت : 45] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 171 ﴾

قوله تعالى ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

قال الفخر :

المراد التشكيك في إيمانهم والقدح في صحة دعواهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 171 ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ قدح في دعواهم الإيمان بالتوراة وإبطال لها ، وجواب الشرط ما فهم من قوله تعالى : ﴿ فَلِمَ تَقْتُلُونَ ﴾ [البقرة : 91] إلى آخر الآيات المذكورة في ردّ دعواهم الإيمان ، أو الجملة الإنشائية السابقة إما بتأويل أو بلا تأويل وتقرير ذلك : إن كنتم مؤمنين ما رخص لكم إيمانكم بالقبائح التي فعلكم ، بل منع عنها فتناقضتم في دعواكم له فتكون باطلاً ، أو : إن كنتم مؤمنين بها فبئسما أمركم به إيمانكم بها أو فقد أمركم إيمانكم بالباطل ، لكن الإيمان بها لا يأمر به فإذن لستم بمؤمنين ، والملازمة بين الشرط والجزاء على الأول : بالنظر إلى نفس الأمر ، وإبطال الدعوى بلزوم التناقض وعلى الثاني : تكون الملازمة بالنظر إلى حالهم من تعاطي القبائح مع ادعائهم الإيمان ، والمؤمن من شأنه أن لا يتعاطى إلا ما يرخصه إيمانه ، وإبطال التالي بالنظر إلى نفس الأمر ، واستظهر بعضهم في هذا ونظائره كون الجزاء معرفة السابق أي : إن كنتم مؤمنين تعرفون أنه بئس المأمور به ، وقيل : (إن) نافية ، وقيل : للتشكيك وإليه يشير كلام " الكشاف " وفيه أن المقصد إبطال دعوتهم بإبراز إيمانهم القطعي العدم منزلة ما لا قطع بعدمه للتبكيت والإلزام لا للتشكيك على أنه لم يعهد استعمال (إن) لتشكيك السامع كما نص عليه بعض المحققين وقرأ الحسن ومسلم بن

جندب بهو إيمانكم بضم الهاء ووصلها بواو . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 327.326 ﴾

(94/60)

وقال ابن عاشور :

وقوله : ﴿ قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين ﴾ تذييل واعتراض ناشىء عن قولهم ﴿ سمعنا وعَصَيْنا ﴾ هو خلاصة لإبطال قولهم : ﴿ نؤمن بما أنزل علينا ﴾ [البقرة : 91] بعد أن أبطل ذلك بشواهد التاريخ وهي قوله : ﴿ قل فلم تقتلون أنبيَاء الله ﴾ [البقرة : 91] وقوله : ﴿ ولقد جاءكم موسى بالبينات ﴾ وقوله : ﴿ قالوا سمعنا وعصينا ﴾ ولذلك فصَله عن قوله : ﴿ قل فلم تقتلون أنبيَاء الله ﴾ لأنه يجري من الأول مجرى التقرير والبيان لحاصله ، والمعنى قل لهم إن كنتم مؤمنين بما أنزل عليكم كما زعمتم يعني التوراة فبئسما أمركم به هذا الإيمان إذ فعلتم ما فعلتم من الشنائع من قتل الأنبياء ومن الإشراك بالله في حين قيام التوراة فيكم فكيف وأنتم اليوم لا تعرفون من الشريعة إلا قليلاً ، وخاصة إذا كان هذا الإيمان بزعمهم يصدهم عن الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم فالجملة الشرطية كلها مقول ﴿ قل ﴾ والأمر هنا مستعمل مجازاً في التسبب .

وإنما جعل هذا مما أمرهم به إيمانهم مع أنهم لم يدعوا ذلك لأنهم لما فعلوه وهم يزعمون أنهم متصلبون في التمسك بما أنزل إليهم حتى أنهم لا يخالفونه قيد فتر ولا يستمعون لكتاب جاء من بعده فلا شك أن لسان حالهم ينادي بأنهم لا يفعلون فعلاً إلا وهو مأذون فيه من كتابهم ، هذا وجه الملازمة وأما كون هذه الأفعال مذمومة شنيعة فذلك معلوم بالبداهة فأنتج ذلك أن إيمانهم بالتوراة يأمرهم بارتكاب الفظائع وهذا ظاهر الكلام والمقصود منه القدح في دعواهم الإيمان بالتوراة وإبطال ذلك بطريق يستنزل طائرهم ويرمي بهم في مهواة الاستسلام للحجة فأظهر إيمانهم المقطوع بعدمه في مظهر الممكن المفروض ليتوصل من ذلك إلى تبكيتهم وإفحامهم نحو : ﴿ قل إن كان للرحمن من ولد فأنا أول العابدين ﴾ [الزخرف : 81] ولهذا أضيف الإيمان إلى ضميرهم لإظهار أن الإيمان المذموم هو إيمانهم أي الذي دخله التحريف والاضطراب لما هو معلوم من أن الإيمان بالكتب والرسل إنما هو لصلاح الناس والخروج بهم من الظلمات إلى النور فلا جرم أن يكون مرتكبو هاته الشنائع ليسوا من الإيمان بالكتاب الذي فيه هدى ونور في شيء فبطل بذلك كونهم ﴿ مؤمنين ﴾ وهو المقصود فقوله : ﴿ بئسما يأمركم ﴾ جواب الشرط مقدم عليه أو ﴿ قل ﴾ دليل

الجواب ولأجل هذا جيء في هذا الشرط بإن التي من شأن شرطها أن يكون مشكوك الحصول وينتقل من الشك في حصوله إلى كونه مفروضاً كما يفرض المحال وهو المراد هنا ؛ لأن المتكلم عالم بانتفاء الشرط ولأن المخاطبين يعتقدون وقوع الشرط فكان مقتضى ظاهر حال المتكلم أن لا يؤتى بالشرط المتضمن لكونهم ﴿ مؤمنين ﴾ إلا منفياً ومقتضى ظاهر حال المخاطب أن لا يؤتى به إلا مع إذا ولكن المتكلم مع علمه بانتفاء الشرط فرضه كما يفرض المحال استنزالاً لطائرهم .

(96/60)

وفي الإتيان بإن إشعار بهذا الفرض حتى يقعوا في الشك في حالهم وينتقلوا من الشك إلى اليقين بأنهم غير مؤمنين حين مجيء الجواب وهو ﴿ بئسما يأمركم ﴾ وإلى هذا أشار صاحب " الكشاف" كما قاله التفتازاني وهو لا ينافي كون القصد التبكيت لأنها معان متعاقبة يفضي بعضها إلى بعض فمن الفرض يتولد التشكيك ومن التشكيك يظهر التبكيت .

ولا معنى لجعل ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ ابتداء كلام وجوابه محذوفاً تقديره فإيمانكم لا يأمركم بقتل الأنبياء وعبادة العجل إلخ لأنه قطع لأواصر الكلام وتقدير بلا داع مع أن قوله :

﴿ قل بئسما يأمركم به إيمانكم ﴾ إلخ يتطلبه مزيد تطلب ونظائره في آيات القرآن كثيرة.

على أن معنى ذلك التقدير لا يلاقي الكلام المتقدم المثبت أن إيمانهم أمَرهم بهذا المذام

فكيف ينفي بَعْد ذلك أن يكون إميانهم يأمرهم ؟

و﴿ بئسما ﴾ هنا نظير بئسما المتقدم في قوله : ﴿ بئسما اشتروا به أنفسهم ﴾ [البقرة : 90] سوى أن هذا لم يؤت له باسمٍ مخصوص بالذم لدلالة قوله : ﴿ وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم ﴾ والتقدير بئسما يأمركم به إيمانكم عبادةُ العجل. انتهى انتهى. ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 1 صـ 594. 595 ﴾

ومن فوائد ابن عرفة فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ . . . ﴾ .

على حذف القول أي القائلين : ﴿ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ ﴾

قيل لابن عرفة : هل فيه دليل على أن الأشياء كلها محض تفضل من الله تعالى وليست باستحقاق لأن هؤلاء يستحقون ذلك ؟

فقال : نعم.

قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا . . . ﴾ .

قال الطيبي : / هذا من القول بالموجب ، ومنه قول الله تعالى : ﴿ يُؤْذُونَ النبي وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ ﴾ قال ابن عرفة : لا بل هو مغالطة منهم لأن السماع في قوله : " واسمعوا " ليس المراد به حقيقة بل هو من مجاز إطلاق السبب على مسببه ، لأن السماع سبب في الطاعة ، فكأنهم أمروا بالطاعة (فغالطوا) في ذلك ، وحملوا الأمر بالسماع على حقيقته من أن المراد به الاستماع فقط فقالوا : " سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا "

قوله تعالى : ﴿ وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ العجل بِكُفْرِهِمْ . . . ﴾ .

الباء إما للمصاحبة أي مع كفرهم ، أو للسببية فيكون العقوبة على الذنب بالذنب كما ورد أن المعاصي تزيد الكفر .

قيل لابن عرفة : إنما كفروا بعبادتهم العجل ، ولم يتقدم لهم قبل ذلك كفر بوجه ؟

فقال : لا بل كفروا أولا كفرا عاما بالاعتقاد ، ثم عبدوا العجل (بالفعل) .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ . . . ﴾ .

عبر بالفعل المضارع ، وقال بعده ﴿ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ ﴾ فعبر بالماضي فما السر في ذلك ؟

أجاب ابن عرفة : بأن الشراء لا يتكرر لأنه إذا دفع للبائع الثمن لم يعد إليه بوجه ، فلا يقال :

إنه يبيع سلعته مرة أخرى أو يشتري العوض مرة أخرى .

فالإيمان الذي باعوه لا يرجع إليهم بوجه بخلاف أمر الإيمان لهم فإنه يتجدد (بحسب) متعلقه شيئا فشيئا .

قال ابن عرفة : وقبح فعلهم إما من (جهة) كذبهم في مقالتهم إذ ﴿ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا ﴾ وليسوا بمؤمنين ، وإما من جهة إيمانهم مع اتصافهم بالقبيح .

والإيمان لا ينشأ عنه إلا الحسن .

قيل لابن عرفة : المراد بقوله : " إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ " الإيمان الحقيقي الشرعي ، والإيمان الحقيقي لا (يأمر) إلا بالخير فكيف قال لهم : ﴿ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ ﴾ ؟

(98/60)

فقال : المراد إن (كنتم تدّعون) الإيمان حاصلا لكم ، فبئس ما يأتيكم به إيمانكم المدّعى .

قيل له : لما يأمرهم الإيمان بذلك ، وإنما هو إيمان ناقص زاحمه غيره من وساوس النفس ، فالمزاحم هو الأمر لا الإيمان ؟

فقال : بل الأمر الإيمان المدعى أنه إيمان . انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عرفة حـ 1 صـ 374.373 ﴾

ومن فوائد أبى حيان فى الآية

قال رحمه الله :

وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوّة ﴾ : تقدم تفسير هذه الجمل ، وإنما كررت هنا لدعواهم أنهم يؤمنون بما أنزل عليهم ، وهم كاذبون في ذلك .

ألا ترى أن اتخاذ العجل ليس في التوراة ؟ بل فيها أن يفرد الله بالعبادة ، ولأن عبادة غير الله أكبر المعاصي ، فكرر عبادة العجل تنبيهاً على عظيم جرمهم .

ولأن ذكر ذلك قبل ، أعقبه تعداد النعم بقوله : ﴿ ثم عفونا عنكم ﴾ و﴿ فلولا فضل الله عليكم ورحمته ﴾ وهنا أعقبه التقريع والتوبيخ .

ولأن في قصة الطور ذكر توليهم عما أمروا به ، من قبول التوراة وعدم رضاهم بأحكامها اختياراً ، حتى ألجئوا إلى القبول اضطراراً ، فدعواهم الإيمان بما أنزل إليهم غير مقبولة .

ثم في قصة الطور تذييل لم يتقدم ذكره .

والعرب متى أرادت التنبيه على تقبيح شيء أو تعظيمه ، كررته .

وفي هذا التكرار أيضاً من الفائدة تذكارهم بتعداد نعم الله عليهم ونقمه منهم ، ليزدجر الأخلاف بما حل بالأسلاف .

﴿ واسمعوا ﴾ أي : اقبلوا ما سمعتم ، كقوله : ﴿ سمع الله لمن حمده ﴾ ، أو ﴿ اسمعوا متدبرين لما سمعتم ﴾ ، أو ﴿ اسمعوا وأطيعوا ﴾ لأن فائدة السماع الطاعة ، قاله

المفضل .

والمعنى في هذه الأقوال الثلاثة قريب .

قال الماتريدي : معنى اسمعوا : افهموا .

وقيل : اعملوا ، ووجهه أن السمع يسمع به ، ثم يتخيل ، ثم يعقل ، ثم يعمل به إن كان مما يقتضي عملاً .

ولما كان السماع مبتدأ ، والعمل غاية ، وما بينهما وسائط ، صح أن يراد بعض الوسائط ، وصح أن يراد به الغاية .

﴿ قالوا ﴾ : هذا من الالتفات ، إذ لو جاء على الخطاب لقال : قلتم ﴿ سمعنا وعصينا ﴾ : ظاهره أن كلتا الجملتين مقولة ، ونطقوا بذلك مبالغة في التعنت والعصيان .

ويؤيده قول ابن عباس : كانوا إذا نظروا إلى الجبل قالوا : ﴿ سمعنا وأطعنا ﴾ ، وإذا نظروا إلى الكتاب قالوا : ﴿ سمعنا وعصينا ﴾ .

وقيل : القول هنا مجاز ، ولم ينطقوا بشيء من الجملتين ، ولكن لما لم يقبلوا شيئاً مما أمروا به ، جعلوا كالناطقين بذلك .

وقيل : يعبر بالقول للشيء عما يفهم به من حاله ، وإن لم يكن نطق .

وقيل : المعنى سمعنا بآذاننا وعصنيا بقلوبنا ، وهذا راجع لما قاله الزمخشري ، قال : قالوا سمعنا قولك وعصينا أمرك .

فإن قلت : فكيف طابق قوله جوابهم ؟ قلت : طابقه من حيث أنه قال لهم اسمعوا ، وليكن سماعكم سماع تقبل وطاعة ، فقالوا سمعنا ولكن لا سماع طاعة ، انتهى كلامه .

والقول الأوّل أحسن ، لأنا لا نصير إلى التأويل مع إمكان حمل الشيء على ظاهره ، لا سيما إذا لم يقم دليل على خلافه .

﴿ وأشربوا ﴾ : عطف على قالوا سمعنا وعصينا .

فيكون معطوفاً على قالوا ، أي خذوا ما آتيناكم بقوّة ، قلتم كذا وكذا وأشربتم ، أو عطف مستأنف لا داخل في باب الالتفات ، بل إخبار من الله عنهم بما صدر منهم من عبادة العجل ، أو الواو للحال ، أي وقد أشربوا والعامل قالوا ، ولا يحتاج الكوفيون إلى تقدير قد في الماضي الواقع حالاً ، والقول الأول هو الظاهر .

﴿ في قلوبهم ﴾ : ذكر مكان الإشراب ، كقوله : ﴿ إنما يأكلون في بطونهم ﴾ ﴿ العجل ﴾ : هو على حذف مضافين ، أي حب عبادة العجل من قولك : أشربت زيداً ماء ، والإشراب مخالطة المائع الجامد ، وتوسع فيه حتى صار في اللونين ، قالوا : وأشربت البياض حمرة ، أي خلطتها بالحمرة ، ومعناه أنه داخلهم حب عبادته ، كما داخل الصبغ الثوب ،

وأنشدوا :

إذا ما القلب أشرب حب شيء . . .

فلا تأمل له عند انصرافاً

(100/60)

وقال ابن عرفة : يقال أشرب قلبه حب كذا ، أي حل محل الشراب ومازجه .

انتهى كلامه .

وإنما عبر عن حب العجل بالشرب دون الأكل ، لأن شرب الماء يتغلغل في الأعضاء حتى

يصل إلى باطنها ، ولهذا قال بعضهم :

جرى حبها مجرى دمي في مفاصلي . . .

فأصبح لي عن كل شغل بها شغل

وأما الطعام فقالوا : وهو مجاور لها ، غير متغلغل فيها ، ولا يصل إلى القلب منه إلا يسير ،

وقال :

تغلغل حبّ عثمة في فؤادي . . .

فبادیه مع الخافي يسير

وحسن حذف ذينك المضافين ، وأسند الإشراب إلى ذات العجل مبالغة كأنه بصورته أشربوه ، وإن كان المعنى على ما ذكرناه من الحذف .

وقيل : معنى اشربوا : أي شدّ في قلوبهم حب العجل لشغفهم به ، من أشربت البعير : إذا شددت حبلاً في عنقه .

وقيل : هو من الشرب حقيقة ، وذلك أنه نقل أن موسى عليه السلام برد العجل بالمبرد ورماه في الماء وقال لهم : اشربوا ، فشرب جميعهم .

فمن كان يحب العجل خرجت برادته على شفتيه ، وهذا قول يردّه في قوله : ﴿ في قلوبهم ﴾ .

وروي أن الذين تبين لهم حب العجل أصابهم من ذلك الماء الجبن .

وبناؤه للمفعول في قوله : وأشربوا ، دليل على أن ذلك فعل بهم ، ولا يفعله إلا الله تعالى .

وقالت المعتزلة : جاء مبنياً للمفعول لفرط ولوعهم بعبادته ، كما يقال : معجب برأيه ، أو لأن السامري وإبليس وشياطين الأنس والجنّ دعوهم إليه ، ولما كان الشرب مادّة لحياة ما تخرجه الأرض ، نسب ذلك إلى المحبة ، لأنها مادة لجميع ما صدر عنهم من الأفعال .

﴿ بكفرهم ﴾ : الظاهر أن الباء للسبب ، أي الحامل لهم على عبادة العجل هو كفرهم السابق ، قيل : ويجوز أن يكون الباء بمعنى مع ، يعنون أن يكون للحال ، أي مصحوباً بكفرهم ، فيكون ذلك كفراً على كفر .

﴿ قل ﴾ يا محمد ، أو قل يا من يجالهم .

﴿ بئسما ما يأمركم به إيمانكم ﴾ : تقدم الكلام في بئس ، وفي المذاهب في ما ، فأغنى عن إعادته .

(101/60)

وقرأ الحسن ومسلم بن جندب : بهو إيمانكم ، بضم الهاء ووصلها بواو ، وهي لغة ، والضم في الأصل ، لكن كسرت في أكثر اللغات لأجل كسرة الباء ، وعني بإيمانهم الذي زعموا في قولهم : ﴿ نؤمن بما أنزل علينا ﴾ ، وأضاف الأمر إلى إيمانهم على طريق التهكم ، كما قال أصحاب شعيب : أصلواتك تأمرك أن نترك ؟ وقيل : ثم محذوف تقديره صاحب إيمانكم ، وهو إبليس .

وقيل : ثم صفة محذوفة التقدير إيمانكم الباطل ، وأضاف : الإيمان إليهم لكونه إيماناً غير صحيح ، ولذلك لم يقل الإيمان ، قاله بعض معاصرينا رحمهم الله .

والمخصوص بالذمّ محذوف بعد ما ، فإن كانت منصوبة ، فالتقدير : بئس شيئاً يأمركم به إيمانكم قتل الأنبياء والعصيان وعبادة العجل ، فيكون يأمركم صفة للتمييز ، أو يكون التقدير : بئس شيئاً شيء يأمركم به إيمانكم ، فيكون يأمركم صفة للمخصوص بالذمّ

المحذوف ، أو يكون التقدير : بئس شيئاً ما يأمركم ، أي الذي يأمركم ، فيكون يأمركم به إيمانكم .

والمخصوص مقدر بعد ذلك ، أي قتل الأنبياء ، وكذا وكذا .

فيكون ما موصولة ، أو يكون التقدير : بئس الشيء شيء يأمركم به إيمانكم ، فيكون ما تامّة .

وهذا كله تفريع على قول من جعل لما وحدها موضعاً من الإعراب .

﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ ، قيل : إن نافية ، وقيل : شرطية .

قال الزمخشري : تشكيك في إيمانهم ، وقدح في صحة دعواهم .

انتهى كلامه .

وقال ابن عطية : وقد يأتي الشرط ، والشارط يعلم أن الأمر على أحد الجهتين ، كما قال الله عن عيسى عليه السلام : ﴿ إن كنت قلته فقد علمته ﴾ ، وقد علم عيسى عليه السلام أنه لم يقله ، وكذلك ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ ، والقائل يعلم أنهم غير مؤمنين ، لكنه أقام حجة لقياس بين .

انتهى كلامه ، وهو يؤول من حيث المعنى إلى نفي الإيمان عنهم ، وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه ، أي إن كنتم مؤمنين فبئس ما يأمركم به إيمانكم .

وقيل تقديره : إن كنتم مؤمنين فلا تقتلوا الأنبياء ، ولا تكذبوا الرسل ، ولا تكتموا الحق .

وتقدير الحذف الأول أعرب وأقوى. انتهى انتهى. اهـ ﴿البحر المحيط حـ 1 صـ 475. 477﴾

(102/60)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله:

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ(93) ﴾

بعد أن ذكرهم الله سبحانه وتعالى بكفرهم بعبادتهم للعجل . . وكان هذا نوعا من التأنيب الشديد والتذكير بالكفر . . أراد أن يؤنبهم مرة أخرى وأن يذكرهم أنهم آمنوا خوفا من وقوع جبل الطور عليهم . . ولم يكن الجبل سيقع عليهم . . لأن الله لا يقهر أحدا على الإيمان . . ولكنهم بمجرد أن رأوا جبل الطور فوقهم آمنوا . . مثلهم كالطفل الذي وصف له الطبيب دواء مرا ليشفى ولذلك فإن رفع الله سبحانه وتعالى لجبل الطور فوقهم ليأخذوا الميثاق والمنهج . . لا يقال إنه فعل ذلك إرغاما لكي يؤمنوا . . إنه إرغام المحب . . يريد

الله من خلقه ألا يعيشوا بلا منهج سماوي فرفع فوقهم جبل الطور إظهارا لقوته وقدرته تبارك وتعالى حتى إذا استشعروا هذه القوة الهائلة وما يمكن أن تفعله لهم وبهم آمنوا . . فكأنهم حين أحسوا بقدرة الله آمنوا . . تماما كالطفل الصغير يفتح فمه لتناول الدواء المر وهو كاره . . ولكن هل أعطيته الدواء كرها فيه أو أعطيته له قمة في الحب والإشفاق عليه ؟

الله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتهم إلي أنه لم يترك حيلة من الحيل حتى يتلقى بنو إسرائيل منهج الله الصحيح . . نقول إنه لم يترك حيلة إلا فعلها . . لكن غريزة الاستكبار والعناد منعتهم أن يستمروا على الإيمان . . تماما كما يقال للأب إن الدواء مر لم يحقق الشفاء وطفلك مريض . . فيقول وماذا افعل أكثر من ذلك أرغمته على شرب الدواء المر ولكنه لم يشف .

(103/60)

وقول الله تعالى : " ميثاقكم " . هل الميثاق منهم أو هو ميثاق الله ؟ . طبعا هو ميثاق الله . . ولكن الله جل جلاله خاطبهم بقوله : " ميثاقكم " لأنهم أصبحوا طرفا في العقد . . وماداموا قد أصبحوا طرفا أصبح ميثاقهم . . ولابد أن نؤمن أن رفع جبل الطور فوق

اليهود لم يكن لإجبارهم لأخذ الميثاق منهم حتى لا يقال أنهم أجبروا على ذلك . . هم اتبعوا موسى قبل أن يرفع فوقهم جبل الطور . . فلابد أنهم أخذوا منهجه باختيارهم وطبقوه باختيارهم لأن الله سبحانه وتعالى لم يبق الطور مرفوعا فوق رءوسهم أينما كانوا طوال حياتهم حتى يقال أنهم أجبروا . . فلو أنهم أجبروا لحظة وجوه جبل الطور فوقهم . . فإنهم بعد أن انتهت هذه المعجزة لم يكن هناك ما يجبرهم على تطبيق المنهج . . ولكن المسألة أن الله تبارك وتعالى . . حينما يرى من عباده مخالفة فإنه قد يخيفهم . . وقد يأخذهم بالعذاب الأصغر علهم يعودون إلي إيمانهم . . وهذا يأتي من حب الله لعباده لأنه يريدهم مؤمنين . .

ولكن اليهود قوم ماديون لا يؤمنون إلا بالمادة والله تبارك وتعالى أراد أن يريهم آية مادية على قلوبهم تخشع وتعود إلي ذكر الله . . وليس في هذا إجبار لأنه كما قلنا إنه عندما انتهت المعجزة كان يمكنهم أن يعودوا إلي المعصية . . ولكنها آية تدفع إلي الإيمان . . وقوله تعالى : " خذوا ما آتيناكم بقوة" لأن ما يؤخذ بقوة يعطى بقوة . . والأخذ بقوة يدل على عشق الآخذ للمأخوذ . . ومادام المؤمن يعشق المنهج فإنه سيؤدي مطلوباته بقوة . . فالإنسان دائما عندما يأخذ شيئا لا يحبه فإنه يأخذه بفتور وتهاون .

قوله تعالى : " واسمعوا قالوا سمعنا وعصينا " . . القول هو عمل اللسان والفعل للجوارح كلها ما عدا اللسان . . هناك قول وفعل وعمل . . القول أن تنطق بلسانك والفعل أن تقوم جوارحك بالتنفيذ . . والعمل أن يطابق القول الفعل . . هم : " قالوا سمعنا وعصينا " هم سمعوا ما قاله لهم الله سبحانه وتعالى وعصوه . . ولكنها معطوفة على (قالوا) . . قالوا سمعنا في القول وفي الفعل عصينا . . وليس معنى ذلك أنهم قالوا بلسانهم عصينا في الفعل . . فالمشكلة جاءت من عطف عصينا على سمعنا . . فتحسب أنهم قالوا الكلمتين . . لا . . هم قالوا سمعنا ولكنهم لم ينفذوا فلم يفعلوا والله سبحانه وتعالى يريد هم أن يسمعوا سماع طاعة لا سماع تجرد أي مجرد سماع . . ولكنهم سمعوا ولم يفعلوا شيئا فكأن عدم فعلهم معصية .

قوله تعالى : " وأشربوا في قلوبهم العجل " . الحق تبارك وتعالى يريد أن يصور لنا ماديتهم . . فالحب أمر معنوي وليس أمراً مادياً لأنه غير محسوس . . وكان التعبير يقتضي أن يقال وأشربوا حب العجل . . ولكن الذي يتكلم هو الله . . يريد أن يعطينا الصورة الواضحة الكاملة في أنهم أشربوا العجل ذاته أي دخل العجل إلي قلوبهم . لكن كيف يمكن أن يدخل العجل في هذا الضيق وهو القلب . . الله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلي الشيوع في كل شيء بكلمة أشربوا . . لأنها وصف لشرب الماء والماء يتغلغل في كل الجسم . . والصورة

تعرب عن تغلغل المادية في قلوب بني إسرائيل حتى كأن العجل دخل في قلوبهم وتغلغل كما يدخل الماء في الجسم مع أن القلب لا تدخله الماديات .

(105/60)

ويقول الحق جل جلاله : " وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم" . . كأن الكفر هو الذي أسقاهم العجل . . هم كفروا أولا . . وبكفرهم دخل العجل إلي قلوبهم وختم عليها . .

وقوله تعالى : " قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين" . . هم قالوا نؤمن بما أنزل علينا ولا نؤمن بما جاء بعده . . قل هل إيمانكم يأمركم بهذا ؟ . . وهذا أسلوب تهكم من القرآن الكريم عليهم . . مثل قوله تعالى :

أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ

(من الآية 56 سورة النمل)

هل الطهر والطهارة مبرر لإخراج آل لوط من القرية ؟ . . طبعا لا . . ولكنه أسلوب تهكم واستنكار . . والحق أن إيمانهم بهذا بل يأمرهم بالإيمان برسالة محمد صلى الله عليه وسلم . . واقرأ قوله تبارك وتعالى :

وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ

أَشَاء وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ(156) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ(157)

(سورة الأعراف)

(106/60)

هذا هو ما يأمرهم به إيمانهم . . أن يؤمنوا بالنبي الأمي محمد عليه الصلاة والسلام . . والله تبارك وتعالى يعلم ما يأمرهم به الإيمان لأنه منه جل جلاله . . ولذلك عندما يحاولون خداع الله . . يتهكم الله سبحانه وتعالى عليهم ويقول " بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين " . وقوله تعالى : " إن كنتم مؤمنين " دليل على أنهم ليسوا مؤمنين . . ولكن لازال في قلوبهم الشرك والكفر أو العجل الذي عبدوه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 469.466 ﴾

(107/60)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

" بِالبَيِّنَاتِ " يجوز فيه وجهان :

أحدهما : أن يكون حالاً من " موسى " أي : جاءكم ذا بيِّنات وحُجَج ، أو ومعه البينات .

وثانيهما : أن يكون مفعولاً ، أي : بسبب إقامة البَيِّنات ، وهي قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا موسى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ [الإسراء : 101] وهي : العصا والسّنون واليد والدم والطّوفان والجراد والقمل والضفادع وفلق البحر .

وقيل : البينات التوراة وما فيها من الدّلالات .

واللام في " لقد " لام القسم .

قوله : " وأُشْربوا " يجوز أن يكون معطوفاً على قوله .

" قَالُوا : سَمِعْنَا " ، ويجوز أن يكون حالاً من فاعل " قالوا " أي : قالوا ذلك ، وقد أشربوا .

ولا بد من إضمار " قد " لِيَقْرُبَ الماضي إلى الحال خلافاً للكوفيين ، حيث قالوا : لا يحتاج إليها ، ويجوز أن يكون مستأنفاً لمجرد الإخبار بذلك .

واستضعفه أبو البقاء رحمه الله تعالى قال : لأنه قال بعد ذلك : " قل بِئْسَمَا يأمركم " فهو جواب قولهم : " سمعنا وعصينا " فالأولى ألا يكون بينهما أجنبي .

و" الواو " في " أشربوا " وهي المفعول الأول قامت مقام الفاعل ، والثاني هو " العِجْل " ؛ لأن " شرب " يتعدّى بنفسه ، فأكسبته الهمزة مفعولاً آخر ، ولا بد من حذف مُضَافين قبل " العِجْل " والتقدير : وأشربوا حُبَّ العِجْل .

وحسن حَذْفُ هذين المضافين للمبالغة في ذلك حتى كأنه تُصُوِّر إشراب ذات العِجْل ، والإشراب مُخَالطة المائع بالجامد ، ثم اتّسع فيه حتى قيل في الألوان نحو : أشرب بياضُه حُمْرةً ، والمعنى : أنهم دَاخَلَهم حُبُّ عبادته ، كما داخلَ الصّبغُ الثوبَ .

ومنه قول الشاعر : [الوافر]

669 إذّا ما القَلْبُ أُشْرِبَ حُبَّ شَيْءٍ . . .

(108/60)

فَلاَ تَأْمَلْ لَهُ الدَّهْرَ انْصِرَافا

وعبر بالشرب دون الأكل ؛ لأ ، الشرب يَتَغَلْغَلُ في باطن الشيء ، بخلاف الأكل فإنه مُجَاور ؛ ومنه في المعنى : [الطويل]

670 جَرَى حُبُّهَا مَجْرَى دَمِي في مَفَاصِلِي . . . . . .

وقال بعضهم : [الوافر]

671 تَغَلْغَلَ حُبُّ عَثْمَةَ فِي فُؤَادِي . . .

فَبَادِيهِ مَعَ الخَافِي يَسِيرُ

تَغَلْغَلَ حَيْثُ لَمْ يَبْلُغْ شَرَابٌ . . .

وَحُزْنٌ وَلَمْ يَبْلُغْ سُرُورُ

أَكَادُ إِذَا ذَكَرْتُ العَهْدَ مِنْهَا . . .

أَطِيرُ لَوَ أَنَّ إِنْسَاناً يَطِيرُ

فهذا وجه الاستعارة .

وقيل : الشرب مادة لحياة ما تخرجه الأرض ، فكذلك كانت تلك المحبة مادة لجميع ما صدر عنهم من الأفعال .

وقيل : الإشراب هنا حقيقة ؛ لأنه يروى أن موسى عليه الصلاة والسلام برد العجل بالمبْرد ، ثم جعل تلك البُرَادة في الماء ، وأمرهم بشربه ، فمن كان يحب العجل ظهرت البُرَادة على شَفَتَيْهِ .

روي القَشَيْري رحمه الله أنه ما شربه أحد إلا جُنَّ .

قال القرطبي رحمه الله : أما تَذْرِيَتُهُ في الماء فقد دلّ عليه قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي اليم نَسْفاً ﴾ [طه : 97] ، وأما شرب الماء وظهور البُرَادة على الشِّفاه وهذا وإن كان قال به السّدي وابن جريج وغيرهما فردّه قوله : " فِي قُلُوبِهِمْ " .

قوله : " بِكُفْرِهِم " فيه وجهان :

أظهرهما : أن " الباء " سببية متعلّقة بـ " أُشْرِبُوا " أي : أشربوا بسبب كفرهم السَّابق .

والثاني : أنها بمعنى " على " يعنون بذلك أنها للحال ، وصاحبها في الحقيقة ذلك للفاعل المحذوف أي : أشربوا حبّ عبادة العِجْل مختلطاً بكفرهم ، والمصدر مضاف للفاعل ، أي : بأن يكفروا .

قوله : " قُلْ " بِئْسَمَا يَأمُرُكُمْ " كقوله : " بِئْسَمَا اشْتَرَوْا " .

والمعنى : فبئسما يأمركم به إيمانكم الذي زعمتم في قولكم : ﴿ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ ﴾ [البقرة : 91] .

وقيل : إن هذا خطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم وأمر له بأن يوبّخهم أي : قل لهم يا محمد : بئس هذه الأشياء التي فعلتم ، وأمركم بها [إيمانكم] أي : بالتوراة لأنه ليس في التوراة عبادة العِجْل وإضافة الأمر إلى إيمانهم كما قالوا لشعيب صلى الله عليه وسلم : ﴿ أَصَلَوَاتُكَ تَأْمُرُكَ ﴾ [هود : 87] .

قوله : " إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ " يجوز فيها الوجهان السابقين من كونها نافيةً وشرطيً ، وجوابه

محذوف تقديره : فبئسما يأمركم .

وقيل : تقديره : فلا تقتلوا أنبياء الله ، وَلَا تُكَذِّبُوا الرّسل ولا تكتموا الحق ؛ وأسند الإيمان إليهم تهكُّماً بهم ، ولا حاجة إلى حذف صفة ، أي إيمانكم الباطل ، أو حذف مُضَاف ، أي : صاحب إيمانكم .

وقرأ الحسن : " بِهُو إِيمَانُكُمْ " بضم الهاء مع الواو .

فإن قيل : الإيمان عرض ، ولا يصح الأمر والنهي .

فالجواب : أن الدّاعي إلى الفعل قد يشبه بالأمر كقوله : ﴿ إِنَّ الصلاة تنهى عَنِ الفحشآء والمنكر ﴾ [العنكبوت : 45] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 2 صـ 290 .294 ﴾ . باختصار .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (93) ﴾

كرَّرَ الإخبار عن غُلُوِّهم في حُبِّ العجل ، ونُبُوِّهم عن قبول الحق ، و (. . . .) وتعريفهم معاجلتهم بالعقوبة على ما يسيئون من العمل ، فلا النصحُ نَجَعَ فيهم ، ولا العقوبةُ أُوجبت

إقلاعهم عن معاصيهم ، ولا بالذم فيهم احتفلوا ، ولا بموجب الأمر عملوا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 106 ﴾

(110/60)

قوله تعالى ﴿ قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (94) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما نهضت الأدلة على أنه لا حظ لهم في الآخرة غير النار وذلك نقيض دعواهم أنها لهم فقط في قولهم ﴿ لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة ﴾ [البقرة : 80] تفسيرهم ذلك بأنها سبعة أيام وأنا نخلفهم فيها ختم سبحانه ذلك بدليل قطعي بديهي فقال ﴿ قل إن كانت ﴾ وقدم الجار إشعاراً بالاختصاص فقال : ﴿ لكم الدار الآخرة ﴾ أي كما زعمتم ، وميزها بقوله : ﴿ عند الله ﴾ الذي له الكمال كله وبين المراد بقوله ﴿ خالصة ﴾ ولما ذكر الخلوص تأكيداً للمعنى زاده تأكيداً بقوله ﴿ من دون الناس ﴾ أي سائرهم لا يشرككم فيها أحد منهم من الخلوص وهو تصفية الشيء مما يمازجه في خلقته مما هو دونه – قاله الحرالي .

﴿ فتمنوا الموت ﴾ لأن ذلك علم على صلاح حال العبد مع ربه وعمارة ما بينه وبينه ورجائه للقائه .

(111/60)

قال الحرالي : فعلى قدر نفرة النفس من الموت يكون ضعف منال النفس مع المعرفة التي بها تأنس بربها فتتمنى لقاءه وتحبه ، ومن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه ، يقع ذلك لعامة المؤمنين عند الكشف حال الغرغرة ، ولخاصة المؤمنين في مهل الحياة لأنهم لو كشف لهم الغطاء لم يزدادوا يقيناً ، فما هو للمؤمن بعد الكشف من محبة لقاء الله فهو للموقن في حياته ويقظته ، لكمال الكشف له مع وجود حجاب الملك الظاهر ؛ ولذلك ما مات نبي حتى يخير فيختار لقاء الله ، لتكون وفادته على الله وفادة محب مبادر ، ولتقاصر المؤمن عن يقين النبي يتولى الله الخيرة في لقائه ، لأنه وليه ، ومنه ما ورد : " ما ترددت في شيء ترددي في قبض روح عبدي المؤمن يكره الموت ، وأنا أكره مساءته ولا بد له منه " ففي ضمن ذلك اختيار الله للمؤمن لقاءه ، لأنه وليه يختار له فيما لا يصل إليه إدراكه - انتهى .

ثم سجل عليهم بالكذب فقال : ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ أي معتقدين للصدق في دعواكم

خلوصها لكم. انتهى انتهى. اهـ ﴿نظم الدرر حـ 1 صـ 200. 201﴾

فصل

قال الفخر:

اعلم أن هذا نوع آخر من قبائحهم وهو ادعاؤهم أن الدار الآخرة خالصة لهم من دون الناس ويدل عليه وجوه.

أحدها: أنه لا يجوز أن يقال على طريق الاستدلال على الخصم إن كان كذا وكذا فافعل كذا إلا والأول مذهبه ليصح إلزام الثاني عليه. (1)

وثانيها: ما حكى الله عنهم في قوله: ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الجنة إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نصارى﴾ [البقرة: 111] وفي قوله: ﴿نَحْنُ أَبْنَاء الله وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة: 18] وفي قوله: ﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النار إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة: 80].

---

(1) في الأصل الذي أصحح عليه: (فافعل كذا لا والأول) والتقي على هذا لا معنى له فتعين الاستثناء ليستقيم الكلام.

(المصحح).

وثالثها : اعتقادهم في أنفسهم أنهم هم المحقون لأن النسخ غير جائز في شرعهم ، وأن سائر الفرق مبطلون ، ورابعها : اعتقادهم أن انتسابهم إلى أكابر الأنبياء عليهم السلام أعني يعقوب وإسحاق وإبراهيم يخلصهم من عقاب الله تعالى ويوصلهم إلى ثوابه ، ثم إنهم لهذه الأشياء عظموا شأن أنفسهم فكانوا يفتخرون على العرب وربما جعلوه كالحجة في أن النبي المنتظر المبشر به في التوراة منهم لا من العرب وكانوا يصرفون الناس بسبب هذه الشبهة عن اتباع محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم إن الله احتج على فساد قولهم بقوله : ﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدار الآخرة عِندَ الله خَالِصَةً مّن دُونِ الناس فَتَمَنَّوُاْ الموت ﴾ وبيان هذه الملازمة أن نعم الدنيا قليلة حقيرة بالقياس إلى نعم الآخرة ، ثم إن نعم الدنيا على قلتها كانت منغصة عليهم بسبب ظهور محمد صلى الله عليه وسلم ومنازعته معهم بالجدال والقتال ، ومن كان في النعم القليلة المنغصة ، ثم إن تيقن أنه بعد الموت لا بد وأن ينتقل إلى تلك النعم العظيمة فإنه لا بد وأن يكون راغباً في الموت لأن تلك النعم العظيمة مطلوبة ولا سبيل إليها إلا بالموت وما يتوقف عليه المطلوب وجب أن يكون مطلوباً فوجب أن يكون هذا الإنسان راضياً بالموت متمنياً له ، فثبت أن الدار الآخرة لو كانت لهم خالصة لوجب أن يتمنوا الموت .

ثم إن الله تعالى أخبر أنهم ما تمنوا الموت بل لن يتمنوه أبداً ، وحينئذ يلزم قطعاً بطلان ادعائهم في قولهم إن الدار الآخرة خالصة لهم من دون الناس .

فإن قيل (1) لا نسلم أنه لو كانت لهم الدار الآخرة خالصة لوجب أن يتمنوا الموت ، قوله لأن

نعيم الآخرة مطلوب ولا سبيل إليه إلا بالموت والذي يتوقف عليه المطلوب ، لا بد وأن يكون مطلوباً .

---

(1) هذا في قوله تعالى : (السؤال الأول) لأنه ذكر بعده السؤال الثاني ، لكنه ذكر الرد على هذا السؤال ولم يرد على غيره كما ترى .

(113/60)

قلنا : قلنا الذي يتوقف عليه المطلوب يجوز أن يكون مطلوباً نظراً إلى كونه وسيلة إلى ذلك المطلوب إلا أنه يكون مكروهاً نظراً إلى ذاته والموت مما لا يحصل إلا بالآلام العظيمة وما كانوا يطيقونها فلا جرم ما تمنوا الموت .

السؤال الثاني : أنه كان لهم أن يقلبوا هذا السؤال على محمد صلى الله عليه وسلم فيقولوا : إنك تدعي أن الدار الآخرة خالصة لك ولأمتك دون من ينازعك في الأمر فإن كان الأمر كذلك فارض بأن نقتلك ونقتل أمتك ، فإنا نراك ونرى أمتك في الضر الشديد والبلاء العظيم بسبب الجدال والقتال وبعد الموت فإنكم تتخلصون إلى نعيم الجنة فوجب أن ترضوا بقتلكم !

السؤال الثالث : لعلهم كانوا يقولون الدار الآخرة خالصة لمن كان على دينهم لكن بشرط

الاحتراز عن الكبائر ، فأما صاحب الكبيرة فإنه يبقى مخلداً في النار أبداً لأنهم كانوا وعيدية أو لأنهم جوزوا في صاحب الكبيرة أن يصير معذباً فلأجل هذا ما تمنوا الموت وليس لأحد أن يدفع هذا السؤال بأن مذهبهم أنه لا تمسهم النار إلا أياماً معدودة لأن كل يوم من أيام القيامة كألف سنة مما تعدون فكانت هذه الأيام وإن كانت قليلة بحسب العدد لكنها طويلة بحسب المدة فلا جرم ما تمنوا الموت بسبب هذا الخوف .

السؤال الرابع : أنه عليه الصلاة والسلام نهي عن تمني الموت فقال : " لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به ولكن ليقل اللهم أحيني إن كانت الحياة خيراً لي وتوفني إن كانت الوفاة خيراً لي " وأيضاً قال الله تعالى في كتابه : ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بِهَا والذين ءامَنُواْ مُشْفِقُونَ مِنْهَا ﴾ [الشورى : 18] فكيف يجوز أن ينهى عن الاستعجال ، ثم إنه يتحدى القوم بذلك .

(114/60)

السؤال الخامس : أن لفظ التمني مشترك بين التمني الذي هو المعنى القائم بالقلب وبين اللفظ الدال على ذلك المعنى وهو قول القائل : ليتني مت ، لليهود أن يقولوا إنك طلبت منا التمني والتمني لفظ مشترك ، فإن ذكرناه باللسان فله أن يقول : ما أردت به هذا اللفظ ، وإنما

أردت به المعنى الذي في القلب وإن فعلنا ذلك المعنى القائم بالقلب فله أن يقول : كذبتم ما أتيتم بذلك في قلوبكم ولما علم اليهود أنه أتى بلفظة مشتركة لا يمكن الاعتراض عليها لا جرم لم يلتفتوا إليه .

السؤال السادس : هب أن الدار الآخرة لو كانت لهم لوجب أن يتمنوا الموت فلم قلتم إنهم ما تمنوا الموت والاستدلال بقوله تعالى : ﴿ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا ﴾ ضعيف لأن الاستدلال بهذا إنما يصح لو ثبت كون القرآن حقاً ، والنزاع ليس إلا فيه .

الجواب : قوله (أولاً) كون الموت متضمناً للألم يكون كالصارف عن تمنيه ، قلنا كما أن الألم الحاصل عند الحجامة لا يصرف عن الحجامة للعلم الحاصل بأن المنفعة الحاصلة بسبب الحجامة عظيمة وجب أن يكون الأمر ههنا كذلك .

قوله ثانياً : إنهم لو قلبوا الكلام على محمد صلى الله عليه وسلم لزمه أن يرضى بالقتل ، قلنا : الفرق بين محمد عليه السلام وبينهم أن محمداً كان يقول إني بعثت لتبليغ الشرائع إلى أهل التواتر ، وهذا المقصود لم يحصل بعد فلأجل هذا لا أرضى بالقتل وأما أنتم فلستم كذلك فظهر الفرق ، قوله ثالثاً : كانوا خائفين من عقاب الكبائر ، قلنا : القوم ادعوا كون الآخرة خالصة لهم وذلك يؤمنهم من امتزاج ثوابها بالعقاب قوله رابعاً : نهى عن تمني الموت قلنا هذا النهي طريقة الشرع فيجوز أن يختلف الحال فيه بحسب اختلاف الأوقات ، روي أن علياً رضي الله عنه كان يطوف بين الصفين في غلالة فقال له ابنه الحسن رضي الله عنه ما هذا

بزي المحاربين فقال يا بني لا يبالي أبوك أعلى الموت سقط أم عليه يسقط الموت ، وقال عمار رضي الله عنه بصفين :

(115/60)

الآن ألقي الأحبة . . محمداً وحزبه

وقد ظهر عن الأنبياء في كثير من الأوقات تمني الموت على أن هذا النهي مختص بسبب مخصوص فإنه عليه الصلاة والسلام حرم أن يتمنى الإنسان الموت عند الشدائد لأن ذلك كالجزع والخروج عن الرضاء بما قسم الله ، فأين هذا من التمني الذي يدل على صحة النبوة .

قوله خامساً : إنهم ما عرفوا أن المراد هو التمني باللسان أو بالقلب ، قلنا : التمني في لغة العرب لا يعرف إلا ما يظهر (منه) كما أن الخبر لا يعرف إلا ما يظهر بالقول والذي في القلب من ذلك لا يسمى بهذا الاسم ، وأيضاً فمن المحال أن يقول النبي عليه الصلاة والسلام لهم تمنوا الموت ويريد بذلك ما لا يمكن الوقوف عليه مع أن الغرض بذلك لا يتم إلا بظهوره ، قوله سادساً : ما الدليل على أنه ما وجد التمني ، قلنا من وجوه ، أحدها : أنه لو حصل ذلك لنقل نقلاً متواتراً لأنه أمر عظيم فإن بتقدير عدمه يثبت القول بصحة نبوة محمد صلى الله

عليه وسلم وبتقدير حصول هذا التمني يبطل القول بنبوته وما كان كذلك كان من الوقائع العظيمة ، فوجب أن ينقل نقلاً متواتراً ، ولما لم ينقل علمنا أنه لم يوجد ، وثانيها : أنه عليه الصلاة والسلام مع تقدمه في الرأي والحزم وحسن النظر في العاقبة والوصول إلى المنصب الذي وصل إليه في الدنيا والدين والوصول إلى الرياسة العظيمة التي انقاد لها المخالف قهراً والموافق طوعاً لا يجوز وهو غير واثق من جهة ربه بالوحي النازل عليه أن يتحداهم بأمر لا يأمن عاقبة الحال فيه ولا يأمن من خصمه أن يقهره بالدليل والحجة لأن العاقل الذي لم يجرب الأمور لا يكاد يرضى بذلك فكيف الحال في أعقل العقلاء فيثبت أنه عليه الصلاة والسلام ما أقدم على تحرير هذه الأدلة إلا وقد أوحى الله تعالى إليه بأنهم لا يتمنونه .

(116/60)

وثالثها : ما روي أنه عليه الصلاة والسلام قال : " لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ورأوا مقاعدهم من النار ولو خرج الذين يباهلون لرجعوا لا يجدون أهلاً ولا مالاً "

، وقال ابن عباس : لو تمنوا الموت لشرقوا به ولماتوا ، وبالجملة فالأخبار الواردة في أنهم ما تمنوا بلغت مبلغ التواتر فحصلت الحجة ، فهذا آخر الكلام في تقرير هذا الاستدلال . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 172. 174 ﴾

قال الآلوسى :

﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدار الآخرة ﴾ رد لدعوى أخرى لهم بعد رد دعوى الإيمان بما أنزل عليهم ولاختلاف الغرض لم يعطف أحدهما على الآخر مع ظهور المناسبة المصححة للذكر ، والآية نزلت فيما حكاه ابن الجوزي عندما قالت اليهود : إن الله تعالى لم يخلق الجنة إلا لإسرائيل وبنيه .

وقال أبو العالية والربيع : سبب نزولها قولهم : ﴿ لَن يَدْخُلَ الجنة ﴾ [البقرة : 111] الخ و ﴿ نَحْنُ أَبْنَاء الله ﴾ [المائدة : 18] الخ و ﴿ لَن تَمَسَّنَا النار ﴾ [البقرة : 80] الخ ، وروي مثله عن قتادة .

والضمير في ﴿ قُلْ ﴾ إما للنبي صلى الله عليه وسلم أو لمن يبغي إقامة الحجة عليهم ، والمراد من (الدار الآخرة) الجنة وهو الشائع واستحسن في " البحر " تقدير مضاف أي : نعيم الدار الآخرة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 327 ﴾

فصل

قال الفخر :

أما قوله تعالى : ﴿ عَندَ الله ﴾ فليس المراد المكان بل المنزلة ولا العند أيضاً في حمله على المكان فلعل اليهود كانوا مشبهة فاعتقدوا العندية المكانية فأبطل الله كل ذلك بالدلالة التي ذكرها .

وأما قوله تعالى : ﴿ خَالِصَةً ﴾ فنصب على الحال من الدار الآخرة ، أي سالمة لكم خاصة بكم ليس لأحد سواكم فيها حق ، يعني إن صح قولكم لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى و (الناس) للجنس ، وقيل : للعهد وهم المسلمون والجنس أولى لقوله إلا من كان هوداً أو نصارى ولأنه لم يوجد ههنا معهود .

(117/60)

وأما قوله : ﴿ مّن دُونِ الناس ﴾ فالمراد به سوى لا معنى المكان كما يقول القائل لمن وهب منه ملكاً : هذا لك من دون الناس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 174 ﴾

قوله تعالى ﴿ فَتَمَنَّوُاْ الموت إِن كُنْتُمْ صادقين ﴾

فائدة

قال الفخر :

هذا أمر معلق على شرط مفقود وهو كونهم صادقين فلا يكون الأمر موجوداً والغرض منه التحدي وإظهار كذبهم في دعواهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 175 ﴾

قال الآلوسى :

﴿ فَتَمَنَّوُاْ الموت إِن كُنْتُمْ صادقين ﴾ في أن الجنة خالصة لكم ، فإن من أيقن أنه من أهل الجنة اختار أن ينتقل إلى دار القرار ، وأحب أن يخلص من المقام في دار الأكدار ، كما روي عن عليّ كرم الله تعالى وجهه أنه كان يطوف بين الصفين في غلالة ، فقال له الحسن : ما هذا بزي المحاربين ، فقال : يا بني لا يبالي أبوك سقط على الموت ، أم سقط عليه الموت وكان عبد الله بن رواحة ينشد وهو يقاتل الروم :

يا حبذا الجنة واقترابها . . .

طيبة وبارد شرابها

والروم روم قد دنا عذابها

وقال عمار بصفين :

غداً نلقي الأحبة محمداً وصحبه . . .

وروي عن حذيفة أنه كان يتمنى الموت ، فلما احتضر قال : حبيب جاء على فاقة .

(118/60)

وعنه صلى الله عليه وسلم أنه لما بلغه قتل من قتل ببئر معونة قال : " يا ليتني غودرت معهم في لحف الجبل" ويعلم من ذلك أن تمني الموت لأجل الاشتياق إلى دار النعيم ولقاء الكريم غير منهي عنه ، إنما المنهي عنه تمنيه لأجل ضر أصابه فإنه أثر الجزع وعدم الرضا بالقضاء وفي الخبر : " لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به ، وإن كان ولا بد فليقل : اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي ، وأمتني ما كانت الوفاة خيراً لي " والمراد بالتمني قول الشخص : ليت كذا ، وليت من أعمال القلب أو الاشتهاء بالقلب ومحبة الحصول مع القول ، فمعنى الآية سلوا الموت باللسان قاله ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، أو اشتهوه بقلوبكم وسلوه بألسنتكم قاله قوم وعلى التقديرين الأمر بالتمني حقيقة ، واحتمال أن يكون المراد تعرضوا للموت ولا تحترزوا عنه كالمتمني فحاربوا من يخالفكم ولا تكونوا من أهل الجزية والصغار ، أو كونوا على وجه يكون المتمنون للموت المشتهون للجنة عليه من العمل الصالح مما لا تساعده الآثار ، فقد أخرج ابن أبي حاتم بسند صحيح عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما موقوفاً : " لو تمنوا الموت لشرق أحدهم بريقه " وأخرج البيهقي عنه مرفوعاً " لا يقولها رجل منهم إلا غص بريقه " والبخاري مرفوعاً عنه أيضاً : " لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا "

وقرأ ابن أبي إسحاق : ﴿ فَتَمَنَّوُاْ الموت ﴾ بكسر الواو وحكى الحسن بن إبراهيم عن أبي عمرو فتحها وروي عنه أيضاً اختلاس ضمتها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 327. 328 ﴾

فائدة

قال الفخر :

في هذا التمني قولان :

أحدهما : قول ابن عباس إنهم يتحدوا بأن يدعو الفريقان بالموت على أي فريق كان أكذب .

والثاني : أن يقولوا ليتنا نموت وهذا الثاني أولى لأنه أقرب إلى موافقة اللفظ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 175 ﴾

(119/60)

" فائدة "

قال فى البحر المديد :

في هذه الآية ميزان صحيح توزن به الأعمال والأحوال ويتميز به المدعون من الأبطال ، فكل عمل يهدمه الموت فهو مدخول ، وكل حال يهزمه الموت فهو معلول ، وكل من فرّ من الموت ، فهو في دعواه المحبة كذاب ، فمن ادعى الخصوصية على الناس يختبر بهذه الآية .

والناس في حب البقاء في الدنيا على أربعة أقسام :

رجل أحب البقاء في الدنيا لاغتنام لَذَّاته ونيل شهواته ، قد طرح أخراه ، وأكبَّ على دنياه ، واتخذ إلهه هواه ، فأصمه ذلك وأعماه ، إن ذُكر له الموت فرّ عنه وشرد ، وإن وعِظ أَنِف وعَنَدَ ، عمره ينقص ، وحرصه يزيد ، وجسمه يبلى ، وأمله جديد ، وحتفه قريب ، ومطلبه بعيد ، فهذا إن لم تكن له عناية أزلية ، وسابقة أولية فيمسك عليه الإيمان ، ويختم له بالإسلام ، وإلا فقد هلك .

ورجل قد أزيل عن عينه قذاها ، وأبصر نفسه وهواها ، وزجرها ونهاها ، قد شمر ليتلافى ما فات ، ونظر فيما هو آت ، وتأهب لحلول الممات ، والانتقال إلى محلة الأموات ، ومع هذا فإنه يكره الموت أن يشاهد وقائعه ، أو يرى طلائعه ، وليس يكره الموت لذاته ، ولا لأنه هَادِمُ لَذَّاتِهِ ، لكنه يخاف أن يقطعه عن الاستعداد ليوم المعاد ، ويكره أن تطوى صحيفةِ عَمَلِهِ قبل بلوغ أمله ، وأن يبادر بأجله قبل صلاح خلله ، فهو يريد البقاء في هذه الدار لقضاء هذه الأوطار ، فهذا ما أفضل حياته : وأطيب مماته ! لا يدخل تحت قوله صلى الله عليه وسلم : " مَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللهِ كره اللّهُ لِقَاءَه " .

(120/60)

ورجل آخر قد عرف الله تعالى بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، وشهد ما شهد من كمال الربوبية ، وجمال حضرة الألوهية ، فملأت عينه وقلبه ، وأطاشت عقله ولبّه ، فهو يحن إلى ذلك المشهد ، ويستعجل إنجاز ذلك الموعد ، قد علم أن الحياة الدنيوية حجابٌ بينه وبين محبوبة ، وسترٌ مُسدل بينه وبين مطلوبه ، فهذا من المحبين العشاق ، قد حنّ إلى الوصال والتلاق ، أحب لقاء الله فأحب الله لقاءه ، فما أحسن حياته ولقاءه !

ورجل آخر قد شهد ما شاهد ذلك ، وربما زاد على ما هنالك ، لكنه فوّض الأمر إلى خالقه ، وسلّم الأمر لبارئه ، فلم يرض إلا ما رضي له ، ولم يرد إلا ما أريد به ، وما اختار إلا ما حكم به فيه ، إن أبقاه في هذه الدار أبقاه ، وإن أخذه فهو بغيته ومناه ، فهذا من العارفين المقربين . جعلنا الله منهم بمنّه وكرمه . آمين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البحر المديد حـ 1 صـ 138﴾

(121/60)

"لطيفة"

قال فى روح البيان :

فإن قلت : إن المؤمنين أجمعوا على أن الجنة للمؤمنين دون غيرهم ثم ليس أحد منهم يتمنى

الموت فكيف وجه الاحتجاج على اليهود بذلك ؟

قلت : إن المؤمنين لم يجعلوا لأنفسهم من الفضل والشرف والمرتبة عند الله ما جعلت اليهود ذلك لأنفسهم لأنهم ادعوا أنهم أبناء الله وأحباؤه وأن الجنة خالصة لهم والإنسان لا يكره القدوم على حبيبه ولا يخاف انتقامه بالمصير إليه بل يرجو وصوله إلى محابه فقيل لهم : تمنوا ذلك فلما لم يتمنوه ظهر كذبهم في دعاويهم ولأن النبي عليه الصلاة والسلام نهى عن تمني الموت قال : " لا يتمنى أحدكم الموت لضر نزل به ولكن ليقل اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي وتوفني ما كانت الوفاة خيراً لي" قال مقاتل :

لولا بناتي وسيئاتي

لذبت شوقاً إلى الممات فلا يلزمهم ما يلزم اليهود .

قال سهل بن عبد الله التستري قدس سره : لا يتمنى الموت إلا ثلاثة رجل جاهل بما بعد الموت أو رجل يفر من أقدار الله عليه أو مشتاق يحب لقاء الله .

قال بعض الملوك لأبي حازم : كيف القدوم على الله عز وجل ؟ فقال أبو حازم أما قدوم الطائع على الله فكقدوم الغائب على أهله المشتاقين إليه ، وأما قدوم العاصي فكقدوم الآبق على سيده الغضبان .

واعلم أن الموت هو المصيبة العظمى والبلية الكبرى وأعظم منه الغفلة عنه والإعراض عن ذكره وقلة الفكر فيه وترك العمل له وأن فيه وحده لعبرة لمن اعتبر وفكرة لمن تفكر كما قيل كفى بالموت واعظاً ومن ذكر الموت حقيقة ذكره نغص عليه لذته الحاضرة ومنعه عن تمنيها في المستقبل وزهده فيما كان منها يؤمل ولكن القلوب الغافلة تحتاج إلى تطويل الوعاظ وتزيين الألفاظ وإلا ففي قوله عليه السلام "أكثروا ذكر هادم اللذات" وقوله تعالى : ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ﴾ (آل عمران : 185) ما يكفي السامع له ويشغل الناظر فيه ، فعلى العاقل أن يسعى للموت بالاختيار قبل الموت بالاضطرار ويزكي نفسه عن سفساف الأخلاق .

انتهى انتهى . اهـ ﴿روح البيان حـ 1 صـ 235.236﴾

(123/60)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : " قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم " وفى سورة الجمعة : " ولا يتمنونه أبدا

بما قدمت أيديهم " فيسأل عن تخصيص آية البقرة بقوله : " ولن يتمنوه " وآية الجمعة بقوله : " ولايتمنونه " مع اتحاد الاخبار ؟ ووجه ذلك والله أعلم أن آية البقرة لما كان الوارد فيها جوابا لحكم أخراوى يستقبل وليس فى الحال منه إلا ما زعم مجرد واعتقاد أن الأمر يكون كذلك ناسبه النفى بما وضعه من الحروف لنفى المستقبل لأن لن يفعل جواب سيفعل ، ولما كان الوارد فى سورة الجمعة جوابا لزعمهم أنهم أولياء الله من دون الناس وذلك حكم دنياوى ووصف حالى لا استقبال فيه ناسبه النفى بلا التى لنفى ما يأتى من غير اختصاص الا بغير الماضى وقد تتعاقب مع ما التى لنفى الحال .

فإن قلت : فإن ما النافية أخص بالحال فهى أنسب قلت : قد يفهم من ما نفى مجدد للحال دون ما يتصل به فقد يقول القائل : ما يقوم زيد ، يريد ما يقوم اليوم ولا يريد أنه لا يقوم غدا وما صالحة لهذا المعنى وهم إنما أرادوا أنهم أولياء مستمرون على ذلك وان تلك صفتهم فى الحال وما يليه إلى آخر حياتهم إذ ذلك هو الموجب أن تكون لهم الدار الآخرة خالصة من دون الناس كما زعموا فلما كان زعمهم هذا ناسبه نفى دعواهم زتكذيب زعمهم بحرف أنص فى نفى ذلك وانه لا يقع منهم التمنى فى حالهم ولا فيما بعده أبدا .

فإن قلت : ان قوله " أبدا " قد أحرز هذا قلت : تأكيد ذلك أبلغ فنغى بلا وأكد بالتأبيد فجاء كل على أعلى البلاغة . والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 47 ﴾

فصل

قال الإمام السبكى :

قَوْله تعَالَى ﴿ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا ﴾ وَفِي الْبَقَرَة ﴿ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ ﴾ مَا نَصُّهُ : تَكَلَّمَ فِيهِ السُّهَيْلِيُّ بِنَاءً عَلَى أَنَّ كَلِمَةَ " لَا " أَبْلَغُ .

وَصَاحِبُ دُرَّةِ التَّنْزِيلِ بِنَاءً عَلَى أَنَّ " لَنْ " أَبْلَغُ .

وَأَنَا أَقُولُ إنَّ " لَنْ " أَبْلَغُ فِي حَقِيقَةِ النَّفْيِ وَالْمُبَالَغَةِ فِيهِ أَوَّلَ زَمَانِ النَّفْيِ ، وَ " لَا " أَبْلَغُ فِي الطَّرَفِ الْآخَرِ وَهُوَ الْمُسْتَقْبَلُ مَعَ اشْتِرَاكِهِمَا فِيهِ .

وَوَرَدَ التَّأْبِيدُ فِيهِمَا ، وَإِذَا عُرِفَ ذَلِكَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ قَالَ ﴿ قُلْ إنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ ﴾ وَهَذَا الشَّرْطُ وَصْلَةٌ وَاحِدَةٌ وَهِيَ نِهَايَةُ مُرَادِ الْمُؤْمِنِ ، وَجَزَاؤُهَا الْأَمْرُ بِتَمَنِّي الْمَوْتِ لِذَلِكَ ، لِأَنَّهُ إذَا كَانَتْ نِهَايَةُ الْمُرَادِ قَدْ حَصَلَتْ فَلَا مَانِعَ مِنْ تَمَنِّي الْمَوْتِ الْمُوصِلِ إلَى الدَّارِ الْآخِرَةِ الْخَالِصَةِ الَّتِي ثَبَتَ حُصُولُهَا لَهُمْ عَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ ، فَحَسُنَ بَعْدَهُ " لَنْ " لِأَنَّهَا قَاطِعَةٌ بِالنَّفْيِ الْآنَ الْمُضَادِّ لِلشَّرْطِ الَّذِي قُدِّرَ حُصُولُهُ الْآنَ ، فَالْمَقْصُودُ تَحْقِيقُ النَّفْيِ الْآنَ وَتَأْكِيدُهُ ، وَإِنْ امْتَدَّ فِي الْمُسْتَقْبَلِ ، وَلِذَلِكَ قُرِنَ بِالتَّأْبِيدِ ، فَحَصَلَ تَأْكِيدَانِ أَحَدُهُمَا فِي الطَّرَفِ الْأَوَّلِ بِلَنْ وَالثَّانِي فِي الطَّرَفِ الْآخَرِ بِالتَّأْبِيدِ .

وَفِي سُورَةِ الْجُمُعَةِ قَالَ ﴿ إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ ﴾ فَجَعَلَ الشَّرْطَ أَمْرًا مُسْتَقْبَلًا قَدْ يَقَعُ الزَّعْمُ مِنْهُمْ غَدًا أَوْ بَعْدَ غَدٍ .

(125/60)

وَرَتَّبَ عَلَيْهِ الْأَمْرَ بِتَمَنِّي الْمَوْتِ ، لِأَنَّهُ يَلْزَمُ مِنْ كَوْنِهِمْ أَوْلِيَاءَ حُصُولُ الدَّارِ الْآخِرَةِ لَهُمْ ، وَإِنْ لَمْ يَدُلَّ عَلَيْهَا مُطَابَقَةً كَالْآيَةِ الْأُولَى فَجَاءَ الِانْتِفَاءُ لِلتَّمَنِّي الْمُسْتَقْبَلِ الَّتِي مَتَى وَقَعَ الزَّعْمُ عُلِمَ انْتِفَاءُ التَّمَنِّي ، فَكَانَ التَّأْكِيدُ فِيهِ فِي الطَّرَفِ الْآخَرِ فَقَطْ ، وَكَذَلِكَ صُرِّحَ بِالتَّأْبِيدِ ، وَلَمْ يُؤْتَ بِصِيغَةِ " لَنْ " فَإِنْ قُلْت فَمِنْ أَيْنَ لَك هَذَا الْفَرْقُ بَيْنَ " لَنْ " وَ " لَا " وَلَمْ يَذْكُرْهُ النُّحَاةُ وَغَايَةُ مَا ذَكَرَهُ بَعْضُهُمْ الِاخْتِلَافُ فِي أَنَّ " لَنْ " أَوْسَعُ أَوْ " لَا " أَوْسَعُ وَفِي أَنَّ " لَا " تَخْتَصُّ بِالْمُسْتَقْبَلِ أَوْ تَحْتَمِلُ الْحَالَ وَالِاسْتِقْبَالَ ، وَهَذَا الَّذِي قُلْته أَنْتَ مِنْ أَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا أَبْلَغُ مِنْ وَجْهٍ لَمْ يَذْكُرْهُ أَحَدٌ .

قُلْت وَإِنْ لَمْ يَذْكُرُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمْ يَنْفُوهُ وَيُؤْخَذُ مِنْ اسْتِقْرَاءِ مَوَارِدِهَا .

(126/60)

قَالَ تَعَالَى ﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا ﴾ ﴿ وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً ﴾ ﴿ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى ﴾ ﴿ وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ ﴿ إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا ﴾ ﴿ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا ﴾ ﴿ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴾ ﴿ لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى ﴾ ﴿ لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا ﴾ ﴿ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ ﴾ ﴿ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴾ ﴿ لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ ﴾ ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي ﴾ وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنْ الْآيَاتِ .

فَانْظُرْ مَوَارِدَ هَذِهِ الْآيَاتِ وَقُوَّةَ تَحْقِيقِ النَّفْيِ فِي الْحَالِ فِيهَا ، وَفِي بَعْضِهَا التَّأْبِيدُ لِإِرَادَةِ تَقْوِيَةِ الطَّرَفَيْنِ وَفِي قَوْلِهِ (إذًا أَبَدًا) الْمَقْصُودُ تَحْقِيقُ النَّفْيِ مِنْ ذَلِكَ الْوَقْتِ إلَى الْأَبَدِ إنْ تَأَخَّرَ عَنْ وَقْتِ الْخِطَابِ فَالتَّأْبِيدُ مِنْ ابْتِدَاءِ زَمَانِهِ إلَى الْأَبَدِ وَلِذَلِكَ احْتَرَزْت فِي أَوَّلِ كَلَامِي فَلَمْ أَقُلْ مِنْ الْآنَ وَأَمَّا " لَا " فَقَالَ تَعَالَى ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ لِأَنَّ الْقَصْدَ نَفْيُ عِلْمِهِمْ فِي الْمُسْتَقْبَلِ .

فَلَا يَحْسُنُ هُنَا .

(127/60)

وَكَذَلِكَ ﴿ لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ ﴾ لَيْسَ الْمَقْصُودُ الْمُبَالَغَةَ فِي تَأْكِيدِ النَّفْيِ لِأَنَّهُ مَعْلُومٌ وَقَوْلُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ ﴾ أَيْ لَا أَبْرَحُ مُسَافِرًا وَلَعَلَّهُ قَالَ قَبْلَ السَّفَرِ فَلَيْسَ كَقَوْلِ أَخِي يُوسُفَ ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ ﴾ ﴿ وَإِذًا لَا يَلْبَسُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ لَمَّا كَانَ الْمُسْتَثْنَى الزَّمَانَ الْأَوَّلَ جَازَ " لَا " وَالْمُسْتَثْنَى فِي ﴿ لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى ﴾ الْفِعْلُ فَكَانَ " لَنْ " مَعَ تَحْقِيقِ النَّفْيِ فِي أَوَّلِ الْأَزْمِنَةِ وَانْظُرْ كَيْفَ وَقَعَ التَّعَادُلُ بَيْنَ " لَنْ " وَ " لَا " اشْتَرَكَا فِي نَفْيِ الْمُسْتَقْبَلِ وَاخْتَصَّتْ " لَا " بِنَفْيِ الْحَالِ وَالْمَاضِي وَاخْتَصَّتْ لَنْ بِقُوَّةِ النَّفْيِ مِنْ ابْتِدَاءِ الْمُسْتَقْبَلِ وَكَذَلِكَ جَاءَتْ فِي قَوْلِهِ ﴿ لَنْ تَرَانِي ﴾ لِأَنَّ الْمَقْصُودَ قُوَّةُ نَفْيِ رُؤْيَتِهِ ذَلِكَ الْوَقْتَ فِي الدُّنْيَا ، وَلَمْ يَجِئْ فِيهَا التَّأْبِيدُ فَلَا صَرِيحَ فِي دَلَالَتِهِمَا عَلَى النَّفْيِ فِي الْآخِرَةِ وَدَلَالَةُ " لَنْ " عَلَى النَّفْيِ فِي أَوَّلِ أَزْمِنَةِ الِاسْتِقْبَالِ أَقْوَى مِنْ دَلَالَةِ " لَا " وَدَلَالَةُ " لَا " عَلَى اسْتِغْرَاقِ الْأَزْمِنَةِ الْمُسْتَقْبَلَةِ أَقْوَى مِنْ دَلَالَةِ " لَنْ " لِمَا فِي " لَا " مِنْ الْمَدِّ الْمُنَاسِبِ لِلْمُسْتَقْبَلِ ، فَلِذَلِكَ نَقُولُ " لَا " أَوْسَعُ " وَلَنْ " أَقْوَى وُسْعَةً لَا فِي الظَّرْفِ مِنْ الْمُسْتَقْبَلِ وَيَمُدُّهُ مَا قَبْلَهُ إلَى أَوَّلِ أَزْمِنَةِ الِاسْتِقْبَالِ ، وَقَدْ تُسْتَعْمَلُ فِي الْحَالِ ، وَفِي الْمَاضِي فَصَارَتْ

لِجَمِيعِ الْأَزْمِنَةِ ؛ " وَلَنْ " لَا تَصْلُحُ إلَّا لِلْمُسْتَقْبَلِ وَهِيَ بَاقِيَةٌ فِي أَوَّلِهِ ، فَظَاهِرُ " لَنْ " بَاقِيَةٌ وَالْمُعَادَلَةُ بَيْنَ الْحَرْفَيْنِ مِنْ حِكْمَةِ لِسَانِ الْعَرَبِ .

وَاَللَّهُ أَعْلَمُ انتهى . ا هـ ﴿ فتاوى السبكى حـ 1 صـ 119.117 ﴾

(129/60)

ومن فوائد ابن عرفة فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدار الآخرة عِندَ الله خَالِصَةً مِّن دُونِ الناس . . . ﴾ .

هذا (إما) أمر خاص بالنبي صلى الله عليه وسلم لأن يقوله لهم ، أو أمر لكل واحد من المسلمين أن يقوله لهم ، لكنه لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالذات ولعموم المؤمنين (بالتّبع) ، وهذا قياس (شرطي استثنائي) (وفي) قوله ﴿ وَلَوْ عَلِمَ الله فِيهِمْ خَيْراً لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ قياس شرطي اقتراني ، وفي القرآن أيضا القياس الحملي .

قال الزّمخشري : سبب نزول الآية أن قوما من اليهود والنصارى قالوا : ﴿ لَن يَدْخُلَ الجنة

إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نصارى ﴾ وقرره ابن عطية بأن اليهود قالوا : ﴿ نَحْنُ أبناؤا الله وَأَحِبَّاؤُهُ ﴾ فقال لهم الله عز وجل ؛ ﴿ فَتَمَنَّوُاْ الموت إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ فهو أحسن لكم .

قال : إن الله منعهم من التمنّي وهذا على القول بالصرفة .

قال ابن عرفة : ولا يبعد إيراد الأمرين في كلام ابن عطية ، ويكون على الأول خطابا لمن ليس كفره عنادا ، فلا يتمنى الموت لعلمه بكذبه في مقالته ، والصرفة لمن ليس كفره عنادا يريد أن يتمنى الموت فيصرفه الله عن ذلك التمني تعجيزا له .

فإن قلت : هلا ترك ذكر خالصة فهو أخص وأبلغ (لتناوله) تعجيز من زعم منهم أن الدار الآخرة له ولغيره ؟

فالجواب : أنه جاء على حسب الدعوى : لأنهم قالوا : ﴿ لَن يَدْخُلَ الجنة إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نصارى ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عرفة حـ 1 صـ 375.376 ﴾

ومن فوائد الزمخشرى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ خَالِصَةً ﴾ نصب على الحال من الدار الآخرة .

والمراد الجنة ، أي سالمة لكم ، خاصة بكم ، ليس لأحد سواكم فيها حق .

يعني إن صحّ قولكم لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً .

و﴿ الناس ﴾ للجنس وقيل : للعهد وهم المسلمون ﴿ فَتَمَنَّوُاْ الموت ﴾ لأن من أيقن أنه من أهل الجنة اشتاق إليها وتمنى سرعة الوصول إلى النعيم والتخلص من الدار ذات الشوائب ، كما روى عن المبشرين بالجنة ما روى .

كان علي رضي الله عنه يطوف بين الصفين في غلالة ، فقال له ابنه الحسن : ما هذا بزيّ المحاربين .

فقال : يا بنيّ لا يبالي أبوك على الموت سقط ، أم عليه سقط الموت .

وعن حذيفة رضي الله عنه أنه كان يتمنى الموت ، فلما احتضر قال : حبيب جاء على فاقة ، لا أفلح من ندم .

يعني على التمني .

وقال عمار بصفين : الآن ألاقي الأحبة محمداً وحزبه .

وكان كل واحد من العشرة يحب الموت ويحنّ إليه .

وعن النبي صلى الله عليه وسلم :

(44) " لو تمنوا الموت لغص كل إنسان بريقه فمات مكانه وما بقي على وجه الأرض يهودي " ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ بما أسلفوا من موجبات النار من الكفر بمحمد وبما جاء به ، وتحريف كتاب الله ، وسائر أنواع الكفر والعصيان . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الكشاف حـ 1 صـ 166 . 167 ﴾

ومن فوائد ابن عطية فى الآية

قال رحمه الله :

وقوله تعالى : ﴿ قل إن كانت لكم الدار الآخرة ﴾ الآية

أمر لمحمد صلى الله عليه وسلم أن يوبخهم ، والمعنى : إن كان لكم نعيمها وحظوتها وخيرها فذلك يقتضي حرصكم على الوصول إليها ﴿ فتمنوا الموت ﴾ ، ﴿ الدار ﴾ اسم ﴿ كانت ﴾ ، و ﴿ خالصة ﴾ خبرها ، ويجوز أن يكون نصب ﴿ خالصة ﴾ على الحال ، و ﴿ عند الله ﴾ خبر كان ، و ﴿ من دون الناس ﴾ : يحتمل أن يراد ب ﴿ الناس ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم ومن تبعه ، ويحتمل أن يراد العموم التام وهو قول اليهود فيما حفظ عنهم ، وقرأ ابن أبي إسحاق بكسر الواو من " تمنوا " للالتقاء ، وحكى الأهوازي عن أبي عمرو أنه قرأ " تمنوا الموت " بفتح الواو ، وحكي عن غيره اختلاس الحركة في الرفع ، وقراءة الجماعة بضم الواو . وهذه آية بينة أعطاها الله رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم لأن اليهود قالت : نحن أبناء الله وأحباؤه ، وشبه ذلك من القول ، فأمر الله نبيه أن يدعوهم إلى تمني الموت ، وأن يعلمهم أنه من تمناه منهم مات ، ففعل النبي

صلى الله عليه وسلم ذلك ، فعلم اليهود صدقه ، فأحجموا عن تمنيه ، فرقاً من الله لقبح أعمالهم ومعرفتهم بكذبهم في قولهم : نحن أبناء الله وأحباؤه ، وحرصاً منهم على الحياة .

(131/60)

وقيل إن الله تعالى منعهم من التمني وقصرهم على الإمساك عنه ، لتظهر الآية لنبيه صلى الله عليه وسلم . والمراد بقوله " تمنوا " أريدوه بقلوبكم واسألوه ، هذا قول جماعة من المفسرين ، وقال ابن عباس : المراد فيه السؤال فقط وإن لم يكن بالقلب ، وقال أيضاً هو وغيره : إنما أمروا بالدعاء بالموت على أردأ الحزبين من المؤمنين أو منهم ، وذكر المهدوي وغيره أن هذه الآية كانت مدة حياة النبي صلى الله عليه وسلم وارتفعت بموته . والصحيح أن هذه النازلة من موت من تمنى الموت إنما كانت أياماً كثيرة عند نزول الآية ، وهي بمنزلة دعائه النصارى من أهل نجران إلى المباهلة ، وقالت فرقة : إن سبب هذا الدعاء إلى تمني الموت أن النبي صلى الله عليه وسلم أراد به هلاك الفريق المكذب أو قطع حجتهم ، لا أن علته قولهم نحن أبناء الله .

ثم أخبر تعالى عنهم بعجزهم وأنهم لا يتمنونه ، و ﴿ أبداً ﴾ ظرف زمان وإذا كانت " ما " بمعنى الذي فتحتاج إلى عائد تقديره قدمته ، وإذا كانت مع قدمت بمثابة المصدر غنيت

عن الضمير ، هذا قول سيبويه ، والأخفش يرى الضمير في المصدرية ، وأضاف ذنوبهم واجترامهم إلى الأيدي وأسند تقديمها إليها إذ الأكثر من كسب العبد الخير والشر إنما هو بيديه ، فحمل جميع الأشياء على ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ والله عليم بالظالمين ﴾ ظاهرها الخبر ومضمنها الوعيد ، لأن الله عليم بالظالمين وغيرهم ، ففائدة تخصيصهم حصول الوعيد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 1 صـ 181 ﴾

(132/60)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِندَ اللّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (94) ﴾

والله سبحانه وتعالى يريد أن يفضح اليهود . . ويبين إن إيمانهم غير صحيح وأنهم عدلوا وبدلوا واشتروا بآيات الله ثمنا قليلا . . وهو سبحانه يريدنا أن نعرف أن هؤلاء اليهود . . لم يفعلوا ذلك عن جهل ولا هم خدعوا بل هم يعلمون أنهم غيروا وبدلوا . . ويعرفون أنهم

جاءوا بكلام ونسبوه إلي الله سبحانه وتعالى زورا وبهتانا . . ولذلك يطلب من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفضحهم أمام الناس ويبين كذبهم بالدليل القاطع . . فيقول : " قل إن كانت لكم الدار الآخرة" : " قل" موجهة إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم أي قل لهم يا محمد . . ولا يقال هذا الكلام إلا إذا كان اليهود قالوا إن لهم : " الدار الآخرة عند الله خالصة" .

الشيء الخالص هو الصافي بلا معكر أو شريك . أي الشيء الذي لك بمفردك لا يشاركك فيه أحد ولا ينازعك فيه أحد . . فالله سبحانه وتعالى يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم : إن كانت الآخرة لهم وحدهم عند الله لا يشاركهم فيها أحد . . فكان الواجب عليهم أن يتمنوا الموت ليذهبوا إلي نعيم خالد . . فما دامت لهم الدار الآخرة وما داموا موقنين من دخول الجنة وحدهم . . فما الذي يجعلهم يبقون في الدنيا . . ألا يتمنون الموت كما تمنى المسلمون الشهادة ليدخلوا الجنة . . وليست هذه هي الافتراءات الوحيدة من اليهود على الله سبحانه وتعالى . . واقرأ قوله جل جلاله :

وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى

(من الآية 111 سورة البقرة)

من الذي قال ؟ اليهود قالوا عن أنفسهم لن يدخل الجنة إلا من كان هودا والنصارى قالوا عن أنفسهم لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانيا . . كل منهم قال عن نفسه إن الجنة خاصة به . ولقد شكل قولهم هذا لنا لغزا في العقائد . . من الذي سيدخل الجنة وحده . . اليهود أم النصارى ؟ نقول : إن الله سبحانه وتعالى أجاب عن هذا السؤال بقوله جل جلاله :

وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ

(من الآية 113 سورة البقرة)

وهذا أصدق قول قالته اليهود وقالته النصارى بعضهم لبعض . فاليهود ليسوا على شيء والنصارى ليسوا على شيء . . وكلاهما صادق في مقولته عن الآخر . . في الآية الكريمة التي نحن بصددها . . اليهود قالوا إن الدار الآخرة خالصة لهم . . سنصدقهم ونقول لهم لماذا لا يتعجلون ويتمنون الموت . . فالمفروض أنهم يشتاقون للآخرة مادامت خالصة لهم . . ولذلك قال الله تبارك وتعالى : " فتمنوا الموت إن كنتم صادقين " . . ولكنها أمانٍ كاذبة عند اليهود وعند النصارى . . واقرأ قوله سبحانه :

وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاء اللّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ(18)

(سورة المائدة)

إذن هم يتوهمون أنهم مهما فعلوا من ذنوب فإن الله لن يعذبهم يوم القيامة ولكن عدل الله يأبى ذلك . . كيف يعذب بشرا بذنوبهم ثم لا يعذب اليهود بما اقترفوا من ذنوب . . بل يدخلهم الجنة في الآخرة . . وكيف يجعل الله سبحانه وتعالى الجنة في الآخرة لليهود وحدهم . . وهو قد كتب رحمته لأتباع محمد صلى الله عليه وسلم والمؤمنين برسالة الإسلام . . وأبلغ اليهود والنصارى بذلك في كتبهم . . واقرأ قوله سبحانه وتعالى :

(134/60)

وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاء وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ(156) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ

(الآية 156 ومن الآية 157 سورة الأعراف)

إذا كانت هذه هي الحقيقة الموجودة في كتبهم . . والحق تبارك وتعالى يقول :

وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ(85)

(سورة آل عمران)

فكيف يدعي اليهود أن الدار الآخرة خالصة لهم يوم القيامة ؟ ولكن الحق جل جلاله يفضح كذبهم ويؤكد لنا أن ما يقولونه هم أول من يعرف أنه كذب . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ 472.470 ﴾

(135/60)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدار الآخرة عِندَ الله خَالِصَةً ﴾ شرط جوابه " فَتَمَنّوا " .

و" الدار " اسم "كان" وهي الجنة ، والأولى أن يقدّر حذف مضاف ، أي : نعيم الدار الآخرة ؛ لأن الدّار الآخرة في الحقيقة هي انقضاء الدُّنيا ، وهي للفريقين .

واختلفوا في خبر "كان" على ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه " خالصة " ، فيكون " عند " ظرف لـ " خالصة " ، أو للاستقرار الذي " لكم " ويجوز أن تكون حالاً من " الدار " ، والعامل فيه "كان" ، أو الاستقرار .

وأما " لكم " فيتعلق بـ "كان" ؛ لأنها تعمل في الظرف وشبيهه .

قال أبو البقاء رحمه الله تعالى : ويجوز أن تكون للتبيين ، فيكون موضعها بعد " خالصة " أي : خالصة لكم فتتعلّق بنفس " خالصة " ، وهذا فيه نظر ؛ لأنه متى كانت للبيان تعلّقت بمحذوف تقديره : أعني لكم ، نحو : سُقْياً لك ، تقديره : أعني بهذا الدعاء لك ، وقد صرح غيره في هذا الموضع بأنها للبيان ، وأنها متعلّقة حينئذ بمحذوف كما تقدم ، ويجوز أن يكون صفة لـ " خالصة " في الأصل قُدِّمَ عليها فصار حالاً منها ، فيتعلّق بمحذوف .

الثاني : أن الخبر " لكم " فيتعلّق بمحذوف وينصب خالصة حينئذ على الحال ، والعامل فيها إما " كان " ، أو الاستقرار في " لكم " ، و" عند " منصوب بالاستقرار أيضاً .

الثالث : أن الخبر هو الظَّرف ، و" خالصة " حال أيضاً ، والعامل فيها إما " كان " أو الاستقرار ، وكذلك " لكم " ، وقد منع من هذا الوجه قَوْمٌ فقالوا : لا يجوز أن يكون الظرف خبراً ؛ لأن هذا الكلام لا يستقل .

وجوز ذلك المهدوي ، وابن عطية ، وابو البقاء ، واستشعر أبو البقاء هذا الإشكال ، وأجاب عنه بأن قال : وسوغ أن يكون " عند " خبر " كان لكم " يعني لفظ " لكم " سوغ وقوع " عند " خبراً إذ كان فيه تخصيص وَتَبْيِينٌ ، ونظيره قوله : ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص : 4] ، لولا " له " لم يصحّ أن يكون " كفواً " خبراً .

و" مِنْ دُونِ النَّاسِ " في محلّ نصب بـ " خالصة " ؛ لأنك تقول : خَلُصَ كذا من كذا ، والمراد به سوى لا معنى المكان ، كما يقول القائل لمن وهب منه ملكاً : هذا لك دون النّاس .

وقرأ الجمهور : " فتَمَنَّوُا المَوْتَ " بضم الواون ويروى عن أبي عمرو فتحها تخفيفاً واختلاس الضمة ، وقرأ ابن أبي إسحاق بكسرها على التقاء السّاكنين تشبيهاً بواو ﴿ لَواستطعنا ﴾ [التوبة : 42] المراد بها عندية المنزلة .

قال ابن الخطيب : " ولا بعد أيضاً في حمله على [المكان] فلعل اليهود كانوا مشبّهة ، فاعقدوا العِنْدِيَة المكانية " .

وقوله تعالى : " فتمنوا الموت " هذا أمر متعلّق على أمر مفقود ، وهو كونهم صادقين ، فلا يكون الأمر موجوداً ن أو الغرض إظهار كذبهم في دعواهم ، وفي هذا التمني قولان :

أحدهما : قول ابن عباس : إنهم أمروا بأن يَدْعُوَ الفريقان بالموت على الفرقة الكاذبة .

والثاني : أن يقولوا : ليتنا نموت وهذا أولى ؛ لأنه أقرب إلى موافقة اللفظ .

قال عليه الصلاة والسلام : " لَوْ تَمَنَّوا المَوْتَ لَغَصَّ كُلُّ إنْسَانٍ بِرِيقِهِ وَمَا بَقِيَ عَلَى وَجْهِ الأَرضِ يَهُودِيٌّ إلاَّ مَاتَ " وقال عليه الصلاة والسلام : " لَوْ أنَّ اليَهُودَ تَمَنَّوا المَوْتَ لماتُوا ورأَوا مَقَاعِدَهُمْ من النَّارِ ولَوْ خَرَجَ الَّذِينَ يُبَاهِلُونَ [رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم] ، لَرَجَعُوا إلاَ يَجِدُونَ أَهْلاً ولاَ مَالاً " .

قوله تعالى : ﴿ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ كقوله : ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة : 91] .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 2 صـ 295. 296 ﴾ . باختصار .

(137/60)

قوله تعالى ﴿ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (95) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان التقدير : فقال لهم فما تمنوه ؟ عطف عليه قوله – إخباراً بالغيب قطعاً للعناد مؤكداً لأن ادعاءهم الخلوص أعظم من ادعائهم الولاية كما في سورة الجمعة : ﴿ ولن يتمنوه أبداً ﴾ ، ثم ذكر السبب في عدم التمني فقال : ﴿ بما قدمت ﴾ وهو من التقدمة وهي وضع الشيء قداماً وهو جهة القدم الذي هو الأمم والتجاه أي قبالة الوجه – قاله الحرالي : وعبر باليد التي بها أكثر الأفعال إشارة إلى أن أفعالهم لقباحتها كأنها خالية عن القصد فقال : ﴿ أيديهم ﴾ أي من الظلم وإلى ذلك أشار قوله : عاطفاً على ما تقديره : فالله عليم بذلك ؟ ﴿ والله ﴾ الذي لا كفؤ له ﴿ عليم بالظالمين ﴾ أي كلهم حيث أظهر تنبيهاً على الوصف الموجب للحكم وتعميماً وتهديداً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ

﴿ 201 ﴾

فصل

قال الفخر :

أما قوله تعالى : ﴿ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ ﴾ فخبر قاطع عن أن ذلك لا يقع في المستقبل وهذا إخبار عن الغيب لأن مع توفر الدواعي على تكذيب محمد صلى الله عليه وسلم وسهولة الإتيان بهذه الكلمة ، أخبر بأنهم لا يأتون بذلك فهذا إخبار جازم عن أمر قامت الأمارات على ضده فلا يمكن الوصول إليه إلا بالوحي .

وأما قوله تعالى : ﴿ أَبَدًا ﴾ فهو غيب آخر لأنه أخبر أن ذلك لا يوجد ولا في شيء من الأزمنة الآتية في المستقبل ولا شك أن الإخبار عن عدمه بالنسبة إلى عموم الأوقات فهما غيبان .

وأما قوله تعالى : ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ فبيان للعلة التي لها لا يتمنون (الموت) لأنهم إذا علموا سوء طريقتهم وكثرة ذنوبهم دعاهم ذلك إلى أن لا يتمنوا الموت .

وأما قوله تعالى : ﴿ والله عليهم بالظالمين ﴾ فهو كالزجر والتهديد لأنه إذا كان عالماً بالسر والنجوى ولم يمكن إخفاء شيء عنه صار تصور المكلف لذلك من أعظم الصوارف عن المعاصي ، وإنما ذكر الظالمين لأن كل كافر ظالم وليس كل ظالم كافراً فلما كان ذلك أعم كان أولى بالذكر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 175 ﴾

وقال العلامة الزمخشري :

وقوله : ﴿ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا ﴾ من المعجزات لأنه إخبار بالغيب وكان كما أخبر به كقوله : ﴿ وَلَن تَفْعَلُواْ ﴾ فإن قلت : ما أدراك أنهم لم يتمنوا ؟

قلت : لأنهم لو تمنوا لنقل ذلك كما نقل سائر الحوادث ، ولكان ناقلوه من أهل الكتاب وغيرهم من أولى المطاعن في الإسلام أكثر من الذرّ ، وليس أحد منهم نقل ذلك .

فإن قلت : التمني من أعمال القلوب ، وهو سر لا يطلع عليه أحد فمن أين علمت : أنهم لم يتمنوا ؟

قلت : ليس التمني من أعمال القلوب إنما هو قول الإنسان بلسانه : ليت لي كذا ، فإذا قاله قالوا : تمنى ، وليت : كلمة التمني ، ومحال أن يقع التحدي بما في الضمائر والقلوب ولو كان التمني بالقلوب وتمنوا لقالوا : قد تمنينا الموت في قلوبنا ، ولم ينقل أنهم قالوا ذلك فإن قلت : لم يقولوه لأنهم علموا أنهم لا يصدّقون .

قلت : كم حكى عنهم من أشياء قاولوا بها المسلمين من الافتراء على الله وتحريف كتابه وغير ذلك مما علموا أنهم غير مصدقين فيه ولا محمل له إلا الكذب البحت ولم يبالوا ،

فكيف يمتنعون من أن يقولوا إنّ التمني من أفعال القلوب وقد فعلناه ، مع احتمال أن يكونوا صادقين في قولهم وإخبارهم عن ضمائرهم ، وكان الرجل يخبر عن نفسه بالإيمان فيصدّق مع احتمال أن يكون كاذباً لأنه أمر خافٍ لا سبيل إلى الاطلاع عليه ﴿ والله عَلِيمٌ بالظالمين ﴾ تهديد لهم ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ ﴾ هو من وجد بمعنى علم المتعدي إلى مفعولين في قولهم : وجدت زيداً ذا الحفاظ ومفعولاه "هم أحرص" . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الكشاف حـ 1 صـ 167 ﴾

(139/60)

وقال الآلوسى :

﴿ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا ﴾ الظاهر أنه جملة مستأنفة معترضة غير داخلة تحت الأمر سيقت من جهته تعالى لبيان ما يكون منهم من الإحجام الدال على كذبهم في دعواهم ، والمراد لن يتمنوه ما عاشوا ، وهذا خاص بالمعاصرين له صلى الله عليه وسلم على ما روي عن نافع رضي الله تعالى عنه قال : خاصمنا يهودي وقال : إن في كتابكم ﴿ فَتَمَنَّوُاْ الموت ﴾ الخ ، فأنا أتمنى الموت ، فمالي لا أموت ، فسمع ابن عمر رضي الله تعالى عنهما فغضب ، فدخل بيته وسل سيفه وخرج ، فلما رآه اليهودي فرّ منه ، وقال ابن عمر : أما والله لو أدركته

لضربت عنقه ، توهم هذا الكلب اللعين الجاهل أن هذا لكل يهودي أو لليهود في كل وقت لا إنما هو لأولئك الذين كانوا يعاندون ويجحدون نبوّة النبي صلى الله عليه وسلم بعد أن عرفوا ، وكانت المحاجة معهم باللسان دون السيف .

(140/60)

ويؤيد هذا ما أخرج ابن جرير عن ابن عباس موقوفاً : " لو تمنوه يوم قال لهم ذلك ما بقي على وجه الأرض يهودي إلا مات " وهذه الجملة إخبار بالغيب ومعجزة له صلى الله عليه وسلم ، وفيها دليل على اعترافهم بنبوّته صلى الله عليه وسلم لأنهم لو لم يتيقنوا ذلك ما امتنعوا من التمني ، وقيل : لا دليل ، بل الامتناع كان بصرف الصرفة كما قيل في عدم معارضة القرآن ، والقول بأنه كيف يكون ذلك معجزة مع أنه لا يمكن أن يعلم أنه لم يتمن أحد ، والتمني أمر قلبي لا يطلع عليه ، مجاب عنه بأنا لا نسلم أن المراد بالتمني هنا الأمر القلبي ، بل هو أن يقول : ليت كذا ونحوه كما مر آنفاً ، ولو سلم أنه أمر قلبي فهذا مذكور على طريق المحاجة وإظهار المعجزة فلا يدفع إلا بالإظهار والتلفظ كما إذا قال رجل لامرأته : أنت طالق إن شئتِ أو أحببت ، فإنه يعلق بالإخبار لا بالإضمار ، فحيث ثبت عدم تلفظهم بالإخبار ، وبأنه لو وقع لنقل واشتهر لتوفر الدواعي إلى نقله لأنه أمر عظيم يدور عليه أمر عظيم يدور عليه أمر

النبوّة ، فإنه بتقدير عدمه يظهر صدقه ، وبتقدير حصوله يبطل القول بنبوته ثبت كونه معجزة أيده بها ربه ، ومن حمل التمني على المجاز لا يرد عنده هذا السؤال ، ولا يحتاج إلى هذا الجواب ، وقد علمت ما فيه .

وذهب جمهور المفسرين إلى عموم حكم الآية لجميع اليهود في جميع الأعصار ، ولست ممن يقول بذلك وإن ارتضاه الجم الغفير ، وقالوا : إنه المشهور الموافق لظاهر النظم الكريم ، اللهم إلا أن يكون ذلك بالنسبة إلى جميع اليهود المعتقدين نبوّته صلى الله عليه وسلم الجاحدين لها في جميع الأعصار لا بالنسبة إلى اليهود مطلقاً في جميعها ومع هذا لي فيه نظر بَعدُ .

(141/60)

﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ أي بسبب ما عملوا من المعاصي الموجبة للنار كالكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن وقتل الأنبياء ، و(ما) موصولة ، والعائد محذوف أو مصدرية ولا حذف ، واليد كناية عن نفس الشخص ، ويكنى بها عن القدرة أيضاً لما أنها من بين جوارح الإنسان مناط عامة صنائعه ومدار أكثر منافعه ، ولا يجعل الإسناد مجازياً ؛ واليد على حقيقتها فيكون المعنى بما قدموا بأيديهم كتحريف التوراة ليشمل ما قدموا بسائر الأعضاء ، وهو أبلغ في الذم .

﴿ والله عَلِيمٌ بالظالمين ﴾ تذييل للتهديد والتنبيه على أنهم ظالمون في ادعاء ما ليس لهم ونفيه عن غيرهم ، والمراد بالعلم إما ظاهر معناه ، أو أنه كنى به عن المجازاة ، وأل إما للعهد وإيثار الإظهار على الإضمار للذم ، وإما للجنس فيدخل المعهودون فيه على طرز ما تقدم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 328 . 329 ﴾

" فائدة جليلة "

قال السمرقندى :

قال الزجاج : في هذه الآية أعظم حجة وأظهر دلالة على صحة رسالته صلى الله عليه وسلم ، لأنه قال لهم : فتمنوا الموت ، وأعلمهم أنهم لن يتمنوه أبداً فلم يتمنه واحد منهم . وفي هذه الآية دليل أن " لن " لا تدل على التأبيد ، لأنهم يتمنون الموت في الآخرة خلافاً لقول المعتزلة في قولهم : لن تراني ويقال : إن قوله (لن) إنما يقع على الحياة الدنيا خاصة ، ولم يقع على الآخرة لأنهم يتمنون الموت في النار إذا كانوا في جهنم (1) ، ولو أنهم سألوا الموت في الدنيا ولم يموتوا ، وكان في ذلك تكذيباً لقول النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان في ذلك أيضاً ذهاب معجزته . (2)

فلما لم يتمنوا الموت ، ثبت بذلك عندهم أنه رسول الله وظهر عندهم معجزته ، وظهر أن الأمر كما قال تعالى : ﴿ والله عَلِيمٌ بالظالمين ﴾ ، فهو عليم بهم وبغيرهم من الظالمين ؛ وإنما الفائدة ها هنا أنه عليم بمجازاتهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ

(1) – يشير إلى قوله تعالى على لسان أهل النار " ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك " [الزخرف : 77] .

(2) – هذا كلام نفيس يرد رداً قاطعاً على المعتزلة الذين يقولون بنفي الرؤية مستدلين بقوله تعالى رداً على موسى عليه السلام لما طلب الرؤية قيل له " لن تراني " بناء على أن [لن] للنفي على التأبيد ، فكان في هذه الآية " ولن يتمنوه أبداً " قطعاً وإبطالاً لحجتهم ومن ملح العلم أن المعتزلة استدلوا على نفي الرؤية بـ [لن] و [لا] في قوله تعالى " لن تراني " وقوله " لا تدركه الأبصار " ، ونفي تمنى اليهود للموت ورد بـ [لن يتمنوه] و [ولا يتمنونه] وقد تقدمت الإشارة إلى أن نفي هذا التمني مقيد بالدنيا دون الآخرة ، وكذلك إن شاء الله نفي الرؤية مقيد بالدنيا دون يوم المزيد نسأل الله أن يمن علينا بالنظر إلى وجهه الكريم .

(142/60)

سؤال : فإن قيل : إنه تعالى قال ههنا : ﴿ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا ﴾ وقال في سورة الجمعة : ﴿ وَلاَ يَتَمَنَّونَهُ أَبَداً ﴾ فلم ذكر ههنا (لن) وفي سورة الجمعة " لا" ؟

قلنا : إنهم في هذه السورة ، ادعوا أن الدار الآخرة خالصة لهم من دون الناس وادعوا في

سورة الجمعة أنهم أولياء لله من دون الناس والله تعالى أبطل هذين الأمرين بأنه لو كان كذلك لوجب أن يتمنوا الموت والدعوى الأولى أعظم من الثانية إذ السعادة القصوى هي الحصول في دار الثواب ، وأما مرتبة الولاية فهي وإن كانت شريفة إلا أنها إنما تراد ليتوسل بها إلى الجنة فلما كانت الدعوة الأولى أعظم لا جرم بين تعالى فساد قولهم بلفظ : " لن " لأنه أقوى الألفاظ النافية ولما كانت الدعوى الثانية ليست في غاية العظمة لا جرم اكتفى في إبطالها بلفظ " لا " لأنه ليس في نهاية القوة في إفادة معنى النفي . والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 175 ﴾

ومن فوائد ابن عرفة فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً . . . ﴾ .

وفي سورة الجمعة ﴿ وَلاَ يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً ﴾ – قال ابن عرفة ؛ إن كانا بمعنى واحد فلا سؤال . وإن كانت " لَن " أبلغ في النفي كما يقول الزمخشري : فلعل تلك الآية نزلت قبل هذه ، فلم تقتض المبالغة فجاءت هذه تأسيسا .

(143/60)

قلت : قوله : " أبدا " دال على المبالغة ، فقال : قد قالوا في قول الله تعالى : ﴿ خَالِدِينَ فِيهَآ أَبَداً ﴾ إنه عبارة على طول الإقامة فقط ، وأجاب أبو جعفر بن الزبير بأن آية البقرة لما كانت جوابا لأمر أخروي مستقبل وليس في الحال إلاّ زعم مجرد ناسبه النفي بـ " لن " الموضوعة لنفي المستقبل لأن لَنْ يَفْعَلَ جواب سَيَفْعَل ، وآية الجمعة جواب لزعمهم أنهم أولياء الله من دون الناس ، وهو حكم دنيوي ووصف حالي ، فناسبه النفي بـ " لا " التي ينفى بها المستقبل والحال ، ولم ينف بـ " ما " الخاصة بالحال ، لأنهم أرادوا أنهم أولياء الله مستمرون على ذلك إلى آخر حياتهم ، فكذبوا بما ينفي ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عرفة حـ 1 صـ 376 . 377 ﴾

ومن فوائد أبى حيان فى الآيتين

قال رحمه الله :

﴿ قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة ﴾ : نزلت فيما حكاه ابن الجوزي عندما قالت اليهود : إن الله لم يخلق الجنة إلا لإسرائيل وبنيه .

وقال أبو العالية والربيع : سبب نزول هاتين الآيتين قولهم : ﴿ لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً ﴾ و ﴿ نحن أبناء الله ﴾ و ﴿ لن تمسنا النار ﴾ الآيات ، وروي مثله عن قتادة . والضمير في قل ، إما للنبي صلى الله عليه وسلم ، وإما لمن ينبغي إقامة الحجة عليهم منه ومن غيره .

وفسروا الدار الآخرة بالجنة ، قالوا : وذلك معهود في إطلاقها على الجنة .

قال تعالى : ﴿ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوًّا في الأرض ولا فساداً ﴾ ومعلوم أن ما يجعل لهؤلاء هو الجنة ، ﴿ وللدار الآخرة خير للذين يتقون ﴾ والأحسن أن يكون ذلك على حذف مضاف دل عليه المعنى ، أي نعيم الدار الآخرة وحظوتها وخيرها ، لأن الدار الآخرة هي موضع الإقامة بعد انقضاء الدنيا .

وسميت آخرة لأنها متأخرة عن الدنيا ، أو هي آخر ما يسكن .

(144/60)

وقد تقدم الكلام على ذلك في قوله : ﴿ وهم بالآخرة هم يوقنون ﴾ ومعنى : عند الله ، أي في حكم الله ، كقوله تعالى : ﴿ فأولئك عند الله ﴾ أي في حكمه ﴿ هم الفاسقون ﴾ وقيل : المراد بالعندية هنا : المكانة والمرتبة والشرف ، لا المكان .

ومعنى خالصة : أي مختصة بكم ، لا حظ في نعيمها لغيركم .

واختلفوا في إعراب خالصة ، فقيل : نصب على الحال ، ولم يحك الزمخشري غيره ، فيكون لكم إذ ذاك خبر كانت ، ويكون العامل في الحال هو العامل في المجرور ، ولا يجوز أن يكون الظرف إذ ذاك الخبر ، لأنه لا يستقل معنى الكلام به وحده .

وقد وهم في ذلك المهدوي وابن عطية ، إذ قالا : ويجوز أن يكون نصب خالصة على الحال ، وعند الله خبر كان .

وقيل : انتصاب خالصة على أنه خبر كان ، فيجوز في لكم أن يتعلق بكانت ، لأن كان يتعلق بها حرف الجر ، ويجوز أن يتعلق بخالصة .

ويجوز أن تكون للتبين ، فيتعلق بمحذوف تقديره : لكم ، أعني نحو قولهم : ﴿ سقياً لك ﴾ إذ تقديره : لك أدعو .

﴿ من دون الناس ﴾ : متعلق بخالصة ، ودون هنا لفظ يستعمل للاختصاص ، وقطع الشركة .

تقول : هذا ولي دونك ، وأنت تريد لا حق فيه لك معي ولا نصيب .

وفي غير هذا المكان يأتي لمعنى الانتقاص في المنزلة أو المكان أو المقدار .

والمراد بالناس : الجنس ، وهو الظاهر لدلالة اللفظ وقوله : خالصة .

وقيل : المراد النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون .

وقيل : المراد به النبي صلى الله عليه وسلم ، قاله ابن عباس : قالوا ، ويطلق الناس ، ويراد به الرجل الواحد ، وهذا لا يكون إلا على مجاز وتنزيل الرجل الواحد منزلة الجماعة .

﴿ فتمنوا الموت ﴾ : أي سلوه باللسان فقط ، وإن لم يكن بالقلب ، قاله ابن عباس .

أو تمنوه بقلوبكم واسألوه بألسنتكم ، قاله قوم .

أو فسلوه بقلوبكم على أردإ الحزبين من المؤمنين أومنهم .

وروي عن ابن عباس وغيره ، وقرأ الجمهور : فتمنوا الموت ، بضم الواو ، وهي اللغة المشهورة في مثل : اخشوا القوم .

(145/60)

ويجوز الكسر تشبيهاً لهذه الواو بواو : ولو استطعنا ، كما شبهوا واو لو بواو اخشوا ، فضموا ، فقالوا : لو استطعنا .

وقرأ ابن أبي إسحاق : فتمنوا الموت بالكسر ، وحكى أبو علي الحسن بن إبراهيم بن يزداد ، عن أبي عمرو ، أنه قرأ : فتمنوا الموت ، بفتح الواو ، وحركها بالفتح طلباً للتخفيف ، لأن الضمة والكسرة في الواو يثقلان .

وحكى أيضاً عن أبي عمرو : واختلاس ضمة الواو .

﴿ وإن كنتم صادقين ﴾ في دعواكم أن الجنة لكم دون غيركم .

وجواب الشرط محذوف ، أي فتمنوا الموت .

وعلق تمنيهم على شرط مفقود ، وهو كونهم صادقين ، وليسوا بصادقين في أن الجنة خالصة لهم دون الناس ، فلا يقع التمني : والمقصود من ذلك التحدي وإظهار كذبهم ،

وذلك أن من أيقن أنه من أهل الجنة ، اختار أن ينتقل إليها ، وأن يخلص من المقام في دار الأكدار ، وأن يصل إلى دار القرار .

كما روي عمن شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة ، كعثمان ، وعليّ ، وعمار ، وحذيفة ، أنهم كانوا يختارون الموت ، وكذلك الصحابة كانت تختار الشهادة .

وفي الحديث الصحيح أنه قال صلى الله عليه وسلم : " ليتني أحيا ثم أقتل ثم أحيا فأقتل " لما علم من فضل الشهادة .

وقال ، لما بلغه قتل من قتل ببئر معونة : " يا ليتني غودرت معهم في لحف الجبل " وروي عن حذيفة أنه كان يتمنى الموت ، فلما احتضر قال : حبيب جاء على فاقة .

وعن عمار ، لما كان بصفين قال : غداً نلقى الأحبة ، محمداً وصحبه .

وعن عليّ أنه كان يطوف بين الصفين بغلالة ، فقال له ابنه الحسن : ما هذا بزيّ المحاربين ، فقال : يا بنيّ لا يبالي أبوك ، أعلى الموت سقط ، أم عليه سقط الموت .

وكان عبد الله بن رواحة ينشد ، وهو يقاتل الروم :

يا حبذا الجنة واقترابها . . .

طيبة وبارد شرابها

والروم روم قد دنا عذابها . . .

وفي قصتي قتل عثمان وسعيد بن جبير ما يدل على اختيارهما الشهادة ، وذلك أن عثمان جاءه جماعة من الصحابة فقالوا له : نقاتل عنك ؟ فقال لهم : لا ، وكان له قريب من ألف عبد ، فشهروا سيوفهم لما هجم عليهم ، فقال : من أغمد سيفه فهو حرّ .

فصبر حتى قتل .

وأما سعيد ، فإن الموكلين به ، لما طلبه الحجاج ، لما شاهدوا من لياذ السباع به وتمسحها به ، قالوا : لا ندخل في إراقة دم هذا الرجل الصالح ، قالوا له : طلبك ليقتلك ، فاذهب حيث شئت ، ونحن نكون فداء .

فقال : لا والله ، إني سألت ربي الشهادة ، وقد رزقنيها ، والله لا برحت .

وروي عن النبي ، صلى الله عليه وسلم : " لو تمنوا الموت لغص كل إنسان بريقه فمات مكانه وما بقي على وجه الأرض يهودي " وذلك أن الله أمر نبيه أن يدعوهم إلى تمني الموت ، وأن يعلمهم أنه من تمناه منهم مات .

ففعل النبي صلى الله عليه وسلم ذلك ، فعلم اليهود صدقه ، فأحجموا عن تمنيه فرقاً من الله .

﴿ ولن يتمنوه أبداً بما قدّمت أيديهم ﴾ : هذا من المعجزات ، لأنه إخبار بالغيب ، ونظيره من الإخبار بالمغيب قوله : ﴿ فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا ﴾ وظاهره أن من ادّعى أن الجنة

خالصة له دون الناس ممن اندرج تحت الخطاب في قوله : ﴿ قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة ﴾ ، لا يمكن أن يتمنى الموت أبداً ، ولذلك كان حرف النفي هنا لن الذي قد ادّعى فيه أنه يقتضي النفي على التأبيد ، فيكون قوله : أبداً ، على زعم من ادعى ذلك للتوكيد .

وأما من ادعى أنه بمعنى لا ، فيكون أبداً إذ ذاك مفيداً لاستغراق الأزمان .

ويعني بالأبد هنا : ما يستقبل من زمان أعمارهم .

وفي المنتخب ما نصه : وإنما قال هنا : ﴿ ولن يتمنوه ﴾ ، وفي الجمعة ﴿ ولا يتمنونه ﴾ لأن دعواهم هنا أعظم من دعواهم هناك ، لأن السعادة القصوى فوق مرتبة الولاية ، لأن الثانية تراد لحصول الأولى ، ولن أبلغ في النفي من لا ، فجعلها النفي الأعظم .

انتهى كلامه .

(147/60)

قال المهدوي في (كتاب التحصيل) من تأليفه : وهذه المعجزة إنما كانت على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم ارتفعت بوفاته صلى الله عليه وسلم .

ونظير ذلك رجل يقول لقوم حدثهم بحديث : دلالة صدقي ، أن أحرّك يدي ولا يقدر أحد

منكم أن يحرّك يده ، فيفعل ذلك ، فيكون دليلاً على صدقه ، ولا يبطل دلالته أن حركوا أيديهم بعد ذلك .

انتهى كلامه ، وقد قاله غيره من المفسرين .

قال ابن عطية : والصحيح أن هذه النازلة من موت من تمني الموت ، إنما كانت أياماً كثيرة عند نزول الآية ، وهي بمنزلة دعائه النصارى من أهل نجران إلى المباهلة ، انتهى كلامه .

وكلا القولين ، أعني قول المهدوي وابن عطية ، مخالف لظاهر القرآن ، لأن أبداً ظاهره أن يستغرق مدة أعمارهم ، كما بيناه .

وهل امتناعهم من تمني الموت ، كان لعلمهم أن كل نبي عرض على قومه أمراً وتوعدهم عليه بالهلاك فردوه تكذيباً له ، فإن ما توعدهم به واقع لا محالة ؟ أو لعلمهم بصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنه لا يقول على الله إلا الحق ؟ أو لصرف الله إياهم عن ذلك ، كما قيل في عدم معارضة القرآن بالصرفة ؟ أقوال ثلاثة .

والظاهر أن ذلك معلل ﴿ بما قدمت أيديهم ﴾ .

والذي قدمته أيديهم : تكذيبهم الأنبياء ، وقتلهم إياهم ، وقولهم : ﴿ أرنا الله جهرة ﴾ ، وقولهم : ﴿ اجعل لنا إلهاً ﴾ وقولهم : ﴿ فاذهب أنت وربك ﴾ واعتداؤهم في السبت ، وسائر الكبائر التي لم تصدر من أمة قبلهم ولا بعدهم .

وهذا التمني الذي طلب منهم ، ونفي عنهم ، لم يقع أصلاً منهم ، إذ لو وقع لنقل ، ولتوفرت

دواعي المخالفين للإسلام على نقله .

وقد تقدّمت الأقوال في تفسير التمني ، والظاهر أنه لا يعني به هنا العمل القلبي ، لأنه لا يطلع عليه ، فلا يتحدى به ، وإنما عنى به القول اللساني كقولك : ليت الأمر يكون .

(148/60)

ألا ترى أنه يقال لقائل ذلك : تمني ؟ وتسمى ليت كلمة تمنّ ، ولم ينقل أيضاً أنهم قالوا : تمنينا ذلك بقلوبنا ، ولا جائز أن يكون امتناعهم من الإخبار أنهم تمنوا بقلوبهم ، كونهم لا يصدّقون في ذلك ، لأنهم قد قاولوا المسلمين بأشياء لا يصدقونهم فيها ، من الافتراء على الله ، وتحريف كتابه ، وغير ذلك .

وقال الماتريدي ما ملخصه : أن المؤمن يقول : إن الجنة له ، ومع ذلك ليس بتمني الموت .

وأجاب : بأنه لم يجعل لنفسه من المنزلة عند الله من ادعاء بنوّة ومحبة من الله لهم ما جعلته اليهود ، لأن جميع المؤمنين ، غير الأنبياء ، لا يزول عنهم خوف الخاتمة .

والخاطىء منهم مفتقر إلى زمان يتدارك فيه تكفير خطئه .

فلذلك لم يتمن المؤمنون الموت .

ولذلك كان المبشرون بالجنة يتمنونه .

وذكروا في ما من قوله : ﴿ بما قدمت ﴾ ، أنها تكون مصدرية ، والظاهر أنها موصول ، والعائد محذوف ، وهي كناية عما اجترحوه من المعاصي السابقة .

ونسب التقديم لليد مجازاً ، والمعنى بما قدّموه ، إذ كانت اليد أكثر الجوارح تصرفاً في الخير والشر .

وكثر هذا الاستعمال في القرآن : ﴿ ذلك بما قدّمت يداك ﴾ ﴿ بما قدّمت أيديكم ﴾ ﴿ فبما كسبت أيديكم ﴾ وقيل : المراد اليد حقيقة هنا ، والذي قدّمته أيديهم هو تغيير صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان ذلك بكتابة أيديهم .

﴿ والله عليم بالظالمين ﴾ : هذه جملة خبرية ، ومعناها : التهديد والوعيد ، وعلم الله متعلق بالظالم وغير الظالم .

فالاقتصار على ذكر الظالم يدل على حصول الوعيد .

وقيل : معناه مجازيهم على ظلمهم ، فكنى بالعلم عن الجزاء ، وعلق العلم بالوصف ليدل على العلية ، والألف واللام في الظالمين للعهد ، فتختص باليهود الذين تقدّم ذكرهم ، أو للجنس ، فتعم كل ظالم .

وإنما ذكر الظالمين ، لأن الظلم هو تجاوز ما حدّ الله ، ولا شيء أبلغ في التعدّي من ادعاء خلوص الجنة لمن لم يتلبس بشيء من مقتضاتها ، وانفراده بذلك دون الناس . انتهى .

اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 1 صـ 477. 480 ﴾

من فوائد العلامة تقى الدين السبكى :

قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ :

قَوْله تَعَالَى ﴿ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا ﴾

قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى : قَوْله تَعَالَى ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ ﴾ نَكَّرَ الْحَيَاةَ لِإِرَادَةِ أَيْسَرَ مَا يَكُونُ مِنْهَا ، وَالْمَعْنَى أَنَّهُمْ أَحْرَصُ الْخَلْقِ عَلَى أَقَلِّ مَا يَكُونُ مِنْ الْحَيَاةِ ، فَمَا ظَنُّك بِالْكَثِيرَةِ مِنْهَا ، فَكَيْفَ يَتَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ ؟ وَالزَّمَخْشَرِيُّ ادَّعَى أَنَّهُ نَكَّرَ لِإِرَادَةِ حَيَاةٍ طَوِيلَةٍ وَمَا ذَكَرْنَاهُ أَبْلَغُ وَأَحْسَنُ ، وَلَا يُنَافِيهِ قَوْله تَعَالَى ﴿ وَمِنْ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ فَإِنَّهُ إذَا وَدَّ الْيَسِيرَ مِنْهَا وَدَّ الْكَثِيرَ بِطَرِيقٍ أَوْلَى انتهى . اهـ

﴿ فتاوى السبكى حـ 1 صـ 21 ﴾

ومن فوائد ابن عاشور فى الآيتين

قال رحمه الله :

﴿ قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (94) وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (95) ﴾

إبطال لدعوى قارة في نفوسهم اقتضاها قولهم : ﴿ نؤمن بما أنزل علينا ﴾ [البقرة : 91] الذي أرادوا به الاعتذار عن إعراضهم عن دعوة محمد صلى الله عليه وسلم بعذر أنهم متصلبون في التمسك بالتوراة لا يعدونها وأنهم بذلك استحقوا محبة الله إياهم وتكون الآخرة لهم فلما أبطلت دعوى إيمانهم بما أنزل عليهم بإلزامهم الكذب في دعواهم بسند ما أتاه سلفهم وهم جدودهم من الفظائع مع أنبيائهم والخروج عن أوامر التوراة بالإشراك بالله تعالى بعبادة العجل ، عقب ذلك بإبطال ما في عقائدهم من أنهم أهل الانفراد برحمة الله ما داموا متمسكين بالتوراة وأن من خالفها لا يكون له حظ في الآخرة ، وارتكب في إبطال اعتقادهم هذا طريقة الإحالة على ما عقدوا عليه اعتقادهم من الثقة بحسن المصير أو على شكهم في ذلك فإذا ثبت لديهم شكهم في ذلك علموا أن إيمانهم بالتوراة غير ثابت على حقه وذلك أشد ما يفت في أعضادهم ويسقط في أيديهم لأن ترقب الحظ الأخروي أهم ما يتعلق به المعتقد المتدين فإن تلك هي الحياة الدائمة والنعيم المقيم .

وقد قيل : إن هذه الآية رد لدعوى أخرى صدرت من اليهود تدل على أنهم يجعلون الجنة خاصة بهم مثل قولهم نحن ﴿ أبناء الله وأحباؤه ﴾ [المائدة : 18] وقولهم ﴿ لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً ﴾ [البقرة : 111] ، وإلى هذا مال القرطبي والبيضاوي ، وعليه فيكون ذكر الرد عليهم بينا لمجرد المناسبة في رد معتقد لهم باطل أيضاً لا في خصوص الغرض المسوق فيه الآيات المتقدمة بناءً على أن الآيات لا يلزم أن تكون متناسبة تمام المناسبة ، ونحن لا نساعد على ذلك فعلى هذا الوجه تكون هاته الآية هنا نزلت مع سوابقها للرد على أقوالهم المتفرقة المحكية في آيات أخرى وإنما اتصلت مع الآيات الراجعة إلى رد دعواهم الإيمان بما أنزل عليهم للمناسبة بجمع رد جميع دعاويهم ولكن فيما ذكرناه غنية .

وأياً ما كان فهذه الآية تحدت اليهود كما تحدى القرآن مشركي العرب بقوله : ﴿ فأتوا بسورة من مثله ﴾ [البقرة : 23] .

وإنما فصلت هاته الجملة عما قبلها لاختلاف السياق لأن هذه الآية إلقاء حجة عليهم والآيات السابقة تفظيع لأحوالهم وإن كان في كل من ذلك احتجاج لكن الانتقال من أسلوب

إلى أسلوب كان محسناً للفصل دون العطف لا سيما مع افتتاح الاحتجاج بقل .

والكلام في ﴿ لكم ﴾ مشعر بأن المراد من الدار الآخرة نعيمها و ﴿ لكم ﴾ خبر ﴿ كانت ﴾ قدم للحصر بناء على اعتقادهم كتقديمه في قول الكميت يمدح هشاماً بن عبد الملك حين عفا عنه من قصيدة :

لكم مسجداً الله المزوران والحصى . . .

لكم قبضة من بين أثري وأقترا

و ﴿ عند الله ﴾ ظرف متعلق بكانت والعندية عندية تشريف وادخار أي مدخرة لكم عند الله وفي ذلك إيذان بأن الدار الآخرة مراد بها الجنة .

وانتصب ﴿ خالصة ﴾ على الحال من اسم (كان) ولا وجه لتوقف بعض النحاة في مجيء الحال من اسم (كان) .

ومعنى الخالصة السالمة من مشاركة غيركم لكم فيها فهو يؤول إلى معنى خاصة بكم .

(152/60)

وقوله : ﴿ من دون الناس ﴾ دون في الأصل ظرف للمكان الأقرب من مكان آخر غير متصرف وهو مجاز في المفارقة فلذلك تدل على تخالف الأوصاف أو الأحوال ، تقول هذا

لك دون زيد أي لاحق لزيد فيه فقوله : ﴿ من دون الناس ﴾ توكيد لمعنى الاختصاص المستفاد من تقديم الخبر ومن قوله : ﴿ خالصة ﴾ لدفع احتمال أن يكون المراد من الخلوص الصفاء من المشارك في درجاتهم مع كونه له حظ من النعيم .

والمراد من الناس جميع الناس فاللام فيه للاستغراق لأنهم قالوا : ﴿ لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً ﴾ [البقرة : 111] .

وقوله : ﴿ فتمنوا الموت ﴾ جواب الشرط ووجه الملازمة بين الشرط وهو أن الدار الآخرة لهم وجزائه وهو تمني الموت أن الدار الآخرة لا يخلص أحد إليها إلا بالروح حين تفارق جسده ومفارقة الروح الجسد هو الموت فإذا كان الموت هو سبب مصيرهم إلى الخيرات كان الشأن أن يتمنوا حلوله كما كان شأن أصحاب النبيء صلى الله عليه وسلم كما قال عمير بن الحمام رضي الله عنه :

جرياً إلى الله بغير زاد . . .

إلا التقى وعملَ المعاد

وارتجز جعفر بن أبي طالب يوم غزوة مؤتة حين اقتحم على المشركين بقوله :

يا حبذا الجنةُ واقترابُها . . .

طيبة وبارد شرابها

وقال عبد الله بن رواحة عند خروجه إلى غزوة مؤتة ودعا المسلمون له ولمن معه أن يردهم

الله سالمين :

لكني أسأل الرحمان مغفرةً . . .

وضربةً ذات فرغ تقذف الزبدا

أو طعنةً من يدي حران مُجهِزة . . .

بحربة تُنفِذُ الأحشاءَ والكبدا

حتى يقولوا إذا مروا على جدثي . . .

أرشدك الله من غاز وقد رشدا

وجملة ﴿ ولن يتمنوه أبداً ﴾ إلى آخره معترضة بين جملة ﴿ قل إن كانت لكم الدار الآخرة ﴾ وبين جملة ﴿ قل من كان عدواً لجبريل ﴾ [البقرة : 97] والكلام موجه إلى النبيء صلى الله عليه وسلم والمؤمنين إعلاماً لهم ليزدادوا يقيناً وليحصل منه تحد لليهود إذ يسمعونه ويودون أن يخالفوه لئلا ينهض حجة على صدق المخبر به فيلزمهم أن الدار الآخرة ليست لهم .

(153/60)

وقوله : ﴿ بما قدمت أيديهم ﴾ يشير إلى أنهم قد صاروا في عقيدة مختلطة متناقضة كشأن عقائد الجهلة المغرورين فهم يعتقدون أن الدار الآخرة لهم بما دل عليه قولهم : ﴿ نؤمن بما أنزل علينا ﴾ [البقرة : 91] وقولهم : ﴿ نحن أبناء الله وأحباؤه ﴾ [المائدة : 18] ثم يعترفون بأنهم اجترأوا على الله واكتسبوا السيئات حسبما سطر ذلك عليهم في التوراة وفي كتب أنبيائهم فيعتذرون بأن النار تمسهم أياماً معدودة ولذلك يخافون الموت فراراً من العذاب .

والمراد بما قدمت أيديهم ما أتوه من المعاصي سواء كان باليد أم بغيرها بقرينة المقام ، فقيل عبر باليد هنا عن الذات مجازاً كما في قوله :

﴿ ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ﴾ [البقرة : 195] وكما عبر عن الذات بالعين في باب التوكيد لأن اليد أهم آلات العمل .

وقيل : أريد بها الأيدي حقيقة لأن غالب جنايات الناس بها وهو كناية عن جميع الأعمال قاله الواحدي ولعل التكني بها دون غيرها لأن أجمع معاصيها وأفظعها كان باليد فالأجمع هو تحريف التوراة والأفظع هو قتل الأنبياء لأنهم بذلك حرموا الناس من هدي عظيم .

وإسناد التقديم للأيدي على الوجه الأول حقيقة وعلى الوجه الثاني مجاز عقلي .

وقوله : ﴿ والله عليم بالظالمين ﴾ خبر مستعمل في التهديد لأن القدير إذا علم بظلم الظالم لم يتأخر عن معاقبته فهذا كقول زهير :

فمهما يكتم الله يعلم . . .

وقد عدت هذه الآية في دلائل نبوة النبيء صلى الله عليه وسلم لأنها نفت صدور تمني الموت مع حرصهم على أن يظهروا تكذيب هذه الآية .

ولا يقال لعلهم تمنوا الموت بقلوبهم لأن التمني بالقلب لو وقع لنطقوا به بألسنتهم لقصد الإعلان بإبطال هذه الوصمة فسكوتهم يدل على عدم وقوعه وإن كان التمني موضعه القلب لأنه طلب قلبي إذ هو محبة حصول الشيء وتقدم في قوله : ﴿ إلا أماني ﴾ [البقرة : 78] أن الأمنية ما يقدر في القلب .

(154/60)

وهذا بالنسبة إلى اليهود المخاطبين زمن النزول ظاهر إذ لم ينقل عن أحد منهم أنه تمنى الموت كما أخبرت الآية .

وهي أيضاً من أعظم الدلائل عند أولئك اليهود على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم فإنهم قد أيقن كل واحد منهم أنه لا يتمنى الموت وأيقن أن بقية قومه لا يتمنونه لأنه لو تمناه أحد لأعلن بذلك لعلمهم بحرص كل واحد منهم على إبطال حكم هذه الآية ، ويفيد بذلك إعجازاً عاماً على تعاقب الأجيال كما أفاد عجز العرب عن المعارضة علم جميع الباحثين

بأن القرآن معجز وأنه من عند الله .

على أن الظاهر أن الآية تشمل اليهود الذين يأتون بعد يهود عصر النزول إذ لا يعرف أن يهودياً تمنى الموت إلى اليوم فهذا ارتقاء في دلائل النبوة .

وجملة ﴿ والله عليم بالظالمين ﴾ في موضع الحال من ضمير الرفع في ﴿ يتمنوه ﴾ أي علم الله ما في نفوسهم فأخبر رسوله بأن يتحداهم وهذا زيادة في تسجيل امتناعهم من تمني الموت ، والمراد بالظالمين اليهود فهو من وضع الظاهر موضع الضمير ليصفهم بالظلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 1 صـ 595. 599 ﴾

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (94) وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (95) ﴾

أخرج ابن جرير عن أبي العالية قال ﴿ قالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى ﴾ [البقرة : 111] ، وقالوا ﴿ نحن أبناء الله وأحباؤه ﴾ [المائدة : 18] فأنزل الله ﴿ قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ﴾ فلم يفعلوا .

وأخرج ابن جرير عن قتادة . مثله .

وأخرج البيهقي في الدلائل عن ابن عباس في هذه الآية قال : قل لهم يا محمد إن كانت لكم الدار الآخرة يعني الجنة كما زعمتم ﴿ خالصة من دون الناس ﴾ يعني المؤمنين ﴿ فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ﴾ انها لكم خالصة من دون المؤمنين فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن كنتم في مقالتكم صادقين قولوا اللهم أمتنا ، فوالذي نفسي بيده لا يقولها رجل منكم إلا غص بريقه فمات مكانه ، فأبوا أن يفعلوا وكرهوا ما قال لهم ، فنزل ﴿ ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم ﴾ يعني عملته أيديهم ﴿ والله عليم بالظالمين ﴾ إنهم لن يتمنوه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند نزول هذه الآية : والله لا يتمنونه أبداً " .

وأخرج ابن إسحق وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ فتمنوا الموت ﴾ أي ادعوا بالموت على أي الفريقين أكذب فأبوا ذلك ، ولو تمنوه يوم قال ذلك ما بقي على وجه الأرض يهودي إلا مات .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله ﴿ قل إن كانت لكم الدار الآخرة ﴾ يعني الجنة ﴿ خالصة ﴾ خاصة ﴿ فتمنوا الموت ﴾ فاسألوا الموت ﴿ ولن يتمنوه أبداً ﴾ لأنهم يعلمون أنهم كاذبون ﴿ بما قدمت ﴾ قال : أسلفت .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وأبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس قال : لو تمنى اليهود الموت لماتوا .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : لو تمنوا الموت لشرق أحدهم بريقه .

وأخرج أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن مردويه وأبو نعيم عن ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ، ولرأوا مقاعدهم من النار " . انتهى انتهى . اهـ ﴿الدر المنثور حـ 1 صـ 219. 220﴾

(156/60)

ومن فوائد القاسمى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ [95]

﴿ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً ﴾ من المعجزات لأنه إخبارٌ بالغيب . وكان كما أخبر به ؛ كقوله : ﴿ وَلَنْ تَفْعَلُوا ﴾ [البقرة : 24] ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ بما أسلفوا من أنواع العصيان . واليد مجاز عن النفس . عبّر بها عنها ، لأنها من بين جوارح الْإِنْسَانْ ، مناط عامة صنائعه . ولذا كانت الجنايات بها أكثر من غيرها . ولم يجعل المجاز في الإسناد فيكون المعنى بما

قدموا بأيديهم ، ليشمل ما قدموا بسائر الأعضاء : ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ أي : بهم . تذييل للتهديد . والتنبيه على أنهم ظالمون في دعوى ما ليس لهم ، ونفيه عمن سواهم . ونظير هذه الآية في سورة الجمعة قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ [الجمعة : 6 ، 7] .

وقد تلطف الغزالي في توجيه الإتيان بـ " لن " هنا ، و " لا " في سورة الجمعة بأن الدعوى هنا أعظم من الثانية ؛ إذ السعادة القصوى هي الحصول في دار الثواب ، وأما مرتبة الولاية فهي ، وإن كانت شريفة إلا أنها إنما تراد ليتوسل بها إلى الجنة . فلما كانت الدعوى الأولى أعظم ، لا جَرَمَ بيّن تعالى فساد قولهم بلفظ : لن ؛ لأنها أقوى الألفاظ النافية . ولما كانت الدعوى الثانية ليست في غاية العظمة اكتفى في إبطالها بلفظ : لا ؛ لأنه ليس في نهاية القوة ، في إفادة معنى النفي . والله أعلم . انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 2 صـ 393 ﴾

(157/60)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (95) ﴾

إنهم لن يتمنوا الموت أبدا بل يخافوه . . والله تبارك وتعالى حين أنزل هذه الآية . . وضع قضية الإيمان كله في يد اليهود . . بحيث يستطيعون إن أرادوا أن يشككوا في هذا الدين . . كيف ؟ ألم يكن من الممكن عندما نزلت هذه الآية أن يأتي عدد من اليهود ويقولوا ليتنا نموت . . نحن نتمنى الموت يا محمد . فادع لنا ربك يميتنا . . ألم يكن من الممكن أن يقولوا هذا ؟ ولو نفاقا . . ولو رياءً ليهدموا هذا الدين . . ولكن حتى هذه لم يقولوها ولم تخطر على بالهم . . انظر إلي الإعجاز القرآني في قوله سبحانه : " ولن يتمنوه " .

لقد حكم الله سبحانه حكما نهائيا في أمر اختياري لعدو يعادي الإسلام . . وقال إن هذا العدو وهم اليهود لن يتمنوا الموت . . وكان من الممكن أن يفطنوا لهذا التحدي . . ويقولوا بل نحن نتمنى الموت ونطلبه من الله . . ولكن حتى هذه لم تخطر على بالهم ؛ لأن الله تبارك وتعالى إذا حكم في أمر اختياري فهو يسلب من أعداء الدين تلك الخواطر التي يمكن أن يستخدموها في هدم الدين . . فلا تخطر على بالهم أبدا مثلما تحداهم الله سبحانه من قبل في قوله تعالى :

سَيَقُولُ السُّفَهَاء مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا

(من الآية 142 سورة البقرة)

ولقد نزلت هذه الآية الكريمة قبل أن يقولوا . . بدليل استخدام حرف السين في قوله : " سيقول" . . ووصفهم الله جل جلاله بالسفهاء . . ومع ذلك فقد قالوا . . ولو أن عقولهم تنبهت لسكتوا ولم يقولوا شيئا . . وكان في ذلك تحدٍ للقرآن الكريم . . كانوا سيقولون لقد قال الله سبحانه وتعالى : " سيقول السفهاء من الناس" . . ولكن أحدا لم يقل شيئا فأين هم هؤلاء السفهاء ولماذا لم يقولوا ؟ وكان هذا يعتبر تحديا للقرآن الكريم في أمر يملكون فيه حرية الاختيار . . ولكن لأن الله هو القائل والله هو الفاعل . . لم يخطر ذلك على بالهم أبدا ، وقالوا بالفعل .

في الآية الكريمة التي نحن بصددها . . تحداهم القرآن أن يتمنوا الموت ولم يتمنوه . . وكان الكلام المنطقي مادامت الدار الآخرة خالصة لهم . . والله تحداهم أن يتمنوا الموت إن كانوا صادقين لتمنوه . . ليذهبوا إلي نعيم أبدي . . ولكن الحق حكم مسبقا أن ذلك لن يحدث منهم . . لماذا ؟ لأنهم كاذبون ويعلمون أنهم كاذبون . . لذلك فهم يهربون من الموت ولا يتمنونه . انظروا مثلا إلي العشرة المبشرين بالجنة . . عمار بن ياسر في الحرب في حنين . . كان ينشد وهو يستشهد الآن ألقى الأحبة محمدا وصحبه . . كان سعيدا لأنه أصيب وكان يعرف وهو يستشهد أنه ذاهب إلي الجنة عند محمد صلى الله عليه وسلم وصحابته . . هكذا تكون الثقة في الجزاء والبشرى بالجنة . . وعبد الله بن رواحة كان

يحارب وهو ينشد ويقول :

يا حبذا الجنة واقترابها طيبة وبارد وشرابها

(159/60)

والإمام علي رضي الله عنه يدخل معركة حنين ويرتدي غلالة ليس لها دروع . . لا ترد سهما ولا طعنة رمح . . حتى إن ابنه الحسن يقول له : يا أبي ليست هذه لباس حرب . . فيرد علي كرم الله وجهه : يا بني إن أباك لا يبالي أسقط على الموت أم سقط الموت عليه . . وسيدنا حذيفة بن اليمان ينشد وهو يحتضر . . حبيب جاء على ناقة لا ربح من ندم . . إذن الذين يثقون بآخرتهم يحبون الموت . وفي غزوة بدر سأل أحد الصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم . . يا رسول الله أليس بيني وبين الجنة إلا أن أقاتل هؤلاء فيقتلوني . . فيجيب رسول الله صلى الله عليه وسلم نعم . . وكان في يد الصحابي تمرات يمضغها . . فيستبطئ أن يبقى بعيدا عن الجنة حتى يأكل التمرات فيلقيها من يده ويدخل المعركة ويستشهد .

هؤلاء هم الذين يثقون بما عند الله في الآخرة . . ولكن اليهود عندما تحداهم القرآن الكريم بقوله لهم : " فتمنوا الموت إن كنتم صادقين" . . سكتوا ولم يجيبوا . . ولو تمنوا الموت

لانقطع نفس الواحد منهم وهو يبلع ريقه فماتوا جميعا . . قد يقول قائل وهل التمني باللسان ؟ ربما تمنوا بالقلب . . نقول ما هو التمني ؟ نقول إن التمني هو أن تقول لشيء محبوب عندك ليته يحدث . فهو قول . . وهب أنه عمل قلبي فلو أنهم تمنوا بقلوبهم لأطلع الله عليها وأماتهم في الحال . . ولكن مادام الحق تبارك وتعالى قال : " ولن يتمنوه أبدا " . . فهم لن يتمنوه سواء كان باللسان أو بالقلب . . لأن الإدعاء منهم بأن لهم الجنة عند الله خالصة أشبهة بقولهم الذي يرويه لنا القرآن في قوله سبحانه :

وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللّهِ عَهْداً فَلَن يُخْلِفَ اللّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ(80)

(سورة البقرة)

(160/60)

وقوله تعالى : " بما قدمت أيديهم " . . أي أن أعمالهم السيئة تجعلهم يخافون الموت . . أما صاحب الأعمال الصالحة فهو يسعد بالموت . . ولذلك نسمع أن فلانا حين مات كان وجهه أشبه بالبدر لأن عمله صالح . . فساعة الموت يعرف فيها الإنسان يقينا أنه ميت . . فالإنسان إذا مرض يأمل في الشفاء ويستبعد الموت . . ولكن ساعة الغرغرة يتأكد

الإنسان أنه ميت ويستعرض حياته في شريط عاجل . . لأنه في هذه الساعة والروح تغادر الجسد يعرف الإنسان مصيره إما إلي الجنة وإما إلي النار . . وتتسلمه إما ملائكة الرحمة وإما ملائكة العذاب . . فالذي أطاع الله يستبشر بملائكة الرحمة . . والذي عصى وفعل ما يغضب الله يستعرض شريط أعماله . . فيجده شريط سوء وهو مقبل على الله . . وليست هناك فرصة للتوبة أو لتغيير أعماله . . عندما يرى مصيره إلي النار تنقبض أساريره وتقبض روحه على هذه الهيئة . . فيقال فلان مات وهو أسود الوجه منقبض الأسارير .

إذن فالذي أساء في دنياه لا يتمنى الموت أبدا . . أما صاحب العمل الصالح فإنه يستبشر بلقاء الله .

<ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن تمني الموت فقال : " لا يتمنين أحدكم الموت ولا يدعو به من قبل أن يأتيه إلا أن يكون قد وثق بعمله" > رواه احمد فى المسند عن ابى هريرة

نقول إن تمني الموت المنهي عنه هو تمني اليأس وتمني الاحتجاج على المصائب . . يعني يتمنى الموت لأنه لا يستطيع أن يتحمل قدر الله في مصيبة حدثت له . . أو يتمناه احتجاجا على أقدار الله في حياته . . هذا هو تمني الموت المنهي عنه . . أما صاحب العمل الصالح فمستحب له أن يتمنى لقاء الله . . واقرأ قوله تعالى في آخر سورة يوسف :

رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ(101)

(سورة يوسف)

(161/60)

< وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أي لا تتمنوا الموت جزعا مما يصيبكم من قدر الله . . ولكن اصبروا على قدر الله" >

. . وقوله تعالى : " والله عليم بالظالمين" . . لأن الله عليم بظلمهم ومعصيتهم . . هذا الظلم والمعصية هو الذي يجعلهم يخافون الموت ولا يتمنونه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 473.476 ﴾

(162/60)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " أبداً " منصوب بـ " يتمنّوه " ، وهو ظرف زمان يقع للقليل والكثير ، ماضياً كان أو مستقبلاً .

قال القرطبي : كالحين والوقت ، وهو هاهنا من أول العمر إلى الموت تقول : ما فعلته أبداً .

وقال الراغب هو عبارة عن مدّة الزمان الممتد الذي لا يتجزأ كما يتجزأ الزمان ، وذلك أنه يقال : زمان كذا ، ولا يقالك أبدُ كذا ، وكان من حقّه على هذا ألاَّ يثنى ولا يجمع ، وقد قالوا : آباد ، فجمعوه لاختلاف أنواعه .

وقيل : آباد لغة مولّدة ، ومجيئه بعد " لن " يدلّ على أن نفيها لا يقتضي التأبيد ، وقد تقدم غير ذلك ، ودعوى التأكيد فيه بعيدة .

قوله : " بما قَدَّمَتْ أيديهم " بيان للعلّة التي لها لا يتمنّون ؛ لأنه إذا علموا سوء طرقهم وكثرة ذنوبهم دعاهم ذلك إلى عدم تمنّي الموت ، وهذه الجملة متعلّقة بـ " يتمنّوه " ، والباء للسببية ، أي : بسبب اجْتِرَاحِهِم العظائم ، و" أيديهم " في محلّ رفع حذفت الضمة من الباء لثقلها مع الكسرة .

و" ما " يجوز فيها ثلاثة أوجه :

أظهرها : كونها موصولةً بمعنى " الذي " .

والثاني : نكرة موصوفة ، والعائد على كلا القولين محذوف ، أي : بما قدّمته ، فالجملة لا محلّ لها على الأولى ، ومحلّها الجر على الثاني .

والثالث : أنها مصدرية أي : بِتَقْدِمَةِ أيديهم .

ومفعول " قدمت " محذوف أي : بما قدمت أيديهم الشَّر ، أو التبديل ونحوه .

قوله : " واللهُ عَلِيمٌ بالظَّالِمِينَ " ابتداء وخبر ، وهذا كالزَّجْر والتهديد ؛ لأنه إذا كان عالماً بالسر والنجوى لا يخفى عليه شيء صار ذلك من أعظم الصَّوَارف للمكلّف عن المعاصي ، وإنما ذكر الظالمين ؛ لأن كلّ كافر ظالم ، وليس كلّ ظالم كافراً ، فذكر الأعم ؛ لأنه أولى بالذكر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 2 صـ 299 . 300 ﴾ . باختصار .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآيتين

قال عليه الرحمة :

﴿ قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (94) وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (95) ﴾

(163/60)

من علامات الاشتياق تمنى الموت على بساط العوافي ؛ فمن وَثِقَ بأن له الجنة قطعاً – فلا محالةَ – يشتاق إليها ، ولَمَّا لم يتمنوا الموت – وأخبر الله سبحانه أنهم لن يتمنوهُ أبداً – صار هذا التعريف معجزةً للرسول صلوات الله عليه وعلى آله إذ كان كما قال .

وفي هذا بشارة للمؤمنين الذين يشتاقون إلى الموت أنهم مغفور لهم ، ولا يرزقهم الاشتياق إلا وتحقق لهم الوصول إلى الجنة ، وقديماً قيل : كفى للمقصر الحياء يوم اللقاء . قال الله تعالى : ﴿ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 107 ﴾

(164/60)

قوله تعالى ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (96) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما بين أنهم لا يتمنونه أثبت لهم ما هو فوق ذلك من تمني الضد الدال على علمهم بسوء منقلبهم فقال : ﴿ ولتجدنهم ﴾ أي بما تعلم من أحوالهم مما منه الوجدان .

وهو إحساس الباطن بما هو فيه والإصابة أيضاً لما له علقة الباطن ، كأنه فيه ﴿ أحرص ﴾ صيغة مبالغة من الحرص ، وهو طلب الاستغراق فيما يختص فيه الحظ – قاله الحرالي :

﴿ الناس على حياة ﴾ على أي حالة كانت وهم قاطعون بأنه لا يخلو يوم منها عن كدر

فإنهم يعلمون أنها وإن كانت في غاية الكدر خير لهم مما بعد الموت ﴿ ومن ﴾ أي وأحرص من ﴿ الذين أشركوا ﴾ الذين لا بعث عندهم على الحياة علماً منهم بأنهم صائرون إلى العذاب الدائم بالسيئات المحيطة والشرك .

قال الحرالي : إسناد الأمر المختص بواحد إلى من ليس له معه أمر – انتهى .

ثم بين مقدار ما يتمنونه فقال : ﴿ يود ﴾ من الود وهو صحة نزوع النفس للشيء المستحق نزوعها له – قاله الحرالي .

﴿ أحدهم ﴾ أي أحد من تقدم من اليهود والمشركين بجميع أصنافهم ، أو من اليهود خاصة ، أو من المشركين فتكون ودادة اليهود من باب الأولى .

قال الحرالي : وهو نحو من خطاب القرآن لا يصل إليه إبلاغ الخلق ﴿ لو يعمر ﴾ من التعمير وهو تمادي العمر كأنه تكرار ، والعمر أمد ما بين بدو الشيء وانقطاعه – قاله الحرالي .

﴿ ألف سنة ﴾ خوفاً من الموت أو ما بعده ، والألف كمال العدد بكمال ثالثة رتبة ؛ والسنة أمد تمام دورة الشمس وتمام ثنتي عشرة دورة القمر – قاله الحرالي .

وهذا المعنى وإن كان موجوداً في الحول والعام والحجة غير أن مأخذ الاشتقاق ملاحظ في الجملة ، فلبلاغة القرآن لا يطلق واحد من هذه الألفاظ إلا فيما يناسب السياق من أصل اشتقاق هذه الألفاظ ، فهذا السياق لما كان المراد به ذمهم بتهالكهم على بقائهم في الدنيا على أي حالة كانت علماً منهم بأنها ولو كانت أسوأ الأحوال خير لهم مما بعد الموت لتحقق

شقائهم عبر بما منه الإسنات وهو القحط وسوء الزمان .

أو ما منه الدوران الذي فيه كد وتعب إن كان أصلها من سنا يسنو إذا دار حول البئر قال السهيلي في الروض : وقد تسمى السنة داراً في الخبر : إن بين آدم ونوح ألف دار – أي سنة ، ثم قال : فتأمل هذا فإن العلم بتنزيل الكلام ووضع الألفاظ في مواضعها اللائقة بها يفتح باباً من العلم بإعجاز القرآن والله المستعان .

﴿ وما هو ﴾ أي تعميره ﴿ بمزحزحه ﴾ والزحزحة إبعاد الشيء المستثقل المترامي لما يبعد عنه – قاله الحرالي : ﴿ من العذاب ﴾ أي زحزحة مبتدأة من العذاب ، وعبر بمن دون عن إعلاماً بأنهم لم يفارقوا العذاب دنيا ولا آخرة وإن لم يحسوا به في الدنيا ، ثم فسر الضمير بقوله : ﴿ أن يعمر ﴾ إنما تزحزحه الطاعة المقرونة بالإيمان الصحيح الذي ليس فيه تفرقة .

(165/60)

ولما كان التقدير : لأنهم يعملون في أعمارهم الأعمال السيئة المحيطة ، عطف عليه قوله : ﴿ والله ﴾ الذي له الأمر كله ﴿ بصير بما يعملون ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 201.202 ﴾

وقال الفخر :

اعلم أنه سبحانه وتعالى لما أخبر عنهم في الآية المتقدمة أنهم لا يتمنون الموت أخبر في هذه الآية أنهم في غاية الحرص على الحياة لأن ههنا قسماً ثالثاً وهو أن يكون الإنسان بحيث لا يتمنى الموت ولا يتمنى الحياة فقال : ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ الناس على حياة ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 175. 176 ﴾

فصل

قال الفخر :

أما قوله تعالى : ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ ﴾ فهو من وجد بمعنى علم المتعدي إلى المفعولين في قوله : وجدت زيداً ذا حفاظ ، ومفعولاه " هم " و " أحرص " وإنما قال : ﴿ على حياة ﴾ بالتنكير لأنه حياة مخصوصة وهي الحياة المتطاولة ولذلك كانت القراءة بها أوقع من قراءة أبي " على الحياة " أما الواو في قوله : ﴿ وَمِنَ الذين أَشْرَكُواْ ﴾ ففيه (ثلاثة أقول) :

أحدها : أنها واو عطف والمعنى أن اليهود أحرص الناس على حياة وأحرص من الذين أشركوا كقولك : هو أسخى الناس ومن حاتم .

هذا قول الفراء والأصم .

فإن قيل : ألم يدخل الذين أشركوا تحت الناس ؟

قلنا : بلى ولكنهم أفردوا بالذكر لأن حرصهم شديد وفيه توبيخ عظيم لأن الذين أشركوا لا

يؤمنون بالمعاد وما يعرفون إلا الحياة الدنيا فحرصهم عليها لا يستبعد لأنها جنتهم فإذا زاد عليهم في الحرص من له كتاب وهو مقر بالجزاء كان حقيقياً باعظم التوبيخ ، فإن قيل : ولم زاد حرصهم على حرص المشركين ؟ قلنا : لأنهم علموا أنهم صائرون إلى النار لا محالة والمشركون لا يعلمون ذلك .

القول الثاني : أن هذه الواو واو استئناف وقد تم الكلام عند قوله : " على حياة" (و) تقديره ومن الذين أشركوا أناس يود أحدهم على حذف الموصوف كقوله : ﴿ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَه مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ [الصافات : 164] .

(166/60)

القول الثالث : أن فيه تقديماً وتأخيراً وتقديره .

ولتجدنهم وطائفة من الذين أشركوا أحرص الناس على حياة ، ثم فسر هذه المحبة بقوله : ﴿ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ وهو قول أبي مسلم ، والقول الأول أولى لأنه إذا كانت القصة في شأن اليهود خاصة فالأليق بالظاهر أن يكون المراد : ولتجدن اليهود أحرص على الحياة من سائر الناس ومن الذين أشركوا ليكون ذلك أبلغ في إبطال دعواهم وفي إظهار كذبهم في قولهم .

إن الدار الآخرة لنا لا لغيرنا . والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 176 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَمِنَ الذين أَشْرَكُواْ ﴾

فصل

قال الفخر :

اختلفوا في المراد بقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الذين أَشْرَكُواْ ﴾ على ثلاثة أقوال :

قيل المجوس : لأنهم كانوا يقولون لملكهم : عش ألف نيروز وألف مهرجان ، وعن ابن عباس هو قول الأعاجم : زي هزارسال ، وقيل : المراد مشركوا العرب وقيل : كل مشرك لا يؤمن بالمعاد ، لأنا بينا أن حرص هؤلاء على الدنيا ينبغي أن يكون أكثر وليس المراد من ذكر ألف سنة قول الأعاجم عش ألف سنة ، بل المراد به التكثير وهو معروف في كلام العرب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 176 ﴾

سؤال : فإن قلت : الذين أشركوا قد دخلوا تحت الناس في قوله أحرص الناس فلم أفردهم بالذكر ؟

قلت : افردهم بالذكر لشدّة حرصهم وفيه توبيخ عظيم لليهود لأن الذين لا يؤمنون بالمعاد ولا يعرفون إلاّ الحياة الدنيا لا يستبعد حرصهم عليها ، فإذا زاد عليهم في الحرص من له

كتاب وهو مقر بالبعث والجزاء كان حقيقاً بالتوبيخ العظيم وقيل : إن الواو واو استئناف تقديره ومن الذين أشركوا أناس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 1 صـ 84 ﴾

(167/60)

قوله تعالى ﴿ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾

قال الفخر :

أما قوله تعالى : ﴿ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ فالمراد أنه تعالى بين بعدهم عن تمني الموت من حيث إنهم يتمنون هذا البقاء ويحرصون عليه هذا الحرص الشديد ، ومن هذا حاله كيف يتصور منه تمني الموت ؟ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 176 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ العذاب أَن يُعَمَّرَ ﴾

فائدة

قال الفخر :

قوله : ﴿ وَمَا هُوَ ﴾ كناية عماذا ؟

فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه كناية عن " أحدهم" الذي جرى ذكره أي وما أحدهم بمن يزحزحه من النار تعميره ، وثانيها : أنه ضمير لما دل عليه " يعمر" من مصدره و (أن يعمر) بدل منه ، وثالثها : أن يكون مبهماً و (أن يعمر) موضحه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 176 ﴾

فائدة

قال الفخر :

الزحزحة التبعيد والإنحاء ، قال القاضي : والمراد أنه لا يؤثر في إزالة العذاب أقل تأثير ولو قال تعالى : وما هو بمبعده وبمنجيه لم يدل على قلة التأثير كدلالة هذا القول . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 177 ﴾

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ العذاب أَن يُعَمَّرَ ﴾ .

معنى الآية : أن أحد المذكورين يتمنى أن يعيش ألف سنة وطول عمره لا يزحزحه ، أي : لا يبعده عن العذاب ، فالمصدر المنسبك من أن وصلتها في قوله : ﴿ أَن يُعَمَّرَ ﴾ فاعل اسم الفاعل الذي هو " مزحزحه " على أصح الأعاريب . وفي لو ، من قوله : ﴿ لَوْ يُعَمَّرُ ﴾ وجهان :

الأول : وهو قول الجمهور إنها حرف مصدري ، وهي وصلتها في تأويل مفعول به ل يود ، والمعنى : يود أحدهم ، أي : يتمنى تعمير ألف سنة ، ولو قد تكون حرفاً مصدرياً لقول قتيلة بنت الحارث :

ما كان ضرك لو مننت وربما . . . من الفتى وهو المغيظ المحنق

أي : ما كان ضرك منك .

(168/60)

وقال بعض العلماء : إن لو هنا هي الشرطية والجواب محذوف وتقديره : لو يعمر ألف سنة ، لكان أحب شيء إليه ، وحذف جواب لو مع دلالة المقام عليه واقع في القرآن وفي كلام العرب ، فمنه في القرآن قوله تعالى : ﴿ كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ اليقين ﴾ [التكاثر : 5] أي : لو تعلمون علم اليقين لما ألهاكم التكاثر ، وقوله : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الجبال ﴾ [الرعد : 31] أي : لكان هذا القرآن أو لكفرتم بالرحمن . ومنه في كلام العرب قول الشاعر :

فأقسم لو شيء أتانا رسوله . . . سواك ولكن لم نجد لك مدفعاً

أي لو شيء أتانا رسوله سواك لدفعناه .

إذا عرفت معنى الآية فاعلم أن الله قد أوضح هذا المعنى مبيناً أن الإنسان لو متع ما متع من

السنين ثم انقضى ذلك المتاع وجاءه العذاب ، أن ذلك المتاع الفائت لا ينفعه ، ولا يغني عنه شيئاً بعد انقضائه وحلول العذاب محله . وذلك في قوله : ﴿ أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ مَآ أَغنى عَنْهُمْ مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴾ [الشعراء : 205-207] ، وهذه هي أعظم آية في إزالة الداء العضال الذي هو طول الأمل . كفانا الله والمؤمنين شره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 1 صـ 42.41 ﴾

(169/60)

وقال فى عرائس البيان :

﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ على حَيَاة ﴾ لأنّهم محجوبون عن مشاهدة الآخرة ومكاشفة الحضرة ؛ لغطاء الغفلة والشهوة ، وقال محمد بن الفضل : لعلمهم بما قدموا من الآثام والخلاف ، وهذا حال الكفار ، فوجب على المؤمن أن يكون حاله ضد هذا مشتاقاً إلى الموت بمكاشفة الغيوب ، ورفع حجاب الوحشة ، والوصول إلى محل الأنس ، ألا ترى أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : ﴿ من أحبّ لقاء الله أحب الله لقاءه ﴾ وأن بلالا لما احتضر قالت امرأته : واحزناه فقال : بل واطرباه بلقاء الأحبّة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ عرائس البيان / للبقلى حـ 1 صـ 43 ﴾

قوله تعالى ﴿ واللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾

فائدة

قال الفخر :

اعلم أن البصر قد يراد به العلم ، يقال : إن لفلان بصراً بهذا الأمر ، أي معرفة ، وقد يراد به أنه على صفة لو وجدت المبصرات لأبصرها وكلا الوصفين يصحان عليه سبحانه إلا أن من قال : إن في الأعمال ما لا يصح أن يرى حُمِلَ هذا البصر على العلم لا محالة والله أعلم .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 177 ﴾

وقال القرطبى :

وقال العلماء : وصف الله عز وجل نفسه بأنه بصير على معنى أنه عالم بخفيّات الأمور .

والبصير في كلام العرب : العالم بالشيء الخبير به ؛ ومنه قولهم : فلان بصير بالطّب ، وبصير بالفقه ، وبصير بملاقاة الرجال ؛ قال :

فإن تسألوني بالنساء فإنني . . .

بصيرٌ بأدواء النساء طبيب

قال الخطابي : البصير العالم ، والبصير المُبْصِر .

وقيل : وصف تعالى نفسه بأنه بصير على معنى جاعل الأشياء المبصرة ذوات إبصار ، أي مدركة للمبصرات بما خلق لها من الآلة المدركة والقوّة ؛ فالله بصير بعباده ، أي جاعل عباده مبصرين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 2 صـ 35 ﴾

فائدة

قال الثعالبى :

قال عِيَاضٌ : ومن الوجوه البَيِّنة في إعجاز القُرْآن آيٌ وردتْ بتعجيز قومٍ في قضايا ، وإعلامهم أنهم لا يفعلونها ، فما فَعَلُوا ولا قَدَرُوا على ذلك ؛ كقوله تعالى لليهود : ﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدار الأخرة عِندَ الله خَالِصَةً . . . ﴾ الآية : قال أَبُو إِسْحَاقَ الزَّجَاج في هذه الآية : أعظم حجة ، وأظهر دلالة على صحَّة الرسالة ؛ لأنهُ قال لهم : ﴿ فَتَمَنَّوُاْ الموت ﴾ وأعلمهم أنهم لَنْ يتمنَّوْهُ أبداً ، فلم يتمنَّهُ وَاحِدٌ منهم ، وعن النبيِّ صلى الله تعالى عليه وسلم " والَّذي نَفْسِي بيَدِهِ ، لا يقولها رجُلٌ منهم إلا غصَّ بِرِيقِهِ " ، يعني : يموتُ مكانه ، قال أبو محمَّدٍ الأصيليُّ : من أَعجب أمرهم ؛ أَنَّهُ لا تُوجَدُ منهم جماعةٌ ولا واحدٌ من يومِ أَمَرَ اللَّهُ تعالى بذلك نبيَّهُ يقدَّم عليه ، ولا يجيب إليه ، وهذا موجودٌ مشاهَدٌ لمن أراد أن يمتحنه منهم . انتهى من " الشِّفَا " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الجواهر الحسان حـ 1 صـ 90 ﴾

" لطيفة "

قال فى البحر المديد :

يفهم من سر الخطاب أن كل من قصر أمله ، وحسن عمله ، وطيب نفسه للقاء الحبيب ، واشتغل في هذه اللحظة القصيرة بما يقربه من القريب ، كان قربه من الله بقدر محبته للقائه ، وكل من طوّل أمله ، وحرص على البقاء في هذه الدار الفانية ، كان بُعده من الله بقدر محبته للبقاء ، إلا من أحب البقاء لزيادة الأعمال ، أو الترقي في المقامات والأحوال ، فلا بأس به ، ويفهم منه أيضاً أن مَن اشتد حرصه على الحياة الفانية كانت فيه نزعة يهودية .

واعلم أن الناس ، في طول الأمل وقصره ، على قسمين : منهم من طوّل في أمله فازداد في كسله ، ودخله الوهن في عمله ، وآخر قد قصر أملُه وجعل التقوى بضاعته ، والعبادة صناعته ، ولم يتجاوز بأمله ساعته ، ومثل هذا قد رفع التوفيق عليه لواءه ، وألبسه رداءه ، وأعطاه جماله وبهاءه ، فانظر رحمك الله أيّ الرجلين تريد أن تكون ، وأي العملين تريد أن تعمل ، وبأي الرداءين أن تشتمل ؟ فلست تلبس هناك إلا ما تلبس هنا . وبالله التوفيق .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المديد حـ 1 صـ 139 ﴾

ومن فوائد ابن عرفة فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ الناس على حَيَاةٍ . . . ﴾ .

قال الزمخشري : نكرة لأنها حياة مخصوصة وهي الحياة المتطاولة .

قال ابن عرفة : فأريد بها (هنا) التعظيم والتهويل أو يقال : إنّه (نكرة) للتقليل أي يحرصون على الحياة القليلة فأحرى الكثيرة ، فيكون من التنبيه بالأدنى على الأعلى ، هذا أظهر وأدلّ على اختصاصهم بالحرص على الحياة وأبلغ ، لكن ما بعده يدل على ما قاله الزمخشري .

قوله تعالى : ﴿ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ . . . ﴾ .

(172/60)

قال بعض الطلبة : (لم يرد) (الحول معبرا عنه بالسنة إلا إذا كان فيه (الجدب والغلاء) قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بالسنين ﴾ فهلا قيل : يودّ أحدهم لو يعمر ألف عام ؟ فأجاب ابن عرفة بأنهم (يختارون) الحياة على الموت كيف ما كانت ، وهو تنبيه على الأعلى بالأدنى ، لأنّهم إذا تمنّوا حياة ألف سنة مجدبة وفضلوها على الموت ، فأحرى أن يفضلوا ألف عام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عرفة حـ 1 صـ 377.378 ﴾

ومن فوائد الزمخشري في الآية

قال رحمه الله :

فإن قلت : لم قال : ﴿ على حياة ﴾ بالتنكير ؟

قلت : لأنه أراد حياة مخصوصة وهي الحياة المتطاولة ، ولذلك كانت القراءة بها أوقع من قراءة أبيّ " على الحياة " ﴿ وَمِنَ الذين أَشْرَكُواْ ﴾ محمول على المعنى لأن معنى أحرص الناس : أحرص من الناس .

فإن قلت : ألم يدخل الذين أشركوا تحت الناس ؟

قلت : بلى ، ولكنهم أفردوا بالذكر لأن حرصهم شديد .

ويجوز أن يراد : وأحرص من الذين أشركوا ، فحذف لدلالة أحرص الناس عليه .

وفيه توبيخ عظيم : لأنّ الذين أشركوا لا يؤمنون بعاقبة ولا يعرفون إلا الحياة الدنيا ، فحرصهم عليها لا يستبعد لأنها جنتهم ، فإذا زاد عليهم في الحرص من له كتاب وهو مقرّ بالجزاء كان حقيقاً بأعظم التوبيخ .

فإن قلت : لم زاد حرصهم على حرص المشركين ؟

قلت : لأنهم علموا لعلمهم بحالهم أنهم صائرون إلى النار لا محالة والمشركون لا يعلمون ذلك .

وقيل : أراد بالذين أشركوا المجوس ، لأنهم كانوا يقولون لملوكهم : عش ألف نيروز وألف مهرجان .

وعن ابن عباس رضي الله عنه : هو قول الأعاجم : زي هزار سال .

وقيل : " ومن الذين أشركوا " كلام مبتدأ ، أي ومنهم ناس ﴿ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ ﴾ على حذف الموصوف كقوله : ﴿ وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ [الصافات : 164] والذين أشركوا على هذا مشارٌ به إلى اليهود ، لأنهم قالوا : عزير ابن الله .

(173/60)

والضمير في ﴿ وَمَا هُوَ ﴾ لأحدهم و ﴿ أَن يُعَمَّرَ ﴾ فاعل (بمزحزحه) ، أي : وما أحدهم بمن يزحزحه من النار تعميره .

وقيل : الضمير لما دلّ عليه (يعمر) من مصدره ، وأن (يعمر) بدل منه .

ويجوز أن يكون " هو " مبهماً ، وأن " يعمر " موضحه .

والزحزحة : التبعيد والإنحاء فإن قلت : يودّ أحدهم ما موقعه ؟

قلت : هو بيان لزيادة حرصهم على طريق الإستئناف .

فإن قلت : كيف اتصل لو يعمر بيودّ أحدهم ؟

قلت : هو حكاية لوداداتهم .

و " لو " في معنى التمني ، وكان القياس : لو أعمر ، إلا أنه جرى على لفظ الغيبة لقوله : ﴿ يَوَدُّ

أَحَدُهُمْ ﴾ كقولك : حلف بالله ليفعلنّ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشاف حـ 1 صـ 168 ﴾

(174/60)

ومن فوائد الآلوسى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ الناس على حياة ﴾ الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، وتجد من وجد بعقله بمعنى علم المتعدية إلى مفعولين ، والضمير مفعول أول ، و(أحرص) مفعول ثان ، واحتمال أنها من وجد بمعنى لقي وأصاب فتتعدى إلى واحد ، و(أحرص) حال لا يتأتى على مذهب من يقول إن إضافة أفعل محضة كما سيأتي ، والضمير عائد على اليهود الذين أخبر عنهم بأنهم لا يتمنون الموت ، وقيل : على جميعهم ، وقيل : على علماء بني إسرائيل وأل في الناس للجنس ، وهو الظاهر ، وقيل : للعهد ، والمراد جماعة عرفوا بغلبة الحرص عليهم ، وتنكير (حياة) لأنه أريد بها فرد نوعي ، وهي الحياة المتطاولة ، فالتنوين للتعظيم ، ويجوز أن يكون للتحقير فإن الحياة الحقيقية هي الأخروية و ﴿ إِنِ الدار الآخرة لَهِيَ الحيوان ﴾ [العنكبوت : 64] ويجوز أن يكون التنكير للإبهام ، بل قيل : إن الأوجه

أي على حياة مبهمة غير معلومة المقدار ، ومنه يعلم حرصهم على الحياة المتطاولة من باب الأولى وجوز أبو حيان أن يكون الكلام على حذف مضاف أو صفة أي طول حياة أو حياة طويلة ، وأنت تعلم أنه لا يحتاج إلى ذلك ، والجملة إما حال من فاعل ﴿ قل ﴾ [البقرة : 94] وعليه الزجاج وإما معترضة لتأكيد عدم تمنيهم الموت ، وقرأ أبيّ (على الحياة) بالألف واللام .

﴿ وَمِنَ الذين أَشْرَكُواْ ﴾ هم المجوس ووصفوا بالإشراك لأنهم يقولون بالنور والظلمة وكانت تحيتهم إذا عطس العاطس عش ألف سنة ، وقيل : مشركو العرب الذين عبدوا الأصنام وهذا من الحمل على المعنى كأنه قال : أحرص من الناس ومن الذين الخ .

(175/60)

بناءً على ما ذهب إليه ابن السراج وعبد القاهر والجزولي وأبو علي من أن إضافة أفعل المضاف إذا أريد الزيادة على ما أضيف إليه لفظية لأن المعنى على إثبات (من) الابتدائية ، والجار والمجرور في محل نصب مفعوله ، وسيبويه يجعلها معنوية بتقدير اللام ، والمراد بالناس على هذا التقدير ما عدا اليهود لما تقرر أن المجرور بمن مفضول عليه بجميع أجزائه أو الأعم ولا يلزم تفضيل الشيء على نفسه لأن أفعل ذو جهتين ثبوت أصل المعنى والزيادة فكونه من

جملتهم بالجهة الأولى دون الثانية وجيء بمن في الثانية لأن من شرط أفعل المراد به الزيادة على المضاف إليه أن يضاف إلى ما هو بعضه لأنه موضوع لأن يكون جزءاً من جملة معينة بعده مجتمعة منه ومن أمثاله ، ولا شك أن اليهود غير داخلين في الذين أشركوا فإن الشائع في القرآن ذكرهما متقابلين ، ويجوز أن يكون ذلك من باب الحذف أي وأحرص من الذين وهو قول مقاتل ؛ ووجه الآية على مذهب سيبويه ، وعلى التقديرين ذكر المشركين تخصيص بعد التعميم على الوجه الظاهر في اللام لإفادة المبالغة في حرصهم والزيادة في توبيخهم وتقريعهم حيث كانوا مع كونهم أهل كتاب يرجون ثواباً ويخافون عقاباً ، أحرص ممن لا يرجو ذلك ، ولا يؤمن بعث ولا يعرف إلا الحياة العاجلة ، وإنما كان حرصهم أبلغ لعلمهم بأنهم صائرون إلى العذاب ، ومن توقع شراً كان أنفر الناس عنه ، وأحرصهم على أسباب التباعد منه .

(176/60)

ومن الناس من جوّز كون (من الذين) صفة لمحذوف معطوف على الضمير المنصوب في ﴿ لتجدنهم ﴾ والكلام على التقديم والتأخير ، أي : لتجدنهم وطائفة من الذين أشركوا أحرص الناس ولا أظن يقدم على مثل ذلك في كتاب الله تعالى من له أدنى ذوق ، لأنه وإن

كان معنى صحيحاً في نفسه إلا أن التركيب ينبو عنه ، والفصاحة تأباه ، ولا ضرورة تدعو إليه لا سيما على قول من يخص التقديم والتأخير بالضرورة ، نعم يحتمل أن يكون هناك محذوف هو مبتدأ والمذكور صفته ، أو المذكور خبر مبتدأ محذوف صفته .

﴿ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ ﴾ وحذف موصوف الجملة فيما إذا كان بعضاً من سابقه المجرور بمن أو في جائز في السعة ، وفي غيره مختص بالضرورة نحو :

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا . . .

وحينئذٍ يراد بالذين أشركوا اليهود لأنهم قالوا عزير ابن الله ووضع المظهر موضع المضمر نعياً عليهم بالشرك ، وجوّز بعضهم أن يراد بذلك الجنس ، ويراد بمن يود أحدهم اليهود ، والمراد كل واحد منهم وهو بعيد وجملة ﴿ يَوَدُّ ﴾ الخ ، على الوجهين الأولين مستأنفة ، كأنه قيل : ما شدة حرصهم ، وقيل : حال من (الذين) أو من ضمير (أشركوا) أو من الضمير المنصوب في ﴿ لتجدنهم ﴾ .

(177/60)

﴿ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ جواب ﴿ لَوْ ﴾ محذوف أي لسر بذلك وكذا مفعول ﴿ يَوَدُّ ﴾ أي طول الحياة ، وحذف لدلالة ﴿ لَوْ يُعَمَّرُ ﴾ عليه كما حذف الجواب لدلالة

﴿ يَوَدُّ ﴾ عليه ، وهذا هو الجاري على قواعد البصريين في مثل هذا المكان ، وذهب بعض الكوفيين في مثل ذلك إلى أن ﴿ لَوْ ﴾ مصدرية بمعنى أن فلا يكون لها جواب ، وينسبك منها مصدر هو مفعول ﴿ يَوَدُّ ﴾ كأنه قال : يود أحدهم تعمير ألف سنة ، وقيل : ﴿ لَوْ ﴾ بمعنى ليت ولا يحتاج إلى جواب والجملة محكية بيود في موضع المفعول ، وهو وإن لم يكن قولاً ولا في معناه لكنه فعل قلبي يصدر عنه الأقوال فعومل معاملتها ، وكان أصله لو أعمر إلا أنه أورد بلفظ الغيبة لأجل مناسبة ﴿ يَوَدُّ ﴾ فإنه غائب ، كما يقال : حلف ليفعلن مقام لأفعلن وهذا بخلاف ما لو أتى بصريح القول ، فإنه لا يجوز قال : ليفعلن ، وإذا قلنا : إن (لو) التي للتمني مصدرية لا يحتاج إلى اعتبار الحكاية ، وابن مالك رضي الله تعالى عنه يقول : إن (لو) في أمثال ذلك مصدرية لا غير ، لكنها أشبهت ليت في الإشعار بالتمني ، وليست حرفاً موضوعاً له كليت ونحو لو تأتيني فتحدثني بالنصب أصله وددت لو تأتيني الخ ، فحذف فعل التمني لدلالة (لو) عليه ، وقيل : هي (لو) الشرطية أشربت معنى التمني ، ومعنى ﴿ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ الكثرة ليشمل من (يود) أن لا يموت أبداً ، ويحتمل أن يراد ألف سنة حقيقة والألف العدد المعلوم من الألفة ، إذ هو مؤلف من أنواع الأعداد بناءً على متعارف الناس ، وإن كان الصحيح أن العدد مركب من الوحدات التي تحته لا الأعداد وأصل (سنة) سنوة ، لقولهم : سنوات ، وقيل : سنهة كجبهة لقولهم : سانهته ، وتسنهت النخلة إذا أتت عليها السنون ، وسمع أيضاً في الجمع سنهات .

﴿ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ العذاب أَن يُعَمَّرَ ﴾ ﴿ مَا ﴾ حجازية أو تميمية ، وهو ضمير عائد إلى ﴿ أَحَدِهِمْ ﴾ اسمها أو مبتدأ و﴿ بِمُزَحْزِحِهِ ﴾ خبرها أو خبره والباء زائدة ، و﴿ أَن يُعَمَّرَ ﴾ فاعل (مزحزحه) والمعنى ما أحدهم يزحزحه من العذاب تعميره وفيه إشارة إلى ثبوت من يزحزحه التعمير وهو (من آمن وعمل صالحاً) ولا يجوز عند المحققين أن يكون الضمير المرفوع للشأن لأن مفسره جملة ، ولا تدخل الباء في خبر ﴿ مَا ﴾ وليس إلا إذا كان مفرداً عند غير الفراء ، وأجاز ذلك أبو علي ، وهو ميل منه إلى مذهب الكوفيين من أن مفسر ضمير الشأن يجوز أن يكون غير جملة إذا انتظم إسناداً معنوياً نحو ما هو بقائم زيد ؛ نعم جوّزوا أن يكون لما دل عليه ﴿ يُعَمَّرُ ﴾ و﴿ أَن يُعَمَّرَ ﴾ بدل منه ، أي : ما تعميره بمزحزحه من العذاب واعترض بأن فيه ضعفاً للفصل بين البدل والمبدل منه ، وللإبدال من غير حاجة إليه ، وأجاب بعض المحققين أنه لما كان لفظ التعمير غير مذكور ، بل ضميره حسن الإبدال ؛ ولو كان التعمير مذكوراً بلفظه لكان الثاني تأكيداً لا بدلاً ولكونه في الحقيقة تكريراً يفيد فائدته من تقرير المحكوم عليه اعتناءً بشأن الحكم بناءً على شدة حرصه على التعمير ووداده إياه جاز الفصل بينه وبين المبدل منه بالخبر ، كما في

التأكيد في قوله تعالى : ﴿ وَهُمْ بالآخرة هُمْ كافرون ﴾ [هود : 19] وقيل : هو ضمير مبهم يفسره البدل فهو راجع إليه لا إلى شيء متقدم مفهوم من الفعل ، والتفسير بعد الإبهام ليكون أوقع في نفس السامع ، ويستقر في ذهنه كونه محكوماً عليه بذلك الحكم والفصل بالظرف بينه وبين مفسره جائز كما يفهمه كلام الرضي في بحث أفعال المدح والذم واحتمال أن يكون (هو) ضمير فصل قدم مع الخبر بعيد والزحزحة التبعيد ، وهو مضاعف من زح يزح زحاً ، ككبكب من كب وفيه مبالغة لكنها متوجهة إلى النفي على حد ما قيل :

(179/60)

﴿ وَمَا رَبُّكَ بظلام لّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت : 46] فيؤول إلى أنه لا يؤثر في إزالة العذاب أقل تأثير التعمير ، وصح ذلك مع أن التعمير يفيد رفع العذاب مدة البقاء ، لأن الإمهال بحسب الزمان وإن حصل ، لكنهم لاقترافهم المعاصي بالتعمير زاد عليهم من حيث الشدة فلم يؤثر في إزالته أدنى تأثير بل زاد فيه حيث استوجبوا بمقابلة (أيام معدودة) عذاب الأبد .

﴿ والله بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ أي عالم بخفيات أعمالهم فهو مجازيهم لا محالة وحمل البصر على العلم هنا وإن كان بمعنى الرؤية صفة لله تعالى أيضاً لأن بعض الأعمال لا يصح أن يرى على ما ذهب إليه بعض المحققين وفي هذه الجملة من التهديد والوعيد ما هو ظاهر ، و(ما)

إما موصولة أو مصدرية ، وأتى بصيغة المضارع لتواخي الفواصل ، وقرأ الحسن وقتادة والأعرج ويعقوب ﴿ تَعْمَلُونَ ﴾ بالتاء على سبيل الالتفات . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 329. 331 ﴾

ومن فوائد ابن عاشور فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ ﴾

معطوف على قوله : ﴿ ولن يتمنوه أبداً ﴾ [البقرة : 95] للإشارة إلى أن عدم تمنيهم الموت ليس على الوجه المعتاد عند البشر من كراهة الموت ما دام المرء بعافية بل هم تجاوزوا ذلك إلى كونهم أحرص من سائر البشر على الحياة حتى المشركين الذين لا يرجون بعثاً ولا نشوراً ولا نعيماً فنعيمهم عندهم هو نعيم الدنيا وإلى أن تمنوا أن يعمروا أقصى أمد التعمير مع ما يعتري صاحب هذا العمر من سوء الحالة ورذالة العيش .

فلما في هذه الجمل المعطوفة من التأكيد لمضمون الجملة المعطوف عليها أخرت عنها ، ولما فيها من الزيادة في وصفهم بالأحرصية المتجاوزة الحد عطف عليه ولم يفصل لأنه لو كان لمجرد التأكيد لفصل كما يفصل التأكيد عن المؤكد .

وقوله : ﴿ لتجدنهم ﴾ من الوجدان القلبي المتعدي إلى مفعولين .

والمراد من الناس في الظاهر جميع الناس أي جميع البشر فهم أحرصهم على الحياة فإن الحرص على الحياة غريزية في الناس إلا أن الناس فيه متفاوتون قوة وكيفية وأسباباً قال أبو الطيب :

أرى كلنا يهوَى الحياةَ بسعيه . . .

حريصاً عليها مستهاماً بها صَبّا

فحُب الجبانِ النفسَ أورده التُّقَى . . .

وحبُّ الشجاعِ النفسَ أَوْرَدَهِ الحَربا

ونكر (الحياة) قصداً للتنويع أي كيفما كانت تلك الحياة وتقول يهود تونس ما معناه " الحياة وكفى " .

وقوله : ﴿ ومن الذين أشركوا ﴾ عطف على (الناس) لأن المضاف إليه أفعل التفضيل تقدر معه من التفضيلية لا محالة فإذا عطف عليه جاز إظهارها ويتعين الإظهار إذا كان المفضل من غير نوع المفضل عليه لأن الإضافة حينئذ تمتنع كما هنا فإن اليهود من الناس وليسوا من الذين أشركوا .

وعند سيبويه أن إضافته على تقدير اللام فيكون قوله : ﴿ ومن الذين أشركوا ﴾ على قوله عطفاً بالحمل على المعنى أو بتقدير معطوف محذوف تقديره أحرص هو متعلق من ﴿

الذين أشركوا ﴾ وإليه مال في "الكشاف" .

وقوله : ﴿ يود أحدهم ﴾ بيان لأحرصيتهم على الحياة وتحقيق لعموم النوعية في الحياة المنكرة لدفع توهم أن الحرص لا يبلغ بهم مبلغ الطمع في الحياة البالغة لمدة ألف سنة فإنها مع تعذرها لو تمت لهم كانت حياة خسف وأرذل عيش يظن بهم أن لا يبلغ حبهم الحياة إلى تمنيها ، وقد قال الحريري :

والموت خير للفتى . . .

من عيشهِ عَيْشَ البهيمة

فجيء بهاته الجملة لتحقيق أن ذلك الحرص يشمل حتى هاته الحياة الذميمة ولما في هاته الجملة من البيان لمضمون الجملة قبلها فُصلت عنها .

والود المحبة و (لو) للتمني وهو حكاية للفظ الذي يودون به والمجيء فيه بلفظ الغائب مراعاة للمعنى ويجوز أن تكون (لو) مصدرية والتقدير يود أحدهم تَعمير ألفِ سنة .

(181/60)

وقوله : ﴿ لو يعمر ألف سنة ﴾ بيان ليود أي يود ودًّا بيانه لو يعمر ألف سنة ، وأصل (لو) أنه حرف شرط للماضي أو للمستقبل فكان أصل موقعه مع فعل يود ونحوه أنه جملة مبينة

لجملة ﴿ يود ﴾ على طريقة الإيجاز والتقدير في مثل هذا يود أحدهم لو يعمر ألف سنة لَما سَئِم أو لما كَرِهَ فلما كان مضمون شرط (لو) ومضمون مفعول ﴿ يود ﴾ واحداً استغنوا بفعل الشرط عن مفعول الفعل فحذفوا المفعول ونزل حرف الشرط مع فعله منزلة المفعول فلذلك صار الحرف مع جملة الشرط في قوة المفعول فاكتسب الاسمية في المعنى فصار فعل الشرط مؤولاً بالمصدر المأخوذ منه ولذلك صار حرف (لو) بمنزلة أَن المصدرية نظراً لكون الفعل الذي بعدها صار مؤولاً بمصدر فصارت جملة الشرط مستعملة في معنى المصدر استعمالاً غلَب على (لو) الواقعة بعد فعل ﴿ يود ﴾ وقد يلحق به ما كان في معناه من الأفعال الدالة على المحبة والرغبة .

هذا تحقيق استعمال لو في مثل هذا الجاري على قول المُحَقّقين من النحاة ولغلبة هذا الاستعمال وشيوع هذا الحذف ذهب بعض النحاة إلى أن (لو) تستعمل حرفاً مصدرياً وأثبتوا لها من مواقع ذلك موقعها بعد ﴿ يود ﴾ ونحوه وهو قول الفراء وأبي علي الفارسي والتبريزي والعكبري وابن مالك فيقولون : لا حذف ويجعلون (لو) حرفاً لمجرد السبك بمنزلة أن المصدرية والفعل مسبوكاً بمصدر والتقدير يود أحدهم التعمير وهذا القول أضعف تحقيقاً وأسهل تقديراً .

وقوله : ﴿ وما هو بمزحزحه ﴾ يجوز أن يكون الضمير لأحدهم ويجوز أن يكون ضميراً مبهماً يفسره المصدر بعده على حد قول زهير :

وما الحربُ إلا ما علمتم وذُقتُمُ . . .

وما هو عنها بالحديث المرجَّم

ولم يجعل ضمير شأن لدخول النفي عليه كالذي في البيت لكنه قريب من ضمير الشأن لأن المقصود منه الاهتمام بالخبر ولأن ما بعده في صورة الجملة ، وقيل : هو عائد على التعمير المستفاد من ﴿ لو يعمر ألف سنة ﴾ .

وقوله : ﴿ أن يعمر ﴾ بدل منه وهو بعيد .

(182/60)

والمزحزح المُبعد .

وقوله : ﴿ والله بصير بما يعلمون ﴾ البصير هنا بمعنى العليم كما في قول علقمة الفحل :

فإن تسألوني بالنساء فإنني . . .

بَصِيرٌ بأدواء النساء طبيبُ

وهو خبر مستعمل في التهديد والتوبيخ لأن القدير إذا علم بما يجترحه الذي يعصيه وأعلمه بأنه علم منه ذلك علم أن العقاب نازل به لا محال ومنه قول زهير :

فلا تكتُمُنَّ اللَّهَ ما في نفوسكم . . .

ليخفى فمهما يُكتم اللَّهُ يَعلم

يؤخَّرْ فيوضَعْ في كتاب فيُدَّخرْ . . .

ليوم الحساب أو يعَجَّلْ فينقم

فجعل قوله : يَعْلم بمعنى العلم الراجع للتهديد بدليل إبداله منه قوله يؤخر ، البيت وقريب من

هذا قول النابغة في النعمان :

علمتُك ترعاني بعين بصيرةٍ . . .

وتبعث حُرَّاساً عليَّ وناظرا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 1 صـ 599.

601 ﴾

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (96) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم والحاكم وصححه عن ابن عباس في قوله ﴿ ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ﴾ قال : اليهود ﴿ ومن الذين أشركوا ﴾ قال : الأعاجم .

وأخرج ابن إسحق وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ﴾ يعني اليهود ﴿ ومن الذين أشركوا ﴾ وذلك أن المشرك لا يرجو بعثاً

بعد الموت فهو يحب طول الحياة ، وأن اليهودي قد عرف ما له في الآخرة من الخزي بما صنع ما عنده من العلم ﴿ وما هو بمزحزحه ﴾ قال : بمنجيه .

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر والحاكم عن ابن عباس في قوله ﴿ يودّ أحدهم لو يعمر ألف سنة ﴾ قال : هو قول الأعاجم إذا عطس أحدهم زه هزا رسال يعني ألف سنة .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله ﴿ وما هو بمزحزحه ﴾ قال : هم الذين عادوا جبريل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 1 صـ 221 ﴾

(183/60)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (96) ﴾

الحق سبحانه وتعالى بعد أن فضح كذبهم . . في أنهم لا يمكن أن يتمنوا الموت لأنهم ظالمون . . وما داموا ظالمين فالموت أمر مخيف بالنسبة لهم . . وهم أحرص الناس على الحياة . .

حتى إن حرصهم يفوق حرص الذين أشركوا . . فالمشرك حريص على الحياة لأنه يعتقد أن الدنيا هي الغاية . . واليهود أشد حرصا على الحياة من المشركين لأنهم يخافون الموت لسوء أعمالهم السابقة . . لذلك كلما طالت حياتهم ظنوا أنهم بعيدون عن عذاب الآخرة . . الحياة لا تجعلهم يواجهون العذاب ولذلك فهم يفرحون بها .

إن اليهود لا يبالون أن يعيشوا في ذلة أو في مسكنة . . أو أي نوع من أنواع الحياة . . المهم أنهم يعيشون في أي حياة . . ولكن لماذا هم حريصون على الحياة أكثر من المشركين ؟ لأن المشرك لا آخرة له فالدنيا هي كل همه وكل حياته . . لذلك يتمنى أن تطول حياته بأي ثمن وبأي شكل . . لأنه يعتقد أن بعد ذلك لا شيء . . ولا يعرف أن بعد ذلك العذاب . . واليهود أحرص من المشركين على حياتهم . وقوله تعالى : " يود أحدهم لو يعمر ألف سنة" . . الود هو الحب . . أي أنهم يحبون أن يعيشوا ألف سنة أو أكثر . . ولكن هب أنه عاش ألف سنة أو حتى أكثر من ذلك . . أيزحزحه هذا عن العذاب ؟ لا . . طول العمر لا يغير النهاية .

(184/60)

فما دامت النهاية هي الموت يتساوى من عاش سنوات قليلة ومن عاش ألوف السنين . .

قوله تعالى : " يعمر " بفتح العين وتشديد الميم يقال عنها إنها مبنية للمجهول دائما . . ولا ينفع أن يقال يعمر بكسر الميم . . فالعمر ليس بيد أحد ولكنه بيد الله . . فالله هو الذي يعطي العمر وهو الذي ينهيه . . وبما أن العمر ليس ملكا لإنسان فهو مبني للمجهول . . والعمر هو السن الذي يقطعه الإنسان بين ميلاده ووفاته . . ومادة الكلمة مأخوذة من العمار لأن الجسد تعمر الحياة . وعندما تنتهي يصبح الجسد أشلاء وخرابا . . قوله تعالى : " ألف سنة " . . لماذا ذكرت الألف ؟ لأنها هي نهاية ما كان العرب يعرفونه من الحساب .

ولذلك فإن الرجل الذي أسر في الحرب أخت كسرى فقالت كم تأخذ وتتركني ؟ قال ألف درهم . . قالوا له بكم فديتها ؟ قال بألف . . قالوا لو طلبت أكثر من ألف لكانوا أعطوك . . قال والله لو عرفت شيئا فوق الألف لقلته . . فالألف كانت نهاية العد عند العرب . . ولذلك كانوا يقولون ألف ألف ولم يقولوا مليونا . . وقوله تعالى : " وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر " . . معناها أنه لو عاش ألف سنة أو أكثر فلن يهرب من العذاب . وقوله تعالى : " والله بصير بما يعملون " . . أي يعرف ما يعملونه وسيعذبهم به سواء عاشوا ألف سنة أو أكثر أو أقل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 477 ـ 478 ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾

هذه " اللام " جواب قسم محذوف ، والنون للتوكيد تقديره : والله لتجدنّهم .

و " وجد " هنا متعدية لمفعولين أولهما لضمير ، والثاني " أحرص " ، وإذا تعدّت لاثنين كانت : كـ " علم " في المعنى ، نحو : ﴿ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴾ [الأعراف : 102] .

ويجوز أن تكون متعدية لواحد ، ومعناها معنى " لقي وأصاب " ، وينتصب " أحرص " على الحال ، إما على رأي مَنْ لا يشترط التنكير في الحال ، وإما على رأي من يرى أنَّ إضافة " أفعل " إلى معرفة غير مَحْضَةٍ ، و " أحرص " أفعل تفضيل ، ف " مِنْ " مُرادَةٌ معها ، وقد أضيفت لمعرفة ، فجاءت على أحد الجائزين ، أعني عدم المُطَابقة ، وذلك أنها إذا أضيفت معرفة على نيّة من أجاز فيها وجهي المطابقة لما قبلها نحو " الزَّيدان أفضلا الرجال " ، و " الزيدون أفاضل الرجال " ، و " هند فُضْلى " و " الهنود فُضْليات النِّسَاء " ومن قوله تعالى : ﴿ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا ﴾ [الأنعام : 123] وعدمها ، نحو : " الزيدون أفضل الرجال " ، وعليه هذه الآية ، وكلا الوجهين فصيح خلافاً لابن السّراج .

وإذا أضيفت لمعرفة لزم أن تكون بعضها ، ولذلك منع النحويون "يُوسُفُ أحسن إخوته" على معنى التفضيل ، وتأولوا ما يوهم غيره نحو : "النَّاقِصُ والأَشَجُّ أَعْدَ لاَبَنِي مَرْوَانَ" بمعنى العَادِلاَنِ فيهم ؛ وأما قوله [الرجز]

673 يَارَبَّ مُوسَى أَظْلَمِي وَأَظْلَمُهْ . . .

فَاصْبُبْ عَلَيْهِ مَلكاً لاَيَرْحَمُهْ

فشاذٌّ ، وسوغ ذلك كون "أظلم" الثاني مقتحماً كأنه قال : "أَظْلَمُنَا" .

(186/60)

وأما إذا أضيف إلى نكرة فقد تقدّم حكمها عند قوله : ﴿ أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ ﴾ [البقرة : 41] .

قوله تعالى : ﴿ على حَيَاةٍ ﴾ متعلّق بت "أَحْرَصَ" ح لأنّ هذا الفعل يتعدّى بـ "على" تقول : حرصت عليه .

والتنكير في حياة تنبيه على أنه أراد حياةً مخصوصةً ، وهي الحياة المتطاولة ، ولذلك كانت القراءة بها أوقع من قراءة أبيّ "على الحياة" بالتعريف .

وقيل : : إن ذلك على حذف مضاف تقديره : على طول الحياة ، والظّاهر أنه لا يحتاج إلى

تقدير صفة ولا مضاف ، بل يكون المعنى : أنهم أحرص النَّاس على مطلق الحياة .

وإن قلت : فيكف وإن كثرت ، فيكون أبلغ من وصفهم بذلك ، وأصل حياة " حَيَيَة " تحركت الياء ، وانفتح ما قبلها ، فقلبت ألفاً .

قوله : " ومِنَ الّذِينَ أشْرَكُوا " يجوز أن يكون متصلاً داخلاً تحت " أفعل " التفضيل ويجوز أن يكون منقطعاً عنه وعلى القول باتّصاله به فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه حمل علكى المعنى ، فإن معنى أحرص الناس : أحرص من الناس ، فكأنه قيل : أحرص من النّاس ، ومن الذين أشركوا .

الثاني : أن يكون حذف من الثَّاني لدلالة الأولى عليه ، والتقدير : وأحرص من الذين أشركوا ، وعلى ما تقرر من كون " مِنَ الّذِينَ أَشْرَكُوا " متّصلاً بـ " أفعل " التفضيل ، فلا بد من ذكر " من ؛ لأن " أحرص " جرى على اليهود ، فلو عطف بغير " من " لكان معطوفاً على النَّاس ، فيكون المعنى : ولتجدنَّهم أحرص الذين أشركوا ، فيلزم إضافة " أفعل " إلى غير من درج تحته ؛ لأن اليهود ليسوا من هؤلاء المشركين الخاصّين ؛ لأنهم قالوا في تفسيرهم : إنهم المجوس ، أو عرب يعبدون الأصنام ، اللّهم إلا أن يقال : إنه يغتفر في الثواني ما لا يغتفر في الأوائل ، فحينئذ لو لم يؤت بـ " من " لكان جائزاً .

الثالث : أن في الكلام حذفاً وتقديماً وتأخيراً ، والتقدير : ولتجدنّهم وطائفة من الذين أشركوا أحرص الناس ، فيكون من " مِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا " صفة لمحذوف ، ذلك المحذوف معطوف على الضمير في " لتجدنّهم " وهذا وإن كان صحيحاً من حيث المعنى ، ولكنه يَنْبُو عنه التركيب لا سيّما على قول من يَخُصُّ التقديم والتأخير بالضرورة .

وعلى القول بانقطاعه من " أفعل " يكون " من الذين أشركوا " خبراً مقدماً ، و" يودّ أحدهم " صفة لمبتدأ محذوف تقديره : ومن الذين أشركوا قوم أو فريق يودّ أحدهم ، وهو من الأماكن المطّرد فيها حذف الموصوف بجملته كقوله : ﴿ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ [الصافات : 164] ، وقوله : " منّا ظَعَنَ وَمِنّا أَقَامَ " .

والظاهر أن الذين أشركوا غير اليهود كما تقدم وأجاز الزَّمخشري أن يكون من اليهود ؛ لأنهم قالوا : عزيزٌ ابن الله ، فيكون أخباراً بأن من هذه الطائفة التي اشتدّ حرصها على الحياة من يودّ لو يعمر ألف سنة ، ويكون من وقوع الظَّاهر المشعر بالغَلَبَةِ موقع المضمر ، إذ التقدير ومنه قوم يودّ أحدهم .

وقد ظهر مما تقدم أن الكلام من باب عطف المفردات على القول بدخول " من الَّذِين أَشْرَكُوا " تحت " أفعل " ومن باب عطف الجمل على القول بالانقطاع .

قوله : " يودّ أحدهم " هذا مبني على ما تقدّم ،

فإن قيل بأن " من الذين أشركوا " داخل تحت " أفعل " كان في " يود " خمسة أوجه :

أحدها : أنه حال من الضمير في " لتجدنّهم " أي : لتجدنهم وَادًّا أحدهم .

الثاني : أنه حال من الذين أشركوا ، فيكون العامل فيه " أحرص " المحذوف .

الثالث : أنه حال من فاعل " أشركوا " .

الرابع : أنه مستأنف استؤنف للإخبار بتبيين حال أمرهم في ازدياد حرصهم على الحياة .

الخامس : وهو قول الكوفيين : أنه صلة لموصول محذوف ، ذلك الموصول صفة للذين أشركوا ، والتقدير : ومن الذين أشركوا الذين يودّ أحدهم .

(188/60)

وإن قيل بالانقطاع ، فيكون في محل رفع ؛ لأنه صفة لمبتدأ محذوف كما تقدّم .

قال القرطبي رحمه الله تعالى أصل " يَوَدُّ " " يَوْدَدُ " ، أدغمت لئلا يجمع بين حرفين من جنس واحد متحركين ونقلت حركة الدال إلى الواو ، ليدل ذلك على أنه يفعل .

وحكى الكسائي : وَدَدْتُ ، فيجوز على هذا يَوِدُّ بكسر الواو و " أحد " هنا بمعنى واحد ، وهمزته بدل من واو ، وليس هو " أحد " المستعمل في النفي ، فإن ذاك همزته أصل بنفسها ، ولا يستعمل في الإيجاب المحض .

و" يود " مضارع وَدِدْت بكسر العين في الماضي ، فلذلك لم تحذف الواو في المضارع ؛ لأنها لم تقع بين ياء وكسرة ، بخلاف " يعد " وبابه .

وحكى الكسائي فيه " وَدَدْتُ " بالفتح .

قال بعضهم : فعلى هذا يقال : " يودّ " بكسر الواو .

و" الوِدَادُ " : التمني .

قوله : " لو يعمّر " في " لو " هذه ثلاثة أقوال :

أحدها : وهو الجاري على قواعد نحاة " البصرة " أنها حرف لما كان سيقع لوقوع غيره ، وجوابها محذوف لدلالة " يَوَدُّ " عليه ، وحذف مفعول " يَوَدُّ " لدلالة " لو يعمّر " عليه والتقدير : يود أحدهم طول العمر ، لو يعمر ألف سنة لَسُرَّ بذلك ، فحذف من كلّ واحد ما دلّ عليه الآخر ، ولا محلّ لها حينئذ من الإعراب .

والثاني : وبه قال الكوفيون وأبو علي الفارسي وأبو البقاء ، أنها مصدرية بمنزلة " أن " الناصبة ، فلا يكون لها جواب ، [وينسبك] منها وما بعدها مصدر يكون مفعولاً لـ " يودّ " ، والتقدير : يود أحدهم تعميره ألف سنة .

واستدل أبو البقاء بأن الامتناعية معناها في الماضي ، وهذه يلزمها المستقل كـ " أنْ " وبأنّ " يَودّ " يتعدى لمفعول ، وليس مما يُعَلق ، وبأن " أنْ " قد وقعت بعد " يود " في قوله ﴿ أَيَوَدُّ

أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ ﴾

[البقرة : 266] وهو كثير ، [وجوابه في غير هذا الكتاب] .

(189/60)

الثالث : وإليه نحا الزمخشري : أن يكون معناها التمني ، فلا تحتاج إلى جواب ؛ لأنها في قوة : " يا ليتني أُعَمَّرُ " ، وتكون الجملة من " لو " وما حيّزها في محلّ نصب مفعول به على طريق الحكاية بـ " يود " إجراء له مجرى القول .

قال الزمخشري رحمه الله تعالى : فإن قلت : كيف اتّصل " لو يعمر " بـ " يود أحدهم " ؟ قلت : هي حكاية لودادتهم و" لو " في معنى التمنّي ، وكان القياس " لو أُعَمَّر " إلا أنه جرى على لفظ العينية لقوله : " يود أحدهم " ، كقولك : " حلف بالله تعالى ليفعلن " انتهى وقد تقدّم شرحه ، إلاّ قوله وكان القياس لو أعمر ، يعني بذلك أنه كان من حقّه أن يأتي بالفعل مسنداً للمتكلم وحده ، وإنما أجرى " يود " مجرى القول ؛ لأن " يود " فعل قَلْبي ، والقول ينشأ عن الأمور القلبية

و" الف سنة " منصوب على الظرف بـ " يعمر " ، وهو متعد لمفعول واحد قد أقيم مقام الفاعل ، وفي " سنة " قولان :

أحدهما : أن أصلها : سنوة لقولهم : سنوات وسُنَيَّة وسَانَيْت .

والثاني : أنها من " سَنَهَة " لقولهم : سَنَهَاتٌ وسُنَيْهَةٌ وسَانَهْتُ ، واللّغتان ثابتتان عن العرب كما ذكرت لك .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ العذاب ﴾ في هذا الضمير خمسة أقوال :

أحدها : أنه عائد على " أحد " وفيه حينئذ وجهان :

أحدهما : أنه اسم " ما " الحجازية ، و" بمزحزحه " خبر " ما " ن فهو محل نصب والباء زائدة .

و" أن يعمر " فاعل بقوله : " بمزحزحه " والتقدير : وما أحدهم مزحزحهُ تَعْمِيرُه .

الثاني : من الوجهين في " هو " : أن يكون مبتدأ ، و" بمزحزحه " خبره ، و" أن يعمر " فاعل به كما تقدم وهذا على كون " ما " تميمية ، الوجه الأول أحسن لنزول القرآن بلغة الحجاز ، وظهور النصب في قوله : ﴿ مَا هذا بَشَراً ﴾ [يوسف : 31] ، ﴿ مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ ﴾ [المجادلة : 2] .

الثاني : من الأقوال : أن يعود على المصدر المفهوم من "يُعَمَّر" ، أى : وما تعميره ، ويكون قوله : "أن يعمر" بدلاً منه ، ويكون ارتفاع "هو" على الوجهين المتقدمين أي قوله : اسم "ما" أو مبتدأ .

الثالث : أن يكون كناية عن التعمير ، ولا يعود على شيء قبله ، ويكون "أن يعمّر" بدلاً منه مفسراً له ، والفرق بين هذا وبين القول الثاني أن ذاك تفسيره شيء متقدم مفهوم من الفعل ، وهذا مُفَسَّرٌ بالبدل بعده ، وقد تقدم أن في ذلك خلافاً ، وهذا ما عنى الزمخشري بقوله : ويجوز أن يكون "هو" مبهماً ، و"أن يعمر" موضحه .

الرابع : أنه ضمير الأمر والشأن وإليه نحا الفارسي في "الحلبيَّات" موافقة للكوفيين ، فإنّهم يفسرون ضمير الأمر بغير جملة إذا انتظم من ذلك إسناد مَعْنوي ، نحو : ظننته قائماً الزيدان ، وما هو بقائم زيد ؛ لأنه في قوة : ظننته يقوم الزيدان ، وما هو يقوم زيد ، والبصريون يأبون تفسيره إلاَّ بجماعة مصرح بجزئيها سالمة من حرف جر ، وقد تقدم تحقيق القولين .

الخامس : أنه عماد ، نعني به الفصل عن البصريين ، نقله ابن عطيّة عن الطَّبري عن طائفة ، وهذا يحتاج إلى إيْضَاحن وذلك أن بعض الكوفيين يجيزون تقديم العِمَاِ مع الخبر المقدم ، يقولون في زيد هو القائم : هو القائم زيد ، وكذلك هنا ، فإن الأصل عند هؤلاء أن يكون "بمزحزحه" خبراً مقدماً و"أن يعمر" مبتدأ مؤخراً ، و"هو" عماد ، والتقدير : وما تعميره وهو بمزحزحه ، فلما قدم الخبر قدم معه العماد .

والبصريون لا يجيزون شيئاً من ذلك .

و" من العذاب " متعلّق بقوله : " بمزحزحه " و" من " لابتداء الغاية والزحزحة : التَّنحية ، تقول : زحزحته فَزَحْزَح ، فيكون قاصراً ومتعدياً فمن مجيئه متعدياً قوله : [البسيط]

674 يَا قَابِضَ الرُّوحِ مِنْ نَفْسِي إِذَا احْتَضَرَتْ . . .

وَغَافِرَ الذَّنبِ زَحْزِحْنِي عَنِ النَّارِ

وأنشده ذو الرُّمَّة : [البسيط]

(191/60)

---

675 يَا قَابِضَ الرُّوحِ مِن جِسْمٍ عَصَى زَمَناً . . . . . .

ومن مجيئه قاصراً قول الآخر : [الطويل]

676 خَلِيلَيَّ مَا بَالُ الدُّجَى لاَ يُزَحْزَحُ . . .

وَمَا بَالُ ضَوْءِ الصُّبْحِ لاَ يَتَوَضَّحُ

قوله : " أَنْ يُعَمَّرَ " : إما أن يكون فاعلاً أو بدلاً من " هو " ، أو مبتدأ حسب ما تقدم من الإعراب في " هو " .

﴿ واللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ مبتدأ وخبر ، و" بما " يتعلّق ببصير .

و" ما " يجوز أن تكون موصولة اسمية أو نكرة موصوفة ، والعائد على كلا القولين محذوف أي : يعملونه ، ويجوز أن تكون مصدرية أي : بعملهم .

والجمهور " يعملون " بالياء ، نسقاً على ما تقدم ، والحسن وغيره " تعملون " بالتاء ، وللخطاب على الالتفات ، وأتى بصيغة المضارع ، وإن كان علمه محيطاً بأعمالهم السَّالفة مراعاة لرءوس الآي ، وختم الفواصل .

قال ابن الخطيب : " والبصير قد يراد به العليم ، وقد يراد به أنه على صفة لو وجدت المبصرات لأبصرها ، وكلا الوصفين يصحّان عليه سبحانه إلاَّ أن من قال : إن في الأعمال ما لا يصحّ أن يرى حمل هذا البصر على العلم لا محالة " [قال العلماء رحمهم الله تعالى : وصف الله تعالى نفسه بأنه بصير على معنى أنه عالم بخفيَّات الأمور ، والبصير في كلام العرب العالم بالشيء الخبير به .

ومنه قولهم : فلان خبير بالطب ، وبصير بالفقه ، وبصير بُمَلاَقاةِ الرجال .

وقيل : وصف تعالى نفسه بأنه بصير على معنى أنه جاعل الأشياء المبصرة ذوات أبصار أي : مدركة للمبصرات بما خلق لها من الآلة المدركة] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 2 صـ 301 . 306 ﴾ . باختصار .

(192/60)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (96) ﴾

حُبُّ الحياة في الدنيا نتيجة الغفلة عن الله ، وأشد منه غفلة أَحبُّهم للبقاء في الدنيا . .

وحالُ المؤمن من هذا على الضدّ . وأما أهل الغفلة وأصحاب التهتك فإنما حرصهم على الحياة لعلمهم بما فقدوا فيها من طاعتهم ؛ فالعبد الآبق لا يريد رجوعاً إلى سَيّده .

والانقلابُ إلى مَنْ هو خيرُه مَرجوٌّ خيرٌ للمؤمنين من البقاء مع مَنْ شَرُّه غيرُ مأمون ، ثم إن امتداد العمر مع يقين الموت (لا قيمة له) إذا فَاجَأَ الأمرُ وانقطع العُمْرُ . وكلُّ ما هو آتٍ فقريب ، وإذا انقضت المُدَّةُ فلا مردَّ لهجوم الأجل على أكتاف الأمل . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 107.108 ﴾

(193/60)

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (92) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (93) قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (94) وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (95) وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (96) ﴾

التفسير : السبب في تكرير قصة اتخاذ العجل ههنا القدح بوجه آخر في قولهم ﴿ نؤمن بما أنزل علينا ﴾ [البقرة : 91] وبيان وصفهم بالعناد والتكذيب تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتثبيتاً له ، فإن قوم موسى عليه السلام بعد ظهور المعجزات الواضحات على يده اتخذوا العجل إلهاً ومع ذلك صبر وثبت على الدعاء إلى ربه والتمسك بدينه وشرعه .

وكرر ذكر رفع الطور للتأكيد ، ولما نيط به من زيادة قولهم ﴿ سمعنا وعصينا ﴾ الدال على نهاية لجاجهم وذلك أنه قال لهم : اسمعوا سماع تقبل وطاعة . فقالوا : سمعنا ولكن لا سماع طاعة ، وظاهر الآية يدل على أنهم قالوا هذا القول أعني سمعنا وعصينا وعليه الأكثرون . وعن أبي مسلم أنه يجوز أن يكون المعنى سمعوه وتلقوه بالعصيان ، فعبر عن ذلك بالقول مثل ﴿ قالتا أتينا طائعين ﴾ [فصلت : 11] ﴿ وأشربوا في قلوبهم العجل ﴾ أي تداخلهم حبه والحرص على عبادته كما يتداخل الثوب الصبغ . وقوله تعالى ﴿ في قلوبهم ﴾ بيان لمكان الإشراب كقوله ﴿ إنما يأكلون في بطونهم ناراً ﴾ [النساء : 10] وفي هذه الاستعارة لطيفة وهي أنه كما أن الشرب مادة لحياة ما تخرجه الأرض فكذا تلك المحبة كانت مادة للقبائح الصادرة عنهم . وفي قوله ﴿ واشربوا ﴾ دلالة على أن فاعلاً غيرهم فعل ذلك بهم كالسامري وإبليس وشياطين الجن والإنس ، وذلك بسبب كفرهم واعتقادهم التشبيه على الله تعالى ولا ريب أن جميع الأسباب تنتهي إلى الله تعالى وقد عرفت التحقيق في أمثال ذلك مراراً . ﴿ بئسما يأمركم ﴾ المخصوص بالذم محذوف أي بئس شيئاً يأمركم به إيمانكم بالتوراة عبادة العجل ، فليس في التوراة عبادة العجاجيل . وإضافة الأمر إلى إيمانهم تهكم كما قال قوم شعيب ﴿ أصلاتك تأمرك ﴾ [هود : 87] وكذلك إضافة الإيمان إليهم .

واعلم أن الإيمان عرض ولا يصح منه الأمر والنهي ، لكن الداعي إلى الفعل والسبب فيه قد يشبه بالأمر كقوله ﴿ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾ [العنكبوت : 45] ﴿ قل إن كانت لكم الدار الآخرة ﴾ الدار اسم "كان" وفي الخبر ثلاثة أوجه : الأول : ﴿ خالصة ﴾ و ﴿ عند ﴾ ظرف لخالصة أو للاستقرار الذي في ﴿ لكم ﴾ ويجوز أن يكون ﴿ عند ﴾ حالاً من الدار والعامل فيها "كان" أو الاستقرار . وأما ﴿ لكم ﴾ فيكون على هذا متعلقاً ب "كان" لأنها تعمل في حروف الجر ، ويجوز أن يكون للتبيين فيكون موضعها بعد ﴿ خالصة ﴾ أي خالصة لكم فيتعلق بنفس خالصة ، ويجوز أن يكون صفة لخالصة قدمت عليها فيتعلق حينئذ بمحذوف . الثاني : أن يكون خبر كان ﴿ لكم ﴾ و ﴿ عند الله ﴾ ظرف و ﴿ خالصة ﴾ حال والعامل "كان" أو الاستقرار . الثالث : أن يكون ﴿ عند الله ﴾ هو الخبر و ﴿ خالصة ﴾ حال والعامل فيها إما عند ، وما يتعلق به أو "كان" أو "لكم" وسوغ أن يكون ﴿ عند ﴾ خبر ﴿ كانت لكم ﴾ إذ كان فيه تخصيص وتبيين نحو ﴿ ولم يكن له كفواً أحد ﴾ [الإخلاص : 4] وقوله ﴿ من دون الناس ﴾ نصب ب ﴿ خالصة ﴾ لأنك تقول : خلص كذا من كذا

. والمراد بالدار الآخرة الجنة لأنها هي المطلوبة من الدار الآخرة دون النار . والمراد بقوله ﴿ عند الله ﴾ الرتبة والمنزلة ، وحمله على عندية المكان ممكن ههنا إذ لعلهم كانوا مشبهة . ومعنى خالصة لكم أي سالمة خاصة بكم لا حق لأحد فيها سواكم . " ودون " ههنا يفيد التجاوز والتخطي في المكان كما تقول لمن وهبته منك ملكاً : هذا لك من دون الناس . أي لا يتجاوز منك إلى غيرك . والناس للجنس وقيل للعهد وهم المسلمون والجنس أولى لقوله ﴿ وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى ﴾ [البقرة : 111] ولأنه لم يوجد ههنا معهود . فإن قلت : من أين ثبت أنهم ادعوا ذلك ؟ قلنا : لأنه لا يجوز أن يقال في معرض الاستدلال على الخصم إن كان كذا وكذا فافعل كذا

(196/60)

إلا والأول مذهبه ليصح إلزامه بالثاني ، ولقوه تعالى ﴿ وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى ﴾ [البقرة : 111] ﴿ نحن أبناء الله وأحباؤه ﴾ [المائدة : 18] ولما اعتقدوا في أنفسهم أنهم هم المحقون ، لأن النسخ غير جائز عندهم ، ولزعمهم أن آباءهم الأنبياء يشفعون لهم ويوصلونهم إلى ثواب الله فلهذه الأسباب عظموا شأن أنفسهم وكانوا يفتخرون على العرب ، وربما جعلوه كالحجة في أن النبي صلى الله عليه وسلم المنتظر

المبشر به في التوراة منهم لا من العرب ، وكانوا يصرفون الناس بسبب هذه الشبهة عن اتباع محمد صلى الله عليه وسلم ، فبين الله تعالى فساد معتقدهم بالآية . وبيان الملازمة أن متاع الدنيا قليل في جنب نعم الآخرة ، وذلك القليل كان أيضاً منغصاً عليهم بعد ظهور محمد صلى الله عليه وسلم ومنازعته معهم بالجدال والقتال .

فالموت خير لهم لا محالة لأنه يوصل إلى الخيرات الكثيرة الدائمة الصافية عن النغص ، ولا يفوت إلا القليل النكد . والوسيلة وإن كانت مكروهة نظراً إلى ذاتها لكنه لا يتركها العاقل نظراً إلى غايتها كالفصد ونحوه . والنهي عن تمني الموت في قوله صلى الله عليه وسلم " لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به وإن كان ولا بد فليقل اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً إليّ وأمتني ما كانت الوفاة خيراً لي " محمول على تمن سببه عدم الصبر على الضر ونكد العيش كما قال قائل :

ألا موت يباع فأشتريه . . . فهذا العيش ما لا خير فيه

ألا رحم المهيمن روح عبد . . . تصدق بالوفاة على أخيه

(197/60)

فإن ذلك نوع من عدم الرضا بالقضاء ويدل على الجزع وضيق العطن وينافي قضية التوكل والتسليم ، أو على تمن سببه الجزم بالوصول إلى نعيم الآخرة فإن ذلك خارج عن قانون الأدب ، ونوع من الأخبار بالغيب لا يليق إلا ببعض أولياء الله . روي أن علياً عليه السلام كان يطوف بين الصفين في غلالة وهي شعار يلبس تحت الثوب وتحت الدرع أيضاً . فقال له ابنه الحسن : ما هذا بزي المحاربين . فقال : يا بني ، لا يبالي أبوك على الموت سقط أم عليه سقط الموت . وعن حذيفة أنه رضي الله عنه كان يتمنى الموت ، فلما احتضر قال رضي الله عنه : حبيب جاء على فاقة لا يفلح من ندم . يعني على التمني . وقال عمار بصفين : الآن ألاقي الأحبة ، محمداً وحزبه . وكان كل واحد من العشرة المبشرة بالجنة يحب الموت ويحن إليه لجزمهم بلقاء الله و نيل ثوابه وذلك لمكان البشارة ، فأما أحدنا فلا يليق به تمني الموت إلا على سبيل الرجاء وحسن الظن بالله " أنا عند ظن عبدي بي " وعن النبي صلى الله عليه وسلم " لو تمنوا الموت لغص كل إنسان بريقه فمات مكانه وما بقي على الأرض يهودي " وليس لهم أن يقلبوا هذا السؤال على محمد صلى الله عليه وسلم فيقولوا : إنك تدعي أن الدار الآخرة خالصة لك ولأمتك دون من ينازعك في الأمر ، فارض بأن نقتلك ونقتل أمتك فإنا نراك وأمتك في الضر الشديد والبلاء العظيم ، وبعد الموت تتخلصون إلى دار الكرامة والنعيم ، لأنه صلى الله عليه وسلم بعث لتبليغ الشرائع وتنفيذ الأحكام ولا يتم المقصود إلا بحياته وحياة أمته ، فله صلى الله عليه وسلم أن يقول لأجل هذا لا أرضى

بالقتل مع أن المؤمن من هذه الأمة قلما يخلو من النزاع والشوق إلى لقاء ربه ، فالعبد المطيع يحب الرجوع إلى سيده ، والعبد الآبق يكره العود إلى مولاه ، ولهذا جاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وبذلوا أرواحهم دون الدين والذب عن الملة الحنيفية

(198/60)

﴿ رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر ﴾ [الأحزاب : 23] عن عبادة بن الصامت أن النبي صلى الله عليه وسلم قال " من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه فقالت عائشة أو بعض أزواجه إنا لنكره الموت قال ليس ذلك ولكن المؤمن إذا حضره الموت بشر برضوان الله وكرامته فليس شيء أحب إليه مما أمامه فأحب لقاء الله وأحب الله لقاءه . وإن الكافر إذا حضره الموت بشر بعذاب الله وعقوبته فليس شيء أكره إليه مما أمامه فكره لقاء الله وكره الله لقاءه " ثم إنه تعالى بين انتفاء اللازم بقوله ﴿ ولن يتمنوه أبداً ﴾ وبرهن عليه بقوله ﴿ بما قدمت أيديهم ﴾ أي بما أسلفوا من موجبات النار كالكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم وبالقرآن وكتحريف كتاب الله وسائر قبائح أفعالهم . وذكر الأيدي مجاز لأن أكثر الأعمال يتم بمباشرة اليد . وقوله ﴿ ولن يتمنوه أبداً ﴾ من المعجزات لأنه إخبار بالغيب ، وكان كما

أخبر به كقوله ﴿ ولن تفعلوا ﴾ [البقرة : 24] وذلك أن التمني ليس من أعمال القلب حتى لا يطلع عليه أحد ، وإنما هو قول الإنسان بلسانه تمنيت أو ليت لي كذا ، ومحال أن يقع التحدي بما في الضمائر والقلوب . فلو إنهم تمنوا لنقل ذلك كما ينقل سائر الحوادث العظام ، ولكان ناقلوه من أهل الكتاب وغيرهم من أولى المطاعن أكثر من الذرّ . وأيضاً لو كان التمني بالقلوب وتمنوا لقالوا قد تمنينا الموت في قلوبنا ولم ينقل أنهم قالوا ذلك . وأيضاً لولا أنه تعالى أوحى إليه أنهم لم يتمنوا لم يكن في العقل رخصة الإقدام على مثل هذا الإلزام ، لأنه في غاية السهولة ، وإذا ثبت انتفاء اللازم ثبت انتفاء الملزوم بالضرورة وهو أن لا تكون الدال الآخرة لهم خالصة ، وأما أنها ليست لهم بالاشتراك أيضاً ، فيستفاد من الآية التالية . وفي قوله ﴿ والله عليم بالظالمين ﴾ إشارة أيضاً إلى ذلك لأنه إذا كان محيطاً بسرهم وعلانيتهم وقد قدموا من

القبائح ما قدموا فيجازيهم بما يحقون له . وفي وضع الظاهر وهو بالظالمين مقام المضمر وهو بهم إشارة أخرى إلى سوء منقلبهم ﴿ وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون ﴾ [الشعراء : 227] واللام إما للعهد وإما للجنس ، فيشملهم أولاً وغيرهم من الظلمة ثانياً .

فإن قيل : ما الفائدة في قوله ههنا ﴿ ولن يتمنوه ﴾ وفي سورة الجمعة ﴿ ولا يتمنونه ﴾ [الجمعة : 7] ؟ قلنا : لأن الدعوى هنا كون الدار الآخرة خالصة لهم ، وهناك كونهم أولياء لله من دون الناس ، والأول مطلوب بالذات ، والثاني وسيلة إليه ، فناسب أن ينفي الأول بما هو أبلغ في إفادة النفي وهو " لن " ، أو لأن الدعوى الثانية أخص فإنه لا يلزم أن يكون كل من له الدار الآخرة ولياً بمعنى أنه يلي النبي في الكمال والإكمال ، ونفي العام أبعد من نفي الخاص كما أن إثبات الخاص في قولك " فلان ابن فلان موجود " أبعد من إثبات العام في قولك " الإنسان موجود " .

(200/60)

فحيث كانت الدعوى الأولى أبعد احتيج إلى أداة هي في باب النفي أبلغ . ثم إنه سبحانه لما أخبر عنهم في الآية المتقدمة أنهم لا يتمنون الموت ، أخبر بعد ذلك أنهم في غاية الحرص على الحياة ، لأن ههنا قسماً ثالثاً وهو أن لا يتمنى الحياة ولا الموت فقال ﴿ ولتجدنهم أحرص الناس ﴾ مؤكداً باللام والنون والقسم المقدر وهو من وجد بمعنى علم . وقوله ﴿ على حياة ﴾ بالتنكير لأنه أراد نوعاً من الحياة مخصوصاً وهي الحياة المتطاولة أو حياة وأيّ حياة . وفي جعلهم أحرص من الذين أشركوا توبيخ عظيم ، لأن المشركين لا يؤمنون بمعاد

وعاقبة وما يعرفون إلا الحياة الدنيا فهي جنتهم ، فلا يستبعد حرصهم عليها . فإذا ازداد عليهم في الحرص من له كتاب وهو مقر بالجزاء كان خليقاً بالتوبيخ . وسبب زيادة حرصهم هو علمهم بأنهم صائرون إلى النار لا محالة والمشركون غافلون عن ذلك . وقيل : أراد بالذين أشركوا المجوس لأنهم كانوا يقولون لملوكهم : عش ألف نيروز وألف مهرجان . وعن ابن عباس : هو قول الأعاجم " زي هزار سال " ، ويحسن أن يقال ﴿ ومن الذين أشركوا ﴾ كلام مبتدأ أي ومنهم ناس يودّ على حذف الموصوف كقوله ﴿ وما منا إلا له مقام معلوم ﴾ [الصافات : 164] أي وما منا ملك لقوة الدلالة عليه بذكر ما اشتمل عليه قبله ، فكأنه مذكور ، وعلى هذا يلزم توبيخ اليهود من جهة أخرى وهي انضمامهم في زمرة المشركين وكونهم بعضاً منهم وذلك كقولهم ﴿ عزير ابن الله ﴾ [التوبة : 30] . وقال أبو مسلم : في الآية تقديم وتأخير أي ولتجدنهم طائفة من الذين أشركوا وأحرص الناس على حياة ، ثم فسر بقوله ﴿ يود أحدهم ﴾ أي كل واحد يغرض لو يعمر . و " لو " في معنى التمني و ﴿ لو يعمر ﴾ حكاية لودادتهم ، وكان يجوز " لو أعمر " على الحكاية إلا أنه جرى على لفظ الغيبة لقوله ﴿ يود أحدهم ﴾ مثل " حلف بالله ليفعلن " وتخصيص الألف بالذكر بناء على العرف ولأنه أول عقد يستحيل وقوعه في أعمار بني آدم

أو يندر . والضمير في قوله ﴿ وما هو ﴾ يعود إلى أحدهم و ﴿ أن يعمر ﴾ فاعل ﴿ بمزحزحه ﴾ أي وما أحدهم بمن يزحزحه من العذاب تعميره . ويجوز أن يكون الضمير لما دل عليه ﴿ يعمر ﴾ من مصدره و ﴿ أن يعمر ﴾ بدل منه كأنه قيل : وما التعمير بمزحزحه من العذاب أن يعمر . ويجوز أن يكون ﴿ هو ﴾ مبهماً و ﴿ أن يعمر ﴾ موضحه . والزحزحة المباعدة والتنحية . ﴿ والله بصير بما يعملون ﴾ فيه تهديد لأهل البغي والعناد ، وزجر للعصاة عن الفساد . والبصر قد يراد به العلم يقال فلان بصير بهذا الأمر أي عارف به ، وقد يراد به أنه على صفة لو وجدت المبصرات لأبصرها ، وكلا الوصفين يصح عليه سبحانه ما لم يثبت له جارحة . فإن قلنا : إن من الأعمال ما لا يصح أن يرى ، تعين حمل البصر فيه على العلم والله أعلم بالصواب . وإليه المرجع والمآب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 1 صـ 336. 340 ﴾

(202/60)

" فصل "

قال أبو حيان :

وقد تضمنت هذه الآيات الكريمة الامتنان على بني إسرائيل وتذكارهم بنعم الله ، إذ آتى موسى التوراة المشتملة على الهدى والنور ، ووالى بعده بالرسل لتجديد دين الله وشرائعه ، وآتى عيسى الأمور الخارقة ، من إحياء الأموات ، وإبراء الأكمة والأبرص ، وإيجاد المخلوق ، ونفخ الروح فيه ، والإنباء بالمغيبات ، وغير ذلك .

وأيده بمن ينزل الوحي على يديه ، وهو جبريل عليه السلام .

(203/60)

ثم مع هذه المعجزات والنعم كانوا أبعد الناس عن قبول ما يأتيهم من عند الله ، وكانوا بحيث إذا جاءهم رسول بما لا يوافقهم ، بادروا إلى تكذيبه ، أو قتله ، وهم غير مكترثين بما يصدر منهم من الجرائم ، حتى حكي أنهم في أثر قتلهم الجماعة من الأنبياء ، تقوم سوق البقل بينهم ، التي هي أرذل الأسواق ، فكيف بالأسواق التي تباع فيها الأشياء النفيسة ؟ ثم نعى تعالى عليهم أنهم باقون على تلك العادة من تكذيب ما جاء من عند الله ، وإن كانوا قبل مجيئه به يذكرون أنه يأتيهم من عند الله .

فحين وافاهم ما كانوا ينتظرونه ويعرفونه ، كفروا به ، فختم الله عليهم باللعنة .

وأن سبب طردهم عن رحمة الله هو ما سبق من كفرهم ، وأن إيمانهم كان قليلاً ، إذ كانوا

قبل مجيء الكتاب يؤمنون بأنه سيأتي كتاب .

ثم أخذ في ذكر ذمهم ، أن باعوا أنفسهم النفيسة بما يترتب لهم على كفرهم بآيات الله من المآكل والرّياسات المنقضية في الزمن اليسير ، وأن الحامل على ذلك هو البغي والحسد ، لأن اختص الله بفضله من شاء من عباده ، فلم يرضوا بحكمه ولا باختياره ، فباءُوا بالغضب من الله ، وأعد لهم في الآخرة العذاب الذي يذلهم ويهينهم .

إذ كان امتناعهم من الإيمان ، إنما هو للتكبر والحسد وعدم الرّضا بالقدر ، فناسب ذلك أن يعذبوا العذاب الذي فيه صغار لهم وذلة وإهانة .

ثم أخبر تعالى عنهم ، أنهم إذا عرض عليهم الإيمان بما أنزل الله ، أجابوا أنهم يؤمنون بالتوراة ، وأنهم يكفروا بما سواها .

هذا والكتب المنزلة من عند الله سواء ، إذ كلها حق يصدق بعضها بعضاً .

فالكفر ببعضها كفر بجميعها .

ثم أخبر تعالى بكذبهم في قولهم : ﴿ نؤمن بما أنزل علينا ﴾ ، وذلك بأنهم قتلوا الأنبياء ، والتوراة ناطقة باتباع الأنبياء والاقتداء بهم ، فقد خالف قولهم فعلهم .

ثم كرر عليهم ، توبيخاً لهم ، أن موسى الذي أنزل عليه التوراة ، وأنهم يزعمون أنهم آمنوا بها ، قد جاءهم بالأشياء الواضحة والمعجزات الخارقة ، من نجاتهم من فرعون ، وفلق البحر وغير ذلك ، ومع ذلك ، اتخذوا من بعد ذهابه إلى مناجاة ربه إلهاً من أبعد الحيوان ذهناً وأبلدها ، وهو العجل المصنوع من حليهم ، المشاهد إنشاؤه وعمله ، وموسى لم يمت بعد ، وكتاب الله طري نزوله عليهم ، لم يتقادم عهده .

وكرر تعالى ذكر رفع الطور عليهم ليقبلوا ما في التوراة ، وأمروا بالسمع والطاعة ، فأجابوا بالعصيان .

هذا وهم ملجئون إلى الإيمان ، أو كالملجئين ، لأن مثل هذا المزعج العظيم من رفع جبل عليهم ليشدخوا به جدير بأن يأتي الإنسان ما أمر به ، ويقبل ما كلف به من التكاليف .

وتأبيهم لذلك ، وعدم قبولهم ، سببه أن عبادة العجل خامرت قلوبهم ومازجتها ، حتى لم تسمع قبولاً لشيء من الحق ، والقلب إذا امتلأ بحب شيء لم يسمع سواه ولم يصغ إلى ملام ، وأنشدوا :

ملأت ببعض حبك كل قلبي . . .

فإن ترد الزيادة هات قلبا

ثم ذمهم تعالى على ما أمرهم به إيمانهم ، ولا إيمان لهم حقيقة ، بل نسب ذلك إليهم ، على سبيل التهكم من عبادة العجل واتخاذه إلهاً من دون الله .

ثم كذبهم في دعواهم أن الجنة هي خالصة لهم ، لا يدخلها أحد سواهم ، فأمرهم بتمني الموت ، لأن من اعتقد أنه يصير إلى سرور وحبور ولذة دائمة لا تنقضي ، يؤثر الوصول إلى ذلك ، وانقضاء ما هو فيه من الذلة والنكد .

وأخبر تعالى أن تمني الموت لا يقع منهم أبداً ، وأن امتناعهم من ذلك هو بما قدّمت أيديهم من الجرائم ، فظهر كذبهم في دعواهم بأنهم أهل الجنة .

ثم أخبر ترشيحاً لما قبله من عدم تمنيهم الموت ، أنهم أشدّ الناس حرصاً على حياة ، حتى أنهم أحرص من الذين لا يؤمنون بالدار الآخرة ، ولا يرجون ثواباً ، ولا يخافون عقاباً .

(205/60)

ثم ذكر أن أحدهم يودّ أن يعمر ألف سنة ، ومع ذلك فتعميره ، وإن طال ، ليس بمنجيه من عذاب الله .

ثم ختم الآيات بأن الله تعالى مطلع على قبائح أفعالهم ، ومجازيهم عليها .

وتبين بمجموع هذه الآيات ما جبل عليه اليهود من فرط كذبهم ، وتناقض أفعالهم وأقوالهم ، ونقص عقولهم ، وكثرة بهتهم ، أعاذنا الله من ذلك ، وسلك بنا أنهج المسالك . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 1 صـ 483 ـ 484 ﴾

قوله تعالى ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (97) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما ذكر عداوتهم لأخص البشر واجتراءهم عليه بالتكذيب والقتل ، وختم ذلك بعداوتهم لأكمل الخلق وأخصهم حسداً لنزول هذا الذكر عليه عبارة ثم إشارة بما رمزه إلى نصبهم لقتله وأنهى ذلك بأنه لا محيص لهم من العذاب ، لأنه بصير بأعمالهم الموجبة له ذكر ما هو من دقيق أعمالهم في عراقتهم في الكفر بعداوتهم لخواص الملائكة الذين هم خير محض لا حامل أصلاً على بغضهم إلا الكفر ، وبدىء بذكر المنزل للقرآن ، لأن عداوتهم للمنزل عليه لأجل ما نزل عليه عداوة لمنزله ، لأنه سبب ما كانت العداوة لأجله ، فقال آمراً له صلى الله عليه وسلم إعلاماً بما أبصره من خفي مكرهم القاضي بضرهم : ﴿ قل ﴾ أو يقال – وهو أحسن وأبين وأمتن : ولما أمره صلى الله عليه وسلم بما دل على كذبهم في ادعائهم خلوص الآخرة لهم وأخبر بأنه لا بد من عذابهم أمره بدليل آخر على كلا الأمرين ،

فعلى تقدير كونه دليلاً على الأول يكون منسوقاً على ﴿ قل ﴾ الأولى بغير عاطف إشعار بأن كلاًّ من الدليلين كاف فيما سيق له : على تقدير كونه دليلاً على الثاني الذي خصه يكون جواباً لمن كأنه قال : لم لا يزحزحهم عن التعمير عن العذاب ؟ ﴿ قل ﴾ أي لهؤلاء الذين ادعوا أن دار الملك خالصة لهم وهم يعادون خواص جنده ﴿ من ﴾ وهي اسم مبهم يشمل الذوات العاقلة آحاداً وجموعاً واستغراقاً – قاله الحرالي : ﴿ كان عدواً لجبريل ﴾ أي فإنه لا يضر إلا نفسه ، لأنه لا يبلغ ضره بوجه من الوجوه ولعداوته بعداوته له لله الذي خصه بقربه واختياره لرسالته ، فكفر حينئذ هذا المعادي له بجميع كتب الله ورسله ؛ وجبريل قال الحرالي : يقال هو اسم عبودية ، لأن إيل اسم من أسماء الله عز وجل في الملأ الأعلى وهو يد بسط لروح الله في القلوب بما يحييها الله به من روح أمره إرجاعاً إليه في هذه الدار قبل إرجاع روح الحياة بيد القبض من عزرائيل عليه السلام – انتهى .

(207/60)

ثم علل هذا الخبر المحذوف بما أرشد إليه فقال : ﴿ فإنه ﴾ أي جبريل ﴿ نزله ﴾ أي القرآن الذي كفروا به ، لحسدهم للذي أنزل عليه بعد ما كانوا يستفتحون به .

الآتي بما ينفعهم ، الداعي إلى ما يصلحهم فيرفعهم ، ولما كان المراد تحقيق أنه كلام الله وأنه

أمر بإبلاغه جمع بين ﴿ قل ﴾ وبين ﴿ على قلبك ﴾ أي وهو أكمل القلوب ، دون أن يقال : على قلبي – المطابق لقل ؛ وأداة الاستعلاء دالة على أن المنزل تمكن في القلب فصارت مجامعه مغمورة به ، فكان مظهراً له ﴿ بإذن الله ﴾ الملك الأعظم الذي له الأمر كله . فليس لأحد إنكار ما أذن فيه .

والنازل به لم يتعد شيئاً مما أمر به ؛ والإذن رفع المنع وإيتاء المكنة كوناً وخلقاً ما لم يمنعه حكم تصريف – قاله الحرالي : ﴿ مصدقاً لما بين يديه ﴾ من كتب الله التي أعظمها كتابهم . فكانوا أحق الناس بالإيمان به وكان جبريل عليه السلام أحق الملائكة بمحبتهم له لإنزاله ، وكان كفرهم به كفراً بما عندهم ، فلا وجه لعداوتهم له ؛ والبين حد فاصل في حس أو معنى – قاله الحرالي : ﴿ وهدى ﴾ إلى كل خير ، لأنه بيان ما وقع التكليف به من أفعال القلوب والجوارح ﴿ وبشرى ﴾ أي ببيان الثواب ﴿ للمؤمنين ﴾ أي الذين لهم الإيمان وصف لازم ، فلا يفرقون بين كتب الله ولا بين رسله ، بل حيثما قادهم الحق انقادوا ؛ فلا يدخل في ذلك الذين آمنوا بألسنتهم

﴿ فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ﴾ [البقرة : 89] ولا من علم الله منه ذلك ولو كان قبل مبعثه صلى الله عليه وسلم – الله أعلم بما كانوا عاملين ؛ فلو أنهم مؤمنون لما عادوا من نزل به بشرى لهم ولكنهم كفرة فهم في العذاب ، والآخرة ليست لهم بل عليهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 202 . 203 ﴾

"القراءات والوقوف"

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ جبريل ﴾ مفتوحة الجيم مكسورة الراء غير مهموز : ابن كثير . وقرأ حمزه وعلي وخلف وعاصم غير حفص ويحيى مفتوحة الراء والجيم مهموزة مشبعاً . وقرأ يحيى مختلساً . الباقون : مكسورة الراء والجيم غير مهموز . ﴿ ميكال ﴾ أبو عمرو وسهل ويعقوب وحفص ، وقرأ أبو جعفر ونافع مختلساً مهموزاً . الباقون : ميكائيل مهموزاً مشبعاً .

الوقوف : ﴿ للمؤمنين ﴾ (5) ﴿ للكافرين ﴾ (5) ﴿ بينات ﴾ (ج) لأن هذه الواو للابتداء أو الحال والحال أوجه لاتحاد القصة ﴿ الفاسقون ﴾ (5) ﴿ فريق منهم ﴾ (ط) لأن "بل" للإعراض عن الأول ﴿ لا يؤمنون ﴾ (5) ﴿ أوتوا الكتاب ﴾ (ط) قد قيل يوقف لبيان أن كتاب الله مفعول "نبذ" "لا بدل مما قبله ﴿ لا يعلمون ﴾ (5) قد يجوز للآية ، والوصل للعطف على ﴿ نبذ ﴾ لإتمام سوء اختيارهم في النبذ والاتباع . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 1 صـ 341 ﴾

" فصل فى سبب النزول "

قال الفخر :

إن قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوّا لِّجِبْرِيلَ ﴾ لا بد له من سبب وأمر قد ظهر من اليهود حتى يأمره تعالى بأن يخاطبهم بذلك لأنه يجري مجرى المحاجة ، فإذا لم يثبت منهم في ذلك أمر لا يجوز أن يأمره الله تعالى بذلك والمفسرون ذكروا أموراً :

أحدها : أنه عليه الصلاة والسلام لما قدم المدينة أتاه عبد الله بن صوريا فقال : يا محمد كيف نومك ، فقد أخبرنا عن نوم النبي الذي يجيء في آخر الزمان ؟ فقال عليه السلام : " تنام عيناي ولا ينام قلبي " قال : صدقت يا محمد ، فأخبرني عن الولد أمن الرجل يكون أم من المرأة ؟ فقال : أما العظام والعصب والعروق فمن الرجل ، وأما اللحم والدم والظفر والشعر ، فمن المرأة فقال صدقت .

(209/60)

فما بال الرجل يشبه أعمامه دون أخواله أو يشبه أخواله دون أعمامه ؟ فقال : أيهما غلب ماؤه ماء صاحبه كان الشبه له ، قال : صدقت فقال : أخبرني أي الطعام حرم إسرائيل على نفسه وفي التوراة أن النبي الأمي يخبر عنه ؟ فقال عليه السلام : " أنشدكم بالله الذي

أنزل التوراة على موسى هل تعلمون أن إسرائيل مرض مرضاً شديداً فطال سقمه فنذر لله نذراً لئن عافاه الله من سقمه ليحرمن على نفسه أحب الطعام والشراب ، وهو لحمان الإبل وألبانها ؟ فقالوا : نعم .

فقال له : بقيت خصلة واحدة إن قلتها آمنت بك ، أي ملك يأتيك بما تقول عن الله ؟ قال جبريل : قال إن ذلك عدونا ينزل بالقتال والشدة ، ورسولنا ميكائيل يأتي بالبشر والرخاء فلو كان هو الذي يأتيك آمنا بك ، " فقال عمر : وما مبدأ هذه العداوة ؟ فقال ابن صوريا مبدأ هذه العداوة أن الله تعالى أنزل على نبينا أن بيت المقدس سيخرب في زمان رجل يقال له : بختنصر ووصفه لنا فطلبناه فلما وجدناه بعثنا لقتله رجالاً فدفع عنه جبريل وقال : إن سلطكم الله على قتله فهذا ليس هو ذاك الذي أخبر الله عنه أنه سيخرب بيت المقدس ، فلا فائدة في قتله ، ثم إنه كبر وقوى وملك وغزانا وخرب بيت المقدس وقتلنا ، فلذلك نتخذه عدواً ، وأما ميكائيل فإنه عدو جبريل فقال عمر ؛ فإني أشهد أن من كان عدواً لجبريل فهو عدو لميكائيل وهما عدوان لمن عداهما فأنكر ذلك على عمر فأنزل الله تعالى هاتين الآيتين .

(210/60)

وثانيها : روي أنه كان لعمر أرض بأعلى المدينة وكان ممره على مدراس اليهود وكان يجلس إليهم ويسمع كلامهم فقالوا : يا عمر قد أحببناك وإنا لنطمع فيك فقال : والله ما أجيئكم لحبكم ولا أسألكم لأني شاك في ديني وإنما أدخل عليكم لأزداد بصيرة في أمر محمد صلى الله عليه وسلم وأرى آثاره في كتابكم ، ثم سألهم عن جبريل فقالوا : ذاك عدونا يطلع محمداً على أسرارنا وهو صاحب كل خسف وعذاب ، وإن ميكائيل يجيء بالخصب والسلم فقال لهم : وما منزلتهما من الله ؟ قالوا : أقرب منزلة ، جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره وميكائيل عدواً لجبريل فقال عمر : لئن كان كما تقولون فما هما بعدوين ولأنتم أكفر من الحمير ، ومن كان عدو لأحدهما كان عدواً للآخر ومن كان عدواً لهما كان عدواً الله ، ثم رجع عمر فوجد جبريل عليه السلام قد سبقه بالوحي فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " لقد وافقك ربك يا عمر " قال عمر : لقد رأيتني في دين بعد ذلك أصلب من الحجر ، وثالثها : قال مقاتل زعمت اليهود أن جبريل عليه السلام عدونا ، أمر أن يجعل النبوة فينا فجعلها في غيرنا فأنزل الله هذه الآيات .

(211/60)

واعلم أن الأقرب أن يكون سبب عداوتهم له أنه كان ينزل القرآن على محمد عليه السلام لأن قوله : ﴿ مَن كَانَ عَدُوّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ على قَلْبِكَ بِإِذْنِ الله ﴾ مشعر بأن هذا التنزيل لا ينبغي أن يكون سبباً للعداوة لأنه إنما فعل ذلك بأمر الله فلا ينبغي أن يكون سبباً للعداوة وتقرير هذا من وجوه ، أولها : أن الذي نزله جبريل من القرآن بشارة المطيعين بالثواب وإنذار العصاة بالعقاب والأمر بالمحاربة والمقاتلة لما لم يكن ذلك باختياره بل بأمر الله الذي يعترفون أنه لا محيص عن أمره ولا سبيل إلى مخالفته فعداوة من هذا سبيله توجب عداوة الله وعداوة الله كفر ، فيلزم أن عداوة من هذا سبيله كفر ، وثانيها : أن الله تعالى لو أمر ميكائيل بإنزال مثل هذا الكتاب فإما أن يقال : إنه كان يتمرد أو يأبى عن قبول أمر الله وذلك غير لائق بالملائكة المعصومين أو كان يقبله ويأتي به على وفق أمر الله فحينئذ يتوجه على ميكائيل ما ذكروه على جبريل عليهما السلام فما الوجه في تخصيص جبريل بالعداوة ؟ وثالثها : أن إنزال القرآن على محمد كما شق على اليهود فإنزال التوراة على موسى شق على قوم آخرين ، فإن اقتضت نفرة بعض الناس لإنزال القرآن قبحه فلتقتض نفرة أولئك المتقدمين إنزال التوراة على موسى عليه السلام قبحه ومعلوم أن كل ذلك باطل فثبت بهذه الوجوه فساد ما قالوه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 177 . 178 ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوّا لِّجِبْرِيلَ ﴾ أخرج ابن أبي شيبة في " مسنده " ، وابن جرير .

وابن أبي حاتم عن الشعبي ، أنه دخل عمر رضي الله تعالى عنه مدارس اليهود يوماً فسألهم عن جبريل فقالوا : ذاك عدونا ، يطلع محمداً على أسرارنا ، وأنه صاحب كل خسف وعذاب ، وميكائيل صاحب الخصب والسلام فقال : ما منزلتهما من الله تعالى ؟ قالوا : جبريل عن يمينه ، وميكائيل عن يساره وبينهما عداوة فقال : لئن كانا كما تقولون فليسا بعدوين ، ولأنتم أكفر من الحمير ، ومن كان عدواً لأحدهما فهو عدو لله .

ثم رجع عمر فوجد جبريل قد سبقه بالوحي ، فقال صلى الله عليه وسلم : " لقد وافقك ربك يا عمر " قال عمر : لقد رأيتني بعد ذلك أصلب من الحجر ، وقيل : نزلت في عبد الله بن صوريا كان يهودياً من أحبار فدكَ سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عمن ينزل عليه فقال : " جبريل " فقال : ذاك عدونا عادانا مراراً ، وأشدها أنه أنزل على نبينا أن بيت المقدس سيخربه بخت نصر ، فبعثنا من يقتله فرآه ببابل ، فدفع عنه جبريل وقال : إن كان ربكم أمره بهلاككم فلا يسلطكم عليه ، وإلا فبم تقتلونه ؟ وصدقه الرجل المبعوث ورجع إلينا ، وكبر بختنصر وقوي وغزانا ، وخرّب بيت المقدس ، روى ذلك بعض الحفاظ ، وقال العراقي : لم أقف له على سند ، فلعل الأول أقوى منه وإن أوهمَ صنيع بعضهم العكس .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 331 ﴾

فائدة

قال الفخر :

من الناس من استبعد أن يقول قوم من اليهود : إن جبريل عدوهم قالوا : لأنا نرى اليهود في زماننا هذا مطبقين على إنكار ذلك مصرين على أن أحداً من سلفهم لم يقل بذلك ، واعلم أن هذا باطل لأن حكاية الله أصدق ، ولأن جهلهم كان شديداً وهم الذين قالوا ؛ ﴿ اجعل لَّنَا إِلهاً كَمَا لَهُمْ ءالِهَةٌ ﴾ [الأعراف : 138] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 178 ﴾

(213/60)

فائدة

قال صاحب [الأمثل]

ذكر بعض المحققين أن المصادر اليهودية خالية من الدلالة على خصومة جبرائيل لهؤلاء القوم ، وهذا يؤيد أن ادعاءات اليهود بشأن موقفهم من جبرائيل ، لم يكن إلاّ ذريعة للتنصل من الإسلام ؛ إذ لا يوجد في مصادرهم الدينية ما يشير إلى وجود مثل هذه العداوة بينهم وبين

جبريل . انتهى انتهى . اهـ [الأمثل حـ 1 صـ 310]

فائدة

قال صاحب الميزان :

قوله تعالى : [قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك . . . الآية]

السياق يدل على أن الآية نزلت جواباً عما قالته اليهود وأنهم تأبوا واستنكفوا عن الإيمان بما أنزل على رسول الله – صلى الله عليه وسلم –, وعللوه بأنهم عد ولجبريل النازل بالوحي إليه . والشاهد على ذلك أن الله سبحانه يجيبهم في القرآن وفي جبريل معاً في الآيتين وما ورد فى شأن النزول يؤيد ذلك فأجاب عن قولهم : إنا لا نؤمن بالقرآن لعداوتنا لجبريل النازل به .

أولاً : إن جبريل إنما نزل به على قلبك بإذن الله لا من عند نفسه فعداوتهم لجبريل لا ينبغي أن يوجب إعراضهم عن كلام نازل بإذن الله, وثانياً : أن القرآن مصدق لما في أيديهم في الكتاب الحق ولا معنى للإيمان بأمر والكفر بما يصدقه . وثالثاً : أن القرآن هدى للمؤمنين به, ورابعاً : أنه بشرى وكيف يصح لعاقل أن ينحرف عن الهداية ويغمض عن البشرى ولو كان الآتي بذلك عدوا له .

وأجاب عن قولهم : إنا عد وجبريل أن جبريل ملك من الملائكة لا شأن له إلا امتثال ما أمره به الله سبحانه كميكال وسائر الملائكة وهم عباد مكرمون لا يعصون الله ما أمرهم

ويفعلون ما يؤمرون, وكذلك رسل الله لا شأن لهم إلا بالله ومن الله سبحانه فبغضهم واستعدائهم بغض واستعداء لله ومن كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو لهم, وإلى هذين الجوابين تشير الآيتان .

(214/60)

قوله تعالى : [فإنه نزله على قلبك] فيه التفات من التكلم إلى الخطاب وكان الظاهر أن يقال على قلبي, لكن بدل من الخطاب للدلالة على أن القرآن كما لا شأن في إنزاله لجبريل وإنما هو مأمور مطيع كذلك لا شأن في تلقيه لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – إلا أن قلبه وعاء للوحي لا يملك منه شيئاً وهو مأمور بالتبليغ .

واعلم أن هذه الآيات في أواخرها , أنواع الالتفات وإن كان الأساس فيها الخطاب لبني إسرائيل, غير أن الخطاب إذا كان خطاب لوم وتوبيخ وطال الكلام وصار المقام مقام استملال للحديث مع المخاطب واستحقار لشأنه فكان من الحري للمتكلم البليغ الإعراض عن المخاطبة تارة بعد أخرى بالاكتفاء بعد الالتفات للدلالة على أنه لا يرضى بخطابهم لردائة سمعهم وخسة نفوسهم ولا يرضى بترك خطابهم إظهاراً لحق القضاء عليهم .

قوله تعالى : [عدو للكافرين] , فيه وضع الظاهر موضع المضمر والنكتة فيه الدلالة على

علة الحكم كأنه قيل : فإن الله عد ولهم لأنهم كافرون والله عد وللكافرين (1) . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الميزان حـ 1 صـ 229.230 ﴾

(215/60)

قوله تعالى ﴿ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ على قَلْبِكَ ﴾

فصل

قال الفخر :

أما قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ على قَلْبِكَ ﴾ ففيه سؤالات :

السؤال الأول : الهاء في قوله تعالى : " فإنه " وفي قوله : " نزله " إلى ماذا يعود ؟

الجواب فيه قولان : أحدهما : أن الهاء الأولى تعود على جبريل والثانية : على القرآن وإن لم يجر له ذكر لأنه كالمعلوم كقوله : ﴿ مَا تَرَكَ على ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ [فاطر : 45] يعني على الأرض وهذا قول ابن عباس وأكثر أهل العلم .

أي إن كانت عداوتهم لأن جبريل ينزل القرآن فإنما ينزله بإذن الله .

قال صاحب " الكشاف " : إضمار ما لم يسبق ذكره فيه فخامة لشأن صاحبه حيث يجعل لفرط شهرته كأنه يدل على نفسه ويكتفي عن اسمه الصريح بذكر شيء من صفاته ،

وثانيهما : المعنى فإن الله نزل جبريل عليه السلام لا أنه نزل نفسه .

السؤال الثاني : القرآن : إنما نزل على محمد صلى الله عليه وسلم فما السبب في قوله نزله على قلبك ؟ الجواب : هذه المسألة ذكرناها في سورة الشعراء في قوله : ﴿ نَزَلَ بِهِ الروح الأمين على قَلْبِكَ ﴾ [الشعراء : 193] وأكثر الأمة على أنه أنزل القرآن عليه لا على قلبه إلا أنه خص القلب بالذكر لأجل أن الذي نزل به ثبت في قلبه حفظاً حتى أداه إلى أمته ، فلما كان سبب تمكنه من الأداء ثباته في قلبه حفظاً جاز أن يقال : نزله على قلبك وإن كان في الحقيقة نزله عليه لا على قلبه .

السؤال الثالث : كان حق الكلام أن يقال على قلبي ، والجواب : جاءت على حكاية كلام الله كما تكلم به كأنه قيل : قل ما تكلمت به من قولي ، من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك .

(216/60)

السؤال الرابع : كيف استقام قوله : ﴿ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ ﴾ جزاء للشرط ؟ والجواب فيه وجهان :

الأول : أنه سبحانه وتعالى بين أن هذه العداوة فاسدة لأنه ما أتى إلا أنه أمر بإنزال كتاب فيه الهداية والبشارة فأنزله ، فهو من حيث إنه مأمور وجب أن يكون معذوراً ، ومن حيث إنه

أتى بالهداية والبشارة يجب أن يكون مشكوراً فكيف تليق به العداوة ، والثاني : أنه تعالى بين أن اليهود إن كانوا يعادونه فيحق لهم ذاك ، لأنه نزل عليك الكتاب برهاناً على نبوتك ، ومصداقاً لصدقك وهم يكرهون ذلك فكيف لا يبغضون من أكد عليهم الأمر الذي يكرهونه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 179 ﴾

فائدة

قال ابن عطية :

وقوله تعالى : ﴿ فإنه نزّله على قلبك ﴾ الضمير في ﴿ فإنه ﴾ عائد على الله عز وجل ، والضمير في ﴿ نزّله ﴾ عائد على جبريل صلى الله عليه وسلم ، والمعنى بالقرآن وسائر الوحي ، وقيل : الضمير في " إنه " عائد على جبريل وفي ﴿ نزله ﴾ على القرآن ، وخص القلب بالذكر لأنه موضع العقل والعلم وتلقي المعارف ، وجاءت المخاطبة بالكاف في ﴿ قلبك ﴾ اتساعاً في العبارة إذ ليس ثم من يخاطبه النبي صلى الله عليه وسلم بهذه الكاف ، وإنما يجيء قوله : فأنه نزله على قلبي ، لكن حسن هذا إذ يحسن في الكلام العرب أن تحرز اللفظ الذي يقوله المأمور بالقول ويحسن أن تقصد المعنى الذي يقوله فتسرده مخاطبة له ، كما تقول لرجل : قل لقومك لا يهينوك ، فكذلك هي الآية ، ونحو من هذا قول الفرزدق [الطويل]

أَلَمْ تَرَ أَنِّي يوم جو سويقة . . . بكيت فنادتْني هنيدةُ ما ليا

فأحرز المعنى ونكب عن نداء هنيدة "ما لك" . انتهى انتهى . اهـ ﴿المحرر الوجيز حـ 1 صـ 183﴾

(217/60)

وقال الآلوسى :

﴿ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ على قَلْبِكَ ﴾ جواب الشرط إما نيابة أو حقيقة والمعنى من عاداه منهم فقد خلع ربقة الإنصاف أو كفر بما معه من الكتاب بمعاداته إياه لنزوله عليك بالوحي لأنه نزل كتاباً مصدقاً للكتب المتقدمة ، أو فالسبب في عداوته أنه نزل عليك ، وليس المبتدأ على هذا الأخير محذوفاً ، وأنه نزله خبره حتى يرد أن الموضع للمفتوحة بل أن الفاء داخلة على السبب ، ووقع جزاءاً باعتبار الإعلام والإخبار بسببيته لما قبله فيؤول المعنى إلى من عاداه فأعلمكم بأن سبب عداوته كذا فهو كقولك : إن عاداك فلان فقد آذيته أي فأخبرك بأن سبب عداوتك أنك آذيته ، وقيل : الجزاء محذوف بحيث لا يكون المذكور نائباً وعنه يقدر مؤخراً عنه ويكون هو تعليلاً وبياناً لسبب العداوة والمعنى من عاداه لأنه نزله على قلبك فليمت غيظاً ، أو فهو عدوّ لي وأنا عدوه والقرينة على حذف الثاني الجملة المعترضة المذكورة بعده في وعيدهم ، واحتمل أن يكون ﴿ مَن كَانَ عَدُوّا ﴾ الخ استفهاماً

للاستبعاد ، أو التهديد ويكون فإنه تعليل العداوة وتقييداً لها أو تعليل الأمر بالقول مما لا ينبغي أن يرتكب في القرآن العظيم ، والضمير الأول البارز لجبريل ، والثاني : للقرآن كما يشير إليه الأحوال لأنها كلها من صفات القرآن ظاهراً ، وقيل : الأول لله تعالى والثاني لجبريل أي فإن الله نزل جبريل بالقرآن على قلبك وفي كل من الوجهين إضمار يعود على ما يدل عليه السياق ، وفي ذلك من فخامة الشأن ما لا يخفى ، ولم يقل سبحانه عليك كما في قوله تعالى : ﴿ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ القرءان لتشقى ﴾ [طه : 2] بل قال : ﴿ على قَلْبِكَ ﴾ لأنه القابل الأول للوحي إن أريد به الروح ، ومحل الفهم والحفظ إن أريد به العضو بناءً على نفي الحواس الباطنة ، وقيل : كنى بالقلب عن الجملة الإنسانية كما يكنى ببعض الشيء عن كله ، وقيل : معنى نزله على قلبك جعل ﴿ قَلْبِكَ ﴾ متصفاً بأخلاق القرآن ومتأدباً

(218/60)

بآدابه كما في حديث عائشة رضي الله تعالى عنها : "كان خلقه القرآن يرضى لرضاه ويغضب لغضبه" وكان الظاهر أن يقول على قلبي لأن القائل رسول الله صلى الله عليه وسلم لكنه حكى ما قال الله تعالى له وجعل القائل كأنه الله تعالى لأنه سفير محض . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 332 ـ 333 ﴾

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ على قَلْبِكَ بِإِذْنِ الله ﴾ الآية .

ظاهر هذه الآية أن جبريل ألقى القرآن في قلب النَّبي صلى الله عليه وسلم من غير سماع قراءة ، ونظيرها في ذلك قوله تعالى : ﴿ نَزَلَ بِهِ الروح الأمين على قَلْبِكَ ﴾ [الشعراء : 193-194] الآية . ولكنه بين في مواضع أخر أن معنى ذلك أن الملك يقرؤه عليه حتى يسمعه منه ، فتصل معانيه إلى قلبه بعد سماعه ، وذلك هو معنى تنزيله على قلبه ، وذلك كما في قوله تعالى : ﴿ لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فاتبع قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ [القيامة : 16-19] ، وقوله : ﴿ وَلاَ تَعْجَلْ بالقرآن مِن قَبْلِ أَن يقضى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً ﴾ [طه : 114] . انتهى انتهى . اهـ

﴿ أضواء البيان حـ 1 صـ 42 ﴾

وقال فى الميزان :

وقوله تعالى : فإنه نزله على قلبك ، فيه التفات من التكلم إلى الخطاب وكان الظاهر أن يقال على قلبي ، لكن بدل من الخطاب للدلالة على أن القرآن كما لا شأن في إنزاله لجبريل وإنما هو مأمور مطيع كذلك لا شأن في تلقيه وتبليغه لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إلا أن

قلبه وعاء للوحي لا يملك منه شيئا وهو مأمور بالتبليغ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الميزان حـ 1 صـ 230 ﴾

(219/60)

قوله تعالى ﴿ بِإِذْنِ اللهِ ﴾

فائدة

قال الفخر :

أما قوله تعالى : ﴿ بِإِذْنِ اللهِ ﴾ فالأظهر بأمر الله وهو أولى من تفسيرة بالعلم لوجوه .

أولها ؛ أن الإذن حقيقة في الأمر مجاز في العلم واللفظ واجب الحمل على حقيقته ما أمكن .

وثانيها : أن إنزاله كان من الواجبات والوجوب مستفاد من الأمر لا من العلم .

وثالثها : أن ذلك الإنزال إذا كان عن أمر لازم كان أوكد في الحجة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 179 ﴾

(220/60)

وقال الآلوسى :

﴿ بِإِذنِ اللهِ ﴾ أي بأمره أو بعلمه وتمكينه إياه من هذه المنزلة أو باختياره ، أو بتيسيره وتسهيله ، وأصل معنى الإذن في الشيء الإعلام بإجازته والرخصة فيه فالمعاني المذكورة كلها مجازية ، والعلاقة ظاهرة ، " والمنتخب" كما في المنتخب المعنى الأول ، والمعتزلة لما لم يقولوا بالكلام النفسي وإسناد الإذن إليه تعالى باعتبار الكلام اللفظي يحتاج إلى تكلف اقتصر الزمخشري على الوجه الأخير ، والقول : إن الإذن بمعنى الأمر إن أريد بالتنزيل معناه الظاهر ، وبمعنى التيسير إن أريد به التحفظ والتفهيم مما لا وجه له . انتهى انتهى . اهـ

﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 333 ﴾

قوله تعالى ﴿ مُصَدّقاً لّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾

فصل

قال الفخر :

أما قوله تعالى : ﴿ مُصَدّقاً لّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ فمحمول على ما أجمع عليه أكثر المفسرين من أن المراد ما قبله من كتب الأنبياء ولا معنى لتخصيص كتاب دون كتاب ، ومنهم من خصه بالتوراة وزعم أنه أشار إلى أن القرآن يوافق التوراة في الدلالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم .

فإن قيل : أليس أن شرائع القرآن مخالفة لشرائع سائر الكتب ، فلم صار بأن يكون مصدقاً

لها لكونها متوافقة في الدلالة على التوحيد ونبوة محمد أولى بأن يكون غير مصدق لها ؟

قلنا : الشرائع التي تشتمل عليها سائر الكتب كانت مقدرة بتلك الأوقات ومنتهية في هذا الوقت بناء على أن النسخ بيان انتهاء مدة العبادة ، وحينئذ لا يكون بين القرآن وبين سائر الكتب اختلاف في الشرائع .

أما قوله تعالى : ﴿ وهدى ﴾ فالمراد به أن القرآن مشتمل على أمرين .

أحدهما : بيان ما وقع التكليف به من أعمال القلوب وأعمال الجوارح وهو من هذا الوجه هدى .

وثانيهما : بيان أن الآتي بتلك الأعمال كيف يكون ثوابه وهو من هذا الوجه بشرى ، ولما كان الأول مقدماً على الثاني في الوجود لا جرم قدم الله لفظ الهدى على لفظ البشرى ، فإن قيل : ولم خص كونه هدى وبشرى بالمؤمنين مع أنه كذلك بالنسبة إلى الكل ؟ الجواب من وجهين : الأول : أنه تعالى إنما خصهم بذلك ، لأنهم هم الذين اهتدوا بالكتاب فهو كقوله تعالى : ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ .

والثاني : أنه لا يكون بشرى إلا للمؤمنين ، وذلك لأن البشرى عبارة عن الخبر الدال على

حصول الخير العظيم وهذا لا يحصل إلا في حق المؤمنين ، فلهذا خصهم الله به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 179. 180 ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ مُصَدّقاً لّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ من الكتب الإلهية التي معظمها التوراة وانتصاب ﴿ مُصَدّقاً ﴾ على الحال من الضمير المنصوب في ﴿ نَزَّلَهُ ﴾ إن كان عائداً للقرآن وإن كان لجبريل فيحتمل وجهين ، أحدهما : أن يكون حالاً من المحذوف لفهم المعنى كما أشرنا إليه ، والثاني : أن يكون حالاً من جبريل ، والهاء إما للقرآن أو لجبريل فإنه مصدق أيضاً لما بين يديه من الرسل والكتب .

﴿ وَهُدًى وبشرى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ معطوفان على ﴿ مُصَدّقاً ﴾ فهما حالان مثله ، والتأويل غير خفي ، وخص المؤمنين بالذكر لأنه على غيرهم عمي ، وقد دلت الآية على تعظيم جبريل والتنويه بقدره حيث جعله الواسطة بينه تعالى وبين أشرف خلقه ، والمنزل بالكتاب الجامع للأوصاف المذكورة ، ودلت على ذم اليهود حيث أبغضوا من كان بهذه المنزلة العظيمة الرفيعة عند الله تعالى ، قيل : وتعلقت الباطنية بهذه الآية وقالوا : إن القرآن إلهام والحروف عبارة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ورد عليهم بأنه معجزة ظاهرة وباطنة وإن الله تعالى سماه قرآناً وكتاباً وعربياً ، وإن جبريل نزل به والملهم لا يحتاج إليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 333 ﴾

(222/60)

فائدة

قال فى الميزان :

واعلم أن هذه الآيات في أواخرها ، أنواع الالتفات وإن كان الأساس فيها الخطاب لبني إسرائيل ، غير أن الخطاب إذا كان خطاب لوم وتوبيخ وطال الكلام صار المقام مقام استملال للحديث مع المخاطب وإستحقار .

لشأنه فكان من الحري للمتكلم البليغ الاعراض عن المخاطبة تارة بعد أخرى بالالتفات بعد الالتفات للدلالة على أنه لا يرضى بخطابهم لردائة سمعهم وخسة نفوسهم ولا يرضى بترك خطابهم إظهارا لحق القضاء عليهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الميزان حـ 1 صـ 230 ﴾

(223/60)

من فوائد أبى حيان فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ قل من كان عدوًّا لجبريل ﴾ : أجمع أهل التفسير أن اليهود قالوا : جبريل عدوّنا ، واختلف في كيفية ذلك ، وهل كان سبب النزول محاورتهم مع النبي صلى الله عليه وسلم ، أو محاورتهم مع عمر ؟ وملخص العداوة : أن ذلك لكونه يأتي بالهلاك والخسف والجدب ، ولو كان ميكال صاحب محمد لاتبعناه ، لأنه يأتي بالخصب والسلم ، ولكونه دافع عن بخت نصّر حين أردنا قتله ، فخرب بيت المقدس وأهلكنا ، ولكونه يطلع محمداً صلى الله عليه وسلم على سرنا .

والخطاب بقوله : قل للنبي صلى الله عليه وسلم ، ومعمول القول : الجملة بعد و من هنا شرطية .

وقال الراغب : العداوة ، التجاوز ومنافاة الالتئام .

فبالقلب يقال العداوة ، وبالمشي يقال العدو ، وبالإخلال في العدل يقال العدوان ، وبالمكان أو النسب يقال قوم عدي ، أي غرباء .

﴿ فإنه نزله ﴾ : ليس هذا جواب الشرط لما تقرر في علم العربية أن اسم الشرط لا بد أن يكون في الجواب ضمير يعود عليه ، فلو قلت : من يكرمني ؟ فزيد قائم ، لم يجز .

وقوله : ﴿ فإنه نزله على قلبك ﴾ ، ليس فيه ضمير يعود على من .

وقد صرح بأنه جزاء للشرط الزمخشري ، وهو خطأ ، لما ذكرناه من عدم عود الضمير ، ولمضي فعل التنزيل ، فلا يصح أن تكون الجملة جزاء ، وإنما الجزاء محذوف لدلالة ما بعده

عليه ، التقدير : فعداوته لا وجه لها ، أو ما أشبه هذا التقدير .

والضمير في فإنه عائد على جبريل ، والضمير في نزله عائد على القرآن لدلالة المعنى عليه .

ألا ترى إلى قوله : ﴿ مصدّقاً لما بين يديه ، وهدى وبشرى للمؤمنين ﴾ ؟ وهذه كلها من صفات القرآن .

ولقوله : ﴿ بإذن الله ﴾ ، أي فإن جبريل نزل القرآن على قلبك بإذن الله .

وقيل : الضمير في فإنه عائد على الله ، وفي نزله عائد على جبريل ، التقدير : فإن الله نزل جبريل بالقرآن على قلبك .

وفي كل من هذين التقديرين إضمار يعود على ما يدل عليه سياق المعنى .

(224/60)

لكن التقدير الأول أولى ، لما ذكرناه ، وليكون موافقاً لقوله : ﴿ نزل به الروح الأمين على قلبك ﴾ وينظر للتقدير الثاني قراءة من قرأ : نزل بالتشديد ، والروح بالنصب .

ومناسبة دليل الجزاء للشرط هو أن من كان عدواً لجبريل ، فعداوته لا وجه لها ، لأنه هو الذي نزل بالقرآن المصدق للكتب ، والهادي والمبشر ، كمن آمن .

ومن كان هذه المثابة فينبغي أن يحب ويشكر ، إذ كان به سبب الهداية والتنويه بما في

أيديهم من كتب الله ، أو من كان عدوًّا لجبريل ، فسبب عداوته أنه نزل القرآن المصدّق لكتابهم ، والملزم لهم اتباعك ، وهم لا يريدون ذلك ، ولذلك حرّفوا ما في كتبهم من صفاتك ، ومن أخذ العهود عليهم فيها ، بأن يتبعوك .

والفرق بين كل واحد من هذين التقديرين : أن التقدير الأول موجب لعدم العداوة ، والتقدير الثاني كأنه كالعذر لهم في العداوة كقولك : إن عاداك زيد ، فقد آذيته وأسأت إليه .

﴿ على قلبك ﴾ : أتى بلفظ على ، لأن القرآن مستعل على القلب ، إذ القلب سامع له ومطيع ، يمتثل ما أمر به ، ويجتنب ما نهى عنه .

وكانت أبلغ من إلى ، لأن إلى تدل على الانتهاء فقط ، وعلى تدل على الاستعلاء .

وما استعلى على الشيء يضمن الانتهاء إليه .

وخص القلب ، ولم يأت عليك ، لأن القلب هو محل العقل والعلم وتلقي الواردات ، أو لأنه صحيفته التي يرقم فيها ، وخزانته التي يحفظ فيها ، أو لأنه سلطان الجسد .

وفي الحديث : " إن في الجسد مضغة " ثم قال أخيراً : " ألا وهي القلب " أو لأن القلب خيار الشيء وأشرفه ، أو لأنه بيت الله ، أو لأنه كنى به عن العقل إطلاقاً للمحل على الحال به ، أو عن الجملة الإنسانية ، إذ قد ذكر الإنزال عليه في أماكن : ﴿ ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ﴾ ﴿ وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة ﴾ أو يكون إطلاقاً لبعض الشيء على كله ، أقوال سبعة .

وأضاف القلب إلى الكاف التي للخطاب ، ولم يضفه إلى ياء المتكلم ، وإن كان نظم الكلام يقتضيه ظاهراً ، لأن قوله : ﴿ من كان عدواً لجبريل ﴾ ، هو معمول لقول مضمر ، التقدير : قل يا محمد قال الله من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك .

وإلى هذا نحا الزمخشري بقوله : جاءت على حكاية كلام الله تعالى ، كأنه قيل : ما تكلمت به من قولي : ﴿ من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك ﴾ ، وكلامه فيه تشبيح .

وقال ابن عطية : يحسن في كلام العرب أن يحرز اللفظ الذي يقوله المأمور بالقول ، ويحسن أن يقصد المعنى بقوله ، فيسرده مخاطبة له ، كما تقول : قل لقومك لا يهينوك ، فكذلك هذه الآية ، ونحو من هذا قول الفرزدق :

ألم تر أني يوم جوّ سويقة . . .

دعوت فنادتني هنيدة ماليا

فأحرز المعنى ، ونكب عن نداء هنيدة مالك .

انتهى كلامه ، وهو تخريج حسن ، ويكون إذ ذاك الجملة الشرطية معمولة للفظ : قل ، لا لقول : مضمر ، وهو ظاهر الكلام ﴿ بإذن الله ﴾ : أي بأمر الله ، اختاره في المنتخب

ومنه : ﴿ لا تكلم نفس إلا بإذنه ﴾ ﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ وقد صرح بذلك في : ﴿ وما نتنزل إلا بأمر ربك ﴾ أو بعلمه وتمكينه إياه من هذه المنزلة ، قاله ابن عطية ؛ أو باختياره ، قاله الماوردي ، أو بتيسيره وتسهيله ، قاله الزمخشري .

﴿ مصدّقاً لما بين يديه ﴾ : انتصاب مصدقاً على الحال من الضمير المنصوب في نزله ، إن كان يعود على القرآن ، وإن عاد على جبريل فيحتمل وجهين : أحدهما : أن يكون حالاً من المجرور المحذوف لفهم المعنى ، لأن المعنى : فإن الله نزل جبريل بالقرآن مصدقاً .

والثاني : أن يكون حالاً من جبريل .

وما : في لما موصولة ، وعنى بها الكتب التي أنزل الله على الأمم قبل إنزاله ، أو التوراة والإنجيل .

والهاء : في بين يديه يحتمل أن تكون عائدة على القرآن ، ويحتمل أن تعود على جبريل .

فالمعنى مصدقاً لما بين يديه من الرسل والكتب .

(226/60)

﴿ وهدى وبشرى ﴾ : معطوفان على مصدّقاً ، فهما حالان ، فيكون من وضع المصدر موضع اسم الفاعل كأنه قال : وهادياً ومبشراً ، أو من باب المبالغة ، كأنه لما حصل به

الهدى والبشرى ، جعل نفس الهدى والبشرى .

والألف في بشرى للتأنيث ، كهي في رجعى ، وهو مصدر .

وقد تقدّم الكلام على المعنى في قوله : ﴿ وبشر الذين آمنوا ﴾ في أوائل هذه السورة ، والمعنى : أنه وصف القرآن بتصديقه لما تقدّمه من الكتب الإلهية ، وأنه هدى ، إذ فيه بيان ما وقع التكليف به من أعمال القلوب والجوارح ، وأنه بشرى لمن حصل له الهدى .

فصار هذا الترتيب اللفظي في هذه الأحوال ، لكون مدلولاتها ترتبت ترتيباً وجودياً .

فالأول : كونه مصدّقاً للكتب ، وذلك لأن الكتب كلها من ينبوع واحد .

والثاني : أن الهداية حصلت به بعد نزوله على هذه الحال من التصديق .

والثالث : أنه بشرى لمن حصلت له به الهداية .

وقال الراغب : وهدى من الضلالة وبشرى بالجنة .

﴿ للمؤمنين ﴾ : خص الهدى والبشرى بالمؤمنين ، لأن غير المؤمنين لا يكون لهم هدى به ولا بشرى ، كما قال : ﴿ وهو عليهم عمى ﴾ ولأن المؤمنين هم المبشرون ، ﴿ فبشر عبادي ﴾ ﴿ يبشرهم ربهم برحمة منه ﴾ ودلت هذه الآية على تعظيم جبريل والتنويه بقدره ، حيث جعله الواسطة بينه تعالى وبين أشرف خلقه ، والمنزل بالكتاب الجامع للأوصاف المذكورة .

ودلت على ذم اليهود حيث أبغضوا من كان بهذه المنزلة الرفيعة عند الله تعالى ، قالوا :

وهذه الآية تعلقت بها الباطنية ، وقالوا : إن القرآن إلهام والحروف عبارة الرسول .

وردّ عليهم : بأنه معجزة ظاهرة بنظمه ، وأن الله سماه وحياً وكتاباً وعربياً ، وأن جبريل نزل به ، والملهم لا يحتاج إلى جبريل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 1 صـ 488 . 489 ﴾

(227/60)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (97) ﴾

الله تبارك وتعالى أراد أن يلفتنا إلي أن اليهود لم يقتلوا الأنبياء ويحرفوا التوراة ويشتروا بآيات الله جاه الدنيا فقط . . ولكنهم عادوا الملائكة أيضا . . بل إنهم أضمروا العداوة لأقرب الملائكة إلي الله الذي نزل بوحي القرآن وهو جبريل عليه السلام . . وأنهم قالوا جبريل عدو لنا .

الخطاب هنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم . . ولقد جلس ابن جوريا أحد أحبار

اليهود مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له من الذي ينزل عليك بالوحي ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل . . فقال اليهودي لو كان غيره لآمنا بك . . جبريل عدونا لأنه ينزل دائما بالخسف والعذاب . . ولكن ميكائيل ينزل بالرحمة والغيث والخصب . . وأيضا هو عدوهم لأنهم اعتقدوا أن بيت المقدس سيخربه رجل اسمه بختنصر ، فأرسل اليهود إليه من يقتله . . فلقى اليهودي غلاما صغيرا وسأله الغلام ماذا تريد ؟ قال إني أريد أن أقتل بختنصر لأنه عندنا في التوراة هو الذي سيخرب بيت المقدس . . فقال الغلام إن يكن مقدرا أن يخرب هذا الرجل بيت المقدس فلن تقدر عليه . . لأن المقدر نافذ سواء رضينا أم لم نرضى . . وإن لم يكن مقدرا فلماذا تقتله ؟ أي أن الطفل قال له إذا كان الله قد قضى في الكتاب أن بختنصر سيخرب بيت المقدس . . فلا أحد يستطيع أن يمنع قضاء الله . . ولن تقدر عليه لتقتله وتمنع تخريب بيت المقدس على يديه . . وإن كان هذا غير صحيح فلماذا تقتل نفسا بغير ذنب . . فعاد اليهودي دون أن يقتل بختنصر . . وعندما رجع إلي قومه قالوا له إن جبريل هو الذي تمثل لك في صورة طفل وأقنعك ألا تقتل هذا الرجل .

(228/60)

ويروي أن سيدنا عمر بن الخطاب كان له أرض في أعلى المدينة . . وكان حين يذهب إليها يمر على مدارس اليهود ويجلس إليهم . . وظن اليهود أن مجلس عمر معهم إنما يعبر عن حبه لهم . . فقالوا له إننا نحبك ونحترمك ونطمع فيك . . ففهم عمر مرادهم فقال والله ما جالستكم حبا فيكم . . ولكني أحببت أن أزداد تصورا لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأعلم عنه ما في كتابكم . . فقالوا له ومن يخبر محمدا بأخبارنا وأسرارنا ؟ فقال عمر إنه جبريل ينزل عليه من السماء بأخباركم . . قالوا هو عدونا . . فقال عمر كيف منزلته من الله ؟ قالوا إنه يجلس على يمين الله وميكائيل يجلس على يسار الله . . فقال عمر مادام الأمر كما قلتم فليس أحدهما عدواً للآخر لأنهما عند الله في منزلة واحدة . . فمن كان عدوا لأحدهما فهو عدو لله . . فلن تشفع لكم عداوتكم لجبريل ومحبتكم لميكائيل لأن منزلتهما عند الله عالية .

إن عداوتهم لجبريل عليه السلام تؤكد ماديتهم . . فهم يقيسون الأمر على البشر . . إن الذي يجلس على يمين السيد ومن يجلس على يساره يتنافسان على المنزلة عنده . . ولكن هذا في دنيا البشر . . ولكن عند الملائكة لا شيء من هذا . . الله عنده ما يجعله يعطي لمن يريد المنزلة العالية دون أن ينقص من الآخر . . ثم إن الله سبحانه وتعالى اسمه الحق . . وما ينزل به جبريل حق وما ينزل به ميكائيل حق . . والحق لا يخاصم الحق . . وقال لهم عمر أنتم أشد كفرا من الحمير . . ثم ذهب إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يكد

الرسول يراه حتى قال له وافقك ربك يا عمر . . وتنزل قول الله تبارك وتعالى : " قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين" فقال عمر يا رسول الله . . إني بعد ذلك في إيماني لأصلب من الجبل .

(229/60)

إذن فقولهم ميكائيل حبيبنا وجبريل عدونا من الماديات ، والله تبارك وتعالى يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم . . إنهم يعادون جبريل لأنه نزل على قلبك بإذن الله . . وما دام نزل من عند الله على قلبك . . فلا شأن لهم بهذا . . وهو مصدق لما بين يديهم من التوراة . . وهو هدى وبشرى للمؤمنين . . فأي عنصر من هذه العناصر تنكرونه على جبريل . . إن عداوتكم لجبريل عداوة لله سبحانه وتعالى . انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 481.479 ﴾

(230/60)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله تعالى : " مَن كَانَ عَدُوّاً لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ " مَنْ " شرطية في محلّ رفع بالابتداء ، و" كان " خبره على ما هو الصحيح كما تقدم ، وجوابه محذوف تقديره : من كان عدوّاً لجبريل فلا وجه لعداوته ، أو فليمت غيظاً ونحوه .

ولا جائز أن يكون " فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ " جواباً للشرط لوجهين :

أحدهما : من جهة المعنى .

والثاني : من جهة الصناعة .

أما الأول : فلأن فعل التنزيل متحقّق المضي ؛ والجزاء لا يكون إلا مستقبلاً .

ولقائل أن يقول : هذا محمول على التَّبين ، والمعنى : فقد تبين أنه نزله ، كما قالوا في قوله : ﴿ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ ﴾ [يوسف : 27] ونحوه .

وأما الثاني : فلأنه لا بد من جملة الجزاء من ضمير يعود على اسم الشرط فلا يجوز : مَنْ يقم فزيد منطلق ، ولا ضمير شفي قوله : " فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ " يعود على " مَنْ " فلا يكون جواباً للشرط ، وقد جاءت ماضع كثيرة من ذلك ، ولكنهم أَوَّلُوهَا على حذف العائد فمن ذلك قوله : [الوافر]

677 فَمَنْ تكُنِ الْحَضَارَةُ أَعْجَبَتْهُ . . .

فَأَيِّ رِجَالٍ بَادِيَةٍ تَرَانَا

وقوله : [الطويل]

678 فَمَن يِكُ أَمْسَى بِالْمَدِينَةِ رَحْلُهُ . . .

فَإِنِّي وَقَيَّارٌ بِهَا لَغَرِيبُ

وينبغي أن بينى ذلك على الخلاف فى خبر اسم الشَّرْط .

فإن قيل : إنَّ الخبر هو الجزاء وحده أو هو الشَّرْط فلا بدّ من الضمير ، وإن قيل بإنه فعل الشَّرْط ، فلا حاجة إلى الضمير ، وقد تقدم قول أبي البقاء وغيره في ذلك عند قوله تعالى : " فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ " ، وقد صّرح الزمخشري رحمه الله بأنه جواب الشَّرْط ، وفيه النَّظر المذكور ، وجوابه ما تقدم .

(231/60)

و " عَدُوّاً " خبر " كان " ، ويستوي فيه الواجد غيره ، قال : " هُمُ العَدُوُّ " والعَدَاوَةُ : التجاو قال الرَّاغب : فبالبقلب يقال : العداوة وبالمشي يقال : العدو ، وبالإخلال في العدل يقال : العدوان وبالمكان أو النسب يقال : قوم عِدَي أي غرباء .

و " لِجِبْرِيلَ " يجوز أن يكون صفة لـ " عَدُوّاً " فيتعلّق بمحذوف ، أو تكون اللام مقوية لتعدية

"عَدُوّاً" إليه.

و"جبريل" اسم ملك وهو أعجمي، فلذلك لم ينصرف، وقول من قال: إنّه مشتقّ من جبروت الله: بعيد؛ لأن الاشتقاق لا يكون في الاسماء الأعجمية، وكذا قول من قال: إنه مركّب تركيب الإضافة، وأن "جبر" معناه: عبد، و"إيل" اسم من أسماء الله تعالى فهو بمنزلة عبد الله؛ لأنه كان ينبغي أن يجرى الأول بوجوه الإعراب وأن ينصرب الثاني [وهذا القول مَرْوِيّ عن ابن عَبَّاس، وجماعة من أهل العلم، فقال أبو علي السّنوي: وهذا لا يصحّ لوجهين:

أحدهما: أنه لا يعرف من أسماء الله "إيل". (1)

والثاني: أنه لو كان كذلك لكان آخر الاسم مجروراً]. (1)

وقال المهدوي: إنه مركّب تركيب مزج نحو: حضرموت وهذا بعيد أيضاً؛ لأنه كان ينبغي أن يبنى الأول على الفتح ليس إلاّ.

وَرَدَّ عليه أبو حَيَّان بأنه لو كان مركباً تركيب مزج لجاز فيه أن يعرب إعراب المُتَضَايفين، أو يبنى على الفَتْح كأحد عشر، فإن كلّ ما ركب تركيب المزج [يجوز فيه هذه الأوجه، وكونه لم يسمع فيه البناء، ولا جريانه مجرى المتضايفين دليل على عدم تركيبه تركيب المزج] وهذا الرد لا يحسن ردّاً؛ لأنه جاء على أحد الجائزين، واتفق أنه لم يستعمل إلا كذلك.

قال القرطبي رحمه الله تعالى: والصَّحيح في هذه الألفاظ أنها عربية نزل بها جبريل عليه

الصَّلاة والسَّلام بلسان عربي مبين .

قال النحاس : ويجمع جبريل على التكسير جباريل ، وقد تصرفت فيه العرب على عادتها في الاسماء الأعجمية ، فجاءت فيه بثلاث عشر لغة .

---

(1) كلام السوسي إنما يتأتى لو كان : «جبر» و«إيل» عربيتين ولكنهما عبرانيتان .

والاضافة في اللغة العبرانية لا توجب كسر الاسم باعتباره مضافاً إليه .

(232/60)

أشهرها وأفصحها : " جبريل " بزنة قِنْديل ، وهي قراءة أبي عمرو ، ونافع وابنِ عامرٍ ومحْفصٍ عن عاصم ، وهي لغة " الحجاز " ؛ قال ورقةُ بنُ نَوْفَلٍ : [الطويل]

679 وَجبْرِيلُ يَأْتِيهِ وَمِيكَالُ مَعْهُمَا . . .

مِنَ اللهِ وَحْيٌ يَشْرَحُ الصَّدْرَ مُنْزَلُ

وقال حَسَّان : [الوافر]

680 وَجبْرِيلٌ رَسُولُ اللهِ فِينَا . . .

وَرُوحُ الْقُدْسِ لَيْسَ لَهُ كِفَاءُ

وقال عمران بن حِطَّان : [البسيط]

681 وَالرُّوحُ جِبْرِيلُ مِنْهُمْ لاَ كِفَاءَ لَهُ . . .

وَكَانَ جِبْرِيلُ عِنْدَ اللهِ مَا أُمُونَا

الثانية "كذلك إلا أنه فتح الجيم ، وهي قراءة ابن كثير والحسن ، وقال الفَرَّاء : "لا أحبها ؛ لأنه ليس في كلامهم فَعْلِيلُ " وما قاله ليس بشيء ؛ لأن ما أدخلته العرب في لسانها على قسمين قسم ألحقوه بأبنيتهم كـ "لِجَامٍ " ، وقسم يلحقوه كـ "إِبْرِيْسَمٍ " ، على أنه قيل : إنه نظير شَمويل اسْمَ طائر .

وعن ابن كثير أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ "جَبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ " ، قال : فلا أزال أقرؤها كذلك .

الثالثة : جَبْرَئِيل كَعْنتَرِيس ، وهي لغة قيس وتميم ، وبها قرأ حمزة والكسائيُّ ؛ وقال حسَّان : [الطويل]

682 شَهِدْنَا فَمَا تَلْقَى لَنَا مِنْ كَتِيبَةٍ . . .

يَدَ الدَّهْرِ إِلاَّ جَبْرَئِيلُ أَمَامَهَا

وقال جريرٌ : [الكامل]

683 عَبَدُوا الصَّلِيبَ وَكَذَّبُوا بِمُحَمَّدٍ . . .

وَبِجَبْرَئِيلَ وَكَذَّبُوا مِيكَالاَ

الرابعة : كذلك إلاَّ أنه لا ياء بعد الهمزة ، وتروى عن عاصم ويحيى بن يعمر

الخامسة : كذلك إلاّ أن اللام مشددة ، وتروى أيضاَ عن صام ويحيى بن يعمر أيضاً قالوا : و" إِلٌّ " بالتشديد اسم الله تعالى .

وفي بعض التفاسير : ﴿ لاَيَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً ﴾ [التوبة : 10] قيل : معناه : الله وروي عن أبي بكر لما سمع بِسَجْع مسيلمة : هذا كلام لم يخرج من إِلَّ .

(233/60)

السادسة : جَبْرَائِل بألف بعد الرَّاء ، وهمزة مكسورة بعد الألف ، وبها قرأ عكرمة .

السابعة : مثلها إلا أنها بياء الهمزة .

الثامنة : جِبْرَائيل بياءين بعد الألف من غير همزة ، وبها قرأ الأعمش ويحيى أيضاً .

التاسعة : جِبْرَال .

العاشرة : جِبْرَايل بالياء والقصر ، وهي قراءة طلحة بن مُصَرِّف .

الحادية عشرة : جَبْرِينَ بفتح الجيم والنون .

والثانية عشرة : كذلك إلا أنه بكسر الجيم .

والثالثة عشرة : جَبْرايين .

والجملة من قوله : " مَنْ كَانَ " في محلّ نصب بالقول ، والضمير في قوله " فإنّه " يعود على

جبريل وفي قوله : " نزله " بعود على القرآن ، وهذا موافق لقوله : ﴿ نَزَلَ بِهِ الروح الأمين ﴾ [الشعراء : 193] في قراءة من رفع " الروح " ولقوله : " مصدقاً " .

وقيل : الأول يعود على الله ، والثاني يعود على جبريل ، وهو موافق لقراءة من قرأ " نَزَّلَ بِهِ الرُّوح " بالتشديد والنصب ، وأتى بـ " التي تقتضي الاستعلاء دون " إلى " التي تقتضي الانتهاء ، وخصّ القلب بالذكر ؛ لأنه خزانة الحِفْظ ، بيت الربّ عز وجل [وأكثر الأمة على أنه أنزل القرآن عليه ، لا على قلبه ، إلاَّ أنه خصّ القلب بالذكر ؛ لأن الذي نزل به ثبت في قلبه حفظاً حتى أدّاه إلى أمّته ، فلمّا كان سبب تمكّنه من الأداء ثبات حفظه قي قلبه جاز أن يقال : نزله على قلبك ، وإن كان في الحقيقة نزل عليه لا على قلبه ، ولأنه أشرف الأعضاء .

قال عليه الصّلاة السّلام : " أَلاَ إِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ أَلاَ وَهِيَ القَلْبُ "] وأضافه ضمير المخاطب دون ياء المتكلم ، وإن كان ظاهر الكلام يقتضي أن يكون " على قلبي " لأحد الأمرين :

'إما مراعاة لحال الأمر بالقول فَتَسْرُد لفظة بالخطاب كما هو نحو قولك : قل لقومك : لا يهينوك ، ولو قلت : لا تهينوني لجاز ، ومنه قول الفرزدق : [الطويل]

684 أَلَمْ تَرَ أَنِّي يَوْمَ جوّ سُوَيْقَةٍ . . .

دَعَوْتُ فَنَادَتْنِي هُنَيْدَةُ : مَالِيَا

فأحرز المعنى ونَكَّبَ عن نداء هندية " ما لك " ؟ ، وإما لأن ثَمَّ قولاً آخر مضمراً بعد " قل " والتقدير ، قل يا محمد : قال الله " من كان عدوًّا لجبريل فإنه نزله على قلبك " ، [وإليه نحا الزمخشري بقوله : جاءت على حكاية كلام الله ، قل : ما تكلمت به من قولي : من كان عدوًّا لجبريل ، فإنه نزله على قلبك] فعلى هذا الجملة الشرطية معمولة لذلك القول المضمر ، والقول المضمر معمول للفظ " قل " ، والظاهر ما تقدم من كون الجملة معمولة للفظ " قل " بالتأويل المذكور أولاً ، ولا ينافيه قول الزمخشري ، فإنه قصد تفسير المعنى لا تفسير الإعراب .

والضمير في " أنه " يحتمل معنيين :

الأول : فإن الله نزل جبريل على قلبك .

الثاني : فإن جبريل نزل القرآن على قلبك ، ودلت الآية على شرف جبريل عليه السلام وذمّ معادية قاله القُرْطبي رحمه الله تعالى .

قوله تعالى : " بِإِذْنِ اللهِ " في محلّ نصب على الحال من فاعل : " نزله " إن قيل : إنهُ ضمير جبريل ، أو من مفعوله إن قيل : إن الضمير المرفوع في " نزل " يعود على الله ، والتقدير : فإنه

نزل مأذوناً له أو معه إذن الله ، والإذن في الأصل العلم بالشَّيء ، والإيذان ، كالإعلام ، آذن به : علم به ، وآذنته بكذا : أعلمته به ، ثم يطلق على التمكين ، أذن في كذا : أمكنني منه ، وعلى الاختبار ، فعلته بإذنك : أي باختيارك ، وقول من قال بإذنه أي بتيسّره راجع إلى ذلك .

قال ابن الخطيب : تفسير الإذن هُنا بالأمر أي بأمر الله ، وهو أولى من تفسيره بالعلم لوجوه :

أولها : أنَّ الإذن حقيقة في الأمر ، ومجاز في العلم ، واللَّفظ واجب الحمل على حقيقته ما أمكن .

وثانيها : أن إنزاله كان من الواجبات ، والوجوب مستفاد من الأمر لا من العلم .

وثالثها : أن ذلك الإنزال إذا كان من أمر لازم كان أوكد في الحجة .

(235/60)

قوله تعالى : " مُصَدِّقًا " حال من الهاء في " نزّله " إن كان يعود الضمير على القرآن ، وإن عاد على جبريل ففيه احتمالان :

أحدهما : أن يكون من المجرور المحذوف لفهم المعنى ، والتقدير : فإن الله نزّل جبريل بالقرآن مصدقاً .

الثاني : أن يكون من جبريل بمعنى مصدقاً لما بين يديه من الرسل ، وهي حال مؤكدة ، والهاء في " بين يديه " يجوز أن تعود على " القرآن " أو على " جبريل " .

وأكثر المفسرين على أن المراد ما قبله من كتب الأنبياء عليهم الصَّلاة والسَّلام لا يخصّ كتاباً دون كتاب ، ومنهم من خصَّه بالتوراة ، وزعم أنه إشارة إلى أن القرآن يوافق التوراة في الدلالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم . انتهى انتهى . اهـ ﴾ تفسير ابن عادل حـ 2 صـ 314.309 ﴿ . باختصار .

(236/60)

قوله تعالى ﴿ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ (98) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كانت عداوة واحد من الحزب لكونه من ذلك الحزب عداوة لجميع ذلك الحزب تلاه بقوله : ﴿ من كان عدواً لله ﴾ ذي الجلال والإكرام لعداوته واحداً من أوليائه لكونه من أوليائه ﴿ وملائكته ﴾ النازلين بأمره ﴿ ورسله ﴾ من البشر وغيرهم ، وخص من بينهم

بالذكر من حباه بالفضل فقال : ﴿ وجبريل وميكال ﴾ ، فإنه قد كفر فأهلك نفسه بكفره ، وعلى ذلك دل قوله : ﴿ فإن الله ﴾ الملك الأعلى : ﴿ عدو للكافرين ﴾ حيث أظهر ولم يضمر ، وعبر بالوصف اللازم صرفاً للخطاب عمن يتعظ منهم فيرجع فلا تلحقه المعاداة لذلك ؛ وميكال يقال هو اسم عبودية أيضاً وهو يد بسط للأرزاق المقيمة للأجسام كما أن إسرافيل يد بسط للأرواح التي بها الحياة – قاله الحرالي . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 203. 204 ﴾

فصل

قال الفخر :

أما الآية الثانية وهي قوله تعالى : ﴿ مَن كَانَ عَدُوّا لِّلَّهِ وَمَلَئِكَتِهِ ﴾ فاعلم أنه تعالى لما بين في الآية الأولى : ﴿ مَن كَانَ عَدُوّا لِّجِبْرِيلَ ﴾ لأجل أنه نزل القرآن على قلب محمد ، وجب أن يكون عدواً لله تعالى ، بين في هذه الآية أن من كان عدواً لله كان عدواً له ، فبين أن في مقابلة عداوتهم ما يعظم ضرر الله عليهم وهو عداوة الله لهم ، لأن عداوتهم لا تؤثر ولا تنفع ولا تضر ، وعداوته تعالى تؤدي إلى العذاب الدائم الأليم الذي لا ضرر أعظم منه ، وههنا سؤالات :

السؤال الأول : كيف يجوز أن يكونوا أعداء الله ومن حق العداوة الإضرار بالعدو ، وذلك محال على الله تعالى ؟ والجواب : أن معنى العداوة على الحقيقة لا يصح إلا فينا لأن العدو

للغير هو الذي يريد إنزال المضار به ، وذلك محال على الله تعالى ، بل المراد منه أحد وجهين ، إما أن يعادوا أولياء الله فيكون ذلك عداوة لله كقوله : ﴿ إِنَّمَا جَزَاء الذين يُحَارِبُونَ الله وَرَسُولَهُ ﴾ [المائدة : 33] وكقوله : ﴿ إِنَّ الذين يُؤْذُونَ الله وَرَسُولَهُ ﴾ [الأحزاب : 57] لأن المراد بالآيتين أولياء الله دونه لاستحالة المحاربة والأذية عليه ، وإما أن يراد بذلك كراهتهم القيام بطاعته وعبادته وبعدهم عن التمسك بذلك فلما كان العدو لا يكاد يوافق عدوه أو ينقاد له شبه طريقتهم في هذا الوجه بالعداوة ، فأما عداوتهم لجبريل والرسل فصحيحة لأن الإضرار جائز عليهم لكن عداوتهم لا تؤثر فيهم لعجزهم عن الأمور المؤثرة فيهم ، وعداوتهم مؤثرة في اليهود لأنها في العاجل تقتضي الذلة والمسكنة ، وفي الآجل تقتضي العذاب الدائم .

(237/60)

السؤال الثاني : لما ذكر الملائكة فلم أعاد ذكر جبريل وميكائيل مع اندراجهما في الملائكة ؟ الجواب لوجهين ، الأول : أفردهما بالذكر لفضلهما كأنهما لكمال فضلهما صارا جنساً آخر سوى جنس الملائكة ، الثاني : أن الذي جرى بين الرسول واليهود هو ذكرهما والآية إنما نزلت بسببهما ، فلا جرم نص على اسميهما ، واعلم أن هذا يقتضي كونهما أشرف من

جميع الملائكة وإلا لم يصح هذا التأويل ، وإذا ثبت هذا فنقول : يجب أن يكون جبريل عليه السلام أفضل من ميكائيل لوجوه ، أحدها : أنه تعالى قدم جبريل عليه السلام في الذكر ، وتقديم المفضول على الفاضل في الذكر مستقبح عرفاً فوجب أن يكون مستقبحاً شرعاً لقوله عليه السلام : " ما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن " ، وثانيها : أن جبريل عليه السلام ينزل بالقرآن والوحي والعلم وهو مادة بقاء الأرواح ، وميكائيل ينزل بالخصب والأمطار وهي مادة بقاء الأبدان ، ولما كان العلم أشرف من الأغذية وجب أن يكون جبريل أفضل من ميكائيل ، وثالثها : قوله تعالى في صفة جبريل : ﴿ مطاع ثَمَّ أَمِينٍ ﴾ [التكوير : 21] ذكره بوصف المطاع على الإطلاق ، وظاهره يقتضي كونه مطاعاً بالنسبة إلى ميكائيل فوجب أن يكون أفضل منه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 181.180 ﴾

فائدة

قال ابن عطية :

وذكر جبريل وميكائيل وقد كان ذكر الملائكة عمهما تشريفاً لهما ، وقيل خصا لأن اليهود ذكروهما ونزلت الآية بسببهما ، فذكرهما واجب لئلا تقول اليهود إنا لم نعاد الله وجميع ملائكته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 1 صـ 184 ﴾

وقال الماوردى :

فإن قيل : فلم قال : ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ ﴾ وقد دخل جبريل وميكائيل في عموم الملائكة فلِمَ خصهما بالذكر ؟ فعنه جوابان :

أحدهما : أنهما خُصَّا بالذكر تشريفاً لهما وتمييزاً .

والثاني : أن اليهود لما قالوا جبريل عدوّنا ، وميكائيل ولينا ، خُصَّا بالذكر ، لأن اليهود تزعم أنهم ليسوا بأعداء لله وملائكته ، لأن جبريل وميكائيل مخصوصان من جملة الملائكة ، فنص عليهما لإبطال ما يتأولونه من التخصيص . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 1 صـ 163 ﴾

(238/60)

وقال الجاوى :

وخصَّ الله جبريل بالذكر رداً على اليهود في دعوى عداوته وضمَّ إليه ميكائيل لأنه ملك الرزق الذي هو حياة الأجساد كما أن جبريل ملك الوحي الذي هو حياة القلوب والأرواح ، وقدَّم جبريل لشرفه لأن العلم أشرف من الأغذية ، وقدَّم الملائكة على الرسل كما قدَّم الله على الجميع ، لأن عداوة الرسل بسبب نزول الكتب ونزولها بتنزيل الملائكة وتنزيلهم لها

بأمر الله فذكر الله ومن بعده على هذا الترتيب. انتهى انتهى. اهـ ﴿ مراح لبيد حـ 1 صـ 34 ﴾

(239/60)

فائدة

قال الفخر:

الواو في جبريل وميكال، قيل: واو العطف، وقيل: بمعنى أو يعني من كان عدواً لأحد من هؤلاء فإن الله عدو لجميع الكافرين. انتهى انتهى. اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 181 ﴾

فصل

قال الفخر:

﴿ عَدُوٌّ للكافرين ﴾ أراد عدو لهم إلا أنه جاء بالظاهر ليدل على أن الله تعالى إنما عاداهم لكفرهم، وأن عداوة الملائكة كفر. انتهى انتهى. اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 181 ﴾

وقال الماوردى:

﴿ فَإِنَّ اللهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ ﴾ ، ولم يقل لهم ، لأنه قد يجوز أن ينتقلوا عن العداوة بالإيمان .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 1 صـ 163 ﴾

وقال ابن عطية :

وظهر الاسم في قوله : ﴿ فإن الله ﴾ لئلا يشكل عود الضمير ، وجاءت العبارة بعموم الكافرين لأن عود الضمير على من يشكل سواء أفردته أو جمعته ، ولو لم نبال بالاشكال وقلنا المعنى يدل السامع على المقصد للزم تعيين قوم بعداوة الله لهم ، ويحتمل أن الله تعالى قد علم أن بعضهم يؤمن فلا ينبغي أن تطلق عليه عداوة الله للمآل . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ المحرر الوجيز حـ 1 صـ 184 ﴾

ومن فوائد ابن عرفة فى الآيتين

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ . . . ﴾ .

قال الزمخشرى ! روي أنه كان (لعمر) أرض بأعلى المدينة وكان (ممرّه) على ﴿ مدارس) اليهود ، فسألهم عن جبريل ، فقالوا : ذلك عدوّ لنا يطلع محمدا على أسرارنا .

وقال ابن عطية : سبب نزول الآية أنّهم سألوا النّبي صلى الله عليه وسلم عن أربعة أشياء (منها : أنهم) سألوه عمّن يجيئه من الملائكة بالوحي ؟ فقال : جبريل .

فقالوا : ذلك عدوّ لنا لأنه ملك الحروب والشدائد .

قال ابن عرفة : هدا جهل ومحض ومكابرة ، ولقائل أن يقول : أن السبب غير مطابق للآية ، لأنهم أخبروا أن جبريل عدو لهم ، والآية اقتضت أنهم أعداء لجبريل ، (ولا يلزم) من عداوة أحد الشخصين للاخر أن يكون الآخر عدوا له .

وأجيب بأن هذا خرج مخرج الوعيد لهم ، لأن جبريل ذو قوة وسطوة ، فإذا خالفوه ودافعوه مع علمهم بقوته فقد عادوه .

قال ابن عرفة ؛ الظاهر أن " مَنْ " موصولة لأن الشرطية لا تقتضي وجود شرطها ولا إمكان وجوده ، والعداوة ثابتة موجودة كما تقدم فهى موصولة .

قال الزمخشري : فإن قلت : كيف يصح قوله : ﴿ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ على قَلْبِكَ ﴾ جزاء للشرط ؟

وأجاب بوجهين : أحدهما أنهم لو أنصفوا لشكروا جبريل على إنزاله كتابا ينفعهم ويصحح كتابهم .

الثاني إن عاداه أحد فالسبب في عداوته أنه نزّل عليك القرآن مصدقا لكتابهم .

قال ابن عرفة : إنما احتاج إلى هذا (السؤال) لأنه فهم أن الارتباط بين الشرط والجزاء لا يكون إلا لزوميا ، وهو عند الأصوليين يكون لزوميا .

ويكون اتفاقيا ، لكنّه في محل الاستدلال لا يصح أن يكون الا لزوميا .

وفي الخبر يصح فيه الأمران .

(نعم لا بد من المناسبة وصحة ترّتبه على الشرط) كقولك : إن تكرم زيدا فقد أكرمه غيرك .

فإنه لا ارتباط بينهما إلا في الزمان أو في الذّكر خاصة فهو اتّفاقي .

قلت : ولما ذكر ابن عرفة في الختمة الأخرى هذين الجوابين قال : أو يقال : إن في هذا ردا على من زعم أن جبريل غلط في الرسالة ، وهي مسألة العتبية في كتاب المرتدين والمحاربين في رسم (يدير) ماله من سماع ابن القاسم .

قال : فيمن قال : إن جبريل أخطأ بالوحي وإنما كان النّبي علي بن أبي طالب كرم الله وجهه يستتاب فإن تاب وإلا قتل .

ابن رشد : هذا كفر صريح فإن أعلنه استُتِيب ، وأن أسرّه بلا استتابة كالزنديق .

قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ على قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ . . . ﴾ .

قيل لابن عرفة : يؤخذ منه تسمية بعض القرآن قرآنا لأنه لم يكن حينئذ أنزل جميعه بل بعضه ؟ فقال : يجاب إما بإيقاع الماضي موقع المستقبل أو بأن الضمير في " نَزَّلَهُ " عائد على المتلوّ من القرآن لا (على) نفس القرآن .

(أقول : أو إن الضمير يعود على ما أخبر به جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم من أسرارهم الّذي كان سببا في عداوتهم ، له كما تقدم في سبب النزول من قولهم لعمر رضي الله عنه ، وهو قريب من الجواب الثاني) ، وتقدم في الخاتمة الأخرى .

قال بعض الطلبة (لابن عرفة) : اعتزل الزمخشري فقال : إذا كانت عداوة الأنبياء كفرا فما بالك بعداوة الملائكة وهم أشرف ! فجعله أشرف من بني آدم ولا ينبني عليه كفر ولا إيمان ؟

قال ابن عرفة : فقوله على هذا ﴿ مَن كَانَ عَدُوّاً لِّلَّهِ ﴾ تدل ، وهو من باب التذييل لما قبله ، ومعناه أن يكون اللّفظ بزيادة قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلاَّ الفاسقون ﴾ فيه دليل على أن الاستثناء من النفي إثبات .

قيل لابن عرفة : من (عاداك) فقد عاديته فما أفاد قوله : ﴿ فَإِنَّ اللهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ ﴾ فقال (العداوة) ليست متعاكسة النسبة بدليل قول الله عز وجلّ ! ﴿ يا أيها الذين ءامنوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلاَدِكُمْ عَدُوّاً لَّكُمْ فاحذروهم ﴾ مع أن الآباء ليسوا أعداء لأولادهم .

قيل له : هي متعاكسة ؟

فقال : " من " خارج بالدليل العقلي لا من جهة اللفظ والمادة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عرفة حـ 1 صـ 378 . 381 ﴾

(242/60)

وقال البيضاوى :

﴿ مَن كَانَ عَدُوّا لِّلَّهِ وَمَلَئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وميكال فَإِنَّ اللهَ عَدُوٌّ لِّلكافرين ﴾ أراد بعداوة الله مخالفته عناداً ، أو معاداة المقربين من عباده ، وصدر الكلام بذكره تفخيماً لشأنهم كقوله تعالى : ﴿ والله وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ ﴾ وأفرد الملكين بالذكر لفضلهما كأنهما من جنس آخر ، والتنبيه على أن معاداة الواحد والكل سواء في الكفر واستجلاب العداوة من الله تعالى ، وأن من عادى أحدهم فكأنه عادى الجميع ، إذ الموجب لعداوتهم ومحبتهم على الحقيقة واحد ، ولأن المحاجة كانت فيهما . ووضع الظاهر موضع المضمر للدلالة على أنه تعالى عاداهم لكفرهم ، وأن عداوة الملائكة والرسل كفر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 1 صـ 368 . 369 ﴾

ومن فوائد أبى حيان فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ من كان عدوًّا لله ﴾ : العداوة بين الله والعبد لا تكون حقيقة ، وعداوة العبد لله تعالى مجاز ، ومعناها : مخالفة الأمر ، وعداوة الله للعبد ، مجازاته على مخالفته .

﴿ وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين ﴾ .

أكد بقوله : وملائكته ، أمر جبريل ، إذ اليهود قد أخبرت أنه عدوهم من الملائكة ، لكونه يأتي بالهلاك والعذاب ، فرد عليهم في الآية السابقة ، بأنه أتى بأصل الخيور كلها ، وهو القرآن الجامع لتلك الصفات الشريفة ، من موافقته لكتبهم ، وكونه هدى وبشرى ، فكانت تجب محبته .

وردّ عليهم في هذه الآية ، بأن قرنه باسمه تعالى مندرجاً تحت عموم ملائكته ، ثم ثانياً تحت عموم رسله ، لأن الرسل تشمل الملائكة وغيرهم ممن أرسل من بني آدم ، ثم ثالثاً بالتنصيص على ذكره مجرداً مع من يدّعون أنهم يحبونه ، وهو ميكال ، فصار مذكوراً في هذه الآية ثلاث مرار ، كل ذلك رد على اليهود وذم لهم ، وتنويه بجبريل .

ودلت الآية على أن الله تعالى عدوّ لمن عادى الله وملائكته ورسله وجبريل وميكال .

(243/60)

ولا يدل ذلك على أن المراد من جمع عداوة الجميع ، فالله تعالى عدوّه ، وإنما المعنى أن من عادى واحداً ممن ذكر ، فالله عدوه ، إذ معاداة واحد ممن ذكر معاداة للجميع .

وقد أجمع المسلمون على أن من أبغض رسولاً أو ملكاً فقد كفر .

فقال بعض الناس : الواو هنا بمعنى أو ، وليست للجمع .

وقال بعضهم : الواو للتفصيل ، ولا يراد أيضاً أن يكون عدواً لجميع الملائكة ، ولا لجميع الرسل ، بل هذ من باب التعليق على الجنس بصورة الجمع ، كقولك : إن كلمت الرجال فأنت طالق ، لا يريد بذلك إن كلمت كل الرجال ، ولا أقل ما ينطلق عليه الجمع ، وإنما علق بالجنس ، وإن كان بصورة الجمع ، فلو كلمت رجلاً واحداً طلقت ، فكذلك هذا الجمع في الملائكة والرسل .

فالمعنى أن من عادى الله ، أو ملكاً من ملائكته ، أو رسولاً من رسله ، فالله عدوّ له .

وقال الماتريدي : يحتمل أن يكون الافتتاح باسم الله ، على سبيل التعظيم لمن ذكر بعده ، كقوله تعالى : ﴿ فأَن لله خمسهُ ﴾ وخص جبريل وميكال بالذكر تشريفاً لهما وتفضيلاً .

وقد ذكرنا عن أستاذنا أبي جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير ، قدس الله روحه ، أنه كان يسمي لنا هذا النوع بالتجريد ، وهو أن يكون الشيء مندرجاً تحت عموم ، ثم تفرده بالذكر ، وذلك لمعنى مختص به دون أفراد ذلك العام .

فجبريل وميكال جعلاً كأنهما من جنس آخر ، ونزل التغاير في الوصف كالتغاير في الجنس ،

فعطف .

وهذا النوع من العطف ، أعني عطف الخاص على العام ، على سبيل التفضيل ، هو من الأحكام التي انفردت بها الواو ، فلا يجوز ذلك في غيرها من حروف العطف .

وقيل : خصا بالذكر ، لأن اليهود ذكرهما ، ونزلت الآية بسببهما .

فلو لم يذكرا ، لكان لليهود تعلق بأن يقولوا : لم نعاد الله ؟ ولا جميع ملائكته ؟ وقيل : خصاً بالذكر دفعاً لإشكال : أن الموجب للكفر عداوة جميع الملائكة ، لا واحد منهم .

فكأنه قيل : أو واحد منهم .

(244/60)

وجاء هذا الترتيب في غاية الحسن ، فابتدىء بذكر الله ، ثم بذكر الوسائط التي بينه وبين الرسل ، ثم بذكر الوسائط التي بين الملائكة وبين المرسل إليهم .

فهذا ترتيب بحسب الوحي .

ولا يدل تقديم الملائكة في الذكر على تفضيلهم على رسل بني آدم ، لأن الترتيب الذي ذكرناه هو ترتيب بالنسبة إلى الوسائط ، لا بالنسبة إلى التفضيل .

ويأتي قول الزمخشري : بأن الملائكة أشرف من الأنبياء ، إن شاء الله ، قالوا : واختصاص

جبريل وميكال بالذكر يدل على كونهما أشرف من جميع الملائكة.

وقالوا: جبريل أفضل من ميكال، لأنه قدم في الذكر، ولأنه ينزل بالوحي والعلم، وهو مادة الأرواح.

وميكال ينزل بالخصب والأمطار، وهي مادة الأبدان، وغذاء الأرواح أشرف من غذاء الأشباح، انتهى.

ويحتاج تفضيل جبريل على ميكائيل إلى نص جلي واضح، والتقدم في الذكر لا يدل على التفضيل، إذ يحتمل أن يكون ذلك من باب الترقي.

ومن: في قوله: ﴿ من كان عدوًّا ﴾ شرطية.

واختلف في الجواب فقيل: هو محذوف، تقديره: فهو كافر، وحذف لدلالة المعنى عليه.

وقيل الجواب: ﴿ فإن الله عدوّ للكافرين ﴾، وأتى باسم الله ظاهراً، ولم يأت بأنه عدوّ لاحتمال أن يفهم أن الضمير عائد على اسم الشرط فينقلب المعنى، أو عائد على أقرب مذكور، وهو ميكال، فأظهر الاسم لزوال اللبس، أو للتعظيم والتفخيم، لأن العرب إذا فخمت شيئاً كررته بالاسم الذي تقدم له منه: ﴿ لينصرنه الله ﴾ ﴿ إن الله لقوي عزيز ﴾ وقول الشاعر:

لا أرى الموت يسبق الموت شيئا . . .

وهذه الجملة الواقعة خبراً للشرط، تحتاج إلى رابط لجملة الجزاء باسم الشرط.

والرابط هنا الاسم الظاهر وهو : الكافرين ، أوقع الظاهر موقع الضمير لتواخي أواخر الآي ، ولينص على علة العداوة ، وهي الكفر ، إذ من عادى من تقدّم ذكره ، أو واحداً منهم ، فهو كافر .

(245/60)

أو يراد بالكافرين العموم ، فيكون الرابط العموم ، إذ الكفر يكون بأنواع ، وهؤلاء الكفار بهذا الشيء الخاص فرد من أفراد العموم ، فيحصل الربط بذلك .

وقال الزمخشري : عدوّ للكافرين ، أراد عدوّ لهم ، فجاء بالظاهر ليدل على أن الله عاداهم لكفرهم ، وأن عداوة الملائكة كفر .

وإذا كانت عداوة الأنبياء كفراً ، فما بال الملائكة ؟ وهم أشرف .

والمعنى : من عاداهم عاداه الله وعاقبه أشدّ العقاب .

انتهى كلامه .

وهذا مذهب المعتزلة يذهبون إلى أن الملائكة أفضل من خواص بني آدم .

ودل كلام الزمخشري على أن الظاهر وقع موقع الضمير ، وأنه لم يلحظ فيه العموم ، وقال ابن عطية : وجاءت العبارة بعموم الكافرين ، لأن عود الضمير على من يشكل ، سواء أفردته

أو جمعته ، ولو لم يبال بالإشكال .

وقلنا : المعنى يدل السامع على المقصد للزم تعيين قوم بعداوة الله لهم .

ويحتمل أن الله قد علم أن بعضهم يؤمن ، فلا ينبغي أن يطلق عليه عداوة الله للمآل .

وروي أن عمر نطق بهذه الآية مجاوباً لبعض اليهود في قوله : ذلك عدوّنا ، يعني جبريل ، فنزلت على لسان عمر .

قال ابن عطية : وهذا الخبر ضعيف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 1 صـ 489 ـ 491 ﴾

(246/60)

ومن فوائد أبى السعود فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ مَن كَانَ عَدُوّا الله ﴾ أريد بعداوته تعالى مخالفةُ أمرِه عِناداً والخروجُ عن طاعته مكابرةً ، أو عداوةُ خواصّه ومقرّبيه . لكنْ صُدّر الكلامُ بذكره الجليل تفخيماً لشأنهم وإيذاناً بأن عداوتَهم عداوتُه عز وعلا كما في قوله عز وجل : ﴿ والله وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ ﴾ ثم صرح بالمرام فقيل : ﴿ وَمَلَئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وميكال ﴾ وإنما أفردا

بالذكر مع أنهما أولُ من يشمَلُه عنوانُ المَلَكية والرسالة لإظهار فضلِهما كأنهما عليهما السلام من جنسٍ آخرَ أشرفَ مما ذكر تنزيلاً للتغايُر في الوصف منزلةَ التغايرِ في الجنس ، وللتنبيه على أن عداوةَ أحدِهما عداوةٌ للآخر حسماً لمادة اعتقادِهم الباطلَ في حقهما حيث زعَموا أنهما متعاديان ، وللإشارة إلى أن معاداةَ الواحدِ والكلِّ سواءٌ في الكفر واستتباعِ العداوةِ من جهة الله سبحانه ، وأن من عادى أحدَهم فكأنما عادى الجميعَ ، وقولُه تعالى : ﴿ فَإِنَّ اللهَ عَدُوٌّ للكافرين ﴾ أي لهم جوابُ الشرط والمعنى من عاداهم عاداه الله وعاقبه أشدَّ العقاب وإيثارُ الاسميةِ للدلالة على التحقق والثباتِ ، ووضعُ الكافرين موضعَ المضمرِ للإيذان بأن عداوةَ المذكورين كفر ، وأن ذلك بيّنٌ لا يحتاج إلى الإخبار به ، وأن مدارَ عداوتِه تعالى لهم وسخطِه المستوجبِ لأشدِّ العقوبة والعذابِ هو كفرُهم المذكور . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 1 صـ 134 ﴾

ومن فوائد الآلوسى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ (98) ﴾

العدو للشخص ضد الصديق يستوي فيه المذكر والمؤنث والتثنية والجمع ، وقد يؤنث ويثنى ويجمع ، وهو الذي يريد إنزال المضارّ به ، وهذا المعنى لا يصح إلا فينا دونه تعالى فعداوة الله هنا مجاز إما عن مخالفته تعالى وعدم القيام بطاعته لما أن ذلك لازم للعداوة ، وإما عن عداوة أوليائه ، وأما عداوتهم لجبريل والرسل عليهم السلام فصحيحة لأن الإضرار جار عليهم ، غاية ما في الباب أن عداوتهم لا تؤثر لعجزهم عن الأمور المؤثرة فيهم ، وصدر الكلام على الاحتمال الأخير بذكره لتفخيم شأن أولئك الأولياء حيث جعل عداوتهم عداوته تعالى ، وأفرد الملكان بالذكر تشريفاً لهما وتفضيلاً كأنهما من جنس آخر تنزيلاً للتغاير في الوصف منزلة التغاير في الذات كقوله :

فإن تفق الأنام وأنت منهم . . .

فإن (المسك) بعض دم الغزال

(248/60)

وقيل : لأن اليهود ذكروهما ونزلت الآية بسببهما ، وقيل : للتنبيه على أن معاداة الواحد والكل سواء في الكفر واستجلاب العداوة من الله تعالى ، وإن من عادى أحدهم فكأنما عادى الجميع لأن الموجب لمحبتهم وعداوتهم على الحقيقة واحد وإن اختلف بحسب

التوهم والاعتقاد ، ولهذا أحب اليهود ميكائيل وأبغضوا جبريل ، واستدل بعضهم بتقديم جبريل على ميكائيل على أنه أفضل منه وهو المشهور ، واستدلوا عليه أيضاً بأنه ينزل بالوحي والعلم وهو مادة الأرواح ، وميكائيل بالخصب والإمطار وهي مادة الأبدان ، وغذاء الأرواح أفضل من غذاء الأشباح ، واعترض بأن التقديم في الذكر لا يدل على التفضيل إذ يحتمل أن يكون ذلك للترقي أو لنكتة أخرى كما قدمت الملائكة على الرسل وليسوا أفضل منهم عندنا ، وكذا نزوله بالوحي ليس قطعياً بالأفضلية إذ قد يوجد في المفضول ما ليس في الفاضل فلا بد في التفضيل من نص جلي واضح ، وأنا أقول بالأفضلية وليس عندي أقوى دليلاً عليها من مزيد صحبته لحبيب الحق بالاتفاق وسيد الخلق على الإطلاق صلى الله عليه وسلم وكثرة نصرته وحبه له ولأمته ، ولا أرى شيئاً يقابل ذلك وقد أثنى الله تعالى عليه عليه السلام بما لم يثن به على ميكائيل بل ولا على إسرافيل وعزرائيل وسائر الملائكة أجمعين ، وأخرج الطبراني لكن بسند ضعيف عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا أخبركم بأفضل الملائكة جبرائيل " وأخرج أبو الشيخ عن موسى بن عائشة قال : " بلغني أن جبريل إمام أهل السماء " و(من) شرطية والجواب ، قيل : محذوف وتقديره فهو كافر مجزى بأشد العذاب ، وقيل : فإن الله الخ على نمط ما علمت ، وأتى باسم الله ظاهراً ولم يقل فإنه عدو دفعاً لانفهام غير المقصود أو التعظيم ، والتفخيم والعرب إذا فخمت شيئاً كررته بالاسم الذي تقدم له ،

ومنه

﴿ لَيَنصُرَنَّهُ اللهُ إِنَّ اللهَ ﴾ [الحج: 60] وقوله:

(249/60)

لا أرى الموت يسبق الموت شيء . . .

وأل في الكافرين للعهد وإيثار الاسمية للدلالة على التحقيق والثبات، ووضع المظهر موضع المضمر للإيذان بأن عداوة المذكورين كفر وأن ذلك بين لا يحتاج إلى الإخبار به وأن مدار عداوته تعالى لهم وسخطه المستوجب لأشد العقوبة والعذاب هو كفرهم المذكور، وقيل: يحتمل أنه تعالى عدل عن الضمير لعلمه أن بعضهم يؤمن فلا ينبغي أن يطلق عليه عداوة الله تعالى للمآل وهو احتمال أبعد من العيوق ويحتمل أن تكون أل للجنس كما تقدم، ومن الناس من روى أن عمر رضي الله تعالى عنه نطق بهذه الآية مجاوباً لبعض اليهود في قوله: ذاك عدونا يعني جبريل فنزلت على لسان عمر وهو خبر ضعيف كما نص عليه ابن عطية، والكلام في منع صرف ميكائيل كالكلام في جبريل، واشتهر أن معناه عبيد الله وقيل: عبد الله، وفيه لغات، الأولى: ميكال كمفعال، وبها قرأ أبو عمرو وحفص وهي لغة الحجاز، الثانية: كذلك إلا أن بعد الألف همزة، وقرأ بها نافع وابن شنبوذ لقنبل، الثالثة:

كذلك إلا أنه بياء بعد الهمزة ، وبها قرأ حمزة والكسائي وابن عامر وأبو بكر وغير ابن شنبوذ لقنبل والبزي ، الرابعة : ميكئيل كميكفيل ، وبها قرأ ابن محيصن .

الخامسة : كذلك إلا أنه لا ياء بعد الهمزة وقرىء بها ، السادسة : ميكائيل بياءين بعد الألف أولهما مكسورة ، وبها قرأ الأعمش .

(250/60)

ولساداتنا الصوفية قدس الله تعالى أسرارهم في هذين الملكين بل وفي أخويهما إسرافيل وعزرائيل عليهما السلام أيضاً كلام مبسوط ، والمشهور أن جبرائيل هو العقل الفعال ، وميكائيل هو روح الفلك السادس وعقله المفيض للنفس النباتية الكلية الموكلة بأرزاق الخلائق ، وإسرافيل هو روح الفلك الرابع وعقله المفيض للنفس الحيوانية الكلية الموكلة بالحيوانات ، وعزرائيل هو روح الفلك السابع الموكل بالأرواح الإنسانية كلها بعضها بالوسائط التي هي أعوانه وبعضها بنفسه والله تعالى أعلم بحقيقة الحال . انتهى انتهى . اهـ

﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 333. 335 ﴾

ومن فوائد ابن عاشور فى الآيتين

قال رحمه الله :

﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ على قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وبشرى لِلْمُؤْمِنِينَ * مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وملائكته وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وميكال فَإِنَّ اللهَ عَدُوٌّ للكافرين ﴾ .

موقع هاته الجملة موقع الجمل قبلها من قوله : ﴿ قل فلم تقتلون أنبياء الله ﴾ [البقرة : 91].

وقوله : ﴿ قل بئسما يأمركم ﴾ [البقرة : 93] .

وقوله : ﴿ قل إن كانت لكم الدار الآخرة ﴾ [البقرة : 94] .

فإن الجميع للرد على ما تضمنه قولهم ﴿ نؤمن بما أنزل علينا ﴾ [البقرة : 91] لأنهم أظهروا به عذراً عن الإعراض عن الدعوة المحمدية وهو عذر كاذب ستروا به السبب في الواقع وهو الحسد على نزول القرآن على رجل من غيرهم فجاءت هاته المجادلات المصدرة بقل لإبطال معذرتهم وفضح مقصدهم .

فأبطل أولاً ما تضمنه قولهم : ﴿ نؤمن بما أنزل علينا ﴾ من أنهم إنما يقبلون ما أنزل على رسلهم بأنهم قد قابلوا رسلهم أيضاً بالتكذيب والأذى والمعصية وذلك بقوله : ﴿ قل فلم تقتلون ﴾ وقوله : ﴿ قل بئسما ﴾ إلخ .

وأبطل ثانياً ما تضمنه من أنهم شديدو التمسك بما أنزل عليهم حريصون على العمل به متباعدون عن البعد عنه لقصد النجاة في الآخرة بقوله : ﴿ قل إن كانت لكم الدار الآخرة ﴾ .

وأبطل ثالثاً أن يكون ذلك العذر هو الصارفَ لهم عن الإيمان مع إثبات أن الصارف لهم هو الحسد بقوله هنا : ﴿ قل من كان عدواً لجبريل ﴾ إلخ .

ويؤيد هذا الارتباط وقوع الضمير في قوله نَزَّله عائداً على ﴿ ما أنزل الله ﴾ في الآية المجابة بهاته الإبطالات ، ولذلك فصلت هذه كما فصلت أخواتها ولأنها لا علاقة لها بالجمل القريبة منها فتعطف عليها فجاءت لذلك متسأنفة .

والعدو المبغض وهو مشتق من عَدَا عليه يعدو بمعنى وثب ، لأن المبغض يثب على المبغوض لينتقم منه ووزنه فَعول .

وجبريل اسم عبراني للمَلَك المرسل من الله تعالى بالوحي لرُسله مركب من كلمتين .

وفيه لغات أشهرها جِبْرِيل كقِطمير وهي لغة أهل الحجاز وبها قرأ الجمهور .

وجَبْرِيل بفتح الجيم وكسر الراء وقع في قراءة ابن كثير وهذا وزن فَعْليل لا يوجد له مثال في كلام العرب قاله الفراء والنحاس ، وجَبْرَئِيل بفتح الجيم أيضاً وفتح الراء وبين الراء والياء همزة مكسورة وهي لغة تميم وقيس وبعضِ أهل نجد وقرأ بها حمزة والكسائي .

وجَبْرَئل بفتح الجيم والراء بينها وبين اللام همزة مكسورة قرأ بها أبو بكر عن عاصم وفيه لغات أخرى قُرِىء بها في الشواذ .

وهو اسم مركب من كلمتين كلمة جبر وكلمة إِيل .

فأما كلمة جبر فمعناه عند الجمهور نقلاً عن العبرانية أنها بمعنى عبد والتحقيق أنها في العبرانية بمعنى القُوة .

وأما كلمة إِيل فهي عند الجمهور اسم من أسماء الله تعالى .

وذهب أبو علي الفارسي إلى عكس قول الجمهور فزعم أن جبر اسم الله تعالى وإِيل العبد وهو مخالف لما في اللغة العبرانية عند العارفين بها .

(252/60)

وقد قفا أبوالعلاء المعري رأي أبي علي الفارسي في صدر رسالته التي خاطب بها علي بن منصور الحلبي المعروف بابن القارح وهي المعروفة " برسالة الغُفران" فقال : " قَدْ علم الجَبْر الذي نسب إليه جبريل وهو في كل الخيرات سبيل أنَّ في مسكني حَمَاطَة" إلخ .

أي قد علم الله الذي نُسب جبريل إلى اسمه أي اسمه جبر يريد بذلك القَسَم وهذا إغراب منه وتنبيه على تباصره باللغة .

وعدواة اليهود لجبريل نشأت من وقت نزوله بالقرآن على محمد صلى الله عليه وسلم وقيل : لأنه ينزل على الأمم التي كذبت رسلها بالعذاب والوعيد ، نقله القرطبي عن حديث خرجه الترمذي .

وقوله : ﴿ من كان عدواً لجبريل ﴾ شرط عام مراد به خاص وهم اليهود .

قصد الإتيان بالشمول ليعلموا أن الله لا يعبأ بهم ولا بغيرهم ممن يعادي جبريل إن كان له معاد آخر .

وقد عرف اليهود في المدينة بأنهم أعداء جبريل ففي البخاري عن أنس بن مالك قال : " سمع عبد الله بن سلام بقدوم رسول الله وهو في أرض يخترف فأتى النبيء فقال : إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبيء " فما أول أشراط الساعة ، وما أول طعام أهل الجنة ، وما ينزع الولد إلى أبيه أو إلى أمه ؟ قال رسول الله أخبرني بهن جبريل آنفاً قال : ذاك عدو اليهود من الملائكة فإنهم أبغضوه لأنه يجيء بما فيه شدة وبالأمر بالقتال" الحديث وفي سفر دانيال من كتبهم في الإصحاحين الثامن والتاسع ذكروا أن جبريل عبر لدانيال رؤيا رآها وأنذره بخراب أورشليم .

وذكر المفسرون أسباباً أخرى لبغضهم جبريل .

ومن عجيب تهافت اعتقادهم أنهم يثبتون أنه ملك مرسل من الله ويبغضونه وهذا من أحط دركات الانحطاط في العقل والعقيدة ولا شك أن اضطراب العقيدة من أكبر مظاهر

انحطاط الأمة لأنه ينبىء عن تظاهر آرائهم على الخطأ والأوهام.

وقوله: ﴿ فإنه نزله على قلبك بإذن الله.

(253/60)

الضمير المنصوب بـ (نزله) عائد للقرآن إما لأنه تقدم في قوله: ﴿ وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله ﴾ [البقرة: 91] وإما لأن الفعل لا يصلح إلا له هنا على حد ﴿ حتى توارت بالحجاب ﴾ [ص: 32] ﴿ فلولا إذا بلغت الحلقوم ﴾ [الواقعة: 83].

وهذه الجملة قائمة مقام جواب الشرط لظهور أن المراد أن لا موجب لعداوته لأنه واسطة أذنه الله بالنزول بالقرآن فهم بمعاداته إنما يعادون الله تعالى فالتقدير من كان عدواً لجبريل فلا يعاده وليعاد الله تعالى.

وهذا الوجه أحسن مما ذكروه وأسعد بقوله تعالى ﴿ بإذن الله ﴾ وأظهر ارتباطاً بقوله بعد ﴿ من كان عدواً لله وملائكته ﴾ كما ستعرفونه ويجوز أن يكون التقدير فإنه قد نزله عليك سواء أحبوه أم عادوه فيكون في معنى الإغاظة من باب ﴿ قل موتوا بغيظكم ﴾ [آل عمران: 119]، كقول الربيع بن زياد:

من كان مسروراً بمقتل مالك . . .

فليأتنِ ساحَتنا بوجه نهار

يجد النساءَ حواسراً يندبنه . . .

بالليل قبل تبلج الإسفار

أي فلا يسر بمقتله فإنا قد قتلنا قاتله قبل طلوع الصباح فإن قاتله من أولياء من كان مسروراً بمقتله .

ويجوز أن يكون المراد فإنه نزل به من عند الله مصدقاً لكتابهم وفيه هدى وبشرى ، وهذه حالة تقتضي محبة من جاء به فمن حمقهم ومكابرتهم عداوتهم لمن جاء به فالتقدير فقد خلع ربقة العقل أو حلية الإنصاف .

والإتيان بحرف التوكيد في قوله : ﴿ فإنه نزله ﴾ لأنهم منكرون ذلك .

والقلب هنا بمعنى النفس وما به الحفظ والفهم ، والعرب تطلق القلب على هذا الأمر المعنوي نحو : ﴿ إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب ﴾ [ق : 37] كما يطلقونه أيضاً على العضو الباطني الصنوبري كما قال :

كأنّ قلوب الطير رطباً ويابساً . . .

و ﴿ مصدقاً ﴾ حال من الضمير المنصوب في ﴿ أنزله ﴾ أي القرآن الذي هو سبب عداوة اليهود لجبريل أي أنزله مقارناً لحالة لا توجب عداوتهم إياه لأنه أنزله مصدقاً لما بين يديه من الكتب وذلك التوراة والإنجيل .

والمصدق المخبر بصدق أحد .

وأدخلت لام التقوية على مفعول ﴿ مصدقاً ﴾ للدلالة على تقوية ذلك التصديق أي هو تصديق ثابت محقق لا يشوبه شيء من التكذيب ولا التخطئة فإن القرآن نوه بالتوراة والإنجيل ووصف كلاً بأنه هدى ونور كما في سورة المائدة .

وتصديق الرسل السالفين من أول دلائل صدق المصدق لأن الدجاجلة المدعين النبوات يأتون بتكذيب من قبلهم لأن ما جاءوا به من الهدى يخالف ضلالات الدجالين فلا يسعهم تصديقهم ولذا حذر الأنبياء السابقون من المتنبئين الكذبة كما جاء في مواضع من التوراة والأناجيل .

والمراد بما بين يديه ما سبقه وهو كناية عن السبق لأن السابق يجيء قبل المسبوق ولما كان كناية عن السبق لم يناف طول المدة بين الكتب السابقة والقرآن ولأن اتصال العمل بها بين أممها إلى مجيء القرآن فجعل سبقهما مستمراً إلى وقت مجيء القرآن فكان سبقهما متصلاً .

والهدى وصف للقرآن بالمصدر لقصد المبالغة في حصول الهدى به .

والبشرى الإخبار بحصول أمر سار أو بترقب حصوله فالقرآن بشر المؤمنين بأنهم على

هدى وكمال ورضى من الله تعالى وبشرهم بأن الله سيؤتيهم خير الدنيا وخير الآخرة .

فقد حصل من الأوصاف الخمسة للقرآن وهي أنه منزل من عند الله بإذن الله ، وأنه منزل على قلب الرسول ، وأنه مصدق لما سبقه من الكتب ، وأنه هاد أبلغ هدى ، وأنه بشرى للمؤمنين ، الثناء على القرآن بكرم الأصل وكرم المقر وكرم الفئة ومفيض الخير على أتباعه الأخيار خيراً عاجلاً وواعد لهم بعاقبة الخير .

وهذه خصال الرجل الكريم محتده وبيته وقومه ، السخي بالبذل الواعد به وهي خصال نظر إليها بيت زياد الأعجم :

إنَّ المساحةَ والمروءةَ والنَّدى . . .

في قبة ضُربت على ابن الحَشْرج

(255/60)

وقوله : ﴿ من كان عدواً لله ﴾ إلخ قد ظهر حسن موقعه بما علمتموه من وجه معنى ﴿ فإنه نزله على قلبك بإذن الله ﴾ أي لما كانت عداوتهم جبريل لأجل عداوتهم الرسول ورجعت بالأخرة إلى إلزامهم بعدواتهم الله المرسل ، لأن سبب العداوة هو مجيئه بالرسالة تسنى أن سجل عليهم أنهم أعداء الله لأنه المرسل ، وأعداء رسله لأنهم عادوا الرسول ،

وأعداء الملائكة لذلك ، فقد صارت عداوتهم جبريل كالحد الوسط في القياس لا يلتفت إليه وإنما يلتفت للمقدمتين بالصغرى والكبرى فعداوتهم الله بمنزلة المقدمة الكبرى لأنها العلة في المعنى عند التأمل .

وعداوتهم الرسول بمنزلة المقدمة الصغرى لأنها السبب الجزئي المثبت له فلا يرد أنه لا وجه لذكر عداوة الله تعالى هنا حتى يجاب بأن عداوة الملائكة والرسل عداوة لله على حد ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾ [النساء : 80] فإن ذلك بعيد .

وقد أثبت لهم عدواة الملائكة والرسل مع أنهم إنما عادوا جبريل ومحمداً لأنهم لما عادوهما عادوا جبريل لأجل قيامه بما هو من خصائص جنسه الملكي وهو تبليغ أمر الله التكليفي فإن ذلك خصيصتهم قال تعالى : ﴿ وهم بأمره يعملون ﴾ [الأنبياء : 27] كانت عداوتهم إياه لأجل ذلك آيلة إلى عداوة جنس الملائكة إذ تلك طريق ليس جبريل فيها بأوحد وكذلك لما عادوا محمداً لأجل مجيئه بالرسالة لسبب خاص بذاته ، كانت عداوتهم إياه آيلة إلى عداوة الوصف الذي هو قوام جنس الرسول فمن عادى واحداً كان حقيقاً بأن يعاديهم كلَّهم وإلا كان فعله تحكماً لا عذر له فيه .

وخُص جبريل بالذكر هنا لزيادة الاهتمام بعقاب معاديه وليُذكَرَ معه ميكائيل ولعلهم عادَوهما معاً أو لأنهم زعموا أن جبريل رسول الخسف والعذاب وأن ميكائيل رسول الخصب والسلام وقالوا : نحن نحب ميكائيل فلما أريد إنذارهم بأن عداوتهم الملائكة تجر إليهم عداوة الله وأعيد ذكر جبريل للتنويه به وعطف عليه ميكائيل لئلا يتوهموا أن محبتهم ميكائيل تكسب المؤمنين عداوته .

وفي ميكائيل لغات إحداها ميكائيل بهمزة بعد الألف وياء بعد الهمزة وبها قرأ الجمهور .

الثانية ميكائيل بهمزة بعد الألف وبلا ياء بعد الهمزة وبها قرأ نافع .

الثالثة ميكالَ بدون همز ولا ياء وبها قرأ أبو عمرو وحفص وهي لغة أهل الحجاز .

وقوله : ﴿ فإن الله عدو للكافرين ﴾ جواب الشرط .

والعدو مستعمل في معناه المجازي وهو ما يستلزمه من الانتقام والهلاك وأنه لا يفلته كما قال النابغة :

فإنك كالليل الذي هو مدركي . . .

البيت .

وقوله تعالى : ﴿ ووجد الله عنده فوفاه حسابه ﴾ [النور : 39] وما ظنك بمن عاداه الله .

ولهذا ذكر اسم الجلالة بلفظه الظاهر ولم يقل فإني عدو أو فإنه عدو لما يشعر به الظاهر هنا

من القدرة العظيمة على حد قول الخليفة : " أميرُ المؤمنين يأمر بكذا " حثًّا على الامتثال . والمراد بالكافرين جميع الكافرين وجيء بالعام ليكون دخولهم فيه كإثبات الحكم بالدليل ، وليدل على أن الله عاداهم لكفرهم ، وأن تلك العداوة كفر ، ولتكون الجملة تذييلاً لما قبلها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 1 صـ 601.606 ﴾

(257/60)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (97) مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ (98) ﴾

أخرج الطيالسي والفريابي وأحمد وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني وأبو نعيم والبيهقي كلاهما في الدلائل عن ابن عباس قال : حضرت عصابة من اليهود نبي الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا أبا القاسم حدثنا عن خلال نسألك عنهن لا يعلمهن إلا نبي . قال " سلوني عما شئتم ، ولكن اجعلوا لي ذمة الله وما أخذ يعقوب على بنيه لئن أنا

حدثكم شيئاً فعرفتموه لتتابعني ؟ قالوا : فذلك لك . قالوا : أربع خلال نسألك عنها : أخبرنا أي طعام حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة ، وأخبرنا كيف ماء الرجل من ماء المرأة وكيف الأنثى منه والذكر ، وأخبرنا كيف هذا النبي الأمي في النوم ، ومن وليه من الملائكة ، فأخذ عليهم عهد الله لئن أخبرتكم لتتابعني ، فأعطوه ما شاء من عهد وميثاق . قال : فأنشدكم بالذي أنزل التوراة هل تعلمون أن إسرائيل مرض مرضاً طال سقمه ، فنذر نذراً لئن عافاه الله من سقمه ليحرمن أحب الشراب إليه وأحب الطعام إليه ، وكان أحب الطعام إليه لُحْمَان الإبل ، وأحب الشراب إليه ألبانها ؟ فقالوا : اللهم نعم . فقال : اللهم اشهد . قال : أنشدكم بالذي لا إله إلا هو هل تعلمون أن ماء الرجل أبيض غليظ وأن ماء المرأة أصفر رقيق ، فأيهما علا كان له الولد والشبه بإذن الله ، إن علا ماء الرجل كان ذكراً بإذن الله وإن علا ماء المرأة كان أنثى بإذن الله ؟ قالوا : اللهم نعم . قال : اللهم اشهد قال : فأنشدكم بالذي أنزل التوراة على موسى هل تعلمون أن النبي الأمي هذا تنام عيناه ولا ينام قلبه ؟ قالوا : نعم . قال : اللهم اشهد عليهم . قالوا : أنت الآن فحدثنا من وليك من الملائكة فعندها نتابعك أو نفارقك ؟ قال : وليي جبريل ولم يبعث الله نبياً قط إلا وهو وليه . قالوا : فعندها نفارقك ، لو كان وليك سواه من الملائكة لا تبعناك وصدقناك . قال : فما يمنعكم أن تصدقوه ؟ قالوا : هو عدوّنا . فأنزل الله تعالى ﴿ من كان عدواً لجبريل ﴾ إلى قوله ﴿ كأنهم

لا يعلمون ﴾ فعند ذلك باؤوا بغضب على غضب " .

وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف وإسحاق بن راهويه في مسنده وابن جرير وابن أبي حاتم عن الشعبي قال " نزل عمر رضي الله عنه بالروحاء ، فرأى ناساً يبتدرون أحجاراً فقال : ما هذا ؟ فقالوا : يقولون إن النبي صلى الله عليه وسلم صلى إلى هذه الأحجار ، فقال : سبحان الله . . . ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إلاَّ راكباً مر بواد فحضرت الصلاة فصلَّى ، ثم حدث فقال : إني كنت أغشى اليهود يوم دراستهم فقالوا : ما من أصحابك أحد أكرم علينا منك لأنك تأتينا . قلت : وما ذاك إلا أني أعجب من كتب الله كيف يصدق بعضها بعضاً ، كيف تصدق التوراة الفرقان والفرقان التوراة ، فمر النبي صلى الله عليه وسلم يوماً وأنا أكلمهم فقلت : أنشدكم بالله وما تقرأون من كتابه ، أتعلمون أنه رسول الله ؟ قالوا : نعم . فقلت : هلكتم والله ، تعلمون أنه رسول الله ثم لا تتبعونه ؟ فقالوا : لم نهلك ولكن سألناه من يأتيه بنبوّته فقال : عدوّنا جبريل ، لأنه ينزل بالغلظة والشدة والحرب والهلاك ونحو هذا ، فقلت فمن سلمكم من الملائكة ؟ فقالوا : ميكائيل ينزل بالقطر والرحمة وكذا . قلت : وكيف منزلتهما من ربهما ؟ فقالوا : أحدهما عن يمينه

والآخر من الجانب الآخر . قلت : فإنه لا يحل لجبريل أن يعادي ميكائيل ، ولا يحل لميكائيل أن يسالم عدوّ جبريل ، وإني أشهد أنهما وربهما سلم لمن سالموا وحرب لمن حاربوا ، ثم أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وأنا أريد أن أخبره ، فلما لقيته قال : ألا أخبرك بآيات أنزلت عليّ ؟ قلت : بلى يا رسول الله فقرأ ﴿ من كان عدواً لجبريل ﴾ حتى بلغ ﴿ الكافرين ﴾ قلت : والله يا رسول الله ما قمت من عند اليهود إلا إليك لأخبرك بما قالوا لي ، وقلت لهم فوجدت الله قد سبقني . صحيح الإِسناد ولكن الشعبي لم يدرك عمر " .

(259/60)

وأخرج سفيان بن عيينة عن عكرمة قال "كان عمر يأتي يهود يكلمهم فقالوا : إنه ليس من أصحابك أحد أكثر إتياناً إلينا منك ، فأخبرنا من صاحب صاحبك الذي يأتيه بالوحي ؟ فقال : جبريل . قالوا : ذاك عدونا من الملائكة ، ولو أن صاحبه صاحب صاحبنا لاتبعناه ، فقال عمر : من صاحب صاحبكم ؟ قالوا : ميكائيل . قال : وما هما ؟ قالوا : أما جبريل فينزل بالعذاب والنقمة وأما ميكائيل فينزل بالغيث والرحمة وأحدهما عدو لصاحبه . فقال عمر . وما منزلتهما ؟ قالوا : إنهما من أقرب الملائكة منه أحدهما عن يمينه وكلتا يديه يمين والآخر على الشق الآخر . فقال عمر : لئن كانا كما تقولون ما هما

بعدوّين ، ثم خرج من عندهم فمر بالنبي صلى الله عليه وسلم فدعاه فقرأ عليه ﴿ من كان عدوّاً لجبريل . . . ﴾ الآية . فقال عمر : والذي بعثك بالحق أنه الذي خاصمتهم به آنفاً .

وأخرج ابن جرير عن قتادة قال : ذكر لنا عمر بن الخطاب انطلق ذات يوم إلى اليهود ، فلما أبصروه رحبوا به فقال عمر : والله ما جئت لحبكم ولا للرغبة فيكم ولكني جئت لأسمع منكم ، وسألوه فقالوا : من صاحب صاحبكم ؟ فقال لهم : جبريل ، قالوا : ذاك عدوّنا من الملائكة يطلع محمداً على سرنا ، وإذا جاء ، جاء بالحرب والسنة ولكن صاحبنا ميكائيل ، وإذا جاء جاء بالخصب والسلم . فتوجه نحو رسول الله صلى الله عليه وسلم ليحدثه حديثهم ، فوجده قد أنزل هذه الآية ﴿ قل من كان عدوّاً لجبريل . . . ﴾ الآية .

(260/60)

وأخرج ابن جرير عن السدي قال " لما كان لعمر أرض بأعلى المدينة يأتيها ، وكان ممره على مدارس اليهود ، وكان كلما مر دخل عليهم فسمع منهم ، وإنه دخل عليهم ذات يوم فقال لهم : أنشدكم بالرحمن الذي أنزل التوراة على موسى بطور سيناء أتجدون محمداً عندكم ؟ قالوا : نعم ، إنا نجده مكتوباً عندنا ولكن صاحبه من الملائكة الذي يأتيه بالوحي جبريل وجبريل عدونا ، وهو صاحب كل عذاب وقتال وخسف ، ولو كان وليه ميكائيل لآمنا به

، فإن ميكائيل صاحب كل رحمة وكل غيث .

قال عمر : فأين مكان جبريل من الله ؟ قالوا : جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره . قال عمر : فأشهدكم أن الذي عدوّ للذي عن يمينه عدوّ للذي هو عن يساره والذي عدوّ للذي هو عن يساره عدوّ للذي هو عن يمينه ، وأنه من كان عدوّهما فإنه عدوّ لله ، ثم رجع عمر ليخبر النبي صلى الله عليه وسلم فقال فوجد جبريل قد سبقه بالوحي ، فدعاه النبي صلى الله عليه وسلم فقرأ عليه ﴿ قل من كان عدوّاً لجبريل . . . ﴾ الآية . فقال عمر : والذي بعثك بالحق لقد جئت وما أريد إلا أن أخبرك " .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عبد الرحمن بن أبي ليلى . أن يهودياً لقي عمر فقال : إن جبريل الذي يذكر صاحبكم عدوّ لنا . فقال عمر ﴿ من كان عدوّاً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدوّ للكافرين ﴾ قال : فنزلت على لسان عمر ، وقد نقل ابن جرير الاجماع على أن سبب نزول الآية ذلك .

(261/60)

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد وعبد بن حميد والبخاري والنسائي وأبو يعلى وابن حبان والبيهقي في الدلائل عن أنس قال " سمع عبد الله بن سلام بمقدم النبي صلى الله عليه وسلم

وهو في أرض يختترف ، فأتى صلى الله عليه وسلم فقال : إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي . ما أول اشراط الساعة ، وما أول طعام أهل الجنة ، وما ينزع الولد إلى أبيه أو إلى أمه ؟ قال : أخبرني جبريل بهن آنفاً . قال : جبريل ؟ قال : نعم . قال : ذاك عدو اليهود من الملائكة . فقرأ هذه الآية ﴿ من كان عدوّاً لجبريل فإنه نزله على قلبك ﴾ قال : أما أوّل أشراط الساعة فنار تخرج من المشرق فتحشر الناس إلى المغرب ، وأما أول ما يأكل أهل الجنة فزيادة كبد حوت ، وأما ما ينزع الولد إلى أبيه وأمه فإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع إليه الولد وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزع إليها . قال : أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله " .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ فإنه نزله على قلبك بإذن الله ﴾ يقول : جبريل نزل القرآن بإذن الله يشدد به فؤادك ، ويربط به على قلبك ﴿ مصدقاً لما بين يديه ﴾ يقول : لما قبله من الكتب التي أنزلها ، والآيات والرسل الذين بعثهم الله .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ مصدقاً لما بين يديه ﴾ قال : من التوراة والإنجيل ﴿ وهدى وبشرى للمؤمنين ﴾ قال : جعل الله هذا القرآن هدى وبشرى للمؤمنين ، لأن المؤمن إذا سمع القرآن حفظه ، ووعاه ، وانتفع به ، واطمأن إليه ، وصدق بموعود الله الذي وعده فيه ، وكان على يقين من ذلك .

وأخرج ابن جرير من طريق عبيد الله العكي عن رجل من قريش قال : سأل النبي صلى الله عليه وسلم اليهود فقال " أسألكم بكتابكم الذي تقرأون هل تجدونه قد بشر بي عيسى أن يأتيكم رسول اسمه أحمد ؟ فقالوا : اللهم وجدناك في كتابنا ولكنا كرهناك لأنك تستحل الأموال وتهرق الدماء ، فأنزل الله ﴿ من كان عدوًّا لله وملائكته ورسله ﴾ الآية " .

وأما قوله تعالى ﴿ وجبريل وميكال ﴾ .

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : جبريل كقولك عبد الله جبر عبد وايل الله .

وأخرج ابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الإِيمان والخطيب في المتفق والمفترق عن ابن عباس قال : جبريل عبد الله ، وميكائيل عبيد الله ، وكل اسم فيه ايل فهو معبد لله .

وأخرج الديلمي عن أبي أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " اسم جبريل عبد الله ، واسم اسرافيل عبد الرحمن " .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ في العظمة عن علي بن حسين قال : اسم جبريل عبد الله ، واسم ميكائيل عبيد الله ، واسم اسرافيل عبد الرحمن ، وكل شيء راجع إلى ايل فهو معبد لله عز وجل .

وأخرج ابن المنذر عن عكرمة قال : جبريل اسمه عبد الله ، وميكائيل اسمه عبيد الله ، قال : والإِل الله ، وذلك قوله ﴿ لا يرقبون في مؤمن إلًّا ولا ذمة ﴾ [التوبة : 10] قال : لا

يرقبون الله .

وأخرج أبو عبيد وابن المنذر عن يحيى بن يعمر أنه كان يقرأها جبرال ، ويقول جبر هو عبد وال هو الله .

وأخرج وكيع عن علقمة أنه كان يقرأ مثقلة ﴿ جبريل وميكائيل ﴾ .

وأخرج وكيع ابن جبرير عن عكرمة قال : جبر عبد وايل الله ، وميك عبد وايل الله ، واسراف عبد وايل الله .

(263/60)

وأخرج الطبراني وأبو الشيخ في العظمة والبيهقي في شعب الإيمان بسند حسن عن ابن عباس قال " بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه جبريل يناجيه إذ انشق أفق السماء ، فأقبل جبريل يتضاءل ويدخل بعضه في بعض ويدنو من الأرض ، فإذا ملك قد مثل بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد إن ربك يقرئك السلام ، ويخيرك بين أن تكون نبياً ملكاً وبين أن تكون نبياً عبداً . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فأشار جبريل إليّ بيده أن تواضع ، فعرفت أنه لي ناصح فقلت : عبد نبي . فعرج ذلك الملك إلى السماء فقلت : يا جبريل قد كنت أردت أن أسألك عن هذا ، فرأيت من حالك ما شغلني

عن المسألة فمن هذا يا جبريل ؟ قال : هذا اسرافيل خلقه الله يوم خلقه بين يديه صافاً قدميه لا يرفع طرفه ، بينه وبين الرب سبعون نوراً ما منها نور يدنو منه إلا احترق ، بين يديه اللوح المحفوظ فإذا أذن الله في شيء في السماء أو في الأرض ارتفع ذلك اللوح فضرب جبهته فينظر فيه ، فإذا كان من عملي أمرني به ، وإن كان من عمل ميكائيل أمره به ، وإن كان من عمل ملك الموت أمره به . قلت : يا جبريل على أي شيء أنت ؟ قال : على الرياح والجنود . قلت : على أي شيء ميكائيل ؟ قال : على النبات والقطر . قلت : على أي شيء ملك الموت ؟ قال : على قبض الأنفس ، وما ظننت أنه هبط إلا بقيام الساعة ، وما ذاك الذي رأيت مني إلا خوفاً من قيام الساعة " .

وأخرج الطبراني بسند ضعيف عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ألا أخبركم بأفضل الملائكة جبريل ، وأفضل النبيين آدم ، وأفضل الأيام يوم الجمعة ، وأفضل الشهور رمضان ، وأفضل الليالي ليلة القدر ، وأفضل النساء مريم بنت عمران " .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة عن عبد العزيز بن عمير قال : اسم جبريل في الملائكة خادم الله عز وجل .

وأخرج أبو نعيم في الحلية عن عكرمة قال : قال جبريل عليه السلام : إن ربي عز وجل ليبعثني على الشيء لأمضيه فأجد الكون قد سبقني إليه .

وأخرج أبو الشيخ عن موسى بن عائشة قال : بلغني أن جبريل إمام أهل السماء .

وأخرج أبو الشيخ عن عمرو بن مرة قال : جبريل على ريح الجنوب .

وأخرج البيهقي في شعب الإِيمان عن ثابت قال : بلغنا أن الله تعالى وكَّل جبريل بحوائج الناس ، فإذا دعا المؤمن قال " يا جبريل احبس حاجته فإني أحب دعاءه ، وإذا دعا الكافر قال : يا جبريل اقض حاجته فإني أبغض دعاءه " .

وأخرج ابن أبي شيبة من طريق ثابت عن عبد الله بن عبيد قال " إن جبريل موكل بالحوائج ، فإذا سأل المؤمن ربه قال : احبس احبس حبا لدعائه أن يزداد ، وإذا سأل الكافر قال : أعطه أعطه بغضاً لدعائه " .

وأخرج البيهقي والصابوني في المائتين عن جابر بن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " إن جبريل موكل بحاجات العباد ، فإذا دعا المؤمن قال : يا جبريل احبس حاجة عبدي فإني أحبه وأحب صوته ، وإذا دعا الكافر قال : يا جبريل اقض حاجة عبدي فإني أبغضه وأبغض صوته " .

وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبريل : " وددت أني رأيتك في صورتك قال : وتحب ذلك ؟ قال : نعم . قال : موعدك كذا وكذا

من الليل بقيع الغرقد ، فلقيه رسول الله صلى الله عليه وسلم موعده ، فنشر جناحاً من أجنحته فسد أفق السماء حتى ما يرى من السماء شيء " .

وأخرج أحمد وأبو الشيخ عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " رأيت جبريل مهبطاً قد ملأ ما بين الخافقين ، عليه ثياب سندس معلق بها اللؤلؤ والياقوت " .

(265/60)

وأخرج أبو الشيخ عن شريح بن عبيد " أن النبي صلى الله عليه وسلم لما صعد إلى السماء رأى جبريل في خلقته منظومة أجنحته بالزبرجد واللؤلؤ والياقوت ، قال : فخيل إلي أن ما بين عينيه قد سد الأفق ، وكنت أراه قبل ذلك على صور مختلفة ، وأكثر ما كنت أراه على صورة دحية الكلبي ، وكنت أحياناً أراه كما يرى الرجل صاحبه من وراء الغربال " .

وأخرج ابن جرير عن حذيفة وابن جرير وقتادة . دخل حديث بعضهم لبعض لجبريل جناحان ، وعليه وشاح من در منظوم ، وهو براق الثنايا ، أجلى الجبينين ، ورأسه حُبكَ حبكاً مثل المرجان ، وهو اللؤلؤ كأنه الثلج ، وقدماه إلى الخضرة .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " ما بين منكبي جبريل مسيرة خمسمائة عام للطائر السريع الطيران " .

وأخرج أبو الشيخ عن وهب بن منبه . أنه سئل عن خلق جبريل ؟ فذكر أن ما بين منكبيه من ذي إلى ذي خفق الطير سبعمائة عام .

وأخرج ابن سعد والبيهقي في الدلائل عن عمار بن أبي عمار . إن حمزة بن عبد المطلب قال : يا رسول الله أرني جبريل على صورته . قال " إنك لا تستطيع أن تراه . قال : بلى فأرنيه . قال : فاقعد . فقعد فنزل جبريل على خشبة كانت الكعبة يلقي المشركون عليها ثيابهم إذا طافوا ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ارفع طرفك . فانظر فرفع طرفه ، فرأى قدميه مثل الزبرجد الأخضر ، فخر مغشياً عليه " .

(266/60)

وأخرج ابن المبارك في الزهد عن ابن شهاب " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل جبريل أن يتراءى له في صورته فقال جبريل : إنك لن تطيق ذلك . قال : إني أحب أن تفعل . فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المصلى في ليلة فأتاه في ليلة مقمرة ، فأتاه جبريل في صورته ، فغشي على رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رآه ، ثم أفاق وجبريل مسنده وواضع إحدى يديه على صدره والآخرى بين كتفيه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما كنت أرى أن شيئاً من الخلق هكذا ! فقال جبريل : فكيف لو رأيت

إسرافيل ، إن له لاثني عشر جناحاً ، منها جناح في المشرق ، وجناح في المغرب ، وإن العرش على كاهله ، وإنه ليتضاءل أحياناً لعظمة الله عز وجل حتى يصير مثل الوصع ، حتى ما يحمل عرشه إلا عظمته " .

وأخرج ابن أبي داود في المصاحف عن أبي جعفر قال : كان أبو بكر يسمع مناجاة جبريل لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يراه .

وأخرج الحاكم عن ابن عباس قال : قال لي النبي صلى الله عليه وسلم " لما رأيت جبريل لم يره خلق الأعمى إلا أن يكون نبياً ، ولكن أن يجعل ذلك في آخر عمرك " .

وأخرج أبو الشيخ عن أبي سعيد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " إن في الجنة لنهرا ما يدخله جبريل من دخلة فيخرج فينتفض إلا خلق الله من كل قطرة تقطر ملكاً " .

وأخرج أبو الشيخ عن أبي العلاء بن هرون قال : لجبريل في كل يوم انغماسة في نهر الكوثر ، ثم ينتفض فكل قطرة يخلق منها ملك .

(267/60)

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس " أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إن جبريل ليأتيني كما يأتي الرجل صاحبه في ثياب بيض مكفوفة باللؤلؤ والياقوت ، رأسه كالحبك ، وشعره

كالمرجان ، ولونه كالثلج ، أجلى الجبين ، براق الثنايا ، عليه وشاحان من در منظوم ، وجناحاه أخضران ، ورجلاه مغموستان في الخضرة ، وصورته التي صور عليها تملأ ما بين الأفقين ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : أشتهي أن أراك في صورتك يا روح الله . فتحوّل له فيها فسدَّ ما بين الأفقين " .

وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبريل " هل ترى ربك ؟ قال : إن بيني وبينه لسبعين حجاباً من نار أو نور ، لو رأيت أدناها لاحترقت " .

وأخرج الطبراني وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية بسند واه عن أبي هريرة . أنَّ رجلاً من اليهود أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله هل احتجب الله بشيء عن خلقه غير السموات ؟ قال : " نعم ، بينه وبين الملائكة الذين حول العرش سبعون حجاباً من نور ، وسبعون حجاباً من نار ، وسبعون حجاباً من ظلمة ، وسبعون حجاباً من رفارف الاستبرق ، وسبعون حجاباً من رفارف السندس ، وسبعون حجاباً من در أبيض ، وسبعون حجاباً من در أحمر ، وسبعون حجاباً من در أصفر ، وسبعون حجاباً من در أخضر ، وسبعون حجاباً من ضياء ، وسبعون حجاباً من ثلج ، وسبعون حجاباً من برد ، وسبعون حجاباً من عظمة الله التي لا توصف ، قال : فأخبرني عن ملك الله الذي يليه ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : إن الملك الذي يليه إسرافيل ، ثم جبريل ، ثم ميكائيل ، ثم

ملك الموت عليهم السلام " .

وأخرج أحمد في الزهد عن أبي عمران الجوني " أنه بلغه أن جبريل أتى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يبكي فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : وما يبكيك ؟ ! قال : وما لي لا أبكي . . . ! فوالله ما جفت لي عين منذ خلق الله النار ، مخافة أن أعصيه فيقذفني فيها " .

(268/60)

وأخرج أحمد في الزهد عن رباح قال " حدثت أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لجبريل : لم تأتني إلا وأنت صار بين عينيك ؟ قال : إني لم أضحك منذ خلقت النار " .

وأخرج أحمد في مسنده وأبو الشيخ عن أنس " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لجبريل : ما لي لم أر ميكائيل ضاحكاً قط ؟ قال : ما ضحك ميكائيل منذ خلقت النار " .

وأخرج أبو الشيخ عن عبد العزيز بن أبي رواد قال " نظر الله إلى جبريل وميكائيل وهما يبكيان ، فقال الله : ما يبكيكما وقد علمتما إني لا أجور . . . ؟ فقالا : يا رب إنا لا نأمن مكرك . قال : هكذا فافعلا فإنه لا يأمن مكري إلا كل خاسر " .

وأخرج أبو الشيخ من طريق الليث عن خالد بن سعيد قال : بلغنا أن إسرافيل يؤذن لأهل السماء فيؤذن لأثنتي عشرة ساعة من النهار ، ولاثنتي عشرة ساعة من الليل لكل ساعة تأذين ، يسمع تأذينه من في السموات السبع ومن في الأرضين السبع إلا الجن والإِنس ، ثم يتقدم بهم عظيم الملائكة فيصلي بهم . قال : وبلغنا أن ميكائيل يؤم الملائكة في البيت المعمور .

وأخرج الحكيم الترمذي عن زيد بن رفيع قال " دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل وميكائيل وهو يستاك ، فناول رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل السواك ، فقال جبريل : كبر . قال جبريل : ناول ميكائيل فإنه أكبر " .

وأخرج أبو الشيخ عن عكرمة بن خالد " أن رجلاً قال : يا رسول الله أي الخلق أكرم على الله عز وجل ؟ قال : لا أدري . . . ! فجاءه جبريل عليه السلام فقال : يا جبريل أي الخلق أكرم على الله ؟ قال : لا أدري . . . ! فعرج جبريل ثم هبط ، فقال : أكرم الخلق على الله جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت ، فأمّا جبريل فصاحب الحرب وصاحب المرسلين ، وأما ميكائيل فصاحب كل قطرة تسقط وكل ورقة تنبت وكل ورقة تسقط ، وأما ملك الموت فهو موكل بقبض كل روح عبد في بر أو بحر ، وأما إسرافيل فأمين الله بينه وبينهم " .

وأخرج أبو الشيخ عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " أقرب الخلق إلى الله جبريل وميكائيل وإسرافيل وهم منه مسيرة خمسين ألف سنة ، جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره وإسرافيل بينهما " .

وأخرج أبو الشيخ عن خالد بن أبي عمران قال : جبريل أمين الله إلى رسله ، وميكائيل يتلقى الكتب التي تلقى من أعمال الناس ، وإسرافيل كمنزلة الحاجب " .

وأخرج سعيد بن منصور وأحمد وابن أبي داود في المصاحف وأبو الشيخ في العظمة والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في البعث عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إسرافيل صاحب الصور ، وجبريل عن يمينه ، وميكائيل عن يساره ، وهو بينهما " .

وأخرج أبو الشيخ عن وهب قال : إن أدنى الملائكة من الله جبريل ثم ميكائيل ، فإذا ذكر عبداً بأحسن عمله قال : فلان ابن فلان عمل كذا وكذا من طاعتي صلوات الله عليه ، ثم سأل ميكائيل جبريل ما أحدث ربنا ؟ فيقول : فلان ابن فلان ذكر بأحسن عمله فصلى عليه صلوات الله عليه ، ثم سأل ميكائيل من يراه من أهل السماء فيقول : ماذا أحدث ربنا ؟ فيقول : ذكر فلان ابن فلان بأحسن عمله فصلى عليه صلوات الله عليه ، فلا يزال يقع إلى الأرض . وإذا ذكر عبداً بأسوأ عمله قال : عبدي فلان ابن فلان عمل كذا وكذا من

معصيتي فلعنتي عليه ، ثم سأل ميكائيل جبريل ماذا أحدث ربنا ؟ فيقول : ذكر فلان ابن فلان بأسوأ عمله فعليه لعنة الله ، فلا يزال يقع من سماء إلى سماء حتى يقع إلى الأرض .

وأخرج الحاكم عن أبي سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " وزيراي من السماء جبريل وميكائيل ، ومن أهل الأرض أبو بكر وعمر " .

وأخرج البزار والطبراني عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن الله أيدني بأربعة وزراء ، اثنين من أهل السماء جبريل وميكائيل ، واثنين من أهل الأرض أبي بكر وعمر " .

(270/60)

وأخرج الطبراني بسند حسن عن أم سلمة . أن النبي صلى الله عليه وسلم قال " إن في السماء ملكين أحدهما يأمر بالشدة والآخر يأمر باللين وكل مصيب جبريل وميكائيل .

ونبيان أحدهما يأمر باللين والآخر يأمر بالشده وكل مصيب وذكر إبراهيم ونوحاً ، ولي صاحبان أحدهما يأمر باللين والآخر يأمر بالشدة وكل مصيب وذكر أبا بكر وعمر " .

وأخرج البزار والطبراني في الأوسط والبيهقي في الأسماء والصفات عن عبد الله بن عمرو قال " جاء فئام الناس إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا رسول الله زعم أبو بكر أن

الحسنات من الله والسيئات من العباد ، وقال عمر : الحسنات والسيئات من الله فتابع هذا قوم وهذا قوم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لأقضين بينكما بقضاء إسرافيل بين جبريل وميكائيل ، إن ميكائيل قال يقول أبي بكر ، وقال جبريل بقول عمر . فقال جبريل لميكائيل : إنا متى تختلف أهل السماء تختلف أهل الأرض فلنتحاكم إلى إسرافيل ، فتحاكما إليه فقضى بينهما بحقيقة القدر خيره وشره وحلوه ومره كله من الله ، ثم قال : يا أبا بكر إن الله لو أراد أن لا يعصى لم يخلق إبليس . فقال أبو بكر : صدق الله ورسوله " .

وأخرج الحاكم عن أبي المليح عن أبيه " أنه صلى مع النبي صلى الله عليه وسلم ركعتي الفجر ، فصلى النبي صلى الله عليه وسلم ركعتين خفيفتين قال : فسمعته يقول : اللهم رب جبريل وميكائيل واسرافيل ومحمد أعوذ بك من النار ثلاث مرات " .

وأخرج أحمد في الزهد عن عائشة " أن النبي صلى الله عليه وسلم أغمي عليه ورأسه في حجرها ، فجعلت تمسح وجهه وتدعو له بالشفاء ، فلما أفاق قال : لا بل أسأل الله الرفيق الأعلى مع جبريل وميكائيل وإسرافيل عليهم السلام " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 1 صـ 221. 232 ﴾

(271/60)

ومن فوائد القاسمى فى الآيتين

قال رحمه الله :

﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ * مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَآئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ ﴾ [97 ، 98]

روى البخاري في صحيحه في كتاب التفسير عن أنس قال : سمع عبد الله ابن سلام بقدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في أرض يخترف ، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إني سائلك عن ثلاث ، لا يعلمهن إلا نبيّ . فما أول أشراط الساعة ؟ وما أول طعام أهل الجنة ؟ وما ينزع الولد إلى أبيه أو إلى أمه ؟ قال : < أخبرني بهن جبريل آنفاً > ، قال : جبريل ؟ قال : < نعم > قال : ذاك عدوّ اليهود من الملائكة ، فقرأ هذه الآية : ﴿ من كان عدواً لجبريل فإنّه نزله على قلبك ﴾ . < أما أول أشراط الساعة ، فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب . وأما أول طعام أهل الجنة ، فزيادة كبد الحوت . وإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة ، نزع الولد ، وإذا سبق ماء المرأة نزعت > قال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أنك رسول الله . يا رسول الله ! إن اليهود قوم بُهُتٌ وإنهم إن يعلموا بإسلامي قبل أن تسألهم يبهتوني . فجاءت اليهود ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم

< أي : رجل عبد الله فيكم > ؟

قالوا : خيرنا وابن خيرنا ، وسيدنا وابن سيدنا ، قال : < أرأيتم إن أسلم عبد الله بن سلام > ؟ فقالوا : أعاذه الله من ذلك ! فخرج عبد الله فقال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله . فقالوا : شرنا وابن شرنا . وانتقصوه .

قال : فهذا الذي كنت أخاف يا رسول الله .

وروى الإمام أحمد في مسنده عن ابن عباس في سبب نزول هذه الآية قال : حضرت عصابة من اليهود رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا أبا القاسم ، حدثنا عن خلال نسألك عنهن لا يعلمهن إلا نبي . وساق نحواً مما تقدم . وتتمته قالوا : أنت الآن ، فحدثنا من وليّك من الملائكة ، فعندها نجامعك أو نفارقك ، قال : < فإن ولي جبريل ، ولم يبعث الله نبيّاً قط ، إلا وهو وليه > . قالوا : فعندها نفارقك . ولو كان وليك سواه من الملائكة تابعناك وصدقناك . قال : فما منعكم أن تصدقوه ؟ قالوا : إنه عدوّنا ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ ﴾ إلى قوله : ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ فعندها باؤوا بغضب على غضب .

وفي رواية للإمام أحمد والترمذي والنسائي في القصة : فأخبرنا من صاحبك ؟ قال : < جبريل عليه السلام > . قالوا : جبريل ! ذاك الذي ينزل بالحرب والقتال والعذاب ، عدونا . لو قلت : ميكائيل ، الذي ينزل بالرحمة والقطر والنبات لكان ! فأنزل الله تعالى : ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ ﴾ إلى آخر الآية . ويؤخذ من روايات أخر أن سبب قيلهم ذلك من أجل مناظرة جرت بينهم وبين عُمَر بن الخطاب في أمر النبي صلى الله عليه وسلم . فقد روى ابن جرير عن الشعبيّ قال : نزل عمر الرَّوحاء ، فرأى رجالاً يبتدرون أحجاراً يصلّون إليها . فقال : ما هؤلاء ؟ قالوا : يزعمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى ههنا . قال فكره ذلك ، وقال : أيما ؟ رسول الله صلى الله عليه وسلم أدركته الصلاة بواد فصلى ، ثم ارتحل فتركته . ثم أنشأ يحدثهم ، فقال : كنت أشهد اليهود يوم مِدْراسِهم ، فأعجب من التوراة كيف تصدّق الفرقان ، ومن الفرقان كيف يصدّق التوراة ! فبينما أنا عندهم ذات يوم ، قالوا : يا ابن الخطاب ! ما من أصحابك أحد أحبّ إلينا منك . قلت : ولم ذلك ؟ قالوا : إنك تغشانا وتأتينا . قال : قلت إني آتيكم فأعجب من الفرقان كيف يصدق التوراة ، ومن التوراة كيف تصدق الفرقان قال ، ومرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا ابن الخطاب ! ذاك صاحبكم فالحق به . قال : فقلت لهم عند ذلك : أنشدكم بالله الذي لا إله إلا هو ، وما استرعاكم من حقه ، وما استودعكم من كتابه ، أتعلمون أنه رسول الله

؟ قال : فسكتوا . قال : فقال لهم عالمهم وكبيرهم : إنه قد عظَّم عليكم فأجيبوه . قالوا : أنت عالمنا وسيدنا ، فأجبه أنت . قال : أمّا إذ نشدتنا به . فإنا نعلم أنه رسول الله . قال : قلت ويحكم ، إذاً هلكتم . قالوا : إنا لم نهلك . قال : قلت : كيف ذلك وأنتم تعلمون أنه رسول الله ثم لا تتبعونه ولا تصدقونه ؟ قالوا : إن لنا عدواً من الملائكة وسلماً من الملائكة .

(274/60)

وإنه قُرن به عدونا من الملائكة . قال : قلت : ومن عدوكم ، ومن سلمكم ؟ . قالوا عدونا جبريل ، وسلمنا ميكائيل . قال : قلت : وفيم عاديتم جبريل ؟ وفيم سالمتم ميكائيل ؟ قالوا : إن جبريل ملك الفظاظة والغلظة والإعسار ، والتشديد والعذاب ، ونحو هذا . وإن ميكائيل ملك الرأفة والرحمة والتخفيف ، ونحو هذا . قال : قلت : وما منزلتهما من ربهما ؟ قالوا : أحدهما عن يمنيه والآخر عن يساره .

قال : قلت : فو الله الذي لا إله إلا هو إنهما والذي بينهما لعدوّ لمن عاداهما وسلم لمن سالمهما ، ما ينبغي لجبريل أن يسالم عدوّ ميكائيل ، وما ينبغي لميكائيل أن يسالم عدوّ جبريل . قال : ثم قمت فاتبعت النبي صلى الله عليه وسلم فلحقته وهو خارج من مخرفة

لبني فلان . فقال لي : يا ابن الخطاب ، ألا أقرئك آيات نزلن ؟ فقرأ عليّ : ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ حتى قرأ الآيات . قال : قلت : بأبي وأمي أنت يا رسول الله ، والذي بعثك بالحق ، لقد جئت وأنا أريد أن أخبرك بالخبر ، فأسمع اللطيف الخبير قد سبقني إليك بالخبر .

ورواه مختصراً ابن أبي حاتم أيضاً ، وفيه انقطاع ، فإن الشعبيّ لم يدرك زمان عمر رضي الله عنه . كذا قاله الحافظ ابن كثير ، وساقه أيضاً الواحديّ ، وزاد في آخره : قال عمر : فلقد رأيتني في دين الله أشد من حجر .

قال العلامة البقاعيّ : وقد روى هذا الحديث أيضاً إسحاق بن راهويه في " مسنده " عن الشعبيّ ، عن عمر رضي الله عنه . قال شيخنا البوصيريّ : وهو مرسل صحيح الإسناد ، انتهى .

(275/60)

وثَمّ روايات متنوعات ساقها ابن كثير في تفسيره ، لا نطوّل كتابنا بسردها ، ومرجعها واحد . فإن قيل : بين رواية البخاريّ الأولى وما بعدها تناف ! . فالجواب : لا منافاة ؛ لأن قراءته صلى الله عليه وسلم لها في محاورة عبد الله بن سلام ، ردّاً لقول اليهود ، لا

يستلزم نزولها حينئذ . فإن المعتمد في سبب نزولها غير قصة عبد الله بن سلام مما سلف من الروايات . فإن طرقها يقوي بعضها بعضاً ، وكأن النبي صلى الله عليه وسلم لما قال له عبد الله بن سلام : إن جبريل عدو لليهود ، تلا عليه الآية ، مذكّراً له سبب نزولها كذا قاله الحافظ ابن حجر في الفتح .

وقد أشار إلى ذلك السيوطي في " الإتقان " حيث قال :

تنبيه : قد يكون في إحدى القصتين ، " فتلا " فيَهِمُ الراوي ، فيقول : فينزل . وقال العلامة ولي الله الدهلويّ قدس سره في كتابه " أصول التفسير " وقد تحقق عند الفقير أن الصحابة والتابعين كثيراً ما كانوا يقولون : نزلت الآية في كذا وكذا ، وكأن غرضهم تصوير ما صدقت عليه الآية ، وذِكْرَ بعض الحوادث التي تشملها الآية بعمومها ، سواء تقدمت القصة أو تأخرت ، إسرائيلياً كان ذلك أو جاهلياً أو إسلامياً ، استوعبت جميع قيود الآية أو بعضها ، والله أعلم .

فعلم من هذا التحقيق أن للاجتهاد في هذا القسم مدخلاً ، وللقصص المتعددة هنالك سعة . فمن استحضر هذه النكتة يتمكن من حل ما اختلف من سبب النزول بأدنى عناية .

انتهى .

وقوله تعالى : ﴿ لجبريل ﴾ قرئ في السبع بكسر الجيم والراء بلا همز ، وبفتح الجيم بدونها

أيضاً ، وبفتح الجيم والراء وهمزة مكسورة ثم ياء وبدونها . قال ابن جنيّ : العرب إذا نطقت بالأعجميّ خلطت فيه .

(276/60)

وقوله : ﴿ فإنه نزله ﴾ تعليل لجواب الشرط قائم مقامه ، والبارز الأول لجبريل عليه السلام ، والثاني للقرآن ، أضمر من غير سبق ذكر ، إيذاناً بفخامة شأنه ، واستغنائه عن الذكر ، لكمال شهرته ونباهته ، لاسيما عند ذكر شيء من صفاته . وقوله : ﴿ على قلبك ﴾ زيادة تقرير للتنزيل ، ببيان محل الوحي ، فإنه القابل الأول له ، إن أريد به الروح . ومدار الفهم والحفظ إن أريد به العضو ، وهذا كقوله : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ ﴾ [الشعراء : 193 ، 194] ، وكان حق الكلام أن يقال : على قلبي ؛ لأنه المطابق لقُل ولكن جاء على حكاية كلام الله كما تكلم به تحقيقاً لكونه كلام الله ، وأنه أمر بأبلاغه .

(277/60)

وقوله : ﴿ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ أي : بأمره . وقوله : ﴿ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أي : من التوراة وبقية الصحف المنزلة . وقوله : ﴿ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي : يهدي للرشد وبشرى لهم بالجنة ، كما قال تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ﴾ [فصلت : 44] الآية ، وقال تعالى : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الإسراء : 82] وفيه رد على اليهود ، حيث قالوا : إن جبريل ينزل بالحرب والشدة كما والشدة ، فقيل : فإنه ينزل بالهدى والبشرى أيضاً . فإن قيل : من شأن الشرط والجزاء الاتصال بالسببية والترتب ، فكيف استقام قوله : ﴿ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ ﴾ جزاء للشرط ؟ أجيب بأن قوله : ﴿ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ ﴾ تعليل لجواب الشرط ، كما أسلفنا . والمعنى : من عادى جبريل من أهل الكتاب ، فلا وجه لمعاداته ، بل يجب عليه محبته ، فإنه نزل عليك كتاباً مصدقاً لكتبهم . فلو أنصفوا لأحبوه وشكروا له صنيعه ، في إنزاله ما ينفعهم ، ويصحح المنزل عليهم . وقيل : الجواب محذوف تقديره : فليمت غيظاً . وعليه فلا يكون : ﴿ فإنه نزله ﴾ نائباً عنه . ووجهه أن يقدر الجواب مؤخراً عن قوله : ﴿ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ ﴾ ويكون هو تعليلاً وبياناً لسبب العداوة ، كأنه قيل : من عاداه ؛ لأنه نزل على قلبك فليمت غيظاً .

قال الرضى : كثيراً ما يدخل الفاء على السبب ويكون بمعنى اللام ، قال الله تعالى ﴿ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾ [الحجر : 34] ، وقيل تقديره : فهو عدو لي وأنا عدوه ، بقرينة الجملة المعترضة المذكورة بعده في وعيدهم ، هي قوله تعالى : ﴿ مَن كَانَ

عَدُوّاً لِّلّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ ﴾ أي : من كان عدواً لله لإنزاله فضله على من يشاء أو لأمر آخر .

(278/60)

وأفادت الآية غضب الله تعالى لجبريل على من عاداه ، وقد روى البخاري في صحيحه ، عن أبي هريرة حديثاً قدسياً < من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب > .

وصدّر الكلام بذكر الجليل تفخيماً لشأنهم ، وإيذاناً بأن عداوتهم عداوته عز وعلا ، وقدم الملائكة على الرسل ، كما قدم الله على الجميع ؛ لأن عداوة الرسل بسبب نزول الوحي ، ونزوله بتنزيل الملائكة ، وتنزيلهم لها بأمر الله ، فذكر الله تعالى ومن بعده على هذا الترتيب ، وإنما خص جبريل وميكائيل بعد ذكر الملائكة لقصد التشريف لهما ، والدلالة على فضلهما ، وإنهما ، وإن كانا من الملائكة ، فقد صارا باعتبار ما لهما من المزية بمنزلة جنس آخر أشرف من جنس الملائكة ، تنزيلاً للتغاير الوصفي ، منزلة التغاير الذاتيّ ، وللتنبيه على أن معاداة الواحد والكل سواء في الكفر ، واستجلاب العداوة من الله تعالى ، وإن من عادى أحدهم فكأنه عادى الجميع ؛ إذ الموجب لمحبتهم وعداوتهم على الحقيقة واحد ، ولأن المحاجة كانت فيهما . ووضع : الكافرين ، موضع : لهم ؛ ليدل على أن الله

إنما عاداهم لكفرهم، وأن عداوة الملائكة كفر . وقد قرئ في السبع : ﴿ مِيْكَالَ ﴾ كميزان، و : ﴿ مِيْكَائِل ﴾ بهمزة مكسورة بعد الألف بدون ياء و : ﴿ مِيْكَائِيْلَ ﴾ بالهمزة والياء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 2 صـ 395. 400 ﴾

(279/60)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَآئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ (98) ﴾

وهكذا أعطى الله سبحانه وتعالى الحكم . . فقال إن العداوة للرسل . . مثل العداوة للملائكة . . مثل العداوة لجبريل وميكائيل . . مثل العداوة لله . ولقد جاء الحق سبحانه وتعالى بالملائكة ككل . . ثم ذكر جبريل وميكائيل بالاسم . إن المسألة ليست مجزأة ولكنها قضية واحدة . . فمن كان عدوا للملائكة وجبريل وميكائيل ورسل الله . . فهو أولا وأخيرا عدو لله . . لأنه لا انقسام بينهم فكلهم دائرون حول الحق . . والحق الواحد لا عدوان فيه . . وإنما العدوان ينشأ من تصادم الأهواء والشهوات . وهذا يحدث في أمور الدنيا .

والآية الكريمة أثبتت وحدة الحق بين الله وملائكته ورسله وجبريل وميكائيل . . ومن يعادي واحد من هؤلاء يعاديهم جميعا وهو عدو الله سبحانه واليهود أعداء الله لأنهم كفروا به . . وأعداء الرسل لأنهم كذبوهم وقتلوا بعضهم . وهكذا فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلي وحدة الحق في الدين . . مصدره هو الله جل جلاله . . ورسوله من الملائكة هو جبريل . . ورسله من البشر هم الرسل والأنبياء الذين بعثهم الله . . وميكائيل ينزل بالخير والخصب لأن الإيمان أصل وجود الحياة . . فمن كان عدوا للملائكة والرسل وجبريل وميكائيل فهو كافر . . لأن الآية لم تقل إن العداوة لهؤلاء هي مجرد عداوة . . وإنما حكم الله عليهم بأنهم كافرون . . الله سبحانه وتعالى لم يخبر محمدا صلى الله عليه وسلم بهذا الحكم فقط ، وإنما أمره بأن يعلنه حتى يعرفه الناس جميعا ويعرفوا أن اليهود كافرون . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 481 ﴾

(280/60)

" فوائد بلاغية "

قال فى صفوة التفاسير :

البلاغة :

1- [وأشربوا فى قلوبهم العجل] فيه استعارة مكنية ، شبه حب عبادة العجل ، بمشروب لذيذ سائغ الشراب ، وطوى ذكر المشبه به ، ورمز له بشيء من لوازمه ، وهو الإشراب على طريق الاستعارة المكنية . قال فى تلخيص البيان : " وهذه استعارة ، والمراد وصف قلوبهم بالمبالغة في حب العجل فكأنها تشربت حبه ، فمازجها ممازجة المشروب ، وخالطها مخالطة الشيء الملذوذ " .

أقول : هذه صورة رائعة فريدة ، من روائع البيان ، فكأن حب العجل شراب حلو لذيذ ، خالطت حلاوته الأفواه والأمعاء ، فسرى فيها كما يسري الشراب في مسالك البدن .

2- [قل بئسما يأمركم به إيمانكم] إسناد الأمر إلى الإيمان ، تهكم بهم كقوله تعالى : [أصلاتك تأمرك] ؟ وكذلك إضافة الإيمان إليهم ، أفاده الزمخشري .

3- التنكير في قوله : [على حياة] للتنبيه على أن المراد بها حياة مخصوصة ، وهي الحياة المتطاولة التي يعمر فيها الشخص آلاف السنين .

4- [فإن الله عدو للكافرين] الجملة واقعة في جواب الشرط ، وجيء بها إسمية لزيادة التقبيح ، لأنها تفيد الثبات ، ووضع الظاهر موضع الضمير فقال : [عدو للكافرين] بدل عدو لهم ، لتسجيل صفة الكفر عليهم ، وأنهم بسبب عداوتهم للملائكة أصبحوا من الكافرين .

5- [وجبريل وميكال] جاء اسمهما بعد ذكر (الملائكة) فهو من باب ذكر الخاص بعد العام ، للتشريف والتعظيم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 1 صـ 81 ﴾

(281/60)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله تعالى : " مَنْ كَانَ عَدُوًّا " : الكلام في " مَنْ " كما تقدم ، إلاَّ أن الجواب هنا يجوز أن يكون ﴿ فَإِنَّ اللهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ ﴾ .

فإن قيل : وأين الرَّابط ؟

فالجواب من وجهين :

أحدهما : أن الاسم الظاهر قام مقام المضمر ، وكان الأصل : فإن الله عَدُوٌّ لهم ، فأتى بالظَّاهر تنبيهاً على العلة .

والثاني : أن يراد بالكافرين العموم ، والعموم من الرَّوَابط ، لاندراج الأول تحته ، ويجوز أن يكون محذوفاً تقديره : من كان عدوّاً لله فقد كفر ونحوه .

وقال بعضهم : الواو في قوله : ﴿ وملائكته وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ ﴾ بمعنى " أو " ، قال

: لأن نم عادى واحداً من هؤلاء المذكورين ، فالحكم فيه كذلك .

وقال بعضهم : هي للتفضيل ، ولا حاجة إلى ذلك ، فإن هذا الحكم معلوم ، وذكر جبريل ميكال بعد اندراجهما أولاً تنبيهٌ على فضلهما على غيرهما من الملائكة ، وهكذا كُلُّ ما ذكر خاص بعد عام ، ويحتمل أن يكون أعاد ذكرهما بعد اندراجهما ؛ لأن الذي جرى بين الرَّسول وبين اليهود هو ذكرهما ، والآية إنما نزلت بسببهما ، فلا جَرَمَ نصّ على اسميهما ، واعلم أنَّ هذا يقتضي كونهما أشرف من جميع الملائكة ، وبعضهم يسمى هذا النوع بالتجريد ، كأنه يعني به أنه جرد من العموم الأول بعض أفراده اختصاصاً له بمزية ، وهذا الحكم أعني ذكر الخاصّ بعد العام مختصّ بالواو ولايجوز في غيرها من حروف العطف .

(282/60)

وجعل بعضهم مثل هذه الآية أعني : في ذكر الخاصّ بعد العام تشريفاً له قوله : ﴿ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ [الرحمن : 68] وهذا فيه نظر ، فإن " فاكهة " من باب المطلق ؛ لأنها نكرة في سياق الإثبات ، وليست من العموم في شيء ، فإن عنى أن اسم الفاكهة يطلق عليهما من باب صِدْق اللَّفظ على ما يحتمله ، ثم نص عليه فصحيح ، وأتى باسم الله ظاهراً في قوله : " فإِنَّ اللهَ عَدُوٌّ " ؛ لأنه لو أُضمر فقيل : " فإنه " لأوهم عوده على اسم

الشرط، فينعكس المعنى، أو عوده على ميكال؛ لأنه أقرب مذكور.

وميكائيل اسم أعجمي، والكلام فيه كالكلام في "جبريل" من كونه مشتقّاً من ملكوت الله عز وجل، أو أن "ميك" بمعنى عبدن و"إيل" اسم الله، وأن تركيبه تركيب إضافة أو تركيب مزج، وقد عرف الصحيح من ذلك.

وفيه سبع لغات: "مِيكَال" بزنة "مِفْعَال" وهي لغة "الحجاز"، وبها قرأ أبو عمر وحفص عن عصام، وأهل "البصرة"؛ قالوا: [البسيط]

685 وَيَوْمَ بَدْرٍ لَقِينَاكُمْ لَنَا عُدَدٌ . . .

فِيهِ مَعَ النَّصْرِ مِيكَالٌ وَجِبْرِيلُ

وقال جرير: [الكامل]

686 عَبَدُوا الصَّلِيبَ وَكَذَّبُوا بِمُحَمَّدٍ . . .

وَبِجَبْرَئِيلَ وَكَذَّبُوا مِيْكَالاَ

الثانية: كذلك، إلاَّ أن بعد الألف همزة، وبها قرأ نافع وأهل "المَدينة" بهمزة واختلاص ميكائيل.

الثالثة: كذلك، إلا أنه بزيادة ياء بعد الهمزة بوزن "ميكائيل"، وهي قراءة الباقين.

الرابعة: ميكئيل مثل ميكعيل، وبها قرأ ابن محيصن.

الخامسة : كذلك ، إلاَّ أنه لا ياء بعد الهمزة ، فهو مثل : مِيكَعِل ، وقرىء بها .

السادسة : ميكاييل بياءين بعد الألف ، وبها قرأ الأعمش .

(283/60)

السابعة : ميكاءَل بهمزة مفتوحة بعد الألف كما يقال : " إسراءَل " ، وحكى المَاوَرْدِيّ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن " جَبْر " بمعنى عَبْد بالتكبير ، و" ميكا " بمعنى عُبَيْد بالتصغير ، فمعنى جبريل : عبد الله ، ومعنى ميكائيل : عبيد الله قال : ولا يعلم لابن عباس في هذا مخالف .

وقال القرطبي رحمه الله تعالى : وزاد بعض المفسّرين : وإسرافيل عبد الرحمن .

قال النحاس : ومن قال : " جبر " عبد ، و" إل " الله وجب عليه أن يقول : هذا جَبْرُئل ، ورأيت جَبْرَئل ، ومررت بِجَبْرِئل ، وهذا لا يقال ، فوجب أن يكون مسمى بهذا .

وقال غيره : ولو كان كما قالوا لكان مصروفاً ، فترك الصرف يدلّ على أنه اسم واحد مفرد ليس بمضاف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 2 صـ 316.314 ﴾ .

باختصار .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآيتين

قال عليه الرحمة :

﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (97) مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ (98) ﴾

زعمت اليهود أن جبريل لا يأتي بالخير ، وأنهم لا يحبونه ، ولو كان ميكائيل لكانوا آمنوا به ، فأكذبهم الحقُّ سبحانه فقال : ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ ﴾ لأنه لا يأتي بالخير فأي خير أعظم مما نزل به من القرآن ؟ !

ثم قال إن مَنْ عادى جبريل وميكائيل فإن الله عدو له ، فإنَّ رسولَ الحبيبِ إلى الحبيبِ العزيزِ المَوْرِد – كريمُ المنزلة ، عظيم الشرف . وما ضرَّتْ جبريلَ – عليه السلام – عداوةُ الكفار ، والحق سبحانه وتعالى وليُّه ، ومَنْ عَادَى جبريلَ فالحقُّ عَدُوُّه ، وما أَعْزِز (1) بهذا الشرف وما أَجَلَّه ! وما أكبر علوه ! . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 108 ﴾

---

(1) الصحيح ان يقال وأعزز بهذا الشرف أو : ما أعز هذا الشرف فليس فى التعجب ما أفعل به فما حدث هو خطأ من الناسخ لأن القشيري – كما تعلم من سيرته – حريص أشد الحرص على قواعد النحو .

" فائدة "

قال فى البحر المديد :

إذا كانت معاداة الملائكة والرسل هي معاداة الله ، فكذلك معاداةُ أوليائه هي معاداة الله أيضاً ، ولذلك قال تعالى : " مَنْ عَادَى لِي وَلِيّاً فقد آذنني بالحَرْب " فالبعض هو الكل ، ويؤخذ بالمفهوم أن محبة الملائكة والرسل هي محبة الله . وكذلك محبة أولياء الله هي محبة الله ، وكذلك أيضاً محبة عباد الله هي محبة الله ، ومعاداتهم معاداة الله . " الخَلقُ عِيَالُ الله ، وأحبُّ الخَلقِ إلى اللّهِ أنفعهُمْ لعيَاله " . وكل مَن ادعى أنه يحب الله وفي قلبه عداوة لمسلم فهو كاذب ، وكل مَن ادعى أنه يعرف الله وفي قلبه إنكار على مخلوق فهو في دعواه أيضاً كاذب ، فالواجب على العبد أن يُحب جميع العباد ، من كان طائعاً فظاهر ، ومَن كان عاصياً أحب له التوبة والإنابة ، ومَن كان كافراً أحب له الإسلام والهداية ، ولا يكره من العبد إلا فعله ، ولله دَر القائل :

ارْحَمْ بُنَيَّ جَميعَ الخلقِ كُلِّهمُ . . . وانْظُرْ إليْهمْ بعين الحِلمِ والشّفَقَهْ

وَقِّرْ كَبِيرَهُم وارْحَمْ صغِيرَهُمْ . . . وَراعِ فِي كُلِّ خَلْقٍ مَنْ خَلَقَهْ .

وبالله التوفيق . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المديد حـ 1 صـ 140. 141 ﴾

(285/60)

قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ (99) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما فرغ من ترغيبهم في القرآن بأنه من عند الله وأنه مصدق لكتابهم وفي جبريل بأنه الآتي به بإذن الله ومن ترهيبهم من عداوته أتبعه مدح هذا القرآن وأنه واضح الأمر لمريد الحق وإن كفر به منهم أو من غيرهم فاسق أي خارج عما يعرف من الحق فإنه بحيث لا يخفى على أحد فقال تعالى – عطفاً على قوله : ﴿ فإنه نزله على قلبك بإذن الله ﴾ [البقرة : 97] ، أو قوله : ﴿ ولقد جاءكم موسى بالبينات ﴾ [البقرة : 92] ، أو على ما تقديره : فلقد بان بهذا الذي نزله جبريل عليه السلام أن الآخرة ليست خالصة لهم وأنهم ممن أحاطت به خطيئته لكفره – : ﴿ ولقد أنزلنا ﴾ بعظمتنا في ذلك وغيره ﴿ إليك ﴾ وأنت أعظم الخلق ﴿ آيات بينات ﴾ في الدلالة على صدقك وصحة أمرك ، والبينة الدلالة الفاصلة

بين القصة الصادقة والكاذبة ، ففسقوا بكفرهم بها ﴿ وما يكفر بها ﴾ منهم ومن غيرهم ﴿ إلا الفاسقون ﴾ الذين الفسق لهم صفة لازمة ، وعن الحسن أن الفسق إذا استعمل في نوع من المعاصي وقع على أعظمه من كفر وغيره وفي ذلك رجوع إلى وصف الكتاب الذي هو مقصود السورة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 204 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أن هذا نوع آخر من قبائحهم وفضائحهم قال ابن عباس : إن اليهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه فلما بعث من العرب كفروا به وجحدوا ما كانوا يقولون فيه : فقال لهم معاذ بن جبل يا معشر اليهود اتقوا الله وأسلموا فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ونحن أهل الشرك وتخبروننا أنه مبعوث وتصفون لنا صفته ، فقال بعضهم ما جاءنا بشيء من البينات وما هو بالذي كنا نذكر لكم فأنزل الله تعالى هذه الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 181 ﴾

فصل

قال الفخر :

الأظهر أن المراد من الآيات البينات القرآن الذي لا يأتي بمثله الجن والإنس ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ، وقال بعضهم : لا يمتنع أن يكون المراد من الآيات البينات القرآن مع سائر الدلائل نحو امتناعهم من المباهلة ومن تمني الموت وسائر المعجزات نحو إشباع الخلق الكثير من الطعام القليل ونبوع الماء من بين أصابعه وانشقاق القمر .

قال القاضي : الأولى تخصيص ذلك بالقرآن ؛ لأن الآيات إذا قرنت إلى التنزيل كانت أخصَّ بالقرآن ؛ والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 181 ﴾

فصل

قال الفخر :

الوجه في تسمية القرآن بالآيات وجوه :

أحدها : أن الآية هي الدالة وإذا كانت أبعاضُ القرآن دالةً بفصاحتها على صدق المدعي كانت آيات ، وثانيها : أن منها ما يدل على الإخبار عن الغيوب فهي دالة على تلك الغيوب ، وثالثها : أنها دالة على دلائل التوحيد والنبوة والشرائع فهي آيات من هذه الجهة ، فإن قيل : الدليل لا يكون إلا بيناً فما معنى وصف الآيات بكونها بينة ، وليس لأحد أن يقول المراد كون بعضها أبين من بعض لأن هذا إنما يصح لو أمكن في العلوم أن يكون بعضها أقوى من بعض وذلك محال ، وذلك لأن العالم بالشيء إما أن يحصل معه تجويز نقيض ما اعتقده أو لا يحصل

، فإن حصل معه ذلك التجويز لم يكن ذلك الاعتقاد علماً وإن لم يحصل استحال أن يكون شيء آخر أكد منه .

قلنا : التفاوت لا يقع في نفس العلم بل في طريقه ؛ فإن العلوم تنقسم إلى ما يكون طريق تحصيله والدليل الدال عليه أكثر مقدمات فيكون الوصول إليه أصعب ، وإلى ما يكون أقل مقدمات فيكون الوصول إليه أقرب ، وهذا هو الآية البينة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 182.181 ﴾

فائدة

قال الفخر :

الإنزال عبارة عن تحريك الشيء من الأعلى إلى الأسفل وذاك لا يتحقق إلا في الجسمي فهو على هذا الكلام محال لكن جبريل لما نزل من الأعلى إلى الأسفل وأخبر به سمي ذلك إنزالاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 182 ﴾

(287/60)

قوله تعالى ﴿ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلاَّ الفاسقون ﴾

فائدة

قال الفخر :

الكفر بها من وجهين .

أحدهما : جحودها مع العلم بصحتها .

والثاني : جحودها مع الجهل وترك النظر فيها والإعراض عن دلائلها وليس في الظاهر تخصيص فيدخل الكل فيه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 182 ﴾

فصل

قال الفخر :

الفسق في اللغة خروج الإنسان عما حد له قال الله تعالى : ﴿ إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الجن فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾ [الكهف : 50] وتقول العرب للنواة : إذا خرجت من الرطبة عند سقوطها فسقت النواة ، وقد يقرب من معناه الفجور لأنه مأخوذ من فجور السد الذي يمنع الماء من أن يصير إلى الموضع الذي يفسد [إذا صار إليه] فشبه تعدي الإنسان ما حد له إلى الفساد بالذي فجر السد حتى صار إلى حيث يفسد .

فإن قيل : أليس أن صاحب الصغيرة تجاوز أمر الله ولا يوصف بالفسق والفجور ؟ قلنا : إنه إنما يسمى بهما كل أمر يعظم من الباب الذي ذكرنا لأن من فتح من النهر نقباً يسيراً لا يوصف بأنه فجر ذلك النهر وكذلك الفسق إنما يقال : إذا عظم التعدي .

إذا ثبت هذا فنقول في قوله : ﴿ إِلاَّ الفاسقون ﴾ وجهان ، أحدهما : أن كل كافر فاسق

ولا ينعكس فكأن ذكر الفاسق يأتي على الكافر وغيره فكان أولى .

الثاني : أن يكون المراد ما يكفر بها إلا الكافر المتجاوز عن كل حد في كفره والمعنى أن هذه الآيات لما كانت بينة ظاهرة لم يكفر بها إلا الكافر الذي يبلغ في الكفر إلى النهاية القصوى وتجاوز عن كل حد مستحسن في العقل والشرع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 182 ﴾

" فصل "

قال أبو حيان :

﴿ ولقد أنزلنا آيات بينات ﴾ : سبب نزولها ، فيما ذكر الطبراني ، أن ابن صوريا قال للنبي صلى الله عليه وسلم : ما جئت بآية بينة ، فنزلت .

وقال الزمخشري : قال ما جئتنا بشيء نعرفه ، وما أنزل عليك من آية فنتبعك لها ، فنزلت انتهى .

(288/60)

ومناسبة هذه الآية لما قبلها ظاهرة ، لأنه لما ذكر تعالى جملاً من قبائح اليهود وذمهم على ذلك ، وكان فيما ذكر من ذلك معاداتهم لجبريل ، فناسب ذلك إنكارهم لما نزل به جبريل ،

فأخبر الله تعالى بأن الرسول عليه السلام أنزل عليه آيات بينات ، وأنه لا يجحد نزولها إلا كل فاسق ، وذلك لوضوحها .

والآيات البينات ، أي القرآن ، أو المعجزات المقرونة بالتحدّي ، أو الإخبار عما خفي وأخفي في الكتب السالفة ، أو الشرائع ، أو الفرائض ، أو مجموع كل ما تقدّم ، أقوال خمسة .

والظاهر مطلق ما يدل عليه آيات بينات غير معين شيء منها ، وعبر عن وصولها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالإنزال ، لأن ذلك كان من علوّ إلى ما دونه .

﴿ وما يكفر بها إلا الفاسقون ﴾ : المراد بالفاسقين هنا : الكافرون ، لأن كفر آيات الله تعالى هو من باب فسق العقائد ، فليس من باب فسق الأفعال .

وقال الحسن : إذا استعمل الفسق في شيء من المعاصي ، وقع على أعظمه من كفر أو غيره . انتهى .

وناسب قوله : بينات لفظ الكفر ، وهو التغطية ، لأن البين لا يقع فيه إلباس ، فعدم الإيمان به ليس لشبهة لأنه بين ، وإنما هو تغطية وستر لما هو واضح بين .

وستر الواضح لا يقع إلا من متمرد في فسقه ، والألف واللام في الفاسقون ، إما للجنس ، وإما للعهد ، لأن سياق الآيات يدل على أن ذلك لليهود .

وكنى بالفسق هنا عن الكفر ، لأن الفسق : خروج الإنسان عما حدّ له .

وقد تقدّم قول الحسن أنه يدل على أعظم ما يطلق عليه ، فكأنه قيل : وما يكفر بها إلا

المبالغ في كفره ، المنتهي فيه إلى أقصى غاية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 1 صـ 491 ﴾

(289/60)

وقال الآلوسى :

﴿ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ (99) ﴾

نزلت بسبب ابن صوريا كما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما حين قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ما جئتنا بشيء نعرفه وما أنزل عليك من آيات فنتبعك ، وجعلت عطفاً على قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوّا ﴾ [البقرة : 97] الخ عطف القصة على القصة ﴿ وَمَا يَكْفُرُ ﴾ عطف على جواب القسم فإنه كما يصدر باللام يصدر بحرف النفي ، و(الآيات) القرآن والمعجزات والإخبار عما خفي وأخفي في الكتب السابقة أو الشرائع والفرائض ، أو مجموع ما تقدم كله والظاهر الإطلاق ، و(الفاسقون) المتمردون في الكفر الخارجون عن الحدود فإن من ليس على تلك الصفات من الكفرة لا يجترىء على الكفر بمثل هاتيك البينات ، قال الحسن : إذا استعمل الفسق في نوع من المعاصي وقع على أعظم أفراد ذلك النوع من كفر أو غيره فإذا قيل : هو فاسق في

الشرب فمعناه هو أكثر ارتكاباً له وإذا قيل : هو فاسق في الزنا يكون معناه هو أشد ارتكاباً له ، وأصله من فسقت الرطبة إذا خرجت من قشرها ، واللام إما للعهد لأن سياق الآيات يدل على أن ذلك لليهود ، وإما للجنس وهم داخلون كما مر غير مرة . انتهى انتهى . اهـ

﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 335 ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ (99) ﴾

عطف على قوله : ﴿ قل من كان عدواً لجبريل ﴾ [البقرة : 97] عطف القصة على القصة لذكر كفرهم بالقرآن فهو من أحوالهم .

وهاته الجملة جواب لقسم محذوف فعطفها على ﴿ قل من كان عدواً ﴾ من عطف الإنشاء على الإنشاء وفيه زيادة إبطال لقولهم : ﴿ نؤمن بما أنزل علينا ﴾ [البقرة : 91] .

وفي الانتقال إلى خطاب النبيء صلى الله عليه وسلم إقبال عليه وتسلية له عما لقي منهم وأن ما أنزل إليه لا يكذب به إلا من لا يؤبه بتكذيبه لكون هذا المنزل دلائل واضحة لا تقصر عن إقناعهم بأحقيتها ولكنهم يظهرون أنفسهم أنهم لم يوقنوا بحقيتها .

واللام موطئة لقسم محذوف فهنا جملة قسم وجوابه حذف القسم لدلالة اللام عليه .

وقوله : ﴿ وما يكفر بها إلا الفاسقون ﴾ عطف على ﴿ لقد أنزلنا ﴾ فهو جواب للقسم أيضاً .

والفاسق هو الخارج عن شيء من فسقت التمرة كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ وما يضل به إلا الفاسقين ﴾ [البقرة : 26] وقد شاع إطلاقه على الخارج عن طريق الخير لأن ذلك الوصف في التمرة وصف مذموم وقد شاع في القرآن وصف اليهود به ، والمعنى ما يكفر بهاته الآيات إلا من كان الفسق شأنه ودأبه لأن ذلك بهيئه للكفر بمثل هذه الآيات ، فالمراد بالفاسقين المتجاوزون الحد في الكفر المتمردون فيه .

والإخبار وقع بالمضارع الدال على التجدد .

والتوصيف وقع باسم الفاعل المعروف باللام . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 1 صـ 606. 607 ﴾

ومن فوائد ابن عرفة فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ . . . ﴾ .

قيل لابن عرفة : إن أريد المعجزات فظاهر ، وإن أريد آيات القرآن فيؤخذ منه امتناع

تخصيص السنة بالقرآن ، والقرآن بالسّنة لأنّه كله بيّن ؟

فقال : نقول إن القرآن بين من حيث دلالته على صدقه من جهة لفظه المعجز وفصاحته ، وإن كان معناه (مجملا) لا يفهم فلا يمتنع فيه بيان (القرآن) بالسّنة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عرفة حـ 1 صـ 382.381 ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلاَّ الفاسقون ﴾ هذا استثناء مفرّغ ، وقد تقدم أن الفراء يجيز فيه النصب .

والكفر بها من وجهين :

الأول : جحودها مع العلم بصحتها .

والثاني : جحودها مع الجهل ، وترك النظر فيها ، والإعراض عن دلائلها ، وليس في الظَّاهر تخصيص ، فيدخل الكل فيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 2 صـ 318 ﴾

قوله تعالى ﴿ أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (100) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما أنكر عليهم أولاً ردهم للرسل لأمرهم بمخالفة الهوى في قوله : ﴿ أفكلما جاءكم رسول ﴾ [البقرة : 87] وأتبعه بما يلائمه إلى أن ختم بأن آيات هذا الرسول من الأمر البين الذي يشهد به كتابهم وقد أخذ عليهم العهد باتباعه كما أرشد إلى قوله تعالى : ﴿ فإما يأتينكم مني هدى ﴾ [البقرة : 38] الآية ، أنكر عليهم ثانياً كفرهم بما أتى به الرسل بقوله : ﴿ أو كلما عاهدوا عهداً نبذه ﴾ أي طرحه محتقراً له ﴿ فريق منهم ﴾ أي ناس شأنهم السعي في الفرقة .

ولما كان هذا متردداً بين التقليل والتكثير لتردد التنوين بين التعظيم والتحقير رد احتمال التقليل بقوله : ﴿ بل ﴾ أي وليس الفريق الكافر بالنبذ أقلهم بل ﴿ أكثرهم لا يؤمنون ﴾ حالاً ولا مآلاً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 204 ﴾

فصل

قال الفخر :

المقصود من هذا الاستفهام ، الإنكار وإعظام ما يقدمون عليه لأن مثل ذلك إذا قيل بهذا اللفظ كان أبلغ في التنكير والتبكيت ودل بقول : ﴿ أَوَكُلَّمَا عاهدوا ﴾ على عهد بعد

عهد نقضوه ونبذوه ، بل يدل على أن ذلك كالعادة فيهم فكأنه تعالى أراد تسلية الرسول عند كفرهم بما أنزل عليه من الآيات بأن ذلك ليس ببدع منهم ، بل هو سجيتهم وعادتهم وعادة سلفهم على ما بينه في الآيات المتقدمة من نقضهم العهود والمواثيق حالاً بعد حال لأن من يعتاد منه هذه الطريقة لا يصعب على النفس مخالفته كصعوبة من لم تجر عادته بذلك .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 183 ﴾

فصل

قال الفخر :

في العهد وجوه :

أحدها : أن الله تعالى لما أظهر الدلائل الدالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وعلى صحة شرعه كان ذلك كالعهد منه سبحانه وقبولهم لتلك الدلائل كالمعاهدة منهم لله سبحانه وتعالى ،

وثانيها : أن العهد هو الذي كانوا يقولون قبل مبعثه عليه السلام لئن خرج النبي لنؤمنن به ولنخرجن المشركين من ديارهم ،

وثالثها : أنهم كانوا يعاهدون الله كثيراً وينقضونه ،

ورابعها : أن اليهود كانوا قد عاهدوه على أن لا يعينوا عليه أحداً من الكافرين فنقضوا ذلك وأعانوا عليه قريشاً يوم الخندق ،

قال القاضي : إن صحت هذه الرواية لم يمتنع دخوله تحت الآية لكن لا يجوز قصر الآية عليه بل الأقرب أن يكون المراد ما له تعلق بما تقدم ذكره من كفرهم بآيات الله ، وإذا كان كذلك فحمله على نقض العهد فيما تضمنته الكتب المتقدمة والدلائل العقلية من صحة القول ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم أقوى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 183 ﴾

فائدة

قال الفخر :

إنما قال : ﴿ نَّبَذَهُ فَرِيقٌ ﴾ لأن في جملة من عاهد من آمن أو يجوز أن يؤمن فلما لم يكن ذلك صفة جميعهم خص الفريق بالذكر ، ثم لما كان يجوز أن يظن أن ذلك الفريق هم الأقلون بين أنهم الأكثرون فقال : ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ وفيه قولان ، الأول : أكثر أولئك الفساق لا يصدقون بك أبداً لحسدهم وبغيهم ، والثاني : لا يؤمنون : أي لا يصدقون بكتابهم لأنهم كانوا في قومهم كالمنافقين مع الرسول يظهرون لهم الإيمان بكتابهم ورسولهم ثم لا يعملون بموجبه ومقتضاه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 183 ﴾

فصل

قال القرطبي :

قوله تعالى : ﴿ أَوَكُلَّمَا عَاهَدُواْ عَهْداً ﴾ الواو واو العطف ، دخلت عليها ألف الاستفهام كما تدخل على الفاء في قوله : ﴿ أَفَحُكْمَ الجاهلية ﴾ [المائدة : 50] ، ﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصم ﴾ [يونس : 42] ، ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ ﴾ [الكهف : 50] .

وعلى ثُمّ كقوله : ﴿ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ﴾ [يونس : 51] هذا قول سيبويه .

وقال الأخفش : الواو زائدة .

ومذهب الكسائي أنها أو ، حُرّكت الواو منها تسهيلاً .

وقرأها قوم أوْ ، ساكنة الواو فتجيء بمعنى بل ؛ كما يقول القائل : لأضربنك ؛ فيقول المجيب : أو يكفي الله .

قال ابن عطية : وهذا كله متكلّف ؛ والصحيح قول سيبويه .

(293/60)

"كلما" نصب على الظرف ؛ والمَعْنّي في الآية مالك بن الصّيف ، ويقال فيه ابن الضيف ؛ كان قد قال : والله ما أخذ علينا عهدٌ في كتابنا أن نؤمن بمحمد ولا ميثاق ؛ فنزلت الآية .

وقيل : إن اليهود عاهدوا لئن خرج محمد لنؤمنن به ولنكونن معه على مشركي العرب ؛ فلما بُعث كفروا به .

وقال عطاء : هي العهود التي كانت بين النبيّ صلى الله عليه وسلم وبين اليهود فنقضوها ، كفعل قُريظة والنَّضير ؛ دليله قوله تعالى : ﴿ الذين عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لاَ يَتَّقُونَ ﴾ [الأنفال : 56] .

قوله تعالى : ﴿ نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم ﴾ النبذ : الطرح والإلقاء ؛ ومنه النَّبيذ والمنبوذ ، قال أبو الأسْود :

وخبّرني مَن كنت أرسلتُ إنما . . .

أخذتَ كتابي معرضاً بشمالكا

نظرتَ إلى عنوانه فنبذتَه . . .

كنبذك نعلاً أخلقتْ من نعالكا

آخر :

إن الذين أمرتهم أن يعدلوا . . .

نبذوا كتابك واستحلوا المَحْرَمَا

وهذا مَثَل يُضرَب لمن استخف بالشيء فلا يعمل به ؛ تقول العرب : اجعل هذا خَلْفَ ظهرك ، ودَبْراً منك ، وتحت قدمك ؛ أي اتركه وأعرض عنه ؛ قال الله تعالى : ﴿

واتخذتموه وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيّاً ﴾ [هود : 92] .

وأنشد الفراء :

تَميمُ بنُ زيد لا تكوننّ حاجتي . . .

بظَهْرٍ فلا يَعْيَا عليّ جوابُها

﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ ﴾ ابتداء .

﴿ لاَيُؤْمِنُونَ ﴾ فعل مستقبل في موضع الخبر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 2 صـ 39. 40 ﴾

وقال ابن عطية :

قال سيبويه : الواو واو العطف دخلت عليها ألف الاستفهام ، وقال الأخفش : هي زائدة ، وقال الكسائي : هي " أو " وفتحت تسهيلاً ، وقرأها قوم " أوْ " ساكنة الواو فتجيء بمعنى بل ، وكما يقول القائل : لأضربنك فيقول المجيب : أوْ يكفي الله .

(294/60)

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه : وهذا كله متكلف ، واو في هذا المثل متمكنة في التقسيم ، والصحيح قول سيبويه وقرئ " عهدوا عهداً " وقرأ الحسن وأبو

رجاء "عوهدوا" و﴿ عهداً ﴾ مصدر ، وقيل : مفعول بمعنى أعطوا عهداً ، والنبذ : الطرح والإلقاء ، ومنه النبيذ والمنبوذ ، والفريق اسم جمع لا واحد له من لفظه ، ويقع على اليسير والكثير من الجمع ، ولذلك فسرت كثرة النابذين بقوله : ﴿ بل أكثرهم ﴾ لما احتمل الفريق أن يكون الأقل ، و﴿ لا يؤمنون ﴾ في هذا التأويل حال من الضمير في ﴿ أكثرهم ﴾ ، ويحتمل الضمير العود على الفريق ، ويحتمل العود على جميع بني إسرائيل وهو أذم لهم ، والعهد الذي نبذوه هو ما أخذ عليهم في التوراة من أمر محمد صلى الله عليه وسلم ، وفي مصحف ابن مسعود "نقضه فريق" . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 1 صـ 184 ﴾ 185.

(295/60)

وقال الآلوسى :

﴿ أَوَكُلَّمَا عاهدوا عَهْدًا ﴾ نزلت في مالك بن الصيف قال : والله ما أخذ علينا عهد في كتابنا أن نؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم ولا ميثاق ، وقيل : في اليهود عاهدوا إن خرج لنؤمنن به ولنكونن معه على مشركي العرب فلما بعث كفروا به ، وقال عطاء : في اليهود عاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بعهود فنقضوها كفعل قريظة والنضير ، والهمزة

للإنكار بمعنى ما كان ينبغي ، وفيه إعظام ما يقدمون عليه من تكرر عهودهم ونقضها حتى صار سجية لهم وعادة ، وفي ذلك تسلية له صلى الله عليه وسلم وإشارة إلى أنه ينبغي أن لا يكترث بأمرهم وأن لا يصعب عليه مخالفتهم ، والواو للعطف على محذوف أي أكفروا بالآيات وكلما عاهدوا ، وهو من عطف الفعلية على الفعلية لأن ﴿ كُلَّمَا ﴾ ظرف ﴿ نَّبَذَهُ ﴾ والقرينة على ذلك المحذوف قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا ﴾ [البقرة : 99] الخ ، وبعضهم يقدر المعطوف مأخوذاً من الكلام السابق ويقول بتوسط الهمزة بين المعطوف والمعطوف عليه لغرض يتعلق بالمعطوف خاصة ، والتقدير عنده نقضوا هذا العهد وذلك العهد ﴿ أَوْ كُلَّمَا عاهدوا ﴾ وفيه مع ارتكاب ما لا ضرورة تدعو إليه أن الجمل المذكورة بقربه ليس فيها ذكر نقض العهد ، وقال الأخفش : هي زائدة ، والكسائي هي أَوْ الساكنة حركت واوها بالفتح وهي بمعنى بل ولا يخفى ضعف القولين ، نعم قرأ ابن السماك العدوي وغيره (أو) بالإسكان وحينئذٍ لا بأس بأن يقال : إنها إضرابية بناءً على رأي الكوفيين وأنشدوا :

بدت مثل قرن الشمس في رونق الضحى . . .

وصورتها (أو) أنت في العين أملح

والعطف على هذا على صلة الموصول الذي هو اللام في (الفاسقون) ميلاً إلى جانب المعنى وإن كان فيه مسخ اللام الموصولة ، كأنه قيل : إلا الذين فسقوا بل كلما عاهدوا والقرينة على ذلك ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ ﴾ الخ ، وفيه ترق إلى الأغلظ فالأغلظ ، ولك أن لا تميل مع المعنى بل تعطف على الصلة وأل تدخل على الفعل بالتبعية في السعة كثيراً كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ المصدقين والمصدقات وَأَقْرَضُواْ ﴾ [الحديد : 18] لاغتفارهم في الثواني ما لا يغتفر في الأوائل .

ومن الناس من جوّز هذا العطف باحتماليه على القراءة الأولى أيضاً ولم يحتج إلى ذلك المحذوف وقرأ الحسن وأبو رجاء ﴿ عوهدوا ﴾ وانتصاب (عهداً) على أنه مصدر على غير الصدر أي معاهدة ويؤيده أنه قرئ ﴿ مَا عاهدوا ﴾ أو على أنه مفعول به بتضمين (عاهدوا) معنى أعطوا .

﴿ نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم ﴾ أي نقضه وترك العمل به ، وأصل النبذ طرح ما لا يعتد به كالنعل البالية لكنه غلب فيما من شأنه أن ينسى لعدم الاعتداد به ، ونسبة النبذ إلى العهد مجاز والنبذ حقيقة إنما هو في المتجسدات نحو

﴿ فأخذناه وَجُنُودَهُ فنبذناهم فِى اليم ﴾ [القصص : 40] والفريق اسم جنس لا واحد له يقع على القليل والكثير ، وإنما قال : (فريق) لأن منهم من لم ينبذه .

وقرأ عبد الله ﴿ نقضه ﴾ قال في "البحر" : وهي قراءة تخالف سواد المصحف فالأولى حملها على التفسير وليس بالقوي إذ لا يظهر للتفسير دون ذكر المفسر خلال القراءة وجه .

(297/60)

﴿ مّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ يحتمل أن يراد بالأكثر النابذون وأن يراد من عداهم فعلى الأول : يكون ذلك رداً لما يتوهم أن الفريق هم الأقلون بناءً على أن المتبادر منه القليل وعلى الثاني : رد لما يتوهم أن من لم ينبذ جهاراً يؤمنون به سراً ، والعطف على التقديرين من عطف الجمل ، ويحتمل أن يكون من عطف المفردات بأن يكون أكثرهم معطوفاً على ﴿ فَرِيقٌ ﴾ وجملة ﴿ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ حال من ﴿ أَكْثَرُهُمْ ﴾ والعامل فيها ﴿ نَّبَذَهُ ﴾ .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 335.336 ﴾

وقال ابن عاشور :

وقوله : ﴿ أو كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم ﴾ استفهام مستعمل في التوبيخ معطوف على جملة القسم لا على خصوص الجواب وقدمت الهمزة محافظة على صدارتها كما هو شأنها مع حروف العطف .

والقول بأن الهمزة للاستفهام عن مقدر محذوف والواو عاطفة ما بعدها على المحذوف

علمتم إبطاله عند قوله تعالى : ﴿ أفكلما جاءكم رسول ﴾ .

وتقديم (كلما) تبع لتقديم حرف الاستفهام وقد تقدم توجيهه عند قوله تعالى : ﴿ أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ﴾ [البقرة : 87] .

والنبذ إلقاء الشيء من اليد وهو هنا استعارة لنقض العهد شبه إبطال العهد وعدم الوفاء به بطرح شيء كان ممسوكاً باليد كما سموا المحافظة على العهد والوفاء به تمسكاً قال كعب :

ولا تمسك بالوعد الذي وعدت . . .

والمراد بالعهد عهد التوراة أي ما اشتملت عليه من أخذ العهد على بني إسرائيل بالعمل بما أمروا به أخذاً مكرراً حتى سميت التوراة بالعهد ، وقد تكرر منهم نقض العهد مع أنبيائهم .

ومن جملة العهد الذي أخذ عليهم أن يؤموا بالرسول المصدق للتوراة .

وأسند النبذ إلى فريق إما باعتبار العصور التي نقضوا فيها العهود كما تؤذن به (كلما) أو احتراساً من شمول الذم للذين آمنوا منهم .

وليس المراد أن ذلك الفريق قليل منهم فنبه على أنه أكثرهم بقوله : ﴿ بل أكثرهم لا يؤمنون ﴾ وهذا من أفانين البلاغة وهو أن يظهر المتكلم أنه يوفي حق خصمه في الجدال فلا ينسب له المذمة إلا بتدرج وتدبر قبل الإبطال .

ولك أن تجعلها للانتقال من شيء إلى ما هو أقوى منه في ذلك الغرض لأن النبذ قد يكون بمعنى عدم العمل دون الكفر والأول أظهر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 1 صـ 608.607 ﴾

فائدة

قال أبو حيان :

ولما كان الفريق ينطلق على القليل والكثير ، وأسند النبذ إليه ، كان فيما يتبادر إليه الذهن أنه يحتمل أن يكون النابذون قليلاً ، فبين أن النابذين هم الأكثر ، وصار ذكر الأكثر دليلاً على أن الفريق هنا لا يراد به اليسير منهم ، فكان هذا إضراباً عما يحتمله لفظ الفريق من دلالته على القليل .

والضمير في أكثرهم عائد على الفريق ، أو على جميع بني إسرائيل .

وعلى كلا الاحتمالين ، ذكر الأكثر محكوماً عليه بالنبذ ، أو بعدم الإيمان ، لأن بعضهم آمن ، ومن آمن فما نبذ العهد .

وأجمع المسلمون على أن من كفر بآية من كتاب الله ، أو نقض عهد الله الذي أخذه على

عباده في كتبه ، فهو كافر . انتهى انتهى . اهـ ﴿البحر المحيط حـ 1 صـ 493﴾

ومن فوائد ابن عرفة فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ أَوَكُلَّمَا عَاهَدُواْ عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم . . . ﴾ .

قال ابن عرفة : ذمّ الإنسان على عدم العمل بما كان التزم العَمَلَ به أشد من ذمه على إنكار ما يعلم صحّته .

وقال بعضهم : النّبذ طرح خاص ، وهو عدم الاعتناء بالشيء لحقارته وذمامته وانظر تنبيهات القاضي عياض من العتق الثاني .

قال ابن عرفة : وهذه تسلية له صلى الله عليه وسلم لأنه لما تقدم ذكر إنزال الايات البينات وكفرهم بها عقبه ببيان أن ذلك شأنهم وعادتهم فلا يلحقك بسببه (ضجر) ولا حزن بوجه .

فإن قلت : هل يؤخذ منه أن العهد لا يقبل النقض لأجل ذمهم على نقضه ؟

فالجواب من وجهين : إما بما تقرر في كتاب الإيمان والنذور من أنه في الحكم الشرعي على قسمين : عهد يقبل النّقض ، وعهد لا يقبله ، وهذا من الذي لا يقبله ، وإما بأن الذي وقع فيه الكلام (إنما هو) العهد المطلق الذي هو غير متكرر ، وأما هذا فهو عهد مؤكد متكرر فلا يقبل النقض بوجه فلذلك ذمّوا على نقضه .

فإن قلت : هلا قيل : أَوَكُلَّمَا عَاهَد فريق منهم عهدا نقضه ، لئلا يلزم عليه ذم الجميع بعصيان البعض ؟

فالجواب : أنّ الجميع ذمّوا بسبب رضاهم بفعل البعض وإمّا بأن الذم للفريق الناقض للعهد فقط ، وأتت الآية على هذا الأسلوب لأن نقض العهد من فريق عاهدوهم وغيرهم ، فثبت غيرهم ونقضوا م فاتّسع في الذّم لهم في نقضهم عهدا اختصوا به .

قوله تعالى : ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾

قال ابن عطية : الضمير في " أَكْثَرُهُمْ " إما عائد على بني إسرائيل أو على الفريق النابذين .

وضعفه ابن عرفة لأنه يلزم عليه أن يكون بعض الذين نبذوا العهد مؤمنا ؟ وأجيب باحتمال كون المنبذ راجعا لعدم الإيمان بالنبي صلى الله عليه وسلم فبعضهم (آمن بكتابه) ولم يؤمن بالنبي صلى الله عليه وسلم فقد نبذ العهد (مع أنه مؤمن بكتابه) .

قال ابن عرفة : و " أَكْثَرُهُمْ " إما أن يراد به الفريق ، أو (هو) أعم منه .

ولما كان الفريق يصدق على القليل والكثير بين بالأكثر .

(قيل) لابن عرفة : (عدم) إيمانهم هو نفس نقضهم للعهد فلا يصح أن يكون الأكثر غير مؤمنين والأقل ناقضين للعهد ؟ وأجاب بأنّه يصحّ لأن هؤلاء اليهود منهم من هو متبع لكتابه ومنهم من هو مخالف له .

قال ابن الخطيب : وقيل : المراد بنبذ العهد عدم إيمانهم بالقرآن .

قال : وهذا مردود بأن مادة النبذ تقتضي تمسكهم به قبل ذلك مع أنهم لم يكونوا قط متمسكين بالقرآن .

وأجاب ابن عرفة بأنهم كانوا قابلين للتّمسّك (به) وكانوا قبل البعثة متمسكين (به) لأن كتابهم أخبر به على وفقه بدليل أن من مات منهم قبل ذلك مات مسلما حنيفيا . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عرفة حـ 1 صـ 382.384 ﴾

(300/60)

ومن فوائد صاحب المنار فى الآيات السابقة

قال رحمه الله :

(وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا

وَأُشْرِبُوا فِي
قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ
الْآخِرَةُ عِنْدَ اللهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا
قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا
يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ)

(301/60)

سَبَقَ التَّذْكِيرُ بِاتِّخَاذِ الْعِجْلِ فِي قَوْلِهِ – تَعَالَى – : (وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً) (الْآيَةَ 2
: 51) ثُمَّ أَعَادَهُ هُنَا بِعِبَارَةٍ وَأُسْلُوبٍ آخَرَيْنِ فِي سِيَاقٍ آخَرَ ، أَمَّا اخْتِلَافُ الْعِبَارَةِ
وَالْأُسْلُوبِ فَظَاهِرٌ ، وَأَمَّا السِّيَاقُ فَقَدْ كَانَ أَوَّلًا فِي تَعْدَادِ النِّعَمِ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَيَانِ مَا
قَابَلُوهَا بِهِ مِنَ الْكُفْرَانِ ، وَهُوَ هُنَا فِي ذِكْرِ الْآيَاتِ وَرَدِّ شُبُهَاتِهِمُ الْمَانِعَةِ بِزَعْمِهِمْ مِنَ الْإِيمَانِ
بِالنَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ – فَهُنَاكَ يَقُولُ إِنَّ النِّعَمَ الَّتِي أَسْبَغَهَا اللهُ عَلَيْكُمْ لَمْ يَكُنْ
لَهَا مِنْ شُكْرٍ عِنْدَكُمْ إِلَّا اتِّخَاذُ عِجْلٍ تَعْبُدُونَهُ مِنْ دُونِهِ ، وَهَا هُنَا يَقُولُ إِنَّ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ
عَلَى النُّبُوَّةِ وَالْوَحْدَانِيَّةِ لَمْ تَزِدْكُمْ إِلَّا إِيغَالًا فِي الشِّرْكِ وَانْهِمَاكًا فِي الْوَثَنِيَّةِ ، فَكَيْفَ تَعْتَذِرُونَ
عَنْ عَدَمِ الْإِيمَانِ بِمُحَمَّدٍ بِأَنَّكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ إِلَّا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَهَذَا شَأْنُكُمْ فِيهِ ؟ وَمَجْمُوعُ

الْآيَتَيْنِ يُنْبِئُ بِفَسَادِ قُلُوبِ الْقَوْمِ وَفَسَادِ عُقُولِهِمْ حَتَّى لَا مَطْمَعَ فِي هِدَايَةِ أَكْثَرِهِمْ مِنْ جِهَةِ الْوِجْدَانِ ، وَلَا مِنْ نَاحِيَةِ الْعَقْلِ وَالْجَنَانِ ، وَهَذِهِ الْبَيِّنَاتُ الَّتِي ذَكَرَهَا هَاهُنَا قَدْ كَانَتْ فِي مِصْرَ قَبْلَ الْمِيعَادِ الَّذِي نَزَلَتْ فِيهِ التَّوْرَاةُ ، وَأَمَّا النِّعَمُ الَّتِي ذَكَرَهَا هُنَاكَ فَقَدْ كَانَتْ فِي أَرْضِ الْمِيعَادِ كَمَا تَقَدَّمَ ، وَوَجْهُ الِاتِّصَالِ بَيْنَ هَذِهِ الْآيَةِ وَمَا قَبْلَهَا قَدْ عُلِمَ مِمَّا قُلْنَاهُ وَفِيهِ الْمُقَابَلَةُ

(302/60)

بَيْنَ مُعَامَلَتِهِمْ لِمُوسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ – وَمُعَامَلَتِهِمْ لِلنَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ – إِذْ قَالُوا : (قُلُوبُنَا غُلْفٌ) وَادَّعَوْا أَنَّهُمْ مَأْمُورُونَ بِأَلَّا يُؤْمِنُوا إِلَّا بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْهِمْ خَاصَّةً ، وَقَدْ عُلِمَ مِنْ هَذِهِ

الْحُجَجِ كُلِّهَا بُطْلَانُ شُبَهِهِمْ وَكَذِبُهُمْ فِي دَعْوَاهُمْ ، وَأَنَّهُ لَا عُذْرَ لَهُمْ فِي تَرْكِ الْإِيمَانِ .

قَالَ : (وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ) أَيْ مِنْ بَعْدِ هَذَا الْمَجِيءِ لَا مِنْ بَعْدِ مُوسَى ، وَالْمُرَادُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ عُذْرٌ فِي ذَلِكَ الِاتِّخَاذِ ؛ فَإِنَّهُ بَعْدَ بُلُوغِ الدَّعْوَةِ وَقِيَامِ الْحُجَّةِ ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ : (وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ) أَيْ ظُلْمٌ أَعْظَمُ مِنَ الشِّرْكِ بِاللهِ – تَعَالَى – ؟ وَلَا تَغْفُلْ عَنِ الْإِيجَازِ فِي قَوْلِهِ : (مِنْ بَعْدِهِ) ، وَحَذْفِ مَفْعُولِ (اتَّخَذْتُمْ) أَيِ اتَّخَذْتُمُوهُ إِلَهًا .

ثُمَّ ذَكَّرَهُمْ هُنَا أَيْضًا أَخْذَ الْمِيثَاقِ وَرَفْعَ الطُّورِ كَمَا ذَكَّرَهُمْ بِهِ فِي آيَةٍ تَقَدَّمَتْ ، وَقَدْ قَالَ

هُنَاكَ : (خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ) وَقَالَ هُنَا : (خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا) وَأَمَرَهُمْ فِي تِلْكَ بِالْحِفْظِ ، وَأَمَرَهُمْ فِي هَذِهِ بِالْفَهْمِ وَالطَّاعَةِ . وَقُلْنَا فِي تَفْسِيرِ (وَاذْكُرُوا) : إِنَّ الْمُرَادَ الْحَثُّ بِهِ عَلَى الْعَمَلِ ، فَالْعِبَارَتَانِ تَتَلَاقَيَانِ فِي الْمَعْنَى وَالْمُرَادِ .

(303/60)

وَفِي اخْتِلَافِ النَّظْمِ وَالْأُسْلُوبِ حُجَّةٌ عَلَى الَّذِينَ تَوَهَّمُوا أَنَّ إِعْجَازَ الْقُرْآنِ فِي الْبَلَاغَةِ إِنَّمَا هُوَ فِي السَّبْقِ إِلَى الْعِبَارَةِ الَّتِي يَتَأَدَّى بِهَا الْمَعْنَى عَلَى أَكْمَلِ الْوُجُوهِ الْمُمْكِنَةِ فِي نَظْمِ الْكَلِمَاتِ الْعَرَبِيَّةِ .

رَأَى هَؤُلَاءِ أَنَّ الْمَعْنَى الَّذِي يُفِيدُ عِلْمًا بِشَيْءٍ مَا ، لَهُ كَلِمَاتٌ فِي اللُّغَةِ تُؤَدِّيهِ بِوُجُوهٍ مِنَ النَّظْمِ ، وَأَنَّ الْكَلِمَاتِ وَالْوُجُوهَ مَحْدُودَةٌ ، فَمَنْ سَبَقَ إِلَى أَتَمِّهَا أَدَاءً وَأَبْلَغِهَا تَأْثِيرًا ، كَانَ كَالسَّابِقِ إِلَى انْتِقَاءِ أَكْرَمِ جَوْهَرَةٍ مِنْ طَائِفَةٍ مِنَ الْجَوَاهِرِ أَمَامَهُ ، أَوْ إِلَى أَنْفَسِ عِقْدٍ وَأَحْسَنِهِ نَظْمًا مِنْ عُقُودٍ عُرِضَتْ عَلَيْهِ .

مِثَالُ ذَلِكَ قَوْلُهُ – تَعَالَى – : (وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ) (40 : 28) قَالَ عُلَمَاءُ هَذَا الشَّأْنِ : إِنَّهُ يَتَأَلَّفُ مِنْ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ عَشَرَةُ ضُرُوبٍ مِنَ النَّظْمِ

بِالتَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ ، مَا مِنْ ضَرْبٍ مِنْهَا إلَّا وَهُوَ مُنْتَقَدٌ بِالْخَطَلِ أَوْ إيهَامِ خِلَافِ الْمُرَادِ أَوِ الْخَطَأِ فِي الْإِعْرَابِ إلَّا نَظْمَ الْآيَةِ ، فَهُوَ الَّذِي يُؤَدِّي الْمَعْنَى عَلَى أَكْمَلِ الْوُجُوهِ ، وَلَا يَتَأَتَّى نَظْمٌ آخَرُ يُؤَدِّي مُؤَدَّاهُ . وَزَعَمَ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّ هَذَا الْإِعْجَازَ لَيْسَ إلَهِيًّا .

(304/60)

لَوْ أُخِذَ مَا قَالُوهُ مُسَلَّمًا عَلَى إطْلَاقِهِ ، لَكَانَ لَنَا أَنْ نَقُولَ : إنَّهُ لَيْسَ فِي قُدْرَةِ أَحَدٍ مِنَ الْبَشَرِ أَنْ يَأْتِيَ بِكَلَامٍ طَوِيلٍ يَتَجَلَّى لَهُ فِي كُلِّ جُمْلَةٍ مِنْهُ جَمِيعُ الْكَلِمَاتِ الَّتِي تَدْخُلُ فِي تَأْدِيَةِ الْمَعْنَى الْمُرَادِ لَهُ ، وَجَمِيعُ ضُرُوبِ النَّظْمِ ، وَوُجُوهُ الْأَسَالِيبِ الْمُمْكِنَةِ فِي تَرْتِيبِ تِلْكَ الْكَلِمَاتِ وَتَأْلِيفِهَا فَيَخْتَارُ الْأَحْسَنَ وَالْأَبْلَغَ مِنْهَا ، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ هَذَا فِي قُدْرَةِ

(305/60)

الْبَشَرِ – كَمَا هُوَ ظَاهِرٌ – فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مَنْ جَاءَ بِهِ مُؤَيَّدًا بِعِنَايَةٍ مِنَ اللَّهِ – تَعَالَى – عَلَى أَنَّنَا لَا نُسَلِّمُ بِمَا قَالُوهُ عَلَى إطْلَاقِهِ ، فَإِنَّهُ لَا يَتَّجِهُ إلَّا فِي أَلْفَاظٍ مُعَيَّنَةٍ كَأَلْفَاظِ آيَةِ (وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ) . . . إلَخْ ، وَإِذَا نَظَرْنَا إلَى الْمَعَانِي لَا سِيَّمَا الْكُلِّيَّةِ تَرَاهَا تَتَجَلَّى فِي

صُورٍ كَثِيرَةٍ مِنَ النَّظْمِ الَّذِي تَخْتَلِفُ أَلْفَاظُهُ ، وَأَمَامُنَا الْآنَ مَعْنَى الْآيَةِ الَّتِي نُفَسِّرُهَا ، وَهُوَ أَنَّ اللهَ أَخَذَ الْعَهْدَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِأَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، ، وَأَنْ يَعْمَلُوا بِشَرِيعَتِهِ وَوَصَايَاهُ ، وَكَانَ أَخْذُ هَذَا الْعَهْدِ فِي مَوْقِفِ رَهْبَةٍ وَخُشُوعٍ يُعِينُ عَلَى أَخْذِهِ بِالْجِدِّ وَالْعَزِيمَةِ ، إِذْ كَانَ الْجَبَلُ مَرْفُوعًا فَوْقَهُمْ بِصِفَةٍ لَمْ يَعْهَدُوهَا حَتَّى ظَنُّوا أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَقَعَ بِهِمْ ، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَلْبَثُوا أَنْ نَقَضُوا هَذَا الْمِيثَاقَ وَتَرَكُوا الْعَمَلَ بِهِ ، وَعَبَدُوا الْعِجْلَ الَّذِي صَاغُوهُ مِنْ حُلِيِّهِمْ بِأَيْدِيهِمْ عَنْ حُبٍّ مُتَمَكِّنٍ مِنَ النَّفْسِ وَغَالِبٍ عَلَى الْعَقْلِ وَالْحِسِّ ، وَقَدْ ذَكَرَ اللهُ – تَعَالَى – هَذَا الْمَعْنَى فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ غَيْرَ مَرَّةٍ وَلَكِنْ بِعِبَارَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ كَالْآيَةِ الَّتِي تَقَدَّمَتْ ، وَذَكَرَ هُنَاكَ أَنَّهُمْ تَوَلَّوْا عَنِ الْمِيثَاقِ بَعْدَ الْأَمْرِ بِحِفْظِهِ وَالْعَمَلِ بِهِ رَجَاءَ التَّقْوَى ، وَكَآيَةِ الْأَعْرَافِ (وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ) (7 : 171) وَتَقَدَّمَتِ الْإِشَارَةُ إِلَيْهَا هُنَاكَ ، وَكِلَاهُمَا

غَايَةٌ فِي الْبَلَاغَةِ .

وَذَكَرَهُ هُنَا بِنَظْمٍ آخَرَ تَنْتَهِي إِلَيْهِ الْبَلَاغَةُ فِي سِيَاقٍ آخَرَ فَقَالَ : (وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا) ، ثُمَّ الْتَفَتَ عَنْ خِطَابِ الْحَاضِرِينَ إِلَى الْحِكَايَةِ عَنِ الْغَابِرِينَ فَقَالَ : (قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا) أَيْ أَنَّهُمْ قَبِلُوا الْمِيثَاقَ وَفَهِمُوهُ ، وَلَكِنَّهُمْ

لَمْ يَعْمَلُوا بِهِ بَلْ خَالَفُوهُ تَعَنُّتًا وَتَأَوُّلًا وَلَيْسَ الْمُرَادُ أَنَّهُمْ نَطَقُوا بِهَاتَيْنِ الْكَلِمَتَيْنِ (سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا) بَلِ الْمُرَادُ أَنَّهُمْ بِمَثَابَةِ مَنْ قَالَ ذَلِكَ ، وَمِثْلُ هَذَا التَّجَوُّزِ مَعْرُوفٌ فِي عَهْدِ الْعَرَبِ وَفِي هَذَا الْعَهْدِ ، يُعَبِّرُونَ عَنْ حَالِ الْإِنْسَانِ وَغَيْرِهِ بِقَوْلٍ يَحْكِيهِ عَنْ نَفْسِهِ حَتَّى حُكِيَ مِثْلُ ذَلِكَ عَنِ الْحَيَوَانَاتِ وَالطُّيُورِ وَعَنِ الْجَمَادَاتِ أَيْضًا ، وَهُوَ أُسْلُوبٌ أَظُنُّ أَنَّهُ يُوجَدُ فِي كُلِّ لُغَةٍ أَوْ فِي اللُّغَاتِ الرَّاقِيَةِ فَقَطْ .

ثُمَّ ذَكَرَ أَقْبَحَ أَمْثِلَةِ هَذَا الْعِصْيَانِ بِعِبَارَةٍ مُدْهِشَةٍ فِي بَلَاغَتِهَا فَقَالَ : (وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ) ، هَذِهِ الِاسْتِعَارَةُ مِنْ فَرَائِدِ الِاسْتِعَارَاتِ يُتَمَثَّلُ بِهَا عِنْدَ ذِكْرِ بَلَاغَةِ الْقُرْآنِ .

وَإِشْرَابُ الشَّيْءِ الشَّيْءَ : مُخَالَطَتُهُ إِيَّاهُ وَامْتِزَاجُهُ بِهِ

(307/60)

، يُقَالُ : بَيَاضٌ مُشَرَّبٌ بِحُمْرَةٍ ، أَوْ هُوَ مِنَ الشُّرْبِ كَأَنَّ الشَّيْءَ الْمَحْبُوبَ شَرَابٌ يُسَاغُ ، فَهُوَ يَسْرِي فِي قَلْبِ الْمُحِبِّ وَيُمَازِجُهُ كَمَا يَسْرِي الشَّرَابُ الْعَذْبُ الْبَارِدُ فِي لَهَاتِهِ . وَقَدْ قَدَّرَ الْأَكْثَرُونَ هُنَا مُضَافًا مَحْذُوفًا ، فَقَالُوا : الْمُرَادُ " حُبُّ الْعِجْلِ "

وَذَهَبَ بَعْضُ الْجَامِدِينَ عَلَى الظَّوَاهِرِ إِلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالشُّرْبِ هُنَا حَقِيقَتُهُ ، وَزَعَمُوا أَنَّ مُوسَى لَمَّا سَحَقَ الْعِجْلَ وَذَرَّاهُ فِي الْيَمِّ طَفِقُوا يَشْرَبُونَ الْمَسْحُوقَ مَعَ الْمَاءِ ، وَغَفَلَ

صَاحِبُ هَذَا الزَّعْمِ عَنْ قَوْلِهِ – تَعَالَى – : (فِي قُلُوبِهِمْ) ، وَالشَّرَابُ الْحَقِيقِيُّ لَا يَكُونُ فِي الْقَلْبِ ، وَالشُّرْبُ غَيْرُ الْإِشْرَابِ .

وَلِبَعْضِ الْمُفَسِّرِينَ مَزَاعِمُ وَقِصَصٌ فِي الْعِجْلِ لَا يَدُلُّ عَلَيْهَا وَحْيٌ مُنَزَّلٌ وَلَا تَارِيخٌ صَحِيحٌ يُنْقَلُ ، وَالْبَاءُ فِي قَوْلِهِ (بِكُفْرِهِمْ) لِلسَّبَبِيَّةِ أَيْ : سَبَبُ هَذَا الْحُبِّ الشَّدِيدِ لِعِبَادَةِ الْعِجْلِ هُوَ مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الْوَثَنِيَّةِ فِي مِصْرَ ، فَقَدْ رَسَخَ الْكُفْرُ فِي قُلُوبِهِمْ بِطُولِ الزَّمَنِ ، وَوَرِثَهُ الْأَبْنَاءُ عَنِ الْآبَاءِ .

(308/60)

وَأَمَّا السِّيَاقُ الَّذِي وَرَدَتْ فِيهِ هَذِهِ الْآيَةُ بِهَذَا النَّظْمِ وَالْأُسْلُوبِ الْمُخَالِفَيْنِ لِأُسْلُوبِ تِلْكَ الْآيَةِ مَعَ الِاتِّحَادِ فِي الْمَعْنَى ، فَهُوَ إِقَامَةُ الْحُجَّةِ عَلَى الْيَهُودِ الَّذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا بِالنَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ – وَرَدِّ زَعْمِهِمْ أَنَّهُمْ مُؤْمِنُونَ بِشَرِيعَةٍ لَا يُطَالِبُهُمُ اللهُ بِالْإِيمَانِ بِغَيْرِهَا كَمَا قُلْنَا فِي الَّتِي قَبْلَهَا ؛ وَلِذَلِكَ خَتَمَ الْآيَةَ بِقَوْلِهِ – تَعَالَى – مُخَاطِبًا لِلنَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : (قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) أَيْ إِنْ صَحَّ زَعْمُكُمْ أَنَّكُمْ مُؤْمِنُونَ بِشَرِيعَةٍ – وَالْإِيمَانُ الْحَقِيقِيُّ يَقْتَضِي الْعَمَلَ بِمَا لَهُ مِنَ السُّلْطَانِ عَلَى الْإِرَادَةِ – فَبِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ ذَلِكَ الْإِيمَانُ مِنَ الْأَعْمَالِ الَّتِي مِنْهَا عِبَادَةُ الْعِجْلِ ، وَقَتْلُ الْأَنْبِيَاءِ ، وَنَقْضُ الْمِيثَاقِ . لَكِنَّ هَذَا

الزَّعْمَ مَشْكُوكٌ فِيهِ ، بَلْ يَصِحُّ الْقَطْعُ بِعَدَمِهِ بِدَلِيلِ الْأَعْمَالِ الَّتِي يَسْتَحِيلُ أَنْ تَكُونَ أَثَرًا لَهُ .

وَلَا يَنْسَى الْقَارِئُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ رَبْطِ الْإِيمَانِ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ - تَعَالَى - : (بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ) (2 : 81) الْآيَةَ .

(309/60)

هَذِهِ حُجَّةٌ عَلَيْهِمْ بِطَبِيعَةِ الْإِيمَانِ وَأَثَرِهِ فِي عَمَلِ الْمُؤْمِنِ . وَتَلِيهَا حُجَّةٌ أُخْرَى تَتَعَلَّقُ بِفَائِدَةِ الْإِيمَانِ وَمَثُوبَتِهِ فِي الْحَيَاةِ الْأُخْرَى ، وَهِيَ قَوْلُهُ - عَزَّ وَجَلَّ - : (قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) . الْمُرَادُ مِنَ الدَّارِ الْآخِرَةِ ثَوَابُهَا وَنَعِيمُهَا ؛ لِأَنَّ حَالَ الْإِنْسَانِ فِيهَا لَا يَخْلُو مِنْ أَحَدِ الْأَمْرَيْنِ ؛ الْمَثُوبَةِ بِالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ ، أَوِ الْعُقُوبَةِ بِالْعَذَابِ الْأَلِيمِ ، وَاسْتَغْنَى

عَنِ التَّصْرِيحِ بِالنَّعِيمِ أَوِ الثَّوَابِ بِقَوْلِهِ (لَكُمْ) فَإِنَّهُ يُشْعِرُ بِالْمَحْذُوفِ ، وَإِنَّمَا أَوْجَزَ هُنَا فِي خِطَابِ الْيَهُودِ ؛ لِأَنَّهُ يَحْكِي عَنْ شَيْءٍ يَعْرِفُونَهُ فِي أَنْفُسِهِمْ ، وَقَدْ أَوْضَحَ الْمُرَادَ بِقَوْلِهِ : (خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ) وَالْخَالِصَةُ : هِيَ السَّالِمَةُ مِنَ الشَّوَائِبِ .

(310/60)

(قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ) : فَسَّرَ مُفَسِّرُنَا (الْجَلَالُ) الْخَالِصَةَ بِالْخَاصَّةِ . وَقَالُوا : إِنَّهُ اسْتِعْمَالٌ لَمْ يُعْهَدْ فِي الْكَلَامِ الْفَصِيحِ ، وَالتَّخْصِيصُ مَفْهُومٌ مِنْ قَوْلِهِ : (مِنْ دُونِ النَّاسِ) يَقُولُ : إِنْ صَحَّتْ دَعْوَاكُمْ وَصَدَقَ قَوْلُكُمْ إِنَّهُ لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا ، وَأَنَّكُمْ شَعْبُ اللهِ الْمُخْتَارُ ؛ فَلَنْ تَمَسَّكُمُ النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ لَا تَزِيدُ عَلَى أَيَّامِ عِبَادَةِ الْعِجْلِ وَلَا تَتَجَاوَزُ عَابِدِيهِ ، فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ الَّذِي يُوصِلُكُمْ إِلَى ذَلِكَ النَّعِيمِ الْخَالِصِ الدَّائِمِ ، لَا مُنَازِعَ لَكُمْ فِيهِ وَلَا مُزَاحِمَ ، وَإِنْ لَمْ تَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ فَمَا أَنْتُمْ بِصَادِقِينَ ؛ إِذْ لَا يُعْقَلُ أَنْ يَرْغَبَ الْإِنْسَانُ عَنِ السَّعَادَةِ وَيَخْتَارَ الشَّقَاءَ عَلَيْهَا .

: وَالتَّمَنِّي هُوَ ارْتِيَاحُ النَّفْسِ وَتَشَوُّفُهَا إِلَى الشَّيْءِ تَوَدُّهُ وَتُحِبُّ الْمَصِيرَ إِلَيْهِ .

وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ تَفْسِيرُ التَّمَنِّي بِالسُّؤَالِ وَالطَّلَبِ ، وَهُوَ غَيْرُ مَعْرُوفٍ عَنْ غَيْرِهِ مِنَ الْعَرَبِ . وَلَعَلَّهُ فَسَّرَهُ بِاللَّازِمِ ؛ فَإِنَّ مَنْ تَمَنَّى شَيْئًا طَلَبَهُ بِالْقَوْلِ أَوِ الْفِعْلِ أَوْ بِهِمَا . وَقَدْ رُوِيَ عَنْ كَثِيرٍ مِنَ الصَّحَابَةِ – عَلَيْهِمْ رِضْوَانُ اللهِ – تَمَنِّي الْمَوْتِ عِنْدَ الْقِتَالِ وَبَعْدَ الْقِتَالِ ، يُعَبِّرُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ عَمَّا فِي نُفُوسِهِمْ ، وَمَا هُوَ إِلَّا صِدْقُ الْإِيمَانِ بِمَا أَعَدَّ اللهُ لِلْمُؤْمِنِينَ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ

.

أَقُولُ : تَفْسِيرُ التَّمَنِّي بِلَازِمِهِ الْقَوْلِيِّ كَمَا نُقِلَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَوِ الْعَمَلِيِّ كَالتَّعَرُّضِ لِلْقَتْلِ فِي سَبِيلِ الْإِيمَانِ كَمَا نُقِلَ عَنْ غَيْرِهِ يَدْفَعُ إِيرَادَ مَنْ يَقُولُ : إِذَا كَانَ الْمُرَادُ بِالتَّمَنِّي تَمَنِّيَ النَّفْسِ فَلَا يَظْهَرُ صِدْقُ قَوْلِهِ – تَعَالَى – فِي الْآيَةِ الَّتِي بَعْدَ هَذِهِ الْآيَةِ : (وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ) وَقَدْ ظَهَرَ صِدْقُهَا عَلَى الْوَجْهِ الْأَوَّلِ ، فَلَمْ يَتَمَنَّ أَحَدٌ مِنَ الْمُخَاطَبِينَ الْمَوْتَ ، وَقَدْ وَرَدَ أَنَّهُمْ لَوْ تَمَنَّوُا الْمَوْتَ لَمَاتُوا – رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ .

وَمَا قَالَهُ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ فِي تَفْسِيرِ التَّمَنِّي بِحَقِيقَتِهِ يَدْفَعُ كُلَّ إِيرَادٍ ؛ فَقَدْ قَالَ : إِنَّ الْكَلَامَ حُجَّةٌ عَلَى مُدَّعِي الْإِيمَانِ ، وَاسْتِحْقَاقَ مَا أَعَدَّهُ اللهُ لِأَهْلِهِ فِي الْآخِرَةِ تُقْنِعُهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ بِأَنَّهُمْ إِمَّا صَادِقُونَ فِي دَعْوَاهُمْ ، وَذَلِكَ إِذَا كَانُوا يَتَمَنَّوْنَ فِي أَنْفُسِهِمُ الْمَوْتَ وَالْوُصُولَ إِلَى الدَّارِ الْآخِرَةِ ، وَيَبْذُلُونَ أَرْوَاحَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ بِارْتِيَاحٍ إِذَا كَانَ حِفْظُ الْحَقِّ يَقْتَضِي بَذْلَهَا ، وَإِمَّا كَاذِبُونَ فِيهَا ، وَذَلِكَ إِذَا كَانُوا شَدِيدِي الْحِرْصِ عَلَى هَذِهِ الْحَيَاةِ . وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِهِ الْحُجَّةَ الْإِلْزَامِيَّةَ أَمَامَ النَّاسِ ؛ وَلِذَلِكَ كَانَتِ الْعِبْرَةُ فِي الْآيَةِ عَامَّةً ، فَهِيَ وَارِدَةٌ فِي سِيَاقِ الِاحْتِجَاجِ عَلَى الْيَهُودِ ، وَيَجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَتَّخِذُوهَا مِيزَانًا يَزِنُونَ بِهِ دَعْوَاهُمُ ، الْيَقِينَ فِي الْإِيمَانِ وَالْقِيَامَ بِحُقُوقِهِ ؛ لِأَنَّ اللهَ أَنْزَلَهَا لِذَلِكَ .

لَوْ كَانَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ : (وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا) أَنَّهُمْ لَمْ يَقُولُوا : يَا لَيْتَنَا نَمُوتُ ، أَوْ كَلِمَةً هَذَا مَعْنَاهَا لَكَانَ الْاحْتِجَاجُ عَلَيْهِمْ إنَّمَا هُوَ بِالتَّعْجِيزِ عَنْ لَفْظٍ يُحَرِّكُونَ بِهِ أَلْسِنَتَهُمْ ، وَلَكَانَ ذَلِكَ مِنَ الْخَوَارِقِ الْكَوْنِيَّةِ ، وَلَمَا صَحَّ تَعْلِيلُ نَفْيِ التَّمَنِّي بِقَوْلِهِ : (بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ) فَإِنَّ هَذَا التَّعْلِيلَ صَرِيحٌ بِأَنَّ الْمَانِعَ لَهُمْ مِنْ تَمَنِّي الْمَوْتِ هُمْ أَنَّهُمْ يَعْرِفُونَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ عَاصُونَ مُقْتَرِفُونَ لِلذُّنُوبِ الَّتِي يَسْتَحِقُّونَ عَلَيْهَا الْعُقُوبَةَ ، لَا أَنَّ أَلْسِنَتَهُمْ عَاجِزَةٌ عَنِ النُّطْقِ بِكَلِمَةٍ تَدُلُّ عَلَى تَمَنِّي ، وَإِنْ كَذِبًا – وَكَثِيرًا مَا كَانُوا يَكْذِبُونَ – وَقَدْ أَسْنَدَ الْفِعْلَ إلَى الْأَيْدِي ؛ لِأَنَّ أَكْثَرَ الْأَعْمَالِ تُزَاوَلُ بِهَا ؛ وَلِذَلِكَ جَرَى عُرْفُ اللُّغَةِ عَلَى جَعْلِهَا كِنَايَةً عَنِ الشَّخْصِ بِاعْتِبَارِ أَنَّهُ عَامِلٌ مُطْلَقًا ، وَقَدْ خَتَمَ الْآيَةَ بِقَوْلِهِ : (وَاَللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ) لِيُبَيِّنَ أَنَّهُمْ ظَالِمُونَ فِي حُكْمِهِمْ بِأَنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ خَالِصَةٌ لَهُمْ ، وَأَنَّ غَيْرَهُمْ مِنَ الشُّعُوبِ مَحْرُومٌ مِنْهَا ، وَأَنَّ كُلَّ مَنْ كَانَ مِثْلَهُمْ مِفْتَانًا عَلَى اللَّهِ – تَعَالَى – فَهُوَ ظَالِمٌ مِثْلُهُمْ .

(313/60)

ثُمَّ بَيَّنَ حَقِيقَةَ حَالِهِمْ فِي الْإِخْلَادِ إلَى الْأَرْضِ وَالْفَنَاءِ فِي حُبِّ الْبَقَاءِ ، وَأَنَّهُمْ لَيْسُوا عَلَى بَيِّنَةٍ مِمَّا يَدَّعُونَ ، وَلَا ثِقَةَ لَهُمْ بِأَنْفُسِهِمْ فِيمَا يَزْعُمُونَ ، فَقَالَ : (وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى

حَيَاةٍ) كَذَلِكَ كَانُوا وَكَذَلِكَ هُمُ الْآنَ . وَالظَّاهِرُ مِنْ سِيرَتِهِمْ وَنِظَامِ مَعِيشَتِهِمْ أَنَّهُمْ كَذَلِكَ يَكُونُونَ إِلَى مَا شَاءَ اللهُ ، وَإِنْ كَانَ الظَّاهِرُ أَنَّ الْكَلَامَ خَاصٌّ بِمَنْ كَانُوا فِي عَصْرِ التَّنْزِيلِ ، يُحَاجُّهُمُ النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَيُشَاغِبُونَهُ وَيُجَاحِدُونَهُ ، مُعْتَزِّينَ بِشَعْبِهِمْ مُغْتَرِّينَ بِكِتَابِهِمْ ، بَلْ ذَهَبَ

بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ إِلَى أَنَّ الْمُرَادَ عُلَمَاؤُهُمْ فَقَطْ . وَنَكَّرَ الْحَيَاةَ لِلتَّحْقِيرِ ، كَأَنَّهُ يَقُولُ : إِنَّهُمْ شَدِيدُو الْحِرْصِ عَلَى الْحَيَاةِ وَإِنْ كَانَتْ فِي بُؤْسٍ وَشَقَاءٍ . ثُمَّ خَصَّ طَائِفَةً مِنَ النَّاسِ بِالذِّكْرِ ، عُرِفُوا بِشِدَّةِ الْحِرْصِ عَلَى الْحَيَاةِ وَتَمَنِّي طُولِ الْبَقَاءِ فِي الدُّنْيَا ؛ لِأَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِحَيَاةٍ بَعْدَهَا ، فَقَالَ : (وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا) أَيْ أَنَّهُمْ أَحْرَصُ النَّاسِ مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ حَتَّى

(314/60)

مِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ، ثُمَّ بَيَّنَ مِثَالًا مِنْ هَذَا الْحِرْصِ مُسْتَأْنَفًا فَقَالَ : (يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ) أَيْ يَتَمَنَّى لَوْ يُعَمِّرُهُ اللهُ وَيُبْقِيهِ أَلْفَ سَنَةٍ ، أَوْ أَكْثَرَ ، فَإِنَّ لَفْظَ الْأَلْفِ عِنْدَ الْعَرَبِ مُنْتَهَى أَسْمَاءِ الْعَدَدِ ، فَيُعَبَّرُ بِهِ عَنِ الْمُبَالَغَةِ فِي الْكَثْرَةِ ؛ لِأَنَّهُ يُعْرَفُ مِنْ نَفْسِهِ أَنَّهُ مُخَالِفٌ لِكِتَابِهِ ، وَيَتَوَقَّعُ سَخَطَ اللهِ وَعِقَابَهُ فَيَرَى أَنَّ الدُّنْيَا عَلَى مَا فِيهَا مِنَ الْمُنَغِّصَاتِ خَيْرٌ لَهُ مِنَ الْآخِرَةِ وَمَا يَتَوَقَّعُهُ فِيهَا . قَالَ – تَعَالَى – : (وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ) أَيْ وَمَا تَعْمِيرُهُ

الطَّوِيلُ بِمُزَحْزِحِهِ ، أَيْ مُنَحِّيهِ وَمُبْعِدُهُ عَنِ الْعَذَابِ الْمُعَدِّ لَهُ وَلِأَمْثَالِهِ ، فَإِنَّهُ مَيِّتٌ مَهْمَا طَالَ عُمُرُهُ ، وَكُلُّ مَا لَهُ حَدٌّ فَهُوَ مُنْتَهٍ إِلَيْهِ (وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ) لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ مِنْ أَمْرِهِمْ ، وَلَوْ عَرَفُوهُ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ لَعَلِمُوا أَنَّ طُولَ الْعُمُرِ لَا يُخْرِجُهُمْ مِنْ قَبْضَتِهِ وَلَا يُنْجِيهِمْ مِنْ عُقُوبَتِهِ ؛ فَإِنَّ الْمَرْجِعَ إِلَيْهِ ، وَالْأَمْرَ كُلَّهُ بِيَدَيْهِ .

وَمِنْ مَبَاحِثِ اللَّفْظِ أَنَّ الضَّمِيرَ فِي قَوْلِهِ : (وَمَا هُوَ) مُبْهَمٌ يُفَسِّرُهُ مَا بَعْدَهُ كَمَا اخْتَارَهُ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ وَأَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ عَلَى أَنَّ "مَا" حِجَازِيَّةٌ وَالضَّمِيرَ الْعَائِدَ عَلَى (أَحَدُهُمْ) اسْمُهَا ، وَ (بِمُزَحْزِحِهِ) خَبَرُهَا ، وَالْبَاءُ زَائِدَةٌ فِي الْإِعْرَابِ ، وَ (أَنْ يُعَمَّرَ) فَاعِلُ مُزَحْزِحِهِ .

(315/60)

(قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

الْكَلَامُ مُتَّصِلٌ بِمَا قَبْلَهُ مِنْ ذِكْرِ تَعِلَّاتِ الْيَهُودِ وَاعْتِذَارِهِمْ عَنْ عَدَمِ الْإِيمَانِ بِالنَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَبِمَا جَاءَ بِهِ مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى ، زَعَمُوا أَنَّهُمْ مُؤْمِنُونَ بِكِتَابٍ وَلَا حَاجَةَ لَهُمْ

بِهِدَايَةٍ فِي غَيْرِهِ ، فَاحْتَجَّ عَلَيْهِمْ بِمَا يَنْقُضُ دَعْوَاهُمْ ، وَزَعَمُوا أَنَّهُمْ نَاجُونَ فِي الْآخِرَةِ عَلَى كُلِّ حَالٍ ؛ لِأَنَّهُمْ شَعْبُ اللهِ وَأَبْنَاؤُهُ ، فَأَبْطَلَ زَعْمَهُمْ ، ثُمَّ ذَكَرَ لَهُمْ تَعِلَّةً أُخْرَى أَغْرَبَ مِمَّا سَبَقَهَا ، وَفَنَّدَهَا كَمَا فَنَّدَ مَا قَبْلَهَا ، وَهِيَ أَنَّ جِبْرِيلَ الَّذِي يَنْزِلُ بِالْوَحْيِ عَلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - عَدُوُّهُمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ بِوَحْيٍ يَجِيءُ هُوَ بِهِ . وَقَدْ جَاءَ فِي أَسْبَابِ النُّزُولِ رِوَايَاتٌ عَنْهُمْ فِي ذَلِكَ .

(316/60)

مِنْهَا : أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ صُورِيَّا مِنْ عُلَمَائِهِمْ سَأَلَ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَنِ الْمَلَكِ الَّذِي يَنْزِلُ عَلَيْهِ بِالْوَحْيِ فَقَالَ : هُوَ جِبْرِيلُ ، فَزَعَمَ أَنَّهُ عَدُوُّ الْيَهُودِ ، وَذَكَرَ مِنْ عَدَاوَتِهِ أَنَّهُ أَنْذَرَهُمْ خَرَابَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ فَكَانَ ، وَمِنْهَا : أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - دَخَلَ مِدْرَاسَهُمْ ، فَذَكَرَ جِبْرِيلَ ، فَقَالُوا : ذَاكَ عَدُوُّنَا ، يُطْلِعُ مُحَمَّدًا عَلَى أَسْرَارِنَا ، وَأَنَّهُ صَاحِبُ كُلِّ خَسْفٍ وَعَذَابٍ ، وَمِيكَائِيلُ صَاحِبُ الْخِصْبِ وَالسِّلْمِ . . . إِلَخْ ، وَهَذَا الْقَوْلُ هُرَاءٌ ، وَخَطَلُهُ بَيِّنٌ ، وَإِنَّمَا عُنِيَ الْقُرْآنُ بِذِكْرِهِ وَرَدِّهِ ؛ لِأَنَّهُ مُؤْذِنٌ بِتَعَنُّتِهِمْ وَعِنَادِهِمْ ، وَشَاهِدٌ عَلَى فَسَادِ تَصَوُّرِهِمْ وَعَدَمِ تَدَبُّرِهِمْ ؛ لِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَانُوا يَنْتَظِرُونَ مَا يَقُولُ أَهْلُ الْكِتَابِ فِيهِ أَنَّهُ لَا قِيمَةَ لِأَقْوَالِهِمْ وَلَا اعْتِدَادَ بِمِرَائِهِمْ وَجِدَالِهِمْ .

(317/60)

قَالَ – تَعَالَى – : (قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ) أَيْ قُلْ لَهُمْ أَيُّهَا الرَّسُولُ حِكَايَةً عَنِ اللهِ – تَعَالَى – : مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ ، فَإِنَّ شَأْنَ جِبْرِيلَ كَذَا ؛ فَهُوَ إِذًا عَدُوٌّ لِوَحْيِ اللهِ الَّذِي يَشْمَلُ التَّوْرَاةَ وَغَيْرَهَا وَلِهِدَايَةِ اللهِ – تَعَالَى – لِخَلْقِهِ وَبُشْرَاهُ لِلْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا يَأْتِي فِي بَيَانِ ذَلِكَ . قَالَ شَيْخُنَا فِي تَقْيِيدِ تَنْزِيلِهِ (بِإِذْنِ اللهِ) : وَإِذَا كَانَ يُنَاجِي رُوحَكَ وَيُخَاطِبُ قَلْبَكَ بِإِذْنِ اللهِ لَا افْتِيَاتًا مِنْ نَفْسِهِ ، فَعَدَاوَتُهُ لَا يَصِحُّ أَنْ تَصُدَّ عَنِ الْإِيمَانِ بِكَ ، وَلَيْسَ لِلْعَاقِلِ أَنْ يَتَّخِذَهَا تَعِلَّةً وَيَنْتَحِلَهَا عُذْرًا ، فَإِنَّ الْقُرْآنَ مِنْ عِنْدِ اللهِ لَا مِنْ عِنْدِهِ . فَقَوْلُهُ : (بِإِذْنِ اللهِ) حُجَّةٌ أُولَى عَلَيْهِمْ ، ثُمَّ قَالَ : (مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ) أَيْ : حَالَ كَوْنِهِ مُوَافِقًا لِلْكُتُبِ الَّتِي تَقَدَّمَتْهُ فِي الْأُصُولِ الَّتِي تَدْعُو إِلَيْهَا مِنَ التَّوْحِيدِ وَاتِّبَاعِ الْحَقِّ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ ، وَمُطَابِقًا لِمَا فِيهَا مِنَ الْبِشَارَاتِ بِالنَّبِيِّ الَّذِي يَجِيءُ مِنْ أَبْنَاءِ إِسْمَاعِيلَ ، كَأَنَّهُ يَقُولُ : فَآمِنُوا بِهِ لِهَذِهِ الْمُطَابَقَةِ وَالْمُوَافَقَةِ ، لَا لِأَنَّ جِبْرِيلَ وَاسِطَةٌ فِي تَبْلِيغِهِ وَتَنْزِيلِهِ ، وَهَذِهِ حُجَّةٌ ثَانِيَةٌ ، ثُمَّ عَزَّزَهَا بِثَالِثَةٍ وَهِيَ قَوْلُهُ : (وَهُدًى) أَيْ : نَزَّلَهُ هَادِيًا مِنَ الضَّلَالَاتِ وَالْبِدَعِ الَّتِي طَرَأَتْ عَلَى الْأَدْيَانِ ، فَأَلْقَتْ أَهْلَهَا فِي حَضِيضِ الْهَوَانِ ، وَالْعَاقِلُ لَا يَرْفُضُ الْهِدَايَةَ الَّتِي

(318/60)

تَأْتِيهِ وَتُنْقِذُهُ مِنْ ضَلَالٍ هُوَ فِيهِ ؛ لِأَنَّ الْوَاسِطَةَ فِي مَجِيئِهَا كَانَ عَدُوًّا لَهُ مِنْ قَبْلُ ، فَإِنَّ هَذَا الرَّفْضَ مِنْ عَمَلِ الْغَبِيِّ الْجَاهِلِ الَّذِي لَا يَعْرِفُ الْخَيْرَ بِذَاتِهِ وَإِنَّمَا يَعْرِفُهُ بِمَنْ كَانَ سَبَبًا فِي حُصُولِهِ . ثُمَّ أَيَّدَ الْحُجَجَ الثَّلَاثَ بِرَابِعَةٍ ، فَقَالَ : (وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ) أَيْ : إِذَا كُنْتُمْ تُعَادُونَ جِبْرِيلَ لِأَنَّهُ أَنْذَرَ بِخَرَابِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ فَهُوَ إِنَّمَا أَنْذَرَ الْمُفْسِدِينَ ، وَقَدْ أُنْزِلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَيَّ بُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ، فَمَا لَكُمْ أَنْ تَتْرُكُوا هَذِهِ الْبُشْرَى إِنْ كُنْتُمْ مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ ، لِأَنَّ الَّذِي نَزَلَ بِهَا قَدْ نَزَلَ بِإِنْذَارِ أَهْلِ الْفَسَادِ وَالطُّغْيَانِ .

وَمِنْ مَبَاحِثِ اللَّفْظِ فِي الْآيَةِ : أَنَّ جِبْرِيلَ اسْمٌ أَعْجَمِيٌّ مُرَكَّبٌ مِنْ " جِبْرَ " وَمَعْنَاهُ بِالْعِبْرَانِيَّةِ أَوِ السِّرْيَانِيَّةِ : الْقُوَّةُ ، وَمِنْ " إِيلَ " ، وَمَعْنَاهُ : الْإِلَهُ ، أَيْ قُوَّةُ اللهِ ، وَقِيلَ : مَعْنَاهُ عَبْدُ اللهِ .

وَفِيهِ 13 لُغَةً مِنْهَا ثَمَانِ لُغَاتٍ قُرِئَ بِهِنَّ ، أَرْبَعٌ فِي الْمَشْهُورَاتِ : جَبْرَئِيلُ كَسَلْسَبِيلٍ ، قَرَأَ بِهَا حَمْزَةُ

وَالْكِسَائِيُّ ، وَجِبْرِيلُ بِفَتْحِ الرَّاءِ وَحَذْفِ الْهَمْزَةِ قَرَأَ بِهَا ابْنُ كَثِيرٍ وَالْحَسَنُ وَابْنُ مُحَيْصِنٍ ، وَجَبْرَئِلُ كَجَحْمَرِشٍ قَرَأَ بِهَا عَاصِمٌ بِرِوَايَةِ أَبِي بَكْرٍ ، وَجِبْرِيلُ كَقِنْدِيلٍ قَرَأَ بِهَا الْبَاقُونَ . وَأَرْبَعٌ فِي الشَّوَاذِّ : جَبْرَإِلُ ، وَجَبْرَائِيلُ ، وَجَبْرَئِلُ ، وَجَبْرِينُ .

وَمِنْهَا أَنَّ قَوْلَهُ : (نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ) وَرَدَ عَلَى طَرِيقِ الْالْتِفَاتِ عَنِ التَّكَلُّمِ إِلَى الْخِطَابِ إِذْ كَانَ مُقْتَضَى السِّيَاقِ أَنْ يَقُولَ : (نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِي) وَقَدْ قَالُوا فِي نُكْتَتِهِ : إِنَّهَا حِكَايَةُ مَا خَاطَبَهُ اللهُ – تَعَالَى – بِهِ . وَلَا أَرَى صَاحِبَ الذَّوْقِ السَّلِيمِ إِلَّا مُسْتَنْكِرًا صِيغَةَ التَّكَلُّمِ فِي هَذَا الْمُقَامِ ، وَالْعِلَّةُ فِي ذَلِكَ لَا تَبْعُدُ عَنِ الْأَفْهَامِ ، وَمِنْهَا أَنَّ الضَّمِيرَ الْمَنْصُوبَ الْبَارِزَ فِي (نَزَّلَهُ) لِلْقُرْآنِ وَهُوَ لَمْ يُذْكَرْ فِيمَا قَبْلَهَا ، وَإِنَّمَا عَيَّنَتْهُ قَرِينَةُ الْحَالِ ، وَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى فَخَامَةِ شَأْنِهِ ، كَأَنَّهُ لِشُهْرَتِهِ قَدِ اسْتَغْنَى عَنْ ذِكْرِهِ (قَالَهُ الْبَيْضَاوِيُّ) .

أَقَامَ الْحُجَجَ عَلَى حَمَاقَتِهِمْ وَسُخْفِهِمْ فِي دَعْوَى عَدَاوَةِ جِبْرِيلَ ، وَبَيَانِ أَنَّهَا لَا يَصِحُّ أَنْ تَكُونَ مَانِعَةً مِنَ الْإِيمَانِ بِكِتَابٍ أَنْزَلَهُ اللهُ بِتِلْكَ الصِّفَاتِ الَّتِي طُوِيَتْ فِيهَا الْحُجَجُ ، ثُمَّ بَيَّنَ فِي آيَةٍ أُخْرَى حَقِيقَةَ حَالِهِمْ فِي هَذِهِ الْعَدَاوَةِ فَقَالَ : (مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ) بِكُفْرِهِ بِمَا يُنْزِلُهُ مِنَ الْهِدَايَةِ (وَمَلَائِكَتِهِ) بِرَفْضِ الْحَقِّ وَالْخَيْرِ الَّذِي فُطِرُوا عَلَيْهِ ، وَكَرَاهَةِ الْقِيَامِ بِمَا يَعْهَدُ بِهِ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ – عَزَّ وَجَلَّ – ؛ لِأَنَّهُمْ (لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) (66 : 6) ، (وَرُسُلِهِ) بِتَكْذِيبِ بَعْضٍ وَقَتْلِ بَعْضٍ (وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ) بِأَنَّ الْأَوَّلَ يَنْزِلُ بِالْآيَاتِ وَالنُّذُرِ ، وَمَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَهُوَ عَدُوٌّ لِمِيكَالَ ؛ لِأَنَّ

فِطْرَتَهُمَا وَاحِدَةٌ ، وَحَقِيقَتَهُمَا وَاحِدَةٌ ، مَنْ مَقَتَهَا وَعَادَاهَا فِي أَحَدِهِمَا فَقَدْ عَادَاهَا فِي الْآخَرِ (فَإِنَّ اللهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ) أَيْ مَنْ عَادَى اللهَ وَعَادَى هَؤُلَاءِ الْمُقَرَّبِينَ مِنَ اللهِ الَّذِينَ جَعَلَهُمْ رَحْمَةً لِخَلْقِهِ فَإِنَّ اللهَ عَدُوٌّ لَهُ ؛ لِأَنَّهُ كَافِرٌ بِاللهِ وَمُعَادٍ لَهُ ، وَاللهُ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ أَيْ يُعَامِلُهُمْ مُعَامَلَةَ الْأَعْدَاءِ لِلْأَعْدَاءِ ، وَهُمُ الظَّالِمُونَ لِأَنْفُسِهِمْ إِذْ دَعَاهُمْ فَلَمْ يَقْبَلُوا أَنْ يَكُونُوا مَعَ الْأَوْلِيَاءِ (وَمِيكَالَ) بِوَزْنِ مِيعَادٍ قِرَاءَةُ أَبِي عَمْرٍو وَيَعْقُوبَ وَعَاصِمٍ بِرِوَايَةِ حَفْصٍ ، وَقَرَأَ نَافِعٌ (مِيكَائِلَ) ، وَحَمْزَةُ وَالْكِسَائِيُّ وَابْنُ عَامِرٍ (مِيكَائِيلَ) وَفِي الشَّوَاذِّ : مِيكَئِلُ ، وَمِيكَئِيلُ ؛ وَمِيكَايِيلُ .

(321/60)

قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : هَذَا وَعِيدٌ لَهُمْ بَعْدَ بَيَانِ فَسَادِ الْعِلَّةِ الَّتِي جَاءُوا بِهَا ، وَهُمْ لَمْ يَدَّعُوا عَدَاوَةَ هَؤُلَاءِ كُلِّهِمْ وَلَكِنَّهُمْ كَذَلِكَ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ ، فَأَرَادَ أَنْ يُبَيِّنَ حَقِيقَةَ حَالِهِمْ فِي الْوَاقِعِ ، وَهِيَ أَنَّهُمْ أَعْدَاءُ الْحَقِّ وَأَعْدَاءُ كُلِّ مَنْ يُمَثِّلُهُ وَيَنْقُلُهُ وَيَدْعُو إِلَيْهِ ، فَالتَّصْرِيحُ بِعَدَاوَةِ جِبْرِيلَ كَالتَّصْرِيحِ بِعَدَاوَةِ مِيكَالَ الَّذِي يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يُحِبُّونَهُ ، وَأَنَّهُمْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِالنَّبِيِّ ، لَوْ كَانَ هُوَ الَّذِي يَنْزِلُ بِالْوَحْيِ عَلَيْهِ . وَمُعَادَاةُ الْقُرْآنِ كَمُعَادَاةِ سَائِرِ الْكُتُبِ الْإِلَهِيَّةِ ؛ لِأَنَّ الْغَرَضَ مِنَ

الْجَمِيعِ وَاحِدٌ . وَمُعَادَاةُ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كَمُعَادَاةِ سَائِرِ رُسُلِ اللهِ ؛ لِأَنَّ وَظِيفَتَهُمْ وَاحِدَةٌ ، فَقَوْلُهُمُ السَّابِقُ وَحَالُهُمْ يَدُلَّانِ عَلَى مُعَادَاةِ كُلِّ مَنْ ذَكَرَ ، وَهَذَا مِنْ ضُرُوبِ إِيجَازِ الْقُرْآنِ الَّتِي انْفَرَدَ بِهَا .

وَفِي قَوْلِهِ - تَعَالَى - : (لِلْكَافِرِينَ) وَضْعٌ لِلْمُظْهَرِ فِي مَوْضِعِ الْمُضْمَرِ ؛ لِبَيَانِ أَنَّ سَبَبَ عَدَاوَتِهِ

- تَعَالَى - لَهُمْ هُوَ الْكُفْرُ ، فَإِنَّ اللهَ لَا يُعَادِي قَوْمًا لِذَوَاتِهِمْ وَلَا لِأُنْسَابِهِمْ ، وَإِنَّمَا يَكْرَهُ لَهُمُ الْكُفْرَ وَيُعَاقِبُهُمْ عَلَيْهِ مُعَاقَبَةَ الْعَدُوِّ لِلْعَدُوِّ .

(322/60)

(أَقُولُ) : وَقَدْ تَقَدَّمَ غَيْرَ مَرَّةٍ أَنَّ عَذَابَ اللهِ وَانْتِقَامَهُ مِنَ الْكَفَرَةِ الْفَجَرَةِ لَا يُشْبِهُ انْتِقَامَ مُلُوكِ الدُّنْيَا وَزُعَمَائِهَا ، وَإِنَّمَا قَضَتْ سُنَّتُهُ - تَعَالَى - بِأَنْ يَكُونَ لِكُلِّ عَمَلٍ يَعْمَلُهُ الْإِنْسَانُ فِي ظَاهِرِهِ أَوْ فِي نَفْسِهِ وَضَمِيرِهِ أَثَرٌ فِي نَفْسِ الْعَامِلِ يُزَكِّيهَا وَيُدَسِّيهَا ، وَسَعَادَةُ الْإِنْسَانِ فِي الْآخِرَةِ أَوْ شَقَاؤُهُ تَابِعٌ لِآثَارِ اعْتِقَادَاتِهِ وَأَعْمَالِهِ فِي نَفْسِهِ . وَلِذَلِكَ قَالَ - تَعَالَى - : (وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ) (43 : 76) .

ثُمَّ صَرَّحَ بِأَنَّ الْقُرْآنَ مُنْزَلٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَحْدَهُ ، وَأَنَّهُ فِي نَفْسِهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ لَا يَحْتَاجُ إِلَى آيَةٍ

أُخْرَى تُبَيِّنُهُ وَتَشْهَدُ لَهُ ، فَإِنَّ مَا كَانَ بَيِّنًا فِي نَفْسِهِ أَوْلَى بِالْقَبُولِ مِمَّا يَحْتَاجُ فِي بَيَانِهِ إلَى غَيْرِهِ ، فَقَالَ : (وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ) وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ الْوَحْيَ مِنَ اللَّهِ لِلنَّبِيِّ يُسَمَّى تَنْزِيلًا وَإِنْزَالًا وَنُزُولًا لِبَيَانِ عُلُوِّ مَرْتَبَةِ الرُّبُوبِيَّةِ ، لَا أَنَّ هُنَاكَ نُزُولًا حِسِّيًّا مِنْ مَكَانٍ مُرْتَفِعٍ إلَى مَكَانٍ مُنْخَفِضٍ .

(323/60)

قَالَ هَذَا شَيْخُنَا : وَعُلُوُّ اللَّهِ – تَعَالَى – عَلَى خَلْقِهِ حَقِيقَةً أَثْبَتَهَا لِنَفْسِهِ فِي كِتَابِهِ ، لَا حَاجَةَ إلَى تَأْوِيلِهَا بِعُلُوِّ مَرْتَبَةِ الرُّبُوبِيَّةِ عَلَى مَرْتَبَةِ الْمَخْلُوقِينَ هَرَبًا مِنْ اسْتِلْزَامِهَا الْحَصْرَ وَالتَّحَيُّزَ فِي جِهَةٍ وَاحِدَةٍ ، فَإِنَّ التَّنْزِيهَ الْقَطْعِيَّ يُبْطِلُ اللُّزُومَ . وَمَسْأَلَةُ الْجِهَاتِ نِسْبِيَّةٌ لَا حَقِيقِيَّةٌ ، وَإِذْ كَانَ الرَّبُّ – تَعَالَى – بَائِنًا مِنْ خَلْقِهِ وَهُوَ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ ، فَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا يَتَوَجَّهُونَ إلَيْهِ إلَّا أَنَّهُ فَوْقَهُمْ ، وَإِذَا كَانَ الْمَلَائِكَةُ (يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ) (16 : 50) فَمَاذَا يُقَالُ فِيمَنْ دُونَهُمْ ؟ وَتَوَجُّهُ الْبَشَرِ إلَى رَبِّهِمْ فِي جِهَةِ الْعُلُوِّ وَقِبَلَ السَّمَاءِ فِطْرِيٌّ مَعْرُوفٌ فِي جَمِيعِ أَهْلِ الْمِلَلِ ، فَهُوَ فَوْقَ الْخَلْقِ فِي جُمْلَتِهِ وَفَوْقَ الْعِبَادِ أَيْنَمَا كَانُوا مِنْ أَرْضٍ أَوْ سَمَاءٍ ، وَهُنَالِكَ مَقَامُ الْإِطْلَاقِ الَّذِي لَا يُقَيَّدُ بِقَيْدٍ وَلَا يُحْصَرُ فِي حَيِّزٍ ، وَإِنَّمَا الْحَيِّزُ وَالْحَصْرُ مِنَ الْأُمُورِ النِّسْبِيَّةِ وَالِاعْتِبَارِيَّةِ فِي دَاخِلِ دَائِرَةِ الْخَلْقِ . وَصَحَّ فِي الْحَدِيثِ : أَنَّ الْمَلَائِكَةَ إذَا سَمِعُوا كَلَامَ اللَّهِ

فِي السَّمَاوَاتِ عَرَاهُمْ مَا عَرَاهُمْ مِمَّا أُشِيرَ إلَيْهِ فِي قَوْلِهِ - تَعَالَى - : (حَتَّى إذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ) (34 : 23) .

وَشَيْخُنَا عَلَى دَعْوَتِهِ إلَى مَذْهَبِ السَّلَفِ كَانَ لَا يَزَالُ مُتَأَثِّرًا بِمَذْهَبِ الْأَشْعَرِيَّةِ .

(324/60)

وَأَمَّا كَوْنُ آيَاتِ الْقُرْآنِ بَيِّنَاتٍ فَهِيَ أَنَّهَا بِإِعْجَازِهَا الْبَشَرَ وَبِقَرْنِ الْمَسَائِلِ الِاعْتِقَادِيَّةِ فِيهَا بِبَرَاهِينِهَا ، وَالْأَحْكَامُ الْأَدَبِيَّةُ وَالْعِلْمِيَّةُ بِوُجُوهِ مَنَافِعِهَا ، لَا تَحْتَاجُ إلَى دَلِيلٍ آخَرَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهَا هِدَايَةٌ مِنَ اللهِ - تَعَالَى - وَأَنَّهَا جَدِيرَةٌ بِالِاتِّبَاعِ ، بَلْ هِيَ دَلِيلٌ عَلَى نَفْسِهَا عِنْدَ صَاحِبِ الْفِطْرَةِ السَّلِيمَةِ كَالنُّورِ يُظْهِرُ الْأَشْيَاءَ وَهُوَ ظَاهِرٌ بِنَفْسِهِ لَا يَحْتَاجُ إلَى شَيْءٍ آخَرَ يُظْهِرُهُ (وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إلَّا الْفَاسِقُونَ) الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ نُورِ الْفِطْرَةِ وَانْغَمَسُوا فِي ظُلْمَةِ التَّقْلِيدِ ، فَتَرَكُوا طَلَبَ الْحَقِّ بِذَاتِهِ لِاعْتِقَادِهِمْ أَنَّ فِطْرَتَهُمْ نَاقِصَةٌ لَا اسْتِعْدَادَ فِيهَا لِإِدْرَاكِهِ بِذَاتِهِ عَلَى شِدَّةِ ظُهُورِهِ ، وَإِنَّمَا يَطْلُبُونَهُ مِنْ كَلَامِ مُقَلِّدِيهِمْ ، وَكَذَا الَّذِينَ ظَهَرَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى حَسَدًا لِمَنْ ظَهَرَ الْحَقُّ عَلَى يَدَيْهِ وَعِنَادًا لَهُ .

بَعْدَ هَذَا كُلِّهِ بَيَّنَ اللهُ - تَعَالَى - شَأْنَيْنِ مِنْ شُئُونِ أَهْلِ الْكِتَابِ وَهُمَا : أَنَّهُ لَا ثِقَةَ بِهِمْ

(325/60)

فِي شَيْءٍ لِمَا عُرِفَ عَنْهُمْ مِنْ نَقْضِ الْعُهُودِ ، وَأَنَّهُ لَا رَجَاءَ فِي إِيمَانِ أَكْثَرِهِمْ ؛ لِأَنَّ الضَّلَالَةَ قَدْ مَلَكَتْ عَلَيْهِمْ أَمْرَهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ، فَإِنْ كَانَ مَا تَقَدَّمَ مِنَ الْأَعْمَالِ وَالْأَقْوَالِ قَدْ صَدَرَ عَنْ بَعْضِهِمْ ، وَإِنْ كَانَ نَقْضُ الْعُهُودِ قَدْ وَقَعَ فِي كُلِّ زَمَنٍ مِنْ فَرِيقٍ مِنْهُمْ دُونَ فَرِيقٍ ، فَلَا يَتَوَهَّمَنَّ أَحَدٌ أَنَّ أُولَئِكَ هُمُ الْأَقَلُّونَ ، كَلَّا بَلْ هُمُ الْأَكْثَرُونَ ، وَلِذَلِكَ قَالَ : (أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ) ، هَمْزَةُ الِاسْتِفْهَامِ التَّوْبِيخِيِّ دَاخِلَةٌ عَلَى مَحْذُوفٍ ، أَيْ : أَكَفَرُوا بِالْآيَاتِ وَقَالُوا مَا قَالُوا ، وَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ ؟ النَّبْذُ : طَرْحُ الشَّيْءِ وَإِلْقَاؤُهُ ، وَالْمُرَادُ بِالْعُهُودِ هُنَا عُهُودُهُمْ لِلنَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، وَلَمَّا كَانَ لَفْظُ (فَرِيقٌ) يُوهِمُ الْعَدَدَ الْقَلِيلَ ، وَكَانَ الْوَاقِعُ أَنَّ الَّذِينَ كَانُوا يَرَوْنَ الْوَفَاءَ لَهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَلِيلُونَ ، وَالنَّاقِضِينَ هُمُ الْأَكْثَرُونَ أَضْرَبَ عَنْهُ وَقَالَ : (بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) فَهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ ؛ لِأَنَّهُمْ لَا إِيمَانَ لَهُمْ ، أَيْ لَا عُهُودَ لَهُمْ . وَفِيهِ مِنْ خَبَرِ الْغَيْبِ أَنَّ أَكْثَرَ الْيَهُودِ لَا يُؤْمِنُونَ بِالنَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، وَكَذَلِكَ كَانَ وَصَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمُ .

(326/60)

(وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) . انتهى انتهى . اهـ ﴾ تفسير المنار حـ 1 صـ 328.318 ﴾

(327/60)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (100) ﴾

بعد أن بين الحق سبحانه وتعالى أن الدين الإسلامي ، وكتابه القرآن فيه من الآيات

الواضحة ما يجعل الإيمان به لا يحتاج إلا إلي وقفة مع العقل مما يجعل موقف العداء الذي يقفه

اليهود من الإسلام منافيا لكل العهود التي أخذت عليهم ، منافيا للإيمان الفطري ، ومنافيا لأنهم عاهدوا الله ألا يكتموا ما جاء في التوراة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومنافيا لعهدهم أن يؤمنوا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومنافيا لما طلب منهم موسى أن يؤمنوا بالإسلام عندما يأتي الرسول ، مصداقا لقوله تعالى :

وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ(81) (سورة آل عمران)

(328/60)

وهكذا نعرف أن موسى عليه السلام الذي أخذ عليه الميثاق قد أبلغه إلي بني إسرائيل ، وأن بني إسرائيل كانوا يعرفون هذا الميثاق جيداً عند بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت عندهم أوصاف دقيقة للرسول عليه الصلاة والسلام . . ولكنهم نقضوه كما نقضوا كثيرا من المواثيق . . منها عهدهم بعدم العمل في السبت ، وكيف تحايلوا على أمر الله بأن صنعوا مصايد للأسماك تدخل فيها ولا تستطيع الخروج وهذا تحايل على أمر الله ، ثم كان ميثاقهم في الإيمان بالله إلها واحداً أحدا ، ثم عبدوا العجل . . وكان قولهم

لموسى عليه السلام بعد أن أمرهم الله بدخول واد فيه زرع . . لأنهم أرادوا أن يأكلوا من نبات الأرض بدلا من المن والسلوى التي كانت تأتيهم من السماء . . قالوا لموسى : " فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون " . . وغير ذلك الكثير من المواثيق بالنسبة للحرب والأسرى والعبادة ، حتى عندما رفع الله تبارك وتعالى جبل الطور فوقهم ودخل في قلوبهم الرعب وظنوا أنه واقع عليهم ، ولم يكن هذا إلا ظنا وليس حقيقة . . لأن الله تبارك وتعالى يقول : " وظنوا أنه واقع بهم " . . وبمجرد ابتعادهم عن جبل الطور نقضوا الميثاق .

(329/60)

ثم نقضوا عهدهم وميثاقهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما هاجر إلي المدينة وذلك في غزوة الخندق . . وعندما أرادوا أن يفتحوا طريقا للكفار ليضربوا جيوش المؤمنين من الخلف . قوله تعالى " نبذه فريق منهم " قلنا إن هذا يسمى قانون صيانة الاحتمال . . لأن منهم من صان المواثيق . . ومنهم من صدق ما عاهد الله عليه . . ومنهم مثلا من كان يريد أن يعتنق الدين الجديد ويؤمن بمحمد عليه الصلاة والسلام . إذن فليسوا كلهم حتى لا يقال هذا على مطلق اليهود . . لأن فيهم أناسا لم ينقضوا العهد . . ويريد الله تبارك وتعالى أن يفتح الباب أمام أولئك الذين يريدون الإيمان ، حتى لا يقولوا لقد

حكم الله علينا حكما مطلقا ونحن نريد أن نؤمن ونحافظ على العهد ، ولكن هؤلاء الذين حافظوا على العهد كانوا قلة . . ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى : " بل أكثرهم لا يؤمنون " . . أي أن الفريق الناقض للعهد الناقض للإيمان هم الأكثرية من بني إسرائيل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 185.184 ﴾

(330/60)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

الجمهور على تحريك واو " أَوكلما " ، واختلف النحويون في ذلك على ثلاثة أقوال : فقال الأخفش : إن الهمزة للاستفهام ، والوو زائدة وهذا على رأيه في جواز زيادتها .

وقال الكسائي هي " أو " العاطفة التي بمعنى " بل " وإنما حركت الواو .

ويؤيده قراءة من قرأها ساكنة .

وقال البصريون : هي واو العطف قدمت عليها همزة الاستفهام على ما عرف .

قال القرطبي : كما دخلت همزة الاستفهام على " الفاء " في قوله : ﴿ أَفَحُكْمَ الجاهلية ﴾ [المائدة : 50] ، ﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصم ﴾ [يونس : 42] ، ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ ﴾

[الكهف : 50] .

وعلى " ثم " كقوله : " أَثُمَّ إِذَا مَا " .

وقد تقدم أن الزمخشري يقدر بين الهمزة وحرف العطف شيئاً يعطف عليه ما بعده ، لذلك قدره هُنَا : أكفروا بالآيات البينات ، وكلما عاهدوا .

وقرأ أبو السّمَال العدوي : " أَوْكلما " ساكنة الواو ، وفيها ثلاثة أقوال : فقال الزمخشري : إنها عاطفة على " الفاسقين " ، وقدره بمعنى إلا الذين فسقوا أو نقضوا ، يعني به : أنه عطف الفعل على الاسم ؛ لأنه في تأويله كقوله : ﴿ إِنَّ المصدقين والمصدقات وَأَقْرَضُواْ ﴾ [الحديد : 18] أي : اصَّدَّقُوا وأقرضوا .

وفي هذا كلام يأتي في سورته إن شاء الله تعالى .

وقال المهدوي : " أو " لانقطاع الكلام بمنزلة " أم " المنقطعة : يعني أنها بمعنى " بل " ، وهذا رأى الكوفيين ، وقد تقدم تحريره وما استدلّوا به من قوله : [الطويل]

687 . . . . . .

أَوْ أَنْتَ فِي الْعَيْنِ أَمْلَحُ

في أول السورة .

وقال بعضهم : هي بمعنى " الواو " فتتفق القراءاتان ، وقد وردت " أو " بمنزلة " الواو "

كقوله : [الكامل]

688 . . . . . .

مَا بَيْنَ مُلْجِمِ مُهْرِهِ أَوْ سَافِعِ

﴿ خطيائة أَوْ إِثْماً ﴾ [النساء : 112] ﴿ آثِماً أَوْ كَفُوراً ﴾ [الإنسان : 24]

فلتكن [هنا] كذلكن وهذا أيضاً رأي الكوفيين .

والناصب لـ "كلّما " بعده ، وقد تقدم تحقيق القول فيها ، وانتصاب " عَهْداً " على أحد وجهين : إما على المصدر الجاري على غير المصدر وكان الأصل : " مُعَاهَدَة " أو على المفعول به على أن يضمن عاهدوا معنى " أَعْطَوْا " ويكون المفعول الأول محذوفاً ، والتقدير : عاهدوا الله عَهْداً .

وقرىء : " عَهِدُوا " فيكون " عَهْداً " مصدراً جارياً على صدره .

وقرىء أيضاً : " عُوهِدُوا " مبيناً للمفعول .

قوله تعالى : " بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ " فيه قولان :

أحدهما : أنه من باب عَطْف الجمل ، وتكون " بل " لإضراب الانتقال لا الإبطال ، وقد [علم] أن " بل " لا تسمَّى عاطفة حقيقية إلا في المفردات .

الثاني : أنه يكون من عطف المفردات ، ويكون " أكثرهم " معطوفاً على " فريق " ، و " لاَ

يُؤْمِنُونَ" جملة في محلّ نصب على الحال من "أكثرهم" .

وقال ابن عطيَّة : من الضمير في "أكثرهم" ، وهذا الذي قاله جائز ، لا يقال : إنها حال من المضاف إليه ؛ لأن المضاف جزء من المضاف إليه ، وذلك جائز .

وفائدة هذا الإضراب ما تقدم ذكره آنفاً .

والنَّبْذُ : الطرح ومنه النَّبيذ والمَنْبُوذ ، وهو حقيقة في الأجْرَام وإسناده إلى العَهْد مَجَاز .

وقال بعضهم : النَّبذ والطَّرْح الإلقاء متقاربة ، إلاّ أن النبذ أكثر ما يقال فيما يبس والطَّرح أكثر ما يُقال في المبسوط والجاري مجراه ، والإلقاء فيما يعتبر فيه مُلاَقاة بين شيئين ؛ ومن مجيء النبذ بمعنى الطَّرْح قوله : [الكامل]

689 إِنَّ الَّذِينَ أَمَرتُهُمْ أَنْ يَعْدِلُوا . . .

نَبَذُوا كِتَابَكَ وَاسْتَحَلُّوا الْمَحْرَمَا

وقال أبو الأسود : [الطويل]

(332/60)

---

690 وَخَبَّرَنِي مَنْ كُنْتُ أَرْسَلْتُ أَنَّما . . .

أَخَذْتَ كِتَابِي مُعْرِضاً بِشِمَالِكَا

نَظَرْتَ إِلَى عُنْوَانِهِ فَنَبَذْتَهُ . . .

كَنَبْذِكَ نَعْلاً أَخْلَقَتْ مِنْ نِعَالِكَا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 2 صـ 318. 321 ﴾ . باختصار .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآيتين

قال عليه الرحمة :

﴿ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ (99) أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (100) ﴾

لم يكفر بواضح آياته إلا من سُدَّتْ عن الإدراك بصائرُه ، وسبقت من الله بالشقاوة قِسْمَتُه ، ولا عقل لِمَنْ يجحدُ أنَّ النهارَ نهار ، وكذلك لا وَصْلَ لمن لم تساعده من الحق أنوارٌ واستبصار . أوَكُلَّما عاهدوا عهداً سابقُ التقدير لهم كان يشوّش عليهم ، وينقض عَهْدَهُم لاحِقُ التدبيرُ منهم ، والله غالبٌ على أمره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 108. 109 ﴾

(333/60)

قوله تعالى ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (101) ﴾

" فصل "

قال البقاعي :

ثم أتبع هذا الإنكار ذكر الكتاب والرسول كما فعل في الإنكار الأول غير أنه صرح هنا بما طواه هناك فقال : ﴿ ولما جاءهم رسول ﴾ أي عظيم محيطة دعوته بما أشعر به الاسم الأعظم في قوله ﴿ من عند الله ﴾ أي الملك الذي له جميع الملك والأمر ﴿ مصدق لما معهم ﴾ لكونه أتى بكتاب محقق أنه من عند الله لإعجاز نظمه وتصديق معناه لكتابهم ﴿ نبذ ﴾ أي رمى رمي استخفاف ﴿ فريق من الذين أوتوا الكتاب ﴾ الأول ﴿ كتاب الله ﴾ الملك الأعلى الذي أخذ عليهم فيه الميثاق على لسان نبيهم باتباع النبي الأمي أسوأ النبذ بجعله لاستخفافهم به ﴿ وراء ظهورهم ﴾ بتركهم العمل به وإن حلوه بالذهب ووضعوه على الكراسي بين أيديهم .

وأشعر بعنادهم بقوله : ﴿ كأنّهم لا يعلمون ﴾ .

أهـ ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 205 . 206 ﴾

اللغة :

[نبذ] النبذ : الطرح والإلقاء ، ومنه سمي اللقيط منبوذا ، لأنه ينبذ على الطريق ، قال الشاعر :

إن الذين أمرتهم أن يعدلوا نبذوا كتابك واستحلوا المحرما

[تتلو] تحدث وتروي ، من التلاوة بمعنى القراءة ، أو بمعنى الاتباع ، قال الطبري : ولقول القائل : " هو يتلو كذا " في كلام العرب معنيان : أحدهما الاتباع كما تقول : تلوت فلانا إذا مشيت خلفه وتبعت أثره ، والآخر : القراءة والدراسة ، كقولك : فلان يتلو القرآن أي يقرؤه

[السحر] قال الجوهري : كل ما لطف مأخذه ودق فهو سحر ، وسحره أيضا بمعنى خدعه وفي الحديث " إن من البيان لسحرا "

[فتنة] الفتنة : الابتلاء والاختبار ، ومنه قولهم : فتنت الذهب إذا امتحنته بالنار لتعرف سلامته أو غشه

[خلاق] الخلاق : النصيب ، قال الزجاج : هو النصيب الوافر من الخير ، وأكثر ما يستعمل في الخير

[لمثوبة] المثوبة : الثواب والجزاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 1 صـ 82 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أن معنى كون الرسول مصدقاً لما معهم هو أنه كان معترفاً بنبوة موسى عليه السلام وبصحة التوراة أو مصدقاً لما معهم من حيث إن التوراة بشرت بمقدم محمد صلى الله عليه وسلم فإذا أتى محمد كان مجرد مجيئه مصدقاً للتوراة .

أما قوله تعالى : ﴿ نَبَذَ فَرِيقٌ ﴾ فهو مثل لتركهم وإعراضهم عنه بمثل ما يرمي به وراء الظهر استغناء عنه وقلة التفات إليه .

أما قوله تعالى : ﴿ مِنَ الذين أُوتُواْ الكتاب ﴾ ففيه قولان ، أحدهما : أن المراد ممن أوتي علم الكتاب من يدرسه ويحفظه ، قال هذا القائل : الدليل عليه أنه تعالى وصف هذا الفريق بالعلم عند قوله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ ، الثاني : المراد من يدعي التمسك بالكتاب سواء علمه أو لم يعلمه ، وهذا كوصف المسلمين بأنهم من أهل القرآن لا يراد بذلك من يختص بمعرفة علومه ، بل المراد من يؤمن به ويتمسك بموجَبه .

أما قوله تعالى : ﴿ كتاب الله وَرَاء ظُهُورِهِمْ ﴾ فقيل : إنه التوراة ، وقيل : إنه القرآن ، وهذا

هو الأقرب ، لوجهين ، الأول : أن النبذ لا يعقل إلا فيما تمسكوا به أولاً وأما إذا لم يلتفتوا إليه لا يقال إنهم نبذوه ، الثاني : أنه قال : ﴿ نَبَذَ فَرِيقٌ مّنَ الذين أُوتُواْ الكتاب ﴾ ولو كان المراد به القرآن لم يكن لتخصيص الفريق معنى لأن جميعهم لا يصدقون بالقرآن ، فإن قيل : كيف يصح نبذهم التوراة وهم يتمسكون به ؟ قلنا : إذا كان يدل على نبوة محمد عليه الصلاة والسلام لما فيه من النعت والصفة وفيه وجوب الإيمان ثم عدلوا عنه كانوا نابذين للتوراة . أما قوله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ فدلالة على أنهم نبذوه عن علم ومعرفة لأنه لا يقال ذلك إلا فيمن يعلم ، فدلت الآية من هذه الجهة على أن هذا الفريق كانوا عالمين بصحة نبوته إلا أنهم جحدوا ما يعلمون ، وقد ثبت أن الجمع العظيم لا يصح الجحد عليهم فوجب القطع بأن أولئك الجاحدين كانوا في القلة بحيث تجوز المكابرة عليهم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 183.184 ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مّنْ عِندِ الله مُصَدّقٌ لّمَا مَعَهُمْ ﴾ نعتٌ لرسول ، ويجوز نصبه على الحال .

﴿ نَبَذَ فَرِيقٌ ﴾ جواب " لما " .

﴿ مّنَ الذين أُوتُواْ الكتاب كِتَابَ الله ﴾ نصب ب " نَبَذَ " ، والمراد التوراة ؛ لأن كفرهم بالنبيّ عليه السلام وتكذيبهم له نبذٌ لها .

قال السُّدّى : نبذوا التوراة وأخذوا بكتاب آصف ، وسِحْرِ هاروت وماروت .

وقيل : يجوز أن يعني به القرآن .

قال الشَّعْبِيّ : هو بين أيديهم يقرءونه ؛ ولكن نبذوا العمل به .

وقال سفيان بن عُيَيْنة : أدرجوه في الحرير والديباج ، وحلَّوه بالذهب والفضة ، ولم يُحِلُّوا حلاله ولم يحرّموا حرامه ؛ فذلك النَّبذ .

وقد تقدّم بيانه مستوفى .

(336/60)

﴿ كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ تشبيهٌ بمن لا يعلم ، إذ فعلوا فعل الجاهل ، فيجيء من اللفظ أنهم كفروا على علْم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 2 صـ 41 ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ ولما جاءهم رسول ﴾ : الضمير في جاءهم عائد على بني إسرائيل ، أو على علمائهم ، والرسول ، محمد صلى الله عليه وسلم ، أو عيسى على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام ، أو معناه الرسالة ، فيكون مصدراً ، كما فسروا بذلك قوله :

لقد كذب الواشون ما بحت عنده . . .

بليلي ولا أرسلتهم برسول

أي برسالة ، أقوال ثلاثة .

والظاهر الأول ، لأن الكلام مع اليهود إنما سيق بالنسبة إلى محمد صلى الله عليه وسلم .

ألا ترى إلى قوله : ﴿ قل ﴾ قل ، و﴿ فإنه نزله على قلبك ﴾ ، ﴿ ولقد أنزلنا إليك ﴾ ، فصار ذلك كالالتفات ، إذ هو خروج من خطاب إلى اسم غائب ، ووصف بقوله : ﴿ من عند الله مصدّق ﴾ : تفخيماً لشأنه ، إذ الرسول على قدر المرسل .

ثم وصف أيضاً بكونه مصدّقاً لما معهم ، قالوا : وتصديقه أنه خلق على الوصف الذي ذكر في التوراة ، أو تصديقه على قواعد التوحيد وأصول الدين وأخبار الأمم والمواعظ والحكم ، أو تصديقه : إخباره بأن الذي معهم هو كلام الله ، وأنه المنزل على موسى ، أو تصديقه : إظهار ما سألوا عنه من غوامض التوراة ، أقوال أربعة .

وإذا فسر بعيسى ، فتصديقه هو بالتوراة ، وإذا فسر بالرسالة ، فنسبة المجيء والتصديق إلى الرسالة على سبيل التوسع والمجاز .

وقرأ ابن أبي عبلة : مصدّقاً بالنصب على الحال ، وحسن مجيئها من النكرة كونها قد وصفت بقوله : ﴿ من عند الله ﴾ ﴿ لما معهم ﴾ : هو التوراة .

وقيل : جميع ما أنزل إليهم من الكتب ، كزبور داود ، وصحف الأنبياء التي يؤمنون بها .

﴿ نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب ﴾ : الكتاب الذي أوتوه هو التوراة ، وهو مفعول ثانٍ

لأتوا ، على مذهب الجمهور ، ومفعول أول على مذهب السهيلي .

وقد تقدّم القول في ذلك .

﴿ كتاب الله ﴾ : هو مفعول بنبذ .

(337/60)

فقيل : كتاب الله هو التوراة .

ومعنى نبذهم له : اطراح أحكامه ، أو اطراح ما فيه من صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ الكفر ببعض ، كفر بالجميع .

وقيل : الإنجيل ، ونبذهم له : اطراحه بالكلية .

وقيل : القرآن ، وهذا أظهر ، إذ الكلام مع الرسول .

فصار المعنى : أنه يصدّق ما بين أيديهم من التوراة ، وهم بالعكس ، يكذبون ما جاء به من القرآن ويطرحونه .

وأضاف الكتاب إلى الله تعظيماً له ، كما أضاف الرسول إليه بالوصف السابق ، فصار ذلك غاية في ذمهم ، إذ جاءهم من عند الله بكتابه الصدّق لكتابهم ، وهو شاهد بالرسول والكتاب ، فنبذوه ﴿ وراء ظهورهم ﴾ ، وهذا مثل يضرب لمن أعرض عن الشيء

جملة .

تقول العرب : جعل هذا الأمر وراء ظهره ودبر أذنه ، وقال الفرزدق :

تميم بن مرّ لا تكونن حاجتي . . .

بظهر ولا يعيا عليك جوابها

وقالت العرب ذلك ، لأن ما جعل وراء الظهر فلا يمكن النظر إليه ، ومنه : ﴿ واتخذتموه وراءكم ظهرياً ﴾ وقال في المنتخب : النبذ والطرح والإلقاء متقاربة ، لكن النبذ أكثر ما يقال فيما يئس ، والطرح أكثر ما يقال في المبسوط وما يجري مجراه ، والإلقاء فيما يعتبر فيه ملاقاة بين شيئين .

﴿ كأنهم لا يعلمون ﴾ : جملة حالية ، وصاحب الحال فريق ، والعامل في الحال نبذ ، وهو تشبيه لمن يعلم بمن يجهل ، لأن الجاهل بالشيء لا يحفل به ولا يعتد به ، لأنه لا شعور له بما فيه من المنفعة .

ومتعلق العلم محذوف ، أي كأنهم لا يعلمون أنه كتاب الله ، لا يداخلهم فيه شك لثبوت ذلك عندهم وتحققه ، وإنما نبذوه على سبيل المكابرة والعناد .

وقال الشعبي : هو بين أيديهم يقرأونه ، ولكنهم نبذوا العمل به .

وعن سفيان أدرجوه في الديباج والحرير ، وحلوه بالذهب ، ولم يحلوا حلاله ، ولم يحرموا حرامه .

انتهى كلامه .

وقول الشعبي وسفيان يدل على أن كتاب الله هو التوراة .

وقال الماوردي : كأنهم لا يعلمون ما أمروا به من اتباع محمد صلى الله عليه وسلم .

(338/60)

وقيل : معناه كأنهم لا يعلمون أنه نبي صادق .

وقيل : معناه كأنهم لا يعلمون أن القرآن والتوراة والإنجيل كتب الله ، وأن كل واحد منها حق ، والعمل به واجب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 1 صـ 493. 494 ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ وَلَمَّا جَاءهُمْ رَسُولٌ ﴾ هو النبي صلى الله عليه وسلم ، والتنكيرُ للتفخيم ﴿ مِنْ عِندِ الله ﴾ متعلق بجاءَ أو بمحذوفٍ وقعَ صفةً لرسول لإفادة مزيدِ تعظيمِه بتأكيد ما أفاده

(339/60)

التنكيرُ من الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافية ﴿ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ من التوراة من حيث أنه صلى الله عليه وسلم قرر صِحتها وحقق حَقّيةَ نبوة موسى عليه الصلاة والسلام بما أُنزل عليه أو من حيث أنه عليه السلام جاء على وَفق ما نُعت فيها ﴿ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الذين أُوتُواْ الكتاب ﴾ أي التوراةَ ، وهم اليهودُ الذين كانوا في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ممن كانوا يستفتحون به قبل ذلك لا الذين كانوا في عهد سليمانَ عليه السلام كما قيل لأن النبذَ عند مجيءِ النبي صلى الله عليه وسلم لا يُتصوَّرُ منهم ، وأفرد هذا النبذُ بالذكر مع اندراجِه تحت قوله عز وجل : ﴿ أَوَكُلَّمَا عاهدوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم ﴾ لأنه معظمُ جناياتِهم ولأنه تمهيدٌ لذكر اتّباعهم لما تتلو الشياطينُ وإيثارِهم له عليه ، والمرادُ بإيتائها إما إيتاءُ علمِها بالدراسة والحفظ والوقوفِ على ما فيها ، فالموصولُ عبارة عن علمائهم وإما مجردُ إنزالِها عليهم فهو عبارةٌ عن الكل ، وعلى التقديرين فوضعُه موضِع الضمير للإيذان بكمال التنافي بين ما أُثبت لهم في حيز الصلةِ وبين ما صدر عنهم من النبذ ﴿ كتاب الله ﴾ أي الذي أُوتوه قال السدي : لما جاءهم محمد صلى الله عليه وسلم عارضوه بالتوراة فاتفقت التوراةُ والفرقانُ فنبذوا التوراة وأخذوا بكتاب آصَفَ وسحرِ هاروتَ ، وماروتَ فلم يوافق القرآنَ فهذا قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ الله ﴾ الخ ، وإنما عَبَّر عنها بكتاب الله تشريفاً لها وتعظيماً لحقِها عليهم وتهويلاً لما اجترأوا عليه من الكفر بها

وقيل : (كتابَ الله) القرآنُ نبذوه بعد ما لزِمهم تلقّيه بالقَبول لا سيما بعد ما كانوا يستفتحون به

(340/60)

من قبلُ فإن ذلك قَبولٌ له وتمسُّكٌ به ، فيكون الكفرُ به عند مجيئه نبذاً له كأنه قيل : كتابَ الله الذي جاء به فإن مجيءَ الرسول مُعربٌ عن مجيء الكتاب ﴿ وَرَاء ظُهُورِهِمْ ﴾ مَثَلٌ لتركهم وإعراضِهم عنه بالكلية مثل بما يرمى به وارءَ الظهر استغناءً عنه وقلّةَ التفاتٍ إليه ﴿ كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ جملةٌ حاليةٌ أي نبذوه وراء ظهورِهم مُشبَّهين بمن لا يعلمه ، فإن أريد بهم أحبارُهم فالمعنى كأنهم لا يعلمونه على وجه الإيقان ولا يعرفون ما فيه من دلائلِ نبوتِه عليه الصلاة والسلام ففيه إيذانٌ بأن علمَهم به رصينٌ لكنهم يتجاهلون أو كأنهم لا يعلمون أنه كتابُ الله أو لا يعلمونه أصلاً كما إذا أريد بهم الكل .

وفي هذين الوجهين زيادةُ مبالغةٍ في إعراضهم عما في التوراة من دلائل النبوة . هذا وإن أريد بما نبذوه من كتاب الله القرآنَ فالمرادُ بالعلم المنفيّ في قوله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ هو العلمُ بأنه كتابُ الله ففيه ما في الوجه الأول من الإشعار بأنهم مُتيقّنون في ذلك ، وإنما يكفُرون به مكابرةً وعِناداً .

قيل إن جيل اليهود أربعُ فرقٍ : ففِرقةٌ آمنوا بالتوراة وقاموا بحقوقها كمؤمني أهلِ الكتاب وهم الأقلون المشارُ إليهم بقوله عز وجل : ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ وفِرقةٌ جاهروا بنبذ العهودِ وتعدّي الحدود تمرُّداً وفسُوقاً وهم المعنيُّون بقوله تعالى : ﴿ نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم ﴾ وفِرقةٌ لم يجاهروا بنبذها لجهلهم بها وهم الأكثرون ، وفِرقةٌ تمسكوا بها ظاهراً ونبذوها خُفْيةً وهم المتجاهلون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 1 صـ 135 . 136 ﴾

(341/60)

وقال الآلوسى :

﴿ وَلَمَّا جَاءهُمْ رَسُولٌ ﴾ ظرف لنبذ والجملة عطف على سابقتها داخلة تحت الإنكار ، والضمير لبني إسرائيل لا لعلمائهم فقط ، والرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، والتكثير للتفخيم ، وقيل : عيسى عليه السلام ، وجعله مصدراً بمعنى الرسالة كما في قوله :

لقد كذب الواشون ما بحت عندهم . . .

بليلى ولا أرسلتهم برسول

خلاف الظاهر ﴿ مِنْ عِندِ اللهِ ﴾ متعلق ب (جاء) أو بمحذوف وقع صفة للرسول

لإفادة مزيد تعظيمه إذ قدر الرسول على قدر المرسل ﴿ مُصَدّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ أي من التوراة من حيث إنه صلى الله عليه وسلم جاء على الوصف الذي ذكر فيها ، أو أخبر بأنها كلام الله تعالى المنزل على نبيه موسى عليه السلام ، أو صدق ما فيها من قواعد التوحيد وأصول الدين ، وإخبار الأمم والمواعظ والحكم ، أو أظهر ما سألوه عنه من غوامضها ، وحمل بعضهم (ما) على العموم لتشمل جميع الكتب الإلهية التي نزلت قبل ، وقرأ ابن أبي عبلة : ﴿ مُصَدّقاً ﴾ بالنصب على الحال من النكرة الموصوفة .

﴿ نَبَذَ فَرِيقٌ مّنَ الذين أُوتُواْ الكتاب ﴾ أي التوراة وهم اليهود الذين كانوا في عهده صلى الله عليه وسلم لا الذين كانوا في عهد سليمان عليه السلام كما توهمه بعضهم من اللحاق لأن النبذ عند مجيء النبي صلى الله عليه وسلم لا يتصور منهم ، وإفراد هذا النبذ بالذكر مع اندراجه في قوله تعالى : ﴿ أَوَكُلَّمَا عاهدوا ﴾ [البقرة : 100] الخ ، لأنه معظم جناياتهم ، ولأنه تمهيد لما يأتي بعد .

والمراد بالإيتاء إما إيتاء علمها فالموصول عبارة عن علمائهم ، وإما مجرد إنزالها عليهم فهو عبارة عن الكل ، ولم يقل : فريق منهم إيذاناً بكمال التنافي بين ما ثبت لهم في حيز الصلة وبين ما صدر عنه من النبذ .

﴿ كتاب الله ﴾ مفعول ﴿ نَبَذَ ﴾ والمراد به التوراة لما روي عن السدي أنه قال : لما جاءهم محمد صلى الله عليه وسلم عارضوه بالتوراة فاتفقت التوراة والفرقان فنبذوا التوراة وأخذوا بكتاب آصف وسحر هاروت وماروت فلم توافق القرآن ، فهذا قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءهُمْ رَسُولٌ ﴾ الخ ، ويؤيده أن النبذ يقتضي سابقة الأخذ في الجملة وهو متحقق بالنسبة إليها وأن المعرفة إذا أعيدت معرفة كان الثاني عين الأول ، وأن مذمتهم في أنهم نبذوا الكتاب الذي أوتوه واعترفوا بحقيته أشد فإنه يفيد أنه كان مجرد مكابرة وعناد ، ومعنى نبذهم لها اطراح أحكامها ، أو ما فيها من صفة النبي صلى الله عليه وسلم ، وقيل : القرآن ، وأيده أبو حيان بأن الكلام مع الرسول فيصير المعنى أنه يصدق ما بأيديهم من التوراة ، وهم بالعكس يكذبون ما جاء به من القرآن ويتركونه ولا يؤمنون به بعد ما لزمهم تلقيه بالقبول ، وقيل : الإنجيل وليس بشيء وأضاف الكتاب إلى الاسم الكريم تعظيماً له وتهويلاً لما اجترءوا عليه من الكفر به .

﴿ وَرَاء ظُهُورِهِمْ ﴾ جمع ظهر وهو معروف ، ويجمع أيضاً على ظهران وقد شبه تركهم كتاب الله تعالى وإعراضهم عنه بحالة شيء يرمى به وراء الظهر ، والجامع عدم الالتفات وقلة المبالاة ، ثم استعمل ههنا ما كان مستعملاً هناك وهو النبذ وراء الظهر والعرب كثيراً ما تستعمل ذلك في هذا المعنى ، ومنه قوله :

تميم بن مر لا تكونن حاجتي . . .

بظهر ولا يعيى عليك جوابها

ويقولون أيضاً : جعل هذا الأمر دُبُرَ أذنه ويريدون ما تقدم .

(343/60)

﴿ كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ جملة حالية ، أي نبذوه مشبهين بمن لا يعلم أنه كتاب الله تعالى أولا يعلمه أصلاً أو لا يعلمونه على وجه الإتقان ، ولا يعرفون ما فيه من دلائل نبوته صلى الله عليه وسلم ، وهذا على تقدير أن يراد الأحبار ، وفيه إيذان بأن علمهم به رصين لكنهم يتجاهلون ؛ وفي الوجهين الأولين زيادة مبالغة في إعراضهم عما في التوراة من دلائل النبوة ، ومن فسر كتاب الله تعالى بالقرآن جعل متعلق العلم أنه كتاب الله أي كأنهم لا يعلمون أن القرآن كتاب الله تعالى مع ثبوت ذلك عندهم وتحققه لديهم ، وفيه إشارة إلى أنهم نبذوه لا عن شبهة ولكن بغياً وحسداً ، وجعل المتعلق أنه نبي صادق بعيد ، وقد دل الآيتان قوله تعالى : ﴿ أَوْ كُلَّمَا عاهدوا ﴾ [البقرة : 100] الخ ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءهُمْ ﴾ الخ بناءً على احتمال أن يكون الأكثر غير النابذين ، على أن جُلّ اليهود أربع فرق ، ففرقة آمنوا بالتوراة وقاموا بحقوقها كمؤمني أهل الكتاب ، وهم الأقلون المشار إليهم ب ﴿ بَلْ

أَكْثَرُهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ [البقرة : 100] وفرقة جاهروا بنبذ العهود وتعدي الحدود ، وهم المعنيون بقوله تعالى : ﴿ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ ﴾ وفرقة لم يجاهروا ، ولكن نبذوا لجهلهم وهم الأكثرون وفرقة تمسكوا بها ظاهراً ونبذوها سراً ؛ وهم المتجاهلون . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 336. 337 ﴾

وقال ابن عاشور :

وقوله : ﴿ ولما جاءهم رسول ﴾ إلخ معطوف على قوله : ﴿ أو كلما ﴾ عطف القصة على القصة لغرابة هاته الشؤون .

والرسول هو محمد صلى الله عليه وسلم لقوله : ﴿ مصدق لما معهم ﴾ .

والنبذ طرح الشيء من اليد فهو يقتضي سبق الأخذ .

وكتاب الله ظاهر في أنه المراد به القرآن لأنه الأتم في نسبته إلى الله .

فالنبذ على هذا مراد به تركه بعد سماعه فنزل السماع منزلة الأخذ ونزل الكفر به بعد سماعه منزلة النبذ .

(344/60)

وقيل : المراد بكتاب الله التوراة وأشار في " الكشاف" إلى ترجيحه بالتقديم لأن النبذ يقتضي سابقة أخذ المنبوذ وهم لم يتمسكوا بالقرآن ، والأصل في إطلاق اللفظ المفرد أنه حقيقة لفظاً ومعنى وقيل المعرفة إذا أعيدت معرفة كانت عين الأولى وفيه نظر لأن ذلك في إعادة الاسم المعرف باللام ، أو تجعل النبذ تمثيلاً لحال قلة اكتراث المعرض بالشيء فليس مراداً به معناه .

وقوله : ﴿ وراء ظهورهم ﴾ تمثيل للإعراض لأن من أعرض عن شيء تجاوزه فخلفه وراء ظهره وإضافة الوراء إلى الظهر لتأكيد بُعد المتروك بحيث لا يلقاه بعد ذلك فجعل للظهر وراء وإن كان هو هنا بمعنى الوراء .

فالإضافة كالبيانية وبهذا يجاب عما نقله ابن عرفة عن الفقيه أبي العباس أحمد بن عبلون أنه كان يقول : مقتضى هذا أنهم طرحوا كتاب الله أمامهم لأن الذي وراء الظهر هو الوجه وكما أن الظهر خلف للوجه كذلك الوجه وراء للظهر قال ابن عرفة : وأجيب بأن المراد أي بذكر الظهر تأكيد لمعنى وراء كقولهم من وراءِ وراء .

وقوله : ﴿ كأنهم لا يعلمون ﴾ تسجيل عليهم بأنهم عالمون بأن القرآن كتاب الله أو كأنهم لا يعلمون التوراة وما فيها من البشارة ببعثة الرسول من ولد إسماعيل . انتهى انتهى . اهـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 1 صـ 608 ﴾

ومن فوائد ابن عرفة فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ . . . ﴾ .

قال الفخر : يحتمل أن يكون التصديق بموافقته لما في التوراة .

فرده ابن عرفة بأن التصديق هو نسبة المخبر إلى الصدق فهو من عوارض الخبر ، والتصديق بالصفة مجاز لا حقيقة ، وإنما ينسب للصفة الصدق والتصديق .

قوله تعالى : ﴿ كِتَابَ اللهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾

(345/60)

قال ابن عرفة : كان الفقيه أبو العباس أحمد بن علوان يقول : مقتضى هذا أنهم طرحوه بين أيديهم ، لأن الظهر بالنسبة إلى الوجه خلف ، والوجه بالنسبة إلى الظهر خلف ، فالظهر خلف الوجه ، والوجه خلف الظهر ، وإذا طرحوه وراء ظهورهم لزم أنهم طرحوا أمامهم فلا ذم عليهم .

قال ابن عرفة : وأجيب بأن المراد المبالغة في إبعاده عنهم فهم جعلوه وراء الوراء كما جاء في الحديث الصحيح : " مِنْ وَرَاءِ وَرَائِهِمْ " جعلوا للوراء وراء ونبذوه خلف ذلك الوراء وهو أبلغ في كمال النبذ .

قلت : والحديث خرجه مسلم في أواخر كتاب الإيمان من أحاديث الشفاعة من رواية ربعي بن خراش عن حذيفة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يجمع الله الناس فيقوم المؤمنون حين تزلف لهم الجنة فيأتون آدم فيقولون : يا أبانا استفتح لنا الجنة فيقول : وهل أخرجكم منها إلا خطيئة أبيكم آدم ؟ لست بصاحب ذلك اذهبوا إلى ابني إبراهيم خليل الله ، فيقول إبراهيم : لست بصاحب ذلك ، إنما كنت خليلا من وراء وراء ، اعمدوا إلى موسى عليه السلام الذي كلمه الله تكليما " الحديث بكماله انفرد به مسلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عرفة حـ 1 صـ 384.385 ﴾

(346/60)

ومن فوائد صاحب المنار فى الآية الكريمة

قال رحمه الله :

قَوْلُهُ – تَعَالَى – : (وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ) تَقَدَّمَ مَعْنَاهُ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ 41 وَالْآيَةِ 89 وَقَوْلُهُ : (نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ) بَيَانٌ لِحَالٍ جَدِيدَةٍ مِنْ أَحْوَالِ أَهْلِ الْكِتَابِ يَصِحُّ أَنْ تَكُونَ عِلَّةً لِجَمِيعِ مَا صَدَرَ عَنْهُمْ مِنَ الشَّنَاعَاتِ فِي مُعَادَاةِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَمُجَاحَدَتِهِ ، وَهِيَ أَنَّ

فَرِيقًا مِنْهُمْ قَدْ نَبَذُوا كِتَابَ اللهِ الَّذِي يُفَاخِرُونَ بِهِ وَيَحْتَجُّونَ بِأَنَّهُمُ اكْتَفَوْا بِالْهِدَايَةِ بِهِ ، وَأَنَّهُ لَا حَاجَةَ لَهُمْ بِسِوَاهُ – نَبَذُوهُ أَنْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لَهُ بِحَالِهِ وَصِفَاتِهِ ؛ لِأَنَّ الْبِشَارَاتِ الَّتِي فِيهِ بِالنَّبِيِّ الَّذِي يَجِيءُ مِنْ آلِ إِسْمَاعِيلَ لَا تَنْطَبِقُ إِلَّا عَلَى هَذَا الرَّسُولِ ، وَمُصَدِّقٌ لَهُ بِمَقَالِهِ بِاعْتِرَافِهِ بِنُبُوَّةِ مُوسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ – وَصِدْقِهِ فِيمَا جَاءَ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالشَّرِيعَةِ ، وَتَوْبِيخِهِ الْيَهُودَ عَلَى تَحْرِيفِ بَعْضِهَا وَنِسْيَانِ بَعْضٍ وَتَرْكِ الْعَمَلِ بِمَا بَقِيَ لَهُمْ مِنْهَا .

(347/60)

قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : لَيْسَ الْمُرَادُ بِنَبْذِ الْكِتَابِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ أَنَّهُمْ طَرَحُوهُ بِرُمَّتِهِ وَتَرَكُوا التَّصْدِيقَ بِهِ فِي جُمْلَتِهِ وَتَفْصِيلِهِ ، وَإِنَّمَا الْمُرَادُ أَنَّهُمْ طَرَحُوا جُزْءًا مِنْهُ وَهُوَ مَا يُبَشِّرُ بِالنَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَيُبَيِّنُ صِفَاتِهِ وَيَأْمُرُهُمْ بِالْإِيمَانِ بِهِ وَاتِّبَاعِهِ ، أَيْ فَهُوَ تَشْبِيهٌ لِتَرْكِهِمْ إِيَّاهُ وَإِنْكَارِهِ بِمَنْ يُلْقِي الشَّيْءَ وَرَاءَ ظَهْرِهِ حَتَّى لَا يَرَاهُ فَيَتَذَكَّرُهُ . وَتَرْكُ الْجُزْءِ مِنْهُ كَتَرْكِهِ كُلِّهِ ؛ لِأَنَّ تَرْكَ الْبَعْضِ يَذْهَبُ بِحُرْمَةِ الْوَحْيِ مِنَ النَّفْسِ وَيُجَرِّئُ عَلَى تَرْكِ الْبَاقِي (مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا) (5 : 32) (وَقَالَ) : وَلَا فَرْقَ فِي هَذَا الْحُكْمِ بَيْنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ، فَكُلٌّ مِنْهُمَا مُبَشَّرٌ بِالنَّبِيِّ – عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ –

فِي كِتَابِهِ ، وَكُلٌّ مِنْهُمَا قَدْ نَبَذَ الْكِتَابَ فَلَمْ يَعْمَلْ بِهِ . وَلَمْ يَضُرَّ النَّبِيَّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – هَذَا الْجُحُودُ مِنَ الْفَرِيقِ الْجَاحِدِ ؛ لِأَنَّ دَعْوَتَهُ قَدْ قَبِلَهَا الْآخَرُونَ وَاهْتَدَى بِهَا مَنْ لَا يُحْصَى مِنَ الْأُمَّتَيْنِ وَمِنْ سَائِرِ الْأُمَمِ ، وَإِنَّمَا يَضُرُّ الْجَاحِدِينَ ؛ لِأَنَّهُمْ تَرَكُوا كِتَابَهُمُ الَّذِي يَزْعُمُونَ أَنَّهُ الْمُنَجِّي وَالْمُخَلِّصُ لَهُمْ ، وَحُرِمُوا مِنْ هِدَايَةِ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ ، الَّتِي هِيَ أَكْمَلُ هِدَايَةٍ أُنْعِمَ

(348/60)

اللهُ بِهَا عَلَى الْعَالَمِينَ .

قَالَ – تَعَالَى – بَعْدَ مَا ذَكَرَ نَبْذَهُمُ الْكِتَابَ : (كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) أَيْ نَبَذُوهُ نَبْذَ مَنْ لَا يَعْلَمُ أَنَّهُ كِتَابُ اللهِ ، يُرِيدُ أَنَّهُمْ بَالَغُوا فِي تَرْكِهِ وَإِهْمَالِهِ ، وَمَنْ تَرَكَ شَيْئًا مِنْ أَمْرِ اللهِ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ أَمْرُهُ – وَلَكِنْ طَافَ بِهِ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ فَغُلِبَ عَلَى أَمْرِهِ –

فَإِنَّهُ لَا يَلْبَثُ أَنْ يَعُودَ ، وَلَكِنَّ هَذَا الْفَرِيقَ النَّابِذَ لِكِتَابِ اللهِ – تَعَالَى – مِنْ حَيْثُ هُوَ مُبَشِّرٌ بِالنَّبِيِّ وَآمِرٌ بِاتِّبَاعِهِ ، يَتَمَادَى بِهِمُ الزَّمَانُ وَلَا يَتُوبُونَ وَلَا يَرْجِعُونَ ، وَمَا أَحْسَنَ التَّعْبِيرَ عَنْ ذَلِكَ بِنَفْيِ الْحَالِ وَالِاسْتِقْبَالِ دُونَ نَفْيِ الْمَاضِي . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير المنار حـ 1 صـ 328 ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله تعالى : " الْكِتَابَ كِتَابَ اللهِ " : " الكتاب " مفعول ثان لـ " أوتوا " ؛ لأنه يتعدى في الأصل إلى اثنين ، فأقيم الأول مقام الفاعل ، وهو " الواو " ، وبقي الثاني منصوباً ، [وقد تقدم أنه عند السهيلي مفعول أول] و " كتاب الله " مفعول نبذ ، و " وراء " منصوب على الظرف وناصبه " نَبَذ " ، وهذا مثل لإهمالهم التوراة ؛ تقول العرب : " جعل هذا الأمر وَرَاءَ ظَهْرهن ودَبْرَ أُذُنه " أي : أهمله ؛ قال الرزدَقُ : [الطويل]

691 تَمِيمُ بْنَ مُرّ لاَ تَكُونَنَّ حَاجَتِي . . .

بِظَهْرٍ فَلا يَعْيَا عَلَيَّ جَوَابُهَا

والمراد بكتاب الله : القرآن .

قوله : " كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ " جملة في محلّ نصب على الحال ، وصاحبها : فريق ، وإن نكرة لتخصيصه بالوصف ، والعامل فيها " نبذ " ، والتقدير : مُشْبِهِيْنَ للجُهَّال ، ومتعلق العلم محذوف تقديره : أنه كتاب الله لا يُدَاخلهم فيه شكّ ، والمعنى : أنهم كفروا عناداً ؛ لأنهم

نبذوه عن علم ومعرفة ؛ لأنه لا يقال ذلك إلاَّ فيمن يعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 2 صـ 322 . 323 ﴾ . باختصار .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (101) ﴾

جحدوا رُسلَ الحق إلى قلوبهم من حيث الخواطر ، وكذَّبوا رسلهم الذين أتوهم في الظاهر ، فيا جهلاً ما فيه شظية من العرفان ! ويا حرماناً قَارَنَه خِذلان ! . انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 109 ﴾

(350/60)

ومن فوائد العلامة الزمخشرى فى الآيات

قال رحمه الله :

﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (92) ﴾

وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ يجوز أن يكون حالا ، أى عبدتم العجل وأنتم واضعون العبادة غير موضعها .

وأن يكون اعتراضا بمعنى : وأنتم قوم عادتكم الظلم . وكرّر رفع الطور لما نيط به من زيادة ليست مع الأول مع ما فيه من التوكيد وَاسْمَعُوا ما أمرتم به في التوراة قالُوا سَمِعْنا قولك وَعَصَيْنا أمرك . فإن قلت : كيف طابق قوله جوابهم ؟ قلت : طابقه من حيث أنه قال لهم : اسمعوا ، وليكن سماعكم سماع تقبل وطاعة ، فقالوا : سمعنا ، ولكن لا سماع طاعة وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ أى تداخلهم حبه والحرص على عبادته كما يتداخل الثوب الصبغ . وقوله فِي قُلُوبِهِمُ بيان لمكان الإشراب كقوله : (إِنَّما يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ ناراً) . بِكُفْرِهِمْ بسبب كفرهم بِئْسَما يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمانُكُمْ بالتوراة ، لأنه ليس في التوراة عبادة العجاجيل . وإضافة الأمر إلى إيمانهم تهكم ، كما قال قوم شعيب (أَ صَلاتُكَ تَأْمُرُكَ) وكذلك إضافة الإيمان إليهم .

وقوله إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ تشكيك في إيمانهم وقدح في صحة دعواهم له .

[سورة البقرة (2) : الآيات 94 إلى 96]

قُلْ إِنْ كانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (94) وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (95) وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلى حَياةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَما هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِما يَعْمَلُونَ (96)

خالِصَةً نصب على الحال من الدار الآخرة . والمراد الجنة ، أى سالمة لكم ، خاصة بكم ،

ليس لأحد سواكم فيها حق . يعنى إن صحّ قولكم لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً .

والنَّاسِ للجنس وقيل للعهد وهم المسلمون فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ لأنّ من أيقن أنه من أهل الجنة اشتاق إليها وتمنى سرعة الوصول إلى النعيم والتخلص من الدار ذات الشوائب ، كما روى عن المبشرين بالجنة ما روى . كان على رضى اللَّه عنه يطوف بين الصفين في غلالة ، فقال له ابنه الحسن : ما هذا بزي المحاربين : فقال : يا بنىّ لا يبالى أبوك على الموت سقط ، أم عليه سقط الموت . وعن حذيفة رضى اللَّه عنه أنه كان يتمنى الموت ، فلما احتضر قال : حبيب جاء على فاقة ، لا أفلح من ندم «1» . يعنى

---

(1) . أخرجه الحاكم من طريق زيد بن سلام عن أبيه عن جده «أن حذيفة لما احتضر قال : حبيب جاء على فاقة» .

(351/60)

على التمني . وقال عمار بصفين : «الآن ألاقى الأحبة محمداً وحزبه» «1» . وكان كل واحد من العشرة يحب الموت ويحنّ إليه . وعن النبي صلى اللَّه عليه وسلم : «لو تمنوا الموت لغص كل إنسان بريقه فمات مكانه وما بقي على وجه الأرض يهودى»»

بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ بما أسلفوا من موجبات النار من الكفر بمحمد صلى اللَّه عليه وآله وسلم

وبما جاء به ، وتحريف كتاب اللَّه ، وسائر أنواع الكفر والعصيان . وقوله وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً من المعجزات ، لأنه إخبار بالغيب ، وكان كما أخبر به ، كقوله : (وَلَنْ تَفْعَلُوا) فإن قلت : ما أدراك أنهم لم يتمنوا ؟ قلت : لأنهم لو تمنوا لنقل ذلك كما نقل سائر الحوادث ، ولكان ناقلوه من أهل الكتاب وغيرهم من أولى المطاعن في الإسلام أكثر من الذرّ ، وليس أحد منهم نقل ذلك . فإن قلت : التمني من أعمال القلوب وهو سرّ لا يطلع عليه أحد ، فمن أين علمت أنهم لم يتمنوا ؟ قلت : ليس التمني من أعمال القلوب ، إنما هو قول الإنسان بلسانه : ليت لي كذا ، فإذا قاله قالوا : تمنى ، وليت : كلمة التمني ، ومحال أن يقع التحدي بما في الضمائر والقلوب ولو كان التمني بالقلوب وتمنوا لقالوا : قد تمنينا الموت في قلوبنا ، ولم ينقل أنهم قالوا ذلك فإن قلت : لم يقولوه لأنهم علموا أنهم لا يصدّقون . قلت : كم حكى عنهم من أشياء قاولوا بها المسلمين من الافتراء على اللَّه وتحريف كتابه وغير ذلك مما علموا أنهم غير مصدقين فيه ولا محمل له إلا الكذب البحت ولم يبالوا ، فكيف يمتنعون من أن يقولوا إنّ التمني من أفعال القلوب وقد فعلناه ، مع احتمال أن يكونوا صادقين في قولهم وإخبارهم عن ضمائرهم ، وكان الرجل يخبر عن نفسه بالإيمان فيصدّق مع احتمال أن يكون كاذبا لأنه أمر خافٍ لا سبيل إلى الاطلاع عليه وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ تهديد لهم وَلَتَجِدَنَّهُمْ هو من وجد بمعنى علم المتعدي إلى مفعولين في قولهم : وجدت زيداً

---

(1) . أخرجه الطبراني والبزار من رواية ربيعة بن ناجد قال قال لي عمار يوم صفين :

«اليوم ألاقى الأحبة :

محمدا وحزبه» ورواه أبو نعيم في الحلية . من رواية أبى سنان قال «رأيت عمار بن ياسر يوم صفين دعا بشراب فأتى بقدح من لبن فشرب منه ، ثم قال : صدق اللَّه ورسوله : اليوم ألاقى الأحبة : محمدا وحزبه»

(2) . لم يخرجه . وقد أخرجه الطبري من حديث ابن عباس رضى اللَّه عنهما موقوفا . وأخرج البيهقي في الدلائل من رواية الكلبي عن أبى صالح عن ابن عباس رضى اللَّه عنهما «أن النبي صلى اللَّه عليه وسلم قال لليهود «إن كنتم صادقين في مقالتكم فقولوا : اللهم أمتنا . فو الذي نفسي بيده ، لا يقولها رجل منكم إلا غص بريقه ومات مكانه . قالوا : فأنزل اللَّه (وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً) وفي البخاري من رواية عبد الكريم الجزري عن عكرمة عن ابن عباس رضى اللَّه عنهما فال قال أبو جهل «إن رأيت محمدا عند الكعبة لآتينه حتى أطأ على عنقه . فقال النبي صلى اللَّه عليه وسلم «لو فعل لأخذته الملائكة – زاد الإسماعيلي – : عيانا . قال ابن عباس : ولو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا . ولو خرج الذين يباهلون رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم لرجعوا لا يجدون أهلا ولا مالا» وأخرجه ابن مردويه من هذا الوجه مثله . وزاد بعد قوله «لماتوا» «ورأوا مقاعدهم من النار» . [. . . . .]

ذا الحفاظ «1» ومفعولاه «هم أحرص» . فإن قلت : لم قال : عَلى حَياةٍ بالتنكير ؟ قلت : لأنه أراد حياة مخصوصة وهي الحياة المتطاولة ، ولذلك كانت القراءة بها أوقع من قراءة أبىّ (على الحياة) وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا محمول على المعنى لأن معنى أحرص الناس : أحرص من الناس . فإن قلت : ألم يدخل الذين أشركوا تحت الناس ؟ قلت : بلى ، ولكنهم أفردوا بالذكر لأن حرصهم شديد . ويجوز أن يراد : وأحرص من الذين أشركوا ، فحذف لدلالة أحرص الناس عليه . وفيه توبيخ عظيم : لأنّ الذين أشركوا لا يؤمنون بعاقبة ولا يعرفون إلا الحياة الدنيا ، فحرصهم عليها لا يستبعد لأنها جنتهم ، فإذا زاد عليهم في الحرص من له كتاب وهو مقرّ بالجزاء كان حقيقا بأعظم التوبيخ . فإن قلت : لم زاد حرصهم على حرص المشركين ؟ قلت : لأنهم علموا - لعلمهم بحالهم - أنهم صائرون إلى النار لا محالة والمشركون لا يعلمون ذلك . وقيل : أراد بالذين أشركوا المجوس ، لأنهم كانوا يقولون لملوكهم : عش ألف نيروز وألف مهرجان . وعن ابن عباس رضى اللَّه عنه : هو قول الأعاجم : زى هزار سال «2» . وقيل (وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا) كلام مبتدأ ، أى ومنهم ناس يَوَدُّ أَحَدُهُمْ على حذف الموصوف كقوله : (وَما مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقامٌ مَعْلُومٌ) والذين أشركوا - على هذا - : مشارٌ به إلى اليهود ، لأنهم قالوا : عزير ابن اللَّه . والضمير في وَما هُوَ لأحدهم وأَنْ يُعَمَّرَ فاعل بمزحزحه ، أى : وما أحدهم بمن يزحزحه من النار تعميره . وقيل : الضمير لما دل

عليه يعمر من مصدره ، وأن يعمر بدل منه . ويجوز أن يكون «هو» مبهما ، و«أن يعمر» موضحة . والزحزحة : التبعيد والإنحاء . فإن قلت : (يَوَدُّ أَحَدُهُمْ) ما موقعه ؟ قلت : هو بيان لزيادة حرصهم على طريق الاستئناف . فإن قلت : كيف اتصل لو يعمر بيودّ أحدهم ؟ قلت : هو حكاية لوداداتهم .

و«لو» في معنى التمني ، وكان القياس : لو أعمر ، إلا أنه جرى على لفظ الغيبة لقوله : (يَوَدُّ أَحَدُهُمْ) كقولك : حلف بالله ليفعلنّ .

[سورة البقرة (2) : الآيات 97 إلى 98]

قُلْ مَنْ كانَ عَدُوًّا لِجبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدىً وَبُشْرى لِلْمُؤْمِنِينَ (97) مَنْ كانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجبْرِيلَ وَمِيكالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكافِرِينَ (98)

---

(1) . قوله «وجدت زيداً ذا الحفاظ» في الصحاح : يقال إنه لذو حفاظ ، وذو محافظة ، إذا كانت له أنفة . (ع)

(2) . قوله «زى هزار سال» زى بالفارسية بمعنى : عش . وهزار بمعنى : ألف . وسال بمعنى : عام . (ع)

روى أنّ عبد اللَّه بن صوريا من أحبار فدك حاجّ رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم ، وسأله عمن يهبط عليه بالوحي ، فقال : جبريل ، فقال : ذاك عدوّنا ، ولو كان غيره لآمنا بك ، وقد عادانا مرارا ، وأشدّها أنه أنزل على نبينا أنّ بيت المقدس سيخربه بخت نصر ، فبعثنا من يقتله فلقيه ببابل غلاما مسكينا ، فدفع عنه جبريل وقال : إن كان ربكم أمره بهلاككم فإنه لا يسلطكم عليه ، وإن لم يكن إياه فعلى أى حق تقتلونه «1» . وقيل : أمره اللَّه تعالى أن يجعل النبوّة فينا فجعلها في غيرنا .

وروى أنه كان لعمر رضى اللَّه عنه أرض بأعلى المدينة ، وكان ممرّه على مدارس اليهود ، فكان يجلس إليهم ويسمع كلامهم ، فقالوا يا عمر ، قد أحببناك ، وإنا لنطمع فيك فقال : واللَّه ما أجيئكم لحبكم ، ولا أسألكم لأنى شاك في دينى ، وإنما أدخل عليكم لأزداد بصيرة في أمر محمد صلى اللَّه عليه وسلم ، وأرى آثاره في كتابكم ، ثم سألهم عن جبريل فقالوا : ذاك عدوّنا يطلع محمداً على أسرارنا ، وهو صاحب كل خسف وعذاب ، وإنّ ميكائيل يجيء بالخصب والسلام . فقال لهم :

وما منزلتهما من اللَّه تعالى قالوا : أقرب منزلة ، جبريل عن يمينه ، وميكائيل عن يساره . وميكائيل عدوّ لجبريل . فقال عمر : لئن كانا كما تقولون فما هما بعدوّين ، ولأنتم أكفر من الحمير ، ومن كان عدواً لأحدهما كان عدواً للآخر ، ومن كان عدواً لهما كان عدوّاً للَّه .

ثم رجع عمر فوجد جبريل قد سبقه بالوحي ، فقال النبي صلى اللَّه عليه وسلم : لقد وافقك ربك يا عمر .

فقال عمر : لقد رأيتنى في دين اللَّه بعد ذلك أصلب من الحجر «2» . وقرئ : جبرئيل ، بوزن قفشليل «3» وجبرئل بحذف الياء ، وجبريل بحذف الهمزة ، وجبريل بوزن قنديل ، وجبرالّ بلام شديدة . وجبرائيل بوزن جبراعيل ، وجبرائل بوزن جبراعل . ومنع الصرف فيه للتعريف والعجمة . وقيل معناه : عبد اللَّه . الضمير في نَزَّلَهُ للقرآن . ونحو هذا الإضمار - أعنى إضمار ما لم يسبق ذكره - فيه فخامة لشأن صاحبه ، حيث يجعل لفرط شهرته كأنه يدل على نفسه ، ويكتفى عن اسمه الصريح بذكر شيء من صفاته عَلى قَلْبِكَ أى حفظه إياك وفهمكه بِإِذْنِ اللَّهِ بتيسيره

---

(1) . هكذا ذكره الثعلبي والواحدي والبغوي فقالوا روى ابن عباس «أن حبرا من أحبار اليهود من فدك يقال له عبد اللَّه بن صوريا فذكره» ولم أقف له على سند . ولعله من تفسير الكلبي عن أبى صالح عنه .

(2) . أخرجه الواحدي في الأسباب من رواية داود بن أبى هند عن الشعبي ، قال «كان لعمر ، فذكره سواء» وأخرجه الطبري من طريق أسباط عن السدى . قال في قوله : (قُلْ مَنْ كانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ) الآية قال «كان لعمر بن الخطاب رضى اللَّه عنه أرض بأعلى المدينة - إلى آخره - إلا أنه قال فقال عمر : والذي بعثك بالحق لقد جئتك وما أريد إلا أن

أخبرك» .

(3) . قوله «بوزن قفشليل» في الصحاح: القفشليل المغرفة، فارسى معرب. (ع)

(354/60)

وتسهيله. فإن قلت: كان حق الكلام أن يقال: على قلبي «1». قلت: جاءت على حكاية كلام اللَّه تعالى كما تكلم به، كأنه قيل: قل ما تكلمت به من قولي: من كان عدوّا لجبريل فإنه نزله على قلبك. فإن قلت: كيف استقام قوله: (فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ) جزاء للشرط «2»؟ قلت: فيه وجهان: أحدهما إن عادى جبريل أحد من أهل الكتاب فلا وجه لمعاداته حيث نزل كتابا مصدقا للكتب بين يديه، فلو أنصفوا لأحبوه وشكروا له صنيعه في إنزاله ما ينفعهم ويصحح المنزل عليهم. والثاني: إن عاداه أحد فالسبب في عداوته أنه نزل عليك القرآن مصدقا لكتابهم وموافقا له، وهم كارهون للقرآن ولموافقته لكتابهم، ولذلك كانوا يحرفونه ويجحدون موافقته له، كقولك: إن عاداك فلان فقد أذيته وأسأت إليه. أُفرد الملكان بالذكر لفضلهما كأنهما من جنس آخر، وهو مما ذكر أنّ التغاير في الوصف ينزل منزلة التغاير في الذات. وقرئ: ميكال، بوزن قنطار. وميكائيل كميكاعيل. وميكائل كميكاعل. وميكئل كميكعل. وميكئيل كميكعيل. قال ابن جنى: العرب إذا نطقت

بالأعجمي خلطت فيه. عَدُوٌّ لِلْكافِرِينَ أراد عدوّ لهم فجاء بالظاهر، ليدل على أنّ اللَّه إنما عاداهم لكفرهم، وأن عداوة الملائكة كفر، وإذا كانت عداوة الأنبياء كفراً فما بال الملائكة وهم أشرف «3» والمعنى من عاداهم عاداه اللَّه وعاقبه أشدّ العقاب.

[سورة البقرة (2): الآيات 99 إلى 101]

وَلَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ آياتٍ بَيِّناتٍ وَما يَكْفُرُ بِها إِلَّا الْفاسِقُونَ (99) أَوَكُلَّما عاهَدُوا عَهْداً نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (100) وَلَمَّا جاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِما مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ كِتابَ اللَّهِ وَراءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ (101)

---

(1). قال محمود رحمه اللَّه: «فان قلت: كان حق الكلام أن يقال على قلبي... الخ».

قال أحمد رحمه اللَّه:

الحكاية مرة تكون مع التزام اللفظ، ومرة تكون بالمعنى غير متبعة للفظ، فلعل الأمر في هذه الآية توجه على النبي عليه السلام أن يحكى معنى قول اللَّه تعالى له (مَنْ كانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلى قَلْبِكَ) بلفظ المتكلم ونظير هذا قوله تعالى: (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً) إلى قوله: (وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ ماءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً) فانظر ما وقع بعد القول المنسوب إليهم مما يفهم أنه قول اللَّه عز وجل لا على سبيل الحكاية عنهم، إذ هم لا يقولون: فأنشرنا، وإنما يقولون: فأنشر، على لفظ الغيبة ولكن جاء الكلام حكاية على المعنى، لأن معنى

قولهم : فأنشر اللَّه ، هو معنى قول اللَّه عن ذاته : فأنشرنا ، ولا يستتب لك أن يجعل هذا من باب الخروج من الغيبة إلى التكلم الذي يسمى التفاتا ، فان في هذا مزيداً . ومنه قوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام (قالَ عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي فِي كِتابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنْسى ، الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ) إلى قوله : (فَأَخْرَجْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْ نَباتٍ شَتَّى) فأول الكلام يفهم قول موسى وآخره يفهم قول اللَّه تعالى . والطريق الجامع في ذلك ما قررته واللَّه أعلم .

(2) . قال محمود رحمه اللَّه : «فان قلت كيف استقام قوله فانه نزله جزاء للشرط . . . الخ» ؟ قال أحمد رحمه اللَّه :

ويكون دخول الفاء في الجزاء على هذا الوجه مستحقا لسببين : أحدهما أنه جملة اسمية . والآخر أنه ماض صحيح .

(3) . قوله «فما بال الملائكة وهم أشرف» هذا عند المعتزلة . أما عند أهل السنة فالأنبياء أشرف . (ع)

(355/60)

إِلَّا الْفاسِقُونَ إلا المتمرّدون من الكفرة . وعن الحسن : إذا استعمل الفسق في نوع من المعاصي وقع على أعظم ذلك النوع من كفر وغيره . وعن ابن عباس رضى اللَّه عنه : قال

ابن صوريا لرسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم : ما جئتنا بشيء نعرفه وما أنزل عليك من آية فنتبعك لها «1» فنزلت . واللام في : (الْفاسِقُونَ) للجنس والأحسن أن تكون إشارة إلى أهل الكتاب أَوَكُلَّما الواو للعطف على محذوف معناه أكفروا بالآيات البينات وكلما عاهدوا . وقرأ أبو السمال بسكون الواو على أنّ الفاسقون بمعنى الذين فسقوا ، فكأنه قيل : وما يكفر بها إلا الذين فسقوا ، أو نقضوا عهد اللَّه مرارا كثيرة . وقرئ عوهدوا وعهدوا واليهود موسومون بالغدر ونقض العهود ، وكم أخذ اللَّه الميثاق منهم ومن آبائهم فنقضوا . وكم عاهدهم رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم فلم يفوا (الَّذِينَ عاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ) . والنبذ الرمي بالذمام «2» ورفضه . وقرأ عبد اللَّه نقضه فَرِيقٌ مِنْهُمْ وقال فريق منهم ، لأنّ منهم من لم ينقض بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ بالتوراة وليسوا من الدين في شيء ، فلا يعدّون نقض المواثيق ذنباً ولا يبالون به كِتابَ اللَّهِ يعنى التوراة ، لأنهم بكفرهم برسول اللَّه المصدق لما معهم كافرون بها نابذون لها . وقيل : كتاب اللَّه القرآن ، نبذوه بعد ما لزمهم تلقيه بالقبول . كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ أنه كتاب اللَّه لا يدخلهم فيه شك «3» . يعنى أنّ علمهم بذلك رصين ، ولكنهم كابروا وعاندوا ونبذوه وراء ظهورهم ، مثل لتركهم وإعراضهم عنه ، مثل بما يرمى به وراء الظهر استغناء عنه وقلة التفات إليه . وعن الشعبي : هو بين أيديهم يقرءونه ، ولكنهم نبذوا العمل به . وعن سفيان : أدرجوه في الديباج والحرير وحلوه بالذهب ، ولم يحلوا حلاله ولم يحرّموا حرامه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشاف حـ 1

صـ 166. 171 ﴾

---

(1) . أخرجه الطبري من طريق ابن إسحاق . حدثني محمد بن أبى محمد حدثني سعيد بن جبير عنه بهذا .

(2) . قوله «بالذمام» في الصحاح : الذمام الحرمة . (ع)

(3) . قوله «لا يدخلهم فيه شك» لعله علما لا يدخلهم فيه شك . (ع)

(356/60)

وقال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (97) مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ (98) وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ (99) أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (100) وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (101) ﴾

التفسير : هذا نوع آخر من قبائح أفعال اليهود ، والسبب في نزوله أنه صلى الله عليه وسلم

لما قدم المدينة أتاه عبد الله بن صوريا من أحبار فدك فقال : يا محمد ، كيف نومك ؟ فقد أخبرنا عن نوم النبي صلى الله عليه وسلم الذي يجيء في آخر الزمان ، فقال صلى الله عليه وسلم تنام عيناي ولا ينام قلبي . قال : صدقت يا محمد ، فأخبرنا عن

(357/60)

الولد من الرجل يكون أو من المرأة ؟ فقال : أما العظام والعصب والغضروف فمن الرجل ، وأما اللحم والدم والظفر والشعر فمن المرأة . فقال صدقت . قال : فما بال الولد يشبه أعمامه دون أخواله ، أو يشبه أخواله دون أعمامه ؟ فقال : أيهما غلب ماؤه ماء صاحبه كان الشبه له . قال : صدقت . قال : أخبرنا أي الطعام حرم إسرائيل على نفسه وفي التوراة أن النبي الأمي يخبر عنه ، فقال صلى الله عليه وسلم : " أنشدكم بالله الذي أنزل التوراة على موسى ، هل تعلمون أن إسرائيل مرض مرضاً شديداً فطال سقمه فنذر لله نذراً إن عافاه الله من سقمه ليحرّمن أحب الطعام والشراب على نفسه وهو لحمان الإبل وألبانها " فقالوا : اللهم نعم . فقال له : بقيت خصلة إن قلتها آمنت بك . أيّ ملك يأتيك بما تقول عن الله ؟ قال : جبريل قال : ذاك عدونا ينزل بالقتال والشدة ، ورسولنا ميكائيل يأتي باليسر والرخاء . فإن كان هو يأتيك آمنا بك . فقال عمر : ما مبدأ هذا العداوة ؟ فقال

ابن صوريا : إن الله أنزل على نبينا أن بيت المقدس يخرب في زمان رجل يقال له بختنصر ، ووصفه لنا فطلبناه فلما وجدناه بعثنا لقتله رجالاً فدفع عنه جبريل وقال : إن سلطكم الله على قتله . فهذا ليس هو ذاك وإن لم يكن إياه فعلى أي حق تقتلونه . ثم إنه كبر وقوي وملك وغزانا وخرب بيت المقدس فلهذا نتخذه عدواً . وأما ميكائيل فإنه عدو لجبريل .

(358/60)

فقال عمر : فإني أشهد أن من كان عدواً لجبريل فهو عدو لميكا ئيل ، وهما عدوان لمن عاداهما ، فأنكر ذلك على عمر فأنزل الله تعالى هاتين الآيتين . وقيل : كان لعمر أرض بالمدينة أعلاها ، وكان ممره على مدراس اليهود ، وكان يجلس إليهم ويسمع كلامهم . فقالوا : يا عمر قد أحببناك وإنا لنطمع فيك . فقال : والله لا أجيئكم لحبكم ولا أسألكم لأني شاك في ديني ، وإنما أدخل عليكم لأزداد بصيرة في أمر محمد صلى الله عليه وسلم وأرى آثاره في كتابكم . ثم سألوه فقالوا : من صاحب صاحبكم ؟ فقال عمر : جبريل . فقالوا : ذاك عدوّنا يطلع محمداً على أسرارنا ، وهو صاحب كل خسف وعذاب ، وإن ميكائيل يجيء بالخصب والسلام . فقال لهم : وما منزلتهما من الله ؟ قالوا : أقرب منزلة جبريل وهو عن يمينه ، وميكائيل عن يساره ، وميكائيل عدوّ لجبريل . فقال عمر : إن كان كما تقولون

فما هما بعدوّين ، ولأنتم أكفر من الحمير . ومن كان عدواً لأحدهما كان عدواً للآخر ، ومن كان عدواً لهما كان عدواً لله . ثم رجع عمر فوجد جبريل قد سبقه بالوحي فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " لقد وافقك ربك يا عمر " . قال : لقد رأيتني في دين الله بعد ذلك أصلب من الحجر . وعن مقاتل : زعمت اليهود أن جبريل عدونا أمر بأن يجعل النبوة فينا فجعلها في غيرنا . والأقرب في سبب عداوتهم إياه أنه كان ينزل بالقرآن على محمد صلى الله عليه وسلم كما يشعر بذلك قوله ﴿ فإنه نزله ﴾ أي إن عاداه أحد فالسبب في عداوته أنه نزل عليك القرآن مصدقاً لكتابهم وموافقاً له وهم كارهون للقرآن ولموافقته لكتابهم ، ولذلك كانوا يحرّفونه ويجحدون موافقته له كقولك " إن عاداك فلان فقد آذيته وأسأت إليه " أو إن عادى جبريل أحد من أهل الكتاب فلا وجه لمعاداته حيث نزل كتاباً مصدقاً للكتب بين يديه ، فلو أنصفوا لأحبوه وشكروا له صنيعه في النزول بما ينفعهم ويصحح المنزل عليهم . ويمكن أن يتوجه الجزاء إلى قوله ﴿ بإذن الله ﴾

(359/60)

إلى آخره . أي إن عاداه أحد فلا وجه لعداوته لأنه لم ينزل بالقرآن من تلقاء نفسه وباختياره وإنما جاء به بإذن الله وأمره الذي لا محيص عنه ولا سبيل إلى مخالفته وجاء به مصدقاً

هادياً مبشراً ، فهو من حيث إنه مأمور وجب أن يكون معذوراً ، ومن حيث إنه أتى بالهداية والبشارة يلزم أن يكون مشكوراً . فعداوة من هذا سبيله عداوة الله ، ولو أنه تعالى أمر ميكائيل بذلك لانقاد لأمره أيضاً لا محالة ولتوجه الإشكال عليه ، فما الوجه في تخصيص جبريل بالعداوة ؟ وجبريل ممتنع من الصرف للعلمية والعجمة بشرطها . وعن ابن عباس وغيره أن معناه عبد الله ، والضمير في نزله للقرآن وإن لم يجر له ذكر لأنه كالمعلوم مثل قوله تعالى

(360/60)

﴿ ما ترك على ظهرها من دابة ﴾ [فاطر : 45] وهذا النوع من الإضمار فيه فخامة لشأن صاحبه حيث جعله لفرط شهرته كأنه يدل على نفسه . وأكثر الأمة على أن القرآن إنما نزل على محمد لا على قلبه ، لكن خص القلب بالذكر لأن السبب في تمكنه صلى الله عليه وسلم من الأداء ثباته في قلبه ، فمعنى على قلبك حفظه إياك وفهمه . وقيل : أي جعل قلبك متصفاً بأخلاق القرآن ومتأدباً بآدابه كما في حديث عائشة "كان خلقه صلى الله عليه وسلم القرآن " وكان حق الكلام أن يقال على قلبي إلا أنه جاء على حكاية كلام الله كما تكلم به كأنه قيل : قل ما تكلمت به من قولي ﴿ من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على

قلبك ﴾ ومعنى ﴿ مصدقاً لما بين يديه ﴾ موافقاً لما قبله من كتب الأنبياء فيما يرجع إلى المبادئ والغايات دون الأوساط التي يتطرق إليها الاختلاف بتبدل الأزمان والأوقات .

ومعنى قوله ﴿ وهدى وبشرى ﴾ أن القرآن يشتمل على أمرين . أحدهما بيان ما وقع التكليف به من أعمال القلوب وأفعال الجوارح فهو من هذا الوجه هدى ، وثانيهما بيان أن الآتي بتلك الأعمال كيف يكون ثوابه فهو من هذا الوجه بشرى ، والأول مقدم على الثاني في الوجود فقدم في الذكر أيضاً . ولا ريب أن البشرى تختص بالمؤمنين ، وأما الهدى فلأنهم هم المنتفعون به كما مر في ﴿ هدى للمتقين ﴾ . ولما بين في الآية المتقدمة أن من كان عدواً لجبريل لأجل أنه نزل القرآن على قلب محمد صلى الله عليه وسلم وجب أن يكون عدواً لله تعالى ، بين في الآية التالية أن من كان عدواً لله وللمخصوصين بكرامته فإن الله يعاديهم وينتقم منهم . والعداوة بالحقيقة لا تصح إلا فينا لأن العدو للغير هو الذي يريد إنزال المضار به ، وهذا التصور يستحيل في حقه تعالى من العاقل المتفطن لا الغافل المتغابي . فمعنى قوله ﴿ من كان عدواً لله ﴾ أي لأولياء الله كقوله ﴿ إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ﴾ [المائدة : 33] ﴿ إن الذين يؤذون الله

ورسوله ﴾ [الأحزاب : 57] . أو يراد بذلك كراهتهم القيام بطاعته وبعدهم عن التمسك بدينه ، لأن العدو لا يكاد يوافق عدوه وينقاد لأمره . قال أهل التحقيق : عداوتهم لله وملائكته نتيجة عداوة الله لهم ونظره إليهم في الأزل بالقهر " هؤلاء في النار ولا أبالي " كما أن محبة المؤمنين لله نتيجة محبة الله إياهم ﴿ يحبهم ويحبونه ﴾ [المائدة : 54] وذلك أن صفات الله تعالى قديمة وصفات الخلق محدثة ، والأولى علة الثانية . وأفرد الملكان بالذكر دلالة على فضلها كأنهما من جنس آخر ، فإن التغاير في الوصف قد ينزل منزلة التغاير في الذات ، ولأن الآية نزلت فيما يتعلق بهما فحسن أن ينص على اسميهما . وتقديم جبريل في الذكر يدل على أنه أفضل من ميكائيل وأيضاً أن جبريل ينزل بالوحي والعلم وذلك سبب بقاء الأرواح ، وميكائيل ينزل بالخصب والرزق وهو سبب بقاء الأبدان .

(362/60)

والواو في جبريل وميكائيل بمعنى " أو " لأن عداوة أحد هؤلاء توجب عداوة الله كما أن عداوة كلهم توجب ذلك ، ويحتمل أن يكون الواو على الأصل ويعرف ما ذكرنا من القرينة . وقوله ﴿ للكافرين ﴾ من وضع الظاهر موضع المضمر دلالة على أن عداوة هؤلاء كفر .

الآيات البينات هي آيات القرآن ، ولا يبعد أن تشمل سائر معجزاته وإن كان لفظ الإنزال نابياً عنه بضع النبوّ . ومعنى كون الآية بينة أن العلوم تنقسم إلى ما يكون طريق تحصيله ، والدليل الدال عليه أكثر مقدمات فيكون الوصل إليه أصعب ، وإلى ما يكون أقل مقدمات فيكون الوصول إليه أقرب وهذا هو الآية البينة . والكفر بها إما جحودها مع العلم بصحتها ، وإما جحودها مع الجهل وترك النظر فيها والإعراض عن دلائلها ، وليس في الظاهر تخصيص فيدخل الكل فيه ، والفسق هو خروج الإنسان عما حد له إلى الفساد ويقرب منه الفجور ، لأنه مأخوذ من فجور السد الذي يمنع الماء من أن يصير إلى الموضع الذي يفسد . عن الحسن : إذا استعمل الفسق في نوع من المعاصي وقع على أعظم ذلك النوع من كفر وغيره . ولهذا لا يوصف صاحب الصغيرة بالفسق وإن تجاوز عن أمر الله تعالى كمن فتح من النهر نقباً صغيراً لا يقال : إنه فجر النهر . وفي قوله ﴿ إلا الفاسقون ﴾ وجهان : أحدهما أن كل كافر فاسق ولا ينعكس ، وكان ذكر الفاسق أولى ليأتي على الكافر وغيره . الثاني أن المراد وما يكفر بها إلا الكافر المتجاوز عن كل حد في كفره . وهذه الآيات لما كانت بينة لم يكفر بها إلا الكافر الذي بلغ في الكفر النهاية القصوى ، وهذا نوع آخر من فضائح اليهود . عن ابن عباس أنهم كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه ، فلما بعث صلى الله عليه وسلم من العرب

كفروا به وجحدوا بما كانوا يقولون فيه فقال لهم معاذ بن جبل : يا معشر اليهود اتقوا الله وأسلموا فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد صلى الله عليه وسلم ونحن أهل الشرك ،

(363/60)

وتخبروننا أنه مبعوث وتصفون لنا صفته . فقال بعضهم : ما جاءنا بشيء من البينات وما هو بالذي كنا نذكر لكم فنزلت . واللام في ﴿ الفاسقون ﴾ للجنس أو إشارة إلى أهل الكتاب . ﴿ أوكلما ﴾ الواو للعطف على محذوف معناه أكفروا بالآيات البينات ؟ وكلما عاهدوا واليهود موسومون بالغدر ونقض العهود وكم أخذ الله الميثاق منهم ومن آبائهم فنقضوا ، وكم عاهدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يفوا الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة . وفيه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم لأن من يعتاد منه هذه الطريقة لا يصعب على النفس من مخالفته كصعوبة من لم تجر عادته بذلك . والنبذ الرمي بالذمام ورفضه ، وإنما قيل ﴿ فريق منهم ﴾ لأن منهم من لم ينقض بل أكثرهم لا يؤمنون بالتوراة وليسوا من الدين في شيء ، فلا يعدون نقض المواثيق ذنباً . ﴿ ولما جاءهم رسول ﴾ أي كتاب لتلازمهما بدليل كتاب الله وهو القرآن ، نبذوه بعد ما لزمهم تلقيه بالقبول كأنهم لا يعلمون أنه كتاب الله ، يعني أن علمهم بذلك رصين من قبل التوراة

ولكن المكابرة هجيراهم ، ونبذه وراء ظهورهم مثل لإعراضهم عنه وتركهم العمل به .

وقيل : كتاب الله التوراة لأنهم لكفرهم برسول الله كافرون بها . وعن سفيان : أدرجوه في الديباج والحرير وحلوه بالذهب ولم يحلوا حلاله ولم يحرّموا حرامه . اللهم ارزقنا العلم بكتابك والعمل به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 1 صـ 341.345 ﴾

(364/60)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : هذا حال أكثر البطالين المتشبهين بالطالبين يصغون إلى كلمات العلماء الراسخين ، فما استحلته نفوسهم قبلوه ، وما استغربته نبذوه وأنكروه ، فيكذبون فريقاً منهم فراراً عن تحمل أعباء الطلب ويثيرون الفتنة على فريق بالحسد والإنكار والفتنة أشد من القتل ﴿ وقالوا قلوبنا غلف ﴾ فيه إشارة إلى أن الطالب إذا ابتلى في أثناء الطلب بالرهقة أو الفترة لم يضره ذلك ما دام متمسكاً بالإرادة ، فيرجى رجوعه بإذن الله وبمدد همة الأستاذ والشيخ ، فأما إذا زلت قدمه عن جادة الإرادة وأظهر الإنكار والاعتراض فلن يرجى فلاحه . ﴿ ولما جاءهم كتاب ﴾ فيه إشارة إلى أن أهل كل زمان يتمنون أن يدركوا أحداً من العلماء

والأولياء المحظوظين بالعلوم الكسبية واللدنية ويتوسلون بهم إلى الله تعالى عند رفع حوائجهم في صالح دعائهم ويظهرون محبتهم عند الخلق ﴿ فلما وجدوا ﴾

(365/60)

واحداً منهم ﴿ ما عرفوا ﴾ قدره وحسدوه وأظهروا عداوته وما أنصفوه ﴿ فباءوا بغضب ﴾ من رد ولاية الأولياء ﴿ على غضب ﴾ من الله لأوليائه كما جاء في الحديث « من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة » و « إنما أنا أغضب لأوليائي كما يغضب الليث لجروه » والله أعلم بالصواب .

أهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 1 صـ 334. 335 ﴾

(366/60)

بسم الله الرحمن الرحيم

الكتاب / الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

ويسمى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العَاجِزُ الْفَقِيرُ

عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مُحَمَّدٍ الْقَمَّاش

إِمَامُ وَخَطِيبُ مَسْجِدِ بُورُسْلِى - رَأْسُ الْخَيمَةِ

دَوْلَةُ الإِمَارَاتِ الْعَرَبِيَّةِ الْمُتَّحِدَةِ

(عَفَا اللهُ عَنْهُ وَغَفَرَ لَهُ)

الجزء الحادى والستون

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الحادى والستون

من الآية ﴿ 102 ﴾ سورة البقرة

وحتى الآية ﴿ 103 ﴾ من نفس السورة

قوله تعالى ﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (102) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كانت سنة الله جارية بأنه ما أمات أحد سنة إلا زاد في خذلانه بأن أحيى على يده بدعة أعقبهم نبذهم لكلام الله أولى الأولياء إقبالهم على كلام الشياطين الذين هم أعدى الأعداء فقال تعالى : ﴿ واتبعوا ما تتلوا ﴾ أي تقرأ أو تتبع ، وعبر بالمضارع إشارة إلى كثرته وفشوه واستمراره ﴿ الشياطين على ملك ﴾ أي زمن ملك ﴿ سليمان ﴾ من السحر الذي هو كفر .

قال الحرالي : من حيث إن حقيقته أمر يبطل بذكر اسم الله ويظهر أثره فيما قصر عليه من التخييل والتمريض ونحوه بالاقتصار به من دون اسم الله الذي هو كفر – انتهى .

وكأن السحر كان في تلك الأيام ظاهراً عالياً على ما يفهمه التعبير بعلى ، وأحسن من هذا أن يضمن ﴿ تتلوا ﴾ تكذب ، فيكون التقدير : تتلو كذباً على ملكه ، كما أشار إليه ما رواه البغوي وغيره عن الكلبي وكذا ما روي عن السدي ، وقال أبو حاتم أحمد بن حمدان الرازي في كتاب الزينة : وروى في الحديث : " أنه لما مات سليمان عليه السلام عمدت الشياطين فكتبت أصناف السحر : من كان يحب أن يبلغ كذا فليفعل كذا ، وجعلوه في كتاب ثم ختموه بخاتم سليمان وكتبوا في عنوانه : هذا كتاب آصف بن برخيا الصديق لسليمان بن داود عليهما السلام من ذخائر كنوز العلم ، ثم دفنوه تحت كرسيه ؛ فاستخرجه بعد ذلك بقايا بني إسرائيل حين أحدثوا ما أحدثوا ، فلما عثروا عليه قالوا : ما كان ملك سليمان إلا بهذا ، فأفشوا السحر في الناس ، فليس هو في أحد أكثر منه في يهود " انتهى .

وسليمان – على ما ذكر في أول إنجيل متّى أثناء إنجيل لوقا – هو ابن داود بن لَسَّى ابن عونيد بن باعاز بن سلمون بن يصون بن عمينا داب بن أرام بن يورام بن حصرون بن فارض بن يهودا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام والحاصل أنهم مع تركهم للكتب المصدقة لما معهم ، الكفيلة بكل هدى وبركة ، الآتية من عند الله المتحبب إلى عباده بكل جميل ، على ألسنة رسله الذين هم أصدق الناس وأنصحهم وأهداهم ، لا سيما هذا الكتاب المعجز الذين كانوا يتباشرون بقرب زمن صاحبه ، اتبعوا السحر الذي هو أضر الأشياء وأبشعها ، الآتي به الشياطين الذين هم أعدى الأعداء وأفظعها ، وأعجب ما في ذلك أنهم نسبوا السحر إلى سليمان عليه السلام كذباً وفجوراً وكفروه به ثم كانوا هم أشد الناس تطلباً له ومصاحبة علماً وعملاً وأكثر ما يوجد فيهم ، فكانوا بذلك شاهدين على أنفسهم بالكفر ؛ ومن المحاسن أيضاً أنه لما كان قوله : ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل ﴾ [البقرة : 87] وما بعده في الكتب والأنبياء والرسل من البشر والملائكة كانت فذلكته أن الكفرة من أهل الكتاب نبذوا ذلك كله ونابذوه وأقبلوا على السحر الذي كان إبطاله من أول معجزات نبيهم وأعظمها ؛ فهو أشد شيء منافاة لشرعهم مع علمهم بأن ذلك يضرهم في الدارين ولا ينفعهم .

ولما اعتقد أهل الكتاب بعد موت سليمان عليه السلام أن السحر منه ، وأن انتظام ملكه على الإنس والجن والطير والوحش والريح إنما كان به ، نفى الله تعالى ذلك عنه بقوله :

﴿ وما كفر سليمان ﴾ ، قال الحرالي : يقال هو من السلامة ، فإنه من سلامة صدره من تعلقه بما خوله الله تعالى من ملكه ﴿ هذا من فضل ربي ليبلوني ءأشكر أم أكفر ﴾ [النمل : 40] وهو واحد كمال في ملك العالم المشهود من الأركان الأربعة وما منها من المخلوقات - انتهى .

أي ما وقع منه كفر ما فضلاً عن أن يكون بالسحر الذي هو أبعد الأشياء عن آيات الأنبياء ﴿ ولكن الشياطين كفروا ﴾ .

ثم بين كفرهم بقوله : ﴿ يعلمون الناس ﴾ أي المضطرين الذين لم يصلوا إلى سِنّ الذين آمنوا ﴿ السحر ﴾ أي الذي ولدوه هم بما يزينونه من حاله ليعتقد أنه مؤثر بنفسه ونحو ذلك ، كما أن الأنبياء وأتباعهم يعلمون الناس الحق بما يبينونه من أمره .

والسحر قال الحرالي : هو قلب الحواس في مدركاتها عن الوجه المعتاد لها في صحتها عن سبب باطل لا يثبت مع ذكر الله عليه .

وقال الكرماني : أمر خارق للعادة صادر عن نفس شريرة لا تتعذر معارضته .

وقال الأصفهاني : اختلفوا في تعلمه على ثلاثة أوجه : أحدها أنه حرام ، الثاني أنه مكروه

، الثالث أنه مباح ، والحق أنه إن كان تعلمه للعمل فهو حرام ، وإن كان لتوقيه وعدم الاغترار به فهو مباح ، وقال : والمراد بالسحر ما يستعان في تحصيله بالتقرب إلى الشيطان مما لا يستقل به الإنسان ، وذلك لا يستتب إلا لمن يناسبه في الشرارة وخبث النفس ، فإن التناسب شرط في التضام والتعاون وبهذا يميز الساحر عن الولي والنبي ؛ وأما ما يتعجب منه كما يفعله أصحاب الحيل بمعونة الآلات والأدوية أو يريه صاحب خفة اليد فغير حرام ، وتسميته سحراً على التجوز لما فيه من الدقة ، لأنه في الأصل لما خفي سببه .

وقوله : ﴿ وما ﴾ ، أي واتبعوا أو ويعلمون ﴿ ما أنزل على الملكين ﴾ قال الحرالي : فيه إنباء بأن هذا التخييل ضربان : مودع في الكون هو أمر الشياطين ، ومنزل من غيب هو المتعلم من الملكين ؛ وقال : ﴿ ببابل ﴾ تحقيقاً لنزولهما إلى الأرض ﴿ هاروت وماروت ﴾ بدل من الملكين ، كأنهما لما كانا مع الحاجة إليهما لا يحتاجان إلى أحد وُصفا أيضاً بكونهما ملكين – بكسر اللام ، وعبارة الحرالي : ملَكان جعلا مِلكين في الأرض ، والآية من إظهار الله للملائكة أفضل الخليفة .

ثم بين نصيحة الملكين بقوله : ﴿ وما ﴾ فأنبأ أن التقدير : وما كفر الملكان كما كفر الشياطين فإنهما ما ﴿ يعلمان ﴾ ، وزيادة من في قوله : ﴿ من أحد ﴾ لتأكيد الاستغراق ﴿ حتى يقولا إنما نحن فتنة ﴾ أي على صورة الاختبار من الله لعباده ، فإنه يعلم نبأ من يختار السحر لما فيه من النفع العاجل على أمر النبوة فيكفر ، ومن يعلم حقيقته لئلا يقع فيه وهو لا يشعر ثم يتركه إقبالاً على دين الله ؛ ووحد والمخبر عنه اثنان لأنها مصدر وهو لا يثنى ولا يجمع .

قال الحرالي : وأصل معناها من فتن الذهب وهو تسخيره ليظهر جوهره ويتخلص طيبه من خبيثه – انتهى .

﴿ فلا تكفر ﴾ بالعمل بما نعلمكه ، فإن العمل به كفر ، أو باعتقاد أنه حق مغن عما جاء عن الله ، أو مؤثر بنفسه ﴿ فيتعلمون منهما ما يفرقون به ﴾ مخالفة للملكين في النهي عن ذلك ، وذكر الفرقة في أشد الاتصال ليفهم منه ما دونه فقال : ﴿ بين المرء وزوجه ﴾ ، والمرء اسم سن من أسنان الطبع يشارك الرجل به المرأة ويكون له فيه فضل ما ويسمى معناه المروة – قاله الحرالي .

ولما ذكر السبب القريب للضرر رده إليه ترقية للذهن الثاقب إلى أعلى المراتب وصوناً له عن اعتقاده ما لا يناسب فقال : ﴿ وما هم بضارين ﴾ وهو من الضر – بالفتح والضم – وهو ما يؤلم الظاهر من الجسم وما يتصل بمحسوسه ، في مقابلة الأذى وهو إيلام النفس وما

يتصل بأحوالها ، وتشعر الضمة في الضر بأنه عن علو وقهر ، والفتحة بأنه ما يكون عن مماثل ونحوه ، وقل ما يكون عن الأدنى إلا أذى ومنه ﴿ لن يضروكم إلا أذى ﴾ [آل عمران : 111] قاله الحرالي : ﴿ به من أحد ﴾ .

ولما أكد استغراقه بضروب من التأكيد تلاه بمعيار العموم فقال : ﴿ إلا بإذن الله ﴾ المحيط بكل شيء قدرة وعلماً ولا كفؤ له ، وفيه إعلام لهم بأن ضرره لرسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك الضرر الضعيف حيث سحره لبيد بن الأعصم إنما هو كضرر غيره من الأسباب التي قد تخفى فيضاف الأمر في ضررها إلى الله تعالى ، وقد تعرف فيضاف الضرر إليها كما كان يحصل لغيره من إخوانه من الأنبياء منهم ومن غيرهم ، والعلم حاصل بأن المؤثر في الجميع في الحقيقة هو الله تعالى ، وسيأتي عند قوله تعالى : ﴿ وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها ﴾ [الأنعام : 97] في سورة الأنعام ما ينفع استحضاره هنا . ولما كان هذا الذي تقدم وإن كان للعامل به نفع على زعمه فضره أكبر من نفعه اتبعه قسماً آخر ليس للعامل به شيء غير الضر ؛ فليس الحامل على تعلمه إلا إيثاراً للحاق بإبليس وحزبه فقال : ﴿ ويتعلمون ﴾ ، أي من السحر الذي ولده الشياطين لا من الملكين ﴿ ما

يضرهم ﴾ لأن مجرد العمل به كفر أو معصية ثم حقق أنه ضرر كله لا شائبة للنفع فيه بقوله : ﴿ ولا ينفعهم ﴾ لأنه لا تأثير له أصلاً ، والنفع وصول موافق الجسم الظاهر وما يتصل به في مقابلة الضر ، ولذلك يخاطب به الكفار كثيراً لوقوع معنيهما في الظاهر الذي هو مقصدهم من ظاهر الحياة الدنيا – قاله الحرالي .

ثم أتبعه ما يعرف أنهم ارتكبوه على علم فقال محققاً مؤكداً : ﴿ ولقد علموا ﴾ ، بياناً لأنهم أسفه الناس ﴿ لمن اشتراه ﴾ أي آثره على ما يعلم نفعه من الإيمان ﴿ ما له في الآخرة ﴾ الباقية الباقي نفعها ﴿ من خلاق ﴾ أي نصيب موافق أصلاً ، والخلاق الحظ اللائق لمن يقسم له النصيب من الشيء كأنه موازن به خلق نفسه وخلق جسمه – قاله الحرالي .

ثم جمع لهم المذامّ على وجه التأكيد فقال : ﴿ ولبئس ما شروا ﴾ ، أي باعوا على وجه اللجاجة ﴿ به أنفسهم ﴾ إشارة إلى أنه مما أحاط بهم فاجتثت نفوسهم من أصلها فأوجب لهم الخلود في النار ، ثم قال بعد إثبات العلم لهم : ﴿ لو كانوا يعلمون ﴾ ، أي لو كان لهم قابلية لتلقي واردات الحق ، إشارة إلى أن هذا لا يقدم عليه من له أدنى علم ، فعلمهم الذي أوجب لهم الجرأة على هذا عدم بل العدم خير منه . انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 205. 209 ﴾

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ ولكن ﴾ خفيفاً ﴿ الشياطين ﴾ بالرفع : ابن عامر وحمزة وعلي وخلف وكذلك قوله ﴿ ولكن الله قتلهم ﴾ ﴿ ولكن الله رمى ﴾ ﴿ الملكين ﴾ بكسر اللام ههنا وفي سورة الأعراف : قتيبة . على أن المنزل عليهما علم السحر كانا ملكين ببابل .

الوقوف : ﴿ على ملك سليمان ﴾ (ج) لأن الواو قد تصلح حالاً لبيان نزاهة سليمان وردّ ما افتروا عليه ﴿ السحر ﴾ (ط) قيل : على جعل " ما " نافية ولا يتضح لمناقضته ما في سياق الآية من إثبات السحر بل " ما " خبرية معطوفة على قوله ﴿ السحر ﴾ على أنها وإن كانت نافية يحتمل كون الواو حالاً على تقدير : يعلمون الناس السحر غير منزل فلا يفصل . وفي الآية عشر " ماآت " إحداها كافة في ﴿ إنما ﴾ والأخيرة نكرة منصوبة في ﴿ لبئسما ﴾ والباقية خبرية ثم نافية ثم خبرية على التعاقب ﴿ وماروت ﴾ (ط) ﴿ فلا تكفر ﴾ (ط) ﴿ وزوجه ﴾ (ط) ﴿ بإذن الله ﴾ (ط) ﴿ ولا ينفعهم ﴾ (ط) ﴿ من خلاق ﴾ (ط) يجوز الوقف لابتداء اللام ﴿ أنفسهم ﴾ (ط) ﴿ يعلمون ﴾ (5) ﴿ خير ﴾ (ط) ﴿ يعلمون ﴾ (5) . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 1 صـ 345 ﴾

فصل نفيس وجليل للقاضى عياض

رأيت أن تصدر به الآية الكريمة لكثرة ما ورد فى تفسيرها من أساطير وخرافات مردها إلى الإسرائيليات

قال عليه الرحمة :

فصل في القول في عصمة الملائكة أجمع المسلمون على أن الملائكة مؤمنون فضلاء واتفق أئمة المسلمين أن حكم المرسلين منهم حكم النبيين سواء في العصمة مما ذكرنا عصمتهم منه وأنهم في حقوق الأنبياء والتبليغ إليهم كالأنبياء مع الأمم واختلفوا في غير المرسلين منهم فذهبت طائفة إلى عصمة جميعهم عن المعاصي واحتجوا بقوله تعالى (لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون) وبقوله (وما منا إلا له مقام معلوم وإنا لنحن الصافون وإنا لنحن المسبحون) وبقوله (ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون يسبحون الليل والنهار لا يفترون) وبقوله (إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته) الآية ، وبقوله (كرام بررة) و (لا يمسه إلا المطهرون) ونحوه من السمعيات ، وذهبت طائفة إن أن هذا خصوص للمرسلين منهم والمقربين ، واحتجوا بأشياء ذكرها أهل الأخبار والتفاسير نحن

نذكرها إن شاء الله بعد وتبين الوجه فيها إن شاء الله ، والصواب عصمة جميعهم وتنزيه نصابهم الرفيع عن جميع ما يحط من رتبتهم ومنزلتهم عن جليل مقدارهم ورأيت بعض شيوخنا أشار بأن لا حاجة بالفقيه إلى الكلام في عصمتهم .

وأنا أقول إن للكلام في ذلك ما للكلام في عصمة الأنبياء من الفوائد التى ذكرناها سوى فائدة الكلام في الأقوال والأفعال فهى ساقطة ههنا ، فما احتج به من لم يوجب عصمة جميعهم قصة هاروت وماروت وما ذكر فيها أهل الأخبار ونقلة المفسرين وما روى عن على وابن عباس في خبرهما وابتلائهما ، فاعلم أكرمك الله أن هذه الأخبار لم يرو منها شئ لا سقيم ولا صحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس هو شيئا يؤخذ بقياس والذى منه في القرآن اختلف المفسرون في معناه ، وأنكر ما قال بعضهم فيه كثير من السلف كما سنذكره ، وهذه الأخبار من كتب اليهود وافترائهم كما نصه الله أول

الآيات من افترائهم بذلك على سليمان وتكفيرهم إياه ، وقد انطوت القصة على شنع عظيمة وها نحن نخبر في ذلك ما يكشف غطاء هذه

الإشكالات إن شاء الله فاختلف أولا في هاروت وماروت هل هما ملكان أو إنسيان ،

وهل هما المراد بالملكين أم لا ، وهل القراءة ملكين أو ملكين ، وهل ما في قوله (وما أنزل) (وما يعلمان من أحد) نافية أو موجبة ؟ فأكثر المفسرين أن الله تعالى امتحن الناس بالملكين لتعليم السحر وتبيينه وأن عمله كفر ، فمن تعلمه كفر ، ومن تركه آمن ، قال الله تعالى (إنما نحن فتنة فلا تكفر) وتعليمهما الناس له تعليم إنذار أي يقولان لمن جاء يطلب تعلمه لا تفعلوا كذا فإنه يفرق بين المرء وزوجه ولا تتخيلوا بكذا فإنه سحر فلا تكفروا فعلى هذا فعل الملكين طاعة وتصرفهما فيما أمرا به ليس بمعصية وهى لغيرهما فتنة ، وروى ابن وهب عن خالد بن أبى عمران أنه ذكر عنده هاروت وماروت وأنهما يعلمان السحر فقال نحن ننزههما عن هذا فقرأ بعضهم (وما أنزل على الملكين) فقال خالد لم ينزل عليهما فهذا خالد على جلالته وعلمه نزههما عن تعليم السحر الذى قد ذكر غيره أنهما مأذون لهما في تعليمه بشريطة أن يبيننا أنه كفر وأنه امتحان من الله وابتلاء ، فكيف لا ينزههما عن كبائر المعاصي والكفر المذكورة في تلك الأخبار ، وقوله خالد لم ينزل يريد أن (ما) نافية وهو قول ابن عباس ، قال مكى وتقدير الكلام وما كفر سليمان يريد بالسحر الذى افتعلته عليه الشياطين واتبعهم في ذلك اليهود وما أنزل على الملكين ، قال مكى هما جبريل وميكائيل ادعى اليهود عليهما المجئ به كما ادعوا على سليمان فأكذبهم الله في ذلك ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر .

ببابل هاروت وماروت :

قيل : هما رجلان تعلماه ، قال الحسن : هاروت وماروت علجان من أهل بابل ، وقرأ ، وما أنزل على الملكين بكسر اللام وتكون (ما) إيجابا على هذا ، وكذلك قراءة عبد الرحمن بن أبزى بكسر اللام ، ولكنه قال الملكان هنا داود وسليمان وتكون (ما) نفيا على ما تقدم ، وقيل : كانا ملكين من بنى إسرائيل فمسخهما الله ، حكاه السمرقندى والقراءة بكسر اللام شاذة فمحمل الآية على تقدير أبى محمد مكى حسن ينزه الملائكة ويذهب الرجس عنهم ويطهرهم تطهيرا وقد وصفهم الله بأنهم مطهرون و (كرام برررة) و (لا يعصون الله ما أمرهم) ومما يذكرونه قصة إبليس وأنه كان من الملائكة ورئيسا فبهم ومن خزان الجنة إلى آخر ما حكوه وأنه استثناه من الملائكة بقوله (فسجدوا إلا إبليس) وهذا أيضا لم يتفق عليه بل الأكثر ينفون ذلك وأنه أبو الجن كما آدم أو الإنس وهو قوله الحسن وقتادة وابن زيد ، وقال شهر بن حوشب كان من الجن الذين طردتهم الملائكة في الأرض حين أفسدوا ، والاستثناء من غير الجنس شائع في كلام العرب سائغ وقد قال الله تعالى (ما لهم به من علم إلا اتباع الظن) ومما رووه في الأخبار أن خلقا من الملائكة عصوا الله فحرقوا وأمروا أن يسجدوا لآدم فأبوا فحرقوا ثم آخرون كذلك حتى سجد له من ذكر الله إلا إبليس في أخبار لا أصل

لها تردها صحاح الأخبار فلا يشتغل بها . والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الشفا حـ 1 صـ 177.174 ﴾

(قوله علجان) العلج بكسر العين المهملة وسكون اللام بعدها جيم : الرجل من كفار العجم وغيرهم (قوله أبزى) بفتح الهمزة وسكون الموحدة وفى آخره الف مقصورة اختلف في صحبته (قوله ابن حوشب) بفتح الهاء المهملة وسكون الواو وفتح الشين المعجمة بعدها موحدة (12 - 2) (*)

فصل

قال فى الميزان :

قوله تعالى : " واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان . . . الآية "

قد اختلف المفسرون في تفسير الآية اختلافا عجيبا لا يكاد يوجد نظيره في آية من آيات القرآن المجيد ، فاختلفوا في مرجع ضمير قوله : اتبعوا ، أهم اليهود الذين كانوا في عهد سليمان ، أو الذين في عهد رسول الله صلى الله وعليه وآله وسلم أو الجميع ؟

واختلفوا في قوله : تتلوا ، هل هو بمعنى تتبع الشياطين وتعمل به أو بمعنى تقرأ ، أو بمعنى

تكذب ؟

واختلفوا في قوله : الشياطين ، فقيل هم شياطين الجن وقيل شياطين الإنس وقيل هما معا ، واختلفوا في قوله : على ملك سليمان ، فقيل معناه في ملك سليمان ، وقيل معناه في عهد ملك سليمان ، وقيل معناه على ملك سليمان بحفظ ظاهر الاستعلاء في معنى على ، وقيل معناه على عهد ملك سليمان ، واختلفوا في قوله : ولكن الشياطين كفروا ، فقيل إنهم كفروا بما إستخرجوه من السحر إلى الناس وقيل إنهم كفروا بما نسبوه إلى سليمان من السحر ، وقيل إنهم سحروا فعبر عن السحر بالكفر ، واختلفوا في قوله : يعلمون الناس السحر ، فقيل إنهم القوا السحر إليهم فتعلموه ، وقيل إنهم دلوا الناس على استخراج السحر وكان مدفونا تحت كرسي سليمان فاستخرجوه وتعلموه ، واختلفوا في قوله : وما أنزل على الملكين فقيل ما موصولة والعطف على قوله : ما تتلوا ، وقيل ما موصولة والعطف على قوله : السحر أي يعلمونهم ما أنزل على الملكين ، وقيل ما نافية والواو استئنافية أي ولم ينزل على الملكين سحر كما يدعيه اليهود ، واختلفوا في معنى الإنزال فقيل إنزال من السماء وقيل بل من نجود الأرض وأعاليها ، واختلفوا في قوله : الملكين ، فقيل كانا من ملائكة السماء ، وقيل بل كانا إنسانين ملكين بكسر اللام إن قرأناه ، بكسر اللام كما قرئ كذلك في الشواذ ، أو ملكين بفتح اللام أي صالحين ، أو متظاهرين بالصلاح .

أن قرأناه على ما قرأ به المشهور ، واختلفوا في قوله : ببابل ، فقيل هي بابل العراق وقيل بابل نهاوند ، وقيل ، من نصيبين إلى رأس العين ، واختلفوا في قوله : وما يعلمان ، فقيل علم بمعناه الظاهر ، وقيل علم بمعنى اعلم ، واختلفوا في قوله : فلا تكفر ، فقيل ، لا تكفر بالعمل بالسحر ، وقيل لا تكفر بتعلمه ، وقيل بهما معا ،

واختلفوا في قوله : فيتعلمون منهما ، فقيل أي من هاروت وماروت ، وقيل أي من السحر والكفر ، وقيل بدلا مما علماه الملكان بالنهي إلى فعله ، واختلفوا في قوله : ما يفرقون به بين المرء وزوجه ، فقيل أي يوجدون به حبا وبغضا بينهما ، وقيل إنهم يغرون أحد الزوجين ويحملونه على الكفر والشرك فيفرق بينهما إختلاف الملة والنحلة وقيل إنهم يسعون بينهما بالنميمة والوشاية فيؤل إلى الفرقة ، فهذه نبذة من الاختلاف في تفسير كلمات ما يشتمل على القصة من الآية وجملة ، وهناك اختلافات أخر في الخارج من القصة في ذيل الآية وفي نفس القصة ، وهل هي قصة واقعة أو بيان على سبيل التمثيل ؟ أو غير ذلك ؟ وإذا ضربت بعض الأرقام التي ذكرناها من الاحتمالات في البعض الآخر ، ارتقى الاحتمالات إلى كمية عجيبة وهي ما يقرب من ألف ألف ومائتين وستين ألف احتمال 4 + 3 + 2 !

.

وهذا لعمر الله من عجائب نظم القرآن تتردد الآية بين مذاهب واحتمالات تدهش العقول

وتحير الألباب ، والكلام بعد متك على أريكة حسنة متجمل في أجمل جماله متحل بحلي بلاغته وفصاحته وسيمر بك نظيرة هذه الآية وهي قوله تعالى : (أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة) هود - 17 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الميزان حـ 1 صـ 234.233 ﴾

(16/61)

فصل

قال الفخر :

قوله تعالى : ﴿ واتبعوا ﴾ حكاية عمن تقدم ذكره وهم اليهود ، ثم فيه أقوال :

أحدها : أنهم اليهود الذين كانوا في زمان محمد عليه الصلاة والسلام ، وثانيها : أنهم الذين تقدموا من اليهود ، وثالثها : أنهم الذين كانوا في زمن سليمان عليه السلام من السحرة لأن أكثر اليهود ينكرون نبوة سليمان عليه السلام ويعدونه من جملة الملوك في الدنيا ، فالذين كانوا منهم في زمانه لا يمتنع أن يعتقدوا فيه أنه إنما وجد ذلك الملك العظيم بسبب السحر ، ورابعها : أنه يتناول الكل وهذا أولى لأنه ليس صرف اللفظ إلى البعض أولى من صرفه إلى غيره ، إذ لا دليل على التخصيص .

قال السدي : لما جاءهم محمد عليه الصلاة والسلام عارضوه بالتوراة فخاصموه بها فاتفقت التوراة والقرآن فنبذوا التوراة وأخذوا بكتاب آصف وسحر هاروت وماروت فلم يوافق القرآن ، فهذا قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الذين أُوتُواْ الكتاب كتاب الله وَرَاء ظُهُورِهِمْ ﴾ [البقرة : 101] ثم أخبر عنهم بأنهم اتبعوا كتب السحر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 185 ﴾

فائدة

قال الطبرى :

والصواب من القول في تأويل قوله : (واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان) ، أن ذلك توبيخ من الله لأحبار اليهود الذين أدركوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجحدوا نبوته ، وهم يعلمون أنه لله رسول مرسل ، وتأنيب منه لهم في رفضهم تنزيله ، وهجرهم العمل به ، وهو في أيديهم يعلمونه ويعرفون أنه كتاب الله ، واتباعهم واتباع أوائلهم وأسلافهم ما تلته الشياطين في عهد سليمان . وقد بينا وجه جواز إضافة أفعال أسلافهم إليهم فيما مضى ، فأغنى ذلك عن إعادته في هذا الموضع .

وإنما اخترنا هذا التأويل ، لأن المتبعة ما تلته الشياطين ، في عهد سليمان وبعده إلى أن بعث الله نبيه بالحق ، وأمر السحر لم يزل في اليهود . ولا دلالة في الآية أن الله تعالى أراد بقوله : (واتبعوا) بعضا منهم دون بعض . إذْ كان جائزا فصيحا في كلام العرب إضافة ما وصفنا – من اتباع أسلاف المخبر عنهم بقوله : (واتبعوا ما تتلوا الشياطين) – إلى أخلافهم بعدهم ، ولم يكن بخصوص ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أثر منقول ، ولا حجة تدل عليه . فكان الواجب من القول في ذلك أن يقال : كل متبع ما تلته الشياطين على عهد سليمان من اليهود ، داخل في معنى الآية ، على النحو الذي قلنا . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الطبرى حـ 1 صـ 408. 409 ﴾

(18/61)

فصل

قال الفخر :

ذكروا في تفسير : ﴿ تَتْلُواْ ﴾ وجوهاً :

أحدها : أن المراد منه التلاوة والإخبار ، وثانيها : قال أبو مسلم (تتلوا) أي تكذب على ملك سليمان .

يقال : تلا عليه إذا كذب وتلا عنه ، إذا صدق وإذا أبهم جاز الأمران .

والأقرب هو الأول لأن التلاوة حقيقة في الخبر ، إلا أن المخبر يقال في خبره إذا كان كذباً إنه تلا فلان وإنه قد تلا على فلان ليميز بينه وبين الصدق الذي لا يقال فيه ، روي عن فلان ، بل يقال : روي عن فلان وأخبر عن فلان وتلا عن فلان وذلك لا يليق إلا بالأخبار والتلاوة ، ولا يمتنع أن يكون الذي كانوا يخبرون به عن سليمان مما يتلى ويقرأ فيجتمع فيه كل الأوصاف . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 185 ﴾

فصل

قال الفخر :

اختلفوا في الشياطين فقيل : المراد شياطين الجن وهو قول الأكثرين ، وقيل : شياطين الإنس وهو قول المتكلمين من المعتزلة ، وقيل : هم شياطين الإنس والجن معاً .

أما الذين حملوه على شياطين الجن قالوا : إن الشياطين كانوا يسترقون السمع ثم يضمون إلى ما سمعوا أكاذيب يلفقونها ويلقونها إلى الكهنة ، وقد دونوها في كتب يقرءونها ويعلمونها الناس وفشا ذلك في زمن سليمان عليه السلام حتى قالوا : إن الجن تعلم الغيب وكانوا يقولون : هذا علم سليمان وما تم له ملكه إلا بهذا العلم وبه يسخر الجن والإنس والريح التي تجري بأمره .

وأما الذين حملوه على شياطين الإنس قالوا : روي في الخبر أن سليمان عليه السلام كان قد

دفن كثيراً من العلوم التي خصه الله تعالى بها تحت سرير ملكه حرصاً على أنه إن هلك الظاهر منها يبقى ذلك المدفون ، فلما مضت مدة على ذلك توصل قوم من المنافقين إلى أن كتبوا في خلال ذلك أشياء من السحر تناسب تلك الأشياء من بعض الوجوه ، ثم بعد موته واطلاع الناس على تلك الكتب أوهموا الناس أنه من عمل سليمان وأنه ما وصل إلى ما وصل إليه إلا بسبب هذه الأشياء فهذا معنى : " ما تتلوا الشياطين" ، واحتج القائلون بهذا الوجه على فساد القول الأول بأن شياطين الجن لو قدروا على تغيير كتب الأنبياء وشرائعهم بحيث يبقى ذلك التحريف محققاً فيما بين الناس لارتفع الوثوق عن جميع الشرائع وذلك يفضي إلى الطعن في كل الأديان .

(19/61)

فإن قيل : إذا جوزتم ذلك على شياطين الإنس فلم لا يجوز مثله على شياطين الجن ؟ قلنا : الفرق أن الذي يفعله الإنسان لا بد وأن يظهر من بعض الوجوه ، أما لو جوزنا هذا الافتعال من الجن وهو أن نزيد في كتب سليمان بخط مثل خط سليمان فإنه لا يظهر ذلك ويبقى مخفياً فيفضي إلى الطعن في جميع الأديان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 186.185 ﴾

فائدة

قال الفخر :

أما قوله : ﴿ على مُلْكِ سليمان ﴾ فقيل في ملك سليمان ، عن ابن جريج ، وقيل على عهد ملك سليمان والأقرب أن يكون المراد واتبعوا ما تتلوا الشياطين افتراء على ملك سليمان لأنهم كانوا يقرءون من كتب السحر ويقولون إن سليمان إنما وجد ذلك الملك بسبب هذا العلم ، فكانت تلاوتهم لتلك الكتب كالافتراء على ملك سليمان . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 186 ﴾

فصل

قال الفخر :

اختلفوا في المراد بملك سليمان ، فقال القاضي : إن ملك سليمان هو النبوة ، أو يدخل فيه النبوة وتحت النبوة الكتاب المنزل عليه والشريعة .

وإذا صح ذلك (1) ثم أخرج القوم صحيفة فيها ضروب السحر وقد دفنوها تحت سرير ملكه ثم أخرجوها بعد موته وأوهموا أنها من جهته صار ذلك منهم تقولاً على ملكه في الحقيقة .

والأصح عندي أن يقال : إن القوم لما ادعوا أن سليمان إنما وجد تلك المملكة بسبب ذلك العلم كان ذلك الادعاء كالافتراء على ملك سليمان . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب

حـ 3 صـ 186 ﴾

فائدة

قال الفخر :

السبب في أنهم أضافوا السحر إلى سليمان عليه السلام وجوه .

أحدها : أنهم أضافوا السحر إلى سليمان تفخيماً لشأنه وتعظيماً لأمره وترغيباً للقوم في قبول ذلك منهم ، وثانيها : أن اليهود ما كانوا يقرون بنبوة سليمان بل كانوا يقولون إنما وجد ذلك الملك بسبب السحر .

وثالثها : أن الله تعالى لما سخر الجن لسليمان فكان يخالطهم ويستفيد منهم أسراراً عجيبة فغلب على الظنون أنه عليه الصلاة والسلام استفاد السحر منهم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 186 ﴾

---

(1) في هذا الموضع سقط ظاهر واضطراب ولم أجد في الأصول ما يكمله . (المصحح)

قوله تعالى ﴿ وَمَا كَفَرَ سليمان ﴾

فصل

قال الفخر :

أما قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَفَرَ سليمان ﴾ فهذا تنزيه له عليه السلام عن الكفر ، وذلك يدل على أن القوم نسبوه إلى الكفر والسحر : قيل فيه أشياء ، أحدها : ما روي عن بعض أخبار اليهود أنهم قالوا : ألا تعجبون من محمد يزعم أن سليمان كان نبياً وما كان إلا ساحراً ، فأنزل الله هذه الآية .

وثانيها : أن السحرة من اليهود زعموا أنهم أخذوا السحر عن سليمان فنزهه الله تعالى منه .

وثالثها : أن قوماً زعموا أن قوام ملكه كان بالسحر فبرأه الله منه لأن كونه نبياً ينافي كونه ساحراً كافراً ، ثم بين تعالى أن الذي برأه منه لاصق بغيره فقال : ﴿ ولكن الشياطين كَفَرُواْ ﴾ يشير به إلى ما تقدم ذكره ممن اتخذ السحر كالحرفة لنفسه وينسبه إلى سليمان ، ثم بين تعالى ما به كفروا فقد كان يجوز أن يتوهم أنهم ما كفروا أولاً بالسحر فقال تعالى : ﴿ يُعَلّمُونَ الناس السحر ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 186 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أن الكلام في السحر يقع من وجوه .

المسألة الأولى :

في البحث عنه بحسب اللغة فنقول : ذكر أهل اللغة أنه في الأصل عبارة عما لطف وخفي سببه والسحر بالنصب هو الغذاء لخفائه ولطف مجاريه ، قال لبيد :

ونسحر بالطعام وبالشراب . . قيل فيه وجهان ، أحدهما : أنا نعلل ونخدع كالمسحور المخدوع ، والآخر : نغذي وأي الوجهين كان فمعناه الخفاء وقال :

فإن تسألينا فيم نحن فإننا . . عصافير من هذا الأنام المسحر

وهذا البيت يحتمل من المعنى ما احتمله الأول ، ويحتمل أيضاً أن يريد بالمسحر أنه ذو سحر ، والسحر هو الرئة ، وما تعلق بالحلقوم وهذا أيضاً يرجع إلى معنى الخفاء ومنه قول عائشة رضي الله عنها : " توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم بين سحري ونحري " ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مِنَ المسحرين ﴾ [الشعراء : 153] ، يعني من المخلوقين الذي يطعم ويشرب يدل عليه قولهم : ﴿ مَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا ﴾ [الشعراء : 154] ويحتمل أنه ذو سحر مثلنا ، وقال تعالى حكاية عن موسى عليه السلام أنه قال للسحرة : ﴿ مَا جِئْتُمْ بِهِ السحر إِنَّ الله سَيُبْطِلُهُ ﴾ [يونس : 81] وقال : ﴿ فَلَمَّا أَلْقَوْاْ سَحَرُواْ أَعْيُنَ الناس واسترهبوهم ﴾ [الأعراف : 116] فهذا هو معنى السحر في أصل اللغة .

المسألة الثانية :

اعلم أن لفظ السحر في عرف الشرع مختص بكل أمر يخفى سببه ويتخيل على غير حقيقته ويجري مجرى التمويه والخداع ، ومتى أطلق ولم يقيد أفاد ذم فاعله .

قال تعالى : ﴿ سَحَرُواْ أَعْيُنَ الناس ﴾ [الأعراف : 66] يعني موهوا عليهم حتى ظنوا أن حبالهم وعصيهم تسعى وقال تعالى : ﴿ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تسعى ﴾ [طه : 66] وقد يستعمل مقيداً فيما يمدح ويحمد .

روي أنه قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم الزبرقان بن بدر وعمرو بن الأهتم ، فقال لعمرو : خبرني عن الزبرقان ، فقال : مطاع في ناديه شديد العارضة مانع لما وراء ظهره ، فقال الزبرقان : هو والله يعلم أني أفضل منه ، فقال عمرو : إنه زمن المروءة ضيق العطن أحمق الأب لئيم الخال يا رسول الله صدقت فيهما ، أرضاني فقلت : أحسن ما علمت وأسخطني فقلت أسوأ ما علمت ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن من البيان لسحراً " فسمى النبي صلى الله عليه وسلم بعض البيان سحراً لأن صاحبه يوضح الشيء المشكل ويكشف عن حقيقته بحسن بيانه وبليغ عبارته ، فإن قيل : كيف يجوز أن

يسمى ما يوضح الحق وينبيء عنه سحراً ؟ وهذا القائل إنما قصد إظهار الخفى لا إخفاء الظاهر ولفظ السحر إنما يفيد إخفاء الظاهر ؟ قلنا : إنما سماه سحراً لوجهين ، الأول : أن ذلك القدر للطفه وحسنه استمال القلوب فأشبه السحر الذي يستميل القلوب ، فمن هذا الوجه سمي سحراً ، لا من الوجه الذي ظننت .

الثاني : أن المقتدر على البيان يكون قادراً على تحسين ما يكون قبيحاً وتقبيح ما يكون حسناً فذلك يشبه السحر من هذا الوجه .

المسألة الثالثة :

في أقسام السحر : اعلم أن السحر على أقسام .

الأول : سحر الكلدانيين والكسدانيين الذين كانوا في قديم الدهر وهم قوم يعبدون الكواكب ويزعمون أنها هي المدبرة لهذا العالم ، ومنها تصدر الخيرات والشرور والسعادة والنحوسة وهم الذين بعث الله تعالى إبراهيم عليه السلام مبطلاً لمقالتهم ورادا عليهم في مذهبهم .

أما المعتزلة فقد اتفقت كلمتهم على أن غير الله تعالى لا يقدر على خلق الجسم والحياة واللون والطعم ، واحتجوا بوجوه ذكرها القاضي ولخصها في تفسيره وفي سائر كتبه ونحن ننقل تلك الوجوه وننظر فيها .

أولها : وهو النكتة العقلية التي عليها يعولون أن كل ما سوى الله إما متحيز وإما قائم بالمتحيز ، فلو كان غير الله فاعلاً للجسم والحياة لكان ذلك الغير متحيزاً ، وذلك المتحيز لا بد وأن يكون قادراً بالقدرة ، إذ لو كان قادراً لذاته لكان كل جسم كذلك بناء على أن الأجسام متماثلة لكن القادر بالقدرة لا يصح منه فعل الجسم والحياة ، ويدل عليه وجهان .

الأول : أن العلم الضروري حاصل بأن الواحد منا لا يقدر على خلق الجسم والحياة ابتداء ، فقدرتنا مشتركة في امتناع ذلك عليها ، فهذا الامتناع حكم مشترك فلا بد له من علة مشتركة ولا مشترك ههنا إلا كوننا قادرين بالقدرة ، وإذا ثبت هذا وجب فيمن كان قادراً بالقدرة أن يتعذر عليه فعل الجسم والحياة .

الثاني : أن هذه القدرة التي لنا لا شك أن بعضها يخالف بعضاً ، فلو قدرنا قدرة صالحة لخلق الجسم والحياة لم تكن مخالفتها لهذه القدرة أشد من مخالفة بعض هذه القدرة للبعض ، فلو كفى ذلك القدر من المخالفة في صلاحيتها لخلق الجسم والحياة لوجب في هذه القدرة أن يخالف بعضها بعضاً ، وأن تكون صالحة لخلق الجسم والحياة ، ولما لم يكن كذلك علمنا أن القادر بالقدرة لا يقدر على خلق الجسم والحياة .

وثانيها : أنا لو جوزنا ذلك لتعذر الاستدلال بالمعجزات على النبوات لأنا لو جوزنا استحداث الخوارق بواسطة تمزيج القوى السماوية بالقوى الأرضية لم يمكنا القطع بأن هذه

الخوارق التي ظهرت على أيدي الأنبياء عليهم السلام صدرت عن الله تعالى ، بل يجوز فيها أنهم أتوا بها من طريق السحر ، وحينئذ يبطل القول بالنبوات من كل الوجوه .

(24/61)

وثالثها : أنا لو جوزنا أن يكون في الناس من يقدر على خلق الجسم والحياة والألوان لقدر ذلك الإنسان على تحصيل الأموال العظيمة من غير تعب ، لكنا نرى من يدعي السحر متوصلاً إلى اكتساب الحقير من المال بجهد جهيد ، فعلمنا كذبه وبهذا الطريق نعلم فساد ما يدعيه قوم من الكيمياء ، لأنا نقول : لو أمكنهم ببعض الأدوية أن يقلبوا غير الذهب ذهباً لكان إما أن يمكنهم ذلك بالقليل من الأموال ، فكان ينبغي أن يغنوا أنفسهم بذلك عن المشقة والذلة أو لا يمكنهم إلا بالآلات العظام والأموال الخطيرة ، فكان يجب أن يظهروا ذلك للملوك المتمكنين من ذلك ، بل كان يجب أن يفطن الملوك لذلك لأنه أنفع لهم من فتح البلاد الذي لا يتم إلا بإخراج الأموال والكنوز ، وفي علمنا بانصراف النفوس والهمم عن ذلك دلالة على فساد هذا القول ، قال القاضي : فثبت بهذه الجملة أن الساحر لا يصح أن يكون فاعلاً لشيء من ذلك .

واعلم أن هذه الدلائل ضعيفة جداً .

أما الوجه الأول : فنقول : ما الدليل على أن كل ما سوى الله ، إما أن يكون متحيزاً ، وإما قائماً بالمتحيز ، أما علمتم أن الفلاسفة مصرون على إثبات العقول والنفوس الفلكية والنفوس الناطقة ، وزعموا أنها في أنفسها ليست بمتحيزة ولا قائمة بالمتحيز ، فما الدليل على فساد القول بهذا ؟ فإن قالوا : لو وجد موجود هكذا لزم أن يكون مثلاً لله تعالى ، قلنا : لا نسلم ذلك لأن الاشتراك في الأسلوب لا يقتضي الاشتراك في الماهية ، سلمنا ذلك لكن لم لا يجوز أن يكون بعض الأجسام يقدر على ذلك لذاته ؟ قوله : الأجسام متماثلة .

فلو كان جسم كذلك لكان كل جسم كذلك ، قلنا : ما الدليل على تماثل الأجسام ، فإن قالوا : إنه لا معنى للجسم إلا الممتد في الجهات ، الشاغل للأحياز ولا تفاوت بينها في هذا المعنى ، قلنا : الامتداد في الجهات والشغل للأحياز صفة من صفاتها ولازم من لوازمها ، ولا يبعد أن تكون الأشياء المختلفة في الماهية مشتركة في بعض اللوازم ، سلمنا أنه يجب أن يكون قادراً بالقدرة ، فلم قلتم إن القادر بالقدرة لا يصح منه خلق الجسم والحياة ؟ قوله : لأن القدرة التي لنا مشتركة في هذا الامتناع وهذا الامتناع حكم مشترك ، فلا بد له من علة مشتركة ولا مشترك سوى كوننا قادرين بالقدرة ، قلنا : هذه المقدمات بأسرها ممنوعة فلا

نسلم أن الامتناع حكم معلل وذلك لأن الامتناع عدمي والعدم لا يعلل ، سلمنا أنه أمر وجودي ، ولكن من مذهبهم أن كثيراً من الأحكام لا يعلل ، فلم لا يجوز أن يكون الأمر ههنا كذلك ، سلمنا أنه معلل ، فلم قلتم : إن الحكم المشترك لا بد له من علة مشتركة ، أليس أن القبح حصل في الظلم معللاً بكونه ظلماً وفي الكذب بكونه كذباً ، وفي الجهل بكونه جهلاً ؟ سلمنا أنه لا بد من علة مشتركة ، لكن لا نسلم أنه لا مشترك إلا كوننا قادرين بالقدرة ، فلم لا يجوز أن تكون هذه القدرة التي لنا مشتركة في وصف معين وتلك القدرة التي تصلح لخلق الجسم تكون خارجة عن ذلك الوصف ، فما الدليل على أن الأمر ليس كذلك ؟ وأما الوجه الأول : وهو أنه ليست مخالفة تلك القدرة لبعض القدر أشد من مخالفة بعض هذه القدر للبعض ، فنقول : هذا ضعيف ، لأنا لا نعلل صلاحيتها لخلق الجسم بكونها مخالفة لهذه القدر ، بل لخصوصيتها المعينة التي لأجلها خالفت سائر القدر وتلك الخصوصية معلوم أنها غير حاصلة في سائر القدر .

ونظير ما ذكروه أن يقال : ليست مخالفة الصوت للبياض بأشد من مخالفة السواد للبياض ، فلو كانت تلك المخالفة مانعة للصوت من صحة أن يرى لوجب لكون السواد مخالفاً للبياض

أن يمتنع رؤيته .

ولما كان هذا الكلام فاسداً فكذا ما قالوه ، والعجب من القاضي أنه لما حكى هذه الوجوه عن الأشعرية في مسألة الرؤية وزيفها بهذه الأسئلة ، ثم إنه نفسه تمسك بها في هذه المسألة التي هي الأصل في إثبات النبوة والرد على من أثبت متوسطاً بين الله وبيننا .

أما الوجه الثاني وهو أن القول بصحة النبوات لا يبقى مع تجويز هذا الأصل فنقول : إما أن يكون القول بصحة النبوات متفرعاً على فساد هذه القاعدة أو لا يكون .

فإن كان الأول امتنع فساد هذا الأصل بالبناء على صحة النبوات ، وإلا وقع الدور ، وإن كان الثاني فقد سقط هذا الكلام بالكلية .

وأما الوجه الثالث : فلقائل أن يقول الكلام في الإمكان غير ، ونحن لا نقول بأن هذه الحالة حاصلة لكل أحد بل هذه الحالة لا تحصل للبشر إلا في الأعصار المتباعدة فكيف يلزمنا ما ذكرتموه ؟ فهذا هو الكلام في النوع الأول من السحر .

النوع الثاني من السحر : سحر أصحاب الأوهام والنفس القوية ، قالوا : اختلف الناس في أن الذي يشير إليه كل أحد بقوله : " أنا " ما هو ؟ فمن الناس من يقول : إنه هو هذه البنية ، ومنهم من يقول : إنه جسم صار في هذه البنية ، ومنهم من يقول : بأنه موجود وليس بجسم ولا بجسماني .

أما إذا قلنا إن الإنسان هو هذه البنية ، فلا شك أن هذه البنية مركبة من الأخلاط الأربعة ، فلم لا يجوز أن يتفق في بعض الأعصار الباردة أن يكون مزاجه مزاجاً من الأمزجة في ناحية من النواحي يقتضي القدرة على خلق الجسم والعلم بالأمور الغائبة عنا والمتعذرة ، وهكذا الكلام إذا قلنا الإنسان جسم سار في هذه البنية ، أما إذا قلنا : إن الإنسان هو النفس فلم لا يجوز أن يقال : النفوس مختلفة فيتفق في بعض النفوس إن كانت لذاتها قادرة على هذه الحوادث الغريبة مطلعة على الأسرار الغائبة ، فهذا الاحتمال مما لم تقم دلالة على فساده سوى الوجوه المتقدمة ، وقد بان بطلانها ، ثم الذي يؤكد هذا الاحتمال وجوه .

(28/61)

أولها : أن الجذع الذي يتمكن الإنسان من المشي عليه لو كان موضوعاً على الأرض لا يمكنه المشي عليه لو كان كالجسر على هاوية تحته ، وما ذاك إلا أن تخيل السقوط متى قوي أوجبه ، وثانيها : اجتمعت الأطباء على نهي المرعوف عن النظر إلى الأشياء الحمر ، والمصروع عن النظر إلى الأشياء القوية اللمعان والدوران ، وما ذاك إلا أن النفوس خلقت مطيعة للأوهام ، وثالثها : حكى صاحب الشفاء عن " أرسطو " أن طبائع الحيوان : أن

الدجاجة إذ تشبهت كثيراً بالديكة في الصوت وفي الحراب مع الديكة نبت على ساقها مثل الشيء النابت على ساق الديك ، ثم قال صاحب الشفاء : وهذا يدل على أن الأحوال الجسمانية تابعة للأحوال النفسانية ، ورابعها : أجمعت الأمم على أن الدعاء اللساني الخالي عن الطلب النفساني قليل العمل عديم الأثر ، فدل ذلك على أن للهمم والنفوس آثاراً وهذا الاتفاق غير مختص بمسألة معينة وحكمة مخصوصة ، وخامسها : أنك لو أنصفت لعلمت أن المبادىء القريبة للأفعال الحيوانية ليست إلا التصورات النفسانية لأن القوة المحركة المغروزة في العضلات صالحة للفعل وتركه أو ضده ، ولن يترجح أحد الطرفين على الآخر إلا لمرجح وما ذاك إلا تصور كون الفعل جميلاً أو لذيذاً أو تصور كونه قبيحاً أو مؤلماً فتلك التصورات هي المبادىء لصيرورة القوى العضلية مبادىء للفعل لوجود الأفعال بعد أن كانت كذلك بالقوة ، وإذا كانت هذه التصورات هي المبادىء لمبادىء هذه الأفعال فأي استبعاد في كونها مبادىء لأفعال أنفسها وإلغاء الواسطة عن درجة الاعتبار ، وسادسها : التجربة والعيان شاهدان بأن هذه التصورات مبادىء قريبة لحدوث الكيفيات في الأبدان فإن الغضبان تشتد سخونة مزاجه حتى أنه يفيده سخونة قوية .

يحكى أن بعض الملوك عرض له فالج فأعيا الأطباء مزاولة علاجه ، فدخل عليه بعض الحذاق منهم على حين غفلة منه وشافهه بالشتم والقدح في العرض ، فاشتد غضب الملك وقفز من مرقده قفزة اضطرارية لما ناله من شدة ذلك الكلام فزالت تلك العلة المزمنة والمرضة المهلكة .

وإذا جاز كون التصورات مبادىء لحدوث الحوادث في البدن فأي استبعاد من كونها مبادىء لحدوث الحوادث خارج البدن .

وسابعها ؛ أن الإصابة بالعين أمر قد اتفق عليه العقلاء وذلك أيضاً يحقق إمكان ما قلناه .

إذا عرفت هذا فنقول : النفوس التي تفعل هذه الأفاعيل قد تكون قوية جداً فتستغني في هذه الأفعال عن الاستعانة بالآلات والأدوات وقد تكون ضعيفة فتحتاج إلى الاستعانة بهذه الآلات .

وتحقيقه أن النفس إذا كانت مستعلية على البدن شديدة الانجذاب إلى عالم (السماء) كانت كأنها روح من الأرواح السماوية ، فكانت قوية على التأثير في مواد هذا العالم ، أما إذا كانت ضعيفة شديدة التعلق بهذه اللذات البدنية فحينئذ لا يكون لها تصرف ألبتة إلا في هذه البدن ، فإذا أراد هذا الإنسان صيرورتها بحيث يتعدى تأثير من بدنها إلى بدن آخر اتخذ تمثال ذلك الغير ووضعه عند الحس واشتغل الحس به فيتبعه الخيال عليه وأقبلت النفس الناطقة عليه فقويت التأثيرات النفسانية والتصرفات الروحانية ، ولذلك أجمعت

الأمم على أنه لا بد لمزاولة هذه الأعمال من انقطاع المألوفات والمشتهيات وتقليل الغذاء والانقطاع عن مخالطة الخلق .

وكلما كانت هذه الأمور أتم كان ذلك التأثير أقوى ، فإذا اتفق أن كانت النفس مناسبة لهذا الأمر نظراً إلى ماهيتها وخاصيتها عظم التأثير ، والسبب المتعين فيه أن النفس إذا أشتغلت بالجانب الأول اشغلت جميع قوتها في ذلك الفعل وإذا اشتغلت بالأفعال الكثيرة تفرقت قوتها وتوزعت على تلك الأفعال فتصل إلى كل واحد من تلك الأفعال شعبة من تلك القوة وجدول من ذلك النهر .

(30/61)

ولذلك نرى أن إنسانين يستويان في قوة الخاطر إذا اشتغل أحدهما بصناعة واحدة واشتغل الآخر بصناعتين .

فإن (ذا الفن) الواحد يكون أقوى من ذي الفنين ، ومن حاول الوقوف على حقيقة مسألة من المسائل فإنه حال تفكره فيها لا بد وأن يفرغ خاطره عما عداها ، فإنه عند تفريغ الخاطر يتوجه الخاطر بكليته إليه فيكون الفعل أسهل وأحسن ، وإذا كان كذلك فإذا كان الإنسان مشغول الهم والهمة بقضاء اللذات وتحصيل الشهوات كانت القوة النفسانية

مشغولة بها مستغرقة فيها ، فلا يكون انجذابها إلى تحصيل الفعل الغريب الذي يحاوله انجذاباً قوياً لا سيما وههنا آفة أخرى وهي أن مثل هذه النفس قد اعتادت الاشتغال باللذات من أول أمرها إلى آخره ، ولم تشتغل قط باستحداث هذه الأفعال الغريبة ، فهي بالطبع حنون إلى الأول عزوف إلى الثاني ، فإذا وجدت مطلوبها من النمط الأول فأنى تلتفت إلى الجانب الآخر ؟ فقد ظهر من هذا أن مزاولة هذه الأعمال لا تتأتى إلا مع التجرد عن الأحوال الجسمانية وترك مخالطة الخلق والاقبال بالكلية على عالم الصفاء والأرواح.

(31/61)

وأما الرقى فإن كانت معلومة فالأمر فيها ظاهر لأن الغرض منها أن حس البصر كما شغلناه بالأمور المناسبة ، لذلك الغرض فحس السمع نشغله أيضاً بالأمور المناسبة لذلك الغرض ، فإن الحواس متى تطابقت على التوجه إلى الغرض الواحد كان توجه النفس إليه حينئذ أقوى ، وأما إن كانت بألفاظ غير معلومة حصلت للنفس هناك حالة شبيهة بالحيرة والدهشة ، فإن الإنسان إذا اعتقد أن هذه الكلمات إنما تقرأ للاستعانة بشيء من الأمور الروحانية ولا يدري كيفية تلك الاستعانة حصلت للنفس هناك حالة شبيهة بالحيرة والدهشة ، ويحصل للنفس في أثناء ذلك انقطاع عن المحسوسات وإقبال على ذلك الفعل

وجد عظيم ، فيقوى التأثير النفساني فيحصل الغرض ، وهكذا القول في الدخن ، قالوا : فقد ثبت أن هذا القدر من القوة النفسانية مشتغل بالتأثير ، فإن انضم إليه النوع الأول من السحر وهو الاستعانة بالكواكب وتأثيراتها عظم التأثير ، بل ههنا نوعان آخران ، الأول : أن النفوس التي فارقت الأبدان قد يكون فيها ما هو شديد المشابهة لهذه النفوس في قوتها وفي تأثيراتها ، فإذا صارت تلك النفوس صافية لم يبعد أن ينجذب إليها ما يشابهها من النفوس المفارقة ويحصل لتلك النفوس نوع ما من التعلق بهذا البدن فتتعاضد النفوس الكثيرة على ذلك الفعل ، وإذا كملت القوة وتزايدت قوى التأثير ، الثاني : أن هذه النفوس الناطقة إذا صارت صافية عن الكدورات البدنية صارت قابلة للأنوار الفائضة من الأرواح السماوية والنفوس الفلكية ، فتقوى هذه النفوس بأنوار تلك الأرواح ، فتقوى على أمور غريبة خارقة للعادة فهذا شرح سحر أصحاب الأوهام والرقى .

(32/61)

النوع الثالث من السحر : الاستعانة بالأرواح الأرضية ، واعلم أن القول بالجن مما أنكره بعض المتأخرين من الفلاسفة والمعتزلة ، أما أكابر الفلاسفة فإنهم ما أنكروا القول به إلا أنهم سموها بالأرواح الأرضية وهي في أنفسها مختلفة منها خيرة ومنها شريرة ، فالخيرة هم

مؤمنوا الجن والشريرة هم كفار الجن وشياطينهم ، ثم قال الخلف منهم : هذه الأرواح جواهر قائمة بأنفسها لا متحيزة ولا حالة في المتحيز وهي قادرة عالمة مدركة للجزئيات ، واتصال النفوس الناطقة بها أسهل من اتصالها بالأرواح السماوية ، إلا أن القوة الحاصلة للنفوس الناطقة بسبب اتصالها بهذه الأرواح الأرضية أضعف من القوة الحاصلة إليها بسبب اتصالها بتلك الأرواح السماوية ، أما أن الاتصال أسهل فلأن المناسبة بين نفوسنا وبين هذه الأرواح الأرضية أسهل ، ولأن المشابهة والمشاكلة بينهما أتم وأشد من المشاكلة بين نفوسنا وبين الأرواح السماوية ، وأما أن القوة بسبب الاتصال بالأرواح السماوية أقوى فلأن الأرواح السماوية هي بالنسبة إلى الأرواح الأرضية كالشمس بالنسبة إلى الشعلة ، والبحر بالنسبة إلى القطرة ، والسلطان بالنسبة إلى الرعية .

قالوا : وهذه الأشياء وإن لم يقم على وجودها برهان قاهر فلا أقل من الاحتمال والإمكان ، ثم إن أصحاب الصنعة وأرباب التجربة شاهدوا أن الاتصال بهذه الأرواح الأرضية يحصل بأعمال سهلة قليلة من الرقى والدخن والتجريد ، فهذا النوع هو المسمى بالعزائم وعمل تسخير الجن .

النوع الرابع من السحر : التخيلات والأخذ بالعيون ، وهذا الأخذ مبني على مقدمات : إحداها : أن أغلاط البصر كثيرة ، فإن راكب السفينة إذا نظر إلى الشط رأى السفينة واقفة والشط متحركاً .

وذلك يدل على أن الساكن يرى متحركاً والمتحرك يرى ساكناً ، والقطرة النازلة ترى خطاً مستقيماً ، والذبالة التي تدار بسرعة ترى دائرة ، والعنبة ترى في الماء كبيرة كالإجاصة ، والشخص الصغير يرى في الضباب عظيماً ، وكبخار الأرض الذي يريك قرص الشمس عند طلوعها عظيماً ، فإذا فارقته وارتفعت عنه صغرت ، وأما رؤية العظيم من البعيد صغيراً فظاهر ، فهذه الأشياء قد هدت العقول إلى أن القوة الباصرة قد تبصر الشيء على خلاف ما هو عليه في الجملة لبعض الأسباب العارضة ، وثانيها : أن القوة الباصرة إنما تقف على المحسوسات وقوفاً تاماً إذا أدركت المحسوس في زمان له مقدار ما ، فأما إذا أدركت المحسوس في زمان صغير جداً ثم أدركت بعده محسوساً آخر وهكذا فإنه يختلط البعض بالبعض ولا يتميز بعض المحسوسات عن البعض ، وذلك فإن الرحى إذا أخرجت من مركزها إلى محيطها خطوطاً كثيرة بألوان مختلفة ثم استدارات ، فإن الحس يرى لوناً واحداً كأنه مركب من كل تلك الألوان ، وثالثها : أن النفس إذا كانت مشغولة بشيء ، فربما حضر عند الحس شيء آخر ولا يشعر الحس به ألبتة كما أن الإنسان عند دخوله على السلطان قد يلقاه إنسان آخر ويتكلم معه ، فلا يعرفه ولا يفهم كلامه ، لما أن قلبه مشغول بشيء آخر

، وكذا الناظر في المرآة فإنه ربما قصد أن يرى قذاة في عينه فيراها ولا يرى ما هو أكبر منها ، إن كان بوجهه أثر أو بجبهته أو بسائر أعضائه التي تقابل المرآة ، وربما قصد أن يرى سطح المرآة هل هو مستو أم لا فلا يرى شيئاً مما في المرآة ، إذا عرفت هذه المقدمات سهل عند ذلك تصور كيفية هذا النوع من السحر ، وذلك لأن المشعبذ الحاذق يظهر عمل شيء يشغل أذهان الناظرين به ويأخذ عيونهم إليه حتى إذا استغرقهم الشغل بذلك الشيء والتحديق نحوه عمل شيئاً آخر عملاً بسرعة شديدة ، فيبقى ذلك العمل خفياً لتفاوت الشيئين ، أحدهما : اشتغالهم بالأمر الأول ، والثاني : سرعة الإتيان بهذا العمل

الثاني وحينئذ يظهر لهم شيء آخر غير ما انتظروه فيتعجبون منه جداً ، ولو أنه سكت ولم يتكلم بما يصرف الخواطر إلى ضد ما يريد أن يعمله ولم تتحرك النفوس والأوهام إلى غير ما يريد إخراجه ، لفطن الناظرون لكل ما يفعله ، فهذا هو المراد من قولهم : إن المشعبذ يأخذ بالعيون لأنه بالحقيقة يأخذ العيون إلى غير الجهة التي يحتال فيها وكلما كان أخذه للعيون والخواطر وجذبه لها إلى سوى مقصوده أقوى كان أحذق في عمله ، وكلما كانت الأحوال التي تفيد حس البصر نوعاً من أنواع الخلل أشد كان هذا العمل أحسن ، مثل أن يجلس

المشعبذ في موضع مضيء جداً ، فإن البصر يفيد البصر كلالاً واختلالاً ، وكذا الظلمة الشديدة وكذلك الألوان المشرقة القوية تفيد البصر كلالاً واختلالاً ، والألوان المظلمة قلما تقف القوة الباصرة على أحوالها ، فهذا مجامع القول في هذا النوع من السحر .

(35/61)

النوع الخامس من السحر : الأعمال العجيبة التي تظهر من تركيب الآلات المركبة على النسب الهندسية تارة وعلى ضروب الخيلاء أخرى ، مثل : فارسين يقتتلان فيقتل أحدهما الآخر ، وكفارس على فرس في يده بوق ، كلما مضت ساعة من النهار ضرب البوق من غير أن يمسه أحد ، ومنها الصور التي يصورها الروم والهند حتى لا يفرق الناظر بينها وبين الإنسان ، حتى يصورونها ضاحكة وباكية ، حتى يفرق فيها ضحك السرور وبين ضحك الخجل ، وضحك الشامت ، فهذه الوجوه من لطيف أمور المخايل ، وكان سحر سحرة فرعون من هذا الضرب ، ومن هذا الباب تركيب صندوق الساعات ، ويندرج في هذا الباب علم جر الأثقال وهو أن يجر ثقيلاً عظيماً بآلة خفيفة سهلة ، وهذا في الحقيقة لا ينبغي أن يعد من باب السحر لأن لها أسباباً معلومة نفيسة من اطلع عليها قدر عليها ، إلا أن الاطلاع عليها لما كان عسيراً شديداً لا يصل إليه إلا الفرد بعد الفرد ، لا جرم

عد أهل الظاهر ذلك من باب السحر ، ومن هذا الباب عمل " أرجعيانوس" الموسيقار في هيكل أورشليم العتيق عند تجديده إياه وذلك أنه اتفق له أنه كان مجتازاً بفلاة من الأرض فوجد فيها فرخاً من فراخ البراصل ، والبراصل هو طائر عطوف وكان يصفر صفيراً حزيناً بخلاف سائر البراصل وكانت البراصل تجيئه بلطائف الزيتون فتطرحها عنده فيأكل بعضها عند حاجته ويفضل بعضها عن حاجته فوقف هذا الموسيقار هناك وتأمل حال ذلك الفرخ وعلم أن في صفيره المخالف لصفير البراصل ضرباً من التوجع والاستعطاف حتى رقت له الطيور وجاءته بما يأكله فتلطف بعمل آلة تشبه الصفارة إذا استقبل الريح بها أدت ذلك الصفير ولم يزل يجرب ذلك حتى وثق بها وجاءته البراصل بالزيتون كما كانت تجيء إلى ذلك الفرخ لأنها تظن أن هناك فرخاً من جنسها ، فلما صح له ما أراد أظهر النسك وعمد إلى هيكل أورشليم وسأل عن الليلة التي دفن فيها " أسطرخس" الناسك القيم بعمارة ذلك الهيكل فأخبر أنه دفن في أول ليلة

من آب فاتخذ صورة من زجاج مجوف على هيئة البرصلة ونصبها فوق ذلك الهيكل ، وجعل فوق تلك الصورة قبة وأمرهم بفتحها في أول آب وكان يظهر صوت البرصلة بسبب

نفوذ الريح في تلك الصورة وكانت البراصل تجيء بالزيتون حتى كانت تمتلىء تلك القبة كل يوم من ذلك الزيتون والناس اعتقدوا أنه من كرامات ذلك المدفون ويدخل في الباب أنواع كثيرة لا يليق شرحها في هذا الموضع .

النوع السادس من السحر : الاستعانة بخواص الأدوية مثل أن يجعل في طعامه بعض الأدوية البلدة المزيلة للعقل والدخن المسكرة نحو دماغ الحمار إذا تناوله الإنسان تبلد عقله وقلت فطنته .

واعلم أنه لا سبيل إلى إنكار الخواص فإن أثر المغناطيس مشاهد إلا أن الناس قد أكثروا فيه وخلطوا الصدق بالكذب والباطل بالحق .

النوع السابع من السحر : تعليق القلب وهو أن يدعي الساحر أنه قد عرف الاسم الأعظم وأن الجن يطيعونه وينقادون له في أكثر الأمور ، فإذا اتفق أن كان السامع لذلك ضعيف العقل قليل التمييز اعتقد أنه حق وتعلق قلبه ، بذلك وحصل في نفسه نوع من الرعب والمخافة ، وإذا حصل الخوف ضعفت القوى الحساسة فحينئذ يتمكن الساحر من أن يفعل حينئذ ما يشاء وإن من جرب الأمور وعرف أحوال أهل العلم علم أن لتعلق القلب أثراً عظيماً في تنفيذ الأعمال وإخفاء الأسرار .

النوع الثامن من السحر : السعي بالنميمة والتضريب من وجوه خفيفة لطيفة وذلك شائع في

الناس ، فهذا جملة الكلام في أقسام السحر وشرح أنواعه وأصنافه والله أعلم .

المسألة الرابعة :

في أقوال المسلمين في أن هذه الأنواع هل هي ممكنة أم لا ؟ أما المعتزلة فقد اتفقوا على إنكارها إلا النوع المنسوب إلى التخيل والمنسوب إلى إطعام بعض الأدوية المبلدة والمنسوب إلى التضريب والنميمة ، فأما الأقسام الخمسة الأول فقد أنكروها ولعلهم كفروا من قال بها وجوزوا وجودها ، وأما أهل السنة فقد جوزوا أن يقدر الساحر على أن يطير في الهواء ويقلب الإنسان حماراً والحمار إنساناً ، إلا أنهم قالوا : إن الله تعالى هو الخالق لهذه الأشياء عند ما يقرأ الساحر رقى مخصوصة وكلمات معينة .

فأما أن يكون المؤثر في ذلك الفلك والنجوم فلا .

وأما الفلاسفة والمنجمون والصابئة فقولهم على ما سلف تقريره ، واحتج أصحابنا على فساد قول الصابئة إنه قد ثبت أن العالم محدث فوجب أن يكون موجده قادراً والشيء الذي حكم العقل بأنه مقدور إنما يصح أن يكون مقدوراً لكونه ممكناً والإمكان قدر مشترك بين كل الممكنات ، فإذن كل الممكنات مقدور لله تعالى ولو وجد شيء من تلك المقدورات

بسبب آخر يلزم أن يكون ذلك السبب مزيلاً لتعلق قدرة الله تعالى بذلك المقدور فيكون الحادث سبباً لعجز الله وهو محال ، فثبت أنه يستحيل وقوع شيء من الممكنات إلا بقدرة الله وعنده يبطل كل ما قاله الصابئة ، قالوا : إذا ثبت هذا فندعي أنه يمتنع وقوع هذه الخوارق بإجراء العادة عند سحر السحرة فقد احتجوا على وقوع هذا النوع من السحر بالقرآن والخبر .

أما القرآن فقوله تعالى في هذه الآية : ﴿ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ ﴾ ، والاستثناء يدل على حصول الآثار بسببه ، وأما الأخبار فهي واردة عنه صلى الله عليه وسلم متواترة وآحاداً ، أحدها ما روي أنه عليه السلام سحر ، وأن السحر عمل فيه حتى قال : " إنه ليخيل إلى أني أقول الشيء وأفعله ولم أقله ولم أفعله " وأن امرأة يهودية سحرته وجعلت ذلك السحر تحت راعوفة البئر ، فلما استخرج ذلك زال عن النبي صلى الله عليه وسلم ذلك العارض وأنزل المعوذتان بسببه ، وثانيها : أن امرأة أتت عائشة رضي الله عنها فقالت لها : إني ساحرة فهل لي من توبة ؟ فقالت : وما سحرك ؟ فقالت : صرت إلى الموضع الذي فيه هاروت وماروت ببابل لطلب علم السحر فقالا : لي يا أمة الله لا تختاري

عذاب الآخرة بأمر الدنيا فأبيت ، فقالا لي : اذهبي فبولي على ذلك الرماد ، فذهبت لأبول عليه ففكرت في نفسي فقلت لا أفعل وجئت إليهما فقلت : قد فعلت ، فقالا لي : ما رأيت لما فعلت ؟ فقلت ما رأيت شيئاً ، فقالا لي : أنت على رأس أمر فاتقي الله ولا تفعلي ، فأبيت فقالا لي : اذهبي فافعلي ، فذهبت ففعلت ، فرأيت كأن فارساً مقنعاً بالحديد قد خرج من فرجي فصعد إلى السماء فجئتهما فأخبرتهما فقالا : إيمانك قد خرج عنك وقد أحسنت السحر ، فقلت : وما هو ؟ قالا : ما تريدين شيئاً فتصوريه في وهمك ، إلا كان فصورت في نفسي حباً من حنطة ، فإذا أنا بحب ، فقلت : أنزرع فانزرع فخرج من ساعته سنبلاً فقلت : انطحن فانطحن من ساعته ، فقلت : أنخبز فانخبز وأنا لا أريد شيئاً أصوره في نفسي إلا حصل ، فقالت عائشة : ليس لك توبة ، وثالثها : ما يذكرونه من الحكايات الكثيرة في هذا الباب وهي مشهورة .

أما المعتزلة فقد احتجوا على إنكاره بوجوه ، أحدها : قوله تعالى : ﴿ وَلاَ يُفْلِحُ الساحر حَيْثُ أَتى ﴾ [طه : 69] ، وثانيها : قوله تعالى في وصف محمد صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَقَالَ الظالمون إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً ﴾ [الفرقان : 8] ولو صار عليه السلام

مسحوراً لما استحقوا الذم بسبب هذا القول ، وثالثها : أنه لو جاز ذلك من السحر فكيف يتميز المعجز عن السحر ثم قالوا : هذه الدلائل يقينية والأخبار التي ذكرتموها من باب الآحاد فلا تصلح معارضة لهذه الدلائل .

المسألة الخامسة :

في أن العلم بالسحر غير قبيح ولا محظور : اتفق المحققون على ذلك لأن العلم لذاته شريف وأيضاً لعموم قوله تعالى : ﴿ هَلْ يَسْتَوِي الذين يَعْلَمُونَ والذين لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر : 9] ولأن السحر لو لم يكن يعلم لما أمكن الفرق بينه وبين المعجز ، والعلم بكون المعجز معجزاً واجب وما يتوقف الواجب عليه فهو واجب فهذا يقتضي أن يكون تحصيل العلم بالسحر واجباً وما يكون واجباً كيف يكون حراماً وقبيحاً .

المسألة السادسة :

في أن الساحر قد يكفر أم لا ، اختلف الفقهاء في أن الساحر هل يكفر أم لا ؟ روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " من أتى كاهناً أو عرافاً فصدقهما بقول فقد كفر بما أنزل على محمد " عليه السلام واعلم أنه لا نزاع بين الأمة في أن من اعتقد أن الكواكب هي المدبرة لهذا العالم وهي الخالقة لما فيه من الحوادث والخيرات والشرور ، فإنه يكون كافراً على الإطلاق وهذا هو النوع الأول من السحر .

أما النوع الثاني : وهو أن يعتقد أنه قد يبلغ روح الإنسان في التصفية والقوة إلى حيث يقدر

بها على إيجاد الأجسام والحياة والقدرة وتغيير البنية والشكل ، فالأظهر إجماع الأمة أيضاً على تكفيره .

أما النوع الثالث : وهو أن يعتقد الساحر أنه قد يبلغ في التصفية وقراءة الرقى وتدخين بعض الأدوية إلى حيث يخلق الله تعالى عقيب أفعاله على سبيل العادة الأجسام والحياة والعقل وتغيير البنية والشكل فههنا المعتزلة اتفقوا على تكفير من يجوز ذلك قالوا لأنه مع هذا الاعتقاد لا يمكنه أن يعرف صدق الأنبياء والرسل ، وهذا ركيك من القول .

فإن لقائل أن يقول إن الإنسان لو ادعى النبوة وكان كاذباً في دعواه فإنه لا يجوز من الله تعالى إظهار هذه الأشياء على يده لئلا يحصل التلبيس ، أما إذا لم يدع النبوة وأظهر هذه الأشياء على يده لم يفض ذلك إلى التلبيس فإن المحق يتميز عن المبطل بما أن المحق تحصل له هذه الأشياء مع ادعاء النبوة والمبطل لا تحصل له هذه الأشياء مع ادعاء النبوة .

وأما سائر الأنواع التي عددناها من السحر فلا شك أنه ليس بكفر .

فإن قيل : إن اليهود لما أضافوا السحر إلى سليمان قال الله تعالى تنزيهاً له عنه : ﴿ وَمَا كَفَرَ سليمان ﴾ وهذا يدل على أن السحر كفر على الإطلاق وأيضاً قال : ﴿ ولكن الشياطين

كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ الناس السحر ﴾ وهذا أيضاً يقتضي أن يكون السحر على الإطلاق كفراً .

وحكي عن الملكين أنهما لا يعلمان أحداً السحر حتى يقولا : إنما نحن فتنة فلا تكفر وهو يدل على أن السحر كفر على الإطلاق ، قلنا : حكاية الحال يكفي في صدقها صورة واحدة فتحملها على سحر من يعتقد إلهية النجوم .

المسألة السابعة :

في أنه هل يجب قتلهم أم لا ؟ أما النوع الأول : وهو أن يعتقد في الكواكب كونها آلهة مدبرة .

والنوع الثاني : وهو أن يعتقد أن الساحر قد يصير موصوفاً بالقدرة على خلق الأجسام وخلق الحياة والقدرة والعقل وتركيب الأشكال ، فلا شك في كفرهما ، فالمسلم إذا أتى بهذا الاعتقاد كان كالمرتد يستتاب فإن أصر قتل .

وروي عن مالك وأبي حنيفة أنه لا تقبل توبته ، لنا أنه أسلم فيقبل إسلامه لقوله عليه السلام : " نحن نحكم بالظاهر " ، أما النوع الثالث : وهو أن يعتقد أن الله تعالى أجرى عادته بخلق الأجسام والحياة وتغيير الشكل والهيئة عند قراءة بعض الرقي وتدخين بعض الأدوية ، فالساحر يعتقد أنه يمكن الوصول إلى استحداث الأجسام والحياة وتغيير الخلقة بهذا

الطريق ، وقد ذكرنا عن المعتزلة أنه كفر قالوا : لأنه مع هذا الاعتقاد لا يمكنه الاستدلال بالمعجز على صدق الأنبياء ، وهذا ركيك لأنه يقال : الفرق هو أن مدعي النبوة إن كان صادقاً في دعواه أمكنه الإتيان بهذه الأشياء وإن كان كاذباً تعذر عليه ذلك فبهذا يظهر الفرق .

إذا ثبت أنه ليس بكافر وثبت أنه ممكن الوقوع فإذا أتى الساحر بشيء من ذلك فإن اعتقد أن إتيانه به مباح كفر ، لأنه حكم على المحظور بكونه مباحاً ، وإن اعتقد حرمته فعند الشافعي رضي الله عنه أن حكمه حكم الجناية ، إن قال : إني سحرته وسحري يقتل غالباً ، يجب عليه القود ، وإن قال : سحرته وسحري قد يقتل وقد لا يقتل فهو شبه عمد وإن قال سحرت غيره فوافق اسمه فهو خطأ تجب الدية مخففة في ماله لأنه ثبت بإقراره إلا أن تصدقه العاقلة فحينئذ تجب عليهم هذا تفصيل مذهب الشافعي رضي الله عنه ، وروى الحسن بن زياد عن أبي حنيفة رحمه الله أنه قال : يقتل الساحر إذا علم أنه ساحر ولا يستتاب ولا يقبل قوله : إني أترك السحر وأتوب منه ، فإذا أقر أنه ساحر فقد حل دمه وإن شهد شهدان على أنه ساحر أو وصفوه بصفة يعلم أنه ساحر قتل ولا يستتاب وإن أقر

بأني كنت أسحر مرة وقد تركت ذلك منذ زمان قبل منه ولم يقتل ، وحكى محمد بن شجاع عن علي الرازي قال : سألت أبا يوسف عن قول أبي حنيفة في الساحر : يقتل ولا يستتاب لم يكن ذلك بمنزلة المرتد ، فقال : الساحر جمع مع كفره السعي في الأرض بالفساد ومن كان كذلك إذا قتل قتل ، واحتج أصحابنا بأنه لما ثبت أن هذا النوع ليس بكفر فهو فسق فإن لم يكن جناية على حق الغير كان الحق هو التفصيل الذي ذكرناه .

(43/61)

الثاني : أن ساحر اليهود لا يقتل لأنه عليه الصلاة والسلام سحره رجل من اليهود يقال له لبيد بن أعصم وامرأة من يهود خيبر يقال لها زينب ، فلم يقتلهما فوجب أن يكون المؤمن كذلك لقوله عليه الصلاة والسلام : " لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين " واحتج أبو حنيفة رحمه الله على قوله بأخبار ، أحدها : ما روى نافع عن ابن عمر أن جارية لحفصة سحرتها وأخذوها فاعترفت بذلك فأمرت عبد الرحمن بن زيد فقتلها فبلغ عثمان فأنكره فأتاه ابن عمر وأخبره أمرها فكأن عثمان إنما أنكر ذلك لأنها قتلت بغير إذنه ، وثانيها : ما روى عمرو بن دينار أنه ورد كتاب عمر رضي الله عنه أن اقتلوا كل ساحر وساحرة فقتلنا ثلاث سواحر ، وثالثها : قال علي بن أبي طالب : إن هؤلاء العرافين كهان العجم ، فمن أتى

كاهناً يؤمن له بما يقول : فقد برىء مما أنزل الله على محمد صلى الله عليه وسلم .

والجواب : لعل السحرة الذين قتلوا كانوا من الكفرة فإن حكاية الحال يكفي في صدقها صورة واحدة ، وأما سائر أنواع السحر أعني الإتيان بضروب الشعبذة والآلات العجيبة المبنية على ضروب الخيلاء ، والمبنية على النسب الهندسية وكذلك القول فيمن يوهم ضروباً من التخويف والتقريع حتى يصير من به السوداء محكم الاعتقاد فيه ويتمشى بالتضريب والنميمة ويحتال في إيقاع الفرقة بعد الوصلة ، ويوهم أن ذلك بكتابة يكتبها من الاسم الأعظم فكل ذلك ليس بكفر ، وكذلك القول في دفن الأشياء الوسخة في دور الناس ، وكذا القول في إيهام أن الجن يفعلون ذلك ، وكذا القول فيمن يدس الأدوية المبلدة في الأطعمة فإن شيئاً من ذلك لا يبلغ حد الكفر ولا يوجب القتل ألبتة ، فهذا هو الكلام الكلي في السحر والله الكافي والواقي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 186 . ﴾ 196

قوله تعالى : ﴿ ولكن الشياطين كَفَرُواْ يُعَلّمُونَ الناس السحر ﴾

فصل

قال الفخر :

أما قوله تعالى : ﴿ ولكن الشياطين كَفَرُواْ يُعَلّمُونَ الناس السحر ﴾ فظاهر الآية يقتضي أنهم إنما كفروا لأجل أنهم كانوا يعلمون الناس السحر ، لأن ترتيب الحكم على الوصف مشعر بالعلية وتعليم ما لا يكون كفراً لا يوجب الكفر ، فصارت الآية دالة على أن تعليم السحر كفر ، وعلى أن السحر أيضاً كفر ، ولمن منع ذلك أن يقول : لا نسلم أن ترتيب الحكم على الوصف مشعر بالعلية ، بل المعنى أنهم كفروا وهم مع ذلك يعلمون الناس السحر ، فإن قيل : هذا مشكل لأن الله تعالى أخبر في آخر الآية أن الملكين يعلمان الناس السحر ، فلو كان تعليم السحر كفراً لزم تكفير الملكين ، وإنه غير جائز لما ثبت أن الملائكة بأسرهم معصومون وأيضاً فلأنكم قد دللتم على أنه ليس كل ما يسمى سحراً فهو كفر .

قلنا : اللفظ المشترك لا يكون عاماً في جميع مسمياته ، فنحن نحمل هذا السحر الذي هو كفر على النوع الأول من الأشياء المسماة بالسحر ، وهو اعتقاد إلهية الكواكب والاستعانة بها في إظهار المعجزات وخوارق العادات ، فهذا السحر كفر ، والشياطين إنما كفروا لإتيانهم بهذا السحر لا بسائر الأقسام .

وأما الملكان فلا نسلم أنهما علما هذا النوع من السحر ، بل لعلهم يعلمان سائر الأنواع على ما قال تعالى : ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرّقُونَ بِهِ بَيْنَ المرء وَزَوْجِهِ ﴾ وأيضاً فبتقدير أن يقال : إنهما علما هذا النوع لكن تعليم هذا النوع إنما يكون كفراً إذا قصد المعلم أن يعتقد حقيته

وكونه صواباً ، فأما أن يعلمه ليحترز عنه فهذا التعليم لا يكون كفراً ، وتعليم الملائكة كان لأجل أن يصير المكلف محترزاً عنه على ما قال تعالى حكاية عنهما : ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حتى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ ﴾ وأما الشياطين الذين علموا الناس السحر فكان مقصودهم اعتقاد حقية هذه الأشياء فظهر الفرق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 196 . 197 ﴾

فصل

قال الفخر :

قرأ نافع وابن كثير وعاصم وأبو عمرو بتشديد " لكن " و " الشياطين " بالنصب على أنه اسم " لكن " والباقون " لكن " بالتخفيف و " الشياطين " بالرفع والمعنى واحد ، وكذلك في الأنفال : ﴿ ولكن الله رمى ﴾ ﴿ ولكن الله قَتَلَهُمْ ﴾ [الأنفال : 17] والاختيار أنه إذا كان بالواو كان التشديد أحسن ، وإذا كان بغير الواو فالتخفيف أحسن ، والوجه فيه أن " لكن " بالتخفيف يكون عطفاً فلا يحتاج إلى الواو لاتصال الكلام ، والمشددة لا تكون عطفاً لأنها تعمل عمل " إن " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 197 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الملكين بِبَابِلَ هاروت وماروت ﴾

فصل

قال الفخر :

" ما " في قوله : ﴿ وَمَا أُنزِلَ ﴾ فيه وجهان .

الأول : أنه بمعنى الذي ثم هؤلاء اختلفوا فيه على ثلاثة أقوال .

الأول : أنه عطف على (السحر) أي يعلمون الناس السحر ويعلمونهم ما أنزل على الملكين أيضاً .

وثانيها : أنه عطف على قوله : ﴿ مَا تَتْلُواْ الشياطين ﴾ أي واتبعوا ما تتلوه الشياطين افتراء على ملك سليمان وما أنزل على الملكين لأن السحر منهما هو كفر وهو الذي تلته الشياطين ، ومنه ما تأثيره في التفريق بين المرء وزوجه وهو الذي أنزل على الملكين فكأنه تعالى أخبر عن اليهود أنهم اتبعوا كلا الأمرين ولم يقتصروا على أحدهما ، وثالثها : أن موضعه جر عطفاً على (ملك سليمان) وتقديره ما تتلوا الشياطين افتراء على ملك سليمان وعلى ما أنزل على الملكين وهو اختيار أبي مسلم رحمه الله ، وأنكر في الملكين أن يكون السحر نازلاً عليهما واحتج عليه بوجوه .

الأول : أن السحر لو كان نازلاً عليهما لكان منزله هو الله تعالى ، وذلك غير جائز لأن السحر كفر وعبث ولا يليق بالله إنزال ذلك ، الثاني : أن قوله : ﴿ ولكن الشياطين كَفَرُواْ

يُعَلِّمُونَ الناس السحر ﴾ يدل على أن تعليم السحر كفر ، فلو ثبت في الملائكة أنهم يعلمون السحر لزمهم الكفر ، وذلك باطل .

(46/61)

الثالث : كما لا يجوز في الأنبياء أن يبعثوا لتعليم السحر فكذلك في الملائكة بطريق الأولى ، الرابع : أن السحر لا ينضاف إلا إلى الكفرة والفسقة والشياطين المردة ، وكيف يضاف إلى الله ما ينهى عنه ويتوعد عليه بالعقاب ؟ وهل السحر إلا الباطل المموه وقد جرت عادة الله تعالى بإبطاله كما قال في قصة موسى عليه السلام : ﴿ مَا جِئْتُمْ بِهِ السحر إِنَّ الله سَيُبْطِلُهُ ﴾ [يونس : 81] ثم إنه رحمه الله سلك في تفسير الآية نهجا آخر يخالف قول أكثر المفسرين ، فقال : كما أن الشياطين نسبوا السحر إلى ملك سليمان مع أن ملك سليمان كان مبرأ عنه ، فكذلك نسبوا ما أنزل على الملكين إلى السحر مع أن المنزل عليهما كان مبرأ عن السحر ، وذلك لأن المنزل عليهما كان هو الشرع والدين والدعاء إلى الخير ، وإنما كانا يعلمان الناس ذلك مع قولهما : ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ ﴾ توكيداً لبعثهم على القبول والتمسك ، وكانت طائفة تتمسك وأخرى تخالف وتعدل عن ذلك ويتعلمون منهما أي من الفتنة والكفر مقدار ما يفرقون به بين المرء وزوجه ، فهذا تقرير مذهب أبي مسلم .

الوجه الثاني : أن يكون " ما " بمعنى الجحد ويكون معطوفاً على قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَفَرَ سليمان ﴾ كأنه قال : لم يكفر سليمان ولم ينزل على الملكين سحر لأن السحرة كانت تضيف السحر إلى سليمان وتزعم أنه مما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت ، فرد الله عليهم في القولين قوله : ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ ﴾ جحد أيضاً أي لا يعلمان أحداً بل ينهيان عنه أشد النهي .

أما قوله تعالى : ﴿ حتى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ ﴾ أي ابتلاء وامتحان فلا تكفر وهو كقولك ما أمرت فلاناً بكذا حتى قلت له إن فعلت كذا نالك كذا ، أي ما أمرت به بل حذرته عنه .

واعلم أن هذه الأقوال وإن كانت حسنة إلا أن القول الأول أحسن منها ، وذلك لأن عطف قوله : ﴿ وَمَا أُنزِلَ ﴾ على ما يليه أولى من عطفه على ما بعد عنه إلا لدليل منفصل ، أما قوله : لو نزل السحر عليهما لكان منزل ذلك السحر هو الله تعالى .

قلنا : تعريف صفة الشيء قد يكون لأجل الترغيب في إدخاله في الوجود وقد يكون لأجل أن يقع الاحتراز عنه كما قال الشاعر :

عرفت الشر لا للشر لكن لتوقيه . . قوله ثانياً : إن تعليم السحر كفر لقوله تعالى : ﴿ ولكن

الشياطين كَفَرُواْ يُعَلّمُونَ الناس السحر ﴾ ، فالجواب : أنا بينا أنه واقعة حال فيكفي في صدقها صورة واحدة وهي ما إذا اشتغل بتعليم سحر من يقول بإلهية الكواكب ويكون قصده من ذلك التعليم إثبات أن ذلك المذهب حق .

قوله ثالثاً : إنه لا يجوز بعثة الأنبياء عليهم السلام لتعليم السحر فكذا الملائكة .

قلنا : لا نسلم أنه لا يجوز بعثة الأنبياء عليهم السلام لتعليمه بحيث يكون الغرض من ذلك التعليم التنبيه على إبطاله .

قوله رابعاً : إنما يضاف السحر إلى الكفرة والمردة فكيف يضاف إلى الله تعالى ما ينهى عنه ؟ قلنا : فرق بين العمل وبين التعليم فلم لا يجوز أن يكون العمل منهياً عنه ؟ وأما تعليمه لغرض التنبيه على فساده فإنه يكون مأموراً به . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 197.198 ﴾

فصل

قال الفخر :

قرأ الحسن : (مِلكين) بكسر اللام وهو مروي عن الضحاك وابن عباس ثم اختلفوا ، فقال الحسن : كانا علجين أقلفين ببابل يعلمان الناس السحر ، وقيل : كانا رجلين صالحين من الملوك .

والقراءة المشهورة بفتح اللام وهما كانا ملكين نزلا من السماء ، وهاروت وماروت اسمان لهما ، وقيل : هما جبريل وميكائيل عليهما السلام ، وقيل غيرهما : أما الذين كسروا اللام فقد احتجوا بوجوه ، أحدها : أنه لا يليق بالملائكة تعليم السحر ، وثانيها : كيف يجوز إنزال الملكين مع قوله : ﴿ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكاً لَّقُضِيَ الأمر ثُمَّ لاَ يُنظَرُونَ ﴾ [الأنعام : 8] ، وثالثها : لو أنزل الملكين لكان إما أن يجعلهما في صورة الرجلين أو لا يجعلهما كذلك ، فإن جعلهما في صورة الرجلين مع أنهما ليسا برجلين كان ذلك تجهيلاً وتلبيساً على الناس وهو غير جائز ، ولو جاز ذلك فلم لا يجوز أن كل واحد من الناس الذين نشاهدهم لا يكون في الحقيقة إنساناً ، بل ملكاً من الملائكة ؟ وإن لم يجعلهما في صورة الرجلين قدح ذلك في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ جعلناه مَلَكاً لجعلناه رَجُلاً ﴾ [الأنعام : 9] والجواب عن الأول أنا سنبين وجه الحكمة في إنزال الملائكة لتعليم السحر ، وعن الثاني : أن هذه الآية عامة وقراءة الملكين بفتح اللام متواترة وخاصة والخاص مقدم على العام ، وعن الثالث : أن الله تعالى أنزلهما في صورة رجلين وكان الواجب على المكلفين في زمان الأنبياء أن لا يقطعوا على من صورته صورة الإنسان بكونه إنساناً ، كما أنه في زمان الرسول عليه الصلاة والسلام كان الواجب على من شاهد دحية الكلبي أن لا يقطع بكونه من البشر بل الواجب التوقف فيه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 198 . 199 ﴾

فصل

قال الفخر :

إذا قلنا بأنهما كانا من الملائكة فقد اختلفوا في سبب نزولهما فروي عن ابن عباس أن الملائكة لما أعلمهم الله بآدم وقالوا : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدماء ﴾ فأجابهم الله تعالى بقوله : ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : 30] ثم إن الله تعالى وكل عليهم جمعاً من الملائكة وهم الكرام الكاتبون فكانوا يعرجون بأعمالهم الخبيثة فعجبت الملائكة منهم ومن تبقية الله لهم مع ما ظهر منهم من القبائح ، ثم أضافوا إليهما عمل السحر فازداد تعجب الملائكة فأراد الله تعالى أن يبتلي الملائكة ، فقال لهم : اختاروا ملكين من أعظم الملائكة علماً وزهداً وديانة لأنزلهما إلى الأرض فأختبرهما ، فاختاروا هاروت وماروت ، وركب فيهما شهوة الإنس وأنزلهما ونهاهما عن الشرك والقتل والزنا والشرب ، فنزلا فذهبت إليهما امرأة من أحسن النساء وهي الزهرة فراوداها عن نفسها فأبت أن تطيعهما إلا بعد أن يعبدا الصنم ، وإلا بعد أن يشربا الخمر ، فامتنعا أولاً ، ثم غلبت الشهوة عليهما فأطاعاها في كل ذلك ، فعند إقدامهما على الشرب وعبادة الصنم دخل سائل

عليهم فقالت : إن أظهر هذا السائل للناس ما رأى منا فسد أمرنا ، فإن اردتما الوصول إلي فاقتلا هذا الرجل ، فامتنعا منه ثم اشتغلا بقتله فلما فرغا من القتل وطلبا المرأة فلم يجداها ، ثم إن الملكين عند ذلك ندما وتحسرا وتضرعا إلى الله تعالى فخيرهما بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ، فاختارا عذاب الدنيا وهما يعذبان ببابل معلقان بين السماء والأرض يعلمان الناس السحر ، ثم لهم في الزهرة قولان ، أحدهما : أن الله تعالى لما ابتلى الملكين بشهوة بني آدم أمر الله الكوكب الذي يقال له الزهرة وفلكها أن اهبطا إلى الأرض إلى أن كان ما كان ، فحينئذ ارتفعت الزهرة وفلكها إلى موضعهما من السماء موبخين لهما على ما شاهداه منهما .

والقول الثاني : أن المرأة كانت فاجرة من أهل الأرض وواقعاها بعد شرب الخمر وقتل النفس وعبادة الصنم ، ثم علماها الاسم الذي كانا به يعرجان إلى السماء فتكلمت به وعرجت إلى السماء وكان اسمها " بيدخت" فمسخها الله وجعلها هي الزهرة ، واعلم أن هذه الرواية فاسدة مردودة غير مقبولة لأنه ليس في كتاب الله ما يدل على ذلك ، بل فيه ما يبطلها من وجوه ، الأول : ما تقدم من الدلائل الدالة على عصمة الملائكة عن كل المعاصي

، وثانيها : أن قولهم إنهما خيرا بين عذاب الدنيا وبين عذاب الآخرة فاسد ، بل كان الأولى أن يخيرا بين التوبة والعذاب لأن الله تعالى خير بينهما من أشرك به طول عمره ، فكيف يبخل عليهما بذلك ؟ وثالثها : أن من أعجب الأمور قولهم : إنهما يعلمان السحر في حال كونهما معذبين ويدعوان إليه وهما يعاقبان ولما ظهر فساد هذا القول فنقول : السبب في إنزالهما وجوه .

(51/61)

أحدها : أن السحرة كثرت في ذلك الزمان واستنبطت أبواباً غريبة في السحر ، وكانوا يدعون النبوة ويتحدون الناس بها ، فبعث الله تعالى هذين الملكين لأجل أن يعلما الناس أبواب السحر حتى يتمكنوا من معارضة أولئك الذين كانوا يدعون النبوة كذباً ، ولا شك أن هذا من أحسن الأغراض والمقاصد ، وثانيها : أن العلم بكون المعجزة مخالفة للسحر متوقف على العلم بماهية المعجزة وبماهية السحر ، والناس كانوا جاهلين بماهية السحر ، فلاجرم هذا تعذرت عليهم معرفة حقيقة المعجزة ، فبعث الله هذين الملكين لتعريف ماهية السحر لأجل هذا الغرض ، وثالثها : لا يمتنع أن يقال : السحر الذي يوقع الفرقة بين أعداء الله والألفة بين أولياء الله كان مباحاً عندهم أو مندوباً ، فالله تعالى بعث الملكين

لتعليم السحر لهذا الغرض ، ثم إن القوم تعلموا ذلك منهما واستعملوه في الشر وإيقاع الفرقة بين أولياء الله والألفة بين أعداء الله ، ورابعها : أن تحصيل العلم بكل شيء حسن ولما كان السحر منهياً عنه وجب أن يكون متصوراً معلوماً لأن الذي لا يكون متصوراً امتنع النهي عنه ، وخامسها : لعل الجن كان عندهم أنواع من السحر لم يقدر البشر على الإتيان بمثلها ، فبعث الله الملائكة ليعلموا البشر أموراً يقدرون بها على معارضة الجن ، وسادسها : يجوز أن يكون ذلك تشديداً في التكليف من حيث أنه إذا علمه ما أمكنه أن يتوصل به إلى اللذات العاجلة ثم منعه من استعمالها كان ذلك في نهاية المشقة فيستوجب به الثواب الزائد كما ابتلي قوم طالوت بالنهر على ما قال : ﴿ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنّى ﴾ [البقرة : 249] فثبت بهذه الوجوه أنه لا يبعد من الله تعالى إنزال الملكين لتعليم السحر . والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 199 . 200 ﴾

" آراء المفسرين في قصة هاروت وماروت "

من المفسرين من أورد القصة دون تعليق, ومنهم من حكم عليها بالفساد والبطلان .

أما الفريق الأول فمنهم الإمام الطبري في تفسيره حـ 1 صـ : 456 , صـ 459 . وذكر

أيضاً قصة خاتم سليمان الذي حكم به في ملكه, وذكر ذهاب ملكه بفقد الخاتم ثم عودة الملك إليه بعد أن وجد الخاتم (ولا شك أنها قصة مختلقة لا أصل لها) وسيأتي إن شاء الله لها مزيد بيان في سورة (ص)

وممن سار على نهج الإمام الطبري في هذه القصة السمعاني في تفسيره حـ 1 صـ 116 : صـ 117 ومنهم الإمام البغوي في تفسيره معالم التنزيل حـ 1 صـ 13 (: صـ 132, ومنهم الثعلبى فى الكشف والبيان ج1 صـ 246. 248 ، ومنهم ابن أبى زمنين ج1 صـ 165 ، ومنهم النسفي حـ 1 صـ 114 , ومنهم السيوطي في الدر المنثور حـ 1 صـ 238 : صـ 246 وأشار إلى قصة الخاتم (المزعومة) حـ 1 صـ 232 : صـ 234, ومنهم الشوكاني في فتح القدير حـ 1 صـ 122 : صـ 123 . وسيأتي ذكر كلامه إن شاء الله لاحقاً

وأما الفريق الثاني فمنهم الإمام الفخر الرازي, وقد سبق كلامه .

ومنهم ابن الجوزي في زاد المسير حـ 1 صـ 123 : صـ 124 : قال بعد ذكر القصة : إلا أن هذه الأشياء بعيدة عن الصحة . أهـ .

ثم ذكر أقوال العلماء في عذاب هاروت وماروت, ولم يعلق عليها , وكأنه أحال القارئ على ما ذكره قبل ذلك من استبعاده لصحتها . أهـ .

ومنهم الثعالبي حـ 1 صـ 92 قال : وما يذكر في قصتهما (الملكين) على الزهرة كله ضعيف, وكذا قال عياض, وأما ما ذكره أهل الأخبار ونقله المفسرون في قصة هاروت وماروت, وما روى عن على وابن عباس – رضي الله عنهما – في خبرهما وابتلائهما , فاعلم أكرمك الله أن هذه الأخبار لم يرو منها سقيم ولا صحيح عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – , وليس هذا شيئاً يؤخذ بقياس, والذي منه في القرآن اختلف المفسرون في معناه, وأنكر ما قال بعضهم فيه كثير من السلف وهذه الأخبار من كتب اليهود وافترائهم, كما نصه الله أول الآيات .

ومنهم البيضاوي في تفسيره حـ 1 صـ : 372

قال بعد أن ذكر ملخص القصة :

" فمحكي عن اليهود , ولعله من رموز الأوائل, وحله لا يخفي على ذوي البصائر . ومنهم الخازن في تفسيره حـ 1 صـ 67 : صـ 68 . وسيأتي نص كلامه لاحقاً إن شاء الله في عصمة الملائكة

وقال القرطبي في تفسيره حـ 1 صـ 37 : 38 بعد ذكر الروايات في هذه القصة : " قلنا إن هذا كله ضعيف وبعيد عن ابن عمر وغيره, لا يصح منه شيء , فإنه قول تدفعه الأصول في الملائكة الذين هم أمناء الله على وحيه, وسفراؤه إلى رسله . ورد قصة الزهرة بأنها

خلقت يوم خلق الله السماوات والأرض أي قبل خلق آدم والملكين وقال ابن كثير حـ 1 صـ 179 : 183 بعد ما ذكر الآثار الواردة في تلك القصة عن الصحابة والتابعين – رضي الله عنهم – قال ما نصه :

وقد روى في قصة هاروت وماروت عن جماعة من التابعين, كمجاهد والسدي والحسن البصري وقتادة وأبي العالية والزهري والربيع بن أنس ومقاتل بن حيان وغيرهم وقصها خلق من المفسرين من المتقدمين والمتأخرين, وحاصلها راجع في تفصيلها إلى أخبار بني إسرائيل, إذ ليس فيها حديث مرفوع صحيح متصل الإسناد إلى الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى, وظاهر سياق القرآن إجمال القصة من غير بسط ولا إطناب, فنحن نؤمن بما ورد في القرآن على ما أراده الله تعالى والله أعلم بحقيقة الحال . أهـ .

(54/61)

وذكر أبو حيان فى البحر المحيط حـ 1 صـ 475 ملخص القصة ثم عقب عليها بقوله : " وهذا كله لا يصح منه شيء . والملائكة معصومون ، ﴿ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ ﴿ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلاَ يَسْتَحْسِرُونَ ﴾ ﴿ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لاَ يَفْتُرُونَ ﴾

ولا يصح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يلعن الزهرة ولا ابن عمر " . أهـ .

وقال أبو السعود حـ 1 صـ 138 : بعد أن ذكر ملخص القصة : ما يحكى في هذه القصة فمما لا تعويل عليه, لما أن مداره رواية اليهود مع ما فيه من المخالفة, لأدلة العقل والنقل, ولعله من مقولة الأمثال والرموز التي قصد بها إرشاد اللبيب الأريب بالترغيب والترهيب . أهـ

وقال الآلوسي حـ 1 صـ 34 (: 341 : بعد أن ذكر القصة وأقوال من أقرها ومن أنكرها عقب على ذلك قائلاً : " ومن قال بصحة هذه القصة في نفس الأمر وحملها على ظاهرها فقد ركب شططاً , وقال غلطاً , وفتح باباً من السحر يضحك الموتى ويبكي الأحياء , وينكس راية الإسلام, ويرفع رؤوس الكفرة الطغاة, كما لا يخفى ذلك على المنصفين من العلماء . اهـ

(55/61)

وقال الشوكاني في فتح القدير حـ 1 صـ 122 : صـ 123 : بعد أن ذكر أكثر الروايات في القصة ونقل كلام الإمامين القرطبي وابن كثير في عدم قبولها وردها قال : صـ 123 : وأقول : هذا مجرد استبعاد وقد ورد الكتاب العزيز في هذا الموضع بما تراه ولا وجه لإخراجه عن

ظاهره (1) بهذه التكلفات, وما ذكره من أن الأصول تدفع ذلك, فعلى فرض وجود هذه الأصول (2) , فهي مخصصة بما وقع في هذه القصة ولا وجه لمنع التخصيص, وقد كان إبليس يملك المنزلة العظيمة وصار أشر البرية وأكفر العالمين (3) . أهـ

وقال الدكتور محمد أبو شهبه – رحمه الله – في كتابه : الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير صـ 161 بعد أن ذكر بعض الروايات لهذه القصة من كتاب الدر المنثور قال معقباً بما نصه :

" وكل هذا من خرافات بني إسرائيل وأكاذيبهم التي لا يشهد لها عقل ولا نقل ولا شرع ولم يقف بعد رواة هذا القصص عند روايته عن بعض الصحابة والتابعين, ولكنهم أوغلوا باب الإثم والتجني الفاضح فألصقوا هذا الزور إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – ورفعوه إليه . أهـ .

---

(1) – سبحان الله أين هذا الظاهر من خلال الآية الكريمة ، هذا قول لا دليل عليه .

(2) – لا مجال لإنكار هذه الأصول في عصمة الملائكة وهي ثابتة في القرآن كما في قوله تعالى " لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون " وقوله " بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون " وغير ذلك من الآيات الناطقة بعصمة الملائكة ، ثم من أين أتى بهذا التخصيص وقد علمنا من خلال كلام الأعلام من المفسرين أن هذه القصة تنتهي إلى أخبار اليهود المكذوبة . وما قدر هذه الأخبار وما وزنها وهل يخصص القرآن بمثلها إن

هذا الشيء عجيب .

(3) – إن إبليس لم يكن من جنس الملائكة وقد سبق بيان ذلك ، ولا حاجة لمزيد من التطويل ، فيكفي في رد هذا الكلام ما ذكره أقطاب المفسرين رحمهم الله أجمعين . أ هـ .

ثم قال صـ 162 : وقد حكم بوضع هذه القصة الإمام أبو الفرج بن الجوزي (1) , ونص الشهاب العراقي على أن من اعتقد في هاروت وماروت أنهما ملكان يعذبان على خطيئتهما , فهو كافر بالله العظيم .

قال ابن كثير – رحمه الله – ورفع مثل هذه الإسرائيليات إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – كذب واختلاق ألصقه زنادقة أهل الكتاب زوراً وبهتاناً . اهـ وذكر مثل ذلك في البداية والنهاية . حـ 1 صـ 37 . أهـ .

وقال صـ 163 وكذا ردها المحققون من المفسرين الذين مهروا في معرفة أصول الدين, وأبت عقولهم أن تقبل هذه الخرافات, كالإمام الرازي وأبي حيان وأبي السعود والآلوسي . أهـ .

وقال صاحب الفتوحات الإلهية : بعد أن ذكر الرواية, واختار ما رجحه أبو السعود والخازن من عدم التعويل على هذه القصة لأن موارد ذلك رواية اليهود مع ما فيها من المخالفة لأدلة العقل والنقل .

ثم ذكر تأييد شيخ الإسلام زكريا الأنصاري للشهاب بن حجر في صحتها لأن لها طرقاً تفيد العلم بصحتها , فقد رواها مرفوعة الإمام أحمد وابن حبان والبيهقي وغيرهم وموقوفة : على وابن مسعود وابن عباس وغيرهم بأسانيد صحيحة . انتهى انتهى . اهـ ﴾

الفتوحات الإلهية حـ 1 صـ 141 ﴾ بتصرف يسير

وقال الشيخ شعيب الأرنؤوط محقق مسند الإمام أحمد عن هذا الحديث [6178] ما نصه : إسناده ضعيف ومتنه باطل . أهـ

قال صاحب الميزان

وقد روى قريب منه فى بعض كتب الشيعة مرفوعاً عن الباقر – عليه السلام – وروى السيوطي فيما يقرب من هذا المعنى في أمر هاروت وماروت والزهرة نيفاً وعشرين حديثاً , صرحوا بصحة طريق بعضها . وفي منتهى أسنادها عدة من الصحابة كابن عباس وابن مسعود وعلي وأبي الدرداء وعمر وعائشة وابن عمر () – وهذه قصة خرافية تنسب إلى الملائكة المكرمين الذين نص القرآن على نزاهة ساحتهم وطهارة وجودهم عن الشرك

والمعصية أغلظ الشرك وأقبح المعصية, وهو : عبادة الصنم والقتل والزنا وشرب الخمر وتنسب إلى كوكب الزهرة أنها امرأة زانية مسخت – وأنها أضحوكة – وهي كوكبة سماوية طاهرة في طليعتها وصنعها أقسم الله تعالى بها في قوله : [والجوار الكنس] (التكوير : 16) على أن علم الفلك أظهر اليوم هويتها وكشف عن عنصرها وكميتها وكيفيتها وسائر شئونها .

فهذه القصة كالتي قبلها المذكورة في الرواية السابقة تطابق ما عند اليهود على ما قيل : من قصة هاروت وماروت, تلك القصة الخرافية التي تشبه خرافات يونان في الكواكب والنجوم .

(57/61)

ومن هاهنا يظهر للباحث المتأمل : أن هذه الأحاديث كغيرها الواردة في مطاعن الأنبياء وعثراتهم لا تخلو من دس دسه اليهود فيها وتكشف عن تسربهم الدقيق ونفوذهم العميق بين أصحاب الحديث في الصدور الأول فقد لعبوا في رواياتهم بكل ما شاؤا من الدس والخلط وأعانهم على ذلك قوم أخرون .

لكن الله عز اسمه جعل كتابه في محفظة إلهية من هوسات المتهوسين من أعدائه كلما استرق

السمع شيطان من شياطينهم أتبعه بشهاب مبين, فقال عز من قائل : [إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون] (الحجر : 9) , وقال [وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد] (فصلت : 42) انتهى انتهى . اهـ ﴿ الميزان حـ 1 صـ 239 ﴾

وقال صاحب التحرير والتنوير [حـ 1 ص 369] ما نصه : ولأهل القصص هنا قصة خرافية من موضوعات اليهود في خرافاتهم الحديثة اعتاد بعض المفسرين ذكرها منهم ابن عطية والبيضاوي وأشار المحققون مثل البيضاوي والفخر وابن كثير والقرطبي وابن عرفة إلى كذبها وأنها من مرويات كعب الأحبار وقد وهم فيها بعض المتساهلين في الحديث فنسبوا روايتها عن النبي صلى الله عليه وسلم أو عن بعض الصحابة بأسانيد واهية والعجب للإمام أحمد بن حنبل - رحمه الله تعالى - كيف أخرجها مسندة للنبي صلى الله عليه وسلم ولعلها مدسوسة على الإمام أحمد أو أنه غره فيها ظاهر حال رواتها مع أن فيهم موسى بن جبير وهو متكلم فيه واعتذر عبد الحكيم بأن الرواية صحيحة إلا أن المروي راجع إلى أخبار اليهود فهو باطل في نفسه ورواته صادقون فيما رووا وهذا عذر قبيح لأن الرواية أسندت إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال ابن عرفة في تفسيره وقد كان الشيوخ يخطئون ابن عطية في هذا الموضع لأجل ذكره القصة ونقل بعضهم عن القرافي أن مالكا

رحمه الله أنكر ذلك في حق هاروت وماروت . انتهى كلامه .

سؤال : ما الموقف من هذه الروايات التي حكم على بعض أسانيدها بالصحة ؟

(58/61)

أجاب عن مضمون هذا السؤال الدكتور أبو شهبه – رحمه الله – بقوله :

وإذا كان بعض العلماء المحدثين مال إلى ثبوت مثل هذه الروايات التي لا نشك في كذبها , فهذا منه تشدد في التمسك بالقواعد من غير نظر إلى ما يلزم من الحكم بثبوت ذلك من المحظورات, وأنا لا أنكر أن بعض أسانيدها صحيحة أو حسنة إلى بعض الصحابة والتابعين, ولكن مرجعها ومخرجها من إسرائيليات بين إسرائيل وخرافاتهم, والراوي قد يغلط وبخاصة في رفع الموقوف, وقد حققت هذا في مقدمات البحث, وأن كونها صحيحة في نسبتها لا ينافي كونها باطلة في ذاتها ولو أن الانتصار لمثل هذه الأباطيل يترتب عليه فائدة ما , لغضضنا الطرف عن مثل ذلك, ولما بذلنا غاية الجهد في التنبيه إلى بطلانها , ولكنها فتحت على المسلمين باب شر كبير يجب أن يغلق .

ويرحم الله الإمام الحافظ الناقد البصير : ابن كثير فقد نبه على أصل الداء ووصف له

الدواء وبين الحق والصواب في موقف المسلم من هذه الخرافات . أ هـ

وسيأتى ما ذكره المفسرون مفصلا إن شاء الله تعالى .

فصل

قال الطبرى :

حدثنا القاسم قال ، حدثنا الحسين قال ، حدثنا فرج بن فضالة ، عن معاوية بن صالح ، عن نافع قال : سافرت مع ابن عمر ، فلما كان من آخر الليل قال : يا نافع انظر ، طلعت الحمراء ؟ قلت : لا – مرتين أو ثلاثا – ثم قلت : قد طلعت ! قال : لا مرحبا ولا أهلا ! قلت : سبحان الله ، نجم مسخر سامع مطيع ! قال : ما قلت لك إلا ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الملائكة قالت : يا رب ، كيف صبرك على بني آدم في الخطايا والذنوب ؟ قال : إني ابتليتهم وعافيتكم . قالوا : لو كنا مكانهم ما عصيناك ! قال : فاختاروا ملكين منكم ! قال : فلم يألوا أن يختاروا ، فاختاروا هاروت وماروت . (1)

---

(1) قال محقق تفسير الطبرى ما نصه :

الفرج بن فضالة التنوخي القضاعي : ضعيف قال البخاري : " منكر الحديث " ، وهو مترجم في التهذيب ، والكبير 4/1/134 ، والصغير : 192 ، 199 ، والضعفاء للبخاري : 29 ، والنسائي : 25 ، وابن أبي حاتم 3/2/85 - 86 .

وهذا الحديث هنا مختصر . وقد رواه الخطيب في ترجمة سنيد ، مطولا ، من طريق عبد الكريم بن الهيثم ، عن سنيد ، بهذا الإسناد .

وهذه الأخبار ، في قصة هاروت وماروت ، وقصة الزهرة ، وأنها كانت امرأة فمسخت كوكبا - أخبار أعلها أهل العلم بالحديث . وقد جاء هذا المعنى في حديث مرفوع ، ورواه أحمد في المسند : 6178 ، من طريق موسى بن جبير ، عن نافع ، عن ابن عمر . وقد فصلت القول في تعليله في شرح المسند ، ونقلت قول ابن كثير في التفسير 1 : 255" وأقرب ما يكون في هذا أنه من رواية عبد الله بن عمر عن كعب الأحبار ، لا عن النبي صلى الله عليه وسلم" . واستدل بروايتي الطبري السالفتين : 1684 ، 1685 عن سالم عن ابن عمر عن كعب الأحبار .

وقد أشار ابن كثير أيضاً في التاريخ 1 : 37 – 38 قال : " فهذا أظنه من وضع الإسرائيليين ، وإن كان قد أخرجه كعب الأحبار ، وتلقاه عنه طائفة من السلف ، فذكروه على سبيل الحكاية والتحدث عن بني إسرائيل " : . وقال أيضاً ، بعد الإشارة إلى أسانيد أخر : " وإذا أحسنا الظن قلنا : هذا من أخبار بني إسرائيل ، كما تقدم من رواية ابن عمر عن كعب الأحبار . ويكون من خرافاتهم التي لا يعول عليها " .

وقال في التفسير أيضاً 1 : 260 ، بعد ذكر كثير من الروايات التي في الطبري وغيره : " وقد روى في قصة هاروت وماروت ، عن جماعة من التابعين ، كمجاهد ، والسدي والحسن البصري ، وقتادة ، وأبي العالية ، والزهري ، والربيع بن أنس ، ومقاتل بن حيان ، وغيرهم ، وقصها خلق من المفسرين ، من المتقدمين والمتأخرين . وحاصلها راجع في تفصيلها إلى أخبار بني إسرائيل ، إذ ليس فيها حديث مرفوع صحيح متصل الإسناد إلى الصادق المصدوق المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى . وظاهر سياق القرآن إجمال القصة" من غير بسط ولا إطناب فيها . فنحن نؤمن بما ورد في القرآن ، على ما أراده الله تعالى . والله أعلم بحقيقة الحال" .

وهذا هو الحق ، وفيه القول الفصل . والحمد لله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الطبرى حـ 1 صـ 433 ﴾

فائدة

قال الفخر :

قال بعضهم : هذه الواقعة إنما وقعت في زمان إدريس عليه السلام لأنهما إذا كانا ملكين نزلا بصورة البشر لهذا الغرض فلا بد من رسول في وقتهما ليكون ذلك معجزة له ، ولا يجوز كونهما رسولين لأنه ثبت أنه تعالى لا يبعث الرسول إلى الإنس ملكاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 200 ﴾

فائدة

قال الفخر :

" هاروت وماروت" عطف بيان للملكين ، علمان لهما وهما اسمان أعجميان بدليل منع الصرف ، ولو كانا من الهرت والمرت وهو الكسر كما زعم بعضهم لانصرفا ، وقرأ الزهري : هاروت وماروت بالرفع على : هما هاروت وماروت . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 200 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حتى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أنه تعالى شرح حالهما فقال : وهذان الملكان لا يعلمان السحر إلا بعد التحذير الشديد من العمل به وهو قولهما : ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ ﴾ والمراد ههنا بالفتنة المحنة التي بها يتميز المطيع عن العاصي ، كقولهم : فتنت الذهب بالنار إذا عرض على النار ليتميز الخالص عن المشوب ، وقد بينا الوجوه في أنه كيف يحسن بعثة الملكين لتعليم السحر فالمراد أنهما لا يعلمان أحداً السحر ولا يصفانه لأحد ولا يكشفان له وجوه الاحتيال حتى يبذلا له النصيحة ، فيقولا له : " إنما نحن فتنة" أي هذا الذي نصفه لك وإن كان الغرض منه أن يتميز به الفرق بين السحر وبين المعجز ، ولكنه يمكنك أن تتوصل إلى المفاسد والمعاصي ، فإياك بعد وقوفك عليه أن تستعمله فيما نهيت عنه أو تتوصل به إلى شيء من الأغراض العاجلة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 200 ﴾

(62/61)

قوله تعالى : ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ المرء وَزَوْجِهِ ﴾

فائدة

قال الفخر :

ذكروا في تفسير هذا التفريق وجهين .

الأول : أن هذا التفريق إنما يكون بأن يعتقد أن ذلك السحر مؤثر في هذا التفريق فيصير كافراً ، وإذا صار كافراً بانت منه امرأته فيحصل تفرق بينهما ، الثاني : أنه يفرق بينهما بالتمويه والحيل والتضريب وسائر الوجوه المذكورة . انتهى انتهى . ا هـ ﴾ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 200 ﴾

فائدة

قال الفخر :

إنه تعالى لم يذكر ذلك لأن الذي يتعلمون منهما ليس إلا هذا القدر ، لكن ذكر هذه الصورة تنبيهاً على سائر الصور ، فإن استكانة المرء إلى زوجته وركونه إليها معروف زائد على كل مودة ، فنبه الله تعالى بذكر ذلك على أن السحر إذا أمكن به هذا الأمر على شدته فغيره به أولى . انتهى انتهى . ا هـ ﴾ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 200 . 201 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ ﴾

فصل

قال الفخر :

أما قوله تعالى : ﴿ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ ﴾ فإنه يدل على ما ذكرناه لأنه أطلق الضرر ، ولم يقصره على التفريق بين المرء وزوجه ، فدل ذلك على أنه تعالى إنما ذكره لأنه من أعلى مراتبه .

أما قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ ﴾ فاعلم أن الإذن حقيقة في الأمر والله لا يأمر بالسحر ولأنه تعالى أراد عيبهم وذمهم ، ولو كان قد أمرهم به لما جاز أن يذمهم عليه فلا بد من التأويل وفيه وجوه ، أحدها : قال الحسن : المراد منه التخلية ، يعني السحر إذا سحر إنساناً فإن شاء الله منعه منه وإن شاء خلى بينه وبين ضرر السحر ، وثانيها : قال الأصم : المراد إلا بعلم الله وإنما سمي الأذان أذاناً لأنه إعلام للناس بوقت الصلاة وسمي الأذان إذناً لأن بالحاسة القائمة به يدرك الأذن ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَأَذَانٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الناس يَوْمَ الحج ﴾ [التوبة : 3] أي إعلام ، وقوله : ﴿ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللهِ ﴾ [البقرة : 279] معناه : فاعلموا وقوله : ﴿ آذنتكم على سَوَاء ﴾ [الأنبياء : 109] يعني أعلمتكم ، وثالثها : أن الضرر الحاصل عند فعل السحر إنما يحصل بخلق الله وإيجاده وإبداعه وما كان كذلك فإنه يصح أن يضاف إلى إذن الله تعالى كما قال : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [النحل : 40] .

ورابعها : أن يكون المراد بالإذن الأمر وهذا الوجه لا يليق إلا بأن يفسر التفريق بين المرء وزوجه بأن يصير كافراً والكفر يقتضي التفريق ، فإن هذا حكم شرعي ، وذلك لا يكون

إلا بأمر الله تعالى. انتهى انتهى. اهـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 201﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾

فائدة

قال الفخر:

إنما ذكر لفظ الشراء على سبيل الاستعارة لوجوه:

أحدها: أنهم لما نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم وأقبلوا على التمسك بما تتلوا الشياطين فكأنهم قد اشتروا ذلك السحر بكتاب الله، وثانيها؛ أن الملكين إنما قصدا بتعليم السحر الاحتراز عنه ليصل بذلك الاحتراز إلى منافع الآخرة فلما استعمل السحر فكأنه اشترى بمنافع الآخرة منافع الدنيا.

وثالثها: أنه لما استعمل السحر علمنا أنه إنما تحمل المشقة ليتمكن من ذلك الاستعمال فكأنه اشترى بالمحن التي تحملها قدرته على ذلك الاستعمال. انتهى انتهى. اهـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 201﴾

فصل

قال الفخر :

قال الأكثرون : " الخلاق" النصيب ، قال القفال : يشبه أن يكون أصل الكلمة من الخلق ومعناه التقدير ومنه خلق الأديم ، ومنه يقال : قدر للرجل كذا درهماً رزقاً على عمل كذا .

وقال آخرون : الخلاق الخلاص ومنه قول أمية بن أبي الصلت :

يدعون بالويل فيها لا خلاق لهم . . إلا سرابيل قطران وأغلال . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 201 ﴾

فائدة

قال الفخر :

بقي في الآية سؤال : وهو أنه كيف أثبت لهم العلم أولاً في قوله : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُواْ ﴾ ثم نفاه عنهم في قوله : ﴿ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ والجواب من وجوه ، أحدها : أن الذين علموا غير الذين لم يعلموا ، فالذين علموا هم الذين علموا السحر ودعوا الناس إلى تعلمه وهم الذين قال الله في حقهم : ﴿ نَبَذَ فَرِيقٌ مّنَ الذين أُوتُواْ الكتاب كتاب الله وَرَاء ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ وأما الجهال الذين يرغبون في تعلم السحر فهم الذين لا يعلمون ، وهذا جواب الأخفش وقطرب .

وثانيها : لو سلمنا كون القوم واحداً ولكنهم علموا شيئاً وجهلوا شيئاً آخر ، علموا أنهم

ليس لهم في الآخرة خلاق ولكنهم جهلوا مقدار ما فاتهم من منافع الآخرة ، وما حصل لهم من مضارها وعقوباتها .

(65/61)

وثالثها : لو سلمنا أن القوم واحد والمعلوم واحد ولكنهم لم ينتفعوا بعلمهم بل أعرضوا عنه فصار ذلك العلم كالعدم كما سمى الله تعالى الكفار : ﴿ عُمياً وبُكماً وصُمّاً ﴾ [الإسراء : 97] إذ لم ينتفعوا بهذه الحواس .

ويقال للرجل في شيء يفعله لكنه لا يضعه موضعه : صنعت ولم تصنع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 201 . 202 ﴾

وقال القاسمي : وإنما نسبوا إلى الجهل لعدم العمل بموجب العلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 2 صـ 409 ﴾

فصل

قال الثعالبى :

* ت * : قال عياض : وأما ما ذكره أهل الأخبار ، ونقله المفسّرون في قصّة هَارُوت ومَارُوت . وما رُوِيَ عن عليٍّ ، وابنِ عَبَّاسٍ – رضي اللَّه عنهما – في خَبَرِهما ، وابتلائهما

، فاعلم – أكرمك اللَّه – أن هذه الأخبار لم يُرْو منها سقيمٌ ولا صحيحٌ عن رسولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم ، وليس هو شَيْئاً يؤخذ بقياسٍ ، والذي منه في القرآن ، اختلف المفسّرون في معناه ، وأنكرَ ما قال بعضهم فيه كثيرٌ من السلف ، وهذه الأخبار من كتب اليهود ، وافترائهم ؛ كما نصَّه اللَّه أول الآيات . انتهى . انظره . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الجواهر الحسان حـ 1 صـ 93 ﴾

ومن فوائد ابن عرفة فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ واتبعوا مَا تَتْلُواْ الشياطين . . . ﴾ .

أي عملوا بمقتضاه ، وليس هو من الاتباع الحقيقي ، لأن متلو الشياطين لا يتبع إنما يتبع التالي وهو الشيطان لا متلوه .

قوله تعالى : ﴿ على مُلْكِ سُلَيْمَانَ . . . ﴾ .

قيل ؛ أى على عهد سليمان ، ويحتمل أن يراد اتّباعهم ما سمعوا أنّ الشيطان كان يتلوه في عهد سليمان ، وأنهم يتبعون في عهد سليمان ما يتلوه الشيطان إذّاك ؟ قال ابن عرفة : وتعلّم السّحر واعتقاده حقا كفر .

وأما تعلمه من غير اعتقاد حقيقة ففي التكفير به قولان ، وظاهر المتكلّمين أنّ التكفير إنّما هو بأحد ثلاثة أمور : إما بقول كلمة الكفر ، أو بالسّجود لصنم ، أو بالفعل كلبس الزّنار

ونحوه.

وجعل الفخر (هنا) من السحر (الشعوذة).

(66/61)

وكان شيخنا ابن عبد السلام يستضعف ذلك وينكره ويقول: إنما ذلك من خفة اليد، وليس بحسر، بخلاف ما يحكى عن غالب العجائبي من أنه كان يزرع الفقوس (ويجنيه) في ساعة واحدة فإنه سحر.

قال ابن عطية: روي أنهما (ملكان) اختصمت إليهما إمرأة، وحكى القصة، وضعفه ابن عطية من جهة السند.

قال ابن عرفة: بل هو ضعيف من جهة الاستدلال، فإنه قد قام الدّليل على عصمة الملائكة.

ولا يقال: إنهما كانا معصومين، ثم انتفت العصمة عنهما حينئذ، فإنّ ذلك إنما هو فيمن يتّصف بالحفظ لا بالعصمة، فيصح أن يحفظ تارة دون تارة، أما العصمة فلا تزول عمن ثبتت له أبدا (وقد) كان الشيوخ/ يخطئون ابن عطية في هذا الموضوع لأجل (ذكره) هذه الحكاية.

ونقل بعضهم عن القرافي أن (مالكا) أنكر ذلك في حق هاروت وماروت .

قال ابن عرفة ؛ وكان تَعلم السحر في (زمن) هاروت وماروت (جائزا) ، وكانوا مأمورين بتعليم النّاس على جهة الابتلاء من الله تعالى لخلقه ، فالطائع لا يتعلمه ، والعاصي (يبادر) إليه ويتعلمه كما خلق الله السّم القاتل والحديد وغير ذلك مع أنه لا يجوز تناوله .

فقوله على هذا : (فلا) يكفر ، إما أن يراد به العمل أي تعلمه ولا تعمل به فتكفر ، أو يرادُ به نفس العلم أي نحن يجوز لنا تعليمه وغيرنا لا يجوز له أن يتعلمه منا فلا تتعلمه فنكفر ، فهم مباح لهم تعليمه للغير ، وذلك الغير لا يباح له أن يتعلمه منهم ، وكان التعليم حينئذ جائزا ثم نسخ فصار حراما .

وقال الزمخشري : أي فلا تتعلمه (معتقدا) أنه حق فتكفر .

ومنهم من قال : إن تعلمه جائز أو مطلوب ليفرق بينه وبين المعجزة والكرامة ، ولكن ذلك في تعلمه على الجملة لا تعلمه مفصلا ، وكلام الزمخشري هنا أنسب من كلام ابن عطية إلا في كلمة واحدة .

(وبقوله) تعالى : " فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا " استشهد ابن التلمساني في كتاب القياس على أن الفاء تكون للاستئناف .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشتراه . . . ﴾ .

ابن عطية : الضمير عائد على بني إسرائيل .

قال ابن عرفة : إمّا عموما أو على علمائهم .

وقيل : على الشيطان ، وقيل : على الملكين .

وضعفه ابن عرفة ، لأنه جمع فلا يصح الا على القول بأن أقل الجمع اثنان .

فإن قلت : هلا قيل فحفظه في الآخرة جهنم ، فهاذ أدل على (الخسران) في الآخرة ، لأن فاعل المباح يصدق عليه أنه ليس له في الآخرة نصيب إذ لا ثواب فيه ؟

قلنا : السياق يهدي إلى (أن) المراد له العذاب ، وأن هذا القسم (منتف عنهم) .

قوله تعالى : ﴿ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾

قال ابن عرفة : جواب " لو " مقدر ، أي لو كانوا يعلمون لما شَرَوْا ، ولا يصح أنْ يكون جوابها : " لَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ " لأنه مذموم سواء شروه أو لم يشتروه ، وسواء علموا أو لَم يَعلموا .

ابن عطية : من أَعَاد الضمير في " وَلَقَدْ عَلِمُواْ " على بني إسرائيل وينتقض ذلك عليه بقوله : " لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ " .

فظاهره (أنّهم) لم يعلموا (ويمكن) أن يجاب عنه بأنه مجاز لأنّهم عملوا عمل من لا يعلم ، فكأنهم لم يعملوا .

قال ابن عرفة : قال بعضهم : أو يجاب بأنّ قولك : كأن زيدا يعلم كذا ، أخص من قولك : علم زيد كذا لاقتضاء (الأول) تكرّر العلم له ودوامه حتى تطبع به ، فأثبت في أول الآية لهم مطلق العلم الصادق بأدنى شيء وقال في آخرها : " لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ " علما ثابتا حقيقيا لما باعوا أنفسهم بذلك .

وشروا بمعنى بَاعُوا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عرفة حـ 1 صـ 385.389 ﴾

(68/61)

ومن فوائد السمرقندى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ واتبعوا مَا تَتْلُو الشياطين ﴾ ، أي ما كتبت الشياطين ويقال : ما ألقت الشياطين ويقال : ما افتعلته الشياطين ﴿ على مُلْكِ سليمان ﴾ ، أي على عهد ملك سليمان .

ويقال : على بمعنى في ، أي في ملك سليمان .

ويقال : في وقت ذهاب ملك سليمان .

ويقال : هذا منسوق على الأول ، فكأنّه قال : نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم واتبعوا ما تتلو الشياطين ، أي تركوا سنة أنبياء الله واتبعوا السحر .

ويقال : تركوا شيئين واتبعوا شيئين : تركوا اتباع الكتب واتباع الرسل والعمل بذلك ، واتبعوا ما تتلو الشياطين أي ترويه الشياطين ﴿ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الملكين بِبَابِلَ هاروت وماروت ﴾ .

واختلفوا في سبب ذلك ، فقال بعضهم إن سليمان عليه السلام أمر بأن لا يتزوج المرأة من غير بني إسرائيل ، فتزوج امرأة من غير بني إسرائيل يقال لها : ضبنة بنت صابورا ، فعاقبه الله تعالى بأن أجلس مكانه شيطاناً ؛ وكان الناس يظنون أنه سليمان وأشكل عليهم أمره ، فجاؤوا إلى آصف بن برخيا ، وكان معلم سليمان بن داود في حال صغره وكان وزيره في حال كبره وملكه فقالوا له : إن قضاياه لا تشبه قضايا سليمان .

فقام آصف ودخل على نساء سليمان فسألهن عن ذلك فقلن : إن كان هذا سليمان فقد هلكتم والله ما يعتزل منا حائضاً ، وما يغتسل من جنابة .

هكذا ذكر في رواية الكلبي .

وقال بعضهم : هذا خطأ لأن نساء الأنبياء معافيات معصومات عن الفواحش ، فلا يجوز أن يظن بهن أن الشيطان يقربهن .

وقال بعضهم : كان هذا على وجه الخيال لا على وجه الحقيقة ، لأن الشيطان روحاني وليس له جسم ، فلا يجوز أن تقع بينه وبين آدمي شهوة ولكن كان يريهن ذلك على وجه الخيال .

فلما عرف الشيطان أن الناس علموا بحاله ، كتب سحراً كثيراً وجعله تحت كرسيه وألقى خاتم سليمان في البحر وهرب .

(69/61)

وكان سليمان عليه السلام خرج إلى ساحل البحر وأجَّر نفسه للملاحين كل يوم بسمكتين ، فلما أعطوه أجره ، باع إحداهما واشترى به الخبز وشق بطن الأخرى ، فوجد الخاتم في بطنها فرجع إلى ملكه ؛ فلما توفي سليمان جاء الشيطان على صورة آدمي وقال : إن أردتم أن تعلموا علم سليمان بن داود عليهما السلام فانظروا تحت كرسيه .

فنظروا وحفروا ذلك الموضع وأخرجوا كتباً كثيرة فوجدوا فيها السحر والكفر ، فقال العلماء منهم : لا يجوز أن يكون هذا من علم سليمان ، وقال السفهاء منهم : بل هذا من علم سليمان واتبعوه ، فنزلت هذه الآية على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى جميع الأنبياء عذراً لسليمان عليه السلام .

ثم قال تعالى : ﴿ واتبعوا مَا تَتْلُواْ الشياطين على مُلْكِ سليمان وَمَا كَفَرَ سليمان ﴾ ، أي ما كان ساحراً .

وفي الآية دليل أن الساحر كافر لأنه سمى السحر كفراً .

وروي عن عمر بن الخطاب أنه كتب إلى جزء بن معاوية وهو عم الأحنف بن قيس ، أن اقتلوا كل ساحر وساحرة .

ثم قال تعالى : ﴿ ولكن الشياطين كَفَرُواْ ﴾ ، أي هم الذين كتبوا السحر .

قرأ حمزة والكسائي ﴿ ولكن الشياطين ﴾ بكسر النون من غير تشديد ورفع الشياطينُ ، وقرأ الباقون بتشديد النون مع النصب وبفتح النون في ﴿ الشياطين ﴾ .

وهذا هو الأصل في اللغة ، أن كلمتي إن ولكن إذا كانا مشددين ينصب ما بعدهما ، وإن لم يكونا مشددين يرفع ما بعدهما .

وقال بعضهم لنزول هذه الآية سبب آخر ، وذلك أن الشياطين كانوا يسترقون السمع ويعلمون الناس السحر والنيرنجات ، فكان سليمان يأخذ ذلك منهم ويدفنه تحت الأرض ، فلما مات سليمان قالت الشياطين للناس : إن علم سليمان مدفون في موضع كذا وكذا ، فحفروا ذلك الموضع وأخرجوا منه كتباً كثيرة .

وقال بعضهم : معناه أن سليمان كان إذا أصبح كل يوم ، رأى نباتاً بين يديه فيقول له : لأي دواء أنت ؟ فيقول : إني دواء لكذا وكذا ، وإن اسمي كذا كذا .

فكان سليمان يكتب ذلك ويدفنه ، فنبت يوماً من الأيام نبات بين يديه فقال له سليمان : ما اسمك ؟ فقال : خرنوب .

فقال له : لأي دواء أنت ؟ فقال : إني لخراب المسجد .

فعلم سليمان أنه قد جاء أجله ، لأنه علم أن المسجد لا يخرب في حياته ، وكان له صحيفة فيها يكتب أسماء الأدوية ويضعها في الخزانة ، فكتبت الشياطين سحراً ووضعوه في ذلك الموضع ، فلما مات سليمان وجدوا ذلك في كتبه فاتبعه بعض الناس فذلك قوله : ﴿ وَمَا كَفَرَ سليمان ولكن الشياطين كَفَرُواْ يُعَلّمُونَ الناس السحر ﴾ .

ثم قال : ﴿ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الملكين ﴾ ، أي واتبعوا الذي أنزل على الملكين ﴿ بِبَابِلَ هاروت وماروت ﴾ .

وقال القاضي الخليل بن أحمد قال : حدثنا الماسرجي فقال : حدثنا إسحاق قال : حدثنا حكام بن سلم الرازي قال : حدثنا أبو جعفر الرازي ، عن الربيع بن أنس ، عن قيس بن عباد ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الملكين ﴾ .

قال : إن الناس بعد آدم وقعوا في الشرك ، واتخذوا هذه الأصنام ، وعبدوا غير الله تعالى ، فجعلت الملائكة يدعون عليهم ويقولون : ربنا خلقت عبادك فأحسنت خلقهم ، ورزقتهم فأحسنت رزقهم ، فعصوك وعبدوا غيرك .

فقال لهم الرب عز وجل : إنهم في عذر ، وقيل : في عيب فجعلوا لا يعذرونهم ولا يقبلون

ويدعون عليهم .

فقال لهم الرب : اختاروا منكم اثنين .

فأهبطهما إلى الأرض فآمرهما وأنهاهما ، فاختاروا هاروت وماروت ؛ فأهبطهما الله تعالى إلى الأرض فأمرهما ونهاهما عن الزنى وقتل النفس وشرب الخمر ، فمكثا زماناً في الأرض يحكمان بالحق .

وكان في ذلك الزمان امرأة فضِّلت بالحسن على سائر النساء ، فأتيا عليها فخضعا لها بالقول وراوداها عن نفسها فقالت : لا حتى تصليا لهذا الصنم ، أو تقتلا هذه النفس ، أو تشربا هذه الخمر .

فقالا : أهون الثلاثة شرب الخمر .

(71/61)

فلما شربا الخمر سجدا للصنم وفعلا بالمرأة وقتلا النفس ، فكشف الغطاء فيما بينهما وبين الملائكة ، فنظروا إليهما وما يفعلان ، فجعلت الملائكة يعذرون بني آدم أهل الأرض ويستغفرون لمن فيها فقيل لهاروت وماروت : اختارا إما عذاب الدنيا وإما عذاب الآخرة .

فقالا : عذاب الدنيا يذهب وينقطع وعذاب الآخرة لا انقطاع له ثم اختاروا عذاب الدنيا .

فهما يعذبان إلى يوم القيامة .

وروي في الخبر أن المرأة تعلمت منهما اسم الله الأعظم ، فصعدت به إلى السماء فمسخها الله تعالى كوكباً .

ويقال : هو الكوكب الذي يقال له الزهرة .

وروي عن ابن عمر أنه كان إذا نظر إلى الزهرة لعنها ويقول : هي التي فتنت هاروت وماروت .

وروي عن علي رضي الله عنه هذا .

وقال بعضهم : هذا لا يصح ، لأن هذا الكوكب قد كان خلقه في الأصل حين خلق النجوم ، وجعل مقادير الأشياء على سبع من الكواكب ، وجعل لكل كوكب سلطاناً ، وجعل سلطان الزهرة الرطوبة .

وقال بعضهم : إن كوكب الزهرة قد كان ، ولكن الله تعالى مسخ هذه المرأة على شبه الكوكب فهي تعذب هناك .

وقال بعضهم : قد صارت إلى النار ، كما أن سائر الأشياء التي مسخت لم يبق منها أثر فذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الملكين ﴾ ، يعني اليهود اتبعوا ما أنزل على الملكين

بابل هاروت وماروت .

﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حتى ﴾ ، قال بعضهم : هذا الحرف أعني ﴿ مَا ﴾ للنفي ، فكأنه يقول : ولم ينزل على الملكين السحر .

وقال بعضهم : إن إبليس لعنه الله قد جاء بالسحر ووضعه عند أقدامهما ، وهما معلقان بالسلة فتذهب اليهود تتعلم السحر من تلك الكتب والملكين .

﴿ يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ ﴾ ، أي فلا تتعلم السحر ، لأنه لا يجوز للملكين أن يعلّما الكفر .

(72/61)

وقال بعضهم : ويبينان أن عمل السحر كفر ، وينهيان عن التعلم ويبيّنان كيفية السحر وهو بمنزلة رجل قال لآخر : علّمني ما الزنى أو علمني ما السرقة فيقول : إن الزنى كذا وكذا ، وهو حرام فلا تفعل وإن السرقة كذا وكذا هي حرام فلا تفعل .

كذلك ها هنا الملكان يقولان : السحر كذا وكذا ، وهو كفر فلا تكفر .

وقرأ بعضم ﴿ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الملكين ﴾ بكسر اللام وهي قراءة شاذة ، يعني كانا ملكين في بني إسرائيل فمسخهما الله تعالى .

وقوله : ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ ﴾ أي اختبار وابتلاء .

وأصل الفتنة الاختبار .

قوله : ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا ﴾ أي من الملكين : ﴿ مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ المرء وَزَوْجِهِ ﴾ ، أي فيتعلمون منهما من السحر ما يفرقون به بين الرجل وزوجته ، يؤخذ الرجل عن المرأة حتى لا يقدر على الجماع .

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ الله ﴾ ، أي بإرادة الله تعالى : ﴿ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ﴾ ، أي ما يضر في الدنيا ولا ينفعهم في الآخرة ، يعني السحر .

﴿ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشتراه مَا لَهُ فِى الاخرة مِنْ خلاق ﴾ ، يعني اليهود علموا في التوراة أن من اختار السحر ما له في الآخرة من خلاق يعني نصيب .

والخلاق في اللغة : هو النصيب الوافر .

﴿ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ ، أي باعوا به ، يعني بئسما باعوا به أنفهسم .

ويقال : بئس ما اختاروا لأنفسهم السحر على كتاب الله تعالى وسنن أنبيائه لو كانوا يعلمون ، ولكنهم لا يعلمون .

فإن قيل : ذكر في الآية الأولى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشتراه ﴾ وفي هذه الآية يقول : ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ فمرة يقول : يعلمون ، ومرة يقول : لا يعلمون .

(73/61)

فالجواب أن يقال : إنهم يعلمون ولكن لا منفعة لهم في علمهم ، وكل عالم لا يعمل بعلمه فليس بعالم ، لأنه يتعلم العلم لكي ينتفع به ، فإذا لم ينتفع به فكأنه لم يتعلم ، فكذلك ها هنا ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ ، لو كانوا يعرفون للعلم حقه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ 107.103 ﴾

ومن فوائد ابن الجوزى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله تعالى : ﴿ واتبعوا ما تتلوا الشياطين ﴾

في سبب نزولها قولان .

أحدهما : أن اليهود كانوا لا يسألون النبي عن شيء من التوراة إلا أجابهم ، فسألوه عن السحر وخاصموه به ، فنزلت هذه الآية ، قاله أبو العالية .

والثاني : أنه لما ذكر سليمان في القرآن قالت يهود المدينة : ألا تعجبون لمحمد يزعم أن ابن

داود كان نبياً ؟ ! والله ما كان إلا ساحراً ، فنزلت هذه الآية .

قاله ابن اسحاق .

وتتلوا ، بمعنى : تلت ، و "على" بمعنى : "في" قاله المبرد .

قال الزجاج : وقوله : ﴿ على ملك سليمان ﴾ أي : على عهد ملك سليمان .

وفي كيفية ما تلت الشياطين على ملك سليمان ستة أقوال .

أحدها : أنه لما خرج سليمان عن ملكه ؛ كتبت الشياطين السحر ، ودفنته في مصلاه ، فلما توفي استخرجوه ، وقالوا : بهذا كان يملك الملك ، ذكر هذا المعنى أبو صالح عن ابن عباس ، وهو قول مقاتل .

والثاني : أن آصف كان يكتب ما يأمر به سليمان ، ويدفنه تحت كرسيه ، فلما مات سليمان ، استخرجته الشياطين ، فكتبوا بين كل سطرين سحراً وكذباً ، وأضافوه إلى سليمان ، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس .

والثالث : أن الشياطين كتبت السحر بعد موت سليمان ، ثم أضافته إليه ، قاله عكرمة .

والرابع : أن الشياطين ابتدعت السحر ، فأخذه سليمان ، فدفنه تحت كرسيه لئلا يتعلمه الناس ، فلما قبض استخرجته ، فعلمته الناس وقالوا : هذا علم سليمان ، قاله قتادة .

والخامس : أن سليمان أخذ عهود الدواب ، فكانت الدابة إذا أصابت إنساناً طلب إليها بذلك العهد ، فتخلّي عنه ، فزاد السحرة السجع والسحر ، قاله أبو مجلز .

والسادس : أن الشياطين كانت في عهد سليمان تسترق السمع ، فتسمع من كلام الملائكة ما يكون في الأرض من موت أو غيث أو أمر ، فيأتون الكهنة فيخبرونهم ، فتحدث الكهنة الناس ، فيجدونه كما قالوا ، حتى إذا أمنتهم الكهنة كذبوا لهم [وأدخلوا فيه غيره] ، فزادوا مع كل كلمة سبعين كلمة ، فاكتتب الناس ذلك الحديث في الكتب ، وفشا في بني إسرائيل أن الجن تعلم الغيب ، فبعث سليمان في الناس ، فجمع تلك الكتب في صندوق ، ثم دفنها تحت كرسيه ، ولم يكن أحد من الشياطين يستطيع أن يدنو من الكرسي إلا احترق [وقال : لا أسمع أحداً يذكر أن الشياطين يعلمون الغيب إلا ضربت عنقه] ، فلما مات سليمان ؛ جاء شيطان إلى نفر من بني إسرائيل ، فدلهم على تلك الكتب وقال : إنما كان سليمان يضبط أمر الخلق بهذا ، ففشا في الناس أن سليمان كان ساحراً ، واتخذ بنوا إسرائيل تلك الكتب ، فلما جاء محمد ، صلى الله عليه وسلم ، خاصموه بها ، هذا قول السدي .

وسليمان : اسم عبراني ، وقد تكلمت به العرب في الجاهلية ، وقد جعله النابغة سليماً ضرورة ، فقال : ونسج سليم كل قضّاء ذائل .

واضطر الحطيئة فجعله : سلاَّماً فقال :

فيه الرماح وفيه كل سابغة . . .

جدلاءَ محكمة من نسج سلاَّم

وأرادا جميعاً : داود أبا سليمان ، فلم يستقم لهما الشعر ، فجعلاه : سليمان وغيّراه .

كذلك قرأته على شيخنا أبي منصور اللغوي .

وفي قوله : ﴿ وما كفر سليمان ﴾ دليل على كفر الساحر ، لأنهم نسبوا إلى السحر ، لا إلى الكفر .

قوله تعالى : ﴿ ولكنّ الشياطين كفروا ﴾

وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وعاصم بتشديد نون ﴿ ولكنّ ﴾ ونصب نون ﴿ الشياطين ﴾ .

وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي بتخفيف النون من ﴿ لكنْ ﴾ ورفع نون ﴿ الشياطين ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وما أُنزل على الملكين ﴾ وقرأ ابن عباس ، والحسن ، وسعيد بن جبير والزهري ﴿ المِلكين ﴾ بكسر اللام ، وقراءة الجمهور أصح .

وفي " ما " قولان .

أحدهما : أنها معطوفة على " ما " الأولى ، فتقديره : واتبعوا ما تتلوا الشياطين وما أُنزل على الملكين .

والثاني : أنها معطوفة على السحر ، فتقديره : يعلّمون الناس السحر ، ويعلمونهم ما أُنزل على الملكين .

فإن قيل : إذا كان السحر نزل على الملكين ، فلما ذاكره ؟ فالجواب من وجهين ، ذكرهما ، ابن السري ، أحدهما : أنهما كانا يعلمان الناس : ما السحر ، ويأمران باجتنابه ، وفي ذلك حكمة ؛ لأن سائلاً لو قال : ما الزنى ؟ لوجب أن يوقف عليه ، ويعلم أنه حرام .

والثاني : أنه من الجائز أن يكون الله تعالى امتحن الناس بالملكين ، فمن قبل التعلم كان كافراً ، ومن لم يقبله فهو مؤمن ، كما امتحن بنهر طالوت .

وفي الذي أنزل على الملكين قولان .

أحدهما : أنه السحر ، روي عن ابن مسعود والحسن ، وابن زيد .

والثاني : أنه التفرقة بين المرء وزوجه ، لا السحر ، روي عن مجاهد وقتادة ، وعن ابن عباس كالقولين .

قال الزجاج: وهذا من باب السحر أيضاً .

الإشارة إلى قصة الملكين

ذكر العلماء أن الملكين إنما أنزلا إلى الأرض لسبب ، وهو أنه لما كثرت خطايا بني آدم ؛ دعت عليهم الملائكة ، فقال الله تعالى : لو أنزلت الشهوة والشياطين منكم منزلتهما من بني آدم ، لفعلتم مثل ما فعلوا ، فحدثوا أنفسهم أنهم إن ابتلوا ، اعتصموا ، فأوحى الله إليهم [أن] اختاروا من أفضلكم ملكين ، فاختاروا هاروت وماروت .

وهذا مروي عن ابن مسعود ، وابن عباس .

واختلف العلماء : ماذا فعلا من المعصية على ثلاثة أقوال .

أحدها : أنهما زنيا ، وقتلا ، وشربا الخمرة ، قاله ابن عباس .

والثاني : أنهما جارا في الحكم ، قاله عبيد الله بن عتبة .

والثالث : أنهما هما بالمعصية فقط .

(76/61)

ونقل عن علي ، رضي الله عنه ، أن الزهرة كانت امرأة جميلة ، وأنها خاصمت إلى الملكين هاروت وماروت ، فراودها كل واحد منهما على نفسها ، ولم يُعلم صاحبه ، وكانا

يصعدان السماء آخر النهار ، فقالت لهما : بم تهبطان وتصعدان ؟ قالا : باسم الله الأعظم ، فقالت : ما أنا بمواتيتكما إلى ما تريدان حتى تعلمانيه ، فعلماها إياه ، فطارت إلى السماء ، فمسخها الله كوكباً .

وفي الحديث أن النبي ، صلى الله عليه وسلم

" لعن الزهرة ، وقال : إنها فتنت ملَكين " إلا أن هذه الأشياء بعيدة عن الصحة (1) وتأول بعضهم ، هذا فقال : إنه لما رأى الكوكب ، ذكر تلك المرأة ، لا أن المرأة مسخت نجماً .

واختلف العلماء في كيفية عذابهما ؛ فروي عن ابن مسعود أنهما معلقان بشعورهما إلى يوم القيامة ، وقال مجاهد : إن جباً ملىء ناراً فجعلا فيه .

فأما بابل ؛ فروي عن الخليل أن ألسن الناس تبلبلت بها .

واختلفوا في حدها على ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها : الكوفة وسوادها ، قاله ابن مسعود .

والثاني : أنها من نصيبين إلى رأس العين ، قاله قتادة .

والثالث : أنها جبل في وهدة من الأرض ، قاله السدي .

قوله تعالى : ﴿ إنما نحن فتنة ﴾ أي : اختبار وابتلاء .

قوله تعالى : ﴿ إلا بإذن الله ﴾ يريد : بقضائه .

﴿ ولقد علموا ﴾ : إشارة إلى اليهود ﴿ لَمن اشتراه ﴾ ، يعني : اختاره ، يريد :

السحر .

واللام لام اليمين .

فأما الخلاق ؛ فقال الزجاج : هو النصيب الوافر من الخير .

قوله تعالى : ﴿ ولبئس ما شروا به أنفسهم ﴾ أي : باعوها به ﴿ لو كانوا يعلمون ﴾

العقاب فيه .

فصل

اختلف الفقهاء في حكم الساحر ؛ فمذهب إمامنا أحمد رضي الله عنه يكفر بسحره ،

قتل به ، أو لم يقتل ، وهل تقبل توبته ؟ على روايتين .

وقال الشافعي : لا يكفر بسحره ، فإن قتل بسحره وقال : سحري يقتل مثله ، وتعمدت

ذلك قتل قوداً .

---

(1) نعم هى كذلك بل هى فى أقصى درجات البعد والبطلان .

وإن قال : قد يقتل ، وقد يخطيء ، لم يقتل ، وفيه الدية .

فأما ساحر أهل الكتاب ، فانه لا يقتل عند أحمد إلا أن يضر بالمسلمين ، فيقتل لنقض العهد

، وسواء في ذلك الرجل والمرأة .

وقال أبو حنيفة : حكم ساحر أهل الكتاب حكم ساحر المسلمين في إيجاب القتل ، فأما المرأة الساحرة ، فقال : تحبس ، ولا تقتل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 1 صـ 126.120 ﴾

ومن فوائد البغوى فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ وَاتَّبَعُوا ﴾ يعني اليهود ﴿ مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ ﴾ أي : ما تلت ، والعرب تضع المستقبل موضع الماضي ، والماضي موضع المستقبل ، وقيل : ما كنت تتلو أي تقرأ ، قال ابن عباس رضي الله عنه : تتبع وتعمل به ، وقال عطاء تحدث وتكلم به ﴿ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ ﴾ أي : في ملكه وعهده .

وقصة الآية (1) أن الشياطين كتبوا السحر

---

(1) قال محقق تفسير البغوى وقد أجاد :

ساق ابن كثير رحمه الله جملة من الروايات في تفسير الآية ثم قال : " وقد روي في قصة هاروت وماروت عن جماعة من التابعين : كمجاهد والسدي والحسن البصري وقتادة ، وأبي العالية والزهري ، والربيع بن أنس ومقاتل بن حيان وغيرهم

، وقصها خلق من المفسرين ، من المتقدمين والمتأخرين ، وحاصلها راجع في تفصيلها إلى أخبار بني إسرائيل ، إذ ليس فيها حديث مرفوع صحيح متصل الإسناد إلى الصادق المصدوق المعصوم ، الذي لا ينطق عن الهوى ، وظاهر سياق القرآن إجمال القصة من غير بسط ولا إطناب ، فنحن نؤمن بما ورد في القرآن ، على ما أراده الله تعالى ، والله أعلم بحقيقة الحال" . تفسير ابن كثير : 1 / 249 - 250 .

وقال القاضي عياض رحمه الله عن هاروت وماروت . . "وما ذكر فيها أهل الأخبار ونقلة المفسرين ، وما روى عن علي وابن عباس في خبرهما وابتلائهما - بمحبة المرأة وعقابهما على ما فعلا ، وما وقع من السحر : فاعلم - أكرمك الله - أن هذه الأخبار لم يرو منها شيء لا سقيم ولا صحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس هو شيئاً يؤخذ بقياس . والذي منه في القرآن : اختلف المفسرون في معناه ، وأنكر ما قال بعضهم فيه كثير من السلف ، وهذه الأخبار من كتب اليهود وافترائهم ، كما نصه الله أول الآيات منها وافترائهم بذلك على سليمان وتكفيرهم إياه . وقد انطوت القصة على شنع عظيمة ، وها نحن نخبر في ذلك ما يكشف غطاء هذه الإشكالات ، إن شاء الله" ثم ذكر ما يزيف

القصة ويبطلها من عدة وجوه انظر : الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض : 2 / 853 - 859 . وبعد أن ذكر ابن عطية في تفسيره الروايات عن القصة قال : " وهذا كله ضعيف وبعيدا على ابن عمر رضي الله عنهما " انظر : المحرر الوجيز لابن عطية : 1 / 420 . وانظر أيضا ما ذكره الشيخ جمال الدين القاسمي رحمه الله في تفسيره : وابن العربي في أحكام القرآن : 1 / 27 - 30 ، والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن 2 / 52 . ومع ورود بعض

الروايات في المسند للإمام أحمد أو غيره ، فإنها روايات ضعيفة ، لا تعارض الأخبار الصحيحة والقواعد المقررة عن عصمة الملائكة عليهم السلام وإن سكت عنها الإمام الطبري والثعلبي والبغوي . وانظر : لباب التفسير لمحمود بن حمزة الكرماني 1 / 369 . تحقيق د . ناصر بن سليمان العمر .

والنيرنجيات (1) على لسان آصف بن برخيا هذا ما علم آصف بن برخيا سليمان الملك ، ثم دفنوها تحت مصلاه حتى نزع الله الملك عنه ولم يشعر بذلك سليمان فلما مات استخرجوها وقالوا للناس : إنما ملكهم سليمان بها فتعلموه فأما علماء بني إسرائيل

وصلحاؤهم فقالوا : معاذ الله أن يكون هذا من علم الله وأما السفلة ، فقالوا : هذا علم سليمان ، وأقبلوا على تعلمه ، ورفضوا كتب أنبيائهم ، وفشت الملامة على سليمان فلم يزل هذا حالهم وفعلهم حتى بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم وأنزل عليه براءة سليمان ، هذا قول الكلبي .

---

(1) وهو أخذ كالسحر ، وليس به ، وإنما هو تشبيه وتلبيس . القاموس .

وقال السدي : كانت الشياطين تصعد إلى السماء ، فيسمعون كلام الملائكة فيما يكون في الأرض من موت وغيره ، فيأتون الكهنة ويخلطون بما يسمعون في كل كلمة سبعين كذبة ويخبرونهم بها [فكتب ذلك] وفشا في بني إسرائيل أن الجن يعلمون الغيب ، فبعث سليمان في الناس وجمع تلك الكتب وجعلها في صندوق ودفنه تحت كرسيه وقال : لا أسمع أحدا يقول إن الشيطان يعلم الغيب إلا ضربت عنقه ، فلما مات سليمان وذهب العلماء الذين كانوا يعرفون أمر سليمان ودفنه الكتب ، وخلف من بعدهم خلف ، تمثل الشيطان على صورة إنسان فأتى نفرا من بني إسرائيل فقال : هل أدلكم على كنز لا تأكلونه أبدا قالوا : نعم فذهب معهم فأراهم المكان الذي تحت كرسيه ، فحفروا فأقام ناحية فقالوا له : ادن وقال

: لا أحضر ، فإن لم تجدوه فاقتلوني ، وذلك أنه لم يكن أحد من الشياطين يدنو من الكرسي إلا احترق ، فحفروا وأخرجوا تلك الكتب ، فقال الشيطان لعنه الله : إن سليمان كان يضبط الجن والإنس والشياطين والطير بهذا ، ثم طار الشيطان عنهم ، وفشا في الناس أن سليمان كان ساحرا ، وأخذوا تلك الكتب(واستعملوها) فلذلك أكثر ما يوجد السحر في اليهود ، فلما جاء محمد صلى الله عليه وسلم برأ الله تعالى سليمان من ذلك ، وأنزل في عذر سليمان : ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ ﴾ بالسحر ، وقيل : لم يكن سليمان كافرا بالسحر ويعمل به ﴿ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا ﴾ قرأ ابن عباس رضي الله عنه والكسائي وحمزة ، " لكن" خفيفة النون " والشياطين" رفع ، وقرأ الآخرون ولكن مشددة النون " والشياطين" نصب وكذلك " ولكن الله قتلهم" (17 – الأنفال) ومعنى لكن : نفي الخبر الماضي وإثبات المستقبل .

(81/61)

﴿ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ ﴾ قيل : معنى السحر العلم والحذق بالشيء قال الله تعالى " وقالوا يا أيها الساحر ادع لنا ربك" (49 – الزخرف) أي العالم ، والصحيح : أن السحر عبارة عن التمويه والتخييل ، والسحر وجوده حقيقة عند أهل السنة ، وعليه أكثر الأمم ، ولكن

العمل به كفر ، حكي عن الشافعي رضي الله عنه أنه قال : السحر يخيل ويمرض وقد يقتل ، حتى أوجب القصاص على من قتل به فهو من عمل الشيطان ، يتلقاه الساحر منه بتعليمه إياه ، فإذا تلقاه منه استعمله في غيره ، وقيل : إنه يؤثر في قلب الأعيان فيجعل الآدمي على صورة الحمار ويجعل الحمار على صورة الكلب ، والأصح أن ذلك تخييل قال الله تعالى : " يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى " (66 – طه) لكنه يؤثر في الأبدان بالأمراض والموت والجنون ، وللكلام تأثير في الطباع والنفوس وقد يسمع الإنسان ما يكره فيحمى ويغضب وربما يحم منه ،

وقد مات قوم بكلام سمعوه فهو بمنزلة العوارض والعلل التي تؤثر في الأبدان .

قوله عز وجل ﴿ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ ﴾ أي ويعلمون الذي أنزل على الملكين [أي إلهاما وعلما ، فالإنزال بمعنى الإلهام والتعليم ، وقيل : واتبعوا ما أنزل على الملكين]

وقرأ ابن عباس والحسن الملكين بكسر اللام ، وقال ابن عباس : هما رجلان ساحران كانا ببابل ، وقال الحسن : علجان (1) لأن الملائكة لا يعلمون السحر .

وبابل هي بابل العراق سميت بابل لتبلبل الألسنة بها عند سقوط صرح نمرود أي تفرقها ، قال ابن مسعود : بابل أرض الكوفة ، وقيل جبل دماوند ، والقراءة المعروفة على الملكين بالفتح . فإن قيل كيف يجوز تعليم السحر من الملائكة ؟ قيل : له تأويلان : أحدهما ، أنهما لا يتعمدان التعليم لكن يصفان السحر ويذكران بطلانه ويأمران باجتنابه ، والتعليم بمعنى

الإعلام ، فالشقي يترك نصيحتهما ويتعلم السحر من صنعتهما .

---

(3) العلج : الرجل الضخم من كفار العجم .

والتأويل الثاني : وهو الأصح : أن الله تعالى امتحن الناس بالملكين في ذلك الوقت فمن شقى يتعلم السحر منهما [ويأخذه عنهما ويعمل به] فيكفر به ، ومن سعد يتركه فيبقى على الإيمان ، ويزداد المعلمان بالتعليم عذابا ، ففيه ابتلاء للمعلم [والمتعلم] ولله أن يمتحن عباده بما شاء ، فله الأمر والحكم .

قوله عز وجل ﴿ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ﴾ اسمان سريانيان وهما في محل الخفض على تفسير الملكين إلا أنهما نصبا لعجمتهما ومعرفتهما ، وكانت قصتهما على ما ذكر ابن عباس والمفسرون (1) أن الملائكة رأوا ما يصعد إلى السماء من أعمال بني آدم الخبيثة في زمن إدريس عليه السلام فعيروهم وقالوا : هؤلاء الذين جعلتهم في الأرض خليفة واخترتهم فهم يعصونك فقال الله تعالى : لو أنزلتكم إلى الأرض وركبت فيكم ما ركبت فيهم لركبتم مثل ما ركبوا فقالوا : سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نعصيك قال لهم الله تعالى : فاختاروا ملكين من خياركم أهبطهما إلى الأرض ، فاختاروا هاروت وماروت وكانا من أصلح الملائكة

وأعبدهم ، وقال الكلبي : قال الله تعالى لهم : اختاروا ثلاثة فاختاروا عزا وهو هاروت وعزايا وهو ماروت – غير اسمهما لما قارفا الذنب – وعزائيل ، فركب الله فيهم الشهوة وأهبطهم إلى الأرض وأمرهم أن يحكموا بين الناس بالحق

---

(1) راجع ما قاله المحققون من المفسرين في رد هذه الروايات الإسرائيلية .

(83/61)

ونهاهم عن الشرك والقتل بغير الحق والزنا وشرب الخمر ، فأما عزائيل فإنه لما وقعت الشهوة في قلبه استقبل ربه وسأله أن يرفعه إلى السماء ، فأقاله فسجد أربعين سنة لم يرفع رأسه ، ولم يزل بعد مطأطئا رأسه حياء من الله تعالى .

(84/61)

وأما الآخران : فإنهما ثبتا على ذلك وكانا يقضيان بين الناس يومهما ، فإذا أمسيا ذكرا اسم الله الأعظم وصعدا إلى السماء ، قال قتادة : فما مر عليهما شهر حتى افتتنا . قالوا جميعا إنه اختصمت إليهما ذات يوم الزهرة وكانت من أجمل النساء ، قال علي بن أبي

طالب رضي الله عنه : وكانت من أهل فارس وكانت ملكة في بلدها فلما رأياها أخذت بقلوبهما فراوداها عن نفسها فأبت وانصرفت ثم عادت في اليوم الثاني ففعلا مثل ذلك فأبت وقالت : لا إلا أن تعبدا ما أعبد وتصليا لهذا الصنم وتقتلا النفس وتشربا الخمر فقالا لا سبيل إلى هذه الأشياء فإن الله تعالى قد نهانا عنها ، فانصرفت ثم عادت في اليوم الثالث ومعها قدح من خمر ، وفي أنفسهما من الميل إليها ما فيها فراوداها عن نفسها فعرضت عليهما ما قالت بالأمس فقالا الصلاة لغير الله عظيم ، وقتل النفس عظيم ، وأهون الثلاثة شرب الخمر ، فشربا الخمر فانتشيا ووقعا بالمرأة ، فزنيا فلما فرغا رآهما إنسان فقتلاه ، قال الربيع بن أنس وسجدا للصنم فمسخ الله الزهرة كوكبا – وقال بعضهم : جاءتهما امرأة من أحسن الناس تخاصم زوجها فقال أحدهما للآخر : هل سقط في نفسك مثل الذي سقط في نفسي (من حب هذه) ؟ قال : نعم فقال : وهل لك أن تقضي لها على زوجها بما تقول ؟ فقال له صاحبه : أما تعلم ما عند الله من العقوبة والعذاب ؟ فقال له صاحبه : أما تعلم ما عند الله من العفو والرحمة فسألاها نفسها ، فقالت : لا إلا أن تقتلاه فقال أحدهما : أما تعلم ما عند الله من العقوبة والعذاب ؟ فقال صاحبه : أما تعلم ما عند الله من العفو والرحمة فقتلاه ثم سألاها نفسها ، فقالت : لا إن لي صنما أعبده ، إن أنتما صليتما معي له : فعلت ، فقال : أحدهما لصاحبه مثل القول الأول فقال صاحبه مثله ، فصليا معها له فمسخت شهابا .

قال ابن أبي طالب رضي الله عنه والكلبي والسدي : إنها قالت لهما حين سألاها نفسها : لن تدركاني حتى تخبراني بالذي تصعدان به إلى السماء فقالا باسم الله الأكبر ، قالت : فما أنتم تدركاني حتى تعلمانيه ، فقال أحدهما لصاحبه : علمها فقال : إني أخاف الله رب العالمن ، قال الآخر : فأين رحمة الله تعالى ؟ فعلماها ذلك فتكلمت ، فصعدت إلى السماء فمسخها الله كوكبا ، فذهب بعضهم إلى أنها الزهرة بعينها وأنكر الآخرون هذا وقالوا : إن الزهرة من الكواكب السبعة السيارة التي أقسم الله بها فقال " فلا أقسم بالخنس الجواري الكنس" (15 – التكوير) والتي فتنت هاروت وماروت امرأة كانت تسمى الزهرة لجمالها فلما بغت مسخها الله تعالى شهابا ، قالوا : فلما أمسى هاروت وماروت بعدما قارفا الذنب هما بالصعود إلى السماء فلم تطاوعهما أجنحتهما ، فعلما ما حل بهما (من الغضب) فقصدا إدريس النبي عليه السلام ، فأخبراه بأمرهما وسألاه أن يشفع لهما إلى الله عز وجل وقالا له : إنا رأيناك يصعد لك من العبادات مثل ما يصعد لجميع أهل الأرض فاستشفع لنا ، إلى ربك ففعل ذلك إدريس عليه السلام فخيرهما الله بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ، فاختارا عذاب الدنيا إذ علما أنه ينقطع فهما ببابل يعذبان .

واختلفوا في كيفية عذابهما فقال عبد الله بن مسعود : هما معلقان بشعورهما إلى قيام الساعة ، وقال عطاء بن أبي رباح : رءوسهما مصوبة تحت أجنحتهما ، وقال قتادة(كبلا) من أقدامهما إلى أصول أفخاذهما ، وقال مجاهد : جعلا في جب ملئت نارا ، وقال عمر بن سعد : منكوسان يضربان بسياط من الحديد .

(86/61)

وروي أن رجلا قصد هاروت وماروت لتعلم السحر فوجدهما معلقين بأرجلهما ، مزرقة أعينهما ، مسودة جلودهما ، ليس بين ألسنتهما وبين الماء إلا أربع أصابع وهما يعذبان بالعطش ، فلما رأى ذلك هاله مكانهما فقال : لا إله إلا الله ، فلما سمعا كلامه قالا له : من أنت ؟ قال : رجل من الناس ، قالا من أي أمة أنت ؟ قال : من أمة محمد صلى الله عليه وسلم قالا أو قد بعث محمد صلى الله عليه وسلم ؟ قال : نعم قالا الحمد لله ، وأظهر الاستبشار فقال الرجل : ومم استبشاركما ؟ قالا إنه نبي الساعة وقد دنا انقضاء عذابنا .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ ﴾ أي أحدا ، و" من" صلة ﴿ حَتَّى ﴾ ينصحاه أولا و ﴿ يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ ﴾ ابتلاء ومحنة ﴿ فَلا تَكْفُرْ ﴾ أي لا تتعلم السحر فتعمل

به فتكفر ، وأصل الفتنة : الاختبار والامتحان ، من قولهم : فتنت الذهب والفضة إذا أذبتهما بالنار ، ليتميز الجيد من الرديء وإنما وحد الفتنة وهما اثنان ، لأن الفتنة مصدر ، والمصادر لا تثنى ولا تجمع ، وقيل : إنهما يقولان " إنما نحن فتنة فلا تكفر " سبع مرات . قال عطاء والسدي : فإن أبى إلا التعلم قالا له : ائت هذا الرماد (وأقبل عليه) فيخرج منه نور ساطع في السماء فذلك نور المعرفة ، وينزل شيء أسود شبه الدخان حتى يدخل مسامعه وذلك غضب الله تعالى ، قال مجاهد : إن هاروت وماروت لا يصل إليهما أحد ويختلف فيما بينهما شيطان في كل مسألة اختلافة واحدة ، ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ﴾ أن (يؤخذ) (1) كل واحد عن

---

(1) التأخيذ : حبس السواحر أزواج النساء عن غيرهن من النساء ، ويقال لهذه الحيلة : الأخذة – بضم فسكون " [انظر : لسان العرب مادة : أخذ] .

صاحبه ، ويبغض كل واحد إلى صاحبه قال الله تعالى : ﴿ وَمَا هُمْ ﴾ قيل أي : السحرة وقيل : الشياطين ﴿ بِضَارِّينَ بِهِ ﴾ أي بالسحر ﴿ مِنْ أَحَدٍ ﴾ أي أحدا ، ﴿ إِلا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ أي : بعلمه وتكوينه ، فالساحر يسحر والله يكون .

قال سفيان الثوري : معناه إلا بقضائه وقدرته ومشيئته ، ﴿ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ ﴾ يعني : أن السحر يضرهم ﴿ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا ﴾ يعني اليهود ﴿ لَمَنِ اشْتَرَاهُ ﴾ أي اختار السحر ﴿ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ ﴾ أي في الجنة من نصيب ﴿ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ ﴾ باعوا به ﴿ أَنْفُسَهُم ﴾ حظ أنفسهم ، حيث اختاروا السحر والكفر على الدين والحق ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ فإن قيل : أليس قد قال " ولقد علموا لمن اشتراه" فما معنى قوله تعالى " لو كانوا يعلمون" بعد ما أخبر أنهم علموا ؟ قيل : أراد بقوله " ولقد علموا" يعني الشياطين وقوله " لو كانوا يعلمون" يعني اليهود وقيل : كلاهما في اليهود يعني : لكنهم لما لم يعلموا بما علموا فكأنهم لم يعلموا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البغوى حـ 1 صـ 126 . 132 ﴾

(88/61)

ومن فوائد ابن عطية فى الآية

قال رحمه الله :

وقوله : ﴿ على ملك سليمان ﴾ أي على عهد ملك سليمان ، وقيل المعنى في ملك سليمان بمعنى في قصصه وصفاته وأخباره ، وقال الطبري : ﴿ اتبعوا ﴾ بمعنى فضلوا ،

و ﴿ على ملك سليمان ﴾ أي على شرعه ونبوته وحاله ، والذي تلته الشياطين : قيل إنهم كانوا يلقون إلى الكهنة الكلمة من الحق معها المائة من الباطل حتى صار ذلك علمهم ، فجمعه سليمان ودفنه تحت كرسيه ، فلما مات قالت الشياطين : إن ذلك كان علم سليمان ، وقيل : بل كان الذي تلته الشياطين سحراً وتعليماً فجمعه سليمان عليه السلام كما تقدم ، وقيل إن سليمان عليه السلام كان يملي على كاتبه آصف بن برخيا علمه ويختزنه ، فلما مات أخرجته الجن وكتبت بين كل سطرين سطراً من سحر ثم نسبت ذلك إلى سليمان ، وقيل إن آصف تواطأ مع الشياطين على أن يكتبوا سحراً وينسبوه إلى سليمان بعد موته ، وقيل إن الجن كتبت ذلك بعد موت سليمان واختلقته ونسبته إليه ، وقيل إن الجن والإنس حين زال ملك سليمان عنه اتخذ بعضهم السحر والكهانة علماً ، فلما رجع سليمان إلى ملكه تتبع كتبهم في الآفاق ودفنها ، فلما مات قال شيطان لبني إسرائيل ، هل أدلكم على كنز سليمان الذي به سخرت له الجن والريح ، هو هذا السحر ، فاستخرجته بنو إسرائيل وانبث فيهم ، ونسبوا سليمان إلى السحر وكفروا في ذلك حتى برأه الله على لسان محمد صلى الله عليه وسلم ، وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما ذكر سليمان في الأنبياء قال بعض اليهود : انظروا إلى محمد يذكر سليمان في الأنبياء وما كان إلا ساحراً .

وقوله تعالى : ﴿ وما كفر سليمان ﴾ تبرئة من الله تعالى لسليمان ، ولم يتقدم في الآيات أن أحداً نسبه إلى الكفر ، ولكنها آية نزلت في السبت المتقدم أن اليهود نسبته إلى السحر ، والسحر والعمل به كفر ، ويقتل الساحر عند مالك رضي الله عنه كفراً ، ولا يستتاب كالزنديق ، وقال الشافعي : يسأل عن سحره فإن كان كفراً استتيب منه فإن تاب وإلا قتل ، وقال مالك : فيمن يعقد الرجال عن النساء يعاقب ولا يقتل ، واختلف في ساحر أهل الذمة فقيل : يقتل ، وقال مالك : لا يقتل إلا إن قتل بسحره ويضمن ما جنى ، ويقتل إن جاء منه بما لم يعاهد عليه ، وقرأ نافع وعاصم وابن كثير وأبو عمرو بتشديد النون من " لكنّ " ونصب الشياطين ، وقرأ حمزة والكسائي وابن عامر بتخفيف النون ورفع " الشياطينُ " ، قال بعض الكوفيين : التشديد أحب اليّ إذا دخلت عليها الواو لأن المخففة بمنزلة بل ، وبل لا تدخل عليها الواو ، وقال أبو علي : ليس دخول الواو عليها معنى يوجب التشديد ، وهي مثقلة ومخففة بمعنى واحد إلا أنها لا تعمل إذا خففت ، وكفر الشياطين إما بتعليمهم السحر ، وإما بعلمهم به ، وإما بتكفيرهم سليمان به ، وكل ذلك كان ، والناس المعلمون أتباع الشياطين من بني إسرائيل ، و ﴿ السحر ﴾ مفعول ثان ب ﴿ يعلمون ﴾ ، وموضع ﴿ يعلمون ﴾ نصب على الحال ، أو رفع على خبر ثان .

وقوله تعالى : ﴿ وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت ﴾ : ﴿ ما ﴾ عطف

على ﴿ السحر ﴾ فهي مفعولة ، وهذا على القول بأن الله تعالى أنزل السحر على الملكين فتنة للناس ليكفر من اتعبه ويؤمن من تركه ، أو على قول مجاهد وغيره : إن الله تعالى أنزل على الملكين الشيء الذي يفرق به بين المرء وزوجه دون السحر ، أو على القول إنه تعالى أنزل السحر عليهما ليعلم على جهة التحذير منه والنهي عنه .

(90/61)

قال القاضي أبو محمد رحمه الله : والتعليم على هذا القول إنما هو تعريف يسير بمبادئه ، وقيل إن ﴿ ما ﴾ عطف على ﴿ ما ﴾ في قوله : ﴿ ما تتلو ﴾ ، وقيل : ﴿ ما ﴾ نافية ، رد على قوله : ﴿ وما كفر سليمان ﴾ ، وذلك أن اليهود قالوا : إن الله أنزل جبريل وميكائل بالسحر فنفى الله ذلك ، وقرأ ابن عباس والحسن والضحاك وابن أبزى " المِلكين " بكسر اللام ، وقال ابن أبزى : هما داود وسليمان ، وعلى هذا القول أيضاً ف ﴿ ما ﴾ نافية ، وقال الحسن : هما علجان كانا ببابل ملكين ، ﴿ فما ﴾ على هذا القول غير نافية ، وقرأها كذلك أبو الأسود الدؤلي ، وقال : هما ﴿ هاروت وماروت ﴾ ، فهذا كقول الحسن .

و ﴿ بابل ﴾ لا ينصرف للتأنيث والتعريف ، وهي قطر من الأرض ، واختلف أين هي ؟

فقال قوم : هي بالعراق وما والاه ، وقال ابن مسعود لأهل الكوفة : أنتم بين الحيرة وبابل ، وقال قتادة : هي من نصيبين إلى رأس العين ، وقال قوم : هي بالمغرب .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله : وهذا ضعيف ، وقال قوم : هي جبل دماوند ، و ﴿ هاروت وماروت ﴾ بدل من ﴿ الملكين ﴾ على قول من قال : هما ملكان ، ومن قرأ " مِلكين " بكسر اللام وجعلهما داود سليمان أو جعل الملكين جبريل وميكائل ، جعل ﴿ هاروت وماروت ﴾ بدلاً من ﴿ الشياطين ﴾ في قوله ﴿ ولكن الشياطين كفروا ﴾ ، وقال هما شيطانان ، ويجيء ﴿ يعلمون ﴾ : إما على أن الاثنين جمع ، وإما على تقدير أتباع لهذين الشيطانين اللذين هما الرأس ، ومن قال كانا علجين قال : ﴿ هاروت وماروت ﴾ بدل من قوله ﴿ الملكين ﴾ ، وقيل هما بدل من ﴿ الناس ﴾ في قوله ﴿ يعلمون الناس ﴾ ، وقرأ الزهري ﴿ هاروتُ وماروتُ ﴾ بالرفع ، وجهه البدل من ﴿ الشياطين ﴾ في قوله ﴿ تتلو الشياطين ﴾ أو من ﴿ الشياطين ﴾ الثاني على قراءة من خفف " لكنْ " ورفع ، أو على خبر ابتداء مضمر تقديره هما ﴿ هاروت وماروت ﴾ .

وروى من قال إنهما ملكان أن الملائكة مقتت حكام بني إسرائيل وزعمت أنها لو كانت بمثابتهم من البعد عن الله لأطاعت حق الطاعة ، فقال الله لهم : اختاروا ملكين يحكمان بين الناس ، فاختاروا هاروت وماروت ، فكانا يحكمان ، فاختصمت إليهما امرأة ففتنا بها فراوداها ، فأبت حتى يشربا الخمر ويقتلا ، ففعلا ، وسألتهما عن الاسم الذي يصعدان به إلى السماء فعلماها إياه ، فتكلمت به فعرجت ، فمسخت كوكباً فهي الزهرة ، وكان ابن عمر يلعنها .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله : وهذا كله ضعيف وبعيد ابن عمر رضي الله عنهما ، وروي أن الزهرة نزلت إليهما في صورة امرأة من فارس فجرى لهما ما ذكر ، فأطلع الله عز وجل الملائكة على ما كان من هاروت وماروت ، فتعجبوا ، وبقيا في الأرض لأنهما خُيِّرا بين عذاب الآخرة وعذاب الدنيا فاختارا عذاب الدنيا ، فهما في سرب من الأرض معلقين يصفقان بأجنحتهما ، وروت طائفة أنهما يعلمان السحر في موضعهما ذلك ، وأخذ عليهما أن لا يعلما أحداً حتى يقولا له : ﴿ إنما نحن فتنة فلا تكفر ﴾ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله : وهذا القصص يزيد في بعض الروايات وينقص في بعض ، ولا يقطع منه بشيء ، فلذلك اختصرته .

ذكر ابن الأعرابي في الياقوتة أن ﴿ يعلمان ﴾ بمعنى يعلمان ويشعران كما قال كعب بن زهير [الطويل] .

تَعَلَّمْ رسولَ اللَّهِ أَنَّك مدركي . . . وأنّ وعيداً منك كالأخذِ باليدِ

وحمل هذه الآية على أن الملكين إنما نزلا يعلمان الناس بالسحر وينهيان عنه ، وقال الجمهور : بل التعليم على عرفه ، و" لا تكفر " قالت فرقة : بتعلم السحر ، وقالت فرقة : باستعماله ، وحكى المهدوي أن قولهما : ﴿ إنما نحن فتنة فلا تكفر ﴾ استهزاء ، لأنهما إنما يقولانه لمن قد تحققا ضلاله ، و﴿ من ﴾ في قوله ﴿ من أحد ﴾ زائدة بعد النفي .

(92/61)

وقوله تعالى : ﴿ فيتعلمون ﴾ : قال سيبويه : التقدير فهم يتعلمون ، وقيل هو معطوف على قوله ﴿ يعلمون الناس ﴾ ، ومنعه الزجاج ، وقيل : هو معطوف على موضع ﴿ وما يعلمان ﴾ لأن قوله ﴿ وما يعلمان ﴾ وإن دخلت عليه ما النافية فمضمنه الإيجاب في التعليم ، وقيل التقدير فيأتون فيتعلمون ، واختاره الزجاج ، والضمير في ﴿ يعلمان ﴾ هو لهاروت وماروت الملكين أو الملكين العلجين على ما تقدم ، والضمير في ﴿ منهما ﴾ قيل : هو عائد عليهما ، وقيل : على ﴿ السحر ﴾ وعلى الذي أنزل على الملكين ، و﴿ يفرقون ﴾ معناه فرقة العصمة ، وقيل معناه : يؤخّذون الرجل عن المرأة حتى لا يقدر على وطئها فهي أيضاً فرقة .

وقرأ الحسن والزهري وقتادة : " المرءِ " براء مكسورة خفيفة ، وروي عن الزهري تشديد الراء ، وقرأ ابن أبي إسحاق " المُرء " بضم الميم وهمزة وهي لغة هذيل ، وقرأ الأشهب العقيلي " المِرء " بكسر الميم وهمزة ، ورويت عن الحسن ، وقرأ جمهور الناس " المَرء " بفتح الميم وهمزة ، والزوج هنا امرأة الرجل ، وكل واحد منهما زوج الآخر ، ويقال للمرأة زوجة قال الفرزدق . [الطويل]

وإن الذي يسعى ليفسِدَ زوجتي . . . كساعٍ إلى أُسْد الشرى يسْتبيلها

(93/61)

وقرأ الجمهور " بضارين به " ، وقرأ الأعمش " بضاري به من أحد " فقيل : حذفت النون تخفيفاً ، وقيل : حذفت للإضافة إلى ﴿ أحد ﴾ وحيل بين المضاف والمضاف إليه بالمجرور ، و﴿ بإذن الله ﴾ معناه . بعلمه وتمكينه ، و﴿ يضرهم ﴾ معناه في الآخرة ﴿ ولا ينفعهم ﴾ فيها أيضاً ، وإن نفع في الدنيا بالمكاسب فالمراعى إنما هو أمر الآخرة ، والضمير في ﴿ علموا ﴾ عائد على بني إسرائيل حسب الضمائر المتقدمة ، وقيل : على ﴿ الشياطين ﴾ ، وقيل على ﴿ الملكين ﴾ وهما جمع ، وقال ﴿ اشتراه ﴾ لأنهم كانوا يعطون الأجرة على أن يعلموا ، والخلاق النصيب والحظ ، وهو هنا بمعنى الجاه والقدر ،

واللام في قوله ﴿ لمن ﴾ المتقدمة للقسم المؤذنة بأن الكلام قسم لا شرط ، وتقدم القول في " بئسما " ، و﴿ شروا ﴾ معناه باعوا ، وقد تقدم مثله ، والضمير في ﴿ يعلمون ﴾ عائد على بني إسرائيل باتفاق ، ومن قال إن الضمير في ﴿ علموا ﴾ عائد عليهم خرج هذا الثاني على المجاز ، أي لما عملوا عمل من لا يعلم كانوا كأنهم لا يعلمون ، ومن قال إن الضمير في ﴿ علموا ﴾ عائد على ﴿ الشياطين ﴾ أو على ﴿ الملكين ﴾ قال : إن أولئك علموا أن لا خلاق لمن اشتراه وهؤلاء لم يعلموا فهو على الحقيقة ، وقال مكي : الضمير في ﴿ علموا ﴾ لعلماء أهل الكتاب ، وفي قوله ﴿ لو كانوا يعلمون ﴾ للمتعلمين منهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 1 صـ 185.189 ﴾

ومن فوائد الماوردى فى الآية

قال رحمه الله :

قوله عز وجل : ﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ ﴾ اختلف أهل التفسير في سبب ذلك ، على قولين :

أحدهما : أن الشياطين كانوا يسترقون السمع ويستخرجون السحر ، فَأَطْلَعَ الله سليمان ابن داود عليه ، فاستخرجه من أيديهم ، ودفنه تحت كرسيه ، فلم تكن الجن تقدر على أن تدنو من الكرسي ، فقالت الإنس بعد موت سليمان : إن العلم الذي كان سليمان يُسَخِّر به الشياطين والرياح هو تحت كرسيه ، فاستخرجوه وقالوا : كان ساحراً ولم يكن نبياً ، فتعلموه وعلّموه ، فأنزل الله تعالى براءة سليمان بهذه الآية .

والثاني : أن " آصف بن برخيا " وهو كاتب سليمان وَاطَّلَعَ نفراً من الشياطين على كتاب كتبوه سحراً ودفنوه تحت كرسي سليمان ، ثم استخرجوه بعد موته وقالوا هذا سحر سليمان ، فبرأه الله تعالى من قولهم ، فقال : ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ ﴾ ، وهم ما نسبوه إلى الكفر ، ولكنهم نسبوه إلى السحر ، لكن لما كان السحر كفراً صاروا بمنزلة من نسبه إلى الكفر .

قال تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أنهم كفروا بما نسبوه إلى سليمان من السحر .

والثاني : أنهم كفروا بما استخرجوه من السحر .

﴿ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أنهم ألقوه في قلوبهم فتعلموه .

والثاني : أنهم دلوهم على إخراجه من تحت الكرسي فتعلموه .

﴿ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ﴾ وفي ﴿ مَا ﴾ ها هنا وجهان :

أحدهما : بمعنى الذي ، وتقديره الذي أنزل على الملكين .

والثاني : أنها بمعنى النفي ، وتقديره : ولم ينزل على الملكين .

وفي الملكين قراءتان : إحداهما : بكسر اللام ، كانا من ملوك بابل وعلوجها هاروت وماروت ، وهذا قول أبي الأسود الدؤلي ، والقراءة الثانية : بفتح اللام من الملائكة .

وفيه قولان :

أحدهما : أن سحرة اليهود زعموا ، أن الله تعالى أنزل السحر على لسان جبريل وميكائيل إلى سليمان بن داود ، فأكذبهم الله بذلك ، وفي الكلام تقديم وتأخير ، وتقديره : وما كفر سليمان ، وما أنزل على الملكين ، ولكن الشياطين كفروا ، يعلمون الناس السحر ببابل هاروت وماروت ، وهما رجلان ببابل .

والثاني : أن هاروت وماروت مَلَكان ، أَهْبَطَهُما الله عز وجل إلى الأرض ، وسبب ذلك ، أن الله تعالى لما أطلع الملائكة على معاصي بني آدم ، عجبوا من معصيتهم له مع كثرة أَنْعُمِهِ

عليهم ، فقال الله تعالى لهم : أما أنكم لو كنتم مكانهم لعملتم مثل أعمالهم ، فقالوا : سبحانك ما ينبغي لنا ، فأمرهم الله أن يختاروا ملكين ليهبطا إلى الأرض ، فاختاروا هاروت وماروت فأُهْبِطَا إلى الأرض ، وأحل لهما كل شيء ، على ألا يُشْرِكا بالله شيئاً ، ولا يسرقا ، ولا يزنيا ، ولا يشربا الخمر ، ولا يقتلا النفس التي حرم الله إلا بالحق ، فعرضت لهما امرأة وكان يحكمان بين الناس تُخَاصِمُ زوجها واسمها بالعربية : الزهرة ، وبالفارسية : فندرخت ، فوقعت في أنفسهما ، فطلباها ، فامتنعت عليهما إلا أن يعبدا صنماً ويشربا الخمر ، فشربا الخمر ، وعبدا الصنم ، وواقعاها ، وقتلا سابلاً مر بهما خافا أن يشهر أمرهما ، وعلّماها الكلام الذي إذا تكلم به المتكلم عرج إلى السماء ، فتكلمت وعرجت ، ثم نسيت ما إذا تكلمت به نزلت فمسخت كوكبا ، قال : كعب فوالله ما أمسيا من يومهما الذي هبطا فيه ، حتى استكملا جميع ما نهيا عنه ، فتعجب الملائكة من ذلك . ثم لم يقدر هاروت وماروت على الصعود إلى السماء ، فكانا يعلّمان السحر .

وذكر عن الربيع أن نزولهما كان في زمان (إدريس) .

وأما السحر فقد اختلف الناس في معناه :

فقال قوم : يقدر الساحر أن يقلب الأعيان بسحره ، فيحول الإنسان حماراً ، وينشئ أعياناً وأجساماً .

وقال آخرون : السحر خِدَع ومَعَانٍ يفعلها الساحر ، فيخيل إليه أنه بخلاف ما هو ، كالذي يرى السراب من بعيد ، فيخيل إليه أنه ماء ، وكواكب السفينة السائرة سيراً حثيثاً ، يخيل إليه أن ما عاين من الأشجار والجبال سائرة معه .

وقد روى هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قالت : سَحَرَ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يهوديٌ من يهود بني زريق يقال له لبيد بن الأعصم ، حتى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُخيّل إليه أنه يفعل الشيءَ وما فعله .

قالوا : ولو كان في وسع الساحر إنشاء الأجسام وقلب الأعيان عما هي به من الهيئات ، لم يكن بين الباطل والحق فصل ، ولجاز أن يكون جميع الأجسام مما سحرته السحرة ، فقلبت أعيانها ، وقد وصف الله تعالى سحرة فرعون ﴿ . . . فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ﴾ .

وقال آخرون : وهو قول الشافعي إن الساحر قد يوسوس بسحره فيمرض وربما قتل ، لأن التخيل بدء الوسوسة ، والوسوسة بدء المرض ، والمرض بدء التلف .

فأما أرض ﴿ بابل ﴾ ففيها ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنها الكوفة وسوادها ، وسميت بذلك حيث تبلبلت الألسن بها وهذا قول ابن مسعود .

والثاني : أنها من نصيبين إلى رأس عين ، وهذا قول قتادة .

والثالث : أنها جبل نهاوند . وهي [فطر] من الأرض .

﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ : إِنَّمَا نَحنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ ﴾ بما تتعلمه من سحرنا .

﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ﴾ في المراد بقوله " منهما " ثلاثة أوجه :

أحدها : يعني من هاروت وماروت .

والثاني : من السحر والكفر .

والثالث : من الشيطان والملكين ، فيتعلمون من الشياطين السحر ، ومن الملكين ما يفرقون به بين المرء وزوجه .

﴿ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ ﴾ يعني السحر .

﴿ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ ﴾ فيه تأويلان :

أحدهما : يعني بأمر الله .

والثاني : بعلم الله .

﴿ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ﴾ يعني ما يضرهم في الآخرة ، ولا ينفعهم في الدنيا .

﴿ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ ﴾ يعني السحر الذي يفرقون به بين المرء وزوجه .

﴿ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴾ فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : أن الخلاق النصيب ، وهو قول مجاهد والسدي .

والثاني : أن الخلاق الجهة ، وهو قول قتادة .

والثالث : أن الخلاق الدين ، وهو قول الحسن .

قوله عز وجل : ﴿ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ فيه تأويلان :

أحدهما : يعني ولبئس ما باعوا به أنفسهم من السحر والكفر في تعليمه وفعله .

والثاني : من إضافتهم السحر إلى سليمان ، وتحريضهم على الكذب . انتهى انتهى . اهـ

﴿ النكت والعيون حـ 1 صـ 164 . 169 ﴾

ومن فوائد الزمخشرى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ واتبعوا ﴾ أي نبذوا كتاب الله واتبعوا ﴿ مَا تَتْلُواْ الشياطين ﴾ يعني واتبعوا كتب السحر والشعوذة التي كانت تقرؤها ﴿ على مُلْكِ سليمان ﴾ أي على عهد ملكه وفي زمانه .

وذلك أنّ الشياطين كانوا يسترقون السمع ثم يضمون إلى ما سمعوا أكاذيب يلفقونها ويلقونها

إلى الكهنة وقد دوّنوها في كتب يقرؤنها ويعلمونها الناس ، وفشا ذلك في زمن سليمان عليه السلام حتى قالوا : إن الجن تعلم الغيب ، وكانوا يقولون : هذا علم سليمان ، وما تم لسليمان ملكه إلا بهذا العلم ، وبه تسخر الأنس والجن والريح التي تجري بأمره ﴿ وَمَا كَفَرَ سليمان ﴾ تكذيب للشياطين ودفع لما بهتت به سليمان من اعتقاد السحر والعمل به ، وسماه كفراً ﴿ ولكن الشياطين ﴾ هم الذين ﴿ كَفَرُواْ ﴾ باستعمال السحر وتدوينه ﴿ يُعَلّمُونَ الناس السحر ﴾ يقصدون به إغواءهم وإضلالهم ﴿ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الملكين ﴾ عطف على السحر ، أي ويعلمونهم ما أنزل على الملكين .

وقيل : هو عطف على ما تتلو ، أي واتبعوا ما أنزل .

(98/61)

﴿ هاروت وماروت ﴾ عطف بيان للملكين علمان لهما ، والذي أنزل عليهما هو علم السحر ابتلاء من الله للناس .

من تعلمه منهم وعمل به كان كافراً ، ومن تجنبه أو تعلمه لا ليعمل به ولكن ليتوقاه ولئلا يغتر به كان مؤمناً :

عَرَفْتُ الشَّرَّ لاَ لِلشَّرِّ لَكِنْ لِتَوَقِّيهِ . . .

كما ابتلى قوم طالوت بالنهر ، ﴿ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنّى ﴾ [البقرة : 249] .

وقرأ الحسن " على الملكين" بكسر اللام ، على أنّ المنزل عليهما علم السحر كانا ملكين ببابل .

وما يعلم الملكان أحداً حتى ينبهاه وينصحاه ويقولا له ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ ﴾ أي ابتلاء واختبار من الله ﴿ فَلاَ تَكْفُرْ ﴾ فلا تتعلم معتقداً أنه حق فتكفر ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ ﴾ الضمير لما دلّ عليه من أحد ، أي فيتعلم الناس من الملكين ﴿ مَا يُفَرّقُونَ بِهِ بَيْنَ المرء وَزَوْجِهِ ﴾ أي علم السحر الذي يكون سبباً في التفريق بين الزوجين من حيلة وتمويه ، كالنفث في العقد ، ونحو ذلك مما يحدث الله عنده الفرك والنشوز والخلاف ابتلاء منه ، لا أنّ السحر له أثر في نفسه بدليل قوله تعالى : ﴿ وَمَا هُم بِضَارّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ الله ﴾ لأنه ربما أحدث الله عنده فعلاً من أفعاله وربما لم يحدث ﴿ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ ﴾ لأنهم يقصدون به الشر .

وفيه أن اجتنابه أصلح كتعلم الفلسفة التي لا يؤمن أن تجرّ إلى الغواية .

ولقد علم هؤلاء اليهود أن من اشتراه أي استبدل ما تتلو الشياطين من كتاب الله ﴿ مَالَهُ فِى الاخرة مِنْ خلاق ﴾ من نصيب ﴿ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ ﴾ أي باعوها .

وقرأ الحسن : " الشياطون" .

وعن بعض العرب : بستان فلان حوله بساتون .

وقد ذكر وجهه فيما بعد .

وقرأ الزهري " هاروتُ وماروتُ" بالرفع على : هما هاروت وماروت .

(99/61)

وهما اسمان أعجميان بدليل منع الصرف ، ولو كانا من الهرت والمرت وهو الكسر كما زعم بعضهم لانصرفا .

وقرأ طلحة " وما يعلمان" من أعلم ، وقرىء " بين المرء" بضم الميم وكسرها مع الهمز .

والمرّ بالتشديد على تقدير التخفيف والوقف ، كقولهم : فرج ، وإجراء الوصل مجرى الوقف .

وقرأ الأعمش : " وما هم بضاريّ" ، بطرح النون والإضافة إلى أحد والفضل بينهما بالظرف ، فإن قلت : كيف يضاف إلى أحد وهو مجرور بمن ، قلت : جعل الجار جزءاً من المجرور .

فإن قلت : كيف أثبت لهم العلم أولاً في قوله : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُواْ ﴾ على سبيل التوكيد القسمي ثم نفاه عنهم في قوله : ﴿ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ ؟

قلت : معناه لو كانوا يعملون بعلمهم ، جعلهم حين لم يعملوا به كأنهم منسلخون عنه . انتهى

انتهى . اهـ ﴿الكشاف حـ 1 صـ 172. 173﴾

(100/61)

ومن فوائد الثعلبى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَاتَّبَعُوا ﴾ يعني اليهود .

﴿ مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ ﴾ أي ما تلت الشياطين .

كقول الشّاعر :

فإذا مررت بقبره فاعقر به

كوم الحجان وكلّ طرف سالح

وانضح جوانب قبره بدمائها

فلقد بكوه أخادم وذبائح

وحكي عن الحسين بن الفضل إنّه سئل عن هذه الآية فقال : هو مختصر مضمر تقديره

واتبعوا ما كانت تتلوا الشياطين أي تقرأه .

قال ابن عبّاس : يتبع ويعمل به .

عطاء وأبو عبيدة : يحدّث ويتكلم به .

يمان : ترويه .

وقرأ الحسن : الشياطون بالواو في موضع الرفع في كل القرآن .

قال الثعلبي : وسمعت أبا القاسم الحبيبي يقول : سمعت أبا حامد الخارزنجي يقول : وسئل عن قراءة الحسن ؟

قال : هو فن وحسن عند أكثر أهل الأدب .

غير أن الأصمعي زعّم إنّه سمع أعرابياً يقول : بستان فلان حوله بساتون .

﴿ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ ﴾ أي في ملكه وعهده كقول أبي النّجم :

فهي على الأفق كعين الأحول

أي في الأفق .

والملك تمام القدرة واستحكامها .

قال (. . . الزجاج) : في قصّة الآية هي أنّ الشياطين كتبوا السّحر والنيرنجات على لسان آصف . هذا ما علّم آصف ابن برخيا سليمان الملك ثمّ وضعوها تحت مصلاه حين نزع الله ملكه ولم يشعر بذلك سليمان فلمّا مات استخرجوها من تحت مصلاّه .

وقالوا النّاس : إنّما ملككم سليمان بهذا فتعلّموه فأمّا علماء بني إسرائيل وصلحاؤهم

فقالوا : معاذ الله أن يكون هذا علم سليمان وإنّ كان هذا علمه لقد هلك سليمان وأمّا السفلة فقالوا : هذا علم سليمان فأقبلوا على تعلّمه ورفضوا كتب أنبياءهم وفشت الملامة لسليمان فلم تزل هذه حالهم حتّى بعث الله تعالى محمّداً ﷺ صلى الله عليه وسلم ﴾ وأنزل عذر سليمان ج على لسانه وأظهر براءته عمّا رُمي به فقالوا : ﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ ﴾ الآية . هذا قول الكعبي .

(101/61)

وقال السّدي : كانت الشياطين تصعد إلى السماء فتقعد منها مقاعد السّمع فيستمعون كلام الملائكة فيما يكون في الأرض من موت أو غيره فيأتون الكهنة ويخلطون بما سمعوا كذباً وزوراً في كلّ سبعين كلمة سبعين كلمة ويخبرونهم بذلك فاكتتب الناس ذلك وفشا في بني اسرائيل أن الجن تعلم الغيب فبعث في النّاس فجمع تلك الكتب وجعلها في صندوق ودفنها تحت كرسيّه وقال : لا أسمع أحداً يقول إنّ الشياطين تعلم الغيب إلاّ ضربت عنقه فلمّا مات سليمان وذهب العلماء الّذين كانوا يعرفون أمر سليمان ودفنه الكتب وخلف من بعدهم خلف تمثّل الشيطان على صورة إنسان فأتى نفراً من بني إسرائيل فقال : هل أدلّكم على كنز لا ينفذ أبداً .

قالوا : نعم . قال : فأحفروا تحت الكرسي وذهب معهم فأراهم المكان وقام ناحية وقالوا : أدُن . فقال : لا ولكن ها هنا فان لم تجدوه فاقتلوني وذلك إنّهم لم يكن أحدٌ من الشياطين يدنو من الكرسي إلاّ احترق فحفروا فوجدوا تلك الكتب فلمّا أخرجوها . قال الشيطان : إنّ سليمان كان يضبط الجنّ والأنس والطّير بهذا ثمّ طار الشيطان وذهب وفشا في النّاس أنّ سليمان كان ساحراً فاتّخذ بنو إسرائيل تلك الكتب ولذلك فكثير ما يوجد السحر في اليهود فلمّا جاء محمّد ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ خاصمه اليهود بها فبرأ الله تعالى سليمان من ذلك وأنزل هذه الآية .

وقال عكرمة : كان سليمان لا يصبح يوماً إلاّ نبتت في محرابه في بيت المقدس شجرة فيسألها : ما اسمك ؟

فتقول الشجرة : إسمي كذا ، فيقول : لأيّ داء أنتِ ؟

فتقول : لكذا وكذا ، فيأمر بها فتقطع وترفع في الخزانة وتغرس منها في البساتين حتّى بعثت الخرنوبة الشّامية فقال لها : ما أنت ؟

قالت أنا الخرنوبة . قال : لأي شيء نبتّ ؟

قالت : لخراب مسجدك . قال سليمان : ما كان الله ليخرّبه وأنا حي أنت الّذي على وجهك هلاكي وخراب بيت المقدس فنزعها فغرسها في حائط له فلم تنبت إلى أن توفّي فجعل النّاس يقولون في رضاهم : لو كان لنا مثل سليمان ، وكتبت الشياطين كتاباً فجعلوه في مصلّى سليمان . فقالوا للنّاس : من يدلّكم على ما كان يداوي به فانطلقوا فاستخرجوا ذلك الكتاب فإذا فيه سحر ورقيّ فأنزل الله في هذه الآية ما تفعل الشياطين واليهود على نبيّه محمّد ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ ﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ ﴾

.

﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ ﴾ بالسحر فانّ السحر كفر .

﴿ وَلَاكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا ﴾ قرأ أهل الكوفة والشام بتخفيف النون ورفع الشياطين وكذلك في الأيمان ﴿ وَلَاكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ﴾ ﴿ وَلَاكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ .

الباقون : بالتشديد ونصب ما بعده ، ولكن كلمة لها معنيان نفي الخبر الماضي واثبات الخبر المستقبل ، وهي مبنية من ثلاث كلمات أصلها لا كان لا نفي والكاف خطاب وإنّ نصب ونسق فذهبت الهمزة استثقالاً وهي تثقّل وتخفف فإذا ثقلت نصب بها ما بعدها من الاسماء كما تنصب بإن الثقيلة فإذا خففها رفعت بها ما ترفع بأنْ الخفيفة .

﴿ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ ﴾ قال بعضهم : السحر العلم والخطابة دليله قوله : بان السّاحر : أي العالم .

وقال بعضهم : هو التمويه بالشيء حتّى يتوهم المتوّهم إنّه شيء ولا حقيقة له كالسراب غير من رآه وأخلف من رجاه قال الله تعالى : ﴿ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ﴾ .

[البقرة :]

(103/61)

﴿ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ ﴾ محل ما بعد اتباع التعليم عليه معناه لا يعلمون الذي أُنزل على الملكين أي (. . . . .) ويجوز أن يكون نصباً بالاتباع تقديره : واتبعوا ما أُنزل على الملكين ، وجعل بعضهم ما جحداً وحينئذ لا محل له يعني لم ينزل السّحر على الملكين كما زعم اليهود ، وإنّما يعلّمونهم (. . . . . من ذات) أنفسهم والقول الأوّل أصح .

وقرأ ابن عبّاس والحسن والضحّاك ويحيى بن أبي كثير : مِلكين بكسر اللام ، وقالوا : هما رجلان ساحران كانا ببابل من الملائكة لا يعلمون النّاس السحر ، وفسرهما الحسن فقال : غلجان ببابل وهي بابل عراق وسمّي بابل لتبلبل الألسنة بها عند سقوط صرح نمرود أي تفرقها .

أو ان الله تعالى امتحن الناس بالملكين في ذلك الوقت فمن شقى بتعلم السحر منهما فيكفر به ومن سعد بتركه فيبقى على الإيمان فيزداد المعلمان بالتعليم عذاباً ففيه ابتلاء المعلم

والمتعلّم والله تعالى يمتحن عباده بما يشاء كما يشاء فله الأمر والحكم .

وقال الخليل بن أحمد : إنّما سمّيت بابل لأنّ الله تعالى حين أراد أن يخالف بين ألسنة بني آدم بعث ريحاً فحفرتهم من كل أفق إلى بابل فبلبل الله ألسنتهم فلم يدري أحد ما يقول الآخر ، ثمّ فرقتهم تلك الرّيح في البلاد وهو لا ينصرف ؛ لأنّه اسم موضع معروف .

(104/61)

﴿ هاروت وما روت ﴾ اسمان سريانيان في محل الخفض على تفسير الملكين بدلاً منهما إلاّ أنّهما نصباً لعجمتهما ومعرفتهما وكانت قصتيهما على ما ذكره ابن عبّاس والمفسرون : إنّ الملائكة رأوا ما يصعد إلى السماء من أعمال بني آدم الخبيثة وذنوبهم الكثيرة وذلك في زمن إدريس فعيروهم بذلك ، ودعتْ عليهم قالوا : هؤلاء الذين جعلتهم في الأرض واخترتهم فهم يعصونك . فقال الله عزّ وجلّ لهم : لو أنزلتكم إلى الأرض وركبت فيكم ما ركبت فيهم لرتكبتم ما ارتكبوه . فقالوا : سبحانك ما كان ينبغي لنّا أن نعصيك . قال الله تعالى : اختاروا ملكين من خياركم ثمّ اهبوطهما إلى الأرض . فاختاروا هاروت وما روت وكانا من أصلح الملائكة وأخصهم .

قال الكلبي : قال الله تعالى لهم : اختاروا ثلاثة : عزّا وهو هاروت وعزايا وهو ماروت .

غيَّر اسمهما لما قارفا الذنب كما غير اسم إبليس وعزائيل فركب الله فيهم الشهوة التي ركبها في بني آدم . فاهبطهم إلى الأرض وأمرهم أن يحكموا بين النّاس بالحقّ ، ونهاهم عن الشرك والقتل بغير الحقّ والزنا وشرب الخمر وأما عزائيل فأنّه لما وقعت الشهوة في قلبه استقال ربّه ، وسأله أن يرفعه إلى السّماء ، فأقاله ورفعه ، فسجد اربعين سنة ، ثمّ رفع رأسه ولم يزل بعد ذلك مطأطئاً رأسه حياءاً من الله عزّ وجلّ .

وأما الآخران فإنهما ثبتا على ذلك وكانا يغضبان من النّاس يومهما فإذا أمسيا ذكرا اسم الله الأعظم وصعدا إلى السماء .

(105/61)

قال قتادة : فما مر عليهما شهر حتّى افتتنا قالوا جميعاً وذلك انهم اختصم عليهما ذات يوم الزهرة ، وكانت من أجمل النّساء . قال علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) وكانت من أهل فارس ، وكانت ملكة في بلدها . فلمّا رأياها أخذت بقلوبهما فراوداها عن نفسها وانصرفت ، ثمّ عادت في اليوم الثاني . ففعلا مثل ذلك . فأبت وقالت : لا إلاّ أن تعبدا ما أعبُد وتُصليا لهذا الصّنم وتقتلا النّفس وتشربا الخمر فقالا : لا سبيل إلى هذه الأشياء فإن الله قد نهانا عنها . فانصرفت ثمّ عادت في اليوم الثالث ومعها قدح من خمر وفي أنفسهما من

الميل إليها ما فيها . فراوداها عن نفسها . فعرضت عليهما ما قالت بالأمس . فقالا : الصلاة لغير الله عظيم ، وقتل النّفس عظيم وأهون الثلاثة شرب الخمر فانتعشا ووقعا بالمرأة وزنيا . فلما فرغا رآهما أنسان فقتلاه .

قال الربيع بن أنس : سجدا للصنم فمسخ الله الزهرة كوكباً وقال عليّ بن أبي طالب (كرم الله وجهه) والسّدي والكلبي : إنّها قالت لهما : لن تدركاني حتّى تخبراني بالذي تصعدان به إلى السماء . فقالا : بسم الله الأكبر . قالت : فما أنتما تدركاني حتّى تعلمانيه . فقال أحدهما لصاحبه : علّمها . قال : فأنّي أخاف الله .

قال الآخر : فأين رحمة الله فعلماهما ذلك . فتكلّمت به وصعدت إلى السّماء فمسخها الله كوكباً .

فعلى قول هؤلاء هي الزّهرة بعينها وقيدوها . فقالوا : هي هذه الكوكبة الحمراء واسمها بالفارسيّة ناهيد ، وبالنبطية بيذخت يدلّ على صحة هذا القول ما روى جابر عن الطفيل عن علي (رضي الله عنه) قال : كان النبيّ ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ إذا رأى سهيلاً قال : لعن الله سُهيلاً إنّه كان عشاراً باليمن ولعن لله الزُّهرة فإنّها فتنت ملكين .

وقال مجاهد : كنت مع ابن عمر ذات ليلة فقال لي : أرمق بالكوكبة يعني الزّهُرة فإذا طلعت فأيقظني .

فلما طلعت ايقظته فجعل ينظر إليها ويسبّها سبّاً شديداً . فقلت : رحمك الله سببت نجماً سامعاً مُطيعاً ماله ليسبّ ؟

فقال : إنّ هذه كانت بغياً . فلقى ملكان منها مالقيا .

وقال ابن عمر إذا رأى الزهُرة قال : لا مرحباً بها ولا أهلاً وروى أبو عثمان (المرندي) عن ابن عبّاس : إنّ المرأة التي فتنت بها الملكان مُسخت فهي هذه الكوكبة الحمراء يعني الزهرة قال : وكان يسميها بيذخت . وأنكر الآخرون هذا القول . قالوا : إن الزهرة من الكواكب السبعة السّيارة الّتي جعلها الله تعالى قواماً للعالم وأقسم بها فقال : ﴿ فلا أقسم بالخنّس والجوار الكنّس ﴾ . قلنا كانت هذه الّتي فتنت هاروت وماروت امرأة كانت تسمى زهرة من جمالها فلمّا بغت مسخها الله تعالى شهاباً فلمّا رأى رسول الله ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ الزهرة ذكر هذه المرأة لموافقة الاسمين فلعنها ، وكذلك سهيل العشار ولّما رأى رسول الله ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ النجمّ ذكره فلعنه ويدلّ عليه ما روى قيس ابن عبّاد عن ابن عبّاس في هذه القصّة :

قال : كانت امرأة فضّلت على النّاس كما فضّلت الزّهرة على سائر الكواكب ، ومثله قال كعب الأحبار والله أعلم .

قالوا : فلمّا أمسى هاروت وماروت بعدما قارفا الذنب همّا بالصعود إلى السّماء فلم

تُطاوعهما أجنحتهما فعلما ما حلّ بهما فقصدا إدريس النبيّج فأخبراه بأمرهما وسألاه أن يشفع لهما إلى الله عزّ وجلّ فقالا له : إنّا رأيناك يصعد لك من العبادة مثل ما يصعد لجميع أهل الأرض فاستشفع لنا إلى ربّك ؟

ففعل ذلك إدريس فخيرّهما الله تعالى بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة فأختارا عذاب الدّنيا إذ علما إنّه ينقطع فهما ببابل يعذّبان .

واختلف العلماء في كيفية عذابهما فقال عبدالله بن مسعود : هما معلّقان بشعورهما إلى قيام السّاعة .

قتادة : كبّلا من أقدامهما إلى أصول أفخاذهما .

مجاهد : إنّ جبّاً ملئت ناراً فجعلا فيها حضيف معلّقان منكسان في السلاسل .

(107/61)

عمير بن سعد : منكوسان يضربان بسياط الحديد .

ويروى إنّ رجلاً أراد تعلّم السحر فقصد هاروت وماروت فوجدهما معلّقين بأرجلهما مزرقّة عيونهما مسودّة جلودهما ليس بين ألسنتهما وبين الماء إلاّ قدر أربع أصابع وهما يعذبان بالعطش فلما رأى ذلك هاله مكانهما فقال : لا إله الاّ الله وقد نهي عن ذكر الله فلمّا

سمعا كلامه قالا له : من أنت ؟

قال : رجل من النّاس . قالا : ومَنْ أيّ أُمّة أنت ؟

قال : من أُمّة محمّد ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ قالا : وقد بعث محمّد ؟

قال : نعم قالا : الحمدُ لله وأظهرا الاستبشار . فقال الرجل : ومِمَّ إستبشاركما ؟

قالا : لأنّه نبي السّاعة وقد دنا إنقضاء عذابنا . قالوا ومن ثمّ استغفار الملائكة لبني آدم .

وعن الأوزاعي قال : المعنى إنّ جبرئيل أتى النبيّ ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ فقال له : " يا جبرئيل صف ليّ النّار ؟

فقال : إنّ الله أمر بها فأوقد عليها ألف عام حتّى احمرّت ثمّ أوقد عليها ألف عام حتّى اصفرّت ثمّ أوقد عليها ألف عام حتّى اسودّت فهي سوداء مظلمة لا يضي لهيبها ولا جمرها ، والّذي بعثك بالحقّ لو أنّ ثوباً من ثياب أهل النّار أظهر لأهل الأرض لماتوا جميعاً ولو أنّ ذَنوَباً من سرابها صبّت في الأرض جميعاً لقتل من ذاقه ، ولو أنّ ذراعاً من السلسة التي ذكرها الله وضع على جبال الأرض جميعاً لذابت وما استقلّت ولو إنّ رجلاً دخل النّار ثمّ أخرج منها لمات أهل الأرض من نتن ريحه وتشويه خلقه وعظمه فبكى النبيّ ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ وبكى جبرئيل لبكائه وقال : أتبكي يا محمّد وقد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر قال : " أفلا أكون عبداً شكوراً " ، ولم بكيت يا جبريل وأنت الروّح الأمين أمين الله على وحيه ؟

قال : أخاف أن أبتلي بما أبتلي هاروت وماروت . فهو الّذي منعني عن اتكالي على منزلتي عند ربّي فأكون قد آمنت مكره فلم يزالا يبكيان حتّى نوديا من السّماء أنّ يا جبرئيل ويا محمّد إنّ الله قد أمنكما أن تعصياه فيعذبكما ففضّل محمّد على الأنبياء كفضل جبرائيل على ملائكة السّماء .

[البقرة :]

﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ ﴾ يعني الملكين ﴿ مِنْ أَحَدٍ ﴾ من صلة لا يعلّمان السحر أحداً حتّى ينصحاه أولاً وينهياه ويقولا ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ ﴾ إبتلاء ومحنة .

﴿ فَلا تَكْفُرْ ﴾ بتعلم السّحر وأصل الفتنة الاختبار .

تقول العرب : فتنت الذّهب إذا أدخلته النّار لتعرف جودته من رداءته .

وفتنت الشمس الحجر إذا سوّدته .

وإنّما وحدّ الفتنة وهما إثنان ؛ لأنّ الفتنة مصدر والمصادر لا تثنّى ولا تجمع كقولهم : ﴿ وَعَلَى سَمْعِهِمْ ﴾ وفي مصحف أُبي : وما يعلّم الملكان من أحد حتّى يقولا إنّما نحن فتنة فلا تكفر سبع مرّات .

قال السّدي وعطاء : فإن أبى إلاّ التعلّم قالا له : إئتِ هذا الرّماد فَبُل عليه فيخرج منه نورٌ ساطع في السّماء فتلك المعرفة وينزل شيء أسود حتّى يدخل مسامعه يشبه الدّخان وذلك غضب الله عزّ وجلّ .

قال مجاهد : إنّ هاروت وماروت لا يصل إليهما أحد ويختلف فيما بينهما شيطان في كل مسألة إختلافة واحدة .

وقال يزيد بن الأصم : سُئل المختار : هل يرى اليوم أحدٌ هاروت وماروت ؟

قال : أما منذ أئتفكت بابل إئتفاكها الآخر لم يرهما أحد .

قال قتادة : السحر سحران : سحرٌ تعلّمهم الشياطين وسحر يعلّمه هاروت وماروت وهو قوله تعالى ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ﴾ وهو أن يؤخذ كلّ واحد منهما عن صاحبه ويبّغض كل واحد إلى صاحبه .

وفي (المرَء) أربع قراءات : قرأ الحسن : المرَّ بفتح الميم وتشديد الرّاء جعله عوضاً عن الهمزة .

وقرأ الزهري : المرُءُ بضم الميم والهمزة .

وحكى يعقوب عن جدّه : بكسر الميم والهمزة .

وقرأ الباقون : بفتح الميم والهمزة .

وأمّا كيفية تعليمهما السّحر فقد ورد فيه خبر جامع وهو ما روى هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة زوج النبّي ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ أنّها قالت : قدمت عليَّ امرأة من أهل دومة الجندل جاءت تبتغي رسول الله ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ بعد موته حَدَاثة ذلك تسأله عن شيء دخلت فيه من أمر السّحر قالت عائشة لعروة : يا ابن أختي فرأيتها تبكي حين لم تجد رسول الله ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ وكانت تبكي حتّى إنّي لأرحمها بقولي واني لأخاف أنْ تكون قد هلكت ، قالت كان لي زوج فغاب عنّي فدخلت على عجوز وشكوت إليها ذلك فقالت : إنْ فعلت ما أمرتك به فأجعله يأتيك فلمّا كان الليل جائتني بكلبين أسودين فركبت أحدهما وركبت الأخر فلم يكن حتّى وقفنا على بابل ، فإذا برجلين معلّقين بأرجلهما فقالا : ما جاء بك ؟

فقلت أتعلم السحر .

فقالا : إنّما نحن فتنة فلا تكفري وارجعي فأبيت فقلت : لا .

قالا : فأذهبي إلى ذلك التّنور فبُولي فيه فذهبت ففزعت ولم أفعل فرجعت إليهما فقالا :

فعلت ، قلت : نعم . فقالا هل رأيت شيئاً ؟

قلت : لم أرَ شيئاً .

فقالا : لم تفعلي ارجعي إلى بلدك ولا تكفري فأبيت ، فقالا : اذهبي إلى التّنور فبُولي فيه . فذهبت فاقشعّر جلدي وخفت ثمّ رجعت إليهما فقلت قد فعلت . قالا : فما رأيتي ؟ قلت : لم أرَ شيئاً .

فقالا : كذبت لم تفعلي ، ارجعي إلى بلادك فلا تكفري فإنّك على رأس أمرك . فأبيت .

فقالا : اذهبي إلى ذلك التّنور فبُولي فيه فذهبت إليه فبلت فيه ، فرأيت فارساً مقنعاً بالحديد خرج منّي حتّى ذهب في السّماء وقد غاب عنّي حتّى لم أره فجئتهما فقلت قد فعلت قالا : فما رأيت ؟

(110/61)

قلت : رأيت فارساً مقنّعاً بالحديد خرج منّي فذهب في السّماء حتّى ما أراه . قالا : صدقت ذلك ايمانك خرج منك إذهبي إلى المرأة وقول لها : والله ما أعلم شيئاً وما قال لي شيئاً ، قالت بلى ، قالا : لن تريدي شيئاً إلاّ كان . خذي هذا القمح فأبذري فبذرت فقلت : إطلعي فطلعت فقلت : إحقلي فحقلت ثمّ قلت إفركي فأفركت ثمّ قلت اطحني فطحنت ثمّ قلت اخبزي فخبزت فلمّا رأيت إنّي لا أريد شيئاً إلاّ كان سقط في يدي وندمت والله يا أُم المؤمنين ما فعلت شيئاً قط ولا أفعله أبداً .

فأما كيفية جواز تعليم السّحر على الملائكة ووجه الآية وحملها على التّأويل الصحيح :

فقال بعضهم : إنّهما كانا لا يتعمّدان تعليم السحر ولكنّهما يصفانه ويذكران بطلانه ويأمران باجتنابه واعلم وعلّم بمعنى واحد وفي هذا حكمة : وهي إنّ سائلاً لو سأل عن الزّنا لوجب أن يوقف عليه ويعلّم أنّه حرام ، وكذلك إعلام الملكين النّاس وأمرهما باجتنابه بعد الاعلام والأخبار إنّه كفر حرام فيتعلّم الشقي منهما وفي حلال صفتهما وترك موعظتهما ونصيحتهما ولا يكون على هذا التأويل تعلّم السحر كفراً وإنّما يكون العمل به كفراً كما إنّ من عرف الزّنا لم يأثم إنّما يأثم العامل به ، والقول الآخر والأصح : إنّ الله تعالى إمتحن النّاس بالملكين في ذلك الوقت وجعل المحنة في الكفر والإيمان أن يقبل القابل تعلّم السّحر فيكفر بتعلّمه ويؤمن بترك التعلّم ، لأنّ السّحر كان قد كثر في كلّ الأمة ويزداد المعلّمان عذاباً بتعليمه فيكون ذلك إبتلاء للمعلّم والمتعلّم ولله تعالى أن يمتحن عباده بما شاء كما امتحن بني اسرائيل بالنّهر في قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ ﴾ يدلّ عليه قوله ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ ﴾ وهذان حكاهما الزجّاج واعتمدهما . قال الله تعالى :

[البقرة :]

﴿ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ ﴾ أي أحداً ومن صلة .

﴿ إِلا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ (أو إلاّ بقضاء الله أو إلاّ بإذن الله أي بمرأى ومسمع) أي بعلمه وقضائه ومشيئته وتكوينه (والساحر يسحر ولا يكون شيء) .

﴿ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ ﴾ أي السحر وقرأ عبيد بن عمير : ما يُضرهم من أضرّ يضرّ .

﴿ وَلَقَدْ عَلِمُوا ﴾ يعني اليهود ﴿ لَمَنِ اشْتَرَاهُ ﴾ اختار السّحر .

﴿ مَا لَهُ فِى الآخرة ﴾ أي في الجنّة ﴿ مِنْ خَلَاقٍ ﴾ من نصيب .

وقال الحسن : ماله في الآخرة من خلاق من دين ولا وجه عند الله .

ابن عبّاس : من قوام ، وقيل من خلاص .

قال أميّة : يدعون بالويل فيها لا خلاق لهم إلاّ السرابيل من قطر وإغلال ، أي لا خلاص لهم .

﴿ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ ﴾ باعوا به حظّ ﴿ أَنفُسَهُمْ ﴾ حين اختاروا السّحر والكفر على الدين والحق . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الكشف والبيان حـ 1 صـ 242. 251 ﴾

ومن فوائد ابن كثير فى الآية

قال عليه الرحمة :

وقال العوفي في تفسيره ، عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا ﴾ وكان حين ذهب مُلْكُ سليمان ارتد فِئَامٌ من الجن والإنس واتبعوا الشهوات ، فلما رجع اللهُ إلى سليمان ملكه ، وقام الناس على الدين كما كان أوان سليمان ، ظهر على كتبهم فدفنها تحت كرسيه ، وتوفي سليمان ، عليه السلام ، حدثان ذلك ، فظهر الإنس والجن على الكتب بعد وفاة سليمان ، وقالوا : هذا كتاب من الله نزل على سليمان وأخفاه عنا فأخذوا به فجعلوه دينًا . فأنزل الله : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ واتبعوا الشهوات ، [أي] : التي كانت [تتلو الشياطين] وهي المعازف واللعب وكل شيء يصد عن ذكر الله .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو أسامة ، عن الأعمش ، عن المنهال ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، قال : كان آصف كاتب سليمان ، وكان يعلم الاسم " الأعظم " ، وكان يكتب كل شيء بأمر سليمان ويدفنه تحت كرسيه ، فلما مات سليمان أخرجه الشياطين ، فكتبوا بين كل سطرين سحرًا وكفرًا ، وقالوا : هذا الذي كان سليمان يعمل بها .

قال : فأكفره جُهَّال الناس وسبّوه ، ووقف علماؤهم فلم يزل جهالهم يسبونه ، حتى أنزل الله على محمد صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا ﴾ .

وقال ابن جرير : حدثني أبو السائب سلم بن جنادة السوائي ، حدثنا أبو معاوية ، حدثنا عن الأعمش ، عن المنهال ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، قال : كان سليمان ، عليه السلام ، إذا أراد أن يدخل الخلاء ، أو يأتي شيئًا من نسائه ، أعطى الجرادة – وهي امرأة – خاتمه . فلما أراد الله أن يبتلي سليمان ، عليه السلام ، بالذي ابتلاه به ، أعطى الجرادة ذات يوم خاتَمه ، فجاء الشيطان في صورة سليمان فقال لها : هاتي خاتمي . فأخذه فلبسه . فلما لبسه دانت له الشياطين والجن والإنس . قال : فجاءها سليمان ، فقال : هاتي خاتمي فقالت : كذبت ، لست سليمان . قال : فعرف سليمان أنه بلاء ابتلي به . قال : فانطلقت الشياطين فكتبت في تلك الأيام كتبًا فيها سحر وكفر . ثم دفنوها تحت كرسي سليمان ، ثم أخرجوها وقرؤوها على الناس ، وقالوا : إنما كان سليمان يغلب الناس بهذه الكتب . قال : فبرئ الناس من سليمان ، عليه السلام ، وأكفروه حتى بعث الله محمدًا صلى الله عليه وسلم وأنزل عليه : ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا ﴾

ثم قال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا جرير ، عن حصين بن عبد الرحمن ، عن عمران ،

وهو ابن الحارث قال : بينا نحن عند ابن عباس – رضي الله عنهما – إذ جاء رجل فقال له : مِنْ أين جئت ؟ قال : من العراق . قال : من أيِّه ؟ قال : من الكوفة . قال : فما الخبر ؟ قال : تركتهم يتحدثون أن عليا خارج إليهم . ففزع ثم قال : ما تقول ؟ لا أبا لك ! لو شعرنا ما نكحنا نساءه ، ولا قسمنا ميراثه ، أما إني سأحدثكم عن ذلك : إنه كانت الشياطين يسترقون السمع من السماء ، فيجيء أحدهم بكلمة حق قد سمعها ، فإذا جُرِّبَ منه صدق كذب معها سبعين كذْبة ، قال : فَتَشْرُبُها قلوب الناس . فأطلع الله عليها سليمان . عليه السلام ، فدفنها تحت كرسيه . فلما توفي سليمان ، عليه السلام ، قام شيطانُ الطريق ، فقال : أفلا أدلكم على كنزه المنَّع الذي لا كنز له مثله ؟ تحت الكرسي . فأخرجوه ، فقالوا هذا سحره فتناسخا الأمم – حتى بقاياها ما يتحدث به أهل العراق – وأنزل الله عز وجل ﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا ﴾

ورواه الحاكم في مستدركه ، عن أبي زكريا العَنْبري ، عن محمد بن عبد السلام ، عن إسحاق بن إبراهيم ، عن جرير ، به .

وقال السدي في قوله تعالى : ﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ ﴾ أي : على عهد سليمان . قال : كانت الشياطين تصعد إلى السماء ، فتقعد منها مقاعد للسمع ، فيستمعون من كلام الملائكة مما يكون في الأرض من موت أو غيب أو أمر ، فيأتون الكهنة فيخبرونهم . فتحدّث الكهنة الناسَ فيجدونه كما قالوا . حتى إذا أمنتهم الكهنة كذبوا لهم . وأدخلوا فيه غيره ، فزادوا مع كل كلمة سبعين كلمة ، فاكتتب الناسُ ذلك الحديثَ في الكتب ، وفشا في بني إسرائيل أن الجن تعلم الغيب . فبُعث سليمانُ في الناس فجمع تلك الكتب فجعلها في صندوق . ثم دفنها تحت كرسيه . ولم يكن أحد من الشياطين يستطيع أن يدنو من الكرسي إلا احترق . وقال : لا أسمع أحدًا يذكر أن الشياطين يعلمون الغيب إلا ضربت عنقه . فلما مات سليمان ، عليه السلام ، وذهبت العلماء الذين كانوا يعرفون أمر سليمان ، وخلف من بعد ذلك خَلْف تمثل شيطان في صورة إنسان ، ثم أتى نفرًا من بني إسرائيل ، فقال لهم : هل أدلكم على كنز لا تأكلونه أبدًا ؟ قالوا : نعم . قال : فاحفروا تحت الكرسي . وذهب معهم وأراهم المكان ، وقام ناحية ، فقالوا له : فَادْنُ . قال لا ولكنني ها هنا في أيديكم ، فإن لم تجدوه فاقتلوني . فحفروا فوجدوا تلك الكتب . فلما

أخرجوها قال الشيطان : إن سليمان إنما كان يضبط الإنس والشياطين والطير بهذا السحر . ثم طار وذهب . وفشا في الناس أن سليمان كان

(115/61)

ساحرًا . واتخذت بنو إسرائيل تلك الكتب ، فلما جاء محمد صلى الله عليه وسلم خاصموه بها ؛ فذلك حين يقول الله تعالى : ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا ﴾ وقال الربيع بن أنس : إن اليهود سألوا محمدًا صلى الله عليه وسلم زمانًا عن أمور من التوراة ، لا يسألونه عن شيء من ذلك إلا أنزل الله تعالى عليه ما سألوه عنه ، فيخصمهم ، فلما رأوا ذلك قالوا : هذا أعلم بما أنزل الله إلينا منا . وإنهم سألوه عن السحر وخاصموه به ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ ﴾ وإن الشياطين عَمَدوا إلى كتاب فكتبوا فيه السحر والكهانة وما شاء الله من ذلك ، فدفنوه تحت مجلس سليمان ، وكان [سليمان] عليه السلام ، لا يعلم الغيب . فلما فارق سليمان الدنيا استخرجوا ذلك السحر وخدعوا الناس ، وقالوا : هذا علم كان سليمان يكتمه ويحسد الناس عليه . فأخبرهم النبي صلى الله عليه وسلم بهذا الحديث فرجعوا من عنده وقد حزنوا ،

وأدحض الله حجتهم.

وقال مجاهد في قوله: ﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ ﴾ قال: كانت الشياطين تستمع الوحي فما سمعوا من كلمة [إلا] زادوا فيها مائتين مثلها. فأرسِل سليمان، عليه السلام، إلى ما كتبوا من ذلك. فلما توفي سليمان وجدته الشياطين فعلمته الناس [به] وهو السحر.

(116/61)

وقال سعيد بن جبير: كان سليمان، عليه السلام، يتتبع ما في أيدي الشياطين من السحر فيأخذه منهم، فيدفنه تحت كرسيه في بيت خزانته، فلم يقدر الشياطين أن يصلوا إليه، فدبَّت إلى الإنس، فقالوا لهم: أتدرون ما العلم الذي كان سليمان يسخر به الشياطين والرياح وغير ذلك؟ قالوا: نعم. قالوا: فإنه في بيت خزانته وتحت كرسيه. فاستثار به الإنسُ واستخرجوه فعملوا بها. فقال أهل الحجا: كان سليمان يعمل بهذا وهذا سحر. فأنزل الله تعالى على [لسان] نبيه محمد صلى الله عليه وسلم براءة سليمان عليه السلام، فقال: ﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا ﴾

وقال محمد بن إسحاق بن يسار عمدت الشياطين حين عرفت موت سليمان بن داود ، عليه السلام فكتبوا أصناف السحر : " من كان يحب أن يبلغ كذا وكذا فليقل كذا وكذا " . حتى إذا صنفوا أصناف السحر جعلوه في كتاب . ثم ختموا بخاتم على نقش خاتم سليمان ، وكتبوا في

(117/61)

عُنْوانه : " هذا ما كتب آصف بن برخيا الصديق للملك سليمان بن داود ، عليهما السلام من ذخائر كنوز العلم " . ثم دفنوه تحت كرسيه واستخرجته بعد ذلك بقايا بني إسرائيل حتى أحدثوا ما أحدثوا . فلما عثروا عليه قالوا : والله ما كان سليمان بن داود إلا بهذا . فأفشوا السحر في الناس [وتعلموه وعلموه] .

وليس هو في أحد أكثر منه في اليهود لعنهم الله . فلما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما نزل عليه من الله ، سليمان بن داود ، وعده فيمن عَدَّه من المرسلين ، قال من كان بالمدينة من يهود : ألا تعجبون من محمد ! يزعم أن ابن داود كان نبيًا ، والله ما كان إلا ساحرًا . وأنزل الله [في] ذلك من قولهم : ﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا ﴾ الآية .

وقال ابن جرير : حدثنا القاسم ، حدثنا حسين ، حدثنا الحجاج عن أبي بكر ، عن شَهْر بن حَوشب ، قال : لما سلب سليمان ، عليه السلام ، ملكه ، كانت الشياطين تكتب السحر في غيبة سليمان . فكتبت : " من أراد أن يأتي كذا وكذا فليستقبل الشمس ، وليقل كذا وكذا ومن أراد أن يفعل كذا وكذا فليستدبر الشمس وليقل كذا وكذا . فكتبته وجعلت عنوانه : هذا ما كتب آصف بن برخيا للملك سليمان [بن داود] من ذخائر كنوز العلم" . ثم دفنته تحت كرسيه . فلما مات سليمان ، عليه السلام ، قام إبليس ، لعنه الله ، خطيبًا ، [ثم] قال : يا أيها الناس ، إن سليمان لم يكن نَبيًّا ، إنما كان ساحرًا ، فالتمسوا سحره في متاعه وبيوته . ثم دلهم على المكان الذي دفن فيه . فقالوا : والله لقد كان سليمان ساحرًا ! هذا سحره ، بهذا تَعبدنا ، وبهذا قهرنا . وقال المؤمنون : بل كان نبيًا مؤمنًا . فلما بعث الله النبي صلى الله عليه وسلم جعل يذكر الأنبياء حتى ذكر داود وسليمان . فقالت اليهود [لعنهم الله] انظروا إلى محمد يخلط الحق بالباطل . يذكر سليمان مع الأنبياء . إنما كان ساحرًا يركب الريح ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ ﴾ الآية .

وقال ابن جرير : حدثنا محمد بن عبد الأعلى الصنعاني ، قال : حدثنا المعتمر بن سليمان ، قال : سمعت عمران بن حُدَير ، عن أبي مِجْلَز ، قال : أخذ سليمان ، عليه السلام ، من كل دابة عهدًا ، فإذا أصيب رجل فسأل بذلك العهد ، خلى عنه . فزاد الناس السجع والسحر ، وقالوا : هذا يعمل به

(119/61)

سليمان . فقال الله تعالى : ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ ﴾ .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا عصام بن رَوّاد ، حدثنا آدم ، حدثنا المسعودي ، عن زياد مولى ابن مصعب ، عن الحسن : ﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ ﴾ قال : ثلث الشعر ، وثلث السحر ، وثلث الكهانة .

وقال : حدثنا الحسن بن أحمد ، حدثنا إبراهيم بن عبد الله بن بشار الواسطي ، حدثني سُرور بن المغيرة ، عن عباد بن منصور ، عن الحسن : ﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ ﴾ واتبعته اليهود على ملكه . وكان السحر قبل ذلك في الأرض لم يزل بها ، ولكنه إنما اتبع على ملك سليمان .

فهذه نبذة من أقوال أئمة السلف في هذا المقام ، ولا يخفى ملخص القصة والجمع بين أطرافها ، وأنه لا تعارض بين السياقات على اللبيب الفَهِم ، والله الهادي . وقوله تعالى : ﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ ﴾ أي : واتبعت اليهود – الذين أوتوا الكتاب بعد إعراضهم عن كتاب الله الذي بأيديهم ومخالفتهم الرسول محمدا صلى الله عليه وسلم ما تتلوه الشياطين ، أي : ما ترويه وتخبر به وتُحدثه الشياطين على ملك سليمان . وعداه بعلى ؛ لأنه تضمن تتلو : تكذب . وقال ابن جرير : " على " هاهنا بمعنى " في " ، أي : تتلو في ملك سليمان . ونقله عن ابن جُرَيج ، وابن إسحاق .

قلت : والتضمن أحسن وأولى ، والله أعلم .

(120/61)

وقول الحسن البصري ، رحمه الله : " قد كان السحر قبل زمان سليمان بن داود " صحيح لا شك فيه ؛ لأن السحرة كانوا في زمان موسى ، عليه السلام ، وسليمان بن داود بعده ، كما قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ الآية [البقرة : 246] ، ثم ذكر القصة بعدها ، وفيها : ﴿ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ [البقرة : 251] . وقال قوم صالح –

وهم قبل إبراهيم الخليل ، عليه السلام ، لنبيهم صالح : ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴾ [الشعراء : 153] أي : [من] المسحورين على المشهور .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ﴾ اختلف الناس في هذا المقام ، فذهب بعضهم إلى أن " ما " نافية ، أعني التي في قوله : ﴿ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ ﴾

قال القرطبي : " ما " نافية ومعطوفة على قوله : ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ ﴾ ثم قال : ﴿ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ ﴾ أي : السحر ﴿ عَلَى الْمَلَكَيْنِ ﴾ وذلك أن اليهود – لعنهم الله – كانوا يزعمون أنه نزل

(121/61)

به جبريل وميكائيل فأكذبهم الله في ذلك وجعل قوله : ﴿ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ﴾ بدلا من : ﴿ الشياطين ﴾ قال : وصح ذلك ، إما لأن الجمع قد يطلق على الاثنين كما في قوله : ﴿ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ ﴾ [النساء : 11] أو يكون لهما أتباع ، أو ذكرا من بينهم لتمردهما ، فتقدير الكلام عنده : تعلمون الناس السحر ببابل ، هاروت وماروت . ثم قال : وهذا أولى

ما حملت عليه الآية وأصح ولا يلتفت إلى ما سواه .

وروى ابن جرير بإسناده من طريق العوفي ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ﴾ يقول : لم ينزل الله السحر . وبإسناده ، عن الربيع بن أنس ، في قوله : ﴿ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ ﴾ قال : ما أنزل الله عليهما السحر .

(122/61)

قال ابن جرير : فتأويل الآية على هذا : واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان من السحر ، وما كفر سليمان ، ولا أنزل الله السحر على الملكين ، ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ببابل ، هاروت وماروت . فيكون قوله : ﴿ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ﴾ من المؤخر الذي معناه المقدم . قال : فإن قال لنا قائل : وكيف وجه تقديم ذلك ؟ قيل : وجه تقديمه أن يقال : ﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ ﴾ - " من السحر " - ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ ﴾ وما أنزل الله " السحر " على الملكين ، ﴿ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ ﴾ ببابل وهاروت وماروت فيكون معنيا بالملكين : جبريل وميكائيل ، عليهما السلام ؛ لأن سحرة اليهود فيما ذكر كانت تزعم أن الله أنزل السحر على لسان جبريل وميكائيل إلى سليمان بن داود ، فأكذبهم الله بذلك ، وأخبر نبيه

محمدًا صلى الله عليه وسلم أن جبريل وميكائيل لم ينزلا بسحر ، وبرأ سليمان ، عليه السلام ، مما نحلوه من السحر ، وأخبرهم أن السحر من عمل الشياطين ، وأنها تعلم الناس ذلك ببابل ، وأن الذين يعلمونهم ذلك رجلان ، اسم أحدهما هاروت ، واسم الآخر ماروت ، فيكون هاروت وماروت على هذا التأويل ترجمة عن الناس ، وردًا عليهم . هذا لفظه بحروفه .

وقد قال ابن أبي حاتم : حُدّثت عن عُبَيد الله بن موسى ، أخبرنا فضيل بن مرزوق ، عن عطية ﴿ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ ﴾ قال : ما أنزل الله على جبريل وميكائيل السحر .

حدثنا الفضل بن شاذان ، حدثنا محمد بن عيسى ، حدثنا يعلى – يعني ابن أسد – حدثنا بكر – يعني ابن مصعب – حدثنا الحسن بن أبي جعفر : أن عبد الرحمن بن أبزى كان يقرؤها : " وما أنزل على الملكين داود وسليمان " .

(123/61)

وقال أبو العالية : لم ينزل عليهما السحر ، يقول : علما الإيمان والكفر ، فالسحر من الكفر ، فهما ينهيان عنه أشد النهي . رواه ابن أبي حاتم .

ثم شرع ابن جرير في رد هذا القول ، وأن " ما " بمعنى الذي ، وأطال القول في ذلك ، وادعى

أن هاروت وماروت ملكان أنزلهما الله إلى الأرض ، وأذن لهما في تعليم السحر اختبارًا لعباده وامتحانًا ، بعد أن بين لعباده أن ذلك مما ينهى عنه على ألسنة الرسل ، وادعى أن هاروت وماروت مطيعان في تعليم ذلك ؛ لأنهما امتثلا ما أمرا به .

وهذا الذي سلكه غريب جدًا ! وأغرب منه قول من زعم أن هاروت وماروت قبيلان من الجن [كما زعمه ابن حزم] !

وروى ابن أبي حاتم بإسناده . عن الضحاك بن مزاحم : أنه كان يقرؤها : ﴿ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ ﴾ ويقول : هما علجان من أهل بابل .

وَوَجَّه أصحابُ هذا القول الإنزال بمعنى الخَلْق ، لا بمعنى الإيحاء ، في قوله : ﴿ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ﴾ [الزمر : 6] ، ﴿ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ [الحديد : 25] ، ﴿ وَيُنْزِلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا ﴾ [غافر : 13] . وفي الحديث : " ما أنزل الله داء إلا أنزل له دواء " . وكما يقال : أنزل الله الخير والشر .

[وحكى القرطبي عن ابن عباس وابن أبزى والضحاك والحسن البصري : أنهم قرؤوا : " وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلِكَيْنِ " بكسر اللام . قال ابن أبزى : وهما داود وسليمان . قال القرطبي : فعلى هذا تكون " ما " نافية أيضًا] .

وذهب آخرون إلى الوقف على قوله : ﴿ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ ﴾ [و "ما" نافية]

قال ابن جرير : حدثني يونس ، أخبرنا ابن وهب ، أخبرنا الليث ، عن يحيى بن سعيد ، عن القاسم بن محمد ، وسأله رجل عن قول الله تعالى : ﴿ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ﴾ قال الرجل : يعلمان الناس السحر ، ما أنزل عليهما أو يعلمان الناس ما لم ينزل عليهما ؟ فقال القاسم : ما أبالي أيتهما كانت .

ثم روى عن يونس ، عن أنس بن عياض ، عن بعض أصحابه : أن القاسم قال في هذه القصة : لا أبالي أيّ ذلك كان ، إني آمنت به .

وذهب كثير من السلف إلى أنهما كانا ملكين من السماء ، وأنهما أنزلا إلى الأرض ، فكان من أمرهما ما كان . وقد ورد في ذلك حديث مرفوع رواه الإمام أحمد في مسنده كما سنورده إن شاء الله تعالى . وعلى هذا فيكون الجمع بين هذا وبين ما ثبت من الدلائل على عصمة الملائكة أن هذين سبق في علم الله لهما هذا ، فيكون تخصيصًا لهما ، فلا تعارض حينئذ ، كما سبق في علمه من أمر إبليس

ما سبق ، وفي قول : إنه كان من الملائكة ، لقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى ﴾ [طه : 116] ، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ذلك . مع أن شأن هاروت وماروت – على ما ذكر – أخف مما وقع من إبليس لعنه الله .

[وقد حكاه القرطبي عن علي ، وابن مسعود ، وابن عباس ، وابن عمر ، وكعب الأحبار ، والسدي ، والكلبي] (1) .

ذكر الحديث الوارد في ذلك - إن صح سنده ورفعه - وبيان الكلام عليه :

(125/61)

قال الإمام أحمد بن حنبل ، رحمه الله ، في مسنده : حدثنا يحيى بن [أبي] بكير ، حدثنا زهير بن محمد ، عن موسى بن جبير ، عن نافع ، عن عبد الله بن عمر : أنه سمع نبي الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن آدم - عليه السلام - لما أهبطه الله إلى الأرض قالت الملائكة : أي رب ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : 30] ، قالوا : ربنا ، نحن أطوع لك من بني آدم . قال الله تعالى للملائكة : هَلُموا ملكين من الملائكة حتى نهبطهما إلى الأرض ، فننظر كيف يعملان ؟ قالوا : برَبِّنا ، هاروتَ وماروتَ . فأهبطا إلى الأرض ومثُلت لهما الزُّهَرة امرأة من أحسن البشر ، فجاءتهما ، فسألاها نفسها . فقالت : لا والله حتى تتكلما بهذه الكلمة من الإشراك . فقالا والله لا نشرك بالله شيئًا أبدًا . فذهبت عنهما ثم رجعت بصبي تحمله ، فسألاها نفسها . فقالت : لا والله حتى تقتلا هذا الصبي . فقالا لا

والله لا نقتله أبدًا . ثم ذهبت فرجعت بقَدَح خَمْر تحمله ، فسألاها نفسها . فقالت : لا والله حتى تشربا هذا الخمر . فشربا فسكرا ، فوقعا عليها ، وقتلا الصبي . فلما أفاقا قالت المرأة : والله ما تركتما شيئًا أبيتماه عليّ إلا قد فعلتماه حين سكرتما . فخيرَا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ، فاختارا عذاب الدنيا" .

(126/61)

وهكذا رواه أبو حاتم بن حبان في صحيحه ، عن الحسن عن سفيان ، عن أبي بكر بن أبي شيبة ، عن يحيى بن بكير ، به (1) .

وهذا حديث غريب من هذا الوجه ، ورجاله كلهم ثقات من رجال الصحيحين ، إلا موسى بن جبير هذا ، وهو الأنصاري السلمي مولاهم المديني الحذاء ، رَوَى عن ابن عباس وأبي أمامة بن سهل بن حنيف ، ونافع ، وعبد الله بن كعب بن مالك . وروى عنه ابنه عبد السلام ، وبكر بن مضر ، وزهير بن محمد ، وسعيد بن سلمة ، وعبد الله بن لَهِيعة ، وعمرو بن الحارث ، ويحيى بن أيوب . وروى له أبو داود ، وابن ماجه ، وذكره ابن أبي حاتم في كتاب الجرح والتعديل ، ولم يحك فيه شيئًا

من هذا ولا هذا ، فهو مستور الحال (2) وقد تفرد به عن نافع مولى ابن عمر ، عن ابن عمر

عن النبي صلى الله عليه وسلم . وروي له متابع من وجه آخر عن نافع ، كما قال ابن مَرْدُويه : حدثنا دَعْلَجُ بن أحمد ، حدثنا هشام [بن علي بن هشام] حدثنا عبد الله بن رجاء ، حدثنا سعيد بن سلمة ، حدثنا موسى بن سَرْجِس ، عن نافع ، عن ابن عمر : سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول . فذكره بطوله .

---

(1) المسند (2/ 134) وصحيح ابن حبان برقم (1717) "موارد" وقال أبو حاتم في العلل (2/ 69) : "هذا حديث منكر" .

(2) الجرح والتعديل (8/ 139) وذكره ابن حبان في الثقات (7/451) وقال : "يخطئ ويخالف" .

وقال أبو جعفر بن جرير : حدثنا القاسم ، حدثنا الحسين – وهو سنيد بن داود صاحب التفسير – حدثنا الفرج بن فضالة ، عن معاوية بن صالح ، عن نافع ، قال : سافرت مع ابن عمر ، فلما كان من آخر الليل قال : يا نافع ، انظر ، طلعت الحمراء ؟ قلت : لا – مرتين أو ثلاثًا – ثم قلت : قد طلعت . قال : لا مرحبًا بها ولا أهلا ؟ قلت : سبحان الله ! نجم مسخر سامع مطيع . قال : ما قلت لك إلا ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم

- أو قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم - : " إن الملائكة قالت : يا رب ، كيف صبرك على بني آدم في الخطايا والذنوب ؟ قال : إني ابتليتهم وعافيتكم . قالوا : لو كنا مكانهم ما عصيناك . قال : فاختاروا ملكين منكم . قال : فلم يألوا جهدًا أن يختاروا ، فاختاروا هاروت وماروت" .

وهذان - أيضاً - غريبان جدًّا . وأقرب ما في هذا أنه من رواية عبد الله بن عمر ، عن كعب الأحبار ، لا عن النبي صلى الله عليه وسلم ، كما قال عبد الرزاق في تفسيره ، عن الثوري ، عن موسى بن عقبة ، عن سالم ، عن ابن عمر ، عن كعب ، قال ذكرت الملائكة أعمال بني آدم ، وما يأتون من الذنوب ، فقيل لهم : اختاروا منكم اثنين ، فاختاروا هاروت وماروت . فقال لهما : إني أرسل إلى بني آدم رسلا وليس بيني وبينكم رسول ، انزلا لا تشركا بي شيئًا ولا تزنيا ولا تشربا الخمر . قال كعب : فوالله ما أمسيا من يومهما الذي أهبطا فيه حتى استكملا جميع ما نهيا عنه .

(128/61)

ورواه ابن جرير من طريقين ، عن عبد الرزاق ، به (1) .

ورواه ابن أبي حاتم ، عن أحمد بن عصام ، عن مُؤَمَّل ، عن سفيان الثوري ، به .

ورواه ابن جرير أيضاً : حدثني المثنى ، حدثنا المعلى - وهو ابن أسد - حدثنا عبد العزيز بن المختار ، عن موسى بن عقبة ، حدثني سالم أنه سمع عبد الله يحدث ، عن كعب الأحبار ، فذكره .

فهذا أصح وأثبت إلى عبد الله بن عمر من الإسنادين المتقدمين ، وسالم أثبت في أبيه من مولاه

نافع . فدار الحديث ورجع إلى نقل كعب الأحبار ، عن كتب بني إسرائيل ، والله أعلم .

ذكر الآثار الواردة في ذلك عن الصحابة والتابعين رضي الله عنهم أجمعين :

قال ابن جرير : حدثني المثنى ، حدثنا الحجاج حدثنا حماد ، عن خالد الحذاء ، عن عمير بن سعيد ، قال : سمعت عليًا ، رضي الله عنه ، يقول : كانت الزُّهَرة امرأة جميلة من أهل فارس ، وإنها خاصمت إلى الملكين هاروت وماروت ، فراوداها عن نفسها ، فأبت عليهما إلا أن يعلماها الكلام الذي إذا تكلَّم [المتكلم] به يُعْرج به إلى السماء . فعلماها فتكلمت به فعرجت إلى السماء . فمسخت كوكبًا !

وهذا الإسناد [جيد و] رجاله ثقات ، وهو غريب جداً .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا الفضل بن شاذان ، حدثنا محمد بن عيسى ، حدثنا إبراهيم بن موسى ، حدثنا أبو معاوية ، عن [ابن أبي] خالد ، عن عمير بن سعيد ، عن علي

---

(1) تفسير عبد الرزاق (1/ 73 ، 74) . وتفسير الطبري (429/2) .

قال : هما ملكان من ملائكة السماء . يعني : ﴿ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ ﴾ (1) .

ورواه الحافظ أبو بكر بن مَرْدُويه في تفسيره بسنده ، عن مغيث ، عن مولاه جعفر بن محمد ، عن أبيه ، عن جده ، عن علي – مرفوعًا . وهذا لا يثبت من هذا الوجه .

ثم رواه من طريقين آخرين ، عن جابر ، عن أبي الطفيل ، عن علي ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لعن الله الزّهَرة ، فإنها هي التي فتنت الملكين هاروت وماروت" . وهذا أيضًا لا يصح وهو منكر جدًا . والله أعلم . (2)

وقال ابن جرير : حدثني المثنى بن إبراهيم ، حدثنا الحجاج بن مِنْهال ، حدثنا حماد ، عن علي بن زيد ، عن أبي عثمان النهدي ، عن ابن مسعود وابن عباس أنهما قالا جميعًا : لما كثر بنو آدم وعصوا ، دعت الملائكة عليهم والأرض والجبال ربنا لا تهلكهم فأوحى الله إلى الملائكة : إني أزلت الشهوة والشيطان من قلوبكم ، ولو نزلتم لفعلتم أيضًا . قال : فحدثوا أنفسهم أن لو ابتلوا اعتصموا ، فأوحى الله إليهم أن اختاروا ملكين من أفضلكم . فاختاروا هاروت وماروت . فأهبطا إلى الأرض ، وأنزلت الزُّهَرة إليهما في صورة امرأة من أهل فارس يسمونها بيذخت . قال : فوقعا بالخطيَّة .

فكانت الملائكة يستغفرون للذين آمنوا : ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا ﴾ [غافر : 7]

---

(1) تفسير ابن أبي حاتم (1/ 303) .

(2) ورواه ابن السني في عمل اليوم والليلة برقم (654) من طريق عيسى بن يونس عن أخيه إسرائيل عن جابر عن أبي الطفيل عن علي به .

فلما وقعا بالخطيئة استغفروا لمن في الأرض ألا إن الله هو الغفور الرحيم . فخيرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ، فاختاروا عذاب الدنيا .

وقال : ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا عبد الله بن جعفر الرقي ، أخبرنا عبيد الله – يعني ابن عمرو – عن زيد بن أبي أنيسة ، عن المِنْهال بن عمرو ويونس بن خباب ، عن مجاهد ، قال : كنت نازلا على عبد الله بن عمر في سفر ، فلما كان ذات ليلة قال لغلامه : انظر ، هل طلعت الحمراء ، لا مرحبًا بها ولا أهلا ولا حياها الله هي صاحبة الملكين .

قالت الملائكة : يا رب ، كيف تدع عصاة بني آدم وهم يسفكون الدم الحرام وينتهكون محارمك ويفسدون في الأرض ! قال : إني ابتليتهم ، فعلَّ إن ابتليتكم بمثل الذي ابتليتهم به

فعلتم كالذي يفعلون . قالوا : لا . قال : فاختاروا من خياركم اثنين . فاختاروا هاروت وماروت . فقال لهما : إني مهبطكما إلى الأرض ، وعاهد إليكما ألا تشركا ولا تزنيا ولا تخونا . فأهبطا إلى الأرض وألقي عليهما الشَّبَق ، وأهبطت لهما الزُّهَرة في أحسن صورة امرأة ، فتعرضت لهما ، فراوداها عن نفسها . فقالت : إني على دين لا يصح لأحد أن يأتيني إلا من كان على مثله . قالا وما دينك ؟ قالت : المجوسية . قالا الشرك ! هذا شيء لا نقربه . فمكثت عنهما ما شاء الله . ثم تعرضت لهما فأراداها عن نفسها . فقالت : ما شئتما ، غير أن لي زوجًا ، وأنا أكره أن يطلع على هذا مني فأفتضح ، فإن أقررتما لي بديني ، وشرطتما لي أن تصعدا بي إلى السماء فعلت . فأقرا لها بدينها وأتياها فيما يريان ، ثم صعدا بها إلى السماء . فلما انتهيا بها إلى السماء اختطفت منهما ، وقطعت أجنحتهما فوقعا خائفين نادمين يبكيان ، وفي الأرض نبي يدعو بين الجمعتين ، فإذا كان يوم الجمعة أجيب . فقالا لو أتينا فلانًا فسألناه فطلب لنا التوبة فأتياه ، فقال : رحمكما الله كيف يطلب التوبة أهل الأرض لأهل السماء ! قالا إنا قد ابتلينا . قال : ائتياني يوم الجمعة . فأتياه ، فقال : ما أجبت فيكما بشيء ، ائتياني في الجمعة الثانية . فأتياه ، فقال : اختارا ، فقد خيرتما

، إن أحببتما معافاة الدنيا وعذاب الآخرة ، وإن أحببتما فعذاب الدنيا وأنتما يوم القيامة على حكم الله . فقال أحدهما : إن الدنيا لم يمض منها إلا القليل . وقال الآخر : ويحك ؟ إني قد أطعتك في الأمر الأول فأطعني الآن ، إن عذابا يفنى ليس كعذاب يبقى . وإننا يوم القيامة على حكم الله ، فأخاف أن يعذبنا . قال : لا إني أرجو إن علم الله أنا قد اخترنا عذاب الدنيا مخافة عذاب الآخرة لا يجمعهما علينا . قال : فاختارا عذاب الدنيا ، فجعلا في بكرات من حديد في قَلِيب مملوءة من نار ، عَاليهُمَا سافلَهما (1) .

وهذا إسناد جيد إلى عبد الله بن عمر . وقد تقدم في رواية ابن جرير من حديث معاوية بن صالح ، عن نافع ، عنه رفعه . وهذا أثبت وأصح إسنادًا . ثم هو – والله أعلم – من رواية ابن عمر عن كعب ، كما تقدم بيانه من رواية سالم عن أبيه . وقوله : إن الزُّهَرة نزلت في صورة امرأة حسناء ، وكذا في المروي عن علي ، فيه غرابة جدًا .

---

(1) تفسير ابن أبي حاتم (1/ 306 ، 307) .

وأقرب ما ورد في ذلك ما قال ابن أبي حاتم : حدثنا عصام بن روّاد ، حدثنا آدم ، حدثنا أبو جعفر ، حدثنا الربيع بن أنس ، عن قيس بن عباد ، عن ابن عباس ، رضي الله عنهما قال : لما وقع الناس من بعد آدم ، عليه السلام ، فيما وقعوا فيه من المعاصي والكفر بالله ، قالت الملائكة في السماء : يا رب ، هذا العالم الذي إنما خلقتهم لعبادتك وطاعتك ، قد وقعوا فيما وقعوا فيه وركبوا الكفر وقتل النفس وأكل المال الحرام ، والزنا والسرقة وشرب الخمر . فجعلوا يدعون عليهم ، ولا يعذرونهم ، فقيل : إنهم في غَيْب . فلم يعذروهم . فقيل لهم : اختاروا منكم من أفضلكم ملكين ، آمرهما وأنهاهما . فاختاروا هاروت وماروت . فأهبطا إلى الأرض ، وجعل لهما شهوات بني آدم ، وأمرهما الله أن يعبداه ولا يشركا به شيئًا ، ونهيا عن قتل النفس الحرام وأكل المال الحرام ، وعن الزنا والسرقة وشرب الخمر . فلبثا في الأرض زمانًا يحكمان بين الناس بالحق وذلك في زمان إدريس عليه السلام . وفي ذلك الزمان امرأة حسنها في النساء كحسن الزُّهَرة في سائر الكواكب ، وأنهما أتيا عليها فخضعا لها في القول وأراداها على نفسها فأبت إلا أن يكونا على أمرها وعلى دينها ، فسألاها عن دينها ، فأخرجت لهما صنمًا فقالت : هذا أعبده . فقالا لا حاجة لنا في عبادة هذا . فذهبا فغَبَرا ما شاء الله . ثم أتيا عليها فأراداها على نفسها ، ففعلت مثل ذلك . فذهبا ، ثم أتيا عليها فراوداها على نفسها ، فلما رأت أنهما قد أبيا أن يعبدا الصنم قالت لهما : اختارا إحدى الخلال الثلاث : إما أن تعبدا هذا الصنم ، وإما أن تقتلا هذه

النفس ، وإما أن تشربا هذا الخمر . فقالا كل هذا لا ينبغي ، وأهون هذا شرب الخمر . فشربا الخمر فأخذت فيهما فواقعا المرأة ، فخشيا أن يخبر الإنسان عنهما فقتلاه فلما ذهب عنهما السكر وعلما ما وقعا فيه من الخطيئة أرادا أن يصعدا إلى السماء ، فلم يستطيعا ، وحيل بينهما وبين ذلك

(133/61)

، وكشف الغطاء فيما بينهما وبين أهل السماء ، فنظرت الملائكة إلى ما وقعا فيه ، فعجبوا كل العجب ، وعَرَفوا أنه من كان في غيب فهو أقل خشية ، فجعلوا بعد ذلك يستغفرون لمن في الأرض ، فنزل في ذلك : ﴿ وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الأَرْضِ ﴾ [الشورى : 5] فقيل لهما : اختارا عذاب الدنيا أو عذاب الآخرة فقالا أما عذاب الدنيا فإنه ينقطع

ويذهب ، وأما عذاب الآخرة فلا انقطاع له . فاختارا عذاب الدنيا ، فجعلا ببابل ، فهما يعذبان (1) .

وقد رواه الحاكم في مستدركه مطولا عن أبي زكريا العنبري ، عن محمد بن عبد السلام ، عن إسحاق بن راهويه ، عن حكام بن سلم الرازي ، وكان ثقة ، عن أبي جعفر الرازي ،

به . ثم قال : صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه . فهذا أقرب ما روي في شأن الزُّهَرة ، والله أعلم (2) .

---

(1) تفسير ابن أبي حاتم (1/ 305) .

(2) وقد أبطل الإمام ابن حزم قصة هاروت وماروت ورد على من ادعى شربهما الخمر وارتكابهما الزنا والقتل في كتابه الفصل (3 / 303 - 308 ، 4/ 61 - 65) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا مسلم ، حدثنا القاسم بن الفضل الحُدَّاني حدثنا يزيد - يعني الفارسي - عن ابن عباس [قال] أن أهل سماء الدنيا أشرفوا على أهل الأرض فرأوهم يعملون المعاصي فقالوا : يا رب أهل الأرض كانوا يعملون بالمعاصي ! فقال الله : أنتم معي ، وهم غُيَّب عني . فقيل لهم : اختاروا منكم ثلاثة ، فاختاروا منهم ثلاثة على أن يهبطوا إلى الأرض ، على أن يحكموا بين أهل الأرض ، وجعل فيهم شهوة الآدميين ، فأمروا ألا يشربوا خمرًا ولا يقتلوا نفسا ، ولا يزنوا ، ولا يسجدوا لوثن . فاستقال منهم واحد ، فأقيل . فأهبط اثنان إلى الأرض ، فأتتهما امرأة من أحسن الناس يقال لها : مناهية . فَهَوِيَاها جميعًا ، ثم أتيا منزلها فاجتمعا عندها ، فأراداها فقالت لهما : لا حتى تشربا

خمري، وتقتلا ابن جاري، وتسجدا لوثني. فقالا لا نسجد. ثم شربا من الخمر، ثم قتلا ثم سجدا. فأشرف أهل السماء عليهما. فقالت لهما: أخبراني بالكلمة التي إذا قلتماها طرتما. فأخبراها فطارت فمسخت جمرة. وهي هذه الزهَرة. وأما هما فأرسل إليهما سليمان بن داود فخيرهما بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة. فاختارا عذاب الدنيا. فهما مناطان بين السماء والأرض (1).

وهذا السياق فيه زيادات كثيرة وإغراب ونكارة، والله أعلم بالصواب.

---

(1) تفسير ابن أبي حاتم (1/ 308).

وقال عبد الرزاق: قال مَعْمَر: قال قتادة والزهري، عن عبيد الله بن عبد الله: ﴿ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ﴾ كانا ملكين من الملائكة، فأهبطا ليحكما بين الناس. وذلك أن الملائكة سخروا من حكام بني آدم، فحاكمت إليهما امرأة، فحافا لها. ثم ذهبا يصعدان فحيل بينهما وبين ذلك، ثم خيرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، فاختارا عذاب الدنيا. وقال مَعْمَر: قال قتادة: فكانا يعلمان الناس السحر، فأخذ عليهما ألا يعلما أحدا حتى يقولا ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾ (1).

وقال أسباط عن السدي أنه قال : كان من أمر هاروت وماروت أنهما طعنا على أهل الأرض في

---

(1) تفسير عبد الرزاق (1/ 73) .

أحكامهم ، فقيل لهما : إني أعطيت بني آدم عشرًا من الشهوات ، فبها يعصونني . قال هاروت وماروت : ربنا ، لو أعطيتنا تلك الشهوات ثم نزلنا لحكمنا بالعدل . فقال لهما : انزلا فقد أعطيتكما تلك الشهوات العشر ، فاحكما بين الناس . فنزلا ببابل دَنْباوَند ، فكانا يحكمان ، حتى إذا أمسيا عرجا ، فإذا أصبحا هبطا ، فلم يزالا كذلك حتى أتتهما امرأة تخاصم زوجها ، فأعجبهما حسنها – واسمها بالعربية " الزّهَرة" ، وبالنبطية " بيذخت" وبالفارسية " أناهيد " – فقال أحدهما لصاحبه : إنها لتعجبني . قال الآخر : قد أردت أن أذكر لك فاستحييت منك . فقال الآخر : هل لك أن أذكرها لنفسها ؟ قال : نعم ولكن كيف لنا بعذاب الله ؟ قال الآخر : إنا لنرجو رحمة الله . فلما جاءت تخاصم زوجها ذكرا إليها نفسها ، فقالت : لا حتى تقضيا لي على زوجي . فقضيا لها على زوجها ، ثم واعدتهما خَربة من الخَرِب يأتيانها فيها ، فأتياها لذلك . فلما أراد الذي يواقعها قالت

: ما أنا بالذي أفعل حتى تخبراني بأي كلام تصعدان إلى السماء ، وبأي كلام تنزلان منها ؟ فأخبراها ، فتكلمت فصعدت ، فأنساها الله ما تنزل به ، فبقيت مكانها ، وجعلها الله كوكبًا . فكان عبد الله بن عمر كلما رآها لعنها ، فقال : هذه التي فتنت هاروت وماروت ، فلما كان الليل أرادا أن يصعدا فلم يطيقا ، فعرفا الهلكة فخيرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة . فاختارا عذاب الدنيا ، فعلقا ببابل ، وجعلا يكلمان الناس كلامهما وهو السحر .

(137/61)

وقال ابن أبي نَجِيح عن مجاهد : أما شأن هاروت وماروت ، فإن الملائكة عجبت من ظلم بني آدم ، وقد جاءتهم الرسل والكتب والبينات ، فقال لهم ربهم تعالى : اختاروا منكم ملكين أنزلهما يحكمان في الأرض بين بنى آدم فاختاروا فلم يألوا [إلا] هاروت وماروت ، فقال لهما حين أنزلهما : أعجبتما من بني آدم من ظلمهم ومن معصيتهم ، وإنما تأتيهم الرسل والكتب [والبينات] من وَرَاء وَرَاء ، وأنتما ليس بيني وبينكما رسول ، فافعلا كذا وكذا ، ودعا كذا وكذا ، فأمرهما بأمر ونهاهما ، ثم نزلا على ذلك ليس أحد أطوع لله منهما ، فحكما فعدلا . فكانا يحكمان في النهار بين بني آدم ، فإذا أمسيا عرجا فكانا مع الملائكة ،

وينزلان حين يصبحان فيحكمان فيعدلان ، حتى أنزلت عليهما الزهرة في أحسن صورة امرأة تُخَاصم ، فقضيا عليها . فلما قامت وجد كل واحد منهما في نفسه ، فقال أحدهما لصاحبه : وجدتَ مثل الذي وجدتُ ؟ قال : نعم . فبعثا إليها أن ائتيانا نقض لك . فلما رجعت قالا وقضيا لها ، فأتتهما فتكشفا لها عن عورتيهما ، وإنما كانت شهوتهما في أنفسهما ، ولم يكونا كبني آدم في شهوة النساء ولذتها . فلما بلغا ذلك واستحلا افتُتنا ، فطارت الزهرة فرجعت حيث كانت . فلما أمسيا عَرَجا فزُجرا فلم يؤذن لهما ، ولم تحملهما أجنحتهما . فاستغاثا برجل من بني آدم

(138/61)

فأتياه ، فقالا ادع لنا ربك . فقال : كيف يشفع أهل الأرض لأهل السماء ؟ قالا سمعنا ربك يذكرك بخير في السماء . فوعدهما يومًا ، وغدا يدعو لهما ، فدعا لهما ، فاستجيب له ، فخيرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ، فنظر أحدهما إلى صاحبه ، فقال : ألا تعلم أن أفواج عذاب الله في الآخرة كذا وكذا في الخلد ، وفي الدنيا تسع مرات مثلها ؟ فأمرا أن ينزلا ببابل ، فثَمَّ عذابهما . وزعم أنهما معلقان في الحديد مطويان ، يصفقان بأجنحتهما .

وقد روى في قصة هاروت وماروت عن جماعة من التابعين ، كمجاهد والسدي والحسن

[البصري] وقتادة وأبي العالية والزهري والربيع بن أنس ومقاتل بن حيان وغيرهم ، وقصها خلق من المفسرين من المتقدمين والمتأخرين ، وحاصلها راجع في تفصيلها إلى أخبار بني إسرائيل ، إذ ليس فيها حديث مرفوع صحيح متصل الإسناد إلى الصادق المصدوق المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى ، وظاهر سياق القرآن إجمال القصة من غير بسط ولا إطناب فيها ، فنحن نؤمن بما ورد في القرآن على ما أراده الله تعالى ، والله أعلم بحقيقة الحال .

(139/61)

وقد ورد في ذلك أثر غريب وسياق عجيب في ذلك أحببنا أن ننبه عليه ، قال : الإمام أبو جعفر بن جرير ، رحمه الله : حدثنا الربيع بن سليمان ، أخبرنا ابن وهب ، أخبرني ابن أبي الزناد ، حدثني هشام بن عُرْوَة ، عن أبيه ، عن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم [رضي الله عنها وعن أبيها] أنها قالت : قدمت امرأة عليَّ من أهل دومة الجندل ، جاءت تبتغي رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد موته حَدَاثة ذلك ، تسأله عن شيء دخلت فيه من أمر السحر ، ولم تعمل به . قالت عائشة ، رضي الله عنها ، لعُرْوَة : يا ابن أختي ، فرأيتها تبكي حين لم تجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فيشفيها كانت تبكي حتى إني لأرحمها

، وتقول : إني أخاف أن أكون قد هلكت . كان لي زوج فغاب عني ، فدخلت على عجوز فشكوت ذلك إليها ، فقالت : إن فعلت ما آمرك به فأجعله يأتيك . فلما كان الليل جاءتني بكلبين أسودين ، فركبتُ أحدهما وركبت الآخر ، فلم يكن كشيء حتى وقفنا ببابل ، وإذا برجلين معلقين بأرجلهما . فقالا ما جاء بك ؟ فقلتُ : أتعلم السحر . فقالا إنما نحن فتنة فلا تكفري ، فارجعي . فأبيت وقلت : لا . قالا فاذهبي إلى ذلك التنور ، فبولي فيه . فذهبت ففزعتُ ولم أفعل ، فرجعت إليهما ، فقالا أفعلت ؟ فقلت : نعم . فقالا هل رأيت شيئًا ؟ فقلت : لم أر شيئًا . فقالا لم تفعلي ، ارجعي إلى بلادك ولا تكفري [فإنك على رأس أمري] . فأربَبْت وأبيت . فقالا اذهبي إلى ذلك التنور فبولي فيه . فذهبت فاقشعررت [وخفت] ثم رجعت إليهما فقلت : قد فعلت . فقالا فما رأيت ؟ فقلت : لم

أر شيئًا . فقالا كذبت ، لم تفعلي ، ارجعي إلى بلادك ولا تكفري ؛ فإنك على رأس أمرك . فأربتُ وأبيتُ . فقالا اذهبي إلى ذلك التنور ، فبولي فيه . فذهبت إليه فبلت فيه ، فرأيت فارسًا مقنعًا بحديد خَرَجَ مني ، فذهب في السماء وغاب [عني] حتى ما أراه ، فجئتهما فقلت : قد فعلت . فقالا فما رأيت ؟ قلت : رأيت فارسًا مقنعًا خرج مني فذهب في

السماء ، حتى ما أراه . فقالا صدقت ، ذلك إيمانك خرج منك ، اذهبي . فقلت للمرأة : والله ما أعلم شيئًا وما قالا لي شيئًا . فقالت : بلى ، لم تريدي شيئًا إلا كان ، خذي هذا القمح فابذري ، فبذرت ، وقلت : أطلعي فأطلعت وقلت : أحقلي فأحقلت ثم قلت : أفْركي فأفرَكَتْ . ثم قلت : أيبسي فأيبست . ثم قلت : أطحني فأطحنت . ثم قلت : أخبزي فأخبزت . فلما رأيتُ أني لا أريد شيئًا إلا كان ، سقط في يدي وندمت – والله – يا أم المؤمنين والله ما فعلت شيئًا قط ولا أفعله أبدًا .

ورواه ابن أبي حاتم عن الربيع بن سليمان ، به مطولا كما تقدم (1) .

وزاد بعد قولها : ولا أفعله أبدًا : فسألت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حداثة وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهم يومئذ متوافرون ، فما دَرَوا ما يقولون لها ، وكلهم هاب وخاف أن يفتيها بما لا يعلمه ، إلا أنه قد قال لها ابن عباس – أو بعض من كان عنده – : لو كان أبواك حيين أو أحدهما [لكان يكفيانك] .

قال هشام : فلو جاءتنا أفتيناها بالضمان [قال] : قال ابن أبي الزناد : وكان هشام يقول : إنهم كانوا أهل الورع والخشية من الله . ثم يقول هشام : لو جاءتنا مثلها اليوم لوجدت نوكى أهل حمق وتكلف بغير علم .

فهذا إسناد جيد إلى عائشة ، رضي الله عنها .

وقد استدل بهذا الأثر من ذهب إلى أن الساحر له تمكن في قلب الأعيان ؛ لأن هذه المرأة

بذرت واستغلت في الحال .

---

(1) تفسير ابن أبي حاتم (1/ 312) ورواه البيهقي في السنن الكبرى (8/ 137) من طريق الربيع بن سليمان به مطولا ، وهذه الزيادة لم ترد في المطبوع من تفسير ابن أبي حاتم ، وقد نبه إلى ذلك المحقق الفاضل ، جزاه الله خيرًا .

وقال آخرون : بل ليس له قدرة إلا على التخييل ، كما قال [الله] تعالى : ﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف : 116] وقال تعالى : ﴿ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ﴾ [طه : 66]

واستدل به على أن بابل المذكورة في القرآن هي بابل العراق ، لا بابل دُنْباوَنْد كما قاله السدي وغيره . ثم الدليل على أنها بابل العراق ما قال ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسين ، حدثنا أحمد بن صالح ، حدثني ابن وهب ، حدثني ابن لَهِيعة ويحيى بن أزهر ، عن عمار بن سعد المرادي ، عن أبي صالح الغفاري أن علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه [مر ببابل وهو يسير ، فجاء المؤذن يُؤْذنه بصلاة العصر ، فلما برز منها أمر المؤذن فأقام الصلاة ، فلما فرغ] قال : إن حبيبي صلى الله عليه وسلم

نهاني أن أصلي [بأرض المقبرة ، ونهاني أن أصلي] ببابل فإنها ملعونة (1) .

وقال أبو داود : حدثنا سليمان بن داود ، حدثنا ابن وهب ، حدثني ابن لَهِيعة ويحيى بن أزهر ، عن عمار بن سعد المرادي ، عن أبي صالح الغفاري : أن عليا مر ببابل ، وهو يسير ، فجاءه المؤذن يؤذنه بصلاة العصر ، فلما برز منها أمر المؤذن فأقام الصلاة فلما فرغ قال : إن حبيبي صلى الله عليه وسلم نهاني أن أصلي في المقبرة ، ونهاني أن أصلي بأرض بابل ، فإنها ملعونة .

حدثنا أحمد بن صالح : حدثنا ابن وهب ، أخبرني يحيى بن أزهر وابن لهيعة ، عن الحجاج بن شداد ، عن أبي صالح الغفاري ، عن علي ، بمعنى حديث سليمان بن داود ، قال : فلما " خرج" مكان " برز" (2) .

وهذا الحديث حسن عند الإمام أبي داود ، لأنه رواه وسكت عنه ؛ ففيه من الفقه كراهية الصلاة بأرض بابل ، كما تكره بديار ثمود الذين نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الدخول إلى منازلهم ، إلا أن يكونوا باكين .

قال أصحاب الهيئة : وبُعْدُ ما بين بابل ، وهي من إقليم العراق ، عن البحر المحيط الغربي ،

ويقال له : أوْقيانُوس سبعون درجة ، ويسمون هذا طولا وأما عرضها وهو بعد ما بينها وبين وسط الأرض من ناحية الجنوب ، وهو المسامت لخط الاستواء ، اثنان وثلاثون درجة ، والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ ﴾ قال أبو جعفر الرازي ، عن الربيع بن أنس ، عن قيس بن عباد ، عن ابن عباس ، قال : فإذا أتاهما الآتي يريد السحر نهياه أشد النهي ، وقالا له : إنما نحن فتنة فلا تكفر ، وذلك أنهما علما الخير والشر والكفر والإيمان ، فعرفا أن السحر من الكفر . [قال] فإذا أبى عليهما أمراه أن يأتي مكان كذا وكذا ، فإذا أتاه عاين الشيطان فَعلمه ، فإذا تعلم خرج منه النور ، فنظر إليه ساطعًا في السماء ، فيقول : يا حسرتاه !

---

(1) تفسير ابن أبي حاتم (1/ 304) ، وما بين المعقوفين ليس في تفسير ابن أبي حاتم .

(2) سنن أبي داود برقم (490 ، 491) .

يا ويله ! ماذا أصنع ؟ .

وعن الحسن البصري أنه قال في تفسير هذه الآية : نعم ، أنزل الملكان بالسحر ، ليعلما الناس

البلاء الذي أراد الله أن يبتلي به الناس ، فأخذ عليهما الميثاق أن لا يعلما أحدًا حتى يقولا ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ ﴾ رواه ابن أبي حاتم ، وقال قتادة : كان أخذ عليهما ألا يعلما أحدًا حتى يقولا ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ ﴾ - أي : بلاء ابتلينا به - ﴿ فَلا تَكْفُرْ ﴾ وقال [قتادة و] السدي : إذا أتاهما إنسان يريد السحر ، وعظاه ، وقالا له : لا تكفر ، إنما نحن فتنة . فإذا أبى قالا له : ائت هذا الرماد ، فبُلْ عليه . فإذا بال عليه خرج منه نور فسطع حتى يدخل السماء ، وذلك الإيمان . وأقبل شيء أسود كهيئة الدخان حتى يدخل في مسامعه وكلِّ شيء [منه] . وذلك غضب الله . فإذا أخبرهما بذلك علماه السحر ، فذلك قول الله تعالى : ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ ﴾ الآية .

وقال سُنَيد ، عن حجاج ، عن ابن جريج في هذه الآية : لا يجترئ على السحر إلا كافر .

وأما الفتنة فهي المحنة والاختبار ، ومنه قول الشاعر :

وقد فُتِنَ النَّاسُ في دينهم . . . وخَلَّى ابنُ عفان شرًا طويلا

وكذلك قوله تعالى إخبارًا عن موسى ، عليه السلام ، حيث قال : ﴿ إِنْ هِيَ إِلا فِتْنَتُكَ ﴾ أي : ابتلاؤك واختبارك وامتحانك ﴿ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ ﴾ [الأعراف : 155] .

وقد استدل بعضهم بهذه الآية على تكفير من تعلم السحر ، ويُستشهد له بالحديث الذي رواه الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا محمد بن المثنى ، حدثنا أبو معاوية ، عن الأعمش ، عن إبراهيم ، عن همام ، عن عبد الله ، قال : من أتى كاهنًا أو ساحرًا فصدقه بما يقول ، فقد كفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم .

وهذا إسناد جيد وله شواهد أخر .

وقوله تعالى : ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ﴾ أي : فيتعلم الناس من هاروت وماروت من علم السحر ما يتصرفون به فيما يتصرفون فيه من الأفاعيل المذمومة ، ما إنهم ليفرِّقون به بين الزوجين مع ما بينهما من الخلطة والائتلاف . وهذا من صنيع الشياطين ، كما رواه مسلم في صحيحه ، من حديث الأعمش ، عن أبي سفيان طلحة بن نافع ، عن جابر بن عبد الله ، رضي الله

عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : " إن الشيطان ليضع عرشه على الماء ، ثم يبعث سراياه في الناس ، فأقربهم عنده منزلة أعظمهم عنده فتنة ، يجيء أحدهم فيقول : ما زلت بفلان حتى تركته وهو يقول كذا وكذا . فيقول إبليس : لا والله ما صنعت شيئًا . ويجيء أحدهم فيقول : ما تركته حتى فرقت بينه وبين أهله قال : فيقربه ويدنيه ويلتزمه ، ويقول : نِعْم أنت (1) .

وسبب التفرق بين الزوجين بالسحر : ما يخيل إلى الرجل أو المرأة من الآخر من سوء منظر ، أو خلق أو نحو ذلك أو عَقد أو بَغْضه ، أو نحو ذلك من الأسباب المقتضية للفرقة .

---

(1) صحيح مسلم برقم (2813) .

(145/61)

والمرء عبارة عن الرجل ، وتأنيثه امرأة ، ويثنى كل منهما ولا يجمعان ، والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ قال سفيان الثوري : إلا بقضاء الله . وقال محمد بن إسحاق إلا بتخلية الله بينه وبين ما أراد . وقال الحسن البصري : ﴿ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ قال : نَعَم ، من شاء الله سلطهم عليه ، ومن لم يشأ الله لم يسلط ، ولا يستطيعون ضر أحد إلا بإذن الله ، كما قال الله تعالى ، وفي رواية عن الحسن أنه قال : لا يضر هذا السحر إلا من دخل فيه .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ ﴾ أي : يضرهم في دينهم ، وليس له نفع يوازي ضرره .

﴿ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ ﴾ أي : ولقد علم اليهود الذين استبدلوا بالسحر عن متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم لمن فعل فعلهم ذلك ، أنه ما له في

الآخرة من خلاق.

قال ابن عباس ومجاهد والسدي: من نصيب. وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن قتادة: ما له في الآخرة من جهة عند الله وقال: وقال الحسن: ليس له دين.

وقال سعد عن قتادة: ﴿ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ ﴾ قال: ولقد علم أهل الكتاب فيما عهد الله إليهم أن الساحر لا خلاق له في الآخرة.

(146/61)

وقوله تعالى: ﴿ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ* وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ يقول تعالى: ﴿ ولبئس ﴾ البديل ما استبدلوا به من السحر عوضاً عن الإيمان، ومتابعة الرسل لو كان لهم علم بما وعظوا به ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ ﴾ أي: ولو أنهم آمنوا بالله ورسله واتقوا المحارم، لكان مثوبة الله على ذلك خيرا لهم مما استخاروا لأنفسهم ورضوا به، كما قال تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلا يُلَقَّاهَا إِلا الصَّابِرُونَ ﴾ [القصص: 80].

وقد استدل بقوله: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا ﴾ من ذهب إلى تكفير الساحر، كما هو

رواية عن الإمام أحمد بن حنبل وطائفة من السلف. وقيل: بل لا يكفر، ولكن حَده ضَرْبُ عنقه، لما رواه الشافعي وأحمد بن حنبل، رحمهما الله: أخبرنا سفيان، عن عمرو بن دينار، أنه سمع بجالة بن عَبَدَةَ يقول: كتب [أمير المؤمنين] عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، أن اقتلوا كل ساحر وساحرة. قال: فقتلنا ثلاث سواحر (1). وقد أخرجه البخاري في صحيحه أيضًا (2). وهكذا صح أن حفصة أم المؤمنين سحرتها جارية لها، فأمرت بها فقتلت (3). قال أحمد بن حنبل: صح من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم [أذنوا] في قتل الساحر.

---

(1) رواه عبد الله بن أحمد في مسائل أبيه، ط. المكتب الإسلامي برقم (1542) عن أبيه عن سفيان به.

(2) صحيح البخاري برقم (3156).

(3) رواه عبد الله بن أحمد في مسائل أبيه، ط. المكتب الإسلامي برقم (1543) عن أبيه عن يحيى بن سعيد، عن عبيد الله، عن نافع، عن ابن عمر: أن حفصة سحرتها جاريتها، فذكره.

وروى الترمذي من حديث إسماعيل بن مسلم ، عن الحسن ، عن جندب الأزدي أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " حد الساحر ضَرْبُه بالسيف" (1) .

ثم قال : لا نعرفه مرفوعًا إلا من هذا الوجه . وإسماعيل بن مسلم يُضعَّف في الحديث ، والصحيح : عن الحسن عن جُنْدُب موقوفًا .

قلت : قد رواه الطبراني من وجه آخر ، عن الحسن ، عن جندب ، مرفوعًا (2) . والله أعلم .

وقد روي من طرق متعددة أن الوليد بن عقبة كان عنده ساحر يلعب بين يديه ، فكان يضرب رأس الرجل ثم يصيح به فيرد إليه رأسه ، فقال الناس : سبحان الله ! يحيي الموتى ! ورآه رجل من صالحي المهاجرين ، فلما كان الغد جاء مشتملا على سيفه ، وذهب يلعب لعبه ذلك ، فاخترط الرجل سيفه فضرب عنق الساحر ، وقال : إن كان صادقا فليحي نفسه . وتلا قوله تعالى : ﴿ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ [الأنبياء : 3] فغضب الوليد إذ لم يستأذنه في ذلك فسجنه ثم أطلقه ، (3) والله أعلم .

وقال أبو بكر الخلال : أخبرنا عبد الله بن أحمد بن حنبل ، حدثني أبي ، حدثنا يحيى بن سعيد ، حدثني أبو إسحاق ، عن حارثة قال : كان عند بعض الأمراء رجل يلعب فجاء جندب مشتملا

---

(1) سنن الترمذي برقم (1460) .

(2) المعجم الكبير (2/ 161) من طريق محمد بن الحسن بن سيار ، عن خالد العبد عن الحسن عن سمرة به .

(3) الرجل الذي قتله هو جندب بن كعب ، انظر القصة في : أسد الغابة لابن الأثير في ترجمة جندب بن كعب (1 /361) وفي الإصابة للحافظ ابن حجر (1/ 251) .

(148/61)

على سيفه فقتله ، فقال : أراه كان ساحرًا ، وحمل الشافعي ، رحمه الله ، قصة عمر ، وحفصة على سِحْر يكون شركا . والله أعلم . فصل

حكى أبو عبد الله الرازي في تفسيره عن المعتزلة أنهم أنكروا وجود السحر ، قال : وربما كفروا من اعتقد وجوده . قال : وأما أهل السنة فقد جَوَّزُوا أن يقدر الساحر أن يطير في الهواء ، ويقلب الإنسان حمارًا ، والحمار إنسانًا ، إلا أنهم قالوا : إن الله يخلق الأشياء عند ما يقول الساحر تلك الرقى و [تلك] الكلمات المُعَيَّنة ، فأما أن يكون المؤثر في ذلك هو الفلك والنجوم فلا خلافًا للفلاسفة والمنجمين الصابئة ، ثم استدل على وقوع السحر وأنه بخلق الله تعالى ، بقوله تعالى : ﴿ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ ومن الأخبار بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم سُحِر ، وأن السحر عَمِل فيه ، وبقصة تلك المرأة مع

عائشة ، رضي الله عنها ، وما ذكرت تلك المرأة من إتيانها بابل وتعلمها السحر ، قال : وبما يذكر في هذا الباب من الحكايات الكثيرة ، ثم قال بعد هذا :

المسألة الخامسة في أن العلم بالسحر ليس بقبيح ولا محظور : اتفق المحققون على ذلك ؛ لأن العلم لذاته شريف وأيضًا لعموم قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر : 9] ؛ ولأن السحر لو لم يكن يعلم لما أمكن الفرق بينه وبين المعجزة ، والعلم بكون المعجز مُعْجِزًا واجب ، وما يتوقف الواجب عليه فهو واجب ؛ فهذا يقتضي أن يكون تحصيل العلم بالسحر واجبًا ، وما يكون واجبًا فكيف يكون حرامًا وقبيحًا ؟ !

(149/61)

هذا لفظه بحروفه في هذه المسألة ، وهذا الكلام فيه نظر من وجوه ، أحدها : قولُهُ : " العلم بالسحر ليس بقبيح " . إن عنى به ليس بقبيح عقلا فمخالفوه من المعتزلة يمنعون هذا وإن عنى أنه ليس بقبيح شرعًا ، ففي هذه الآية الكريمة تبشيع لتعلم السحر ، وفي الصحيح : " من أتى عرافًا أو كاهنًا ، فقد كفر بما أنزل على محمد " (1) . وفي السنن : " من عقد عقدة ونفث فيها فقد سحر " (2) . وقوله : ولا محظور اتفق المحققون على ذلك " . كيف لا يكون محظورًا مع ما ذكرناه من الآية والحديث ؟ ! واتفاق المحققين يقتضي أن يكون قد نص

على هذه المسألة أئمة العلماء أو أكثرهم ، وأين نصوصهم على ذلك ؟ ثم إدخاله [علم] السحر في عموم قوله : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ فيه نظر ؛ لأن هذه الآية إنما دلت على مدح العالمين بالعلم الشرعي ، ولم

---

(1) صحيح مسلم برقم (2230) من حديث بعض أزواج النبي صلى الله عليه وسلم وليس فيه : "كاهنًا" والعراف من جملة أنواع الكهان .

(2) رواه النسائي في السنن (7/ 112) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

قلتَ إن هذا منه ؟ ثم ترَقيه إلى وجوب تعلمه بأنه لا يحصل العلم بالمعجز إلا به ، ضعيف بل فاسد ؛ لأن معظم معجزات رسولنا ، عليه الصلاة والسلام هي القرآن العظيم ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد . ثم إن العلم بأنه معجز لا يتوقف على علم السحر أصلا ثم من المعلوم بالضرورة أن الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين وعامتهم ، كانوا يعلمون المعجز ، ويفرّقُون بينه وبين غيره ، ولم يكونوا يعلمون السحر ولا تعلموه ولا علموه ، والله أعلم .

ثم قد ذكر أبو عبد الله الرازي أن أنواع السحر ثمانية :

الأول : سحر الكلدْانيين والكُشْدانيين ، الذين كانوا يعبدون الكواكب السبعة المتحيرة ، وهي السيارة ، وكانوا يعتقدون أنها مُدبّرة العالم وأنها تأتي بالخير والشر ، وهم الذين بَعث إليهم إبراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم مبطلا لمقالتهم ورادا لمذهبهم وقد استقصى في " كتاب السر المكتوم ، في مخاطبة الشمس والنجوم" المنسوب إليه فيما ذكره القاضي ابن خلكان وغيره ويقال : إنه تاب منه . وقيل إنه صنفه على وجه إظهار الفضيلة لا على سبيل الاعتقاد . وهذا هو المظنون به ، إلا أنه ذكر فيه طرائقهم في مخاطبة كل من هذه الكواكب السبعة ، وكيفية ما يفعلون وما يلبسونه ، وما يتنسكون به .

قال : والنوع الثاني : سحر أصحاب الأوهام والنفوس القوية ، ثم استدلّ على أن الوهم له تأثير ، بأن الإنسان يمكنه أن يمشي على الجسر الموضوع على وجه الأرض ، ولا يمكنه المشي عليه إذا كان ممدودًا على نهر أو نحوه . قال : وكما أجمعت الأطباء على نهي المَرْعُوف عن النظر إلى الأشياء الحُمْر ، والمصروع إلى الأشياء القوية اللمعان أو الدوران ، وما ذاك إلا لأن النفوس خلقت مُطِيعة للأوهام .

قال : وقد اتفق العقلاء على أن الإصابة بالعين حق .

وله أن يستدل على ذلك بما ثبت في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : " العين حَقّ ، ولو كان شيء سَابِقَ القدر لسبقته العين" (1) .

قال : فإذا عرفت هذا ، فنقول : النفس التي تفعل هذه الأفاعيل قد تكون قوية جدًا ، فتستغني في هذه الأفاعيل عن الاستعانة بالآلات والأدوات ، وقد تكون ضعيفة فتحتاج إلى الاستعانة بهذه

الآلات . وتحقيقه أن النفس إذا كانت مستعلية على البدن شديدة الانجذاب إلى عالم السماوات ، صارت كأنها رُوح من الأرواح السماوية ، فكانت قوية على التأثير في مواد هذا العالم . وإذا كانت ضعيفة شديدة التعلق بهذه الذات البدنية ، فحينئذ لا يكون لها تصرف البتة إلا في هذا البدن . ثم أرشد إلى مداواة هذا الداء بتقليل الغذاء ، والانقطاع عن الناس والرياء .

---

(1) صحيح مسلم برقم (2188) من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنه .

قلت : وهذا الذي يشير إليه هو التصرف بالحال ، وهو على قسمين : تارة تكون حالا صحيحة شرعية يتصرف بها فيما أمر الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، ويترك ما نهى

الله عنه ورسوله ، وهذه الأحوال مواهب من الله تعالى وكرامات للصالحين من هذه الأمة ، ولا يسمى هذا سحرًا في الشرع . وتارة تكون الحال فاسدة لا يمتثل صاحبها ما أمر الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ولا يتصرف بها في ذلك . فهذه حال الأشقياء المخالفين للشريعة ، ولا يدل إعطاء الله إيَّاهم هذه الأحوال على محبته لهم ، كما أن الدجَّال – لعنه الله – له من الخوارق العادات ما دلت عليه الأحاديث الكثيرة ، مع أنه مذموم شرعًا لعنه الله . وكذلك من شابهه من مخالفي الشريعة المحمدية ، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام . وبسط هذا يطول جدًا ، وليس هذا موضعه .

قال : النوع الثالث من السحر : الاستعانة بالأرواح الأرضية ، وهم الجن ، خلافًا للفلاسفة والمعتزلة : وهم على قسمين : مؤمنون ، وكفار ، وهم الشياطينُ . قال : واتصال النفوس الناطقة بها أسهل من اتصالها بالأرواح السماوية ، لما بينهما من المناسبة والقرب ، ثم إن أصحاب الصنعة وأرباب التجربة شاهدوا أن الاتصال بهذه الأرواح الأرضية يحصل بأعمال سهلة قليلة من الرقى والدخل والتجريد . وهذا النوع هو المسمى بالعزائم وعمل التسخير .

(153/61)

النوع الرابع من السحر : التخيلات ، والأخذ بالعيون والشعبذة ، ومبناه [على] أن البصر قد يخطئ ويشتغل بالشيء المعين دون غيره ، ألا ترى أن المشعبذ الحاذق يظهر عمل شيء يذهل أذهان الناظرين به ، ويأخذ عيونهم إليه ، حتى إذا استفرغهم الشغل بذلك الشيء بالتحديق ونحوه ، عمل شيئًا آخر عَمَلا بسرعة شديدة ، وحينئذ يظهر لهم شيء آخر غير ما انتظروه . فيتعجَّبون منه جدًا ، ولو أنه سكت ولم يتكلم بما يصرف الخواطر إلى ضد ما يريد أن يعمله ، ولم تتحرك النفوس والأوهام إلى غير ما يريد إخراجه ، لفطن الناظرون لكل ما يفعله .

قال : وكلما كانت الأحوال تفيد حسن البصر نوعًا من أنواع الخلل أشد ، كان العمل أحسنَ ، مثل أن يجلس المشعبذ في موضع مضيء جدًا ، أو مظلم ، فلا تقف القوة الناظرة على أحوالها بكلالها والحالة هذه .

قلت : وقد قال بعض المفسرين : إن سحر السحرة بين يدي فرعون إنما كان من باب الشعبذة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف : 116] وقال تعالى : ﴿ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ﴾ [طه : 66] قالوا : ولم تكن تسعى في نفس الأمر . والله أعلم .

النوع الخامس من السحر : الأعمال العجيبة التي تظهر من تركيب الآلات المركبة من النسب الهندسية ، كفارس على فرس في يده بوق ، كلما مضت ساعة من النهار ضرب بالبوق ، من غير أن يمسه أحد . ومنها الصور التي تُصَوِّرها الرومُ والهند ، حتى لا يفرق الناظر بينها وبين الإنسان ، حتى يصورونها ضاحكة وباكية .

إلى أن قال : فهذه الوجوه من لطيف أمور المخاييل . قال : وكان سحر سحرة فرعون من هذا القبيل .

قلت : يعني ما قاله بعض المفسرين : أنهم عمدوا إلى تلك الحبال والعصي ، فحشوها زئبقًا فصارت تتلوى بسبب ما فيها من ذلك الزئبق ، فيخيل إلى الرائي أنها تسعى باختيارها .

قال الرازي : ومن هذا الباب تركيب صندوق الساعات ، ويندرج في هذا الباب علم جَرِّ الأثقال بالآلات الخفيفة .

قال : وهذا في الحقيقة لا ينبغي أن يعد من باب السحر ؛ لأن لها أسبابًا معلومة يقينية من اطلع عليها قدر عليها .

قلت : ومن هذا القبيل حيل النصارى على عامتهم ، بما يُرُونَهم إياه من الأنوار ، كقضية قُمَامة الكنيسة التي لهم ببلد المقدس ، وما يحتالون به من إدخال النار خفية إلى الكنيسة ، وإشعال ذلك القنديل بصنعة لطيفة تروج على العوام [منهم] وأما الخواص فهم يعترفون

بذلك ، ولكن يتأولون أنهم يجمعون شمل أصحابهم على دينهم ، فيرون ذلك سائغًا لهم .

وفيه شبه للجهلة الأغبياء من متعبدي الكَرّامية الذين يرون جواز وضع الأحاديث في الترغيب والترهيب ، فيدخلون في عداد من قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم : " من كذب عليّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من

(155/61)

النار (1) " . وقوله : " حدثوا عني ولا تكذبوا عَلَيّ فإنه من يكذب عليّ يلج النار " (2) .

ثم ذكر ههنا حكاية عن بعض الرهبان ، وهو أنه سمع صوت طائر حزين الصوت ضعيف الحركة ، فإذا سمعته الطيور تَرِقّ له فتذهب فتلقي في وَكْره من ثمر الزيتون ، ليتبلغ به ، فعَمَد هذا الراهبُ إلى صنعة طائر على شكله ، وتوصل إلى أن جعله أجوف ، فإذا دخلته الريح يسمع له صوت كصوت ذلك الطائر ، وانقطع في صومعة ابتناها ، وزعم أنها على قبر بعض صالحيهم ، وعلق ذلك الطائر في مكان منها ، فإذا كان زمان الزيتون فتح بابًا من ناحيه ، فتدخل الريح إلى داخل هذه الصورة ، فَيُسْمَعُ صوتها كذلك الطائر في شكله أيضًا ، فتأتي الطيور فتحمل من الزيتون شيئًا كثيرًا فلا ترى النصارى إلا ذلك الزيتون في هذه الصومعة ، ولا يدرون ما سببه ؟ ففتنهم بذلك ، وأوهم أن هذا من كرامات صاحب هذا القبر ،

عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة .

قال الرازي : النوع السادس من السحر : الاستعانة بخواص الأدوية يعني في الأطعمة والدهانات . قال : واعلم أن لا سبيل إلى إنكار الخواص ، فإن أثر المغناطيس مشاهد .

قلت : يدخل في هذا القبيل كثير ممن يَدّعي الفقر ويتخيل على جهلة الناس بهذه الخواص ، مدعيًا أنها أحوال له من مخالطة النيران ومسك الحيات إلى غير ذلك من المحالات .

قال : النوع السابع من السحر : تعليق القلب ، وهو أن يدعي الساحرُ أنه عرف الاسم الأعظم ، وأن الجن يطيعونه وينقادون له في أكثر الأمور ، فإذا اتفق أن يكون ذلك السامع لذلك ضعيف العقل قليل التمييز اعتقد أنه حق ، وتعلق قلبه بذلك وحصل في نفسه نوع من الرهب والمخافة ، فإذا حصل الخوف ضعفت القوى الحساسة فحينئذ يتمكن الساحر أن يفعل ما يشاء .

---

(1) هذا الحديث رواه جمع من الصحابة عن النبي صلى الله عليه وسلم عدهم الإمام الطبراني في جزء له فأوصلهم فوق الستين ، وانظره في : صحيح البخاري برقم (107) من حديث الزبير رضي الله عنه ، وفي مقدمة صحيح مسلم برقم (2 – 4) من حديث أنس وأبي هريرة والمغيرة رضي الله عنهم" .

(2) رواه مسلم في مقدمة صحيحه برقم (1) من حديث علي رضي الله عنه .

قلت : هذا النمط يقال له التنبلة ، وإنما يروج على الضعفاء العقول من بني آدم . وفي علم الفراسة ما يرشد إلى معرفة كامل العقل من ناقصه ، فإذا كان المُتَنْبِلُ حاذقًا في علم الفراسة عرف من ينقاد له مِنَ الناس مِنْ غيره .

قال : النوع الثامن من السحر : السعي بالنميمة والتضريب من وجوه خفيفة لطيفة ، وذلك شائع في الناس .

قلت : النميمة على قسمين ، تارة تكون على وجه التحريش [بين الناس] وتفريق قلوب المؤمنين ، فهذا حرام متفق عليه . فأما إذا كانت على وجه الإصلاح [بين الناس] وائتلاف كلمة المسلمين ، كما جاء في الحديث : " ليس بالكذاب من يَنمّ خيرًا " أو يكون على وجه التخذيل والتفريق بين جموع الكفرة" فهذا أمر مطلوب ، كما جاء في الحديث : " الحرب خدعة" . وكما فعل نعيم بن مسعود في تفريقه بين كلمة الأحزاب وبين قريظة ، وجاء إلى هؤلاء فنمى إليهم عن هؤلاء كلامًا ، ونقل من هؤلاء إلى أولئك شيئًا آخر ، ثم لأم بين ذلك ، فتناكرت النفوس وافترقت . وإنما يحذو على مثل هذا الذكاء والبصيرة النافذة . والله المستعان .

ثم قال الرازي : فهذه جملة الكلام في أقسام السحر وشرح أنواعه وأصنافه .

قلت : وإنما أدخل كثيرًا من هذه الأنواع المذكورة في فَنّ السحر ، للطافة مداركها ؛ لأن السحر في اللغة : عبارة عما لطُف وخفي سببه . ولهذا جاء في الحديث : " إن من البيان لسحرًا . وسمي السحور لكونه يقع خفيًا آخر الليل والسَّحْر : الرئة ، وهي محل الغذاء ، وسميت بذلك لخفائها ولطف مجاريها إلى أجزاء البدن وغضونه ، كما قال أبو جهل يوم بدر لعتبة : انتفخ سحرك أي : انتفخت رئته من الخوف . وقالت عائشة ، رضي الله عنها : توفي رسول صلى الله عليه وسلم بين سَحْري ونَحْري . وقال : ﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ ﴾ أي : أخفوا عنهم عملهم ، والله أعلم .

[فصل] وقد ذكر الوزير أبو المظفر يحيى بن هَبيرة بن محمد بن هبيرة في كتابه : " الإشراف على مذاهب الأشراف " بابًا في السحر ، فقال : أجمعوا على أن السحر له حقيقة إلا أبا حنيفة ، فإنه قال : لا حقيقة له عنده . واختلفوا فيمن يتعلم السحر ويستعمله ، فقال أبو حنيفة ومالك وأحمد : يكفر بذلك . ومن أصحاب أبي حنيفة من قال : إن تعلمه ليتقيه أو ليجتنبه فلا يكفر ، ومن تعلمه معتقدًا جوازه أو أنه ينفعه كَفَر . وكذا من اعتقد أن

الشياطين تفعل له ما يشاء فهو كافر . وقال الشافعي ، رحمه الله : إذا تعلم السحر قلنا له : صف لنا سحرك . فإن وصف ما يوجب الكفر مثل ما اعتقده أهل بابل من التقرب إلى الكواكب السبعة ، وأنها تفعل ما يلتمس منها ، فهو كافر . وإن كان لا يوجب الكفر فإن اعتقد إباحته فهو كافر .

قال ابن هبيرة : وهل يقتل بمجرد فعله واستعماله ؟ فقال مالك وأحمد : نعم . وقال الشافعي وأبو حنيفة : لا . فأما إن قتل بسحره إنسانا فإنه يُقْتَل عند مالك والشافعي وأحمد . وقال أبو حنيفة : لا

(158/61)

يقتل حتى يتكرر منه ذلك أو يقر بذلك في حَقّ شخص معين . وإذا قُتل فإنه يُقْتَل حدًا عندهم إلا الشافعي ، فإنه قال : يقتل – والحالة هذه – قصاصًا .

قال : وهل إذا تاب الساحر تقبل توبته ؟ فقال مالك ، وأبو حنيفة وأحمد في المشهور عنهما : لا تقبل . وقال الشافعي وأحمد في الرواية الأخرى : تقبل . وأما ساحر أهل الكتاب فعند أبي حنيفة أنه يقتل ، كما يقتل الساحر المسلم . وقال مالك والشافعي وأحمد : لا يقتل . يعني لقصة لبيد بن أعصم .

واختلفوا في المسلمة الساحرة، فعند أبي حنيفة لا تقتل، ولكن تحبس. وقال الثلاثة: حكمها حكم الرجل، والله أعلم.

وقال أبو بكر الخلال: أخبرنا أبو بكر المروزي، قال: قَرَأَ على أبي عبد الله - يعني أحمد بن حنبل - عُمَرُ بن هارون، حدثنا يونس، عن الزهري، قال: يقتل ساحر المسلمين ولا يقتل ساحر المشركين؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم سحرته امرأة من اليهود فلم يقتلها.

(159/61)

وقد نقل القرطبي عن مالك، رحمه الله، أنه قال في الذمي إذا سحر يقتل إن قتل سحره، وحكى ابن خويز منداد عن مالك روايتين في الذمي إذا سحر: إحداهما: أنه يستتاب فإن أسلم وإلا قتل، والثانية: أنه يقتل وإن أسلم، وأما الساحر المسلم فإن تضمن سحره كفرًا كفر عند الأئمة الأربعة وغيرهم لقوله تعالى: "وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ". لكن قال مالك: إذا ظهر عليه لم تقبل توبته لأنه كالزنديق، فإن تاب قبل أن يظهر عليه وجاءنا تائبًا قبلناه ولم نقتله، فإن قتل سحره قتل. قال الشافعي: فإن قال: لم أتعمد القتل فهو مخطئ تجب عليه الدية.

مسألة: وهل يسأل الساحر حل سحره؟ فأجاز سعيد بن المسيب فيما نقله عنه

البخاري ، وقال عامر الشعبي : لا بأس بالنشرة ، وكره ذلك الحسن البصري ، وفي الصحيح عن عائشة : أنها قالت : يا رسول الله ، هلا تنشرت ، فقال : " أما الله فقد شفاني ، وخشيت أن أفتح على الناس شرًا " (1) .

وحكى القرطبي عن وهب : أنه قال : يؤخذ سبع ورقات من سدر فتدق بين حجرين ثم تضرب بالماء ويقرأ عليها آية الكرسي ويشرب منها المسحور ثلاث حسوات ثم يغتسل بباقيه فإنه يذهب ما به ، وهو جيد للرجل الذي يؤخذ عن امرأته .

قلت : أنفع ما يستعمل لإذهاب السحر ما أنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم في إذهاب ذلك وهما المعوذتان ، وفي الحديث : " لم يتعوذ المتعوذون بمثلهما " (2) وكذلك قراءة آية الكرسي فإنها مطردة للشيطان . وقال أبو عبد الله القرطبي : وعندنا أن السحر حق ، وله حقيقة يخلق الله عنده ما يشاء .

---

(1) صحيح البخاري برقم (5766) وصحيح مسلم برقم (2189) .

(2) رواه النسائي في السنن (8/ 251) من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه .

خلافاً للمعتزلة وأبي إسحاق الإسفرايني من الشافعية حيث قالوا : إنه تمويه وتخيل . قال : ومن السحر ما يكون بخفة اليد كالشعوذة والشعوذي البريد ؛ لخفة سيره . قال ابن فارس : هذه الكلمة من كلام أهل البادية .

قال القرطبي : ومنه ما يكون كلاماً يحفظ ورقى من أسماء الله تعالى ، وقد يكون من عهود الشياطين ويكون أدوية وأدخنة وغير ذلك . قال : وقوله ، عليه السلام : " إن من البيان لسحرا " (1) يحتمل أن يكون مدحاً كما تقوله طائفة ، ويحتمل أن يكون ذماً للبلاغة . قال : وهذا الأصح . قال : لأنها تصوب الباطل حين يوهم السامع أنه حق كما قال : " فلعل بعضكم أن يكون ألحن لحجته من بعض " فاقتضى له ، الحديث . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير ابن كثير حـ 1 صـ 346 . 373 ﴾

---

(1) رواه أبو داود في السنن برقم (5011) والترمذي في السنن برقم (2845) من حديث ابن عباس رضي الله عنه ، ورواه أبو داود في السنن برقم (5012) من حديث بريده رضي الله عنه .

ومن فوائد البيضاوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ واتبعوا مَا تَتْلُواْ الشياطين ﴾ عطف على نبذ ، أي نبذوا كتاب الله واتبعوا كتب السحر التي تقرؤها ، أو تتبعها الشياطين من الجن ، أو الإنس ، أو منهما . ﴿ على مُلْكِ سليمان ﴾ أي عهده ، وتتلو حكاية حال ماضية ، قيل : كانوا يسترقون السمع ويضمون إلى ما سمعوا أكاذيب ، ويلقونها إلى الكهنة وهم يدونونها ويعلمون الناس ، وفشا ذلك في عهد سليمان عليه السلام حتى قيل : إن الجن يعلمون الغيب ، وأن مُلْكَ سليمان تَمَّ بهذا العلم ، وأنه تُسَخَّرُ به الجن والإنس والريح له . ﴿ وَمَا كَفَرَ سليمان ﴾ تكذيب لمن زعم ذلك ، وعبر عن السحر بالكفر ليدل على أنه كفر ، وأن من كان نبياً كان معصوماً منه . ﴿ ولكن الشياطين كَفَرُواْ ﴾ باستعماله ، وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي و ﴿ لَكِنِ ﴾ بالتخفيف ، ورفع ﴿ الشياطين ﴾ . ﴿ يُعَلّمُونَ الناس السحر ﴾ إغواءً وإضلالاً ، والجملة حال من الضمير ، والمراد بالسحر ما يستعان في تحصيله بالتقرب إلى الشيطان مما لا يستقل به الإنسان ، وذلك لا يستتب إلا لمن يناسبه في الشرارة وخبث النفس . فإن التناسب شرط في التضام والتعاون ، وبهذا تميز الساحر عن النبي والولي ، وأما ما يتعجب منه كما يفعله أصحاب الحيل بمعونة الآلات والأدوية أو يريه صاحب خفة اليد فغير مذموم ، وتسميته سحراً عمل التجوز ، أو لما فيه من الدقة لأنه في الأصل لما خفي سببه . ﴿ وَمَا

أُنزِلَ عَلَى الملكين ﴾ عطف على السحر والمراد بهما واحد ، والعطف لتغاير الاعتبار ، أو المراد به نوع أقوى منه ، أو على ما تتلو . وهما ملكان أنزلا لتعليم السحر ابتلاء من الله للناس ، وتمييزاً بينه وبين المعجزة . وما روي أنهما مثلاً بشرين ، وركب فيهما الشهوة فتعرضا لامرأة يقال لها : زهرة ، فحملتهما على المعاصي والشرك ، ثم صعدت إلى السماء بما تعلمت منهما فمحكي عن اليهود ولعله من رموز الأوائل وحله لا يخفى على ذوي البصائر . وقيل : رجلان سميا ملكين باعتبار

(162/61)

صلاحهما ، ويؤيده قراءة الملكين بالكسر . وقيل : ما أنزل نفي معطوف على ما كفر سليمان تكذيب لليهود في هذه القصة . ﴿ بِبَابِلَ ﴾ ظرف ، أو حال من الملكين ، أو الضمير في أنزل والمشهور أنه بلد من سواد الكوفة . ﴿ هاروت وماروت ﴾ عطف بيان للملكين ، ومنع صرفهما للعلمية والعجمة ، ولو كانا من الهرت والمرت بمعنى الكسر لانصرفا . ومن جعل ما نافية أبدلهما من الشياطين بدل البعض ، وما بينهما اعتراض . وقرىء بالرفع على هما ﴿ هاروت وماروت ﴾ . ﴿ وَمَا يُعَلّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حتى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ ﴾ فمعناه على الأول ما يعلمان أحداً حتى ينصحاه ويقولا له إنما نحن

ابتلاء من الله ، فمن تعلم منا وعمل به كفر ، ومن تعلم وتوقى عمله ثبت على الإيمان ، فلا تكفر باعتقاد جوازه والعمل به .

(163/61)

وفيه دليل على أن تعلم السحر وما لا يجوز اتباعه غير محظور ، وإنما المنع من اتباعه والعمل به . وعلى الثاني ما يعلمانه حتى يقولا إنما نحن مفتونان فلا تكن مثلنا . ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا ﴾ الضمير لما دل عليه من أحد . ﴿ مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ المرء وَزَوْجِهِ ﴾ أي من السحر ما يكون سبب تفريقهما . ﴿ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ الله ﴾ لأنه وغيره من الأسباب غير مؤثرة بالذات ، بل بأمره تعالى وجعله . قرئ ﴿ بضاري ﴾ على الإضافة إلى أحد ، وجعل الجار جزء منه والفصل بالظرف . ﴿ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ ﴾ لأنهم يقصدون به العمل ، أو لأن العلم يجر إلى العمل غالباً ﴿ وَلاَ يَنفَعُهُمْ ﴾ إذ مجرد العلم به غير مقصود ولا نافع في الدارين . وفيه أن التحرز عنه أولى ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُواْ ﴾ أي اليهود . ﴿ لَمَنِ اشتراه ﴾ أي استبدل ما تتلوا الشياطين بكتاب الله تعالى ، والأظهر أن اللام لام الابتداء علقت علموا عن العمل ﴿ مَا لَهُ فِى الآخرة مِنْ خلاق ﴾ نصيب ﴿ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ ﴾ يحتمل المعنيين على ما مر . ﴿ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ يتفكرون فيه ، أو

يعلمون قبحه على التعيين ، أو حقية ما يتبعه من العذاب ، والمثبت لهم أولاً على التوكيد القسمي العقل الغريزي أو العلم الإجمالي يقبح الفعل ، أو ترتب العقاب من غير تحقيق وقيل : معناه لو كانوا يعملون بعلمهم ، فإن من لم يعمل بما علم فهو كمن لم يعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 1 صـ 371.374 ﴾

(164/61)

ومن فوائد النسفى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ واتبعوا مَا تَتْلُواْ الشياطين ﴾ أي نبذ اليهود كتاب الله واتبعوا كتب السحر والشعوذة التي كانت تقرؤها ﴿ على مُلْكِ سليمان ﴾ أي على عهد ملكه في زمانه ، وذلك أن الشياطين كانوا يسترقون السمع ثم يضمون إلى ما يسمعوا أكاذيب يلفقونها ويلقونها إلى الكهنة وقد دونوها في كتب يقرأونها ويعلمونها الناس ، وفشا ذلك في زمن سليمان عليه السلام حتى قالوا : إن الجن تعلم الغيب وكانوا يقولون هذا علم سليمان وما تم لسليمان ملكه إلا بهذا العلم وبه سخر الجن والإنس والريح .

﴿ وَمَا كَفَرَ سليمان ﴾ تكذيب للشياطين ودفع لما بهتت به سليمان من اعتقاد السحر

والعمل به ﴿ ولكن الشياطين ﴾ هم الذين ﴿ كَفَرُواْ ﴾ باستعمال السحر وتدوينه .

و" لكن" بالتخفيف " الشياطين" بالرفع : شامي وحمزة وعلي .

﴿ يُعَلِّمُونَ الناس السحر ﴾ في موضع الحال أي كفروا معلمين الناس السحر قاصدين به إغواءهم وإضلالهم ﴿ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الملكين ﴾ الجمهور على أن " ما" بمعنى " الذي" هو نصب عطف على " السحر" أي ويعلمونهم ما أنزل على الملكين أو على " ما تتلوا" أي واتبعوا ما أنزل على الملكين ﴿ بِبَابِلَ هاروت وماروت ﴾ علمان لهما وهما عطف بيان للملكين ، والذي أنزل عليهما هو علم السحر ابتلاء من الله للناس من تعلمه منهم وعمل به كان كافراً إن كان فيه رد ما لزم في شرط الإيمان ، ومن تجنبه أو تعلمه لا ليعمل به ولكن ليتوقاه لئلا يغتر به كان مؤمناً ، قال الشيخ أبو منصور الماتريدي رحمه الله : القول بأن السحر على الإطلاق كفر خطأ بل يجب البحث عن حقيقته ، فإن كان في ذلك رد ما لزم في شرط الإيمان فهو كفر وإلا فلا .

ثم السحر الذي هو كفر يقتل عليه الذكور لا الإناث ، وما ليس بكفر وفيه إهلاك النفس ففيه حكم قطاع الطريق ويستوي فيه المذكر والمؤنث ، وتقبل توبته إذا تاب .

ومن قال لا تقبل فقد غلط فإن سحرة فرعون قبلت توبتهم .

وقيل : أنزل أي قذف في قلوبهما مع النهي عن العمل .

قيل : إنهما ملكان اختارتهما الملائكة لتركب فيهما الشهوة حين عيرت بني آدم فكانا يحكمان في الأرض ويصعدان بالليل ، فهويا زهرة فحملتهما على شرب الخمر فزنيا فرآهما إنسان فقتلاه فاختارا عذاب الدنيا على عذاب الآخرة ، فهما يعذبان منكوسين في جب ببابل وسميت ببابل لتبلبل الألسن بها .

﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ ﴾ وما يعلم الملكان أحداً ﴿ حتى يَقُولاَ ﴾ حتى ينبهاه وينصحاه ويقولا له ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ ﴾ ابتلاء واختبار من الله .

﴿ فَلاَ تَكْفُرْ ﴾ بتعلمه والعمل به على وجه يكون كفراً ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا ﴾ الفاء عطف على قوله " يعلمون الناس السحر " أي يعلمونهم فيتعلمون من السحر والكفر اللذين دل عليهما قوله " كفروا " – و – " يعلمون الناس السحر " أو على مضمر والتقدير : فيأتون فيتعلمون .

والضمير لما دل عليه " من أحد " أي فيتعلم الناس من الملكين ما ﴿ يفرِّقون به بين المرء وزوجه ﴾ أي علم السحر الذي يكون سبباً في التفريق بين الزوجين بأن يحدث الله عنده النشوز والخلاف ابتلاء منه .

وللسحر حقيقة عند أهل السنة كثرهم الله وعنده المعتزلة هو تخييل وتمويه .

﴿ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ ﴾ بالسحر ﴿ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ الله ﴾ بعلمه ومشيئته ﴿

وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ ﴾ في الآخرة وفيه دليل على أنه واجب الاجتناب كتعلم الفلسفة التي تجر إلى الغواية .

﴿ وَلَقَدْ عَلِمُواْ ﴾ أي اليهود ﴿ لَمَنِ اشتراه ﴾ أي استبدل ما تتلو الشياطين من كتاب الله ﴿ مَالَهُ فِي الآخرة مِنْ خلاق ﴾ من نصيب ﴿ وَلَبِئْسَ ما شَرَواْ بِهِ أَنفُسَهُمْ ﴾ باعوها وإنما نفى العلم عنهم بقوله ﴿ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ مع إثباته لهم بقوله " ولقد علموا " على سبيل التوكيد القسمي لأن معناه لو كانوا يعلمون بعلمهم جعلهم حين لم يعلموا به كأنهم لا يعلمون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 1 صـ 66.65 ﴾

(166/61)

ومن فوائد الإمام القرطبى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ﴾

فيه أربع وعشرون مسألة :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ واتبعوا مَا تَتْلُواْ الشياطين على مُلْكِ سُلَيْمَانَ ﴾ هذا إخبار من

الله تعالى عن الطائفة الذين نبذوا الكتاب بأنهم اتبعوا السحر أيضاً ، وهم اليهود .

وقال السُّدّي : عارضت اليهود محمداً صلى الله عليه وسلم بالتوراة فاتفقت التوراة والقرآن فنبذوا التوراة وأخذوا بكتاب آصف وبسحرِ هاروت وماروت .

وقال محمد بن إسحاق : لما ذَكر رسولُ الله صلى الله عليه وسلم سليمانَ في المرسلين قال بعض أحبارهم : يزعم محمد أن ابن داود كان نبياً ! والله ما كان إلا ساحراً ؛ فأنزل الله عز وجل : ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ ولكن الشياطين كَفَرُواْ ﴾ أي ألقت إلى بني آدم أن ما فعله سليمان من ركوب البحر واستسخار الطير والشياطين كان سحراً .

وقال الكلبي : كتبت الشياطين السحر والنِّيرَنْجيّات على لسان آصف كاتب سليمان ، ودفنوه تحت مصلاّه حين انتزع الله ملكه ولم يشعر بذلك سليمان ؛ فلما مات سليمان استخرجوه وقالوا للناس : إنما ملَكَكم بهذا فتعلّموه ؛ فأما علماء بني إسرائيل فقالوا : معاذ الله أن يكون هذا علم سليمان ! وأما السِّفْلة فقالوا : هذا علم سليمان ؛ وأقبلوا على تعليمه ورفضوا كتب أنبيائهم حتى بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم ؛ فأنزل الله عز وجل على نبيّه عذر سليمان وأظهر براءته مما رُمي به فقال : ﴿ واتبعوا مَا تَتْلُواْ الشياطين ﴾ .

قال عطاء : " تتلو " تقرأ من التلاوة .

وقال ابن عباس : " تتلو" تتبع ؛ كما تقول : جاء القوم يتلو بعضهم بعضاً .

وقال الطبري : " اتبعوا" بمعنى فضّلوا .

(167/61)

قلت : لأن كل من اتبع شيئاً وجعله أمامه فقد فضّله على غيره ، ومعنى " تتلو" يعني تلت ،

فهو بمعنى المضيّ ؛ قال الشاعر :

وإذا مررتَ بقبره فاعقر به . . .

كُومَ الهِجان وكلّ طرف سابح

وانضح جوانبَ قبره بدمائها . . .

فلقد يكون أخا دَمٍ وذبائح

أي فلقد كان .

و " ما" مفعول ب " اتبعوا" ؛ أي اتبعوا ما تقوّلته الشياطين على سليمان وتلته .

وقيل : " ما" نفيٌ ، وليس بشيء لا في نظام الكلام ولا في صحته ؛ قاله ابن العربي .

﴿ على مُلْكِ سُلَيْمَانَ ﴾ أي على شَرعه ونبوّته .

قال الزجاج : المعنى على عهد مُلك سليمان .

وقيل : المعني في ملك سليمان ؛ يعني في قصصه وصفاته وأخباره .

قال الفرّاء : تصلح على وفي ، في مثل هذا الموضع .

وقال " علَى" ولم يقل بَعْدَ لقوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تمنى أَلْقَى الشيطان في أُمْنِيَّتِهِ ﴾ [الحج : 52] أي في تلاوته .

وقد تقدّم معنى الشيطان واشتقاقه ، فلا معنى لإعادته .

والشياطين هنا قيل : هم شياطين الجن ؛ وهو المفهوم من هذا الاسم .

وقيل : المراد شياطين الإنس المتمرّدون في الضلال ؛ كقول جرير :

أيام يَدعونني الشيطان من غَزلي . . .

وكنّ يَهوْينني إذ كنتُ شيطانَا

الثانية : قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ ﴾ تبرئة من الله لسليمان ؛ ولم يتقدّم في الآية أن أحداً نسبه إلى الكفر ، ولكن اليهود نسبته إلى السحر ، ولكن لما كان السحر كفراً صار بمنزلة من نسبه إلى الكفر ، ثم قال : ﴿ ولكن الشياطين كَفَرُواْ ﴾ فأثبت كفرهم بتعليم السحر .

و " يُعَلِّمُونَ" في موضع نصب على الحال ، ويجوز أن يكون في موضع رفع على أنه خبر ثان .

وقرأ الكوفيون سوى عاصم " ولكنِ الشّياطينُ" بتخفيف " لكن" ، ورفع النون من " الشياطين" ؛ وكذلك في الأنفال ﴿ ولكن الله رمى ﴾ [الأنفال : 18] ووافقهم ابن

عامر .

الباقون بالتشديد والنصب .

(168/61)

و " لكن " كلمة لها معنيان : نفي الخبر الماضي ، وإثبات الخبر المستقبل ؛ وهي مبنيّة من ثلاث كلمات : لا ، ك ، إن .

" لا " نفي ، و " الكاف " خطاب ، و " إن " إثبات وتحقيق ؛ فذهبت الهمزة استثقالا ، وهي تثقَّل وتخفَّف ؛ فإذا ثُقِّلت نصبت كإنّ الثقيلة ، وإذا خُفِّفت رفعت بها كما ترفع بإن الخفيفة .

الثالثة : السحر ، قيل : السحر أصله التمويه بالحيل والتخاييل ، وهو أن يفعل الساحر أشياء ومعاني ، فيُخيَّل للمسحور أنها بخلاف ما هي به ؛ كالذي يرى السراب من بعيد فيُخيّل إليه أنه ماء ، وكراكب السفينة السائرة سيراً حثيثاً يُخيّل إليه أن ما يرى من الأشجار والجبال سائرة معه .

وقيل : هو مشتقّ من سَحرتُ الصبيَّ إذا خدعته ، وكذلك إذا عللّته .

والتسحير مثله ؛ قال لبيد :

فإنْ تسألينا فِيمَ نحن فإنَّنا . . .

عصافيرُ من هذا الأنام المُسَحَّرِ

آخر :

أُرانا مُوضِعين لأمرِ غَيْبٍ . . .

ونُسْحَرُ بالطعام وبالشَّرابِ

عصافيرٌ وذِبّانٌ ودُودٌ . . .

وأَجْرأ مِن مُجَلّحَة الذئاب

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ المسحرين ﴾ [الشعراء : 153] يقال : المُسَحَّر الذي خُلق ذا سَحَر ؛ ويقال من المعلَّلين ؛ أي ممن يأكل الطعام ويشرب الشراب .

وقيل : أصله الخفاء ، فإن الساحر يفعله في خُفية .

وقيل : أصله الصَّرف ؛ يقال : ما سَحَرك عن كذا ، أي ما صرفك عنه ؛ فالسّحر مصروف عن جهته .

وقيل : أصله الاستمالة ؛ وكلُّ مَن استمالك فقد سحرك .

وقيل : في قوله تعالى : ﴿ بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ [الحجر : 15] أي سُحرنا فأزلنا بالتخييل عن معرفتنا .

وقال الجوهري : السِّحر الأُخْذة ؛ وكلُّ ما لَطُف مأخذه ودَقّ فهو سحر ؛ وقد سحره

يسحره سِحراً .

والساحر : العالم ، وسحره أيضاً بمعنى خدعه ؛ وقد ذكرناه .

وقال ابن مسعود : كنّا نُسَمّي السحر في الجاهلية العِضَة .

.

والعِضَهُ عند العرب : شدّة البَهْت وتمويه الكذب ؛ قال الشاعر :

أعوذ بربّي من النّافثا . . .

تِ في عِضَهِ العاضِهِ المُعْضِه

(169/61)

الرابعة : واختلف هل له حقيقة أم لا ؛ فذكر الغَزْنَوِيّ الحنفي في عيون المعاني له : أن السحر عند المعتزلة خدع لا أصل له ، وعند الشافعي وسوسة وأمراض .

قال : وعندنا أصله طِلّسْم يُبنى على تأثير خصائص الكواكب ؛ كتأثير الشمس في زئبق عصيّ فرعون ، أو تعظيم الشياطين ليسهّلوا له ما عَسُر .

قلت : وعندنا أنه حقّ وله حقيقة يخلق الله عنده ما شاء ، على ما يأتي .

ثم من السحر ما يكون بخفّة اليد كالشَّعْوذة .

والشَّعْوَذِيّ : البريد لخفَّة سيره .

قال ابن فارس في المُجْمَل : الشَّعوذة ليست من كلام أهل البادية ، وهي خفة في اليدين وأُخْذَةٌ كالسحر ؛ ومنه ما يكون كلاماً يُحفظ ، ورُقىً من أسماء الله تعالى .

وقد يكون من عهود الشياطين ؛ ويكون أدوية وأدخنة وغير ذلك .

الخامسة : سَمَّى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم الفصاحةَ في الكلام واللِّسانة فيه سِحْراً ؛ فقال : " إنّ من البيان لَسحْراً " أخرجه مالك وغيره .

وذلك لأن فيه تصويب الباطل حتى يتوهّم السامع أنه حق ؛ فعلى هذا يكون قوله عليه السلام : " إنّ من البيان لَسِحْراً " خرج مخرج الذم للبلاغة والفصاحة ، إذ شبّهها بالسحر .

وقيل : خرج مخرج المدح للبلاغة والتفضيل للبيان ؛ قاله جماعة من أهل العلم .

والأوّل أصح ، والدليل عليه قوله عليه السلام : " فلعلّ بعضَكم أن يكون أَلْحَنَ بحجّته من بعض " ، وقوله : " إنّ أبغضكم إليّ الثَّرْثَارون المُتَفَيْهِقُون " الثَّرثرة : كثرة الكلام وترديده ؛ يقال : ثرثر الرجل فهو ثَرثار مِهذار .

والمُتَفَيْهِقُ نحوه .

قال ابن دُريد .

فلان يتفَيْهَق في كلامه إذا تَوَسّع فيه وتنطّع ؛ قال : وأصله الفَهْق وهو الامتلاء ؛ كأنه ملأ به فمه .

قلت : وبهذا المعنى الذي ذكرناه فسّره عامر الشعبيّ راوي الحديث وصَعْصَعة بن صُوحان فقالا : أمّا قوله صلى الله عليه وسلم : " إنّ من البيان لسحراً " فالرجل يكون عليه ألحق وهو أَلْحَنُ بالحجج من صاحب الحق فَيَسْحَرُ القومَ ببيانه فيذهب بالحق وهو عليه ؛ وإنما يحمد العلماء البلاغة واللسانة ما لم تخرج إلى حدّ الإسهاب والإطناب ، وتصوير الباطل في صورة الحق .

وهذا بيّن ، والحمد لله .

السادسة : مِن السِّحر ما يكون كُفْراً من فاعله ؛ مثل ما يدّعون من تغيير صُوَر الناس ، وإخراجهم في هيئة بهيمة ، وقطع مسافة شهر في ليلة ، والطيران في الهواء ؛ فكل مَن فعل هذا ليُوهِم الناس أنه محقّ فذلك كفر منه ؛ قاله أبو نصر عبد الرحيم القُشَيري .

قال أبو عمرو : من زعم أن الساحر يُقلب الحيوان من صورة إلى صورة ، فيجعل الإنسان حماراً أو نحوه ، ويقدر على نقل الأجساد وهلاكها وتبديلها ؛ فهذا يرى قتل الساحر لأنه كافر بالأنبياء ، يدّعي مثل آياتهم ومعجزاتهم ، ولا يتهيّأ مع هذا علم صحة النبوّة إذ قد يحصل مثلها بالحيلة .

وأما من زعم أن السحر خُدَع ومخاريق وتمويهات وتخييلات فلم يجب على أصله قتل الساحر ، إلا أن يقتل بفعله أحداً فيُقتل به .

السابعة : ذهب أهل السُّنة إلى أن السحر ثابت وله حقيقة .

وذهب عامّة المعتزلة وأبو إسحاق الاسترابادي من أصحاب الشافعي إلى أن السحر لا حقيقة له ، وإنما هو تمويه وتخييل وإيهام لكون الشيء على غير ما هو به ، وأنه ضَرْب من الخفّة والشّعْوَذة ؛ كما قال تعالى : ﴿ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تسعى ﴾ [طه : 66] ولم يقل تسعى على الحقيقة ، ولكن قال "يُخَيَّل إليْهِ" .

وقال أيضاً : ﴿ سحروا أَعْيُنَ الناس ﴾ [الأعراف : 116] .

(171/61)

وهذا لا حجة فيه ؛ لأنا لا ننكر أن يكون التخييل وغيره من جملة السحر ، ولكن ثبت وراء ذلك أمور جوّزها العقل ووَرَد بها السمع ؛ فمن ذلك ما جاء في هذه الآية من ذكر السحر وتعليمه ، ولو لم يكن له حقيقة لم يمكن تعليمه ، ولا أخبر تعالى أنهم يعلّمونه الناس ، فدلّ على أن له حقيقة .

وقوله تعالى في قصة سَحَرة فرعون : ﴿ وَجَآءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾ وسورة "الفلق" ؛ مع

اتفاق المفسرين على أن سبب نزولها ما كان من سحر لَبيد بن الأعْصَم ، وهو مما خرّجه البخاري ومسلم وغيرهما عن عائشة رضي الله عنها قالت : " سَحر رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يهوديٌّ من يهود بني زُرَيق يقال له لبيد بن الأعصم الحديث .

وفيه : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال لما حُلّ السّحر : " إن الله شفاني " " والشفاء إنما يكون برفع العِلّة وزوال المرض ؛ فدلّ على أن له حقاً وحقيقة ، فهو مقطوع به بإخبار الله تعالى ورسوله على وجوده ووقوعه .

وعلى هذا أهل الحلّ والعقد الذين ينعقد بهم الإجماع ، ولا عبرة مع اتفاقهم بجُثَالة المعتزلة ومخالفتهم أهل الحق .

ولقد شاع السِّحر وذاع في سابق الزمان وتكلّم الناس فيه ، ولم يَبْدُ من الصحابة ولا من التابعين إنكار لأصله .

وروى سفيان عن أبي الأعور عن عكرمة عن ابن عباس قال : عُلِّم السحر في قرية من قرى مصر يقال لها : " الفَرَما " فمن كذّب به فهو كافر ، مكذِّب لله ورسوله ، منكرٌ لما عُلم مشاهدةً وعِياناً .

الثامنة : قال علماؤنا : لا يُنكر أن يظهر على يد الساحر خَرْق العادات مما ليس في مقدور البشر من مرض وتفريق وزوال عقل وتعويج عِضْو ، إلى غير ذلك مما قام الدليل على استحالة كونه من مقدورات العباد .

قالوا : ولا يبعد في السحر أن يستدِقَّ جسم الساحر حتى يتولّج في الكُوّاتِ والخوخات والانتصاب على رأس قصبة ، والجَرْي على خيط مستدقّ ، والطيران في الهواء والمشي على الماء وركوب كلب وغير ذلك .

(172/61)

ومع ذلك فلا يكون السحر موجباً لذلك ، ولا علّةً لوقوعه ولا سبباً مولداً ، ولا يكون الساحر مستقلا به ، وإنما يخلق الله تعالى هذه الأشياء ويُحدِثها عند وجود السّحر ؛ كما يخلق الشبع عند الأكل ، والرّي عند شرب الماء .

روى سفيان عن عمار الذّهبي أن ساحراً كان عند الوليد بن عُقْبة يمشي على الحبل ، ويدخل في است الحمار ويخرج من فيه ؛ فاشتمل له جُنْدُب على السيف فقتله جندب هذا هو جُنْدَب بن كعب الأزدي ويقال البَجَلي وهو الذي قال في حقه النبيّ صلى الله عليه وسلم : " يكون في أمتي رجل يقال له جندب يضرب ضربة بالسيف يفرّق بين الحق والباطل " فكانوا يرونه جُنْدَباً هذا قاتل الساحر .

قال علي بن المديني : روى عنه حارثة بن مُضَرِّب .

التاسعة : أجمع المسلمون على أنه ليس في السحر ما يفعل الله عنده إنزال الجراد والقُمّل

والضفادع وفلق البحر وقلب العصا وإحياء الموتى وإنطاق العجماء ، وأمثال ذلك من عظيم آيات الرسل عليهم السلام .

فهذا ونحوه مما يجب القطع بأنه لا يكون ولا يفعله الله عند إرادة الساحر .

قال القاضي أبو بكر بن الطيّب : وإنما منعنا ذلك بالإجماع ولولاه لأجزناه .

العاشرة : في الفرق بين السحر والمعجزة ؛ قال علماؤنا : السحر يوجد من الساحر وغيره ، وقد يكون جماعة يعرفونه ويمكنهم الإتيان به في وقت واحد .

والمعجزة لا يمكن الله أحداً أن يأتي بمثلها وبمعارضتها ؛ ثم الساحر لم يَدّع النبوّة فالذي يصدر منه متميِّز عن المعجزة ؛ فإن المعجزة شرطها اقتران دعوى النبوّة والتحدّي بها ، كما تقدّم في مقدّمة الكتاب .

الحادية عشرة : واختلف الفقهاء في حكم الساحر المسلم والذِّميّ ؛ فذهب مالك إلى أن المسلم إذا سحر بنفسه بكلام يكون كفراً يُقتل ولا يُستتاب ولا تُقبل توبته ؛ لأنه أمْرٌ يستَسِرّ به كالزنديق والزاني ، ولأن الله تعالى سَمَّى السحر كفراً بقوله :

﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حتى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ ﴾ وهو قول أحمد بن حنبل وأبي ثَور وإسحاق والشافعي وأبي حنيفة .

ورُوي قتل الساحر عن عمر وعثمان وابن عمر وحفصة وأبي موسى وقيس بن سعد وعن سبعة من التابعين .

ورُوي عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : " حَدُّ الساحر ضَرْبُهُ بالسيف " خرّجه الترمذي وليس بالقوِيّ ؛ انفرد به إسماعيل بن مسلم وهو ضعيف عندهم ، رواه ابن عُيَيْنة عن إسماعيل بن مسلم عن الحسن مُرْسَلاً ؛ ومنهم من جعله عن الحسن عن جُنْدَب .

قال ابن المنذر : وقد رَوَينا عن عائشة أنها باعت ساحرة كانت سحرتها وجعلت ثمنها في الرِّقاب .

قال ابن المنذر : وإذا أقرّ الرجل أنه سحر بكلام يكون كفراً وجب قتله إن لم يَتُب ، وكذلك لو ثبتت به عليه بيّنة ووصفت البينة كلاماً يكون كفراً .

وإن كان الكلام الذي ذكر أنه سَحَرَ به ليس بكفر لم يجز قتله ، فإن كان أحدث في المسحور جناية توجب القصاص اقتص منه إن كان عَمَد ذلك ؛ وإن كان مما لا قصاص فيه ففيه دِيَة ذلك .

قال ابن المنذر : وإذا اختلف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسألة وجب اتباع أشبههم بالكتاب والسُّنة ؛ وقد يجوز أن يكون السِّحر الذي أَمَر من أمر منهم بقتل

الساحر سحراً يكون كفراً فيكون ذلك موافقاً لسُنّة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويحتمل أن تكون عائشة رضي الله عنها أمرت ببيع ساحرة لم يكن سحرها كفراً .

فإن احتج محتجّ بحديث جُنْدَب عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : " حدُّ الساحر ضربه بالسيف "

فلو صحّ لاحتمل أن يكون أمر بقتل الساحر الذي يكون سحره كفراً ، فيكون ذلك موافقاً للأخبار التي جاءت عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لا يحلّ دَمُ امرىء مسلم إلا بإحدى ثلاث . . .

" .

قلت : وهذا صحيح ، ودماء المسلمين محظورة لا تُستباح إلا بيقين ولا يقين مع الاختلاف والله تعالى أعلم .

(174/61)

وقال بعض العلماء : إن قال أهل الصناعة أن السحر لا يتمّ إلا مع الكفر ولاستكبار ؛ أو تعظيم الشيطان فالسحر إذاً دالٌّ على الكفر على هذا التقدير ؛ والله تعالى أعلم .

وروي عن الشافعي : لا يُقتل الساحر إلا أن يَقتل بسحره ويقول تعمّدت القتل ، وإن قال لم

أتعمده لم يُقتل ، وكانت فيه الدّية كقتل الخطأ ؛ وإن أضرّ به أُدِّب على قدر الضرر .

قال ابن العربي : وهذا باطل من وجهين ؛ أحدهما : أنه لم يعلم السحر ، وحقيقته أنه كلام مؤلف يُعظّم به غير الله تعالى ، وتُنسب إليه المقادير والكائنات .

الثاني : أن الله سبحانه قد صرّح في كتابه بأنه كُفر فقال : ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ ﴾ بقول السحر ﴿ ولكن الشياطين كَفَرُواْ ﴾ به وبتعليمه .

وهاروت وماروت يقولان : ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ ﴾ وهذا تأكيد للبيان .

احتج أصحاب مالك بأنه لا تُقبل توبته ؛ لأن السحر باطن لا يُظهره صاحبه فلا تعرف توبته كالزنديق ؛ وإنما يستتاب من أظهر الكفر مرتدًّا .

قال مالك : فإن جاء الساحر أو الزنديق تائباً قبل أن يُشهد عليهما قُبلت توبتهما ؛ والحجة لذلك قوله تعالى : ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا ﴾ [غافر : 85] فدلّ على أنه كان ينفعهم إيمانهم قبل نزول العذاب ، فكذلك هذا .

الثانية عشرة : وأما ساحر الذِّمة ؛ فقيل يُقتل .

وقال مالك : لا يُقتل إلا أن يَقتل بسحره ويضمن ما جَنَى ، ويُقتل إن جاء منه ما لم يُعاهد عليه .

وقال ابن خُوَيْزِ مَنْدَاد : فأمّا إذا كان ذِميًّا فقد اختلفت الرواية عن مالك ؛ فقال مرّة : يُستتاب وتوبتُه الإسلام .

وقال مَرّة : يُقتل وإن أسلم .

وأما الحربيّ فلا يُقتل إذا تاب ؛ وكذلك قال مالك في ذِميّ سبّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم : يُستتاب وتوبتُه الإسلام .

وقال مَرّة : يُقتل ولا يُستتاب كالمسلم .

(175/61)

وقال مالك أيضاً في الذّمي إذا سَحَر : يُعاقب ؛ إلا أن يكون قَتل بسحره ، أو أحدث حَدثاً فيؤخذ منه بقدره .

وقال غيره : يُقتل ؛ لأنه قد نقض العهد .

ولا يرث الساحرَ ورثتُه ؛ لأنه كافر إلا أن يكون سِحْره لا يُسمَّى كفراً .

وقال مالك في المرأة تَعقِد زوجها عن نفسها أو عن غيرها : تُنَكَّل ولا تُقتل .

الثالثة عشرة : واختلفوا هل يُسئل الساحر حلّ السحر عن المسحور ؛ فأجازه سعيد بن المسيّب على ما ذكره البخاري ، وإليه مال المُزَنيّ وكرهه الحسن البصري .

وقال الشّعبي : لا بأس بالنُّشْرة .

قال ابن بَطّال : وفي كتاب وَهْب بن مُنَبّه أن يأخذ سبع ورقات من سِدْر أخضر فيدقّه بين

حجرين ثم يضربه بالماء ويقرأ عليه آية الكرسي ، ثم يَحْسُو منه ثلاث حَسَوات ويغتسل به ؛ فإنه يذهب عنه كل ما به ، إن شاء الله تعالى ، وهو جيّد للرجل إذا حُبس عن أهله .

الرابعة عشرة : أنكر معظم المعتزلة الشياطين والجن ؛ ودلّ إنكارهم على قلّة مبالاتهم وركاكة دياناتهم ، وليس في إثباتهم مستحيل عقليّ ؛ وقد دلّت نصوص الكتاب والسُّنة على إثباتهم ، وحقّ على اللبيب المعتصم بحبل الله أن يثبت ما قضى العقل بجوازه ، ونصّ الشّرع على ثبوته ؛ قال الله تعالى : ﴿ ولكن الشياطين كَفَرُواْ ﴾ وقال : ﴿ وَمِنَ الشياطين مَن يَغُوصُونَ لَهُ ﴾ [الأنبياء : 82] إلى غير ذلك من الآي ، وسورة " الجنّ " تقضي بذلك ؛ وقال عليه السلام : " إن الشيطان يجري من ابن آدم مَجْرَى الدم " وقد أنكر هذا الخبر كثير من الناس ، وأحالوا روحين في جسد ؛ والعقل لا يحيل سلوكهم في الإنس إذا كانت أجسامهم رقيقة بسيطة على ما يقوله بعض الناس بل أكثرهم ؛ ولو كانوا كثافاً لصحّ ذلك أيضاً منهم ، كما يصح دخول الطعام والشراب في الفراغ من الجسم ، وكذلك الدّيدان قد تكون في بني آدم وهي أحياء .

الخامسة عشرة : قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى الملكين ﴾ "ما" نفي ؛ والواو للعطف على قوله : ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ ﴾ وذلك أن اليهود قالوا : إن الله أنزل جبريل وميكائيل بالسحر ؛ فنفى الله ذلك .

وفي الكلام تقديم وتأخير ، التقدير وما كفر سليمان ، وما أنزل على الملكين ، ولكن الشياطين كفروا يعلّمون الناس السحر ببابل هاروت وماروت ؛ فهاروت وماروت بدل من الشياطين في قوله ﴿ ولكن الشياطين كَفَرُواْ ﴾ .

هذا أوْلَى ما حُملت عليه الآية من التأويل ، وأصحّ ما قيل فيها ولا يلتفت إلى سواه ؛ فالسحر من استخراج الشياطين للطافة جوهرهم ، ودِقّة أفهامهم ؛ وأكثر ما يتعاطاه من الإنس النساءُ وخاصّةً في حال طَمْثِهِنَّ ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَمِن شَرِّ النفاثات فِي العقد ﴾ [الفلق : 4] .

وقال الشاعر :

أعوذ بربيِّ من النَّافثا . . .

ت . . .

. . .

. . .

. . .

. . .

السادسة عشرة : إن قال قائل : كيف يكون اثنان بدلاً من جَمع والبدل إنما يكون على حدّ المبدَل منه ؛ فالجواب من وجوه ثلاثة ؛ الأوّل : أن الاثنين قد يُطلق عليهما اسم الجمع ؛ كما قال تعالى : ﴿ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السدس ﴾ [النساء : 11] ولا يحجبها عن الثلث إلى السّدس إلا اثنان من الإخوة فصاعداً ؛ على ما يأتي بيانه في " النساء " .

الثاني : أنهما لمّا كانا الرأس في التعليم نصّ عليهما دون اتباعهما ؛ كما قال تعالى : ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ [المدثر : 30] .

الثالث : إنما خُصّا بالذّكر من بينهم لتمرّدهما ؛ كما قال تعالى : ﴿ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ [الرحمن : 68] وقوله : " وجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ " .

وهذا كثير في القرآن وفي كلام العرب ، فقد ينصّ بالذكر على بعض أشخاص العموم إمّا لشرفه وإمّا لفضله ؛ كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَوْلَى الناس بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتبعوه وهذا النبي ﴾ [آل عمران : 68] وقوله :

﴿ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ ﴾ [البقرة : 98] وإمّا لطيبه كقوله : ﴿ فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ [الرحمن : 68] ؛ وإمّا لأكثريته ؛ كقوله صلى الله عليه وسلم : " جُعلت ليَ الأرضُ مسجداً وتربتها طهوراً " ، وإمّا لتمرّده وعُتُوّه كما في هذه الآية ، والله تعالى أعلم .

وقد قيل : إن " ما " عطف على السِّحر وهي مفعولة ؛ فعلى هذا يكون " ما " بمعنى الذي ، ويكون السحر منزلاً على الملكين فتنة للناس وامتحانا ، ولله أن يمتحن عباده بما شاء ؛ كما امتحن بنهر طالوت ، ولهذا يقول المَلَكان : إنما نحن فتنة ؛ أي مِحْنَة من الله ، نخبرك أن عمل الساحر كُفر فإن أطعتنا نجوْت ، وإن عصيْتنا هلكت .

وقد روي عن عليّ وابن مسعود وابن عباس وابن عمر وكعب الأحبار والسُّدّي والكلبي ما معناه : أنه لما كثر الفساد من أولاد آدم عليه السلام وذلك في زمن إدريس عليه السلام عيرّتهم الملائكة ؛ فقال الله تعالى : أمَا إنكم لو كنتم مكانهم وركّبت فيكم ما ركّبت فيهم لَعِملتم مثل أعمالهم ؛ فقالوا : سبحانك ! ما كان ينبغي لنا ذلك ؛ قال : فاختاروا مَلَكين من خياركم ؛ فاختاروا هاروت وماروت ، فأنزلهما إلى الأرض فركّب فيهما الشّهوة ، فما مرّ بهما شهر حتى فُتِنا بامرأة اسمها بالنّبطيّة " بيدخت " وبالفارسية " ناهيل " وبالعربية " الزُّهَرَة " اختصمت إليهما ، وراوداها عن نفسها فأبتْ إلاّ أن يدخلا في دينها ويشربا الخمر ويقتلا النفس التي حرّم الله ؛ فأجاباها وشربَا الخمر وألّما بها ؛ فرآهما رجل فقتلاه ، وسألتهما عن الاسم الذي يصعدان به إلى السماء فعلّماها فتكلّمت به فَعَرجت فمُسِخت

كوكباً .

وقال سالم عن أبيه عن عبد اللَّه : فحدّثني كعب الحِبر أنهما لم يستكملا يومهما حتى عَمِلاَ بما حرّم الله عليهما .

وفي غير هذا الحديث : فخُيِّرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة فاختارا عذاب الدنيا ؛ فهما يُعذَّبان ببابل في سَرَب من الأرض .

قيل : بابل العراق .

وقيل : بابل نهاوند .

(178/61)

وكان ابن عمر فيما يُروَى عن عطاء أنه كان إذا رأى الزُّهَرة وسُهيلاً سبّهما وشتمهما ؛ ويقول : إن سُهَيْلاً كان عشاراً باليمن يظلم الناس ، وإن الزُّهرة كانت صاحبةَ هاروت وماروت .

قلنا : هذا كلّه ضعيف وبعيد عن ابن عمر وغيره ، لا يصحّ منه شيء ؛ فإنه قول تدفعه الأصول في الملائكة الذين هم أمناء الله على وَحْيه ، وسُفراؤه إلى رسله ﴿ لاَ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم : 6] ﴿ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ لاَ يَسْبِقُونَهُ بالقول

وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنبياء : 26-27] ﴿ يُسَبِّحُونَ اللَيل والنهار لاَ يَفْتُرُونَ ﴾ [الأنبياء : 20] .

وأما العقل فلا يُنكر وقوع المعصية من الملائكة ويوجد منهم خلاف ما كلفوه ، ويخلق فيهم الشهوات ؛ إذ في قدرة الله تعالى كل موهوم ؛ ومن هذا خوف الأنبياء والأولياء الفضلاء العلماء ، لكن وقوع هذا الجائز لا يُدرك إلا بالسمع ولم يصح .

ومما يدلّ على عدم صحته أن الله تعالى خلق النجوم وهذه الكواكب حين خلق السماء ؛ ففي الخبر : " أن السماء لما خلقت خلق فيها سبعة دَوّارة زُحَل والمُشْتَرِي وبَهْرام وعُطارد والزُّهَرة والشمس والقمر " .

وهذا معنى قول الله تعالى : ﴿ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [الأنبياء : 33] .

فثبت بهذا أن الزّهرة وسُهيلاً قد كانا قبل خلق آدم ؛ ثم إن قول الملائكة : " ما كان ينبغي لنا " عورة : لا تقدر على فتنتنا ؛ وهذا كُفر نعوذ بالله منه ومن نسبته إلى الملائكة الكرام صلوات الله عليهم أجمعين ؛ وقد نزّهناهم وهم المنزهون عن كل ما ذكره ونقله المفسرون ، سبحان ربّك ربّ العِزّة عما يَصفون .

السابعة عشرة : قرأ ابن عباس وابن أَبْزَى والضحاك والحسن : " المِلكين " بكسر اللام .

قال ابن أَبْزَى : هما داود وسليمان .

ف " ما " على هذا القول أيضاً نافية ؛ وضعّف هذا القول ابن العربي .

وقال الحسن : هما عِلْجان كانا ببابل مَلِكين ؛ ف " ما " على هذا القول مفعولة غير نافية .

الثامنة عشرة : قوله تعالى : ﴿ بِبَابِلَ ﴾ بابل لا ينصرف للتأنيث والتعريف والعُجْمة ، وهي قُطر من الأرض ؛ قيل : العراق وما والاه .

وقال ابن مسعود لأهل الكوفة : أنتم بين الحِيرة وبابل .

وقال قتادة : هي من نَصِيبين إلى رأس العين .

وقال قوم : هي بالمغرب .

قال ابن عطية : وهذا ضعيف .

وقال قوم : هو جبل نهاوَنْد ؛ فالله تعالى أعلم .

واختلف في تسميته ببابل ؛ فقيل : سُمِّي بذلك لتبلبل الألسن بها حين سقط صَرْح نمروذ .

وقيل : سُمّيَ به لأن الله تعالى لما أراد أن يخالف بين ألسنة بني آدم بعث ريحاً فحشرتهم من الآفاق إلى بابل ؛ فبلبل الله ألسنتهم بها ؛ ثم فرّقتهم تلك الريح في البلاد .

والبَلْبَلة : التفريق ، قال معناه الخليل .

وقال أبو عمر بن عبد البر : من أخصر ما قيل في البلبلة وأحسنه ما رواه داود بن أبي هند

عن عِلْبَاء بن أحمر عن عكرمة عن ابن عباس أن نوحاً عليه السلام لما هبط إلى أسفل الجُودِيّ ابتنى قرية وسمّاها ثمانين ؛ فأصبح ذات يوم وقد تَبَلْبلَت ألسنتهم على ثمانين لغة ، إحداها اللسان العربي ، وكان لا يفهم بعضهم عن بعض .

التاسعة عشرة : روى عبد اللَّه بن بشر المازني قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اتّقُوا الدنيا فوالذي نفسي بيده إنها لأسحر من هاروت وماروت " قال علماؤنا : إنما كانت الدنيا أسحر منهما لأنها تسحرك بخدعها ، وتكتمك فتنتَها ، فتدعوك إلى التّحارص عليها والتنافس فيها ، والجمع لها والمنع ، حتى تفرّق بينك وبين طاعة الله تعالى ، وتفرّق بينك وبين رؤية الحق ورعايته ؛ فالدنيا أسحر منهما ، تأخذ بقلبك عن الله ، وعن القيام بحقوقه ، وعن وعده ووعيده .

وسحر الدنيا : محّبتها وتلذّذك بشهواتها ، وتمنّيك بأمانيها الكاذبة حتى تأخذ بقلبك ؛ ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " حُبّك الشيء يُعْمِي ويُصِمّ " .

(180/61)

الموفية عشرين : قوله تعالى : ﴿ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ﴾ لا ينصرف " هاروت " ؛ لأنه أعجميّ معرفة ، وكذا " ماروت " ؛ ويجمع هواريت ومواريت ؛ مثل طواغيث ؛ ويقال :

هوارتة وهوار ، وموارتة وموار ، ومثله جالوت وطالوت ؛ فاعلم .

وقد تقدّم هل هما ملكان أو غيرهما ؟ خلاف .

قال الزّجاج : ورُوي عن عليّ رضي الله عنه أنه قال : أيْ والذي أُنزل على الملكين ، وأن الملكين يعلّمان الناس تعليم إنذار من السّحر لا تعليم دعاء إليه .

قال الزجاج : وهذا القول الذي عليه أكثر أهل اللغة والنظر ، ومعناه أنهما يعلّمان الناس على النهي فيقولان لهم : لا تفعلوا كذا ، ولا تحتالوا بكذا لتفرّقوا بين المرء وزوجه .

والذي أُنزِل عليهما هو النّهي ، كأنه قولاً للناس : لا تعملوا كذا ؛ ف "يُعَلّمان" بمعنى يُعْلِمان ؛ كما قال : " وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ" أي أكرمنا .

الحادية والعشرون : قوله تعالى : ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ ﴾ "من" زائدة للتوكيد ، والتقدير : وما يعلمان أحداً .

﴿ حتى يَقُولاَ ﴾ نصب بحتى فلذلك حذفت منه النون ؛ ولغة هُذيل وثَقيف " عتّى" بالعين غير المعجمة .

والضمير في "يُعلّمان" لهاروت وماروت .

وفي "يُعَلّمان" قولان ؛ أحدهما : أنه على بابه من التعليم .

الثاني : أنه من الإعلام لا من التعليم ؛ ف "يُعَلّمان" بمعنى يُعْلِمان ، وقد جاء في كلام العرب تعلّم بمعنى أعلم ؛ ذكره ابن الأعرابي وابن الأنباري .

قال كعب بن مالك :

تعلّم رسول الله أنك مُدْرِكي . . .

وأنّ وعيداً منك كالأخذ باليد

وقال القُطَامِيّ :

تعلّم أن بعد الغَيّ رشدا . . .

وأن لذلك الغيّ انقشاعا

وقال زُهير :

تَعلّمَنْ ها لعَمْرُ الله ذا قسماً . . .

فاقدر بذرعك وانظر أين تَنْسَلِكُ

وقال آخر :

تعلّم أنه لا طير إلا . . .

على مُتَطيّرٍ وهو الثُّبُور

﴿ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ ﴾ لمّا أنبأ بفتنتهما كانت الدنيا أسحر منهما حين كتمت فتنتها .

(181/61)

﴿ فَلاَ تَكْفُرْ ﴾ قالت فرقة بتعليم السحر ، وقالت فرقة باستعماله .

وحكى المهدويّ أنه استهزاء ؛ لأنهما إنما يقولانه لمن قد تحقّقَا ضلاله .

الثانية والعشرون : قوله تعالى : ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا ﴾ قال سيبويه : التقدير فهم يتعلمون ؛ قال ومثله ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾ .

وقيل : هو معطوف على موضع " مَا يُعَلِّمَانِ " ؛ لأن قوله : ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ ﴾ وإن دخلت عليه ما النافية فمضمَّنه الإيجاب في التعليم .

وقال الفرّاء : هي مردودة على قوله : ﴿ يُعَلِّمُونَ الناس السحر ﴾ فيتعلمون ؛ ويكون " فيتعلّمون " متصلة بقوله ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ ﴾ فيأتون فيتعلمون .

قال السُّدّى : كانا يقولان لمن جاءهما : إنما نحن فتنة فلا تكفر ؛ فإن أبى أن يرجع قالا له : ائت هذا الرَّماد فَبُلْ فيه ؛ فإذا بال فيه خرج منه نور يسطع إلى السماء ، وهو الإيمان ؛ ثم يخرج منه دخان أسود فيدخل في أذنيه وهو الكفر ؛ فإذا أخبرهما بما رآه من ذلك علّماه ما يفرّقون به بين المرء وزوجه .

ذهبت طائفة من العلماء إلى أن الساحر ليس يقدر على أكثر مما أخبر الله عنه من التفرقة ؛ لأن الله ذكر ذلك في معرض الذمّ للسحر والغاية في تعليمه ؛ فلو كان يقدر على أكثر من ذلك لذكره .

وقالت طائفة : ذلك خرج على الأغلب ، ولا ينكر أن السحر له تأثير في القلوب ، بالحب

والبُغْض وبإلقاء الشرور حتى يفرّق الساحر بين المرء وزوجه ، ويحول بين المرء وقلبه ، وذلك بإدخال الآلام وعظيم الأسقام ؛ وكل ذلك مدرك بالمشاهدة وإنكاره معاندة ؛ وقد تقدّم هذا ، والحمد لله .

الثالثة والعشرون : قوله تعالى : ﴿ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ ﴾ " مَا هُمْ" إشارة إلى السحرة .

وقيل إلى اليهود ، وقيل إلى الشياطين .

﴿ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ ﴾ أي بالسحر .

﴿ مِنْ أَحَدٍ ﴾ أي أحداً ؛ ومن زائدة .

﴿ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ ﴾ أي بإرادته وقضائه لا بأمره ؛ لأنه تعالى لا يأمر بالفحشاء ويقضي على الخلق بها .

وقال الزجاج : ﴿ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ ﴾ إلا بعلم الله .

قال النحاس : وقول أبي إسحاق ﴿ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ ﴾ إلا بعلم الله غلط ؛ لأنه إنما يقال في العلم أَذَنٌ ، وقد أَذِنْت أَذَناً .

ولكن لما لم يحل فيما بينهم وبينه وظلوا يفعلونه كان كأنه أباحه مجازاً .

الرابعة والعشرون : قوله تعالى : ﴿ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ ﴾ يريد في الآخرة وإن أخذوا بها نفعاً قليلاً في الدنيا .

وقيل : يضرهم في الدنيا ؛ لأن ضرر السحر والتفريق يعود على الساحر في الدنيا إذا عثر عليه ؛ لأنه يُؤدّب ويُزجَر ، ويلحقه شؤم السحر .

وباقي الآي بين لتقدّم معانيها .

واللام في ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُواْ ﴾ لام توكيد .

﴿ لَمَنِ اشتراه ﴾ لام يمين ، وهي للتوكيد أيضاً .

وموضع " من" رفع بالابتداء ؛ لأنه لا يعمل ما قبل اللام فيما بعدها .

و" من" بمعنى الذي .

وقال الفرّاء : هي للمجازاة .

وقال الزجاج : ليس هذا بموضع شرط ، و " مَن" بمعنى الذي ؛ كما تقول : لقد علمت ، لمن جاءك ما له عقل .

﴿ مِنْ خَلاَقٍ ﴾ " من" زائدة ، والتقدير ما له في الآخرة خلاق ، ولا تزاد في الواجب ؛ هذا قول البصريين .

وقال الكوفيون : تكون زائدة في الواجب ؛ واستدلوا بقوله تعالى : ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ

﴿ [نوح: 4] والخَلاَق: النصيب؛ قاله مجاهد.

قال الزجاج: وكذلك هو عند أهل اللغة، إلا أنه لا يكاد يستعمل إلا للنصيب من الخير.

وسئل عن قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشتراه مَا لَهُ فِي الآخرة مِنْ خَلاَقٍ ﴾ فأخبر أنهم قد علموا؛ ثم قال: ﴿ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ فأخبر أنهم لا يعلمون؛ فالجواب وهو قول قُطْرُب والأخفش: أن يكون الذين يعلمون الشياطين، والذين شَرَوْا أنفسهم أي باعوها هم الإنس الذين لا يعلمون.

(183/61)

قال الزجاج وقال عليّ بن سليمان: الأجود عندي أن يكون ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُوا ﴾ للمَلَكَين؛ لأنهما أولى بأن يعلموا.

وقال: "علموا" كما يقال: الزيدان قاموا.

وقال الزجاج: الذين علموا علماء اليهود؛ ولكن قيل: ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ أي فدخلوا في محل من يقال له: لست بعالم؛ لأنهم تركوا العمل بعلمهم واسترشدوا من الذين عمِلوا بالسحر. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 1 صـ 56.41 ﴾

(184/61)

ومن فوائد الخازن فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله عز وجل : ﴿ واتبعوا ما تتلو الشياطين ﴾ يعني اليهود نبذوا كتاب الله واتبعوا ما تتلوا الشياطين ، ومعنى تتلو تقرأ من التلاوة وقيل معناه تفتري وتكذب ﴿ على ملك سليمان ﴾ وهو قولهم : إن سليمان ملك الناس بالسحر وقيل : على ملك سليمان اي على عهده وزمانه .

وقصة ذلك أن الشيطان كتبوا السحر والنيرنجيات على لسان آصف : هذا ما علم آصف بن برخيا سليمان الملك وكتبوه ودفنوه تحت كرسيه وذلك حين نزل الله عنه الملك ولم يشعر بذلك قيل : إن بني إسرائيل اشتغلوا بتعليم السحر في زمانه فمنعهم سليمان من ذلك وأخذ كتبهم ودفنها تحت سريره ، فلما مات استخرجها الشياطين .

وقالوا للناس إنما ملككم سليمان بهذا فتعلموه فأما صلحاء بني إسرائيل وعلماؤهم فأنكروا ذلك .

وقالوا : معاذ الله أن يكون هذا العلم من علم سليمان وأما السفلة منهم .

فقالوا : هذا هو علم سليمان وأقبلوا على تعليمه وتركوا كتب أنبيائهم وفشت الملامة لسليمان .

فلم تزل هذه حالهم إلى أن بعث الله تعالى محمد صلى الله عليه وسلم وأنزل عليه براءة سليمان عليه السلام فقال تعالى : ﴿ واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان ﴾ ﴿ وما كفر سليمان ﴾ يعني بالسحر ولم يعمل به ، وفيه تنزيه سليمان عن السحر ، وذلك ان اليهود أنكروا نبوة سليمان ، وقالوا : إنما حصل له هذا الملك وسخرت الجن والإنس له بسبب السحر وقيل : إن السحرة من اليهود زعموا أنهم أخذوا السحر عن سليمان فبراه الله من ذلك ، وقيل إن بعض أحبار اليهود قال ألا تعجبون من محمد يزعم أن سليمان كان نبياً وما كان إلاّ ساحراً فأنزل الله تعالى : ﴿ وما كفر سليمان ﴾ يعني أن سليمان كونه نبياً ينافي كونه ساحراً كافراً ثم بين الله تعالى أن الذي براه منه لاحق بغيره فقال ﴿ ولكن الشياطين كفروا ﴾ يعني أن الذين اتخذوا السحر لأنفسهم هم الذين كفروا ثم بين سبب كفرهم فقال تعالى : ﴿ يعلمون الناس السحر ﴾ يعني ما كتب لهم الشياطين من كتب السحر .

وقيل : يحتمل أن يكون يعلمون يعني اليهود الذين عنوا بقوله : واتبعوا .

وسمي السحر سحراً لخفاء سببه ، فلا يفعل إلاّ في خفية وقيل : معنى السحر الإزالة وصرف الشيء عن وجهه تقول العرب ما سحرك عن كذا أي ما صرفك عنه فكأنه الساحر لما رأى الباطل في صورة الحق فقد سحر الشيء عن وجهه أي صرفه هذا أصله من حيث اللغة ، وأما حقيقته فقد قيل : إنه عبارة عن التمويه والتخييل ، ومذهب أهل السنة أن له وجوداً أو حقيقة والعمل به كفر وذلك إذا اعتقد أن الكواكب هي المؤثرة في قلب الأعيان وروي عن الشافعي أنه قال : السحر يخيل ويمرض وقد يقتل حتى أوجب القصاص على من قتل به وقيل إن السحر يؤثر في قلب الأعيان فيجعل الإنسان على صورة الحمار ، والحمار على صورة الكلب وقد يطير الساحر في الهواء ، وهذا القول ضعيف عند أهل السنة لأنهم قالوا : إن الله تعالى هو الخالق الفاعل لهذه الأشياء عند عمل الساحر لذلك إلاّ أن الساحر هو الفاعل لها المؤثر فيها والأصح ، أن السحر يخيل ويؤثر في الأبدان بالأمراض والجنون والموت ، ويدل على ذلك أن للكلام تأثيراً في الطباع فقد يسمع الإنسان ما يكره فيحم ، وقد مات قوم بكلام سمعوه فالسحر بمنزلة العلل في الأبدان وأما حكمه فإنه من الكبائر التي نهى عنها ، ويحرم تعلمه لما روي عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " اجتنبوا السبع الموبقات قيل يا رسول الله وما هن ؟ قال :

الإشراك بالله والسحر وقتل النفس التي حرم الله إلاّ بالحق ، وأكل مال اليتيم والزنا والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات " أخرجاه في الصحيحين .

(187/61)

فعند رسول الله صلى الله عليه وسلم السحر من الكبائر وثناه بالشرك وأمرنا باجتنابه ، وقوله : الموبقات يعني المهلكات والسحر على قسمين : أحداهما ، يكفر به صاحبه وهو أن يعتقد أن القدرة لنفسه في ذلك ، وهو المؤثر أو يعتقد أن الكواكب هي المؤثرة الفعالة فإذا انتهى به السحر إلى هذه الغاية صار كافراً بالله تعالى ، ويجب قتله لما روي عن جندب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " حد الساحر ضربه بالسيف " أخرجه الترمذي .

والقسم الثاني ، من السحر وهو التخييل الذي يشاكل النيرنجيات والشعبذة ، ولا يعتقد صاحبه لنفسه فيه قدرة ولا أن الكواكب هي المؤثرة ويعتقد أن القدرة لله تعالى ، وأنه هو المؤثر فهذا القدر لا يكفر به صاحبه ولكنه معصية وهو من الكبائر ، ويحرم فعله فإن قتل بسحره قتل قصاصاً لما روي عن مالك انه بلغه ان حفصة زوج النبي صلى الله عليه وسلم قتلت جارية لها سحرتها وقد كانت دبرتها ، فأمرت بها فقتلت أخرجه في الموطأ .

قوله عز وجل : ﴿ وما أنزل على الملكين ﴾ أي ويعلمون الذي أنزل على الملكين والإنزال

هنا بمعنى الإلهام والتعليم أي ما ألهما وعلما وقرئ في الشاذ الملكين بكسر اللام .

قال : هما رجلان ساحران كانا ببابل .

وقيل : علجان ووجهه أن الملائكة لا يعلمون السحر والقراءة المشهورة بفتح اللام .

(188/61)

فإن قلت : كيف يجوز أن يضاف إلى الله تعالى إنزال ذلك على الملائكة وكيف يجوز للملائكة تعليم السحر ؟ قلت : قال ابن جرير الطبري أن الله تعالى عرف عباده جميع ما أمرهم به وجميع ما نهاهم عنه ثم أمرهم ونهاهم بعد العلم منهم بما يؤمرون به وينهون عنه ، ولو كان الأمر على غير ذلك لما كان للأمر والنهي معنى مفهوم ، والسحر مما نهى عباده من بني آدم عنه فغير منكر أن يكون الله تعالى علمه الملكين اللذين سماهما في تنزيله وجعلهما فتنة لعباده من بني آدم كما أخبر عنهما أنهم يقولان : لمن جاء يتعلم ذلك منهما : إنما نحن فتنة فلا تكفر ليختبر بهما عباده الذين نهاهم عن السحر وعن التفريق بين المرء وزوجه فيتمحض المؤمن بتركه التعليم منهما ، ويجري الكافر بتعلمه الكفر والسحر منهما ويكون الملكان في تعليمهما ما علما من ذلك مطيعين لله تعالى إذ كان عن إذن الله تعالى ، لهما بتعليم ذلك غير ضارهما سحر من سحر ممن تعلم ذلك منهما ما بعد نهيهما إياه عنه بقولهما

إنما نحن فتنة فلا تكفر ، إذ كانا قد أديا ما أمرا به .

وقال غيره ؛ إنهما لا يتعمدان ذلك بل يصفان السحر ويذكران بطلانه ويأمران باجتنابه فالشقي من ترك نصحهما ، وتعلم السحر من وصفهما ، والسعيد من قبل نصحهما وترك تعلم السحر منهما .

وقيل : إن الله تعالى امتحن الناس بهما في ذلك الزمان فالشقي من تعلم السحر منهما فيكفر به والسعيد من تركه فيبقى على إيمانه ، ولله تعالى أن يمتحن عباده بما شاء كما امتحن بني إسرائيل بنهر طالوت بقوله : ﴿ فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني ﴾ ﴿ ببابل ﴾ قيل : هي بابل العراق بأرض الكوفة سميت بذلك لتبلبل الألسنة بها عند سقوط صرح نمرود .

وقيل : إنها بابل نهاوند والأول أصح أشهر ﴿ هاروت وماروت ﴾ اسمان سريانيان .

وقصة الآية على ما ذكره ابن عباس وغيره .

(189/61)

قالوا : إن الملائكة لما رأوا ما يصعد إلى السماء من أعمال بني آدم الخبيثة في زمن إدريس عليه السلام عيروهم .

وقالوا : هؤلاء الذين جعلتهم في الأرض واخترتهم وهم يعصونك فقال الله تعالى : لو أنزلتكم إلى الأرض وركبت فيكم ما ركبت فيهم لركبتم مثل ما ركبوا قالوا : سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نعصيك قال الله تعالى : وركبت فيكم ما ركبت فيهم ركبتهم مثل ما ركبوا قالوا : سبحانك ما كان ينبغي لنا ان نعصيك قال الله تعالى : فاختاروا ملكين من خياركم أهبطهما إلى الأرض فاختاروا هاروت وماروت ، وكانا من أصلح الملائكة وأعبدهم وكان اسم هاروت عزا وماروت عزايا ، فغير اسمهما لما قارفا الذنب وركب الله فيهما الشهوة وأهبطهما إلى الأرض وأمرهما ان يحكما بين الناس بالحق ونهاهما عن الشرك ، والقتل بغير الحق والزنا وشرب الخمر ، فكانا يقضيان بين الناس يومهما فإذا أمسيا ذكرا اسم الله الأعظم وصعدا إلى السماء فما مر عليهما شهر حتى افتتنا .

وقيل : بل افتتنا في أول يوم وذلك أنه اختصم إليهما امرأة يقال لها : الزهرة وكانت من أجمل أهل فارس .

وقيل : كانت ملكة فلما رأياها أخذت بقلوبهما فقال أحدهما لصاحبه هل سقط في نفسك مثل الذي سقط في نفسي .

قال : نعم فراوداها عن نفسها فأبت وانصرفت .

ثم عادت في اليوم الثاني ففعلا مثل ذلك فأبت وقالت : لا إلاّ أن تعبدا هذا الصنم وتقتلا النفس وتشربا الخمر فقالا : لا سبيل إلى هذ الأشياء فإن الله تعالى قد نهانا عنها .

فانصرفت ثم عادت في اليوم الثالث ، ومعها قدح خمر في أنفسهما من الميل ما فيها فراوداها عن نفسها فعرضت عليهما ما قالت بالأمس فقالا : الصلاة لغير الله عظيم وقتل النفس عظيم وأهون الثلاثة شرب الخمر فشربا فلما انتشيا وقعا بالمرأة فزنيا بها فرآهما إنسان فقتلاه خوف الفضيحة .

وقيل : إنهما سجدا للصنم .

وقيل : جاءتهما امرأة من أحسن الناس تخاصم زوجها .

(190/61)

فقال : أحداهما للآخر هل سقط في نفسك مثل الذي سقط في نفسي ؟ قال : نعم قال هل لك أن تقضي لها على زوجها .

فقال له صاحبه أما تعلم ما عند الله من العقوبة والعذاب ؟ فقال له صاحبه : أما تعلم ما عند الله من العفو والرحمة ؟ فسألاها نفسها فقالت : لا إلاّ أن يقضيا لي على زوجي فقضيا .

ثم سألاها نفسها فقالت : لا إلاّ أن تقتلاه فقال أحدهما : لصاحبه أما تعلم ما عند الله من العقوبة والعذاب ؟ فقال له صاحبه أما تعلم ما عند الله من العفو والرحمة ؟ فقتلاه ثم

سألاها نفسها فقالت : لا إلاّ أن لي صنماً أعبده إن أنتما صليتما معي عنده فعلت .

فقال أحدهما : لصاحبه مثل القول الأول فرد عليه مثله فصليا فمسخت شهاباً .

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : قالت لهم لن تدركاني حتى تخبراني بالذي تصعدان به إلى السماء فقالا : اسم الله الأكبر .

قالت : فما أنتما بمدركي حتى تعلماني إياه فقال أحدهما للآخر : علمها .

فقالك إني أخاف الله فقال الآخر فأين رحمة الله فعلمها ذلك فتكلمت به وصعدت إلى السماء فمسخها الله كوكباً ، فذهب بعضهم إلى أنها هي الزهرة بعينها وأنكر آخرون ذلك وقالوا : إن الزهرة من الكواكب السيارة السبعة التي أقسم الله بها فقال : ﴿ فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس ﴾ والتي فتنت هاروت وماروت كانت امرأة تسمى الزهرة لجمالها وحسنها فلما بغت مسخها الله تعالى شهاباً .

قالوا : فلما أمسى هاروت وماروت بعد ما قارفا الذنب ، هما بالصعود إلى السماء فلم تطاوعهما أجنحتهما ، فعلما ما حل بهما فقصدا إدريس النبي عليه السلام وأخبراه بأمرهما وسألاه أن يشفع لهما إلى الله عز وجل .

وقالا له : رأينا يصعد لك من العبادة مثل ما يصعد لجميع أهل الأرض فاشفع لنا إلى ربك ففعل ذلك إدريس فخيرهما الله بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة .

فاختاروا عذاب الدنيا إذ علما انه ينقطع ، فهما ببابل يعذبان قيل : إنهما معلقان بشعورهما إلى قيام الساعة .

(191/61)

وقيل : إنهما منكوسان يضربان بسياط الحديد .

وقيل : إن رجلاً قصدهما ليتعلم السحر فوجدهما معلقين بأرجلهما مزرقة عيونهما مسودة جلودهما ليس بين ألسنتهما وبين الماء إلاّ قدر أربع أصابع وهما يعذبان بالعطش ، فلما رأى ذلك هاله فقال : لا إله إلاّ الله فلما سمعا كلامه قالا : لا إله إلاّ الله من أنت ؟ قال : رجل من الناس .

فقالا : من أي أمة أنت ؟ قال : من أمة محمد صلى الله عليه وسلم قالا ؟ أو قد بعث محمد صلى الله عليه وسلم قال : نعم فقال : الحمد لله وأظهر الاستبشار فقال الرجل مم استبشاركما ؟ قالا : إنه نبي الساعة وقد دنا انقضاء عذابنا .

فصل : في القول بعصمة الملائكة

أجمع المسلمون على أن الملائكة معصومون فضلاً ، واتفق أئمة المسلمين على أن حكم الرسل من الملائكة حكم النبيين ، سواء في العصمة في باب البلاغ عن الله عز وجل وفي كل

شيء ثبتت فيه عصمة الأنبياء فكذلك الملائكة وأنهم مع الأنبياء في التبليغ إليهم ، كالأنبياء مع أممهم ، ثم اختلفوا في غير المرسلين من الملائكة فذهب طائفة من المحققين .

وجميع المعتزلة إلى عصمة جميع الملائكة عن جميع الذنوب والمعاصي ، واحتجوا على ذلك بوجوه سمعية وعقلية ، وذهب طائفة إلى أن غير المرسلين من الملائكة غير معصومين ، واحتجوا على ذلك بوجوه سمعية وعقلية منها قصة هاروت وماروت عن علي وما نقله أهل الأخبار والسير .

ونقله ابن جرير الطبري في تفسيره عن جماعة من الصحابة والتابعين فنقل قصة هاروت وماروت بألفاظ متقاربة .

عن علي بن أبي طالب وابن مسعود وكعب الأحبار والسدي والربيع ومجاهد .

(192/61)

وأجاب من ذهب إلى عصمة جميع الملائكة عن قصة هاروت وماروت ، بأن ما نقله المفسرون وأهل الأخبار في ذلك لم يصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم منه شيء وهذه الأخبار إنما أخذت من اليهود ، وقد علم افتراؤهم على الملائكة والأنبياء وقد ذكر الله عز وجل في هذه الآيات ، افتراء اليهود على سليمان أولاً ، ثم عطف على ذلك قصة

هاروت وماروت ثانياً ، قالوا : ومعنى الآية وما كفر سليمان يعني بالسحر الذي افتعله عليه الشياطين ، واتبعتهم في ذلك فأخبر عن افترائهم وكذبهم ، وذكروا أيضاً في الجواب عن هذه القصة وأنها باطلة وجوهاً : الأول : إن في القصة أن الله تعالى قال : للملائكة لو ابتليتم بما ابتليت به بنو آدم لعصيتموني ، قالوا : سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نعصيك وفيه رد على الله تعالى وذلك كفر وقد ثبت أنهم كانوا معصومين قبل ذلك فلا يقع هذا منهم .

الوجه الثاني : أنهما خيرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ، وذلك فاسد لأن الله تعالى لا يخير من أشرك ، وإن كان قد صحت توبتهما فلا عقوبة عليهما .

الوجه الثالث أن المرأة لما فجرت فكيف يعقل أنها صعدت إلى السماء وصارت كوكباً وعظم الله قدرها بحيث أقسم بها في قوله : ﴿ فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس ﴾ فبان بهذه الوجوه ركة هذه القصة ، والله أعلم بصحة ذلك وسقمه .

والأولى تنزيه الملائكة عن كل ما لا يليق بمنصبهم وقوله تعالى : ﴿ وما يعلمان من أحد حتى يقولا ﴾ يعني وما يعلمان أحداً حتى ينصحاه أولاً ويقولا ﴿ إنما نحن فتنة ﴾ أي ابتلاء ومحنة ﴿ فلا تكفر ﴾ أي لا تتعلم السحر فتعمل به فتكفر ، قيل : يقولان إنما نحن فتنة فلا تكفر سبع مرات فإن أبى قبول نصحهما وصمم على التعليم يقولان له : ائت هذا الرماد فبل عليه فإذا ذلك خرج منه نور ساطع في السماء فذلك الإيمان والمعرفة .

وينزل شيء أسود مثل الدخان حتى يدخل مسامعه وذلك غضب الله تعالى : ﴿ فيتعلمون منهما ﴾ يعني من الملكين ﴿ ما يفرقون به بين المرء وزوجه ﴾ أي علم السحر الذي يكون سبباً في التفريق بين الزوجين ، كالتمويه والتخييل والنفث في العقد ونحو ذلك مما يحدث الله عنده البغضاء والنشوز ، والخلاف بين الزوجين ابتلاء من الله تعالى لا أن السحر له تأثير في نفسه بدليل قوله : ﴿ وما هم ﴾ يعني السحرة ﴿ بضارين به ﴾ أي بالسحر ﴿ من أحد ﴾ أي أحداً ﴿ إلاّ بإذن الله ﴾ أي بعلمه وقضائه وتكوينه فالساحر يسحر والله تعالى يقدر ويكون ذلك بقضائه تعالى وقدرته ومشيئته ﴿ ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ﴾ يعني السحر لأنهم يقصدون به الشر ﴿ ولقد علموا ﴾ يعني اليهود ﴿ لمن اشتراه ﴾ أي اختار السحر ﴿ ما له في الآخرة من خلاق ﴾ يعني ما له نصيب في الجنة ﴿ ولبئس ما شروا به أنفسهم ﴾ أي باعوا حظ أنفسهم حيث اختاروا السحر والكفر على الدين والحق ﴿ لو كانوا يعلمون ﴾ فإن قلت : كيف أثبت الله لهم العلم أولاً في قوله : ولقد علموا على التوكيد القسمي ثم نفاه عنهم آخر في قوله لو كانوا يعلمون .

قلت : قد علموا أن من اشترى السحر ما له في الآخرة من خلاق ثم مع هذا العلم خالفوا واشتغلوا بالسحر وتركوا العمل بكتاب الله تعالى وما جاءت به الرسل عناداً منهم وبغياً ،

وذلك على معرفة منهم بما لمن فعل ذلك منهم من العقاب فكأنهم حين لم يعملوا بعلمهم كانوا منسلخين منه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 1 صـ 86. 92 ﴾

(194/61)

ومن فوائد أبى حيان فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان ﴾ ، معنى اتبعوا : أي اقتدوا به إماماً ، أو فضلوا ، لأن من اتبع شيئاً فضله ، أو قصد واو الضمير في واتبعوا لليهود ، فقال ابن زيد والسدّي : يعود على من كان في عهد سليمان .

وقال ابن عباس : في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقيل : يعود على جميع اليهود .

والجملة من قوله : واتبعوا ، معطوفة على جميع الجملة السابقة من قوله : ولما جاءهم إلى آخرها ، وهو إخبار عن حالهم في اتباعهم ما لا ينبغي أن يتبع ، وهذا هو الظاهر ، لا أنها معطوفة على قوله : نبذه فريق منهم ، لأن الاتباع ليس مترتباً على مجيء الرسول ، لأنهم كانوا متبعين ذلك قبل مجيء الرسول ، بخلاف نبذ كتاب الله ، فإنه مترتب على مجيء

الرسول .

وتتلو : تتبع ، قاله ابن عباس ، أو تدعي ، أو تقرأ ، أو تحدث ، قاله عطاء ، أو تروي ، قاله يمان ، أو تعمل ، أو تكذب ، قاله أبو مسلم .

وهي أقوال متقاربة .

وما موصولة ، صلتها تتلو ، وهو مضارع في معنى الماضي ، أي ما تلت .

وقال الكوفيون : المعنى : ما كانت تتلو ، لا يريدون أن صلة ما محذوفة ، وهي كانت وتتلو ، في موضع الخبر ، وإنما يريدون أن المضارع وقع موقع الماضي ، كما أنك إذا قلت : كان زيد يقوم ، هو إخبار بقيام زيد ، وهو ماض لدلالة كان عليه .

والشياطين : ظاهره أنهم شياطين الجن ، لأنه إذا أطلق الشيطان ، تبادر الذهن إلى أنه من الجان .

وقيل : المراد شياطين الإنس .

وقرأ الحسن والضحاك : الشياطون ، بالرفع بالواو ، هو شاذ ، قاسه على قول العرب : بستان فلان حوله بساتون ، رواه الأصمعي .

قالوا : والصحيح أن هذا الجن فاحش .

وقال أبو البقاء : شبه فيه الياء قبل النون بياء جمع الصحيح ، وهو قريب من الغلط .

وقال السجاوندي : خطأه الخازربجي .

على ملك : متعلق بتتلو ، وتلا يتعدى بعلى إذا كان متعلقها يتلى عليه لقوله : يتلى على زيد القرآن ، وليس الملك هنا بهذا المعنى ، لأنه ليس شخصاً يتلى عليه ، فلذلك زعم بعض النحويين أن على تكون بمعنى في ، أي تتلو في ملك سليمان .

وقال أصحابنا : لا تكون على في معنى في ، بل هذا من التضمين في الفعل ضمن تتقول ، فعديت بعلى لأن تقول : تعدى بها ، قال تعالى : ﴿ ولو تقوّل علينا ﴾ ومعنى : ﴿ على ملك سليمان ﴾ ، أي شرعه ونبوّته وحاله .

وقيل : على عهده ، وفي زمانه ، وهو قريب .

وقيل : على كرسي سليمان بعد وفاته ، لأنه كان من آلات ملكه .

وفسروا ما يتلو الشياطين بالسحر ، قالوا : وهو الأشهر والأظهر على ما نقل في أسباب النزول ، من أن الشياطين كتبت السحر واختلقته ونسبته إلى سليمان وآصف .

وقيل : الذي تلته هو الكذب الذي تضيفه إلى ما تسترق من أخبار السماء ، وأضافوا ذلك إلى سليمان تفخيماً لشأن ما يتلونه ، لأن الذي كان معه : من المعجزات ، وإظهار الخوارق ، وتسخير الجن والإِنس ، وتقريب المتباعدات ، وتأليف الخواطر ، وتكليم العجماوات ،

كان أمراً عظيماً .

والساحر يدّعي أشياء من هذا النوع : من تسخير الجن ، وبلوغ الآمال ، والتأثير في الخواطر ، بل ويدّعي قلب الأعيان على ما يأتي في الكلام على السحر في قوله تعالى : ﴿ يعلمون الناس السحر ﴾ ، أو لأنهم كانوا يزعمون أن ملك سليمان إنما حصل بالسحر .

وقد ذكر المفسرون في كيفيات ما رتبوه من هذا الذي تلوه قصصاً كثيرة ، الله أعلم به ، ولم تتعرض الآية الكريمة ، ولا الحديث المسند الصحيح لشيء منه ، فلذلك لم نذكره .

﴿ وما كفر سليمان ﴾ : تنزيه لسليمان عن الكفر ، أي ليس ما اختلقته الجن من نسبة ما تدعيه إلى سليمان تعاطاه سليمان ، لأنه كفر ، ومن نبأه الله تعالى منزه عن المعاصي الكبائر والصغائر ، فضلاً عن الكفر .

(196/61)

وفي ذلك دليل على صحة نفي الشيء عمن لا يمكن أن يقع منه ، لأنّ النبي لا يمكن أن يقع منه الكفر ، ولا يدل هذا على أن ما نسبوه إلى سليمان من السحر يكون كفراً ، إذ يحتمل أنهم نسبوا إليه الكفر مع السحر .

وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما ذكر سليمان في الأنبياء قال بعض اليهود :

انظروا إلى محمد يذكر سليمان في الأنبياء ، وما كان إلا ساحراً .

ولم يتقدّم في الآيات أن أحداً نسب سليمان إلى الكفر ، ولكنها آية نزلت في السبب المتقدّم أن اليهود نسبته إلى السحر والعمل به .

﴿ ولكن الشيطان كفروا ﴾ : كفرهم ، إما بتعليم السحر ، وإما تعلمهم به ، وإما بتكفيرهم سليمان به ، ويحتمل أن يكون كفرهم بغير ذلك .

واستعمال لكن هنا حسن ، لأنها بين نفي وإثبات .

وقرئ : ولكنّ بالتشديد ، فيجب إعمالها ، وهي قراءة نافع وعاصم وابن كثير وأبي عمرو .

وقرئ : بتخفيف النون ورفع ما بعدها بالابتداء والخبر ، وهي قراءة ابن عامر وحمزة والكسائي .

وإذا خففت ، فهل يجوز إعمالها ؟ مسألة خلاف الجمهور على المنع ونقل أبو القاسم بن الرماك عن يونس جواز إعمالها ، ونقل ذلك غيره عن الأخفش ، والصحيح المنع .

وقال الكسائي والفراء : الاختيار ، التشديد إذا كان قبلها واو ، والتخفيف إذا لم يكن معها واو ، وذلك لأنها مخففة تكون عاطفة ولا تحتاج إلى واو معها .

كبل : فإذا كانت قبلها واو لم تشبه بل ، لأن بل لا تدخل عليها الواو ، فإذا كانت لكن مشدّدة عملت عمل إن ، ولم تكن عاطفة .

انتهى الكلام.

وهذا كله على تسليم أن لكن تكون عاطفة، وهي مسألة خلاف الجمهور على أن لكنّ تكون عاطفة.

وذهب يونس إلى أنها ليست من حروف العطف، وهو الصحيح لأنه لا يحفظ ذلك من لسان العرب، بل إذا جاء بعدها ما يوهم العطف، كانت مقرونة بالواو كقوله تعالى: ﴿ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله ﴾

(197/61)

وأما إذا جاءت بعدها الجملة، فتارة تكون بالواو، وتارة لا يكون معها الواو، كما قال زهير :

إن ابن ورقاء لا تخشى بوادره . . .

لكن وقائعه في الحرب تنتظر

وأما ما يوجد في كتب النحويين من قولهم: ما قام زيد لكن عمرو، وما ضربت زيداً لكن عمراً، وما مررت بزيد لكن عمرو، فهو من تمثيلهم، لا أنه مسموع من العرب.

ومن غريب ما قيل في لكن: إنها مركبة من كلم ثلاث: لا للنفي، والكاف للخطاب، وأن

التي للإثبات والتحقيق ، وأن الهمزة حذفت للاستثقال ، وهذا قول فاسد ، والصحيح أنها بسيطة .

﴿ يعلمون الناس السحر ﴾ : الضمير في يعلمون اختلف في من يعود عليه ، فالظاهر أنه يعود على الشياطين ، يقصدون به إغواءهم وإضلالهم ، وهو اختيار الزمخشري .

وعلى هذا تكون الجملة في موضع الحال من الضمير في كفروا .

قالوا : أو خبراً ثانياً .

وقيل : حال من الشياطين .

ورد بأن لكن لا تعمل في الحال ، وقيل : بدل من كفروا ، بدل الفعل من الفعل ، لأن تعليم الشياطين السحر كفر في المعنى .

والظاهر أنه استئناف إخبار عنهم .

وقيل : الضمير عائد على الذين اتبعوا ما تتلو الشياطين .

على اختلاف المفسرين فيمن يعود عليه ضمير اتبعوا ، فيكون المعنى : يعلم المتبعون ما تتلو الشياطين الناس ، فالناس معلمون للمتبعين .

وعلى القول الأول يكونون معلمين للشياطين .

واختلف في حقيقة السحر على أقوال : الأول : أنه قلب الأعيان واختراعها وتغيير صور الناس مما يشبه المعجزات والكرامات ، كالطيران وقطع المسافات في ليلة .

الثاني : أنه خدع ومخاريق وتمويهات وشعوذة لا حقيقة لها ، ويدل عليه ، ﴿ يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى ﴾ وفي الحديث ، حين سحر لبيد بن الأعصم رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يخيل إليه أنه يفعل الشيء وما يفعله" .

وهو قول المعتزلة : يرون أن السحر ليست له حقيقة ، ووافقهم أبو إسحاق الاسترأباذي من الشافعية .

(198/61)

الثالث : أنه أمر يأخذ بالعين على جهة الحيلة ، ومنه : ﴿ سحروا أعين الناس ﴾ كما روي أن حبالهم وعصيهم كانت مملوءة زئبقاً ، فسجروا تحتها ناراً ، فحميت الحبال والعصي ، فتحركت وسعت .

ولأرباب الحيل والدك والشعوذة من هذا أشياء ، يبين كثير منها في الكتاب المسمى (بكشف الدّك والشعوذة وإيضاح الشك) ، وفي كتاب (إرخاء الستور والكلل في الشعوذة والحيل) .

وفي الحديث ، حين انشق القمر نصفين بمكة ، قال أبو جهل : اصبروا حتى يأتي أهل البوادي ، فإن لم يخبروا بذلك ، كان محمد قد سحر أعيننا ، فأتوا فأخبروا بذلك ، فقال :

ما هذا إلا سحر عظيم .

الرابع : أنه نوع من خدمة الجن ، وهم الذين استخرجوه من جنس لطيف أجسامهم وهيآتها ، فلطف ودق وخفي .

الخامس : أنه مركب من أجسام تجمع وتحرق ، وتتخذ منها أرمدة ومداد ، ويتلى عليها أسماء وعزائم ، ثم تستعمل فيما يحتاج إليها من السحر .

السادس : أن أصله طلسمات وقلفطريات ، تبنى على تأثير خصائص الكواكب ، كتأثير الشمس في زئبق عصى فرعون ، أو استخدام الشياطين لتسهيل ما عسر .

السابع : أنه مركب من كلمات ممزوجة بكفر .

قال بعض معاصرينا : هذه الأقوال كلها التي قالوها في حقيقة السحر أنواع من أنواع السحر ، وقد ضم إليها أنواع أخر من الشعبذة والدك والنارنجيات والأوفاق والعزائم وضروب المنادل والصرع ، وما يجري مجرى ذلك .

انتهى كلامه .

ولا يشك في أن السحر كان موجوداً ، لنطق القرآن والحديث الصحيح به .

وأما في زماننا الآن ، فكلما وقفنا عليه في الكتب ، فهو كذب وافتراء ، لا يترتب عليه شيء ، ولا يصح منه شيء ألبتة .

وكذلك العزائم وضرب المندل ، والناس الذين يعتقد فيهم أنهم عقلاء ، يصدّقون بهذه

الأشياء ، ويصغون إلى سماعها .

وقد رأيت بعض من ينتمي إلى العلم ، إذا أفلس ، وضع كتباً وذكر فيها أشياء من رأسه ، وباعها في الأسواق بالدراهم الجيدة .

(199/61)

وقد أطلق اسم السحر بعض العلماء على الوشي بين الناس بالنميمة ، لأن فيه قلب الصديق عدواً ، والحبيب بغيضاً .

كما أطلق على حسن التوسل باللفظ الرائق العذب ، لما فيه من الاستمالة ، وسمي : سحراً حلالاً .

وقد روي أن من البيان لسحراً ، وقال :

وحديثها السحر الحلال لو أنه . . .

لم يجن قتل المسلم المنحرز

وظاهر قوله : ﴿ يعلمون الناس السحر ﴾ : أنهم يفهمونهم إياه بالإقراء والتعليم .

وقيل : المعنى يدلونهم على تلك الكتب ، فأطلق على الدلالة تعليماً ، تسمية للمسبب بالسبب .

وقيل : المعنى يوقرون في قلوبهم أنها حق ، تضر وتنفع ، وأن سليمان إنما تم له ما تم بذلك ، وهذا أيضاً تسمية للمسبب بالسبب .

وقيل : يعلمون معناه يعلمون ، أي يعلمونهم بما يتعلمون به السحر ، أو بمن يتعلمون منه ولم يعلموهم ، فهو من باب الإعلام لا من باب التعليم .

وأما حكم السحر ، فما كان منه يعظم به غير الله من الكواكب والشياطين ، وإضافة ما يحدثه الله إليها ، فهو كفر إجماعاً ، لا يحل تعلمه ولا العمل به .

وكذا ما قصد بتعلمه سفك الدماء ، والتفريق بين الزوجين والأصدقاء .

وأما إذا كان لا يعلم منه شيء من ذلك ، بل يحتمل ، فالظاهر أنه لا يحل تعلمه ولا العمل به .

وما كان من نوع التحيل والتخييل والدّك والشعبذة ، فإن قصد بتعليمه العمل به والتمويه على الناس ، فلا ينبغي تعلمه ، لأنه من باب الباطل .

وإن قصد بذلك معرفته لئلا تتم عليه مخايل السحرة وخدعهم ، فلا بأس بتعلمه ، أو اللهو واللعب ، وتفريج الناس على خفة صنعته فيكره .

روي : لست من دد ولا دد مني .

وأما سحر البيان ، فما أريد به تأليف القلوب على الخير ، فهو السحر الحلال ، أو ستر الحق ، فلا يجوز تعلمه ولا العمل به .

وأما حكم الساحر حدًّا وتوبة ، فقد تعرض المفسرون لذلك ، ولم تتعرض إليه الآية ، وهي مسألة موضوعها علم الفقه ، فتذكر فيه .

(200/61)

﴿ وما أنزل ﴾ : ظاهره أن ما موصول اسمي منصوب ، وأنه معطوف على قوله : السحر ، وظاهر العطف التغاير ، فلا يكون ما أنزل على الملكين سحراً .

وقيل : هو معطوف على ما تتلو الشياطين ، أي ﴿ واتبعوا ما تتلو الشياطين ﴾ ، و ﴿ الذي أنزل ﴾ وظاهره أن ما علموه الناس ، أو ما اتبعوه هو منزل .

واختلف في هذا المنزل الذي علم ، أو الذي اتبع فقيل : علم السحر أنزل على الملكين ابتلاء من الله للناس ، من تعلمه منهم وعمل به كان كافراً ، ومن تجنبه أو تعلمه لا يعمل به ولكن ليتوقاه ولئلا يغتر به كان مؤمناً ، كما ابتلى قوم طالوت بالنهر ، وهذا اختيار الزمخشري .

وقال مجاهد وغيره : المنزل هو الشيء الذي يفرق به بين المرء وزوجه ، وهو دون السحر .

وقيل : السحر ليعلم على جهة التحذير منه ، والنهي عنه ، والتعليم على هذا القول إنما هو تعريف يسير بمبادئه .

وقيل : ما في موضع جر عطفاً على ملك سليمان ، والمعنى : افتراء على ملك سليمان ،

وافتراء على ما أنزل على الملكين ، وهو اختيار أبي مسلم ، وأنكر أن يكون الملكان نازلاً عليهما السحر ، قال : لأنه كفر ، والملائكة معصومون ، ولأنه لا يليق بالله إنزاله ، ولا يضاف إليه ، لأن الله يبطله ، وإنما المنزل على الملكين الشرع ، وإنهما كانا يعلمان الناس ذلك .

وقيل : ما حرف نفي ، والجملة معطوفة على ﴿ وما كفر سليمان ﴾ ، وذلك أن اليهود قالوا : إن الله أنزل جبريل وميكال بالسحر ، فنفى الله ذلك .

﴿ على الملكين ﴾ : قراءة الجمهور بفتح اللام ، وظاهره أنهما ملكان من الملائكة ، وقد تقدّم الكلام على الملك في قوله تعالى : ﴿ وإذ قلنا للملائكة ﴾ فقيل : هما جبريل وميكال ، كما ذكرناه في هذا القول الأخير .

وقيل : ملكان غيرهما وهما : هاروت وماروت .

وقيل : ملكان غيرهما ، وسيأتي إعراب هاروت وماروت على تقدير هذه الأقوال ، إن شاء الله .

(201/61)

وقرأ ابن عباس والحسن وأبو الأسود الدؤلي والضحاك وابن ابزي : الملكين ، بكسر اللام ، فقال ابن عباس : هما رجلان ساحران كانا ببابل ، لأن الملائكة لا تعلم الناس السحر .

وقال الحسن : هما علجان ببابل العراق .

وقال أبو الأسود : هما هاروت وماروت ، وهذا موافق لقول الحسن .

وقال ابن أبزي : هما داود وسليمان ، على نبينا وعليهما الصلاة والسلام .

وقيل : هما شيطانان .

فعلى قول ابن أبزي تكون ما نافية ، وعلى سائر الأقوال ، في هذه القراءة ، تكون ما موصولة .

ومعنى الإنزال : القذف في قلوبهما .

وقد ذكر المفسرون ، في قراءة من قرأ : الملكين بفتح اللام ، قصصاً كثيراً ، تتضمن : أن الملائكة تعجبت من بني آدم في مخالفتهم ما أمر الله به ، وأن الله تعالى بكتهم ، بأن قال لهم : اختاروا ملكين للهبوط إلى الأرض ، فاختاروا هاروت وماروت ، وركب فيهما الشهوة ، فحكما بين الناس ، وافتتنا بامرأة ، تسمى بالعربية الزهرة ، وبالفارسية ميذخت ، فطلباها وامتنعت ، إلا أن يعبدا صنماً ، ويشربا الخمر ويقتلا .

فخافا على أمرهما ، فعلماها ما تصعد به إلى السماء وما تنزل به ، فصعدت ونسيت ما تنزل به ، فمسخت .

وأنهما تشفعا بإدريس إلى الله تعالى ، فخيرهما في عذاب الدنيا والآخرة ، فاختارا عذاب الدنيا ، فهما ببابل يعذبان .

وذكروا في كيفية عذابهما اختلافاً .

وهذا كله لا يصح منه شيء .

والملائكة معصومون ، ﴿ لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون ﴾ ﴿ لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون ﴾ ﴿ يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾ ولا يصح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يلعن الزهرة ولا ابن عمر .

وقيل : سبب إنزال الملكين : أن السحرة كثروا في ذلك الزمان ، وادعوا النبوّة ، وتحدّوا الناس بالسخر .

فجاء ليعلما الناس السحر ، فيتمكنوا من معارضة السحر ، فيتبين كذبهم في دعواهم النبوّة ، أو لأن المعجزة والسحر ماهيتان متباينتان ، ويعرض بينهما الالتباس .

(202/61)

فجاء الإيضاح الماهيتين ، أو لأن السحر الذي يوقع التفرقة بين أعداء الله وأوليائه كان مباحاً ، أو مندوباً ، فبعثا لذلك ، ثم استعمله القوم في التفرقة بين أولياء الله .

أو لأن الجن كان عندهم من أنواع السحر ما لم تقدر البشر على مثله ، فأنزلا بذلك لأجل المعارضة .

وقيل : أنزلا على إدريس ، لأن الملائكة لا يكونون رسلاً لكافة الناس ، ولا بد من رسول من البشر .

﴿ ببابل ﴾ : قال ابن مسعود : هي في سواد الكوفة .

وقال قتادة : هي من نصيبين إلى رأس العين .

وقيل : هي جبل دماوند .

وقيل : هي بالمغرب .

وقيل : في أرض غير معلومة ، فيها هاروت وماروت ، وسميت ببابل ، قال الخليل : لتبلبل الألسنة حين أراد الله أن يخالف بينها ، أتت ريح فحشرت الناس إلى بابل ، فلم يدر أحد ما يقول الآخر ، ثم فرّقتهم الريح في البلاد .

وقيل : لتبلبل الألسنة بها عند سقوط قصر نمروذ .

﴿ هاروت وماروت ﴾ : قرأ الجمهور : بفتح التاء ، وهما بدل من الملكين ، وتكون الفتحة علامة للجرّ لأنهما لا ينصرفان ، وذلك إذا قلنا إنهما إسمان لهما .

وقيل : بدل من الناس ، فتكون الفتحة علامة للنصب ، ولا يكون هاروت وماروت اسمين للملكين .

وقيل : هما قبيلتان من الشياطين ، فعلى هذا يكونان بدلاً من الشياطين ، وتكون الفتحة علامة للنصب ، على قراءة من نصب الشياطين .

وأما من رفع الشياطين ، فانتصابهما على الذم ، كأنه قال : أذم هاروت وماروت ، أي هاتين القبيلتين ، كما قال الشاعر :

أقارع عوف لا أحاول غيرها . . .

وجوه قرود تبتغي من تخادع

وهذا على قراءة الملكين ، بفتح اللام .

وأما من قرأ بكسرها ، فيكونان بدلاً من الملكين ، إلا إذا فسرا بداود وسليمان عليهما السلام ، فلا يكون هاروت وماروت بدلاً منهما ، ولكن يتعلقان بالشياطين على الوجهين اللذين ذكرنا في رفع الشياطين ونصبه .

(203/61)

وقرأ الحسن والزهري : هاروت وماروت بالرفع ، فيجوز أن يكونا خبر مبتدأ محذوف ، أي هما هاروت وماروت ، إن كانا ملكين .

وجاز أن يكونا بدلاً من الشياطين ، الأول أو الثاني ، على قراءة من رفعه ، إن كانا شيطانين .

وتقدّم لنا القول في هاروت وماروت ، وأنهما أعجميان .

وزعم بعضهم أنهما مشتقان من الهرت والمرت ، وهو الكسر ، وقوله خطأ ، بدليل منعهم الصرف لهما ، ولو كانا ، كما زعم ، لانصرفا ، كما انصرف جاموس إذا سميت به .

واختصت بابل بالإنزال لأنها كانت أكثر البلاد سحراً .

﴿ وما يعلمان من أحد ﴾ : قرأ الجمهور : بالتشديد ، من علم على بابها من التعليم .

وقالت طائفة : هو هنا بمعنى يعلمان التضعيف ، والهمزة بمعنى واحد ، فهو من باب الإعلام ، ويؤيده قراءة طلحة بن مصرّف .

وما يعلمان : من أعلم قال : لأن الملكين إنما نزلا يعلمان السحر وينهيان عنه .

والضمير في يعلمان عائد على الملكين ، أي وما يعلم الملكان .

وكذلك قراءة أبي ، أي بإظهار الفاعل لا إضماره .

وقيل : عائد على هاروت وماروت ، ففي القول الأول يكون عائداً على المبدل منه ، وفي الثاني على البدل ، ومن زائدة لتأكيد استغراق الجنس ، لأن أحداً من الألفاظ المستعملة للاستغراق في النفي العام ، فزيدت هنا لتأكيد ذلك ، بخلاف قولك : ما قام من رجل ، فإنها زيدت لاستغراق الجنس ، وشرط زيادتها هنا موجود عند جمهور البصريين ، لأنهم شرطوا أن يكون بعدها نكرة ، وأن يكون قبلها غير واجب .

وقد أمعنا الكلام على زيادة من في (كتاب منهج السالك) من تأليفنا ، وأجاز أبو البقاء أن يكون أحد هنا بمعنى واحد ، والأول أظهر .

﴿ حتى يقولا ﴾ حتى هنا : حرف غاية ، والمعنى انتفاء تعليمهما ، أو إعلامهما على اختلاف القولين في يعلمان إلى أن يقولا : ﴿ إنما نحن فتنة ﴾ .

وقال أبو البقاء : حتى هنا بمعنى إلا أن ، وهذا معنى لحتى لا أعلم أحداً من المتقدّمين ذكره .

(204/61)

وقد ذكره ابن مالك في (التسهيل) وأنشد عليه في غيره :

ليس العطاء من الفضول سماحة . . .

حتى تجود وما لديك قليل

قال : يريد إلا أن تجود ، وما في ﴿ إنما ﴾ كافة ، لإن عن العمل ، فيصير من حروف الابتداء .

وقد أجاز بعض النحويين عمل إن مع وجود ما ، نحو : إنما زيداً قائم .

﴿ نحن فتنة ﴾ : أي ابتلاء واختبار .

﴿ فلا تكفر ﴾ : قال علي رضي الله عنه : كانا يعلمان تعليم إنذار لا تعليم دعاء إليه ، كأنهما يقولان : لا تفعل كذا ، كما لو سأل سائل عن صفة الزنا ، أو القتل ، فأخبر بصفته

ليجتنبه .

فكان المعنى في يعلمان : يعلمان .

وقال الزمخشري : فلا تكفر : فلا تتعلم ، معتقداً أنه حق فتكفر .

وحكى المهدوي : أن قولهما ﴿ إنما نحن فتنة ﴾ ، فلا تكفر استهزاء ، لأنهما إنما يقولانه لمن قد تحققا ضلاله .

وقال في (المنتخب) قوله : ﴿ إنما نحن فتنة ﴾ توكيد لقبول الشرع والتمسك به ، فكانت طائفة تمثيل وأخرى تخالف .

وقيل : فلا تكفر ، أي لا تستعمله فيما نهيت عنه ، ولكن إذا وقفت عليه فتحرز من أن ينفذ لساحر عليك تمويه .

وقيل : فلا تفعله لتعمل به .

وهذا على قول من قال : تعلمه جائز والعمل به كفر .

وقيل : فلا تكفر بتعليم السحر ، وهذا على قول من قال : إن تعلمه كفر .

وقيل : فلا تكفر بنا ، وهذا على قول : إن الملكين نزلا من السماء بالسحر ، وإن من تعلمه في ذلك الوقت كان كافراً ، ومن تركه كان مؤمناً ، كما جاء في نهر طالوت ، وقد تقدم ما حكاه المهدوي إن قولهما : فلا تكفر ، على سبيل الاستهزاء ، لا على سبيل النصيحة .

وقوله : حتى يقولا مطلقاً في القول ، وأقل ما يتحقق بالمرة الواحدة ، فقيل مرة ، وقيل سبع

مرات ، وقيل تسع مرات ، وقيل ثلاث .

ويحتاج ذلك إلى صحة نقل ، وإن لم يوجد ، فيكون محتملاً ، والمتحقق المرة الواحدة .

(205/61)

واختلف في كيفية تلقي ذلك العلم منهما ، فقال مجاهد : هاروت وماروت لا يصل إليهما أحد ، ويختلف إليهما شيطانان في كل سنة اختلافه واحدة ، فيتعلمان منهما ما يفرّقان به بين المرء وزوجه .

والظاهر أن هاروت وماروت هما اللذان يباشران التعليم لقوله : ﴿ وما يعلمان ﴾ .

وقد ذكر المفسرون قصصاً فيما يعرض من المحاورة بين الملكين وبين من جاء ليتعلم منهما ، وفي كل من ذلك القصص أنهما يأمرانه بأن يبول في تنور .

فاختلفوا في الإيمان الذي يخرج منه ، أيرى فارساً مقنعاً بحديد يخرج منه حتى يغيب في السماء ؟ أو نوراً خرج من رماد يسطع حتى يدخل السماء ؟ أو طائراً خرج من بين ثيابه وطار نحو السماء ؟ وفسروا ذلك الخارج بأنه الإيمان .

وهذا كله شيء لا يصح ألبتة ، فلذلك لخصنا منه شيئاً ، وإن كان لا يصح ، حتى لا نخلي كتابنا مما ذكروه .

﴿ فيتعلمون ﴾ : قاله الفراء ، واختاره الزجاج ، وهو معطوف على شيء دل عليه أول الكلام ، كأنه قال : فيأبون فيتعلمون .

وقال الفرّاء أيضاً : هو عطف على ﴿ يعلمون الناس السحر ﴾ ، ﴿ فيتعلمون منهما ﴾ .

وأنكره الزجاج بسبب لفظ الجمع في يعلمون ، وقد قال منهما .

وأجازه أبو علي وغيره ، إذ لا يمتنع عطف فيتعلمون على يعلمون ، وإن كان التعليم من الملكين خاصة ، والضمير في منهما راجع إليهما ، لأن قوله : فيتعلمون منهما ، إنما جاء بعد ذكر الملكين .

وقال سيبويه : هو معطوف على كفروا ، قال : وارتفعت فيتعلمون ، لأنه لم يخبر عن الملكين أنهما قالا : لا تكفر ، فيتعلموا ليجعلا كفره سبباً لتعلم غيره ، ولكنه على كفروا فيتعلمون .

يريد سيبويه : أنّ فيتعلمون ليس بجواب لقوله : فلا تكفر ، فينصب كما نصب ﴿ لا تفتروا على الله كذباً فيسحتكم بعذاب ﴾ لأن كفر من نهي أن يكفر في الآية ، ليس سبباً لتعلم من يتعلم .

(206/61)

وكفروا : في موضع فعل مرفوع ، فعطف عليه مرفوع ، ولا وجه لاعتراض من اعترض في العطف على كفروا ، أو على يعلمون ، بأن فيه إضمار الملكين .

قيل : ذكرهما من أجل أن التقدير : ﴿ ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس الحسر ، فيتعلمون منهما ﴾ ، لأن قوله : ﴿ فيتعلمون منهما ﴾ إنما جاء بعد ذكر الملكين ، كما تقدّم .

وقد نقل عن سيبويه أن قوله : فيتعلمون ، هو على إضمارهم ، أي فهم يتعلمون ، فتكون جملة ابتدائية معطوفة على ما قبلها عطف الجمل ، والضمير على هذه الأقوال في فيتعلمون عائد على الناس ، ويجوز أن يكون فيتعلمون معطوفاً على يعلمان ، والضمير الذي في فيتعلمون لأحد ، وجمع حملاً على المعنى ، كما قال تعالى : ﴿ فما منكم من أحد عنه حاجزين ﴾ وهذا العطف ، وإن كان على منفي ، فلذلك المنفي هو موجب في المعنى ، لأن معناه : إنهما يعلمان كل واحد ، إذا قالا له : ﴿ إنما نحن فتنة فلا تكفر ﴾ .

وذكر الزجاج هذا الوجه .

وقال الزجاج أيضاً : الأجود أن يكون عطفاً على يعلمان فيتعلمون ، واستغنى عن ذكر يعلمان ، بما في الكلام من الدليل عليه .

وقال أبو علي : لا وجه لقول الزجاج استغنى عن ذكر يعلمان ، لأنه موجود في النص .

انتهى كلام أبي علي ، وهو كلام فيه مغالطة ، لأن الزجاج لم يرد أن فيتعلمون معطوف على

يعلمان ، الداخل عليها ما النافية في قوله : ولا ما يعلمان ، فيكون يعلمان موجوداً في النص ، وإنما يريد أن يعلمان مضمرة مثبتة لا منفية .

وهذا الذي قدّره الزجاج ليس موجوداً في النص .

وحمل أبا عليّ على هذه المغالطة حب ردّه على الزجاج وتخطئته ، لأنه كان مولعاً بذلك .

وللشنآن الجاري بينهما سبب ذكره الناس .

انتهى ما وقفنا عليه للناس في هذا العطف ، وأكثره كلام المهدوي ، لأنه هو الذي أشبع الكلام في ذلك .

(207/61)

وتلخص في هذا العطف أنه عطف على محذوف تقدير : فيأبون فيتعلمون ، أو يعلمان فيتعلمون ، أي على مثبت ، أو يتعلمون خبر مبتدأ محذوف ، أي فهم يتعلمون عطف جملة اسمية على فعلية ، أو معطوفاً على يعلمون الناس ، أو معطوفاً على كفروا ، أو على يعلمان المنفية لكونها موجبة في المعنى .

فتلك أقوال ستة ، أقربها إلى اللفظ هذا القول الأخير .

﴿ منهما ﴾ : الضمير في الظاهر عائد على الملكين ، أي فيتعلمون من الملكين ، سواء

قرىء بفتح اللام ، أو كسرها .

وقيل : يعود على السحر ، وعلى الذي أنزل على الملكين ، وقيل : عائد على الفتنة والكفر ، الذي هو مصدر مفهوم من قوله : ﴿ فلا تكفر ﴾ ، وهذا قول أبي مسلم ، والتقدير عنده : فيتعلمون من الفتنة والكفر مقدار ما يفرقون به بين المرء وزوجه .

﴿ ما يفرقون به ﴾ : ما موصولة ، وجوّز أن تكون نكرة موصوفة ، ولا يجوز أن تكون مصدرية ، لأجل عود الضمير عليها .

والمصدرية لا يعود عليها ضمير ، لأنها حرف في قول الجمهور ، والذي يفرق به هو السحر .

وعني بالتفريق : تفريق الألفة والمحبة ، بحيث تقع الشحناء والبغضاء فيفترقان ، أو تفريق الدين ، بحيث إذا تعلم فقد كفر وصار مرتداً ، فيكون ذلك مفرقاً بينهما .

﴿ بين المرء ﴾ : قراءة الجمهور بفتح الميم وسكون الراء والهمز .

وقرأ الحسن والزهري وقتادة : المر بغير همز مخففاً .

وقرأ ابن أبي إسحاق : المرء بضم الميم والهمزة .

وقرأ الأشهب العقيلي : المرء بكسر الميم والهمز ، ورويت عن الحسن .

وقرأ الزهري أيضاً : المر بفتح الميم وإسقاط الهمز وتشديد الراء .

فأمّا فتح الميم وكسرها وضمها فلغات ، وأما المر بكسر الراء فوجهه أنه نقل حركة الهمزة إلى الراء ، وحذف الهمزة ، وأما تشديدها بعد الحذف ، فوجهه أنه نوى الوقف فشدد ،

كما روي عن عاصم : مستطرّ بتشديد الراء في الوقف ، ثم أجرى الوصل مجرى الوقف ، فأقرها على تشديدها فيه .

﴿ وزوجه ﴾ : ظاهره أنه يريد به امرأة الرجل .

(208/61)

وقيل الزوج هنا : الأقارب والإخوان ، وهم الصنف الملائم للإنسان ، ومنه ﴿ من كل زوج بهيج ﴾ ﴿ احشروا الذين ظلموا وأزواجهم ﴾ ﴿ وما هم بضارّين به ﴾ : الضمير الذي هو : هم عائد على السحرة الذين عاد عليهم ضمير فيتعلمون .

وقيل : على اليهود الذين عاد عليهم ضمير واتبعوا .

وقيل : على الشياطين .

وبضارين : في موضع نصب على أن ما حجازية ، أو في موضع رفع على أن ما تميمية .

والضمير في به عائد على ما في قوله : ﴿ ما يفرقون ﴾ .

وقرأ الجمهور : بإثبات النون في بضارين .

وقرأ الأعمش : بحذفها ، وخرّج ذلك على وجهين : أحدهما : أنها حذفت تخفيفاً ، وإن كان اسم الفاعل في صلة الألف واللام .

والثاني : أن حذفها لأجل الإضافة إلى أحد ، وفصل بين المضاف والمضاف إليه بالجار والمجرور الذي هو به ، كما قال :

هما أخوا في الحرب من لا أخا له . . .

وكما قال :

كما خط الكتاب بكف يوماً يهودي . . .

وهذا اختيار الزمخشري ، ثم استشكل ذلك ، لأن أحداً مجرور بمن ، فكيف يمكن أن يعتقد فيه أنه مجرور بالإضافة ؟ فقال : فإن قلت : كيف يضاف إلى أحد ، وهو مجرور بمن ؟ قلت : جعل الجار جزءاً من المجرور . انتهى .

وهذا التخريج ليس بجيد ، لأن الفصل بين المضاف والمضاف إليه بالظرف ، والجار والمجرور من ضرائر الشعر ، وأقبح من ذلك أن لا يكون ثم مضاف إليه ، لأنه مشغول بعامل جر ، فهو المؤثر فيه لا الإضافة .

وأما جعل حرف الجر جزأ من المجرور ، فهذا ليس بشيء ، لأنه مؤثر فيه .

وجزء الشيء لا يؤثر في الشيء ، والأجود التخريج الأول ، لأن له نظيراً في نظم العرب ونثرها .

فمن النثر قول العرب ، قطا قطا بيضك ثنتا وبيضي مائتا ، يريدون : ثنتان ومائتان .

﴿ من أحد ﴾ ، من زائدة ، وأحد : مفعول بضارين .

ومن تزاد في المفعول ، إلا أن المعهود زيادتها في المفعول الذي يكون معمولاً للفاعل الذي يباشره حرف النفي نحو : ما ضربت من رجل ، وما ضرب زيد من رجل .

(209/61)

وهنا حملت الجملة من غير الفعل والفاعل على الجملة من الفعل والفاعل ، لأن المعنى : وما يضرون من أحد .

﴿ إلا بإذن الله ﴾ : مستثنى مفرغ من الأحوال ، فيحتمل أن يكون حالاً من الضمير الفاعل في قوله : ﴿ بضارين ﴾ ، ويحتمل أن يكون حالاً من المفعول الذي هو : ﴿ من أحد ﴾ ، ويحتمل أن يكون حالاً من به ، أي السحر المفرق به ، ويحتمل أن يكون حالاً من الضرر المصدر المعرف المحذوف .

والإذن هنا فسر الوجوه التي ذكرناها عند الكلام على المفردات .

فقال الحسن : الإذن هنا : هو التخلية بين المسحور وضرر السحر .

وقال الأصم : العلم .

وقال غيره : الخلق ، ويضاف إلى إذنه كقوله : ﴿ كن فيكون ﴾ وقيل : الأمر ، قيل : والإذن حقيقة فيه ، واستبعد ذلك ، لأن الله لا يأمر بالسحر ، ولأنه ذمّهم على ذلك .

وأوّل معنى الأمر فيه بأن يفسر التفريق بالصيرورة .

كافراً فإن هذا حكم شرعي ، وذلك لا يكون إلا بأمر الله .

وفي هذه الجملة دليل على أن ما يتعلمون له تأثير وضرر ، لكن ذلك لا يضر إلا بإذن الله ، لأنه ربما أحدث الله عنده شيئاً ، وربما لم يحدث .

﴿ ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ﴾ : لما ذكر أنه يحصل به الضرر لمن يفرق بينهما ، ذكر أيضاً أن ضرره لا يقتصر على من يفعل به ذلك ، بل هو أيضاً يضر من تعلمه .

ولما كان إثبات الضرر بشيء لا ينفي النفع ، لأنه قد يوجد الشيء فيحصل به الضرر ويحصل به النفع ، نفى النفع عنه بالكلية ، وأتى بلفظ لا ، لأنها ينفي بها الحال والمستقبل .

والظاهر أن ﴿ ولا يننفعهم ﴾ معطوف على ﴿ يضرهم ﴾ ، وكلا الفعلين صلة لما ، فلا يكون لها موضع من الإعراب .

وجوز بعضهم أن يكون لا ينفعهم على إضمار هو ، أي وهو لا ينفعهم ، فيكون في موضع رفع ، وتكون الواو للحال ، فتكون جملة حالية ، وهذا ضعيف .

وقد قيل : الضرر وعدم النفع مختص بالآخرة .

وقيل : هو في الدنيا والآخرة ، فإن تعلمه ، إن كان غير مباح ، فهو يجر إلى العمل به ، وإلى التنكيل به ، إذا عثر عليه ، وإلى أن ما يأخذه عليه حرام هذا في الدنيا .

وأما في الآخرة فلما يترتب عليه من العقاب .

﴿ ولقد علموا ﴾ : الضمير عائد على اليهود الذين كانوا في عهد سليمان عليه السلام ، وكانوا حاضرين استخراج الشياطين السحر ودفنه ، أو أخذ سليمان السحر ودفنه تحت كرسيه ، ولما أخرجوه بعد موته قالوا : والله ما هذا من عمل سليمان ولا من دخائزه .

وقيل : عائد على من بحضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم من اليهود .

وقيل : عائد على اليهود قاطبة ، أي علموا ذلك في التوراة .

وقيل : عائد على علماء اليهود .

وقيل : عائد على الشياطين .

وقيل : على الملكين ، لأنهما كانا يقولان لمن يتعلم الحسر : فلا تكفر ، فقد علموا أنه لا خلاق له في الآخرة .

وأتى بضمير الجمع على قول من يرى ذلك .

وعلم : هنا يحتمل أن تكون المتعدية لمفعولين ، وعلقت عن الجملة ، ويحتمل أن يكون المتعدية لمفعول واحد ، وعلقت أيضاً كما علقت عرفت .

والفرق بين هذين التقديرين يظهر في العطف على موضعها .

واللام في : ﴿ لمن اشتراه ﴾ هي لام الابتداء ، وهي المانعة من عمل علم ، وهي أحد الأسباب الموجبة للتعليق ، وأجازوا حذفها ، وهي باقية على منع العمل ، وخرجوا على ذلك .

إني وجدت ملاك الشيمة الأدب . . .

يريد لملاك الشيمة .

ومن هنا موصولة ، وهي مرفوعة بالابتداء .

والجملة من قوله : ﴿ وما له في الآخرة من خلاق ﴾ في موضع الخبر .

واللام في لقد للقسم .

هذا مذهب سيبويه وأكثر النحويين .

وجملة ﴿ ولقد علموا ﴾ مقسم عليها التقدير : والله لقد علموا .

والجملة الثانية عنده غير مقسم عليها .

وأجاز الفراء أن تكون الجملتان مقسماً عليهما ، وتكون من للشرط ، وتبعه في ذلك الحوفي وأبو البقاء .

(211/61)

قال أبو البقاء : اللام في ﴿ لمن اشتراه ﴾ هي التي يوطأ بها القسم مثل : ﴿ لئن لم تنته ﴾ ومن في موضع رفع بالابتداء ، وهي شرط وجواب القسم ﴿ ما له في الآخرة من خلاق ﴾ .

انتهى كلامه .

فاشتراه في القول الأول صلة ، وفي هذا القول خبر عن من ، ويكون إذ ذاك جواب الشرط محذوفاً يدل عليه جواب القسم ، لأنه اجتمع قسم وشرط ، ولم يتقدّمهما ذو خبر ، فكان الجواب للسابق ، وهو القسم ، ولذلك كان فعل الشرط ماضياً في اللفظ .

هذا هو تقرير هذا القول وتوضيحه .

وفي كلا القولين يكون : لمن اشتراه ، في موضع نصب : بيعلموا .

وقد نقل عن الزجاج ردّ قول من قال من شرط ، وقال هذا ليس موضع شرط ، ولم ينقل عنه توجيه ، كونه ليس موضع شرط .

وأرى المانع من ذلك أن الفعل الذي يلي من هو ماض لفظاً ومعنى ، لأن الاشتراء قد وقع ، وجعله شرطاً لا يصح ، لأن فعل الشرط إذا كان ماضياً لفظاً ، فلا بد أن يكون مستقبلاً في المعنى .

فلما كان كذلك ، كان ليس موضع شرط .

والضمير المنصوب في اشتراه عائد على السحر ، أو الكفر ، أو كتابهم الذي باعوه بالسحر

، أو القرآن ، لأنه تعوضوا عنه بكتب السحر ، أقوال أربعة .

والخلاق : النصيب ، قاله مجاهد ، أو الدين ، قاله الحسن ؛ أو القوام ، قاله ابن عباس ، أو الخلاص ، أو القدر ، قاله قتادة ؛ أقوال خمسة .

﴿ ولبئس ما شروا به أنفسهم ﴾ : تقدّم القول في بئس ، وفي ما الواقعة بعدها ، ومعناه : ذمّ ما باعوا به أنفسهم .

والضمير في به عائد على السحر ، أو الكفر .

والمخصوص بالذمّ محذوف تقديره : على أحسن الوجوه التي تقدّمت في بئسما السحر ، أو الكفر .

والضمير في : شروا ، ويعلمون ، باتفاق لليهود .

فمتى فسر الضمير في ولقد علموا بأنه عائد على الشياطين ، أو اليهود الذين كانوا بحضرة سليمان ، وفي زمانه ، أو الملكين بفتح اللام ، أو بكسرها ، فلا إشكال لاختلاف المسند إليه العلم .

وإن اتحد المسند إليه ، أوّل العلم الثاني بالعقل ، لأن العلم من ثمرته ، فلما انتفى الأصل ، نفى ثمرته .

أو بالعمل ، لأنه من ثمرة العلم ، فلما انتفت الثمرة ، جعل ما ينشأ عنه منفياً ، أو أوّل متعلق العلم ، وهو المحذوف ، أي علموا ضرره في الآخرة ، ولم يعلموا نفعه في الدنيا .

أو علموا نفي الثواب ، ولم يعلموا استحقاق العذاب .

وجواب لو محذوف تقديره : ﴿ لو كانوا يعلمون ﴾ .

ذمّ ذلك لما باعوا أنفسهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 1 صـ 494. 503 ﴾

ومن فوائد أبى السعود فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ واتبعوا مَا تَتْلُواْ الشياطين ﴾ عطفٌ على جواب (لما) أي نبذوا كتابَ الله واتبعوا كتبَ السَحَرة التي كانت تقرؤها الشياطين وهم المتمرّدون من الجن ، و (تتلو) حكايةُ حالٍ ماضيةٍ والمرادُ بالاتباع التوغلُ والتمحُّض فيه والإقبال عليه بالكلية ، وإلا فأصلُ الاتباعِ كان حاصلاً قبل مجيءِ الرسول صلى الله عليه وسلم فلا يتسنّى عطفُه على جواب لما ولذلك قيل : هو معطوف على الجملة ، وقيل : على على أُشربوا ﴿ على مُلْكِ سليمان ﴾ أي في عهد مُلكِه قيل : كانت الشياطينُ يسترقون السمعَ ويضمُّون إلى ما سمِعوا أكاذيبَ يُلفِّقونها ويُلْقونها إلى الكهنة وهم يدوّنونها ويعلّمونها الناسَ وفشا ذلك في عهد سليمانَ

عليه السلام حتى قيل : إن الجن تعلم الغيب ، وكانوا يقولون هذا عِلمُ سليمان وما تم له مُلكُه إلا بهذا العلم ، وبه سَخَّر الإنسَ والجنّ والطيرَ والريحَ التي تجري بأمره ، وقيل : إن سليمانَ عليه السلام كان قد دفنَ كثيراً من العلوم التي خصّه الله تعالى بها تحت سريرِ مُلكه فلما مضت على ذلك مدةٌ توصّل إليها قومٌ من المنافقين فكتبوا في خلال ذلك أشياءَ من فنون السحرِ تناسب تلك الأشياءَ المدفونةَ من بعض الوجوه ، ثم بعد موته واطلاعِ الناس على تلك الكتبِ أوهموهم أنه من عملِ سُليمانَ عليه السلام وأنه ما بلغ هذا المبلغَ إلا بسبب هذه الأشياء .

(213/61)

﴿ وَمَا كَفَرَ سليمان ﴾ تنزيهٌ لساحته عليه السلام عن السحر وتكذيبٌ لمن افترى عليه بأنه كان يعتقده ويعمل به ، والتعرُّضُ لكونه كُفراً للمبالغة في إظهار نزاهتِه عليه السلام وكذِبِ باهِتيهِ بذلك ﴿ ولكن الشياطين ﴾ وقرىء بتخفيف (لكنّ) ورفع الشياطين ، والواو عاطفةٌ للجملة الاستدراكية على ما قبلها ، وكونُ المخففة عند الجمهور للعطف إنما هو عند عدم الواو وكون ما بعدها مفرداً ﴿ كَفَرُواْ ﴾ باستعمال السحر وتدوينه ﴿ يُعَلّمُونَ الناس السحر ﴾ إغواءً وإضلالاً ، والجملةُ في محل النصبِ على الحالية من ضمير

كفروا أو من الشياطين فإن ما في (لكنّ) من رائحة الفعل كافٍ في العمل في الحال أو في محل الرفع على أنه خبرٌ ثانٍ للكنّ أو بدلٌ من الخبر الأول، وصيغةُ الاستقبال للدَلالة على استمرار التعليمِ وتجدُّدِه أو جملةٌ مستأنفة. هذا على تقدير كونِ الضميرِ للشياطين وأما على تقدير رجوعِه إلى فاعل اتبعوا فهي إما حالٌ منه وإما استئنافيةَ فحسب واعلم أن السحرَ أنواعٌ منها سحْرَ الكَلدانيين الذين كانوا في قديم الدهر وهم قوم يعبُدون الكواكبَ ويزعُمون أنها هي المدبّرةُ لهذا العالم ومنها تصدرُ الخيراتُ والشرورُ والسعادةُ والنحوسةُ، ويستحدثون الخوارقَ بواسطة تمزيج القُوى السماوية بالقوى الأرضية وهم الذين بعث الله تعالى إبراهيمَ عليه الصلاة والسلام لإبطال مقالتهم وهم ثلاثُ فِرقٍ ففِرقةٌ منهم يزعُمون أن الأفلاكَ والنجومَ واجبةُ الوجود لذواتها وهم الصابئة، وفرقةٌ يقولون بإلهية الأفلاكِ ويتخذون لكل واحدٍ منها هيكلاً ويشتغلون بخدمتها وهم عبَدَةُ الأوثان، وفرقة أثبتوا للأفلاك وللكواكب فاعلاً مختاراً لكنهم قالوا إنه أعطاها قوةً عالية نافذةً في هذا العالم وفوَّضَ تدبيرَه إليها، ومنها سحْرَ أصحابِ الأوهام والنفوسِ القوية فإنهم يزعُمون أن الإنسانَ تبلُغُ روحُه بالتصفية في القوة والتأثير إلى حيث يقدِرُ على

الإيجاد والإعدام والإحياءِ والإماتةِ وتغييرِ البُنية والشكل ، ومنها سحرُ من يستعين بالأرواحِ الأرضيةِ وهو المسمّى بالعزائم .

وتسخيرِ الجن ، ومنها التخييلاتُ الآخذة بالعيون وتسمَّى الشَّعْوذةَ .

(215/61)

ولا خلاف بين الأمة في أن من اعتقد الأول فقد كفر وكذا من اعتقد الثانيَ وهو سحرُ أصحاب الأوهامِ والنفوسِ القويةِ وأما من اعتقد أن الإنسان يبلُغ بالتصفية وقراءةِ العزائم والرقى إلى حيث يخلق الله سبحانه وتعالى عَقيبَ ذلك على سبيل جَرَيان العادةِ بعضَ الخوارق فالمعتزلةُ اتفقوا على أنه كافر ، لأنه لا يمكنه بهذا الاعتقاد معرفةُ صدقِ الأنبياءِ والرسلِ بخلاف غيرهم ، ولعل التحقيق أن ذلك الإنسانَ إن كان خيّراً متشرّعاً في كل ما يأتي ويذر وكان من يستعين به من الأرواح الخيّرة وكانت عزائمُه ورُقاه غيرَ مخالفةٍ لأحكام الشريعة الشريفةِ ولم يكن فيما ظهَرَ في يده من الخوارق ضررٌ شرعيٌّ لأحد فليس ذلك من قبيل السحر ، وإن كان شرّيراً غيرَ متمسّكٍ بالشريعة الشريفة فظاهرٌ أن من يستعين به من الأرواحِ الخبيثةِ الشريرة لا محالة ، ضرورةَ امتناعِ تحقق التضامن والتعاون بينهما من غير اشتراك في الخبث والشرارة فيكون كافراً قطعاً ، وأما الشعوذةُ وما يجري مجراها من إظهار

الأمور العجيبةِ بواسطة ترتيبِ الآلات الهندسيةِ وخِفة اليد والاستعانة بخواصّ الأدوية والأحجارِ فإطلاقُ السحر عليها بطريق التجوزِ أو لما فيها من الدقة لأنه في الأصل عبارةٌ عن كل ما لَطُف مأخذُه وخفيَ سببُه أو من الصرْف عن الجهة المعتادة لما أنه في أصل اللغة الصرفُ على ما حكاه الأزهري عن الفراء ويونس ﴿ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الملكين ﴾ عطفٌ على السحر أي ويعلمونهم ما أنزل عليهما ، والمرادُ بهما واحد ، والعطفُ لتغاير الاعتبارِ أو هو نوعٌ أقوى منه أو على ما تتلو وما بينهما اعتراضٌ أي واتَّبعوا ما أنزل الخ وهما ملكانِ أنزلا لتعليم السحر ابتلاءً من الله للناس كما ابتليَ قومُ طالوتَ بالنهر أو تمييزاً بينه وبين المعجزة لئلا يغترَّ به الناسُ أو لأن السحرَة كثُرتْ في ذلك الزمان واستنبطتْ أبواباً غريبةً من السحر وكانوا يدّعون النبوةَ فبعث الله تعالى

(216/61)

هذين الملكينِ ليعلّما الناسَ أبوابَ السحر حتى يتمكنوا من معارضة أولئك الكذابين وإظهارِ أمرِهم على الناس . وأما ما يُحكى من أن الملائكة عليهم السلام لما رأَوْا ما يصعَد من ذنوب بني آدمَ عيّروهم ، وقالوا لله سبحانه : هؤلاء الذين اخترتَهم لخلافة الأرضِ يعصونك فيها فقال عز وجل : لو ركّبتُ فيكم ما ركبتُ فيهم لعصيتموني ، قالوا : سبحانك

ما ينبغي لنا أن نعصيَك قال تعالى : فاختاروا من خياركم ملكين فاختاروا هاروتَ وماروتَ وكانا من أصلحهم وأعبدِهم فأُهبطا إلى الأرض بعد ما ركب فيهما ما ركب في البشر من الشهوة وغيرها من القوة ليقضيا بين الناس نهاراً ويعرُجا إلى السماء مساءً وقد نُهيا عن الإشراك والقتل بغير الحق وشرب الخمر والزنا وكانا يقضيان بينهم نهاراً فإذا أمسيا ذكرا اسم الله الأعظم فصَعِدا إلى السماء فاختصمت إليهما ذاتَ يوم امرأةٌ من أجمل النساءِ تسمّى " زهرةَ" وكانت من لَخْم وقيل : كانت من أهل فارسَ ملكةً في بلدها وكانت خصومتها مع زوجها فلما رأياها افتُتنا بها فراوداها عن نفسها فأبت فألحا عليها فقالت : لا إلا أن تقضيا لي على خصمي ، ففعلا ، ثم سألاها ما سألا ، فقالت : لا إلا أن تقتُلاه ففعلا ، ثم سألاها ما سألا فقالت : لا إلا أن تشربا الخمرَ وتسجدا للصَّنم ففعلا كلاً من ذلك بعد اللتيا والتي ثم سألاها ما سألا فقالت : لا إلا أن تعلماني ما تصعَدانِ به إلى السماء فعلماها الاسمَ الأعظم فدعَتْ به وصعِدَتْ إلى السماء فمسخها سبحانه كوكباً فهمّا بالعروج حسب عادتهما فلم تطِعْهما أجنحتُهما فعلما ما حل بهما ، وكانا في عهد إدريس عليه السلام فالتجأا إليه ليشفعَ لهما ففعل فخيّرهما الله تعالى بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة فاختارا الأول لانقطاعه عما قليل فهما معذبان ببابلَ قيل : معلقان بشعورهما وقيل : منكوسان يُضربان بسياطِ الحديد إلى قيام الساعة فمما لا تعويل عليه لما أن مدارَه روايةُ اليهود مع ما

فيه من المخالفة لأدلة العقل والنقلِ ، ولعله من مقولة الأمثال والرموز التي قصد بها إرشادُ اللبيب الأريبِ بالترغيب والترهيب وقيل : هما رجلان سُمّيا ملكين لصلاحهما ويعضُده قراءة المِلكين بالكسر ﴿ بِبَابِلَ ﴾ الباء بمعنى في وهي متعلقةٌ بأنزل أو بمحذوف وقع حالاً من الملكين أو من الضمير في أنزل وهي بابلُ العراق ، وقال ابن مسعود رضي الله عنه : بَابِلُ أرضُ الكوفة وقيل : جبلُ دماوند ومَنعَ الصرفَ العجمةُ والعَلَمية أو للتأنيث والعلمية ﴿ هاروت وماروت ﴾ عطفُ بيان للملكين علمان لهما ومُنِعَ صرفُهما للعجُمة والعلمية ، ولو كانا من الهرْت والمرْت بمعنى الكسر لانصرفا ، وأما من قرأ المِلكين بكسر اللام أو قال كانا رجلين صالحين فقال : هما اسمان لهما وقيل : هما اسما قبيلتين من الجن هما المرادُ من المِلكين بالكسر وقرىء بالرفع على هما هاروت ، وماروت ﴿ وَمَا يُعَلّمَانِ مِنْ أَحَدٍ ﴾ مِنْ مزيدة في المفعول به لإفادة تأكيد الاستغراقِ الذي يفيده (أحدٍ) لا لإفادة نفس الاستغراق كما في قولك : ما جاءني من رجل ، وقرىء يُعْلِمانِ من الإعلام ﴿ حتى يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ ﴾ الفتنةُ الاختبارُ والامتحانُ وإفرادُها مع تعدّدهما لكونها مصدراً ، وحملُها عليهما مواطأةٌ للمبالغة كأنهما نفسُ الفتنة ، والقصرُ لبيان أنه ليس لهما فيما يتعاطيَانِه شأنٌ سواها

لينصرِفَ الناسُ عن تعلّمه أي وما يُعلّمان ما أنزل عليهما من السحر أحداً من طالبيه حتى ينصَحاه قبل التعليم ويقولا له إنما نحن فتنةٌ وابتلاء من الله عز وجل فمن عمِل بما تعلم منا واعتقد حقّيته كفَر ، ومن تَوقَّى عن العمل به أو اتخذه ذريعةً للاتقاءِ عن الاغترار بمثله بقيَ على الإيمان ﴿ فَلاَ تَكْفُرْ ﴾ باعتقاد حقّيتِهِ وجوازِ العمل به ، والظاهرُ أن غاية النفي ليست هذه المقالةَ فقط بل من جملتها التزامُ المخاطب بموجب النهي لكن لم يُذكَرْ لظهُوره ، وكونِ

(218/61)

الكلامِ في بيان اعتناءِ الملكين بشأن النُصح والإرشاد ، والجملةُ في محل النصب على الحالية من ضمير يعلمون لا معطوفةٌ عليه كما قيل أي ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناسَ السحرَ وما أنزل على الملكين ويحمِلونهم على العمل به إغواءً وإضلالاً ، والحال أنهما ما يعلمان أحداً حتى ينهيَاهُ عن العمل به والكفرِ بسببه ، وأما ما قيل من أن (ما) في قوله تعالى : ﴿ وَمَا أُنزِلَ ﴾ الخ نافيةٌ والجملةُ معطوفةٌ على قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَفَرَ سليمان ﴾ جيء بها لتكذيب اليهودِ في القصة أي لم يُنزَّل على الملكين إباحةُ السحر ، وأن هاروتَ وماروتَ بدلٌ من الشياطين على أنهما قبيلتان من الجن خُصتا بالذكر لأصالتهما وكونِ باقي الشياطين

أتباعاً لهما وأن المعنى ما يعلّمان أحداً حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفرْ فتكونَ مثلَنا فيأباه أن مقام وصفِ الشياطين بالكفر وإضلال الناس مما لا يلائمه وصفُ رؤسائهم بما ذكر من النهي عن الكفر مع ما فيه من الإخلال بنظام الكلامِ فإن الإبدالَ في حُكم تنحيةِ المبدَل منه ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا ﴾ عطفٌ على الجملة المنفية فإنها في قوة المثبتة كأنه قيل : يعلمانهم بعد قولِهما إنما نحن الخ والضميرُ لأحدٍ حملاً على المعنى كما في قوله تعالى :

﴿ فَمَا مِنكُم مّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حاجزين ﴾ ﴿ مَا يُفَرّقُونَ بِهِ ﴾ أي بسببه وباستعماله ﴿ بَيْنَ المرء ﴾ وقرىء بضم الميم وكسرِها مع الهمزة وتشديد الراء بلا همزة ﴿ وَزَوْجِهِ ﴾ بأن يُحدث الله تعالى بينهما التباغضَ والفركَ والنشوزَ عند ما فعلوا ما فعلوا من السحر على حسب جري العادةِ الإلهية من خلق المسبَّبات عقيب حصول الأسباب العاديةِ ابتلاءً لا أن السحرَ هو المؤثرُ في ذلك وقيل : فيتعلمون منهما ما يعملون به فيراه الناسُ ويعتقدون أنه حق فيكفرون فتَبينُ أزواجهم ﴿ وَمَا هُم بِضَارّينَ بِهِ ﴾ أي بما تعلّموه واستعملوه من السحر ﴿ مّنْ أَحَدٍ ﴾ أي أحداً ومن مزيدة كما ذكر في قوله تعالى : والمعهود وإن كان زيادتها في معمول فعلٍ منفي إلا أنه حُملت الاسمية في ذلك على الفعلية

كأنه قيل : وما يضرون به من أحد ﴿ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ ﴾ لأنه وغيرَه من الأسباب بمعزل من التأثير بالذات وإنما هو بأمره تعالى فقد يُحدِث عند استعمالهم السحرَ فعلاً من أفعاله ابتلاءً ، وقد لا يُحدِثه والاستثناءُ مفرَّغٌ والباء متعلقةٌ بمحذوف وقع حالاً من ضمير ضارِّين أو من مفعوله وإن كان نكرةً لاعتمادها على النفي أو الضمير المجرورِ في به أي وما يُضرون به أحداً إلا مقروناً بإذن الله تعالى وقرىء بضارِّي على الإضافة بجعل الجارِّ جزءاً من المجرور وفصلِ ما بين المُضافين بالظرف ﴿ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ ﴾ لأنهم يقصِدون به العمل أو لأن العلم يجرُّ إلى العَمل غالباً ﴿ وَلاَ يَنفَعُهُمْ ﴾ صرح بذلك إيذاناً بأنه ليس من الأمور المشوبة بالنفع والضرر بل هو شرٌّ بحتٌ وضررٌ محضٌ لأنهم لا يقصدون به التخلّصَ عن الاغترار بأكاذيبِ من يدّعي النبوةَ مثلاً من السَحَرة أو تخليصَ الناس منه حتى يكون فيه نفعٌ في الجملة وفيه أن الاجتنابَ عما لا يؤمن غوائلُه خيرٌ كتعلم الفلسفةِ التي يؤمن أن تجُرَّ إلى الغواية وإن قال من قال :

(220/61)

عرفتُ الشرَّ لا للشرِّ لكنْ لتوقِّيه . . . ومن لا يعرِفِ الشرَّ من الناس يقَعْ فيهِ

(221/61)

﴿ وَلَقَدْ عَلِمُواْ ﴾ أي اليهود الذين حُكِيت جناياتُهم ﴿ لَمَنِ اشتراه ﴾ أي استبدلَ ما تتلو الشياطينُ بكتاب الله عز وجل واللامُ الأولى جوابُ قسمٍ محذوفٍ والثانيةُ لامُ ابتداءٍ عُلِّقَ به عِلموا عن العمل ومَنْ موصولة في حيز الرفع بالابتداء واشتراه صلتها وقوله تعالى : ﴿ مَا لَهُ فِى الآخرة مِنْ خلاق ﴾ أي من نصيبٍ ، جملةٌ من مبتدإٍ وخبرٍ ومِنْ مزيدة في المبتدأ وفي الآخرة متعلقٌ بمحذوف وقع حالاً منه ، ولو أُخِّرَ عنه لكان صفةً له والتقدير ما له خلاقٌ في الآخرة وهذه الجملةُ في محلِّ الرفع على أنها خبرٌ للموصول والجملةُ في حيز النصب سادّةٌ مسدَّ مفعولَيْ علموا إن جُعل مُتعَدياً إلى اثنين أو مفعولِه الواحدِ إن جعل متعدياً إلى واحد ، فجملة ولقد علموا الخ مُقْسَمٌ عليها دون جملة لمن اشتراه الخ هذا ما عليه الجمهورُ وهو مذهبُ سيبويه وقال الفرّاءُ وتبعه أبو البقاء إن اللامَ الأخيرة موطئةٌ للقسم ومَنْ شرطية مرفوعةٌ بالابتداء واشتراه خبرُها ، وما له في الآخرة من خلاق جوابُ القسم وجوابُ الشرطِ محذوفٌ اكتفاءً عنه بجواب القسم لأنه إذا اجتمع الشرطُ والقسمُ يُجاب سابقُهما غالباً ، فحينئذ يكون الجملتان مُقْسماً عليهما ﴿ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ ﴾ أي باعوها واللامُ جوابُ قسمٍ محذوفٍ ، والمخصوصُ بالذمِّ محذوفٌ أي وبالله لبئسما باعوا به أنفسَهم السحرُ أو الكفرُ وفيه إيذانٌ بأنهم حيث نبذوا كتابَ الله وراء ظهورِهم فقد عرَّضوا أنفسهم للهَلكة وباعوها بما لا يزيدهم إلا تَباراً ، وتجويزُ كونِ الشراء

بمعنى الاشتراء (مما) لا سبيلَ إليه لأن المشترى متعين وهو ما تتلو الشياطين ولأن متعلَّق الذمّ هو المأخوذُ لا المنبوذُ كما أشير إليه في تفسير قوله سبحانه : ﴿ بِئْسَمَا اشتروا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُواْ بِمَا أنزَلَ الله ﴾ ﴿ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ أي يعملون بعلمهم . جُعلوا

(222/61)

غيرَ عالمين لعدم عملِهم بموجب علمِهم ، أوْ لو كانوا يتفكرون فيه أو يعلمون قبحَه على اليقين ، أو حقيقةَ ما يتْبعُه من العذاب عليه ، على أن المُثبَتَ لهم أولاً على التوكيد القسميِّ العقلُ الغريزيُّ أو العلمُ الإجماليُّ بقبح الفعل أو ترتبِ العقاب من غير تحقيق ، وجواب لو محذوف أي لما فعلوا ما فعلوا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 1 صـ 136. 140 ﴾

(223/61)

ومن فوائد الخطيب الشربينى فى الآية

قال رحمه الله :

وقوله تعالى : ﴿ واتبعوا ﴾ عطف على نبذ ﴿ ما تتلو ﴾ أي : ما تلت ﴿ الشياطين ﴾

والعرب تضع المستقبل موضع الماضي والماضي موضع المستقبل ، وقيل : ما كانت تتلو أي تقرأ ﴿ على ﴾ عهد ﴿ ملك سليمان ﴾ من السحر وكانت دفنته تحت كرسيه لما نزع ملكه فلم يشعر بذلك سليمان فلما مات استخرجوه وقالوا للناس : إنما ملَككم سليمان بهذا فتعلموه ، فأمّا علماء بني إسرائيل وصلحاؤهم فقالوا : معاذ الله أن يكون هذا من علم سليمان عليه الصلاة والسلام ، وأمّا سفلاؤهم فقالوا : هذا علم سليمان وأقبلوا على تعلمه ورفضوا كتب أنبيائهم وبقيت الملامة لسليمان فلم تزل هذه حالهم حتى بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم وأنزل الله عليه براءة سليمان هذا قول الكلبيّ .

(224/61)

وقال السديّ : كانت الشياطين تسترق السمع فيسمعون كلام الملائكة فيما يكون في الأرض من موت وغيره فيأتون الكهنة ويخلطون بما يسمعون في كلّ كلمة سبعين كذبة ويخبرونهم بها فاكتتب الناس ذلك وفشا في بني إسرائيل أنّ الجنّ تعلم الغيب ، فبعث سليمان في الناس وجمع تلك الكتب فجعلها في صندوق ودفنها تحت كرسيه وقال : لا أسمع أنّ أحداً يقول : إنّ الشياطين تعلم الغيب إلا ضربت عنقه فلما مات سليمان وذهب العلماء الذين كانوا يعرفون أمر سليمان ودفنه الكتب وخلف من بعدهم خلف تمثل شيطان على صورة

إنسان فأتى نفراً من بني إسرائيل فقال : هل أدلكم على كنز لا تأكلونه أبداً ؟ قالوا : نعم قال : فاحفروا تحت الكرسي وذهب معهم فأراهم المكان وأقام ناحية فقالوا : أُدن فقال : لا ولكني ههنا فإن لم تجدوه فاقتلوني وذلك أنه لم يكن أحد من الشياطين يدنو من الكرسي إلا احترق فحفروا وأخرجوا تلك الكتب قال الشيطان : إنّ سليمان كان يضبط الجنّ والإنس والشياطين والطير بهذا ثم طار الشيطان وفشا في الناس أن سليمان كان ساحراً وأخذ بنو إسرائيل تلك الكتب فلذلك أكثر ما يوجد السحر في اليهود ، فلما جاء محمد صلى الله عليه وسلم برأ الله سليمان من ذلك وأنزل تكذيباً لمن زعم ذلك واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان ﴿ وما كفر سليمان ﴾ إذ لم يعمل السحر وعبر عنه بالكفر ليدلّ على أنه كفر إذا استحله أو احتيج فيه إلى تقدّم اعتقاد مكفر هذا مذهب الشافعيّ وعند أحمد يكفر مطلقاً ﴿ ولكنّ الشياطين ﴾ هم الذين ﴿ كفروا ﴾ باستعمال السحر وتدوينه ،

وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي بكسر النون من ولكن مخففة ورفع نون الشياطين والباقون بنصب النون من ولكن مشدّدة ونصب نون الشياطين ﴿ يعلمون الناس السحر ﴾ يقصدون به إغواءهم وإضلالهم والجملة حال من ضمير كفروا .

تنبيه : السحر لغة صرف الشيء عن وجهه يقال : ما سحرك عن كذا أي : ما صرفك عنه واصطلاحاً مزاولة النفوس الخبيثة لأقوال وأفعال يترتب عليها أمور خارقة للعادة .

واختلف فيه هل هو تخييل أو حقيقة ؟ قال بالأوّل المعتزلة واستدلوا بقوله تعالى : ﴿ يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى ﴾ (طه ،) وقال بالثاني أهل السنة ويدلّ لذلك الكتاب والسنة الصحيحة ، والساحر قد يأتي بفعل أو قول يتغير به حال المسحور فيمرض أو يموت منه ويفرّق به بين المرء وزوجه ويحرم تعليمه أو تعلمه ، قال إمام الحرمين : ولا يظهر السحر إلا على يد فاسق ولا تظهر الكرامة على يد فاسق ويحرم أيضاً تعليم أو تعلم الكهانة والتنجيم والضرب بالرمل والحصى والشعير والشعبذة ويحرم إعطاء العوض أو أخذه عنها بالنص الصريح في حلوان الكاهن والباقي بمعناه ، والكاهن من يخبر بواسطة النجم عن المغيبات في المستقبل بخلاف العرّاف فإنه الذي يخبر عن المغيبات الواقعة كعين السارق ومكان المسروق والضالة قال في " الروضة" : ولا يغتر بجهالة من يتعاطى الرمل وإن نسب إلى علم .

وأمّا الحديث الصحيح "كان نبي من الأنبياء يخط فمن وافق خطه فذاك" فمعناه من علمتم موافقته له فلا بأس ونحن لا نعلم الموافقة فلا يجوز لنا ذلك .

وقول البيضاويّ : وأما ما يتعجب منه كما يفعله أصحاب الحيل بمعونة الآلات كالأدوية أو

يريه صاحب خفة اليد فغير مذموم وتسميته سحراً على التجوّز لما فيه من الدقة ؛ لأنه أي : السحر في الأصل أي : اللغة لما خفي سببه مردود بل هو مذموم أي : حرام كما صرّح به النوويّ في " الروضة" وغيرها ،

وقوله تعالى : ﴿ وما أنزل على الملكين ﴾ عطف على السحر أي : ويعلمونهم ما أنزل على الملكين وقيل : عطف على ما تتلو أي : واتبعوا ما أنزل أي : ما ألهماه وتعلماه من السحر فالإنزال بمعنى الإلهام والتعليم .

(226/61)

قال البيضاويّ : وهما ملكان أنزلا لتعليم السحر ابتلاء من الله للناس وتمييزاً بينه وبين المعجزة . قال : وما روي أي : في كتب السير أنهما مثلا بشرين وركب فيهما الشهوة فتعرّضا لامرأة يقال لها زهرة فحملتهما على المعاصي والشرك ثم صعدت إلى السماء بما تعلمت منهما فمحكيّ عن اليهود ولعله من رموز الأوائل وحله أي : الرمز أو ما روي لا يخفى على ذوي البصائر اه .

قال شيخنا شيخ الإسلام زكريا : بأن يقال عُبر عن العقل والنفس المطمئنة بالملكين وعن النفس الأمّارة بالسوء بالزهرة وعن مفارقتها بالموت بالصعود إلى السماء وقيل : هما

رجلان سميا ملكين باعتبار صلاحهما وقيل : ما أنزل نفي معطوف على ما كفر تكذيباً لليهود في هذه القصة ، وقد طوّل البغوي في هذه القصة . واعتمد ما ردّه البيضاويّ ، وقال شيخنا المذكور عن شيخه ابن حجر إنّ لها طرقاً تفيد العلم بصحتها فقد رواها مرفوعة الإمام أحمد وابن حبان والبيهقيّ وغيرهم وموقوفة على عليّ وابن مسعود وابن عباس وغيرهم بأسانيد صحيحة والبيضاويّ لما استبعد ما روي ولم يطلع عليه ، قال ولعله إلخ . .

(227/61)

وقوله تعالى : ﴿ ببابل ﴾ ظرف أو حال من الملكين أو الضمير في أنزل وهي بلد في سواد العراق وقوله تعالى : ﴿ هاروت وماروت ﴾ بدل أو عطف بيان للملكين ومنع صرفهما للعلمية والعجمة ومن جعل ما فيما أنزل نافية أبدل هاروت وماروت من الشياطين بدل البعض وما بينهما اعتراض ﴿ وما يعلمان ﴾ أي : الملكان ﴿ من أحد ﴾ أي : أحداً ومن صلة ﴿ حتى ﴾ ينصحاه و ﴿ يقولا ﴾ له ﴿ إنما نحن فتنة ﴾ أي : ابتلاء من الله تعالى للناس لنمتحنهم بتعليمه وأصل الفتنة الاختبار والامتحان من قولهم : فتنت الذهب والفضة إذا أذبتهما بالنار لتميز الجيد من الرديء ، وإنما وحد الفتنة لأنها مصدر والمصادر

لا تثنى ولا تجمع ﴿ فلا تكفر ﴾ بتعليمه أي : فلا تتعلمه معتقداً حله فتكفر على ما تقدّم ، فإن أبى إلا التعليم علماه قيل : إنهما يقولان إنما نحن فتنة فلا تكفر سبع مرّات ، قال عطاء والسديّ فإن أبى إلا التعليم ؟ قالا له : ائت هذا الرماد فبل عليه فيخرج منه نور ساطع في السماء فتلك المعرفة وينزل شيء أسود شبه الدخان حتى يدخل مسامعه وذلك غضب الله تعالى وعلى القول بأنهما رجلان فلا يعلمانه حتى يقولا له : إنا مفتونان فلا تكن مثلنا ﴿ فيتعلمون منهما ﴾ الضمير لما دل عليه من أحد أي : فيتعلم الناس من الملكين ﴿ ما ﴾ أي : سحراً ﴿ يفرّقون به بين المرء وزوجه ﴾ بأن يبغض كلاً منهما في الآخر بسبب حيلة أو تمويه كالنفث في العقد ونحو ذلك مما يحدث الله تعالى عنده الفراق ابتلاءً منه لا أنّ السحر له أثر في نفسه بدليل قوله تعالى : ﴿ وما هم ﴾ أي : السحرة ﴿ بضارّين به ﴾ أي : السحر ﴿ من أحد ﴾ أي : أحداً ومن صلة ﴿ إلا بأذن الله ﴾ أي : إرادته ؛ لأنّ الأسباب غير مؤثرة بالذات بل بإرادته تعالى : ﴿ ويتعلّمون ما يضرّهم ﴾ في الآخرة ﴿ ولا ينفعهم ﴾ وهو السحر ؛ لأنهم يقصدون به العمل أو لأنّ العلم يجرّ إلى العمل غالباً ﴿ ولقد ﴾ اللام لام القسم ﴿ علموا ﴾ أي : اليهود ﴿ لمن ﴾ اللام لام الابتداء علقت علموا عن العمل ومن موصولة

﴿ اشتراه ﴾ أي : استبدل ما

تتلوا الشياطين بكتاب الله تعالى ﴿ ما له في الآخرة من خلاق ﴾ أي : نصيب في الجنة

﴿ ولبئس ما ﴾ أي : شيئاً ﴿ شروا ﴾ أي : باعوا ﴿ به أنفسهم ﴾ أي : الشارين أي : حظها من الآخرة أن يتعلموه حيث أوجب لهم النار ﴿ لو كانوا يعلمون ﴾ حقيقة ما

يصيرون إليه من العذاب ما تعلموه .

وقيل : معناه لو كانوا يعملون بعلمهم فإنّ من لم يعمل بما علم كان كمن لم يعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ السراج المنير حـ 1 صـ 129.132 ﴾

(229/61)

ومن فوائد الآلوسى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ واتبعوا مَا تَتْلُواْ الشياطين ﴾ عطف على ﴿ نَبَذَ ﴾ [البقرة : 101] والضمير لفريق من الذين أوتوا الكتاب على ما تقدم عن السدي ، وقيل : عطف على مجموع ما قبله عطف القصة على القصة ، والضمير للذين تقدموا من اليهود ، أو الذين كانوا في زمن

سليمان عليه السلام ، أو الذين كانوا في زمن نبينا صلى الله عليه وسلم ، أو ما يتناول الكل لأن ذاك غير ظاهر إذ يقتضي الدخول في حيز ل (ما) واتباعهم هذا ليس مترتباً على مجيء الرسول صلى الله عليه وسلم ، وفيه أن ما علمت من قول السدي يفتح باب الظهور ، اللهم إلا أن يكون المبني غيره ، وقيل : عطف على ﴿ أشربوا ﴾ [البقرة : 93] وهو في غاية البعد ، بل لا يقدم عليه من جرع جرعة من الإنصاف ، والمراد بالاتباع التوغل والإقبال على الشيء بالكلية ، وقيل : الاقتداء ، و ﴿ فِى مَا ﴾ موصولة و ﴿ تَتْلُواْ ﴾ صلتها ، ومعناه تتبع أو تقرأ وهو حكاية حال ماضية ، والأصل تلت وقول الكوفيين إن المعنى : ما كانت تتلوا محمول على ذلك لا أن كان هناك مقدرة والمتبادر من الشياطين مردة الجن وهو قول الأكثرين ، وقيل : المراد بهم شياطين الإنس ، وهو قول المتكلمين من المعتزلة .

وقرأ الحسن والضحاك (الشياطون) على حد ما رواه الأصمعي عن العرب بستان فلان حوله بساتون وهو من الشذوذ بمكان حتى قيل : إنه لحن .

(230/61)

﴿ على مُلْكِ سليمان ﴾ متعلق ب ﴿ تَتْلُواْ ﴾ وفي الكلام مضاف محذوف أي عهد ملكه وزمانه ، أو الملك مجاز عن العهد ، وعلى التقديرين ﴿ على ﴾ بمعنى في كما أن في

بمعنى على في قوله تعالى : ﴿ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النخل ﴾ [طه : 71] وقد صرح في " التسهيل " بمجيئها للظرفية ومثل له بهذه الآية لأن الملك وكذا العهد لا يصلح كونه مقروءاً عليه ، ومن الأصحاب من أنكر مجيء على بمعنى في وجعل هذا من تضمين تتلو معنى تتقول ، أو الملك عبارة عن الكرسي لأنه كان من آلات ملكه ، فالكلام على حد قرأت على المنبر ، والمراد بما يتلونه السحر ، فقد أخرج سفيان بن عيينة وابن جرير والحاكم ، وصححه عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : " إن الشياطين كانوا يسترقون السمع من السماء ، فإذا سمع أحدهم بكلمة كذب عليها ألف كذبة ، فأشربتها قلوب الناس واتخذوها دوادوين فأطلع الله تعالى على ذلك سليمان بن داود فأخذها وقذفها تحت الكرسي فلما مات سليمان قام شيطان بالطريق فقال : ألا أدلكم على كنز سليمان الذي لا كنز لأحد مثل كنزه الممنع ؟ قالوا : نعم فأخرجوه فإذا هو سحر فتناسختها الأمم فأنزل الله تعالى عذر سليمان فيما قالوا من السحر " وقيل : روي أن سليمان كان قد دفن كثيراً من العلوم التي خصه الله تعالى بها تحت سرير ملكه خوفاً على أنه إذا هلك الظاهر منها يبقى ذلك المدفون فلما مضت مدة على ذلك توصل قوم من المنافقين إلى أن كتبوا في خلال ذلك أشياء من السحر تناسب تلك الأشياء من بعض الوجوه ثم بعد موته واطلاع الناس على تلك الكتب أوهموهم أنها من علم سليمان ، ولا يخفى ضعف هذه الرواية ، وسليمان كما في " البحر " اسم أعجمي ، وامتنع من الصرف

للعلمية والعجمة ، ونظيره من الأعجمية في أن آخره ألف ونون هامان وماهان وشامان وليس امتناعه من الصرف للعلمية وزيادة الألف والنون كعثمان لأن زيادتهما موقوفة على الاشتقاق والتصريف ، وهما لا يدخلان الأسماء

(231/61)

الأعجمية وكثير من الناس اليوم على خلافه .

(232/61)

﴿ وَمَا كَفَرَ سليمان ﴾ اعتراض لتبرئة سليمان عليه السلام عما نسبوه إليه ، فقد أخرج ابن جرير عن شهر بن حوشب قال : قال اليهود : انظروا إلى محمد يخلط الحق بالباطل يذكر سليمان مع الأنبياء ، وإنما كان ساحراً يركب الريح ، وعبر سبحانه عن السحر بالكفر بطريق الكناية رعاية لمناسبة ﴿ لَكِنِ ﴾ الاستدراكية في قوله تعالى ﴿ ولكن الشياطين كَفَرُواْ يُعَلّمُونَ الناس السحر ﴾ فإن (كفروا) معها مستعمل في معناه الحقيقي وجملة (يعلمون) حال من الضمير ، وقيل : من الشياطين ، ورد بأن (لكن) لا تعمل في الحال ،

وأجيب بأن فيها رائحة الفعل وقيل : بدل من (كفروا) ، وقيل : استئناف والضمير للشياطين أو للذين اتبعوا والسحر في الأصل مصدر سحر يسحر بفتح العين فيهما إذا أبدى ما يدق ويخفى وهو من المصادر الشاذة ، ويستعمل بما لطف وخفي سببه ، والمراد به أمر غريب يشبه الخارق وليس به إذ يجري فيه التعلم ويستعان في تحصيله بالتقرب إلى الشيطان بارتكاب القبائح ، قولاً كالرقى التي فيها ألفاظ الشرك ومدح الشيطان وتسخيره ، وعملاً كعبادة الكواكب ؛ والتزام الجناية وسائر الفسوق ، واعتقاداً كاستحسان ما يوجب التقرب إليه ومحبته إياه وذلك لا يستتب إلا بمن يناسبه في الشرارة وخبث النفس فإن التناسب شرط التضام والتعاون فكما أن الملائكة لا تعاون إلا أخيار الناس المشبهين بهم في المواظبة على العبادة والتقرب إلى الله تعالى بالقول والفعل كذلك الشياطين لا تعاون إلا الأشرار المشبهين بهم في الخباثة والنجاسة قولاً وفعلاً واعتقاداً ، وبهذا يتميز الساحر عن النبي والولي ، فلا يرد ما قال المعتزلة : من أنه لو أمكن للإنسان من جهة الشيطان ظهور الخوارق والإخبار عن المغيبات لاشتبه طريق النبوة بطريق السحر ، وأما ما يتعجب منه كما يفعله أصحاب الحيل بمعونة الآلات المركبة على النسبة الهندسية تارة ، وعلى صيرورة الخلاء ملاء أخرى ، وبمعونة الأدوية

كالنار نجيات أو يريه صاحب خفة اليد فتسميته سحراً على التجوز وهو مذموم أيضاً عند البعض ، وصرح النووي في " الروضة" بحرمته ، وفسره الجمهور بأنه خارق للعادة يظهر من نفس شريرة بمباشرة أعمال مخصوصة والجمهور على أن له حقيقة وأنه قد يبلغ الساحر إلى حيط يطير في الهواء ويمشي على الماء ويقتل النفس ويقلب الإنسان حماراً ، والفاعل الحقيقي في كل ذلك هو الله تعالى ولم تجر سنته بتمكين الساحر من فلق البحر وإحياء الموتى وإنطاق العجماء وغير ذلك من آيات الرسل عليهم السلام ، والمعتزلة وأبو جعفر الاسترابادي من أصحابنا على أنه لا حقيقة له وإنما هو تخييل ، وأكفر المعتزلة من قال ببلوغ الساحر إلى حيث ما ذكرنا زعماً منهم أن بذلك انسداد طريق النبوة وليس كما زعموا على ما لا يخفى ، ومن المحققين من فرق بين السحر والمعجزة باقتران المعجزة بالتحدي بخلافه فإنه لا يمكن ظهوره على يَدِ مدعي نبوة كاذباً كما جرت به عادة الله تعالى المستمرة صوناً لهذا المنصب الجليل عن أن يتسور حماه الكذابون .

(234/61)

وقد شاع أن العمل به كفر حتى قال العلامة التفتازاني : لا يروى خلاف في ذلك ، وعدُّه نوعاً من الكبائر مغاير الإشراك لا ينافي ذلك لأن الكفر أعم والإشراك نوع منه وفيه بحث : أما أولاً : فلأن الشيخ أبا منصور ذهب إلى أن القول بأن السحر كفر على الإطلاق خطأ بل يجب البحث عن حقيقته فإن كان في ذلك رد ما لزم من شرط الإيمان فهو كفر وإلا فلا ، ولعل ما ذهب إليه العلامة مبني على التفسير أولاً فإنه عليه مما لا يمتري في كفر فاعله ، وأما ثانياً : فلأن المراد من الإشراك فيما عدا الكبائر مطلق الكفر وإلا تخرج أنواع الكفر منها ، ثم السحر الذي هو كفر يقتل عليه الذكور لا الإناث وما ليس بكفر ، وفيه إهلاك النفس ففيه حكم قطاع الطريق ويستوي فيه الذكور والإناث وتقبل توبته إذا تاب ، ومن قال لا تقبل فقد غلط فإن سحرة موسى قبلت توبتهم كذا في " المدارك" ، ولعله إلى الأصول أقرب ، والمشهور عن أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه أن الساحر يقتل مطلقاً إذا علم أنه ساحر ولا يقبل قوله : أَتْرُكُ السحر وأتوب عنه فإن أقرّ بأني كنت أسحر مدة وقد تركت منذ زمان قبل منه ولم يقتل ؛ واحتج بما روي أن جارية لحفصة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها سحرتها فأخذوها فاعترفت بذلك فأمرت عبد الرحمن بن زيد فقتلها ، وإنكار عثمان رضي الله تعالى عنه إنما كان لقتلها بغير إذنه .

وبما روي عن عمر رضي الله تعالى عنه أنه قال : اقتلوا كل ساحر وساحرة فقتلوا ثلاث

سواحر ، والشافعية نظروا في هذا الاحتجاج واعترضوا على القول بالقتل مطلقاً بأنه صلى الله عليه وسلم لم يقتل اليهودي الذي سحره ، فالمؤمن مثله لقوله عليه السلام :

(235/61)

" لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين " وتحقيقه في الفروع ، واختلف في تعليمه وتعلمه فقيل : كفر لهذه الآية إذ فيها ترتيب الحكم على الوصف المناسب وهو مشعر بالعلية ، وأجيب بأنا لا نسلم أن فيها ذلك لأن المعنى أنهم كفروا وهم مع ذلك يعلمون السحر ، وقيل : إنهما حرامان وبه قطع الجمهور وقيل : مكروهان وإليه ذهب البعض وقيل : مباحان ، والتعليم المساق للذم هنا محمول على التعليم للإغواء والإضلال ، وإليه مال الإمام الرازي قائلاً : اتفق المحققون على أن العلم بالسحر ليس بقبيح ولا محظور لأن العلم لذاته شريف لعموم قوله تعالى : ﴿ هَلْ يَسْتَوِي الذين يَعْلَمُونَ والذين لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر : 9] ولو لم يعلم السحر لما أمكن الفرق بينه وبين (المعجزة) والعلم بكون المعجز معجزاً واجب وما يتوقف الواجب عليه فهو واجب فهذا يقتضي أن يكون تحصيل العلم بالسحر واجباً وما يكون واجباً كيف يكون حراماً وقبيحاً .

ونقل بعضهم وجوب تعلمه على المفتي حتى يعلم ما يقتل به وما لا يقتل به ، فيفتي به في

وجوب القصاص انتهى .

والحق عندي الحرمة تبعاً للجمهور إلا لداع شرعي ، وفيما قاله رحمه الله تعالى نظر .

(236/61)

أما أولاً : فلأنا لا ندعي أنه قبيح لذاته ، وإنما قبحه باعتبار ما يترتب عليه ، فتحريمه من باب سد الذرائع وكم من أمر حرم لذلك وفي الحديث : " من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه " وأما ثانياً : فلأن توقف الفرق بينه وبين المعجزة على العلم به ممنوع ، ألا ترى أن أكثر العلماء أو كلهم إلا النادر عرفوا الفرق بينهما ولم يعرفوا علم السحر وكفى فارقاً بينهما ما تقدم ، ولو كان تعلمه واجباً لذلك لرأيت أعلم الناس به الصدر الأول مع أنهم لم ينقل عنهم شيء من ذلك ، أفتراهم أخلوا بهذا الواجب وأتى به هذا القائل ، أو أنه أخل به كما أخلوا وأما ثالثاً : فلأن ما نقل عن بعضهم غير صحيح ، لأن إفتاء المفتي بوجوب القوَد أو عدمه لا يستلزم معرفته علم السحر لأن صورة إفتائه على ما ذكره العلامة ابن حجر إن شهد عدلان عرفا السحر وتابا منه أنه يقتل غالباً قتل الساحر وإلا فلا هذا وقد أطلق بعض العلماء السحر على المشي بين الناس بالنميمة لأن فيها قلب الصديق عدواً والعدو صديقاً ، كما أطلق على حسن التوسل باللفظ الرائق العذب لما فيه من الاستمالة ، ويسمى سحراً

حلالاً ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : " إن من البيان لسحراً " والقول بأنه مخرّج مخرج الذم للفصاحة والبلاغة بعيد وإن ذهب إليه عامر الشعبي راوي الحديث وظاهر قوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُونَ ﴾ الخ أنهم يفهمونهم إياه بالإقراء والتعليم ، وقيل : يدلونهم على تلك الكتب ، فأطلق على تلك الدلالة تعليماً إطلاقاً للسبب على المسبب ، وقيل : المعنى يوقرون في قلوبهم أنها حق تضر وتنفع ، وأن سليمان عليه السلام إنما تم له ما تم بذلك والإطلاق عليه هو الإطلاق وقيل : ﴿ يَعْلَمُونَ ﴾ بمعنى يعلمون من الإعلام وهو الإخبار ، أي يخبرونهم بما أو بمن يتعلمون به أو منه (السحر) وقرأ نافع وعاصم وابن كثير وأبو عمرو ﴿ لَكِنِ ﴾ بالتشديد وابن عامر وحمزة والكسائي بالتخفيف وارتفاع ما بعدها بالابتداء والخبر

وهل يجوز إعمالها إذا خففت ؟ فيه خلاف ، والجمع على المنع وهو الصحيح وعن يونس والأخفش الجواز ، والصحيح إنها بسيطة ومنهم : من زعم أنها مركبة من (لا) النافية وكاف الخطاب (وأن) المؤكدة المحذوفة الهمزة للاستثقال ، وهو إلى الفساد أقرب .

﴿ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الملكين ﴾ المراد : الجنس ، وهو عطف على ﴿ السحر ﴾ وهما

واحد إلا أنه نزّل تغاير المفهوم منزلة تغاير الذات كما في قوله :

إلى الملك القرم وابن الهمام . . .

(238/61)

البيت ، وفائدة العطف التنصيص بأنهم يعلمون ما هو جامع بين كونه سحراً وبين كونه منزلاً على الملكين للابتلاء ، فيفيد ذمهم بارتكابهم النهي بوجهين ، وقد يراد بالموصول المعهود وهو نوع آخر أقوى فيكون من عطف الخاص على العام إشارة إلى كماله ، وقال مجاهد : هو دون السحر وهو ما يفرّق به بين المرء وزوجه لا غير والمشهور الأول ، وجوّز العطف على ﴿ مَا تَتْلُواْ ﴾ فكأنه قيل : اتبعوا السحر المدوّن في الكتب وغيره ، وهذان الملكان أنزلا لتعليم السحر ابتلاء من الله تعالى للناس ، فمن تعلم وعمل به كفر ، ومن تعلم وتوقى عمله ثبت على الإيمان ، ولله تعالى أن يمتحن عباده بما شاء كما امتحن قوم طالوت بالنهر ، وتمييزاً بينه وبين المعجزة حيث أنه كثر في ذلك الزمان ، وأظهر السحرة أموراً غريبة وقع الشك بها في النبوّة ، فبعث الله تعالى الملكين لتعليم أبواب السحر حتى يزيلا الشبه ويميطا الأذى عن الطريق ، قيل : كان ذلك في زمن إدريس عليه السلام ، وأما ما روي أن الملائكة تعجبت من بني آدم في مخالفتهم ما أمر الله تعالى به ، وقالوا له تعالى : لو كنا مكانهم ما

عصيناك ، فقال : اختاروا ملكين منكم ، فاختاروهما ، فهبطا إلى الأرض ومثلا بشرين ، وألق الله تعالى عليهما الشبق ، وحكما بين الناس ، فافتتنا بأمرأة يقال لها زهرة ، فطلباها وامتنعت إلا أن يعبدا صنماً ، أو يشربا خمراً ، أو يقتلا نفساً ففعلاً ثم تعلمت منهما ما صعدت به إلى السماء ، فصعدت ومسخت هذا النجم وأرادا العروج فلم يمكنهما فخيرا بين عذاب الدنيا والآخرة فاختارا عذاب الدنيا فهما الآن يعذبان فيها ، إلى غير ذلك من الآثار التي بلغت طرقها نيفاً وعشرين ، فقد أنكره جماعة منهم القاضي عياض ، وذكر أن ما ذكره أهل الأخبار ونقله المفسرون في قصة هاروت وماروت لم يرد منه شيء لا سقيم ولا صحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس هو شيئاً يؤخذ بالقياس وذكر في " البحر " أن جميع ذلك لا

(239/61)

يصح منه شيء ، ولم يصح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يلعن الزهرة ، ولا ابن عمر رضي الله تعالى عنهما خلافاً لمن رواه ، وقال الإمام الرازي بعد أن ذكر الرواية في ذلك إن هذه الرواية فاسدة مردودة غير مقبولة ، ونص الشهاب (العراقي) على أن من اعتقد في هاروت وماروت أنهما ملكان يعذبان على خطيئتهما مع الزهرة فهو كافر بالله تعالى

العظيم ، فإن الملائكة معصومون

﴿ لاَّ يَعْصُونَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم : 6] ﴿ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلاَ يَسْتَحْسِرُونَ يُسَبِّحُونَ اللَيل والنهار لاَ يَفْتُرُونَ ﴾ [الأنبياء : 19 و20]

والزهرة كانت يوم خلق الله تعالى السموات والأرض ، والقول بأنها تمثلت لهما فكان ما كان وردت إلى مكانها غير معقول ولا مقبول .

(240/61)

واعترض الإمام السيوطي على من أنكر القصة بأن الإمام أحمد وابن حبان والبيهقي وغيرهم رووها مرفوعة وموقوفة على عليّ وابن عباس وابن عمر وابن مسعود رضي الله تعالى عنهم بأسانيد عديدة صحيحة يكاد الواقف عليها يقطع بصحتها لكثرتها وقوة مخرجيها ، وذهب بعض المحققين أن ما روي مروي حكاية لما قاله اليهود وهو باطل في نفسه وبطلانه في نفسه لا ينافي صحة الرواية ، ولا يردّ ما قاله الإمام السيوطي عليه ، إنما يردّ على المنكرين بالكلية ، ولعل ذلك من باب الرموز والإشارات ، فيراد من الملكين العقل النظري والعقل العملي اللذان هما من عالم القدس ، ومن المرأة المسماة بالزهرة النفس الناطقة ومن تعرضهما لها تعليمهما لها ما يسعدها ، ومن حملها إياهما على المعاصي تحريضها إياهما

بحكم الطبيعة المزاجية إلى الميل إلى السفليات المدنسة لجوهريهما ، ومن صعودها إلى السماء بما تعلمت منهما عروجها إلى الملأ الأعلى ومخالطتها مع القدسيين بسبب انتصاحها لنصحهما ، ومن بقائهما معذبين بقاؤهما مشغولين بتدبير الجسد وحرمانهما عن العروج إلى سماء الحضرة ، لأن طائر العقل لا يحوم حول حماها .

(241/61)

ومن الأكابر من قال في حلّ هذا الرمز : إن الروح والعقل للذين هما من عالم المجردات قد نزلا من سماء التجرد إلى أرض التعلق ، فعشقا البدن الذي هو كالزهرة في غاية الحسن والجمال لتوقف كمالهما عليه ، فاكتسبا بتوسطه المعاصي والشرك وتحصيل اللذات الحسية الدنية ، ثم صعد إلى السماء بأن وصل بحسن تدبيرهما إلى الكمال اللائق به ، ثم مسخ بأن انقطع التعلق وتفرقت العناصر ، وهما بقيا معذبين بعذاب الحرمان عن الاتصال بعالم القدس متألمين بالآلام الروحانية منكوسي الحال حيث غلب التعلق على التجرد وانعكس القرب بالبعد ، وقيل : المقصود من ذلك الإشارة إلى أن من كان ملكاً إن اتبع الشهوة هبط عن درجة الملائكة إلى درجة البهيمة ، ومن كان امرأة ذات شهوة إذا كسرت شهوتها ، وغلبت عليها صعدت إلى درج الملك واتصلت إلى سماء المنازل والمراتب ، وكتب بعضهم لحله .

مل وأيم الله نفسي نفسي . . .

وطال في مكث حياتي حبسي

أصبح في مضاجعي وأمسي . . .

أمسي كيومي وكيومي أمسي

يا حبذا يوم نزولي رمسي . . .

مبدأ سعدي وانتهاء نحسي

وكل جنس لاحق بالجنس . . .

من جوهر يرقى بدار الأنس

وعرض يبقى بدار الحس . . .

هذا ومن قال : بصحة هذه القصة في نفس الأمر وحملها على ظاهرها فقد ركب شططاً وقال غلطاً ، وفتح باباً من السحر يضحك الموتى ، ويبكي الأحياء ، وينكس راية الإسلام ، ويرفع رؤوس الكفرة الطغام كما لا يخفى ذلك على المنصفين من العلماء المحققين ، وقرأ ابن عباس والحسن وأبو الأسود والضحاك (الملكين) بكسر اللام ، وحمل بعضهم قراءة الفتح على ذلك فقال هما رجلان إلا أنهما سميا ملكين باعتبار صلاحهما ، ويؤيده ما قيل : إنهما داود وسليمان ، ويرده قول الحسن : إنهما علجان كانا ببابل العراق ، وبعضهم يقول إنهما

من الملائة ظهراً في صورة الملوك وفيه حمل الكسر على الفتح على عكس ما تقدم والإنزال إما على ظاهره أو بمعنى القذف في قلوبهما

(242/61)

﴿ بِبَابِلَ ﴾ الباء بمعنى في وهي متعلقة بأنزل أو بمحذوف وقع حالاً من (الملكين) أو من الضمير في (أنزل) وهي كما قال ابن عباس وابن مسعود رضي الله تعالى عنهما : بلد في سواد الكوفة ، وقيل : بابل العراق ، وقال قتادة : هي من نصيبين إلى رأس العين ، وقيل : جبل دماوند ، وقيل : بلد بالمغرب والمشهور اليوم الثاني وعند البعض هو الأول ، قيل وسميت بابل لتبلبل الألسنة فيها عند سقوط صرح نمرود ، وأخرجه الدينوري في " المجالسة" .

(243/61)

وابن عساكر من طريق نعيم بن سالم وهو متهم عن أنس بن مالك قال : (لما حشر الله تعالى الخلائق إلى بابل بعث إليهم ريحاً شرقية وغربية وقبلية وبحرية فجمعتهم إلى بابل فاجتمعوا

يومئذ ينظرون لما حشروا له إذ نادى مناد من جعل المغرب عن يمينه والمشرق عن يساره واقتصد إلى البيت الحرام بوجهه فله كلام أهل السماء فقام يعرب بن قحطان فقيل له : يا يعرب بن قحطان بن هود أنت هو فكان أول من تكلم بالعربية فلم يزل المنادي ينادي من فعل كذا وكذا فله كذا وكذا حتى افترقوا على اثنين وسبعين لساناً وانقطع الصوت وتبلبلت الألسن فسميت بابل وكان اللسان يومئذ بابلياً) ، وعندي في القولين تردد بل عدم قبول ، والذي أميل إليه أن بابل اسم أعجمي كما نص عليه أبو حيان لا عربي كما يشير إليه كلام الأخفش ، وأنه في الأصل اسم للنهر الكبير في بعض اللغات الأعجمية القديمة وقد أطلق على تلك الأرض لقرب الفرات منها ، ولعل ذلك من قبيل تسمية بغداد دار السلام بناء عى أن السلام اسم لدجلة ، وقد رأيت لذلك تفصيلاً لا أدريه اليوم في أي كتاب ، وأظنه قريباً مما ذكرته فليحفظ ، ومنه بعضهم الصلاة بأرض بابل احتجاجاً بما أخرج أبو داود وابن أبي حاتم والبيهقي في " سننه" على علي كرم الله تعالى وجهه أن حبيبي صلى الله عليه وسلم نهاني أن أصلي بأرض بابل فإنها ملعونة ، وقال الخطابي : في إسناد هذا الحديث مقال ، ولا أعلم أحداً من العلماء حرم الصلاة بها ، ويشبه إن ثبت الحديث أن يكون نهاه عن أن يتخذها وطناً ومقاماً فإذا أقام بها كانت صلاته فيها وهذا من باب التعليق في علم البيان ، أو لعل النهي له خاصة ألا ترى قال : نهاني ، ومثله حديث آخر

" نهاني أن أقرأ ساجداً أو راكعاً ولا أقول نهاكم " ، وكان ذلك إنذاراً منه بما لقي من المحنة في تلك الناحية

(244/61)

﴿ هاروت وماروت ﴾ عطف بيان للملكين وهما اسمان أعجميان لهما منعا من الصرف للعلمية والعجمة وقيل : عربيان من الهرت والمرت بمعنى الكسر ؛ وكان اسمهما قبل عزا وعزايا فلما قارفا الذنب سميا بذلك ؛ ويشكل عليه منعهما من الصرف ، وليس إلا العلمية ، وتكلف له بعضهم بأنه يحتمل أن يقال : إنهما معدولان من الهارت والمارت ، وانحصار العدل في الأوزان المحفوظة غير مسلم وهو كما ترى ، وقرأ الحسن والزهري برفعهما على أن التقدير هما هاروت وماروت ، ومما يقضي منه العجب ما قاله الإمام القرطبي : " إن هاروت وماروت بدل من الشياطين على قراءة التشديد ، و﴿ مَا ﴾ في ﴿ وَمَا أُنزِلَ ﴾ نافية ، والمراد من الملكين جبرائيل وميكائيل لأن اليهود زعموا أن الله تعالى أنزلهما بالسحر ، وفي الكلام تقديم وتأخير ، والتقدير : (وما كفر سليمان وما أنزل على الملكين ولكن الشياطين هاروت وماروت كفروا يعلمون الناس السحر ببابل) وعليه فالبدل إما بدل بعض من كل ، ونص عليهما بالذكر لتمردهما ، ولكونهما رأساً في التعليم ،

أو بدل كل من كل إما بناء على أن الجمع يطلق على الإثنين أو على أنهما عبارتان عن قبيلتين من الشياطين لم يكن غيرهما بهذه الصفة ، وأعجب من قوله هذا قوله : وهذا أولى ما حملت عليه الآية من التأويل وأصح ما قيل فيها ، ولا تلتفت إلى ما سواه .

ولا يخفى لدي كل منصف أنه لا ينبغي لمؤمن حمل كلام الله تعالى وهو في أعلى مراتب البلاغة والفصاحة على ما هو أدنى من ذلك وما هو إلا مسخ لكتاب الله تعالى عز شأنه وإهباط له عن شأواه ومفاسد قلة البضاعة لا تحصى ، وقيل إنهما بدل من الناس أي : يعلمون الناس خصوصاً هاروت وماروت والنفي هو النفي .

(245/61)

﴿ وَمَا يُعَلّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حتى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فلاَ تَكْفُرْ ﴾ أي ما يعلم الملكان أحداً حتى ينصحاه ويقولا له إنما نحن ابتلاء من الله عز وجل فمن تعلم منا وعمل به كفر ومن تعلم وتوقى ثبت على الإيمان فلا تكفر باعتقاده وجواز العمل به ، وقيل : فلا تتعلم معتقداً إنه حق حتى تكفر ، وهو مبني على رأي الاعتزال من أن السحر تمويه وتخييل ، ومن اعتقد حقيقته يكفر ، و ﴿ مِنْ ﴾ مزيدة في المفعول به لإفادة تأكيد الاستغراق ، وإفراد الفتنة مع تعدد المخبر عنه لكونها مصدراً ، والحمل مواطأة للمبالغة ، والقصر لبيان أنه ليس لهما

فيما يتعاطيانه شأن سواها لينصرف الناس عن تعلمه ، و ﴿ حتى ﴾ للغاية وقيل : بمعنى إلا ، والجملة في محل النصب على الحالية من ضمير ﴿ يَعْلَمُونَ ﴾ والظاهر أن القول مرة واحدة والقول : بأنه ثلاث أو سبع أو تسع لا ثبت له ، واختلف في كيفية تلقي ذلك العلم منهما فقال مجاهد إنهما لا يصل إليهما أحد من الناس وإنما يختلف إليهما شيطانان في كل سنة اختلافة واحدة فيتعلمان منهما ، وقيل وهو الظاهر : إنهما كان يباشران التعليم بأنفسهما في وقت من الأوقات ، والأقرب أنهما ليسا إذ ذاك على الصورة الملكية ، وأما ما أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وصححه والبيهقي في " سننه" عن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها قالت : قدمت عليّ امرأة من أهل دومة الجندل تبتغي رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد موته تسأله عن شيء دخلت فيه من أمر السحر ولم تعمل به قالت : كان لي زوج غاب عني فدخلت على عجوز فشكوت إليها فقالت : إن فعلت ما آمرك اجعله يأتيك فلما كان الليل جاءتني بكلبين أسودين فركبت أحدهما وركبت الآخر فلم يكن كشيء حتى وقفنا ببابل ، فإذا أنا برجلين معلقين بأرجلهما ، فقالا : ما جاء بك ؟ فقلت أتعلم السحر ، فقالا : إنما نحن فتنة فلا تكفري وراجعي ، فأبيت وقلت : لا ، قالا : فاذهبي إلى ذلك التنور فبولي به

، إلى أن قالت : فذهبت فبلت فيه ، فرأيت فارساً مقنعاً بحديد خرج مني حتى ذهب إلى السماء وغاب عني حتى ما أراه ، فجئتهما وذكرت لهما فقالا : صدقت ، ذلك إيمانك خرج منك ، اذهبي فلن تريدي شيئاً إلا كان الخبر بطوله فهو ونظائره مما ذكره المفسرون من القصص في هذا الباب مما لا يعول عليه ذوو الألباب ، والإقدام على تكذيب مثل هذه الامرأة الدوجندية أولى من اتهام العقل في قبول هذه الحكاية التي لم يصح فيها شيء عن رسول رب البرية صلى الله عليه وسلم ، ويا ليت كتب الإسلام لم تشتمل على هذه الخرافات التي لا يصدقها العاقل ولو كانت أضغاث أحلام ، واستدل بالآية من جوّز تعلم السحر ، ووجهه أن فيها دلالة على وقوع التعليم من الملائكة مع عصمتهم ، والتعلم مطاوع له ، بل هما متحدان بالذات مختلفان بالاعتبار كالإيجاب والوجوب ، ولا يخفى أنه لا دليل فيها على الجواز مطلقاً لأن ذلك التعليم كان للابتلاء والتمييز كما قدمنا ، وقد ذكر القائلون بالتحريم : إن تعلم السحر إذا فرض فُشُوّهُ في صقع ، وأريد تبيين فساده لهم ليرجعوا إلى الحق غير حرام كما لا يحرم تعلم الفلسفة للمنصوب للذب عن الدين برد الشبه وإن كان أغلب أحواله التحريم وهذا لا ينافي إطلاق القول به ، ومن قال : إن هاروت وماروت من الشياطين قال : إن معنى الآية ما يعلمان السحر أحداً حتى ينصحاه ويقولا إنا مفتونان باعتقاد جوازه والعمل به فلا تكن مثلنا في ذلك فتكفر ، وحينئذ لا استدلال أصلاً ، وما

ذكرنا أن القول على سبيل النصح في هذا الوجه هو الظاهر ، وحكى المهدوي أنه على سبيل الاستهزاء لا النصيحة وهو الأنسب بحال الشياطين ، وقرأ طلحة بن مصرف (يعلمان) بالتخفيف من الإعلام وعليها حمل بعضهم قراءة التشديد ، وقرأ أبيّ باظهار الفاعل

(247/61)

﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا ﴾ عطف على الجملة المنفية لأنها في قوة المثبتة كأنه قال : يعلمانهم بعد ذلك القول فيتعلمون ، وليس عطفاً على المنفي بدون هذا الاعتبار كما توهمه أبو علي من كلام الزجاج ، وعطفه بعضهم على ﴿ يُعَلِّمَانِ ﴾ محذوفاً ، وبعضهم على (يأتون) كذلك ، والضمير المرفوع لما دل عليه (أحد) وهو الناس أو لأحد حملا له على المعنى كما في قوله تعالى :

﴿ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حاجزين ﴾ [الحاقه : 47] وحكى المهدوي جواز العطف على ﴿ يُعَلِّمُونَ الناس ﴾ فمرجع الضمير حينئذ ظاهر ، وقيل : في الكلام مبتدأ محذوف أي فهم يتعلمون فتكون جملة ابتدائية معطوفة على ما قبلها من عطف الاسمية على الفعلية ونسب ذلك إلى سيبويه وليس بالجيد ، وضمير (منهما) عائد على (الملكين) ، ومن

الناس من جعله عائداً إلى السحر والكفر أو الفتنة والسحر ، وعطف (يتعلمون) على (يعلمون) وحمل (ما يعلمان) على النفي ، و ﴿ حتى يَقُولاَ ﴾ على التأكيد له أي لا يعلمان السحر لأحد بل ينهيانه حتى يقولا الخ فهو كقولك : ما أمرته بكذا حتى قلت له إن فعلت نالك كذا وكذا ، وجعل ما أنزل أيضاً نفياً معطوفاً على ما كفر وهو كما ترى

﴿ مَا يُفَرّقُونَ بِهِ بَيْنَ المرء وَزَوْجِهِ ﴾ أي الذي أو شيئاً يفرقون به وهو السحر المزيل بطريق السببية الألفة والمحبة بين الزوجين الموقع للبغضاء والشحناء الموجبتين للتفرق بينهما ؛ وقيل : المراد : ما يفرق لكونه كفراً لأنه إذا تعلم كفر فبانت زوجته أو إذا تعلم عمل فتراه الناس فيعتقدون أنه حق فيكفرون فتبين أزواجهم ، والمرء الرجل ، والأفصح فتح الميم مطلقاً ، وحكي الضم مطلقاً ، وحكي الاتباع لحركة الإعراب ، ومؤنثة المرأة ، وقد جاء جمعه بالواو والنون فقالوا : المرؤن ، والزوج امرأة الرجل ، وقيل : المراد به هنا القريب والأخ الملائم ، ومنه

﴿ مِن كُلّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ [الحج : 5] و ﴿ احشروا الذين ظَلَمُواْ وأزواجهم ﴾ [الصافات : 22] وقرأ الحسن والزهري وقتادة المر بغير همز مخففاً ، وابن أبي اسحق المرء

بضم الميم مع الهز ، والأشهب بالكسر والهمز ، ورويت عن الحسن ، وقرأ الزهري أيضاً المر بالفتح وإسقالط الهمزة وتشديد الراء ﴿ وَمَا هُم بِضَارّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ ﴾ الضمير للسحرة الذين عاد إليهم ضمير ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ ﴾ وقيل : لليهود الذين عاد إليهم ضمير ﴿ واتبعوا ﴾ وقيل للشياطين وضمير (به) عائد لما ، و ﴿ مِنْ ﴾ زائدة لاستغراق النفي كأنه قيل : وما يضرون به أحداً ، وقرأ الأعمش بضاري محذوف النون ، وخرج على أنها حذفت تخفيفاً وإن كان اسم الفاعل ليس صلة لأل فقد نص ابن مالك على عدم الاشتراط لقوله :

ولسنا إذا تأتون سلمى بمدعي . . .

لكم غير أنا أن نسالم نسالم

وقولهم : قطاقطا بيضك ثنتا وبيضي مائتا ، وقيل : إنها حذفت للإضافة إلى محذوف مقدر لفظاً على حد قوله : يا تيم تيم عدي في أحد الوجوه ، وقيل : للإضافة إلى (أحد) على جعل الجار جزأ منه والفصل بالظرف مسموع كما في قوله :

هما أخوا في الحرب من لا أخاله . . .

وإن خاف يوماً كبوة فدعاهما

واختار ذلك الزمخشري ، وفيه أن جعل الجار جزءاً من المجرور ليس بشيء لأنه مؤثر فيه ،

وجزء الشيء لا يؤثر فيه ، وأيضاً الفصل بين المتضايفين بالظرف وإن سمع من ضرائر الشعر كما صرح به أبو حيان ولظن تعين هذا مخرجاً قال ابن جني : إن هذه القراءة أبعد الشواذ

﴿ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ ﴾ استثناء مفرغ من الأحوال والباء متعلقة بمحذوف وقع حالا من ضمير ضارين أو من مفعوله المعتمد على النفي أو الضمير المجرور في ﴿ بِهِ ﴾ أو المصدر المفهوم من الوصف ، والمراد من الاذن هنا التخلية بين المسحور وضرر السحر قاله الحسن وفيه دليل على أن فيه ضرراً مودعاً إذا شاء الله تعالى حال بينه وبينه ، وإذا شاء خلاه وما أودعه فيه ، وهذا مذهب السلف في سائر الأسباب والمسببات ، وقيل : الإذن بمعنى الأمر ويتجوز به عن التكوين بعلاقة ترتب الوجود على كل منهما في الجملة ، والقرينة عدم كون القبائح مأموراً بها ففيه نفي كون الأسباب مؤثرة بنفسها بل يجعله إياها أسباباً إما عادية أو حقيقية ، وقيل : إنه هنا بمعنى العلم ، وليس فيه إشارة إلى نفي التأثير بالذات كالوجهين الأولين .

﴿ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ ﴾ لأنهم يقصدون به العمل قصداً جازماً وقصد المعصية كذلك معصية أو لأن العلم يدعو إلى العمل ويجر إليه لا سيما عمل الشر الذي هو هوى النفس ،

فصيغة المضارع للحال على الأول وللاستقبال على الثاني ﴿ وَلاَ يَنفَعُهُمْ ﴾ عطف على ما قبله للإيذان بأنه شر بحت وضرر محض لا كبعض المضار المشوبة بنفع وضرر لأنهم لا يقصدون به التخلص عن الاغترار بأكاذيب السحرة ولا إماطة الأذى عن الطريق حتى يكون فيه نفع في الجملة ، وفي الإتيان ب (لا) إشارة إلى أنه غير نافع في الدارين لأنه لا تعلق له بانتظام المعاش ولا المعاد وفي الحكم بأنه ضار غير نافع تحذير بليغ لمن ألقى السمع وهو شهيد عن تعاطيه وتحريض على التحرز عنه ، وجوز بعضهم أن يكون ﴿ لاَ يَنفَعُهُمْ ﴾ على إضمار هو فيكون في موضع رفع وتكون الواو للحال ولا يخفى ضعفه

(250/61)

﴿ وَلَقَدْ عَلِمُواْ ﴾ متعلق بقوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءهُمُ ﴾ [البقرة : 101] الخ ، وقصة السحر مستطردة في البين فالضمير لأولئك اليهود ، وقيل : الضمير لليهود الذين كانوا على عهد سليمان عليه السلام ، وقيل : للملكين لأنهما كانا يقولان : ﴿ فَلاَ تَكْفُرْ ﴾ وأتى بضمير الجمع على قول من يرى ذلك ﴿ لِمَنْ ﴾ أي استبدل ما تتلوا الشياطين بكتاب الله ، واللام للابتداء وتدخل على المبتدأ ، وعلى المضارع ودخولها على الماضي مع قد كثير وبدونه ممتنع ، وعلى خبر المبتدأ إذا تقدم عليه ، وعلى معمول الخبر إذا وقع موقع المبتدأ ؛

والكوفيون يجعلونها في الجميع جواب القسم المقدر وليس في الوجود عندهم لام ابتداء كما يشير إليه كلام الرضى ، وقد علقت هنا علم عن العمل سواء كانت متعدية لمفعول أو مفعولين فمن موصولة مبتدأ و(اشتراه) صلتها وقوله تعالى :

﴿ مَا لَهُ فِى الآخرة مِنْ خُلِقَ ﴾ جملة ابتدائية خبرها ، ومن مزيدة في المبتدأ ، و﴿ فِى الآخرة ﴾ متعلق بما تعلق به الخبر أو حال من الضمير فيه أو من مرجعه ، والخلاق النصيب قاله مجاهد أو القوام قاله ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، أو القدر قاله قتادة ومنه قوله :

فمالك بيت لدى الشامخات . . .

ومالك في غالب من (خلاق)

(251/61)

قال الزجاج : وأكثر ما يستعمل في الخير ، ويكون للشر على قلة ، وذهب أبو البقاء تبعاً للفراء إلى أن اللام موطئة للقسم ، و(من) شرطية مبتدأ و(اشتراه) خبرها وماله) الخ جواب القسم ، وجواب الشرط محذوف دل هو عليه لأنه إذا اجتمع قسم وشرط يجاب سابقهما غالباً ، وفيه ما فيه لأنه نقل عن الزجاج ردّ من قال بشرطية (من) هنا بأنه ليس موضع شرط ، ووجهه أبو حيان بأن الفعل ماض لفظاً ومعنى ، لأن الاشتراء قد وقع

فجعله شرطاً لا يصح لأن فعل الشرط إذا كان ماضياً لفظاً فلا بد أن يكون مستقبلاً معنى ، وقد ذكر الرضى في لزيد قائم أن الأولى كون اللام فيه لام الابتداء مفيدة للتأكيد ولا يقدر القسم كما فعله الكوفية لأن الأصل عدم التقدير ، والتأكيد المطلوب من القسم حاصل من اللام ، والقول بأن اللام تأكيد للأولى أو زائدة مما لا يكاد يصح ، أما الأول : فلأن بناء الكلمة إذا كان على حرف واحد لا يكرر وحده بل مع عماده إلا في ضرورة الشعر على ما ارتضاه الرضى ، وأما الثاني : فلأن المعهود زيادة اللام الجارة وهي مكسورة في الاسم الظاهر .

(252/61)

﴿ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ ﴾ اللام فيه لام ابتداء أيضاً ، والمشهور أنها جواب القسم ، والجملة معطوفة على القسمية الأولى ، و(ما) نكرة مميزة للضمير المبهم في بئس والمخصوص بالذمّ محذوف ، و(شروا) يحتمل المعنيين والظاهر هو الظاهر أي والله لبئس شيئاً شروا به حظوظ أنفسهم أي باعوها أو شروها في زعمهم ذلك الشراء ، وفي " البحر " بئسما باعوا أنفسهم السحر أو الكفر ﴿ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ أي مذمومية الشراء المذكور لامتنعوا عنه ، ولا تنافي بين إثبات العلم لهم أولاً ونفيه عنهم ثانياً إما لأن المثبت لهم هو العقل الغريزي والمنفي عنهم هو الكسب الذي هو من جملة التكليف ، أو لأن الأول : هو العلم

بالجملة والثاني : هو العلم بالتفصيل ، فقد يعلم الإنسان مثلاً قبح الشيء ثم لا يعلم أن فعله قبيح فكأنهم علموا أن شراء النفس بالسحر مذموم لكن لم يتكفروا في أن ما يفعلونه هو من جملة ذلك القبيح أو لأنهم علموا العقاب ولم يعلموا حقيقته وشدته ، وإما لأن الكلام مخرج على تنزيل العالم بالشيء منزلة الجاهل ووجود الشيء منزلة عدمه لعدم ثمرته أنهم لم يعملوا بعلمهم ، أو على تنزيل العالم بفائدة الخبر ولازمها منزلة الجاهل بناء على أن قوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ معناه لو كان لهم علم بذلك الشراء لامتنعوا منه أي ليس لهم علم فلا يمتنعون ، وهذا هو الخبر الملقى إليهم ، واعتراض العلامة بأن هذا الخبر لو فرض كونه ملقى إليهم فلا معنى لكونهم عالمين بمضمونه كيف وقد تحقق في ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُواْ ﴾ نقيضه وهو أن لهم علماً به وبعد اللتيا والتي لا معنى لتنزيلهم منزلة الجاهل بأن ليس لهم علم بأن من اشتراه ماله في الآخرة من خلاق بل إن كان فلا بد أن ينزلوا منزلة الجاهل بأن لهم علماً بذلك يجاب عنه : أما أولاً : فبأن الخطاب صريحاً للرسول صلى الله عليه وسلم وتعريضاً لهم ولذا أكد ، وأما ثانياً : فبأن المستفاد

من ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُواْ ﴾ ثبوت العلم لهم حقيقة والمستفاد من الخبر الملقى لهم نفي العلم عنهم تنزيلاً ولا منافاة بينهما ، وأما ثالثاً : فبأن العالم إذا عمل بخلاف علمه كان عالماً بأنه بمنزلة الجاهل في عدم ترتب ثمرة علمه ، ومقتضى هذا العلم أن يمتنع عن ذلك العمل ففيما نحن فيه كانوا عالمين فيه بأن ليس لهم علم وأنهم بمنزلة الجاهل في ذلك الشراء ، ومقتضى هذا العلم أن يمتنعوا عنه وإذا لم يمتنعوا كانوا بمنزلة الجاهل في عدم جريهم على مقتضى هذا العلم فألقى الخبر إليهم بأن ليس لهم علم مع علمهم به كذا قيل ، ولا يخفى ما فيه من شدة التكلف ، وأجاب بعضهم عما يتراءى من التنافي بأن مفعول ﴿ يَعْلَمُونَ ﴾ ما دل عليه ل ﴿ بِئْسَمَا شَرَوْاْ ﴾ الخ أعنى مذمومية الشراء ، ومفعول ﴿ عَلِمُواْ ﴾ أنه لا نصيب لهم في الآخرة ، والعلم بأنه لا نصيب لهم في الآخرة لا ينافي نفي العلم بمذمومية الشراء بأن يعتقدوا إباحته فلا حاجة حينئذ إلى جميع ما سبق وفيه أن العلم بكون الشراء المذكور موجباً للحرمان في الآخرة بدون العلم بكونه مذموماً غاية المذمومية مما لا يكاد يعقل عند أرباب العقول والقول بأن مفعول ﴿ عَلِمُواْ ﴾ محذوف ، أي لقد علموا أنه يضرهم ولا ينفعهم ، و ﴿ لَمَنِ اشتراه ﴾ مرتبط بأول القصة ، وضمير (لبئسما شروا) (لمن اشتراه) ركيك جداً ، و(بئسما) يشتري ، ودفع التنافي بأنه أثبت أولاً : العلم بسوء ما شروه بالكتاب بحسب الآخرة ، ثم ذم بالسوء مطلقاً في الدين والدنيا ، لأن بئس للذم العام ، فالمنفى العلم بالسوء المطلق يعني : لو كانوا يعلمون ضرره في الدين والدنيا لامتنعوا ، إنما غرهم توهم النفع العاجل ، أو بأن المثبت

أولاً العلم بأن ما شروه ما لهم في الآخرة نصيب منه ، لا أنهم شروا أنفسهم به وأخرجوها من أيديهم بالكلية ، بل كانوا يظنون أن آباءهم الأنبياء يشفعونهم في الآخرة والعلم المنفي هو هذا العلم لا يخفى ما فيه .

أما أولاً : فلأن عموم الذم في (بئس) وإن قيل به لكنه بالنسبة إلى إفراد الفاعل في نفسها من دون تعرض للأزمنة والأمكنة والتزام ذلك لا يخلو عن كدر وأما ثانياً : فلأن تخصيص النصيب بمنه مع كونه نكرة مقرونة ب (من) في سياق النفي المساق للتهويل مما لا يدعو إليه إلا ضيق العطن ، والجواب بإرجاع ضمير (علموا) (للناس) أو (الشياطين) و(اشتروا) لليهود ارتكاب للتفكيك من غير ضرورة تدعو إليه ، ولا قرينة واضحة تدل عليه ، وبعد كل حساب الأولى عندي في الجواب كون الكلام مخرجاً على التنزيل ، ولا ريب في كثرة وجود ذلك في الكتاب الجليل ، والأجوبة التي ذكرت من قبل مع جريان الكلام فيها على مقتضى الظاهر لا تخلو في الباطن عن شيء فتدبر . انتهى انتهى . اهـ ﴾ روح المعانى حـ 1 صـ 337. 347 ﴿

(254/61)

ومن فوائد الشوكانى فى الآية

قال رحمه الله :

قوله : ﴿ واتبعوا مَا تَتْلُو الشياطين ﴾ معطوف على قوله : ﴿ نبذوا ﴾ أي : نبذوا كتاب الله ، واتبعوا ما تتلوا الشياطين من السحر ونحوه .

قال الطبري : اتبعوا بمعنى فعلوا .

ومعنى : ﴿ تتلو ﴾ تتقوّله ، وتقرؤه و ﴿ على مُلْكِ سليمان ﴾ على عهد ملك سليمان ، قاله الزجاج ، وقيل المعنى في ملك سليمان : يعني في قصصه ، وصفاته ، وأخباره .

قال الفراء : تصلح " على " ، وفي " في " هذا الموضع ، والأوّل أظهر ، وقد كانوا يظنون أن هذا هو : علم سليمان ، وأنه يستجيزه ، ويقول به ، فردّ الله ذلك عليهم ، وقال : ﴿ وَمَا كَفَرَ سليمان ولكن الشياطين كَفَرُواْ ﴾ ولم يتقدم أنّ أحداً نسب سليمان إلى الكفر ، ولكن لما نسبته اليهود إلى السحر صاروا بمنزلة من نسبه إلى الكفر ؛ لأن السحر يوجب ذلك ، ولهذا أثبت الله سبحانه كفر الشياطين فقال : ﴿ ولكن الشياطين كَفَرُواْ ﴾ أي : بتعليمهم .

وقوله : ﴿ يُعَلّمُونَ الناس السحر ﴾ في محل نصب على الحال ، ويجوز أن يكون في محل رفع على أنه خبر بعد خبر .

وقرأ ابن عامر ، والكوفيون سوى عاصم : " ولكن الشياطين " بتخفيف لكن ، ورفع

الشياطين ، والباقون بالتشديد والنصب .

والسحر هو : ما يفعله الساحر من الحيل والتخيلات التي تحصل بسببها للمسحور ما يحصل من الخواطر الفاسدة الشبيهة بما يقع لمن يرى السراب فيظنه ماء ، وما يظنه راكب السفينة ، أو الدابة من أن الجبال تسير ، وهو مشتق من سحرت الصبيّ : إذا خدعته .

وقيل : أصله الخفاء ، فإن الساحر يفعله خفية .

وقيل أصله الصرف ؛ لأن السحر مصروف عن جهته .

وقيل أصله الاستمالة ؛ لأن من سحرك ، فقد استمالك .

وقال الجوهري : السحر الأخذة ، وكل ما لطف مأخذه ودقَّ ، فهو سحر .

وقد سحره يسحره ، سحراً .

والساحر : العالم ، وسحره أيضاً بمعنى خدعه .

وقد اختلف : هل له حقيقة أم لا ؟ فذهبت المعتزلة ، وأبو حنيفة إلى أنه خدع لا أصل له ، ولا حقيقة .

(255/61)

وذهب من عداهم إلى أن له حقيقة مؤثرة .

وقد صح أن النبيّ صلى الله عليه وسلم ، سحره لُبيد بن الأعصم اليهودي ، حتى كان يخيل إليه أنه يأتي الشيء ولم يكن قد أتاه ، ثم شفاه الله سبحانه ، والكلام في ذلك يطول .

وقوله : ﴿ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الملكين ﴾ أي : ويعلمون الناس ما أنزل على الملكين ، فهو معطوف على السحر ، وقيل : هو معطوف على قوله : " ما تتلو الشياطين" أي : واتبعوا ما أنزل على الملكين .

وقيل إن " ما" في قوله : ﴿ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الملكين ﴾ نافية ، والواو عاطفة على قوله : ﴿ وَمَا كَفَرَ سليمان ﴾ وفي الكلام تقديم ، وتأخير ، والتقدير : وما كفر سليمان ، وما أنزل على الملكين ، ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ببابل هاروت ، وماروت ، فهاروت ، وماروت بدل من الشياطين في قوله : ﴿ ولكن الشياطين كَفَرُواْ ﴾ ذكر هذا ابن جرير ، وقال : فإن قال لنا قائل : وكيف وجه تقديم ذلك ؟ قيل : وجه تقديمه أن يقال : واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان ، وما كفر سليمان وما أنزل الله على الملكين ، ولكنّ الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ببابل هاروت وماروت ، فيكون معنياً بالملكين جبريل وميكائيل ؛ لأن سحرة اليهود ، فيما ذكر ، كانت تزعم أن الله أنزل السحر على لسان جبريل وميكائيل ، إلى سليمان بن داود ، فأكذبهم الله بذلك ، وأخبر نبيه صلى الله عليه وسلم أن جبريل وميكائيل لم ينزلا بسحر ، وبرأ سليمان مما نحلوه من السحر ،

وأخبرهم أن السحر من عمل الشياطين ، وأنها تعلم الناس ذلك ببابل ، وأن الذين يعلمونهم ذلك رجلان أحدهما هاروت ، والآخر ماروت ، فيكون هاروت وماروت ، على هذا التأويل ترجمة عن الناس وردّاً عليهم . انتهى .

(256/61)

وقال القرطبي في تفسيره ، بعد أن حكى معنى هذا الكلام ، ورجح أن هاروت وماروت بدل من الشياطين ، ما لفظه : هذا أولى ما حملت عليه الآية ، وأصح ما قيل فيها ، ولا يلتفت إلى سواه ، فالسحر من استخراج الشياطين للطافة جوهرهم ، ودقة أفهامهم ، وأكثر ما يتعاطاه من الإنس النساء ، وخاصة في حال طمثهن ، قال الله : ﴿ وَمِن شَرّ النفاثات فِى العقد ﴾ [الفلق : 4] ثم قال : إن قيل كيف يكون اثنان بدلاً من جمع ، والبدل إنما يكون على حدّ المبدل ؟ ثم أجاب عن ذلك بأن الاثنين قد يطلق عليهما الجمع ، أو أنهما خُصا بالذكر دون غيرهما لتمردهما ، ويؤيد هذا أنه قرأ ابن عباس والضحاك والحسن : " الملكين" بكسر اللام ، ولعل وجه الجزم بهذا التأويل مع بعده ، وظهور تكلفه ، تنزيه الله سبحانه أن ينزل السحر إلى ارضه ، فتنة لعباده على ألسن ملائكته .

وعندي أنه لا موجب لهذا التعسف المخالف لما هو الظاهر ، فإن لله سبحانه أن يمتحن

عباده بما شاء كما امتحن بنهر طالوت ، ولهذا يقول الملكان : ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ ﴾ قال ابن جرير : وذهب كثير من السلف إلى أنهما كانا ملكين من السماء ، وأنهما أنزلا إلى الأرض ، فكان من أمرهما ما كان ، وبابل قيل : هي العراق ، وقيل نهاوند ، وقيل نصيبين .

وقيل المغرب : وهاروت وماروت اسمان أعجميان لا ينصرفان .

وقوله : ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حتى يَقُولاَ ﴾ قال الزجاج : تعليم إنذار من السحر لا تعليم دعاء إليه ، قال : وهو الذي عليه أكثر أهل اللغة والنظر ، ومعناه : أنهما يعلمان على النهي ، فيقولان لهم : لا تفعلوا كذا .

و" من" في قوله : ﴿ من أحد ﴾ زائدة للتوكيد ، وقد قيل : إن قوله : ﴿ يعلمان ﴾ من الإعلام لا من التعليم ، وقد جاء في كلام العرب تعلم بمعنى أعلم ، كما حكاه ابن الأنباري ، وابن الأعرابي ، وهو كثير من أشعارهم كقول كعب بن مالك :

تعلَّم رسول الله أنَّك مُدْرِكي . . . وأنَّ وَعِيداً مِنك كالأخْذِ باليَدِ

وقال القطامي :

تعلَّم أن بعد الغَيِّ رُشداً . . . وأن لذلك الغيِّ انْقِشاعاً

وقوله : ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ ﴾ هو : على ظاهره ، أي : إنما نحن ابتلاء ، واختبار من الله لعباده .

وقيل : إنه استهزاء منهما ؛ لأنهما إنما يقولانه لمن قد تحققا ضلاله .

وفي قولهما : ﴿ فَلاَ تَكْفُرْ ﴾ أبلغ إنذار ، وأعظم تحذير ، أي : أن هذا ذنب يكون مَنْ فعله كافراً ، فلا تكفر ، وفيه دليل على أن تعلم السحر كفر ، وظاهره عدم الفرق بين المعتقد ، وغير المعتقد ، وبين من تعلمه ليكون ساحراً ، ومن تعلمه ليقدر على دفعه .

وقوله : ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ ﴾ فيه ضمير يرجع إلى قوله : " مِنْ أَحَدٍ " قال سيبويه : التقدير ، فهم يتعلمون ، قال : ومثله ﴿ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [يس : 82] وقيل هو : معطوف على موضع ما يعلمان ؛ لأنه وإن كان منفياً ، فهو يتضمن الإيجاب .

وقال الفراء : هي مردودة على قوله : " يعلمون الناس السحر " أي : يعلمون الناس ، فيتعلمون ، وقوله : ﴿ مَا يُفَرّقُونَ بِهِ بَيْنَ المرء وَزَوْجِهِ ﴾ في إسناد التفريق إلى السحرة ، وجعل السحر سبباً لذلك دليل على أن للسحر تأثيراً في القلوب بالحبّ والبغض ، والجمع ، والفرقة ، والقرب ، والبعد .

وقد ذهبت طائفة من العلماء إلى أن الساحر لا يقدر على أكثر مما أخبر الله به من التفرقة ؛ لأن الله ذكر ذلك في معرض الذمّ للسحر ، وبين ما هو الغاية في تعليمه ، فلو كان يقدر على أكثر من ذلك لذكره .

وقالت طائفة أخرى : إن ذلك خرج مخرج الأغلب ، وأن الساحر يقدر على غير ذلك المنصوص عليه ، وقيل ليس للسحر تأثير في نفسه أصلاً لقوله تعالى : ﴿ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ ﴾ والحق أنه لا تنافي بين قوله : ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ المرء وَزَوْجِهِ ﴾ وبين قوله : ﴿ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ ﴾ فإن المستفاد من جميع ذلك أن للسحر تأثيراً في نفسه ، ولكنه لا يؤثر ضرراً إلا فيمن أذن الله بتأثيره فيه ، وقد أجمع أهل العلم على أن له تأثيراً في نفسه ، وحقيقة ثابتة ، ولم يخالف في ذلك إلا المعتزلة ، وأبو حنيفة كما تقدم ،

وقوله : ﴿ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ ﴾ فيه تصريح بأن السحر لا يعود على صاحبه بفائدة ، ولا يجلب إليه منفعة بل هو : ضرر محض ، وخسران بحت ، واللام في قوله : ﴿ وَلَقَدْ ﴾ جواب قسم محذوف ، وفي قوله : ﴿ لَمَنِ اشتراه ﴾ للتأكيد و "مَنْ" موصولة ، وهي في محل رفع على الابتداء ، والخبر قوله : ﴿ مَالَهُ فِى الأخرة مِنَ خلاق ﴾ وقال الفراء : إنها شرطية للمجازاة .

وقال الزجاج : ليس هذا بموضع شَرط ، ورجح أنها موصولة كما ذكرنا .

والمراد بالشراء هنا : لاستبدال أي من استبدل ما تتلوا الشياطين على كتاب الله .

والخَلاق : النصيب عند أهل اللغة ، كذا قال الزجاج .

والمراد بقوله : ﴿ مَا شَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ ﴾ أي : باعوها .

وقد أثبت لهم العلم في قوله : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُواْ ﴾ ونفاه عنهم في قوله : ﴿ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ واختلفوا في توجيه ذلك ، فقال قطرب ، والأخفش : إن المراد بقوله : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُواْ ﴾ الشياطين ، والمراد بقوله : ﴿ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ الإنس .

(259/61)

وقال الزجاج : إن الأول للملكين ، وإن كان بصيغة الجمع ، فهو مثل قولهم : الزيدان قاموا ، والثاني : المراد به علماء اليهود .

وإنما قال : ﴿ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ لأنهم تركوا العمل بعلمهم .

وأخرج سعيد بن منصور ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، عن ابن عباس قال : إن الشياطين كانوا يسترقون السمع من السماء ، فإذا سمع أحدهم بكلمة حقّ كذب معها ألف كذبة ، فأشْرِبَتْها قلوب الناس ، واتخذوها دواوين ، فأطلع الله على ذلك سليمان بن داود ، فأخذها ، فدفنها تحت الكرسي .

فلما مات سليمان قام شيطان بالطريق ، فقال : ألا أدلكم على كنز سليمان الذي لا كنز لأحد مثل كنزه الممنع ؟ قالوا : نعم ، فأخرجوه فإذا هو : سحر ، فتناسختها الأمم ، وأنزل الله عذر سليمان ، فيما قالوا من السحر ، فقال : ﴿ واتبعوا مَا تَتْلُو الشياطين على مُلْكِ سليمان ﴾ الآية .

(260/61)

وأخرج النسائي وابن أبي حاتم عنه قال : كان آصف كاتب سليمان ، وكان يعلم الاسم الأعظم ، وكان يكتب كل شيء بأمر سليمان ويدفنه تحت كرسيه ، فلما مات سليمان أخرجته الشياطين ، فكتبوا بين كل سطرين سحراً وكفراً ، وقالوا : هذا الذي كان سليمان يعمل بها ، فأكفره جهال الناس ، وسبوه ، ووقف علماؤهم ، فلم يزل جهالهم يسبونه حتى أنزل الله على محمد : ﴿ واتبعوا مَا تَتْلُو الشياطين ﴾ الآية ، وأخرج ابن جرير ، عنه قال : كان سليمان إذا أراد أن يدخل الخلاء أو يأتي شيئاً من شأنه أعطى الجرادة ، وهي : امرأته ، خاتمه ، فلما أراد الله أن يبتلي سليمان بالذي ابتلاه به أعطى الجرادة ذات يوم خاتمه ، فجاء الشيطان في صورة سليمان ، فقال لها : هاتي خاتمي ، فأخذه ، فلبسه ، فلما لبسه دانت له الشياطين ، والجنّ ، والإنس ، فجاء سليمان ، فقال : هاتي خاتمي ، فقالت له :

كذبت لست سليمان ، فعرف أنه بلاء ابتلى به ، فانطلقت الشياطين ، فكتبت في تلك الأيام كتباً فيها سحر ، وكفر ، ثم دفنوها تحت كرسي سليمان ، ثم أخرجوها ، فقرءوها على الناس ، وقالوا : إنما كان سليمان يغلب الناس بهذه الكتب ، فبرىء الناس من سليمان ، وأكفروه حتى بعث الله محمداً ، وأنزل عليه : ﴿ وَمَا كَفَرَ سليمان ولكن الشياطين كَفَرُو ﴾ وأخرج ابن جرير ، عنه في قوله : ﴿ وَمَا تَتْلُو ﴾ قال : ما تتبع .

وأخرج أيضاً عن عطاء في قوله : ﴿ مَا تَتْلُواْ ﴾ قال : نراه ما تحدث .

وأخرج أيضاً عن ابن جريج في قوله : ﴿ على مُلْكِ سليمان ﴾ يقول : في ملك سليمان .

وأخرج أيضاً عن السدي في قوله : ﴿ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الملكين ﴾ قال : هذا سحر آخر خاصموه به ، فإن كلام الملائكة ، فيما بينهم إذا علمته الإنس ، فصنع ، وعمل به كان سحراً .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الملكين ﴾ قال : لم ينزل الله السحر .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن عليّ قال : هما ملكان من ملائكة السماء .

وأخرج نحوه ابن مردويه من وجه آخر عنه مرفوعاً .

وأخرج البخاري في تاريخه ، وابن المنذر عن ابن عباس : ﴿ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الملكين ﴾ يعني جبريل وميكائيل : ﴿ بِبَابِلَ هاروت وماروت ﴾ يعلمان الناس السحر .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن عبد الرحمن ، بن أبزي أنه كان يقرؤها وما أنزل على الملكين داود ، وسليمان .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن الضحاك قال : هما علجان من أهل بابل .

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان من حديث ، ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أشرفت الملائكة على الدنيا ، فرأت بني آدم يعصون ، فقالت يا رب ما أجهل هؤلاء ، ما أقل معرفة هؤلاء بعظمتك ؟ فقال الله : لو كنتم في محلاتهم لعصيتموني ، قالوا : كيف يكون هذا ، ونحن نسبح بحمدك ، ونقدس لك ؟ قال : فاختاروا منكم ملكين ، فاختاروا هاروت وماروت ، ثم أهبطا إلى الأرض ، وركبت ، فيهما شهوات بني آدم ، ومثلت لهما امرأة ، فما عصما حتى واقعا المعصية ، فقال الله : اختارا عذاب الدنيا ، أو عذاب الآخرة ، فنظر أحدهما لصاحبه قال ما تقول ؟ قال : أقول إن عذاب الدنيا ينقطع ، وإن عذاب الآخرة لا ينقطع ، فاختارا عذاب الدنيا ، فهما اللذان ذكر الله في كتابه : ﴿ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الملكين ﴾ الآية "

وأخرج الحاكم وصححه عن ابن عمر ، أنه كان يقول : أطلعت الحمراء بعد ، فإذا رآها قال : لا مرحباً ، ثم قال : إن ملكين من الملائكة هاروت وماروت سألا الله أن يهبطهما إلى الأرض ، فأهبطا إلى الأرض فكانا يقضيان بين الناس ، فإذا أمسيا تكلما بكلمات ، فعرجا بها إلى السماء ، فقيض لهما امرأة من أحسن النساء ، وألقيت عليهما الشهوة ، فجعلا يؤخرانها ، وألقيت في أنفسهما ، فلم يزالا يفعلان حتى وعدتهما ميعاداً ، فأتتهما للميعاد فقالت : علماني الكلمة التي تعرجان بها ، فعلماها الكلمة فتكلمت بها فعرجت إلى السماء ، فمسخت فجُعلت كما ترون ، فلما أمسيا تكلما بالكلمة ، فلم يعرجا ، فبعث إليهما : إن شئتما فعذاب الآخرة ، وإن شئتما ، فعذاب الدنيا إلي أن تقوم الساعة على أن تلقيا الله ، فإن شاء عذبكما ، وإن شاء رحمكما ، فنظر أحدهما إلي صاحبه ، فقال : بل نختار عذاب الدنيا ألف ألف ضعف ، فهما يعذبان إلى يوم القيامة .

وقد رويت هذه القصة عن ابن عمر بألفاظ ، وفي بعضها أنه يروي ذلك ابن عمر عن كعب الأحبار .

كما أخرجه عبد الرزاق ، وابن شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم

، والبيهقي في الشعب من طريق الثوري ، عن موسى بن عقبة ، عن سالم ، عن ابن عمر ، عن كعب قال : ذكرت الملائكة أعمال بني آدم ، وما يأتون من الذنوب ، فقيل لو كنتم مكانهم لأتيتم مثل ما يأتون ، فاختاروا منكم اثنين ، فاختاروا هاروت وماروت ، فقال لهما : إني أرسل إلى بني آدم رسلاً ، فليس بيني ، وبينكم رسول .

انزلا لا تشركا بي شيئاً ، ولا تزنيا ، ولا تشربا الخمر ، قال كعب : فوالله ما أمسيا من يومهما الذي أهبطا فيه حتى استعملا جميع ما نهيا عنه .

قال ابن كثير : وهذا أصح ، يعني من الإسنادين اللذين ذكرهما قبله .

(263/61)

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وأبو الشيخ في العظمة ، والحاكم وصححه عن عليّ بن أبي طالب ، قال : إن هذه الزهرة تسميها العربُ الزهرةَ ، والعجمُ أناهيدَ ، وذكر نحو الرواية السابقة عن ابن عمر ، عند الحاكم .

قال ابن كثير : وهذا الإسناد رجاله ثقات ، وهو غريب جداً .

وقد أخرج عبد بن حميد ، والحاكم وصححه عن ابن عباس ، قال : كانت الزهرة امرأة .

وأخرج عبد الرزاق ، وعبد بن حميد ، عنه ؛ أن المرأة التي فتن بها الملكان مسخت ، فهي

هذه الكوكبة الحمراء ؛ يعني الزهرة .

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، والبيهقي في الشعب عنه ، فذكر قصة طويلة ، وفيها التصريح بأن الملكين شربا الخمر ، وزنيا بالمرأة ، وقتلاها .

وأخرج ابن جرير ، عن ابن مسعود ، وابن عباس هذه القصة ، وقالا : إنها أنزلت إليهما الزهرة في صورة امرأة ، وأنهما وقعا في الخطيئة .

وقد روي في هذا الباب قصص طويلة وروايات مختلفة استوفاها السيوطي في الدرّ المنثور .

وذكر ابن كثير في تفسيره بعضها ، ثم قال : وقد روى في قصة هاروت وماروت عن جماعة من التابعين كمجاهد ، والسدّي ، والحسن البصري ، وقتادة ، وأبي العالية ، والزهري ، والربيع بن أنس ، ومقاتل بن حيان ، وغيرهم ، وقصها خلق من المفسرين من المتقدمين ، والمتأخرين .

وحاصلها راجع في تفصيلها إلى أخبار بني إسرائيل ، إذ ليس فيها حديث مرفوع صحيح متصل الإسناد ، إلى الصادق المصدوق المعصوم ، الذي لا ينطق عن الهوى ، وظاهر سياق القرآن إجمال القصة من غير بسط ، ولا إطناب فيها ، فنحن نؤمن بما ورد في القرآن على ما أراده الله تعالى ، والله أعلم بحقيقة الحال .

انتهى .

وقال القرطبي بعد سياق بعض ذلك : قلنا هذا كله ضعيف ، وبعيد عن ابن عمر ، غيره لا يصح منه شيء ، فإنه قول تدفعه الأصول في الملائكة الذين هم : أمناء الله على وحيه ، وسفراؤه إلى رسله ﴿ لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون ﴾ [التحريم : 6] ، ثم ذكر ما معناه : أن العقل يجوّز وقوع ذلك منهم ، لكن وقوع هذا الجائز لا يدرى إلا بالسمع ، ولم يصح .

انتهى .

وأقول هذا مجرد استبعاد .

وقد ورد الكتاب العزيز في هذا الموضع بما تراه ، ولا وجه لإخراجه عن ظاهره بهذه التكلفات ، وما ذكره من أن الأصول تدفع ذلك ، فعلى فرض ، وجود هذه الأصول ، فهي مخصصة بما وقع في هذه القصة ، ولا وجه لمنع التخصيص ، وقد كان إبليس يملك المنزلة العظيمة ، وصار أشرّ البرية ، وأكفر العالمين .

وأخرج ابن جرير ، عن قتادة في قوله : ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ ﴾ قال : بلاء .

وأخرج البزار بإسناد صحيح ، والحاكم وصححه عن ابن مسعود ، قال : " من أتى

ساحراً ، أو كاهناً ، وصدّقه بما يقول ، فقد كفر بما أنزل على محمد " .

وأخرج البزار عن عمران بن حصين قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من تطير ، أو تُطير له ، أو تكهنَ ، تُكهن له أو سحر ، أو سحَر له ، ومن عقد عقدة ، ومن أتى كاهناً ، فصدقه بما يقول ، فقد كفر بما أنزل على محمد " وأخرج عبد الرزاق ، عن صفوان بن سُليمْ ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من تعلم شيئاً من السحر قليلاً ، أو كثيراً كان آخر عهده من الله " وأخرج ابن جرير ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ مِنْ خلاق ﴾ قال : قوام .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عنه قال : ﴿ مِنْ خلاق ﴾ من نصيب ، وكذا روى ابن جرير ، عن مجاهد .

وأخرج عبد الرزاق ، وابن جرير ، عن الحسن : ﴿ مَا لَهُ فِى الأخرة مِنْ خلاق ﴾ قال : ليس له دين .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، عن السدي في قوله : ﴿ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِ ﴾ قال : باعوا .

وأخرج عبد الرزاق ، وابن جرير ، عن قتادة في قوله : ﴿ لَمَثُوبَةٌ ﴾ قال : ثواب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ فتح القدير حـ 1 صـ 119 . 124 ﴾ . بتصرف يسير .

ومن فوائد السعدى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ﴾ .

وهم كذبة في ذلك ، فلم يستعمله سليمان ، بل نزهه الصادق في قيله : ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ ﴾ أي : بتعلم السحر ، فلم يتعلمه ، ﴿ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا ﴾ بذلك .

﴿ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ ﴾ من إضلالهم وحرصهم على إغواء بني آدم ، وكذلك اتبع اليهود السحر الذي أنزل على الملكين الكائنين بأرض بابل من أرض العراق ، أنزل عليهما السحر امتحانا وابتلاء من الله لعباده فيعلمانهم السحر .

﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى ﴾ ينصحاه ، و ﴿ يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ ﴾ أي : لا تتعلم السحر فإنه كفر ، فينهيانه عن السحر ، ويخبرانه عن مرتبته ، فتعليم الشياطين للسحر على وجه التدليس والإضلال ، ونسبته وترويجه إلى من برأه الله منه وهو سليمان عليه السلام ، وتعليم الملكين امتحانا مع نصحهما لئلا يكون لهم حجة .

فهؤلاء اليهود يتبعون السحر الذي تعلمه الشياطين ، والسحر الذي يعلمه الملكان ، فتركوا علم الأنبياء والمرسلين وأقبلوا على علم الشياطين ، وكل يصبو إلى ما يناسبه .

ثم ذكر مفاسد السحر فقال : ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ﴾ مع أن محبة الزوجين لا تقاس بمحبة غيرهما ، لأن الله قال في حقهما : ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ وفي هذا دليل على أن السحر له حقيقة ، وأنه يضر بإذن الله ، أي : بإرادة الله ، والإذن نوعان : إذن قدري ، وهو المتعلق بمشيئة الله ، كما في هذه الآية ، وإذن شرعي كما في قوله تعالى في الآية السابقة : ﴿ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ وفي هذه الآية وما أشبهها أن الأسباب مهما بلغت في قوة التأثير ، فإنها تابعة للقضاء والقدر ليست مستقلة في التأثير ، ولم يخالف في هذا الأصل من فرق الأمة غير القدرية في أفعال العباد ، زعموا أنها مستقلة غير تابعة للمشيئة ، فأخرجوها عن قدرة الله ، فخالفوا كتاب الله وسنة رسوله وإجماع الصحابة والتابعين .

ثم ذكر أن علم السحر مضرة محضة ، ليس فيه منفعة لا دينية ولا دنيوية كما يوجد بعض المنافع الدنيوية في بعض المعاصي ، كما قال تعالى في الخمر والميسر : ﴿ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا ﴾ فهذا السحر مضرة محضة ، فليس له داع أصلا فالمنهيات كلها إما مضرة محضة ، أو شرها أكبر من خيرها .

كما أن المأمورات إما مصلحة محضة أو خيرها أكثر من شرها .

﴿ وَلَقَدْ عَلِمُوا ﴾ أي : اليهود ﴿ لَمَنِ اشْتَرَاهُ ﴾ أي : رغب في السحر رغبة المشتري في السلعة .

﴿ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ ﴾ أي : نصيب ، بل هو موجب للعقوبة ، فلم يكن فعلهم إياه جهلا ولكنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة .

﴿ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ علما يثمر العمل ما فعلوه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير السعدى صـ 61 ﴾

(267/61)

ومن فوائد ابن عاشور فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ واتبعوا مَا تَتْلُواْ الشياطين على مُلْكِ سليمان وَمَا كَفَرَ سليمان ولكن الشياطين كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ الناس السحر ﴾ .

قوله : ﴿ واتبعوا ﴾ عطف على جملة الشرط وجوابه في قوله : ﴿ ولما جاءهم رسول من عند الله ﴾ [البقرة : 101] الآية بذكر خصلة لهم عجيبة وهي أخذهم بالأباطيل

بعد ذكر خصلة أخرى وهي نبذهم للكتاب الحق ، فذلك هو مناسبة عطف هذا الخبر على الذي قبله .

فإن كان المراد بكتاب الله في قوله : ﴿ كتاب الله وراء ظهورهم ﴾ [البقرة : 101] القرآن فالمعنى أنهم لما جاءهم رسول الله مصدقاً لما معهم نبذوا كتابه بعلة أنهم متمسكون بالتوراة فلا يتبعون ما خالف أحكامها وقد اتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان وهو مخالف للتوراة لأنها تنهى عن السحر والشرك فكما قيل لهم فيما مضى ﴿ أفتؤمنون ببعض الكتاب ﴾ [البقرة : 85] يقال لهم أفتؤمنون بالكتاب تارة وتكفرون به تارة أخرى .

(268/61)

وإن كان المراد بكتاب الله التوراة فالمعنى لما جاءهم رسول الله نبذوا ما في التوراة من دلائل صدق هذا الرسول وهم مع ذلك قد نبذوها من قبل حين ﴿ واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان ﴾ مع أن ذلك مخالف لأحكام التوراة .

قال القرطبي : قال ابن إسحاق لما ذكر النبيء صلى الله عليه وسلم سليمان في الأنبياء قالت اليهود : إن محمداً يزعم أن سليمان نبيء وما هو بنبيء ولكنه ساحر فنزلت هذه الآية .

و﴿ الشياطين ﴾ يحتمل أن يكونوا شياطين من الجن وهو الإطلاق المشهور ، ويحتمل أن يراد به ناس تمردوا وكفروا وأتوا بالفظائع الخفية فأطلق عليهم الشياطين على وجه التشبيه كما في قوله تعالى : ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبيء عدواً شياطين الإنس والجن ﴾ [الأنعام : 112] وقرينة ذلك قوله : ﴿ يعلمون الناس السحر ﴾ فإنه ظاهر في أنهم يدرسونه للناس وكذلك قوله بعده : ﴿ ولكن الشياطين كفروا ﴾ إذ هذا الاستدراك في الإخبار يدل على أنهم من الإنس لأن كفر الشياطين من الجن أمر مقرر لا يحتاج للإخبار عنه .

وعن ابن إسحاق أيضاً أنه لما مات سليمان عليه السلام عمدت الشياطين فكتبوا أصنافاً من السحر وقالوا : من أحب أن يبلغ كذا وكذا فليفعل كذا لأصناف من السحر وختموه بخاتم يشبه نقش خاتم سليمان ونسبوه إليه ودفنوه وزعموا أن سليمان دفنه وأنهم يعلمون مدفنه ودلوا الناس على ذلك الموضع فأخرجوه فقالت اليهود : ما كان سليمان إلا ساحراً وما تم له الملك إلا بهذا .

وقيل كان آصف ابن برخيا كاتب سليمان يكتب الحكمة بأمر سليمان ويدفن كتبه تحت كرسي سليمان لتجدها الأجيال فلما مات سليمان أغرت الشياطين الناس على إخراج تلك الكتب وزادوا في خلال سطورها سحراً وكفراً ونسبوا الجميع لسليمان فقالت اليهود : كفر سليمان .

والمراد من الآية مع سبب نزولها إن نزلت عن سبب أن سليمان عليه السلام لما مات انقسمت مملكة إسرائيل بعده بقليل إلى مملكتين إحداهما مملكة يهوذا وملكها رحبعام ابن سليمان جعلوه ملكاً بعد أبيه وكانت بنو إسرائيل قد سئمت ملك سليمان لحمله إياهم على ما يخالف هواهم فجاءت أعيانهم وفي مقدمتهم يربعام بن نباط مولى سليمان ليكلموا رحبعام قائلين : إن أباك قاس علينا وأما أنت فخفف عنا من عبودية أبيك لنطيعك فأجابهم اذهبوا ثم ارجعوا إلي بعد ثلاثة أيام واستشار رحبعام أصحاب أبيه ووزراءه فأشاروا عليه بملاينة الأمة لتطيعه .

(270/61)

واستشار أصحابه من الفتيان فأشاروا عليه أن يقول للأمة إن خنصري أغلظ من متن أبي فإذا كان أبي قد أدبكم بالسياط فأنا أؤدبكم بالعقارب فلما رجع إليه شيوخ بني إسرائيل في اليوم الثالث وأجابهم بما أشار به الأحداث خلعت بنو إسرائيل طاعته وملكوا عليهم يربعام ولم يبق على طاعة رحبعام إلا سبطا يهوذا وبنيامن واعتصم رحبعام بأورشليم وكل أمته لا تزيد على مائة وثمانين ألف محارب يعني رجالاً قادرين على حمل السلاح وانقسمت المملكة

من يومئذ إلى مملكتين مملكة يهوذا وقاعدتها أورشليم ، ومملكة إسرائيل ومقرها السامرة ، وذلك سنة 975 قبل المسيح كما قدمناه عند الكلام على قوله تعالى : ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابين ﴾ [البقرة : 62] الآية ولا يخفى ما تكون عليه حالة أمة في هذا الانتقال فإن خصوم رحبعام لما سلبوا منه القوة المادية لم يغفلوا عما يعتضد به من القوة الأدبية وهي كونه ابن سليمان بن داود من بيت الملك والنبوءة والسمعة الحسنة فلم يأل أعداؤه جهدهم من إسقاط هاته القوة الأدبية وذلك بأن اجتمع مدبرو الأمر على أن يضعوا أكاذيب عن سليمان يبثونها في العامة ليقضوا بها وطرين أحدهما نسبة سليمان إلى السحر والكفر لتنقيص سمعة ابنه رحبعام كما صنع دعاة الدولة العباسية فيما وضعوه من الأخبار عن بني أمية والثاني تشجيع العامة الذين كانوا يستعظمون ملك سليمان وابنه على الخروج عن طاعة ابنه بأن سليمان ما تم له الملك إلا بتلك الأسحار والطلاسم وأنهم لما ظفروا بها فإنهم يستطيعون أن يؤسسوا ملكاً يماثل ملك سليمان كما صنع دعاة انقلاب الدول في تاريخ الإسلام من وضع أحاديث انتظار المهدي وكما يفعلونه من بث أخبار عن الصالحين تؤذن بقرب زوال الدولة .

ولا يخفى ما تثيره هذه الأوهام في نفوس العامة من الجزم بنجاح السعي وجعلهم في مأمن من خيبة أعمالهم ولحاق التنكيل بهم فإذا قضى الوطر بذلك الخبر التصق أثره في الناس فيبقى ضر ضلاله بعد اجتناء ثماره .

والاتباع في الأصل هو المشي وراء الغير ويكون مجازاً في العمل بقول الغير وبرأيه وفي الاعتقاد باعتقاد الغير تقول اتبع مذهب مالك واتبع عقيدة الأشعري ، والاتباع هنا مجاز لا محالة لوقوع مفعوله مما لا يصح اتباعه حقيقة .

والتلاوة قراءة المكتوب والكتاب وعرض المحفوظ عن ظهر قلب وفعلها يتعدى بنفسه ﴿ يتلون عليكم آيات ﴾ [الزمر : 71] فتعديته بحرف الاستعلاء يدل على تضمنه معنى تكذب أي تتلو تلاوة كذب على ملك سليمان كما يقال تقوّل على فلان أي قال عليه ما لم يقله ، وإنما فهم ذلك من حرف (على) .

والمراد بالملك هنا مدة الملك أو سبب الملك بقرينة أن التلاوة لا تتعلق بنفس الملك وحذف المضاف مع ما يدل على تعيين الوقت شائع في كلام العرب كقولهم وقع هذا في حياة رسول الله أو في خلافة عمر بن الخطاب وقول حميد بن ثور :

وما هي إلا في إزار وعِلقة . . .

مُغارَ ابن همام على حي خثعما

يريد أزمان مغار ابن همام .

وكذلك حذف المضاف إذا أريد به الحوادث أو الأسباب كما تقول تكلم فلان على خلافة عُمر أو هذا كتاب في مُلك العباسيين وذلك أن الاسم إذا اشتهر بصفة أو قصة صح إطلاقه وإرادة تلك الصفة أو القصة بحيث لو ظهرت لكانت مضافة إلى الاسم ، قال النابغة :

وليلٍ أقاسيه بطيء الكواكب . . .

أراد متاعب ليل لأن الليل قد اشتهر عند أهل الغرام بأنه وقت الشوق والأرق .

والشياطين قيل أريد بها شياطين الإنس أي المضللون وهو الظاهر .

وقيل : أريدت شياطين الجن .

وأل للجنس على الوجهين .

وعندي أن المراد بالشياطين أهل الحيل والسحرة كما يقولون فلان من شياطين العَرب وقد عد من أولئك ناشب الأعور أحد رجال يوم الوقيط .

(272/61)

وقوله : ﴿ تتلوا ﴾ جاء بصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية على ما قاله الجماعة ، أو هو مضارع على بابه على ما اخترناه من أن الشياطين هم أحبارهم فإنهم لم يزالوا يتلون ذلك فيكون المعنى أنهم اتبعوا اعتقدوا ما تلته الشياطين ولم تزل تتلوه .

وسليمان هو النبيء سليمان بن داود بن يسي من سبط يهوذا ولد سنة 1032 اثنتين وثلاثين وألف قبل المسيح وتوفي في أورشليم سنة 975 خمس وسبعين وتسعمائة قبل المسيح وولي ملك إسرائيل سنة 1014 أربع عشرة وألف قبل المسيح بعد وفاة أبيه داود النبيء ملك إسرائيل ، وعظم ملك بني إسرائيل في مدته وهو الذي أمر ببناء مسجد بيت المقدس وكان نبيئاً حكيماً شاعراً وجعل لمملكته أسطولاً بحرياً عظيماً كانت تمخر سفنه البحار إلى جهات قاصية مثل شرق إفريقيا .

وقوله : ﴿ وما كفر سليمان ﴾ جملة معترضة أثار اعتراضها ما أشعر به قوله : ﴿ ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان ﴾ من معنى أنهم كذبوا على سليمان ونسبوه إلى الكفر فهي معترضة بين جملة ﴿ واتبعوا ﴾ وبين قوله : ﴿ وما أنزل على الملكين ﴾ إن كان ﴿ وما أنزل ﴾ معطوفاً على ﴿ ما تتلوا ﴾ وبين ﴿ اتبعوا ﴾ وبين ﴿ ولقد علموا لَمَن اشتراه ﴾ إلخ إن كان ﴿ وما أنزل ﴾ معطوفاً على السحر ، ولك أن تجعله معطوفاً على ﴿ واتبعوا ﴾ إذا كان المراد من الشياطين أحبار اليهود لأن هذا الحكم حينئذ من جملة أحوال اليهود لأن مآله واتبعوا وكفروا وما كفر سليمان ولكنه قدم نفي كفر سليمان لأنه الأهم تعجيلاً بإثبات نزاهته وعصمته ولأن اعتقاد كفره كان سبب ضلال للذين اتبعوا ما كتبته الشياطين فلا شك أن حكم الأتباع وحكم المتبوعين واحد فكان خبراً عن اليهود كذلك .

وقد كان اليهود يعتقدون كفر سليمان في كتبهم فقد جاء في سفر الملوك الأول أن سليمان في زمن شيخوخته أمالت نساؤه المصريات والصيدونيات والعمونيات قلبَه إلى آلهتهن مثل (عشتروت) إله الصيدونيين (ومُولوك) إله العمونيين (الفينيقيين) وبنى لها ته الآلهة هياكل فغضب الله عليه لأن قلبه مال عن إله إسرائيل الذي أوصاه أن لا يتبع آلهة أخرى .

وقوله : ﴿ يعلمون الناس السحر ﴾ حال من ضمير ﴿ كفروا ﴾ والمقصد منه تشنيع حال كفرهم إذ كان مصحوباً بتعليم السحر على حد قوله : كفرٌ دون كفر فهي حال مؤسسة .

والسحر الشعوذة وهي تمويه الحيل بإخفائها تحت حركات وأحوال يظن الرائي أنها هي المؤثرة مع أن المؤثر خفي قال تعالى : ﴿ ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون ﴾ [الحجر : 14 ، 15] ولذلك أطلق السحر على الخديعة تقول : سحرت الصبي إذا عللته بشيء ، قال لبيد :

فإن تسألينا فيم نحن فإننا . . .

عصافيرُ من هذا الأنامِ المسحّر

ثم أطلق على ما علم ظاهره وخفي سببه وهو التمويه والتلبيس وتخييل غير الواقع واقعاً وترويج المحال ، تقول العرب : عنز مسحورة إذا عظم ضرعها وقل لبنها وأرض مسحورة لا تنبت ، قال أبو عطاء :

فوالله ما أدري وإني لصادق . . .

أداء عراني من حبابك أم سحر

أي شيء لا يعرف سببه .

والعرب تزعم أن الغيلان سحرة الجن لما تتشكل به من الأشكال وتعرضها للإنسان .

والسحر من المعارف القديمة التي ظهرت في منبع المدنية الأولى أعني ببلاد المشرق فإنه ظهر في بلاد الكلدان والبابلين وفي مصر في عصر واحد وذلك في القرن الأربعين قبل المسيح مما يدل على أنها كانت في تينك الأمتين من تعاليم قوم نشأوا قبلهما فقد وجدت آثار مصرية سحرية في عصر العائلة الخامسة من الفراعنة والعائلة السادسة (3951 3703) ق . م .

(274/61)

وللعرب في السحر خيال واسع وهو أنهم يزعمون أن السحر يقلب الأعيان ويقلب القلوب ويطوع المسحور للساحر ولذلك كانوا يقولون إن الغول ساحرة الجن ولذلك تتشكل للرائي بأشكال مختلفة.

وقالت قريش: لما رأوا معجزات رسول الله: إنه ساحر، قال الله تعالى: ﴿ وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر ﴾ [القمر: 2] وقال الله تعالى: ﴿ ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون ﴾ [الحجر: 14، 15].

وفي حديث البخاري عن عمران بن حصين أن القوم عطشوا في سفر مع رسول الله فطلبوا الماء فوجدوا امرأة على بعير لها مزادتان من ماء فأتيا بها رسول الله فسقى رسول الله جميع الجيش ثم رد إليها مزادتيها كاملتين فقالت لقومها: فوالله إنه لَأَسْحَرُ من بين هذه وهذه، تعني السماء والأرض.

وفي الحديث: "إن من البيان لسحراً" ولم أر ما يدل على أن العرب كانوا يتعاطون السحر فإن السحر مستمد من خصائص الأمور الطبيعية والتركيب ولم يكن للعرب ضلاعة في الأمور اليدوية بل كانت ضلاعتهم فكرية محضة، وكان العرب يزعمون أن أعلم الناس بالسحر اليهود والصابئة وهم أهل بابل، ومساق الآية يدل على شهرة هؤلاء بالسحر عند العرب.

وقد اعتقد المسلمون أن اليهود في يثرب سحروهم فلا يولد لهم فلذلك استبشروا لما ولد عبد الله بن الزبير وهو أول مولود للمهاجرين بالمدينة كما في "صحيح البخاري" ، ولذلك لم يكثر ذِكْر السحر بين العرب المسلمين إلا بعد أن هاجروا إلى المدينة إذ قد كان فيها اليهود وكانوا يوهمون بأنهم يسحرون الناس .

ويداوى من السحر العراف ودواء السحر السلوة وهي خرزات معروفة تحك في الماء ويشرب ماؤها .

(275/61)

وورد في التوراة النهي عن السحر فهو معدود من خصال الشرك وقد وصفت التوراة به أهل الأصنام فقد جاء في سفر التثنية في الإصحاح 18 "إذا دخلتَ الأرض التي يعطيك الرب إلهك لا تتعلمْ أن تفعل مثل رجس أولئك الأمم لا يوجد فيك من يَزج ابنَه أو ابنته في النار ولا مَن يَعْرُف عِرَافَة ولا عائف ولا متفائل ولا ساحر ولا من يَرقي رقية ولا من يسأل جانّاً أو تابعة ولا من يستشير الموتى لأن كل من يفعل ذلك مكروه عند الرب" .

وفي سفر اللاويين الإصحاح 20 " (6) والنفس التي تلتفت إلى الجان وإلى التوابع لتزني وراءهم أَجْعل وجهي ضد تلك النفس وأَقطعُها من شعبها (27) وإذا كان في رجل أو

امرأة جانٌّ أو تابعة فإنه يُقتل بالحجارة يرجمونه دمُه عليه" .

وكانوا يجعلونه أصلاً دينياً لمخاطبة أرواح الموتى وتسخير الشياطين وشفاء الأمراض وقد استفحل أمره في بلد الكلدان وخلطوه بعلوم النجوم وعلم الطب .

وأرجع المصريون المعارف السحرية إلى جملة العلوم الرياضية التي أفاضها عليهم " طوط" الذي يزعمون أنه إدريس وهو هرمس عند اليونان .

وقد استخدم الكلدان والمصريون فيه أسراراً من العلوم الطبيعية والفلسفية والروحية قصداً لإخراج الأشياء في أبهر مظاهرها حتى تكون فاتنة أو خادعة وظاهرة ، كخوارق عادات ، إلا أنه شاع عند عامتهم وبَعُدَ ضَلالهم عن المقصد العلمي منه فصار عبارة عن التمويه والتضليل وإخراج الباطل في صورة الحق ، أو القبيح في صورة حسنة أو المضر في صورة النافع .

وقد صار عند الكلدان والمصريين خاصية في يد الكهنة وهم يومئذ أهل العلم من القوم الذين يجمعون في ذواتهم الرئاسة الدينية والعلمية فاتخذوا قواعد العلوم الرياضية والفلسفية والأخلاقية لتسخير العامة إليهم وإخضاعهم بما يظهرونه من المقدرة على علاج الأمراض والاطلاع على الضمائر بواسطة الفراسة والتأثير بالعين وبالمكائد .

وقد نقلته الأمم عن هاتين الأمتين وأكثر ما نقلوه عن الكلدانيين فاقتبسه منهم السريان (الأشوريون) واليهود والعرب وسائر الأمم المتدينة والفرس واليونان والرومان .

وأصول السحر ثلاثة :

الأول : زجر النفوس بمقدمات توهيمية وإرهابية بما يعتاده الساحر من التأثير النفساني في نفسه ومن الضعف في نفس المسحور ومن سوابقَ شاهدَها المسحور واعتقدها فإذا توجه إليه الساحر سُخر له وإلى هذا الأصل الإشارة بقوله تعالى في ذكر سحرة فرعون ﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ الناسِ واسْتَرْهَبُوهُمْ ﴾ [الأعراف : 116] .

الثاني : استخدام مؤثرات من خصائص الأجسام من الحيوان والمعدن وهذا يرجع إلى خصائص طبيعية كخاصية الزئبق ومن ذلك العقاقير المؤثرة في العقول صلاحاً أو فساداً والمفترة للعزائم والمخدرات والمرقدات على تفاوت تأثيرها ، وإلى هذا الإشارة بقوله تعالى في سحرة فرعون : ﴿ إنَّما صنعوا كيدُ ساحر ﴾ [طه : 69] .

الثالث : الشعوذة واستخدام خفايا الحركة والسرعة والتموج حتى يخيل الجماد متحركاً وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ يُخيَّل إليه من سحرهم أنها تسعى ﴾ [طه : 66] .

هذه أصول السحر بالاستقراء وقد قسمها الفخر في " التفسير " إلى ثمانية أقسام لا تَعْدُو

هذه الأصول الثلاثة وفي بعضها تداخل .

ولعلماء الأفرنج تقسيم آخر ليس فيه كبير جدوى .

(277/61)

وهذه الأصول الثلاثة كلها أعمال مباشرة للمسحور ومتصلة به ولها تأثير عليه بمقدار قابلية نفسه الضعيفة وهو لا يتفطن لها ، ومجموعها هو الذي أشارت إليه الآية ، وهو الذي لا خلاف في إثباته على الجملة دون تفصيل ، وما عداها من الأوهام والمزاعم هو شيء لا أثر له وذلك كل عمل لا مباشرة له بذات من يراد سحره ويكون غائباً عنه فيدعي أنه يؤثر فيه ، وهذا مثل رسم أشكال يعبر عنها بالطلاسم ، أو عقد خيوط والنفث عليها برقيات معينة تتضمن الاستنجاد بالكواكب أو بأسماء الشياطين والجن وآلهة الأقدمين ، وكذا كتابة اسم المسحور في أشكال ، أو وضع صورته أو بعض ثيابه وعلائقه وتوجيه كلام إليها بزعم أنه يؤثر ذلك في حقيقة ذات المسحور ، أو يستعملون إشارات خاصة نحو جهته أو نحو بلده وهوما يسمونه بالأرصاد وذكر أبو بكر ابن العربي في " القبس " أن قريشاً لما أشار النبيء صلى الله عليه وسلم بأصبعه في التشهد قالوا : هذا محمد يسحر الناس ، أو جمع أجزاء معينة وضم بعضها إلى بعض مع نية أن ذلك الرسم أو الجمع لتأثير شخص معين

بضر أو خير أو محبة أو بغضة أو مرض أو سلامة ، ولا سيما إذا قرن باسم المسحور وصورته أو بطالع ميلاده ، فذلك كله من التوهمات وليس على تأثيرها دليل من العقل ولا من الطبع ولا ما يثبته من الشرع ، وقد انحصرت أدلة إثبات الحقائق في هذه الأدلة ، ومن العجائب أن الفخر في "التفسير" حاول إثباته بما ليس بمقنع .

(278/61)

وقد تمسك جماعة لإثبات تأثير هذا النوع من السحر بما روي في "الصحيحين" عن قول عائشة أن لبيد بن الأعصم سحر النبيء صلى الله عليه وسلم ورؤيا النبيء صلى الله عليه وسلم أن ملكين أخبراه بذلك السحر ، وفي النسائي عن زيد بن أرقم مثله مختصراً ، وينبغي التثبت في عباراته ثم في تأويله ، ولا شك أن لبيداً حاول أن يسحر النبيء صلى الله عليه وسلم فقد كان اليهود سحرة في المدينة وأن الله أطلع رسوله على ما فعله لبيد لتكون معجزة للنبيء صلى الله عليه وسلم في إبطال سحر لبيد وليعلم اليهود أنه نبيء لا تلحقه أضرارهم وكما لم يؤثر سحر السحرة على موسى كذلك لم يؤثر سحر لبيد على رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنما عرض للنبيء صلى الله عليه وسلم عارض جسدي شفاه الله منه فصادف أن كان مقارناً لما عمله لبيد بن الأعصم من محاولة سحره وكانت رؤيا النبيء

صلى الله عليه وسلم إنباء من الله له بما صنع لبيد ، والعبارة عن صورة تلك الرؤيا كانت مجملة فإن الرأي رموز ولم يرد في الخبر تعبير ما اشتملت عليه فلا تكون أصلاً لتفصيل القصة .

ثم إن لتأثير هاته الأسباب أو الأصول الثلاثة شروطاً وأحوالاً بعضها في ذات الساحر وبعضها في ذات المسحور ، فيلزم في الساحر أن يكون مفرط الذكاء منقطعاً لتجديد المحاولات السحرية جسوراً قوى الإرادة كتوماً للسر قليل الاضطراب للحوادث سالم البنية مرتاض الفكر خفي الكيد والحيلة ، ولذلك كان غالب السحرة رجالاً ولكن كان الحبشة يجعلون السواحر نساء وكذلك كان الغالب في الفرس والعرب قال تعالى : ﴿ ومن شر النفاثات في العقد ﴾ [الفلق : 4] فجاء بجمع الإناث وكانت الجاهلية تقول إن الغيلان عجائز من الجن ساحرات فلذلك تستطيع التشكل بأشكال مختلفة ، وكان معلمو السحر يمتحنون صلاحية تلامذتهم لهذا العلم بتعريضهم للمخاوف وأمرهم بارتكاب المشاق تجربة لمقدار عزائمهم وطاعتهم .

وأما ما يلزم في المسحور فخور العقل ، وضعف العزيمة ، ولطاقة البنية ، وجهالة العقل ، ولذلك كان أكثر الناس قابلية له النساء والصبيان والعامة ومن يتعجب في كل شيء .

ولذلك كان من أصول السحر إلقاء أقوال كاذبة على المسحور لاختبار مقدار عقله في التصديق بالأشياء الواهية والثقة بالساحر ، قال تعالى : ﴿ ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا إنْ هذا إلا سحر مبين ﴾ [هود : 7] فجعلوا ذلك القول الغريب سحراً .

ثم تحف بالسحر أعمال ، القصد منها التمويه وهذه الأعمال أنواع :

نوع : الغرض منه تقوية اعتقاد الساحر في نجاح عمله لتقوى عزيمته فيشتد تأثيره على النفوس وهذا مثل تلقين معلمي هذا الفن تلامذتهم عبادة كواكب ومناجاتها لاستخدام أرواحها والاستنجاد بتلك الأرواح على استخدام الجن والقوى المتعاصية ليعتقد المتعلم أن ذلك سبب نجاح عمله فيقدم عليه بعزم ، وفي ذلك تأثير نفساني عجيب ولذلك يسمون تلك الأقوال والمناجاة عزائم جمع عزيمة ويقولون فلان يعزِم إذا كان يسحر ، ثم هو إذا استكمل المعرفة قد يتفطن لقلة جدوى تلك العزائم وقد لا يتفطن وعلى كلتا الحالتين فمعلموه لا يتعرضون له في نهاية التعليم بالتنبيه على فساد ذلك لئلا يدخلوا عليه الشكوك في مقدرته ، فلذلك بقيت تلك الأوهام يتلقاها الأخلاف عن أسلافهم ، ومن هذا النوع ضروب هي في الأصل تجارب لمقدار طاعة المتعلم لمعلمه بقيت متلقاة عندهم عن غير

بصيرة مثل ارتكاب الخبائث وإهانة الصالحات والأمور المقدسةِ إيهاماً بأنها تُبلِّغ إلى مرضاة الشياطين وتسخيرها ، وذلك في الواقع اختبار لمقدار خضوع المتعلم ، لأن أكبر شيء على النفس نبذ أعز الأشياء وهو الدين ، ولأن السحرة ليسوا من الملليين فهم يبلغون بمريديهم إلى مبالغهم السافلة ، وقد سمعنا أن كثيراً ممن يتعاطون السحر في المسلمين يزعمون أنهم لا يتأتى لهم نجاح إلا بعد أن يلطخوا أيديهم بالنجاسات أونحو من هذا الضلال .

(280/61)

ونوع : الغرض منه إخفاء الأسباب الحقيقية لتمويهاتهم حتى لا يطلعَ الناس على كنهها ، فيستندون في تعليل أعمالهم إلى أسباب كاذبة كدائهم بأسماء سموها لا مسميات لها ووضعهم أشكالاً على الورق أو في الجدران يزعمون أن لها خصائص التأثير ، واستنادهم لطوالع كواكب في أوقات معينة لا سيما القمر ، ومن هذا تظاهرهم للناس بمظهر الزهد والهمة .

ونوع : يستعان به على نفوذ السحر وهو التجسس والتطلع على خفايا الأشياء وأسرار الناس بواسطة السعي بالنميمة وإلقاء العداوات بين الأقارب والأصحاب والأزواج حتى يُفْشِيَ كل منهم سر الآخر فيتخذ الساحر تلك الأسرار وسيلة يُلقى بها الرعب في قلوب

أصحابها بإظهار أنه يعلم الغيب والضمائرَ ، ثم هو يأمر أولئك الذين أرهبهم ويستخدمهم بما يشاء فيطيعونه فيأمر المرأة بمغاضبة زوجها وطلب فراقه ويأمر الزوج بطلاق زوجته وهكذا ، وفي هذا القسم تظهر مقدرة الساحر الفكرية وبه تكثر أضراره وأخطاره على الناس وجرأته على ارتكاب المرعبات والمطوّعات باستئصال الأموال بالسرقة يسرقها من لا يتهمه المسروق ، ومنه أنه يفعل ذلك من خاصته وأبنائه وزوجه الذين يستهويهم السحرة ويسخرونهم للإخلاص لهم ، وينتهي فعل السحرة في هذا إلى حد إزهاق النفوس التي يشعرون بأنها تفطنت لخديعتهم أو التي تعاصت عن امتثال أوامرهم يُغرون بها من هي آمن الناس منه ، ثم استطلاع ضمائر الناس بتقريرات خفية وأسئلة تدريجية يوهمه بها أنه يسأله عنها ليعلمه بمستقبله .

ونوع : يُجعل اختباراً لمقدار مراتب أذهان الناس في قابلية سحره وذلك بوضع أشياء في الأطعمة خيفة الظهور ليرى هل يتفطن لها من وضَعها ، وإبراز خيالات أو أشباح يوهم بها الناظر أنها جن أو شياطين أو أرواح ، وما هي إلا أشكال مموهة أو أعوان من أعوانه متنكرة ، لينظر هل يقتنع رائيها بما أخبره الساحر عنها أم يتطلب كشف حقيقتها أو استقصاء أثرها .

فكان السحر قرين خباثة نفس ، وفسادِ دين ، وشرّ عمل ، وإرعاب وتهويلٍ على الناس ، من أجل ذلك ما فتئت الأديان الحقة تحذر الناس منه وتعد الاشتغال به مروقاً عن طاعة الله تعالى لأنه مبني على اعتقاد تأثير الآلهة والجِن المنسوبين إلى الآلهة في عقائد الأقدمين ، وقد حذر موسى قومه من السحرِ وأهله ففي سفر التثنية الإصحاح 18 أن مما خاطب به موسى عليه السلام قومه : " متى دخلتَ الأرضَ التي يعطيك الربُ إلهك لا تتعلم أن تفعل مثل رجس أولئك الأمم لا يوجد فيك من يجيز ابنه أو ابنته في النار ولا من يَعْرُف عِرَافة ولا عائفٌ ولا متفائلٌ ولا ساحرٌ ولا من يَرقى رُقية ولا من يسأل جاناً أو تابعة ولا من يستشير الموتى " .

وجعلت التوراة جزاء السحرة القتل ففي سفر اللاويين الإصحاحين 20 27 " وإذا كان في رجل أو امرأة جان أو تابعة فإنه يقتل " .

وذكروا عن مالك أنه قال : الأسماء التي يكتبها السحرة في التمائم أسماء أصنام .

وقد حذر الإسلام من عمل السحر وذمه في مواضع وليس ذلك بمقتضى إثبات حقيقة وجودية للسحر على الإطلاق ولكنه تحذير من فساد العقائد وخلع قيود الديانة ومن سخيف الأخلاق .

وقد اختلف علماء الإسلام في إثبات حقيقة السحر وإنكارها وهو اختلاف في الأحوال

فيما أراه فكل فريق نظر إلى صنف من أصناف ما يُدعَى بالسحر .

وحكى عياض في "إكمال المعلم" أن جمهور أهل السنة ذهبوا إلى إثبات حقيقته .

قلت وليس في كلامهم وصف كيفية السحر الذي أثبتوا حقيقته فإنما أثبتوه على الجملة .

وذهب عامة المعتزلة إلى أن السحر لا حقيقة له وإنما هو تمويه وتخييل وأنه ضرب من الخفة والشعوذة ووافقهم على ذلك بعض أهل السنة كما اقتضته حكاية عياض في "الإكمال" ،

قلت وممن سُمِّي منهم أبو إسحاق الاسترابادي من الشافعية .

والمسألة بحذافرها من مسائل الفروع الفقهية تدخل في عقاب المرتدين والقاتلين والمتحيلين على الأموال ، ولا تدخل في أصول الدين .

(282/61)

وهو وإن أنكره الملاحدة لا يقتضي أن يكون إنكاره إلحاداً .

وهذه الآية غير صريحة .

وأما الحديث فقد علمتَه آنفاً .

وشدد الفقهاء العقوبة في تعاطيه .

قال مالك : يقتل الساحر ولا يستتاب إن كان مسلماً وإن كان ذمياً لا يقتل بل يؤدب إلا إذا

أدخل بسحره أضراراً على مسلم فإنه يقتل لأنه يكون ناقضاً للعهد لأن من جملة العهد أن لا يتعرضوا للمسلمين بالأذى قال الباجي في "المنتقي" رأى مالك أن السحر كفر وشرك ودليلٌ عليه وأنه لما كان يستتر صاحبه بفعله فهو كالزندقة لأجل إظهار الإسلام وإبطان الكفر ولذلك قال ابن عبد الحكم وابن المواز وأصبغ هو كالزنديق إن أسر السحر لا يستتاب وإن أظهره استتيب وهو تفسير لقول مالك لا خلافٌ له قال الباجي فلا يقتل حتى يثبت أن ما يفعله من السحر هو الذي وصفه الله بأنه كفر قال أصبغ يَكشف ذلك من يعرف حقيقته ويثبت ذلك عند الإمام.

(283/61)

وفي "الكافي" لابن عبد البر إذا عمل السحر لأجل القتل وقتَل به قُتل وإن لم يكن كفراً، وقد أدخل مالك في "الموطأ" السحر في باب الغيلة، فقال ابن العربي في "القبس" وجه ذلك أن المسحور لا يَعلم بعمل السحر حتى يقع فيه، قلت لا شك أن السحر الذي جُعل جزاؤه القتل هو ما كان كفراً صريحاً مع الاستتار به أو حصل به إهلاك النفوس وذلك أن الساحر كان يَعِد من يأتيه للسحر بأن فلاناً يموت الليلة أو غداً أو يصيبه جنون ثم يتحيل في إيصال سموم خفية من العقاقير إلى المسحور تُلقى له في الطعام بواسطة أناس من أهل المسحور

فيصبح المسحور ميتاً أو مختل العقل فهذا هو مراد مالك بأن جزاءه القتل أي إن قتل ولذلك قال : لا تقبل توبته وبدون هذا التأويل لا يصح فقه هذه المسألة ، فقول مالك في السحر ليس استناداً لدليل معين في خصوص السحر ولكنه من باب تحقيق المناط بتطبيق قواعد التعزير والإضرار ، ولبعض فقهاء المذهب في حكاية هذه المسألة إطلاقات عجيب صدورها من أمثالهم ، على أن السحر أكثر ما يتطلب لأجل تسخير المحبين محبوبيهم فهو وسيلة في الغالب للزنا أو للانتقام من المحبوب أو الزوج.

سئل مالك عمن يعقد الرجال عن النساء وعن الجارية تطعم رجلاً شيئاً فيذهب عقله فقال : لا يقتلان فأما الذي يعقد فيؤدب وأما الجارية فقد أتت أمراً عظيماً قيل أفتقتل فقال : لا قال ابن رشد في " البيان" رأى أن فعلها ليس من السحر أ هـ .

وقال أبو حنيفة : يقتل الرجل الساحر ولا يستتاب وأما المرأة فتحبس حتى تتركه فجعل حكمه حكم المرتد ووجّه أبو يوسف بأنه جمع مع كفره السعي في الأرض بالفساد .

(284/61)

وعن الشيخ أبي منصور أن القول بأن السحر كفر على الإطلاق خطأ بل يجب البحث عن حقيقته فإن كان في ذلك رد ما لزم من شرط الإيمان فهو كفر وإلا فلا ، وما ليس بكفر وفيه

إهلاك النفس ففيه حكم قُطاع الطريق ويستوي فيه الذكور والإناث وتقبل توبته إذا تاب ومن قال : لا تقبل فقد خلط فإن سحرة فرعون قبلت توبتهم أ هـ .

وهذا استدلال بشرع من قبلنا .

وقال الشافعي يُسأل الساحر عن سحره فإن ظهر منه ما هو كفر فهو كالمرتد يستتاب فإن أصر قتل وإن ظهر منه تجويز تغيير الأشكال لأسباب قراءة تلك الأساطير أو تدخين الأدوية وعَلِم أنه يفعل محرماً فحكمه حكم الجناية فإن اعترف بسحر إنسان وأنَّ سحره يقتل غالباً قُتل قوداً (يعني إذا ثبت أنه مات بسببه) وإن قال : إن سحْري قد يقتل وقد لا يقتل فهو شِبه عمد ، وإن كان سِحره لغير القتل فمات منه فهو قتل خطأ تجب الدية فيه مخففة في ماله .

ويجب أن يستخلص من اختلافهم ومن متفرق أقوالهم ما يكون فيه بصيرة لإجراء أعمال ما يسمى بالسحر وصاحبُه بالساحر مُجْرَى جنايات أمثاله ومقدار ما أثره من الاعتداء دون مبالغة ولا أوهام ، وقد يطلق اسم الساحر اليوم على اللاعب بالشعوذة في الأسمار وذلك من أصناف اللهو فلا ينبغي عد ذلك جناية .

(285/61)

يتعين أن (مَا) موصولة وهو معطوف على قوله : ﴿ مُلْكِ سليمان ﴾ أي وما تتلوا الشياطين عَلى ما أنزل على المَلكين ، والمراد بما أنزل ضرب من السحر لكنه سحر يشتمل على كفر عظيم وتعلم الخضوع لغير الله مع الاستخفاف بالدين ومع الإضرار بالناس كما بيناه آنفاً فيكون عطفاً على ﴿ ما تتلوا ﴾ الذي هو صادق على السحر فعُطف (ما أنزل) عليه لأنه نوع منه أشد مما تتلوه الشياطين الذين كانوا يعلِّمونه الناس مع السحر الموضوع منهم ، فالعطف لتغاير الاعتبار أو للتنبيه على أن أصل السحر مقتبس مما ظهر ببابل في زمن هذين المعلِّمَيْن وعطف شيء على نفسه باعتبار تغاير المفهوم والاعتبار وارد في كلامهم كقول الشاعر : (وهو من شواهد النحو) :

إلى المَلك القَرْم وابنِ الهُمَا . . .

م ولَيثِ الكتيبة في المُزْدَحَم

وقيل : أريد من السحر أخَفُّ مما وضعته الشياطين على عهد سليمان لأن غاية ما وصف به هذا الذي ظهر ببابل في زمن هذين المعلمين أنه يُفرق بين المرء وزوجه وذلك ليس بكفر وفيه ضعف .

والقراءة المتواترة (المَلكين) بفتح لام الملكين وقرأه ابن عباس والضحاك والحَسن وابن أَبْزَى بكسر اللام .

وكل هاته الوجوه تقتضي ثبوت نزول شيء على الملكين ببابل وذلك هو الذي يعنيه سياق

الآية إذا فَصَّلت كيفية تعليم هذين المعلمين عِلم السحر .

فالوجه أن قوله : ﴿ وما أنزل ﴾ عطف على ﴿ مُلك سليمان ﴾ فهو معمول لتتلوا الذي هو بمعنى تكذب فيكون المراد عدم صحة هذا الخبر أي ما تكذبه الشياطين على ما أنزل على المَلكين ببابل ، أي ينسبون بعض السحر إلى ما أنزل ببابل .

قال الفخر وهو اختيار أبي مسلم وأنكر أبو مسلم أن يكون السحر نازلاً على المَلَكين إذ لا يجوز أمر الله به وكيف يتولى الملائكة تعليمه مع أنه كفر أو فسق .

وقيل : (ما) نافية معطوفة على (ما كفر سليمان) أي وما كفر سليمان بوضع السحر كما يزعم الذين وضعوه ، ولا أنزل السحر على المَلكين ببابل .

(286/61)

وتعريف الملكين تعريف الجنس أو هو تعريف العهد بأن يكون الملكان معهودين لدى العارفين بقصة ظهور السحر ، وقد قيل إن (هاروت وماروت) بدل من (الشياطين) وإن المراد بالشياطين شيطانان وضعا السحر للناس هما هاروت وماروت ، على أنه من إطلاق الجمع على المثنى كقوله :

﴿ قلوبكما ﴾ [التحريم : 4] وهذا تأويل خطأ إذ يصير قوله : ﴿ على الملكين ﴾

كلاماً حشواً .

وعلى ظاهر هذه الآية إشكال من أربعة وجوه : أحدها كون السحر مُنْزَلاً إن حمل الإنزال على المعروف منه وهو الإنزال من الله ، الثاني كون المباشر لذلك ملكين من الملائكة على القراءة المتواترة ، الثالث كيف يَجْمَع المَلَكان بين قولهما ﴿ نحن فتنة ﴾ وقولهما ﴿ فلا تكفر ﴾ فكيف يجتمع قصد الفتنة مع التحذير من الوقوع فيها الرابع كيف حصرا حالهما في الاتصاف بأنهما فتنة فما هي الحكمة في تصديهما لذلك لأنهما إن كانا ملَكين فالإشكال ظاهر وإن كانا مِلكين بكسر اللام فهما قد علما مضرة الكفر بدليل نهيهما عنه وعِلما معنى الفتنة بدليل قولهما ﴿ إنما نحن فتنة ﴾ فلماذا تورطا في هذه الحالة ؟

ودفع هذا الإشكال برمته أن الإنزال هو الإيصال وهو إذا تعدى بعلى دل على إيصال من علو واشتهر ذلك في إيصال العلم من وحي أو إلهام أونحوهما ، فالإنزال هنا بمعنى الإلهام وبمعنى الإيداع في العقل أو في الخلقة بأن يكون الملكان قد برعا في هذا السحر وابتكرا منه أساليب لم يسبق لهما تلقيها من معلم شأن العلامة المتصرف في علمه المبتكر لوجوه المسائل وعللها وتصاريفها وفروعها .

والظاهر عندي أن ليس المراد بالإنزال إنزال السحر إذ السحر أمر موجود من قبل ولكنه إنزال الأمرِ للملَكين أو إنزال الوحي أو الإلهام للمِلكين بأن يتصديا لبث خفايا السحر بين المتعلمين ليبطل انفراد شرمذة بعلمه فيندفع الوجهان الأول والثاني .

ثم إن الحكمة من تعميم تعليمه أن السحرة في بابل كانوا اتخذوا السحر وسيلة لتسخير العامة لهم في أبدانهم وعقولهم وأموالهم ثم تطلعوا منه إلى تأسيس عبادة الأصنام والكواكب وزعموا أنهم أي السحرة مترجمون عنهم وناطقون بإرادة الآلهة فحدث فساد عظيم وعمت الضلالة فأراد الله على معتاد حكمته إنقاذ الخلق من ذلك فأرسل أو أوحى أو ألْهم هاروت وماروت أن يكشفا دقائق هذا الفن للناس حتى يشترك الناس كلهم في ذلك فيعلموا أن السحرة ليسوا على ذلك ويرجع الناس إلى صلاح الحال فاندفع الوجه الثالث .

وأما الوجه الرابع فستعرف دفعه عند تفسير قوله : ﴿ وما يعلمان من أحد ﴾ الآية .

وفي قراءة ابن عباس والحسن (المِلكين) بكسر اللام وهي قراءة صحيحة المعنى فمعنى ذلك أن ملكين كانا يملكان ببابل قد علما علم السحر ، وعلى قراءة فتح اللام فالأظهر في تأويله أنه استعارة وأنهما رجلان صالحان كان حكما مدينة بابل وكانا قد اطلعا على أسرار السحر التي كانت تأتيها السحرة ببابل أو هما وضعا أصله ولم يكن فيه كفر فأدخل عليه الناس الكفر بعد ذلك .

وقيل هما ملكان أنزلهما الله تعالى تشكلاً للناس يعلمانهم السحر لكشف أسرار السحرة

لأن السحرة كانوا يزعمون أنهم آلهة أو رسل فكانوا يسخرون العامة لهم فأراد الله تكذيبهم ذباً عن مقام النبوءة فأنزل ملكين لذلك .

وقد أجيب بأن تعلم السحر في زمن هاروت وماروت جائز على جهة الابتلاء من الله لخلقه فالطائع لا يتعلمه والعاصي يبادر إليه وهو فاسد لمنافاته عموم قوله : ﴿ يعلمون الناس ﴾ قالوا : كما امتحن الله قوم طالوت بالنهر إلخ ولا يخفى فساد التنظير .

وبابل بلد قديم من مدن العالم وأصل الاسم باللغة الكلدانية باب إيلو أي باب الله ويرادفه بالعبرانية باب إيل وهو بلد كائن على ضفتي الفرات بحيث يخترقه الفرات يقرب موضعه من موقع بلد الحلة الآن على بعد أميال من ملتقى الفرات والدجلة .

(288/61)

كانت من أعظم مدن العالم القديم بناها أولاً أبناء نوح بعد الطوفان فيما يقال ثم توالى عليها اعتناء أصحاب الحضارة بمواطن العراق في زمن الملك النمروذ في الجيل الثالث من أبناء نوح ولكن ابتداء عظمة بابل كان في حدود سنة 3755 ثلاثة آلاف وسبعمائة وخمس وخمسين قبل المسيح فكانت إحدى عواصم أربعة لمملكة الكلدانيين وهي أعظمها وأشهرها ولم تزل همم ملوك الدولتين الكلدانية والأشورية منصرفة إلى تعمير هذا البلد

وتنميقه فكان بلد العجائب من الأبنية والبساتين ومنبع المعارف الأسيوية والعجائب السحرية وقد نسبوا إليها قديماً الخمر المعتقة والسحر قال أبو الطيب :

سقى الله أيام الصِّبا ما يسرها . . .

ويفعل فعل البابلي المعتَّق

ولاشتهار بابل عند الأمم القديمة بمعارف السحر كما قدمنا في تعريف السحر صح جعل صلة الموصول قوله : ﴿ أنزل على الملكين ببابل ﴾ إشارة إلى قصة يعلمونها .

و(هاروت وماروت) بدل من (الملكين) وهما اسمان كلدانيان دخلهما تغيير التعريف لإجرائهما على خفة الأوزان العربية ، والظاهر أن هاروت معرب (هاروكا) وهو اسم القمر عند الكلدانيين وأن ماروت معرب (ما روداخ) وهو اسم المشتري عندهم وكانوا يعدون الكواكب السيارة من المعبودات المقدسة التي هي دون الآلهة لا سيما القمر فإنه أشد الكواكب تأثيراً عندهم في هذا العالم وهو رمز الأنثى ، وكذلك المشتري فهو أشرف الكواكب السبعة عندهم ولعله كان رمز الذكر عندهم كما كان بعل عند الكنعانيين الفنيقيين .

ومن المعلوم أن إسناد هذا التقديس للكواكب ناشىء عن اعتقادهم أنهم كانوا من الصالحين المقدسين وأنهم بعد موتهم رفعوا للسماء في صورة الكواكب فيكون (هاروكا)

و (ماروداخ) قد كانا من قدماء علمائهم وصالحيهم والحاكمين في البلاد وهما اللذان وضعا السحر ولعل هذا وجه التعبير عنهما في القصة بالملكين بفتح اللام .

(289/61)

ولأهل القصص هنا قصة خرافية من موضوعات اليهود في خرافاتهم الحديثة اعتاد بعض المفسرين ذكرها منهم ابن عطية والبيضاوي وأشار المحققون مثل البيضاوي والفخر وابن كثير والقرطبي وابن عرفة إلى كذبها وأنها من مرويات كعب الأحبار وقد وهم فيها بعض المتساهلين في الحديث فنسبوا روايتها عن النبيء صلى الله عليه وسلم أو عن بعض الصحابة بأسانيد واهية والعجب للإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى كيف أخرجها مسندة للنبيء صلى الله عليه وسلم ولعلها مدسوسة على الإمام أحمد أو أنه غرَّه فيها ظاهر حال رواتها مع أن فيهم موسى بن جبير وهو متكلم فيه واعتذر عبد الحكيم بأن الرواية صحيحة إلا أن المروي راجع إلى أخبار اليهود فهو باطل في نفسه ورواته صادقون فيما رووا وهذا عذر قبيح لأن الرواية أسندت إلى النبيء صلى الله عليه وسلم قال ابن عرفة في " تفسيره" وقد كان الشيوخ يخطئون ابن عطية في هذا الموضع لأجل ذكره القصة ونقل بعضهم عن القرافي أن مالكاً رحمه الله أنكر ذلك في حق هاروت وماروت .

وقوله : ﴿ وما يعلمان من أحد ﴾ جملة حالية من " هاروت وماروت" و (ما) نافية والتعبير بالمضارع لحكاية الحال إشارة إلى أن قولهما لمتعلمي السحر ﴿ إنما نحن فتنة ﴾ قول مقارن لوقت التعليم لا متأخر عنه .

وقد علم من هذا أنهما كانا معلمين وطوى ذلك للاستغناء عنه بمضمون هاته الجملة فهو من إيجاز الحذف أو هو من لحن الخطاب مفهوم للغاية .

وقوله : ﴿ إنما نحن فتنة ﴾ الفتنة لفظ يجمع معنى مرج واضطراب أحوال أحد وتشتت باله بالخوف والخطر على الأنفس والأموال على غير عدل ولا نظام وقد تخصص وتعمم بحسب ما تضاف إليه أو بحسب المقام يقال فتنة المال وفتنة الدين .

(290/61)

ولما كانت هذه الحالة يختلف ثبات الناس فيها بحسب اختلاف رجاحة عقولهم وصبرهم ومقدرتهم على حسن المخارج منها كان من لوازمها الابتلاء والاختبار فكان ذلك من المعاني التي يكنى بالفتنة عنها كثيراً ولذلك تسامح بعض علماء اللغة ففسر الفتنة بالابتلاء وجرأه على ذلك قول الناس فتنت الذهب أو الفضة إذا أذابهما بالنار لتمييز الردىء من الجيد وهذا الإطلاق إن لم يكن مولداً فإن معنى الاختبار غير منظور إليه في لفظ الفتنة وإنما

المنظور إليه ما في الإذابة من الاضطراب والمرج وقد سمى القرآن هاروت وماروت فتنة وقال : ﴿ إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ﴾ [البروج : 10] وقال : ﴿ لا يفتننكم الشيطان ﴾ [الأعراف : 27] .

والإخبار عن أنفسهم بأنهم فتنة إخبار بالمصدر للمبالغة وقد أكّدت المبالغة بالحصر الإضافي والمقصد من ذلك أنهما كانا يصرحان أن ليس في علمهما شيء من الخير الإلهي وأنه فتنة محضة ابتلاء من الله لعباده في مقدار تمسكهم بدينهم وإنما كانا فتنة لأن كل من تعلم منهما عمل به .

فلا تكفر كما كفر السحرة حين نسبوا التأثيرات للآلهة وقد علمت سرها .

وفي هذا ما يضعف أن يكون المقصد من تعليمهما الناس السحر إظهار كذب السحرة الذين نسبوا أنفسهم للألوهية أو النبوءة .

(291/61)

والذي يظهر في تفسير هذه الجملة أن قولهما : ﴿ إنما نحن فتنة ﴾ قصر ادعائي للمبالغة فجعلا كثرة افتتان الناس بالسحر الذي تصديا لتعليمه بمنزلة انحصار أوصافهما في الفتنة ووجه ابتدائهما لمن يعلمانه بهذه الجملة أن يبينا له أن هذا العلم في مبادئه يظهر كأنه فتنة

وشر فيوشك أن يكفر متعلمه عند مفاجأة تلك التعاليم إياه إذا كانت نفسه قد توطنت على اعتقاد أن ظهور خوارق العادات علامة على ألوهية من يظهرها ، وقولهما : ﴿ فلا تكفر ﴾ أي لا تعجل باعتقاد ذلك فينا فإنك إذا توغلت في معارف السحر علمت أنها معلولة لعلل من خصائص النفوس أو خصائص الأشياء فالفتنة تحصل لمن يتعلم السحر حين يرى ظواهره وعجائبه على أيدي السحرة ولمن كان في مبدأ التعليم فإذا تحقق في علمه اندفعت الفتنة فذلك معنى قولهما ﴿ فلا تكفر ﴾ فالكفر هو الفتنة وقولهما ﴿ فلا تكفر ﴾ بمنزلة فلا تفتتن وقد اندفع الإشكال الرابع المتقدم .

تفريع عما دل عليه قوله : ﴿ وما يعلمان من أحد حتى يقولا ﴾ المقتضي أن التعليم حاصل فيتعلمون ، والضمير في ﴿ فيتعلمون ﴾ راجع لأحد ، الواقع في حيز النفي مدخولاً لمن الاستغراقية في قوله تعالى : ﴿ وما يعلمان من أحد ﴾ فإنه بمعنى كل أحد فصار مدلوله جمعاً .

قوله : ﴿ ما يفرقون به بين المرء وزوجه ﴾ إشارة إلى جزئي من جزئيات السحر وهو أقصى تأثيراته إذ فيه التفرقة بين طرفي آصرة متينة إذ هي آصرة مودة ورحمة قال تعالى : ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ﴾ [الروم : 21] فإن المودة وحدها آصرة عظيمة وهي آصرة الصداقة والأخوة وتفاريعهما ، والرحمة وحدها آصرة منها الأبوة والبنوة ، فما ظنكم بآصرة جمعت الأمرين

وكانت بجعل الله تعالى وما هو بجعل الله فهو في أقصى درجات الإتقان وقد كان يشير إلى هذا المعنى شيخنا الجليل سالم أبو حاجب في قوله تعالى : ﴿ وجعل بينكم مودة ورحمة ﴾ .

(292/61)

وهذا التفريق يكون إما باستعمال مفسدات لعقل أحد الزوجين حتى يبغض زوجه وإما بإلقاء الحيل والتمويهات والنميمة حتى يفرق بينهما .

وقوله : ﴿ وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ﴾ جملة معترضة .

وضمير ﴿ هم ﴾ عائد إلى (أحد) من قوله : ﴿ وما يعلمان من أحد ﴾ لوقوعه في سياق النفي فيعم كل أحد من المتعلمين أي وما المتعلمون بضارين بالسحر أحداً .

وهذا تنبيه على أن السحر لا تأثير له بذاته وإنما يختلف تأثير حيله باختلاف قابلية المسحور ، وتلك القابلية متفاوتة ولها أحوال كثيرة أجملتها الآية بالاستثناء منقوله : ﴿ إلا بإذن الله ﴾ أي بجعل الله أسباب القابلية لأثر السحر في بعض النفوس فهذا إجمال حسن مناسب لحال المسلمين الموجه إليهم الكلام لأنهم تخلقوا بتعظيم الله تعالى وقدرته وليس

المقام مقام تفصيل الأسباب والمؤثرات ولكن المقصود إبطال أن تكون للسحر حالة ذاتة وقواعد غير مموهة ، فالباء في قوله : ﴿ بإذن الله ﴾ للملابسة .

(293/61)

وأصل الإذن في اللغة هو إباحة الفعل ، واستأذن طلب الإذن في الفعل أو في الدخول للبيت وقد استعمله القرآن مجازاً في معنى التمكين إما بخلق أسباب الفعل الخارقة للعادة نحو قوله : ﴿ وتبرىء الأكمه والأبرص بإذني ﴾ [المائدة : 110] وإما باستمرار الأسباب المودعة في الأشياء والقوى كقوله تعالى : ﴿ وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله ﴾ [آل عمران : 166] فقوله : ﴿ وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ﴾ أي إلا بما أعد الله في قابل السحر من استعداد لأن يضر به فإن هذا الاستعداد وإمكان التأثر مخلوق في صاحبه فهو بإذن الله ومشيئته كذا قرره الراغب وهو يرجع إلى استعمال مما تستعمل فيه كلمة إذن (ومن هذا القبيل ونظيره لفظة الأمر في قوله تعالى : ﴿ له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله ﴾ [الرعد : 11] أي مما خلق الله من الأشياء التي تلحق أضرارها للناس وقد اشتهر هذا الاستعمال في لسان الشرع حتى صار حقيقة عرفية في

معنى المشيئة والإرادة فينبغي أن يلحق بالألفاظ التي فرق المتكلمون بين مدلولاتها وهي الرضا والمحبة والأمر والمشيئة والإرادة) .

(294/61)

فليس المعنى أن السحر قد يضر وقد لا يضر بل المعنى أنه لا يضر منه إلا ما كان إيصال أشياء ضار بطبعها وقوله : ﴿ ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ﴾ يعني ما يضر الناس ضراً آخر غير التفرقة بين المرء وزوجه فضمير (يضرهم) عائد على غير ما عاد عليه ضمير (يتعلمون) والمعنى أن أمور السحر لا يأتي منها إلا الضر أي في الدنيا فالساحر لا يستطيع سحر أحد ليصير ذكياً بعد أن كان بليداً أو ليصير غنياً بعد الفقر وهذا زيادة تنبيه على سخافة عقول المشتغلين به وهو مقصد الآية وبهذا التفسير يكون عطف قوله : ﴿ ولا ينفعهم ﴾ تأسيساً لا تأكيداً والملاحظ في هذا الضر والنفع هو ما يحصل في الدنيا وأما حالهم في الآخرة فسيفيده قوله : ﴿ ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق ﴾ وقد أفادت الآية بجمعها بين إثبات الضر ونفي النفع الذي هو ضده مفاد الحصر كأنه قيل ويتعلمون ما ليس إلا ضراً كقول السموءل وعبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي :

تسيل على حد الظُّبات نفوسنا . . .

وليس على غير الظُّبات تسيل

وعدل عن صيغة القصر لتلك النكتة المتقدمة وهي التنبيه على أنه ضر .

وإعادة فعل ﴿ يتعلمون ﴾ مع حرف العطف لأجل ما وقع من الفصل بالجملة المعترضة .

عطف على قوله : ﴿ واتبعوا ما تتلوا الشياطين ﴾ أي اتبعوا ذلك كله وهم قد علموا إلخ

والضمير لليهود تبعاً لضمير ﴿ واتبعوا ﴾ ، أو الواو للحال أي في حال أنهم تحقق علمهم .

واللام في ﴿ لقد علموا ﴾ يجوز أن تكون لام القسم وهي اللام التي من شأنها أن تدخل على جواب القسم لربطه بالقسم ثم يحذفون القسم كثيراً استغناء لدلالة الجواب عليه دلالة التزامية لأنه لا ينتظم جواب بدون مجاب .

(295/61)

ويجوز أن تكون لام الابتداء ، وهي لام تفيد تأكيد القسم ويكثر دخولها في صدر الكلام فلذلك قيل لها لام الابتداء والاحتمالان حاصلان في كل كلام صالح للقسم وليس فيه قسم فإن حذف لفظ القسم مشعر في المقام الخطابي بأن المتكلم غير حريص على مزيد التأكيد كما كان ذكر إن وحدها في تأكيد الجملة الاسمية أضعف تأكيداً من الجمع بينها وبين لام الابتداء لأنهما أداتا تأكيد .

قال الرضى إن مواقع لام القسم في نظر الجمهور هي كلها لامات الابتداء .

والكوفيون لا يثبتون لام الابتداء ويحملون مواقعها على معنى القسم المحذوف والخلاف في هذا متقارب .

واللام في قوله : ﴿ لمن اشتراه ﴾ يجوز كونها لام قسم أيضاً تأكيداً للمعلوم أي علموا تحقيق أنه لا خلاق لمشتري السحر ويجوز كونها لام ابتداء والاشتراء هو اكتساب شيء ببذل غيره فالمعنى أنهم اكتسبوه ببذل إيمانهم المعبر عنه فيما يأتي بقوله أنفسهم .

والخلاق الحظ من الخير خاصة .

ففي الحديث : " إنما يلبس هذا من لا خلاق له " وقال البعيث بن حريث :

ولست وإن قربت يوماً ببائع . . .

خلاقي ولا ديني ابتغاء التحبب

ونفي الخلاق وهو نكرة مع تأكيد النفي بمن الاستغراقية دليل على أن تعاطي هذا السحر جرم كفر أو دونه فلذلك لم يكن لمتعاطيه حظ من الخير في الآخرة وإذا انتفى كل حظ من الخير ثبت الشر كله لأن الراحة من الشر خير وهي حالة الكفاف وقد تمناها الفضلاء أو دونه خشية من الله تعالى .

قوله : ﴿ ولبئس ما شروا به أنفسهم ﴾ عطف على ﴿ ولقد علموا ﴾ عطف الإنشاء

على الخبر و ﴿ شروا ﴾ بمعنى باعوا بمعنى بذلوا وهو مقابل قوله : ﴿ لمن اشتراه ﴾ ومعنى بذل النفس هو التسبب لها في الخسار والبوار .

(296/61)

وقوله : ﴿ لو كانوا يعلمون ﴾ مقتض لنفي العلم بطريق لو الامتناعية والعلم المنفي عنهم هنا هو غير العلم المثبت لهم في قوله : ﴿ ولقد علموا ﴾ إلا أن الذي علموه هو أن مكتسب السحر ماله خلاق في الآخرة والذي جهلوه هنا هو أن السحر شيء مذموم وفيه تجهيل لهم حيث علموا أن صاحبه لا خلاق له ولم يهتدوا إلى أن نفي الخلاق يستلزم الخسران إذ ما بعد الحق إلا الضلال وهذا هو الوجه لأن ﴿ لو كانوا يعلمون ﴾ ذيل به قوله : ﴿ ولبئس ما شروا به أنفسهم ﴾ فدل على أنه دليل مفعوله وبذلك يندفع الإشكال عن إثبات العلم ونفيه في معلوم واحد بناءً على أن العلم بأنه لا خلاق لصاحب السحر عين معنى كون السحر مذوماً فكيف يعدون غير عالمين بذمه وقد علمت وجهه وهذا هو الذي تحمل عليه الآية .

ولهم في الجواب عن دفع الإشكال وجوه أخرى أحدها ما ذهب إليه صاحب " الكشاف " وتبعه صاحب " المفتاح " من أن المراد من نفي العلم هو أنهم لما كانوا في علمهم كمن لا يعلم

بعدم عملهم به نفي العلم عنهم لعدم الاعتداد به أي فيكون ذلك على سبيل التهكم بهم .

الثاني أن المراد بالعلم المنفي هو علم كون ما يتعاطونه من جملة السحر المنهي عنه فكأنهم علموا مذمة السحر علماً كلياً ولم يتفطنوا لكون صنيعهم منه كما قالوا إن الفقيه يعلم كبرى القياس والقاضي والمفتي يعلمان صغراه وأن الفقيه كالصيدلاني والقاضي والمفتي كالطبيب وهذا الوجه الذي اخترناه .

الثالث أن المراد لو كانوا يعلمون ما يتبعه من العذاب في الآخرة أي فهم ظنوا أن عدم الخلاف لا يستلزم العذاب وهذا قريب من الذي ذكرناه .

الرابع أن المراد من العلم المنفي التفكر ومن المثبت العلم الغريزي وهذا وجه بعيد جداً إذ لايمكن أن يكون علمهم بأن من اكتسب السحر لا خلاق له علماً غريزياً فلو قيل العلم التصوري والعلم التصديقي .

وفي الجمع بين ﴿ لقد علموا ﴾ و ﴿ لو كانوا يعلمون ﴾ طباق عجيب .

(297/61)

وهنالك جواب آخر مبني على اختلاف معاد ضمير ﴿ علموا ﴾ وضمير ﴿ لو كانوا يعلمون ﴾ فضمير ﴿ لقد علموا ﴾ راجع إلى الجن الذين يعلمون السحر وضميرا ﴿ لو

كانوا يعلمون ﴾ راجعان إلى الإنس الذين تعلموا السحر وشروا به أنفسهم ، قاله فطرب والأخفش وبذلك صار الذين أثبت لهم العلم غير المنفي عنهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 1 صـ 609.629 ﴾

(298/61)

وقال صاحب التفسير الواضح :

ومن قبائح اليهود أنهم نبذوا كتاب اللّه واتبعوا ما تلته الشياطين من السحر والشعوذة في زمن ملك سليمان ، وذلك أن الشياطين كانوا يسترقون السمع من السماء ويضمون إليه أكاذيب ثم يلقنونها الكهنة فيعلمونها الناس ، ويقولون : إن هذا علم سليمان وما تم لسليمان ملك إلا بهذا .

فيرد اللّه عليهم هذه الدعوى : إن سليمان ما فعل شيئا من هذا ، وما كفر باعتقاد السحر والعمل به ، ولكن الشياطين هم الذين كفروا باتباع السحر وتدّينه .

هؤلاء اليهود يعلمون الناس السحر بقصد إغوائهم وإضلالهم ، ويعلمونهم ما أنزل على الملكين ببابل ، وهما هاروت وماروت : وهما بشران إلا أنهما كانا صالحين قانتين فأطلق

الناس عليهما ملكين من باب الشبه ، وفي قراءة (ملكين) على الشبه أيضا بالملوك في الخلق وسماع الكلمة .

(299/61)

ولكن هذين الملكين ما كان يعلمان أحدا من الناس حتى يقولا له : إنما هذا ابتلاء واختبار من اللّه فلا تتعلم السحر وتعمل به وتعتقد تأثيره ، وإلا كنت كافرا ، أما إذا تعلمته فلتعرف شيئا تجهله ولا تعمل به ما يضر فلا محذور في ذلك ، فتعلم الناس من الملكين ما كانوا يعتقدون أنه يفرق بين المرء وزوجه ، أو ما هو تمويه من حيلة أو نفث في العقد أو تأثير نفس وغير ذلك مما يحدث عنده التفريق غالبا .

والحقيقة أن السحر لا يؤثر بطبعه ، وما هم بضارين به أحدا من الناس إلا بأمر اللّه وإرادته ، فهذا كله إن صح فسبب ظاهري فقط ، وأما من تعلم السحر وعمل به فإنه تعلم ما يضره ولا ينفعه إذ به استحق غضب اللّه عليه لما ينشأ عنه من إفساد الناس وضررهم ، وتاللّه لقد علم اليهود لمن ترك كتاب اللّه واستبدل به كتب السحر ما له في الآخرة إلا العذاب ، وليس له نصيب من الثواب .

ولبئس ما اشتروا به عذابهم وألمهم لو كانوا يعلمون ، نفى عنهم العلم لأنهم لم يعلموا به فكانوا

أسوأ من الجهلة.

ولو أن اليهود آمنوا بالنبي صلّى اللّه عليه وسلّم والقرآن وتركوا كتب السحر والشعوذة وأخذوا الوقاية من عذاب اللّه بامتثال أوامره لاستحقوا الثواب من عند اللّه وهو خير وأعظم أجرا لو كانوا يعلمون ذلك.

ملاحظات:

1 - السحر في اللغة: كل ما لطف مأخذه وخفى، ومنه قيل: عين ساحرة، وقوله صلّى اللّه عليه وسلّم: (إن من البيان لسحرا) « 1 ».

---

(1) أخرجه البخاري من حديث ابن عمر كتاب الطب باب إن من البيان سحرا حديث رقم 5767.

---

2 - السحر كما وصفه القرآن: تخييل يخدع الأعين فيريها ما ليس كائنا أنه كائن يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّها تَسْعى [سورة طه آية 66].

3 - وهو إما حيلة وشعوذة أو صناعة علمية خفية يعرفها الناس، ممكن أن يكون منه تأثير الأرواح والتنويم المغناطيسى.

4 – حكاية القرآن : يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ليس دليلا على أن السحر يفعل هذا وإنما هي حكاية لما كان مشهورا ومعروفا عندهم .

5 – السحر لا يؤثر بطبعه وإنما هو سبب ما يحدث عنه من أضرار من قبيل ربط المسببات كما نصت الآية . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التفسير الواضح حـ 1 صـ 63.61 ﴾

(301/61)

وقال الدكتور وهبة الزحيلى :

﴿ وَاتَّبَعُوا ما تَتْلُوا الشَّياطِينُ عَلى مُلْكِ سُلَيْمانَ ﴾

الإعراب :

اتَّبَعُوا معطوف على قوله تعالى : نَبَذَ فَرِيقٌ . . وتَتْلُوا أي تتبع بمعنى : تلت ، فأقام المستقبل مقام الماضي . يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ إما حال من ضمير كَفَرُوا أي كفروا معلمين ، أو حال من الشياطين ، أو بدل من كَفَرُوا لأن تعليم السحر كفر في المعنى ، أو خبر ثان للكن . وَما أُنْزِلَ . . ما : بمعنى الذي في موضع نصب بالعطف على السحر ، أو في موضع نصب بالعطف على ما تَتْلُوا . . أو في موضع جر بالعطف على مُلْكِ سُلَيْمانَ .

فَيَتَعَلَّمُونَ إما معطوف على يُعَلِّمانِ أو معطوف على فعل مقدر ، وتقديره : يأتون فيتعلمون ،

أو معطوف على يُعَلِّمُونَ النَّاسَ أي يعلمونهم فيتعلمون ، أو يكون مستأنفا ، وهو الأوجه ، والضمير لما دل عليه : من أحد .

وَما هُمْ بِضارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ أي ما هم السحرة بضارين بالسحر أحدا ، ومن : زائدة . وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَراهُ ، ما لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ اللام في لَمَنِ اشْتَراهُ لام الابتداء ، ومِنْ بمعنى الذي في موضع رفع ، لأنه مبتدأ ، وخبره ما لَهُ فِي الْآخِرَةِ واشتراه : صلته ، ومِنْ زائدة لتأكيد

النفي ، وخَلاقٍ مبتدأ ، ولَهُ فِي الْآخِرَةِ خبره ، والمبتدأ وخبره خبر المبتدأ الأول الذي هو « من » ولام لَمَنِ علّقت عَلِمُوا أن تعمل فيما بعدها . ويجوز أن تكون « من » شرطية .

وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا أن ها هنا مصدرية ، والتقدير : ولو وقع إيمانهم ، ولَوْ حرف يمتنع له الشيء لامتناع غيره ، وجوابه لَمَثُوبَةٌ و « مثوبة » مبتدأ ، وجاز الابتداء به مع كونه نكرة ، لأنه تخصص بالصفة وهو مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فقرب من المعرفة ، وخبره : خَيْرٌ .

البلاغة :

لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ هذا جار على الأسلوب البلاغي : وهو أن العالم بالشيء إذا لم يجر على موجب علمه قد ينزّل منزلة الجاهل به .

وكذبوهم فيما رموا به سليمان من الكفر . وإنما قص القرآن علينا ذلك للذكرى ، وليبين لنا ما افتراه أهل الأهواء على سليمان من أمر السحر ، فكان شاغلا عن العمل بالدين وأحكامه لدى اليهود . وقد زعموا أن سليمان هو الذي جمع كتب السحر من الناس ودفنها تحت كرسيه ، ثم استخرجها الناس وتناقلوها .

التفسير والبيان :

نبذ اليهود كتاب اللّه ، واتبع فريق من أحبارهم وعلمائهم الذين نبذوا التوراة ، السحر والشعوذة في زمن ملك سليمان ، لأن الشياطين كانوا يسترقون السمع من السماء ، ويضمون إليه أكاذيب ، ثم يلقنونها الكهنة ، فيعلمونها الناس ، ويقولون : إن هذا علم سليمان ، وقام ملك سليمان بهذا . فرد اللّه عليهم بأن سليمان ما فعل ذلك ، وما عمل سليمان بالسحر ، ولكن الشياطين هم الذين كفروا باتباع السحر وتدوينه وتعليمه الناس على وجه الإضرار والإغواء ، ونسبته إلى سليمان على وجه الكذب وجحد نبوته ، ويعلمونهم ما أنزل على الملكين ببابل ، وهما هاروت وماروت : وهما بشران صالحان قانتان ، أطلق الناس عليهما ملكين من باب الشبه . وقرأ الحسن البصري : الملكين- بكسر اللام تشبيها بالملوك في الخلق وسماع الكلمة .

وكان هذان الملكان يعلمان الناس السحر الذي كثرت فنونه الغريبة في عصرهم ، ليتمكنوا

من التمييز بينه وبين المعجزة ، ويعرفوا أن الذين يدّعون النبوة من السحرة كذبا إنما هم سحرة ، لا أنبياء . وقد كان تعلمهما السحر بالإلهام دون معلم ، وهو المقصود بالإنزال ، والذي أنزل عليهما كان من جنس السحر ، لا عينه .

ولكن هذين الملكين اتبعا في تعليم السحر سبيل الإنذار والتحذير ، فلا يعلمان أحدا من الناس ، حتى يقولا له : إنما نحن ابتلاء واختبار من اللّه عز وجل

(303/61)

، فلا تعمل بالسحر ولا تعتقد تأثيره ، وإلا كنت كافرا ، أما إذا تعلمته لتعلمه فقط دون اعتقاد بحقيقته ولا تأثير له ولا عمل به ، فلا ضرر ، وكانا يقولان ذلك حفاظا على حسن اعتقاد الناس فيهما .

فتعلم الناس من الملكين ما يفرّق به بين المرء وزوجه ، أو ما هو تمويه من حيلة أو نفث في العقد أو تأثير نفس وغير ذلك من وسائل التفريق غالبا .

والمعنى في عطف وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ على قوله يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ أن اليهود اتخذوا السحر من الملكين لا على الوجه المراد من توقي الناس وتحذيرهم ، وقد ألهما فنون السحر ليعلّما الناس حيل السحرة وخدعهم .

والسحر في الحقيقة لا يؤثر بطبعه ولا بقوة ذاتية فيه ، فلا يحدث الضرر منه إلا بأمر اللّه وإرادته ، فهو مجرد سبب ظاهري فقط ، وإذا أصيب إنسان بضرر بعمل من أعمال السحرة ، فإنما ذلك بإذن اللّه تعالى ، وما السحر حينئذ إلا وسيلة أو سبب قد يرتبط المسبب أو النتيجة به ، إذا شاء اللّه ، فهو الذي يوجد المسببات حين حصول الأسباب ، قال الحسن البصري : من شاء اللّه منعه ، فلا يضره السحر ، ومن شاء خلى بينه وبينه فضره .

ومن تعلم السحر وعمل به فإنه يتعلم ما يضره ولا ينفعه ، لأنه كان سببا في إضرار الناس ولأنه قصد الشر ، فيكرهه الناس لإيذائه ، ويعاقبه اللّه في الآخرة لإضراره غيره ، وإفساده المصالح ، وكل عامل يجزى بما عمل .

وتا للّه لقد علم اليهود بأن من ترك كتاب اللّه وأهمل أصول الدين وأحكام الشريعة التي تسعد في الدارين ، واستبدل به كتب السحر ، ما له في الآخرة إلا العذاب الأليم ، لأنه قد خالف حكم التوراة التي حظرت تعلم السحر ، وجعلت عقوبة من اتبع الجن والشياطين والكهان كعقوبة عابد الأوثان .

(304/61)

ولبئس ما باعوا به أنفسهم باتخاذ السحر محل التوراة ، فهم جهلة لا يعلمون حرمة السحر علم اعتقاد وامتثال ، لأنهم لم يعملوا بالعلم الصحيح ، وإنما اكتفوا بعلم مبهم لا أثر له في النفس .

ولو أنهم أي اليهود آمنوا الإيمان الحق بالتوراة ، وفيها البشارة بنبي آخر الزمان ، وآمنوا بمحمد صلّى اللّه عليه وآله وسلّم وبالقرآن ، وتركوا كتب السحر والشعوذة ، واتقوا اللّه بالمحافظة على أوامره واجتناب نواهيه ، لاستحقوا الثواب العظيم من عند اللّه ، جزاء على أعمالهم الصالحة ، وهو خير لهم لو كانوا يعلمون العلم الصحيح ، ولكنهم في الواقع لم يكونوا على علم حقيقي وإنما على ظن وتقليد ، إذ لو كانوا على علم ، لظهرت نتائجه في أعمالهم ، ولآمنوا بالنبي صلّى اللّه عليه وآله وسلّم واتبعوه وصاروا من المفلحين ، ولما خالفوا كتاب اللّه ، واتبعوا أهواءهم . فهم حين لم يعملوا بعلمهم الأصيل ، جعلوا كأنهم غير عالمين .

فقه الحياة أو الأحكام :

السحر : أصله التمويه بالحيل والتخاييل ، وهو أن يفعل الساحر أشياء ومعاني ، فيخيل للمسحور أنها بخلاف ما هي به ، كالذي يرى السراب من بعيد ، فيخيل إليه أنه ماء ، وكراكب السفينة السائرة بسرعة يخيل إليه أن ما يرى من الأشجار والجبال سائرة معه .

وجاء ذكر السحر في القرآن في مواضع كثيرة ، ولا سيما في قصص موسى وفرعون ،

ووصفه بأنه خداع وتخييل للأعين حتى ترى ما ليس بكائن كائنا ، كما قال تعالى : يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّها تَسْعى [طه 20/ 66] وقال : فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ [الأعراف 7/ 116] .

وروى مالك وأبو داود عن بريدة قال : سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم يقول : « إن من البيان لسحرا ، وإن من العلم جهلا « 1 » ، وإن من الشعر حكما ، وإن من القول عيالا »

أما

قوله : « إن من البيان لسحرا »

فالرجل يكون عليه الحق ، وهو ألحن بالحجج من صاحب الحق ، فيسحر القوم ببيانه ، فيذهب بالحق . وهذا مذموم . وهو المراد بالحديث في الأصح ، أما السحر الحلال الذي أقره النبي صلّى اللّه عليه وسلّم : فهو أن ينبئ شخص عن حق فيوضحه ، ويجليه بحسن بيانه ، بعد أن كان خفيا .

والسحر : إما حيلة بخفة يد ، وشعوذة ، وإما صناعة وعلم خفي يعرفه بعض الناس .

وهل للسحر حقيقة أم لا ؟ اختلف الناس في ذلك « 2 » .

فرأى جمهور العلماء : أن للسحر حقيقة ، يخلق اللّه عنده ما شاء ، وأنه تقتدر به النفوس البشرية على التأثير في عالم العناصر ، إما بغير معين ، أو بمعين من الأمور كالكواكب

السماوية ، ويرون أن النفوس الساحرة ثلاث مراتب :

الأولى- المؤثرة بالهمة فقط من غير آلة ولا معين .

والثانية- بمعين من مزاج الأفلاك (أي طبيعتها) ، أو العناصر (الماء والهواء والتراب والنار) ، أو خواص الأعداد ، أي حساب الجمّل ، فلكل حرف من الأحرف الهجائية رقم حسابي معين .

والثالثة- تأثير في القوى المتخيلة : بأن يعمد الشخص إلى القوة المتخيلة ،

---

(1) ومعنى قوله « من العلم جهلا »

أن يتكلف العالم إلى علمه ما لا يعلم فيجهّله ذلك . ومعنى

قوله : « إن من الشعر حكما »

: هو هذه الأمثال والمواعظ التي يتعظ بها الناس . ومعنى

« إن من القول عيالا »

هو عرضك كلامك وحديثك على من ليس من شأنه ولا يريده .

(2) تفسير القرطبي : 2/ 44- 47 ، تفسير ابن كثير : 1/ 145- 147 ، تفسير الكشاف : 1/ 231 ، البحر المحيط : 1/ 327

فيلقي فيها أنواعا من الخيالات والصور ، ثم ينزلها إلى الحس من الرائين ، بقوة نفسه المؤثرة ، فينظر الراءون كأن شيئا موجودا في الواقع ، وليس هناك شيء من ذلك .

وتنال هذه المراتب بالرياضة ، والتوجه إلى الأفلاك والكواكب والعوالم العلوية والشياطين بأنواع التعظيم والعبادة ، فهي لذلك وجهة وسجود لغير اللّه ، والوجهة لغير اللّه كفر ، فلهذا كان السحر كفرا .

ويرى المعتزلة ، وبعض أهل السنة « 1 » : أن السحر لا حقيقة له ، وإنما هو خداع وتمويه وتخيل . والسحر بهذا المعنى أنواع :

أ- كثير من التخيلات التي مظهرها على خلاف حقائقها ، كما يفعل بعض المشعوذين ، من أنه يريك أنه ذبح عصفورا ، ثم يريكه وقد طار بعد ذبحه ، لخفة حركته ، إذ إن معه اثنين أحدهما المذبوح الذي خبأه ، والآخر الذي أظهره .

وكان سحر سحرة فرعون من هذا النوع ، فقد روى المؤرخون أن سحرة فرعون استعانوا بالزئبق على إظهار الحبال والعصي بصور الحيات والثعابين حتى خيل إلى الناس أنها تسعى ، كما قال تعالى : فَإِذا حِبالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّها تَسْعى [طه 20/ 66] من طريق تحمية الزئبق بالنار الموضوعة في أسراب ، وتمدده بفعل الحرارة .

ب- ما يدعونه من حديث الجن والشياطين بالمواطأة مع قوم أعدوهم لذلك ، وإطاعتها

بالرقى والعزائم . وهذا كان فعل الكهان من العرب في

---

(1) وهم أبو جعفر الاسترابادي من الشافعية ، وأبو بكر الرازي من الحنفية ، وابن حزم الظاهري وطائفة .

الجاهلية ، كانوا يوكلون أناسا بالاطلاع على أسرار الناس ، حتى إذا جاء أصحابها أخبروهم بها ، فيعتقدون فيهم أن الشياطين تخبرهم بالمغيبات .

ج- السعي بالنميمة والوشاية والإفساد ، من وجوه خفية لطيفة ، يتم فيها تحريض الناس على بعضهم بعضا « 1 » .

وقد وفق ابن خالدون بين الرأيين : فمن قال : إن للسحر حقيقة نظر إلى المرتبتين الأوليين ، ومن قال بأنه لا حقيقة له ، نظر إلى المرتبة الثالثة .

حكم السحر :

ليس تعلم السحر محظورا ، وإنما الذي يحظر ويمنع هو العمل به ، قيل لعمر بن الخطاب : فلان لا يعرف الشر ، قال : أجدر أن يقع فيه . نقل ابن كثير عن أبي عبد اللّه الرازي المعتزلي أنه قال : اتفق المحققون على أن العلم بالسحر ليس بقبيح ولا محظور « 2 » .

ومن السحر : ما يكون كفرا من فاعله ، مثل ما يدّعون من تغيير صور الناس ، وإخراجهم في هيئة بهيمة ، وقطع مسافة شهر في ليلة ، والطيران في الهواء ، فكل من فعل هذا ليوهم الناس أنه محق ، فذلك كفر منه ، ويقتل هذا الساحر ، لأنه كافر بالأنبياء ، يدّعي مثل آياتهم ومعجزاتهم .

وأما من زعم أن السحر خدع ومخاريق وتمويهات وتخييلات ، فلا يقتل الساحر ، إلا أن يقتل بفعله أحدا ، فيقتل به .

ولا ينكر أن يظهر على يد الساحر خرق العادات ، مما ليس في مقدور البشر ، من مرض وتفريق وزوال عقل ، وتعويج عضو ، إلى غير ذلك ، مما قام الدليل على استحالة كونه من مقدورات العباد .

---

(1) تفسير ابن كثير : 1/ 145

(2) المرجع السابق : ص 144

وأجمع المسلمون على أنه ليس في السحر ما يفعل اللّه عنده إنزال الجراد والقمّل والضفادع وفلق البحر وقلب العصا وإحياء الموتى وإنطاق العجماوات وأمثال ذلك من عظيم آيات

الرسل المنزلة عليهم ، فهذا ونحوه مما يجب القطع بأنه لا يكون ولا يفعله اللّه عند إرادة الساحر .

الفرق بين معجزات الأنبياء عليهم السلام وبين السحر :

لا يصح لمؤمن أن يجمع بين تصديق الأنبياء عليهم السلام وإثبات معجزاتهم وبين التصديق بأفعال السحرة ، لقوله تعالى : وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى [طه 20/ 69] .

وهناك فرق واضح بين المعجزة والسحر القائم على وجوه التخييلات : وهو أن معجزات الأنبياء عليهم السلام هي على حقائقها ، وبواطنها كظواهرها ، وكلما تأملتها ازددت بصيرة في صحتها . ولو جهد الخلق كلهم على مضاهاتها ومقابلتها بأمثالها ، لظهر عجزهم عنها .

أما مخاريق السحرة وتخييلاتهم فهي نوع من الحيلة والتلطف لإظهار أمور لا حقيقة لها ، فما يظهر منها ليس على الحقيقة ، ويعرف ذلك بالتأمل والبحث . ومن شاء أن يتعلم ذلك بلغ فيه مبلغ غيره ، ويأتي بمثل ما قام به « 1 » .

والسحر يوجد من الساحر وغيره ، وقد يكون جماعة يعرفونه ، ويمكنهم الإتيان به في وقت واحد ، والمعجزة لا يمكّن اللّه أحدا أن يأتي بمثلها وبمعارضتها « 2 » .

وخلاصة القول : إن الساحر لا قدرة له على شيء من الأمور الخارقة ، وإن

---

(1) أحكام القرآن للجصاص : 1/ 49 [. . . . .]

(2) تفسير القرطبي : 2/ 47

(308/61)

السحر يعتمد في الغالب على الخداع والتخييلات والتمويهات ، وإن السحرة نصابون يسلبون أموال الناس ، وهم في فقر دائم ، ولو كانوا قادرين على ما يدعونه لأغنوا أنفسهم ، وحققوا الأمجاد بإزالة الممالك ، واستخراج الكنوز ، والغلبة على البلدان ، والاستغناء عن طلب ما في أيدي الناس ، كما قال أبو بكر الجصاص الرازي « 1 » .

يتبين مما ذكر ما يأتي :

1- السحر في اللغة : كل ما لطف مأخذه وخفي .

2- السحر كما وصفه القرآن تخيل يخدع الأعين ، فيريها ما ليس كائنا أنه كائن .

3- السحر إما حيلة وشعوذة أو صناعة علمية خفية يعرفها بعض الناس ، ومنه تأثير الأرواح والتنويم المغناطيسي .

4- حكاية القرآن : يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ليس دليلا على أن السحر يفعل هذا ، وإنما هي حكاية لما كان معروفا عندهم .

5- السحر لا يؤثر بطبعه ولا أثر له في نفسه ، وإنما هو سبب ، وما يترتب عنه من أضرار من قبيل ربط المسببات بالأسباب ، كما نصت الآية : وَما هُمْ بِضارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ [البقرة 2/ 102] .

6- دلت الآية على أن عمل السحر كفر وهو قول مالك وأبي حنيفة ، لقوله تعالى : وَاتَّبَعُوا ما تَتْلُوا الشَّياطِينُ عَلى مُلْكِ سُلَيْمانَ أي من السحر ، وقوله :

وَما كَفَرَ سُلَيْمانُ أي بعمل السحر ، وقوله : وَلكِنَّ الشَّياطِينَ كَفَرُوا أي به وبتعليمه ، وقوله عن هاروت وماروت : إِنَّما نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ .

---

(1) أحكام القرآن : 1/ 48

ورأى الشافعي أن السحر معصية : إن قتل بها قتل ، وإن أضرّ بها أدّب على قدر الضرر .

والرأي الأول أصح ، لأن السحر كلام يعظم به غير اللّه تعالى ، مثل سحر أهل بابل الذي كان تعظيما للكواكب ، وهو رأي عمر وعثمان وابن عمر وحفصة وأبي موسى الأشعري وقيس بن سعد وسبعة من التابعين .

لكن تكفير السحرة محصور بمن يعظم الكواكب ، ويسند الحوادث إليها ، أو يزعم أنه يقدر

على خوارق العادات ، لأنه يدعي أنه يقدر على مثل معجزات الأنبياء .

أما الإفساد بالنميمة أو خفة اليد ، دون ادعاء ما ذكر ، فلا يكون كفرا ، ولا يعد فاعله كافرا .

7 - عقوبة الساحر : للعلماء رأيان في قتل الساحر ، قال الجمهور (أبو حنيفة ومالك وأحمد) : يقتل الساحر ،

لقوله صلّى اللّه عليه وسلّم : « حدّ الساحر ضربه بالسيف »

« 1 » وإذا عمل المسلم السحر ، كان مرتدا ، فيقتل

لقوله صلّى اللّه عليه وسلّم : « من بدّل دينه فاقتلوه » .

ويقتل الساحر ولا تقبل توبته في رأي أبي حنيفة ، سواء أكان مسلما أم ذميا ، لأن الساحر جمع إلى كفره السعي في الأرض بالفساد ، فأشبه المحارب (قاطع الطريق) . ولا يقتل الساحر الذمي في رأي مالك إلا أن يقتل بسحره ، ويضمن ما جنى ، ويقتل إن جاء منه ما لم يعاهد عليه « 2 » .

7 - أجاز سعيد بن المسيب والمزني أن يطلب من الساحر حل السحر عن المسحور ، قال ابن بطال : وفي كتاب وهب بن منبّه : أن يأخذ سبع ورقات من

---

(1) أخرجه الترمذي عن جندب ، لكنه ليس بالقوي ، انفرد به إسماعيل بن مسلم ، وهو ضعيف .

(2) أحكام القرآن للجصاص : 1/ 50 وما بعدها ، تفسير القرطبي : 2/ 47 وما بعدها .

سدر أخضر ، فيدقه بين حجرين ، ثم يضربه بالماء ، ويقرأ عليه آية الكرسي ، ثم يحسو منه ثلاث حسوات ، ويغتسل به ، فإنه يذهب عنه كل ما به ، إن شاء اللّه تعالى ، وهو جيد للرجل إذا حبس عن أهله .

8- تساءل ابن العربي بمناسبة وَما أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ فقال : كيف أنزل اللّه تعالى الباطل والكفر ؟ ثم قال : كل خير أو شر أو طاعة أو معصية أو إيمان أو كفر منزّل من عند اللّه تعالى ، قال النبي صلّى اللّه عليه وسلّم في الصحيح : ماذا فتح الليلة من الخزائن ؟ ماذا أنزل اللّه تعالى من الفتن ؟ أيقظوا أصحاب الحجر ، ربّ كاسية في الدنيا عارية يوم القيامة « 1 » .

---

(1) أحكام القرآن لابن العربي : 1/ 28 ، وانظر أيضا تفسير ابن كثير : 1/ 148

9- هل هاروت وماروت ملكان ؟

اختلف العلماء ، فقال جماعة : هما ملكان بعثهما اللّه يبينان للناس بطلان ما يدعون حقيقته ، ويكشفان لهم عن وجوه الحيل التي يخدعون بها الناس ، وينهيانهم عن العمل بها ، يقولان : إِنَّما نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ فكانا يعلمانهم للتحرز لا للعمل ، لأن الملائكة أمناء اللّه على وحيه ، وسفراؤه إلى رسله : لا يَعْصُونَ اللَّهَ ما أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ [التحريم 66/ 6] ، بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ ، لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ ، وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ [الأنبياء 21/ 26- 27] ، يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ لا يَفْتُرُونَ [الأنبياء 20/ 20] .

قال الزمخشري : والذي أنزل على الملكين هو علم السحر ، ابتلاء من اللّه للناس ، من تعلمه منهم وعمل به ، كان كافرا ، ومن تجنبه أو تعلمه ، لا ليعمل به ، ولكن ليتوقاه ولئلا يغتر به ، كان مؤمنا :

عرفت الشر لا للشر لكن لتوقيه ومن لا يعرف الشر من الناس يقع فيه وروي عن الحسن البصري : أنه كان يقرأ : وَما أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بكسر اللام ، ويقول : كانا علجين « 1 » أقلفين (غير مختونين) ملكين ببابل ، يأمران بالسحر ويتمسكان به .

أدب الخطاب مع النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ومصدر الاختصاص بالرسالة . انتهى .

اهـ ﴿ التفسير المنير حـ 1 صـ 241. 253 ﴾

(1) العلج : الواحد من كفار العجم .

(312/61)

من فوائد الإمام الجصاص في الآية

قال رحمه الله :

بَابُ السِّحْرِ وَحُكْمُ السَّاحِرِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ ﴾ إلَى آخَرِ الْقِصَّةِ قَالَ أَبُو بَكْرٍ : الْوَاجِبُ أَنْ نُقَدِّمَ الْقَوْلَ فِي السِّحْرِ لِخَفَائِهِ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ فَضْلًا عَنْ الْعَامَّةِ ، ثُمَّ نُعَقِّبُهُ بِالْكَلَامِ فِي حُكْمِهِ فِي مُقْتَضَى الْآيَةِ فِي الْمَعَانِي وَالْأَحْكَامِ ، فَنَقُولُ : إنَّ أَهْلَ اللُّغَةِ يَذْكُرُونَ أَنَّ أَصْلَهُ فِي اللُّغَةِ لِمَا لَطُفَ وَخَفِيَ سَبَبُهُ ، وَالسَّحَرُ عِنْدَهُمْ بِالْفَتْحِ وَهُوَ الْغِذَاءُ لِخَفَائِهِ وَلُطْفِ مَجَارِيهِ .

قَالَ لَبِيدٌ : أَرَانَا مَوْضِعَيْنِ لِأَمْرِ غَيْبٍ وَنُسْحَرُ بِالطَّعَامِ وَبِالشَّرَابِ قِيلَ : فِيهِ وَجْهَانِ : نُعَلَّلُ وَنُخْدَعُ كَالْمَسْحُورِ وَالْمَخْدُوعِ ، وَالْآخَرُ : نُغَذَّى ، وَأَيُّ الْوَجْهَيْنِ كَانَ فَمَعْنَاهُ الْخَفَاءُ وَقَالَ آخَرُ : فَإِنْ تَسْأَلِينَا فِيمَ نَحْنُ فَإِنَّنَا عَصَافِيرُ مِنْ هَذَا الْأَنَامِ الْمُسَحَّرِ وَهَذَا الْبَيْتُ يَحْتَمِلُ مِنْ الْمَعْنَى مَا احْتَمَلَهُ الْأَوَّلُ ، وَيَحْتَمِلُ أَيْضًا أَنَّهُ أَرَادَ بِالْمُسَحَّرِ أَنَّهُ ذُو سِحْرٍ وَالسَّحَرُ الرِّئَةُ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِالْحُلْقُومِ ، وَهَذَا يَرْجِعُ إلَى مَعْنَى الْخَفَاءِ ، وَمِنْهُ قَوْلُ عَائِشَةَ : " تُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ سَحْرِي وَنَحْرِي " ، وقَوْله تَعَالَى ﴿ إنَّمَا أَنْتَ مِنْ الْمُسَحَّرِينَ ﴾ يَعْنِي مِنْ الْمَخْلُوقِ الَّذِي يُطْعَمُ وَيُسْقَى ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْله تَعَالَى ﴿ وَمَا أَنْتَ إلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا ﴾ وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ﴾ وَيُحْتَمَلُ أَنَّهُ ذُو سِحْرٍ مِثْلُنَا وَإِنَّمَا يُذْكَرُ السِّحْرُ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْمَوَاضِعِ لِضَعْفِ هَذِهِ الْأَجْسَادِ وَلَطَافَتِهَا وَرِقَّتِهَا وَبِهَا مَعَ ذَلِكَ قَوَامُ الْإِنْسَانِ ، فَمَنْ كَانَ بِهَذِهِ الصِّفَةِ فَهُوَ ضَعِيفٌ مُحْتَاجٌ.

وَهَذَا هُوَ مَعْنَى السِّحْرِ فِي اللُّغَةِ ، ثُمَّ نُقِلَ هَذَا الِاسْمُ إلَى كُلِّ أَمْرٍ خَفِيَ سَبَبُهُ

(313/61)

وَتُخَيِّلَ عَلَى غَيْرِ حَقِيقَتِهِ وَيَجْرِي مَجْرَى التَّمْوِيهِ وَالْخِدَاعِ ، وَمَتَى أُطْلِقَ وَلَمْ يُقَيَّدْ أَفَادَ ذَمَّ فَاعِلِهِ وَقَدْ أُجْرِيَ مُقَيَّدًا فِيمَا يُمْتَدَحُ وَيُحْمَدُ كَمَا رُوِيَ : ﴿ إنَّ مِنْ الْبَيَانِ لَسِحْرًا ﴾ .

حَدَّثَنَا عَبْدُ الْبَاقِي قَالَ : حَدَّثَنَا إبْرَاهِيمُ الْحَرَّانِيُّ قَالَ : حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ حَرْبٍ قَالَ : حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ ﴿ : قَدِمَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الزِّبْرِقَانُ بْنُ بَدْرٍ وَعَمْرُو بْنُ الْأَهْتَمِ وَقَيْسُ بْنُ عَاصِمٍ ، فَقَالَ لِعَمْرٍو : خَبِّرْنِي عَنْ الزِّبْرِقَانِ فَقَالَ : مُطَاعٌ فِي نَادِيهِ ، شَدِيدُ الْعَارِضَةِ مَانِعٌ لِمَا وَرَاءَ ظَهْرِهِ فَقَالَ الزِّبْرِقَانُ : هُوَ وَاَللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي أَفْضَلُ مِنْهُ فَقَالَ عَمْرٌو : إنَّهُ زَمِرُ الْمُرُوءَةِ ضَيِّقُ الْعَطَنِ أَحْمَقُ الْأَبِ لَئِيمُ الْخَالِ

يَا رَسُولَ اللَّهِ صَدَقْت فِيهِمَا أَرْضَانِي فَقُلْت أَحْسَنُ مَا عَلِمْت ، وَأَسْخَطَنِي فَقُلْت أَسْوَأُ مَا عَلِمْت فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إنَّ مِنْ الْبَيَانِ لَسِحْرًا ﴾ .

وَحَدَّثَنَا إبْرَاهِيمُ الْحَرَّانِيُّ قَالَ : حَدَّثَنَا مُصْعَبُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ : حَدَّثَنَا مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ ﴿ : قَدِمَ رَجُلَانِ فَخَطَبَ أَحَدُهُمَا فَعَجِبَ النَّاسُ لِذَلِكَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إنَّ مِنْ الْبَيَانِ لَسِحْرًا ﴾ .

(314/61)

قَالَ : وَحَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَكْرٍ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُد قَالَ : حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى بْنِ فَارِسٍ قَالَ : حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ مُحَمَّدٍ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو تُمَيْلَةَ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو جَعْفَرٍ النَّحْوِيُّ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ ثَابِتٍ قَالَ : حَدَّثَنِي صَخْرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُرَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ : سَمِعْت رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : ﴿ إنَّ مِنْ الْبَيَانِ لَسِحْرًا ، وَإِنَّ مِنْ الْعِلْمِ جَهْلًا ، وَإِنَّ مِنْ الشِّعْرِ حِكَمًا ، وَإِنَّ مِنْ الْقَوْلِ

عِيَالًا ﴾ .

قَالَ صَعْصَعَةُ بْنُ صُوحَانَ : صَدَقَ نَبِيُّ اللَّهِ أَمَّا قَوْلُهُ : " إنَّ مِنْ الْبَيَانِ لَسِحْرًا " فَالرَّجُلُ يَكُونُ عَلَيْهِ الْحَقُّ وَهُوَ أَلْحَنُ بِالْحُجَجِ مِنْ صَاحِبِ الْحَقِّ فَيَسْحَرُ الْقَوْمَ بِبَيَانِهِ فَيَذْهَبُ بِالْحَقِّ .

وَأَمَّا قَوْلُهُ : " مِنْ الْعِلْمِ جَهْلًا " فَيَتَكَلَّفُ الْعَالِمُ إلَى عِلْمِهِ مَا لَا يَعْلَمُ فَيُجَهِّلُهُ ذَلِكَ وَأَمَّا قَوْلُهُ : " إنَّ مِنْ الشِّعْرِ حِكَمًا " فَهِيَ هَذِهِ الْأَمْثَالُ وَالْمَوَاعِظُ الَّتِي يَتَّعِظُ بِهَا النَّاسُ وَأَمَّا قَوْلُهُ : " إنَّ مِنْ الْقَوْلِ عِيَالًا " فَعَرْضُك كَلَامَك وَحَدِيثَك عَلَى مَنْ لَيْسَ مِنْ شَأْنِهِ وَلَا يُرِيدُهُ فَسَمَّى النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعْضَ الْبَيَانِ سِحْرًا ؛ لِأَنَّ صَاحِبَهُ بَيْنَ أَنْ يُنْبِئَ عَنْ حَقٍّ فَيُوضِحَهُ وَيُجَلِّيَهِ بِحُسْنِ بَيَانِهِ بَعْدَ أَنْ كَانَ خَفِيًّا ؛ فَهَذَا مِنْ السِّحْرِ الْحَلَالِ الَّذِي أَقَرَّ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَمْرَو بْنَ الْأَهْتَمِ عَلَيْهِ وَلَمْ يُسْخِطْهُ مِنْهُ .

(315/61)

وَرُوِيَ أَنَّ رَجُلًا تَكَلَّمَ بِكَلَامٍ بَلِيغٍ عِنْدَ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ فَقَالَ عُمَرُ : " هَذَا وَاَللَّهِ السِّحْرُ الْحَلَالُ " وَبَيْنَ أَنْ يُصَوِّرَ الْبَاطِلَ فِي صُورَةِ الْحَقِّ بِبَيَانِهِ وَيَخْدَعَ السَّامِعِينَ بِتَمْوِيهِهِ وَمَتَى أُطْلِقَ فَهُوَ اسْمٌ لِكُلِّ أَمْرٍ مُمَوَّهٍ بَاطِلٍ لَا حَقِيقَةَ لَهُ وَلَا ثَبَاتَ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ ﴾ يَعْنِي مَوَّهُوا عَلَيْهِمْ حَتَّى ظَنُّوا أَنَّ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ تَسْعَى وَقَالَ : ﴿ يُخَيَّلُ إلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ﴾ فَأَخْبَرَ أَنَّ مَا ظَنُّوهُ سَعْيًا مِنْهَا لَمْ يَكُنْ سَعْيًا وَإِنَّمَا كَانَ تَخْيِيلًا وَقَدْ قِيلَ : إنَّهَا كَانَتْ عِصِيًّا مُجَوَّفَةً قَدْ مُلِئَتْ زِئْبَقًا ، وَكَذَلِكَ الْحِبَالُ كَانَتْ مَعْمُولَةً مِنْ أُدُمٍ مَحْشُوَّةٍ زِئْبَقًا ، وَقَدْ حَفَرُوا قَبْلَ ذَلِكَ تَحْتَ الْمَوَاضِعِ أَسْرَابًا وَجَعَلُوا آزَاجًا وَمَلَئُوهَا نَارًا ،

فَلَمَّا طُرِحَتْ عَلَيْهِ وَحَمِيَ الزِّئْبَقُ حَرَّكَهَا ؛ لِأَنَّ مِنْ شَأْنِ الزِّئْبَقِ إذَا أَصَابَتْهُ النَّارُ أَنْ يَطِيرَ ، فَأَخْبَرَ اللَّهُ أَنَّ ذَلِكَ كَانَ مُمَوَّهًا عَلَى غَيْرِ حَقِيقَتِهِ وَالْعَرَبُ تَقُولُ لَضَرْبٌ مِنْ الْحُلِيِّ " مَسْحُورٌ " أَيْ مُمَوَّهٌ عَلَى مَنْ رَآهُ مَسْحُورٌ بِهِ عَيْنُهُ فَمَا كَانَ مِنْ الْبَيَانِ عَلَى حَقٍّ وَيُوَضِّحُهُ فَهُوَ مِنْ السِّحْرِ الْحَلَالِ ، وَمَا كَانَ مِنْهُ مَقْصُودًا بِهِ إلَى تَمْوِيهٍ وَخَدِيعَةٍ وَتَصْوِيرِ بَاطِلٍ فِي صُورَةِ الْحَقِّ فَهُوَ مِنْ السِّحْرِ الْمَذْمُومِ .

(316/61)

فَإِنْ قِيلَ : إذَا كَانَ مَوْضُوعُ السِّحْرِ التَّمْوِيهَ وَالْإِخْفَاءَ ؛ فَكَيْفَ يَجُوزُ أَنْ يُسَمَّى مَا يُوَضِّحُ الْحَقَّ وَيُنْبِئُ عَنْهُ سِحْرًا ، وَهُوَ إنَّمَا أَظْهَرَ بِذَلِكَ مَا خَفِيَ وَلَمْ يَقْصِدْ بِهِ إلَى إخْفَاءِ مَا ظَهَرَ وَإِظْهَارُهُ غَيْرُ حَقِيقَةٍ ؟ قِيلَ لَهُ : سُمِّيَ ذَلِكَ سِحْرًا مِنْ حَيْثُ كَانَ الْأَغْلَبُ فِي ظَنِّ السَّامِعِ أَنَّهُ لَوْ وَرَدَ عَلَيْهِ الْمَعْنَى بِلَفْظٍ مُسْتَنْكَرٍ غَيْرِ مُبَيَّنٍ لَمَا صَادَفَ مِنْهُ قَبُولًا وَلَا أَصْغَى إلَيْهِ ، وَمَتَى سَمِعَ الْمَعْنَى بِعِبَارَةٍ مَقْبُولَةٍ عَذْبَةٍ لَا فَسَادَ فِيهَا وَلَا اسْتِنْكَارَ وَقَدْ تَأَتَّى لَهَا بِلَفْظِهِ وَحُسْنِ بَيَانِهِ بِمَا لَا يَتَأَتَّى لَهُ الْغَبِيُّ الَّذِي لَا بَيَانَ لَهُ أَصْغَى إلَيْهِ وَسَمِعَهُ وَقَبِلَهُ ، فَسُمِّيَ اسْتِمَالَتُهُ لِلْقُلُوبِ بِهَذَا الضَّرْبِ مِنْ الْبَيَانِ سِحْرًا كَمَا يَسْتَمِيلُ السَّاحِرُ قُلُوبَ الْحَاضِرِينَ إلَى مَا مَوَّهَ بِهِ وَلَبَّسَهُ ، فَمِنْ هَذَا الْوَجْهِ سُمِّيَ الْبَيَانُ سِحْرًا لَا مِنْ الْوَجْهِ الَّذِي ظَنَنْت وَيَجُوزُ أَنْ

يَكُونَ إنَّمَا سَمَّى الْبَيَانَ سِحْرًا لِأَنَّ الْمُقْتَدِرَ عَلَى الْبَيَانِ رُبَّمَا قَبُحَ بَيَانُهُ بَعْضَ مَا هُوَ حَسَنٌ وَحَسُنَ عِنْدَهُ بَعْضُ مَا هُوَ قَبِيحٌ فَسَمَّاهُ لِذَلِكَ سِحْرًا ، كَمَا سَمَّى مَا مَوَّهَ بِهِ صَاحِبُهُ وَأَظْهَرَ عَلَى غَيْرِ حَقِيقَةٍ سِحْرًا .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ : وَاسْمِ السِّحْرِ إنَّمَا أُطْلِقَ عَلَى الْبَيَانِ مَجَازًا لَا حَقِيقَةً وَالْحَقِيقَةُ مَا وَصَفْنَا ، وَلِذَلِكَ صَارَ عِنْدَ الْإِطْلَاقِ إنَّمَا يَتَنَاوَلُ كُلَّ أَمْرٍ مُمَوَّهٍ قَدْ قُصِدَ بِهِ

(317/61)

الْخَدِيعَةُ وَالتَّلْبِيسُ وَإِظْهَارُ مَا لَا حَقِيقَةَ لَهُ وَلَا ثَبَاتَ وَإِذْ قَدْ بَيَّنَّا أَصْلَ السِّحْرِ فِي اللُّغَةِ وَحُكْمَهُ عِنْدَ الْإِطْلَاقِ وَالتَّقْيِيدِ فَلْنَقُلْ فِي مَعْنَاهُ فِي التَّعَارُفِ وَالضُّرُوبِ الَّذِي يَشْتَمِلُ عَلَيْهَا هَذَا الِاسْمُ وَمَا يَقْصِدُ بِهِ كُلُّ فَرِيقٍ مِنْ مُنْتَحِلِيهِ وَالْغَرَضِ الَّذِي يَجْرِي إلَيْهِ مُدَّعُوهُ ، فَنَقُولُ وَبِاَللَّهِ التَّوْفِيقُ : إنَّ ذَلِكَ يَنْقَسِمُ إلَى أَنْحَاءَ مُخْتَلِفَةٍ : فَمِنْهَا سِحْرُ أَهْلِ بَابِلَ الَّذِينَ ذَكَرَهُمْ اللَّهُ تَعَالَى فِي قَوْلِهِ : ﴿ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ﴾ وَكَانُوا قَوْمًا صَابِئِينَ يَعْبُدُونَ الْكَوَاكِبَ السَّبْعَةَ وَيُسَمُّونَهَا آلِهَةً وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّ حَوَادِثَ الْعَالَمِ كُلِّهَا مِنْ أَفْعَالِهَا وَهُمْ مُعَطِّلَةٌ لَا يَعْتَرِفُونَ بِالصَّانِعِ الْوَاحِدِ الْمُبْدِعِ لِلْكَوَاكِبِ وَجَمِيعِ أَجْرَامِ الْعَالَمِ وَهُمْ الَّذِينَ بَعَثَ اللَّهُ تَعَالَى إلَيْهِمْ إبْرَاهِيمَ خَلِيلَهُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ فَدَعَاهُمْ إلَى اللَّهِ

تَعَالَى وَحَاجَّهُمْ بِالْحِجَاجِ الَّذِي بَهَرَهُمْ بِهِ وَأَقَامَ عَلَيْهِمْ بِهِ الْحُجَّةَ مِنْ حَيْثُ لَمْ يُمْكِنْهُمْ دَفْعُهُ ثُمَّ أُلْقُوهُ فِي النَّارِ فَجَعَلَهَا اللَّهُ تَعَالَى بَرْدًا وَسَلَامًا ، ثُمَّ أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِالْهِجْرَةِ إلَى الشَّامِ .

(318/61)

وَكَانَ أَهْلُ بَابِلَ وَإِقْلِيمِ الْعِرَاقِ وَالشَّامِ وَمِصْرَ وَالرُّومِ عَلَى هَذِهِ الْمَقَالَةِ إلَى أَيَّامِ بيوراسب الَّذِي تُسَمِّيهِ الْعَرَبُ " الضَّحَّاكَ " وَإِنَّ أَفْرِيدُونَ وَكَانَ مِنْ أَهْلِ دنباوند اسْتَجَاشَ عَلَيْهِ بِلَادَهُ وَكَاتَبَ سَائِرَ مَنْ يُطِيعُهُ وَلَهُ قِصَصٌ طَوِيلَةٌ حَتَّى أَزَالَ مُلْكَهُ وَأَسَرَهُ وَجُهَّالُ الْعَامَّةِ وَالنِّسَاءِ عِنْدَنَا يَزْعُمُونَ أَنَّ أَفْرِيدُونَ حَبَسَ بيوراسب فِي جَبَلِ دنباوند الْعَالِي عَلَى الْجِبَالِ ، وَأَنَّهُ حَيٌّ هُنَاكَ مُقَيَّدٌ ، وَأَنَّ السَّحَرَةَ يَأْتُونَهُ هُنَاكَ فَيَأْخُذُونَ عَنْهُ السِّحْرَ ، وَأَنَّهُ سَيَخْرُجُ فَيَغْلِبُ عَلَى الْأَرْضِ ، وَأَنَّهُ هُوَ

الدَّجَّالُ الَّذِي أَخْبَرَ بِهِ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَحَذَّرْنَاهُ ، وَأَحْسَبُهُمْ أَخَذُوا ذَلِكَ عَنْ الْمَجُوسِ وَصَارَتْ مَمْلَكَةُ إقْلِيمِ بَابِلَ لِلْفُرْسِ فَانْتَقَلَ بَعْضُ مُلُوكِهِمْ إلَيْهَا فِي بَعْضِ الْأَزْمَانِ فَاسْتَوْطَنُوهَا .

وَلَمْ يَكُونُوا عَبَدَةَ أَوْثَانٍ بَلْ كَانُوا مُوَحِّدِينَ مُقِرِّينَ بِاَللَّهِ وَحْدَهُ ، إلَّا أَنَّهُمْ مَعَ ذَلِكَ يُعَظِّمُونَ الْعَنَاصِرَ الْأَرْبَعَةَ : الْمَاءَ ، وَالنَّارَ ، وَالْأَرْضَ ، وَالْهَوَاءَ ؛ لِمَا فِيهَا مِنْ مَنَافِعِ الْخَلْقِ وَأَنَّ بِهَا قِوَامُ

الْحَيَوَانِ وَإِنَّمَا حَدَثَتْ الْمَجُوسِيَّةَ فِيهِمْ بَعْد ذَلِكَ فِي زَمَانِ (كشتاسب) حِينَ دَعَاهُ (زَرَادُشْتُ) فَاسْتَجَابَ لَهُ عَلَى شَرَائِطَ وَأُمُورٍ يَطُولُ شَرْحُهَا ، وَإِنَّمَا عَرَضْنَا فِي هَذَا الْمَوْضِعِ الْإِبَانَةَ عَمَّا كَانَتْ عَلَيْهِ سَحَرَةُ بَابِلَ .

(319/61)

وَلَمَّا ظَهَرَتْ الْفُرْسُ عَلَى هَذَا الْإِقْلِيمِ كَانَتْ تَتَدَيَّنُ بِقَتْلِ السَّحَرَةِ وَإِبَادَتِهَا ، وَلَمْ يَزُلْ ذَلِكَ فِيهِمْ وَمِنْ دِينِهِمْ بَعْدَ حُدُوثِ الْمَجُوسِيَّةِ فِيهِمْ وَقَبْلَهُ إلَى أَنْ زَالَ عَنْهُمْ الْمُلْكُ وَكَانَتْ عُلُومُ أَهْلِ بَابِلَ قَبْلَ ظُهُورِ الْفُرْسِ عَلَيْهِمْ الْحِيَلَ والنيرنجيات وَأَحْكَامِ النُّجُومِ ، وَكَانُوا يَعْبُدُونَ أَوْثَانًا قَدْ عَمِلُوهَا عَلَى أَسْمَاءِ الْكَوَاكِبِ السَّبْعَةِ وَجَعَلُوا لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا هَيْكَلًا فِيهِ صَنَمُهُ وَيَتَقَرَّبُونَ إلَيْهَا بِضُرُوبٍ مِنْ الْأَفْعَالِ عَلَى حَسَبِ اعْتِقَادَاتِهِمْ مِنْ مُوَافَقَةِ ذَلِكَ لِلْكَوْكَبِ الَّذِي يَطْلُبُونَ مِنْهُ بِزَعْمِهِمْ فِعْلَ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ ، فَمَنْ أَرَادَ شَيْئًا مِنْ الْخَيْرِ وَالصَّلَاحِ بِزَعْمِهِ يَتَقَرَّبُ إلَيْهِ بِمَا يُوَافِقُ الْمُشْتَرَى مِنْ الدَّخَنِ وَالرُّقَى وَالْعَقْدِ وَالنَّفْثِ عَلَيْهَا ، وَمَنْ طَلَبَ شَيْئًا مِنْ الشَّرِّ وَالْحَرْبِ وَالْمَوْتِ وَالْبَوَارِ لِغَيْرِهِ تَقَرَّبَ بِزَعْمِهِ إلَى زُحَلَ بِمَا يُوَافِقُهُ مِنْ ذَلِكَ ، وَمَنْ أَرَادَ الْبَرْقَ وَالْحَرْقَ وَالطَّاعُونَ تَقَرَّبَ بِزَعْمِهِ إلَى الْمِرِّيخِ بِمَا يُوَافِقُهُ مِنْ ذَلِكَ مِنْ ذَبْحِ بَعْضِ الْحَيَوَانَاتِ

(320/61)

وَجَمِيعُ تِلْكَ الرُّقَى بِالنَّبَطِيَّةِ تَشْتَمِلُ عَلَى تَعْظِيمِ تِلْكَ الْكَوَاكِبِ إلَى مَا يُرِيدُونَ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ وَمَحَبَّةٍ وَبُغْضٍ ، فَيُعْطِيهِمْ مَا شَاءُوا مِنْ ذَلِكَ ، فَيَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ عِنْدَ ذَلِكَ يَفْعَلُونَ مَا شَاءُوا فِي غَيْرِهِمْ مِنْ غَيْرِ مُمَاسَّةٍ وَلَا مُلَامَسَةٍ سِوَى مَا قَدَّمُوهُ مِنْ الْقُرُبَاتِ لِلْكَوْكَبِ الَّذِي طَلَبُوا ذَلِكَ مِنْهُ ؛ فَمِنْ الْعَامَّةِ مَنْ يَزْعُمُ أَنَّهُ يَقْلِبُ الْإِنْسَانَ حِمَارًا أَوْ كَلْبًا ثُمَّ إذَا شَاءَ أَعَادَهُ ، وَيَرْكَبُ الْبَيْضَةَ وَالْمِكْنَسَةَ وَالْخَابِيَةَ ، وَيَطِيرُ فِي الْهَوَاءِ فَيَمْضِي مِنْ الْعِرَاقِ إلَى الْهِنْدِ وَإِلَى مَا شَاءَ مِنْ الْبُلْدَانِ ثُمَّ يَرْجِعُ مِنْ لَيْلَتِهِ .

(321/61)

وَكَانَتْ عَوَامُّهُمْ تَعْتَقِدُ ذَلِكَ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْكَوَاكِبَ ، وَكُلُّ مَا دَعَا إلَى تَعْظِيمِهَا اعْتَقَدُوهُ وَكَانَتْ السَّحَرَةُ تَحْتَالُ فِي خِلَالِ ذَلِكَ بِحِيَلٍ تُمَوِّهُ بِهَا عَلَى الْعَامَّةِ إلَى اعْتِقَادِ صِحَّتِهِ بِأَنْ يَزْعُمَ أَنَّ ذَلِكَ لَا يَنْفُذُ وَلَا يَنْتَفِعُ بِهِ أَحَدٌ وَلَا يَبْلُغُ مَا يُرِيدُ إلَّا مَنْ اعْتَقَدَ صِحَّةَ قَوْلِهِمْ وَتَصْدِيقِهِمْ فِيمَا يَقُولُونَ وَلَمْ تَكُنْ مُلُوكُهُمْ تَعْتَرِضُ عَلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ ، بَلْ كَانَتْ السَّحَرَةُ عِنْدَهَا بِالْمَحَلِّ الْأَجَلِّ لِمَا كَانَ لَهَا فِي نُفُوسِ الْعَامَّةِ مِنْ مَحِلِّ التَّعْظِيمِ وَالْإِجْلَالِ ، وَلِأَنَّ الْمُلُوكَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ كَانَتْ تَعْتَقِدُ مَا تَدَّعِيهِ السَّحَرَةُ لِلْكَوَاكِبِ ، إلَى أَنْ زَالَتْ تِلْكَ الْمَمَالِكُ أَلَا تَرَى

أَنَّ النَّاس فِي زَمَن فِرْعَوْنَ كَانُوا يَتَبَارَوْنَ بِالْعِلْمِ وَالسِّحْرِ وَالْحِيَلِ وَالْمَخَارِيقِ وَلِذَلِكَ بُعِثَ إلَيْهِمْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالْعَصَا وَالْآيَاتِ الَّتِي عَلِمَتْ السَّحَرَةُ أَنَّهَا لَيْسَتْ مِنْ السِّحْرِ فِي شَيْءٍ وَأَنَّهَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهَا غَيْرُ اللَّهِ تَعَالَى ؟ فَلَمَّا زَالَتْ تِلْكَ الْمَمَالِكُ وَكَانَ مَنْ مُلْكِهِمْ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ الْمُوَحِّدِينَ يَطْلُبُونَهُمْ وَيَتَقَرَّبُونَ إلَى اللَّهِ تَعَالَى بِقَتْلِهِمْ ، وَكَانُوا يَدْعُونَ

(322/61)

عَوَامَّ النَّاسِ وَجُهَّالَهُمْ سِرًّا كَمَا يَفْعَلُهُ السَّاعَةَ كَثِيرٌ مِمَّنْ يَدَّعِي ذَلِكَ مَعَ النِّسَاءِ وَالْأَحْدَاثِ وَالْأَغْمَارِ وَالْجُهَّالِ الْحَشْوِ وَكَانُوا يَدْعُونَ مَنْ يَعْمَلُونَ لَهُ ذَلِكَ إلَى تَصْدِيقِ قَوْلِهِمْ وَالِاعْتِرَافِ بِصِحَّتِهِ وَالْمُصَدِّقُ لَهُمْ بِذَلِكَ يَكْفُرُ مِنْ وُجُوهٍ : أَحَدِهَا : التَّصْدِيقُ بِوُجُوبِ تَعْظِيمِ الْكَوَاكِبِ وَتَسْمِيَتِهَا آلِهَةً وَالثَّانِي : اعْتِرَافُهُ بِأَنَّ الْكَوَاكِبَ تَقْدِرُ عَلَى ضَرِّهِ وَنَفْعِهِ .

(323/61)

وَالثَّالِثُ : أَنَّ السَّحَرَةَ تَقْدِرُ عَلَى مِثْلِ مُعْجِزَاتِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمْ السَّلَامُ فَبَعَثَ اللَّهُ إلَيْهِمْ مَلَكَيْنِ يُبَيِّنَانِ لِلنَّاسِ حَقِيقَةَ مَا يَدَّعُونَ وَبُطْلَانَ مَا يَذْكُرُونَ ، وَيَكْشِفَانِ لَهُمْ مَا بِهِ يُمَوِّهُونَ ،

وَيُخْبِرَانِهِمْ بِمَعَانِي تِلْكَ الرُّقَى وَأَنَّهَا شِرْكٌ وَكُفْرٌ وَبِحِيَلِهِمْ الَّتِي كَانُوا يَتَوَصَّلُونَ بِهَا إلَى التَّمْوِيهِ عَلَى الْعَامَّةِ وَيُظْهِرُونَ لَهُمْ حَقَائِقَهَا وَيَنْهَوْنَهُمْ عَنْ قَبُولِهَا وَالْعَمَلِ بِهَا بِقَوْلِهِ : ﴿ إنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾ فَهَذَا أَصْلُ سِحْرِ بَابِلَ ، وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ كَانُوا يَسْتَعْمِلُونَ سَائِرَ وُجُوهِ السِّحْرِ وَالْحِيَلِ الَّتِي نَذْكُرُهَا وَيُمَوِّهُونَ بِهَا عَلَى الْعَامَّةِ وَيَعْزُونَهَا إلَى فِعْلِ الْكَوَاكِبِ لِئَلَّا يَبْحَثَ عَنْهَا وَيُسَلِّمَهَا لَهُمْ فَمِنْ ضُرُوبِ السِّحْرِ كَثِيرٌ مِنْ التَّخْيِيلَاتِ الَّتِي مَظْهَرُهَا عَلَى خِلَافِ حَقَائِقِهَا فَمِنْهَا مَا يَعْرِفُهُ النَّاسُ بِجَرَيَانِ الْعَادَةِ بِهَا وَظُهُورِهَا وَمِنْهَا مَا يَخْفَى وَيَلْطُفُ وَلَا يَعْرِفُ حَقِيقَتَهُ وَمَعْنَى بَاطِنِهِ إلَّا مَنْ تَعَاطَى مَعْرِفَةَ ذَلِكَ ؛ لِأَنَّ كُلَّ عِلْمٍ لَا بُدَّ أَنْ يَشْتَمِلَ عَلَى جَلِيٍّ وَخَفِيٍّ وَظَاهِرٍ وَغَامِضٍ .

فَالْجَلِيُّ مِنْهُ يَعْرِفُهُ كُلُّ مَنْ رَآهُ وَسَمِعَهُ مِنْ الْعُقَلَاءِ ، وَالْغَامِضُ الْخَفِيُّ لَا يَعْرِفُهُ إلَّا أَهْلُهُ وَمَنْ تَعَاطَى مَعْرِفَتَهُ وَتَكَلَّفَ فِعْلَهُ وَالْبَحْثَ عَنْهُ ، وَذَلِكَ نَحْوُ مَا يَتَخَيَّلُ رَاكِبُ السَّفِينَةِ إذَا سَارَتْ فِي النَّهْرِ

(324/61)

فَيَرَى أَنَّ الشَّطَّ بِمَا عَلَيْهِ مِنْ النَّخْلِ وَالْبُنْيَانِ سَائِرٌ مَعَهُ ، وَكَمَا يَرَى الْقَمَرَ فِي مَهَبِّ الشَّمَالِ يَسِيرُ لِلْغَيْمِ فِي مَهَبِّ الْجَنُوبِ ، وَكَدَوَرَانِ الدَّوَّامَةِ فِيهَا الشَّامَةُ فَيَرَاهَا كَالطَّوْقِ الْمُسْتَدِيرِ

فِي أَرْجَائِهَا ، وَكَذَلِكَ يَرَى هَذَا فِي الرَّحَى إِذَا كَانَتْ سَرِيعَةَ الدَّوَرَانِ ، وَكَالْعُودِ فِي طَرَفِهِ الْجَمْرَةُ إِذَا أَدَارَهُ مُدِيرُهُ رَأَى تِلْكَ النَّارَ الَّتِي فِي طَرَفِهِ كَالطَّوْقِ الْمُسْتَدِيرِ ، وَكَالْعِنَبَةِ الَّتِي يَرَاهَا فِي قَدَحٍ فِيهِ مَاءٌ كَالْخَوْخَةِ وَالْإِجَّاصَةِ عَظْمًا ، وَكَالشَّخْصِ الصَّغِيرِ يَرَاهُ فِي الضَّبَابِ عَظِيمًا جَسِيمًا ، وَكَبُخَارِ الْأَرْضِ الَّذِي يُرِيكَ قُرْصَ الشَّمْسِ عِنْدَ طُلُوعِهَا عَظِيمًا فَإِذَا فَارَقَتْهُ وَارْتَفَعَتْ صَغُرَتْ ، وَكَمَا يُرَى الْمُرَدَّى فِي الْمَاءِ مُنْكَسِرًا أَوْ مُعْوَجًّا ، وَكَمَا يُرَى الْخَاتَمُ إِذَا قَرَّبْتَهُ مِنْ عَيْنِكَ فِي سَعَةِ حَلْقَةِ السِّوَارِ ، وَنَظَائِرُ ذَلِكَ كَثِيرَةٌ مِنَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي تُتَخَيَّلُ عَلَى غَيْرِ حَقَائِقِهَا فَيَعْرِفُهَا عَامَّةُ النَّاسِ وَمِنْهَا مَا يَلْطُفُ فَلَا يَعْرِفُهُ إِلَّا مَنْ تَعَاطَاهُ وَتَأَمَّلَهُ كَخَيْطِ السَّحَّارَةِ الَّذِي يَخْرُجُ مَرَّةً أَحْمَرَ وَمَرَّةً أَصْفَرَ وَمَرَّةً أَسْوَدَ ، وَمِنْ لَطِيفِ ذَلِكَ وَدَقِيقِهِ مَا يَفْعَلُهُ الْمُشَعْوِذُونَ مِنْ جِهَةِ الْحَرَكَاتِ وَإِظْهَارِ التَّخْيِيلَاتِ الَّتِي تَخْرُجُ عَلَى غَيْرِ حَقَائِقِهَا حَتَّى يُرِيكَ عُصْفُورًا مَعَهُ أَنَّهُ قَدْ ذَبَحَهُ ثُمَّ يُرِيكَهُ وَقَدْ طَارَ بَعْدَ ذَبْحِهِ وَإِبَانَةِ رَأْسِهِ ، وَذَلِكَ لِخِفَّةِ حَرَكَتِهِ ، وَالْمَذْبُوحُ غَيْرُ الَّذِي طَارَ لِأَنَّهُ يَكُونُ

(325/61)

مَعَهُ اثْنَانِ قَدْ خَبَّأَ أَحَدَهُمَا وَأَظْهَرَ الْآخَرَ ، وَيُخَبِّئُ لِخِفَّةِ الْحَرَكَةِ الْمَذْبُوحَ وَيُظْهِرُ الَّذِي نَظِيرُهُ .

وَيُظْهِرُ أَنَّهُ قَدْ ذَبَحَ إِنْسَانًا وَأَنَّهُ قَدْ بَلَعَ سَيْفًا وَأَدْخَلَهُ فِي جَوْفِهِ ، وَلَيْسَ لِشَيْءٍ مِنْهُ حَقِيقَةٌ وَمِنْ نَحْوِ ذَلِكَ مَا يَفْعَلُهُ أَصْحَابُ الْحَرَكَاتِ لِلصُّوَرِ الْمَعْمُولَةِ مِنْ صُفْرٍ أَوْ غَيْرِهِ فَيَرَى

(326/61)

فَارِسَيْنِ يَقْتَتِلَانِ فَيَقْتُلُ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ ، وَيَنْصَرِفُ بِحِيَلٍ قَدْ أُعِدَّتْ لِذَلِكَ وَكَفَارِسٍ مِنْ صُفْرٍ عَلَى فَرَسٍ فِي يَدِهِ بُوقٌ كُلَّمَا مَضَتْ سَاعَةٌ مِنَ النَّهَارِ ضَرَبَ بِالْبُوقِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَمَسَّهُ أَحَدٌ وَلَا يَتَقَدَّمَ إِلَيْهِ وَقَدْ ذَكَرَ الْكَلْبِيُّ أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْجُنْدِ خَرَجَ بِبَعْضِ نَوَاحِي الشَّامِ مُتَصَيِّدًا وَمَعَهُ كَلْبٌ لَهُ وَغُلَامٌ فَرَأَى ثَعْلَبًا فَأَغْرَى بِهِ الْكَلْبَ فَدَخَلَ الثَّعْلَبُ ثُقْبًا فِي تَلٍّ هُنَاكَ وَدَخَلَ الْكَلْبُ خَلْفَهُ فَلَمْ يَخْرُجْ ، فَأَمَرَ الْغُلَامَ أَنْ يَدْخُلَ فَدَخَلَ وَانْتَظَرَهُ صَاحِبُهُ فَلَمْ يَخْرُجْ ، فَوَقَفَ مُتَهَيِّئًا لِلدُّخُولِ ، فَمَرَّ بِهِ رَجُلٌ فَأَخْبَرَهُ بِشَأْنِ الثَّعْلَبِ وَالْكَلْبِ وَالْغُلَامِ وَأَنَّ وَاحِدًا مِنْهُمْ لَمْ يَخْرُجْ وَأَنَّهُ مُتَأَهِّبٌ لِلدُّخُولِ ، فَأَخَذَ الرَّجُلُ بِيَدِهِ فَأَدْخَلَهُ إِلَى هُنَاكَ ، فَمَضَيَا إِلَى سِرْبٍ طَوِيلٍ حَتَّى أَفْضَى بِهِمَا إِلَى بَيْتٍ قَدْ فُتِحَ لَهُ ضَوْءٌ مِنْ مَوْضِعٍ يُنْزَلُ إِلَيْهِ بِمِرْقَاتَيْنِ ، فَوَقَفَ بِهِ عَلَى الْمِرْقَاةِ الْأُولَى حَتَّى أَضَاءَ الْبَيْتَ حِينًا ثُمَّ قَالَ لَهُ : انْظُرْ فَنَظَرَ فَإِذَا الْكَلْبُ وَالرَّجُلُ وَالثَّعْلَبُ قَتْلَى ، وَإِذَا فِي صَدْرِ الْبَيْتِ رَجُلٌ وَاقِفٌ مُقَنَّعٌ فِي الْحَدِيدِ وَفِي يَدِهِ سَيْفٌ ، فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ : أَتَرَى هَذَا لَوْ دَخَلَ إِلَيْهِ هَذَا الْمَدْخَلَ أَلْفُ رَجُلٍ لَقَتَلَهُمْ كُلَّهُمْ فَقَالَ : وَكَيْفَ ؟ قَالَ

: لِأَنَّهُ قَدْ رُتِّبَ وَهُنْدِمَ عَلَى هَيْئَةٍ مَتَى وَضَعَ الْإِنْسَانُ رِجْلَهُ عَلَى الْمِرْقَاةِ الثَّانِيَةِ لِلنُّزُولِ تَقَدَّمَ الرَّجُلُ الْمَعْمُولُ فِي الصَّدْرِ

(327/61)

فَضَرَبَهُ بِالسَّيْفِ الَّذِي فِي يَدِهِ ، فَإِيَّاكَ أَنْ تَنْزِلَ إِلَيْهِ فَقَالَ : فَكَيْفَ الْحِيلَةُ فِي هَذَا ؟ قَالَ : يَنْبَغِي أَنْ تَحْفِرَ مِنْ خَلْفِهِ سَرَبًا يُفْضِي بِكَ إِلَيْهِ ، فَإِنْ وَصَلَتْ إِلَيْهِ مِنْ تِلْكَ النَّاحِيَةِ لَمْ يَتَحَرَّكْ فَاسْتَأْجَرَ الْجُنْدِيُّ أُجَرَاءَ وَصُنَّاعًا حَتَّى حَفَرُوا سَرَبًا مِنْ خَلْفِ التَّلِّ فَأَفْضَوْا إِلَيْهِ ، فَلَمْ يَتَحَرَّكْ ، وَإِذَا

(328/61)

رَجُلٌ مَعْمُولٌ مِنْ صُفْرٍ أَوْ غَيْرِهِ قَدْ أُلْبِسَ السِّلَاحَ وَأُعْطِيَ السَّيْفَ فَقَلَعَهُ ، وَرَأَى بَابًا آخَرَ فِي ذَلِكَ الْبَيْتِ فَفَتَحَهُ فَإِذَا هُوَ قَبْرٌ لِبَعْضِ الْمُلُوكِ مَيِّتٍ عَلَى سَرِيرٍ هُنَاكَ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ كَثِيرَةٌ جِدًّا وَمِنْهَا الصُّوَرُ الَّتِي يُصَوِّرُهَا مُصَوِّرُو الرُّومِ وَالْهِنْدِ حَتَّى لَا يُفَرِّقَ النَّاظِرُ بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَبَيْنَهَا ، وَمَنْ لَمْ يَتَقَدَّمْ لَهُ عِلْمٌ أَنَّهَا صُورَةٌ لَا يَشُكُّ فِي أَنَّهَا إِنْسَانٌ ، وَحَتَّى تَصَوُّرُهَا ضَاحِكَةً أَوْ بَاكِيَةً

، وَحَتَّى يُفَرَّقَ فِيهَا بَيْنَ الضَّحِكِ مِنْ الْخَجَلِ وَالسُّرُورِ وَضَحِكِ الشَّامِتِ فَهَذِهِ الْوُجُوهُ مِنْ لَطِيفِ أُمُورِ التَّخَايِيلِ وَخَفِيِّهَا وَمَا ذَكَرْنَاهُ قَبْلُ مِنْ جَلِيِّهَا وَكَانَ سِحْرُ سَحَرَةِ فِرْعَوْنَ مِنْ هَذَا الضَّرْبِ عَلَى النَّحْوِ الَّذِي بَيَّنَّا مِنْ حِيَلِهِمْ فِي الْعِصِيِّ وَالْحِبَالِ وَالَّذِي ذَكَرْنَاهُ مِنْ مَذَاهِبِ أَهْلِ بَابِلَ فِي الْقَدِيمِ وَسِحْرِهِمْ وَوُجُوهِ حِيَلِهِمْ بَعْضُهُ سَمِعْنَاهُ مِنْ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ بِذَلِكَ وَبَعْضُهُ وَجَدْنَاهُ فِي الْكُتُبِ قَدْ نُقِلَتْ حَدِيثًا مِنْ النَّبَطِيَّةِ إلَى الْعَرَبِيَّةِ ، مِنْهَا كِتَابٌ فِي ذِكْرِ سِحْرِهِمْ وَأَصْنَافِهِ وَوُجُوهِهِ ، وَكُلُّهَا مَبْنِيَّةٌ عَلَى الْأَصْلِ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ مِنْ قُرْبَانَاتِ الْكَوَاكِبِ وَتَعْظِيمِهَا وَخُرَافَاتٍ مَعَهَا لَا تُسَاوِي ذِكْرَهَا وَلَا فَائِدَةَ فِيهَا وَضَرْبٌ آخَرُ مِنْ السِّحْرِ : وَهُوَ مَا يَدَّعُونَهُ مِنْ حَدِيثِ الْجِنِّ وَالشَّيَاطِينِ وَطَاعَاتِهِمْ لَهُمْ بِالرُّقَى وَالْعَزَائِمِ .

(329/61)

وَيَتَوَصَّلُونَ إلَى مَا يُرِيدُونَ مِنْ ذَلِكَ بِتَقْدِمَةِ أُمُورٍ وَمُوَاطَأَةِ قَوْمٍ قَدْ أَعَدُّوهُمْ لِذَلِكَ ، وَعَلَى ذَلِكَ كَانَ يَجْرِي أَمْرُ الْكُهَّانِ مِنْ الْعَرَبِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، وَكَانَتْ أَكْثَرُ مَخَارِيقِ الْحَلَّاجِ مِنْ بَابِ الْمُوَاطَآتِ وَلَوْلَا أَنَّ هَذَا الْكِتَابَ لَا يَحْتَمِلُ اسْتِقْصَاءَ ذَلِكَ لَذَكَرْت مِنْهَا مَا يُوقَفُ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ مَخَارِيقِهِ وَمَخَارِيقِ أَمْثَالِهِ .

وَضَرَرُ أَصْحَابِ الْعَزَائِمِ وَفِتْنَتِهِمْ عَلَى

(330/61)

النَّاسِ غَيْرُ يَسِيرٍ ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ يَدْخُلُونَ عَلَى النَّاسِ مِنْ بَابِ أَنَّ الْجِنَّ إِنَّمَا تُطِيعُهُمْ بِالرُّقَى الَّتِي هِيَ أَسْمَاءُ اللَّهِ تَعَالَى ، فَإِنَّهُمْ يُجِيبُونَ بِذَلِكَ مَنْ شَاءُوا وَيُخْرِجُونَ الْجِنَّ لِمَنْ شَاءُوا فَتُصَدِّقُهُمْ الْعَامَّةُ عَلَى اغْتِرَارٍ بِمَا يُظْهِرُونَ مِنْ انْقِيَادِ الْجِنِّ لَهُمْ بِأَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى الَّتِي كَانَتْ تُطِيعُ بِهَا سُلَيْمَانَ بْنَ دَاوُد عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَنَّهُمْ يُخْبِرُونَهُمْ بِالْخَبَايَا وَبِالسُّرُقِ وَقَدْ كَانَ الْمُعْتَضِدُ بِاَللَّهِ مَعَ جَلَالَتِهِ وَشَهَامَتِهِ وَوُفُورِ عَقْلِهِ اغْتَرَّ بِقَوْلِ هَؤُلَاءِ ، وَقَدْ ذَكَرَهُ أَصْحَابُ التَّوَارِيخِ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ يَظْهَرُ فِي دَارِهِ الَّتِي كَانَ يَخْلُو فِيهَا بِنِسَائِهِ وَأَهْلِهِ شَخْصٌ فِي يَدِهِ سَيْفٌ فِي أَوْقَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ ، وَأَكْثَرُ وَقْتُ الظُّهْرِ ، فَإِذَا طُلِبَ لَمْ يُوجَدْ وَلَمْ يُقْدَرْ عَلَيْهِ وَلَمْ يُوقَفْ لَهُ عَلَى أَثَرٍ مَعَ كَثْرَةِ التَّفْتِيشِ وَقَدْ رَآهُ هُوَ بِعَيْنِهِ مِرَارًا ، فَأَهَمَّتْهُ نَفْسُهُ وَدَعَا بِالْمُعَزِّمِينَ فَحَضَرُوا وَأَحْضَرُوا مَعَهُمْ رِجَالًا وَنِسَاءً وَزَعَمُوا أَنَّ فِيهِمْ مَجَانِينَ وَأَصِحَّاءَ ، فَأَمَرَ بَعْضَ رُؤَسَائِهِمْ بِالْعَزِيمَةِ ، فَعَزَّمَ عَلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ زَعَمَ أَنَّهُ كَانَ صَحِيحًا فَجُنَّ وَتَخَبَّطَ وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَيْهِ .

(331/61)

وَذَكَرُوا لَهُ أَنَّ هَذَا غَايَةُ الْحِذْقِ بِهَذِهِ الصِّنَاعَةِ ؛ إِذْ أَطَاعَتْهُ الْجِنُّ فِي تَخْبِيطِ الصَّحِيحِ وَإِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ مِنْ الْمُعَزِّمِ بِمُوَاطَأَةٍ مِنْهُ لِذَلِكَ الصَّحِيحِ عَلَى أَنَّهُ مَتَى عَزَّمَ عَلَيْهِ جَنَّنَ نَفْسَهُ وَخَبَّطَ فَجَازَ ذَلِكَ عَلَى الْمُعْتَضِدِ ، فَقَامَتْ نَفْسُهُ مِنْهُ وَكَرِهَهُ ، إلَّا أَنَّهُ سَأَلَهُمْ عَنْ أَمْرِ الشَّخْصِ الَّذِي يَظْهَرُ فِي دَارِهِ ، فَخَرَقُوا عَلَيْهِ بِأَشْيَاءَ عَلَّقُوا قَلْبَهُ بِهَا مِنْ غَيْرِ تَحْصِيلٍ لِشَيْءٍ مِنْ أَمْرِ مَا سَأَلَهُمْ عَنْهُ ، فَأَمَرَهُمْ بِالِانْصِرَافِ وَأَمَرَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مِمَّنْ حَضَرَ بِخَمْسَةِ دَرَاهِمَ ثُمَّ تَحَرَّزَ الْمُعْتَضِدُ بِغَايَةِ مَا

(332/61)

أَمْكَنَهُ وَأَمَرَ بِالِاسْتِيثَاقِ مِنْ سُورِ الدَّارِ حَيْثُ لَا يُمْكِنُ فِيهِ حِيلَةٌ مِنْ تَسَلُّقٍ وَنَحْوِهِ ، وَبَطَحَتْ فِي أَعْلَى السُّورِ خَوَابِيَ لِئَلَّا يَحْتَالَ بِإِلْقَاءِ الْمَعَالِيقِ الَّتِي يَحْتَالُ بِهَا اللُّصُوصُ ؛ ثُمَّ لَمْ يُوقَفْ لِذَلِكَ الشَّخْصِ عَلَى خَبَرٍ إلَّا ظُهُورُهُ لَهُ الْوَقْتَ بَعْدَ الْوَقْتِ ، إلَى أَنْ تُوُفِّيَ الْمُعْتَضِدُ وَهَذِهِ الْخَوَابِي الْمَبْطُوحَةُ عَلَى السُّورِ وَقَدْ رَأَيْتُهَا عَلَى سُورِ الثُّرَيَّا الَّتِي بَنَاهَا الْمُعْتَضِدُ فَسَأَلْت صَدِيقًا لِي كَانَ قَدْ حَجَبَ لِلْمُقْتَدِرِ بِاَللَّهِ عَنْ أَمْرِ هَذَا الشَّخْصِ ، وَهَلْ تَبَيَّنَ أَمْرُهُ ؟ فَذَكَرَ لِي أَنَّهُ لَمْ يُوقَفْ عَلَى حَقِيقَةِ هَذَا الْأَمْرِ إلَّا فِي أَيَّامِ الْمُقْتَدِرِ ، وَأَنَّ ذَلِكَ الشَّخْصَ كَانَ خَادِمًا أَبْيَضَ يُسَمَّى يَقَقْ ، وَكَانَ يَمِيلُ إلَى بَعْضِ الْجَوَارِي اللَّاتِي فِي دَاخِلِ دُورِ الْحَرَمِ ،

وَكَانَ قَدْ اتَّخَذَ لِحًى عَلَى أَلْوَانٍ مُخْتَلِفَةٍ ، وَكَانَ إِذَا لَبِسَ بَعْضَ تِلْكَ اللِّحَى لَا يَشُكُّ مَنْ رَآهُ أَنَّهَا لِحْيَتُهُ ، وَكَانَ يَلْبَسُ فِي الْوَقْتِ الَّذِي يُرِيدُهُ لِحْيَةً مِنْهَا وَيَظْهَرُ فِي ذَلِكَ الْمَوْضِعِ وَفِي يَدِهِ سَيْفٌ أَوْ غَيْرُهُ مِنْ السِّلَاحِ حَيْثُ يَقَعُ نَظَرُ الْمُعْتَضِدِ .

(333/61)

فَإِذَا طُلِبَ دَخَلَ بَيْنَ الشَّجَرِ الَّذِي فِي الْبُسْتَانِ أَوْ فِي بَعْضِ تِلْكَ الْمَمَرَّاتِ أَوْ الْعَطَفَاتِ ، فَإِذَا غَابَ عَنْ أَبْصَارِ طَالِبِيهِ نَزَعَ اللِّحْيَةَ وَجَعَلَهَا فِي كُمِّهِ أَوْ حَوْزَتِهِ وَيَبْقَى السِّلَاحُ مَعَهُ كَأَنَّهُ بَعْضُ الْخَدَمِ الطَّالِبِينَ لِلشَّخْصِ ، وَلَا يَرْتَابُونَ بِهِ وَيَسْأَلُونَهُ هَلْ رَأَيْت فِي هَذِهِ النَّاحِيَةِ أَحَدًا فَإِنَّا قَدْ رَأَيْنَاهُ صَارَ إلَيْهَا ؟ فَيَقُولُ : مَا رَأَيْت أَحَدًا وَكَانَ إذَا وَقَعَ مِثْلُ هَذَا الْفَزَعِ فِي الدَّارِ خَرَجَتْ الْجَوَارِي مِنْ دَاخِلِ الدُّورِ إلَى هَذَا الْمَوْضِعِ فَيَرَى هُوَ تِلْكَ الْجَارِيَةَ وَيُخَاطِبُهَا بِمَا يُرِيدُ ، وَإِنَّمَا كَانَ غَرَضُهُ مُشَاهَدَةَ الْجَوَارِي ، وَكَلَامَهَا ، فَلَمْ يَزُلْ دَأْبُهُ إلَى أَيَّامِ الْمُقْتَدِرِ ثُمَّ خَرَجَ إلَى

الْبُلْدَانِ وَصَارَ إلَى طَرَسُوسَ وَأَقَامَ بِهَا إلَى أَنْ مَاتَ ، وَتَحَدَّثَتْ الْجَارِيَةُ بَعْدَ ذَلِكَ بِحَدِيثِهِ وَوُقِفَ عَلَى احْتِيَالِهِ فَهَذَا خَادِمٌ قَدْ احْتَالَ بِمِثْلِ هَذِهِ الْحِيلَةِ الْخَفِيَّةِ الَّتِي لَمْ يَهْتَدِ لَهَا أَحَدٌ مَعَ شِدَّةِ عِنَايَةِ الْمُعْتَضِدِ ، وَأَعْيَاهُ مَعْرِفَتُهَا وَالْوُقُوفُ عَلَيْهَا وَلَمْ تَكُنْ صِنَاعَتُهُ الْحِيَلَ وَالْمَخَارِيقَ

، فَمَا ظَنُّك بِمَنْ قَدْ جَعَلَ هَذَا صِنَاعَةً وَمَعَاشًا ؟ وَضَرْبٌ آخَرُ مِنْ السِّحْرِ وَهُوَ السَّعْيُ بِالنَّمِيمَةِ وَالْوِشَايَةِ بِهَا وَالْبَلَاغَاتُ ، وَالْإِفْسَادِ وَالتَّضْرِيبِ مِنْ وُجُوهٍ خَفِيَّةٍ لَطِيفَةٍ ، وَذَلِكَ عَامٌّ شَائِعٌ فِي كَثِيرٍ مِنْ النَّاسِ .

(334/61)

وَقَدْ حُكِيَ أَنَّ امْرَأَةً أَرَادَتْ إفْسَادَ مَا بَيْنَ زَوْجَيْنِ فَصَارَتْ إلَى الزَّوْجَةِ فَقَالَتْ لَهَا : إنَّ زَوْجَك مُعْرِضٌ وَقَدْ سُحِرَ وَهُوَ مَأْخُوذٌ عَنْك وَسَأَسْحَرُهُ لَك حَتَّى لَا يُرِيدَ غَيْرَك وَلَا يَنْظُرَ إلَى سِوَاك ، وَلَكِنْ لَا بُدَّ أَنْ تَأْخُذِي مِنْ شَعْرِ حَلَقَهُ بِالْمُوسَى ثَلَاثَ شَعَرَاتٍ إذَا نَامَ وَتُعْطِينِيهَا ، فَإِنَّ بِهَا يَتِمُّ الْأَمْرُ فَاغْتَرَّتْ الْمَرْأَةُ بِقَوْلِهَا وَصَدَّقَتْهَا ثُمَّ ذَهَبَتْ إلَى الرَّجُلِ وَقَالَتْ لَهُ : إنَّ امْرَأَتَك قَدْ عَلَّقَتْ رَجُلًا وَقَدْ عَزَمَتْ عَلَى قَتْلِك وَقَدْ وَقَفْتُ عَلَى ذَلِكَ مِنْ أَمْرِهَا فَأَشْفَقْت عَلَيْك وَلَزِمَنِي نُصْحُك ، فَتَيَقَّظْ وَلَا تَغْتَرَّ فَإِنَّهَا عَزَمَتْ عَلَى ذَلِكَ بِالْمُوسَى ، وَسَتَعْرِفُ ذَلِكَ مِنْهَا ، فَمَا فِي أَمْرِهَا شَكٌّ فَتَنَاوَمَ الرَّجُلُ فِي بَيْتِهِ ، فَلَمَّا ظَنَّتْ امْرَأَتُهُ أَنَّهُ قَدْ نَامَ عَمَدَتْ إلَى مُوسَى حَادٍّ وَهَوَتْ بِهِ لِتَحْلِقَ مِنْ حَلْقِهِ ثَلَاثَ شَعَرَاتٍ ، فَفَتَحَ الرَّجُلُ عَيْنَهُ فَرَآهَا وَقَدْ أَهْوَتْ بِالْمُوسَى إلَى حَلْقِهِ فَلَمْ يَشُكَّ فِي أَنَّهَا أَرَادَتْ قَتْلَهُ ، فَقَامَ إلَيْهَا فَقَتَلَهَا وَقُتِلَ وَهَذَا كَثِيرٌ لَا

يُحْصَى وَضَرْبٌ آخَرُ مِنْ السِّحْرِ ، وَهُوَ الِاحْتِيَالُ فِي إطْعَامِهِ بَعْضَ الْأَدْوِيَةِ الْمُبَلِّدَةِ الْمُؤَثِّرَةِ فِي الْعَقْلِ وَالدُّخَنِ الْمُسَدِّرَةِ الْمُسْكِرَةِ

(335/61)

، نَحْوُ دِمَاغِ الْحِمَارِ إذَا طَعِمَهُ إنْسَانٌ تَبَلَّدَ عَقْلُهُ وَقَلَّتْ فِطْنَتُهُ مَعَ أَدْوِيَةٍ كَثِيرَةٍ هِيَ مَذْكُورَةٌ فِي كُتُبِ الطِّبِّ ، وَيَتَوَصَّلُونَ إلَى أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي طَعَامٍ حَتَّى يَأْكُلَهُ فَتَذْهَبَ فِطْنَتُهُ وَيَجُوزَ عَلَيْهِ أَشْيَاءُ مِمَّا لَوْ كَانَ تَامَّ الْفِطْنَةِ لَأَنْكَرَهَا ، فَيَقُولُ النَّاسُ : إنَّهُ مَسْحُورٌ .

(336/61)

وَحِكْمَةٌ كَافِيَةٌ تُبَيِّنُ لَك أَنَّ هَذَا كُلَّهُ مَخَارِيقُ وَحِيَلٌ لَا حَقِيقَةَ لِمَا يَدَّعُونَ لَهَا أَنَّ السَّاحِرَ وَالْمُعَزِّمَ لَوْ قَدَرَا عَلَى مَا يَدَّعِيَانِهِ مِنْ النَّفْعِ وَالضَّرَرِ مِنْ الْوُجُوهِ الَّتِي يَدَّعُونَ وَأَمْكَنَهُمَا الطَّيَرَانُ وَالْعِلْمُ بِالْغُيُوبِ وَأَخْبَارِ الْبُلْدَانِ النَّائِيَةِ وَالْخَبِيئَاتِ وَالسُّرُقِ وَالْإِضْرَارِ بِالنَّاسِ مِنْ غَيْرِ الْوُجُوهِ الَّتِي ذَكَرْنَا ، لَقَدَرُوا عَلَى إزَالَةِ الْمَمَالِكِ وَاسْتِخْرَاجِ الْكُنُوزِ وَالْغَلَبَةِ عَلَى الْبُلْدَانِ بِقَتْلِ الْمُلُوكِ بِحَيْثُ لَا يَبْدَأُهُمْ مَكْرُوهٌ ، وَلَمَا مَسَّهُمْ السُّوءُ وَلَا امْتَنَعُوا عَمَّنْ قَصَدَهُمْ بِمَكْرُوهٍ ،

وَلَا سْتَغْنَوْا عَنْ الطَّلَبِ لِمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ فَإِذَا لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ وَكَانَ الْمُدَّعُونَ لِذَلِكَ أَسْوَأَ النَّاسِ حَالًا وَأَكْثَرَهُمْ طَمَعًا وَاحْتِيَالًا وَتَوَصُّلًا لِأَخْذِ دَرَاهِمِ النَّاسِ وَأَظْهَرَهُمْ فَقْرًا وَإِمْلَاقًا عَلِمْت أَنَّهُمْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ وَرُؤَسَاءُ الْحَشْوِ وَالْجُهَّالُ مِنْ الْعَامَّةِ مِنْ أَسْرَعِ النَّاسِ إلَى التَّصْدِيقِ بِدَعَاوَى السَّحَرَةِ وَالْمُعَزِّمِينَ وَأَشَدِّهِمْ نَكِيرًا عَلَى مَنْ جَحَدَهَا ، وَيَرْوُونَ فِي ذَلِكَ أَخْبَارًا مُفْتَعَلَةً مُتَخَرِّصَةً يَعْتَقِدُونَ صِحَّتَهَا ، كَالْحَدِيثِ الَّذِي يَرْوُونَ أَنَّ امْرَأَةً أَتَتْ عَائِشَةَ فَقَالَتْ : إنِّي سَاحِرَةٌ فَهَلْ لِي تَوْبَةٌ ؟ فَقَالَتْ : وَمَا سِحْرُك ؟ قَالَتْ : سِرْت إلَى الْمَوْضِعِ الَّذِي فِيهِ هَارُوتُ وَمَارُوتُ بِبَابِلَ لِطَلَبِ عِلْمِ السِّحْرِ فَقَالَا لِي : يَا أَمَةَ اللَّهِ لَا تَخْتَارِي عَذَابَ الْآخِرَةِ بِأَمْرِ الدُّنْيَا فَأَبَيْت ،

(337/61)

فَقَالَا لِي : اذْهَبِي فَبُولِي

عَلَى ذَلِكَ الرَّمَادِ فَذَهَبْت لِأَبُولَ عَلَيْهِ فَفَكَّرْتُ فِي نَفْسِي فَقُلْت لَا فَعَلْت وَجِئْت إلَيْهِمَا فَقُلْت : قَدْ فَعَلْت ، فَقَالَا : مَا رَأَيْت ؟ فَقُلْت : مَا رَأَيْت شَيْئًا ؛ فَقَالَا : اذْهَبِي فَبُولِي عَلَيْهِ فَذَهَبْت وَفَعَلْت فَرَأَيْت كَأَنَّ فَارِسًا قَدْ خَرَجَ مِنْ فَرْجِي مُقَنَّعًا بِالْحَدِيدِ حَتَّى صَعِدَ إلَى السَّمَاءِ ، فَجِئْتهمَا فَأَخْبَرْتهمَا فَقَالَا : ذَلِكَ إيمَانُك خَرَجَ عَنْك وَقَدْ أَحْسَنْت السِّحْرَ فَقُلْت

: وَمَا هُوَ ؟ فَقَالَا : لَا تُرِيدِينَ شَيْئًا فَتُصَوِّرِينَهُ فِي وَهْمِك إلَّا كَانَ فَصَوَّرْت فِي نَفْسِي حَبًّا مِنْ حِنْطَةٍ ، فَإِذَا أَنَا بِالْحَبِّ .

(338/61)

فَقُلْت لَهُ : انْزَرِعْ فَانْزَرَعَ وَخَرَجَ مِنْ سَاعَتِهِ سُنْبُلًا ، فَقُلْت لَهُ : انْطَحَنَ وَانْخَبِزْ إلَى آخِرِ الْأَمْرِ حَتَّى صَارَ خُبْزًا وَإِنِّي كُنْت لَا أُصَوِّرُ فِي نَفْسِي شَيْئًا إلَّا كَانَ فَقَالَتْ لَهَا عَائِشَةُ : لَيْسَتْ لَك تَوْبَةٌ فَيَرْوِي الْقُصَّاصُ وَالْمُحَدِّثُونَ الْجُهَّالُ مِثْلَ هَذَا لِلْعَامَّةِ ، فَتُصَدِّقُهُ وَتَسْتَعِيدُهُ وَتَسْأَلُهُ أَنْ يُحَدِّثَهَا بِحَدِيثِ سَاحِرَةِ ابْنِ هُبَيْرَةَ ، فَيَقُولُ لَهَا : إنَّ ابْنَ هُبَيْرَةَ أَخَذَ سَاحِرَةً فَأَقَرَّتْ لَهُ بِالسِّحْرِ ، فَدَعَا الْفُقَهَاءَ فَسَأَلَهُمْ عَنْ حُكْمِهَا ، فَقَالُوا : الْقَتْلُ فَقَالَ ابْنُ هُبَيْرَةَ : لَسْت أَقْتُلُهَا إلَّا تَغْرِيقًا قَالَ : فَأَخَذَ رَحَى الْبَذْرِ فَشَدَّهَا فِي رِجْلِهَا وَقَذَفَهَا فِي الْفُرَاتِ ، فَقَامَتْ فَوْقَ الْمَاءِ مَعَ الْحَجَرِ ، فَجَعَلَتْ تَنْحَدِرُ مَعَ الْمَاءِ ، فَخَافُوا أَنْ تَفُوتَهُمْ ، فَقَالَ ابْنُ هُبَيْرَةَ : مَنْ يُمْسِكُهَا وَلَهُ كَذَا وَكَذَا ؟ فَرَغِبَ رَجُلٌ مِنْ السَّحَرَةِ كَانَ حَاضِرًا فِيمَا بَذَلَهُ فَقَالَ : أَعْطُونِي قَدَحَ زُجَاجٍ فِيهِ مَاءٌ فَجَاءُوهُ بِهِ ، فَقَعَدَ عَلَى الْقَدَحِ وَمَضَى إلَى الْحَجَرِ فَشَقَّ الْحَجَرَ بِالْقَدَحِ فَتَقَطَّعَ الْحَجَرُ قِطْعَةً قِطْعَةً ، فَغَرِقَتْ السَّاحِرَةُ فَيُصَدِّقُونَهُ وَمَنْ صَدَّقَ هَذَا فَلَيْسَ يَعْرِفُ

النُّبُوَّةَ وَلَا يُؤْمَنُ أَنْ تَكُونَ مُعْجِزَاتُ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمْ السَّلَامُ مِنْ هَذَا النَّوْعِ وَأَنَّهُمْ كَانُوا سَحَرَةً.

(339/61)

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴾ وَقَدْ أَجَازُوا مِنْ فِعْلِ السَّاحِرِ مَا هُوَ أَطَمُّ مِنْ هَذَا وَأَفْظَعُ ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ زَعَمُوا أَنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ سُحِرَ ، وَأَنَّ السِّحْرَ عَمِلَ فِيهِ حَتَّى قَالَ فِيهِ : ﴿ إنَّهُ يُتَخَيَّلُ لِي أَنِّي أَقُولُ الشَّيْءَ وَأَفْعَلُهُ وَلَمْ أَقُلْهُ وَلَمْ أَفْعَلْهُ ﴾ وَأَنَّ امْرَأَةً يَهُودِيَّةً سَحَرَتْهُ فِي جُفِّ طَلْعَةٍ وَمُشْطٍ وَمُشَاقَةٍ ، حَتَّى أَتَاهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَأَخْبَرَهُ أَنَّهَا سَحَرَتْهُ فِي جُفِّ طَلْعَةٍ وَهُوَ تَحْتَ رَاعُوفَةِ الْبِئْرِ ، فَاسْتُخْرِجَ وَزَالَ عَنْ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ذَلِكَ الْعَارِضُ وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى مُكَذِّبًا لِلْكُفَّارِ فِيمَا ادَّعَوْهُ مِنْ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالَ جَلَّ مِنْ قَائِلٍ : ﴿ وَقَالَ الظَّالِمُونَ إنْ تَتَّبِعُونَ إلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴾ وَمِثْلُ هَذِهِ الْأَخْبَارِ مِنْ وَضْعِ الْمُلْحِدِينَ تَلَعُّبًا بِالْحَشْوِ الطَّغَامِ وَاسْتِجْرَارًا لَهُمْ إلَى الْقَوْلِ بِإِبْطَالِ مُعْجِزَاتِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمْ السَّلَامُ وَالْقَدْحِ فِيهَا ، وَأَنَّهُ لَا فَرْقَ بَيْنَ مُعْجِزَاتِ الْأَنْبِيَاءِ وَفِعْلِ السَّحَرَةِ ، وَأَنَّ جَمِيعَهُ مِنْ نَوْعٍ وَاحِدٍ وَالْعَجَبُ مِمَّنْ يَجْمَعُ بَيْنَ تَصْدِيقِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمْ السَّلَامُ وَإِثْبَاتِ مُعْجِزَاتِهِمْ وَبَيْنَ التَّصْدِيقِ بِمِثْلِ هَذَا مِنْ فِعْلِ السَّحَرَةِ مَعَ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يُفْلِحُ

السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴾ فَصَدَّقَ هَؤُلَاءِ مَنْ كَذَّبَهُ اللَّهُ وَأَخْبَرَ بِبُطْلَانِ دَعْوَاهُ وَانْتِحَالِهِ وَجَائِزٌ أَنْ تَكُونَ الْمَرْأَةُ الْيَهُودِيَّةُ

بِجَهْلِهَا فَعَلَتْ ذَلِكَ ظَنًّا مِنْهَا بِأَنَّ ذَلِكَ يَعْمَلُ فِي الْأَجْسَادِ .

وَقَصَدَتْ بِهِ النَّبِيَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ؛ فَأَطْلَعَ اللَّهُ نَبِيَّهُ عَلَى مَوْضِعِ سِرِّهَا وَأَظْهَرَ جَهْلَهَا فِيمَا ارْتَكَبَتْ وَظَنَّتْ لِيَكُونَ ذَلِكَ مِنْ دَلَائِلِ نُبُوَّتِهِ ، لِأَنَّ ذَلِكَ ضَرَّهُ وَخَلَطَ عَلَيْهِ أَمْرُهُ وَلَمْ يَقُلْ كُلُّ

(340/61)

الرُّوَاةِ إِنَّهُ اخْتَلَطَ عَلَيْهِ أَمْرُهُ ، وَإِنَّمَا هَذَا اللَّفْظُ زِيدَ فِي الْحَدِيثِ وَلَا أَصْلَ لَهُ وَالْفَرْقُ بَيْنَ مُعْجِزَاتِ الْأَنْبِيَاءِ وَبَيْنَ مَا ذَكَرْنَا مِنْ وُجُوهِ التَّخْيِيلَاتِ ، أَنَّ مُعْجِزَاتِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمْ السَّلَامُ هِيَ عَلَى حَقَائِقِهَا ، وَبَوَاطِنُهَا كَظَوَاهِرِهَا ، وَكُلَّمَا تَأَمَّلْتَهَا ازْدَدْتَ بَصِيرَةً فِي صِحَّتِهَا ، وَلَوْ جَهَدَ الْخَلْقُ كُلُّهُمْ عَلَى مُضَاهَاتِهَا وَمُقَابَلَتِهَا بِأَمْثَالِهَا ظَهَرَ عَجْزُهُمْ عَنْهَا ؛ وَمَخَارِيقُ السَّحَرَةِ وَتَخْيِيلَاتُهُمْ إِنَّمَا هِيَ ضَرْبٌ مِنْ الْحِيلَةِ وَالتَّلَطُّفِ لِإِظْهَارِ أُمُورٍ لَا حَقِيقَةَ لَهَا ، وَمَا يَظْهَرُ مِنْهَا عَلَى غَيْرِ حَقِيقَتِهَا ، يُعْرَفُ ذَلِكَ بِالتَّأَمُّلِ وَالْبَحْثِ وَمَتَى شَاءَ أَنْ يَتَعَلَّمَ ذَلِكَ بَلَغَ فِيهِ مَبْلَغَ غَيْرِهِ وَيَأْتِي بِمِثْلِ مَا أَظْهَرَهُ سِوَاهُ قَالَ أَبُو بَكْرٍ : قَدْ ذَكَرْنَا فِي مَعْنَى السِّحْرِ وَحَقِيقَتِهِ مَا يَقِفُ النَّاظِرُ عَلَى جُمْلَتِهِ وَطَرِيقَتِهِ ، وَلَوْ اسْتَقْصَيْنَا ذَلِكَ مِنْ وُجُوهِ الْحِيَلِ لَطَالَ وَاحْتَجْنَا

إِلَى اسْتِئْنَافِ كِتَابٍ لِذَلِكَ ، وَإِنَّمَا الْغَرَضُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ بَيَانُ مَعْنَى السِّحْرِ وَحُكْمِهِ وَالْآنَ حَيْثُ انْتَهَى بِنَا الْقَوْلُ إِلَى ذِكْرِ قَوْلِ الْفُقَهَاءِ فِيهِ وَمَا تَضَمَّنَتْهُ الْآيَةُ مِنْ حُكْمِهِ وَمَا يَجْرِي عَلَى مُدَّعِي ذَلِكَ مِنْ الْعُقُوبَاتِ عَلَى حَسَبِ مَنَازِلِهِمْ فِي عِظَمِ الْمَأْثَمِ وَكَثْرَةِ الْفَسَادِ ، وَاَللَّهُ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ .

(341/61)

بَابُ اخْتِلَافِ الْفُقَهَاءِ فِي حُكْمِ السَّاحِرِ وَقَوْلِ السَّلَفِ فِيهِ حَدَّثَنَا عَبْدُ الْبَاقِي ، حَدَّثَنَا عُثْمَانُ بْنُ عُمَرَ الضَّبِّيُّ قَالَ : حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ رَجَاءَ قَالَ : أَخْبَرَنَا إِسْرَائِيلُ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ عَنْ هُبَيْرَةَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ : " مَنْ أَتَى كَاهِنًا أَوْ عَرَّافًا أَوْ سَاحِرًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ " .

وَرَوَى عَبْدُ اللَّهِ عَنْ نَافِعٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ : أَنَّ جَارِيَةً لِحَفْصَةَ سَحَرَتْهَا فَوَجَدُوا سِحْرَهَا وَاعْتَرَفَتْ بِذَلِكَ ، فَأَمَرَتْ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ زَيْدٍ فَقَتَلَهَا ، فَبَلَغَ ذَلِكَ عُثْمَانَ فَأَنْكَرَهُ ، فَأَتَاهُ ابْنُ عُمَرَ فَأَخْبَرَهُ أَمْرَهَا ؛ وَكَانَ عُثْمَانُ إِنَّمَا أَنْكَرَ ذَلِكَ ؛ لِأَنَّهَا قُتِلَتْ بِغَيْرِ إِذْنِهِ وَذَكَرَ ابْنُ عُيَيْنَةَ عَنْ عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ ، أَنَّهُ سَمِعَ بَجَالَةَ يَقُولُ : كُنْت كَاتِبًا لِجَزْيِ بْنِ مُعَاوِيَةَ فَأَتَى كِتَابُ عُمَرَ أَنْ : اقْتُلُوا كُلَّ سَاحِرٍ وَسَاحِرَةٍ فَقَتَلْنَا ثَلَاثَ سَوَاحِرَ .

وَرَوَى أَبُو عَاصِمٍ عَنْ الْأَشْعَثِ عَنْ الْحَسَنِ قَالَ : "يُقْتَلُ السَّاحِرُ وَلَا يُسْتَتَابُ" وَرَوَى الْمُثَنَّى بْنُ الصَّبَّاحِ عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ : "أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ أَخَذَ سَاحِرًا فَدَفَنَهُ إلَى صَدْرِهِ ثُمَّ تَرَكَهُ حَتَّى مَاتَ" .

(342/61)

وَرَوَى سُفْيَانُ عَنْ عَمْرٍو عَنْ سَالِمِ بْنِ أَبِي الْجَعْدِ قَالَ : كَانَ قَيْسُ بْنُ سَعْدٍ أَمِيرًا عَلَى مِصْرَ فَجَعَلَ يَفْشُو سِرُّهُ ، فَقَالَ : مَنْ هَذَا الَّذِي يُفْشِي سِرِّي ؟ فَقَالُوا : سَاحِرٌ هَهُنَا فَدَعَاهُ ، فَقَالَ لَهُ : إذَا نَشَرْت الْكِتَابَ عَلِمْنَا مَا فِيهِ ، فَأَمَّا مَا دَامَ مَخْتُومًا فَلَيْسَ نَعْلَمُهُ ؛ فَأَمَرَ بِهِ فَقُتِلَ وَرَوَى أَبُو إسْحَاقَ الشَّيْبَانِيُّ عَنْ جَامِعِ بْنِ شَدَّادٍ عَنْ الْأَسْوَدِ بْنِ هِلَالٍ قَالَ : قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ : "إنَّ هَؤُلَاءِ الْعَرَّافِينَ كُهَّانُ الْعَجَمِ ، فَمَنْ أَتَى كَاهِنًا يُؤْمِنُ لَهُ بِمَا يَقُولُ فَهُوَ بَرِيءٌ مِمَّا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ

عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ" .

وَرَوَى مُبَارَكٌ عَنْ الْحَسَنِ أَنَّ جُنْدُبًا قَتَلَ سَاحِرًا وَرَوَى يُونُسُ عَنْ الزُّهْرِيِّ قَالَ : "يُقْتَلُ سَاحِرُ الْمُسْلِمِينَ وَلَا يُقْتَلُ سَاحِرُ أَهْلِ الْكِتَابِ ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَحَرَهُ

رَجُلٌ مِنْ الْيَهُودِ يُقَالُ لَهُ ابْنُ أَعْصِمَ وَامْرَأَةٌ مِنْ يَهُودِ خَيْبَرَ يُقَالُ لَهَا زَيْنَبُ فَلَمْ يَقْتُلْهُمَا " .

وَعَنْ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ قَالَ : "يُقْتَلُ السَّاحِرُ" .

(343/61)

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : اتَّفَقَ هَؤُلَاءِ السَّلَفُ عَلَى وُجُوبِ قَتْلِ السَّاحِرِ ، وَنَصَّ بَعْضُهُمْ عَلَى كُفْرِهِ وَاخْتَلَفَ فُقَهَاءُ الْأَمْصَارِ فِي حُكْمِهِ عَلَى مَا نَذْكُرُهُ ؛ فَرَوَى ابْنُ شُجَاعٍ عَنْ الْحَسَنِ بْنِ زِيَادٍ عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ أَنَّهُ قَالَ فِي السَّاحِرِ : "يُقْتَلُ إذَا عُلِمَ أَنَّهُ سَاحِرٌ وَلَا يُسْتَتَابُ وَلَا يُقْبَلُ قَوْلُهُ : إنِّي أَتْرُكُ السِّحْرَ وَأَتُوبُ مِنْهُ ، فَإِذَا أَقَرَّ أَنَّهُ سَاحِرٌ فَقَدْ حَلَّ دَمُهُ ، وَإِنْ شَهِدَ عَلَيْهِ شَاهِدَانِ أَنَّهُ سَاحِرٌ فَوَصَفُوا ذَلِكَ بِصِفَةٍ يُعْلَمُ أَنَّهُ سِحْرٌ قُتِلَ وَلَا يُسْتَتَابُ .

وَإِنْ أَقَرَّ فَقَالَ : كُنْت أَسْحَرُ وَقَدْ تَرَكْت مُنْذُ زَمَانٍ قُبِلَ مِنْهُ وَلَمْ يُقْتَلْ ، وَكَذَلِكَ لَوْ شَهِدَ عَلَيْهِ أَنَّهُ كَانَ مَرَّةً سَاحِرًا وَأَنَّهُ تَرَكَ مُنْذُ زَمَانٍ لَمْ يُقْتَلْ إلَّا أَنْ يَشْهَدُوا أَنَّهُ السَّاعَةَ سَاحِرٌ وَأَقَرَّ بِذَلِكَ فَيُقْتَلُ ، وَكَذَلِكَ الْعَبْدُ الْمُسْلِمُ وَالذِّمِّيُّ وَالْحُرُّ الذِّمِّيُّ مَنْ أَقَرَّ مِنْهُمْ أَنَّهُ سَاحِرٌ فَقَدْ حَلَّ دَمُهُ فَيُقْتَلُ وَلَا يُقْبَلُ تَوْبَتُهُ ، وَكَذَلِكَ لَوْ شُهِدَ عَلَى عَبْدٍ أَوْ ذِمِّيٍّ أَنَّهُ سَاحِرٌ وَوَصَفُوا ذَلِكَ بِصِفَةٍ يُعْلَمُ أَنَّهُ سِحْرٌ لَمْ تُقْبَلْ تَوْبَتُهُ وَيُقْتَلُ ، وَإِنْ أَقَرَّ الْعَبْدُ أَوْ الذِّمِّيُّ أَنَّهُ كَانَ سَاحِرًا وَتَرَكَ ذَلِكَ مُنْذُ

زَمَانٍ قُبِلَ ذَلِكَ ، وَكَذَلِكَ لَوْ شَهِدُوا عَلَيْهِ أَنَّهُ كَانَ مَرَّةً سَاحِرًا وَلَمْ يَشْهَدُوا أَنَّهُ السَّاعَةَ سَاحِرٌ لَمْ يُقْتَلْ ، وَأَمَّا الْمَرْأَةُ فَإِذَا شَهِدُوا عَلَيْهَا أَنَّهَا

(344/61)

سَاحِرَةٌ أَوْ أَقَرَّتْ بِذَلِكَ لَمْ تُقْتَلْ وَحُبِسَتْ وَضُرِبَتْ حَتَّى يَسْتَيْقِنَ لَهُمْ تَرْكُهَا لِلسِّحْرِ ، وَكَذَلِكَ الْأَمَةُ وَالذِّمِّيَّةُ إذَا شَهِدُوا أَنَّهَا سَاحِرَةٌ أَوْ أَقَرَّتْ بِذَلِكَ لَمْ تُقْتَلْ وَحُبِسَتْ حَتَّى يُعْلَمَ مِنْهَا تَرْكُ ذَلِكَ كُلِّهِ " وَهَذَا كُلُّهُ قَوْلُ أَبِي حَنِيفَةَ قَالَ ابْنُ شُجَاعٍ : فَحُكْمُ فِي السَّاحِرِ وَالسَّاحِرَةِ حُكْمُ الْمُرْتَدِّ وَالْمُرْتَدَّةِ ؛ إلَّا أَنْ يَجِيءَ فَيُقِرَّ بِالسِّحْرِ أَوْ يُشْهَدَ عَلَيْهِ بِذَلِكَ أَنَّهُ عَمِلَهُ ، فَإِنَّهُ جَعَلَ ذَلِكَ بِمَنْزِلَةِ الثَّبَاتِ عَلَى الرِّدَّةِ وَحَكَى مُحَمَّدُ بْنُ شُجَاعٍ عَنْ أَبِي عَلِيٍّ الرَّازِيِّ قَالَ : سَأَلْت أَبَا يُوسُفَ عَنْ قَوْلِ أَبِي حَنِيفَةَ فِي السَّاحِرِ "يُقْتَلُ وَلَا يُسْتَتَابُ " لِمَ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ بِمَنْزِلَةِ الْمُرْتَدِّ ؟ فَقَالَ : السَّاحِرُ قَدْ جَمَعَ مَعَ كُفْرِهِ السَّعْيَ فِي الْأَرْضِ بِالْفَسَادِ .

وَالسَّاعِي بِالْفَسَادِ إذَا قَتَلَ قُتِلَ .

(345/61)

قَالَ : فَقُلْتُ لِأَبِي يُوسُفَ : مَا السَّاحِرُ ؟ قَالَ : الَّذِي يُقْتَصُّ لَهُ مِنْ الْعَمَلِ مِثْلُ مَا فَعَلَتْ الْيَهُودُ بِالنَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَبِمَا جَاءَتْ بِهِ الْأَخْبَارُ إذَا أَصَابَ بِهِ قَتْلًا ، فَإِذَا لَمْ يُصِبْ بِهِ قَتْلًا لَمْ يُقْتَلْ ؛ لِأَنَّ لَبِيدَ بْنَ الْأَعْصَمِ سَحَرَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمْ يَقْتُلْهُ ؛ إذْ كَانَ لَمْ يُصِبْ بِهِ قَتْلًا قَالَ أَبُو بَكْرٍ : لَيْسَ فِيمَا ذَكَرَ بَيَانُ مَعْنَى السِّحْرِ الَّذِي يَسْتَحِقُّ فَاعِلُهُ الْقَتْلَ ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُظَنَّ بِأَبِي يُوسُفَ أَنَّهُ اعْتَقَدَ فِي السِّحْرِ مَا يَعْتَقِدُهُ الْحَشْوُ مِنْ إيصَالِهِمْ الضَّرَرَ إلَى الْمَسْحُورِ مِنْ غَيْرِ مُمَاسَّةٍ وَلَا سَقْيِ دَوَاءٍ ؛ وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ سِحْرُ الْيَهُودِ لِلنَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى جِهَةِ إرَادَتِهِمْ التَّوَصُّلَ إلَى قَتْلِهِ بِإِطْعَامِهِ ، وَأَطْلَعَهُ اللَّهُ عَلَى مَا أَرَادُوا ، كَمَا سَمَّتْهُ زَيْنَبُ الْيَهُودِيَّةُ فِي الشَّاةِ الْمَسْمُومَةِ فَأَخْبَرَتْهُ الشَّاةُ بِذَلِكَ ، فَقَالَ : ﴿ إنَّ هَذِهِ الشَّاةَ لَتُخْبِرُنِي أَنَّهَا مَسْمُومَةٌ . ﴾

(346/61)

قَالَ أَبُو مُصْعَبٍ عَنْ مَالِكٍ فِي الْمُسْلِمِ إذَا تَوَلَّى عَمَلَ السِّحْرِ قُتِلَ وَلَا يُسْتَتَابُ ؛ لِأَنَّ الْمُسْلِمَ إذَا ارْتَدَّ بَاطِنًا لَمْ تُعْرَفْ تَوْبَتُهُ بِإِظْهَارِهِ الْإِسْلَامَ قَالَ إسْمَاعِيلُ بْنُ إسْحَاقَ : فَأَمَّا سَاحِرُ أَهْلِ الْكِتَابِ فَإِنَّهُ لَا يُقْتَلُ عِنْدَ مَالِكٍ ، إلَّا أَنْ يَضُرَّ الْمُسْلِمِينَ فَيُقْتَلُ لِنَقْضِ الْعَهْدِ وَقَالَ الشَّافِعِيُّ : إذَا قَالَ السَّاحِرُ : أَنَا أَعْمَلُ عَمَلًا لِأَقْتُلَ فَأُخْطِئُ وَأُصِيبُ وَقَدْ مَاتَ هَذَا الرَّجُلُ مِنْ عَمَلِي ؛

فَفِيهِ الدِّيَةُ وَإِنْ قَالَ : عَمَلِي يَقْتُلُ الْمَعْمُولَ بِهِ وَقَدْ تَعَمَّدْت قَتْلَهُ ؛ قُتِلَ بِهِ قَوَدًا ، وَإِنْ قَالَ : مَرِضَ مِنْهُ وَلَمْ يَمُتْ أَقْسَمَ أَوْلِيَاؤُهُ لَمَاتَ مِنْهُ ثُمَّ تَكُونُ الدِّيَةُ .

(347/61)

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : فَلَمْ يَجْعَلْ الشَّافِعِيُّ السَّاحِرَ كَافِرًا بِسِحْرِهِ وَإِنَّمَا جَعَلَهُ جَانِيًا كَسَائِرِ الْجُنَاةِ وَمَا قَدَّمْنَا مِنْ قَوْلِ السَّلَفِ يُوجِبُ أَنْ يَكُونَ مُسْتَحِقًّا لِلْقَتْلِ بِاسْتِحْقَاقِ سِمَةِ السِّحْرِ ، فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُمْ رَأَوْهُ كَافِرًا ، وَقَوْلُ الشَّافِعِيِّ فِي ذَلِكَ خَارِجٌ عَنْ قَوْلِ جَمِيعِهِمْ ؛ إذْ لَمْ يَعْتَبِرْ أَحَدٌ مِنْهُمْ قَتْلَهُ لِغَيْرِهِ بِعَمَلِهِ السِّحْرَ فِي إيجَابِ قَتْلِهِ قَالَ أَبُو بَكْرٍ : وَقَدْ بَيَّنَّا فِيمَا سَلَفَ مَعَانِي السِّحْرِ وَضُرُوبَهُ ؛ وَأَمَّا الضَّرْبُ الْأَوَّلُ الَّذِي ذَكَرْنَا مِنْ سِحْرِ أَهْلِ بَابِلَ فِي الْقَدِيمِ وَمَذَاهِبِ الصَّابِئِينَ فِيهِ ، وَهُوَ الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ ﴾ فِيمَا يُرَى وَاَللَّهُ أَعْلَمُ ، فَإِنَّ الْقَائِلَ بِهِ وَالْمُصَدِّقَ بِهِ وَالْعَامِلَ بِهِ كَافِرٌ ؛ وَهُوَ الَّذِي قَالَ أَصْحَابُنَا فِيهِ عِنْدِي إنَّهُ لَا يُسْتَتَابُ ، وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالْآيَةِ هَذَا الضَّرْبُ مِنْ السِّحْرِ ، مَا حَدَّثَنَا عَبْدُ الْبَاقِي بْنُ قَانِعٍ قَالَ : حَدَّثَنَا نُطَيْرٌ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ قَالَ : حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ الْقَطَّانُ

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْأَخْنَسِ قَالَ : حَدَّثَنَا الْوَلِيدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ يُوسُفَ بْنِ مَاهَكَ عَنْ ابْنِ

عَبَّاسٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ مَنْ اقْتَبَسَ عِلْمًا مِنْ النُّجُومِ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنْ السِّحْرِ ﴾ .

(348/61)

وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى مَعْنَيَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّ الْمُرَادَ بِالْآيَةِ هُوَ السِّحْرُ الَّذِي نَسَبَهُ عَامِلُوهُ إلَى النُّجُومِ ، وَهُوَ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ مِنْ سِحْرِ أَهْلِ بَابِل وَالصَّابِئِينَ ؛ لِأَنَّ سَائِرَ ضُرُوبِ السِّحْرِ الَّذِي ذَكَرْنَا لَيْسَ لَهَا تَعَلُّقٌ بِالنُّجُومِ عِنْدَ أَصْحَابِهَا وَالثَّانِي : أَنَّ إطْلَاقَ لَفْظِ السِّحْرِ الْمَذْمُومِ يَتَنَاوَلُ هَذَا الضَّرْبَ مِنْهُ ؛ وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُتَعَارَفَ عِنْدَ السَّلَفِ مِنْ السِّحْرِ هُوَ هَذَا الضَّرْبُ مِنْهُ وَمِمَّا يَدَّعِي فِيهِ أَصْحَابُهَا الْمُعْجِزَاتِ ، وَإِنْ لَمْ يُعَلِّقُوا ذَلِكَ بِفِعْلِ النُّجُومِ دُونَ غَيْرِهَا مِنْ الْوُجُوهِ الَّتِي ذَكَرْنَا ؛ وَأَنَّهُ هُوَ الْمَقْصُودُ بِقَتْلِ فَاعِلِهِ ؛ إذْ لَمْ يُفَرِّقُوا فِيهِ بَيْنَ عَامِلِ السِّحْرِ بِالْأَدْوِيَةِ وَالنَّمِيمَةِ وَالسِّعَايَةِ وَالشَّعْوَذَةِ وَبَيْنَ غَيْرِهِ وَمَعْلُومٌ عِنْدَ الْجَمِيعِ أَنَّ هَذِهِ الضُّرُوبَ مِنْ السِّحْرِ لَا تُوجِبُ قَتْلَ فَاعِلِهَا إذَا لَمْ يَدَّعِ فِيهِ مُعْجِزَةً لَا يُمْكِنُ الْعِبَادَ فِعْلُهَا ؛ فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ إيجَابَهُمْ قَتْلَ السَّاحِرِ إنَّمَا كَانَ لِمَنْ ادَّعَى بِسِحْرِهِ مُعْجِزَاتٍ لَا يَجُوزُ وُجُودُ مِثْلِهَا إلَّا مِنْ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمْ السَّلَامُ دَلَالَةً عَلَى صِدْقِهِمْ وَذَلِكَ يَنْقَسِمُ إلَى مَعْنَيَيْنِ : أَحَدُهُمَا : مَا بَدَأْنَا بِذِكْرِهِ مِنْ سِحْرِ أَهْلِ بَابِل ؛ وَالْآخَرُ : مَا يَدَّعِيهِ الْمُعَزِّمُونَ وَأَصْحَابُ النيرنجيات مِنْ خِدْمَةِ

الشَّيَاطِينِ لَهُمْ وَالْفَرِيقَانِ جَمِيعًا كَافِرَانِ ؛ أَمَّا الْفَرِيقُ الْأَوَّلُ فَلِأَنَّ فِي سِحْرِهِ تَعْظِيمَ الْكَوَاكِبِ وَاعْتِقَادَهَا آلِهَةً ، وَأَمَّا

(349/61)

الْفَرِيقُ الثَّانِي فَلِأَنَّهَا وَإِنْ كَانَتْ مُعْتَرِفَةً بِاَللَّهِ وَرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِنَّهَا حَيْثُ أَجَازَتْ أَنْ تُخْبِرَهَا الْجِنُّ بِالْغُيُوبِ وَتَقْدِرُ عَلَى تَغْيِيرِ فُنُونِ الْحَيَوَانِ وَالطَّيَرَانِ فِي الْهَوَاءِ وَالْمَشْيِ عَلَى الْمَاءِ وَمَا جَرَى مَجْرَى ذَلِكَ فَقَدْ جَوَّزَتْ وُجُودَ مِثْلِ أَعْلَامِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمْ السَّلَامُ مَعَ الْكَذَّابِينَ الْمُتَخَرِّصِينَ .

(350/61)

وَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ فَإِنَّهُ لَا يَعْلَمُ صِدْقَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمْ السَّلَامُ لِتَجْوِيزِهِ كَوْنَ مِثْلِ هَذِهِ الْأَعْلَامِ مَعَ غَيْرِهِمْ ، فَلَا يَأْمَنُ أَنْ يَكُونَ جَمِيعُ مَنْ ظَهَرَتْ عَلَى يَدِهِ مُتَخَرِّصًا كَذَّابًا فَإِنَّمَا كُفْرُ هَذِهِ الطَّائِفَةِ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ ، وَهُوَ جَهْلُهُ بِصِدْقِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمْ السَّلَامُ وَالْأَظْهَرُ مِنْ أَمْرِ السَّاحِرِ الَّذِي رَأَتْ الصَّحَابَةُ قَتْلَهُ مِنْ غَيْرِ بَحْثٍ مِنْهُمْ عَنْ حَالِهِ وَلَا بَيَانٍ لِمَعَانِي سِحْرِهِ أَنَّهُ السَّاحِرُ

الْمَذْكُورُ فِي قَوْلِه تَعَالَى : ﴿ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ ﴾ وَهُوَ السَّاحِرُ الَّذِي بَدَأْنَا بِذِكْرِهِ عِنْدَ ذِكْرِنَا ضُرُوبَ السِّحْرِ ، وَهُوَ سِحْرُ أَهْلِ بَابِلَ فِي الْقَدِيمِ ، وَعَسَى أَنْ يَكُونَ هُوَ الْأَغْلَبَ الْأَعَمَّ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ ؛ وَلَا يَبْعُدُ أَنْ يَكُونَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ مَنْ يَتَعَاطَى سَائِرَ ضُرُوبِ السِّحْرِ الَّذِي ذَكَرْنَا وَكَانُوا يَجْرُونَ فِي دَعْوَاهُمْ الْإِخْبَارَ بِالْغُيُوبِ وَتَغْيِيرِ صُوَرِ الْحَيَوَانِ عَلَى مِنْهَاجِ سِحْرَةِ بَابِلَ ، وَكَذَلِكَ كُهَّانُ الْعَرَبِ ، يَشْمَلُ الْجَمِيعَ اسْمُ الْكُفْرِ لِظُهُورِ هَذِهِ الدَّعَاوَى مِنْهُمْ وَتَجْوِيزِهِمْ مُضَاهَاةَ الْأَنْبِيَاءِ فِي مُعْجِزَاتِهِمْ وَعَلَى أَيِّ وَجْهٍ كَانَ مَعْنَى السِّحْرِ عِنْدَ السَّلَفِ فَإِنَّهُ لَمْ يُحْكَ عَنْ أَحَدٍ إيجَابُ قَتْلِ السَّاحِرِ مِنْ طَرِيقِ الْجِنَايَةِ عَلَى النُّفُوسِ ، بَلْ إيجَابُ قَتْلِهِ بِاعْتِقَادِهِ عَمَلَ السِّحْرِ مِنْ غَيْرِ اعْتِبَارٍ مِنْهُمْ لِجِنَايَتِهِ عَلَى غَيْرِهِ ، فَأَمَّا مَا يَفْعَلُهُ الْمُشَعْوِذُونَ وَأَصْحَابُ الْحَرَكَاتِ وَالْخِفَّةِ بِالْأَيْدِي ، وَمَا يَفْعَلُهُ مَنْ يَتَعَاطَى ذَلِكَ بِسَقْيِ

الْأَدْوِيَةِ الْمُبَلِّدَةِ لِلْعَقْلِ أَوْ السُّمُومِ الْقَاتِلَةِ .

(351/61)

وَمَنْ يَتَعَاطَى ذَلِكَ بِطَرِيقِ السَّعْيِ بِالنَّمَائِمِ وَالْوِشَايَةِ وَالتَّضْرِيبِ وَالْإِفْسَادِ ؛ فَإِنَّهُمْ إذَا اعْتَرَفُوا بِأَنَّ ذَلِكَ حِيَلٌ وَمَخَارِيقُ ، حُكْمُ مَنْ يَتَعَاطَى مِثْلَهَا مِنْ النَّاسِ لَمْ يَكُنْ كَافِرًا وَيَنْبَغِي أَنْ يُؤَدَّبَ

وَيُزْجَرَ عَنْ ذَلِكَ وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ السَّاحِرَ الْمَذْكُورَ فِي الْآيَةِ مُسْتَحِقٌّ لِاسْمِ الْكُفْرِ قَوْلُه تَعَالَى : ﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ ﴾ أَيْ عَلَى عَهْدِ سُلَيْمَانَ ، رُوِيَ ذَلِكَ عَنْ الْمُفَسِّرِينَ وَقَوْلُهُ ﴿ لِتَتْلُوَ ﴾ مَعْنَاهُ تُخْبِرُ وَتَقْرَأُ ثُمَّ قَوْلُه تَعَالَى ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا ﴾ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَا أَخْبَرَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ وَادَّعَتْهُ مِنْ السِّحْرِ عَلَى سُلَيْمَانَ كَانَ كُفْرًا ، فَنَفَاهُ اللَّهُ عَنْ سُلَيْمَانَ وَحَكَمَ بِكُفْرِ الشَّيَاطِينِ الَّذِينَ تَعَاطَوْهُ وَعَمِلُوهُ ، ثُمَّ عَطَفَ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُه تَعَالَى : ﴿ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾ فَأَخْبَرَ عَنْ الْمَلَكَيْنِ أَنَّهُمَا يَقُولَانِ لِمَنْ يُعَلِّمَانِهِ ذَلِكَ : لَا تَكْفُرْ بِعَمَلِ هَذَا السِّحْرِ وَاعْتِقَادِهِ فَثَبَتَ أَنَّ ذَلِكَ كُفْرٌ إذَا عُمِلَ بِهِ وَاعْتُقِدَ ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنْ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴾ يَعْنِي ، وَاَللَّهُ أَعْلَمُ : مِنْ اسْتَبْدَلَ السِّحْرَ بِدِينِ اللَّهِ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ، يَعْنِي مِنْ نَصِيبٍ ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ

(352/61)

كَانُوا يَعْلَمُونَ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ فَجَعَلَ ضِدَّ هَذَا الْإِيمَانِ فِعْلَ السِّحْرِ ؛ لِأَنَّهُ جَعَلَ الْإِيمَانَ فِي مُقَابَلَةِ فِعْلِ السِّحْرِ وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ

السَّاحِرَ كَافِرٌ .

وَإِذَا ثَبَتَ كُفْرُهُ فَإِنْ كَانَ مُسْلِمًا قَبْلَ ذَلِكَ أَوْ قَدْ ظَهَرَ مِنْهُ الْإِسْلَامُ فِي وَقْتٍ فَقَدْ كَفَرَ بِفِعْلِ السِّحْرِ فَاسْتَحَقَّ الْقَتْلَ بِقَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿ مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ ﴾ وَإِنَّمَا قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ وَلَا نَعْلَمُ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِنَا خَالَفَهُ فِيمَا ذَكَرَهُ الْحَسَنُ عَنْهُ : " إنَّهُ يُقْتَلُ وَلَا يُسْتَتَابُ " فَأَمَّا مَا رُوِيَ عَنْ أَبِي يُوسُفَ فِي فَرْقِ أَبِي حَنِيفَةَ بَيْنَ السَّاحِرِ وَبَيْنَ الْمُرْتَدِّينَ ، فَإِنَّ السَّاحِرَ قَدْ جَمَعَ إلَى كُفْرِهِ السَّعْيَ بِالْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ : فَأَنْتَ لَا تَقْتُلُ الْخَنَّاقَ وَالْمُحَارِبِينَ إلَّا إذَا قَتَلُوا ، فَهَلَّا قُلْتَ مِثْلَهُ فِي السَّاحِرِ قِيلَ لَهُ : يَفْتَرِقَانِ مِنْ جِهَةِ أَنَّ الْخَنَّاقَ وَالْمُحَارِبَ لَمْ يَكْفُرَا قَبْلَ الْقَتْلِ وَلَا بَعْدَهُ فَلَمْ يَسْتَحِقَّا الْقَتْلَ ؛ إذْ لَمْ يَتَقَدَّمْ مِنْهُمَا سَبَبٌ يَسْتَحِقَّانِ بِهِ الْقَتْلَ ، وَأَمَّا السَّاحِرُ فَقَدْ كَفَرَ بِسِحْرِهِ قَتَلَ بِهِ أَوْ لَمْ يَقْتُلْ ، فَاسْتَحَقَّ الْقَتْلَ بِكُفْرِهِ ثُمَّ لَمَّا كَانَ مَعَ كُفْرِهِ سَاعِيًا فِي الْأَرْضِ بِالْفَسَادِ كَانَ وُجُوبُ قَتْلِهِ حَدًّا فَلَمْ يَسْقُطْ بِالتَّوْبَةِ كَالْمُحَارِبِ إذَا اسْتَحَقَّ الْقَتْلَ لَمْ يَسْقُطْ ذَلِكَ عَنْهُ بِالتَّوْبَةِ ؛ فَهُوَ مُشْبِهٌ لِلْمُحَارِبِ الَّذِي قَتَلَ فِي أَنَّ قَتْلَهُ حَدًّا لَا تُزِيلُهُ عَنْهُ التَّوْبَةُ ، وَيُفَارِقُ الْمُرْتَدَّ مِنْ جِهَةِ أَنَّ الْمُرْتَدَّ يَسْتَحِقُّ الْقَتْلَ بِإِقَامَتِهِ عَلَى الْكُفْرِ فَحَسْبُ فَمَتَى انْتَقَلَ عَنْهُ زَالَ عَنْهُ الْكُفْرُ وَالْقَتْلُ .

وَلِمَا وَصَفْنَا مِنْ ذَلِكَ لَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ السَّاحِرِ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ وَمِنْ الْمُسْلِمِينَ ، كَمَا لَا يَخْتَلِفُ حُكْمُ الْمُحَارِبِ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ وَالْإِسْلَامِ فِيمَا يَسْتَحِقُّونَهُ بِالْمُحَارَبَةِ ؛ وَلِذَلِكَ لَمْ تُقْتَلْ الْمَرْأَةُ السَّاحِرَةُ ؛ لِأَنَّ الْمَرْأَةَ مِنْ الْمُحَارِبِينَ عِنْدَهُمْ لَا تُقْتَلُ حَدًّا وَإِنَّمَا تُقْتَلُ قَوَدًا وَوَجْهٌ آخَرُ لِقَوْلِ أَبِي حَنِيفَةَ فِي تَرْكِ اسْتِتَابَةِ السَّاحِرِ ، وَهُوَ مَا

ذَكَرَهُ الطَّحَاوِيُّ قَالَ : حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ أَبِي يُوسُفَ فِي نَوَادِرَ ذَكَرَهَا عَنْهُ أَدْخَلَهَا فِي أَمَالِيهِ عَلَيْهِمْ قَالَ : قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : " اُقْتُلُوا الزِّنْدِيقَ سِرًّا فَإِنَّ تَوْبَتَهُ لَا تُعْرَفُ "

.

وَلَمْ يَحْكِ أَبُو يُوسُفَ خِلَافَهُ وَيَصِحُّ بِنَاءُ مَسْأَلَةِ السَّاحِرِ عَلَيْهِ ؛ لِأَنَّ السَّاحِرَ يَكْفُرُ سِرًّا فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ الزِّنْدِيقِ فَالْوَاجِبُ أَنْ لَا تُقْبَلَ تَوْبَتُهُ .

(354/61)

فَإِنْ قِيلَ : فَعَلَى هَذَا يَنْبَغِي أَنْ لَا يُقْتَلَ السَّاحِرُ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ ؛ لِأَنَّ كُفْرَهُ ظَاهِرٌ وَهُوَ غَيْرُ مُسْتَحِقٍّ لِلْقَتْلِ لِأَجْلِ الْكُفْرِ قِيلَ لَهُ : الْكُفْرُ الَّذِي أَقْرَرْنَاهُ عَلَيْهِ هُوَ مَا أَظْهَرَهُ لَنَا ، وَأَمَّا الْكُفْرُ الَّذِي صَارَ إلَيْهِ بِسِحْرِهِ فَإِنَّهُ غَيْرُ مُقَرٍّ عَلَيْهِ وَلَمْ نُعْطِهِ الذِّمَّةَ عَلَى إقْرَارِهِ عَلَيْهِ ، أَلَا تَرَى أَنَّهُ لَوْ سَأَلَنَا إقْرَارَهُ عَلَى السِّحْرِ بِالْجِزْيَةِ لَمْ نُجِبْهُ إلَيْهِ وَلَمْ نُجِزْ إقْرَارَهُ عَلَيْهِ ؟ وَلَا فَرْقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ

السَّاحِرِ مِنْ أَهْلِ الْمِلَّةِ وَأَيْضًا ، فَلَوْ أَنَّ الذِّمِّيَّ السَّاحِرَ لَمْ يَسْتَحِقَّ الْقَتْلَ بِكُفْرِهِ لَا سْتَحَقَّهُ بِسَعْيِهِ فِي الْأَرْضِ بِالْفَسَادِ كَالْمُحَارِبِينَ عَلَى النَّحْوِ الَّذِي ذَكَرْنَا ، وَقَوْلُهُمْ فِي تَرْكِ قَبُولِ تَوْبَةِ الزِّنْدِيقِ ، يُوجِبُ أَنْ لَا يُسْتَتَابَ الْإِسْمَاعِيلِيَّةُ وَسَائِرُ الْمُلْحِدِينَ الَّذِينَ قَدْ عُلِمَ مِنْهُمْ اعْتِقَادُ الْكُفْرِ كَسَائِرِ الزَّنَادِقَةِ وَأَنْ يَقْتُلُوا مَعَ إِظْهَارِهِمْ التَّوْبَةَ وَيَدُلُّ عَلَى وُجُوبِ قَتْلِ السَّاحِرِ مَا حَدَّثَنَا بِهِ ابْنُ قَانِعٍ : حَدَّثَنَا بِشْرُ بْنُ مُوسَى قَالَ : حَدَّثَنَا ابْنُ الْأَصْبَهَانِيِّ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَةَ عَنْ إِسْمَاعِيلَ بْنِ مُسْلِمٍ عَنْ الْحَسَنِ بْنِ جُنْدُبٍ أَنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ : ﴿ حَدُّ السَّاحِرِ ضَرْبُهُ بِالسَّيْفِ ﴾ .

وَقِصَّةُ جُنْدُبٍ فِي قَتْلِهِ السَّاحِرَ بِالْكُوفَةِ عِنْدَ الْوَلِيدِ بْنِ عُقْبَةَ مَشْهُورَةٌ وَقَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿ حَدُّ

(355/61)

السَّاحِرِ ضَرْبُهُ بِالسَّيْفِ ﴾ قَدْ دَلَّ عَلَى مَعْنَيَيْنِ : أَحَدُهُمَا : وُجُوبُ قَتْلِهِ ؛ وَالثَّانِي : أَنَّهُ حَدٌّ لَا يُزِيلُهُ التَّوْبَةُ كَسَائِرِ الْحُدُودِ إذَا وَجَبَتْ ، وَلَمَّا ذَكَرْنَا مِنْ قَتْلِهِ عَلَى وَجْهِ قَتْلِ الْمُحَارِبِ قَالُوا فِيمَا حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ زِيَادٍ : إنَّهُ إذَا قَالَ "كُنْت سَاحِرًا وَقَدْ تُبْت " أَنَّهُ لَا يُقْتَلُ ، كَمَنْ أَقَرَّ أَنَّهُ كَانَ مُحَارِبًا وَجَاءَ تَائِبًا أَنَّهُ لَا يُقْتَلُ ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى فِي شَأْنِ الْمُحَارِبِينَ : ﴿ إلَّا الَّذِينَ

تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ فَاسْتَثْنَى التَّائِبَ قَبْلَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِ مِنْ جُمْلَةِ مَنْ أَوْجَبَ عَلَيْهِ الْحَدَّ الْمَذْكُورَ فِي الْآيَةِ وَيُسْتَدَلُّ بِظَاهِرِ قَوْلِه تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا ﴾ إلَى آخِرِ الْآيَةِ ، عَلَى وُجُوبِ قَتْلِ السَّاحِرِ حَدًّا ؛ لِأَنَّهُ مِنْ أَهْلِ السَّعْيِ فِي الْأَرْضِ بِالْفَسَادِ لِعَمَلِهِ السِّحْرَ وَاسْتِدْعَائِهِ النَّاسَ إلَيْهِ وَإِفْسَادِهِ إيَّاهُمْ مَعَ مَا صَارَ إلَيْهِ مِنْ الْكُفْرِ ، وَأَمَّا مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ فَإِنَّهُ أَجْرَى السَّاحِرَ مَجْرَى الزِّنْدِيقِ ، فَلَمْ يَقْبَلْ تَوْبَتَهُ كَمَا لَا يَقْبَلُ تَوْبَةَ الزِّنْدِيقِ ، وَلَمْ يَقْتُلْ سَاحِرَ أَهْلِ الذِّمَّةِ ؛ لِأَنَّهُ غَيْرُ مُسْتَحِقٍّ لِلْقَتْلِ بِكُفْرِهِ وَقَدْ أَقْرَرْنَاهُ عَلَيْهِ ، فَلَا يُقْتَلُ إلَّا أَنْ يَضُرَّ بِالْمُسْلِمِينَ فَيَكُونَ ذَلِكَ عِنْدَهُ نَقْضًا لِلْعَهْدِ .

(356/61)

فَيُقْتَلُ كَمَا يُقْتَلُ الْحَرْبِيُّ وَقَدْ بَيَّنَّا مُوَافَقَةَ السَّاحِرِ الذِّمِّيِّ لِلزِّنْدِيقِ مِنْ قِبَلِ أَنَّهُ اسْتَحْدَثَ كُفْرًا سِرًّا ، لَا يَجُوزُ إقْرَارُهُ عَلَيْهِ بِجِزْيَةٍ وَلَا غَيْرِهَا ، فَلَا فَرْقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ السَّاحِرِ مِمَّنْ يَنْتَحِلُ مِلَّةَ الْإِسْلَامِ ؛ وَمِنْ جِهَةٍ أُخْرَى أَنَّهُ فِي مَعْنَى الْمُحَارِبِ فَلَا يَخْتَلِفُ حُكْمُ أَهْلِ الذِّمَّةِ وَمُنْتَحِلِي الذِّمَّةِ ، وَأَمَّا مَذْهَبُ الشَّافِعِيِّ فَقَدْ بَيَّنَّا خُرُوجَهُ عَنْ أَقَاوِيلِ

(357/61)

السَّلَفِ ؛ لِأَنَّ أَحَدًا مِنْهُمْ لَمْ يَعْتَبِرْ قَتْلَهُ بِسِحْرِهِ وَأَوْجَبُوا قَتْلَهُ عَلَى الْإِطْلَاقِ بِحُصُولِ الِاسْمِ لَهُ ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ لَا يَخْلُو مِنْ أَحَدِ وَجْهَيْنِ فِي ذِكْرِهِ قَتْلَ السَّاحِرِ بِغَيْرِهِ : إمَّا أَنْ يُجِيزَ عَلَى السَّاحِرِ قَتْلَ غَيْرِهِ مِنْ غَيْرِ مُبَاشَرَةٍ وَلَا اتِّصَالِ سَبَبٍ إلَيْهِ عَلَى حَسَبِ مَا يَدَّعِيهِ السَّحَرَةُ ، وَذَلِكَ فَظِيعٌ شَنِيعٌ وَلَا يُجِيزُهُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ بِاَللَّهِ وَرَسُولِهِ مِنْ فِعْلِ السَّحَرَةِ لِمَا وَصَفْنَا مِنْ مُضَاهَاتِهِ أَعْلَامَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمْ السَّلَامُ أَوْ أَنْ يَكُونَ إنَّمَا أَجَازَ ذَلِكَ مِنْ جِهَةِ سَقْيِ الْأَدْوِيَةِ وَنَحْوِهَا ، فَإِنْ كَانَ هَذَا أَرَادَ فَإِنَّ مِنْ احْتِمَالِ فِي إيصَالِ دَوَاءٍ إلَى إنْسَانٍ حَتَّى شَرِبَهُ فَإِنَّهُ لَا يَلْزَمُهُ دِيَةٌ ؛ إذْ كَانَ هُوَ الشَّارِبَ لَهُ وَالْجَانِيَ عَلَى نَفْسِهِ ، كَمَنْ دَفَعَ إلَى إنْسَانٍ سَيْفًا فَقَتَلَ بِهِ نَفْسَهُ ، وَإِنْ كَانَ إنَّمَا أَوْجَرَهُ إيَّاهُ مِنْ غَيْرِ اخْتِيَارٍ لِشُرْبِهِ ، فَإِنَّ هَذَا لَا يَكَادُ يَقَعُ إلَّا فِي حَالِ الْإِكْرَاهِ وَالنَّوْمِ وَنَحْوِهِ فَإِنْ كَانَ أَرَادَ ذَلِكَ فَإِنَّ هَذَا يَسْتَوِي فِيهِ السَّاحِرُ وَغَيْرُهُ ثُمَّ قَوْلُهُ : " إذَا قَالَ السَّاحِرُ قَدْ أُخْطِئُ وَأُصِيبُ وَقَدْ مَاتَ هَذَا الرَّجُلُ مِنْ عَمَلِي فَفِيهِ الدِّيَةُ " فَإِنَّهُ لَا مَعْنَى لَهُ ؛ لِأَنَّ رَجُلًا لَوْ جَرَحَ رَجُلًا بِحَدِيدَةٍ قَدْ يَمُوتُ الْمَجْرُوحُ مِنْ مِثْلِهِ وَقَدْ لَا يَمُوتُ ، لَكَانَ عَلَيْهِ فِيهِ الْقِصَاصُ ؛ فَكَانَ الْوَاجِبُ عَلَى قَوْلِهِ إيجَابَ الْقِصَاصِ كَمَا يَجِبُ فِي الْحَدِيدَةِ وَقَوْلُهُ : " قَدْ يَمُوتُ وَقَدْ لَا يَمُوتُ

" لَيْسَ بِعِلَّةٍ فِي زَوَالِ الْقِصَاصِ لِوُجُودِهَا فِي الْجَارِحِ بِحَدِيدَةٍ بَعْدَ أَنْ يُقِرَّ السَّاحِرُ أَنَّهُ قَدْ مَاتَ مِنْ عَمَلِهِ .

فَإِنْ قِيلَ فَقَدْ جَعَلَهُ بِمَنْزِلَةِ شِبْهِ الْعَمْدِ وَالضَّرْبِ بِالْعَصَا وَاللَّطْمَةِ الَّتِي قَدْ تَقْتُلُ وَقَدْ لَا تَقْتُلُ قِيلَ لَهُ : وَلِمَ صَارَ بِالْقَتْلِ بِالْعَصَا وَاللَّطْمَةِ أَشْبَهَ مِنْهُ بِالْحَدِيدَةِ ؟ .

فَإِنْ فَرَّقَ

بَيْنَهُمَا مِنْ جِهَةِ أَنَّ هَذَا سِلَاحٌ وَذَاكَ لَيْسَ بِسِلَاحٍ ، لَزِمَهُ فِي كُلِّ مَا لَيْسَ بِسِلَاحٍ أَنْ لَا يُقْتَصَّ مِنْهُ ، وَيَلْزَمُهُ حِينَئِذٍ اعْتِبَارُ السِّلَاحِ دُونَ غَيْرِهِ فِي إيجَابِ الْقَوَدِ .

وَقَوْلُ الشَّافِعِيِّ : " وَإِنْ قَالَ مَرِضَ مِنْهُ وَلَمْ يَمُتْ أَقْسَمَ أَوْلِيَاؤُهُ لَمَاتَ مِنْهُ " مُخَالِفٌ فِي النَّظَرِ لِأَحْكَامِ الْجِنَايَاتِ ؛ لِأَنَّ مَنْ جَرَحَ رَجُلًا فَلَمْ يَزَلْ صَاحِبَ فِرَاشٍ حَتَّى مَاتَ ، لَزِمَهُ حُكْمُ جِنَايَتِهِ وَكَانَ مَحْكُومًا بِحُدُوثِ الْمَوْتِ عِنْدَ الْجِرَاحَةِ وَلَا يُحْتَاجُ إلَى أَيْمَانِ الْأَوْلِيَاءِ فِي مَوْتِهِ مِنْهَا ، فَكَذَلِكَ يَلْزَمُهُ مِثْلُهُ فِي السَّاحِرِ إذَا أَقَرَّ أَنَّ الْمَسْحُورَ مَرِضَ مِنْ سِحْرِهِ .

فَإِنْ قِيلَ : كَذَلِكَ نَقُولُ فِي الْمَرِيضِ مِنْ الْجِرَاحَةِ إذَا لَمْ يَزَلْ صَاحِبَ فِرَاشٍ حَتَّى مَاتَ أَنَّهُمْ إذَا اخْتَلَفُوا لَمْ يُحْكَمْ بِالْقَتْلِ حَتَّى يُقْسِمَ أَوْلِيَاءُ الْمَجْرُوحِ قِيلَ لَهُ : فَيَنْبَغِي أَنْ تَقُولَ مِثْلَهُ لَوْ ضَرَبَهُ بِالسَّيْفِ وَوَالَى بَيْنَ الضَّرْبِ حَتَّى قَتَلَهُ مِنْ سَاعَتِهِ ، فَقَالَ الْجَارِحُ : مَاتَ مِنْ عِلَّةٍ كَانَتْ بِهِ قَبْلَ الضَّرْبَةِ الثَّانِيَةِ ، أَوْ قَالَ : اخْتَرَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَلَمْ يَمُتْ مِنْ ضَرْبَتِي ؛ أَنْ تُقْسِمَ الْأَوْلِيَاءُ وَهَذَا لَا يَقُولُهُ أَحَدٌ ؛ وَكَذَلِكَ مَا وَصَفْنَا .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : قَدْ تَكَلَّمْنَا فِي مَعْنَى السِّحْرِ وَاخْتِلَافِ الْفُقَهَاءِ بِمَا فِيهِ الْكِفَايَةُ فِي حُكْمِ السَّاحِرِ ، وَنَتَكَلَّمُ الْآنَ فِي مَعَانِي الْآيَةِ وَمُقْتَضَاهَا ، فَنَقُولُ : إنَّ قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ ﴾ فَقَدْ رُوِيَ فِيهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ الْيَهُودُ الَّذِينَ كَانُوا فِي زَمَنِ سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُد عَلَيْهِمَا السَّلَامُ وَفِي زَمَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَرُوِيَ مِثْلُهُ عَنْ ابْنِ جُرَيْجٍ وَابْنِ إسْحَاقَ وَقَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَالسُّدِّيُّ : " الْمُرَادُ بِهِ الْيَهُودُ الَّذِينَ كَانُوا فِي زَمَنِ سُلَيْمَانَ " .

(360/61)

وَقَالَ بَعْضُهُمْ : " أَرَادَ الْجَمِيعَ ، مَنْ كَانَ مِنْهُمْ فِي زَمَنِ سُلَيْمَانَ وَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ فِي عَصْرِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ؛ لِأَنَّ مُتَّبِعِي السِّحْرِ مِنْ الْيَهُودِ لَمْ يَزَالُوا مُنْذُ عَهْدِ سُلَيْمَانَ إلَى أَنْ بَعَثَ اللَّهُ

نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَوَصَفَ اللَّهُ هَؤُلَاءِ الْيَهُودَ الَّذِينَ لَمْ يَقْبَلُوا الْقُرْآنَ وَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ مَعَ كُفْرِهِمْ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَهُوَ يُرِيدُ شَيَاطِينَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ " .

وَمَعْنَى تَتْلُو : تُخْبِرُ وَتَقْرَأُ ، وَقِيلَ : تَتَّبِعُ ؛ لِأَنَّ التَّالِيَ تَابِعٌ وَقَوْلُهُ : ﴿ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ ﴾ قِيلَ فِيهِ : عَلَى عَهْدِهِ ، وَقِيلَ فِيهِ : عَلَى مُلْكِهِ ، وَقِيلَ فِيهِ : تَكْذِبُ عَلَيْهِ ؛ لِأَنَّهُ إذَا كَانَ الْخَبَرُ كَذِبًا قِيلَ تَلَا عَلَيْهِ .

وَإِذَا كَانَ صِدْقًا قِيلَ : تَلَا عَنْهُ ، وَإِذَا أُبْهِمَ جَازَ فِيهِ الْأَمْرَانِ جَمِيعًا ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ وَكَانَتْ الْيَهُودُ تُضِيفُ السِّحْرَ إلَى سُلَيْمَانَ وَتَزْعُمُ أَنَّ مُلْكَهُ كَانَ بِهِ ، فَبَرَّأَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ ذَلِكَ ؛ ذُكِرَ ذَلِكَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَقَتَادَةَ ، وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إسْحَاقَ : قَالَ بَعْضُ أَحْبَارِ الْيَهُودِ : أَلَا تَعْجَبُونَ مِنْ مُحَمَّدٍ يَزْعُمُ أَنَّ سُلَيْمَانَ كَانَ نَبِيًّا ؟ وَاَللَّهِ مَا كَانَ إلَّا سَاحِرًا فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ ﴾ .

(361/61)

وَقِيلَ : إنَّ الْيَهُودَ إنَّمَا أَضَافَتْ السِّحْرَ إلَى سُلَيْمَانَ تَوَصُّلًا مِنْهُمْ إلَى قَبُولِ النَّاسِ ذَلِكَ مِنْهُمْ وَلِتُجَوِّزَهُ عَلَيْهِمْ ، وَكَذَبُوا عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ وَقِيلَ : إنَّ سُلَيْمَانَ جَمَعَ كُتُبَ السِّحْرِ وَدَفَنَهَا تَحْتَ

كُرْسِيِّهِ أَوْ فِي خِزَانَتِهِ لِئَلَّا يَعْمَلَ بِهِ النَّاسُ ، فَلَمَّا مَاتَ ظَهَرَ عَلَيْهِ ، فَقَالَتْ الشَّيَاطِينُ : بِهَذَا كَانَ يَتِمُّ مُلْكُهُ ؛ وَشَاعَ ذَلِكَ فِي الْيَهُودِ وَقَبِلَتْهُ وَأَضَافَتْهُ إلَيْهِ وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ شَيَاطِينَ الْإِنْسِ ، وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ الشَّيَاطِينُ دَفَنُوا السِّحْرَ تَحْتَ كُرْسِيِّ سُلَيْمَانَ فِي حَيَاتِهِ مِنْ غَيْرِ عِلْمِهِ ، فَلَمَّا مَاتَ وَظَهَرَ نَسَبُوهُ إلَى سُلَيْمَانَ ، وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ الْفَاعِلُونَ لِذَلِكَ شَيَاطِينَ الْإِنْسِ اسْتَخْرَجُوهُ بَعْدَ مَوْتِهِ وَأَوْهَمُوا النَّاسَ أَنَّ سُلَيْمَانَ كَانَ فَعَلَ ذَلِكَ لِيُوهِمُوهُمْ وَيَخْدَعُوهُمْ بِهِ .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ﴾ قَدْ قُرِئَ بِنَصْبِ اللَّامِ وَخَفْضِهَا ؛ فَمَنْ قَرَأَهَا بِنَصْبِهَا جَعَلَهُمَا مِنْ الْمَلَائِكَةِ ، وَمَنْ قَرَأَهَا بِخَفْضِهَا جَعَلَهُمَا مِنْ غَيْرِ الْمَلَائِكَةِ .

(362/61)

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ الضَّحَّاكِ أَنَّهُمَا كَانَا عِلْجَيْنِ مِنْ أَهْلِ بَابِلَ وَالْقِرَاءَتَانِ صَحِيحَتَانِ غَيْرُ مُتَنَافِيَتَيْنِ ؛ لِأَنَّهُ جَائِزٌ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ أَنْزَلَ مَلَكَيْنِ فِي زَمَنِ هَذَيْنِ الْمَلِكَيْنِ لِاسْتِيلَاءِ السِّحْرِ عَلَيْهِمَا وَاغْتِرَارِهِمَا وَسَائِرِ النَّاسِ بِقَوْلِهِمَا وَقَبُولِهِمْ مِنْهُمَا ، فَإِذَا كَانَ الْمَلَكَانِ مَأْمُورَيْنِ بِإِبْلَاغِهِمَا وَتَعْرِيفِهِمَا وَسَائِرِ النَّاسِ مَعْنَى السِّحْرِ وَمَخَارِيقِ السَّحَرَةِ وَكُفْرِهَا جَازَ أَنْ نَقُولَ

فِي إِحْدَى الْقِرَاءَتَيْنِ : ﴿ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ ﴾ اللَّذَيْنِ هُمَا مِنْ الْمَلَائِكَةِ ، بِأَنْ أُنْزِلَ عَلَيْهِمَا ذَلِكَ .

وَنَقُولُ فِي الْقِرَاءَةِ الْأُخْرَى : وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ مِنْ النَّاسِ ؛ لِأَنَّ الْمَلَكَيْنِ كَانَا مَأْمُورَيْنِ بِإِبْلَاغِهِمَا وَتَعْرِيفِهِمَا ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي خِطَابِ رَسُولِهِ : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ .

وَقَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ : ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاَللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إلَيْنَا ﴾ فَأَضَافَ الْإِنْزَالَ تَارَةً إلَى الرَّسُولِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَتَارَةً إلَى الْمُرْسَلِ إلَيْهِمْ وَإِنَّمَا خَصَّ الْمَلَكَيْنِ بِالذِّكْرِ وَإِنْ كَانَا مَأْمُورَيْنِ بِتَعْرِيفِ الْكَافَّةِ ؛ لِأَنَّ الْعَامَّةَ كَانَتْ تَبَعًا لِلْمَلَكَيْنِ ، فَكَانَ أَبْلَغُ الْأَشْيَاءِ فِي تَقْرِيرِ مَعَانِي السِّحْرِ وَالدَّلَالَةِ عَلَى بُطْلَانِهِ تَخْصِيصَ الْمَلَكَيْنِ بِهِ لِيَتْبَعَهُمَا النَّاسُ .

(363/61)

كَمَا قَالَ لِمُوسَى وَهَارُونَ : ﴿ اذْهَبَا إلَى فِرْعَوْنَ إنَّهُ طَغَى فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾ وَقَدْ كَانَا عَلَيْهِمَا السَّلَامُ رَسُولَيْنِ إلَى رَعَايَاهُ كَمَا أُرْسِلَا إلَيْهِ ، وَلَكِنَّهُ خَصَّهُ بِالْمُخَاطَبَةِ ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ أَنْفَعُ فِي

اسْتِدْعَائِهِ وَاسْتِدْعَاءِ رَعِيَّتِهِ إلَى الْإِسْلَامِ وَكَذَلِكَ كَتَبَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلَى

كِسْرَى وَقَيْصَرَ وَخَصَّهُمَا بِالذِّكْرِ دُونَ رَعَايَاهُمَا وَإِنْ كَانَ رَسُولًا إِلَى كَافَّةِ النَّاسِ ، لِمَا وَصَفْنَاهُ مِنْ أَنَّ الرَّعِيَّةَ تَبَعٌ لِلرَّاعِي .

وَكَذَلِكَ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي كِتَابِهِ لِكِسْرَى : ﴿ أَمَّا بَعْدُ فَأَسْلِمْ تَسْلَمْ وَإِلَّا فَعَلَيْكَ إِثْمُ الْمَجُوسِ وَقَالَ لِقَيْصَرَ أَسْلِمْ تَسْلَمْ وَإِلَّا فَعَلَيْكَ إِثْمُ الْأَرِيسِيِّينَ ﴾ يَعْنِي أَنَّك إذَا آمَنْتَ تَبِعَتْكَ الرَّعِيَّةُ ، وَإِنْ أَبَيْتَ لَمْ تَسْتَجِبْ الرَّعِيَّةُ إلَى الْإِسْلَامِ خَوْفًا مِنْك فَهُمْ تَبَعٌ لَك فِي الْإِسْلَامِ وَالْكُفْرِ فَلِذَلِكَ وَاَللَّهُ أَعْلَمُ خَصَّ الْمَلِكَيْنِ مِنْ أَهْلِ بَابِلَ بِإِرْسَالِ الْمَلَكَيْنِ إلَيْهِمَا كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنْ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنْ النَّاسِ ﴾ .

(364/61)

فَإِنْ قِيلَ : فَكَيْفَ يَكُونُ الْمَلَائِكَةُ مُرْسَلًا إلَيْهِمْ وَمُنَزَّلًا عَلَيْهِمْ ؟ قِيلَ لَهُ : هَذَا جَائِزٌ شَائِعٌ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ يُرْسِلُ الْمَلَائِكَةَ بَعْضَهُمْ إلَى بَعْضٍ كَمَا يُرْسِلُهُمْ إلَى الْأَنْبِيَاءِ ، كَثَّفَ أَجْسَامَهُمْ وَجَعَلَهُمْ كَهَيْئَةِ بَنِي آدَمَ لِئَلَّا يَنْفِرُوا مِنْهُمْ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا ﴾ يَعْنِي هَيْئَةَ الرَّجُلِ .

وَقَوْله تَعَالَى : ﴿ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ ﴾ مَعْنَاهُ وَاَللَّهُ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ أَرْسَلَ الْمَلَكَيْنِ لِيُبَيِّنَا لِلنَّاسِ مَعَانِي السِّحْرِ وَيَعْلَمُوهُمْ أَنَّهُ كُفْرٌ وَكَذِبٌ وَتَمْوِيهٌ لَا حَقِيقَةَ لَهُ

حَتَّى يَجْتَنِبُوهُ ، كَمَا بَيَّنَ اللَّهُ عَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ سَائِرَ الْمَحْظُورَاتِ وَالْمُحَرَّمَاتِ لِيَجْتَنِبُوهُ وَلَا يَأْتُوهُ ؛ فَلَمَّا كَانَ السِّحْرُ كُفْرًا وَتَمْوِيهًا وَخِدَاعًا وَكَانَ أَهْلُ ذَلِكَ الزَّمَانِ قَدْ اغْتَرُّوا بِهِ وَصَدَّقُوا السَّحَرَةَ فِيمَا ادَّعَوْهُ لِأَنْفُسِهِمْ بِهِ ، بَيَّنَ ذَلِكَ لِلنَّاسِ عَلَى لِسَانِ هَذَيْنِ الْمَلَكَيْنِ لِيَكْشِفَا عَنْهُمْ غُمَّةَ الْجَهْلِ وَيَزْجُرَاهُمْ عَنْ الِاغْتِرَارِ بِهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ يَعْنِي ، وَاَللَّهُ أَعْلَمُ : بَيَّنَّا سَبِيلَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ لِيَجْتَبِيَ الْخَيْرَ وَيَجْتَنِبَ الشَّرَّ وَكَمَا قِيلَ لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ : فُلَانٌ لَا يَعْرِفُ الشَّرَّ .

قَالَ : " أَجْدَرُ أَنْ يَقَعَ فِيهِ " .

(365/61)

وَلَا فَرْقَ بَيْنَ بَيَانِ مَعَانِي السِّحْرِ وَالزَّجْرِ عَنْهُ ، وَبَيْنَ بَيَانِ سَائِرِ ضُرُوبِ الْكُفْرِ وَتَحْرِيمِ الْأُمَّهَاتِ وَالْأَخَوَاتِ وَتَحْرِيمِ الزِّنَا وَالرِّبَا وَشُرْبِ الْخَمْرِ وَنَحْوِهِ ؛ لِأَنَّ الْغَرَضَ لَمَّا بَيَّنَّا فِي اجْتِنَابِ الْمَحْظُورَاتِ وَالْمُقَبَّحَاتِ كُلِّهَا فِي بَيَانِ الْخَيْرِ ؛ إذْ لَا يَصِلُ إلَى فِعْلِهِ إلَّا بَعْدَ الْعِلْمِ بِهِ ؛ كَذَلِكَ اجْتِبَاءُ الطَّاعَاتِ وَالْوَاجِبَاتِ ، فَمِنْ حَيْثُ وَجَبَتْ وَجَبَ بَيَانُ الشَّرِّ لِيَجْتَنِبَهُ ؛ إذْ لَا يَصِلُ إلَى تَرْكِهِ وَاجْتِنَابِهِ إلَّا بَعْدَ الْعِلْمِ بِهِ وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَزْعُمُ أَنَّ قَوْلَهُ : ﴿ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ ﴾ مَعْنَاهُ أَنَّ الشَّيَاطِينَ كَذَبُوا عَلَى مَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ كَمَا كَذَبُوا عَلَى سُلَيْمَانَ ،

وَأَنَّ السِّحْرَ الَّذِي يَتْلُوهُ هَؤُلَاءِ لَمْ يُنْزِل عَلَيْهِمَا .

وَزَعَمَ أَنَّ قَوْله تَعَالَى : ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا ﴾ مَعْنَاهُ : مِنْ السِّحْرِ وَالْكُفْرِ ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ ﴿ وَلَكِنَّ

الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا ﴾ يَتَضَمَّنُ الْكُفْرَ فَرَجَعَ الضَّمِيرُ إلَيْهِمَا ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ﴾ أَيْ يَتَجَنَّبُ الْأَشْقَى الذِّكْرَى قَالَ : وَقَوْلُهُ ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ ﴾ مَعْنَاهُ أَنَّ الْمَلَكَيْنِ لَا يُعَلِّمَانِ ذَلِكَ أَحَدًا وَمَعَ ذَلِكَ لَا يَقْتَصِرَانِ عَلَى أَنْ لَا يُعَلِّمَاهُ حَتَّى يُبَالِغَا فِي نَهْيِهِ فَيَقُولَا : ﴿ إنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾ .

(366/61)

وَالَّذِي حَمَلَهُ عَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ اسْتِنْكَارُهُ أَنْ يُنْزِلَ اللَّهُ عَلَى الْمَلَكَيْنِ السِّحْرَ مَعَ ذَمِّهِ السِّحْرِ وَالسَّاحِرِ ؛ وَهَذَا الَّذِي ذَهَبَ إلَيْهِ لَا يُوجِبُ ؛ لِأَنَّ الْمَذْمُومَ مَنْ يَعْمَلُ بِالسِّحْرِ لَا مَنْ يُبَيِّنُهُ لِلنَّاسِ وَيَزْجُرُهُمْ عَنْهُ ، كَمَا أَنَّ عَلَى كُلِّ مَنْ عَلِمَ مِنْ النَّاسِ مَعْنَى السِّحْرِ أَنْ يُبَيِّنَهُ لِمَنْ لَا يَعْلَمُ وَيَنْهَاهُ عَنْهُ لِيَجْتَنِبَهُ ؛ وَهَذَا مِنْ الْفُرُوضِ الَّتِي أَلْزَمَنَا إيَّاهَا اللَّهُ تَعَالَى إذَا رَأَيْنَا مِنْ اُخْتُدِعَ بِهِ وَتَمَوَّهَ عَلَيْهِ أَمْرُهُ .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ إنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾ فَإِنَّ الْفِتْنَةَ مَا يَظْهَرُ بِهِ حَالُ الشَّيْءِ فِي الْخَيْرِ

وَالشَّرِّ ، تَقُولُ الْعَرَبُ : " فَتَنْتُ الذَّهَبَ " إذَا عَرَضْته عَلَى النَّارِ لِتَعْرِفَ سَلَامَتَهُ أَوْ غِشَّهُ وَالِاخْتِبَارُ كَذَلِكَ أَيْضًا ؛ لِأَنَّ الْحَالَ تَظْهَرُ فَتَصِيرُ كَالْمُخْبِرَةِ عَنْ نَفْسِهَا .

(367/61)

وَالْفِتْنَةُ : الْعَذَابُ ، فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ ، وَمِنْهُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ ﴾ فَلَمَّا كَانَ الْمَلَكَانِ يُظْهِرَانِ حَقِيقَةَ السِّحْرِ وَمَعْنَاهُ قَالَا ﴿ إنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ ﴾ وَقَالَ قَتَادَةُ : ﴿ إنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ ﴾ : بَلَاءٌ وَهَذَا سَائِغٌ أَيْضًا ؛ لِأَنَّ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ تَعَالَى وَرُسُلَهُ فِتْنَةٌ لِمَنْ أُرْسِلُوا إلَيْهِمْ لِيَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَيَجُوزُ أَنْ يُرِيدَ : إنَّا فِتْنَةٌ وَبَلَاءٌ ؛ لِأَنَّ مَنْ يَعْلَمُ ذَلِكَ مِنْهُمَا يُمْكِنُهُ اسْتِعْمَالُ ذَلِكَ فِي الشَّرِّ وَلَا يُؤْمَنُ وُقُوعُهُ فِيهِ ، فَيَكُونُ ذَلِكَ مِحْنَةً كَسَائِرِ الْعِبَادَاتِ ، وَقَوْلُهُمَا : ﴿ فَلَا تَكْفُرْ ﴾ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ عَمَلَ السِّحْرِ كُفْرٌ ؛ لِأَنَّهُمَا يُعَلِّمَانِهِ إيَّاهُ لِئَلَّا يَعْمَلَ بِهِ ؛ لِأَنَّهُمَا عَلَّمَاهُ مَا السِّحْرُ وَكَيْفَ الِاحْتِيَالُ لِيَتَجَنَّبَهُ ، وَلِئَلَّا يُتَمَّوَّهُ عَلَى النَّاسِ أَنَّهُ مِنْ جِنْسِ آيَاتِ الْأَنْبِيَاءِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ فَيَبْطُلُ الِاسْتِدْلَالُ بِهَا .

وَقَوْله تَعَالَى : ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ﴾ يَحْتَمِلُ التَّفْرِيقَ مِنْ وَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنْ يَعْمَلَ بِهِ السَّامِعُ فَيَكْفُرُ فَيَقَعُ بِهِ الْفُرْقَةُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ زَوْجَتِهِ إذَا كَانَتْ

مُسْلِمَةً بِالرِّدَّةِ ، وَالْوَجْهُ الْآخَرُ : أَنْ يَسْعَى بَيْنَهُمَا بِالنَّمِيمَةِ وَالْوِشَايَةِ وَالْبَلَاغَاتِ الْكَاذِبَةِ وَالْإِغْرَاءِ وَالْإِفْسَادِ وَتَمْوِيهِ الْبَاطِلِ حَتَّى يَظُنَّ أَنَّهُ حَقٌّ فَيُفَارِقَهَا .

(368/61)

وقَوْله تَعَالَى : ﴿ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ ؛ الْإِذْنُ هُنَا الْعِلْمُ فَيَكُونُ اسْمًا إذَا كَانَ مُخَفَّفًا ، وَإِذَا كَانَ مُحَرَّكًا كَانَ مَصْدَرًا ، كَمَا يَقُولُ : حَذِرَ الرَّجُلُ حَذَرًا فَهُوَ حَذِرٌ ؛ فَالْحَذِرُ الِاسْمُ ؛ وَالْحَذَرُ الْمَصْدَرُ ، وَيَجُوزُ أَيْضًا أَنْ يَكُونَ مِمَّا يُقَالُ عَلَى وَجْهَيْنِ كَشَبَهٍ وَشِبْهٍ وَمَثَلٍ وَمِثْلٍ ، وَقِيلَ فِيهِ ﴿ إلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ أَيْ : بِتَخْلِيَتِهِ ، وَقَالَ الْحَسَنُ : " مَنْ شَاءَ اللَّهُ مَنْعَهُ فَلَمْ يَضُرَّهُ السِّحْرُ وَمَنْ شَاءَ خَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ فَضَرَّهُ " .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنْ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴾ قِيلَ مَعْنَاهُ : مَنْ اسْتَبْدَلَ السِّحْرَ بِدِينِ اللَّهِ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ، وَهُوَ النَّصِيبُ مِنْ الْخَيْرِ ، وَقَالَ الْحَسَنُ : " مَا لَهُ مِنْ دِينٍ " وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْعَمَلَ بِالسِّحْرِ وَقَبُولَهُ كُفْرٌ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ ﴾ قِيلَ : بَاعُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ ، كَقَوْلِ الشَّاعِرِ : وَشَرَيْتُ بُرْدًا لَيْتَنِي مِنْ بَعْدِ بُرْدٍ كُنْت هَامَهْ يَعْنِي : بِعْته ، وَهَذَا أَيْضًا يُؤَكِّدُ أَنَّ قَبُولَهُ وَالْعَمَلَ بِهِ كُفْرٌ ،

وكَذلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا ﴾ يَقْتَضِي ذلِكَ أَيْضاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 1 صـ 49. 70 ﴾

(369/61)

ومن فوائد ابن العربى فى الآية

قال رحمه الله :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ﴾

فِيهَا تِسْعُ مَسَائِلَ :

(370/61)

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : ذَكَرَ الطَّبَرِيُّ وَغَيْرُهُ فِي قَصَصِ هَذِهِ الْآيَةِ : أَنَّ سُلَيْمَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَتْ لَهُ امْرَأَةٌ يُقَالُ لَهَا : الْجَرَادَةُ ، تَكْرُمُ عَلَيْهِ وَيَهْوَاهَا ، فَاخْتَصَمَ أَهْلُهَا مَعَ قَوْمٍ فَكَانَ صَغْوُ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إلَى أَنْ يَكُونَ الْحُكْمُ لِأَهْلِ الْجَرَادَةِ ، فَعُوقِبَ ، وَكَانَ إذَا أَرَادَ أَنْ يَدْخُلَ الْخَلَاءَ أَوْ يَخْلُو بِإِحْدَى نِسَائِهِ أَعْطَاهَا خَاتَمَهُ ، فَفَعَلَ ذَلِكَ يَوْمًا فَأَلْقَى اللَّهُ تَعَالَى صُورَتَهُ عَلَى شَيْطَانٍ ، فَجَاءَهَا فَأَخَذَ الْخَاتَمَ فَلَبِسَهُ ، وَدَانَتْ الْجِنُّ وَالْإِنْسُ لَهُ ، وَجَاءَ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعْدَ ذَلِكَ يَطْلُبُهُ ، فَقَالَتْ : أَلَمْ تَأْخُذْهُ ؟ فَعَلِمَ أَنَّهُ ابْتُلِيَ ، وَعَلِمَتْ الشَّيَاطِينُ أَنَّ ذَلِكَ لَا يَدُومُ لَهَا ؛ فَاغْتَنَمَتْ الْفُرْصَةَ فَوَضَعَتْ أَوْضَاعًا مِنْ السِّحْرِ وَالْكُفْرِ وَفُنُونًا مِنْ النَّيْرَجَاتِ وَسَطَّرُوهَا فِي مَهَارِقَ ، وَقَالُوا : هَذَا مَا كَتَبَ آصَفُ بْنُ بَرْخِيَا كَاتِبُ نَبِيِّ اللَّهِ سُلَيْمَانَ ، فَدَفَنُوهَا تَحْتَ كُرْسِيِّهِ : وَعَادَ سُلَيْمَانُ إلَى حَالِهِ ، وَاسْتَأْثَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ ، فَقَالَتْ الشَّيَاطِينُ لِلنَّاسِ : إنَّمَا كَانَ سُلَيْمَانُ يَمْلِكُكُمْ بِأُمُورٍ أَكْثَرُهَا تَحْتَ كُرْسِيِّهِ ، فِيهَا عُلُومٌ غَرِيبَةٌ ؛ فَدُونَكُمْ فَاحْتَفِرُوا عَلَيْهَا ، فَفَعَلُوا وَاسْتَثَارُوهَا ، فَنَفَذَ عَلَيْهِمْ الْقَضَاءُ فَصَارَ فِي أَيْدِيهِمْ ، وَتَنَاقَلَتْهُ الْكَفَرَةُ وَالْفَلَاسِفَةُ عَنْهُمْ حَتَّى وَصَلَ ذَلِكَ إلَى يَهُودِ الْحِجَازِ ، فَكَانُوا يَعْمَلُونَهُ وَيُعَلِّمُونَهُ وَيُصَرِّفُونَهُ فِي حَوَائِجِهِمْ

وَمَعَايِشِهِمْ ؛ وَكَانُوا بَيْنَ جَاهِلِيَّةٍ جَهْلَاءَ وَأُمِّيَّةٍ عَمْيَاءَ ؛ فَلَمَّا بَعَثَ اللَّهُ تَعَالَى مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْحَقِّ ، وَنَوَّرَ الْقُلُوبَ ، وَكَشَفَ قِنَاعَ الْأَلْبَابِ ، لَجَأَتْ الْيَهُودُ إلَى أَنْ تُعَلِّقَ مَا كَانَ عِنْدَهَا مِنْ ذَلِكَ لِسُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَتَزْعُمُ أَنَّهُ مِمَّا نَزَلَ بِهِ جِبْرِيلُ وَمِيكَائِيلُ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ عَلَى سُلَيْمَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكَانَ ذَلِكَ قَدْ حَمَلَ قَوْمًا قَبْلَ الْبَعْثِ عَلَى أَنْ يَتَبَرَّءُوا مِنْ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى الْآيَةَ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : هَذَا الَّذِي ذَكَرْنَا آنِفًا مِمَّا فِيهِ الْحَرَجُ فِي ذِكْرِهِ عَنْ بَنِي إسْرَائِيلَ لِمَا قَدَّمْنَاهُ مِنْ أَنَّهُ إنَّمَا أَذِنَ لَنَا أَنْ نَتَحَدَّثَ عَنْهُمْ فِي حَدِيثٍ يَعُودُ إلَيْهِمْ ، وَمَا كُنَّا لِنَذْكُرَ هَذَا لَوْلَا أَنَّ الدَّوَاوِينَ قَدْ شُحِنَتْ بِهِ .

أَمَّا قَوْلُهُمْ : إنَّ سُلَيْمَانَ كَانَ صَغَوُهُ صِحَّةَ الْحُكْمِ لِقَوْمِ الْجَرَادَةِ ، فَبَاطِلٌ قَطْعًا ؛ لِأَنَّ الْأَنْبِيَاءَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ لَا يَجُوزُ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ إجْمَاعًا فَإِنَّهُمْ مَعْصُومُونَ عَنْ الْكَبَائِرِ بِاتِّفَاقٍ .

وَأَمَّا قَوْلُهُمْ بِأَنَّ شَيْطَانًا تَصَوَّرَ فِي صُورَةِ مَلَكٍ أَوْ نَبِيٍّ ، فَأَخَذَ الْخَاتَمَ ، فَبَاطِلٌ قَطْعًا ؛ لِأَنَّ الشَّيَاطِينَ لَا تَتَصَوَّرُ عَلَى صُوَرِ الْأَنْبِيَاءِ ؛ وَقَدْ بَيَّنَّا ذَلِكَ مَبْسُوطًا فِي "كِتَابِ النَّبِيِّ" .

وَأَمَّا دَفْنُهَا تَحْتَ كُرْسِيِّ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَيُمْكِنُ أَلَّا يَعْلَمَ بِذَلِكَ وَتَبْقَى حَتَّى يُفْتَتَنَ بِهَا الْخَلْقُ بَعْدَهُ .

وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَخَذَهَا وَدَفَنَهَا تَحْتَ كُرْسِيِّهِ ، وَذَلِكَ مِمَّا لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ وَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ سِحْرًا ، أَمَّا لَوْ عَلِمَ أَنَّهَا سِحْرٌ

فَحَقُّهَا أَنْ تُحْرَقَ أَوْ تُغْرَقَ ، وَلَا تَبْقَى عُرْضَةً لِلنَّقْلِ وَالْعَمَلِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَاتَّبَعُوا ﴾ : قِيلَ : يَهُودُ زَمَانِ سُلَيْمَانَ ، وَقِيلَ يَهُودُ زَمَانِنَا ، وَاللَّفْظُ فِيهِمْ عَامٌّ ، وَلِجَمِيعِهِمْ مُحْتَمِلٌ ، وَقَدْ كَانَ الْكُلُّ مِنْهُمْ مُتَّبِعًا لِهَذَا الْبَاطِلِ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ ﴾ اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي حَرْفِ " مَا " : فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : إنَّهُ نَفْيٌ ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : إنَّهُ مَفْعُولٌ ، وَهُوَ الصَّحِيحُ .

وَلَا وَجْهَ لِقَوْلِ مَنْ يَقُولُ : إنَّهُ نَفْيٌ ، لَا فِي نِظَامِ الْكَلَامِ ، وَلَا فِي صِحَّةِ الْمَعْنَى ، وَلَا يَتَعَلَّقُ مِنْ كَوْنِهِ مَفْعُولًا سِيَاقُ الْكَلَامِ بِمُحَالٍ عَقْلًا ، وَلَا يَمْتَنِعُ شَرْعًا .

وَتَقْرِيرُهُ : وَاتَّبَعَ الْيَهُودُ مَا تَلَتْهُ الشَّيَاطِينُ مِنْ السِّحْرِ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ ، أَيْ نَسَبَتْهُ إلَيْهِ وَأَخْبَرَتْ بِهِ عَنْهُ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إلَّا إذَا تَمَنَّى أَلْقَى

الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ﴾ أَيْ إِذَا تَلَا أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي تِلَاوَتِهِ مَا لَمْ يُلْقِهِ النَّبِيُّ ، يُحَاكِيهِ وَيُلَبِّسُ عَلَى السَّامِعِينَ بِهِ حَسْبَمَا بَيَّنَّاهُ .

وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ قَطُّ وَلَا سَحَرَ ، وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا بِسِحْرِهِمْ ، وَأَنَّهُمْ يُعَلِّمُونَهُ النَّاسَ ؛ وَمُعْتَقِدُ الْكُفْرِ كَافِرٌ ، وَقَائِلُهُ كَافِرٌ ، وَمُعَلِّمُهُ كَافِرٌ ، وَيُعَلِّمُونَ النَّاسَ مَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ، وَمَا كَانَ الْمَلَكَانِ يُعَلِّمَانِ أَحَدًا حَتَّى يَقُولَا : ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ﴾

(374/61)

فَإِنْ قِيلَ : وَهِيَ الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ : كَيْفَ أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى الْبَاطِلَ وَالْكُفْرَ ؟ قُلْنَا : كُلُّ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ أَوْ طَاعَةٍ أَوْ مَعْصِيَةٍ أَوْ إِيمَانٍ أَوْ كُفْرٍ مُنَزَّلٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى ؛ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الصَّحِيحِ : ﴿ مَاذَا فُتِحَ اللَّيْلَةَ مِنْ الْخَزَائِنِ ؟ مَاذَا أُنْزِلَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ الْفِتَنِ ؟ أَيْقِظُوا صَوَاحِبَ الْحُجَرِ ، رُبَّ كَاسِيَةٍ فِي الدُّنْيَا عَارِيَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ فَأَخْبَرَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ نُزُولِ الْفِتَنِ عَلَى الْخَلْقِ .

الْمَسْأَلَةُ السَّادِسَةُ : فَإِنْ قِيلَ : وَكَيْفَ نَزَّلَ الْكُفْرَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ وَهُمْ يَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ،

وَيُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ، فَأَنَّى يَصِحُّ أَنْ يَتَكَلَّمُوا بِالْكُفْرِ وَيُعَلِّمُوهُ ؟ قُلْنَا : هَذَا الَّذِي أَشْكَلَ عَلَى بَعْضِهِمْ حَتَّى رُوِيَ عَنْ الْحَسَنِ أَنَّهُ قَرَأَ الْمَلِكَيْنِ بِكَسْرِ اللَّامِ ، وَرُوِيَ أَنَّهُ كَانَ بِبَابِلَ عِلْجَانِ ، وَقَدْ بَلَغَ التَّغَافُلُ أَوْ الْغَفْلَةُ بِبَعْضِهِمْ حَتَّى قَالَ : إنَّمَا هُمَا دَاوُد وَسُلَيْمَانُ ، وَتَأَوَّلَ الْآيَةَ : ﴿ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ ﴾ أَيْ فِي أَيَّامِهِمَا .

وَقَوْله تَعَالَى : ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ ﴾ يَعْنِي : الشَّيَاطِينَ .

وَقَدْ رَوَى الْمُفَسِّرُونَ عَنْ نَافِعٍ قَالَ : قَالَ لِي ابْنُ عُمَرَ : أَطَّلَعْتَ الْحَمْرَاءُ ؟ قُلْت : طَلَعَتْ . قَالَ : لَا مَرْحَبًا بِهَا وَلَا أَهْلًا ، وَأَرَاهُ لَعَنَهَا .

(375/61)

قُلْت : سُبْحَانَ اللَّهِ ، نَجْمٌ مُسَخَّرٌ مُطِيعٌ تَلْعَنُهُ ؟ قَالَ : مَا قُلْت لَك إلَّا مَا سَمِعْت مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ إنَّ الْمَلَائِكَةَ عَجَّتْ مِنْ مَعَاصِي بَنِي آدَمَ فِي الْأَرْضِ ، فَقَالَتْ : يَا رَبِّ ، كَيْفَ صَبْرُك عَلَى بَنِي آدَمَ فِي الْخَطَايَا وَالذُّنُوبِ ؟ فَأَعْلَمَهُمْ اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَنَّهُمْ لَوْ كَانُوا مَكَانَهُمْ ، وَيَحُلُّ الشَّيْطَانُ مِنْ قُلُوبِهِمْ مَحَلَّهُ مِنْ بَنِي آدَمَ لَعَمِلُوا بِعَمَلِهِمْ ، وَقَدْ أَعْطَيْت بَنِي آدَمَ عَشْرًا مِنْ الشَّهَوَاتِ فَبِهَا يَعْصُونَنِي .

قَالَتْ الْمَلَائِكَةُ : رَبَّنَا لَوْ أَعْطَيْتَنَا تِلْكَ الشَّهَوَاتِ ، وَابْتَلَيْتَنَا ، لَحَكَمْنَا بِالْعَدْلِ ، وَمَا عَصَيْنَاكَ .

فَأَمَرَهُمْ سُبْحَانَهُ أَنْ يَخْتَارُوا مِنْهُمْ مَلَكَيْنِ مِنْ أَفْضَلِهِمْ ، فَتَعَرَّضَ لِذَلِكَ هَارُوتُ وَمَارُوتُ وَقَالَا : نَحْنُ نَنْزِلُ ؛ وَأَعْطِنَا الشَّهَوَاتِ ، وَكَلِّفْنَا الْحُكْمَ بِالْعَدْلِ .

فَنَزَلَا بِبَابِلَ ، فَكَانَا يَحْكُمَانِ حَتَّى إِذَا أَمْسَيَا عَرَجَا إِلَى مَكَانِهِمَا ، فَفُتِنَا بِامْرَأَةٍ حَاكَمَتْ زَوْجَهَا

اسْمُهَا بِالْعَرَبِيَّةِ الزَّهْرَةُ وَبِالنَّبَطِيَّةِ بيرخت وَبِالْفَارِسِيَّةِ أناهيد فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ : إِنَّهَا لَتُعْجِبُنِي .

قَالَ لَهُ الْآخَرُ : لَقَدْ أَرَدْت أَنْ أَقُولَ لَك ذَلِكَ ، فَهَلْ لَك فِي أَنْ تَعْرِضَ لَهَا ؟ قَالَ لَهُ الْآخَرُ : كَيْفَ بِعَذَابِ اللَّهِ .

قَالَ : إنَّا لَنَرْجُو رَحْمَةَ اللَّهِ .

(376/61)

فَطَلَبَاهَا فِي نَفْسِهَا قَالَتْ : لَا حَتَّى تَقْضِيَا لِي عَلَى زَوْجِي ؛ فَقَضَيَا لَهَا وَقَصَدَاهَا وَأَرَادَا مُوَاقَعَتَهَا ، فَقَالَتْ لَهُمَا : لَا أُجِيبُكُمَا لِذَلِكَ حَتَّى تُعَلِّمَانِي كَلَامًا أَصْعَدُ بِهِ إلَى السَّمَاءِ ،

وَأُنْزِلَ بِهِ مِنْهَا ؛ فَأَخْبَرَاهَا ، فَتَكَلَّمَتْ فَصَعِدَتْ إِلَى السَّمَاءِ فَمَسَخَهَا اللَّهُ تَعَالَى كَوْكَبًا ، فَلَمَّا أَرَادَا أَنْ يَصْعَدَا ، لَمْ يُطِيقَا فَأَيْقَنَا بِالْهَلَكَةِ ؛ فَخُيِّرَا بَيْنَ عَذَابِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، فَاخْتَارَا عَذَابَ الدُّنْيَا ، فَعُلِّقَا بِبَابِلَ فَجَعَلَا يُكَلِّمَانِ النَّاسَ كَلَامَهُمَا ، وَهُوَ السِّحْرُ .

وَيُقَالُ : كَانَتْ الْمَلَائِكَةُ قَبْلَ ذَلِكَ يَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا ، فَلَمَّا وَقَعَا فِي الْخَطِيئَةِ اسْتَغْفَرُوا لِمَنْ فِي الْأَرْضِ ﴾ .

قَالَ الْقَاضِي : وَإِنَّمَا سُقْنَا هَذَا الْخَبَرَ ؛ لِأَنَّ الْعُلَمَاءَ رَوَوْهُ وَدَوَّنُوهُ فَخَشِينَا أَنْ يَقَعَ لِمَنْ يَضِلُّ بِهِ .

(377/61)

وَتَحْقِيقُ الْقَوْلِ فِيهِ أَنَّهُ لَمْ يَصِحَّ سَنَدُهُ ، وَلَكِنَّهُ جَائِزٌ كُلُّهُ فِي الْعَقْلِ لَوْ صَحَّ فِي النَّقْلِ ، وَلَيْسَ بِمُمْتَنِعٍ أَنْ تَقَعَ الْمَعْصِيَةُ مِنْ الْمَلَائِكَةِ ، وَيُوجَدَ مِنْهُمْ خِلَافُ مَا كُلِّفُوهُ ، وَتُخْلَقَ فِيهِمْ الشَّهَوَاتُ ؛ فَإِنَّ هَذَا لَا يُنْكِرُهُ إلَّا رَجُلَانِ : أَحَدُهُمَا : جَاهِلٌ لَا يَدْرِي الْجَائِزَ مِنْ الْمُسْتَحِيلِ ، وَالثَّانِي : مَنْ شَمَّ وَرْدَ الْفَلَاسِفَةِ ، فَرَآهُمْ يَقُولُونَ : إنَّ الْمَلَائِكَةَ رُوحَانِيُّونَ ، وَإِنَّهُمْ لَا تَرْكِيبَ فِيهِمْ ، وَإِنَّمَا هُمْ بَسَائِطُ ، وَشَهَوَاتُ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَالْجِمَاعِ لَا تَكُونُ إلَّا فِي الْمُرَكَّبَاتِ مِنْ الطَّبَائِعِ الْأَرْبَعِ ، وَهَذَا تَحَكُّمٌ فِي الْقَوْلَيْنِ مِنْ وَجْهَيْنِ :

أَحَدُهُمَا : أَنَّهُمْ أَخْبَرُوا عَنْ الْمَلَائِكَةِ وَكَيْفِيَّتِهِمْ بِمَا لَمْ يُعَايِنُوهُ ، وَلَا نُقِلَ إلَيْهِمْ ، وَلَا دَلَّ دَلِيلُ الْعَقْلِ عَلَيْهِ .

وَالثَّانِي : أَنَّهُمْ أَحَالُوا عَلَى الْبَسِيطِ أَنْ يَتَرَكَّبَ ، وَذَلِكَ عِنْدَنَا جَائِزٌ ؛ بَلْ يَجُوزُ عِنْدَنَا بِلَا خِلَافٍ أَنْ يَأْكُلَ الْبَسِيطُ وَيَشْرَبُ وَيَطَأُ ، وَلَا يُوجَدُ مِنْ الْمُرَكَّبِ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ .

(378/61)

وَهَذَا الَّذِي اطَّرَدَ فِي الْبَسِيطِ مِنْ عَدَمِ الْغِذَاءِ ، وَفِي الْمُرَكَّبِ مِنْ وُجُودِ الْغِذَاءِ عَادَةً إلَّا أَنَّهُ غَايَةُ الْقُدْرَةِ ، وَقَدْ مَكَّنَّا الْقَوْلَ فِي ذَلِكَ وَمَهَّدْنَاهُ فِي الْأُصُولِ ، وَخَبَرُ اللَّهِ تَعَالَى عَنْهُمْ بِأَنَّهُمْ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ، وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ، صِدْقٌ لَا خِلَافَ فِيهِ ، لَكِنَّهُ خَبَرٌ عَنْ حَالِهِمْ ، وَهِيَ مَا يَجُوزُ أَنْ تَتَغَيَّرَ فَيَكُونُ الْخَبَرُ عَنْهَا بِذَلِكَ أَيْضًا ، وَكُلُّ حَقٍّ صِدْقٌ لَا خِلَافَ فِيهِ .

وَقَدْ قَالَ عُلَمَاؤُنَا : إنَّهُ خَبَرٌ عَامٌّ يَجُوزُ أَنْ يَدْخُلَهُ التَّخْصِيصُ ، وَهَذَا صَحِيحٌ أَيْضًا .

وَقَدْ رَوَى سُنَيْدٌ فِي تَفْسِيرِهِ أَنَّهُ دُخِلَ إلَيْهِمَا فِي مَغَارِهِمَا وَكُلِّمَا ، وَتُعُلِّمَ مِنْهُمَا فِي زَمَنِ الْإِسْلَامِ ، وَلَيْسَ التَّعَلُّمُ مِنْهُمَا إلَّا سَمَاعَ كَلَامِهِمَا ، وَهُمَا إذَا تَكَلَّمَا إنَّمَا يَقُولَانِ : إنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ أَيْ لَا تَجْعَلْ مَا تَسْمَعُ مِنَّا سَبَبًا لِلْكُفْرِ ، كَمَا جَعَلَ السَّامِرِيُّ مَا اطَّلَعَ عَلَيْهِ مِنْ أَثَرِ

فَرَسِ جِبْرِيلَ سَبَبًا لِاتِّخَاذِ الْعِجْلِ إلَهًا مِنْ دُونِ اللَّهِ .

وَفِي هَذَا مِنْ الْعِبْرَةِ : الْخَشْيَةُ مِنْ سُوءِ الْعَاقِبَةِ وَالْخَاتِمَةِ ، وَعَدَمُ الثِّقَةِ بِظَاهِرِ الْحَالَةِ ، وَالْخَوْفُ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ تَعَالَى ، فَهَذَا بَلْعَامُ فِي الْآدَمِيِّينَ كَهَارُوتَ وَمَارُوتَ فِي الْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ ، فَأَنْزِلُوا كُلَّ فَنٍّ فِي مَرْتَبَتِهِ ، وَتَحَقَّقُوا مِقْدَارَهُ فِي دَرَجَتِهِ حَسْبَمَا رَوَيْنَاهُ ، وَلَا تَذْهَلُوا عَنْ بَعْضٍ فَتَجْهَلُوا جَمِيعَهُ .

(379/61)

الْمَسْأَلَةُ السَّابِعَةُ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ﴾ وَقَدْ أَوْرَدْنَا فِي كِتَابِ " الْمُشْكَلَيْنِ " الْقَوْلَ فِي السِّحْرِ وَحَقِيقَتِهِ وَمُنْتَهَى الْعَمَلِ بِهِ عَلَى وَجْهٍ يَشْفِي الْغَلِيلَ ، وَبَيَّنَّا أَنَّ مِنْ أَقْسَامِهِ فِعْلَ مَا يُفَرَّقُ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ، وَمِنْهُ مَا يَجْمَعُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ، وَيُسَمَّى التُّوَلَةَ ، وَكِلَاهُمَا كُفْرٌ ، وَالْكُلُّ حَرَامٌ ، كُفْرٌ قَالَهُ مَالِكٌ .

وَقَالَ الشَّافِعِيُّ : السِّحْرُ مَعْصِيَةٌ إنْ قَتَلَ بِهَا السَّاحِرُ قُتِلَ ، وَإِنْ أَضَرَّ بِهَا أُدِّبَ عَلَى قَدْرِ الضَّرَرِ .

وَهَذَا بَاطِلٌ مِنْ وَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّهُ لَمْ يَعْلَمْ السِّحْرَ ، وَحَقِيقَتُهُ أَنَّهُ كَلَامٌ مُؤَلَّفٌ يُعَظَّمُ بِهِ غَيْرُ اللَّهِ تَعَالَى ، وَتُنْسَبُ إلَيْهِ فِيهِ الْمَقَادِيرُ وَالْكَائِنَاتُ .

وَالثَّانِي : أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ قَدْ صَرَّحَ فِي كِتَابِهِ بِأَنَّهُ كُفْرٌ ؛ لِأَنَّهُ تَعَالَى قَالَ : ﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ ﴾ مِنْ السِّحْرِ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ بِقَوْلِ السِّحْرِ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا بِهِ وَبِتَعْلِيمِهِ ، وَهَارُوتُ وَمَارُوتُ يَقُولَانِ : إنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ، وَهَذَا تَأْكِيدٌ لِلْبَيَانِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّامِنَةُ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ يَعْنِي : بِحُكْمِهِ وَقَضَائِهِ لَا بِأَمْرِهِ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ، وَيَقْضِي عَلَى الْخَلْقِ بِهَا ، وَقَدْ مَهَّدْنَا ذَلِكَ فِي مَوْضِعِهِ .

(380/61)

الْمَسْأَلَةُ التَّاسِعَةُ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ﴾ هُمْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُ نَفْعٌ لِمَا يَتَعَجَّلُونَ بِهِ مِنْ بُلُوغِ الْغَرَضِ ، وَحَقِيقَتُهُ مُضِرَّةٌ ، لِمَا فِيهِ مِنْ عَظِيمِ سُوءِ الْعَاقِبَةِ ؛ وَحَقِيقَةُ الضَّرَرِ عِنْدَ أَهْلِ السُّنَّةِ كُلُّ أَلَمٍ لَا نَفْعَ يُوَازِيهِ ، وَحَقِيقَةُ النَّفْعِ كُلُّ لَذَّةٍ لَا يَتَعَقَّبُهَا عِقَابٌ ، وَلَا تَلْحَقُ فِيهِ

نَدَامَةٌ .

وَالضَّرَرُ وَعَدَمُ الْمَنْفَعَةِ فِي السِّحْرِ مُتَحَقِّقٌ . انتهى انتهى . ا هـ ﴾ أحكام القرآن لابن العربى حـ 1 صـ 42. 49 ﴾

(381/61)

ومن فوائد القاسمى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ ﴾

هو حكاية لفن آخر من زيغهم وضلالهم ، إثر نبذهم كتاب الله والعمل بما بين أيديهم ؛ وهو اتباعهم لما تتلو الشياطين على ملك سليمان من السحر والكفر ، وإنه إنما نال ذلك الملك بسبب معرفته السحر ، وزادوا على ذلك فنسبوه إلى الردة والكفر لأسباب افتروها عليه ، فبرأه الله تعالى من هذا الافتراء والاختلاق ، وألصق الكفر بأولئك الشياطين الذين يضللون العقول والأفهام بتعليم السحر والشعبذة ، وإسناد التأثير إلى غير الخالق سبحانه ، والصد عن سبيل الحق ، وابتغائهم إياها عوجاً و : ﴿ تتلو ﴾ بمعنى تقصّ وتحدث . من التلاوة ، وهي القراءة . أو بمعنى تكذب وتختلق ، وهو قول أبي مسلم ؛ قال : يقال تلا عليه

، إذا كذب ، وتلا عنه إذا صدق . وهكذا قال الراغب في تفسيره : تلا عليه كذب ، نحو روى عليه ، وقال عليه : ﴿ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ﴾ [آل عِمْرَان : 75] . وقال : الآية معطوفة على ما تقدم من ذكر اليهود ، وهي منطوية على أمرين : ذم اليهود في تحريّ السحر وإيثاره ، وتبرئة لسليمان عليه السلام مما نسبوه إليه ، وتخرّصوه عليه . وذلك أنهم زعموا أن سليمان عليه السلام ارتد في آخر عمره وعبد الأصنام ، وبنى لها المعابد ، كما تراه في الفصل الحادي عشر من سفر الملوك الثالث . فانظر إلى هذه الجرأة العظيمة والقحة الكبيرة ، ولما تنبه عقلاء أهل الكتاب المتأخرون لمثل هذه الفرى ، اعترفوا بأنه ليس كل قول من الأقوال المندرجة في كتبهم المقدسة إلهامياً ، بل بعضها كُتب على طريقة المؤرخين ، يعني بلا إلهام ، كما في " إظهار الحق " . والمراد بالشياطين شياطين الإنس ، وهم المتمردة العصاة الأشرار الأقوياء ، الدعاة إلى الباطل .

(382/61)

وقوله : ﴿ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ ﴾ أي : على عهد ملكه من تلك الأقاصيص المختلقة عليه . وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ ﴾ تنزيه لساحته عليه السلام من الردة والشرك وعبادة الأوثان التي نسبوها إليه ، وتكذيب لمن تقوّلها ، وقال كثيرون : هذا تبرئة من

السحر ، وأنه تعالى كنى عن السحر بالكفر ليدل على أنه كفر ، وأن من كان نبياً كان معصوماً عنه ، وإنما كان كفراً لكونه يكون بالتوجه إلى الأفلاك والشياطين وعبادتها ، وزعم أنها مؤثرة دونَه تعالى .

والمعنى الأول أصرح واوضح .

وقوله تعالى : ﴿ ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ﴾ عنى بالشياطين من ذكرناهم قبلُ وهم خبثاء الإنس وأشرارهم . كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ ﴾ [البقرة : 14] وقوله : ﴿ شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ ﴾ [الأنعام : 112] والذي يعيّن هذا المعنى قوله : ﴿ تتلو ﴾ لأن تلاوة شياطين الجن ، لا يسمعها أحد ، ومعنى : ﴿ تتلو ﴾ تقص كما تقدم . وقوله : ﴿ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ ﴾ يعيّن هذا المعنى أيضاً ؛ إذ لا يتعلم أحد السحر إلا من شياطين الإنس .

(383/61)

والمراد بقوله : ﴿ كفروا ﴾ كفرهم بآيات الله المنزلة ، أو عبادتهم غيره تعالى ، أو كفرهم باستعمال السحر والشعوذة ، تعمية على الحق ، وتغشية للبصائر . وجملة قوله : ﴿

يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ ﴾ حالية من ضمير : ﴿ كفروا ﴾ ، أو خبر ثان لـ : ﴿ لكن ﴾ ، أو مستأنفة . هذا على تقدير كون الضمير للشياطين . وأما على تقدير رجوعه إلى فاعل : ﴿ أتبعوا ﴾ فهي إما حال منه أو استئنافية . وقوله تعالى : ﴿ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ .

أعلم أن للعلماء في هذه الآية وجوهاً كثيرة ، وأقوالاً عديدة ، فمنهم من ذهب فيها مذهب الأخبار بين نقلة الغث والسمين ، ومنهم من وقف مع ظاهرها البحت [في المطبوع : البحث] وتمحّل لما اعترضه ، بما المعنى الصحيح في غنى عنه . ومنهم من ادعى فيها التقديم والتأخير وردّ آخرها على أولها ، بما جعلها أشبه بالألغاز والمعميات ، التي يتنزه عنها بيان أبلغ كلام . إلى غير ذلك مما يراه المتتبع لما كتب فيها .

والذي ذهب إليه المحققون أن هاروت وماروت كانا رجلين متظاهرين بالصلاح والتقوى في بابل وهي مدينة بالعراق على نهر الفرات وكانا يعلمان الناس السحر ، وبلغ حسن اعتقاد الناس بهما أن ظنوا أنهما ملكان من السماء ، وما يعلمانه للناس هو بوحي من الله ، وبلغ مكر هذين الرجلين ، ومحافظتهما على اعتقاد الناس بالحسن فيهما أنهما صارا يقولان لكل من أراد أن يتعلم منهما : ﴿ إنما نحن فتنة فلا تكفر ﴾ ، أي : إنما نحن أولو فتنة نبلوك ونختبرك ، أتشكر أم تكفر ، وننصح لك أن لا تكفر . يقولان ذلك ليوهما الناس أن علومهما إلهية ، وصناعتهما روحانية ، وأنهما لا يقصدان إلا الخير . كما يفعل ذلك دجاجلة هذا الزمان ، قائلين لما يعلمونهم الكتابة للمحبة والبغض على زعمهم : نوصيك بأن لا تكتب لجلب امرأة متزوجة إلى رجل غير زوجها ، إلى غير ذلك من الأوهام والافتراء .

ولليهود في ذلك خرافات كثيرة . حتى إنهم يعتقدون أن السحر نزل عليهما من الله ، وأنهما ملكان جاءا لتعليمه للناس . فجاء القرآن مُكذّباً لهم في دعواهم نزوله من السماء ، وفي ذم السحر ومن يتعلمه أو يعلمه ، فقال : ﴿ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ ﴾ الآية ، فـ " ما " هنا نافية ، على أصح الأقوال ، ولفظ " الملكين " هنا وارد حسب العرف الجاري بين الناس في ذلك الوقت ، كما يرد ذكر آلهة الخير والشر في كتابات المؤلفين عن تاريخ اليونان والمصريين وغيرهم ، وكما يرد في كلام المسلم ، في الرد على المسيحيين ، ذكر تجسد الإله وصلبه ، وإن كان لا يعتقد ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ﴾ من قبيل التمثيل ، وإظهار الأمر في أقبح صورة ، أي : بلغ من أمر ما يتعلمونه من ضروب الحيل ، وطرق الإفساد ، أن يتمكنوا به من التفريق بين أعظم مجتمع : كالمرء وزوجه .

(385/61)

والخلاصة : أن معنى الآية من أولها إلى آخرها هكذا : أن اليهود كذّبوا القرآن ونبذوه وراء ظهورهم ، واعتاضوا عنه بالأقاصيص والخرافات التي يسمعونها من خبثائهم عن سليمان وملكه ، وزعموا أنه كفر ، وهو لم يكفر . ولكن شياطينهم هم الذين كفروا ، وصاروا يعلمون الناس السحر ، ويدعون أنه أنزل على هاروت وماروت ، اللذين سموهما ملكين ، ولم ينزل عليهما شيء ، وإنما كانا رجلين يدّعيان الصلاح لدرجة أنهما كانا يوهمان الناس أنهما لا يقصدان إلا الخير ، ويحذرانهم من الكفر ، وبلغ من أمر ما يتعلمونه منهما من طرق الحيل والدهاء أنهم يفرقون به بين المجتمعين ، ويحلون به عقد المتحدين .

فأنت ترى من هذا المقام كله للذم ، فلا يصح أن يرد فيه مدح هاروت وماروت ، والذي يدل على صحة ما قلناه فيهما أن القرآن أنكر نزول أي : ملك إلى الأرض ليعلم الناس شيئاً من عند الله ، غير الوحي إلى الأنبياء ، ونص نصّاً صريحاً أن الله لم يرسل إلا الإنس لتعليم بني

نوعهم فقال : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنبياء : 7] ، وقال منكِراً على من طلب إنزال الملك : ﴿ وَقَالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكاً لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لا يُنْظَرُونَ ﴾ [الأنعام : 8] ، وقال في سورة الفرقان : ﴿ وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً ﴾ إلى قوله : ﴿ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً ﴾ [الفرقان : 97] .

(386/61)

وللقُصاص في هاروت وماروت في أحاديث عجيبة . فزعموا أنهما كان ملكين من الملائكة ، وأنهما لما نظرا إلى ما يصنع أهل الأرض من المعاصي ، أنكرا ذلك وأكبراه ودعوا على أهل الأرض . فأوحى الله إليهما : إني لو ابتليتكما بما ابتليت به بني آدم من الشهوات لعصيتماني ، فقالا : يا رب ، لو ابتليتنا لم نفعل ، فجرّبنا . فأهبطهما إلى الأرض ، وابتلاهما الله بشهوات بني آدم ، فمكثا في بلدة كانت فيها فاجرة تسمى : الزهرة ، فدعواها إلى الفاحشة وواقعاها بعد أن شربا الخمر ، وقتلا النفس وسجدا للصّنم ، وعلمّاها الاسم الأعظم ، الذي كانا به يعرجان إلى السماء ، فتكلمت المرأة بذلك الاسم ، وعرجت إلى السماء ، فمسخها الله تعالى ، وصيرها هذا الكوكب المسمى بالزهرة . ثم إن الله تعالى

عرّف هاروت وماروت قبيح ما فيه وقعا ، ثم خيّرهما بين عذاب الآخرة آجلاً ، وبين عذاب الدنيا عاجلاً ، فاختارا عذاب الدنيا ، فجعلهما ببابل منكوسين في بئر إلى يوم القيامة ، وهما يعلّمان الناس السحر ، ويدعوان إليه ، ولا يراهما أحد إلا من ذهب إلى ذلك الموضع لتعلم السحر خاصة .

وهذه القصة من اختلاق اليهود وتقولاتهم . ولم يقل بها القرآن قط ، وإنما ذكرها التلمود ، كما يعلم من مراجعة " مدارس يدكوت " في الاصحاح الثالث والثلاثين ، وجاراه جهلة القصاص من المسلمين ، فأخذوا منه .

قال الرازي في تفسيره : إن القصة التي ذكروها باطلة من وجوه :

أحدها : أنهم ذكروا في القصة أن الله تعالى قال لهما – أي : لهاروت وماروت – : لو ابتليتكما بما ابتليت به بني آدم لعصيتماني ، فقالا : لو فعلت ذلك بنا يا رب لما عصيانك ، وهذا منهم تكذيب لله تعالى ، وتجهيل له ، وذلك من صريح الكفر .

وثانيها : أنهما خُيّرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ، وذلك فاسد ، بل كان الأولى أن يخيرا بين التوبة وبين العذاب ، والله تعالى خيّر بينهما من أشرك به طول عمره ، وبالغ في إيذاء أنبيائه .

(387/61)

وثالثهما : أن من أعجب الأمور قولهم : إنهما يعلمان السحر ، في حال كونهما معذبين ويدعوان إليه ، وهما يعاقبان .

وهكذا ، الإمام أبو مسلم احتج على بطلان نزول السحر عليهما أيضاً بوجوه :

الأول : أن السحر لو كان نازلاً عليهما لكان منزّله هو الله ، وذلك غير جائز ؛ لأن السحر كفر وعبث لا يليق بالله تعالى إنزال ذلك .

الثاني : أن قوله : ﴿ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ ﴾ يدل على أن تعليم السحر كفر . فلو ثبت في الملائكة أنهم يعلمون السحر لزمهم الكفر . وذلك باطل .

الثالث : كما لا يجوز في الأنبياء أن يبعثوا لعليم السحر ، فكذلك في الملائكة بطريق الأولى .

الرابع : إن السحر لا ينضاف إلا إلى الكفرة والفسقة والشياطين المردة ، وكيف يضاف إلى الله ما ينهى عنه ويتوعد عليه بالعقاب ؟ وهل السحر إلا الباطل المموه ؟ وقد جرت عادة الله بإبطاله ، كما قال في قصة موسى عليه السلام : ﴿ مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ ﴾ [يونس : 81] انتهى .

وقد ساق الرازيّ ما ارتآه أبو مسلم في تفسير هذه الآية . ولم نشأ نقله لبعده عن الصواب .

وهكذا ما ذكره الإمام ابن حزم في كتابه " الفصل " في بحث عصمة الملائكة ففيه تكلف وتمحل غريب ، كما يعلم بمراجعتهما .

وللراغب الأصفهاني احتمالات في تصحيح القصة ، وتجويزات عجيبة تنبو عن الحق الصراح الذي آثرنا نقله أولاً عن بعض المحققين . والله أعلم .

(388/61)

واعلم أن لفظ السحر ، في عرف الشرع ، مختص بكل أمر يخفى سببه ، ويتخيل على غير حقيقته ، ويجري مجرى التمويه والخداع ، ومتى أطلق ولم يقيد ، أفاد ذم فاعله ، قال تعالى : ﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ ﴾ [الأعراف : 116] ، يعني موّهوا عليهم حتى ظنوا أن حيالهم وعصيهم تسعى . وقد يستعمل مقيداً فيما يمدح ويحمد ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمرو بن أهتم : < إن من البيان لسحراً > ، لأن صاحبه يوضح الشيء المشكل ، ويكشف عن حقيقته بحسن بيانه ، وبليغ عبارته . وبالجملة : فالسحر المطلق إنما هو تخييل بشعوذة صارفة للأبصار ، أو تمتمة مزخرفة عائقة للأسماع ، فلا يغير حقائق الأشياء ، ولا ينقل الصور . وقوله تعالى : ﴿ وما بهم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ﴾ قال الراغب : الإذن قد يقال في الإعلام بالرخصة ، ويقال للعلم ، ومنه آذنته بكذا ، ويقال للأمر الحتم . وينبغي أن يعلم أن الإذن في الشيء من الله تعالى ضربان :

أحدهما : الإذن لقاصد الفعل في مباشرته . نحو قولك : أذن الله لك أن تصل الرحم .

والثاني : الإذن في تسخير الشيء على وجه تسخير السم في قتله من يتناوله ، والترياق في تخليصه من أذيته . فإذنُ الله تعالى وقوع التسخير وتأثيره من القبيل الثاني ، وذلك هو المشار إليه بالقضاء ، وعلى هذا يقال : الأشياء كلها بإذن الله وقضائه . ولا يقال : الأشياء كلها بأمره ورضاه . وقوله تعالى : ﴿ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ ﴾ إرشاد إلى أن ليس في تعلم السحر إلا المضرة ، لما فيه من التلبيس والتمويه ، وإيهام الباطل حقاً ، والتوصل به إلى المفاسد والشرور . وقوله سبحانه : ﴿ ولا ينفعهم ﴾ صرح به إيذاناً بأنه ليس من الأمور المشربة بالنفع والضرر ، بل هو شرٌ بحت ، وضرر محض .

(389/61)

وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُواْ ﴾ أي : اليهود الذي حكيت ضلالاتهم . وقوله : ﴿ لَمَنِ اشْتَرَاهُ ﴾ أي : استبدل ما تتلو الشياطين بكتاب الله ، والحق الذي أنزله . وقوله : ﴿ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ ﴾ أي : نصيب ، لإقباله على التمويه والكذب ، واستعمال ذلك في اكتساب حطام الدنيا وتمتعاتها . وفيه إشارة إلى أن اختيارهم للسحر ليس من جهلهم بضرره ، بل أتوا ما أتوا عن علم بعاقبته السوأى .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ ﴾ أي : ما باعوا به حظهم الأخرويّ ، حتى

كأنهم أتلفوا أنفسهم ، وإنما نفى عنهم العلم بقوله : ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ مع إثباته لهم على سبيل التوكيد القسمي بقوله : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُوا ﴾ لأن معناه لو كانوا يعملون بعلمهم .

فجعلهم غير عالمين ، لعدم عملهم بموجب علمهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 2 صـ 403. 408 ﴾

(390/61)

ومن فوائد صاحب المنار فى الآية الكريمة

قال رحمه الله :

﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ ﴾

مَبْحَثُ السِّحْرِ وَهَارُوتَ وَمَارُوتَ

ثُمَّ ذَكَرَ – تَعَالَى – أَنَّ أُولَئِكَ الَّذِينَ نَبَذُوا كِتَابَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ – مُجَاحَدَةً لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَحَسَدًا لَهُ – قَدْ تَبَدَّلُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ وَاشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى (وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ) مِنَ الْإِنْسِ فِي قِصَصِهَا وَأَسَاطِيرِهَا ، أَوْ مِنَ الْجِنِّ فِي وَسْوَسَتِهَا ، أَوْ مِنْهُمَا جَمِيعًا عَلَى حَدِّ قَوْلِهِ – تَعَالَى – : (شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا) (6 : 112) (عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ) أَيْ مَا كَانَتْ تَتْلُو عَلَى عَهْدِهِ وَفِي أَيَّامِ

مُلْكِهِ ، إِذْ زَعَمُوا أَنَّ مُلْكَهُ قَامَ عَلَى أَسَاسِ السِّحْرِ وَالطِّلَسْمَاتِ ، وَأَنَّهُ ارْتَدَّ فِي آخِرِ عُمُرِهِ وَعَبَدَ الْأَصْنَامَ مَرْضَاةً لِنِسَائِهِ الْوَثَنِيَّاتِ (وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ) وَمَا سَحَرَ (وَلَكِنَّ) أُولَئِكَ (الشَّيَاطِينَ) الَّذِينَ يُسْنِدُونَ إِلَيْهِ مَا انْتَحَلُوهُ مِنَ السِّحْرِ ، وَمَا تَلَبَّسُوا بِهِ مِنَ الْكُفْرِ ، هُمُ الَّذِينَ (كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ) لِيَفْتِنُوا بِهِ الْعَامَّةَ وَيُضِلُّونَهُمْ عَنْ طَلَبِ الْأَشْيَاءِ مِنْ أَسْبَابِهَا الظَّاهِرَةِ وَمَنَاهِجِهَا الْمَشْرُوعَةِ .

(391/61)

هَذِهِ الْأَوْهَامُ وَالْأَكَاذِيبُ عَلَى نَبِيِّ اللهِ سُلَيْمَانَ – عَلَيْهِ السَّلَامُ – مِمَّا افْتَجَرَهُ بَعْضُ الدَّجَّالِينَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَوَسْوَسُوا بِهِ إِلَى بَعْضِ الْمُسْلِمِينَ فَصَدَّقُوهُمْ فِي بَعْضِ مَا زَعَمُوهُ مِنْ حِكَايَاتِ السِّحْرِ ، وَكَذَّبُوهُمْ فِيمَا رَمَوْا بِهِ سُلَيْمَانَ مِنَ الْكُفْرِ ، وَإِنَّكَ لَتَرَى دَجَاجِلَةَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى الْيَوْمِ يَتْلُونَ أَقْسَامًا وَعَزَائِمَ ، وَيَخُطُّونَ خُطُوطًا وَطَلَاسِمَ وَيُسَمُّونَ ذَلِكَ خَاتَمَ سُلَيْمَانَ وَعُهُودَهُ ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّهَا تَقِي حَامِلَهَا مِنِ اعْتِدَاءِ الْجِنِّ وَمَسِّ الْعَفَارِيتِ ، وَلَقَدْ رَأَى كَاتِبُ هَذَا التَّفْسِيرِ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ ، وَكَانَ فِي أَيَّامِ حَدَاثَتِهِ يُصَدِّقُ بِهِ وَيَعْتَقِدُ فَائِدَتَهُ .

وَقَدْ زَعَمَ الْيَهُودُ أَنَّ سُلَيْمَانَ سَحَرَ وَدَفَنَ السِّحْرَ تَحْتَ كُرْسِيِّهِ ، وَأَنَّهُ أَضَاعَ خَاتَمَهُ الَّذِي كَانَ بِهِ مُلْكُهُ ، فَوَقَعَ فِي يَدِ آخَرَ وَجَلَسَ مَجْلِسَهُ لِلْحُكْمِ ، إِلَى آخِرِ مَا خَلَطُوا فِيهِ التَّارِيخَ

بِالدَّجَلِ .

وَرُوِيَ عَنْهُمْ أَنَّ سُلَيْمَانَ هُوَ الَّذِي جَمَعَ كُتُبَ السِّحْرِ مِنَ النَّاسِ وَدَفَنَهَا

(392/61)

تَحْتَ كُرْسِيِّهِ ، ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا النَّاسُ وَتَنَاقَلُوهَا . وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى : أَنَّهُ إنَّمَا دَفَنَ تَحْتَ كُرْسِيِّهِ كُتُبًا أُخْرَى فِي الْعُلُومِ ، فَلَمَّا اسْتُخْرِجَتْ ، أَشَاعَ الشَّيَاطِينُ أَنَّهَا كُتُبُ سِحْرٍ ، وَأَنْشَأَ الدَّجَّالُونَ بَعْدَ ذَلِكَ يَنْتَحِلُونَ مَا شَاءُوا وَيَنْسُبُونَهُ إلَى تِلْكَ الْكُتُبِ . وَلَا شَكَّ أَنَّ مَا قَالُوهُ عَلَى سُلَيْمَانَ وَمُلْكِهِ مِنْ خَبَرِ السِّحْرِ وَالْكُفْرِ مَكْذُوبٌ ، افْتَرَاهُ أَهْلُ الْأَهْوَاءِ وَقَدْ قَصَّهُ اللَّهُ - تَعَالَى - عَلَيْنَا ؛ لِنَعْتَبِرَ بِمَا افْتَرَاهُ هَؤُلَاءِ النَّاسُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ وَبِتَرْجِيحِ فَرِيقٍ مِنْ خَلْفِهِمْ الِاشْتِغَالَ بِذَلِكَ عَلَى الِاهْتِدَاءِ بِالنَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، حَتَّى إنَّهُمْ نَبَذُوا كِتَابَهُمْ الَّذِي بَشَّرَ بِهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ .

وَمِنَ الْبَدِيهِيِّ أَنَّ ذِكْرَ الْقِصَّةِ فِي الْقُرْآنِ لَا يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ كُلُّ مَا يُحْكَى فِيهَا عَنِ النَّاسِ صَحِيحًا ، فَذِكْرُ السِّحْرِ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ لَا يَسْتَلْزِمُ إثْبَاتَ مَا يَعْتَقِدُ النَّاسُ مِنْهُ ، كَمَا أَنَّ نِسْبَةَ الْكُفْرِ إلَى سُلَيْمَانَ الَّتِي عُلِمَتْ مِنَ النَّفْيِ لَا تَسْتَلْزِمُ أَنْ تَكُونَ صَحِيحَةً ؛ لِأَنَّهَا ذُكِرَتْ فِي الْقُرْآنِ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ ذِكْرُهَا فِي سِيَاقِ النَّفْيِ .

(قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ مَا مِثَالُهُ) : بَيَّنَّا غَيْرَ مَرَّةٍ أَنَّ الْقِصَصَ جَاءَتْ فِي الْقُرْآنِ لِأَجْلِ الْمَوْعِظَةِ وَالِاعْتِبَارِ لَا لِبَيَانِ التَّارِيخِ وَلَا لِلْحَمْلِ عَلَى الِاعْتِقَادِ بِجُزْئِيَّاتِ الْأَخْبَارِ عِنْدَ الْغَابِرِينَ ، وَإِنَّهُ لِيُحْكَى مِنْ عَقَائِدِهِمُ الْحَقُّ وَالْبَاطِلُ ، وَمِنْ تَقَالِيدِهِمُ الصَّادِقُ وَالْكَاذِبُ ، وَمِنْ عَادَاتِهِمُ النَّافِعُ وَالضَّارُّ ، لِأَجْلِ الْمَوْعِظَةِ وَالِاعْتِبَارِ ، فَحِكَايَةُ الْقُرْآنِ لَا تَعْدُو مَوْضِعَ الْعِبْرَةِ وَلَا تَتَجَاوَزُ مَوْطِنَ الْهِدَايَةِ ، وَلَا بُدَّ أَنْ يَأْتِيَ فِي الْعِبَارَةِ أَوِ السِّيَاقِ وَأُسْلُوبِ النَّظْمِ مَا يَدُلُّ عَلَى اسْتِحْسَانِ الْحَسَنِ وَاسْتِهْجَانِ الْقَبِيحِ . وَقَدْ يَأْتِي فِي الْحِكَايَةِ بِالتَّعْبِيرَاتِ الْمُسْتَعْمَلَةِ عِنْدَ الْمُخَاطَبِينَ أَوِ الْمَحْكِيِّ عَنْهُمْ وَإِنْ لَمْ تَكُنْ صَحِيحَةً فِي نَفْسِهَا كَقَوْلِهِ : (كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ) (2 : 275) وَكَقَوْلِهِ : (بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ) (18 : 90) وَهَذَا الْأُسْلُوبُ مَأْلُوفٌ ، فَإِنَّنَا نَرَى كَثِيرًا مِنْ كُتَّابِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَكُتَّابِ الْإِفْرِنْجِ يَذْكُرُونَ آلِهَةَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ فِي خُطَبِهِمْ وَمَقَالَاتِهِمْ وَلَا سِيَّمَا فِي سِيَاقِ كَلَامِهِمْ عَنِ الْيُونَانِ وَالْمِصْرِيِّينَ الْقُدَمَاءِ ، وَلَا يَعْتَقِدُ أَحَدٌ مِنْهُمْ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الْخُرَافَاتِ الْوَثَنِيَّةِ .

وَيَقُولُ أَهْلُ السَّوَاحِلِ : غَرَبَتِ الشَّمْسُ ، أَوْ سَقَطَ قُرْصُ الشَّمْسِ فِي الْبَحْرِ أَوْ فِي الْمَاءِ ، وَلَا يَعْتَقِدُونَ ذَلِكَ وَإِنَّمَا يُعَبِّرُونَ بِهِ عَنِ الْمَرْئِيِّ .

(394/61)

جَاءَ ذِكْرُ السِّحْرِ فِي مَوَاضِعَ مُتَعَدِّدَةٍ فِي الْقُرْآنِ ، وَأَكْثَرُهُ فِي قِصَّةِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ ، وَذُكِرَ هُنَا فِي الْكَلَامِ عَنِ الْيَهُودِ . وَإِذَا أَرَدْنَا فَهْمَهُ مِنْ عُرْفِ اللُّغَةِ وَجَدْنَا أَنَّ السِّحْرَ عِنْدَ الْعَرَبِ كُلُّ مَا لَطُفَ مَأْخَذُهُ وَدَقَّ وَخَفِيَ ، وَقَالُوا : سَحَرَهُ وَسَحَّرَهُ بِمَعْنَى خَدَعَهُ وَعَلَّلَهُ ، وَقَالُوا : عَيْنٌ سَاحِرَةٌ وَعُيُونٌ سَوَاحِرُ ، وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ : (إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا) ، وَالسَّحْرُ بِالْفَتْحِ وَبِالتَّحْرِيكِ الرِّئَةُ وَهِيَ أَصْلُ هَذِهِ الْمَادَّةِ ، وَالرِّئَةُ فِي الْبَاطِنِ ، فَمَا لَطُفَ مَأْخَذُهُ وَدَقَّ صُنْعُهُ حَتَّى لَا يَهْتَدِي إِلَيْهِ غَيْرُ أَهْلِهِ فَهُوَ بَاطِنٌ خَفِيٌّ ، وَمِنْهُ الْخِدَاعُ : وَهُوَ أَنْ يُظْهِرَ لَكَ شَيْءٌ غَيْرُ الْوَاقِعِ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ ، فَالْوَاقِعُ بَاطِنٌ خَفِيٌّ ، وَتَأْثِيرُ الْعُيُونِ فِي عُشَّاقِ الْحِسَانِ ، وَالْكَلَامُ الْبَلِيغُ فِي عُشَّاقِ الْبَيَانِ ، مِمَّا يَخْفَى مَسْلَكُهُ وَيَدِقُّ سَبَبُهُ ، حَتَّى يَعْسُرَ عَلَى أَكْثَرِ النَّاسِ الْوُقُوفُ عَلَى الْعِلَّةِ فِي تَأْثِيرِهِ .

(395/61)

وَقَدْ وَصَفَ اللهُ السِّحْرَ فِي الْقُرْآنِ بِأَنَّهُ تَخْيِيلٌ يَخْدَعُ الْأَعْيُنَ فَيُرِيهَا مَا لَيْسَ بِكَائِنٍ كَائِنًا فَقَالَ : (يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى) (20 : 66) وَالْكَلَامُ فِي حِبَالِ السَّحَرَةِ وَعِصِيِّهِمْ ، وَفِي آيَةٍ أُخْرَى (سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ) (7 : 116) وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ الَّتِي نُفَسِّرُهَا أَنَّ السِّحْرَ كَانَ يُؤْخَذُ بِالتَّعْلِيمِ ، وَالتَّارِيخُ يَشْهَدُ بِهَذَا ، وَقَدْ كَانَ الْمِصْرِيُّونَ يُطْلِقُونَ لَقَبَ السَّاحِرِ عَلَى الْعَالِمِ ، كَمَا يُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ – تَعَالَى – : (وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ) (43 : 49) وَمَجْمُوعُ هَذِهِ النُّصُوصِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ السِّحْرَ إِمَّا حِيلَةٌ وَشَعْوَذَةٌ ، وَإِمَّا صِنَاعَةٌ عِلْمِيَّةٌ خَفِيَّةٌ يَعْرِفُهَا بَعْضُ النَّاسِ وَيَجْهَلُهَا الْأَكْثَرُونَ فَيُسَمُّونَ الْعَمَلَ بِهَا سِحْرًا لِخَفَاءِ سَبَبِهِ وَلُطْفِ مَأْخَذِهِ ، وَيُمْكِنُ أَنْ يُعَدَّ مِنْهُ تَأْثِيرُ النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ فِي نَفْسٍ أُخْرَى لِمِثْلِ هَذِهِ الْعِلَّةِ . وَقَدْ قَالَ الْمُؤَرِّخُونَ : إِنَّ سَحَرَةَ فِرْعَوْنَ قَدِ اسْتَعَانُوا بِالزِّئْبَقِ عَلَى إِظْهَارِ الْحِبَالِ وَالْعِصِيِّ بِصُوَرِ الْحَيَّاتِ وَالثَّعَابِينِ وَتَخْيِيلِ أَنَّهَا تَسْعَى .

(396/61)

وَقَدِ اعْتَادَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا التَّأْثِيرَاتِ النَّفْسِيَّةَ صِنَاعَةً وَوَسِيلَةً لِلْمَعَاشِ أَنْ يَسْتَعِينُوا بِكَلَامٍ مُبْهَمٍ وَأَسْمَاءٍ غَرِيبَةٍ اشْتَهَرَ عِنْدَ النَّاسِ أَنَّهَا مِنْ أَسْمَاءِ الشَّيَاطِينِ وَمُلُوكِ الْجَانِّ ، وَأَنَّهُمْ يَحْضُرُونَ إِذَا دُعُوا بِهَا وَيَكُونُونَ مُسَخَّرِينَ لِلدَّاعِي . وَلِمِثْلِ هَذَا الْكَلَامِ تَأْثِيرٌ فِي إِثَارَةِ الْوَهْمِ

عُرِفَ بِالتَّجْرِبَةِ ، وَسَبَبُهُ اعْتِقَادُ الْوَاهِمِ أَنَّ الشَّيَاطِينَ يَسْتَجِيبُونَ لِقَارِئِهِ وَيُطِيعُونَ أَمْرَهُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْتَقِدُ أَنَّ فِيهِ خَاصِّيَّةَ التَّأْثِيرِ وَلَيْسَ فِيهِ ، وَإِنَّمَا تِلْكَ الْعَقِيدَةُ الْفَاسِدَةُ تَفْعَلُ فِي النَّفْسِ الْوَاهِمَةِ مَا يُغْنِي مُنْتَحِلَ السِّحْرِ عَنْ تَوْجِيهِ هِمَّتِهِ وَتَأْثِيرِ إِرَادَتِهِ . وَهَذَا هُوَ السَّبَبُ فِي اعْتِقَادِ الدَّهْمَاءِ أَنَّ السِّحْرَ عَمَلٌ يُسْتَعَانُ عَلَيْهِ بِالشَّيَاطِينِ وَأَرْوَاحِ الْكَوَاكِبِ .

وَقَدِ اخْتَلَفَ الْمُتَكَلِّمُونَ وَالْمُفَسِّرُونَ وَالْفُقَهَاءُ فِي حَقِيقَةِ السِّحْرِ وَفِي أَحْكَامِهِ ، وَعَدَّهُ بَعْضُهُمْ مِنْ خَوَارِقِ الْعَادَاتِ ، وَفَرَّقُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمُعْجِزَةِ ، وَلَمْ يَذْكُرُوا فِي فُرُوقِهِمْ أَنَّ السِّحْرَ يُتَلَقَّى بِالتَّعْلِيمِ ، وَيَتَكَرَّرُ بِالْعَمَلِ ، فَهُوَ أَمْرٌ عَادِيٌّ قَطْعًا بِخِلَافِ الْمُعْجِزَةِ .

(قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ) فِي قَوْلِهِ – تَعَالَى – : (يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ) وَجْهَانِ :

(أَحَدُهُمَا) : أَنَّهُ مُتَّصِلٌ بِقَوْلِهِ : (وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا) أَيْ أَنَّ الشَّيَاطِينَ هُمُ الَّذِينَ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ .

(397/61)

(وَالثَّانِي) : وَهُوَ الْأَظْهَرُ أَنَّهُ مُتَّصِلٌ بِالْكَلَامِ عَنِ الْيَهُودِ وَأَنَّ الْكَلَامَ فِي الشَّيَاطِينِ قَدِ انْتَهَى عِنْدَ الْقَوْلِ بِكُفْرِهِمْ . وَانْتِحَالُ الْيَهُودِ لِتَعْلِيمِ السِّحْرِ أَمْرٌ كَانَ مَشْهُورًا فِي زَمَنِ التَّنْزِيلِ ، وَلَا يَزَالُونَ يَنْتَحِلُونَ ذَلِكَ إِلَى الْيَوْمِ . أَيْ أَنَّ فَرِيقًا مِنَ الْيَهُودِ نَبَذُوا كِتَابَ اللهِ (وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ

عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ) وَهَا هُنَا يَقُولُ الْقَائِلُ : بِمَاذَا اتَّبَعُوا أُولَئِكَ الشَّيَاطِينَ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى سُلَيْمَانَ فِي رَمْيِهِ بِالْكُفْرِ ، وَزَعْمِهِمْ أَنَّ السِّحْرَ اسْتُخْرِجَ مِنْ كُتُبِهِ الَّتِي كَانَتْ تَحْتَ كُرْسِيِّهِ ؟ فَأَجَابَ عَلَى طَرِيقِ الِاسْتِئْنَافِ الْبَيَانِيِّ (يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ) . . . إِلَخْ ، وَنَفْيُ الْكُفْرِ عَنْ سُلَيْمَانَ وَإِلْصَاقُهُ بِالشَّيَاطِينِ الْكَاذِبِينَ ذُكِرَ بِطَرِيقِ الِاعْتِرَاضِ ، فَعُلِمَ أَيْضًا أَنَّهُمُ اتَّبَعُوا الشَّيَاطِينَ بِهَذِهِ الْفِرْيَةِ أَيْضًا . وَإِنَّمَا كَانَ الْقَصْدُ إِلَى وَصْفِ الْيَهُودِ بِتَعْلِيمِ السِّحْرِ ؛ لِأَنَّهُ مِنَ السَّيِّئَاتِ الَّتِي كَانُوا مُتَلَبِّسِينَ بِهَا ، وَيَضُرُّونَ بِهَا النَّاسَ خِدَاعًا وَتَمْوِيهًا وَتَلْبِيسًا .

(398/61)

ثُمَّ قَالَ : (وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ) فَأَجْمَلَ بِهَذِهِ الْعِبَارَةِ الْوَجِيزَةِ خَبَرَ قِصَّةٍ كَانُوا يَتَحَدَّثُونَ بِهَا كَمَا أَجْمَلَ فِي ذِكْرِ تَعْلِيمِ السِّحْرِ ، فَلَمْ يَذْكُرْ مَا هُوَ ، أَشَعْوَذَةٌ وَتَخْيِيلٌ ، أَمْ خَوَاصُّ طَبِيعِيَّةٌ ، وَتَأْثِيرَاتٌ نَفْسِيَّةٌ ؟ وَهَذَا ضَرْبٌ مِنَ الْإِعْجَازِ انْفَرَدَ بِهِ الْقُرْآنُ ، يَذْكُرُ الْأَمْرَ الْمَشْهُورَ بَيْنَ النَّاسِ فِي وَقْتٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ لِأَجْلِ الِاعْتِبَارِ بِهِ فَيَنْظِمُهُ فِي أُسْلُوبٍ يُمْكِنُ لِكُلِّ أَحَدٍ أَنْ يَقْبَلَهُ فِيهِ مَهْمَا يَكُنِ اعْتِقَادُهُ لِذَلِكَ الشَّيْءِ فِي تَفْصِيلِهِ ، أَلَا تَرَى كَيْفَ ذَكَرَ السِّحْرَ هُنَا وَفِي مَوَاضِعَ أُخْرَى بِأَسَالِيبَ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُنْكِرَهَا مَنْ يَدَّعِي أَنَّ السِّحْرَ حِيلَةٌ وَشَعْوَذَةٌ أَوْ غَيْرُ ذَلِكَ مِمَّا ذَكَرْنَاهُ ، وَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَرُدَّهَا مَنْ يَدَّعِي أَنَّهُ مِنْ خَوَارِقِ

الْعَادَاتِ ؟

وَالْحِكْمَةُ فِي ذَلِكَ أَنَّ اللهَ – عَزَّ وَجَلَّ – قَدْ وَكَلَ مَعْرِفَةَ هَذِهِ الْحَقَائِقِ الْكَوْنِيَّةِ إِلَى

(399/61)

بَحْثِ الْإِنْسَانِ وَاشْتِغَالِهِ بِالْعِلْمِ ؛ لِأَنَّهُ مِنَ الْأُمُورِ الْكَسْبِيَّةِ ، وَلَوْ بَيَّنَ مَسَائِلَهَا بِالنَّصِّ الْقَاطِعِ لَجَاءَتْ مُخَالِفَةً لِعِلْمِ النَّاسِ وَاخْتِبَارِهِمْ فِي كُلِّ جِيلٍ لَمْ يَرْتَقِ الْعِلْمُ فِيهِ إِلَى أَعْلَى دَرَجَةٍ ، وَلَكَانَتْ تِلْكَ الْمُخَالَفَةُ مِنْ أَسْبَابِ الشَّكِّ أَوِ التَّكْذِيبِ ، فَإِنَّنَا نَرَى مِنَ النَّاسِ مَنْ يَطْعَنُ فِي كُتُبِ الْوَحْيِ لِتَفْسِيرِ بَعْضِ تِلْكَ الْأُمُورِ الْمُجْمَلَةِ بِمَا يَتَرَاءَى لَهُمْ ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ نَصًّا وَلَا ظَاهِرًا فِيهِ ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّ كِتَابَ الدِّينِ جَاءَ مُخَالِفًا لِلْعِلْمِ ، وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ الَّذِي يُطْلِقُونَ عَلَيْهِ اسْمَ الْعِلْمِ ظَنِّيًّا أَوْ فَرْضِيًّا .

(400/61)

فِي (الْمَلَكَيْنِ) قِرَاءَتَانِ ، فَتْحُ اللَّامِ وَكَسْرُهَا ، فَالْأُولَى قِرَاءَةُ الْجُمْهُورِ ، وَالثَّانِيَةُ قِرَاءَةُ ابْنِ عَبَّاسٍ وَالْحَسَنِ وَأَبِي الْأَسْوَدِ وَالضَّحَّاكِ . وَحَمَلَ بَعْضُهُمْ قِرَاءَةَ الْفَتْحِ عَلَى قِرَاءَةِ الْكَسْرِ

وَيُؤَيِّدُهُ مَا قِيلَ إنَّ الْمُرَادَ بِهِمَا (دَاوُدُ وَسُلَيْمَانُ - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ -) . . . وَقِيلَ . بَلْ هُمَا رَجُلَانِ صَاحِبَا وَقَارٍ وَسَمْتٍ فَشُبِّهَا بِالْمَلَائِكَةِ ، وَكَانَ يَؤُمُّهُمَا النَّاسُ بِالْحَوَائِجِ الْأَهْلِيَّةِ وَيُجِلُّونَهُمَا أَشَدَّ الْإِجْلَالِ فَشُبِّهَا بِالْمُلُوكِ ، وَتِلْكَ عَادَةُ النَّاسِ فِيمَنْ يَنْفَرِدُ بِالصِّفَاتِ الْمَحْمُودَةِ يَقُولُونَ : هَذَا مَلَكٌ وَلَيْسَ بِإِنْسَانٍ ، كَمَا يَقُولُونَ فِيمَنْ كَانَ سَيِّدًا عَزِيزًا يُظْهِرُ الْغِنَى عَنِ النَّاسِ مِنْ حَيْثُ يَحْتَاجُونَ إلَيْهِ : " وَهَذَا سُلْطَانُ زَمَانِهِ " ، جَلَّتْ حِكْمَةُ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ فَقَدْ قَدَّ هَؤُلَاءِ الْآدَمِيِّينَ مِنْ أَدِيمٍ وَاحِدٍ ، كَانَ النَّاسُ عَلَى عَهْدِ هَارُوتَ وَمَارُوتَ - اللَّذَيْنِ كَانَ يُتَحَدَّثُ بِخَبَرِهِمَا وَلَا يُحَدَّدُ تَارِيخُهُمَا - عَلَى مِثَالِهِمُ الْيَوْمَ لَا يَقْصِدُونَ لِلْفَصْلِ فِي شُئُونِهِمُ الْأَهْلِيَّةِ مِنَ الْجِهَةِ الرُّوحَانِيَّةِ إلَّا إلَى أَهْلِ السَّمْتِ وَالْوَقَارِ اللَّابِسِينَ لِبَاسَ أَهْلِ التَّقْوَى وَالصَّلَاحِ ، هَذَا مَا نُشَاهِدُهُمْ عَلَيْهِ فِي زَمَانِنَا ، وَهَذَا مَا حَكَى اللَّهُ - تَعَالَى - عَنْهُمْ فِي الزَّمَنِ الْقَدِيمِ ، وَقَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : لَعَلَّ اللَّهَ - تَعَالَى - سَمَّاهُمَا مَلَكَيْنِ (بِفَتْحِ اللَّامِ) حِكَايَةً لِاعْتِقَادِ النَّاسِ فِيهِمَا ، وَأَجَازَ أَيْضًا كَوْنَ إطْلَاقِ لَفْظِ

الْمَلَكَيْنِ عَلَيْهِمَا مَجَازًا كَمَا قَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ . قَالَ - تَعَالَى - فِي الْيَهُودِ : (يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ) ، وَالظَّاهِرُ مِنَ الْعَطْفِ أَنَّ مَا أُنْزِلَ عَلَيْهِمَا هُوَ

غَيْرُ السِّحْرِ ضُمَّ إِلَيْهِ ؛ لِأَنَّهُ مِنْ جِنْسِهِ فِي كَوْنِ تَعْلِيمِهِ سَيِّئَةً مَذْمُومَةً أَوْ هُوَ لِتَغَايُرِ الِاعْتِبَارِ أَوِ النَّوْعِ . وَلَيْسَ مَعْنَى الْإِنْزَالِ عَلَيْهِمَا أَنَّهُ وَحْيٌ مِنَ اللهِ كَوَحْيِهِ لِلْأَنْبِيَاءِ ، فَيُشْكِلُ عَدُّهُ مِنَ الشَّرِّ وَالْبَاطِلِ الَّذِي يُذَمُّ تَعَلُّمُهُ ، فَإِنَّ كَلِمَةَ (أُنْزِلَ) تُسْتَعْمَلُ فِي مَوَاضِعَ لَا صِلَةَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ وَحْيِ الْأَنْبِيَاءِ ، قَالُوا : أُنْزِلَتْ حَاجَتِي عَلَى كَرِيمٍ ، وَأُنْزِلَ لِي عَنْ هَذِهِ الْأَبْيَاتِ ،

(402/61)

وَيُقَالُ : قَدْ أُنْزِلَ الصَّبْرُ عَلَى قَلْبِ فُلَانٍ ، وَقَالَ – تَعَالَى – : (وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ) (57 : 25) وَقَالَ : (ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ) (9 : 26) . وَلَعَلَّ التَّعْبِيرَ عَمَّا أُوتِيَاهُ مِنَ الْعِلْمِ بِالْإِنْزَالِ ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يُعْرَفُ لَهُ مَأْخَذٌ غَيْرُهُمَا ، يُرَادُ أَنَّهُمَا أُلْهِمَاهُ إِلْهَامًا وَاهْتَدَيَا إِلَيْهِ مِنْ غَيْرِ أُسْتَاذٍ وَلَا مُعَلِّمٍ . وَيَصِحُّ أَنْ يُسَمَّى مِثْلُ هَذَا وَحْيًا لِخَفَاءِ مَنْبَعِهِ . وَلَيْسَ الْوَحْيُ إِلْهَامَ الْخَوَاطِرِ خَاصًّا فِي عُرْفِ اللُّغَةِ وَلَا عُرْفِ الْقُرْآنِ بِالْأَنْبِيَاءِ ، وَلَا بِمَا يَكُونُ مَوْضُوعُهُ خَيْرًا أَوْ حَقًّا ، فَقَدْ قَالَ – تَعَالَى – : (وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ) (16 : 68) ، وَقَالَ : (وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ)

(28 : 7) وَقَالَ : (شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا)

(6 : 112) وَقَالَ الشَّاعِرُ :

رَأْسُ الْغَوَايَةِ فِي الْعَقْلِ السَّقِيمِ . . . فَمَا فِيهِ فَأَكْثَرُهُ وَحْيُ الشَّيَاطِينِ

(403/61)

وَذَكَرَ ابْنُ جَرِيرٍ الطَّبَرِيُّ وَجْهًا آخَرَ فِي تَفْسِيرِ (وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ) ، وَنَقَلَهُ كَثِيرٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ وَهُوَ أَنَّ (مَا) نَافِيَةٌ ، أَيْ : إِنَّ الْيَهُودَ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَيَرْتَقُونَ بِسَنَدِهِ إِلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ ، وَمَا أُنْزِلَ السِّحْرُ عَلَى الْمَلَكَيْنِ ، فَكَيْفَ كَانُوا يُعَلِّمُونَهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ؟ وَقَدْ ضَعَّفُوهُ بِأَنَّ الثَّابِتَ فِي الْوَاقِعِ أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ ، وَقَدْ أَجَازَ هَذَا التَّضْعِيفَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ ، عَلَى أَنَّهُ يُمْكِنُ أَنْ يُرَادَ بِهِ نَفْيُ الْإِنْزَالِ خَاصَّةً ، أَيْ أَنَّ ذَلِكَ السِّحْرَ الَّذِي يَنْسُبُونَهُ إِلَى الْمَلَكَيْنِ لَمْ يَنْزِلْ عَلَيْهِمَا إِنْزَالًا مِنَ اللهِ فَيَنْظِمُهُ الْيَهُودُ فِي سِلْكِ الْعُلُومِ الْمَحْمُودَةِ وَيَزْعُمُونَ أَنَّهُ حَقٌّ ، وَإِنَّمَا هُوَ شَيْءٌ افْتَجَرَاهُ وَاخْتَرَعَاهُ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمَا .

(404/61)

ثُمَّ قَالَ : (وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ) أَيْ إِنَّ مَا عِنْدَنَا هُوَ أَمْرٌ يَبْتَلِي بِهِ اللهُ النَّاسَ وَيَخْتَبِرُهُمْ فَلَا تَتَعَلَّمْ مَا هُوَ كُفْرٌ ، فَإِنْ أَصَرَّ عَلَّمَاهُ . هَذَا مَا عَلَيْهِ الْجُمْهُورُ وَاقْتَصَرَ عَلَيْهِ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ فِي الدَّرْسِ . وَقَالَ الْبَيْضَاوِيُّ : وَمَا يُعَلِّمَانِ أَحَدًا حَتَّى يَنْصَحَاهُ وَيَقُولَا لَهُ : إِنَّمَا نَحْنُ ابْتِلَاءٌ مِنَ اللهِ ، فَمَنْ تَعَلَّمَ مِنَّا وَعَمِلَ بِهِ كَفَرَ ، وَمَنْ تَعَلَّمَ وَتَوَقَّى عَمَلَهُ ثَبَتَ عَلَى الْإِيمَانِ ، فَلَا تَكْفُرْ بِاعْتِقَادِ جَوَازِهِ وَالْعَمَلِ بِهِ ، وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ تَعَلُّمَ السِّحْرِ وَمَا لَا يَجُوزُ اتِّبَاعُهُ غَيْرُ مَحْظُورٍ ، وَإِنَّمَا الْمَنْعُ مِنِ اتِّبَاعِهِ وَالْعَمَلِ بِهِ ا هـ . وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى : إِنَّمَا نَحْنُ أُولُو فِتْنَةٍ نَبْلُوكَ وَنَخْتَبِرُكَ أَتَشْكُرُ أَمْ تَكْفُرُ ؟ وَنَنْصَحُ لَكَ أَلَّا تَكْفُرَ . وَلَعَلَّهُمَا يَقُولَانِ هَذَا لِلْمُحَافَظَةِ

(405/61)

عَلَى حُسْنِ اعْتِقَادِ النَّاسِ بِفَضْلِهِمَا إِذْ كَانُوا يَقُولُونَ هُمَا مَلَكَانِ . وَإِنَّنَا نَسْمَعُ الدَّجَاجِلَةَ الَّذِينَ يَنْتَحِلُونَ مِثْلَ هَذَا وَيُوهِمُونَ النَّاسَ أَنَّهُمْ رُوحَانِيُّونَ ، يَقُولُونَ لِمَنْ يُعَلِّمُونَهُمُ الْكِتَابَةَ لِلْمَحَبَّةِ وَلِلْبُغْضِ : نُوصِيكَ بِأَلَّا تَكْتُبَ هَذَا لِجَلْبِ امْرَأَةٍ مُتَزَوِّجَةٍ إِلَى حُبِّ رَجُلٍ غَيْرِ زَوْجِهَا ، وَلَا تَكْتُبْ لِأَحَدِ الزَّوْجَيْنِ بِأَنْ يُبْغِضَ الْآخَرَ ، وَأَنْ تَخُصَّ هَذِهِ الْفَوَائِدَ بِالْمَصْلَحَةِ كَالْحُبِّ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ ، وَالتَّفْرِيقِ بَيْنَ الْعَاشِقِينَ الْفَاسِقِينَ ، وَإِنَّمَا يَقُولُونَ هَذَا لِيُوهِمُوا النَّاسَ

أَنَّ عُلُومَهُمْ إلَهِيَّةٌ ، وَأَنَّ صِنَاعَتَهُمْ رُوحَانِيَّةٌ ، وَأَنَّهُمْ صَحِيحُو النِّيَّةِ . وَقَدْ كَانَ الْيَهُودُ يُسْنِدُونَ سِحْرَهُمْ إلَى مَلَكَيْنِ بِبَابِلَ ، وَنَرَى دَجَاجِلَةَ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْمَغَارِبَةِ وَغَيْرِهِمْ يُسْنِدُونَ خُزَعْبَلَاتِهِمْ إلَى " دَانْيَالَ النَّبِيِّ " ، وَهَذَا الْمَعْنَى يَصِحُّ عَلَى الْقَوْلِ بِأَنَّ قَوْلَهُ : (وَمَا أُنْزِلَ) نَفْيٌ بِحَسَبِ تَوْجِيهِنَا السَّابِقِ . وَقَالَ الْبَيْضَاوِيُّ : إنَّ مَعْنَاهُ عَلَى وَجْهِ النَّفْيِ : إنَّمَا نَحْنُ مَفْتُونُونَ ، فَلَا تَكُنْ مِثْلَنَا .

قَالَ – تَعَالَى – : (فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ) ، صِيغَةُ الْمُضَارِعِ فِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ وَمَا قَبْلَهَا لِتَصْوِيرِ مَا كَانَ كَأَنَّهُ كَائِنٌ ، فَالْكَلَامُ تَصْوِيرٌ لِلْقِصَّةِ لَا حُكْمٌ بِمَضْمُونِهَا ، أَيْ أَنَّهُمْ

كَانُوا يَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا وُضِعَ لِأَجْلِ التَّفْرِيقِ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ ، وَهُوَ نَحْوُ مَا يُسَمِّيهِ الدَّجَاجِلَةُ الْآنَ "كِتَابَ الْبُغْضَةِ" وَلَيْسَ فِي الْعِبَارَةِ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَا يَتَعَلَّمُونَهُ لِهَذَا الْغَرَضِ هُوَ مُؤَثِّرٌ فِيهِ بِطَبْعِهِ أَوْ بِسَبَبٍ خَفِيٍّ أَوْ بِخَارِقَةٍ لَا تُعْقَلُ لَهَا عِلَّةٌ وَلَا أَنَّهُ غَيْرُ مُؤَثِّرٍ ، وَلَيْسَ فِيهَا بَيَانٌ لِمَا يَتَعَلَّمُونَهُ هَلْ هُوَ كِتَابَةُ تَمَائِمَ ، أَوْ تِلَاوَةُ رُقًى وَعَزَائِمَ ، أَوْ أَسَالِيبُ سِعَايَةٍ ، أَوْ دَسَائِسُ تَنْفِيرٍ وَنِكَايَةٍ ، أَوْ تَأْثِيرٌ نَفْسَانِيٌّ ، أَوْ وَسْوَاسٌ شَيْطَانِيٌّ ؟ أَيُّ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ ثَبَتَ عِلْمًا كَانَ

تَفْصِيلًا لِمَا أَجْمَلَهُ الْقُرْآنُ فِي الْوَاقِعِ ، وَلَا يَجُوزُ لَنَا أَنْ نَتَحَكَّمَ بِتَفْصِيلِ مَا أَجْمَلَهُ الْقُرْآنُ فَنَحْمِلُهُ عَلَى أَحَدِ مَا ذُكِرَ أَوْ عَلَى غَيْرِهِ . وَلَوْ عَلِمَ اللهُ أَنَّ الْخَيْرَ لَنَا فِي بَيَانِ ذَلِكَ لَبَيَّنَهُ كَمَا قُلْنَاهُ فِي مِثْلِهِ مِرَارًا .

(407/61)

لَمْ يُبَيِّنِ الْقُرْآنُ ذَلِكَ الْإِجْمَالَ وَلَا حَقِيقَةَ ذَلِكَ الْعِلْمِ ؛ لِأَنَّهُ مَوْكُولٌ إِلَى بَحْثِ الْبَشَرِ وَارْتِقَائِهِمْ فِي الْعِلْمِ كَمَا تَقَدَّمَ ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يُهْمِلْ مَا يَتَعَلَّقُ بِالْعَقَائِدِ وَبَيَانِ الْحَقِّ فِيهَا ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ بَعْدَ حِكَايَةِ السِّحْرِ عَنْهُمْ : (وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ) أَيْ أَنَّهُمْ لَيْسَ لَهُمْ قُوَّةٌ غَيْبِيَّةٌ وَرَاءَ الْأَسْبَابِ الَّتِي رَبَطَ اللهُ بِهَا الْمُسَبَّبَاتِ ، فَهُمْ يَفْعَلُونَ بِهَا مَا يُوهِمُونَ النَّاسَ أَنَّهُ فَوْقَ اسْتِعْدَادِ الْبَشَرِ ، وَفَوْقَ مَا مُنِحُوا مِنَ الْقُوَى وَالْقُدَرِ ،

فَإِذَا اتَّفَقَ أَنْ أُصِيبَ أَحَدٌ بِضَرَرٍ مِنْ أَعْمَالِهِمْ ، فَإِنَّمَا ذَلِكَ بِإِذْنِ اللهِ ، أَيْ بِسَبَبٍ مِنَ الْأَسْبَابِ الَّتِي جَرَتِ الْعَادَةُ بِأَنْ تَحْصُلَ الْمُسَبَّبَاتُ مِنْ ضُرٍّ وَنَفْعٍ عِنْدَ حُصُولِهَا بِإِذْنِ اللهِ – تَعَالَى . وَهَذَا الْحُكْمُ التَّوْحِيدِيُّ هُوَ الْمَقْصِدُ الْأَوَّلُ مِنْ مَقَاصِدِ الدِّينِ ، فَالْقُرْآنُ لَا يُتْرَكُ بَيَانُهُ عِنْدَ الْحَاجَةِ بَلْ يُبَيِّنُهُ عِنْدَ كُلِّ مُنَاسَبَةٍ ، وَرُبَّمَا تَرِدُ فِي الْقُرْآنِ قِصَّةٌ مِثْلَ هَذِهِ الْقِصَّةِ لِأَجْلِ

بَيَانِ الْحَقِّ فِي مَسْأَلَةٍ اعْتِقَادِيَّةٍ كَهَذِهِ الْمَسْأَلَةِ ؛ لِأَنَّ إيرَادَ الْأَحْكَامِ فِي سِيَاقِ الْوَقَائِعِ أَوْقَعُ فِي النَّفْسِ وَأَعْصَى عَلَى التَّأْوِيلِ وَالتَّحْرِيفِ .

(408/61)

ثُمَّ قَالَ بَعْدَ نَفْيِ الْقُوَّةِ الَّتِي وَرَاءَ الْأَسْبَابِ عَنْهُمْ : (وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ) ، يَضُرُّهُمْ ؛ لِأَنَّهُ سَبَبٌ فِي الْإِضْرَارِ بِالنَّاسِ ، وَهُوَ مُحَرَّمٌ يُعَاقِبُ اللَّهُ – تَعَالَى – عَلَيْهِ فِي الْآخِرَةِ ، وَمَنْ عُرِفَ بِإِيذَاءِ النَّاسِ يَمْقُتُهُ النَّاسُ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِ . وَلَمَّا كَانَ بَعْضُ الضَّارِّ مِنْ جِهَةٍ نَافِعًا مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى – وَرُبَّمَا كَانَتْ مَنْفَعَتُهُ أَكْبَرَ مِنْ إثْمِهِ – نَفَى الْمَنْفَعَةَ بَعْدَ إثْبَاتِ الْمَضَرَّةِ . فَهَذَا النَّفْيُ وَاجِبٌ فِي قَانُونِ الْبَلَاغَةِ لَا بُدَّ مِنْهُ ، وَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ – تَعَالَى – فَإِنَّنَا نَرَى مُنْتَحِلِي السِّحْرِ وَمَا فِي مَعْنَاهُ أَفْقَرَ النَّاسِ وَأَحْقَرَهُمْ ، وَلَوْ عَقَلَ السُّفَهَاءُ الَّذِينَ يَخْتَلِفُونَ إلَيْهِمْ يَلْتَمِسُونَ الْمَنَافِعَ لِأَنْفُسِهِمْ وَالْإِيقَاعَ بِأَعْدَائِهِمْ لَعَلِمُوا أَنَّ الشَّقِيَّ فِي نَفْسِهِ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَهَبَ السَّعَادَةَ لِغَيْرِهِ ؛ لِأَنَّ فَاقِدَ الشَّيْءِ لَا يُعْطِيهِ ، هَذِهِ حَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا ، فَكَيْفَ يَكُونُونَ فِي الْآخِرَةِ يَوْمَ (تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) (2 : 281) لَا جَرَمَ أَنَّهَا تَكُونُ حَالًا سُوْأَى ، وَالْيَهُودُ يَعْلَمُونَ ذَلِكَ كَمَا قَالَ : (وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ) أَيْ أَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ مَنِ اخْتَارَ هَذَا وَاسْتَبْدَلَهُ بِمَا آتَاهُ اللَّهُ مِنْ أُصُولِ الدِّينِ الْحَقِّ وَأَحْكَامِ

الشَّرِيعَةِ الْعَادِلَةِ الْمُوصِلِينَ إِلَى سَعَادَةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، فَلَيْسَ لَهُ نَصِيبٌ فِي نَعِيمِ الْآخِرَةِ ، وَذَلِكَ أَنَّ التَّوْرَاةَ قَدْ

(409/61)

حَظَرَتْ تَعْلِيمَ السِّحْرِ ، وَجَعَلَتْهُ كَعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ وَشَدَّدَتِ الْعُقُوبَةَ عَلَى فَاعِلِهِ وَعَلَى اتِّبَاعِ الْجِنِّ وَالشَّيَاطِينِ وَالْكُهَّانِ ، وَلَا يُنَافِي هَذَا الْعِلْمُ قَوْلَهُ : (وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) فَإِنَّ الْعِلْمَ عِلْمَانِ : عِلْمٌ تَفْصِيلِيٌّ مُتَمَكِّنٌ مِنَ النَّفْسِ مُتَسَلِّطٌ عَلَى إِرَادَتِهَا يُحَرِّكُهَا إِلَى الْعَمَلِ ، وَعِلْمٌ إِجْمَالِيٌّ خَيَالِيٌّ يَلُوحُ فِي الذِّهْنِ مُبْهَمًا عِنْدَمَا يَعْرِضُ مَا يُذَكَّرُ بِهِ كَكِتَابٍ وَإِلْقَاءِ سُؤَالٍ ، وَهُوَ يَقْبَلُ التَّحْرِيفَ وَالتَّأْوِيلَ ، وَلَيْسَ لَهُ مَنْفَذٌ إِلَى الْإِرَادَةِ وَلَا سَبِيلٌ ، فَقَدْ كَانُوا يَسْتَحِلُّونَ أَكْلَ السُّحْتِ كَالرِّشْوَةِ وَالرِّبَا بِالتَّأْوِيلِ ، كَمَا يَفْعَلُ غَيْرُهُمُ الْيَوْمَ

(410/61)

وَقَبْلَ الْيَوْمِ . وَلَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ حُرْمَةَ مَا ذُكِرَ عِلْمًا تَفْصِيلِيًّا يَسْتَغْرِقُ جَمِيعَ جُزْئِيَّاتِ الْمُحَرَّمِ ، وَيَفْقَهُونَ عِلَّةَ التَّحْرِيمِ وَسِرَّهُ ، وَيُصَدِّقُونَ بِمَا تَوَعَّدَ اللهُ مُرْتَكِبَهُ مِنَ الْعُقُوبَةِ فِي الْآخِرَةِ تَصْدِيقًا جَازِمًا ، وَيَتَذَكَّرُونَهُ وَقْتَ الْعَمَلِ – بِمَا لِلْعَقِيدَةِ مِنَ السُّلْطَانِ عَلَى الْإِرَادَةِ – لَمَا ارْتَكَبُوا مَا ارْتَكَبُوهُ مَعَ الْإِصْرَارِ عَلَيْهِ ، وَلَكِنَّهُمْ فَقَدُوا هَذَا النَّوْعَ مِنَ الْعِلْمِ وَلَمْ يُغْنِ عَنْهُمْ تَصَوُّرُ أَنَّ السِّحْرَ وَالْخِدَاعَ كِلَاهُمَا حَرَامٌ كَالرِّبَا وَالرِّشْوَةِ ؛ لِأَنَّ فِي الْكِتَابِ عِبَارَةً تَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ ؛ فَإِنَّ الْعِبَارَةَ تَحْتَمِلُ ضُرُوبًا مِنَ التَّأْوِيلِ كَكَوْنِ النَّهْيِ خَاصًّا بِمُعَامَلَةِ شَعْبِ إِسْرَائِيلَ ، وَكَانُوا يَقُولُونَ : (لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ) (3 : 75) إِذَا أَكَلْنَا أَمْوَالَهُمْ بِالْبَاطِلِ ، وَكَاشْتِرَاطِ الضَّرَرِ فِي السِّحْرِ مَعَ ادِّعَاءِ أَنَّ مَا يَأْتُونَهُ مِنْهُ نَافِعٌ غَيْرُ ضَارٍّ وَغَيْرِ ذَلِكَ .

(411/61)

وَإِنَّنَا نَرَى كَثِيرًا مِنَ الْحُرُمَاتِ قَدِ انْتُهِكَتْ فِي الْمُسْلِمِينَ بِمِثْلِ التَّأْوِيلَاتِ حَتَّى جَوَّزَ بَعْضُ الْمُشْتَغِلِينَ بِالْفِقْهِ هَدْمَ رُكْنٍ مِنْ أَعْظَمِ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ بِالْحِيلَةِ ، وَهُوَ رُكْنُ الزَّكَاةِ الَّذِي يُحَارِبُ تَارِكُوهُ شَرْعًا ، وَتَرَى هَذِهِ الْحِيَلَ قَدْ أَثَّرَتْ فِي الْأُمَّةِ أَسْوَأَ التَّأْثِيرِ ، فَكَمْ يُوجَدُ فِيهَا غَنِيٌّ يُؤَدِّي الزَّكَاةَ ، وَلَا يَعْتَقِدُ الْمُتَمَسِّكُ بِالدِّينِ مِنْ هَؤُلَاءِ الْأَغْنِيَاءِ أَنَّهُ مُتَعَرِّضٌ لِمَقْتِ اللهِ وَعُقُوبَتِهِ ، وَأَنَّهُ قَدْ فَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ؛ لِأَنَّهُ يَمْنَعُ الزَّكَاةَ بِحِيلَةٍ يُسَمِّيهَا شَرْعِيَّةً ، وَقَدْ أَخَذَهَا عَمَّنْ

يُسَمَّوْنَ فُقَهَاءَ ، وَيَفْتَخِرُونَ بِأَنَّهُمْ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ ، ثُمَّ إنَّ الْحِيَلَ عَلَى التَّزْوِيرِ وَأَكْلِ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ لَهَا فِي بَعْضِ الْكُتُبِ وَعَلَى أَلْسِنَةِ كَثِيرِينَ مِنْ أَصْحَابِ الْعَمَائِمِ مَجَالٌ وَاسِعٌ وَمَيْدَانٌ فَسِيحٌ ، وَلَهَا أَقْبَحُ التَّأْثِيرِ فِي إفْسَادِ الْعَامَّةِ وَاسْتِبَاحَتِهِمُ الْمَحْظُورَاتِ ، وَلَقَدْ صَارَتْ هَذِهِ الْحِيَلُ عَلَى اللهِ – عَزَّ وَجَلَّ – وَالتَّأْوِيلَاتُ الْبَاطِلَةُ الْهَادِمَةُ لِدِينِهِ مَعْدُودَةً مِنْ عِلْمِ الدِّينِ حَتَّى إنَّهُ لَيَأْتِيهَا مَنْ لَا مَنْفَعَةَ لَهُ فِي إتْيَانِهَا مِمَّنْ يُعَدُّونَ صَالِحِينَ ، وَمِنْ أَعْجَبِ ذَلِكَ أَنَّ بَعْضَ أَهْلِ الْعِلْمِ الصَّالِحِينَ يَشْهَدُ الزُّورَ بِمِثْلِ هَذِهِ التَّأْوِيلَاتِ ، وَقَدْ نَقَلَ الثِّقَاتُ أَنَّ طَالِبَ الشَّهَادَةِ يَسْتَعْطِفُهُ وَيَسْتَمِيلُ قَلْبَهُ الشَّكْوَى مِنَ الظُّلْمِ ، وَإِرَادَةُ الِاسْتِعَانَةِ بِشَهَادَتِهِ عَلَى

(412/61)

دَفْعِ الْمَظْلَمَةِ وَالتَّخَلُّصِ مِنَ الْأَذَى ، فَيَأْمُرُ الشَّيْخُ بِأَنْ تُطْوَى الْوَرَقَةُ الْمُشْتَمِلَةُ عَلَى قَوْلِ الزُّورِ بِحَيْثُ يُحْجَبُ سَوَادُ الْكِتَابَةِ فَلَا يَرَاهُ وَيَضَعُ تَوْقِيعَهُ وَخَتْمَهُ فِي ذَيْلِهَا كَأَنَّهُ وَضَعَهُمَا عَلَى وَرَقَةٍ خَالِيَةٍ ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهَا لَيْسَتْ خَالِيَةً مِنَ الْكِتَابَةِ ، وَيَعْرِفُ مَا فِيهَا مِنَ الْكَذِبِ . فَهَلْ نَقُولُ : إنَّهُ غَيْرُ عَالِمٍ بِقَوْلِهِ – تَعَالَى – : (وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ) (25 : 72) وَقَوْلِهِ : (إنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ)

(16 : 105) وَبِمَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَغَيْرُهُمَا مِنْ حَدِيثِ أَبِي بَكْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ –

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ وَكَانَ مُتَّكِئًا (أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ ؟ الْإِشْرَاكُ بِاللهِ وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ – ثُمَّ قَعَدَ فَقَالَ – أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ وَشَهَادَةُ الزُّورِ ، فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّى قُلْنَا لَيْتَهُ سَكَتَ) . وَبِمَا رَوَيَاهُ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ مَرْفُوعًا أَيْضًا (آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ ، إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ) ، وَفِي رِوَايَةٍ لِغَيْرِهِمَا : (ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ فَهُوَ مُنَافِقٌ وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى وَحَجَّ وَاعْتَمَرَ وَقَالَ إِنَّهُ مُسْلِمٌ) ، وَذَكَرَهُنَّ .

بَلَى إِنَّهُ عَالِمٌ بِكُلِّ ذَلِكَ وَلَكِنَّهُ التَّأْوِيلُ أَفْسَدَ عَلَى كُلِّ أَهْلِ دِينٍ دِينَهُمْ .

(413/61)

أَقُولُ : أَشَارَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ إِلَى مَا كَانَ مِنْ إِقْدَامِ هَذَا الْعَالِمِ الْعَابِدِ عَلَى شَهَادَةِ الزُّورِ وَاسْتِحْلَالِهَا بِتِلْكَ الْحِيلَةِ السَّخِيفَةِ ، وَذَكَرَ أَمْثِلَةً أُخْرَى ، وَقَدْ تَذَكَّرْتُ عِنْدَ كِتَابَةِ الْحَدِيثِ فِي الْمُنَافِقِينَ أَنَّ بَعْضَ شُيُوخِ الْأَزْهَرِ الْمَعْرُوفِينَ كَانَ وَعَدَنِي وَعْدًا وَأَخْلَفَ ، فَسَأَلْتُهُ بِهِ فَقَالَ : إِنَّ فُقَهَاءَنَا الْحَنَفِيَّةَ قَالُوا بِأَنَّ الْوَفَاءَ بِالْوَعْدِ غَيْرُ وَاجِبٍ ، فَقُلْتُ وَقَدْ تَمَيَّزْتُ مِنَ الْغَيْظِ : إِنَّ مَنْ يَقُولُ هَذَا الْقَوْلَ بَعْدَ مَا وَرَدَ مِنَ النُّصُوصِ الصَّرِيحَةِ فِي الْوَفَاءِ وَفِي الْوَعِيدِ عَلَى تَرْكِهِ فَهُوَ مُخْطِئٌ ، وَقَوْلُهُ مَرْدُودٌ كَمَا وَرَدَ فِي الصَّحِيحِ (بَلْ قُلْتُ أَكْثَرَ مِنْ هَذَا) وَإِنَّنِي أُبَرِّئُ الْأَئِمَّةَ مِنَ الْقَوْلِ بِحِلِّ إِخْلَافِ الْوَعْدِ مِنْ غَيْرِ عُذْرٍ صَحِيحٍ ، وَلَكِنَّنِي أَعْذُرُ الْفُقَهَاءَ إِذَا قَالُوا بِأَنَّهُ

لَيْسَ لِلْقَاضِي أَنْ يَحْكُمَ عَلَى مَنْ وَعَدَ بِالْوَفَاءِ وَيُلْزِمَهُ ذَلِكَ إِلْزَامًا ، وَلَا أَعْذِرُ مَنْ يَقُولُ : إِنَّ الْوَفَاءَ مُسْتَحَبٌّ وَتَرْكُهُ جَائِزٌ ، وَإِنْ كَانَ هُوَ الْمَعْرُوفَ فِي أَكْثَرِ كُتُبِ الْفِقْهِ الْمُتَدَاوَلَةِ .

(414/61)

وَلَقَدْ صَارَ الْعَالَمُ الْمُسْلِمُ عَاجِزًا فِي أَكْبَرِ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ عَنْ إِنْكَارِ مَا يُخَالِفُ هَدْيَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِنْ كُتُبِ الْمَيِّتِينَ وَلَا سِيَّمَا إِذَا اشْتَهَرُوا بِاخْتِيَارِ كُتُبِهِمْ لِلتَّدْرِيسِ ، وَحُجَّةُ هَؤُلَاءِ الْمُقَلِّدِينَ عَلَى نَصْرِ كُتُبِ الْمَيِّتِينَ وَتَرْجِيحِهَا عَلَى كِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ هِيَ أَنَّ الْقَادِرِينَ عَلَى الْاهْتِدَاءِ بِهِمَا قَدِ انْقَرَضُوا ، فَوَجَبَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ تَرْكُ الْعَمَلِ بِهِمَا ، وَالْاعْتِمَادُ عَلَى كُتُبِ الْعُلَمَاءِ الْمُتَأَخِّرِينَ الَّذِينَ اسْتَنْبَطُوا مِنْ قَوَاعِدِ أَئِمَّتِهِمْ جَمِيعَ مَسَائِلِ الدِّينِ ، فَعَلَيْنَا أَنْ نَأْخُذَ بِكُلِّ مَا قَالُوا ، وَأَلَّا نَنْظُرَ فِي الْكِتَابِ إِلَّا لِلتَّبَرُّكِ بِهِمَا ، فَإِنْ رَأَيْنَا خِلَافًا بَيْنَ قَوْلِ اللهِ وَرَسُولِهِ وَقَوْلِ الْفَقِيهِ لَا يَحْتَمِلُ التَّأْوِيلَ ، فَعَلَيْنَا أَنْ نَتَّهِمَ عُقُولَنَا وَأَفْهَامَنَا ، وَنُنَزِّهَ فَهْمَ الْفَقِيهِ الْمَيِّتِ وَعَقْلَهُ ، وَنَعْمَلَ بِقَوْلِهِ مُكَابِرِينَ

أَنْفُسَنَا الَّتِي سُجِّلَ عَلَيْهَا الْحِرْمَانُ مِنْ فَهْمِ الْكِتَابِ الْمُبِينِ وَالسُّنَّةِ الْبَيْضَاءِ الَّتِي وَصَفَهَا صَاحِبُهَا بِأَنَّ لَيْلَهَا كَنَهَارِهَا أَيْ لَا يَشْتَبِهُ فِيهَا أَحَدٌ ! ! ! هَذَا مَا عَلَيْهِ جَمَاهِيرُ الْمُسْلِمِينَ ، وَلَمْ يَبْعُدْ مَنْ قَبْلَهُمْ عَنْ كِتَابِ رَبِّهِمْ أَشَدَّ مِنْ هَذَا الْبُعْدِ ، وَسَيَعُودُونَ إِلَيْهِ بَعْدَ حِينٍ ، فَقَدْ

أَخَذَهُمُ الْعَذَابُ عَلَى تَرْكِهِ (وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ) (30 : 47) . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ تفسير المنار حـ 1 صـ 329. 336 ﴾

(415/61)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ . . . الآية (102) ﴾

يخبرنا الحق تبارك وتعالى أن فريقا من اليهود نبذوا كتاب الله واتبعوا ما تتلوا الشياطين . . لأن النبذ يقابله الاتباع . . واتبعوا يعني اقتدوا وجعلوا طريقهم في الاهتداء هو ما تتوله الشياطين على ملك سليمان . . وكان السياق يقتضي أن يقال ما تلته الشياطين على ملك سليمان . . ولكن الله سبحانه وتعالى يريدنا أن نفهم أن هذا الاتباع مستمر حتى الآن كأنهم لم يحددوا المسألة بزمن معين .

إنه حتى هذه اللحظة هناك من اليهود من يتبع ما تلته الشياطين على ملك سليمان ، ونظرا

لأن المعاصرين من اليهود قد رضوا وأخذوا من فعل أسلافهم الذين اتبعوا الشياطين فكأنهم فعلوا . الحق سبحانه يقول : " واتبعوا ما تتلو الشياطين" ولكن الشياطين تلت وانتهت . . واستحضار اليهود لما كانت تتلوه الشياطين حتى الآن دليل على أنهم يؤمنون به ويصدقونه . . الشياطين هم العصاة من الجن . . والجن فيهم العاصون والطائعون والمؤمنون . . واقرأ قوله تعالى :

وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا (11) (سورة الجن)

(416/61)

وقوله سبحانه عن الجن :

وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ (من الآية 14 سورة الجن)

إذن الجن فيهم المؤمن والكافر . . المؤمنون من الجن فيهم الطائع والعاصي . . والشياطين هم مردة الجن المتمردون على منهج الله . . وكل متمرد على منهج الله نسميه شيطانا . . سواء كان من الجن أو من الإنس . . ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا (من الآية 112 سورة الأنعام)

إذن فالشياطين هم المتمردون على منهج الله . . قوله تعالى : " واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان " . . يعني ما كانت تتلو الشياطين أيام ملك سليمان . . ولكن ما هي قصة ملك سليمان والشياطين ؟ . . الشياطين كانوا قبل مجيء رسول الله صلى الله عليه وسلم كان الله قد مكنهم من قدرة الاستماع إلي أوامر السماء وهي نازلة إلي الأرض . . وكانوا يستمعون للأوامر تلقى من الملائكة وينقلونها إلي أئمة الكفر ويزيدون عليها بعض الأكاذيب والخرافات . . فبعضها يكون على حق والأكثر على باطل . . ولذلك قال الله تبارك وتعالى :

وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ (من الآية 121 سورة الأنعام)

وكان الشياطين قبل نزول القرآن يسترقون السمع ، ولكن عند بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم امتنع ذلك كله ، حتى لا يضع الشياطين خرافاتهم في منهج رسول الله صلى الله عليه وسلم أو في القرآن . . ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى :

وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا (9) (سورة الجن)

أي أن الشياطين كانت لها مقاعد في السماء تقعد فيها لتستمع إلي ما ينزل من السماء إلي الأرض ليتم تنفيذه . . ولكن عند نزول القرآن أرسل الله سبحانه وتعالى الشهب. وهي النجوم المحترقة. فعندما تحاول الشياطين الاستماع إلي ما ينزل من السماء ينزل عليهم شهاب يحرقهم . . ولذلك فإن عامة الناس حين يرون شهابا يحترق في السماء بسرعة يقولون : سهم الله في عدو الدين . . الذي هو الشيطان .

واقرأ قوله تبارك وتعالى :

وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً (8) (سورة الجن)

وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً (10) (سورة الجن)

أي أن الأمر اختلط على الشياطين لأنهم لم يعودوا يستطيعون استراق السمع . . ولذلك لم يعرفوا هل الذي ينزل من السماء خير أم شر ؟ . . انظر إلي دقة الأداء القرآني في قوله تعالى : " وأنا لمسنا السماء " . . كأنهم صعدوا حتى بلغوا السماء لدرجة أنها أصبحت قريبة لهم حتى كادوا يلمسونها . . فالله تبارك وتعالى في هذه الحالة. وهي اتباع اليهود لما تتلو الشياطين على ملك سليمان من السحر والتعاويذ والأشياء التي تضر ولا تفيد. أراد أن يبرئ سليمان من هذا كله . . فقال جل جلاله : " وما كفر سليمان " . . وكان المنطق يقتضي أن يقص الله سبحانه وتعالى حكاية الشياطين قبل أن يبرئ سليمان من الكفر الذي

أرادوا أن ينشروه . . ولكن الله أراد أن ينفي تهمة الكفر عن سليمان ويثبتها لكل من اتبع الشياطين فقال جل جلاله : " وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا " .

(418/61)

إذن الشياطين هم الذين نشروا الكفر . . وكيف كفر الشياطين وبماذا أغروا أتباعهم بالكفر ؟ . . يقول الله سبحانه وتعالى : " وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ " .

ما قصة كل هذا ؟ . . اليهود نبذوا عهد الله واتبعوا ما تتلوا الشياطين أيام سليمان ، وأرادوا أن ينسبوا كل شيء في عهد سليمان على أنه سحر وعمل شياطين ، وهكذا أراد اليهود أن يوهموا الناس أن منهج سليمان هو من السحر ومن الشياطين . والحق سبحانه وتعالى أراد أن يبرئ سليمان من هذه الكذبة . . سليمان عليه السلام حين جاءته النبوة طلب من الله سبحانه وتعالى أن يعطيه ملكا لا يعطيه لأحد من بعده . . واقرأ قوله تعالى : قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لاَّ يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ (35) فَسَخَّرْنَا

لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ(36) وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ(37) وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ(38) (سورة ص)

(419/61)

وهكذا أعطى سليمان الملك على الإنس والجن ومخلوقات الله كالريح والطير وغير ذلك . . حين أخذ سليمان الملك كان الشياطين يملأون الأرض كفراً بالسحر وكتبه . فأخذ سليمان كل كتب السحر وقيل أنه دفنها تحت عرشه . . وحين مات سليمان وعثرت الشياطين على مخبأ كتب السحر أخرجتها وأذاعتها بين الناس . . وقال أولياؤهم من أحبار اليهود إن هذه الكتب من السحر هي التي كان سليمان يسيطر بها على الإنس والجن ، وإنها كانت منهجه ، وأشاعوها بين الناس . . فأراد الله سبحانه وتعالى أن يبرئ سليمان من هذه التهمة ومن أنه حكم بالسحر ونشر الكفر . . قال جل جلاله : " وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر " .

ما هو السحر ؟ الكلمة مشتقة من سحر وهو آخر ساعات الليل وأول طلوع النهار . . حيث يختلط الظلام بالضوء ويصبح كل شيء غير واضح . . هكذا السحر شيء يخيل إليك أنه واقع وهو ليس بواقع . . إنه قائم على شيئين . . سحر العين لترى ما ليس واقعا

على أنه حقيقة . . ولكنه لا يغير طبيعة الأشياء . . ولذلك قال الله تبارك وتعالى في سحرة فرعون :

سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (من الآية 116 سورة الأعراف)

إذن فالساحر يسيطر على عين المسحور ليرى ما ليس واقعا وما ليس حقيقة . . وتصبح عين المسحور خاضعة لإرادة الساحر . . ولذلك فالسحر تخيل وليس حقيقة . . واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى (66)

(سورة طه)

إذن ما دام الله سبحانه وتعالى قال : "يخيل إليه" . . فهي لا تسعى . . إذن فالسحر تخيل . . وما الدليل على أن السحر تخيل ؟ . . الدليل هو المواجهة التي حدثت بين موسى وسحرة فرعون . . ذلك أن الساحر يسحر أعين الناس ولكن عينيه لا يسحرهما أحد . . حينما جاء السحرة وموسى . . اقرأ قوله سبحانه :

قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى(65) قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى(66)

(سورة طه)

عندما ألقى السحرة حبالهم وعصيهم خيل للموجودين إنها حيات تسعى . . ولكن هل خيل للسحرة إنها حيات ؟ طبعا لا . . لأن أحدا لم يسحر أعين السحرة . . ولذلك ظل ما ألقوه في أعينهم حبالا وعصيا . . حين ألقى موسى عصاه واقرأ قوله تبارك وتعالى :

وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى(69) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى(70)

(سورة طه)

هنا تظهر حقيقة السحر . . لماذا سجد السحرة ؟ لأن حبالهم وعصيهم ظلت كما هي حبالا وعصيا . . ذلك أن أحدا لم يسحر أعينهم . . ولكن عندما ألقى موسى عصاه تحولت إلي حية حقيقية . . فعرفوا أن هذا ليس سحرا ولكنها معجزة من الله سبحانه وتعالى . . لماذا ؟ لأن السحر لا يغير طبيعة الأشياء ، وهم تأكدوا أن عصا موسى قد تحولت إلي حية . . ولكن حبالهم وعصيهم ظلت كما هي وإن كان قد خيل إلي الناس أنها تحولت إلي حية . إذن فالسحر تخيل والساحر يرى الشيء على حقيقته لذلك فإنه لا يخاف . . بينما المسحورون الذين هم الناس يتخيلون أن الشيء قد تغيرت طبيعته . .

ولذلك سجد السحرة لأنهم عرفوا أن معجزة موسى ليست سحرا . . ولكنها شيء فوق طاقة البشر .

(421/61)

السحر إذن تخيل والشياطين لهم قدرة التشكل بأي صورة من الصور ، ونحن لا نستطيع أن ندرك الشيطان على صورته الحقيقية ، ولكنه إذا تشكل نستطيع أن نراه في صورة مادية . . فإذا تشكل في صورة إنسان رأيناه إنسانا ، وإذا تشكل في صورة حيوان رأيناه حيوانا ، وفي هذه الحالة تحكمه الصورة . . فإذا تشكل كإنسان وأطلقت عليه الرصاص مات ، وإذا تشكل في صورة حيوان ودهمته بسيارتك مات ، ذلك لأنه الصورة تحكمه بقانونها . . وهذا هو السر في إنه لا يبقى في تشكله إلا لمحة ثم يختفي في ثوان . . فلماذا ؟ لأنه يخشى ممن يراه في هذه الصورة أن يقتله خصوصا أن قانون التشكل يحكمه . . ولذلك فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين تشكل له الشيطان في صورة إنسان قال : ﴿ ولقد هممت أن أربطه في سارية المسجد ليتفرج عليه صبيان المدينة ولكني تذكرت قول أخي سليمان : " رب هب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي " . فتركته)

ومن رحمة الله بنا أنه إذا تشكل الشيطان فإن الصورة تحكمه . . وإلا لكانوا فزعونا

وجعلونا حياتنا جحيما . . فالله سبحانه وتعالى جعل الكون يقوم على التوازن حتى لا يطغى أحد على أحد . . بمعنى أننا لو كنا في قرية وكلنا لا نملك سلاحا وجد التوازن . . فإذا ملك أحدنا سلاحا وادعى أنه يفعل ذلك ليدافع عن أهل القرية ، ثم بعد ذلك استغل السلاح ليسيطر على أهل القرية ويفرض عليهم إتاوات وغير ذلك ، يكون التوازن قد اختل وهذا مالا يقبله الله .

(422/61)

السحر يؤدي لاختلال التوازن في الكون . . لأن الساحر يستعين بقوة أعلى في عنصرها من الإنسان وهو الشيطان وهو مخلوق من نار خفيف الحركة قادر على التشكل وغير ذلك . . الإنسان عندما يطلب ويتعلم كيف يسخر الجن . . يدعي أنه يفعل ذلك لينشر الخير في الكون ، ولكنها ليست حقيقة . . لأن هذا يغريه على الطغيان . . والذي يخل بأمن العالم هو عدم التكافؤ بين الناس . . إنسان يستطيع أن يطغى فإذا لم يقف أمامه المجتمع كله اختل التوازن في المجتمع . والله سبحانه وتعالى يريد تكافؤ الفرص ليحفظ أمن وسلامة الكون . . ولذلك يقول لنا لا تطغو وتستعينوا بالشياطين في الطغيان حتى لا تفسدوا أمن الكون . ولكن الله جل جلاله شاءت حكمته أن يضع في الكون ما يجعل كل مخلوق لا يغتر بذاتيته

. . ولا يحسب أنه هو الذي حقق لنفسه العلو في الأرض . . ولقد كانت معصية إبليس في أنه رفض أن يسجد لآدم . إنه قال :

قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (من الآية 12 سورة الأعراف)

(423/61)

إذن فقد أخذ عنصر الخلق ليدخل الكبر إلي نفسه فيعصي ، ولذلك أراد الله سبحانه وتعالى أن يعلم البشر من القوانين ، ما يجعل هذا الأعلى في العنصر . وهو الشيطان . يخضع للأدنى وهو الإنسان ، حتى يعرف كل خلق الله أنه إن ميزهم الله في عنصر من العناصر ، فإن هذا ليس بإرادتهم ولا ميزة لهم . . ولكنه بمشيئة الله سبحانه وتعالى . . فأرسل الملكين ببابل هاروت وماروت ليعلما الناس السحر الذي يخضع الأعلى عنصراً للأدنى . واقرأ قوله سبحانه : " وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر " . . فالله تبارك وتعالى أرسل الملكين هاروت وماروت ليعلما الناس السحر . . ولقد رويت عن هذه الملكين قصص كثيرة . . ولكن مادام الله سبحانه وتعالى قد أرسل ملكين ليعلما الناس السحر . . فمعنى ذلك أن السحر علم يستعين فيه الإنسان بالشياطين

. . وقيل إن الملائكة قالوا عن خلق آدم كما يروي لنا القرآن الكريم :

قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ

(من الآية 30 سورة البقرة)

(424/61)

حينئذ طلب الحق جل جلاله من الملائكة . . أن يختاروا ملكين ليهبطا إلي الأرض لينظروا ماذا يفعلان ؟ فاختاروا هاروت وماروت . . وعندما نزلا إلي الأرض فتنتهما امرأة فارتكبا الكبائر . هذه القصة برغم وجودها في بعض كتب التفسير ليست صحيحة . . لأن الملائكة بحكم خلقهم لا يعصون الله . . ولأنه من تمام الإيمان أن يؤدي المخلوق كل ما كلف به من الله جل جلاله . . وهذان الملكان كلفا بأن يعلما الناس السحر . . وأن يحذر بأن السحر فتنة تؤدي إلي الكفر وقد فعلا ذلك والفتنة هي الامتحان . . ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى : " وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله" . . إذن فهذان الملكان حذرا الناس من أن ما يعلمانه من السحر فتنة تؤدي إلي الكفر . . وإنها لا تنفع إلا في الشر وفي التفريق بين الزوج وزوجه . . وإن ضررها لا يقع إلا بإذن الله . . فليس هناك

أي قوى في هذا الكون خارجة عن مشيئة الله سبحانه وتعالى . .

ثم يأتي قول الحق تبارك وتعالى : " ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون" . . أن الله سبحانه وتعالى يخبرنا أن تعلم السحر يضر ولا ينفع . . فهو لا يجلب نفعا أبدا حتى لمن يشتغل به . . فتجد من يشتغل بالسحر يعتمد في رزقه على غيره من البشر فهم افضل منه . . وهو يظل طوال اليوم يبحث عن إنسان يغريه بأنه يستطيع أن يفعل له أشياء ليأخذ منه مالا ، وتجد شكله غير طبيعي وحياته غير مستقرة وأولاده منحرفين . وكل من يعمل بالسحر يموت فقيرا لا يملك شيئا وتصيبه الأمراض المستعصية ، ويصبح عبرة في آخر حياته .

(425/61)

إذن فالسحر لا يأتي إلا بالضرر ثم بالفقر ثم بلعنة الله في آخر حياة الساحر . . والذي يشتغل بالسحر يموت كافرا ولا يكون له في الآخرة إلا النار . . ولذلك قد اشتروا أنفسهم بأسوأ الأشياء لو كانوا يعلمون ذلك . . لأنهم لم يأخذوا شيئا إلا الضر . . ولم يفعلوا شيئا إلا التفريق بين الناس . . وهم لا يستطيعون أن يضروا أحدا إلا بإذن الله . والله سبحانه وتعالى إلّا كانت حكمته قد اقتضت أن يكون السحر من فتن الدنيا وابتلاءاتها . . فإنه

سبحانه قد حكم على كل من يعمل بالسحر بأنه كافر . . ولذلك لا يجب أن يتعلم الإنسان السحر أو يقرأ عنه . . لأنه وقت تعلمه قد يقول سأفعل الخير ثم يستخدمه في الشر . . كما أن الشياطين التي يستعين بها الساحر غالبا ما تنقلب عليه لتذيقه وبال أمره وتكون شرا عليه وعلى أولاده . . واقرأ قوله سبحانه وتعالى :

وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا (6)

(سورة الجن)

أي أن الذي يستعين بالجن ينقلب عليه ويذيقه ألوانا من العذاب . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ 488. 496 ﴾

(426/61)

" فصل "

قال السيوطى :

أخرج سفيان بن عينية وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه عن ابن عباس قال : إن الشياطين كانوا يسترقون السمع من السماء ، فإذا سمع أحدهم بكلمة حق كذب عليها ألف كذبة فاشربتها قلوب الناس واتخذوها دواوين ،

فاطلع الله على ذلك سليمان بن داود فأخذها فقذفها تحت الكرسي ، فلما مات سليمان قام شيطان بالطريق فقال : ألا أدلكم على كنز سليمان الذي لا كنز لأحد مثل كنزه الممنع ؟ قالوا : نعم . فأخرجوه فإذا هو سحر فتناسختها الأمم ، وأنزل الله عذر سليمان فيما قالوا من السحر فقال ﴿ واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان . . . ﴾ الآية .

وأخرج النسائي وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : كان آصف كاتب سليمان وكان يعلم الاسم الأعظم ، وكان يكتب كل شيء بأمر سليمان ويدفنه تحت كرسيه ، فلما مات سليمان أخرجته الشياطين فكتبوا بين كل سطرين سحراً وكفراً ، وقالوا : هذا الذي كان سليمان يعمل به ، فأكفره جهال الناس وسبوه ، ووقف علماؤهم فلم يزل جهالهم يسبونه حتى أنزل الله على محمد ﴿ واتبعوا ما تتلوا الشياطين ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : لما ذهب ملك سليمان ارتد فئام من الجن والإِنس واتبعوا الشهوات ، فلما رجع إلى سليمان ملكه وقام الناس على الدين ، ظهر على كتبهم فدفنها تحت كرسيه ، وتوفي حدثان ذلك ، فظهر الجن والإِنس على الكتب بعد وفاة سليمان ، وقالوا : هذا كتاب من الله نزل على سليمان أخفاه عنا ، فأخذوه فجعلوه ديناً ، فأنزل الله ﴿ واتبعوا ما تتلوا الشياطين ﴾ أي الشهوات التي كانت الشياطين تتلو ، وهي المعازف واللعب وكل شيء يصد عن ذكر الله .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : كان سليمان إذا أراد أن يدخل الخلاء أو يأتي شيئاً من شأنه ، أعطى الجرادة وهي امرأته خاتمه ، فلما أراد الله أن يبتلي سليمان بالذي ابتلاه به أعطى الجرادة ذلك اليوم خاتمه ، فجاء الشيطان في صورة سليمان فقال لها : هاتي خاتمي . فأخذه فلبسه ، فلما لبسه دانت له الشياطين والجن والإنس ، فجاءها سليمان فقال : هاتي خاتمي . فقالت : كذبت لست سليمان . فعرف أنه بلاء ابتلي به ، فانطلقت الشياطين فكتبت في تلك الأيام كتباً فيها سحر وكفر ، ثم دفنوها تحت كرسي سليمان ، ثم أخرجوها فقرأوها على الناس وقالوا : إنما كان سليمان يغلب الناس بهذه الكتب ، فبرىء الناس من سليمان وأكفروه حتى بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم ، وأنزل عليه ﴿ وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا ﴾ .

وأخرج ابن جرير عن شهر بن حوشب قال : قال اليهود : انظروا إلى محمد يخلط الحق بالباطل ، يذكر سليمان مع الأنبياء إنما كان ساحراً يركب الريح ، فأنزل الله ﴿ واتبعوا ما تتلوا الشياطين . . ﴾ الآية .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي العالية قال : إن اليهود سألوا النبي صلى الله عليه وسلم زماناً عن أمور من التوراة لا يسألونه عن شيء من ذلك إلا أنزل الله عليه ما سألوا عنه

فيخصمهم ، فلما رأوا ذلك قالوا هذا أعلم بما أنزل علينا منا ، وإنهم سألوه عن السحر وخاصموه به ، فأنزل الله ﴿ واتبعوا ما تتلوا الشياطين . . . ﴾ الآية . وإن الشياطين عمدوا إلى كتاب فكتبوا فيه السحر والكهانة وما شاء الله من ذلك ، فدفنوه تحت مجلس سليمان ، وكان سليمان لا يعلم الغيب ، فلما فارق سليمان الدنيا استخرجوا ذلك السحر وخدعوا به الناس ، وقالوا : هذا علم كان سليمان يكتمه ويحسد الناس عليه ، فأخبرهم النبي صلى الله عليه وسلم بهذا الحديث ، فرجعوا من عنده وقد حزنوا وأدحض الله حجتهم .

(428/61)

وأخرج سعيد بن منصور عن خصيف قال : كان سليمان إذا نبتت الشجرة قال : لأي داء أنت ؟ فتقول : لكذا وكذا . فلما نبتت الشجرة الخرنوبة قال : لأي شيء أنت ؟ قالت : لمسجدك أخربه . فلم يلبث أن توفي ، فكتب الشياطين كتاباً فجعلوه في مصلى سليمان ، فقالوا : نحن ندلكم على ما كان سليمان يداوي به ، فانطلقوا فاستخرجوا ذلك الكتاب ، فإذا فيه سحر ورقى ، فأنزل الله ﴿ واتبعوا ما تتلوا الشياطين ﴾ إلى قوله ﴿ وما أنزل على الملكين ﴾ وذكر أنها في قراءة أبي (وما يتلى على الملكين ببابل هاروت وماروت وما

يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر) سبع مرار ، فإن أبى إلا أن يكفر علماه فيخرج منه نور حتى يسطع في السماء قال : المعرفة التي كان يعرف .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن أبي مجلز قال : أخذ سليمان من كل دابة عهداً ، فإذا أصيب رجل فيسأل بذلك العهد خلي عنه ، فرأى الناس بذلك السجع والسحر وقالوا : هذا كان يعمل به سليمان . فقال الله ﴿ وما كفر سليمان ﴾ الآية .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله ﴿ ما تتلوا ﴾ قال : ما تتبع .

وأخرج ابن جرير عن عطاء في قوله ﴿ ما تتلوا الشياطين ﴾ قال : يراد ما تحدث .

وأخرج ابن جرير عن ابن جريج في قوله ﴿ على ملك سليمان ﴾ يقول : في ملك سليمان .

وأخرج ابن جرير عن قتادة في قوله ﴿ وما كفر سليمان ﴾ يقول : ما كان عن مشورته ولا رضا منه ولكنه شيء افتعلته الشياطين دونه ﴿ يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ﴾ فالسحر سحران ، سحر تعلمه الشياطين ، وسحر يعلمه هاروت وماروت .

وأخرج ابن جرير عن السدي في قوله ﴿ وما أنزل على الملكين ﴾ قال : هذا سحر آخر خاصموه به ، فإن كلام الملائكة فيما بينهم إذا علمته الإنس فصنع وعمل به كان سحراً .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد قال : أما السحر فإنما يعلمه الشياطين ، وأما الذي يعلمه الملكان فالتفريق بين المرء وزوجه .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ وما أنزل على الملكين ﴾ قال : التفرقة بين المرء وزوجه .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ وما أنزل على الملكين ﴾ قال : لم ينزل الله السحر .

وأخرج ابن أبي حاتم عن علي في الآية قال : هما ملكان من ملائكة السماء .

وأخرج ابن مردويه من وجه آخر عنه مرفوعاً .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عبد الرحمن بن أبزى . إنه كان يقرأها (وما أنزل على الملكين داود وسليمان) .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك . أنه قرأ ﴿ وما أنزل على الملكين ﴾ وقال : هما علجان من أهل بابل .

وأخرج البخاري في تاريخه وابن المنذر عن ابن عباس ﴿ وما أنزل على الملكين ﴾ يعني جبريل وميكائيل ﴿ ببابل هاروت وماروت ﴾ يعلمان الناس السحر .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عطية ﴿ وما أنزل على الملكين ﴾ قال : ما أنزل على جبريل وميكائيل السحر .

وأما قوله تعالى : ﴿ ببابل ﴾ .

أخرج أبو داود وابن أبي حاتم والبيهقي في سننه عن علي قال " إن حبيبي صلى الله عليه وسلم نهاني أن أصلي بأرض بابل ، فإنها ملعونة " .

(430/61)

وأخرج الدينوري في المجالسة وابن عساكر من طريق نعيم بن سالم – وهو متهم – عن أنس بن مالك قال : لما حشر الله الخلائق إلى بابل بعث إليهم ريحاً شرقية وغربية وقبلية وبحرية فجمعتهم إلى بابل ، فاجتمعوا يومئذ ينظرون لما حشروا له ، إذ نادى مناد : من جعل المغرب عن يمينه والمشرق عن يساره ، واقتصد إلى البيت الحرام بوجهه فله كلام أهل السماء . فقام يعرب بن قحطان فقيل له : يا يعرب بن قحطان بن هود أنت هو ، فكان أول من تكلم بالعربية ، فلم يزل المنادي ينادي : من فعل كذا وكذا فله كذا وكذا حتى افترقوا على اثنين وسبعين لساناً ، وانقطع الصوت وتبلبلت الألسن فسميت بابل ، وكان اللسان يومئذ بابلياً ، وهبطت ملائكة الخير والشر ، وملائكة الحياء والإيمان ، وملائكة الصحة والشفاء ، وملائكة الغنى ، وملائكة الشرف ، وملائكة المروءة ، وملائكة الجفاء ، وملائكة الجهل ، وملائكة السيف ، وملائكة البأس ، حتى انتهوا إلى العراق فقال بعضهم لبعض : افترقوا . فقال ملك الإيمان : أنا أسكن المدينة ومكة . فقال ملك الحياء : أنا

معك . وقال ملك الشفاء : أنا أسكن البادية . فقال ملك الصحة : وأنا معك . وقال ملك الجفاء : وأنا أسكن المغرب . فقال ملك الجهل . وأنا معك . وقال ملك السيف : أنا أسكن الشام . فقال ملك البأس : أنا معك . وقال ملك الغنى : أنا أقيم ههنا . فقال ملك المروءة : أنا معك . فقال ملك الشرف : وأنا معكما . فاجتمع ملك الغنى والمروءة والشرف بالعراق .

وأخرج ابن عساكر بسند فيه مجاهيل عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" إن الله عز وجل خلق أربعة أشياء وأردفها أربعة أشياء ، خلق الجدب وأردفه الزهد وأسكنه الحجاز ، وخلق العفة وأردفها الغفلة وأسكنها اليمن ، وخلق الرزق وأردفه الطاعون وأسكنه الشام ، وخلق الفجور وأردفه الدرهم وأسكنه العراق " .

(431/61)

وأخرج ابن عساكر عن سليمان بن يسار قال : كتب عمر بن الخطاب إلى كعب الأحبار أن اختر لي المنازل . فكتب إليه يا أمير المؤمنين إنه بلغنا أن الأشياء اجتمعت فقال السخاء : أريد اليمن . فقال حسن الخلق : أنا معك . وقال الجفاء : أريد الحجاز . فقال الفقر : أنا

معك . قال البأس : أريد الشام . فقال السيف : أنا معك . وقال العلم : أريد العراق . فقال العقل : أنا معك . وقال الغني : أريد مصر . فقال الذل : أنا معك . فاختر لنفسك يا أمير المؤمنين ، فلما ورد الكتاب على عمر قال : العراق إذن ، فالعراق إذن .

وأخرج ابن عساكر عن حكيم بن جابر قال : أخبرت أن الإِسلام قال : أنا لاحق بأرض الشام . قال الموت : وأنا معك . قال الملك : وأنا لاحق بأرض العراق . قال القتل : وأنا معك . قال الجوع : وأنا لاحق بأرض العرب . قالت الصحة : وأنا معك .

وأخرج ابن عساكر عن دغفل قال : قال المال : أنا أسكن العراق . فقال الغدر : أنا أسكن معك . وقالت الطاعة : أنا أسكن الشام . فقال الجفاء : أنا أسكن معك . وقالت المروءة : أنا أسكن الحجاز . فقال الفقر : وأنا أسكن معك .

وأما قوله تعالى : ﴿ هاروت وماروت ﴾ قد تقدم حديث ابن عمر في قصة آدم وبقيت آثار أخر .

(432/61)

أخرج سعيد وابن جرير والخطيب في تاريخه عن نافع قال : سافرت مع ابن عمر ، فلما كان من آخر الليل قال : يا نافع انظر هل طلعت الحمراء ؟ قلت : لا مرتين أو ثلاثاً ، ثم قلت : قد

طلعت . قال : لا مرحباً بها ولا أهلاً . قلت : سبحان الله . . . ! نجم مسخر سامع مطيع ؟ قال : ما قلت لك إلا ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " إن الملائكة قالت : يا رب كيف صبرك على بني آدم في الخطايا والذنوب ؟ قال : إني ابتليتهم وعافيتكم . قالوا : لو كنا مكانهم ما عصيناك . قال : فاختاروا ملكين منكم ، فلم يألوا جهداً أن يختاروا ، فاختاروا هاروت وماروت فنزلا ، فألقى الله عليهم الشبق . قلت : وما الشبق ؟ قال : الشهوة . فجاءت امرأة يقال لها الزهرة ، فوقعت في قلوبهما ، فجعل كل واحد منهما يخفي عن صاحبه ما في نفسه ، ثم قال أحدهما للآخر : هل وقع في نفسك ما وقع في قلبي ؟ قال : نعم ، فطلباها لأنفسهما فقالت : لا أمكنكما حتى تعلماني الاسم الذي تعرجان به إلى السماء وتهبطان فأبيا ، ثم سألاها أيضاً فأبت ففعلا ، فلما استطيرت طمسها الله كوكباً وقطع أجنحتهما ، ثم سألا التوبة من ربهما فخيرهما فقال : إن شئتما رددتكما إلى ما كنتما عليه فإذا كان يوم القيامة عذبتكما ، وإن شئتما عذبتكما في الدنيا فإذا كان يوم القيامة رددتكما إلى ما كنتما عليه . فقال أحدهما لصاحبه : إن عذاب الدنيا ينقطع ويزول ، فاختارا عذاب الدنيا على عذاب الآخرة . فأوحى الله إليهما : أن ائتيا بابل . فانطلقا إلى بابل ، فخسف بهما فهما منكوسان بين السماء والأرض معذبان إلى يوم القيامة " .

وأخرج سعيد بن منصور عن مجاهد قال : كنت مع ابن عمر في سفر فقال لي : ارمق الكوكب ، فإذا طلعت أيقظني ، فلما طلعت أيقظته فاستوى جالساً ، فجعل ينظر إليها ويسبها سباً شديداً ، فقلت : يرحمك الله أبا عبد الرحمن ، نجم ساطع مطيع ما له تسبه ؟ ! فقال : أما أن هذه كانت بغيا في بني إسرائيل ، فلقي الملكان منها ما لقيا .

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان من طريق موسى بن جبير عن موسى بن عقبة عن سالم عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " أشرفت الملائكة على الدنيا فرأت بني آدم يعصون فقالت : يا رب ما أجهل هؤلاء ! ما أقل معرفة هؤلاء بعظمتك ! فقال الله : لو كنت في مسالحهم لعصيتموني . قالوا : كيف يكون هذا ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟ قال : فاختاروا منكم ملكين ، فاختاروا هاروت وماروت ، ثم أهبطا إلى الأرض وركبت فيهما شهوات مثل بني آدم ، ومثلت لهما امرأة فما عصما حتى واقعا المعصية ، فقال الله : اختارا عذاب الدنيا أو عذاب الآخرة ، فنظر أحدهما إلى صاحبه قال : ما تقول فاختر ؟ قال : أقول أن عذاب الدنيا ينقطع وأن عذاب الآخرة لا ينقطع ، فاختارا عذاب الدنيا فهما اللذان ذكر الله في كتابه ﴿ وما أنزل على الملكين . . . ﴾ الآية " .

وأخرج إسحاق بن راهويه وعبد بن حميد وابن أبي الدنيا في العقوبات وابن جرير وأبو الشيخ في العظمة والحاكم وصححه عن علي بن أبي طالب قال : إن هذه الزهرة تسميها العرب الزهرة والعجم أناهيذ ، وكان الملكان يحكمان بين الناس ، فأتتهما فأرادها كل واحد عن غير علم صاحبه فقال أحدهما : يا أخي إن في نفسي بعض الأمر أريد أن أذكره لك . قال : اذكره لعل الذي في نفسي مثل الذي في نفسك ، فاتفقا على أمر في ذلك . فقالت لهما المرأة : ألا تخبراني بما تصعدان به إلى السماء وبما تهبطان به إلى الأرض ؟ فقالا : باسم الله الأعظم . قالت : ما أنا بمؤاتيتكما حتى تعلمانيه . فقال أحدهما لصاحبه : علمها إياه . فقال : كيف لنا بشدة عذاب الله ؟ قال الآخر : إنا نرجو سعة رحمة الله ، فعلمها إياه فتكلمت به فطارت إلى السماء ، ففزع ملك في السماء لصعودها فطأطأ رأسه فلم يجلس بعد ، ومسخها الله كوكبا .

وأخرج ابن راهويه وابن مردويه عن علي بن أبي طالب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لعن الله الزهرة فإنها هي التي فتنت الملكين هاروت وماروت " .

وأخرج عبد بن حميد والحاكم وصححه عن أبي العباس قال : كانت الزهرة امرأة في قومها

، يقال لها في قومها بيذخت .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن ابن عباس قال : إن المرأة التي فتن بها الملكان مسخت ، فهي هذه الكوكبة الحمراء يعني الزهرة .

(435/61)

وأخرج موحد بن عبد الرزاق وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن أبي الدنيا في كتاب العقوبات وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الإيمان من طريق الثوري عن موسى بن عقبة عن سالم عن ابن عمر عن كعب قال : ذكرت الملائكة أعمال بني آدم وما يأتون من الذنوب ، فقيل : لو كنتم مكانهم لأتيتم مثل الذي يأتون فاختاروا منكم اثنين ، فاختاروا هاروت وماروت فقيل لهما : إني أرسل إلى بني آدم رسلاً فليس بيني وبينكما رسول ، أنزلكما لا تُشركا بي شيئاً ، ولا تزنيا ، ولا تشربا الخمر ، قال كعب : فوالله ما أمسيا من يومهما الذي أهبطا فيه حتى استكملا جميع ما نهيا عنه .

وأخرج الحاكم وصححه من طريق سعيد بن جبير عن ابن عمر . أنه كان يقول : أطلعت الحمراء بعد فإذا رآها قال : لا مرحبا . ثم قال : إن ملكين من الملائكة هاروت وماروت سألا الله أن يهبطا إلى الأرض ، فأهبطا إلى الأرض فكانا يقضيان بين الناس ، فإذا أمسيا

تكلما بكلمات فعرجا بها إلى السماء ، فقيض الله لهما امرأة من أحسن الناس وألقيت عليهما الشهوة ، فجعلا يؤخرانها وألقيت في أنفسهما ، فلم يزالا يفعلان حتى وعدتهما ميعاداً فأتتهما للميعاد فقالت : كلماني الكلمة التي تعرجان بها فعلماها الكلمة ، فتكلمت بها فعرجت إلى السماء فمسخت فجعلت كما ترون ، فلما أمسيا تكلما بالكلمة فلم يعرجا ، فبعث إليهما إن شئتما فعذاب الآخرة وإن شئتما فعذاب الدنيا إلى أن تقوم الساعة . فقال أحدهما لصاحبه : بل نختار عذاب الدنيا ألف ألف ضعف ، فهما يعذبان إلى يوم القيامة .

(436/61)

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد قال : كنت نازلاً على عبد الله بن عمر في سفر ، فلما كان ذات ليلة قال لغلامه : انظر طلعت الحمراء لا مرحباً بها ولا أهلاً ولا حياها الله هي صاحبة الملكين ، قالت الملائكة : كيف تدع عصاة بني آدم وهم يسفكون الدم الحرام ، وينتهكون محارمك ، ويفسدون في الأرض ؟ قال : إني قد ابتليتهم فلعل إن ابتليتكم بمثل الذي ابتليتهم به فعلتم كالذي يفعلون . قالوا : لا . قال : فاختاروا من خياركم اثنين . فاختاروا هاروت وماروت ، فقال لهما : إني مهبطكما إلى الأرض ، ومعاهد إليكما أن لا

تشركا ، ولا تزنيا ، ولا تخونا . فأهبطا إلى الأرض وألقى عليهما الشبق ، وأهبطت لهما الزهرة في أحسن صورة امرأة ، فتعرضت لهما فأراداها عن نفسها ، فقالت : إني على دين لا يصلح لأحد أن يأتيني إلا من كان على مثله .

قالا : وما دينك ؟ قالت : المجوسية . قالا : أنشرك ؟ هذا شيء لا نقربه . فمكثت عنهما ما شاء الله ، ثم تعرضت لهما فأراداها عن نفسها ، فقالت : ما شئتما غير أن لي زوجاً وأنا أكره أن يطلع على هذا مني فافتضح ، وإن أقررتما لي بديني وشرطتما أن تصعدا بي إلى السماء فعلت . فأقرا لها بدينها وأتياها فيما يريان ثم صعدا بها إلى السماء ، فلما انتهيا إلى السماء اختطفت منهما وقطعت أجنحتهما فوقعا خائفين نادمين يبكيان .

(437/61)

وفي الأرض نبي يدعو بين الجمعتين ، فإذا كان يوم الجمعة أجيب فقالا : لو أتينا فلاناً فسألناه يطلب لنا التوبة . فأتياه فقال : رحمكما الله كيف تطلب أهل الأرض لأهل السماء ؟ قالا : إنا ابتلينا . قال : ائتياني يوم الجمعة ، فأتياه فقال : ما أجبت فيكما بشيء ائتياني في الجمعة الثانية ، فأتياه فقال : اختارا فقد خيرتما إن أحببتما معافاة الدنيا وعذاب الآخرة ، وإن أحببتما فعذاب الدنيا وأنتما يوم القيامة على حكم الله . فقال أحدهما : الدنيا لم يمض منها

إلا القليل ، وقال الآخر : ويحك . . . ! إني قد أطعتك في الأول فأطعني الآن ، وإن عذاباً يفنى ليس كعذاب يبقى . قال : إننا يوم القيامة على حكم الله فأخاف أن يعذبنا . قال : لا إني أرجو أن علم الله أنا قد اخترنا عذاب الدنيا مخافة عذاب الآخرة لا يجمعهما الله علينا .

قال فاختارا عذاب الدنيا ، فجعلا في بكرات من حديد في قليب مملوءة من نار ، أعاليهما أسافلهما قال ابن كثير : إسناده جيد ، وهو أثبت وأصح إسناداً من رواية معاوية بن صالح عن نافع .

(438/61)

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس قال : لما وقع الناس من بني آدم فيما وقعوا فيه من المعاصي والكفر بالله ، قالت الملائكة في السماء : رب هذا العالم الذي إنما خلقتهم لعبادتك وطاعتك ، وقد وقعوا فيما وقعوا فيه ، وركبوا الكفر ، وقتل النفس ، وأكل مال الحرام ، والزنا ، والسرقة ، وشرب الخمر ، فجعلوا يدعون عليهم ولا يعذرونهم . فقيل : إنهم في غيب فلم يعذروهم . فقيل لهم : اختاروا منكم من أفضلكم ملكين آمرهما وأنهاهما ، فاختاروا هاروت وماروت

فأهبطا إلى الأرض ، وجعل لهما شهوات بني آدم ، وأمرهما أن يعبداه ولا يشركا به شيئاً ، ونهاهما عن قتل النفس الحرام ، وأكل مال الحرام ، وعن الزنا ، وشرب الخمر ، فلبثا في الأرض زماناً يحكمان بين الناس بالحق ، وذلك في زمان إدريس ، وفي ذلك الزمان امرأة حسنها في النساء كحسن الزهرة في سائر الكواكب ، وإنهما أتيا عليها فخضعا لها في القول ، وأراداها عن نفسها فأبت إلا أن يكونا على أمرها ودينها ، فسألاها عن دينها فأخرجت لهما صنماً ، فقالت : هذا أعبده . فقالا : لا حاجة لنا في عبادة هذا .

فذهبا فغبرا ما شاء الله ، ثم أتيا عليها فأراداها عن نفسها ، ففعلت مثل ذلك ، فذهبا ثم أتيا عليها فأراداها على نفسها ، فلما رأت أنهما أبيا أن يعبدا الصنم قالت لهما : اختارا أحد الخلال الثلاث .

(439/61)

إما أن تعبدا هذا الصنم ، وإما أن تقتلا هذا النفس ، وإما أن تشربا هذا الخمر ، فقالا : كل هذا لا ينبغي وأهون الثلاثة شرب الخمر . فأخذت منهما فواقعا المرأة ، فخشيا أن يخبر الإنسان عنهما فقتلاه ، فلما ذهب عنهما السكر وعلما ما وقعا فيه من الخطيئة أرادا أن يصعدا إلى السماء فلم يستطيعا ، وحيل بينهما وبين ذلك وكشف الغطاء فيما بينهما وبين

أهل السماء ، فنظرت الملائكة إلى ما وقعا فيه فعجبوا كل العجب ، وعرفوا أنه من كان في غيب فهو أقل خشية ، فجعلوا بعد ذلك يستغفرون لمن في الأرض ، فنزل في ذلك ﴿ والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض ﴾ [الشورى : 5] .

فقيل لهما : اختارا عذاب الدنيا أو عذاب الآخرة ؟ فقالا : أما عذاب الدنيا فإنه ينقطع ويذهب ، وأما عذاب الآخرة فلا انقطاع له ، فاختارا عذاب الدنيا فجعلا ببابل فهما يعذبان .

(440/61)

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : إن أهل سماء الدنيا أشرفوا على أهل الأرض فرأوهم يعملون بالمعاصي ، فقالوا : يا رب أهل الأرض يعملون بالمعاصي ! فقال الله : أنتم معي وهم غُيُبٌ عني . فقيل لهم : اختاروا منكم ثلاثة : فاختاروا منهم ثلاثة على أن يهبطوا إلى الأرض يحكمون بين أهل الأرض وجعل فيهم شهوة الآدميين ، فأمروا أن لا يشربوا خمراً ، ولا يقتلوا نفساً ، ولا يزنوا ، ولا يسجدوا لوثن . فاستقال منهم واحد فأقيل فاهبط اثنان إلى الأرض ، فأتتهما امرأة من أحسن الناس يقال لها أناهيلة فهوياها جميعاً ، ثم أتيا منزلها فاجتمعا عندها فأراداها ، فقالت لهما : لا حتى تشربا خمري ، وتقتلا ابن جاري

، وتسجدا لوثني . فقالا : لا نسجد . ثم شربا من الخمر ، ثم قتلا ، ثم سجدا ، فأشرف أهل السماء عليهما ، وقالت لهما : أخبراني بالكلمة التي إذا قلتماها طرتما ، فأخبراها فطارت فمسخت جمرة وهي هذه الزهرة ، وأما هما فأرسل إليهما سليمان بن داود ، فخيرهما بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ، فاختارا عذاب الدنيا ، فهما مناطان بين السماء والأرض .

وأخرج ابن جرير من طريق أبي عثمان النهدي عن ابن مسعود وابن عباس قالا : لما كثر بنو آدم وعصوا دعت الملائكة عليهم والأرض والجبال : ربنا لا تمهلهم . فأوحى الله إلى الملائكة : أني أزلت الشهوة والشيطان من قلوبكم ، ولو تركتكم لفعلتم أيضاً . قال : فحدثوا أنفسهم أن لو ابتلوا لعصموا ، فأوحى الله إليهم : أن اختاروا ملكين من أفضلكم . فاختاروا هاروت وماروت فأهبطا إلى الأرض ، وأنزلت الزهرة إليهما في صورة امرأة من أهل فارس يسمونها بيدخت . قال : فواقعاها بالخطيئة ، فكانت الملائكة يستغفرون للذين آمنوا ، فلما وقعا بالخطيئة استغفروا لمن في الأرض ، فخيرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ، فاختارا عذاب الدنيا .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر من طريق الزهري عن عبيد الله بن عبد الله في هذه الآية . كانا ملكين من الملائكة فاهبطا ليحكما بين الناس ، وذلك أن الملائكة سخروا من حكام بني آدم ، فحاكمت إليهما امرأة فخافا لها ، ثم ذهبا يصعدان فحيل بينهما وبين ذلك ، وخيرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ، فاختارا عذاب الدنيا .

وأخرج سعيد بن منصور عن خصيف قال : كنت مع مجاهد ، فمر بنا رجل من قريش فقال له مجاهد : حدثنا ما سمعت من أبيك ؟ قال : حدثني أبي : أن الملائكة حين جعلوا ينظرون إلى أعمال بني آدم وما يركبون من المعاصي الخبيثة وليس يستر الناس من الملائكة شيء ، فجعل بعضهم يقول لبعض : انظروا إلى بني آدم كيف يعملون كذا وكذا ما أجرأهم على الله ، يعيبونهم بذلك ! فقال الله لهم : لقد سمعت الذي تقولون في بني آدم ، فاختاروا منكم ملكين أهبطهما إلى الأرض ، واجعل فيهما شهوة بني آدم ، فاختاروا هاروت وماروت ، فقالوا : يا رب ليس فينا مثلهما . فأهبطا إلى الأرض ، وجعلت فيهما شهوة بني آدم ، ومثلت لهما الزهرة في صورة امرأة ، فلما نظرا إليها لم يتمالكا أن تناولا ما الله أعلم به ، وأخذت الشهوة بأسماعهما وأبصارهما ، فلما أرادا أن يطيرا إلى السماء لم يستطيعا ، فأتاهما ملك فقال : إنكما قد فعلتما ما فعلتما ، فاختارا عذاب الدنيا أو عذاب الآخرة . فقال أحدهما للآخر : ماذا ترى ؟ ! قال : أرى أن أعذب في الدنيا ثم أعذب أحبّ إليّ من أن أعذب ساعة واحدة في الآخرة ، فهما معلقان منكسان في السلاسل وجعلا فتنة .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : إن الله أفرج السماء إلى ملائكته ينظرون إلى أعمال بني آدم ، فلما أبصروهم يعملون بالخطايا قالوا : يا رب هؤلاء بنو آدم الذي خلقت بيدك ، وأسجدت له ملائكتك ، وعلمته أسماء كل شيء ، يعملون بالخطايا . قال : أما إنكم لو كنتم مكانهم لعملتم مثل أعمالهم . قالوا : سبحانك ما كان ينبغي لنا ، فأمِروا أن يختاروا من يهبط إلى الأرض ، فاختاروا هاروت وماروت وأهبطا إلى الأرض ، وأحل لهما ما فيها من شيء غير أنهما لا يشركا بالله شيئاً ، ولا يسرقا ، ولا يزنيا ، ولا يشربا الخمر ، ولا يقتلا النفس التي حرم الله إلا بالحق ، فعرض لهما امرأة قد قسم لها نصف الحسن يقال لها بيذخت ، فلما أبصراها أراداها قالت : لا ، إلا أن تشركا بالله ، وتشربا الخمر ، وتقتلا النفس ، وتسجدا لهذا الصنم . فقالا : ما كنا لنشرك بالله شيئاً ! فقال أحدهما للآخر : ارجع إليها . فقالت : لا ، إلا أن تشربا الخمر ، فشربا حتى ثملا ، ودخل عليهما سائل فقتلاه ، فلما وقعا فيما وقعا فيه أفرج الله السماء لملائكته ، فقالوا : سبحانك . . . ! أنت أعلم . فأوحى الله إلى سليمان بن داود أن يخيرهما بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ، فاختارا عذاب الدنيا ، فكبلا من أكعبهما إلى أعناقهما بمثل أعناق البخت ، وجعلا

بابل .

وأخرج ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " احذروا الدنيا فإنها أسحر من هاروت وماروت " .

وأخرج الخطيب في رواية مالك عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " قال أخي عيسى : معاشر الحواريين احذروا الدنيا لا تسحركم ، لهي والله أشد سحراً من هاروت وماروت ، واعلموا أن الدنيا مدبرة والآخرة مقبلة ، وإن لكل واحدة منهما بنين فكونوا من أبناء الآخرة دون بني الدنيا ، فإن اليوم عمل ولا حساب ، وغداً الحساب ولا عمل " .

(443/61)

وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول عن عبد الله بن بسر المازني قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " اتقوا الدنيا ، فوالذي نفسي بيده أنها لأسحر من هاروت وماروت " .

وأخرج ابن جرير عن الربيع قال : لما وقع الناس من بني آدم فيما وقعوا فيه من المعاصي والكفر بالله قالت الملائكة في السماء : أي رب هذا العالم إنما خلقتهم لعبادتك وطاعتك

وقد ركبوا الكفر ، وقتل النفس الحرام ، وأكل المال الحرام ، والسرقة ، والزنا ، وشرب الخمر ، فجعلوا يدعون عليهم ولا يعذرونهم . فقيل لهم : إنهم في غيب فلم يعذروهم ، فقيل لهم : اختاروا منكم ملكين آمرهما بأمري وأنهاهما عن معصيتي . فاختاروا هاروت وماروت ، فأهبطا إلى الأرض وجعل بهما شهوات بني إسرائيل ، وأمرا أن يعبدا الله وأن لا يشركا به شيئاً ، ونهيا عن قتل النفس الحرام ، وأكل المال الحرام ، والسرقة ، والزنا ، وشرب الخمر ، فلبثا على ذلك في الأرض زماناً يحكمان بين الناس بالحق وذلك في زمان إدريس .

وفي ذلك الزمان امرأة حسنها في سائر الناس كحسن الزهرة في سائر الكواكب ، وإنها أبت عليهما فخضعا لها بالقول وأراداها على نفسها ، وإنها أبت إلا أن يكونا على أمرها ودينها ، وإنهما سألاها عن دينها الذي هي عليه ، فأخرجت لهما صنماً فقالت : هذا أعبده . فقالا : لا حاجة لنا في عبادة هذا ، فذهبا فصبرا ما شاء الله ثم أتيا عليها ، فخضعا لها ما شاء الله بالقول وأراداها على نفسها ، فقالت : لا ، إلا أن تكونا على ما أنا عليه . فقالا : لا حاجة لنا في عبادة هذا .

فلما رأت أنهما قد أبيا أن يعبدا الصنم قالت لهما : اختارا إحدى الخلال الثلاث . إما أن تعبدا الصنم ، أو تقتلا النفس ، أو تشربا هذا الخمر ، فقالا : كل هذا لا ينبغي وأهون الثلاثه شرب الخمر . وسقتهما الخمر حتى إذا أخذت الخمرة فيهما وقعا بها ، فمر بهما إنسان وهما في ذلك ، فخشيا أن يفشي عليهما فقتلاه .

فلما أن ذهب عنهما السكر عرفا ما قد وقعا فيه من الخطيئة ، وأرادا أن يصعدا إلى السماء فلم يستطيعا ، وكشف الغطاء فيما بينهما وبين أهل السماء ، فنظرت الملائكة إلى ما قد وقعا فيه من الذنوب ، وعرفوا أنه من كان في غيب فهو أقل خشية فجعلوا بعد ذلك يستغفرون لمن في الأرض ، فلما وقعا فيما وقعا فيه من الخطيئة قيل لهما : اختارا عذاب الدنيا أو عذاب الآخرة ، فقالا : أما عذاب الدنيا فينقطع ويذهب ، وأما عذاب الآخرة فلا انقطاع له ، فاختارا عذاب الدنيا فجعلا ببابل فهما يعذبان " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : إن هاروت وماروت أهبطا إلى الأرض ، فإذا أتاهما الآتي يريد السحر نهياه أشد النهي ، وقالا له : إنما نحن فتنة فلا تكفر . وذلك أنهما علما الخير والشر والكفر والإيمان ، فعرفا أن السحر من الكفر ، فإذا أبى عليهما أمراه أن يأتي مكان كذا وكذا ، فإذا أتاه عاين الشيطان فعلمه ، فإن تعلمه خرج منه النور ، فينظر إليه ساطعاً في السماء .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وصححه والبيهقي في سننه عن عائشة أنها قالت : قدمت على امرأة من أهل دومة الجندل تبتغي رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد موته

حداثة ذلك تسأله عن شيء دخلت فيه من أمر السحر ولم تعمل به . قالت : كان لي زوج غاب عني ، فدخلت على عجوز فشكوت إليها ، فقالت : إن فعلت ما آمرك فأجعله يأتيك ، فلما كان الليل جاءتني بكلبين أسودين ، فركبت أحدهما وركبت الآخر ، فلم يكن كشيء حتى وقفنا ببابل ، فإذا أنا برجلين معلقين بأرجلهما ، فقالا : ما جاء بك ؟ فقلت : أتعلم السحر . فقالا : إنما نحن فتنة فلا تكفري وارجعي . فأبيت وقلت : لا . قالا : فاذهبي إلى ذلك التنور فبولي فيه ثم ائتي ، فذهبت ، فاقشعر جلدي وخفت ، ثم رجعت إليهما فقلت : قد فعلت . فقالا : ما رأيت ؟ فقلت : لم أر شيئاً . فقالا : كذبت ، لم تفعلي ارجعي إلى بلادك ولا تكفري فإنك على رأس أمرك ، فأبيت .

(445/61)

فقالا اذهبي إلى ذلك التنور فبولي به وذهبت فبلت فيه ، فرأيت فارساً مقنعاً بحديد خرج مني حتى ذهب في السماء وغاب عني حتى ما أراه ، وجئتهما فقلت : قد فعلت . فقالا : فما رأيت ؟ فقلت : رأيت فارساً مقنعاً خرج مني فذهب في السماء حتى ما أراه . قالا : صدقت ، ذلك إيمانك خرج منك اذهبي . فقلت للمرأة : والله ما أعلم شيئاً ولا قالا لي شيئاً . فقالت : لا ، لم تريدي شيئاً إلا كان خذي هذا القمح فابذري ، فبذرت وقلت

اطلعي فاطلعت ، وقلت احقلي فاحقلت ، ثم قلت افركي فأفركت ، ثم قلت ايبسي فأيبست ، ثم قلت اطحني فأطحنت ، ثم قلت اخبزي فأخبزت ، فلما رأيت أني لا أريد شيئاً إلا كان سقط في يدي ، وندمت والله يا أم المؤمنين ما فعلت شيئاً ولا أفعله أبداً ، فسألت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يومئذ متوافرون ، فما دروا ما يقولون لها ، وكلهم خاف أن يفتيها بما لا يعلمه ، إلا أنه قد قال لها ابن عباس أو بعض من كان عنده ، لو كان أبواك حيين أو أحدهما لكانا يكفيانك .

وأخرج ابن المنذر من طريق الأوزاعي عن هارون بن رباب قال : دخلت على عبد الملك بن مروان وعنده رجل قد ثنيت له وسادة وهو متكىء عليها ، فقالوا : هذا قد لقي هاروت وماروت . فقلت : هذا . . . ! قالوا : نعم . فقلت حدثنا رحمك الله . فأنشأ يحدث فلم يتمالك من الدموع فقال : كنت غلاماً حدثاً ولم أدرك أبي ، وكانت أمي تعطيني من المال حاجتي فأنفقه وأفسده وأبذره ولا تسألني أمي عنه ، فلما طال ذلك وكبرت أحببت أن أعلم من أين لأمي هذه الأموال ، فقلت لها يوماً : من أين لك هذه الأموال ؟ فقالت : يا بني كل وتنعم ولا تسأل فهو خير لك ، فألححت عليها فقالت : إن أباك كان ساحراً ، فلم أزل أسألها وألح ، فأدخلتني بيتاً فيه أموال كثيرة فقالت : يا بني هذا كله لك فكل وتنعم ولا تسأل عنه . فقلت : لا بد من أن أعلم من أين هذا .

قال : فقالت : يا بني كل وتنعم ولا تسأل فهو خير لك . قال : فألححت عليها فقالت : إن أباك كان ساحراً وجمع هذه الأموال من السحر . قال : فأكلت ما أكلت ومضى ما مضى ، ثم تفكرت قلت : يوشك أن يذهب هذا المال ويفنى ، فينبغي أن أتعلم السحر فأجمع كما جمع أبي ، فقلت لأمي : من كان خاصة أبي وصديقه من أهل الأرض ؟ قالت : فلان لرجل في مكانٍ ما . فتجهزت فأتيته فسلمت عليه ، فقال : من الرجل ؟ قلت : فلان ابن فلان صديقك . قال : نعم مرحباً ، ما جاء بك فقد ترك أبوك من المال ما لا يحتاج إلى أحد ؟ قال : فقلت : جئت لأتعلم السحر . قال : يا بني لا تريده لا خير فيه . قلت : لا بد من أن أتعلمه . قال : فناشدني وألح علي أن لا أطلبه ولا أريده . فقلت : لا بد من أن أتعلمه . قال : أما إذا أبيت فاذهب فإذا كان يوم كذا وكذا فوافني ههنا . قال : ففعلت فوافيته قال : فأخذ يناشدني أيضاً وينهاني ويقول : لا تريد السحر لا خير فيه . فأبيت عليه ، فلما رآني قد أبيت قال : فإني أدخلك موضعاً فإياك أن تذكر الله فيه . . . ! قال : فأدخلني في سرب تحت الأرض . قال : فجعلت أدخل ثلثمائة وكذا مرقاة ولا أنكر من ضوء النهار شيئاً ، قال : فلما بلغت أسفله إذا أنا بهاروت وماروت معلقان بالسلاسل في الهواء ، قال : فإذا أعينهما كالترسة ، ورؤوسهما ذكر شيئاً لا أحفظه ، ولهما أجنحة ، فلما نظرت إليهما قلت : لا إله إلا الله قال : فضربا بأجنحتهما ضرباً شديداً وصاحا صياحاً شديداً

ساعة ثم سكتا ، ثم قلت : أيضاً لا إله إلا الله ، ففعلا مثل ذلك ، ثم قلت الثالثة ففعلا مثل ذلك أيضاً ، ثم سكتا وسكت ، فنظرا إلي فقالا لي : آدمي .

. . ؟ فقلت : نعم . قال : قلت ما بالكما حين ذكرت الله فعلتما ما فعلتما . . . ! قالا : إن ذلك اسم لم نسمعه من حين خرجنا من تحت العرش .

(447/61)

قالا : من أمة من ؟ قلت : من أمة محمد صلى الله عليه وسلم . قالا : أو قد بعث ؟ قلت : نعم . قالا : اجتمع الناس على رجل واحد أو هم مختلفون ؟ قلت : قد اجتمعوا على رجل واحد . قال : فساءهما ذلك فقالا : كيف ذات بينهم ؟ قلت : سِّيىء . فسرهما ذلك فقالا : هل بلغ البنيان بحيرة الطبرية ؟ قلت : لا . فساءهما ذلك فسكتا .

فقلت لهما : ما بالكما حين أخبرتكما باجتماع الناس على رجل واحد ساءكما ذلك ؟ فقالا : إن الساعة لم تقرب ما دام الناس على رجل واحد . قلت : فما بالكما سركما حين أخبرتكما بفساد ذات البين ؟ قالا : لأنا رجونا اقتراب الساعة . قال : قلت : فما بالكما ساءكما أن البينان لم يبلغ بحيرة الطبرية ؟ قالا : لأن الساعة لا تقوم أبداً حتى يبلغ البنيان بحيرة الطبرية . قال : قلت لهما : أوصياني . قالا : إن قدرت أن لا تنام فافعل فإن الأمر

جد .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد قال : وأما شأن هاروت وماروت فإن الملائكة عجبت من ظلم بني آدم ، وقد جاءتهم الرسل والكتب والبينات ، فقال لهم ربهم : اختاروا منكم ملكين أنزلهما يحكمان في الأرض بين بني آدم ، فاختاروا فلم يألوا بهاروت وماروت ، فقال لهما حين أنزلهما : أعجبتما من بني آدم ومن ظلمهم ومعصيتهم وإنما تأتيهم الرسل والكتب من وراء وراء ، وأنتما ليس بيني وبينكما رسول فافعلا كذا وكذا ودعا كذا وكذا ، فأمرهما بأمر ونهاهما ، ثم نزلا على ذلك ليس أحد لله أطوع منهما ، فحكما فعدلا فكانا يحكمان النهار بين بني آدم ، فإذا أمسيا عرجا وكانا مع الملائكة ، وينزلان حين يصبحان فيحكمان فيعدلان حتى أنزلت عليهما الزهرة في أحسن صورة امرأة تخاصم فقضيا عليها .

(448/61)

فلما قامت وجد كل واحد منهما في نفسه فقال أحدهما لصاحبه : وجدت مثل ما وجدت ؟ قال : نعم . فبعثا إليها أن ائتينا نقض لك . فلما رجعت قضيا لها ، وقالا لها : ائتينا فاتتهما فكشفا لها عن عورتهما ، وإنما كانت شهوتهما في أنفسهما ولم يكونا كبني آدم

في شهوة النساء ولذتها ، فلما بلغا ذلك واستحلاه وافتتنا طارت الزهرة فرجعت حيث كانت ، فلما أمسيا عرجا فزجرا فلم يؤذن لهما ولم تحملهما أجنحتهما ، فاستغاثا برجل من بني آدم فأتياه فقالا : ادع لنا ربك . فقال : كيف يشفع أهل الأرض لأهل السماء ؟ قالا : سمعنا ربك يذكرك بخير في السماء . فوعدهما يوماً وعداً يدعو لهما ، فدعا لهما فاستجيب له فخيرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ، فنظر أحدهما إلى صاحبه فقالا : نعلم أن أفواج عذاب الله في الآخرة كذا وكذا في الخلد نعم ، ومع الدنيا سبع مرات مثلها ، فأمرا أن ينزلا ببابل فثم عذابهما ، وزعم أنهما معلقان في الحديد مطويان يصطفقان بأجنحتهما .

(449/61)

وأخرج الزبير بن بكار في الموفقيات وابن مردويه والديلمي عن علي " أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن المسوخ فقال : هم ثلاثة عشر . الفيل ، والدب ، والخنزير ، والقرد ، والجريث ، والضب ، والوطواط ، والعقرب ، والدعموص ، والعنكبوت ، والأرنب ، وسهيل ، والزهرة ، فقيل : يا رسول الله وما سبب مسخهن ؟ فقال : أما الفيل فكان رجلاً جباراً لوطياً لا يدع رطباً ولا يابساً ، وأما الدب فكان مؤنثاً يدعو الناس إلى نفسه ، وأما

الخنزير فكان من النصارى الذين سألوا المائدة فلما نزلت كفروا ، وأما القردة فيهود اعتدوا في السبت ، وأما الجريث فكان ديوثاً يدعو الرجال إلى حليلته ، وأما الضب فكان إعرابياً يسرق الحاج بمحجنه ، وأما الوطواط فكان رجلاً يسرق الثمار من رؤوس النخل ، وأما العقرب فكان رجلاً لا يسلم أحد من لسانه ، وأما الدعموص فكان نماماً يفرق بين الأحبة ، وأما العنكبوت فامرأة سحرت زوجها ، وأما الأرنب فامرأة كانت لا تطهر من حيض ، وأما سهيل فكان عشاراً باليمن ، وأما الزهرة فكانت بنتاً لبعض ملوك بني إسرائيل افتتن بها هاروت وماروت " .

(450/61)

وأخرج الطبراني في الأوسط بسند ضعيف عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : جاء جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم في حين غير حينه الذي كان يأتيه فيه ، فقام إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال " يا جبريل ما لي أراك متغير اللون ؟ ! فقال : ما جئتك حتى أمر الله بمفاتيح النار . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا جبريل صف لي النار وانعت لي جهنم . فقال جبريل : إن الله تبارك وتعالى أمر بجهنم فأوقد عليها ألف عام حتى ابيضت ، ثم أمر فأوقد عليها ألف عام حتى احمرت ، ثم أمر فأوقد عليها ألف

عام حتى اسودت ، فهي سوداء مظلمة لا يضيء شررها ولا يطفأ لهبها ، والذي بعثك بالحق لو أن ثقب ابرة فتح من جهنم لمات من في الأرض كلهم جميعاً من حره ، والذي بعثك بالحق لو أن ثوباً من ثياب الكفار علق بين السماء والأرض لمات من في الأرض جميعاً من حره ، والذي بعثك بالحق لو أن خازناً من خزنة جهنم برز إلى أهل الدنيا فنظروا إليه لمات من في الأرض كلهم من قبح وجهه ومن نتن ريحه ، والذي بعثك بالحق لو أن حلقة من حلق سلسلة أهل النار التي نعت الله في كتابه وضعت على جبال الدنيا لارفضت وما تقارت حتى تنتهي إلى الأرض السفلى . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " حسبي يا جبريل " ، فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جبريل وهو يبكي فال : تبكي يا جبريل وأنت من الله بالمكان الذي أنت به ؟ فقال : وما لي لا أبكي أنا أحق بالبكاء ، لعلي أكون في علم الله على غير الحال التي أنا عليها ، وما أدري لعلي ابتلي بما ابتلي به إبليس فقد كان من الملائكة ، وما أدري لعلي ابتلي بما ابتلي به هاروت وماروت ، فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم وبكى جبريل ، فما زالا يبكيان حتى نوديا : أن يا جبريل ويا محمد ان الله قد أمنكما أن تعصياه " .

وأما قوله تعالى : ﴿ وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة ﴾ .

أخرج ابن جرير عن الحسين وقتادة قالا : كانا يعلمان السحر ، فأخذ عليهما أن لا يعلما أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر .

وأخرج ابن جرير عن قتادة في قوله ﴿ إنما نحن فتنة ﴾ قال : بلاء .

وأما قوله تعالى : ﴿ فلا تكفر ﴾ .

أخرج البزار والحاكم وصححه عن عبد الله بن مسعود قال : من أتى كاهناً أو ساحراً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد .

وأخرج البزار عن عمران بن حصين قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ليس منا من تطير أو تطير له ، أو تكهن أو تكهن له ، أو سحر أو سحر له ، ومن عقد عقدة ، ومن أتى كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد " .

وأخرج عبد الرزاق عن صفوان بن سليم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من تعلم شيئاً من السحر قليلاً أو كثيراً كان آخر عهده من الله " .

وأما قوله تعالى : ﴿ فيتعلمون منهما ﴾ الآية .

أخرج عبد حميد وابن جرير عن قتادة في قوله ﴿ فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه ﴾ قال : يؤخرون أحدهما عن صاحبه ، ويبغضون أحدهما إلى صاحبه .

وأخرج ابن جرير عن سفيان في قوله ﴿ إلا بإذن الله ﴾ قال : بقضاء الله .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة في قوله ﴿ ولقد علموا ﴾ قال : لقد علم أهل الكتاب فيما يقرأون من كتاب الله وفيما عهد لهم أن الساحر لا خلاق له عند الله يوم القيامة .

وأخرج مسلم عن جابر بن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " إن الشيطان يضع عرشه على الماء ثم يبعث سراياه في الناس ، فأقربهم عنده منزلة أعظمهم عنده فتنة ، فيقول : ما زلت بفلان حتى تركته وهو يقول كذا وكذا . فيقول إبليس : لا والله ما صنعت شيئاً ، ويجيء أحدهم فيقول ما تركته حتى فرقت بينه وبين أهله ، فيقربه ويدنيه ويلتزمه ويقول : نعم أنت " .

(452/61)

وأخرج أبو الفرج الأصبهاني في الأغاني عن عمرو بن دينار قال : قال الحسن بن علي بن أبي طالب لذريح أبي قيس : أحل لك أن فرقت بين نفسي وبيني ، أما سمعت عمر بن الخطاب يقول : ما أبالي أفرقت بين الرجل وامرأته أو مشيت إليهما بالسيف .

وأخرج ابن ماجة عن أبي رهم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من أفضل الشفاعة أن يشفع بين اثنين في النكاح " .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله ﴿ ما له في الآخرة من خلاق ﴾ قال : قوام .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ ما له في الآخرة من خلاق ﴾ قال : من نصيب .

وأخرج الطستي في مسائله عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق قال له : أخبرني عن قوله عز وجل ﴿ ما له في الآخرة من خلاق ﴾ قال : من نصيب . قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم ، أما سمعت أمية بن أبي الصلت وهو يقول :

يدعون بالويل فيها لا خلاق لهم . . . إلا سرابيل من قطر وأغلال

وأخرج ابن جرير عن مجاهد ﴿ ما له في الآخرة من خلاق ﴾ قال : من نصيب .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن الحسن ﴿ ما له في الآخرة من خلاق ﴾ قال : ليس له دين .

وأما قوله تعالى : ﴿ ولبئس ما شروا ﴾ الآية .

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي في قوله ﴿ ولبئس ما شروا ﴾ قال : باعوا .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 1 صـ 233 . 251 ﴾

(453/61)

فصل

قال فى الميزان :

وهذه قصة خرافية تنسب إلى الملائكة المكرمين الذين نص القرآن على نزاهة ساحتهم وطهارة وجودهم عن الشرك والمعصية أغلظ الشرك وأقبح المعصية ، وهو : عبادة الصنم والقتل والزنا وشرب الخمر وتنسب إلى كوكبة الزهرة أنها امرأة زانية مسخت – وإنها اضحوكة – وهي كوكبة سماوية طاهرة في طليعتها وصنعها أقسم الله تعالى عليها في قوله : (والجوار الكنس) التكوير – 16 ، على أن علم الفلك أظهر اليوم هويتها وكشف عن عنصرها وكميتها وكيفيتها وسائر شئونها .

فهذه القصة كالتي قبلها المذكورة في الرواية السابقة تطابق ما عند اليهود على ما قيل : من قصة هاروت وماروت ، تلك القصة الخرافية التي تشبه خرافات يونان في الكواكب والنجوم .

ومن هاهنا يظهر للباحث المتأمل : أن هذه الاحاديث كغيرها الواردة في مطاعن الأنبياء وعثراتهم لا تخلو من دس دسته اليهود فيها وتكشف عن تسربهم الدقيق ونفوذهم العميق بين أصحاب الحديث في الصدر الأول فقد لعبوا في رواياتهم بكل ما شاؤا من الدس والخلط وأعانهم على ذلك قوم آخرون .

لكن الله عز اسمه جعل كتابه في محفظة إلهية من هوسات المتهوسين من أعدائه كلما استرق

السمع شيطان من شياطينهم إتبعه بشهاب مبين ، فقال عز من قائل : (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) الحجر – 9 ، وقال و (إنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ومن خلفه تنزيل من حكيم حميد) فصلت – 42 ، وقال : (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا) أسرى – 82 ،

فأطلق القول ولم يقيد ، فما من خلط أو دس إلا ويدفعه القرآن ويظهر خسار صاحبه بالكشف عن حاله وإقراء صفحة تاريخة ، وقال رسول الله فيما رواه الفريقان : ما وافق كتاب الله فخذوه وما خالفه فاتركوه .

(454/61)

فأعطى ميزانا كليا يوزن به المعارف المنقولة منه ومن أوليائه ، وبالجملة فبالقرآن يدفع الباطل عن ساحة الحق ثم لا يلبث أن يظهر بطلانه ويمات عن القلوب الحية كما اميت عن الأعيان .

قال تعالى : (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه) الأنبياء – 18 ، وقال تعالى : (ويريد الله أن يحق الحق بكلماته) الانفال – 7 ، وقال تعالى : (ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون) الانفال – 8 ولا معنى لاحقاق الحق ولا لابطال الباطل إلا إظهار صفتهما .

وبعض الناس وخاصة من أهل عصرنا من المتوغلين في الأبحاث المادية والمرعوبين من المدنية الغربية الحديثة استفادوا من هذه الحقيقة المذكورة سوء وأخذوا بطرح جميع ما تضمنته سنة رسول الله واشتملت عليه جوامع الروايات فسلكوا في ذلك مسلك التفريط ، قبال ما سلكه بعض الاخباريين وأصحاب الحديث والحرورية وغيرهم مسلك الإفراط والأخذ بكل رواية منقولة كيف كانت .

(455/61)

وكما أن القبول المطلق تكذيب للموازين المنصوبة في الدين لتميز الحق من الباطل ونسبة الباطل واللغو من القول إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كذلك الطرح الكلي تكذيب لها وإلغاء وإبطال للكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وهو القائل جل ثنائه : (ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) الحشر – 7 ، وقوله تعالى : (وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله) النساء – 64 ، إذ لو لم يكن لقول رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) حجية أو لما ينقل من قوله (صلى الله عليه وآله وسلم) إلينا معاشر الغائبين في عصره أو الموجودين بعد ارتحاله من الدنيا حجية لما استقر من الدين حجر على حجر ، والركون على النقل والحديث مما يعنوره البشر ويقبله في حيوتة

الاجتماعية قبولا يضطر إليه بالبداهة ويهديه إلى ذلك الفطرة الإنسانية لا غنى له عن ذلك ، وأما وقوع الدس والخلط في المعارف المنقولة الدينية فليس ببدع يختص بالدين كيف ورحى الاجتماع بجميع جهاتها وأركانها تدور على الاخبار الدائرة اليومية العامة والخاصة ، ووجوده الكذب والدس والخلط فيها أزيد وأيدي السياسات الكلية والجزئية بها ألعب ؟ ونحن على فطرتنا الإنسانية لا نجري على مجرد قرع السمع في الأخبار المنقولة إلينا في نادي الاجتماع بل نعرض كل واحد واحد منها على ما عندنا من الميزان الذي يمكن أن يوزن به فإن وافقه وصدقه قبلناه وإن خالفه وكذبه طرحناه وإن لم يتبين شئ من أمره ولم يتميز حقه من باطله وصدقه من كذبه توقفنا فيه من غير قبول ولا رد على الاحتياط الذي جبلنا عليه في الشرور والمضار .

هذا كله بشرط الخبرة في نوع الخبر الذي نقل إلينا ، وأما ما لا خبرة للإنسان فيه من الأخبار بما يشتمل عليه من المضمون فسبيل العقلاء من أهل الاجتماع فيه الرجوع إلى أهل خبرته والأخذ بما يرون فيه ويحكمون به هذا .

(456/61)

فهذا ما عليه بناؤنا الفطري في الاجتماع الإنساني ، والميزان الديني المضروب لتمييز الحق من الباطل وكذا الصدق من الكذب ، لا يغاير ذلك بل هو هو بعينه ، وهو العرض على كتاب الله فإن تبين منه شئ أخذ به وإن لم يتبين لشبهة فالوقوف عند الشبهة ، وعلى ذلك أخبار متواترة عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) والائمة من أهل بيته .

هذا كله في غير المسائل الفقهية وأما هي فالمرجع في البحث عنها فن أصول الفقه . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ الميزان حـ 1 صـ 239 . 241 ﴾

(457/61)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ واتبعوا مَا تَتْلُواْ الشياطين ﴾ : هذه الجملة معطوفة على مجموع الجملة السابقة من قوله : " ولما جاءهم " إلى آخرها .

وقال أبو البقاء : إنها معطوفة على " أشربوا " أو على " نبذ فريق " ، وهذا ليس بظاهر ؛ لأن عطفها على " نبذ " يقتضي كونها جواباً لقوله تعالى : ﴿ وَلَمَّآ جَآءَهُمْ رَسُولٌ ﴾ .

واتِّباعُهُم لما تتلو الشياطين ليس مترتباً على مجيء الرسول عليه الصَّلاة والسَّلام بل كان

اتباعهم لذلك قبله ، فالأولى أن تكون معطوفة على جملة " لما " كما تقدم ، و" ما " موصولة ، وعائدها محذوف ، والتقدير : تتلوه .

وقيل : " ما " نافية ، وهو غلط فاحش لا يقتضيه نظم الكلام ، [ذكره] ابن العربي .

و" يتلو " في معنى " تلت " فهو مضارع وقاع موقع الماضي ؛ كقوله : [الكامل]

692 وَإِذَا مَرَرْتَ بِقَبْرِهِ فَاعْقِرْ بِهِ . . .

كُومَ الهِجَانِ وَكُلَّ طَرْفٍ سَابِحِ

وَاتْضَحْ جَوَانِبَ قَبْرِ بِدِمَائِهَا . . .

فَلَقَدْ يَكُونُ أَخَا دَمٍ وَذَبَائِحِ

أي : فلقد كان .

وقال الكوفيون : الأصل : وما كانت تتلو الشياطين ، ولا يريدون بذلك أن صلة " ما " محذوفة ، وهي " كانت " و" تتلو " في موضع الخبر ، وإنما قصدوا تفسير المعنى ، وهو نظير : " كان زيد يقوم " المعنى على الإخبار ، وبقيامه في الزمن الماضي ، وقرأ الحسن والضحاك " الشياطون " إجراء له مجرى جمع السَّلامة ، قالوا : وهو غلط .

وقال بعضهم : لحن فاحش .

وحكى الأصمعي " بُسْتَانُ فُلَانٍ حَوْلَهُ بساتون " وهو يقوي قراءة الحسن .

قوله تعالى : ﴿ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أنه على معنى " في " ، أي : في زمن ملكه ، والمُلْكُ هنا شَرْعه .

والثاني : أن يضمن تتلوا معنى تَتقوّل أي : تقول على ملك سليمان وتَقَوَّل يتعدى بعلى ، قال تعالى : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأقاويل ﴾ [الحاقة : 44] .

(458/61)

وهذا الثاني أولى ، فإن التجوّز في الأفعال أولى من التجوّز في الحروف ، وهو مذهب البصْريين كما تقدم وإنما أَحْوَجَ إلى هذين التأويلين ؛ لأن تلا إذا تعدَّى بـ " على " كان المجرور بـ " على " شيئاً يصحّ أن يتلى عليه نحو : تلوت على زيد القرآن ، والملك ليس كذلك .

قال أبو مسلم : " تتلو " أي : تكذب على ملك سليمان يقال : تلا عليه : إذا كذب وتلا عنه إذا صدق .

وإذا أبهم جاز الأمران .

قال ابن الخطيب : أي يكون الذي كانوا يخبرون به عن سليمان مما يتلى ويقرأ فيجتمع فيه كل الأوصاف ، والتلاوة : الاتباع أو القراءة وهو قريب منه .

قال أبو العباس المقرىء : و" على " ترد على ثلاثة أوجه :

الأول : بمعنى " في " كهذه الآية .

وبمعنى " اللام " ، قال تعالى

﴿ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الكتاب تَمَاماً عَلَى الذي أَحْسَنَ ﴾ [الأنعام : 154] أي : للذي .

وبمعنى " " من " ، قال تعالى : ﴿ الذين إِذَا اكتالوا عَلَى الناس يَسْتَوْفُونَ ﴾ [المطففين : 2] أي : من الناس يستوفون .

و" سليمان " علم أعجمي ، فلذلك لم ينصرف .

وقال أبو البقاء رحمه الله تعالى : " وفيه ثلاثة أسباب : العُجْمة والتَّعريف والألف والنون " ، وهذا إنما يثبت بعد دخول الاشتقاق فيه ، والتصريف حتى تعرف زيادتها ، وقد تقدَّم أنهما لا يَدْخُلان في الأسماء الأعجميّة ، وكرر قوله : " وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ " بذكره ظاهراً ؛ تفخيماً له ، وتعظيماً ؛ كقوله : [الخفيف]

693 لا أَرَى المَوْتَ يَسْبِقُ المَوْتَ شَيْءٌ . . . . . .

وقد تقدم تحقيق ذلك .

قوله تعالى : " وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ " .

هذه الواو عاطفة جملة الاستدراك على ما قبلها .

وقرأ ابن عامر ، والكسائي وحمزة بتخفيف " لكن " ورفع ما بعدها ، والباقون بالتشديد ، والنصب وهو واضح .

وأما القراءة الأولى ، فتكون " لكن " مخففة من الثقيلة جيء بها لمجرّد الاستدراك ، وإذا خففت لم تعمل عند الجمهور ونُقِل جواز ذلك عن يونس [والأخفش .

(459/61)

وهل تكون عاطفة ؟ الجمهور على أنها تكون عاطفة إذا لم يكن معها " الواو " ، وكان ما بعدها مفرداً وذه يونس] إلاَّ أنها لا تكون عاطفةً وهو قوي ، فإنه لم يسمع في لسانهم : ما قام زيد لكن عمرو ، وإن وجد ذلك في كتب النحاة فمن تمثيلاتهم ، ولذلك لم يمثّل بها سيبويه رحمه الله إلا مع الواو وهذا يدل على نفيه .

وأما إذا وقعت بعدها الجمل فتارة تقترن بالواو ، وتارة لا تقترن .

قال زهير : [البسيط]

695 إنَّ ابْنَ وَرْقَاءَ لاَ تُخْشَى بَوَادِرُهُ . . .

لَكِنْ وَقَائِعُهُ فِي الحَرْبِ تُنتَظَرُ

وقال الكسائي والفراء : الاختبار تشديدها إذا كان قبلها " واو " وتخفيفها إذا لم يكن ، وهذا جنوح منهما إلى القول بكونها حرف عَطْف ، وأبعد من زعم أنها مركّبة من ثلاثة كلمات : لا النافية ، وكاف الخطاب وإن التي للإثبات ، وإنما حذفت الهمزة تخفيفاً .

قوله : "يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ" "الناس" مفعول أول ، و"السِّحْر" مفعول ثان ، واختلفوا في هذه الجملة على خمسة أقوال :

أحدها : أنها حال من فاعل "كفروا" أي مُعَلِّمين .

الثاني : أنها حال من الشياطين ، وردّه أبو البقاء رحمه الله تعالى بأن "لكن" لا تعمل في الحال ، وليس بشيء فإن "لكن" فيها رائحة الفعل .

الثالث : أنها في محلّ رفع على أنها خبر ثان للشياطين .

الرابع : أنها بَدَلٌ من "كفروا" أبدل الفعل من الفعل .

الخامس : أنها استئنافية ، أَخْبر عنهم بذلك ، وهذا إذا أعدنا الضمير من "يعملون" على الشَّيَاطين .

أما إذا أعدناه على "الذين اتَّبَعُوا ما تتلو الشَّياطين" فتكون حالاص من فاعل "اتبعوا" .

أو استئنافية فقط .

والسِّحْر : كلّ ما لَطف ودَقَّ سِحْرُهُ ، إذا أَبْدَى له أمراً يدقُّ عليه ويخفى .

قال : [الطويل]

696 . . . . . .

أَدَاءُ عَرَانِي مِنْ حُبَابِكِ أَمْ سِحْرُ

ويقال : سَحَرَهُ : أي خَدَعَهُ وعلَّله ؛ قال امرؤ القيس : [الوافر]

697 أَرَانَا مُوضِعِينَ لأَمْرِ غَيْبٍ . . .

ونُسْحَرُ بالطَّعَامِ وبالشَّرَابِ

أي : نُعَلَّلُ ، وهو في الأصل : مصدر يقال : سَحَرَهُ سِحْراً ، ولم يجىء مصدر لـ " فَعَلَ " يَفْعَلُ على فِعْلٍ إلا سِحْراً وَفِعْلاً .

والسَّحر بالنصب هو الغذاء لخائه ولطف مَجَاريه ، والسّحر هو الرئة وما تعلق بالحُلْقُوم [ومنه قول عائشة رضي الله عنها توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم بين سحري ونحري] وهذا أيضاً يرجع إلى معنى الخفاء .

ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ المسحرين ﴾ [الشعراء : 153] ﴿ مَآ أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ [الشعراء : 154] ، ويحتمل أنه ذو سحر مثلنا .

وقال تعالى : ﴿ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سحروا أَعْيُنَ الناس واسترهبوهم ﴾ [الأعراف : 116] .

وقال تعالى : ﴿ وَلاَ يُفْلِحُ الساحر حَيْثُ أتى ﴾ [طه : 69] ، والسّحر في عرف الشرع مختصّ بكل أمر يخفى سببه ، ويتخيل على غير حقيقته ، ويجري مجرى التَّمويه والخداع ، وهو عند الإطلاق يذم فاعله ، ويستعمل مقيداً فيما يمدح وينفع ، فقال رسول الله صلى

الله عليه " إِنَّ مِنَ البَيَانِ لَسِحْراً " .

فسمى النبي صلى الله عليه وسلم بعض البيان سحراً ؛ لأن صاحبه يوضح الشيء المشكل ، ويكشف عن حقيقته بحسن بيانه ، ويبلغ عبارته ، فعلى [هذا] يكون قوله عليه الصلاة والسلام : " إِنَّ مِنَ البَيَانِ لَسِحْراً " خرج مخرج المدح.

وقال جماعة من أهل العلم : خرج مخرج الذم للبلاغة والفصاحة ، إذ شبهها بالسّحر يدلّ عليه قوله عليه الصلاة والسلام : " فَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ " .

وقوله عليه الصلاة والسلام : " إِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ الثَّرْثَارُونَ المُتَفَيْهِقُونَ " .

(461/61)

[الثرثرة : كثرة الكلام وترددده ، يقال : ثرثر الرجل فهو ثَرْثَار مِهْذَار والمتفيهق نحوه] قال ابن دريد : فلان يتفيهق في كلامه إذا توسّع وتنطّع ، قال : " وأصله الفَهْقُ ، وهو الامتلاء كأنه ملأ به فمه " .

قال القرطبي رحمه الله تعالى : وبهذا المعنى الذي ذكرناه فسره عامر الشعبي راوي الحديث وصعصعة بن صوحان ، فقالا : أما قوله صلى لله عليه وسلم : " إِنَّ مِنَ البَيَانِ لَسِحْراً " ، فالرجل عليه الحق وهو ألحن بالحُجَج من صاحب الحقّ [فيسحر] القوم ببيانهن فيذهب

بالحق ، وهو عليه ، وإنما يحمد العلماء البلاغة واللسان ما لم تخرج إلى جدّ الإسهاب والإطناب ، وتصوير الباطل في صورة الحق .

قوله : " وَمَا أُنزِلَ " فيه أربعة أقوال :

أظهرها : أن " ما " موصولة بمعنى " الذي " محلّها النصب عطفاً على " السحر " ، والتقدير : يعلّمون الناس السحر ، وما تلتلنزل على الملكين .

الثاني : أنها موصولة أيضاً ، ومحلها النصب لكن عطفاً على " مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ " ، والتقدير : واتبعوا ما تتلو الشياطين ، وما أنزل على الملكين .

وعلى هذا فما بينهما اعتراض ، ولا حاجة إلى القول بأن في الكلام تقديماً وتأخيراً .

الثالث : أن " ما " حرف نفي ، والجملة معطوفة على الجملة المفنية قَبْلَها ، وهي " وما كفر سُلَيْمَان " والمعنى : وما أنزل على الملكين إباحة السحر .

قال القرطبي : و" ما " نافية ، والواو للعطف على قوله : [" وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ " ، وذلك أن اليهود قالوا : إن الله أنزل جبريل ، وميكائيل بالسحر ، فنفى الله ذلك .

وفي الكلام تقديم وتأخير والتقدير : وما كفر سليمان] ، وما أنزل على الملكين ، ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السّحر ببابل هَارُوت وماروت ، فهاروت وماروت بدل من الشَّيَاطين فى قوله : " وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا " قال : وهذا أولى ولا يلتفت إلى سواه ، فالسحر استخراج الشياطين للطافة جوهرهم ، وأكثر ما يتعاطاه من الإنس النساء ، وخاصة فى حالة طَمْثهن ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَمِن شَرِّ النفاثات فِي العقد ﴾ [الفلق : 4] .

فإن قيل : كيف يكون اثنان بدلاً من الجميع والبدل إنما يكون على حد المبدل منه ؟

فالجواب من وجوه ثلاثة :

الاول : أن الاثنين قد يطلق عليهما اسم الجمع ؛ كما قال تعالى : ﴿ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ ﴾ [النساء : 11] .

الثاني : أنهما لما كانا الرأس في التعليم نصّ عليهما دون اتباعهما كقوله تعالى : ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ [المدثر : 30] .

الثالث : إما خُصَّا بالذكر من بينهم لتمرّدهما ، كتخصيصه تعالى النخل [والرمان] فى قوله : ﴿ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ [الرحمن ؛ 68] فقد ينص على بعض أشخاص العموم إما لشرفه ؛ كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَوْلَى الناس بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتبعوه وهذا النبي ﴾ [آل عمران : 68] وإما لطيبه كقوله : ﴿ فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ وإما لأكثريته ؛ كقوله صلى

الله عليه سلم : " جُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِداً وَتُرَابُهَا طَهُوراً " وإما لتمردهم كهذه الآية .

الرابع : أن محلّها الجر عطفاً على " ملك سليمان " ، والتقدير : افتراء على ملك سليمان وافتراء على ما أنزل على الملكين ، وهو اختيار أبي مسلم .

وقال أبو البقاء : " تقديره " وعلى عهد الّذي أنزل .

واحتج أبو مسلم : بأن السحر لو كان نازلاً عليهما لكان مُنْزله هو الله تعالى ، وذلك غير جائز ، كما لا يجوز في الأنبياء أن يبعثوا السّحر ، كذلك في الملائكة بطريق الأولى .

(463/61)

وأيضاً فإن تعليم السحر كفر بقوله تعالى : ﴿ ولكن الشياطين كَفَرُواْ يُعَلّمُونَ الناس السحر ﴾ .

وأيضاً فإنما يضاف السحر إلى الكفرة والمردة ، فكيف يضاف إلى الله تعالى ما ينهى عنه ؟

والمعنى : أن الشياطين نسبوا السحر إلى ملك سليمان مع أن ملك سليمان كان مبرأ عنه ، فكذلك نسبوا ما أنزل على الملكين إلى السحر ، مع أن المنزل عليهما كانا مبرّأين عن السحر ؛ لأن المنزل عليهما هو الشرع والدين ، وكانا يعلمان الناس ذلك مع قولهما : ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ ﴾ توكيداً لبعثهم على [قبوله] والتمسّك به ، فكانت طائفة تتمسّك ،

وأخرى تخالف .

قال ابن الخطيب رحمه الله تعالى : والأول أولى ؛ لأن عطف " وَمَا أُنْزِلَ " على ما يليه أولى من عطفه على ما بعد عنه إلا لدليل ، أما قوله : " لو كان منزلاً عليهما لكان مُنَزِّلُهُ هو الله تعالى " .

قلنا : تعريف صفة الشيء قد يكون لأجل الترغيب فى إدخاله في الوجود ، وقد يكون لأجل أن يقع الاحتراز عنه ؛ قال : [الهزج]

698 عَرَفْتُ الشَّرَّ لا لِلشَّرْرِ . . .

لَكِنْ لِتَوَقِّيهِ

وقوله : لا يجوز بعثة الأنبياء [لتعليم السحر ، فكذا الملائكة] .

قلنا : الغرض من ذلك التعليم التَّنبيه على إبطاله .

وقوله : " تعليم السِّحْر كفر " .

قلنا : إنه واقعة حال فيكفي في صدقها سورة واحدة .

وقوله : يضاف السحر للكفرة والمردة .

قلنا : فرق بين العمل والتعليم ، فيجوز أن يكون العمل منبهاً عنه ، والتعليم لغرض التنبيه على فساده فلا يكون مأموراً به .

والجمهور على فتح لام " المَلَكين " على أنهما من الملائكة .

وقرأ ابن عباس وأبو الأسود والحسن والضحاك بكسرها على أنهما رجلان من الناس ، وسيأتي تقريره .

قوله : " بِبَابِلَ " متعلق بـ " أنزل " ، والباء بمعنى " في " أي : في " بابلط .

ويجوز أن يكون في محلّ نصب على الحال من المَلَكين ، أو من الضمير في " أنزل " فيتعلق بمحذوف .

(464/61)

ذكر هذين الوجهين أبو البقاء رحمه الله .

و " بابل " لا ينصرف للعُجْمة والعلمية ، فإنها اسم أرض ، وإن شئت للتأنيث والعلمية وسميت بذلك قيل : لِتَبَلْبُلِ السنة الخلائق بها ، وذلك أن الله تعالى أمر ريحاً ، فحشرتهم بهذه الأرض ، فلم يدر أحد ما يقول الآخر ، ثم فرقتهم الريح في البلاد فتكلم كل واحد بلغة ، والبَلْبَلَة التفرقة .

وقيل : لما أُهْبِط نوح عليه الصلاة والسلام نزل فبنى قرية ، وسماها " ثمانين " ، فأصبح ذات يوم وقد تبلبلت ألسنتهم على ثمانين لغة .

وقيل : لتبلبل ألسنة الخلق عند سقوط صرح نمرود .

وهي بابل " العراق " .

وقال ابن مسعود : " بابل " أرض " الكوفة " .

وقيل : " جبل نهاوَند " .

قوله : " هَارُوتَ وَمَارُوتَ " الجمهور على فتح تائها .

واختلف النحاة في إعرابها ، وذلك مبني على القراءتين في " الملكين " ، فمن فتح لام " الملكين " ، وهم الجمهور كان في هاروت وماروت أربعة أوجه :

أظهرها : أنها بدل من " الملكين " ، وجُرَّا بالفتحة لأنهما ينصرفان للعجمة والعلمية .

الثاني : أنهما عطف بيان لهما .

الثالث : أنهما بدل من " الناس " في قوله تعالى : يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ " وهو بدل بعض من كل ، أو لأن أقل الجمع اثنان .

الرابع : أنهما بدل من " الشياطين " في قوله : " ولكن الشياطين كفروا " في قراءة من نصب ، وتوجيه البدل كما تقدم .

وقيل : هاروت وماروت اسمان لقبيلتين من الجن ، فيكون بدل كل من كل ، والفتحة على هذين القولين اللنصب .

وأما من قرأ برفع " الشياطين " ، فلا يكون " هاروت وماروت " بدلاً منهم ، بل يكون منصوباً في هذا القول على الذم أي : أذم هاروت وماروت من بين الشياطين كلها ؛ كقوله : [

الطويل]

699 أقَارِعُ عَوْشفٍ لا أُحَاوِلُ غَيْرَهَا . . .

وُجُوهَ قُرُودٍ تَبْتَغِي مَنْ تُجَادِعُ

(465/61)

أي : أذم وجود قرود ، ومن كسر لامهما ، فيكون بدلاً منهما كالقول الأول إلاَّ إذا فسر الملكان بداود وسليمان عليهما الصلاة والسلام كما ذكره بعض المفسرين ، فلا يكونان بدلاً منهما ، بل يكونان متعلّقين بالشياطين على الوجيهن السَّابقين في رفع الشياطين ونصبه ، أو يكونان بدلاً من " الناس " كما تقدم .

وقرأ الحسن " هَارُوتُ وماروتُ " برفعهما ، وهما خبر لمبتدأ محذوف أي : هما هاروت وماروت ، ويجوز أن يكون بدلاً من " الشياطين " الأولى وهو قوله : " ما تَتْلُو الشياطين " ، أو الثاني على قراءة من رفعه .

ويُجْمَعَان على هَوَاريت ومَوَاريت ، وهَوَارتة ومَوَارتة ، وليس من زعم اشتقاقهما من الهَرْتِ والمَرْتِ وهو الكسر بمصيب لعدم انصرافهما ، ولو كانا مشتقّين كما ذكر لانصرفا .

فصل في توجيه قراءة فتح اللام

أما القرءاة بفتح لام " الملكين " ، فقيل : هما ملكان من السماء اسمهما هاروت وماروت .

وقيل : هما جبريل وميكائيل عليهما الصلاة والسلام .

وقيل غيرهما .

وأما من كسر اللام فقيل : إنهما اسم لقبيلتين من الجن .

وقيل : هما داود وسليمان عليهما الصلاة والسلام .

وقيل : هما رجلان صالحان .

وقيل : كانا رجلين ساحرين .

وقيل : كانا علجين أقنعين بـ " بابل " يعلمان الناس السحر .

قوله : ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حتى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ ﴾ هذه الجملة عطلف على ما قبلها ، والجمهور على "يُعَلِّمَان " مضعفاً .

واختلف فيه على قولين :

أحدهما : أنه على بابه من التعليم .

والثاني : أنه بمعنى يعلمان من " أعلم " ، فالتضعيف والهمزة متعاقبان .

قالوا : لأن المَلَكين لا يعلمان الناس السحر ، إنما يُعْلِمانِهِمْ به ، وَيَنْهَيَانِهم عنه ، وإليه ذهب طحلة بن مصرف ، وكان يقرأ "يُعْلِمَان " من الأعلام .

ومن حكى أن تَعَلَّمْ بمعنى "اعْلَم" ابنُ الأعرابي، وابن الأنباريّ؛ وأنشدوا قول زُهَيْر: [البسيط]

(466/61)

---

700 تَعَلَّمَنْ هما لَعَمْرُ اللهِ ذا قَسَماً . . .

فَاقْدِرْ بذَرْعِكَ وَانْظُرْ أَيْنَ تَنْسَلِكُ ؟

وقول القُطَامِيُّ: [الوافر]

701 تَعَلَّمْ أَنَّ بَعْدَ الْغَيِّ رُشْداً . . .

وَأَنَّ لِذِلِكَ الغَيِّ انْقِشَاعَا

وقول كعب بن مالك: [الطويل]

702 تَعَلَّمْ رَسُولَ اللهِ أَنَّكَ مُدْرِكِي . . .

وَأَنَّ وَعِيداً مِنْكَ كَالأَخْذِ بِالْيَدِ

وقول الآخر: [الوافر]

703 تَعَلَّمْ أَنَّهُ لاَ طَيْرَ إِلاَّ . . .

عَلَى مُتَطَيِّرٍ وَهُوَ الثُّبُورُ

والضمير في "يعلمان" فيه قولان:

أحدهما: أنه يعود على هاروت وماروت.

والثاني: أنه عائد على [الملكين، ويؤيده قراءة أُبَيّ بإظهار الفاعل: "وَمَا يُعَلِّم الملكان".

والأول هو الأصح؛ لأن الاعتماد إنما هو على البدل] دون المبدل منه، فإنه في حكم المطَّرح، فمراعاته أولى؛ تقول: "هِنْدٌ حُسْنُهَا فَاتِنٌ" ولا تقول: "فَاتِنَةٌ" مراعاةً لِهِنْد، إلاّ في قليل من الكلام؛ كقوله: [الكامل]

704 إنَّ السُّيُوفَ غُدُوَّهَا ورَوَاحَهَا . . .

تَرَكَتْ هَوَازِنَ مِثْلَ قَرْنِ الأَعْضَبِ

وقال الآخر: [الكامل]

705 فَكَأَنَّهُ لَهِقُ السَّرَاة كَأَنَّهُ . . .

مَا حَاجِبَيْهِ مُعَيَّنٌ بِسَوَادِ

فراعى المُبْدَلَ منه في قوله: "تَرَكَتْ"، وفي قوله: "مُعَيَّن"، ولو راعى البَدَل، وهو الكثير، لقال "تَرَكَا" و"مُعَيَّنَان"؛ كقول الآخر: [الطويل]

706 فَمَا كَانَ قَيْسٌ هُلْكُهُ هُلْكَ وَاحِدٍ . . .

وَلَكِنَّهُ بُنْيَانُ قَوْمٍ تَهَدَّمَا

ولو لم يراع البدل للزم الإخبار بالمعنى عن الجُثَّة.

وأجاب أبو حيان عن البيتين بأن " رَوَاحها وغدوها " منصوب على الظرف ، وأن قوله : " مُعَيَّن " خبر عن " حَاجِبَيْهِ " ، وجاز ذلك ؛ لأن كل اثنين لا يغني أحدهما عن الآخر ، يجوز فيهما ذلك ؛ قال : [الهزج]

707 . . . . . .

بِهَا الْيَنَان تَنْهَلُّ

وقال : [الكامل]

---

708 لَكَأَنَّ فِي الْعَيْنَيْنِ حَبَّ قَرَنْفُلٍ . . .

أَوْ سُنْبُلٍ كُحِلَتْ بِهِ فَانْهَلَّتِ

ويجوز عكسه ؛ قال : [الطويل]

709 إِذَا ذَكَرَتْ عَيْنِي الزَّمَانَ الَّذِي مَضَى . . .

بِصَحْرَاءَ فَلْجٍ ظَلَّتَا تَكِفَانِ

و " من " زائدة لتأكيد الاستغراق لا للاستغراق ؛ لأن " أحداً " يفيده بخلاف : " ما جاء من رجل " فإنها زائدة للاستغراق .

و" أحد " هنا الظاهر أنه الملازم للنفي ، وأنه الذي همزته أصل بنفسها .

وأجاز أبو القاء أن يكو بمعنى واحد ، فتكون همزته بدلاً من الواو .

قوله : ﴿ حتى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ ﴾ .

" حتى " : حرف غاية ونصب ، وهي هنا بمعنى " إلى " ، والفعل بعدها منصوب بإضمار " أن " ولا يجوز إظهارها ، وعلامة النصب حذف النوت ، والتقدير : إلى أن يقولا وهي متعلقة بقوله : " وَمَا يُعَلِّمَانِ " ، والمعنى أنه ينتفي تعليمهما أو إعلامهما على ما مضى من الخلاف إلى هذه الغاية ، وهي قولهم : ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ ﴾ .

وأجاز أبو البقاء رحمه الله أن تكون " حتى " بمعنى " إلا " قال : والمعنى : وما يعلمان من أحد إلاّ أن يقولا وهذا الذي أجاز لا يعرف عن أكثر المتقدمين ، وإنما قاله ابن مالك ؛

وأنشد : [الكامل]

710 لَيْسَ الْعَطَاءُ مِنَ الْفُضُولِ سَمَاحَةً . . .

حَتَّى تَجُودَ وَمَا لَدَيْكَ قَلِيلُ

قال : تقديره : إلا أن تجُودَ .

و" حتى " تكون حرف جر بمعنى " إلى " كهذه الآية ، وكقوله : ﴿ حتى مَطْلَعِ الفجر ﴾ [القدر : 5] ، وتكون حرف عطف ، وتكون حرف ابتداء فتقع بعدها الجمل ؛ كقوله : [الطويل]

711 فَمَا زَالَتِ الْقَتْلَى تَمُجُّ دِمَاءَهَا . . .

بِدَجْلَةَ حَتَّى مَاءُ دَجْلَةَ أَشْكَلُ

والغاية معنى لا يفارقها في هذه الأحوال الثلاثة ، فلذلك لا يكون ما بعدها إلا غاية لما قبلها : إما في القوة ، أو الضعف ، أو غيرهما ، ولها أحكام أُخر ستأتي إن شاء الله تعالى .

(468/61)

و " إنما " مكفوفة بـ " ما " الزائدة ، فلذلك وقع بعدها الجملة ، وقد تقدم أن بعضهم يجيز إعمالها ، والجملة في محلّ نصب بالقول ، وكذلك : " فَلاَ تَكْفُرْ " .

قوله تعالى : " فَيَتَعَلَّمُونَ " في هذه الجملة سبعة أقوال :

أظهرها : أنها معطوفة على قوله تعالى : " وما يعلمان " والضمير في " فيتعلّمون " عائد على " أحد " ، وجمع حملاً على المعنى ، كقوله تعالى : ﴿ فَمَا مِنكُمْ مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾ [الحاقة : 47] .

فإن قيل : المعطوف عليه منفي ، فيلزم أن يكون " فيتعلّمون " منفياً أيضاً لعطفه عليه ، وحينئذ ينعكس المعنى .

فالجواب ما قالوه ، وهو أن قوله : ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حتى يَقُولاَ ﴾ ، وإن كان منفياً

لفظاً فهو موجب معنى ؛ لأن المعنى : يعلمان الناس السحر بعد قولهما : إنما نحن فتنة ، وهذا الوجه ذكره الزجاج وغيره .

الثَّاني : أنه معطوف على "يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ" قاله الفراء .

وقد اعترض الزجاج هذا القول بسبب لفظ الجمع في "يعلمون" مع إتيانه بضمير التثنية في "منهما" يعنى : فكان حقه أن يقال : "منهم" لأجل "يعلمون" وأجازه [أبو علي] وغيره ، وقالوا : لا يمتنع عطف "فيتعلمون" على "يعلِّمون" ، وإن كان التعليم من الملكين خاصّة ، والضمير في "منهما" راجع إليهما ، فإن قوله : "منهما" إنما جاء بعدم تقدّم ذكر المَلَكَيْنِ .

وقد اعترض على قول الفراء من وجه آخر : وهو أنه يلزم منه الإضمار قبل الذكر ، وذلك أن الضمير في "منهما" عائد على الملكين ، وقد فرضتم أن "فيتعلمون منهما" عطف على "يعلمون" ، [فيكن التقدير : "يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ فَيَتَعَلَّمُونَ منهما"] فيلزم الإضمار في "منهما" قبل ذكر المَلَكَيْن ، وهو اعتراض وَاهٍ فإنهما متقدمان لفظاً ، وتقدير تأخرهما لا يضرّ ؛ إذ المحذور عَوْدُ الضمير على غير مذكور في اللفظ .

الثالث : وهو أحد قولي سيبويه أه عطف على "كفروا" ، فعل في موضع رفع ، فلذلك عطف عليه فعل مرفوع .

قال سيبويه : [وارتفع] "فيتعلمون" ؛ لأنه لم يُخبِرْ عن الملكين أنهما قالا : لا تكفر فيتعلموا ليَجْعَلا كفره سبباً لتعلم غيره ، ولكنه على : كفروا فيتعلمون ، وشَرْحُ ما قاله هو أنه يريد أن ليس "فيتعلمون" جواباً لقوله : فلا تكفر فيتنصب في جواب النهي ، كما النصب : ﴿ فَيُسْحِتَكُم ﴾ [طه : 61] ، بعد قوله : "لاَ تَفْتَرُوا" لأن كُفْرَ من نهياه أن يكفر ليس سبباً لتعلّم من يتعلم .

واعترض على هذا بما تقدّم من لزوم الإضمار قبل الذكر ، وتقدم جوابه .

الرابع : وهو القول الثاني لـ "سيبويه" أنه خبر مبتدأ محذوف ، والتقدير "فهم يتعلمون" ، فعطف جملة اسمية على فعلية .

الخامس : قال الزَّجَّاج أيضاً : والأجود أن يكون معطوفاً على "يعلّمان فيتعلّمون" فاستغني عن ذكر "يعلمون" على ما في الكلام من الدليل عليه [واعتراض أبو علي قول الزجاج ؛ فقال : "لا وجه لقوله : اسغني عن ذلكر "يعلمان" ؛ لأنه موجود في النص" .

وهذا الاعتراض من أبي علي ت حامل عليه لسبب وقع بينهما ؛ فإن الزجاج لم يرد أن "فيتعلمون" عطف على "يعلمان" المنفي بـ "ما" في قوله : "وما يعلمان" حتى يكون مذكوراً في النص ، وإنما أراد أن ثم فعلاً مضمراً يدل عليه قوة الكلام وهو : "يعلمان

فيتعلمون "] .

السَّادس : أنه عطف على معنى ما دلّ عليه أول الكلام ، والتقدير : فيأتون فيتعلّمون ، ذكره الفراء والزجاج أيضاً .

السَّابع : قال أبو البقاء : وقيل : هو مستأنف ، وهذا يحتمل أن يريد أنه خبر مبتدأ مضمر كقول سيبويه رحمه الله وأن يكون مستقلاً بنفسه غير محمل على شيء قبله ، وهو ظاهر كلامه .

قوله : " مِنْهُمَا " متعلّق بـ " يعلمون " .

و " من " لابتداء الغاية ، وفي الضمير ثلاثة أقوال : أظهرها : عوده إلى المَلَكين ، سواء قرئ بكسر اللام أو فتحها .

(470/61)

والثاني : يعود على السّحر وعلى المنزل على الملكين .

والثالث : أنه يعود على الفتنة ، وعلى الكفر المفهوم من قوله : " فلا تكفر " ، وهو قول أبي مسلم .

قوله : " مَا يُفَرِّقُونَ به " الظَّاهر في " ما " أنها موصولة اسمية .

وأجاز أبو البقاء أن تكن نكرة موصوفة ، وليس بواضح ، ولا يجوز أن تكن مصدرية لعود الضمير في " به " عليها ، والمصدرية حرف عند جمهور النحويين كما تقدم غير مَرّة .

و " بَيْنَ الْمَرْءِ " ظرف لـ " يُفَرّقُونَ " .

والجمهور على فتح ميم " المَرْءِ " مهموزاً ، وهي اللغة العالية .

وقرأ ابن أبي أسحاق : " المُرْء " بضم الميم مهموزاً .

وقرأ الأشهب العقيلي والحسن : " المِرْءُ " بكسر الميم مهموزاً .

فأما الضم فلغة محكية .

وأما الكسر فيحتمل أن يكون لغة مطلقاً ، ويحتمل أن يكون للإتباع ، وذلك أن في " المرء " لغة وهي أن " فاءه " تَتْبَعُ " لامه " ، فإن ضم ضمت ، وإن فتح فتحت ، وإن كسر كسرت ، تقول : " ما قام المُرْءُ " بضم الميم و " رأيت المَرْءَ " بفتحها ، و " مررت بالمِرْءِ " بكسرها ، وقد يجمع بالواو والنون ، وهو شاذ .

قال الحسن في بعض مواعظه : " أَحْسِنُوا مَلأَكُمْ أَيُّهَا المَرْؤون " أي : أخلاقكم .

وقرأ الحسن ، والزهري " المَرِ " بفتح الميم وكسر الراء خفيفة ، ووجهها أنه نقل حركة الهمزة على " الواو " وحذف الهمزة تخفيفاً وهو قياس مطّرد .

وقرأ الزهري أيضاً : " المَرّ " بتشديد الرّاء من غير همز ، ووجهها أنه نقل حرة الهمزة إلى الرّاء ، ثم رأى الوقف عليها مشدّداً ، كما روي عن عصام ﴿ مُّسْتَطَرٌ ﴾ [القمر : 53]

بتشديد الراء ثم أجرى الوَصْل مجرى الوقف .

قوله تعالى : " وَما هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ " يجوز في " ما " وجهان .

أحدهما : أن تكون الحجازية ، فيكون " هم " اسمها ، و" بِضَارين " خبرها ، و" الباء " زائدة ، فهو في محل نصب .

(471/61)

والثاني : أن تكون التميمية ، فيكون " هم " مبتدأ ، و" بِضَارِّينَ " خبره ، و" الباء " زائدة أيضاً فهو في محل رفع .

والضمير فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه عائد على السَّحرة العائد عليهم ضمير " فَيَتَعَلَّمُونَ " .

الثاني : يعود على اليهود العائد عليهم ضمير " واتبعوا " .

الثالث : يعود على الشياطين والضمير في " به " يعود على " ما " في قوله : " وَمَا يُفَرِّقُونَ بِهِ " .

والجمهور على " بَضَارِّينَ " بإثبات النون و" مِنْ أَحَدٍ " مفعول به ، وقرأ الأعمش : " بِضَرِّي " من غير نون ، وفي توجيه ذلك قولان :

أظهرهما : أنه أسقط النون تخفيفاً ، وإن لم يقع اسم الفاعل صلةً لـ " أل " ؛ مثل قوله : [الطويل]

712 وَلَسْنَا إِذَا تَأْبُوْنَ سِلْماً بِمُذْعِنِي . . .

لَكُمْ غَيْرَ أَنَّا إِنْ نُسَالَمْ نُسَالِمِ

أي : بمذعنين ونظيره في التَّثْنية : " قَطَا قَطَا بَيْضُكِ ثِنْتَا ، وَبَيْضِي مِائَتَا " يريد ونِ ثِنْتَانِ وَمِائَتَانِ .

والثاني وبه قال الزَّمخشري ، وأبن عطية أن النُّونَ حذفت للإضافة إلى " أحدٍ " ، وفصل بين المضاف والضاف إليه بالجار والمجرور ، وهو " به " ؛ كما فصل به في قوله الآخر : [الطويل]

713 هُمَا أَخَوَا فِي الْحَرْبِ مَنْ لاَ أَخَا لَهُ . . .

إِذَا خَافَ يَوْماً نَبْوَةً فَدَعَاهُمَا

وفي قوله : [الوافر]

714 كَمَا خُطَّ الْكِتَابُ بِكَفِّ يَوْماً . . .

يَهُودِيٍّ يُقَارِبُ أَوْ يُزِيلُ

ثم استشكل الزمخشري ذلك فقال : فإن [قلت] كيف يضاف إلى " أحد " هو مجرور ؟

قلت : جعل الجار جزءاً من المجرور .

قال أبو حيان : وهذا التخريج ليس بجوز ؛ لأن الفصل بين المتضايفين بالظَّرف والمجرور من ضَرَائر الشعر ، وأقبح من ذلك ألا يكون ثم مضاف إليه ؛ لأنه مشغول بعامل جَرّ ، فهو المؤثر فيه لا الإضافة .

وأما جعله حرف الجر جزءاً من المجرور فليس بشيء ؛ لأن هذا مؤثر فيه ، وجزء الشيء لا يؤثر فيه .

(472/61)

وأجيب بأن الفصل من ضرائر الشعر فليس كما قال ، لأنه قد فصل بالمفعول به في قراءة ابن عامر ، فالباظرف وشبهه أولى ، وسيأتي تحقيق ذلك في الأنعام .

وأما قوله : " لأن جزء الشيء لا يؤثر فيه .

فإنما ذلك في الجزء الحقيقي ، وهذا إنما قال : ننزله منزلة الجزء ، ويدلّ على ذلك قول [النجاة] الفعل كالجزء من الفاعل ، ولذلك أنّث لتأنيثه ، ومع ذلك فهو مؤثّر فيه .

و" من " في " من أحد " زائدة لتأكيد الاستغراق كما تقدم في : " وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ " .

وينبغي أن يجيء قول أبي البقاء : إن " أحداً " يجوز أن يكون بمعنى واحد ، والمعهود زيادة " من " في المفعول به المعمول لفعل منفي نحو : ما ضربت من أحد ، إلا أنه حملت الجملة

الاسمية الدّاخل عليها حرف النفي على الفعليّة المنفية في ذلك ؛ لأن المعنى : وما يضرون من أحد ، إلا أنه عدل إلى هذه الجملة المصدرة بالمبتدأ المخبر عه باسم الفاعل الدّال على الثبوت ، والاستقرار المزيد فيه باء الجر للتوكيد المراد الذي لم تفده الجملة الفعلية .

قوله : " إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ " هذا استثناء مفرّغ من الأحوال ، فهو في محل نَصْب على الحال ، فيتعلّق بمحذوف ، وفي صاحب هذه الحال أربعة أوجه :

أحدها : أنه الفاعل المستكن في " بضارين " .

الثاني : أنه المفعول هو " أحد " وجاءت الحال من النكرة ؛ لاعتمادها على النفي .

والثالث : أن الهاء في " به " أي بالسحر ، والتقدير : وما يضرون أحداً بالسحر إلا ومعه علم الله ، أو مقروناً بإذن الله ونحو ذلك .

والرابع : أنه المصدر المعروف وهو الضرر ، إلا أنه حذف للدلالة عليه .

قوله : " وَلاَ يَنْفَعُهُمْ " في هذه الجملة وجهان .

أحدهما : وهو الظاهر أنها عطف على " يضرهم " فتكون صلة لـ " ما " أيضاً ، فلا محلّ لها من الإعراب .

والثاني ، وأجازه أبو البقاء : أن تكون خبراً لمبتدأ مضمر تقديره : وهو لا ينفعهم ، وعلى هذا فتكون " الواو " للحال ، والحملة من المبتدأ والخبر في محلّ نصب على الحال ، وهذه الحال تكون مؤكّدة ؛ لأن قوله : " ما يضرهم " يفهم منه عدم النفع .

قال أبو البقاء : ولا يصح عطفه على " ما " ؛ لأن الفعل لا يعطف على الاسم .

وهذا من المواضع المستغنى عن النصّ على منعها لوضوحها ، وإنما ينص على منع شيء يتوهم جوازه .

وأتى هنا بـ " لا " لأنها ينفى بها الحال والاستقبال ، وإن كان بعضهم خصّها بالاستقبال ، والضُّرُّ والنفع معروفان ، يقال ضَرَّهُ يَضُرُّهُ بضم الضاد ، وهو قياس المضاعف المتعدّي ، والمصدر : الضَّر والضَّر بالضم والفتح ، والضَّرَر بالفك أيضاً ، ويقال : ضَارَّهُ يَضِيرُهُ بمعناه ضَيراً ؛ قال الشاعر : [الطويل]

715 تَقُولُ أُنَاسٌ لا يَضِيرُكَ نَأْيُهَا . . .

بَلَى كُلُّ ما شَفَّ النُّفُوسَ يَضِيْرُهَا

وليس حرف العلة مبدلاً من التضعيف .

ونقل بعضهم : أنه لا يبنى من نفع اسم مفعول فيقال : منفوع ، والقياس لا يأباه .

قوله : " وقد علموا " تقدم أن هذه اللاّم جواب قسم محذوف .

و " علم " يجوز أن تكون متعدية إلى اثنين أو إلى واحد ، وعلى كلا التقديرين فهي مُعَلَّقة عن

العمل فيما بعدها لأجل اللام ، فالجملة بعدها في محل نصب ؛ إما سادّة مسدَّ مفعولين ، أو مفعول واحد على حسب ما تقدم ، ويظهر أثر ذلك في العطف عليها ، فإن اعتقدنا تعديها لاثنين عطفنا على الجملة بعدها مفعولين ، وإلا عطفنا واحداً ، ونظيره في الكلام : علمت لزيد قائم وعمراً ذاهباً ، أو علمت لزيد قائم وذهاب عمرو .

والذي يدل على أن الجملة المعلقة بعد علم في محل نصب وعَطْفَ المنصوب على محلها قولُ الشاعر : [الطويل]

716 وَمَا كُنْتُ أَدْرِي قَبْلَ عَزَّةَ مَا الْهَوَى . . .

وَلاَ مُوجِعَاتِ القَلْبِ حَتَّى تَوَلَّتِ

(474/61)

روي بنصب " موجعاتِ " على أنه عطف على محل " ما الهَوَى " ، وفي البيت كلام إذ يحتمل أن تكون " ما " زائدة ، " والهوى " مفعول به ، فعطف " موجعاتِ " عليه ، ويحتمل أن تكون " لا " نافية للجنس و" موجعاتِ " اسمها ، والخبر محذوفٌ كأنه قال : ولا موجعاتِ القلبِ عنْدِي حتى تولَّتِ .

والضمير في " علموا " فيه خمسة أقوال :

أحدها : ضمير الهيود الذين بحضرة محمد صلى الله عليه وسلم ، أو ضمير من بحضرة سليمان ، أو ضمير جميع اليهود ، أو ضمير الشياطين أو ضمير الملكين عند من يرى أن الاثنين جمع .

قوله : " لَمَنِ اشْتَرَاهُ " في هذه اللام قولان :

أحدهما : وهو ظاهر قول النحاة أنها لام الابتداء المُعَلَّقة لـ " عَلِمَ " عن العمل كما تقدم ، و " مَنْ موصولة في محل رفع بالابتداء ، و " اشتراه " صلتها وعائدها .

و ﴿ مَا لَهُ فِي الآخرة مِنْ خَلاَقٍ ﴾ جملة من مبتدأ وخبر ، و " من " زائدة في المبتدأ ، والتقدير : ماله خلاق في الآخرة .

وهذه الجملة في محل رفع خبر لـ " من " الموصولة ، فالجملة من قوله : " ولقد علموا " مقسم عليها كما تقدم ، و " لَمَن اشْتَرَاهُ " غير مقسم عليها ، هذا مذهب سيبويه رحمه الله تعالى والجمهور .

الثاني : وهو قول الفراء ، وتبعه أبو البقاء : أن تكونه هذه اللام هي الموطّئة للقسم ، و " مَنِ " شرطية في محل رفع بالابتداء ، و ﴿ مَا لَهُ فِي الآخرة مِنْ خَلاَقٍ ﴾ جواب القسم ، ف " اشتراه " على القول الأول صلة ، وعلى الثاني خبر لاسم الشرط ، ويكون جواب الشرط محذوفاً ؛ لأنه إذا اجتمع شرط وقسم ، ولم يتقدمهما ذو خبر أجيب سابقهما غالباً ، وقد يجاب الشرط مطلقاً كقوله : [الطويل]

717 لَئِنْ كَانَ مَا حُدِّثْتُهُ الْيَوْمَ صَادِقاً . . .

أَصُمْ فِي نَهَارِ الْقَيْظِ لِلشَّمْسِ بَادِيَا

ولا يحذف جواب الشرط إلا وفعله ماض ، وقد يكون مضارعاً كقوله : [الطويل]

718 لَئِنْ تَكُ قَدْ ضَاقَتْ عَلَيْكُمْ بُيُوتُكُمْ . . .

(475/61)

لَيَعْلَمُ رَبِّي أَنَّ بَيْتِيَ وَاسِعُ

فعلى قول الفَرَّاء تكون الجملتان من قوله : " وَلَقَدْ عَلِمُوا " ، و" لَمَنِ اشْتَرَاهُ " مُقْسَماً عليهما

ونقل عن الزجاج منع قول الفراء فإنه قال : هذا ليس موضع شرط ولم يوجه منع ذلك ،

والذي يظهر في منعه ، أن الفعل بعد " مَنْ " وهو " اشْتَرَاهُ " ماض لفظاً ومعنى ، فإن

الاشتراء قد وقع وانفصل ، فجعله شرطاً لا يصح ؛ لأن فعل الشرط وإن كان ماضياً لفظاً ،

فلا بد أن يكون مستقبلاً معنى .

وتقدم الكلام على قوله : " وَلَبِئْسَ مَا " وما ذكر الناس فيها ، واللام في " لبئسما " جواب

قسم محذوف تقديره : والله لبئسما ، والمخصوص بالذّم محذوف أي : السحر أو الكفر .

قوله : " لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ " جواب " لو " محذوف تقديره : لو كانوا يعلمون ذم ذلك لما باعوا به

أنفسهم ، وهذا أحسن من تقدير أبي البقاء : لو كانوا ينتفعون بعلمهم لامتنعوا من شراء السحر ؛ لأن المقدر كلما كان مُتصَيَّداً من اللفظ كان أَوْلَى .

والضمير في " به " يعود على السحر ، أو الكفر ، وفي " يعلمون " يعود على اليَهُودِ باتفاق .

قال الزمخشري : فإن قلت كيف أثبت لهم العلم أولاً في : " وَلَقَدْ عَلِمُوا " على سبيل التوكيد القسمي ، ثم نفاه عنهم في قوله : " لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ " .

قلت : معناه : لو كانوا يعملون بعلمهم ، جعلهم حين لم يعملوا به كأنهم منسلخون عنه ، وهذا بناء منه على أن الضميرين في " عَلِمُوا " و" يَعْلَمُونَ " لشيء واحد .

وأجاب غيره على هذا التقدير بأن المراد بالعلم الثاني العَقْل ؛ لأن العلم من ثمرته ، فلما انتفى الأصل انتفى ثمرته ، فصار وجود العلم كعدمه حيث لم ينتفعوا به كما سمى الله تعالى ، الكفار " صُمّاً وبُكْماً وعُمْيا " إذ لم ينتفعوا [بهذه الحواس] أو يغاير بين متعلّق العلمين أي : علموا ضرره في الآخرة ، ولم يعلما نفعه في الدنيا .

وأما إذا أعدت الضمير في " علموا " على الشياطين ، أو على مَنْ بحضرة سليمان ، أو على الملكين ، فلا إشكال لاختلاف المسند إليه العلم حينئذ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 2 صـ 323 . 356 ﴾ . باختصار .

فصل

قال فى الأمثل :

" السحر في رأي التوراة "

أعمال السحر والشّعبذة في كتب العهد القديم (التوراة وملحقاتها) هي أيضاً ذميمة غير جائزة. فالتوراة تقول : " لا تلتفتوا إلى الجان ولا تطلبوا التوابع فتنجسوا بهم وأنا الربّ إلهكم" (368) .

وجاء في موضع آخر من التوراة : " والنفس التي تلتفت إلى الجان وإلى التوابع لتزني ورائهم إجعل وجهي ضد تلك النفس واقطعها من شعبها " (369) .

ويقول قاموس الكتاب المقدس : " واضح أن السحر لم يكن له وجود في شريعة موسى ، بل إن الشريعة شددت كثيراً على أولئك الذين كانوا يستمدون من السحر " .

ومن الطريف أن قاموس الكتاب المقدس الذي يؤكد على أن السحر مذموم في شريعة موسى ، يصرح بأن اليهود تعلّموا السحر وعملوا به خلافاً لتعاليم التوراة فيقول : " . . . ولكن مع ذلك تسرّبت هذه المادة الفاسدة بين اليهود ، فآمن بها قوم ، ولجأوا إليه في وقت الحاجة" (370) .

ولذلك ذمهم القرآن ، وأدانهم لجشعهم وطمعهم وتهافتهم على متاع الحياة الدنيا .

السحر في عصرنا

توجد في عصرنا مجموعة من العلوم كان السحرة في العصور السالفة يستغلونها للوصول إلى مآربهم.

1 ـ الاستفادة من الخواص الفيزياوية والكيمياوية للأجسام، كما ورد في قصّة سحرة فرعون واستفادتهم من خواص الزئبق أو أمثاله لتحريك الحبال والعصيّ.

واضح أن الإِستفادة من الخصائص الكيمياوية والفيزياوية للأجسام ليس بالعمل الحرام، بل لابدّ من الإِطلاع على هذه الخصائص لإِستثمار مواهب الطبيعة، لكن المحرم هو استغلام هذه الخواص المجهولة عند عامة النّاس لإِيهام الآخرين وخداعهم وتضليلهم، مثل هذا العمل من مصاديق السحر، (تأمل بدقة).

2 ـ الاستفادة من التنويم المغناطيسي، والهيبنوتيزم، والمانية تيزم، والتله باتي (انتقال الأفكار من المسافات البعيدة).

(477/61)

هذه العلوم هي أيضاً إيجابية يمكن الإِستفادة منها بشكل صحيح في كثير من شؤون الحياة. لكن السحرة كانوا يستغلونها للخداع والتضليل.

ولو استخدمت هذه العلوم اليوم أيضاً على هذا الطريق المنحرف فهي من "السحر" المحرّم.

بعبارة موجزة: إن السحر له معنى واسع يشمل كل ما ذكرناه هنا وما أشرنا إليه سابقاً.

ومن الثابت كذلك أن قوة الإرادة في الإنسان تنطوي على طاقات عظيمة. وتزداد هذه الطاقات بالرياضات النفسية، ويصل بها الأمر أنها تستطيع أن تؤثر على الموجودات المحيطة بها، وهذا مشهود في قدرة المرتاضين على القيام بأعمال خارقة للعادة نتيجة رياضاتهم النفسية.

جدير بالذكر أن هذه الرياضات تكون مشروعة تارة، وغير مشروعة تارة أخرى.

الرياضات المشروعة تخلق في النفوس الطاهرة قوة إيجابية بناءة، والرياضات غير المشروعة تخلق قوة شيطانية، وقد تكون كلا القوتين قادرتين على القيام بأعمال خارقة للعادة، لكن الأولى إيجابية بناءة، والأخرى مخربة هدامة. انتهى. اهـ ﴿الأمثل حـ 1 صـ 321. 323﴾

(478/61)

بحث للشيخ / أحمد بن عبد العزيز القصير

"التحقيق في قصة هاروت وماروت"

اختلف المفسرون في قصة « هاروت وماروت » المذكورين في الآية على أقوال :

الأول : أنهما ملكان نزلا من السماء ، وقد اختلف هؤلاء في قصة نزولهما ، والذي أنزل عليهما :

(479/61)

---

1 – أن الله تعالى لما أطلع الملائكة على معاصي بني آدم ، عجبوا من معصيتهم له مع كثرة أنعمه عليهم ، فقال الله تعالى لهم : أما إنكم لو كنتم مكانهم لعملتم مثل أعمالهم ، فاختاروا هاروت وماروت ، فأهبطا إلى الأرض ، وأحل لهما كل شيء ، على ألا يشركا بالله شيئاً ، ولا يسرقا ، ولا يزنيا ، ولا يشربا الخمر ، ولا يقتلا النفس التي حرم الله إلا بالحق ، فعرضت لهما امرأة –وكانا يحكمان بين الناس– تخاصم زوجها واسمها بالعربية : الزهرة ، وبالفارسية : فندرخت ، فوقعت في أنفسهما ، فطلباها ، فامتنعت عليهما إلا أن يعبدا صنماً ، ويشربا الخمر ، فشربا الخمر ، وعبدا الصنم ، وواقعاها ، وقتلا سائباً (1) مر بهما خافا أن يشهر أمرهما ، وعلماها الكلام الذي إذا تكلم به المتكلم عرج به إلى السماء ،

فتكلمت وعرجت ، ثم نسيت ما إذا تكلمت به نزلت فمسخت كوكباً ، قال كعب : فوالله ما أمسيا من يومهما الذي هبطا فيه ، حتى استكملا جميع ما نهيا عنه ، فتعجبت الملائكة من ذلك ، ثم لم يقدر هاروت وماروت على الصعود إلى السماء ، فكانا يعلمان السحر .

رويت هذه القصة عن : عبد الله بن مسعود (2) ، وكعب الأحبار (3) ، وعلي بن أبي طالب (4)

---

(1) السائب : مأخوذ من ساب يسوب ، إذا مشى مسرعاً . انظر : لسان العرب (6 / 450-451) .

(2) أخرجه ابن جرير في تفسيره (501/1) .

(3) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (53/1) ، وابن أبي شيبة في المصنف(8 / 108) ، وابن جرير في تفسيره

(502/1) ، وابن أبي حاتم في تفسيره (306/1) تحقيق د/ أحمد الزهراني ، والبيهقي في شعب الإيمان (1 / 181) جميعهم من طريق موسى بن عقبة ، عن سالم ، عن ابن عمر ، عن كعب به .

(4) أخرجه ابن جرير في تفسيره – واللفظ له – (502/1) ، من طريق حماد بن زيد ، عن خالد الحذاء ، عن عمير به .

وأخرجه عبد بن حميد [كما في العجاب 322/1] والحاكم في المستدرك وصححه (291/2)، من طريق إسماعيل بن أبي خالد، عن عمير به. وفي سياقه بعض الاختلاف.

وأخرجه أبو الشيخ في العظمة (4/ 1223)، من طريق إسماعيل بن خالد، عن عمير، به.

وذكره السيوطي في الدر (186/1) وزاد في نسبته لإسحاق بن راهويه، وابن أبي الدنيا في العقوبات.

قال ابن كثير في تفسيره (143/1): «رجال إسناده ثقات وهو غريب جداً».

وقال الحافظ ابن حجر في (العجاب 322/1): «هذا سند صحيح، وحكمه أن يكون مرفوعاً؛ لأنه لا مجال للرأي فيه، وما كان علي - رضي الله عنه - يأخذ عن أهل الكتاب». ا.هـ

وروي عن علي مرفوعاً بلفظ: «لعن الله الزهرة، فإنها هي التي فتنت الملكين هاروت وماروت».

رواه ابن السني في عمل اليوم والليلة [كما في سلسلة الأحاديث الضعيفة ، للألباني (2 / 315)] ، وابن مردويه في تفسيره [كما في تفسير ابن كثير 143/1] .

وذكره السيوطي في الدر (186/1) ونسبه لإسحاق بن راهويه ، وابن المنذر .

قال عنه ابن كثير في تفسيره (143/1) : « لا يصح وهو منكر جداً » . وحكم عليه بالوضع الألباني ، في سلسلة الأحاديث الضعيفة (315/2) .

(481/61)

، وابن عباس (1) ، وعبيد الله بن عتبة (2) ، ومجاهد (3) ، وعطاء (4) ، وقتادة (5) ، والسدي (6) ، والربيع بن أنس (7) ، والكلبي (8) .

وقد رويت هذه القصة عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه من عدة طرق بعضها موقوفاً عليه ، وبعضها مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وبعضها عن ابن عمر ، عن كعب الأحبار ، وقد رويت بألفاظ متقاربة مع اتحاد أصل القصة ، وفيما يلي تفصيل هذه الطرق وذكر أقوال النقاد فيها :

الأول : طريق مجاهد ، عن ابن عمر ، موقوفاً ، وقد رُوي عنه من ثلاثة طرق :

1- طريق العوام بن حوشب ، عن مجاهد ، به .

أخرجه سعيد بن منصور في سننه (583/2) .

2- طريق المنهال بن عمرو ، ويونس بن خباب ، كلاهما عن مجاهد ، به .

أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (306/1) تحقيق د/ أحمد الزهراني .

قال ابن كثير في تفسيره (144/1) : « وهذا إسناد جيد إلى عبد الله بن عمر » ثم ذكر أنه روي مرفوعاً وقال : « وهذا - يعني طريق مجاهد - أثبت وأصح إسناداً » .

الثاني : طريق سعيد بن جبير ، عن ابن عمر ، موقوفاً .

---

(1) أخرجه ابن جرير في تفسيره (501/1) ، وابن أبي حاتم في تفسيره (305/1) تحقيق د/ أحمد الزهراني ، والحاكم في المستدرك (480/2) .

(2) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (53/1) ، وابن جرير في تفسيره (498/1) .

تنبيه : وقع في تفسير ابن جرير (498/1) عن عبد الله مكبراً ، وفي تفسير عبد الرزاق (53/1) ، وزاد المسير لابن الجوزي (108/1) ، وتفسير ابن كثير (145/1) ، والدر (189/1) : (عبيد الله بن عبد الله) منسوباً مصغراً وهو الصواب .

(3) أخرجه ابن جرير (504/1) ، وابن أبي حاتم في تفسيره (309/1) تحقيق د/ أحمد الزهراني .

(4) الوسيط (183/1) .

(5) تفسير البغوي (100/1) .

(6) أخرجه ابن جرير (502/1) .

(7) أخرجه ابن جرير (503/1) .

(8) تفسير البغوي (100/1 ، 101) ، تفسير القرطبي (36/2) .

(482/61)

أخرجه الحاكم في المستدرك (650/4) وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

الثالث : طريق سالم بن عبد الله بن عمر ، عن أبيه ، عن كعب ، به .

أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (53/1) ، وابن أبي شيبة في المصنف (8 / 108) ، وابن جرير في تفسيره (502/1) ، وابن أبي حاتم في تفسيره (306/1) تحقيق د/ أحمد الزهراني ، والبيهقي في شعب الإيمان (1 / 181) جميعهم من طريق موسى بن عقبة ، عن سالم ، عن ابن عمر ، عن كعب به . قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (143/1) – بعد أن ذكر الحديث من رواية موسى بن جبير ، ومعاوية بن صالح ، كلاهما عن نافع عن ابن عمر به مرفوعاً – قال : « فهذا – يعني طريق سالم – أصح وأثبت إلى عبد الله بن عمر من الإسنادين المتقدمين ، وسالم أثبت في أبيه من مولاه نافع ، فدار الحديث ورجع إلى نقل كعب الأحبار عن كتب بني إسرائيل والله أعلم » .

الرابع : طريق نافع عن ابن عمر أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « إن آدم عليه السلام لما أهبطه الله تعالى إلى الأرض قالت الملائكة أي رب ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ قالوا ربنا نحن أطوع لك من بني آدم قال الله تعالى للملائكة هلموا ملكين من الملائكة حتى يهبط بهما إلى الأرض فننظر كيف يعملان قالوا ربنا هاروت وماروت فأهبطا إلى الأرض ومثلت لهما الزهرة امرأة من أحسن البشر فجاءتهما فسألاها نفسها فقالت لا والله حتى تكلما بهذه الكلمة من الإشراك فقالا والله لا نشرك بالله أبدا فذهبت عنهما ثم رجعت بصبي تحمله فسألاها نفسها فقالت لا والله حتى تقتلا هذا الصبي فقالا والله لا نقتله أبدا فذهبت ثم رجعت بقدح خمر تحمله فسألاها نفسها قالت لا والله حتى تشربا هذا الخمر فشربا فسكرا فوقعا عليها وقتلا الصبي فلما أفاقا قالت المرأة والله ما تركتما شيئا مما أبيتماه علي إلا قد فعلتما حين سكرتما فخيرا بين عذاب الدنيا والآخرة فاختارا عذاب الدنيا » .

أخرجه الإمام أحمد – واللفظ له – في مسنده (179/2) حديث (6172) . وعبد بن حميد في المنتخب (251) . وابن أبي حاتم في العلل (2 / 69) . وابن حبان في

صحيحه (63/14) . والبيهقي في السنن الكبرى (40/10) . وفي شعب الإيمان (1 / 180) جميعهم من طريق زهير بن محمد ، عن موسى بن جبير ، عن نافع ، به .

(484/61)

ونقل ابن أبي حاتم في العلل (2 / 69-70) عن أبيه أنه قال : « هذا حديث منكر »

وقال ابن كثير في تفسيره (143/1) – بعد سياقه للحديث – : « هذا حديث غريب من هذه الوجه ورجاله كلهم ثقات من رجال الصحيحين إلا موسى بن جبير ، هذا وهو الأنصاري السلمي مولاهم المدني الحذاء ، روى عن ابن عباس ، وأبي أمامة سهل بن حنيف ، ونافع ، وعبد الله بن كعب بن مالك ، وروى عنه ابنه عبد السلام وبكر بن مضر ، وزهير بن محمد ، وسعيد بن سلمة وعبد الله بن لهيعة ، وعمرو بن الحارث ، ويحيى بن أيوب ، وروى له أبو داود ، وابن ماجه ، وذكره ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل (139/8) ولم يحكِ فيه شيئاً من هذا ولا هذا ، فهو مستور الحال ، وقد تفرد به عن نافع مولى ابن عمر ، عن ابن عمر رضي الله عنهما ، عن النبي صلى الله عليه وسلم » ا . هـ .

وللحديث طرق أخرى عن نافع ولكنها ضعيفة لا تصلح للمتابعة .

الطريق الأول : أخرجه ابن مردويه في تفسيره [كما في تفسير ابن كثير 143/1] قال :

حدثنا دعلج بن أحمد ، حدثنا هشام بن علي بن هشام ، حدثنا عبد الله بن رجاء ، حدثنا سعيد ابن سلمة ، حدثنا موسى بن سرجس ، عن نافع ، عن ابن عمر ، سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول : . . . فذكره بطوله .

وفي سنده موسى بن سرجس ذكره ابن حجر في التقريب (288/2) وقال : « مدني مستور » .

وقد خُولف هشام بن علي في روايته هذه عن عبد الله بن رجاء .

فأخرج البيهقي في شعب الإيمان (1 / 180) من طريق محمد بن يونس بن موسى ، حدثنا عبد الله بن رجاء ، حدثنا سعيد بن سلمة ، عن موسى بن جبير ، عن موسى بن عقبة ، عن سالم عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . . . فذكره بطوله .

(485/61)

وفي سنده محمد بن يونس بن موسى الكديمي ، متهم بوضع الحديث . قال ابن حبان : « كان يضع الحديث ، ولعله قد وضع على الثقات أكثر من ألف حديث » . وقال ابن عدي : « اتهم بوضع الحديث وبسرقته ، وادعى رؤية قوم لم يرهم ، ورواية عن قوم لا يعرفون وترك

عامة مشايخنا الرواية عنه ، ومن حدث عنه نسبه إلى جده موسى بأن لا يعرف » . وقال الدارقطني : « كان الكديمي يتهم بوضع الحديث ، وما أحسن القول فيه إلا من لم يخبر حاله » . وقال الذهبي : « هالك ، قال ابن حبان وغيره : كان يضع الحديث على الثقات » .

انظر : الكامل لابن عدي (292/6) ، وميزان الاعتدال (6 / 378-380) ، والتهذيب (475/9) ، والمجروحين لابن حبان (312/2) .

قال البيهقي بعد سياقه للحديث في الموضع السابق : « ورويناه من وجه آخر عن مجاهد ، عن ابن عمر موقوفاً عليه ، وهو أصح فإن ابن عمر إنما أخذه عن كعب » .

الطريق الثاني : يرويه الحسين – وهو سنيد بن داود صاحب التفسير – عن فرج بن فضالة ، عن معاوية بن صالح ، عن نافع ، عن ابن عمر مرفوعاً .

أخرجه : الخطيب البغدادي في تاريخه (42/8) . وابن جرير في تفسيره (504/1) .

قال ابن الجوزي في الموضوعات (1 / 186) : « هذا حديث لا يصح ، والفرج بن فضالة قد ضعفه يحيى ، وقال ابن حبان : يقلب الأسانيد ، ويلزق المتون الواهية بالأحاديث الصحيحة ، لا يحل الاحتجاج به ، وأما سنيد فقد ضعفه أبو داود ، وقال النسائي ليس بثقة » ا . هـ .

وقال ابن كثير في تفسيره (143/1) – بعد سياقه للطريقين : « وهذان أيضاً غريبان جداً ، وأقرب ما يكون في هذا أنه من رواية عبد الله بن عمر عن كعب الأحبار لا عن النبي

صلى الله عليه وسلم » ا . هـ .

وقد اختلف العلماء في حديث ابن عمر :

(486/61)

فرجح جماعة وقفه على ابن عمر ، منهم : ابن أبي حاتم في العلل (2 / 69) ، والبيهقي في شعب الإيمان (1 / 181) ، وابن الجوزي في الموضوعات (1 / 186) ، وابن كثير في تفسيره (143/1) ، والألباني في الضعيفة (204/1-207) .

وصححه مرفوعاً : ابن حبان في صحيحه (63/14) ، والهيثمي في مجمع الزوائد (5 / 68) ، وابن حجر في العجاب (317/1 ، 327 ، 343) ، وفتح الباري (235/10) . قال ابن حجر : « له طرق كثيرة جمعتها في جزء يكاد الواقف عليه يقطع بوقوع هذه القصة لكثرة طرقه الواردة فيها ، وقوة مخارج أكثرها ، والله أعلم » . أ . هـ ، من القول المسدد ، ص (48) .

والصواب وقفه على ابن عمر ، وهو مما تلقاه عن كعب الأحبار .

وانظر : سنن سعيد بن منصور (2 / 584 - 594) بتحقيق الدكتور : سعد آل حميد ، وقد أفدت من تحقيقه في تخريج هذا الحديث .

وقد أنكر جماعة من المفسرين هذه القصة وعدها من الإسرائيليات المتلقفة عن مَسْلَمةِ أهل الكتاب ، منهم :

الماوردي ، وابن حزم ، والقاضي عياض ، وابن العربي ، وابن عطية ، وابن الجوزي ، والرازي ، والقرطبي ، والخازن ، وأبو حيان ، وابن كثير ، والبيضاوي ، والألوسي ، والقاسمي ، وسيد قطب ، والألباني . (1)

---

(1) حاشية تفسير العز بن عبد السلام (148/1) ، والفصل في الملل والأهواء والنحل ، لابن حزم (297/2-281) ، (324/2-325) ، والشفا للقاضي عياض (2 / 182) ، وأحكام القرآن لابن العربي (46/1) ، والمحرر الوجيز (187/1) ، وزاد المسير (108/1) ، مفاتيح الغيب (199/3) ، وتفسير القرطبي (36/2) ، تفسير الخازن (66/1) ، البحر المحيط (499/1) ، تفسير ابن كثير (146/1) ، تفسير البيضاوي (79/1) ، روح المعاني (1 / 342) ، محاسن التأويل (1 / 340- 341) ، وفي ظلال القرآن (97/1) ، سلسلة الأحاديث الضعيفة (204/1) (313/2) .

قال الحافظ ابن كثير : « وقد روي في قصة هاروت وماروت عن جماعة من التابعين كمجاهد ، والسدي ، والحسن البصري ، وقتادة ، وأبي العالية ، والزهري ، والربيع بن أنس ، ومقاتل بن حيان ، وغيرهم ، وقصها خلق من المفسرين من المتقدمين والمتأخرين ، وحاصلها راجع في تفصيلها إلى أخبار بني إسرائيل ، إذ ليس فيها حديث مرفوع صحيح متصل الإسناد إلى الصادق المصدوق المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى ، وظاهر سياق القرآن إجمال القصة ، من غير بسط ولا إطناب فيها ، فنحن نؤمن بما ورد في القرآن ، على ما أراده الله تعالى ، والله أعلم بحقيقة الحال » . (1)

2- وقيل : إنهما نزلا بتعليم السحر للناس . روي ذلك عن : عبد الله بن مسعود (2) ، وابن عباس (3) ، والحسن البصري (4) ، وقتادة (5) ، وابن زيد (6) ، ورجحه الطبري ، والزجاج ، والجصاص ، والبغوي ، والزمخشري ، والرازي ، والنسفي ، والخازن ، والبيضاوي ، والشوكاني ، والسعدي ، وابن عثيمين . (7)

---

(1) تفسير ابن كثير (146/1) .

(2) 16) زاد المسير (108/1) .

(4) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (310/1) تحقيق د/ أحمد الزهراني .

(5) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (53/1) ، وابن جرير (498/1 ، 507) .

(6) أخرجه ابن جرير (498/1) .

(7) انظر : جامع البيان للطبري (500/1) ، معاني القرآن للزجاج (183/1) ، أحكام القرآن للجصاص (68/1) ، تفسير البغوي (100/1) ، الكشاف (172/1) ، مفاتيح الغيب (198/3) ، تفسير النسفي (114/1) ، تفسير الخازن (64/1) ، تفسير البيضاوي (79/1) ، فتح القدير (187/1-188) ، تيسير الكريم الرحمن (72) ، أحكام من القرآن الكريم (369) .

(488/61)

3- وقيل : إنهما نزلا بتعليم التفرقة بين المرء وزوجه ، لا السحر : روي ذلك عن : ابن عباس (1) ، ومجاهد (2) ، وقتادة (3) ، والكلبي (4) :

القول الثاني : أن المراد بهاروت وماروت ، جبريل وميكائيل -عليهما السلام- ، وأن الله تعالى لم ينزل عليهما السحر ، خلافاً لما زعمته اليهود ، وأن « ما » في قوله تعالى : ﴿ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ ﴾ للنفي .

روي ذلك عن :

ابن عباس (5) ، وأبي العالية (6) ، وعطية العوفي (7) ، وخالد بن أبي عمران (8) ، والربيع بن أنس (9) .

القول الثالث : أن المراد بهما : داود وسليمان عليهما السلام ، وأن « ما » أيضاً نافية ، والمعنى : أن الله تعالى لم ينزل السحر على داود ، وسليمان .

---

(1) أخرجه ابن أبي جرير (498/1) ، وابن أبي حاتم في تفسيره (310/1) تحقيق د/أحمد الزهراني .

(2) أخرجه ابن أبي جرير (499/1) .

(3) زاد المسير (108/1) .

(4) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (53/1) .

(5) أخرجه ابن جرير (497/1) ، وابن أبي حاتم في تفسيره (302/1) تحقيق د/ أحمد الزهراني .

(6) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (302/1) تحقيق د/أحمد الزهراني .

(7) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (302/1) تحقيق د/أحمد الزهراني .

(8) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره معلقاً (302/1) تحقيق د/أحمد الزهراني .

(9) أخرجه ابن جرير (497/1) ، وابن أبي حاتم في تفسيره معلقاً (302/1) تحقيق د/أحمد الزهراني .

روي ذلك عن : عبد الرحمن بن أبزى ، وكان يقرأ الآية : ﴿ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلِكَيْنِ ﴾ بكسر اللام . (1) (2)

القول الرابع : أن المراد بهما علجان (3) ، كانا ببابل ملكين .

روي ذلك عن : الضحاك (4) ، والحسن البصري (5) ، وأبي الأسود الدؤلي (6) .

القول الخامس : أن المراد بهما رجلان ساحران كانا ببابل .

روي ذلك عن ابن عباس (7) .

الترجيح :

---

(1) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (303/1) تحقيق د/ أحمد الزهراني ، وانظر : المحرر الوجيز (186/1) ، تفسير القرطبي (37/2) ، والبحر المحيط (497/1) ، تفسير ابن كثير (142/1) .

(2) قراءة الجمهور بفتح اللام (الملَكين) ورويت قراءة الكسر (المِلكين) عن ابن عباس ، وابن أبزى ، وسعيد بن جبير ، والضحاك ، والحسن البصري ، والزهري ، وأبي الأسود الدؤلي ، وهي قراءة شاذة .

انظر : جامع البيان للطبري (504/1) ، تفسير ابن أبي حاتم (303/1) تحقيق د/

أحمد الزهراني ، تفسير السمرقندي (144/1) ، تفسير الماوردي (165/1) ، تفسير البغوي (99/1) ، الكشاف (172/1) ، أحكام القرآن لابن العربي (45/1) ، المحرر الوجيز (186/1) ، زاد المسير (107/1) ، تفسير القرطبي (37/2) ، البحر المحيط (497/1) .

(3) العلج : هو الرجل الشديد الغليظ . والعلج هو الرجل من كفار العجم . ويقال للرجل القوي الضخم من الكفار : علج . النهاية في غريب الحديث والأثر (259/3) ، لسان العرب (349/9) .

(4) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (303/1) تحقيق د/ أحمد الزهراني .

(5) تفسير البغوي (99/1) ، أحكام القرآن لابن العربي (45/1) ، المحرر الوجيز (186/1) ، مفاتيح الغيب (198/3) ، تفسير القرطبي (37/2) ، البحر المحيط (497/1) .

(6) تفسير الماوردي (165/1) ، البحر المحيط (497) .

(7) تفسير البغوي (99/1) ، البحر المحيط (497) .

الذي يظهر – والله أعلم – أن هاروت وماروت كانا ملكين من ملائكة السماء أنزلهما الله – عز وجل – إلى الأرض فتنة للناس وامتحاناً ، وأنهما كانا يعلمان الناس السحر بأمر الله – عز وجل – لهما .

ولله تعالى أن يمتحن عباده بما شاء كما امتحن جنود طالوت بعدم الشرب من النهر في قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (259) ﴾ (1) وكما امتحن عباده بخلق إبليس وهو أصل الشر ، ونهى عباده عن متابعته وحذر منه . (2)

برهان ذلك :

قوله تعالى في الآية : ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ﴾

فالضمير في قوله : ﴿ يُعَلِّمَانِ ﴾ وقوله : ﴿ مِنْهُمَا ﴾ عائد على الملكين ؛ لأنهما أقرب مذكور ، ولأنه ورد بصيغة التثنية فهو مبدل منهما .

وفي قولهما : ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾ دليل واضح على أنهما كانا يعلمان السحر ، وإلا فما فائدة تحذيرهما من ذلك ؟ ! (3)

(1) البقرة: 259 .

(2) انظر: الوسيط (185/1) ، أحكام من القرآن الكريم (368-369) ، عالم السحر (254) .

(3) انظر: جامع البيان للطبري (499/1-500) ، والشفا (181/2) .

وهذا الذي قلنا هو الظاهر المتبادر من السياق ، وهو أولى ما حملت عليه الآية . (1)

أن المروي -عن الصحابة والتابعين- في قصة هاروت وماروت ، حاصلها راجع في تفصيلها إلى أخبار بني إسرائيل ، ولا يصح فيها حديث مرفوع (2) ، والأصل أنه لا يصح حمل الآية على تفسيرات وتفصيلات لأمور مغيبة لا دليل عليها من القرآن والسنة . (3)

أن ما نسب إلى الملكين - بأنهما شربا الخمر ، وقتلا ، نفساً وزنيا - غير جائز في حقهما لما تقرر من عصمة الملائكة - عليهم السلام - من ذلك . (4)

فإن قيل : إن تعليم الملكين للسحر كفر ، لقوله تعالى : ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾ (5) وهذا فيه قدح بعصمتهم لأنه لا يجوز عليهم تعليم السحر ؟

فجوابه :

أنه ليس في تعليم الملكين للسحر كفر ، ولا يأثمان بذلك ؛ لأنه كان بإذن الله لهما ، وهما مطيعان فيه ، وإنما الإثم على من تعلمه من الناس ، وقد أخبر سبحانه بأن الملكان كانا ينهيان عن تعلمه أشد النهي ، حيث قال : ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾ (6) .

---

(1) انظر : قواعد الترجيح (137/1) .

(2) تفسير ابن كثير (146/1) .

(3) انظر : قواعد الترجيح (225/1) .

(4) أجمع المسلمون على أن الملائكة مؤمنون مكرمون ، واتفق أئمة المسلمين على أن حكم المرسلين منهم حكم النبيين في العصمة والتبليغ ، واختلفوا في غير المرسلين منهم ، والصواب عصمة جميعهم ، وتنزيه مقامهم الرفيع عن جميع ما يحط من رتبتهم ومنزلتهم . انظر : الشفا للقاضي عياض (2 / 181) ، ومفاتيح الغيب (2 / 152) وتفسير القرطبي (2 / 36) ، وتفسبر الخازن (1 / 66) ، وتفسير البحر المحيط (1 / 292 ، 498) .

(5) البقرة : 102 .

(6) البقرة : 102 .

وقد بينا من قبل ، أن لله سبحانه أن يبتلي عباده بما شاء ، ومن ذلك ابتلائهم بملكين يعلمانهم السحر ، والله تعالى أعلم . (1) انتهى انتهى . ا هـ ﴾ بحث للشيخ / أحمد بن عبد العزيز القصير ﴿

(1) انظر : جامع البيان للطبري (499/1) ، معاني القرآن للزجاج (184/1) ، الوسيط (185/1) ، مفاتيح الغيب (196/3 ، 198 ، 199) ، فتح القدير (188/1) .

فصل

قال الدكتور محمد أبو شهبة :

الإسرائيليات في قصة هاروت وماروت

1 - الإسرائيليات في قصة هاروت وماروت :

روى السيوطي في الدر المنثور ، في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوت ﴾ روايات كثيرة وقصصا عجيبة رويت عن ابن عمر ، وابن مسعود ، المروي عن عبد الله بن عمرو بن العاص في التفسير

5- المروي عن عبد الله بن عمرو بن العاص في التفسير :

وقد روي عن عبد الله بن عمرو تفاسير كثيرة ، فيما يتعلق بالقصص وأخبار الفتحة ، والآخرة ، وما أشبهها ، بأن تكون مما تحمله عن أهل الكتاب الذين أسلموا ، وما وجده في كتبهم التي أصاب منها في اليرموك زاملتين ، وقد نقد العلماء كل ذلك ، وبينوا الصحيح من العليل والمقبول من المردود .

ومما ذكرنا : يتبين جليا أن العلماء المحدثين نقدوا طرق المرويات في التفسير وغيره ، وبينوا الصحيح والضعيف ، والموضوع ونبهوا إلى الإسرائيليات ، وحذروا منها ، ولو أن المفسرين كانوا من أهل الحديث ، والنقد ، لنزهوا كتبهم مما وقع فيها من المرويات من غثاء وزبد ، ولما وقع فيها كل هذا الركام من الإسرائيليات ، والخرافات ، والأوهام ، ولنأخذ في بيان المقصود فنقول –وبالله التوفيق :

الإسرائيليات في قصة هاروت وماروت

1- الإسرائيليات في قصة هاروت وماروت :

روى السيوطي في الدر المنثور ، في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ

هَارُوتَ وَمَارُوت ﴾ روايات كثيرة وقصصا عجيبة رويت عن ابن عمر ، وابن مسعود ، وعلي ، وابن عباس ، ومجاهد ، وكعب ، والربيع ، والسدي ، رواها ابن جرير الطبري في تفسيره ، وابن مردويه ، والحاكم ، وابن المنذر ، وابن أبي الدنيا ، والبيهقي ، والخطيب في تفاسيرهم وكتبهم 1 .

(494/61)

وخلاصتها : أنه لما وقع الناس من بني آدم فيما وقعوا فيها من المعاصي والكفر بالله ، قالت الملائكة في السماء : أي رب ، هذا العالم إنما خلقتهم لعبادتك ، وطاعتك ، وقد ركبوا الكفر ، وقتل النفس الحرام ، وأكل المال الحرام ، والسرقة ، والزنا ، وشرب الخمر ، فجعلوا يدعون عليهم ، ولا يعذرونهم فقيل لهم : إنهم في غيب ، فلم يعذروهم ، وفي بعض الروايات أن الله قال لهم : لو كنتم مكانهم لعملتم مثل أعمالهم ، قالوا : سبحانك ما كان ينبغي لنا ، وفي رواية أخرى : قالوا : لا . فقيل لهم : اختاروا منكم ملكين آمرهما بأمري ، وأنهاهما عن معصيتي ، فاختاروا هاروت ، وماروت ، فأهبطا إلى الأرض ، وركبت فيهما الشهوة ، وأمرا أن يعبدا الله ، ولا يشركا به شيئا ، ونهيا عن قتل النفس الحرام ، وأكل المال الحرام ، والسرقة ، والزنا ، وشرب الخمر ، فلبثا على ذلك في الأرض زمانا ، يحكمان بين الناس

بالحق ، وفي ذلك الزمان امرأة حسنها في سائر الناس كحسن الزهرة في سائر الكواكب ، وأنهما أراداها 2 على نفسها ، فأبت إلا أن يكونا على أمرها ودينها ، وأنهما سألاها عن دينها ، فأخرجت لهما صنما ، فقالا : لا حاجة لنا في عبادة هذا ، فذهبا فصبرا ما شاء الله ، ثم أتيا عليها ، فخضعا لها بالقول ، وأراداها على نفسها ، فأبت إلا أن يكونا على دينها ، وأن يعبدا الصنم الذي تعبده ، فأبيا ، فلما رأت أنهما قد أبيا أن يعبدا الصنم ، قالت لهما : اختارا إحدى الخلال الثلاث : إما أن تعبدا هذا الصنم ، أو تقتلا النفس ، أو تشربا هذا الخمر ، فقالا : هذا لا ينبغي ، وأهون الثلاثة شرب الخمر ، وسقتهما الخمر ، حتى إذا أخذت الخمر فيهما وقعا بها 3 فمر بهما إنسان ، وهما في ذلك ، فخشيا أن يفشي عليهما ، فقتلاه ، فلما أن ذهب عنهما السكر ، عرفا ما قد وقعا فيه من الخطيئة ، وأرادا أن يصعدا إلى السماء ، فلم يستطيعا وكشف الغطاء فيما

---

1 الدر المنثور ج 1 من ص 97-103 ، تفسير ابن جرير ج 1 ص 362-367 ط بولاق .

2 راودها عن نفسها .

3 أي فعلا بها الفاحشة .

بينهما ، وبين أهل السماء ، فنظرت الملائكة إلى ما قد وقعا فيه من الذنوب ، وعرفوا أنه من كان في غيب فهو أقل خشية فجعلوا بعد ذلك يستغفرون لمن في الأرض ، فلما وقعا فيما وقعا فيه من الخطيئة ، قيل لهما : اختارا عذاب الدنيا ، أو عذاب الآخرة ، فقالا : أما عذاب الدنيا فينقطع ويذهب ، وأما عذاب الآخرة فلا انقطاع له ، فاختارا عذاب الدنيا فجعلا ببابل فهما بها يعذبان معلقين بأرجلهما ، وفي بعض الروايات ، أنهما علماها الكلمة التي يصعدان بها إلى السماء ، فصعدت ، فمسخها الله ، فهي هذا الكوكب المعروف بالزهرة1 .

ويذكر السيوطي أيضاً في كتابه ما رواه ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه2 ، والبيهقي في سننه : عن عائشة ، أنها قدمت عليها امرأة من دومة الجندل ، وأنها أخبرتها أنها جيء لها بكلبين أسودين فركبت كلبا ، وركبت امرأة أخرى الكلب الآخر ، ولم يمض غير قليل ، حتى وقفتا ببابل ، فإذا هما برجلين معلقين بأرجلهما ، وهما هاروت وماروت ، واسترسلت المرأة التي قدمت على عائشة في ذكر قصة عجيبة غريبة .

ويذكر أيضا : أن ابن المنذر أخرج من طريق الأوزاعي ، عن هارون بن رباب ، قال : دخلت على عبد الملك بن مروان وعنده رجل قد ثنيت له وسادة ، وهو متكئ عليها ، فقالوا : هذا قد لقي هاروت ، وماروت فقالوا له : حدثنا رحمك الله : فأنشأ الرجل

يحدث بقصة عجيبة غريبة3 .

وكل هذا من خرفات بني إسرائيل ، وأكاذيبهم التي لا يشهد لها عقل ، ولا نقل ، ولا شرع ، ولم يقف بعض رواة هذا القصص الباطل عند روايته عن بعض الصحابة والتابعين ولكنهم أوغلوا باب الإثم ، والتجني الفاضح ، فألصقوا هذا الزور إلى النبي صلى الله عليه وسلم ورفعوه إليه ، فقد قال السيوطي : أخرج سعيد ، وابن جرير ، والخطيب في تاريخ ، عن نافع ، قال : سافرت مع ابن عمر ، فلما كان من آخر الليل :

---

1 الزُّهَرة كرُطَبة –يعني بضم الزاي وفتح الهاء– نجم في السماء كما في القاموس وغيره .

2 تصحيح الحاكم غير معتدٍّ به ؛ لأنه معروف أنه متساهل في الحكم بالتصحيح كما قال ابن الصلاح وغيره ، وقد صحح أحاديث تعقبها الإمام الذهبي وحكم عليها بالوضع .

3 الدر المنثور ص 101 تفسير الطبري ج1 ص 366 .

348 161

(496/61)

قال : يا نافع : انظر : هل طلعت الحمراء ؟ قلت : لا ، مرتين أو ثلاثا ، ثم قلت : قد طلعت ، قال : لا مرحبا بها ، ولا أهلا : قلت : سبحان الله ! ! نجم مسخر ، ساع ، مطيع ! ! قال

: ما قلت لك إلا ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " وإن الملائكة قالت : يا رب كيف صبرك على بني آدم في الخطايا والذنوب ؟ قال : إني ابتليتهم وعافيتكم ، قالوا : لو كنا مكانهم ما عصيناك ، قال : فاختاروا ملكين منكم ، فلم يألوا جهدا أن يختاروا فاختاروا هاروت وماروت ، فنزلا ، فألقى الله عليهم الشبق ، قلت : وما الشبق ؟ قال : الشهوة ، فجاءت امرأة يقال لها : الزهرة فوقعت في قلبيهما ، فجعل كل واحد منهما يخفي عن صاحبه ما في نفسه ، ثم قال أحدهما للآخر : هل وقع في نفسك ما وقع في قلبي ؟ قال : نعم ، فطلباها لأنفسهما ، فقالت : لا أمكنكما حتى تعلماني الاسم الذي تعرجان به إلى السماء ، وتهبطان ، فأبيا ، ثم سألاها أيضا ، فأبت ففعلا ، فلما استطيرت طمسها الله كوكبا ، وقطع أجنحتها ، ثم سألا التوبة من ربهما ، فخيرهما بين عذاب الدنيا ، وعذاب الآخرة ، فاختارا عذاب الدنيا على عذاب الآخرة ، فأوحى الله إليهما : أن ائتيا " بابل" 1 فانطلقا إلى بابل ، فخسف بهما ، فهما منكوسان بين السماء والأرض ، معذبان إلى يوم القيامة ، ثم ذكر أيضا رواية أخرى ، مرفوعة إلى النبي صلى الله عليه وسلم لا تخرج في معناها عما ذكرنا 2 ، ولا ينبغي أن يشك مسلم عاقل فضلا عن طالب حديث في أن هذا موضوع على النبي صلى الله عليه وسلم مهما بلغت أسانيده من الثبوت فما بالك إذا كانت أسانيدها واهية ، ساقطة ، ولا تخلو من وضاع ، أو ضعيف ، أو مجهول ؟ ! ! ونص على وضعه أئمة الحديث ! !

وقد حكم بوضع هذه القصة الإمام أبو الفرج ابن الجوزي3 ، ونص الشهاب العراقي على أن من اعتقد في هاروت وماروت أنهما ملكان يعذبان على خطيئتهما : فهو كافر بالله .

---

1 بابل : بلد من بلاد العراق .

2 الدر المنثور ج1 ص 97 تفسير الطبري ج 1 ص 364 .

3 اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة ج1 ص 82 .

العظيم1 ، وقال الإمام القاضي عياض في "الشفاء" ، وما ذكره أهل الأخبار ، ونقله المفسرون في قصة هاروت وماروت : لم يرد فيه شيء لا سقيم2 ، ولا صحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس هو شيئًا يؤخذ بالقياس .

وكذلك : حكم بوضع المرفوع من هذه القصة : الحافظ : عماد الدين ابن كثير ، وأما ما ليس مرفوعا : فبين أن منشأة روايات إسرائيلية عن كعب وغيره ، ألصقها زنادقة أهل الكتاب بالإسلام ، قال رحمه الله في تفسيره بعد أن تكلم على الأحاديث الواردة في هاروت وماروت ، وأن روايات الرفع غريبة جدا ، وأقرب ما يكون في ذلك أنه من رواية عبد الله بن

عمر ، عن كعب الأحبار ، كما قال عبد الرزاق في تفسيره عن الثوري ، عن موسى بن عقبة ، عن سالم بن عبد الله بن ابن عمر ، عن كعب ، ورفع مثل هذه الإسرائيليات إلى النبي كذب واختلاق ألصقه زنادقة أهل الكتاب ، زورا وبهتانا " وذكر مثل ذلك في البداية والنهاية3 .

أقول : وهذا الذي قاله العلامة ابن كثير هو : الحق الذي لا ينبغي أن يقال غيره . وليس أدل على هذا من أن ابن جرير رواها بالسند الذي ذكره ابن كثير ، وبغيره عن ابن عمر ، عن كعب الأحبار4 ، ولكن بعض الرواة غلطا ، أو سوء نية ، رفعها ونسبها إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وكذا ردها المحققون من المفسرين الذين مهروا في معرفة أصول الدين ، وأبت عقولهم أن تقبل هذه الخرافات : كالإمام الرازي ، وأبي حيان ، وأبي السعود ، والآلوسي ،

---

1 روح المعاني ج1 ص 341 .

2 لعله أراد به الضعيف ، واعتبر ما روى مرفوعا ساقطا عن الاعتبار .

3 البداية والنهاية ج 1 ص 37 .

4 تفسير الطبري ج 1 ص 363 .

ثم هذه من ناحية العقل غير مسلمة ، فالملائكة معصومون عن مثل هذه الكبائر ، التي لا تصدر من عربيد ، وقد أخبر الله عنهم بأنهم لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون ، كما ورد في بعض الروايات التي أشرت إليها آنفا رد لكلام الله ، وفي رواية أخرى : أن الله قال لهما : لو ابتليتكما بما ابتليت به بني آدم لعصيتماني ، فقالا : لو فعلت بنا يا رب ما عصيناك ! ! ورد كلام الله كفر ، ننزه عنه من له علم بالله وصفاته ، فضلًا عن الملائكة .

ثم كيف ترفع الفاجرة إلى السماء ، وتصير كوكبا مضيئا ، وما النجم الذي يزعمون أنه : " الزهرة" وزعموا أنه كان امرأة ، فمسخت إلا في مكانه ، من يوم أن خلق الله السموات والأرض .

وهذه الخرافات التي لا يشهد لها نقل صحيح ، ولا عقل سليم هي كذلك مخالفة لما صار عند العلماء المحدثين أمرا يقينا ، ولا أدرى ماذا يكون موقفنا أمام علماء الفلك ، والكونيات ، إذا نحن لم نزيف هذه الخرافات ، وسكتنا عنها ، أو انتصرنا لها ؟ ! !

(499/61)

وإذا كان بعض العلماء المحدثين[1] مال إلى ثبوت مثل هذه الروايات التي لا نشك في كذبها ، فهذا منه تشدد في التمسك بالقواعد ، من غير نظر إلى ما يلزم من الحكم بثبوت ذلك من المحظورات ، وأنا لا أنكر أن بعض أسانيدها صحيحة أو حسنة ، إلى بعض الصحابة أو التابعين ، ولكن مرجعها ومخرجها من إسرائيليات بني إسرائيل ، وخرافاتهم ، والراوي قد يغلط ، وبخاصة في رفع الموقوف ، وقد حققت هذا في مقدمات البحث ، وأن كونها صحيحة في نسبتها لا ينافي كونها باطلة في ذاتها ، ولو أن الانتصار لمثل هذه الأباطيل يترتب عليه فائدة ما لغضضنا الطرف عن مثل ذلك ، ولما بذلنا غاية الجهد في التنبيه إلى بطلانها ، ولكنها فتحت على المسلمين باب شر كبير ، يجب أن يغلق .

ويرحم الله الإمام الحافظ الناقد البصير : ابن كثير فقد نبه على أصل الداء ، ووصف له الدواء ، وبيَّن الحق والصواب في موقف المسلم من هذه الخرافات .

ما التفسير الصحيح للآية ؟

وليس من شأني في هذا الكتاب مجرد الهدم والإبطال لهذه الإسرائيليات والخرافات فحسب ، ولكني إلى ذلك سأعنى بتفسير الآيات التي حرفت عن مواضعها ، تفسيرا علميا صحيحا ، يشهد له النقل الصحيح ، والعقل السليم ، والسابق واللاحق من الآيات ،

---

1 هو الحافظ ابن حجر ، وتابعه السيوطي .

حتى يزداد القارئ يقينا أنها دخيلة على القرآن الكريم ، وإليك التفسير الصحيح .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ ﴾ 1 .

وليس في الآية ما يدل ولو من بعد على هذه القصة المنكرة ، وليس السبب في نزول الآية ذلك ، وإنما السبب : أن الشياطين في ذلك الزمن السحيق كانوا يسترقون السمع من السماء ، ثم يضمون إلى ما سمعوا أكاذيب يلفقونها ، ويُلْقُونها إلى كهنة اليهود وأحبارهم . وقد دوَّنها هؤلاء في كتب يقرؤونها ، ويعلمونها الناس ، وفشا ذلك في زمن سليمان عليه السلام حتى قالوا : هذا علم سليمان وما تم لسليمان ملكه إلا بهذا العلم ، وبه يسخر الإنس ، والجن ، والريح التي تجري بأمره ، وهذا من افتراءات اليهود على الأنبياء ، فأكذبهم الله بقوله : ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ ﴾ 2 .

1 البقرة: 102 .

2 لأن تعلم السحر للعمل به كفر .

(501/61)

ثم عطف عليه : ﴿ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ ﴾ فالمراد بما أنزل هو : علم السحر الذي نزلا ليعلماه الناس ، حتى يحذروا منه ، فالسبب في نزولهما هو : تعليم الناس أبوابا من السحر ، حتى يعلم الناس الفرق بين السحر والنبوة ، وأن سليمان لم يكن ساحرا ، وإنما كان نبيا مرسلا من ربه ، وقد احتاط الملكان عليهما السلام غاية الاحتياط ، فما كانا يُعلِّمان أحدا شيئا من السحر حتى يُحذِّراه ، ويقولا له : إنما نحن فتنة أي بلاء واختبار ، فلا تكفر بتعلمه والعمل به ، وأما من تعلمه للحذر منه ، وليعلم الفرق بينه وبين النبوة والمعجزة ؛ فهذا لا شيء فيه ، بل هو أمر مطلوب ، مرغوب فيه إذا دعت الضرورة إليه ، ولكن الناس ما كانوا يأخذون بالنصيحة ، بل كانوا يفرقون به بين المرء وزوجه ، وذلك بإذن الله ومشيئته ، وقد دلت الآية : على أن تعلم السحر لتحذير الناس من الوقوع فيه والعمل به مباح ، ولا إثم فيه ، وأيضا تعلمه ؛ لإزالة الاشتباه بينه ، وبين المعجزة ، والنبوة مباح ، ولا إثم فيه ، وإنما الحرم والإثم في تعلمه أو تعليمه للعمل به ، فهو مثل ما قيل :

عرفت الشر لا للشر لكن لتوقّيهِ

ومن لا يعرف الشر من الناس يقعْ فِيهِ

(502/61)

واليهود عليهم لعائن الله لما جاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان يعلمون أنه النبي الذي بشرت به التوراة حتى كانوا يستفتحون به على المشركين قبل ميلاده وبعثته ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ، ونبذوا كتابهم التوراة ، وكتاب الله القرآن وراء ظهورهم ، وبدل أن يتبعوا الحق المبين اتبعوا السحر الذي توارثوه عن آبائهم والذي علمتهم إياه الشياطين ، وكان الواجب عليهم أن ينبذوا السحر ، ويحذروا الناس من شره ، وذلك كما فعل الملكان : هاروت وماروت من تحذير الناس من شروره ، والعمل به ، وهذا هو التفسير الصحيح للآية ، لا ما زعمه المبطلون الخرفون وبذلك : يحصل التناسق بين الآيات وتكون الآية متآخية متعانقة ، ولا أدري ما الصلة بين ما رووه من إسرائيليات ، وبين قوله : ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ ﴾ الآية .

والعجب : أن الإمام ابن جرير حوَّم حول ما ذكرناه في تفسير الآية ثم لم يلبث أن ذكر ما ذكر !

والخلاصة : على القارئ أن يحذر من هذه الإسرائيليات ؛ سواء وجدها في كتاب تفسير ،

أو حديث أو تاريخ أو مواعظ ، أو أدب أو . . . . . انتهى انتهى . ا هـ ﴾

الإسرائيليات والموضوعات فى كتب التفسير صـ 159. 166 ﴾

(503/61)

قوله تعالى ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (103) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما بين ما عليهم فيما ارتكبوه من المضار اتبعه ما في الإعراض عنه من المنافع فقال : ﴿ ولو أنهم آمنوا ﴾ أي بما دعوا إليه من هذا القرآن ، ومن اعتقاد أن الفاعل في كل شيء إنما هو الله لا السحر ﴿ واتقوا ﴾ ما يقدح في الإيمان من الوقوف مع ما كان حقاً فنسخ من التوراة فصار باطلاً ، ومن الإقدام على ما لم يكن حقاً أصلاً من السحر لأثيبوا خيراً مما تركوا ، لأن من ترك شيئاً عوضه الله خيراً منه ؛ هكذا الجواب ولكنه عبر عنه بما يقتضي الثبوت والدوام والشرف إلى غير ذلك مما يقصر عنه الأذهان من بلاغات القرآن فقال :

﴿ لمثوبة ﴾ صيغة مفعلة من الثواب وهو الجزاء بالخير ، وفي الصيغة إشعار بعلو وثبات – قاله الحرالي ، وشرفها بقوله : ﴿ من عند الله ﴾ الذي له جميع صفات الكمال ، وزادها

شرفاً بقوله : ﴿ خير ﴾ ، مع حذف المفضل عليه .

قاله الحرالي : وسوى بين هذه المثوبة ومضمون الرسالة في كونهما من عند الله تشريفاً لهذه المثوبة وإلحاقاً لها بالنمط العلي من علمه وحكمته ومضاء كلمته – انتهى .

وهذه المثوبة عامة لما يحصل في الدنيا والأخرى من الخيرات التي منها ما يعطيه الله لصالحي عباده من التصرف بأسماء الله الحسنى على حسب ما تعطيه مفهوماتها من المنافع ، ومن ذلك واردات الآثار ككون الفاتحة شفاء وآية الكرسي حرز من الشيطان ونحو ذلك من منافع القرآن والأذكار والتبرك بآثار الصالحين ونحوه .

(504/61)

ثم أكد الخبر بأن علمهم جهل بقوله : ﴿ لو كانوا يعلمون ﴾ وقال الحرالي : فيه إشعار برتبة من العلم أعلى وأشرف من الرتبة التي كانت تصرفهم عن أخذ السحر ، لأن تلك الرتبة تزهد في علم ما هو شر وهذه ترغب في منال ما هو خير ؛ وفيه بشرى لهذه الأمة بما في كيانها من قبول هذا العلم الذي هو علم الأسماء ومنافع القرآن يكون لهم عوضاً من علم السيميا الذي هو باب من السحر ، وعساه أن يكون من نحو المنزل على الملكين ، قال صلى الله عليه وسلم : " من اقتبس علماً من النجوم اقتبس باباً من السحر ، زاد ما زاد " .

وحقيقة السيميا أمر من أمر الله أظهر آثاره في العالم الأرضي على سبيل أسماء وأرواح خبيثة من مواطن الفتن في العلويات من النيرات والكواكب والصور ، وما أبداه منه في علوم وأعمال لا يثبت شيء منه مع اسمه تعالى ، بل يشترط في صحته إخلاؤه عن اسم الله وذكره والقيام بحقه وصرف التحنثات والوجهة إلى ما دونه ، فهو لذلك كفر موضوع فتنة من الله تعالى لمن شاء أن يفتنه به ، حتى كانت فتنة اسم السيميا من هدى الاسم بمنزلة اسم اللات والعزى من هداية اسم الله العزيز ، ولله كلية الخلق والأمر هدى وإضلالاً إظهاراً لكلمته الجامعة الشاملة لمتقابلات الأزواج التي منتها قسمة إلى دارين : دار نور رحماني من اسمه العزيز الرحيم ، ودار نار انتقامي من اسمه الجبار المنتقم ﴿ ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون ﴾ [الروم : 14] .

(505/61)

ولما جعل سبحانه من المضرة في السحر ونحوه كان من المثوبة لمن آمن واتقى من هذه الأمة سورة الفلق والناس والمعوذتان حرزاً وإبطالاً وتلقفاً لما يأفك سحر الساحرات عوضاً دائماً باقياً لهذه الأمة من عصا موسى ، فهما عصا هذه الأمة التي تلقف ما يأفك سحر الساحرات عوضاً دائماً بما فيهما من التعويذ الجامع للعوذة من شر الفلق الذي من لمحة منه

كان السحر مفرقاً ، فهما عوذتان من وراء ما وراء السحر ونحوه ، وذلك من مثوبة الدفع مع ما أوتوا من مثوبة النفع ، ويكاد أن لا يقف من جاءه هذه الآية لهذه الأمة عند غاية من منال الخيرات ووجوه الكرامات – انتهى . اهـ ﴾ نظم الدرر حـ 1 صـ 209 .

211 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أن الضمير عائد إلى اليهود الذين تقدم ذكرهم ، فإنه تعالى لما بين فيهم الوعيد بقوله : ﴿ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِ ﴾ [البقرة : 102] أتبعه بالوعد جامعاً بين الترهيب والترغيب لأن الجمع بينهما أدعى إلى الطاعة والعدول عن المعصية .

أما قوله تعالى : ﴿ ءامَنُواْ ﴾ فاعلم أنه تعالى لما قال : ﴿ نَبَذَ فَرِيقٌ مّنَ الذين أُوتُواْ الكتاب كتاب الله وَرَاء ظُهُورِهِمْ ﴾ [البقرة : 101] ثم وصفهم بأنهم اتبعوا ما تتلوا الشياطين وأنهم تمسكوا بالسحر .

قال من بعد : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءامَنُواْ ﴾ يعني بما نبذوه من كتاب الله .

فإن حملت ذلك على القرآن جاز ، وإن حملته على كتابهم المصدق للقرآن جاز ؛ وإن حملته على الأمرين جاز ، والمراد من التقوى الاحتراز عن فعل المنهيات وترك المأمورات .

أما قوله تعالى : ﴿ لَمَثُوبَةٌ مّنْ عِندِ الله خَيْرٌ ﴾ ففيه وجوه ، أحدها : أن الجواب محذوف

وتقديره ولو أنهم آمنوا واتقوا لأثيبوا إلا أنه تركت الجملة الفعلية إلى هذه الإسمية لما في الجملة الإسمية من الدلالة على ثبات المثوبة واستقرارها .

فإن قيل : هلا قيل لمثوبة الله خير ؟ قلنا : لأن المراد لشيء من ثواب الله خير لهم .

(506/61)

وثانيها : يجوز أن يكون قوله : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءامَنُواْ ﴾ تمنياً لإيمانهم على سبيل المجاز عن إرادة الله إيمانهم كأنه قيل : وليتهم آمنوا ، ثم ابتدأ .

لمثوبة من عند الله خير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 202 ﴾

قال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُواْ واتقوا ﴾ أي اتقوا السحر .

﴿ لَمَثُوبَةٌ ﴾ المثوبة الثواب ؛ وهي جواب ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُواْ ﴾ عند قوم .

وقال الأخفش سعيد : ليس ل "لَوْ" هنا جواب في اللفظ ولكن في المعنى ؛ والمعنى لأثيبوا .

وموضع "أن" من قوله : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ ﴾ موضع رفع ؛ أي لو وقع إيمانهم ؛ لأن "لو" لا يليها إلا الفعل ظاهراً أو مضمراً ؛ لأنها بمنزلة حروف الشرط إذ كان لا بدّ له من جواب ؛ و "أنّ" يليه فعل .

قال محمد بن يزيد : وإنما لم يجاز ب "لَوْ" لأن سبيل حروف المجازاة كلها أن تقلب الماضي إلى معنى المستقبل ، فلما لم يكن هذا في "لَوْ" لم يَجُز أن يجازَى بها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 2 صـ 56. 57 ﴾

وقال الزمخشرى :

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءامَنُواْ ﴾ برسول الله والقرآن ﴿ واتقوا ﴾ الله فتركوا ما هم عليه من نبذ كتاب الله واتباع كتب الشياطين ﴿ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللهِ خَيْرٌ ﴾ .

وقرىء : "لَمَثْوَبَةٌ" ، كمشورة ومشورة ﴿ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ أنّ ثواب الله خير مما هم فيه وقد علموا ، ولكنه جهلهم لترك العمل بالعلم .

فإن قلت : كيف أوثرت الجملة الاسمية على الفعلية في جواب لو ؟

قلت : لما في ذلك من الدلالة على اثبات المثوبة واستقرارها كما عدل عن النصب إلى الرفع في سلام عليكم لذلك ، فإن قلت : فهلا قيل لمثوبة الله خير ؟

قلت : لأن المعنى : لشيء من الثواب خير لهم .

ويجوز أن يكون قوله : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ﴾ تمنياً لإيمانهم على سبيل المجاز عن إرادة الله إيمانهم واختيارهم له ، كأنه قيل : وليتهم آمنوا .

ثم ابتدىء لمثوبة من عند الله خير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشاف حـ 1 صـ 174 ﴾

وقال البيضاوى :

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءامَنُواْ ﴾ بالرسول والكتاب . ﴿ واتقوا ﴾ بترك المعاصي ، كنبذ كتاب الله واتباع السحر ﴿ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللهِ خَيْرٌ ﴾ جواب لو ، وأصله لأثيبوا مثوبة من عند الله خيراً مما شروا به أنفسهم ، فحذف الفعل وركب الباقي جملة اسمية لتدل على ثبات المثوبة والجزم بخيريتها ، وحذف المفضل عليه إجلالاً للمفضل من أن ينسب إليه ، وتنكير المثوبة لأن المعنى لشيء من الثواب خير ، وقيل : لو للتمني ، و ﴿ لَمَثُوبَةٌ ﴾ كلام مبتدأ . وقرىء ﴿ لَمَثُوبَةٌ ﴾ كمشورة ، وإنما سمي الجزاء ثواباً ومثوبة لأن المحسن يثوب إليه ﴿ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ أن ثواب الله خير مما هم فيه ، وقد علموا لكنه جَهَّلَهُم لترك التدبر ، أو العمل بالعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 1 صـ 374. 375 ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ ولو أنهم آمنوا واتقوا ﴾ : قد تقدّم الكلام في لو وأقسامها ، وهي هنا حرف لما كان سيقع لوقوع غيره ، ويأتي الكلام على جوابها إن شاء الله .

وقال الزمخشري : ويجوز أن يكون قوله : ﴿ ولو أنهم آمنوا ﴾ تمنياً لإيمانهم ، على سبيل المجاز ، عن إرادة الله ، إيمانهم واختيارهم له ، كأنه قيل : وليتهم آمنوا ، ثم ابتدىء : ﴿ لمثوبة من عند الله خير ﴾ ، انتهى .

فعلى هذا لا يكون للجواب لازم ، لأنها قد تجاب إذا كانت للتمني بالفاء ، كما يجاب ليت .

إلا أن الزمخشري دس في كلامه هذا ، ويحرجه مذهبه الاعتزالي ، حيث جعل التمني كناية عن إرادة الله ، فيكون المعنى : إن الله أراد إيمانهم ، فلم يقع مراده ، وهذا هو عين مذهب الاعتزال ، والطائفة الذين سموا أنفسهم عدلية :

قالوا يريد ولا يكون مراده . . .

عدلوا ولكن عن طريق المعرفه

وأنهم آمنوا ، يتقدّر بمصدر كأنه قيل : ولو إيمانهم ، وهو مرفوع .

فقال سيبويه : هو مرفوع بالابتداء ، أي ولو إيمانهم ثابت .

وقال المبرد : هو مرفوع على الفاعلية ، أي ولو ثبت إيمانهم .

(508/61)

ففي كل من المذهبين حذف للمسند ، وإبقاء المسند إليه .

والترجيح بين المذهبين مذكور في علم النحو ، والضمير في أنهم لليهود ، أو الذين يعلمون السحر ، قولان .

والإيمان والتقوى : الإيمان التام ، والتقوى الجامعة لضروبها ، أو الإيمان بمحمد وبما جاء به ،

وتقوى الكفر والسحر ، قولان متقاربان .

﴿ لمثوبة ﴾ : اللام لام الابتداء ، لا الواقعة في جواب لو ، وجواب لو محذوف لفهم المعنى ، أي لا ثيبوا ، ثم ابتدأ على طريق الإخبار الاستئنافي ، لا على طريق تعليقه بإيمانهم وتقواهم ، وترتبه عليهما ، هذا قول الأخفش ، أعني أن الجواب محذوف .

وقيل : اللام هي الواقعة في جواب لو ، والجواب : هو قوله : ﴿ لمثوبة ﴾ ، أي الجملة الإسمية .

والأول اختيار الراغب ، والثاني اختيار الزمخشري .

قال : أوثرت الجملة الإسمية على الفعلية في جواب لو ، لما في ذلك من الدلالة على ثبوت المثوبة واستقرارها ، كما عدل عن النصب إلى الرفع في : سلام عليكم لذلك ، انتهى كلامه .

ومختاره غير مختار ، لأنه لم يعهد في لسان العرب وقوع الجملة الابتدائية جواباً للو ، إنما جاء هذا المختلف في تخريجه .

ولا تثبت القواعد الكلية بالمحتمل ، وليس مثل سلام عليكم ، لثبوت رفع سلام عليكم من لسان العرب .

ووجه من أجاز ذلك قوله : بأن مثوبة مصدر يقع للماضي والاستقبال ، فصلح لذلك من حيث وقوعه للمضي .

وقد تكلمنا على هذه المسألة في (كتاب التكميل) من تأليفنا ، بأشبع من هذا .

وقرأ الجمهور : لمثوبة بضم الثاء ، كالمشورة .

وقرأ قتادة وأبو السمال وعبد الله بن بريدة : بسكون الثاء ، كمشورة .

ومعنى قوله : لمثوبة ، أي لثواب ، وهو الجزاء والأجر على الإيمان والتقوى بأنواع الإحسان .

وقيل : لمثوبة : لرجعة إلى الله خير .

﴿ من عند الله ﴾ : هذا الجار والمجرور في موضع الصفة ، أي كائنة من عند الله .

وهذا الوصف هو المسوّغ لجواز الابتداء بالنكرة .

(509/61)

وفي وصف المثوبة بكونها من عند الله ، تفخيم وتعظيم لها ، ولمناسبة الإيمان والتقوى .

لذلك ، كان المعنى : أن الذي آمنتم به واتقيتم محارمه ، هو الذي ثوابكم منه على ذلك ، فهو المتكفل بذلك لكم .

واكتفى بالتنكير في ذلك ، إذ المعنى لشيء من الثواب .

قليلك لا يقال له قليل . . .

﴿ خير ﴾ خبر لقوله : لمثوبة ، وليس خير هنا أفعل تفضيل ، بل هي للتفضيل ، لا

للأفضلية .

فهي كقوله : ﴿ أفمن يلقى في النار خير ﴾ ، ﴿ وخير مستقراً ﴾ .

فشركما لخيركما الفداء . . .

﴿ لو كانوا يعلمون ﴾ : جواب لو محذوف : التقدير : لو كانوا يعلمون لكان تحصيل المثوبة خيراً ، ويعني سبب المثوبة ، وهو الإيمان والتقوى .

ولذلك قدّره بعضهم لآمنوا ، لأن من كان ذا علم وبصيرة ، لم يخف عليه الحق ، فهو يسارع إلى اتباعه ، ولا الباطل ، فهو يبالغ في اجتنابه .

ومفعول يعلمون محذوف اقتصاراً ، فالمعنى : لو كانوا من ذوي العلم ، أو اختصاراً ، فقدره بعضهم : لو كانوا يعلمون التفضيل في ذلك ، وقدره بعضهم : لو كانوا يعلمون أن ما عند الله خير وأبقى .

وقيل : العلم هنا كناية عن العمل ، أي لو كانوا يعلمون بعلمهم ، ولما انتفت ثمرة العلم الذي هو العمل ، جعل العلم منتفياً . انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 1 صـ 503.504 ﴾

(510/61)

وقال أبو السعود :

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءامَنُواْ ﴾ أي بالرسول المومأ إليه في قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءهُمْ رَسُولٌ مّنْ عِندِ الله ﴾ الخ أو بما أنزل إليه من الآيات المذكورة في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ ءايات بينات وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلاَّ الفاسقون ﴾ أو بالتوراةِ التي أريدتْ بقوله تعالى : ﴿ نَبَذَ فَرِيقٌ مّنَ الذين أُوتُواْ الكتاب كتاب الله وَرَاء ظُهُورِهِمْ ﴾ فإن الكفر بالقرآن والرسول عليه السلام كفرٌ بها ﴿ واتقوا ﴾ المعاصيَ المحكيةَ عنهم ﴿ لَمَثُوبَةٌ مّنْ عِندِ الله خَيْرٌ ﴾ جواب لو ، وأصلُه لأُثيبوا مَثوبةً من عند الله خيراً مما شرَوْا به أنفسَهم فحُذفَ الفعلُ وغُيِّر السبكُ إلى ما عليه النظمُ الكريم دلالةً على ثبات المثوبةِ لهم والجزمِ بخيريّتها ، وحُذف المفضَّلُ عليه إجلالاً للمفضَّل من أن يُنسبَ إليه ، وتنكيرُ المثوبة للتقليل ومن متعلقة بمحذوفٍ وقع صفةً تشريفيةً لمثوبةٌ أي لَشيءٌ ما من المثوبة (الكائنة) من عنده تعالى خير ، وقيل : جواب لو محذوفٌ أي لأثيبوا ، وما بعده جملة مستأنفة فإن وقوعَ الجملةِ الابتدائية جواباً لِلَوْ غيرُ معهود في كلام العرب وقيل : لو للتمني ومعناه أنهم من فظاعة الحال بحيث يتمنى العارفُ إيمانَهم واتقاءهم تلهّفاً عليهم ، وقرىء لمثوبة وإنما سمي الجزاء ثواباً ومثوبةً لأن المحسن يثوب إليه ﴿ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ أن ثواب الله خيرٌ ، نُسبوا إلى الجهل لعدم العملِ بموجب العلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 1 صـ 140 . 141 ﴾

(511/61)

وقال الآلوسى :

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءامَنُواْ ﴾ أي بالرسول ، أو بما أنزل إليه من الآيات ، أو بالتوراة ﴿ واتقوا ﴾ أي المعاصي التي حيكت عنهم ﴿ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللهِ خَيْرٌ ﴾ جواب ﴿ لَوْ ﴾ الشرطية ، وأصله لأثيبوا مثوبة من عند الله خيراً مما شروا به أنفسهم فحذف الفعل ، وغير السبك إلى ما ترى ليتوسل بذلك مع معونة المقام إلى الإشارة إلى ثبات المثوبة ، وثبات نسبة الخيرية إليها مع الجزم بخيريتها لأن الجملة إذا أفادت ثبات المثوبة كان الحكم بمنزلة التعليق بالمشتق ، كأنه قيل : لمثوبة دائمة خير لدوامها وثباتها ، وحذف المفضل عليه إجلالاً للمفضل من أن ينسب إليه ، ولم يقل لمثوبة الله ، مع أنه أخصر ليشعر التنكير بالتقليل ، فيفيد أن شيئاً قليلاً من ثواب الله تعالى في الآخرة الدائمة خير من ثواب كثير من الدنيا الفانية ، فكيف وثواب الله تعالى كثير دائم ، وفيه من الترغيب والترهيب المناسبين للمقام ما لا يخفى ، وببيان الأصل انحل إشكالان (لفظي) وهو أن جواب ﴿ لَوْ ﴾ إنما يكون فعلية ماضوية (ومعنوي) وهو أن خيرية المثوبة ثابتة لا تعلق لها بإيمانهم وعدمه ، ولهذين الاشكالين قال الأخفش واختاره جمع لسلامته من وقوع الجملة الابتدائية في الظاهر جواباً ل (لو) ولم يعهد ذلك في لسان العرب كما في " البحر " أن اللام جواب قسم محذوف والتقدير ولو أنهم آمنوا واتقوا لكان خيراً لهم ولمثوبة عند الله خير وبعضهم التزم التمني ولكن من جهة العباد لا من

جهته تعالى خلافاً لمن اعتزل دفعاً لهما إذ لا جواب لها حينئذ ، ويكون الكلام مستأنفاً ، كأنه لما تمنى لهم ذلك قيل : ما هذا التحسر والتمني ؟ فأجيب بأن هؤلاء المبتذلين حرموا ما شيء قليل منه خير من الدنيا وما فيها ، وفي ذلك تحريض وحث على الإيمان ، وذهب أبو حيان إلى أن (خير) هنا للتفضيل لا للأفضلية على حد

فخيركما لشركما فداء . . .

(512/61)

والمثوبة مفعلة بضم العين من الثواب ، فنقلت الضمة إلى ما قبلها ، فهو مصدر ميمي ، وقيل : مفعولة وأصلها (مثووبة) فنقلت ضمة الواو إلى ما قبلها ، وحذفت لالتقاء الساكنين ، فهي من المصادر التي جاءت على مفعولة كمصدوقة كما نقله الواحدي ويقال : ﴿ مَثُوبَةً ﴾ بسكون الثاء وفتح الواو وكان من حقها أن تعل ، فيقال : مثابة كمقامة إلا أنهم صححوها كما صححوا في الأعلام مكوزة وبها قرأ قتادة وأبو السماك ؛ والمراد بها الجزاء والأجر ، وسمي بذلك لأن المحسن يثوب إليه ، والقول بأن المراد بها الرجعة إليه تعالى بعيد ﴿ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ المفعول محذوف بقرينة السابق ، أي إن ثواب الله تعالى خير وكلمة (لو) إما للشرط ، والجزاء محذوف أي : آمنوا وإما للتمني ولا حذف ، ونفي العلم على

التقديرين بنفي ثمرته الذي هو العمل ، أو لترك التدبر . انتهى انتهى . ا هـ ﴾ روح المعانى حـ 1 صـ 347.348 ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (103) ﴾

أي لو آمنوا بمحمد واتقوا الله فلم يقدموا على إنكار ما بشرت به كتبهم لكانت لهم مثوبة من عند الله ، ومثوبة الله خير من كل نفع حملهم على المكابرة .

و(لو) شرطية امتناعية اقترن شرطها بأن مع التزام الفعل الماضي في جملته على حد قول امرىء القيس :

ولو أنّ ما أسعى لأدنى معيشةٍ . . .

كفاني ولم أطلب قليلٌ من المال

و(أن) مع صلتها في محل مبتدأ عند جمهور البصريين وما في جمل الصلة من المسند والمسند إليه أكمل الفائدة فأغنى عن الخبر .

وقيل خبرها محذوف تقديره ثابت أي ولو إيمانهم ثابت .

(513/61)

وقوله : ﴿ لمثوبة ﴾ يترجح أن يكون جواب (لو) فإنه مقترن باللام التي يكثر اقتران جواب (لو) المثبت بها والجواب هنا جملة اسمية وهي لا تقع جواباً للو في الغالب وكان هذا الجواب غير ظاهر الترتب والتعليق على جملة الشرط لأن مثوبة الله خير سواء آمن اليهود واتقوا أم لم يفعلوا .

قال بعض النحاة الجواب محذوف أي لأثيبوا ومثوبة من عند الله خير .

وعدل عنه صاحب " الكشاف" فقال : أوثرت الجملة الاسمية في جواب (لو) على الفعلية لما في ذلك من الدلالة على ثبات المثوبة واستقرارها كما عدل عن النصب إلى الرفع في ﴿ سلام عليكم ﴾ [الزمر : 73] لذلك أ هـ .

ومراده أن تقدير الجواب لأثيبوا مثوبة من الله خيراً لهم مما شروا به أنفسهم ، أو لمثوبةً بالنصب على أنه مصدر بدل من فعله ، وكيفما كان فالفعل أو بدله يدلان على الحدوث فلا دلالة له على الدوام والثبات .

(514/61)

ولما كان المقام يقتضي حصول المثوبة وثباتها وثبات الخيرية لها ليحصل مجموع معان عدل عن النصب المؤذن بالفعل إلى الرفع لأن الجملة الاسمية لا تفيد الحدوث بل الثبوت ، وينتقل

من إفادتها الثبوت إلى إفادة الدوام والثبات فدلالة الآية على ثبات المثوبة بالعدول عن نصب المصدر إلى رفعه كما في ﴿ سلام عليكم ﴾ و ﴿ الحمد لله ﴾ [الفاتحة : 2] ودلالتها على ثبات نسبة الخيرية للمثوبة من كون النسبة مستفادة من جملة اسمية فصارت الجملة بمنزلة جملتين لأن أصل المصدر الآتي بدلاً من فعله أن يدل على نسبة لفاعله فلو قيل (لمثوبةً) بالنصب لكان تقديره لأثيبوا مثوبة فإذا حولت إلى المصدر المرفوع لزم أن تعتبر ما كان فيه من النسبة قبل الرفع ، ولما كان المصدر المرفوع لا نسبة فيه علم السامع أن التقدير لمثوبة لهم كما أنك إذا قلت سلاماً وحمداً علم السامع أنك تريد سلمتُ سلاماً وحمدتُ حمداً ، فإذا قلت سلام وحمد كان التقدير سلام مني وحمد مني ، وهذا وجه تنظير " الكشاف" وقرينة كون هذا المصدر في الأصل منصوباً وقوعه جواباً للو المتأصل في الفعلية ، ثم إذا سمع قوله (خير) علم السامع أنه خبر عن المثوبة بعد تحويلها فاستفاد ثبات الخيرية ولهذا لم يتعرض صاحب " الكشاف" لبيان إفادة الجملة ثبات الخيرية للمثوبة لأنه لصراحته لا يحتاج للبيان فإن كل جملة اسمية تدل على ثبات خبرها لمبتدئها .

وبهذا ظهر الترتب لأن المقصود من الإخبار عن المثوبة بأنها خير أنها تثبت لهم لو آمنوا .

وعندي وجه آخر وهو أن يقال إن قوله : ﴿ لمثوبة من عند الله خير ﴾ دليل الجواب بطريقة التعريض فإنه لما جعل معلقاً على قوله : ﴿ ولو أنهم آمنوا واتقوا ﴾ علم أن في هذا الخبر شيئاً يهمهم .

ولما كانت (لو) امتناعية ووقع في موضع جوابها جملة خبرية تامة علم السامع أن هذا الخبر ممتنع ثبوته لمن امتنع منه شرط لو فيكون تنكيلاً عليهم وتمليحاً بهم .

(515/61)

وقد قيل : إن (لو) للتمني على حد ﴿ لو أن لنا كرة ﴾ [الشعراء : 102] .

والتحقيق أن لو التي للتمني هي لو الشرطية أشربت معنى التمني لأن الممتنع يتمنى إن كان محبوباً :

وأحب شيء إلى الإنسان ما منعا . . .

واستدل على هذا بأنها إذا جاءت للتمني أجيبت جوابين جواباً منصوباً كجواب ليت وجواباً مقترناً باللام كجواب الامتناعية كقول المهلهل :

فلو نبش المقابر عن كليب . . .

فيخبر بالذنائب أي زير

ويوم الشعثمين لقر عيناً . . .

وكيف لقاء من تحت القبور

فأجيب بقوله : فيخبر وقوله : لقر عيناً .

والتمني على تقديره مجاز من الله تعالى عن الدعاء للإيمان والطاعة أو تمثيل لحال الداعي لذلك بحال المتمني فاستعمل له المركب الموضوع للتمني أو هو ما لو نطق به العربي في هذا المقام لنطق بالتمني على نحو ما قيل في قوله تعالى : ﴿ لعكم تتقون ﴾ [البقرة : 21] ونحوه .

وعلى هذا الوجه يكون قوله ﴿ لمثوبة ﴾ مستأنفاً واللام للقسم .

والمثوبة اسم مصدر أثاب إذا أعطى الثواب والثواب الجزاء الذي يعطى لخير المعطي ، ويقال ثوب وأثوب بمعنى أثاب فالمثوبة على وزن المفعولة كالمصدوقة والمشورة والمكروهة .

وقوله : ﴿ لو كانوا يعلمون ﴾ شرط ثان محذوف الجواب لدلالة ما تقدم عليه وحذف مفعول ﴿ يعلمون ﴾ لدلالة المثوبة من الله خير ، أي لو كانوا يعلمون مثوبة الله لما اشتروا السحر .

وليس تكرير اللفظة أو الجملة في فواصل القرآن بإيطاء لأن الإيطاء إنما يعاب في الشعر دون النثر لأن النثر إنما يعتد فيه بمطابقة مقتضى الحال وفائدة هذا التكرير التسجيل عليهم بأنهم لا يعلمون ما هو النفع الحق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 1 صـ 630 . 632 ﴾

ومن فوائد ابن عرفة فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ واتقوا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللهِ خَيْرٌ . . . ﴾ .

التّنكير هنا للتعليل بمعنى : أنّ الثواب من عند الله وإن قل في ذاته فهو خير من ذلك كلّه .

قال ابن عرفة ؛ وجواب "لَوْ" إما نفس "قوله لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللهِ" وإما نفس الثواب المفهوم منها ، وإما مقدر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عرفة حـ 1 صـ 389 ﴾

(516/61)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (103) ﴾

يفتح الله جل جلاله أمام عباده أبواب التوبة والرحمة . . لقد بين لهم أن السحر كفر ، وان من يقوم به يبعث كافرا يوم القيامة ويخلد في النار . . وقال لهم سبحانه وتعالى لو أنهم امتنعوا عن تعلم السحر ليمتازوا به على من سواهم امتيازا في الضرر والإيذاء . . لكان ذلك خيرا لهم عند الله تبارك وتعالى . . لأن الملكين اللذين نزلا لتعليم السحر قال الله سبحانه عنهما : "وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر" .

إذن فممارسة السحر كفر . فلو أنهم آمنوا بهذه القضية وبأنهم يدخلون في الكفر واتقوا الله لكان ذلك ثوابا لهم عند الله وخيراً في الدنيا والآخرة . . ولكن ما هي المثوبة ؟ هي الثواب على العمل الصالح . . يقابلها العقوبة وهي العقاب على العمل السيئ . . وهي مشتقة من ثاب أي رجع . . ولذلك يسمى المبلغ عن الإمام في الصلاة المثوب . . لأن الإمام يقول الله اكبر فيرددها المبلغ عن الإمام بصوت عال حتى يسمعها المصلون الذين لا يصلهم صوت الإمام . . وهذا اسمه التثويب . . أي إعادة ما يقوله الإمام لتزداد فرصة الذين لم يسمعوا ما قاله الإمام . . وكما قلنا فهي مأخوذة من ثاب أي رجع . . لأن الإنسان عندما يعمل صالحا يرجع عليه عمله الصالح بالخير . . فلا تعتقد أن العمل الصالح يخرج منك ولا يعود . . ولكنه لابد أن يعود عليك بالخير .

(517/61)

ثم يعطيه لآخر ليغزله وينسجه ثوبا ويعيده إلي صاحبه . . فكأن ما أرسله من الصوف رد إليه كثوب . . ولذلك سميت مثوبة لأن الخير يعود إليك لتنتفع به نفعا عاليا . . وكذلك الثواب عن العمل الصالح يرتد إليك بالنفع العالي . إذن فكلمة ثوب جاء منها الثواب ، والله سبحانه وتعالى علمنا أن الثواب لستر العورة . . والعمل الصالح يستر الأمراض المعنوية

والنفسية في الإنسان . . وفي ذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ

(من الآية 26 سورة الأعراف)

(518/61)

فكأن هناك لباسين أحدهما لستر العورة . . والثاني لستر الإنسان من العذاب . . ولباس التقوى خير من لباس ستر العورة . . قوله تعالى : " لمثوبة من عند الله خير " . . انظر إلي المثوبة التي تأتي من عند الله . . إذا كان الثواب يأتيك من عند من صنعه جميلا مزركشا وله ألوان مبهجة . . إذا كان هذا ما صنعه لك بشر فما بالك بالثواب الذي يأتيك من عند الله . إنه قمة الجمال . فالله هو القادر على أن يرد الثواب بقدراته سبحانه فيكون الرد عاليا وعاليا جدا ، بحيث يضاعف الثواب مرات ومرات . على أننا لابد أن نتنبه إلي قول الله تعالى : " ولو أنهم آمنوا واتقوا قلنا معنى اتقوا أنهم جعلوا بينهم وبين صفات الجلال في الله وقاية . . ولذلك قلنا إن بعض الناس يتساءل . . كيف يقول الله تبارك وتعالى : " اتقوا الله " . . ويقول جل جلاله : " اتقوا النار " . . نقول إن معنى اتقوا الله أي اجعلوا بينكم وبين صفات الجلال في الله وقاية : " واتقوا النار " . . أي اجعلوا بينكم وبين عذاب النار وقاية

. . لأن النار من متعلقات صفات الجلال . . لذلك فإن قوله : " اتقوا الله" . . تساوي : " اتقوا النار" . . والحق تبارك وتعالى حينما قال : " اتقوا" أطلقها عامة . . والحذف هنا المراد به التعميم . . والله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلي أن السحرة لو آمنوا بأن تعلم السحر فتنة تؤدي إلي الكفر . . واتقوا الله وخافوا عذابه في الآخرة لكان ذلك خيراً لهم . . لذلك قال جل جلاله : " لمثوبة من عند الله خير" .

(519/61)

وساعة تسمع كلمة خير تأتي إلي الذهن كلمة شر . . لأن الخير يقابله الشر . . ولكن في بعض الأحيان كلمة خير لا يقابلها شر . ولكن يقابلها خير أقل . وكلمة خير هي الوحيدة في اللغة العربية التي يساوي الاسم فيها افعل التفضيل . . فأنت تقول هذا فاضل وهذا مفضول عليه . . كلمة خير اسم تفضيل فيقال ذلك خير من كذا . . أي واحد منهما يعطي أكثر من الآخر . . وكلمة خير إذا لم يأتي مقابلها أي خير من كذا يكون مقابلها شر . . فإذا قلت فلان خير من فلان . . فكلاهما اشترك في الخير ولكن بدرجة مختلفة . . والخير هو ما يأتي لك بالنفع . . ولكن مقياس النفع يختلف باختلاف الناس . . واحد ينظر إلي النفع العاجل وآخر ينظر إلي النفع الآجل . . وفي ظاهر الأمر كل منهما أراد خيرا .

وإذا أردنا أن نقرب ذلك إلي الأذهان فلنقل إن هناك أخوين أحدهما يستيقظ مبكراً ليذهب إلي مدرسته والثاني ينام حتى الضحى ، ويخرج من البيت ليجلس على المقهى . . الأول يحب الخير لنفسه والثاني يحب الخير لنفسه والخلاف في تقييم الخير . . الكسول يحب الخير العاجل فيعطي نفسه حظها من النوم والترفيه وعدم العمل . . والمجتهد يحب الخير الآجل لنفسه لذلك يتعب ويشقى سنوات الدراسة حتى يرتاح بعد ذلك ويحقق مستقبلا مرموقا . الفلاح الذي يزرع ويذهب إلي حقله في الصباح الباكر ويروي ويبذر الحب ويشقى ، يأتيه في آخر العام محصول وافر وخير كثير . . والفلاح الذي يجلس على المقهى طول النهار أعطى نفسه خير الراحة ، ولكن ساعة الحصاد يحصد الندم .

(520/61)

إذن كل الناس يحبون الخير ولكن نظرتهم ومقاييسهم تختلف . . فمنهم من يريد متعة اليوم ، ومنهم من يعمل لأجل متعة الغد . . والله تبارك وتعالى حين يأمرنا بالخير . . قد يكون الخير متعبا للجسد والنفس . . ولكن النهاية متاع أبدي في جنة الخلد . إذن فالخير الحقيقي هو ما جاء به الشرع . . لماذا ؟ لأن الخير هو ما ليس بعده بعد . . فأنت تولد ثم تكبر ثم تتخرج في الجامعة . . ثم تصبح في أعلى المناصب ثم تموت ثم تبعث ثم تدخل الجنة . .

وبعدها لا شيء إلا الخلود في النعيم . قوله تعالى : " لو كانوا يعلمون " . . الله ينفي عنهم العلم بينما في الآية السابقة أثبت لهم العلم في قوله تعالى : " ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق " . . نقول إن العلم الذي لا يخضع حركة الإنسان له فكأنه لم يعلم شيئا . . لأن هذا العلم سيكون حجة على صاحبه يوم القيامة وليته لم يعلمه . . واقرأ قول الشاعر :

رزقوا وما رزقوا سماحة

فكأنهم رزقوا وما رزقوا

خلقوا وما خلقوا لمكرمة

فكأنهم خلقوا وما خلقوا

فكأن العلم لم يثبت لك لأنك لم تنفع به . . والله سبحانه وتعالى يقول :

وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ

(من الآية 6 سورة الروم)

(يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا . .) وهكذا نفى الله عن الناس العلم الحقيقي . . وأثبت لهم العلم الدنيوي الظاهر . . وقوله جل جلاله :

مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (5) (سورة الجمعة)

أي أنهم حملوا التوراة علما ولكنهم لم يحملوها منهجا وعملا . . وهؤلاء السحرة علموا أن

من يمارس السحر يكفر . . ومع ذلك لم يعملوا بما علموا . انتهى انتهى . ا هـ ﴾ تفسير الشعراوى صـ 497. 500 ﴿

(521/61)

فصل

قال أبو حيان :

وقد تضمنت هذه الآيات الشريفة ما كان عليه اليهود من خبث السريرة ، وعدم التوفيق والطواعية لأنبياء الله ، ونصب المعاداة لهم ، حتى انتهى ذلك إلى عداوتهم من لا يلحقه ضرر عداوتهم ، وهو من لا ينبغي أن يعادى ، لأنه السفير بين الله وبين خلقه ، وهو جبريل . أتى بالقرآن المصدّق لكتابهم ، والمشتمل على الهدى والبشارة لمن آمن به ، فكان ينبغي المبادرة إلى ولائه ومحبته .

ثم أعقب ذلك بأن من كان عدوًّا لله ، أي مخالفاً لأمره وملائكته ورسله ، أي مبغضاً لهم ، فالله عدوّه ، أي معامله بما يناسب فعله القبيح .

ثم التفت إلى رسوله بالخطاب ، فأخبره بأنه أنزل عليه آيات واضحات ، وأنها لوضوحها ، لا يكفر بها إلا متمرد في فسقه .

ثم أخذ يسليه بأن عادة هؤلاء نكث عهودهم ، فلا تبال بمن طريقته هذه ، وأنهم سلكوا هذه الطريقة معك ، إذ أتيتهم من عند الله تعالى بالرسالة ، فنبذوا كتابه تعالى وراء ظهورهم ، بحيث صاروا لا ينظرون فيه ، ولا يلتفتون لما انطوى عليه من التبشير بك ، وإلزامهم اتباعك ، حتى كأنهم لم يطلعوا على الكتاب ، ولا سبق لهم بك علم منه .

ثم ذكر من مخازيهم أنهم تركوا كتاب الله واتبعوا ما ألقت إليهم الشياطين من كتب السحر على عهد سليمان .

ثم نزه نبيه سليمان عن الكفر ، وأن الشياطين هم الذين كفروا .

ثم استطرد في أخبار هاروت وماروت ، وأنهما لا يعلمان أحداً حتى ينصحاه بأنهما جعلا ابتلاءً واختباراً ، وأنهما لمبالغتهما في النصيحة ينهيان عن الكفر .

ثم ذكر أن قصارى ما يتعلمون منهما هو تفريق بين المرء وزوجه .

ثم ذكر أن ضرر ذلك لا يكون إلا بإذن من الله تعالى ، لأنه تعالى هو الضار النافع .

ثم أثبت أن ما يتعلمون هو ضرر لملابسة ومتعلمه .

(522/61)

ثم أخبر أنهم قد علموا بحقيقة الضرر ، وإن متعاطي ذلك لا نصيب له في الآخرة .

ثم بالغ في ذم ما باعوا به أنفسهم ، إذ ما تعوضوه مآله إلى الخسران .

ثم ختم ذلك بما لو سلكوه ، وهو الإيمان والتقوى ، لحصل لهم من الله الثواب الجزيل على ذلك ، وأن جميع ما اجترموه من المآثم ، واكتسبوه من الجرائم ، يعفي على آثاره جرّ ذيل الإيمان ، ويبدّل بالإساءة جميل الإحسان .

ولما كانت الآيات السابقة فيها ما يتضمن الوعيد من قوله : ﴿ فإن الله عدوّ للكافرين ﴾ ، وقوله : ﴿ وما يكفر بها إلا الفاسقون ﴾ ، وذكر نبذ العهود ، ونبذ كتاب الله ، واتباع الشياطين ، وتعلم ما يضر ولا ينفع ، والإخبار عنهم بأنهم علموا أنه لا نصيب لهم في الآخرة ، أتبع ذلك بآية تتضمن الوعد الجميل لمن آمن واتقى .

فجمعت هذه الآيات بين الوعيد والوعد ، والترغيب والترهيب ، والإنذار والتبشير ، وصار فيها استطراد من شيء إلى شيء ، وإخبار بمغيب بعد مغيب ، متناسقاً تناسق اللآلىء في عقودها ، متضحة اتضاح الدراري في مطالع سعودها ، معلمة صدق من أتى بها ، وهو ما قرأ الكتب ، ولا دارس ، ولا رحل ، ولا عاشر الأحبار ، ولا مارس ﴿ وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحي ، علمه شديد القوى ﴾ صلى الله عليه وأوصل أزكى تحية إليه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 1 صـ 504. 505 ﴾

" فوائد بلاغية "

قال فى صفوة التفاسير :

البلاغة :

1- [رسول من عند الله] التنكير للتفخيم ، ووصف الرسول بأنه آت من عند الله ، لإفادة مزيد التعظيم والتكريم لشأن الرسول (صلى الله عليه وسلم) .

2- [وراء ظهورهم] مثل يضرب للإعراض عن الشيء جملة ، تقول العرب : جعل هذا الأمر وراء ظهره ، أي تولى عنه معرضا ، لأن ما يجعل وراء الظهر لا ينظر إليه ، فهو كناية عن الإعراض عن التوراة بالكلية .

3- [لو كانوا يعلمون] هذا جار على الأسلوب المعروف في فنون البلاغة ، من أن العالم بالشيء إذا لم يسر على موجب علمه ، قد ينزل منزلة الجاهل به ، وينفى عنه العلم ، كما ينفى عن الجاهلين .

4- [لمثوبة من عند الله] جيء بالجملة الاسمية بدل الفعلية ، للدلالة على الثبوت والاستقرار . انتهى انتهى . اهـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 1 صـ 84 ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُواْ ﴾ " لو " هنا فيها قولان :

أحدهما : أنها على بابها من كونها حرفاً لما كان سيقع لوقوع غيره ، وسيأتي الكلام في جوابها ، وأجاز الزمخشري رحمه الله تعالى أن تكون للتمني أي : لَيْتَهُمْ آمنوا على سبيل المجاز عن إرادة الله إيمانهم ، واختيارهم له ، فعلى هذا لا يلتزم أن يكون لها جواب ، لأنها قد تجاب بالفاء حينئذ ، وفي كلامه اعتزال .

و " أنهم آمنوا " مؤول بمصدر ، وهو في محل رفع ، [وفيه قولان] أحدهما وهو قول سيبويه : أنه في محلّ رفع بالابتداء ، وخيره محذوف تقديره : ولو كان إيمانهم ثابت ، وشذّ وقوع الاسم بعد " لو " ، وإن كانت مختصة بالأفعال ، كما شذ نصب " غدوة " بعد " لدن " .

وقيل : لا يحتاج هذا المبتدأ إلى خبر لجريان الفظ المسند والمسند إليه في صلة " أنَّ " .

وصحح أبو حَيَّان هذا في سورة " النساء " وهذا يشبه الخلاف في " أن " الواقعة بعد " ظنّ وأخواتها " ، وتقدم تحقيقه .

والثاني : وهو قول المبرد أنه في محلّ رفع بالفاعلية ، رافعه محذوف تقديره : ولو ثبت إيمانهم ؛ لأنها لا يليها إلاَّ الفعل ظاهراً أو مضمراً ، وقد ردّ بعضهم هذا بأنه لا يضمر بعدها الفعل

إلا مفسَّراً بفعل مثله ، ودليل كلا القولين مذكور في كتب النحو .

قوله تعالى : ﴿ لَمَثُوبَةٌ مِنْ اللهِ ﴾ .

في هذه اللام قولان :

أحدهما : أنها لام الابتداء ، وأن ما بعدها استئناف إخبار بذلك ، وليس متعلقاً بإيمانهم وتقواهم ، ولا مترتباً عليه ، وعلى هذا فجواب " لو " محذوف إذا قيل بأنها ليست للتمني ، أو قيل بأنها للتمني ، ويكون لها جواب تقديره : لأثيبوا .

والثاني : أنها جواب " لو " ، فإن " لو " تجاب بالجملة الاسمية .

قال الزمخشري رحمه الله تعالى : أوثرت الجملة الاسمية على الفعلية في جواب " لو " لما في ذلك من الدلالة على ثبوت المَثُوبَةِ واستقرارها ، كما عَدَلَ عن النصب إلى الرفع في ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ﴾ [الأنعام : 54] لذلك .

[وفي] وقوع جواب " لو " جملة اسمية نظر يحتاج إلى دليل غير مَحلّ النزاع .

قال أبو حيان رحمه الله تعالى : لم يعهد في كلام العرب وقوع الجملة الابتدائية جواباً لـ " لو " ، إنما جاء هذا المختلف في تخريجه ، ولا تَثْبُت القواعد الكلية بالمحتمل .

والمثوبة فيها قولان :

أحدهما : أن وزنها " فعولة " ، والأصل مَثْوُوبَة ، فَثَقُلَت الضَّمة على " الواو " ، فنقلت إلى الساكن قبلها ، فالتقى ساكنان فحذف أحدهما مثل : مَقُولة ومجوزة ومصونة ومشوبة وقد جاءت مصادر على مفعول كالمعقول ، فهي مصدر نقل ذلك الواحدي .

والثاني : أنها " مَفْعُلَة " من الثواب بضم العين ، وإنما نقلت الضّمّة إلى الثاء ، ويقال : " مَثْوبَة " بسكون الثاء وفتح الواو ، وكان من حَقّها الإعلال فيقال : " مثابة " ك " مقامة " ، إلا أنهم صححوها كما صححوا في الإعلال " مَكْرَزَة " ، وبذلك قرأ أبو السمال وقتادة كمشورة .

ومعنى " المثوبة " أي : ثواب وجزاء من الله .

وقيل : لرجعة إلى الله تعالى خير .

قوله : ﴿ مِنْ عِنْدِ اللهِ] في محلّ رفع صفة " لمثوبة " ، فيتعلّق بمحذوف ، أي : لمثوبة كائنة من عند الله تعالى .

والعندية هنا مجاز تقدم في نظائره .

قال أبو حيان : وهذا الوصف هو المسوغ لجواز الابتداء بالنكرة .

قلت : ولا حاجة إلى هذا ؛ لأن المسوغ هنا شيء آخر ، وهو الاعتماد على لام الابتداء ، حتى لو قيل في الكلام : ﴿ لَمَثُوبَةٌ خَيْرٌ] من غير وصف لصح .

والتنكير في " لمثوبة " يفيد أن شيئاً من الثواب وإن قلّ خير ، فذلك لا يقال له قليل ، ونظيره :

﴿ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللهِ أَكْبَرُ ﴾ [التوبة : 72] .

وقوله : " خَيْرٌ " خبرٌ " لِمَثُوبَة " ، وليست هنا بمعنى " أفعل " التفضيل ، بل هي لبيان أنها فاضلة ، كقوله تعالى : ﴿ أَصْحَابُ الجنة يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرّاً ﴾ [الفرقان : 24] ﴿ أَفَمَن يلقى فِي النار خَيْرٌ ﴾ [فصلت : 40] .

قوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ جوابها محذوف تقديره : لكان تحصيل المثوبة خيراً ، أي : تحصيل أسبابها من الإيمان والتقوى ، وكذلك قَدّره بعضهم : لآمنوا .

وفي مفعول " يعلمون " وجهان :

أحدهما : أنه محذوف اقتصاراً أي : لو كانا من ذوي العلم .

(526/61)

والثاني : أنه محذوف اختصاراً تقيدره : لو كانوا يعلمون التفضيل في ذلك ، أو يعلمون أن ما عند الله خير وأبقى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 2 صـ 356.

358 ﴾ . باختصار .

(527/61)

لطيفة

قال فى روح البيان :

مجرد العلم باللسان لا ينفع بدون أن يصل التأثير إلى القلب ويظهر ذلك التأثير بالمسارعة إلى الأعمال الصالحة والاتباع للكتاب والسنة فمن أمر السنة على نفسه أخذاً وتركاً حباً وبغضاً نطق بالحكمة ومن أمر الهوى على نفسه نطق بالبدعة .

قال الشيخ أبو الحسن : كل علم يسبق لك فيه الخواطر وتتبعها الصور وتميل إليه النفوس وتلذ به الطبيعة فارم به وإن كان حقاً وخذ بعلم الله الذي أنزله على رسوله واقتدِ به وبالخفاء والصحابة والتابعين من بعده والأئمة المبرئين من الهوى ومتابعته تسلم من الظنون والشكوك والأوهام والدعاوى الكاذبة المضلة عن الهدى وحقائقه وماذا عليك أن تكون عبداً ولا علم ولا عمل بلا اقتداء وحسبك من العلم العلم بالوحدانية ومن العمل محبة الله ومحبة رسوله ومحبة الصحابة واعتقاد الحق للجماعة .

(528/61)

قال بعض العلماء زيادة العلم في الرجل السوء كزيادة الماء في أصول الحنظل كلما ازداد رياً ازداد مرارة ومثل من تعلم العلم لاكتساب الدنيا وتحصيل الرفعة فيها كمثل من رفع العذرة بملعقة من الياقوت فما أشرف الوسيلة وما أخس المتوسل إليه والذي يحمل العبد على تعليم ما لا يليق به وذكر ما يجب صونه إنما هو إيثار الدنيا على الآخرة لكن الله تعالى يقول : ﴿ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ (القصص : 60) فإن أردت أن تعرف قدرك عند الله فانظر فيما ذا يقيمك وذلك لأن الأعمال علامات والأحوال كرامات والكرامات دليل والعلوم وسائل وقد جاء " من سره أن يعرف منزلته عند الله فلينظر كيف منزلة الله في قلبه فإن الله ينزل العبد عنده حيث أنزله العبد من نفسه" والإنسان نسخة إلهية قابلة للواردات الإلهية فالنصف الأسفل منه بمنزلة الملك والنصف الأعلى بمنزلة الملكوت وبعبارة أخرى الطبيعة والنفس بمنزلة الملك والروح والسر بمنزلة الملكوت فإذا قطع العلائق بالعبادة الحقانية يتصرف في عالم الملك والملكوت اللذين في ملك وجوده وهو باب الملك والملكوت اللذين في الخارج.

واعلم أن وصلة العلماء على قدر علمهم واستدلالهم ووصلة الكمل على قدر مشاهدتهم وعيانهم لكن لا على وجه مشاهدة سائر الأشياء فإنه تعالى منزه عن الكيف والأين بل هي عبارة عن ظهور الوجود الحقيقي عند اضمحلال وجود الرائي وفنائه وأول ما يتجلى للسالك الأفعال ثم الصفات وأما تجلي الذات فلا يتيسر إلا للآحاد فهو لا يكون إلا

بمحو الوجود وإفنائه لكن ذلك الفناء عين البقاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح البيان حـ 1 صـ 249.248 ﴾

(529/61)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (103) ﴾

ولو آثروا الإقبالَ على الله على اشتغالهم عن الله ، لحصَّلُوا ذُخْرَ الدارَيْن ، ووصلوا إلى عِزِّ الكَوْنَيْن ، ولكن كَبَسَتْهُمْ سطواتَ القهر ، فأثْبَتَهُمْ في مواطن الهجر . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 111.110 ﴾

(530/61)

" من روائع الشيخ الصابونى فى الآيات "

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ

كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (101) وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (102) وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (103) ﴾

2 – سورة البقرة

[1] موقف الشريعة من السحر

التحليل اللفظي

﴿ نَبَذَ ﴾ : النبذ : الطرح والإلقاء قال تعالى : ﴿ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي اليم ﴾ [القصص : 40] ومنه النبيذ للشيء المسكر ، وسمي نبيذاً ، لأن الذي يتخذه يأخذ تمراً أو زبيباً فينبذه في وعاء أو سقاء ، ويتركه حتى يصير مسكراً ، والمنبوذ : ولد الزنى ، لأنه يُنْبذ على الطريق ، قال أبو الأسود .

وخبّرني من كنتُ أرسلتُ أنما . . . أخذتَ كتابي معرضاً بشمالكا

نظرتَ إلى عنوانه فنبذتَه . . . كنبذكَ نعلاً أخْلقتْ من نعالكا

وقال آخر :

أنّ الذين أمرتهم أن يعدلوا . . . نبذوا كتابك واستحلوا المحرما

(531/61)

﴿ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ ﴾ : هذا مثل يضرب لمن استخفّ بالشيء وأعرض عنه جملة ، تقول العرب : جعل هذا الأمر وراء ظهره ، ودبر أذنه ، قال تعالى : ﴿ واتخذتموه وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيّاً ﴾ [هود : 92] وأنشد الفرّاء :

تميم بن زيد لا تكوننّ حاجتي . . . بظهرٍ ولا يعيا عليك جوابها

﴿ كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ : تشبيه لهم بمن يجهل ، لأن الجاهل بالشيء لا يحفل به ولا يهتم ، لأنه لا شعور له بما فيه من المنفعة .

والمعنى : نبذوا كتاب الله وتركوا العمل به ، على سبيل العناد والمابرة ، كأنهم لا يعلمون أنه كتاب الله المنزّل على رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم .

﴿ واتبعوا ﴾ الضمير لفريق من الذين أوتوا الكتاب وهم اليهود .

قال الزمخشري : أي نبذوا كتاب الله واتبعوا ما تتلو الشياطين .

والمراد بالاتباع : التوغّل والإقبال على الشيء بالكليّة ، وقيل : الاقتداء .

﴿ تَتْلُواْ ﴾ : بمعنى تلت مضارع بمعنى الماضي ، فهو حكاية لحال ماضية ، قال الشاعر :

وانضحْ جوانبَ قبره بدمائها . . . فلقد يكونُ أخا دمٍ وذبائحِ

أي فلقد كان .

وتتلو يعني : تُحدّث ، وتروي ، وتتكلم به من التلاوة بمعنى القراءة .

قال الطبري : ولقول القائل " هو يتلو كذا " في كلام العرب معنيان :

أحدهما : الاتباع كما تقول : " تلوت فلاناً " إذا مشيت خلفه وتبعت أثره .

والآخر : القراءة والدراسة كما تقول : فلان يتلو القرآن بمعنى أنه يقرؤه ويدرسه ، كما قال (حسان بن ثابت) :

نبيّ يرى ما لا يرى الناس حوله . . . ويتلو كتاب الله في كل مشهد

والمعنى : طرحوا كتاب الله وراء ظهورهم ، واتّبعوا كتب السحر والشعوذة التي كانت تقرؤها الشياطين وتحدّث وتروي بها في عهد سليمان .

(532/61)

﴿ الشياطين ﴾ : المتبادر من لفظ (الشياطين) أن المراد بهم مردة الجن ، وبه قال بعض المفسرين وقال بعضهم : المراد بهم شياطين الإنس ، والأرجح أن المراد بهم شياطين (

الإنس والجن) كما قال تعالى : ﴿ شَيَاطِينَ الإنس والجن يُوحِي بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ زُخْرُفَ القول غُرُوراً ﴾ [الأنعام : 112] .

﴿ على مُلْكِ سليمان ﴾ : أي على عهد مكله وفي زمانه ، فهو على حذف مضاف .

قال المبرّد : " على " بمعنى " في " أي في عهد ملكه ، كما أنّ " في " بمعنى " على " كما في قوله تعالى : ﴿ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النخل ﴾ [طه : 71] أي على جذوع النخل . (سليمان) اسم عبراني ، وقد تكلمت به العرب في الجاهلية ، واستعمله الحطيئة ، اضطراراً فجعله بلفظ (سلاّم) حين قال :

فيه الرماح وفيه كل سابغة . . . جدلاء محكمة من نسج سلاّم

قال الألوسي : وسليمان اسم أعجمي ، وامتنع من الصرف للعلمية والعجمة ، ونظيره (هامان) و (ماهان) و (شامان) وليس امتناعه من الصرف للعلمية وزيادة الألف والنون .

﴿ السحر ﴾ : في اللغة : كلّ ما لطف مأخذه ودقّ ، قال الأزهري : وأصل السّحر صرفُ الشيء عن حقيقته إلى غيره ، فكأنّ الساحر لمّا أرى الباطل في سورة الحقّ ، وخيّل الشيء على غير حقيقته ، قد سحر الشيء عن وجهه اي صرفه .

وقال الجوهري : والسّحر : الأُخْذَةُ ، وكلّ ما لُطف مأخذه ، ودقّ فهو سحرٌ وسَحَره أيضاً بمعنى خدعه .

وقال القرطبي : السّحر أصلُه التمويهُ بالحيل ، وهو أن يفعل الساحر أشياء ومعاني ، فيُخيّل للمسحور أنها بخلاف ما هي به ، كالذي يرى السّراب من بعيد فيخيّل إليه أنه ماء ، وهو مشتق من سحرتُ الصبي إذا خدعته ، قال لبيد :

فإنْ تسألينا فيمَ نحن فإنّنا . . . عصافيرُ من هذا الأنام المسحّر

وقال امرؤ القيس :

أُرانا مُوضعين لأمر غيبٍ . . . ونُسحَرُ بالطعام وبالشراب

عصافيرٌ وذبّانٌ ودودٌ . . . وأجرأ من مجلّحة الذئاب

(533/61)

وقال الألوسي : السّحر في الأصل مصدر سَحَر يسَحْر بفتح العين فيهما إذا أبدى ما يدّق ويخفى ، وهو من المصادر الشاذة ، ويستعمل بما لطف وخفي سببه ، والمراد به أمر غريب يشبه الخارق . وفي الحديث " إنّ من البيان لسحراً " .

﴿ فِتْنَةٌ ﴾ : الفتنة الاختبار والابتلاء ، ومنه قولهم : فتنتُ الذهب في النار ، إذا امتحنته لتعرف جودته من رداءته .

قال الأزهري : جِماعُ معنى الفتنة : الابتلاء والامتحان ، والاختبار ، قال تعالى : ﴿ أَنَّمَآ

أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ [الأنفال : 28] وقال تعالى ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ [العنكبوت : 3] أي اختبرنا وابتلينا .

قال الجصّاص : الفتنةُ : ما يظهر به حال الشيء في الخير والشر ، تقول العرب : فتنتُ الذهب إذا عرضته على النار لتعرف سلامته أو غشّه ، والاختبار كذلك أيضاً لأن الحال تظهر فتصير كالمخبرة عن حالها .

﴿ فَلاَ تَكْفُرْ ﴾ : أي بتعلم السّحر واستعماله ، وفي الآية إشارة إلى أنّ تعلم السّحر كفرٌ .

قال الزمخشري : ﴿ فَلاَ تَكْفُرْ ﴾ أي فلا تتعلم السّحر معتقداً أنه حق فتكفر .

﴿ بِإِذْنِ الله ﴾ : أي بإرادته ومشيئته ، وفيه دليل على أن في السحر ضرراً مودعاً ، إذا شاء الله تعالى حال بينه وبين المسحور ، وإذا شاء خلاّه حتى يصيبه ما قدّره الله تعالى له ، وهذا مذهب السلف في الأسباب والمسببات .

﴿ لَمَنِ اشتراه ﴾ : قال الألوسي : أي استبدل ما تتلو الشياطين بكتاب الله ، واللام للابتداء وتدخل على المبتدأ وعلى المضارع ، ودخولها على الماضي مع (قد) كثير ، كقوله تعالى : ﴿ لَّقَدْ سَمِعَ الله قَوْلَ الذين قالوا إِنَّ الله فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ﴾ [آل عمران : 181] .

﴿ خلاق ﴾ : الخلاقُ في اللغة بمعنى النصيب قال تعالى : ﴿ أولئك لاَ خَلاَقَ لَهُمْ فِي الآخرة ﴾ [آل عمران : 77] ويأتي بمعنى القدر قال الشاعر :

فما لكَ بيتٌ لدى الشامخات . . . وما لك في غالب من خلاق

قال الزّجاج: هو النصيب الوافر من الخير، وأكثر ما يستعمل في الخير، ويكون للشر على قلّة .

﴿ شَرَوْاْ ﴾ : أي باعوا أنفسهم به، يقال : شرى بمعنى اشترى، وشرى بمعنى باع من الأضداد، قال الشاعر :

وشربتُ بُرْداً ليتني . . . من بعد بُرْدٍ كنتُ هامة

﴿ لَمَثُوبَةٌ ﴾ : المثوبة : الثواب والجزاء، أي لثواب وجزاء عظيم من الله تعالى على إيمانهم وتقواهم .

المعنى الإجمالي

يخبر المولى جلّ ثناؤه أنّ أحبار اليهود وعلماءهم نبذوا كتابه الذي أنزله على عبده ورسوله (موسى) عليه السلام وهو التوراة، كما نبذ أحفادهم الكتاب الذي أنزله على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وهو القرآن، مع أنّ الرسول جاء مصدّقاً لما بين أيديهم من التوراة، فلا عجب أن يكون الأحفاد مثل الأجداد، في الاستكبار والعناد، فهؤلاء ورثوا عن أسلافهم

البغي ، والإفساد ، والعناد .

لقد نبذ أولئك كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون أنه كتاب الله المنزل على نبيه صلى الله عليه وسلم واتبعوا طرق السحر والشعوذة التي كانت تحدّثهم بها الشياطين في عهد ملك سليمان ، وما كان (سليمان) عليه السلام ساحراً ، ولا كفر بتعلمه السحر ، ولكنّ الشياطين هم الذين وسوسوا إلى الإنس وأوهموهم أنهم يعلمون الغيب ، وعَلَّموهم السحر حتى فشا أمره بين الناس .

(535/61)

وكما اتّبع رؤساء اليهود (السحر) و (الشعوذة) كذلك اتّبعوا ما أُنزل على الرجلين الصالحين ، أو الملكَيْن : (هاروت) و (ماروت) بمملكة بابل ، فقد أنزلهما الله تعالى إلى الأرض ، لتعليم السحر ، ابتلاءً من الله للناس ، وما يعلّمان السّحر من أجل السّحر ، وإنّما من أجل إبطاله ، ليُظْهرا للناس الفرق بين (المعجزة) و (السّحر) ، ولله أن يبتلي عباده بما شاء ، كما امتحن قوم طالوت بالنهر ، وقد كثر السحر في ذلك الزمان ، وأظهر السّحَرة أموراً غريبة وقع بسببها الشكّ في (النبوّة) ، فبعث الله تعالى الملكَين لتعليم أبواب السحر ، حتى يزيلا الشّبَه ، ويميطا الأذى عن الطريق . ومع ذلك فقد كانا يحذّران الناس من تعلّم

السحر واستخدامه في الأذى والضرر ، وكانا إذا علَّما أحداً قالا له : إنما هذا امتحان من الله وابتلاء فلا تكفر بسببه واتّق الله فلا تستعمله في الإضرار ، فمن تعلّمه ليتوقّى ضرره ويدفع أذاه عن الناس فقد نجا وثبت على الإيمان ، ومن تعلّمه معتقداً صحته ليُلحق الأذى بالناس فقد ضلّ وكفر ، فكان الناس فريقين : فريق تعلّمه عن نيّة صالحة ليدفع ضرره عن الناس ، وفريق تعلّمه عن نيّة خبيثة ليفرّق به بين الرجل وأهله ، وبين الصديق وصديقه ، ويوقع العداوة والبغضاء بين الناس ، وهؤلاء قد خسروا دنياهم وآخرتهم ، لأنهم عرفوا أنّ من تجرّد لهذه الأمور المؤذية ، ما له في الآخرة من نصيب ولبئسما باعوا به أنفسهم لو كان عندهم فهم وإدراك .

ولو أن هؤلاء الذين يتعلمون السحر آمنوا بالله ، وخافوا عذابه ، لأثابهم الله جزاء أعمالهم مثوبة أفضل ممّا شغلوا به أنفسهم ، من هذه الأمور الضارّة التي لا تعود عليهم إلاّ بالويل والخسار والدمار .

سبب النزول

قال ابن الجوزي رحمه الله : في سبب نزول هذه الآية قولان :

أحدهما : أن اليهود كانوا لا يسألون النبي صلى الله عليه وسلم عن شيء من التوراة إلاّ أجابهم ، فسألوه عن السحر وخاصموه به فنزلت هذه الآية ، قاله أبو العالية .

والثاني : أنه لما ذكر سليمان في القرآن قالت يهود المدينة : ألا تعجبون لمحمد يزعم أن (ابن داود) كان نبيّاً ؟ والله ما كان إلا ساحراً فنزلت هذه الآية ﴿ وَمَا كَفَرَ سليمان ولكن الشياطين كَفَرُواْ . . . ﴾ ذكره ابن إسحاق .

وجوه القراءات

أولاً : قوله تعالى : ﴿ ولكن الشياطين كَفَرُواْ ﴾ .

قرأ الجمهور : (ولكنّ الشياطينَ) بتشديد نون (لكنّ) ونصب نون (الشياطين) وقرأ حمزة والكسائي : (ولكن الشياطينُ) بتخفيف النون من (لكن) ورفع نون (الشياطين) .

ثانياً : قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى الملكين ﴾ .

قرأ الجمهور : (المَلَكَيْن) بفتح اللام والكاف مثنّى (مَلَك) وقرأ ابن عباس ، وسعيد بن جبير (المِلكَيْن) بكسر اللام مثنىّ (مِلك) قال ابن الجوزي : وقراءة الجمهور أصح .

قال القرطبي : وحُكي عن بعض القرّاء أنه كان يقرأ : ﴿ وما أُنزل على المِلكَيْن ﴾ يعني به رجلين من بني آدم .

ثالثاً : قوله تعالى : ﴿ هاروت وماروت ﴾ قرأ الجمهور بفتح التاء قرأ الحسن والزهري برفعهما على تقدير (هما هاروتُ وماروتُ) .

وجوه الإعراب

أولاً – قوله تعالى : ﴿ واتبعوا مَا تَتْلُواْ الشياطين ﴾ الواو للعطف ، و ﴿ واتبعوا ﴾ معطوف على قوله تعالى : ﴿ نَبَذَ فَرِيقٌ ﴾ من عطف الجملة على الجملة ، والضمير في ﴿ واتبعوا ﴾ لليهود ، و ﴿ مَا ﴾ اسم موصول مفعول به و ﴿ تَتْلُواْ ﴾ صلة الموصول و ﴿ الشياطين ﴾ فاعل مرفوع وهو إخبار عن حالهم في اتباعهم ما لا ينبغي أن يتّبع ، لأن الاتباع ليس مترتباً على مجيء الرسول ، بخلاف نبذ كتاب الله فإنه مترتب على مجيء الرسول .

(537/61)

ثانياً – قوله تعالى : ﴿ يُعَلّمُونَ الناس السحر وَمَآ أُنزِلَ عَلَى الملكين . . . . ﴾ جملة ﴿ يُعَلّمُونَ الناس السحر ﴾ في محل نصب على الحال من الضمير في ﴿ كَفَرُواْ ﴾ أي كفروا معلمّين الناس السحر ، وقيل : هو بدل من ﴿ كَفَرُواْ ﴾ لأن تعليم السحر كفر في المعنى و ﴿ مَآ أُنزِلَ ﴾ اسم الموصول ﴿ مَا ﴾ معطوف على ﴿ مَا تَتْلُواْ ﴾ فهو في موضع نصب ، والمعنى : اتبعوا ما تتلوه الشياطين ، واتبعوا ما أُنزل على الملكين ، وقيل : ﴿ مَآ أُنزِلَ ﴾ ما : نافية أي لم ينزل على الملكين ، قال ابن الأنباري : وهذا الوجه ضعيف جداً ، لأنه

خلاف الظاهر والمعنى ، فكان غيره أولى .

ثالثاً : قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشتراه مَا لَهُ فِي الآخرة مِنْ خلاق ﴾ .

اللام في ﴿ لَمَنِ اشتراه ﴾ لام الابتداء ، و (مَنْ) بمعنى الذي في موضع رفع لأنه مبتدأ ، وخبره جملة ﴿ مَا لَهُ فِي الآخرة مِنْ خلاق ﴾ و ﴿ مِنْ ﴾ في قوله : ﴿ مِنْ خلاق ﴾ زائدة لتأكيد النفي ، وتقديره : ما له في الآخرة خلاق .

لطائف التفسير

اللطيفة الأولى : تضمنت هذه الآيات الكريمة ما كان عليه اليهود من الخبث وفساد النيّة ، والسعي للإضرار بعباد الله ، فالسّحر لم يُعرف إلاّ عند اليهود ، فتاريخه مشتهر بظهورهم ، فهم الذين نبذوا كتاب الله وسلكوا طريق السحر ، وعملوا على إفساد عقول الناس وعقائدهم بطريق السحر ، والشعوذة ، والتضليل ، وهذا يدل على أنّ اليهود أصل كل شرّ ، ومصدر كلّ فتنة وقد صوّر القرآن الكريم نفسيّة اليهود بهذا التصوير الدقيق ﴿ كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَاراً لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأرض فَسَاداً واللهُ لاَ يُحِبُّ المفسدين ﴾ [المائدة : 64] .

اللطيفة الثانية : قال أبو حيان : كما كانت الآيات السابقة فيها ما يتضمّن الوعيد في قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ اللهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة : 98] وقوله : ﴿ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلاَّ الفاسقون ﴾ [البقرة : 99] وذكر نبذ العهود من اليهود ، ونبذ كتاب الله ، واتباع الشاطين ، وتعلم ما يضر ولا ينفع ، أتبع ذلك بآية تتضمن الوعد الجميل لمن آمن واتقى .

فجمعت هذه الآيات بين الوعيد والوعد ، والترغيب والترهيب ، والإنذار والتبشير ، وصار فيها استطراد من شيء إلى شيء ، وإخبار بمغيّب بعد مغيّب ، متناسقةٌ تناسق اللآلئ في عقودها ، متضمنة اتضاح الدّراري في مطالع سعودها ، معلمة صدق من أتى بها ، وهو ما قرأ الكتب ولا دارس ، ولا رحل ، ولا عاشر الأحبار ولا مارس ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الهوى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يوحى ﴾ [النجم : 3-4] صلى الله وسلّم عليه ، وأوصل أزكى تحية إليه .

اللطيفة الثالثة : قوله تعالى : ﴿ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الذين أُوتُواْ الكتاب كتاب الله وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ ﴾ التعبيرُ بالنبذ وراء الظهور ، فيه زيادة تشنيع وتقبيح على اليهود ، حيث تركوا العمل بكتاب الله ، وأعرضوا عنه بالكلّية ، شأن المستخف بالشيء ، المستهزئ به ، وتمسكوا بأساطير من فنون السحر والشعوذة .

يقول سيّد قطب رحمه الله : " والذين أوتوا الكتاب هم الذين نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم ، والمقصودُ طبعاً أنهم جحدوه وتركوا العمل به ، ولكنّ التعبير المصوّر ينقل المعنى

من دائرة الذهن ، إلى دائرة الحسن ، ويمثّل عملهم بحركةٍ مادية متخيّلة ، تصوّر هذا التصرف تصويراً بشعاً زرياً ، ينضح بالكنود والجحود ، ويتسّم بالغلظة والحماقة ، ويفيض بسوء الأدب والقحة ، ويدع الخيال يتملّى هذه الحركة العنيفة ، حركة الأيدي تنبذ كتاب الله وراء الظهور " .

(539/61)

اللطيفة الرابعة : وجه المقارنة بين ذكر ﴿ الشياطين ﴾ و ﴿ السحر ﴾ في الآية الكريمة ، هو أنّ السحر فيه استعانة بأرواح خبيثةٍ شرّيرة من الجن ، والشياطينُ تزعم أنها تعلم الغيب وتوهم الناس بذلك ، وقد كان بعض الناس يصدّقونهم فيما يزعمون ، ويلجأون إليهم عند الكرب كما قال تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الجن فَزَادُوهُمْ رَهَقاً ﴾ [الجن : 6] ولهذا اشتهر السّحر عن طريق الاتصال بهذه الأرواح الخبيثة .

أخرج ابن جرير والحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال :

" إنّ الشياطين كانوا يسترقون السّمع من السّماء ، فإذا سمع أحدهم بكلمة ، كذب عليها ألف كذبة ، فأشربتها قلوب الناس واتخذوها دواوين ، فأطلع الله على ذلك " سليمان بن داود " فأخذها وقذفها تحت الكرسي ، فلمّا مات سليمان قام شيطان بالطريق فقال : ألا

أدلكم على كنز سليمان الذي لا كنز لأحدٍ مثل كنزه الممنّع ؟ قالوا : نعم فأخرجوه فإذا هو سحر ، فتناسختها الأمم فأنزل الله تعالى عذر سليمان فيما قالوا من السحر " .

اللطيفة الخامسة : عبّر القرآن الكريم عن (السحر) ب (الكفر) في قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَفَرَ سليمان ﴾ وسياقُ اللفظ يدل على أن المراد منه السحر أي : وما سحر سليمان وإنما عبّر عنه بالكفر تقبيحاً وتشنيعاً ، كما قال تعالى فيمن ترك الحجّ مع القدرة عليه ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ العالمين ﴾ [آل عمران : 97] .

وفي هذا التعبير تنفير للناس من السحر ، ودلالة على أنه من الكبائر الموبقات ، بل هو قرين الكفر والإشراك بالله ، وقد دلّ عليه قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ ﴾ .

(540/61)

اللطيفة السادسة : روي أنّ رجلاً تكلّم بكلام بليغ عند (عمر بن عبد العزيز) فقال عمر : هذا والله السّحر الحلال . ورُوي " أنّ (الزبرقان بن بدر) و (عَمْرو بن الأهتم) و (قيس بن عاصم) قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لعَمْرو : خبّرني عن الزبرقان ؟ فقال : مُطاع في ناديه ، شديد العارضة ، مانعٌ لما وراء ظهره . فقال الزبرقان : هو والله يعلمُ أني أفضلُ منه ، فقال عمرو : إنه زمر المروءة ، ضيّق العَطَن ، أحمقُ الأب ، لئيم

الخال . . ثم قال : يا رسول الله ، صدقتُ فيهما ، أرضاني أحسن ما علمتُ ، وأسخطني فقلت أسوأ ما علمت ، فقال عليه السلام : " إن من البيان لسحراً " " .

ورُوي أن رجلين قدما على رسول الله صلى الله عليه وسلم فخطب أحدهما فعجب الناس من فصاحته وبلاغته فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنّ من البيان لسحراً " فإن قيل : كيف سمّى عليه السلام روحة البيان سحراً مع أنّ السحر مذموم عقلاً ونقلاً ؟ !

فالجواب : أنّ هذا على (المجاز) لا على (الحقيقة) فالخطيب يستميل القلوب بحسن بيانه وروعة أدائه ، وجمال تعبيره ، كما يستميل الساحر قلوب الحاضرين إليه بخفته ورشاقته وتمويهه على الحاضرين ، فمن هذا الوجه سمّي البيان سحراً .

اللطيفة السابعة : فإن قيل : كيف كان الملكان يعلّمان الناس السحر مع أنه حرام ، ومعتقده كافر ؟ !

فالجواب : أنهما ما كانا يعلمان الناس السّحر للعمل به ، وإنما للتخلُّص من ضرره ، والاحتراز منه ، لأن تعريف الشر للزجر عنه حسن وقد قيل :

عرفتُ الشرّ لا للشرّ . . . لكن لتوقّيه

ومن لا يعرف الشرّ . . . من الناس يقع فيه

وقد قيل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه إنّ فلاناً لا يعرف الشر ، قال : أجدر أن يقع فيه .

والصحيح كما قال الألوسي : أن ذلك كان للابتلاء والتمييز بين (المعجزة) و (السحر)

والله أعلم .

الأحكام الشرعية

الحكم الأول : هل للسّحر حقيقة وتأثير في الواقع ؟

(541/61)

اختلف العلماء في أمر (السحر) هل له حقيقة أم هو شعوذة وتخييل ؟

فذهب جمهور العلماء : من أهل السنة والجماعة إلى أن السحر له حقيقة وتأثير .

وذهب المعتزلة وبعض أهل السُنّة : إلى أنّ السحر ليس له حقيقة في الواقع وإنما هو خداع ، وتمويه ، وتضليل ، وأنه باب من أبواب الشعوذة ، وهو عندهم على ضروب .

ضروب السحر

أولاً : التخييل والخداع : وذلك كما يفعله بعض المشعوذين ، حيث يريك أنه ذبح عصفوراً ، ثم يريك العصفور بعد ذبحه قد طار ، وذلك لخفة حركته ، والمذبوحُ غير الذي طار لأنه يكون معه اثنان ، قد خبأ أحدهما وهو المذبوح وأظهر الآخر . قالوا : وقد كان سحر سحرة فرعون من هذا النوع ، فقد كانت العصيّ مجوّفة ، قد ملئت زئبقاً ، وكذلك الحبال

كانت من أدم (جلد) محشوّة زئبقاً ، وقد حفروا تحت المواضع أسراباً وملؤها ناراً ، فلمّا طرحت عليها الحبال والعصيّ وحمى الزئبق تحركت ، لأنّ من شأن الزئبق إذا أصابته الحرارة أن يتمدّد ، فتخيّل الناس أنّ هذه الحبال والعصي تتحرك وتسير .

ثانياً : الكهانة والعرافة بطريق التواطؤ وذلك كما يفعله بعض العَرّافين والكُهان حيث يوكلون أناساً بالاطلاع على أسرار الناس ، حتى إذا جاء أصحابها أخبروهم بها ، ويزعمون أنها من حديث الجنّ والشياطين لهم ، وأنهم يتصلون بهم ويطيعونهم بواسطة الرّقي ، والعزائم ، وأن الشياطين تخبرهم بالمغيبات فيصدقهم الناس ، وما هي إلا مواطأة مع أشخاص قد أعدّوهم لذلك .

قال الجصاص : كانت أكثر مخاريق الحلاّج بالمواطأة ، فكان يتفق مع جماعة فيضعون له خبزاً ولحماً وفاكهة في مواضع يعيّنها لهم ، ثمّ يمشي مع أصحابه في البرية ، ثم يأمر بحفر هذه المواضع ، فيخرج ما خبئ من الخبز واللحم والفاكهة ، فيعدّونها من الكرامات .

(542/61)

ثالثاً : وضربٌ آخر من السّحر عن طريق النميمة ، والوشاية ، والإفساد من وجوه خفيّة لطيفة ، وذلك عام شائع في كثير من الناس . . وقد حُكي أنّ امرأة أرادت إفساد ما بين

زوجين ، فجاءت إلى الزوجة فقالت لها : إنّ زوجك معرضٌ عنك ، وهو يريد أن يتزوج عليك ، وسأسحره لك حتى لا يرغب عنك ، ولا يريد سواك ، ولكن لا بد أن تأخذي من شعر حلقه بالموسى ثلاث شعرات إذا نام وتعطينيها حتّى يتم سحره ، فاغترت المرأة بقولها وصدقتها ، ثمّ ذهبت إلى الرجل وقالت له : إن امرأتك قد أحبّت رجلاً وقد عزمت على أن تذبحك بالموسى عند النوم لتتخلص منك ، وقد أشفقت عليك ولزمني نصحك ، فتيقّظ لها هذه الليلة وتظاهر بالنوم فستعرف صدق كلامي ، فلما جاء الليل تناوم الرجل في بيته فجاءت زوجته بالموسى لتحلق بعض شعرات من حلقه ، ففتح الرجل عينه فرآها وقد أهوت بالموسى إلى حلقه ، فلم يشكّ في أنها أرادت قتله فقام إليها فقتلها ، فبلغ الخبر إلى أهلها فجاءوا فقتلوه ، وهكذا كان الفساد بسبب الوشاية والنميمة .

رابعاً : وضرب آخر من السحر وهو الاحتيال وذلك بإطعام الإنسان بعض الأدوية المؤثرة في العقل ، أو إعطائه بعض الأغذية التي لها تأثير على الفكر والذكاء ، كإطعامه (دماغ الحمار) الذي إذا أطعمه إنسان تبلّد عقله ، وقلّت فطنته مع أدوية أخرى معروفة في كتب الطب ، فإذا أكله الإنسان تصرّف تصرفاً غير سليم فيقول الناس : به مسّ أو أنه مسحور .

فأنت ترى أنهم يُرجعون السحر إمّا إلى تمويه وتخييل ، وإمّا إلى مواطأة ، وإمّا إلى سعي

ونميمة ، وإمّا إلى احتيال ، ولا يرون الساحر يقدر على شيء ممّا يثبته له الآخرون من التأثير في الأجسام ، ومن قطع المسافات البعيدة في الزمن اليسير .

(543/61)

قال أبو بكر الجصاص : وحكمةٌ كافية تبيّن لك أن هذا كله مخاريق وحيل ، لا حقيقة لما يدّعون لها أنّ الساحر والمعزّم لو قدرا على ما يدعيانه من النفع والضرر ، وأمكنهما الطيران ، والعلم بالغيوب ، وأخبار البلدان النائية ، والخبيثات والسّرَق ، والإضرار بالناس من غير الوجوه التي ذكرنا ، لقدروا على إزالة الممالك واستخراج الكنوز ، والغلبة على البلدان بقتل الملوك بحيث لا ينالهم مكروه ، ولا ستغنوا عن الطلب لما في أيدي الناس . فإذا لم يكن كذلك ، وكان المدّعون لذلك أسوأ الناس حالاً ، وأكثرهم طمعاً واحتيالاً ، وتوصلاً لأخذ دراهم الناس وأظهرهم فقراً وإملاقاً علمتَ أنهم لا يقدرون على شيء من ذلك " .

أدلة المعزلة :

استدل المعتزلة على أن السحر ليس له حقيقة بعدة أدلة نوجزها :

أ- قوله تعالى : ﴿ سحروا أَعْيُنَ الناس واسترهبوهم ﴾ [الأعراف : 116] .

ب – قوله تعالى : ﴿ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تسعى ﴾ [طه : 66] .

ج – قوله تعالى : ﴿ وَلَا يُفْلِحُ الساحر حَيْثُ أتى ﴾ [طه : 69] .

فالآية الأولى : تدل على أن السحر إنما كان للأعين فحسب ، والثانية : تؤكد أنَّ هذا السحر كان تخييلاً لا حقيقة ، والثالثة : تثبت أن الساحر لا يمكن أن يكون على حق لنفي الفلاح عنه .

د – وقالوا : لو قدر الساحر أن يمشي على الماء ، أو يطير في الهواء ، أو يقلب التراب إلى ذهب على الحقيقة ، لبطل التصديق بمعجزات الأنبياء ، والتبس الحق بالباطل ، فلم يعد يعرف (النبي) من (الساحر) لأنه لا فرق بين معجزات الأنبياء ، وفعل السحرة ، وأنه جميعه من نوع واحد .

أدلة الجمهور :

واستدل الجمهور من العلماء على أنّ السحر له حقيقة وله تأثير بعدة أدلة نوجزها فيما يلي :

أ – قوله تعالى : ﴿ سحروا أَعْيُنَ الناس واسترهبوهم وَجَآءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف : 166] .

ب – قوله تعالى : ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ المرء وَزَوْجِهِ ﴾ [البقرة : 102] .

ج – قوله تعالى : ﴿ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ الله ﴾ [البقرة : 102] .

د – قوله تعالى : ﴿ وَمِن شَرِّ النفاثات فِي العقد ﴾ [الفلق : 4] .

فالآية الأولى دلّت على إثبات حقيقة السحر بدليل قوله تعالى : ﴿ وَجَآءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف : 166] والآية الثانية أثبتت أن السحر كان حقيقياً حيث أمكنهم بواسطته أن يفرّقوا بين الرجل وزوجه ، وأن يوقعوا العداوة والبغضاء بين الزوجين فدلت على أثره وحقيقته ، والآية الثالثة أثبتت الضرر للسحر ، ولكنّه متعلق بمشيئة الله ، والآية الرابعة تدل على عظيم أثر السحر حتى أمرنا أن نتعوذ بالله من شرّ السّحرة الذين ينفثون في العقد .

ه – واستدلوا بما روي " أن يهودياً سحر النبي صلى الله عليه وسلم فاشتكى لذلك أياماً ، فأتاه جبريل فقال : إنّ رجلاً من اليهود سحرك ، عقد لك عقداً في بئر كذا وكذا ، فأرسل صلى الله عليه وسلم فاستخرجها فحلّها ، فقام كأنّما نَشِطَ من عقال " .

الترجيح : ومن استعراض الأدلة نرى أنّ ما ذهب إليه الجمهور أقوى دليلاً فإن السحر له حقيقة وله تأثير على النفس ، فإن إلقاء البغضاء بين الزوجين ، والتفريق بين المرء وأهله

الذي أثبته القرآن الكريم ليس إلا أثراً من آثار السحر ، ولو لم يكن للسحر تأثير لما أمر القرآن بالتعوذ من شرّ النفاثات في العقد ، ولكنْ كثيراً ما يكون هذا السحر بالاستعانة بأرواح شيطانية فنحن نقر بأنّ له أثراً وضرراً ولكنّ أثره وضرره لا يصل إلى الشخص إلاّ بإذن الله ، فهو سبب من الأسباب الظاهرة ، التي تتوقف على مشيئة مسبّب الأسباب ، ربّ العالمين جل وعلا .

(545/61)

وأما استدلالهم : بأنه يلتبس الأمر بين (المعجزة) و (السحر) إذا أثبتنا للسّحر حقيقة فنقول : إنّ الفرق بينهما واضح فإنّ معجزات الأنبياء عليهم السلام هي على حقائقها ، وظاهرُها كباطنها ، وكلّما تأملتها ازددت بصيرة في صحتها ، وأما السّحر فظاهره غير باطنه ، وصورته غير حقيقته ، يعرف ذلك بالتأمل والبحث ، ولهذا أثبت القرآن الكريم للسحرة أنهم استرهبوا الناس وجاءوا بسحرٍ عظيم ، مع إثباته أَنّ ما جاءوا به إنما كان عن طريق التمويه والتخييل .

قال العلامة القرطبي : " لا ينكر أحدٌ أن يظهر على يد الساحر خرق العادات ، بما ليس في مقدور البشر ، من مرضٍ ، وتفريق ، وزوال عقل ، وتعويج عضو ، إلى غير ذلك ممّا قام

الدليل على استحالة كونه من مقدورات البشر .

قالوا : ولا يبعد في السحر أن يستدقّ جسم الساحر حتى يلج في الكُوّات ، والخوخات ، والانتصاب على رأس قصبة ، والجري على خيط مستدق ، والطيران في الهواء ، والمشي على الماء ، وركوب كلب وغير ذلك ، ومع ذلك فلا يكون السحر موجباً لذلك ، ولا علةً لوقوعه ، ولا سبباً مولداً ، ولا يكون الساحر مستقلاً به ، وإنما يخلق الله تعالى هذه الأشياء ، ويحدثها عند وجود السحر ، كما يخلق الشبع عند الأكل ، والرّيّ عند شرب الماء .

ثم قال : قد أجمع المسلمون على أنه ليس في السحر ما يفعل الله عنده من إنزال الجراد ، والقمل ، والضفادع وفلق البحر ، وقلب العصا ، وإحياء الموتى ، وإنطاق العجماء ، وأمثال ذلك من عظيم آيات الرسل عليهم السلام ، فهذا ونحوه مما يجب القطع بأنه لا يكون ولا يفعله الله عند إرادة الساحر .

وقال أبو حيان : واختلف في حقيقة السحر على أقوال :

الأول : أنه قلب الأعيان واختراعها بما يشبه المعجزات والكرامات كالطيران ، وقطع المسافات في ليلة .

الثاني : أنه خدع وتمويهات وشعوذة لا حقيقة لها وهو قول المعتزلة .

الثالث : أنه أمرٌ يأخذ بالعين على جهة الحيلة ، كما كان فعل سحرة فرعون حيث كانت حبالهم وعصيّهم مملوءة زئبقاً ، فجّروا تحتها ناراً فحميت الحبال والعصي فتحرّكت وسعت .

الرابع : أنه نوع من خدمة الجن والاستعانة بهم ، وهم الذين استخرجوه من جنس لطيف فلطف ودق وخفي .

الخامس : أنه مركب من أجسام تُجمع وتحرق ، ويتلى عليها أسماء وعزائم ، ثم تستعمل في أمور السحر .

السادس : أن أصله طلسمات تبنى على تأثير خصائص الكواكب ، أو استخدام الشياطين لتسهيل ما عسُر .

السابع : أنه مركّب من كلمات ممزوجة بكفر ، وقد ضمّ إليها أنواع من الشعبذة ، والنارنجيات ، والعزائم ، وما يجري مجرى ذلك .

ثم قال : وأما في زماننا الآن فكلما وقفنا عليه في الكتب فهو كذب وافتراء ، ولا يترتب عليه شيء ، ولا يصح منه شيء البتة ، وكذلك العزائم وضرب المندل ، والناس يصدقون بهذه الأشياء ويصغون إلى سماعها .

الحكم الثاني : هل يباح تعلّم السحر وتعليمه ؟

ذهب بعض العلماء : إلى أن تعلُّم السحر مباح ، بدليل تعليم الملائكة السحر للناس كما حكاه القرآن الكريم عنهم ، وإلى هذا الرأي ذهب (الفخر الرازي) من علماء أهل السنة .

وذهب الجمهور : إلى حرمة تعلم السحر ، أو تعليمه ، لأنّ القرآن الكريم قد ذكره في معرض الذمّ ، وبيّن أنه كفر فكيف يكون حلالاً ؟

كما أن الرسول عليه الصلاة والسلام عدّه من الكبائر الموبقات كما في الحديث الصحيح وهو قوله صلوات الله عليه :

" اجتنبوا السبع الموبقات ، قالوا وما هنّ يا رسول الله ؟ قال : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التي حرّم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات " .

(547/61)

قال الألوسي : " وقيل إنّ تعلمه مباح ، وإليه مال الإمام الرازي قائلاً : اتفق المحقّقون على أن العلم بالسحر ليس بقبيح ولا محظور ، لأن العلم لذاته شريف لعموم قوله تعالى : ﴿ هَلْ يَسْتَوِي الذين يَعْلَمُونَ والذين لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر : 9] ولو لم يُعْرف السحر لما أمكن الفرق

بينه وبين المعجزة ، فكيف يكون تعلمه حراماً وقبيحاً ؟

ونقل بعضهم وجوب تعلمه على المفتي حتى يعلم ما يقتل به وما لا يقتل به ، فيفتي به في وجوب القصاص " . انتهى .

ثم قال الألوسي : " والحق عندي الحرمة تبعاً للجمهور ، إلاّ لداعٍ شرعي ، وفيما قاله الإمام الرازي رحمه الله نظر :

أمّا أولاً : فلأنا لا ندّعي أنه قبيح لذاته ، وإنما قبحه باعتبار ما يترتب عليه ، فتحريمه من باب (سد الذرائع) وكم من أمرٍ حَرُم لذلك .

وأمّا ثانياً : فلأنّ توقف الفرق بينه وبين المعجزة على العلم به ممنوعٌ ، ألا ترى أن أكثر العلماء – أو كلّهم – عرفوا الفرق بينهما ولم يعرفوا علم السحر ، ولو كان تعلمه واجباً لرأيت أعلم الناس به الصدر الأول .

وأما ثالثاً : فلأن ما نُقل عن بعضهم غير صحيح ، لأنّ إفتاء المفتي بوجوب القَوَد أو عدمه لا يستلزم معرفته علم السحر ، لأن صورة إفتائه – على ما ذكره العلامة ابن حجر – إنْ شهد عدلان عرفا السحر وتابا منه أنه يقتل غالباً قُتل الساحر ، وإلاّ لم يُقتل .

وقال أبو حيان : وأما حكم السحر ، فما كان منه يُعظّم به غير الله من الكواكب ، والشياطين ، وإضافة ما يُحدثه الله إليها فهو كفر إجماعاً ، لا يحلّ تعلمه ولا العمل به ، وكذا ما قصد بتعلمه سفك الدماء ، والتفريق بين الزوجين والأصدقاء .

وأما إذا كان لا يعلم منه شيء من ذلك بل يحتمل فالظاهر أنه لا يحل تعلمه ، ولا العمل به ، وما كان من نوع التخييل ، والدّجل ، والشعبذة فلا ينبغي تعلمه لأنه من باب الباطل ، وإن قصد به اللهو واللعب وتفريج الناس على خفة صنعته فيكره .

(548/61)

الحكم الثالث : هل يُقتل الساحر ؟

قال أبو بكر الجصاص : اتفق السلف على وجوب قتل الساحر ، ونصَّ بعضهم على كفره لقوله عليه الصلاة والسلام : " من أتى كاهناً أو عرافاً أو ساحراً فصدّقه بما يقول ، فقد كفر بما أُنزل على محمد " .

واختلف فقهاء الأمصار في حكمه :

فروي عن أبي حنيفة أنه قال : الساحر يُقتل إذا عُلم أنه ساحر ولا يستتاب ، ولا يقبل قوله إني أترك السحر منه ، فإذا أقر أنه ساحر فقد حلّ دمه ، وكذلك العبد المسلم ، والحر الذميّ من أقر منهم أنه ساحر فقد حلّ دمه ، وهذا كله قول أبي حنيفة .

قال ابن شجاع : فحَكَمَ في الساحر والساحرة حكم المرتد والمرتدة ، وقال – نقلاً عن أبي حنيفة – إنّ الساحر قد جمع مع كفره السعيَ في الأرض بالفساد ، والساعي بالفساد إذا

قَتَلَ قُتِل .

وروي عن مالك في المسلم إذا تولّى عمل السحر قتل ولا يستتاب ، لأنّ المسلم إذا ارتد باطناً لم تعرف توبته بإظهاره الإسلام ، فأمّا ساحر أهل الكتاب فإنه لا يقتل عند مالك إلاّ أن يضر المسلمين فيقتل .

وقال الشافعي : لا يكفر بسحره ، فإن قتَل بسحره وقال : سحري يقتل مثله ، وتعمدت ذلك قتل قوداً ، وإن قال : قد يقتل ، وقد يخطئ لم يُقتل وفيه الدية .

وقال الإمام أحمد : يكفر بسحره قتل به أو لم يقتل ، وهل تقبل توبته ؟ على روايتين ، فأمّا ساحر أهل الكتاب فإنه لا يُقتل إلا أن يضر بالمسلمين .

والخلاصة : فإنّ أبا حنيفة يذهب إلى كفر الساحر ، ويبيح قتله ولا يستتاب عنده ، والساحر الكتابي حكمه كالساحر المسلم . والشافعي يقول : بعدم كفره ولا يقتل عنده إلا إذا تعمّد القتل .

ومالك يرى قتل الساحر المسلم لا ساحر أهل الكتاب ويحكم بكفر الساحر ولكلٍ وجهه هو مولّيها . .

ما ترشد إليه الآيات الكريمة

1 – التوراة كتاب الله الذي أنزله على موسى عليه السلام والقرآن مصدّق للتوراة .

2 – نبذ اليهود (التوراة) ولم يعملوا بما فيها كما نبذ أخلافهم القرآن الكريم .

3 – سليمان عليه السلام كان نبياً ملكاً . ولم يكن ساحراً محترفاً للسحر .

4 – الشياطين زينوا للناس السحر ، وأوهموهم أنهم يعلمون الغيب .

5 – السحر له حقيقة وتأثير على النفس ، حتى يستطيع الشخص بواسطته أن يفرق بين الرجل وأهله .

6 – الله جل ثناؤه يختبر عباده بما شاء من الأمور ابتلاءً وتمحيصاً .

7 – من تبدل السحر بكتاب الله فليس له في الآخرة نصيب من رحمة الله .

8 – مدار الثواب والجزاء في الآخرة هو الإيمان بالله تعالى وإخلاص العمل له .

خاتمة البحث :

حكمة التشريع

لقد حرص الإسلام في كل تشريعاته على سلامة العقيدة في قلب المسلم . ليكون دائماً وأبداً متصلاً بالله ، معتمداً عليه ، مقراً له بالربوبية ، مستعيناً به على شدائد هذه الحياة ، لا يتوجه لغيره في دعاء ، ولا يقر لسواه بأي تأثير ، أو تحكم في قانون من قوانين الطبيعة التي خلقها الله تعالى ، وسيَّرها بعلمه ، وقدرته ، وإرادته .

فالنجوم ، والكواكب مسخرات بأمره – كغيرها من خلق الله – تسير وفق الخط المرسوم لها من الأزل ، لا تؤثر حركتها على الإنسان الذي خلقه الله تعالى على هذه الأرض وقدّر له أرزاقه ، وأعماره ، فلا ينتهي عمر إنسان ما بظهور كوكب ، أو اختفائه ، ولا يزيد رزق امرئ ، ولا ينقص عما قدره الله تعالى له ، فكل شأن من شؤون الحياة مدبر بأمر الله .

(550/61)

فإن زعم إنسان أنه يعلم الغيب باتصاله بالكواكب ، وتعظيمه لها . أو اتصاله بالجن والشياطين ، ويستطيع بذلك أن يؤثر في قوانين هذه الحياة ويحكم في مسيرتها الطبيعية بما يخرجها عمّا رسم لها ، يكون بذلك قد خالف شرعة الله التي أوضحها في كتابه ، وتجاوز الحدود التي وضعت له ، وخرج عن قانون الحنيفية السمحة ، فلا جرم أن يحكم عليه بالكفر لتعظيمه غير الله ، واستعانته بغير الخالق وإثباته التأثير في خلق الله لغير البارئ – والأذى بالناس ، وقد يصل بذلك إلى التفريق بين المرء وزوجه ، ولكنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً إلا بإذن الله تعالى .

وإذا كان السحر كفراً ، وخروجاً عن شرعة الإسلام ، فلا يمكن أن يوصف أحد من رسل الله تعالى بأنه ساحر ، أو أنه كان يحكم بالسحر ، ويأتي بالخوارق والمعجزات بهذا الأمر ،

ولهذا جاء القرآن كتاب الله المبين منزهاً سليمان بن داود عليه السلام عن أن يكون ساحراً ، أو حاكماً بالسحر ، أو آمراً به ، فما زعمته بنو إسرائيل عن النبي الكريم – سليمان عليه السلام – زعم كاذب ، وقول باطل ، يدل على جهلهم ، بل على ضلالهم عن سواء السبيل ، وبعدهم عن الصراط المستقيم ، فهم لم يعرفوا الله حق معرفته ، ولم يعلموا ما يجب في حق الرسل – عليهم السلام – وما يستحيل ، فالرسل الكرام منزهون عن الاستعانة بالشياطين ، وإنما كان الجن مسخرين لسليمان عليه السلام بأمر الله تعالى لا بالسحر .

هذا هو شرع الله المتين ، تنزيهٌ لله عن أن يشركه أحد من خلقه في التأثير ، وتنزيهٌ لرسله الكرام عما يبعدهم عن سواء السبيل ، وبيانٌ للمسلم عما يجب أن يعتقده . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روائع البيان فى أحكام القرآن حـ 1 صـ 64. 88 ﴾ .

(551/61)

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيتين :

﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا

يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (102) وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (103) ﴾

التفسير : من قبائح أفعالهم أنهم نبذوا كتاب الله وأقبلوا على السحر ودعوا الناس إليه ، وهذا شأن اليهود الذين كانوا في زمن محمد صلى الله عليه وسلم . وقيل : إنهم الذين تقدموا من اليهود . وقيل : إنهم الذين كانوا في زمن

(552/61)

سليمان عليه السلام من السحرة لأن أكثر اليهود ينكرون نبوة سليمان ويعدّونه من جملة ملوك الدنيا ، فالذين كانوا منهم في زمانه لا يمتنع أن يعتقدوا فيه أنه إنما وجد ذلك الملك العظيم بسبب السحر . والأولى أن يقال : اللفظ يتناول الكل . قال السدي : لما جاءهم محمد صلى الله عليه وسلم عارضوه بالتوراة فخاصموه بها ، فاتفقت التوراة والقرآن فنبذوا التوراة وأخذوا بكتاب آصف وسحر هاروت وماروت . ومعنى " تتلو " تقرأ ، أو

﴿ على ملك سليمان ﴾ أي على عهده وفي زمانه . وقيل : تلا عليه أي كذب . فالقوم لما ادعوا أن سليمان إنما وجد تلك المملكة بسبب ذلك العلم كان ذلك الادعاء كالافتراء على ملك سليمان . وأما الشياطين فالأكثرون على أنهم شياطين الجن ، وأنهم كانوا يسترقون السمع ثم يضمون إلى ما سمعوا أكاذيب يلفقونها ويلقونها إلى الكهنة ، وقد دوّنوها ويقرأونها ويعلمونها الناس وفشا ذلك في زمان سليمان حتى قالوا : إن الجن تعلم الغيب وكانوا يقولون : هذا علم سليمان وما تم لسليمان ملكه إلا بهذا العلم . وقيل : إنهم شياطين الإنس لما روي في الخبر أن سليمان كان قد دفن كثيراً من العلوم التي خصه الله تعالى بها تحت سرير ملكه حرصاً على أنه إن هلك الظاهر منها يبقى ذلك المدفون ، فلما مضت مدة على ذلك توصل قوم من المنافقين إلى أن كتبوا في خلال ذلك أشياء من السحر تناسب تلك الأشياء من بعض الوجوه ، ثم من بعد موته واطلاع الناس على تلك الكتب أوهموا الناس أنه من عمل سليمان وأنه ما وصل إلى ما وصل إلا بهذه الأشياء .

(553/61)

وزيفوا قول الأكثرين بأن شياطين الجن لو قدروا على تغيير كتب الأنبياء وشرائعهم بحيث يبقى ذلك التحريف مخيفاً فيما بين الناس لارتفع الوثوق عن جميع الشرائع ، وهذا بخلاف ما

يفعله الإنسان فإنه لا يكاد يخفى على بني نوعه . واختلف في سبب إضافتهم السحر إلى سليمان فقيل : ليروج ذلك منهم . وقيل : لأنهم ما كانوا مقرين بنبوته . وقيل : لأنه لما خالط الجن وأظهر أسراراً عجيبة غلب على ظنونهم أنه استفاد ذلك من الجن . وقوله ﴿ وما كفر سليمان ﴾ تنزيه له عما نسب القوم إليه من السحر المستلزم للكفر ، فإن كونه نبياً ينافي كونه ساحراً كافراً . ثم بين أن الذي برأه منه لاصق بغيره فقال ﴿ ولكن الشياطين كفروا ﴾ ثم ذكر ما به كفروا فقد كان من الجائز أن يتوهم أنهم كفروا لا بالسحر فقال ﴿ يعلمون الناس السحر وما أنزل ﴾ أي ويعلمونهم الذي أنزل على الملكين . وهاروت وماروت عطف بيان للملكين علمان لهما ممتنعان من الصرف للعلمية والعجمة ، وليسا من الهرت والمرت وهو الكسر كما زعم بعضهم ، لأنهما لو كانا منهما لانصرفا . وقيل : بدلان منهما .

(554/61)

ولنذكر ههنا حقيقة السحر وقصة هاروت وماروت . أما السحر ففي اللغة عبارة عن كل ما لطف مأخذه وخفي سببه ومنه الساحر للعالم . وسحره خدعه ، والسحر الرئة ، وفي الشرع : مختص بكل أمر يخفى سببه ويتخيل من غير حقيقة ويجري مجرى التمويه والخداع

. ومتى أطلق ولم يقيد أفاد ذم فاعله قال تعالى ﴿ سحروا أعين الناس ﴾ [الأعراف : 116] يعني موّهوا عليهم حتى ظنوا أن حبالهم وعصيهم تسعى . وقد يستعمل مقيداً فيما يمدح ويحمد وهو السحر الحلال قال صلى الله عليه وسلم " إن من البيان لسحراً " سمى صلى الله عليه وسلم بعض البيان سحراً لأن صاحبه يوضح الشيء المشكل ، ويكشف عن حقيقته بحسن بيانه ولطف عبارته ، ويقدر على تحسين القبيح وتقبيح الحسن ، يسخط تارة فيقول أسوأ ما يمكن ، ويرضى تارة فيقول أحسن ما يعلم . ثم السحر على أقسام : منها سحر الكلدانيين الذين كانوا في قديم الدهر وهو قوم يعبدون الكواكب ويزعمون أنها هي المدبرة لهذا العالم ، ومنها تصدر الخيرات والشرور والسعادة والنحوسة ، ويستحدثون الخوارق بواسطة تمزيج القوى السماوية بالقوى الأرضية ، وهم الذين بعث الله تعالى إبراهيم عليه السلام مبطلاً لمقالتهم ورادا عليهم مذاهبهم . ومنها سحر أصحاب الأوهام والنفوس القوية بدليل أن الجذع الذي يتمكن الإنسان من المشي عليه لو كان موضوعاً على الأرض لا يمكنه المشي عليه لو كان كالجسر ، وما ذاك إلا لأن تخيل السقوط متى قوي أوجبه .

(555/61)

وقد اجتمعت الأطباء على نهي المرعوف عن النظر إلى الأشياء الحمر ، والمصروع عن النظر إلى الأشياء القوية اللمعان أو الدوران ، وما ذاك إلا لأن النفوس خلقت مطيعة للأوهام . وحكي في الشفاء عن أرسطو أن الدجاجة إذا تشبهت كثيراً بالديكة في الصوت وفي الحراب مع الديكة في الصوت تنبت على ساقها مثل الشيء النابت على ساق الديك . وهذا يدل على أن الأحوال الجسمانية تابعة للأحوال النفسانية . واجتمعت الأمم على أن الدعاء مظنة الإجابة ، وأن الدعاء باللسان من غير طلب نفساني قليل الأثر . ويحكى أن بعض الملوك عرض له فالج ، فدخل عليه بعض الحذاق من الأطباء على حين غفلة منه وشافهه بالشتم والقدح في العرض ، فاشتد غضب الملك وقفز من مرقده قفزة اضطرارية وزالت تلك العلة المزمنة . والإصابة بالعين مما اتفق عليه العقلاء ، والتحقيق فيه أن النفس إذا كانت مستعلية على البدن شديدة الانجذاب إلى عالم السموات ، كانت كأنها روح من الأرواح السماوية ، وكانت قوية التأثير في مواد هذا العالم . أما إذا كانت ضعيفة شديدة التعلق بهذه اللذات البدنية فحينئذ لا يكون لها تصرف ألبتة إلا في هذا البدن . فإذا أراد أن يتعدى تأثيرها إلى بدن آخر اتخذ تمثال ذلك الغير ووضعه عند الحس فاشتغل الحس به وتبعه الخيال عليه وأقبلت النفس الناطقة بالكلية على ذلك ، فقويت التأثيرات النفسانية والتصرفات الروحانية ، ويعضده الانقطاع عن المألوف والمشتهيات وتقليل الغذاء والاعتزال عن الناس ، ثم إن كانت النفس مناسبة لهذا الأمر بحسب

ماهيتها وخاصيتها عظم التأثير . وأما الرقى فإن كانت بألفاظ معلومة فالأمر فيها ظاهر لأن الغرض منها أن حسن البصر كما اشتغل بالأمور المناسبة للغرض ، فحس السمع أيضاً يشتغل بها ، فإن الحواس متى تطابقت متوجهة إلى الغرض الواحد كان توجه النفس إليه أقوى وإن كانت بألفاظ غير معلومة حصلت للنفس هناك حالة شبيهة بالحيرة والدهشة ، ويحصل لها إذ ذاك انجذاب

(556/61)

وانقطاع عن المحسوسات وإقبال على ذلك الفعل ، فيقوى التأثير النفساني فيحصل الغرض . وهكذا القول في الدخن قالوا : فثبت أن هذا القدر من القوة النفسانية مستقل بالتأثير فإن انظم إليه الاستعانة بالقسم الأول وهو تأثيرات الكواكب قوي الأثر جداً ، لا سيما إن حصل لهذه النفس مدد من النفوس المفارقة المشابهة لها أو من الأنوار الفائضة من النفوس الفلكية . ومنها سحر من يستعين بالأرواح الأرضية وهو المسمى بالعزائم ، وتسخير الجن ومنه التخييلات الآخذة بالعيون وتسمى الشعوذة . وذلك أن أغلاط البصر كثيرة ، فإن راكب السفينة إذا نظر إلى الشط رأى السفينة واقفة والشط متحركاً ، والقطرة النازلة ترى خطاً مستقيماً ، والعنبة ترى في الماء كالزجاجة ، ويرى العظيم من البعيد صغيراً . وقد لا

تقف القوة الباصرة على المحسوس وقوفاً تاماً إذا أدركت المحسوس في زمان صغير جداً فيخلط البعض بالبعض ولا يتميز ، فإن الرحى إذا أخرجت من مركزها إلى محيطها خطوطاً كثيرة بألوان مختلفة ثم أديرت ، فإن البصر يرى لوناً واحداً كأنه مركب من كل تلك الألوان .

(557/61)

وأيضاً النفس إذا كانت مشغولة بشيء فربما حضر عند الحس شيء آخر ، فلا يشعر الحس به ألبتة كما أن الإنسان عند دخوله على السلطان قد يلقاه إنسان ويتكلم معه فلا يعرفه ولا يفهم كلامه لما أن قلبه مشغول بشيء آخر ، وكذا الناظر في المرآة ربما قصد أن يرى سطح المرآة هل هو مستوٍ أم لا ، فلا يرى شيئاً مما في المرآة . فالمشعوذ الحاذق يظهر عمل شيء يشغل أذهان الناظرين به ويأخذ عيونهم إليه ، حتى إذا استقر بهم الشغل بذلك الشيء والتحديق نحوه ، عمل شيئاً آخر عملاً بسرعة فيبقى ذلك العمل خفياً لتعاون الشيئين اشتغالهم بالأول وسرعة إتيانه بالثاني . ومنها الأعمال العجيبة التي تظهر من الآلات المركبة على النسب الهندسية ، أو لضروب الخيلاء كفارسين يقتتلان فيقتل احدهما الآخر ، ومنه الصور التي يصورها الروم والهند حتى لا يفرق الناظر بينها وبين

الإنسان ، وقد يصورونها ضاحكة أو باكية . وقد يفرق بين ضحك السرور وضحك الخجل ، ومن هذا الباب تركيب صندوق الساعات وعلم جر الأثقال وهذا لا يعد من السحر عرفاً ، لأن لها أسباباً معلومة يقينية . ومنها الاستعانة بخواص الأدوية والأحجار ، ومنها تعليق القلب وهو أن يدعي الساحر أنه قد عرف الاسم الأعظم وأن الجن ينقادون له في أكثر الأمور ، فإذا اتفق أن كان السامع ضعيف القلب قليل التمييز اعتقد أنه حق وتعلق قلبه بذلك وحصل في قلبه نوع من الرعب ، وحينئذ تضعف القوى الحساسة فيتمكن الساحر من أن يفعل فيه ما شاء . وإن من جرب الأمور وعرف أحوال الناس علم أن لتعليق القلب أثراً عظيماً في تنفيذ الأعمال وإخفاء الأسرار . ومنها السعي بالنميمة والتضريب من وجوه خفية لطيفة وذلك شائع في الناس . فهذه جملة الكلام في أقسام السحر ، وعند المسلمين كلها مستندة إلى قدرة الله ، فإنه لا يمتنع وقوع هذه الخوارق بإجراء العادة عند سحر السحرة . واتفقوا على أن العلم به ليس بقبيح ولا محظور ، لأن العلم لذاته شريف ولعموم

قوله تعالى ﴿ قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾ [الزمر : 9] ولأن الفرق بينه وبين المعجز يمكن به إلا أن اجتنابه أقرب إلى السلامة كتعلم الفلسفة التي لا يؤمن أن تجر إلى الغواية . وأما أن الساحر هل يكفر أم لا فلا نزاع بين الأمة في أن من اعتقد أن الكواكب هي المدبرة لهذا العالم وهي الخالقة لما فيه من الحوادث والخيرات والشرور ، فإنه يكون كافراً على الإطلاق ، وهذا هو القسم الأول من السحر . وأما النوع الثاني وهو أن يعتقد أنه قد يبلغ روح الإنسان في التصفية والقوة إلى حيث يقدر على إيجاد الأجسام وإعدامها وتغيير البنية والشكل ، فالأظهر إجماع الأمة أيضاً على تفكيره ، وأما أن يعتقد الساحر أنه قد يبلغ في التصفية وقراءة الرقى وتدخين بعض الأدوية إلى حيث يخلق الله تعالى عقيب أفعاله على سبيل العادة الأجسام والحياة والعقل وتغيير البنية والشكل ، فالمعتزلة اتفقوا على تكفير من يجوز ذلك قالوا : لأنه مع هذا الاعتقاد لا يمكنه أن يعرف صدق الأنبياء والرسل ، وزيف بأن الإنسان لو ادعى النبوة وكان كاذباً في دعواه فإنه لا يجوز من الله تعالى إظهار الخوارق على يده لئلا يحصل التلبيس ، أما إذا لم يدع النبوة فظهرت الخوارق على يده لم يفض ذلك إلى التلبيس ، فإن المحق يتميز عن المبطل بما أن المحق تحصل له هذه الأشياء مع ادعاء النبوة والمبطل لا تحصل له هذه الأشياء مع ادعاء النبوة ، وإن حصلت لم يتم فصوله الباطل كنار العرفج .

وأما سائر أنواع السحر فلا شك أنها ليست بكفر ، وحكم من كفر بالسحر حكم المرتد .

وإذا سحر إنساناً فمات فإن قال : إني سحرته وسحري يقتل غالباً وجب عليه القود ، وإن قال : سحرته وسحري قد يقتل وقد لا يقتل ، فهو شبه عمد ، وإن قال : سحرت غيره فوافق اسمه اسمه فخطأ . وعن أبي حنيفة أنه قال : يقتل الساحر إذا علم أنه ساحر ولا يستتاب ولا يقبل قوله " إني أترك السحر وأتوب منه " فإذا أقر أنه ساحر فقد حل دمه .

وإن شهد شاهدان علي أنه ساحر أو وصفوه بصفة يعلم أنه ساحر قتل ولا يستتاب ، وإن أقر بأني كنت أسحر مرة وقد تركت ذلك منذ زمان قبل منه ولم يقتل . وأما قصة هاروت وماروت فقد يروى عن ابن عباس أن الملائكة لما قالت ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ﴾ فأجابهم الله بقوله ﴿ إني أعلم ما لا تعلمون ﴾ [البقرة : 31] ثم وكل عليهم جمعاً من الملائكة وهم الكرام الكاتبون وكانوا يعرجون بأعمالهم الخبيثة ، فعجبت الملائكة منهم ومن تبقية الله لهم مع ما ظهر منهم من القبائح . ثم أضافوا إليهما عمل السحر فازداد تعجب الملائكة ، فأراد الله أن يبتلي الملائكة فقال لهم : اختاروا ملكين من أعظم الملائكة علماً وزهداً وديانة لأنزلهم إلى الأرض فأختبرهم . فاختاروا هاروت وماروت ، وركب فيهما شهوة الإنس وأنزلهما ونهاهما عن الشرك والقتل والزنا والشرب . فنزلا ، فأمر الله تعالى الكوكب المسمى بالزهرة والملك الموكل به فهبطا إلى

الأرض ، فجعلت الزهرة في صورة امرأة ، والملك في صورة رجل . ثم إن الزهرة اتخذت منزلاً وزينت نفسها ودعتهما إليها ، ونصب الملك نفسه في منزلها في مثال صنم فأقبلا عليها وطلبا الفاحشة فأبت عليهما إلا أن يشربا الخمر فقالا : لا نشرب الخمر . ثم غلبت الشهوة عليهما فشربا ثم دعواها إلى ذلك فقالت : بقيت خصلة لست أمكنكما من نفسي حتى تفعلاها .

(560/61)

قالا : وما هي ؟ قالت : تسجدان لهذا الصنم . فقالا : لا نشرك بالله شيئاً . ثم غلبت الشهوة عليهما فقالا : نفعل ثم نستغفر . فسجدا للصنم . ثم دخل سائل عليهم فقالت : إن أظهر هذا السائل للناس ما رأى منا فسد أمرنا ، فإن أردتما الوصول إليّ فاقتلا هذا الرجل . فامتنعا منه ، ثم اشتغلا بقتله . فلما فرغا من القتل ارتفعت الزهرة وملكها إلى موضعهما من السماء فعرفا حينئذ أنه إنما أصابهما بسبب تعيير بني آدم . وفي رواية أخرى أن الزهرة كانت فاجرة من أهل الأرض ، وأنهما واقعاها بعد أن شربا الخمر وقتلا النفس وسجدا للصنم وعلماها الاسم الأعظم الذي كانا يعرجان به إلى السماء ، فتكلمت المرأة بذلك الاسم فعرجت إلى السماء فمسخها الله تعالى وصيرها هذا

الكوكب ثم إن الله تعالى خيرهما بين عذاب الآخرة آجلاً وبين الدنيا عاجلاً ، فاختارا عذاب الدنيا فجعلهما ببابل منكوسين في بئر إلى يوم القيامة وهما يعلمان الناس السحر ويدعوان إليه ولا يراهما أحد إلا من ذهب إلى ذلك الموضع ليعلم السحر خاصة . وهذه القصة عند المحققين غير مقبولة ، فليس في كتاب الله ما يدل عليها ، ولأن الدلائل الدالة على عصمة الملائكة تنافيها ، ولاستبعاد كونهما معلمين للسحر حال العذاب ، ولأن الفاجرة كيف يعقل أنها صعدت على السماء وجعلها الله تعالى كوكباً مضيئاً ، ولأنه ذكر في القصة أن الله تعالى قال لهما لو ابتليتكما بما ابتليت به بني آدم لعصيتماني فقالا : لو فعلت بنا يا رب لما عصيناك وهذا منهم تكذيب الله وتجهيل . فإذن السبب في إنزالهما أن السحرة كثرت في ذلك الزمان واستنبطت أبواباً غريبة من السحر وكانوا يدعون النبوة ، فبعث الله هذين الملكين ليعلما الناس أبواب السحر حتى يتمكنوا من معارضة أولئك الكاذبين ، ولا شك أن هذا من أحسن الأغراض والمقاصد . وأيضاً تعريف حقيقة السحر ليميز بينه وبين المعجزة حسن ، وكذا السحر لإيقاع الفرقة بين أعداء الله والألفة بين

أوليائه . ولعل للجن أنواعاً من السحر لا يقدر البشر على معارضتها إلا بإعانة الملك وإرشاده ، ويجوز أن يكون ذلك تشديداً في التكليف من حيث إنه إذا علمه ما أمكنه أن يتوصل به إلى اللذات العاجلة ثم يمنعه من استعماله ، كان ذلك في نهاية المشقة فيستوجب مزيد الثواب كما ابتلي قوم طالوت بالنهر ﴿ فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني ﴾ [البقرة : 249] ويقال : هذه الواقعة كانت في زمان إدريس لأنهما إذا كانا ملكين نزلا بصورة البشر لهذا الغرض ، فلا بد من رسول في وقتهما ليكون ذلك معجزة له ، ولا يجوز كونهما رسولين لأن رسول الإنس ثبت أنه لا يكون إلا منهم .

قوله تعالى ﴿ وما يعلمان ﴾ أي وما يعلم الملكان أحداً حتى ينهياه وينصحاه ويقولا له ﴿ إنما نحن فتنة ﴾ ابتلاء واختبار من الله ﴿ فلا تكفر ﴾ بأن تتعلمه معتقداً له أنه حق أو متوصلاً به إلى شيء من المعاصي والأعراض العاجلة ﴿ فيتعلمون ﴾ الضمير لما دل عليه العموم في ﴿ من أحد ﴾ أي فيتعلم الناس من الملكين ﴿ ما يفرقون به بين المرء وزوجه ﴾ إما لأنه إذا اعتقد أن السحر حق كفر فبانت منه امرأته ، وإما لأنه يفرّق بينهما بالتمويه والاحتيال كالنفث في العقد ونحو ذلك مما يحدث الله عنده الفرك والنشوز ابتلاء منه ، لا أن السحر له أثر في نفسه بدليل قوله ﴿ وما هم بضارّين به من أحد إلا بإذن الله ﴾ بإدارته وقدرته ، لأنه إن شاء أحدث عند ذلك شيئاً من أفعاله وإن شاء لم يحدث ، وكان الذي يتعلمونه منهما لم يكن مقصوراً على هذه الصورة ، ولكن سكون المرء وركونه إلى

زوجه لما كان أشد خصت بالذكر ليدل بذلك على أن سائر الصور بتأثير السحر فيها أولى وقرأ الأعمش ﴿ وما هم بضارين به من أحد ﴾ فجعل الجارّ جزءاً من المجرور وهو " أحد " وأضاف إلى المجموع وفصل بينهما بالظرف .

(562/61)

ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم لأنهم يستعملونه في وجوه المفاسد ﴿ ولقد علموا ﴾ علم هؤلاء اليهود اللام فيه للابتداء وكذا في ﴿ لمن اشتراه ﴾ استبدل ما تتلو الشياطين واختاره على كتاب الله ﴿ ما له في الآخرة من خلاق ﴾ من نصيب كأنه قدر له هذا المقدار ، وقيل : الخلاق الخلاص . وقيل معنى الآية أن الملكين إنما قصدا بتعليم السحر الاحتراز عنه ليصل بذلك الاحتراز إلى منافع الآخرة ، فلما استعمل السحر للدنيا فكأنه اشترى بمنافع الآخرة منافع الدنيا ﴿ ولبئسما شروا به أنفسهم ﴾ أي باعوها والمخصوص محذوف وهو السحر أو منافع الدنيا ، وجواب " لو " محذوف يدل على ما قبله أي لو كانوا يعلمون لعلموا قبح ما شروا . ويجوز أن يكون " لو " للتمني مجازاً كما تقدم من الترجي في ﴿ لعلكم تتقون ﴾ وحينئذ لا يحتاج إلى الجواب . بقي ههنا سؤال وهو أنه كيف أثبت لهم العلم أولاً في قوله ﴿ ولقد علموا ﴾ على سبيل التوكيد بالقسم إجمالاً ثم

نفاه عنهم في قوله ﴿ لو كانوا يعلمون ﴾ ؟ فإن " لو " لامتناع الثاني لامتناع الأول ، وكذا لو كان للتمني فإن التمني استدعاء أمر هو كالممتنع . والجواب أن الذين علموا غير الذين لم يعلموا ، فالذين علموا هم الذين علموا السحر ودعوا الناس إلى تعلمه ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم ، والذين لا يعلمون هم الجهال الذين يرغبون في تعلم السحر . سلمنا أن القوم واحد ، ولكنهم علموا شيئاً وجهلوا شيئاً آخر ، علموا أنه لا خلاق لهم في الآخرة ، وجهلوا مقدار ما فاتهم من منافع الآخرة وما حصل لهم من مضارّها وعقوباتها ، سلمنا أن القوم واحد والمعلوم واحد ، ولكنهم نسبوا إلى الجهل حيث لم يعملوا بعلمهم ولم ينتفعوا به كما قيل : إنهم صم بكم عمي حيث لم ينتفعوا بالحواس .

(563/61)

ولما أوعدهم بقوله ﴿ ولقد علموا ﴾ أتبع ذلك الوعد جامعاً بين الترهيب والترغيب ليكون أدعى إلى الطاعة وأنهى عن المعصية فقال ﴿ ولو أنهم آمنوا ﴾ بعين ما نبذوه من كتاب الله وهو القرآن أو التوراة التي يصدقها القرآن أو كلاهما ، واتقوا فعل المنهيات وترك المأمورات ، أو اتقوا الله فتركوا ما هم عليه من نبذ كتاب الله واتباع كتب الشياطين ﴿ لمثوبة من عند الله ﴾ لشيء من ثوابه ﴿ خير ﴾ ولا بد من تقدير فعل يكون " أن " مع ما

بعده فاعلاً له ، أي لو ثبت أنهم آمنوا ، وجواب " لو " محذوف أيضاً ويدل عليه هذه الجملة الاسمية المصدرة باللام أي لأثيبوا وإنما تركت الفعلية إلى هذه ليدل على ثبات المثوبة واستقرارها . ويجوز أن يكون القسم مقدراً وقوله ﴿ لمثوبة ﴾ جوابه ساداً مسد جواب الشرط مغنياً عنه ، ودخول اللام الموطئة في الشرط غير واجب في القسم المقدر وإن كان هو الأكثر ، على أن دخول اللام الموطئة " لو " مستثقل فيشبه أن يكون الأكثر بل الواجب ههنا عدم الدخول . ويجوز أن يكون " لو " للتمني مجازاً عن إرادة الله إيمانهم كأنه قيل : وليتهم آمنوا . ثم ابتدئ ﴿ لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون ﴾ أن ثواب الله خير مما هم فيه لآمنوا واتقوا ، وقد علموا لكنه جهلهم لترك العلم بالعلم . ويجوز أن يكون " لو " بمعنى التمني كما تقرر والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 1 صـ 352.345 ﴾

(564/61)

فصل

قال الشيخ سيد قطب فى الآيات السابقة :

﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا

عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (75) ﴾

إلى قوله تعالى :

﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (102) وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (103) ﴾

انقضى المقطع السابق في السورة في تذكير بني إسرائيل بأنعم الله عليهم وجحودهم لهذا الإنعام المتواصل ؛ وباستعراض مشاهد الإنعام والجحود ، بعضها باختصار وبعضها بتطويل ؛ وانتهى هذا الاستعراض بتقرير ما انتهت إليه قلوبهم في نهاية المطاف من قسوة وجفاف وجدب ، أشد من قسوة الحجارة وجفافها وجدبها .

فالأن يأخذ السياق في الاتجاه بالخطاب إلى الجماعة المسلمة يحدثها عن بني إسرائيل ، ويبصرها بأساليبهم ووسائلهم في الكيد والفتنة ؛ ويحذرها كيدهم ومكرهم على ضوء تاريخهم وجبلتهم ، فلا تنخدع بأقوالهم ودعاويهم ووسائلهم الماكرة في الفتنة والتضليل .

ويدل طول هذا الحديث ، وتنوع أساليبه على ضخامة ما كانت تلقاه الجماعة المسلمة من الكيد المنصوب لها والمرصود لدينها من أولئك اليهود !

وبين آن وآخر يلتفت السياق إلى بني إسرائيل ليواجههم – على مشهد من المسلمين – بما أخذ عليهم من المواثيق ، وبما نقضوا من هذه المواثيق ؛ وبما وقع منهم من انحرافات ونكول عن العهد وتكذيب بأنبيائهم ، وقتلهم لهؤلاء الأنبياء الذين لا يطاوعونهم على هواهم ، ومن مخالفة لشريعتهم ، ومن التوائهم وجدالهم بالباطل ، وتحريفهم لما بين أيديهم من النصوص .

يستعرض جدالهم مع الجماعة المسلمة وحججهم ودعاويهم الباطلة ، ويلقن الرسول – صلى الله عليه وسلم – أن يفضح دعاويهم ، ويفند حججهم ، ويكشف زيف ادعاءاتهم ، ويرد عليهم كيدهم بالحق الواضح الصريح :

فلقد زعموا أن لن تمسهم النار إلا أياماً معدودة بحكم ما لهم من المكانة الخاصة عند الله ! فلقن الله نبيه – صلى الله عليه وسلم – أن يرد عليهم قولهم هذا : ﴿ قل : أتخذتم عند الله عهداً فلن يخلف الله عهده ؟ أم تقولون على الله ما لا تعلمون ؟ ﴾ . .

وكانوا إذا دعوا إلى الإسلام ﴿ قالوا : نؤمن بما أنزل علينا ، ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقاً لما معهم ﴾ . . فلقن الله رسوله – صلى الله عليه وسلم – أن يفضح دعواهم أنهم يؤمنون بما أنزل إليهم : ﴿ قل : فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين ؟ ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون ؟ وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا . قالوا : سمعنا وعصينا وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم . قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين ! ﴾ . .

(566/61)

وكانوا يدعون أن الدار الآخرة خالصة لهم من دون الناس . فلقن الله رسوله – صلى الله عليه وسلم – أن يتحداهم بدعوتهم إلى المباهلة أي أن يجتمع الفريقان : هم والمسلمون ، ثم يدعون الله أن يميت الكاذب : ﴿ قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ﴾ . . وقرر أنهم لن يتمنوه أبداً – وهذا ما حدث . فقد نكصوا عن المباهلة لعلمهم أنهم كاذبون فيما يدعون !

وهكذا يمضي السياق في هذه المواجهة ، وهذا الكشف ، وهذا التوجيه .

. ومن شأن هذه الخطة أن تضعف – أو تبطل – كيد اليهود في وسط الصف المسلم ؛ وأن

تكشف دسائسهم وأحابيلهم ؛ وأن تدرك الجماعة المسلمة طريقة اليهود في العمل والكيد والادعاء ، على ضوء ما وقع منهم في تاريخهم القديم .

وما تزال الأمة المسلمة تعاني من دسائس اليهود ومكرهم ما عاناه أسلافها من هذا المكر ومن تلك الدسائس ؛ غير أن الأمة المسلمة لا تنتفع – مع الأسف – بتلك التوجيهات القرآنية ، وبهذا الهدى الإلهي ، الذي انتفع به أسلافها ، فغلبوا كيد اليهود ومكرهم في المدينة ، والدين ناشئ ، والجماعة المسلمة وليدة . . وما يزال اليهود – بلؤمهم ومكرهم – يضللون هذه الأمة عن دينها ، ويصرفونها عن قرآنها ، كي لا تأخذ منه أسلحتها الماضية ، وعدتها الواقية . وهم آمنون ما انصرفت هذه الأمة عن موارد قوتها الحقيقية ، وينابيع معرفتها الصافية . . وكل من يصرف هذه الأمة عن دينها وعن قرآنها فإنما هو من عملاء يهود ؛ سواء عرف أم لم يعرف ، أراد أم لم يرد ، فسيظل اليهود في مأمن من هذه الأمة ما دامت مصروفة عن الحقيقة الواحدة المفردة التي تستمد منها وجودها وقوتها وغلبتها – حقيقة العقيدة الإيمانية والمنهج الإيماني والشريعة الإيمانية – فهذا هو الطريق . وهذه هي معالم الطريق :

﴿ أفتطمعون أن يؤمنوا لكم ، وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ، ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون ؟ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا : آمنا ، وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا : أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم ؟ أفلا تعقلون ؟ أو لا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون ؟ ﴾ . .

كانت صورة الجفاف والقسوة والجدب هي التي صور الله بها قلوب بني إسرائيل في نهاية الدرس الماضي . صورة الحجارة الصلدة التي لا تنض منها قطرة ، ولا يلين لها ممس ، ولا تنبض فيها حياة . . وهي صورة توحي باليأس من هذه الطبيعة الجاسية الجامدة الخاوية . . وفي ظل هذا التصوير ، وظل هذا الإيحاء ، يلتفت السياق إلى المؤمنين ، الذين يطمعون في هداية بني إسرائيل ، ويحاولون أن يبثوا في قلوبهم الإيمان ، وأن يفيضوا عليها النور . . يلتفت إلى أولئك المؤمنين بسؤال يوحي باليأس من المحاولة ، وبالقنوط من الطمع : ﴿ أفتطمعون أن يؤمنوا لكم ؟ وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ، ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون ؟ ﴾ . .

ألا أنه لا مطمع ولا رجاء في أن يؤمن أمثال هؤلاء . فللإيمان طبيعة أخرى ، واستعداد آخر . إن الطبيعة المؤمنة سمحة هينة لينة ، مفتحة المنافذ للأضواء ، مستعدة للإتصال بالنبع الأزلي الخالد بما فيها من نداوة ولين وصفاء . وبما فيها من حساسية وتحرج وتقوى . هذه التقوى التي تمنعها أن تسمع كلام الله ثم تحرفه من بعد تعقله .

تحرفه عن علم وإصرار . فالطبيعة المؤمنة طبيعة مستقيمة ، تتحرج من هذا التحريف والالتواء .

(568/61)

والفريق المشار إليه هنا هو أعلم اليهود وأعرفهم بالحقيقة المنزلة عليهم في كتابهم هم الأحبار والربانيون ، الذين يسمعون كلام الله المنزل على نبيهم موسى في التوراة ثم يحرفونه عن مواضعه ، ويؤولونه التأويلات البعيدة التي تخرج به عن دائرته . لا عن جهل بحقيقة مواضعه ، ولكن عن تعمد للتحريف ، وعلم بهذا التحريف . يدفعهم الهوى ، وتقودهم المصلحة ، ويحدوهم الغرض المريض ! فمن باب أولى ينحرفون عن الحق الذي جاء به محمد – صلى الله عليه وسلم – وقد انحرفوا عن الحق الذي جاء به نبيهم موسى – عليه السلام – ومن باب أولى – وهذا خراب ذممهم ، وهذا إصرارهم على الباطل وهم يعلمون بطلانه – أن يعارضوا دعوة الإسلام ، ويروغوا منها ويختلقوا عليها الأكاذيب !

﴿ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا : آمنا ، وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا : أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم ؟ أفلا تعقلون ؟ ﴾ . .

أفتطمعون أن يؤمنوا لكم ، وهم يضيفون إلى خراب الذمة ، وكتمان الحق ، وتحريف الكلم عن مواضعه . . الرياء والنفاق والخداع والمراوغة ؟

(569/61)

وقد كان بعضهم إذا لقوا المؤمنين قالوا : آمنا . . أي آمنا بأن محمداً مرسل ، بحكم ما عندهم في التوراة من البشارة به ، وبحكم أنهم كانوا ينتظرون بعثته ، ويطلبون أن ينصرهم الله به على من عداهم . وهو معنى قوله : ﴿ وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا ﴾ . . ولكن : ﴿ إذا خلا بعضهم إلى بعض ﴾ . . عاتبوهم على ما أفضوا للمسلمين من صحة رسالة محمد – صلى الله عليه وسلم – ومن معرفتهم بحقيقة بعثته من كتابهم ، فقال بعضهم لبعض : ﴿ أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم ﴾ . . فتكون لهم الحجة عليكم ؟ . . وهنا تدركهم طبيعتهم المحجبة عن معرفة صفة الله وحقيقة علمه ؛ فيتصورون أن الله لا يأخذ عليهم الحجة إلا أن يقولوها بأفواههم للمسلمين ! أما إذا كتموا وسكتوا فلن تكون لله عليهم حجة ! . . وأعجب العجب أن يقول بعضهم لبعض في هذا : ﴿ أفلا تعقلون ؟ ﴾ . . فيا للسخرية من العقل والتعقل الذي يتحدثون عنه مثل هذا الحديث ! !

ومن ثم يعجب السياق من تصورهم هذا قبل أن يمضي في استعراض ما يقولون وما يفعلون :

﴿ أولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون ؟ ﴾ . .

ثم يستطرد يقص على المسلمين من أحوال بني إسرائيل : إنهم فريقان . فريق أمي جاهل ، لا يدري شيئاً من كتابهم الذي نزل عليهم ، ولا يعرف منه إلا أوهاماً وظنوناً ، وإلا أماني في النجاة من العذاب ، بما أنهم شعب الله المختار ، المغفور له كل ما يعمل وما يرتكب من آثام ! وفريق يستغل هذا الجهل وهذه الأمية فيزوّر على كتاب الله ، ويحرف الكلم عن مواضعه بالتأويلات المغرضة ، ويكتم منه ما يشاء ، ويبدي منه ما يشاء ويكتب كلاماً من عند نفسه يذيعه في الناس باسم أنه من كتاب الله .

. كل هذا ليربح ويكسب ، ويحتفظ بالرياسة والقيادة :

(570/61)

﴿ ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني وإن هم إلا يظنون ، فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ، ثم يقولون : هذا من عند الله ، ليشتروا به ثمنا قليلاً . فويل لهم مما كتبت أيديهم ، وويل لهم مما يكسبون ﴾ . .

فكيف ينتظر من أمثال هؤلاء وهؤلاء أن يستجيبوا للحق ، وأن يستقيموا على الهدى ،

وأن يتحرجوا من تحريف ما يقف في طريقهم من نصوص كتابهم نفسه ؟ إن هؤلاء لا مطمع في أن يؤمنوا للمسلمين . وإنما هو الويل والهلاك ينتظرهم . الويل والهلاك لهم مما كتبت أيديهم من تزوير على الله ؛ والويل والهلاك لهم مما يكسبون بهذا التزوير والاختلاق !

من تلك الأماني التي لا تستقيم مع عدل الله ، ولا تتفق مع سنته ، ولا تتمشى مع التصور الصحيح للعمل والجزاء . . أن يحسبوا أنهم ناجون من العذاب مهما فعلوا ، وأن النار لن تمسهم إلا أياما معدودات يخرجون بعدها إلى النعيم . . علام يعتمدون في هذه الأمنية ؟ علام يحددون الوقت كأنهم مستوثقون ؟ وكأنها معاهدة محدودة الأجل معلومة الميقات ؟ لا شيء إلا أماني الأميين الجهال ، وأكاذيب المحتالين العلماء ! الأماني التي يلجأ إليها المنحرفون عن العقيدة الصحيحة ، حين يطول بهم الأمد ، وينقطع ما بينهم وبين حقيقة دينهم ، فلا يبقى لهم منه إلا اسمه وشكله ، دون موضوعه وحقيقته ويظنون أن هذا يكفيهم للنجاة من العذاب بحكم ما يعلنونه بألسنتهم من أنهم على دين الله :

﴿ وقالوا : لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة . قل : أتخذتم عند الله عهداً فلن يخلف الله عهده ؟ أم تقولون على الله ما لا تعلمون ؟ ﴾ . .

وهذا هو التلقين الإلهي للحجة الدامغة : ﴿ أتخذتم عند الله عهدا فلن يخلف الله عهده ؟ ﴾ . . فأين هو هذا العهد ؟ ﴿ أم تقولون على الله ما لا تعلمون ﴾ . . وهذا هو الواقع . فالاستفهام هنا للتقرير . ولكنه في صورة الاستفهام يحمل كذلك معنى الإنكار والتوبيخ !

هنا يأتيهم الجواب القاطع والقول الفصل في هذه الدعوى ، في صورة كلية من كليات التصور الإسلامي ، تنبع من فكرته الكلية عن الكون والحياة والإنسان : إن الجزاء من جنس العمل ، ووفق هذا العمل .

﴿ بلى ! من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴾ . .

ولا بد أن نقف قليلاً أمام ذلك التصوير الفني المعجز لحالة معنوية خاصة ، وأمام هذا الحكم الإلهي الجازم نكشف عن شيء من أسبابه وأسراره :

﴿ بلى ! من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته . . ﴾ . .

الخطيئة كسب ؟ إن المعنى الذهني المقصود هو اجتراح الخطيئة . ولكن التعبير يومئ إلى حالة نفسية معروفة . . إن الذي يجترح الخطيئة إنما يجترحها عادة وهو يلتذها ويستسيغها ؛ ويحسبها كسباً له – على معنى من المعاني – ولو أنها كانت كريهة في حسه ما اجترحها ، ولو كان يحس أنها خسارة ما أقدم عليها متحمسا ، وما تركها تملأ عليه نفسه ، وتحيط بعالمه ؛ لأنه خليق لو كرهها وأحس ما فيها من خسارة أن يهرب من ظلها – حتى لو اندفع

لارتكابها – وأن يستغفر منها ، ويلوذ إلى كنف غير كنفها .

وفي هذه الحالة لا تحيط به ، ولا تملأ عليه عالمه ، ولا تغلق عليه منافذ التوبة والتكفير . .

وفي التعبير : ﴿ وأحاطت به خطيئته ﴾ . . تجسيم لهذا المعنى . وهذه خاصية من خواص التعبير القرآني ، وسمة واضحة من سماته ؛ تجعل له وقعاً في الحس يختلف عن وقع المعاني الذهنية المجردة ، والتعبيرات الذهنية التي لا ظل لها ولا حركة . وأي تعبير ذهني عن اللجاجة في الخطيئة ما كان ليشع مثل هذا الظل الذي يصور المجترح الآثم حبيس خطيئته : يعيش في إطارها ، ويتنفس في جوها ، ويحيا معها ولها .

عندئذ . . عندما تغلق منافذ التوبة على النفس في سجن الخطيئة . . عندئذ يحق ذلك الجزاء العادل الحاسم :

﴿ فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ . .

ثم يتبع هذا الشطر بالشطر المقابل من الحكم .

(572/61)

﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴾ . .

فمن مقتضيات الإيمان أن ينبثق من القلب في صورة العمل الصالح . . وهذا ما يجب أن

يدركه من يدعون الإيمان . . وما أحوجنا – نحن الذين نقول أنا مسلمون – أن نستيقن هذه الحقيقة : أن الإيمان لا يكون حتى ينبثق منه العمل الصالح . فأما الذين يقولون : إنهم مسلمون ثم يفسدون في الأرض ، ويحاربون الصلاح في حقيقته الأولى وهي إقرار منهج الله في الأرض ، وشريعته في الحياة ، وأخلاقه في المجتمع ، فهؤلاء ليس لهم من الإيمان شيء ، وليس لهم من ثواب الله شيء ، وليس لهم من عذابه واق ولو تعلقوا بأماني كأمانيّ اليهود التي بين الله لهم وللناس فيها هذا البيان .

ثم يمضي السياق يحدث الجماعة المسلمة عن حال اليهود ، ومواقفهم التي يتجلى فيها العصيان والالتواء والانحراف والنكول عن العهد والميثاق . ويواجه اليهود بهذه المواقف على مشهد من المسلمين :

﴿ وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله ؛ وبالوالدين إحساناً ؛ وذي القربى واليتامى والمساكين ؛ وقولوا للناس حسناً ؛ وأقيموا الصلاة ، وآتوا الزكاة . . ثم توليتم إلا قليلاً منكم وأنتم معرضون . وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم . ثم أقررتم وأنتم تشهدون . . ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم ، وتخرجون فريقا منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان ، وإن يأتوكم أسارى تفادوهم ، وهو محرم عليكم إخراجهم . أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ؟ فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ، ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب ، وما الله بغافل

عما تعملون .

أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة ، فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون ﴾ . .

ولقد سبقت الإشارة إلى الميثاق في معرض تذكير الله لبني إسرائيل بإخلاف موقفهم معه في الدرس الماضي . فهنا شيء من التفصيل لبعض نصوص هذا الميثاق .

(573/61)

ومن الآية الأولى ندرك أن ميثاق الله مع بني إسرائيل ، ذلك الميثاق الذي أخذه عليهم في ظل الجبل ، والذي أمروا أن يأخذوه بقوة وأن يذكروا ما فيه . . أن ذلك الميثاق قد تضمن القواعد الثابتة لدين الله . هذه القواعد التي جاء بها الإسلام أيضاً ، فتنكروا لها وأنكروها .

لقد تضمن ميثاق الله معهم : ألا يعبدوا إلا الله . . القاعدة الأولى للتوحيد المطلق .

وتضمن الإحسان إلى الوالدين وذي القربى واليتامى والمساكين . وتضمن خطاب الناس بالحسنى ، وفي أولها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . . كذلك تضمن فريضة الصلاة وفريضة الزكاة . وهذه في مجموعها هي قواعد الإسلام وتكاليفه . .

ومن ثم تتقرر حقيقتان : الأولى هي وحدة دين الله ؛ وتصديق هذا الدين الأخير لما قبله في أصوله . والثانية هي مقدار التعنت في موقف اليهود من هذا الدين ، وهو يدعوهم لمثل ما عاهدوا الله عليه ، وأعطوا عليه الميثاق .

وهنا - في هذا الموقف المخجل - يتحول السياق من الحكاية إلى الخطاب ، فيوجه القول إلى بني إسرائيل . وكان قد ترك خطابهم والتفت إلى خطاب المؤمنين . ولكن توجيه الخطاب إليهم هنا أخزى وأنكى :

﴿ ثم توليتم إلا قليلا منكم وأنتم معرضون ﴾ . .

وهكذا تتكشف بعض أسرار الالتفات في سياق القصص وغيره في هذا الكتاب العجيب !

ويستمر السياق يوجه الخطاب إلى بني إسرائيل ، وهو يعرض عليهم متناقضات موقفهم من ميثاقهم مع الله . .

﴿ وإذ أخذنا ميثاقكم : لا تسفكون دماءكم ، ولا تخرجون أنفسكم من دياركم . ثم أقررتم وأنتم تشهدون ﴾ . .

فماذا كان بعد الإقرار وهم شاهدون حاضرون ؟

﴿ ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم ، وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم ، تظاهرون عليهم

بالإثم والعدوان . وإن يأتوكم أسارى تفادوهم ، وهو محرم عليكم إخراجهم . أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ؟ ﴾ . .

(574/61)

ولقد كان هذا الذي يواجههم به واقعاً قريب العهد قبيل غلبة الإسلام على الأوس والخزرج . كان الأوس والخزرج مشركين ، وكان الحيّان أشد ما يكون حيّان من العرب عداء . وكان اليهود في المدينة ثلاثة أحياء ترتبط بعهود مع هذا الحي وذاك من المشركين . . كان بنو قينقاع وبنو النضير حلفاء الخزرج ، وكان بنو قريظة حلفاء الأوس . فكانت الحرب إذا نشبت بينهم قاتل كل فريق مع حلفائه ؛ فيقتل اليهودي أعداءه ، وقد يقتل اليهودي اليهودي من الفريق الآخر – وهذا حرام عليهم بنص ميثاق الله معهم – وكانوا يخرجونهم من ديارهم إذا غلب فريقهم وينهبون أموالهم ويأخذون سباياهم – وهذا حرام عليهم بنص ميثاق الله معهم – ثم إذا وضعت الحرب أوزارها فادوا الأسارى ، وفكوا أسر المأسورين من اليهود هنا أو هناك ، عندهم أو عند حلفائهم أو أعداء حلفائهم على السواء – وذلك عملاً بحكم التوراة وقد جاء فيها : إنك لا تجد مملوكاً من بني إسرائيل إلا أخذته فأعتقته .

.

هذا التناقض هو الذي يواجههم به القرآن ؛ وهو يسألهم في استنكار :

﴿ أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ؟ ﴾ . .

وهذا هو نقض الميثاق الذي يتهددهم عليه بالخزي في الحياة الدنيا ، والعذاب الأشد في الآخرة . مع التهديد الخفي بأن الله ليس غافلاً عنه ولا متجاوزاً :

﴿ فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ، ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب . وما الله بغافل عما تعملون ﴾ . .

ثم يلتفت إلى المسلمين وإلى البشرية جميعاً ، وهو يعلن حقيقتهم وحقيقة عملهم :

﴿ أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة . فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون ﴾ . .

وكذبوا إذن في دعواهم أن لن تمسهم النار إلا أياماً معدودة . . فهؤلاء هم هناك : ﴿ فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون ﴾ . .

وقصة شرائهم الحياة الدنيا بالآخرة هنا في هذه المناسبة : هي أن الدافع لهم على مخالفة ميثاقهم مع الله ، هو استمساكهم بميثاقهم مع المشركين في حلف يقتضي مخالفة دينهم وكتابهم . فإن انقسامهم فريقين ، وانضمامهم إلى حلفين ، هي هي خطة إسرائيل التقليدية ، في إمساك العصا من الوسط ؛ والانضمام إلى المعسكرات المتطاحنة كلها من باب الاحتياط ، لتحقيق بعض المغانم على أية حال ؛ وضمان صوالح اليهود في النهاية سواء انتصر هذا المعسكر أم ذاك ! وهي خطة من لا يثق بالله ، ولا يستمسك بميثاقه ، ويجعل اعتماده كله على الدهاء ، ومواثيق الأرض ، والاستنصار بالعباد لا برب العباد . والإيمان يحرم على أهله الدخول في حلف يناقض ميثاقهم مع ربهم ، ويناقض تكاليف شريعتهم ، باسم المصلحة أو الوقاية ، فلا مصلحة إلا في اتباع دينهم ، ولا وقاية إلا بحفظ عهدهم مع ربهم .

ثم يمضي السياق يواجه بني إسرائيل بمواقفهم تجاه النبوات وتجاه الأنبياء . . أنبيائهم هم ، وما كان من سوء صنيعهم معهم كلما جاءوهم بالحق ، الذي لا يخضع للأهواء . .

﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب ، وقفينا من بعده بالرسل ؛ وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس . أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ، ففريقا كذبتم ، وفريقا تقتلون ؟ ﴾ . .

ولقد كانت حجة بني إسرائيل في إعراضهم عن الإسلام ، وإبائهم الدخول فيه ، أن عندهم

الكفاية من تعاليم أنبيائهم ، وأنهم ماضون على شريعتهم ووصاياهم . . فهنا يفضحهم القرآن ويكشف عن حقيقة موقفهم من أنبيائهم وشرائعهم ووصاياهم . ويثبت أنهم هم هم كلما واجهوا الحق ، الذي لا يخضع لأهوائهم .

(576/61)

وفيما تقدم واجههم بالكثير من مواقفهم مع نبيهم موسى – عليه السلام – وقد آتاه الله الكتاب . ويزيد هنا أن رسلهم توالت تترى ، يقفو بعضهم بعضاً ؛ وكان آخرهم عيسى بن مريم . وقد آتاه الله المعجزات البينات ، وأيده بروح القدس جبريل – عليه السلام – فكيف كان استقبالهم لذلك الحشد من الرسل ولآخرهم عيسى عليه السلام ؟ كان هذا الذي يستنكره عليهم ؛ والذي لا يملكون هم إنكاره ، وكتبهم ذاتها تقرره وتشهد به : ﴿ أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم : ففريقاً كذبتم وفريقا تقتلون ! ﴾ !

ومحاولة إخضاع الهداة والشرائع للهوى الطارىء والنزوة المتقلبة .

ظاهرة تبدو كلما فسدت الفطرة ، وانطمست فيها عدالة المنطق الإنساني ذاته . المنطق الذي يقتضي أن ترجع الشريعة إلى مصدر ثابت – غير المصدر الإنساني المتقلب –

مصدر لا يميل مع الهوى ، ولا تغلبه النزوة . وأن يرجع الناس إلى ذلك الميزان الثابت الذي لا يتأرجح مع الرضى والغضب ، والصحة والمرض ، والنزوة والهوى ، لا أن يخضعوا الميزان ذاته للنزوة والهوى !

ولقد قص الله على المسلمين من أنباء بني إسرائيل في هذا ما يحذرهم من الوقوع في مثله ، حتى لا تسلب منهم الخلافة في الأرض والأمانة التي ناطها بهم الله ، فلما وقعوا في مثل ما وقع فيه بنو إسرائيل ، وطرحوا منهج الله وشريعته ، وحكموا أهواءهم وشهواتهم ، وقتلوا فريقاً من الهداة وكذبوا فريقاً . ضربهم الله بما ضرب به بني إسرائيل من قبل ، من الفرقة والضعف ، والذلة والهوان ، والشقاء والتعاسة . . إلا أن يستجيبوا لله ورسله ، وإلا أن يخضعوا أهواءهم لشريعته وكتابه ، وإلا أن يفوا بعهد الله معهم ومع أسلافهم ، وإلا أن يأخذوه بقوة ، ويذكروا ما فيه لعلهم يهتدون .

ذلك كان موقفهم مع أنبيائهم ، يبينه ويقرره ، ثم يجابههم بموقفهم من الرسالة الجديدة والنبي الجديد ، فإذا هم هم ، كأنهم أولئك الذين جابهوا الأنبياء من قبل :

﴿ وقالوا : قلوبنا غلف . بل لعنهم الله بكفرهم فقليلاً ما يؤمنون ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم – وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا – فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به . فلعنة الله على الكافرين . بئسما اشتروا به أنفسهم : أن يكفروا بما أنزل الله – بغياً ، أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده – فباؤوا بغضب على غضب ، وللكافرين عذاب مهين . وإذا قيل لهم : آمنوا بما أنزل الله ، قالوا : نؤمن بما أنزل علينا . ويكفرون بما وراءه ، وهو الحق مصدقا لما معهم ، قل : فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين ؟ ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون . وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور : خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا . قالوا : سمعنا وعصينا ، وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم . قل : بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين ! ﴾ . .

إن الأسلوب هنا يعنف ويشتد ، ويتحول – في بعض المواضع – إلى صواعق وحمم . . إنه يجبههم جبهاً شديداً بما قالوا وما فعلوا ؛ ويجردهم من كل حججهم ومعاذيرهم ، التي يسترون بها استكبارهم عن الحق ، وأثرتهم البغيضة ، وعزلتهم النافرة ، وكراهتهم لأن ينال غيرهم الخير ، وحسدهم أن يؤتي الله أحداً من فضله .

جزاء موقفهم الجحودي المنكر من الإسلام ورسوله الكريم . .

﴿ وقالوا : قلوبنا غلف . بل لعنهم الله بكفرهم فقليلاً ما يؤمنون ﴾ . .

قالوا : إن قلوبنا مغلفة لا تنفذ إليها دعوة جديدة ، ولا تستمع إلى داعية جديد ! قالوها تيئيساً لمحمد – صلى الله عليه وسلم – وللمسلمين ، من دعوتهم إلى هذا الدين ؛ أو تعليلاً لعدم استجابتهم لدعوة الرسول . . ويقول الله رداً على قولتهم : ﴿ بل لعنهم الله بكفرهم ﴾ . . أي إنه طردهم وأبعدهم عن الهدى بسبب كفرهم . فهم قد كفروا ابتداء فجازاهم الله على الكفر بالطرد وبالحيلولة بينهم وبين الانتفاع بالهدى . . ﴿ فقليلاً ما يؤمنون ﴾ . . أي قليلاً ما يقع منهم الإيمان بسبب هذا الطرد الذي حق عليهم جزاء كفرهم السابق ، وضلالهم القديم . أو أن هذه حالهم : أنهم كفروا فقلما يقع منهم الإيمان ، حالة لاصقة بهم يذكرها تقريراً لحقيقتهم . . وكلا المعنيين يتفق مع المناسبة والموضوع .

وقد كان كفرهم قبيحاً ، لأنهم كفروا بالنبي الذي ارتقبوه ، واستفتحوا به على الكافرين ، أي ارتقبوا أن ينتصروا به على من سواهم . وقد جاءهم بكتاب مصدق لما معهم : ﴿ ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم – وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا – فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ﴾ . .

وهو تصرف يستحق الطرد والغضب لقبحه وشناعته . . ومن ثم يصب عليهم اللعنة ويصمهم بالكفر : ﴿ فلعنة الله على الكافرين ﴾ . .

ويفضح السبب الخفي لهذا الموقف الشائن الذي وقفوه ؛ بعد أن يقرر خسارة الصفقة التي

اختاروها :

﴿ بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله ، بغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده . فباؤوا بغضب على غضب ، وللكافرين عذاب مهين ﴾ . .

(579/61)

بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا . . . لكأن هذا الكفر هو الثمن المقابل لأنفسهم ! والإنسان يعادل نفسه بثمن ما ، يكثر أو يقل . أما أن يعادلها بالكفر فتلك أبأس الصفقات وأخسرها ولكن هذا هو الواقع . وإن بدا تمثيلاً وتصويراً . لقد خسروا أنفسهم في الدنيا فلم ينضموا إلى الموكب الكريم العزيز ولقد خسروا أنفسهم في الآخرة بما ينتظرهم من العذاب المهين . وبماذا خرجوا في النهاية ؟ خرجوا بالكفر ، هو وحده الذي كسبوه وأخذوه !

وكان الذي حملهم على هذا كله هو حسدهم لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – أن يختاره الله للرسالة التي انتظروها فيهم ، وحقدهم لأن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده . وكان هذا بغياً منهم وظلماً فعادوا من هذا الظلم بغضب على غضب ؛ وهناك ينتظرهم عذاب مهين ، جزاء الاستكبار والحسد والبغي الذميم .

وهذه الطبيعة التي تبدو هنا في يهود هي الطبيعة الكنود ، طبيعة الأثرة الضيقة التي تحيا في نطاق من التعصب شديد ؛ وتحس أن كل خير يصيب سواها كأنما هو مقتطع منها ؛ ولا تشعر بالوشيجة الإنسانية الكبرى ، التي تربط البشرية جميعاً .

. وهكذا عاش اليهود في عزلة ، يحسون أنهم فرع مقطوع من شجرة الحياة ؛ ويتربصون بالبشرية الدوائر ؛ ويكنون للناس البغضاء ، ويعانون عذاب الأحقاد والضغائن ، ويذيقون البشرية رجع هذه الأحقاد فتناً يوقدونها بين بعض الشعوب وبعض ، وحروباً يثيرونها ليجروا من ورائها المغانم ، ويروون بها أحقادهم التي لا تنطفىء ، وهلاكاً يسلطونه على الناس ، ويسلطه عليهم الناس . . وهذا الشر كله إنما نشأ من تلك الأثرة البغيضة : ﴿ بغياً . . أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده ﴾ . .

﴿ وإذا قيل لهم : آمنوا بما أنزل الله قالوا : نؤمن بما أنزل علينا ، ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقاً لما معهم ﴾ . .

(580/61)

وكان هذا هو الذي يقولونه إذا دعوا إلى الإيمان بالقرآن وبالإسلام . كانوا يقولون ﴿ نؤمن بما أنزل علينا ﴾ . . ففيه الكفاية ، وهو وحده الحق ، ثم يكفرون بما وراءه . سواء ما

جاءهم به عيسى عليه السلام ، وما جاءهم به محمد خاتم النبيين .

والقرآن يعجب من موقفهم هذا ، ومن كفرهم بما وراء الذي معهم ﴿ وهو الحق مصدقاً لما معهم ﴾ . .

وما لهم وللحق ؟ وما لهم أن يكون مصدقاً لما معهم ! ما داموا لم يستأثروا هم به ؟ إنهم يعبدون أنفسهم ، ويتعبدون لعصبيتهم . لا بل إنهم ليعبدون هواهم ، فلقد كفروا من قبل بما جاءهم أنبياؤهم به . . ويلقن الله نبيه – صلى الله عليه وسلم – أن يجبههم بهذه الحقيقة ، كشفاً لموقفهم وفضحاً لدعواهم :

﴿ قل : فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين ؟ ﴾ . .

لم تقتلون أنبياء الله من قبل ، إن كنتم حقاً تؤمنون بما أنزل إليكم ؟ وهؤلاء الأنبياء هم الذين جاؤوكم بما تدعون أنكم تؤمنون به ؟

لا بل إنكم كفرتم بما جاءكم به موسى – نبيكم الأول ومنقذكم الأكبر – :

﴿ ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون ﴾ . .

فهل اتخاذكم العجل من بعد ما جاءكم موسى بالبينات ، وفي حياة موسى نفسه ، كان من وحي الإيمان ؟ وهل يتفق هذا مع دعواكم أنكم تؤمنون بما أنزل إليكم ؟

ولم تكن هذه هي المرة الوحيدة . بل كان هنالك الميثاق تحت الصخرة ، وكان هناك التمرد والمعصية :

﴿ وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور : خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا . قالوا : سمعنا وعصينا ، وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم ﴾ . .

والسياق هنا يلتفت من الخطاب إلى الحكاية . . يخاطب بني إسرائيل بما كان منهم ، ويلتفت إلى المؤمنين – وإلى الناس جميعاً – فيطلعهم على ما كان منهم . . ثم يلقن الرسول – صلى الله عليه وسلم – أن يجبههم بالترذيل والتبشيع لهذا اللون من الإيمان العجيب الذي يدعونه إن كان يأمرهم بكل هذا الكفر الصريح :

(581/61)

﴿ قل : بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين ! ﴾ . .

ونقف هنا لحظة أمام التعبيرين المصورين العجيبين : ﴿ قالوا : سمعنا وعصينا ﴾ . . ﴿ وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم ﴾ .

.

إنهم قالوا : سمعنا . ولم يقولوا عصينا . ففيم إذن حكاية هذا القول عنهم هنا ؟ إنه التصوير الحي للواقع الصامت كأنه واقع ناطق . لقد قالوا بأفواههم : سمعنا . وقالوا بأعمالهم : عصينا . والواقع العملي هو الذي يمنح القول الشفوي دلالته . وهذه الدلالة أقوى من القول

المنطوق . . وهذا التصوير الحي للواقع يومىء إلى مبدأ كلي من مباديء الإسلام : إنه لا قيمة لقول بلا عمل . إن العمل هو المعتبر . أو هي الوحدة بين الكلمة المنطوقة والحركة الواقعة ، وهي مناط الحكم والتقدير .

فأما الصورة الغليظة التي ترسمها : ﴿ وأشربوا في قلوبهم العجل ﴾ فهي صورة فريدة . لقد أشربوا . أشربوا بفعل فاعل سواهم . أشربوا ماذا ؟ أشربوا العجل ! وأين أشربوه ؟ أشربوه في قلوبهم ! ويظل الخيال يتمثل تلك المحاولة العنيفة الغليظة ، وتلك الصورة الساخرة الهازئة : صورة العجل يدخل في القلوب إدخالاً ، ويحشر فيها حشراً ، حتى ليكاد ينسى المعنى الذهني الذي جاءت هذه الصورة المجسمة لتؤديه ، وهو حبهم الشديد لعبادة العجل ، حتى لكأنهم أشربوه إشراباً في القلوب ! هنا تبدو قيمة التعبير القرآني المصور ، بالقياس . إن التعبير الذهني المفسر . . إنه التصوير . . السمة البارزة في التعبير القرآني الجميل .

ثم لقد كانوا يطلقونها دعوى عريضة . . إنهم شعب الله المختار . إنهم وحدهم المهتدون . إنهم وحدهم الفائزون في الآخرة . إنه ليس لغيرهم من الأمم في الآخرة عند الله نصيب .

(582/61)

وهذه الدعوى تتضمن أن المؤمنين بمحمد – صلى الله عليه وسلم – لا نصيب لهم في الآخرة. والهدف الأول هو زعزعة ثقتهم بدينهم وبوعود رسولهم ووعود القرآن لهم..

فأمر الله نبيه – صلى الله عليه وسلم – أن يدعو اليهود إلى مباهلة. أي بأن يقف الفريقان ويدعوا الله بهلاك الكاذب منهما :

﴿ قل : إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس ، فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ﴾ .

ويعقب على هذا التحدي بتقرير أنهم لن يقبلوا المباهلة ، ولن يطلبوا الموت. لأنهم يعلمون أنهم كاذبون ؛ ويخشون أن يستجيب الله فيأخذهم. وهم يعلمون أن ما قدموه من عمل لا يجعل لهم نصيباً في الآخرة. وعندئذ يكونون قد خسروا الدنيا بالموت الذي طلبوه ، وخسروا الآخرة بالعمل السيىء الذي قدموه.. ومن ثم فإنهم لن يقبلوا التحدي. فهم أحرص الناس على حياة. وهم والمشركون في هذا سواء :

﴿ ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم. والله عليم بالظالمين. ولتجدنهم أحرص الناس على حياة. ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو يُعمر ألف سنة. وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر ، والله بصير بما يعملون ﴾ .

لن يتمنوه. لأن ما قدمته أيديهم للآخرة لا يطمعهم في ثواب ، ولا يؤمنهم من عقاب. إنه مدخر لهم هناك ، والله عليم بالظالمين وما كانوا يعملون.

وليس هذا فحسب . ولكنها خصلة أخرى في يهود ، خصلة يصورها القرآن صورة تفيض بالزراية وتنضح بالتحقير والمهانة : ﴿ ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ﴾ .

. أية حياة ، لا يهم أن تكون حياة كريمة ولا حياة مميزة على الإطلاق ! حياة فقط ! حياة بهذا التنكير والتحقير ! حياة ديدان أو حشرات ! حياة والسلام ! إنها يهود ، في ماضيها وحاضرها ومستقبلها سواء . وما ترفع رأسها إلا حين تغيب المطرقة . فإذا وجدت المطرقة نكست الرؤوس ، وعنت الجباه جبناً وحرصاً على الحياة . . أي حياة !

(583/61)

﴿ ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو يعمر ألف سنة ، وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر ، والله بصير بما يعملون ﴾ . .

يود أحدهم لو يعمر ألف سنة . ذلك أنهم لا يرجون لقاء الله ، ولا يحسون أن لهم حياة غير هذه الحياة . وما أقصر الحياة الدنيا وما أضيقها حين تحس النفس الإنسانية أنها لا تتصل بحياة سواها ، ولا تطمع في غير أنفاس وساعات على الأرض معدودة . . إن الإيمان بالحياة الآخرة نعمة . نعمة يفيضها الإيمان على القلب . نعمة يهبها الله للفرد الفاني العاني . المحدود الأجل الواسع الأمل وما يغلق أحد على نفسه هذا المنفذ إلى الخلود ، إلا وحقيقة الحياة في

روحه ناقصة أو مطموسة . فالإيمان بالآخرة – فوق أنه إيمان بعدل الله المطلق ، وجزائه الأوفى – هو ذاته دلالة على فيض النفس بالحيوية ، وعلى امتلاء بالحياة لا يقف عند حدود الأرض ؛ إنما يتجاوزها إلى البقاء الطليق ، الذي لا يعلم إلا الله مداه ، وإلى المرتقى السامي الذي يتجه صعداً إلى جوار الله .

ويمضي السياق بتلقين جديد من الله لرسوله – صلى الله عليه وسلم – يتحداهم به ، ويعلن الحقيقة التي يتضمنها على رؤوس الأشهاد :

﴿ قل : من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله ، مصدقاً لما بين يديه ، وهدى وبشرى للمؤمنين . من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال ، فإن الله عدو للكافرين ﴾ . .

(584/61)

وفي قصة هذا التحدي نطلع على سمة أخرى من سمات يهود . سمة عجيبة حقاً . . لقد بلغ هؤلاء القوم من الحنق والغيظ من أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده مبلغاً يتجاوز كل حد ، وقادهم هذا إلى تناقض لا يستقيم في عقل . . لقد سمعوا أن جبريل ينزل بالوحي من عند الله على محمد – صلى الله عليه وسلم – ولما كان عداؤهم لمحمد قد بلغ

مرتبة الحقد والحنق فقد لج بهم الضغن أن يخترعوا قصة واهية وحجة فارغة ، فيزعموا أن جبريل عدوهم ، لأنه ينزل بالهلاك والدمار والعذاب ؛ وأن هذا هو الذي يمنعهم من الإيمان بمحمد من جراء صاحبه جبريل ! ولو كان الذي ينزل إليه بالوحي هو ميكائيل لآمنوا ، فميكائيل يتنزل بالرخاء والمطر والخصب !

إنها الحماقة المضحكة ، ولكن الغيظ والحقد يسوقان إلى كل حماقة . وإلا فما بالهم يعادون جبريل ؟ وجبريل لم يكن بشراً يعمل معهم أو ضدهم ، ولم يكن يعمل بتصميم من عنده وتدبير ؟ إنما هو عبد الله يفعل ما يأمره ولا يعصى الله ما أمره !

﴿ قل : من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله ﴾ .

.

فما كان له من هوى شخصي ، ولا إرادة ذاتية ، في أن ينزله على قلبك ، إنما هو منفذ لإرادة الله وإذنه في تنزيل هذا القرآن على قلبك . . والقلب هو موضع التلقي ، وهو الذي يفقه بعد التلقي ، ويستقر هذا الكتاب فيه ويحفظ . . والقلب يعبر به في القرآن عن قوة الإدراك جملة وليس هو هذه العضلة المعروفة بطبيعة الحال .

نزله على قلبك . . ﴿ مصدقاً لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين ﴾ . .

(585/61)

والقرآن يصدق في عمومه ما سبقه من الكتب السماوية ، فأساس دين الله واحد في جميع الكتب السماوية وجميع الديانات الإلهية . . وهو هدى وبشرى للقلوب المؤمنة ، التي تتفتح له وتستجيب . . وهذه حقيقة ينبغي إبرازها . . إن نصوص القرآن لتسكب في قلب المؤمن من الإيناس ، وتفتح له من أبواب المعرفة ، وتفيض فيه من الإيحاءات والمشاعر ما لا يكون بغير الإيمان . ومن ثم يجد فيه الهدى ، كما يستروح فيه البشرى . وكذلك نجد القرآن يكرر هذه الحقيقة في مناسبات شتى . . ﴿ هدى للمتقين ﴾ . . ﴿ هدى لقوم يؤمنون ﴾ . . ﴿ هدى لقوم يوقنون ﴾ . . ﴿ شفاء ورحمة للمؤمنين ﴾ . فالهدى ثمرة الإيمان والتقوى واليقين . .

وبنو إسرائيل لم يكونوا يؤمنون أو يتقون أو يوقنون !

وكانوا – كعادتهم في تفريق الدين وتفريق الرسل – قد فرقوا بين ملائكة الله الذين يسمعون أسماءهم وأعمالهم ، فقالوا : إنهم على صداقة مع ميكائيل أما مع جبريل فلا ! لذلك جمعت الآية التالية جبريل وميكال وملائكة الله ورسله ، لبيان وحدة الجميع ، ولإعلان أن من عادى أحداً منهم فقد عاداهم جميعا ، وعادى الله سبحانه ، فعاداه الله . فهو من الكافرين . .

﴿ من كان عدواً لله وملائكته ورسله ، وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين ﴾ . .

ثم يتجه بالخطاب إلى الرسول – صلى الله عليه وسلم – يثبته على ما أنزل عليه من الحق ، وما آتاه من الآيات البينات ، مقررا أنه لا يكفر بهذه الآيات إلا الفاسقون المنحرفون . ويندد ببني إسرائيل الذين لا يستقيمون على عهد . سواء عهودهم مع ربهم وأنبيائهم من قبل ، أو عهودهم مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كما يندد بنبذهم لكتاب الله الأخير الذي جاء مصدقاً لما معهم :

(586/61)

﴿ ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون ، أو كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم ؟ بل أكثرهم لا يؤمنون . ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم ، كأنهم لا يعلمون . . . ﴾ . .

لقد كشف القرآن هنا عن علة كفر بني إسرائيل بتلك الآيات البينات التي أنزلها الله . . إنه الفسوق وانحراف الفطرة . فالطبيعة المستقيمة لا يسعها إلا الإيمان بتلك الآيات . وهي تفرض نفسها فرضاً على القلب المستقيم . فإذا كفر بها اليهود – أو غيرهم – فليس هذا لأنه لا مقنع فيها ولا حجة ، ولكن لأنهم هم فاسدو الفطرة فاسقون .

ثم يلتفت إلى المسلمين – وإلى الناس عامة – منددا بهؤلاء اليهود ، كاشفاً عن سمة من

سماتهم الوبيئة . . إنهم جماعة مفككة الأهواء – رغم تعصبها الذميم – فهم لا يجتمعون على رأي ، ولا يثبتون على عهد ، ولا يستمسكون بعروة . ومع أنهم متعصبون لأنفسهم وجنسهم ، يكرهون أن يمنح الله شيئاً من فضله لسواهم ، إلا أنهم – مع هذا – لا يستمسكون بوحدة ، ولا يحفظ بعضهم عهد بعض ، وما من عهد يقطعونه على أنفسهم حتى تند منهم فرقة فتنقض ما أبرموا ، وتخرج على ما أجمعوا :

﴿ أوكلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم ؟ بل أكثرهم لا يؤمنون ﴾ . .

وقد أخلفوا ميثاقهم مع الله تحت الجبل ، ونبذوا عهودهم مع أنبيائهم من بعد ، وأخيراً نبذ فريق منهم عهدهم الذي أبرموه مع النبي – صلى الله عليه وسلم – أول مقدمه إلى المدينة ؛ وهو العهد الذي وادعهم فيه بشروط معينة ، بينما كانوا هم أول من أعان عليه أعداءه ؛ وأول من عاب دينه ، وحاول بث الفرقة والفتنة في الصف المسلم ، مخالفين ما عاهدوا المسلمين عليه . .

(587/61)

وبئس هي من خلة في اليهود ! تقابلها في المسلمين خلة أخرى على النقيض ، يعلنها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في قوله " المسلمون تتكافأ دماؤهم ، وهم يد على من

سواهم يسعى بذمتهم أدناهم " . يسعى بذمتهم أدناهم ، فلا يخيس أحد بعهده إذا عاهد ، ولا ينقض أحد عقده إذا أبرم ، ولقد كتب أبو عبيدة – رضي الله عنه – وهو قائد لجيش عمر – رضي الله عنه – وهو الخليفة يقول : إن عبداً أمن أهل بلد بالعراق . وسأله رأيه . فكتب إليه عمر : إن الله عظم الوفاء ، فلا تكونون أوفياء حتى تفوا . . فوفوا لهم وانصرفوا عنهم . . وهذه سمة الجماعة الكريمة المتماسكة المستقيمة . وذلك فرق ما بين أخلاق اليهود الفاسقين وأخلاق المسلمين الصادقين .

﴿ ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم ، نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون ﴾ . .

وكان هذا مظهراً من مظاهر نقض فريق لكل عهد يعاهدونه . فلقد كان ضمن الميثاق الذي أخذه الله عليهم ، أن يؤمنوا بكل رسول يبعثه ، وأن ينصروه ويحترموه . فلما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم ، خاسوا بذلك العهد ، ونبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم ، يستوي في هذا النبذ كتاب الله الذي معهم ، والذي يتضمن البشرى بهذا النبي وقد نبذوه ، والكتاب الجديد مع النبي الجديد وقد نبذوه أيضاً ! وفي الآية ما فيها من سخرية خفية ، يحملها ذلك النص على أن الذين أوتوا الكتاب هم الذين نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم .

فلو كانوا هم المشركين الأميين لكان نبذهم لكتاب الله وراء ظهورهم مفهوماً ! ولكنهم هم الذين أوتوا الكتاب . هم الذين عرفوا الرسالات والرسل . هم الذين اتصلوا بالهدى ورأوا النور . . وماذا صنعوا ؟ إنهم نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم ! والمقصود طبعاً أنهم جحدوه وتركوا العمل به ، وأنهم أبعدوه عن مجال تفكيرهم وحياتهم . ولكن التعبير المصور ينقل المعنى من دائرة الذهن إلى دائرة الحس ؛ ويمثل عملهم بحركة مادية متخيلة ، تصور هذا التصرف تصويراً بشعاً زرياً ، ينضح بالكنود والجحود ، ويتسم بالغلظة والحماقة ، ويفيض بسوء الأدب والقحة ؛ ويدع الخيال يتملى هذه الحركة العنيفة . حركة الأيدي تنبذ كتاب الله وراء الظهور . .

ثم ماذا ؟ ماذا بعد أن نبذوا كتاب الله المصدق لما معهم ؟ ؟ ألعلهم قد لاذوا بما هو خير منه ؟ ألعلهم قد لجأوا إلى حق لا شبهة فيه ؟ ألعلهم قد استمسكوا بكتابهم الذي جاء القرآن يصدقه ؟ كلا . . لا شيء من هذا كله . إنهم نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم ليجروا خلف أساطير غامضة لا تستند إلى حقيقة ثابتة .

﴿ واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان ، وما كفر سليمان ، ولكن الشياطين كفروا . يعلمون الناس السحر ، وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت . وما يعلمان من أحد حتى يقولا : إنما نحن فتنة فلا تكفر . فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه

– وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله – ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم . ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق ، ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون . ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون ﴾ . .

لقد تركوا ما أنزل الله مصدقاً لما معهم ؛ وراحوا يتتبعون ما يقصه الشياطين عن عهد سليمان ، وما يضللون به الناس من دعاوى مكذوبة عن سليمان ، إذ يقولون : إنه كان ساحراً ، وإنه سخر ما سخر عن طريق السحر الذي كان يعلمه ويستخدمه .

(589/61)

والقرآن ينفي عن سليمان – عليه السلام – أنه كان ساحراً ، فيقول :

﴿ وما كفر سليمان ﴾ .

فكأنه يعد السحر واستخدامه كفراً ينفيه عن سليمان – عليه السلام – ويثبته للشياطين :

﴿ ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ﴾ . .

ثم ينفي أن السحر منزل من عند الله على الملكين : هاروت وماروت . اللذين كان مقرهما بابل :

﴿ وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت ﴾ . .

ويبدو أنه كانت هناك قصة معروفة عنهما ، وكان اليهود أو الشياطين يدعون أنهما كانا يعرفان السحر ويعلمانه للناس ، ويزعمان أن هذا السحر أنزل عليهما ! فنفى القرآن هذه الفرية أيضاً . فرية تنزيل السحر على الملكين .

ثم يبين الحقيقة ، وهي أن هذين الملكين كانا هناك فتنة وابتلاء للناس لحكمة مغيبة . وأنهما كانا يقولان لكل من يجيء اليهما ، طالباً منهما أن يعلماه السحر :

﴿ وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر ﴾ .

.

ومرة أخرى نجد القرآن يعتبر السحر وتعلمه واستخدامه كفراً ؛ ويذكر هذا على لسان الملكين : هاروت وماروت .

وقد كان بعض الناس يصر على تعلم السحر منهما ، على الرغم من تحذيره وتبصيره .

وعندئذ تحق الفتنة على بعض المفتونين :

﴿ فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه ﴾ . .

وهو الأذى والشر الذي حذرهم منه الملكان . .

وهنا يبادر القرآن فيقرر كلية التصور الإسلامي الأساسية ، وهي أنه لا يقع شيء في هذا الوجود إلا بإذن الله :

﴿ وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ﴾ . .

فبإذن الله تفعل الأسباب فعلها وتنشىء آثارها وتحقق نتائجها . . وهذه قاعدة كلية في التصور لا بد من وضوحها في ضمير المؤمن تماماً . وأقرب ما يمثل هذه القاعدة في مثل هذا المقام ، أنك إذا عرضت يدك للنار فإنها تحترق . ولكن هذا الاحتراق لا يكون إلا بإذن الله . فالله هو الذي أودع النار خاصية الحرق وأودع يدك خاصية الاحتراق بها . وهو قادر على أن يوقف هذه الخاصية حين لا يأذن لحكمة خاصة يريدها ؛ كما وقع لإبراهيم - عليه السلام - وكذلك هذا السحر الذي يفرقون به بين المرء وزوجه ، ينشئ هذا الأثر بإذن الله . وهو قادر على أن يوقف هذه الخاصية فيه حين لا يأذن لحكمة خاصة يريدها . . وهكذا بقية ما نتعارف عليه بأنه مؤثرات وآثار . . كل مؤثر مودع خاصية التأثير بإذن الله ، فهو يعمل بهذا الإذن ، ويمكن أن يوقف مفعوله كما أعطاه هذا المفعول حين يشاء . .

ثم يقرر القرآن حقيقة ما يتعلمون ، وما يفرقون به بين المرء وزوجه . . إنه شر عليهم هم أنفسهم لا خير :

﴿ ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ﴾ . .

ويكفي أن يكون هذا الشر هو الكفر ليكون ضراً خالصاً لا نفع فيه !

﴿ ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق ﴾ . .

ولقد علموا أن الذي يشتريه لا نصيب له في الآخرة ، فهو حين يختاره ويشتريه يفقد كل رصيد له في الآخرة وكل نصيب . .

فما أسوأ ما باعوا به أنفسهم لو كانوا يعلمون حقيقة الصفقة :

﴿ ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون ﴾ . .

﴿ ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون ﴾ . .

وينطبق هذا القول على الذين كانوا يتعلمون السحر من الملكين ببابل ، وعلى الذين يتبعون ما تقصه الشياطين عن عهد سليمان وملكه ، وهم اليهود الذين ينبذون كتاب الله وراءهم ظهرياً ، ويتبعون هذا الباطل وهذا الشر الذميم .

وبعد فلا بد من كلمة هنا عن السحر ، وعما يفرق بين المرء وزوجه ، مما كان أولئك اليهود يجرون خلفه ، ويتركون كتاب الله وراء ظهورهم من أجله . .

إنه ما يزال مشاهداً في كل وقت أن بعض الناس يملكون خصائص لم يكشف العلم عن كنهها بعد .

لقد سمي بعضها بأسماء ولكنه لم يحدد كنهها ولا طرائقها ! . . هذا " التيليباثي " – التخاطر عن بعد – ما هو ؟ وكيف يتم ؟ كيف يملك إنسان أن يدعو إنساناً على أبعاد وفواصل لا يصل إليها صوت الإنسان في العادة ولا بصره ، فيتلقى عنه ، دون أن تقف بينهما الفواصل والأبعاد ؟

وهذا التنويم المغنطيسي ما هو وكيف يتم ؟ كيف يقع أن تسيطر إرادة على إرادة ، وأن يتصل فكر بفكر ، فإذا أحدهما يوحي إلى الآخر ، وإذا أحدهما يتلقى عن الآخر ، كأنما يقرأ من كتاب مفتوح ؟

إن كل ما استطاع العلم أن يقوله إلى اليوم في هذه القوى التي اعترف بها ، هو أن أعطاها أسماء ! ولكنه لم يقل قط : ما هي ؟ ولم يقل قط كيف تتم ؟

وثمة أمور كثيرة أخرى يماري فيها العلم . إما لأنه لم يجمع منها مشاهدات كافية للاعتراف بها ؛ وإما لأنه لم يهتد إلى وسيلة تدخلها في نطاق تجاربه . هذه الأحلام التنبئية – وفرويد الذي يحاول إنكار كل قوة روحية لم يستطع إنكار وجودها – كيف أرى رؤيا عن مستقبل مجهول ، ثم إذا هذه النبوءة تصدق في الواقع بعد حين ؟ وهذه الأحاسيس الخفية التي ليس لها اسم بعد . كيف أحس أن أمراً ما سيحدث بعد قليل أو أن شخصاً ما قادم بعد قليل ؛

ثم يحدث ما توقعت على نحو من الأنحاء !

إنه من المكابرة في الواقع أن يقف إنسان لينفي ببساطة مثل هذه القوى المجهولة في الكائن البشري ، لمجرد أن العلم لم يهتد بعد إلى وسيلة يجرب بها هذه القوى .

وليس معنى هذا هو التسليم بكل خرافة ، والجري وراء كل أسطورة . . إنما الأسلم والأحوط أن يقف العقل الإنساني أمام هذه المجاهيل موقفاً مرناً . . لا ينفي على الإطلاق ولا يثبت على الإطلاق ، حتى يتمكن بوسائله المتاحة له بعد ارتقاء هذه الوسائل من إدراك ما يعجز الآن عن إدراكه ؛ أو يسلم بأن في الأمر شيئاً فوق طاقته ، ويعرف حدوده ، ويحسب للمجهول في هذا الكون حسابه . .

(592/61)

السحر من قبيل هذه الأمور . وتعليم الشياطين للناس من قبيل هذه الأمور . وقد تكون صورة من صوره : القدرة على الإيحاء والتأثير ، إما في الحواس والأفكار ، وإما في الأشياء والأجسام . . وإن كان السحر الذي ذكر القرآن وقوعه من سحرة فرعون كان مجرد تخييل لا حقيقة له : ﴿ فخيل إليه من سحرهم أنها تسعى ﴾ – ولا مانع أن يكون مثل هذا التأثير وسيلة للتفريق بين المرء وزوجه ، وبين الصديق وصديقه . فالانفعالات تنشأ من

التأثرات . وإن كانت الوسائل والآثار ، والأسباب والمسببات ، لا تقع كلها إلا بإذن الله ، على النحو الذي أسلفنا .

أما من هما الملكان : هاروت وماروت ؟ ومتى كانا ببابل ؟ فإن قصتهما كانت متعارفة بين اليهود .

بدليل أنهم لم يكذبوا هذه الإشارة ولم يعترضوا عليها . وقد وردت في القرآن الكريم إشارات مجملة لبعض الأحداث التي كانت معروفة عند المخاطبين بها ؛ وكان في ذلك الإجمال كفاية لأداء الغرض ، ولم يكن هنالك ما يدعو إلى تفصيل أكثر . لأن هذا التفصيل ليس هو المقصود .

ولا أحب أن نجري نحن – في ظلال القرآن – خلف الأساطير الكثيرة التي وردت حول قصة الملكين . فليست هنالك رواية واحدة محققة يوثق بها .

ولقد مضى في تاريخ البشرية من الآيات والابتلاءات ما يناسب حالتها وإدراكها في كل طور من أطوارها . فإذا جاء الاختيار في صورة ملكين – أو في صورة رجلين طيبين كالملائكة – فليس هذا غريباً ولا شاذاً بالقياس إلى شتى الصور وشتى الابتلاءات الخارقة ، التي مرت بها البشرية وهي تحبو ، وهي تخطو ، وهي تقفو أشعة الشعلة الإلهية المنيرة في غياهب الليل البهيم !

والمفهومات الواضحة المحكمة في هذه الآيات تغني عن السعي وراء المتشابه فيها بالقياس إلينا بعد ذلك الزمن المديد . وحسبنا أن نعلم منها ضلال بني إسرائيل في جريهم وراء الأساطير ، ونبذهم كتاب الله المستيقن ، وأن نعرف أن السحر من عمل الشيطان ؛ وأنه من ثم كفر يدان به الإنسان ، ويفقد به في الآخرة كل نصيب وكل رصيد . انتهى انتهى . اهـ

﴿ الظلال حـ 1 صـ 82.98 ﴾

(594/61)

بسم الله الرحمن الرحيم

الكتاب / الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

ويسمى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العَاجِزُ الْفَقِيرُ

عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مُحَمَّدٍ الْقَمَّاش

إِمَامُ وَخَطِيبُ مَسْجِدِ بُورُسْلِى - رَأْسُ الْخَيمَةِ

دَوْلَةُ الإِمَارَاتِ الْعَرَبِيَّةِ الْمُتَّحِدَةِ

(عَفَا اللهُ عَنْهُ وَغَفَرَ لَهُ)

الجزء الثانى والستون

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الثانى والستون

من الآية ﴿ 104 ﴾ سورة البقرة

وحتى الآية ﴿ 108 ﴾ من نفس السورة

قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (104) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان من الحق كما قال الحرالي إجراء الأمور على حكم ما أثبتها الحق لأنها بذلك حق هو مثال للحق المبين وصرفها إلى من لم يثبتها الحق في حيزه إفك وقلب عن وجهه فهو خيال باطل هو في باب الرأي بمنزلة السحر في الحس فهو خيال لما صحة النسبة فيه مثال اتبع الآيات الذامة للسحر الحقيقي التنبيه على السحر المجازي الذي حيلوا به الخير وقصدوا به الشر ليكون النهي عنه نهياً عن الأول بطريق الأولى فقال ملتفتاً عن ذكرهم إلى خطاب المؤمنين الذي هو أخص من ﴿ يا بني إسرائيل ﴾ الأخص من ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم ﴾ [البقرة : 21] ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ ، أي أقروا بالإيمان صدقوا إقراركم به بأن ﴿ لا تقولوا ﴾ للنبي صلى الله عليه وسلم : ﴿ راعنا ﴾ التي تقصدون بها الرعاية والمراقبة لمقصد الخير وخفض الجانب ، فاغتنمها اليهود لموافقة كلمة سيئة عندهم فصاروا يلوون بها ألسنتهم ويقصدون بها الرعونة وهي إفراط الجهالة فنهاهم عن موافقتهم في القول منعاً للصحيح الموافق في الصورة لشبهه من القبيح وعوضهم منها ما لا يتطرق إليه فساد فقال : ﴿ وقولوا انظرنا ﴾ فأبقى المعنى وصرف اللفظ .

قال الحرالي : ففيه إلزام تصحيح الصور لتطابق تصحيح المقاصد وليقع الفرق بين الصورتين كما وقع الفرق بين المعنيين فهي آية فرقان خاصة بالعرب .

قال الأصفهاني : وهذا النهي اختص بهذا الوقت ، قال الواحدي لإجماع الأمة على جواز المخاطبة بهذا اللفظ الآن وقال : ﴿ واسمعوا ﴾ أي قولوا ما أمرتكم به وامتثلوا جميع أوامري ولا تكونوا كاليهود في حملهم السماع على حقيقته وقولهم ﴿ سمعنا وعصينا ﴾ وعطف ﴿ وللكافرين ﴾ على غير معطوف عليه مذكور مرشد إلى أن التقدير : فإن السماع أي القبول إيمان وللسامعين نعيم كريم والإعراض كفر وللكافرين من اليهود وغيرهم ﴿ عذاب أليم ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 211 ﴾

وقال الفخر :

اعلم أن الله تعالى لما شرح قبائح أفعالهم قبل مبعث محمد عليه الصلاة والسلام أراد من ههنا أن يشرح قبائح أفعالهم عند مبعث محمد صلى الله عليه وسلم وجدهم واجتهادهم في القدح فيه والطعن في دينه وهذا هو النوع الأول من هذا الباب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 202 ﴾

اللغة :

[راعنا] من (المراعاة) وهي الإنظار والإمهال ، وأصلها من الرعاية ، وهي النظر في مصالح الإنسان ، وقد حرفها اليهود فجعلوها كلمة مسبة ، مشتقة من (الرعونة) وهي الحمق ، ولذلك نهي عنها المؤمنون

[انظرنا] من النظر أو الانتظار تقول : نظرت الرجل إذا انتظرته وارتقبته أي انتظرنا وتأن بنا

[يود] يتمنى ويحب

[ننسخ] النسخ في اللغة : الإبطال والإزالة يقال : نسخت الشمس الظل أي أزالته ، وفي الشرع : رفع حكم شرعي وتبديله بحكم آخر

[ننسها] من أنسى الشيء جعله منسيا فهو من النسيان الذي هو ضد الذكر أي نمحها من القلوب

[ولي] الولي : من يتولى أمور الإنسان ومصالحه

[نصير] النصير : المعين مأخوذ من قولهم نصره إذا أعانه

[أم] بمعنى بل وهي تفيد الانتقال من جملة إلى جملة أخرى ، كقوله تعالى : [أم يقولون افتراه] أي بل يقولون

[يتبدل] يقال : بدل وتبدل واستبدل أي جعل شيئا موضع آخر ، وتبدل الكفر بالإيمان ، معناه : أخذ الكفر بدل الإيمان

[سواء السبيل] أي وسط الطريق ، والسواء من كل شيء : الوسط ، والسبيل معناه الطريق

[فاعفوا] العفو : ترك المؤاخذة على الذنب

[واصفحوا] والصفح : ترك التأنيب عنه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 1 صـ 85 ﴾

" لطيفة "

قال الفخر :

اعلم أن الله تعالى خاطب المؤمنين بقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ في ثمانية وثمانين موضعاً من القرآن .

قال ابن عباس : وكان يخاطب في التوراة بقوله : يا أيها المساكين فكأنه سبحانه وتعالى لما خاطبهم أولاً بالمساكين أثبت المسكنة لهم آخراً حيث قال : ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذلة والمسكنة ﴾ [البقرة : 61] ، وهذا يدل على أنه تعالى لما خاطب هذه الأمة بالإيمان أولاً فإنه تعالى يعطيهم الأمان من العذاب في النيران يوم القيامة ، وأيضاً فاسم المؤمن أشرف

الأسماء والصفات ، فإذا كان يخاطبنا في الدنيا بأشرف الأسماء والصفات فنرجو من فضله أن يعاملنا في الآخرة بأحسن المعاملات . انتهى انتهى . اهـ ﴾ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 202 . 203 ﴿

فائدة

قال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ لاَ تَقُولُواْ رَاعِنَا ﴾ ذكر شيئاً آخر من جهالات اليهود ؛ والمقصود نهي المسلمين عن مثل ذلك .

وحقيقةُ " رَاعِنَا " في اللغة أَرْعِنَا ولْنَرْعَك ؛ لأن المفاعلة من اثنين ؛ فتكون من رعاك الله ، أي احفظنا ولنحفظك ، وارقبنا ولنرقبك .

ويجوز أن يكون من أرعنا سمعك ؛ أي فرّغ سمعك لكلامنا .

وفي المخاطبة بهذا جفاء ؛ فأمر المؤمنين أن يتخيّروا من الألفاظ أحسنها ومن المعاني أرقّها .

قال ابن عباس : كان المسلمون يقولون للنبيّ صلى الله عليه وسلم : راعنا .

على جهة الطلب والرّغبة من المراعاة أي التفت إلينا ؛ وكان هذا بلسان اليهود سَبًّا ، أي اسمع لا سِمعتَ ؛ فاغتنموها وقالوا : كنا نَسُبّه سِراً فالآن نَسُبّه جهراً ؛ فكانوا يخاطبون بها النبي صلى الله عليه وسلم ويضحكون فيما بينهم ، فسمعها سعد بن معاذ وكان يعرف

لغتهم ؛ فقال لليهود : عليكم لعنة الله ! لئن سمعتها من رجل منكم يقولها للنبيّ صلى الله عليه وسلم لأضربنّ عنقه ؛ فقالوا : أولستم تقولونها ؟ فنزلت الآية ، ونُهُوا عنها لئلا تقتدي بها اليهود في اللفظ وتقصد المعنى الفاسد فيه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 2 صـ 57 ﴾ .

وقال الآلوسى :

﴿ يا أيها الذين ءامَنُواْ لاَ تَقُولُواْ راعنا ﴾ الرعي حفظ الغير لمصلحته سواء كان الغير عاقلاً أو لا ، وسبب نزول الآية كما أخرج أبو نعيم في " الدلائل " عن ابن عباس رضي الله تعالى عنه أن اليهود كانوا يقولون ذلك سراً لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو سب قبيح بلسانهم ، فلما سمعوا أصحابه عليه الصلاة والسلام يقولون : أعلنوا بها ، فكانوا يقولون ذلك ويضحكون فيما بينهم ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ، وروي أن سعد بن عبادة رضي الله تعالى عنه سمعها منهم ، فقال : يا أعداء الله عليكم لعنة الله ، والذي نفسي بيده لئن سمعتها من رجل منكم يقولها لرسول الله صلى الله عليه وسلم لأضربن عنقه ، قالوا : أولَستم تقولونها ؟ فنزلت الآية ونهي المؤمنون سداً للباب ، وقطعاً للألسنة وإبعاداً عن المشابهة .

وأخرج عبيد وابن جرير والنحاس عن عطاء قال : كانت (راعنا) لغة الأنصار في الجاهلية فنهاهم الله تعالى عنها في الإسلام ، ولعل المراد أنهم يكثرونها في كلامهم واستعملها اليهود سباً فنهوا عنها ، وأما دعوى أنها لغة مختصة بهم فغير ظاهر لأنها محفوظة في لغة جميع العرب منذ كانوا ، وقيل : ومعنى هذه الكلمة عند اليهود لعنهم الله تعالى اسمع لا سمعت وقيل : أرادوا نسبته صلى الله عليه وسلم وحاشاه إلى الرعن ، فجعلوه مشتقاً من الرعونة وهي الجهل والحمق ، وكانوا إذا أرادوا أن يحمقوا إنساناً قالوا : راعنا ، أي يا أحمق فالألف حينئذ لمد الصوت وحرف النداء محذوف وقد ذكر الفراء أن أصل يا زيد يا زيدا بالألف ليكون المنادى بين صوتين ، ثم اكتفى بيا ونوى الألف ، ويحتمل أنهم أرادوا به المصدر ، أي رعنت رعونة أو أرادوا صرت راعنا وإسقاط التنوين على اعتبار الوقف ، وقد قرأ الحسن وابن أبي ليلى وأبو حيوة وابن محيصن بالتنوين وجعله الكثير صفة لمصدر محذوف ، أي قولا : راعنا وصيغة فاعل حينئذ للنسبة كلابن وتامر ، ووصف القول به للمبالغة كما يقال : كلمة حمقاء ، وقرأ عبد الله وأبيّ ﴿ راعونا ﴾ على إسناد الفعل لضمير الجمع للتوقير كما أثبته الفارسي وذكر أن في مصحف عبد الله (ارعونا) وذهب بعض العلماء أن سبب النهي أن لفظ المفاعلة يقتضي الاشتراك في الغالب فيكون المعنى عليه ليقع منك رعي لنا ومنا رعى لك ، وهو مخل بتعظيمه صلى الله عليه وسلم ،

ولا يخفى بُعده عن سبب النزول بمراحل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 349.348 ﴾

(9/62)

فصل

قال الفخر :

إنه لا يبعد في الكلمتين المترادفتين أن يمنع الله من أحدهما ويأذن في الأخرى ، ولذلك فإن عند الشافعي رضي الله عنه لا تصلح الصلاة بترجمة الفاتحة سواء كانت بالعبرية أو بالفارسية ، فلا يبعد أن يمنع الله من قوله : ﴿ راعنا ﴾ ويأذن في قوله : ﴿ انظرنا ﴾ وإن كانتا مترادفتين ولكن جمهور المفسرين على أنه تعالى إنما منع من قوله : ﴿ راعنا ﴾ لاشتمالها على نوع مفسدة ثم ذكروا فيه وجوهاً ، أحدها : كان المسلمون يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم إذا تلا عليهم شيئاً من العلم : راعنا يا رسول الله ، واليهود كانت لهم كلمة عبرانية يتسابون بها تشبه هذه الكلمة وهي " راعينا " ومعناها : اسمع لا سمعت ، فلما سمعوا المؤمنين يقولون : راعنا إفترضوه وخاطبوا به النبي وهم يعنون تلك المسبة ، فنهي المؤمنون عنها وأمروا بلفظة أخرى وهي قوله : ﴿ انظرنا ﴾ ، ويدل على صحة هذه

التأويل قوله تعالى في سورة النساء : ﴿ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا واسمع غَيْرَ مُسْمَعٍ وراعنا لَيّاً بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْناً فِى الدين ﴾ [النساء : 46] ، وروي أن سعد بن معاذ سمعها منهم فقال : يا أعداء الله عليكم لعنة الله والذي نفسي بيده لئن سمعتها من رجل منكم يقولها لرسول الله لأضربن عنقه ، فقالوا : أولستم تقولونها ؟ فنزلت هذه الآية ، وثانيها : قال قطرب : هذه الكلمة وإن كانت صحيحة المعنى إلا أن أهل الحجاز ما كانوا يقولونها إلا عند الهزؤ والسخرية ، فلا جرم نهى الله عنها ، وثالثها : أن اليهود كانوا يقولون : راعينا أي أنت راعي غنمنا فنهاهم الله عنها ، ورابعها : أن قوله : " راعنا " مفاعلة من الرعي بين اثنين ، فكان هذا اللفظ موهماً للمساواة بين المخاطبين كأنهم قالوا : أرعنا سمعك لنرعيك أسماعنا ، فنهاهم الله تعالى عنه وبين أن لا بد من تعظيم الرسول عليه السلام في المخاطبة على ما قال : ﴿ لاَّ تَجْعَلُواْ دُعَاء الرسول بَيْنَكُمْ كَدُعَاء بَعْضِكُمْ

بَعْضاً ﴾ [النور : 63] .

وخامسها : أن قوله : " راعنا " خطاب مع الاستعلاء كأنه يقول : راع كلامي ولا تغفل عنه ولا تشتغل بغيره ، وليس في " انظرنا " إلا سؤال الانتظار كأنهم قالوا له توقف في كلامك

وبيانك مقدار ما نصل إلى فهمه ، وسادسها : أن قوله : " راعنا " على وزن عاطنا من المعاطاة ، ورامنا من المراماة ، ثم إنهم قلبوا هذه النون إلى النون الأصلية وجعلوها كلمة مشتقة من الرعونة وهي الحق ، فالراعن اسم فاعل من الرعونة ، فيحتمل أنهم أرادوا به المصدر .

كقولهم : عياذاً بك ، أي أعوذ عياذاً بك ، فقولهم : راعنا : أي فعلت رعونة .

ويحتمل أنهم أرادوا به : صرت راعنا ، أي صرت ذا رعونة ، فلما قصدوا هذه الوجوه الفاسدة لا جرم نهى الله تعالى عن هذه الكلمة .

وسابعها : أن يكون المراد لا تقولوا قولاً : راعنا أي : قولاً منسوباً إلى الرعونة بمعنى راعن : كتامر ولابن .

أما قوله تعالى : ﴿ وَقُولُواْ انظرنا ﴾ ففيه وجوه .

أحدها : أنه من نظره أي انظره ، قال تعالى : ﴿ انظرونا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ ﴾ [الحديد : 13] فأمرهم تعالى بأن يسألوه الإمهال لينقلوا عنه ، فلا يحتاجون إلى الاستعاذة .

فإن قيل : أفكان النبي صلى الله عليه وسلم يعجل عليهم حتى يقولون هذا ؟ فالجواب من وجهين : أحدهما : أن هذه اللفظة قد تقال في خلال الكلام وإن لم تكن هناك عجلة تحوج إلى ذلك كقول الرجل في خلال حديثه : اسمع أو سمعت .

الثاني : أنهم فسروا قوله تعالى : ﴿ لاَ تُحَرّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ أنه عليه السلام كان يعجل قول ما يلقيه إليه جبريل عليه السلام حرصاً على تحصيل الوحي وأخذ القرآن ، فقيل له : لا تحرك به لسانك لتعجل به فلا يبعد أن يعجل فيما يحدث به أصحابه من أمر الدين حرصاً على تعجيل أفهامهم فكانوا يسألونه في هذه الحالة أن يمهلهم فيما يخاطبهم به إلى أن يفهموا كل ذلك الكلام ، وثانيها : " انظرنا " معناه " انظر " إلينا إلا أنه حذف حرف " إلى " كما في قوله : ﴿ واختار موسى قَوْمَهُ ﴾ [الأعراف : 155] والمعنى من قومه ، والمقصود منه أن المعلم إذا نظر إلى المتعلم كان إيراده للكلام على نعت الإفهام والتعريف أظهر وأقوى .

وثالثها : قرأ أبي بن كعب " أنظرنا " من النظرة أي أمهلنا .

أما قوله تعالى : ﴿ واسمعوا ﴾ فحصول السماع عند سلامة الحاسة أمر ضروري خارج عن قدرة البشر ، فلا يجوز وقوع الأمر به ، فإذن المراد منه أحد أمور ثلاثة ، أحدها : فرغوا أسماعكم لما يقول النبي عليه السلام حتى لا تحتاجوا إلى الاستعادة ، وثانيها : اسمعوا سماع قبول وطاعة ولا يكن سماعكم سماع اليهود حيث قالوا : سمعنا وعصينا ، وثالثها : اسمعوا ما أمرتم به حتى لا ترجعوا إلى ما نهيتم عنه تأكيداً عليهم ، ثم إنه تعالى بين ما للكافرين من العذاب الأليم إذا لم يسلكوا مع الرسول هذه الطريقة من الإعظام والتبجيل

والإصغاء إلى ما يقول والتفكر فيما يقول ، ومعنى " العذاب الأليم" قد تقدم . انتهى انتهى .

ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 203. 204 ﴾

فائدة

قال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَقُولُواْ انظرنا ﴾ أُمِروا أن يخاطبوه صلى الله عليه وسلم بالإجلال ؛

والمعنى أَقبل علينا وانظر إلينا ؛ فحذف حرف التعدية ؛ كما قال :

ظاهرات الجمال والحسن ينظر . . .

ن كما ينظر الأراكَ الظِّبَاءُ

أي إلى الأراك .

وقال مجاهد : المعنى فَهِّمْنا وبَيِّن لنا .

وقيل : المعنى انتظرنا وتأنّ بنا ؛ قال :

فإنكما إن تنظرِاني ساعةً . . .

من الدهر ينفعني لَدَى أُمِّ جُنْدَب

والظاهر استدعاء نظر العين المقترن بتدبّر الحال ؛ وهذا هو معنى راعنا ، فبدّلت اللفظة للمؤمنين وزال تعلق اليهود .

وقرأ الأعمش وغيره " أَنْظرنا " بقطع الألف وكسر الظاء ، بمعنى أخِّرنا وأمهلنا حتى نفهم عنك ونتلقّى منك ؛ قال الشاعر :

أبا هندٍ فلا تعجل علينا . . .

وأَنظِرنا نخبّرك اليقينا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 2 صـ 60 ﴾ .

وقال الآلوسى :

﴿ وَقُولُواْ انظرنا ﴾ أي انتظرنا وتأن علينا ، أو انظر إلينا ، ليكون ذلك أقوى في الإفهام والتعريف ، وكان الأصل أن يتعدى الفعل بإلى ، لكنه توسع فيه فتعدى بنفسه على حد قوله : ظاهرات الجمال والحسن ينظر . . .

ن كما ينظر (الأراك . .

الظباء)

وقيل : هو من نظر البصيرة ، والمراد به التفكر والتدبر فيما يصلح حال المنظور في أمره والمعنى تفكر في أمرنا وخير الأمور عندي أوسطها إلا أنه ينبغي أن يقيد نظر العين بالمقترن بتدبير الحال لتقوم هذه الكلمة مقام الأولى خالية من التدليس ، وبدأ بالنهي لأنه من باب التروك فهو أسهل ثم أتى بالأمر بعده الذي هو أشق لحصول الاستئناس قبل بالنهي ، وقرأ

أبيّ والأعمش (أنظرنا) بقطع الهمزة وكسر الظاء من الإنظار ومعناه أمهلنا حتى نتلقى عنك ونحفظ ما نسمعه منك ، وهذه القراءة تشهد للمعنى الأول على قراءة الجمهور إلا أنها على شذوذها لا تأبى ما اخترناه

﴿ واسمعوا ﴾ أي ما أمرتكم به ونهيتكم عنه بجد حتى لا تعودوا إلى ما نهيتكم عنه ولا تتركوا ما أمرتكم به ، أو هو أمر بحسن الاستماع بأن يكون باحضار القلب وتفريغه عن الشواغل حتى لا يحتاج إلى طلب صريح المراعاة ففيه تنبيه على التقصير في السماع حتى ارتكبوا ما تسبب للمحذور ، والمراد سماع القبول والطاعة فيكون تعريضاً لليهود حيث قالوا : ﴿ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾ [البقرة : 93] وإذا كان المراد سماع هذا الأمر والنهي يكون تأكيداً لما تقدم

﴿ وللكافرين عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ اللام للعهد فالمراد بالكافرين اليهود الذين قالوا ما قالوا تهاونا بالرسول صلى الله عليه وسلم المعلوم مما سبق السياق ووضع المظهر موضع المضمر إيذاناً بأن التهاون برسول الله صلى الله عليه وسلم كفر يوجب أليم العذاب ، وفيه من تأكيد النهي ما فيه ، وجعلها للجنس فيدخل اليهود كما اختاره أبو حيان ليس بظاهر على ما

قيل : لأن الكلام مع المؤمنين فلا يصلح هذا أن يكون تذييلاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 349 ﴾

فائدة

قال القرطبى :

في هذه الآية دليلان : أحدهما على تجنّب الألفاظ المحتملة التي فيها التعريض للتنقيص والغَضّ ، ويخرج من هذا فهم القذف بالتعريض ، وذلك يوجب الحدّ عندنا خلافاً لأبي حنيفة والشافعي وأصحابهما حين قالوا : التعريض محتمل للقذف وغيره ، والحدّ مما يسقط بالشبهة .

وسيأتي في " النور " بيان هذا ، إن شاء الله تعالى .

الدليل الثاني : التمسّك بسدّ الذرائع وحمايتها وهو مذهب مالك وأصحابه وأحمد بن حنبل في رواية عنه ؛ وقد دلّ على هذا الأصل الكتابُ والسُّنة .

والذَّرِيعة عبارةٌ عن أمر غير ممنوع لنفسه يخاف من ارتكابه الوقوع في ممنوع .

أما الكتاب فهذه الآية ، ووجه التمسك بها أن اليهود كانوا يقولون ذلك وهي سَبّ بلغتهم ؛ فلما علم الله ذلك منهم منع من إطلاق ذلك اللفظ ؛ لأنه ذريعة للسبّ ، وقوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَسُبُّواْ الذين يَدْعُونَ مِن دُونِ الله فَيَسُبُّواْ الله عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الأنعام : 108] فمنع مِن سبّ آلهتهم مخافةَ مقابلتهم بمثل ذلك ، وقوله تعالى : ﴿ وَاسْئَلْهُمْ عَنِ القرية التي كَانَتْ حَاضِرَةَ البحر ﴾ [الأعراف : 163] الآية ؛ فحرّم عليهم تبارك وتعالى الصيد في يوم السبت ؛ فكانت الحِيتان تأتيهم يوم السبت شُرّعاً ، أي ظاهرة ، فسدّوا عليها يوم السبت وأخذوها يوم الأحد ، وكان السّدّ ذَرِيعة للاصطياد ؛ فمسخهم الله قِردة وخنازير ؛ وذكر الله لنا ذلك في معنى التحذير عن ذلك ؛ وقوله تعالى لآدم وحوّاء : ﴿ وَلاَ تَقْرَبَا هذه الشجرة ﴾ [البقرة : 35] وقد تقدّم .

وأمّا السُّنة فأحاديث كثيرة ثابتة صحيحة ، منها حديث عائشة رضي الله عنها أن " أم حبيبة وأم سلمة رضي الله عنهنّ ذكرتا كنيسة رأياها بالحبشة فيها تصاوير (فذكرتا ذلك) لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بَنَوْا على قبره مسجداً وصوّروا فيه تلك الصُّوَر أولئك شرار الخلق عند الله " " أخرجه البخاري ومسلم .

قال علماؤنا : ففعل ذلك أوائلهم ليتأنّسوا برؤية تلك الصُّوَر ويتذكّروا أحوالهم الصالحة فيجتهدون كاجتهادهم ويعبدون الله عز وجل عند قبورهم ، فمضت لهم بذلك أزمان ، ثم أنهم خَلَف من بعدهم خلوف جهلوا أغراضهم ، ووسوس لهم الشيطان أن آباءكم وأجدادكم كانوا يعبدون هذه الصورة فعبدوها ؛ فحذّر النبيّ صلى الله عليه وسلم عن مثل ذلك ، وشدّد النكير والوعيد على من فعل ذلك ، وسدّ الذرائع المؤدّية إلى ذلك فقال : " اشتدّ غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد " وقال : " اللَّهُمّ لا تجعل قبري وَثَناً يُعبد " وروى مسلم عن النعمان بن بشير قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " الحلال بَيّن والحرام بَيْن وبينهما أمور متشابهات فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يَرْعَى حَوْل الحِمَى يوشِك أن يقع فيه " الحديث .

فمنع من الإقدام على الشبهات مخافة الوقوع في المحرّمات ؛ وذلك سَدّاً للذريعة .

وقال صلى الله عليه وسلم : " لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يَدَعَ ما لا بأس به حذراً مما به البأس " وقال صلى الله عليه وسلم : " إن من الكبائر شتم الرجل والديه" قالوا : يا رسول الله وهل يشتم الرجل والديه ؟ قال : " نعم يَسُبُّ أبا الرجل فيَسُبُّ أباه ويسبُّ أُمَّه فيسبُّ أمّه " فجعل التعرّض لسب الآباء كسب الآباء .

وقال صلى الله عليه وسلم : " إذا تبايعتم بالعِينَة وأخذتم أذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلّط الله عليكم ذُلاًّ لا ينزعه منكم حتى ترجعوا إلى دينكم " وقال أبو عبيد الهَرَوي : العِينَة هو أن يبيع الرجل من رجل سلعة بثمن معلوم إلى أجل مُسَمًّى ، ثم يشتريها منه بأقل من الثمن الذي باعها به .

(16/62)

قال : فإن اشترى بحضرة طالب العِينة سلعة من آخر بثمن معلوم وقبضها ثم باعها من طالب العِينة بثمن أكثر مما اشتراه إلى أجل مسمىً ثم باعها المشتري من البائع الأوّل بالنقد بأقل من الثمن فهذه أيضاً عِينة ، وهي أهون من الأولى ، وهو جائز عند بعضهم .

وسُمّيت عِينة لحصول النقد لصاحب العِينة ؛ وذلك لأن العَيْن هو المال الحاضر والمشتري إنما يشتريها ليبيعها بعَيْن حاضر يصل إليه من فوره .

وروى ابن وهب عن مالك أن أمّ ولد لزيد بن الأَرْقَم ذكرت لعائشة رضي الله عنها أنها باعت من زيد عبداً بثمانمائة إلى العطاء ثم ابتاعته منه بستمائة نقداً ؛ فقالت عائشة : بئس ما شَرَيتِ ، وبئس ما اشتريت ! أبلغي زيداً أنه قد أبطل جهاده مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إن لم يَتُب .

ومثل هذا لا يقال بالرأي ؛ لأن إبطال الأعمال لا يتوصّل إلى معرفتها إلا بالوَحْي ؛ فثبت أنه مرفوع إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : دَعُوا الربا والرِّيبة .

ونهى ابن عباس رضي الله عنهما عن دراهم بدراهم بينهما حريزة .

قلت : فهذه هي الأدلة التي لنا على سدّ الذرائع ، وعليه بنى المالكية كتاب الآجال وغيره من المسائل في البيوع وغيرها .

وليس عند الشافعية كتاب الآجال ؛ لأن ذلك عندهم عقود مختلفة مستقلة ، قالوا : وأصل الأشياء على الظواهر لا على الظنون .

والمالكية جعلوا السِّلعة محلّلة ليُتَوَصَل بها إلى دراهم بأكثر منها ، وهذا هو الربا بعينه ؛ فاعلمه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 2 صـ 57. 60 ﴾ .

لطيفة

قال فى البحر المديد :

حسنُ الخطاب من تمام الآداب ، وتمام الآداب هو السبب الموصل إلى عين الصواب ، فمن لا

أدب له لا تربية له ، ومن لا تربية له لا سَيْر له ، ومن لا سير له لا وصول له ، فمن لا يتربى على أيدي الرجال لا يُربى الرجال ، وقد قالوا : من أساء الأدب مع الأحباب طُرد إلى الباب ، ومن أساء الأدب في الباب طرد إلى سياسة الدواب . وقالوا أيضاً : اجعل عملك ملحاً ، وأدبك دقيقاً .

وقال آخر : إن الإنسان ليبلغ بالخلق وحسن الأدب إلى عظيم الدرجات وهو قليل العمل ، ومن حرم الأدب حُرم الخيرَ كله ، ومن أُعطي الأدب فقد مُكن من مفاتيح القلوب .

قال أبو عثمان رضي الله عنه : الأدب عند الأكابر وفي مجالس السادات من الأولياء يبلغ بصاحبه إلى الدرجات العلا والخير في الدنيا والعقبى .

وقال أبو حفص الحداد رضي الله عنه : التصوّف كله آداب ، لكل وقت أدب ، ولكل حال أدب ، ولكل مقام أدب ، فمن لازم الأدب بلغ مبلغ الرجال ، ومن حرم الأدب فهو بعيد من حيث يظن القرب ، مردود من حيث يرجوا الوصول .

وقال ذو النون المصري رضي الله عنه : (إذا خرج المريد عن استعمال الأدب فإنه يرجع من حيث جاء) . وقيل : من لم يتأدب لوقت فوقته مقت . وقيل : من حَبَسه النسب أطلقه الادب ، ومن قل أدبه كثر شغبه . وقيل : الأدب سند الفقراء ، وزينة الأغنياء . انتهى انتهى . اهـ وبالله التوفيق . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المديد حـ 1 صـ 147 ﴾

فائدة

قال فى روح البيان :

وفي هذه الآية دليلان أحدهما على تجنب الألفاظ المحتملة التي فيها التعريض وأما قولهم لا بأس بالمعاريض وهو أن يتكلم لرجل بكلمة يظهر من نفسه شيئاً ومراده شيء آخر فإنما أرادوا ذلك إذا اضطر الإنسان إلى الكذب فأما إذا لم يكن حاجة ولا ضرورة فلا يجوز التعريض ولا التصريح جميعاً قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : " المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده " بأن لا يتعرض لهم بما حرم من دمائهم وأعراضهم وقدم اللسان في الذكر لأن التعرض به أسرع وقوعاً وأكثر وخص اليد بالذكر لأن معظم الأفعال يكون بها .

والثاني : التمسك بسد الذرائع وحمايتها والذريعة عبارة عن أمر غير ممنوع لنفسه يخاف من ارتكابه الوقوع في ممنوع .

ووجه التمسك بها أن اليهود كانوا يقولون ذلك وهي سب بلغتهم فلما علم الله تعالى ذلك منهم منع من إطلاق ذلك اللفظ لأنه ذريعة للسبّ قال تعالى : ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوَا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ (الأنعام : 108) فمنع من سبع آلهتهم مخافة مقابلتهم بمثل ذلك وقال تعالى : ﴿ وَسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ ﴾ (الأعراف : 163) الآية فحرم الله عليهم الصيد في يوم السبت فكان الحيتان تأتيهم يوم

السبت شرعاً أي : ظاهرة فسدوا عليها يوم السبت وأخذوها يوم الأحد وكان السد ذريعة للاصطياد فمسخهم الله قردة وخنازير .

(19/62)

وعن عائشة رضي الله عنها أن أم حبيبة وأم سلمة ذكرتا كنيسة رأتاها بالحبشة فيها تصاوير لرسول الله صلى الله عليه وسلّم فقال رسول الله عليه السلام : " إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصور أولئك شرار الخلق عند الله" قال العلماء : ففعل ذلك أوائلهم ليستأنسوا برؤية تلك الصور ويتذكروا أحوالهم الصالحة فيجتهدوا كاجتهادهم ويعبدوا الله عند قبورهم فمضت لهم بذلك أزمان ثم إنهم خلف من بعدهم خلف جهلوا أغراضهم ووسوس لهم الشيطان إن آباءكم وأجدادكم كانوا يعبدون هذه الصور فعبدوها فحذر النبي عليه الصلاة والسلام عن مثل ذلك وشدد النكير والوعيد على من فعل ذلك وسد الذرائع المؤدية إلى ذلك فقال عليه السلام : " اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد " وقال : " اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد " وقال صلى الله عليه وسلّم " لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذراً مما به البأس" وقال عليه السلام : " إن من الكبائر شتم الرجل

والديه" قالوا : يا رسول الله وهل يشتم الرجل والديه قال : " نعم يسبّ أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه فيسب أمه" فجعل التعرض لسب الآباء والأمهات كسب الآباء والأمهات وقال صلى الله عليه وسلّم " الحلال بيّن والحرام بيّن وبينهما أمور مشتبهات فمن اتقى الشبهات استبرأ لعرضه ودينه ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي حول الحمى يوشك أن يقع فيه" فمنع عليه السلام من الإقدام على الشبهات مخافة الوقوع في المحرمات وفي الحديث " إذا تبايعتم بالعينة وأخذتم أذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه منكم حتى ترجعوا إلى دينكم" والعينة : هو أن يبيع رجل من رجل سلعة بثمن معلوم إلى أجل مسمى ثم يشتريها منه بأقل من الثمن الذي باعها به وسميت عينة لحصول النقد لصاحب العينة وذلك أن العينة هو الحال الحاضر والمشتري إنما يشتريها

ليبيعها بعين حاضرة تصل إليه من فوره وفي هذا الحديث ذم للزراع إذا كان زراعتهم ذريعة لترك الجهاد قال عليه الصلاة والسلام حين رأى آلة الحراثة في دار قوم : " ما دخل هذا بيت قوم إلا ذلوا" وذلك لأن الزراعة عمارة الدنيا وإعراض عن الجهاد فيستحق به الذل وعمارة الدنيا أصل في حق الكفار عارض في حق المسلمين فإن المسلمين يجعلونها وسيلة إلى

الآخرة وأما الكفار فيعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن آخرتهم غافلون وقد قال عليه السلام : " الدنيا سجن المؤمن " أي : بالنسبة إلى ما أعد له من ثواب النعيم " وجنة الكافر " أي : بالإضافة إلى ما هيىء له من عذاب الآخرة والقطعية والهجران . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ روح البيان حـ 1 صـ 250 . 251 ﴾

" فصل "

ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله– في كتابه الصارم المسلول حـ 2 صـ 468 – عن ابن المنذر قوله :

أجمع عوام أهل العلم على أن من سب الرسول صلى الله عليه وسلم القتل ، وممن قاله مالك والليث وأحمد وإسحاق وهو مذهب الشافعي ، قال وحكي عن النعمان لا يقتل من سبه من أهل الذمة ، وهذا لفظ دليل على وجوب قتله عند العامة وهذا مذهب مالك وأصحابه وسائر فقهاء المدينة وكلام أصحابه يقتضي أن لقتله مأخذين أحدهما : انتقاض عهده ، والثاني : أنه حد من الحدود وهو قول فقهاء الحديث قال إسحاق بن راهويه : إن أظهروا سب رسول الله فسمع منهم ذلك أو تحقق عليهم قتلوا ، وأخطأ هؤلاء الذين قالوا

إن ما هم فيه من الشرك أعظم من سب رسول الله قال إسحاق : يقتلون لأن ذلك نقض العهد ، وكذلك فعل عمر بن عبد العزيز ولا شبهة في ذلك لأنه يصير في ذلك ناقضاً للصلح ، وهو كما قتل ابن عمر الراهب الذي سب النبي وقال : ما على هذا صالحناهم .

ثم نقل عن أبي المواهب قوله حـ 2 صـ 555 : يجب لقذف النبي الحد المغلظ وهو القتل تاب أو لم يتب ذمياً كان أو مسلماً . أهـ

(22/62)

ومن فوائد ابن عرفة فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ لاَ تَقُولُواْ رَاعِنَا . . . ﴾ .

اختلف الأصوليون في صيغة افعل هل هو من قسم المركب أو من قسم المفرد ؟ حكاه الأنباري في شرح المحصول .

وقال صاحب الجمل : واللّفظ المركب إن دلّ بالقصد الأول على طلب الفعل كان مع الاستعلاء أمرا ومع الخضوع سؤالا ومع التساوي التماسا وإلا كان تنبيها إن لم يحتمل الصدق والكذب ، وإن احتملهما كان خبرا وقضية (جعلها) من قسم المركب ، فهل الآية

حجة لأحد المذهبين أم لا ؟ من ناحية أن القول إنما (يحكى) به الجمل لا المفردات ؟ قال : لا دليل فيها لأن " رَاعِنَا " (قد) اتّصل به ضمير المفعول فهو مركب (هنا) بلا شك .

وقرئ " رَاعِناً " بالتنوين على أنه نعت لمصدر محذوف أي قولا راعِنا .

فعلى هذا المراد بذلك نفس القول وعلى (القراءة) الأخرى المقول له . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير ابن عرفة حـ 1 صـ 389 ﴾

ومن فوائد البيضاوى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ يا أيها الذين ءامَنُواْ لاَ تَقُولُواْ راعنا وَقُولُواْ انظرنا ﴾ الرعي حفظ الغير لمصلحته ، وكان المسلمون يقولون للرسول عليه الصلاة والسلام راعنا أي راقبنا وتأن بنا فيما تلقننا حتى نفهمه ، وسمع اليهود فافترصوه وخاطبوه به مريدين نسبته إلى الرعن ، أو سبه بالكلمة العبرانية التي كانوا يتسابون بها وهي راعينا ، فنهي المؤمنون عنها وأمروا بما يفيد تلك الفائدة ولا يقبل التلبيس ، وهو انظرنا بمعنى انظر إلينا . أو انتظرنا من نظره إذا انتظره . وقرئ أنظرنا من الإنظار أي أمهلنا لنحفظ . وقرئ راعونا على لفظ الجمع للتوقير ، وراعنا بالتنوين أي قولاً ذا رعن نسبة إلى الرعن وهو الهوج ، لما شابه قولهم راعينا وتسبب للسب . ﴿ واسمعوا ﴾ وأحسنوا الاستماع حتى لا تفتقروا إلى طلب المراعاة ، أو واسمعوا سماع قبول لا كسماع اليهود ، أو واسمعوا ما أمرتم به بجد حتى لا تعودوا إلى ما

نهيتم عنه . ﴿ وللكافرين عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ يعني الذين تهاونوا بالرسول عليه الصلاة والسلام وسبوه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 1 صـ 375 ﴾

ومن فوائد أبى حيان فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ : هذا أول خطاب خوطب به المؤمنون في هذه السورة ، بالنداء الدال على الإقبال عليهم ، وذلك أن أول نداء جاء أتى عامًّا : ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم ﴾ وثاني نداء أتى خاصاً : ﴿ يا بني إسرائيل اذكروا ﴾ وهي الطائفة العظيمة التي اشتملت على الملتين : اليهودية والنصرانية ، وثالث نداء لأمة محمد صلى الله عليه وسلم المؤمنين .

فكان أول نداء عامًّا ، أمروا فيه بأصل الإسلام ، وهو عبادة الله .

وثاني نداء ، ذكروا فيه بالنعم الجزيلة ، وتعبدوا بالتكاليف الجليلة ، وخوّفوا من حلول النقم الوبيلة وثالث نداء : علموا فيه أدباً من آداب الشريعة مع نبيهم ، إذ قد حصلت لهم عبادة الله ، والتذكير بالنعم ، والتخويف من النقم ، والاتعاظ بمن سبق من الأمم ، فلم يبق إلا ما

أمروا به على سبيل التكميل ، من تعظيم من كانت هدايتهم على يديه .

والتبجيل والخطاب بيا أيها الذين آمنوا متوجه إلى من بالمدينة من المؤمنين ، قيل : ويحتمل أن يكون إلى كل مؤمن في عصره .

وروي عن ابن عباس : أنه حيث جاء هذا الخطاب ، فالمراد به أهل المدينة ، وحيث ورد يا أيها الناس ، فالمراد أهل مكة .

﴿ لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا ﴾ : بدىء بالنهي ، لأنه من باب التروك ، فهو أسهل .

ثم أتى بالأمر بعده الذي هو أشق لحصول الاستئناس ، قبل بالنهي .

ثم لم يكن نهياً عن شيء سبق تحريمه ، ولكن لما كانت لفظة المفاعلة تقتضي الاشتراك غالباً ، فصار المعنى : ليقع منك رعي لنا ومنا رعي لك ، وهذا فيه ما لا يخفى مع من يعظم نهوا عن هذه اللفظة لهذه العلة ، وأمروا بأن يقولوا : انظرنا ، إذ هو فعل من النبي صلى الله عليه وسلم ، لا مشاركة لهم فيه معه .

وقراءة الجمهور : راعنا .

وفي مصحف عبد الله وقراءته ، وقراءة أبي : راعونا ، على إسناد الفعل لضمير الجمع .

وذكر أيضاً أن في مصحف عبد الله : ارعونا .

خاطبوه بذلك إكباراً وتعظيماً ، إذ أقاموه مقام الجمع .

وتضمن هذا النهي ، النهي عن كل ما يكون فيه استواء مع النبي صلى الله عليه وسلم .

وقرأ الحسن ، وابن أبي ليلى ، وأبو حياة ، وابن محيصن : راعنا بالتنوين ، جعله صفة لمصدر محذوف ، أي قولاً راعناً ، وهو على طريق النسب كلابن وتامر .

لما كان القول سبباً في السبب ، اتصف بالرعن ، فنهوا في هذه القراءة عن أن يخاطبوا الرسول بلفظ يكون فيه ، أو يوهم شيئاً من الغض ، مما يستحقه صلى الله عليه وسلم من التعظيم وتلطيف القول وأدبه .

وقد ذكر أن سبب نزول هذه الآية أن اليهود كانت تقصد بذلك ، إذ خاطبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم الرعونة ، وكذا قيل في راعونا ، إنه فاعولاً من الرعونة ، كعاشورا .

وقيل : كانت لليهود كلمة عبرانية ، أو سريانية يتسابون بها وهي : راعينا ، فلما سمعوا بقول المؤمنين راعنا ، اقترضوه وخاطبوا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهم يعنون تلك المسبة ، فنهي المؤمنون عنها ، وأمروا بما هو في معناها .

ومن زعم أن راعنا لغة مختصة بالأنصار ، فليس قوله بشيء ، لأن ذلك محفوظ في جميع لغة العرب .

وكذلك قول من قال : إن هذه الآية ناسخة لفعل قد كان مباحاً ، لأن الأول لم يكن شرعاً مقرراً قبل .

وقيل في سبب نزولها غير ذلك .

وبالجملة ، فهي كما قال محمد بن جرير : كلمة كرهها الله أن يخاطب بها نبيه ، كما قال صلى الله عليه وسلم : " لا تقولوا عبدي وأمتي وقولوا فتاي وفتاتي ولا تسموا العنب الكرم " وذكر في النهي وجوه : إن معناها اسمع لا سمعت ، أو إن أهل الحجاز كانوا يقولونها عند المفر ، قاله قطرب ، أو أن اليهود كانوا يقولون : راعينا أي راعي غنمنا ، أو أنه مفاعلة فيوهم مساواة ، أو معناه راع كلامنا ولا تغفل عنه ، أو لأنه يتوهم أنه من الرعونة .

وقوله : انظرنا ، قراءة الجمهور ، موصول الهمزة ، مضموم الظاء ، من النظرة ، وهي التأخير ، أي انتظرنا وتأنّ علينا ، نحو قوله :

فإنكما إن تنظراني ساعة . . .

من الدهر تنفعني لدى أم جندب

أو من النظر ، واتسع في الفعل فعدى بنفسه ، وأصله أن يتعدى بإلى ، كما قال الشاعر :

ظاهرات الجمال والحسن ينظر . . .

ن كما ينظر الأراك الظباء

يريد : إلى الأراك ، ومعناه : تفقدنا بنظرك .

وقال مجاهد : معناه فهمنا وبين لنا ، فسر باللازم في الأصل ، وهو انظر ، لأنه يلزم من الرفق والإمهال على السائل ، والتأني به أن يفهم بذلك .

وقيل : هو من نظر البصيرة بالتفكر والتدبر فيما يصلح للمنظور فيه ، فاتسع في الفعل أيضاً ، إذ أصله أن يتعدى بفي ، ويكون أيضاً على حذف مضاف ، أي انظر في أمرنا .

قال ابن عطية : وهذه لفظة مخلصة لتعظيم النبي صلى الله عليه وسلم ، والظاهر عندي استدعاء نظر العين المقترن بتدبر الحال ، وهذا هو معنى : راعنا ، فبدلت للمؤمنين اللفظة ، ليزول تعلق اليهود . انتهى .

وقرأ أبي والأعمش : أنظرنا ، بقطع الهمزة وكسر الظاء ، من الإنظار ، ومعناه : أخرنا وأمهلنا حتى نتلقى عنك .

وهذه القراءة تشهد للقول الأول في قراءة الجمهور .

﴿ واسمعوا ﴾ : أي سماع قبول وطاعة .

وقيل : معناه اقبلوا .

وقيل : فرغوا أسماعكم حتى لا تحتاجوا إلى الاستعادة .

وقيل : اسمعوا ما أمرتم به حتى لا ترجعوا تعودون إليه .

أكد عليهم ترك تلك الكلمة .

وروي أن سعد بن معاذ سمعها منهم فقال : يا أعداء الله ، عليكم لعنة الله ، فوالذي نفسي بيده ، لئن سمعتها من رجل منكم يقولها لرسول الله صلى الله عليه وسلم لأضربن عنقه .

﴿ وللكافرين عذاب أليم ﴾ : ظاهره العموم ، فيدخل فيه اليهود .

وقيل : المراد به اليهود ، أي ولليهود الذين تهاونوا بالرسول وسبوه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ البحر المحيط حـ 1 صـ 507. 509 ﴾

(26/62)

ومن فوائد ابن عاشور فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (104) ﴾

يتعين في مثل هذه الآية تطلب سبب نزولها ليظهر موقعها ووجه معناها ، فإن النهي عن أن يقول المؤمنون كلمة لا ذم فيها ولا سخف لا بد أن يكون لسبب ، وقد ذكروا في سبب نزولها أن المسلمين كانوا إذا ألقى عليهم النبيء صلى الله عليه وسلم الشريعة والقرآن يتطلبون منه الإعادة والتأني في إلقائه حتى يفهموه ويعوه فكانوا يقولون له راعنا يا رسول الله

أي لا تتحرج منا وارفق وكان المنافقون من اليهود يشتمون النبيء صلى الله عليه وسلم في خلواتهم سراً وكانت لهم كلمة بالعبرانية تشبه كلمة راعنا بالعربية ومعناها في العبرانية سب ، وقيل معناها لا سمعت ، دعاء فقال بعضهم لبعض : كنا نسب محمداً سرّاً فأعلنوا به الآن أو قالوا هذا وأرادوا به اسم فاعل من رعن إذا اتصف بالرعونة وسيأتي ، فكانوا يقولون هاته الكلمة مع المسلمين ناوين بها السب فكشفهم الله وأبطل عملهم بنهي المسلمين عن قول هاته الكلمة حتى ينتهي المنافقون عنها ويعلموا أن الله أطلع نبيه على سرهم .

ومناسبة نزول هاته الآية عقب الآيات المتقدمة في السحر وما نشأ عن ذمه ، أن السحر كما قدمنا راجع إلى التمويه ، وأن من ضروب السحر ما هو تمويه ألفاظ وما مبناه على اعتقاد تأثير الألفاظ في المسحور بحسب نية الساحر وتوجهه النفسي إلى المسحور ، وقد تأصل هذا عند اليهود واقتنعوا به في مقاومة أعدائهم .

ولما كان أذى الشخص بقول أو فعل لا يعلم مغزاهما كخطابه بلفظ يفيد معنى ومقصود المتكلم منه أذى ، أو كإهانة صورته أو الوطء على ظله ، كل ذلك راجعاً إلى الاكتفاء بالنية والتوجه في حصول الأذى ، كان هذا شبيهاً ببعض ضروب السحر ولذلك كان من شعار من استهواهم السحر واشتروه ناسب ذكر هاته الحالة من أحوالهم عقب الكلام على افتتانهم بالسحر وحبه دون بقية ما تقدم من أحوالهم وهاته المناسبة هي موجب التعقيب في الذكر .

وإنما فصلت هذه الآية عما قبلها لاختلاف الغرضين لأن هذه في تأديب المؤمنين ثم يحصل منه التعريض باليهود في نفاقهم وأذاهم والإشعار لهم بأن كيدهم قد أطلع الله عليه نبيه .

وقد كانوا يعدون تفطن المسحور للسحر يبطل أثره فأشبهه التفطن للنوايا الخبيثة وصريح الآيات قبلها في أحوالهم الدينية المنافية لأصول دينهم ولأن الكلام المفتتح بالنداء والتنبيه ونحوه نحو ﴿ يا أيها الناس ﴾ ويا زيد وألا ونحوها لا يناسب عطفه على ما قبله وينبغي أن يعتبر افتتاح كلام بحيث لا يعطف إلا بالفاء إذا كان مترتباً عما قبله لأن العطف بالفاء بعيد عن العطف بالواو وأوسع من جهة التناسب .

و ﴿ راعنا ﴾ أمر من راعاه يراعيه وهو مبالغة في رعاه يرعاه إذا حرسه بنظره من الهلاك والتلف وراعى مثل رعى قال طرفة :

خذول تراعي ربربا بخميلة . . .

وأطلق مجازاً على حفظ مصلحة الشخص والرفق به ومراقبة نفعه وشاع هذا المجاز حتى صار حقيقة عرفية ومنه رعاك الله ورعى ذمامه ، فقول المسلمين للنبيء صلى الله عليه وسلم (راعنا) هو فعل طلب من الرعي بالمعنى المجازي أي الرفق والمراقبة أي لا تحرج

من طلبنا وارفق بنا .

وقوله : ﴿ وقولوا انظرنا ﴾ أبدلهم بقولهم : ﴿ راعنا ﴾ كلمة تساويها في الحقيقة والمجاز وعدد الحروف والمقصود من غير أن يتذرع بها الكفار لأذى النبيء صلى الله عليه وسلم وهذا من أبدع البلاغة فإنَّ نَظَرَ في الحقيقة بمعنى حَرَسَ وصار مجازاً على تدبير المصالح ، ومنه قول الفقهاء هذا من النظر ، والمقصود منه الرفق والمراقبة في التيسير فيتعين أن قوله : ﴿ انظرنا ﴾ بضم همزة الوصل وضم الظاء وأنه من النظر لا من الانتظار .

وقد دلت هذه الآية على مشروعية أصل من أصول الفقه وهو من أصول المذهب المالكي يلقب بسد الذرائع وهي الوسائل التي يتوسل بها إلى أمر محظور .

وقوله تعالى : ﴿ واسمعوا ﴾ أريد به سماع خاص وهو الوعي ومزيد التلقي حتى لا يحتاجوا إلى طلب المراعاة أو النظر وقيل : أراد من (اسمعوا) امتثلوا لأوامر الرسول قاله ابن عطية وهو أظهر .

وقوله : ﴿ وللكافرين عذاب أليم ﴾ التعريف للعهد .

والمراد بالكافرين اليهود خاصة أي تأدبوا أنتم مع الرسول ولا تتأسوا باليهود في أقوالهم : فلهم عذاب أليم ، والتعبير بالكافرين دون اليهود زيادة في ذمهم .

وليس هنا من التذييل لأن الكلام السابق مع المؤمنين فلا يصلح ما بعده من تعميم حكم

الكافرين لتذييل ما قبله. انتهى انتهى. اهـ ﴿التحرير والتنوير حـ 1 صـ 632.

634﴾

(28/62)

"فصل"

قال السيوطى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (104)

﴾

أخرج ابن المبارك في الزهد وأبو عبيد في فضائله وسعيد بن منصور في سننه وأحمد في الزهد وابن أبي حاتم وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس. أن رجلاً أتاه فقال: اعهد إلي. فقال: إذا سمعت الله يقول ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ فأوعها سمعك، فإنه خير يأمر به أو شر ينهى عنه.

وأخرج عبد الرزاق وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو نعيم في الحلية عن خيثمة قال: ما تقرأون في القرآن ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ فإنه في التوراة يا أيها المساكين.

وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن خيثمة قال : ما كان في القرآن ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ فهو في التوراة والإنجيل يا أيها المساكين .

وأخرج أبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس قال ﴿ راعنا ﴾ بلسان اليهود السب القبيح ، فكان اليهود يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم سراً ، فلما سمعوا أصحابه يقولون أعلنوا بها ، فكانوا يقولون ذلك ويضحكون فيما بينهم ، فأنزل الله الآية .

وأخرج أبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس قال ﴿ لا تقولوا راعنا ﴾ وذلك أنها سبة بلغة اليهود . فقال تعالى ﴿ قولوا انظرنا ﴾ يريد اسمعنا ، فقال المؤمنون بعدها : من سمعتموه يقولها فاضربوا عنقه ، فانتهت اليهود بعد ذلك .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني عن ابن عباس في قوله ﴿ لا تقولوا راعنا ﴾ قال : كانوا يقولون للنبي صلى الله عليه وسلم ارعنا سمعك ، وإنما راعنا كقولك اعطنا .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن السدي قال "كان رجلان من اليهود مالك بن الصيف ورفاعة بن زيد إذا لقيا النبي صلى الله عليه وسلم قالا له وهما يكلمانه : راعنا سمعك واسمع غير مسمع ، فظن المسلمون أن هذا شيء كان أهل الكتاب يعظمون به أنبياءهم ،

فقالوا للنبي صلى الله عليه وسلم ذلك ، فأنزل الله ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا . . . ﴾ الآية " .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي صخر قال "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أدبر ناداه من كانت له حاجة من المؤمنين ، فقالوا : ارعنا سمعك فاعظم الله رسوله أن يقال له ذلك ، وأمرهم أن يقولوا انظرنا ليعزروا رسوله ويوقروه .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وأبو نعيم في الدلائل عن قتادة في قوله ﴿ لا تقولوا راعنا ﴾ قال : قولا كانت اليهود تقوله استهزاء فكرهه الله للمؤمنين أن يقولوا كقولهم .

وأخرج ابن جرير وأبو نعيم في الدلائل عن عطية في قوله ﴿ لا تقولوا راعنا ﴾ قال : كان أناس من اليهود يقولون : راعنا سمعك حتى قالها أناس من المسلمين ، فكره الله لهم ما قالت اليهود .

وأخرج ابن جرير وابن إسحاق عن ابن عباس في قوله ﴿ لا تقولوا راعنا ﴾ أي ارعنا سمعك .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد في قوله ﴿ لا تقولوا راعنا ﴾ قال : خلافاً .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد في قوله ﴿ لا تقولوا راعنا ﴾ لا تقولوا اسمع منا ونسمع منك ﴿ وقولوا انظرنا ﴾ أفهمنا ، بين لنا .

وأخرج ابن جرير عن أبي العالية قال : إن مشركي العرب كانوا إذا حدث بعضهم بعضاً يقول

أحدهم لصاحبه : ارعني سمعك . فنهوا عن ذلك .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير والنحاس في ناسخه عن عطاء في قوله ﴿ لا تقولوا راعنا ﴾ قال : كانت لغة في الأنصار في الجاهلية ونهاهم الله أن يقولوها ، وقال ﴿ قولوا انظرنا واسمعوا ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن أنه قرأ : راعناً ، وقال : الراعن من يقول السخري منه .

(30/62)

وأخرج ابن جرير عن السدي في قوله ﴿ واسمعوا ﴾ قال : اسمعوا ما يقال لكم .

وأخرج أبو نعيم في الحلية عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ما أنزل الله آية فيها ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ إلا وعليّ رأسها وأميرها . قال أبو نعيم : لم نكتبه مرفوعاً إلا من حديث ابن أبي خيثمة ، والناس رأوه موقوفاً " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 1 صـ 252-254 ﴾

(31/62)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

الجمهور على أن " راعنا " أمر من المُرَاعاة ، وهي النظر في مصالح الإنسان ، وتدبر أموره ، و" راعنا " يقتضي المشاركة ؛ لأن معناه : ليكن منك رعاية لنا ، وليكن منا رعاية لك ، فنهوا عن ذلك ؛ لأن فيه مساواتهم به عليه الصلاة والسلام .

وبين أنه لا بد من تعظيم الرسول صلى الله عليه وسلم في المُخَاطبة كما قال تعالى : ﴿ لاَّ تَجْعَلُواْ دُعَآءَ الرسول بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً ﴾ [النور : 63] .

وقرأ الحسن وأبو حيوة : " رَاعِناً " بالتنوين ، ووجهه أنه صفة لمصدر محذوف ، أي : قولاً راعناً ، وهو على طريق النسب كـ " لابنٍ] و" تامِرٍ " ، والمعنى : لا تقولوا قولاً ذا رُعونَةٍ .

والرعونة : الجهل والحُمقُ والهَوَج ، وأصل الرعونة : التفرُّق ، ومنه : " جيشٌ أَرْعَنُ " أي : متفرّق في كل ناحية ، ورجلٌ أَرْعَنُ : أي ليس له عَقْل مجتمع ، وامرأة رَعْنَاء .

وقيل للبَصْرَة : الرعْنَاء ؛ قال : [البسيط]

722 لَوْلاَ ابْنُ عُتْبَةَ عضْرٌو والرَّجَاءُ لَهُ . . .

مَا كَانَتِ البَصْرَةُ الرَّعْنَاءُ لِي وَطَنا

قيل : سميت بذلك لأنها أشبهت " رَعُنَ الجَبَل " وهو النَّاتيء منه .

وقال ابن فارس : يقال : " رَعُنَ الرجل يَرْعُنَ رَعْناً " .

وقرأ أُبيّ ، وزرٌّ حُبَيش ، والإعمش ذكرها القرطبي " راعونا " ، وفي مصحف عبد الله كذلك ، خاطبوه بلفظ الجمع تعظيماً ، وفي مصحف عبدالله أيضاً " ارعونا " لما تقدم .

والجملة في محل نصب بالقول ، وقدم النهي على الأمر ؛ لأنه من باب التروك فهو أسهل .

فإن قيل : أفكان النبي صلى الله عليه وسلم يعجل عليهم حتَّى يوقلوا هذا ؟ فالجَواب من وجهين :

أحدهما : أن هذه اللفظة قد تقال في خلال الكلام ، وإن لم تكن هناك عجلة تحوج إلى ذلك كقول الرجل في خلال حديثة : اسمع أو سمعت .

الثاني : أنهم فسروا قوله تعالى : ﴿ لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ ﴿ القيامة : 16] أنه عليه السلام كان يعجل قول ما يلقيه إليه جبريل عليه السلام حرصاً على تحصيل الوَحْي ، وأخذ القرآ ، فقيل له : لا تحرّك به لسانك لتعجل به ، فلا يبعد أن يجعل فيما يحدث به أصحابه من أمر الدين حرصاً على تعجيل أفهامهم ، فكانوا يسألونه في هذه الحالة أن يمهلهم فيما يخاطبهم به إلى أن يفهموا كل ذلك الكلام .

قوله : " انْظُرْنَا " الجملة أيضاً في محلّ نصب بالقول ، والجمهور على انظرنا [بالوصل] الهمزة

، وضم الظاء أمراً من الثلاثي ، وهو نَظَر من النَّظِرَة ، وهي التأخير ، أي : أخرنا وتأَنَّ عَلْينا

؛ قال امرؤ القَيْس : [الطويل]

723 فَإنّكُمَا إنْ تَنْظُرَانِيَ سَاعَةً . . .

مِنَ الدَّهْرِ يَنْفَعْنِي لَدَيَ أُمِّ جُنْدَبِ

وقيل : هو من نظر أي : أَبْصَرَ ، ثم اتُّسع فيه ، فعدّي بنفسه ؛ لأنه في الأصل يتعدى بـ " إلَى "

؛ ومنه : [الخفيف]

724 ظَاهِرَاتُ الجَمَالِ وَالحُسْنِ يَنْظُرْنَ . . .

كَمَا يَنْظُرُ الأَرَاكَ الظِّبَاءُ

أي : إلى الأراك .

وقيل : من نظر أي : تفكر ثم اتسع فيه أيضاً فإن أصله أن يتعدّى بـ " في " ، ولا بد من

حذف مضاف على هذا أي : انظر في أمرنا ، وقرأ أبيّ والأعمش : " أَنْظِرْنَا " بفتح الهمزة

وكسر الظاء أمراً من الرباعي بمعنى : أَمْهِلْنَا وأَخِّرْنَا ؛ قال : [الوافر]

725 أَبَا هِنْدٍ فَلاَ تَعْجَلْ عَلَيْنَا وأَنْظِرْنَا نُخَبِّرْكَ اليَقِينَا

أي : أمهل علينا ، وهذه القراءة تؤيد أن الأول من النَّظِرَة بمعنى التأخير ، لا من البَصَر ، ولا من البَصِيرَة ، وهذه الآية نظير [آية] الحديد

﴿ انظرونا نَقْتَبِسْ ﴾ [الحديد : 13] فإنها قرئت بالوجهين . انتهى انتهى . اهـ

﴿ تفسير ابن عادل حـ 2 صـ 360 . 361 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (104) ﴾

قصودُ الأعداء في جميع أَحوالهم – من أعمالهم وأقوالهم – قصودٌ خبيثة ؛ فهم – على مناهجهم – يبنون فيما يأتون ويَذرُون . فسبيلُ الأولياء التَّحرزُ عن مشابهتهم . والأخذ في طريق غير طريقهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 111 ﴾

قوله تعالى ﴿ مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (105) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما أرشد ختم الآية إلى العلة الحاملة على الامتثال علل بعلة أخرى فقال : ﴿ ما يود الذين كفروا ﴾ مطلقاً ﴿ من أهل الكتاب ﴾ اليهود والنصارى ﴿ ولا ﴾ من المشركين بأي نوع كان من أنواع الشرك بغضاً فيكم حسداً لكم ﴿ أن ينزل عليكم ﴾ وأكد الاستغراق بقوله : ﴿ من خير من ربكم ﴾ أي المحسن إليكم ، فكأنه قيل : للسماع علتان حاملتان عليه داعيتان إليه : إحداهما أخروية وهي النعيم للمطيع والعذاب للعاصي ، والأخرى دنيوية وهي مخالفة الأعداء ، فإنهم ما يودون أن ينزل عليكم شيء لكم فيه خير فضلاً عن أن تمتثلوه ، ومخالفة الأعداء من الأغراض العظيمة للمتمكنين في الأخلاق الفاضلة من ذوي الأدوات الكاملة ، ولم يعطف ﴿ ما يود ﴾ لأنه مع ذلك علة للعلة ، فكأنه قيل : لهم عذاب أليم لأنهم يودون لكم خيراً ؛ فسماعكم من جملة عذابهم ، لأنه واقع على خلاف ودادتهم مع ما يدخر لهم في الآخرة بكفرهم وتمنيهم كفركم ، ولا يخفى ما فيها وفي التي بعدها من التحريض على الكتاب الذي لا ريب فيه .

ولما بين سبحانه ما يودون أتبعه التعريف بأن له التصرف التام ، رضي من رضي وسخط من سخط فقال معلقاً الأمر بالاسم الأعظم الجامع : ﴿ والله ﴾ أي ما يودون والحال أن ذا الأسماء الحسنى ﴿ يختص ﴾ ولما كان المنزل أتم الرحمة عبر عنه بقوله : ﴿ برحمته ﴾ التي

وسعت كل شيء من الهداية والعلم وغير ذلك ﴿ من يشاء ﴾ أي يجعله مختصاً أي منفرداً بها من بين الناس ، ولو كان عند غيره بمحل الاحتقار كما كان العرب عند بني إسرائيل لما كانوا يرون من جهلهم وضلالهم وجفائهم واختلال أحوالهم ؛ و " الاختصاص " عناية تعين المختص لمرتبة ينفرد بها دون غيره ، و " الرحمة " نحلة ما يوافي المرحوم في ظاهره وباطنه ، أدناه كشف الضر وكف الأذى ، وأعلاه الاختصاص برفع الحجاب – قاله الحرالي .

(35/62)

ولما كان ذلك ربما أوهم أنه إذا فعله لم يبق من رحمته ما يسع غير المختص نفاه بقوله مصدراً له بالاسم الأعظم أيضاً عاطفاً على ما أفهمه الاختصاص من نحو أن يقال تعريضاً باليهود : فالله بمن يزوي عنه الرحمة عليم ﴿ والله ﴾ أي الملك الأعلى الذي له جميع العظمة والرحمة فلا كفؤ له ﴿ ذو الفضل العظيم ﴾ أي الذي لا يحصر بحد ولا يدخل تحت عد . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 211.212 ﴾

فائدة

قال أبو حيان :

ذكر المفسرون أن المسلمين قالوا لحلفائهم من اليهود : آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم ،

فقالوا : وددنا لو كان خيراً مما نحن عليه فنتبعه ، فأكذبهم الله بقوله : ﴿ ما يود الذين كفروا ﴾ ، فعلى هذا يكون المراد بأهل الكتاب : الذين بحضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

والظاهر ، العموم في أهل الكتاب : وهم اليهود والنصارى ، وفي المشركين : وهم مشركو العرب وغيرهم ، ونفى بما ، ونها لنفي الحال ، فهم ملتبسون بالبغض والكراهة أن ينزل عليكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 1 صـ 509 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أنه تعالى لما بين حال اليهود والكفار في العداوة والمعاندة حذر المؤمنين منهم فقال : ﴿ مَّا يَوَدُّ الذين كَفَرُواْ ﴾ فنفى عن قلوبهم الود والمحبة لكل ما يظهر به فضل المؤمنين وههنا مسألتان : المسألة الأولى :

" من " الأولى للبيان لأن الذين كفروا جنس تحته نوعان : أهل الكتاب والمشركون ، والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ لَمْ يَكُنِ الذين كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الكتاب والمشركين ﴾ [البينة : 1]

والثانية : مزيدة لاستغراق الخير ، والثالثة : لابتداء الغاية .

المسألة الثانية :

الخير الوحي وكذلك الرحمة ، يدل عليه قوله تعالى : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبّكَ ﴾ [

الزخرف : 32] المعنى أنهم يرون أنفسهم أحق بأن يوحي إليهم فيحسدونكم وما يحبون أن ينزل عليكم شيء من الوحي .

(36/62)

ثم بين سبحانه أن ذلك الحسد لا يؤثر في زوال ذلك ، فإنه سبحانه يختص برحمته وإحسانه من يشاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 204 ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ مَّا يَوَدُّ ﴾ أي ما يتمّنى ، وقد تقدّم .

﴿ الذين كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الكتاب وَلاَ المشركين ﴾ معطوف على " أهل " .

ويجوز : ولا المشركون ، تعطفه على الذين ؛ قاله النحاس .

﴿ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِّنْ خَيْرٍ ﴾ " من " زائدة ، " خير " اسم ما لم يُسمّ فاعله .

و " أن " في موضع نصب ؛ أي بأن ينزل .

﴿ واللهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَآءُ ﴾ قال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه : ﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ ﴾ أي بنبوّته ، خص بها محمداً صلى الله عليه وسلم .

وقال قوم : الرحمة القرآن وقيل : الرحمة في هذه الآية عامّة لجميع أنواعها التي قد منحها الله

عباده قديماً وحديثاً ؛ يقال : رَحِمَ يَرْحَمُ إذا رَقّ .

وَالرُّحْمُ والمَرْحَمَة والرَّحمة بمعنىً ؛ قاله ابن فارس .

ورحمة الله لعباده : إنعامه عليهم وعفوه لهم .

﴿ والله ذُو الفضل العظيم ﴾ " ذو" بمعنى صاحب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 2 صـ 61 ﴾ .

(37/62)

وقال أبو السعود :

﴿ مَّا يَوَدُّ الذين كَفَرُواْ ﴾ الوُدُّ حبُّ الشيءِ مع تمنّيه ، ولذلك يستعمل في كلَ منهما ، ونفيُه كنايةٌ عن الكراهة ، ووضعُ الموصول موضعَ الضمير للإشعار بعلّية ما في حيز الصلةِ لعدم وُدّهم ، ولعل تعلقَه بما قبله من حيث إن القولَ المنهيَّ عنه كثيراً ما كان يقع عند تنزيل الوحْي المعبَّرِ عنه في هذه الآية بالخير ، فكأنه أُشير إلى أن سببَ تحريفهم له إلى ما حُكي عنهم لوقوعه في أثناء حصولِ ما يكرهونه من تنزيلِ الخير وقيل : كان فريق من اليهود يُظهرون للمؤمنين محبةً ويزعُمون أنهم يَودُّون لهم الخير فنزلت تكذيباً لهم في ذلك ، و (من) في قوله تعالى : ﴿ مِنْ أَهْلِ الكتاب وَلاَ المشركين ﴾ للتبيين كما في قوله عز وعلا : ﴿ لَمْ يَكُنِ

الذين كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الكتاب والمشركين ﴾ و (لا) مزيدةٌ لما ستعرفه ﴿ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم ﴾ في حيز النصب على أنه مفعولُ (يود) ، وبناءُ الفعل للمفعول للثقة بتعيُّن الفاعل ، والتصريحُ الآتي في قوله تعالى : ﴿ مِّنْ خَيْرٍ ﴾ هو القائمُ مقامَ فاعِلِه ومن مزيدة للاستغراق ، والنفيُ وإن لم يباشرْهُ ظاهراً لكنه منسحبٌ عليه معنىً ، والخيرُ الوحيُ ، وحملُه على ما يعمّه وغيره من العلم والنُّصرة كما قيل : يأباه وصفُه فيما سيأتي بالاختصاص ، وتقديم هو عليكم والأصل : أن ينزل من خير عليكم الظرف عليه مع أن حقه التأخرُ عنه لإظهار كمال العنايةِ به ، لأنه المدارُ لعدم ودِّهم ، ومن في قوله تعالى : ﴿ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ ابتدائية ، والتعرُّضُ لعنوان الربوبية للإشعار بعليته لتنزيل الخيرِ والإضافة إلى ضمير المخاطبين لتشريفهم ، وليست كراهتُهم لتنزيله على المخاطبين من حيث تعبُّدُهم بما فيه وتعريضُهم بذلك لسعادة الدارين كيف لا وهم من تلك الحيثية من جملة مَنْ نزَلَ عليهم الخيرُ بل من حيث وقوعُ ذلك التنزيلِ على النبي صلى الله عليه وسلم ، وصيغةُ الجمعِ للإيذان بأن مدارَ

كراهتهم ليس معنى خاصاً بالنبي صلى الله عليه وسلم بل وصفٌ مشترك بين الكل وهو الخلوُّ عن الدراسة عند اليهود وعن الرياسة عند المشركين ، والمعنى أنهم يرَوْن أنفسَهم

أحقَّ بأن يوحى إليهم ويكرهونكم فيحسُدونكم أن ينْزِل عليكم شيء من الوحي ، أما اليهودُ فبناءً على أنهم أهلُ الكتاب وأبناءُ الأنبياءِ الناشئون في مهابط الوحي وأنتم أُمِيّون ، وأما المشركون فإدلالاً بما كان لهم من الجاه والمال زعماً منهم أن رياسةَ الرسالةِ كسائر الرياساتِ الدنيويةِ منوطةٌ بالأسباب الظاهرة ولذلك قالوا : لَوْلا نُزِّلَ هذا القرءان على رَجُلٍ مّنَ القريتين عَظِيمٍ ولما كانت اليهودُ بهذا الداء أشهرَ لا سيما في أثناء ذكرِ ابتلائِهم به لم يلزَمْ من نفي ودادِتهم لما ذُكِرَ نفيُ ودادةِ المشركين له ، فزيدت كلمةُ لا لتأكيد النفي ﴿ والله يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ ﴾ جملة ابتدائية سيقت لتقرير ما سبق من تنزيل الخيرِ والتنبيه على حكمتِه وإرغامِ الكارهين له ، والمرادُ برحمته الوحيُ كما في قوله سبحانه : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبّكَ ﴾ عبّر عنه باعتبار نزولِه على المؤمنين بالخير وباعتبار إضافتِه إليه تعالى بالرحمة قال علي رضي الله عنه : بنبوته ، خَصَّ بها محمداً صلى الله عليه وسلم ، فالفعلُ متعدٍ وصيغة الافتعال للإنباء عن الاصطفاء ، وإيثارُه على التنزيل المناسبِ للسياق الموافقِ لقوله تعالى : ﴿ أَن يُنَزّلُ الله مِن فَضْلِهِ على مَن يَشَاء ﴾ لزيادة تشريفه صلى الله عليه وسلم وإقناطِهم مما علّقوا به أطماعَهم الفارغةَ ، والباءُ داخلةٌ على المقصور أي يؤتي رحمته ﴿ مَن يَشَآء ﴾ من عباده ويجعلها مقصورةً عليه لاستحقاقه الذاتي الفائضِ عليه بحسب إرادتِه عز وعلا تفضّلاً لا تتعداه إلى غيره ، وقيل : الفعلُ لازمٌ ومَنْ

فاعله والضميرُ العائد إلى مَنْ محذوفٌ على التقديرين ، وقوله تعالى : ﴿ والله ذُو الفضل العظيم ﴾ تذييلٌ لما سبق

(39/62)

مقررٌ لمضمونه وفيه إيذان بأن إيتاءَ النبوةِ من فضله العظيم كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴾ وأن حِرمان من حُرم ذلك ليس لضيق ساحةِ فضلِه بل لمشيئته الجاريةِ على سَنَنِ الحِكْمةِ البالغةِ ، وتصديرُ الجملتين بالاسم الجليل للإيذان بفخامة مضمونَيْهما ، وكونِ كلَ منهما مستقلةً بشأنها ، فإن الإضمارَ في الثانية مُنبئٌ عن توقُّفِها على الأولى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 1 صـ 142.141 ﴾

(40/62)

وقال الآلوسى :

﴿ مَّا يَوَدُّ الذين كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الكتاب وَلاَ المشركين ﴾ الوَدّ محبة الشيء وتمني كونه ، ويذكر ويراد كل واحد منهما قصداً والآخر تبعاً ، والفارق كون مفعوله جملة إذا استعمل

في التمني ومفرداً إذا استعمل في المحبة فتقول على الأول : وددت لو تفعل كذا ، وعلى الثاني : وددت الرجل ، ونفيه كناية عن الكراهة وأتي ب (ما) للإشارة إلى أن أولئك متلبسون بها و ﴿ مِنْ ﴾ للتبيين ، وقيل : للتبعيض وفي إيقاع الكفر صلة للموصول وبيانه بما بين وإقامة المظهر موضع المضمر إشعار بأن كتابهم يدعوهم إلى متابعة الحق إلا أن كفرهم يمنعهم وإن الكفر شر كله لأنه الذي يورث الحسد ويحمل صاحبه على أن يبغض الخير ولا يحبه كما أن الإيمان خير كله لأنه يحمل صاحبه على تفويض الأمور كلها إلى الله تعالى ، و(لا) صلة لتأكيد النفي وزيدت (له) هنا دون قوله : ﴿ لَمْ يَكُنِ الذين كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الكتاب والمشركين ﴾ [البنية : 1] لما أن مبنى النفي الحسد ، واليهود بهذا الداء أشهر لا سيما وقد تقدم ما يفيد ابتلاءهم به فلم يلزم من نفي ودادتهم هذه نفي ودادة المشركين لها ولم يكن ذلك في ﴿ لَمْ يَكُنِ ﴾ وسبب نزول الآية أن المسلمين قالوا لحلفائهم من اليهود : آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم فقالوا : وددنا لو كان خيراً مما نحن عليه فنتبعه فأكذبهم الله تعالى بذلك ، وقيل : نزلت تكذيباً لجمع من اليهود يظهرون مودة المؤمنين ويزعمون أنهم يودون لهم الخير وفصلت عما قبل ، وإن اشتركا في بيان قبائح اليهود مع الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين لاختلاف الغرضين فإن الأول لتأديب المؤمنين وهذا لتكذيب أولئك الكافرين ، ولأجل هذا الاختلاف فصل السابق عن سابقه ، ومما ذكرنا يعلم وجه تعلق

الآية بما قبلها ، والقول بأن ذلك من حيث إن القول المنهي عنه كثيراً ما كان يقع عند تنزيل الوحي المعبر عنه بالخير فيها فكأنه أشير إلى أن سبب تحريفهم له إلى ما حكي

عنهم لوضوعه في أثناء حصول ما يكرهونه من تنزيل الخير مساق على سبيل الترجي وأظنه إلى التمني أقرب ، وقرىء ﴿ وَلاَ المشركون ﴾ بالرفع عطفاً على (الذين كفروا) ﴿ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم ﴾ في موضع النصب على أنه مفعول ﴿ يَوَدُّ ﴾ وبناء الفعل للمفعول للثقة بتعيين الفاعل وللتصريح به فيما بعد ، وذكر التنزيل دون الإنزال رعاية للمناسبة بما هو الواقع من تنزيل الخيرات على التعاقب وتجددها لا سيما إذا أريد ﴿ مّنْ خَيْرٍ ﴾ في قوله تعالى : ﴿ مّنْ خَيْرٍ ﴾ الوحي وهو قائم مقام الفاعل ، و(من) صلة وزيادة خير ، والنفي الأول منسحب عليها ، ولذا ساغت زيادتها عند الجمهور ولا حاجة إلى ما قيل : إن التقدير يود أن لا ينزل خير ، وذهب قوم إلى أنه للتبعيض وعليه يكون عليكم قائماً ذلك المقام ، والمراد من الخير إما الوحي أو القرآن أو النصرة أو ما اختص به رسول الله صلى الله عليه وسلم من المزايا أو عام في أنواع الخير كلها لأن المذكورين لا يودون تنزيل جميع ذلك على

المؤمنين عداوة وحسداً وخوفاً من فوات الدراسة وزوال الرياسة ، وأظهر الأقوال كما في " البحر " الأخير ولا يأباه ما سيأتي لما سيأتي .

﴿ مّن رَّبِّكُمْ ﴾ في موضع الصفة للخير ، و(من) ابتدائية والتعرض لعنوان الربوبية للاشعار بعلية التنزيل والإضافة إلى ضمير المخاطبين لتشريفهم ﴿ واللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاء ﴾ جملة ابتدائية سيقت لتقرير ما سبق من تنزيل الخير والتنبيه على حكمته وإرغام الكارهين له ، والمراد من الرحمة ذلك الخير إلا أنه عبر عنه بها اعتناء به وتعظيما لشأنه ؛ ومعنى اختصاص ذلك على القول الأول ظاهر ولذا اختاره من اختاره ، وعلى الأخير انفراد رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بمجموعه وعدم شركة أولئك الكارهين فيه وعروّهم عن ترتب آثاره ، وقيل : المراد من الآية دفع الاعتراض الذي يشير إليه الحسد بأن من له أن يخص لا يعترض عليه إذا عم ، وفي إقامة لفظ الله مقام ضمير (ربكم) تنبيه على أن تخصيص بعض الناس بالخير دون بعض يلائم الألوهية كما أن إنزال الخير على العموم يناسب الربوبية ، والباء داخلة على المقصور أي يؤتي رحمته ، و(من) مفعول ، وقيل : الفعل لازم ، و(من) فاعل وعلى التقديرين العائد

محذوف ﴿ والله ذُو الفضل العظيم ﴾ .

تذييل لما سبق وفيه تذكير للكارهين الحاسدين بما ينبغي أن يكون مانعاً لهم لأن المعنى على أنه سبحانه المتفضل بأنواع التفضلات على سائر عباده فلا ينبغي لأحد أن يحسد أحداً ، ويود عدم إصابة خير له ، والكل غريق في بحار فضله الواسع الغزير كذا قيل : وإذا جعل الفضل عاماً ؛ وقيل : بإدخال النبوة فيه دخولاً أولياً لأن الكلام فيها على أحد الأقوال : كان هناك إشعار بأن النبوة من الفضل لا كما يقوله الحكماء من أنها بتصفية الباطن ، وأن حرمان بعض عباده ليس لضيق فضله بل لمشيئته وما عرف فيه من حكمته ، وتصدير هذه الجملة بالاسم الكريم لمناسبة العظيم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 350.349 ﴾

فصل

قال ابن عاشور :

قوله تعالى : ﴿ مَّا يَوَدُّ الذين كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الكتاب . . . ﴾ .

فصله عما قبله لاختلاف الغرضين ، لأن الآية قبله في تأديب المؤمنين مع التعريض باليهود

وهذه الآية لبيان حسد اليهود وغيرهم للمسلمين .

ووجه المناسبة بين الآيتين ظاهر لاتحاد المآل ولأن الداعي للسب والأذى هو الحسد .

وهذه الآية رجوع إلى كشف السبب الذي دعا لامتناع اليهود من الإيمان بالقرآن لما قيل لهم ﴿ آمنوا بما أنزل الله ﴾ فقالوا : ﴿ نؤمن بما أنزل علينا ﴾ [البقرة : 91] أي ليس الصارف لهم تمسكهم بما أنزل إليهم بل هو الحسد على ما أنزل على النبيء والمسلمين من خير ، فبين أدلة نفي كون الصارف لهم هو التصلب والتمسك بدينهم بقوله : ﴿ قل فلم تقتلون أنبيَاء الله ﴾ [البقرة : 91] وما تخلل ذلك ونشأ عنه من المجادلات وبيان إعراضهم عن أوامر دينهم واتباعهم السحر وبين الآن حقيقة الصارف عن الإيمان بالقرآن والموجب للشتم وقول البهتان ليتخلص من ذلك إلى بيان النسخ .

و(الود) بضم الواو المحبة ومن أحب شيئاً تمناه فليس الود هو خصوص التمني ولا المحبة المفرطة كما حققه الراغب .

وذكر (الذين كفروا) هنا دون اليهود لقصد شمول هذا الحكم اليهود والنصارى معاً تمهيداً لما يأتي من ذكر حكمة النسخ ومن قوله : ﴿ وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى ﴾ [البقرة : 111] الآيات .

ونبه بقوله : ﴿ الذين كفروا من أهل الكتاب ﴾ دون ما يود أهل الكتاب على أنهم لم يتبعوا كتابهم لأن كتبهم تأمرهم باتباع الحق حيثما وجدوه وبالإيمان بالنبيء المقفي على آثارهم

وفي التوراة والإنجيل مواضع كثيرة فيها أخذ الميثاق على ذلك فلما حسدوا النبيء صلى الله عليه وسلم على النبوءة وحسدوا المسلمين فقد كفروا بما أمرت به كتبهم وبهذا تخلص الكلام إلى الجمع بين موعظة النصارى مع موعظة اليهود .

ولما كان ما اقتضاه الحال من التعبير بقوله : ﴿ الذين كفروا من أهل الكتاب ﴾ قد يوهم كون البيان قيداً وأن الكافرين من غير أهل الكتاب لا يحسدون المسلمين عطف عليه قوله : ﴿ ولا المشركين ﴾ كالاحتراس وليكون جمعاً للحكم بين الجميع فيكون له حظ في التمهيد لقوله فيما يأتي : ﴿ ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه ﴾ [البقرة : 114] وقرأ الجمهور (أن ينزل) بتشديد الزاي مفتوحة .

والتعبير بالتنزيل دون الإنزال لحكاية الواقع إذ القرآن نزل منجماً لتسهيل حفظه وفهمه وكتابته وللتيسير على المكلفين في شرع الأحكام تدريجاً .

وقرأه ابن كثير وابن عمرو بتخفيف الزاي مفتوحة أيضاً وذلك على أن نفي ودادتهم متعلق بمطلق إنزال القرآن سواء كان دفعة أو منجماً .

والخير النعمة والفضل ، قال النابغة :

فلست على خير أتاك بحاسد . . .

وأراد به هنا النبوءة وما أيدها من الوحي والقرآن والنصر وهو المعبر عنه بالرحمة في قوله : ﴿ والله يختص برحمته ﴾ .

وقوله : ﴿ والله يختص برحمته من يشاء ﴾ عطف على ﴿ ما يود ﴾ لتضمنه أن الله أراد ذلك وإن كانوا هم لا يريدونه .

والرحمة هنا مثل الخير المنزل عليهم وذلك إدماج للامتنان عليهم بأن ما نزل عليهم هو رحمة بهم ومعنى الاختصاص جعلها لأحد دون غيره لأن أصل الاختصاص والتخصيص راجع إلى هذا المعنى أعني جعل الحكم خاصاً غير عام سواء خص واحداً أو أكثر .

ومفعول المشيئة محذوف كما هو الشأن فيه إذا تقدم عليه كلام أو تأخر عنه أي من يشاء اختصاصه بالرحمة .

(45/62)

والمشيئة هي الإرادة ولما كانت إرادة الله تتعلق بالمراد على وفق علمه تعالى كانت مشيئته أي إرادته جارية على وفق حكمته التي هي من كيفيات علم الله تعالى فهي من تعلقات العلم الإلاهي بإبراز الحوادث على ما ينبغي وقد تقدم الكلام عليها عند قوله تعالى : ﴿

إنك أنت العليم الحكيم ﴾ [البقرة : 32] فالله يختص برحمته من علم أنه حقيق بها لا سيما الرحمة المراد منها النبوءة فإن الله يختص بها مَن خلقه قابلاً لها فهو يخلقه على صفاء سريرة وسلامة فطرة صالحة لتلقي الوحي شيئاً فشيئاً قال تعالى : ﴿ ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكماً وعلماً ﴾ [يوسف : 22] وقال : ﴿ الله حيث يجعل رسالاته ﴾ [الأنعام : 124] ولذلك لم تكن النبوءة حاصلة بالاكتساب لأن الله يخلق للنبوءة من أراده لها لخطر أمرها بخلاف غيرها من الفضائل فهو ممكن الاكتساب كالصلاح والعلم وغيرهما فرب فاسق صلحت حاله ورب جاهل مطبق صار عالماً بالسعي والاكتساب ومع هذا فلا بد لصاحبها من استعداد في الجملة ثم وراء ذلك التوفيق وعناية الله تعالى بعبده .

ولما كانت الاستعدادات لمراتب الرحمة من النبوءة فما دونها غير بادية للناس طوى بساط تفصيلها لتعذره ووكل إلى مشيئة الله التي لا تتعلق إلا بما علمه واقتضته حكمته سبحانه رفقاً بأفهام المخاطبين .

وقوله : ﴿ والله ذو الفضل العظيم ﴾ تذييل لأن الفضل يشمل إعطاء الخير والمعاملة بالرحمة ، وتنبيه على أن واجب مريد الخير التعرض لفضل الله تعالى والرغبة إليه في أن يتجلى عليه بصفة الفضل والرحمة فيتخلى عن المعاصي والخبائث ويتحلى بالفضائل والطاعات عسى أن يحبه ربه وفي الحديث الصحيح " تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة " . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 1 صـ 634.636 ﴾

فائدة

قال أبو حيان :

﴿ والله يختصّ برحمته من يشاء ﴾ : أي يفرد بها ، وضد الاختصاص : الاشتراك .

(46/62)

ويحتمل أن يكون يختصّ هنا لازماً ، أي ينفرد ، أو متعدّياً ، أي يفرد ، إذ الفعل يأتي كذلك .

يقال : اختصّ زيد بكذا ، واختصصته به ، ولا يتعين هنا تعديه ، كما ذكر بعضهم ، إذ يصح ، والله يفرد برحمته من يشاء ، فيكون من فاعلة ، وهو افتعل من : خصصت زيداً بكذا .

فإذا كان لازماً ، كان لفعل الفاعل بنفسه نحو : اضطررت ، وإذا كان متعدياً ، كان موافقاً لفعل المجرّد نحو : كسب زيد مالاً ، واكتسب زيد مالاً .

والرحمة هنا عامة بجميع أنواعها ؛ أو النبوّة والحكمة والنصرة ، اختص بها محمد صلى الله عليه وسلم ، قاله عليّ والباقر ومجاهد والزجاج ؛ أو الإسلام ، قاله ابن عباس ؛ أو القرآن ، أو النبي صلى الله عليه وسلم ، ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ هو نبي الرحمة ، أقوال خمسة ، أظهرها الأول

﴿ والله ذو الفضل العظيم ﴾ : قد تقدّم أن ذو بمعنى صاحب .

وذكر جملة من أحكام ذو ، والوصف بذو ، أشرف عندهم من الوصف بصاحب ، لأنهم ذكروا أن ذو أبداً لا تكون إلا مضافة لاسم ، فمدلولها أشرف .

ولذلك جاء ذو رعين ، وذو يزن ، وذو الكلاع ، ولم يسمعوا بصاحب رعين ، ولا صاحب يزن ونحوها .

وامتنع أن يقول في صحابي أبي سعيد أو جابر : ذو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجاز أن يقول : صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولذلك وصف الله تعالى نفسه بقوله : ﴿ ذو الجلال ﴾ ﴿ ذو الفضل ﴾ ، وسيأتي الفرق بين قوله تعالى : ﴿ وذا النون إذ ذهب مغاضباً ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ ولا تكن كصاحب الحوت ﴾ إن شاء الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 1 صـ 510 ﴾

فائدة

قال البيضاوى :

﴿ والله ذُو الفضل العظيم ﴾ إشعار بأن النبوة من الفضل ، وأن حرمان بعض عباده ليس لضيق فضله ، بل لمشيئته وما عرف فيه من حكمته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 1 صـ 377 ﴾

فائدة

قال فى روح البيان :

وعباد الله المخلصون قسمان :

قوم أقامهم الحق لخدمته وهم العباد والزهاد وأهل الأعمال والأوراد وقوم اختصهم بمحبته وهم أهل المحبة والوداد وكل من خدمته وتحت طاعته إذ كلهم قاصد وجهه ومتوجه إليه والعبودية صفة العبد لا تفارقه ما دام حياً ومن حقائق العبودية إخراج الحسد من القلب .

قال بعض الحكماء : بارز الحاسد ربه من خمسة أوجه :

أولها : أنه أبغض كل نعمة ظهرت على غيره .

والثاني : أنه يتسخط قسمته تعالى ويقول لربه : لو قسمت هكذا .

والثالث : أن فضل الله يؤتيه من يشاء وهو يبخل بفضله .

والرابع : أنه خذل ولي الله لأنه يريد خذلانه وزوال النعمة عنه .

والخامس : أنه أعان عدوه يعني إبليس .

واعلم أن حسدك لا ينفذ على عدوك بل على نفسك بل لو كوشفت بحالك في يقظة أو منام لرأيت نفسك أيها الحاسد في صورة من يرمي حجراً إلى عدوه ليصيب به مقتله فلا يصيبه بل يرجع إلى حدقته اليمنى فيقلعها فيزيد غضبه ثانياً فيعود ويرميه أشد من الأولى فيرجع

على عينه اليسرى فيعميها فيزداد غضبه ثالثاً فيعود ويرميه فيرجع الحجر على رأسه فيشجه وعدوه سالم في كل حال وهو إليه راجع كرة بعد أخرى وأعداؤه حواليه يفرحون ويضحكون وهذا حال الحسود وسخرية الشياطين .

(48/62)

وقال بكر بن عبد الله : كان رجل يأتي بعض الملوك فيقوم بحذائه ويقول : أحسن إلى المحسن بإحسانه فإن المسيء سيكفيه إساءته فحسده رجل على ذلك المقام والكلام فسعى به إلى الملك وقال : إنه هذا الرجل يزعم أن الملك أبخر فقال الملك : وكيف يصح ذلك عندي ؟ قال : ندعو به إليك فانظر فإنه إذا دنا منك وضع يده على أنفه أن لا يشم ريح البخر فخرج من عند الملك فدعا الرجل إلى منزله فأطعمه طعاماً فيه ثوم فخرج الرجل من عنده فقام بحذاء الملك فقال على عادته مثل ما قال فقال له الملك : ادن مني فدنا منه واضعاً يده على فمه مخافة أن يشم الملك منه ريح الثوم فصدق الملك في نفسه قول الساعي قال : وكان الملك لا يكتب بخطه إلا لجائزة فكتب كتاباً بخطه إلى عامل له إذا أتاك الرجل فاذبحه واسلخه واحش جلده تبناً وابعث به إليّ فأخذ الكتاب وخرج فلقيه الرجل الذي سعى به فاستوهب منه ذلك الكتاب فأخذه منه بأنواع التضرع والامتناع ومضى إلى العامل فقال

له العامل إن في كتابك أن أذبحك وأسلخك قال إنّ الكتاب ليس هو لي الله الله في أمري حتى أراجع الملك قال : ليس لكتاب الملك مراجعة فذبحه وسلخه وحشا جلده تبناً وبعث به ثم عاد الرجل كعادته فتعجب منه الملك فقال : ما فعلت بالكتاب ؟ قال : لقيني فلان فاستوهبه مني فوهبته قال الملك : إنه ذكر لي أنك تزعم أني أبخر فقال : كلا قال : فلم وضعت يدك على أنفك ؟ قال : كان أطعمني طعاماً فيه ثؤم فكرهت أن تشمه قال : ارجع إلى مكانك فقد كفى المسيىء إساءته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح البيان حـ 1 صـ 252. 253 ﴾

(49/62)

ومن فوائد ابن عرفة فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ مَّا يَوَدُّ الذين كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الكتاب . . . ﴾ .

مع أن الثابت في نفس الأمر أنهم ودّوا عدم نزول الخير ، لكن ذلك مستفاد من السياق فلا يحتاج إلى التنصيص عليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عرفة حـ 1 صـ 390 ﴾

(50/62)

ومن فوائد صاحب المنار فى الآيتين :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)

أَقُولُ : هَذَا خِطَابٌ لِلْمُؤْمِنِينَ فِي أَمْرٍ لَهُ عِلَاقَةٌ بِمَا كَانَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْيَهُودِ ، فَهُوَ مُتَعَلِّقٌ بِمَاضِي السِّيَاقِ الْخَاصِّ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَبَدْءِ انْتِقَالٍ مِنْهُ إِلَى سِيَاقٍ مُشْتَرَكٍ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى جَمِيعًا فِي أَمْرِ الدِّينِ . وَ(رَاعِنَا) كَلِمَةٌ كَانَتْ تَدُورُ عَلَى أَلْسِنَةِ الصَّحَابَةِ فِي خِطَابِ النَّبِيِّ
- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وَالْمَعْنَى الْمُتَبَادِرُ مِنْهَا لُغَةً هُوَ : رَاعِنَا سَمْعَكَ وَهُوَ كَأَرْعِنَا سَمْعَكَ : أَيِ اسْمَعْ لَنَا مَا نُرِيدُ أَنْ نَسْأَلَ عَنْهُ وَنُرَاجِعَكَ الْقَوْلَ فِيهِ لِنَفْهَمَهُ عَنْكَ ، أَوْ رَاقِبْنَا وَانْتَظِرْ مَا يَكُونُ مِنْ شَأْنِنَا فِي حِفْظِ مَا تُلْقِيهِ عَلَيْنَا وَفَهْمِهِ . قَالَ فِي مَجَازِ الْأَسَاسِ : وَرَاعَيْتُ الْأَمْرَ - نَظَرْتُ إِلَامَ يَصِيرُ

وَأَنَا أُرَاعِي فُلَانًا - أَنْظُرُ مَاذَا يَفْعَلُ ، وَأَرْعَيْتُهُ سَمْعِي ، وَأَرْعِنِي سَمْعَكَ ، وَرَاعِنِي سَمْعَكَ اهـ . وَلَكِنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - نَهَى الْمُؤْمِنِينَ عَنْ قَوْلِ هَذِهِ الْكَلِمَةِ ، وَالْمَشْهُورُ فِي كُتُبِ التَّفْسِيرِ أَنَّ سَبَبَ ذَلِكَ هُوَ أَنَّ الْيَهُودَ سَمِعُوهَا فَافْتَرَصُوهَا وَصَارُوا يُخَاطِبُونَ بِهَا النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِأَنَّهُمْ بِهَا لِتُوَافِقَ كَلِمَةَ شَتْمٍ بِلِسَانِهِمُ الْعِبْرَانِيِّ . قِيلَ : كَانُوا يَنْطِقُونَ بِهَا " رَاعَيْنَا " وَقِيلَ : كَانُوا يُرِيدُونَ بِتَحْرِيفِهَا نِسْبَتَهُ إلَى الرُّعُونَةِ ، وَفِي سُورَةِ النِّسَاءِ (مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ) (4 : 46) الْآيَةَ .

(الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ) : إنَّ هَذَا النَّهْيَ لَهُ صِلَةٌ وَارْتِبَاطٌ بِشَأْنِ الْيَهُودِ لَا مَحَالَةَ ؛ لِأَنَّ الْكَلَامَ لَا يَزَالُ فِي شُئُونِهِمْ مَعَ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَالْمُؤْمِنِينَ ، وَلَكِنَّ هَذَا لَا يَسْتَلْزِمُ أَنْ يَكُونَ سَبَبُ النَّهْيِ هُوَ كَوْنُ الْكَلِمَةِ تُسْتَعْمَلُ لِلشَّتْمِ فِي الْعِبْرَانِيَّةِ ، وَلَا أَقُولُ بِهَذَا إلَّا بِنَقْلٍ صَحِيحٍ عَمَّنْ يَعْرِفُ هَذِهِ اللُّغَةَ ، وَلِلْمُفَسِّرِينَ وُجُوهٌ أُخْرَى فِي تَعْلِيلِ النَّهْيِ ، فَعَنْ مُجَاهِدٍ وَغَيْرِهِ أَنَّ مَعْنَى الْكَلِمَةِ " خِلَافٌ " وَالْمُرَادُ لَا تُخَالِفُوهُ كَمَا يَفْعَلُ أَهْلُ الْكِتَابِ ، وَلَكِنِ اعْتُرِضَ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ بِأَنْ لَيْسَ لَهُ شَاهِدٌ مِنَ اللُّغَةِ . وَالْمَعْرُوفُ فِي اللُّغَةِ أَنَّ (رَاعِنَا) مِنَ الْمُرَاعَاةِ .

وَهِيَ تَقْتَضِي الْمُشَارَكَةَ فِي الرِّعَايَةِ أَيِ ارْعَنَا نَرْعَكَ ، وَفِي خِطَابِ النَّبِيِّ بِذَلِكَ مِنْ سُوءِ الْأَدَبِ مَا هُوَ ظَاهِرٌ ، فَالنَّهْيُ عَنْهُ تَأْدِيبٌ كَقَوْلِهِ - تَعَالَى - : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ) (49 : 2) كَأَنَّهُ يَقُولُ : لَا تَكُونُوا كَهَؤُلَاءِ الْغِلَاظِ الْقُلُوبِ الَّذِينَ قَصَصْنَا عَلَيْكُمْ خَبَرَهُمْ ، أَوِ الَّذِينَ عَرَفْتُمْ سُوءَ أَدَبِهِمْ مَعَ الْأَنْبِيَاءِ ، بَلِ اجْمَعُوا بَيْنَ الطَّاعَةِ وَالْأَدَبِ .

(قَالَ) : وَهَا هُنَا وَجْهٌ آخَرُ وَهُوَ أَنَّهُ يُقَالُ فِي اللُّغَةِ : رَاعَى الْحِمَارُ الْحُمُرَ إِذَا رَعَى مَعَهَا ، فَيَجُوزُ أَنَّ الْيَهُودَ كَانُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَةَ بِصَرْفِهَا إِلَى هَذَا الْمَعْنَى ، فَنَهَى اللَّهُ الْمُسْلِمِينَ عَنْ هَذِهِ الْكَلِمَةِ ، وَشَنَّعَ عَلَى الْيَهُودِ بِإِظْهَارِ سُوءِ قَصْدِهِمْ فِيهَا ، وَقَدْ رَضُوا بِصَرْفِ اللَّفْظِ إِلَى هَذَا الْمَعْنَى وَإِنْ كَانَ يَتَضَمَّنُ أَنَّهُمْ حُمُرٌ ؛ لِأَنَّ السَّبَّابَ يَسُبُّ نَفْسَهُ كَمَا يَسُبُّ غَيْرَهُ فَهُوَ عَلَى حَدِّ قَوْلِ الْقَائِلِ :

اقْتُلُونِي وَمَالِكًا . . . وَاقْتُلُوا مَالِكًا مَعِي

قَالَ - تَعَالَى - : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا) ، نَهَاهُمْ - تَعَالَى - عَنْ كَلِمَةٍ كَانُوا يَقُولُونَهَا وَأَمَرَهُمْ بِكَلِمَةٍ خَيْرٍ مِنْهَا تُفِيدُ مَا كَانُوا يُرِيدُونَهُ مِنْهَا . فَكَلِمَةُ

(انْظُرْنَا) تُفِيدُ مَعْنَى كَلِمَةِ (رَاعِنَا) فَإِنَّ فِيهَا مَعْنَى الْإِنْظَارِ وَالْإِمْهَالِ، وَيُؤَيِّدُ هَذَا الْمَعْنَى قِرَاءَةُ (انْظِرْنَا) مِنَ الْإِنْظَارِ، وَفِيهَا مَعْنَى الْمُرَاقَبَةِ وَهُوَ مَا يُسْتَفَادُ مِنَ النَّظَرِ بِالْعَيْنِ. تَقُولُ: نَظَرْتُ الشَّيْءَ

(54/62)

وَنَظَرْتَ إِلَيْهِ إِذَا وَجَّهْتَ إِلَيْهِ بَصَرَكَ وَرَأَيْتَهُ، وَتَقُولُ: نَظَرْتُهُ بِمَعْنَى انْتَظَرْتُهُ وَمِنْهُ (مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً) (36 : 49) أَذِنَ اللهُ - تَعَالَى - لَهُمْ بِهَذِهِ الْكَلِمَةِ (انْظُرْنَا) وَأَمَرَهُمْ بِالسَّمَاعِ لِلنَّبِيِّ لِيَعُوا عَنْهُ مَا يَقُولُ مِنَ الدِّينِ وَهُوَ أَمْرٌ يَتَضَمَّنُ الطَّاعَةَ وَالِاسْتِجَابَةَ. ثُمَّ خَتَمَ الْآيَةَ بِقَوْلِهِ: (وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ) لِبَيَانِ أَنَّ مَا صَدَرَ عَنِ الْيَهُودِ مِنْ سُوءِ الْأَدَبِ فِي خِطَابِ الرَّسُولِ هُوَ أَثَرٌ مِنْ آثَارِ الْكُفْرِ الَّذِي يُعَذَّبُونَ عَلَيْهِ الْعَذَابَ الْمُوجِعَ أَشَدَّ الْإِيجَاعِ، وَلِلتَّنْبِيهِ عَلَى أَنَّ التَّقْصِيرَ

فِي الْأَدَبِ مَعَهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ذَنْبٌ مُجَاوِرٌ لِلْكُفْرِ يُوشِكُ أَنْ يَجُرَّ إِلَيْهِ، فَيَجِبُ الِاحْتِرَاسُ مِنْهُ بِتَرْكِ الْأَلْفَاظِ الْمُوهِمَةِ لِلْمُسَاوَاةِ، بَلْهَ الْأَلْفَاظِ الْمُنَافِيَةِ لِلْآدَابِ.

(55/62)

أَقُولُ : لَا شَكَّ أَنَّ مَنْ يُعَامِلُ أُسْتَاذَهُ وَمُرْشِدَهُ مُعَامَلَةَ الْمُسَاوَاةِ فِي الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ ، يَقِلُّ احْتِرَامُهُ لَهُ وَتَزُولُ هَيْبَتُهُ مِنْ نَفْسِهِ حَتَّى تَقِلَّ الِاسْتِفَادَةُ مِنْهُ أَوْ تَعْدَمَ ، وَإِذَا لَمْ تَزُلِ الِاسْتِفَادَةُ مِنْهُ مِنْ حَيْثُ كَوْنِهِ مُعَلِّمًا ، فَإِنَّهَا تَقِلُّ وَتَزُولُ لَا مَحَالَةَ مِنْ حَيْثُ كَوْنِهِ مُرَبِّيًا ؛ لِأَنَّ الْمَدَارَ فِي التَّرْبِيَةِ عَلَى التَّأَسِّي وَالْقُدْوَةِ ، وَمَنْ أَرَاهُ مِثْلِي لَا أَرْضَاهُ إِمَامًا وَقُدْوَةً لِي ، فَإِنْ رَضِيتُهُ بِالْمُوَاضَعَةِ وَالتَّقْلِيدِ وَكَذَّبَتْنِي الْمُعَامَلَةُ ، فَأَيُّ قِيمَةٍ لِهَذَا الرِّضَى ، وَالْعِبْرَةُ بِمَا فِي الْوَاقِعِ وَنَفْسِ الْأَمْرِ ، وَهُوَ أَنَّ مَنِ اعْتَقَدَ أَنَّ امْرَأً فَوْقَهُ عِلْمًا وَكَمَالًا ، وَأَنَّهُ فِي حَاجَةٍ لِلِاسْتِفَادَةِ مِنْ عِلْمِهِ وَإِرْشَادِهِ وَمِنْ أَخْلَاقِهِ وَآدَابِهِ ، فَإِنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُسَاوِيَ نَفْسَهُ بِهِ فِي الْمُعَامَلَةِ الْقَوْلِيَّةِ وَلَا الْفِعْلِيَّةِ ، إِلَّا مَا يَكُونُ مِنْ فَلَتَاتِ اللِّسَانِ وَمِنَ اللَّمَمِ ، وَعَنْ مِثْلِ هَذَا نَهَى الصَّحَابَةَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ – ؛ لِئَلَّا يَجُرَّهُمُ الْأُنْسُ بِهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَكَرَمُ أَخْلَاقِهِ إِلَى تَعَدِّي حُدُودِ الْأَدَبِ الْوَاجِبِ مَعَهُ الَّذِي لَا تَكْمُلُ التَّرْبِيَةُ إِلَّا بِكَمَالِهِ ، وَهُوَ – تَعَالَى – يَقُولُ : (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ) (33 : 21) الْآيَةَ .

(الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ) : إِنَّمَا كَانَ عَدَمُ الْإِصْغَاءِ لِمَا يَقُولُهُ الرَّسُولُ – عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ – وَخِطَابُهُ خِطَابُ الْأَكْفَاءِ وَالنُّظَرَاءِ مُجَاوِرًا لِلْكُفْرِ ؛ لِأَنَّهُ يَتَكَلَّمُ عَنِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِسَعَادَةِ مَنْ يَسْمَعُ وَيَعْقِلُ وَيَأْخُذُ مَا يُؤْمَرُ بِهِ بِالْأَدَبِ وَيَسْأَلُ عَمَّا لَا يَفْهَمُهُ بِالْأَدَبِ ، وَمَنْ فَاتَتْهُ هَذِهِ السَّعَادَةُ فَهُوَ الشَّقِيُّ الَّذِي لَا يُعْدَلُ بِشَقَائِهِ شَقَاءٌ . وَمَعْنَى هَذِهِ الْمُجَاوَرَةِ أَنَّ سُوءَ الْأَدَبِ بِنَحْوِ مَا حُكِيَ عَنِ الْيَهُودِ فِي سُورَةِ النِّسَاءِ ، هُوَ مِنَ الْكُفْرِ الصَّرِيحِ ، وَلِذَلِكَ قَالَ بَعْدَهُ : (وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا) (4 : 46) فَالْأَلْفَاظُ الَّتِي تُحَاكِي الْأَلْفَاظَ الَّتِي تُوُعِّدُوا عَلَيْهَا بِهَذَا الْوَعِيدِ عَلَى أَنَّهَا كُفْرٌ إِذَا صَدَرَتْ مِنَ الْمُؤْمِنِ غَيْرَ مُحَرَّفَةٍ وَلَا مَقْصُودًا بِهَا مَا كَانُوا يَقْصِدُونَ ، تُسَمَّى مُجَاوِرَةً لِأَلْفَاظِ الْكُفْرِ ؛ لِأَنَّهَا مُوهِمَةٌ وَخَارِجَةٌ عَنْ حُدُودِ الْأَدَبِ اللَّائِقِ بِالْمُؤْمِنِينَ .

(قَالَ) : إِنَّ لِمَنْ جَاءَ بَعْدَ الرَّسُولِ حَظًّا مِنْ هَذَا التَّأْدِيبِ ، وَلَيْسَ هُوَ خَاصًّا بِمَنْ كَانَ فِي عَصْرِهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَهَذَا كِتَابُ اللهِ الَّذِي كَانَ يَتْلُوهُ عَلَيْهِمْ ، وَكَانَ يَجِبُ الِاسْتِمَاعُ لَهُ وَالْإِنْصَاتُ لِأَجْلِ تَدَبُّرِهِ ، هُوَ الَّذِي يُتْلَى عَلَيْنَا بِعَيْنِهِ ، لَمْ يَذْهَبْ مِنْهُ شَيْءٌ ، وَهُوَ كَلَامُ اللهِ الَّذِي بِهِ

كَانَ الرَّسُولُ رَسُولًا تَجِبُ طَاعَتُهُ وَالْاهْتِدَاءُ بِهَدْيِهِ ، فَمَا هَذَا الْأَدَبُ الَّذِي يُقَابِلُهُ بِهِ الْأَكْثَرُونَ ؟ إِنَّهُمْ يَلْغَطُونَ فِي مَجْلِسِ الْقُرْآنِ ، فَلَا يَسْتَمِعُونَ وَلَا يُنْصِتُونَ ، وَمَنْ أَنْصَتَ وَاسْتَمَعَ فَإِنَّمَا يُنْصِتُ طَرَبًا بِالصَّوْتِ وَاسْتِلْذَاذًا بِتَوْقِيعِ نَغَمَاتِ الْقَارِئِ ، وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ فِي اسْتِحْسَانِ ذَلِكَ وَاسْتِجَادَتِهِ مَا يَقُولُونَهُ فِي مَجَالِسِ الْغِنَاءِ ، وَيَهْتَزُّونَ لِلتِّلَاوَةِ وَيُصَوِّتُونَ بِأَصْوَاتٍ مَخْصُوصَةٍ ، كَمَا يَفْعَلُونَ عِنْدَ سَمَاعِ الْغِنَاءِ بِلَا فَرْقٍ ، وَلَا يَلْتَفِتُونَ إِلَى شَيْءٍ مِنْ مَعَانِيهِ إِلَّا مَا يَرَوْنَهُ مَدْعَاةً لِسُرُورِهِمْ فِي مِثْلِ قِصَّةِ يُوسُفَ – عَلَيْهِ السَّلَامُ – مَعَ الْغَفْلَةِ عَمَّا فِيهَا مِنَ الْعِبْرَةِ وَإِعْلَاءِ شَأْنِ الْفَضِيلَةِ وَلَا سِيَّمَا الْعِفَّةُ وَالْأَمَانَةُ ، أَلَيْسَ هَذَا أَقْرَبَ إِلَى الِاسْتِهَانَةِ بِالْقُرْآنِ مِنْهُ بِالْأَدَبِ اللَّائِقِ الَّذِي تُرْشِدُ إِلَيْهِ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ وَأَمْثَالُهَا ، وَتَتَوَعَّدُ عَلَى تَرْكِهِ بِجَعْلِهِ مُجَاوِرًا لِلْكُفْرِ الَّذِي يَسُوقُ صَاحِبَهُ إِلَى الْعَذَابِ الْأَلِيمِ : (أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ) (23 : 68 ، 69) ؟ .

ثُمَّ قَالَ – تَعَالَى – : (مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ) يَقُولُ – تَعَالَى – لِلْمُؤْمِنِينَ : إِنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ عَلِمْتُمْ شَأْنَهُمْ مَعَ أَنْبِيَائِهِمْ حَسَدَةٌ لَا يُلْتَفَتُ إِلَى تَكْذِيبِهِمْ وَلَا يُبَالَى بِعُدْوَانِهِمْ ، وَلَا يَضُرُّكُمْ كُفْرُهُمْ وَعِنَادُهُمْ ، فَهُمْ لِحَسَدِهِمْ لَا

يَوَدُّونَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ أَدْنَى خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ ، وَالْقُرْآنُ أَعْظَمُ الْخَيْرَاتِ ؛ لِأَنَّهُ النِّظَامُ الْكَامِلُ ، وَالْفَضْلُ الشَّامِلُ ، وَالْهِدَايَةُ الْعُظْمَى ، وَالْآيَةُ الْكُبْرَى ، جَمَعَ بِهِ شَمْلَكُمْ ، وَوَصَلَ حَبْلَكُمْ ، وَوَحَّدَ شُعُوبَكُمْ وَقَبَائِلَكُمْ ، وَطَهَّرَ عُقُولَكُمْ مِنْ نَزَغَاتِ الْوَثَنِيَّةِ ، وَزَكَّى نُفُوسَكُمْ مِنْ أَدْرَانِ الْجَاهِلِيَّةِ ، وَأَقَامَكُمْ عَلَى سُنَنِ الْفِطْرَةِ ، وَشَرَعَ لَكُمُ الْحَنِيفِيَّةَ السَّمْحَةَ ، فَكَيْفَ لَا يَحْرِقُ الْحَسَدُ عَلَيْهِ أَكْبَادَهُمْ وَيُخْرِجُ أَضْغَانَهُمْ عَلَيْكُمْ وَأَحْقَادَهُمْ ؟ .

(أَقُولُ) الْوُدُّ مَحَبَّةُ الشَّيْءِ ، وَتَمَنِّي وُقُوعِهِ ، يُطْلَقُ عَلَى كُلٍّ مِنْهُمَا قَصْدًا ، وَعَلَى الْآخَرِ تَبَعًا . وَيَكُونُ مَفْعُولُ الْأَوَّلِ مُفْرَدًا وَالثَّانِي جُمْلَةً ، وَنَفْيُهُ بِمَعْنَى الْكَرَاهَةِ ، فَالْمَعْنَى :

مَا يُحِبُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَلَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ أَدْنَى خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ ، أَمَّا أَهْلُ الْكِتَابِ وَلَا سِيَّمَا الْيَهُودُ فَلِحَسَدِهِمْ لِلْعَرَبِ أَنْ يَكُونَ فِيهِمُ الْكِتَابُ وَالنُّبُوَّةُ ، وَهُوَ مَا كَانُوا يَحْتَكِرُونَهُ لِأَنْفُسِهِمْ ، وَأَمَّا الْمُشْرِكُونَ فَلِأَنَّ فِي التَّنْزِيلِ الْمَرَّةَ بَعْدَ الْمَرَّةِ مِنْ قُوَّةِ الْإِسْلَامِ وَرُسُوخِهِ وَانْتِشَارِهِ مَا خَيَّبَ آمَالَهُمْ فِي تَرَبُّصِهِمُ الدَّوَائِرَ بِالنَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَانْتِهَاءِ أَمْرِهِ .

ثُمَّ إِنَّ اللهَ – تَعَالَى – رَدَّ عَلَيْهِمْ بِمَا بَيَّنَ جَهْلَهُمْ وَجَهْلَ جَمِيعِ الْحَاسِدِينَ فَقَالَ : (وَاللهُ يَخْتَصُّ

بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) ، أَيْ أَنَّ الْحَاسِدَ لِغَبَاوَتِهِ وَفَسَادِ طَوِيَّتِهِ يَكُونُ سَاخِطًا عَلَى اللهِ – تَعَالَى – وَمُعْتَرِضًا عَلَيْهِ أَنْ أَنْعَمَ عَلَى الْمَحْسُودِ بِمَا أَنْعَمَ ، وَلَا يَضُرُّ اللهَ – تَعَالَى – سُخْطُ السَّاخِطِينَ ، وَلَا يُحَوِّلُ مَجَارِيَ نِعَمِهِ حَسَدُ الْحَاسِدِينَ ، فَاللهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ – أَسْنَدَ كُلًّا مِنْ هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ إِلَى اسْمِ الذَّاتِ الْأَعْظَمِ لِبَيَانِ أَنَّهُمَا حَقٌّ لِذَاتِهِ ، فَلَيْسَ لِأَحَدٍ مِنْ عَبِيدِهِ أَدْنَى تَأْثِيرٍ فِي مَنْحِهِمَا وَلَا فِي مَنْعِهِمَا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير المنار حـ 1 صـ 337. 341 ﴾

(60/62)

" لطيفة "

قال السيوطى :

الرحمة وردت على وجه

1 – الإسلام يختص برحمته من يشاء

2 والإيمان وآتاني رحمة من عنده

3 – والجنة ففي رحمة الله هم فيها خالدون

4 – والمطر بشرا بين يدي رحمته

5 – والنعمة ولولا فضل الله عليكم ورحمته

6 – والنبوة أم عندهم خزائن رحمة ربك أهم يقسمون رحمة ربك

6 – والقرآن قل بفضل الله وبرحمته

7 – والرزق خزائن رحمة ربي

8 – والنصر والفتح إن أراد بكم سوءا أو أراد بكم رحمة

9 – والعافية أو أرادني برحمة

10 – والمودة رأفة ورحمة رحماء بينهم

11 – والسعة تخفيف من ربكم ورحمة

12 – والمغفرة كتب على نفسه الرحمة

13 – والعصمة لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الإتقان في علوم القرآن حـ 1 صـ 412 . 413 ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ ﴾ : في " من " قولان :

أحدهما : أنها للتبعيض ، فتكون هي ومجرورها في محلّ نصب على الحال ، وتعلّق بمحذوف أي : ما يودّ الذين كفروا كائنين من أهل الكتاب .

والثاني : أنها لبيان الجنس ، وبه قال الزمخشري ؛ لأن " الذين كفروا " جنس تحته نوعان أهل الكتاب والمشركون بدليل قوله تعالى : ﴿ لَمْ يَكُنِ الذين كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الكتاب والمشركين ﴾ [البينة : 1] .

قوله : ﴿ وَلاَ المُشْرِكِينَ ﴾ عطف على " أهل " المجرور بـ " من " و " لا " زائدة للتوكيد ؛ لأن المعنى : ﴿ ما يود الذين كفورا من أهل الكتاب والمشركين ﴾ كقوله : ﴿ لَمْ يَكُنِ الذين كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الكتاب والمشركين ﴾ [البينة : 1] بغير زيادة " لا " .

وزعم بعضهم أنه مخفوض على الجوار ، وأن الأصل ولا المشركون ، عطفاً على الذين ، وإنما خفض للمجاورة ، نحو ﴿ بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ ﴾ [المائدة : 6] في قراءة الجر ، وليس بواضح .

وقال النحاس : ويجوز : ولا المشركون بعطفه على " الذين " وقال أبو البقاء رحمه الله : وإن كان قد قرىء : " وَلاَ المُشْرِكُونَ " بالرفع فهو عطف على الفاعل ، والظاهر أنه لم يقرأ بذلك

وهذان القولان يؤيدان ادّعاء الخفش على الجوار .

قوله : " أَنْ يُنَزّلَ " ناصب ومنصوب في تأويل مصدر مفعول بـ " يؤدّ " أي : ما يود إنزاله من خير ، وبني الفعل للفعول للعمل بالفاعل ؛ وللتصيح به في قوله : " مِنْ رَبّكُمْ " ، وأتي بـ " ما " في النفي دون غيرها ؛ لأنها لنفي الحال ، وهم كانوا متلبّسين بذلك .

قال القُرْطبي : و" أن " في موضع نصب ، أي بأن ينزل .

قوله : " مِنْ خَيْرٍ " هذا هو القائم مقام الفاعل ، و" من " زائدة ، أي : أن ينزل خير من ربكم .

وحسن زيادتها هنا ، وإن كان " ينزل " لم يباشره حرف النفي ؛ لانسحاب النفي عليه من حيث المعنى ؛ لأنه إذا نفيت الوَدَادَة انتفى متعلّقها ، وهذا له نظائر في كلامهم نحو : " ما أظن أحداً يقول ذلك إلاّ زيد " برفع " زيد " بدلاً من فاعل " يقول " وإن لم يباشر النفي ، لكنه قوة : " ما يقول أحد ذلك إلاَّ زيد في ظني " .

وقوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ اللهَ الذي خَلَقَ السماوات والأرض وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ ﴾ [الأحقاف : 33] زيدت " الباء " ؛ لأنه في معنى : أو ليس الله بقادر ، وهذا على

رأي سيبويه وأتباعه .

وأما الكوفيّون والأخفش فلا يحتاجون إلى شيء من هذا .

وقيل " من " للتبعيض ، أي : ما يودون أن يُنَزَّل من الخير قليل ولا كثير ، فعلى هذا يكون القائم مقام الفاعل : " عليكم " ، والمعنى : أن ينزل عليكم بخير من الخُيُور .

قوله : " مِنْ رَبِّكُمْ " في " من " أيضاً قولان :

أحدهما : أنها لابتداء الغاية ، فتتعلّق بـ " ينزّل " .

والثاني : أنها للتبعيض ، ولا بد حينئذ من حَذْف مضاف تقديره : من خُيُور ربّكم ، وتتعلق حينئذ بمحذوف ، لأنها ومجرورها صفة لقوله " من خير " أي : من خير كائن من خُيُور ربكم ، ويكون في محلّها وجهان :

الجر على اللفظ ، والرفع على الموضع ، لأن " من " زائدة في " خير " ، فهو مرفوع تقديراً لقيامه مقام الفاعل كما تقدم .

وتلخص مما تقدم أن في كل واحدة من لفظ "ممن " قولين :

الأول : قيل : إنها للتبعيض ، وقيل : أو لبيان الجنس .

وفي الثانية قولان : زائدة أو للتعبيض .

وفي الثالثة : أيضاً قولان : لابتداء الغاية ، أو التبعيض .

قوله : ﴿ واللهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ هذه جملة ابتدائية تضمنت ردّ وَدادَتهم ذلك .

(63/62)

و " يختص " يحتمل أن يكون متعدياً ، وأن يكون لازماً فإن كانت متعدياً كان فيه ضمير يعود على الله تعالى ، وتكن " من " مفعولاً به أي يختص الله الذي يشاؤه برحْمته ، ويكون معنى " افتعل " هنا معنى المجرد نحو : كسب مالاً واكتسبه ، وإن كان لازماً لم يكن فيه ضمير ، ويكون فاعله " من " أي : والله يختصّ برحمته الشّخَّ الذي يشاؤه ، ويكون " افتعل " بمعنى الفاعل بنفسه نحو : اضطراب ، والاختصاص ضد الاشتراك ، وبهذا [يتبين فساد] قول من زعم أنه هنا متعدّ ليس غلاّ .

و " مَنْ " يجوز أن تكون موصولة أو موصوفة ، وعلى كلا التقديرين فلا بد من تقدير عائد ، أي : يشاء اختصاصه .

ويجوز أن يمضن " يشاء " معنى يختار ، فحينئذ لا حاجة إلى حَذْف مضاف ، بل تقدره ضميراً فقط أي : يشاؤه ، و " يشاء " على القول الأول لا محلّ له لكونه صلةً ، وعلى الثاني محلّه النّصب ، أو الرفع على [حسب] ما ذكر في موصوفه من كونه فاعلاً أو مفعولاً . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 2 صـ 362. 364 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (105) ﴾

كراهية الأعداء لانتظام صلاح الأولياء متصِلَةٌ مُستَدامةٌ ، ولكن الحسود لا يسود ، ولا يحصُل له مقصود . وخصائص الرحمة للأولياء كافية – وإنْ زَعَمَ مِنَ الأعداء أفَّاكٌ أنه انهدمت من أوطان فرحهم أكناف وأطراف . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 111 ﴾

ومن فوائد العلامة الزمخشرى فى الآيات

قال رحمه الله :

﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ ﴾

وَاتَّبَعُوا أى نبذوا كتاب الله واتبعوا ما تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ يعنى واتبعوا كتب السحر والشعوذة

التي كانت تقرؤها عَلى مُلْكِ سُلَيْمانَ أى على عهد ملكه وفي زمانه . وذلك أنّ الشياطين كانوا يسترقون السمع ثم يضمون إلى ما سمعوا أكاذيب يلفقونها ويلقونها إلى الكهنة وقد دوّنوها في كتب يقرءونها ويعلمونها الناس ، وفشا ذلك في زمن سليمان عليه السلام حتى قالوا :

إن الجن تعلم الغيب ، وكانوا يقولون : هذا علم سليمان ، وما تم لسليمان ملكه إلا بهذا العلم ، وبه تسخر الإنس والجن والريح التي تجرى بأمره وَما كَفَرَ سُلَيْمانُ تكذيب للشياطين ودفع لما بهتت به «1» سليمان من اعتقاد السحر والعمل به وسماه كفراً وَلكِنَّ الشَّياطِينَ هم الذين كَفَرُوا باستعمال السحر وتدوينه يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ يقصدون به إغواءهم وإضلالهم وَما أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ عطف على السحر ، أى ويعلمونهم ما أنزل على الملكين . وقيل : هو عطف على ما تتلو ، أى واتبعوا ما أنزل . هارُوتَ وَمارُوتَ عطف بيان للملكين علمان لهما ، والذي أنزل عليهما هو علم السحر ابتلاء من اللَّه للناس . من تعلمه منهم وعمل به كان كافراً ، ومن تجنبه أو تعلمه لا ليعمل به ولكن ليتوقاه ولئلا يغتر به كان مؤمنا :

عَرَفْتُ الشَّرَّ لَا لِلشَّرِّ لَكِنْ لِتَوَقِّيهِ «2»

---

(1) . قوله «لما بهتت به» أى قالت عليه ما لم يفعله . أفاده الصحاح . (ع)

(2) عرفت الشر لا للشر لكن لتوقيه

فمن لا يعرف الشر من الناس يقع فيه

لأبى نواس . ومعنى «لكن» هنا . للاضراب الانتقالى . ويمكن أن يتوهم من قوله «لا للشر» أنه لم يعرف الشر لأجل شيء من متعلقاته رأساً فدفع هذا التوهم بقوله : لكن عرفته لتوقيه ، فهي للاستدراك ، أى عرفته لأجل التحفظ منه . و«من الناس» بيان لمن مؤكد للعموم ، ويقع جزم في جواب الشرط ، أى من جهل الشر وقع فيه ، كالمار إذا جهل البئر المغطاة في طريقه . واستروحوا بذلك لجواز تعلم نحو السحر للتمكن من تجنبه . ويجوز أن «من الناس» صفة للشر ، و«من» بيانية أو ابتدائية . ويروى «من الخير» أى من لم يميز الشر من الخير يقع في الشر .

(65/62)

كما ابتلى قوم طالوت بالنهر ، (فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي) . وقرأ الحسن (على الملكين) بكسر اللام ، على أنّ المنزل عليهما علم السحر كانا ملكين ببابل . وما يعلم الملكان أحدا حتى ينبهاه وينصحاه ويقولا له إِنَّما نَحْنُ فِتْنَةٌ أى ابتلاء واختيار من اللَّه فَلا تَكْفُرْ فلا تتعلم معتقداً أنه حق فتكفر فَيَتَعَلَّمُونَ الضمير لما دلّ عليه من أحد . أى فيتعلم الناس من الملكين ما يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ أى علم السحر الذي يكون

سببا في التفريق بين الزوجين من حيلة وتمويه ، كالنفث في العقد ، ونحو ذلك مما يحدث اللَّه عنده الفرك والنشوز والخلاف «1» ابتلاء منه ، لا أنّ السحر له في نفسه بدليل قوله تعالى : وَما هُمْ بِضارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لأنه ربما أحدث اللَّه عنده فعلا من أفعاله وربما لم يحدث وَيَتَعَلَّمُونَ ما يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ لأنهم يقصدون به الشر . وفيه أن اجتنابه أصلح كتعلم الفلسفة التي لا يؤمن أن تجرّ إلى الغواية . ولقد علم هؤلاء اليهود أن من اشتراه أى استبدل ما تتلو الشياطين من كتاب اللَّه ما لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ من نصيب وَلَبِئْسَ ما شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أى باعوها . وقرأ الحسن : الشياطون . وعن بعض العرب : بستان فلان حوله بساتون . وقد ذكر وجهه فيما بعد . وقرأ الزهري (هاروت وماروت) بالرفع على : هما هاروت وماروت . وهما اسمان أعجميان بدليل منع الصرف ، ولو كانا من الهرت والمرت - وهو الكسر كما زعم بعضهم - لانصرفا . وقرأ طلحة (وما يعلمان) من أعلم ، وقرئ (بين المرء) بضم الميم وكسرها مع الهمز . والمرّ ، بالتشديد على تقدير التخفيف والوقف ، «2» كقولهم : فرج ، وإجراء الوصل مجرى الوقف . وقرأ الأعمش : وما هم بضارّى ، بطرح النون والإضافة إلى أحد والفصل بينهما بالظرف . فإن قلت : كيف يضاف إلى أحد وهو مجرور بمن ؟ قلت : جعل الجار جزءاً «3» من المجرور . فإن قلت : كيف أثبت لهم العلم أولا في قوله (وَلَقَدْ عَلِمُوا) على سبيل التوكيد القسمي ثم نفاه عنهم في قوله : (لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ) ؟ قلت :

معناه لو كانوا يعملون بعلمهم ، جعلهم حين لم يعملوا به كأنهم منسلخون عنه .

---

(1) . قوله «الفرك والنشوز» في الصحاح الفرك بالكسر البغض ولا يستعمل إلا بين الزوجين وقوله لا أن السحر الخ : مبنى على مذهب المعتزلة من أن السحر لا حقيقة له ولا تأثير له . وذهب أهل السنة إلى إثباته وإثبات تأثيره وإن كان تأثير كل شيء في غيره لا يكون إلا باذنه تعالى وهذا هو ظاهر الكتاب وظاهر السنة . (ع) [. . . . .]

(2) . قوله «على تقدير التخفيف والوقف» أى في لغة من وقف بالتضعيف (ع)

(3) . قوله «قلت جعل الجار جزءاً» ونظيره لا أبالك . (ع)

[سورة البقرة (2) : الآيات 103 إلى 105]

وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ (103) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا راعِنا وَقُولُوا انْظُرْنا وَاسْمَعُوا وَلِلْكافِرِينَ عَذابٌ أَلِيمٌ (104) ما يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (105)

وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا برسول اللَّه والقرآن وَاتَّقَوْا اللَّه فتركوا ما هم عليه من نبذ كتاب اللَّه واتباع كتب

الشياطين لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ وقرئ : لمثوبة ، كمشورة ومشورة لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ أنّ ثواب اللَّه خير مما هم فيه وقد علموا ، ولكنه جهلهم لترك العمل بالعلم .

فإن قلت : كيف أوثرت الجملة الاسمية على الفعلية في جواب لو ؟ قلت : لما في ذلك من الدلالة على ثبات المثوبة واستقرارها كما عدل عن النصب إلى الرفع في سلام عليكم لذلك ، فإن قلت :

فهلا قيل لمثوبة اللَّه خير ؟ قلت : لأنّ المعنى : لشيء من الثواب خير لهم . ويجوز أن يكون قوله (وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا) تمنيا «1» لإيمانهم على سبيل المجاز عن إرادة اللَّه إيمانهم واختيارهم له ، كأنه قيل وليتهم آمنوا : ، ثم ابتدئ لمثوبة من عند اللَّه خير . كان المسلمون يقولون لرسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم إذا ألقى عليهم شيئا من العلم : راعنا يا رسول اللَّه ، أى راقبنا وانتظرنا وتأن بنا حتى نفهمه وتحفظه . وكانت لليهود كلمة يتسابون بها عبرانية أو سريانية وهي «راعينا» فلما سمعوا بقول المؤمنين : راعنا ، افترصوه وخاطبوا به الرسول صلى اللَّه عليه وسلم وهم يعنون به تلك المسبة ، فهي المؤمنون عنها وأُمروا بما هو في معناها وهو انْظُرْنا من نظره إذا انتظره . وقرأ أُبىّ : أنظرنا من النظرة ، أى أمهلنا حتى نحفظ وقرأ عبد اللَّه بن مسعود :

راعونا ، على أنهم كانوا يخاطبونه بلفظ الجمع للتوقير : وقرأ الحسن : راعنا ، بالتنوين من الرعن وهو الهوج ، أى لا تقولوا قولا راعنا منسوبا إلى الرعن بمعنى رعنيا ، كدارع ولابن

لأنه لما أشبه قولهم : راعينا ، وكان سببا في السب اتصف بالرعن وَاسْمَعُوا وأحسنوا سماع ما يكلمكم به رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم ويلقى عليكم من المسائل بآذان واعية وأذهان

---

(1) . قال محمود رحمه اللَّه : «ويجوز أن يكون قوله تعالى : (وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا) تمنيا . . . الخ» قال أحمد رحمه اللَّه :

التمني مجاز عن إرادة اللَّه تعالى لايمانهم وتقواهم من طراز تفسيره للعل بالارادة والرد عليه على سبيل ثم .

حاضرة ، حتى لا تحتاجوا إلى الاستعانة وطلب المراعاة ، أو واسمعوا سماع قبول وطاعة ، ولا يكن سماعكم مثل سماع اليهود حيث قالوا : سمعنا وعصينا ، أو واسمعوا ما أمرتم به بجدّ حتى لا ترجعوا إلى ما نهيتم عنه ، تأكيدا عليهم ترك تلك الكلمة . وروى أن سعد بن معاذ سمعها منهم فقال : يا أعداء اللَّه ، عليكم لعنة اللَّه ، والذي نفسي بيده لئن سمعتها من رجل منكم يقولها لرسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم لأضربن عنقه . فقالوا : أو لستم تقولونها « 1 » فنزلت . وَلِلْكافِرِينَ ولليهود الذين تهاونوا برسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم

وسبوه عَذابٌ أَلِيمٌ من الأولى للبيان لأنّ الذين كفروا جنس تحته نوعان : أهل الكتاب ، والمشركون كقوله تعالى : (لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ وَالْمُشْرِكِينَ) والثانية مزيدة لاستغراق الخير ، والثالثة لابتداء الغاية .

والخير الوحى ، وكذلك الرحمة كقوله تعالى : (أَ هُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ) والمعنى : أنهم يرون أنفسهم أحق بأن يوحى إليهم فيحسدونكم وما يحبون أن ينزل عليكم شيء من الوحى واللَّه يختص بالنبوّة مَنْ يَشاءُ ولا يشاء إلا ما تقتضيه الحكمة وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ إشعار بأنّ إيتاء النبوّة من الفضل العظيم كقوله تعالى : (إِنَّ فَضْلَهُ كانَ عَلَيْكَ كَبِيراً) . انتهى انتهى . اهـ ﴿الكشاف حـ 1 صـ 172. 175﴾

---

(1) . أخرجه أبو نعيم في الدلائل من رواية محمد بن مروان السدى عن الكلبي عن أبى صالح عن ابن عباس . في قوله تعالى : (لا تَقُولُوا راعِنا) قال «راعنا» بلسان اليهود السب القبيح – فكانت اليهود تقولها لرسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم سراً . فلما سمعها أصحابه أعلنوا بها . فكانوا يقولونها ويضحكون منها : فسمعها سعد بن معاذ منهم . قال فذكره . والسدى هذا الصغير متروك . وكذا شيخه .

قوله تعالى ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (106) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما حرم سبحانه قوله ﴿ راعنا ﴾ بعد حله وكان ذلك من باب النسخ وأنهى ما يتعلق به بالوصف بالفضل العظيم بعد التخصيص الذي من مقتضاه نقل ما يكون من المنافع من ملك أو دين أو قوة أو علم من ناس إلى ناس ، وكان اليهود يرون أن دينهم لا ينسخ ، فكان النسخ لذلك من مطاعنهم في هذا الدين وفي كون هذا الكتاب هدى للمتقين ، لأنه على زعمهم لا يجوز على الله ، قالوا : لأنه يلزم منه البدا – أي بفتح الموحدة مقصوراً – وهو أن يبدو الشيء أي يظهر بعد أن لم يكن ، وذلك لا يجوز على الله تعالى ، هذا مع أن النسخ في كتابهم الذي بين أظهرهم ، فإن فيه أنه تعالى أمرهم بالدخول إلى بيت المقدس بعد مقاتلة الجبارين ، فلما أبوا حرم عليهم دخولها ومنعهم منه ومن القتال بالقدرة والأمر ، كما ستراه عن نص التوراة في سورة المائدة إن شاء الله تعالى ، وأمرهم بالجمعة فاختلفوا فيه ، كما قاله النبي صلى الله عليه وسلم ويأتي في قوله تعالى : ﴿ إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه ﴾ [النحل : 124] واختاروا السبت ، ففرض عليهم وشدد عليهم فيه وأحل لهم جميع اللحوم والشحوم ، لما اتخذوا العجل حرم عليهم الشحوم ؛ وأعظم من ذلك تعاطيهم من

النسخ ما لم يأذن به الله في تحريفهم الكلم عن مواضعه ، وتحريم الأحبار والرهبان وتحليلهم لهم ما شاؤوا من الأحكام التي تقدم عد جملة منها أصولاً وفروعاً ، كما قال تعالى : ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ﴾ [التوبة : 31] ، ولما قال عدي بن حاتم للنبي صلى الله عليه وسلم : " يا رسول الله ! إنهم لم يكونوا يعبدونهم ، قال : أليسوا يحلون لهم ويحرمون ؟ قال : بلى ، قال : فتلك عبادتهم لهم " كما هو مبين في السيرة في وفادة عدي ؛ وكما فعلوا في إبدال الرجم في الزنا بالتحميم والجلد ؛ وفي اتباع ما تتلو الشياطين مع أن فيه إبطال كثير من شرعهم ؛ وفي نبذ فريق منهم كتاب الله ؛ وفي قولهم : ﴿ سمعنا وعصينا ﴾ [البقرة : 93] ، وفي اتخاذهم

العجل مع النهي عن ذلك – وكل ما شاكله في كثير من فصول التوراة وفيما أشير إليه بقوله : ﴿ أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ﴾ [البقرة : 85] إلى غير ذلك ، لما كان ذلك قال تعالى جواباً عن طعنهم سابقاً له في مظهر العظمة معلماً أنه قد ألبس العرب المحسودين ما كان قد زين به أهل الكتاب دهوراً فابتذلوه ودنسوا محياه ورذلوه وغيروه وبدّلوه إشارة إلى أن الحسد لكونه اعتراضاً على المنعم يكون سبباً لإلباس المحسود ثوب

الحاسد :

﴿ ما ننسخ ﴾ والنسخ قال الحرالي : نقل بادٍ من أثر أو كتاب ونحوه من محله بمعاقب يذهبه .

أو باقتباس يغني عن غيبته وهو وارد الظهور في المعنيين في موارد الخطاب ؛ والمعاقبة في هذا أظهر – انتهى .

وساقها بغير عطف لشدة التباسها بما قبلها لاختصاصنا لأجل التمشية على حسب المصالح بالفضل والرحمة ، لأنه إن كان المراد نسخ جميع الشرائع الماضية بكتابنا فلما فيه من التشريف بالانفراد بالذكر وعدم التبعية والتخفيف للأحمال التي كانت ، وإن كان المراد نسخ ما شرع لنا فللنظر في المصالح الدنيوية والأخروية بحسب ما حدث من الأسباب ﴿ من آية ﴾ أي فنرفع حكمها ، أو تلاوتها بعد إنزالها ، أو نأمر بذلك على أنها من النسخ على قراءة ابن عامر ، سواء كانت في شرع من قبل كاستقبال بيت المقدس أو لم تكن ؛ وفي صيغة نفعل إشعار بأن من تقدم ربما نسخ عنهم ما لم يعوضوا به مثلاً ولا خيراً ، ففي طيه ترغيب للذين آمنوا في كتابهم الخاص بهم وأن يكون لهم عند النسخ حسن قبول فرحاً بجديد أو اغتباطاً بما هو خير من المنسوخ ، ليكون حالهم عند تناسخ الآيات مقابل حال الآيين من قبوله المستمسكين بالسابق المتقاصرين عن خير لاحق وجدّته – قاله الحرالي :

﴿ أو ننسأها ﴾ أي نؤخرها ، أي نترك إنزالها عليكم أصلاً ، وكذا معنى ﴿ أو نُنسها ﴾

من أنسى في قراءة غير ابن كثير وأبي عمرو ، أي نأمر بترك إنزالها ﴿ نأت بخير منها أو مثلها ﴾ كما فعلنا في ﴿ راعنا ﴾ وغيرها .

(70/62)

أو يكون المعنى ﴿ ما ننسخ من آية ﴾ فنزيل حكمها أو لفظها عاجلاً كما فعلنا في ﴿ راعنا ﴾ أو ﴿ ننسأها ﴾ بأن نؤخر نسخها أو نتركه – على قراءة ﴿ ننسها ﴾ زمناً ثم ننسخها كالقبلة ﴿ نأت ﴾ عند نسخها ﴿ بخير منها أو مثلها ﴾ ، وقال الحرالي : وهو الحق إن شاء الله تعالى .

والنسء تأخير عن وقت إلى وقت ، ففيه مدار بين السابق واللاحق بخلاف النسخ ، لأن النسخ معقب للسابق والنسء مداول للمؤخر ، وهو نمط من الخطاب عليٌ خفي المنحى ، لم يكد يتضح معناه لأكثر العلماء إلا للأئمة من آل محمد صلى الله عليه وسلم لخفاء الفرقان بين ما شأنه المعاقبة وما شأنه المداولة .

ومن أمثاله ما وقع في النسء من نهي النبي صلى الله عليه وسلم عن لحوم الأضاحي فتقبله الذين آمنوا نسخاً ، وإنما كان إنساء وتأخيراً لحكم الاستمتاع بها بعد ثلاث إلى وقت زوال الدافّة التي كانت دفت عليهم من البوادي ، فلم يلقن ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم

حتى فسره فقال : "إنما نهيتكم من أجل الدافة" ، ففي متسع فقهه أن أحكاماً تؤخر فتشابه النسخ من وجه ثم تعاد فتخالفه من هذا الوجه من حيث إن حكمة المنسوخ منقطعة وحكمة المنَسء متراجعة .

ومنه المقاتلة للعدو عند وجدان المنة والقوة والمهادنة عند الضعف عن المقاومة هو من أحكام المنسء ، وكل ما شأنه أن يمتنع في وقت لمعنى مّا ثم يعود في وقت لزوال ذلك المعنى فهو من المنَسء الذي أهمل علمه أكثر الناظرين وربما أضافوا أكثره إلى نمط النسخ لخفاء الفرقان بينهما ؛ فبحق أن هذه الآية من جوامع آي الفرقان ، فهذا حكم النسء والإنساء وهو في العلم بمنزلة تعاقب الفصول بما اشتملت عليه من الأشياء المتعاقبة في وجه المتداولة في الجملة .

قلت : وحاصله تأخير الحل كما ذكر أو الحرمة كما في المتعة ونحو ذلك إلى وقت آخر وذلك هو مدلول النسء على ما كانت العرب تتعارفه كما سيأتي تحريره في سورة براءة عند ﴿ إنما النسيء زيادة في الكفر ﴾ [التوبة : 37] قال : وأما النسيان والتنسية فمعناه أخفى من النسيء وهو ما يظهره الله من البيانات على سبيل إدخال النسيان على من ليس

شأنه أن ينسء كالسنن التي أبداها النبي صلى الله عليه وسلم عن تنسيته كما ورد من قوله : إني لأُنسَّى لأسُنَّ .

وقال عليه الصلاة والسلام في إفصاح القول فيه : " بئسما لأحدكم أن يقول : نسيت ، بل هو نُسي " ومنه قيامه من اثنتين وسلامه من اثنتين حتى أظهر الله سنة ذلك لأمته ، وكانت تلك الصلاة بسهوها ليست بدونها من غير سهو بل هي مثلها أو خير ؛ ومن نحوه منامه عن الصلاة حتى أظهر الله توقيت الصلاة بالذكر كما كان قد أظهرها بالوقت الزماني ، فصار لها وقتان : وقت نور عياني من مدارها مع الشمس ، ووقت نور وجداني من مدارها مع الذكر ، ولصحة وقوعها للوقتين كانت الموقتة بالذكر أداء بحسبه ، قضاء بحسب فوت الوقت الزماني ؛ فللّه تعالى على هذه الأمة فضل عظيم فيما يكمل لها على طريق النسخ وعلى سبيل النسء وعلى جهة النسيان الذي ليس عن تراخ ولا إهمال وإنما يوقعه إجباراً مع إجماع العزم ، وفي كل ذلك إنباء بأن ما وقع من الأمر بعد هذا النسيان خير من موقع ذلك الأمر الذي كان يقع على إجماع ورعاية لتستوي أحوال هذه الأمة في جميع تقلبات أنفسها ، كل ذلك من اختصاص رحمته وفضله العظيم – انتهى .

واستدل سبحانه على إتيانه بذلك بقدرته ، والقدرة الشاملة التامة مستلزمة للعلم أي وليس هو كغيره من الملوك إذا أمر بشيء خاف غائلة أتباعه ورعاياه في نقضه ، واستدل على القدرة بأن له جميع الملك وأنه ليس لأحد معه أمر ، وحاصل ذلك أنه لما ذكر سبحانه هذا الكتاب وأكد أمره مراراً وكان ناسخاً لفروع شريعتهم ولا سيما ما فيها من الآصار والأغلال أشار سبحانه إلى أن من أعظم ضلالهم وغيهم ومحالهم ، ادعاؤهم أن النسخ لا يجوز على الله ، فمنعوا من ﴿ لا يسأل عما يفعل ﴾ [الأنبياء : 23] مما هو موجود في كتابهم كما أمر آنفاً ، ومما سوغوه لأنفسهم بالتحريف والتبديل ، ولزم من ذلك تكذيب كل رسول أتاهم بما لا تهوى أنفسهم ، وفعلوا خلاف حال المؤمنين المصدقين بما أنزل إلى نبيهم وما أنزل إلى غيره ، وضمن ذلك عيبهم بالقدح في الدين بالأمر بالشيء اليوم والنهي عنه غداً ، وأنه لو كان من عند الله لما تغير لأنه عالم بالعواقب ، ولا يخلو إما أن يعلم أن الأمر بذلك الشيء مصلحة فلا ينهى عنه بعدُ ، أو مفسدة فلا يأمر به اليوم ، جوابهم عن ذلك معرضاً عن خطابهم تعريضاً بغباوتهم إلى خطاب أعلم الخلق بقوله : ﴿ ألم تعلم أن الله ﴾ أي الحائز لجميع أوصاف الكمال ﴿ على كل شيء قدير ﴾ على وجه الاستفهام المتضمن للإنكار والتقرير المشار فيه للتوعد والتهديد ، فيخلق بقدرته من الأسباب ما يصير الشيء في وقت مصلحة وفي وقت آخر مفسدة لحكم ومصالح دبرها لتصرم هذا العالم .

ويقضي هذا الكون بشمول علمه بكل ما تقدم وما تأخر .

ولو أراد لجعل الأمر على سنن واحد والناس على قلب رجل واحد ﴿ ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً ﴾ [يونس : 99] ﴿ لجعل الناس أمة واحدة ﴾ [هود : 118] ولكنه مالك الملك وملك السماوات والأرض ، يتصرف على حسب ما يريد ، لا راد لأمره ولا معقب لحكمه ، ولا يسوغ الاعتراض عليه بوجه ، وهل يجوز أن يعترض العبد الذي لا ينفك أصلاً من الرق على السيد الثابت السودد على أنه لا يلزمه شيء أصلاً فلا يلزمه الأمر على حسب المصالح . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 213. 217 ﴾

وقال الفخر :

اعلم أن هذا هو النوع الثاني من طعن اليهود في الإسلام ، فقالوا : ألا ترون إلى محمد يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه ويأمرهم بخلافه ، ويقول اليوم قولاً وغداً يرجع عنه ، فنزلت هذه الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 204. 205 ﴾

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات :

﴿ ما ننسخ ﴾ بضم النون وكسر السين : ابن ذكوان ﴿ ننسأها ﴾ مهموزاً : ابن كثير وأبو عمرو غير أوقية ، وروى أوقية بغير همز ، الباقون : ننسها من الإنساء ﴿ نأت بخير ﴾ بغير همز : أبو عمرو غير إبراهيم بن حماد ويزيد والأعشى وورش وحمزة في الوقف ، الباقون وإبراهيم بن حماد بالهمزة لأنه جواب الشرط ، ومن شرطه أن يهمز كل ما كان نسقاً أي عطفاً على المجزوم أو جواباً للمجزوم كل القرآن مثل قوله عز وجل ﴿ إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم ﴾ وقوله ﴿ ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ﴾ وأشباه ذلك ﴿ فقد ضل ﴾ بالإظهار : حجازي غير ورش وعاصم غير الأعشى ، وكذلك يظهرون الدال عند الذال والظاء حيث وقعتا مثل قوله تعالى : ﴿ فقد ظلم ﴾ ﴿ ولقد ذرأنا ﴾ وأشباه ذلك .

الوقوف : ﴿ واسمعوا ﴾ (ط) ﴿ أليم ﴾ (5) ﴿ من ربكم ﴾ (ط) ﴿ من يشاء ﴾ (ط) ﴿ العظيم ﴾ (5) ﴿ أو مثلها ﴾ (ط) ﴿ قدير ﴾ (5) ﴿ والأرض ﴾ (ط) ﴿ ولا نصير ﴾ (5) ربع الجزء ﴿ ومن قبل ﴾ (ط) ﴿ السبيل ﴾ (5) . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 1 صـ 353 ﴾

وقال الفخر :

قرأ ابن عامر : (ما ننسخ) بضم النون وكسر السين والباقون بفتحهما ، أما قراءة ابن عامر ففيها وجهان .

أحدهما : أن يكون نسخ وأنسخ بمعنى واحد .

والثاني : أنسخته جعلته ذا نسخ كما قال قوم للحجاج وقد صلب رجلاً .

(75/62)

أقبروا فلاناً ، أي اجعلوه ذا قبر ، قال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴾ [عبس : 21] ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو : (ننسأها) بفتح النون والهمزة وهو جزم بالشرط ولا يدع أبو عمرو الهمزة في مثل هذا ، لأن سكونها علامة للجزم وهو من النسء وهو التأخير .

ومنه : ﴿ إِنَّمَا النسىء زِيَادَةٌ فِى الكفر ﴾ [التوبة : 37] ومنه سمي بيع الأجل نسيئة ، وقال أهل اللغة : أنسأ الله أجله ونسأ في أجله ، أي أخر وزاد ، وقال عليه الصلاة والسلام : " من سره النسء في الأجل والزيادة في الرزق فليصل رحمه " والباقون بضم النون وكسر السين وهو من النسيان ، ثم الأكثرون حملوه على النسيان الذي هو ضد الذكر ، ومنهم من حمل النسيان على الترك على حد قوله تعالى : ﴿ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً ﴾ [طه : 155] أي فترك وقال : ﴿ فاليوم ننساهم كَمَا نَسُواْ لِقَاء يَوْمِهِمْ هذا ﴾ [الأعراف : 51

] أي نتركهم كما تركوا ، والأظهر أن حمل النسيان على الترك مجاز ، لأن المنسي يكون متروكاً ، فلما كان الترك من لوازم النسيان أطلقوا اسم الملزوم على اللازم وقرىء ننسها وننسها بالتشديد ، وتنسها وتنسها على خطاب الرسول ، وقرأ عبد الله : ما ننسك من آية أو ننسخها ، وقرأ حذيفة : ما ننسخ من آية أو ننسكها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 205 ﴾

(76/62)

فصل

قال الفخر :

النسخ في أصل اللغة بمعنى إبطال الشيء ، وقال القفال : إنه للنقل والتحويل لنا أنه يقال : نسخت الريح آثار القوم إذا عدمت ، ونسخت الشمس الظل إذا عدم ، لأنه قد لا يحصل الظل في مكان آخر حتى يظن أنه انتقل إليه ، وقال تعالى : ﴿ إِلاَّ إِذَا تمنى أَلْقَى الشيطان فِى أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ الله مَا يُلْقِى الشيطان ﴾ [الحج : 52] أي يزيله ويبطله ، والأصل في الكلام الحقيقة .

وإذا ثبت كون اللفظ حقيقة في الإبطال وجب أن لا يكون حقيقة في النقل دفعاً للاشتراك .

فإن قيل : وصفهم الريح بأنها ناسخة للآثار ، والشمس بأنها ناسخة للظل مجاز ، لأن المزيل للآثار والظل هو الله تعالى ، وإذا كان ذلك مجازاً امتنع الاستدلال به على كون اللفظ حقيقة في مدلوله ثم نعارض ما ذكرتموه ونقول : بل النسخ هو النقل والتحويل ومنه نسخ الكتاب إلى كتاب آخر كأنه ينقله إليه أو ينقل حكايته ، ومنه تناسخ الأرواح وتناسخ القرون قرناً بعد قرن ، وتناسخ المواريث إنما هو التحول من واحد إلى آخر بدلاً عن الأول ، وقال تعالى : ﴿ هذا كتابنا يَنطِقُ عَلَيْكُم بالحق إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الجاثية : 29] فوجب أن يكون اللفظ حقيقة في النقل ويلزم أن لا يكون حقيقة في الإبطال دفعاً للاشتراك ، والجواب عن الأول من وجهين .

أحدهما : أنه لا يمتنع أن يكون الله هو الناسخ لذلك من حيث إنه فعل الشمس والريح المؤثرتين في تلك الإزالة ويكونان أيضاً ناسخين لكونهما مختصين بذلك التأثير .

والثاني : أن أهل اللغة إنما أخطأوا في إضافة النسخ إلى الشمس والريح ، فهب أنه كذلك ، لكن متمسكنا إطلاقهم لفظ النسخ على الإزالة لاسنادهم هذا الفعل إلى الريح والشمس ، وعن الثاني : أن النقل أخص من الإبطال لأنه حيث وجد النقل فقد عدمت صفة وحصل عقيبها صفة أخرى ، فإن مطلق العدم أهم من عدم يحصل عقيبه شيء آخر ، وإذا دار اللفظ بين الخاص والعام كان جعله حقيقة في العام أولى . والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 205 ﴾

وقال صاحب الفتوحات :

النسخ في اللغة الإزالة والنقل . يقال : نسخت الريح الأثر أي أزالته ، ونسخت الكتاب أي نقلته .

ونسخ الآية : بيان انتهاء التعبد بقراءتها أو بالحكم المستفاد منها أو بهما معاً .أهـ ﴾ الفتوحات الإلهية حـ 1 صـ 147 ﴿

(77/62)

فائدة

قال الفخر :

" ما " في هذه الآية جزائية كقولك : ما تصنع أصنع وعملها الجزم في الشرط والجزاء إذا كانا مضارعين فقوله : (ننسخ) شرط وقوله : (نأت) جزاء وكلاهما مجزومان . انتهى انتهى . اهـ ﴾ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 206 ﴿

فصل

قال الفخر :

اعلم أن التناسخ في اصطلاح العلماء عبارة عن طريق شرعي يدل على أن الحكم الذي

كان ثابتاً بطريق شرعي لا يوجد بعد ذلك مع تراخيه عنه على وجه لولاه لكان ثابتاً ، فقولنا : طريق شرعي نعني به القدر المشترك بين القول الصادر عن الله تعالى وعن رسوله ، والفعل المنقول عنهما ، ويخرج عنه إجماع الأمة على أحد القولين ، لأن ذلك ليس بطريق شرعي على هذا التفسير ، ولا يلزم أن يكون الشرع ناسخاً لحكم العقل ، لأن العقل ليس طريقاً شرعياً .

ولا يلزم أن يكون المعجز ناسخاً للحكم الشرعي لأن المعجز ليس طريقاً شرعياً ولا يلزم تقيد الحكم بغاية أو شرط أو استثناء ، لأن ذلك غير متراخ ، ولا يلزم ما إذا أمرنا الله بفعل واحد ثم نهانا عن مثله لأنه لو لم يكن مثل هذا النهي ناسخاً لم يكن مثل حكم الأمر ثابتاً .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 206 ﴾

فائدة

قال البغوى :

روي عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف : أن قوما من الصحابة رضي الله عنهم قاموا ليلة ليقرءوا سورة فلم يذكروا منها إلا بسم الله الرحمن الرحيم فغدوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبروه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " تلك سورة رفعت تلاوتها وأحكامها " (2) وقيل : كانت سورة الأحزاب مثل سورة البقرة ، فرفع أكثرها تلاوة وحكما ، ثم من نسخ الحكم ما يرفع ويقام غيره مقامه ، كما أن القبلة نسخت من بيت

المقدس إلى الكعبة ، والوصية للأقارب نسخت بالميراث وعدة الوفاة نسخت من الحول إلى أربعة أشهر وعشر ، ومصابرة الواحد العشر في القتال نسخت بمصابرة الإثنين ، ومنها ما يرفع ولا يقام غيره مقامه ، كامتحان النساء . والنسخ إنما يعترض على الأوامر والنواهي دون الأخبار . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير البغوى حـ 1 صـ 134 ﴾

---

(2) عزاه ابن كثير للطبراني بسنده عن سالم عن أبيه وقال : سليمان بن الأرقم ضعيف . وقال : وقد روى أبو بكر الأنباري عن أبي أمامة مثله مرفوعا : التفسير 1 / 151 طبع بيروت ، وحديث أبي أمامة فيه عبد الله بن صالح كاتب الليث ، وهو ضعيف . وعن عمر قال : قرأ رجلان من الأنصار سورة أقرأهما رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانا يقرآن بها ، فقاما يقرآن ذات ليلة يصليان فلم يقدرا منها على حرف فأصبحا غاديين على رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرا ذلك له فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنها مما نسخ أو نسي فألهوا عنها فكان الزهري يقرؤها (ما ننسخ من آية أو ننسها) بضم النون خفيفة . رواه الطبراني وفيه سليمان بن أرقم وهو متروك (المجمع : 6 / 315) . وأخرج حديث أبي أمامة بن سهل الواحدي أيضا في التفسير : 1 / 172 ، وانظر : أسباب

النزول للواحدي ص32

فصل

قال الفخر :

النسخ عندنا جائز عقلاً واقع سمعاً خلافاً لليهود ، فإن منهم من أنكره عقلاً ومنهم من جوزه عقلاً ، لكنه منع منه سمعاً ، ويروى عن بعض المسلمين إنكار النسخ ، واحتج الجمهور من المسلمين على جواز النسخ ووقوعه ، لأن الدلائل دلت على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ونبوته لا تصح إلا مع القول بنسخ شرع من قبله ، فوجب القطع بالنسخ ، وأيضاً قلنا : على اليهود إلزامان .

الأول : جاء في التوراة أن الله تعالى قال لنوح عليه السلام عند خروجه من الفلك : " إني جعلت كل دابة مأكلاً لك ولذريتك وأطلقت ذلك لكم كنبات العشب ما خلا الدم فلا تأكلوه " ، ثم إنه تعالى حرم على موسى وعلى بني إسرائيل كثيراً من الحيوان ، الثاني : كان آدم عليه السلام يزوج الأخت من الأخ وقد حرمه بعد ذلك على موسى عليه السلام .

قال منكرو النسخ : لا نسلم أن نبوة محمد عليه الصلاة والسلام لا تصح إلا مع القول بالنسخ لأن من الجائز أن يقال : إن موسى وعيسى عليهما السلام أمر الناس بشرعهما إلى زمان ظهور شرع محمد عليه الصلاة والسلام ، ثم بعد ذلك أمر الناس باتباع محمد عليه الصلاة والسلام فعند ظهور شرع محمد عليه الصلاة والسلام زال التكليف بشرعهما وحصل التكليف بشرع محمد عليه الصلاة والسلام ، لكنه لا يكون ذلك نسخاً ، بل جارياً مجرى قوله : ﴿ ثُمَّ أَتِمُّوا الصيام إِلَى الليل ﴾ [البقرة : 187] والمسلمون الذين أنكروا وقوع النسخ أصلاً بنوا مذهبهم على هذا الحرف وقالوا : قد ثبت في القرآن أن موسى وعيسى عليهما السلام قد بشرا في التوراة والإنجيل بمبعث محمد عليه الصلاة والسلام ، وأن عند ظهوره يجب الرجوع إلى شرعه ، وإذا كان الأمر كذلك فمع قيام هذا الاحتمال امتنع الجزم بوقوع النسخ وهذا هو الاعتراض على الإلزامين المذكورين ، واحتج منكروا النسخ بأن قالوا : إن الله تعالى لما بين شرع عيسى عليه السلام ، فاللفظ الدال على تلك الشريعة ، إما أن يقال : إنها دالة على دوامها أو لا على دوامها أو ما كان فيها دلالة على الدوام ولا على اللادوام ، فإن بين فيها ثبوتها على الدوام ، ثم تبين أنها ما دامت كان الخبر الأول كذباً وإنه غير جائز على الشرع ، وأيضاً ، فلو جوزنا ذلك لم يكن لنا طريق إلى العلم بأن شرعنا لا يصير منسوخاً ، لأن أقصى ما في الباب أن يقول الشرع : هذه الشريعة دائمة ولا تصير منسوخة قط ألبتة ، ولكنا إذا رأينا مثل هذا الكلام حاصلاً في شرع موسى وعيسى

عليهما السلام مع أنهما لم يدوما زال الوثوق عنه في كل الصور .

فإن قيل : لم لا يجوز أن يقال : ذكر اللفظ الدال على الدوام ، ثم قرن به ما يدل على أنه سينسخه أو ما قرن به إلا أنه نص على ذلك إلا أنه لم ينقل إلينا في الجملة ؟ قلنا : هذا ضعيف لوجوه .

أحدها : أن التنصيص على اللفظ الدال على الدوام مع التنصيص على أنه لا يدوم جمع بين كلامين متناقضين ، وإنه سفه وعبث ، وثانيها : على هذا التقدير قد بين الله تعالى أن شرعهما سيصير منسوخاً ، فإذا نقل شرعه وجب أن ينقل هذه الكيفية أيضاً ، لأنه لو جاز أن ينقل أصل الشرع بدون هذه الكيفية لجاز مثله في شرعنا أيضاً ، وحينئذ لا يكون لنا طريق إلى القطع بأن شرعنا غير منسوخ لأن ذلك من الوقائع العظيمة التي تتوفر فيها الدواعي على نقله ، وما كان كذلك وجب اشتهاره وبلوغه إلى حد التواتر ، وإلا فلعل القرآن عورض ، ولم تنقل معارضته ولعل محمداً صلى الله عليه وسلم غير هذا الشرع عن هذا الوضع ولم ينقل ، وإذا ثبت وجوب أن تنقل هذه الكيفية على سبيل التواتر فنقول : لو أن الله تعالى نص في زمان موسى وعيسى عليهما السلام على أن شرعيهما سيصيران

منسوخين لكان ذلك مشهوراً لأهل التواتر ، ومعلوماً لهم بالضرورة ، ولو كان كذلك لاستحال منازعة الجمع العظيم فيه ، فحيث رأينا اليهود والنصارى مطبقين على إنكار ذلك علمنا أنه لم يوجد التنصيص على أن شرعيهما يصيران منسوخين .

وأما القسم الثاني : وهو أن يقال : إن الله تعالى نص على شرع موسى عليه السلام وقرن به ما يدل به على أنه منقطع غير دائم .

فهذا باطل لما ثبت أنه لو كان كذلك لوجب أن يكون ذلك معلوماً بالضرورة لأهل التواتر ، وأيضاً فبتقدير صحته لا يكون ذلك نسخاً ، بل يكون ذلك انتهاء للغاية .

وأما القسم الثالث : وهو أنه تعالى نص على شرع موسى عليه السلام ولم يبين فيه كونه دائماً أو كونه غير دائم فنقول : قد ثبت في أصول الفقه أن مجرد الأمر لا يفيد التكرار وإنما يفيد المرة الواحدة ، فإذا أتى المكلف بالمرة الواحدة فقد خرج عن عهدة الأمر ، فورود أمر آخر بعد ذلك لا يكون نسخاً للأمر الأول ، فثبت بهذا التقسيم أن القول بالنسخ محال .

(81/62)

واعلم أنا بعد أن قررنا هذه الجملة في كتاب المحصول في أصول الفقه تمسكنا في وقوع النسخ بقوله تعالى : ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ﴾ ، والاستدلال به

أيضاً ضعيف ، لأن " ما " ههنا تفيد الشرط والجزاء ، وكما أن قولك : من جاءك فأكرمه لا يدل على حصول المجيء ، بل على أنه متى جاء وجب الإكرام ، فكذا هذه الآية لا تدل على حصول النسخ ، بل على أنه متى حصل النسخ وجب أن يأتي بما هو خير منه ، فالأقوى أن نعول في الإثبات على قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ﴾ [النحل : 101] وقوله : ﴿ يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الكتاب ﴾ [الرعد : 39] . والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 206 . 207 ﴾

فصل

قال الفخر :

اتفقوا على وقوع النسخ في القرآن ، وقال أبو مسلم بن بحر : إنه لم يقع ، واحتج الجمهور على وقوعه في القرآن بوجوه .

أحدها : هذه الآية وهي قوله تعالى : ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ﴾ ، أجاب أبو مسلم عنه بوجوه .

الأول : أن المراد من الآيات المنسوخة هي الشرائع التي في الكتب القديمة من التوراة والإنجيل ، كالسبت والصلاة إلى المشرق والمغرب مما وضعه الله تعالى عنا وتعبدنا بغيره ، فإن اليهود والنصارى كانوا يقولون : لا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم ، فأبطل الله عليهم ذلك بهذه الآية ،

الوجه الثاني : المراد من النسخ نقله من اللوح المحفوظ وتحويله عنه إلى سائر الكتب وهو كما يقال نسخت الكتاب .

(82/62)

الوجه الثالث : أنا بينا أن هذه الآية لا تدل على وقوع النسخ ، بل على أنه لو وقع النسخ لوقع إلى خير منه ، ومن الناس من أجاب عن الاعتراض الأول بأن الآيات إذا أطلقت فالمراد بها آيات القرآن لأنه هو المعهود عندنا ، وعن الثاني : بأن نقل القرآن من اللوح المحفوظ لا يختص ببعض القرآن وهذا النسخ مختص ببعضه ، ولقائل أن يقول على الأول : لا نسلم أن لفظ الآية مختص بالقرآن ، بل هو عام في جميع الدلائل ، وعلى الثاني : لا نسلم أن النسخ المذكور في الآية مختص ببعض القرآن ، بل التقدير والله أعلم ما ننسخ من اللوح المحفوظ فإنا نأتي بعده بما هو خير منه .

الحجة الثانية للقائلين بوقوع النسخ في القرآن : أن الله تعالى أمر المتوفى عنها زوجها بالاعتداد حولاً كاملاً وذلك في قوله : ﴿ والذين يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أزواجا وَصِيَّةً لأَزْوَاجِهِم متاعا إِلَى الحول ﴾ [البقرة : 240] ثم نسخ ذلك بأربعة أشهر وعشر كما قال : ﴿ والذين يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أزواجا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴾ [البقرة

: 234] قال أبو مسلم : الاعتداد بالحول ما زال بالكلية لأنها لو كانت حاملاً ومدة حملها حول كامل لكانت عدتها حولاً كاملاً ، وإذا بقي هذا الحكم في بعض الصور كان ذلك تخصيصاً لا ناسخاً ، والجواب : أن مدة عدة الحمل تنقضي بوضع الحمل سواء حصل وضع الحمل بسنة أو أقل أو أكثر فجعل السنة العدة يكون زائلاً بالكلية .

الحجة الثالثة : أمر الله بتقديم الصدقة بين يدي نجوى الرسول بقوله تعالى : ﴿ يا أَيُّهَا الذين ءامَنُواْ إِذَا ناجيتم الرسول فَقَدّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نجواكم صَدَقَةً ﴾ [المجادلة : 12] ثم نسخ ذلك ، قال أبو مسلم : إنما زال ذلك لزوال سببه لأن سبب التعبد بها أن يمتاز المنافقون من حيث لا يتصدقون عن المؤمنين ، فلما حصل هذا الغرض سقط التعبد .

والجواب : لو كان كذلك لكان من لم يتصدق منافقاً وهو باطل لأنه روي أنه لم يتصدق غير علي رضي الله عنه ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ فَإِذَ لَمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ الله عَلَيْكُمْ ﴾ [المجادلة : 13] .

الحجة الرابعة : أنه تعالى أمر بثبات الواحد للعشرة بقوله تعالى : ﴿ إِن يَكُن مّنكُمْ عِشْرُونَ صابرون يَغْلِبُواْ مِائَتَيْنِ ﴾ ثم نسخ ذلك بقوله تعالى : ﴿ الئان خَفَّفَ الله عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ

فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِن يَكُن مِّنكُمْ مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِائَتَيْنِ ﴾ [الأنفال : 65 66] .

الحجة الخامسة : قوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ السفهاء مِنَ الناس مَا ولاهم عَن قِبْلَتِهِمُ التى كَانُواْ عَلَيْهَا ﴾ [البقرة : 142] ثم إنه تعالى أزالهم عنها بقوله : ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المسجد الحرام ﴾ [البقرة : 144] .

قال أبو مسلم : حكم تلك القبلة ما زال بالكلية لجواز التوجه إليها عند الإشكال أو مع العلم إذا كان هناك عذر .

الجواب : أن على ما ذكرته لا فرق بين بيت المقدس وسائر الجهات ، فالخصوصية التي بها امتاز بيت المقدس عن سائر الجهات قد زالت بالكلية فكان نسخاً .

الحجة السادسة : قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءايَةً مَّكَانَ ءايَةٍ والله أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُواْ إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ ﴾ [النحل : 101] والتبديل يشتمل على رفع وإثبات ، والمرفوع إما التلاوة وإما الحكم ، فكيف كان فهو رفع ونسخ ، وإنما أطنبنا في هذه الدلائل لأن كل واحد منها يدل على وقوع النسخ في الجملة واحتج أبو مسلم بأن الله تعالى وصف كتابه بأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فلو نسخ لكان قد أتاه الباطل .

والجواب : أن المراد أن هذا الكتاب لم يتقدمه من كتب الله ما يبطله ولا يأتيه من بعده أيضاً ما يبطله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 207 . 208 ﴾

فصل

قال الفخر :

(84/62)

المنسوخ إما أن يكون هو الحكم فقط أو التلاوة فقط أو هما معاً ، أما الذي يكون المنسوخ هو الحكم دون التلاوة فكهذه الآيات التي عددناها ، وأما الذي يكون المنسوخ هو التلاوة فقط فكما يروى عن عمر أنه قال : كنا نقرأ آية الرجم : " الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما ألبتة نكالاً من الله والله عزيز حكيم" وروي : " لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى إليهما ثالثاً ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب" ، وأما الذي يكون منسوخ الحكم والتلاوة معاً ، فهو ما روت عائشة رضي الله عنها أن القرآن قد نزل في الرضاع بعشر معلومات ثم نسخن بخمس معلومات ، فالعشر مرفوع التلاوة والحكم جميعاً والخمس مرفوع التلاوة باقي الحكم .

ويروى أيضاً أن سورة الأحزاب كانت بمنزلة السبع الطوال أو أزيد ثم وقع النقصان فيه .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 208 . 209 ﴾

فصل

قال الفخر :

اختلف المفسرون في قوله تعالى : ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءايَةٍ أَوْ نُنسِهَا ﴾ فمنهم من فسر النسخ بالإزالة ومنهم من فسره بالنسخ بمعنى نسخت الكتاب وهو قول عطاء وسعيد بن المسيب ، ومن قال بالقول الأول ذكروا فيه وجوهاً ، أحدها : ما ننسخ من آية وأنتم تقرءونه أو ننسها أي من القرآن ما قرئ بينكم ثم نسيتم وهو قول الحسن والأصم وأكثر المتكلمين فحملوه على نسخ الحكم دون التلاوة ، وننسها على نسخ الحكم والتلاوة معاً ، فإن قيل : وقوع هذا النسيان ممنوع عقلاً وشرعاً .

أما العقل فلأن القرآن لا بد من إيصاله إلى أهل التواتر ، والنسيان على أهل التواتر بأجمعهم ممتنع .

وأما النقل فلقوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر وَإِنَّا لَهُ لحافظون ﴾ [الحجر : 9] والجواب عن الأول من وجهين .

الأول : أن النسيان يصح بأن يأمر الله تعالى بطرحه من القرآن وإخراجه من جملة ما يتلى ويؤتى به في الصلاة أو يحتج به ، فإذا زال حكم التعبد به وطال العهد نسي أو إن ذكر فعلى

طريق ما يذكر خبر الواحد فيصير لهذا الوجه منسياً عن الصدور ، الجواب الثاني : أن ذلك يكون معجزة للرسول عليه الصلاة والسلام ، ويروى فيه خبر : أنهم كانوا يقرأون السورة فيصبحون وقد نسوها ، والجواب عن الثاني : أنه معارض بقوله تعالى : ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تنسى إِلاَّ مَا شَاء الله ﴾ [الأعلى : 6] وبقوله : ﴿ واذكر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ [الكهف : 24] .

القول الثاني : ما ننسخ من آية أي نبدلها ، إما بأن نبدل حكمها فقط أو تلاوتها فقط أو نبدلهما ، أما قوله تعالى : ﴿ أَوْ نُنسِهَا ﴾ فالمراد نتركها كما كانت فلا نبدلها ، وقد بينا أن النسيان بمعنى الترك قد جاء ، فيصير حاصل الآية أن الذي نبدله فإنا نأتي بخير منه أو مثله .

القول الثالث : ما ننسخ من آية ، أي ما نرفعها بعد إنزالها أو ننسأها على قراءة الهمزة أي نؤخر إنزالها من اللوح المحفوظ ، أو يكون المراد نؤخر نسخها فلا ننسخها في الحال ، فإنا ننزل بدلها ما يقوم مقامها في المصلحة .

القول الرابع : ما ننسخ من آية ، وهي الآية التي صارت منسوخة في الحكم والتلاوة معاً ، أو ننسها ، أي نتركها وهي الآية التي صارت منسوخة في الحكم ولكنها غير منسوخة في التلاوة ، بل هي باقية في التلاوة ، فأما من قال بالقول الثاني : ما ننسخ من آية ، أي ننسخها من اللوح المحفوظ أو ننسأها ، نؤخرها .

وأما قراءة "ننسها" فالمعنى نتركها يعني نترك نسخها فلا ننسخها .

وأما قوله : ﴿ مِّنْ ءايَةٍ ﴾ فكل المفسرين حملوه على الآية من القرآن غير أبي مسلم فإنه حمل ذلك على التوراة والإنجيل وقد تقدم القول فيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 209 ﴾

قوله تعالى ﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ﴾

فصل

قال الفخر :

أما قوله تعالى : ﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ﴾ ففيه قولان .

أحدهما : أنه الأخف ، والثاني : أنه الأصلح ، وهذا أولى لأنه تعالى يصرف المكلف على مصالحه لا على ما هو أخف على طباعه .

فإن قيل : لو كان الثاني أصلح من الأول لكان الأول ناقص الصلاح فكيف أمر الله به ؟ قلنا : الأول أصلح من الثاني بالنسبة إلى الوقت الأول ، والثاني بالعكس منه فزال السؤال .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 210 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أن الناس استنبطوا من هذه الآية أكثر مسائل النسخ :

المسألة الأولى :

قال قوم : لا يجوز نسخ الحكم إلا إلى بدل ، واحتجوا بأن هذه الآية تدل على أنه تعالى إذا نسخ لا بد وأن يأتي بعده بما هو خير منه أو بما يكون مثله ، وذلك صريح في وجوب البدل .

والجواب : لم لا يجوز أن يقال : المراد أن نفي ذلك الحكم وإسقاط التبعد به خير من ثبوته في ذلك الوقت ، ثم الذي يدل على وقوع النسخ لا إلى بدل أنه نسخ تقديم الصدقة بين يدي مناجاة الرسول صلى الله عليه وسلم لا إلى البدل .

المسألة الثانية :

قال قوم : لا يجوز نسخ الشيء إلى ما هو أثقل منه واحتجوا بأن قوله : ﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ﴾ ينافي كونه أثقل ، لأن الأثقل لا يكون خيراً منه ولا مثله .

والجواب : لم لا يجوز أن يكون المراد بالخير ما يكون أكثر ثواباً في الآخرة ، ثم إن الذي يدل على وقوعه أن الله سبحانه نسخ في حق الزناة الحبس في البيوت إلى الجلد والرجم ، ونسخ صوم عاشوراء بصوم رمضان ، وكانت الصلاة ركعتين عند قوم فنسخت بأربع في الحضر .

إذا عرفت هذا فنقول : أما نسخ الشيء إلى الأثقل فقد وقع في الصور المذكورة ، وأما

نسخه إلى الأخف فكنسخ العدة من حول إلى أربعة أشهر وعشر ، وكنسخ صلاة الليل إلى التخيير فيها .

وأما نسخ الشيء إلى المثل فكالتحويل من بيت المقدس إلى الكعبة .

المسألة الثالثة :

(87/62)

قال الشافعي رضي الله عنه : الكتاب لا ينسخ بالسنة المتواترة واستدل عليه بهذه الآية من وجوه .

أحدها : أنه تعالى أخبر أن ما ينسخه من الآيات يأت بخير منها وذلك يفيد أنه يأتي بما هو من جنسه ، كما إذا قال الإنسان : ما آخذ منك من ثوب آتيك بخير منه ، يفيد أنه يأتيه بثوب من جنسه خير منه ، وإذا ثبت أنه لا بد وأن يكون من جنسه فجنس القرآن قرآن ، وثانيها : أن قوله تعالى : ﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا ﴾ يفيد أنه هو المنفرد بالإتيان بذلك الخير ، وذلك هو القرآن الذي هو كلام الله دون السنة التي يأتي بها الرسول عليه السلام ، وثالثها : أن قوله : ﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا ﴾ يفيد أن المأتي به خير من الآية ، والسنة لا تكون خيراً من القرآن ، ورابعها : أنه قال : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ دل على أن الآتي

بذلك الخير هو المختص بالقدرة على جميع الخيرات وذلك هو الله تعالى .

والجواب عن الوجوه الأربعة بأسرها : أن قوله تعالى : ﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا ﴾ ليس فيه أن ذلك الخير يجب أن يكون ناسخاً ، بل لا يمتنع أن يكون ذلك الخير شيئاً مغايراً للناسخ يحصل بعد حصول النسخ ، والذي يدل على تحقيق هذا الاحتمال أن هذه الآية صريحة في أن الإتيان بذلك الخير مرتب على نسخ الآية الأولى ، فلو كان نسخ تلك الآية مرتباً على الإتيان بهذا الخير لزم الدور وهو باطل ، ثم احتج الجمهور على وقوع نسخ الكتاب بالسنة لأن آية الوصية للأقربين منسوخة بقوله عليه الصلاة والسلام : " ألا لا وصية لوارث " وبأن آية الجلد صارت منسوخة بخبر الرجم .

(88/62)

قال الشافعي رضي الله عنه : أما الأول : فضعيف لأن كون الميراث حقاً للوارث يمنع من صرفه إلى الوصية ، فثبت أن آية الميراث مانعة من الوصية ، وأما الثاني : فضعيف أيضاً لأن عمر رضي الله عنه روى أن قوله : " الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما ألبتة" كان قرآناً فلعل النسخ إنما وقع به ، وتمام الكلام فيه مذكور في أصول الفقه . والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 210 ﴾

قوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

قال الفخر :

أما قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فتنبيه للنبي صلى الله عليه وسلم وغيره على قدرته تعالى على تصريف المكلف تحت مشيئته وحكمه وحكمته ، وأنه لا دافع لما أراد ولا مانع لما اختار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 211 ﴾

سؤال : فإن قيل : أو كان النبي صلى الله عليه وسلم غير عالم بأن الله على كل شيء قدير ، وأن الله له ملك السموات والأرض ؟ قيل : عن هذا ثلاثة أجوبة :

أحدها : أن قوله ألم تعلم بمعنى أعلمت .

والثاني : أنه خارج مخرج التقرير ، لا مخرج الاستفهام . كما قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ : اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ : اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللهِ ﴾ [المائدة : 116] خرج مخرج التقرير لا مخرج الاستفهام .

والثالث : أن هذا الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، والمراد به أمته ، ألا تراه قال بعد ذلك : ﴿ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ . انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 1 صـ 172 ﴾

فصل

قال الفخر :

استدلت المعتزلة بهذه الآية على أن القرآن مخلوق من وجوه ، أحدها : أن كلام الله تعالى لو كان قديماً لكان الناسخ والمنسوخ قديمين ، لكن ذلك محال ، لأن الناسخ يجب أن يكون متأخراً عن المنسوخ ، والمتأخر عن الشيء يستحيل أن يكون قديماً ، وأما المنسوخ فلأنه يجب أن يزول ويرتفع ، وما ثبت زواله استحال قدمه بالإتفاق ، وثانيها : أن الآية دلت على أن بعض القرآن خير من بعض ، وما كان كذلك لا يكون قديماً ، وثالثها : أن قوله : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ يدل على أن المراد أنه تعالى هو القادر على نسخ بعضها والإتيان بشيء آخر بدلاً من الأول ، وما كان داخلاً تحت القدرة وكان فعلاً كان محدثاً ، أجاب الأصحاب عنه : بأن كونه ناسخاً ومنسوخاً إنما هو من عوارض الألفاظ والعبارات واللغات ولا نزاع في حدوثها ، فلم قلتم إن المعنى الحقيقي الذي هو مدلول العبارات والاصطلاحات محدث ؟ قالت المعتزلة : ذلك المعنى الذي هو مدلول العبارات واللغات لا شك أن تعلقه الأول قد زال وحدث له تعلق آخر ، فالتعلق الأول محدث لأنه زال والقديم لا يزول ، والتعلق الثاني حادث لأنه حصل بعد ما لم يكن ، والكلام الحقيقي لا ينفك عن

هذه التعلقات ، وما لا ينفك عن هذه التعلقات (محدث) وما لا ينفك عن المحدث محدث والكلام الذي تعلقت به يلزم أن يكون محدثاً .

(90/62)

أجاب الأصحاب : أن قدرة الله كانت في الأزل متعلقة بإيجاد العالم ، فعند دخول العالم في الوجود هل بقي ذلك التعلق أو لم يبق ؟ فإن بقي يلزم أن يكون القادر قادراً على إيجاد الموجود وهو محال ، وإن لم يبق فقد زال ذلك التعلق فيلزمكم حدوث قدرة الله على الوجه الذي ذكرتموه ، وكذلك علم الله كان متعلقاً بأن العالم سيوجد ، فعند دخول العالم في الوجود إن بقي التعلق الأول كان جهلاً ، وإن لم يبق فيلزمكم كون التعلق الأول حادثاً ، لأنه لو كان قديماً لما زال ، ويكون التعلق الذي حصل بعد ذلك حادثاً فإذن عالمية الله تعالى لا تنفك عن التعلقات الحادثة ، وما لا ينفك عن المحدث محدث فعالمية الله محدثة .

فكل ما تجعلونه جواباً عن العالمية والقادرية فهو جوابنا عن الكلام . انتهى انتهى . اهـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 211 ﴾

فائدة

قال أبو حيان :

﴿ ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير ﴾ ؟

قال ابن عطية : ظاهره الاستفهام المحض ، فالمعادل هنا على قول جماعة : أم تريدون .

وقال قوم : أم هنا منقطعة ، فالمعادل على قولهم محذوف تقديره : أم علمتم ، وهذا كله على أن القصد بمخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم مخاطبة أمته ، وأما إن كان هو المخاطب وحده ، فالمعادل محذوف لا غير ، وكلا القولين مروي . انتهى كلامه ونقله .

وما قالوه ليس بجيد ، بل هذا استفهام معناه التقرير ، فلا يحتاج إلى معادل ألبتة ، والأولى أن يكون المخاطب السامع ، والاستفهام بمعنى التقرير كثير في كلامهم جداً ، خصوصاً إذا دخل على النفي : ﴿ أو ليس الله بأعلم بما في صدور العالمين ﴾ ﴿ أليس الله بأحكم الحاكمين ﴾ ﴿ ألم نربك فينا وليداً ﴾ ﴿ ألم يجدك يتيماً فآوى ﴾ ﴿ ألم نشرح لك صدرك ﴾ فهذا كله استفهام لا يحتاج فيه إلى معادل ، لأنه إنما يراد به التقرير .

والمعنى : قد علمت أيها المخاطب أن الله قادر على كل شيء ، فله التصرف في تكاليف عباده ، بمحو وإثبات وإبدال حكم بحكم ، وبأن يأتي بالأخير لكم وبالمماثل .

وحكمة إفراد المخاطب : أنه ما من شخص إلا يتوهم أنه المخاطب بذلك ، والمنبه به ، والمقرر على شيء ثابت عنده ، وهو أن قدرة الله تعالى متعلقة بالأشياء ، فلن يعجزه شيء ، فإذا كان كذلك لم ينكر النسخ ، لأن الله تعالى يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد ، لا رادَّ لأمره ، ولا معقب لحكمه .

وفي قوله : ﴿ ألم تعلم أن الله ﴾ ، فيه خروج من ضمير جمع مخاطب وهو : ﴿ من خير من ربكم ﴾ ، إلى ضمير مخاطب مفرد للحكمة التي بيناها ، وخروج من ضمير متكلم معظم نفسه ، إلى اسم ظاهر غائب وهو الله ، إذ هو الاسم العلم الجامع لسائر الصفات ، ففي ضمنه صفة القدرة ، فهو أبلغ في نسبة القدرة إليه من ضمير المتكلم المعظم ، فلذلك عدل عن قوله : ﴿ ألم تعلم أننا ﴾ إلى قوله : ﴿ ألم تعلم أن الله ﴾ ، وقد تقدم تفسيره قوله : ﴿ إن الله على كل شيء قدير ﴾ في أوائل هذه السورة ، فأغنى ذلك عن إعادته . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 1 صـ 514. 515 ﴾

فائدة

قال الفخر :

احتجوا بقوله تعالى : ﴿ أَنَّ اللهَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ على أن المعدوم شيء وقد تقدم وجه تقريره فلا نعيده ، والقدير فعيل بمعنى الفاعل وهو بناء المبالغة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 211 ﴾

" فصل نفيس "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(الفصل الثامن – فيما هو شرط من معرفة الناسخ والمنسوخ)

اعلم أَن معرفة النّاسخ والمنسوخ باب عظيم من علوم القرآن .

ومن أَراد أَن يخوض فى بحر التفسير ففَرْضٌ عليه الشروعُ فى طلب معرفته ، والاطِّلاع على أَسراره ، ليسلَم من الأَغلاط ، والخطإِ الفاحش ، والتأْويلات المكروهة .

والكلام فى ذلك على سبيل الإِجمال من عشرة أَوجه : الأَوّل فى أَصل النسخ ومذاهبِ النّاس فيه .

الثانى فى حَدّ النسخ ومعناه .

الثالث فى حقيقته من حيث اللُّغة .

الرّابع فى حكمته الحقّ ، والسرّ فى نسخ أَمرٍ بأَمرٍ .

الخامس فى بيان ما يجوز نسخه .

السّادس فى سبب نزول آية النسخ .

السَّابع فى وجوب معرفة النَّاسخ والمنسوخ.

الثامن فى أَنواع ما فى القرآن من المنسوخ التَّاسع فى ترتيب نَسْخ أَحكام القرآن أَوّلا فأَوّلاً.

العاشر فى تفصيل سُوَرِ القرآن الخالية عن الناسخ والمنسوخ.

أَمَّا أَصل النسخ فالنَّاسَ على مذهبين: مثبتون ومنكِرون.

والمنكرون صنفان:

صنف خارج على مِلَّة الإِسلام.

وهم اليهود فإِنهم أَجمعوا على أَنَّه لا نسخ فى شريعة موسى، وحكمُ التوارة باقٍ إِلى انقراض العالَم.

وقالوا: إِنَّ النسخ دليل على البداءِ والنَّدامة، ولا يليق بالحكيم ذلك.

هذا مقالهم، وتحريف التوراة فعالهم.

يحرِّفون الكِلم عن مواضعه، ويلبسون الحقَّ بالباطل، ويشترون بآيات الله ثمناً قليلاً: ولهذا قال تعالى فى حقّهم: ﴿كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لاَ تَفْعَلُونَ﴾.

وصنف ثانٍ من أَهل الإِسلام.

وهم الرافضة فإِنهم وافقوا اليهود فى هذه العقيدة، وقالوا: ليس فى القرآن ناسخ ولا منسوخ، وقبيح بالحكيم أَن يبطل كلامه.

فهم بكلامه يُوَادُّون من حادَّ الله ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ﴾.

وأَمَّا أَهل السنَّة وجماهير طوائف المسلمين فقد أَثبتوا النسخ ، وأَنّ القرآن مشتمِل على الناسخ والمنسوخ ، وأَنَّ الحكمة الرَّبانية تقتضى ذلك ، لأَنَّ الله تعالى ربُّ الأَرباب ، ومالك الملوك ، ومتصرّف فى الأَعيان ، متحكّم فى الأَشخاص ، ونعتُه وصفته : أَحكم الحاكمين ، وطبائع الخَلْق مختلِفة ؛ والأَزمنة ، والأَوقات متفاوِتة ، وبناءُ عالَم الكَوْن والفساد على التغيير والتحّول .

وأَىُّ حكمة أَبلغُ وأَتمُّ من حكمة عدل على وفق طبائع الناس بناءً على رعاية مصالحهم بحسب الوقت ، والزَّمان ، كسائر التَّصرُّفات الإِلهيَّة فى العالم : من تكوير الليلِ النَّهار ، وتغيير الفصول والأَيَّام ، بالبَرْد والحَرّ ، والاعتدال ، وتبديل أَحوال العباد بالإِغناء ، والإِفقار ، والإِصحاح ، والإِعلال ، وغير ذلك : من أَنواع التصرُّفات المختلفة الَّتى فى كلِّ فرد من أَفرادها حكمة بالغة ، وإِذا كان تصرُّفه تعالى فى مِلكه ومُلكه يقتضى الحكمة ، ولا اعتراض لمخلوق ، فكذلك الأمر فى الشرائع والفرائض : تارة يأْمُر ، وتارة ينهى ، ويكلّف قوماً بشرع ثقيل ، كبنى إِسرائيل ، وآخرين بشرع خفيف كالأُمَّة المحمَّدية .

وهو فى كلِّ هذه التصرُّفات مقدَّس الجناب منزَّه الحَضْرة عن لائمة المعترِضين ، وسؤال

المتعرّضين .

ولما كان محمَّد خاتم الرُّسل ، والقرآن خاتم الكتب ، وشَرْع القرآن خاتم الشرائع ، نُسخ فى عهده بعضُ القرآن ببعض ، لِما عند الله من الحكمة البالغة فى ذلك ، ولِما يتضمَّن من رعاية ما هو أَصلح للعباد ، وأَنفع للمَعَاد .

وأَيضاً كان النبىُّ صلَّى الله عليه وسلَّم يُنسخ بعضُ شرعه ببعض بواسطة الوحى السَّماوى ، والسُّنَّة تَقْضِى على القرآن والقرآن لا يَقضى على السُنّة .

(94/62)

وأَمَّا بعد ما استأْثر اللهُ به (صَلَّى الله عليه وسلَّم) فقد صار القرآن والسنة محروسين من النَّسْخ ، والتغيير ، بدليل قوله تعالى ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ .

وأَمَّا حَد النسخ (من حيث المعنَى) فهو رفْع حكم ثابت من قولهم : نسخَت الرِّياحُ الأَثَرَ إذا دَرَسَتْه .

وقيل " النسخ" قَصْر حُكم على لفظ يختصُّ بأَهل زمان خاصّ ؛ كما أَنَّ التخصيص قصر حكم لفظ على بعض الأَشخاص .

وقيل " النَّسخ" التَّحويل ، والأَجود أَن يقال " النسخ" بيان نهاية تعبُّد بأَمر ، أَو نهى مجدَّد ،

فى حكم خاصّ ، بنقله إلى حكم آخر .

وللنّاسخ والمنسوخ خمسة شروط : أحدها أن يكون كلٌّ منهما شرعيًّا .

الثّانى أن يكون النّاسخ متأخّرًا عن المنسوخ .

الثالث أن يكون الأمر بالمنسوخ مطلقاً غير مقيّدٍ بغاية .

والرّابع أن يكون النّاسخ كالمنسوخ فى إيجاب العلم والعمل .

الخامس أن يكون النّاسخ والمنسوخ منصوصين بدليل خطاب (أو بمفهوم خطاب) .

وأمّا حقيقة النسخ لغة فقد جاء بمعنيين :

أحدهما النقل ، كما يقال للكتابة نَسْخ .

قال تعالى : ﴿ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ وعلى هذا يكون جميع القرآن منسوخاً ، بمعنى أنه مكتوب نُقِل من اللّوح المحفوظ إلى صُحف مرفوعة مطهّرة ، بأيدى سفرة كرام بررة ، ولمّا نزل من السّماءِ بواسطة الوحى كتبه الصّحابة ، ونسخوخ فى صُحُفهم ، ثمّ لما يزل يُنْسَخ ، وينقل إلى يوم القيامة .

والقول الثانى أن يكون لغة بمعنى الرفع والإزالة .

يقال : نسخت الشّمسُ الظلّ إذا أبطلته ، ونسخت الريحُ الأثر إذا أذهبته .

وعلى هذا قيل لرفع حكم بحكم آخر : نَسْخ ، لأنه إبطال حكم ، وإثبات حكم مكانه ،

كالشَّمس مكان الظِّل .

وأَمَّا الحكمة فى النسخ فذكروا فيها وجوهاً .

(95/62)

أَوَّلها وأَجلُّها إِظهار الرُّبوبيَّة ، فإِنَّ بالنَّسخ يتحقَّق أَن التَّصرُّف فى الأَعيان إِنَّما هو له تعالى : يفعل ما يشاءُ ، ويحكم ما يريد .

الثَّانى بيان لكمال البعوديَّة ، كأَنَّه منتظِر لإِشارة السيِّد ، كيفما وردت وبأَيِّ وجه صدرت .

وإِنَّما يظهر طاعةُ العبيد بكمال الخضوع ، والانقياد .

والثالث امتحان الْحرِّيَّة ، ليمتاز مَن المتمرِّد من المنقاد ، وأَهلُ الطَّاعة من أَهل العناد فالدارُ دار الامتحان ، والذهب يُجرَّب بالذوَبان ، والعبد الصَّالح بالابتلاءِ والهوان .

الرَّابع إِظهار آثار كُلْفة الطَّاعة ، على قدر الطَّاقة ، ﴿ لاَيُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾ .

الخامس التيسير ، ورفع المشقَّة عن العباد ، برعاية المصالح ﴿ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ ﴾ .

السادس نقل الضعفاءِ من درجة العسر إِلى درجة اليسر ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَيُرِيدُ

بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ .

وأَمَّا أَنَّ النسخ فيما ذا يجوز فالصَّحيح أَنَّ النسخ يتعلَّق بالأَمر والنَّهى فقط .

وأَمَّا الأَخبار فمصونة عن النسخ ، لأَنَّ المخبِر الصادق يصير بنسخ خبره كاذباً .

وقيل : النَّسخ فى الأَمر ، والنَّهى ، وفى كل خبر يكون بمعنى الأَمر والنَّهى .

فالنَّهى مثل قوله تعالى : ﴿ الزَّانِي لاَ يَنكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً ﴾ .

والأَمر مثل قوله : ﴿ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً ﴾ أَى ازرعوا .

وشذَّ قوم أَجازوا النسخ فى الأَخبار مطلقا .

(96/62)

وأَمَّا سبب نزول آية النَّسخ فهو أَنَّ كفَّار مكَّة ويهودَ المدينة لَمَّا صرَّحوا بتكذيب النبىِّ صلَّى الله عليه وسلم ، وقالوا : إِنَّ هذا الكلام مختلَق ، لأَنَّه يأْمر بأَمر ، ثم ينهى عنه ، ويقرّر شرعاً ، ثمَّ يرجع عنه ، فما هو إِلاَّ من تلقاءِ نفسه ، فنزلت ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ ووردت الإِشارة إِلى النسخ فى الآية الأُخرى ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أَى قادر على إِنفاذ قضائه وقَدَره ، فيقدّم من أَحكامه ما أَراد ، ويؤخّر منها

ما أَراد ، ويثقِّل الحكم على من شاءَ ، ويخفِّفه عمَّن شاءَ ، وإِليه التَّيسير والتعسير ، وبيده التقدير والتقرير ، ولا يُنسب فى شىء إِلى العجز والتقصير ، ولا مجال لأَحد فى اعتراض وتغيير ، إِنَّه حكيم خبير ، وبيده التصريف والتدبير ، أَلا له الخَلْق والأَمر تبارك الله ربُّ العالمين .

وأَمَّا وجوب معرفة النَّاسخ والمنسوخ فقال ابن عبَّاس : مَن لم يعرف النَّاسخ من المنسوخ خلط الحلال بالحرام .

وعن النبىِّ صلى الله عليه وسلَّم إِنَّ محرِّم الحلا الح وقال أَيضاً " ما آمن بالقرآن من استحل محارمه" ولمَّا رأَى علىٌّ رضى الله عنه عبد الله بن دَأْب فى مسجد الكوفة وهو يجيب عن المسائل ، فقال له : هل تعرف النَّاسخ من المنسوخ قال : لا ؛ قال : فما كنيتك ؟ قال أَبو يحيى .

قال : أَنت أَبو اعرفونى بالجهل .

ثمَّ أَخذَ بأُذُنه ، وأَقامه عن مجلسه .

فقال : لا يحلُّ لك روايةُ الحديث فى هذا المسجد ، ولا الجلوس فى مثل هذا المجلس حتَّى تَعْلم النَّاسخ من المنسوخ .

وأَمَّا أَنواع منسوخات القرآن فثلاثة .

أَحدها ما نُسخ كتابتُه وقراءَته .

قال أَنس كانت سورةٌ طويلة تقارب سورة براءَة ، كنَّا نقرؤها على عهد رسول الله صلَّى الله عليه وسلم ، فنُسخت بكلِّيتها ، لم يبق بين المسلمين منها شئ ، سوى هذه الآية : لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى إليهما ثالثا ، ولو كان ثالثاً لابتغى رابعاً .

ولا يملأُ جوفَ ابن آدم إلاَّ التراب ، ويتوب الله على مَن تاب .

وقال ابن مسعود : لقَّننى رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم آية حفِظتها وأَثبتُّها فى المصحف ، فأَردتُ فى بعض اللَّيالى أَن أَقرأَها ، فلم أَذكُرها ، فرجعت إلى المصحف فوجدت مكانها أَبيض ، فأَتيت النبىَّ صلَّى الله عليه وسلَّم وأَخبرته بذلك ، فقال : يا عبد الله ، قد نُسخت تلك الآية .

فحزِن رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم حيث لم يذكرها ، فنزل جبريل بقوله تعالى ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنسَى ﴾ وقيَّدهُ بالمشيئة لئلا يأْمن بالكلِّية فنزلت ﴿ إِلاَّ مَا شَآءَ اللَّهُ ﴾ .

الثَّانى ما نُسِخ خَطُّه ، وكتابته ، وحكمه باقٍ ؛ مثل (الشيخُ والشيخة إذا زنَيا فارجموهما البتَّة نكالاً من الله والله عزيز حكيم) .

الثالث ما نُسخ حكمه وخَطّه ثابت .

وذلك فى ثلاثة وستين سورة .

وسيأْتى ترتيبه إِن شاءَ الله .

وأَمَّا ترتيب المنسوخات فأَوّلها الصّلوات الَّتى صارت من خمسين إِلى خمس ، ثمّ تحويل القبلة من بيت المقدس إِلى الكعبة ﴿ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ﴾ ثم صوم يوم عاشوراء ، ثم صوم ثلاثة أَيام من كلّ شهر ، نُسِخا بفرض صيام رمضان ، ثم حكم الزكاة إِلى ربع العشر بعد أَن كان الفاضل عن قُوت العيال ، صدقةً ، وزكاة ، ثمّ الإِعراض عن المشركين والصّفح عنهم نُسخ بآية السّيف : ﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً ﴾ .

ثم الأَمر الخاصّ بقتال أَهل الكتاب ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ إِلى قوله ﴿ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ ، ثمّ نُسخ ميراث الوَلاَء بتوريث ذوى الأَرحام ، ونسخ ميراث ذوى الأَرحام بالوصيّة ، ثمّ نُسخ الوصيّة بآية المواريث وهى قوله ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ ﴾ ثمّ نفى المشركين من الحَرَم والمسجد الحرام ﴿ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هذا ﴾ ثمّ نسخ عهد كان بين رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وبين المشركين رَدّه عليهم على لسان علىّ يومَ عرفة فى أَوّل سورة براءَة ﴿ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ

أَشْهُرٍ ﴾ إلى قوله ﴿ فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ ﴾ .

فهذا ترتيب المنسوخات الأَوّل فالأَوّل .

وأَمَّا تفصيل السّور (التى فيها الناسخ والمنسوخ والتى ما فيها [نسخ] فالسُوَر الخالية عن الناسخ والمنسوخ) ثلاثة وأَربعون سورة : فاتحة الكتاب ، سورة يوسف ، يس ، الحجرات ، الرَّحمن ، الحيد ، الصَّف ، الجمعة ، المتحرّم ، المُلْك ، الحاقَّة ، سورة نوح ، المرسَلات ، سورة الجِنّ ، النبأ ، والنَّازعات ، الانفطار ، التطفيف ، الانشقاق ، البروج ، والفجر ، البلد ، والشمس ، واللَّيل ، والضحى ، أَلَم نشرح ، القلم ، القَدْر ، لم يكن ، زلزلت ، والعاديات ، القارعة ، التكاثر ، الهُمَزة ، الفيل ، لإِيلاف ، أَرأَيت ، الكوثر ، النصر ، تبَّت ، الإِخلاص ، الفلق ، النَّاس .

والسُّور الَّتى فيها الناسخ وليس فيها المنسوخ ستٌّ : سورة الفتح ، الحشر ، المنافقون ، التَّغابن ، الطَّلاق ، الأَعلى .

والَّتى فيها المنسوخ وليس فيها ناسخ أَربعون سورة : الأَنعام ، الأَعراف ، يونس ، هود ، الرَّعد ، الحِجْر ، النَحْل ، إِسرائيل ، الكهف ، طه ، المؤمنون ، النَّمل ، القَصَص ، العنكبوت

، الرُّوم ، لقمان ، المضاجع ، الملائكة ، الصَّافَّات ، ص ، الزُّمر ، المصابيح ، الزُّخرف ، الدُّخان ، الجاثية ، الأَحقاف ، سورة محمد صلى الله عليه وسلم ، (5) ق ، والنَّجم ، القمر ، الممتحِنة ، (5) ن ، المعارج ، القيامة ، الإِنسان ، عبس ، الطَّارق ، الغاشية ، والتِّين ، الكافرون .

والسُّوَر الَّتى اجتمع فيها النَّاسخ والمنسوخ خمس وعشرون سورة : البقرة ، آل عمران ، النِّساء ، المائدة ، (5) الأنفال ، التَّوبة ، إِبراهيم ، مريم ، الأَنبياء ، الحجّ ، النور ، الفرقان ، الشعراء ، الأَحزاب ، سبأ ، المؤمن ، الشُورى ، والذَّاريات ، والطُّور ، الواقعة ، المجادلة ، المزَّمل ، المدثر ، التكوير ، والعصر .

وجملة الآيات مئتا آية وأَربع آيات على التفصيل الَّذى ذكرناه .

وهذه الجملة الَّتى لا بدَّ من معرفتها من أَمر الناسخ والمنسوخ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 117 . 127 ﴾

(100/62)

"كلام نفيس فِي نَسْخِ الْقُرْآنِ بِالسُّنَّةِ وَذِكْرُ وُجُوهِ النَّسْخِ"

قال الإمام الجصاص :

بَابُ فِي نَسْخِ الْقُرْآنِ بِالسُّنَّةِ وَذِكْرُ وُجُوهِ النَّسْخِ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ﴾ قَالَ قَائِلُونَ : " النَّسْخُ هُوَ الْإِزَالَةُ " وَقَالَ آخَرُونَ : " هُوَ الْإِبْدَالُ " قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ﴾ أَيْ يُزِيلُهُ وَيُبْطِلُهُ وَيُبَدِّلُ مَكَانَهُ آيَاتٍ مُحْكَمَاتٍ .

وَقِيلَ : هُوَ النَّقْلُ ، مِنْ قَوْلِهِ : ﴿ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ وَهَذَا الِاخْتِلَافُ إِنَّمَا هُوَ فِي مَوْضُوعِهِ فِي أَصْلِ اللُّغَةِ ، وَمَهْمَا كَانَ فِي أَصْلِ اللُّغَةِ مَعْنَاهُ فَإِنَّهُ فِي إِطْلَاقِ الشَّرْعِ إِنَّمَا هُوَ بَيَانُ مُدَّةِ الْحُكْمِ وَالتِّلَاوَةِ ، وَالنَّسْخُ قَدْ يَكُونُ فِي التِّلَاوَةِ مَعَ بَقَاءِ الْحُكْمِ وَيَكُونُ فِي الْحُكْمِ مَعَ بَقَاءِ التِّلَاوَةِ دُونَ غَيْرِهِ قَالَ أَبُو بَكْرٍ : زَعَمَ بَعْضُ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنْ غَيْرِ أَهْلِ الْفِقْهِ أَنَّهُ لَا نَسْخَ فِي شَرِيعَةِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنَّ جَمِيعَ مَا ذُكِرَ فِيهَا مِنْ النَّسْخِ فَإِنَّمَا الْمُرَادُ بِهِ نَسْخُ شَرَائِعِ الْأَنْبِيَاءِ الْمُتَقَدِّمِينَ كَالسَّبْتِ وَالصَّلَاةِ إِلَى الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ؛ قَالَ : لِأَنَّ نَبِيَّنَا عَلَيْهِ السَّلَامُ آخِرُ الْأَنْبِيَاءِ وَشَرِيعَتُهُ ثَابِتَةٌ بَاقِيَةٌ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ .

وَقَدْ كَانَ هَذَا الرَّجُلُ ذَا حَظٍّ مِنْ الْبَلَاغَةِ وَكَثِيرٍ مِنْ عِلْمِ اللُّغَةِ ، غَيْرَ مَحْظُوظٍ مِنْ عِلْمِ الْفِقْهِ وَأُصُولِهِ ، وَكَانَ سَلِيمَ الِاعْتِقَادِ غَيْرَ مَظْنُونٍ بِهِ غَيْرَ ظَاهِرِ أَمْرُهُ ؛ وَلَكِنَّهُ بَعُدَ مِنْ التَّوْفِيقِ

بِإِظْهَارِ هَذِهِ الْمَقَالَةِ ؛ إذْ لَمْ يَسْبِقْهُ إلَيْهَا أَحَدٌ ، بَلْ قَدْ عَقَلَتْ الْأُمَّةُ سَلَفَهَا وَخَلَفَهَا مِنْ دِينِ اللَّهِ وَشَرِيعَتِهِ نَسْخَ كَثِيرٍ مِنْ شَرَائِعِهِ وَنُقِلَ ذَلِكَ إلَيْنَا نَقْلًا لَا يَرْتَابُونَ بِهِ وَلَا يُجِيزُونَ فِيهِ التَّأْوِيلَ كَمَا قَدْ عَقَلَتْ أَنَّ فِي الْقُرْآنِ عَامًّا وَخَاصًّا وَمُحْكَمًا وَمُتَشَابِهًا ، فَكَانَ دَافِعُ وُجُودِ النَّسْخِ فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ كَدَافِعِ خَاصِّهِ وَعَامِّهِ وَمُحْكَمِهِ وَمُتَشَابِهِهِ ؛ إذْ كَانَ وُرُودُ الْجَمِيعِ وَنَقْلُهُ عَلَى وَجْهٍ وَاحِدٍ فَارْتِكَابُ هَذَا الرَّجُلِ فِي الْآيِ الْمَنْسُوخَةِ وَالنَّاسِخَةِ وَفِي أَحْكَامِهَا أُمُورًا خَرَجَ بِهَا عَنْ أَقَاوِيلِ الْأُمَّةِ مَعَ تَعَسُّفِ الْمَعَانِي وَاسْتِكْرَاهِهَا وَمَا أَدْرِي مَا الَّذِي أَلْجَأَهُ إلَى ذَلِكَ .

(102/62)

وَأَكْثَرُ ظَنِّي فِيهِ أَنَّهُ إنَّمَا أَتَى بِهِ مِنْ قِلَّةِ عِلْمِهِ بِنَقْلِ النَّاقِلِينَ لِذَلِكَ وَاسْتِعْمَالِ رَأْيِهِ فِيهِ مِنْ غَيْرِ مَعْرِفَةٍ مِنْهُ بِمَا قَدْ قَالَ السَّلَفُ فِيهِ وَنَقَلَتْهُ الْأُمَّةُ وَكَانَ مِمَّنْ رُوِيَ فِيهِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِرَأْيِهِ فَأَصَابَ فَقَدْ أَخْطَأَ ﴾ وَاَللَّهُ يَغْفِرُ لَنَا وَلَهُ وَقَدْ تَكَلَّمْنَا فِي أُصُولِ الْفِقْهِ فِي وُجُوهِ النَّسْخِ وَمَا يَجُوزُ فِيهِ وَمَا لَا يَجُوزُ بِمَا يُغْنِي وَيَكْفِي ، وَأَمَّا : ﴿ أَوْ نُنْسِهَا ﴾ قِيلَ إنَّهُ مِنْ النِّسْيَانِ ، وَ " نَنْسَأْهَا " مِنْ التَّأْخِيرِ ، يُقَالُ : نَسَأَتْ الشَّيْءَ : أَخَّرْته ، وَالنَّسِيئَةُ : الدَّيْنُ الْمُتَأَخِّرُ .

وَمِنْهُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ إنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ ﴾ يَعْنِي تَأْخِيرَ الشُّهُورِ ، فَإِذَا أُرِيدَ بِهِ النِّسْيَانُ ، فَإِنَّمَا هُوَ أَنْ يُنْسِيَهُمْ اللَّهُ تَعَالَى التِّلَاوَةَ حَتَّى لَا يَقْرَءُوا ذَلِكَ ، وَيَكُونُ عَلَى أَحَدِ وَجْهَيْنِ : إمَّا أَنْ يُؤْمَرُوا بِتَرْكِ تِلَاوَتِهِ فَيُنْسَوْهُ عَلَى الْأَيَّامِ ، وَجَائِزٌ أَنْ يَنْسَوْهُ دَفْعَةً وَيَرْفَعَ مِنْ أَوْهَامِهِمْ ، وَيَكُونُ ذَلِكَ مُعْجِزَةً لِلنَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

وَأَمَّا مَعْنَى قِرَاءَةِ " أَوْ نَنْسَأْهَا " فَإِنَّمَا هُوَ بِأَنْ يُؤَخِّرَهَا فَلَا يُنَزِّلُهَا وَيُنَزِّلُ بَدَلًا مِنْهَا مَا يَقُومُ مَقَامَهَا فِي الْمَصْلَحَةِ أَوْ يَكُونُ أَصْلَحَ لِلْعِبَادِ مِنْهَا ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يُؤَخِّرَ إنْزَالَهَا إلَى وَقْتٍ يَأْتِي فَيَأْتِي بَدَلًا مِنْهَا لَوْ أَنْزَلَهَا فِي الْوَقْتِ الْمُتَقَدِّمِ فَيَقُومَ مَقَامَهَا فِي الْمَصْلَحَةِ .

(103/62)

وَأَمَّا قَوْلُهُ : ﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ﴾ فَإِنَّهُ رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةَ : " بِخَيْرٍ مِنْهَا " لَكُمْ فِي التَّسْهِيلِ وَالتَّيْسِيرِ " كَالْأَمْرِ بِأَنْ لَا يُوَلِّيَ وَاحِدٌ مِنْ عَشْرَةٍ فِي الْقِتَالِ ثُمَّ قَالَ : ﴿ الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ ﴾ أَوْ مِثْلِهَا كَالْأَمْرِ بِالتَّوَجُّهِ إلَى الْكَعْبَةِ بَعْدَمَا كَانَ إلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَرُوِيَ عَنْ الْحَسَنِ : " بِخَيْرٍ مِنْهَا فِي الْوَقْتِ فِي كَثْرَةِ الصَّلَاحِ أَوْ مِثْلِهَا " .

فَحَصَلَ مِنْ اتِّفَاقِ الْجَمِيعِ أَنَّ الْمُرَادَ " خَيْرٌ لَكُمْ إمَّا فِي التَّخْفِيفِ أَوْ فِي الْمَصْلَحَةِ " وَلَمْ يَقُلْ أَحَدٌ مِنْهُمْ : خَيْرٌ مِنْهَا فِي التِّلَاوَةِ ؛ إذْ غَيْرُ جَائِزٍ أَنْ يُقَالَ إنَّ بَعْضَ الْقُرْآنِ خَيْرٌ مِنْ بَعْضٍ فِي

مَعْنَى التِّلَاوَةِ وَالنَّظْمِ ؛ إذْ جَمِيعُهُ مُعْجِزٌ كَلَامُ اللَّهِ قَالَ أَبُو بَكْرٍ : وَقَدْ احْتَجَّ بَعْضُ النَّاسِ فِي امْتِنَاعِ جَوَازِ نَسْخِ الْقُرْآنِ بِالسَّنَةِ ؛ لِأَنَّ السَّنَةَ عَلَى أَيِّ حَالٍ كَانَتْ لَا تَكُونُ خَيْرًا مِنْ الْقُرْآنِ وَهَذَا إغْفَالٌ مِنْ قَائِلِهِ مِنْ وُجُوهٍ : أَحَدُهَا : أَنَّهُ غَيْرُ جَائِزٍ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ : " بِخَيْرٍ مِنْهَا فِي التِّلَاوَةِ وَالنَّظْمِ " لِاسْتِوَاءِ النَّاسِخِ وَالْمَنْسُوخِ فِي إعْجَازِ النَّظْمِ وَالْآخِرُ اتِّفَاقُ السَّلَفِ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يُرِدْ النَّظْمَ ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُمْ فِيهِ عَلَى أَحَدِ الْمَعْنَيَيْنِ إمَّا التَّخْفِيفُ أَوْ الْمَصْلَحَةِ .

(104/62)

وَذَلِكَ قَدْ يَكُونُ بِالسُّنَّةِ كَمَا يَكُونُ بِالْقُرْآنِ وَلَمْ يَقُلْ أَحَدٌ مِنْهُمْ إنَّهُ أَرَادَ التِّلَاوَةَ ، فَدَلَالَةُ هَذِهِ الْآيَةِ عَلَى جَوَازِ نَسْخِ الْقُرْآنِ بِالسُّنَّةِ أَظْهَرُ مِنْ دَلَالَتِهَا عَلَى امْتِنَاعِ جَوَازِهِ بِهَا وَأَيْضًا فَإِنَّ حَقِيقَةَ ذَلِكَ إنَّمَا تَقْتَضِي نَسْخَ التِّلَاوَةِ ، وَلَيْسَ لِلْحُكْمِ فِي الْآيَةِ ذِكْرٌ ؛ لِأَنَّهُ قَالَ تَعَالَى : ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ ﴾ وَالْآيَةُ إنَّمَا هِيَ اسْمٌ لِلتِّلَاوَةِ ، وَلَيْسَ فِي نَسْخِ التِّلَاوَةِ مَا يُوجِبُ نَسْخَ الْحُكْمِ ، وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ جَازَ أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ : " مَا نَنْسَخْ مِنْ تِلَاوَةِ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا لَكُمْ مِنْ مُحْكَمٍ مِنْ طَرِيقِ السُّنَّةِ أَوْ غَيْرِهَا " .

وَقَدْ اسْتَقْصَيْنَا الْقَوْلَ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ فِي أُصُولِ الْفِقْهِ بِمَا فِيهِ كِفَايَةٌ ، فَمَنْ أَرَادَهَا فَلْيَطْلُبْهَا

هُنَاكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 1 صـ 70 . 72 ﴾

(105/62)

قال صاحب الفتوحات : النسخ في اللغة الإزالة والنقل . يقال : نسخت الريح الأثر أي أزالته ، ونسخت الكتاب أي نقلته .

ونسخ الآية : بيان انتهاء التعد بقراءتها أو بالحكم المستفاد منها أو بهما معاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الفتوحات الإلهية حـ 1 ص 147 ﴾

وقيل : من النسيان على بابه الذي هو عدم الذكر على معنى أو ننسكها يا محمد ، فلا تذكرها (1) . أ هـ .

---

(1) لا شك أن هذا الكلام قد يفتح على الأمة باباً للطعن في القرآن الكريم الذي تكفل الله تعالى بحفظه ، ثم إن هذا القول يتعارض مع صريح القرآن كما سيتبين لاحقاً إن شاء الله من كلام سادتنا الأئمة الأعلام – فيجب عدم التعويل على مثل هذا الكلام الذي يعطي مجالاً للسفهاء الحاقدين على الإسلام للقدح في وصول القرآن إلى الأمة كاملاً وهذا ما نرفضه

جملة وتفصيلاً ، والنسيان ينقسم إلى قسمين نسيان بمعنى الضياع أى ضد الذكر وهذا ممتنع ، ونسيان بمعنى الترك فيجب حمل النسيان في الآية على الترك – والله أعلم .

(106/62)

وقال السمعاني : وقرأ أبو عمرو وابن كثير " أو ننسأها " على الفتح والهمز ، وحكى أبو عبيد القاسم بن سلام عن أبي نعيم القاريء أنه قال : رأيت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في المنام ، فقرأت عليه بحرف أبي عمرو ، فغير عليّ شيئين فقوله " وأرنا " فقال : قل : أرنا " بكسر الراء " ، قال أبو عبيد : وأحسبه قال : الحرف الثاني : قوله " أو ننسأها : فقال : قل : " أو ننسها " (1) انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير السمعاني حـ 1 صـ 123 ﴾

(1) يسكن أبو عمرو : الراء في كلمة [أرنا] ويقرأ [ننسها] بفتح النون والسين مع الهمز [نَنْسَأْها] ولا يمكن القبول بما ذكر ونسبته إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ، ومن المعلوم أن الرؤيا لا يثبت بها حكم شرعي ، وأيضاً فقراءة أبي عمر وقراءة متواترة فكيف يحكم عليها الرسول – صلى الله عليه وسلم – بالخطأ ، هذا ما يجعلنا نجزم بوضع هذه الحكاية لتعارضها مع المتواتر والمتفق عليه .

(107/62)

"كلام نفيس في هذا الموضع"

قال صاحب الميزان ما نصه :

قوله تعالى "أو ننسها" قرأ بضم النون وكسر السين من الإنساء بمعنى الذهاب عن العلم والذكر وقد مر توضيحه ، وهو كلام مطلق أو عام غير مختص برسول الله – صلى الله عليه وسلم – بل غير شامل له أصلاً لقوله تعالى "سنقرئك فلا تنسى إلا ما شاء الله" [الأعلى : 7] وهي آية مكية ، وآية النسخ مدنية ، فلا يجوز عليه النسيان بعد قوله تعالى "فلا تنسى" وأما اشتماله على الاستثناء بقوله "إلا ما شاء الله" فهو على حد الاستثناء الواقع في قوله تعالى "خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ" [هود : 1 (9] جيء بها لإثبات بقاء القدرة مع الفعل على تغيير الأمر ولو كان الاستثناء مسوقاً لبيان الوقوع في الخارج لم يكن للامتنان بقوله "فلا تنسى" معنى ، إذ كل ذي ذكر وحفظ من الإنسان وسائر الحيوان كذلك يذكر وينسى ، وذكره ونسيانه كلاهما منه تعالى وبمشيئته ، وقد كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كذلك قبل هذا الإقراء الامتناني الموعود بقوله "سنقرئك" يذكر بمشيئة الله تعالى ، فليس معنى الاستثناء إلا إثبات إطلاق القدرة ، أي سنقرئك فلا تنسى أبداً ، والله مع ذلك قادر على إنسائك هذا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الميزان حـ 1 صـ 253 : صـ 254 ﴾

(108/62)

وقال صاحب تفسير المنار حـ 1 صـ 342 ما نصه :

إن السيوطى روى فى أسباب النزول أن الآية كانت تنزل على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليلا فينساها نهارا ، فحزن لذلك فنزلت الآية . قال الأستاذ الإمام : ولا شك عندى فى أن هذه الرواية مكذوبة وأن مثل هذا النسيان محال على الأنبياء ـ عليهم السلام ـ ؛ لأنهم معصومون فى التبليغ ، والآيات الكريمة ناطقة بذلك كقوله تعالى [إن علينا جمعه وقرآنه] وقوله [إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون] وقد قال المحدثون والأصوليون : إن من علامة وضع الحديث مخالفته للدليل القاطع عقليا كان أو نقليا كأصول الاعتقاد وهذه المسألة منها فإن هذا النسيان ينافى العصمة المجمع عليها . أ هـ

(109/62)

" فائدة " في باب [الخير]

قال ابن الجوزي :

الخير يذكر ويراد به القرآن قال تعالى " أن ينزل عليكم من خير من ربكم " [البقرة : 1 (5]

ويراد به الأنفع قال تعالى " ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها " [البقرة : 1 (6]

ويراد به المال . قال تعالى " كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف " [البقرة : 18 ( ]

ويراد به ضد الشر قال تعالى " بيدك الخير " [آل عمران : 26]

ويراد به الإصلاح قال تعالى " ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير " [آل عمران : 1 (4]

ويراد به الولد الصالح قال تعالى " فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً " [النساء : 19]

ويراد به العافية قال تعالى " وإن يمسسك بخير " [الأنعام : 17]

ويكون بمعنى النافع قال تعالى " ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير " [الأعراف : 188]

وبمعنى الإيمان قال تعالى " ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم " [الأنفال : 23]

وبمعنى رخص الأسعار قال تعالى على لسان شعيب عليه السلام مخاطباً قومه " إني أراكم بخير " [هود : 84]

وبمعنى النوافل قال تعالى : " وأوحينا إليهم فعل الخيرات " [الأنبياء : 73]

وبمعنى الأجر قال تعالى " والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير " [الحج : 36]

وبمعنى الأفضل قال تعالى " وأنت أرحم الراحمين " [المؤمنون : 1 (9]

وبمعنى العفة قال تعالى " لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً " [النور : 12]

وبمعنى الصلاح قال تعالى : " فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً " [النور : 33]

وبمعنى الطعام قال تعالى : " فقال رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير " [القصص : 24]

وبمعنى الظفر قال تعالى : " ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً " [الأحزاب : 25]

(110/62)

وبمعنى الخيل قال تعالى على لسان سليمان عليه السلام " فقال إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب " [ص : 32]

وبمعنى القوة قال تعالى : " أهم خير أم قوم تبع والذين من قبلهم أهلكناهم " [الدخان : 37]

وبمعنى حسن الأدب قال تعالى : " ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم " [

الحجرات : 5] .

وبمعنى حب الدنيا قال تعالى : " وإنه لحب الخير لشديد " [العاديات : 8] انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المدهش لابن الجوزي صـ 14 : 15 ﴾ . بتصرف يسير

(111/62)

ومن فوائد ابن عرفة فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا . . . ﴾ .

تكلم ابن عطية هنا كلاما حسنا من جملته أن قال : المنسوخ عند أيمتنا هو الحكم الثابت نفسه لا ما ذهبت إليه المعتزلة من أنه مثل الحكم الثابت فيما يستقبل ، وقادهم إلى ذلك مذهبهم من أن الأوامر مرادة ، ثم قال : والتخصيص من العموم يوهم أنه نسخ وليس به لأن المخصص لا يتناوله العموم فقط .

قال ابن عرفة : قالوا : وليس معناه أنه لم يكن (مرادا لئلا يلزم عليه كون الأمر غير الإرادة ، وإنما معناه أنه لم يكن) متعلق الحكم ، ومنهم من قال : رفع الحكم إن كان قبل العمل به فهو تخصيص وإن كان بعد العمل به فهو نسخ .

قال ابن عطية : وقد ينسخ الأثقل بالأخف كنسخ قتال الواحد للعشرة .

قال ابن عرفة : والثقل والخفة باعتبار المصالح ، فقد يكون متعلق هذه المصلحة أرجح من متعلق المصلحة الأخرى أو مساويا لها .

ولا شك أن وقوف الواحد للعشرة (ثوابه) يكون أعظم من ثواب ما هو أخف منه لكنه نادر ، وليس بأكثري الوقوع فنسخ بما هو أخف منه وأقل ثوابا لكونه أكثري الوقوع ، فيتعدد ثوابه ويكثر بتعدد وقوعه ، والأخف بالأثقل كنسخ صوم عاشوراء/ بصيام رمضان .

قال : وأجمعوا على جواز نسخ القرآن بخبر الواحد .

قال أبو المعالي ؛ إنه واقع في مسجد قباء لأنهم كانوا يصلون فيه العصر إلى بيت المقدس ، فمر بهم بعض الصحابة ، فأخبرهم أن القبلة حولت إلى مكة ، فتحولوا في الصلاة .

ومنع ذلك قوم ، وقالوا : إنما نسخ بالقرآن .

قال : ولا يصح نسخ النص بالقياس .

وقال ابن عرفة : لأن النص المقيس عليه إما أن يكون موافقا لذلك (النص) المنسوخ أو مخالفا فإن كان (موافقا) فلا نسخ ، وإن كان (مخالفا) فهو النّاسخ (لا) القياس .

ولا ينسخ النص بالإجماع لأنه إنما يكون في حياة النّبي صلى الله عليه وسلم والإجماع إنما هو بعد وفاته .

فيل لابن عرفة : قد حكى الأصوليون عن أبي مسلم أنه أنكر وقوع النسخ من أصله ؟

فقال ابن عرفة : إنما ذلك في الفروع والأحكام الظنية ، وأما باعتبار الملة فلا خلاف بين المسلمين في وقوعه وأنّه تنسخ ملة بملة .

وإنما الكلام فيه باعتبار الشخص الواحد هل يصح نسخ الحكم في ملته (بحكم آخر أم لا) قولان .

قوله تعالى ؛ ﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَا . . . ﴾ .

الخير باعتبار المصالح الشرعية ، فقد يكون متعلق الحكم يستلزم مصلحة أرجح (من مصلحة أو مثلها ومعنى ﴿ نُنسِهَا ﴾ أي نؤخرها فتعجيل نسخها أو تأخير نزولها إنما هو لتعجيل الإتيان بما مصلحته أرجح) .

وفيه تأخير البيان إلى وقت الحاجة .

واحتج الفخر الرازي في المحصول بهذه الآية على جواز النسخ ووقوعه .

(112/62)

ورد عليه السراج في التحصيل بأنها قضية شرطية لا تدل على وقوع ولا على إمكان الوقوع كقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرحمن وَلَدٌ فَأَنَاْ أَوَّلُ العابدين ﴾ وأجاب عنه ابن الخطيب شمس الدين الجزري بأن الآية خرجت مخرج المدح ، والمدح لا يكون إلا بما (هو) واقع

بالفعل لأن الله تعالى قال : ﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

فقد أثنى على نفسه جل وعلا بذلك .

قال ابن عرفة : والتحقيق في هذا (أن) المدح دال على جواز النسخ وإمكانه لا وقوعه كما تقول : فلان قادر على أن يعطي ألف درهم وإن لم يعطها بالفعل ، فالمدح بذلك دال على أن إعطاءه غير محال بل هو ممكن سواء وقع بالفعل أم لم يقع .

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

قال ابن عطية : الهمزة (للتقرير) .

قال ابن عرفة : التقرير في حق المرضي عنه ليس (كالتقرير) في حق غيره .

قال : فإن كان خطابا للنبي صلى الله عليه وسلم فالمعادل محذوف تقديره : أم علمت ذلك ، وضعفه ابن عرفة وأبو حيان بأن المعادلة إنما يحتاج إليها إذا كان الاستفهام عن أمرين يكون المتكلم شاكا في أحدهما فيطلب تعيينه .

وأما إذا كان الإستفهام للتقرير فليس على هو حقيقته فلا يحتاج إلى المعادلة بوجه .

قال ابن عطية : وهو مخصوص بالقديم والمحال .

قال ابن عرفة : أما القديم فظاهر لأن القدرة لا تتعلق به ، وأما المحال (فلا) يتناوله اللّفظ (بوجه) ، لأنه ليس بشيء ولا سيما المحال عقلا .

ونقل بعض الطلبة عن شرح الأسماء الحسنى لابن (الدهاق) قولا بجواز تعلق القدرة بالمحال العقلي .

ورده ابن عرفة بقول الإرشاد : العقل علوم ضرورية لجواز الجائزات واستحالة المستحيلات قال : فيلزم سقوط هذا القسم ولا قائل به .

(113/62)

قال ابن عرفة : وتقدم لنا (في الخاتمة الأخرى) في الآية سؤال ، وهو أن النسخ تبديل آية بآية أو حكم شرعي بحكم شرعي ، والحكم الشرعي هو خطاب الله تعالى المتعلق بأفعال المكلفين ، وخطابه كلامه القديم الأزلي ، فهو راجع إلى الكلام القديم ، والقدرة لا تتعلق بالقديم بوجه ، وإنما تتعلق بالحادث فكيف حسن بعده أن يقال : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ؟ وأجيب بأنه نسخ ما ثبت وتقرر في الأذهان على سبيل اعتقاد الدّوام ، وقد تقرر في الأذهان دوام الحكم الشرعي الذي هو مضمون الكلام القديم ، فالنّسخ عبارة عن ارتفاعه .

وردّه ابن عرفة بأنّ ذلك الذي أنكر النسخ لم ينكره من حيث كونه تبديل اعتقاد باعتقاد ، وإنّما أنكره لكونه يلزم عليه (البداء) لأن الحكم الأول كان مرادا لله فيصير غير مراد له وهو

باطل .

(قال ابن عرفة : وإنّما عادتهم يجيبون عن السّؤال) بأنه لما كان المتبادر للذهن أنّ الشيء لا يرتفع إلا بثبوت نقيضه ، فإذا نسخ الحكم الشرعي المتضمن المصلحة إنما ينسخه حكم آخر يتضمن مفسدة فأخبر أن الله تعالى قادر على أن يصير الحكم الشرعي المتضمن للمصلحة ، متضمنا لمفسدة باعتبار الأزمان فيكون الحكم في زمن متضمنا للمصلحة ثم يعود في زمن آخر متضمنا للمفسدة ، (فحينئذ) ينسخه الله تعالى بحكم شرعي يتضمن مصلحة إما مثل الأولى أو أرجح منها .

قال ابن عرفة : وجاء الترتيب في الآية على أحسن وجه ، فبين أولا جواز تعلق القدرة بكل شيء ، ثم بين وقوع ذلك الجائز بقوله تعالى : ﴿ لَهُ مُلْكُ السماوات والأرض ﴾ ثم بين (بعده) أن ذلك خاص لا يشاركه فيه غيره بوجه .

وقال ابن عرفة : والملك/ عبارة عن أهلية التصرف العام في جميع الأمور من المتملك ، فمالك العبد ليس مالكا له حقيقة لأنه ليس له قتله ولا أن يضربه الضرب المبرح ، فحقيقة الملك إنما هو لله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عرفة حـ 1 صـ 390 . 395 ﴾

ومن فوائد ابن عطية فى الآية

قال رحمه الله :

وقوله تعالى : ﴿ ما ننسخ من آية أو ننسها ﴾ الآية ،

النسخ في كلام العرب على وجهين : أحدهما النقل كنقل كتاب من آخر ، والثاني الإزلة ، فأما الأول فلا مدخل له في هذه الآية ، وورد في كتاب الله تعالى في قوله تعالى : ﴿ إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون ﴾ [الجاثية : 29] ، وأما الثاني الذي هو الإزالة فهو الذي في هذه الآية ، وهو منقسم في اللغة على ضربين : أحدهما يثبت الناسخ بعد المنسوخ كقولهم نسخت الشمس الظل ، والآخر لا يثبت كقولهم " نسخت الريح الأثر " ، وورد النسخ في الشرع حسب هذين الضربين ، والناسخ حقيقة هو الله تعالى ، ويسمى الخطاب الشرعي ناسخاً إذ به يقع النسخ ، وحد الناسخ عند حذاق أهل السنة : الخطاب الدال على ارتفاع الحكم الثابت ، بالخطاب المتقدم على وجهٍ لولاه لكان ثابتاً مع تراخيه عنه .

والنسخ جائز على الله تعالى عقلاً لأنه ليس يلزم عنه محال ولا تغيير صفة من صفاته تعالى ، وليست الأوامر متعلقة بالإرادة فيلزم من النسخ أن الإرادة تغيرت ، ولا النسخ لطروّ علم ، بل الله تعالى يعلم إلى أي وقت ينتهي أمره بالحكم الأول ويعلم نسخه بالثاني . والبداء لا يجوز على الله تعالى لأنه لا يكونه إلا لطروّ علم أو لتغير إرادة ، وذلك محال في جهة الله تعالى ، وجعلت اليهود النسخ والبداء واحداً ، ولذلك لم يجوزوه فضلُّوا .

والمنسوخ عند أئمتنا : الحكم الثابت نفسه : لا ما ذهبت إليه المعتزلة ، من أنه مثل الحكم الثابت فيما يستقبل ، والذي قادهم إلى ذلك مذهبهم في أن الأوامر مرادة ، وأن الحسن صفة نفسية للحسن ، ومراد الله تعالى حسن ، وقد قامت الأدلة على أن الأوامر لا ترتبط بالإرادة ، وعلى أن الحسن القبح في الأحكام إنما هو من جهة الشرع لا بصفة نفسية .

(115/62)

والتخصيص من العموم يوهم أنه نسخ وليس به ، لأن المخصص لم يتناوله العموم قط ، ولو ثبت قطعاً تناول العموم لشيء ما ثم أخرج ذلك الشيء عن العموم لكان نسخاً لا تخصيصاً . والنسخ لا يجوز في الإخبار ، وإنما هو مختص بالأومر والنواهي ، وردّ بعض المعترضين الأمر خبراً بأن قال : أليس معناه : " واجب عليكم أن تفعلوا كذا " ؟ فهذا خبر ، والجواب أن يقال : إن في ضمن المعنى إلا أن أنسخه عنكم وأرفعه ، فكما تضمن لفظ الأمر ذلك الإخبار كذلك تضمن هذا الاستثناء .

وصور النسخ تختلف ، فقد ينسخ الأثقل إلى الأخف كنسخ الثبوت لعشرة بالثبوت لاثنين ، وقد ينسخ الأخف إلى الأثقل كنسخ يوم عاشوراء والأيام المعدودة برمضان ، وقد ينسخ المثل بمثلة ثقلاً وخفة كالقبلة ، وقد ينسخ الشيء لا إلى بدل كصدقة النجوى ، والنسخ التام

أن تنسخ التلاوة والحكم وذلك كثير ، ومنه قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه : "كنا نقرأ لا ترغبوا عن آبائكم فإنه كفر" ، وقد تنسخ التلاوة دون الحكم كآية الرجم ، وقد ينسخ الحكم دون التلاوة كصدقة النجوى ، وكقوله تعالى : ﴿ وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار فعاقبتم فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا ﴾ [الممتحنة : 11] ، والتلاوة والحكم حكمان ، فجائز نسخ أحدهما دون الآخر .

(116/62)

وينسخ القرآن بالقرآن ، والسنة بالسنة ، وهذه العبارة يراد بها الخبر المتواتر القطعي ، وينسخ خبر الواحد بخبر الواحد ، وهذا كله متفق عليه ، وحذاق الأئمة على أن القرآن ينسخ بالسنة ، وذلك موجود في قوله صلى الله عليه وسلم : "لا وصية لوارث" ، وهو ظاهر مسائل مالك رحمه الله ، وأبى ذلك الشافعي رحمه الله ، والحجة عليه من قوله إسقاطه الجلد في حد الزنى عن الثيب الذي يرجم ، فإنه لا مسقط لذلك إلا السنة . فعل النبي صلى الله عليه وسلم ، وكذلك حذاق الأئمة على أن السنة تنسخ بالقرآن ، وذلك موجود في القبلة فإن الصلاة إلى الشام لم تكن قط في كتاب الله ، وفي قوله تعالى : ﴿ فلا ترجعوهن إلى الكفار ﴾ [الممتحنة : 10] ، فإن رجوعهن إنما كان يصلح النبي صلى الله

عليه وسلم لقريش ، والحذاق على تجويز نسخ القرآن بخبر الواحد عقلاً ، واختلفوا هل وقع شرعاً ، فذهب أبو المعالي وغيره إلى وقوعه في نازلة مسجد قباء في التحول إلى القبلة ، وأبى ذلك قوم ، ولا يصح نسخ نص بقياس إذ من شروط القياس أن لا يخالف نصاً ، وهذا كله في مدة النبي صلى الله عليه وسلم ، وأما بعد موته واستقرار الشرع فأجمعت أنه لا نسخ .

ولهذا كان الإجماع لا ينسخ ولا ينسخ لأنه إنما ينعقد بعد النبي صلى عليه وسلم ، فإذا وجدنا إجماعاً يخالف نصاً فنعلم أن الإجماع استند إلى نص ناسخ لا نعلمه نحن .

وقال بعض المتكلمين : " النسخ الثابت مقرر في جهة كل أحد علم الناسخ أو لم يعلمه " ، والذي عليه الحذاق أنه من لم يبلغه الناسخ فهو متعبد بالحكم الأول ، فإذا بلغه الناسخ طرأ عليه حكم النسخ ، والحذاق على جواز نسخ الحكم قبل فعله ، وهو موجود في كتاب الله تعالى في قصة الذبيح .

(117/62)

وقرأ جمهور الناس " ما نَنْسخ " بفتح النون ، من نسخ ، وقرأت طائفة " نُنسخ " ، بضم النون من " أنسخ " ، وبها قرأ ابن عامر وحده من السبعة ، قال أبو علي الفارسي : ليست لغة

لأنه لا يقال نسخ وأنسخ بمعنى ، لا هي لتعدية لأن المعنى يجيء ما نكتب من آية أي ما ننزل فيجيء القرآن كله على هذا منسوخاً ، وليس الأمر كذلك ، فلم يبق إلا أن يكون المعنى ما نجده منسوخاً ، كما تقول : أحمدت الرجل وأبخلته بمعنى وجدته محموداً أو بخيلاً ، قال أبو علي : وليس نجده منسوخاً إلا بأن ننسخه فتتفق القراءتان في المعنى وإن اختلفتا في اللفظ .

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رحمه الله : وقد خرج قراءة هذه القراءة المعنى على وجهين أحدهما أن يكون المعنى ما نكتب وننزل من اللوح المحفوظ ، أو ما نؤخر فيه ونترك فلا ننزله أي ذلك فعلنا فإنا نأتي بخير من المؤخر المتروك أو بمثله ، فيجيء الضميران في ﴿ منها ﴾ و﴿ مثلها ﴾ عائدين على الضمير في ﴿ ننسها ﴾ ، والمعنى الآخر أن يكون ﴿ ننسخ ﴾ من النسخ بمعنى الإزالة ويكون التقدير ما ننسخك أي نبيح لك نسخه ، كأنه لما نسخها الله أباح لنبيه تركها بذلك النسخ ، فسمى تلك الإباحة إنساخاً ، و﴿ ما ﴾ شرطية وهي مفعولة ب ﴿ ننسخ ﴾ ، و﴿ ننسخ ﴾ جزم بالشرط .

واختلف القراء في قراءة قوله ﴿ ننسها ﴾ ، فقرأ نافع وحمزة والكسائي وعاصم وابن عامر وجمهور من الناس " نُنْسِها " بضم النون الأولى وسكون الثانية وكسر السين وترك الهمزة ، وهذه من أنسى المنقول من نسي ، وقرأت ذلك فرقة كما تقدم إلا أنها همزت بعد السين ، فهذه بمعنى التأخير ، تقول العرب أنسأت الدين وغيره أنسؤه إنساء إذا أخرته ، وقرأت طائفة " أو نَنْسَها " بفتح النون الأولى وسكون الثانية وفتح السين ، وهذه بمعنى الترك ، ذكرها مكي ولم ينسبها ، وذكرها أبو عبيد البكري في كتاب اللآلي عن سعد بن أبي وقاص ، وأراه وهمَ ، وقرأ سعد بن أبي وقاص " أو تَنْسَها " على مخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم ونون بعدها ساكنة وفتح السين ، هكذا قال أبو الفتح وأبو عمرو الداني ، فقيل لسعد إن سعيد بن المسيب يقرؤها بنون أولى مضمومة وسين مكسورة فقال : إن القرآن لم ينزل على المسيب ولا على آل المسيب ، وتلا

﴿ سنقرئك فلا تنسى ﴾ [الأعلى : 6] ، ﴿ واذكر ربك إذا نسيت ﴾ [الكهف : 24] ، وقرأ سعيد بن المسيب فيما ذكر عنه أيضاً " أو تُنْسَها " بضم التاء أولاً وفتح السين وسكون النون بينهما ، وهذه من النسيان ، وقرأ الضحاك بن مزاحم وأبو رجاء " نُنَسِّها " بضم النون الأولى وفتح الثانية وسين مكسورة مشددة ، وهذه أيضاً من النسيان .

وقرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه وابن عباس وإبراهيم النخعي وعطاء بن أبي رباح ومجاهد وعبيد ابن عمير وابن كثير وأبو عمرو " نَنْسَأها " بنون مفتوحة وأخرى بعدها ساكنة وسين مفتوحة وألف بعدها مهموزة ، وهذه من التأخير ، تقول العرب : نسأت الإبل عن الحوض أَنْسَؤُها نَسْأً أي أخرتها ، وكذلك يقال : أنسأ الإبل إذا زاد في ظمئها يوماً أو يومين أو أكثر من ذلك بمعنى أخرها عن الورد ، وقرأت فرقة مثل هذه القراءة إلا أنها بتاء مفتوحة أولاً على مخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم وإسناد الفعل إليه ، وقرأ أبو حيوة مثل ذلك إلا أنه ضم التاء أولاً ، وقرأ أبي بن كعب " أو نُنْسِك " بضم النون الأولى وسكون الثانية وسين مكسورة وكاف مخاطبة ، وفي مصحف سالم مولى أبي حذيفة " أو ننسكها " مثل قراءة أبيّ إلا أنه زاد ضمير الآية .

وقرأ الأعمش " ما ننسك من آية أو ننسخها نجىء بمثلها " وهكذا ثبتت في مصحف عبد الله بن مسعود .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله : وهذه القراءات لا تخلو كل واحدة منها أن تكون من النسء أو الإنساء بمعنى التأخير ، أو تكون من النسيان .

والنسيان في كلام العرب يجيء في الإغلب ضد الذكر ، وقد يجيء بمعنى الترك ، فالمعاني الثلاثة مقولة في هذه القراءات ، فما كان منها يترتب في لفظة النسيان الذي هو ضد الذكر .

فمعنى الآية : ما ننسخ من آية أو نقدر نسيانك لها فتنساها حتى ترتفع جملة وتذهب فإنا نأتي بما هو خير منها لكم أو مثله في المنفعة .

وما كان من هذه القراءات يحمل على معنى الترك فإن الآية معه تترتب فيها أربعة معان :

أحدها : ما ننسخ على وجوه النسخ أو نترك غير منزل عليك فإنا لا بد أن ننزل رفقاً بكم خيراً من ذلك أو مثله حتى لا ينقص الدين عن حد كماله .

والمعنى الثاني أو نترك تلاوته وإن رفعنا حكمه فيجيء النسخ على هذا رفع التلاوة والحكم .

(120/62)

والمعنى الثالث أو نترك حكمه وإن رفعنا تلاوته فالنسخ أيضاً ، على هذا رفع التلاوة والحكم .

والمعنى الرابع أو نتركها غير منسوخة الحكم ولا التلاوة ، فالنسخ على هذا المعنى هو على جميع وجوهه ، ويجيء الضميران في ﴿ منها أو مثلها ﴾ عائدين على المنسوخة فقط ، وكان الكلام إن نسخنا أو أبقينا فإنا نأتي بخير من المنسوخة أو مثلها .

وما كان من هذه القراءات يحمل على معنى التأخير فإن الآية معه تترتب فيها المعاني

الأربعة التي في الترك ، أولها ما ننسخ أو نؤخر إنزاله ، والثاني ما ننسخ النسخ الأكمل أو نؤخر حكمه وإن أبقينا تلاوته ، والثالث ما ننسخ النسخ الأكمل أو نؤخر تلاوته وإن أبقينا حكمه ، والرابع ما ننسخ أو نؤخره مثبتاً لا ننسخه ، ويعود الضميران كما ذكرنا في الترك ، وبعض هذه المعاني أقوى من بعض ، لكن ذكرنا جميعها لأنها تحتمل ، وقد قال " جميعها " العلماء إما نصاً وإما إشارة فكملناها .

وقال الزجاج : إن القراءة " أو نُنْسِها " بضم النون وسكون الثانية وكسر السين لا يتوجه فيها معنى الترك لأنه لا يقال أنسأ بمعنى ترك ، وقال أبو علي وغيره : ذلك متجه لأنه بمعنى نجعلك تتركها ، وكذلك ضعف الزجاج أن تحمل الآية على النسيان الذي هو ضد الذكر ، وقال : إن هذا لم يكن للنبي صلى الله عليه وسلم ولا نسي قرآناً ، وقال أبو علي وغيره : ذلك جائز وقد وقع ولا فرق بين أن ترفع الآية بنسخ أو بتنسئة ، واحتج الزجاج بقوله تعالى : ﴿ ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك ﴾ [الإسراء : 86] ، أي لم نفعل ، قال أبو علي معناه لم نذهب بالجميع .

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رحمه الله : على معنى إزالة النعمة كما توعد ، وقد حكى الطبري القول عن أقدم من الزجاج ، ورد عليه ، والصحيح في هذا أن نسيان النبي صلى الله عليه وسلم لما أراد الله ، تعالى أن ينساه ولم يرد أن يثبت قرآناً جائز .

فأما النسيان الذي هو آفة في البشر فالنبي صلى الله عليه وسلم معصوم منه قبل التبليغ وبعد التبليغ ما لم يحفظه أحد من أصحابه ، وأما بعد أن يحفظ فجائز عليه ما يجوز على البشر لأنه قد بلغ وأدى الأمانة ، ومنه الحديث حين أسقط آية ، فلما فرغ من الصلاة قال : أفي القوم أبيّ ؟ قال : نعم يا رسول الله ، قال : فلم لم تذكرني ؟ قال : حسبت أنها رفعت ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لم ترفع ولكني نسيتها .

ولفظة خير في الآية صفة تفضيل ، والمعنى بأنفع لكم أيها الناس في عاجل إن كانت الناسخة أخف ، وفي آجل إن كانت أثقل ، وبمثلها إن كانت مستوية ، وقال قوم " خير " في الآية مصدر و" من " لابتداء الغاية .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله : ويقلق هذا القول لقوله تعالى ﴿ أو مثلها ﴾ إلا أن يعطف المثل على الضمير في ﴿ منها ﴾ دون إعادة حرف الجر ، وذلك معترض .

وقوله تعالى : ﴿ ألم تعلم أن ﴾ ظاهره الاستفهام ومعناه التقرير ، والتقرير محتاج إلى معادل كالاستفهام المحض ، فالمعادل هنا على قول جماعة ﴿ أم تريدون ﴾ [البقرة : 18] ، وقال قوم ﴿ أم ﴾ هنا منقطعة ، فالمعادل على قولهم محذوف تقديره أم علمتم ، وهذا كله على أن القصد بمخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم مخاطبة أمته ، وأما إن كان هو المخاطب وحده فالمعادل محذوف لا غير ، وكلا القولين مروي .

ومعنى الآية أن الله تعالى ينسخ ما يشاء ويثبت ما يشاء ويفعل في أحكامه ما يشاء ، هو قدير على ذلك وعلى كل شيء ، وهذا لإنكار اليهود النسخ .

وقوله تعالى ﴿ على كل شيء ﴾ لفظ عموم معناه الخصوص ، إذ لم تدخل فيه الصفات القديمة بدلالة العقل ولا المحالات لأنها ليست بأشياء ، والشيء في كلام الموجود ، و﴿ قدير ﴾ اسم فاعل على المبالغة من " قَدَر " بفتح العين " يقدِر " بكسرها . ومن العرب من يقول قَدِرَ بكسر العين يقدَر بفتحها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 1 صـ 190 . 194 ﴾

(122/62)

ومن فوائد الإمام القرطبى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (106) ﴾

فيه خمس عشرة مسألة :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا ﴾ " نُنْسِها " عطف على " ننسخ " ،

وحذفت الياء للجزم.

ومن قرأ "نَنْسَأْها" حذف الضمة من الهمزة للجزم؛ وسيأتي معناه.

﴿ نَأْتِ ﴾ جواب الشرط، وهذه آية عظمى في الأحكام.

وسببها أن اليهود لما حسدوا المسلمين في التوجّه إلى الكعبة وطعنوا في الإسلام بذلك، وقالوا: إن محمداً يأمر أصحابه بشيء ثم ينهاهم عنه؛ فما كان هذا القرآن إلا من جهته، ولهذا يناقض بعضه بعضاً؛ فأنزل الله: ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ ﴾ [النحل: 101] وأنزل "مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ".

الثانية: معرفة هذا الباب أكيدة وفائدته عظيمة، لا يستغني عن معرفته العلماء، ولا ينكره إلا الجهلة الأغبياء؛ لما يترتّب عليه من النوازل في الأحكام، ومعرفة الحلال من الحرام.

روى أبو البَخْتَرِيّ قال: دخل عليّ رضي الله عنه المسجد فإذا رجل يخوّف الناس؛ فقال: ما هذا؟ قالوا: رجل يُذكّر الناس؛ فقال: ليس برجل يذكّر الناس! لكنه يقول أنا فلان ابن فلان فاعرفوني، فأرسل إليه فقال: أتعرف الناسخ من المنسوخ؟! فقال: لا؛ قال: فاخرج من مسجدنا ولا تُذكّر فيه.

وفي رواية أُخرى: أعلمتَ الناسخ والمنسوخ؟ قال: لا؛ قال: هلكتَ وأهلكت.

ومثله عن ابن عباس رضي الله عنهما.

الثالثة: النسخ في كلام العرب على وجهين:

أحدهما : النقل ؛ كنقل كتاب من آخر .

وعلى هذا يكون القرآن كله منسوخاً ؛ أعني من اللوح المحفوظ وإنزاله إلى بيت العِزّة في السماء الدنيا ؛ وهذا لا مدخل له في هذه الآية ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الجاثية : 29] أي نأمر بنسخه وإثباته .

(123/62)

الثاني : الإبطال والإزالة ، وهو المقصود هنا ؛ وهو منقسم في اللغة على ضربين :

أحدهما : إبطال الشيء وزواله وإقامة آخر مقامه ؛ ومنه نسخَتِ الشمسُ الظلَّ إذا أذهبته وحلّت محله ؛ وهو معنى قوله تعالى : ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا ﴾ .

وفي صحيح مسلم : " لم تكن نبوّة قطّ إلا تناسخت " أي تحوّلت من حال إلى حال ؛ يعني أمر الأمّة .

قال ابن فارس : النّسخ نسخ الكتاب ، والنّسخ أن تزيل أمراً كان من قبل يُعمل به ثم تنسخه بحادث غيره ؛ كالآية تنزل بأمر ثم ينسخ بأخرى .

وكلّ شيء خلف شيئاً فقد انتسخه ؛ يقال : انتسخت الشمسُ الظلَّ ، والشيبُ

الشبابَ.

وتناسُخِ الورثة: أن تموت ورثة بعد ورثة وأصل الميراث قائم لم يقسم؛ وكذلك تناسُخِ الأزمنة والقرون.

الثاني: إزالة الشيء دون أن يقوم آخر مقامه؛ كقولهم: نسخت الريح الأثر؛ ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ فَيَنسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشيطان ﴾ [الحج: 52] أي يزيله فلا يتلى ولا يثبت في المصحف بدله.

وزعم أبو عبيد أن هذا النسخ الثاني قد كان ينزل على النبيّ صلى الله عليه وسلم السورة فتُرفع فلا تُتلى ولا تُكتب.

قلت: ومنه ما روي عن أُبيّ بن كعب وعائشة رضي الله عنهما أن سورة "الأحزاب" كانت تعدل سورة البقرة في الطول؛ على ما يأتي مبيّناً هناك إن شاء الله تعالى.

(124/62)

ومما يدل على هذا ما ذكره أبو بكر الأنباري حدّثنا أبي حدّثنا نصر بن داود حدّثنا أبو عبيد حدّثنا عبد اللَّه بن صالح عن اللّيث عن يونس وعقيل عن ابن شهاب قال: حدّثني أبو أمامة بن سهل ابن حُنيف في مجلس سعيد بن المسيّب "أن رجلاً قام من الليل ليقرأ

سورة من القرآن فلم يقدر على شيء منها ، وقام آخر فلم يقدر على شيء منها ، وقام آخر فلم يقدر على شيء منها ؛ فغدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال أحدهم : قمتُ الليلة يا رسول الله لأقرأ سورة من القرآن فلم أقدر على شيء منها ؛ فقام الآخر فقال : وأنا والله كذلك يا رسول الله ؛ فقام الآخر فقال : وأنا والله كذلك يا رسول الله ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنها مما نَسخ الله البارحة " وفي إحدى الروايات : وسعيد بن المسيّب يسمع ما يحدّث به أبو أمامة فلا ينكره .

الرابعة : أنكرت طوائف من المنتمين للإسلام المتأخرين جوازه ؛ وهم محجوجون بإجماع السَّلف السابق على وقوعه في الشريعة .

وأنكرته أيضاً طوائف من اليهود ؛ وهم محجوجون بما جاء في توراتهم بزعمهم أن الله تعالى قال لنوح عليه السلام عند خروجه من السفينة : إني قد جعلت كل دابة مأكلاً لك ولذريّتك ، وأطلقت ذلك لكم كنبات العُشْب ، ما خلا الدّم فلا تأكلوه .

ثم قد حرّم على موسى وعلى بني إسرائيل كثيراً من الحيوان ؛ وبما كان آدم عليه السلام يزوّج الأخ من الأخت ؛ وقد حرم الله ذلك على موسى عليه السلام وعلى غيره ، وبأن إبراهيم الخليل أمر بذبح ابنه ثم قال له : لا تذبحه ؛ وبأن موسى أمر بني إسرائيل أن يقتلوا من عَبَد منهم العجل ، ثم أمرهم برفع السيف عنهم ؛ وبأن نبوّته غير متعبَّد بها قبل بعثه ؛ ثم تُعبّد بها بعد ذلك ، إلى غير ذلك .

وليس هذا من باب البداء بل هو نقل العباد من عبادة إلى عبادة ، وحكم إلى حكم ؛ لضربٍ من المصلحة ، إظهاراً لحكمته وكمال مملكته .

(125/62)

ولا خلاف بين العقلاء أن شرائع الأنبياء قُصد بها مصالح الخلق الدّينية والدنيويّة ؛ وإنما كان يلزم البداء لو لم يكن عالماً بمآل الأمور ؛ وأما العالم بذلك فإنما تتبدّل خطاباته بحسب تبدّل المصالح ؛ كالطبيب المراعي أحوال العليل ؛ فراعى ذلك في خليقته بمشيئته وإرادته ، لا إله إلا هو ؛ فخطابه يتبدّل ، وعلمه وإرادته لا تتغيّر ، فإن ذلك محال في جهة الله تعالى .

وجعلت اليهود النسخ والبداء شيئاً واحداً ؛ ولذلك لم يجوّزوه فضلّوا .

قال النحاس : والفرق بين النسخ والبداء أن النسخ تحويل العبادة من شيء إلى شيء قد كان حلالاً فيحرّم ، أو كان حراماً فيُحلَّل .

وأما البداء فهو ترك ما عزم عليه ؛ كقولك : امض إلى فلان اليوم ؛ ثم تقول لا تمض إليه ؛ فيبدو لك العدول عن القول الأوّل ؛ وهذا يلحق البشر لنقصانهم .

وكذلك إن قلت : ازرع كذا في هذه السنة ؛ ثم قلت : لا تفعل ؛ فهو البداء .

الخامسة : اعلم أن الناسخ على الحقيقة هو الله تعالى ، ويسمَّى الخطاب الشرعي ناسخاً

تجوّزاً ، إذ به يقع النسخ ، كما قد يتجوّز فيسمّى المحكوم فيه ناسخاً ، فيقال : صوم رمضان ناسخ لصوم عاشوراء ؛ فالمنسوخ هو المزال ، والمنسوخ عنه هو المتعبَّد بالعبادة المزالة ، وهو المكلَّف .

السادسة : اختلفت عبارات أئمتنا في حدّ الناسخ ؛ فالذي عليه الحُذَّاق من أهل السُّنة أنه إزالة ما قد استقرّ من الحكم الشرعي بخطاب وارد متراخياً ؛ هكذا حدّه القاضي عبد الوهاب والقاضي أبو بكر ، وزادا : لولاه لكان السابق ثابتاً ؛ فحافظا على معنى النسخ اللغوي ، إذ هو بمعنى الرفع والإزالة ، وتحرّزاً من الحكم العقلي ، وذكر الخطاب ليعم وجوه الدلالة من النص والظاهر والمفهوم وغيره ؛ وليخرج القياس والإجماع ، إذ لا يتصوّر النسخ فيهما ولا بهما .

وقيّدا بالتراخي ؛ لأنه لو اتصل به لكان بياناً لغاية الحكم لا ناسخاً ، أو يكون آخر الكلام يرفع أوّله ؛ كقولك : قم لا تقم .

(126/62)

السابعة : المنسوخ عند أئمتنا أهل السُّنة هو الحكم الثابت نفسه لا مثله ؛ كما تقوله المعتزلة بأنه الخطاب الدال على أن مثل الحكم الثابت فيما يستقبل بالنص المتقدّم زائل .

والذي قادهم إلى ذلك مذهبهم في أن الأوامر مرادة ، وأن الحس صفة نفسيّة للحسن ، ومراد الله حَسَن ؛ وهذا قد أبطله علماؤنا في كتبهم .

الثامنة : اختلف علماؤنا في الأخبار هل يدخلها النسخ ؛ فالجمهور على أن النسخ إنما هو مختص بالأوامر والنواهي ، والخبر لا يدخله النسخ لاستحالة الكذب على الله تعالى .

وقيل : إن الخبر إذا تضمّن حكماً شرعياً جاز نسخه ؛ كقوله تعالى : ﴿ وَمِن ثَمَرَاتِ النخيل والأعناب تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً ﴾ [النحل : 67] .

وهناك يأتي القول فيه إن شاء الله تعالى .

التاسعة : التخصيص من العموم يُوهِم أنه نسخ وليس به ؛ لأن المخصّص لم يتناوله العموم قطّ ، ولو ثبت تناول العموم لشيء مّا ثم أخرج ذلك الشيء عن العموم لكان نسخاً لا تخصيصاً ؛ والمتقدّمون يطلقون على التخصيص نسخاً تَوَسُّعاً ومجازاً .

العاشرة : اعلم أنه قد يرد في الشرع أخبار ظاهرها الإطلاق والاستغراق ؛ ويرِد تقييدها في موضع آخر فيرتفع ذلك الإطلاق ؛ كقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الداع إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة : 186] .

فهذا الحكم ظاهره خبر عن إجابة كل داعٍ على كل حال ؛ لكن قد جاء ما قيّده في موضع آخر ؛ كقوله :

﴿ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَآءَ ﴾ [الأنعام : 41] .

فقد يظنّ من لا بصيرة عنده أن هذا من باب النسخ في الأخبار وليس كذلك ، بل هو من باب الإطلاق والتقييد .

وسيأتي لهذه المسألة زيادة بيان في موضعها إن شاء الله تعالى .

الحادية عشرة : قال علماؤنا رحمهم الله تعالى : جائز نسخ الأثقل إلى الأخف ؛ كنسخ الثبوت لعشرة بالثبوت لاثنين .

(127/62)

ويجوز نسخ الأخف إلى الأثقل ؛ كنسخ يوم عاشوراء والأيام المعدودة برمضان ؛ على ما يأتي بيانه في آية الصيام .

ويُنْسَخ المِثْل بمِثْله ثِقلاً وخِفة ، كالقِبلة .

ويُنسخ الشيء لا إلى بدل كصدقة النَّجْوَى .

ويُنسخ القرآن بالقرآن .

والسُّنة بالعِبارة ؛ وهذه العِبارة يراد بها الخبر المتواتر القطعي .

ويُنسخ خبر الواحد بخبر الواحد .

وحُذّاق الأئمة على أن القرآن يُنسخ بالسُّنة ، وذلك موجود في قوله عليه السلام : " لا

وصية لوارث " وهو ظاهر مسائل مالك .

وأَبى ذلك الشافعي وأبو الفرج المالكي ؛ والأوّل أصح ، بدليل أن الكل حكم الله تعالى ومن عنده وإن اختلفت في الأسماء .

وأيضاً فإن الجلد ساقط في حدّ الزنى عن الثيّب الذي يُرجم ، ولا مسقط لذلك إلا السُّنة فعل النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وهذا بيّن .

والحذّاق أيضاً على أن السُّنة تنسخ بالقرآن وذلك موجود في القِبلة ، فإن الصلاة إلى الشام لم تكن في كتاب الله تعالى .

وفي قوله تعالى : ﴿ فَلاَ تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الكفار ﴾ [الممتحنة : 10] فإن رجوعهن إنما كان بصلح النبيّ صلى الله عليه وسلم لقريش .

والحذّاق على تجويز نسخ القرآن بخبر الواحد عقلاً ، واختلفوا هل وقع شرعاً ؛ فذهب أبو المعالي وغيره إلى وقوعه في نازلة مسجد قُبَاء ، على ما يأتي بيانه ؛ وأبى ذلك قوم .

ولا يصح نسخ نصّ بقياس ؛ إذ من شروط القياس ألا يخالِف نصًّا .

وهذا كله في مدّة النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وأما بعد موته واستقرار الشريعة فأجمعت الأمّة أنه لا نسخ ؛ ولهذا كان الإجماع لا ينسخ ولا يُنسخ به إذ انعقاده بعد انقطاع الوحي ؛ فإذا وجدنا إجماعاً يخالف نصاً فيُعلم أن الإجماع استند إلى نص ناسخ لا نعلمه نحن ، وأن ذلك النصّ المخالف متروك العمل به ، وأن مقتضاه نُسخ وبقي سنة يُقرأ ويُروى ؛ كما آية

عدّة السَّنة في القرآن تُتْلَى ؛ فتأمّل هذا فإنه نفيس ، ويكون من باب نسخ الحكم دون التلاوة ؛ ومثله صدقة النَّجْوَى .

(128/62)

وقد تُنسخ التلاوة دون الحكم كآية الرجم .

وقد تُنسخ التلاوة والحكم معاً ؛ ومنه قول الصدّيق رضي الله عنه : كنا نقرأ " لا ترغبوا عن آبائكم فإنه كفر " ومثله كثير .

والذي عليه الحُذّاق أن من لم يبلغه الناسخ فهو متعبّد بالحكم الأوّل ؛ كما يأتي بيانه في تحويل القبلة .

والحُذّاق على جواز نسخ الحُكم قبل فعله ، وهو موجود في قصة الذبيح ، وفي فرض خمسين صلاة قبل فعلها بخمس ؛ على ما يأتي بيانه في " الإسراء " و " الصافات " ، إن شاء الله تعالى .

الثانية عشرة : لمعرفة الناسخ طُرُق ؛ منها : أن يكون في اللفظ ما يدل عليه ؛ كقوله عليه السلام : " كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها ونهيتكم عن الأشربة إلا في ظروف الأَدم فاشربوا في كل وعاء غير ألاّ تشربوا مُسْكِراً " ونحوه .

ومنها أن يذكر الراوي التاريخ ؛ مثل أن يقول : سمعت عام الخَنْدق ، وكان المنسوخ معلوماً قبله .

أو يقول : نُسخ حكم كذا بكذا .

ومنها أن تجمع الأمة على حُكم أنه منسوخ وأن ناسخه متقدّم .

وهذا الباب مبسوط في أصول الفقه ، نبّهنا منه على ما فيه لمن اقتصر كفاية ، والله الموفّق للهداية .

الثالثة عشرة : قرأ الجمهور " مَا نَنْسَخ" بفتح النون ، من نَسَخ ، وهو الظاهر المستعمل على معنى : ما نرفع من حكم آية ونُبقي تلاوتها ؛ كما تقدّم .

ويحتمل أن يكون المعنى : ما نرفع من حكم آية وتلاوتها ؛ على ما ذكرناه .

وقرأ ابن عامر " نُنسخ" بضم النون ، من أنسخت الكتاب ؛ على معنى وجدته منسوخاً .

قال أبو حاتم : هو غلط .

وقال الفارسي أبو عليّ : ليست لغة ؛ لأنه لا يقال : نَسَخ وأنسخ بمعنىً ، إلا أن يكون المعنى ما نجده منسوخاً ؛ كما تقول : أحمدت الرجل وأبخلته ، بمعنى وجدته محموداً وبخيلاً .

قال أبو عليّ : وليس نجده منسوخاً إلا بأن ننسخه ، فتتفق القراءتان في المعنى وإن اختلفتا في اللفظ .

وقيل : " ما ننسخ" ما نجعل لك نسخه ؛ يقال : نسخت الكتاب إذا كتبته ، وانتسخته غيري إذا جعلت نسخة له .

(129/62)

قال مَكيّ : ولا يجوز أن تكون الهمزة للتعدّي ؛ لأن المعنى يتغيّر ، ويصير المعنى ما ننسخك من آية يا محمد ؛ وإنساخه إياها إنزالها عليه ، فيصير المعنى ما ننزل عليك من آية أو ننسِها نأت بخير منها أو مثلها ، فيؤول المعنى إلى أن كل آية أنزلت أتى بخير منها ؛ فيصير القرآن كله منسوخاً وهذا لا يمكن ؛ لأنه لم يُنسخ إلا اليسير من القرآن .

فلما امتنع أن يكون أفعل وفَعَل بمعنىً إذ لم يسمع ، وامتنع أن تكون الهمزة للتعدّي لفساد المعنى ، لم يبق ممكن إلا أن يكون من باب أحمدته وأبخلته إذا وجدته محموداً أو بخيلاً .

الرابعة عشرة : قوله تعالى : ﴿ أَوْ نُنسِهَا ﴾ قرأ أبو عمرو وابن كَثير بفتح النون والسين والهمز ، وبه قرأ عمر وابن عباس وعطاء ومجاهد وأُبَيّ بن كعب وعبيد بن عُمير والنَّخعِيّ وابن مُحَيْصِن ، من التأخير ؛ أي نؤخّر نسخ لفظها ، أي نتركه في آخر أم الكتاب فلا يكون . وهذا قول عطاء .

وقال غير عطاء : معنى أو ننسأها : نؤخرها عن النسخ إلى وقت معلوم ؛ من قولهم :

نسأت هذا الأمر إذا أخرته ؛ ومن ذلك قولهم : بعته نَسْأً إذا أخّرته .

قال ابن فارس : ويقولون : نسأ الله في أجلك ، وأنسأ الله أجلك .

وقد انتسأ القوم إذا تأخّروا وتباعدوا ، ونسأتهم أنا أخرتهم .

فالمعنى نؤخّر نزولها أو نسخها على ما ذكرنا .

وقيل : نذهبها عنكم حتى لا تقرأ ولا تذكر .

وقرأ الباقون " ننسها " بضم النون ، من النسيان الذي بمعنى الترك ، أي نتركها فلا نبدّلها ولا نسخها ؛ قاله ابن عباس والسُّدى ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ نَسُواْ اللهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ [التوبة : 67] أي تركوا عبادته فتركهم في العذاب .

(130/62)

واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم ، قال أبو عبيد : سمعت أبا نُعيم القارىء يقول : قرأت على النبيّ صلى الله عليه وسلم في المنام بقراءة أبي عمرو فلم يغيّر عليّ إلا حرفين ؛ قال : قرأت عليه " أَرْنا " فقال : أَرِنا ؛ فقال أبو عبيد : وأحسب الحرف الآخر " أو ننسأها " فقال : " أو ننسها " .

وحكى الأزهري " ننسها " نأمر بتركها ؛ يقال : أنسيته الشيء أي أمرت بتركه ؛ ونسيته

تركته ؛ قال الشاعر :

إن عليّ عُقْبة أقضِيها . . .

لستُ بناسِيها ولا مُنْسِيها

أي ولا آمر بتركها .

وقال الزجاج : إن القراءة بضم النون لا يتوجّه فيها معنى الترك ؛ لا يقال : أنسى بمعنى ترك ، وما روى عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس " أو ننسها " قال : نتركها لانبدّلها ؛ فلا يصح .

ولعل ابن عباس قال : نتركها ؛ فلم يضبط .

والذي عليه أكثر أهل اللغة والنظر أن معنى " أو ننسها " نبح لكم تركها ؛ من نسى إذا ترك ، ثم تعدّيه .

وقال أبو عليّ وغيره : ذلك مُتّجه ؛ لأنه بمعنى نجعلك تتركها .

وقيل : من النسيان على بابه الذي هو عدم الذكر ، على معنى أو ننسكها يا محمد فلا تذكرها ؛ نقل بالهمز فتعدّى الفعل إلى مفعولين : وهما النبيّ والهاء ، لكن اسم النبيّ محذوف .

الخامسة عشرة : قوله تعالى : ﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا ﴾ لفظة " بخير " هنا صفة تفضيل ؛ والمعنى بأنفع لكم أيها الناس في عاجلٍ إن كانت الناسخة أخف ، وفي آجلٍ إن كانت أثقل ، وبمثلها إن كانت مستوية .

وقال مالك : مُحْكَمة مكان منسوخة .

وقيل : ليس المراد بأخير التفضيل ؛ لأن كلام الله لا يتفاضل ، وإنما هو مثل قوله : ﴿ مَن جَآءَ بالحسنة فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا ﴾ [النمل : 89] أي فله منها خير ، أي نفع وأجر ، لا الخير الذي هو بمعنى الأفضل ، ويدلّ على القول الأوّل قوله : " أو مِثْلِها " . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 1 صـ 69.61 ﴾

(131/62)

ومن فوائد البيضاوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا ﴾ نزلت لما قال المشركون أو اليهود : ألا ترون إلى محمد يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه ويأمر بخلافه . والنسخ في اللغة : إزالة الصورة عن الشيء وإثباتها في غيره ، كنسخ الظل للشمس والنقل ، ومنه التناسخ . ثم استعمل لكل واحد منهما كقولك : نسخت الريح الأثر ، ونسخت الكتاب . ونسخ الآية بيان انتهاء التعبد بقراءتها ، أو الحكم المستفاد منها ، أو بهما جميعاً . وإنساؤها إذهابها عن القلوب ، وما شرطية جازمة لننسخ منتصبة به على المفعولية . وقرأ ابن عامر ما ننسخ من أنسخ أي

نأمرك أو جبريل بنسخها ، أو نجدها منسوخة . وابن كثير وأبو عمرو " ننسأها " أي نؤخرها من النسء . وقرىء " ننسها " أي ننس أحداً إياها ، و" ننسها " أي أنت ، و" تنسها " على البناء للمفعول ، و" ننسكها " بإضمار المفعولين ﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ﴾ أي بما هو خير للعباد في النفع والثواب ، أو مثلها في الثواب . وقرأ أبو عمرو بقلب الهمزة ألفاً . ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فيقدر على النسخ والإتيان بمثل المنسوخ ، أو بما هو خير منه . والآية دلت على جواز النسخ وتأخير الإنزال إذ الأصل اختصاص أن وما يتضمنها بالأمور المحتملة ، وذلك لأن الأحكام شرعت ، والآيات نزلت لمصالح العباد وتكميل نفوسهم فضلاً من الله ورحمة ، وذلك يختلف باختلاف الأعصار والأشخاص ، كأسباب المعاش فإن النافع في عصر قد يضر في عصر غيره . واحتج بها من منع النسخ بلا بدل ، أو ببدل أثقل . ونسخ الكتاب بالسنة ، فإن الناسخ هو المأتي به بدلاً والسنة ليست كذلك والكل ضعيف ، إذ قد يكون عدم الحكم ، أو الأثقل أصلح . والنسخ قد يعرف بغيره ، والسنة مما أتى به الله تعالى ، وليس المراد بالخير والمثل ما يكون كذلك في اللفظ . والمعتزلة على حدوث القرآن فإن التغير والتفاوت من لوازمه . وأجيب : بأنهما من عوارض الأمور المتعلقة بالمعنى القائم بالذات القديم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 1 صـ 377.379 ﴾

ومن فوائد الخازن فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله عز وجل : ﴿ ما ننسخ من آية أو ننسها ﴾ الآية .

وسبب نزولها أن المشركين قالوا : إن محمداً يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه ويأمرهم بخلافه ويقول : اليوم قولاً ويرجع عنه غداً ما يقول : إلا من تلقاء نفسه كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله : ﴿ إذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما انت مفتر ﴾ فأنزل ما ننسخ من آية فبين بهذه الآية وجه الحكمة في النسخ وأنه من عنده لا من عند محمد صلى الله عليه وسلم .

وأصل النسخ في اللغة يكون بمعنى النقل والتحويل ومنه نسخ الكتاب ، وهو أن ينقل من كتاب إلى كتاب آخر كذلك لا يقتضي إزالة الصورة الأولى بل يقتضي إثبات مثله في كتاب آخر ، فعلى هذا المعنى يكون القرآن كله منسوخاً ، وذلك أنه نسه من اللوح المحفوظ ونزل جملة واحدة إلى سماء الدنيا ، ويكون النسخ بمعنى الرفع والإزالة وهو إزالة شيء بشيء يعقبه كنسخ الشمس الظل ، والشيب الشباب فعلى هذا المعنى يكون بعض القرآن منسوخاً وبعضه ناسخاً ، وهو المراد من حكم هذه الآية وهو إزالة الحكم بحكم يعقبه .

فصل في حكم النسخ :

هو في اصطلاح العلماء ، عبارة عن رفع الحكم الشرعي بدليل شرعي متأخر عنه ، والنسخ جائز عقلاً وواقع سمعاً خلافاً لليهود ، فإن منهم من ينكره عقلاً لكنه منعه سمعاً ، وشذت طائفة قليلة من المسلمين فأنكرت النسخ احتج الجمهور من المسلمين على جواز النسخ ، ووقوعه بأن الدلائل قد دلت على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ونبوته لا تصح ، إلا مع القول ، بالنسخ وهو نسخ شرع من قبله فوجب القطع بالنسخ .

(133/62)

ولنا على اليهود إلزامات : منها أن الله تعالى حرم عليهم العمل في يوم السبت ، ولم يحرمه على من كان قبلهم ، ومنها أنه قد جاء في التوراة أن الله تعالى قال لنوح عليه الصلاة والسلام عند خروجه من الفلك : إني جعلت كل دابة مأكولاً لك ولذريتك وأطلقت ذلك لكم . ثم إنه تعالى حرم على موسى عليه الصلاة والسلام وعلى بني إسرائيل كثيراً من الحيوانات . ومنها إن آدم عليه الصلاة والسلام كان يزوج الأخ للأخت وقد حرمه على من بعده وعلى موسى عليه الصلاة والسلام فثبت بهذا جواز النسخ ، وحيث ثبت جواز النسخ فقد اختلفوا فيه على وجوه : أحدها أن القرآن نسخ جميع الشرائع والكتب القديمة كالتوراة والإنجيل وغيرهما .

الوجه الثاني المراد من النسخ هو نسخ القرآن ونقله من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا الوجه الثالث ، وهو الصحيح الذي عليه جمهور العلماء أن المراد من النسخ هو رفع حكم بعض الآيات بدليل آخر يأتي بعده وهو المراد بقوله تعالى : ﴿ ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ﴾ لأن الآية إذ أطلقت ، فالمراد به آيات القرآن لأنه هو المعهود عندنا .

مسألة : قال الشافعي رضي الله عنه الكتاب لا ينسخ بالسنة المتواترة ، واستدل بهذه الآية وهو أنه تعالى قال : ﴿ ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ﴾ وذلك يفيد أنه تعالى هو الآتي والمؤتي به هو من جنس القرآن ، وما كان من جنس القرآن فهو قرآن .

وقوله : نأت بخير منها يفيد أنه هو المنفرد بالإتيان بذلك الخير ، وهو القرآن الذي هو كلام الله دون السنة ولأن السنة لا تكون خيراً من القرآن ولا مثله .

واحتج الجمهور على جواز نسخ الكتاب بالسنة بأن آية الوصية للاقربين منسوخة بقوله صلى الله عليه وسلم : " لا وصية لوارث " أجاب الشافعي رضي الله عنه : بأن هذا ضعيف لأن كون الميراث حقاً للوارث يمنع من صرفه إلى الوصية فثبت أن آية الميراث مانعة من الوصية ، وتقرير هذا وبسطه معروف في أصول الفقه .

ثم النسخ في القرآن على وجوه : أحدها ما رفع حكمه وتلاوته كما روى عن أبي إمامة بن سهل : أن قوماً من الصحابة قاموا ليلة ليقرؤوا سورة فلم يذكروا منها إلا بسم الله الرحمن الرحيم ، فغدوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبروه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " تلك السورة رفعت بتلاوتها وحكمها " أخرجه البغوي بغير سند .

وقيل : إن سورة الأحزاب كانت مثل سورة البقرة فرفع بعضها تلاوة وحكماً .

الوجه الثاني ، ما رفع تلاوته وبقي حكمه مثل آية الرجم روي عن ابن عباس قال : قال عمر بن الخطاب وهو جالس على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله بعث محمداً بالحق ، وأنزل عليه الكتاب فكان فيما أنزل عليه آية الرجم فقرأناها ، ووعيناها وعقلناها ورجم رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجمنا بعده فأخشى إن طال بالناس زمان أن يقول قائل : ما نجد الرجم في كتاب الله فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله ، وإن الرجم في كتاب الله حق على من زنى إذا أحصن من الرجال والنساء ، إذا قامت البينة أو كان الحبل أو الاعتراف . أخرجه مسلم وللبخاري نحوه .

والوجه الثالث ما رفع حكمه وثبت خطه وتلاوته وهو كثير في القرآن ، مثل آية الوصية للأقربين نسخت بآية الميراث عند الشافعي وبالسنة عند غيره وآية عدة الوفاة بالحول ، نسخت بآية أربعة أشهر وعشراً وآية القتال وهي قوله : ﴿ إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ﴾ الآية نسخت بقوله : ﴿ الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم

ضعفاً ﴾ الآية ومثل هذا كثير في القرآن .

وأما معنى الآية فقوله : ما ننسخ من آية أي نرفعها أو نرفع حكمها أو ننسها قرئ بضم النون وكسر السين ، ومعناها نثبتها على قلبك وقال ابن عباس : نتركها لا ننسخها .

(135/62)

وقيل : معناه نأمر بتركها فعلى هذا يكون النسخ الأول رفع الحكم ، وإقامة غيره مقامه والإنساء نسخ من غير إقامة غيره وقرئ ننسأها بفتح النون والسين وبالهمزة ومعناها : نؤخرها فلا ننزلها أو نرفع تلاوتها ونؤخر حكمها كآية الرجم فعلى هذا يكون النسخ الأول بمعنى رفع التلاوة ، والحكم قال سعيد بن المسيب وعطاء : ما ننسخ من آية فهو ما نزل من القرآن جعلاه من نسخت الكتاب إذا نقلته إلى كتاب آخر وننسأها أن نؤخرها ونتركها في اللوح المحفوظ فلا ننزلها ﴿ نأت بخير منها ﴾ أي بما هو أنفع لكم وأسهل عليكم وأكثر لأجوركم وليس معناه ان آية خير من آية لأن كلام الله تعالى كله واحد ﴿ أو مثلها ﴾ أي في المنفعة والثواب فما نسخ إلى الأيسر كان أسهل في العمل كالذي كان على المؤمنين من فرض قيام الليل ، ثم نسخ ذلك فكان خيراً لهم في عاجلهم لسقوط التعب والمشقة عليهم ، وما نسخ إلى الأشق كان أكمل في الثواب كالذي كان عليهم من صيام أيام معدودات في

السنة فنسخ ذلك ، وفرض صيام شهر رمضان فكان صوم شهر كامل في السنة أثقل على الأبدان ، وأشق من صيام أيام معدودات فكان ثوابه أكمل وأكثر .

أما المثل فكنسخ التوجه إلى بيت المقدس ، وصرفه إلى المسجد الحرام واستواء الأجر في ذلك لأن على المصلي التوجه إلى حيث أمره الله تعالى : ﴿ ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير ﴾ أي على النسخ والتبديل ، والمعنى ألم تعلم يا محمد أني قادر على تعويضك مما نسخت من أحكامي ، وغيرته من فرائضي التي كنت افترضها عليك ما أشاء مما هو خير لك ولعبادي المؤمنين وأنفع لك ولهم عاجلاً وآجلاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 1 صـ 95.93 ﴾

(136/62)

ومن فوائد الآلوسى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءايَةٍ أَوْ نُنسِهَا ﴾

نزلت لما قال المشركون أو اليهود : ألا ترون إلى محمد صلى الله عليه وسلم يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه ويأمرهم بخلافه ، ويقول اليوم قولاً ويرجع عنه غداً ، ما هذا القرآن إلا

كلام محمد عليه الصلاة والسلام يقوله من تلقاء نفسه ، وهو كلام يناقض بعضه بعضاً والنسخ في اللغة إزالة الصورة أو ما في حكمها عن الشيء ، وإثبات مثل ذلك في غيره سواء كان في الاعراض أو في الأعيان ومن استعماله في المجموع التناسخ وقد استعمل لكل واحد منهما مجازاً وهو أولى من الاشتراك ولذا رغب فيه الراغب ، فمن الأول نسخت الريح الأثر أي أزالته ، ومن الثاني نسخت الكتاب إذا أثبت ما فيه في موضع آخر ، ونسخ الآية على ما ارتضاه بعض الأصوليين بيان انتهاء التعبد بقراءتها كآية : (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما نكالاً من الله والله عزيز حكيم) أو الحكم المستفاد منها كآية : ﴿ والذين يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزواجا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم متاعا إِلَى الحول غَيْرَ إِخْرَاجٍ ﴾ [البقرة : 240] أو بهما جميعاً كآية (عشر رضعات معلومات يحرمن) وفيه رفع التأبيد المستفاد من إطلاقها ، ولذا عرفه بعضهم برفع الحكم الشرعي ، فهو بيان بالنسبة إلى الشارع ، ورفع بالنسبة إلينا ، وخرج بقيد التعبد الغاية ، فإنها بيان لانتهاء مدة نفس الحكم لا للتعبد به واختص التعريف بالأحكام إذ لا تعبد في الأخبار أنفسها ، وإنساؤها إذهابها عن القلوب بأن لا تبقى في الحفظ وقد وقع هذا فإن بعض الصحابة أراد قراءة بعض ما حفظه فلم يجده في صدره ، فسأل النبي صلى الله عليه وسلم فقال : " نسخ البارحة من الصدور " وروى مسلم عن أبي موسى : " إنا كنا نقرأ سورة نشبهها في الطول والشدة ببراءة ، فأنسيتها غير

أني حفظت منها (لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى وادياً ثالثاً وما يملأ جوف ابن آدم إلا التراب) وكنا نقرأ بسورة نشبهها

(137/62)

بإحدى المبسحات فأنسيتها ، غير أني حفظت منها : (يا أيها الذين آمنوا لم تقولوا ما لا تفعلون فتكتب شهادة في أعناقكم فتسألون عنها يوم القيامة) وهل يكون ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم كما كان لغيره أو لا ؟ فيه خلاف ، والذاهبون إلى الأول استدلوا بقوله تعالى : ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تنسى إِلاَّ مَا شَاء الله ﴾ [الأعلى : 6 ، 7] وهو مذهب الحسن ، واستدل الذاهبون إلى الثاني بقوله تعالى : ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بالذى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ [الأسراء : 68] فإنه يدل على أنه لا يشاء أن يذهب بما أوحي إليه صلى الله عليه وسلم وهذا قول الزجاج وليس بالقوي لجواز حمل (الذي) على ما لا يجوز عليه ذلك من أنواع الوحي ، وقال أبو علي : المراد لم نذهب بالجميع ، وعلى التقديرين لا ينافي الاستثناء ، وسبحان من لا ينسى ، وفسر بعضهم النسخ بإزالة الحكم سواء ثبت اللفظ أو لا والإنساء بإزالة اللفظ ثبت حكمه أو لا ، وفسر بعض آخر الأول : بالإذهاب إلى بدل للحكم السابق والثاني : بالإذهاب لا إلى بدل ، وأورد على كلا الوجهين أن تخصيص

النسخ بهذا المعنى مخالف للغة والاصطلاح، وأن الإنساء حقيقة في الإذهاب عن القلوب، والحمل على المجاز بدون تعذر الحقيقة تعسف، ولعل ما يتمسك به لصحة هذين التفسيرين من الرواية عن بعض الأكابر لم يثبت، و(ما) شرطية جازمة لـ (ننسخ) منتصبة به على المفعولية، ولا تنافي بين كونها عاملة ومعمولة لاختلاف الجهة، فتضمنها الشرط عاملة، وبكونها اسماً معمولة ويقدر لنفسها جازم وإلا لزم توارد العاملين على معمول واحد، وتدل على جواز وقوع ما بعدها، إذ الأصل فيها أن تدخل على الأمور المحتملة، واتفقت أهل الشرائع على جواز النسخ ووقوعه؛ وخالفت اليهود غير العيسوية في جوازه وقالوا: يمتنع عقلاً، وأبو مسلم الأصفهاني في وقوعه فقال: إنه وإن جاز عقلاً لكنه لم يقع وتحقيق ذلك في الأصول، و﴿ مِّنْ

ءايَةٍ ﴾ في موضع النصب على التمييز والمميز ﴿ مَا ﴾ أي: أيُّ شيء ننسخ من آية واحتمال زيادة (من) وجعل (آية) حالاً ليس بشيء كاحتمال كون (ما) مصدرية شرطية و(آية) مفعولاً به أي أي نسخ ننسخ آية بل هذا الاحتمال أدعى وأمر كما لا يخفى والضمير المنصوب عائد إلى آية على حد عندي درهم ونصفه لأن المنسوخ غير المنسي،

وتخصيص الآية بالذكر باعتبار الغالب ، وإلا فالحكم غير مختص بها ، بل جار فيما دونها أيضاً على ما قيل .

(139/62)

وقرأ طائفة وابن عامر من السبعة ﴿ نَنسَخْ ﴾ من باب الأفعال والهمزة كما قال أبو علي : للوجدان على صفة نحو أحمدته أي وجدته محموداً فالمعنى ما نجده منسوخاً وليس نجده كذلك إلا بأن ننسخه ، فتتفق القراءتان في المعنى وإن اختلفا في اللفظ وجوّز ابن عطية كون الهمزة للتعدية ، فالفعل حينئذ متعد إلى مفعولين ، والتقدير : ما ننسخك من آية أي ما نبيح لك نسخه ، كأنه لما نسخها الله تعالى أباح لنبيه صلى الله عليه وسلم تركها بذلك النسخ فسمي تلك الإباحة إنساخاً وجعل بعضهم الإنساخ عبارة عن الأمر بالنسخ والمأمور هو النبي صلى الله عليه وسلم ، أو جبرائيل عليه السلام ، واحتمال أن يكون من نسخ الكتاب ، أي ما نكتب وننزل من اللوح المحفوظ ، أو ما نؤخر فيه ونترك فلا ننزله ، والضميران الآتيان بعد عائدان على ما عاد إليه ضمير ﴿ نُنسِهَا ﴾ ناشيء عن الذهول عن قاعدة أن اسم الشرط لا بد في جوابه من عائد عليه وقرأ عمر وابن عباس والنخعي وأبو عمرو ، وابن كثير ﴿ ننسأها ﴾ بفتح نون المضارعة والسين وسكون الهمزة وطائفة كذلك إلا أنه

بالألف من غير همز ولم يحذفها للجازم لأن أصلها الهمزة من نسأ بمعنى أخر ، والمعنى في المشهور نؤخرها في اللوح المحفوظ فلا ننزلها أو نبعدها عن الذهن بحيث لا يتذكر معناها ولا لفظها ، وهو معنى ننسها فتتحد القراءتان ، وقيل : ولعله ألطف : إن المعنى نؤخر إنزالها ، وهو في شأن الناسخة حيث أخر ذلك مدة بقاء المنسوخة فالمأتية حينئذ عبارة عن المنسوخة كما أنه حين النسخ عبارة عن الناسخة فمعنى الآية عليه أن رفع المنسوخة بإنزال الناسخة وتأخير الناسخة بإنزال المنسوخة كل منهما يتضمن المصلحة في وقته ، وقرأ الضحاك وأبو الرجاء ﴿ أَوْ نُنسِهَا ﴾ على صيغة المعلوم للمتكلم مع الغير من التنسية ، والمفعول الأول محذوف يقال : أنسانيه الله تعالى ونسانيه تنسية بمعنى أي ننس أحداً إياها ، وقرى الحسن وابن يعمر (تنسها) بفتح التاء

(140/62)

من النسيان ؛ ونسبت إلى سعد بن أبي وقاص ، وفرقة كذلك إلا أنهم همزوا ، وأبو حيوة كذلك إلا أنه ضم التاء على أنه من الإنساء ، وقرأ معبد مثله ، ولم يهمز ، وقرأ أبيّ (ننسك) بضم النون الأولى وكسر السين من غير همز وبكاف الخطاب .

وفي مصحف سالم مولى أبي حذيفة (ننسكها) بإظهار المفعولين ؛ وقرأ الأعمش (ما

ننسك من آية أو ننسخها نجيء بمثلها) ومناسبة الآية لما قبلها أن فيه ما هو من قبيل النسخ حيث أقر الصحابة رضي الله تعالى عنهم مدة على قول راعنا واقراره صلى الله عليه وسلم على الشيء منزل منزلة الأمر به والإذن فيه ، ثم إنهم نهوا عن ذلك فكان مظنة لما يحاكي ما حكي في سبب النزول ، أو لأنه تعالى لما ذكر أنه ذو الفضل العظيم كاد ترفع الطغام رءوسها وتقول : إن من الفضل عدم النسخ لأن النفوس إدا داومت على شيء سهل عليها فأتى سبحانه بما ينكس رءوسهم ويكسر ناموسهم ويشير إلى أن النسخ من جملة فضله العظيم وجوده العميم ، أو لأنه تعالى لما أشار إلى حقية الوحي ورد كلام الكارهين له رأساً عقبه بما يبين سر النسخ الذي هو فرد من أفراد تنزيل الوحي وإبطال مقالة الطاعنين فيه فليتدبر .

(141/62)

﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ﴾ أي بشيء هو خير للعباد منها أو مثلها حكماً كان ذلك أو عدمه ، وحياً متلواً أو غيره ، والخيرية أعم من أن تكون في النفع فقط أو في الثواب فقط أو في كليهما ، والمثلية خاصة بالثواب على ما أشار إليه بعض المحققين ، وفصله بأن الناسخ إذا كان ناسخاً للحكم سواء كان ناسخاً للتلاوة أو لا بد أن يكون مشتملاً على مصلحة

خلا عنها الحكم السابق لما أن الأحكام إنما تنوعت للمصالح ، وتبدلها منوط بتبدلها بحسب الأوقات فيكون الناسخ خيراً منه في النفع سواء كان خيراً منه في الثواب أو مثلاً له أو لا ثواب فيه أصلاً كما إذا كان الناسخ مشتملاً على الإباحة أو عدم الحكم وإذا كان ناسخاً للتلاوة فقط لا يتصور الخيرية في النفع لعدم تبدل الحكم السابق والمصلحة فهو إما خير منه في الثواب أو مثل له ، وكذا الحال في الإنساء فإن المنسي إذا كان مشتملاً على حكم يكون المأتي به خيراً في النفع سواء كان النفع لخلوه عن الحكم مطلقاً أو لخلوه عن ذلك الحكم واشتماله على حكم يتضمن مصلحة خلا عنها الحكم المنسي مع جواز خيريته في الثواب ومماثلته أيام خلوه عنه ، وإذا لم يكن مشتملاً على حكم فالمأتي به بعده إما خير في الثواب أو مثل له ، والحاصل أن المماثلة في النفع لا تتصور لأنه على تقدير تبدل الحكم تتبدل المصلحة فيكون خيراً منه ، وعلى تقدير عدم تبدله المصلحة الأولى باقية على حالها انتهى .

(142/62)

ثم لا يخفى أن ما تقدم من التعميم مبني على جواز النسخ بلا بدل وجواز نسخ الكتاب بالسنة وهو المذهب المنصور ومن الناس من منع ذلك ومنع النسخ ببدل أثقل أيضاً ،

واحتج بظاهر الآية ، أما على الأول : فلأنه لا يتصور كون المأتي به خيراً أو مثلاً إلا في بدل ، وأما على الثاني : فلأن الناسخ هو المأتي به بدلاً وهو خير أو مثل ، ويكون الآتي به هو الله تعالى ، والسنة ليست خيراً ولا مثل القرآن ولا مما أتى به سبحانه وتعالى ، وأما على الثالث : فلأن الأثقل ليس بخير من الأخف ولا مثلاً له ، ورد ذلك أما الأول والثالث فلأنا لا نسلم أن كون المأتي به خيراً أو مثلاً لا يتصور إلا في بدل وأن الأثقل لا يكون خيراً من الأخف إذ الأحكام إنما شرعت والآيات إنما نزلت لمصالح العباد وتكميل نفوسهم فضلاً منه تعالى ورحمة وذلك يختلف باختلاف الأعصار والأشخاص كالدواء الذي تعالج به الأدواء فإن النافع في عصر قد يضر في غيره والمزيل علة شخص قد يزيل علة سواه فأذن قد يكون عدم الحكم أو الأثقل أصلح في انتظام المعاش وأنظم في إصلاح المعاد والله تعالى لطيف حكيم ، ولا يرد أن المتبادر من ﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا ﴾ بآية خير منها وإن عدم الحكم ليس بمأتي به لما أن الخلاف في جواز النسخ بلا بدل ليس في إتيان اللفظ بدل الآية الأولى بل في الحكم كما لا يخفى على من راجع الأصول وأما الثاني فلأنا لا نسلم حصر الناسخ بما ذكر إذ يجوز أن يعرف النسخ بغير المأتي به فإن مضمون الآية ليس إلا أن نسخ الآية يستلزم الإتيان بما هو خير منها أو مثل لها ، ولا يلزم منه أن يكون ذلك هو الناسخ فيجوز أن يكون أمراً مغايراً يحصل بعد حصول النسخ وإذا جاز ذلك فيجوز أن يكون الناسخ سنة والمأتي به الذي هو

خير أو مثل آية أخرى ، وأيضاً السنة مما أتى به الله سبحانه لقوله تعالى : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الهوى إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْىٌ يوحى ﴾ [النجم : 3 ، 4] وليس المراد بالخيرية

(143/62)

والمماثلة في اللفظ حتى لا تكون السنة كذلك بل في النفع والثواب فيجوز أن يكون ما اشتملت عليه السنة خيراً في ذلك ، واحتجت المعتزلة بالآية على حدوث القرآن فإن التغير المستفاد من النسخ ، والتفاوت المستفاد من الخرية في وقت دون آخر من روادف الحدث وتوابعه فلا يتحقق بدونه ، وأجيب بأن التغير والتفاوت من عوارض ما يتعلق به الكلام النفسي القديم وهي الأفعال في الأمر والنهي والنسب الخبرية في الخبر وذلك يستدعيهما في تعلقاته دون ذاته ؛ وأجاب الإمام الرازي بأن الموصوف بهما الكلام اللفظي ، والقديم عندنا الكلام النفسي ، واعترض بأنه مخالف لما اتفقت عليه آراء الأشاعرة من أن الحكم قديم والنسخ لا يجري إلا في الأحكام ، وقرأ أبو عمرو نات بقلب الهمزة ألفاً .

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ الله على كُلّ شَىْء قَدِيرٌ ﴾ الاستفهام قيل : للتقرير وقيل : للإنكار ، والخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم ، وأريد بطريق الكناية هو وأمته المسلمون وإنما أفرده لأنه صلى الله عليه وسلم أعلمهم ومبدأ علمهم ، ولإفادة المبالغة مع الاختصار ،

وقيل : لكل واقف عليه على حد " بشر المشائين" وقيل : لمنكري النسخ ، والمراد الاستشهاد بعلم المخاطب بما ذكر على قدرته تعالى على النسخ وعلى الإتيان بما هو خير أو مماثل لأن ذلك من جملة الأشياء المقهورة تحت قدرته سبحانه فمن علم شمول قدرته عز وجل على جميع الأشياء علم قدرته على ذلك قطعاً ، والالتفات بوضع الاسم الجليل موضع الضمير لتربية المهابة ، ولأنه الاسم العلم الجامع لسائر الصفات ، ففي ضمنه صفة القدرة فهو أبلغ في نسبة القدرة إليه من ضمير المتكلم المعظم ، وكذا الحال في قوله عز شأنه :

(144/62)

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السماوات والأرض ﴾ أي قد علمت أيها المخاطب أن الله تعالى له السلطان القاهر ، والاستيلاء الباهر ، المستلزمان للقدرة التامة على التصرف الكلي إيجاداً وإعداماً ، وأمراً ونهياً حسبما تقتضيه مشيئته ، لا معارض لأمره ، ولا معقب لحكمه ، فمن هذا شأنه كيف يخرج عن قدرته شيء من الأشياء ؟! فيكون الكلام على هذا كالدليل لما قبله في إفادة البيان ، فيكون منزلاً منزلة عطف البيان من متبوعه في إفادة الإيضاح ، فلذا ترك العطف وجوّز أن يكون تكريراً للأول وإعادة للاستشهاد على ما ذكر ، وإنما لم تعطف ﴿ إن ﴾ مع ما في حيزها على ما سبق من مثلها رَوْماً لزيادة التأكيد

وإشعاراً باستقلال العلم بكل منهما وكفاية في الوقوف على ما هو المقصود ، وخص السموات والأرض بالملك لأنهما من أعظم المخلوقات الظاهرة ، ولأن كل مخلوق لا يخلو عن أن يكون في إحدى هاتين الجهتين فكان في الاستيلاء عليهما إشارة إلى الاستيلاء على ما اشتملا عليه ، وبدأ سبحانه بالتقرير على وصف القدرة لأنه منشأً لوصف الاستيلاء والسلطان ، ولم يقل جل شأنه : إن لله ملك الخ قصداً إلى تقوي الحكم بتكرير الإسناد .

(145/62)

﴿ وَمَا لَكُم مّن دُونِ اللهِ مِن وَلِيّ وَلاَ نَصِيرٍ ﴾ عطف على الجملة الواقعة خبراً ل (أن) داخل معها حيث دخلت ، وفيه إشارة إلى تناول الخطاب فيما قبل للأمة أيضاً ، و﴿ مِنْ ﴾ الثانية صلة فلا تتعلق بشيء ، و﴿ مِنْ ﴾ الأولى : لابتداء الغاية وهي متعلقة بمحذوف وقع حالاً من مدخول ﴿ مِنْ ﴾ الثانية : وهو في الأصل صفة له فلما قدم انتصب على الحالية وفي " البحر " أنها متعلقة بما تعلق به ﴿ لَكُمْ ﴾ وهو في موضع الخبر ؛ ويجوز في : (ما) أن تكون تميمية وأن تكون حجازية على رأي من يجيز تقدم خبرها إذا كان ظرفاً أو مجروراً والولي المالك ، والنصير المعين ، والفرق بينهما أن المالك قد لا يقدر على النصرة أو قد يقدر ولا يفعل ، والمعين قد يكون مالكاً وقد لا يكون بل يكون أجنبياً

والمراد من الآية الاستشهاد على تعلق إرادته تعالى بما ذكر من الإتيان بما هو خير من المنسوخ أو بمثله ، فإن مجرد قدرته تعالى على ذلك لا يستدعي حصوله ألبتة ، وإنما الذي يستدعيه كونه تعالى مع ذلك ولياً نصيراً لهم ، فمن علم أنه تعالى وليه ونصيره لا ولي ولا نصير له سواه يعلم قطعاً أنه لا يفعل به إلا ما هو خير له فيفوض أمره إليه تعالى ، ولا يخطر بباله ريبة في أمر النسخ وغيره أصلاً . انتهى انتهى . اهـ ﴾ روح المعانى حـ 1 صـ 351. 354 ﴿

(146/62)

ومن فوائد الشيخ عبد الكريم الخطيب فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِها نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْها أَوْ مِثْلِها ﴾

النسخ : معناه ومتعلقه مسألة النسخ فى القرآن الكريم من الأمور التي كانت ولا تزال مثار جدل وخلاف بين علماء المسلمين ، كما أنها كانت ولا تزال داعية تخرّص وتقوّل على القرآن . . من أعداء الإسلام .

(147/62)

وبكلمة واحدة نخرس أولئك الذين يتربّصون بالقرآن وأهله ، ثم نتركهم فى غيظهم وكيدهم ، لننظر فى هذا الخلاف الذي بين المسلمين فى أمر النسخ .

والكلمة التي نقولها لأعداء هذا الدين هى قوله تعالى فى كتابه الكريم :

« إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ » (9 : الحجر) .

فهذا التحدّى القائم عليهم بحفظ اللّه تعالى للقرآن ، هو مقطع القول فيما بينهم وبين القرآن . . فإذا استطاعوا أن يبدلوا حرفا أو يغيروا كلمة ، أو يزيلوا آية من كتاب اللّه ـ كان لهم أن يقولوا فى هذا الكتاب ما يحلو لهم ، من تشنيع عليه ، واستهزاء به . . وهيهات هيهات . . فقد ذهبت سدى جميع المحاولات التي بذلها أعداء الإسلام ، منذ قام الإسلام إلى اليوم ، ليشوهوا وجه هذا الدين ، بالتشويش على كتابه ، والتشكيك فى صحته ! .

أما الخلاف الذي بين المسلمين فى أمر النسخ فقد وقع نتيجة للاختلاف فى فهم الآية الكريمة : « ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِها نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْها أَوْ مِثْلِها » .

فالذين قالوا بوجود « النسخ » فى القرآن ، وأخذوا بمنطوق هذه الآية ، دارت أعينهم فى كتاب اللّه ، يلتمسون مصداق هذه الآية ، ويستخرجون لها الشواهد لآيات منسوخة بآيات ناسخة . . وقد وقعت أنظارهم على آيات يمكن أن تفسّر عليها تلك الآية الكريمة . . فكان النسخ عندهم أمرا لا بد من وقوعه فى القرآن ، إذ نطقت به آية كريمة من آياته .

والذين لم يفهموا الآية على هذا الوجه ، فلم يروا فى القرآن ناسخا ولا منسوخا . هؤلاء جعلوا للآيات التي قيل إنها منسوخة ، وجها من التأويل ، بحيث يبقى حكمها كما بقيت تلاوتها . .

وهذا إجمال يحتاج إلى شىء من التفصيل .

(148/62)

فأولا : ما هو النسخ ؟

يجىء النسخ بمعنى المحو والإزالة ، وذلك كما فى قوله تعالى : « وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلَّا إِذا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آياتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » (52 : الحج) .

ويأتى النسخ بمعنى النقل من موضع إلى موضع ، ومنه نسخت الكتاب أي نقلت ما فيه إلى كتاب آخر . . قالوا : ولا يقع هذا المعنى من النسخ فى القرآن . . إذ نقل الآية أو الآيات من كتاب إلى كتاب لا يسمّى نسخا بالمعنى الذي يفهم منه إزالة حكم الآية أو تلاوتها . .

ويأتى بمعنى التبديل ، كما فى قوله سبحانه :

« وَإِذا بَدَّلْنا آيَةً مَكانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِما يُنَزِّلُ قالُوا إِنَّما أَنْتَ مُفْتَرٍ » (101 : النحل) .

هذا هو النسخ فى لسان الشرع ، وهو فى اللغة قريب من هذا ، فيقال :

تناسخ الشيئان : إذا حلّ أحدهما محل الآخر ، كما يتناسخ الليل والنهار ، ويقال تناسخت الأزمنة : أي تبع بعضها بعضا ، ومنه تناسخ الأرواح ، بمعنى انتقال الروح من بدن إلى بدن ، عند من يعتقد هذا المذهب .

وثانيا : ما هو المنسوخ ؟

اختلف العلماء فى المنسوخ ، فقيل هو ما رفع تلاوة تنزيله ، كما رفع العمل به . وردّ هذا القول بأن اللّه نسخ التوراة والإنجيل ، وهما متلوّان .

وقيل لا يقع النسخ بمعنى الرفع فى قرآن نزّل ، وتلى ، ذلك أن القول بأن من القرآن ما نزّل وتلى ثم رفع بالنسخ . فيه تعسّف شديد ، ومدخل إلى الفتنة والتخرص .

فإذا ساغ أن ينزل قرآن ، ويتلى على المسلمين ، ثم يرفع ، ساغ لكل مبطل أن يقول أي قول ، ثم يدّعى له أنه كان قرآنا ثم نسخ . . وهكذا تتداعى على القرآن المفتريات ، والتلبيسات ، ويكون لذلك ما يكون من فتنة وابتلاء .

ثم من جهة أخرى . ما حكمة هذا القرآن الذي ينزل لأيام أو لشهور ، ثم يرفع ، فلا يتلى ،

ولا يعرف له وجه بعد هذا ؟ أيكون ذلك الرفع بقرآن يقول للناس :

إن آية كذا رفعت تلاوتها ، فلا تجعلوها قرآنا يتلى ؟ أم أن هذا النوع من النسخ يقع بمعجزة ترفع من صدور الناس ما قد حفظوا من هذا القرآن المنسوخ ؟

وإذا رفع بتلك المعجزة ، فهل تكون معجزة أخرى يرفع بها ما كتب بأيدى كتاب الوحى بين يدى النبىّ ؟ وإذا رفع من الصدور أو من الصحف المكتوبة بمعجزة من المعجزات ، فما الذي يدلّ على أن قرآنا كان ثم رفع ؟

إن هذا القول مسرف فى البعد عن مجال المنطق والعقل ! وثالثا : هل فى القرآن نسخ ؟ كثر علماء المسلمين على أن فى القرآن نسخا ، وأن هناك آيات ناسخة وأخرى منسوخة بها .

ومعرفة الناسخ والمنسوخ ودراستهما ، مما اهتم له العلماء والفقهاء ، وجعلوه أصلا من أصول الدراسات القرآنية ، ومجازا من المجازات التي يدخل بها العالم أو الفقيه فى جماعة العلماء والفقهاء . فمن لم يعرف ناسخ القرآن ومنسوخه ، فلا مدخل له فى باب العلماء والفقهاء .

وقد استند القائلون بالنسخ فى القرآن إلى قوله تعالى : « ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِها نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْها أَوْ مِثْلِها » .

وقد أسعفهم النظر فى آيات القرآن الكريم بشواهد تؤيد ما ذهبوا إليه من القول بالنسخ .

ومن أمثلة هذا آية الوصية ، وهى قوله تعالى : « كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ » (180 : البقرة) .

فهذه الآية ، قيل إنها منسوخة بآية المواريث ، وقيل بحديث :

« ألا لا وصيّة لوارث » عند من يقول بنسخ القرآن بالسنّة ، وقيل منسوخة بالإجماع .

ومن أمثلة ذلك أيضا قوله تعالى : « وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْواجاً وَصِيَّةً لِأَزْواجِهِمْ مَتاعاً إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْراجٍ » (240 : البقرة) .

قيل : إن هذه الآية منسوخة ب قوله تعالى : « وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْواجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً » (234 : البقرة) .

فقد كانت المرأة إذا مات عنها زوجها لزمت التربص بعد انقضاء العدة حولا كاملا ، ونفقتها فى مال زوجها ، وهذا هو معنى قوله تعالى : « مَتاعاً إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْراجٍ » فنسخ ذلك بالآية المشار إليها ، وصار تربصها أربعة أشهر وعشرة أيام ، ولها نصيبها المعروف فى الميراث .

وهكذا يعدّون الآيات المنسوخة والناسخة فى إحدى وسبعين سورة من القرآن الكريم «

. « 1

أما الذين يقولون بألا نسخ فى القرآن ، فيتأولون هذه الآيات ، ويعطونها الحكم الذي تضمنته . . كما سنرى ذلك بعد قليل .

---

(1) الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى جزء 2 ص 21 .

رابعا : القول بألا نسخ فى القرآن :

يرى عدد غير قليل من العلماء أن النسخ فى القرآن ليس نسخا بمعنى إزالة الحكم ، كما ذهب إلى ذلك القائلون بالنسخ . . وإنما هو نسأ وتأخير ، أو مجمل أخّر بيانه ، أو خطاب قد حال بينه وبين أوله خطاب غيره ، أو مخصوص من عموم ، أو حكم عام لخاص ، أو لمداخلة معنى فى معنى . وأنواع الخطاب كثيرة ، فظنوا ـ أي القائلون بالنسخ ـ أن هذا نسخا ، وليس به ، وإنه ـ أي القرآن ـ الكتاب المهيمن على غيره ، وهو نفسه متعاضد » « . « 1

وبهذا التحقيق يتبين ضعف ما لهج به كثير من المفسّرين فى الآيات الآمرة بالتخفيف من أنها منسوخة بآية السيف .

والواقع أنها ليست كذلك ، بل هى من النّسأ ، بمعنى أن كل أمر يجب امتثاله فى وقت ما ، لعلّة توجب ذلك الحكم ، ثم ينتقل بانتقال تلك العلة إلى حكم آخر ، وليس بنسخ ، إذ النسخ معناه الإزالة .

وتطبيقا لهذا الرأى ، نجد ألا تعارض ، ولا تناسخ بين الآيات التي تختلف أحكامها فى الأمر الواحد ، إذ أن كل حكم محكوم بحال خاصة به ، مقدرة له ، وعلة تدور معه وجودا وعدما .

فمثلا . . قوله تعالى : «يا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ» (65 : الأنفال) .

---

(1) انظر البرهان فى علوم القرآن للزركشى : جزء 2 ص 44 .

وقوله تعالى بعد هذا : «الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ» (66 : الأنفال) .

وليس بين الآيتين تعارض ، أو تناسخ ، وإن عرضا لأمر واحد ، واختلف منطوق الحكم فيهما .

فالآية الأولى تفرض على المؤمنين حكما فى فيها حال هم أهل للوفاء بهذا الحكم ، لما فيهم من قوة إيمان وثبات يقين . . فإذا كانوا فى تلك الحالة كان واجبا عليهم إذا التقوا فى ميدان الحرب بأعدائهم من الكافرين - أن يثبت العشرون منهم لمئتين من أعدائهم ، وأن تثبت المائة للألف .

فلما أن وقع الضعف فى المسلمين ، حين كثر عددهم ، ودخل فيهم من دخل ، وليس فيهم ما فى هؤلاء النفر القليل الكرام ، الذين سبقوا إلى الإسلام ، من كرم المعدن ، وصفاء الجوهر ، والتعرّف على الحق ، والبدار إليه - لمّا أن كان هذا من أمر المسلمين ، خفف اللّه عنهم ، وجعل أمرهم يسرا ، ففرض عليهم ألّا تفرّ المائة من المائتين ، ولا الألف من الألفين . وانظر كيف كانت أعداد المسلمين فى الآية الأولى . « عشرون » و« مئة » ثم أصبحت فى الآية الثانية هكذا : « مئة » و« ألفا » .

. وإن ذلك ليكشف عن المعنى الذي أشرت إليه من قبل ، وهو أن الضعف الذي عرض للمسلمين فى هذا الوقت المبكر من الدعوة الإسلامية ، وفى عهد النبوة ، لم يكن من جهة المسلمين السابقين إلى الإسلام ، فهؤلاء كانوا كلما مرّت بهم الأيام فى الإسلام ، وفى صحبة

الرسول ، ازدادوا إيمانا مع إيمانهم ، ولكن الضعف الذي وقع ، كان على مجموع المسلمين ، حين كثر عدد الداخلين فى الإسلام ،

(153/62)

ولا شك أن هذه الأعداد الكثيرة التي دخلت فى دين اللّه أفواجا ، لم يكن لها جميعها من وثاقة الإيمان ، وقوة اليقين ما كان فى هذه الصفوة التي سبقت إلى الإسلام .

وطبيعى أنة إذا عادت حال المسلمين إلى الحال الأولى التي كانوا عليها قبل هذا الضعف ، عاد الحكم الأول ، فإذا ضعفوا لزمهم حكم الآية الثانية ، الذي لا ينبغى أن ينزلوا عنه أبدا ، حتى فى أضعف أحوالهم . . المائة تغلب المائتين ، والألف تغلب الألفين .

وفى هذا ما فيه من تكريم الإسلام والمسلمين ، ورفع درجة الجماعة الإسلامية بهذا الدّين ، حتى فى أنزل منازلها ، وأسوأ أحوالها .

« ما ننسخ من آية » :

ونعود إلى الآية الكريمة ، التي فتحت على المسلمين بابا فسيحا للتأويل ، ثم الخلاف فى هذا التأويل ، ثم الانتقال به إلى دائرة فسيحة فى القرآن ذاته .

حيث يقال عن آيات كثيرة إنها منسوخة حكما ، وإن بقيت تلاوتها .

وإذ ننظر فى الآية الكريمة نسأل أولا :

هل إذا جاء شرط فى القرآن الكريم . . أيجب أن يقع هذا الشرط ، وأن يتحقق تبعا لذلك جوابه ؟

والجواب على هذا : أن ليس من الحتم اللازم أنه إذا ورد فى القرآن أسلوب شرطى أن يقع هذا الشرط ، وإنما الحتم اللازم هو ، أنه إذا وقع الشرط فلا بد أن يقع ويتحقق الجواب المعلق على وقوع هذا الشرط .

فما أكثر ما وردت أساليب شرطية فى القرآن غير مراد وقوعها ، وتحقيق جوابها . .

ومن ذلك قوله تعالى ، لنبيه الكريم :

« وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ » (116 : الأنعام) وقوله تعالى عن نبيه الكريم أيضا :

« وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنا بَعْضَ الْأَقاوِيلِ لَأَخَذْنا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنا مِنْهُ الْوَتِينَ » (44 . 46 الحاقة) وقوله تعالى خطابا له : « لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ » (65 : الزمر) .

فلم يقع شرط أي آية من هذه الآيات ، ولم يقع جوابها كذلك .

وعلى هذا ، يجوز فى الآية الكريمة « ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِها نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْها أَوْ مِثْلِها » ـ يجوز ألا يقع شرطها وجوابها ، وتكون من قبيل القضايا الفرضية ، التي يراد بها العبرة والعظة .

والذي نأخذه من هذا ، أن النسخ الذي أشارت إليه الآية الكريمة ، ليس لازما أن يقع ، وإنما وقوعه أمر احتمالي ، يشهد له الواقع أو لا يشهد ، فإن شهد له اعتبر ، وإلا فلا .

وإذن فلا نستصحب معنا هذا الحكم ، الذي تقضى به الآية لو وقع شرطها وجوابها ـ لا نستصحب هذا الحكم ، ونحن ننظر فى الآيات التي يقال إنها ناسخة أو منسوخة . . بل ننظر فى تلك الآيات نظرا منقطعا عن كل تأثير لهذا المفهوم الذي فهمت الآية الكريمة عليه .

والآن ننظر فى آية النسخ نفسها . .

« ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِها نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْها أَوْ مِثْلِها . . أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . . »

هذه الآية قد جاءت مع آيات كثيرة غيرها ، دفاعا عن أمر أراده اللّه للمسلمين ، وهو تحويل قبلتهم التي كانوا عليها ، من بيت المقدس إلى البيت الحرام .

وهذا التحول كان حدثا كبيرا من أحداث الإسلام فى حينه ، كما كان فتنة وابتلاء لكثير من المسلمين ، ومدخلا كبيرا للطعن فى الدين ، والتشويش على المسلمين .

وكان من تدبير القرآن الكريم لهذا الأمر ، أن قدّم له هذه الآيات الكريمة ، قبل أن يقع ، لتكون إرهاصا به من جهة ، وقوة يستند إليها المسلمون فى دفع كيد اليهود ، ووسوسة الشيطان . . من جهة أخرى ! . انتهى انتهى . اهـ ﴾ التفسير القرآنى للقرآن حـ 1 صـ 120 . 129 ﴿

(156/62)

ومن فوائد ابن عاشور فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ﴾ .

مناسبة هذه الآية للآيات قبلها أن اليهود اعتذروا عن إعراضهم عن الإيمان بالنبيء صلى الله عليه وسلم بقولهم : ﴿ نؤمن بما أنزل علينا ﴾ [البقرة : 91] وأرادوا به أنهم يكفرون بغيره ، وهم في عذرهم ذلك يدعون أن شريعتهم لا تنسخ ويقولون إن محمداً وصف التوراة بأنها حق وأنه جاء مصدقاً لها فكيف يكون شرعه مبطلاً للتوراة ويموهون

على الناس بما سموه البداء وهو لزوم أن يكون الله تعالى غير عالم بما يحسن تشريعه وأنه يبدو له الأمر ثم يعرض عنه ويبذل شريعة بشريعة .

وقد قدمنا أن الله تعالى رد عليهم عذرهم وفضحهم بأنهم ليسوا متمسكين بشرعهم حتى يتصلبوا فيه وذلك من قوله : ﴿ قل فلم يقتلون أنبيَاء الله من قبل ﴾ [البقرة : 91] وقوله : ﴿ قل إن كانت لكم الدار الآخرة ﴾ [البقرة : 94] إلخ وبأنهم لا داعي لهم غير الحسد بقوله : ﴿ ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ﴾ إلى قوله : ﴿ ذو الفضل العظيم ﴾ [البقرة : 105] المنبىء أن العلة هي الحسد ، فلما بين الرد عليهم في ذلك كله أراد نقض تلك السفسطة أو الشبهة التي راموا ترويجها على الناس بمنع النسخ .

والمقصد الأصلي من هذا هو تعليم المسلمين أصلاً من أصول الشرائع وهو أصل النسخ الذي يطرأ على شريعة بشريعة بعدها ويطرأ على بعض أحكام شريعة بأحكام تبطلها من تلك الشريعة .

ولكون هذا هو المقصد الأصلي عدل عن مخاطبة اليهود بالرد عليهم .

ووجه الخطاب إلى المسلمين كما دل عليه قوله : ﴿ ألم تعلم ﴾ وعطفه عليه بقوله : ﴿ أم تريدون أن تسألوا رسولكم ﴾ [البقرة : 108] ولقوله : ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ ﴾ ولم يقل من شريعة .

وفي هذا إعراض عن مخاطبة اليهود لأن تعليم المسلمين أهم وذلك يستتبع الرد عى اليهود

بطريق المساواة لأنه إذا ظهرت حكمة تغيير بعض الأحكام لمصلحة تظهر حكمة تغيير بعض الشرائع .

(157/62)

وقد ذكر بعض المفسرين لهاته الآية سبب نزول ، ففي " الكشاف " و" المعالم" : نزلت لما قال اليهود : ألا ترون إلى محمد يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه ، وفي " تفسير القرطبي " أن اليهود طعنوا في تغيير القبلة وقالوا إن محمداً يأمر أصحابه بشيء وينهاهم عنه فما كان هذا القرآن إلا من جهته ولذلك يخالف بعضه بعضاً .

وقرأ الجمهور (ننسخ) بفتح النون الأولى وفتح السين وهو أصل مضارع نسخ ، وقرأه ابن عامر بضم النون الأولى وكسر السين على أنه مضارع أنسخ مهموزاً بهمزة التعدية أي نأمر بنسخ آية .

و(ما) شرطية وأصلها الموصولة أشربت معنى الشرط فلذلك كانت اسماً للشرط يستحق إعراب المفاعيل وتبين بما يفسر إبهامها وهي أيضاً توجب إبهاماً في أزمان الربط لأن الربط وهو التعليق لما نيط بمبهم صار مبهماً فلا تدل على زمن معين من أزمان تعليق الجواب على الشرط وربطه به .

و(من آية) بيان لما .

والآية في الأصل الدليل والشاهد على أمر .

قال الحرث بن حلزة :

مَن لنا عنده مِن الخير آيا . . .

تٌ ثلاثٌ في كلِّهن القضاءُ

ووزنها فعلة بتحريك العين عند الخليل وعينها ياء أو واو قلبت ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها والنسبة إليها آيِيّ أو آوي .

ثم أطلقت الآية على المعجزة لأنها دليل صدق الرسول قال تعالى : ﴿ وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً ﴾ [الإسراء : 59] .

(158/62)

وتطلق الآية على القطعة من القرآن المشتملة على حكم شرعي أو موعظة أو نحو ذلك وهو إطلاق قرآني قال تعالى : ﴿ وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ [النحل : 101] ويؤيد هذا أن من معاني الآية في كلام العرب الأمارة التي يعطيها المرسل للرسول ليصدقه المرسل إليه وكانوا إذا أرسلوا وصاية أو خبراً

مع رسول أرفقوه بأمارة يسمونها آية لا سيما الأسير إذا أرسل إلى قومه برسالة كما فعل ناشب الأعور حين كان أسيراً في بني سعد بن مالك وأرسل إلى قومه بلعنبر رسالة وأراد تحذيرهم بما يبيته لهم أعداؤهم الذين أسروه فقال للرسول : قل لهم كذا بآية ما أكلت معكم حيساً .

وقال سحيم العبد :

أِلكني إليها عمرَك اللَّهَ يا فتى . . .

بآية ما جاءت إلينا تَهاديا

ولذا أيضاً سموا الرسالة آية تسمية للشيء باسم مجاوره عرفاً .

والمراد بالآية هنا حكم الآية سواء أزيل لفظها أم أبقى لفظها لأن المقصود بيان حكمة إبطال الأحكام لا إزالة ألفاظ القرآن .

(159/62)

والنسخ إزالة الشي بشيء آخر قاله الراغب ، فهو عبارة عن إزالة صورة أو ذات وإثبات غيرها عوضها تقول نسخت الشمس الظل لأن شعاعها أزال الظل وخلفه في موضعه ونسخ الظل الشمس كذلك لأن خيال الجسم الذي حال بين الجسم المستنير وبين شعاع

الشمس الذي أناره قد خلف الشعاع في موضعه ويقال نسخت ما في الخلية من النحل والعسل إلى خلية أخرى ، وقد يطلق على الإزالة فقط دون تعويض كقولهم نسخت الريح الأثر وعلى الإثبات لكن على إثبات خاص وهو إثبات المزيل ، وأما أن يطلق على مجرد الإثبات فلا أحسبه صحيحاً في اللغة وإن أوهمه ظاهر كلام الراغب وجعل منه قولهم نسخت الكتاب إذا خططت أمثال حروفه في صحيفتك إذ وجدوه إثباتاً محضاً لكن هذا توهم لأن إطلاق النسخ على محاكاة حروف الكتاب إطلاق مجازي بالصورة أو تمثيلية بتشبيه الحالة بحالة من يزيل الحروف من الكتاب الأصلي إلى الكتاب المنتسخ ثم جاءت من ذلك النسخة قال تعالى : ﴿ إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون ﴾ [الجاثية : 29] وقال : ﴿ وفي نسختها هدى ورحمة ﴾ [الأعراف : 154] وأما قولهم الولد نسخة من أبيه فمجاز على مجاز .

ولا يطلق النسخ على الزوال بدون إزالة فلا تقول نسخ الليل النهار لأن الليل ليس بأمر وجودي بل هو الظلمة الأصلية الحاصلة من انعدام الجرم المنير .

والمراد من النسخ هنا الإزالة وإثبات العوض بدليل قوله : ﴿ نأت بخير منها أو مثلها ﴾ وهو المعروف عند الأصولين بأنه رفع الحكم الشرعي بخطاب فخرج التشريع المستأنف إذ ليس برفع ، وخرج بقولنا الحكم الشرعي رفع البراءة الأصلية بالشرع المستأنف .

إذ البراءة الأصلية ليست حكماً شرعياً بل هي البقاء على عدم التكليف الذي كان الناس

عليه قبل مجيء الشرع بحيث إن الشريعة لا تتعرض للتنصيص على إباحة المباحات إلا في مظنة اعتقاد تحريمها أو في موضع حصر المحرمات أو الواجبات .

(160/62)

فالأول نحو قوله : ﴿ ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم ﴾ [البقرة : 198] في التجارة في الحج حيث ظن المسلمون تحريم التجارة في عشر ذي الحجة كما كانت عليه الجاهلية بعد الانصراف من ذي المجاز كما سيأتي .

ومثال الثاني قوله تعالى : ﴿ وأحل لكم ما وراء ذلكم ﴾ [النساء : 24] بعد ذكر النساء المحرمات وقوله : ﴿ أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم ﴾ [البقرة : 187] لحصر وجوب الإمساك في خصوص زمن النهار .

وفهم من قولهم في التعريف رفع الحكم أن ذلك الحكم كان ثابتاً لولا رفعه وقد صرح به بعضهم ولذلك اخترنا زيادة قيد في التعريف وهو رفع الحكم الشرعي المعلوم دوامه بخطاب يرفعه ليخرج عن تعريف النسخ رفع الحكم الشرعي المغيّى بغاية عند انتهاء غايته ورفع الحكم المستفاد من أمر لا دليل فيه على التكرار .

وحيث تبينت حكمة نسخ الآيات علم منه حكمة نسخ الشرائع بعضها ببعض وهو الذي

أنكروه وأنكروا كون الإسلام قد نسخ التوراة وزعموا أن دوام التوراة مانع من الإيمان بالإسلام كما قالوا ﴿ نؤمن بما أنزل علينا ﴾ [البقرة: 91] وهو أحوال: الأول مجيء شريعة لقوم مجيئاً مؤقتاً لمدة حياة الرسول المرسل بها فإذا توفي ارتفعت الشريعة كشريعة نوح وإبراهيم وشريعة يوسف وشريعة شعيب قال تعالى: ﴿ ولقد جاءكم يوسف ﴾ إلى قوله: ﴿ إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولاً ﴾ [غافر: 34] وبقي الناس في فترة وكان لكل أحد يريد الاهتداء أن يتبع تلك الشريعة أو بعضها كما كانوا يتبعون شريعة إبراهيم فإذا جاءت شريعة بعدها فليست الثانية بناسخة للأولى في الحقيقة ولكنها نسخ يخير الناس في متابعتها الذي كان لهم في زمن الفترة كما إذا كانت عَبْس مثلاً يجوز لها اتباع شريعة إبراهيم فلما جاءهم خالد بن سنان بشريعته تعين عليهم اتباعه.

(161/62)

الثاني أن تجيء شريعة لقوم مأمورين بالدوام عليها كشرع موسى ثم تجيء بعدها شريعة ليست رافعة لتلك الشريعة بأسرها ولكنها ترفع بعض أحكامها وتثبت بعضاً كشريعة عيسى فهذه شريعة ناسخة في الجملة لأنها تنسخ بعضاً وتفسر بعضاً، فالمسيح رسول نسخ بعض التوراة وهو ما نص على نسخه وأما غيره فباق على أحكام التوراة فهو في

معظمها مبين ومذكر ومفسر كمن سبقه من أنبياء بني إسرائيل مثل أشعياء وأرمياء وزكرياء الأول ودانيال وأضرابهم ولا يخالف هذا النوع نسخ أحكام شريعة واحدة إلا بكونه بواسطة رسول ثان .

الثالث مجيء شريعة بعد أخرى بحيث تبطل الثانية الأولى إبطالاً عاماً بحيث تعد تلك الشريعة باطلة سواء في ذلك الأحكام التي نصت الشريعة الثانية فيها بشيء يخالف ما في الأولى أم فيما سكتت الشريعة الثانية عنه وهذا هو الإسلام بالنسبة لما تقدمه من الشرائع فإنه رفع الشرائع كلها بحيث لا يجوز لأحد من المسلمين أن يتلقى شيئاً من الشرائع السالفة فيما لم يتكلم الإسلارم فيه بشيء بل يأخذ أحكام ذلك بالاستنباط والقياس وغير ذلك من طرق أصول الإسلام ، وقد اختلف في أن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد ناسخ ، لكن ذلك الخلاف ناظر إلى دليل آخر وهو قوله تعالى : ﴿ فبهداهم اقتده ﴾ [الأنعام : 90] .

وقوله : ﴿ أو ننسها ﴾ قرأه نافع وابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي ويعقوب وأبو جعفر وخلف (ننسها) بنون مضمومة في أوله وبسين مكسورة ثم هاء .

وقرأه ابن كثير وأبو عمرو (ننسأها) بنون مفتوحة في أوله وبسين مفتوحة وبعدها همزة ساكنة ثم هاء فعلى قراءة ترك الهمز فهو من النسيان والهمزة للتعدية ومفعوله محذوف للعموم أي ننس الناس إياها وذلك بأمر النبيء صلى الله عليه وسلم بترك قراءتها حتى ينساها المسلمون ، وعلى قراءة الهمز فالمعنى أو نؤخرها أي نؤخر تلاوتها أو نؤخر العمل بها والمراد إبطال العمل بقراءتها أو بحكمها فكنى عنه بالنسء وهو قسم آخر مقابل للنسخ وهو أن لا يذكر الرسول الناس بالعمل بحكم مشروع ولا يأمر من يتركه بقضائه حتى ينسى الناس العمل به فيكون ذلك إبطالاً للحكم لأنه لو كان قائماً لما سكت الرسول عن إعادة الأمر به ولما أقر تاركه عند موجب العمل به ولم أجد لهذا مثالاً في القرآن ونظيره في السنة قول رسول الله صلى الله عليه وسلم " لا يمنع أحدكم جاره أن يضع خشبة في جداره " عند من يقول إن النهي فيه للتحريم وهو قول أبي هريرة ولذلك كان يذكر هذا الحديث ويقول مالي أراكم عنها معرضين والله لأرمين بها بين أظهركم .

ومعنى النسء مشعر بتأخير يعقبه إبرام وحينئذ فالمعنى بقاء الحكم مدة غير منسوخ أو بقاء الآية من القرآن مدة غير منسوخة .

أو يكون المراد إنساء الآية بمعنى تأخير مجيئها مع إرادة الله تعالى وقوع ذلك بعد حين والاحتمالات المفروضة في نسخ حكم من الشريعة تتأتى في نسخ شريعة بشريعة وإنسائها أو نسئها .

وقوله : ﴿ نأت بخير منها أو مثلها ﴾ جواب الشرط وجعله جواباً مشعر بأن هذين الحالين وهما النسخ والإنساء أو النسء لا يفارقان حالين وهما الإتيان في وقت النسخ ووقت الإنساء بشيء هو خير من المنسوخ أو مثله أو خير من المنسي أو المنسوء أو مثله فالمأتي به مع النسخ هو الناسخ من شريعة أو حكم والمأتي به مع الإنساء من النسيان هو الناسخ أيضاً من شريعة أو حكم أو هو ما يجيء من الأحكام غير ناسخ ولكنه حكم مخالف ينزل بعد الآخر والمأتي به مع النسء أي التأخير هو ما يقارن الحكم الباقي من الأحكام النازلة في مدة عدم النسخ .

وقد أجملت جهة الخيرية والمثلية لتذهب نفس السامع كل مذهب ممكن فتجده مراداً إذ الخيرية تكون من حيث الاشتمال على ما يناسب مصلحة الناس ، أو ما يدفع عنهم مضرة ، أو ما فيه جلب عواقب حميدة ، أو ما فيه ثواب جزيل ، أو ما فيه رفق بالمكلفين ورحمة بهم في مواضع الشدة وإن كان حملهم على الشدة قد يكون أكثر مصلحة .

وليس المراد أن كل صورة من الصور المفروضة في حالات النسخ والإنساء أو النسء هي مشتملة على الخير والمثل معاً وإنما المراد أن كل صورة منهما لا تخلو من الاشتمال على الخير

منها أو المثل لها فلذلك جيء بأو في قوله : ﴿ بخير منها أو مثلها ﴾ فهي مفيدة لأحد الشيئين مع جواز الجمع .

وتحقيق هاته الصور بأيديكم ، ولنضرب لذلك أمثالاً ترشد إلى المقصود وتغني عن البقية مع عدم التزام الدرج على القول الأصح فنقول :

(1) نسخ شريعة مع الإتيان بخير منها كنسخ التوراة والإنجيل بالإسلام .

(2) نسخ شريعة مع الإتيان بمثلها كنسخ شريعة هود بشريعة صالح فإن لكل فائدة مماثلة للأخرى في تحديد أحوال أمتين متقاربتي العوائد والأخلاق فهود نهاهم أن يبنوا بكل ريع آية يعبثون وصالح لم ينه عن ذلك ونهى عن التعرض للناقة بسوء .

---

(3) نسخ حكم في شريعة بخير منه مثل نسخ كراهة الخمر الثابتة بقوله : ﴿ قل فيهما إثم كبير ومنافع ﴾ [البقرة : 219] بتحريمها بتاتاً فهذه الناسخة خير من جهة المصلحة دون الرفق وقد يكون الناسخ خيراً في الرفق كنسخ تحريم الأكل والشرب وقربان النساء في ليل رمضان بعد وقت الإفطار عند الغروب إذا نام الصائم قبل أن يتعشى بقوله تعالى : ﴿ أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم إلى قوله : ﴿ من الفجر ﴾ [البقرة : 187] قال

في الحديث في " صحيح البخاري" ففرح المسلمون بنزولها .

(4) نسخ حكم في الشريعة بحكم مثله كنسخ الوصية للوالدين والأقربين بتعيين الفرائض والكل نافع للكل في إعطائه مالاً ، وكنسخ فرض خمسين صلاة بخمس صلوات مع جعل ثواب الخمسين للخمس فقد تماثلتا من جهة الثواب ، وكنسخ آية ﴿ وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مساكين ﴾ [البقرة : 184] بقوله تعالى : ﴿ فمن شهد منكم الشهر فليصمه ﴾ [البقرة : 185] إلى قوله : ﴿ وأن تصوموا خير لكم ﴾ [البقرة : 184] فأثبت كون الصوم خيراً من الفدية .

(5) إنساء بمعنى التأخير لشريعة مع مجيء خير منها ، تأخير ظهور دين الإسلام في حين الإتيان بشرائع سبقته كل واحدة منها هي خير بالنسبة للأمة التي شرعت لها والعصر الذي شرعت فيه فإن الشرائع تأتي للناس بما يناسب أحوالهم حتى يتهيأ البشر كلهم لقبول الشريعة الخاتمة التي هي الدين عند الله فالخيرية هنا ببعض معانيها وهي نسبية .

(6) إنساء شريعة بمعنى تأخير مجيئها مع إرادة الله تعالى وقوعه بعد حين ومع الإتيان بمثلها كتأخير شريعة عيسى في وقت الإتيان بشريعة موسى وهي خير منها من حيث الاشتمال على معظم المصالح وما تحتاج إليه الأمة .

(7) إنساء بمعنى تأخير الحكم المراد مع الإتيان بخير منه كتأخير تحريم الخمر وهو مراد مع الإتيان بكراهته أو تحريمه في أوقات الصلوات فقط فإن المأتي به خير من التحريم من حيث الرفق بالناس في حملهم على مفارقة شيء افتتنوا بمحبته .

(8) إنساء شريعة بمعنى بقائها غير منسوخة إلى أمد معلوم مع الإتيان بخير منها أي أوسع وأعم مصلحة وأكثر ثواباً لكن في أمة أخرى أو بمثلها كذلك .

(9) إنساء آية من القرآن بمعنى بقائها غير منسوخة إلى أمد معلوم مع الإتيان بخير منها في باب آخر أي أعم مصلحة أو بمثلها في باب آخر أي مثلها مصلحة أو ثواباً مثل تحريم الخمر في وقت الصلوات وينزل في تلك المدة تحريم البيع في وقت صلاة الجمعة .

(10) نسيان شريعة بمعنى اضمحلالها كشريعة آدم ونوح مع مجيء شريعة موسى وهي أفضل وأوسع وشريعة إدريس مثلاً وهي مثل شريعة نوح .

(11) نسيان حكم شريعة مع مجيء خير منه أو مثله ، كان فيما نزل عشر رضعات معلومات يحرمن فنسخن بخمس معلومات ثم نسيا معاً وجاءت آية ﴿ وأخواتكم من الرضاعة ﴾ [النساء : 23] على الإطلاق والكل متماثل في إثبات الرضاعة ولا مشقة على المكلفين في رضعة أو عشر لقرب المقدار .

وقيل : المراد من النسيان الترك وهو حينئذ يرجع معناه وصوره إلى معنى وصور الإنساء بمعنى التأخير .

(166/62)

والمقصد من قوله تعالى : ﴿ نأت بخير منها أو مثلها ﴾ إظهار منتهى الحكمة والرد عليهم بأنهم لا يهمهم أن تنسخ شريعة بشريعة أو حكم في شريعة بحكم آخر ولا يقدح ذلك في علم الله تعالى ولا في حكمته ولا ربوبيته لأنه ما نسخ شرعاً أو حكماً ولا تركه إلا وهو قد عوض الناس ما هو أنفع لهم منه حينئذ أو ما هو مثله من حيث الوقت والحال ، وما أخر حكماً في زمن ثم أظهره بعد ذلك إلا وقد عوض الناس في إبان تأخيره ما يسد مسده بحسب أحوالهم ، وذلك مظهر الربوبية فإنه يرب الخلق ويحملهم على مصالحهم مع الرفق بهم والرحمة ، ومراد الله تعالى في تلك الأزمنة والأحوال كلها واحد وهو حفظ نظام العالم وضبط تصرف الناس فيه على وجه يعصم أحوالهم من الاختلال بحسب العصور والأمم والأحوال إلى أن جاء بالشريعة الخاتمة وهي مراد الله تعالى من الناس ولذلك قال : ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾ [آل عمران : 19] وقال أيضاً : ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً ﴾ [الشورى : 13] الآية .

والظاهر أن الإتيان بخير أو بمثل راجع إلى كل من النسخ والإنساء فيكون الإتيان بخير من المنسوخة أو المنساة أو بمثلها وليس الكلام من اللف والنشر .

فقوله تعالى : ﴿ نأت بخير منها أو مثلها ﴾ هو إما إتيان تعويض أو إتيان تعزيز .

وتوزيع هذا الضابط على الصور المتقدمة غير عزيز .

والمعنى أنا لم نترك الخلق في وقت سدى ، وأن ليس في النسخ ما يتوهم منه البداء .

وفي الآية إيجاز بديع في التقسيم قد جمع هاته الصور التي سمعتموها وصوراً تنشق منها لا أسألكموها لأنه ما فرضت منها صورة بعد هذا إلا عرفتموها .

(167/62)

ومما يقف منه الشعر ولا ينبغي أن يوجه إليه النظر ما قاله بعض المفسرين في قوله تعالى : ﴿ ننسها ﴾ أنه إنساء الله تعالى المسلمين للآية أو للسورة ، أي إذهابها عن قلوبهم أو إنساؤه النبيء صلى الله عليه وسلم إياها فيكون نسيان الناس كلهم لها في وقت واحد دليلاً على النسخ واستدلوا لذلك بحديث أخرجه الطبراني بسنده إلى ابن عمر قال " قرأ رجلان سورة أقرأهما إياها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقاما ذات ليلة يصليان فلم يقدرا منها على حرف فغديا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرا ذلك له فقال لهما : " إنها مما

نسخ وأنسي فالهوا عنها " قال ابن كثير هذا الحديث في سنده سليمان بن أرقم وهو ضعيف وقال ابن عطية هذا حديث منكر أغرب به الطبراني وكيف خفي مثله على أئمة الحديث .

والصحيح أن نسيان النبيء ما أراد الله نسخه ولم يرد أن يثبته قرآناً جائز ، أي لكنه لم يقع فأما النسيان الذي هو آفة في البشر فالنبيء معصوم عنه قبل التبليغ ، وأما بعد التبليغ وحفظ المسلمين له فجائز وقد روي أنه أسقط آية من سورة في الصلاة فلما فرغ قال لأبيّ لم لم تذكرني قال حسبت أنها رفعت قال : لا ولكني نسيتها أ هـ .

والحق عندي أن النسيان العارض الذي يُتذكر بعده جائز ولا تحمل عليه الآية لمنافاته لظاهر قوله : ﴿ نأت بخير منها أو مثلها ﴾ وأما النسيان المستمر للقرآن فأحسب أنه لا يجوز .

وقوله تعالى : ﴿ سنقرئك فلا تنسى ﴾ [الأعلى : 6] دليل عليه وقوله : ﴿ إلا ما شاء الله ﴾ [الأعلى : 7] هو من باب التوسعة في الوعد وسيأتي بيان ذلك في سورة الأعلى .

وأما ما ورد في " صحيح مسلم" عن أنس قال : كنا نقرأ سورة نشبهها في الطول ببراءة فانسيتها غير أني حفظت منها لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى لهما ثالثاً وما يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب أ هـ .

فهو غريب وتأويله أن هنالك سورة نسخت قراءتها وأحكامها ، ونسيان المسلمين لما نسخ لفظه من القرآن غير عجيب على أنه حديث غريب أ هـ .

وقد دلت هذه الآية على أن النسخ واقع ، وقد اتفق علماء الإسلام على جواز النسخ ووقوعه ولم يخالف في ذلك إلا أبو مسلم الأصفهاني محمد بن بحر فقيل : إن خلافه لفظي وتفصيل الأدلة في كتب أصول الفقه .

وقد قسموا نسخ أدلة الأحكام ومدلولاتها إلى أقسام : نسخ التلاوة والحكم معاً وهو الأصل ومثلوه بما روى عن أبي بكر كان فيما أنزل لا ترغبوا عن آبائكم فإنه كفر بكم أن ترغبوا عن آبائكم ، ونسخ الحكم وبقاء التلاوة وهذا واقع لأن إبقاء التلاوة يقصد منه بقاء الإعجاز ببلاغة الآية ومثاله آية : ﴿ إن يكن منكم عشرون صابرون ﴾ [الأنفال : 65] إلى آخر الآيات .

ونسخ التلاوة وبقاء الحكم ومثلوه بما روي عن عمر : كان فيما يتلى الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما وعندي أنه لا فائدة في نسخ التلاوة وبقاء الحكم وقد تأولوا قول عمر كان فيما يتلى أنه كان يتلى بين الناس تشهيراً بحكمه .

وقد كان كثير من الصحابة يرى أن الآية إذا نسخ حكمها لا تبقى كتابتها في المصحف ففي البخاري في التفسير قال ابن الزبير قلت لعثمان : ﴿ والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً

﴾ [البقرة: 234] نسختها الآية الأخرى فلم تكتبها قال: يا ابن أخي لا أغير شيئاً منه من مكانه.

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ﴿ للهِ للهِ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السماوات والأرض وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾.

(169/62)

مسوق لبيان حكمة النسخ والإتيان بالخير والمثل بياناً غير مفصل على طريقة الأسلوب الحكيم، وذلك أنه بعد أن فرغ من التنبيه على أن النسخ الذي استبعدوه وتذرعوا به لتكذيب الرسول هو غير مفارق لتعويض المنسوخ بخير منه أو مثله أو تعزيز المبقى بمثله أريد أن ينتقل من ذلك إلى كشف ما بقي من الشبهة وهي أن يقول المنكر وما هي الفائدة في النسخ حتى يحتاج للتعويض؟ وكان مقتضى الظاهر أن يتصدى لبيان اختلاف المصالح ومناسبتها للأحوال والأعصار ولبيان تفاصيل الخيرية والمثلية في كل ناسخ ومنسوخ.

ولما كان التصدي لذلك أمراً لم تتهيأ له عقول السامعين لعسر إدراكهم مراتب المصالح وتفاوتها، لأن ذلك مما يحتاج إلى تأصيل قواعد من أصول شرعية وسياسية، عدل بهم عن بيان ذلك وأجملت لهم المصلحة بالحوالة على قدرة الله تعالى التي لا يشذ عنها ممكن

مراد ، وعلى سعة ملكه المشعر بعظيم علمه ، وعلى حاجة المخلوقات إليه إذ ليس لهم رب سواه ولا ولي دونه وكفى بذلك دليلاً على أنه يحملهم على مصالحهم في سائر الأحوال .

ومما يزيد هذا العدول توجيهاً أن التصدي للبيان يفتح باب الجدال في إثبات المصلحة وتفاوت ذلك بحسب اختلاف القرائح والفهوم .

ولأن أسباب التشريع والنسخ أقسام ، منه ما ظهر وجهه بالنص فيمكن إفهامهم إياه نحو قوله : ﴿ إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ﴾ [المائدة : 91] الآية بعد قوله : ﴿ لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى ﴾ [النساء : 43] الآية ونحو ﴿ وعلم أن فيكم ضعفاً ﴾ [الأنفال : 66] الآية .

ومنها ما يعسر إفهامهم إياه لأنه يحتاج إلى علم وتفصيل من شأن المشرعين وعلماء الأصول كالأشياء التي عرفت بالقياس وأصول التشريع .

ومنها ما لم يطلع على حكمته في ذلك الزمان أو فيما يليه ، ولما كان معظم هاته التفاصيل يعسر أو يتعذر إفهامهم إياه وقع العدول المذكور .

ولكون هاته الجملة تنزل منزلة البيان للأولى فصلت عنها .

والخطاب في ﴿ تعلم ﴾ ليس مراداً منه ظاهره الواحد وهو النبيء صلى الله عليه وسلم بل هو إما خطاب لغير معين خارج على طريقة المجاز بتشبيه من ليس حاضراً للخطاب وهو الغائب منزلة المخاطب في كونه بحيث يصير مخاطباً لشهرة هذا الأمر والمقصد من ذلك ليعم كل مخاطب صالح له وهو كل من يظن به أو يتوهم منه أنه لا يعلم أن الله على كل شيء قدير ولو بعدم جريانه على موجب علمه ، وإلى هذه الطريقة مال القطب والطيبي من شراح " الكشاف" وعليها يشمل هذا الخطاب ابتداء اليهود والمشركين ومن عسى أن يشتبه عليه الأمر وتروج عليه الشبهة من ضعفاء المسلمين ، أما غيرهم فغني عن التقرير في الظاهر وإنما أدخل فيه ليسمع غيره .

وإما مراد به ظاهره وهو الواحد فيكون المخاطب هو النبيء صلى الله عليه وسلم لكن المقصود منه المسلمون فينتقل من خطاب النبيء إلى مخاطبة أمته انتقالاً كنائياً لأن علم الأمة من لوازم علم الرسول من حيث إنه رسول لزوماً عرفياً فكل حكم تعلق به بعنوان الرسالة فالمراد منه أمته لأن ما يثبت له من المعلومات في باب العقائد والتشريع فهو حاصل لهم فتارة يراد من الخطاب توجه مضمون الخطاب إليه ولأمته وتارة يقصد منه توجه المضمون لأمته فقط على قاعدة الكناية في جواز إرادة المعنى الأصلي مع الكنائي ، وههنا لا يصلح توجه المضمون للرسول لأنه لا يقرر على الاعتراف بأن الله على كل شيء قدير فضلاً عن أن ينكر عنه وإنما التقرير للأمة ، والمقصد من تلك الكناية التعريض باليهود .

وإنما سلك هذا الطريق دون أن يؤتى بضمير الجماعة المخاطبين لما في سلوك طريق الكناية من البلاغة والمبالغة مع الإيجاز في لفظ الضمير .

والاستفهام تقريري على الوجهين وهو شأن الاستفهام الداخل على النفي كما تقدم عند قوله : ﴿ ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض ﴾ [البقرة : 33] أي إنكم تعلمون أن الله قدير وتعلمون أنه مالك السماوات والأرض بما يجري فيهما من الأحوال ، فهو ملكه أيضاً فهو يصرف الخلق كيف يشاء .

وقد أشار في " الكشاف " إلى أنه تقريري وصرح به القطب في " شرحه " ولم يسمع في كلام العرب استفهام دخل على النفي إلا وهو مراد به التقرير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 1 صـ 636. 647 ﴾

(171/62)

ومن فوائد القاسمى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [106]

﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ ﴾ أي : ما نبدّل من آية بغيرها ، كنسخنا آيات التوراة بآيات القرآن : ﴿ أو ننسها ﴾ أي : نذهبها من القلوب كما أخبر بقوله : ﴿ وَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ [المائدة : 13]

وقرئ : ﴿ أَوْ نُنسَأْهَا ﴾ أي : نؤخرها ونتركها بلا نسخ ، كما أبقى كثيراً من أحكام التوراة في القرآن . وعلى هذه القراءة ، فقد نشر على ترتيب هذا اللف قوله : ﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا ﴾ أي : من المنسوخة المبدلة كما فعل في الآيات التي شرعت في الملة الحنيفية ما فيه اليسر ، ورفع الحرج والعنت ، فكانت خيراً من تلك الآصار ، والأغلال . وقوله : ﴿ أَوْ مِثْلِهَا ﴾ أي : مثل تلك الآيات الموحاة قبل ، كما يُرى في كثير من الآيات في القرآن الموافقة لما بين يديها مما اقتصت الحكمة بقاءه واستمراره .

قال الراغب : فإن قيل : إن الذي تُرك ولم يُنسخ ليس مثله بل هو هو ، فكيف قال : بمثلها ؟ قيل : الحكم الذي أنزل في القرآن وكان ثابتاً في الشرع الذي قبلنا يصح أن يقال هو هو ، إذا اعتبر بنفسه ولم يعتبر بكسوته ، التي هي اللفظ ، ويصح أن يقال هو مثله إذا لم يعتبر بنفسه فقط بل اعتبر باللفظ ، ونحو ذلك أن يقال : ماء البئر هو ماء النهر إذا اعتبر جنس الماء ، وتارة يقال : مثل ماء النهر إذا اعتبر قرار الماء . على أن إرادة العين بالمثل شائعة ؛ كما في قولهم : مثلك لا يبخل .

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فهو يقدر على الخير، وما هو خير منه، وعلى مثله في الخير، قال الراغب: أي: لا تحسبن أن تغييري لحكمٍ حالاً فحالاً، وأني لم آت بالثاني في الابتداء، هو العجز، فإن من علم قدرته على كل شيء لا يظن ذلك. وإنما تغير ذلك يرجع إلى مصلحة العباد، وأن الأليق بهم، في الوقت المتقدم، الحكم المتقدم. وفي الوقت المتأخر، الحكم المتأخر. انتهى انتهى. اهـ ﴿محاسن التأويل حـ 2 صـ 411. 412﴾

(173/62)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله:

﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(106) ﴾

ولكن ما هو السبب ؟

السبب أن أهل الكتاب والمشركين لا يريدون خيرا للمؤمنين في دينهم ؛ لأنهم أحسوا أن ما

جاء به محمد صلى الله عليه وسلم في زمنه خير مما جاء به موسى وبقى إلي زمن محمد صلى الله عليه وسلم . . وخير مما جاء به عيسى في زمن محمد صلى الله عليه وسلم . وليس معنى ذلك أننا نحاول أن ننقص ما جاء به الرسل السابقون . . لكننا نؤكد أن الرسل السابقين جاءوا في أزمانهم بخير ما وجد في هذه الأزمان . . فكل رسالة من الرسالات التي سبقت رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم . . وجاءت لقوم محددين وزمن محدد . . واقرأ قول عيسى عليه السلام حينما بعث إلي بني إسرائيل كما يروي لنا القرآن الكريم :

وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ(50)

(سورة آل عمران)

(174/62)

فكأن عيسى عليه السلام جاء لينسخ بعض أحكام التوراة . . ويحل لبني إسرائيل بعض ما حرمه الله عليهم . . ورسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الرسول الخاتم أعطى الخير كله ؛ لأنه دينه للعالمين وباق إلي يوم القيامة . وهكذا نرى أن المؤمنين بالرسل كلما جاء رسول

جديد كانوا ينتقلون من خير إلي خير . . وفيما تتفق فيه الرسالات كانوا ينتقلون إلي مثل هذا الخير . . وذلك فيما يتعلق بالعقائد ، وإلي زيادة في الخير فيما يتعلق بمنهج الحياة . . هناك في رسالات السماء كلها أمور مشتركة لا فرق فيها بين رسول ورسول وهي قضية الإيمان بإله واحد أحد له الكمال المطلق . . سبحانه في ذاته ، وسبحانه في صفاته ، وسبحانه في أفعاله . . كل ذلك قدر الرسالات فيه مشترك . . ولكن الحياة في تطورها توجد فيها قضايا لم تكن موجودة ولا مواجهة في العصر الذي سبق . . فإذا قلنا إن رسالة بقيمتها العقائدية تبقى . . فإنها لا تستطيع أن تواجه قضايا الحياة التي ستأتي بها العصور التي بعدها فيما عدا الإسلام . . لأنه جاء دينا خاتما لا يتغير ولا يتبدل إلي يوم القيامة . .

على أننا نجد من يقول وماذا عن قول الله سبحانه وتعالى :

شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ(13)

(سورة الشورى)

نقول إن هذا يأتي في شيء واحد . . يتعلق بالأمر الثابت في رسالات السماء وهو قضية قمة العقيدة والإيمان بالله الواحد . . أما فيما يتعلق بقضايا الحياة فإننا نجد أحكاما في هذه الحركة حسب ما طرأ عليها من توسعات . . ولذلك عندما جاء محمد صلى الله عليه وسلم أعطى أشياء يعالج بها قضايا لم تكن موجودة في عهد الرسل السابقين . يقول الله تبارك وتعالى : " ما ننسخ من آية أو ننسها " . . كلمة ننسخ معناها نزيل آية كانت موجودة ونأتي بآية أخرى بدلا منها . . كما يقال نسخت الشمس الظل . . أي أن الظل كان موجودا وجاءت الشمس فمحته وحلت هي مكانه . . ويقال نسخت الكتاب أي نقلته إلي صور متعددة ، ونسخ الشيب الشباب أي أصبح الشاب شيخا .

وقوله تعالى " ننسها " لها معان متعددة . . قد يعني ذلك أن الله يجعل الإنسان يسهو ويغفل عنها . . فتضيع من ذاكرته أو يتركها إلي غيرها . . والعلماء اختلفوا في هذه المسألة . . وكان هذا الاختلاف لأن أحدهم يلحظ ملحظا وغيره يلحظ ملحظا آخر وكلاهما يريد الحق . . نأتي للنسخ في القرآن الكريم . . قوم قالوا لا نسخ في القرآن أبدا . . لماذا ؟ لأن النسخ بداء على الله . . ما معنى البداء ؟ هو أن تأتي بحكم ثم يأتي التطبيق فيثبت قصور الحكم عن مواجهة القضية فيعدل الحكم . . وهذا محال بالنسبة لله سبحانه وتعالى . . نقول لهم طبعا هذا المعنى مرفوض ومحال أن يطلق على الله تبارك وتعالى . . ولكننا نقول إن النسخ ليس بداء ، وإنما هو إزالة الحكم والمجيء بحكم آخر . . ونقول لهم ساعة

حكم الله الحكم أولا فهو سبحانه يعلم أن هذا الحكم له وقت محدود ينتهي فيه ثم يحل مكانه حكم جديد . . ولكن الظروف والمعاجلة يقتضيان أن يحدث ذلك بالتدريج . . وليس معنى ذلك أن الله سبحانه قد حكم بشيء ثم جاء واقع آخر أثبت أن الحكم قاصر فعدل الله عن الحكم . . إن هذا غير صحيح .

(176/62)

لماذا ؟ . . لأنه ساعة حكم الله أولا كان يعلم أن الحكم له زمن أو يطبق لفترة ثم بعد ذلك ينسخ أو يبدل بحكم آخر . إذن فالمشروع الذي وضع هذا الحكم وضعه على أساس أنه سينتهي وسيحل محله حكم جديد . . وليس هذا كواقع البشر . . فأحكام البشر وقوانينهم تعدل لأن واقع التطبيق يثبت قصور الحكم عن مواجهة قضايا الواقع . . لأنه ساعة وضع الناس الحكم علموا أشياء وخفيت عنهم أشياء . . فجاء الواقع ليظهر ما خفى وأصبح الحكم لابد أن ينسخ أو يعدل . . ولكن الأمر مع الله سبحانه وتعالى ليس كذلك . . أمر الله جعل الحكم موقوتا ساعة جاء الحكم الأول . مثلا حين وجه الله المسلمين إلي بيت المقدس . . أكانت القضية عند الله أن القبلة ستبقى إلي بيت المقدس طالما وجد الإسلام وإلي يوم القيامة ؟ ثم بدا له سبحانه وتعالى أن يوجه المسلمين إلي

الكعبة ؟ لا . . لم تكن هذه هي الصورة . . ولكن كان في شرع الله أن يتوجه المسلمون أولا إلي بيت المقدس فترة ثم بعد ذلك يتوجهون إلي الكعبة إلي يوم القيامة .

إذن فالواقع لم يضطر المشروع إلي أن يعدل القبلة من بيت المقدس إلي الكعبة . . نقول إنك لم تفهم عن الله . . " اتقوا الله حق تقاته" في الآية الأولى أو " فاتقوا الله ما استطعتم" في الآية الثانية . . أي الحالتين احسن ؟ نقول إن العبرة بالنتيجة . . عندما تريد أن تقيم شيئا لابد أن تبحث عن نتيجته أولا . ولنقرب المعنى للأذهان سنضرب مثلا ولله المثل الأعلى . . نفرض أن هناك تاجرا يبيع السلع بربح خمسين في المائة . . ثم جاء تاجر آخر يبيع نفس السلع بربح خمسة عشر في المائة . . ماذا يحدث ؟ سيقبل الناس طبعا على ذلك الذي يبيع السلع بربح خمسة عشر في المائة ويشترون منه كل ما يريدون ، والتاجر الذي يبيع السلع بربح خمسين في المائة يحقق ربحا اكبر . . ولكن الذي يبيع بربح خمسة عشر في المائة يحقق ربحا أقل ولكن بزيادة الكمية المبيعة . . يكون الربح في النهاية اكبر .

(177/62)

والذي يطبق الآية الكريمة : " اتقوا الله حق تقاته" يحقق خيرا اكبر في عمله . . ولكنه لا يستطيع أن يتقي الله حق تقاته إلا في أعماله محدودة جدا . إذن الخير هنا اكبر ولكن العمل

الذي تنطبق عليه الآية محدود . أما قوله تعالى : " فاتقوا الله ما استطعتم" فإنه قد حدد التقوى بقدر الاستطاعة . . ولذلك تكون الأعمال المقبولة كثيرة وإن كان الأجر عليها أقل . عندما نأتي إلي النتيجة العامة . . أعمال أجرها أعلى ولكنها قليلة ومحدودة جدا . . وأعمال أجرها أقل ولكنها كثيرة . . أيهما فيه الخير ؟ طبعا الأعمال الكثيرة ذات الأجر الأقل في مجموعها تفوق الأعمال القليلة ذات الأجر المرتفع . إذن فقد نسخت هذه الآية بما هو خير منها . . رغم أن الظاهر لا يبدو كذلك ، لأن اتقاء الله حق تقاته خير من اتقاء الله قدر الاستطاعة . . ولكن في المحصلة العامة الخير في الآية التي نصت على الاستطاعة . .

(178/62)

نأتي بعد ذلك إلي قوله تعالى : " أو مثلها " . . هنا توقف بعض العلماء : قد يكون مفهوما أن ينسخ الله آية بخير منها ، ولكن ما هي الحكمة في أن ينسخها بمثلها ؟ إذا كانت الآية التي نسخت مثل الآية التي جاءت . . فلماذا تم النسخ ؟ نقول إننا إذا ضربنا مثلا لذلك فهو مثل تغيير القبلة . . أن الله تبارك وتعالى حين أمر المسلمين بالتوجه إلي الكعبة بدلا من بيت المقدس نسخ آية بمثلها . . لأن التوجه إلي الكعبة لا يكلف المؤمن أية مشقة أو زيادة في

التكليف . . فالإنسان يتوجه ناحية اليمين أو إلي اليسار أو إلي الأمام أو إلي الخلف وهو نفس الجهد . . والله سبحانه وتعالى كما قلنا موجود . . وهنا تبرز الطاعة الإيمانية التي تحدثنا عنها وأن هناك أفعالا نقوم بها لأن الله قال . . وهذه تأتي في العبادات لأن العبادة هي طاعة عابد لأمر معبود . . والله تبارك وتعالى يريد أن تثبت العبودية له عن حب واختيار . . فإن قال افعلوا كذا فعلنا . . وإ قال لا تفعلوا لا نفعل . . والعلة في هذا أننا نريد اختياراً أن نجعل مراداتنا في الكون خاضعة لمرادات الله سبحانه وتعالى . . إذن مثلها لم تأت بلا حكمة بل جاءت لحكمة عالية .

والحق سبحانه وتعالى يقول : " أو ننسها " ما معنى ننسها ؟ قال بعض العلماء إن النسخ والنسيان شيء واحد . . ولكن ساعة قال الله الحكم الأول كان في إرادته ومشيئته وعلمه أن يأتي حكم آخر بعد مدة . . ساعة جاء الحكم الأول ترك الحكم الثاني في مشيئته قدرا من الزمن حتى يأتي موعد نزوله . إذن فساعة يأتي الحكم الأول . . يكون الحكم مرجأ ولكنه في علم الله . ينتظر انقضاء وقت الحكم الأول : " ما ننسخ من آية " هي الآية المنسوخة أو التي سيتم عدم العمل بها : " أو ننسها " . . أي لا يبلغها الله للرسول والمؤمنين عن طريق الوحي مع أنها موجودة في علمه سبحانه . . ويجب أن تنتبه إلي أن النسخ لا يحدث في شيئين :

الأول : أمور العقائد فلا تنسخ آية آية أخرى في أمر العقيدة . . فالعقائد ثابتة لا تتغير منذ عهد آدم حتى يوم القيامة . . فالله سبحانه واحد أحد لا تغيير ولا تبديل ، والغيب قائم ، والآخرة قادمة والملائكة يقومون بمهامهم . . وكل ما يتعلق بأمور العقيدة لا ينسخ أبدا . .

والثاني : الإخبار من الله عندما يعطينا الله تبارك وتعالى آية فيها خبر لا ينسخها بآية جديدة . . لأن الإخبار هو الإبلاغ بشيء واقع . . والحق سبحانه وتعالى إخباره لنا بما حدث لا ينسخ لأنه بلاغ صدق من الله . . فلا تروي لنا حادثة الفيل ثم تنسخ بعد ذلك وتروى بتفاصيل أخرى لأنها أبلغت كما وقعت . . إذن لا نسخ في العقائد والإخبار عن الله . . ولكن النسخ يكون في التكليف . . مثل قول الحق تبارك وتعالى :

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ(64) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ(65)

(سورة الأنفال)

كأن المقياس ساعة نزول هذه الآية أن الواحد من المؤمنين يقابل عشرة من الكفار ويغلبهم . . ولكن كانت هذه عملية شاقة على المؤمنين . . ولذلك نسخها الله ليعطينا على قدر طاقتنا . . فنزلت الآية الكريمة :

الآنَ خَفَّفَ اللّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُواْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ(66)

(سورة الأنفال)

(180/62)

والحق سبحانه وتعالى علم أن المؤمنين فيهم ضعف . . لذلك لن يستطيع الواحد منهم أن يقاتل عشرة ويغلبهم . . فنقلها إلي خير يسير يقدر عليه المؤمنون بحيث يغلب المؤمن الواحد اثنين من الكفار . . وهذا حكم لا يدخل في العقيدة ولا في الإخبار . . وفي أول نزول القرآن كانت المرأة إذا زنت وشهد عليها أربعة يمسكونها في البيت لا تخرج منه حتى تموت . . واقرأ قوله تعالى :

وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَاسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً(15)

(سورة النساء)

وبعد أن شاع الإسلام وامتلأت النفوس بالإيمان . . نزل تشريع جديد هو الرجم أو الجلد . . ساعة نزل الحكم الأول بحبسهن كان الحكم الثاني في علم الله . . وهذا ما نفهمه من

قوله تعالى : " أو يجعل الله لهن سبيلا" . . وقوله سبحانه :

فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ

(من الآية 109 سورة البقرة)

وقوله تعالى حتى يأتي الله بأمره . . كأن هناك حكما أو أمرا في علم الله سيأتي ليعدل الحكم الموجود . . إذن الله حين أبلغنا بالحكم الأول أعطانا فكرة . . أن هذا الحكم ليس نهائيا وأن حكما جديدا سينزل . . بعد أن تتدرب النفوس على مراد الله من الحكم الأول . . ومن عظمة الله أن مشيئته اقتضت في الميراث أن يعطي الوالدين الذين بلغا أرذل العمر فقال جل جلاله :

كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ(180)

(181/62)

وهكذا جعلها في أول الأمر وصية ولم تكن ميراثا . . لماذا ؟ لأن الإنسان إن مات فهو الحلقة الموصولة بأبيه . . أما أبناؤه فحلقة أخرى . . ولما استقرت الأحكام في النفوس وأقبلت على تنفيذ ما أمر به الله . . جعل سبحانه المسألة فرضا . . فيستوفى الحكم .

ويقول جل جلاله :

يُوصِيكُمُ اللّهُ فِي أَوْلاَدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاء فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَآؤُكُمْ وَأَبناؤُكُمْ لاَ تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً فَرِيضَةً مِّنَ اللّهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيما حَكِيماً (11)

(سورة النساء)

وهكذا بعد أن كان نصيب الوالدين في تركة الابن وصية . . إن شاء أوصى بها وإن شاء لم يوصي أصبحت فرضا . . وقوله تعالى : " ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير " . . أي كل شيء يدخل في إرادة الله وقدرته سبحانه . . إذا قلنا إذا جاء الله بحكم لعصر فهذا هو قمة الخير . . لأنه إذا عدل الحكم بعد أن أدى مهمته في عصره ، فإن الحكم الجديد الذي يأتي هو قمة الخير أيضا . . لأن الله على كل شيء قدير ، يواجه كل عصر بقمة الخير للموجودين فيه . . ولذلك فمن عظمة الله أنه لم يأت بالحكم خبرا من عنده ولكنه أشرك فيه المخاطب . . فلم يقل سبحانه " إن الله على كل شيء قدير " . . ولكنه قال : " ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير " . . لأنه واثق أن كل من يسمع سيقول نعم . . وهذا ما

يعرف بالاستفهام الإنكاري أو التقريري . انتهى انتهى . ا هـ ﴾ تفسير الشعراوى صـ 516.507 ﴿

(182/62)

" فصل "

قال فى الميزان :

من المعلوم أن النسخ بالمعنى المعروف عند الفقهاء وهو الإبانة عن انتهاء أمد الحكم وانقضاء أجله اصطلاح متفرع على الآية مأخوذ منها ومن مصاديق ما يتحصل من الآية في معنى النسخ على ما هو ظاهر إطلاق الآية .

قوله تعالى : ما ننسخ ، النسخ هو الإزالة ، يقال : نسخت الشمس الظل إذا أزالته وذهبت به ، قال تعالى : وما أرسلنا من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان) الحج – 51 ، ومنه أيضا قولهم : نسخت الكتاب إذا نقل من نسخة إلى أخرى فكأن الكتاب أذهب به وأبدل مكانه ولذلك بدل لفظ النسخ من التبديل في قوله تعالى : (وإذا بدلنا آية مكان آية والله اعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون) النحل – 101 ، وكيف كان فالنسخ لا يوجب زوال نفس الآية من

الوجود وبطلان تحققها بل الحكم حيث علق بالوصف وهو الآية والعلامة مع ما يلحق بها من التعليل في الآية بقوله تعالى : ألم تعلم ، إلخ أفاد ذلك أن المراد بالنسخ هو اذهاب اثر الآية ، من حيث أنها آية ، اعني إذهاب كون الشئ آية وعلامة مع حفظ أصله فبالنسخ يزول أثره من تكليف أو غيره مع بقاء أصله وهذا هو المستفاد من إقتران قوله : ننسها بقوله : ما ننسخ ، والانساء إفعال من النسيان وهو الاذهاب عن العلم كما أن النسخ هو الا ذهاب عن العين فيكون المعنى ما نذهب بآية عن العين أو عن العلم نأت بخير منها أو مثلها .

(183/62)

ثم إن كون الشئ آية يختلف باختلاف الأشياء والحيثيات والجهات ، فالبعض من القرآن آية لله سبحانه باعتبار عجز البشر عن اتيان مثله ، والاحكام والتكاليف الإلهية آيات له تعالى باعتبار حصول التقوى والقرب بها منه تعالى ، والموجودات العينية آيات له تعالى باعتبار كشفها بوجودها عن وجود صانعها وبخصوصيات وجودها عن خصوصيات صفاته وأسمائه سبحانه ، وأنبياء الله واوليائه تعالى آيات له تعالى باعتبار دعوتهم إليه بالقول و الفعل وهكذا ، ولذلك كانت الآية تقبل الشدة والضعف قال الله تعالى : لقد رأي من آيات ربه الكبرى) النجم – 18 .

ومن جهة أخرى الآية ربما كانت في انها آية ذات جهة واحدة وربما كانت ذات جهات كثيرة ، ونسخها وإزالتها كما يتصور بجهته الواحدة كاهلاكها كذلك يتصور ببعض جهاتها دون بعض إذا كانت ذات جهات كثيرة ، كالآية من القرآن تنسخ من حيث حكمها الشرعي وتبقى من حيث بلاغتها وإعجازها ونحو ذلك .

(184/62)

وهذا الذي استظهرناه من عموم معنى النسخ هو الذي يفيده عموم التعليل المستفاد من قوله تعالى : ألم تعلم أن الله على كل شئ قدير ، ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض ، وذلك أن الإنكار المتوهم في المقام أو الإنكار الواقع من اليهود على ما نقل في شأن نزول الآية بالنسبة إلى معنى النسخ يتعلق به من وجهين : احدهما : من جهة أن الآية إذا كانت من عند الله تعالى كانت حافظة لمصلحة من المصالح الحقيقية لا تحفظها شئ دونها ، فلو زالت الآية فاتت المصلحة ولن تقوم مقامها شئ تحفظ به تلك المصلحة ، ويستدرك به ما فات منها من فائدة الخلقة ومصلحة العباد ، وليس شأنه تعالى كشأن عباده ولا علمه كعلمهم بحيث يتغير بتغير العوامل الخارجية فيتعلق يوما علمه بمصلحة فيحكم بحكم ثم يتغير علمه غدا ويتعلق بمصلحة أخرى فاتت عنه بالامس ، فيتغير الحكم ، ويقضي ببطلان ما حكم

سابقا ، وإتيان آخر لاحقا ، فيطلع كل يوم حكم ، ويظهر لون بعد لون ، كما هو شأن العباد غير المحيطين بجهات الصلاح في الأشياء ، فكانت أحكامهم وأوضاعهم تتغير بتغير العلوم بالمصالح والمفاسد زيادة ونقيصة وحدوثا وبقاء ، ومرجع هذا الوجه إلى نفي عموم القدرة وإطلاقها .

(185/62)

وثانيهما : أن القدرة وإن كانت مطلقة إلا أن تحقق الايجاد وفعلية الوجود يستحيل معه التغير ، فان الشئ لا يتغير عما وقع عليه بالضرورة وهذا مثل الإنسان في فعله الاختياري فان الفعل اختياري للإنسان ما لم يصدر عنه فإذا صدر كان ضروري الثبوت غير اختياري له ، ومرجع هذا الوجه إلى نفي اطلاق الملكية و عدم جواز بعض التصرفات بعد خروج الزمام ببعض آخر كما قالت اليهود : يد الله مغلولة : فاشار سبحانه إلى الجواب عن الأول بقوله : ألم تعلم أن الله على كل شئ قدير أي فلا يعجز عن إقامة ما هو خير من الفائت أو إقامه ما هو مثل الفائت مقامه وأشار إلى الجواب عن الثاني بقوله : إلم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير ، أي إن ملك السموات والأرض لله سبحانه فله أن يتصرف في ملكه كيف يشاء وليس لغيره شئ من الملك حتى يوجب

ذلك انسداد باب من ابواب تصرفه سبحانه ، أو يكون مانعا دون تصرف من تصرفاته ، فلا يملك شيء شيئا ، لا ابتداء ولا بتمليكه تعالى ، فان التمليك الذي يملكه غيره ليس كتمليك بعضنا بعضا شيئا بنحو يبطل ملك الأول ويحصل ملك الثاني ، بل هو مالك في عين ما يملك غيره ما يملك ، فإذا نظرنا إلى حقيقة الأمر كان الملك المطلق والتصرف المطلق له وحده ، وإذا نظرنا إلى ما ملكنا بملكه من دون استقلال كان هو الولي لنا وإذا نظرنا إلى ما تفضل علينا من ظاهر الاستقلال – وهو في الحقيقة فقر في صورة الغنى ، وتبعية في صورة الاستقلال – لم يمكن لنا أيضا أن ندبر امورنا من دون إعانته ونصره ، كان هو النصير لنا .

(186/62)

وهذا الذي ذكرناه هو الذي يقتضيه الحصر الظاهر من قوله تعالى : (أن الله له ملك السموات والأرض فقوله تعالى : (ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض) ، مرتب على ترتيب ما يتوهم من الاعتراضين ، ومن الشاهد على كونهما اعتراضين إثنين الفصل بين الجملتين من غير وصل ، وقوله تعالى : وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير ، مشتمل على أمرين هما كالمتممين للجواب أي وإن لم تنظروا إلى ملكه المطلق بل نظرتم إلى ما عندكم من الملك الموهوب فحيث كان ملكا موهوبا من غير انفصال

واستقلال فهو وحده وليكم ، فله أن يتصرف فيكم وفي ما عندكم ما شاء من التصرف ، وإن لم تنظروا إلى عدم استقلالكم في الملك بل نظرتم إلى ظاهر ما عندكم من الملك والاستقلال وانجمدتم على ذلك فحسب ، فإنكم ترون أن ما عندكم من القدرة والملك والاستقلال لا تتم وحدها ، ولا تجعل مقاصدكم مطيعة لكم خاضعة لقصودكم وإرادتكم وحدها بل لا بد معها من إعانة الله ونصره فهو النصير لكم فله أن يتصرف من هذا الطريق فله سبحانه التصرف في أمركم من أي سبيل سلكتم هذا ، وقوله : وما لكم من دون الله ، جيء فيه بالظاهر موضع المضمر نظرا إلى كون الجملة بمنزلة المستقل من الكلام لتمامية الجواب دونه .

فقد ظهر مما مر : أولا ، أن النسخ لا يختص بالأحكام الشرعية بل يعم التكوينيات أيضا .

وثانيا : ان النسخ لا يتحقق من غير طرفين ناسخ ومنسوخ.

وثالثا : ان الناسخ يشتمل على ما في المنسوخ من كمال أو مصلحة .

ورابعا : ان الناسخ ينافي المنسوخ بحسب صورته وإنما يرتفع التناقض بينهما من جهة اشتمال كليهما على المصلحة المشتركة فإذا توفى نبي وبعث نبى آخر وهما آيتان من آيات

الله تعالى أحدهما ناسخ للآخر كان ذلك جريانا على ما يقتضيه ناموس الطبيعة من الحياة والموت والرزق والأجل وما يقتضيه اختلاف مصالح العباد بحسب إختلاف الاعصار وتكامل الافراد من الإنسان ، وإذا نسخ حكم ديني بحكم ديني كان الجميع مشتملا على مصلحة الدين وكل من الحكمين أطبق على مصلحت الوقت ، أصلح لحال المؤمنين كحكم العفو في أول الدعوة وليس للمسلمين بعد عدة ولا عدة .

وحكم الجهاد بعد ذلك حينما قوي الإسلام وأعد فيهم ما استطاعوا من قوة وركز الرعب في قلوب الكفار والمشركين .

والآيات المنسوخة مع ذلك لا تخلو من إيماء وتلويح إلى النسخ كما في قوله تعالى : (فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره) البقرة – 109 ، المنسوخ بأية القتال وقوله تعالى : (فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا) النساء – 14 ، المنسوخ بأية الجلد فقوله : حتى يأتي الله بأمره وقوله : (أو يجعل الله لهن سبيلا) لا يخلو عن إشعار بأن الحكم موقت مؤجل سيلحقه نسخ .

وخامسا : أن النسبة التي بين الناسخ والمنسوخ غير النسبة التي بين العام والخاص وبين المطلق والمقيد وبين المجمل والمبين ، فان الرافع للتنافي بين الناسخ والمنسوخ بعد استقراره بينهما بحسب الظهور اللفظي هو الحكمة والمصلحة الموجودة بينهما ، بخلاف الرافع للتنافي بين العام والخاص والمطلق والمقيد والمجمل والمبين فانه قوة الظهور اللفظي الموجود في

الخاص والمقيد والمبين ، المفسر للعام بالتخصيص ، وللمطلق بالتقييد ، وللمجمل بالتبيين على ما بين في فن أصول الفقة ، وكذلك في المحكم والمتشابه على ما سيجئ في قوله : (منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات) آل عمران - 7 .

(188/62)

قوله تعالى : أو ننسها ، قرء بضم النون وكسر السين من الانساء بمعنى الإذهاب عن العلم والذكر وقد مر توضيحه ، وهو كلام مطلق أو عام غير مختص برسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بل غير شامل له أصلا لقوله تعالى : (سنقرئك فلا تنسى إلا ما شاء الله) الأعلى - 7 ، وهي آية مكية وآية النسخ مدنية فلا يجوز عليه النسيان بعد قوله تعالى : فلا تنسى وأما اشتماله على الاستثناء بقوله : إلا ما شاء الله فهو على حد الاستثناء الواقع في قوله تعالى : (خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ) هود - 109 ، جئ بها لاثبات بقاء القدرة مع الفعل على تغيير الأمر ، ولو كان الاستثناء مسوقا لبيان الوقوع في الخارج لم يكن للامتنان بقوله : فلا تنسى معنى ، إذ كل ذي ذكر وحفظ من الإنسان وسائر الحيوان كذلك يذكر وينسى وذكره نسيانه كلاهما منه تعالى وبمشيته ، وقد كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كذلك قبل هذا الاقراء

الامتناني الموعود بقوله : سنقرئك يذكر بمشية الله وينسى بمشية الله تعالى فليس معنى الاستثناء إلا إثبات إطلاق القدرة أي سنقرئك فلا تنسى ابدا والله مع ذلك قادر على إنسائك هذا .

وقرء قوله : ننسأها بفتح النون والهمزة من نسئ نسيئا إذا أخر تأخيرا فيكون المعنى على هذا : ما ننسخ من آية بإزالتها أو نؤخرها بتأخير إظهارها نأت بخير منها أو مثلها ولا يوجب التصرف الالهي بالتقديم والتأخير في آياته فوت كمال أو مصلحة والدليل على أن المراد بيان أن التصرف الإلهى يكون دائما على الكمال والمصلحة هو قوله : بخير منها أو مثلها فأن الخيرية إنما يكون في كمال شئ موجود أو مصلحة حكم مجعول ففي ذلك يكون موجود مماثلا لآخر في الخيرية أو أزيد منه في ذلك فافهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الميزان حـ 1 صـ 254.250 ﴾

(189/62)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

أخرج ابن أبي حاتم والحاكم في الكنى وابن عدي وابن عساكر عن ابن عباس قال "كان مما ينزل على النبي صلى الله عليه وسلم الوحي بالليل وينساه بالنهار ، فأنزل الله ﴿ ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ﴾ .

وأخرج الطبراني عن ابن عمر قال : قرأ رجلان من الأنصار سورة أقرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانا يقرآن بها ، فقاما يقرآن ذات ليلة يصليان فلم يقدرا منها على حرف ، فأصبحا غاديين على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إنها مما نسخ أو نسي فالهوا عنه ، فكان الزهري يقرأها ﴿ ما ننسخ من آية أو ننسها ﴾ بضم النون خفيفة" .

وأخرج البخاري والنسائي وابن الأنباري في المصاحف والحاكم والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال : قال عمر : اقرأنا أبي ، واقضانا علي ، وإنا لندع شيئاً من قراءة أبي ، وذلك أن أبياً يقول : لا أدع شيئاً سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد قال الله (ما ننسخ من آية أو ننساها) .

وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وأبو داود في ناسخه وابنه في المصاحف والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه عن سعد بن أبي وقاص أنه قرأ (ما ننسخ من آية أو ننساها) فقيل له : إن سعيد بن المسيب يقرأ ﴿ نسها ﴾ قال سعد :

إن القرآن لم ينزل على المسيب ولا آل المسيب ، قال الله ﴿ سنقرئك فلا تنسى ﴾ [الأعلى : 6] . ﴿ واذكر ربك إذا نسيت ﴾ [الكهف : 24] .

(190/62)

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس في قوله (ما ننسخ من آية أو ننساها) يقول : ما نبدل من آية أو نتركها لا نبدلها ﴿ نأت بخير منها أو مثلها ﴾ يقول : خير لكم في المنفعة وأرفق بكم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : خطبنا عمر فقال : يقول الله (ما ننسخ من آية أو ننساها ﴾ أي نؤخرها .

وأخرج ابن الأنباري عن مجاهد ، أنه قرأ (أو ننساها) .

وأخرج أبو داود في ناسخه عن مجاهد قال في قراءة أبي (ما ننسخ من آية أو ننسك) .

وأخرج آدم بن أبي أياس وأبو داود في ناسخه وابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي في الأسماء والصفات عن مجاهد عن أصحاب ابن مسعود في قوله ﴿ ما ننسخ من آية ﴾ قال : نثبت خطها ونبدل حكمها (أو ننساها) قال : نؤخرها عندنا .

وأخرج آدم وابن جرير والبيهقي عن عبيد بن عمير الليثي في قوله ﴿ ما ننسخ من آية أو

نساها ﴾ يقول : أو نتركها ، نرفعها من عندهم .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن الضحاك قال : في قراءة ابن مسعود (ما ننسك من آية أو ننسخها) .

وأخرج عبد بن حميد وأبو داود في ناسخه وابن جرير عن قتادة قال : كانت الآية تنسخ الآية ، وكان نبي الله يقرأ الآية والسورة وما شاء الله من السورة ثم ترفع فينسيها الله نبيه ، فقال الله يقص على نبيه ﴿ ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ﴾ يقول : فيها تخفيف ، فيها رخصة ، فيها أمر ، فيها نهي .

وأخرج أبو داود في ناسخه عن ابن عباس قال ﴿ ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير ﴾ ثم قال ﴿ وإذا بدلنا آية مكان آية ﴾ [النحل : 101] وقال ﴿ يمحو الله ما يشاء ويثبت ﴾ [الرعد : 39] .

وأخرج أبو داود وابن جرير عن أبي العالية قال : يقولون (ما ننسخ من آية أو ننساها) كان الله أنزل أموراً من القرآن ثم رفعها . فقال ﴿ نأت بخير منها أو مثلها ﴾ .

وأخرج ابن جرير عن الحسن في قوله ﴿ أو ننسها ﴾ قال : إن نبيكم صلى الله عليه وسلم أقرىء قرآناً ثم أنسيه ، فلم يكن شيئاً ومن القرآن ما قد نسخ وأنتم تقرأونه .

وأخرج أبو داود في ناسخه وابن المنذر وابن الأنباري في المصاحف وأبو ذر الهروي في فضائله عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف " إن رجلاً كانت معه سورة فقام من الليل فقام بها فلم يقدر عليها ، وقام آخر بها فلم يقدر عليها ، وقام آخر بها فلم يقدر عليها ، فأصبحوا فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجتمعوا عنده فأخبروه ، فقال : إنها نسخت البارحة " .

وأخرج أبو داود في ناسخه والبيهقي في الدلائل من وجه آخر عن أبي أمامة " أن رهطاً من الأنصار من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أخبروه أن رجلاً قام من جوف الليل يريد أن يفتتح سورة كان قد وعاها ، فلم يقدر منها على شيء إلا بسم الله الرحمن الرحيم ، ووقع ذلك لناس من أصحابه ، فأصبحوا فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن السورة ، فسكت ساعة لم يرجع إليهم شيئاً ثم قال : نسخت البارحة فنسخت من صدورهم ومن كل شيء كانت فيه " .

وأخرج ابن سعد وأحمد والبخاري ومسلم وأبو داود في ناسخه وابن الضريس وابن جرير وابن المنذر وابن حبان والبيهقي في الدلائل عن أنس قال : أنزل الله في الذين قتلوا ببئر معونة قرآناً قرأناه حتى نسخ بعد أن بلغوا قومنا أنا قد لقينا ربنا فرضي عنا وأرضانا .

وأخرج مسلم وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في الدلائل عن أبي موسى الأشعري قال : كنا نقرأ سورة نشبهها في الطول والشدة ببراءة فأنسيتها ، غير أني حفظت منها : لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى وادياً ثالثاً ولا يملأ جوفه إلا التراب .

وكنا نقرأ سورة نشبهها بإحدى المسبحات ، أولها سبح لله ما في السموات فأنسيناها ، غير أني حفظت منها : يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون . فتكتب شهادة في أعناقكم ، فتسألون عنها يوم القيامة .

(192/62)

وأخرج أبو عبيد في فضائله وابن الضريس عن أبي موسى الأشعري قال : نزلت سورة شديدة نحو براءة في الشدة ثم رفعت ، وحفظت منها : إن الله سيؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم .

وأخرج ابن الضريس : ليؤيدن الله هذا الدين برجال ما لهم في الآخرة من خلاق ، ولو أن لابن آدم واديين من مال لتمنى وادياً ثالثاً ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ، إلا من تاب فيتوب الله عليه والله غفور رحيم .

وأخرج أبو عبيد وأحمد والطبراني في الأوسط والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي واقد

الليثي قال "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أوحى إليه أتيناه فعلمنا ما أوحي إليه ، قال : فجئته ذات يوم فقال : إن الله يقول : إنا أنزلنا المال لإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، ولو أن لابن آدم وادياً لأحب أن يكون إليه الثاني ، ولو كان له الثاني لأحب أن يكون إليهما ثالث ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب " .

وأخرج أبو داود وأحمد وأبو يعلى والطبراني عن زيد بن أرقم قال : كنا نقرأ على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم " لو كان لابن آدم واديان من ذهب وفضة لابتغى الثالث ولا يملأ بطن ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب " .

وأخرج أبو عبيد وأحمد عن جابر بن عبد الله قال : كنا نقرأ : لو أن لابن آدم ملء واد مالا لأحب إليه مثله ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب .

وأخرج أبو عبيد والبخاري ومسلم عن ابن عباس قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول " لو أن لابن آدم ملء واد مالا لأحب أن له إليه مثله ، ولا يملأ عين ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب . قال ابن عباس : فلا أدري أمن القرآن هو أم لا " .

وأخرج البزار وابن الضريس عن بريدة " سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ في الصلاة : لو ان لابن آدم وادياً من ذهب لابتغى إليه ثانياً ، ولو أعطي ثانياً لابتغى ثالثاً ، لا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب " .

وأخرج ابن الأنباري عن أبي ذر قال : في قراءة أبي بن كعب : ابن آدم لو أعطي وادياً من مال لابتغى ثانياً ولالتمس ثالثاً ، ولو أعطي واديين من مال لالتمس ثالثاً ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب .

وأخرج ابن الضريس عن ابن عباس قال : كنا نقرأ : لا ترغبوا عن آبائكم فإنه كفر بكم ، وإن كفرا بكم أن ترغبوا عن آبائكم .

وأخرج عبد الرزاق وأحمد وابن حبان عن عمر بن الخطاب قال " إن الله بعث محمداً بالحق وأنزل معه الكتاب ، فكان فيما أنزل عليه آية الرجم فرجم ورجمنا بعده ، ثم قال : قد كنا نقرأ : ولا ترغبوا عن آبائكم فإنه كفر بكم أن ترغبوا عن آبائكم " .

وأخرج الطيالسي وأبو عبيد والطبراني عن عمر بن الخطاب قال : كنا نقرأ فيما نقرأ : لا ترغبوا عن آبائكم فإنه كفر بكم ، ثم قال لزيد بن ثابت : أكذلك يا زيد ؟ قال : نعم .

وأخرج ابن عبد البر في التمهيد من طريق عدي بن عدي بن عمير بن قزوة عن أبيه عن جده عمير بن قزوة . أن عمر بن الخطاب قال لأبي : أو ليس كنا نقرأ فيما نقرأ من كتاب الله : إن انتفاءكم من آبائكم كفر بكم ؟ فقال : بلى . ثم قال : أو ليس كنا نقرأ : الولد للفراش

وللعاهر الحجر . فيما فقدنا من كتاب الله ؟ فقال أبي : بلى .

وأخرج أبو عبيد وابن الضريس وابن الأنباري عن المسور بن مخرمة قال : قال عمر لعبد الرحمن بن عوف : ألم تجد فيما أنزل علينا : أن جاهدوا كما جاهدتم أول مرة . فإنا لا نجدها ؟ قال : أسقطت فيما أسقط من القرآن .

(194/62)

وأخرج أبو عبيد وابن الضريس وابن الأنباري في المصاحف عن ابن عمر قال : لا يقولن أحدكم قد أخذت القرآن كله ، ما يدريه ما كله ؟ قد ذهب منه قرآن كثير ولكن ليقل : قد أخذت ما ظهر منه .

وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف وابن الأنباري والبيهقي في الدلائل عن عبيدة السلماني قال : القراءة التي عرضت على رسول الله صلى الله عليه وسلم في العام الذي قبض فيه هذه القراءة التي يقرأها الناس ، التي جمع عثمان الناس عليها .

وأخرج ابن الأنباري وابن اشتة في المصاحف عن ابن سيرين قال : كان جبريل يعارض النبي صلى الله عليه وسلم كل سنة في شهر رمضان ، فلما كان العام الذي قبض فيه عارضه مرتين ، فيرون أن تكون قراءتنا هذه على العرضة الأخيرة .

وأخرج ابن الأنباري عن أبي ظبيان قال : قال لنا ابن عباس : أي القراءتين تعدون أول ؟ قلنا : قراءة عبد الله وقراءتنا هي الأخيرة . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "كان يعرض عليه جبريل القرآن كل سنة مرة في شهر رمضان ، وأنه عرضه عليه في آخر سنة مرتين ، فشهد منه عبد الله ما نسخ وما بدل" .

وأخرج ابن الأنباري عن مجاهد قال : قال لنا ابن عباس : أي القراءتين تعدون أول ؟ قلنا : قراءة عبد الله .

قال فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعرض القرآن على جبريل مرة ، وإنه عرضه عليه في آخر سنة مرتين ، فقراءة عبد الله آخرهن .

وأخرج ابن الأنباري عن ابن مسعود قال : كان جبريل يعارض النبي صلى الله عليه وسلم بالقرآن في كل سنة مرة ، وأنه عارضه بالقرآن في آخر سنة مرتين ، فأخذته من النبي صلى الله عليه وسلم ذلك العام .

وأخرج ابن الأنباري عن ابن مسعود قال : لو أعلم أحداً أحدث بالعرضة الأخيرة مني لرحلت إليه .

وأخرج الحاكم وصححه عن سمرة قال : عرض القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث عرضات ، فيقولون : إن قراءتنا هذه هي العرضة الأخيرة .

وأخرج أبو جعفر النحاس في ناسخه عن أبي البختري قال : دخل علي بن أبي طالب المسجد فإذا رجل يخوّف فقال : ما هذا ؟ ! فقالوا : رجل يذكر الناس . فقال : ليس برجل يذكر الناس ولكنه يقول أنا فلان بن فلان فاعرفوني ، فأرسل إليه فقال : أتعرف الناسخ من المنسوخ ؟ فقال : لا . قال : فاخرج من مسجدنا ولا تذكر فيه .

وأخرج أبو داود والنحاس كلاهما في الناسخ والمنسوخ والبيهقي في سننه عن أبي عبد الرحمن السلمي قال : مر علي بن أبي طالب برجل يقص فقال : أعرفت الناسخ والمنسوخ ؟ قال : لا . قال : هلكت وأهلكت .

وأخرج النحاس والطبراني عن الضحاك بن مزاحم قال : مر ابن عباس بقاص يقص فركله برجله وقال : أتدري الناسخ والمنسوخ ؟ قال : لا . قال : هلكت وأهلكت .

وأخرج الدارمي في مسنده والنحاس عن حذيفة قال : إنما يفتي الناس أحد ثلاثة : رجل يعلم ناسخ القرآن من منسوخه وذلك عمر ، ورجل قاض لا يجد من القضاء بداً ، ورجل أحمق متكلف ، فلست بالرجلين الماضيين ، فأكره أن أكون الثالث . انتهى انتهى . اهـ

﴿ الدر المنثور حـ 1 صـ 254 . 260 ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

فى " ما " قولان :

أحدهما وهو الظاهر أنها مفعول مقدم لأ " ننسخ " ، وهي شرطية أيضاً جازمة لـ " ننسخ " ولكنها واقعة موصع المصدر ، و " من آية " هو المفعول به ، والتقدير : أي شؤء ننسخ كقوله : ﴿ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ ﴾ [الإسراء : 110] ، أو : أيَّ نَسْخ نَنْسَخ من آية ، قاله أبو البقاء وغيره ، وقالوا : مجيء " ما " مصدراً جائز ؛ وأنشدوا : [الكامل]

726 نَعَبَ الغُرَابُ فَقُلْتُ بَيْنٌ عَاجِلٌ . . .

ما شِئْتَ إِذْ ظَعَنُوا لِبَيْنٍ فَانْعَبِ

ورد هذا القول بشيئين :

أحدهما : أنه يلزم خلوّ جملة الجزاء من ضمير يعود على اسم الشرط ، وهو غير جائز ، لما تقدم عند قوله : ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ ﴾ [البقرة : 97] .

والثاني : أن " مِنْ " لا تزاد في الموجب ، والشرط موجب ، [وهذا فيه خلاف لبعض] البصريين أجاز زيادتها في الشرط ؛ لأنه يشبه النفي ، ولكنه خلاف ضعيف .

وقرأ ابن عامر : " نُنْسِخْ " بضم النون ، وكسر السين من " أنسخ " .

قال أبو حاتم : " هو غلط " وهذه جُرْأة منه على عادته .

وقال أبو علي : " ليست لغة " ؛ لأنه لا يقال : نسخ وأنسخ بمعنى ، ولا هي للتعدية ؛ لأن المعنى يجيْ : ما نكتب من آية ، وما ننزل من آية ، فيجيء القرآن كله على هذا منسوخاً ، وليس الأمر كذلك ، فلم يبق إلا أن يكون المعنى : ما نَجِده منسوخاً كما يقال : أحمدته وأبخلته ، أي : وجدته كذلكن ثم قال " وليس نجده منسوخاً إلاّ بأن ننسخه ، فتتفق القراءتان في المعنى ، وإن اختلفتا في اللفظ " .

(197/62)

فالهمزة عنده ليست للتعدية .

وجعل الزمخشري ، وابن عطية الهمزة للتعدية ، إلا أنهما اختلفا في تقدير المفعول الأول المحذوف ، وفي معنى الإنساخ ، فجعل الزمخشري المفعول المحذوف جبريل عليه السّلام ، الإنساخ هو الأمر بنسخها ، أي : الإعلام به .

وجعل ابن عطية المعفول ضمير النبي عليه السلام ، والإنساخ إباحة النَّسْخ لنبيه ، كأنه لما نسخها أباح له تركها ، فسمى تلك الإباحة إنساخاً .

وخرج ابن عطية القراءة على كون الهمزة للتعدية من وجه آخر ، وهو من نسخ الكتاب ،

وهو نقله من غير إزالة له .

قال : ويكون المعنى : ما نكتب وننزل من اللَّوح المحفوظ ، أو ما نؤخر فيه ، ونتركه فلا ننزله ، أي ذلك فعلنا فإنا نأتي بخير من المؤخر المتروك أو بمثله ، فيجيء الضميران في " منها " و" بمثلها " عائدين على الضمير في " نَنسَأْهَا " .

قال أبو حيان : وذهل عن القاعدة ، هي أنه لابد من ضمير يعود من الجزاء على اسم الشرط ، و" ما " في قوله : " ما ننسخ " شرطية ، وقوله : " أو ننسأها " عائد على الآية ، وإن كان المعنى ليس عائداً عليها من حيث اللفظ والمعنى ، بل إنما يعود عليها من حيث اللفظ فقط نحو : عندي درهم ونصفه ، فهو في الحقيقة على إضمار " ما " الشرطية ، التقدير : أو ما ننسأ من آية ضرورة أن المنسوخ غير المنسوء ، ولكن يبقى قوله : ما ننسخ من آية مفلتاً من الجواب ؛ إذ لا رابط يعود منه إليه ، فبطل هذا المعنى الذى قاله .

(198/62)

قوله : " مِنْ آيَةٍ " " من " للتبعيض ، فهي متعلقة بمحذوف ؛ لأنها صفة لاسم الشرط ، ويضعف جعلها حالاً ، والمعنى : أي شيء ننسخ من الآيات ، ف " آية : " مفرد وقع موقع الجمع ، وكذلك تخريج كل ما جاء من هذا التركيب : ﴿ مَّا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ ﴾ [

فاطر : 2] ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ ﴾ [النحل : 53] ، هذا المجرور هو المخصص والمبين لاسم الشرط ؛ وذلك أن فيه إبْهَاماً من جهة عمومه ، ألا ترى أنك لو قلت " من يكرم أكرم " تناول النساء والرجال .

فإذا قلت : " من الرجال " بيّنت وخصّصت ما تناوله اسم الشرط .

وأجاز أبو البقاء رحمه الله تعالى فيها وجهين آخرين :

أحدهما : أنها في موضع نصب على التمييز ، والمُمَيَّز " ما " ولتقدير : أيَّ شيء ننسخ ، قال : ولا يحسن أن تقدر : أي آية ننسخ ، لأنك لا تجمع بين " آية " ، وبين المميز بآية ، لا تقول : أي آية ننسخ من آية ، يعنى أنك لو قدرت ذلك لاستغنيت عن التمييز .

والثاني : أنها زائدة و " آية " حال ، والمعنى : أي شيء ننسخ قليلاً أو كثيراً ، وقد جاءت " آية " حالاً في قوله : ﴿ هذه نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً ﴾ [الاعراف : 73] أي : " علامة " وهذا فاسد ؛ لأن الحال لا تجر بـ " من " ، وقد تقدم أنه مفعول بها ، و " من " زائدة على القول بجعل " ما " واقعة موقع المصدر ، فهذه أربعة أوجه .

قوله تعالى : " أَوْ نُنْسِهَا " " أو " [هنا للتقسيم] ، و " نُنْسِهَا " مجزوم عطفاً على فعل الشرط قبله .

وفيها ثلاث عشرة قراءة : " نَنْسَأْهَا " بفتح حرف المضارعة : وسكون النون ، وفتح السين مع الهمزة ، وبها قرأ أبو عمرو وابن كثير .

الثانية : كذلك إلا أنه بغير همزن ذكرها أبو عبيد البكري عن سعد بن أبي وَقّاص رضي الله عنه .

قال ابن عطية : " وأرواه وهم " .

(199/62)

الثالثة : " تَنْسَها " بفتح التاء التي للخطاب ، بعدها نون ساكنة وسين مفتوحة من غير همز ، وهي قراءة الحسن ، وتروى عن ابن أبي وقاص ، فقيل لسعد بن أبي وقاص : " إن سعيد بن المسيب يقرؤها بنون أولى مضمومة وسين مكسورة فقال : إن القرآن لم ينزل على المسيب ، ولا على ابن المسيب " وتلا : ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تنسى ﴾ [الأعلى : 6] ﴿ واذكر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ [الكهف : 24] يعني سعد بذلك أن نسبة النسيان إليه عليه الصلاة والسلام موجودة في كتاب الله ، فهذا مثله .

الرابعة : كذلك إلا أنه بالهمز .

الخامسة : كذلك إلا أنه بضم التاء ، وهي قراءة أبي حيوة .

السادسة : كذلك إلا أنه بغير همز ، وهيى قراءة سعيد ابن المسيب .

السابعة : " نُنْسِهَا " بضم حرف المضارعة وسكون النون وكسر السين من غير همز ، وهي

قراءة باقي السبعة .

الثامنة : كذلك إلا أنه بالهمزة .

التاسعة : نُنَسِّها بضم احرف المضارعة وفتح النون وكسر السين [مشددة ، وهي قراءة الضَّحاك ، وأبي رجاء .

العاشرة : " نُنْسِك " ، بضمّ حرف المضارعة ، وسكون النون ، وكسر السين ، وكاف بعدها للخطاب .

الحادية عشرة :] كذلك إلا أنه بفتح النون الثانية ، وتشديد السين مكسورة ، وتروى ع الضحاك ، وأبى رجاء أيضاً .

الثانية عشرة : كذلك إلاَّ أنه بزيادة ضمير الآية بعد الكاف " نُنَسِّكَها " وهي قراءة حذيفة ، وكذلك هي في مصحف سالم مولاه .

الثالثة عشرة : " ما نُنْسِك من آية أو نَنْسخْها فَجِيءْ بمثلها " وهي قراءة الأعمش ، وهكذا ثبت في مصحف عبد الله .

فأما قراءة الهَمْز على اختلاف وجوهها ، فمعناها التأخير من قولهم : نَسأَ الله ، وأنسأ الله في أَجَلك أي : أَخَّرَهُ ، وبِعْتُه نَسِيئَةً أي متأخراً .

وتقول العرب : نَسَأْت الإبل عن الحوض أَنْسَؤُهَا نَسْئاً ، وأنسأ الإبل : إذا أخرها عن ورودها يومين فأكثرن فمعنى الآية على هذا فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : تؤخر نسخها ، ونزولها ، وهو قول عطاء .

الثاني : نمحها لفظاً وحكماً ، وهو قول ابن زيد .

الثالث : نُمضها فلا نَنْسَخْها ، وهو قول أبي عبيد ، [قال الشاعر : [الطويل]

727 أَمُونٍ كَأَلْوَاحِ الإِرَانِ نَسَأْتُهَا . . .

عَلَى لاَحِبٍ كَأَنَّهُ ظَهْرُ]

وهو ضعيف لقوله تعالى : ﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا ﴾ ؛ لأن ما أُمْضِي وأُقِرّ لا يقال فيه : فَأْت بخير منه .

وأما قراءة غير الهمز على اختلاف وجوهها أيضاً ففيها احتمالان :

أظهرهما : أنها من النِّسْيَان ، وحينئذ يحتمل أن يكون المراد به في بعض القراءات ضدّ الذكر ، وفي بعضها الترك .

فإن قيل : وقوع هذا النسيان [يتمنع] عقلاً ونقلاً .

أما العقل فلأن القرآن لا بدّ من انتقاله إلى أهل التواتر ، والنيسان على أهل التواتر بأجمعهم ممتنع .

وأما النقل فلقوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر : 9] .

والجواب عن الأول من وجهين :

الأول : أن النسيان يصح بأن يأمر الله تعالى بطرحه من القرآن ، وإخراجه من جملة ما يلتى ، ويؤتى به في الصَّلاة ويحتج به ، فإذا زال حكم التعبُّد به قال : العهد نسي ، وإن ذكر فعلى طريق ما يذكر خبر الواحد ، فيصير لهذا الوجه منسياً من الدصورن وأيضاً روى : أنهم كانوا يقرءون السور ، فيصبحون وقد نسوها .

وعن الثاني أنه معارض بقوله تعالى : ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تنسى إِلاَّ مَا شَآءَ الله ﴾ [الأعلى : 6 ، 7] وبقوله : ﴿ واذكر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ [الكهف : 24] .

والثاني : أن أصله الهمز من النَّسِيء ، وهو التأخير ، إلا أنه أبدل من الهمز ألف فحينئذ تتحد القراءتان .

ثم من قرأ من القراء : " ننساها " من الثلاثي فواضح .

(201/62)

وأما من قرأ منهم من " أَفْعَل " ، وهم نافع وابن عامر والكوفيون ، فمعناه عندهم : " نُنْسِكها " ، أي : نجعلك ناسياً لها ، أو يكون المعنى نأمر بتركها ن يقال : أنسيته الشيء ، أي

: أمرته بتركه ، ونَسِيتُهُ : تَرَكْتُهُ ؛ وأنشدوا : [الرجز]

728 إنَّ عَلَيَّ عُقْبَةً أَقْضِيهَا . . .

لَسْتُ بِنَاسِيهَا وَلاَ مُنْسِيهَا

أي : لا تاركها ولا آمراً بتركها .

وقال الزجاج : " هذه القراءة لا يتوجّه فيها معنى الترك ، لا يقال : أنسى بمعنى ترك " .

قال الفارسي وغيره : " ذلك متّجه ؛ لأنه بمعنى نجعلك تتركها " ، وضعف الزجاج أيضاً تحمل الآية على معنى النسيان ضد الذكر وقال : إن هذا لم يكن له عليه السلام ولا نسي قرآناً .

[بدليل] قوله تعالى : ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بالذي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ [الإسراء : 86] ، أي : لم نفعل شيئاً من ذلك .

وأجاب الفارسي بأن معناه لم نذهب بالجميع .

قوله تعالى : " نَأْتِ " هو جواب الشرط ، ودجاء فعل الشرط والجزاء مضارعين ، وهذا التركيب أفضح التراكيب ، أعن : مجيئها مضارعين .

قوله : " بِخَيْرٍ مِنْهَا " متعلّق بـ " نَأْتِ " ، وفي " خير " هنا قولان :

الظاهر منهما : أنها على بابها من كونها للتفضيل ، وذلك أن الآتي به إن كان أخفّ من المنسوخ ، أو المسنوء ، فخيريته بالنسبة إلى سقوط أعباء التكليف ، وإن كان أثقل فخيرته

بالنسبة إلى زيادة الثواب .

وقوله تعالى : " أو مثلها " أي : في التكليف والثواب ، وهذا واضح .

والثاني : أن " خيراً " هنا مصدراً ، وليس من التفضيل في شيء ، وإنما هو خير من الخُيُور ، كخير في قوله : ﴿ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [البقرة : 105] و" من " لابتداء الغاية ، والجار والمجرور صفة لقوله " خير " أي : خير صادر من جهتها ، والمعنى عند هؤلاء : ما ننسخ من آية أو نؤخّرها نَأْت بخير من الخيور من جهة المَنْسوخ أو المنسوء .

(202/62)

وهذا بعيد جدّاً لقوله بعد ذلك : " أَوْ مِثْلِهَا " فإنه لا يصح عطفه على " بخير " على هذا المعنى ، اللَّهم إلا أن يقصد الخير عد التكليف ، فيكون المعنى : نأت بخير من الخُيُور ، وهو عدم التكليف ، أو نأت بمثل المنسوخ أو المنسوء .

وأما عطف " مثلها " على الضمير في " منها " ، فلا يجوز إلاَّ عند الحكوفيين لعدم أعادة الخافض .

وقوله : " مَا نَنْسَخْ " فيه التفات من غَيْبة إلى تكلم ، ألا ترى أن قبلة " وَاللهُ يَخْتَصُّ " " واللهُ ذُو الفَضْلِ " .

قوله : " أَلَم تَعْلَمْ " هذا استفهام معناه التقرير ، فلذلك لم يحتج إلى معادل يعطف عليه بـ " أم " ، و" أم " في قوله : " أَمْ تُرِيْدُونَ " منقطعة هذا هو الصحيح في الآية .

قال ابن عطية : ظاهره الاستفهام المَحْضُ ، فالمعادل هنا على قول جماعة : " أم تريدون " ، وقال قوم : " أم " منقطعة ، فالمعادل محذوف تقديره : أم علمتم ، هذا إذا أريد بالخطاب أمته عليه السلام .

أما إذا أريد هو به ، فالمعادل محذوف لا غير ، وكلا القولين مروي انتهى .

وهذا فيه نظر ؛ لما مرَّ أن المراد به التقرير ، فهو كقوله : ﴿ أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ [الزمر : 36] ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ [الشرح : 1] .

والاستفهام بمعنى التقرير كثير جدّاً لا سيما إذا دخل على نفي كما مثلته لك .

وفي قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ ﴾ التفاتان .

أحدهما : خروج من خطاب جماعة ، وهو " خير من ربكم " .

والثاني : خروج من ضمير المتكلّم المعظم نفسه إلى الغيبة بالاسم الظاهر ، فلم يقل : ألم تعلموا أننا ، وذلك لما لا يخفى من التعظيم والتَّفْخيم .

و﴿ أَنَّ اللهَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ " أن " وما في حَيِّزها ، إما سادة مسدّ مفعولين كما هو مذهب الجمهور ، أو واحد ، والثاني محذوف كما هو مذهب الأخفش . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 2 صـ 364 ـ 384 ﴾ . باختصار .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

(203/62)

﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (106) ﴾

النسخُ الإزالة أي ما ينقلك من حال إلى ما هي فوقها وأعلى منها ، فغُصنُ وَصْلِك أبداً ناضر ، ونجمُ عِزّكَ أبداً ظاهر ، فلا ننسخُ من آثار العبادةِ شيئاً إلا وأبدلنا عنه أشياء من أنوار العبودية ، ولا نسخنا من أنوار العبودية أشياء إلا أقمنا مكانها أشياء من أقمار العبودةِ .

فأبداً سِرُّك في الترقي ، وقدرك في الزيادة بحسن التَوَلّي .

وقيل ما رقّاكَ عن محل العبودية إلا سَلَكَكَ بساحات الحرية ، وما رَفَعَ شيئاً من صفات البشرية إلا أقامك بشاهدٍ من شواهد الألوهية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 111.112 ﴾

(204/62)

قوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (107) ﴾

" فصل "

قال البقاعى :

ثم أتبع ذلك بما هو كالدليل على شمول القدرة فقال : ﴿ ألم تعلم أن الله ﴾ الجامع لأنواع العظمة ﴿ له ملك السماوات والأرض ﴾ يفعل في ذواتهما وأحوالهما ما يشاء .

قال الحرالي : فهو بما هو على كل شيء قدير يفصل الآيات ، وهو بما له ملك السماوات والأرض يدبر الأمر – انتهى .

ولما أتم سبحانه ما أراد من إظهار قدرته وسعة ملكه وعظمته بالاسم العلم الذي هو أعظم من مظهر العظمة في ننسخ وننسا بالإقبال على خطاب من لا يعلم ذلك حق علمه غيره فتهيأت قلوب السامعين وصغت لفت الخطاب إليهم ترهيباً في إشارة إلى ترغيب فقال : ﴿ وما لكم من دون الله ﴾ المتصف بجمع صفات العظمة ﴿ من ولي ﴾ يتولى أموركم ، وهو من الولاية ، قال الحرالي : وهي القيام بالأمر عن وصلة واصلة ﴿ ولا نصير ﴾ فأقبلوا بجميع قلوبكم إليه ولا تلفتوها عنه ، وفي ذلك تعريض بالتحذير للذين آمنوا ولم يبلغوا درجة المؤمنين من مخالفة أمره إذا حكم عليهم بما أراد كائناً ما كان لئلا تلقن بواطنهم عن اليهود

نحواً مما لقنت ظواهر ألسنتهم ، بأن تستمسك بسابق فرقانها فتتثاقل عن قبول لاحقه ومكمله ، فيكون ذلك تبعاً لكثرة أهل الكتاب في إبائها نسخ ما لحقه التغيير من أحكام كتابها – أفاده الحرالي وقال : وهو في الحقيقة خطاب جامع لتفصيل ما يرد من النسخ في تفاصيل الأحكام والأحوال بمنزلة الخطاب المتقدم في صدر السورة المشتمل على جامع ضرب الأمثال في قوله تعالى : ﴿ إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما ﴾ [البقرة : 26] الآية ، وذلك لأن هذه السورة هي فسطاط القرآن الجامعة لجميع ما تفصّل فيه ؛ وهي سنام القرآن ، وسنام الشيء أعلاه ؛ وهي سيدة سور القرآن ؛ ففيها لذلك جوامع ينتظم بعضها ببعض أثر تفاصيله خلالها في سنامية معانيها وسيادة خطابها نحواً من انتظام آي سورة الفاتحة المنتظمة من غير تفصيل وقع أثناءها ليكون بين المحيط الجامع والابتداء الجامع مشاكلة مّا – انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 217. 218 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أنه سبحانه وتعالى لما حكم بجواز النسخ عقبه ببيان أن ملك السموات والأرض له لا لغيره ، وهذا هو التنبيه على أنه سبحانه وتعالى إنما حسن منه الأمر والنهي لكونه مالكاً للخلق وهذا هو مذهب أصحابنا وإنه إنما حسن التكليف منه لمحض كونه مالكاً للخلق مستولياً عليهم لا لثواب يحصل ، أو لعقاب يندفع .

قال القفال : ويحتمل أن يكون هذا إشارة إلى أمر القبلة ، فإنه تعالى أخبرهم بأنه مالك السموات والأرض وأن الأمكنة والجهات كلها له وأنه ليس بعض الجهات أكبر حرمة من البعض إلا من حيث يجعلها هو تعالى له ، وإذا كان كذلك وكان الأمر باستقبال القبلة إنما هو محض التخصيص بالتشريف ، فلا مانع يمنع من تغيره من جهة إلى جهة ، وأما الولي والنصير فكلاهما فعيل بمعنى فاعل على وجه المبالغة ، ومن الناس من استدل بهذه الآية على أن الملك غير القدرة ، فقال : إنه تعالى قال أولاً : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ الله على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ثم قال بعده : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ الله لَهُ مُلْكُ السموات والأرض ﴾ فلو كان الملك عبارة عن القدرة لكان هذا تكريراً من غير فائدة ، والكلام في حقيقة الملك والقدرة قد تقدم في قوله : ﴿ مالك يَوْمِ الدين ﴾ [الفاتحة : 4] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 212.211 ﴾

وقال السمرقندى :

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ الله لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ يحكم فيهما ما يشاء بأمره ثم يأمر بغيره .

قال الزجاج : الملك في اللغة : هو تمام القدرة ، وأصل هذا من قولهم : ملكت العجين إذا بالغت في عجنه .

ومعنى الآية إن الله يملك السموات والأرض وما فيهما ، فهو أعلم لما يصلحهم فيما يتعبدهم به من ناسخ ومنسوخ ومتروك وغير متروك .

(206/62)

وكان اليهود أعداء الله ينكرون النسخ ، وكانوا يقولون حين تحولت القبلة إلى الكعبة : لو كنتم على الحق فلم رجعتم ؟ ولو كان هذا الثاني حقاً ، فقد كنتم على الباطل ، وكانوا لا يرون النسخ في الشرائع ، لأن ذلك حال البداء والندامة .

ولا يجوز ذلك على الله .

ولكن الجواب أن يقال : إن الله تعالى يدبر في أمره ما يشاء ، كما أنه خلق الخلق ولم يكونوا ، ثم يميتهم بعد ذلك ثم يحييهم ؛ كذلك يجوز أن يأمر بأمر ثم يأمر بغير ذلك الأمر كما أن شريعة موسى عليه السلام لم تكن من قبل ، فأمره بذلك .

والمعنى في ذلك : أنه حين أمرهم بالأمر الأول كان الصلاح في ذلك الوقت في هذا الأمر ثم إذا أمر بأمر آخر كان الصلاح في ذلك الوقت في الأمر الثاني ، وهذا المعنى قوله : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ

الله لَهُ مُلْكُ السموات والأرض ﴾ ، يعني هو أعلم بأمر الخلق ، وبما يصلحهم في كل وقت .

ثم بين الوعيد لمن لم يؤمن بالناسخ والمنسوخ فقال : ﴿ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللهِ مِن وَلِيّ وَلاَ نَصِيرٍ ﴾ ، أي من قريب ينفعكم ولا نصير ، أي ولا مانع يمنعكم من عذاب الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ 109 ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ ﴾ جزم بلم ، وحروف الاستفهام لا تغير عمل العامل ؛ وفتحت " أنّ" لأنها في موضع نصب .

﴿ لَهُ مُلْكُ السماوات والأرض ﴾ أي بالإيجاد والاختراع ، والمُلك والسلطان ، ونفوذ الأمر والإرادة .

وارتفع " مُلْكُ" بالابتداء ، والخبر " له" والجملة خبر " أن" .

والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم والمراد أمته ؛ لقوله : ﴿ وَمَا لَكُمْ مِّن دُونِ اللهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ ﴾ .

وقيل : المعنى أي قل لهم يا محمد ألم تعلموا أن لله سلطان السموات والأرض وما لكم من دون الله من وَلِيّ ؛ من وَلِيت أمر فلان ، أي قمت به ؛ ومنه وليّ العهد ، أي القيّم بما عُهد إليه من أمر المسلمين .

ومعنى ﴿ مِّن دُونِ اللهِ ﴾ سوى الله وبَعدَ الله ؛ كما قال أُمَيّة بن أبي الصَّلْت :

يا نفسُ ما لكِ دونَ الله من واقِ . . .

وما على حَدَثانِ الدهر من باقِ

وقراءة الجماعة ﴿ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ بالخفض عطفا على " وَلِيّ" ويجوز " ولا نصيرٌ" بالرفع عطفاً على الموضع ، لأن المعنى ما لكم من دون الله ولي ولا نصير . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 2 صـ 69 ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض ﴾ ؟ هذا أيضاً استفهام دخل على النفي فهو تقرير ، فليس له معادل ، لأن التقرير معناه : الإيجاب ، أي قد علمت أيها المخاطب أن الله له سلطان السموات والأرض والاستيلاء عليهما ، فهو يملك أموركم ويدبرها ، ويجريها على ما يختاره لكم من نسخ وغيره ، وخص السموات والأرض بالملك ، لأنهما من أعظم المخلوقات ، ولأنهما قد اشتملا على جميع المخلوقات .

وإذا كان استيلاؤه على الطرفين ، كان مستولياً على ما اشتملا عليه ، أو لأنه يعبر عن مخلوقاته العلوية بالسموات ، والسفلية بالأرض .

وتضمنت هاتان الجملتان التقرير على الوصفين اللذين بهما كمال التصرف ، وهما : القدرة

والاستيلاء ، لأن الشخص قد يكون قادراً ، بمعنى أن له استطاعة على فعل شيء ، لكنه ليس له استيلاء على ذلك الشيء ، فينفذ فيه ما يستطيع أن يفعل .

فإذا اجتمعت الاستطاعة وعدم المانعية ، كمل بذلك التصرف مع الإرادة .

وبدأ بالتقرير على وصف القدرة ، لأنه آكد من وصف الاستيلاء والسلطان .

﴿ وما لكم من دون الله ﴾ : انتقل من ضمير الإفراد في الخطاب إلى ضمير الجماعة ، وناسب الجمع هنا ، لأن المنفي بدخول من عليه صار نصاً في العموم ، فناسب كون المنفي عنه يكون عاماً أيضاً ، كان المعنى : وما لكل فرد منكم فرد فرد .

(208/62)

﴿ من ولي ولا نصير ﴾ : وأتى بصيغة ولي ، وهو فعيل ، للمبالغة ، ولأنه أكثر في الاستعمال ، ولذلك لم يجيء في القرآن وال إلا في سورة الرعد ، لمواخاة الفواصل ، وأتى بنصير على وزن فعيل ، لمناسبة وليّ في كونهما على فعيل ، ولمناسبة أواخر الآي ، ولأنه أبلغ من فاعل .

ومن زائدة في قوله : ﴿ من ولي ﴾ ، فلا تتعلق بشيء .

ومن : في ﴿ من دون الله ﴾ متعلقة بما يتعلق به المجرور الذي هو لكم ، وهو يتعلق

بمحذوف ، إذ هو في موضع الخبر ، ويجوز في ما هذه أن تكون تميمية ، ويجوز أن تكون حجازية على ذهب من يجيز تقدم خبرها ، إذا كان ظرفاً أو مجروراً .

أما من منع ذلك فلا يجوز في ما أن تكون حجازية ، ومعنى من الأولى ابتداء الغاية .

وتكرر اسم الله ظاهراً في هذه الجمل الثلاث ، ولم يضمر للدلالة على استقلال كل جملة منها ، وأنها لم تجعل مرتبطة بعضها ببعض ارتباط ما يحتاج فيه إلى إضمار .

ولما كانت الجملتان الأوليان للتقرير ، وهو إيجاب من حيث المعنى ، ناسب أن تكون الجملة الثالثة نفياً للولي والناصر ، أي أن الأشياء التي هي تحت قدرة الله وسلطانه واستيلائه ، فالله تعالى لا يحجزه عما يريد بها شيء ، ولا مغالب له تعالى فيما يريد . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ البحر المحيط حـ 1 صـ 515 ﴾

(209/62)

وقال أبو السعود :

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السموات والأرض ﴾ فإن عنوان الألوهية مدارُ أحكام ملكوتهما ، والجارُ والمجرورُ خبرٌ مقدم وملكُ السموات والأرض مبتدأ والجملة خبرُ لأن وإيثارُه على أن يقال : إن لله ملكَ السمواتِ والأرضِ للقصد إلى تقوّي الحُكم بتكرر الإسناد

، وهو إما تكريرٌ للتقرير وإعادةٌ للاستشهاد على ما ذُكر وإنما لم يعطَفْ (أن) مع ما في حيزها على ما سبق من مثلها وإما لزيادة التأكيد وإشعاراً باستقلال العلم بكلَ منهما وكفايتِه في الوقوف على ما هو المقصودُ وإما تقريرٌ مستقل للاستشهاد على قدرته تعالى على جميع الأشياء أي ألم تعلم أن الله له السلطانُ القاهرُ والاستيلاءُ الباهرُ المستلزِمان للقدرة التامة على التصرف الكليّ فيهما إيجاداً وإعداماً وأمراً ونهياً حسبما تقتضيه مشيئتُه لا مُعارِضَ لأمره ولا معقّبَ لحكمه فمن هذا شأنُه كيف يخرُج عن قدرته شيءٌ من الأشياء ، وقولُه تعالى : ﴿ وَمَا لَكُم مّن دُونِ اللهِ مِن وَلِيّ وَلاَ نَصِيرٍ ﴾ معطوفةٌ على الجملة الواقعةِ خبراً (لأن) داخلةٌ معها تحت تعلقِ العلم المقرّرِ ، وفيه إشارة إلى تناول الخطابين السابقين للأمة أيضاً ، وإنما إفرادُه عليه السلام بهما لما أن علومَهم مستنِدةٌ إلى علمه عليه السلام ، ووضعُ الاسم الجليل موضعَ الضمير الراجع إلى اسم (أن) لتربية المهابة والإيذانِ بمقارنة الولاية والنصرةِ للقوة والعزة ، والمرادُ به الاستشهادُ بما تعلق به من العلم على تعلُّق إرادتِه تعالى بما ذكر من الإتيان بما هو خيرٌ من المنسوخ أو بمثله فإن مجرَّد قدرته تعالى على ذلك لا يستدعي حصولَه ألبتة ، وإنما الذي يستدعيه كونُه تعالى مع ذلك ولياً ونصيراً لهم فمن علم أنه تعالى وليُّه ونصيرُه على الاستقلال يعلم قطعاً أنه لا يفعل به إلا ما هو خير له فيفوّضُ أمرَه إليه تعالى ولا يخطُر بباله ريبةٌ في أمر النسخ وغيرِه أصلاً ، والفرق بين الوليّ

والنصيرِ أن الوليَّ قد يضعُفُ عن النُصرة ، والنصيرُ قد يكون أجنبياً من المنصور . وما إما تميمية لا عمل لها ولكم خبرٌ مقدم ومن وليَ مبتدأ مؤخر زيدت فيه كلمة من للاستغراق وإما حجازية ولكم خبرها المنصوب عند من يُجيزُ تقديمَه واسمُها (من ولي) ومن مزيدة لما ذكر ومن دون الله في حيز النصب على الحالية من اسمها لأنه في الأصل صفة له فلما قدم انتصب حالاً ومعناه سوى الله ، والمعنى أن قضية العلم بما ذكر من الأمور الثلاثة هو الجزمُ والإيقانُ بأنه تعالى لا يفعل بهم في أمر من أمور دينهم أو دنياهم إلا ما هو خيرٌ لهم ، والعملُ بموجبه من الثقة به والتوكلِ عليه وتفويضِ الأمر إليه من غير إصغاءٍ إلى أقاويل الكفرةِ وتشكيكاتهم التي من جملتها ما قالوا في أمر النسخ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 1 صـ 143. 144 ﴾

(211/62)

وقال الآلوسى :

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السماوات والأرض ﴾ أي قد علمت أيها المخاطب أن الله تعالى له السلطان القاهر ، والاستيلاء الباهر ، المستلزمان للقدرة التامة على التصرف

الكلي إيجاداً وإعداماً ، وأمراً ونهياً حسبما تقتضيه مشيئته ، لا معارض لأمره ، ولا معقب لحكمه ، فمن هذا شأنه كيف يخرج عن قدرته شيء من الأشياء ؟! فيكون الكلام على هذا كالدليل لما قبله في إفادة البيان ، فيكون منزلاً منزلة عطف البيان من متبوعه في إفادة الإيضاح ، فلذا ترك العطف وجوّز أن يكون تكريراً للأول وإعادة للاستشهاد على ما ذكر ، وإنما لم تعطف ﴿ إن ﴾ مع ما في حيزها على ما سبق من مثلها رَوْماً لزيادة التأكيد وإشعاراً باستقلال العلم بكل منهما وكفاية في الوقوف على ما هو المقصود ، وخص السموات والأرض بالملك لأنهما من أعظم المخلوقات الظاهرة ، ولأن كل مخلوق لا يخلو عن أن يكون في إحدى هاتين الجهتين فكان في الاستيلاء عليهما إشارة إلى الاستيلاء على ما اشتملا عليه ، وبدأ سبحانه بالتقرير على وصف القدرة لأنه منشأ لوصف الاستيلاء والسلطان ، ولم يقل جل شأنه : إن لله ملك الخ قصداً إلى تقوي الحكم بتكرير الإسناد .

(212/62)

﴿ وَمَا لَكُم مّن دُونِ اللهِ مِن وَلِيّ وَلاَ نَصِيرٍ ﴾ عطف على الجملة الواقعة خبراً ل (أن) داخل معها حيث دخلت ، وفيه إشارة إلى تناول الخطاب فيما قبل للأمة أيضاً ، و﴿ مِنْ ﴾ الثانية صلة فلا تتعلق بشيء ، و﴿ مِنْ ﴾ الأولى : لابتداء الغاية وهي متعلقة

بمحذوف وقع حالاً من مدخول ﴿ مِنْ ﴾ الثانية : وهو في الأصل صفة له فلما قدم انتصب على الحالية وفي " البحر " أنها متعلقة بما تعلق به ﴿ لَكُمْ ﴾ وهو في موضع الخبر ؛ ويجوز في : (ما) أن تكون تميمية وأن تكون حجازية على رأي من يجيز تقدم خبرها إذا كان ظرفاً أو مجروراً والولي المالك ، والنصير المعين ، والفرق بينهما أن المالك قد لا يقدر على النصرة أو قد يقدر ولا يفعل ، والمعين قد يكون مالكاً وقد لا يكون بل يكون أجنبياً والمراد من الآية الاستشهاد على تعلق إرادته تعالى بما ذكر من الإتيان بما هو خير من المنسوخ أو بمثله ، فإن مجرد قدرته تعالى على ذلك لا يستدعي حصوله ألبتة ، وإنما الذي يستدعيه كونه تعالى مع ذلك ولياً نصيراً لهم ، فمن علم أنه تعالى وليه ونصيره لا ولي ولا نصير له سواه يعلم قطعاً أنه لا يفعل به إلا ما هو خير له فيفوض أمره إليه تعالى ، ولا يخطر بباله ريبة في أمر النسخ وغيره أصلاً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 355 ﴾

فائدة

قال ابن عاشور :

وقوله : ﴿ ألم تعلم أن الله له ملك السماوات والأرض ﴾ قال البيضاوي : هو متنزل من الجملة التي قبله منزلة الدليل لأن الذي يكون له ملك السماوات والأرض لا جرم أن يكون قديراً على كل شيء ولذا فصلت هذه الجملة عن التي قبلها .

وعندي أن موجب الفصل هو أن هاته الجملة بمنزلة التكرير للأولى لأن مقام التقرير ومقام التوبيخ كلاهما مقام تكرير لما به التقرير والإنكار تعديداً على المخاطب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 1 صـ 647 ﴾

ومن فوائد ابن عرفة فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ .

مثل قوله تعالى : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ والجواب (كالجواب) أنه على تقدير أن يوجد ولي أو ناصر فلا يوجد إلا من هو في أنهى درجات الولاية والنصرة ، فنفي ذلك (المعنى) المتوهم المقدر الوجود سواء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عرفة حـ 1 صـ 395 ﴾

(213/62)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ

وبعد أن بين الله سبحانه وتعالى لنا أن هناك آيات نسخت في القرآن . . أراد أن يوضح لنا أنه سبحانه له طلاقة القدرة في كونه يفعل ما يشاء . . ولذلك بدأ الآية الكريمة : " ألم تعلم " . . وهذا التعبير يسمى الاستفهام الاستنكاري أو التقريري . . لأن السامع لا يجد إلا جوابا واحدا بأنه يقر ما قاله الله تبارك وتعالى . . ويقول نعم يا رب أنت الحق وقولك الحق .

قوله تعالى : " ألم تعلم أن الله له ملك السماوات والأرض " . . الملك يقتضي مالكا ويقتضي مملوكا . . ويقتضي قدرة على استمرار هذا الملك وعدم زواله . . فكأن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يبين لنا أنه يقدر ويملك المقدرة . . والإنسان ليست له قدرة التملك ولا المقدرة على استبقاء ما يملكه . . والإنسان لا يملك الفعل في الكون . . إن أراد مثلا أن يبني عمارة قد لا يجد الأرض . . فإن وجد الأرض قد لا يجد العامل الذي يبني . . فإن وجده قد لا يجد مواد البناء . . فإن وجد هذا كله قد تأتي الحكومة أو الدولة وتمنع البناء على هذه الأرض . . أو أن تكون الأرض ملكا لإنسان آخر فتقام القضايا ولا يتم البناء .

(214/62)

والحق سبحانه وتعالى يقول : " ألم تعلم أن الله له ملك السماوات والأرض" . . أي أن كل شيء في الوجود هو ملك لله وهو يتصرف بقدرته فيما يملك . . ولذلك عندما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلي المدينة . . كان اليهود يملكون المال ولهم معرفة ببعض العلم الدنيوي لذلك سادوا المدينة . . وبدأوا يمكرون برسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين . . والله تبارك وتعالى طمأن رسوله بأن طلاقة القدرة في الكون هي لله وحده . . وأنه إذا كان لهم ملك فإنه لا يدوم لأن الله ينزع الملك ممن يشاء ويعطيه لمن يشاء . . ولذلك حينما يأتي يوم القيامة ويهلك الله الأرض ومن عليها . . يقول سبحانه :

لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ

(من الآية 16 سورة غافر)

ويرد جل جلاله بشهادة الذات للذات فيقول :

لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ

(من الآية 16 سورة غافر)

وما دام الله هو المالك وحده . . فإنه يستطيع أن ينزع من اليهود وغيرهم من الدنيا كلها ما يملكونه . . ويحدثنا العلماء أن العسس وهم الجنود الذين يسيرون ليلا لتفقد أحوال الناس وجدوا شخصا يسير ليلا . . فلما تقدموا منه جرى فجروا وراءه إلي أن وصل إلي مكان خرب ليستتر فيه . . تقدم العسس وأمسكوا به وإذا بهم يجدون جثة القتيل . . فأخذوه

ليحاكموه فقال لهم أمهلوني لأصلي ركعتين لله . . فأمهلوه فصلى ثم رفع يديه إلي السماء وقال اللهم إنك تعلم أنه لا شاهد على براءتي إلا أنت . . وأنت أمرتنا ألا نكتم الشهادة فأسألك ذلك في نفسك . . فبينما هم كذلك إذا أقبل رجل فقال . . أنا قاتل هذا القتيل وأنا أقر بجريمتي . . فتعجب الناس وقالوا لماذا تقر بجريمتك ولم يرك أحد ولم يتهمك أحد . . فقال لهم والله ما أقررت إنما جاء هاتف فأجرى لساني بما قلت . . فلما أقر القاتل بما فعل وقام ولى المقتول وهو أبوه فقال . . اللهم إني أشهدك إني قد أعفيت قاتل ابني من دينه وقصاصه .

(215/62)

انظر إلي طلاقة قدرة الحق سبحانه وتعالى . . القاتل أراد أن يختفي ولكن انظر إلي دقة السؤال من السائل أو المتهم البريء . . وقد صلى ركعتين لله . . لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم علمنا أنه إذا حزبنا أمر قمنا إلي الصلاة فليس أمامنا إلا هذا الباب . . وبعد أن صلى سأل الله أنت أمرتنا ألا نكتم الشهادة ولا يشهد ببراءتي أحد إلا أنت فأسألك ذلك في نفسك وبعد ذلك كان ما كان . وهذه القصة تدلنا على أننا في قبضة الله . . أردنا أو لم نرد . . بأسباب أو بغير أسباب . . لماذا ؟ . . لأن الله له ملك السماوات والأرض

وهو على كل شيء قدير . . وقوله تعالى : " وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير " . . الولي هو من يواليك ويحبك . . والنصير هو الذي عنده القدرة على أن ينصرك وقد يكون النصير غير الولي . . الحق تبارك وتعالى يقول أنا لكم ولي ونصير أي محب وأنصركم على من يعاديكم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 519.517 ﴾

(216/62)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " أَلَمْ تَعْلَمْ " جزم بـ " لم " ، وحروف الاستفهام لا تغير عمل العامل ، وقوله : " أَلَمْ تَعْلَمْ " خطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم والمراد أمته ، لقوله : ﴿ وَمَا لَكُمْ مِّن دُونِ اللهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ ﴾ .

وفي قوله : " مُلْك " وجهان :

أحدهما : أنه مبتدأ ، وخبره مقدم عليه ، والجملة في محلّ رفع خبر لـ " أن " .

والثاني : أنه مرفوع بالفاعلية ، رَفَعَهُ الجار قبله عند الأخفش ، لا يقال : إن الجار هنا قد اعتمد لوقوعه خبراً لـ " أن " ، فيرفع الفاعل عند الجميع ؛ لأن الفائدة لم تتم به ، فلا يجعل

خبراً .

والمُلْك بالضم الشيء المملوك ، وكذلك هو بالكسر ، إلا أنَّ المضموم لا يستعمل إلا في مواضع السّعة وبسط السلطان .

وتقدم الكلام في حقيقة الملك في قوله : ﴿ مالك يَوْمِ الدين ﴾ [الفاتحة : 4] .

قوله : " وَمَا لَكُمْ " يجوز في " ما " وجهان .

أحدهما : أن تكون تميمة ، فلا عمل لها ، فيكون " لكم " خبراً مقدماً ، و" من وِلِيّ " مبتدأ مؤخراً زيدت فيه " من " ن فلا تعلّق لها بشيء .

والثاني : أن تكون حجازية ، وذلك عند من يجيز تقديم خبرها ظرفاً أو حرف جر ، فيكون " لكم " في محلّ نصب خبراً مقدماً ، و" مِنْ وَلِيّ " اسمها مؤخراً ، و" من " فيه زائدة أيضاً .

و" من دون الله " فيه وجهان :

أحدهما : أنه متعلّق بما تعلق به " لكم " من الاستقرار المقدر ، و" من " لابتداء الغاية .

والثاني : أنه في محلّ نصب على الحال من قوله : " من ولي أو نصير " ؛ لأنه في الأصل صفة للنكرة ، فلما قدم عليها انتصب حالاً قاله أبو البقاء رحمه الله تعالى .

فعلى هذا يتعلّق بمحذوف غير الذي تعلّق به " لَكُمْ " ، ومعنى " مِنْ دُونِ اللهِ " سِوَى الله ؛ كما قال أمية بن أبي الصلت [البسيط]

729 يَا نَفْسُ مَالَكِ دُونَ اللهِ مِنْ واقِ . . .

[وَمَا عَلَى حَدَثَانِ الدَّهْرِ مِنْ بَاقِ]

والولي : من وليت أمر فلان ، أي قمت به ، ومنه : وليّ العهد أى : المقيم بما عهد إليه من أمر المسلمين .

" وَلاَ نَصِيرٍ " عطف على لفظ " وليّ " ولو قرىء برفعه على الموضع لكان جائزاً ، وأتى بصيغة " فعيل " في " ولي " و " نصير " ؛ لأنها أبلغ من فاعل ، ولأن " ولياً " أكثر استعمالاً من " وَالٍ " ولهذا لم يجىء في القرآن إلا في سورة " الرعد " .

وأيضاً لتواخي الفواصل وأواخر الآي .

وفي قوله : " لكم " التفاتٌ من خطاب الواحد لخطاب الجماعة ، وفيه مناسبة ، وهو أن المَنْفِيَّ صار نصّاً في العموم بزيادة " من " فناسب كون المنفي عنه كذلك فَجُمِعَ لذلك .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 2 صـ 384 . 385 ﴾ .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (107) ﴾

سُنَّتُه – سبحانه – أن يجذب أولياءه عن شهود مُلْكِه إلى رؤية مِلْكِه ، ثم يأخذهم من مُطالعةِ مِلْكه إلى شهود حقّه ، فيأخذهم من رؤية آياته إلى رؤية صفاته ، ومن رؤية صفاته إلى شهود ذاته . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 112 ﴾

(218/62)

قوله تعالى ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (108) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان رسخ ما ذكره سبحانه من تمام قدرته وعظيم مملكته وما أظهر لذاته المقدس من العظم بتكرير اسمه العلَم وإثبات أن ما سواه عدم فتأهلت القلوب للوعظ صدعها بالتأديب بالإنكار الشديد فقال : ﴿ أم ﴾ أي أتريدون أن تردوا أمر خالقكم في النسخ أم ﴿ تريدون

أن ﴿ تتخذوا من دونه إلهاً لا يقدر على شيء بأن ﴿ تسألوا رسولكم ﴾ أن يجعل لكم إلهاً غيره ﴿ كما سئل موسى ﴾ ذلك .

ولما كان سؤالهم ذلك في زمن يسير أثبت الجار فقال : ﴿ من قبل ﴾ أي قبل هذا الزمان إذ قال قومه بعد ما رأوا من الآيات وقد مرّوا بقوم يعكفون على أصنام لهم : ﴿ اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ﴾ [الأعراف : 138] وقالوا : ﴿ أرنا الله جهرة ﴾ [النساء : 153] . وقالوا : ﴿ لن نصبر على طعام واحد ﴾ [البقرة : 61] وكانوا يتعنتون عليه في أحكام الله بأنواع التعنتات كما تقدم .

و" الإرادة " في الخلق نزوع النفس لباد تستقبله – قاله الحرالي .

(219/62)

وأدل دليل على ما قدرته قوله عطفاً على ما تقديره : فيكفروا فإنه من سأل ذلك فقد تبدل الكفر بالإيمان ﴿ ومن يتبدل الكفر بالإيمان ﴾ أي يأخذ الكفر بدلاً من الإيمان بالإعراض عن الآيات وسؤال غيرها أو التمسك بما نسخ منه ، وعبر بالمضارع استجلاباً لمن زل بسؤال شيء من ذلك إلى الرجوع بالتوبة ليزول عنه الاستمرار فيزول الضلال ﴿ فقد ضل سواء السبيل ﴾ أي عدله ووسطه فلم يهتد إليه وإن كان في بينات منه ، فإن من حاد عن

السواء أوشك أن يبعد بعداً لا سلامة معه ﴿ وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾ [الأنعام : 153] وكثيراً ما كان يتزلزل طوائف من الناس عند تبدل الآيات وتناسي الأحكام وبحسب ما يقع في النفس من تثاقل عنه أو تحامل على قبوله يلحقه من هذا الضلال عن سواء هذا السبيل ؛ وفيه إشعار بأن الخطاب للذين آمنوا ، لأن المؤمنين المعرفين بالوصف لا يتبدل أحوالهم من إيمان الكفر ، لأن أحداً لا يرتد عن دينه بعد أن خالط الإيمان بشاشة قلبه ﴿ فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها ﴾ [البقرة : 256] ﴿ ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى ﴾ ؛ [لقمان : 22] وقال عليه الصلاة والسلام : " إن الله لا ينتزع العلم انتزاعاً بعد أن أعطاكموه " فبذلك يتضح مواقع خطاب القرآن مع المترتبين في أسنان القلوب بحسب الحظ من الإيمان والإسلام والإحسان – قاله الحرالي .

وعرف ﴿ السبيل ﴾ بأنه المشتمل على قوام السائر فيه والسالك له من نحو الرعي والسقي وشبهه ، والسواء بأنه من الشيء أسمحه بالأمر الذي قصد له ، قال : ويقال هو وسطه وخياره . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 218. 219 ﴾

(220/62)

فصل في سبب نزول الآية

قال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ أم تريدون أن تسألوا رسولكم ﴾

في سبب نزولها خمسة أقوال .

أحدها : أن رافع بن حريملة ، ووهب بن زيد ، قالا لرسول الله : ائتنا بكتاب نقرؤه تنزله من السماء علينا ، وفجر لنا أنهاراً حتى نتبعك ، فنزلت الآية ، قاله ابن عباس .

والثاني : أن قريشاً سألت النبي صلى الله عليه وسلم أن يجعل لهم الصفا ذهباً ، فقال : " هو لكم كالمائدة لبني إسرائيل [إن كفرتم] فأبوا " قاله مجاهد .

والثالث : أن رجلاً قال : يا رسول الله لو كانت كفاراتنا ككفارات بني إسرائيل ، فقال النبي ، صلى الله عليه وسلم : " اللهم لا نبغيها ، ما أعطاكم الله ، خير مما أعطى بني إسرائيل ، كانوا إذا أصاب أحدهم الخطيئة ؛ وجدها مكتوبة على بابه وكفارتها ، فإن كفرها كانت له خزياً في الدنيا ، وإن لم يكفرها كانت له خزياً في الآخرة ، فقد أعطاكم الله خيراً مما أعطى بني إسرائيل " فقال : ﴿ ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً ﴾ [النساء : 110] وقال : " الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهن " فنزلت هذه الآية .

قاله أبو العالية .

والرابع : أن عبد الله بن أبي أمية المخزومي أتى النبي ، صلى الله عليه وسلم ، في رهط من قريش ، فقال : يا محمد : والله لا أؤمن بك حتى تأتي بالله والملائكة قبيلاً ، فنزلت هذه الآية .

ذكره ابن السائب .

والخامس : أن جماعة من المشركين جاؤوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال بعضهم : لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً .

وقال آخر : لن أؤمن لك حتى تسير لنا جبال مكة ، وقال عبد الله بن أبي أمية : لن أؤمن لك حتى تأتي بكتاب من السماء ، فيه : من الله رب العالمين إلى ابن أبي أمية : اعلم أني قد أرسلت محمدا إلى الناس .

وقال آخر : هلا جئت بكتابك مجتمعاً ، كما جاء موسى بالتوراة .

فنزلت هذه الآية .

ذكره محمد بن القاسم الأنباري . انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير حـ 1 صـ 128 .

﴿ 129

فصل

قال الفخر :

" أم" على ضربين متصلة ومنقطعة ، فالمتصلة عديلة الألف وهي مفرقة لما جمعته أي ، كما أن " أو" مفرقة لما جمعته تقول : اضرب أيهم شئت زيداً أم عمراً ، فإذا قلت : اضرب أحدهم قلت : اضرب زيداً أو عمراً ، والمنقطعة لا تكون إلا بعد كلام تام ، لأنها بمعنى بل والألف ، كقول العرب : إنها الإبل أم شاء ، كأنه قال : بل هي شاء ، ومنه قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افتراه ﴾ [الأحقاف : 8] أي : بل يقولون ، قال الأخطل :

كذبتك عينك أم رأيت بواسط . . غلس الظلام من الرباب خيالا . انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 212 ﴾

(222/62)

وقال الآلوسى :

﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْئَلُواْ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ موسى مِن قَبْلُ ﴾ جوّز في ﴿ أَمْ ﴾ هذه أن تكون متصلة ، وأن تكون منقطعة ، فإن قدر (تعلمون) قبل ﴿ تُرِيدُونَ ﴾ بناء على دلالة السباق وهو ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ ﴾ [البقرة : 106] والسياق وهو الاقتراح فإنه لا يكون

إلا عند التعنت والعلم بخلافه كانت متصلة ، كأنه قيل : أي الأمرين من عدم العلم بما تقدم ، أو العلم مع الاقتراح واقع ، والاستفهام حينئذ للإنكار بمعنى لا ينبغي أن يكون شيء منهما ، وإن لم يقدر كانت منقطعة للإضراب عن عدم علمهم بالسابق إلى الاستفهام عن اقتراحهم كاقتراح اليهود إنكاراً عليهم بأنه لا ينبغي أن يقع أيضاً وقطع بعضهم بالقطع بناء على دخول الرسول صلى الله عليه وسلم في الخطاب أو لا ، وعدم دخوله فيه هنا لأنه مقترح عليه لا مقترح وذلك مخل بالاتصال وأجيب بأنه غير مخل به لحصوله بالنسبة إلى المقصد ، وإرادة الرسول صلى الله عليه وسلم في الأول كانت لمجرد التصوير والانتقال لما قدمنا أنها بطريق الكناية ، والمراد على التقديرين توصيته المسلمين بالثقة برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وترك الاقتراح بعد رد طعن المشركين أو اليهود في النسخ فكأنه قيل : لا تكونوا فيما أنزل إليكم من القرآن مثل اليهود في ترك الثقة بالآيات البينة واقتراح غيرها فتضلوا وتكفروا بعد الإيمان ، وفي هذه التوصية كمال المبالغة والبلاغة حتى كأنهم بصدد الإرادة فنهوا عنها فضلاً عن السؤال يعني من شأن العاقل أن لا يتصدى لإرادة ذلك ، ولم يقل سبحانه : كما سأل أمة موسى عليه السلام أو اليهود للإشارة إلى أن من سأل ذلك يستحق أن يصان اللسان عن ذكره ولا يقتضي سابقية وقوع الاقتراح منهم ولا يتوقف مضمون الآية عليه إذ التوصية لا تقتضي سابقية الوقوع ، كيف وهو كفر كما يدل عليه ما بعد ولا يكاد يقع من المؤمن ، ومما ذكرنا يظهر وجه ذكر هذه الآية بعد قوله تعالى : ﴿ مَا نَنسَخْ ﴾

[البقرة : 106] فإن المقصد من كل منهما تثبيتهم على الآيات وتوصيتهم بالثقة بها ، وأما بيانه بأنه لعلهم كانوا يطلبون منه عليه الصلاة والسلام بيان تفاصيل الحكم الداعية إلى النسخ فلذا أردفت آية النسخ بذلك فأراه إلى التمني أقرب ، وقد ذكر بعض المفسرين أنهم اقترحوا على الرسول صلى الله عليه وسلم في غزوة خيبر أن يجعل لهم ذات أنواط كما كان للمشركين ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " سبحان الله هذا كما قال قوم موسى : ﴿ اجعل لَّنَا إلها كَمَا لَهُمْ ءالِهَةٌ ﴾ [الأعراف : 138] والذي نفسي بيده لتركبن سنن من قبلكم حذو النعل بالنعل والقذة بالقذة إن كان فيهم من أتى أمه يكون فيكم ، فلا أدري أتعبدون العجل أم لا ؟" وهو مع الحاجة إليه يستدعي أن المخاطب في الآيات هم المؤمنون ، والسباق والسياق والتذييل تشهد له ، وعليه يترجح الاتصال لما نقل عن الرضى أن الفعليتين إذا اشتركتا في الفاعل نحو أقمت أم قعدت ؟ فأم متصلة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 355 ﴾

وقال ابن عاشور :

(أم) حرف عطف مختص بالاستفهام وما في معناه وهو التسوية فإذا عطفت أحد

مفردَيْنِ مستفهماً عن تعيين أحدهما استفهاماً حقيقياً أو مسوّى بينهما في احتمال الحصول فهي بمعنى (أو) العاطفة ويسميها النحاة متصلة ، وإذا وقعت عاطفة جملةً دلت على انتقال من الكلام السابق إلى استفهام فتكون بمعنى بل الانتقالية ويسميها النحاة منقطعة والاستفهام ملازم لما بعدها في الحالين .

(224/62)

وهي هنا منقطعة لا محالة لأن الاستفهامين اللذين قبلها في معنى الخبر لأنهما للتقرير كما تقدم إلا أن وقوعهما في صورة الاستفهام ولو للتقرير يحسن موقع (أم) بعدهما كما هو الغالب والاستفهام الذي بعدهما هنا إنكار وتحذير ، والمناسبة في هذا الانتقال تامة فإن التقرير الذي قبلها مراد منه التحذير من الغلط وأن يكونوا كمن لا يعلم والاستفهام الذي بعدها مراد منه التحذير كذلك والمحذر منه في الجميع مشترك في كونه من أحوال اليهود المذمومة ولا يصح كون (أم) هنا متصلة لأن الاستفهامين اللذين قبلها ليسا على حقيقتهما لا محالة كما تقدم .

وقد جوز القزويني في " الكشف على الكشاف" كون (أم) هنا متصلة بوجه مرجوح وتبعه البيضاوي وتكلفا لذلك مما لا يساعد استعمال الكلام العربي ، وأفرط عبد الحكيم في "

حاشية البيضاوي" فزعم أن حملها على المتصلة أرجح لأنه الأصل لا سيما مع اتحاد فاعل الفعلين المتعاطفين بأم ولدلالته على أنهم إذا سألوا سؤال قوم موسى فقد علموا أن الله على كل شيء قدير وإنما قصدوا التعنت وكان الجميع في غفلة عن عدم صلوحية الاستفهامين السابقين للحمل على حقيقة الاستفهام. انتهى انتهى. اهـ ﴿التحرير والتنوير حـ 1 صـ 648.647﴾

فصل

قال الفخر:

اختلفوا في المخاطب به على وجوه.

أحدها: أنهم المسلمون وهو قول الأصم والجبائي وأبي مسلم، واستدلوا عليه بوجوه.

الأول: أنه قال في آخر الآية: ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ الكفر بالإيمان﴾ وهذا الكلام لا يصح إلا في حق المؤمنين.

(225/62)

الثاني: أن قوله: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ﴾ يقتضي معطوفاً عليه وهو قوله: ﴿لَا تَقُولُواْ راعنا﴾ [البقرة: 104] فكأنه قال: وقولوا انظرنا واسمعوا فهل تفعلون ذلك كما أمرتم أم تريدون أن

تسألوا رسولكم ؟ الثالث : أن المسلمين كانوا يسألون محمداً صلى الله عليه وسلم عن أمور لا خير لهم في البحث عنها ليعلموها كما سأل اليهود موسى عليه السلام ما لم يكن لهم فيه خير عن البحث عنه ، الرابع : سأل قوم من المسلمين أن يجعل لهم ذات أنواط كما كان للمشركين ذات أنواط ، وهي شجرة كانوا يعبدونها ويعلقون عليها المأكول والمشروب ، كما سألوا موسى أن يجعل لهم إلهاً كما لهم آلهة .

القول الثاني : أنه خطاب لأهل مكة وهو قول ابن عباس ومجاهد .

قال : إن عبد الله بن أمية المخزومي أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم في رهط من قريش فقال : يا محمد والله ما أؤمن بك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً ، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب ، أو يكون لك بيت من زخرف ، أو ترقى في السماء بأن تصعد ، ولن نؤمن لرقيك بعد ذلك حتى تنزل علينا كتاباً من الله إلى عبد الله بن أمية أن محمداً رسول الله فاتبعوه .

وقال له بقية الرهط : فإن لم تستطع ذلك فائتنا بكتاب من عند الله جملة واحدة فيه الحلال والحرام والحدود والفرائض كما جاء موسى إلى قومه بالألواح من عند الله فيها كل ذلك ، فنؤمن بك عند ذلك .

فأنزل الله تعالى : أم تريدون أن تسألوا رسولكم محمداً أن يأتيكم الآيات من عند الله كما سأل السبعون فقالوا : أرنا الله جهرة .

وعن مجاهد أن قريشاً سألت محمداً عليه السلام أن يجعل لهم الصفا ذهباً وفضة ، فقال : نعم هو لكم كالمائدة لبني إسرائيل فأبوا ورجعوا .

(226/62)

القول الثالث : المراد اليهود ، وهذا القول أصح لأن هذه السورة من أول قوله : ﴿ يا بنى إسراءيل اذكروا نِعْمَتِيَ ﴾ [البقرة : 40 ، 47] حكاية عنهم ومحاجة معهم ولأن الآية مدنية ولأنه جرى ذكر اليهود وما جرى ذكر غيرهم ، ولأن المؤمن بالرسول لا يكاد يسأله فإذا سأله كان متبدلاً كفراً بالإيمان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 212 . 213 ﴾

وقال الآلوسى :

وزعم قوم أن المخاطب بها اليهود ، وأن الآية نزلت فيهم حين سألوا أن ينزل عليهم كتاب من السماء جملة كما نزلت التوراة على موسى عليه السلام وخاطبهم بذلك بعد رد طعنهم تشديداً لهم ، وحينئذ يكون المضارع الآتي بمعنى الماضي ، إلا أنه عبر به عنه إحضاراً للصورة الشنيعة ، واختار هذا الإمام الرازي وقال : إنه الأصح لأن هذه سورة من أول قوله تعالى : ﴿ يا بنى إسرائيل اذكروا نِعْمَتِيَ ﴾ [البقرة : 40] حكاية عن اليهود ومحاجة

معهم ، ولأنه جرى ذكرهم وما جرى ذكر غيرهم ، ولأن المؤمن بالرسول لا يكاد يسأل ما يكون متبدلاً به الكفر بالإيمان ولا يخفى ما فيه ، وكأنه رحمه الله تعالى نسي قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين ءامَنُواْ لاَ تَقُولُواْ راعنا وَقُولُواْ انظرنا ﴾ [البقرة : 104] وقيل : إن المخاطب أهل مكة ، وهو قول ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، وقد روي عنه أن الآية نزلت في عبد الله بن أمية ورهط من قريش قالوا : يا محمد ، اجعل لنا الصفا ذهباً ووسع لنا أرض مكة ، وفجر لنا الأنهار خلالها تفجيراً ونؤمن لك . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 355 ﴾

فائدة

قال الفخر :

ليس في ظاهر قوله : ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْئَلُواْ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ موسى مِن قَبْلُ ﴾ أنهم أتوا بالسؤال فضلاً عن كيفية السؤال ، بل المرجع فيه إلى الروايات التي ذكرناها في أنهم سألوا والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 213 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أن السؤال الذي ذكروه إن كان ذلك طلباً للمعجزات فمن أين أنه كفر ؟ ومعلوم أن طلب الدليل على الشيء لا يكون كفراً ، وإن كان ذلك طلباً لوجه الحكمة المفصلة في نسخ الأحكام ، فهذا أيضاً لا يكون كفراً ؛ فإن الملائكة طلبوا الحكمة التفصيلية في خلقة البشر ولم يكن ذلك كفراً ، فلعل الأولى حمل الآية على أنهم طلبوا منه أن يجعل لهم إلهاً كما لهم آلهة ، وإن كانوا طلبوا المعجزات فإنهم يطلبونها على سبيل التعنت واللجاج فلهذا كفروا بسبب هذا السؤال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 213 ﴾

فصل

قال الفخر :

ذكروا في اتصال هذه الآية بما قبلها وجوهاً :

أحدها : أنه تعالى لما حكم بجواز النسخ في الشرائع فلعلهم كانوا يطالبونه بتفاصيل ذلك الحكم فمنعهم الله تعالى عنها وبين أنهم ليس لهم أن يشتغلوا بهذه الأسئلة كما أنه ما كان لقوم موسى أن يذكروا أسئلتهم الفاسدة .

وثانيها : لما تقدم من الأوامر والنواهي قال لهم : إن لم تقبلوا ما أمرتكم به وتمردتم عن الطاعة كنتم كمن سأل موسى ما ليس له أن يسأله ، عن أبي مسلم ، وثالثها : لما أمر ونهى قال :

أتفعلون ما أمرتم أم تفعلون كما فعل من قبلكم من قوم موسى ؟ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 213 ﴾

فائدة

قال ابن عاشور :

وقوله : ﴿ تريدون ﴾ خطاب للمسلمين لا محالة بقرينة قوله : ﴿ رسولكم ﴾ وليس كونه كذلك بمرجح كون الخطابين اللذين قبله متوجهين إلى المسلمين لأن انتقال الكلام بعد (أم) المنقطعة يسمح بانتقال الخطاب .

وقوله : ﴿ تريدون ﴾ يؤذن بأن السؤال لم يقع ولكنه ربما جاش في نفوس بعضهم أو ربما أثارته في نفوسهم شبه اليهود في إنكارهم النسخ وإلقائهم شبهة البداء ونحو ذلك مما قد يبعث بعض المسلمين على سؤال النبيء صلى الله عليه وسلم

(228/62)

وقوله : ﴿ كما سئل موسى ﴾ تشبيهٌ وجهُه أن في أسئلة بني إسرائيل موسى كثيراً من الأسئلة التي تفضي بهم إلى الكفر كقولهم : ﴿ اجعل لنا إلها كما لهم آلهة ﴾ [الأعراف : 138] أو من العجرفة كقولهم : ﴿ لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ﴾ [البقرة : 55]

فيكون التحذير من تسلسل الأسئلة المفضي إلى مثل ذلك .

ويجوز كونه راجعاً إلى أسئلة بني إسرائيل عما لا يعنيهم وعما يجر لهم المشقة كقولهم ﴿ ما لونها ﴾ [البقرة : 69] و ﴿ ماهي ﴾ [البقرة : 7] .

قال الفخر : إن المسلمين كانوا يسألون النبيء صلى الله عليه وسلم عن أمور لا خير لهم في البحث عنها ليعلموها كما سأل اليهود موسى . أ هـ

وقد ذكر غيره أسباباً أخرى للنزول ، منها : أن المسلمين سألوا النبيء صلى الله عليه وسلم في غزوة خيبر لما مروا بذات الأنواط التي كانت للمشركين أن يجعل لهم مثلها ونحو هذا مما هو مبني على أخبار ضعيفة ، وكل ذلك تكلف لما لا حاجة إليه فإن الآية مسوقة مساق الإنكار التحذيري بدليل قوله : ﴿ تريدون ﴾ قصداً للوصاية بالثقة بالله ورسوله والوصاية والتحذير لا يقتضيان وقوع الفعل بل يقتضيان عدمه .

والمقصود التحذير من تطرق الشك في صلاحية الأحكام المنسوخة قبل نسخها لا في صلاحية الأحكام الناسخة عند وقوعها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 1 صـ 649.648 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَمَن يَتَبَدَّلِ الكفر بالإيمان فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السبيل ﴾

فائدة

قال أبو حيان :

﴿ ومن يتبدّل الكفر بالإيمان ﴾ ؟ تقدّم الكلام في التبديل ، أي : من يأخذ الكفر بدل الإيمان ؟ وهذه كناية عن الإعراض عن الإيمان والإقبال على الكفر ، كما جاء في قوله : ﴿ اشتروا الضلالة بالهدى ﴾ وفسر الزمخشري هذا بأن قال : ومن ترك الثقة بالآيات المنزلة وشك فيها واقترح غيرها .

وقال أبو العالية : الكفر هنا : الشدة ، والإيمان : الرخاء .

وهذا فيه ضعف ، إلا أن يريد أنهما مستعاران في الشدة على نفسه والرخاء لها عن العذاب والنعيم .

(229/62)

وأما المعروف من شدة أمور الدنيا ورخائها ، فلا تفسر الآية بذلك ، والظاهر حمل الكفر والإيمان على حقيقتهما الشرعية ، لأن من سأل الرسول ما سأل مع ظهور المعجزات ووضوح الدلائل على صدقه ، كان سؤاله تعنتاً وإنكاراً ، وذلك كفر .

﴿ فقد ضل سواء السبيل ﴾ : هذا جواب الشرط ، وقد تقدم الكلام على الضلال في قوله : ﴿ ولا الضالين ﴾ وعلى سواء في قوله : ﴿ سواء عليهم أأنذرتهم ﴾ وأن سواء يكون بمعنى مستو .

ولذلك يتحمل الضمير في قولهم : مررت برجل سواء هو والعدم ، ويوصف به : ﴿ تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ﴾ ، ويفسر بمعنى العدل والنصفة ، لأن ذلك مستو ، وقال زهير :

أرونا خطة لا عيب فيها . . .

يسوى بيننا فيها السواء

ويفسر بمعنى الوسط .

قال تعالى : ﴿ فرآه في سواء الجحيم ﴾ أي في وسطها .

وقال عيسى بن عمر : كتبت حتى انقطع سواي ، وقال حسان :

يا ويح أنصار النبي ورهطه . . .

بعد المغيب في سواء الملحد

وبذلك فسر السواء في الآية أبو عبيدة ، وفسره الفراء بالقصد .

ولما كانت الشريعة توصل سالكها إلى رضوان الله تعالى ، كنى عنها بالسبيل ، وجعل من حاد عنها : كالضال عن الطريق ، وكنى عن سؤالهم نبيهم ما ليس لهم أن يسألوه بتبدل الكفر بالإيمان ، وأخرج ذلك في صورة شرطية ، وصورة الشرط لم تقع بعد تنفيراً عن ذلك ، وتبعيداً منه .

فوبخهم أولاً على تعلق إرادتهم بسؤال ما ليس لهم سؤاله ، وخاطبهم بذلك ، ثم أدرجهم

في عموم الجملة الشرطية .

وإن مثل هذا ينبغي أن لا يقع ، لأنه ضلال عن المنهج القويم ، فصار صدر الآية إنكاراً وتوبيخاً ، وعجزها تكفيراً وضلالاً .

وما أدى إلى هذا فينبغي أن لا يتعلق به غرض ولا طلب ولا إرادة .

وإدغام الدال في الضاد من الإدغام الجائز .

وقد قرئ : ﴿ فقد ضل ﴾ ، بالإدغام وبالإظهار في السبعة . انتهى انتهى . اهـ

﴿ البحر المحيط حـ 1 صـ 517 ﴾

(230/62)

وقال الآلوسى :

﴿ وَمَن يَتَبَدَّلِ الكفر بالإيمان فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السبيل ﴾ جملة مستقلة مشتملة على حكم كلي أخرجت مخرج المثل جيء بها لتأكيد النهي عن الاقتراح المفهوم من قوله : ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ ﴾ الخ معطوفة عليه ، فهي تذييل له باعتبار أن المقترحين الشاكين من جملة الضالين الطريق المستقين المتبدلين و(سواء) بمعنى وسط أو مستوى ، والإضافة من باب إضافة الوصف إلى الموصوف لقصد المبالغة في بيان قوة الاتصاف كأنه نفس السواء على منهاج

حصول الصورة في الصورة الحاصلة والفاء رابطة وما بعدها لا يصح أن يكون جزاء الشرط لأن ضلال الطريق المستقيم متقدم على الاستبدال والارتداد لا يترتب عليه ، ولأن الجزاء إذا كان ماضياً مع (قد) كان باقياً على مضيه لأن (قد) للتحقيق ، وما تأكد ورسخ لا ينقلب ، ولا يترتب الماضي على المستقبل ، ولأن كون الشرط مضارعاً والجزاء ماضياً صورة ضعيف لم يأت في الكتاب العزيز على ما صرح به الرضي وغيره فلا بد من التقدير بأن يقال : ومن يتبدل الكفر بالإيمان فالسبب فيه أنه تركه ، ويؤل المعنى إلى أن ضلال الطريق المستقيم وهو الكفر الصريح في الآيات سبب للتبديل والارتداد ، وفسر بعضهم التبدل المذكور بترك الثقة بالآيات باعتبار كونه لازماً له فيكون كناية عنه ، وحاصل الآية حينئذ ومن يترك الثقة بالآيات البينة المنزلة بحسب المصالح التي من جملتها الآيات الناسخة التي هي خير محض ، وحق بحت واقترح غيرها فقد عدل وجار من حيث لا يدري عن الطريق المستقيم الموصل إلى معالم الحق والهدى ، وتاه في تيه الهوى ، وتردى في مهاوي الردى ، واختار ما في النظم الكريم إيذاناً من أول الأمر على أبلغ وجه بأن ذلك كفر وارتداد ، ولعل ما أشرنا إليه أولى كما لا يخفى على المتدبر ، وقرىء ﴿ وَمَن يُبَدّلْ ﴾ من أبدل وإدغام الدال في الضاد والإظهار قراءتان مشهورتان . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 356 ﴾

وقال الفخر :

﴿ سَوَاء السبيل ﴾ وسطه قال تعالى : ﴿ فاطلع فَرَءاهُ فِى سَوَاء الجحيم ﴾ [الصافات : 55] أي وسط الجحيم ، والغرض التشبيه دون نفس الحقيقة ، ووجه التشبيه في ذلك أن من سلك طريقة الإيمان فهو جار على الاستقامة المؤدية إلى الفوز والظفر بالطلبة من الثواب والنعيم ، فالمبدل لذلك بالكفر عادل عن الاستقامة فقيل فيه إنه ضل سواء السبيل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 213 ﴾

وقال ابن عاشور :

وقوله : ﴿ ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل ﴾ تذييل للتحذير الماضي للدلالة على أن المحذر منه كفر أو يفضي إلى الكفر لأنه ينافي حرمة الرسول والثقة به وبحكم الله تعالى ، ويحتمل أن المراد بالكفر أحوال أهل الكفر أي لا تتبدلوا بآدابكم تقلد عوائد أهل الكفر في سؤالهم كما قال صلى الله عليه وسلم في حديث " الصحيحين " : " فإنما أهلك الذين من قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم " وإطلاق الكفر على أحوال أهله وإن لم تكن كفراً شائع في ألفاظ الشريعة وألفاظ السلف كما قالت جميلة بنت عبد الله بن أُبَيَ زوجة ُثابتِ بن قيس : " إني أكره الكفر " تريد الزنا ، فإذن ذكر جملة بعد جملة يؤذن بمناسبة بين الجملتين فإذا لم يكن مدلول الجملتين واضح التناسب علم المخاطب أن هنالك

مناسبة يرمز إليها البليغ فهنا تعلم أن الارتداد عن الإيمان إلى الكفر معنى كلي عام يندرج تحته سؤالهم الرسول كما سأل بنو إسرائيل موسى فتكون تلك القضية كفراً وهو المقصود من التذييل المعرف في باب الإطناب بأنه تعقيب الجملة بجملة مشتملة على معناها تتنزل منزلة الحجة على مضمون الجملة وبذلك يحصل تأكيد معنى الجملة الأولى وزيادة فالتذييل ضرب من ضروب الإطناب من حيث يشتمل على تقرير معنى الجملة الأولى ويزيد عليه بفائدة جديدة لها تعلق بفائدة الجملة الأولى .

وأبدعه ما أخرج مخرج الأمثال لما فيه من عُموم الحكم ووجيز اللفظ مثل هاته الآية ، وقول النابغة :

(232/62)

ولستَ بمستبقٍ أخاً لا تُلمُّه . . .

على شعَث أيُّ الرجال المهذب

والمؤكد بجملة : ﴿ ومن يتبدل الكفر بالإيمان ﴾ هو مفهوم جملة ﴿ أم تريدون أن تسألوا رسولكم ﴾ مفهوم الجملة التي قبلها لا منطوقها فهي كالتذييل الذي في بيت النابغة .

والقول في تعدية فعل ﴿ يتبدل ﴾ مضى عند قوله تعالى : ﴿ قال أتستبدلون الذي هو

أدنى بالذي هو خير ﴾ [البقرة: 61].

وقد جعل قوله: ﴿ فقد ضل ﴾ جواباً لمن الشرطية لأن المراد من الضلال أعظمه وهو الحاصل عقب تبدل الكفر بالإيمان ولا شبهة في كون الجواب مترتباً على الشرط ولا يريبك في ذلك وقوع جواب الشرط فعلاً ماضياً مع أن الشرط إنما هو تعليق على المستقبل ولا اقتران الماضي بقد الدالة على تحقق المضي لأن هذا استعمال عربي جيد يأتون بالجزاء ماضياً لقصد الدلالة على شدة ترتب الجزاء على الشرط وتحقق وقوعه معه حتى إنه عند ما يحصل مضمون الشرط يكون الجزاء قد حصل فكأنه حاصل من قبل الشرط نحو: ﴿ ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى ﴾ [طه: 81] وعلى مثل هذا يحمل كل جزاء جاء ماضياً فإن القرينة عليه أن مضمون الجواب لا يحصل إلا بعد حصول الشرط وهم يجعلون قد علامة على هذا القصد ولهذا قلما خلا جواب ماض لشرط مضارع إلا والجواب مقترن بقد حتى قيل: إن غير ذلك ضرورة ولم يقع في القرآن كما نص عليه الرضي بخلافه مع قد فكثير في القرآن.

وقد يجعلون الجزاء ماضياً مريدين أن حصول مضمون الشرط كاشف عن كون مضمون الجزاء قد حصل أو قد تذكره الناس نحو ﴿ إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل ﴾ [يوسف : 77] وعليه فيكون تحقيق الجزاء في مثله هو ما يتضمنه الجواب من معنى الانكشاف أو السبق أو غيرهما بحسب المقامات قبل أن يقدر فلا تعجب إذ قد سرق أخ له ويمكن تخريج هذه الآية على ذلك بأن يقدر ومن يتبدل الكفر بالإيمان فالسبب فيه أنه قد كان ضل سواء السبيل حتى وقع في الارتداد كما تقول من وقع في المهواة فقد خبط خبط عشواء إن أريد بالماضي أنه حصل وأريد بالضلال ما حف بالمرتد من الشبهات والخذلان الذي أوصله إلى الارتداد وهو بعيد من غرض الآية .

والسواء الوسط من كل شيء قال بلعاء بن قيس :

غَشَّيْتُه وهو في جَأْوَاءَ باسلة . . .

عَضْبًا أصاب سواءَ الرأس فانفلقا

ووسط الطريق هو الطريق الجادة الواضحة لأنه يكون بين بنيات الطريق التي لا تنتهي إلى الغاية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 1 صـ 649.650 ﴾

فائدة

قال في البحر المديد :

لا يُشترط في الولي ظهور الكرامة ، وإنما يشترط فيه كمال الاستقامة ، ولا يشترط فيه أيضاً هداية الخلق على يديه ؛ إذ لم يكن ذلك للنبيّ فكيف يكون للولي ؟

قال تعالى : ﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [يُونس : 99] وقد سَرَى في طبع العوام ما سَرَى في طبع الكفار ، قالوا : ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعاً ﴾ [الإسرَاء : 90] الآية .

فكثير من العوام لا يقرون الولي حتى يروا له آية أو كرامة ، مع أن الولي كلما رسخت قدمه في المعرفة قلَّ ظهور الكرامة على يديه ؛ لأن الكرامة إنما هي معونة وتأييد وزيادة إيقان .

والجبل الراسي لا يحتاج إلى عماد .

والحق هو ما قاله الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه : (وإنهما كرامتان جامعتان محيطتان : كرامة الإيمان بمزيد الإيقان على نعت الشهود والعيان ، وكرامة العمل على السنة والمتابعة ، ومجانبة الدعاوى والمخادعة ، فمن أُعْطِيَهُمَا ثم اشتاق إلى غيرهما فهو مفتر كذاب ، أو ذو خطأ في العلم والفهم ، كمن أكرم بشهود الملك على نعت الرضى والكرامة ، ثم جعل يشتاق إلى سياسة الدوام وخِلَعِ الرضا) أو كما قال رضي الله عنه .

وقال شيخنا رضي الله عنه : (الكرامة الحقيقية هي الأخلاق النبوية والعلوم اللدنية) .

فمن أنكر أولياء أهل زمانه وطلب منهم الدليل غير ما تقدم فقد ضلّ سواء السبيل ، وبقي مربوطاً في سجن البرهان والدليل . وبالله التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المديد حـ 1 صـ 150 ﴾

(235/62)

ومن فوائد ابن عرفة فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْئَلُواْ رَسُولَكُمْ . . . ﴾ .

إن كان الخطاب للمؤمنين فالمراد أن تسألوا الرسول الذي (أقررتم برسالته ، وإن كان الخطاب للكفار فالمراد الرسول) الذي ثبتت رسالته إليكم في نفس الأمر .

قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَتَبَدَّلِ الكفر بالإيمان فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ السبيل ﴾ .

قالوا : ﴿ سَوَآءَ السبيل ﴾ وسطه .

ورد عليه ابن عرفة : أنه يلزمهم المفهوم وهو أنه يكون اهتدى لبعض سبيل الحق وهو جانباه والجواب : أن السبيل اسم جنس يعم طريق الحق والباطل و ﴿ سَوَآءَ ﴾ هنا هو طريق

الحق منهما ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السبيل إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً ﴾ . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عرفة حـ 1 صـ 396 ﴾

(236/62)

" فوائد بلاغية "

قال فى صفوة التفاسير :

البلاغة :

1- الإضافة فى قوله : [من ربكم] للتشريف ، وفيها التذكير للعباد بتربيته لهم ، فهو الخالق ، والمربي لعباده .

2- تصدير الجملتين بلفظ الجلالة [والله يختص] [والله ذو الفضل] للإيذان بفخامة الأمر .

3- [ألم تعلم] الاستفهام للتقرير ، والخطاب للنبى (صلى الله عليه وسلم) والمراد به أمته بدليل قوله تعالى : [وما لكم من دون الله]

4- وضع الاسم الجليل موضع الضمير [إن الله] و[من دون الله] لتربية الروعة والمهابة في النفوس .

5- [ضل سواء السبيل] من إضافة الصفة للموصوف أي الطريق المستوي ، وفي التعبير به نهاية التبكيت والتشنيع ، لمن ظهر له الحق فعدل عنه إلى الباطل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 1 صـ 87 ﴾

(237/62)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

و" أم " هذه يجوز أن تكون متّصلة معادلة [لقوله تعالى : " ألم تعلم " وهي مفرقة لما جمعته أي : كما أن " أو " مفرقة لما جمعته تقول : اضرب أيهم شئت زيداً أم عمراً ، فإذا قلت : أضرب أحدهم .

قلت : اضرب زيداً أو عمراً .

أو تكون منقطعة ، فتقدم بـ " بل " والهمز ، ولا تكون إلاَّ بعد كلام تام كقوله : نما الإبل أم شاء ؛ كأنه قال : بل هي شاء ، ومنه قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افتراه ﴾ [هود : 35] أي : يقولون .

قال الأَخْطَلُ : [الكامل]

730 كَذَبَتْكَ عَيْنُكَ أَمْ رَأَيتَ بِوَاسِطٍ . . .

غَلَسَ الظَّلاَمِ مِنَ الرَّبَابِ خَيَالاً

ويكون إضراباً للالتفات من قصة إلى قصة] .

قال أبو البقاء : أم هنا منقطعة ، إذ ليس في الكلام همزة تقع موقعها ومع أم أيُّهما ، والهمزة من قوله : " ألم تعلم " ليست من " أم " في شيء ، والمعنى : بل أتريدون فخرج من كلام إلى كلام .

وأصل تريدون : " تُرْوِدُون " ؛ لأنه من رَادَ يَرُودُ ، وقد تقدّم ، فنقلت حركة " الواو " على " الراء " ، فسكنت " الواو " بعد كسرة فقلبت ياء .

وقيل : " أم " للاستفهام ، وهذه الجملة منقطعة عما قبلها .

وقيل : هي بمعنى " بل " وحدجها ، وهذان قولان ضعيفان .

قوله تعالى : " أَنْ تَسْأَلُوا " نصب ومنصوب في محل نصب مفعولاً به بقوله : " تريدون " أي : أتريدون سؤال رسولكم .

قوله : " كَمَا سُئِلَ " متعلق بـ " تسألوا " و " الكاف " في محلّ نصب ، وفيها التقديران المشهوران : فتقدير سيبويه ورحمه الله تعالى أنها حال من ضمير المصدر المحذوف .

أي : إن تسألوه أي : السؤال حال كونه مُشَبَّهاً بسؤال قوم موسى له ، وتقيد رجمهور النجاة : أنه نعت لمصدر محذوف ، أي : إن تسألوا رسولكم سؤالاً مشبهاً كذا .

و " ما " مصدرية ، أي : كسؤال موسى .

[وأجاز الحوفي كونهنا بمعنى الذي فلا بد من تقدير عائد أي كالسؤال الذي سأله موسى]

و " موسى " مفعول لم يسمّ فاعله ، حذف الفاعل للعم به ، أي كما سأل قوم موسى .

والمشهور : " سئل " بضم السين وكسر الهمزة ، وقرأ الحسن " سِيلَ " بكسر السين وياء بعدها من : سال يسال نحو خفت أخاف ، وهل هذه الألف في " سال " أصلها الهمز أو لا ؟ تقدم خلاف فيه ، وسيأتي تحقيقه في " سأل " وقرىء بتسهيل الهمزة بَيْنَ بَيْنَ و " من قبل " متعلّق بـ " سئل " ، و " قبل " مبينة على الضم ؛ لأن المضاف إليه معرفة أي : من قبل سؤالكم ، وهذا توكيد ، وإلا فمعلوم أن سؤال موسى كان متقدماً على سؤالهم .

قوله : " بالإيمان " فيه وجهان :

أحدهما : أنها ياء العِوَضية ، وقد تقدم تحقيق ذلك .

والثاني : أنها للسببية .

قال أبو البقاء : يجوز أن يكون مفعولاً يتبدّل ، وتكون الباء للسبب ، كقولك : اشتريت الثوب بدرهم ، وفي مصاله هذا نظر .

وقوله تعالى : ﴿ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ السبيل ﴾ قرىء بإدغام الدّال في الضاد وإظهارها .

و" سواء " قال أبو البقاء : سواء السبيل ضرف بمعنى وسط السبيل وأعدله ، وهذا صحيح فإن " سواء " جاء بمعنى وسط .

قال تعالى : ﴿ فِي سَوَآءِ الجحيم ﴾ [الصافات : 55] .

وقال عيسى بن عمر : ما زلتُ أكتب حتى انقطع سَوَائِي ؛ وقال حَسَّان : [الكامل]

731 يَا وَيْحَ أَصْحَابِ النَّبِيّ ورَهْطِهِ . . .
بَعْدَ الْمُغَيَّبِ فِي سَوَاءِ الْمُلْحَدِ

ومن مجيئه بمعنى العدل قول زهير : [الوافر]

732 أَرُونَا خُطَّةً لاَ عَيْبَ فِيهَا . . .
يُسَوِّي بَيْنَنَا فِيْهَا السَّوَاءُ

والغرض من هذه الآية التشبيه دون نفس الحقيقة ، ووجه التشبيه في ذلك أن من سلك طريقة الإيمان ، فهو جَارٍ على الاستقامة المؤدية إلى الفوز والظّفر بالطلبة من الثواب والنعيم ، فالمُبَدِّل لذلك بالكفر عادل عن الاستقامة فقيل فيه : إنه ضل سواء السبيل .

والسبيل يذكر ويؤنث : ﴿ قُلْ هذه سبيلي ﴾ [يوسف : 108] .

والجملة من قوله : " فقد ضَلَّ " في محل جزم ؛ لأنها جزاء الشرط ، والفاء واجبة هنا لعدم صلاحيته شرطاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 2 صـ 386. 388 ﴾ .

باختصار .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (108) ﴾

إنَّ بني إسرائيل آذَوْا موسى عليه السلام ، فنُهِيَ المسلمون عن فِعْل ما أسلفوه ، وأُمِروا بمراعاة أن حشمة الرسول صلى الله عليه وسلم بغاية ما يتسع في الإمكان . فكانوا بحضرته كأنَّ على رؤوسهم الطير . قال تعالى : ﴿ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾ [الفتح : 9] وحسنُ الأدب – في الظاهر – عنوانُ حسن الأدب مع الله في الباطن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 112. 113 ﴾

ومن فوائد القاسمى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُواْ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِن قَبْلُ ﴾ : ﴿ أَمْ ﴾ هنا ، إما متصلة معادلة للهمزة في : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ ﴾ أي : ألم تعلموا أنه مالك الأمور ، قادرٌ على الأشياء كلها ، يأمر وينهى كما أراد . . . أم تعلموا وتقترحون بالسؤال كما [في المطبوع : كلما] اقترحت اليهود على موسى عليه السلام ؟ وإما منقطعة – بمعنى بل – للإضراب والانتقال على حملهم على العمل بموجب علمهم بما ذكر عند ظهور بعض مخايل المساهلة منهم في ذلك ، وأمارات التأثر من أقاويل الكفرة ، إلى التحذير من ذلك . ومعنى الهمزة : إنكار وقوع الإرادة منهم ، واستبعاده ؛ لما أن قضية الإيمان وازعة عنها . وتوجيه الإنكاري إلى الإرادة – دون متعلقها – للمبالغة في إنكاره واستبعاده ، ببيان أنه مما لا يصدر عن العاقل إرادته ، فضلاً عن صدور نفسه ، وقوله : ﴿ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ ﴾ أي : يختره ، ويأخذه لنفسه : ﴿ بِالإِيمَانِ ﴾ . بمقابلته بدلاً منه : ﴿ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ ﴾ أي : عدل عن الصراط المستقيم . جملة مستقلة مشتملة على حكم كلي أخرجت مخرج المثل جيء بها لتأكيد النهي عن الاقتراح المفهوم من قوله : ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ ﴾ الخ ، معطوفة عليه . ومعنى الآية لا تقترحوا فتضلوا وسط السبيل ويؤدي بكم الضلال إلى البعد عن المقصد ، وتبديل

الكفر بالإيمان . فظهر وجه ذكر قوله : ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ ﴾ الخ بعد قوله تعالى : ﴿ مَا نَنسَخْ ﴾ . فإن المقصود من كل منهما تثبيتهم على الآيات وتوصيتهم بالثقة بها .

(241/62)

قال الراغب : فإن قيل ما فائدة قوله : ﴿ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ ﴾ الخ ومعلوم أنه بدون الكفر يضل الْإِنْسَانْ سواء السبيل فكيف بالكفر ؟ وقيل معنى ذلك من يتبدل الكفر بالإيمان يعلم أنه قد ضل ، قبل سواء السبيل ، وفي ذلك تنبيه أن ضلاله سواء السبيل قاده إلى الكفر بعد الإيمان ، ومعناه : لا تسألوا رسولكم كما سئل موسى ؛ فتضلوا سواء السبيل فيؤدي بكم إلى تبديل الكفر بالإيمان . فمبدأ ذلك : الضلال عن سواء السبيل . ووجه آخر وهو أنه سمى معاندة الأنبياء عليهم السلام ، بعد حصول ما تسكن النفس إليه كفراً ؛ إذ هي مؤدية إليه ، كتسمية العصير خمراً ، فقال : ﴿ وَمَن يَتَبَدَّلِ ﴾ أي : يطلب تبديل : ﴿ الكفر ﴾ ، أي : المعاندة التي هي مبدأ الكفر : ﴿ بالإيمان ﴾ أي : بما حصل له من الدلالة المقتضية لسكون النفس ، فقد ضل سواء السبيل .

ووجه ثالث : وهو أن ذلك نهاية التبكيت لمن ظهر له الحق فعدل عنه إلى الباطل ، وأنه كمن كان على وضح الطريق فتاه فيه .

ووجه رابع : وهو أن : ﴿ سَوَاء السَّبِيلِ ﴾ إشارة إلى الفطرة التي فطر الناس عليها . والإيمان إشارة إلى المكتسب من جهة الشرائع فقال : ﴿ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ ﴾ أي : بالإيمان المكتسب فقد أبطله ، وضيّع الفطرة التي فطر الناس عليها فلا يرجى له نزوع عما هو عليه بعد ذلك .

هذا . وما قررناه في الآية من أن الخطاب للمسلمين هو ما يترجح ويكون كقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ [المائدة : 101] . ويرشحه قوله : ﴿ ومن يتبدل الكفر بالإيمان ﴾ فإن موقع خطابه إنما يتضح مع المؤمنين .

(242/62)

ورجح الرازي كون الخطاب مع اليهود ، قال : لأن هذه السورة من أول قوله : ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ ﴾ حكاية عنهم ومحاجة معهم ولأنه لم يجر ذكر غيرهم في السياق ، وقد قص تعالى عنهم سؤال النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : ﴿ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً ﴾ الآية ، وحينئذ فمعنى تبدل الكفر بالآية ، وهم بمعزل من الإيمان ، إعراضهم عنه ، مع تمكنهم منه ، وإيثارهم للكفر عليه ، كما أن إضافة الرسول إليهم

باعتبار أنهم من أمة الدعوة. انتهى انتهى. اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 2 صـ 414.

416 ﴾

(243/62)

" من روائع الشيخ الصابونى فى الآيات "

﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (106) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (107) أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (108) ﴾

[2] النسخ في القرآن

التحليل اللفظي

﴿ نَنسَخْ ﴾ : النسخُ يأتي بمعنى (الإزالة) تقول العرب : نسخت الشمسُ الظلّ أي أزالته ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَيَنسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشيطان ﴾ [الحج : 52] أي يزيل ما يلقيه الشيطان .

ويأتي بمعنى (النقل) من موضع ، ومنه قولهم : نسختُ الكتاب أي نقلت ما فيه من مكان

إلى مكان أي نقلته إلى كتاب آخر ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الجاثية : 29] .

ويأتي بمعنى (التبديل) تقول : نسخَ القاضي الحكم أي بدّله وغيّره ، ونسخ الشارع السورة أو الآية أي بدّلها بآية أخرى ، وإليه يشير قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ ﴾ [النحل : 101]

ويأتي بمعنى (التحويل) كتناسخ المواريث من واحد إلى واحد ، هذا من حيث اللغة .

وأما في الشرع : فهو انتهاء الحكم المستنبط من الآية وتبديله بحكم آخر ، وقد عرّفه الفقهاء والأصوليون بتعريفات كثيرة نختار منها أجمعها وأخصرها ، وهو ما اختاره ابن الحاجب حيث قال رحمه الله .

" النسخ : هو رفع الحكم الشرعي ، بدليل شرعيّ متأخر " .

﴿ نُنسِهَا ﴾ : نُنسها من النسيان الذي هو ضد الذكر أي نمحها من القلوب ، فالنسيان بمعنى الذهاب من الذاكرة وهو مروي عن قتادة .

وقيل : من النسيان بمعنى الترك على حدّ قوله تعالى : ﴿ نَسُواْ اللهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ [التوبة : 67] أي تركوا أمره فتركهم في العذاب . ومنه قوله تعالى : ﴿ قَالَ كَذلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وكذلك اليوم تنسى ﴾ [طه : 126] وهو مروي عن ابن عباس .

قال ابن عباس : أي نتركها فلا نبدّلها ولا ننسخها .

وحكى الأزهري : نُنْسها : أي نأمرُ بتركها ، يقال : أنسيتُه الشيء أي أمرتُ بتركه ، ونسيتُه تركته ، قال الشاعر :

إنّ عليّ عُقْبَةً أقضيها . . . لستُ بناسِيْها ولا مُنْسِيها

وأما قراءة (نَنْسَأها) بالهمز ، فهو من النسأ بمعنى التأخير ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا النسيء زِيَادَةٌ فِي الكفر ﴾ [التوبة : 37] ومنه سمي بيع الأجل نسيئة .

وقال أهل اللغة : أنسأ الله أجله ، ونسأ في أجله ، أي أخرّ وزاد .

قال الألوسي : " وقرئ (ننسأها) وأصلها من نسأ بمعنى أخّر ، والمعنى نؤخرها في اللوح المحفوظ فلا ننزلها ، أو نُبعدها عن الذهن بحيث لا يتذكر معناها ولا لفظها ، وهو معنى (نُنْسها) فتتحّد القراءتان " .

﴿ بِخَيْرٍ مِّنْهَا ﴾ : أي بأفضل منها ، ومعنى فضلها : سهولتها وخفتها .

والمعنى : نأت بشيء هو خير للعباد منها ، أو أنفع لهم في العاجل والآجل .

قال القرطبي : لفظة " خير " هنا صفة تفضيل ، والمعنى بأنفع لكم أيها الناس في عاجل إن

كانت الناسخة أخف ، وفي آجل إن كانت أثقل ، وبمثلها إن كانت مستوية .

﴿ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ : الوليّ معناه القريب والصديق ، مأخوذ من قولهم : وليتُ أمر فلان أي قمتُ به ، ومنه وليّ العهد : أي القيّم بما عهد إليه من أمر المسلمين .

والنصيرُ : المعين مأخوذ من قولهم : نصره إذا أعانه .

قال الإمام الفخر : وأمّا الولي والنصير فكلاهما (فعيل) بمعنى (فاعل) على وجه المبالغة .

والمعنى : ليس لكم ناصر يمنعكم من العذاب .

(245/62)

﴿ أَمْ تُرِيدُونَ ﴾ : " أم " تأتي : متصلة ، ومنقطعة ، فالمتصلة هي التي تقدمها همزة استفهام كقوله تعالى : ﴿ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ ﴾ [البقرة : 6] وأما المنقطعة فهي بمعنى (بل) كقول العرب (إنها الإبل أم شاء) كأنه قال : بل هي شاء ، ومنه قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افتراه ﴾ [السجدة : 3] أي بل يقولون .

ومثله قول الأخطل :

كذبتكَ عينكَ أم رأيت بواسطٍ . . . غلسَ الظَّلام من الرَبَابِ خيَالاً

قال القرطبي : " هذه (أم) المنقطعة التي بمعنى بل ، أي بل أتريدون ومعنى الكلام التوبيخ "

.

﴿ يَتَبَدَّلِ الكفر ﴾ : يقال : بدّل ، تبدّل ، واستبدل أي جعل شيئاً موضع آخر ، والمراد اختيار الكفر بدل الإيمان كما قال تعالى : ﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى النار ﴾ [البقرة : 175] .

﴿ سَوَآءَ السبيل ﴾ : السواءُ من كل شيء : الوسطُ ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَرَآهُ فِي سَوَآءِ الجحيم ﴾ [الصافات : 55] أي وسط الجحيم .

والسبيلُ في اللغة : الطريقُ ، والمراد به طريق الاستقامة .

ومعنى الآية : من يختر الكفر والجحود بالله ويفضله على الإيمان ، فقد حاد عن الحق ، وعدل عن طريق الاستقامة ، ووقع في مهاوي الردي .

وجه الارتباط بالآيات السابقة

بعد أن بيّن سبحانه وتعالى حقيقة الوحي ، ورق على المكذّبين به والكارهين له جملةً وتفصيلاً ، ذكر هنا سرَّ النسخ ، وأبطل مقال الطاعنين فيه ، بأنه تعالى يأمر بالشيء لما يكون فيه من المصلحة للعباد ، ثمّ ينهى عنه لما يرى فيه من الخير لهم ، فهو أعلم بمصالح عباده ، وما فيه النفع لهم من أحكامه التي تعبّدهم بها ، وشرعها لهم ، وقد يختلف ذلك باختلاف الأحوال ، والأزمنة والأشخاص ، فينبغي تسليم الأمر لله ، وعدم الاعتراض

عليه ، لأنه هو الحكيم العليم .

المعنى الإجمالي

يقول الله جل ثناؤه ما معناه :

(246/62)

﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ ﴾ : أي ما نبدّل من حكم آية فنغيّره ، أو نترك تبديله فنقره بحاله ، نأت بخير لكم منها – أيها المؤمنون – في العاجل أو الآجل إمّا برفع مشقة عنكم ، أو بزيادة الأجر لكم والثواب ، أو بمثلها في الفائدة للعباد ، ألم تعلموا أيها الناس أن الله عليم ، حكيم ، قدير ، لا يصدر منه إلا كل خير وإحسان ، وأنه – جل وعلا – شرع هذه الملة الحنيفية السمحة ، ليرفع عن عباده الأغلال والآصار ؟ !

فلا تظنّوا أنّ تبديله للأحكام لعجزٍ في القدرة ، أو جهل في المصلحة ، وإنما تغييرها يرجع إلى منفعة العباد ، فهو المالك المتصرف في شؤون الخلق ، يحكم بما شاء ، ويأمر بما شاء ، ويبدّل وينسخ الأحكام حسب ما يريد ، وما لكم أيها الناس سوى وليّ يرعى شؤونكم ، أو ناصر ينصركم ، فلا تثقوا بغيره ، ولا تعتمدوا إلا عليه ، فهو نعم الناصر والمعين .

أتريدون – أيها المؤمنون – أن تسألوا رسولكم ، نظير ما سأل قوم موسى من قبل ؟ !

فتضلّوا كما ضلّوا ، ويكون مثلكم مثل اليهود الذين سألوا نبيّهم تعنتاً واستكباراً فقالوا : ﴿ أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً ﴾ [النساء : 153] وطلبوا منه ما لا يسوغ طلبه حيث قالوا : ﴿ اجعل لَّنَآ إلها كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾ [الأعراف : 138] فهل يليق بكم أن تتعنتوا مع نبيكم ، وتقترحوا عليه ما تشتهون ، فتصبحوا كاليهود الضالين ؟ !

ومن يستبدل الكفر بالإيمان ، والضلالة بالهدى ، فقد حاد عن الجادة ، وعدل عن طريق الاستقامة ، وتردّى في مهاوي الهلاك ، وخسر نفسه حيث عرّضها لعذاب الله الأليم .

سبب النزول

أ – روي أن اليهود قالوا : ألا تعجبون لأمر محمداً ؟ يأمر أصحابه بأمرٍ ثم ينهاهم عنه ويأمرهم بخلافه ، ويقول اليوم قولاً ويرجع عنه غداً ، فما هذا القرآن إلا كلام محمد يقوله من تلقاء نفسه ، يناقض بعضه بعضاً فنزلت ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا . . . ﴾ الآية .

ب – روي الفخر الرازي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال :

" إن عبد الله بن أمية المخزومي أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم في رهط من قريش فقالوا يا محمد : والله لا نؤمن بك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً ، أو تكون لك جنة من

نخيل وعنب ، أو يكون لك بيت من زخرف ، أو ترقى في السماء ، ولن نؤمن لرقيك حتى تنزّل علينا كتاباً من الله أنك رسوله فأنزل الله تعالى : ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُواْ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ موسى مِن قَبْلُ . . . ﴾ [البقرة : 108] .

ج – وروي عن مجاهد أن قريشاً سألت محمداً عليه الصلاة والسلام أن يجعل لهم الصفا ذهباً فقال : نعم ، وهو كالمائدة لبني إسرائيل إن كفرتم ، فأبوا ورجعوا فأنزل الله ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُواْ رَسُولَكُمْ . . . ﴾ .

وجوه القراءات

1 – قرأ الجمهور ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ ﴾ بفتح النون من نسخ الثلاثي ، وقرأ ابن عامر (نُنْسخ) بضم النون وكسر السين من أنسخ الرباعي .

قال الطبرسي : " لا يخلو من أن يكون (أَفْعل) لغة في (فَعَل) نحو بدأ وأبدأ ، وحلّ من إحرامه وأحلّ ، أو تكون الهمزة للنقل نحو ضرب وأضربته ، والوجه الصحيح هو الأول وهو أن يكون نسخ وأنسخ لغتين متفقتين في المعنى وإن اختلفتا في اللفظ ، وقول من فتح النون (نَنْسخ) أبينُ وأوضح .

2 – قرأ الجمهور (نُنْسِها) بضم النون الأولى وكسر السين من النسيان الذي هو ضد الذكر ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو (نَنْسأها) بفتح النون والسين وإثبات الهمزة من النسأ وهو التأخير من قولهم : نسأتُ الإبل عن الحوض إذا أخرتها ، ومنه قولهم : أنسأ الله أجلك .

وجوه الأعراب

1 – قوله تعالى : ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا ﴾ .

(248/62)

قال ابن قتيبة : أراد أو (نُنْسكها) من النسيان . (ما) شرطية جازمة و (ننسخ) مجزوم لأنه فعل الشرط ، و (مِنْ) صلة تأدباً ، و (آية) مفعول ل (ننسخ) والمعنى : ما ننسخ آية

قال ابن مالك :

وزيدَ في نفي وشبهِهِ فجَرّ . . . نكرةً كما لباغٍ من مفر

و (نُنسها) معطوف على (ننسخ) والمعطوف على المجزوم مجزوم ، و (نأت) جواب الشرط حذف منه حرف العلة ، و (بخيرٍ) جار مجرور متعلق بنأت .

قال العكبري : ومن قرأ بضم النون (نُنْسها) حمله على معنى نأمرك بتركها وفيه مفعول محذوف والتقدير : نُنْسكها .

2 – قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

الهمزة للتقرير كما في قوله سبحانه : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ [الشرح : 1] والخطابُ للنبي عليه الصلاة والسلام ، وقوله تعالى : ﴿ أَنَّ اللهَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ سادّ مسدّ

مفعولي (تعلم) عند الجمهور ، ومحل المفعول الأول عند الأخفش ، والمفعول الثاني محذوف .

3 – قوله تعالى : ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُواْ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ موسى مِن قَبْلُ ﴾ أم منقطعة للإضراب ومعناها (بل) والتقدير : بل أتريدون ، ﴿ كَمَا سُئِلَ ﴾ الكاف في موضع نصب صفة لمصدر محذوف أي سؤالاً كسؤال ، و (ما) مصدرية .

لطائف التفسير

اللطيفة الأولى : ذكر الله تعالى النسخ في القرآن ، وبيّن حكمته ، وهو الإتيان بما هو خير للعباد ، والخيرية تحتمل وجهين :

الأول : ما هو أخف على البشر من الأحكام .

الثاني : ما هو أصلح للناس من أمور الدنيا والدين .

قال القرطبي : والثاني أولى لأنه سبحانه يصرّف المكلّف على مصالحه ، لا على ما هو أخف على طباعه ، فقد ينسخ الحكم إلى ما هو أشد وأثقل ، كنسخ صوم عاشوراء بصوم رمضان ، وذلك لخير العباد ، لأنه يكون أكثر ثواباً ، وأعظم جزاءً ، فتبيّن أنّ المراد بالخيرية ما هو أصلح للعبد .

اللطيفة الثانية : أنكر بعض العلماء أن تحمل الآية (أو نُنْسها) على النسيان ضد الذكر ، لأنّ لم يكن للنبي صلى الله عليه وسلم حيث تكفّل الله جلت قدرته بأن يقرئه فلا ينسى ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تنسى ﴾ [الأعلى : 6] ، فهذه الآية تعارض التفسير السابق الذي ذهب إليه المفسّرون .

والجواب كما قال ابن عطية : أن هذا النسيان من النبي صلى الله عليه وسلم لما أراد الله أن ينساه جائز شرعاً وعقلاً ، وأمّا النسيان الذي هو آفة البشر فالنبي معصوم منه قبل التبليغ وبعده حتى يحفظه بعض الصحابة ، ومن هذا ما روي " أن النبي صلى الله عليه وسلم أسقط آية في الصلاة ، فلما فرغ منها قال : أفي القوم أُبيّ ؟ قال : نعم يا رسول الله ، قال : فِلمَ لم تذكرني ؟ قال : خشيت أن تكون قد رفعت ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لم ترفع ولكني نسيتها " .

اللطيفة الثالثة : قوله تعالى : ﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ﴾ المراد بالخيرية هنا الأفضلية يعني في (السهولة والخفة) وليس المراد الأفضلية في (التلاوة والنظم) لأن كلام الله تعالى لا يتفاضل بعضه عن بعض ، إذ كلّه معجز وهو كلام ربّ العالمين .

قال القرطبي : " لفظة (خير) هنا صفة تفضيل ، والمعنى بأنفع لكم أيها الناس في عاجل إن كانت الناسخة أخف ، وفي آجل إن كانت أثقل ، وبمثلها إن كان مستوية ، وليس المراد ب (

أخير) التفضيل ، لأن كلام الله لا يتفاضل وإنما هو مثل قوله :

﴿ مَن جَآءَ بالحسنة فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا ﴾ [النمل : 89] أي فله منها خير أي نفع وأجر " .

وقال أبو بكر الجصاص : " (بخيرٍ منها) في التسهيل والتيسير كما روي عن ابن عباس وقتادة ، ولم يقل أحد من العلماء خير منها في التلاوة ، إذ غير جائز أن يقال : إنّ بعض القرآن خير من بعض في معنى التلاوة والنظم ، إذ جميعه معجز كلام الله " .

(250/62)

اللطيفة الرابعة : قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ الله على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ؟ الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد أمته بدليل قوله تعالى : ﴿ وَمَا لَكُمْ مِّن دُونِ الله مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ ﴾ أو المراد هو وأمته وإنّما أفرد عليه السلام لكونه إمامهم ، وقدوتهم ، كقوله تعالى : ﴿ يا أَيُّهَا النبي إِذَا طَلَّقْتُمُ النسآء فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ [الطلاق : 1] فتخاطب الأمة في شخص نبيّها الكريم باعتباره الإمام والقائد . ووضعُ الاسم الجليل موضع الضمير (أنّ الله) و (من دون الله) لتربية الروعة والمهابة في نفوس المؤمنين ، والإشعار بأن شمول القدرة من مظاهر الألوهية والعظمة الربانية ، وكذا الحال في قوله جل وعلا ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ الله لَهُ مُلْكُ السماوات والأرض ﴾ .

قال العلامة أبو السعود : والمعنى : ألم تعلم أن الله له السلطان القاهر ، والاستيلاء الباهر ، المستلزمان للقدرة التامة على التصرف الكلي فيهما إيجاداً وإعداماً ، وأمراً ونهياً ، حسبما تقتضيه مشيئته ، لا معارض لأمره ، ولا معقّب لحكمه .

اللطيفة الخامسة : قوله تعالى : ﴿ وَمَا لَكُمْ مِّن دُونِ اللهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ معنى ﴿ دُونِ اللهِ ﴾ أي سوى الله كما قال أمية بن أبي الصلت :

يا نفسُ مالكِ دونَ اللهِ من واق . . . وما على حدثان الدهر من باق

قال في " الفتوحات الإلهية " : " وقوله : ﴿ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ أتى بصيغة فعيل في ﴿ وَلِيٍّ ﴾ و ﴿ نَصِيرٍ ﴾ لأنها أبلغ من فاعل والفرق بين الولي والنصير ، أن الوليّ قد يضعف عن النّصرة ، والنصير قد يكون أجنبياً عن المنصور ، فبينهما عموم وخصوص من وجه "

.

(251/62)

اللطيفة السادسة : قوله تعالى : ﴿ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ السبيل ﴾ السّواء : هو الوسط من كل شيء ، وهو من إضافة الصفة إلى الموصوف ، أي الطريق المستوي يعني المعتدل ، ومعنى (ضل) أي أخطأ ، وفي هذا التعبير نهاية التبكيت والتشنيع لمن ظهر له الحق فعدل عنه إلى

الباطل ، وأنه كمن كان على وضح الطريق فتاه فيه .

الأحكام الشرعية

الحكم الأول : هل النسخ جائز في الشرائع السماوية ؟

قال الإمام الفخر : النسخ عندنا جائز عقلاً ، واقع سمعاً ، خلافاً لليهود ، فإنّ منهم من أنكره عقلاً ومنهم من جوّزه عقلاً ، لكنْ منع منه سمعاً ، ويروى عن بعض المسلمين إنكار النسخ .

واحتج الجمهور : من المسلمين على جواز النسخ ووقوعه ، أنّ الدلائل دلت على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ونبوّتُه لا تصح إلا مع القول بنسخ شرع من قبله ، فوجب القطع بالنسخ .

وأما الوقوع فقد حصل النسخ في الشرائع السابقة ، وفي نفس شريعة اليهود ، فإنه جاء في التوراة أن آدم عليه السلام أمر بتزويج بناته من بنيه ، وقد حرم ذلك باتفاق .

(252/62)

قال الجصاص في تفسيره " أحكام القرآن " : (زعم بعض المتأخرين من غير أهل الفقة ، أنه لا نسخ في شريعة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، وأن جميع ما ذكر فيها من النسخ فإنما

المراد به نسخ شرائع الأنبياء المتقدمين ، كالسبت ، والصلاة إلى المشرق والمغرب ، قال لأن نبينا عليه السلام آخر الأنبياء ، وشريعته باقية البتة إلى أن تقوم الساعة ، وقد بعد هذا القائل من التوفيق بإظهار هذه المقالة ، إذ لم يسبقه إليها أحد ، بل قد عقلت الأمة سلفُها وخلفها من دين الله وشريعته نسخ كثير من شرائعه ، ونقل ذلك إلينا نقلاً لا يرتابون به ، ولا يجيزون فيه التأويل ، وقد ارتكب هذا الرجل في الآي المنسوخة والناسخة وفي أحكامها أموراً خرج بها عن أقاويل الأمة ، مع تعسف المعاني واستكراهها ، وأكثر ظني فيه أنه إنما أُتي به من قلة علمه بنقل الناقلين لذلك ، واستعمال رأيه من غير معرفة منه بما قد قال السلف فيه ، ونقلته الأمة . .) .

دليل أبي مسلم :

أ- احتجّ أبو مسلم بأنّ الله تعالى وصف كتابه العزيز بأنه ﴿ لاَّ يَأْتِيهِ الباطل مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ ﴾ [فصلت : 42] فلو جاز النسخ لكان قد أتاه الباطل .

ب- كما تأول الآية الكريمة ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ ﴾ على أن المراد بها نسخ الشرائع التي في الكتب القديمة من التوارة والإنجيل ، أو المراد بالنسخ النقلُ من اللوح المحفوظ وتحويله إلى سائر الكتب .

ج- وقال : إن الآية السابقة لا تدل على وقوع النسخ بل على أنه لو وقع النسخ لوقع إلى خيرٍ منه .

والجواب عن الأول : أن المراد أن هذا الكتاب لا يدخل إليه التحريف والتبديل ، ولا يكون فيه تناقض أو اختلاف ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اختلافا كَثِيراً ﴾ [النساء : 82] .

(253/62)

وأما الثاني والثالث : فإنه تأويل ضعيف لا تقوم به حجة ، ويناقض الواقع فقد نسخت كثيراً من الأحكام الشرعية بالفعل كنسخ القبلة ، ونسخ عدة المتوفى عنها زوجها إلى آخر ما هنالك مما سنبينه إن شاء الله من التفضيل .

أدلة الجمهور :

واستدل الجمهور على وقوع النسخ بحجج كثيرة نوجزها فيما يلي :

الحجة الأولى : قوله تعالى : ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا ﴾ فهذه الآية صريحة في وقوع النسخ .

الحجة الثانية : قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ واللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قالوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ . . . ﴾

[النحل : 101] قالوا : إن هذه الآية واضحة كل الوضوح في تبديل الآيات والأحكام ،

والتبديل يُشتمل على رفعٍ وإثبات ، والمرفوع إمّا التلاوة ، وإمّا الحكم ، وكيفما كان فإنه رفع ونسخ .

الحجة الثالثة : قوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ السفهآء مِنَ الناس مَا ولاهم عَن قِبْلَتِهِمُ التي كَانُواْ عَلَيْهَا . . . ﴾ [البقرة : 142] ثم قال تعالى : ﴿ قَدْ نرى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السمآء فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المسجد الحرام ﴾ [البقرة : 144] فقد كان المسلمون يتوجهون في صلاتهم إلى بيت المقدس ، ثمّ نسخ ذلك وأُمروا بالتوجه إلى المسجد الحرام .

الحجة الرابعة : أن الله تعالى أمر المتوفى عنها زوجها بالاعتداد حولاً كاملاً في قوله جلّ ذكره ﴿ والذين يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً وَصِيَّةً لأَزْوَاجِهِمْ مَّتَاعاً إِلَى الحول . . . ﴾ [البقرة : 240] ثم نسخ ذلك بأربعة أشهر وعشر كما قال تعالى : ﴿ والذين يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً ﴾ [البقرة : 234] .

الحجة الخامسة : أنه تعالى أمر بثبات الواحد للعشرة في قوله تعالى : ﴿ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ ﴾ [الأنفال : 65] ثم نسخ ذلك بقوله تعالى : ﴿ الآن

خَفَّفَ اللهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِئَتَيْنِ ﴾ [الأنفال : 66] فهذه الآيات وأمثالها في القرآن كثير تدل على وقوع النسخ فلا مجال للإنكار بحالٍ من الأحوال ، ولهذا أجمع العلماء على القول بالنسخ ، حتى روي عن علي كرم الله وجهه أنه قال لرجلٍ : أتعرف الناسخ من المنسوخ ؟ قال : لا ، قال : هلكتَ وأهلكت الناس .

قال العلامة القرطبي : (معرفة هذا الباب أكيدة ، وفائدته عظيمة ، لا تستغني عن معرفته العلماء ، ولا ينكره إلا الجهلة الأغبياء ، لما يترتب عليه في النوازل من الأحكام ، ومعرفة الحلال من الحرام ، وقد أنكرت طوائف من المنتمين للإسلام المتأخرين جوازه ، وهم محجوبون بإجماع السلف السابق على وقوعه في الشريعة) .

ثم قال : " لا خلاف بين العقلاء أن شرائع الأنبياء ، قُصد بها مصالح الخلق الدينية والدنيوية ، وإنما كان يلزم البداء لو لم يكن عالماً بمآل الأمور ، وأمّا العالم بذلك فإنما تتبدل خطاباته بحسب تبدل المصالح ، كالطبيب المراعي أحوال العليل ، فراعى ذلك في خليقته بمشيئته وإرادته ، لا إله إلا هو ، فخطابه يتبدل ، وعلمه وإرادته لا تتغيّر ، فإنّ ذلك محال في جهة الله تعالى " .

الحكم الثاني : ما هي أقسام النسخ في القرآن الكريم ؟

ينقسم النسخ إلى ثلاثة أقسام :

الأول : نسخ التلاوة والحكم معاً .

الثاني : نسخ التلاوة مع بقاء الحكم .

الثالث : نسخ الحكم وبقاء التلاوة .

(255/62)

أما الأول : وهو (نسخ التلاوة والحكم) فلا تجوز قراءته ، ولا العمل به ، لأنه قد نسخ بالكلية فهو كآية التحريم بعشر رضعات . . روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : (كان فيما نزل من القرآن " عشر رضعاتٍ معلوماتٍ يحرّمن " فنسخن بخمس رضعات معلومات ، فتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي مما يقرأ من القرآن) .

قال الفخر الرازي : فالجزء الأول منسوخ الحكم والتلاوة ، والجزء الثاني ، وهو الخمس منسوخ التلاوة باقي الحكم عند الشافعية .

وأما الثاني : (نسخ التلاوة وبقاء الحكم) فهو كما قال الزركشي في " البرهان " : يُعمل به إذا تلقته الأمة بالقبول ، كما روي أنه كان في سورة النور (الشيخُ والشيخةُ إذا زنيا فارجموهما البتّة نكالاً من الله والله عزيز حكيم) . ولهذا قال عمر : (لولا أن يقال الناس زاد عمر في كتاب الله لكتبتُها بيدي) .

وأخرج ابن حيان : في " صحيحه " عن (أُبيّ بن كعب) رضي الله عنه أنه قال : " كانت

سورة الأحزاب توازي سورة النور – أي في الطول – ثمّ نسخت آيات منها " .

وأما الثالث : (نسخ الحكم وبقاء التلاوة) فهو كثير في القرآن الكريم ، وهو كما قال (الزركشي) في ثلاث وستين سورة . . ومن أمثلة هذا النوع آية الوصية ، وآية العدة ، وتقديم الصدقة عند مناجاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، والكف عن قتال المشركين . . الخ .

وقد ألّف الشيخ هبة الله بن سلامة " رسالة في الناسخ والمنسوخ " جاء فيها ما نصه :

" اعلم أن أول النسخ في الشريعة أمرُ الصلاة ، ثم أمرُ القبلة ، ثم الصيام الأول ، ثم الإعراض عن المشركين ، ثم الأمر بجهادهم ، ثم أمره بقتل المشركين ، ثم أمره بقتال أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية ، ثم ما كان أهل العقود عليه من المواريث ، ثم هدر منار الجاهلية لئلا يخالطوا المسلمين في حجّهم " الخ .

فائدة هامة : ما الحكمة من نسخ الحكم وبقاء التلاوة ؟

(256/62)

قال العلامة الزركشي : " وهنا سؤال وهو أن يسأل : ما الحكمة في رفع الحكم وبقاء التلاوة ؟ والجواب من وجهين :

أحدهما : أن القرآن كما يتلى ليعرف الحكم منه ، والعمل به ، فإنه كذلك يُتلى لكونه كلام الله تعالى ، فيثاب عليه فتركت التلاوة لهذه الحكمة .

وثانيها : أن النسخ غالباً يكون للتخفيف فأبقيت التلاوة تذكيراً بالنعمة ، ورفع المشقة حتى يتذكر المسلم نعمة الله عليه .

الحكم الثالث : هل ينسخ القرآن بالسنّة ؟

اتفق العلماء على أنّ القرآن ينسخ بالقرآن ، وأن السنة تنسخ بالسنة ، والخبر المتواتر بغير المتواتر ؟

فذهب الشافعي : إلى أن الناسخ للقرآن لا بدّ أن يكون قرآناً مثله ، فلا يجوز نسخ القرآن بالسنة عنده .

وذهب الجمهور : إلى جواز نسخ القرآن بالقرآن ، وبالسنّة المطهرّة أيضاً ، لأن الكل حكم الله تعالى ومن عنده .

دليل الشافعي :

استدل الإمام الشافعي على منع نسخ القرآن بالسنة بقوله تعالى : ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا ﴾ ووجه الاستدلال عنده من وجوه :

الأول : أنه قال : ﴿ نَأْتِ ﴾ وأسند الإتيان إلى نفسه ، وهو لا يكون إلا إذا كان الناسخ قرآناً .

الثاني : أنه قال : ﴿ بِخَيْرٍ مِّنْهَا ﴾ ولا يكون الناسخ خيراً إلاّ إذا كان قرآناً لأن السنة لا تكون خيراً من القرآن .

الثالث : أنه قال في الآية : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ؟ فقد دلت على أن الآتي بذلك الخير ، هو المختص بالقدرة على جميع الخيرات ، وذلك هو الله ربّ العالمين .

الرابع : قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ ﴾ [النحل : 101] حيث أسند التبديل إلى نفسه ، وجعله في الآيات وهذا أقوى أدلته .

أدلة الجمهور :

احتج الجمهور على جواز نسخ الكتاب بالسنة بعدة أدلة نوجزها فيما يلي :

أ – نسخ آية الوصية وهي قوله تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الموت إِن تَرَكَ خَيْراً الوصية لِلْوَالِدَيْنِ والأقربين ﴾ [البقرة : 180] فقد نسخت هذه الآية بالحديث المستفيض وهو قوله صلى الله عليه وسلم " ألا لا وصية لوارث " ولا ناسخ إلا السنّة .

ب – نسخُ الجلد عن الثيب المحصن في قوله تعالى : ﴿ الزانية والزاني فاجلدوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ ﴾ [النور : 2] ولا مسقط لذلك إلا فعلُه صلى الله عليه وسلم حيث

أمر بالرجم فقط .

ج – وقالوا إنّ ما ورد في الكتاب أو السنة ، كلّه حكم الله تعالى ومن عنده وإن اختلفت الأسماء ، لأن الله تعالى يقول : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الهوى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يوحى ﴾ [النجم : 3-4] .

د – وأجابوا عمّا استدل به الشافعي رحمه الله بأنه استدلال غير واضح . لأن الخيريّة إنما تكون بين الأحكام ، فيكون الحكم الناسخ خيراً من الحكم المنسوخ ، بحسب ما علم الله من اشتماله على مصالح العباد بحسب أوقاتها وملابساتها ، ولا معنى لأن يكون لفظ الآية خيراً من لفظ آية أخرى ، وإذا كان الأمر كذلك ، فالمدارُ على أن يكون الحكم الناسخ خيراً من المنسوخ ، أيّاً كان الناسخ قرآناً ، أو سنة ، لأنّ الكل تشريع الحكيم العليم .

الترجيح : ومن هنا يترجح رأي الجمهور ، لأن الخيرية والأفضلية إنما هي بحسب اختلاف الأحكام شدة وتيسيراً وتمام الأبحاث مستوفى في علم الأصول .

الحكم الرابع : هل يجوز النسخ إلى ما هو أشقّ وأثقل ؟

قال الإمام الفخر : قال قوم لا يجوز نسخ الشيء إلى ما هو أثقلُ منه ، واحتجوا بأن قوله تعالى : ﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ﴾ ينافي كونه أثقل ، لأنّ الثقل لا يكون خيراً منه ، ولا مثله .

والجواب : لِمَ لا يجوز أن يكون المراد بالخير ما يكون أكثر ثواباً في الآخرة ؟

ثم إنَّ الذي يدل على وقوعه أن الله سبحانه نسخ في حق الزناة الحبس في البيوت ، إلى (الجلد والرجم) ونسخ صوم عاشوراء بصوم رمضان ، وكانت الصلاة ركعتين فنسخت بأربع في الحضر .

إذا عرفت هذا فنقول : أما نسخ الشيء إلى الأثقل فقد وقع في الأمثلة المذكورة ، وأما نسخه إلى الأخف فكنسخ العدة من حول إلى أربعة أشهر وعشر ، وكنسخ صلاة الليل إلى التخيير فيها ، وأما نسخ الشيء إلى المثل فكالتحويل من بيت المقدس إلى الكعبة .

الحكم الخامس : هل يقع النسخ في الأخبار ؟

جمهور العلماء على أن النسخ مختصّ بالأوامر والنواهي ، والخبرُ لا يدخله النسخ لاستحالة الكذب على الله تعالى .

وقيل : إن الخبر إذا تضمن حكماً شرعياً جاز نسخه كقوله تعالى : ﴿ وَمِن ثَمَرَاتِ النخيل والأعناب تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً ﴾ [النحل : 67] .

قال ابن جرير الطبري : " يعني جل ثناؤه بقوله : ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا ﴾ أي ما ننقل من حكم آية إلى غيره فنبدّله ونغيّره ، وذلك أن يُحوّل الحلال حراماً ، والحرام حلالاً ، والمباح محظوراً ، والمحظور مباحاً . ولا يكون ذلك إلاّ في الأمر والنهي ، والحضر والإطلاق ، والمنع والإباحة ، فأمّا الأخبار فلا يكون فيها ناسخ ولا منسوخ " .

وقال القرطبي : والنسخ كله إنما يكون في حياة النبي صلى الله عليه وسلم وأما بعد موته واستقرار الشريعة فأجمعت الأمة أنه لا نسخ ، ولهذا كان الإجماع لا ينسخ ولا يُنْسخ به إذ انعقاده بعد انقطاع الوحي ، فتأمل هذا فإنه نفيس .

ما ترشد إليه الآيات الكريمة

1 – نسخ الأحكام جائز بالإجماع كما دلّ على ذلك الكتاب والسنة .

2 – راعت الشريعة الغرّاء مصالح العباد ، ولذا وقع النسخ في بعض الأحكام .

3 – النسخ لا يكون في الأخبار والقصص ، إنما يكون في الأحكام التي فيها حلال وحرام .

4 – الأحكام مرجعها إلى الله تعالى ، الذي يشرع لعباده ما فيه خيرهم وسعادتهم .

---

5 – الله جل جلاله مالك الملك فيجب الاستسلام لحكمه وأمره مع الاطمئنان .

6 – ليس من شأن المسلم أن يسأل نبيّه سؤال تعنت كما فعل اليهود مع أنبيائهم .

7 – الانحراف عن طريق الاستقامة ، وسلوك سبيل الضالين سبب الشقاوة .

خاتمة البحث :

حكمة التشريع

جاءت الشريعة الإسلامية الغراء محققة لمصالح الناس ، متمشية مع تطور الزمن ، صالحة لكل زمان ومكان . . وكان من رحمة الله تبارك وتعالى بعباده أن سنّ لهم " سنة التدرج " في الأحكام ، لتبقى النفوس على أتم الاستعداد لتقبّل تلك التكاليف الشرعية ، فلا تشعر بملل أو ضجر ، ولا تحسّ بمشقة أو شدة . . ولتظلّ الشريعة الغراء – كما أرادها الله – شريعة سمحة ، سهلة لا عسر فيها ولا تعقيد ، ولا شطط فيها ولا إرهاق .

ومن المعلوم : أن الأحكام ما شرعت إلا لمصلحة الناس ، وهذه المصلحة تختلف باختلاف الزمان والمكان ، فإذا شُرع حكمٌ في وقت من الأوقات كانت الحاجة ملحّة إليه ، ثم زالت تلك الحاجة ، فمن الحكمة نسخه وتبديله بحكم يوافق الوقت الآخر ، فيكون هذا التبديل والتغيير أقرب للمصلحة ، وأنفع للعباد . . وما مثل ذلك إلا كمثل الطبيب الذي يغيّر الأغذية والأدوية للمريض ، باختلاف الأمزجة ، والقابلية ، والاستعداد .

والأنبياء صلوات الله عليهم هم (أطباء القلوب) ومصلحوا النفوس ، لذلك جاءت شرائعهم مختلفة ، تبعاً لاختلاف الأزمنة والأمكنة ، وجاءت بسنة " التدرج " في الأحكام ، لأنها بمثابة الأدوية والعقاقير للأبدان ، فما يكون منها في وقت مصلحة ، قد يكون في وقت آخر مفسدة ، وما يصلح لأمة لا يصلح لأخرى ، ذلك حكم العليم الحكيم .

جاء في تفسير " محاسن التأويل " ما نصه : " إن الخالق تبارك وتعالى ربّى الأمة العربية ، في ثلاث وعشرين سنة تربيةً تدريجية ، لا تتم لغيرها – بواسطة الفواعل الاجتماعية – إلاّ في قرون عديدة . . لذلك كانت عليها الأحكام على حسب قابليتها ، ومتى ارتقت قابليتها بدّل الله لها ذلك الحكم بغيره ، وهذه سنة الخالق في الأفراد ، والأمم ، على حد سواء .

فإنك لو نظرتَ : في الكائنات الحية ، لرأيت أن النسخ ناموسٌ طبيعي محسوس ، في الأمور المادية والأدبية معاً ، فإن انتقال الخلية الإنسانية إلى جنين ، ثم إلى طفل ، فيافع ، فشاب ، فكهل ، فشيخ ، وما يتبع كل دورٍ من هذه الأدوار يريك بأجلى دليل ، أن التبدل في الكائنات ناموس طبيعي محقق .

وإذا كان هذا النسخ : ليس بمستنكر في الكائنات ، فكيف يُستنكر نسخُ حكم وإبداله بحكم آخر في الأمة ، وهي في حالة نمو وتدرّج من أدنى إلى أرقى ؟

هل يرى إنسان له مُسْكةٌ من عقل ، أنّ من الحكمة تكليف العرب – وهم في مبدأ أمرهم – بما يلزم أن يتصفوا به وهم في نهاية الرقي الإنساني ، وغاية الكمال البشري ؟ !

وإذا كان هذا لا يقول به عاقل في الوجود ، فكيف يجوز على الله – وهو أحكم الحاكمين – بأن يكلّف الأمة وهي في دور (طفوليتها) بما لا تتحمله إلا في دور (شبوبيتها) وكهولتها . ؟

وأيّ الأمرين أفضل : أشرعُنا الذي سنّ الله لنا حدوده بنفسه ، ونسخ منه ما أراد بعلمه ، وأتمّه بحيث لا يستطيع الإنسُ والجن أن يُنقصوا حرفاً منه ، لانطباقه على كل زمان ومكان ، وعدم مجافاته لآية حالةٍ من حالات الإنسان ؟ أم شرائع دينية أخرى ، حرّفها كهّانها ، ونسخ الوجود أحكامها – بحيث يستحيل العمل بها – لمنافاتها لمقتضيات الحياة البشرية من كل وجه . . ؟ ! " . انتهى انتهى . اهـ ﴾ روائع البيان فى أحكام القرآن حـ 1 صـ 110.89 ﴿

(261/62)

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (104) مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (105) مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (106) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (107) أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا

رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (108) ﴾

التفسير : لما شرح الله تعالى قبائح أفعال السلف من اليهود ، شرع في قبائح أخلاق المعاصرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم وجدّهم واجتهادهم في القدح فيه والطعن في دينه ،

(262/62)

واعلم أن الله تعالى خاطب المؤمنين في ثمانية وثمانين موضعاً من القرآن . قال ابن عباس : وكان يخاطب في التوراة ب " يا أيها المساكين " فكأنه سبحانه لما خاطبهم أولاً بالمساكين أثبت لهم المسكنة آخراً حيث قال ﴿ وضربت عليهم الذلة والمسكنة ﴾ [البقرة : 61] وهذا يدل على أنه تعالى لما خاطب هذه الأمة بالإيمان أوّلاً فإنه تعالى يعطيهم الأمان من العذاب آخراً ﴿ وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً ﴾ [الأحزاب : 47] ، ولا سيما فإن المؤمن اسم من أسمائه العظام ، ففيه دليل على أنه تعالى يقرّبهم منه في دار السلام . وقيل : آمنوا على الغيبة نظراً إلى المظهر وهو " الذين " ولو قيل آمنتم نظراً إلى النداء جاز من حيث العربية ، ثم إنه لا يبعد في الكلمتين المترادفتين أن يمنع الله من إحداهما ويأذن في

الأخرى ومن هنا قال الشافعي : لا تصح الصلاة بترجمة الفاتحة عربية كانت أو فارسية . فلا يبعد أن يمنع الله من قول ﴿ راعنا ﴾ ويأذن في قول ﴿ انظرنا ﴾ وإن كانا مترادفين . ولكن جمهور المفسرين على أنه تعالى إنما منع من قول ﴿ راعنا ﴾ لاشتماله على مفسدة . ثم ذكروا وجوهاً منها : أن المسلمين كانوا يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ألقي عليهم شيئاً من العلم راعنا يا رسول الله ، واليهود كانت لهم كلمة عبرانية يتسابون بها تشبه هذه الكلمة وهي " راعينا " ومعناها " اسمع لا سمعت " كما صرح بذلك في سورة النساء ﴿ ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا ﴾

(263/62)

[النساء : 46] فإن الجميع كأنها متقاربة فلما سمعوا المسلمين يقولون " راعنا " افترصوه وخاطبوا به الرسول وهم يعنون المسبة ، فنهى المؤمنون عنها وأمروا بلفظة أخرى وهي ﴿ انظرنا ﴾ . روي أن سعد بن معاذ سمعها منهم فقال : يا أعداء الله عليكم لعنة الله ، والذي نفسي بيده إن سمعتها من رجل منكم يقولها لرسول الله صلى الله عليه وسلم لأضربن عنقه ، فقالوا : أولستم تقولونها ؟ فنزلت ، ومنها قال قطرب : هذه الكلمة وإن كانت صحيحة المعنى إلا أن أهل الحجاز كانوا يقولونها عند الهزء والسخرية فلا جرم نهى

الله عنها ، وقيل : إن اليهود كانوا يقولون " راعينا " أي أنت راعي غنمنا فنهاهم عنه .

وقيل : إن هذه اللفظة لكونها من باب المفاعلة ، تدل على المساواة بين المتخاطبين كأنهم قالوا : أرعنا سمعك لنرعيك أسماعنا فنهوا عنه ﴿ لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً ﴾ [النور : 63] وقيل : " راعنا " خطاب مع الاستعلاء أي راع كلامي ولا تغفل عنه ولا تشتغل بغيره ، وليس في ﴿ انظرنا ﴾ إلا سؤال الانتظار . وقيل : إنها تشبه اسم الفاعل من الرعونة والحمق ، فيحتمل أنهم أرادوا به المصدر كقولهم " عائذاً بك " أي أعوذ عياذاً . فقولهم ﴿ راعنا ﴾ أي فعلت رعونة ، ويحتمل أنهم أرادوا صرت راعنا أي ذا رعونة ، فلمكان هذه الوجوه الفاسدة نهى الله عنها ، وقيل : المراد لا تقولوا قولاً راعناً أي منسوباً إلى الرعن كدارع ولابن ، ومنه قراءة الحسن ﴿ راعناً ﴾ بالتنوين . وانظرنا من نظره إذا انتظره ﴿ انظرونا نقتبس من نوركم ﴾ [الحديد : 13] أمرهم الله تعالى أن يسألوه صلى الله عليه وسلم الإمهال لينقلوا عنه فلا يحتاجون إلى الاستعادة كأنهم قالوا له : توقف في كلامك وبيانك مقدار ما يصل إلى أفهامنا . وهذا القدر غير خارج عن قانون الأدب فقد يلتمسه المتعلم حرصاً منه على أن لا يفوت منه شيء من الفوائد وإن كان المعلم غير مهمل دقائق التفهيم والإرشاد من

التثبت والتأني والإعادة إن احتيج إليها ونحو ذلك . وقيل : انظرنا معناه انظر إلينا مثل ﴿ واختار موسى قومه ﴾ [الأعراف : 155] أي من قومه . والغرض أن المعلم إذا نظر إلى المتعلم كانت إفاضته عليه أظهر وأقوى . وفي قراءة أبيّ ﴿ انظرنا ﴾ من النظرة أي أمهلنا حتى نحفظه . ﴿ واسمعوا ﴾ معناه أحسنوا سماع كلام نبيكم بآذان واعية وأذهان حاضرة حتى لا تحتاجوا إلى الاستعادة وطلب المراعاة ، أو اسمعوا سماع قبول وطاعة لا كاليهود حيث قالوا سمعنا وعصينا ، أو اسمعوا ما أمرتم به ولا ترجعوا إلى ما نهيتم عنه من قول راعنا ، وللكافرين ولليهود الذين تهاونوا برسول الله صلى الله عليه وسلم وسبوه عذاب أليم قوله ﴿ ما يود ﴾ الآية . " من " الأولى للبيان ، لأن ﴿ الذين كفروا ﴾ جنس تحته نوعان : أهل الكتاب والمشركون . كقوله ﴿ لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين ﴾

[البينة : 1] " ولا " مزيدة لتأكيد النفي وقرئ ﴿ ولا المشركون ﴾ والثانية مزيدة لاستغراق الخير ف ﴿ أن ينزل ﴾ في سياق النفي : فمعنى ما يود أن ينزل يود أن لا ينزل . والثالثة لابتداء الغاية ، والخير الوحي وكذلك الرحمة ﴿ أهم يقسمون رحمة ربك ﴾ [الزخرفة : 32] والمعنى أنهم يرون أنفسهم أحق بأن يوحى إليهم فيحسدونكم وما يحبون أن ينزل عليكم شيء من الوحي ، ولا أثر لهذا الحسد فإن الله يختص بالنبوة من يشاء ولا

يكون إلا ما يشاء ، وما يشاء إلا ما تقتضيه الحكمة . ﴿ والله ذو الفضل العظيم ﴾ والفضل والفضيلة خلاف النقص والنقيصة ، والإفضال والإحسان ، وفيه إشعار بأن إيتاء النبوة من غاية الإحسان وأنها رشحة من بحار كماله ﴿ إن فضله كان عليك كبيراً ﴾ [الإسراء : 87] .

(265/62)

قوله عز من قائل ﴿ وما ننسخ من آية ﴾ نوع ثان من تقرير مطاعن اليهود خذلهم الله في الإسلام . روي أنهم قالوا : ألا ترون إلى محمد صلى الله عليه وسلم يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه ويأمرهم بخلافه ، ويقول اليوم قولاً ويرجع عنه غداً فنزلت . وفي الآية مسائل :

(266/62)

الأولى : النسخ لغة هو الإزالة ، يقال : نسخت الشمس الظل أي أزالته . والنقل أيضاً وهو أن يغير الشيء في صفته وحاله مع بقائه في نفسه ، ومنه نسخت الكتاب ، والمناسخات في المواريث لانتقال التركة من قوم إلى قوم . فقيل مشترك بينهما ، وقيل حقيقة في الأول مجاز في

الثاني ، وقيل بالعكس . وفي الاصطلاح : هو رفع الحكم الشرعي بدليل شرعي متأخر ، فيخرج المباح بحكم الأصل إذا ورد الشرع بضده رافعاً لإباحته فإنه لا يسمى نسخاً إذ ليس رفع حكم شرعي ويخرج أيضاً الرفع بالنور والغفلة لأن ذلك الرفع ليس بمجرد الدليل الشرعي وهو " رفع عن أمتي الخطأ والنسيان " ونحوه ، بل يقتضيه العقل أيضاً بخلاف الرفع بنحو " دعي الصلاة أيام أقرائك " فإنه لا مجال للعقل فيه . ويخرج الرفع بنحو " صم إلى آخر الشهر " فإن " إلى " أوجبت مخالفة حكم ما بعدها لما قبلها إلا أنها لا تسمى نسخاً لأنه ليس متأخراً ، ويمكن أن يقال : إن قيد متأخر إنما ينبغي أن يذكر لأن دليل النسخ لا يكون إلا كذلك . ونحو " صم إلى كذا " وأمثاله من أنواع التخصيص متصلاً كان أو منفصلاً ، إنما خرج بقيد الرفع لأن رفع الحكم إنما يكون بعد إرادة حصوله على المكلف ، والتخصيص ليس كذلك لأن صورة التخصيص غير مرادة من اللفظ بل التخصيص مبين لمراد الشارع من العام . ونعني بالحكم ههنا ما يحصل على المكلف بعد أن لم يكن ، فإن الوجوب المشروط بالعقل الذي هو مناط التكليف لم يكن حاصلاً عند انتفاء العقل والموقوف على الحادث حادث . وإذا كان المراد بالحكم هذا فلا يرد قول المعتزلة الحكم عندكم قديم فكيف يرتفع ؟ وذلك أنا عنينا بالحكم تعلق الخطاب بعد ما لم يتعلق وهذا محدث يرتفع .

وأيضاً نقطع بأنه إذا ثبت تحريم شيء بعد وجوبه انتفى الوجوب الثابت أولاً وهو المعنى بالرفع ، ويحسن أيضاً أن يقال : النسخ بيان انتهاء حكم شرعي بطريق شرعي متراخ ، فيخرج بقولنا " شرعي " بيان انتهاء حكم عقلي كالبراءة الأصلية ، و " بطريق شرعي " يخرج به بيان انتهاء الحكم الشرعي بطريق عقلي كانتساخ القيام عمن ينكسر رجله . وقولنا " متراخ " ليخرج التخصيص بالغاية . ومن هذا يعلم تعريف الناسخ والمنسوخ ، ومعنى بيان انتهاء الحكم أن الخطاب السابق له غاية في علم الله تعالى ، فإذا انتهى إلى تلك الغاية زال بذاته ، ثم ورد الخطاب اللاحق بياناً لذلك .

(268/62)

المسألة الثانية : انعقد الإجماع من أكثر أرباب الشرائع ومن المسلمين خاصة على جواز النسخ عقلاً وعلى الوقوع شرعاً ، وخالف اليهود في الجواز ، وأبو مسلم الأصفهاني من المسلمين في الوقوع لا الجواز . لنا القطع بالجواز ضرورة فإن له تعالى أن يفعل ما يشاء كما يشاء من غير النظر إلى حكمة ومصلحة ، وإن اعتبرت المصالح فالقطع أن المصلحة قد تختلف باختلاف الأوقات فهذا ما يدل على جواز النسخ . وفي التوراة أنه أمر آدم بتزويج

بناته من بنيه وقد حرم ذلك في شريعة من بعده باتفاق ، وهذا ما يدل على وقوعه ، وكيف لا وقد ثبت بالدلائل القاطعة والمعجزات الباهرة نبوته محمد صلى الله عليه وسلم ، وبصحة نبوته يلزم نسخ شرع من قبله . ولم يكن لليهود والنصارى نص صريح يعلم منه أمد شرعهم على التعيين حتى يلزم أن يكون شرع نبينا انتهاء غاية لا نسخاً . حجة اليهود لو نسخت شريعة موسى لبطل قول موسى المتواتر " هذه شريعة مؤبدة عليكم بها ما دامت السموات والأرض " وأيضاً إن كان نسخ الحكم الشرعي لحكمة ظهرت له تعالى لم تكن ظاهرة فهو البداء وإلا فعبث وكلاهما محال على الله تعالى ، إذ البداء عبارة عن الظهور بعد الخفاء والعبث فعل لا يستتبع غاية . والجواب عن الأول المنع من أنه قول موسى عليه السلام ، ويؤكده أنه لو كان هذا القول صحيحاً عندهم لقضت العادة بقوله لرسولنا صلى الله عليه وسلم ولحاجوه بذلك ، لكن اليهود لم يتمسكوا به في عهده فدل ذلك على أنه إفك افتراه المتأخرون منهم . وعن الثاني بعد تسليم اعتبار المصالح أنها تختلف باختلاف الأزمان والأحوال كمنفعة شرب دواء في حال وضرره في آخر ، بل الزمان الممتد من الأزل إلى الأبد قد وزع أجزاؤه فيما لم يزل على الجزئيات الواقعة فيها الصادرة شيئاً فشيئاً بحسب وقت وقت لا لمصلحة تعود إليه تعالى بل لما هو أصلح بالنسبة إلى المتزمنات . فالظهور والخفاء والسابق واللاحق ، والإعدام والإيجاد ، كلها بالنسبة

إلينا ، وأما بالنسبة إلى حضرة الواجب جل ذكره فقد جف القلبم بما هو كائن إلى يوم الدين .

والحاصل أن كل حكم فله غاية في علم الله تعالى ، ولكن قد يظن المكلف استمراره في الاستقبال من قرائن الأحوال ، فإذا ورد ما يبين أمده ونص له على زواله فذلك الوارد ناسخ والأول منسوخ والورود نسخ ، وكل هذه التجددات بالنسبة إلى المكلف ، وأما بالإضافة إليه تعالى فكل من الحكمين موجود في وقته الذي قدر له فيه الظهور متقدماً أحدهما ومتأخراً الآخر . وليس هذا في الأحكام فقط وإنما ذلك في كل حادث ، فمن تأمل نسخة الوجود ونسب الحوادث المتفاوتة بعضها إلى بعض بالتقدم والتأخر والمعية ، وجد وجوداتها المترتبة أشبه شيء بكتاب يقرؤه القارئ سطراً بعد سطر ، وكلمة تلو كلمة ، إذا انقضى مجموع من ذلك تلاه مجموع آخر حسب ما رتبه الحكيم العليم بمبادئه ومقاطعه ، فالمنقضي في حكم المحو ، والتالي في حكم الإثبات ، والهيئة الاجتماعية بدون اعتبار التلاوة المستلزمة لانقضاء شيء وظهور ما يعقبه هي أم الكتاب ، وهذا سر قوله عز من قائل ﴿ يمحوا الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب ﴾ [الرعد : 39] ولك أن تعبر عن المجموع الدفعي بالقضاء وعن ظهوره التدريجي بالقدر وفي هذا القدر كفاية للفطن المستبصر .

المسألة الثالثة : اتفقوا على وقوع النسخ في القرآن بوجوه : أحدها : هذه الآية أعني ما ننسخ من آية . وأجاب أبو مسلم بأن المراد بالآيات المنسوخة الشرائع التي في الكتب القديمة من التوراة والإنجيل كالسبت والصلاة إلى المشرق والمغرب مما وضعه الله عنا وتعبدنا بغيره ، فإن اليهود والنصارى كانوا يقولون لا نؤمنوا إلا لمن تبع دينكم ، فأبطل الله ذلك عليهم بهذه الآية . وأيضاً لعل المراد من النسخ نقله من اللوح المحفوظ وتحويله عنه إلى سائر الكتب . وأيضاً إن ما ههنا يفيد الشرط والجزاء ، وكما أن قولك " من جاءك فأكرمه " لا يدل على حصول المجيء بل على أنه متى جاء وجب الإكرام ، فكذا هذه الآية لا تدل على حصول النسخ بل على أنه متى حصل النسخ وجب أن يأتي بما هو خير منه وثانيها : الاعتداد بالحول في قوله ﴿ والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً وصية لأزواجهم متاعاً إلى الحول ﴾ [البقرة : 240] نسخ بأربعة أشهر وعشر في قوله ﴿ والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً ﴾ [البقرة : 234] أجاب أبو مسلم بأن الاعتداد بالحول ما زال بالكلية لأنها لو كانت حاملاً ومدة حملها حول كامل لكانت عدتها حولاً كاملاً ، وإذا بقي هذا الحكم في بعض الصور كان ذلك تخصيصاً لا

نسخاً . ورد بأن عدة الحمل تنقضي بوضع الحمل سواء حصل وضع الحمل بسنة أو أقل أو أكثر ، فجعل السنة مدة للعدة يكون زائلاً بالكلية . وثالثها : ﴿ إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة ﴾

(271/62)

[المجادلة : 12] منسوخة بالاتفاق ، أجاب بأنه زال لزوال سببه ، لأن سبب التعبد بها أن يمتاز المنافقون عن المؤمنين . ورد بأنه يلزم منه أن من لم يتصدق كان منافقاً وهو باطل ، لما روي أنه لم يتصدق غير علي عليه السلام ، وبدليل ﴿ فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم ﴾ [المجادلة : 13] ورابعها : الأمر بثبات الواحد للعشرة في قوله ﴿ فإن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ﴾ [الأنفال : 65] ثم نسخ ذلك بقوله ﴿ الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين ﴾ [الأنفال : 66]

وخامسها : تحويل القبلة . قال أبو مسلم : حكم تلك القبلة ما زال بالكلية لجواز التوجه إليه عند الإشكال ، أو مع العلم إذا كان هناك عذر . ورد بأن بيت المقدس وسائر الجهات في ذلك سواء . وسادسها : ﴿ وإذا بدلنا آية مكان آية ﴾ [النحل : 101] والتبديل يشتمل على رفع وإثبات ، والمرفوع إما التلاوة وإما الحكم . وكيفما كان فهو رفع ونسخ ،

فهذه الدلائل وأمثالها تدل على وقوع النسخ في الجملة . حجة أبي مسلم ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴾ [فصلت : 42] والجواب أن الضمير للمجموع ، وأيضاً نسخة بالنسبة إلى المكلف لا ينافي حقيته في نفسه وكونه قرآناً عربياً .

المسألة الرابعة : المنسوخ إما أن يكون هو الحكم فقط كالآيات المعدودة ، أو التلاوة فقط كما يروى عن عمر أنه قال : كنا نقرأ آية الرجم " الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما ألبتة نكالاً من الله والله عزيز حكيم " وروي " لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى إليهما ثالثاً ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب " ، أو الحكم والتلاوة معاً كما روي عن عائشة " كان فيما أنزل عشر رضعات محرمات ثم نسخن بخمس " فالعشر مرفوع التلاوة والحكم جميعاً ، والخمس مرفوع التلاوة باقي الحكم . ويروى أن سورة الأحزاب كانت بمنزلة السبع الطوال أو أزيد ثم وقع النقصان .

ولنرجع إلى تفسير الآية ﴿ ما ننسخ ﴾ محمول على نسخ الحكم وإزالته دون التلاوة ، أو نسها على نسخ الحكم والتلاوة جميعاً . وإنساؤها أن يذهب بحفظها عن القلوب وذلك بأن تخرج من جملة ما يتلى ويقرأ في الصلاة ، أو يحتج به ، فإذا زال حكم التعبد به وطال

العهد نسي ، وإن ذكر فعلى طريق ما يذكر خبر الواحد ، فتصير بهذا الوجه منسية من الصدور أو يكون ذلك معجزة له صلى الله عليه وسلم كما يروى أنهم كانوا يقرأون السورة فيصبحون وقد نسوها . قال عز من قائل ﴿ سنقرئك فلا تنسى . إلا ما شاء الله ﴾ [الأعلى : 6 ، 7] وإنساخ الآية الأمر بنسخها وهو أن يأمر جبريل بأن يجعلها منسوخة بالإعلام بنسخها ، ونسؤها تأخيرها وإذهابها لا إلى بدل . وقيل : ما ننسخ من آية أي نبدلها إما بأن نبدل حكمها فقط ، أو تلاوتها فقط ، أو نبدلهما ، أو ننسها نتركها كما كانت ولا نبدلها ، لأن النسيان قد يجيء بمعنى الترك .

(273/62)

وقيل : ما ننسخ من آية ما نرفعها بعد إنزالها أو ننسأها بالهمزة نؤخر إنزالها من اللوح المحفوظ ، أو نؤخر نسخها فلا ننسخها في الحال فإنا ننزل بدلها ما يقوم مقامها في المصلحة . ولا يخفى أن قوله ﴿ نأت بخير منها أو مثلها ﴾ لا ينطبق على هذين القولين كما ينبغي . ومعنى الآية عند جمهور المفسرين آية القرآن ، وعند أبي مسلم التوراة والإنجيل كما مر . وقد عرفت أنه يمكن حملها على معنى أعم ، فكل مجموع من الوجود في كل زمان من الأزمنة آية من صحيفة المخلوقات ، وكل فرد من ذلك المجموع كلمة من كلمة الله ﴿ قل لو كان

البحر مداداً لكلمات ربي ﴾ [الكهف : 109] ومعنى ﴿ نأت بخير منها أو مثلها ﴾ إن حملنا الآية على ما يتضمن حكماً على المكلف أن الثاني أخف أو أصلح بالنسبة إلى وقته كما أن الأول كان أصلح بالإضافة إلى وقته . فالثاني خير بالنسبة إلى وقته ، ومثل الأول بالنسبة إلى وقته ، أو يراد أن العمل بالثاني أكثر ثواباً من العمل بالأول أو مساوٍ له ، فكل منهما قد تقتضيه الحكمة دون ما هو أقل ثواباً ، وإن حملنا الآية على غير ذلك فيتعين الأصلح . قال أهل الإشارة أراد بالنسخ نقل السالك وترقيه من حال إلى حال أعلى منه ، وإن غصن استكمالهم أبداً ناضر ، ونجم وصالهم دائماً زاهر ، فلا ينسخ من آثار عباداتهم شيء إلا أبدل منها أشياء من أنوار العبودية ، ولا ينسخ شيء من أنوار العبودية إلا أقيم مكانها أشياء من أقمار الربوبية . وأيضاً إنهم يشاهدون بعض الوقائع الشريفة في الصور اللطيفة كسبتها المتخيلة بحسب صفاء الوقت وعلو المقام ، فلما ارتقوا إلى مقام آخر لا يشاهدون ذلك بتلك المشاهدة ، فيظن السالك الغر أنه حجب عن ذلك المقام أو الحال ، فقيل : ما ننسخ من آية من آيات المقامات ، أو ننسها بأن نمحوها من إدراك الخيال ، نأت بخير من تلك المشاهدة أو مثلها .

ثم الأئمة استنبطوا من الآية مسائل : الأولى : زعم قوم أنه لا يجوز نسخ الحكم لا إلى بدل لقوله ﴿ نأت بخير منها أو مثلها ﴾ والجمهور على خلافه لأن الآية لا تدل إلا على وجوب الإتيان بآية أخرى ، أما على وجوب الإتيان بحكم آخر فلا . سلمنا لكنه مخصوص بنسخ تقديم الصدقة بين يدي النجوى ، وبنسخ وجوب الإمساك بعد الفطر من غير بدل . سلمنا عدم تخصيصه لكن لم لا يجوز أن يكون ذلك البدل عدم الحكم الذي رفع بالنسخ ويكون نسخه بغير بدل وجودي خيراً للمكلف لمصلحة علمت . الثانية : زعم قوم أن النسخ لا يجوز بأثقل ، لأن الأثقل لا يكون خيراً منه ولا مثله .

(275/62)

وردّ الجمهور عليهم بأن المراد كثرة الثواب وذلك لا ينافي كونه أثقل " أجرك على قدر نصبك " وأيضاً قد وقع كنسخ التخيير بين الصوم والفدية بالصوم حتماً ، وصوم عاشوراء برمضان ، والحبس في البيوت للزاني بالحد . وأما النسخ إلى الأخف فكنسخ العدة من الحول إلى أربعة أشهر وعشر ، وكنسخ صلاة الليل إلى التخيير فيها . وأما نسخ الشيء إلى المثل فكالتحويل من بيت المقدس إلى الكعبة . الثالثة : عن الشافعي أن الكتاب لا ينسخ بالسنة المتواترة لقوله ﴿ نأت بخير منها ﴾ وذلك يدل على أن المأتي به من جنسه كما إذا قال

الإنسان " ما آخذ منك من ثوب آتك بخير منه " يفيد أنه يأتيه بثوب من جنسه خير منه ، وجنس القرآن قرآن . وأيضاً ﴿ نأت ﴾ يدل على أن الآتي هو الله لا الرسول . وأيضاً المأتي به خير والسنة لا تكون خيراً من القرآن . وأيضاً قوله ﴿ ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير ﴾ دل على أن الآتي بذلك الخير هو القادر على جميع الخيرات وعلى تصريف المكلف تحت مشيئته وإرادته ، لا دافع لما أراد ولا مانع لما شاء وذلك هو الله تعالى .

وأجيب بأن قوله ﴿ نأت بخير منها ﴾ ليس فيه أن ذلك الخير يجب أن يكون ناسخاً ، بل لا يمتنع أن يكون ذلك الخير شيئاً مغايراً للناسخ يحصل بعد حصول النسخ وذلك أن الإتيان بذلك الخير مرتب على نسخ الآية الأولى ، فلو كان نسخ تلك الآية مرتباً على الإتيان بذلك الخير لزم الدور . قلت : ويمكن دفع الدور بأن يقال : المراد ما أردنا نسخها من آية نأت بخير منها حتى ننسخها . ثم احتج الجمهور على وقوع نسخ الكتاب بالسنة بأن آية الوصية للأقربين منسوخة بقوله " ألا لا وصية لوارث " وبأن آية الجلد صارت منسوخة بخبر الرجم . أجاب الشافعي : بأن كون الميراث حقاً للوارث يمنع من صرفه إلى الوصية ، فثبت أن آية الميراث مانعة من الوصية ، ولعل الرجم إنما ثبت بقوله تعالى " الشيخ والشيخة " الخ .

﴿ له ملك السموات والأرض ﴾ فهو يدبر الأمور ويجريها على حسب المصالح ، وهو أعلم بما يتعبد المكلفين به من ناسخ ومنسوخ . والخطاب في ﴿ ألم تعلم ﴾ إما للنبي صلى الله عليه وسلم فتدخل الأمة تبعاً ، أو لكل من له أهلية الخطاب . ومعنى الاستفهام فيه التقرير والإثبات لظهور آثار قدرته ووضوح آيات ملكه وسلطانه . وقيل : إشارة إلى ما شاهد ليلة المعجزات بعين اليقين ثم علمها حق اليقين ، فترقى من رؤية الآيات إلى كشف الصفات ، ومن كشف الصفات إلى عيان الذات ، ثم نسخت عن الخيال وأثبتت في العيان . والولي ضد العدو ، وكل من ولي أمر واحد فهو وليه ، فعيل بمعنى فاعل وكذا النصير . والواو في ﴿ وما لكم ﴾ يحتمل أن تكون للاعتراض فلا محل للجملة ، ويحتمل أن تكون للعطف على ﴿ له ملك السموات ﴾ فيدخل تحت الاستفهام ، ويكون قوله ﴿ من دون الله ﴾ من وضع الظاهر موضع الضمير ولا يوقف على ﴿ والأرض ﴾ .

(277/62)

﴿ أم تريدون ﴾ قيل : الخطاب للمسلمين لقوله ﴿ ومن يتبدل الكفر بالإيمان ﴾ وهذا لا يصح إلا في حق المؤمنين ، ولأن " أم " للعطف ولا معطوف ظاهراً . فالتقدير : وقولوا انظرنا واسمعوا ، فهل تفعلون هذا كما أمرتم ﴿ أم تريدون أن تسألوا رسولكم ﴾ ولأنه سأل قوم

من المسلمين أن يجعل صلى الله عليه وسلم لهم ذات أنواط كما كان للمشركين ذات أنواط وهي شجرة كانوا يعبدونها ويعلقون عليها المأكول والمشروب كما سألوا موسى أن يجعل لهم إلهاً كما لهم آلهة وهذا قول الأصم والجبائي وأبي مسلم . وقيل : إنه خطاب لأهل مكة وهو قول ابن عباس ومجاهد إن عبد الله بن أمية المخزومي أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم في رهط من قريش فقال : يا محمد ، ما أؤمن بك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً ، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب ، أو يكون لك بيت من زخرف ، أو ترقى في السماء ، ولن نؤمن لرقيك بعد ذلك حتى تنزل علينا كتاباً من الله إلى عبد الله بن أمية أن محمداً رسول الله فاتبعوه . فقال له بقية الرهط : فإن لم تستطع ذلك فأتنا بكتاب من عند الله جملة واحدة فيه الحلال والحرام والحدود والفرائض كما جاء موسى إلى قومه بالألواح من عند الله كما سأله السبعون ، وعن مجاهد : أن قريشاً سألت محمداً صلى الله عليه وسلم أن يجعل الله لهم الصفا ذهباً . فقال : نعم هو لكم كالمائدة لبني إسرائيل فأبوا ورجعوا . وقيل : المراد اليهود لأن هذه السورة من أول قوله ﴿ يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي ﴾ حكاية عنهم ومحاجة معهم ، ولأن الآية مدنية ، ولأنه جرى ذكر اليهود وما جرى ذكر غيرهم ، ولأن المؤمن بالرسول لا يكاد يسأل ما يتبدل كفراً بإيمان ، وليس في ظاهر الآية أنهم أتوا بالسؤال فضلاً عن كيفية السؤال ، بل المرجع فيه إلى الروايات المذكورة . وههنا بحث وهو

أن السؤال الذي ذكروه إن كان طلباً للمعجزات فمن أين أنه كفر ؟ ومعلوم أن طلب الدليل على الشيء لا يكون كفراً وإن كان ذلك طلباً

(278/62)

لوجه الحكمة التفصيلية في نسخ الأحكام ، فهذا أيضاً لا يكون كفراً فإن الملائكة طلبوا الحكمة التفصيلية في خلق البشر ولم يكن ذلك كفراً . فالتفكير إما لأنهم طلبوا منه صلى الله عليه وسلم أن يجعل لهم إلهاً كما لهم آلهة ، وإما لأنهم طلبوا المعجزات على وجه التعنت واللجاج . قلت : والأصوب في الآية أن يكون ﴿ أم تريدون ﴾ معطوفاً على ﴿ ألم تعلم ﴾ على أنه خطاب لكل مكلف ، فيكون في معنى الجمع .

ثم " أم " إما أن تكون متصلة على معنى أي الأمرين كائن فإن العلم واقع بكون أحدهما لأنه إما أن لا يعلم نفوذ علمه وقدرته وأن الكل تحت قدرته وقهره وتسخيره ، وإما أن يعلم فيسأل وجه الحكمة في النسخ وغيره على سبيل العناد وكلا الأمرين يوجب التكفير . أما الأول فظاهر ، وأما الثاني فلأن المعترف بحكمته البالغة وعنايته الشاملة ورأفته الكاملة وقدرته الظاهرة من حقه أن يقتصر على علمه الإجمالي ولا يتخطى مقام الأدب في البحث والتفتيش عن تفاصيل حكمته التي لا تكاد تنحصر . ويوهم أن السائل في شك مما أمر به

أو نهي عنه ، وعلى هذا لا يوقف على نصير . وإما منقطعة على أنه أضرب عن الاستفهام الأول واستأنف استفهاماً ثانياً ، ويحتمل أن لا يكون قوله ﴿ ومن يتبدل الكفر بالإيمان ﴾ حكماً بتكفيرهم بسبب السؤال بل يكون تنبيهاً للمكلفين ، على أن السؤال عما لا يهم لهم مما قد ينجر إلى الغواية لكثرة عروض الشكوك والشبهات حتى يقفوا على الاعتقاد الحق والتقليد الصرف فيما لا سبيل إلى درك تفاصيله أو لا يهم معرفتها . وسواء السبيل وسطه وهو الصراط المستقيم الذي مر تفسيره . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 1 صـ 353.362 ﴾

(279/62)

بسم الله الرحمن الرحيم

الكتاب / الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

ويسمى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العَاجِزُ الْفَقِيرُ

عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مُحَمَّدٍ الْقَمَّاش

إِمَامُ وَخَطِيبُ مَسْجِدِ بُورُسْلِى - رَأْسُ الْخَيمَةِ

دَولَةُ الإِمَارَاتِ الْعَرَبِيَّةِ الْمُتَّحِدَةِ

(عَفَا اللهُ عَنْهُ وَغَفَرَ لَهُ)

الجزء الثالث والستون

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الثالث والستون

من الآية ﴿ 109 ﴾ سورة البقرة

وحتى الآية ﴿ 114 ﴾ من نفس السورة

قوله تعالى ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ

شَيْءٍ قَدِيرٌ (109) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان أكثر المثيرين لهذه الشكوك في صور أهل الإسلام قال تعالى مخاطباً للمؤمنين وهم في غمارهم تنفيراً لهم عن الضلال الذي هو في نفسه أهل لأن ينفر عنه فكيف وهو شماتة العدو وبتخييله ووداده تحذيراً لهم من مخالطتهم : ﴿ ود كثير ﴾ وهو تعليل لمعنى الكلام وهو : فلا تتبدلوا الكفر بالإيمان ، بعد تعليله بالضلال ؛ وذلك كما مضى في ﴿ ما يود الذين كفروا ﴾ [البقرة : 105] سواء .

ولما كان المشركون عرباً عالمين بأن طبع العرب الثبات لم يدخلهم معهم في هذا الود وقال : ﴿ من أهل الكتاب ﴾ فأنبأ أن المصافي منهم قليل وبشر سبحانه بأن ما يودونه من قسم المحال بسوقه سوق المتمني فقال : ﴿ لو يردونكم ﴾ أي بأجمعكم ؛ ثم حقق أمر التمني في كونه محالاً مشيراً بإثبات الجار إلى قناعتهم به ولو في زمن يسير فقال : ﴿ من بعد إيمانكم ﴾ أي الراسخ ﴿ كفاراً ﴾ أي لتكونوا مثلهم فتخلدوا معهم في النار ﴿ حسداً ﴾ على ما آتاكم الله من الخير الهادي إلى الجنة ، والحسد قلق النفس من رؤية النعمة على الغير ، وعبر عن بلوغ الحسد إلى غاية لا حيلة معها في تركه بقوله : ﴿ من عند أنفسهم ﴾ أي إنه راسخ في طبائعهم فلا تطمعوا في صرفه بشيء ، فإن أنفسهم غالبة على عقولهم ، ثم زاده تأكيداً

بقوله مشيراً بإثبات الجار إلى ذمهم بأنهم استمروا على الضلال بعد الدعوة، لا يطلبون الحق مع القدرة على تعرفه، حتى هجم عليهم بيانه وقهرهم عرفانه، ثم لم يرجعوا إليه؛ وما كفاهم ضلالهم في أنفسهم حتى تمنوا إضلال غيرهم بالرجوع عنه ﴿من بعد ما تبين﴾ أي بياناً عظيماً بوضوحه في نفسه ﴿لهم الحق﴾ أي من صحة رسالة محمد صلى الله عليه وسلم وأنه خاتم النبيين المرسل إلى الناس كافة بشهادة ما طابقه من التوراة، ومن أنهم خالدون في النار، لأنهم ممن أحاطت به خطيئته بما دل عليه سبحانه في جميع هذه الآيات إبطالاً لدعواهم في مس النار لهم أياماً معدودة.

(5/63)

ثم أرشد إلى الدواء بقوله مسبباً عن الإخبار بأن ودهم محال وبعدم رجوعهم:

﴿فاعفوا﴾ أي عاملوهم معاملة العافي بأن لا تذكروا لهم شيئاً مما تظهره تلك الودادة الناشئة عن هذا الحسد من الأقوال والأفعال ولا تأخذوا في مؤاخذتهم به، فإنهم لا يضرونكم ولا يرجعون إليكم، ﴿واصفحوا﴾ أي أظهروا لهم أنكم لم تطلعوا على شيء من ذلك، وأصل معناه من الإعراض بصفحة العنق عن الشيء كأنه لم يره، وأمرهم بمطلق الصفح ولم يقيده بالجميل الذي اختص به خطاب نبيهم صلى الله عليه وسلم في قوله:

﴿ فاصفح الصفح الجميل ﴾ [الحجر : 85] لتنزل الخطاب على مراتبه ومستحق مواقعه .

وحثهم على أن يكون فعلهم ذلك اعتماداً على تفريجه سبحانه بقوله : ﴿ حتى يأتي الله ﴾ الذي لا أمر لأحد معه ﴿ بأمره ﴾ فبشرهم بذلك بظهورهم على من أمروا بالصفح والعفو عنهم ، وقد كان مبدأ ذلك ويتم في زمن عيسى عليه السلام .

ولما كان النصر وهم في القلة والضعف بحال عظيم وقوة عدوهم وكثرتهم أعظم مستبعداً قال : ﴿ إن الله ﴾ وأظهر موضع الإضمار تحقيقاً للبشرى بالإيماء إلى استحضار ما يدل عليه هذا الاسم الأعظم من صفات الجلال والإكرام ﴿ على كل شيء قدير ﴾ ففي هذا الختم بشرى للمؤمنين بتقديرهم كما أن في الختم بالعلم بشرى بتعليمهم .

وفي إفهامه نذارة للكافرين بمقابل ذلك . انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 219 . 220 ﴾

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : قد سلفت .

الوقوف : ﴿ كفاراً ﴾ (ج) لأن ﴿ حسداً ﴾ مصدر محذوف أي يحسدون حسداً ، أو حال أو مفعول له وهو أوجه والوصل أجوز ﴿ الحق ﴾ (ج) لعطف الجملتين المختلفتين ﴿ بأمره ﴾ (ط) ﴿ قدير ﴾ (5) ﴿ الزكاة ﴾ (ط) لأن ما للشرط والشرط مصدر ﴿ عند الله ﴾ (ط) ﴿ بصير ﴾ (5) ﴿ أو نصارى ﴾ (ط) ﴿ أمانيهم ﴾ (ط) ﴿ صادقين ﴾ (5) ﴿ عند ربه ﴾ (ص) لعطف الجملتين المتفقتين ﴿ يحزنون ﴾ (5) ﴿ النصارى على شيء ﴾ (ص) لا لعطف الجملتين المتفقتين ﴿ على شيء ﴾ (ص) لأن الواو للحال ﴿ الكتاب ﴾ (ط) ﴿ مثل قولهم ﴾ (ج) لأن ﴿ فالله ﴾ مبتدأ مع فاء التعقيب ﴿ يختلفون ﴾ (5) . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 1 صـ 362. 363 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أن هذا هو النوع الثالث من كيد اليهود مع المسلمين ، وذلك لأنه روي أن فنحاص بن

عازوراء ، وزيد بن قيس ونفراً من اليهود قالوا لحذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر بعد وقعة أحد : ألم تروا ما أصابكم ، ولو كنتم على الحق ما هزمتم ، فارجعوا إلى ديننا فهو خير لكم وأفضل ونحن أهدى منكم سبيلاً ، فقال عمار : كيف نقض العهد فيكم ؟ قالوا : شديد ، قال : فإني قد عاهدت أني لا أكفر بمحمد ما عشت ، فقالت اليهود : أما هذا فقد صبأ ، وقال حذيفة : وأما أنا فقد رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبالقرآن إماماً وبالكعبة قبلة وبالمؤمنين إخواناً ، ثم أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبراه فقال : أصبتما خيراً وأفلحتما ، فنزلت هذه الآية . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 213 .

﴿214

فصل في ذم الحسد

قال الفخر :

المسألة الأولى :

في ذم الحسد ويدل عليه أخبار كثيرة ، الأول : قوله عليه السلام : " الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب " .

الثاني : قال أنس : "كنا يوماً جالسين عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يطلع عليكم الآن من هذا الفج رجل من أهل الجنة ، فطلع رجل من الأنصار ينظف لحيته من وضوئه وقد علق نعليه في شماله فسلم ، فلما كان الغد قال عليه السلام مثل ذلك فطلع ذلك الرجل ، وقال في اليوم الثالث مثل ذلك فطلع ذلك الرجل ، فلما قام النبي عليه السلام تبعه عبد الله بن عمرو بن العاص فقال : إني تأذيت من أبي فأقسمت لا أدخل عليه ثلاثاً ، فإن رأيت أن تذهب بي إلى دارك فعلت ، قال : نعم ، فبات عنده ثلاث ليال فلم يره يقوم من الليل شيئاً غير أنه إذا انقلب على فراشه ذكر الله ولا يقوم حتى يقوم لصلاة الفجر ، غير أني لم أسمعه يقول : إلا خيراً ، فلما مرت الثلاث وكدت أن أحتقر عمله ، قلت : يا عبد الله لم يكن بيني وبين والدي غضب ولا هجر ، ولكني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول كذا وكذا ، فأردت أن أعرف عملك ، فلم أرك تعمل عملاً كثيراً ، فما الذي بلغ بك ذاك ؟ قال : ما هو إلا ما رأيت .

فلما وليت دعاني فقال : ما هو إلا ما رأيت غير أني لم أجد على أحد من المسلمين في نفسي غيباً ولا حسداً على خير أعطاه الله إياه ، فقال عبد الله : هي التي بلغت بك وهي التي لا تطاق " الثالث : قال عليه السلام : " دب إليكم داء الأمم قبلكم ، الحسد والبغضاء والبغضة هي الحالقة ، لا أقول حالقة الشعر ولكن حالقة الدين " الرابع : قال : " إنه سيصيب أمتي داء الأمم ، قالوا : ما داء الأمم ؟ قال : الأشر والبطر والتكاثر والتنافس في

الدنيا والتباعد والتحاسد حتى يكون البغي ثم الهرج" الخامس : أن موسى عليه السلام لما ذهب إلى ربه رأى في ظل العرش رجلاً يغبط بمكانه وقال : إن هذا لكريم على ربه فسأل ربه أن يخبره باسمه فلم يخبره باسمه وقال : أحدثك من عمله ثلاثاً : كان لا يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله ، وكان لا يعق والديه ولا يمشي بالنميمة .

السادس : قال عليه السلام : " إن لنعم الله أعداء ، قيل : وما أولئك ؟ قال : الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله " .

السابع : قال عليه السلام : " ستة يدخلون النار قبل الحساب ، الأمراء بالجور ، والعرب بالعصبية والدهاقين بالتكبر ، والتجار بالخيانة ، وأهل الرستاق بالجهالة ، والعلماء بالحسد " .

أما الآثار ، فالأول : حكي أن عوف بن عبد الله دخل على الفضل بن المهلب وكان يومئذ على واسط ، فقال : إني أريد أن أعظك بشيء ، إياك والكبر فإنه أول ذنب عصى الله به إبليس ، ثم قرأ : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا للملائكة اسجدوا لِآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أبى واستكبر ﴾ [البقرة : 34] وإياك والحرص فإنه أخرج آدم من الجنة .

أسكنه الله في جنة عرضها السموات والأرض فأكل منها ، فأخرجه الله ، ثم قرأ : ﴿ اهبطا مِنْهَا ﴾ [طه : 123] وإياك والحسد فإنه قتل ابن آدم أخاه حين حسده ، ثم قرأ : ﴿ واتل عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابنى ءادَمَ بالحق ﴾ [المائدة : 27] .

الثاني : قال ابن الزبير : ما حسدت أحداً على شيء من أمر الدنيا لأنه إن كان من أهل الجنة فكيف أحسده على الدنيا وهي حقيرة في الجنة ، وإن كان من أهل النار فكيف أحسده على أمر الدنيا وهو يصير إلى النار .

الثالث : قال رجل للحسن : هل يحسد المؤمن ؟ قال : ما أنساك بني يعقوب إلا أنه لا يضرك ما لم تعد به يداً ولساناً .

الرابع : قال معاوية : كل الناس أقدر على رضاه إلا الحاسد فإنه لا يرضيه إلا زوال النعمة .

الخامس : قيل : الحاسد لا ينال من المجالس إلا مذمة وذلاً ، ولا ينال من الملائكة إلا لعنة وبغضاً ، ولا ينال من الخلق إلا جزعاً وغماً ، ولا ينال عند الفزع إلا شدة وهولاً ، وعند الموقف إلا فضيحة ونكالاً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 214 . 215 ﴾

فصل في حقيقة الحسد

قال الفخر :

في حقيقة الحسد : إذا أنعم الله على أخيك بنعمة فإن أردت زوالها فهذا هو الحسد ، وإن اشتهيت لنفسك مثلها فهذا هو الغبطة والمنافسة ، أما الأول : فحرام بكل حال ، إلا نعمة أصابها فاجر أو كافر يستعين بها على الشر والفساد فلا يضرك محبتك لزوالها فإنك ما تحب زوالها من حيث إنها نعمة ، بل من حيث إنها يتوسل بها إلى الفساد والشر والأذى .

والذي يدل على أن الحسد ما ذكرنا آيات .

أحدها : هذه الآية وهي قوله تعالى : ﴿ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِن بَعْدِ إِيمانكم كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ ﴾ فأخبر أن حبهم زوال نعمة الإيمان حسد .

وثانيها : قوله تعالى : ﴿ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاء ﴾ [النساء : 89] .

وثالثها : قوله تعالى : ﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ﴾ [آل عمران : 120] وهذا الفرح شماتة ، والحسد والشماتة متلازمان .

ورابعها : ذكر الله تعالى حسد إخوة يوسف وعبر عما في قلوبهم بقوله : ﴿ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضلال مُّبِينٍ اقتلوا يُوسُفَ أَوِ اطرحوه أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ ﴾ [يوسف : 8 ، 9] فبين تعالى أن حسدهم له عبارة عن كراهتهم حصول تلك النعمة له .

وخامسها : قوله تعالى : ﴿ وَلاَ يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا ﴾ [الحشر : 9]

أي لا تضيق به صدورهم ولا يغتمون ، فأثنى الله عليهم بعدم الحسد .

وسادسها : قال تعالى في معرض الإنكار : ﴿ أم يحسدون الناس على مَا ءاتاهم الله مِن فَضْلِهِ ﴾ [النساء : 54] .

(11/63)

وسابعها : قال الله تعالى : ﴿ كَانَ الناس أُمَّةً واحدة فَبَعَثَ الله النبيين ﴾ [البقرة : 213] إلى قوله : ﴿ إِلاَّ الذين أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ البينات بَغْيًا بَيْنَهُمْ ﴾ [البقرة : 213] قيل في التفسير : حسداً .

وثامنها : قوله تعالى : ﴿ وَمَا تَفَرَّقُواْ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ العلم بَغْياً بَيْنَهُمْ ﴾ [الشورى : 14] فأنزل الله العلم ليؤلف بينهم على طاعته فتحاسدوا واختلفوا ، إذ أراد كل واحد أن ينفرد بالرياسة وقبول القول .

وتاسعها : قال ابن عباس : كانت اليهود قبل مبعث النبي عليه السلام إذا قاتلوا قوماً قالوا : نسألك بالنبي الذي وعدتنا أن ترسله وبالكتاب الذي تنزله إلا تنصرنا ، فكانوا ينصرون ، فلما جاء النبي عليه السلام من ولد إسماعيل عرفوه وكفروا به بعد معرفتهم إياه فقال تعالى : ﴿ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الذين كَفَرُواْ ﴾ [البقرة : 89] إلى قوله : ﴿ أَن يَكْفُرُواْ

بِمَا أَنزَلَ اللهُ بَغْيًا ﴾ [البقرة : 90] أي حسداً .

وقالت صفية بنت حيي للنبي عليه السلام : جاء أبي وعمي من عندك فقال أبي لعمي ما تقول فيه ؟ قال : أقول : إنه النبي الذي بشر به موسى عليه السلام ، قال : فما ترى ؟ قال : أرى معاداته أيام الحياة ، فهذا حكم الحسد .

أما المنافسة فليست بحرام وهي مشتقة من النفاسة ، والذي يدل على أنها ليست بحرام وجوه .

أولها : قوله تعالى : ﴿ وَفِى ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ المتنافسون ﴾ [المطففين : 26] .

وثانيها : قوله تعالى : ﴿ سَابِقُواْ إِلى مَغْفِرَةٍ مّن رَّبِّكُمْ ﴾ [الحديد : 21] وإنما المسابقة عند خوف الفوت وهو كالعبدين يتسابقان إلى خدمة مولاهما إذ يجزع كل واحد أن يسبقه صاحبه فيحظى عند مولاه بمنزلة لا يحظى هو بها .

وثالثها : قوله عليه السلام : " لا حسد إلا في اثنتين ، رجل آتاه الله مالاً فأنفقه في سبيل الله ، ورجل آتاه الله علماً فهو يعمل به ويعلمه الناس " .

وهذا الحديث يدل على أن لفظ الحسد قد يطلق على المنافسة ، ثم نقول : المنافسة قد تكون واجبة ومندوبة ومباحة ، أما الواجبة فكما إذا كانت تلك النعمة نعمة دينية واجبة كالإيمان والصلاة والزكاة ، فههنا يجب عليه أن يحب له مثل ذلك ، لأنه إن لم يحب ذلك كان راضياً بالمعصية وذلك حرام ، وأما إن كانت تلك النعمة من الفضائل المندوبة كالإنفاق في سبيل الله والتشمير لتعليم الناس كانت المنافسة فيها مندوبة ، وأما إن كانت تلك النعمة من المباحات كانت المنافسة فيها من المباحات ، وبالجملة فالمذموم أن يحب زوالها عن الغير ، فأما أن يحب حصولها له وزوال النقصان عنه فهذا غير مذموم ، لكن ههنا دقيقة وهي أن زوال النقصان عنه بالنسبة إلى الغير له طريقان .

أحدهما : أن يحصل له مثل ما حصل للغير .

والثاني : أن يزول عن الغير ما لم يحصل له فإذا حصل اليأس عن أحد الطريقين فيكاد القلب لا ينفك عن شهوة الطريق الآخر ، فههنا إن وجد قلبه بحيث لو قدر على إزالة تلك الفضيلة عن تلك الشخص لأزالها ، فهو صاحب الحسد المذموم وإن كان يجد قلبه بحيث تردعه التقوى عن إزالة تلك النعمة عن الغير فالمرجو من الله تعالى أن يعفو عن ذلك ، ولعل هذا هو المراد من قوله عليه السلام : " ثلاث لا ينفك المؤمن منهن ، الحسد والظن والطيرة ، ثم قال : وله منهم مخرج إذا حسدت فلا تبغ " ، أي إن وجدت في قلبك شيئاً فلا تعمل به ، فهذا هو الكلام في حقيقة الحسد وكله من كلام الشيخ الغزالي رحمة الله عليه . انتهى انتهى . اهـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 215.216 ﴾

فصل في مراتب الحسد

قال الفخر :

في مراتب الحسد ، قال الغزالي رحمه الله هي أربعة .

الأولى : أن يحب زوال تلك النعمة وإن كان ذلك لا يحصل له وهذا غاية الحسد .

(13/63)

والثانية : أن يحب زوال تلك النعمة عنه إليه وذلك مثل رغبته في دار حسنة أو امرأة جميلة أو ولاية نافذة نالها غيره وهو يحب أن تكون له ، فالمطلوب بالذات حصوله له ، فأما زواله عن غيره فمطلوب بالعرض .

الثالثة : أن لا يشتهي عنها بل يشتهي لنفسه مثلها ، فإن عجز عن مثلها أحب زوالها لكي لا يظهر التفاوت بينهما .

الرابعة : أن يشتهي لنفسه مثلها ، فإن لم يحصل فلا يحب زوالها ، وهذا الأخير هو المعفو عنه إن كان في الدنيا والمندوب إليه إن كان في الدين ، والثالثة : منها مذمومة وغير مذمومة ، والثانية : أخف من الثالثة ، والأول : مذموم محض قال تعالى : ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ

بِهِ بَعْضَكُمْ على بَعْضٍ ﴾ [النساء : 32] فتمنيه لمثل ذلك غير مذموم وأما تمنيه عين ذلك فهو مذموم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 216 ﴾

فصل

قال الفخر :

ذكر الشيخ الغزالي رحمة الله عليه للحسد سبعة أسباب :

السبب الأول : العداوة والبغضاء ، فإن من آذاه إنسان أبغضه قلبه وغضب عليه ، وذلك الغضب يولد الحقد والحقد يقتضي التشفي والانتقام ، فإن عجز المبغض عن التشفي بنفسه أحب أن يتشفى منه الزمان ، فمهما أصاب عدوه آفة وبلاء فرح ، ومهما أصابته نعمة ساءته ، وذلك لأنه ضد مراده ، فالحسد من لوازم البغض والعداوة ولا يفارقهما ، وأقصى الإمكان في هذا الباب أن لا يظهر تلك العداوة من نفسه وأن يكره تلك الحالة من نفسه ، فأما أن يبغض إنساناً ثم تستوي عنده مسرته ومساءته فهذا غير ممكن ، وهذا النوع من الحسد هو الذي وصف الله الكفار به ، إذ قال : ﴿ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا ءامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأنامل مِنَ الغيظ قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور ، إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها ﴾ [آل عمران : 119 ، 120] وكذا قال : ﴿ وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ البغضاء مِنْ أفواههم ﴾ [آل عمران : 118] .

واعلم أن الحسد ربما أفضى إلى التنازع والتقاتل .

السبب الثاني : التعزز ، فإن واحداً من أمثاله إذا نال منصباً عالياً ترفع عليه وهو لا يمكنه تحمل ذلك ، فيريد زوال ذلك المنصب عنه وليس من غرضه أن يتكبر ، بل غرضه أن يدفع كبره فإنه قد يرضى بمساواته ولكنه لا يرضى بترفعه عليه .

السبب الثالث : أن يكون في طبيعته أن يستخدم غيره فيريد زوال النعمة من ذلك الغير ليقدر على ذلك الغرض ، ومن هذا الباب كان حسد أكثر الكفار للرسول عليه الصلاة والسلام إذ قالوا : كيف يتقدم علينا غلام يتيم وكيف نطأطيء له رؤوسنا ؟ فقالوا : ﴿ لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ [الزخرف : 31] وقال تعالى يصف قول قريش : ﴿ أَهَؤُلاء مَنَّ اللهُ عَلَيْهِم مّن بَيْنِنَا ﴾ [الأنعام : 53] كالاستحقار بهم والأنفة منهم .

السبب الرابع : التعجب كما أخبر الله عن الأمم الماضية إذ قالوا : ﴿ مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرًا مّثْلَنَا ﴾ [إبراهيم : 10] ، وقالوا : ﴿ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عابدون ﴾ [المؤمنون : 47] ، ﴿ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَراً مّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لخاسرون ﴾ [المؤمنون : 34] وقالوا متعجبين : ﴿ أَبَعَثَ اللهُ بَشَرًا رَّسُولاً ﴾ [الإسراء : 94] وقالوا : ﴿ لَوْلا نُزّلَ

عَلَيْنَا الملئكة ﴾ [الفرقان : 21] وقال : ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءكُمْ ذِكْرٌ مّن رَّبّكُمْ على رَجُلٍ مّنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ﴾ [الأعراف : 63 69] .

(15/63)

السبب الخامس : الخوف من فوت المقاصد وذلك يختص بالمتزاحمين على مقصود واحد ، فإن كل واحد منهما يحسد صاحبه في كل نعمة تكون عوناً له في الانفراد بمقصوده ، ومن هذا الباب تحاسد الضرات في التزاحم على مقاصد الزوجية ، وتحاسد الأخوة في التزاحم على نيل المنزلة في قلوب الأبوين للتوصل إلى مقاصد المال والكرامة ، وكذلك تحاسد الواعظين المتزاحمين على أهل بلدة واحدة ، إذ كان غرضهما نيل المال والقبول عندهم .

السبب السادس : حب الرياسة وطلب الجاه نفسه من غير توسل به إلى مقصوده ، وذلك كالرجل الذي يريد أن يكون عديم النظير في فن من الفنون ، فإنه لو سمع بنظير له في أقصى العالم ساءه ذلك وأحب موته وزوال النعمة التي بها يشاركه في المنزلة من شجاعة أو علم أو زهد أو ثروة ويفرح بسبب تفرده .

السبب السابع : شح النفس بالخير على عباد الله ، فإنك تجد من لا يشتغل برياسة ولا بكبر ولا بطلب مال إذا وصف عنده حسن حال عبد من عباد الله شق عليه ذلك ، وإذا

وصف اضطراب أمور الناس وإدبارهم وتنغص عيشهم فرح به فهو أبداً يحب الإدبار لغيره ويبخل بنعمة الله على عباده ، كأنهم يأخذون ذلك من ملكه وخزانته ، ويقال : البخيل من بخل بمال غيره ، فهذا يبخل بنعمة الله على عباده الذين ليس بينهم وبينه لا عداوة ولا رابطة وهذا ليس له سبب ظاهر إلا خبث النفس ورذالة جبلته في الطبع ، لأن سائر أنواع الحسد يرجى زواله لإزالة سببه ، وهذا خبث في الجبلة لا عن سبب عارض فتعسر إزالته .

فهذه هي أسباب الحسد ، وقد يجتمع بعض هذه الأسباب أو أكثرها أو جميعها في شخص واحد فيعظم فيه الحسد ويقوى قوة لا يقوى صاحبها معها على الإخفاء والمجاملة بل يهتك حجاب المجاملة ويظهر العداوة بالمكاشفة وأكثر المحاسدات تجتمع فيها جملة من هذه الأسباب وقلما يتجرد واحد منها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 216. 217 ﴾

فصل

قال الفخر :

في سبب كثرة الحسد وقلته وقوته وضعفه .

اعلم أن الحسد إنما يكثر بين قوم تكثر فيهم الأسباب التي ذكرناها ، إذ الشخص الواحد يجوز أن يحسد لأنه يمتنع من قول المتكبر ولأنه يتكبر ولأنه عدو لغير ذلك من الأسباب وهذه الأسباب إنما تكثر بين قوم تجمعهم روابط يجتمعون بسببها في مجالس المخاطبات ويتواردون على الأغراض والمنازعة مظنة المنافرة ، والمنافرة مؤدية إلى الحسد فحيث لا مخالطة فليس هناك محاسدة ، ولما لم توجد الرابطة بين شخصين في بلدين لا جرم لم يكن بينهما محاسدة ، فلذلك ترى العالم يحسد العالم دون العابد والعابد يحسد العابد دون العالم ، والتاجر يحسد التاجر ، بل الاسكاف يحسد الإسكاف ولا يحسد البزاز ، ويحسد الرجل أخاه وابن عمه أكثر مما يحسد الأجانب والمرأة تحسد ضرتها وسرِّيَة زوجها أكثر مما تحسد أم الزوج وابنته ، لأن مقصد البزاز غير مقصد الإسكاف فلا يتزاحمون على المقاصد ، ثم مزاحمة البزاز المجاور له أكثر من مزاحمة البعيد عنه إلى طرف السوق وبالجملة فأصل الحسد العداوة وأصل العداوة التزاحم على غرض واحد والغرض الواحد لا يجمع متباعدين بل لا يجمع إلا متناسبين ، فلذلك يكثر الحسد بينهم ، نعم من اشتد حرصه على الجاه العريض والصيت في أطراف العالم فإنه يحسد كل من في العالم ممن يشاركه في الخصلة التي يتفاخر بها ، أقول : والسبب الحقيقي فيه أن الكمال محبوب بالذات وضد المحبوب مكروه ومن جملة أنواع الكمال التفرد بالكمال ، فلا جرم كان الشريك في الكمال مبغضاً لكونه منازعاً في الفردانية التي هي من أعظم أبواب الكمال ، إلا أن هذا النوع من

الكمال لما امتنع حصوله إلا لله سبحانه ووقع اليأس عنه فاختص الحسد بالأمور الدنيوية ، وذلك لأن الدنيا لا تفي بالمتزاحمين ، أما الآخرة فلا ضيق فيها ، وإنما مثال الآخرة نعمة العلم ، فلا جرم من يحب معرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وملائكته فلا يحسد غيره إذا عرف ذلك ، لأن المعرفة لا تضيق على العارفين بل المعلوم الواحد يعرفه

(17/63)

ألف ألف ويفرح بمعرفته ويلتذ به ولا تنقص لذة أحد بسبب غيره ، بل يحصل بكثرة العارفين زيادة الأنس ، فلذلك لا يكون بين علماء الدين محاسدة لأن مقصدهم معرفة الله ، وهي بحر واسع لا ضيق فيها وغرضهم المنزلة عند الله ولا ضيق فيها ، نعم إذا قصد العلماء بالعلم المال والجاه ، تحاسدوا لأن المال أعيان إذا وقعت في يد واحد خلت عنها يد الآخر ، ومعنى الجاه ملء القلوب ، ومهما امتلأ قلب شخص بتعظيم عالم انصرف عن تعظيم الآخر ، أما إذا امتلأ قلب بالفرح بمعرفة الله لم يمنع ذلك أن يمتلىء قلب غيره وأن يفرح به فلذلك وصفهم الله تعالى بعدم الحسد فقال : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا على سُرُرٍ متقابلين ﴾ [الحجر : 47] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 218.217 ﴾

فصل

قال الفخر :

في الدواء المزيل للحسد وهو أمران : العلم والعمل .

أما العلم ففيه مقامان إجمالي وتفصيلي ، أما الإجمالي فهو أن يعلم أن كل ما دخل في الوجود فقد كان ذلك من لوازم قضاء الله وقدره ، لأن الممكن ما لم ينته إلى الواجب لم يقف ، ومتى كان كذلك فلا فائدة في النفرة عنه ، وإذا حصل الرضا بالقضاء زال الحسد .

وأما التفصيلي فهو أن تعلم أن الحسد ضرر عليك في الدين والدنيا ، وأنه ليس فيه على المحسود ضرر في الدين والدنيا ، بل ينتفع به في الدين والدنيا ، أما أنه ضرر عليك في الدين فمن وجوه .

أحدها : أنك بالحسد كرهت حكم الله ونازعته في قسمته التي قسمها لعباده وعدله الذي أقامه في خلقه بخفي حكمته ، وهذه جناية على حدقة التوحيد وقذى في عين الإيمان .

وثانيها : أنك إن غششت رجلاً من المؤمنين فارقت أولياء الله في حبهم الخير لعباد الله وشاركت إبليس وسائر الكفار في محبتهم للمؤمنين البلايا ، وثالثها : العقاب العظيم المرتب

عليه في الآخرة ، وأما كونه ضرراً عليك في الدنيا فهو أنك بسبب الحسد لا تزال تكون في الغم والكمد وأعداؤك لا يخليهم الله من أنواع النعم فلا تزال تتعذب بكل نعمة تراها وتتألم بكل بلية تنصرف عنهم فتبقى أبداً مغموماً مهموماً ، فقد حصل لك ما أردت حصوله لأعدائك وأراد أعداؤك حصوله لك فقد كنت تريد المحنة لعدوك فسعيت في تحصيل المحنة لنفسك .

ثم إن ذلك الغم إذا استولى عليك أمرض بدنك وأزال الصحة عنك وأوقعك في الوساوس ونغص عليك لذة المطعم والمشرب .

وأما أنه لا ضرر على المحسود في دينه ودنياه فواضح لأن النعمة لا تزول عنه بحسدك ، بل ما قدره الله من إقبال ونعمة فلا بد وأن يدوم إلى أجل قدرة الله ، فإن كان كل شيء عنده بمقدار ولكل أجل كتاب ، ومهما لم تزل النعمة بالحسد لم يكن على المحسود ضرر في الدنيا ولا عليه إثم في الآخرة ، ولعلك تقول : ليت النعمة كانت لي وتزول عن المحسود بحسدي وهذا غاية الجهل فإنه بلاء تشتهيه أولاً لنفسك فإنك أيضاً لا تخلو عن عدو يحسدك ، فلو زالت النعمة بالحسد لم يبق لله عليك نعمة لا في الدين ولا في الدنيا ، وإن اشتهيت أن تزول النعمة عن الخلق بحسدك ولا تزول عنك بحسد غيرك فهذا أيضاً جهل ، فإن كل واحد من حمقى الحساد يشتهي أن يختص بهذه الخاصية ، ولست أولى بذلك من الغير ، فنعمة الله عليك في أن لم يزل النعمة بالحسد مما يجب شكرها عليك وأنت بجهلك تكرهها .

وأما أن المحسود ينتفع به في الدين والدنيا فواضح ، أما منفعته في الدين فهو أنه مظلوم من جهتك لا سيما إذا أخرجت الحسد إلى القول والفعل بالغيبة والقدح فيه وهتك ستره وذكر مساوئه ، فهي هدايا يهديها الله إليه ، أعني أنك تهدي إليه حسناتك فإنك كلما ذكرته بسوء نقل إلى ديوانه حسناتك وازدادت سيئاتك ، فكأنك اشتهيت زوال نعم الله عنه إليك فأزيلت نعم الله عنك إليه ، ولم تزل في كل حين وأوان تزداد شقاوة ، وأما منفعته في الدنيا فمن وجوه .

الأول : أن أهم أغراض الخلق مساءة الأعداء وكونهم مغمومين معذبين ولا عذاب أعظم مما أنت فيه من ألم الحسد ، بل العاقل لا يشتهي موت عدوه بل يريد طول حياته ليكون في عذاب الحسد لينظر في كل حين وأوان إلى نعم الله عليه فيتقطع قلبه بذلك ، ولذلك قيل : لا مات أعداؤك بل خلدوا . . حتى يروا منك الذي يكمد

لا زلت محسوداً على نعمة . . فإنما الكامل من يحسد

الثاني : أن الناس يعلمون أن المحسود لا بد وأن يكون ذا نعمة فيستدلون بحسد الحاسد على كونه مخصوصاً من عند الله بأنواع الفضائل والمناقب ، وأعظم الفضائل مما لا يستطاع

دفعه وهو الذي يورث الحسد فصار الحسد من أقوى الدلائل على اتصاف المحسود بأنواع الفضائل والمناقب .

الثالث : أن الحاسد يصير مذموماً بين الخلق ملعوناً عند الخالق وهذا من أعظم المقاصد للمحسود .

الرابع : وهو أنه سبب لازدياد مسرة إبليس وذلك لأن الحاسد لما خلا عن الفضائل التي اختص المحسود بها فإن رضي بذلك استوجب الثواب العظيم فخاف إبليس من أن يرضى بذلك فيصير مستوجباً لذلك الثواب ، فلما لم يرض به بل أظهر الحسد فاته ذلك الثواب واستوجب العقاب فيصير ذلك سبباً لفرح إبليس وغضب الله تعالى .

الخامس : أنك عساك تحسد رجلاً من أهل العلم وتحب أن يخطىء في دين الله وتكشف خطأه ليفتضح وتحب أن يخرس لسانه حتى لا يتكلم أو يمرض حتى لا يعلم ولا يتعلم وأي إثم يزيد على ذلك ، وأي مرتبة أخس من هذه .

وقد ظهر من هذه الوجوه أيها الحاسد أنك بمثابة من يرمي حجراً إلى عدوه ليصيب به مقتله فلا يصيبه ، بل يرجع إلى حدقته اليمنى فيقلعها فيزداد غضبه فيعود ويرميه ثانياً أشد من

الأول فيرجع الحجر على عينه الأخرى فيعميه فيزداد غيظه ويعود ثالثاً فيعود على رأسه فيشجه وعدوه سالم في كل الأحوال ، والوبال راجع إليه دائماً وأعداؤه حواليه يفرحون به ويضحكون عليه ، بل حال الحاسد أقبح من هذا لأن الحجر العائد لم يفوت إلا العين ولو بقيت لفاتت بالموت ، وأما حسده فإنه يسوق إلى غضب الله وإلى النار ، فلأن تذهب عينه في الدنيا خير له من أن يبقى له عين ويدخل بها النار فانظر كيف انتقم الله من الحاسد إذا أراد زوال النعمة عن المحسود فما أزالها عنه ثم أزال نعمة الحاسد تصديقاً لقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾ [فاطر : 43] فهذه الأدوية العلمية فمهما تفكر الإنسان فيها بذهن صاف وقلب حاضر انطفأ من قلبه نار الحسد ، وأما العمل النافع فهو أن يأتي بالأفعال المضادة لمقتضيات الحسد ، فإن بعثه الحسد على القدح فيه كلف لسانه المدح له وإن حمله على التكبر عليه كلف نفسه التواضع له وإن حمله على قطع أسباب الخير عنه كلف نفسه السعي في إيصال الخيرات إليه ، فمهما عرف المحسود ذلك طاب قلبه وأحب الحاسد وذلك يفضي آخر الأمر إلى زوال الحسد من وجهين .

الأول : أن المسحود إذا أحب الحاسد فعل ما يحبه الحاسد فحينئذ يصير الحاسد محباً للمحسود ويزول الحسد حينئذ .

الثاني : أن الحاسد إذا أتى بضد موجبات الحسد على سبيل التكلف يصير ذلك بالآخرة طبعاً له فيزول الحسد عنه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 218 .

﴾220﴿

فصل

قال الفخر :

(21/63)

اعلم أن النفرة القائمة بقلب الحاسد من المحسود أمر غير داخل في وسعه ، فكيف يعاقب عليه ؟ وأما الذي في وسعه أمران ، أحدهما : كونه راضياً بتلك النفرة ، والثاني : إظهار آثار تلك النفرة من القدح فيه والقصد إلى إزالة تلك النعمة عنه وجر أسباب المحبة إليه ، فهذا هو الداخل تحت التكليف . انتهى انتهى . ا هـ ﴾ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 220 ﴿

قوله تعالى ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الكتاب لَوْ يَرُدُّونَكُم مِن بَعْدِ إِيمانكم كُفَّارًا ﴾

فصل

قال الفخر :

المراد أنهم كانوا يريدون رجوع المؤمنين عن الإيمان من بعد ما تبين لهم أن الإيمان صواب وحق ، والعالم بأن غيره على حق لا يجوز أن يريد رده عنه إلا بشبهة يلقيها إليه ، لأن المحق لا يعدل عن الحق إلا بشبهة والشبهة ضربان ، أحدهما : ما يتصل بالدنيا وهو أن يقال لهم :

قد علمتم ما نزل بكم من إخراجكم من دياركم وضيق الأمر عليكم واستمرار المخافة بكم ، فاتركوا الإيمان الذي ساقكم إلى هذه الأشياء ، والثاني : في باب الدين : بطرح الشبه في المعجزات أو تحريف ما في التوراة . انتهى انتهى . ا هـ ﴾ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 220 ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الكتاب ﴾ وهم طائفة من أحبار اليهود قالوا للمسلمين بعد وقعة أحد : ألم تروا إلى ما أصابكم ، ولو كنتم على الحق لما هزمتم ، فارجعوا إلى ديننا فهو خير لكم ، رواه الواحدي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنه .

وروي أن فنحاص بن عازوراء وزيد بن قيس ونفراً من اليهود قالوا ذلك لحذيفة رضي الله تعالى عنه من حديث طويل ، ذكر الحافظ ابن حجر أنه لم يوجد في شيء من كتب الحديث .

﴿ لَوْ يَرُدُّونَكُم ﴾ حكاية لودادتهم ، وقد تقدم الكلام على (لو) هذه فأغنى عن الإعادة ﴿ مِن بَعْدِ إِيمانكم كُفَّارًا ﴾ أي مرتدين ، وهو حال من ضمير المخاطبين يفيد مقارنة

الكفر بالرد فيؤذن بأن الكفر يحصل بمجرد الارتداد مع قطع النظر إلى ما يرد إليه ، ولذا لم يقل لو يردونكم إلى الكفر ، وجوز أن يكون حالاً من فاعل (وَدّ) واختار بعضهم أنه مفعول ثان ليردونكم على تضمين الرد معنى التصيير إذ منهم من لم يكفر حتى يرد إليه فحيتاج إلى التغليب كما في ﴿ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ﴾ [الأعراف : 88] على أن في ذلك يكون الكفر المفروض بطريق القسر وهو أدخل في الشناعة ، وفي قوله تعالى : ﴿ مِن بَعْدِ ﴾ مع أن الظاهر عن لأن الرد يستعمل بها تنصيص بحصول الإيمان لهم ، وقيل : أورد متوسطاً لإظهار كمال فظاعة ما أرادوه وغاية بعده عن الوقوع إما لزيادة قبحه الصاد للعاقل عن مباشرته ، وإما لمانعة الإيمان له كأنه قيل : من بعده إيمانكم الراسخ ، وفيه من تثبيت المؤمنين ما لا يخفي . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 356. 357 ﴾

قوله تعالى ﴿ حَسَدًا مّنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ ﴾

فصل

قال الفخر :

إنه تعالى بين أن حبهم لأن يرجعوا عن الإيمان إنما كان لأجل الحسد .

قال الجبائي : عنى بقوله : ﴿ كُفَّاراً حَسَداً مّنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ ﴾ أنهم لم يؤتوا ذلك من قبله تعالى وإن كفرهم هو فعلهم لا من خلق الله فيهم ، والجواب أن قوله : ﴿ مّنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ ﴾ فيه وجهان ، أحدهما : أنه متعلق ب " ود " على معنى أنهم أحبوا أن ترتدوا عن دينكم ،

وتمنيهم ذلك من قبل شهوتهم لا من قبل التدين والميل مع الحق لأنهم ودّوا ذلك من بعد ما تبين لهم أنكم على الحق فكيف يكون تمنيهم من قبل طلب الحق ؟ الثاني : أنه متعلق بحسداً أي حسداً عظيماً منبعثاً من عند أنفسهم . انتهى انتهى . اهـ ﴾ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 220 ﴿

(23/63)

وقال الآلوسى :

﴿ حَسَدًا ﴾ علة لِوَدّ لا ليردونكم لأنهم يودون ارتدادهم مطلقاً لا ارتدادهم المعلل بالحسد ، وجوزوا أن يكون مصدراً منصوباً على الحال أي حاسدين ولم يجمع لأنه مصدر ، وفيه ضعف لأن جعل المصدر حالاً كما قال أبو حيان لا ينقاس .

وقيل : يجوز أن يكون منصوباً على المصدر والعامل فيه محذوف يدل عليه المعنى أي حسدوكم حسداً وهو كما ترى .

﴿ مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ ﴾ متعلق بمحذوف وقع صفة إما للحسد أي حسداً كائناً من أصل نفوسهم فكأنه ذاتي لها ، وفيه إشارة إلى أن بلغ مبلغاً متناهياً ، وهذا يؤكد أمر التنوين إذا جعل للتكثير أو التعظيم ، وإما للوداد المفهوم من (وَدّ) أي وداداً كائناً من عند أنفسهم

وتشهيهم لا من قبل التدبر والميل إلى الحق ، وجعله ظرفاً لغواً معمولاً لِوَدّ أو (حسداً) كما نقل عن مكي يبعده أنهما لا يستعملان بكلمة (من) كما قاله ابن الشجري .

﴿ مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الحق ﴾ بالنعوت المذكورة في التوراة والمعجزات وهذا كالدليل على تخصيص الكثير بالأحبار لأن التبين بذلك إنما كان لهم لا للجهال ، ولعل من قال : إن الودادة من عوامهم أيضاً لئلا يبطل دينهم الذي ورثوه وتبطل رياسة أحبارهم الذين اعتقدوهم واتخذوهم رؤساء ، فالمراد من الكثير جميعهم من كفارهم ومنافقيهم ويكون ذكره لإخراج من آمن منهم سراً وعلانية يدعي أن التبين حصل للجميع أيضاً إلا أن أسبابه مختلفة متفاوتة وهذا هو الذي يغلب على الظن فإن من شاهد هاتيك المعجزات الباهرة والآيات الزاهرة يبعد منه كيفما كان عدم تبين الحق ومعرفة مطالع الصدق إلا أن الحظوظ النفسانية والشهوات الدنية والتسويلات الشيطانية حجبت من حجبت عن الإيمان وقيدت من قيدت في الخذلان . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 357 ﴾

قوله تعالى ﴿ فاعفوا واصفحوا ﴾

فصل

قال الفخر :

أما قوله تعالى : ﴿ فاعفوا واصفحوا ﴾ فهذا يدل على أن اليهود بعد ما أرادوا صرف المؤمنين عن الإيمان احتالوا في ذلك بإلقاء الشبه على ما بيناه ، ولا يجوز أن يأمرهم تعالى بالعفو والصفح على وجه الرضا بما فعلوا ، لأن ذلك كفر ، فوجب حمله على أحد أمرين ، الأول : أن المراد ترك المقابلة والإعراض عن الجواب ، لأن ذلك أقرب إلى تسكين الثائرة في الوقت ، فكأنه تعالى أمر الرسول بالعفو والصفح عن اليهود فكذا أمره بالعفو والصفح عن مشركي العرب بقوله تعالى : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ ءامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ أَيَّامَ الله ﴾ [الجاثية : 14] وقوله : ﴿ واهجرهم هَجْراً جميلاً ﴾ [المزمل : 10] ولذلك لم يأمر بذلك على الدوام بل علقه بغاية فقال : ﴿ حتى يَأْتِىَ الله بِأَمْرِهِ ﴾ وذكروا فيه وجوهاً :

أحدها : أنه المجازاة يوم القيامة عن الحسن ، وثانيها : أنه قوة الرسول وكثرة أمته .

وثالثها : وهو قول أكثر الصحابة والتابعين ، إنه الأمر بالقتال لأن عنده يتعين أحد أمرين : إما الإسلام ، وإما الخضوع لدفع الجزية وتحمل الذل والصغار ، فلهذا قال العلماء : إن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى : ﴿ قاتلوا الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالله وَلاَ باليوم الأخر ﴾ [التوبة : 29]

وعن الباقر رضي الله عنه أنه لم يؤمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتال حتى نزل جبريل عليه السلام بقوله : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يقاتلون بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ ﴾ [الحج : 39] وقلده سيفاً فكان أول قتال قاتل أصحاب عبد الله بن جحش ببطن نخل وبعده غزوة بدر ، وههنا سؤالان :

السؤال الأول : كيف يكون منسوخاً وهو معلق بغاية كقوله : ﴿ ثُمَّ أَتِمُّواْ الصيام إِلَى الليل ﴾ [البقرة : 187] وإن لم يكن ورود الليل ناسخاً فكذا ههنا ، الجواب : أن الغاية التي يعلق بها الأمر إذا كانت لا تعلم إلا شرعاً لم يخرج ذلك الوارد شرعاً عن أن يكون ناسخاً ويحل محل قوله : ﴿ فاعفوا واصفحوا ﴾ إلى أن أنسخه عنكم .

السؤال الثاني : كيف يعفون ويصفحون والكفار كانوا أصحاب الشوكة والقوة والصفح لا يكون إلا عن قدرة ؟ والجواب : أن الرجل من المسلمين كان ينال بالأذى فيقدر في تلك الحالة قبل اجتماع الأعداء أن يدفع عدوه عن نفسه وأن يستعين بأصحابه ، فأمر الله تعالى عند ذلك بالعفو والصفح كي لا يهيجوا شراً وقتالاً .

القول الثاني : في التفسير قوله : ﴿ فاعفوا واصفحوا ﴾ حسن الاستدعاء ، واستعمل ما يلزم فيه من النصح والإشفاق والتشدد فيه ، وعلى هذا التفسير لا يجوز نسخه وإنما يجوز نسخه على التفسير الأول . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 220 . 221 ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ فاعفوا واصفحوا ﴾ العفو ترك عقوبة المذنب ، والصفح ترك التثريب والتأنيب وهو أبلغ من العفو إذ قد يعفو الإنسان ولا يصفح ، ولعله مأخوذ من تولية صفحة الوجه إعراضاً أو من تصفحت الورقة إذا تجاوزت عما فيها .

وآثر العفو على الصبر على أذاهم إيذاناً بتمكين المؤمنين ترهيباً للكافرين .

﴿ حتى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ ﴾ هو واحد الأوامر ؛ والمراد به الأمر بالقتال بقوله سبحانه : ﴿ قاتلوا الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالله وَلاَ باليوم الآخر ﴾ إلى ﴿ وَهُمْ صاغرون ﴾ [التوبة : 29] أو الأمر بقتل قريظة وإجلاء بني النضير ، وقيل : واحد الأمور ، والمراد به القيامة أو المجازاة يومها أو قوة الرسالة وكثرة الأمة ، ومن الناس من فسر الصفح بالاعراض عنهم وترك مخالطتهم وجعل غاية العفو إتيان آية القتال وغاية الإعراض إتيان الله تعالى أمره ، وفسره بإسلام من أسلم منهم كما قاله الكلبي وليس بشيء لأنه يستلزم أن يحمل الأمر على واحد الأوامر وواحد الأمور ، وهو عند المحققين جمع بين الحقيقة والمجاز ، وعن قتادة والسدي ، وابن عباس رضي الله تعالى عنهم أن الآية منسوخة بآية السيف ، واستشكل ذلك بأن النسخ لكونه بياناً لمدة الانتهاء بالنسبة إلى الشارع ودفعاً للتأبيد الظاهري من الإطلاق

بالنسبة إلينا يقتضي أن يكون الحكم المنسوخ خالياً عن التوقيت والتأبيد فإنه لو كان مؤقتاً كان الناسخ بياناً له بالنسبة إلينا أيضاً ولو كان مؤبداً كان بدءاً لا بياناً بالنسبة إلى الشارع والأمر ههنا مؤقت بالغاية وكونها غير معلومة يقتضي أن تكون آية القتال بياناً لإجماله وبذلك تبين ضعف ما أجاب به الإمام الرازي وتبعه فيه كثيرون من أن الغاية التي يتعلق بها الأمر إذا كانت لا تعلم إلا شرعاً لم يخرج الوارد من أن يكون ناسخاً ويحل محل ﴿ فاعفوا واصفحوا ﴾ إلى أن أنسخه لكم فليس هذا مثل قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَتِمُّوا الصيام إِلَى اليل ﴾ [البقرة : 187] وأما تأبيد الطيبي له بحكم التوراة والإنجيل لأنه ذكر فيهما انتهاء مدة الحكم بهما بإرسال النبي الأمي بنحو قوله تعالى : ﴿ الذين يَتَّبِعُونَ الرسول النبى الامى الذى يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى التوراة والإنجيل ﴾ [الأعراف : 157] وكان ظهوره صلى الله عليه وسلم نسخاً فيرد عليه ما

في " التلويح " من أن الواقع فيهما البشارة بشرع النبي صلى الله عليه وسلم ، وإيجاب الرجوع إليه وذلك لا يقتضي توقيت الأحكام لاحتمال أن يكون الرجوع إليه باعتبار كونه مفسراً أو مقرراً أو مبدلاً للبعض دون البعض فمن أين يلزم التوقيت بل هي مطلقة يفهم منها التأبيد

فتبديلها يكون نسخاً ؛ وأجيب عن الاستشكال بأنه لا يبعد أن يقال : إن القائلين بالنسخ أرادوا به البيان مجازاً أو يقال : لعلهم فسروا الغاية بإماتتهم أو بقيام الساعة ، والتأبيد إنما ينافي إطلاق الحكم إذا كان غاية للوجوب ، وأما إذا كان غاية للواجب فلا ، ويجري فيه النسخ عند الجمهور قاله مولانا الساليكوتي إلا أن الظاهر لا يساعده فتدبر . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 357.358 ﴾

" فائدة "

قال الإمام الجصاص :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴾

رَوَى مَعْمَرٌ عَنْ قَتَادَةَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ قَالَ : نَسَخَتْهَا ﴿ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ﴾ .

وَحَدَّثَنَا أَبُو مُحَمَّدٍ جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْوَاسِطِيُّ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو الْفَضْلِ جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ الْيَمَانِ قَالَ : قُرِئَ عَلَى أَبِي عُبَيْدٍ وَأَنَا أَسْمَعُ قَالَ : حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ صَالِحٍ عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ صَالِحٍ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْله تَعَالَى : ﴿ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ ﴾

وقَوْله تَعَالَى : ﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ ﴾ وقَوْله تَعَالَى : ﴿ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ ﴾ وقَوْله تَعَالَى : ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ ﴾ .

قَالَ : نَسَخَ هَذَا كُلَّهُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ﴾ وقَوْله تَعَالَى : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاَللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ ﴾ الْآيَةُ ، وَمِثْلُهُ قَوْله تَعَالَى ﴿ فَأَعْرِضْ عَمَّنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ وقَوْله تَعَالَى : ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ وقَوْله تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمْ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾ يَعْنِي وَاَللَّهُ أَعْلَمُ مُتَارَكَةً .

فَهَذِهِ الْآيَاتُ كُلُّهَا أُنْزِلَتْ قَبْلَ لُزُومِ فَرْضِ الْقِتَالِ ، وَذَلِكَ قَبْلَ الْهِجْرَةِ ؛ وَإِنَّمَا كَانَ الْغَرَضُ الدُّعَاءَ إلَى الدِّينِ حِينَئِذٍ بِالْحِجَاجِ وَالنَّظَرِ فِي مُعْجِزَاتِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَا أَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَى يَدِهِ ، وَأَنَّ مِثْلَهُ لَا يُوجَدُ مَعَ غَيْرِ الْأَنْبِيَاءِ ، وَنَحْوُهُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ قُلْ إنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ ﴾ وقَوْله تَعَالَى : ﴿ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ ﴾ وقَوْله تَعَالَى : ﴿ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴾ ﴿ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾ ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ﴿ فَأَنَّى

تُصْرَفُونَ ﴾ وَنَحْوُهَا مِنْ الْآيِ الَّتِي فِيهَا الْأَمْرُ بِالنَّظَرِ فِي أَمْرِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمَا أَظْهَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ مِنْ أَعْلَامِ النُّبُوَّةِ وَالدَّلَائِلِ الدَّالَّةِ عَلَى صِدْقِهِ ثُمَّ لَمَّا هَاجَرَ إلَى الْمَدِينَةِ أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِالْقِتَالِ بَعْدَ قَطْعِ الْعُذْرِ فِي الْحِجَاجِ وَتَقْرِيرِهِ عِنْدَهُمْ حِينَ اسْتَقَرَّتْ آيَاتُهُ وَمُعْجِزَاتُهُ عِنْدَ الْحَاضِرِ وَالْبَادِي وَالدَّانِي وَالْقَاصِي بِالْمُشَاهَدَةِ وَالْأَخْبَارِ الْمُسْتَفِيضَةِ الَّتِي لَا يُكَذَّبُ مِثْلُهَا وَسَنَذْكُرُ فَرْضَ الْقِتَالِ عِنْدَ مَصِيرِنَا إلَى الْآيَاتِ الْمُوجِبَةِ لَهُ إنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 1 صـ 72 . 73 ﴾

(30/63)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطي :

قوله تعالى : ﴿ فاعفوا واصفحوا حتى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ ﴾ .

هذه الآية في أهل الكتاب كما هو واضح من السياق ، والأمر في قوله : ﴿ بِأَمْرِهِ ﴾ .

قال بعض العلماء : هو واحد الأوامر .

وقال بعضهم : هو واحد الأمور ، فعلى القول الأول ، بأنه الأمر الذي هو ضد النهي ، فإن الأمر المذكور هو المصرَّح به في قوله : ﴿ قَاتِلُوا الذين لَا يُؤْمِنُونَ بالله وَلَا باليوم الآخر وَلَا

يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الحق مِنَ الذين أُوتُواْ الكتاب حتى يُعْطُواْ الجزية عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ [التوبة : 29] ، وعلى القول بأنه واحد الأمور ، فهو ما صرح الله به في الآيات الدالة على ما أوقع باليهود من القتل والتشريد كقوله : ﴿ فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرعب يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي المؤمنين فاعتبروا ياأولي الأبصار وَلَوْلاَ أَن كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِمُ الجلاء لَعَذَّبَهُمْ ﴾ [الحشر : 2-3] الآية ، إلى غير ذلك من الآيات ، والآية غير منسوخة على التحقيق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 1 صـ 42. 43 ﴾

قوله تعالى ﴿ إِنَّ اللهَ على كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾

قال الفخر :

أما قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ على كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فهو تحذير لهم بالوعيد سواء حمل على الأمر بالقتال أو غيره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 221 ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ إِنَّ اللهَ على كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ تذييل مؤكد لما فيهم من سابقه ، وفيه إشعار بالانتقام

من الكفار ووعد للمؤمنين بالنصرة والتمكين ، ويحتمل على بعد أن يكون ذكراً لموجب قبول أمره بالعفو والصفح وتهديداً لمن يخالف أمره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 358 ﴾

(32/63)

لطيفة

قال فى البحر المديد :

قال بعض العارفين : (لا تشتغل قط بمن يؤذيك واشتغل بالله يرده عنك ، وقد غلط في هذا الأمر خلق كثير ، اشتغلوا بمن يؤذيهم فطال الأذى مع الإثم . ولو أنهم رجعوا إلى مولاهم لكفاهم أمرهم) . بل ينبغي لمن يُحْسَدُ أو يُؤْذَى أن يغيب عن الحاسد وكيده ، ويشتغل بما هو مكلف به من حقوق العبودية وشهود عظمة الربوبية ، فإن الله لا يضيع من التجأ إليه ، ولا يخيب مقصود من اعتمد عليه . وبالله التوفيق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المديد حـ 1 صـ 152 ﴾

(33/63)

ومن فوائد ابن عرفة فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الكتاب . . . ﴾ .

قيل لابن عرفة : ذكر بعضهم في الفاعل أنه يشترط فيه ما يشترط في المبتدإ إذا كان نكرة من أنه لا بد له من مسوغ ، وذكره في قول الله جلّ ذكره : ﴿ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ ﴾ قال ابن عرفة : لم أسمع هذا من أحد إلا في المبادى كنت أسمعه في قول الجزولي أسند إليه فعل ، أو ما جرى مجراه .

قال ابن عرفة : ومن دعا على مسلم أن يميته الله كافرا (ما يلزمه ؟) فقال النووي : إن اعتقد مرجوحية الإيمان فهو كافر ، وإلا فهو عاص وإثمه أشد من إثم من دعا على الكافر أن يميته الله كافرا .

والخلاف عندنا في شرطية النطق بالشهادتين هل لا بد منها مع القدرة عليها (أو) يكفي الاعتقاد ؟ وأما إن صرح بكلمة الكفر فهو كافر بإجماع ، وانظر سورة الحجرات .

قوله تعالى : ﴿ مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الحق . . . ﴾ .

إمّا أن كفرهم عناد أو ليس بعناد ، بناء على أن ارتباط الدليل بالمدلول عادي أو عقلي فيكون الله تعالى (أنبأهم) ذلك في ثاني حال بعد أن علموه وتحققوه .

قوله تعالى : ﴿ فاعفوا واصفحوا . . . ﴾ .

قال ابن عرفة : العفو رفع الحرج عمن ثبت وتقرر كمن عفا عن قاتل وليّه بعد ثبوته القتل عليه (والصفح رفع الحرج عن الشخص قبل (ثبوت) موجبه كمن عفا عن قاتل وليه قبل ثبوت القتل عليه ، قال : ويكون هذا ترقيا أي فاعفوا عنهم حتى تؤمروا بقتالهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عرفة حـ 1 صـ 396. 397 ﴾

ومن فوائد الإمام القرطبى فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الكتاب لَوْ يَرُدُّونَكُم مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الحق ﴾ .

فيها مسألتان :

الأولى : ﴿ وَدَّ ﴾ تمنّى ، وقد تقدّم .

﴿ كُفَّاراً ﴾ مفعول ثان ب "يَرُدُّونَكُمْ" .

﴿ مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ ﴾ قيل : هو متعلق ب" وَدّ" .

وقيل : ب "حَسَداً" ؛ فالوقف على قوله : "كفّاراً" .

و" حسداً" مفعول له ؛ أي وَدُّوا ذلك للحسد ، أو مصدر دلّ ما قبله على الفعل .

ومعنى "مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ" أي من تلقائهم من غير أن يجدوه في كتاب ولا أمِروا به ؛ ولفظة الحسد تُعطي هذا .

(34/63)

فجاء "مِن عِنْدِ أَنْفُسِهِم" تأكيداً وإلزاماً ؛ كما قال تعالى : ﴿ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم ﴾ [آل عمران : 167] ﴿ يَكْتُبُونَ الكتاب بِأَيْدِيهِمْ ﴾ [البقرة : 79] ، ﴿ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ ﴾ [الأنعام : 38] .

والآية في اليهود .

الثانية : الحسد نوعان : مذموم ومحمود ؛ فالمذموم أن تتمنّى زوال نعمة الله عن أخيك المسلم ؛ وسواء تمنيت مع ذلك أن تعود إليك أوْ لا ؛ وهذا النوع الذي ذمّه الله تعالى في كتابه بقوله : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ الناس على مَا آتَاهُمُ الله مِن فَضْلِهِ ﴾ [النساء : 54] وإنما كان مذموماً لأن فيه تسفيه الحق سبحانه ، وأنه أنعم على من لا يستحق .

وأما المحمود فهو ما جاء في صحيح الحديث من قوله عليه السلام .

" لا حَسدَ إلا في اثنتين رجلٍ آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليلِ وآناء النهارِ ورجلٍ آتاه الله مالاً فهو ينفقه آناء الليلِ وآناء النهارِ " وهذا الحسد معناه الغِبطة .

وكذلك ترجم عليه البخاري " باب الاغتباط في العلم والحكمة" .

وحقيقتها : أن تتمنّى أن يكون لك ما لأخيك المسلم من الخير والنعمة ولا يزول عنه خيره ؛ وقد يجوز أن يسمَّى هذا منافسة ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ المتنافسون ﴾ [المطففين : 26] .

﴿ مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الحق ﴾ أي من بعد ما تبيّن الحق لهم وهو محمد صلى الله عليه وسلم ، والقرآن الذي جاء به .

قوله تعالى : ﴿ فاعفوا واصفحوا ﴾ فيه مسألتان :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ فاعفوا ﴾ والأصل اعفووا حُذفت الضمة لثقلها ، ثم حذفت الواو لألتقاء الساكنين .

والعَفْوُ : ترك المؤاخذة بالذنب .

والصفح : إزالة أثره من النفس .

صفحت عن فلان إذا أعرضت عن ذنبه .

وقد ضربت عنه صفحاً إذا أعرضت عنه وتركته ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذكر صَفْحاً ﴾ [الزخرف : 5] الثانية : هذه الآية منسوخة بقوله : ﴿ قَاتِلُواْ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ [التوبة : 29] إلى قوله : ﴿ صَاغِرُونَ ﴾ [التوبة : 29] عن ابن عباس .

وقيل : الناسخ لها ﴿ فاقتلوا المشركين ﴾ [التوبة : 5] .

قال أبو عبيدة : كل آية فيها تركٌ للقتال فهي مَكِّية منسوخة بالقتال .

قال ابن عطية : وحُكْمه بأن هذه الآية مَكِّية ضعيف ؛ لأن معاندات اليهود إنما كانت بالمدينة .

قلت : وهو الصحيح ، روى البخاريّ ومسلم عن أسامة بن زيد " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رَكِب على حمار عليه قَطِيفة فَدَكِّية وأسامة وراءه ، يعود سعد بن عُبَادة في بني الحارث ابن الخزرج قبل وقعة بدْر ؛ فسارا حتى مرّا بمجلس فيه عبد اللَّه بن أَبي ابن سَلُول وذلك قبل أن يسلم عبد اللَّه بن أُبَيّ فإذا في المجلس أخلاط من المسلمين والمشركين عَبَدة الأوثان واليهود ؛ وفي المسلمين عبد اللَّه بن رَوَاحة ؛ فلما غشِيت المجلس عَجَاجةُ الدابة خَمَّر ابن أُبَيّ أنفه بردائه وقال : لا تُغَبِّروا علينا ! فسلّم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم وقف فنزل ، فدعاهم إلى الله تعالى وقرأ عليهم القرآن ؛ فقال له عبد اللَّه بن أَبي ابن سَلُول : أيها المرء ، لا أحسن مما تقول إن كان حقا ! فلا تؤذنا به في مجالسنا ، (ارجع إلى

رَحْلك) فمن جاءك فاقصص عليه .

قال عبد اللَّه بن رَوَاحة : بلى يا رسول الله ، فاغشنا في مجالسنا ، فإنا نحب ذلك .

(36/63)

فاستتب المشركون والمسلمون واليهود حتى كادوا يتثاورون ؛ فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يُخَفّضهم حتى سكنوا ؛ ثم ركب رسول الله صلى الله عليه وسلم دابته فسار حتى دخل على سعد بن عبادة ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (يا سعد) ألم تسمع إلى ما قال أبو حُبّاب يريد عبد اللَّه بن أُبَيّ قال كذا وكذا " فقال : أي رسول الله ، بأبي أنت وأمي ! اعف عنه واصفح ، فوالذي أنزل عليك الكتاب بالحق لقد جاءك الله بالحق الذي أنزل عليك ؛ ولقد اصطلح أهل هذه البُحيرة على أن يُتَوّجُوه ويُعَصّبُوه بالعصابة ، فلمّا ردّ الله ذلك بالحق الذي أعطاك شَرِق بذلك ، فذلك فعل ما رأيت ؛ فعفا عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم " .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه يَعْفُون عن المشركين وأهل الكتاب كما أمرهم الله تعالى ، ويصبرون على الأذى ؛ قال الله عز وجل : ﴿ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الذين أُوتُواْ الكتاب مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الذين أشركوا أَذًى كَثِيراً ﴾ [آل عمران : 186] وقال : ﴿ وَدَّ

كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الكتاب ﴾ .

فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتأوّل في العفو عنهم ما أمره الله به حتى أَذِن له فيهم ؛ فلما غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم بدراً فقتل الله به مَن قتل مِن صناديد الكفار وسادات قريش ؛ فقَفَل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه غانمين منصورين ، معهم أسارى من صناديد الكفار وسادات قريش ؛ قال عبد اللَّه بن أَبيّ بن سَلُول ومَن معه من المشركين وعَبَدة الأوثان : هذا أَمْرٌ قد تَوجّه ؛ فبايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الإسلام ، فأسلموا .

قوله تعالى : ﴿ حتى يَأْتِيَ الله بِأَمْرِهِ ﴾ يعني قَتْل قُرَيظة وجلاء بني النَّضير .

﴿ إِنَّ الله على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 1 صـ 70 . 73 ﴾

(37/63)

ومن فوائد ابن عاشور فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الكتاب . . . ﴾ .

مناسبته لما قبله أن ما تقدم إخبار عن حسد أهل الكتاب وخاصة اليهود منهم ، وآخرتها شبهة النسخ ، فجيء في هذه الآية بتصريح بمفهوم قوله : ﴿ ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ﴾ [البقرة : 105] الآية لأنهم إذا لم يودوا مجيء هذا الدين الذي اتبعه المسلمون فهم يودون بقاء من أسلم على كفره ويودون أن يرجع بعد إسلامه إلى الكفر .

وقد استطرد بينه وبين الآية السابقة بقوله : ﴿ ما ننسخ ﴾ [البقرة : 106] الآيات للوجوه المتقدمة ، فلأجل ذلك فصلت هاته الجملة لكونها من الجملة التي قبلها بمنزلة البيان إذ هي بيان لمنطوقها ولمفهومها .

وفي " تفسير ابن عطية" و" الكشاف" و" أسباب النزول" للواحدي أن حذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر أتيا بيت المدراس وفيه فنحاص بن عازوراء وزيد بن قيس وغيرهما من اليهود فقالوا لحذيفة وعمار : " ألم تروا ما أصابكم يوم أحد ولو كنتم على الحق ما هزمتم فارجعوا إلى ديننا فهو خير ونحن أهدى منكم" فردا عليهم وثبتا على الإسلام .

والود تقدم في الآية السالفة .

وإنما أسند هذا الحكم أي الكثير منهم وقد أسند قوله : ﴿ ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ﴾ [البقرة : 105] إلى جميعهم لأن تمنيهم أن لا ينزل دين إلى المسلمين يستلزم تمنيهم أن يتبع المشركون دين اليهود أو النصارى حتى يعم ذلك الدين جميع بلاد العرب فلما جاء الإسلام شرقت لذلك صدورهم جميعاً فأما علماؤهم وأحبارهم فخابوا وعلموا أن

ما صار إليه المسلمون خير مما كانوا عليه من الإشراك لأنهم صاروا إلى توحيد الله والإيمان بأنبيائه ورسله وكتبه وفي ذلك إيمان بموسى وعيسى وإن لم يتبعوا ديننا ، فهم لا يودون رجوع المسلمين إلى الشرك القديم لأن في مودة ذلك تمني الكفر وهو رضي به .

(38/63)

وأما عامة اليهود وجهلتهم فقد بلغ بهم الحسد والغيظ إلى مودة أن يرجع المسلمون إلى الشرك ولا يبقوا على هذه الحالة الحسنة الموافقة لدين موسى في معظمه نكاية بالمسلمين وبالنبيء صلى الله عليه وسلم قال تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً ﴾ [النساء : 51] وفي هذا المعنى المكتنز ما يدلكم على وجه التعبير بِ ﴿ يردونكم ﴾ دون لو كفرتم ليشار إلى أن ودادتهم أن يرجع المسلمون إلى الشرك لأن الرد إنما يكون إلى أمر سابق ولو قيل لو كفرتم لكان فيه بعض العذر لأهل الكتاب لاحتماله أنهم يودون مصير المسلمين إلى اليهودية .

وبه يظهر وجه مجيء ﴿ كفاراً ﴾ معمولاً لمعمول ﴿ ود كثير ﴾ ليشار إلى أنهم ودوا أن يرجع المسلمون كفاراً بالله أي كفارا كفراً متفقاً عليه حتى عند أهل الكتاب وهو الإشراك

فليس ذلك من التعبير عن ما صْدق ما ودوه بل هو من التعبير عن مفهوم ما ودوه ، وبه يظهر أيضاً وجه قوله تعالى : ﴿ من بعد ما تبين لهم الحق ﴾ فإنه تبيُّنُ أن ما عليه المسلمون حق من جهة التوحيد والإيمان بالرسل بخلاف الشرك ، أو من بعد ما تبين لهم صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم عندهم إذا كان المراد بالكثير منهم خاصة علمائهم والله مطلع عليهم .

و﴿ لو ﴾ هنا بمعنى أن المصدرية ولذلك يؤول ما بعدها بمصدر .

و﴿ حسداً ﴾ حال من ضمير ﴿ وَدَّ ﴾ أي إن هذا الود لا سبب له إلا الحسد لا الرغبة في الكفر .

وقوله : ﴿ من عند أنفسهم ﴾ جيء فيه بمن الابتدائية للإشارة إلى تأصل هذا الحسد فيهم وصدوره عن نفوسهم .

وأُكد ذلك بكلمة (عند) الدالةِ على الاستقرار ليزداد بيانُ تمكنه وهو متعلق بحسداً لا بقوله : ﴿ ود ﴾ .

وإنّما أمر المسلمون بالعفو والصفح عنهم في هذا الموضع خاصة لأن ما حكى عن أهل الكتاب هنا مما يثير غضب المسلمين لشدة كراهيتهم للكفر قال تعالى : ﴿ وكره إليكم الكفر ﴾ [الحجرات : 7] فلا جرم أن كان من يود لهم ذلك يعدونه أكبر أعدائهم فلما كان هذا الخبر مثيراً للغضب خيف أن يفتكوا باليهود وذلك ما لا يريده الله منهم لأن الله أراد منهم أن يكونوا مستودع عفو وحلم حتى يكونوا قدوة في الفضائل .

والعفو ترك عقوبة المذنب .

والصفح بفتح الصاد مصدر صفح صفحاً إذا أعرض لأن الإنسان إذا أعرض عن شيءٍ ولاه من صفحة وجهه ، وصفح وجهه أي جانبه وعرضه وهو مجاز في عدم مواجهته بذكر ذلك الذنب أي عدم لومه وتثريبه عليه وهو أبلغ من العفو كما نقل عن الراغب ولذلك عطف الأمر به على الأمر بالعفو لأن الأمر بالعفو لا يستلزمه ولم يستغن باصفحوا لقصد التدريج في أمرهم بما قد يخالف ما تميل إليه أنفسهم من الانتقام تلطفاً من الله مع المسلمين في حملهم على مكارم الأخلاق .

وقوله : ﴿ حتى يأتي الله بأمره ﴾ أي حتى يجيء ما فيه شفاء غليلكم قيل هو إجلاء بني النضير وقتل قريظة ، وقيل الأمر بقتال الكتابيين أو ضرب الجزية .

والظاهر أنه غاية مبهمة للعفو والصفح تطميناً لخواطر المأمورين حتى لا ييأسوا من ذهاب أذى المجرمين لهم بطلاً وهذا أسلوب مسلوك في حمل الشخص على شيء لا يلائمه كقول

الناس حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً فإذا جاء أمر الله بترك العفو انتهت الغاية ، ومن ذلك إجلاء بني النضير .

ولعل في قوله : ﴿ إن الله على كل شيء قدير ﴾ تعليماً للمسلمين فضيلة العفو أي فإن الله قدير على كل شيء وهو يعفو ويصفح وفي الحديث الصحيح " لا أحد أصبر على أذى يسمعه من الله عز وجل يدعون له نداً وهو يرزقهم "

، أو أراد أنه على كل شيء قدير فلو شاء لأهلكهم الآن ولكنه لحكمته أمركم بالعفو عنهم وكل ذلك يرجع إلى الائتساء بصنع الله تعالى وقد قيل : إن الحكمة كلها هي التشبه بالخالق بقدر الطاقة البشرية .

فجملة ﴿ إن الله على كل شيء قدير ﴾ تذييل مسوق مساق التعليل ، وجملة ﴿ فاعفوا واصفحوا ﴾ إلى قوله : ﴿ وقالوا لن يدخل ﴾ [البقرة : 111] تفريع مع اعتراض فإن الجملة المعترضة هي الواقعة بين جملتين شديد تي الاتصال من حيث الغرض المسوق له الكلام والاعتراض هو مجيء ما لم يسق غرض الكلام له ولكن للكلام والغرض به علاقة وتكميلاً وقد جاء التفريع بالفاء هنا في معنى تفريع الكلام على الكلام لا تفريع معنى المدلول

على المدلول لأن معنى العفو لا يتفرع عن ود أهل الكتاب ولكن الأمر به تفرع عن ذكر هذا الود الذي هو أذى وتجيء الجملة المعترضة بالواو وبالفاء بأن يكون المعطوف اعتراضاً .

وقد جوزه صاحب " الكشاف" عند قوله تعالى : ﴿ فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾ في سورة النحل (43) ، وجوزه ابن هشام في " مغني اللبيب" واحتج له بقوله تعالى : ﴿ فالله أولى بهما ﴾ [النساء : 135] على قول ونقل بعض تلامذة الزمخشري أنه سئل عن قوله تعالى في سورة عبس (11 13) ﴿ إنها تذكرة فمن شاء ذكره في صحف مكرمة ﴾ أنه قال لا يصح أن تكون جملة ﴿ فمن شاء ذكره ﴾ اعتراضاً لأن الاعتراض لا يكون مع الفاء ورده صاحب " الكشاف" بأنه لا يصح عنه لمنافاته كلامه في آية سورة النحل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 1 صـ 653.651 ﴾

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

هذه الآية الكريمة تتناول أحداثا وقعت بعد غزوة أحد . . وفي غزوة أحد طلب رسول الله صلى الله عليه وسلم . . من الرماة ألا يغادروا مواقعهم عند سفح الجبل سواء انتصر المسلمون أو انهزموا . . فلما بدأت بوادر النصر طمع الرماة في الغنائم . . فخالفوا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فهزمهم الله . . ولكن الكفار لم يحققوا نصر لأن النصر هو أن تحتل أرضا وتبقى . هؤلاء الكفار بعد المعركة انطلقوا عائدين إلي مكة . . حتى أن المسلمين عندما خرجوا للقائهم في اليوم التالي لم يجدوا أحداً . . يهود المدينة استغلوا هذا الحديث . . وعندما التقوا بحذيفة بن اليمان وطارق وغيرهما . . قالوا لهم إن كنتم مؤمنين حقا لماذا انهزمتم فارجعوا إلي ديننا واتركوا دين محمد . . فقال لهم حذيفة ماذا يقول دينكم في نقض العهد ؟ . . يقصد ما تقوله التوراة في نقض اليهود ولعهودهم مع الله ومع موسى . . ثم قال أنا لن انقض عهدي مع محمد ما حييت . . أما عمار فقال . . لقد آمنت بالله ربا وآمنت بمحمد رسولا وآمنت بالكتاب إماما وآمنت بالكعبة قبلة وآمنت بالمؤمنين إخوة وسأظل على هذا ما حييت .

وبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قاله حذيفة وطارق بن ياسر فسر بذلك ولكن اليهود كانوا يستغلون ما حدث في أحد ليهزموا العقيدة الإيمانية في قلوب المسلمين كما استغلوا تحويل القبلة من بيت المقدس إلي الكعبة ليهزموا الإيمان في القلوب وقالوا إذا كانت القبلة تجاه بيت المقدس باطلة فلماذا اتجهتم إليها ، وإذا كانت صحيحة فلماذا تركتموها ، فنزل قول الله تعالى : " ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم " . انظر إلي دقة التعبير القرآني في قوله تعالى : " من أهل الكتاب " . . فكأن بعضهم فقط هم الذين كانوا يحاولون رد المؤمنين عن دينهم . . ولكن كانت هناك قلة تفكر في الإيمان بمحمد عليه الصلاة والسلام . . ولو أن الله جل جلاله حكم على كل أهل الكتاب لسد الطريق أمام هذه القلة أن يؤمنوا . . أي أن أهل الكتاب من اليهود يحبون أن يردوكم عن دينكم وهؤلاء هم الكثرة . . لأن الله تعالى قال : " ود كثير من أهل الكتاب " .

وقوله تعالى : " من بعد إيمانكم كفارا " . . كفارا بماذا ؟ . . بما آمنتم به أو بما يطلبه منكم دينكم . . وهم لا يفعلون ذلك عن مبدأ أو عقيدة أو لصالحكم ولكن : " حسدا من عند أنفسهم " . . فدينهم يأمرهم بعكس ذلك . . يأمرهم أن يؤمنوا برسالة محمد صلى الله عليه وسلم . . ولذلك فهم لا ينفذون ما تأمرهم أن يؤمنوا برسالة محمد صلى الله عليه وسلم . . ولذلك فهم لا ينفذون ما تأمرهم به التوراة حينما يرفضون الإيمان بالإسلام . . والذي يدعوهم إلي أن يحاولوا ردكم عن دينكم هو الحسد . . والحسد هو تمني زوال

النعمة عمن تكره . . وقوله تعالى : " حسدا من عند أنفسهم " . . أي هذه المسألة من ذواتهم لأنهم يحسدون المسلمين إخوانا متحابين متكاتفين مترابطين . . بينما هم شيع وأحزاب . . وهناك حسد يكون من منطق الدين وهذا مباح . .

(43/63)

< ولذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله مالا فسلط على هلكته في الحق ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها الناس " > رواه البخارى فى العلم ومسلم فى قصر الصلاة وابن ماجة فى الزكاة واحمد فى فى مسنده فكأن الحسد حرام في غير هاتين الحالتين . . فكأن هؤلاء اليهود يحسدون المسلمين على دينهم . . وهذا الحسد من عند أنفسهم لا تقره التوراة ولا كتبهم . . وقوله سبحانه : " من بعد ما تبين لهم أنه الحق " . . أي بعد ما تأكدوا من التوراة من شخصية رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنه النبي الخاتم .

(44/63)

وقوله تعالى : فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره" . . ما هو العفو وما هو الصفح ؟ . . يقال عفت الريح الأثر أي مسحته وأزالته . . فالإنسان حين يمشي على الرمال تترك قدمه أثرا فتأتي الريح وتعفو الأثر أي تزيله . . ولذلك فإن العفو أن تمحو من نفسك أثر أي إساءة وكأنه لم يحدث شيء . . والصفح يعني طي صفحات هذا الموضوع لا تجعله في بالك ولا تجعله يشغلك . . وقوله تعالى : " حتى يأتي الله بأمره" . . أن هذا الوضع بالنسبة لليهود وما يفعلونه في المؤمنين لن يستمر لأن الله سبحانه قد أعد لهم أمرا ولكن هذا الأمر لم يأت وقته ولا أوانه . . وعندما يأتي سيتغير كل شيء . . لذلك يقول الله للمؤمنين لن تظلوا هكذا . . بل يوم تأخذونهم فيه بجرائمهم ولن يكون هذا اليوم بعيدا . . عندما يقول الله سبحانه : " حتى يأتي الله بأمره" . . فلابد أن أمر الله آت . . لأن هذه قضية تتعلق بجوهر الإيمان كله . . فلا يقال أبدا حتى يأتي الله بأمره ثم لا يجئ هذا الأمر . . بل أمر الله بلا شك نافذ وسينصركم عليهم . . وقوله تعالى : " إن الله على كل شيء قدير" . . أن الله له طلاقة القدرة في ملكه . . ولذلك إذا قال أنه سيأتي بأمر فسيتحقق هذا الأمر حتما وسيتم . . ولا توجد قدرة في هذا الكون إلا قدرة الله سبحانه . . ولا قوة إلا قوته جل جلاله . . ولا فعل إلا ما أراد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 523.

﴿ 525

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله تعالى : ﴿ لَوْيَرُدُّنَكُم ﴾ الكلام في " لو " كالكلام فيها عند قوله : ﴿ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ ﴾ [البقرة : 96] ، فمن جعلها مصدرية هناك جعلها كذلك هنا ، وقال : هي مفعول " يود " أي : ودّ كثير ردَّكم .

ومن أبي جعل جوابها محذوفاً تقديره : لو يردونكم كفاراً لسُرُّوا أو فرحوا بذلك .

وقال بعضهم : تقديره : لو يردونكم كفاراً لودّوا ذلك ، ف " وَدَّ " دَالَّى على الجواب ، وليست بجواب ؛ لأن " لو " لا يتقدمها جوابها كالشرط .

وهذا التقدير الذي قدره هذا القائل فاسد ، وذلك أن " لو " حرف لما كان سيقع لوقوع غيره ، فيلزم من تقديره ذلك أن وَدَادتهم ذلك لم تقع ؛ لأن الموجب لظفاً منفي معنى ، والغرض من وَدَادَتهم ذلك واقعة باتفاق ، فتقدير لسروا ونحوه هو الصحيح .

و " يرد " هنا فيه قولان .

أحدهما وهو الواضح أنها المتعدّية لمفعولين بمعنى " صَيَّر " ، فضمير المخاطبين مفعولاً أول ، و " كفاراً " مفعول ثان ؛ ومن مجيء " رَدَّ " بمعنى " صَيَّر " قوله : [الوافر]

733 رَمَى الْحَدَثَانُ نِسْوَةَ آلِ حَرْبٍ . . .

بِمِقْدَارٍ سَمَدْنَ لَهُ سُمُودَا

فَرَدَّ شُعُورَهُنَّ السُّودَ بِيضاً . . .

وَرَدَّ وُجُوهَهُنَّ البِيضَ سُودَا

وجعل أبو البقاء كفاراً حالاً من ضمير المفعول على أنها المتعدية لواحد ، وهو ضعيف ، فأن الحال يستغنى عنها غالباً ، وهذا لابد منه .

و" مِنْ بَعد " متعلق بـ" يردُّونكم " و" من " لابتداء الغاية .

قوله تعالى : " حسداً " نصب على المفعول له ، وفيه الشروط المجوّزة لنصبه ، والعامل فيه " ود " أي : الحامل على ودادتهم رَدَّكم كُفَاراً حَسَدُهُم لكم .

وجوزوا فيه وجهين آخرين :

أحدهما : أنه مصدر في موضع الحال ، وإنما لم يجمع لكوه مصدراً ، أي : حاسدين ، وهذا ضعيف ، لأن مجيء المصدر حالاً لا يطّرد .

الثاني : أنه منصوب على المصدرية بفعل من لفظه أي يحسدونكم حسداً [والأول أظهر الثلاثة] .

قوله تعالى : ﴿ مِنْ عِنَدِ أَنْفُسِهِمْ ﴾ في هذا الجار ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه متعلّق بـ" ود " أي : ودوا ذلك من قبل شهواتهم لا من قبل التدين [والميل مع الحق ؛ لأنهم ودّوا ذلك من بعد ما تبيّن لهم أنكم على الحق] و" من " لابتداء الغاية .

الثاني : أنه صفة لـ " حسداً " فهو في محلّ نصب ، ويتعلّق بمحذوف أي : حسداً كائناً من قبلهم وشهوتهم ، ومعناه قريب من الأول .

[الثالث : أنه متعلّق بـ " يردّونكم " ، و" من " للسببية .

أي : يكون الردّ من تلقائهم وجهتهم وبإغوائهم] .

قوله تعالى : " من بعد ما " متعلّق بـ " وَدَّ " ، و" من " للابتداء ، أي : أنَّ ودادتهم ذلك ابتدأت من حيث وضوح الحق ، وتبيّنه لهم ، فكفرهم عُنَادٌ ، و" ما " مصدرية أي : من بعد تبيين الحَقّ .

والحسد : تمنّي زوال نعمة الإنسان .

والمصدر حَسَدٌ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 2 صـ 390 . 391 ﴾ .

باختصار .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ

بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (109) ﴾

مَنْ لَحِقَه خسران الفهم من أصحاب الغفلة ودَّ ألّا يطلع لأحدٍ بالسلامة نجمٌ ، ومَنْ اعتراه الحسد أراد ألا تنبسط على محسوده شمسٌ .

وكذلك كانت صفات الكفار ، فأرغم الله أُنُفَهُم ، وكبَّهم على وجوههم .

والإشارة من هذا إلى حال أصحاب الإرادة في البداية إذا رغبوا في السلوك ، فمن لم يساعده التوفيق (في الصحبة ، وعاشر أناساً متمرّسين بالظواهر) فإنهم يمنعون هؤلاء من السلوك ولا يزالون يخاطبونهم بلسان النصح ، والتخويف بالعجز والتهديد بالفقر حتى ينقلوهم إلى سبيل الغفلة ، ويقطعوا عليهم طريق الإرادة ، أولئك أعداء الله حقاً ، أدركهم مقت الوقت . وعقوبتهم حرمانهم من أن يشموا شيئاً من روائح الصدق .

﴿ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا ﴾ فسبيل المريد أن يحفظ عن الأغيار سِرَّه ، ويستعمل مع كل أحدٍ ضلة ، ويبذل في الطلب رفعة ، فعن قريب يفتح الحق عليه طريقه . انتهى . اهـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 113 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (110) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما أمرهم بالثقة بهذا الكتاب ما نسخ منه وما لم ينسخ وأن لا يعوقهم عنه طعن الطاعنين ولا حسد الحاسدين وأمرهم بالإعراض عن الغير أمرهم بالإقبال على إصلاح النفس والإحسان إلى الغير مما اتصف به المهتدون في قوله تعالى : ﴿ ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ﴾ [البقرة : 2] ولما كان المقصود من الصلاة قصر الهمة والنية على الحضرة الإلهية وتفريغ البال من جميع الشواغل علم أن التقدير بعد الختم بشمول القدرة فاعلموا ذلك وثقوا به ﴿ وأقيموا الصلاة ﴾ التي هي مع كونها سنبتليكم في قبلتها بالنسخ قوام الدين والمعينة على جميع النوائب بإعانة الخالق الذي قصد بها الإقبال عليه والتقرب إليه ﴿ وآتوا الزكاة ﴾ التي هي قرينة الصلاة ، فمن فرق بينهما فقد نسخ ما أثبت الله فاستحق القتال ليرجع عما ارتكب من الضلال ، وهي من أعظم نفقات المؤمنين إحساناً إلى الخلائق إن كنتم مصلين بالحقيقة ، فإن المال بعض ما صرفت عنه الصلاة من أعراض الدنيا .

ولما كان قوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا ﴾ [البقرة : 104] وما بعده خطاباً للمؤمنين تحذيراً من كيد أعدائهم بالنهي عما يرديهم والأمر بما ينجيهم وختمه بهذه الآية فذلكة لذلك كله جميعاً لمعانيه وفتحها برأس العبادات البدنية والمالية وكانت " أل " مشيرة إلى الواجب من ذلك ختم الآية نفسها بالأمر العام الجامع فقال : ﴿ وما تقدموا لأنفسكم من خير ﴾ أي من الصلاة والزكاة وغيرهما فرضاً ونفلاً ﴿ تجدوه ﴾ وزاد ترغيباً فيه بقوله : ﴿ عند الله ﴾ أي الجامع لصفات الكمال .

فهو يحفظه بما له من العلم والقدرة ويربيه بما له من الكرم والرحمة – إلى غير ذلك من أمور الفضل .

ولما كان الشيء قد يهمل لكونه صغيراً وقد لا يطلع عليه لكونه خفياً حقيراً قال مرغباً مرهباً : ﴿ إن الله ﴾ المحيط قدرة وعلماً ﴿ بما تعملون بصير ﴾ وأظهر الاسم في موضع الإضمار إشعاراً بالاستئناف للخير ليكون ختماً جامعاً .

لأنه لو عاد على خصوص هذا الخطاب لكان " إنه " ، وذلك لأن تجديد الإظهار يقع بمعنى رد ختم الخطاب على إحاطة جملته – قاله الحرالي .

والمعنى أنه لو أضمر لكان ربما أفهم تقيد علمه بجيثية ما تقدم من عمل الخير ؛ وعلى مثل هذا دل قول العلامة شمس الدين الغزي في أول شرحه لإيساغوجي : الغالب في المضمر

إرادة المعنى الأول ، وأما حديث : إعادة الشيء معرفة .

فأصل يعدل عنه كثيراً للقرائن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 220 .

221 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أنه تعالى أمر بالعفو والصفح عن اليهود ، ثم عقبه بقوله تعالى : ﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾ تنبيهاً على أنه كما ألزمهم لحظ الغير وصلاحه العفو والصفح ، فكذلك ألزمهم لحظ أنفسهم وصلاحها القيام بالصلاة والزكاة الواجبتين ، ونبه بهما على ما عداهما من الواجبات .

ثم قال بعده : ﴿ وَمَا تُقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ ﴾ والأظهر أن المراد به التطوعات من الصلوات والزكوات ، وبين تعالى أنهم يجدونه وليس المراد أنهم يجدون عين تلك الأعمال لأنها لا تبقى ولأن وجدان عين تلك الأشياء لا يرغب فيه ، فبقي أن المراد وجدان ثوابه وجزائه ، ثم قال : ﴿ إِنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ أي أنه لا يخفى عليه القليل ولا الكثير من

الأعمال وهو ترغيب من حيث يدل على أنه تعالى يجازي على القليل كما يجازي على الكثير ، وتحذير من خلافه الذي هو الشر ،

وأما الخير فهو النفع الحسن وما يؤدي إليه ، فلما كان ما يأتيه المرء من الطاعة يؤدي به إلى المنافع العظيمة ، وجب أن يوصف بذلك ، وعلى هذا الوجه قال تعالى : ﴿ وافعلوا الخير لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الحج : 77] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 4 صـ 3 ﴾

(50/63)

وقال الطبرى :

وإنما أمرهم جل ثناؤه في هذا الموضع بما أمرهم به ، من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وتقديم الخيرات لأنفسهم ، ليَطَّهروا بذلك من الخطأ الذي سلف منهم في استنصاحهم اليهود ، وركون من كان ركن منهم إليهم ، وجفاء من كان جفا منهم في خطابه رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله : (راعنا) ، إذْ كانت إقامة الصلوات كفارة للذنوب ، وإيتاء الزكاة تطهيرا للنفوس والأبدان من أدناس الآثام ، وفي تقديم الخيرات إدراك الفوز برضوان الله .

القول في تأويل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (110) ﴾

قال أبو جعفر :

وهذا خبر من الله جل ثناؤه للذين خاطبهم بهذه الآيات من المؤمنين ، أنهم مهما فعلوا من خير وشر سرا وعلانية ، فهو به بصير لا يخفى عليه منه شيء ، فيجزيهم بالإحسان خيرا ، وبالإساءة مثلها .

وهذا الكلام وإن كان خرج مخرج الخبر ، فإن فيه وعدا ووعيدا ، وأمرا وزجرا . وذلك أنه أعلم القوم أنه بصير بجميع أعمالهم ، ليجدوا في طاعته ، إذْ كان ذلك مذخورا لهم عنده حتى يثيبهم عليه ، كما قال : (وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله) ، وليحذروا معصيته ، إذْ كان مطلعا على راكبها ، بعد تقدمه إليه فيها بالوعيد عليها ، وما أوعد عليه ربنا جل ثناؤه فمنهي عنه ، وما وعد عليه فمأمور به .

وأما قوله : (بصير) ، فإنه " مبصر " صرف إلى " بصير " ، كما صرف " مبدع " إلى " بديع " ، و " مؤلم " إلى " أليم " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الطبرى حـ 2 صـ 506 ﴾

(51/63)

وقال ابن عطية :

قالت فرقة من الفقهاء : إن قوله تعالى : ﴿ وأقيموا الصلاة ﴾ عموم ، وقالت فرقة : هو من مجمل القرآن ، والمرجح أن ذلك عموم من وجه ومجمل من وجه ، فعموم من حيث الصلاة

الدعاء ، فحمله على مقتضاه ممكن ، وخصصه الشرع بهيئات وأفعال وأقوال ، ومجمل من حيث الأوقات ، وعدد الركعات والسجدات لا يفهم من اللفظ ، بل السامع فيه مفتقر إلى التفسير ، وهذا كله في ﴿ أقيموا الصلاة ﴾ ، وأما الزكاة فمجملة لا غير .

قال الطبري : إنما أمر الله هنا بالصلاة والزكاة لتحط ما تقدم من ميلهم إلى أقوال اليهود ﴿ راعنا ﴾ [البقرة : 104] ، لأن ذلك نهي عن نوعه ، ثم أمر المؤمنين بما يحطه ، والخير المقدم منقض لأنه فعل ، فمعنى ﴿ تجدوه ﴾ تجدوا ثوابه وجزاءه ، وذلك بمنزلة وجوده .

وقوله تعالى : ﴿ إن الله بما تعملون بصير ﴾ خبر في اللفظ معناه الوعد والوعيد . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 1 صـ 197 ﴾

(52/63)

وقال الآلوسى :

﴿ وَأَقِيمُواْ الصلاة وَءاتُواْ الزكواة ﴾ عطف على ﴿ فاعفوا ﴾ [البقرة : 109] كأنه سبحانه أمرهم بالمخالقة والالتجاء إليه تعالى بالعبادة البدنية والمالية لأنها تدفع عنهم ما يكروهون ، وقول الطبري : إنهم أمروا هنا بالصلاة والزكاة ليحبط ما تقدم من ميلهم إلى قول اليهود ﴿ راعنا ﴾ [البقرة : 104] منحط عن درجة الاعتبار .

﴿ وَمَا تُقَدِّمُواْ لأَنْفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ ﴾ أي أي خير كان ، وفي ذلك توكيد للأمر بالعفو والصفح ، والصلاة والزكاة ، وترغيب إليه ، واللام نفعية ، وتخصيص الخير بالصلاة ، والصدقة خلاف الظاهر ، وقرئ (تقدموا) من قدم من السفر ، وأقدمه غيره جعله قادماً ، وهي قريب من الأولى لا من الإقدام ضد الإحجام .

(53/63)

﴿ تَجِدُوهُ عِندَ اللهِ ﴾ أي تجدوا ثوابه لديه سبحانه فالكلام على حذف مضاف ، وقيل : الظاهر أن المراد تجدوه في علم الله تعالى ، والله تعالى عالم به إلا أنه بالغ في كمال علمه فجعل ثبوته في علمه بمنزلة ثبوت نفسه عنده وقد أكد تلك المبالغة بقوله سبحانه : ﴿ إِنَّ اللهِ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ حيث جعل جميع ما يعملون مبصراً له تعالى فعبر عن علمه تعالى بالبصر مع أن قليلاً مما يعملون من المبصرات ، وكأنه لهذا فسر الزمخشري البصير بالعالم ، وأما قول العلامة إنه إشارة إلى نفي الصفات ، وأنه ليس معنى السمع والبصر في حقه تعالى إلا تعلق ذاته بالمعلومات ففيه أن التفسير لا يفيد إلا أن المراد من البصير ههنا العالم ولا دلالة على كونه نفس الذات أو زائداً عليه ولا على أن ليس معنى السمع والبصر في حقه تعالى سوى التعلق المذكور ، وقرئ (يعملون) بالياء والضمير حينئذ كناية عن كثير ، أو عن

أهل الكتاب فيكون تذييلاً لقوله تعالى : ﴿ فاعفوا ﴾ [البقرة : 109] الخ مؤكداً لمضمون الغاية ، والمناسب أن يكون وعيداً لأولئك ليكون تسلية ، وتوطيناً للمؤمنين بالعفو والصفح ، وإزالة لاستبطاء إتيان الأمر ، وجوز أن يكون كناية عن المؤمنين المخاطبين بالخطابات المتقدمة ، والكلام وعيد للمؤمنين ، ويستفاد من الالتفات الواقع من صرف الكلام من الخطاب إلى الغيبة ؛ وهو النكتة الخاصة بهذا الالتفات ولا يخفى أنه كلام لا ينبغي أن يلتفت إليه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 358 . 359 ﴾

وقال ابن عاشور :

وقوله تعالى : ﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾ أريد به الأمر بالثبات على الإسلام فإن الصلاة والزكاة ركناه فالأمر بهما يستلزم الأمر بالدوام على ما أنتم عليه على طريق الكناية .

وقوله : ﴿ وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله ﴾ مناسب للأمر بالثبات على الإسلام وللأمر بالعفو والصفح .

وفيه تعريض باليهود بأنهم لا يقدرون قدر عفوكم وصفحكم ولكنه لا يضيع عند الله

ولذلك اقتصر على قوله : ﴿ عند الله ﴾ قال الحطيئة :

من يفعل الخير لا يعدم جوائزه . . .

لا يذهب العرف بين الله والناس

وقوله تعالى : ﴿ إن الله بما تعملون بصير ﴾ تذييل لما قبله .

والبصير العليم كما تقدم ، وهو كناية عن عدم إضاعة جزاء المحسن والمسيء لأن العليم القدير إذا علم شيئاً فهو يرتب عليه ما يناسبه إذ لا يذهله جهل ولا يعوزه عجز ، وفي هذا وعد لهم يتضمن وعيداً لغيرهم لأنه إذا كان بصيراً بما يعمل المسلمون كان بصيراً بما يعمل غيرهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 1 صـ 654.653 ﴾

فائدة

قال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَمَا تُقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ الله ﴾ جاء في الحديث : " أنّ العبد إذا مات قال الناس ما خَلَّف وقالت الملائكة ما قدّم " وخرّج البخاريُّ والنّسائي عن عبد اللَّه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أيُّكم مالُ وارثه أحبُّ إليه من ماله " . قالوا : يا رسول الله ، ما منّا من أحد إلا ماله أحبُّ إليه من مال وارثه ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ليس منكم من أحد إلا مالُ وارثه أحب إليه من ماله .

مالُك ما قدّمت ومالُ وارثك ما أخّرت " ؛ لفظ النسائي .

ولفظ البخاري : قال عبد اللَّه قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " أيُّكم مالُ وارثه أحبُّ إليه من ماله" قالوا : يا رسول الله ، ما منا أحدٌ إلا مالُه أحبُّ إليه ؛ قال : " فإن مالَه ما قدّم ومال وارثه ما أخّر " وجاء عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه مَرّ ببَقِيع الغَرْقَد فقال : السلام عليكم أهلَ القبور ، أخبارُ ما عندنا أن نساءكم قد تزوّجن ، ودُوركم قد سُكنت ، وأموالكم قد قُسمت .

فأجابه هاتف : يا بن الخطاب أخبار ما عندنا أن ما قدّمناه وجدناه ، وما أنفقناه فقد ربِحناه ، وما خلّفناه فقد خسرناه .

ولقد أحسن القائل :

قَدّم لنفسك قبل موتك صالحاً . . .

(55/63)

واعمل فليس إلى الخلود سبيل

وقال آخر :

قدّم لنفسك تَوْبةً مرجُوّة . . .

قبل الممات وقبل حبس الألسن

وقال آخر :

وَلدْتك إذ وَلدْتك أمُّك باكياً . . .

والقومُ حَوْلَك يضحكون سروراَ

فاعمل ليومٍ تكون فيه إذا بكَوْا . . .

في يوم موتك ضاحكاً مسروراَ

وقال آخر :

سابق إلى الخير وبادِرْ به . . .

فإنما خَلْفَك ما تعلمُ

وقدّم الخير فكلّ امرىء . . .

على الذي قدّمه يقدمُ

وأحسن من هذا كله قول أبي العتاهية :

إسعَدْ بمالك في حياتك إنما . . .

يبقى وراءك مصلحٌ أو مفسدُ

وإذا تركت لمفسدٍ لم يبقه . . .

وأخو الصلاح قليله يتزيّد

وإن استطعت فكن لنفسك وارثاً . . .

إن المورّث نفسه لمسدّد . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 2 صـ 73. 74 ﴾

فائدة

قال الثعلبى :

عن أنس بن مالك قال : لمّا ماتت فاطمة بنت رسول الله ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ دخل

علي بن أبي طالب الدّار فأنشأ يقول :

لكلّ اجتماع من خليلين فرقة

وكلّ الّذي دون الفراق قليل

وإنّ افتقادي واحداً بعد واحد

دليلٌ على أن لا يدوم خليل

ثمّ دخل المقابر فقال : السلام عليكم يا أهل القبور أموالكم قسّمت ودوركم سكّنت

وأزواجكم نكحت فهذا خبر ما عندنا فما خبر ما عندكم ؟

فهتف هاتف : وعليكم السلام ما أكلنا رِبْحَنَا وما قدّمنا وجدنا وما خلّفنا خسرنا .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 1 صـ 259 ﴾

(57/63)

ومن فوائد ابن عرفة فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ وَأَقِيمُواْ الصلاة وَءَاتُواْ الزكاة . . . ﴾ .

إن قلت : هلا قيل : وأقيموا الصّلاة والزكاة فيكون أمرا بإقامتهما معا على أبلغ الوجوه ؟

فالجواب : أنّه لما كانت الصّلاة متكررة مشقة على النّفوس أكّدها بالأمر ، وهو الإتيان بها مستوفاة الشرائط ، ولما كانت الزكاة لا تكرر فهي أخف ، اكتفى فيها بالأمر دون تأكيد .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا تُقَدّمُواْ لأَنفُسِكُم مّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ الله . . . ﴾ .

إن قلنا : إن المباح مأمور به فخير .

أفعل من ، لأن المراد بذلك كل ما فيه خير يفضل عن غيره فله فيه الأجر وإن قلنا : إن المباح غير مأمور به ، فافعل فعل ، لا فعل من .

قيل لابن عرفة : وكذلك المباح إذا كان مأمورا به فهو خير ؟

فقال : وكذلك الحرام فيه خير باعتبار الدنيا ، وإنّما المراد بالخير الأخروي وهو الثواب ؛ وأما المباح فلا ثواب فيه ؟ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عرفة حـ 1 صـ 397. 398﴾

(58/63)

ومن فوائد صاحب المنار فى الآيات السابقة

قال رحمه الله :

(مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ)

قَالَ أَئِمَّةُ اللُّغَةِ : إنَّ أَصْلَ النَّسْخِ النَّقْلُ ، سَوَاءٌ كَانَ نَقْلَ الشَّيْءِ بِذَاتِهِ كَمَا يُقَالُ : نَسَخَتِ الشَّمْسُ الظِّلَّ ، أَيْ نَقَلَتْهُ مِنْ مَكَانٍ إلَى مَكَانٍ ، أَوْ نَقْلَ صُورَتِهِ كَمَا يُقَالُ : نَسَخْتُ الْكِتَابَ ، إذَا نَقَلْتُ عَنْهُ صُورَةً مِثْلَ الْأُولَى ، وَوَرَدَ : نَسَخَتِ الرِّيحُ الْأَثَرَ : أَيْ أَزَالَتْهُ . وَأَصْلُ النِّسْيَانِ التَّرْكُ أَوْ هُوَ غَايَتُهُ اللَّازِمَةُ لَهُ ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ - تَعَالَى - : (أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى) (20 : 126) أَيْ تَرَكْتَهَا بِتَرْكِ الْعَمَلِ بِهَا ، فَجَزَاؤُكَ أَنْ

تُتْرَكُ فِي الْعَذَابِ فَاحْفَظِ الْمَعْنَى اللُّغَوِيَّ .

(مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا) .

(الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ) : لِلْمُفَسِّرِينَ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ طَرِيقَانِ :

أَحَدُهُمَا : أَنَّهَا عَلَى حَدِّ قَوْلِهِ – تَعَالَى – : (وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ) (16 : 101) ، فَالنَّسْخُ هُنَا بِمَعْنَى التَّبْدِيلِ ، أَيْ إِذَا جَعَلْنَا آيَةً بَدَلًا مِنْ آيَةٍ ، فَإِنَّنَا نَجْعَلُ هَذَا الْبَدَلَ خَيْرًا مِنَ الْمُبْدَلِ مِنْهُ أَوْ مِثْلَهُ عَلَى الْأَقَلِّ ، فَالْآيَةُ عِنْدَ هَؤُلَاءِ فِي نَسْخِ التِّلَاوَةِ ، وَقَالُوا : إِنَّ الْمُرَادَ بِالنِّسْيَانِ هُوَ أَنْ يَأْمُرَ اللهُ – تَعَالَى – بِعَدَمِ تِلَاوَةِ الْآيَةِ فَتُنْسَى بِالْمَرَّةِ . (قَالَ) : وَهَذَا بِمَعْنَى التَّبْدِيلِ ، فَمَا هِيَ الْفَائِدَةُ فِي عَطْفِهِ عَلَيْهِ بِ (أَوْ) ؟ وَهَلْ هُوَ إِلَّا تَكْرَارٌ يَجِلُّ كَلَامُ اللهِ عَنْهُ ؟ .

وَثَانِيهِمَا : أَنَّ الْمُرَادَ نَسْخُ حُكْمِ الْآيَةِ ، وَهُوَ عَامٌّ يَشْمَلُ نَسْخَ الْحُكْمِ وَحْدَهُ وَنَسْخَهُ مَعَ التِّلَاوَةِ ، وَهَذَا هُوَ الْقَوْلُ الْمُخْتَارُ لِلْجُمْهُورِ ، وَقَالُوا فِي تَوْجِيهِهِ : إِنَّهُ لَا مَعْنَى لِنَسْخِ الْآيَةِ فِي ذَاتِهَا وَلَا حَاجَةَ إِلَيْهِ . وَإِنَّمَا الْأَحْكَامُ تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ وَالْأَحْوَالِ ، فَإِذَا شُرِعَ حُكْمٌ فِي وَقْتٍ لِشِدَّةِ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ ، ثُمَّ زَالَتِ الْحَاجَةُ فِي وَقْتٍ آخَرَ ، فَمِنَ الْحِكْمَةِ أَنْ يُنْسَخَ

الْحُكْمُ وَيُبَدَّلَ بِمَا يُوَافِقُ الْوَقْتَ الْآخَرَ ، فَيَكُونُ خَيْرًا مِنَ الْأَوَّلِ أَوْ مِثْلَهُ فِي فَائِدَتِهِ مِنْ حَيْثُ قِيَامُ الْمَصْلَحَةِ بِهِ . وَقَالُوا : إِنَّ الْمُرَادَ بِالْإِنْسَاءِ إِزَالَةُ الْآيَةِ مِنْ ذَاكِرَةِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ – وَقَدِ اخْتُلِفَ فِي هَذَا : أَيَكُونُ

بَعْدَ التَّبْلِيغِ أَمْ قَبْلَهُ ؟ فَقِيلَ : بَعْدَهُ كَمَا وَرَدَ فِي أَصْحَابِ بِئْرِ مَعُونَةَ وَقِيلَ : قَبْلَهُ حَتَّى أَنَّ السُّيُوطِيَّ رَوَى فِي أَسْبَابِ النُّزُولِ أَنَّ الْآيَةَ كَانَتْ تَنْزِلُ عَلَى النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ – لَيْلًا فَيَنْسَاهَا نَهَارًا ، فَحَزِنَ لِذَلِكَ فَنَزَلَتِ الْآيَةُ . قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : وَلَا شَكَّ عِنْدِي فِي أَنَّ هَذِهِ الرِّوَايَةَ مَكْذُوبَةٌ وَأَنَّ مِثْلَ هَذَا النِّسْيَانِ مُحَالٌ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ – عَلَيْهِمُ السَّلَامُ – ؛ لِأَنَّهُمْ مَعْصُومُونَ فِي التَّبْلِيغِ ، وَالْآيَاتُ الْكَرِيمَةُ نَاطِقَةٌ بِذَلِكَ كَقَوْلِهِ – تَعَالَى – : (إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ) (75 : 17) وَقَوْلِهِ : (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) (15 : 9) وَقَدْ قَالَ الْمُحَدِّثُونَ وَالْأُصُولِيُّونَ : إِنَّ مِنْ عَلَامَةِ وَضْعِ الْحَدِيثِ مُخَالَفَتَهُ لِلدَّلِيلِ الْقَاطِعِ عَقْلِيًّا كَانَ أَوْ نَقْلِيًّا ، كَأُصُولِ الِاعْتِقَادِ وَهَذِهِ الْمَسْأَلَةُ مِنْهَا ، فَإِنَّ هَذَا النِّسْيَانَ يُنَافِي الْعِصْمَةَ الْمُجْمَعَ عَلَيْهَا .

وَقَالُوا فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ - تَعَالَى - بَعْدَ مَا ذَكَرَ : (أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) أَنَّهُ وَرَدَ مَوْرِدَ الِاسْتِدْلَالِ عَلَى الْقُدْرَةِ عَلَى النَّسْخِ بِالْمَعْنَى الَّذِي قَالُوهُ ، أَيْ أَنَّهُ لَا يُسْتَنْكَرُ عَلَى اللهِ كَمَا زَعَمَ الْيَهُودُ ؛ لِأَنَّهُ مِمَّا تَنَالُهُ قُدْرَتُهُ ، ثُمَّ اسْتُدِلَّ عَلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ : (أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) الْآيَةَ . وَالْخِطَابُ فِي (تَعْلَمْ) لِلنَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَالْمُرَادُ بِهِ غَيْرُهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ رُبَّمَا كَانُوا يَمْتَعِضُونَ مِنْ كَلَامِ الْيَهُودِ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْمُعْتَرِضِينَ عَلَى النَّسْخِ ، وَضَعِيفُ الْإِيمَانِ يُؤَثِّرُ فِي نَفْسِهِ أَنْ يُعَابَ مَا يَأْخُذُ بِهِ ، فَيُخْشَى عَلَيْهِ مِنَ الرُّكُونِ إِلَى الشُّبْهَةِ أَوِ الْحَيْرَةِ فِيهَا ؛ فَفِي الْكَلَامِ تَثْبِيتٌ لِمَنْ كَانَ كَذَلِكَ مِنَ الضُّعَفَاءِ وَدَعْمٌ لِإِيمَانِهِمْ ، وَتَوْجِيهُ الْكَلَامِ إِلَى شَخْصٍ يُرَادُ غَيْرُهُ شَائِعٌ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ وَالْمُوَلَّدِينَ ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : نَزَلَ الْقُرْآنُ عَلَى طَرِيقِ قَوْلِهِمْ : (إِيَّاكِ أَعْنِي وَاسْمَعِي يَا جَارَةُ) وَإِذَا كَانَ هَذَا الْمُلْكُ الْعَظِيمُ لِلَّهِ وَحْدَهُ ، فَلَا شَكَّ أَنَّهُ لَا يُعْجِزُهُ أَنْ يَنْسَخَ حُكْمًا مِنَ الْأَحْكَامِ . وَمِنْ آيَةِ إِرَادَةِ الْأُمَّةِ بِالْخِطَابِ الِالْتِفَاتُ عَنِ الْأَفْرَادِ إِلَى الْجَمْعِ بِقَوْلِهِ : (وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ) أَيْ أَنَّ وَلِيَّكُمْ وَنَاصِرَكُمْ هُوَ اللهُ - تَعَالَى - وَحْدَهُ ، فَلَا تُبَالُوا بِمَنْ يُنْكِرُ

النَّسْخَ أَوْ يَعِيبُكُمْ بِهِ ، وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَسْتَهْوِيَكُمْ إِنْكَارُهُمْ فَيُمِيلَكُمْ عَنْ دِينِكُمْ ، فَإِنَّهُ لَا قِيمَةَ لَهُ وَلَا لِلْمُنْكِرِينَ إِذْ لَيْسَ فِي اسْتِطَاعَتِهِمْ أَنْ يَضُرُّوكُمْ أَوْ يَنْفَعُوكُمْ إِذَا كَانَ اللهُ هُوَ مَوْلَاكُمْ وَنَاصِرُكُمْ . وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِكُمْ سُوءًا فَلَا يَمْلِكُونَ أَنْ يَدْفَعُوهُ عَنْكُمْ .

ثُمَّ قَالَ – تَعَالَى – : (أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ) ،

وَهَذَا كَلَامٌ

جَدِيدٌ مُنْقَطِعٌ عَمَّا قَبْلَهُ وَقَالُوا : إِنَّ (أَمْ) هُنَا لِلِاسْتِفْهَامِ لَا لِلْإِضْرَابِ ؛ لِأَنَّ أَمِ الَّتِي تُسْتَعْمَلُ بِمَعْنَى (بَلْ) يُقْصَدُ بِهَا الْإِضْرَابُ عَنِ الْكَلَامِ السَّابِقِ ، وَلَا يَظْهَرُ الْإِضْرَابُ هُنَا . هَذَا مَا اخْتَارَهُ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ مِنْ قَوْلِهِمْ .

(قَالَ) : وَاسْتَشْهَدُوا لِـ (أَمِ) الِاسْتِفْهَامِيَّةِ بِقَوْلِ الشَّاعِرِ :

فَوَاللهِ لَا أَدْرِي أَهِنْدٌ تَقَوَّلَتْ . . . أَمِ الْقَوْمُ أَمْ كُلٌّ إِلَيَّ حَبِيبُ ؟

وَبَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ يَقُولُونَ : إِنَّ (أَمْ) هَذِهِ مُنْقَطِعَةٌ لِلْإِضْرَابِ عَنْ عَدَمِ عِلْمِهِمْ بِالسَّابِقِ إِلَى الِاسْتِفْهَامِ عَنِ اقْتِرَاحِهِمْ ، فَهِيَ تَتَضَمَّنُ الْإِضْرَابَ وَالِاسْتِفْهَامَ مَعًا ، وَتَجِدُ (الْجَلَالَيْنِ) يُقَدِّرَانِ ذَلِكَ فِي تَفْسِيرِهِمَا وَقَدْ قَدَّرَا فِيهِ هُنَا "بَلْ أَتُرِيدُونَ" ، وَالْحَاصِلُ أَنَّ الْمَعْنَى هُنَا :

أَتُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سَأَلَ مُوسَى قَوْمُهُ تَبَرُّمًا وَإِعْنَاتًا ؟ يُحَذِّرُ الْمُسْلِمِينَ مَا فَعَلَ أُولَئِكَ ، وَقَدْ أَتْبَعَ التَّحْذِيرَ بِالْوَعِيدِ فَقَالَ : (وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ) أَيْ إِنَّ تَرْكَ الْآيَاتِ الْمَوْجُودَةِ وَالْإِعْرَاضَ عَنْهَا لِإِعْنَاتِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بِسُؤَالِ غَيْرِهَا لِتَكُونَ بَدَلًا مِنْهَا هُوَ مِنِ اخْتِيَارِ الْكُفْرِ عَلَى الْإِيمَانِ وَاسْتِحْبَابِ الْعَمَى عَلَى الْهُدَى . وَبَدَّلَ وَتَبَدَّلَ وَاسْتَبْدَلَ يَدُلُّ عَلَى جَعْلِ شَيْءٍ فِي مَوْضِعِ آخَرَ بَدَلًا مِنْهُ ، وَالْبَاءُ تُقْرَنُ بِالْمُبْدَلِ مِنْهُ لَا بِالْبَدَلِ كَمَا أَشَرْنَا إِلَيْهِ فِي تَفْسِيرِ (أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ) (2 : 61) .

(الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ) : هَذَا تَقْرِيرُ مَا جَرَى عَلَيْهِ الْمُفَسِّرُونَ فِي الْآيَاتِ ، وَإِذَا وَازَنَّا بَيْنَ سِيَاقِ آيَةِ (مَا نَنْسَخْ) وَآيَةِ (وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ) ، نَجِدُ أَنَّ الْأُولَى خُتِمَتْ بِقَوْلِهِ – تَعَالَى – : (أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) وَالثَّانِيَةَ بِقَوْلِهِ : (وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ) (16 : 101) الْآيَةَ ، وَنَحْنُ نَعْلَمُ شِدَّةَ الْعِنَايَةِ فِي أُسْلُوبِ الْقُرْآنِ بِمُرَاعَاةِ هَذِهِ الْمُنَاسَبَاتِ ، فَذِكْرُ الْعِلْمِ وَالتَّنْزِيلِ وَدَعْوَى الِافْتِرَاءِ فِي الْآيَةِ يَقْتَضِي أَنْ يُرَادَ بِالْآيَاتِ فِيهَا آيَاتُ الْأَحْكَامِ . وَأَمَّا ذِكْرُ الْقُدْرَةِ وَالتَّقْرِيرُ بِهَا فِي الْآيَةِ الْأُولَى فَلَا يُنَاسِبُ مَوْضُوعَ الْأَحْكَامِ وَنَسْخِهَا ، وَإِنَّمَا

يُنَاسِبُ هَذَا ذِكْرَ الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ ، فَلَوْ قَالَ : (أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) ، لَكَانَ لَنَا أَنْ نَقُولَ : إِنَّهُ أَرَادَ نَسْخَ آيَاتِ الْأَحْكَامِ لِمَا اقْتَضَتْهُ الْحِكْمَةُ مِنِ انْتِهَاءِ الزَّمَنِ أَوِ الْحَالِ الَّتِي كَانَتْ فِيهَا تِلْكَ الْأَحْكَامُ مُوَافِقَةً لِلْمَصْلَحَةِ ، وَقَدْ تَحَيَّرَ الْعُلَمَاءُ فِي فَهْمِ

(65/63)

الْإِنْسَاءِ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي ذَكَرُوهُ حَتَّى قَالَ بَعْضُهُمْ : إِنَّ مَعْنَى (نُنْسِهَا) نَتْرُكُهَا عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ مِنْ غَيْرِ نَسْخٍ ، وَأَنْتَ تَرَى هَذَا – وَإِنْ صَحَّ لُغَةً – لَا يَلْتَئِمُ مَعَ تَفْسِيرِهَا ؛ إِذْ لَا مَعْنَى لِلْإِتْيَانِ بِخَيْرٍ مِنْهَا مَعَ تَرْكِهَا عَلَى حَالِهَا غَيْرَ مَنْسُوخَةٍ ، (قَالَ) : وَالْمَعْنَى الصَّحِيحُ الَّذِي يَلْتَئِمُ مَعَ السِّيَاقِ إِلَى آخِرِهِ أَنَّ الْآيَةَ هُنَا هِيَ مَا يُؤَيِّدُ اللهُ – تَعَالَى – بِهِ الْأَنْبِيَاءَ مِنَ الدَّلَائِلِ عَلَى نُبُوَّتِهِمْ ، أَيْ (مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ) نُقِيمُهَا دَلِيلًا عَلَى نُبُوَّةِ نَبِيٍّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ أَيْ نُزِيلُهَا وَنَتْرُكُ تَأْيِيدَ نَبِيٍّ آخَرَ ، أَوْ نُنْسِهَا النَّاسَ لِطُولِ الْعَهْدِ بِمَنْ جَاءَ بِهَا ، فَإِنَّنَا بِمَا لَنَا مِنَ الْقُدْرَةِ الْكَامِلَةِ وَالتَّصَرُّفِ فِي الْمُلْكِ نَأْتِي بِخَيْرٍ مِنْهَا فِي قُوَّةِ الْإِقْنَاعِ وَإِثْبَاتِ النُّبُوَّةِ أَوْ مِثْلِهَا فِي ذَلِكَ . وَمَنْ كَانَ هَذَا شَأْنُهُ فِي قُدْرَتِهِ وَسَعَةِ مُلْكِهِ ، فَلَا يَتَقَيَّدُ بِآيَةٍ مَخْصُوصَةٍ يَمْنَحُهَا جَمِيعَ أَنْبِيَائِهِ ، وَالْآيَةُ فِي أَصْلِ اللُّغَةِ هِيَ : الدَّلِيلُ وَالْحُجَّةُ وَالْعَلَامَةُ عَلَى صِحَّةِ الشَّيْءِ ، وَسُمِّيَتْ

جُمَلُ الْقُرْآنِ آيَاتٍ ؛ لِأَنَّهَا بِإِعْجَازِهَا حُجَجٌ عَلَى صِدْقِ النَّبِيِّ ، وَدَلَائِلُ عَلَى أَنَّهُ مُؤَيَّدٌ فِيهَا بِالْوَحْيِ مِنَ اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ - ، وَمِنْ قَبِيلِ تَسْمِيَةِ الْخَاصِّ بِاسْمِ الْعَامِّ .

(66/63)

وَلَقَدْ كَانَ مِنْ يَهُودَ مَنْ يُشَكِّكُ فِي رِسَالَتِهِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - بِزَعْمِهِمْ أَنَّ النُّبُوَّةَ مُحْتَكَرَةٌ لِشَعْبِ إِسْرَائِيلَ ، وَلَقَدْ تَقَدَّمَتِ الْآيَاتُ فِي تَفْنِيدِ زَعْمِهِمْ هَذَا وَقَالُوا : (لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى) (28 : 48) أَيْ مِنَ الْآيَاتِ ، فَرَدَّ اللهُ - تَعَالَى - عَلَيْهِمْ فِي مَوَاضِعَ مِنْهَا قَوْلُهُ - عَزَّ وَجَلَّ - بَعْدَ حِكَايَةِ قَوْلِهِمْ هَذَا : (أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ) (28 : 48) . . . إِلَخْ ، وَمِنْهَا هَذِهِ الْآيَاتُ ، وَالْخِطَابُ فِيهَا لِلْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ كَانَ الْيَهُودُ يُرِيدُونَ تَشْكِيكَهُمْ كَأَنَّهُ يَقُولُ :

إِنَّ قُدْرَةَ اللهِ - تَعَالَى - لَيْسَتْ مَحْدُودَةً وَلَا مُقَيَّدَةً بِنَوْعٍ مَخْصُوصٍ مِنَ الْآيَاتِ أَوْ بِآحَادٍ مِنْهَا لَا تَتَنَاوَلُ غَيْرَهَا ، وَلَيْسَتِ الْحُجَّةُ مَحْصُورَةً فِي الْآيَاتِ السَّابِقَةِ لَا تَتَعَدَّاهَا ، بَلِ اللهُ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَأْتِيَ بِخَيْرٍ مِنَ الْآيَاتِ الَّتِي أَعْطَاهَا مُوسَى وَبِمِثْلِهَا ، فَإِنَّهُ لَا يُعْجِزُ قُدْرَتَهُ شَيْءٌ ، وَلَا يَخْرُجُ عَنْ مُلْكِهِ شَيْءٌ ، كَمَا أَنَّ رَحْمَتَهُ لَيْسَتْ مَحْصُورَةً فِي شَعْبٍ وَاحِدٍ فَيَخُصُّهُ بِالنُّبُوَّةِ وَيَحْصُرُ فِيهِ هِدَايَةَ الرِّسَالَةِ ، كَلَّا إِنَّ رَحْمَتَهُ وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ، كَمَا أَنَّ قُدْرَتَهُ تَتَصَرَّفُ بِكُلِّ

شَيْءٍ مِنْ مُلْكِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي لَا يُشَارِكُهُ فِيهِ مُشَارِكٌ ، وَلَا يُنَازِعُهُ فِيهِ مُنَازِعٌ ، فَيَكُونُ وَلِيًّا وَنَصِيرًا لِمَنْ كَفَرَ بِنِعَمِهِ وَانْحَرَفَ عَنْ سُنَنِهِ .

(67/63)

انْظُرْ كَيْفَ أَسْفَرَتِ الْبَلَاغَةُ عَنْ وَجْهِهَا فِي هَذَا الْمَقَامِ ، فَظَهَرَ أَنَّ ذِكْرَ الْقُدْرَةِ وَسَعَةَ الْمُلْكِ إِنَّمَا يُنَاسِبُ الْآيَاتِ بِمَعْنَى الدَّلَائِلِ دُونَ مَعْنَى الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ وَالْأَقْوَالِ الدَّالَّةِ عَلَيْهَا ، مِنْ حَيْثُ هِيَ دَالَّةٌ عَلَيْهَا لَا مِنْ حَيْثُ هِيَ دَالَّةٌ عَلَى النُّبُوَّةِ . وَيَزِيدُ هَذَا سُفُورًا وَوُضُوحًا قَوْلُهُ عَقِبَهُ : (أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ) ؟ فَقَدْ كَانَ بَنُو إِسْرَائِيلَ لَمْ يَكْتَفُوا بِمَا أُعْطِيَ مُوسَى مِنَ الْآيَاتِ وَتَجَرَّءُوا عَلَى طَلَبِ غَيْرِهَا وَقَالُوا : (يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً) (2 : 55) ، وَكَذَلِكَ كَانَ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ كُلَّمَا رَأَوْا آيَةً طَلَبُوا غَيْرَهَا حَتَّى رَأَوْا تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلَمْ يُؤْمِنُوا . وَقَوْلُهُ – تَعَالَى – : (كَمَا سُئِلَ مُوسَى) يَشْمَلُ كُلَّ ذَلِكَ .

قَدْ أَرْشَدَنَا اللَّهُ – تَعَالَى – بِهَذَا إِلَى أَنَّ التَّفَنُّنَ فِي طَلَبِ الْآيَاتِ ، وَعَدَمَ الْإِذْعَانِ لِمَا يَجِيءُ بِهِ النَّبِيُّ مِنْهَا وَالِاكْتِفَاءُ بِهِ بَعْدَ الْعَجْزِ عَنْ مُعَارَضَتِهِ هُوَ دَأْبُ الْمَطْبُوعِينَ عَلَى الْكُفْرِ ، الْجَامِدِينَ عَلَى الْمُعَانَدَةِ وَالْمُجَاحَدَةِ ، فَإِنَّهُ قَالَ بَعْدَ إِنْكَارِ هَذَا الطَّلَبِ : (وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ

بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ) وَيُوَضِّحُ هَذَا قَوْلُهُ – تَعَالَى – فِي آيَةٍ أُخْرَى (وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ)

(68/63)

(17 : 59) ، وَالْمُرَادُ الْآيَاتُ الْمُقْتَرَحَةُ ، بِدَلِيلِ السِّيَاقِ ، وَهُوَ اتِّفَاقٌ بَيْنَ الْمُفَسِّرِينَ ، وَلَوْ كَانَ الْمَوْضُوعُ مَوْضُوعَ طَلَبِ اسْتِبْدَالِ أَحْكَامٍ بِأَحْكَامٍ تَنْسَخُهَا ، لَمَا كَانَ لِلتَّوَعُّدِ بِالْكُفْرِ وَجْهٌ وَجِيهٌ .

وَقَوْلُهُ – تَعَالَى – : (فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ) مَعْنَاهُ أَنَّهُ أَخْطَأَ وَسَطَ الْجَادَّةِ ، وَمَالَ إِلَى أَحَدِ الْجَانِبَيْنِ ، وَمَتَى انْحَرَفَ السَّائِرُ فِي سَيْرِهِ عَنِ الْوَسَطِ ، يَخْرُجُ عَنِ الْمَنْهَجِ وَيَبْعُدُ عَنْهُ كُلَّمَا أَوْغَلَ فِي السَّيْرِ ، فَيَهْلَكُ دُونَ الْوُصُولِ إِلَى الْمَقْصِدِ . وَالْمُرَادُ بِسَوَاءِ السَّبِيلِ : الْحَقُّ وَالْخَيْرُ اللَّذَانِ تَكْمُلُ الْفِطْرَةُ بِالِاسْتِقَامَةِ عَلَى السَّيْرِ فِي طَرِيقِهِمَا ، وَمَنْ مَالَ عَنِ الْحَقِّ وَقَعَ فِي الْبَاطِلِ لَا مَحَالَةَ ، (فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ) (10 : 32) .

هَذَا هُوَ التَّفْسِيرُ الَّذِي تَتَّصِلُ بِهِ الْآيَاتُ ، وَيَلْتَئِمُ بَعْضُهَا مَعَ بَعْضٍ عَلَى وَجْهٍ يَتَدَفَّقُ بِالْبَلَاغَةِ ، وَهُوَ الَّذِي يَتَقَبَّلُهُ الْعَقْلُ وَيَسْتَحْلِيهِ الذَّوْقُ ، إِذْ لَا يَحْتَاجُ إِلَى شَيْءٍ مِنَ التَّكَلُّفِ فِي فَهْمِ نَظْمِهِ

، وَلَا فِي تَوَخِّيهِ مُفْرَدَاتِهِ كَالْإِنْسَاءِ وَالْقُدْرَةِ وَالْمُلْكِ ، وَقَدِ اضْطُرَّ الْقَائِلُونَ بِأَنَّ الْمُرَادَ بِالنَّسْخِ نَسْخُ الْأَحْكَامِ – مَعَ مَا عَرَفْتَ مِنَ التَّكَلُّفِ – إِلَى الْقَوْلِ بِجَوَازِ

(69/63)

نِسْيَانِ الْوَحْيِ ، وَطَفِقُوا يَلْتَمِسُونَ الدَّلَائِلَ عَلَى ذَلِكَ ، حَتَّى أَوْرَدُوا قَوْلَهُ – عَزَّ وَجَلَّ – : (وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ) (18 : 24) ، وَلَيْسَ مِنْ هَذَا الْمَوْضُوعِ وَلَا الْمُخَاطَبُ بِهِ النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، وَإِنَّمَا جَاءَ عَلَى طَرِيقِ الْحِكَايَةِ ، وَأَمَّا قَوْلُهُ – تَعَالَى – : (سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ) (87 : 6 ، 7) فَهُوَ يُؤَكِّدُ عَدَمَ النِّسْيَانِ ؛ لِأَنَّ الِاسْتِثْنَاءَ بِالْمَشِيئَةِ قَدِ اسْتُعْمِلَ فِي أُسْلُوبِ الْقُرْآنِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى الثُّبُوتِ وَالِاسْتِمْرَارِ ، كَمَا فِي قَوْلِهِ – تَعَالَى – : (خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ) (11 : 108) أَيْ غَيْرَ مَقْطُوعٍ . وَقَوْلِهِ : (قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ) (7 : 188) . وَالنُّكْتَةُ فِي الِاسْتِثْنَاءِ بَيَانُ أَنَّ هَذِهِ الْأُمُورَ الثَّابِتَةَ الدَّائِمَةَ إِنَّمَا كَانَتْ كَذَلِكَ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ – تَعَالَى – لَا بِطَبِيعَتِهَا فِي نَفْسِهَا ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ – تَعَالَى – أَنْ يُغَيِّرَهَا لَفَعَلَ ، وَهَذَا الِاعْتِقَادُ مِنْ مَهَمَّاتِ الدِّينِ ، فَلَا غَرْوَ أَنْ تُزَاحَ عَنْهُ الْأَوْهَامُ فِي كُلِّ مَقَامٍ يُمْكِنُ أَنْ تَعْرِضَ فِيهِ ، فَلَيْسَ امْتِنَاعُ نِسْيَانِ الْوَحْيِ طَبِيعَةً لَازِمَةً لِلنَّبِيِّ ، وَإِنَّمَا هُوَ تَأْيِيدٌ

وَمِنْحَةٌ مِنَ اللهِ – تَعَالَى – ، وَلَيْسَ خُلُودَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فِي الْجَنَّةِ وَاجِبٌ عَقْلِيٌّ أَوْ طَبِيعِيٌّ ، وَإِنَّمَا هُوَ بِإِرَادَةِ اللهِ – تَعَالَى – وَمَشِيئَتِهِ .

(70/63)

وَقَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ وَأَبُو عَمْرٍو (أَوْ نَنْسَأَهَا) أَيْ نُؤَخِّرُهَا ، وَلَا يَظْهَرُ هَذَا الْمَعْنَى فِي مَقَامِ نَسْخِ الْأَحْكَامِ كَمَا يَظْهَرُ فِي نَسْخِ الْآيَاتِ وَالْمُعْجِزَاتِ الْمُقْتَرَحَةِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ ، فَإِنَّ الْآيَةَ الَّتِي تُقْتَرَحُ عَلَى نَبِيٍّ ؛ لِأَنَّهَا كَانَتْ لِنَبِيٍّ قَبْلَهُ ، قَدْ تُنْسَخُ بِآيَةٍ جَدِيدَةٍ خَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ، وَقَدْ تُؤَخَّرُ بِالْآيَةِ الْجَدِيدَةِ ، ثُمَّ تُعْطَى فِي وَقْتٍ آخَرَ بَعْدَ الِاقْتِرَاحِ ، وَلَكِنَّ تَأْخِيرَ آيَاتِ الْأَحْكَامِ لَيْسَ لَهُ مَعْنًى ظَاهِرٌ .

(وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ إِنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

(71/63)

بَيّنَ اللهُ – تَعَالَى – فِي الْآيَةِ الْأُولَى مِنْ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ الْمُتَعَصِّبِينَ لِدِينِهِمْ – مِنْ حَيْثُ هُوَ جِنْسِيَّةٌ لَهُمْ تَقُومُ بِهَا مَنَافِعُ جِنْسِهِمْ – لَمْ يَكْتَفُوا بِكُفْرِهِمْ بِالنَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَالْكَيْدِ لَهُ وَنَقْضِ مَا عَاهَدَهُمْ عَلَيْهِ حَسَدًا لَهُ وَلِقَوْمِهِ عَلَى نِعْمَةِ النُّبُوَّةِ ، بَلْ هُمْ يَزِيدُونَ عَلَى ذَلِكَ مَا قَصَّهُ – تَعَالَى – بِقَوْلِهِ : (وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ) ، فَهُوَ بَيَانٌ لِمَا يُضْمِرُونَهُ وَمَا تُكِنُّهُ صُدُورُهُمْ لِلْمُسْلِمِينَ مِنَ الْحَسَدِ عَلَى نِعْمَةِ الْإِسْلَامِ الَّتِي عَرَفُوا أَنَّهَا الْحَقُّ ، وَأَنَّ وَرَاءَهَا السَّعَادَةَ فِي الدَّارَيْنِ ، وَلَكِنَّهُمْ شَقَّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَّبِعُوهُمْ ، فَتَمَنَّوْا أَنْ يُحْرِمُوا هَذِهِ النِّعْمَةَ وَيَرْجِعُوا كُفَّارًا كَمَا كَانُوا ، وَذَلِكَ شَأْنُ الْحَاسِدِ يَتَمَنَّى أَنْ يُسْلَبَ مَحْسُودُهُ النِّعْمَةَ وَلَوْ لَمْ تَكُنْ ضَارَّةً بِهِ ، فَكَيْفَ إِذَا كَانَ يَعْلَمُ أَنَّ تِلْكَ النِّعْمَةَ إِذَا تَمَّتْ وَثَبَتَتْ يَكُونُ مِنْ أَثَرِهَا سِيَادَةُ الْمَحْسُودِ عَلَيْهِ وَإِدْخَالُهُ تَحْتَ سُلْطَانِهِ ، كَمَا كَانَ يَتَوَقَّعُ عُلَمَاءُ يَهُودَ فِي عَصْرِ التَّنْزِيلِ ؟ وَقَدْ جَاءَ هَذَا التَّنْبِيهُ تَتِمَّةً لِقَوْلِهِ – تَعَالَى – قَبْلَ آيَاتٍ : (مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ) (2 : 105) وَقَدْ بَيَّنَ اللهُ لَنَا مَا كَانَ مِنْ مُحَاوَلَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ

وَتَحَيُّلِهِمْ عَلَى تَشْكِيكِ الْمُسْلِمِينَ فِي دِينِهِمْ كَقَوْلِ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ : بِأَنْ يُؤْمِنُوا أَوَّلَ النَّهَارِ وَيَكْفُرُوا آخِرَهُ ، لَعَلَّ ضُعَفَاءَ الْإِيمَانِ يَرْجِعُونَ عَنِ الْإِسْلَامِ اقْتِدَاءً بِهِمْ ، كَمَا سَيَأْتِي فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ ، وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ وَمَا بَعْدَهَا إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ لِذَلِكَ بَعْضَ الْأَثَرِ فِي نُفُوسِ بَعْضِ الْمُسْلِمِينَ .

وَفَائِدَةُ هَذَا التَّنْبِيهِ أَوِ التَّنْبِيهَاتِ أَنْ يَعْلَمَ الْمُسْلِمُونَ أَنَّ مَا يَبْدُو مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أَحْيَانًا مِنْ إِلْقَاءِ الشُّبَهِ عَلَى الْإِسْلَامِ وَتَشْكِيكِ الْمُسْلِمِينَ فِيهِ ، إِنَّمَا هُوَ مَكْرُ السَّوْءِ ، يَبْعَثُ عَلَيْهِ الْحَسَدُ لَا النُّصْحُ الَّذِي يَبْعَثُ عَلَيْهِ الِاعْتِقَادُ . وَقَالَ : (حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ) لِيُبَيِّنَ أَنَّ حَسَدَهُمْ لَمْ يَكُنْ عَنْ شُبْهَةٍ دِينِيَّةٍ أَوْ غَيْرِهِ عَلَى حَقٍّ يَعْتَقِدُونَهُ ، وَإِنَّمَا هُوَ خُبْثُ النُّفُوسِ وَفَسَادُ الْأَخْلَاقِ وَالْجُمُودُ عَلَى الْبَاطِلِ ، وَإِنْ ظَهَرَ لِصَاحِبِهِ الْحَقُّ ؛ وَلِذَلِكَ قَفَّاهُ بِقَوْلِهِ : (مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ) أَيْ بِالْآيَاتِ الَّتِي جَاءَ بِهَا النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَبِانْطِبَاقِ مَا يَحْفَظُونَ مِنْ بِشَارَاتِ كُتُبِهِمْ بِنَبِيٍّ آخِرِ الزَّمَانِ عَلَيْهِ .

ثُمَّ أَمَرَ اللهُ – تَعَالَى – الْمُؤْمِنِينَ بِأَنْ يُقَابِلُوا هَذَا الْحَسَدَ وَمَا يَنْبَعِثُ عَنْهُ بِمَا يَلِيقُ بِهِمْ مِنْ مَحَاسِنِ الْأَخْلَاقِ ، فَقَالَ : (فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا) ، وَلَمْ يَقُلْ : فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا عَنْهُمْ لِإِرَادَةِ

الْعُمُومِ ، أَيْ عَامِلُوا جَمِيعَ النَّاسِ بِالصَّفْحِ وَالْعَفْوِ ، فَإِنَّ هَذَا هُوَ اللَّائِقُ بِشَأْنِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ (الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا) (25 : 63) .

أَقُولُ : الْعَفْوُ تَرْكُ الْعِقَابِ عَلَى الذَّنْبِ (إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً) (9 : 66) وَالصَّفْحُ : الْإِعْرَاضُ عَنِ الْمُذْنِبِ بِصَفْحَةِ الْوَجْهِ ، فَيَشْمَلُ تَرْكَ الْعِقَابِ وَتَرْكَ اللَّوْمِ وَالتَّثْرِيبِ .

(قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ) : وَفِي أَمْرِهِ – تَعَالَى – لَهُمْ بِالْعَفْوِ وَالصَّفْحِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى قِلَّتِهِمْ هُمْ أَصْحَابُ الْقُدْرَةِ وَالشَّوْكَةِ ؛ لِأَنَّ الصَّفْحَ إِنَّمَا يُطْلَبُ مِنَ الْقَادِرِ عَلَى خِلَافِهِ ، كَأَنَّهُ يَقُولُ : لَا يُغَرَّنَّكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ كَثْرَةُ أَهْلِ الْكِتَابِ مَعَ بَاطِلِهِمْ فَإِنَّكُمْ عَلَى قِلَّتِكُمْ أَقْوَى مِنْهُمْ بِمَا أُنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْحَقِّ ، فَعَامِلُوهُمْ مُعَامَلَةَ الْقَوِيِّ الْعَادِلِ لِلْقَوِيِّ الْجَاهِلِ ، (قَالَ) : وَفِي إِنْزَالِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى ضَعْفِهِمْ مَنْزِلَ الْأَقْوِيَاءِ ، وَوَضْعِ أَهْلِ الْكِتَابِ عَلَى كَثْرَتِهِمْ مَوْضِعَ الضُّعَفَاءِ ، إِيذَانٌ بِأَنَّ أَهْلَ الْحَقِّ هُمُ الْمُؤَيَّدُونَ بِالْعِنَايَةِ الْإِلَهِيَّةِ ، وَأَنَّ الْعِزَّةَ لَهُمْ مَا ثَبَتُوا عَلَى حَقِّهِمْ ، وَمَهْمَا يَتَصَارَعِ الْحَقُّ وَالْبَاطِلُ فَإِنَّ الْحَقَّ هُوَ الَّذِي يَصْرَعُ الْبَاطِلَ ، كَمَا قُلْنَا غَيْرَ مَرَّةٍ ، وَإِنَّمَا بَقَاءُ الْبَاطِلِ فِي غَفْلَةِ الْحَقِّ عَنْهُ . ثُمَّ قَالَ – تَعَالَى – : (حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ) فَوَعَدَهُمْ بِأَنْ

سَيَمُدُّهُمْ بِمَعُونَتِهِ ، وَيُؤَيِّدُهُمْ بِنَصْرِهِ ، ثُمَّ أَحَالَهُمْ بِقَوْلِهِ : (إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) عَلَى قُدْرَتِهِ النَّافِذَةِ الَّتِي لَا يَشِذُّ عَنْهَا شَيْءٌ فِي الْعَالَمِينَ تَأْيِيدًا لِلْوَعْدِ ، وَكَشْفًا لِشُبْهَةِ مَنْ عَسَاهُ يَقُولُ : أَنَّى لِهَذِهِ الشِّرْذِمَةِ الْقَلِيلَةِ الْعَدَدِ ، الضَّعِيفَةِ الْقُوَى ، أَنْ تَنْتَحِلَ لِنَفْسِهَا وَصْفَ الْمُلُوكِ الْعَالِينَ ، وَتَقِفَ مَعَ الْأُمَمِ الْقَوِيَّةِ مَوْقِفَ الْعَافِينَ الْقَادِرِينَ ؟ فَجَاءَ

الْجَوَابُ يَقُولُ لِمِثْلِ هَذَا الْمُشْتَبِهِ : إِنَّ الَّذِي أَوْقَفَهَا هَذَا الْمَوْقِفَ ، وَمَنَحَهَا هَذَا الْوَصْفَ ، وَهُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَهَبَهَا مِنَ الْقُوَّةِ مَا تَتَضَاءَلُ دُونَهُ جَمِيعُ الْقُوَى ، وَهُوَ مَا يُؤَيِّدُ بِهِ سُبْحَانَهُ مَنْ يَقُومُ بِالْحَقِّ وَيَثْبُتُ عَلَيْهِ (وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ) (22 : 40) وَقَدْ فَعَلَ .

أَقُولُ : جَعَلَ شَيْخُنَا الْأَمْرَ فِي الْغَايَةِ الَّتِي قَيَّدَ بِهَا الْعَفْوَ وَالصَّفْحَ وَاحِدَ الْأُمُورِ ، إِذْ فَسَّرَهُ بِالنَّصْرِ ، وَأَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ جَعَلُوهُ وَاحِدَ الْأَوَامِرِ ، وَهُوَ الْأَمْرُ بِقِتَالِهِمْ ، وَيُعَبِّرُ بَعْضُهُمْ بِآيَةِ السَّيْفِ ، وَيَعْنُونَ آيَةَ التَّوْبَةِ الَّتِي فِيهَا حُكْمُ الْجِزْيَةِ .

وَقَالَ بَعْضُهُمْ : الْمُرَادُ هُنَا الْأَمْرُ بِقَتْلِ بَنِي قُرَيْظَةَ وَإِجْلَاءِ بَنِي النَّضِيرِ ، وَقَالُوا : إِنَّهُ تَوْقِيتٌ لَا يَصِحُّ أَنْ يُسَمَّى مَنْسُوخًا ، أَيْ فِي عُرْفِ الْأُصُولِيِّينَ ، وَإِنْ رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ

وَغَيْرِهِ . وَذَلِكَ أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كَانَ عَاهَدَ جَمِيعَ الْيَهُودِ الْمُجَاوِرِينَ لَهُ فِي الْمَدِينَةِ عَهْدًا أَمَّنَهُمْ فِيهِ عَلَى
أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَحُرِّيَّةِ دِينِهِمْ ، فَغَدَرُوا وَنَقَضُوا الْعَهْدَ بِمُوَالَاةِ الْمُشْرِكِينَ عَلَيْهِ مِرَارًا ، وَكَانَ يَعْفُو عَنْهُمْ وَيَصْفَحُ حَتَّى أَذِنَ اللهُ لَهُ بِقِتَالِهِمْ وَإِجْلَائِهِمْ .

(76/63)

(قَالَ الْأُسْتَاذُ) : ثُمَّ بَعْدَ الْوَعْدِ بِالنَّصْرِ وَالْإِرْشَادِ إِلَى الِاعْتِمَادِ فِيهِ عَلَى الْقُدْرَةِ دَلَّهُمْ عَلَى بَعْضِ وَسَائِلِ تَحَقُّقِهِ ، وَهِيَ الصَّلَاةُ الَّتِي تُوَثِّقُ عُرْوَةَ الْإِيمَانِ ، وَتُعْلِي الْهِمَّةَ ، وَتَرْفَعُ النَّفْسَ بِمُنَاجَاةِ اللهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ، وَتُؤَلِّفُ بَيْنَ الْقُلُوبِ بِالِاجْتِمَاعِ لَهَا ، وَالتَّعَارُفِ فِي مَسَاجِدِهَا ، وَالزَّكَاةِ الَّتِي تَصِلُ بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ وَالْفُقَرَاءِ فَتَتَكَوَّنُ بِاتِّصَالِهِمْ وَحْدَةُ الْأُمَّةِ حَتَّى تَكُونَ كَجِسْمٍ وَاحِدٍ ، فَقَالَ : (وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ) ، وَلَمْ تُذْكَرْ إِقَامَةُ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ فِي مَوْضِعٍ مِنَ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ إِلَّا وَالْمَقَامُ يَقْتَضِي الذِّكْرَ لِبَيَانِ فَائِدَةٍ خَاصَّةٍ لِهَذَا الْأَمْرِ لَا يُمْكِنُ أَنْ تُسْتَفَادَ مِنْ ذِكْرِهِمَا فِي مَوْضِعٍ آخَرَ .

(77/63)

وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ إِقَامَةَ الصَّلَاةِ لَيْسَتْ عِبَارَةً عَنْ أَدَائِهَا مُطْلَقًا ، وَإِنَّمَا هِيَ عِبَارَةٌ عَنِ الْقِيَامِ بِحُقُوقِهَا الرُّوحِيَّةِ فِي صُورَتِهَا الْعَمَلِيَّةِ ، وَذَلِكَ بِالتَّوَجُّهِ إِلَى اللهِ – تَعَالَى – وَمُنَاجَاتِهِ وَالِانْقِطَاعِ إِلَيْهِ عَمَّا عَدَاهُ ، وَإِشْعَارِ الْقَلْبِ عَظَمَتَهُ وَكِبْرِيَاءَهُ ، فَبِهَذَا الشُّعُورِ يَنْمُو الْإِيمَانُ ، وَتَقْوَى الثِّقَةُ بِاللهِ ، وَتَتَنَزَّهُ النَّفْسُ أَنْ تَأْتِيَ الْفَوَاحِشَ وَالْمُنْكَرَاتِ ، وَتَسْتَنِيرُ الْبَصِيرَةُ فَتَكُونُ أَقْوَى نَفَاذًا فِي الْحَقِّ ، وَأَشَدَّ بُعْدًا عَنِ الْأَهْوَاءِ ، فَنُفُوسُ الْمُصَلِّينَ جَدِيرَةٌ بِالنَّصْرِ لِمَا تُعْطِيهَا الصَّلَاةُ مِنَ الْقُوَّةِ الْمَعْنَوِيَّةِ ، وَمِنَ الثِّقَةِ بِقُدْرَةِ اللهِ – تَعَالَى – ، فَإِذَا كَانَ قَوْلُهُ – تَعَالَى – بَعْدَ الْوَعْدِ بِالنَّصْرِ : (إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) دَلِيلًا أَيَّدَ بِهِ الْوَعْدَ ، فَقَوْلُهُ : (وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ) هِدَايَةً إِلَى طَرِيقِ الِاقْتِنَاعِ التَّامِّ بِهَذَا الدَّلِيلِ حَتَّى يَكُونَ وِجْدَانًا لِلنَّفْسِ لَا تُزَلْزِلُهُ الشُّبُهَاتُ ، وَلَا تُؤَثِّرُ فِيهِ الْمُشَاغَبَاتُ وَالْمُجَادَلَاتُ .

وَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْقُرْآنِ بِقَرْنِ الزَّكَاةِ بِالصَّلَاةِ ؛ لِأَنَّ الصَّلَاةَ لِإِصْلَاحِ نُفُوسِ الْأَفْرَادِ ، وَالزَّكَاةَ لِإِصْلَاحِ شُئُونِ الِاجْتِمَاعِ ، ثُمَّ إِنَّ فِيهَا مِنْ مَعْنَى الْعِبَادَةِ مَا فِي الصَّلَاةِ ، فَإِنَّ الْمَالَ – كَمَا يَقُولُونَ – شَقِيقُ الرُّوحِ ، فَمَنْ جَادَ بِهِ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ – تَعَالَى – كَانَ بَذْلُهُ مَزِيدًا فِي إِيمَانِهِ ، فَهِيَ إِصْلَاحٌ رُوحِيٌّ أَيْضًا .

وَبَعْدَ أَنْ أَمَرَ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ فِي سِيَاقٍ كَشَفَ شُبْهَةَ مَنْ يَشْتَبِهُ مِنْ ضُعَفَاءِ الْإِيمَانِ فِي نَصْرِ اللهِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَجَعْلِ السُّلْطَانِ لَهُمْ عَلَى الْكَافِرِينَ ، وَبَيَانِ أَنَّ إِقَامَةَ

هَذَيْنِ الرُّكْنَيْنِ مِنْ وَسَائِلِ النَّصْرِ وَالسُّلْطَانِ فِي الدُّنْيَا ، بَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهَا مِنْ أَسْبَابِ السَّعَادَةِ فِي الْآخِرَةِ ، فَقَالَ : (وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ) ، وَلَكِنَّ الْبَيَانَ جَاءَ فِي صُورَةٍ عَامَّةٍ ، وَهَذَا مِنَ الْأَسَالِيبِ الَّتِي لَا تَكَادُ تَجِدُ لَهَا فِي غَيْرِ الْقُرْآنِ نَظِيرًا يَنْتَقِلُ مِنْ بَيَانِ حُكْمٍ إِلَى آخَرَ ، فَيَكُونُ الثَّانِي قَائِمًا بِنَفْسِهِ وَشَامِلًا لِلْأَوَّلِ بِعُمُومِهِ ، وَتَكُونُ صِلَةُ الْعُمُومِ وَالْخُصُوصِ هِيَ الرَّابِطَ فِي النَّظْمِ . وَقَوْلُهُ – تَعَالَى – : (تَجِدُوهُ) هُوَ كَقَوْلِهِ : (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ) (99 : 7) وَقَالُوا : إِنَّ الْمُرَادَ أَنَّهُ يَرَى وَيَجِدُ جَزَاءَهُ ، وَلَكِنْ لَمَّا كَانَ الْجَزَاءُ مَبْنِيًّا عَلَى أَثَرِ الْعَمَلِ فِي نَفْسِ الْعَامِلِ وَارْتِقَائِهَا بِهِ كَانَ الْجَزَاءُ

بِمَثَابَةِ الْعَمَلِ نَفْسِهِ ، وَوَصَلَ الْوَعْدُ بِالْجَزَاءِ عَلَى الْعَمَلِ بِمَا يَبْعَثُ الْمُؤْمِنَ عَلَى الْإِحْسَانِ فِيهِ ، وَيَدُلُّ عَلَى تَحَقُّقِهِ ، فَقَالَ : (إِنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) فَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْهُ شَيْءٌ فَتَخَافُوا أَنْ يُنْقِصَكُمْ مِنْ أُجُورِكُمْ شَيْئًا .

(الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ) : هَذِهِ الْآيَاتُ هِيَ آخِرُ مَا أَدَّبَ اللهُ – تَعَالَى – بِهِ الْمُؤْمِنِينَ فِي هَذَا الْمَقَامِ عَلَى مَا يُخَامِرُ الْبَعْضَ مِنْهُمْ وَمَا يَعِنُّ لَهُ مِنَ الشُّبَهِ فِي مُسْتَقْبَلِ الْإِسْلَامِ وَتَأْيِيدِهِ – تَعَالَى – لِنَبِيِّهِ وَإِعْزَازِهِ لِحِزْبِهِ ، وَكَانَ أَوَّلُهَا قَوْلَهُ – عَزَّ وَجَلَّ – : (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا) (2 : 104) وَكَأَنَّ مَنْشَأَ تِلْكَ الْخَوَاطِرِ هُوَ مَا يَرَوْنَهُ فِي التَّنْزِيلِ الْمَرَّةَ بَعْدَ الْمَرَّةِ ، وَمَا يُشَاهِدُونَهُ مِنْ عَمَلِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مِنَ الْجَزْمِ بِأَنَّ الْأَسْبَابَ مَقْرُونَةٌ بِمُسَبِّبَاتِهَا ، وَأَنَّ حَوَادِثَ الْكَوْنِ جَارِيَةٌ عَلَى سُنَنٍ مُطَّرِدَةٍ ، وَمَا كَانَ هَذَا الْفَرِيقُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ يَعْلَمُ قَبْلَ إِعْلَامِ اللهِ – تَعَالَى – إِيَّاهُمْ بِأَنَّ الْإِيمَانَ الصَّحِيحَ الَّذِي يَتَوَكَّلُ صَاحِبُهُ – بَعْدَ اتِّخَاذِ الْأَسْبَابِ وَالْوَسَائِلِ – عَلَى الْقُدْرَةِ الْإِلَهِيَّةِ وَالْعِنَايَةِ الْغَيْبِيَّةِ ، وَعَمَلُ الصَّالِحَاتِ الَّذِي يُصْلِحُ النُّفُوسَ ، وَيُؤَلِّفُ – مَعَ الِاعْتِقَادِ – بَيْنَ الْقُلُوبِ ، هُمَا أَكْبَرُ أَسْبَابِ الْقُوَّةِ ، وَأَقْرَبُ وَسَائِلِ السِّيَادَةِ وَالسَّعَادَةِ ، وَقَدْ جَاءَ هَذَا الْإِرْشَادُ وَالتَّأْدِيبُ فِي سِيَاقِ الْكَلَامِ عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ ؛ لِأَنَّ مَكْرَهُمُ السَّيِّئَ كَانَ مَثَارًا لِبَعْضِ الْخَوَاطِرِ فِي الْمُسْلِمِينَ ، فَالْكَلَامُ تَأْدِيبٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَدٌّ عَلَى الْيَهُودِ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير المنار حـ 1 صـ 341. 349 ﴾

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللّهِ إِنَّ اللّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (110) ﴾

بعد أن بين الله سبحانه وتعالى أن أقصى أماني أهل الكتاب أن يردونا كفارا ، وأن هذا حسدا منهم . أراد الله تبارك وتعالى أن يبين لنا ما الذي يكرهه أهل الكتاب . . وقال إن الذي يتعبهم ميزان العدل والحق الذي نتبعه . . منهج الله سبحانه وتعالى . . ولذلك يأمر الله المؤمنين أن يثبتوا ويتمسكوا بالإيمان ، وأن يقبلوا على التكليف فهذا أحسن رد عليهم . . والتكاليف التي جاء بها الإسلام منها تكليفات لا تتطلب إلا وقتاً من الزمن وقليلا من الفعل كشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا .

إن شهادة لا إله إلا الله تقال مرة في العمر . . والزكاة والصوم مرة كل عام . . والحج للمستطيع مرة في العمر . . ولكن هناك من العبادات ما يتكرر كل يوم ليعطي المؤمن شحنة اليقين والإيمان ويأخذه من دنياه بالله اكبر خمس مرات في اليوم . . وهذه هي العبادة التي لا تسقط أبدا . . والإنسان سليم والإنسان مريض . . فالمؤمن يستطيع أن يصلي واقفا وأن يصلي جالسا وأن يصلي راقدا . . وأن يجري مراسم الصلاة على قلبه . . لذلك كانت

هذه أول عبادة تذكر في قوله تعالى : " وأقيموا الصلاة" أي والتفتوا إلي نداءات ربكم للصلاة . . وعندما يرتفع صوت المؤذن بقوله الله اكبر فهذه دعوة للإقبال على الله . . إقبال في ساعة معلومة لتقفوا أمامه سبحانه وتعالى وتكونوا في حضرته يعطيكم الله المدد . . ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم (إذا حزبه أمر صلى) . رواه احمد وابوداود عن حزيفة وفى رواية : كان اذا حزبه امر فزع الى الصلاة

(81/63)

ومعنى حزبه أمر . . أي ضاقت به أسبابه فلم يجد مخرجا ولا طريقا إلا أن يلجأ إلي الله . . إذا حدث هذا يتوضأ الإنسان ويصلي ركعتين غير الفريضة . . ثم يدعو ما يشاء فيفرج الله كربه . . إذن : " فأقيموا الصلاة" هي الرد المناسب على كل محاولاتهم ليسلبوكم دينكم . . ذلك أن هذا التكليف المقرر لإعلان الولاء الإيماني لله كل يوم خمس مرات . . نترك كل ما في الدنيا ونتجه إلي الله بالصلاة . . إنها عماد الدين وأساسه . وقوله تعالى : " وآتوا الزكاة" . . إيتاء الزكاة لا يحدث إلا إذا كان لديهم ما هو زائد عن حاجتك . . فكأن الله سبحانه وتعالى يريدنا أن نضرب في الأرض لنكسب حاجتنا وحاجة من نعول ونزيد . . وبذلك يخرج المسلمون من سيطرة اليهود الاقتصادية التي يستذلون بها

المسلمين .

فالمؤمن حين يأتي الزكاة معناه أن حركته اتسعت لتشمل حاجته وحاجة غيره . . ولذلك حتى الفقير يجد في الزائد في أموال المسلمين ما يكفي حاجته . . فلا يذهب إلي اليهودي ليقترض بالربا . . ولذلك فالله سبحانه وتعالى يريد أن يتكامل المسلمون . . بحيث تكفي أموالهم غنيهم وفقيرهم والقادر على العمل منهم وغير القادر والله تبارك وتعالى يزيد أموال المسلمين بأكثر مما يخرج منها من زكاة . .

<ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما نقصت صدقة من مال وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا وما تواضع أحد لله إلا رفعه" > رواه احمد ومسلم والترمذى عن ابى هريرة

وقد سميت " الزكاة" لأنها في ظاهرها نقص وفي حقيقتها زيادة . . والربا ظاهرة زيادة وحقيقته نقص . . وفي ذلك يقول الله جل جلاله :

يَمْحَقُ اللَّهُ الْرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ

(من الآية 276 سورة البقرة)

ثم يقول الحق سبحانه : " وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله" . . إذن لابد أن يطمئن المؤمن لأن حركة حياته هي ثواب وأجر عند الله تبارك وتعالى . . فإذا صلى فله أجر وإذا زكى فله أجر ، وإذا تصدق فله أجر ، وإذا صام فله أجر ، وإذا حج فله أجر ، كل ما يفعله من منهج الله له أجرا بقدر العمل ، بل أضعاف العمل . . واقرأ قوله تعالى :

مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (261)

(سورة البقرة)

وهكذا نعرف أن كل حركة في منهج الله ليس فقط لها أجر عند الله سبحانه وتعالى . . ولكنه أجر مضاعف أضعافا مضاعفة . . وهو أجر ليس بقدرات البشر ولكنه بقدرة الله سبحانه . . ولذلك فهو ليس مضاعفا فقط في عدد المرات ولكنه مضاعف في القدرة أيضا . . فكأن كل إنسان مؤمن لا أجر له في الآخرة . . وإذا أعطى في الدنيا يعطي عطاء المثل . . ولكن المؤمن وحده له عطاء الآخرة أضعافا مضاعفة . . وهو عطاء ليس زائلا كعطاء الدنيا ولكنه باق وخالد . والخير الذي تفعله لن تدخره عندك أو عند من قد ينكره . . ويقول لا شيء لك عندي ولكن الله سيدخره لك . . فانظر إلي الاطمئنان والعمل في يد الله الأمينة ، وفي مشيئته التي لا يغفل عنها شيء ، وفي قدرته التي تضاعف أضعافا مضاعفة . . وتجده في الوقت الذي تكون في أحوج اللحظات إليه وهو وقت الحساب . ثم

يقول الحق تبارك وتعالى : " والله بما تعملون بصير " . . أي لا تعتقد أن هناك شيئا يخفى على الله ، أو أن أحدا يستطيع أن يخدع الله ؛ فالله سبحانه وتعالى بصير بكل شيء . . ليس بالظاهر منك فقط . . ولكن بما تخفيه في نفسك ولا تطلع عليه أحدا من خلق الله ، إنه يعلم كل شيء واقرأ قوله سبحانه وتعالى :

رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء (38)

(سورة إبراهيم)

وهكذا نطمئن إلي أن الله بصير بكل شيء ، وانظر إلي قوله جل جلاله : " يعملون " لتفهم أهمية العمل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 526 . 528 ﴾

فائدة

قال فى روح البيان :

اعلم أن الإنسان إذا مات انقطع عمله إلا أن يبقى بعده واحد من الأولاد الأربعة التي لا ينقطع أجرها :

الأول : ما يتولد من مال الإنسان كبناء المساجد والجسور والرباط والأوقاف وغير ذلك من الخيرات

وإلى هذا أشار عليه السلام بقوله : " من صدقة جارية" في حديث " إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث" .

والثاني : ما يتولد من العقل الراجح كالعلم المنتفع به وإليه الإشارة بقوله عليه السلام : " أو علم ينتفع به" قيل : هو الأحكام المستنبطة من النصوص والظاهر أنه عام متناول ما خلفه من تصنيف أو تعليم في العلوم الشرعية وما يحتاج إليه في تعلمها قيد العلم بالمنتفع به لأن ما لا ينتفع به لا يثمر أجراً كما أن كتم ما ينتفع به لا يثمر أجراً بل إثماً وعذاباً كما ورد في الحديث " من كتم علماً يعلمه ألجم يوم القيامة بلجام من النار" .

قال الإمام السخاوي يشمل هذا الوعيد حبس الكتب عمن يطلبها للانتفاع بها .

والثالث : ما يتولد من النفس كالبنين والبنات وإليه الإشارة بقوله عليه السلام : " أو ولد صالح يدعو له" قيد عليه الصلاة والسلام بالصالح لأن الأجر لا يحصل من غيره .

وأما الوزر فلا يلحق بالأب من سيئة ولده إذا كانت نيته في تحصيله الخير وإنما ذكر الدعاء له تحريضاً للولد على الدعاء لأبيه لا لأنه قيد لأن الأجر يحصل للوالد من ولده الصالح كلما عمل عملاً صالحاً سواء دعا لأبيه أم لا كمن غرس شجرة يحصل له من أكل ثمرتها ثواب سواء دعا له من أكلها أم لم يدع وكذلك الأم.

فإن قلت: ما التوفيق بين هذا الحديث وبين قوله عليه السلام: "من سنّ في الإسلام سنة حسنة فله أجرا وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة" وقوله عليه السلام: "من مات يختم على عمله إلا المرابط في سبيل الله فإنه ينمو له عمله إلى يوم القيامة".

(85/63)

قلنا السنة المسنونة من جملة العلم المنتفع به ومعنى حديث المرابط أن ثواب عمله الذي قدمه في حياته ينمو له إلى يوم القيامة.

أما الثلاث المذكورة في الحديث فإنها أعمال تحدث بعد وفاته لا تنقطع عنه لأنه سبب لها فيلحقه منها ثواب.

والرابع: ما يتولد من الروح وهي الأولاد المعنوية التي تولدت من التربية كأولاد المشايخ

الكاملين من الصوفية المتشرعين المحققين وهذا القسم يمكن أن يندرج فيما قبله فافهم .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح البيان حـ 1 صـ 259. 260 ﴾

(86/63)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (108) وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (109) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (110) ﴾

أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال " قال رافع بن حريملة ووهب بن زيد لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يا محمد ائتنا بكتاب تنزله علينا من السماء نقرأه ، أو فجر لنا أنهاراً نتبعك ونصدقك ، فأنزل الله في ذلك ﴿ أم تريدون أن تسألوا رسولكم ﴾ إلى قوله ﴿ سواء السبيل ﴾ وكان حيي بن أخطب وأبو ياسر بن

أخطب من أشد اليهود حسداً للعرب إذ خصهم الله برسوله ، وكانا جاهدين في رد الناس عن الإسلام ما استطاعا ، فأنزل الله فيهما ﴿ ودّ كثير من أهل الكتاب . . . ﴾ الآية " .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي العالية قال : قال رجل " يا رسول الله لو كانت كفاراتنا ككفارات بني إسرائيل . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أعطيتم خير ، كانت بنو إسرائيل إذا أصاب أحدهم الخطيئة وجدها مكتوبة على بابه وكفارتها ، فإن كفرها كانت له خزياً في الدنيا ، وإن لم يكفرها كانت له خزياً في الآخرة ، وقد أعطاكم الله خيراً من ذلك قال ﴿ ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ﴾ [النساء : 110] الآية ، والصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة كفارات لما بينهن . فأنزل الله ﴿ أم تريدون أن تسألوا رسولكم . . . ﴾ الآية . " .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن السدي قال : سألت العرب محمداً صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم بالله فيروه جهرة ، فنزلت هذه الآية .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد قال " سألت قريش محمداً صلى الله عليه وسلم أن يجعل لهم الصفا ذهباً . فقال : نعم ، وهو كالمائدة لبني

إسرائيل إن كفرتم ، فأبوا ورجعوا . فأنزل الله ﴿ أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل ﴾ أن يريهم الله جهرة " .

وأخرج ابن جرير عن أبي العالية في قوله ﴿ ومن يتبدل الكفر بالإيمان ﴾ يقول : يتبدل الشدة بالرخاء .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله ﴿ فقد ضل سواء السبيل ﴾ قال : عدل عن السبيل .

وأخرج أبو داود وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل عن كعب بن مالك قال " كان المشركون واليهود من أهل المدينة حين قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه أشد الأذى ، فأمر الله رسوله والمسلمين بالصبر على ذلك والعفو عنهم ، ففيهم أنزل الله ﴿ ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً ﴾ [آل عمران : 186] الآية . وفيهم أنزل الله ﴿ ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً ﴾ الآيه " .

وأخرج البخاري ومسلم وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والبيهقي في الدلائل عن أسامة بن زيد قال " كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب كما أمرهم الله ويصبرون على الأذى قال الله

﴿ ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً ﴾ [آل عمران : 186] وقال ﴿ ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره ﴾ وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتأوّل في العفو ما أمره الله به حتى أذن الله فيهم بقتل ، فقتل الله به من قتل من صناديد قريش " .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن الزهري وقتادة في قوله ﴿ ودّ كثير من أهل الكتاب ﴾ قالا : كعب بن الأشرف .

وأخرج ابن جرير عن الربيع بن أنس في قوله ﴿ حسداً من عند أنفسهم ﴾ قال : من قبل أنفسهم ﴿ من بعد ما تبين لهم الحق ﴾ يقول : يتبين لهم أن محمداً رسول الله .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة في قوله ﴿ من بعد تبين لهم الحق ﴾ قال : من بعد ما تبين لهم أن محمداً رسول الله يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل نعته وأمره ونبوته ، ومن بعد ما تبين لهم أن الإسلام دين الله الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ فاعفوا واصفحوا ﴾ قال : أمر الله نبيه أن يعفو عنهم ويصفح حتى يأتي الله بأمره ، فأنزل الله في براءة وأمره فقال ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ﴾ [التوبة : 29] الآية . فنسختها هذه الآية ، وأمره الله فيها بقتال أهل الكتاب حتى يسلموا أو يقروا بالجزية .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس في قوله ﴿ فاعفوا واصفحوا ﴾ وقوله ﴿ وأعرض عن المشركين ﴾ [الأنعام : 106] ونحو هذا في العفو عن المشركين قال : نسخ ذلك كله بقوله ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ﴾ [التوبة : 29] وقوله ﴿ اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ [التوبة : 5] .

وأخرج ابن جرير والنحاس في تاريخه عن السدي في قوله ﴿ فاعفوا واصفحوا ﴾ قال : هي منسوخه نسختها ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ﴾ [التوبة : 29] .

(89/63)

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله ﴿ وما تقدموا لأنفسكم من خير ﴾ يعني من الأعمال من الخير في الدنيا .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي العالية في قوله ﴿ تجدوه عند الله ﴾ قال : تجدوا ثوابه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 1 صـ 260 . 262 ﴾

(90/63)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله تعالى : ﴿ وَمَا تُقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ ﴾ كقوله : ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ ﴾ [البقرة : 601] .

فيجوز في " ما " أن تكون مفعولاً بها ، وأن تكون واقعةً موقع المصدر ، ويجوز في " مِنْ خَيْرٍ " الأربعة أوجه التي في " من آيةٍ " : من كونه مفعولاً به ، أو حالاً أو تمييزاً ، أو متعلّقاً بمحذوف .

و " مِنْ " تبعيضية ، وقد تقدم تحقيقها ، فليراجع ثَمَّة .

و " لأَنفُسِكُمْ " متعلّق بت " تقدمُّوا " ، أي : لحياة أنفسكمن وحذف ، و " تجدوه " جواب الشرط ، وهي متعدّية لواحد ؛ لأنها بمعنى الإصابة ، ومصدرها الوِجْدَان يكسر الواو كما تقدم ، ولا بد من حذف مضاف أي : تجدوا ثوابه ، وقد جعل الزمخشري رحمه الله تعالى الهاء عائدة على " ما " ، وهو يريد ذلك ؛ لأنَّ الخير المتقدم سبب منقض لا يوجد ، إما يوجد ثوابه .

قوله : " عِنْدَ اللهِ " يجوز فيه وجهان :

أحدهما : أنه متعلّق بـ " تَجِدُوهُ " .

والثاني : أنه متعلّق بمحذوف على أنه حال من المفعول أي : تجدوا ثوابه مدّخراً معدّاً عند

الله تعالى ، والظَّرفية هنا مجاز نحو : " لك عند فلان يد " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 2 صـ 394.396 ﴾ . باختصار .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (110) ﴾

الواجب على المريد إقامة المواصلات ، وإدامة التوسل بفنون القُربات ، واثقاً بأن ما يقدمه من صدق المجاهدات تُدرك ثمرته في أواخر الحالات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 114 ﴾ .

قوله تعالى ﴿ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (111) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما ذكر دعواهم في مس النار وأبطلها من وجوه كثيرة أحاطت بهم فيها الخطايا إحاطة اقتضت خلودهم فيها من جهة ضلالهم إلى آية النسخ مرقياً الخطاب من سيئة إلى أسوأ منها ثم من جهة إضلالهم لغيرهم من آية النسخ عطف على تلك الدعوى الإخبار بدعواهم في دخول الجنة تصريحاً بما أفهمته الدعوى الأولى تلويحاً وقرن بذلك مثل ما ختم به ما قبلها من أن من فعل خيراً وجد على وجه بين فيه أن ذلك الخير الإسلام والإحسان فقال تعالى : ﴿ وقالوا ﴾ أي أهل الكتاب من اليهود والنصارى حسداً منهم على المسبب الذي هو الجنة كما حسدوا على السبب وهو إنزال ما اقتضى الإيمان الموصل إلى الرضوان الذي به تستباح الجنان ﴿ لن يدخل الجنة ﴾ المعدة لأولياء الله ﴿ إلا من كان هوداً ﴾ هذا قول اليهود منهم ﴿ أو نصارى ﴾ وهذا قول النصارى نشراً لما لفته الواو في ﴿ وقالوا ﴾ .

ولما كانوا أبعد الناس عن هذه الأماني التي تمنوها لأنفسهم لمنابذتهم لما عندهم من العلم والتي حسدوا فيها المؤمنين لأن ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء قال مشيراً إلى بعدهم عن ذلك على وجه الاستئناف معترضاً بين الدعوى وطلب الدليل عليها تعجيلاً لتوهيتها : ﴿ تلك ﴾ بأداة البعد ﴿ أمانيهم ﴾ تهكماً بهم ، أي أمثال هذه الشهوة من ودهم أن لا ينزل على المؤمنين خير من ربهم ، وأن يردوهم كفاراً ، وأن لا يدخل الجنة غيرهم – وأمثال ذلك من شهواتهم .

ولما كان كل مدع لغيب مفتقراً في تصحيح دعواه إلى دليل وكان مثل هذا لا يقنع فيه إلا بقاطع أمر أعلم الخلق لأنه لا ينهض بأخراسهم في علمهم ولددهم غيره بمطالبتهم بذلك ناقضاً لدعواهم فقال : ﴿ قل هاتوا برهانكم ﴾ بلفظ البرهان .

(92/63)

قال الحرالي : وهو علم قاطع الدلالة غالب القوة بما تشعر به صيغة الفعلان ضم أولها وزيادتا آخرها ، وهذا كما افتتح تلك بالنقض بقوله : ﴿ قل أتخذتم ﴾ وفي ذلك إعلام بأنه تعالى ما غيّب شيئاً إلا وأبدى عليه علماً ليكون في العالم المشهود شفاف عن العالم الغائب – قاله الحرالي .

قالوا : وهذا أهدم شيء لمذهب المقلدين ودليل على أن كل قول لا برهان عليه باطل .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 221. 222 ﴾

(93/63)

اللغة :

[هودا] أي يهودا جمع هائد ، والهائد : التائب الراجع مشتق من هاد إذا تاب [إنا هدنا إليك] ، [أمانيهم] جمع أمنية وهي ما يتمناه الإنسان ويشتهيه ،

[برهانكم] البرهان : الدليل والحجة الموصلان إلى اليقين ،

[أسلم] استسلم وخضع ،

[خرابها] الخراب : الهدم والتدمير وهو حسي كتخريب بيوت الله ، ومعنوي كتعطيل إقامة الشعائر فيها ،

[خزي] هوان وذلة ،

[ثم] بفتح الثاء أي " هناك " ظرف للمكان ،

[وجه الله] الوجه : الجهة والمراد بوجه الله هنا : الجهة التي ارتضاها وأمر بالتوجه إليها .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 1 صـ 88 ﴾

(94/63)

فصل

قال الفخر :

اعلم أن هذا هو النوع الرابع من تخليط اليهود وإلقاء الشبه في قلوب المسلمين ، واعلم أن اليهود لا تقول في النصارى : إنها تدخل الجنة ، ولا النصارى في اليهود ، فلا بد من تفصيل في الكلام فكأنه قال : وقالت اليهود : لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً ، وقالت النصارى : لن يدخل الجنة إلا من كان نصارى ، ولا يصح في الكلام سواه ، مع علمنا بأن كل واحد من الفريقين يكفر الآخر ، ونظيره : ﴿ قَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نصارى ﴾ [البقرة : 135] والهود : جمع هائد ، كعائذ وعوذ وبازل وبزل ، فإن قيل : كيف قيل : كان هوداً ، على توحيد الاسم ، وجمع الخبر ؟ قلنا : حمل الاسم على لفظ (من) والخبر على معناه كقراءة الحسن : ﴿ إِلاَّ مَنْ هُوَ صَالِ الجحيم ﴾ [الصافات : 163] وقرأ أبي بن كعب : ﴿ إِلاَّ مَن كَانَ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا ﴾ أما قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ﴾ فالمراد أن ذلك متمنياتهم ، ثم إنهم لشدة تمنيهم لذلك قدروه حقاً في نفسه ، فإن قيل : لم قال : ﴿ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ﴾ وقولهم : ﴿ لَن يَدْخُلَ الجنة ﴾ أمنية واحدة ؟ قلنا : أشير بها إلى الأماني المذكورة ، وهي أمنيتهم أن لا ينزل على المؤمنين خير من ربهم ، وأمنيتهم أن يردوهم كفاراً ، وأمنيتهم أن لا يدخل الجنة غيرهم ، أي : تلك الأماني الباطلة أمانيهم ، وقوله تعالى : ﴿ قُلْ هَاتُواْ برهانكم ﴾ متصل بقوله : ﴿ لَن يَدْخُلَ الجنة إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نصارى ﴾ و ﴿ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ﴾ اعتراض ، قال عليه الصلاة والسلام " الكيس من دان نفسه ، وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها ، وتمنى على الله الأماني " وقال علي رضي الله عنه : " لا

تتكل على المنى فإنها بضائع التولي" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 4 صـ 3. 4 ﴾

(95/63)

قال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الجنة إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نصارى ﴾ المعنى : وقالت اليهود لن يدخل الجنة إلا من كان يهودياً .

وقالت النصارى لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانيًّا .

وأجاز الفراء أن يكون ﴿ هُوداً ﴾ بمعنى يهوديًّا ؛ حُذف منه الزائد ، وأن يكون جمع هائد .

وقال الأخفش سعيد : ﴿ إِلاَّ مَن كَانَ ﴾ جعل "كان" واحداً على لفظ "من" ، ثم قال هوداً فجمع ؛ لأن معنى "مَن" جَمْع .

ويجوز ﴿ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ﴾ وتقدّم الكلام في هذا ، والحمد لله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 2 صـ 74 ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الجنة إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نصارى ﴾ عطف على ﴿ وَدَّ ﴾ [البقرة : 109] وما بينهما أعني ﴿ فاعفوا واصفحوا ﴾ [البقرة : 109] إما اعتراض بالفاء أو عطف على ﴿ وَدَّ ﴾ أيضاً ، وعطف الإنشاء على الأخبار فيما لا محل له من الإعراب بما سوى الواو جائز ، والضمير لأهل الكتاب لا لكثير منهم كما يتبادر من العطف ، والمراد بهم اليهود والنصارى جميعاً ، وكأن أصل الكلام قالت اليهود لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً وقالت النصارى لن يدخل الجنة إلا من كان نصارى فلف بين هذين المقولين ، وجعلا مقولاً واحداً اختصاراً وثقة بفهم السامع أن ليس المقصد أن كل واحد من الفريقين يقول هذا القول المردد ، وللعلم بتضليل كل واحد منهما صاحبه بل المقصد تقسيم القول المذكور بالنسبة إليهم فكلمه (أو) كما في " مغني اللبيب" للتفصيل والتقسيم لا للترديد فلا غبار وهود جمع هائد كعوذ جمع عائذ ، وقيل : مصدر يستوي فيه الواحد وغير ، وقيل : إنه مخفف يهود بحذف الياء وهو ضعيف ، وعلى القول بالجمعية يكون اسم (كان) مفرداً عائداً على (مَنْ) باعتبار لفظها ، وجمع الخبر باعتبار معناها ، وهو كثير في الكلام خلافاً لمن منعه ، ومنه قوله :

وأيقظ من كان منكم نياماً . . .

وقرأ أبيّ (يهودياً أو نصرانياً) فحمل الخبر والاسم معاً على اللفظ .

﴿ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ﴾ الأماني جمع أمنية وهي ما يتمنى كالأضحوكة والأعجوبة والجملة معترضة بين قولهم ذلك ؛ وطلب الدليل على صحة دعواهم و﴿ تِلْكَ ﴾ إشارة إلى ﴿ لَن يَدْخُلَ الجنة ﴾ الخ ، وجمع الخبر مع أن ما أشير إليه أمنية واحدة ليدل على تردد الأمنية في نفوسهم وتكررها فيها ، وقيل : إشعاراً بأنها بلغت كل مبلغ لأن الجمع يفيد زيادة الآحاد فيستعمل لمطلق الزيادة وهذا من بديع المجاز ونفائس البيان ؛ وقيل : لا حاجة إلى هذا كله بل الجمع لأن (تلك) محتوية على أمانٍ أن لا يدخل الجنة إلا اليهود ، وأن لا يدخل الجنة إلا النصارى وحرمان المسلمين منها ، وأيضاً فقائله متعدد وهو باعتبار كل قائل أمنية وباعتبار الجميع أمانٍ كثيرة ، ومن الناس من جعلها إشارة إلى أن لا ينزل على المؤمنين خير من ربهم ، وأن يردوهم كفاراً ، وأن لا يدخل الجنة غيرهم وعليه يكون أمانيهم تغليباً لأن الأولين من قبيل المتمنيات حقيقة ؛ والثالث دعوى باطلة ، وجوز أيضاً أن تكون إشارة إلى ما في الآية على حذف المضاف أي أمثال تلك الأمنية أمانيهم فإن جعل الأماني بمعنى الأكاذيب ، فإطلاق الأمنية على دعواهم على سبيل الحقيقة ، وإن جعل بمعنى المتمنيات فعلى الاستعارة تشبيهاً بالمتمني في الاستحالة ، ولا يخفى ما في الوجهين من البعد لا سيما أولهما لأن كل جملة ذكر فيها ودّهم لشيء قد انفصلت وكملت واستقلت في النزول فيبعد

جداً أن يشار إليها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 359 ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الجنة إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نصارى ﴾

عطف على ﴿ ود كثير ﴾ [البقرة : 109] وما بينهما من قوله : ﴿ فاعفوا واصفحوا ﴾ [البقرة : 109] الآية اعتراض كما تقدم .

والضمير لأهل الكتاب كلهم من اليهود والنصارى بقرينة قوله بعده : ﴿ إلا من كان هوداً أو نصارى ﴾ .

(97/63)

ومقول القول مختلف باختلاف القائل فاليهود قالت لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً ، والنصارى قالت لن يدخل الجنة إلا من كان نصارى ، جمع القرآن بين قوليهما على طريقة الإيجاز بجمع ما اشتركا فيه وهو نفي دخول الجنة عن المستثنى منه المحذوف لأجل تفريع الاستثناء ، ثم جاء بعده تفريق ما اختص به كل فريق وهو قوله : ﴿ هوداً أو نصارى ﴾ فكلمة (أو) من كلام الحاكي في حكايته وليست من الكلام المحكي فأوْهنا لتقسيم القولين ليرجع السامع كل قول إلى قائله ، والقرينة على أن (أو) ليست من مقولهم المحكي أنه لو كان

من مقولهم لاقتضى أن كلا الفريقين لا ثقة له بالنجاة وأنه يعتقد إمكان نجاة مخالفه والمعلوم من حال أهل كل دين خلاف ذلك فإن كلاً من اليهود والنصارى لا يشك في نجاة نفسه ولا يشك في ضلال مخالفه وهي أيضاً قرينة على تعيين كل من خبري ﴿ كان ﴾ لبقية الجملة المشتركة التي قالها كل فريق بإرجاع هوداً إلى مقول اليهود وإرجاع نصارى إلى مقول النصارى .

فأو ههنا للتوزيع وهو ضرب من التقسيم الذي هو من فروع كونها لأحد الشيئين وذلك أنه إيجاز مركب من إيجاز الحذف لحذف المستثنى منه ولجمع القولين في فعل واحد وهو ﴿ قالوا ﴾ ومن إيجاز القصر لأن هذا الحذف لما لم يعتمد فيه على مجرد القرينة المحوجة لتقدير وإنما دل على المحذوف من القولين بجلب حرف أو كانت (أو) تعبيراً عن المحذوف بأقل عبارة فينبغي أن يعد قسماً ثالثاً من أقسام الإيجاز وهو إيجاز حذف وقصر معاً .

(98/63)

وقد جعل القزويني في " تلخيص المفتاح" هاته الآية من قبيل اللف والنشر الإجمالي أخذاً من كلام " الكشاف" لقول صاحب " الكشاف" " فلف بين القولين ثقة بأن السامع يرد إلى كل فريق قوله وأمنا من الإلباس لما علم من التعادي بين الفريقين" فقوله : فلف بين القولين أراد به

اللف الذي هو لقب للمحسن البديعي المسمى اللف والنشر ولذلك تطلبوا لهذا اللف نشراً وتصويراً للف في الآية من قوله ﴿ قالوا ﴾ : مع ما بينه وهو لف إجمالي يبينه نشره الآتي بعده ولذلك لقبوه اللف الإجمالي .

ثم وقع نشر هذا اللف بقوله : ﴿ إلا من كان هوداً أو نصارى ﴾ فعلم من حرف (أو) توزيع النشر إلى ما يليق بكل فريق من الفريقين .

وقال التفتازاني في ﴿ شرح المفتاح ﴾ جرى الاستعمال في النفي الإجمالي أن يذكر نشره بكلمة (أو) .

والهود جمع هائد أي متبع اليهودية وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا ﴾ [البقرة : 62] الآية وجمع فاعل على فُعل غير كثير وهو سماعي منه قولهم عوذ جمع عائذ وهي الحديثة النتاج من الظباء والخيل والإبل ومنه أيضاً عائط وعوط للمرأة التي بقيت سنين لم تلد ، وحائل وحول ، وبازل وبزل ، وفاره وفُره ، وإنما جاء هوداً جمعاً مع أنه خبر عن ضميره (كان) وهو مفرد لأن (من) مفرداً لفظاً ومراد به الجماعة فجرى ضميره على مراعاة لفظه وجرى خبراً وضميراً على مراعاة المعنى .

والإشارة بـ ﴿ تلك ﴾ إلى القولة الصادرة منهم ﴿ لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى ﴾ كما هو الظاهر فالإخبار عنها بصيغة الجمع إما لأنها لما كانت أمنية كل واحد منهم صارت إلى أماني كثيرة وإما إرادة أن كل أمانيهم كهذه ومعتادهم فيها فيكون من

التشبيه البليغ.

والأماني تقدمت في قوله: ﴿ لا يعلمون الكتاب إلا أماني ﴾ [البقرة: 78] وجملة ﴿ تلك أمانيهم ﴾ معترضة. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 1 صـ 654. 655 ﴾

(99/63)

قوله تعالى ﴿ قُلْ هَاتُواْ برهانكم ﴾

" فائدة "

قال الفخر:

دلت الآية على أن المدعي سواء ادعى نفياً، أو إثباتاً، فلا بد له من الدليل والبرهان، وذلك من أصدق الدلائل على بطلان القول بالتقليد قال الشاعر:

من ادعى شيئاً بلا شاهد.. لا بد أن تبطل دعواه. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 4 صـ 4 ﴾

وقال أبو حيان:

﴿ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾: لما تقدم منهم الدعوى بأنه لن يدخل الجنة إلا

من ذكروا ، طولبوا بالدليل على صحة دعواهم .

وفي هذا دليل على أن من ادعى نفياً أو إثباتاً ، فلا بد له من الدليل .

وتدل الآية على بطلان التقليد ، وهو قبول الشيء بغير دليل .

قال الزمخشري : وهذا أهدم شيء لمذهب المقلدين ، وإن كل قول لا دليل عليه ، فهو باطل .

إن كنتم صادقين فهاتوا برهانكم ، أي أوضحوا دعوتكم .

وظاهر الآية أن متعلق الصدق هو دعواهم أنهم مختصون بدخول الجنة .

وقيل : صادقين في إيمانكم .

وقيل : في أمانيكم .

وقيل معنى صادقين : صالحين كما زعمتم ، وكل ما أضيف إلى الصلاح والخير أضيف إلى الصدق .

تقول : رجل صدق ، وصديق صدق ، ودالة صدق ، ومنه : ﴿ هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم ﴾ وقيل : معناه إن كنتم موقنين بما أخذ الله ميثاقه وعهوده ، ومنه : ﴿ رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 1 صـ 521 ﴾

قال الآلوسى :

﴿ قُلْ هَاتُوا۟ برهانكم ﴾ أي على ما ادعيتموه من اختصاصكم بدخول الجنة فهو متصل معنى بقوله تعالى : ﴿ قَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ﴾ الخ على أنه جواب له لا غير ، و ﴿ هَاتُوا۟ ﴾ بمعنى أحضروا والهاء أصلية لا بدل من همزة آتوا ولا للتنبيه وهي فعل أمر خلافاً لمن زعم أنها اسم فعل أو صوت بمنزلة ها وفي مجيء الماضي والمضارع والمصدر من هذه المادة خلاف ؛ وأثبت أبو حيان هاتي يهاتي مهاتاة والبرهان الدليل على صحة الدعوى ، قيل : هو مأخوذ من البره وهو القطع فتكون النون زائدة ، وقيل : من البرهنة وهو البيان فتكون النون أصلية لفقدان فعلن ووجود فعلل ويبنى على هذا الاشتقاق الخلاف في برهان إذا سمي به هل ينصرف أولاً ؟

﴿ إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ جواب الشرط محذوف يدل عليه ما قبله ومتعلق الصدق دعواهم السابق لا الإيمان ولا الأماني كما قيل ، وأفهم التعليق أنه لا بد من البرهان للصادق ليثبت دعواه ، وعلل بأن كل قول لا دليل عليه غير ثابت عند الخصم فلا يعتد به ، ولذا قيل : من ادعى شيئاً بلا شاهد لا بد أن تبطل دعواه ، وليس في الآية دليل على منع التقليد فإن دليل المقلد دليله كما لا يخفى ، وتفسير الصدق هنا بالصلاح مما لا يدعو إليه سوى فساد الذهن . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 359. 360 ﴾

وقال ابن عاشور :

وقوله : ﴿ قل هاتوا برهانكم ﴾ أمر بأن يجابوا بهذا ولذلك فصله لأنه في سياق المحاورة كما تقدم عند قوله : ﴿ قالوا أتجعل فيها ﴾ [البقرة : 30] الآية وأتى بإن المفيدة للشك في صدقهم مع القطع بعدم الصدق لاستدراجهم حتى يعلموا أنهم غير صادقين حين يعجزون عن البرهان لأن كل اعتقاد لا يقيم معتقده دليل اعتقاده فهو اعتقاد كاذب لأنه لو كان له دليل لاستطاع التعبير عنه ومن باب أولى لا يكون صادقاً عند من يريد أن يروج عليه اعتقاده . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 1 صـ 656 ﴾

(101/63)

ومن فوائد ابن عطية فى الآية

قال رحمه الله :

وقوله تعالى : ﴿ وقالوا لن يدخل الجنة ﴾ معناه قال اليهود : لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً ، وقال النصارى : لن يدخل الجنة إلا من كان نصارى ، فجمع قولهم ، ودل تفريق نوعيهم على تفرق قوليهم ، وهذا هو الإيجاز واللف ، وهود جمع هائد ، مثل عائد وعود ، ومعناه التائب الراجع ، ومثله في الجمع بازل وبزل وحائل وحول وبائر وبور ، وقيل هو

مصدر يوصف به الواحد والجمع كفطر وعدل ورضا ، وقال الفراء ، أصله يهودي حذفت ياءاه على غير قياس .

وقرأ أبي بن كعب " إلا من كان يهودياً " ، وكذبهم الله تعالى وجعل قولهم أمنية ، وقد قطعوا قبل بقوله ﴿ فتمنوا الموت ﴾ [البقرة : 94 ، الجمعة : 6] ، وأمر محمد صلى الله عليه وسلم بدعائهم إلى إظهار البرهان ، وقيل : إن الهاء في ﴿ هاتوا ﴾ أصلية من هاتا يهاتي ، وأميت تصريف هذه اللفظة كله إلا الأمر منه وقيل : هي عوض من همزة آتى ، وقيل : ها تنبيه ، وألزمت همزة آتى الحذف ، والبرهان الدليل الذي يوقع اليقين ، قال الطبري : طلب الدليل هنا يقضي بإثبات النظر ويرد على من ينفيه ، وقول اليهود ﴿ لن ﴾ نفي حسنت بعده ﴿ بلى ﴾ ، إذ هي رد بالإيجاب في جواب النفي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 1 صـ 197.198 ﴾

(102/63)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن

كُنتُمْ صَادِقِينَ (111) ﴾

بعد أن بين الحق تبارك وتعالى كيف أن كل عمل في منهج الله له أجر ، وأجر باق وثابت ومضاعف عند الله ومحفوظ بقدرة الله سبحانه . . أراد أن يرد على ادعاءات اليهود والنصارى الذين يحاولون أن يثيروا اليأس في قلوب المؤمنين بالكذب والإحباط علهم ينصرفون عن الإسلام . . لذلك فقد أبلغنا الله سبحانه بما افتروه . واقرأ قوله تعالى : " وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى " . . وفي هذه الآية الكريمة يظهر التناقض بين أقوال اليهود والنصارى . . ولقد أوردنا كيف أن اليهود قد قالوا " لن يدخل الجنة إلا من كان هودا " . . وقالت النصارى : " لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانيا " . . والله سبحانه وتعالى يفضح التناقض في آية ستأتي في قوله تبارك وتعالى :

وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ

(من الآية 113 سورة البقرة)

ومعنى ذلك أنهم تناقضوا في أقوالهم ، فقالت النصارى : إنهم سيدخلون الجنة وحدهم ، وقالت اليهود القول نفسه . ثم قالوا : لن يدخل الجنة إلا من كان يهوديا أو نصرانيا . . ثم

قالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء .

ويقول الناس إذا كنت كذوبا فكن ذكورا ؛ ذلك أن الذي يكذب تتناقض أقواله لأنه ينسى مادام قد قال غير الحقيقة ، ولذلك تجد أن المحقق أو القاضي يظل يسأل المتهم أسئلة مختلفة . . حتى تتناقض أقواله فيعرف أنه يكذب . . فأنت إذا رويت الواقعة كما حدثت فإنك ترويها مائة مرة دون أي خلاف في التفاصيل . ولكنك إذا كذبت تتناقض مع نفسك . .

والله سبحانه وتعالى يقول : " تلك أمانيهم " . . ما هي الأماني ؟ . . هي أن تعلق نفسك بأمنية وليس لهذه الأمنية سند من الواقع يوصلك إلي تحقيق هذه الأمنية . . ولكن إذا كان التمني قائما على عمل يوصلك إلي تحقيق الأمنية فهذا شيء آخر .

بعض الناس يقول التمني وإن لم يتحقق فإنه يروح عن النفس . . فقد ترتاح النفس عندما تتعلق بأمل كاذب وتعيش أياما في نوع من السعادة وإن كانت سعادة وهمية . . نقول إن الصدمة التي ستلحق بالإنسان بعد ذلك ستدمره . . ولذلك لا يكون في الكذب أبدا راحة . . فأحلام اليقظة لا تتحقق لأنها لا تقوم على أرضية من الواقع وهي لا تعطي الإنسان إلا نوعا من بعد عن الحقيقة . . ولذلك يقول الشاعر :

منى إن تكن حقاً تكن احسن المنى وإلا فقد عشا بها زمنا رغدا

يعني الأماني لو كانت حقيقة أو تستند إلي الحقيقة فإنها احسن الأماني لأنها تعيش معك . . فإن لم تكن حقيقة يقول الشاعر :

فقد عشنا بها زمنا رغدا

أماني من ليل حسان كأنما سقتنا بها ليلى على ظمأ بردا

(104/63)

وقوله تعالى : " تلك أمانيهم" تبين لنا أن الأماني هي مطامع الحمقى لأنها لا تتحقق . .

والحق سبحانه يقول : " قل هاتوا برهانكم" . . وما هو البرهان ؟ . . البرهان هو الدليل . . ولا تطلب البرهان إلا من إنسان وقعت معه في جدال واختلفت وجهات النظر بينك وبينه . . ولا تطلب البرهان إلا إذا كنت متأكداً أن محدثك كاذب . . وأنه لن يجد الدليل على ما يدعيه . هب أن شخصا ادعى أن عليك مالا له . . وطلب منك أن تعيده إليه وأنت لم تأخذ منه مالا . . في هذه الحالة تطلب منه تقديم الدليل . . (فالكمبيالة) التي كتبتها له أو الشيك أو إيصال الأمانة . . وأضعف الإيمان أن تطلب منه شهودا على أنك أخذت منه المال . . ولكن قبل أن تطالبه بالدليل . . يجب أن تكون واثقا من نفسك وأنه فعلا يكذب وأنك لم تأخذ منه شيئا .

إذن فقوله الحق سبحانه : " هاتوا برهانكم" . . كلام من الله يؤكد أنهم كاذبون . . وأنهم لو أرادوا أن يأتوا بالدليل . . فلن يجدوا في كتب الله ولا في كلام رسله ما يؤكد ما يدعونه ،

وإن أضافوه يكن هذا افتراء على الله ويكن هناك الدليل الدامغ على أن هذا ليس من كلام الله ولكنه من افتراءاتهم . إذن فليس هناك برهان على ما يقولونه . . ولو كان هناك برهان ولو كان في هذا الكلام ولو جزءا من الحقيقة . . ما كان الله سبحانه وتعالى يطالبهم بالدليل . إذن لا تقول هاتوا برهانكم إلا إذا كنت واثقا أنه لا برهان على ما يقولون ؛ لأنك رددت الأمر إليه فيما يدعيه . . وهو يحب أن يثبته ويفعل كل شيء في سبيل الحصول على برهان . . ولا يمكن أن يقول الله : " هاتوا برهانكم " . . إلا وهو سبحانه يعلم أنهم يكذبون . . ولذلك قال : " إن كنتم صادقين " . . أي إن كنتم واثقين من أن ما تقولونه صحيح ؛ لأن الله يعرف يقينا أنكم تكذبون . انتهى انتهى . ا هـ ﴾ تفسير الشعراوى صـ 529 . 531 ﴿

(105/63)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (111) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية في قوله ﴿ وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى ﴾ قال : قالت اليهود : لن يدخل الجنة إلا من كان يهودياً . وقالت النصارى : لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانياً ﴿ تلك أمانيهم ﴾ قال : أماني يتمونها على الله بغير حق ﴿ قل هاتوا برهانكم ﴾ يعني حجتكم ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ بما تقولون أنها كما تقولون . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 1 صـ 263 ﴾

(106/63)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً ﴾ .

" من " فاعل بقوله : " يَدْخُلَ " وهو استثناء مفرغ ، فإن ما قبل " إلاَّ " مفتقر لما بعدها ، والتقدير : لن يدخل الجنّة أحد ، وعلى مذهب الفرّاء يجوز في " مَنْ " وجهان آخران ، وهما النَّصْب على الاستثناء والرفع على البدل من " أحد " المحذوف ، فإن الفراء رحمه الله تعالى يراعي المحذوف ، وهو لو صرّح به لجاز في المستثنى الوجهان المذكوران ، فكذلك جاز مع التقدير عنده ، وقد تقدّم تحقيق المذهبين .

والجملة من قوله تعالى : ﴿ لَن يَدْخُلَ الجنة إِلاَّ مَن ﴾ في محلّ نصب بالقولنوحمل أولاً على لفظ " من " فأفرد الضمير في قوله : " كان " ، وعلى معناها ثانياً فجمع في خبرها وهو " هوداً " ، وفي مثل هاتين الجملتين خلاف ، أعني أن يكون الخبر غير فعل ، بل وصفاً يفصل بين مذكره ومؤنثه تاء التأنيث .

فمذهب جمهور البصريين والكوفيين جوازه ، ومذهب غيرهم منعه ، منهم أبو العَبَّاس ، وهم محجوجون بسماعه من العرب كهذه الآية ، فإن هوداً جمع " هائد " على أظهر القولين ، نحو : بازل وبُزْل ، وعَائد وعُوْد ، وحَائِل وحُوْل ، وبائِر وبُوْر .

و" هائد " من الأوصاف ، الفارقُ بين مذكَّرها ومؤنثها " تاء " التأنيث ؛ قال الشاعر : [المتقارب]

738 وَأَيْقَظَ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ نِيَامَا . . .

و" نايم " جمع نائم ، وهو كالأول .

وفي " هود " ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه جمع هائد كما تقدم .

والثاني : أنه مصدر على " فُعَل " نحو حزن وشرب يوصف به الواحد وغيره نحو : عدل وصوم .

والثالث : وهو قول الفراء أن أصله " يهود " ، فحذفت الياء من أوله ، وهذا بعيد .

و" أول " هنا للتَّفْصيل والتنويع ؛ لأنه لما لَفَّ الضميرَ في قوله تعالى : " وقالوا " : فَصَّل القائلين ، وذلك لفهم المعنى ، وأمن الإلباس ، والتقدير : [وقال اليَهُودُ : لن يدخل الجَنَّة إلاَّ من كان هوداً .

(107/63)

وقال الأنصاري : لن يدخل إلاَّ من كان نصارى] ؛ لأن من المعلوم أنَّ اليهود لا تقول : لن يدخل الجنة إلا من كان يهودياً ، وكذلك النصارى لا تقول : [لا يدخل الجنة إلا من كان نصرانياص] .

ونظيره قوله : ﴿ وَقَالُواْ كُونُواْ هُوداً أَوْ نصارى ﴾ [البقرة : 135] إذ معلوم أن اليهود لا تقول : كونوا نصارى ، ولا النَّصارى تقول : كونوا هوداً .

صدرت الجملة بالنفي بـ " لن " ؛ لأنها تخلص المضارع للاستقبال ن ودخول الجنة مستقبل .

وقدمت اليهود على النصارى لَفْظاً لتقدمهم زماناً .

وقرأ أُبيّ بن كعب " إلاَّ مَنْ كَانَ يَهُودِيًّا أو نَصْرَانِيًّا " .

قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ﴾ " تلك " مبتدأ ، و" أَمَانِيُّهُمْ " خبره ، ولا محلّ لهذه الجملة من الإعراب لكونها وقعت اعتراضاً بين قوله : " وَقَالُوا " ، وبين قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَاتُواْ

بُرْهَانَكُمْ ﴾ ، فهي اعتراض بين الدعوى ودليلها .

والمشار إليه بـ " تلك " فيه ثلاثة احتمالات :

أحدها : أنه المقالة المفهومة من : " قَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الجنة " ، أي : تلك المقالة أمانيهم .

فإن قيل : كيف أفرد المبتدأ وجمع الخبر ؟

فالجواب : أن تلك كناية عن المَقَالة ، والمقالة في الأصل مصدر ، والمصدر يقع بلفظ الإفراد للمفرد المثنى والمجموع ، فالمراد بـ " تِلْكَ " الجمع من حيث المعنى .

وأجاب الزمخشري رحمه الله أن " تِلْكَ " يشار بها إلى الأماني المذكورة ، وهي أمنيتهم [ألا ينزل على المؤمنين خير من ربهم ، وأمنيتهم أن يردوهم كفاراً أي] ألاَّ يدخل الجنة غيرهم .

قال أبو حيان رحمه الله تعالى : وهذا ليس بظاهر ؛ لأن كل جملة ذكر فيها ودّهم لشيء قد كملت وانفصلت ، وانفصلت ، واستقلت بالنزول ، فيبعد أن يشار إليها .

وأجاب الزمخشري أيضاً أن يكون على حذف مضاف أي : أمثال تلك الأمنية أمانيهم ، يريد أن أمانيهم جميعاً في البُطْلاَن مثل أمنيتهم هذه يعني أنه أشير بها إلى واحد .

قال أبو حيان : وفيه قلب الوَضْع ، إذ الأصل أن يكون " تِلْك " مبتدأ ، و" أَمَانِيُّهُمْ " خبر ، فقلب هذا الوضع ، إذ قال : إن أمانيهم في البطلان مثل أمنيتهم هذه ، وفيه أنه متى كان الخبر مشبهاً به المبتدأ ، فلا يتقدم الخبر نحو : زيد زهير ، فإن تقدم كان ذلك من عكس التشبيه كقولك : الأسد زيد شجاعة [قال عليه الصلاة والسلام : " العَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا ، وَتَمَنَّى عَلَى اللهِ تَعَالَى " وقال علي رضي الله عنه : " لا تتكل على المُنَى ، فإنها تضيع المتكل "] .

قوله : " هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ " هذه الجملة في محلّ نصب بالقول .

واختلف في " هات " على ثلاثة أقوال :

أصحها : أنه فعل ، [وهذا هول صحيح لاَتِّصَاله بالضمائر المرفوعة البارزة نحو : هاتوا ، هاتي ، هاتيا ، هاتين .

الثاني : أنه اسم فعل بمعنى أحضر .

الثالث : وبه قال الزمخشري : أنه اسم صوت بمعنى " ها " التي بمعنى : رَامى يُرَامي مُرَامَاة ، فوزنه " فاعل " فتقول : هات يا زيد ، وهاتي يا هند ، وهاتوا وهاتين يا هندات ، كما تقول : رَام رَامِي رَامِيا رَامُوا رَامِينَ .

وزعم ابن عطية رحمه الله أن تصريفه مُهْجُور لا يقال فيه إلاّ الأمر ، وليس كذلك .

الثاني : أن " الهاء " بدل من الهمزة ، وأن الأصل " آتى " وزنه : أفعل مثل أكرم .

وهذا ليس بجيد لوجهين :

أحدهما : أن "آتى" يتعدى لاثنين ، وهاتي يتعدى لواحد فقط .

[وثانيهما] : أنه كان ينبغي أن تعود الألف المبدلة من الهمزة إلى أصلها [الزوال] موجب قلبها ، وهو الهمزة الأولى ، ولم يسمع ذلك .

الثالث : أن هذه "ها" التي للتنبيه دخلت على "أتى" ولزمتها ، وحذفت همزة أتى لزوماً ، وهذا مردود ، فإن معنى "هات" أحضر كذا ، ومعني ائت : احضر أنت ، فاختلاف المعنى يدلّ على اختلاف المادة .

فتحصل في "هَاتُوا" سبعة أقوال :

(109/63)

فعل ، أو اسم فعل ، أو اسم صوت ، والفعل هل ينصرف أو لا ينصرف ؟ وهل هاؤه أصلية ، أو بدل من همزة ، أو هي هاء التنبيه زيدت وحذفت همزته ؟

وأصل "هاتو" : "هاتيوا" ، فاستثقلت الضمة على الياء فحذفت ، فالتقى سكنان فحذف أولهما ، وضم ما قبله لمُجَانسة "الواو" فصار "هاتوا" .

قوله تعالى : "بُرْهَانَكُمْ" مفعول به .

قال القرطبي رحمه الله تعالى : " البرهان " الدّليل الذي يوقع اليقين ، وجمعه بَرَاهين ، مثل قُرْبَان وقرابين ، وسُلْطَان وسلآطين " .

واختلفوا فيه على قولين :

أحدهما : أنه مشتقّ من " البُرْهِ " وهو القطع ، وذلك أنه دليل يفيد العلم القطعي ، ومنه : بُرْهَة الزمان أي : القطعه منه ، فوزنه " فُعْلاَن " .

والثاني : أن نونه أصلية لثبوتها في بَرْهَنَ يُبَرْهِنُ بَرْهَنَةً ، والبَرْهَنَةُ البَيَانُ ، فبرهن فَعْلَل لا فَعْلَنَ ، لأن فَعْلَنَ غير موجود في أبنيتهمن فوزنه " فَعْلاَل " ؛ [وعلى هذين القولين يترتب الخلاف في صَرْف "بُرْهَان " وعدمه ، إذا سُمِّيَ به .

ودلَّت الآية على أن الدّليل على المدَّعِي ، سواءٌ ادَّعَى نفياً ، أو إثباتاً ، ودلَّتْ على بطلان القول بالتقليد ؛ قال الشاعر : [السريع]

739 مَنِ ادَّعَى شَيْئاً بِلاَ شَاهِدِهْ . . .

لاَبُدَّ أَنْ تَبْطُلَ دَعْوَاهُ]

وقوله تعالى : ﴿ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ يعنى : في إيمانكم أي في قولكم : إنكم تدخلون الجنة ، أي : بينوا ما قلتم ببرهان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 2 صـ 396 . 399 ﴾ .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .

كلُّ حِزْبٍ يُمَهِّد الأملَ لنفسه ، ويظنُّ النجاة لحاله ، ويدعي الوسل من سهمه .

ولكنّ مجرد الحسبان دون تحقق البرهان لا يأتي بحاصل ، ولا يجوز بطائل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 114 ﴾

(110/63)

قوله تعالى ﴿ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (112) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما نادى عليهم بالكذب في قوله : ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ أثبت لغيرهم بقوله : ﴿ بلى ﴾ ما ادعوا الاختصاص به ، ثم بين أهل الجنة بقوله : ﴿ من أسلم وجهه ﴾ أي كليته ، لأن الوجه أشرف ما ظهر من الإنسان ، فمن أسلمه أسلم كله ، كما أن " الإيمان " إذعان القلب

الذي هو أشرف ما بطن وإذعانه إذعان جميع الأعضاء ؛ و " الإسلام " قال الحرالي : الإلقاء بما يكون من منة في باطن أو ظاهر ؛ و " الوجه " مجتمع حواس الحيوان ، وأحسن ما في الموتان – وهو ما عد الحيوان ، وموقع الفتنة من الشيء الفتان ؛ وهو أول ما يحاول إبداؤه من الأشياء لذلك ﴿ لله ﴾ من أجل أنه الله الجامع للكمال .

ولما كان ذكر الأجر لكل واحد بعينه أنص على المقصود وأنفى للتعنت ، أفرد الضمير فقال : ﴿ وهو محسن ﴾ في جانب الحق بإذعان القلب ، وفي جانب الخلق بما يرضي الرب ، فصار يعبد الله كأنه يراه ، فطابق سره علنه .

ولما نفوا الأجر عن غيرهم وأثبته سبحانه للمتصف بالإسلام منهم وممن سواهم وكان ربما قيل إنه أعطى غيرهم لكونه الملك المطلق بغير سبب ربط الأجر بالفاء دليلاً على أن إسلامهم هو السبب فقال : ﴿ فله ﴾ خاصة ﴿ أجره عند ربه ﴾ إحساناً إليه بإثبات نفعه على حسب ما ربّه به في كل شريعة .

(111/63)

ولما كان ربما ادعى أنه ما أفرد الضمير إلا لأن المراد واحد بعينه فلا يقدح ذلك في دعوى أنه لن يدخل الجنة إلا اليهود أو النصارى جمع فقال : ﴿ ولا خوف عليهم ﴾ من آت ﴿ ولا هم

يحزنون ﴾ على شيء فات دفعاً لضرهم ، وهذا كما أثبت سبحانه خلاف دعواهم في مس النار بقوله : ﴿ بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته ﴾ [البقرة : 81] الآية ، فالتحم الكلام بذلك أشد التحام وانتظم أي انتظام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 222 . 223 ﴾

فصل

قال الفخر :

أما قوله تعالى : ﴿ بلى ﴾ ففيه وجوه .

الأول : أنه إثبات لما نفوه من دخول غيرهم الجنة .

الثاني : أنه تعالى لما نفى أن يكون لهم برهان أثبت أن لمن أسلم وجهه لله برهاناً .

الثالث : كأنه قيل لهم : أنتم على ما أنتم عليه لا تفوزون بالجنة ، بلى إن غيرتم طريقتكم وأسلمتم وجهكم لله وأحسنتم فلكم الجنة ، فيكون ذلك ترغيباً لهم في الإسلام ، وبياناً لمفارقة حالهم لحال من يدخل الجنة لكي يقلعوا عما هم عليه ويعدلوا إلى هذه الطريقة ، فأما معنى : ﴿ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ ﴾ فهو إسلام النفس لطاعة الله ، وإنما خص الوجه بالذكر لوجوه .

أحدها : لأنه أشرف الأعضاء من حيث أنه معدن الحواس والفكر والتخيل ، فإذا تواضع الأشرف كان غيره أولى .

وثانيها : أن الوجه قد يكنى به عن النفس ، قال الله تعالى : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ﴾ [القصص : 88] ﴿ إِلاَّ ابتغاء وَجْهِ رَبِّهِ الأعلى ﴾ [الليل : 20] .

وثالثها : أن اعظم العبادات السجدة وهي إنما تحصل بالوجه فلا جرم خص الوجه بالذكر ، ولهذا قال زيد بن عمرو بن نفيل .

وأسلمت وجهي لمن أسلمت . . له الأرض تحمل صخراً ثقالا

وأسلمت وجهي لمن أسلمت . . له المزن تحمل عذباً زلالا

(112/63)

فيكون المرء واهباً نفسه لهذا الأمر باذلالها ، وذكر الوجه وأراد به نفس الشيء ، وذلك لا يكون إلا بالانقياد والخضوع وإذلال النفس في طاعته وتجنب معاصيه ، ومعنى (لله) أي : خالصاً لله لا يشوبه شرك ، فلا يكون عابداً مع الله غيره ، أو معلقاً رجاءه بغيره ، وفي ذلك دلالة على أن المرء لا ينتفع بعمله إلا إذا فعله على وجه العبادة في الإخلاص والقربة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 4 صـ 4 . 5 ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ بلى ﴾ رد لقولهم الذي زعموه وإثبات لما تضمنه من نفي دخول غيرهم الجنة .

والقول بأنه رد لما أشار إليه ﴿ قُلْ هَاتُواْ برهانكم ﴾ [البقرة : 111] من نفي أن يكون لهم برهان مما لا وجه له ولا برهان عليه

﴿ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ ﴾ أي انقاد لما قضى الله تعالى وقدر ، أو أخلص له نفسه أو قصده فلم يشرك به تعالى غيره ، أو لم يقصد سواه فالوجه إما مستعار للذات وتخصيصه بالذكر لأنه أشرف الأعضاء ومعدن الحواس وإما مجاز عن القصد لأن القاصد للشيء مواجه له . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 360 ﴾

قال ابن عاشور :

و(بلي) كلمة يجاب بها المنفي لإثبات نقيض النفي وهو الإثبات سواء وقعت بعد استفهام عن نفي وهو الغالب أو بعد خبر منفي نحو ﴿ أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه بلى ﴾ [القيامة : 3 ، 4] ، وقول أبي حية النميري :

يخبرك الواشون أن لن أحبكم . . .

بلى وستور الله ذات المحارم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 1 صـ 656 ﴾

فائدة

قال القرطبى :

وخصّ الوجه بالذكر لكونه أشرف ما يُرَى من الإنسان ؛ ولأنه موضع الحواس ، وفيه يظهر العِزّ والذُّل .

والعرب تُخبر بالوجه عن جملة الشيء .

ويصح أن يكون الوجه في هذه الآية المقصد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 2 صـ 75 ﴾

وقال الثعلبى :

وإنّما خصَّ الوجه لأنّه إذا جاد بوجهه في السّجود لم يبخل بسائر جوارحه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 1 صـ 259 ﴾

قال ابن عاشور :

والوجه هنا الذات عبر عن الذات بالوجه لأنه البعض الأشرف من الذات كما قال الشنفرى :

إذا قطعوا رأسي وفي الرأس أكثري . . .

(113/63)

ومن إطلاق الوجه على الذات قوله تعالى : ﴿ ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ﴾ [الرحمن : 27] .

وأطلق الوجه على الحقيقة تقول جاء بالأمر على وجهه أي على حقيقته قال الأعشى :

وأول الحكم على وجهه . . .

ليس قضاء بالهوى الجائر

ووجوه الناس أشرافهم ويجوز أن يكون (أسلم) بمعنى أخلص مشتقاً من السلامة أي جعله سالماً ومنه ﴿ ورجلاً سلماً لرجل ﴾ [الزمر : 29] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 1 صـ 656. 657 ﴾

فصل

قال الفخر :

أما قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ أي : لا بد وأن يكون تواضعه لله بفعل حسن لا بفعل قبيح ، فإن الهند يتواضعون لله لكن بأفعال قبيحة ، وموضع قوله : ﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ موضع حال كقولك : جاء فلان وهو راكب ، أي جاء فلان راكباً ، ثم بين أن من جمع بين هذين فله أجره عند ربه ، يعني به الثواب العظيم ، ثم مع هذا النعيم لا يلحقه خوف ولا حزن ، فأما الخوف فلا يكون إلا من المستقبل ، وأما الحزن فقد يكون من الواقع والماضي كما قد يكون من المستقبل فنبه تعالى بالأمرين على نهاية السعادة لأن النعيم العظيم إذا دام وكثر وخلص من الخوف والحزن فلا يحزن على أمر فاته ولا على أمر يناله ولا يخاف انقطاع ما هو فيه وتغيره فقد بلغ النهاية وفي ذلك ترغيب في هذه الطريقة وتحذير من خلافها الذي هو طريقة الكفار المذكورين من قبل ، واعلم أنه تعالى وحد أولاً ثم جمع ، ومثله قوله :

﴿ وَكَمْ مِّن مَّلَكٍ فِى السموات ﴾ [النجم : 26] ثم قال : ﴿ شفاعتهم ﴾ وقوله : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْك ﴾ [الأنعام : 25] وقال في موضع آخر : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حتى إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ ﴾ [محمد : 16] ولم يقل : خرج. انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 4 صـ 5 ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ وهو محسن ﴾ : جملة حالية ، وهي مؤكدة من حيث المعنى ، لأن من أسلم وجهه لله فهو محسن .

(114/63)

وقد قيد الزمخشري الإحسان بالعمل ؛ وجعل معنى قوله : ﴿ من أسلم وجهه لله ﴾ : من أخلص نفسه له ، لا يشرك به غيره ، وهو محسن في عمله ، فصارت الحال هنا مبينة ، إذ من لا يشرك قسمان : محسن في عمله ، وغير محسن ، وذلك منه جنوح إلى مذهبه الاعتزالي من أن العمل لا بد منه ، وأنه بهما يستوجب دخول الجنة ، ولذلك فسر قوله : ﴿ فله أجره ﴾ الذي يستوجبه ، وقد فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم حقيقة الإحسان الشرعي حين سئل عن ماهيته فقال : " أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك "

وقد فسر هنا الإحسان بالإخلاص ، وفسر بالإيمان ، وفسر بالقيام بالأوامر ، والانتهاء عن المناهي .

﴿ فله أجره عند ربه ﴾ : العامل في عند هو العامل في له ، أي فأجره مستقر له عند ربه ، ولما أحال أجره على الله أضاف الظرف إلى لفظه ربه ، أي الناظر في مصالحة ومربيه ومدبر أحواله ، ليكون ذلك أطمع له ، فلذلك أتى بصفة الرب ، ولم يأت بالضمير العائد على الله في الجملة قبله ، ولا بالظاهر بلفظ الله .

فلم يأت فله أجره عنده ، لما ذكرناه ، ولقلق الإتيان بهذه الضمائر ، ولم يأت فله أجره عند الله ، لما ذكرنا من المعنى الذي دل عليه لفظ الرب .

﴿ ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ : جمع الضمير في قوله : ﴿ عليهم ولا هم يحزنون ﴾ حملاً على معنى من ، وحمل أوّلاً على اللفظ في قوله : ﴿ من أسلم وجهه له وهو محسن فله أجره عند ربه ﴾ ، وهذا هو الأفصح ، وهو أن يبدأ أولاً بالحمل على اللفظ ، ثم بالحمل على المعنى .

وقد تقدم تفسير هذه الجملة .

وقراءة ابن محيصن : فلا خوف ، برفع الفاء من غير تنوين ، باختلاف عنه .

وقراءة الزهري وعيسى الثقفي ويعقوب وغيرهم : فلا خوف ، بالفتح من غير تنوين ،

وتوجيه ذلك ، فأغنى عن إعادته هنا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 1 صـ 522.521 ﴾

(115/63)

وقال الآلوسى :

﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ حال من ضمير ﴿ أَسْلَمَ ﴾ أي والحال إنه محسن في جميع أعماله ، وإذا أريد بما تقدم الشرك يؤول المعنى إلى : (آمن وعمل الصالحات) وقد فسر النبي صلى الله عليه وسلم الإحسان بقوله : ﴿ أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك ﴾ ﴿ فَلَهُ أَجْرُهُ ﴾ أي الذي وعد له على ذلك لا الذي يستوجبه كما قاله الزمخشري رعاية لمذهب الاعتزال ، والتعبير عما وعد بالأجر إيذاناً بقوة ارتباطه بالعمل ﴿ عِندَ رَبِّهِ ﴾ حال من أجره والعامل فيه معنى الاستقرار ، والعندية للتشريف ، والمراد عدم الضياع والنقصان ، وأتى بالرب مضافاً إلى ضمير ﴿ مَنْ أَسْلَمَ ﴾ إظهاراً لمزيد اللطف به وتقريراً لمضمون الجملة ، والجملة جواب ﴿ مِنْ ﴾ إن كانت شرطية وخبرها إن كانت موصولة والفاء فيها لتضمنها معنى الشرط ، وعلى التقديرين يكون الرد ب (لى) وحده وما بعده كلام مستأنف كأنه قيل : إذا بطل ما زعموه فما الحق في ذلك ، وجوز أن تكون (مَن)

موصولة فاعل ليدخلها محذوفاً ، و(بلى) مع ما بعدها رد لقولهم ، ويكون ﴿ فَلَهُ أَجْرُهُ ﴾ معطوفاً على ذلك المحذوف عطف الاسمية على الفعلية لأن المراد بالأولى التجدد ، وبالثانية الثبوت ، وقد نص السكاكي بأن الجملتين إذا اختلفتا تجدداً وثبوتاً يراعى جانت المعنى فيتعاطفان ﴿ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ تقدم مثله والجمع في الضمائر الثلاثة باعتبار معنى (من) كما أن الإفراد في الضمائر الأول باعتبار اللفظ ، ويجوز في مثل هذا العكس إلا أن الأفصح أن يبدأ بالحمل على اللفظ ثم بالحمل على المعنى لتقدم اللفظ عليه في الإفهام . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 360 ﴾

فائدة

قال ابن عاشور :

وقوله : ﴿ وهو محسن ﴾ جيء به جملة حالية لإظهار أنه لا يغني إسلام القلب وحده ولا العمل بدون إخلاص بل لا نجاة إلا بهما ورحمة الله فوق ذلك إذ لا يخلو امرؤ عن تقصير .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 1 صـ 657 ﴾

(116/63)

فصل

قال الفخر :

واعلم أنا لما فسرنا قوله : ﴿ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ ﴾ بالإخلاص فلنذكر ههنا حقيقة الإخلاص وذلك لا يمكن بيانه إلا في مسائل :

المسألة الأولى :

في فضل النية قال عليه الصلاة والسلام : " إنما الأعمال بالنيات " وقال : " إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أعمالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم ونياتكم " وفي الإسرائيليات أن رجلاً مر بكثبان من رمل في مجاعة فقال في نفسه : لو كان هذا الرمل طعاماً لقسمته بين الناس فأوحى الله تعالى إلى نبيهم قل له : إن الله قبل صدقتك وشكر حسن نيتك وأعطاك ثواب ما لو كان طعاماً فتصدقت به .

المسألة الثانية :

الإنسان إذا علم أو ظن أو اعتقد أن له في فعل من الأفعال جلب نفع أو دفع ضر ظهر في قلبه ميل وطلب ، وهو صفة تقتضي ترجيح وجود ذلك الشيء على عدمه ، وهي الإرادة فهذه الإرادة هي النية والباعث له على تلك النية ذلك العلم أو الاعتقاد أو الظن ، إذا عرفت هذا فنقول : الباعث على الفعل إما أن يكون أمراً واحداً ، وإما أن يكون أمرين ، وعلى التقدير الثاني فإما أن يكون كل واحد منهما مستقلاً بالبعث ، أو لا يكون واحد

منهما مستقلاً بذلك ، أو يكون أحدهما مستقلاً بذلك دون الآخر ، فهذه أقسام أربعة .

الأول : أن يكون الباعث واحداً وهو كما إذا هجم على الإنسان سبع فلما رآه قام من مكانه فهذا الفعل لا داعي إليه إلا اعتقاده ما في الهرب من النفع وما في ترك الهرب من الضرر ، فهذه النية تسمى خالصة ، ويسمى العمل بموجبها إخلاصاً .

الثاني : أن يجتمع على الفعل باعثان مستقلان ، كما إذا سأله رفيقه الفقير حاجة فيقضيها لكونه رفيقاً له ، وكونه فقيراً ، مع كون كل واحد من الوصفين بحيث لو انفرد لاستقل بالاستقضاء ، واسم هذا موافقة الباعث .

الثالث : أن لا يستقل واحد منهما لو انفرد ، لكن المجموع مستقل ، واسم هذا مشاركة .

(117/63)

الرابع : أن يستقل أحدهما ويكون الآخر معاضداً مثل أن يكون للإنسان ورد من الطاعات فاتفق أن حضر في وقت أدائها جماعة من الناس فصار الفعل عليه أخف بسبب مشاهدتهم ، واسم هذا معاونة .

المسألة الثالثة :

في تفسير قوله عليه السلام : " نية المؤمن خير من عمله " ذكروا فيه وجوهاً .

أحدها : أن النية سر ، والعمل علن ، وطاعة السر أفضل من طاعة العلانية ، وهذا ليس بشيء لأنه يقتضي أن تكون نية الصلاة خيراً من نفس الصلاة .

وثانيها : النية تدوم إلى آخر العمل ، والأعمال لا تدوم ، والدائم خير من المنقطع ، وهذا ليس بشيء لأنه يرجع معناه إلى أن العمل الكثير خير من العمل القليل ، وأيضاً فنية عمل الصلاة قد لا تحصل إلا في لحظات قليلة ، والأعمال تدوم ، وثالثها : أن النية بمجردها خير من العمل بمجرده ، وهو ضعيف ، إذ العمل بلا نية لا خير فيه ، وظاهر الترجيح للمشتركين في أصل الخيرية .

ورابعها : أن لا يكون المراد من الخير إثبات الأفضلية بل المراد أن النية خير من الخيرات الواقعة بعمله ، وهو ضعيف ، لأن حمل الحديث عليه لا يفيد إلا إيضاح الواضحات ، بل الوجه الجيد في التأويل أن يقال : النية ما لم تخل عن جميع أنواع الفتور لا تكون نية جازمة ، ومتى خلت عن جميع جهات الفتور وجب ترتب الفعل عليها لو لم يوجد عائق ، وإذا كان كذلك : ثبت أن النية لا تنفك ألبتة عن الفعل ، فيدعى أن هذه النية أفضل من ذلك العمل ، وبيانه من وجوه .

أولها : أن المقصود من جميع الأعمال تنوير القلب بمعرفة الله وتطهيره عما سوى الله ، والنية صفة القلب ، والفعل ليس صفة القلب ، وتأثير صفة القلب أقوى من تأثير صفة الجوارح في القلب ، فلا جرم نية المؤمن خير من عمله .

وثانيها : أنه لا معنى للنية إلا القصد إلى إيقاع تلك الأعمال طاعة للمعبود وانقياداً له ، وإنما يراد الأعمال ليستحفظ التذكر بالتكرير ، فيكون الذكر والقصد الذي في القلب بالنسبة إلى العمل كالمقصود بالنسبة إلى الوسيلة ، ولا شك أن المقصود أشرف من الوسيلة .

وثالثها : أن القلب أشرف من الجسد ، ففعله أشرف من فعل الجسد ، فكانت النية أفضل من العمل .

المسألة الرابعة :

اعلم أن الأعمال على ثلاثة أقسام : طاعات ، ومعاصي ، ومباحات ، أما المعاصي فهي لا تتغير عن موضوعاتها بالنية ، فلا يظن الجاهل أن قوله عليه الصلاة والسلام : " إنما الأعمال بالنيات " يقتضي انقلاب المعصية طاعة بالنية كالذي يطعم فقيراً من مال غيره ، أو يبني مسجداً من مال حرام .

الثاني : الطاعات وهي مرتبطة بالنيات في الأصل وفي الفضيلة ، أما في الأصل فهو أن ينوي بها عبادة الله تعالى ، فإن نوى الرياء صارت معصية ، وأما الفضيلة فبكثرة النيات تكثر الحسنة كمن قعد في المسجد وينوي فيه نيات كثيرة .

أولها : أن يعتقد أنه بيت الله ويقصد به زيارة مولاه كما قال عليه الصلاة والسلام : " من قعد في المسجد فقد زار الله وحق على المزور إكرام زائره " .

وثانيها : أن ينتظر الصلاة بعد الصلاة فيكون حال الإنتظار كمن هو في الصلاة .

وثالثها : إغضاء السمع والبصر وسائر الأعضاء كما لا ينبغي ، فإن الإعتكاف كف وهو في معنى الصوم ، وهو نوع ترهب ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : " رهبانية أمتي القعود في المساجد " .

ورابعها : صرف القلب والسر بالكلية إلى الله تعالى .

وخامسها : إزالة ما سوى الله عن القلب .

وسادسها : أن يقصد إفادة علم أو أمر بمعروف أو نهي عن منكر .

وسابعها : أن يستفيد أخاً في الله فإن ذلك غنيمة أهل الدين .

وثامنها : أن يترك الذنوب حياء من الله فهذا طريق تكثير النيات ، وقس به سائر الطاعات .

القسم الثالث : سائر المباحات ولا شيء منها إلا ويحتمل نية أو نيات يصير بها من محاسن القربات ، فما أعظم خسران من يغفل عنها ولا يصرفها إلى القربات ، وفي الخبر : من تطيب لله جاء يوم القيامة وريحه أطيب من ريح المسك ، ومن تطيب لغير الله جاء يوم القيامة وريحه أنتن من الجيفة فإن قلت : فاشرح لي كيفية هذه النية ، فاعلم أن القصد من التطيب إن كان هو التنعم وريحه أنتن من الجيفة ، فإن قلت : فاشرح لي كيفية هذه النية ، فاعلم أن القصد من التطيب إن كان هو التنعم بلذات الدنيا أو إظهار التفاخر بكثرة المال أو رياء الخلق أو ليتودد به إلى قلوب النساء ، فكل ذلك يجعل التطيب معصية ، وإن كان القصد إقامة السنة ودفع الروائح المؤذية عن عباد الله وتعظيم المسجد ، فهو عين الطاعة ، وإذا عرفت ذلك فقس عليه سائر المباحات ، والضابط أن كل ما فعلته لداعي الحق فهو العمل الحق ، وكل ما عملته لغير الله فحلالها حساب وحرامها عذاب .

المسألة الخامسة :

اعلم أن الجاهل إذا سمع الوجوه العقلية والنقلية في أنه لا بد من النية فيقول في نفسه عند تدريسه وتجارته : نويت أن أدرس لله وأتجر لله يظن أن ذلك نية وهيهات فذاك حديث نفس أو حديث لسان والنية بمعزل عن جميع ذلك إنما النية انبعاث النفس وميلها إلى ما ظهر لها أن فيه غرضها إما عاجلاً وإما آجلاً .

والميل إذا لم يحصل لم يقدر الإنسان على اكتسابه وهو كقول الشبعان نويت أن أشتهي الطعام ، أو كقول الفارغ نويت أن أعشق ، بل لا طريق إلى اكتساب الميل إلى الشيء إلا باكتساب أسبابه وليست هي إلا تحصيل العلم بما فيه من المنافع ، ثم هذا العلم لا يوجب هذا الميل إلا عند خلو القلب عن سائر الشواغل ، فإذا غلبت شهوة النكاح ولم يعتقد في الولد غرضاً صحيحاً لا عاجلاً ولا آجلاً ، لا يمكنه أن يواقع على نية الولد بل لا يمكن إلا على نية قضاء الشهوة إذ النية هي إجابة الباعث ولا باعث إلا الشهوة فكيف ينوي الولد ؟ فثبت أن النية ليست عبارة عن القول باللسان أو بالقلب بل هي عبارة عن حصول هذا الميل ، وذلك أمر معلق بالغيب فقد يتيسر في بعض الأوقات ، وقد يتعذر في بعضها .

المسألة السادسة :

اعلم أن نيات الناس في الطاعات أقسام : فمنهم من يكون عملهم إجابة لباعث الخوف فإنه يتقي النار ، ومنهم من يعمل لباعث الرجاء وهو الرغبة في الجنة والعامل لأجل الجنة عامل لبطنه وفرجه ، كالأجير السوء ودرجته درجة البله ، وأما عبادة ذوي الألباب فلا تجاوز ذكر الله والفكر فيه حباً لجلاله وسائر الأعمال مؤكدات له وهم الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه وثواب الناس بقدر نياتهم فلا جرم صار المقربون متنعمين بالنظر إلى

وجهه الكريم ونسبة شرف الالتذاذ بنعيم الجنة إلى شرف الالتذاذ بهذا المقام كنسبة نعيم الجنة إلى وجهه الكريم. انتهى انتهى. اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 4 صـ 5.7 ﴾

(121/63)

لطيفة

قال السمرقندى :

﴿ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ من العذاب حين يخاف أهل النار ، ﴿ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ حين يحزن أهل النار .

ويقال : ولا هم يحزنون على ما فاتهم من أمر الدنيا .

ويقال : الخوف إنما يستعمل في المستأنف ، والحزن في الماضي ، كما قال الله تعالى : ﴿ لِّكَيْلاَ تَأْسَوْاْ على مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُواْ بِمَآ ءاتاكم والله لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [الحديد : 23] ويقال : الخوف ثلاثة : خوف الأبد ، وخوف العذاب على الانقطاع ، وخوف الحشر والحساب .

فأما خوف الأبد فيكون أمناً للمسلمين ، وخوف العذاب على الانقطاع يكون أمناً للتائبين ،

وخوف الحشر والحساب يكون أمناً للمحسنين .

والمحسنون يكونون آمنين من ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ 111 ﴾

(122/63)

ومن فوائد أبى السعود فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله تعالى : ﴿ بلى ﴾ الخ إثباتٌ من جهته تعالى لما نفَوْه مستلزمٌ لنفْي ما أثبتوه ، وإذْ ليس الثابتُ به مجردَ دخولِ غيرِهم الجنةَ ولو معهم ليكون المنفيُّ مجردَ اختصاصِهم به مع بقاءِ أصلِ الدخولِ على حاله بل هو اختصاصُ غيرِهم بالدخول كما ستعرفه بإذن الله تعالى ظهرَ أن المنفيَّ أصلُ دخولِهم ، ومن ضَرورته أن يكون هو الذي كُلِّفوا إقامةَ البُرهانِ عليه لا اختصاصُهم به ليتّحدَ موردُ الإثباتِ والنفي ، وإنما عدلَ عن إبطال صريحِ ما ادَّعَوْه وسَلك هذا المسلكَ إبانةً لغاية حِرمانِهم مما علّقوا به أطماعَهم وإظهاراً لكمال عجزِهم عن إثباتِ مُدَّعاهم لأن حِرمانَهم من الاختصاص بالدخول وعجزَهم عن إقامة البرهانِ عليه لا يقتضيان حرمانَهم من أصل الدخولِ وعجزَهم عن إثباته وأما نفسُ الدخولِ فحيث ثبت

حِرمانُهم منه وعجزُهم عن إثباته فهم من الاختصاص به أبعدُ وعن إثباته أعجزُ ، وإنما الفائزُ به من انتظمه قوله سبحانه :

(123/63)

﴿ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ ﴾ أي أخلص نفسَه له تعالى لا يشرك به شيئاً ، عبّر عنها بالوجه لأنه أشرفُ الأعضاءِ ومجمعُ المشاعرِ وموضعُ السجود ، ومظهَرُ آثارِ الخضوعِ الذي هو من أخص خصائِص الإخلاص أو توجّهُه وقصدُه بحيث لا يلوي عزيمتَه إلى شيءٍ غيره ﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ حال من ضمير (أسلم) أي والحال أنه مُحسنٌ في جميع أعمالِه التي من جملتها الإسلامُ المذكورُ ، وحقيقةُ الإحسانِ الإتيانُ بالعمل على الوجه اللائق ، وهو حُسنُه الوصفيُّ التابعُ لحسنه الذاتيّ ، وقد فسره صلى الله عليه وسلم بقوله : " أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كأَنَّكَ تَرَاهُ فإِنْ لم تَكُنْ تَرَاهُ فإِنَّهُ يَرَاكَ " ﴿ فَلَهُ أَجْرُهُ ﴾ الذي أُعد له على عمله ، وهو عبارةٌ عن دخول الجنة أو عمل يدخُلُ هو فيه دخولاً أولياً ، وأياً ما كان فتصويرُه بصورة الأجرِ للإيذان بقوة ارتباطِه بالعمل واستحالةِ نيله بدونه ، وقوله تعالى : ﴿ عِندَ رَبِّهِ ﴾ حالٌ من أجره ، والعاملُ فيه معنى الاستقرارِ في الظرف ، والعِندية للتشريف ، ووضعُ اسم الربِّ مضافاً إلى ضمير (من أسلم) موضعَ ضميرِ الجلالة لإظهار مزيدِ اللُطفِ به وتقريرِ مضمونِ الجملة ،

أي فله أجرُه عند مالكِه ومدبّرِ أموره ومبلّغِه إلى كماله ، والجملةُ جوابُ (مَنْ) إن كانت شرطيةً وخبرُها إن كانت موصولة ، والفاءُ لتضمنها معنى الشرط فيكون الردُّ بقوله تعالى : بلى وحده ، ويجوز أن يكون (مَنْ) فاعلاً لفعل مقدرٍ ، أي بلى يدخلها من أسلم ، وقوله تعالى : ﴿ فَلَهُ أَجْرُهُ ﴾ معطوفٌ على ذلك المقدر ، وأياً ما كان فتعليقُ ثبوتِ الأجرِ بما ذكر من الإسلام والإحسانِ المختصَّيْن بأهل الإيمان قاضٍ بأن أولئك المدّعين من دخول الجنة بمعزل ، ومن الاختصاص به بألف منزل ﴿ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ في الدارين من لُحوق مكروهٍ ﴿ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ من فواتِ مطلوبٍ أي لا يعتريهم ما يوجبُ ذلك ، لا أنه يعتريهم لكنهم لا يخافون ولا يحزنون .

والجمع في الضمائر الثلاثة باعتبار معنى (مَنْ) كما أن الإفراد في الضمائر الأُوَلِ باعتبار اللفظ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 1 صـ 147 . 148 ﴾

(124/63)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ

بعد أن بين لنا الله تبارك وتعالى كذب اليهود وطالبهم بالدليل على ما قالوه من أنه لن يدخل الجنة إلا اليهود والنصارى جاء بحقيقة القضية ليخبرنا جل جلاله من الذي سيدخل الجنة . . فقال : " بلى " . . وعندما تقرأ : " بلى " اعلم أنها حرف جواب ولابد أن يسبقها كلام ونفي . . فساعة يقول لك إنسان ليس لي عليك دين . . إذا قلت له نعم فقد صدقت أنه ليس عليه دين . . ولكن إذا قلت بلى فذلك يعني أن عليه دينا وأنه كاذب فيما قاله . . إذن بلى تأتي جوابا لتثبيت نفي ما تقدم . هم قالوا " لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى " . . عندما يقول الله لهم بلى فمعنى ذلك أن هذا الكلام غير صحيح . . وأنه سيدخلها غير هؤلاء . . وليس معنى أنه سيدخلها غير اليهود والنصارى . . أن كل يهودي وكل نصراني سيدخل الجنة . . لأن الله سبحانه وتعالى قد حكم حينما جاء الإسلام بأن الذي لا يسلم لا يدخل الجنة . . واقرأ قوله جل جلاله :

وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (85)

(125/63)

لماذا لم يقل الله سبحانه وتعالى . . أنه لن يدخلها اليهود ولا النصارى . . لأن القرآن أزلي . . ما معنى أزلي ؟ . . أي أنه يعالج القضايا منذ بداية الخلق وحتى يوم القيامة . . فالقرآن كلام الله تبارك وتعالى . . فلو أنه قال لن يدخل الجنة إلا من آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم لكان في هذا تجاوز . . لأن هناك من آمن بموسى وقت رسالته وعاصره واتبعه وحسن دينه ومات قبل أن يدرك محمدا عليه الصلاة والسلام . . فهل هذا لا يدخل الجنة ويجازى بحسن عمله . . وهناك من النصارى من آمن بعيسى وقت حياته . . وعاصره ونفذ تعاليمه ومنهجه ثم مات قبل أن يبعث محمد عليه الصلاة والسلام . . أهذا لن يدخل الجنة ؟ . . لا . . يدخل وتكون منزلته حسب عمله ويجازى بأحسن الجزاء . . ولكن بعد أن بعث محمد صلى الله عليه وسلم وجاء الإسلام ونزل القرآن ، فكل من لم يؤمن برسول الله صلى الله عليه وسلم لن يدخل الجنة . . بل ولن يراها . . ولذلك جاء كلام الله دقيقا لم يظلم أحدا من خلقه .

(126/63)

إذن فقوله تعالى : " بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن " . . أي لا يدخل الجنة إلا من أسلم وجه لله وهو محسن . . فقد يسلم واحد وجهه لله ويكون منافقا يظهر بغير ما يبطن . .

نقول إن المنافقين لم يكونوا محسنين ولكنهم كانوا مسيئين . . لأن لهم شخصيتين شخصية مؤمنة أمام الناس وشخصية كافرة في الحقيقة أو في قلوبهم . قوله تعالى : " من أسلم وجهه لله" تدلنا على أن كل شيء أسلم لله لأن الوجه هو أشرف شيء في الإنسان . . فيه التمييز وفيه السمة وفي التشخص وهو أعلى ما في الجسم . . وحينما عرفوا الإنسان قالوا حيوان ناطق أي حيوان مفكر . . وقال بعضهم حيوان مستوي القامة يعني قامته مرفوعة . . والقامة المرفوعة على بقية الجسم هي الوجه . . والإنسان مرفوع على بقية أجناس الأرض . . إذن هو مرفوع على بقية الأجناس ووجهه مرفوع عليه . . فإذا أسلم وجهه لله يكون قد أسلم أشرف شيء فيه لله . . ولذلك قيل . . أقرب ما يكون العبد لربه وهو ساجد . . لماذا ؟ . . لأنه جاء بالوجه الذي رفعه الله به وكرمه . . وجعله مساويا لقدميه ليستوي أكمل شيء في بأدنى شيء . . فلم يبقى عنده شيء يختال به على الله . الحق سبحانه وتعالى يقول : " فله أجره عند ربه" . . كلمة " أجره عند ربه" . . دلت على أن الله لم يجعلنا مقهورين . . ولكنه كلفنا وجعلنا مختارين أن نفعل أو لا نفعل . . فإن فعلنا فلنا أجر . . ولأن التكليف من الله سبحانه وتعالى فالمنطقي أن يكون الأجر عند الله . . وألا يوجد خوف أو حزن . . لأن الخوف يكون من شيء سيقع . . والحزن يأتي على شيء قد وقع . . ولا هذه ولا تلك تحدث عندما يكون أجرنا عند الله . إن الإنسان حين يكون له حق عند مساويه . . فربما يخاف أن ينكر المساوي هذا الحق أو يطمع فيه ،

أو يحتاج إليه فيدعي عدم أحقيته فيه ، ولكن الله سبحانه وتعالى غني عن العالمين . .

ولذلك فهو لا يطمع فيما في أيدنا من خير لأنه من عنده . . ولا يطمع فيما معنا من مال لأن عنده خزائن السماوات والأرض .

(127/63)

الله سبحانه لا ينكر حقا من حقوقنا لأنه يعطينا من فضله ويزيدنا . . ولذلك فإن ما عند الله لا خوف عليه بل هو يضاعف ويزداد . . وما عند الله لا حزن عليه . . لأن الإنسان يحزن إذا فاته خير . . ولكن ما عند الله باق لا يفوتك ولا يفوته . . فلا يوجد شيء عند الله سبحانه وتعالى تحزن عليه لأنه فات . . ولذلك كان قول الحق سبحانه وتعالى : " ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون " . . أدق ما يمكن أن يقال عن حالة المؤمنين في الآخرة . . أنهم يكونون فرحين بما عند الله لا خوف عندهم ولا حزن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 532.534 ﴾

(128/63)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله تعالى : " وَهُوَ مُحْسِنٌ " جملة في محلّ نصب على حال [والعامل فيها " أسلم " وهذه الحال حال مؤكدة لأن من " أسلم وجهه لله فهو محسن "] .

وقال الزمخشري رحمه الله تعالى وهو مُحْسن له في عمله فتكون على رأيه مبيّنة ؛ لأن من أسلم وجهه قسمان : محسن في عمله وغير محسن انتهى .

قوله تعالى : " فله أجره " الفاء جواب الشرط إن قيل بأن " مَنْ " شرطية ، أو زائدة في الخبر إن قيل بأنها موصولة ، وقد تقدم تحقيق القولين عند قوله سبحانه وتعالى : ﴿ بلى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً ﴾ [البقرة : 81] وهذه نظير تلك فليلتفت إليها .

وهنا وجه آخر زائد ذكره الزمخشري ، وهو أن تكون " مَنْ " فعله بفعل محذوف أي : بلى يدخلها من أسلم ، و " فَلَهُ أَجْرُهُ " كلام معطوف على يدخلها هذا نصه .

و " لَهُ أَجْرُهُ " مبتدأ وخبره ، إما في محلّ جزم ، أو رفع على حسب ما تقدّم من الخلاف في " مَنْ " .

وحمل على لفظ " مَنْ " فأفرد الضمير في قوله تعالى : ﴿ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ ﴾ وعلى معناها ، فجمع في قوله : ﴿ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ، وهذا أحسن التركيبين ، أعني البداءة بالحمل على اللفظ ثم الحمل على المعنى والحامل في " عند " ما تعلق به " له " من

الاستقرار ، ولما أحال أجره عليه أضاف الظرف إلى لفظة " الرّب " لما فيها من الإشعار بالإصلاح والتدبير ، ولم يضفه إلى الضمير ، ولا إلى الجلالة ، فيقول : فله أجره عنده أو عند الله ، لما ذكرت لك ، وقد تقدم الكلام في قوله تعالى : ﴿ فَلاَ خَوْفٌ ﴾ [البقرة : 38] بما فيه من القراءات . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 2 صـ 400 . 401 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (112) ﴾

أسلم وجهه أي أخلص لله قصده ، وأفرد لله وجهه ، وطهّر عن الشوائب عقله . ﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ . عالِمٌ بحقيقة ما يفعله وحقيقة ما يستعمله ، وهو محسن في المآل كما أنه مسلم في الحال .

ويقال : " الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه " فتكون مستسلماً بظاهرك ، مشاهداً بسرائرك ، في الظاهر جهد وسجود وفي الباطن كشف ووجود .

ويقال : ﴿ أَسْلَمَ وَجْهَهُ ﴾ بالتزام الطاعات ، ﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ قائمٌ بآداب الخدمة بحسن آداب الحضور ، فهؤلاء ليس عليهم خوف الهجر ، ولا يلحقهم خفيُّ المكر ، فلا

الدنيا تشغلهم عن المشاهدة ولا الآخرة تشغلهم غداً عن الرؤية . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 114.115 ﴾

(129/63)

قوله تعالى ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (113) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما أبطل دعوى اختصاصهم بالرحمة قدحاً منهم في غيرهم وأثبتها للمحسنين أتبع ذلك قدح كل فريق منهم في الآخر وبيان انتفائها عنهم بإساءتهم بإبطال كل فرقة منهم دعوى الأخرى مع ما يشهد به كتاب كل من بطلان قوله فقال : ﴿ وقالت اليهود ليست ﴾ أنث فعلهم لضعف قولهم وجمع أمرهم ﴿ النصارى على شيء ﴾ أي يعتد به لكونه صحيحاً ، وليس مخففة من وزن فرح ، ومعناها مطلق النفي لمتقدم إثبات أو مقدره – قاله الحرالي .

﴿ وقالت النصارى ﴾ كذلك ﴿ ليست اليهود على شيء ﴾ فعجب منهم في هذه

الدعوى العامة لما قبل التبديل والنسخ وما بعده بقوله : ﴿ وهم ﴾ أي والحال أنهم ﴿ يتلون الكتاب ﴾ أي مع أن في كتاب كل منهم حقية أصل دين الآخر .

(130/63)

ثم شبه بهم في نحو هذا القول الجهلة الذين ليس لهم كتاب الذين هم عندهم ضلال ، وفي ذلك غاية العيب لهم لتسوية حالهم مع علمهم بحال الجهلة في القطع في الدين بالباطل كما سوى حالهم بهم في الحرص على الحياة في الدنيا ومنهم عبدة الأصنام الذين منهم العرب الذين أخرجوا الرسول صلى الله عليه وسلم من بلده ومنعوه من مسجد أبيه إبراهيم عليهما الصلاة والسلام الذي هو الحقيق به دونهم ، وساق ذلك جواب سائل كأنه قال : هذا قول العلماء بالكتاب فما حال من لا علم له ؟ فقال : ﴿ كذلك ﴾ أي مثل هذا القول البعيد عن القصد ﴿ قال الذين لا يعلمون ﴾ ولما كان صدور هذا من أهل العلم في غاية الغرابة وصدوره من الجهلة أغرب نبه تعالى على أن سامعه جدير بأن يقول لعده له عداد ما لا يصدق : كيف قال الجهلة ؟ فقال أو يقال : ولما كان قولهم هذا لا يكاد يصدق من شدة غرابته كان كأنه قيل : أحق كان هذا منهم حقيقة أم كنى به عن شيء آخر ؟ فأجيب بقوله : ﴿ كذلك ﴾ أي الأمر كما ذكرنا عنهم حقيقة لا كناية عن شيء غيره ، فلما استقر في

النفس كان كأنه قيل : هل وقع هذا لأحد غيرهم ؟ فقيل : نعم ، وقع أعجب منه وهو أنه قال الجهلة "كعبدة الأصنام والمعطلة" ﴿ مثل قولهم ﴾ فعاندوا وضللوا المؤمنين أهل العلم بالكتاب الخاتم الذي لا كتاب مثله وضللوا أهل كل دين .

ولما وقع الخلاف بين هذه الفرق تسبب عنه حكم الملك الذي لم يخلقهم سُدى بينهم فقال : ﴿ فالله ﴾ "الملك الأعظم" ﴿ يحكم بينهم ﴾ والحكم قصر المصرَف على بعض ما يتصرف فيه وعن بعض ما تشوّف إليه – قاله الحرالي .

وحقق أمر البعث بقوله : ﴿ يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ والآختلاف افتعال من الخلاف وهو تقابل بين رأيين فيما ينبغي انفراد الرأي فيه – قاله الحرالي . انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 223. 224 ﴾

وقال الفخر :

اعلم أنه تعالى لما جمعهم في الخبر الأول فصلهم في هذه الآية ، وبين قول كل فريق منهم في الآخر ، وكيف ينكر كل طائفة دين الأخرى . انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 4 صـ 7 ﴾

فصل

قال الفخر :

قوله : ﴿ لَيْسَتِ النصارى على شَىْءٍ ﴾ أي على شيء يصح ويعتد به وهذه مبالغة عظيمة وهو كقولهم : أقل من لا شيء ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ قُلْ يا أهل الكتاب لَسْتُمْ على شَىْءٍ حتى تُقِيمُواْ التوراة ﴾ [المائدة : 68] ،

فإن قيل : كيف قالوا ذلك مع أن الفريقين كانا يثبتان الصانع وصفاته سبحانه وتعالى ، وذلك قول فيه فائدة ؟

قلنا : الجواب من وجهين :

الأول : أنهم لما ضموا إلى ذلك القول الحسن قولاً باطلاً يحبط ثواب الأول ، فكأنهم ما أتوا بذلك الحق .

الثاني : أن يخص هذا العام بالأمور التي اختلفوا فيه ، وهي ما يتصل بباب النبوات . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 4 صـ 8 ﴾

فصل

قال الفخر :

روي أن وفد نجران لما قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاهم أحبار اليهود فتناظروا حتى ارتفعت أصواتهم ، فقالت اليهود : ما أنتم على شيء من الدين وكفروا بعيسى عليه السلام والإنجيل ، وقالت النصارى لهم : نحوه وكفروا بموسى عليه السلام

والتوراة. انتهى انتهى. اهـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 4 صـ 8﴾

فصل

قال الفخر:

اختلفوا فيمن هم الذين عناهم الله تعالى أهم الذين كانوا من بعثة عيسى عليه السلام أو في زمن محمد عليه السلام، والظاهر الحق أنه لا دليل في الظاهر عليه وإن كان الأولى أن يحمل على كل اليهود وكل النصارى بعد بعثة عيسى عليه السلام، ولا يجب لما نقل في سبب الآية أن يهوديا خاطب النصارى بذلك فأنزل الله هذه الآية أن لا يراد بالآية سواه، إذا أمكن حمله على ظاهره وقوله: ﴿وَقَالَتِ اليهود لَيْسَتِ النصارى على شَيْءٍ﴾ يفيد العموم فما الوجه في حمله على التخصيص ومعلوم من طريقة اليهود والنصارى أنهم منذ كانوا فهذا قول كل فريق منهما في الآخر. انتهى انتهى. اهـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 4 صـ 8﴾

(132/63)

قوله تعالى ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ الكتاب كذلك قَالَ الذين لاَ يَعْلَمُونَ﴾

فصل

قال الفخر:

أما قوله تعالى : ﴿ وَهُمْ يَتْلُونَ الكتاب ﴾ فالواو للحال ، والكتاب للجنس .

أي قالوا ذلك وحالهم أنهم من أهل العلوم والتلاوة للكتب ، وحق من حمل التوراة أو الإنجيل أو غيرهما من كتب الله وآمن به أن لا يكفر بالباقي لأن كل واحد من الكتابين مصدق للثاني شاهد لصحته ، فإن التوراة مصدقة بعيسى عليه السلام ، والإنجيل مصدق بموسى عليه السلام .

أما قوله تعالى : ﴿ كذلك قَالَ الذين لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ فإنه يقتضي أن من تقدم ذكره يجب أن يكون عالماً لكي يصح هذا الفرق ، فبين تعالى أنهم مع المعرفة والتلاوة إذا كانوا يختلفون هذا الاختلاف فكيف حال من لا يعلم ، واعلم أن هذه الواقعة بعينها قد وقعت في أمة محمد صلى الله عليه وسلم فإن كل طائفة تكفر الأخرى مع اتفاقهم على تلاوة القرآن ، ثم اختلفوا فيمن هم الذين لا يعلمون على وجوه .

أولها : أنهم كفار العرب الذين قالوا : إن المسلمين ليسوا على شيء فبين تعالى أنه إذا كان قول اليهود والنصارى وهم يقرأون الكتب لا ينبغي أن يقبل ويلتفت إليه فقول كفار العرب أولى أن لا يلتفت إليه .

وثانيها : أنه إذا حملنا قوله : ﴿ وَقَالَتِ اليهود لَيْسَتِ النصارى على شَىْءٍ ﴾ على الذين كانوا حاضرين في زمان محمد صلى الله عليه وسلم ، حملنا قوله : ﴿ كذلك قَالَ الذين لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ على المعاندين وعكسه أيضاً محتمل .

وثالثها : أن يحمل قوله : ﴿ وَقَالَتِ اليهود لَيْسَتِ النصارى على شَىْءٍ ﴾ على علمائهم ويحمل قوله : ﴿ كذلك قَالَ الذين لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ على عوامهم فصلا بين خواصهم وعوامهم ، والأول أقرب : لأن كل اليهود والنصارى دخلوا في الآية فمن ميز عنهم بقوله : ﴿ كذلك قَالَ الذين لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ يجب أن يكون غيرهم .

أما قوله تعالى : ﴿ فالله يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ﴾ ففيه أربعة أوجه .

أحدها : قال الحسن : يكذبهم جميعاً ويدخلهم النار .

(133/63)

وثانيها : حكم الانتصاف من الظالم المكذب للمظلوم المكذب .

وثالثها : يريهم من يدخل الجنة عياناً ومن يدخل النار عياناً ، وهو قول الزجاج .

ورابعها : يحكم بين المحق والمبطل فيما اختلفوا فيه ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 4 صـ 8 ﴾

ومن فوائد ابن عرفة فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَتِ اليهود لَيْسَتِ النصارى على شَيْءٍ . . . ﴾ .

قال ابن عرفة : حكاية هذه المقالة إما على سبيل الإبطال لها أو على سبيل التقرير لها والموافقة عليها (والأول باطل لئلا يلزم أن يكون كل فريق منهم على شيء ، والثاني باطل لئلا يلزم عليه أنّها) لو حكيت على سبيل أنها حق لم يصح ترتب الذم عليهم مع أن مساق الآية يقتضي ذمهم على ذلك .

قال : وأجيب عنه : بأن اليهودية والنصرانية لهما اعتباران فهما من حيث أصلهما الذي نشآ عنه وهو موسى وعيسى حق ومن (حيث) دعوى المنتمين إليهما (والمتدينين بهما) باطل ، فقول اليهود : " ليست النَصارَى عَلى شَيء " إبطال لأصل ملّة النصرانية وليس هو ابطال لدعوى المنتمين إليها ، فحكيت هذه المقالة على معنى الإبطال لها أو ذمّ قائلها أي قولهم ذلك وإبطالهم له باطل ، بل هم على شيء باعتبار أصل الملة لا باعتبار الدعوى وهذا حق وهو على حذف الصفة أي ليسوا على شيء ديني .

قال الزمخشري : هذه مبالغة عظيمة لأن المحال والمعدوم يقع عليهما اسم الشيء .

قال ابن عرفة : الزّمخشري ضعيف في أصول الدّين ، وقد تقدم الإجماع على أن المحال (ليس بشيء) باعتبار المعنى ، واختلفوا في الإطلاق اللّفظي والتسمية هل يطلق عليه لفظ شيء أم لا ؟ فمنعه أهل السنة وأجازه المعتزلة وهما مسألتان :

فهذه لا ينبني عليها إيمان ولا كفر ، والأخرى توهّم أن للمعدوم تقررا في الأزل ويلزمهم بها الكفر .

قيل لابن عرفة : لم قال : ﴿ وَهُمْ يَتْلُونَ الكتاب ﴾ ولم يقل : وهم يعلمون الكتاب ؟

فقال : التلاوة هنا تستلزم العلم .

(134/63)

قال ابن عرفة : فإن قلت : لم قال ﴿ وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الجنة إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نصارى ﴾ فجمع المقالتين (معا) هناك وفرقهما هنا ولم يقل : وقالوا ليست النصارى واليهود على شيء ؟ (قال) : عادتهم يجيبون بأن المقالتين هناك محصورتان لا ثالث لهما فيعلم بالضرورة أن النصارى قالوا : لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانيا ، واليهود قالوا : لن يدخل الجنة إلا اليهود ، وأما هنا فلو قيل : وقالوا : ليست اليهود والنصارى على شيء لأوهم أن المسلمين هم الذين قالوا ذلك (والكتاب) جنس (يشمل) التوراة والإنجيل .

قوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ قَالَ الذين لاَ يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ﴾ .

تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم بذلك وغيرهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عرفة حـ 1 صـ 398. 400 ﴾

ومن فوائد أبى حيان فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء ﴾ ، قيل : المراد عامة اليهود وعامة النصارى ، فهذا من الإخبار عن الأمم السالفة ، وتكون أل للجنس ، ويكون في ذلك تقريع لمن بحضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم من الفريقين ، وتسلية له صلى الله عليه وسلم ، إذ كذبوا بالرسل وبالكتب قبله .

وقيل : المراد يهود المدينة ونصارى نجران ، حيث تماروا عند الرسول وتسابوا ، وأنكرت اليهود الإنجيل ونبوّة عيسى ، وأنكرت النصارى التوراة ونبوّة موسى .

فتكون حكاية حال ، وأل للعهد ، أو المراد بذلك رجلان : رجل من اليهود ، يقال له نافع بن حرملة ، قال لنصارى نجران : لستم على شيء ، وقال رجل من نصارى نجران لليهود : لستم على شيء ، فيكون قد نسب ذلك للجميع ، حيث وقع من بعضهم ، كما يقال : قتل بنو تميم فلاناً ، وإنما قتله واحد منهم ، وذلك على سبيل المجاز والتوسع ، ونسبة الحكم الصادر من الواحد إلى الجمع .

وهو طريق معروف عند العرب في كلامها ، نثرها ونظمها .

ولما جمعهم في المقالة الأولى ، وهي : ﴿ وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى ﴾ ، فصلهم في هذه الآية ، وبين قول كل فريق في الآخر .

وعلى شيء : في موضع خبر ليس ، ويحتمل أن يكون المعنى : على شيء يعتد به في الدين ، فيكون من باب حذف الصفة ، نظير قوله :

لقد وقعت على لحم . . .

أي لحم منيع ، وأنه ليس من أهلك ، أي من أهلك الناجين ، لأنه معلوم أن كلاً منهم على شيء ، أو يكون ذلك نفياً على سبيل المبالغة العظيمة ، إذ جعل ما هما عليه ، وإن كان شيئاً كلا شيء .

هذا والشيء يطلق عند بعضهم على المعدوم والمستحيل ، فإذا نفى إطلاق اسم الشيء على ما هم عليه ، كان ذلك مبالغة في عدم الاعتداد به ، وصار كقولهم أقل من لا شيء .

﴿ وهم يتلون الكتاب ﴾ : جملة حالية ، أي وهم عالمون بما في كتبهم ، تالون له .

وهذا نعي عليهم في مقالتهم تلك ، إذ الكتاب ناطق بخلاف ما يقولونه ، شاهدة توراتهم ببشارة عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام ، وصحة نبوّتهما .

وإنجيلهم شاهد بصحة نبوة موسى ومحمد صلى الله عليه وسلم ، إذ كتب الله يصدق بعضها بعضاً .

وفي هذا تنبيه لأمّة محمد صلى الله عليه وسلم في أن من كان عالماً بالقرآن ، يكون واقفاً

عنده ، عاملاً بما فيه ، قائلاً بما تضمنه ، لا أن يخالف قوله ما هو شاهد على مخالفته منه ، فيكون في ذلك كاليهود والنصارى .

والكتاب هنا قيل : هو التوراة والإنجيل .

وقيل : التوراة ، لأن النصارى تمتثلها .

﴿ كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم ﴾ : الذين لا يعلمون : هم مشركو العرب في قول الجمهور .

وقيل : مشركو قريش .

وقال عطاء : هم أمم كانوا قبل اليهود والنصارى .

وقال قوم : المراد اليهود ، وكأنه أعيد قولهم : أي قال اليهود مثل قول النصارى ، ونفى عنهم العلم حيث لم ينتفعوا به فجعلوا لا يعلمون .

والظاهر القول الأول .

وقال الزمخشري : أي مثل ذلك الذي سمعت على ذلك المنهاج .

(136/63)

قال : الجهلة الذين لا علم عندهم ولا كتاب ، كعبدة الأصنام ، والمعطلة ونحوهم قالوا : لكل أهل دين ليسوا على شيء ، وهو توبيخ عظيم لهم ، حيث نظموا أنفسهم مع علمهم في سلك من لا يعلم .

والظاهر أن الكاف من كذلك في محل نصب ، إما على أنها نعت لمصدر محذوف تقديره : قولاً مثل ذلك القول ، ﴿ قال الذين لا يعلمون ﴾ ، أو على أنه منصوب على الحال من المصدر المعرفة المضمر الدال عليه قال ، التقدير : مثل ذلك القول قاله ، أي قال القول الذين لا يعلمون ، وهذا على رأي سيبويه .

وعلى الوجهين تنتصب الكاف بقال ، وانتصب على هذين التقديرين مثل قولهم على البدل من موضع الكاف .

وقيل : ينتصب مثل قولهم على أنه مفعول بيعلمون ، أي الذين لا يعلمون مثل مقالة اليهود والنصارى ، قالوا : مثل : مقالتهم ، أي توافق الذين لا يعلمون مقالات النصارى ، واليهود مع اليهود والنصارى في ذلك ، أن من جهل قول اليهود والنصارى وافقهم في مثل ذلك القول .

وجوّزوا أن تكون الكاف في موضع رفع بالابتداء ، والجملة بعده خبر ، والعائد محذوف تقديره : مثل ذلك قاله الذين .

ولا يجوز لقال أن ينصب مثل قولهم نصب المفعول ، لأن قال قد أخذ مفعوله ، وهو الضمير المحذوف العائد على المبتدأ ، فينتصب إذ ذاك مثل قولهم على أنه صفة لمصدر محذوف ،

أو على أنه مفعول ليعلمون ، أي مثل قولهم يعني اليهود والنصارى .

قال الذين لا يعلمون اعتقاد اليهود والنصارى .

انتهى ما قالوه في هذا الوجه ، وهو ضعيف لاستعمال الكاف اسماً ، وذلك عندنا لا يجوز إلا في ضرورة الشعر ، مع أنه قد تؤوّل ما ورد من ذلك وأجاز ذلك ، أعني أن تكون اسماً في الكلام ، ويحذف الضمير العائد على المبتدأ المنصوب بالفعل ، الذي لو قدر خلوه من ذلك الضمير لتسلط على الظاهر قبله فنصبه ، وذلك نحو : زيد ضربته .

نص أصحابنا على أن هذا الضمير لا يجوز حذفه إلا في الشعر ، وأنشدوا :

وخالد يحمد ساداتنا . . .

بالحق لا يحمد بالباطل

(137/63)

أي : يحمده ساداتنا .

وعن بعض الكوفيين في جواز حذف نحو : هذا الضمير تفصيل مذكور في النحو .

﴿ فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا في يختلفون ﴾ : أي يفصل ، والفصل : الحكم ، أو يريهم من يدخل الجنة عياناً ، ومن يدخل النار عياناً ، قاله الزجاج ، أو يكذبهم جميعاً

ويدخلهم النار ، أو يثيب من كان على حق ، ويعذب من كان على باطل .

وكلها أقوال متقاربة .

والظرفان والجار الأول معمولان ليحكم ، وفيه متعلق بيختلفون . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ البحر المحيط حـ 1 صـ 522. 523 ﴾

(138/63)

ومن فوائد الآلوسى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَقَالَتِ اليهود لَيْسَتِ النصارى على شَىْء وَقَالَتِ النصارى لَيْسَتِ اليهود على شَىْء ﴾

المراد يهود المدينة ووفد نصارى نجران تماروا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وتسابوا وأنكرت اليهود الإنجيل ونبوة عيسى عليه السلام وأنكر النصارى التوراة ونبوة موسى عليه السلام فأل في الموضعين للعهد وقيل : المراد عامة اليهود وعامة النصارى وهو من الإخبار عن الأمم السالفة ، وفيه تقريع لمن بحضرته صلى الله عليه وسلم وتسلية له عليه الصلاة والسلام إذ كذبوا بالرسل والكتب قبله فأل في الموضعين للجنس ، والأول : هو

المروي في أسباب النزول ، وعليه يحتمل أن يكون القائل كل واحد من آحاد الطائفتين وهو الظاهر ، ويحتمل أن يكون المراد بذلك رجلين رجل من اليهود يقال له نافع بن حرملة ورجل من نصارى نجران ونسبة ذلك للجميع حيث وقع من بعضهم وهي طريقة معروفة عند العرب في نظمها ونثرها وهذا بيان لتضليل كل فريق صاحبه بخصوصه إثر بيان تضليله كل من عداه على وجه العموم ، و ﴿ على شَيْءٍ ﴾ خبر ليس ، وهو عند بعض من باب حذف الصفة أي شيء يعتد به في الدين لأنه من المعلوم أن كلاً منهما على شيء ، والأوْلى عدم اعتبار الحذف ، وفي ذلك مبالغة عظيمة لأن الشيء كما يشير إليه كلام سيبويه ما يصح أن يعلم ويخبر عنه فإذا نفى مطلقاً كان ذلك مبالغة في عدم الاعتداد بما هم عليه وصار كقولهم أقل من لا شيء ﴿ وَهُمْ يَتْلُونَ الكتاب ﴾ حال من الفريقين بجعلهما فاعل فعل واحد لئلا يلزم إعمال عاملين في معمول واحد أي قالوا ذلك وهم عالمون بما في كتبهم الناطقة بخلاف ما يقولون ، وفي ذلك توبيخ لهم وإرشاد للمؤمنين إلى أن من كان عالماً بالقرآن لا ينبغي أن يقول خلاف ما تضمنه ، والمراد من الكتاب الجنس فيصدق على التوراة والإنجيل ، وقيل : المراد به التوراة لأن النصارى تمتثلها أيضاً .

(139/63)

﴿ كذلك قَالَ الذين لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ وهم مشركو العرب في قول الجمهور ، وقيل : مشركو قريش ، وقيل : هم أمم كانوا قبل اليهود والنصارى ، وأما القول بأنهم اليهود وأعيد قولهم مثل قول النصارى ونفى عنهم العلم حيث لم ينتفعوا به فالظاهر أنه قول : ﴿ الذين لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ والكاف من ﴿ كذلك ﴾ في موضع نصب على أنه نعت لمصدر محذوف منصوب ب (قال) مقدم عليه أي قولاً مثل قول اليهود والنصارى ﴿ قَالَ الذين لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ ويكون ﴿ مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ﴾ على هذا منصوباً ب ﴿ يَعْلَمُونَ ﴾ والقول بمعنى الاعتقاد ، أو بقال على أنه مفعول به أو بدل من محل الكاف ، وقيل : ﴿ كذلك ﴾ مفعول به و ﴿ مَثَلُ ﴾ مفعول مطلق ، والمقصود تشبيه المقول بالمقول في المؤدي والمحصول ، وتشبيه القول بالقول في الصدور عن مجرد التشهي والهوى والعصبية ، وجوزوا أن تكون الكاف في موضع رفع بالابتداء والجملة بعده خبره والعائد محذوف أي قاله ، و ﴿ مَثَلُ ﴾ صفة مصدر محذوف ، أو مفعول ﴿ يَعْلَمُونَ ﴾ ولا يجوز أن يكون مفعول (قال) لأنه قد استوفى مفعوله ، واعترض هذا بأن حذف العائد على المبتدأ الذي لو قدر خلو الفعل عن الضمير لنصبه مما خصه الكثير بالضرورة ومثلوا له بقوله :

وخالد يحمد ساداتنا . . .

بالحق (لا تحمد) بالباطل

وقيل : عليه وعلى ما قبله أن استعمال الكاف اسماً وإن جوزه الأخفش إلا أن جماعة

خصوه بضرورة الشعر مع أنه قد يؤل ما ورد منه فيه على أنه لا يخفى ما في توجيه التشبيهين دفعاً لتوهم اللغوية من التكلف والخروج عن الظاهر ، ولعل الأولى أن يجعل ﴿ مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ﴾ إعادة لقوله تعالى : ﴿ كذلك ﴾ للتأكيد والتقرير كما في قوله تعالى : ﴿ جَزَؤُهُ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ ﴾ [يوسف : 75] وبه قال بعض المحققين ، وقد يقال : إن كذلك ليست للتشبيه هنا بل لإفادة أن هذا الأمر عظيم مقرر ، وقد نقل الوزير عاصم بن أيوب في شرح قول زهير :

(140/63)

(كذلك) خيمهم ولكل قوم . . .

إذا مستهم الضراء خيم

عن الإمام الجرجاني إن ﴿ كذلك ﴾ تأتي للتثبيت إما لخبر مقدم وإما لخبر متأخر وهي نقيض كلا لأن كلا تنفي وكذلك تثبت ومثله ﴿ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِى قُلُوبِ المجرمين ﴾ [الحجر : 12] وفي " شرح المفتاح" الشريفي إنه ليس المقصود من التشبيهات هي المعاني الوضعية فقط إذ تشبيهات البلغاء قلما تخلو من مجازات وكنايات فنقول : إنا رأيناهم يستعملون كذا وكذا للاستمرار تارة نحو عدل زيد في قضية فلان كذا وهكذا أي عدل

مستمر ، وقال الحماسي :

(هكذا) يذهب الزمان ويفنى ال . . .

علم فيه ويدرس الأثر

نص عليه التبريزي في " شرح الحماسة" وله شواهد كثيرة ، وقال في شرح قول أبي تمام :

كذا فليجلّ الخطب وليفدح الأمر . . .

إنه للتهويل والتعظيم وهو في صدر القصيدة لم يسبق ما يشبه به ، وسيأتي لذلك تتمة إن شاء الله تعالى ، وإنما جعل قول أولئك مشبهاً به لأنه أقبح إذ الباطل من العالم أقبح منه من الجاهل ، وبعضهم يجعل التشبيه على حد ﴿ إِنَّمَا البيع مِثْلُ الربا ﴾ [البقرة : 275] وفيه من المبالغة والتوبيخ على التشبه بالجهال ما لا يخفى وإنما وبخوا ، وقد صدقوا إذ كلا الدينين بعد النسخ ليس بشيء لأنهم لم يقصدوا ذلك وإما قصد كل فريق إبطال دين الآخر من أصله والكفر بنبيه وكتابه على أنه لا يصح الحكم بأن كلا الدينين بعد النسخ ليس بشيء يعتدّ به لأن المتبادر منه أن لا يكون كذلك في حد ذاته وما لا ينسخ منهما حق واجب القبول والعمل فيكون شيئاً معتداً به في حد ذاته وإن يكن شيئاً بالنسبة إليهم لأنه لا انتفاع بما لم ينسخ مع الكفر بالناسخ .

﴿ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ أي بين اليهود والنصارى لا بين الطوائف الثلاثة لأن مساق النظم لبيان حال تينك الطائفتين والتعرض لمقالة غيرهم لإظهار كمال بطلان مقالهم والحكم الفصل والقضاء وهو يستدعي جارين فيقال : حكم القاضي في هذه الحادثة بكذا ، وقد حذف هنا أحدهما اختصاراً وتفخيماً لشأنه أي بما يقسم لكل فريق ما يليق به من العذاب ، والمتبادر من الحكم بين فريقين أن يحكم لأحدهما بحق دون الآخر فكأن استعماله بما ذكر مجاز ، وقال الحسن : المراد بالحكم بين هذين الفريقين تكذيبهم وإدخالهم النار وفي ذلك تشريك في حكم واحد وهو بعيد عن حقيقة الحكم ، و﴿ يَوْمِ ﴾ متعلق ب ﴿ يُحْكِمُ ﴾ وكذا ما بعده ولا ضير لاختلاف المعنى ، وفيه متعلق ب ﴿ يَخْتَلِفُونَ ﴾ لا ب ﴿ كَانُوا ﴾ وقدم عليه للمحافظة على رؤوس الآي .

(142/63)

ومن باب الإشارة في الآيات : ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءايَةٍ ﴾ [البقرة : 106] أي ما نزيل من صفاتك شيئاً عن ديوان قلبك أو نخفيه بإشراق أنوارنا عليه إلا ونرقم فيه من صفاتنا التي لا تظن قابليتك لما يشاركها في الاسم والتي تظن وجود ما لا يشاركها فيك ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ

لَهُ مُلْكُ ﴾ [البقرة: 107] عالم الأرواح وأرض الأجساد وهو المتصرف فيهما بيد قدرته بل العوالم على اختلافها ظاهر شؤون ذاته ومظهر أسمائه وصفاته فلم يبق شيء غيره ينصركم ويليكم ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُواْ ﴾ رسول العقل من اللذات الدنية والشهوات الدنيوية ﴿ كَمَا سُئِلَ موسى ﴾ القلب ﴿ مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ ﴾ [البقرة: 108] الظلمة بالنور فقد ضل الطريق المستقيم وقالت اليهود لن يدخل الجنة المعهودة عندهم وهي جنة الظاهر وعالم الملك التي هي جنة الأفعال وجنة النفس ﴿ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا ﴾ وقالت النصارى لن يدخل الجنة المعهودة عندهم وهي جنة الباطن وعالم الملكوت التي هي جنة الصفات وجنة القلب إلا من كان نصرانياً، ولهذا قال عيسى عليه السلام: لن يلج ملكوت السموات من لم يولد مرتين ﴿ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ﴾ أي غاية مطالبهم التي وقفوا على حدها واحتجبوا بها عما فوقها ﴿ قُلْ هَاتُواْ ﴾ دليلكم الدال على نفي دخول غيركم ﴿ إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ [البقرة: 111] في دعواكم بل الدليل دل على نقيض مدعاكم فإن ﴿ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ ﴾ وخلص ذاته من جميع لوازمها وعوارضها لله تعالى بالتوحيد الذاتي عند المحو الكلي وهو مستقيم في أحواله بالبقاء بعد الفناء مشاهد ربه في أعماله راجع من الشهود الذاتي إلى مقام الإحسان الصفاتي الذي هو المشاهدة للوجود الحقاني ﴿ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ ﴾ [البقرة: 112] أي ما ذكرتم من الجنة وأصفى

لاختصاصه بمقام العندية التي حجبتم عنها ولهم زيادة على ذلك هي عدم خوفهم من احتجاب الذات وعدم حزنهم

(143/63)

على ما فاتهم من جنة الأفعال والصفات التي حجبتم بالوقوف عندها ﴿ وَقَالَتِ اليهود لَيْسَتِ النصارى على شَىْءٍ ﴾ لاحتجابهم بالباطن عن الظاهر ﴿ وَقَالَتِ النصارى لَيْسَتِ اليهود على شَىْءٍ ﴾ لاحتجابهم عن الباطن بالظاهر ﴿ وَهُمْ يَتْلُونَ الكتاب ﴾ وفيه ما يرشدهم إلى رفع الحجاب ورؤية حقية كل مذهب في مرتبته ﴿ كذلك قَالَ الذين لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ المراتب ﴿ مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ﴾ فخطأ كل فرقة منهم الفرقة الأخرى ولم يميزوا بين الإرادة الكونية والإرادة الشرعية ولم يعرفوا وجه الحق في كل مرتبة من مراتب الوجود ﴿ فالله ﴾ تعالى الجامع لجميع الصفات على اختلاف مراتبها وتفاوت درجاتها ﴿ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ﴾ بالحق في اختلافاتهم ﴿ يَوْمِ ﴾ قيام ﴿ القيامة ﴾ [البقرة : 3 11] الكبرى وظهور الوحدة الذاتية وتجلي الرب بصور المعتقدات حتى ينكرونه فلا يسجد له إلا من لم يقيده سبحانه حتى بقيد الإطلاق . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 360 . 363 ﴾

ومن فوائد ابن عاشور فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَقَالَتِ اليهود لَيْسَتِ النصارى على شَىْءٍ وَقَالَتِ النصارى لَيْسَتِ اليهود على شَىْءٍ ﴾

معطوف على قوله : ﴿ وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى ﴾ [البقرة : 111] لزيادة بيان أن المجازفة دأبهم وأن رمي المخالف لهم بأنه ضال شنشنة قديمة فيهم فهم يرمون المخالفين بالضلال لمجرد المخالفة ، فقديماً ما رمت اليهود النصارى بالضلال ورمت النصارى اليهود بمثله فلا تعجبوا من حكم كل فريق منهم بأن المسلمين لا يدخلون الجنة ، وفي ذلك إنحاء على أهل الكتاب وتطمين لخواطر المسلمين ودفع الشبهة عن المشركين بأنهم يتخذون من طعن أهل الكتاب في الإسلام حجة لأنفسهم على مناوأته وثباتاً على شركهم .

(144/63)

والمراد من القول التصريح بالكلام الدال فهم قد قالوا هذا بالصراحة حين جاء وفد نجران إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيهم أعيان دينهم من النصارى فلما بلغ مقدمهم اليهود

أتوهم وهم عند النبيء صلى الله عليه وسلم فناظروهم في الدين وجادلوهم حتى تسابوا فكفر اليهود بعيسى وبالإنجيل وقالوا للنصارى ما أنتم على شيء فكفر وفد نجران بموسى وبالتوراة وقالوا لليهود لستم على شيء .

وقولهم ﴿ على شيء ﴾ نكرة في سياق النفي والشيء الموجود هنا مبالغة أي ليسوا على أمر يعتد به .

فالشيء المنفي هو العرفي أو باعتبار صفة محذوفة على حد قول عباس بن مرداس :

وقد كنت في الحرب ذا تُدْرَا . . .

فلم أُعْطَ شيئاً ولم أُمنع

أي لم أعط شيئاً نافعاً مغنياً بدليل قوله ولم أُمنع ، وسئل رسول الله عن الكهان فقال : " ليسوا بشيء" ، فالصيغة صيغة عموم والمراد بها في مجاري الكلام نفي شيء يعتد به في الغرض الجاري فيه الكلام بحسب المقامات فهي مستعملة مجازاً كالعام المراد به الخصوص أي ليسوا على حظ من الحق فالمراد هنا ليستْ على شيء من الحق وذلك كناية عن عدم صحة ما بين أيديهم من الكتاب الشرعي فكل فريق من الفريقين رمَى الآخر بأن ما عنده من الكتاب لاحظ فيه من الخير كما دل عليه قوله بعده : ﴿ وهم يتلون الكتاب ﴾ فإن قوله : ﴿ وهم يتلون الكتاب ﴾ جملة حالية جيء بها لمزيد التعجب من شأنهم أن يقولوا ذلك وكل فريق منهم يتلون الكتاب وكل كتاب يتلونه مشتمل على الحق لو اتبعه أهله حق اتباعه ،

ولا يخلو أَهل كتاب حق من أن يتبعوا بعض ما في كتابهم أو جل ما فيه فلا يصدق قولُ غيرهم أنهم ليسوا على شيء .

(145/63)

وجيء بالجملة الحالية لأن دلالتها على الهيئة أقوى من دلالة الحال المفردة لأن الجملة الحالية بسبب اشتمالها على نسبة خبرية تفيد أن ما كان حقه أن يكون خبراً عدل به عن الخبر لادعاء أنه معلوم اتصاف المخبر عنه به فيؤتى به في موقع الحال المفردة على اعتبار التذكير به ولفت الذهن إليه فصار حالاً له .

وضمير قوله : ﴿ هم ﴾ عائد إلى الفريقين وقيل عائد إلى النصارى لأنهم أقرب مذكور .

والتعريف في (الكتاب) جعله صاحب " الكشاف" تعريف الجنس وهو يرمي بذلك إلى أن المقصود أنهم أهل علم كما يقال لهم أهل الكتاب في مقابلة الأميين ، وحداه إلى ذلك قوله عقبه ﴿ كذلك قال الذين لا يعلمون ﴾ فالمعنى أنهم تراجموا بالنسبة إلى نهاية الضلال وهم من أهل العلم الذين لا يليق بهم المجازفة ومن حقهم الإنصاف بأن يبينوا مواقع الخطأ عند مخالفيهم .

وجعل ابن عطية التعريف للعهد وجعل المعهود التوراة أي لأنها الكتاب الذي يقرأه

الفريقان .

ووجه التعجيب على هذا الوجه أن التوراة هي أصل للنصرانية والإنجيل ناطق بحقيتها فكيف يَسُوغُ للنصارى ادعاء أنها ليست بشيء كما فعلت نصارى نجران ، وأن التوراة ناطقة بمجيء رسل بعد موسى فكيف ساغ لليهود تكذيب رسول النصارى .

وإذا جعل الضمير عائداً للنصارى خاصة يحتمل أن يكون المعهود التوراة كما ذكرنا أو الإنجيل الناطق بأحقية التوراة وفي ﴿ يتلون ﴾ دلالة على هذا لأنه يصير التعجب مشرباً بضرب من الاعتذار أعني أنهم يقرأون دون تدبر وهدا من التهكم وإلا لقال وهم يعلمون الكتاب وبهذا يتبين أن ليست هذه الآية واردة للانتصار لأحد الفريقين أو كليهما .

(146/63)

وقوله : ﴿ كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم ﴾ أي يشبه هذا القول قول فريق آخر غير الفريقين وهؤلاء الذين لا يعلمون هم مقابل الذين يتلون الكتاب وأريد بهم مشركو العرب وهم لا يعلمون لأنهم أمّيون وإطلاق ﴿ الذين لا يعلمون ﴾ على المشركين وارد في القرآن من ذلك قوله الآتي : ﴿ وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية ﴾ [البقرة : 118] بدليل قوله : ﴿ كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم ﴾ [البقرة : 118] يعني كذلك

قال اليهود والنصارى ، والمعنى هنا أن المشركين كذبوا الأديان كلها اليهودية والنصرانية والإسلام والمقصود من التشبيه تشويه المشبه به بأنه مشابه لقول أهل الضلال البحت .

وهذا استطراد للإنحاء على المشركين فيما قابلوا به الدعوة الإسلامية ، أي قالوا للمسلمين مثل مقالة أهل الكتابين بعضهم لبعض وقد حكى القرآن مقالتهم في قوله : ﴿ إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء ﴾ [الأنعام : 91] .

والتشبيه المستفاد من الكاف في ﴿ كذلك ﴾ تشبيه في الادعاء على أنهم ليسوا على شيء والتقدير مثل ذلك القول الذي قالته اليهود والنصارى قال الذين لا يعلمون ، ولهذا يكون لفظ ﴿ مثل قولهم ﴾ تأكيداً لما أفاده كاف التشبيه وهو تأكيد يشير إلى أن المشابهة بين قول ﴿ الذين لا يعلمون ﴾ وبين قول اليهود والنصارى مشابهة تامة لأنهم لما قالوا ﴿ ما أنزل الله على بشر من شيء ﴾ قد كذَّبوا اليهود والنصارى والمسلمين .

وتقديم الجار والمجرور على متعلقه وهو ﴿ قال ﴾ إما لمجرد الاهتمام ببيان الماثلة وإما ليغني عن حرف العطف في الانتقال من كلام إلى كلام إيجازاً بديعاً لأن مفاد حرف العطف التشريك ومفاد كاف التشبيه التشريك إذ التشبيه تشريك في الصفة .

ولأجل الاهتمام أو لزيادته أكد قوله ﴿ كذلك ﴾ بقوله ﴿ مثل قولهم ﴾ فهو صفة أيضاً لمعمول قالوا المحذوف أي قالوا مقولاً مثل قولهم .

ولك أن تجعل ﴿ كذلك ﴾ تأكيداً لمثل قولهم وتعتبر تقديمه من تأخير ، والأول أظهر .

وجوز صاحب " الكشف" وجماعة أن لا يكون قوله : ﴿ مثلَ قولهم ﴾ أو قوله : ﴿ كذلك ﴾ تأكيداً للآخر وأن مرجع التشبيه إلى كيفية القول ومنهجه في صدوره عن هَوىً ، ومرجع المماثلة إلى المماثلة في اللفظ فيكون على كلامه تكريراً في التشبيه من جهتين للدلالة على قوة التشابه .

وقولُه : ﴿ فالله يحكم بينهم ﴾ الآية ، جاء بالفاء لأن التوعد بالحكم بينهم يوم القيامة وإظهار ما أكنته ضمائرهم من الهوى والحسد متفرع عن هذه المقالات ومسبب عنها وهو خبر مراد به التوبيخ والوعيد والضمير المجرور بإضافة (بين) راجع إلى الفرق الثلاث و (ما كانوا فيه يختلفون) يعم ما ذكر وغيره .

والجملة تذييل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 1 صـ 657. 660 ﴾

فصل

قال أبو حيان :

وقد تضمنت هذه الآيات الشريفة أشياء منها : افتتاحها بحسن النداء ، وإثبات وصف الإيمان لهم ، وتنبيههم على تعلم أدب من آداب الشريعة ، بأن نهوا عن قول لفظ لإيهام مّا إلى لفظ أنص في المقصود ، وأصرح في المطلوب .

ثم ذكر ما للمخالف من العذاب الذي يذله ويهينه .

ثم نبه على أن هذا الذي أمرتم به هو خير ، وأن الكفار لا يودّون أن ينزل عليكم شيء من الخير .

ثم ذكر أن ذلك ليس راجعاً لشهواتهم ، ولا لتمنيهم ، بل ذلك أمر إلهي يختص به من يشاء ، وأنه تعالى هو صاحب الفضل الواسع .

ولما كان صدر الآية فيه انتقال من لفظ إلى لفظ ، وأن الثاني صار أنص في المقصود بين أن ما يفعله الله تعالى من النسخ ، فإنما ذلك لحكمة منه ، فيأتي بأفضل مما نسخ أو بما ماثله .

وإن من كان قادراً على كل شيء ، فله التصرّف بما يريد من نسخ وغيره .

ونبه المخاطب على علمه بقدرة الله تعالى ، وبملكه الشامل لسائر المخلوقات ، وإنما نحن ما لنا من دونه من مانع يمنعنا منه .

(148/63)

فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا ، ثم أنكر على من تعلقت إرادته بأن يسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم سؤالاً غير جائز ، كسؤالات قوم موسى له .

ثم ذكر أن من آثر الكفر على الإيمان ، فقد خرج عن قصد المنهج .

ثم ذكر أن الكثير من أهل الكتاب يودون ارتدادكم ، وأن الحامل لهم على ذلك الحسد .

ثم أمروا بالموادعة والصفح ، وغيا ذلك بأمر الله ، فإذا أتى أمر الله ارتفع الأمر بالعفو والصفح .

ثم اختتم الآية بذكر قدره الله تعالى على كل شيء ، لأن قبله وعداً بتغيير حال ، فناسب ذلك ذكر القدرة .

ثم أمرهم بما يقطع عنهم تلفت أقوال الكفار ، وهي الصلاة والزكاة ، وأخبر أن ما قدمتموه من الخير فإنه لا يضيع عند الله ، بل تجدوه مذخوراً لكم .

ثم اختتم ذلك حيث نبه على أن ما عمل من الخير هو عند الله ، بذكر صفة البصر التي تدل على مشاهدة الأشياء ومعاينتها .

ثم نعى على اليهود والنصارى من دعواهم أنهم مختصون بدخول الجنة ، وأن ذلك أكذوبة من أكاذيبهم المعروفة ، وأنهم طولبوا بإقامة البرهان على دعوى الاختصاص .

ثم ذكر أن من انقاد ظاهراً وباطناً لله تعالى فله أجره وهو آمن ، فلا يخاف مما يأتي ولا يحزن على ما مضى .

ثم أخذ يذكر مقالات النصارى واليهود بعضهم في بعض ، وأنها مقالة من أظهر التبرّؤ مما جاءت به الرسل وأفصحت عنه الكتب المنزلة ، وذلك كله على جهة العناد ، لأنهم تالون للكتب عالمون بما انطوت عليه ، فصاروا في الحياة الدنيا على مثل حالهم في الآخرة .

كما أخبر تعالى عنهم بقوله : ﴿ يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً ﴾ ثم ذكر أن مقالتهم تلك ، وإن كانوا عالمين ، فهي مماثلة لمقالة من لا يعلم ، ثم ختم ذلك بالوعيد الذي يتضمن الحكم وفصل الباطل من الحق ، وأنه تعالى هو المتولي ذلك ليجازيهم على كفرهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 1 صـ 523. 524 ﴾

(149/63)

ومن فوائد ابن كثير فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (113) ﴾

يبين تعالى اغترار اليهود والنصارى بما هم فيه ، حيث ادعت كل طائفة من اليهود والنصارى أنه لن يدخل الجنة إلا من كان على ملتها ، كما أخبر الله عنهم في سورة المائدة أنهم قالوا : ﴿ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ﴾ [المائدة : 18] . فأكذبهم الله تعالى بما أخبرهم أنه معذبهم بذنوبهم ، ولو كانوا كما ادعوا لما كان الأمر كذلك ، وكما تقدم من دعواهم أنه لن

تمسهم النار إلا أياما معدودة، ثم ينتقلون إلى الجنة. وردَّ عليهم تعالى في ذلك، وهكذا قال لهم في هذه الدعوى التي ادعوها بلا دليل ولا حجة ولا بينة، فقال ﴿ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ﴾

وقال أبو العالية: أماني تمنوها على الله بغير حق. وكذا قال قتادة والربيع بن أنس.

ثم قال: ﴿ قُلْ ﴾ أي: يا محمد، ﴿ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾

وقال أبو العالية ومجاهد والسدي والربيع بن أنس: حجتكم. وقال قتادة: بينتكم على ذلك. ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ كما تدعونه.

ثم قال تعالى: ﴿ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ أي: من أخلص العمل لله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ﴾ الآية [آل عمران: 20].

وقال أبو العالية والربيع: ﴿ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ ﴾ يقول: من أخلص لله.

(150/63)

وقال سعيد بن جبير: ﴿ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ ﴾ أخلص، ﴿ وَجْهَهُ ﴾ قال: دينه، ﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ أي: متبع فيه الرسول صلى الله عليه وسلم. فإن للعمل المتقبل شرطين، أحدهما: أن يكون خالصًا لله وحده والآخر: أن يكون صوابًا موافقا للشريعة. فمتى كان

خالصًا ولم يكن صوابًا لم يتقبل ؛ ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد " . رواه مسلم من حديث عائشة ، عنه ، عليه السلام .

فعمل الرهبان ومن شابههم – وإن فرض أنهم مخلصون فيه لله – فإنه لا يتقبل منهم ، حتى يكون ذلك متابعًا للرسول [محمد] صلى الله عليه وسلم المبعوث إليهم وإلى الناس كافة ، وفيهم وأمثالهم ، قال الله تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾ [الفرقان : 23] ، وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ﴾ [النور : 39] .

وروي عن أمير المؤمنين عمر أنه تأولها في الرهبان كما سيأتي .

(151/63)

وأما إن كان العمل موافقًا للشريعة في الصورة الظاهرة ، ولكن لم يخلص عامله القصد لله فهو أيضًا مردود على فاعله وهذا حال المنافقين والمرائين ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلا ﴾ [النساء : 142] ، وقال تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ* الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ* الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ* وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ [الماعون : 4 – 7] ، ولهذا

قال تعالى : ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلا صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف : 110] . وقال في هذه الآية الكريمة : ﴿ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾

وقوله : ﴿ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ضمن لهم تعالى على ذلك تحصيل الأجور ، وآمنهم مما يخافونه من المحذور فـ ﴿ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ فيما يستقبلونه ، ﴿ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ على ما مضى مما يتركونه ، كما قال سعيد بن جبير : فـ ﴿ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ يعني : في الآخرة ﴿ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [يعني : لا يحزنون] للموت .

(152/63)

وقوله تعالى : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ ﴾ يبين به تعالى تناقضهم وتباغضهم وتعاديهم وتعاندهم . كما قال محمد بن إسحاق : حدثني محمد بن أبي محمد ، عن عكرمة أو سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، قال : لما قدم أهل نجران من النصارى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أتتهم أحبار يهود ، فتنازعوا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رافع بن حُرَيْملة ما أنتم على شيء ، وكفر بعيسى وبالإنجيل . وقال رجل من أهل نجران من

النصارى لليهود : ما أنتم على شيء . وجحد نبوة موسى وكفر بالتوراة . فأنزل الله في ذلك من قولهما ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ ﴾ قال : إن كلا يتلو في كتابه تصديق من كفر به ، أي : يكفر اليهود بعيسى وعندهم التوراة ، فيها ما أخذ الله عليهم على لسان موسى بالتصديق بعيسى ، وفي الإنجيل ما جاء به عيسى بتصديق موسى ، وما جاء من التوراة من عند الله ، وكل يكفر بما في يد صاحبه .

وقال مجاهد في تفسير هذه الآية : قد كانت أوائل اليهود والنصارى على شيء .

وقال قتادة : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ ﴾ قال : بلى ، قد كانت أوائل النصارى على شيء ، ولكنهم ابتدعوا وتفرقوا . ﴿ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ ﴾ قال : بلى قد كانت أوائل اليهود على شيء ، ولكنهم ابتدعوا وتفرقوا .

وعنه رواية أخرى كقول أبي العالية ، والربيع بن أنس في تفسير هذه الآية : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ ﴾ هؤلاء أهل الكتاب الذين كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وهذا القول يقتضي أن كلا من الطائفتين صدقت فيما رمت به الطائفة الأخرى . ولكن ظاهر سياق الآية يقتضي ذمهم فيما قالوه ، مع علمهم بخلاف ذلك ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ ﴾ أي : وهم يعلمون شريعة التوراة والإنجيل ، كل منهما قد كانت مشروعة في وقت ، ولكن تجاحدوا فيما بينهم عنادًا وكفرًا ومقابلة للفاسد بالفاسد ، كما تقدم عن ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة في الرواية الأولى عنه في تفسيرها ، والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ﴾ يُبَيِّن بهذا جهل اليهود والنصارى فيما تقابلوا من القول ، وهذا من باب الإيماء والإشارة . وقد اختلف فيما عنى بقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ فقال الربيع بن أنس وقتادة : ﴿ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ قالا وقالت النصارى مثل قول اليهود وقيلهم . وقال ابن جُرَيج : قلت لعطاء : من هؤلاء الذين لا يعلمون ؟ قال : أمم كانت قبل اليهود والنصارى وقبل التوراة والإنجيل . وقال السدي : ﴿ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ فهم : العرب ، قالوا : ليس محمد على شيء . واختار أبو جعفر بن جرير أنها عامة تصلح للجميع ، وليس ثَمَّ دليل قاطع يعين واحدًا من هذه الأقوال ، فالحمل على الجميع أولى ، والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ أي : أنه تعالى يجمع بينهم يوم المعاد ، ويفصل بينهم بقضائه العدل الذي لا يجور فيه ولا يظلم مثقال ذرة . وهذا كقوله تعالى في سورة الحج : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [الحج : 17] ، وكما قال تعالى : ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴾ [سبأ : 26] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن كثير حـ 1 صـ 384 . 387 ﴾

(155/63)

ومن فوائد الشوكانى فى الآية

قال رحمه الله :

وقوله : ﴿ وَقَالَتِ اليهود ﴾ وما بعده فيه أن كل طائفة تنفي الخير عن الأخرى ، ويتضمن ذلك إثباته لنفسها تحجراً لرحمة الله سبحانه .

قال في الكشاف : إن الشيء هو : الذي يصح ويعتدّ به ، قال : وهذه مبالغة عظيمة ؛ لأن المحال والمعدوم يقع عليهما اسم الشيء ، وإذا نفي إطلاق اسم الشيء عليه ، فقد بولغ في

ترك الاعتداد به إلى ما ليس بعده ، وهكذا قولهم أقلّ من لا شيء .

وقوله : ﴿ وَهُمْ يَتْلُونَ الكتاب ﴾ أي التوراة ، والإنجيل ، والجملة حالية ، وقيل : المراد جنس الكتاب ، وفي هذا أعظم توبيخ ، وأشدّ تقريع ؛ لأن الوقوع في الدعاوى الباطلة ، والتكلم بما ليس عليه برهان هو : وإن كان قبيحاً على الإطلاق لكنه من أهل العلم ، والدراسة لكتب الله أشدّ قبحاً ، وأفظع جرماً ، وأعظم ذنباً .

وقوله : ﴿ كذلك قَالَ الذين لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ المراد بهم : كفار العرب ، الذين لا كتاب لهم قالوا : مثل مقالة اليهود اقتداءً بهم ؛ لأنهم جهلة لا يقدرون على غير التقليد لمن يعتقدون أنه من أهل العلم .

وقيل : المراد بهم طائفة من اليهود ، والنصارى ، وهم الذين لا علم عندهم ، ثم أخبرنا سبحانه بأنه المتولى لفصل هذه الخصومة التي وقع فيها الخلاف عند الرجوع إليه ، فيعذب من يستحق التعذيب ، وينجي من يستحق النجاة .

وقد أخرج ابن أبي حاتم ، عن أبي العالية في قوله : ﴿ وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الجنة ﴾ الآية ، قال : قالت اليهود : لن يدخل الجنة إلا من كان يهودياً ، وقالت النصارى لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانياً : ﴿ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ﴾ قال : أمانيّ يتمنونها على الله بغير حق : ﴿ قُلْ هَاتُواْ برهانكم ﴾ قال : حجتكم : ﴿ إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ بما تقولونه أنه كما تقولون : ﴿ بلى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ ﴾ يقول : أخلص لله .

وأخرج ابن جرير ، عن مجاهد في قوله : ﴿ قُلْ هَاتُواْ برهانكم ﴾ قال : حجتكم ، وأخرج ابن أبي حاتم ، عن سعيد بن جبير في قوله : ﴿ بلى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ ﴾ قال : أخلص دينه .

وأخرج ابن إسحاق ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس قال : لما قدم وفد نجران من النصارى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أتتهم أحبار اليهود ، فتنازعوا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رافع بن حريملة : ما أنتم على شيء وكفر بعيسى والإنجيل ، فقال له رجل من أهل نجران : ما أنتم على شيء ، وجحد نبوّة موسى ، وكفر بالتوراة ، قال : فأنزل الله في ذلك : ﴿ وَقَالَتِ اليهود لَيْسَتِ النصارى على شَىْءٍ وَقَالَتِ النصارى لَيْسَتِ اليهود على شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الكتاب ﴾ أي : كلّ يتلو في كتابه تصديق من كفر به .

وأخرج ابن جرير ، عن ابن جريج قال : قلت لعطاء : من هؤلاء الذين لا يعلمون ؟ قال : هم : أمم كانت قبل اليهود والنصارى .

وأخرج ابن جرير عن السدي قال : هم العرب قالوا ليس محمد على شيء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 1 صـ 130. 131 ﴾

(157/63)

ومن فوائد صاحب المنار فى الآيات السابقة

قال رحمه الله :

ثُمَّ انْتَقَلَ إِلَى الْكَلَامِ عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ عَامَّةً وَمَا يُلَامُ عَلَيْهِ الْفَرِيقَانِ مِنْهُمْ – الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى – فَقَالَ :

(وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) .

هَذَا بَيَانٌ لِحَالَيْنِ آخَرَيْنِ مِنْ أَحْوَالِ أَهْلِ الْكِتَابِ فِي غُرُورِهِمْ بِدِينِهِمْ ، مَا كَانَ الْمُسْلِمُونَ قَبْلَ نُزُولِ الْآيَاتِ يَعْرِفُونَهَا :

أَمَّا الْأُولَى فَمَا بَيَّنَهُ – تَعَالَى – بِقَوْلِهِ : (وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى) ، وَهُوَ عَطْفٌ عَلَى قَوْلِهِ : (وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ) أَيْ قَالَتِ الْيَهُودُ : لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا ، وَقَالَتِ النَّصَارَى كَذَلِكَ فِي أَنْفُسِهِمْ ، وَهُوَ اخْتِصَارٌ بَدِيعٌ غَيْرُ مُخِلٍّ . وَهَذِهِ عَقِيدَةُ الْفَرِيقَيْنِ إِلَى الْيَوْمِ ، وَلَا يُنَافِي انْسِحَابَ حُكْمِهَا عَلَى الْآخِرِينَ ، أَنَّ نَفَرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ قَالُوا ذَلِكَ بَيْنَ يَدَيِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – كَمَا يُرْوَى ، وَقَدْ بَيَّنَ لَنَا – تَعَالَى – أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ لَا حُجَّةَ لَهُ فِي كُتُبِهِمُ الْمُنَزَّلَةِ فَقَالَ : (تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) ، وَالْأَمَانِيُّ : جَمْعُ أُمْنِيَّةٍ ، وَهِيَ مَا يَتَمَنَّاهُ الْمَرْءُ وَلَا يُدْرِكُهُ . وَهَذَا الْقَوْلُ نَاطِقٌ بِأُمْنِيَّةٍ وَاحِدَةٍ وَلَكِنَّهَا تَتَضَمَّنُ أَمَانِيَّ مُتَعَدِّدَةً هِيَ لَوَازِمُ لَهَا ، كَنَجَاتِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ وَكَوُقُوعِ أَعْدَائِهِمْ فِيهِ وَحِرْمَانِهِمْ مِنَ النَّعِيمِ ، وَلِهَذَا ذَكَرَ الْأَمَانِيَّ بِالْجَمْعِ وَلَمْ يَقُلْ : تِلْكَ أُمْنِيَّتُهُمْ . وَقَدِ انْفَرَدَ بِهَذَا الْوَجْهِ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ ، وَهُنَاكَ وُجُوهٌ أُخْرَى وَهِيَ : أَنَّ الْإِشَارَةَ بِتِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ لِقَوْلِهِ : (مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ) الْآيَةَ ، وَقَوْلِهِ : (وَدَّ كَثِيرٌ) وَقَوْلِهِ (وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ) وَقِيلَ : إِنَّ فِي الْكَلَامِ مُضَافًا مَحْذُوفًا أَيْ أَمْثَالُ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ، ثُمَّ

طَالَبَهُمْ - تَعَالَى - بِالْبُرْهَانِ عَلَى دَعْوَاهُمْ ، فَقَرَّرَ لَنَا قَاعِدَةً لَا تُوجَدُ فِي غَيْرِ الْقُرْآنِ مِنَ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ ، وَهِيَ أَنَّهُ لَا يَقْبَلُ مِنْ أَحَدٍ قَوْلًا لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ ، وَلَا يَحْكُمُ لِأَحَدٍ بِدَعْوَى يَنْتَحِلُهَا بِغَيْرِ بُرْهَانٍ يُؤَيِّدُهَا ، ذَلِكَ أَنَّ الْأُمَمَ الَّتِي خُوطِبَتْ بِالْكُتُبِ السَّالِفَةِ لَمْ تَكُنْ مُسْتَعِدَّةً لِاسْتِقْلَالِ الْفِكْرِ وَمَعْرِفَةِ الْأُمُورِ بِأَدِلَّتِهَا وَبَرَاهِينِهَا ؛ وَلِذَلِكَ اكْتَفَى مِنْهُمْ بِتَقْلِيدِ الْأَنْبِيَاءِ فِيمَا يُبَلِّغُونَهُمْ وَإِنْ لَمْ يَعْرِفُوا بُرْهَانَهُ ، فَهُمْ مُكَلَّفُونَ أَنْ يَفْعَلُوا مَا يُؤْمَرُونَ ، سَوَاءٌ عَرَفُوا لِمَاذَا أُمِرُوا أَوْ لَمْ يَعْرِفُوا ، وَلَكِنَّ الْقُرْآنَ يُخَاطِبُ مَنْ أُنْزِلَ عَلَيْهِ بِمِثْلِ قَوْلِهِ : (قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي) (12 : 108) وَقَدْ فَسَّرُوا الْبَصِيرَةَ بِالْحُجَّةِ الْوَاضِحَةِ ، وَيُسْتَدَلُّ عَلَى قُدْرَةِ اللهِ وَإِرَادَتِهِ وَعِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ بِالْآيَاتِ الْكَوْنِيَّةِ ، وَهِيَ كَثِيرَةٌ جِدًّا فِي الْقُرْآنِ ، وَبِالْأَدِلَّةِ النَّظَرِيَّةِ وَالْعَقْلِيَّةِ كَقَوْلِهِ : (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا) (21 : 22) وَغَيْرِ ذَلِكَ ، وَيُسْتَدَلُّ عَلَى الْأَحْكَامِ بِمَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهَا مِنْ نَفْيِ الْمَضَرَّاتِ وَالْإِفْضَاءِ إِلَى الْمَنَافِعِ .

عَلَّمَ الْقُرْآنُ أَهْلَهُ أَنْ يُطَالِبُوا النَّاسَ بِالْحُجَّةِ ؛ لِأَنَّهُ أَقَامَهُمْ عَلَى سَوَاءِ الْمَحَجَّةِ . وَجَدِيرٌ بِصَاحِبِ الْيَقِينِ أَنْ يُطَالِبَ خَصْمَهُ بِهِ وَيَدْعُوَهُ إِلَيْهِ ، وَعَلَى هَذَا دَرَجَ سَلَفُ هَذِهِ الْأُمَّةِ الصَّالِحُ ، قَالُوا بِالدَّلِيلِ وَطَالَبُوا بِالدَّلِيلِ وَنَهَوْا عَنِ الْأَخْذِ بِشَيْءٍ مِنْ غَيْرِ دَلِيلٍ ، ثُمَّ جَاءَ الْخَلَفُ الطَّالِحُ فَحَكَمَ بِالتَّقْلِيدِ ، وَأَمَرَ بِالتَّقْلِيدِ ، وَنَهَى عَنِ الِاسْتِدْلَالِ عَلَى غَيْرِ صِحَّةِ التَّقْلِيدِ ، حَتَّى كَأَنَّ الْإِسْلَامَ خَرَجَ عَنْ حَدِّهِ ، أَوِ انْقَلَبَ إِلَى ضِدِّهِ ، وَصَارَ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ أَنَّ الْإِسْلَامَ امْتَازَ عَنْ سَائِرِ الْأَدْيَانِ بِإِبْطَالِ التَّقْلِيدِ ، وَبِالْمُطَالَبَةِ بِالْبُرْهَانِ وَالدَّلِيلِ ، وَعَلَّمَ النَّاسَ اسْتِقْلَالَ الْفِكْرِ ، مَعَ الْمُشَاوَرَةِ فِي الْأَمْرِ ، يُطَالِبُونَ الْمُسْلِمِينَ بِالرُّجُوعِ إِلَى الدَّلِيلِ ، وَيَعِيبُونَ عَلَيْهِمُ الْأَخْذَ بِقَالَ وَقِيلَ ، وَيَا لَيْتَهُ كَانَ الْأَخْذُ بِقَالَ اللهُ ، وَقِيلَ فِيمَا يُرْوَى عَنْ رَسُولِ اللهِ ، وَلَكِنَّهُ الْأَخْذُ بِقَالَ فُلَانٌ وَقِيلَ عَنْ عِلَّانٍ (إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ) (53 : 23) .

(161/63)

قَالَ – تَعَالَى – رَدًّا عَلَيْهِمْ : (بَلَى) وَهِيَ كَلِمَةٌ تُذْكَرُ فِي الْجَوَابِ لِإِثْبَاتِ نَفْيٍ سَابِقٍ ، فَهِيَ مُبْطِلَةٌ لِقَوْلِهِمْ : (لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ) . . . إِلَخْ ، أَيْ بَلَى إِنَّهُ يَدْخُلُهَا مَنْ لَمْ يَكُنْ هُودًا وَلَا نَصَارَى ؛ لِأَنَّ رَحْمَةَ اللهِ لَيْسَتْ خَاصَّةً بِشَعْبٍ دُونَ شَعْبٍ ، وَإِنَّمَا هِيَ مَبْذُولَةٌ لِكُلِّ مَنْ

يَطْلُبُهَا وَيَعْمَلُ لَهَا عَمَلَهَا ، وَهُوَ مَا بَيَّنَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِقَوْلِهِ : (مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ) . إِسْلَامُ الْوَجْهِ لِلَّهِ : هُوَ التَّوَجُّهُ إِلَيْهِ وَحْدَهُ وَتَخْصِيصُهُ

(162/63)

بِالْعِبَادَةِ دُونَ سِوَاهُ ، كَمَا أَشَارَ إِلَى ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ : (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ 1 : 5) وَغَيْرِهَا مِنَ الْآيَاتِ ، وَقَدْ عَبَّرَ هُنَا عَنْ إِسْلَامِ الْقَلْبِ وَصِحَّةِ الْقَصْدِ إِلَى الشَّيْءِ بِإِسْلَامِ الْوَجْهِ ، كَمَا عَبَّرَ عَنْهُ بِتَوْجِيهِ الْوَجْهِ فِي قَوْلِهِ – تَعَالَى – حِكَايَةً عَنْ إِبْرَاهِيمَ : (إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ) (6 : 79) لِأَنَّ قَاصِدَ الشَّيْءِ يُقْبِلُ عَلَيْهِ بِوَجْهِهِ لَا يُوَلِّيهِ دُبُرَهُ ، فَلَمَّا كَانَ تَوْجِيهُ الْوَجْهِ إِلَى شَيْءٍ لَهُ جِهَةٌ تَابِعًا لِقَصْدِهِ وَاشْتِغَالِ الْقَلْبِ بِهِ عَبَّرَ عَنْهُ بِهِ ، وَجَعَلَ التَّوَجُّهَ بِالْوَجْهِ إِلَى جِهَةٍ مَخْصُوصَةٍ (وَهِيَ الْقِبْلَةُ) بِأَمْرِ اللهِ مُذَكِّرًا بِإِقْبَالِ الْقَلْبِ عَلَى اللهِ الَّذِي لَا تُحَدِّدُهُ الْجِهَاتُ ، فَالْإِنْسَانُ يَتَضَرَّعُ وَيَسْجُدُ لِلَّهِ – تَعَالَى – بِوَجْهِهِ ، وَعَلَى الْوَجْهِ يَظْهَرُ أَثَرُ الْخُشُوعِ ، وَظَاهِرٌ أَنَّ الْمُرَادَ مِنْ إِسْلَامِ الْوَجْهِ لِلَّهِ تَوْحِيدُهُ بِالْعِبَادَةِ وَالْإِخْلَاصُ لَهُ فِي الْعَمَلِ ، بِأَلَّا يَجْعَلَ الْعَبْدُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ وُسَطَاءَ يُقَرِّبُونَهُ إِلَيْهِ زُلْفَى ؛ فَإِنَّهُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ، وَمِنْ هُنَا يُفْهَمُ مَعْنَى الْإِسْلَامِ الَّذِي يَكُونُ بِهِ الْمَرْءُ مُسْلِمًا .

(163/63)

ذَكَرَ التَّوْحِيدَ وَالْإِيْمَانَ الْخَالِصَ وَلَمْ يَحْمِلْ عَلَيْهِ الْوَعْدَ بِالْأَجْرِ عِنْدَ اللهِ – تَعَالَى – وَاسْتِحْقَاقَ الْكَرَامَةِ فِي دَارِ الْمُقَامَةِ إِلَّا بَعْدَ أَنْ قَيَّدَهُ بِإِحْسَانِ الْعَمَلِ ، فَقَالَ : (بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ) ، وَتِلْكَ سُنَّةُ الْقُرْآنِ تَقْرِنُ الْإِيْمَانَ بِعَمَلِ الصَّالِحَاتِ ، كَقَوْلِهِ : (لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا) (4 : 123 ، 124) وَهَذَا فِي مَعْنَى الْآيَاتِ الَّتِي نُفَسِّرُهَا ، نَفَى أَمَانِيَّ الْمُسْلِمِينَ كَمَا نَفَى أَمَانِيَّ أَهْلِ الْكِتَابِ ، وَجَعَلَ أَمْرَ سَعَادَةِ الْآخِرَةِ مَنُوطًا بِالْإِيْمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ مَعًا . وَكَقَوْلِهِ : (فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ) (21 : 94) الْآيَةَ .

ثُمَّ بَعْدَ أَنْ أَثْبَتَ لِلْمُسْلِمِ وَجْهَهُ إِلَى اللهِ وَالْمُحْسِنِ فِي عَمَلِهِ الْأَجْرَ عِنْدَ اللهِ ، نَفَى عَنْهُ الْخَوْفَ الَّذِي يُرْهِقُ الْكَافِرِينَ وَالْمُسِيئِينَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا وَفِي تِلْكَ الدَّارِ الْآخِرَةِ وَالْحُزْنَ الَّذِي يُصِيبُهُمْ فَقَالَ :

(وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) وَلَا شَكَّ أَنَّ الْمَخَاوِفَ وَالْأَحْزَانَ تُسَاوِرُ الَّذِينَ لَبَسُوا إِيْمَانَهُمْ بِظُلْمِ الْوَثَنِيَّةِ ، وَأَسَاءُوا أَعْمَالَهُمْ بِالْإِعْرَاضِ عَنِ الْهِدَايَةِ الدِّينِيَّةِ .

(164/63)

تَرَى أَصْحَابَ النَّزَغَاتِ الْوَثَنِيَّةِ فِي خَوْفٍ دَائِمٍ مِمَّا لَا يُخِيفُ ؛ لِأَنَّهُمْ يَعْتَقِدُونَ

(165/63)

بِثُبُوتِ السُّلْطَةِ الْغَيْبِيَّةِ الْقَاهِرَةِ لِكُلِّ مَا يَظْهَرُ لَهُمْ مِنْهُ عَمَلٌ لَا يَهْتَدُونَ إِلَى سَبَبِهِ وَلَا يَعْرِفُونَ تَأْوِيلَهُ ، يَسْتَخْذُونَ لِلدَّجَّالِينَ وَالْمُشَعْوِذِينَ ، وَيَرْتَعِدُونَ مِنْ حَوَادِثِ الطَّبِيعَةِ الْغَرِيبَةِ ، إِذَا لَاحَ لَهُمْ نَجْمٌ مُذَنَّبٌ تَخَيَّلُوا أَنَّهُ مُنْذِرٌ يُهَدِّدُهُمْ بِالْهَلَاكِ ، وَإِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيهِمْ مِنَ الْفَسَادِ تَوَهَّمُوا أَنَّهَا مِنْ تَصَرُّفِ بَعْضِ الْعِبَادِ ، وَتَرَاهُمْ فِي جَزَعٍ وَهَلَعٍ مِنْ حُدُوثِ الْحَوَادِثِ ، وَنُزُولِ الْكَوَارِثِ ، لَا يَصْبِرُونَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ ، وَلَا يُنْفِقُونَ فِي الرَّخَاءِ وَالسَّرَّاءِ (إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا إِلَّا الْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ) (70 : 19 – 23) هَذِهِ حَالُ مَنْ فَقَدَ التَّوْحِيدَ الْخَالِصَ وَحُرِمَ مِنَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا (وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ) (41 : 16) وَإِنَّمَا كَانَ صَاحِبُ النَّزَغَاتِ الْوَثَنِيَّةِ فِي خَوْفٍ مِمَّا يَسْتَقْبِلُهُ ،

وَحُزْنٍ مِمَّا يَنْزِلُ بِهِ ؛ لِأَنَّ مَا اخْتَرَعَهُ لَهُ وَهْمُهُ مِنَ السُّلْطَةِ الْغَيْبِيَّةِ لِغَيْرِ اللهِ الَّتِي يُحَكِّمُهَا فِي نَفْسِهِ ، وَيَجْعَلُهَا حِجَابًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَبِّهِ ، لَا يُمْكِنُهُ أَنْ يَعْتَمِدَ فِي الشَّدَائِدِ عَلَيْهَا ، وَلَا يَجِدُ عِنْدَهَا غَنَاءً إِذَا هُوَ لَجَأَ إِلَيْهَا ، وَمَا هُوَ مِنْ سُلْطَتِهَا عَلَى يَقِينٍ ، وَإِنَّمَا هُوَ مِنَ الظَّانِّينَ أَوِ الْوَاهِمِينَ .

(166/63)

وَأَمَّا ذُو التَّوْحِيدِ الْخَالِصِ فَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا فَاعِلَ إِلَّا اللهُ – تَعَالَى – ، وَأَنَّهُ مِنْ رَحْمَتِهِ قَدْ هَدَى الْإِنْسَانَ إِلَى السُّنَنِ الْحَكِيمَةِ الَّتِي يَجْرِي عَلَيْهَا فِي أَفْعَالِهِ ، فَإِذَا أَصَابَهُ مَا يَكْرَهُ ، بَحَثَ فِي سَبَبِهِ وَاجْتَهَدَ فِي تَلَافِيهِ مِنَ السُّنَّةِ الَّتِي سَنَّهَا اللهُ – تَعَالَى – لِذَلِكَ ، فَإِنْ كَانَ أَمْرًا لَا مَرَدَّ لَهُ ، سَلَّمَ أَمْرَهُ فِيهِ إِلَى الْفَاعِلِ الْحَكِيمِ ، فَلَا يَحَارُ وَلَا يَضْطَرِبُ ؛ لِأَنَّ سَنَدَهُ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ، وَالْقُوَّةَ الَّتِي يَلْجَأُ إِلَيْهَا كَبِيرَةٌ لَا يُعْجِزُهَا شَيْءٌ ، فَإِذَا نَزَلَ بِهِ سَبَبُ الْحُزْنِ أَوْ عَرَضَ لَهُ مُقْتَضَى الْخَوْفِ لَا يَكُونُ أَثَرُهُمَا إِلَّا كَمَا يُطِيفُ الْخَاطِرُ بِالْبَالِ ، وَلَا يَلْبَثُ أَنْ يَعْرِضَ لَهُ الزَّوَالُ (الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) (13 : 28) فَكَأَنَّهُ – تَعَالَى – يَقُولُ لِأَهْلِ الْكِتَابِ : لَا تَغُرَّنَّكُمُ الْأَمَانِيُّ وَلَا يَخْدَعَنَّكُمُ الِانْتِسَابُ الْبَاطِلُ إِلَى الْأَنْبِيَاءِ ، فَهَذِهِ هِيَ طَرِيقُ الْجَنَّةِ ، أَسْلِمُوا وُجُوهَكُمْ لِلَّهِ تَسْلَمُوا ، وَاعْمَلُوا الصَّالِحَاتِ تُؤْجَرُوا ، وَقَدْ أَفْرَدَ

الضَّمِيرَ فِي قَوْلِهِ : (فَلَهُ أَجْرُهُ) مُرَاعَاةً لِلَفْظِ (مَنْ) ، وَجَمَعَهُ فِي قَوْلِهِ : (وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ) .

. . إِلَخْ مُرَاعَاةً لِمَعْنَاهَا .

بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ تَزْكِيَةَ كُلِّ فَرِيقٍ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ نَفْسَهُ ، وَحُكْمَهُ بِحِرْمَانِ غَيْرِهِ

(167/63)

مِنْ رَحْمَةِ اللهِ كَيْفَمَا كَانَتْ حَالُهُ ذَكَرَ طَعْنَ كُلِّ فَرِيقٍ مِنْهُمَا بِالْآخَرِ خَاصَّةً فَقَالَ : (وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ) مِنَ الدِّينِ حَقِيقِيٍّ يُعْتَدُّ بِهِ ، فَالشَّيْءُ فِي اللُّغَةِ : هُوَ الْمَوْجُودُ الْمُتَحَقِّقُ ،

وَالِاعْتِقَادَاتُ الْخَيَالِيَّةُ الَّتِي لَا تَنْطَبِقُ عَلَى مَوْجُودٍ فِي الْخَارِجِ لَا تُسَمَّى شَيْئًا ، فَكَفَرُوا بِعِيسَى وَهُمْ يَتْلُونَ التَّوْرَاةَ الَّتِي تُبَشِّرُ بِهِ ، وَتَذْكُرُ مِنَ الْعَلَامَاتِ مَا يَنْطَبِقُ عَلَيْهِ ، وَلَا تَزَالُ الْيَهُودُ إِلَى الْيَوْمِ تَدَّعِي أَنَّ الْمَسِيحَ الْمُبَشَّرَ بِهِ فِي التَّوْرَاةِ لَمَّا يَأْتِ ، وَتَنْتَظِرُ ظُهُورَهُ وَإِعَادَتَهُ الْمُلْكَ إِلَى شَعْبِ إِسْرَائِيلَ (وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ) مِنَ الدِّينِ حَقِيقِيٍّ يُعْتَدُّ بِهِ لِإِنْكَارِهِمُ الْمَسِيحَ الْمُتَمِّمَ لِشَرِيعَتِهِمْ ، يَقُولُ كُلُّ فَرِيقٍ مِنْهُمْ مَا يَقُولُ (وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ) أَيْ يَتْلُو كُلٌّ مِنْهُمْ كِتَابَهُ ، فَكِتَابُ الْأَوَّلِينَ (التَّوْرَاةُ) يُبَشِّرُ بِرَسُولٍ مِنْهُمْ ظَهَرَ وَلَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ فَهُمْ مُخَالِفُونَ لِكِتَابِهِمْ ، وَكِتَابُ الْآخِرِينَ (الْإِنْجِيلُ) يَقُولُ بِلِسَانِ الْمَسِيحِ : إِنَّهُ جَاءَ مُتَمِّمًا

لِنَامُوسِ مُوسَى ، لَا نَاقِضًا لَهُ ، وَهُمْ قَدْ نَقَضُوهُ ، فَدِينُهُمْ وَاحِدٌ ، تَرَكَ بَعْضُهُمْ أَوَّلَهُ ، وَبَعْضُهُمْ آخِرَهُ فَلَمْ يُؤْمِنْ بِهِ كُلِّهِ أَحَدٌ مِنْهُمْ ، وَالْكِتَابُ الَّذِي يَقْرَءُونَ حُجَّةٌ عَلَيْهِمْ .

(168/63)

ثُمَّ قَالَ – تَعَالَى – : (كَذَلِكَ) أَيْ نَحْوَ ذَلِكَ السُّخْفِ وَالْجُزَافِ (قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) مِنْ مُشْرِكِي الْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْمِلَلِ (مِثْلَ قَوْلِهِمْ) ، تَعَصَّبَ كُلٌّ لِمِلَّتِهِ الَّتِي جَعَلَهَا جِنْسِيَّةً ، وَزَعَمَ أَنَّهَا هِيَ الْمُنْجِيَةُ لِكُلِّ مَنْ وُسِمَ بِهَا وَرَضِيَ بِاسْمِهَا وَلَقَبِهَا ، وَالْحَقُّ وَرَاءَ جَمِيعِ الْمَزَاعِمِ لَا يَتَقَيَّدُ بِأَسْمَاءٍ وَلَا أَلْقَابٍ ، وَإِنَّمَا هُوَ إِيمَانٌ خَالِصٌ وَعَمَلٌ صَالِحٌ ، وَلَوِ اهْتَدَى النَّاسُ إِلَى هَذَا لَمَا تَفَرَّقُوا فِي الدِّينِ وَاخْتَلَفُوا فِي أُصُولِهِ وَلَكِنَّهُمْ تَعَصَّبُوا وَتَحَزَّبُوا لِأَهْوَائِهِمْ ، فَتَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا فِي آرَائِهِمْ (فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) ، فَإِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ بِمَا عَلَيْهِ كُلُّ فَرِيقٍ مِنْ حَقٍّ وَبَاطِلٍ . وَلَمْ يُبَيِّنْ لَنَا – تَعَالَى – هُنَا بِمَاذَا يَحْكُمُ . وَقَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ : إِنَّهُ يُكَذِّبُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يُلْقِيهِمْ فِي النَّارِ ، وَلَكِنَّ الَّذِي يَدُلُّ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ أَنَّهُ يُحِقُّ الْحَقَّ وَيَجْعَلُ أَهْلَهُ فِي النَّعِيمِ ، وَيُبْطِلُ الْبَاطِلَ وَيُلْقِي بِأَهْلِهِ فِي الْجَحِيمِ .

هَذَا هُوَ مَعْنَى الْآيَةِ . وَيُرْوَى فِي سَبَبِ نُزُولِهَا أَنَّ يَهُودَ الْمَدِينَةِ تَمَارَوْا مَعَ وَفْدِ نَصَارَى نَجْرَانَ عِنْدَ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . فَقَالَ كُلُّ فَرِيقٍ مِنْهُمْ مَا قَالَ فِي إِنْكَارِ حَقِيقَةِ دِينِ

(169/63)

الْآخَرِ ، قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : إِنَّ فَهْمَ الْآيَةِ لَا يَتَوَقَّفُ عَلَى هَذِهِ الرِّوَايَةِ ، فَالْآيَةُ تَحْكِي لَنَا اعْتِقَادَ كُلِّ طَائِفَةٍ بِالْأُخْرَى سَوَاءٌ قَالَ ذَلِكَ مَنْ ذُكِرَ أَوْ لَمْ يَقُلْهُ . عَلَى أَنَّ مَا يُرْوَى فِي أَسْبَابِ النُّزُولِ مِنْ مِثْلِ ذَلِكَ هُوَ مِنْ تَارِيخِ الْآيَاتِ وَمَا فِيهَا مِنَ الْوَقَائِعِ ، وَمَا رُوِيَ فِي أَسْبَابِ النُّزُولِ عِنْدَنَا غَيْرُ كَافٍ فِي ذَلِكَ ، فَلَا بُدَّ لَنَا مِنَ الْبَحْثِ وَالِاطِّلَاعِ عَلَى تَارِيخِ الْمِلَلِ وَالْأُمَمِ الَّتِي تَكَلَّمَ عَنْهَا الْقُرْآنُ ؛ لِأَجْلِ أَنْ نَفْهَمَهُ تَمَامَ الْفَهْمِ وَنَعْرِفَ مَا يَحْكِيهِ عَنْهُمْ مِنَ الْعَقَائِدِ وَالشُّئُونِ وَالْأَعْمَالِ ، هَلْ كَانَ عَامًّا فِيهِمْ أَوْ كَانَ فِي طَائِفَةٍ مِنْهُمْ وَأُسْنِدَ إِلَى الْأُمَّةِ لِمَا نَبَّهَنَا عَلَيْهِ مِرَارًا مِنْ إِرَادَةِ تَكَافُلِهَا ، وَمُؤَاخَذَةِ الْجَمِيعِ بِمَا يَصْدُرُ عَنْ بَعْضِ الْأَفْرَادِ لِأَنَّهُمْ كُلِّفُوا إِزَالَةَ الْمُنْكَرِ وَالتَّنَاهِي عَنْهُ ؟

وَالْعِبْرَةُ فِي الْآيَةِ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ فِي تَضْلِيلِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا وَاعْتِقَادِ كُلِّ وَاحِدٍ فِي الْآخَرِ أَنَّهُ لَيْسَ عَلَى شَيْءٍ حَقِيقِيٍّ مِنْ أَمْرِ الدِّينِ ، مَعَ أَنَّ كِتَابَ الْيَهُودِ أَصْلٌ لِكِتَابِ النَّصَارَى ،

(170/63)

وَكِتَابَ النَّصَارَى مُتَمِّمٌ لِكِتَابِ الْيَهُودِ ، قَدْ صَارُوا إِلَى حَالٍ مِنَ التَّهَافُتِ وَاتِّبَاعِ الْأَهْوَاءِ لَا يُعْتَدُّ مَعَهَا بِقَوْلِ أَحَدٍ مِنْهُمْ فِي نَفْسِهِ وَلَا فِي غَيْرِهِ ، فَطَعْنُهُمْ فِي النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَإِعْرَاضُهُمْ عَنِ الْإِيمَانِ بِهِ لَا يَنْهَضُ حُجَّةً عَلَى كَوْنِهِمْ عَلِمُوا أَنَّهُ مُخَالِفٌ لِلْحَقِّ ، بَلْ لَا يَصْلُحُ شُبْهَةً عَلَى ذَلِكَ ؛ لِأَنَّهُمْ أَهْلُ أَهْوَاءٍ وَتَعَصُّبٍ لِلْمَذَاهِبِ الْمُبْتَدَعَةِ وَالْآرَاءِ . فَإِذَا كَانَتِ الْيَهُودُ كَفَرَتْ بِعِيسَى وَأَنْكَرَتْهُ – وَهُوَ مِنْهُمْ – وَهُمْ يَنْتَظِرُونَهُ لِإِعَادَةِ مَجْدِهِمْ وَتَجْدِيدِ عِزِّهِمْ ، وَإِذَا كَانَتِ النَّصَارَى قَدْ رَفَضَتِ التَّوْرَاةَ وَكَفَّرَتْ أَهْلَهَا – وَهِيَ حُجَّتُهُمْ عَلَى دِينِهِمْ – فَكَيْفَ يُعْتَدُّ بِكُفْرِ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ بِمُحَمَّدٍ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَهُوَ مِنْ شَعْبٍ غَيْرِ شَعْبِهِمْ ، وَقَدْ جَاءَ بِشَرِيعَةٍ نَاسِخَةٍ لِشَرَائِعِهِمْ ، وَهُمْ لَا يَفْهَمُونَ مِنَ الدِّينِ إِلَّا أَنَّهُ جِنْسِيَّةٌ دُنْيَوِيَّةٌ لَهُمْ ؟ ! .

(171/63)

وَفِي الْآيَةِ إِرْشَادٌ إِلَى بُطْلَانِ التَّقْلِيدِ ، مُؤَيِّدٌ لِمَا فِي الْآيَةِ الَّتِي تُطَالِبُ الْمُدَّعِيَ بِالْبُرْهَانِ ، وَإِلَى النَّعْيِ عَلَى الْمُقَلِّدِينَ الْمُتَعَصِّبِينَ لِآرَائِهِمْ ، الْمُتَّبِعِينَ لِأَهْوَائِهِمْ ، وَإِلَى التَّحَرِّي فِي الْحُكْمِ عَلَى الشَّيْءِ يَعْتَقِدُ الْحَاكِمُ بُطْلَانَهُ ؛ لِأَنَّهُ مُخَالِفٌ لِمَا يَعْتَقِدُهُ ، فَلَا يَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يَحْكُمَ عَلَى شَيْءٍ إِلَّا بَعْدَ الْبَحْثِ وَالتَّحَرِّي وَمَعْرِفَةِ مَكَانِ الْخَطَأِ وَالتَّزْيِيلِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا عَسَاهُ

يَكُونُ مَعَهُ صَوَابًا . أَلَمْ تَرَ أَنَّ سِيَاقَ الْآيَاتِ نَاطِقٌ بِإِنْكَارِ حُكْمِ كُلٍّ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ عَلَى الْآخَرِ مِنْ غَيْرِ بَيِّنَةٍ وَلَا بُرْهَانٍ وَلَا فَصْلٍ وَلَا فُرْقَانٍ ، مَعَ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الْحَقِّ وَشَيْءٍ مِنَ الْبَاطِلِ ؛ لِأَنَّ أَصْلَ دِينِهِ حَقٌّ ثُمَّ طَرَأَتْ عَلَيْهِ نَزَعَاتُ الْوَثَنِيَّةِ وَالْبِدَعُ ، وَعَرَضَ لَهُ التَّحْرِيفُ وَالتَّأْوِيلُ ، فَتَجْرِيدُهُ مِنْ كُلِّ حَقٍّ لَمْ يَكُنْ إِلَّا تَعَصُّبًا لِلتَّقَالِيدِ مِنْ غَيْرِ بَيِّنَةٍ وَلَا تَمْحِيصٍ ، وَأَنَّى لِلْمُقَلِّدِينَ بِذَلِكَ ؟ وَانْظُرْ كَيْفَ أَلْحَقَ التَّقْلِيدُ أَهْلَ الْكِتَابِ الَّذِينَ كَانُوا عَلَى عِلْمٍ بِالدِّينِ الْإِلَهِيِّ بِالْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِنْهُ شَيْئًا ؟ هَذَا مَا فَعَلَهُ التَّقْلِيدُ بِهِمْ ، وَبِمَنْ بَعْدَهُمْ ؛ لِأَنَّهُ عَدُوٌّ لِلْعِلْمِ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَكُلِّ مَكَانٍ . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ تفسير المنار حـ 1 صـ 349. 354 ﴾

(172/63)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ ﴾

نقول إن أصدق ما قاله اليهود والنصارى . . هو أن كل طائفة منهم اتهمت الأخرى بأنها

ليست على شيء . . فقال اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء . . والعجيب إن الطائفتين أهل كتاب . . اليهود أهل كتاب والنصارى أهل كتاب . . ومع ذلك كل منهما يتهم الآخر بأنه لا إيمان له وبذلك تساوى مع المشركين . الذين يقولون إن أهل الكتاب ليسوا على شيء . . أي أن المشركين يقولون اليهود ليسوا على شيء والنصارى ليسوا على شيء . . واليهود يقولون المشركون ليسوا على شيء والنصارى ليسوا على شيء . . ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : "كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم" . . وبذلك أصبح لدينا ثلاث طوائف يواجهون الدعوة الإسلامية . . طائفة لا تؤمن بمنهج سماوي ولا برسالة إلهية وهؤلاء هم المشركون . . وطائفتان لهم إيمان ورسل وكتب هم اليهود والنصارى . . ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى : "كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم" . . أي الذين لا يعلمون دينا ولا يعلمون إلها ولا يعلمون أي شيء عن منهج السماء . . اتحدوا في القول مع اليهود والنصارى وأصبح قولهم واحدا .

(173/63)

وكان المفروض أن يتميز أهل الكتاب الذين لهم صلة بالسماء وكتب نزلت من الله ورسل جاءتهم للهداية . . كان من المفروض أن يتميزوا على المشركين . . ولكن تساوى الذين

يعلمون والذين لا يعلمون . . وهذا معنى قوله تعالى : "كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم" . . ومادامت الطوائف الثلاث قالوا على بعضهم نفس القول . . يكون حجم الخلاف بينهم كبيرا وليس صغيرا . . لأن كل واحد منهم يتهم الآخر أنه لا دين له . هذا الخلاف الكبير من الذي يحكم فيه ؟ لا يحكم فيه إلا الله . . فهو الذي يعلم كل شيء . . وهو سبحانه القادر على أن يفصل بينهم بالحق . . ومتى يكون موعد هذا الفصل أو الحكم ؟ أهو في الدنيا ؟ لا . . فالدنيا دار اختيار وليست دار حساب ولا محاسبة ولا فصل في قضايا الإيمان . . ولذلك فإن الحكم بينهم يتم يوم القيامة وعلى مشهد من خلق الله جميعا . والحق سبحانه وتعالى يقول : " فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون" . . ومعنى الحكم هنا ليس هو بيان المخطئ من المصيب فالطوائف الثلاث مخطئة . . والطوائف الثلاث في إنكارها للإسلام قد خرجت عن إطار الإيمان . . ويأتي الحكم يوم القيامة ليبين ذلك ويواجه المخالفين بالعذاب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 536.535 ﴾

(174/63)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (113) ﴾

أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال " لما قدم أهل نجران من النصارى على رسول الله صلى الله عليه وسلم أتتهم أحبار اليهود ، فتنازعوا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رافع بن حريملة : ما أنتم على شيء وكفر بعيسى والإنجيل . فقال رجل من أهل نجران لليهود : ما أنتم على شيء وجحد نبوّة موسى وكفر بالتوراة ، فأنزل الله في ذلك ﴿ وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب ﴾ أي كل يتلو في كتابه تصديق من كفر به " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية في قوله ﴿ وقالت اليهود ليست النصارى على شيء . . . ﴾ الآية . قال : هؤلاء أهل الكتاب الذين كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة في قوله ﴿ وقالت اليهود ليست النصارى على شيء ﴾ قال : بلى قد كانت أوائل النصارى على شيء ولكنهم ابتدعوا وتفرقوا .

واخرج ابن جرير عن ابن جريج قال : قلت لعطاء : من هؤلاء الذين لا يعلمون ؟ قال : أمم كانت قبل اليهود والنصارى .

وأخرج ابن جرير عن السدي في قوله ﴿ كذلك قال الذين لا يعلمون ﴾ قال : هم العرب قالوا : ليس محمد صلى الله عليه وسلم على شيء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 1 صـ 263. 264 ﴾

(175/63)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

اليهودُ ملَّة معروفة ، والياء فيه أصلية لثبوتها في التَّصريف ، وليست من مادّة " هود " من قوله تعالى : ﴿ هُوداً أَوْ نصارى ﴾ [البقرة : 111] وقد تقدم أن الفراء رحمه الله يدعي أن " هُوداً " أصله : يَهُود ، فحذفه ياؤه ، وتقدم أيضاً عند قوله تعالى : ﴿ والذين هَادُواْ ﴾ [البقرة : 62] أن اليهود نسبة لـ " يهوذا بن يَعْقُوب " .

وقال الشَّلَوبِينُ : يهود فيها وجهان :

أحدهما : أن تكون جمع يَهُودِيّ ، فتكون نكرة مصروفةً .

والثاني : أن تكون عَلَماً لهذه القبيلة ، فتكون ممنوعةً من الصرف .

انتهى .

، وعلى الأول دخلت الألف واللام ، وعلى الثاني قوله : [الطويل]

742 أُولَئِكَ أَوْلَى مِنْ بِمِدْحَةٍ . . .

إِذَا أَنْتَ يَوْماً قُلْتَهَا لَمْ تُؤَنَّبِ

وقال آخر : [الكامل]

743 فَرّت يَهُودُ وَأَسْلَمَتْ جِيرَانُهَا . . . . . .

ولو قيل بأن " يهود " منقول من الفعل المُضَارع نحو : يزيد ويشكر الكان قَوْلاً حسناً .

ويؤيده قولهم : سمّوا يهوداً لاشتقاقهم من هَادَ يَهُودُ إذا تحرك .

قوله تعالى : " لَيْسَتِ النَّصَارَى " " ليس " فعل ناقص أبداً من أخوات " كان " ولا يتصرف ، ووزنه على " فَعِل " بكسر العين ، كان من حق فائه أن تكسر إذا أسند إلى تاء المتكلم ونحوها على الياء مثل : شئت ، إلا أنه لما لم ينصرف بقيت " الفاء " على حالها .

وقال بعضهم : " ليست " بضم الفاء ، ووزنه على هذه اللغة : فَعُل بضم العين ، ومجيء فَعُل بضمّ العين فيما عينه ياء نادر ، لم يجىء منه إلاَّ " هيؤ الرجل " ، إذا حسنت هيئته .

وكون " ليس " فعلاً هو الصحيح خلافاً للفارسي في أحد قوليه ، ومن تابعه في جعلها حرفاً كـ " ما " كما قيل ويدلّ على فعليتها اتصال ضمائر الرَّفْع البارزة بها ، ولها أحكام كثيرة ، و" النَّصَارى " اسمها ، و" عَلَى شَيْءٍ " خبرها ، وهذا يحتمل أن يكون مما حذفت فيه الصفة ، أي على شيء معتدّ به كقوله سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ [هود : 46] أي : أهلك الناجين ، وقوله : [الطويل]

744 . . . . . .

لَقَدْ وَقَعْتِ عَلَى لَحْمٍ

أي : لحم عظيم ، وأن يكون نفياً على سبيل المُبَالغة ، فإذا نفى إطلاق الشيء على ما هم عليه ، مع أن الشيء يُطْلق على المعدوم عند بعضهم كان ذلك مبالغة في عدم الاعتداد به ، وصار كقوله : " أقل من لا شيء " .

قوله تعالى : " وَهُمْ يَتْلُونَ " جملة حالية ، وأصل يتلون : يَتْلُوُونَ فأعلْ بحذف " اللاَّم " ، وهو ظاهر .

و" الكتاب " اسم جنس ، أي قالوا ذلك حال كونهم من أهل العلوم والتلاوة من كتب ، وحَقٌّ من حمل التوراة ، أو الإنجيل ، أو غيرهما من كتب الله ، وآمن به ألاَّ يكفر بالباقي ؛ لأن كل واحد من الكتابيين مصدق للثاني شاهد لصحته .

قوله : ﴿ كَذَلِكَ قَالَ الذين لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ في هذه الكاف قولان :

أحدهما : أنها في محلّ نصب ، وفيها حينئذ تقديران :

أحدهما : أنها نعت لمصدر محذوف قدم على عامله ، تقديره : قولاً مثل ذلك القول [الذي قال أي قال القول] الذين لا يعلمون .

[الثاني : أنها في محلّ نصب على الحال من المصدر المعرفة المضمر الدال عليه .

قال : تقديره : مثل ذلك القول قاله أي : قال القول الذين لا يعلمون] حال كونه مثل ذلك القول ، وهذا رأي سيبويه رحمه الله ، والأول رأي النُّحَاة ، كما تقدم غير مرة ، وعلى هذين القولين ففي نصب " مِثْلَ قَوْلِهم " وجهان :

أحدهما : أنه منصوب على البدل من موضع الكاف .

(177/63)

الثاني من الوجهين : أنه مفعول به العامل فيه " يَعْلَمُونَ " ، أي : الذين لا يعملون مثل مَقَالة اليهود ، والنَّصَارى قالوا مثل مقالتهم ، أي : أنهم قالوا ذلك على سبيل الاتّفاق ، وإن كانوا جاهلين بمقالة اليَهُود والنصارى .

الثاني من القولين : أنها في محلّ رفع بالابتداء ، والجملة بعدها خبر ، والعائد محذوف تقديره

: [مثل ذلك قاله الذين لا يعملون .

وانتصاب " مِثْلَ قَوْلِهِمْ " حينئذ إما على أنه نعت لمصدر محذوف ، أو مفعول بـ " يعلمون " تقديره] مثل قول اليهود والنصارى قال الذين لا يعملون اعتقاد اليهود والنصارى ، ولا يجوز أن ينتصب نصب المفعول يقال لأنه أخذ معفوله ، وهو العائد على المبتدأ ، ذكر ذلك أبو البقاء ، وفيه نظر من وجهين :

أحدهما : أن الجمهور يأبى جعل الكاف اسما .

والثاني : حذف العائد المنصوب ، [والنحاة] ينصُّون على منعه ، ويجعلون قوله : [السريع]

745 وَخَالِدٌ يَحْمَدُ سَادَاتُنا . . .

بِالْحَقِّ لاَ يَحْمَدُ بَالْبَاطِلِ

ضرورة .

قوله : ﴿ بَيْنَهُمْ يَوْمَ القيامة ﴾ منصوبان بـ " يحكم " ، و " فيه " متعلق بـ " يَخْتَلِفُونَ " . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 2 صـ 401 . 405 ﴾ . باختصار .

(178/63)

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (109) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (110) وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (111) بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (112) وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (113) ﴾

التفسير : هذا نوع آخر من مكايد اليهود .

روي أن فنحاص بن عازوراء وزيد بن قيس ونفراً من اليهود قالوا لحذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر بعد وقعة أحد : ألم تروا ما أصابكم ، ولو كنتم على الحق ما هزمتم

فارجعوا إلى ديننا فهو خير لكم وأفضل ونحن أهدى منكم سبيلاً . فقال عمار : كيف نقض العهد فيكم ؟ قالوا شديد . قال : فإني قد عاهدت أن لا أكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم ما عشت . فقالت اليهود : أما هذا فقد صبأ . وقال حذيفة : وأما أنا فقد رضيت بالله رباً وبمحمد نبياً وبالإسلام ديناً وبالقرآن إماماً وبالكعبة قبلة وبالمؤمنين إخواناً . ثم أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبراه فقال : أصبتما خيراً وأفلحتما فنزلت . و ﴿ كفاراً ﴾ نصب على الحال ، أو مفعول ثانٍ ل " يردون " على أنه بمعنى " صير " والحسد من أقبح الخصال الذميمة قال صلى الله عليه وسلم " الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب " وقال : " إن لنعم الله أعداء قيل : وما أولئك ؟ قال : الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله " وقال " ستة يدخلون النار قبل الحساب : الأمراء بالجور ، والعرب بالعصبية ، والدهاقين بالتكبر ، والتجار بالخيانة ، وأهل الرستاق بالجهالة ، والعلماء بالحسد " وروي أن موسى لما ذهب إلى ربه رأى في ظل العرش رجلاً يغتبط بمكانه فقال : إن هذا لكريم على ربه ، فسأل ربه أن يخبره باسمه فلم يخبره باسمه وقال : أحدثك من عمله ثلاثاً : كان لا يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله ، وكان لا يعق والديه ، ولا يمشي بالنميمة ، ويحكى أن عبد الله بن عون دخل على الفضل بن المهلب ، وكان يومئذ على واسط فقال : إني أريد أن أعظك بشيء : إياك والكبر فإنه أول ذنب عصى الله به إبليس ثم قرأ ﴿ فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر ﴾ [البقرة : 34] وإياك

والحرص فإنه أخرج آدم من الجنة ، أمكنه الله من جنة عرضها السموات والأرض فأكل منها فأخرجه الله ثم تلا ﴿ اهبطا منها ﴾ [

(180/63)

طه : 123] وإياك والحسد فإنه قتل ابن آدم أخاه حين حسده ثم قرأ

(181/63)

﴿ واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق ﴾ [المائدة : 27] وقال ابن الزبير : ما حسدت أحداً على شيء من أمر الدنيا ، لأنه إن كان من أهل الجنة فكيف أحسده على الدنيا وهي حقيرة في الجنة ، وإن كان من أهل النار فكيف أحسده على أمر الدنيا وهو يصير إلى النار ؟ واعلم أنه إذا أنعم الله على أخيك بنعمة فإن أردت زوالها فهذا هو الحسد المحرم الذي ذم الله تعالى صاحبه في هذه الآية وغيرها ﴿ أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ﴾ [النساء : 54] ﴿ إن تمسسكم حسنة تسؤهم ﴾ [آل عمران : 120] ﴿ ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ﴾ [يوسف : 8] وإن اشتهيت لنفسك مثلها

فهذا هو الغبطة والمنافسة المشتقة من النفاسة وليست بحرام لقوله تعالى ﴿ وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ﴾ [المطففين : 26] ﴿ سابقوا إلى مغفرة من ربكم ﴾ [الحديد : 21] وقال صلى الله عليه وسلم " لا حسد إلا في اثنتين : رجل آتاه الله مالاً وأنفقه في سبيل الله ، ورجل آتاه الله علماً فهو يعمل به ويعلم الناس " وهذا يدل على أن الحسد قد يطلق على المنافسة ، وقد تكون واجبة إذا كانت النعمة دينية واجبة كالإيمان والصلاة والزكاة ، وقد تكون مندوبة في نحو الإنفاق في سبيل الله وتشهي العلم والتعليم ، وقد تكون مباحة . وللحسد مراتب أربع : الأولى ، أن يحب زوال النعمة عنه وإن لم تحصل له وهذه أخبث . الثانية : أن يحب زوالها عنه إليه كرغبته في داره الحسنة أو امرأته أو ولايته فالمطلوب بالذات حصولها له ، فأما زوالها عن غيره فمطلوب بالعرض . الثالثة : أن لا يشتهي زوالها بل يشتهي لنفسه مثلها ، فإن عجز عن مثلها أحب زوالها كيلا يظهر التفاوت بينهما . الرابعة : ن يشتهي لنفسه مثلها فإن لم يحصل فلا يحب زوالها عنه . وهذا الأخير هو المعفو عنه إن كان في الدنيا ، والمندوب إليه إن كان في الدين ، والثالثة منها مذموم وغير مذموم ، والثانية أخف والأولى أخبث قال تعالى : ﴿ ولا تتمنوا ما فضل الله

به بعضكم على بعض ﴾ [النساء : 32] تمنيه لمثل ذلك غير مذموم وتمنيه لعين ذلك مذموم . وأسباب الحسد سبعة : أولها العداوة والبغضاء ، فإن من آذاه إنسان أبغضه قلبه وغضب عليه وتولد منه الحقد المنشئ للتشفي والانتقام ، فإن عجز المبغض عن أن يتشفى منه بنفسه أحب أن يتشفى منه الزمان كما قال عز من قائل ﴿ إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها ﴾ [آل عمران : 120] . وربما أفضى هذا الحسد إلى التنازع والتقاتل ، وثانيها التعزز فإن واحداً من أمثاله إذا نال منصباً عالياً فترفع عليه وهو لا يمكنه تحمل ذلك ، أراد زوال ذلك المنصب عنه . وليس من غرضه أن يتكبر بل غرضه أن يدفع كبره فإنه قد رضي بمساواته . وثالثها : أن يكون في طبعه أن يستخدم غيره فيريد زوال النعمة من ذلك الغير ليقدر على ذلك الغرض

﴿ وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ [الزخرف : 31] ﴿ أهؤلاء منَّ الله عليهم من بيننا ﴾ [الأنعام : 53] كالاستحقار لهم والأنفة منهم . ورابعها : التعجب ﴿ أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم ﴾ [الأعراف : 63] وخامسها : الخوف من فوت المقاصد وذلك يتحقق من المتزاحمين على مقصود واحد ،

كتحاسد الضرائر في التزاحم على مقاصد الزوجية ، وتحاسد الإخوة في التزاحم على نيل المنزلة عند الأبوين ، وتحاسد الوعاظ المتزاحمين على أهل بلدة . وسادسها : حب الرياسة كمن يريد أن يكون عديم النظير في فن من الفنون ، فإنه لو سمع بنظير له في أقصى العالم ساءه ذلك وأحب موته ، فإن الكمال محبوب لذاته وضد المحبوب مكروه . ومن جملة أنواع الكمال التفرد بالكمال لكن هذا يمتنع حصوله إلا لله تعالى ، ومن طمع في المحال خاب وخسر . وسابعها : شح النفس بالخير على عباد الله ، فإنك تجد من لا يشتغل برياسة ولا تكبر ولا طلب مال إذا وصف عنده حسن حال عبد من عباد الله شق عليه ذلك ، وإذا وصف اضطراب أمور الناس وإدبارهم فرح به ، فهو أبداً يحب الإدبار لغيره ويبخل بنعمة الله على عباده كأنهم يأخذون ذلك من ملكه وخزائنه ، وهذا ليس له سبب ظاهر سوى خبث النفس كما قيل : البخيل من بخل بمال غيره . وقد يجتمع بعض هذه الأسباب فيعظم الحسد ويتقوى بحسبه ، وقلما يقع التحاسد إلا في الأمور الدنيوية ، لأن الدنيا لا تفي بالمتزاحمين . وأما الآخرة فلا ضيق فيها فلهذا لا يكون تحاسد بين أرباب الدين وأصحاب اليقين ، وإنما يكونون بلقاء إخوانهم مستأنسين وببقاء أقرانهم فرحين ﴿ ونزعنا ما في صدورهم من غل إخواناً على سرر متقابلين ﴾ [الحجر : 47] وأما علاج الحسد فأمران : العلم والعمل . أما العلم ففيه مقامان : إجمالي وهو أن يعلم أن الكل بقضاء الله

وقدره ، وأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، لا يرده كراهية كاره ولا يجره إرادة مريد .

وتفصيلي

(184/63)

وهو العلم بأن الحسد قذى في عين الإيمان حيث كره حكم الله وقسمته في عباده وغش للإخوان ، وعذاب أليم ، وحزن مقيم ، ومورث للوسواس ، ومكدر للحواس . ولا ضرر على المحسود في دنياه لأن النعمة لا تزول عنه بحسدك ، ولا في دينه بل ينتفع به لأنه مظلوم من جهتك فيثيبه الله على ذلك . وقد ينتفع في دنياه أيضاً من جهة أنك عدوه ، ولا يزال يزيد غمومك وأحزانك إلى أن يقضي بك إلى الدنف والتلف .

اصبر على مضض الحسو . . . د فإن صبرك قاتله

النار تأكل نفسها . . . إن لم تجد ما تأكله

وقد يستدل بحسد الحاسد على كونه مخصوصاً من الله تعالى بمزيد الفضائل .

لا مات أعداؤك بل خلدوا . . . حتى يروا منك الذي يكمد

لا زلت محسوداً على نعمة . . . فإنما الكامل من يحسد

(185/63)

والحاسد مذموم بين الخلق ، ملعون عند الخالق ، مشكور عند إبليس وأصدقائه ، مدحور عند الخالق وأوليائه ، فهل هو إلا كمن رمى حجراً إلى عدو ليصيب به مقتله فلا يصيبه بل يرجع على حدقته اليمنى فيقلعها ، فيزداد غضبه فيعود ثانياً فيرميه أشد من الأول فيرجع على عينه الأخرى فيعميه فيزداد غيظه ، فيعود ثالثاً فيرجع على رأسه فيشدخه ، وعدوه سالم في كل الأحوال وقد عاد عليه الوبال وأعداؤه حواليه يفرحون ويضحكون ؟ هذا له في الدنيا ولعذاب الآخرة أشد وأبقى . وأما العمل فهو أن يأتي بالأفعال المضادة لمقتضيات الحسد ، فإن بعثه الحسد على القدح فيه كلف لسانه المدح له ، وإن حمله على التكبر عليه كلف نفسه التواضع له ، وإن حمله على قطع أسباب الخير سعى في إيصال الخير إليه حتى يصير المحسود محبوباً محباً له ، ﴿ فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ﴾ [فصلت : 34] ، وذلك التكلف يصير بالآخرة طبعاً والله الموفق . واعلم أن النفرة القائمة بقلب الحاسد من المحسود أمر غير داخل في وسعه ، فكيف يعاقب عليه ؟ وإنما الاخل تحت التكليف رضاه بتلك النفرة ثم إظهار آثارها من القدح فيه والقصد إلى إزالة النعمة عنه وجر أسباب المحنة إليه ، ثم إن اليهود كانوا يريدون رجوع المؤمنين عن الإيمان من بعد ما تبين لهم أن الإيمان صواب وحق ، فألقوا إليهم ضربين من الشبهة لعلمهم أن المحق لا يعدل عن الحق إلا بالشبهة أحدهما ما يتصل بالدنيا وهو قولهم لهم قد علمتم ما نزل بكم من

إخراجكم من دياركم وذهاب أموالكم واستمرار الخوف عليكم ، فاتركوا إيمانكم الذي ساقكم إلى هذه . الثاني في باب الدين بالقدح في المعجزات وتحريف التوراة .

(186/63)

قوله ﴿ من عند أنفسهم ﴾ إما أن يتعلق ب ﴿ ود ﴾ أي تمنوا ذلك من قبل شهوتهم لا من قبل التدين والميل مع الحق ، لأنهم ودوا ذلك من بعد ما تبين لهم أنكم على الحق ، وإما أن يتعلق ب ﴿ حسداً ﴾ أي منبعثاً من أصل نفوسهم ﴿ فاعفوا واصفحوا ﴾ فاسلكوا معهم سبيل العفو والصفح بترك المقابلة والإعراض عن الجواب ، لأن ذلك أقرب إلى تسكين الثائرة لا دائماً بل ﴿ حتى يأتي الله بأمره ﴾ عن الحسن أنه المجازاة يوم القيامة ، وقيل قوة الإسلام وكثرة المسلمين ، والأكثرون على أنه الأمر بالقتال فعنده يتعين إما الإسلام وإما قبول الجزية ، وتحمل الذل والصغار . والآية منسوخة لأن الآية التي علق بها غير معلومة شرعاً فليس كقوله ﴿ ثم أتموا الصيام إلى الليل ﴾ [البقرة : 187] بل يحل محل قوله ﴿ فاعفوا واصفحوا ﴾ إلى أن أنسخه عنكم . عن الباقر عليه السلام : إنه لم يؤمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتال حتى نزل جبريل بقوله ﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظُلموا ﴾ [الحج : 39] وقلده سيفاً فكان أول قتال قتال أصحاب عبد الله بن جحش ببطن نخل وبعده

غزوة بدر .

فإن قيل : كيف يعفون ويصفحون والكفار حينئذ أصحاب قوة وشوكة ، والصفح لا يكون إلا عن قدرة ؟

(187/63)

قلنا : إن الرجل من المسلمين كان ينال الأذى فيقدر على بعض التشفي والإستعانة بسائر أصحابه ، فأمروا أن لا يهيجوا قتالاً وفتنة . وأيضاً القليل منهم كان يقاوم الكثير من المشركين ﴿ إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ﴾ [الأنفال : 65] وأيضاً جعل الصابر إلى القوة قوياً ليظهره على الدين كله . وقيل : المراد بالعفو والصفح حسن الاستدعاء واستعمال ما يلزم فيهم من النصح والإشفاق وترك التشدد ، وعلى هذا لا تكون الآية منسوخة . وكذا لو قيل : المراد بأمر الله قتل بني قريظة وإجلاء بني النضير وإذلالهم بضرب الجزية عليهم ﴿ إن الله على كل شيء قدير ﴾ فهو يقدر على الانتقام منهم ﴿ وأقيموا الصلاة ﴾ تنبيه على أنه كما يلزمهم لحظ حال غيرهم بالعفو والصفح ، كذلك يلزمهم لحظ أنفسهم بأداء الواجبات من خير من حسنة صلوات أو صدقة فريضة أو تطوع ، فعمم بعد ما خص تنبيهاً على أن الثواب لا يختص بالواجبات بل بها وبغيرها من

الطاعات ، ولا بد من إضمار أي تحدوا ثوابه ، لأن وجدان عين تلك الأشياء غير مطلوب ﴿ إن الله بما تعملون بصير ﴾ لا يخفى عليه شيء من الأعمال وفيه ترغيب للمحسن وترهيب للمسيء ﴿ وقالوا لن يدخل الجنة ﴾ نوع آخر من تخليط أهل الكتاب اليهود والنصارى والضمير في ﴿ وقالوا ﴾ لهم والمعنى وقالت اليهود لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً وقالت النصارى لن يدخلها إلا من كان نصارى ، فضم بين القولين ثقة بأن السامع يرد إلى كل فريق ما قاله لما علم من تكفير كل واحد منهما صاحبه ومثله ﴿ وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا ﴾ [البقرة : 135] والهود جمع هائد كبازل وبزل وعائذ وعوذ ، والعائذ الحديثة النتاج من النوق ، والبازل الذي خرج نابه ، ووحد اسم "كان" حملاً على لفظ "من" وجمع خبره حملاً على المعنى ومثله ﴿ فلا أجره عند ربه ولا خوف عليهم ﴾ [البقرة : 112] ﴿ تلك أمانيهم ﴾ على حذف المضاف أي أمثال تلك الأمنية أمانيهم ، يريد أن

أمانيهم جميعاً في البطلان مثل هذه وهي قولهم ﴿ لن يدخل الجنة ﴾ أو أشير بتلك إلى أن ودادتهم أن لا ينزل على المؤمنين خير من ربهم أمنية ، وودادتهم أن يردوهم كفاراً أمنية ،

وقولهم ﴿ لن يدخل الجنة ﴾ أمنية أي تلك الأماني الباطلة أمانيهم ، وقوله ﴿ قل هاتوا برهانكم ﴾ متصل بقوله ﴿ لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى ﴾ و ﴿ تلك أمانيهم ﴾ اعتراض على هذا . وهات الشيء اسم فعل معناه أعط ، ويتصرف فيه بحسب المأمور هات ، هاتيا ، هاتوا ، هاتي ، هاتين ، وقيل : الصحيح أنه ليس باسم فعل وإنما الهاء فيه مبدلة من الهمزة ، وأصله آت من الإيتاء .

برهانكم حجتكم على اختصاصكم بدخول الجنة ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ في دعواكم ، وفيه دليل واضح على أن المدعي نفياً أو إثباتاً لا بد له من برهان وإلا فدعواه باطلة . من ادعى شيئاً بلا شاهد . . . لا بد أن تبطل دعواه

(189/63)

﴿ بلى ﴾ إثبات لما نفوه من دخول غيرهم الجنة ، وقوله ﴿ من أسلم ﴾ إلى آخره جملة شرطية مستأنفة ، ويجوز أن يكون ﴿ من أسلم ﴾ فاعلاً لفعل محذوف أي بلى يدخلها من أسلم ويكون قوله ﴿ فله أجره ﴾ كلاماً معطوفاً على يدخلها ﴿ من أسلم ﴾ وفيه إشارة إلى أن لهؤلاء الداخلين برهاناً وهو استسلام النفس وانقيادها لطاعة الله مع الإحسان وفيه ترغيب لهم في الإسلام وبيان لمفارقة حالهم حال من يدخل الجنة كأنه قيل

لهم : أنتم على ما أنتم عليه لا تفوزون بالجنة ، بلى إن غيرتم طريقتكم وأسلمتم وجهكم لله وأحسنتم فلكم الجنة وإنما خص الوجه بالذكر لأنه أشرف الأعضاء من حيث إنه معدن الحواس وينبوع الفكر والتخييل ، فإذا تواضع الأشرف كان غيره أولى ، ولأن الوجه قد يكنى به عن النفس والذات ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾ [القصص : 88] ﴿ إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ﴾ [الليل : 20] ولأن أعظم العبادات السجدة وهي إنما تحصل بالوجه . وهذا الإسلام أخص من الإسلام الذي ورد في الحديث " الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً " لأن هذا عبارة عن الإذعان الكلي بجميع القوى والجوارح في كل الأحوال والأوقات ، وهو الإسلام الذي أمر به إبراهيم عليه السلام ﴿ إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين ﴾ [البقرة : 131] ويؤكد ذلك قوله ﴿ لله ﴾ أي خالصاً له لا يشوبه شرك فلا يكون عابداً مع الله غيره ولا معلقاً رجاءه بغيره ، وزاد التأكيد بقوله ﴿ وهو محسن ﴾ أي حال كونه محسناً في عمله ، ومعنى الإحسان هو الذي في الحديث " الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك " ولا ريب أن العبادة على هذا الوجه لا تصدر إلا عن صدق النية وصفاء الطوية ، فإن مثول العبد بين يدي مولاه يشغله عن الالتفات إلى ما سواه ، فلا يقع قصده فيما هو فيه إلا لوجه الله فلا يصدر عنه شيء

من السيئات ، وأما الطاعات والمباحات فتكون مقتضية لتزايد الحسنات ورفع الدرجات في الخبر " من تطيب لله جاء يوم القيامة وريحه أطيب من ريح المسك ، ومن تطيب لغير الله جاء يوم القيامة وريحه أنتن من الجيفة " وذلك أن المتطيب إن كان قصده التنعم واستيفاء اللذات أو التودد إلى النسوان كان المتطيب معصية ، وإن كان قصده إقامة السنة ودفع الروائح المؤذية عن عباد الله وتعظيم المسجد فهو عين الطاعة ، وكذا الكلام في المناكح والمطاعم والمشارب .

والضابط أن كل ما فعلته لداعي الحق فهو العمل الحق ، وكل ما عملته لغير الله فحلالها حساب وحرامها عذاب ، روي أن رجلاً في بني إسرائيل مر بكثبان من رمل في مجاعة فقال في نفسه : لو كان هذا الرمل طعاماً لقسمته بين الناس . فأوحى الله تعالى إلى نبيه قل له : إن الله قد صدقك وشكر حسن نيتك وأعطاك ثواب ما لو كان طعاماً فتصدقت به . وليس النية أن يقول في نفسه أو بلسانه عند تدريسه أو تجارته " نويت أن أدرس لله أو أتجر لله " هيهات أنها لحديث نفس أو لسان وما ذاك إلا كقول الفارغ " نويت أن أعشق " وأما النية

فهي انبعاث النفس وميلها إلى سلوك طريق الحق في كل فعل ، فاجتهد في تصيير ذلك ملكة لنفسك .

(191/63)

" وللناس فميا يعشقون مذاهب " . . . فمنهم من يعمل لباعث الخوف من النار فله ذلك ، ومنهم من يعمل لباعث الطمع في الجنة وهم أكثر أهل الجنة لقصور هممهم عن طموح ما فوقها من الكمالات واللذات الحقيقيات أكثر أهل الجنة البله " ومنهم من يعمل لله فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، ولما جمع الله تعالى أهل الكتابين في الآية المتقدمة ، فصل بينهما وبين قول كل فريق في حق الآخر ، والظاهر حمل لفظي اليهود والنصارى على العموم وإن كان السبب خاصاً لأن هذا اعتقاد كل واحد من كل من الطائفتين في حق الأخرى . روي أن وفد نجران لما قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاهم أحبار اليهود فتناظروا حتى ارتفعت أصواتهم فقالت اليهود : ما أنتم على شيء من الدين وكفروا بعيسى والإنجيل . وقالت النصارى لهم نحوه ، وكفروا بموسى والتوراة . ومعنى ﴿ على شيء ﴾ أي شيء يصح ويعتد به ، وفيه مبالغة عظيمة كقول العرب " أقل من لا شيء " عن ابن عباس : والله صدقوا . قلت : وذلك أن الإيمان بالله إنما يعتد به إذا كان

مؤمناً برسوله وبكل ما أنزله ﴿ وهم يتلون الكتاب ﴾ الواو للحال والكتاب للجنس أي قالوا ذلك وحالهم أنهم من أهل العلم والتلاوة للكتب ، وحق من حمل التوراة والإنجيل وغيرهما من كتب الله أن يؤمن بالباقي ولا يكفر به ، لأن جميع الكتب السماوية متواردة في تصديق بعضها بعضاً ﴿ كذلك ﴾ الكاف للتشبيه و ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى المذكور أي قولاً مثل الذي سمعت به ﴿ قال الذين لا يعلمون ﴾ و ﴿ مثل قولهم ﴾ مكرر للتأكيد ولطول الكلام بالموصول والصلة . والمراد بالذين لا يعلمون الجهلة الذين لا علم عندهم ولا كتاب كعبدة الأصنام القائلين إن المسلمين ليسوا على شيء وفيه توبيخ عظيم لهم حيث نظموا أنفسهم مع علمهم في سلك من لا يعلم فقالوا قولاً عن التشهي والعصبية مثلهم ﴿ فالله يحكم بينهم ﴾ أي بين اليهود والنصارى يوم القيامة . عن الحسن : يكذبهم جميعاً

(192/63)

ويدخلهم النار ويجوز أن يرجع الضمير إلى الكافرين الذين يعلمون والذين لا يعلمون وإلى المسلمين ، ويحكم بين المحق والمبطل فيما اختلفوا فيه ، فينتصر من الظالم المكذب للمظلوم المكذب ، أو يريهم من يدخل الجنة عياناً ويدخل النار عياناً أعاذنا الله تعالى منها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 1 صـ 363 . 369 ﴾

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : ﴿ واتبعوا ما تتلوا الشياطين ﴾ النفوس ﴿ على ملك سليمان ﴾ الروح الذي هو خليفة الله في أرضه ﴿ وما كفر سليمان ﴾ الروح ﴿ ولكن الشياطين ﴾ النفس والهوى ﴿ كفروا يعلمون الناس السحر ﴾ من تخييلات الهواجس وتمويهات الوساوس ﴿ وما أنزل على الملكين ﴾ فتنة وخذلاناً من العلوم الضارة غير النافعة كشبهات الفلاسفة والمبتدعة على ملكي الروح والقلب ﴿ ببابل ﴾ الجسد ﴿ هاروت ﴾ الروح ﴿ وماروت ﴾ القلب فإنهما من العالم العلوي الروحاني أهبطا إلى الأرض العالم الجسماني بالخلافة لإقامة الحق وإزهاق الباطل فافتتنا بزهرة الحياة الدنيا واتبعا خداعها فوقعا في شبكة الشهوة التي تركت فيها ابتلاء وامتحاناً ، وشربا خمر الحرص والغفلة التي تخامر العقل ، وزنيا ببغي الدنيا الدنية ، وعبدا صنم الهوى فعذبا منكسين برؤوسهما بالالتفات إلى السفليات وإعراضهما عن العلويات ، فحرما استماع خطاب الحق وكشف حقائق العلوم النافعة الموجبة للجمعية ، ومع هذا من خصوصية الملائكة الروحانية ما يعلمان أحداً من

الصفات البهيمية والسبعية والشيطانية . والقوى البشرية حتى يلهماها ﴿ إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء ﴾ القلب ﴿ وزوجه ﴾ دينه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 1 صـ 352. 353 ﴾

(194/63)

قوله تعالى ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (114) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما اشتركت جميع هذه الفرق في الظلم وزاد الجهلة منع حزب الله من عمارة المسجد الحرام بما يرضيه من القول والفعل فازدادوا بذلك ظلما آخر وكان من منع مسجداً واحداً لكونه مسجداً مانعاً لجميع المساجد قال : ﴿ ومن أظلم ﴾ أي منهم ، وإنما أبدل الضمير بقوله : ﴿ ممن منع مساجد الله ﴾ أي " الجامع لصفات الكمال التي هي جنان الدنيا لكونها أسباب الجنة التي قصروها عليهم ، ثم أبدل من ذلك تفخيماً له تذكرة مرة بعد أخرى " قوله

: ﴿ أن يذكر فيها اسمه ﴾ وعطف بقوله : ﴿ وسعى في خرابها ﴾ أي بتعطيلها عن ذكر الله لبعد وجوه ظلمهم زيادة في تبكيتهم .

والمنع الكف عما يترامى إليه .

والمسجد مفعل لموضع السجود وهو أخفض محط القائم .

والسعي الإسراع في الأمر حساً أو معنى .

والخراب ذهاب العمارة ، والعمارة إحياء المكان وإشغاله بما وضع له – قاله الحرالي .

ثم ذكر سبحانه ما رتبه على فعلهم من الخوف في المسجد الذي أخافوا فيه أولياءه وفي جميع جنسه والخزي في الدنيا والآخرة ضد ما رتبه لمن أحسن فقال : ﴿ أولئك ﴾ أي البعداء البغضاء ﴿ ما كان لهم ﴾ أي ما صح وما انبغى ﴿ أن يدخلوها ﴾ أي المساجد الموصوفة ﴿ إلا خائفين ﴾ وما كان أمنهم فيها إلا بسبب كثرة المساعد على ما ارتكبوه من الظلم والتمالؤ على الباطل وسنزيل ذلك ، ثم عمم الحكم بما يندرج فيه هذا الخوف فقال : ﴿ لهم في الدنيا خزي ﴾ أي عظيم بذلك وبغيره ، ثم زاده بأن عطف عليه قوله : ﴿ ولهم في الآخرة ﴾ التي هم لها منكرون بالاعتقاد أو الأفعال ﴿ عذاب عظيم ﴾ فدل بوصف العذاب على وصف الخزي الذي أشار إليه بالتنوين .

قال الحرالي : وفيه إنباء بإحباط ما يصرف عنهم وجهاً من وجوه العذاب ، فنالهم من العذاب العظيم ما نال الكافرين حتى كان ما كان لهم من ملة وكتاب لم يكن ، وذلك أسوأ الخسار ؛ قال : ومن الموعود أن من أعلام قيام الساعة تضييع المساجد لذلك كل أمة وكل طائفة وكل شخص معين تطرق بجُرم في مسجد يكون فعله سبباً لخلائه فإن الله عز وجل يعاقبه بروعة ومخافة تناله في الدنيا ، حتى ينتظم بذلك من خرب مدينة من مدن الإسلام أو كانت أعماله سبب خرابها ، وفي ضمن ذلك ما كان من أحداث المسلطين على البيت المقدس بما جرّت إليه أعمال يهود فيه ؛ قال : كذلك أجرى الله سنته أن من لم يقم حرمة مساجده شرده منها وأحوجه لدخولها تحت رقبة وذمة من أعدائه ، كما قد شهدت مشاهدة بصائر أهل التبصرة وخصوصاً في الأرض المقدسة المتناوب فيها دول الغلب بين هذه الأمة وأهل الكتاب ﴿ الم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين ﴾ [الروم : 1-3] فكل طائفة في بضعها إذا ساء عملها في مسجدها شردت منه ودخلته في بضع الأخرى خائفة كذلك حتى تكون العاقبة للمتقين حين يفرح المؤمنون بنصر الله ، قال : وفي إشعاره تحذير من غلق المساجد وإيصادها وحجرها على القاصدين للتحنث فيها والخلوة بذكر الله ، وليس رفع المساجد منعها بل رفعها أن لا يذكر فيها غير اسم الله ، قال تعالى : ﴿ في بيوت أذن الله أن ترفع ﴾ [النور : 36] قال عمر

رضي الله عنه لما بنى الرحبة : من أراد أن يلغط أو يتحدث أو ينشد شعراً فليخرج إلى هذه الرحبة ، وقال صلى الله عليه وسلم : " جنبوا مساجدكم صبيانكم ومجانينكم وسلّ سيوفكم وبيعكم وشراءكم ، وابنوا على أبوابها المطاهر " ففي حل ذلك إنباء بأن من عمل في مساجد الله بغير ما وضعت له من ذكر الله كان ساعياً في خرابها وناله الخوف في محل الأمن - انتهى . انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 224. 225 ﴾

(196/63)

وقال الفخر :

في كيفية اتصال هذه الآية بما قبلها وجوه :

فأما من حملها على النصارى وخراب بيت المقدس قال : تتصل بما قبلها من حيث أن النصارى ادعوا أنهم من أهل الجنة فقط ، فقيل لهم : كيف تكونون كذلك مع أن معاملتكم في تخريب المساجد والسعي في خرابها هكذا ، وأما من حمله على المسجد الحرام وسائر المساجد قال : جرى ذكر مشركي العرب في قوله : ﴿ كذلك قَالَ الذين لاَ يَعْلَمُونَ مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ﴾ [البقرة : 113] وقيل : جرى ذكر جميع الكفار وذمهم ، فمرة وجه الذم إلى

اليهود والنصارى ومرة إلى المشركين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 4 صـ 10 ﴾

(197/63)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ قالوا اتخذ الله ﴾ بلا واو العطف : ابن عامر اتباعاً لمصاحف أهل الشام ﴿ كن فيكون ﴾ بالنصب كل القرآن : ابن عامر إلا قوله ﴿ كن فيكون الحق ﴾ في آل عمران ، و ﴿ كن فيكون قوله الحق ﴾ في الأنعام . وافقه الكسائي في النحل ويس .

الوقوف : ﴿ خرابها ﴾ (ط) للفصل بين الاستفهام والخبر ﴿ خائفين ﴾ ط لأن ما بعده إخبار وعيد مبتدأ منتظر ﴿ عظيم ﴾ (5) ﴿ وجه الله ﴾ (ط) ﴿ عليم ﴾ (5) ﴿ وإذا ﴾ (لا) تعجيلاً للتنزيه ﴿ سبحانه ﴾ (ط) ﴿ والأرض ﴾ (ط) لأن ما بعده مبتدأ ﴿ قانتون ﴾ (5) ﴿ والأرض ﴾ (ط) لأن إذا أجيبت بالفاء وكانت للشرط ﴿ فيكون ﴾ (5) ﴿ آية ﴾ (ط) ﴿ قلوبهم ﴾ (ط) لأن قد لتوكيد

الاستئناف ﴿ يوقنون ﴾ (5) . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 1 صـ 370 ﴾

(198/63)

فصل

قال الفخر :

اجمع المفسرون على أنه ليس المراد من هذه الآية مجرد بيان الشرط والجزاء ، أعني مجرد بيان أن من فعل كذا فإن الله يفعل به كذا بل المراد منه بيان أن منهم من منع عمارة المساجد وسعى في خرابها ، ثم أن الله تعالى جازاهم بما ذكر في الآية إلا أنهم اختلفوا في أن الذين منعوا من عمارة المسجد وسعوا في خرابه من هم ؟ وذكروا فيه أربعة أوجه .

أولها : قال ابن عباس : أن ملك النصارى غزا بيت المقدس فخربه وألقى فيه الجيف وحاصر أهله وقتلهم وسبى البقية وأحرق التوراة ، ولم يزل بيت المقدس خراباً حتى بناه أهل الإسلام في زمن عمر .

وثانيها : قال الحسن وقتادة والسدي : نزلت في بختنصر حيث خرب بيت المقدس وبعض النصارى أعانه على ذلك بغضاً لليهود .

قال أبو بكر الرازي في أحكام القرآن : هذان الوجهان غلطان لأنه لا خلاف بين أهل العلم بالسير أن عهد بختنصر كان قبل مولد المسيح عليه السلام بدهر طويل والنصارى كانوا بعد المسيح فكيف يكونون مع بختنصر في تخريب بيت المقدس وأيضاً فإن النصارى يعتقدون في تعظيم بيت المقدس مثل اعتقاد اليهود وأكثر ، فكيف أعانوا على تخريبه .

(199/63)

وثالثها : أنها نزلت في مشركي العرب الذين منعوا الرسول عليه الصلاة والسلام عن الدعاء إلى الله بمكة وألجؤه إلى الهجرة ، فصاروا مانعين له ولأصحابه أن يذكروا الله في المسجد الحرام ، وقد كان الصديق رضي الله عنه بنى مسجداً عند داره فمنع وكان ممن يؤذيه ولدان قريش ونساؤهم ، وقيل : إن قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا ﴾ [الإسراء : 110] نزلت في ذلك فمنع من الجهر لئلا يؤذى ، وطرح أبو جهل العذرة على ظهر لنبي صلى الله عليه وسلم فقيل : ومن أظلم من هؤلاء المشركين الذين يمنعون المسلمين الذين يوحدون الله ولا يشركون به شيئاً ويصلون له تذللاً وخشوعاً ، ويشغلون قلوبهم بالفكر فيه ، وألسنتهم بالذكر له ، وجميع جسدهم بالتذلل لعظمته وسلطانه .

(200/63)

ورابعها : قال أبو مسلم : المراد منه الذين صدوه عن المسجد الحرام حين ذهب إليه من المدينة عام الحديبية ، واستشهد بقوله تعالى : ﴿ هُمُ الذين كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عِندَ المسجد الحرام ﴾ [الفتح : 25] وبقوله : ﴿ وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ الله وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ المسجد الحرام ﴾ [الأنفال : 34] وحمل قوله : ﴿ إِلاَّ خَآئِفِينَ ﴾ بما يعلي الله من يده ، ويظهر من كلمته ، كما قال في المنافقين : ﴿ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لاَ يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلاَّ قَلِيلاً مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُواْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلاً ﴾ [الأحزاب : 60 61] وعندي فيه وجه خامس وهو أقرب إلى رعاية النظم : وهو أن يقال : أنه لما حولت القبلة إلى الكعبة شق ذلك على اليهود فكانوا يمنعون الناس عن الصلاة عند توجههم إلى الكعبة ، ولعلهم سعوا أيضاً في تخريب الكعبة بأن حملوا بعض الكفار على تخريبها ، وسعوا أيضاً في تخريب مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم لئلا يصلوا فيه متوجهين إلى القبلة ، فعابهم الله بذلك وبين سوء طريقتهم فيه ، وهذا التأويل أولى مما قبله ، وذلك لأن الله تعالى لم يذكر في الآيات السابقة على هذه الآية إلا قبائح أفعال اليهود والنصارى ، وذكر أيضاً بعدها قبائح أفعالهم فكيف يليق بهذه الآية الواحدة أن يكون المراد منها قبائح أفعال المشركين في صدهم الرسول عن المسجد الحرام ، وأما حمل الآية على سعي النصارى في تخريب بيت المقدس فضعيف أيضاً على ما شرحه

أبو بكر الرازي ، فلم يبق إلا ما قلناه . انتهى انتهى . اهـ ﴾ مفاتيح الغيب حـ 4 صـ 9 .

10 ﴾

(201/63)

وقال الآلوسى :

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مساجد الله ﴾ نزلت في طيطوس بن إسيانوس الرومي وأصحابه وذلك أنهم غزوا بني إسرائيل فقتلوا مقاتليهم وسبوا ذراريهم وحرقوا التوراة وخربوا بيت المقدس وقذفوا فيه الجيف وذبحوا فيه الخنازير وبقي خراباً إلى أن بناه المسلمون في أيام عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه ، وروى عطاء عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنها نزلت في مشركي العرب منعوا المسلمين من ذكر الله تعالى في المسجد الحرام ، وعلى الأول : تكون الآية معطوفة على قوله تعالى : ﴿ وَقَالَتِ النصارى ﴾ [البقرة : 113] عطف قصة على قصة تقريراً لقبائحهم ، وعلى الثاني : تكون اعتراضاً بأكثر من جملة بين المعطوف أعني ﴿ قَالُواْ اتخذ ﴾ [البقرة : 116] والمعطوف عليه أعني ﴿ قَالَتْ اليهود ﴾ [البقرة : 113] لبيان حال المشركين الذين جرى ذكرهم بياناً لكمال شناعة أهل الكتاب فإن المشركين الذين يضاهونهم إذا كانوا أظلم الكفرة ، وظاهر الآية العموم في

كل مانع وفي كل مسجد وخصوص السبب لا يمنعه ، و ﴿ أَظْلَمَ ﴾ أفعل تفضيل خبر عن (من) ولا يراد بالاستفهام حقيقته وإنما هو بمعنى النفي فيؤول إلى الخبر أي لا أحد أظلم من ذلك واستشكل بأن هذا التركيب قد تقرر في القرآن ك ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بآيات رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا ﴾ [السجدة : 22] ﴿ فمن أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى عَلَى الله كَذِباً ﴾ [الأنعام : 144] ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بآيات الله ﴾ [الأنعام : 157] إلى غير ذلك فإذا كان المعنى على هذا لزم التناقض ، وأجيب بالتخصيص إما بما يفهم من نفس الصلات أو بالنسبة إلى من جاء بعد من ذلك النوع ويؤول معناه إلى السبق في المانعية أو الافترائية مثلاً ، واعترض بأن ذلك بعد عن مدلول الكلام ووضعه العربي وعجمة في اللسان يتبعها استعجام المعنى ، فالأولى أن يجاب بأن ذلك لا يدل على نفي التسوية في الأظلمية وقصارى ما

يفهم من الآيات أظلمية أولئك المذكورين فيها ممن عداهم كما أنك إذا قلت لا أحد أفقه من زيد وعمرو وخالد لا يدل على أكثر من نفي أن يكون أحد أفقه منهم ، وإما أنه يدل على أن أحدهم أفقه من الآخر فلا ، ولا يرد أن من منع مساجد الله مثلاً ولا يفتر على الله كذباً أقل

ظلماً ممن جمع بينهما فلا يكون مساوياً في الأظلمية لأن هذه الآيات إنما هي في الكفار وهم متساوون فيها إذ الكفر شيء واحد لا يمكن فيه الزيادة بالنسبة لأفراد من اتصف به وإنما تمكن بالنسبة لهم ولعصاة المؤمنين بجامع ما اشتركوا فيه من المخالفة قاله أبو حيان ، ولا يخفى ما فيه .

وقد قال غير واحد إن قولك : من أظلم ممن فعل كذا إنكار لأن يكون أحد أظلم منه أو مساوياً له وإن لم يكن سبك التركيب متعرضاً لإنكار المساواة ونفيها إلا أن العرف الفاشي والاستعمال المطرد يشهد له فإنه إذا قيل من أكرم من فلان أو لا أفضل من فلان فالمراد به حتماً أنه أكرم من كل كريم وأفضل من كل فاضل فلعل الأولى الرجوع إلى أحد الجوابين مع ملاحظة الحيثية وإن جعلت ذلك الكلام مخرجاً مخرج المبالغة في التهديد والزجر مع قطع النظر عن نفي المساواة أو الزيادة في نفس الأمر كما قيل به محكماً العرف أيضاً زال الإشكال وارتفع القيل والقال فتدبر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 363 ﴾

وقال ابن عاشور :

والآية نازلة في مشركي العرب كما في رواية عطاء عن ابن عباس وهو الذي يقتضيه قوله : ﴿ أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين ﴾ الآية كما سيأتي وهي تشير إلى منع أهل مكة النبيء صلى الله عليه وسلم والمسلمين من الدخول لمكة كما جاء في حديث سعد بن معاذ حين دخل مكة خفية وقال له أبو جهل : ألا أراك تطوف بالبيت آمناً وقد أويتم

الصباء ، وتكرر ذلك في عام الحديبية .

وقيل نزلت في بختنصر ملك أشور وغزوه بيت المقدس ثلاث غزوات أولاها في سنة 606 قبل المسيح زمن الملك يهوياقيم ملك اليهود سبى فيها جمعاً من شعب إسرائيل .

(203/63)

والثانية بعد ثمان سنين سبى فيها رؤساء المملكة والملك يهواكين بن يهوياقيم ونهب المسجد المقدس من جميع نفائسه وكنوزه .

والثالثة بعد عشر سنين في زمن الملك صدقيا فأسر الملك وسمل عينيه وأحرق المسجد الأقصى وجميع المدينة وسبى جميع بني إسرائيل وانقرضت بذلك مملكة يهوذا وذلك سنة 578 قبل المسيح وتسمى هذه الواقعة بالسبي الثالث فهو في كل ذلك قد منع مسجد بيت المقدس من أن يذكر فيه اسم الله وتسبب في خرابه .

وقيل : نزلت في غزو طيطس الروماني لأورشليم سنة 79 قبل المسيح فخرب بيت المقدس وأحرق التوراة وترك بيت المقدس خراباً إلى أن بناه المسلمون بعد فتح البلاد الشامية .

وعلى هاتين الروايتين الأخيرتين لا تظهر مناسبة لذكرها عقب ما تقدم فلا ينبغي بناء

التفسير عليهما .

والوجه هو التعويل على الرواية الأولى وهي المأثورة عن ابن عباس فالمناسبة أنه بعد أن وفي أهل الكتاب حقهم من فضح نواياهم في دين الإسلام وأهله وبيان أن تلك شنشنة متأصلة فيهم مع كل من جاءهم بما يخالف هواهم وكان قد أشار إلى أن المشركين شابهوهم في ذلك عند قوله : ﴿ ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم ﴾ [البقرة : 105] عطف الكلام إلى بيان ما تفرع عن عدم ودادة المشركين نزول القرآن فبين أن ظلمهم في ذلك لم يبلغه أحد ممن قبلهم إذ منعوا مساجد الله وسدوا طريق الهدى وحالوا بين الناس وبين زيارة المسجد الحرام الذي هو فخرهم وسبب مكانتهم وليس هذا شأن طالب صلاح الخلق بل هذا شأن الحاسد المغتاظ .

والاستفهام بمن إنكاري ولما كان أصل مَنْ أنها نكرة موصوفة أشربت معنى الاستفهام وكان الاستفهام الإنكاري في معنى النفي صار الكلام من وقوع النكرة في سياق النفي فلذلك فسروه بمعنى لا أحد أظلم .

والظلم الاعتداء على حق الغير بالتصرف فيه بما لا يرضى به ويطلق على وضع الشيء في غير ما يستحق أن يوضع فيه والمعنيان صالحان هنا .

وإنما كانوا أظلم الناس لأنهم أتوا بظلم عجيب فقد ظلموا المسلمين من المسجد الحرام وهم أحق الناس به وظلموا أنفسهم بسوء السمعة بين الأمم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 1 صـ 660. 661 ﴾

فصل

قال الفخر :

قوله : ﴿ مساجد الله ﴾ عموم فمنهم من قال : المراد به كل المساجد ، ومنهم من حمله على ما ذكرناه من المسجد الحرام وغيره من مساجد مكة ، وقالوا : قد كان لأبي بكر رضي الله عنه مسجد بمكة يدعو الله فيه ، فخربوه قبل الهجرة ، ومنهم من حمله على المسجد الحرام فقط وهو قول أبي مسلم حيث فسر المنع بصد الرسول عن المسجد الحرام عام الحديبية ، فإن قيل : كيف يجوز حمل لفظ المساجد على مسجد واحد ؟ قلنا : فيه وجوه .

أحدها : هذا كمن يقول لمن آذى صالحاً واحداً : ومن أظلم ممن آذى الصالحين .

وثانيها : أن المسجد موضع السجود فالمسجد الحرام لا يكون في الحقيقة مسجداً واحداً بل مساجد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 4 صـ 10 ﴾

فائدة

قال ابن عاشور :

وجُمِعَ المساجدُ وإن كان المشركون منعوا الكعبة فقط إما للتعظيم فإن الجمع يجيء للتعظيم كقوله تعالى : ﴿ وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم ﴾ [الفرقان : 37] ، وإما لما فيه من أماكن العبادة وهي البيت والمسجد الحرام ومقام إبراهيم والحطيم ، وإما لما يتصل به أيضاً من الخيف ومنى والمشعر الحرام وكلها مساجد والإضافة على هذه الوجوه على معنى لام التعريف العهدي ، وإما لقصد دخول جميع مساجد الله لأنه جمع تعرف بالإضافة ووقع في سياق منع الذي هو في معنى النفي ليشمل الوعيد كل مخرب لمسجد أو مانع من العبادة بتعطيله عن إقامة العبادات ويدخل المشركون في ذلك دخولاً أولياً على حكم ورود العام على سبب خاص والإضافة على هذا الوجه على معنى لام الاستغراق ولعل ضمير الجمع المنصوب في قوله : ﴿ أن يدخلوها ﴾ يؤيد أن المراد من المساجد مساجد معلومة لأن هذا الوعيد لا يتعدى لكل من منع مسجداً إذ هو عقاب دنيوي لا يلزم اطراده في أمثال المعاقب .

والمراد من المنع منعُ العبادة في أوقاتها الخاصة بها كالطواف والجَماعة إذا قصد بالمنع حرمان فريق من المتأهلين لها منها .

وليس منه غلق المساجد في غير أوقات الجماعة لأن صلاة الفذ لا تفضل في المسجد على غيره ، وكذلك غلقها من دخول الصبيان والمسافرين للنوم ، وقد سئل ابن عرفة في درس التفسير عن هذا فقال : غلق باب المسجد في غير أوقات الصلاة حفظ وصيانة أ هـ .

وكذلك منع غير المتأهل لدخوله وقد منع رسول الله المشركين الطواف والحج ومنع مالك الكافر من دخول المسجد ومعلوم منعُ الجُنب والحائض . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 1 صـ 626 ﴾

فائدة

قال الفخر :

قوله : ﴿ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسمه ﴾ في محل النصب واختلفوا في العامل فيه على أقوال .

الأول : أنه ثاني مفعولي منع لأنك تقول : منعته كذا ، ومثله : ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بالأيات ﴾ [الإسراء : 59] ﴿ وَمَا مَنَعَ الناس أَن يُؤْمِنُواْ ﴾ [الإسراء : 94] .

الثاني : قال الأخفش : يجوز أن يكون على حذف (من) كأنه قيل : منع مساجد الله من أن يذكر فيها اسمه .

الثالث : أن يكون على البدل من مساجد الله .

الرابع : قال الزجاج : يجوز أن يكون على معنى كراهة أن يذكر فيها اسمه ، والعامل فيه (منع) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 4 صـ 10 ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسمه ﴾ مفعول ثان لمنع أو مفعول من أجله بمعنى منعها كراهية أن يذكر أو بدل اشتمال من (مساجد) والمفعول الثاني إذن مقدر أي عمارتها أو العبادة فيها أو نحوه أو الناس مساجد الله تعالى أو لا تقدير ؛ والفعل متعدّ لواحد وكنى بذكر اسم الله تعالى عما يوقع في المساجد من الصلوات والتقربات إلى الله تعالى بالأفعال القلبية والقالبية المأذون بفعلها فيها .

﴿ وسعى فِى خَرَابِهَا ﴾ أي هدمها وتعطيلها ، وقال الواحدي : إنه عطف تفسير لأن عمارتها بالعبادة فيها ﴿ أولئك ﴾ الظالمون المانعون الساعون في خرابها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 363 . 364 ﴾

فائدة

قال الفخر :

السعي في تخريب المسجد قد يكون لوجهين .

أحدهما : منع المصلين والمتعبدين والمتعهدين له من دخوله فيكون ذلك تخريباً .

والثاني : بالهدم والتخريب وليس لأحد أن يقول : كيف يصح أن يتأول على بيت الله الحرام ولم يظهر فيه التخريب لأن منع الناس من إقامة شعار العبادة فيه يكون تخريباً له ، وقيل : إن أبا بكر رضي الله عنه كان له موضع صلاة فخربته قريش لما هاجر . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 4 صـ 10 ﴾

(207/63)

وقال الشوكانى :

والمراد بالسعي في خرابها : هو السعي في هدمها ، ورفع بنيانها ، ويجوز أن يراد بالخراب تعطيلها عن الطاعات التي وضعت لها ، فيكون أعم من قوله : ﴿ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسمه ﴾ فيشمل جميع ما يمنع من الأمور التي بنيت لها المساجد ، كتعلم العلم وتعليمه ، والقعود للاعتكاف ، وانتظار الصلاة ، ويجوز أن يراد ما هو أعم من الأمرين من باب عموم المجاز ، كما قيل في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مساجد الله ﴾ [التوبة : 18] . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ فتح القدير حـ 1 صـ 131 ﴾

قال ابن عاشور :

والسعي أصله المشي ثم صار مجازاً مشهوراً في التسبب المقصود كالحقيقة العرفية نحو ﴿ ثم أدبر يسعى ﴾ [النازعات : 22] ويعدى بفي الدالة على التعليل نحو : سعيت في حاجتك فالمنع هنا حقيقة على الرواية الأولى المتقدمة في سبب النزول والسعي مجاز في التسبب غير المقصود فهو مجاز على مجاز .

وأما على الروايتين الأخريين فالمنع مجاز والسعي حقيقة لأن بختنصر وطيطس لم يمنعا أحداً من الذكر ولكنهما تسببا في الخراب بالأمر بالتخريب فأفضى ذلك إلى المنع وآل إليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 1 صـ 626 ﴾

فائدة

قال الفخر :

ظاهر الآية يقتضي أن هذا الفعل أعظم أنواع الظلم وفيه إشكال لأن الشرك ظلم على ما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان : 13] مع أن الشرك أعظم من هذا الفعل ، وكذا الزنا وقتل النفس أعظم من هذا الفعل ، والجواب عنه : أقصى ما في الباب أنه عام

دخله التخصيص فلا يقدح فيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 4 صـ 10 ﴾

قوله تعالى ﴿ أُوْلَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَائِفِينَ ﴾

فصل

قال الفخر :

ظاهر الكلام أن الذين آمنوا وسعوا في تخريب المسجد هم الذين يحرم عليهم دخوله إلا خائفين ، وأما من يجعله عاماً في الكل فذكروا في تفسير هذا الخوف وجوهاً .

أحدها : ما كان ينبغي لهم أن يدخلوا مساجد الله إلا خائفين على حال الهيبة وارتعاد الفرائص من المؤمنين أن يبطشوا بهم فضلاً أن يستولوا عليهم ويمنعوا المؤمنين منها ، والمعنى ما كان الحق والواجب إلا ذلك لولا ظلم الكفرة وعتوهم .

(209/63)

وثانيها : أن هذا بشارة من الله للمسلمين بأنه سيظهرهم على المسجد الحرام وعلى سائر المساجد ، وأنه يذل المشركين لهم حتى لا يدخل المسجد الحرام واحد منهم إلا خائفاً يخاف أن يؤخذ فيعاقب ، أو يقتل أن لم يسلم ، وقد أنجز الله صدق هذا الوعد فمنعهم من دخول المسجد الحرام ، ونادى فيهم عام حج أبو بكر رضي الله عنه : ألا لا يحجن بعد العام

مشرك ، وأمر النبي عليه الصلاة والسلام بإخراج اليهود من جزيرة العرب ، فحج من العام الثاني ظاهراً على المساجد لا يجترىء أحد من المشركين أن يحج ويدخل المسجد الحرام ، وهذا هو تفسير أبي مسلم في حمل المنع من المساجد على صدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المسجد الحرام عام الحديبية ويحمل هذا الخوف على ظهور أمر الرسول صلى الله عليه وسلم وغلبته لهم بحيث يصيرون خائفين منه ومن أمته .

وثالثها : أن يحمل هذا الخوف على ما يلحقهم من الصغار والذل بالجزية والإذلال .

ورابعها : أنه يحرم عليهم دخول المسجد الحرام إلا في أمر يتضمن الخوف نحو أن يدخلوا للمخاصمة والمحاكمة والمحاجة ، لأن كل ذلك يتضمن الخوف والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَاجِدَ الله شاهدين على أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ ﴾ [التوبة : 17] .

وخامسها : قال قتادة والسدي : قوله : ﴿ إِلاَّ خَائِفِينَ ﴾ بمعنى أن النصارى لا يدخلون بيت المقدس إلا خائفين ، ولا يوجد فيه نصراني إلا أوجع ضرباً وهذا التأويل مردود ، لأن بيت المقدس بقي أكثر من مائة سنة في أيدي النصارى بحيث لم يتمكن أحد من المسلمين من الدخول فيه إلا خائفاً ، إلى أن استخلصه الملك صلاح الدين رحمه الله في زماننا .

(210/63)

وسادسها : أن قوله : ﴿ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَائِفِينَ ﴾ وإن كان لفظه لفظ الخبر لكن المراد منه النهي عن تمكينهم من الدخول ، والتخلية بينهم وبينه كقوله : ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ الله ﴾ [الأحزاب : 53] .

أما قوله تعالى : ﴿ لَهُمْ فِى الدنيا خِزْىٌ ﴾ فقد اختلفوا في الخزي ، فقال بعضهم : ما يلحقهم من الذل بمنعهم من المساجد ، وقال آخرون بالجزية في حق أهل الذمة وبالقتل في حق أهل الحرب ، واعلم أن كل ذلك محتمل فإن الخزي لا يكون إلا ما يجري مجرى العقوبة من الهوان والإذلال فكل ما هذه صفته يدخل تحته وذلك ردع من الله تعالى عن ثباتهم على الكفر لأن الخزي الحاضر يصرف عن التمسك بما يوجبه ويقتضيه ، وأما العذاب العظيم فقد وصفه الله تعالى بما جرى مجرى النهاية في المبالغة ، لأن الذين قدم ذكرهم وصفهم بأعظم الظلم ، فبين أنهم يستحقون العقاب العظيم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 4 صـ 11 ﴾

قال الآلوسى :

﴿ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَائِفِينَ ﴾ اللام في ﴿ لَهُمْ ﴾ إما للاختصاص على وجه اللياقة كما في الجل للفرس ، والمراد من الخوف الخوف من الله تعالى ، وإما للاستحقاق كما في الجنة للمؤمن والمراد من الخوف الخوف من المؤمنين ، وإما لمجرد الارتباط بالحصول ، أي : ما كان لهم في علم الله تعالى وقضائه أن يدخلوها فيما سيجىء إلا خائفين والجملة على

الأول : مستأنفة جواب لسؤال نشأ من قوله تعالى : ﴿ وسعى فِى خَرَابِهَا ﴾ كأنه قيل : فما اللائق بهم ؟ والمراد من الظلم حينئذٍ وضع الشيء في غير موضعه .

(211/63)

وعلى الثاني : جواب سؤال ناشىء من قوله سبحانه : ﴿ مِنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ ﴾ كأنه قيل : فما كان حقهم ؟ والمراد من الظلم التصرف في حق الغير وعلى الثالث : اعتراض بين كلامين متصلين معنى ، وفيه وعد المؤمنين بالنصرة وتخليص المساجد عن الكفار وللاهتمام بذلك وسطه وقد أنجز الله تعالى وعده والحمد لله ؛ فقد روي أنه لا يدخل بيت المقدس أحد من النصارى إلا متنكراً مسارقة ، وقال قتادة : لا يوجد نصراني في بيت المقدس إلا انتهك ضرباً ، وأبلغ إليه في العقوبة ، ولا نقض باستيلاء الأقرع ، وبقاء بيت المقدس في أيدي النصارى أكثر من مائة سنة إلى أن استخلصه الملك صلاح الدين لأن الإنجاز يستدعي تحقيقه في وقت ما ، ولا دلالة فيه على التكرار ، وقيل : النفي بمعنى النهي ومعناه على طريق الكناية النهي عن التخلية والتمكين من دخولهم المساجد ، وذلك يستلزم أن لا يدخلوها إلا خائفين من المؤمنين ، فذكر اللازم وأريد الملزوم ، ولا يخفى أن النهي عن التخلية والتمكين المذكور في وقت قوة الكفار ومنعهم المساجد لا فائدة فيه

سوى الإشعار بوعد المؤمنين بالنصرة والاستخلاص منهم ، فالحمل عليه من أول الأمر أولى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 364 ﴾

(212/63)

وقال البضاوى :

﴿ أولئك ﴾ أي المانعون ﴿ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَائِفِينَ ﴾ ما كان ينبغي لهم أن يدخلوها إلا بخشية وخشوع فضلاً عن أن يجترئوا على تخريبها ، أو ما كان الحق أن يدخلوها إلا خائفين من المؤمنين أن يبطشوا بهم ، فضلاً عن أن يمنعوهم منها ، أو ما كان لهم في علم الله وقضائه ، فيكون وعداً للمؤمنين بالنصرة واستخلاص المساجد منهم وقد نجز وعده . وقيل : معناه النهي عن تمكينهم من الدخول في المسجد ، واختلف الأئمة فيه فجوز أبو حنيفة ومنع مالك ، وفرق الشافعي بين المسجد الحرام وغيره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 1 صـ 386 . 387 ﴾

(213/63)

وقال ابن عاشور :

وقوله : ﴿ أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين ﴾ جملة مستأنفة تغني عن سؤال ناشىء عن قوله : ﴿ من أظلم ﴾ أو عن قوله : ﴿ سعى ﴾ لأن السامع إذا علم أن فاعل هذا أظلم الناس أو سمع هذه الجرأة وهي السعي في الخراب تطلب بيان جزاء من اتصف بذلك أو فعل هذا .

ويجوز كونها اعتراضاً بين ﴿ من أظلم ﴾ وقوله : ﴿ لهم في الدنيا خزي ﴾ .

والإشارة بأولئك بعد إجراء الأوصاف الثلاثة عليهم للتنبيه على أنهم استُحضروا بتلك الأوصاف لِيُخْبَر عنهم بعد تلك الإشارة بخبرهم جديرون بمضمونه على حد ما تقدم في ﴿ أولئك على هدى من ربهم ﴾ [البقرة : 5] وهذا يدل على أن المقصود من هذه الجمل ليس هو بيان جزاء فعلهم أو التحذير منه بل المقصود بيان هاته الحالة العجيبة من أحوال المشركين بعد بيان عجائب أهل الكتاب ثم يرتب العقاب على ذلك حتى تعلم جدارتهم به وقد ذكر لهم عقوبتين دنيوية وهي الخوف والخزي وأخروية وهي العذاب العظيم .

ومعنى ﴿ ما كان لهم أن يدخلوها إلا خافين ﴾ أنهم لا يكون لهم بعد هذه الفَعلة أن يدخلوا تلك المساجد التي منعوها إلا وهم خائفون فإن ما كان إذا وقع أن والمضارع في خبرها تدل على نفي المستقبل وإن كان لفظ (كان) لفظ الماضي وأن هذه هي التي تستتر

عند مجيء اللام نحو ﴿ ما كان الله ليعذبهم ﴾ فلا إشعار لهذه الجملة بمضى .

واللام في قوله : ﴿ لهم ﴾ للاستحقاق أي ما كان يحق لهم الدخول في حالة إلا في حالة الخوف فهم حقيقيون بها وأحرياء في علم الله تعالى وهذا وعيد بأنهم قدر الله عليهم أن ترفع أيديهم من التصرف في المسجد الحرام وشعائر الله هناك وتصير للمسلمين فيكونوا بعد ذلك لا يدخلون المسجد الحرام إلا خائفين ، ووعد للمؤمنين وقد صدق الله وعده فكانوا يوم فتح مكة خائفين وجلين حتى نادى منادي النبيء صلى الله عليه وسلم " من دخل المسجد الحرام فهو آمن " فدخله الكثير منهم مذعورين أن يؤخذوا بالسيف قبل دخولهم .

(214/63)

وعلى تفسير ﴿ مساجد الله ﴾ بالعموم يكون قوله : ﴿ ما كان لهم أن يدخلوها ﴾ أي منعوا مساجد الله في حال أنهم كان ينبغي لهم أن يدخلوها خاشعين من الله فيفسر الخوف بالخشعية من الله فلذلك كانوا ظالمين بوضع الجبروت في موضع الخضوع فاللام على هذا في قوله ﴿ ما كان لهم ﴾ للاختصاص وهذا الوجه وإن فرضه كثير من المفسرين إلا أن مكان اسم الإشارة المؤذن بأن ما بعده ترتب عما قبله ينافيه لأن هذا الابتغاء متقرر وسابق على المنع والسعي في الخراب .

وقوله : ﴿ لهم في الدنيا خزي ﴾ استئناف ثان ولم يعطف على ما قبله ليكون مقصوداً الاستئناف اهتماماً به لأن المعطوف لكونه تابعاً لا يهتم به السامعون كمال الاهتمام ولأنه يجري من الاستئناف الذي قبله مجرى البيان من المبين فإن الخزي خوف والخزي الذل والهوان وذلك ما نال صناديد المشركين يوم بدر من القتل الشنيع والأسر ، وما نالهم يوم فتح مكة من خزي الانهزام .

وقوله : ﴿ ولهم في الآخرة عذاب عظيم ﴾ عطفت على ما قبلها لأنها تتميم لها إذ المقصود من مجموعهما أن لهم عذابين عذاباً في الدنيا وعذاباً في الآخرة .

وعندي أن نزول هذه الآية مؤذن بالاحتجاج على المشركين من سبب انصراف النبيء عن استقبال الكعبة بعد هجرته فإن منعهم المسلمين من المسجد الحرام أشد من استقبال غير الكعبة في الصلاة على حد قوله تعالى : ﴿ يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله ﴾ [البقرة : 217] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 1 صـ 362 . 364 ﴾

فصل في أحكام المساجد

قال الفخر :

في أحكام المساجد وفيه وجوه .

الأول : في بيان فضل المساجد ويدل عليه القرآن والأخبار والمعقول ، أما القرآن فآيات ، أحدها : قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ المساجد لِلَّهِ فَلاَ تَدْعُواْ مَعَ اللهِ أَحَداً ﴾ [الجن : 18] .

(215/63)

أضاف المساجد إلى ذاته بلام الاختصاص ثم أكد ذلك الاختصاص بقوله : ﴿ فَلاَ تَدْعُواْ مَعَ اللهِ أَحَداً ﴾ .

وثانيها : قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مساجد الله مَنْ ءَامَنَ بالله واليوم الآخر ﴾ [التوبة : 18] فجعل عمارة المسجد دليلاً على الإيمان ، بل الآية تدل بظاهرها على حصر الإيمان فيهم ، لأن كلمة إنما للحصر .

وثالثها : قوله تعالى : ﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ الله أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسمه يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بالغدو والأصال ﴾ [النور : 36] .

ورابعها : هذه الآية التي نحن في تفسيرها وهي قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مساجد الله أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسمه ﴾ فإن ظاهرها يقتضي أن يكون الساعي في تخريب المساجد أسوأ حالاً من المشرك لأن قوله : ﴿ ومن أظلم ﴾ يتناول المشرك لأنه تعالى قال : ﴿ إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان : 13] فإذا كان الساعي في تخريبه في أعظم درجات الفسق

وجب أن يكون الساعي في عمارته في أعظم درجات الإيمان .

وأما الأخبار ، فأحدها : ما روى الشيخان في صحيحيهما أن عثمان بن عفان رضي الله عنه أراد بناء المسجد فكره الناس ذلك وأحبوا أن يدعه ، فقال عثمان رضي الله عنه : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول " من بنى لله مسجداً بنى الله له كهيئته في الجنة " .

وفي رواية أخرى : " بنى الله له بيتاً في الجنة" .

وثانيها : ما روى أبو هريرة أنه عليه الصلاة والسلام قال : " أحب البلاد إلى الله تعالى مساجدها وأبغض البلاد إلى الله أسواقها "

(216/63)

واعلم أن هذا الخبر تنبيه على ما هو السر العقلي في تعظيم المساجد وبيانه أن الأمكنة والأزمنة إنما تتشرف بذكر الله تعالى ، فإذا كان المسجد مكاناً لذكر الله تعالى حتى أن الغافل عن ذكر الله إذا دخل المسجد اشتغل بذكر الله والسوق على الضد من ذلك ، لأنه موضع البيع والشراء والإقبال على الدنيا وذلك مما يورث الغفلة عن الله ، والإعراض عن التفكر في سبيل الله ، حتى أن ذاكر الله إذا دخل السوق فإنه يصير غافلاً عن ذكر الله لا جرم كانت المساجد أشرف المواضع والأسواق أخس المواضع .

الثاني : في فضل المشي إلى المساجد (أ) عن أبي هريرة قال : قال عليه الصلاة والسلام : " من تطهر في بيته ثم مشى إلى بيت من بيوت الله ليقضي فريضة من فرائض الله كانت خطواته إحداها تحط خطيئته والأخرى ترفع درجته " رواه مسلم .

(ب) أبو هريرة قال : قال عليه الصلاة والسلام : " من غدا أو راح إلى المسجد أعد الله له في الجنة منزلاً كلما غدا أو راح " أخرجاه في الصحيح .

(ج) أبي بن كعب قال : كان رجل ما أعلم أحداً من أهل المدينة ممن يصلى إلى القبلة أبعد منزلاً منه من المسجد وكان لا تخطئه الصلوات مع الرسول عليه السلام ، فقيل له : لو اشتريت حماراً لتركبه في الرمضاء والظلماء ، فقال : والله ما أحب أن منزلي بلزق المسجد ، فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فسأله فقال : يا رسول الله كيما يكتب أثري وخطاي ورجوعي إلى أهلي وإقبالي وإدباري ، فقال عليه الصلاة والسلام " لك ما احتسبت أجمع " أخرجه مسلم .

(د) جابر قال : خلت البقاع حول المسجد فأراد بنو سلمة أن ينتقلوا إلى قرب المسجد فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لهم : " أنه بلغني أنكم تريدون أن تنتقلوا إلى قرب المسجد ، فقالوا : نعم قد أردنا ذلك قال يا بني سلمة دياركم تكتب آثاركم " رواه مسلم .

وعن أبي سعيد الخدري أن هذه الآية نزلت في حقهم : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الموتى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَارَهُمْ ﴾ [يس : 12] .

(ه) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن أعظم الناس أجراً في الصلاة أبعدهم إلى المسجد مشياً والذي ينتظر الصلاة حتى يصليها مع الإمام في جماعة أعظم أجراً ممن يصليها ثم ينام " أخرجاه في الصحيح .

(و) عقبة بن عامر الجهني أنه عليه السلام قال : " إذا تطهر الرجل ثم مر إلى المسجد يرعى الصلاة كتب له كاتبه أو كاتباه بكل خطوة يخطوها إلى المسجد عشر حسنات والقاعد الذي يرعى الصلاة كالقانت ويكتب من المصلين من حين يخرج من بيته حتى يرجع " .

(ز) عن سعيد بن المسيب قال : حضر رجلاً من الأنصار الموت فقال لأهله : من في البيت ، فقالوا : أهلك ، وأما أخوتك وجلساؤك ففي المسجد ، فقال : ارفعوني فأسنده رجل منهم إليه ففتح عينيه وسلم على القوم فردوا عليه وقالوا له : خيراً .

فقال : إني مورثكم اليوم حديثاً ما حدثت به أحداً منذ سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم احتساباً وما أحدثكموه اليوم إلا احتساباً ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " من توضأ في بيته فأحسن الوضوء ثم خرج إلى المسجد يصلي في جماعة المسلمين لم يرفع رجله اليمنى إلا كتب الله له بها حسنة ولم يضع رجله اليسرى إلا حط الله

عنه بها خطيئة حتى يأتي المسجد ، فإذا صلى بصلاة الإمام انصرف وقد غفر له ، فإن هو أدرك بعضها وفاته بعض كان كذلك " .

(ح) عن أبي هريرة أنه عليه السلام قال : " من توضأ فأحسن وضوءه ثم راح فوجد الناس قد صلوا أعطاه الله مثل أجر من صلاها وحضرها ولم ينقص ذلك من أجرهم شيئاً " .

(ط) أبو هريرة قال عليه السلام : " ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات ، قالوا : بلى يا رسول الله .

(218/63)

قال : إسباغ الوضوء على المكاره وكثرة الخطا إلى المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الربا ط فذلكم الربا ط " رواه أبو مسلم .

(ي) قال أبو سلمة بن عبد الرحمن لداود بن صالح : هل تدري فيم نزلت : ﴿ يا أيها الذين ءَامَنُواْ اصبروا وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ ﴾ [آل عمران : 200] قال : قلت لا يا ابن أخي ، قال : سمعت أبا هريرة يقول لم يكن في زمان النبي صلى الله عليه وسلم غزو يرابط فيه ولكن انتظار الصلاة بعد الصلاة .

(يا) بريدة قال عليه السلام : " بشر المشائين في الظلم إلى المسجد بالنور التام يوم القيامة "

قال النخعي كانوا يرون المشي إلى المسجد في الليلة المظلمة موجبة .

(يب) قال الأوزاعي : كان يقال خمس كان عليها أصحاب محمد عليه السلام والتابعون بإحسان : لزوم الجماعة واتباع السنة ، وعمارة المسجد وتلاوة القرآن والجهاد في سبيل الله .

(يج) أبو هريرة قال عليه السلام : " من بنى لله بيتاً يعبد الله فيه من مال حلال بنى الله له بيتاً في الجنة من دور ياقوت " (يد) أبو ذر قال عليه السلام : " من بنى لله مسجداً ولو كمفحص قطاة بنى الله له بيتاً في الجنة " .

(يه) أبو سعيد الخدري : قال عليه السلام : " " إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان ، فإن الله تعالى قال : ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مساجد الله مَنْ ءامَنَ بالله واليوم الآخر ﴾ " [التوبة : 18] .

(يو) عن بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم قالوا : إن المساجد بيوت الله وأنه لحق على الله أن يكرم من زاره فيها .

(يز) أنس قال عليه السلام : " إن عمار بيوت الله هم أهل بيوت الله " .

(يح) أنس قال عليه السلام : " يقول الله تعالى : كأني لأهم بأهل الأرض عذاباً فإذا نظرت إلى عمار بيوتي والمتحابين في وإلى المستغفرين بالأسحار صرفت عنهم " .

(يط) عن أنس: قال عليه السلام: "إذا أنزلت عاهة من السماء صرفت عن عمار المساجد".

(219/63)

(ك) كتب سلمان إلى أبي الدرداء: يا أخي ليكن بيتك المساجد فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "المسجد بيت كل تقي وقد ضمن الله لمن كانت المساجد بيوتهم بالروح والرحمة والجواز على الصراط إلى رضوان الله تعالى".

(كا) قال سعيد بن المسيب: عن عبد الله بن سلام: إن المساجد أوتاداً من الناس، وإن لهم جلساء من الملائكة، فإذا فقدوهم سألوا عنهم، وإن كانوا مرضى عادوهم، وإن كانوا في حاجة أعانوهم.

(كب) الحسن قال عليه السلام: "يأتي على الناس زمان يكون حديثهم في مساجدهم في أمر دنياهم فلا تجالسوهم فليس لله فيهم حاجة" (كج) أبو هريرة: قال عليه السلام: "إن للمنافقين علامات يعرفون بها تحيتهم لعنة وطعامهم نهبة، وغنيمتهم غلول، لا يقربون المساجد إلا هجراً ولا الصلاة إلا دبراً، لا يتألفون ولا يؤلفون، خشب بالليل سحب بالنهار".

(كد) أبو سعيد الخدري وأبو هريرة: قال عليه السلام: "سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه، ورجلان تحابا في الله اجتمعا على ذلك وتفرقا، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه، ورجل دعته امرأة ذات حسن وجمال فقال إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه".

هذا حديث أخرجه الشيخان في الصحيحين.

(كه) عقبة بن عامر عن النبي صلى الله عليه وسلم: "من خرج من بيته إلى المسجد كتب له كاتبه بكل خطوة يخطوها عشر حسنات، والقاعد في المسجد ينتظر الصلاة كالقانت ويكتب من المصلين حتى يرجع إلى بيته".

(220/63)

(كو) روى عبد الله بن المبارك عن حكيم بن زريق بن الحكم، قال: سمعت سعيد بن المسيب وسأله أبي: أحضور الجنازة أحب إليك أم القعود في المسجد؟ قال: من صلى على جنازة فله قيراط، ومن تبعها حتى تقبر فله قيراطان، والجلوس في المسجد أحب إلي، تسبح الله وتهلل وتستغفر والملائكة تقول: آمين اللهم اغفر له، اللهم ارحمه، فإذا فعلت

ذلك فقل : اللهم اغفر لسعيد بن المسيب .

الثالث : في تزيين المساجد .

(أ) ابن عباس : قال عليه الصلاة والسلام : " ما أمرت بتشييد المساجد " والمراد من التشييد رفع البناء وتطويله ، ومنه قوله تعالى : ﴿فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء : 78] وهي التي يطول بناؤها .

(ب) أمر عمر ببناء مسجد وقال للبناء : أكن الناس من المطر ، وإياك أن تحمر أو تصفر فتفتن الناس .

(ج) روى أن عثمان رأى أترجة من جص معلقة في المسجد ، فأمر بها فقطعت .

(د) قال أبو الدرداء : إذا حليتم مصاحفكم وزينتم مساجدكم فالدمار عليكم .

(ه) قال أبو قلابة : غدونا مع أنس بن مالك إلى الزواية فحضرت صلاة الصبح فمررنا بمسجد فقال أنس : لو صلينا في هذا المسجد ؟ فقال بعض القوم : حتى نأتي المسجد الآخر ، فقال أنس : أي مسجد ، قالوا : مسجد أحدث الآن ، فقال أنس : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " سيأتي على أمتي زمان يتباهون في المساجد ولا يعمرونها إلا قليلاً " الرابع : في تحية المسجد ، في الصحيحين عن أبي قتادة السلمي أنه عليه الصلاة والسلام قال : " إذا دخل أحدكم المسجد فليركع ركعتين قبل أن يجلس " واعلم أن القول بذلك مذهب الحسن البصري ومكحول وقول الشافعي وأحمد وإسحق ، وذهب قوم إلى

أنه يجلس ولا يصلي ، وإليه ذهب ابن سيرين وعطاء بن أبي رباح والنخعي وقتادة ، وبه قال مالك والثوري وأصحاب الرأي .

(221/63)

الخامس : فيما يقول إذا دخل المسجد ، روت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أبيها ، قالت : "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل المسجد صلى على محمد وسلم وقال : رب اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب رحمتك ، وإذا خرج صلى على محمد وسلم وقال قال : رب اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب فضلك " السادس : في فضيلة القعود في المسجد لانتظار الصلاة .

(أ) أبو هريرة : قال عليه الصلاة والسلام : " الملائكة تصلي على أحدكم ما دام في مصلاه الذي صلى فيه فتقول : اللهم اغفر له ، اللهم ارحمه ما لم يحدث " .

وروي أن عثمان بن مظعون أتى النبي عليه الصلاة والسلام فقال : ائذن لي في الاختصاء ، فقال عليه الصلاة والسلام : " ليس منا من خصي أو اختصى إن خصاء أمتي الصيام " .

فقال : يا رسول الله ائذن لي في السياحة ، فقال : " إن سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله "

فقال : يا رسول الله ائذن لي في الترهب ، فقال : " إن ترهب أمتي الجلوس في المساجد انتظاراً للصلاة " .

(222/63)

السابع : في كراهية البيع والشراء في المسجد ، عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أنه عليه الصلاة والسلام نهى عن تناشد الأشعار في المساجد ، وعن البيع والشراء فيه ، وعن أن يتحلق الناس في المساجد يوم الجمعة قبل الصلاة ، واعلم أنه كره قوم من أهل العلم البيع والشراء في المسجد وبه يقول أحمد وإسحق وعطاء بن يسار ، وكان إذا مر عليه بعض من يبيع في المسجد قال : عليك بسوق الدنيا فإنما هذا سوق الآخرة ، وكان لسالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهم رحبة إلى جنب المسجد سماها البطحاء ، وقال : من أراد أن يلغط أو ينشد شعراً أو يرفع صوتاً فليخرج إلى هذه الرحبة ، واعلم أن الحديث الذي رويناه يدل على كراهية التحلق والاجتماع يوم الجمعة قبل الصلاة لمذاكرة العلم ، بل يشتغل بالذكر والصلاة والإنصات للخطبة ، ثم لا بأس بالاجتماع والتحلق بعد الصلاة ، وأما طلب الضالة في المسجد ، ورفع الصوت بغير الذكر ، فمكروه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : من سمع رجلاً ينشد ضالة في المسجد فليقل : لا ردها الله عليك ،

فإن المساجد لم تبن لهذا ، وعن أبي هريرة رضي الله عنه أيضاً أنه عليه الصلاة والسلام قال : " إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع في المسجد فقولوا : لا أربح الله تجارتك " قال أبو سليمان الخطابي رحمه الله : ويدخل في هذا كل أمر لم يبن له المسجد من أمور معاملات الناس ، واقتضاء حقوقهم ، وقد كره بعض السلف المسألة في المسجد ، وكان بعضهم يرى أن لا يتصدق على السائل المتعرض في المسجد ، وورد النهي عن إقامة الحدود في المساجد ، قال عمر فيمن لزمه حد : أخرجاه من المسجد ، ويذكر عن علي رضي الله عنه مثله ، وقال معاذ بن جبل : إن المساجد طهرت من خمس : من أن يقام فيها الحدود أو يقبض فيها الخراج ، أو ينطق فيها بالأشعار أو ينشد فيها الضالة أو تتخذ سوقاً ، ولم ير بعضهم بالقضاء في المسجد بأساً ، لأن النبي عليه الصلاة والسلام لاعن بين

(223/63)

العجلاني وامرأته في المسجد ولاعن عمر عند منبر النبي صلى الله عليه وسلم وقضى شريح والشعبي ويحيى بن يعمر في المسجد وكان الحسن وزرارة بن أوفى يقضيان في الرحبة خارجاً من المسجد .

الثامن : في النوم في المسجد في الصحيحين : عن عباد بن تميم عن عمه أنه رأى رسول الله

صلى الله عليه وسلم مستلقياً في المسجد واضعاً إحدى رجليه على الأخرى وعن ابن شهاب قال : كان ذلك من عمر وعثمان وفيه دليل على جواز الاتكاء والاضطجاع وأنواع الاستراحة في المسجد مثل جوازها في البيت ، إلا الانبطاح فإنه عليه الصلاة والسلام نهى عنه وقال : أنها ضجعة يبغضها الله ، وعن نافع أن عبد الله كان شاباً أعزب لا أهل له فكان ينام في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ورخص قوم من أهل العلم في النوم في المسجد ، وقال ابن عباس : لا تتخذوه مبيتاً أو مقيلاً .

التاسع : في كراهية البزاق في المسجد عن أنس عن النبي عليه الصلاة والسلام قال : " البزاق في المسجد خطيئة وكفارتها دفنها " وفي الصحيح عن أبي ذر قال عليه الصلاة والسلام : " عرضت عليّ أعمال أمتي حسنها وسيئها فوجدت من محاسن أعمالها الأذى يماط عن الطريق ، ووجدت في مساويء أعمالها النخامة تكون في المسجد لا تدفن " وفي الحديث : " إن المسجد لينزوي من النخامة كما تنزوي الجلدة في النار " أي ينضم وينقبض ، فقال بعضهم : المراد أن كونه مسجداً يقتضي التعظيم والقاء النخامة يقتضي التحقير ، وبينهما منافاة ، فعبر عليه الصلاة والسلام عن تلك المنافاة بقوله : لينزوي ، وقال آخرون : أراد أهل المسجد وهم الملائكة ، وفي الصحيحين عن همام بن منبه قال : هذا ما حدثنا أبو هريرة عن محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إذا قام أحدكم إلى الصلاة

فلا يبصق أمامه فإنه يناجي الله ما دام في مصلاه ، ولا عن يمينه فإن عن يمينه ملكاً ، ولكن ليبصق عن شماله أو تحت رجليه فيدفنه " .

(224/63)

وعن أنس أنه عليه الصلاة والسلام رأى نخامة في القبلة فشق ذلك عليه حتى رؤي في وجهه فقام فحكه بيده وقال : " إن أحدكم إذا قام في صلاته فإنه يناجي ربه فلا يبزقن أحدكم في قبلته ولكن عن يساره أو تحت قدمه قال : ثم أخذ طرف ردائه فبصق فيه ثم رد بعضه على بعض وقال : يفعل هكذا " أخرجه البخاري في صحيحه .

العاشر : في الثوم والبصل : في الصحيحين عن أنس وابن عمر وجابر قال عليه الصلاة والسلام : " من أكل من هذه الشجرة المنتنة فلا يقربن مسجدنا فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه الإنس " وعن جابر أنه عليه الصلاة والسلام قال : " من أكل ثوماً أو بصلاً فليعتزل مسجدنا " وأن النبي عليه الصلاة والسلام أتى بقدر فيه خضر فوجد لها ريحاً ، فسأل فأخبر بما فيه من البقول ، فقال : " قربوها إلى بعض من كان حاضراً ، وقال له كل فإني أناجي من لا تناجي " أخرجاه في الصحيحين .

الحادي عشر : في المساجد في الدور ، عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله

عنها قالت : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ببناء المسجد في الدور ، وأن ينظف ويطيب ، أنس بن مالك قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد ومعه أصحابه إذ جاء أعرابي فبال في المسجد ، فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : مه مه ، فقال عليه الصلاة والسلام : " لا تزرموه " ثم دعاه فقال : " إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من العذرة والبول والخلاء ، إنما هي لقراءة القرآن وذكر الله والصلاة " ثم دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بدلو من ماء فصبوا عليه . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 4 صـ 16.11 ﴾

فصل

قال الفخر :

اختلف الفقهاء في دخول الكافر المسجد ، فجوزه أبو حنيفة مطلقاً ، وأباه مالك مطلقاً ، وقال الشافعي رضي الله عنه : يمنع من دخول الحرم والمسجد الحرام ، احتج الشافعي بوجوه .

(225/63)

أولها : قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا المشركون نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُواْ المسجد الحرام بَعْدَ عَامِهِمْ هذا ﴾ [التوبة : 28] قال الشافعي : قد يكون المراد من المسجد الحرام الحرم لقوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الذى أسرى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مّنَ المسجد الحرام ﴾ [الإسراء : 1] وإنما أسرى به من بيت خديجة .

فالآية دالة إما على المسجد فقط ، أو على الحرم كله ، وعلى التقديرين فالمقصود حاصل ، لأن الخلاف حاصل فيهما جميعاً ، فإن قيل : المراد به الحج ولهذا قال : ﴿ بَعْدَ عَامِهِمْ هذا ﴾ لأن الحج إنما يفعل في السنة مرة واحدة ، قلنا : هذا ضعيف لوجوه .

أحدها : إنه ترك للظاهر من غير موجب .

الثاني : ثبت في أصول الفقه أن ترتيب الحكم على الوصف مشعر بكون ذلك الوصف علة لذلك الحكم ، وهذا يقتضي أن المانع من قربهم من المسجد الحرام نجاستهم ، وذلك يقتضي أنهم ما داموا مشركين كانوا ممنوعين عن المسجد الحرام .

الثالث : أنه تعالى لو أراد الحج لذكر من البقاع ما يقع فيه معظم أركان الحج وهو عرفة .

الرابع : الدليل على أن المراد دخول الحرم لا الحج فقط قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ الله مِن فَضْلِهِ ﴾ [التوبة : 28] فأراد به الدخول للتجارة .

وثانيها : قوله تعالى : ﴿ أُوْلَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَائِفِينَ ﴾ وهذا يقتضي أن يمنعوا من دخول المسجد ، وأنهم متى دخلوا كانوا خائفين من الإخراج إلا ما قام عليه

الدليل فإن قيل : هذه الآية مخصوصة بمن خرب بيت المقدس ، أو بمن منع رسول الله صلى الله عليه وسلم من العبادة في الكعبة ، وأيضاً فقوله : ﴿ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَائِفِينَ ﴾ ليس المراد منه خوف الإخراج ، بل خوف الجزية والإخراج ، قلنا : الجواب عن الأول : أن قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مساجد الله ﴾ ظاهر في العموم ، فتخصيصه ببعض الصور خلاف الظاهر .

(226/63)

وعن الثاني : أن الظاهر قوله : ﴿ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَائِفِينَ ﴾ يقتضي أن يكون ذلك الخوف إنما حصل من الدخول ، وعلى ما يقولونه لا يكون الخوف متولداً من الدخول بل من شيء آخر ، فسقط كلامهم .

وثالثها : قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَاجِدَ الله شاهدين على أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ ﴾ [التوبة : 17] وعمارتها تكون بوجهين .

أحدهما : بناؤها وإصلاحها .

والثاني : حضورها ولزومها ، كما تقول : فلان يعمر مسجد فلان أي يحضره ويلزمه وقال النبي صلى الله عليه وسلم : " إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان " وذلك لقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مساجد الله مَنْ ءامَنَ بالله واليوم الآخر ﴾ [التوبة : 18] ، فجعل حضور المساجد عمارة لها .

ورابعها : أن الحرم واجب التعظيم لقوله عليه الصلاة والسلام في الدعاء : " اللهم زد هذا البيت تشريفاً وتعظيماً ومهابة " فصونه عما يوجب تحقيره واجب وتمكين الكفار من الدخول فيه تعريض للبيت للتحقير لأنهم لفساد اعتقادهم فيه ربما استخفوا به وأقدموا على تلويثه وتنجيسه .

وخامسها : أن الله تعالى أمر بتطهير البيت في قوله : ﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّائِفِينَ ﴾ [الحج : 26] والمشرك نجس لقوله تعالى ؛ ﴿ إِنَّمَا المشركون نَجَسٌ ﴾ [التوبة : 28] والتطهير على النجس واجب فيكون تبعيد الكفار عنه واجباً .

وسادسها : أجمعنا على أن الجنب يمنع منه ، فالكافر بأن يمنع منه أولى إلا أن هذا مقتضى مذهب مالك وهو أن يمنع عن كل المساجد واحتج أبو حنيفة رحمه الله بأمور ، الأول : روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قدم عليه وفد يثرب فأنزلهم المسجد .

الثاني : قوله عليه الصلاة والسلام : " من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ومن دخل الكعبة فهو آمن " وهذا يقتضي إباحة الدخول .

الثالث : الكافر جاز له دخول سائر المساجد فكذلك المسجد الحرام كالمسلم ، والجواب عن الحديثين الأولين : أنهما كانا في أول الإسلام ثم نسخ ذلك بالآية ، وعن القياس أن المسجد الحرام أجل قدراً من سائر المساجد فظهر الفرق . والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 4 صـ 16. 17 ﴾

(227/63)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ﴾ الآية .

الاستفهام في هذه الآية إنكاري أظلم ممن منع مساجد الله .

وقد جاءت آيات أخر يفهم منها خلاف هذا كقوله تعالى : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً ﴾ الآية .

وقوله : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ ﴾ وقوله : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ . . ﴾ الآية, إلى غير ذلك من الآيات .

وللجمع بين هذه الآيات أوجه : منها –تخصيص كل موضع بمعنى صلته : أي مساجد الله–

ولا أحد من المفترين أظلم ممن افترى على الله كذبا, وإذا تخصصت بصلاتها زال الإشكال.

ومنها -أن التخصيص بالنسبة إلى السبق, أي لما لم يسبقهم أحد إلى مثله حكم عليهم بأنهم أظلم ممن جاء بعدهم سالكا طرقهم وهذا يؤول معناه إلى ما قبله, لأن المراد السبق إلى المانعية والافترائية مثلا.

ومنها -وادعى أبوحيان أنه الصواب, هو ما حاصله أن نفي التفضيل لا يستلزم نفي المساواة, فلم يكن أحد ممن وصف بذلك يزيد على الآخر لأنهم يتساوون في الأظلمية فيصير المعنى: لا أحد أظلم ممن منع مساجد الله ومن افترى على الله كذبا ومن كذب بآيات لله, ولا إشكال في تساوي هؤلاء في الأظلمية ولا يدل على أن أحدهم أظلم من الآخر كما إذا قلت لا أحد أفقه من فلان وفلان مثلا.

ذكر هذين الوجهين صاحب الإتقان.

وما ذكره بعض المتأخرين من أن الاستفهام في قوله: ومن أظلم المقصود منه التهويل والتفظيع من غير قصد إثبات الأظلمية للمذكور حقيقة ولا نفيها عن غيره كما ذكره عنه صاحب الاتقان يظهر ضعفه لأنه خلاف ظاهر القرآن. انتهى انتهى. اهـ ﴿دفع إيهام الاضطراب صـ 26.25﴾

ومن فوائد ابن عرفة فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسمه . . . ﴾ .

وقال في آية أخرى : ﴿ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللهِ ﴾ وقال في سورة الزمر ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللهِ وَكَذَّبَ بالصدق إِذْ جَآءَهُ ﴾ فالجمع بين الآيتين يقتضي تساويهما في الظلم ، لكن قام الدليل على أن مفتري الكذب على الله أشد ظلما ممن منع مساجد الله من ذكر الله فيها .

قيل لابن عرفة : يؤخذ من الآية أنه لا يجوز لهؤلاء الأيمة أن يغلقوا باب المسجد ولا أن يبنوا مسجدا لنقوض مسجد آخر ؟ فقال رضي الله عنه : أما غلق باب المسجد في غير أوقات الصلاة فهو حفظ له وصيانة إلا أن يكون الإمام مفرطا في الصلاة فيتركه مغلوقا لا يصلى فيه إلى آخر الوقت ، وأما بناء مسجد بمسجد فلا يجوز وإن صار قاعة جاز جلوس الجنب والحائض فيه لأنه لم يبق له حرمة المسجد .

قال (في المدونة) في كتاب الأقضية : والقضاء في المسجد من الأمر القديم ، ولأنه يرضى فيه (بالدون) من المجلس ، وتصل إليه المرأة والضعيف .

قال ابن عرفة : وتقدم لنا أن رحابه هنا غير رحابه في الصلاة ، فرحابه في الصلاة أوسع من

هذا فلا يركع الفجر إلا في الصحن البراني الذي لا يحوزه (الغلق) ، ويحكم هنا في رحابه التي هي صحنه الدخلاني .

قوله تعالى : ﴿ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسمه وسعى فِي خَرَابِهَآ . . . ﴾ .

قال ابن عطية : تضمنت الآية أن يكون قوله ﴿ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسمه ﴾ مفعولا لأجله .

قال ابن عرفة : مفهومه أن منعها لغير هذه الحيثية لا يتناوله هذا (الإثم) بل إثمه أقل من ذلك . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عرفة حـ 1 صـ 400. 401 ﴾

(229/63)

ومن فوائد الماوردى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله عز وجل : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنَ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ﴾ أما المساجد فهي مواضع العبادات ، وفي المراد بها هنا قولان :

أحدهما : ما نسب إلى التعبد من بيوت الله تعالى استعمالاً لحقيقة الاسم .

والثاني : أنَّ كُلَّ موضع من الأرض ، أقيمت فيه عبادة من بيوت الله وغيرها مسجد ، لقول النبي صلى الله عليه وسلم : " جُعِلَتْ لِيَ الأَرضُ مَسْجِداً " . وفي المانع مساجد الله أن

يُذْكَرَ فيها اسمه ، أربعة أقاويل :

أحدها : أنه بُخْتَ نصر وأصحابه من المجوس الذين خربوا بيت المقدس ، وهذا قول قتادة .

والثاني : أنهم النصارى الذين أعانوا (بُخْتَ نَصّر) على خرابه ، وهذا قول السدي .

والثالث : أنهم مشركو قريش ، منعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام عام الحديبية ، وهذا قول عبد الرحمن بن زيد .

والرابع : أنه عَامٌّ في كل مشرك ، منع من كل مسجد .

وفي قوله تعالى : ﴿ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا ﴾ تأويلان :

أحدهما : بالمنع من ذكر الله فيها .

والثاني : بهدمها .

﴿ أُوْلَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَآئِفِينَ ﴾ فيه تأويلان :

أحدهما : خائفين بأداء الجزية ، وهذا قول السدي .

والثاني : خائفين من الرعب ، إن قُدر عليهم عوقبوا ، وهذا قول قتادة .

﴿ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ ﴾ فيه تأويلان :

أحدهما : أنه قتل الحربي وجزية الذمي .

والثاني : أنه فتح مدائنهم عمورية ، وقسطنطينية ، ورومية ، وهذا قول ابن عباس .

﴿ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ هو أشد من كل عذاب، لأنهم أظلم من كل ظالم.

انتهى انتهى. اهـ ﴿ النكت والعيون حـ 1 صـ 174. 175 ﴾

(230/63)

ومن فوائد الإمام القرطبى فى الآية

قال رحمه الله:

قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسمه . . . ﴾.

فيه سبع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسمه ﴾ "مَن" رفع بالابتداء، و ﴿ أَظْلَمُ ﴾ خبره؛ والمعنى لا أحدَ أظلم.

و"أنْ" في موضع نصب على البدل من ﴿ مَسَاجِدَ ﴾، ويجوز أن يكون التقدير: كراهية أن يُذكر، ثم حذف.

ويجوز أن يكون التقدير: من أن يذكر فيها؛ وحرف الخفض يُحذف مع "أنْ" لطول الكلام.

وأراد بالمساجد هنا بيت المَقْدِس ومحاريبه.

وقيل الكعبة، وجمعت لأنها قِبْلة المساجد أو للتعظيم.

وقيل : المراد سائر المساجد ؛ والواحد مَسْجِد (بكسر الجيم) ، ومن العرب من يقول : مَسجَد ، (بفتحها) .

قال الفراء : "كل ما كان على فَعَلَ يَفْعُل ؛ مثل دخل يدخل ، فالمفعل منه بالفتح اسما كان أو مصدراً ، ولا يقع فيه الفرق ، مثل دخل يَدْخُل مَدْخَلاً ، وهذا مَدْخَلُه ؛ إلا أحرفاً من الأسماء ألزموها كسر العين ؛ من ذلك : المَسْجِد والمَطْلِع والمغرِب والمشرِق والمَسْقِط والمَفْرِق والمَجْزِر والمَسْكِن والمَرْفِق (من رفَقَ يَرْفُق) والمَنْبِت والمَنْسِك (من نَسَك يَنْسُك) ؛ فجعلوا الكسر علامة للاسم ، وربّما فتحه بعض العرب في الاسم" .

والمَسْجَد (بالفتح) : جبهة الرجل حيث يصيبه نَدَبُ السجود .

والآراب : السبعة مساجد ؛ قاله الجوهري .

الثانية : واختلف الناس في المراد بهذه الآية وفيمن نزلت ؛ فذكر المفسرون أنها نزلت في بُخْتَ نَصّر ؛ لأنه كان أخرب بيت المقدس .

(231/63)

وقال ابن عباس وغيره : نزلت في النصارى ؛ والمعنى كيف تدّعون أيها النصارى أنكم من أهل الجنة ! وقد خرّبتم بيت المقدس ومنعتم المصلين من الصلاة فيه .

ومعنى الآية على هذا : التعجّب من فعل النصارى ببيت المقدس مع تعظيمهم له ، وإنما فعلوا ما فعلوا عداوة لليهود .

روى سعيد عن قتادة قال : أولئك أعداء الله النصارى ، حملهم إبغاض اليهود على أن أعانوا بُخْتَنَصّر البابليّ المجوسيّ على تخريب بيت المقدس .

وروي أن هذا التخريب بقي إلى زمن عمر رضي الله عنه .

وقيل : نزلت في المشركين إذ منعوا المصلين والنبيّ صلى الله عليه وسلم ، وصدّوهم عن المسجد الحرام عامَ الحُدَيْبِيَة .

وقيل : المراد مَن منع من كل مسجد إلى يوم القيامة ، وهو الصحيح ؛ لأن اللفظ عام ورد بصيغة الجمع ، فتخصيصها ببعض المساجد وبعض الأشخاص ضعيف ؛ والله تعالى أعلم .

الثالثة : خراب المساجد قد يكون حقيقيًّا كتخريب بُخْتَنَصّر والنصارى بيت المقدس على ما ذُكر أنهم غَزَوْا بني إسرائيل مع بعض ملوكهم قيل : اسمه نطوس ابن اسبيسانوس الرومي فيما ذكر الغزنَويّ فقتلوا وسبَوْا ، وحرقوا التوراة ، وقذفوا في بيت المقدس العِذْرة وخربوه .

ويكون مجازاً كمنع المشركين المسلمين حين صدّوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن

المسجد الحرام؛ وعلى الجملة فتعطيل المساجد عن الصلاة وإظهار شعائر الإسلام فيها خراب لها .

(232/63)

الرابعة : قال علماؤنا : ولهذا قلنا لا يجوز منع المرأة من الحج إذا كانت ضَرُورة ، سواء كان لها مَحْرَم أو لم يكن ؛ ولا تمنع أيضاً من الصلاة في المساجد ما لم يخف عليها الفتنة ؛ وكذلك قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " لا تمنعوا إماء الله مساجد الله " ولذلك قلنا : لا يجوز نقض المسجد ولا بيعه ولا تعطيله وإن خربت المحلة ، ولا يمنع بناء المساجد إلا أن يقصدوا الشقاق والخلاف ، بأن يبنوا مسجداً إلى جنب مسجد أو قُربه ؛ يريدون بذلك تفريق أهل المسجد الأوّل وخرابه واختلاف الكلمة ، فإن المسجد الثاني ينقض ويمنع من بنيانه ؛ ولذلك قلنا : لا يجوز أن يكون في المصر جامعان ، ولا لمسجد واحد إمامان ، ولا يصلي في مسجد جماعتان .

وسيأتي لهذا كله مزيد بيان في سورة " براءة" إن شاء الله تعالى ، وفي " النور " حكم المساجد وبنائها بحول الله تعالى .

ودلّت الآية أيضا على تعظيم أمر الصلاة ، وأنها لمّا كانت أفضل الأعمال وأعظمها أجراً

كان منعها أعظم إثماً .

الخامسة : كل موضع يمكن أن يُعبد الله فيه ويُسجد له يسمَّى مسجداً ؛ قال صلى الله عليه وسلم : " جُعلت لِيَ الأرض مسجداً وطهوراً " ، أخرجه الأئمة .

وأجمعت الأمة على أن البُقعة إذا عُيِّنت للصلاة بالقول خرجت عن جملة الأملاك المختصة بربّها وصارت عامةً لجميع المسلمين ؛ فلو بنى رجل في داره مسجداً وحجزه على الناس واختص به لنفسه لبقي على ملكه ولم يخرج إلى حَدّ المسجدية ، ولو أباحه للناس كلهم كان حكمه حكم سائر المساجد العامة ، وخرج عن اختصاص الأملاك .

السادسة : قوله تعالى : ﴿ أولئك مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَآئِفِينَ ﴾ " أولئك" مبتدأ وما بعده خبره .

" خائفين" حال ؛ يعنى إذا استولى عليها المسلمون وحصلت تحت سلطانهم فلا يتمكن الكافر حينئذ من دخولها .

فإن دخلوها ، فعلى خوف من إخراج المسلمين لهم ، وتأديبهم على دخولها .

وفي هذا دليل على أن الكافر ليس له دخول المسجد بحال ، على ما يأتي في " براءة" إن شاء الله تعالى .

ومن جعل الآية في النصارى روى أنه مَرَ زمان بعد بناء عمر بيت المَقْدِس في الإسلام لا يدخله نصرانيّ إلا أُوجع ضرباً بعد أن كان متعبّدهم .

ومن جعلها في قريش قال : كذلك نودي بأمر النبيّ صلى الله عليه وسلم : " أَلَا لَا يَحُجّ بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبَيْت عُرْيان " وقيل : هو خبر ومقصوده الأمر ؛ أي جاهدوهم واستأصلوهم حتى لا يدخل أحد منهم المسجد الحرام إلا خائفاً ؛ كقوله : ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ ﴾ [الأحزاب : 53] فإنه نَهْي وردَ بلفظ الخبر .

السابعة : قوله تعالى : ﴿ لَّهُمْ فِي الدنيا خِزْيٌ ﴾ قيل القَتْل للحربيّ ، والْجزية للذِمي ؛ عن قتادة .

السُّديّ : الخزْيُ لهم في الدنيا قيامُ المهديّ ، وفتحُ عَمُّورِيّة ورُومِيَة وقُسْطَنْطِينية ، وغير ذلك من مُدُنهم ؛ على ما ذكرناه في كتاب التّذكرة .

ومن جعلها في قريش جعل الْخزي عليهم في الفتح ، والعذاب في الآخرة لمن مات منهم كافراً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 1 صـ 76 . 79 ﴾

ومن فوائد أبى حيان فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه ﴾ : نزلت في نطوس بن اسبيسيانوس الرومي ، الذي خرب بيت المقدس ، ولم يزل خراباً إلى أن عمر في زمان عمر بن الخطاب .

وقيل في مشركي العرب : منعوا المسلمين من ذكر الله في المسجد الحرام ، قاله عطاء ، عن ابن عباس ، أو في النصارى ، كانوا يودون خراب بيت المقدس ، ويطرحون به الأقذار .

وروي عن ابن عباس ، وقال قتادة والسدي ، في الروم الذين أعانوا بخت نصر على تخريب بيت المقدس : حين قتلت بنو إسرائيل يحيى بن زكريا ، على نبينا وعليه السلام ، قال أبو بكر الرازي : لا خلاف بين أهل العلم بالسير أن عهد بختنصر كان قبل مولد المسيح عليه السلام بدهر طويل .

(234/63)

وقيل في بخت نصر ، قاله قتادة ، وقال ابن زيد وأبو مسلم : المراد كفار قريش حين صدوا : رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المسجد الحرام .

وعلى اختلاف هذه الأقوال يجيء الاختلاف في تفسير المانع والمساجد .

وظاهر الآية العموم في كل مانع وفي كل مسجد ، والعموم وإن كان سبب نزوله خاصاً ،

فالعبرة به لا بخصوص السبب .

ومناسبة هذه الآية لما قبلها : أنه جرى ذكر النصارى في قوله : ﴿ وقالت النصارى ليست اليهود على شيء ﴾ وجرى ذكر المشركين في قوله : ﴿ كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم ﴾ وفي أي نزلت منهم كان ذلك مناسباً لذكرها تلي ما قبلها .

ومن : استفهام ، وهو مرفوع بالابتداء .

وأظلم : أفعل تفضيل ، وهو خبر عن من .

ولا يراد بالاستفهام هنا حقيقته ، وإنما هو بمعنى النفي ، كما قال : ﴿ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون ﴾ أي ما يهلك .

ومعنى هذا : لا أحد أظلم ممن منع .

وقد تكرر هذا اللفظ في القرآن ، وهذا أول موارده ، وقال تعالى : ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً ﴾ وقال : ﴿ فمن أظلم ممن كذب بآيات الله ﴾ ﴿ ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ﴾ إلى غير ذلك من الآيات .

ولما كان هذا الاستفهام معناه النفي كان خبراً ، ولما كان خبراً توهم بعض الناس أنه إذا أخذت هذه الآيات على ظواهرها سبق إلى ذهنه التناقض فيها ، لأنه قال المتأول في هذا : لا أحد أظلم ممن منع مساجد الله ، وقال في أخرى : لا أحد أظلم ممن افترى ، وفي أخرى : لا أحد أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها .

فتأول ذلك على أن خص كل واحد بمعنى صلته ، فكأنه قال : لا أحد من المانعين أظلم ممن منع مساجد الله ، ولا أحد من المفترين أظلم ممن افترى على الله ، وكذلك باقيها .

فإذا تخصصت بالصلات زال عنده التناقض .

(235/63)

وقال غيره : التخصيص يكون بالنسبة إلى السبق ، لما لم يسبق أحد إلى مثله ، حكم عليهم بأنهم أظلم ممن جاء بعدهم ، سالكاً طريقتهم في ذلك ، وهذا يؤول معناه إلى السبق في المانعية ، أو الافترائية .

وهذا كله بعد عن مدلول الكلام ووضعه العربي ، وعجمة في اللسان يتبعها استعجام المعنى .

وإنما هذا نفي للأظلمية ، ونفي الأظلمية لا يستدعي نفي الظالمية ، لأن نفي المقيد لا يدل على نفي المطلق .

لو قلت : ما في الدار رجل ظريف ، لم يدل ذلك على نفي مطلق رجل ، وإذا لم يدل على نفي الظالمية لم يكن تناقضاً ، لأن فيها إثبات التسوية في الأظلمية .

وإذا ثبتت التسوية في الأظلمية لم يكن أحد ممن وصف بذلك يزيد على الآخر ، لأنهم

يتساوون في الأظلمية .

وصار المعنى : لا أحد أظلم ممن منع ، وممن افترى ، وممن ذكر .

ولا إشكال في تساوي هؤلاء في الأظلمية .

ولا يدل على أن أحد هؤلاء أظلم من الآخر .

كما أنك إذا قلت : لا أحد أفقه من زيد وعمرو وخالد ، لا يدل على أن أحدهم أفقه من الآخر ، بل نفي أن يكون أحد أفقه منهم .

لا يقال : إن من منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه ، وسعى في خرابها ، ولم يفتر على الله الكذب ، أقلّ ظلماً ممن جمع بينهما ، فلا يكون مساوياً في الأظلمية ، لأن هذه الآيات كلها إنما هي في الكفار ، فهم متساوون في الأظلمية ، وإن اختلفت طرق الأظلمية .

فكلها صائرة إلى الكفر ، فهو شيء واحد لا يمكن فيه الزيادة بالنسبة لأفراد من اتصف به ، وإنما تمكن الزيادة في الظلم بالنسبة لهم ، وللعصاة المؤمنين بجامع ما اشتركوا فيه من المخالفة ، فنقول : الكافر أظلم من المؤمن ، ونقول : لا أحد أظلم من الكافر .

ومعناه : أن ظلم الكافر يزيد على ظلم غيره .

ومن في قوله : ممن منع ، موصولة بمعنى الذي .

وجوّز أبو البقاء أن تكون نكرة موصوفة .

أن يذكر : يحتمل أن يكون مفعولاً ثانياً لمنع ، أو مفعولاً من أجله ، فيتعين حذف مضاف ، أي دخول مساجد الله ، أو ما أشبه ذلك ، أو بدلاً من مساجد بدل اشتمال ، أي ذكر اسم الله فيها ، أو مفعولاً على إسقاط حرف الجر ، أي من أن يذكر .

فلما حذفت من انتصب على رأي ، أو بقي مجروراً على رأي .

وكنى بذكر اسم الله عما يوقع في المساجد من الصلوات والتقرّبات إلى الله تعالى بالأفعال القلبية والقالبية ، من تلاوة كتبه ، وحركات الجسم من القيام والركوع والسجود والقعود الذي تعبد به ، أو إنما ذكر تعلق المنع بذكر اسم الله تنبيهاً على أنهم منعوا من أيسر الأشياء ، وهو التلفظ باسم الله .

فمنعهم لما سواه أولى .

وحذف الفاعل هنا اختصاراً ، لأنهم عالم لا يحصون .

وجاء تقديم المجرور على المفعول الذي لم يسم فاعله ، لأن المحدث عنه قبل هي مساجد الله ، وهي في اللفظ مذكورة قبل اسم الله ، فناسب تقديم المجرور لذلك .

وأضيفت المساجد لله على سبيل التشريف ، كما قال تعالى : ﴿ وأن المساجد لله ﴾ وخصّ بلفظ المسجد ، وإن كان الذي يوقع فيه أفعالاً كثيرة من القيام والركوع والقعود والعكوف .

وكل هذا متعبد به ، ولم يقل مقام ولا مركع ولا مقعد ولا معكف ، لأن السجود أعظم الهيئات الدالة على الخضوع والخشوع والطواعية التامة .

ألا ترى إلى قوله صلى الله عليه وسلم : " أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد " ؟ وهي حالة يلقي فيها الإنسان نفسه للانقياد التام ، ويباشر بأفضل ما فيه وأعلاه ، وهو الوجه ، التراب الذي هو موطىء قدميه .

قال ابن عطية : وهذه الآية تتناول كل من منع من مسجد إلى يوم القيامة ، أو خرّب مدينة إسلام ، لأنها مساجد ، وإن لم تكن موقوفة ، إذ الأرض كلها مسجد .

(237/63)

وقال الزمخشري : فإن قلت : كيف قيل مساجد الله ؟ وإنما وقع المنع والتخريب على مسجد واحد وهو بيت المقدس ، أو المسجد الحرام ؟ قلت : لا بأس أن يجيء الحكم عامًّا ، وإن كان السبب خاصاً ، كما تقول لمن آذى صالحاً واحداً ، ومن أظلم ممن آذى الصالحين ؟ وكما قال الله عز وجل : ﴿ ويل لكل همزة لمزة ﴾

والمنزول فيه الأخنس بن شريق .

انتهى كلامه .

وقال غيره : جمعت لأنها قبلة المساجد كلها ، يعني الكعبة للمسلمين ، وبيت المقدس لغيره .

﴿ وسعى في خرابها ﴾ : إما حقيقة ، كتخريب بيت المقدس ، أو مجازاً بانقطاع الذكر فيها ومنع قاصديها منها ، إذ ذلك يؤول بها إلى الخراب .

فجعل المنع خراباً ، كما جعل التعاهد بالذكر والصلاة عمارة ، وذلك مجاز .

وقال المروزي : قال ومن أظلم ليعلم أن قبح الاعتقاد يورث تخريب المساجد ، كما أن حسن الاعتقاد يورث عمارة المساجد .

﴿ أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين ﴾ : هذه جملة خبرية قالوا تدلّ على ما يقع في المستقبل ، وذلك من معجز القرآن ، إذ هو من الإخبار بالغيب .

وفيها بشارة للمؤمنين بعلوّ كلمة الإسلام وقهر من عاداه .

إلا خائفين : نصب على الحال ، وهو استثناء مفرّغ من الأحوال .

وقرأ أبي : إلا خيفاً ، وهو جمع خائف ، كنائم ونوّم ، ولم يجعلها فاصلة ، فلذلك جمعت جمع التكسير .

وإبدال الواو ياء ، إذ الأصل خوّف ، وذلك جائز كقولهم ، في صوم صيم ، وخوفهم : هو ما يلحقهم من الصغار والذل والجزية ، أو من أن يبطش بهم المؤمنون ، أو في المحاكمة ، وهي تتضمن الخوف ، أو ضرباً موجعاً ، لأن النصارى لا يدخلون بيت المقدس إلا خائفين من

الضرب ، أقوال .

والظاهر أن المعنى : أولئك ما ينبغي لهم أن يدخلوا مساجد الله إلا وهم خائفون من الله وجلون من عقابه .

(238/63)

فكيف لهم أن يلتبسوا بمنعها من ذكر الله والسعي في تخريبها ، إذ هي بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ﴿ يسبح له فيها بالغدوّ والآصال ﴾ ؟ وما هذه سبيله ينبغي أن يعظم بذكر الله فيه ، ويسعى في عمارته ، ولا يدخله الإنسان إلا وجلاً خائفاً ، إذ هو بيت الله أمر بالمثول فيه بين يديه للعبادة .

ونظير الآية أن يقول : ومن أظلم ممن قتل ولياً لله تعالى ؟ ما كان له أن يلقاه إلا معظماً له مكرّماً أي هذه حالة من يلقى ولياً لله ، لا أن يباشره بالقتل .

ففي ذلك تقبيح عظيم على ما وقع منه ، إذ كان ينبغي أن يقع ضده ، وهو التبجيل والتعظيم .

ولما لم يقع هذا المعنى الذي ذكرناه للمفسرين ، اختلفوا في الآية على تلك الأقوال التي ذكرناها عنهم .

ولو أريد ما ذكروه ، لكان اللفظ : أولئك ما يدخلونها إلا خائفين ، ولم يأت بلفظ : ما كان لهم ، الدالة على نفي الابتغاء .

وقيل المعنى : ما كان لهم في حكم الله ، يعني أن الله قد حكم وكتب في اللوح المحفوظ أنه ينصر المؤمنين ويقوّيهم حتى لا يدخل المساجد الكفار إلا خائفين .

قال بعض الناس : وفيها دلالة على جواز دخول الكفار المساجد على صفة الخوف ، وليس كما قال ، إذ قد ذكرنا ما دلّ عليه ظاهر الآية .

وقيل في قوله : ﴿ أولئك ما كان لهم أن يدخلوها ﴾ : أن لفظه لفظ الخبر ، ومعناه الأمر لنا بأن نخيفهم ، وإنما ذهب إلى ذلك لأن الله تعالى قد أخبر أنهم سيدخلون بيت المقدس على سبيل القهر والغلبة بقوله :

﴿ فإذا جاء وعد الآخرة ليسوؤا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أوّل مرة وليتبروا ما علوا تتبيراً ﴾ ولأن النبي صلى الله عليه وسلم أخبر أن ذا السويقتين من الحبشة يهدم الكعبة حجراً حجراً .

فلما رأى أن هذا يعارض الآية ، إذا جعلناها خبراً لفظاً ، ومعنى حملها على الأمر ودلالتها على الأمر لنا بالإخافة لهم بعيدة جداً ، وإذا حملنا الآية على ما ذكرناه ، بطلت هذه الأقوال .

وأما قوله تعالى : ﴿ فإذا جاء وعد الآخرة ﴾ ، فليس ذلك كناية عن يوم القيامة ، وسيأتي الكلام عليه في موضعه ، إن شاء الله تعالى .

وقوله : ﴿ أولئك ﴾ ، حمل على معنى من في قوله : ﴿ ومن أظلم ﴾ ، ولا يختص الحمل فيها على اللفظ وعلى المعنى بكونها موصولة ، بل هي كذلك في سائر معانيها من الوصل والشرط والاستفهام ، وكلاهما موجود فيها في سائر معانيها في كلام العرب .

أما إذا كانت موصوفة نحو : مررت بمن محسن لك ، فليس في محفوظي من كلام العرب مراعاة المعنى فيها .

وقد تكلمنا قبل على كونها موصوفة .

وقال بعض الناس في قوله تعالى : ﴿ ومن أظلم ﴾ : الآية ، دليل على منع دخول الكافر المسجد ، ثم ذكر اختلاف الفقهاء في ذلك ، وهي مسألة تذكر في علم الفقه ، وليس في الآية ما يدل على ما ذكره على ما فهمنا نحن من الآية .

﴿ لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم ﴾ : هذا الجزاء مناسب لما صدر منهم .

أما الخزي في الدنيا فهو الهوان والإذلال ، وهو مناسب للوصف الأول ، لأن فيه إخمال المساجد بعدم ذكر الله وتعطيلها من ذلك ، فجوزوا على ذلك بالإذلال والهوان .

وأما العذاب العظيم في الآخرة ، فهو العذاب بالنار ، وهو إتلاف لهيا كلهم وصورهم ، وتخريب لها بعد تخريب ﴿ كلما نضجت جلودهم بدّلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب ﴾ وهو مناسب للوصف الثاني ، وهو سعيهم في تخريب المساجد ، فجوزوا على ذلك بتخريب صورهم وتمزيقها بالعذاب .

ولما كان الخزي الذي يلحقهم في الدنيا لا يتفاوتون فيه حكماً ، سواء فسرته بقتل أو سبي للحربي ، أو جزية للذمي ، لم يحتج إلى وصف .

ولما كان العذاب متفاوتاً ، أعني عذاب الكافر وعذاب المؤمن ، وصف عذاب الكافر بالعظم ليتميز من عذاب المؤمن .

(240/63)

وقيل : الخزي هو الفتح الإسلامي ، كالقسطنطينية وعمورية ورومية ، وقيل : جزية الذمي ، قاله ابن عباس ، وقيل : طردهم عن المسجد الحرام ، وقيل : قتل المهدي إياهم إذا خرج ، قاله المروزي ، وقيل : منعهم من المساجد .

قال بعض معاصرينا : إن على كل طائفة من الكفار في الدنيا خزياً .

أما اليهود والنصارى ، فقتل قريظة ، وإجلاء بني النضير ، وقتل النصارى وفتح حصونهم

وبلادهم ، وإجراء الجزية عليهم ، والسيما التي التزموها ، وما شرطه عمر عليهم .

وأما مشركو العرب ، فقتل أبطالهم وأقيالهم ، وكسر أصنامهم ، وتسفيه أحلامهم ، وإخراجهم من جزيرة العرب التي هي دار قرارهم ومسقط رؤوسهم ، وإلزامهم خطة الهلاك من القتل إلا أن يسلموا .

وقال الفرّاء : معناه في آخر الدنيا ، وهو ما وعد الله به المسلمين من فتح الروم ، ولم يكن بعد .

قال القشيري : في قوله تعالى : ﴿ ومن أظلم ﴾ الآية ، إشارة إلى ظلم من خرّب أوطان المعرفة بالمنى والعلاقات ، وهي قلوب العارفين وأوطان العبادة بالشهوات ، وهي نفوس العباد وأوطان المحبة بالحظوظ والمساكنات ، وهي أرواح الواجدين وأوطان المشاهدات بالالتفات إلى القربات ، وهي أسرار الموحدين .

﴿ لهم في الدنيا خزي ﴾ : ذل الحجاب ، وفي الآخرة عذاب لاقتناعهم بالدرجات .

انتهى ، وبعضه ملخص .

وهذا تفسير عجيب ينبو عنه لفظ القرآن ، وكذا أكثر ما يقوله هؤلاء القوم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 1 صـ 526. 529 ﴾

ومن فوائد أبى السعود فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مساجد الله ﴾ إنكارٌ واستبعاد لأن يكون أحدٌ أظلمَ ممن فعل ذلك أو مساوياً له وإن لم يكن سبكُ التركيب متعرّضاً لإنكار المساواة ، ونفيُها يشهد به العرفُ الفاشِيْ والاستعمالُ المطّردُ فإذا قيل : مَنْ أكرمُ من فلان ؟ أو لا أفضلَ من فلان فالمرادُ به حتماً أنه أكرمُ من كل كريم وأفضلُ من كل فاضل ، وهذا الحكم عامٌ لكل من فعل ذلك في أي مسجد كان وإن كان سببَ النزول فعلُ طائفةٍ معينة في مسجد مخصوص . رُوي أن النصارى كانوا يطرَحون في بيت المقدس الأذى ويمنعون الناسَ أن يصلوا فيه وأن الرومَ غزَوُا أهلَه فخرَّبوه وأحرقوا التوراة وقتلوا وسبوا وقد نقل عن ابن عباس رضي الله عنهما أن طِيطُوسَ الروميَّ ملكَ النصارى وأصحابَه غزوا بني إسرائيلَ وقتلوا مُقاتِلَتَهم وسبَوُا ذرارِيَهم وأحرقوا التوراةَ وخرَّبوا بيتَ المقدس وقذفوا فيه الجيفَ وذبحوا فيه الخنازيرَ ولم يزل خراباً حتى بناه المسلمون في عهد عمرَ رضي الله عنه ، وإنما أُوقعَ المنعُ على المساجد وإن كان الممنوعُ هو الناسَ لما أن فعلَهم من طرح الأذى والتخريب ونحوِهما متعلقٌ بالمسجد لا بالناس مع كونه على حاله . وتعلقُ الآيةِ الكريمة بما قبلها من حيث إنها مبطلةٌ لدعوى النصارى اختصاصَهم بدخول الجنة ، وقيل : هو منعُ المشركين رسول الله صلى الله عليه

وسلم أن يدخُلَ المسجد الحرام عامَ الحُدَيْبية فتعلُقها بما تقدمها من جهةِ أن المشركين من جُملة الجاهلين القائلين لكل مَنْ عداهم ليسوا على شيء .

(242/63)

﴿ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسمه ﴾ ثاني مفعولي (منع) كقوله تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَ الناس أَن يُؤْمِنُواْ ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بالآيات إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأولون ﴾ ويجوز أن يكون ذلك بحذف الجارّ مع أن وأن يكون ذلك مفعولاً له أي كراهة أن يُذكر فيها اسمُه ﴿ وسعى فِى خَرَابِهَا ﴾ بالهدم أو التعطيل بانقطاع الذكر ﴿ أولئك ﴾ المانعون الظالمون الساعون في خرابها ﴿ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَائِفِينَ ﴾ أي ما كان ينبغي لهم أن يدخلوها إلا بخشية وخضوعٍ فضلاً عن الاجتراء على تخريبها أو تعطيلها أو ما كان الحق أن يدخلوها إلا على حال التهيُّب وارتعادِ الفرائصِ من جهة المؤمنين أن يبطِشوا بهم فضلاً أن يستولوا عليها ويَلوُها ويمنعوهم منها أو ما كان لهم في علم الله تعالى وقضائه بالآخرة إلا ذلك فيكونُ وعداً للمؤمنين بالنُصرة واستخلاص ما استولَوْا عليه منهم وقد أُنجز الوعدُ ولله الحمد .

رُوي أنه لا يدخل بيتَ المقدس أحدٌ من النصارى إلا متنكراً مسارقةً .

وقيل : معناه النهيُ عن تمكنهم من الدخول في المسجد واختلف الأئمة في ذلك فجوّزه أبو حنيفة مطلقاً ومنعه مالك مطلقاً وفرّق الشافعي بين المسجد الحرام وغيره ﴿ لَهُمْ ﴾ أي لأولئك المذكورين ﴿ فِى الدنيا خِزْىٌ ﴾ أي خزي فظيعٌ لا يوصف بالقتل والسبي والإذلال بضرب الجزية عليهم ﴿ وَلَهُمْ فِى الآخرة عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ وهو عذابُ النار لما أن سببه أيضاً وهو ما حُكي من ظلمهم كذلك في العِظَم ، وتقديمُ الظرف في الموضعين للتشويق إلى ما يذكر بعدَه من الخزي والعذاب لما مر من أن تأخيرَ ما حقه التقديمُ موجبٌ لتوجه النفس إليه فيتمكن فيها عند وروده فضلَ تمكنٍ كما في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ ﴿ وَأَنزَلَ لَكُمْ مّنَ الانعام ثمانية أزواج ﴾ إلى غير ذلك . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 1 صـ 149 ﴾

(243/63)

من فوائد الإمام الجصاص فى الآية

قال رحمه الله :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إلَّا خَائِفِينَ ﴾ رَوَى مَعْمَرٌ عَنْ قَتَادَةَ قَالَ : هُوَ بَخْتُ نَصْر ،

خَرَّبَ بَيْتَ الْمَقْدِسِ وَأَعَانَ عَلَى ذَلِكَ النَّصَارَى .

وقَوْله تَعَالَى : ﴿ أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ ﴾ قَالَ : هُمْ النَّصَارَى لَا يَدْخُلُونَهَا إلَّا مُسَارَقَةً ، فَإِنْ قُدِرَ عَلَيْهِمْ عُوقِبُوا لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ ، قَالَ : يُعْطُونَ الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ، وَرَوَى ابْنُ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ قَالَ : هُمْ النَّصَارَى خَرَّبُوا بَيْتَ الْمَقْدِسِ .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : مَا رُوِيَ فِي خَبَرِ قَتَادَةَ يُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ غَلَطًا مِنْ رَاوِيهِ ؛ لِأَنَّهُ لَا خِلَافَ بَيْنَ أَهْلِ الْعِلْمِ بِأَخْبَارِ الْأَوَّلِينَ أَنَّ عَهْدَ بَخْتَ نَصَّرَ كَانَ قَبْلَ مَوْلِدِ الْمَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِدَهْرٍ طَوِيلٍ ، وَالنَّصَارَى إنَّمَا كَانُوا بَعْدَ الْمَسِيحِ وَإِلَيْهِ يَنْتَمُونَ ، فَكَيْفَ يَكُونُونَ مَعَ بَخْتَ نَصَّرَ فِي تَخْرِيبِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ ، وَالنَّصَارَى إنَّمَا اسْتَفَاضَ دِينُهُمْ فِي الشَّامِ وَالرُّومِ فِي أَيَّامِ قُسْطَنْطِينَ الْمَلِكِ وَكَانَ قَبْلَ الْإِسْلَامِ بِمِائَتَيْ سَنَةٍ وَكُسُورٍ ؟ وَإِنَّمَا كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ صَابِئِينَ عَبَدَةَ أَوْثَانٍ وَكَانَ مِنْ يَنْتَحِلُ النَّصْرَانِيَّةَ مِنْهُمْ مَغْمُورِينَ مُسْتَخْفِّينَ بِأَدْيَانِهِمْ فِيمَا بَيْنَهُمْ .

(244/63)

وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّ النَّصَارَى تَعْتَقِدُ مِنْ تَعْظِيمِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ مِثْلَ اعْتِقَادِ الْيَهُودِ فَكَيْفَ أَعَانُوا عَلَى تَخْرِيبِهِ مَعَ اعْتِقَادِهِمْ فِيهِ ؟ وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ : إنَّ الْآيَةَ إنَّمَا هِيَ فِي شَأْنِ الْمُشْرِكِينَ

حَيْثُ مَنَعُوا الْمُسْلِمِينَ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَإِنَّ سَعْيَهُمْ فِي خَرَابِهِ إِنَّمَا هُوَ مَنْعُهُمْ مِنْ عِمَارَتِهِ بِذِكْرِ اللَّهِ وَطَاعَتِهِ قَالَ أَبُو بَكْرٍ : فِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلَالَةٌ عَلَى مَنْعِ أَهْلِ الذِّمَّةِ دُخُولَ الْمَسَاجِدِ مِنْ وَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا : قَوْلُهُ : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ﴾ وَالْمَنْعُ يَكُونُ مِنْ وَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا : بِالْقَهْرِ وَالْغَلَبَةِ ، وَالْآخَرُ : الِاعْتِقَادُ وَالدِّيَانَةُ وَالْحُكْمُ ؛ لِأَنَّ مَنْ اعْتَقَدَ مِنْ جِهَةِ الدِّيَانَةِ الْمَنْعَ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ فِي الْمَسَاجِدِ فَجَائِزٌ أَنْ يُقَالَ فِيهِ قَدْ مَنَعَ مَسْجِدًا أَنْ يُذْكَرَ فِيهِ اسْمُهُ ، فَيَكُونُ الْمَنْعُ هَا هُنَا مَعْنَاهُ الْحَظْرُ ، كَمَا جَائِزٌ أَنْ يُقَالَ مَنَعَ اللَّهُ الْكَافِرِينَ مِنَ الْكُفْرِ وَالْعُصَاةَ مِنَ الْمَعَاصِي بِأَنْ حَظَرَهَا عَلَيْهِمْ وَأَوْعَدَهُمْ عَلَى فِعْلِهَا ؛ فَلَمَّا كَانَ اللَّفْظُ مُنْتَظِمًا لِلْأَمْرَيْنِ وَجَبَ اسْتِعْمَالُهُ عَلَى الِاحْتِمَالَيْنِ .

(245/63)

وَقَوْلُهُ : ﴿ أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ ﴾ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ إِخْرَاجَهُمْ مِنْهَا إِذَا دَخَلُوهَا لَوْلَا ذَلِكَ مَا كَانُوا خَائِفِينَ بِدُخُولِهَا ، وَالْوَجْهُ الثَّانِي : قَوْلُهُ ﴿ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا ﴾ وَذَلِكَ يَكُونُ أَيْضًا مِنْ وَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنْ يُخَرِّبَهَا بِيَدِهِ ، وَالثَّانِي : اعْتِقَادُهُ وُجُوبَ تَخْرِيبِهَا ؛ لِأَنَّ دِيَانَاتِهِمْ تَقْتَضِي ذَلِكَ وَتُوجِبُهُ ثُمَّ عَطَفَ عَلَيْهِ قَوْلُهُ : ﴿ أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ ﴾ وَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى مَنْعِهِمْ مِنْهَا عَلَى مَا بَيَّنَّا ،

وَيَدُلُّ عَلَى مِثْلِ دَلَالَةِ هَذِهِ الْآيَةِ قَوْلُه تَعَالَى : ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ ﴾ وَعِمَارَتُهَا تَكُونُ مِنْ وَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا : بِنَاؤُهَا وَإِصْلَاحُهَا ، وَالثَّانِي : حُضُورُهَا وَلُزُومُهَا ، كَمَا تَقُولُ : فُلَانٌ يَعْمُرُ مَجْلِسَ فُلَانٍ ؛ يَعْنِي يَحْضُرُهُ وَيَلْزَمُهُ .

وَقَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿ إذَا رَأَيْتُمْ الرَّجُلَ يَعْتَادُ الْمَسْجِدَ فَاشْهَدُوا لَهُ بِالْإِيمَانِ ﴾ ، وَذَلِكَ لِقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ ﴿ إنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاَللَّهِ ﴾ فَجَعَلَ حُضُورَهُ الْمَسَاجِدَ عِمَارَةً لَهَا

وَأَصْحَابُنَا يُجِيزُونَ لَهُمْ دُخُولَ الْمَسَاجِدِ ، وَسَنَذْكُرُ ذَلِكَ فِي مَوْضِعِهِ إنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى

وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ عَامٌّ فِي سَائِرِ الْمَسَاجِدِ وَأَنَّهُ غَيْرُ مَقْصُورٍ عَلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ خَاصَّةً أَوْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ خَاصَّةً ، إطْلَاقُهُ ذَلِكَ فِي الْمَسَاجِدِ فَلَا يُخَصُّ شَيْءٌ مِنْهُ إلَّا بِدَلَالَةٍ .

(246/63)

فَإِنْ قِيلَ جَائِزٌ أَنْ يُقَالَ لِكُلِّ مَوْضِعٍ مِنْ الْمَسْجِدِ مَسْجِدٌ كَمَا يُقَالُ لِكُلِّ مَوْضِعٍ مِنْ الْمَجْلِسِ مَجْلِسٌ ، فَيَكُونُ الِاسْمُ وَاقِعًا عَلَى جُمْلَتِهِ تَارَةً وَعَلَى كُلِّ مَوْضِعِ سُجُودٍ فِيهِ أُخْرَى ؟ قِيلَ لَهُ : لَا تَنَازُعَ بَيْنَ أَهْلِ اللِّسَانِ أَنَّهُ لَا يُقَالُ لِلْمَسْجِدِ الْوَاحِدِ مَسَاجِدُ كَمَا لَا يُقَالُ إنَّهُ مَسْجِدَانِ ، وَكَمَا لَا يُقَالُ لِلدَّارِ الْوَاحِدَةِ إنَّهَا دُورٌ ؛ فَثَبَتَ أَنَّ الْإِطْلَاقَ لَا يَتَنَاوَلُهُ وَإِنْ سُمِّيَ مَوْضِعُ السُّجُودِ

مَسْجِدًا ، وَإِنَّمَا يُقَالُ ذَلِكَ مُقَيَّدًا غَيْرَ مُطْلَقٍ وَحُكْمُ الْإِطْلَاقِ فِيمَا يَقْتَضِيهِ مَا وَصَفْنَا ، وَعَلَى أَنَّك لَا تَمْتَنِعُ مِنْ إطْلَاقِ ذَلِكَ فِي جَمِيعِ الْمَسَاجِدِ وَإِنَّمَا تُرِيدُ تَخْصِيصَهُ بِبَعْضِهَا دُونَ بَعْضٍ وَذَلِكَ غَيْرُ مُسَلَّمٍ لَك بِغَيْرِ دَلَالَةٍ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 1 صـ 74.73 ﴾

(247/63)

ومن فوائد ابن العربى فى الآية

قال رحمه الله :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

فِيهَا خَمْسُ مَسَائِلَ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : فِيمَنْ نَزَلَتْ ؟ فِيهِ أَرْبَعَةُ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : أَنَّهُ بُخْتُ نَصَّرَ .

الثَّانِي : أَنَّهُمْ مَانِعُو بَيْتِ الْمَقْدِسِ مِنْ النَّصَارَى اتَّخَذُوهُ كِظَامَةً .

وَالثَّالِثُ : أَنَّهُ الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ عَامَ الْحُدَيْبِيَةِ .

الرَّابِعُ : أَنَّهُ كُلُّ مَسْجِدٍ ؛ وَهُوَ الصَّحِيحُ ؛ لِأَنَّ اللَّفْظَ عَامٌّ وَرَدَ بِصِيغَةِ الْجَمْعِ ؛ فَتَخْصِيصُهُ بِبَعْضِ الْمَسَاجِدِ أَوْ بَعْضِ الْأَزْمِنَةِ مُحَالٌ ، فَإِنْ كَانَ فَأَمْثُلُهَا الثَّالِثُ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : فَائِدَةُ الْآيَةِ : فَائِدَةُ هَذِهِ الْآيَةِ تَعْظِيمُ أَمْرِ الصَّلَاةِ فَإِنَّهَا لَمَّا كَانَتْ أَفْضَلَ الْأَعْمَالِ وَأَعْظَمَهَا أَجْرًا كَانَ مَنْعُهَا أَعْظَمَ إِثْمًا ، وَإِخْرَابُ الْمَسَاجِدِ تَعْطِيلٌ لَهَا وَقَطْعٌ بِالْمُسْلِمِينَ فِي إِظْهَارِ شَعَائِرِهِمْ وَتَأْلِيفِ كَلِمَتِهِمْ .

(248/63)

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : إِنَّ قَوْلَه تَعَالَى : ﴿ مَسَاجِدَ اللَّهِ ﴾ يَقْتَضِي أَنَّهَا لِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ عَامَّةً ، الَّذِينَ يُعَظِّمُونَ اللَّهَ تَعَالَى ، وَذَلِكَ حُكْمُهَا بِإِجْمَاعِ الْأُمَّةِ ؛ عَلَى أَنَّ الْبُقْعَةَ إِذَا عُيِّنَتْ لِلصَّلَاةِ خَرَجَتْ عَنْ جُمْلَةِ الْأَمْلَاكِ الْمُخْتَصَّةِ بِرَبِّهَا ، فَصَارَتْ عَامَّةً لِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ بِمَنْفَعَتِهَا وَمَسْجِدِيَّتِهَا ، فَلَوْ بَنَى الرَّجُلُ فِي دَارِهِ مَسْجِدًا وَحَجَزَهُ عَنْ النَّاسِ ، وَاخْتَصَّ بِهِ لِنَفْسِهِ لَبَقِيَ عَلَى مِلْكِهِ ، وَلَمْ يَخْرُجْ إِلَى حَدِّ الْمَسْجِدِيَّةِ ، وَلَوْ أَبَاحَهُ لِلنَّاسِ كُلِّهِمْ لَكَانَ حُكْمُهُ حُكْمَ سَائِرِ الْمَسَاجِدِ الْعَامَّةِ ، وَخَرَجَ عَنْ اخْتِصَاصِ الْأَمْلَاكِ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : قَوْلُه تَعَالَى : ﴿ أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ ﴾ يَعْنِي إِذَا اسْتَوْلَى عَلَيْهَا الْمُسْلِمُونَ ، وَحَصَلَتْ تَحْتَ سُلْطَانِهِمْ فَلَا يَتَمَكَّنُ الْكَافِرُ حِينَئِذٍ مِنْ دُخُولِهَا

يَعْنِي إنْ دَخَلُوهَا فَعَلَى خَوْفٍ مِنْ إخْرَاجِ الْمُسْلِمِينَ لَهُمْ مِنْهَا وَأَذِيَّتِهِمْ عَلَى دُخُولِهَا ؛ وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ لِلْكَافِرِ دُخُولُ الْمَسْجِدِ بِحَالٍ ، وَسَيَأْتِي ذَلِكَ إنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 1 صـ 50. 51 ﴾

(249/63)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُوْلَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَآئِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (114) ﴾

فالحق جل جلاله بعد أن بين لنا موقف اليهود والنصارى والمشركين من بعضهم البعض ومن الإسلام ، وكيف أن هذه الطوائف الثلاث تواجه الإسلام بعداء ويواجه بعضها البعض باتهامات . . فكل طائفة منها تتهم الأخرى أنها على باطل . . أراد أن يحذرهم تبارك وتعالى من الحرب ضد الإسلام ومحاربة هذا الدين فقال : " ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه " . . مساجد العبودية كما بينا . . لأنك تضع أشرف شيء فيك وهو وجهك على الأرض خضوعا لله وخشوعا له .

قبل الإسلام كان لا يمكن أن يصلي أتباع أي دين إلا في مكان خاص بدينهم . . مكان مخصص لا تجوز الصلاة إلا فيه . . ثم جاء الله بالإسلام فجعل الأرض كلها مسجدا وجعلها طهورا . . ومعنى أن تكون الأرض كلها مسجدا هو توسيع على عباد الله في مكان التقائهم بربهم وفي أماكن عبادتهم له حتى لا تصح الصلاة إلا فيه . . وأنت إذا أردت أن تصلي ركعتين لله بخلاف الفرض . . مثل صلاة الشكر أو صلاة الاستخارة أو صلاة الخوف . . أو أي صلاة من السنن التي علمها لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم . . فإنك تستطيع أن تؤديها في أي وقت . . فكأنك تلتقي بالله سبحانه أين ومتى تحب .

وما دام الله تبارك وتعالى أنعم على رسوله صلى الله عليه وسلم وعلى أمته بأن جعل لم الأرض مسجدا طهورا فإنما يريد أن يوسع دائرة التقاء العباد بربهم . .

(250/63)

<ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي . نُصرتُ بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي وأعطيت الشفاعة وكان النبي يبعث إلي قومه خاصة وبعثت إلي الناس عامة رواه البخاري ومسلم والترمذي عن

جابر

ولكن لماذا خص الله أمة محمد بهذه النعمة ؟ لأن الإسلام جاء على موعد مع ارتقاءات العقل وطموحات الدنيا . . كلما ارتقى العقل في علوم الدنيا كشف قوانين وتغلب على عقبات . . وجاء بمبتكرات ومخترعات تفتن عقول الناس . . وتجذبهم بعيدا عن الدين فيعبدون الأسباب بدلا من خالق الأسباب .

يريد الحق تبارك وتعالى أن يجعل عبادتهم له ميسرة دائما حتى يعصمهم من هذه الفتنة . . وهو جل جلاله يريدنا حين نرى التليفزيون مثلا ينقل الأحداث من أقصى الأرض إلي أقصاها ومن القمر إلي الأرض في نفس لحظة حدوثها . . أن نسجد لله على نعمه التي كشف لنا عنها في أي مكان نكون فيه . . فخصائص الغلاف الجوي موجودة في الكون منذ خلق الله السماوات والأرض . . لم يضعها أحد من خلق الله في كون الله هذه الأيام . . ولكنها خلقت مع خلق الكون . . وشاء الله ألا ندرك وجودها ونستخدمها إلا هذه الأيام . . فلابد أن نسجد لله شكرا على نعمه التي كشفت لنا أسرارا في الكون لم نكن نعرفها . . وهذه الأسرار تبين لنا دقة الخلق وتقربنا إلي قضايا الغيب .

فإذا قيل لنا أن يوم القيامة سيقف خلق الله جميعا وهم يشاهدون الحساب وإن كل واحد منهم سيرى الحساب لحظة حدوثه . . لا يتعجب ونقول هذا مستحيل . . لأن أحداث العالم الهامة نراها الآن كلها لحظة حدوثها ونحن في منتهى الراحة . . ونحن جالسون في

منازلنا أمام التليفزيون . . أي أننا نراها جميعا في وقت واحد دون جهد . . فإذا كانت هذه هي قدرات البشر للبشر . . فكيف بقدرات خالق البشر للبشر ؟ .

(251/63)

عندما نرى أسرار قوانين الله في كونه . . لابد أن نسجد لعظمة الخالق سبحانه وتعالى ، الذي وضع كل هذا العلم والإعجاز في الكون . . وهذا السجود يقتضي أن تكون الأرض كلها مساجد حتى يمكنك وأنت في مكانك أن تسجد لله شكرا . . ولا تضطر للذهاب إلي مكان آخر قد يكون بعيدا أو الطريق إليه شاقا فينسيك هذا شكر الله والسجود له . . فالله سبحانه وتعالى شاء أن يوسع على المؤمنين برسول الله صلى الله عليه وسلم دائرة الالتقاء بربهم ؛ لأن هناك أشياء ستأتي الرسالة المحمدية في موعد كشفها لخلق الله . . وكلما انكشف سر من أسرار الوجود اغتر الإنسان بنفسه . . ومادام الغرور قد دخل إلي النفس البشرية . . فلابد أن يجعل الله في الكون ما يعدل هذا الغرور .

لقد كانت الأمور عكس ذلك قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم . . كانت الأمور فطرية فإذا امتنعت الأمطار ونضبت العيون والآبار . . لم يكن أمامها إلا أن يتوجهوا إلي السماء بصلاة الاستسقاء . . وكذلك في كل أمر يصعب عليهم مواجهته . . ولكن الآن بعد أن

كشف الله لخلقه عن بعض أسراره في كونه . . أصبحت هناك أكثر من وسيلة يواجه بها الإنسان عددا من أزمات الكون . . هذه الوسائل قد جعلت البشر يعتقدون أنهم قادرون على حل مشكلاتهم . . بعيدا عن الله سبحانه وتعالى وبجهودهم الخاصة . . فبدأ الاعتماد على الخلق بدلا من الاعتماد على الحق . . ولذلك نزل قول الحق سبحانه وتعالى :

(252/63)

اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونِةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (35) فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ

(من الآية 35 ومن الآية 36 سورة النور)

ما هي هذه البيوت التي يرى فيها الناس نور الله تبارك وتعالى ؟ هي المساجد . . فعمار المساجد وزوارها الدائمون على الصلاة فيها هم الذين يرون نور الله . . فإذا أتى قوم يجترئون عليها ويمنعون أن يذكر اسم الله فيها . . فمعنى ذلك أن المؤمنين القائمين على هذه

المساجد ضعفاء الإيمان ضعفاء الدين تجرأ عليهم أعداؤهم . . لأنهم لو كانوا أقوياء ما كان يجرؤ عدوهم على أن يمنع ذكر اسم الله في مساجد الله . . أو أن يسعى إلي خرابها فتهدم ولا تقام فيها صلاة الجمعة . . ولكن ساعة يوجد من يخرب بيتا من بيوت الله . . يهب الناس لمنعه والضرب على يده يكون الإيمان قويا . . فإن تركوه فقد هان المؤمنون على عدوهم . . لماذا ؟ لأن الكافر الذي يريد أن يطفئ مكان إشعاع نور الله لخلقه . . يعيش في حركة الشر في الوجود التي تقوى وتشتد كلما استطاع غير المؤمنين أن يمنعوا ذكر اسم الله في بيته وأن يخربوه .

(253/63)

وقول الحق سبحانه وتعالى : " أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين " . . أي أن هؤلاء الكفار ما كان يصح لهم أن يدخلوا مساجد الله إلا خائفين أن يفتك بهم المؤمنون من أصحاب المسجد والمصلين فيه . . فإذا كانوا قد دخلوا غير خائفين . . فمعنى ذلك أن وازع الإيمان في نفوس المؤمنين قد ضعف . قوله تعالى : " ومن أظلم " . . معناه أنه لا يوجد أحد أظلم من ذلك الذي يمنع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه . . أي أن هذا هو الظلم العظيم . . ظلم القمة . . وقوله تعالى : " وسعى في خرابها " . . أي في إزالتها أو بقائها غير

صالحة لأداء العبادة . . والسعي في خراب المسجد هو هدمه .

ويختم الحق سبحانه الآية الكريمة بقولة : " لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم" . . أي لن يتركهم الله في الدنيا ولا في الآخرة . . بل يصيبهم في الدنيا خزي . . والخزي هو الشيء القبيح الذي تكره أن يراك عليه الناس . . قوله تعالى : " لهم في الدنيا خزي" . . هذا مظهر غيرة الله على بيوته . . وانظر إلي ما أذاقهم الله في الدنيا بالنسبة ليهود المدينة الذين كانوا يسعون في خراب مساجد الله . . لقد أخذت أموالهم وطردوا من ديارهم . . هذا حدث . . وهذا معنى قوله تعالى الخزي في الدنيا . . أما في الآخرة فإن أعداء الله سيحاسبون حسابا عسيرا لتطاولهم على مساجد الله سبحانه ، ولكن في الوقت نفسه فإن المؤمنين الذين سكتوا على هذا وتخاذلوا عن نصرة دين الله والدفاع عن بيوت الله . . سيكون لهم أيضا عذاب أليم . أنني أحذر كل مؤمن أن يتخاذل أو يضعف أمام أولئك الذين يحاولون أن يمنعوا ذكر الله في مساجده . . لأنه في هذه الحالة يكون مرتكبا لذنبهم نفسه وربما أكثر . . ولا يتركه الله يوم القيامة بل يسوقه إلي النار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 537. 541 ﴾

(254/63)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (114) ﴾

أخرج ابن إسحاق وابن أبي حاتم عن ابن عباس . أن قريشاً منعوا النبي صلى الله عليه وسلم الصلاة عند الكعبة في المسجد الحرام ، فأنزل الله ﴿ ومن أظلم ممن منع مساجد الله . . . ﴾ الآية .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ ومن أظلم ممن منع مساجد الله ﴾ قال : هم النصارى .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد في قوله ﴿ ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه ﴾ قال : هم النصارى ، وكانوا يطرحون في بيت المقدس الأذى ، ويمنعون الناس أن يصلوا فيه .

وأخرج ابن جرير عن السدي في قوله ﴿ ومن أظلم ممن منع مساجد الله . . . ﴾ الآية . قال : هم الروم ، كانوا ظاهروا بختنصر على بيت المقدس . وفي قوله ﴿ أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين ﴾ قال : فليس في الأرض رومي يدخله اليوم إلا وهو خائف أن تضرب عنقه ، وقد أخيف بأداء الجزية فهو يؤديها . وفي قوله ﴿ لهم في الدنيا خزي ﴾ قال

: أما خزيهم في الدنيا فإنه إذا قام المهدي وفتحت القسطنطينية قتلهم فذلك الخزي .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة في الآية قال : أولئك أعداء الله الروم ، حملهم بغض اليهود على أن أعانوا بختنصر البابلي المجوسي على تخريب بيت المقدس .

وأخرج ابن أبي حاتم عن كعب قال : إن النصارى لما ظهروا على بيت المقدس حرقوه ، فلما بعث الله محمداً أنزل عليه ﴿ ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها . . . ﴾ الآية . فليس في الأرض نصراني يدخل بيت المقدس إلا خائفاً .

(255/63)

وأخرج ابن جرير عن ابن زيد في الآية قال : هؤلاء المشركون حين صدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن البيت يوم الحديبية .

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي صالح قال : ليس للمشركين أن يدخلوا المسجد إلا وهم خائفون .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن قتادة في قوله ﴿ لهم في الدنيا خزي ﴾ قال : يعطون الجزية عن يدٍ وهم صاغرون .

وأخرج أحمد والبخاري في تاريخه عن بسر بن أرطاة قال "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها ، وأجرنا من خزي الدنيا ومن عذاب الآخرة" . انتهى انتهى . اهـ ﴿الدر المنثور حـ 1 صـ 264. 265﴾

(256/63)

" فوائد بلاغية "

قال فى صفوة التفاسير :

البلاغة :

1- [تلك أمانيهم] الجملة اعتراضية وفائدتها بيان بطلان الدعوى وأنها دعوى كاذبة .

2- [قل هاتوا برهانكم] الأمر هنا للتبكيت والتقريع ، فليس عندهم حجة أو برهان .

3- [من أسلم وجهه لله] خص الوجه بالذكر لأنه أشرف الأعضاء ، فالوجه هنا استعارة عن القصد ، والتوجه والإقبال على الله ، ومعنى [أسلم وجهه] أي استسلم وخضع ، وأخلص عمله لله .

4- [عند ربه] وضع اسم الرب موضع ضمير الجلالة ، لإظهار مزيد اللطف به .

5- [قال الذين لا يعلمون] فيه توبيخ عظيم لأهل الكتاب لأنهم خرطوا أنفسهم - مع

علمهم - في سلك من لا يعلم أصلا .

6- [ومن أظلم] الاستفهام بمعنى النفي أي لا أحد أظلم منه .

7- [لهم في الدنيا خزي] التنكير للتهويل أي خزي هائل فظيع ، لا يكاد يوصف لهوله .

8- [عليم] صيغة فعيل للمبالغة ، أي واسع العلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 1 صـ 90.89 ﴾

(257/63)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

و " مَنْ " يجوز أن تكون موصولة ، فلا محلّ للجملة بعدها ، وأن تكون موصوفةً فتكون الجملة محلّ جار صفة لها .

و " مَسَاجِدَ " مفعول أول بت " منع " ، وهي جمع مسجد ، وهو اسم مكان السجود ، وكان من حقه أن يأتي على " مَفْعَل " بالفتح لانضمام عين مضارعة ، ولكن شذّ كسره ، [كما شذّت ألفاظ تأتي] .

وقد سمع " مَسْجَد " بالفتح على الأصل .

قال القرطبي رحمه الله : قال الفَرَّاء : كل ما كان على " فَعَلَ يَفْعُل " ، مثل دَخَلَ يَدخُل ، فالمَفْعَل منه بالفتح اسماً كان أو مصدراً ، ولا يقع فيه الفرق ، مثل : دخل يَدْخُل مَدْخَلاً ، وهذا مَدْخَلُه ، إلاَ أحرفاً من الأسماء ألزموها كسر العين ، من ذلك : المَسْجِد ، والمَطْلِع ، المَغْرِب ، والمَشْرِقن والمَسْقِط ، والمَفْرِق ، والْمجزِر ، والمَسْكِن ، والمَرْفِق ، من : رفَقَ يَرْفُق ، والمَنْبِت ، والمنْسك مَنْك نَسَكَ يَنْسُك ، فجعلوا الكَسر علامة للاسم .

والمَسْجَد بالفتح جَبْهَةُ الرجل حيث يصيبه مكان السجود .

قال الجوهري رحمه الله تعالى : الأعظاء السَّبعة مَسَاجد ، وقد تبدل جيمه ياء ، ومنه : المَسْجد لغة " .

قوله تعالى : " أَنْ يُذْكَرَ " ناصب ومنصوب ، وفيه أربع أوجه :

أحدها : أنه ثاني لـ " منع " ، تقول : منعته كذا .

وقال أبو حيان : فتعين حذف مضاف أي دخول مساجد الله ، ما أشبهه .

والثالث : أنه بدل اشتمال من " مَسَاجِدَ " أي : منع ذكر اسمه فيها .

والرابع : إنه على إسقاط حرف الجر ، والأصل من أن يذكر ، وحينئذ يجيء فيها مذهبان مشهوران م كونها في محلّ نصب أو جر ، و" في خرابها " متعلق بـ " سعى " .

واختلف في " خراب " فقال أبو البقاء : " هو اسم مصدر بمعنى التخريب كالسَّلام بمعنى التسليم ، وأضيف اسم المصدر لمفعوله ؛ لأنه يعمل عمل الفعل " .

وهذا على أحد القولين في أسم المصدر ، هل يعمل أو لا ؟ وأنشدوا على إعماله : [الوافر

]

746 أَكُراً بَعْدَ رَدّ المَوْتِ عَنّي . . .

وَبَعْدَ عَطَائِكَ المائَةَ الرِّتَاعَا

وقال غيره : هو مصدر : خَرِبَ المكان يَخْرُبَ خرباً ن فالمعنى : سعى في أن تَخْرب هي بنفسها بعدم تَعَاهدها بالعِمَارة ، ويقال : منزل خَرَاب وخَرِب ؛ كقوله : [البسيط]

747 ما رَبْعُ مَيّةَ مَعْمُوراً يَطِيفُ بِهِ . . .

غَيْلاَنُ أَبْهَى رُباً مِنْ رَبْعِها الخَرِبِ

(258/63)

فهو على الاول مضاف للمفعول وعلى الثاني مضاف للفاعل .

قوله تعالى : ﴿ أولئك مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ ﴾ .

" أولئك " مبتدأ ، " لهم " خبر " كان " مقدّم على اسمها ، واسمها " أَنْ يَدْخُلُوهَا " لأنه في تأويل المصدر ، أي : ما كان لهم الدخول ، والجملة المنفية محلّ رفع خبر عن " أولئك " .

قوله : إِلاَّ خَائِفِينَ " حال من فاعل " يَدْخُلُوهَا " وهذا استثناء مفرّغ من الأحوال ؛ لأن

التقدير : ما كان لهم الدخول في جميع الأحوال ، إلاَّ في حالة الخوف .

وقرأ أبي " خُيَّفاً " وهو جمع خَائِف ، كـ " ضارب و" ضُرِّب " ، والأصل : خُوَّف كـ " صُوَّم " ، إلا أنه أبدل الواوين ياءين وهو جائز ، قالوا : صوم وصيم ، وحَمَل أولاً على لفظ " من " ، فأفرد في قوله : " منع ، وسعى " وعلى معناه ثانياً ، فجمع في قوله : " أولئك " وما بعده .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 2 صـ 406. 410 ﴾ . باختصار .

(259/63)

بسم الله الرحمن الرحيم

الكتاب / الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

ويسمى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العَاجِزُ الْفَقِيرُ

عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مُحَمَّدٍ الْقَمَّاش

إِمَامُ وَخَطِيبُ مَسْجِدِ بُورُسْلِى - رَأْسُ الْخَيمَةِ

دَولَةُ الإِمَارَاتِ الْعَرَبِيَّةِ الْمُتَّحِدَةِ

(عَفَا اللهُ عَنْهُ وَغَفَرَ لَهُ)

الجزء الرابع والستون

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/64)

الجزء الرابع والستون

من الآية ﴿ 115 ﴾ سورة البقرة

وحتى الآية ﴿ 119 ﴾ من نفس السورة

(4/64)

قوله تعالى ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (115) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما أفهمت الآية أنه حصل لأولياء الله منع من عمارة بيت الله بذكره وكان الله تعالى قد منّ على هذه الأمة بأن جعل الأرض كلها لها مسجداً سلّى المؤمنين بأنهم أينما صلوا بقصد عبادته لقيهم ثوابه ، لأنه لا يختص به جهة دون جهة ، لأن ملكه للكل على حدّ سواء ؛ فكان كأنه قيل : فأقيموا الصلاة التي هي أعظم ذكر الله حيثما كنتم فإنه لله ، كما أن المسجد الذي مُنعتموه لله ؛ وعطف عليه قوله : ﴿ ولله ﴾ أي الذي له الكمال كله ﴿ المشرق ﴾ أي موضع الشروق وهو مطلع الأنوار ﴿ والمغرب ﴾ وهو موضع أفولها ، فأنبأ تعالى كما قال الحرالي بإضافة جوامع الآفاق إليه إعلاماً بأن الوجهة لوجهه لا للجهة ، من حيث إن الجهة له – انتهى .

ولما كان هذان الأفقان مداراً للكواكب من الشمس وغيرها عبر بهما عن جميع الجهات ، لتحول الأفلاك حال الدوران إلى كل منهما .

فلذلك تسبب عن ذكرهما قوله : ﴿ فأينما تولوا ﴾ أي فأي مكان أوقعتم فيه التولية للصلاة إلى القبلة التي أمرتم بالتولية إليها من بيت المقدس أو الكعبة أو غيرهما في النافلة ﴿ فثَم ﴾ أي فذلك الموضع ، لأن " ثَمَّ " إشارة لظرف مكان ﴿ وجه الله ﴾ أي جهته التي وجهكم إليها أو مكان استقباله والتوجه إليه وما يستقبلكم من جلاله وجماله ويتوجه إليكم من بره وإفضاله .

فإن نسبة جميع الأماكن والجهات في الإبداع والقرب والبعد وغير ذلك إليه واحدة .

قال الحرالي : وأبهم المولى ليقع تولي القلب لوجه الله حين تقع محاذاة وجه الموجه الظاهر للجهة المضافة لله – انتهى .

ولما أخبر من سعة فضله مبثوثاً في واسع ملكه بما وقفت العقول عن منتهى علمه علله بما صغُر ذلك في جنبه فقال : ﴿ إن الله ﴾ فذكره بالاسم الأعظم الجامع لجميع الأسماء ﴿ واسع ﴾ أي محيط بما لا تدركه الأوهام ، فلا يقع شيء إلا في ملكه ؛ وأصل الوسع تباعد الأطراف والحدود ﴿ عليم ﴾ فلا يخفى عليه فعل فاعل أي ما كان وكيف ما كان ، فهو يعطي المتوجه إليه على قدر نيته بحسب بلوغ إحاطته وشمول علمه وقدرته .

قال الحرالي في شرح الأسماء : والسعة المزيد على الكفاية من نحوها إلى أن ينبسط إلى ما وراء امتداداً ورحمة وعلماً ﴿ ورحمتي وسعت كل شيء ﴾ [الأعراف : 156] ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ [يونس : 26] ﴿ لهم ما يشاؤون فيها ولدينا مزيد ﴾ [المائدة : 35] ولا تقع السعة إلا مع إحاطة العلم والقدرة وكمال الحلم وإفاضة الخير والنعمة لمقتضى كمال الرحمة ، ولمسرى النعمة في وجوه الكفايات ظاهراً وباطناً خصوصاً وعموماً لم يكد يصل الخلق إلى حظ من السعة ، أما ظاهراً فلا تقع منهم ولا تكاد " إنكم لن تسعوا الناس بمعروفكم " ، وأما باطناً بخصوص حسن الخلق فعساه يكاد .

وقال في تفسيره : قدم تعالى : ﴿ المشرق ﴾ لأنه موطن بدو الأنوار التي منها رؤية الأبصار ، وأعقبه بالمغرب الذي هو مغرب الأنوار الظاهرة وهو مشرق الأنوار الباطنة ، فيعود التعادل إلى أن مشرق الأنوار الظاهرة هو مغرب الأنوار الباطنة " الفتنة ههنا من حيث يطلع قرن الشيطان – وأشار بيده نحو المشرق " " لا يزال أهل المغرب ظاهرين على الحق " انتهى .

قلت : ومن ذلك حديث صفوان بن عسال رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن لله بالمغرب باباً – وفي رواية : باب التوبة مفتوح من قبل المغرب – مسيرة عرضه سبعون عاماً ، لا يغلق ما لم تطلع الشمس من قبله "

أخرجه الطبراني والبغوي في تفسيره ، وقد ظهر أن المغرب في الحديث المتقدم هو في الصحيح ما عدا المشرق الذي أشار إليه بالفتنة في الحديث الآخر ، فالمغرب حينئذ المدينة وما ينسب إليها من جهة المشرق وما وراء ذلك من جهة الجنوب والشمال وما وراء ذلك من جهة الغرب إلى منتهى الأرض ، فلا يعارض حينئذ حديث " وهم بالشام " فإنها من جملة المغرب على هذا التقدير ، فدونك جمعاً طال ما دارت فيه الرؤوس وحارت فيه الأفكار في المحافل والدروس – والله الموفق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 228.226 ﴾

فصل

قال الفخر :

اختلفوا في سبب نزول هذه الآية ، الضابط أن الأكثرين زعموا أنها إنما نزلت في أمر يختص بالصلاة ومنهم من زعم أنها إنما نزلت في أمر لا يتعلق بالصلاة ، أما القول الأول فهو أقوى لوجهين ، أحدها : أنه هو المروي عن كافة الصحابة والتابعين وقولهم حجة .

وثانيهما : أن ظاهر قوله : ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ ﴾ يفيد التوجه إلى القبلة في الصلاة ، ولهذا لا يعقل من قوله : ﴿ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ ﴾ [البقرة : 144] إلا هذا المعنى إذا ثبت هذا فنقول : القائلون بهذا القول اختلفوا على وجوه :

أحدها : أنه تعالى أراد به تحويل المؤمنين عن استقبال بيت المقدس إلى الكعبة ، فبين تعالى أن المشرق والمغرب وجميع الجهات والأطراف كلها مملوكة له سبحانه ومخلوقة له ، فأينما أمركم الله باستقباله فهو القبلة ، لأن القبلة ليست قبلة لذاتها ، بل لأن الله تعالى جعلها قبلة ، فإن جعل الكعبة قبلة فلا تنكروا ذلك لأنه تعالى يدبر عباده كيف يريد وهو واسع عليم بمصالحهم فكأنه تعالى ذكر ذلك بياناً لجواز نسخ القبلة من جانب إلى جانب آخر ، فيصير ذلك مقدمة لما كان يريد تعالى من نسخ القبلة .

وثانيها : أنه لما حولت القبلة عن بيت المقدس أنكر اليهود ذلك فنزلت الآية رداً عليهم وهو قول ابن عباس وهو نظير قوله : ﴿ قُل لِّلَّهِ المشرق والمغرب يَهْدِى مَن يَشَآءُ إلى صراط مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [البقرة : 142] .

وثالثها : قول أبي مسلم وهو أن اليهود والنصارى كل واحد منهم قال : إن الجنة له لا لغيره ، فرد الله عليهم بهذه الآية لأن اليهود إنما استقبلوا بيت المقدس لأنهم اعتقدوا أن الله تعالى صعد السماء من الصخرة والنصارى استقبلوا المشرق لأن عيسى عليه السلام إنما ولد هناك على ما حكى الله ذلك في قوله تعالى : ﴿ واذكر فِى الكتاب مَرْيَمَ إِذِ انتبذت مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِياً ﴾ [مريم : 16] فكل واحد من هذين الفريقين وصف معبوده بالحلول في الأماكن ومن كان هكذا فهو مخلوق لا خالق ، فكيف تخلص لهم الجنة وهم لا يفرقون بين المخلوق والخالق .

ورابعها : قال بعضهم : إن الله تعالى نسخ بيت المقدس بالتخيير إلى أي جهة شاء بهذه الآية ، فكان للمسلمين أن يتوجهوا إلى حيث شاءوا في الصلاة إلا أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يختار التوجه إلى بيت المقدس مع أنه كان له أن يتوجه حيث شاء ، ثم أنه تعالى نسخ ذلك بتعيين الكعبة ، وهو قول قتادة وابن زيد .

وخامسها : أن المراد بالآية من هو مشاهد للكعبة فإن له أن يستقبلها من أي جهة شاء وأراد .

وسادسها : ما روى عبد الله بن عامر بن ربيعة قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزاة في ليلة سوداء مظلمة فلم نعرف القبلة فجعل كل رجل منا مسجده حجارة موضوعة بين يديه ، ثم صلينا فلما أصبحنا إذا نحن على غير القبلة فذكرنا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى هذه الآية وهذا الحديث يدل على أنهم كانوا قد نقلوا حينئذ إلى الكعبة لأن القتال فرض بعد الهجرة بعد نسخ قبلة بيت المقدس .

وسابعها : أن الآية نزلت في المسافر يصلي النوافل حيث تتوجه به راحلته .

وعن سعيد بن جبير عن ابن عمر أنه قال : إنما نزلت هذه الآية في الرجل يصلي إلى حيث توجهت به راحلته في السفر .

وكان عليه السلام إذا رجع من مكة صلى على راحلته تطوعاً يومىء برأسه نحو المدينة ، فمعنى الآية : ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ ﴾ وجوهكم لنوافلكم في أسفاركم : ﴿ فَثَمَّ وَجْهُ الله ﴾ فقد صادفتم المطلوب : ﴿ إِنَّ الله واسع ﴾ الفضل غني ، فمن سعة فضله وغناه رخص لكم في ذلك لأنه لو كلفكم استقبال القبلة في مثل هذه الحال لزم أحد الضررين ، إما ترك النوافل ، وإما النزول عن الراحلة والتخلف عن الرفقة بخلاف الفرائض ، فإنها صلوات معدودة

محصورة فتكليف النزول عن الراحلة عند أدائها واستقبال القبلة فيها لا يفضي إلى الحرج بخلاف النوافل ، فإنها غير محصورة ، فتكليف الاستقبال يفضي إلى الحرج .

فإن قيل : فأي هذه الأقاويل أقرب إلى الصواب .

قلنا : إن قوله : ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ ﴾ مشعر بالتخيير والتخيير لا يثبت إلا في صورتين .

أحدهما : في التطوع على الراحلة .

وثانيهما : في السفر عند تعذر الاجتهاد للظلمة أو لغيرها ، لأن في هذين الوجهين المصلي مخير فأما على غير هذين الوجهين فلا تخيير وقول من يقول : إن الله تعالى خير المكلفين في استقبال أي جهة شاءوا بهذه الآية ، وهم كانوا يختارون بيت المقدس لا لأنه لازم ، بل لأنه أفضل وأولى بعيد لأنه لا خلاف أن لبيت المقدس قبل التحويل إلى الكعبة اختصاصاً في الشريعة ولو كان الأمر كما قالوا : لم يثبت ذلك الاختصاص وأيضاً فكان يجب أن يقال : إن بيت المقدس صار منسوخاً بالكعبة فهذه الدلالة تقتضي أن يكون حمل الآية على الوجه الثالث والرابع ، وأما الذين حملوا الآية على الوجه الأول فلهم أن يقولوا : إن القبلة لما حولت

تكلم اليهود في صلاة الرسول صلى الله عليه وسلم وصلاة المؤمنين إلى بيت المقدس فبين تعالى بهذه الآية أن تلك القبلة كان التوجه إليها صواباً في ذلك الوقت والتوجه إلى الكعبة صواب في هذا الوقت ، وبين أنهم أينما يولوا من هاتين القبلتين في المأذون فيه فثم وجه الله ، قالوا : وحمل الكلام على هذا الوجه أولى ، لأنه يعم كل مصل ، وإذا حمل على الأول لا يعم لأنه يصير محمولاً على التطوع دون الفرض ، وعلى السفر في حالة مخصوصة دون الحضر ، وإذا أمكن إجراء اللفظ العام على عمومه فهو أولى من التخصيص ، وأقصى ما في الباب أن يقال : إن على هذا التأويل لا بد أيضاً من ضرب تقييد وهو أن يقال : ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ ﴾ من الجهات المأمور بها : ﴿ فَثَمَّ وَجْهُ الله ﴾ إلا أن هذا الإضمار لا بد منه على كل حال ، لأنه من المحال أن يقول تعالى : ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ ﴾ بحسب ميل أنفسكم ﴿ فَثَمَّ وَجْهُ الله ﴾ بل لا بد من الإضمار الذي ذكرناه ، وإذا كان كذلك فقد زالت طريقة التخيير ونظيره : إذا أقبل أحدنا على ولده وقد أمره بأمور كثيرة مترتبة فقال له : كيف تصرفت فقد اتبعت رضائي ، فإنه يحمل ذلك على ما أمره على الوجه الذي أمره من تضييق أو تخيير ،

ولا يحمل ذلك على التخيير المطلق فكذا ههنا .

القول الثاني : وهو قول من زعم أن هذه الآية نزلت في أمر سوى الصلاة فلهم أيضاً وجوه :

أولها : أن المعنى أن هؤلاء الذين ظلموا بمنع مساجدي أن يذكر فيها اسمي وسعوا في خرابها أولئك لهم كذا وكذا ، ثم أنهم أينما ولوا هاربين عني وعن سلطاني فإن سلطاني يلحقهم ، وقدرتي تسبقهم وأنا عليم بهم ، لا يخفى علي مكانهم وفي ذلك تحذير من المعاصي وزجر عن ارتكابها ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الله واسع عَلِيمٌ ﴾ نظير قوله : ﴿ إِنِ استطعتم أَن تَنفُذُواْ مِنْ أقطار السموات والأرض فانفذوا لاَ تَنفُذُونَ إِلاَّ بسلطان ﴾ [الرحمن : 33] فعلى هذا يكون المراد منه سعة العلم ، وهو نظير : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنتُمْ ﴾ [الحديد : 4] وقوله : ﴿ مَا يَكُونُ مِن نجوى ثلاثة إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾ [المجادلة : 7] وقوله : ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً ﴾ [غافر : 7] وقوله : ﴿ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً ﴾ [طه : 98] أي عم كل شيء بعلمه وتدبيره وإحاطته به وعلوه عليه .

وثانيها : قال قتادة : إن النبي عليه السلام قال : " إن أخاكم النجاشي قد مات فصلوا عليه ، قالوا : نصلي على رجل ليس بمسلم " فنزل قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الكتاب لَمَن يُؤْمِنُ

بالله وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خاشعين للَّهِ لاَ يَشْتَرُونَ بِآيات الله ثمناً قليلاً أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب ﴾ [آل عمران : 199] فقالوا : إنه كان يصلي إلى غير القبلة ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ المشرق والمغرب فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ الله ﴾ ومعناها أن الجهات التي يصلي إليها أهل الملل من شرق وغرب وما بينهما ، كلها لي فمن وجه وجهه نحو شيء منها بأمر يريدني ويبتغي طاعتي وجدني هناك أي وجد ثوابي فكان في هذا عذر للنجاشي وأصحابه الذين ماتوا على استقبالهم المشرق وهو نحو قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ الله لِيُضِيعَ إيمانكم ﴾ [البقرة : 143] .

وثالثها : لما نزل قوله تعالى : ﴿ ادعوني أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر : 60] قالوا : أين ندعوه فنزلت هذه الآية ، وهو قول الحسن ومجاهد والضحاك .

ورابعها : أنه خطاب للمسلمين ، أي لا يمنعكم تخريب من خرب مساجد الله عن ذكره حيث كنتم من أرضه فلله المشرق والمغرب والجهات كلها ، وهو قول علي بن عيسى .

وخامسها : من الناس من يزعم أنها نزلت في المجتهدين الوافين بشرائط الاجتهاد سواء كان في الصلاة أو في غيرها ، والمراد منه أن المجتهد إذا رأى بشرائط الاجتهاد فهو مصيب .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 4 صـ 17 . 20 ﴾

فائدة

قال الفخر :

إن فسرنا الآية بأنها تدل على تجويز التوجه إلى أي جهة أريد ، فالآية منسوخة وإن فسرناها بأنها تدل على نسخ القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة فالآية ناسخة ، وإن فسرناها بسائر الوجوه فهي لا ناسخة ولا منسوخة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 4 صـ 20 ﴾

فائدة

قال الفخر :

اللام في قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ المشرق والمغرب ﴾ لام الاختصاص أي هو خالقهما ومالكهما ، وهو كقوله : ﴿ رَبُّ المشرقين وَرَبُّ المغربين ﴾ [الرحمن : 17] وقوله : ﴿ بِرَبّ المشارق والمغارب ﴾ [المعارج : 40] و ﴿ رَبُّ المشرق والمغرب ﴾ [المزمل : 9] ثم أنه سبحانه أشار بذكرهما إلى ذكر من بينهما من المخلوقات ، كما قال : ﴿ ثُمَّ استوى إِلَى السماء وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائتيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ [فصلت : 11] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 4 صـ 20 ﴾

قال الآلوسى :

﴿ وَلِلَّهِ المشرق والمغرب ﴾ أي الناحيتان المعلومتان المجاورتان لنقطة تطلع منها الشمس وتغرب ، وكنى بمالكيتهما عن مالكية كل الأرض ، وقال بعضهم : إذا كانت الأرض كروية يكون كل مشرق بالنسبة مغرباً بالنسبة والأرض كلها كذلك فلا حاجة إلى التزام الكناية ، وفيه بعد ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ ﴾ أي ففي أي مكان فعلتم التولية شطر القبلة ، وقرأ الحسن ﴿ تَوَلَّوْاْ ﴾ على الغيبة ﴿ فَثَمَّ وَجْهُ الله ﴾ أي فهناك جهته سبحانه التي أمرتم بها ، فإذاً مكان التولية لا يختص بمسجد دون مسجد ولا مكان دون آخر ﴿ فَأَيْنَمَا ﴾ ظرف لازم الظرفية متضمن لمعنى الشرط وليس مفعولاً ل ﴿ تَوَلَّوْاْ ﴾ والتولية بمعنى الصرف منزل منزلة اللازم ، و(ثم) اسم إشارة للمكان البعيد خاصة مبني على الفتح ولا يتصرف فيه بغير من وقد وهم من أعربه مفعولاً به في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً ﴾ [الإنسان : 20] وهو خبر مقدم ، وما بعده مبتدأ مؤخر ، والجملة جواب الشرط والوجه الجهة كالوزن والزنة واختصاص الإضافة باعتبار كونها مأموراً بها ، وفيها رضاه سبحانه ، وإلى هذا ذهب الحسن ومقاتل ومجاهد وقتادة وقيل : الوجه بمعنى الذات مثله في قوله تعالى : ﴿ كُلُّ شَىْء هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ﴾ [القصص : 88] إلا أنه جعل هنا كناية عن علمه واطلاعه بما يفعل هناك ، وقال أبو منصور : بمعنى الجاه ، ويؤل إلى الجلال والعظمة ،

والجملة على هذا اعتراض لتسلية قلوب المؤمنين بجل الذكر والصلاة في جميع الأرض لا في المساجد خاصة وفي الحديث الصحيح : " جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً " ولعل غيره عليه الصلاة والسلام لم تبح له الصلاة في غير البيع والكنائس ، وصلاة عيسى عليه السلام في أسفاره في غيرها كانت عن ضرورة فلا حاجة إلى القول باختصاص المجموع وجوّز أن تكون (أينما) مفعول ﴿ تَوَلَّوْاْ ﴾ بمعنى الجهة ، فقد شاع في الاستعمال (أينما) توجهوا ،

بمعنى أي جهة توجهوا بناءً على ما روي عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن الآية نزلت في صلاة المسافر والتطوع على الراحلة ، وعلى ما روي عن جابر أنها نزلت في قوم عميت عليهم القبلة في غزوة كنت فيها معهم ، فصلوا إلى الجنوب والشمال ، فلما أصبحوا تبين خطؤهم ، ويحتمل على هاتين الروايتين أن تكون (أينما) كما في الوجه الأول أيضاً ، ويكون المعنى في أي مكان فعلتم أي تولية لأن حذف المفعول به يفيد العموم ، واقتصر عليه بعضهم مدعياً أن ما تقدم لم يقل به أحد من أهل العربية ، ومن الناس من قال : الآية توطئة لنسخ القبلة ، وتنزيه للمعبود أن يكون في حيز وجهة ، وإلا لكانت أحق بالاستقبال ، وهي محمولة على العموم غير مختصة بحال السفر أو حال التحري ، والمراد ب (أينما) أي جهة ،

وبالوجه الذات ووجه الارتباط حينئذٍ أنه لما جرى ذكر المساجد سابقاً أورد بعدها تقريباً حكم القبلة على سبيل الاعتراض ، وادعى بعضهم أن هذا أصح الأقوال ، وفيه تأمل

﴿ إِنَّ الله واسع ﴾ أي محيط بالأشياء ملكاً أو رحمة ، فلهذا وسع عليكم القبلة ولم يضيق عليكم ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بمصالح العباد وأعمالهم في الأماكن ، والجملة على الأول : تذييل لمجموع ﴿ وَلِلَّهِ المشرق والمغرب ﴾ الخ وعلى الثاني : تذييل لقوله سبحانه : ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ ﴾ الخ ، ومن الغريب جعل ذلك تهديداً لمن منع مساجد الله وجعل الخطاب المتقدم لهم أيضاً ، فيؤول المعنى إلى أنه لا مهرب من الله تعالى لمن طغى ، ولا مفر لمن بغى ، لأن فلك سلطانه حدد الجهات ، وسلطان علمه أحاط بالأفلاك الدائرات :

أين المفر ولا مفر لهارب . . .

وله البسيطان الثرى والماء . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 365 .

﴿ 366 ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ﴾

لما جاء بوعيدهم ووعد المؤمنين عطف على ذلك تسلية المؤمنين على خروجهم من مكة ونكاية المشركين بفسخ ابتهاجهم بخروج المؤمنين منها وانفرادهم هم بمزية جوار الكعبة فبين أن الأرض كلها لله تعالى وأنها ما تفاضلت جهاتها إلا بكونها مظنة للتقرب إليه تعالى وتذكر نعمه وآياته العظيمة فإذا كانت وجهة الإنسان نحو مرضاة الله تعالى فأينما تولى فقد صادف رضى الله تعالى كانت وجهته الكفر والغرور والظلم فما يغني عنه العياذ بالمواضع المقدسة بل هو فيها دخيل لا يلبث أن يقلع منها قال تعالى : ﴿ وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون ﴾ [الأنفال : 34] وقال صلى الله عليه وسلم في بني إسرائيل : " نحن أحق بموسى منهم "

فالمراد من ﴿ المشرق والمغرب ﴾ في الآية تعميم جهات الأرض لأنها تنقسم بالنسبة إلى مسير الشمس قسمين قسم يبتدىء من حيث تطلع الشمس وقسم ينتهي في حيث تغرب وهو تقسيم اعتباري كان مشهوراً عند المتقدمين لأنه المبني على المشاهدة مناسب لجميع الناس والتقسيم الذاتي للأرض هو تقسيمها إلى شمالي وجنوبي لأنه تقسيم ينبني على اختلاف آثار الحركة الأرضية .

وقد قيل إن هذه الآية إذن للرسول صلى الله عليه وسلم بأن يتوجه في الصلاة إلى أية جهة

شاء ، ولعل مراد هذا القائل أن الآية تشير إلى تلك المشروعية لأن الظاهر أن الآية نزلت قبيل نسخ استقبال بيت المقدس إذ الشأن توالي نزول الآيات وآية نسخ القبلة قريبة الموقع من هذه ، والوجه أن يكُونَ مقصد الآية عاماً كما هو الشأن فتشمل الهجرة من مكة والانصراف عن استقبال الكعبة .

وتقديم الظرف للاختصاص أي إن الأرض لله تعالى فقط لا لهم ، فليس لهم حق في منع شيء منها عن عباد الله المخلصين .

(15/64)

و ﴿ وجه الله ﴾ بمعنى الذات وهو حقيقة لغوية تقول : لوجه زيد أي ذاته كما تقدم عند قوله : ﴿ من أسلم وجهه لله ﴾ [البقرة : 112] وهو هنا كناية عن عمله فحيث أمرهم باستقبال بيت المقدس فرضاه منوط بالامتثال لذلك ، وهو أيضاً كناية رمزية عن رضاه بهجرة المؤمنين في سبيل الدين لبلاد الحبشة ثم للمدينة ويؤيد كون الوجه بهذا المعنى قوله في التذييل : ﴿ إن الله واسع عليم ﴾ فقوله : ﴿ واسع ﴾ تذييل لمدلول ﴿ ولله المشرق والمغرب ﴾ والمراد سعة ملكه أو سعة تيسيره والمقصود عظمة الله ، أنه لا جهة له وإنما الجهات التي يقصد منها رضى الله تفضل غيرها وهو عليم بمن يتوجه لقصد مرضاته ، وقد

فسرت هذه الآية بأنها المراد بها القبلة في الصلاة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 1 صـ 664.665 ﴾

فصل

قال الفخر :

الآية من أقوى الدلائل على نفي التجسيم وإثبات التنزيه ، وبيانه من وجهين ، الأول : أنه تعالى قال : ﴿ وَلِلَّهِ المشرق والمغرب ﴾ فبين أن هاتين الجهتين مملوكتان له وإنما كان كذلك لأن الجهة أمر ممتد في الوهم طولاً وعرضاً وعمقاً ، وكل ما كان كذلك فهو منقسم ، وكل منقسم فهو مؤلف مركب ، وكل ما كان كذلك فلا بد له من خالق وموجد ، وهذه الدلالة عامة في الجهات كلها ، أعني الفوق والتحت ، فثبت بهذا أنه تعالى خالق الجهات كلها ، والخالق متقدم على المخلوق لا محالة ، فقد كان الباري تعالى قبل خلق العالم منزهاً عن الجهات والأحياز ، فوجب أن يبقى بعد خلق العالم كذلك لا محالة لاستحالة انقلاب الحقائق والماهيات .

الوجه الثاني : أنه تعالى قال : ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ ﴾ ولو كان الله تعالى جسماً وله وجه جسماني لكان وجهه مختصاً بجانب معين وجهة معينة فما كان يصدق قوله : ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ ﴾ فلما نص الله تعالى على ذلك علمنا أنه تعالى منزه عن الجسمية واحتج الخصم بالآية من وجهين ، الأول : أن الآية تدل على ثبوت الوجه لله تعالى والوجه لا يحصل إلا من كان جسماً .

الثاني : أنه تعالى وصف نفسه بكونه واسعاً ، والسعة من صفة الأجسام .

والجواب عن الأول : أن الوجه وإن كان في أصل اللغة عبارة عن العضو المخصوص لكنا بينا أنا لو حملناه ههنا على العضو لكذب قوله تعالى : ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ ﴾ لأن الوجه لو كان محاذياً للمشرق لاستحال في ذلك الزمان أن يكون محاذياً للمغرب أيضاً ، فإذن لا بد فيه من التأويل وهو من وجوه .

الأول : أن إضافة وجه الله كإضافة بيت الله وناقة الله ، والمراد منها الإضافة بالخلق والإيجاد على سبيل التشريف ، فقوله : ﴿ فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ ﴾ أي : فثم وجهه الذي وجهكم إليه لأن المشرق والمغرب له بوجهيهما ، والمقصود من القبلة إنما يكون قبلة لنصبه تعالى إياها فأي وجه من وجوه العالم المضاف إليه بالخلق والإيجاد نصبه وعينه فهو قبلة .

الثاني : أن يكون المراد من الوجه القصد والنية قال الشاعر :

استغفر الله ذنباً لست أحصيه . . رب العباد إليه الوجه والعمل

ونظيره قوله تعالى : ﴿ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السموات والأرض ﴾ [الأنعام : 79].

الثالث : أن يكون المراد منه فثم مرضاة الله ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ الله ﴾ [الإنسان : 9] يعني لرضوان الله ، وقوله : ﴿ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ﴾ [القصص : 88] يعني ما كان لرضا الله ، ووجه الاستعارة أن من أراد الذهاب إلى إنسان فإنه لا يزال يقرب من وجهه وقدامه ، فكذلك من يطلب مرضاة أحد فإنه لا يزال يقرب من مرضاته ، فلهذا سمي طلب الرضا بطلب وجهه .

الرابع : أن الوجه صلة كقوله : ﴿ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ﴾ [القصص : 88] ويقول الناس هذا وجه الأمر لا يريدون به شيئاً آخر غيره ، إنما يريدون به أنه من ههنا ينبغي أن يقصد هذا الأمر ، واعلم أن هذا التفسير صحيح في اللغة إلا أن الكلام يبقى ، فإنه يقال لهذا القائل : فما معنى قوله تعالى : ﴿ فَثَمَّ وَجْهُ الله ﴾ مع أنه لا يجوز عليه المكان فلا بد من تأويله بأن المراد : فثم قبلته التي يعبد بها ، أو ثم رحمته ونعمته وطريق ثوابه والتماس مرضاته .

والجواب عن الثاني : وهو أنه وصف نفسه بكونه واسعاً فلا شك أنه لا يمكن حمله على ظاهره وإلا لكان متجزئاً متبعضاً فيفتقر إلى الخالق ، بل لا بد وأن يحمل على السعة في القدرة والملك ، أو على أنه واسع العطاء والرحمة ، أو على أنه واسع الإنعام ببيان المصلحة للعبيد لكي يصلوا إلى رضوانه ، ولعل هذا الوجه بالكلام أليق ، ولا يجوز حمله على السعة في العلم ، وإلا لكان ذكر العليم بعده تكراراً ، فأما قوله : ﴿ عَلِيمٌ ﴾ في هذا الموضع فكالتهديد ليكون المصلي على حذر من التفريط من حيث يتصور أنه تعالى يعلم ما يخفي وما يعلن ، وما يخفى على الله من شيء ، فيكون متحذراً عن التساهل ، ويحتمل أن يكون قوله تعالى : ﴿ واسع عَلِيمٌ ﴾ أنه تعالى واسع القدرة في توفية ثواب من يقوم بالصلاة على شرطها ، وتوفية عقاب من يتكاسل عنها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 4 صـ 21.20 ﴾

فائدة

قال الفخر :

ولى إذا أقبل ، وولى إذا أدبر ، وهو من الأضداد ومعناه ههنا الإقبال ، وقرأ الحسن : ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ ﴾ بفتح التاء من التولي ، يريد فأينما توجهوا القبلة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 4 صـ 21 ﴾

فائدة

قال السعدى :

﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ﴾ خصهما بالذكر ، لأنهما محل الآيات العظيمة ، فهما مطالع الأنوار ومغاربها ، فإذا كان مالكا لها ، كان مالكا لكل الجهات . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير السعدى صـ 63 ﴾

قال ابن الجوزى :

والواسع : الذي وسع غناه مفاقر عباده ، ورزقه جميع خلقه .

والسعة في كلام العرب : الغنى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 1 صـ 135 ﴾

فائدة

قال فى روح البيان :

قال الغزالي في شرح الأسماء الحسنى : الواسع مشتق من السعة والسعة تضاف مرة إلى العلم إذا اتسع وأحاط بالمعلومات الكثيرة وتضاف أخرى إلى الإحسان وبسط النعم وكيفما قدر وعلى أي : شيء نزل فالواسع المطلق هو الله تعالى لأنه إن نظر إلى علمه فلا ساحل لبحر معلوماته بل تنفد البحار لو كانت مداداً لكلماته وإن نظر إلى إحسانه ونعمه

فلا نهاية لمقدوراته وكل سعة وإن عظمت فتنتهي إلى طرف والذي لا يتناهى إلى طرف فهو أحق باسم السعة والله تعالى هو الواسع المطلق لأن كل واسع بالإضافة إلى ما هو أوسع منه ضيق وكل سعة تنتهي إلى طرف فالزيادة عليها متصورة وما لا نهاية له ولا طرف فلا يتصور عليه زيادة وسعة العبد في معارفه وأخلاقه فإن كثرت علومه فهو واسع بقدر سعة علمه وإن اتسعت أخلاقه حتى لم يضيقها خوف الفقر وغيظ الحسود وغلبة الحرص وسائر الصفات المذمومة فهو واسع وكل ذلك فهو إلى نهاية وإنما الواسع المطلق هو الله تعالى. انتهى انتهى. اهـ ﴿روح البيان حـ 1 صـ 266﴾

" فائدة "

قال الخازن :

مسألة تتعلق بحكم الآية :

وهي أن المسافر إذا كان في مفازة أو بلاد الشرك ، واشتبهت عليه القبلة فإنه يجتهد في طلبها بنوع من الدلائل ويصلي إلى الجهة التي أدى إليها اجتهاده ولا إعادة عليه وإن لم يصادف القبلة فإن جهة الاجتهاد قبلته ، وكذا الغريق في البحر إذا بقي على اللوح فإنه

يصلي على حسب حاله ، وتصح صلاته وكذلك المشدود على جذع بحيث لا يمكنه الاستقبال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 1 صـ 99 ﴾

وقال ابن الجوزى :

وهذه الآية مستعملة الحكم في المجتهد إذا صلى إلى غير القبلة ، وفي صلاة المتطوع على الراحلة ، والخائف .

وقد ذهب قوم إلى نسخها ، فقالوا : إنها لما نزلت ؛ توجه رسول الله إلى بيت المقدس ، ثم نسخ ذلك بقوله ﴿ وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره ﴾ [البقرة : 144] .

وهذا مروي عن ابن عباس .

قال شيخنا علي بن عبيد الله : وليس في القرآن أمر خاص بالصلاة إلى بيت المقدس ، وقوله ﴿ فأينما تولوا فثم وجه الله ﴾ ليس صريحاً بالأمر بالتوجه إلى بيت المقدس ، بل فيه ما يدل على أن الجهات كلها سواء في جواز التوجه إليها ، فإذا ثبت هذا ؛ دل على أنه وجب التوجه إلى بيت المقدس بالسنة ، ثم نسخ بالقرآن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 1 صـ 135 ﴾

فائدة

قال ابن عطية :

واختلف الناس في تأويل الوجه الذي جاء مضافاً إلى الله تعالى في مواضع من القرآن ، فقال الحذاق : ذلك راجع إلى الوجود ، والعبارة عنه بالوجه من مجاز كلام العرب ، إذ كان الوجه أظهر الأعضاء في الشاهد وأجلها قدراً ، وقال بعض الأئمة : تلك صفة ثابتة بالسمع زائدة على ما توجبه العقول من صفات القديم تعالى ، وضعف أبو المعالي هذا القول ، ويتجه في بعض المواضع كهذه الآية أن يراد بالوجه الجهة التي فيها رضاه وعليها ثوابه ، كما تقول تصدقت لوجه الله تعالى ، ويتجه في هذه الآية خاصة أن يراد بالوجه الجهة التي وجهنا إليها في القبلة حسبما يأتي في أحد الأقوال ، وقال أبو منصور في المقنع : يحتمل أن يراد بالوجه هنا الجاه ، كما تقول فلان وجه القوم أي موضع شرفهم ، فالتقدير فثم جلال الله وعظمته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿المحرر الوجيز حـ 1 صـ 200﴾

فائدة

قال الشيخ الشنقيطي :

قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ﴾ الآية .

أفرد في هذه الآية المشرق والمغرب وثناهما في سورة الرحمن في قوله : ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴾ وجمعهما في سورة سأل سائل في قوله : ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ ﴾ , وجمع المشارق في سورة الصافات في قوله : ﴿ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ﴾ .

والجواب أن قوله هنا : ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ﴾ المراد به جنس المشرق والمغرب فهو صادق بكل مشرق من مشارق الشمس التي هي ثلاثمائة وستون, وكل مغرب من مغاربها التي هي كذلك كما روي عن ابن عباس وغيره .

قال ابن جرير في تفسير هذه الآية ما نصه :

" وإنما معنى ذلك ولله المشرق الذي تشرق منه الشمس كل يوم والمغرب الذي تغرب فيه كل يوم فتأويله إذا كان ذلك معناه : ولله ما بين قطري المشرق وقطري المغرب إذا كان شروق الشمس كل يوم من موضع منه لا تعود لشروقها منه إلى الحول الذي تعده وكذلك غروبها " , انتهى منه بلفظه .

وقوله : ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴾ يعني كشرق الشتاء ومشرق الصيف ومغربهما كما عليه الجمهور .

وقيل : مشرق الشمس والقمر ومغربهما , وقوله : ﴿ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ ﴾ أي

مشارق الشمس ومغاربها كما تقدم.

وقيل مشارق الشمس والقمر والكواكب ومغاربها والعلم عند الله تعالى. انتهى. ا هـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 26. 27 ﴾

(22/64)

ومن فوائد ابن عرفة فى الآية

قال رحمه الله:

قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ المشرق والمغرب فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ الله . . . ﴾.

قال في سورة المعارج: ﴿ فَلآ أُقْسِمُ بِرَبِّ المشارق والمغارب ﴾ قال ابن عرفة: إما على أن الأرض كروية فتعدد المشرق والمغرب ظاهر لأن كل موضع مغرب لقوم مشرق لآخرين، وإن قلنا: إنها بسيطة فهو مغرب واحد ومشرق واحد لكنها تتعدد بالفصول فمشرق الصيف غير مشرق الشتاء.

(قال ابن عرفة: وفيه إبطال للقول بالجسم والجهة، لأنه لو كان الإلاه جسما للزم عليه حلول الجسم الواحد في الزمن الواحد في مجال متعدد وهو محال).

قيل لابن عرفة: يقول صاحب هذا القول: إنه كالفلك فإنه دائر بالعالم كله بدليل قوله: ﴿

فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ ﴾ والتولي إنما يكون فيما يحوزه الفلك بل في بعضه فقط .

وإنما أبطلوا الجسمية بدليل آخر فكما أنّا أينَما (نولّ نرَ) الفلك بعضه (فكذلك هو) لكن لا نراه والفلك جسم ؟

فقال لفظ " ثَمّ " يقتضي وجوده في المكان الذي يقع فيه التولي حقيقة ، وإذا كان كالفلك فليس هو في ذلك المكان .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

قال ابن عرفة : هذا إما ترغيب وترهيب أي هو واسع الرحمة عليهم بأعمال العباد فيجازيهم عليها ، وإما ترغيب وتأكيد للترغيب أي هو واسع الرحمة مع علمه بأعمال العباد ، وهذا أبلغ في رحمته لأن الإنسان قد يرحم عدوه إذا كان جاهلا بِعَداوَتِهِ وعصيانه ولا يرحمه إذا علم بذلك . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عرفة حـ 1 صـ 401 .

402 ﴾

ومن فوائد الماوردى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾

اختلف أهل التأويل في تأويلها ، وسبب نزولها ، على سبعة أقاويل :

أحدها : أن سبب ذلك ، أن النبي صلى الله عليه وسلم ، كان يستقبل بصلاته بيت المقدس بعد هجرته ستة عشر شهراً ، أو سبعة عشر شهراً ، حتى قالت اليهود : إن محمداً وأصحابه ، ما دروا أين قبلتهم حتى هديناهم ، فأمرهم الله تعالى باستقبال الكعبة ، فتكلمت اليهود ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ، وهذا قول ابن عباس .

والثاني : أن هذه الآية نزلت قبل أن يفرض استقبال القبلة ، فأباح لهم أن يتوجهوا بصلاتهم حيث شاءوا من نواحي المشرق والمغرب ، وهذا قول قتادة وابن زيد .

والثالث : أنها نزلت في صلاة التطوع للسائر حيث توجه ، وللخائف حيث تمكن من مشرق أو مغرب ، وهذا قول ابن عمر ، روى سعيد بن جبير عنه أنه قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ أن تصلي أينما توجهت بك راحلتك في السفر تطوعاً ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رجع من مكة يصلي على راحلته تطوعاً ، يومئ برأسه نحو المدينة .

والرابع : أنها نزلت ، فيمن خفيت عليهم القبلة ، ولم يعرفوا جهتها ، فَصَلَّوا إلى جهات مختلفة .

روى عاصم بن عبد الله ، عن عبد الله بن عامر بن ربيعة ، عن أبيه قال : كنا مع رسول الله

صلى الله عليه وسلم في ليلة مظلمة ، فنزلنا منزلاً ، فجعل الرجل يأخذ الأحجار ، فيعمل مسجداً يصلي فيه ، فلما أصبحنا إذا نحن قد صلينا إلى غير القبلة ، فقلنا : يا رسول الله لقد صلينا ليلتنا هذه إلى غير القبلة ، فأنزل الله تعالى هذه الآية .

والخامس : أنها نزلت في النجاشي ، وروى أبو قتادة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إِنَّ أَخَاكُم النَّجَاشِيّ قَدْ مَاتَ فَصَلُّوا عَلَيْهِ " قالوا نصلي على رجل ليس بمسلم ، قال فنزلت : ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِم خَاشِعِينَ لِلَّهِ ﴾ [سورة آل عمران الآية : 199] قالوا : فإنه كان لا يصلي إلى القبلة ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ ﴾ .

والسادس : أن سبب نزولها أن الله تعالى لما أنزل قوله : ﴿ ادعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُم ﴾ قالوا إلى أين ؟ فنزلت : ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ ﴾ [البقرة : 115] .

والسابع : أن معناه وحيثما كنتم من مشرق أو مغرب ، فلكم قبلة تستقبلونها ، يعني جهة إلى الكعبة ، وهذا قول مجاهد .

ويجيء من هذا الاختلاف في قوله : ﴿ فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ ﴾ تأويلان : أحدهما : معناه فثم

قبلة الله.

والثاني: فثم الله تعالى، ويكون الوجه عبارة عنه، كما قال تعالى: ﴿ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ﴾ [الرحمن: 27].

وأما ﴿ ثَمَّ ﴾ فهو لفظ يستعلم في الإشارة إلى مكان، فإن كان قريباً قيل: (هنا زيد)، وإن كان بعيداً قيل: (هناك زيد). انتهى انتهى. ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 1 صـ 175 ـ 177 ﴾.

(25/64)

ومن فوائد الإمام القرطبى فى الآية

قال رحمه الله:

قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ المشرق والمغرب فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ الله . . . ﴾.

فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ المشرق والمغرب ﴾ "المشرق" موضع الشروق.

"والمغرب" موضع الغروب؛ أي هُمَا له ملك وما بينهما من الجهات والمخلوقات بالإيجاد والاختراع؛ كما تقدّم.

وخصَّهما بالذكر والإضافة إليه تشريفاً ؛ نحو بيت الله ، وناقة الله ، ولأن سبب الآية اقتضى ذلك ؛ على ما يأتي .

الثانية : قوله تعالى : ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ ﴾ شَرْطٌ ، ولذلك حذفت النون ، و " أين " العاملة ، و " ما " زائدة ، والجواب ﴿ فَثَمَّ وَجْهُ الله ﴾ .

وقرأ الحسن " تَوَلَّوْا " بفتح التاء واللام ، والأصل تتولّوا .

و " ثَمَّ " في موضع نصب على الظرف ، ومعناها البعد ؛ إلا أنها مبنية على الفتح غير مُعْربة لأنها مبهمة ، تكون بمنزلة هناك للبُعْد ، فإن أردت القُرب قلت هنا .

الثالثة : اختلف العلماء في المعنى الذي نزلت فيه ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ ﴾ على خمسة أقوال :

فقال عبد اللَّه بن عامر بن ربيعة : نزلت فيمن صلّى إلى غير القبلة في ليلة مظلمة ؛ أخرجه الترمذي عنه عن أبيه قال : كنا مع النبيّ صلى الله عليه وسلم في سفرٍ في ليلة مظلمة فلم نَدْر أين القِبلة ، فصلّى كل رجل منّا على حياله ، فلما أصبحنا ذكرنا ذلك للنبيّ صلى الله عليه وسلم فنزلت : ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ الله ﴾ .

قال أبو عيسى : هذا حديث ليس إسناده بذاك ، لا نعرفه إلا من حديث أشعث السمان ، وأشعث بن سعيد أبو الربيع يُضعَّف في الحديث .

وقد ذهب أكثر أهل العلم إلى هذا ؛ قالوا : إذا صلّى في الغيم لغير القِبلة ثم استبان له بعد

ذلك أنه صلّى لغير القبلة فإن صلاته جائزة ؛ وبه يقول سفيان وابن المبارك وأحمد وإسحاق .

(26/64)

قلت : وهو قول أبي حنيفة ومالك ، غير أن مالكاً قال : تُستحب له الإعادة في الوقت ، وليس ذلك بواجب عليه ؛ لأنه قد أدّى فرضه على ما أُمِر ، والكمال يُستدرك في الوقت ؛ استدلالا بالسنة فيمن صلّى وحده ثم أدرك تلك الصلاة في وقتها في جماعة أنه يعيد معهم ؛ ولا يعيد في الوقت استحبابا إلا من استدبر القبلة أو شرّق أو غرّب جدًّا مجتهداً ، وأمّا من تيامن أو تياسر قليلاً مجتهداً فلا إعادة عليه في وقت ولا غيره .

وقال المُغِيرة والشافعي : لا يجزيه ؛ لأن القِبلة شَرْط من شروط الصلاة .

وما قاله مالك أصح ؛ لأن جهة القبلة تبيح الضرورة تركها في المُسايفة ، وتبيحها أيضاً الرّخصة حالة السفر .

وقال ابن عمر : نزلت في المسافر يتّنفل حيثما توجّهت به راحلته .

أخرجه مسلم عنه ؛ قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلّي وهو مُقبل من مكة إلى المدينة على راحلته حيث كان وجهه ، قال : وفيه نزلت ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ

﴿ .

ولا خلاف بين العلماء في جواز النافلة على الراحلة لهذا الحديث وما كان مثله .

ولا يجوز لأحد أن يَدَع القبلة عامداً بوجهٍ من الوجوه إلا في شدّة الخوف ؛ على ما يأتي .

واختلف قول مالك في المريض يصلّي على مَحْمَله ؛ فمرّةً قال : لا يصلّي على ظهر البعير فريضة وإن اشتد مرضه .

قال سُحْنُون : فإن فعل أعاد ؛ حكاه الباجي .

ومَرّةً قال : إن كان ممن لا يصلي بالأرض إلا إيماءً فلْيُصَلِّ على البعير بعد أن يوقَف له ويستقبل القبلة .

وأجمعوا على أنه لا يجوز لأحد صحيح أن يصلّي فريضة إلا بالأرض إلا في الخوف الشديد خاصة ؛ على ما يأتي بيانه .

واختلف الفقهاء في المسافر سفراً لا تقصر في مثله الصلاة ؛ فقال مالك وأصحابه والثَّوْرِي : لا يتطوع على الراحلة إلا في سفر تقصر في مثله الصلاة ؛ قالوا : لأن الأسفار التي حُكي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يتطوّع فيها كانت مما تقصر فيه الصلاة .

وقال الشافعي وأبو حنيفة وأصحابهما والحسن بن حَيّ واللّيث بن سعد وداود بن عليّ : يجوز التطوّع على الراحلة خارج المصر في كل سفر ، وسواء كان مما تقصر فيه الصلاة أو لا ؛ لأن الآثار ليس فيها تخصيص سفرٍ من سفر ، فكلّ سفرٍ جائز ذلك فيه ، إلا أن يخص شيء من الأسفار بما يجب التسليم له .

وقال أبو يوسف : يصلّي في المصر على الدابة بالإيماء ؛ لحديث يحيى ابن سعيد عن أنس بن مالك أنه صلّى على حمار في أزقّة المدينة يومىء إيماء .

وقال الطبري : يجوز لكل راكب وماش حاضراً كان أو مسافراً أن ينتفل على دابته وراحلته وعلى رجليه (بالإيماء) .

وحكى عن بعض أصحاب الشافعي أن مذهبهم جواز التنفل على الدابة في الحَضَر والسَّفر .

وقال الأثرم : قيل لأحمد بن حنبل الصلاة على الدابة في الحضر ؛ فقال : أمّا في السفر فقد سمعتُ ، وما سمعتُ في الحضر .

قال ابن القاسم : من تنفّل في محمله تنفّل جالساً ، قيامُه تربّع ، يركع واضعاً يديه على ركبتيه ثم يرفع رأسه .

وقال قتادة : نزلت في النَّجاشي ، وذلك أنه : لما مات دعا النبيّ صلى الله عليه وسلم المسلمين إلى الصلاة عليه خارج المدينة ، فقالوا : كيف نصلّي على رجل مات ؟ وهو

يصلي لغير قِبْلتنا ، وكان النَّجاشي ملك الحَبَشة واسمه أَصْحَمَة وهو بالعربية عطية يصلّي إلى بيت المقدس حتى مات ، وقد صُرفت القبلة إلى الكعبة فنزلت الآية ، ونزل فيه : ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الكتاب لَمَن يُؤْمِنُ بالله ﴾ [آل عمران : 199] فكان هذا عُذْراً للنجاشي ؛ وكانت صلاة النبيّ صلى الله عليه وسلم بأصحابه سنة تسع من الهجرة .

وقد استدل بهذا من أجاز الصلاة على الغائب ، وهو الشافعي .

(28/64)

قال ابن العربي : ومن أغرب مسائل الصلاة على الميت ما قال الشافعي : يصلي على الغائب ؛ وقد كنت ببغداد في مجلس الإمام فخر الإسلام فيدخل عليه الرجل من خراسان فيقول له : كيف حال فلان ؟ فيقول له : مات ؛ فيقول : إنّا لله وإنّا إليه راجعون ! ثم يقول لنا : قوموا فلأصل لكم ؛ فيقوم فيصلّي عليه بنا ، وذلك بعد ستة أشهر من المدّة ، وبينه وبين بلده ستة أشهر .

والأصل عندهم في ذلك صلاة النبيّ صلى الله عليه وسلم على النجاشي .

وقال علماؤنا رحمة الله عليهم : النبيّ صلى الله عليه وسلم بذلك مخصوص لثلاثة أوجه :

أحدها : أن الأرض دُحِيتْ له جنوباً وشمالاً حتى رأى نعش النجاشي ، كما دُحيت له

شمالاً وجنوباً حتى رأى المسجد الأقصى .

وقال المخالف : وأيّ فائدة في رؤيته ، وإنما الفائدة في لحوق بركته .

الثاني : أن النجاشي لم يكن له هناك وَلِيّ من المؤمنين يقوم بالصلاة عليه .

قال المخالف : هذا محال عادة ! مَلِك على دين لا يكون له أتباع ، والتأويل بالمحال محال .

الثالث : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم إنما أراد بالصلاة على النجاشي إدخال الرحمة عليه واستئلاف بقية الملوك بعده إذا رأوا الاهتمام به حيًّا وميتاً .

قال المخالف : بركة الدعاء من النبيّ صلى الله عليه وسلم ومن سواه تلحق الميت باتفاق .

قال ابن العربيّ : والذي عندي في صلاة النبي صلى الله عليه وسلم على النجاشي أنه علم أن النجاشي ومَن آمن معه ليس عندهم من سُنة الصلاة على الميت أَثَر ، فعُلم أنهم سيدفنونه بغير صلاة فبادر إلى الصلاة عليه .

قلت : والتأويل الأول أحسن ؛ لأنه إذا رآه فما صلّى على غائب وإنما صلّى على مَرْئيّ حاضر ، والغائب ما لا يُرَى .

والله تعالى أعلم .

القول الرابع : قال ابن زيد : كانت اليهود قد استحسنت صلاة النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى بيت المقدس وقالوا : ما اهتدى إلا بنا ؛ فلما حُوّل إلى الكعبة قالت اليهود : ما وَلاّهم عن قبلتهم التي كانوا عليها ؛ فنزلت : ﴿ وَلِلَّهِ المشرق والمغرب ﴾ فوَجْه النظم على هذا القول : أن اليهود لما أنكروا أمر القبلة بين الله تعالى أن له أن يتعبّد عباده بما شاء ، فإن شاء أمرهم بالتوجّه إلى بيت الْمَقدس ، وإن شاء أمرهم بالتوجّه إلى الكعبة ، فعل لا حجة عليه ، ولا يُسئل عما يفعل وهم يُسئلون .

القول الخامس : أن الآية منسوخة بقوله : ﴿ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ [البقرة : 144] ذكره ابن عباس ؛ فكأنه كان يجوز في الابتداء أن يصلّي المرء كيف شاء ثم نسخ ذلك .

وقال قتادة : الناسخ قوله تعالى : ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المسجد الحرام ﴾ [البقرة : 144] أي تلقاءه ؛ حكاه أبو عيسى الترمذي .

وقول سادس : رُوِيَ عن مجاهد والضحاك أنها مُحْكَمة ، المعنى : أينما كنتم من شَرْق وَغَرْب فَثَمَّ وجهُ الله الذي أمرنا باستقباله وهو الكعبة .

وعن مجاهد أيضاً وابن جُبير لما نزلت : ﴿ ادعوني أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ قالوا : إلى أين ؟ فنزلت : ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ الله ﴾ .

وعن ابن عمر والنَّخَعِيّ : أينما تولُّوا في أسفاركم ومنصرفاتكم فَثَمّ وجه الله .

وقيل : هي متصلة بقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسمه ﴾ [البقرة : 114] الآية ؛ فالمعنى أن بلاد الله أيها المؤمنون تَسَعكم ، فلا يمنعكم تخريب من خرّب مساجد الله أن تولُّوا وجوهكم نحو قِبلة الله أينما كنتم من أرضه .

وقيل : نزلت حين صُدّ النبيّ صلى الله عليه وسلم عن البيت عامَ الحُدَيْبِيَة فاغتم المسلمون لذلك .

فهذه عشرة أقوال .

(30/64)

ومن جعلها منسوخة فلا اعتراض عليه من جهة كونها خبراً ؛ لأنها محتملة لمعنى الأمر .

يحتمل أن يكون معنى ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ ﴾ : ولُّوا وجوهكم نحو وجه الله ؛ وهذه الآية هي التي تلا سعيد بن جُبير رحمه الله لما أمر الحجاجُ بذبحه إلى الأرض .

الرابعة : اختلف الناس في تأويل الوجه المضاف إلى الله تعالى في القرآن والسُّنة ؛ فقال الحُذّاق : ذلك راجع إلى الوجود ، والعبارة عنه بالوجه من مجاز الكلام ، إذ كان الوجه أظهر الأعضاء في الشاهد وأجلّها قدراً .

وقال ابن فُورك : قد تُذكر صفة الشيء والمراد بها الموصوف توسُّعاً ؛ كما يقول القائل :

رأيت عِلم فلان اليوم ، ونظرت إلى علمه ؛ إنما يريد بذلك رأيت العالم ونظرت إلى العالم ؛ كذلك إذا ذُكر الوجه هنا ، والمراد من له الوجه ، أي الوجود .

وعلى هذا يتأوّل قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ ﴾ [الإنسان : 9] لأن المراد به : لله الذي له الوجه ؛ وكذلك قوله : ﴿ إِلَّا ابتغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأعلى ﴾ [الليل : 20] أي الذي له الوجه .

قال ابن عباس : الوجه عبارة عنه عز وجلّ ؛ كما قال : ﴿ ويبقى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الجلال والإكرام ﴾ [الرحمن : 27] .

وقال بعض الأئمة : تلك صفة ثابتة بالسمع زائدةٌ على ما توجبه العقول من صفات القديم تعالى .

قال ابن عطية : وضعّف أبو المعالي هذا القول ، وهو كذلك ضعيف ؛ وإنما المراد وجوده .

وقيل : المراد بالوجه هنا الجهة التي وُجِّهنا إليها أي القبلة .

وقيل : الوجه القصد ؛ كما قال الشاعر :

أستغفر الله ذنباً لستُ مُحْصِيَه . . .

رَبّ العباد إليه الوَجْهُ والعَمَلُ

وقيل : المعنى فَثَمّ رضا الله وثوابه كما قال : ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ ﴾ [الإنسان : 9] أي لرضائه وطلب ثوابه ؛ ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : " من بنى مسجداً يبتغي به وجه الله بنى الله له مثله في الجنة " وقوله : "يُجاء يوم القيامة بصحف مُختمة فتُنصب بين يدي الله تعالى فيقول عز وجل لملائكته ألقوا هذا واقبلوا هذا فتقول الملائكة وعزّتك يا ربّنا ما رأينا إلا خيراً وهو أعلم فيقول إن هذا كان لغير وجهي ولا أقبل من العمل إلا ما ابتغى به وجهي " أي خالصاً لي ؛ خرّجه الدارقطّني .

وقيل : المراد فَثَمّ الله ؛ والوجه صلة ؛ وهو كقوله : " وَهُوَ مَعَكُمْ" .

قاله الكَلْبي والقُتَبِيّ ، ونحوه قول المعتزلة .

الخامسة : قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ أي يوسّع على عباده في دينهم ، ولا يكلفهم ما ليس في وسعهم .

وقيل : " واسع" بمعنى أنه يَسَع علمه كل شيء ؛ كما قال : ﴿ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً ﴾ [طه : 98] .

وقال الفَرّاء : الواسع هو الجواد الذي يسع عطاؤه كل شيء ؛ دليله قوله تعالى : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [الأعراف : 156] .

وقيل : واسع المغفرة أي لا يتعاظمه ذنب .

وقيل : متفضّل على العباد وغنِيٌّ عن أعمالهم ؛ يقال : فلان يسع ما يُسئل ، أي لا يبخل ؛ قال الله تعالى : ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ ﴾ [الطلاق : 7] أي لينفق الغني مما أعطاه الله .

وقد أتينا عليه في الكتاب " الأسنى " والحمد لله . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 1 صـ 84.79 ﴾

ومن فوائد أبى حيان فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثمّ وجه الله ﴾ : قال الحسن وقتادة : أباح لهم في الابتداء أن يصلوا حيث شاءُوا ، فنسخ ذلك .

وقال مجاهد والضحاك : معناها إشارة إلى الكعبة ، أي حيثما كنتم من المشرق والمغرب ، فأنتم قادرون على التوجه إلى الكعبة .

فعلى هذا هي ناسخة لبيت المقدس .

وقال أبو العالية وابن زيد : نزلت جواباً لمن عير من اليهود بتحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة .

وقال ابن عمر : نزلت في صلاة المسافر ، حيث توجهت به دابته .

وقيل : جواب لمن قال : أقريب ربنا فنناجيه ، أم بعيد فنناديه ؟ قاله سعيد بن جبير .

وقيل : في الصلاة على النجاشي ، حيث قالوا : لم يكن يصلي إلى قبلتنا .

وقيل : فيمن اشتبهت عليه القبلة في ليلة متغيمة ، فصلوا بالتحري إلى جهات مختلفة .

وقد روي ذلك في حديث عن جابر ، أن ذلك وقع لسرية ، وعن عامر بن ربيعة ، أن ذلك جرى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في السفر ، ولو صح ذلك ، لم يعدل إلى سواه من هذه الأقوال المختلفة المضطربة .

وقال النخعي : الآية عامّة ، أينما تولوا في متصرّفاتكم ومساعيكم .

وقيل : نزلت حين صُدَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن البيت .

وهذه أقوال كثيرة في سبب نزول هذه الآية ، وظاهرها التعارض ، ولا ينبغي أن يقبل منها إلا ما صح ، وقد شحن المفسرون كتبهم بنقلها .

وقد صنف الواحدي في ذلك كتاباً قلما يصح فيه شيء (1) ، وكان ينبغي أن لا يشتغل بنقل ذلك إلا ما صح .

---

(1) لا يخفى ما في هذا كلام من مبالغة وبعد . والله أعلم .

والذي يظهر أن انتظام هذه الآية بما قبلها هو : أنه لما ذكر منع المساجد من ذكر الله والسعي في تخريبها ، نبه على أن ذلك لا يمنع من أداء الصلوات ، ولا من ذكر الله ، إذ المشرق والمغرب لله تعالى ، فأي جهة أدّيتم فيها العبادة ، فهي لله يثيب على ذلك ، ولا يختص مكان التأدية بالمسجد .

والمعنى : ولله بلاد المشرق والمغرب وما بينهما .

فيكون على حذف مضاف ، أو يكون المعنى : ولله المشرق والمغرب وما بينهما ، فيكون على حذف معطوف ، أو اقتصر على ذكرهما تشريفاً لهما ، حيث أضيفا لله ، وإن كانت الأشياء كلها لله ، كما شرف البيت الحرام وغيره من الأماكن بالإضافة إليه تعالى .

وهذا كله على تقدير أن يكون المشرق والمغرب أسمى مكان .

وذهب بعض المفسرين إلى أنهما اسما مصدر ، والمعنى أن لله تولى إشراق الشمس من مشرقها وإغرابها من مغربها ، فيكونان ، إذ ذاك ، بمعنى الشروق والغروب .

ويبعد هذا القول قوله بعد : ﴿ فأينما تولوا فثمّ وجه الله ﴾ .

وأفرد المشرق والمغرب باعتبار الناحية ، أو باعتبار المصدر الواقع في الناحية .

وأما الجمع فباعتبار اختلاف المغارب والمطالع كل يوم .

وأما التثنية فباعتبار مشرقي الشتاء والصيف ومغربيهما .

ومعنى التولية : الاستقبال بالوجوه .

وقيل : معناها الاستدبار من قولك : وليت عن فلان إذا استدبرته ، فيكون التقدير : فأي جهة وليتم عنها واستقبلتم غيرها فثم وجه الله .

وقيل : ليست في الصلاة ، بل هو خطاب للذين يخرّبون المساجد ، أي أينما تولوا هاربين عني فإني ألحظهم .

ويقويه قراءة الحسن : فأينما تولوا ، جعله للغائب ، فجرى على قوله : ﴿ لهم في الدنيا خزي ﴾ ، وعلى قوله : ﴿ وقالوا اتخذ الله ولداً ﴾ ، فجرت الضمائر على نسق واحد .

قال الزمخشري : ففي أي مكان فعلتم التولية ، يعني تولية وجوهكم شطر القبلة بدليل قوله تعالى : ﴿ فولّ وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره ﴾ انتهى .

فقيد التولية التي هي مطلقة بالتولية التي هي شطر القبلة ، وهو قول حسن .

وقد ذكر بعض المفسرين في قوله تعالى : ﴿ ولله المشرق والمغرب ﴾ مسائل موضوعها علم الفقه منها : من صلى في ظلمة مجتهداً إلى جهة ، ثم تبين أنه صلى لغير القبلة ، ومسألة من صلى على ظهر الدابة فرضاً لمرض أو نفلاً ، ومسألة الصلاة على الميت الغائب ، إذا

قلنا نزلت في النجاشي ، وشحن كتابه بذكر هذه المسائل ، وذكر الخلاف فيها ، وبعض دلائلها وموضوعها ، كما ذكرناه هو علم الفقه .

﴿ فثمّ وجه الله ﴾ ، هذا جواب الشرط ، وهي جملة ابتدائية ، فقيل : معناه فثمّ قبلة الله ، فيكون الوجه بمعنى الجهة ، وأضيف ذلك إلى الله حيث أمر باستقبالها ، فهي الجهة التي فيها رضا الله تعالى ، قاله الحسن ومجاهد وقتادة ومقاتل .

وقيل : الوجه هنا صلة ، والمعنى فثمّ الله أي علمه وحكمه .

وروي عن ابن عباس ومقاتل : أو عبر عن الذات بالوجه ، كقوله تعالى : ﴿ ويبقى وجه ربك ﴾ ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾ وقيل : المعنى العمل لله ، قاله الفراء ، قال : أستغفر الله ذنباً لست محصيه . . .

رب العباد إليه الوجه والعمل

وقيل : يحتمل أن يراد بالوجه هنا : الجاه ، كما يقال : فلان وجه القوم ، أي موضع شرفهم ، ولفلان وجه عند الناس : أي جاه وشرف .

والتقدير : فثمّ جلال الله وعظمته ، قاله أبو منصور في المقنع .

وحيث جاء الوجه مضافاً إلى الله تعالى ، فله محمل في لسان العرب ، إذ هو لفظ يطلق على معان ، ويستحيل أن يحمل على العضو ، وإن كان ذلك أشهر فيه .

وقد ذهب بعض الناس إلى أن تلك صفة ثابتة لله بالسمع ، زائدة على ما توجبه العقول من صفات القديم تعالى .

وضعف أبو العالية وغيره هذا القول ، لأن فيه الجزم بإثبات صفة لله تعالى بلفظ محتمل ، وهي صفة لا يدرى ما هي ، ولا يعقل معناها في اللسان العربي ، فوجب إطراح هذا القول والإعتماد على ما له محمل في لسان العرب .

إذا كان للفظ دلالة على التجسيم فنحمله ، إمّا على ما يسوغ فيه من الحقيقة التي يصح نسبتها إلى الله تعالى إن كان اللفظ مشتركاً ، أو من المجاز إن كان اللفظ غير مشترك .

والمجاز في كلام العرب أكثر من رمل يبرين ونهر فلسطين .

فالوقوف مع ظاهر اللفظ الدال على التجسيم غباوة وجهل بلسان العرب وأنحائها ومتصرّفاتها في كلامها ، وحجج العقول التي مرجع حمل الألفاظ المشكلة إليها .

ونعوذ بالله أن نكون كالكرامية ، ومن سلك مسلكهم في إثبات التجسيم ونسبة الأعضاء لله ، تعالى الله عما يقول المفترون علواً كبيراً .

وفي قوله : ﴿ فأينما تولوا فثم وجه الله ﴾ ردّ على من يقول : إنه في حيز وجهة ، لأنه لما خير في استقبال جميع الجهات دل على أنه ليس في جهة ولا حيز ، ولو كان في حيز لكان استقباله والتوجه إليه أحق من جميع الأماكن .

فحيث لم يخصص مكاناً ، علمنا أنه لا في جهة ولا حيز ، بل جميع الجهات في ملكه وتحت ملكه ، فأي جهة توجهنا إليه فيها على وجه الخضوع كنا معظمين له ممتثلين لأمره .

﴿ إن الله واسع عليم ﴾ : وصف تعالى نفسه بصفة الواسع ، فقيل ذلك لسعة مغفرته .

وجاء : ﴿ إن ربك واسع المغفرة ﴾ وهو معنى قول الكلبي : لا يتعاظمه ذنب .

وقيل : واسع العطاء ، وهو معنى قول أبي عبيدة : غني ، ومعنى قول الفراء : جواد .

وقيل : معناه عالم ، من قوله : ﴿ وسع كرسيه السموات والأرض ﴾ على أحد التفاسير ، وجمع بينه وبين عليم على سبيل التأكيد .

وقيل : واسع القدرة .

وقيل : معناه يوسع على عباده في الحكم ذينه يسر .

عليم : أي بمصالحهم أو بنيات القلوب التي هي ملاك العمل ، وإن اختلفت ظواهرها في قبلة وغيرها .

وهذه التفاسير على قول من قال : إن الآية نزلت في أمر القبلة .

وقال القفال : ليس فيها ذكر القبلة والصلاة ، وإنما أخبرهم تعالى عن علمه بهم ، وطوق سلطانه إياهم حيث كانوا ، كقوله تعالى : ﴿ إن استطعتم ﴾ الآية ، وقوله : ﴿ ما يكون من نجوى ﴾ الآية ويكون في هذا تهديد لمن منع مساجد الله من الذكر ، وسعى في خرابها ، أنه لا مهرب له من الله ولا مفر ، كما قال تعالى : ﴿ أين المفر ، كلا ولا وزر ، إلى ربك يومئذ المستقر ﴾ وكما قال :

فإنك كالليل الذي هو مدركي . . .

وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

وقال :

ولم يكن المغتر بالله إذ سرى . . .

ليعجز والمعتز بالله طالبه

وقال :

أين المفر ولا مفر لهارب . . .

وله البسيطان الثرى والماء

وعلى هذا المعنى يكون الخطاب عاماً مندرج فيه من منع المساجد من الذكر وغيره .

وجاءت هذه الجملة مؤكدة بأن مصرحاً باسم الله فيها دالة على الاستقلال .

وقد قدّمنا ذلك في قوله : ﴿ تجدوه عند الله إن الله ﴾ وكقوله : ﴿ واستغفروا الله إن الله غفور رحيم ﴾ وذلك أفخم وأجزل من الضمير ، لأن الضمير يشعر بقوة التعلق والظاهر يشعر بالاستقلال .

ألا ترى أنه يصح الابتداء به ، وإن لم يلحظ ما قبله ؟ بخلاف الضمير ، فإنه رابط للجملة التي هو فيها بالجملة التي قبلها .

ألا ترى إلى أن أكثر ما ورد في القرآن من ذلك إنما جاء بالظاهر ؟ كما مثلناه ، وكقوله : ﴿ فأقيموا الصلاة إن الصلاة كانت ﴾ ﴿ ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله ﴾ وقال :

ليت شعري وأين مني ليت . . .

إن ليتا وإن لوّا عناء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 1 صـ 532.529 ﴾

من فوائد الإمام الجصاص فى الآية

قال رحمه الله :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾

رَوَى أَبُو أَشْعَثَ السَّمَّانُ ، عَنْ عَاصِمِ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَامِرِ بْنِ رَبِيعَةَ ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ : كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي لَيْلَةٍ مُظْلِمَةٍ فَلَمْ نَدْرِ أَيْنَ الْقِبْلَةُ ، فَصَلَّى كُلُّ رَجُلٍ مِنَّا عَلَى حِيَالِهِ ، ثُمَّ أَصْبَحْنَا فَذَكَرْنَا ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ .

وَرَوَى أَيُّوبُ بْنُ عَتَبَةَ عَنْ قَيْسِ بْنِ طَلْقٍ عَنْ أَبِيهِ : ﴿ أَنَّ قَوْمًا خَرَجُوا فِي سَفَرٍ فَصَلُّوا فَتَاهُوا عَنْ الْقِبْلَةِ ، فَلَمَّا فَرَغُوا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى غَيْرِ الْقِبْلَةِ ، فَذَكَرُوا ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : تَمَّتْ صَلَاتُكُمْ ﴾ .

(38/64)

وَرَوَى ابْنُ لَهِيعَةَ عَنْ بَكْرِ بْنِ سِوَادَةَ ، عَنْ رَجُلٍ سَأَلَ ابْنَ عُمَرَ عَمَّنْ يُخْطِئُ الْقِبْلَةَ فِي السَّفَرِ وَيُصَلِّي ، قَالَ : ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ وَحَدَّثَنَا أَبُو عَلِيٍّ الْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ الْحَافِظُ قَالَ : حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ سُلَيْمَانَ الْوَاسِطِيُّ قَالَ : حَدَّثَنِي أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَسَنِ

الْعَنْبَرِيّ ، قَالَ : وَجَدْت فِي كِتَابِ أَبِي عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَسَنِ : قَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ أَبِي سُلَيْمَانَ الْعَرْزَمِيُّ ، عَنْ عَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ : ﴿ بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَرِيَّةً كُنْت فِيهَا ، فَأَصَابَتْنَا ظُلْمَةٌ فَلَمْ نَعْرِفْ الْقِبْلَةَ ، فَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنَّا : قَدْ عَرَفْنَا الْقِبْلَةَ هَاهُنَا قِبَلَ الشَّمَالِ ، فَصَلَّوا وَخَطُّوا خُطُوطًا ؛ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ : الْقِبْلَةُ هَاهُنَا قِبَلَ الْجَنُوبِ ، وَخَطُّوا خُطُوطًا ؛ فَلَمَّا أَصْبَحْنَا وَطَلَعَتْ الشَّمْسُ وَأَصْبَحَتْ تِلْكَ الْخُطُوطُ لِغَيْرِ الْقِبْلَةِ ، فَلَمَّا قَفَلْنَا مِنْ سَفَرِنَا سَأَلْنَا النَّبِيَّ عَلَيْهِ

(39/64)

السَّلَامُ عَنْ ذَلِكَ فَسَكَتَ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ : ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ ﴿ أَيْ حَيْثُ كُنْتُمْ قَالَ أَبُو بَكْرٍ : فَفِي هَذِهِ الْأَخْبَارِ أَنَّ سَبَبَ نُزُولِ الْآيَةِ كَانَ صَلَاةُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ صَلَّوْا لِغَيْرِ الْقِبْلَةِ اجْتِهَادًا وَرُوِيَ عَنْ ابْنِ عُمَرَ فِي خَبَرٍ آخَرَ : أَنَّ ﴿ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يُصَلِّي عَلَى رَاحِلَتِهِ وَهُوَ مُقْبِلٌ مِنْ مَكَّةَ نَحْوَ الْمَدِينَةِ حَيْثُ تَوَجَّهَتْ ، ﴾ وَفِيهِ أُنْزِلَتْ : ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ .

(40/64)

وَرَوَى مَعْمَرٌ عَنْ قَتَادَةَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ قَالَ : هِيَ الْقِبْلَةُ الْأُولَى ثُمَّ نَسَخَتْهَا الصَّلَاةُ إلَى الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَقِيلَ فِيهِ : إنَّ الْيَهُودَ أَنْكَرُوا تَحْوِيلَ الْقِبْلَةِ إلَى الْكَعْبَةِ بَعْدَمَا كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصَلِّي إلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ذَلِكَ وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ : إنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ مُخَيَّرًا فِي أَنْ يُصَلِّيَ إلَى حَيْثُ شَاءَ وَإِنَّمَا كَانَ تَوَجَّهَ إلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ عَلَى وَجْهِ الِاخْتِيَارِ لَا عَلَى وَجْهِ الْإِيجَابِ حَتَّى أُمِرَ بِالتَّوَجُّهِ إلَى الْكَعْبَةِ ، وَكَانَ قَوْلُهُ : ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ فِي وَقْتِ التَّخْيِيرِ قَبْلَ الْأَمْرِ بِالتَّوَجُّهِ إلَى الْكَعْبَةِ قَالَ أَبُو بَكْرٍ : اخْتَلَفَ أَهْلُ الْعِلْمِ فِيمَنْ صَلَّى فِي سَفَرٍ مُجْتَهِدًا إلَى جِهَةٍ ثُمَّ تَبَيَّنَ أَنَّهُ صَلَّى لِغَيْرِ الْقِبْلَةِ ؛ وَقَالَ أَصْحَابُنَا جَمِيعًا وَالثَّوْرِيُّ : إنْ وَجَدَ مَنْ يَسْأَلُهُ فَيُعَرِّفُهُ جِهَةَ الْقِبْلَةِ فَلَمْ يَفْعَلْ لَمْ تَجُزْ صَلَاتُهُ ، وَإِنْ لَمْ يَجِدْ مَنْ يُعَرِّفُهُ جِهَتَهَا فَصَلَّاهَا بِاجْتِهَادِهِ أَجْزَأَتْهُ صَلَاتُهُ ، سَوَاءٌ صَلَّاهَا مُسْتَدْبِرَ الْقِبْلَةِ أَوْ مُشَرِّقًا أَوْ مُغَرِّبًا عَنْهَا .

وَرُوِيَ نَحْوُ قَوْلِنَا عَنْ مُجَاهِدٍ وَسَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ وَإِبْرَاهِيمَ وَعَطَاءٍ وَالشَّعْبِيِّ .

وَقَالَ الْحَسَنُ وَالزُّهْرِيُّ وَرَبِيعَةُ

وَابْنُ أَبِي سَلَمَةَ : يُعِيدُ فِي الْوَقْتِ ، فَإِذَا فَاتَ الْوَقْتُ لَمْ يُعِدْ ؛ وَهُوَ قَوْلُ مَالِكٍ رَوَاهُ ابْنُ وَهْبٍ عَنْهُ وَرَوَى أَبُو مُصْعَبٍ عَنْهُ : " إنَّمَا يُعِيدُ فِي الْوَقْتِ إذَا صَلَّاهَا مُسْتَدْبِرَ الْقِبْلَةِ أَوْ شَرَّقَ أَوْ غَرَّبَ ، وَإِنْ تَيَامَنَ قَلِيلًا أَوْ تَيَاسَرَ قَلِيلًا فَلَا إعَادَةَ عَلَيْهِ " .

وَقَالَ الشَّافِعِيُّ : " مَنْ اجْتَهَدَ فَصَلَّى إلَى الْمَشْرِقِ ثُمَّ رَأَى الْقِبْلَةَ فِي الْمَغْرِبِ اسْتَأْنَفَ ، فَإِنْ كَانَتْ شَرْقًا ثُمَّ رَأَى أَنَّهُ مُنْحَرِفٌ فَتِلْكَ جِهَةٌ وَاحِدَةٌ وَعَلَيْهِ أَنْ يَنْحَرِفَ وَيُعْتَدُّ بِمَا مَضَى " قَالَ أَبُو بَكْرٍ ظَاهِرُ الْآيَةِ يَدُلُّ عَلَى جَوَازِهَا إلَى أَيِّ جِهَةٍ صَلَّاهَا وَذَلِكَ أَنَّ قَوْلَهُ : ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ مَعْنَاهُ : فَثَمَّ رِضْوَانُ اللَّهِ ؛ وَهُوَ الْوَجْهُ الَّذِي أُمِرْتُمْ بِالتَّوَجُّهِ إلَيْهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ ﴾ يَعْنِي لِرِضْوَانِهِ وَلِمَا أَرَادَهُ مِنَّا ، وَقَوْلُهُ : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إلَّا وَجْهَهُ ﴾ يَعْنِي مَا كَانَ لِرِضَاهُ وَإِرَادَتِهِ ، وَقَدْ رُوِيَ فِي حَدِيثِ عَامِرِ بْنِ رَبِيعَةَ وَجَابِرٍ اللَّذَيْنِ قَدَّمْنَا أَنَّ الْآيَةَ فِي هَذَا أُنْزِلَتْ .

فَإِنْ قِيلَ : رُوِيَ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي التَّطَوُّعِ عَلَى الرَّاحِلَةِ ، وَرُوِيَ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي بَيَانِ الْقِبْلَةِ قِيلَ لَهُ : لَا يَمْتَنِعُ أَنْ يَتَّفِقَ هَذِهِ الْأَحْوَالُ كُلُّهَا فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ وَيُسْأَلُ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْهَا فَيُنْزِلُ اللَّهُ تَعَالَى الْآيَةَ وَيُرِيدُ بِهَا بَيَانَ حُكْمِ جَمِيعِهَا ، أَلَا تَرَى أَنَّهُ لَوْ نَصَّ عَلَى كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا بِأَنْ يَقُولَ :

إِذَا كُنْتُمْ عَالِمِينَ بِجِهَةِ الْقِبْلَةِ مُمَكَّنِينَ مِنْ التَّوَجُّهِ إِلَيْهَا فَذَلِكَ وَجْهُ اللَّهِ فَصَلُّوا إِلَيْهَا .

وَإِذَا كُنْتُمْ خَائِفِينَ أَوْ فِي سَفَرٍ فَالْوَجْهُ الَّذِي يُمْكِنُكُمْ التَّوَجُّهُ إِلَيْهِ فَهُوَ وَجْهُ اللَّهِ ، وَإِذَا اشْتَبَهَتْ عَلَيْكُمْ الْجِهَاتُ فَصَلَّيْتُمْ إلَى أَيِّ جِهَةٍ كَانَتْ فَهِيَ وَجْهُ اللَّهِ ؟ وَإِذَا لَمْ تَتَنَافَ إرَادَةُ جَمِيعِ ذَلِكَ وَجَبَ حَمْلُ الْآيَةِ عَلَيْهِ ، فَيَكُونُ مُرَادُ اللَّهِ تَعَالَى بِهَا جَمِيعَ هَذِهِ الْمَعَانِي عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي ذَكَرْنَا ، لَا سِيَّمَا وَقَدْ نَصَّ حَدِيثُ جَابِرٍ وَعَامِرِ بْنِ رَبِيعَةَ أَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي الْمُجْتَهِدِ إذَا أَخْطَأَ ، وَأَخْبَرَ فِيهِ أَنَّ الْمُسْتَدْبِرَ لِلْقِبْلَةِ وَالْمُتَيَاسِرَ وَالْمُتَيَامِنَ عَنْهَا سَوَاءٌ ؛ لِأَنَّ فِيهِ بَعْضَهُمْ صَلَّى إلَى نَاحِيَةِ الشَّمَالِ وَالْآخَرَ إلَى نَاحِيَةِ الْجَنُوبِ وَهَاتَانِ جِهَتَانِ مُتَضَادَّتَانِ .

(43/64)

وَيَدُلُّ عَلَى جَوَازِهَا أَيْضًا حَدِيثٌ رَوَاهُ جَمَاعَةٌ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ مَوْلَى بَنِي هَاشِمٍ قَالَ : حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرٍ ، عَنْ عُثْمَانَ بْنِ مُحَمَّدٍ ، عَنْ سَعِيدٍ الْمَقْبُرِيِّ ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ قِبْلَةٌ ﴾ .

(44/64)

وَهَذَا يَقْتَضِي إثْبَاتَ جَمِيعِ الْجِهَاتِ قِبْلَةً ، إذْ كَانَ قَوْلُهُ : ﴿ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ﴾ كَقَوْلِهِ : جَمِيعُ الْآفَاقِ ؛ أَلَا تَرَى أَنَّ قَوْلَهُ : ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ﴾ أَنَّهُ أَرَادَ بِهِ جَمِيعَ الدُّنْيَا ؟ وَكَذَلِكَ هُوَ فِي مَعْقُولِ خِطَابِ النَّاسِ مَتَى أُرِيدَ الْإِخْبَارُ عَنْ جَمِيعِ الدُّنْيَا ذَكَرَ الْمَشْرِقَ وَالْمَغْرِبَ فَيَشْمَلُ اللَّفْظُ جَمِيعَهَا وَأَيْضًا مَا ذَكَرْنَا مِنْ قَوْلِ السَّلَفِ يُوجِبُ أَنْ يَكُونَ إجْمَاعًا لِظُهُورِهِ وَاسْتِفَاضَتِهِ مِنْ غَيْرِ خِلَافٍ مِنْ أَحَدٍ مِنْ نُظَرَائِهِمْ عَلَيْهِمْ وَيَدُلُّ عَلَيْهِ أَيْضًا أَنَّ مَنْ غَابَ عَنْ مَكَّةَ فَإِنَّمَا صَلَاتُهُ إلَى الْكَعْبَةِ لَا تَكُونُ إلَّا عَنْ اجْتِهَادٍ ؛ لِأَنَّ أَحَدًا لَا يُوقِنُ بِالْجِهَةِ الَّتِي يُصَلِّي إلَيْهَا فِي مُحَاذَاةِ الْكَعْبَةِ غَيْرَ مُنْحَرِفٍ عَنْهَا ، وَصَلَاةُ الْجَمِيعِ جَائِزَةٌ ؛ إذْ لَمْ يُكَلَّفْ غَيْرَهَا ، فَكَذَلِكَ الْمُجْتَهِدُ فِي السَّفَرِ قَدْ أَدَّى فَرْضَهُ إذْ لَمْ يُكَلَّفْ غَيْرَهَا وَمَنْ أَوْجَبَ الْإِعَادَةَ فَإِنَّمَا يُلْزِمُهُ فَرْضًا آخَرَ ، وَغَيْرُ جَائِزٍ إلْزَامُهُ فَرْضًا بِغَيْرِ دَلَالَةٍ ؛ فَإِنْ أَلْزَمُونَا عَلَيْهِ بِالثَّوْبِ يُصَلَّى فِيهِ ثُمَّ تُعْلَمُ نَجَاسَتُهُ أَوْ الْمَاءِ يُتَطَهَّرُ بِهِ ثُمَّ يُعْلَمُ أَنَّهُ نَجِسٌ .

قِيلَ لَهُمْ : لَا فَرْقَ بَيْنَهُمْ فِي أَنَّ كُلًّا مِنْهُمْ قَدْ أَدَّى فَرْضَهُ ، وَإِنَّمَا أَلْزَمْنَاهُ بَعْدَ الْعِلْمِ فَرْضًا آخَرَ بِدَلَالَةٍ قَامَتْ عَلَيْهِ وَلَمْ تَقُمْ دَلَالَةٌ عَلَى إلْزَامِ الْمُجْتَهِدِ فِي جِهَةِ الْقِبْلَةِ فَرْضًا آخَرَ ؛ لِأَنَّ الصَّلَاةَ

تَجُوزُ إِلَى غَيْرِ جِهَةِ الْقِبْلَةِ مِنْ غَيْرِ ضَرُورَةٍ وَهِيَ صَلَاةُ النَّفْلِ عَلَى الرَّاحِلَةِ .

وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَا ضَرُورَةَ بِهِ ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ عَلَيْهِ فِعْلُهَا ، فَلَمَّا جَازَتْ إِلَى غَيْرِ الْقِبْلَةِ مِنْ غَيْرِ ضَرُورَةٍ فَإِذَا صَلَّى الْفَرْضَ إِلَى غَيْرِ جِهَتِهَا عَلَى مَا كُلِّفَ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ عِنْدَ التَّبَيُّنِ غَيْرُهَا وَلَمَّا لَمْ تَجُزْ الصَّلَاةُ فِي الثَّوْبِ النَّجِسِ إلَّا لِضَرُورَةٍ وَلَمْ تَجُزْ الطَّهَارَةُ بِمَاءٍ نَجِسٍ بِحَالٍ ، لَزِمَتْهُ الْإِعَادَةُ وَمِنْ جِهَةٍ أُخْرَى وَهِيَ أَنَّ الْمُجْتَهِدَ بِمَنْزِلَةِ صَلَاةِ الْمُتَيَمِّمِ إذَا عَدِمَ الْمَاءَ ، فَلَا يَلْزَمُهُ الْإِعَادَةُ ؛ لِأَنَّ الْجِهَةَ الَّتِي تَوَجَّهَ إلَيْهَا قَدْ قَامَتْ لَهُ مَقَامَ الْقِبْلَةِ كَالتَّيَمُّمِ قَائِمٌ مَقَامَ الْوُضُوءِ ، وَلَمْ يُوجَدْ لِلْمُصَلِّي فِي الثَّوْبِ النَّجِسِ وَالْمُتَطَهِّرِ بِمَاءٍ نَجِسٍ مَا يَقُومُ مَقَامَ الطَّهَارَةِ فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ الْمُصَلِّي بِغَيْرِ تَيَمُّمٍ وَلَا مَاءٍ ، وَيَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ وَهُوَ أَصْلٌ يُرَدُّ إلَيْهِ مَسْأَلَتُنَا صَلَاةُ الْخَائِفِ لِغَيْرِ الْقِبْلَةِ ، وَيُبْنَى عَلَيْهَا مِنْ وَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّهَا جِهَةٌ لَمْ يُكَلَّفْ غَيْرَهَا فِي الْحَالِ .

وَالثَّانِي : قِيَامُ هَذِهِ الْجِهَةِ مَقَامَ الْقِبْلَةِ فَلَا إعَادَةَ عَلَيْهِ كَالْمُتَيَمِّمِ وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ الصَّلَاةُ لِغَيْرِ الْقِبْلَةِ ، أَنَّهُ مَعْلُومٌ أَنَّ مِقْدَارَ مِسَاحَةِ الْكَعْبَةِ لَا يَتَّسِعُ لِصَلَاةِ النَّاسِ الْغَائِبِينَ عَنْهَا حَتَّى يَكُونَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مُصَلِّيًا لِمُحَاذَاتِهَا ، أَلَا تَرَى أَنَّ الْجَامِعَ مِسَاحَتُهُ أَضْعَافُ مِسَاحَةِ الْكَعْبَةِ وَلَيْسَ جَمِيعُ مَنْ يُصَلِّي

فِيهِ مُحَاذِيًا لِسَمْتِهَا وَقَدْ أُجِيزَتْ صَلَاةُ الْجَمِيعِ ؟ فَثَبَتَ أَنَّهُمْ إنَّمَا كُلِّفُوا التَّوَجُّهَ إلَى الْجِهَةِ الَّتِي هِيَ فِي ظَنِّهِمْ أَنَّهَا مُحَاذِيَةُ الْكَعْبَةِ ، لَا مُحَاذَاتُهَا بِعَيْنِهَا وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ كُلَّ جِهَةٍ قَدْ أُقِيمَتْ مَقَامَ جِهَةِ الْكَعْبَةِ فِي حَالِ الْعُذْرِ .

فَإِنْ قِيلَ : إنَّمَا جَازَتْ صَلَاةُ الْجَمِيعِ فِي الْأَصْلِ الَّذِي ذَكَرْتُ ؛ لِأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ هُوَ الْمُحَاذِي لِلْكَعْبَةِ دُونَ مَنْ بَعُدَ مِنْهُ وَلَمْ يَظْهَرْ فِي الثَّانِي تَوَجُّهُهُ إلَى غَيْرِ جِهَةِ الْكَعْبَةِ ، فَأَجْزَأَتْهُ صَلَاتُهُ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ .

وَلَيْسَتْ هَذِهِ نَظِيرَ مَسْأَلَتِنَا ، مِنْ قِبَلِ أَنَّ الْمُجْتَهِدَ فِي مَسْأَلَتِنَا قَدْ تَبَيَّنَ أَنَّهُ صَلَّى إلَى غَيْرِهَا ، قِيلَ لَهُ : لَوْ كَانَ هَذَا الِاعْتِبَارُ سَائِغًا فِي الْفَرْقِ بَيْنَهُمَا لَوَجَبَ أَنْ لَا تُجِيزَ صَلَاةَ الْجَمِيعِ ؛ لِأَنَّهُ إذَا كَانَ مُحَاذَاةُ الْكَعْبَةِ مِقْدَارَ عِشْرِينَ ذِرَاعًا إذَا كَانَ مُسَامِتَهَا ، ثُمَّ قَدْ رَأَيْنَا أَهْلَ الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ قَدْ أَجْزَأَتْهُمْ صَلَاتُهُمْ ، مَعَ الْعِلْمِ بِأَنَّ الَّذِينَ حَاذَوْهَا هُمْ الْقَلِيلُ الَّذِينَ يَقْصُرُ عَدَدُهُمْ عَنْ النِّسْبَةِ إلَى الْجَمِيعِ لِقِلَّتِهِمْ ، وَجَائِزٌ مَعَ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ لَيْسَ فِيهِمْ مَنْ يُحَاذِي الْكَعْبَةَ حِينَ لَمْ يُغَادِرْهَا ثُمَّ أَجْزَأَتْ صَلَاةُ الْجَمِيعِ ، وَلَمْ يُعْتَبَرْ حُكْمُ الْأَعَمِّ الْأَكْثَرِ مَعَ تَعَلُّقِ الْأَحْكَامِ فِي الْأُصُولِ بِالْأَعَمِّ الْأَكْثَرِ ؛ أَلَا تَرَى أَنَّ الْحُكْمَ فِي كُلِّ مَنْ فِي دَارِ الْإِسْلَامِ وَدَارِ الْحَرْبِ يَتَعَلَّقُ

بِالْأَعَمِّ الْأَكْثَرِ دُونَ الْأَخَصِّ الْأَقَلِّ حَتَّى صَارَ مَنْ فِي دَارِ الْإِسْلَامِ مَحْظُورًا قَتْلُهُ ، مَعَ الْعِلْمِ بِأَنَّ فِيهَا مَنْ يَسْتَحِقُّ الْقَتْلَ مِنْ مُرْتَدٍّ وَمُلْحِدٍ وَحَرْبِيٍّ ؛ وَمَنْ فِي دَارِ الْحَرْبِ يُسْتَبَاحُ قَتْلُهُ مَعَ مَا فِيهَا مِنْ مُسْلِمٍ

(48/64)

تَاجِرٍ أَوْ أَسِيرٍ ؟ وَكَذَلِكَ سَائِرُ الْأُصُولِ عَلَى هَذَا الْمِنْهَاجِ يُجْرَى حُكْمُهَا ، وَلَمْ يَكُنْ لِلْأَكْثَرِ الْأَعَمِّ حُكْمٌ فِي بُطْلَانِ الصَّلَاةِ مَعَ الْعِلْمِ بِأَنَّهُمْ عَلَى غَيْرِ مُحَاذَاةِ الْكَعْبَةِ ، ثَبَتَ أَنَّ الَّذِي كُلِّفَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ فِي وَقْتِهِ هُوَ مَا عِنْدَهُ أَنَّهُ جِهَةُ الْكَعْبَةِ وَفِي اجْتِهَادِهِ فِي الْحَالِ الَّتِي يَسُوغُ الِاجْتِهَادُ فِيهَا ، وَأَنْ لَا إعَادَةَ عَلَى وَاحِدٍ مِنْهُمْ فِي الثَّانِي فَإِنْ قِيلَ : فَأَنْتَ تُوجِبُ الْإِعَادَةَ عَلَى مَنْ صَلَّى بِاجْتِهَادِهِ مَعَ إمْكَانِ الْمَسْأَلَةِ عَنْهَا إذَا تَبَيَّنَ لَهُ خِلَافُهَا قِيلَ لَهُ : لَيْسَ هَذَا مَوْضِعَ الِاجْتِهَادِ مَعَ وُجُودِ مَنْ يَسْأَلُهُ عَنْهَا .

(49/64)

وَإِنَّمَا أَجَزْنَا فِيمَا وَصَفْنَا صَلَاةَ مَنْ اجْتَهَدَ فِي الْحَالِ الَّتِي يَسُوغُ الِاجْتِهَادُ فِيهَا ، وَإِذَا وَجَدَ مَنْ يَسْأَلُهُ عَنْ جِهَةِ الْكَعْبَةِ لَمْ يُكَلَّفْ فِعْلَ الصَّلَاةِ بِاجْتِهَادِهِ وَإِنَّمَا كُلِّفَ الْمَسْأَلَةَ عَنْهَا وَيَدُلُّ عَلَى مَا ذَكَرْنَا أَنَّهُ مَعْلُومٌ أَنَّهُ مَنْ غَابَ عَنْ حَضْرَةِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَإِنَّمَا يُؤَدِّي فَرْضَهُ بِاجْتِهَادِهِ مَعَ تَجْوِيزِهِ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ الْفَرْضُ فِيهِ نَسْخٌ وَقَدْ ثَبَتَ أَنَّ أَهْلَ قُبَاءَ كَانُوا يُصَلُّونَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ ، فَأَتَاهُمْ آتٍ فَأَخْبَرَهُمْ أَنَّ الْقِبْلَةَ قَدْ حُوِّلَتْ ، فَاسْتَدَارُوا فِي صَلَاتِهِمْ إِلَى الْكَعْبَةِ وَقَدْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُسْتَدْبِرِينَ لَهَا ؛ لِأَنَّ مَنْ اسْتَقْبَلَ بَيْتَ الْمَقْدِسِ وَهُوَ بِالْمَدِينَةِ فَهُوَ مُسْتَدْبِرٌ لِلْكَعْبَةِ ، ثُمَّ لَمْ يُؤْمَرُوا بِالْإِعَادَةِ حِينَ فَعَلُوا بَعْضَ الصَّلَاةِ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ مَعَ وُرُودِ النَّسْخِ ؛ إِذْ الْأَغْلَبُ أَنَّهُمْ ابْتَدَءُوا الصَّلَاةَ بَعْدَ النَّسْخِ ؛ لِأَنَّ النَّسْخَ نَزَلَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ بِالْمَدِينَةِ ، ثُمَّ سَارَ الْمُخْبِرُ إِلَى قُبَاءَ بَعْدَ النَّسْخِ وَبَيْنَهُمَا نَحْوَ فَرْسَخٍ فَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ ابْتِدَاءَ صَلَاتِهِمْ كَانَ بَعْدَ النَّسْخِ لِامْتِنَاعِ أَنْ يَطُولَ مُكْثُهُمْ فِي الصَّلَاةِ هَذِهِ الْمُدَّةَ ، وَلَوْ كَانَ ابْتِدَاؤُهَا قَبْلَ النَّسْخِ كَانَتْ دَلَالَتُهُ قَائِمَةً ؛ لِأَنَّهُمْ فَعَلُوا بَعْضَ الصَّلَاةِ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ بَعْدَ النَّسْخِ .

فَإِنْ قِيلَ : إنَّمَا جَازَ ذَلِكَ ؛ لِأَنَّهُمْ ابْتَدَءُوهَا قَبْلَ النَّسْخِ وَكَانَ ذَلِكَ فَرْضَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ عَلَيْهِمْ فَرْضٌ غَيْرُهُ .

قِيلَ لَهُ : وَكَذَلِكَ الْمُجْتَهِدُ فَرْضُهُ مَا أَدَّاهُ إلَيْهِ اجْتِهَادُهُ لَيْسَ عَلَيْهِ فَرْضٌ غَيْرُهُ .

فَإِنْ قِيلَ : إذَا تَبَيَّنَ أَنَّهُ صَلَّى إلَى غَيْرِ الْكَعْبَةِ كَانَ بِمَنْزِلَةِ مَنْ اجْتَهَدَ فِي حُكْمِ حَادِثَةٍ ثُمَّ وَجَدَ النَّصَّ فِيهِ ، فَيَبْطُلُ اجْتِهَادُهُ مَعَ النَّصِّ قِيلَ لَهُ : لَيْسَ هَذَا كَمَا ظَنَنْت ؛ لِأَنَّ النَّصَّ فِي جِهَةِ الْكَعْبَةِ إنَّمَا هُوَ فِي حَالِ مُعَايَنَتِهَا أَوْ الْعِلْمِ بِهَا ، وَلَيْسَتْ لِلصَّلَاةِ جِهَةٌ وَاحِدَةٌ يَتَوَجَّهُ إلَيْهَا الْمُصَلِّي ، بَلْ سَائِرُ الْجِهَاتِ لِلْمُصَلِّينَ عَلَى حَسَبِ اخْتِلَافِ أَحْوَالِهِمْ ، فَمَنْ شَاهَدَ الْكَعْبَةَ أَوْ عَلِمَ بِهَا وَهُوَ غَائِبٌ عَنْهَا فَفَرْضُهُ الْجِهَةُ الَّتِي يُمْكِنُهُ التَّوَجُّهُ إلَيْهَا وَلَيْسَتْ الْكَعْبَةُ جِهَةَ فَرْضِهِ ، وَمَنْ اشْتَبَهَتْ عَلَيْهِ الْجِهَةُ فَفَرْضُهُ مَا أَدَّاهُ إلَيْهِ اجْتِهَادُهُ ؛ فَقَوْلُكَ " إنَّهُ صَارَ مِنْ الِاجْتِهَادِ إلَى النَّصِّ " خَطَأٌ ؛ لِأَنَّ جِهَةَ الْكَعْبَةِ لَمْ تَكُنْ فَرْضَهُ فِي حَالِ الِاجْتِهَادِ ، وَإِنَّمَا النَّصُّ فِي حَالِ إمْكَانِ التَّوَجُّهِ إلَيْهَا وَالْعِلْمِ بِهَا وَأَيْضًا فَقَدْ كَانَ لَهُ الِاجْتِهَادُ مَعَ الْعِلْمِ بِالْكَعْبَةِ وَالْجَهْلِ بِجِهَتِهَا ، فَلَوْ كَانَ بِمَنْزِلَةِ النَّصِّ لَمَا سَاغَ الِاجْتِهَادُ ، مَعَ الْعِلْمِ بِأَنَّ لِلَّهِ تَعَالَى نَصًّا عَلَى الْحُكْمِ ، كَمَا لَا يَسُوغُ الِاجْتِهَادُ مَعَ الْعِلْمِ أَنَّ لِلَّهِ تَعَالَى نَصًّا عَلَى الْحُكْمِ فِي حَادِثَةٍ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 1 صـ 74 . 79 ﴾

ومن فوائد ابن العربى فى الآية

قال رحمه الله :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾

فِيهَا أَرْبَعُ مَسَائِلَ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : فِي سَبَبِ نُزُولِهَا : وَفِي ذَلِكَ سَبْعَةُ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي صَلَاةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قِبَلَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ ، ثُمَّ عَادَ فَصَلَّى إلَى الْكَعْبَةِ ؛ فَاعْتَرَضَتْ عَلَيْهِ الْيَهُودُ ، فَأَنْزَلَهَا اللَّهُ تَعَالَى لَهُ كَرَامَةً وَعَلَيْهِمْ حُجَّةً قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ .

الثَّانِي : أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي تَخْيِيرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابِهِ لِيُصَلُّوا حَيْثُ شَاءُوا مِنْ النَّوَاحِي ، قَالَهُ قَتَادَةُ .

الثَّالِثُ : أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي صَلَاةِ التَّطَوُّعِ ، يَتَوَجَّهُ الْمُصَلِّي فِي السَّفَرِ إلَى حَيْثُ شَاءَ فِيهَا رَاكِبًا قَالَهُ ابْنُ عُمَرَ .

الرَّابِعُ : أَنَّهَا نَزَلَتْ فِيمَنْ صَلَّى الْفَرِيضَةَ إلَى غَيْرِ الْقِبْلَةِ فِي لَيْلَةٍ مُظْلِمَةٍ قَالَهُ عَامِرُ بْنُ رَبِيعَةَ .

الْخَامِسُ : أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي النَّجَاشِيِّ ، آمَنَ بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَمْ يُصَلِّ إلَى قِبْلَتِنَا قَالَهُ قَتَادَةُ .

السَّادِسُ : أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي الدُّعَاءِ .

السَّابِعُ : أَنَّ مَعْنَاهَا أَيْنَمَا كُنْتُمْ وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ مِنْ مَشْرِقٍ أَوْ مَغْرِبٍ فَلَكُمْ قِبْلَةٌ وَاحِدَةٌ

تَسْتَقْبِلُونَهَا .

قَالَ الْقَاضِي : هَذِهِ الْأَقْوَالُ السَّبْعَةُ لِقَائِلِيهَا تَحْتَمِلُ الْآيَةُ جَمِيعَهَا .

فَأَمَّا قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ فَيَشْهَدُ لَهُ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنْ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمْ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ﴾ وَأَمَّا قَوْلُ ابْنِ عُمَرَ ، فَسَنَدٌ صَحِيحٌ ، وَهُوَ قَوِيٌّ فِي النَّظَرِ ، وَقَدْ رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ أَنَّهُ كَانَ يُحْرِمُ فِي السَّفَرِ عَلَى الرَّاحِلَةِ ، مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ ، ثُمَّ يُصَلِّي حَيْثُ تَوَجَّهَتْ بِهِ بَقِيَّةَ الصَّلَاةِ ﴾ ، وَهُوَ صَحِيحٌ .

وَأَمَّا قَوْلُ عَامِرِ بْنِ رَبِيعَةَ ، فَقَدْ أُسْنِدَ إلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَمْ يَصِحَّ عَنْهُ ، وَإِنْ كَانَ الْمُصَنِّفُونَ قَدْ رَوَوْهُ .

وَقَدْ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي ذَلِكَ ؛ فَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ وَمَالِكٌ : تُجْزِئُهُ ، بَيْدَ أَنَّ مَالِكًا رَأَى عَلَيْهِ الْإِعَادَةَ فِي الْوَقْتِ اسْتِحْبَابًا .

وَقَالَ الْمُغِيرَةُ وَالشَّافِعِيُّ : لَا يُجْزِئُهُ ؛ لِأَنَّ الْقِبْلَةَ شَرْطٌ مِنْ شُرُوطِ الصَّلَاةِ ، فَلَا يَنْتَصِبُ الْخَطَأُ عُذْرًا فِي تَرْكِهَا ، كَالْمَاءِ الطَّاهِرِ وَالْوَقْتِ .

وَمَا قَالَهُ مَالِكٌ أَصَحُّ ؛ لِأَنَّ جِهَةَ الْقِبْلَةِ تُبِيحُ الضَّرُورَةُ تَرْكَهَا فِي الْمُسَايَفَةِ ، وَتُبِيحُهَا أَيْضًا الرُّخْصَةُ حَالَةَ السَّفَرِ ، فَكَانَتْ حَالَةَ عُذْرٍ أَشْبَهَ بِهَا ؛ لِأَنَّ الْمَاءَ الطَّاهِرَ لَا يُبِيحُ تَرْكَهُ إلَى الْمَاءِ النَّجِسِ ضَرُورَةٌ فَلَا يُبِيحُهُ خَطَأٌ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : مَعْنَى قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ﴾ أَيْ : ذَلِكَ لَهُ مِلْكٌ وَخَلْقٌ لِجَوَازِ الصَّلَاةِ إلَيْهِ وَإِضَافَتِهِ إلَيْهِ تَشْرِيفًا وَتَخْصِيصًا .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ قِيلَ : مَعْنَاهُ فَثَمَّ اللَّهُ ، هَذَا يَدُلُّ عَلَى نَفْيِ الْجِهَةِ وَالْمَكَانِ عَنْهُ تَعَالَى ، لِاسْتِحَالَةِ ذَلِكَ عَلَيْهِ ، وَأَنَّهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ بِعِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ .

وَقِيلَ : مَعْنَاهُ فَثَمَّ قِبْلَةُ اللَّهِ ، وَيَكُونُ الْوَجْهُ اسْمًا لِلتَّوَجُّهِ .

وَتَحْقِيقُ الْقَوْلِ فِيهِ : أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَ بِالصَّلَاةِ عِبَادَةً ، وَفَرَضَ فِيهَا الْخُشُوعَ اسْتِكْمَالًا لِلْعِبَادَةِ ، وَأَلْزَمَ الْجَوَارِحَ السُّكُونَ ، وَاللِّسَانَ الصَّمْتَ إلَّا عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَنَصْبَ الْبَدَنِ إلَى جِهَةٍ وَاحِدَةٍ ؛ لِيَكُونَ ذَلِكَ أَنْفَى لِلْحَرَكَاتِ ، وَأَقْعَدَ لِلْخَوَاطِرِ ، وَعُيِّنَتْ لَهُ جِهَةُ الْكَعْبَةِ تَشْرِيفًا لَهُ .

وَقِيلَ لَهُ : إنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ قِبَلَ وَجْهِك ، مَعْنَاهُ أَنَّك قَصَدْت التَّوَجُّهَ إلَى اللَّهِ تَعَالَى ، وَقَدْ عُيِّنَ

لَك هَذَا الصَّوْبُ ، فَهُنَالِكَ تَجِدُ ثَوَابَك ، وَتَحْمَدُ إيَابَك .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : فِي تَنْزِيلِ الْآيَةِ عَلَى الْأَقْوَالِ الْمُتَقَدِّمَةِ : لَا يَخْفَى أَنَّ عُمُومَ الْآيَةِ يَقْتَضِي بِمُطْلَقِهِ جَوَازَ التَّوَجُّهِ إلَى جِهَتَيْ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ بِكُلِّ حَالٍ ، لَكِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ خَصَّ مِنْ ذَلِكَ جَوَازَ التَّوَجُّهِ إلَى جِهَةِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ فِي وَقْتٍ ، وَإِلَى جِهَةِ الْكَعْبَةِ فِي حَالِ الِاخْتِيَارِ فِي الْفَرْضِ وَالْحَضَرِ فِيهَا أَيْضًا ، وَبَقِيَتْ عَلَى النَّافِلَةِ فِي السَّفَرِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ بَيَانُ ذَلِكَ فِي الْقِسْمِ الثَّانِي مِنْ " النَّاسِخِ وَالْمَنْسُوخِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 1 صـ 54.52 ﴾

(54/64)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (115) ﴾

بعد أن بين الله سبحانه وتعالى جزاء الذين يخربون مساجد الله ويهدمونها . . ويمنعون أن يذكر فيها اسمه والعذاب الذي ينتظرهم في الآخرة أراد أن يذكرنا بأن تنفيذ هذا على مستوى تام وكامل عملية مستحيلة لأن الأرض كلها مساجد . . وتخريبها معناه أن تخرب

الأرض كلها . . لأن الله تبارك وتعالى موجود في كل مكان فأينما كنتم فستجدون الله مقبلا عليكم بالتجليات. وقوله تعالى : " فثم وجه الله" . . أي هناك وجه الله . . وقوله تعالى : " والله واسع عليم" . . أي لا تضيقوا بمكان التقاءاتكم بربكم ؛ لأن الله واسع موجود في كل مكان في هذا الكون وفي كل مكان خارج هذا الكون . . ولكن إذا قال الله سبحانه وتعالى : " ولله المشرق والمغرب" لا يعني تحديد جهة الشرق أو جهة الغرب فقط . . ولكنه يتعداها إلي كل الجهات شرقها وغربها . . شمالها وجنوبها والشمال الشرقي والجنوب الغربي وكل جهة تفكر فيها .

(55/64)

ولكن لماذا ذكرت الآية الشرق والغرب فقط ؟ لأن بعد ذلك كل الجهات تحدد بشروق الشمس وغروبها . . فهناك شمال شرقي وجنوب شرقي وشمال غربي وجنوب غربي . . كما أن الشرق والغرب معروف بالفطرة عند الناس . . فلا أحد يجهل من أين تشرق الشمس ولا إلي أين تغرب. فأنت كل يوم ترى شروقا وترى غروبا . الله سبحانه وتعالى حين يقول : " ولله المشرق والمغرب" فليس معناها حصر الملكية لهاتين الجهتين ولكنه ما يعرف بالاختصاص بالتقديم . . كما تقول بالقلم كتبت وبالسيارة أتيت . . أي أن الكتابة

هي خصوص القلم والإتيان خصوص السيارة . . وهذا ما يعرف بالاختصاص . . فهذا مختص بكذا وليس لغيره شيء فيه . . ولذلك فإن معنى : " ولله المشرق والمغرب " . . أن الملكية لله سبحانه وتعالى لا يشاركه فيها أحد . . وتغيير القبلة من بيت المقدس إلي الكعبة ليس معناه أن الله تبارك وتعالى في بيت المقدس والاتجاه بعد ذلك إلي الكعبة ليس معناه أن الله جل جلاله في الكعبة .

إن توحيد القبلة ليس معناه أكثر من أن يكون للمسلمين اتجاه واحد في الصلاة . . وذلك دليل على وحدة الهدف . . فيجب أن تفرق بين اتجاه في الصلاة واتجاه في غير الصلاة . . اتجاه في الصلاة نكون جميعا متجهين إلي مكان محدد اختاره الله لنا لنتجه إليه في الصلاة . . والناس تصلي في جميع أنحاء العالم متجهة إلي الكعبة . . الكعبة مكانها واحد لا يتغير . . ولكن اتجاهنا إليها من بقاع الأرض هو الذي يتغير . . فواحد يتجه شمالا وواحد يتجه جنوبا وواحد يتجه شرقا وواحد يتجه غربا . . كل منا يتجه اتجاها مختلفا حسب البقعة التي يوجد عليها من الأرض . . ولكننا جميعا نتجه إلي الكعبة رغم اختلاف وجهاتنا إلا أننا نلتقي في اتجاهنا إلي مكان واحد .

الله جل جلاله يريدنا أن نعرف أننا إذا قلنا : " ولله المشرق" فلا نظن أن المشرق اتجاه واحد بل إن المشرق يختلف باختلاف المكان . . فكل مكان في الأرض له مشرق وله مغرب . . فإذا أشرقت الشمس في مكان فإنها في نفس الوقت تغرب في مكان آخر . . تشرق عندي وتغرب عند غيري . . وبعد دقيقة تشرق عند قوم وتغرب عند آخرين . . فإذا نظرت إلي الشرق وإلي الغرب بالنسبة لشروق الشمس الظاهري وغروبها . . تجد أن المشرق والمغرب لا ينتهيان من على سطح الأرض . . في كل دقيقة شروق وغروب. وقوله تعالى : " إن الله واسع عليم" . . أي يتسع لكل ملكه لا يشغله شيء عن شيء . . ولذلك عندما سئل الإمام على كرم الله وجهه . . كيف يحاسب الله الناس جميعا في وقت واحد ؟ قال كما يرزقهم جميعا في وقت واحد . . إذن فالله لا يشغله شيء عن شيء . . ولا يحتاج في عمله إلي شيء . . إنما عمله "كن فيكون" . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 543.542 ﴾

(57/64)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (115) ﴾

أخرج أبو عبيد في الناسخ والمنسوخ وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه والبيهقي في سننه عن ابن عباس قال "أوّل ما نسخ لنا من القرآن فيما ذكر والله أعلم شأن القبلة. قال الله تعالى ﴿ ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله ﴾ فاستقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلى نحو بيت المقدس وترك البيت العتيق، ثم صرفه الله تعالى إلى البيت العتيق ونسخها. فقال ﴿ ومن حيث خرجت فول وجهك ﴾ [البقرة: 149] الآية".

وأخرج ابن المنذر عن ابن مسعود وناس من الصحابة في قوله ﴿ ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله ﴾ قال "كان الناس يصلون قبل بيت المقدس، فلما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة على رأس ثمانية عشر شهراً من مهاجره، وكان إذا صلى رفع رأسه إلى السماء ينظر ما يؤمر به، فنسختها قبل الكعبة".

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد ومسلم والترمذي والنسائي وابن جرير وابن المنذر والنحاس في ناسخه والطبراني والبيهقي في سننه عن ابن عمر قال "كان النبي صلى الله عليه وسلم يصلي على راحلته تطوّعاً أينما توجهت به، ثم قرأ ابن عمر هذه الآية ﴿ فأينما تولوا فثم وجه الله ﴾ وقال ابن عمر: في هذا نزلت هذه الآية".

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والدارقطني والحاكم وصححه عن ابن عمر قال: أنزلت

﴿ أينما تولوا فثم وجه الله ﴾ أن تصلي حيثما توجهت بك راحلتك في التطوّع .

وأخرج البخاري والبيهقي عن جابر بن عبد الله قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة أنمار يصلي على راحلته متوجهاً قبل المشرق تطوّعاً .

(58/64)

وأخرج ابن أبي شيبة والبخاري والبيهقي عن جابر بن عبد الله " أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يصلي على راحلته قبل المشرق ، فإذا أراد أن يصلي المكتوبة نزل واستقبل القبلة وصلى " .

وأخرج ابن أبي شيبة وأبو داود والبيهقي عن أنس " أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا سافر وأراد أن يتطوّع بالصلاة استقبل بناقته القبلة وكبر ، ثم صلى حيث توجهت الناقة " .

وأخرج أبو داود والطيالسي وعبد بن حميد والترمذي وضعفه وابن ماجة وابن جرير وابن أبي حاتم والعقيلي وضعفه والدارقطني وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في سننه عن عامر بن ربيعة قال " كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في ليلة سوداء مظلمة فنزلنا منزلاً ، فجعل الرجل يأخذ الأحجار فيعمل مسجداً فيصلي فيه ، فلما أن أصبحنا إذا نحن قد

صلينا على غير القبلة ، فقلنا : يا رسول الله لقد صلينا ليلتنا هذه لغير القبلة ، فأنزل الله ﴿ ولله المشرق والمغرب .

. . ﴾ الآية . فقال مضت صلاتكم " .

وأخرج الدارقطني وابن مردويه والبيهقي عن جابر بن عبد الله قال " بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية كنت فيها ، فأصابتنا ظلمة فلم نعرف القبلة ، فقالت طائفة منا : القبلة ههنا قبل الشمال ، فصلوا وخطوا خطاً . وقال بعضنا : القبلة ههنا قبل الجنوب ، فصلوا وخطوا خطاً . فلما أصبحوا وطلعت الشمس أصبحت تلك الخطوط لغير القبلة ، فلما قفلنا من سفرنا سألنا النبي صلى الله عليه وسلم ؟ فسكت ، فأنزل الله ﴿ ولله المشرق والمغرب . . . ﴾ الآية " .

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن عطاء " أن قوماً عميت عليهم القبلة ، فصلى كل إنسان منهم إلى ناحية ، ثم أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكروا ذلك له ، فأنزل الله ﴿ فأينما تولوا فثم وجه الله ﴾ " .

وأخرج ابن مردويه بسند ضعيف عن ابن عباس " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث سريه فأصابتهم ضبابه فلم يهتدوا إلى القبله فصلوا لغير القبله ، ثم استبان لهم بعد ما طلعت الشمس أنهم صلوا لغير القبله ، فلما جاؤوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حدثوه ، فأنزل الله ﴿ ولله المشرق والمغرب . . . ﴾ الآية " .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن قتادة " أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن أخا لكم قد مات – يعني النجاشي – فصلوا عليه " قالوا : نصلي على رجل ليس بمسلم . . . ! فأنزل الله ﴿ وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله . . . ﴾ [آل عمران : 199] . قالوا : فإنه كان لا يصلي إلى القبلة ، فأنزل الله ﴿ ولله المشرق والمغرب . . . ﴾ الآية " .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن مجاهد قال : لما نزلت ﴿ ادعوني أستجب لكم ﴾ [غافر : 60] قالوا : إلى أين ؟ فأنزلت ﴿ فأينما تولوا فثم وجه الله ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ فأينما تولوا فثم وجه الله ﴾ قال : قبلة الله أينما توجهت شرقا أو غربا .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد والترمذي والبيهقي في سننه عن مجاهد ﴿ فثم وجه الله ﴾ قال : قبلة الله ، فأينما كنتم في شرق أو غرب فاستقبلوها .

وأخرج عبد بن حميد والترمذي عن قتادة في هذه الآية قال : هي منسوخة نسخها قوله تعالى ﴿ فول وجهك شطر المسجد الحرام ﴾ [البقرة : 149] أي تلقاءه . وأخرج ابن

أبي شيبة والترمذي وصححه وابن ماجه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " ما بين المشرق والمغرب قبلة " .

وأخرج ابن أبي شيبة والدارقطني والبيهقي عن ابن عمر . مثله .

وأخرج ابن أبي شيبة والبيهقي عن عمر قال : ما بين المشرق والمغرب قبلة إذا توجهت قبل البيت . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 1 صـ 265 . 268 ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله تعالى : ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ ﴾ " أَيْنَ " هنا اسم شرط بمعنى " إنْ " و " ما " مزيدةٌ عليها ، و " تولو " مجزوم بها .

وزيادة " ما " ليست لازمةً لها ؛ بدليل قوله : [الخفيف]

750 أَيْنَ تَضْرِبْ بِنَا العُدَاةَ تَجِدْنَا . . . . . .

وهي ظرف مكان ، والناصب لها ما بعدها ، وتكون اسم استفهام أيضاً ، فهي لفظ مشترك بين الشرط والاستفهام كـ " مَنْ " و " مَا " .

وزعم بعضهم أن أصلها السؤال عن الأمكنة ، وهي مبنية على الفتح لتضمنها معنى حرف شرط أو الاستفهام .

وأصل تُولُوا : تُوُلِّيوا فأعل بالحذف وقرأ الجمهور : تُوَلُّوا " بضم التاء واللام بمعنى تستقبلوا ، فإن " ولى " وإن كان غالب استعمالها أدبر ، فإنها تقتضي الإقبال إلى ناحية ما .

تقول : وليت عن كذا إلى كذا ، وقرأ الحسن : " تَوَلَّوا " بفتحهما .

وفيها وجهان :

أن يكون مضارعاً ، والأصل : تتولوا من التولية ، فحذف إحدى التاءين تخفيفاً ، نحو : ﴿ تَنَزَّلُ الملائكة ﴾ [القدر : 4] .

والثاني : أن يكون ماضياً ، والضمير للغائبين رداً على قوله : " لَهُمْ فِي الدُّنْيَا ولهم في الآخرة " فتتناسق الضمائر .

وقال أبو البقاء : والثاني : أنه ماض والضمير للغائبين ، والتقدير : أينما يَتَوَلَّوا ، يعنى : أنه وإن كان ماضياً لفظاً فهو مستقبل معنى ثم قال : وقد يجوز أن يكون ماضياً قد وقع ، ولا يكون " أين " شرطاً في اللفظ ، بل في المعنى ، كما تقول : " ما صنعتَ صنعتُ " إذا أردت الماضي

، وهذا ضعيف ؛ لأن " أين " إما شرط ، أو استفهما ، وليس لها معنى ثالث .

انتهى وهو غير واضح .

قوله : ﴿ فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ ﴾ الفاء وما بعدها جواب الشَّرْط ، فالجملة في محلّ جزم ، و " ثَمَّ " خبر مقدم و " وَجْهُ اللهِ " رفع بالابتداء ، و " ثَمَّ " اسم إشارة للمكان البعيد خاصة مثل : هنا وهنَّا بتشديد النون ، وهو مبني على الفتح لتضمّنه معنى حرف الإشارة أو حرف الخطاب .

قال أبو البقاء : لأنك تقول في الحاضر هنا وفي الغائب هناك ، وثَمَّ ناب عن هناك [وهذا ليس بشيء] .

وقيل : بني لشبهه بالحَرْشفِ في الافتقار ، فإنه يفتقر إلى مشار إليه ، ولا ينصرف بأكثر من جره بـ " من " .

ولذلك غَلِط بعضهم في جعله مفعولاً في قوله : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ ﴾ [الإنسان : 20] ، بل مفعول " رأيت " محذوف . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 2 صـ 414 . 415 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (115) ﴾

الإشارة منها إلى مشارق القلوب ومغاربها . وللقلوب شوارق وطوارق . وطوارقها هواجس النفوس تطرق في ظلمات المنى والشهوات .

وشوارقها نجوم العلوم وأقمار الحضور وشموس المعارف .

(62/64)

فما دامت الشوارق طالعة فَقِبْلَةُ القلوب ، واضحة ظاهرة ، فإذا استولت الحقائق خَفَى سلطانُ الشوارق ، كالنجوم تستتر عند طلوع الشمس ، كذلك عند ظهور الحق يحصل اصطلام وقهر ، فلا شهود رسم ، ولا بقاء حِسٍّ وفَهْم ، ولا سلطان عقل وعلم ، ولا ضياء عرفان . فإن وجدان هذه الجملة صفات لائقة ببقاء البشرية ، وإذا صار الموصوف محواً فأَنَّى لهم ببقاء الصفة .

قال تعالى : ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ ﴾ ما دام يبقى من الإحساس والتمييز بقية – ولو شظية – فالقِبْلة مقصودة ، فإن لم تكن معلومة تكون مطلوبة . وعلى لسان العلم إذا اشتبهت الدلائل بكلِّ وِجْهَةٍ ، ولا معرفةَ بالقِبْلة تَسَاوَتْ الجهاتُ في جواز الصلاة إلى كل واحدٍ منها إذا لم يكن للنية ترجيح . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 116 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ (116) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما أفاد ما تقدم وصفه تعالى بتمام القدرة واتساع الملك والفضل وشمول العلم كان من المحال افتقاره إلى شيء ولد أو غيره قدّم أهل الأديان الباطلة كلهم بافترائهم في الولد اليهود في عزير والنصارى في المسيح وعبدة الأوثان في الملائكة فقال معجباً ممن اجترأ على نسبة ذلك إليه مع معرفة ما تقدم عاطفاً على ما سبق من دعاويهم : ﴿ وقالوا اتخذ الله ﴾ الذي له الكمال كله وعبر بقوله : ﴿ ولداً ﴾ الصالح للذكر والأنثى لينظم بذلك مقالات الجميع .

ولما كان العطف على مقالات أهل الكتاب ربما أوهم اختصاص الذم بهم حذفت واو العطف في قراءة ابن عامر على طريق الاستئناف في جواب من كأنه قال : هل انقطع حبل افترائهم ؟ إشارة إلى ذم كل من قال بذلك ، وذلك إشارة إلى شدة التباسها بما قبلها كما قال الإمام أبو علي الفارسي في كتاب الحجة ، لأن جميع المتحزبين على أهل الإسلام مانعون لهم

من إحياء المساجد بالذكر لشغلهم لهم بالعداوة عن لزومها ، والحاصل أنه إن عطف كان انصباب الكلام إلى أهل الكتاب وأما غيرهم فتبع لهم للمساواة في المقالة ، وإذا حذفت الواو انصب إلى الكل انصباباً واحداً .

ونزه نفسه الشريفة استئنافاً بقوله : ﴿ سبحانه ﴾ فذكر علم التسبيح الجامع لإحاطة المعنى في جوامع التنزيه كله ، ثم جاء بكلمة الإضراب المفهمة الرد بالنفي فكأن الخطاب يفهم : ما اتخذ الله ولداً ولا له ولد ﴿ بل له ما ﴾ فعبر بالأداة التي هي لغير العاقل تصلح له تعميماً وتحقيراً لهم ﴿ في السماوات والأرض ﴾ مما ادعت كل فرقة منهم فيه الولدية وغير ذلك .

ثم علله بقوله معبراً بما يفهم غاية الإذعان : ﴿ كل له قانتون ﴾ أي مخلصون خاشعون متواضعون ، لاستسلامهم لقضائه من غير قدرة على دفاع ، ولا تطلع إلى نوع امتناع العاقل ، غيره ، حتى كأنهم يسعون في ذلك ويبادرون إليه مبادرة اللبيب الحازم .

قال الحرالي : فجاء بالجمع المشعر كما يقال بالعقل والعلم لما تقدم من أنه لا عجمة ولا جمادية بين الكون والمكوّن ، إنما يقع جمادية وعجمة بين آحاد من المقصرين في الكون عن الإدراك التام ؛ والقنوت ثبات القائم بالأمر على قيامه تحققاً بتمكنه فيه . انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 228 . 229 ﴾

اللغة :

[سبحانه] سبحان مصدر سبح بمعنى نزه ومعناه التبرئة والتنزيه عما لا يليق بجلاله تعالى

[قانتون] مطيعون خاضعون من القنوت والطاعة والخضوع

[بديع] البديع : المبدع ، والإبداع : الاختراع والابتكار ، وهو اختراع الشيء على غير مثال سبق

[قضى] أراد وقدر

[بشيرا] البشير : المبشر وهو المخبر بالأمر الصادق السار

[نذيرا] النذير : المنذر وهو المخبر بالأمر المخوف ليحذر منه

[الجحيم] المتأجج من النار

[ملتهم] أي دينهم وجمعها ملل ، وأصل الملة : الطريقة المسلوكة ، ثم جعلت اسما للشريعة التى أنزلها الله

[عدل] فداء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 1 صـ 90 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أن هذا هو النوع العاشر من مقابح أفعال اليهود والنصارى والمشركين ، واعلم أن الظاهر قوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ اتخذ الله وَلَدًا ﴾ أن يكون راجعاً إلى قوله : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مساجد الله ﴾ [البقرة : 114] وقد ذكرنا أن منهم من تأوله على النصارى ، ومنهم من تأوله على مشركي العرب ، ونحن قد تأولناه على اليهود وكل هؤلاء أثبتوا الولد لله تعالى ، لأن اليهود قالوا : عزيز ابن الله ، والنصارى قالوا : المسيح ابن الله ، ومشركو العرب قالوا : الملائكة بنات الله فلا جرم صحت هذه الحكاية على جميع التقديرات ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : أنها نزلت في كعب بن الأشرف ، وكعب بن أسد ، ووهب بن يهودا فإنهم جعلوا عزيراً ابن الله ،

أما قوله تعالى : ﴿ سبحانه ﴾ فهو كلمة تنزيه ينزه بها نفسه عما قالوه ، كما قال تعالى في موضع آخر : ﴿ سبحانه أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ﴾ [النساء : 171] فمرة أظهره ، ومرة اقتصر عليه لدلالة الكلام عليه ، واحتج على هذا التنزيه بقوله : ﴿ بَل لَّهُ مَا فِي السموات والأرض ﴾ ووجه الاستدلال بهذا على فساد مذهبهم من وجوه .

الأول : أن كل ما سوى الموجود الواجب ممكن لذاته ، وكل ممكن لذاته محدث ، وكل محدث فهو مخلوق لواجب الوجود ، والمخلوق لا يكون ولداً ، أما بيان أن ما سوى الموجود الواجب ممكن لذاته ، فلأنه لو وجد موجودان واجبان لذاتهما لاشتركا في وجوب الوجود ، ولامتاز كل واحد منهما عن الآخر بما به التعين ، وما به المشاركة ، غير ما به الممايزة ، ويلزم تركب كل واحد منهما من قيدين ، وكل مركب فإنه مفتقر إلى كل واحد من أجزائه ، وكل واحد من أجزائه من غيره ، فكل مركب فهو مفتقر إلى غيره ، وكل مفتقر إلى غيره فهو ممكن لذاته ، فكل واحد من الموجودين الواجبين لذاتهما ممكن لذاته ، هذا خلف ، ثم نقول : إن كان كل واحد من ذينك الجزءين واجباً عاد التقسيم المذكور فيه ، ويقضي إلى كونه مركباً من أجزاء غير متناهية ، وذلك محال ، ومع تسليم أنه غير محال فالمقصود حاصل ، لأن كل كثرة فلا بد فيها من الواحد ، فتلك الآحاد إن كانت واجبة لذواتها كانت مركبة على ما ثبت ، فالبسيط مركب هذا خلف ، وإن كانت ممكنة كان المركب المفتقر إليها أولى بالإمكان ، فثبت بهذا البرهان أن كل ما عدا الموجود الواجب ممكن لذاته ، وكل ممكن لذاته فهو محتاج إلى المؤثر ، وتأثير ذلك المؤثر فيه إما أن يكون حال عدمه أو حال وجوده ، فإن كان الأول فذلك الممكن محدث ، وإن كان الثاني فاحتياج ذلك الموجود إلى المؤثر ، إما أن يكون حال بقائه أو حال حدوثه ، والأول محال لأنه يقتضي إيجاد الوجود فتعين الثاني

وذلك يقتضي كون ذلك الممكن محدثاً فثبت أن كل ما سوى الله محدث مسبوق بالعدم وأن وجوده إنما حصل بخلق الله تعالى وإيجاده وإبداعه ، فثبت أن كل ما سواه فهو عبده وملكه فيستحل أن يكون شيء مما سواه ولداً له ، وهذا البرهان إنما استفدناه من قوله : ﴿ بَل لَّهُ مَا فِي السموات والأرض ﴾ أي له كل ما سواه على سبيل الملك والخلق والإيجاد والإبداع .

(67/64)

والثاني : أن هذا الذي أضيف إليه بأنه ولده إما أن يكون قديماً أزلياً أو محدثاً ، فإن كان أزلياً لم يكن حكمنا بجعل أحدهما ولداً والآخر والداً أولى من العكس ، فيكون ذلك الحكم حكماً مجرداً من غير دليل وإن كان الولد حادثاً كان مخلوقاً لذلك القديم وعبداً له فلا يكون ولداً له .

والثالث : أن الولد لا بد وأن يكون من جنس الوالد ، فلو فرضنا له ولداً لكان مشاركاً له من بعض الوجوه ، وممتازاً عنه من وجه آخر ، وذلك يقتضي كون كل واحد منهما مركباً ومحدثاً وذلك محال ، فإذن المجانسة ممتنعة فالولدية ممتنعة .

(68/64)

الرابع : أن الولد إنما يتخذ للحاجة إليه في الكبر ورجاء الانتفاع بمعونته حال عجز الأب عن أمور نفسه ، فعلى هذا إيجاد الولد إنما يصح على من يصح عليه الفقر والعجز والحاجة ، فإذا كان كل ذلك محال كان إيجاد الولد عليه سبحانه وتعالى محالاً ، واعلم أنه تعالى حكى في مواضع كثيرة عن هؤلاء الذين يضيفون إليه الأولاد قولهم ، واحتج عليهم بهذه الحجة وهي أن كل من في السموات والأرض عبد له ، وبأنه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ، وقال في مريم : ﴿ ذلك عِيسَى ابن مَرْيَمَ قَوْلَ الحق الذى فِيهِ يَمْتَرُونَ مَا كَانَ للَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سبحانه إِذَا قضى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [مريم : 34 ، 35] وقال أيضاً في آخر هذه السورة : ﴿ وَقَالُواْ اتخذ الرحمن وَلَداً * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً تَكَادُ السموات يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأرض وَتَخِرُّ الجبال هَدّاً * أَن دَعَوْاْ للرحمن وَلَداً * وَمَا يَنبَغِى للرحمن أَن يَتَّخِذَ وَلَداً * إِن كُلُّ مَن فِى السموات والأرض إِلاَّ اِتِى الرحمن عَبْداً ﴾ [مريم : 88 93] فإن قيل : ما الحكمة في أنه تعالى استدل في هذه الآية بكونه مالكاً لما في السموات والأرض ، وفي سورة مريم بكونه مالكاً لمن في السموات والأرض على ما قال : ﴿ إِن كُلُّ مَن فِى السموات والأرض إِلاَّ اِتِى الرحمن عَبْداً ﴾ قلنا : قوله تعالى في هذه السورة : ﴿ بَل لَّهُ مَا فِي السموات والأرض ﴾ أتم ، لأن كلمة (ما) تتناول جميع الأشياء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 4 صـ 21.23 ﴾

قال الآلوسى :

﴿ وَقَالُواْ اتخذ الله وَلَدًا ﴾ نزلت في اليهود حيث قالوا عزيز ابن الله وفي نصارى نجران حين قالوا المسيح ابن الله وفي مشركي العرب حيث قالوا الملائكة بنات الله فالضمير لما سبق ذكره من النصارى واليهود والمشركين الذين لا يعلمون ، وعطفه على ﴿ قَالَتْ اليهود ﴾ [البقرة : 113] وقال أبو البقاء على ﴿ وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الجنة ﴾ [البقرة : 111] : وجوز أن يكون عطفاً على ﴿ مَنَعَ ﴾ [البقرة : 114] أو على مفهوم من أظلم دون لفظه للاختلاف إنشائية وخبرية ، والتقدير ظلموا ظلماً شديداً بالمنع ، وقالوا : وإن جعل من عطف القصة على القصة لم يحتج إلى تأويل ، والاستئناف حينئذٍ بياني كأنه قيل بعد ما عدد من قبائحهم هل انقطع خيط إسهابهم في الافتراء على الله تعالى أم امتد ؟ فقيل : بل امتد فإنهم قالوا ما هو أشنع وأفظع ، والاتخاذ إما بمعنى الصنع والعمل فلا يتعدى إلا إلى واحد ، وإما بمعنى التصيير ، والمفعول الأول محذوف أي صير بعض مخلوقاته ولداً ، وقرأ ابن عباس وابن عامر وغيرهما (قالوا) بغير واو على الاستئناف أو ملحوظاً فيه معنى العطف ، واكتفى بالضمير ، والربط به عن الواو كما في " البحر " ﴿ سبحانه ﴾ تنزيه

وتبرئة له تعالى عما قالوا : بأبلغ صيغة ومتعلق سبحان محذوف كما ترى لدلالة الكلام عليه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 366 ﴾

وقال ابن عاشور :

الضمير المرفوع بقالوا عائد إلى جميع الفرق الثلاث وهي اليهود والنصارى والذين لا يعلمون إشارة إلى ضلال آخر اتفق فيه الفرق الثلاث .

وقد قرئ بالواو (وقالوا) على أنه معطوف على قوله ﴿ وقالت اليهود ﴾ [البقرة : 113] وهي قراءة الجمهور .

(70/64)

وقرأه ابن عامر بدون واو عطف وكذلك ثبتت الآية في المصحف الإمام الموجه إلى الشام فتكون استئنافاً كأنَّ السامع بعد أن سمع ما مر من عجائب هؤلاء الفرق الثلاث جمعاً وتفريقاً تسنى له أن يقول لقد أسمعتنا من مساويهم عجباً فهل انتهت مساويهم أم لهم مساوٍ أخرى لأن ما سمعناه مؤذن بأنها مساوٍ لا تصدر إلا عن فطر خبيثة .

وقد اجتمع على هذه الضلالة الفرق الثلاث كما اتفقوا على ما قبلها ، فقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله وقال المشركون الملائكة بنات الله فتكون هاته الآية

رجوعاً إلى جمعهم في قَرَن إتماماً لجمع أحوالهم الواقع في قوله : ﴿ ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين ﴾ [البقرة : 105] وفي قوله : ﴿ كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم ﴾ [البقرة : 113] .

وقد ختمت هذه الآية بآية جمعت الفريق الثالث في مقالة أخرى وذلك قوله تعالى : ﴿ وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله ﴾ [البقرة : 118] إلى قوله : ﴿ كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم ﴾ [البقرة : 118] .

والقول هنا على حقيقته وهو الكلام اللساني ولذلك نصب الجملة وأريد أنهم اعتقدوا ذلك أيضاً لأن الغالب في الكلام أن يكون على وفق الاعْتِقَاد .

وقوله : ﴿ اتخذ الله ولداً ﴾ جاء بلفظ (اتخذ) تعريضاً بالاستهزاء بهم بأن كلامهم لا يلتئم لأنهم أثبتوا ولداً لله ويقولون اتخذه الله .

والاتخاذ الاكتساب وهو ينافي الولدية إذ الولدية تولد بدون صنع فإذا جاء الصنع جاءت العبودية لا محالة وهذا التخالف هو ما يعبر عنه في علم الجدل بفساد الوضع وهو أن يستنتج وجود الشيء من وجود ضده كما يقول قائل : القتل جناية عظيمة فلا تكفّر مثل الردة .

وأصل هذه المقالة بالنسبة للمشركين ناشىء عن جهالة وبالنسبة لأهل الكتابين ناشىء عن توغلهما في سوء فهم الدين حتى توهموا التشبيهات والمجازات حقائق فقد ورد وصف الصالحين بأنهم أبناء الله على طريقة التشبيه وورد في كتاب النصارى وصف الله تعالى بأنه أبو عيسى وأبو الأمة فتلقفته عقول لا تعرف التأويل ولا تؤيد اعتقادها بواضح الدليل فظنته على حقيقته .

جاء في التوراة في الإصحاح 14 من سفر التثنية " أنتم أولاد للرب إلهكم لا تخمشوا أجسامكم" وفي إنجيل متى الإصحاح 5 " طوبى لصانعي السلام لأنهم أبناء الله يُدْعَون" وفيه " وصَلُّوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السماوات" وفي الإصحاح 6 " انظروا إلى طيور السماء إنها لا تزرع ولا تحصد ولا تجمع إلى مخازن وأبوكم السماوي يقوتها " وتكرر ذلك في الأناجيل غير مرة ففهموها بسوء الفهم على ظاهر عبارتها ولم يراعوا أصول الديانة التي توجب تأويلها ألا ترى أن المسلمين لما جاءتهم أمثال هاته العبارات أحسنوا تأويلها وتبينوا دليلها كما في الحديث : " الخلقُ عيال الله" .

وقوله : ﴿ سبحانه ﴾ تنزيه لله عن شنيع هذا القول .

وفيه إشارة إلى أن الوَلَدِيَّة نقص بالنسبة إلى الله تعالى وإن كانت كمالاً في الشاهد لأنها إنما كانت كمالاً في الشاهد من حيث إنها تسد بعض نقائصه عند العجز والفقر وتسد مكانه

عند الاضمحلال والله منزه عن جميع ذلك فلو كان له ولد لآذن بالحدوث وبالحاجة إليه .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 1 صـ 665.666 ﴾

فائدة

قال القرطبى :

قوله : ﴿ سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ ﴾ الآية : خرّج البخاري عن ابن عباس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " قال الله تعالى كذّبني ابن آدم ولم يكن له ذلك وشَتَمني ولم يكن له ذلك فأمّا تكذيبه إياي فزَعَم أني لا أقدِر أن أعيده كما كان وأمّا شتمه إياي فقوله لي ولد فسبحاني أن أتخذ صاحبة أو ولداً " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 2 صـ 85 ﴾

فائدة

قال الآلوسى :

﴿ بَل لَّهُ مَا فِي السماوات والأرض ﴾ إبطال لما زعموه وإضراب عما تقتضيه مقالتهم الباطلة من التشبيه بالمحدثات في التناسل والتوالد ، والحاجة إلى الولد في القيام بما يحتاج الوالد إليه ، وسرعة الفناء لأنه لازم للتركيب اللازم للحاجة ، وكل محقق قريب سريع ، ولإن

الحكمة في التوالد هو أن يبقى النوع محفوظاً بتوارد الأمثال فيما لا سبيل إلى بقاء الشخص بعينه مدة بقاء الدهر ، وكل ذلك يمتنع على الله تعالى فإنه الأبدي الدائم والغنى المطلق المنزع عن مشابهة المخلوقات ، واللام في ﴿ لَهُ ﴾ قيل للملك ، وقيل : إنها كالتي في قولك لزيد ضرب تفيد نسبة الأثر إلى المؤثر ، وقيل : للاختصاص بأي وجه كان ، وهو الأظهر ، والمعنى ليس الأمر كما افتروا بل هو خالق جميع الموجودات التي من جملتها ما زعموه ولداً ، والخالق لكل موجود لا حاجة له إلى الولد إذ هو يوجد ما يشاء منزهاً عن الاحتياج إلى التوالد . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 366 ﴾

وقال ابن عاشور :

وقوله : ﴿ بل له ما في السماوات والأرض ﴾ إضراب عن قولهم لإبطاله ، وأقام الدليل على الإبطال بقوله : ﴿ له ما في السماوات والأرض ﴾ فالجملة استئناف ابتدائي وَاللام للملك و (ما في السماوات والأرض) أي ما هو موجود فإن السماوات والأرض هي مجموع العوالم العلوية والسفلية .

و(ما) من صيغ العموم تقع على العاقل وغيره وعلى المجموع وهذا هو الأصح الذي ذهب إليه في " المفصل" واختاره الرضي .

وقيل : (ما) تَغْلِب أو تختص بغير العقلاء ومَنْ تختص بالعقلاء وربما استعمل كل منهما في الآخر وهذا هو المشتهر بين النحاة وإن كان ضعيفاً وعليه فهم يجيبون على نحو ها ته الآية

بأنها من قبيل التغليب تنزيلاً للعقلاء في كونهم من صنع الله بمنزلة مساويةٍ لغيره من بقية الموجودات تصغيراً لشأن كل موجود . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 1 صـ 667 ﴾

(73/64)

فائدة

قال القرطبى :

لا يكون الولد إلا من جنس الوالد ، فكيف يكون للحق سبحانه أن يتخذ ولداً من مخلوقاته وهو لا يشبهه شيء ؛ وقد قال : ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي السماوات والأرض إِلاَّ آتِي الرحمن عَبْداً ﴾ [مريم : 93] كما قال هنا : ﴿ بَل لَّهُ مَا فِي السماوات والأرض ﴾ فالولدية تقتضي الجنسية والحدوث ، والقدم يقتضي الوحدانية والثبوت ؛ فهو سبحانه القديم الأزلي الواحد الأحد ، الفَرْد الصَّمد ، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كُفُواً أَحدٌ .

ثم إن البنوّة تنافي الرّق والعبودية على ما يأتي بيانه في سورة " مريم " إن شاء الله تعالى فكيف يكون ولد عبدا ! هذا محال ، وما أدّى إلى المحال محال . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 2 صـ 85 ﴾

قوله تعالى ﴿كُلٌّ لَّهُ قانتون﴾

فصل

قال الفخر :

القنوت : أصله الدوام ، ثم يستعمل على أربعة أوجه : الطاعة ، كقوله تعالى : ﴿يا مريم اقنتى لِرَبِّكِ﴾ [آل عمران : 43] وطول القيام ، كقوله عليه السلام لما سئل : أي الصلاة أفضل ؟ قال : " طول القنوت" وبمعنى السكوت ، كما قال زيد ابن أرقم : كنا نتكلم في الصلاة حتى نزل قوله تعالى : ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قانتين﴾ [البقرة : 238] فأمسكنا عن الكلام ، ويكون بمعنى الدوام ، إذا عرفت هذا فنقول : قال بعض المفسرين : ﴿كُلٌّ لَّهُ قانتون﴾ أي كل ما في السموات والأرض قانتون مطيعون ، والتنوين في كل عوض عن المضاف إليه وهو قول مجاهد وابن عباس ، فقيل لهؤلاء الكفار : ليسوا مطيعين ، فعند هذا قال آخرون : المعنى أنهم يطيعون يوم القيامة ، وهو قول السدي ، فقيل لهؤلاء : هذه صفة المكلفين ، وقوله : ﴿لَّهُ مَا فِي السموات﴾ يتناول من لا يكون مكلفاً فعند هذا فسروا القنوت بوجوه أخر .

الأول : بكونها شاهدة على وجود الخالق سبحانه بما فيها من آثار الصنعة وأمارات الحدوث والدلالة على الربوبية .

الثاني : كون جميعها في ملكه وقهره يتصرف فيها كيف يشاء ، وهو قول أبي مسلم ، وعلى هذين الوجهين الآية عامة .

(74/64)

الثالث : أراد به الملائكة وعزيراً والمسيح ، أي كل من هؤلاء الذين حكموا عليهم بالولد أنهم قانتون له ، يحكى عن علي بن أبي طالب قال لبعض النصارى : لولا تمرد عيسى عن عبادة الله لصرت على دينه ، فقال النصراني : كيف يجوز أن ينسب ذلك إلى عيسى مع جده في طاعة الله ، فقال علي رضي الله عنه : فإن كان عيسى إلهاً فالإله كيف يعبد غيره إنما العبد هو الذي يليق به العبادة ، فانقطع النصراني . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 4 صـ 23 ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴾ ابتداء وخبر ، والتقدير كلهم ، ثم حذف الهاء والميم .

" قَانِتُونَ" أي مطيعون وخاضعون ؛ فالمخلوقات كلها تَقْنُت لله ، أي تخضع وتطيع .

والجمادات قُنُوتهم في ظهور الصنعة عليهم وفيهم .

فالقنوت الطاعة ، والقنوت السكوت ؛ ومنه قول زيد بن أَرْقَم : كنا نتكلّم في الصلاة ، يُكَلِّم

الرجل صاحبَه إلى جنبه حتى نزلت : ﴿ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾ [البقرة : 238] فأُمرنا بالسكوت ونُهينا عن الكلام .

والقنوت : الصلاة ؛ قال الشاعر :

قانِتاً لله يَتْلُو كُتُبَه . . .

وعلى عمد من الناس اعتزل

وقال السُّدّي وغيره في قوله : ﴿ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴾ أي يوم القيامة .

الحسن : كل قائم بالشهادة أنه عبده .

والقنوت في اللغة أصله القيام ؛ ومنه الحديث : " أفضل الصلاة طول القنوت " قاله الزجاج .

فالخلق قانتون ؛ أي قائمون بالعبودية إمّا إقراراً وإمّا أن يكونوا على خلاف ذلك ؛ فأثر الصنعة بيّنٌ عليهم .

وقيل : أصله الطاعة ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ والقانتين والقانتات ﴾ [الأحزاب : 35] .

وسيأتي لهذا مزيد بيان عند قوله تعالى ، ﴿ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾ [البقرة : 238] .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 2 صـ 86 ﴾

وقال الخطيب الشربيني :

﴿ كلّ له قانتون ﴾ أي : منقادون كلّ بما يراد منه لا يمتنعون عن مشيئته وتكوينه وفي ذلك تغليب للعاقل لشرفه والآية مشعرة على فساد ما قالوه من ثلاثة أوجه الأول : قوله : سبحانه والثاني : قوله : بل له ما في السموات والأرض والثالث : كل له قانتون واحتج بها الفقهاء على أنّ من ملك ولده عتق عليه ؛ لأنه تعالى نفى الولد بإثبات الملك وذلك يقتضي تنافيهما . انتهى انتهى . اهـ ﴿ السراج المنير حـ 1 صـ 140 ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ كُلٌّ لَّهُ قانتون ﴾ أي كل ما فيهما كائناً ما كان جميعاً منقادون له لا يستعصي شيء منهم على مشيئته وتكوينه إيجاداً وإعداماً وتغيراً من حال إلى حال ، وهذا يستلزم الحدوث والإمكان المنافي للوجوب الذاتي فكل من كان متصفاً بهذه الصفة لا يكون والداً لأن من حق الولد أن يشارك والده في الجنس لكونه بعضاً منه ، وإن لم يماثله ، وكان الظاهر كلمة من مع ﴿ قانتون ﴾ كيلا يلزم اعتبار التغليب فيه ، ويكون موافقاً لسوق الكلام فإن الكلام في العزير والمسيح والملائكة وهم عقلاء إلا أنه جاء بكلمة (ما) المختصة بغير أولي العلم كما قاله بعضهم محتجاً بقصة الزبعري مخالفاً لما عليه الرضى من أنها في الغالب لما لا يعلم ، ولما عليه الأكثرون من عمومها كما في " التلويح " ، واعتبر التغليب في ﴿ قانتون ﴾ إشارة إلى أن هؤلاء الذين جعلوهم ولد الله تعالى سبحانه وتعالى في جنب عظمته جمادات مستوية

الأقدام معها في عدم الصلاحية لاتخاذ الولد ، وقيل : أتى بما في الأول لأنه إشارة إلى مقام الألوهية ، والعقلاء فيه بمنزلة الجمادات ، وبجمع العقلاء في الثاني لأنه إشارة إلى مقام العبودية ، والجمادات فيه بمنزلة العقلاء .

(76/64)

ويحتمل أن يقدر المضاف إليه كل ما جعلوه ولداً لدلالة المقول لا عاماً لدلالة مبطله ، ويراد بالقنوت الانقياد لأمر التكليف كما أنه على العموم الانقياد لأمر التكوين ، وحينئذ لا تغلب في ﴿ قانتون ﴾ وتكون الجملة إلزاماً بأن ما زعموه ولداً مطيع لله تعالى مقر بعبوديته بعد إقامة الحجة عليهم بما سبق ، وترك العطف للتنبيه على استقلال كل منهما في الدلالة على الفساد واختلافهما في كون أحدهما حجة والآخر إلزاماً ، وعلى الأول يكون الأخير مقرراً لما قبله ، وذكر الجصاص أن في هذه الآية دلالة على أن ملك الإنسان لا يبقى على ولده لأنه نفى الولد باثبات الملك باعتبار أن اللام له فمتى ملك ولده عتق عليه ، وقد حكم صلى الله عليه وسلم بمثل ذلك في الوالد إذا ملكه ولده ؛ ولا يخفى أن هذا بعيد عما قصد بالآية لا سيما إذا كان الأظهر الاختصاص كما علمت . انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 367.366 ﴾

وقال ابن عاشور :

والقنوت الخضوع والانقياد مع خوف وإنما جاء ﴿ قانتون ﴾ بجمع المذكر السالم المختص بالعقلاء تغليباً لأنهم أهل القنوت عن إرادة وبصيرة .

والمضاف إليه المحذوف بعد (كلّ) دلّ عليه قوله : ﴿ ما في السماوات والأرض ﴾ أي كل ما في السماوات والأرض أي العقلاء له قانتون وتنوين (كل) تنوين عوض عن المضاف إليه وسيأتي بيانه عند قوله تعالى : ﴿ ولكل وجهة هو موليها ﴾ [البقرة : 148] في هذه السورة .

وفي قوله : ﴿ له قانتون ﴾ حجة ثالثة على انتفاء الولد لأن الخضوع من شعار العبيد أما الولد فله إدلال على الوالد وإنما يبرُّ به ولا يقنت ، فكان إثبات القنوت كناية عن انتفاء الولدية بانتفاء لازمها لثبوت مُساوي نقيضه ومُساوي النقيض نقيضٌ وإثبات النقيض يستلزم نفي ما هو نقيض له .

وفصل جملة ﴿ كل له قانتون ﴾ لقصد استقلالها بالاستدلال حتى لا يظن السامع أنها مكملة للدليل المسوق له قوله : ﴿ له ما في السماوات والأرض ﴾ .

وقد استدل بها بعض الفقهاء على أن من ملك ولده أُعتق عليه لأن الله تعالى جعل نفي الولدية بإثبات العبودية فدل ذلك على تنافي الماهيتين وهو استرواح حسن . انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 1 صـ 667 ﴾

فائدة

قال الفخر :

لما كان القنوت في أصل اللغة عبارة عن الدوام كان معنى الآية أن دوام الممكنات وبقاءها به سبحانه ولأجله وهذا يقتضي أن العالم حال بقائه واستمراره محتاج إليه سبحانه وتعالى ، فثبت أن الممكن يقتضي أن لا تنقطع حاجته عن المؤثر لا حال حدوثه ولا حال بقائه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 4 صـ 23 ﴾

(78/64)

فائدة

قال الإمام الجصاص :

قال رحمه الله :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ مِلْكَ الْإِنْسَانِ لَا يَبْقَى عَلَى وَلَدِهِ ؛ لِأَنَّهُ نَفَى الْوَلَدَ بِإِثْبَاتِ الْمِلْكِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ يَعْنِي مُلْكَهُ وَلَيْسَ بِوَلَدِهِ ؛ وَهُوَ نَظِيرُ قَوْلِهِ : ﴿ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴾ فَاقْتَضَى ذَلِكَ عِتْقَ وَلَدِهِ عَلَيْهِ إذَا مَلَكَهُ وَقَدْ حَكَمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمِثْلِ ذَلِكَ فِي الْوَالِدِ إذَا مَلَكَهُ وَلَدُهُ ، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿ : لَا يَجْزِي وَلَدٌ وَالِدَهُ إلَّا أَنْ يَجِدَهُ مَمْلُوكًا فَيَشْتَرِيَهُ فَيُعْتِقَهُ ﴾ فَدَلَّتْ الْآيَةُ عَلَى عِتْقِ الْوَلَدِ إذَا مَلَكَهُ أَبُوهُ ، وَاقْتَضَى خَبَرُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِتْقَ الْوَالِدِ إذَا مَلَكَهُ وَلَدُهُ وَقَالَ بَعْضُ الْجُهَّالِ : إذَا مَلَكَ أَبَاهُ لَمْ يُعْتَقْ عَلَيْهِ حَتَّى يُعْتِقَهُ لِقَوْلِهِ : " فَيَشْتَرِيَهُ فَيُعْتِقَهُ " وَهَذَا يَقْتَضِي عِتْقًا مُسْتَأْنَفًا بَعْدَ الْمِلْكِ فَجَهِلَ حُكْمَ اللَّفْظِ فِي اللُّغَةِ وَالْعُرْفِ جَمِيعًا ؛ لِأَنَّ الْمَعْقُولَ مِنْهُ فَيَشْتَرِيَهُ فَيُعْتِقَهُ بِالشِّرَى ؛ إذْ قَدْ أَفَادَ أَنَّ شِرَاهُ مُوجِبٌ لِعِتْقِهِ ؛ وَهَذَا كَقَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ النَّاسُ غَادِيَانِ : فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُوبِقُهَا ، وَمُشْتَرٍ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا ﴾ يُرِيدُ أَنَّهُ مُعْتِقُهَا بِالشِّرَى لَا بِاسْتِئْنَافِ عِتْقٍ بَعْدَهُ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 1 صـ 79 ﴾

فائدة

قال الفخر :

يقال كيف جاء بما الذي لغير أولي العلم مع قوله : ﴿ قانتون ﴾ جوابه : كأنه جاء بما دون من تحقيراً لشأنهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 4 صـ 23 ﴾

سؤال : فإن قيل : كيف عمَّ بهذا القول وكثير من الخلق ليس له بمطيع ؟ فعنه ثلاثة أجوبة .

أحدها : أن يكون ظاهرها ظاهر العموم ، ومعناها معنى الخصوص .

والمعنى : كل أهل الطاعة له قانتون .

والثاني : أن الكفار تسجد ظلالهم لله بالغدوات والعشيات ، فنسب القنوت إليهم بذلك .

والثالث : أن كل مخلوق قانت له بأثر صنعه فيه ، وجري أحكامه عليه ، فذلك دليل على ذله للرب .

ذكرهن ابن الأنباري . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 1 صـ 136 ﴾

فائدة

قال السعدى :

والقنوت نوعان : قنوت عام : وهو قنوت الخلق كلهم ، تحت تدبير الخالق ، وخاص : وهو قنوت العبادة .

فالنوع الأول كما في هذه الآية ، والنوع الثاني : كما في قوله تعالى : ﴿ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾ .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير السعدى صـ 64 ﴾

"بحوث مهمة"

1 ـ دلائل نفي الولد

نسبة الولد إلى الله سبحانه ، هي دون شك وليدة سذاجة فكرية ، قائمة على أساس مقارنة كل شيء بالوجود البشري المحدود .

الإِنسان يحتاج إلى الولد لأسباب عديدة : فهو من جانب ذو عمر محدود يحتاج إلى توليد المثل لاستمرار نسله .

ومن جهة أُخرى هو ذو قوّة محدودة تضعف بالتدريج ، ويحتاج لذلك ـ وخاصة في فترة الشيخوخة ـ إلى من يساعده في أعماله .

وهو أيضاً ينطوي على عواطف وحبّ للأنيس ، وذلك يتطلب وجود فرد أنيس في حياة الإِنسان ، والولد يلبي هذه الحاجة .

واضح أن كل هذه الأُمور لا يمكن أن تجد لها مفهوماً بشأن الله سبحانه ، وهو خالق عالم الوجود والقادر على كلّ شيء ، وهو الأزلي الأبدي .

أضف إلى ذلك ، الولد يستلزم أن يكون الوالد جسماً والله منزّه عن ذلك .

2 ـ تفسير (كُنْ فَيَكُونُ)

هذا التعبير ورد في آيات عديدة منها الآية 47 و59 من سورة آل عمران ، والآية 73 من سورة الأنعام ، والآية 40 من سورة النحل والآية 35 من سورة مريم ، والآية 82 من سورة يس ، وغيرها ، والمراد منها الإرادة التكوينية لله تعالى وحاكميته في الخليقة .

بعبارة أوضح : المقصود من جملة (كُنْ فَيَكُونُ) ليس هو صدور الأمر اللفظي "كُنْ" من قبل الله تعالى ، بل المقصود تحقق إرادة الله سبحانه حينما تقتضي إيجاد شيء من الأشياء ، صغيراً بحجم الذّرة كان ، أم كبيراً بحجم السماوات والأرض ، بسيطاً كان أم معقداً ، دون أن يحتاج في ذلك الإيجاد إلى أية علّة أخرى ، ودون أن تكون هناك أية فترة زمنية بين الإرادة والإيجاد .

لا يمكن للزمان أن يفصل بين الأمر والكينونة ، ولذلك فإن الفاء في جملة "فَيَكُون" ، لا تدل على تأخير زمني كما هو الحال في الجمل الأخرى ، بل إنها تدل فقط على التأخير في الرتبة (الفلسفة أثبتت تأخر المعلول عن العلة ، وهذا التأخر ليس زمنياً ، بل في الرتبة ـ تأمل بدقة ـ) .

ليس المقصود أن الشيء يصبح موجوداً متى ما أراد الله ذلك ، بل المقصود أن الشيء يصبح موجوداً بالشكل الذي أراده الله .

على سبيل المثال ، لو أراد الله أن يخلق السماوات والأرض في ستة أيّام ، لكان ذلك ، دون زيادة أو نقص ، ولو أراد أن توجد في لحظة واحدة لوجدت بأجمعها في لحظة واحدة ، فذلك تابع لكيفية إرادته ولما يراه من مصلحة .

ولو شاء الله ـ مث ـ أن يبقى الجنين في رحم أمه تسعة أشهر وتسعة أيّام ليطوي مراحل تكامله ، لما زادت هذه المدة وما نقصت . أمّا لو شاء أن يطوي هذا الجنين مراحل تكامله خلال لحظة واحدة لحدث ذلك قطعاً ، لأن إرادته علّة تامّة للخليقة ، ولا يمكن أن توجد فاصلة بين العلة التامة ووجود المعلول .

3 ـ كيف يوجد الشيء من العدم ؟

كلمة "بَدِيعُ" من " بدع" ، والإبداع إنشاء صنعة بلا احتذاء واقتداء منه ، وفي الآية بمعنى إيجاد الشيء من غير مادة سابقة

والسّؤال الذي يطرح في هذا المجال يدور حول إمكان إيجاد الشيء من العدم ، فكيف يمكن للعدم ـ وهو نقيض الوجود ـ أن يكون منشأ للوجود ؟ وهذه هي الشبهة التي يوردها الماديون في مسألة " الإبداع" ليستنتجوا منها أن المادة الأصلية للعالم أزلية أبدية ، ولا يطرأ عليها وجود وعدم إطلاقاً .

الجواب

في المرحلة الأولى ، يوجّه نفس هذا الإعتراض إلى الماديين فهؤلاء يعتقدون أن مادة هذا العالم قديمة أزلية ، ولم ينقص منها شيء حتى الآن ، والذي نراه يتغير هو " الصورة" وحدها ، لا أصل المادة . ونحن بدورنا نسأل : كيف وجدت الصورة الحالية للمادة ولم تكن موجودة من قبل ؟ هل وجدت من العدم ؟ إذا كان كذلك ، فكيف يمكن للعدم أن يكون منشأ للوجود ؟ (تأمل بدقّة) .

على سبيل المثال ، يقول الماديون في لوحة زيتية مرسومة على ورقة أنّ زيوت التلوين كانت موجودة ، ونحن نسأل : كيف وجدت هذه " الصورة" التي لم تكن موجودة من قبل ؟

كل جواب يقدمونه بشأن إيجاد " الصورة" من " العدم" نقدمه نحن أيضاً بشأن إيجاده " المادة" .

وفي المرحلة الثانية ، ينبغي التأكيد على أن خطأ الماديين ناتج عن كلمة " من" . هؤلاء تصوروا قولنا : (أن العالم وجد من العدم) شبيه بقولنا (أن المنضدة وجدت من الخشب) حيث لابدّ من وجود الخشب أوّلكي توجد المنضدة . بينما جملة " وجود العالم من العدم"

لا تعني ذلك . بل تعني " أن العالم لم يكن موجوداً ثم وجد " . وهل في هذه العبارة تضاد أو تناقض ؟ !

وبالتعبير الفلسفي : كل موجود ممكن (الذي لا يملك الوجود ذاتياً) له جانبان : ماهية ووجود ، " الماهية" هي " المعنى الاعتباري" الذي يتساوى في نسبته للعدم والوجود . بعبارة أخرى ، الماهية هي المقدار المشترك الذي نفهمه من ملاحظة وجود شيء وعدمه . فهذه الشجرة لم تكن موجودة سابقاً وهي موجودة الآن ، والشخص الفلاني لم يكن موجوداً سابقاً وهو الآن موجود ، وما أسندنا إليه الحالتين (الوجود والعدم) هي " الماهية" .

من هنا يكون معنى قولنا (إن الله أوجد العالم من العدم) هو أنه سبحان نقل الماهية من حالة العدم إلى حالة الوجود ، وبعبارة أخرى وضع لباس " الوجود" على جسد " الماهية" .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الأمثل حـ 1 صـ 354.351 ﴾

" فائدة جليلة "

قال القاسمي – رحمه الله – ما نصه :

قال الراغب في تفسيره : نبه على أقوى حجة على نفي ذلك ، وبيانها : هو أن لكل موجود في العالم ، مخلوقاً طبيعياً ، أو معمولاً صناعياً ، غرضاً وكمالاً أوجد لأجله ، وإن كان قد يصلح لغيره على سبيل الغرض ، كاليد للبطش ، والرجل للمشي ، والسكين لقطع مخصوص ، والمنشار للنشر ، وإن كانت اليد قد تصلح للمشي في حال ، والرجل للتناول ، لكن ليس على التمام . والغرض في الولد للإنسان إنما هو لأن يبقى به نوعه ، وجزء منه لما لم يجعل الله له سبيلاً إلى بقائه بشخصه ، فجعل له بذراً لحفظ نوعه ، ويقوى ذلك ، أنه لم يجعل للشمس والقمر وسائر الأجرام السماوية بذراً واستخلافاً ، ولم يجعل لها فناء النبات والحيوان ، ولما كان الله تعالى هو الباقي الدائم ، بلا ابتداء ولا انتهاء ، لم يكن لاتخاذه الولد لنفسه معنى . ولهذا قال : " سبحانه أن يكون له ولد " [النساء : 171] أي : هو منزه عن السبب المقتضي للولد . ثم لما كان اقتناء الولد لفقر ما ، وذلك لما تقدم ، أن الإنسان افتقر إلى نسل يخلفه لكونه غير كامل إلى نفسه – بين تعالى بقوله : " له ما في السموات والأرض " أنه لا يتوهم له فقر ، فيحتاج إلى اتخاذ ما هو سد لفقره ، فصار في قوله : " له ما في السموات والأرض " دلالة ثانية ، ثم زاد حجة بقوله (قانتون) وهو أنه لما كان الولد يعتقد فيه خدمة الأب ومظاهرته كما قال " وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة " [النحل : 72] بين أن كل ما في السموات والأرض ، مع كونه ملكاً له ، قانت أيضاً ، إما طائعاً ، وإما كارهاً ، وإما مسخراً ، كقوله ولله " يسجد من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً " [الرعد : 15] ،

وقوله " وإن من شيء إلا يسبح بحمده " [الإسراء : 44] وهذا أبلغ حجة لمن هو على المحجة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 2 صـ 424. 423 ﴾

(84/64)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ ﴾ عبر في هذه الآية بـ ﴿ ما ﴾ الموصولة الدالة على غير العقلاء, ثم عبر في قوله : ﴿ قَانِتُونَ ﴾ بصيغة الجمع المذكر الخاص بالعقلاء .

ووجه الجمع : أن ما في السماوات والأرض من الخلق منه العاقل وغير العاقل, فغلب في الاسم الموصول غير العاقل, وغلب في صيغة الجمع العاقل, والنكتة في ذلك أنه قال : ﴿ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ وجميع الخلائق بالنسبة لملك الله إياهم سواء عاقلهم وغيره, فالعاقل في ضعفه وعجزه بالنسبة إلى ملك الله كغير العاقل .

ولما ذكر القنوت وهو الطاعة وكان أظهر في العقلاء من غيرهم عبر بما يدل على العقلاء تغليبا لهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 27 ﴾

وقال القاسمي – رحمه الله – ما نصه :

قال الراغب في تفسيره : نبه على أقوى حجة على نفي ذلك ، وبيانها : هو أن لكل موجود في العالم ، مخلوقاً طبيعياً ، أو معمولاً صناعياً ، غرضاً وكمالاً أوجد لأجله ، وإن كان قد يصلح لغيره على سبيل الغرض ، كاليد للبطش ، والرجل للمشي ، والسكين لقطع مخصوص ، والمنشار للنشر ، وإن كانت اليد قد تصلح للمشي في حال ، والرجل للتناول ، لكن ليس على التمام . والغرض في الولد للإنسان إنما هو لأن يبقى به نوعه ، وجزء منه لما لم يجعل الله له سبيلاً إلى بقائه بشخصه ، فجعل له بذراً لحفظ نوعه ، ويقوى ذلك ، أنه لم يجعل للشمس والقمر وسائر الأجرام السماوية بذراً واستخلافاً ، ولم يجعل لها فناء النبات والحيوان ، ولما كان الله تعالى هو الباقي الدائم ، بلا ابتداء ولا انتهاء ، لم يكن لاتخاذه الولد لنفسه معنى . ولهذا قال : " سبحانه أن يكون له ولد " [النساء : 171] أي : هو منزه عن السبب المقتضي للولد . ثم لما كان اقتناء الولد لفقر ما ، وذلك لما تقدم ، أن الإنسان افتقر إلى نسل يخلفه لكونه غير كامل إلى نفسه – بين تعالى بقوله : " له ما في السموات والأرض " أنه لا يتوهم له فقر ، فيحتاج إلى اتخاذ ما هو سد لفقره ، فصار في قوله : " له ما في السموات

والأرض " دلالة ثانية ، ثم زاد حجة بقوله (قانتون) وهو أنه لما كان الولد يعتقد فيه خدمة الأب ومظاهرته كما قال " وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة " [النحل : 72] بين أن كل ما في السموات والأرض ، مع كونه ملكاً له ، قانت أيضاً ، إما طائعاً ، وإما كارهاً ، وإما مسخراً ، كقوله ولله " يسجد من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً " [الرعد : 15] ، وقوله " وإن من شيء إلا يسبح بحمده " [الإسراء : 44] وهذا أبلغ حجة لمن هو على الحجة (1) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 2 صـ 423.424 ﴾

(86/64)

ومن فوائد ابن عطية فى الآية

قال رحمه الله :

قرأ هذه الآية عامة القراء " وقالوا " بواو تربط الجملة بالجملة ، أو تعطف على ﴿ سعى ﴾ [البقرة : 114] ، وقرأ ابن عامر وغيره " قالوا " بغير واو ، وقال أبو علي : وكذلك هي في مصاحف أهل الشام ، وحذف منه الواو يتجه من وجهين ، أحدهما أن هذه الجملة مرتبطة في المعنى بالتي قبلها فذلك يغني عن الواو ، والآخر أن تستأنف هذه الجملة ولا يراعى ارتباطها بما تقدم ، واختلف على من يعود الضمير في ﴿ قالوا ﴾ ، فقيل : على

النصارى ، لأنهم قالوا المسيح ابن الله .

قال القاضي أبو محمد : وذكرهم أشبه بسياق الآية ، وقيل : على اليهود ، لأنهم قالوا عزير ابن الله ، وقيل : على كفرة العرب لأنهم قالوا الملائكة بنات الله ، و ﴿ سبحانه ﴾ مصدر معناه تنزيهاً له وتبرئة مما قالوا ، و ﴿ ما ﴾ رفع بالابتداء ، والخبر في المجرور ، أو في الاستقرار المقدر ، أي كل ذلك له ملك ، والذي ﴿ قالوا اتخذ الله ولداً ﴾ داخل في جملة ﴿ ما في السماوات والأرض ﴾ ولا يكون الولد إلا من جنس الوالد لا من المخلوقات المملوكات .

والقنوت في اللغة الطاعة ، والقنوت طول القيام في عبادة ، ومنه القنوت في الصلاة ، فمعنى الآية أن المخلوقات كلها تقنت لله أي تخضع وتطيع ، والكفار والجمادات قنوتهم في ظهور الصنعة عليهم وفيهم ، وقيل : الكافر يسجد ظله وهو كاره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 1 صـ 201 ﴾

(87/64)

ومن فوائد ابن عرفة فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ اتخذ الله وَلَداً ﴾

ذمهم بالوصف الأعم لأنّ اتخاذ الولد يصدق على الابن حقيقة وعلى ابن التبني .

قوله تعالى : ﴿ بَل لَّهُ مَا فِي السماوات والأرض . . . ﴾ .

إن رجع الإضراب إلى قوله " سُبْحَانَهُ " فهو إضراب انتقال ، وإن رجع إلى قوله : ﴿ اتخذ الله وَلَداً ﴾ (إضراب) إبطال .

قال ابن عطية : قرأ الجمهور " وَقَالُواْ " بالواو ، وأسقطها ابن عامر ، إما لأن هذه الجملة في معنى ما قبلها أو مستأنفة .

قال ابن عرفة : هذا بعيد لأنه أمر واحد ومقالة واحدة ، إلاّ أن يكون التعدد باعتبار اختلاف الحالات والأشخاص .

واحتجوا بالآية على أن أعمال العباد مخلوقة لله عز وجل .

واحتج بها اللّخمي على أن من ملك ولده عتق عليه ، لأن (الآية) اقتضت منافاة الملك (للولدية) أي لو/ كان لله ولد لما صدق أنه مالك لجميع ما في السماوات والأرض و (اللازم) باطل فالملزوم مثله .

وأجيب بالفرق بين المقامين فهذا ملك حقيقي وذلك ملك جعلي ، فما يلزم من منافاة الملك الحقيقي للولدية منافاة الملك الجعلي لها .

قوله تعالى : ﴿ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴾

قال ابن عطية : أي كل شيء له ملك .

قال الزمخشري : أي كل ما هو في السماوات والأرض .

ابن عطية : والقنوت إما الخضوع فيصدق على الحيوان والجمادات ، وإما الطاعة ، فالكافر يسجد ظله وهو (كاره) .

قيل لابن عرفة : كيف يُوصَف الظل بالسّجود وهو هو موجود أم لا ؟ فقال : الظل ظلمة خاصة باعتبار الكم والكيف فيجري على الخلاف في الظلمة : هل هو أمر وجودي أو عدمي ؟ والصحيح أنها وجودية ، ونص بعضهم على أن الظل عرض قام بجسم الهواء .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عرفة حـ 1 صـ 403.404 ﴾

(88/64)

ومن فوائد القاسمى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَقَالُواْ اتَّخَذَ اللّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴾

يريد الذين قالوا المسيح ابن الله ، وعزيرٌ ابن الله ، والملائكة بنات الله ، فأكذب الله تعالى جميعهم في دعواهم وقولهم : إن لله ولداً ؛ فقال : ﴿ سبحانه ﴾ أي : تقدس وتنزه عما

زعموا تنزهاً بليغاً . وكلمة : ﴿ بل ﴾ للإضراب عما تقتضيه مقالتهم الباطلة من مجانسته سبحانه وتعالى لشيء من المخلوقات . أي : ليس الأمر كما زعموا ، بل هو خالق جميع الموجودات التي من جملتها عزير والمسيح والملائكة ، والتنوين في : ﴿ كلٌّ ﴾ عوض عن المضاف إليه . أي : كل ما فيهما ، كائناً ما كان من أولي العلم وغيرهم : ﴿ لَّهُ قَانِتُونَ ﴾ منقادون ، لا يستعصي شيء منهم على تكوينه وتقديره ومشيئته ، ومن كان هذا شأنه لم يتصور مجانسته لشيء ، ومن حق الولد أن يكون من جنس الوالد .

قال الراغب في تفسيره : نبه على أقوى حجة على نفي ذلك ، وبيانها : هو أن لكل موجود في العالم ، مخلوقاً طبيعياً ، أو معمولاً صناعياً ، غرضاً وكمالاً أوجد لأجله ، وإن كان قد يصلح لغيره على سبيل العرض ، كاليد للبطش ، والرجل للمشي ، والسكين لقطع مخصوص ، والمنشار للنشر ، وإن كانت اليد قد تصلح للمشي في حالٍ ، والرجل للتناول ، لكن ليس على التمام .

والغرض في الولد للإنسان إنما هو لأن يبقى به نوعه ، وجزء منه ، لَمّا لم يجعل الله له سبيلاً إلى بقائه بشخصه ، فجعل له بذراً لحفظ نوعه . ويقوي ذلك ، أنه لم يجعل للشمس والقمر وسائر الأجرام السماوية بذراً واستخلافاً ، لمّا لم يجعل لها فناء النبات والحيوان .

ولما كان الله تعالى هو الباقي الدائم ، بلا ابتداء ولا انتهاء ، لم يكن لاتخاذه الولد لنفسه معنى ، ولهذا قال : ﴿ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ﴾ أي : هو منزه عن السبب المقتضي للولد . ثم لما كان اقتناء الولد لفقرٍ ما ، وذلك لما تقدم ، أن الْإِنْسَانْ افتقر إلى نسل يخلقه لكونه غير كامل إلى نفسه – بيّن تعالى بقوله : ﴿ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ أنه لا يتوهم له فقر ، فيحتاج إلى اتخاذ ما هو سد لفقره ، فصار في قوله : ﴿ له ما في السماوات والأرض ﴾ دلالة ثانية ، ثم زاد حجة بقوله : ﴿ قانتون ﴾ وهو أنه لما كان الولد يعتقد فيه خدمة الأب ، ومظاهرته كما قال : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾ [النحل : 72] بيّن أن كل ما في السماوات والأرض ، مع كونه ملكاً له ، قانتاً [في المطبوع : قانت] أيضاً ، إما طائعاً ، وإما كارهاً ، وإما مسخراً . كقوله : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً ﴾ [الرعد : 15] ، وقوله : ﴿ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ [الإسراء : 44] وهذا أبلغ حجة لمن هو على المحجة .

ثم قال الراغب : إن قيل من أين وقع لهم الشبهة في نسبة الولد إلى الله تعالى ؟ قيل قد ذكر في الشرائع المتقدمة : كانوا يطلقون على البارئ تعالى اسم الأب وعلى الكبير منهم اسم الإله ، حتى إنهم قالوا : إن الأب هو الرب الأصغر ، وإن الله هو الأب الأكبر ، وكانوا يريدون بذلك أنه تعالى هو السبب الأول في وجود الْإِنْسَانْ ، وإن الأب هو السبب الأخير في وجوده ، وإن الأب هو معبود الابن من وجه أي : مخدومه . وكانوا يقولون للملائكة : آلهة . كما قالت العرب للشمس : إلاهة ، وكانوا يقصدون معنى صحيحاً كما يقصد علمائنا بقولهم : الله محب ومحبوب ، ومريد ومراد ونحو ذلك من الألفاظ . كما يقال للسلطان : الملك ، وقول الناس : رب الأرباب وإله الآلهة وملك الملوك ، مما يكشف عن تقدم ذلك التعارف ، ويقوي ذلك ما يروى أن يعقوب كان يقال له بكر الله ، وأن عيسى كان يقول : أنا ذاهب إلى أبي . ونحو ذلك من الألفاظ ، ثم تصور الجهلة منهم بآخرة : معنى الولادة الطبيعية . فصار ذلك منهياً عن التفوه به في شرعنا ، تنزهاً عن هذا الاعتقاد ، حتى صار إطلاقه ، وإن قصد به ما قصده هؤلاء ، قرين الكفر . [أهـ] كلام الراغب رحمه الله . انتهى انتهى . اهـ

﴿ محاسن التأويل حـ 2 صـ 423 . 424 ﴾

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَقَالُواْ اتَّخَذَ اللّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ (116) ﴾

بعد أن بين الله سبحانه وتعالى أن له كل شيء في الكون لا يشغله شيء عن شيء . . أراد أن يرد على الذين حاولوا أن يجعلوا لله معينا في ملكه . . الذين قالوا اتخذ الله ولداً . . الله تبارك وتعالى رد عليهم أنه لماذا يتخذ ولدا وله ما في السماوات والأرض كل له قانتون . . وجاء الرد مركزا في ثلاث نقاط . . قوله تعالى : " سبحانه " أي تنزه وتعالى أن يكون له ولد . . وقوله تعالى : " له ما في السماوات والأرض " . . فإذا كان هذا ملكه وإذا كان الكون كله من خلقه وخاضعا له فما حاجته للولد ؟

وقوله سبحانه : " كل له قانتون " . . أي كل من في السماوات والأرض عابدون لله جل جلاله مقرون بألوهيته . قضية إن لله سبحانه وتعالى ولداً جاءت في القرآن الكريم تسع عشرة مرة ومعها الرد عليها . . ولأنها قضية في قمة العقيدة فقد تكررت وتكرر الرد عليها مرة بعد أخرى . . وإذا نظرت للذين قالوا ذلك تجد أن هناك أقوالا متعددة . . هناك قول قاله المشركون . . واقرأ القرآن الكريم :

أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (151) وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (152) أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى

الْبَنِينَ(153)

(سورة الصافات)

وقول اليهود كما يروي لنا القرآن :

وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللّهِ

(من الآية 30 سورة التوبة)

وقول النصارى :

وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللّهِ

(من الآية 30 سورة التوبة)

ثم في قصة خلق عيسى عليه السلام من مريم بدون رجل . . الله سبحانه وتعالى يقول :

وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا(88) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا(89) تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا(90) أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا(91) وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا(92) إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا(93)

(سورة مريم)

والله سبحانه وتعالى يريدنا أن نعرف أن هذا إدعاء خطير مستقبح مستنكر وممقوت . .

لقد عالجت سورة مريم المسألة علاجا واسعا . . علاجا اشترك فيه انفعال كل أجناس الكون غير الإنسان . . انفعال السماوات والأرض والجبال وغيرها من خلق الله التي تلعن كل من قال ذلك . . بل وتكاد شعورا منها بفداحة الجريمة أن تنفطر السماء أي تسقط قطعا صغيرة . . وتنشق الأرض أي تتمزق . . وتخر الجبال أي تسقط كتراب . . كل هذا من هول ما قيل ومن كذب ما قيل . . لأن هذا الإدعاء افتراء على الله . ولقد جاءت كل هذه الآيات في سورة مريم التي أعطتنا معجزة خلق عيسى . . كما وردت القضية في عدة سور أخرى .

والسؤال هنا ما هي الشبهة التي جعلتهم يقولون ولد الله ؟ ما الذي جعلهم يلجأون إلي هذا الافتراء ؟ القرآن يقول عن عيسى بن مريم . . كلمة الله ألقاها إلي مريم . . نقول لهم ام المقصود بكلمة الله هنا هى كلمة "كن" . لماذا فتنتم في عيسى ابن مريم هذه الفتنة ؟ والله سبحانه وتعالى يشرح المسألة فيقول :

إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ(59)

(سورة آل عمران)

قوله كمثل آدم لمجرد مجاراة الخصم . . ولكن المعجزة في آدم أقوى منها في عيسى عليه السلام . . أنتم فتنتم في عيسى لأن عنصر الأبوة ممتنع . . وآدم امتنع فيه عنصر الأبوة والأمومة . . إذن فالمعجزة أقوى . . وكان الأولى أن تفتنوا بآدم بدل أن تفتنوا بعيسى . . ومن العجيب أنكم لم تذكروا الفتنة في آدم وذكرتم الفتنة فيما فيه عنصر غائب من عنصرين غائبين في آدم . . وكان من الواجب أن تنسبوا هذه القضية إلي آدم ولكنكم لم تفعلوا .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم . . قال له الله إن القضية ليست قضية إنكار ولكنها قضية كاذبة . . واقرأ قوله تبارك وتعالى :

قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ (81)

(سورة الزخرف)

أي لن يضير الله سبحانه وتعالى أن يكون له ولد . . ولكن جل جلاله لم يتخذ ولدا . . فلا يمكن أن يعبد الناس شيئا لم يكن لله . . وإنما ابتدعوه واختلقوه . . الله جل جلاله يقول : " وقالوا اتخذ الله ولدا سبحانه بل له ما في السماوات والأرض " . . قوله تعالى : " بل له ما في السماوات والأرض " تعطي الله سبحانه وتعالى الملكية لكل ما في الكون . . والملكية تنافي الولدية . . لماذا ؟ لأن الملكية معناها أن كل ما في الكون من خلق الله . . كل شيء هو خالقه بدون معارض . . ومادام هو خالقه وموجده . . فلا يمكن أن يكون هذا الشيء

جزءا منه . . لأن الذي يخلق شيئا يكون فاعلا . . والفاعل له مفعول . . والمفعول لا يكون منه أبدا . . هل رأيت واحدا صنع صنعة منه ؟ الذي يصنع سيارة مثلا . . هل صنعها من لحمه أو من لحم البشر ؟ وكذلك الطائرة والكرسي والساعة والتليفزيون . . هل هذه المصنوعات من جنس الذي صنعها ؟ طبعا لا .

(94/64)

إذن ما دام ملكية . . فلا يقال إنها من نفس جنس صانعها . . ولا يقال إن الفاعل أوجد من جنسه . . لأن الفاعل لا يوجد من جنسه أبدا . . كل فاعل يوجد شيئا أقل منه . . فقول الله : " سبحانه " . . أي تنزيه له تبارك وتعالى . . لماذا ؟ لأن الولد يتخذ لاستبقاء حياة والده التي لا يضمنها له واقع الكون . . فهو يحمل اسمه بعد أن يموت ويرث أملاكه . . إذن هو من أجل بقاء نوعه . . والذي يريد بقاء النوع لا يكفيه أن يكون له ولد واحد . لو فرضنا جدلا إن له ولداً واحداً فالمفروض أن هذا الولد يكون له . . ولكننا لم نر أولادا لمن زعموا أنه ابن الله . . وعندما وقبلما يوجد الولد ماذا كان الله سبحانه وتعالى يفعل وهو بدون ولد ؟ وماذا استجد على الله وعلى كونه بعد أن اتخذ ولدا كما يزعمون . . لم يتغير شيء في الوجود . . إذن إن وجود ولد بالنسبة للإله لم يعطه مظهرا من مظاهر القوة . . لأن

الكون قبل أن يوجد الولد المزعوم وبعده لم يتغير فيه شيء .

إذن فما سبب اتخاذ الولد ؟ معونة ؟ الله لا تضعف قوته . . ضمان للحياة ؟ الله حياته أزليه . . هو الذي خلق الحياة وهو الذي يهبها وهو حي لا يموت . . فما هي حاجته لأي ضمان للحياة ؟ الحق سبحانه وتعالى تنفعل له الأشياء . . أي أنه قادر على إبراز الشيء بمقتضى حكمه . . وهو جل جلاله له كمال الصفات أزلا . . وبكمال صفاته خلق هذا الكون وأوجده . . لذلك فهو ليس في حاجة إلي أحد من خلقه . . لأنه ساعة خلق كانت له كل صفات القدرة على الخلق . . بل قبل أن يخلق كانت له كل صفات الخالق وبهذه الصفات خلق . . والله سبحانه وتعالى كان خالقا قبل أن يوجد من يقهره . . وكان توابا قبل أن يوجد من يتوب عليه . . وبهذه الصفات أوجد وخلق ورزق وقهر وتاب على خلقه .

إذن كل هذا الكون لم يضف صفة من صفات الكمال إلي الله . . بل إن الله بكمال صفاته هو الذي أوجد . ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى في حديث قدسي :

(يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد ، فسألوني ، فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك من ملكي شيئا إلا كما ينقص المخيط إذا غمس في البحر . .) رواه مسلم فى البر, ورواه احمد

ثم إذا كان لله سبحانه وتعالى زوجة وولد . . فمن الذي وجد أولا ؟ . . إذا كان الله سبحانه وتعالى قد وجد أولا . . ثم بعد ذلك أوجد الزوجة والولد فهو خالق وهما مخلوقان . . وإن كان كل منهم قد أوجد نفسه فهم ثلاثة آلهة وليسوا إلها واحدا . . إذن فالولد إما أن يكون مخلوقا أو يكون إلها . . والكمال الأول لله لم يزده الولد شيئا . . ومن هنا يصبح وجوده لا قيمة له . . وحين يعرض الحق تبارك وتعالى هذه القضية يعرضها عرضا واسعا في كثير من سور القرآن الكريم وأولها سورة مريم في قوله تعالى :

وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (88)

(سورة مريم)

إنه سبحانه منزه عن التماثل مع خلقه . . لا بالذات ولا بالصفات ولا بالأفعال . . كل شيء تراه في الوجود . . الله منزه عنه . . وكل شيء يخطر على بالك فالله غير ذلك . . قوله تعالى : " له ما في السماوات والأرض " . . فتلك قضية تناقض اتخاذ الولد لأن كل ما في السماوات والأرض خاضع لله . . قوله تعالى ؛ " كل له قانتون " . . أي خاضعون ، وهذا

يؤكد لنا أن كون الله في قبضة الله خاضع مستجيب اختيارا أو قهرا لأمر الله . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 544. 548 ﴾

(96/64)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ (116) ﴾

أخرج البخاري عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " قال الله تعالى : كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك ، وشتمني ابن آدم ولم يكن له ذلك ، فإما تكذيبه إياي فيزعم أني لا أقدر أن أعيده كما كان ، وأما شتمه إياي فقوله لي ولد ، فسبحاني أن أتخذ صاحبة أو ولداً " .

وأخرج البخاري وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " يقول الله : كذبني ابن آدم ولم ينبغ له أن يكذبني ، وشتمني ولم ينبغ له أن يشتمني ، أما تكذيبه إياي فقوله لن يعيدني كما بدأني وليس أوّل الخلق بأهون

علي من إعادته ، وأما شتمه إياي فقوله اتخذ الله ولداً وأنا الله الأحد الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد " .

وأخرج أحمد والبخاري ومسلم والنسائي وابن مردويه والبيهقي عن أبي موسى الأشعري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " لا أحد أصبر على أذى يسمعه من الله . إنهم يجعلون له ولداً ، ويشركون به وهو يرزقهم ويعافيهم " .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن غالب بن عجرد قال : حدثني رجل من أهل الشام قال : بلغني أن الله لما خلق الأرض وخلق ما فيها من الشجر لم يكن في الأرض شجرة يأتيها بنو آدم إلا أصابوا منها ثمرة ، حتى تكلم فجرة بني آدم بتلك الكلمة العظيمة قولهم ﴿ اتخذ الله ولداً ﴾ فلما تكلموا بها اقشعرت الأرض وشاك الشجر .

وأخرج أبو الشيخ عن قتادة في قوله ﴿ وقالوا اتخذ الله ولداً سبحانه ﴾ قال : إذا قالوا عليه البهتان سبح نفسه .

أما قوله تعالى : ﴿ سبحانه ﴾ .

أخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم والمحاملي في أماليه عن ابن عباس في قوله ﴿ سبحان الله ﴾ قال : تنزيه الله نفسه عن السوء .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والبيهقي في الأسماء والصفات عن موسى بن طلحة عن النبي صلى الله عليه وسلم " أنه سئل عن التسبيح أن يقول الإِنسان سبحان الله ؟ قال : براءة الله من السوء . وفي لفظ : انزاهه عن السوء مرسل " .

وأخرج ابن جرير والديلمي والخطيب في الكفايه من طرق أخرى موصولاً عن موسى بن طلحه بن عبيد الله عن أبيه عن جده طلحه بن عبيد الله قال " سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تفسير ﴿ سبحان الله ﴾ قال : هو تنزيه الله من كل سوء " .

وأخرج ابن مردويه من طريق سفيان الثوري عن عبد الله بن عبيد الله بن موهب أنه سمع طلحة قال

" سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ﴿ سبحان الله ﴾ قال : تنزيه الله عن كل سوء " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ميمون بن مهران . أنه سئل عن ﴿ سبحان الله ﴾ فقال : اسم يعظم الله به ويحاشى عن السوء .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر عن ابن عباس أن ابن الكواء سأل علياً عن قوله ﴿ سبحان الله ﴾ فقال علي : كلمة رضيها الله لنفسه .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال ﴿ سبحان الله ﴾ اسم لا يستطيع الناس أن

ينتحلوه .

وأخرج عبد بن حميد عن يزيد بن الأصم قال : جاء رجل إلى ابن عباس رضي الله عنه فقال : لا إله إلا الله نعرفها أنه لا إله غيره ، والحمد لله نعرفها أن النعم كلها منه وهو المحمود عليها ، والله أكبر نعرفها أنه لا شيء أكبر منه ، فما سبحان الله ؟ فقال ابن عباس : وما تنكر منها . . . ؟ ! هي كلمة رضيها الله لنفسه وأمر بها ملائكته ، وفرغ إليها الأخيار من خلقه .

أما قوله تعالى : ﴿ كل له قانتون ﴾ .

أخرج أحمد وعبد بن حميد وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والنحاس في ناسخه وابن حبان والطبراني في الأوسط وأبو نصر السجزي في الإبانة وأبو نعيم في الحلية والضياء في المختارة عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال "كل حرف في القرآن يذكر فيه القنوت فهو الطاعة" .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر من طرق عن ابن عباس في قوله ﴿ قانتون ﴾ قال : مطيعون .

وأخرج الطستي في مسائله عن ابن عباس . أن نافع ابن الأزرق سأله عن قوله ﴿ كل له قانتون ﴾ قال : مقرون . قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم . أما سمعت قول عدي بن زيد :

قانتاً لله يرجو عفوه . . . يوم لا يكفر عبد ما ادخر

وأخرج ابن جرير عن عكرمة ﴿ كل له قانتون ﴾ قال : مقرون بالعبودية .

وأخرج ابن جرير عن قتادة ﴿ كل له قانتون ﴾ أي مطيع مقر بأن الله ربه وخالقه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 1 صـ 268 . 270 ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قرأ الجمهور : " وَقَالُوا " بالواو عطفاً لهذه الجملة الخبرية على ما قبلها ، وهو أحسن في الربط .

وقيل : هي معطوفة على قوله : " وَسَعَى " فيكون قد عطف على الصّلة مع الفعل بهذه الجمل الكثيرة ، وهذا ينبغي أن ينزّه القرآن عن مثله .

وقرأ ابن عامر وكذلك هي في مصاحف "الشام" : "قَالُوا" من غير "واو" ، وكذلك يحتمل وجيهن :

أحدهما : الاستئناف .

والثاني : حذف حرف العَطْف وهو مراد ، استغناءً عنه بربط الضَّمير بما قبل هذه الجملة ، و"اتَّخَذَ" يجوز أن يكون بمعنى عمل وصنع ، فيتعدّى لمفعول واحد ، وأن يكون بمعنى صَيَّر ، فيتعدّى لاثنين ، ويكون الأول هنا محذوفاً تقديره : وقالوا : اتخذ الله بعض الموجودات ولداً ، إلا أنه مع كثرة دور هذا التركيب لم يذكر معها إلا مَفْعُول واحد : ﴿ وَقَالُواْ اتخذ الرحمن وَلَداً ﴾ [الأنبياء : 26] ، ﴿ مَا اتخذ اللهُ مِن وَلَدٍ ﴾ [المؤمنون : 91] ، ﴿ وَمَا يَنبَغِي للرحمن أَن يَتَّخِذَ وَلَداً ﴾ [مريم : 92] .

والوَلد فعل بمعنى مفعول كالقَبْض والنقص وهو غير مقيس والمصدر : الولادة والوليدية

وهذا الثاني غريب .

وقوله : "سبحانه" .

قال القرطبي رحمه الله تعالى : "سُبْحَان" منصوب على المصدر ، ومعناه التبرئة والتنزيه عما قالوا .

قوله تعالى : ﴿ بَل لَّهُ مَا فِي السماوات والأرض ﴾ .

"بَلْ" إضراب وانتقال، و"لَهُ" خبر مقدم، و"ما" مبتدأ مؤخر، وأتى هنا بـ"مَا"؛ لأنه إذا اختلط العاقل بغيره كان المتكلّم مخيراً في "مَا" و"مَنْ"، ولذلك لما اعتبر العقلاء غلبهم في قوله "قَانِتُونَ"، فجاء بصيغة السَّلامة المختصّة بالعقلاء.

قال الزمخشري فإن قلت: كيف جاء بـ"مَا" التي لغير أولي العلم مع قوله: "قَانِتُونَ".

قلت: هو كقوله "سبحان ما سخركن لنا" وكأنه جاء بـ"ما" دون "من" تحقيراً لهم وتصغيراً لشأنهم، وهذا جنوح منه إلى أن "ما" قد تقع على أولي العلم، ولكن المشهور خلافه.

وأما قوله: "سُبْحَانَ ما سَخَّرَكُنَّ لَنَا" فسبحان غير مضاف، بل هو كقوله:

752 . . . . . .

سُبْحَانَ مِنْ عَلْقَمَةً . . . . . .

و"ما" مصدرية ظرفية.

قوله تعالى: ﴿كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ مبتدأ وخبر، و"كُلٌّ" مضاف إلى محذوف تقديراً، أي: كلّ مَنْ في السموات والأرض.

وقال الزمخشري: ويجوز أن يكون كل من جعلوه لله ولداً كذا قال أبو حيان رحمه الله تعالى.

وهذا بعيد جداً، لأن المجعول ولداً لم يَجْرِ له ذكر، ولأن الخبر يشترك فيه المجعول ولداً وغيره

" .

قوله : " لم يَجْرِ له ذكر " بل قد جرى ذكره فلا بُعْدَ فيه .

وجمع " قَانِتُونَ " حملاً على المعنى لما تقدم من أن " كُلاَّ " إذا قطعت عن الإضافة جاز فيها مراعاة اللفظ ، [ومراعاة المعنى ، وهو الأكثر نحوه : ﴿ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [الأنبياء : 33] ﴿ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴾ [النمل : 87] ومن مراعاة] اللَّفظ : ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ على شَاكِلَتِهِ ﴾ [الإسراء : 84] ﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ ﴾ [العنكبوت : 40] ، وحسن الجمع هنا لِتَوَاخي رُؤُوس الآي .

(101/64)

والقُنُوت : أصله الدوام ، ويستعمل على أربعة أوجه : الطاعة والانقياد ، كقوله تعالى : ﴿ يامريم اقنتي لِرَبِّكِ ﴾ [آل عمران : 43] وطول القيام ، كقوله عليه السلام " لما سئل : أي الصَّلاة أفضل ؟ قال : طول القُنُوت " وبمعنى السّكوت [كقول زيد بن أرقم رضي الله عنه : كنا نتكلّم في الصلاة حتى نزل قوله تعالى : ﴿ وَقُومُواْ للَّهِ قَانِتِينَ ﴾ [البقرة : 238] فأمسكنا عن الكلام والدعاء ، ومنه القنوت . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 2 صـ 420.418 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ ﴾ .

مَكَرَ بهم لم يُفْنِهم – من الإفناء – في الحال ، بل جعل موجب اغترارهم طول الإمهال ، فنطقوا بعظيم الفِرْية على الله ، واستنبطوا عجيب المِرْية في وصف الله ، فوصفوه بالولد ! وأَنَّى بالولد وهو أحدي الذات ؟ ! لا حدَّ لذاته ، ولا تجوز الشهوة في صفاته .

قوله جلّ ذكره : ﴿ بَل لَّهُ مَا فِى السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴾ .

أي ليس في الكون شيء من الآثار المفتقرة أو الأعيان المستقلة إلا وتنادي عليه آثار الخِلْقَة ، وتفصح منه شواهد الفطرة ، وكل صامتٍ منها ناطق ، وعلى وحدانيته – سبحانه – دليلٌ وشاهد . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 117 ﴾

(102/64)

قوله تعالى ﴿ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (117) ﴾

" فصل "

قال البقاعى :

ثم علل ذلك بما هو أعظم منه فقال : ﴿ بديع السماوات والأرض ﴾ أي خالقهما على غير مثال سبق ، وما أبدع كلية أمر كان أحرى أن يكون ما في طيه وإحاطته وإقامته من الأشياء المقامة به من مبدعه فكيف يجعل له شبيه منه ؟ لأن الولد مستخرج شبيه بما استخرج من عينه – ذكره الحرالي .

﴿ وإذا قضى ﴾ أي أراد ﴿ أمراً ﴾ منهما أو من غيرهما ، والقضاء إنفاذ المقدر . والمقدر ما حدّ من مطلق المعلوم – قاله الحرالي .

﴿ فإنما يقول له كن ﴾ من الكون وهو كمال البادي في ظاهره وباطنه ﴿ فيكون ﴾ فهو منزه عن حاجة التوالد وكل حاجة ، وسر التعبير بالمضارع يذكر إن شاء الله تعالى في آل عمران .

قال الحرالي : وصيغته تمادي الكائن في أطوار وأوقات وأسنان يمتد توالها في المكون إلى غاية الكمال – انتهى .

قالوا : ورفع "يكون" للاستئناف أي فهو يكون ، أو العطف على ﴿ يقول ﴾ إيذاناً بسرعة التكوين على جهة التمثيل ، ومن قال بالأول منع العطف على ﴿ يقول ﴾ لاقتضاء الفاء أن القول مع التكوين فيلزم قدم التكوين ، وقال الإمام أبو علي الفارسي في كتاب الحجة : إن ذلك لا يطرد في مثل ثاني حرفي آل عمران وهو قوله : ﴿ ثم قال له كن فيكون ﴾ [آل عمران

: 59] لأنه لا يحسن تخالف الفعلين المتعاطفين بالمضي وغيره ، وأول قوله :

ولقد أمر على اللئيم يسبني . . .

فمضيت ثم أقول لا يعنيني

بأن معناه : مررت ماضياً ، وطعن فيه أبو شامة بأن يكون في الآية ماض مثله وقد صرح أبو علي والحق معه بأنه على بابه يعني ؛ وفائدة التعبير به مضارعاً ، تصوير الحال والإرشاد إلى أن التقدير : كن فكان ، لأنه متى قضى شيئاً قال له : كن ، فيكون ، وجعل الأحسن عطفه على ﴿ كن ﴾ لأنه وإن كان بلفظ الأمر فمعناه الخبر أي يكون ؛ وقال : إن ذلك أكثر اطراداً لانتظامه لمثل قوله : ﴿ ثم قال له كن فيكون ﴾ [آل عمران : 59] .

وهذا الموضع مجمع على رفعه ، وكذا قوله تعالى في الأنعام : ﴿ ويوم يقول كن فيكون ﴾ [الأنعام : 73] .

(103/64)

وإنما الخلاف في ستة مواضع اختص ابن عامر منها بأربعة : وهي هذا الموضع ، وقوله تعالى في آل عمران : ﴿ إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ﴾ [آل عمران : 47] ، وفي مريم مثله سواء ، وفي غافر : ﴿ فإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ﴾ [غافر : 68] ؛

ووافقه الكسائي في حرفين في النحل : ﴿ إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴾ [النحل : 40] وفي يس : ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾ [يس : 82] فجعلوا النصب في هذين عطفاً على ﴿ يقول ﴾ وفي الأربعة الأولى جواباً للأمر في قوله : ﴿ كن ﴾ اعتباراً بصورة اللفظ وإن لم يكن المعنى على الأمر فالتقدير : يقول له يكون فيكون ، أي فيطاوع ، فطاح قول من ضعفه بأن المعنى على الخبر وأنه لا يصح النصب إلا إذا تخالف الأمر وجوابه ، وهذا ليس كذلك بل يلزم فيه أن يكون الشيء شرطاً لنفسه ، لأن التقدير : إن يكن يكن ؛ وصرح ابن مجاهد بوهم ابن عامر وأن هذا غير جائز في العربية ، كما نقله عنه الإمام أبو شامة في شرح الشاطبية ؛ فأمعنت النظر في ذلك لوقوع القطع بصحة قراءة ابن عامر لتواترها نقلاً عمن أنزل عليه القرآن ، فلما رأيته لم ينصب إلا ما في حيز ﴿ إذا ﴾ علمت أن ذلك لأجلها لما فيها من معنى الشرط ، فيكون مثل قوله تعالى في الشورى : ﴿ ويعلم الذين يجادلون في آياتنا ﴾ [الشورى : 35] بنصب " يعلم " في قراءة غير نافع وابن عامر على بعض التوجيهات ، وذلك ماش على نهج السداد من غير كلفة ولا استبعاد إذا تؤمل الكلام على " إذا " قال الرضي وهو العلامة نجم الدين محمد بن حسن الإستراباذي في الظرف من شرحه لقول العلامة أبي عمرو عثمان بن الحاجب في كافيته : ومنها " إذا " وهي للمستقبل وفيها معنى الشرط ، فلذلك اختير بعدها الفعل ،

والأصل في استعمال "إذا" أن تكون لزمان من أزمنة المستقبل مختص من بينها بوقوع حدث فيه مقطوع به ، ثم قال : وكلمة الشرط ما يطلب جملتين يلزم من وجود مضمون

(104/64)

أولاهما فرضاً حصول مضمون الثانية ، فالمضمون الأول مفروض ملزوم ، والثاني لازمه ؛ ثم قال : و "إن" موضوعة لشرط مفروض وجوده في المستقبل مع عدم قطع المتكلم لا بوقوعه ولا بعدم وقوعه ، وذلك لعدم القطع في الجزاء لا بالوجود ولا بالعدم ، سواء شك في وقوعه كما في حقنا ، أو لم يشك كان الواقعة في كلامه تعالى ؛ وقال : ولا يكون الشرط في اسم إلا بتضمن معناها ؛ ثم قال : فنقول : لما كان "إذا" للأمر المقطوع بوجوده في اعتقاد المتكلم في المستقبل لم يكن لمفروض وجوده ، لتنافي القطع والفرض في الظاهر ، فلم يكن فيه معنى "إن" الشرطية ، لأن الشرط كما بينا هو المفروض وجوده ، لكنه لما كان ينكشف لنا الحال كثيراً في الأمور التي نتوقعها قاطعين بوقوعها عن خلاف ما نتوقعه جوّزوا تضمين "إذا" معنى "إن" كما في "متى" وسائر الأسماء الجوازم ، فيقول القائل : إذا جئتني فأنت مكرم – شاكاً في مجيء المخاطب غير مرجح وجوده على عدمه بمعنى متى جئتني سواء ؛ ثم قال : ولما كثر دخول معنى الشرط في "إذا" وخروجه عن أصله من الوقت المعين جاز

استعماله وإن لم يكن فيه معنى " إن " الشرطية ، وذلك في الأمور القطعية استعمال " إذا " المتضمنة لمعنى " إن " ، وذلك لمجيء جملتين بعده على طرز الشرط والجزاء وإن لم يكونا شرطاً وجزاء ، ثم قال في الكلام على الفاء في نواصب الفعل ، وقد تضمر " أن " بعد الفاء والواو الواقعتين بعد الشرط قبل الجزاء ، نحو إن تأتيني فتكرمني - أو لو .

(105/64)

تكرمني - آتك ، أو بعد الشرط والجزاء ، نحو إن تأتني آتك فأكرمك - أو : وأكرمك - وذلك لمشابهة الشرط في الأول والجزاء في الثاني المنفي ، إذ الجزاء مشروط وجوده بوجود الشرط ، ووجود الشرط مفروض ، فكلاهما غير موصوفين بالوجود حقيقة ، وعليه حمل قوله تعالى : ﴿ إن يشأ يسكن الريح فيظللن ﴾ - إلى قوله : ﴿ ويعلم الذين يجادلون ﴾ [الشورى : 35] على قراءة النصب ؛ ثم قال : وإنما صرفوا ما بعد فاء السببية من الرفع إلى النصب لأنهم قصدوا التنصيص على كونها سببية والمضارع المرتفع بلا قرينة مخلصة للحال والاستقبال ظاهر في معنى الحال ، كما تقدم في باب المضارع ، فلو أبقوه مرفوعاً لسبق إلى الذهن أن الفاء لعطف جملة حالية الفعل على الجملة التي قبل الفاء ، يعني فكان يلزم أن يكون الكون قديماً كالقول ، فصرفه إلى النصب منبه في الظاهر على أنه ليس

معطوفاً ، إذ المضارع المنصوب بأن مفرد ، وقبل الفاء المذكورة جملة ، ويتخلص المضارع للاستقبال اللائق بالجزائية كما ذكرنا في المنصوب بعد إذن ، فكان فيه شيئان : رفع جانب كون الفاء للعطف .

وتقوية كونه للجزاء ؛ فيكون إذن ما بعد الفاء مبتدأ محذوف الخبر وجوباً – انتهى .

(106/64)

فالتقدير هنا والله أعلم : فكونه واقع حق ليس بخيال كالسحر والتمويهات ، فعلى هذا قراءة النصب أبلغ لظهورها في الصرف عن الحال إلى الاستقبال مع ما دلت عليه من سرعة الكون وأنه حق ، ثم رأيت البرهان بن إبراهيم بن محمد السفاقُسي حكى في إعرابه ما خرجته عن ابن الضائع – يعني بالضاد المعجمة والعين المهملة – وهو الأستاذ أبو الحسن علي بن محمد بن يوسف الكُتامي شيخ أبي حيان فقال ما نصه : زاد ابن الضائع في نصب ﴿ فيكون ﴾ وجهاً حسناً وهو نصبه في جواب الشرط وهو إذا ، وكان مراده التسبيب عن الجواب كما ذكرت ، قال السفاقسي : ويصح فيه وجه ثالث على مذهب الكوفيين وهو نصبه في جواب الحصر بإنما ، لأنهم أجازوا : إنما هي ضربة أسد فيتحطم ظهره .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 229 . 232 ﴾

فصل

قال الفخر :

البديع والمبدع بمعنى واحد .

قال القفال : وهو مثل أليم بمعنى مؤلم وحكيم بمعنى محكم ، غير أن في بديع مبالغة للعدول فيه وأنه يدل على استحقاق الصفة في غير حال الفعل على تقدير أن من شأنه الإبداع فهو في ذلك بمنزلة : سامع وسميع وقد يجيء بديع بمعنى مبدع ، والإبداع الإنشاء ونقيض الإبداع الاختراع على مثال ولهذا السبب فإن الناس يسمون من قال أو عمل ما لم يكن قبله مبتدعاً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 4 صـ 24.23 ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ بَدِيعُ السماوات والأرض ﴾ أي مبدعهما فهو فعيل من أفعل وكان الأصمعي ينكر فعيلاً بمعنى مفعل ، وقال ابن بري : قد جاء كثيراً نحو مسخن وسخين ومقعد وقعيد وموصى ووصي ومحكم وحكيم ومبرم وبريم ومونق وأنيق في أخوات له ، ومن ذلك السميع في بيت عمرو بن معدي كرب السابق .

والاستشهاد بناءاً على الظاهر المتبادر على ما هو الأليق بمباحث العربية فلا يرد ما قيل في البيت لأنه على خلافه كما لا يخفى على المنصف ، وقيل : هو من إضافة الصفة المشبهة إلى فاعلها للتخفيف أي بديع سمواته .

وأنت تعلم أنه قد تقرر أن الصفة إذا أضيفت إلى الفاعل يكون فيها ضمير يعود إلى الموصوف فلا تصح الإضافة إلا إذا صح اتصاف الموصوف بها نحو حسن الوجه حيث يصح اتصاف الرجل بالحسن لحسن وجهه بخلاف حسن الجارية وإنما صح زيد كثير الاخوان لاتصافه بأنه متقوّبهم ، وفيما نحن فيه وإن امتنع اتصافه بالصفة المذكورة لكن يصح اتصافه بما دلت عليه وهو كونه مبدعاً لهما .

وهذا يقتضي أن يكون الأولى بقاء المبدع على ظاهره وهو الذي عليه أساطين أهل اللغة ، والإبداع اختراع الشيء لا عن مادة ولا في زمان ، ويستعمل ذلك في إيجاده تعالى للمبادي كما قاله الراغب وهو غير الصنع إذ هو تركيب الصورة بالعنصر ؛ ويستعمل في إيجاد الأجسام وغير التكوين فإنه ما يكون بتغير وفي زمان غالباً وإذا أريد من السموات والأرض جميع ما سواه تعالى من المبدعات والمصنوعات والمكونات لاحتوائها على عالم الملك والملكوت فبعد اعتبار التغليب يصح إطلاق كل من الثلاثة إلا أن لفظ الإبداع أليق لأنه يدل على كمال قدرته تعالى ، والقول بتعين حمل الإبداع على التكوين من مادة أو أجزاء لأن إيجاد السموات من شيء كما يشير إليه قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السماء وَهِىَ دُخَانٌ

﴿ [فصلت : 11] ناشىء من الغفلة عما ذكرنا ، والآية حجة أخرى لإبطال تلك المقالة الشنعاء ، وتقريرها أنه تعالى مبدع لكل ما سواه فاعل على الإطلاق ، ولا شيء من الوالد كذلك ضرورة انفعاله بانفصال مادة الولد عنه فالله تعالى ليس بوالد . انتهى انتهى . ا هـ ﴾ روح المعانى حـ 1 صـ 367 ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ بَدِيعُ السماوات والأرض ﴾

هو بالرفع خبر لمحذوف على طريقة حذف المسند إليه لاتباع الاستعمال كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ صم بكم ﴾ [البقرة : 18] وذلك من جنس ما يسمونه بالنعت المقطوع .

(108/64)

والبديع مشتق من الإبداع وهو الإنشاء على غير مثال فهو عبارة عن إنشاء المنشآت على غير مثال سابق وذلك هو خلق أصول الأنواع وما يتولد من متولّداتها ، فخلق السماوات إبداع وخلق الأرض إبداع وخلق آدم إبداع وخلق نظام التناسل إبداع .

وهو فعيل بمعنى فاعل فقيل هو مشتق من بَدَعَ المجرد مثل قدرَ إذا صح وورد بدَع بمعنى قدر بقلة أو هو مشتق من أَبدع ومجيء فعيل من أَفْعَل قليل ، ومنه قول عمرو بن معديكرب

:

أَمِنْ ريحانَة الداعي السميع . . .

يؤرقني وأصحابي هجوع

يريد المسمع ، ومنه أيضاً قول كعب بن زهير :

سقاك بها المأمون كأساً رَوِيَّةً . . .

فانْهَلَك المأمونُ منها وعلَّك

أي كأساً مروية .

فيكون هنا مما جاء قليلاً وقد قدمنا الكلام عليه في قوله تعالى : ﴿ إنك أنت العليم الحكيم ﴾ [البقرة : 32] ويأتي في قوله : ﴿ بشيراً ونذيراً ﴾ [البقرة : 119] .

وقد قيل في البيت تأويلات متكلفة والحق أنه استعمال قليل حفظ في ألفاظ من الفصيح غير قليلة مثل النذير والبشير إلا أن قلته لا تخرجه عن الفصاحة لأن شهرته تمنع من جعله غريباً .

وأما كونه مخالفاً للقياس فلا يمنع من استعماله إلا بالنسبة إلى المولَّد إذا أراد أن يقيس عليه في مادة أخرى .

وذهب صاحب " الكشاف " إلى أن بديع هنا صفة مشبهة مأخوذ من بدُع بضم الدال أي كانت البداعة صفة ذاتية له بتأويل بداعة السماوات والأرض التي هي من مخلوقاته

فأضيفت إلى فاعلها الحقيقي على جعله مشبهاً بالمفعول به وأجريت الصفة على اسم الجلالة ليكون ضميره فاعلالها لفظاً على نحو زيد حسن الوجه كما يقال فلان بديع الشعر ، أي بديعة سماواته .

وأما بيت عمرو فإنما عينوه للتنظير ولم يجوزوا فيه احتمال أن يكون السميع بمعنى المسموع لوجوه أحدها أنه لم يرد سميع بمعنى مسموع مع أن فعيلاً بمعنى مفعول غير مطرد .

(109/64)

الثاني أن سميع وقع وصفاً للذات وهو الداعي وحكم سمع إذا دخلت على ما لا يسمع أن تصير من أخوات ظن فيلزم مجيء مفعول ثان بعد النائب المستتر وهو مفقود الثالث أن المعنى ليس على وصف الداعي بأنه مسموع بل على وصفه بأنه مسمع أي الداعي القاصد للإسماع المعلن لصوته وذلك مؤذن بأنه داع في أمر مهم .

ووصف الله تعالى ببديع السماوات والأرض مراد به أنه بديع ما في السماوات والأرض من المخلوقات وفي هذا الوصف استدلال على نفي بنوة من جعلوه ابناً لله تعالى لأنه تعالى لما كان خالق السماوات والأرض وما فيهما ، فلا شيء من تلك الموجودات أهل لأن يكون ولداً له بل جميع ما بينهما عبيد لله تعالى كما تقدم في قوله : ﴿ بل له ما في السماوات

والأرض ﴾ [البقرة : 116] ولهذا رُتب نفي الولد على كونه بديع السموات والأرض في سورة الأنعام (10) بقوله : ﴿ بديع السماوات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 1 صـ 667. 669 ﴾

فصل

قال القرطبى :

قوله تعالى ﴿ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

قوله تعالى : ﴿ بَدِيعُ السماوات ﴾ فعيل للمبالغة ، وارتفع على خبر ابتداء محذوف ، واسم الفاعل مُبْدِع ؛ كبصير من مُبْصر .

أبدعتُ الشيء لا عن مثال ؛ فالله عز وجل بديع السموات والأرض ، أي منشئها ومُوجدها ومبدعها ومخترعها على غير حدّ ولا مثال .

وكل من أنشأ ما لم يُسْبق إليه قيل له مبدع ؛ ومنه أصحاب البِدَع .

وسُمّيت البِدْعة بدعة لأن قائلها ابتدعها من غير فعل أو مقال إمام ؛ وفي البخاري " ونِعْمَتِ البِدْعة هذه " يعني قيام رمضان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 2 صـ 86 ﴾

فائدة

قال الفخر :

اعلم أن هذا من تمام الكلام الأول ، لأنه تعالى قال : ﴿ بَل لَّهُ مَا فِي السموات والأرض ﴾ فبين بذلك كونه مالكاً لما في السموات والأرض ثم بين بعده أنه المالك أيضاً للسموات والأرض ، ثم إنه تعالى بين أنه كيف يبدع الشيء فقال : ﴿ وَإِذَا قضى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 4 صـ 24 ﴾

فائدة

قال القرطبى :

كل بِدْعة صدرتْ من مخلوق فلا يخلو أن يكون لها أصل في الشرع أولاً ؛ فإن كان لها أصل كانت واقعة تحت عموم ما ندب الله إليه وحضّ رسوله عليه ؛ فهي في حيّز المدح .

وإن لم يكن مثاله موجوداً كنوع من الجود والسخاء وفعل المعروف ؛ فهذا فعله من الأفعال المحمودة ، وإن لم يكن الفاعل قد سُبق إليه .

ويَعْضُد هذا قول عمر رضي الله عنه : نِعْمتِ البدعة هذه ؛ لمّا كانت من أفعال الخير وداخلة في حيّز المدح ، وهي وإن كان النبيّ صلى الله عليه وسلم قد صلاها إلا أنه تركها ولم يحافظ عليها ، ولا جمع الناس عليها ؛ فمحافظة عمر رضي الله عنه عليها ، وجمعُ

الناس لها ، وندبُهم إليها ، بدعةٌ لكنها بدعة محمودة ممدوحة .

وإن كانت في خلاف ما أمر الله به ورسوله فهي في حيزّ الذم والإنكار ؛ قال معناه الخطّابي وغيره .

قلت : وهو معنى قوله صلى الله عليه وسلم في خطبته : " وشَرُّ الأمور مُحدثاتها وكل بِدعة ضلالة " يريد ما لم يوافق كتاباً أو سُنّة ، أو عمل الصحابة رضي الله عنهم ، وقد بيّن هذا بقوله : " مَن سَنّ في الإسلام سُنَّةً حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء ومَن سنّ في الإسلام سُنَّة سيئة كان عليه وِزْرُها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء " وهذا إشارة إلى ما ابتدع من قبيح وحسن ، وهو أصل هذا الباب ، وبالله العصمة والتوفيق ، لا رَبَّ غيره . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 2 صـ 87 ﴾

(111/64)

قوله تعالى ﴿ وَإِذَا قضى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾

فصل

قال الفخر :

قال بعض الأدباء : القضاء مصدر في الأصل سمي به ولهذا جمع على أقضية كغطاء وأغطية ، وفي معناه القضية ، وجمعها القضايا ووزنه فعال من تركيب " ق ض ى" وأصله " قضاي" إلا أن الياء لما وقعت طرفاً بعد الألف الزائدة اعتلت فقلبت ألفاً ، ثم لما لاقت هي ألف فعال قلبت همزة لامتناع التقاء الألفين لفظاً ، ومن نظائره المضاء والإتاء ، من مضيت وأتيت والسقاء والشفاء ، من سقيت وشفيت ، والدليل على إصالة الياء دون الهمزة ثباتها في أكثر تصرفات الكلمة تقول : قضيت وقضينا ، وقضيت إلى قضيتن ، وقضيا وقضين ، وهما يقضيان ، وهي وأنت تقضي ، والمرأتان وأنتما تقضيان ، وهن يقضين ، وأما أنت تقضين ، فالياء فيه ضمير المخاطبة ، وأما معناه فالأصل الذي يدل تركيبه عليه هو معنى القطع ، من ذلك قولهم ؛ قضى القاضي لفلان على فلان بكذا قضاء إذا حكم ، لأنه فصل للدعوى ، ولهذا قيل : حاكم فيصل إذا كان قاطعاً للخصومات وحكى ابن الأنباري عن أهل اللغة أنهم قالوا : القاضي معناه القاطع للأمور المحكم لها ، وقولهم انقضى الشيء إذا تم وانقطع ، وقولهم : قضى حاجته ، معناه قطعها عن المحتاج ودفعها عنه وقضى دينه إذا أداه إليه كأنه قطع التقاضي والاقتضاء عن نفسه أو انقطع كل منهما عن صاحبه ، وقولهم : قضى الأمر ، إذا أتمه وأحكمه ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سموات ﴾ [فصلت : 12] وهو من هذا لأن في إتمام العمل قطعاً له وفراغاً منه ، ومنه : درع قضاء من قضاها إذا أحكمها وأتم صنعها ، وأما قولهم ؛ قضى المريض وقضى نحبه

إذا مات ، وقضى عليه : قتله فمجاز مما ذكر والجامع بينهما ظاهر ، وأما تقضي البازي فليس من هذا التركيب ، ومما يعضد ذلك دلالة ما استعمل من تقليب ترتيب هذا التركيب عليه وهو القيض والضيق ، أما الأول فيقال : قاضه فانقاض ، أي شقه فانشق ، ومنه قيض البيض لما انفلق من قشره الأعلى ، وانقاض الحائط إذا انهدم من غير هدم ، والقطع والشق والفلق

(112/64)

والهدم متقاربة ، وأما الضيق وما يشتق منه فدلالته على معنى القطع بينة ، وذلك أن الشيء إذا قطع ضاق أو على العكس ، ومما يؤكد ذلك أن ما يقرب من هذا التركيب يدل أيضاً على معنى القطع ، فأولها : قضبه إذا قطعه ، ومنه القضبة المرطبة ، لأنها تقضب أي تقطع تسمية بالمصدر ، والقضيب : الغصن ، فعيل بمعنى مفعول ، والمقضب ما يقضب به كالمنجل .

وثانيها ؛ القضم وهو الأكل بأطراف الأسنان ، لأن فيه قطعاً للمأكول ، وسيف قضيم : في طرفه تكسر وتفلل .

وثالثها : القضف وهو الدقة ، يقال رجل قضيف ، أي : نحيف ، لأن القلة من مسببات

القطع .

ورابعها : القضاءة فعلة وهي الفساد ، يقال قضئت القربة إذا عفيت وفسدت وفي حسبه قضاءة أي عيب ، وهذا كله من أسباب القطع أو مسبباته فهذا هو الكلام في مفهومه الأصلي بحسب اللغة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 4 صـ 24 ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قضى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ أي إذا أراد إحكامه وإتقانه كما سبق في علمه قال له كن .

قال ابن عرفة : قضاء الشيء إحكامه وإمضاؤه والفراغ منه ؛ ومنه سُمِّيَ القاضي ؛ لإنه إذا حكم فقد فرغ مما بين الخصمين .

وقال الأزهري : قضى في اللغة على وجوه ، مرجعها إلى انقطاع الشيء وتمامه ؛ قال أبو ذُؤَيْب :

وعليهما مَسْرُودتان قضاهما . . .

داودُ أو صَنَعَ السَّوابِغِ تُبَّعُ

وقال الشمّاخ في عمر بن الخطاب رضي الله عنه : قضيتَ أموراً ثم غادرت بعدها . . .

بوائق في أكمامها لم تُفَتَّق

قال علماؤنا : " قَضَى " لفظ مشترك ، يكون بمعنى الخلق ؛ قال الله تعالى : ﴿ فَقَضَاهُنَّ

سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ [فصلت : 12] أي خلقهن .

ويكون بمعنى الإعلام ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الكِتَاب ﴾ [الإسراء : 4] أي أعلمنا .

ويكون بمعنى الأمر ؛ كقوله تعالى : ﴿ وقضى رَبُّكَ أَلاَّ تعبدوا إِلاَّ إِيَّاهُ ﴾ .

(113/64)

ويكون بمعنى الإلزام وإمضاء الأحكام ؛ ومنه سُمّي الحاكم قاضياً .

ويكون بمعنى تَوْفِيَة الحق ؛ قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا قضى مُوسَى الأجل ﴾ [القصص : 29] .

ويكون بمعنى الإرادة ؛ كقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا قضى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [الأنعام : 73] أي إذا أراد خلق شيء .

قال ابن عطية : " قَضَى " معناه قدّر ؛ وقد يجيء بمعنى أمضى ، ويَتَّجه في هذه الآية المعنيان على مذهب أهل السُّنة قدّر في الأزل وأمضى فيه .

وعلى مذهب المعتزلة أمضى عند الخلق والإيجاد . انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبي حـ 2 صـ 87.88 ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وَإِذَا قضى أَمْرًا ﴾ أي أراد شيئاً بقرينة قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً ﴾ [يس : 82] وجاء القضاء على وجوه ترجع كلها إلى إتمام الشيء قولاً أو فعلاً وإطلاقه على الإرادة مجاز من استعمال اللفظ المسبب في السبب فإن الإيجاد الذي هو إتمام الشيء مسبب عن تعلق الإرادة لأنه يوجبه ، وساوى ابن السيد بينه وبين القدر ، والمشهور التفرقة بينهما بجعل القدر تقديراً لأمور قبل أن تقع ، والقضاء إنفاذ ذلك القدر وخروجه من العدم إلى حد الفعل ، وصحح ذلك الجمهور لأنه قد جاء في الحديث " أن النبي صلى الله عليه وسلم مر بكهف مائل للسقوط فأسرع المشي حتى جاوزه فقيل : له أتفر من قضاء الله تعالى ؟ فقال : أفر من قضائه تعالى إلى قدره " ففرق صلى الله عليه وسلم بين القضاء والقدر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 368 ﴾

(114/64)

وقال ابن عاشور :

وقوله : ﴿ وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ﴾ إلخ كشف لشبهة النصارى واستدلال على أنه لا يتخذ ولداً بل يكوّن الكائنات كلها بتكوين واحد وكلها خاضعة

لتكوينه وذلك أن النصارى توهموا أن مجيء المسيح من غير أب دليل على أنه ابن الله فبين الله تعالى أن تكوين أحوال الموجودات من لا شيء أعجب من ذلك وأن كل ذلك راجع إلى التكوين والتقدير سواء في ذلك ما وجد بواسطة تامة أو ناقصة أو بلا واسطة قال تعالى : ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له ﴿ كن فيكون ﴾ [آل عمران : 59] فليس تخلق عيسى من أم دون أب بموجب كونه ابن الله تعالى .

و(كان) في الآية تامة لا تطلب خبراً أي يقول له : إيجد فيوجد .

والظاهر أن القول والمقول والمسبب هنا تمثيل لسرعة وجود الكائنات عند تعلق الإرادة والقدرة بهما بأن شبه فعل الله تعالى بتكوين شيء وحصول المكون عقب ذلك بدون مهلة بتوجه الآمر للمأمور بكلمة الأمر وحصول امتثاله عقب ذلك لأن تلك أقرب الحالات المتعارفة التي يمكن التقريب بها في الأمور التي لا تتسع اللغة للتعبير عنها وإلى نحو هذا مال صاحب " الكشاف " ونظره بقول أبي النجم :

إذ قالتِ الأنساعُ للبطن ألحق . . .

قُدْما فآضت كالفَنيق المُحْنَق

والذي يعين كون هذا تمثيلاً أنه لا يتصور خطاب من ليس بموجود بأن يكون موجوداً فليس هذا التقرير الصادر من الزمخشري مبنياً على منع المعتزلة قيام صفة الكلام بذاته تعالى إذ ليس في الآية ما يلجئهم إلى اعتبار قيام صفة الكلام إذ كان يمكنهم تأويله بما تأولوا به آيات

كثيرة ولذلك سكت عنه ابن المنير خلافاً لما يوهمه كلام ابن عطية. انتهى انتهى. اهـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 1 صـ 669. 670 ﴾

فصل

قال الفخر :

في محامل لفظ القضاء في القرآن قالوا : إنه يستعمل على وجوه.

أحدها : بمعنى الخلق، قوله تعالى : ﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سموات ﴾ يعني خلقهن.

وثانيها : بمعنى الأمر قال تعالى : ﴿ وقضى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إياه ﴾ [الإسراء : 23].

وثالثها : بمعنى الحكم، ولهذا يقال للحاكم : القاضي.

ورابعاً : بمعنى الإخبار، قال تعالى : ﴿ وَقَضَيْنَا إلى بَنِى إسراءيل فِى الكتاب ﴾ [الإسراء : 4] أي أخبرناهم، وهذا يأتي مقروناً بإلى.

وخامسها : أن يأتي بمعنى الفراغ من الشيء قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إلى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴾ [الأحقاف : 29] يعني لما فرغ من ذلك، وقال تعالى : ﴿ وَقُضِىَ الأمر واستوت عَلَى الجودى ﴾ [هود : 44] يعني فرغ من إهلاك الكفار وقال : ﴿ لِيَقْضُواْ

تَفَثَهُمْ ﴾ [الحج : 29] بمعنى ليفرغوا منه ، إذا عرفت هذا فنقول : قوله : ﴿ إِذَا قَضَى أَمْرًا ﴾ [آل عمران : 47] قيل : إذا خلق شيئاً ، وقيل : حكم بأنه يفعل شيئاً ، وقيل : أحكم أمراً ، قال الشاعر :

وعليهما مسرودتان قضاهما . . داود أو صنع السوابغ تبع

المسألة الثالثة :

اتفقوا على أن لفظ الأمر حقيقة في القول المخصوص ، وهل هو حقيقة في الفعل والشأن الحق ؟ نعم وهو المراد بالأمر ههنا ، وبسط القول فيه مذكور في أصول الفقه . انتهى انتهى .

ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 4 صـ 25.24 ﴾

فصل

قال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ أَمْراً ﴾ الأمر واحد الأمور ، وليس بمصدر أمر يأمر .

قال علماؤنا : والأمر في القرآن يتصرف على أربعة عشر وجهاً :

الأوّل : الدّين ؛ قال الله تعالى : ﴿ حتى جَآءَ الحق وَظَهَرَ أَمْرُ الله ﴾ [التوبة : 48] يعني دين الله الإسلام .

الثاني : القول ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا ﴾ يعني قولنا ، وقوله : ﴿ فتنازعوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ ﴾ [طه : 62] يعني قولهم .

الثالث : العذاب ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ لَمَّا قُضِيَ الأمر ﴾ [إبراهيم : 22] يعني لما وجب العذاب بأهل النار .

(116/64)

الرابع : عيسى عليه السلام ؛ قال الله تعالى : ﴿ إِذَا قضى أَمْراً ﴾ [آل عمران : 47] يعني عيسى ، وكان في علمه أن يكون من غير أب .

الخامس : القتل ببَدْر ؛ قال الله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ الله ﴾ [غافر : 78] يعني القتل ببدر ، وقوله تعالى : ﴿ لِّيَقْضِيَ الله أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً ﴾ [الأنفال : 42] يعني قتل كفار مكة .

السادس : فتح مكة ؛ قال الله تعالى : ﴿ فَتَرَبَّصُواْ حتى يَأْتِيَ الله بِأَمْرِهِ ﴾ [التوبة : 24] يعني فتح مكة .

السابع : قتل قُرَيظة وجلاء بني النَّضير ؛ قال الله تعالى : ﴿ فاعفوا واصفحوا حتى يَأْتِيَ الله بِأَمْرِهِ ﴾ [البقرة : 109] الثامن : القيامة ؛ قال الله تعالى : ﴿ أتى أَمْرُ الله ﴾ [النحل : 1] التاسع : القضاء ؛ قال الله تعالى : ﴿ يُدَبِّرُ الأمر ﴾ [الرعد : 2] يعني القضاء .

العاشر : الوَحْي ؛ قال الله تعالى : ﴿ يُدَبِّرُ الأمر مِنَ السمآء إِلَى الأرض ﴾ [السجدة : 5] يقول : ينزل الوحي من السماء إلى الأرض ؛ وقوله : ﴿ يَتَنَزَّلُ الأمر بَيْنَهُنَّ ﴾ [الطلاق : 12] يعني الوحي .

الحادي عشر : أمر الخلق ؛ قال الله تعالى : ﴿ أَلاَ إِلَى الله تَصِيرُ الأمور ﴾ [الشورى : 53] يعنى أمور الخلائق .

الثاني عشر : النَّصْرُ ؛ قال الله تعالى : ﴿ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأمر مِن شَيْءٍ ﴾ [آل عمران : 154] .

يعنون النصر ، ﴿ قُلْ إِنَّ الأمر كُلَّهُ للَّهِ ﴾ [آل عمران : 154] يعني النصر .

الثالث عشر : الذّنب ؛ قال الله تعالى : ﴿ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا ﴾ [الطلاق : 9] يعني جزاء ذنبها .

الرابع عشر : الشأن والفعل ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾ [هود : 97] أي فعْله وشأنه ، وقال : ﴿ فَلْيَحْذَرِ الذين يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ ﴾ [النور : 63] أي فعله .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 2 صـ 88. 89 ﴾

فصل

قال الفخر :

قرأ ابن عامر : ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران : 47] بالنصب في كل القرآن إلا في موضعين : في أول آل عمران : ﴿كُنْ فَيَكُونُ الحق﴾ [آل عمران : 59 ، 60] وفي الأنعام : ﴿كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الحق﴾ [الأنعام : 73] فإنه رفعهما ، وعن الكسائي بالنصب في النحل ويس وبالرفع في سائر القرآن ، والباقون بالرفع في كل القرآن ، أما النصب فعلى جواب الأمر ، وقيل هو بعيد ، والرفع على الاستئناف أي فهو يكون . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 4 صـ 25 ﴾

لطيفة

قال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ كُن ﴾ قيل : الكاف من كَيْنُونه ، والنون من نُوره ؛ وهي المراد بقوله عليه السلام : " أعوذ بكلمات الله التّامات من شرّ ما خلق " ويُروى : " بكلمة الله التامة " على الإفراد .

فالجمع لما كانت هذه الكلمة في الأمور كلها ، فإذا قال لكل أمر كن ، ولكل شيء كن ، فهنّ كلمات .

يدلّ على هذا ما رُوِي عن أبي ذَرّ " عن النبيّ صلى الله عليه وسلم فيما يُحكى عن الله

تعالى : " عطائي كلام وعذابي كلام " خرّجه الترمذي في حديث فيه طول .

والكلمة على الإفراد بمعنى الكلمات أيضاً ؛ لكن لما تفرّقت الكلمة الواحدة في الأمور في الأوقات صارت كلمات ومرجعهن إلى كلمة واحدة .

وإنما قيل " تامة" لأن أقل الكلام عند أهل اللغة على ثلاثة أحرف : حرف مبتدأ ، وحرف تُحشَى به الكلمة ، وحرف يُسكت عليه .

وإذا كان على حرفين فهو عندهم منقوص ، كيَدٍ ودَمٍ وفَمٍ ؛ وإنما نقص لعلّة .

فهي من الآدميّين من المنقوصات لأنها على حرفين ؛ ولأنها كلمة ملفوظة بالأدوات .

ومن ربّنا تبارك وتعالى تامة ؛ لأنها بغير الأدوات ، تعالى عن شبه المخلوقين . انتهى .

ا هـ ﴿ تفسير القرطبي حـ 2 صـ 89 . 90 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أنه ليس المراد من قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران : 47] هو أنه تعالى يقول له : ﴿ كُنَّ ﴾ فحينئذ يتكون ذلك الشيء فإن ذلك فاسد والذي يدل عليه وجوه .

الأول : أن قوله : ﴿ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ إما أن يكون قديماً أو محدثاً والقسمان فاسدان فبطل القول بتوقف حدوث الأشياء على ﴿ كُنَّ ﴾ إنما قلنا : إنه لا يجوز أن يكون قديماً لوجوه .

الأول : أن كلمة ﴿ كُنَّ ﴾ لفظة مركبة من الكاف والنون بشرط تقدم الكاف على النون ، فالنون لكونه مسبوقاً بالكاف لا بد وأن يكون محدثاً ، والكاف لكونه متقدماً على المحدث بزمان واحد يجب أن يكون محدثاً .

الثاني : أن كلمة ﴿ إِذَا ﴾ لا تدخل إلا على سبيل الإستقبال ، فذلك القضاء لا بد وأن يكون محدثاً لأنه دخل عليه حرف ﴿ إِذَا ﴾ وقوله ﴿ كُنَّ ﴾ مرتب على القضاء بفاء التعقيب لأنه تعالى قال : ﴿ فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ ﴾ والمتأخر عن المحدث محدث ، فاستحال أن يكون : ﴿ كُنَّ ﴾ قديماً .

الثالث : أنه تعالى رتب تكون المخلوق على قوله : ﴿ كُنَّ ﴾ بفاء التعقيب فيكون قوله : ﴿ كُنَّ ﴾ مقدماً على تكون المخلوق بزمان واحد والمتقدم على المحدث بزمان واحد لا بد وأن يكون محدثاً فقوله : ﴿ كُنَّ ﴾ لا يجوز أن يكون قديماً ، ولا جائز أيضاً أن يكون قوله : ﴿ كُنَّ ﴾ محدثاً لأنه لو افتقر كل محدث إلى قوله : ﴿ كُنَّ ﴾ وقوله : ﴿ كُنَّ ﴾ أيضاً محدث فيلزم افتقار : ﴿ كُنَّ ﴾ آخر ويلزم إما التسلسل وإما الدور وهما محالان ، فثبت بهذا الدليل أنه لا يجوز توقف إحداث الحوادث على قوله : ﴿ كُنَّ ﴾ .

الحجة الثانية : أنه تعالى إما أن يخاطب المخلوق بكن قبل دخوله في الوجود أو حال دخوله في الوجود ، والأول : باطل لأن خطاب المعدوم حال عدمه سفه ، والثاني : أيضاً باطل لأنه يرجع حاصله إلى أنه تعالى أمر الموجود بأن يصير موجوداً وذلك أيضاً لا فائدة فيه .

الحجة الثالثة : أن المخلوق قد يكون جماداً ، وتكليف الجماد عبث ولا يليق بالحكيم .

(119/64)

الحجة الرابعة : أن القادر هوالذي يصح منه الفعل وتركه بحسب الإرادات ، فإذا فرضنا القادر المريد منفكاً عن قوله : ﴿كُنَّ﴾ فإما أن يتمكن من الإيجاد والأحداث أو لا يتمكن ، فإن تمكن لم يكن الإيجاد موقوفاً على قوله : ﴿كُنَّ﴾ وإن لم يتمكن فحينئذ يلزم أن لا يكون القادر قادراً على الفعل إلا عند تكلمه بكن فيرجع حاصل الأمر إلى أنكم سمعتم القدرة بكن وذلك نزاع في اللفظ .

الحجة الخامسة : أن ﴿كُنَّ﴾ لو كان له أثر في التكوين لكنا إذا تكلمنا بهذه الكلمة وجب أن يكون لها ذلك التأثير ، ولما علمنا بالضرورة فساد ذلك علمنا أنه لا تأثير لهذه الكلمة .

الحجة السادسة : أن ﴿كُنَّ﴾ كلمة مركبة من الكاف والنون ، بشرط كون الكاف متقدماً على النون ، فالمؤثر إما أن يكون هو أحد هذين الحرفين أو مجموعهما ، فإن كان

الأول لم يكن لكلمة ﴿كُنَ﴾ أثر ألبتة ، بل التأثير لأحد هذين الحرفين ، وإن كان الثاني فهو محال ، لأنه لا وجود لهذا المجموع ألبتة لأنه حين حصل الحرف الأول لم يكن الثاني حاصلاً ، وحين جاء الثاني فقد فات الأول ، وإن لم يكن للمجموع وجود ألبتة استحال أن يكون للمجموع أثر ألبتة .

الحجة السابعة : قوله تعالى : ﴿إِنَّ مَثَلَ عيسى عِندَ اللهِ كَمَثَلِ ءادَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران : 59] بين أن قوله : ﴿كُنَ﴾ متأخر عن خلقه إذ المتأخر عن الشيء لا يكون مؤثراً في المتقدم عليه ، فعلمنا أنه لا تأثير لقوله : ﴿كُنَ﴾ في وجود الشيء فظهر بهذه الوجوه فساد هذا المذهب ، وإذا ثبت هذا فنقول لا بد من التأويل وهو من وجوه :

الأول : وهو الأقوى أن المراد من هذه الكلمة سرعة نفاذ قدرة الله في تكوين الأشياء ، وأنه تعالى يخلق الأشياء لا بفكرة ومعاناة وتجربة ونظيره قوله تعالى عند وصف خلق السموات والأرض :

﴿ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ [فصلت : 11] من غير قول كان منهما لكن على سبل سرعة نفاذ قدرته في تكوينهما من غير ممانعة ومدافعة ونظيره قول العرب : قال الجدار للوتد لم تشقني ؟ قال : سل من يدقني فإن الذي ورائي ما خلاني ورائي ونظيره قوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ولكن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء : 44] .

الثاني : أنه علامة يفعلها الله تعالى للملائكة إذا سمعوها علموا أنه أحدث أمراً يحكى ذلك عن أبي الهذيل .

الثالث : أنه خاص بالموجودين الذين قال لهم ؛ ﴿ كُونُوا قِرَدَةً خاسئين ﴾ [البقرة : 65] ومن جرى مجراهم وهو قول الأصم .

الرابع : أنه أمر للأحياء بالموت وللموتى بالحياة والكل ضعيف والقوي هو الأول . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 4 صـ 25. 26 ﴾

(121/64)

وقال الآلوسى :

﴿ فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ الظاهر أن الفعلين من كان التامة لعدم ذكر الخبر مع أنها

الأصل أي احدث فيحدث ، وهي تدلك على معنى الناقصة لأن الوجود المطلق أعم من وجوده في نفسه أو في غيره والأمر محمول على حقيقته كما ذهب إليه محققو ساداتنا الحنفية والله تعالى قد أجرى سنته في تكوين الأشياء أن يكوّنها بهذه الكلمة وإن لم يمتنع تكوينها بغيرها ، والمراد الكلام الأزلي لأنه يستحيل قيام اللفظ المرتب بذاته تعالى ولأنه حادث فيحتاج إلى خطاب آخر فيتسلسل وتأخره عن الإرادة وتقدمه على وجود الكون باعتبار التعلق ، ولما لم يشتمل خطاب التكوين على الفهم واشتمل على أعظم الفوائد جاز تعلقه بالمعدوم ، وذهب المعتزلة وكثير من أهل السنة إلى أنه ليس المراد به حقيقة الأمر والامتثال ، وإنما هو تمثيل لحصول ما تعلق به الإرادة بلا مهلة بطاعة المأمور المطيع بلا توقف فهناك استعارة تمثيلية حيث شبهت هيأة حصول المراد بعد تعلق الإرادة بلا مهلة ، وامتناع بطاعة المأمور المطيع عقيب أمر المطاع بلا توقف وإباء تصويراً لحال الغائب بصورة الشاهد ثم استعمل الكلام الموضوع للمشبه في المشبه به من غير اعتبار استعارة في مفرداته وكان أصل الكلام إذا قضى أمراً فيحصل عقيبه دفعة فكأنما يقول له كان فيكون ثم حذف المشبه ، واستعمل المشبه به مقامه ، وبعضهم يجعل في الكلام استعارة تحقيقية تصريحية مبنية على تشبيه حال بقال ، ولعل الذي دعى هؤلاء إلى العدول عن الظاهر زعم امتناعه لوجوه ذكرها بعض أئمتهم الأول : أن قوله تعالى : ﴿ كُنَّ ﴾ إما أن يكون قديماً أو محدثاً لا جائز أن يكون قديماً لتأخر النون ولتقدم الكاف ، والمسبوق محدث لا محالة ، وكذا المتقدم

عليه بزمان مقدر أيضاً ، ولأن ﴿ إِذَا ﴾ للاستقبال فالقضاء محدث و ﴿ كُنَّ ﴾ مرتب عليه بفاء التعقيب ، والمتأخر عن المحدث محدث ، ولا جائز أن يكون محدثاً وإلا لدار أو تسلسل ، الثاني : إما أن

يخاطب المخلوق بكن قبل دخوله في الوجود ، وخطاب المعدوم سفه ، وإما بعد دخوله ولا فائدة فيه .

الثالث : المخلوق قد يكون جماداً وتكليفه لا يليق بالحكمة الرابع : إذا فرضنا القادر المريد منفكاً عن قوله ﴿ كُنَّ ﴾ فإن تمكن من الإيجاد فلا حاجة إليها وإن لم يتمكن فلا يكون القادر قادراً على الفعل إلا عند تكلمه ب ﴿ كُنَّ ﴾ فيلزم عجزه بالنظر إلى ذاته .

الخامس : أنا نعلم بالضرورة أنه لا تأثير لهذه الكلمة إذا تكلمنا بها فكذا إذا تكلم بها غيرنا .

السادس : المؤثر إما مجموع الكاف والنون ولا وجود لهما مجموعين أو أحدهما وهو خلاف المفروض انتهى .

وأنت إذا تأملت ما ذكرنا ظهر لك اندفاع جميع هذه الوجوه ، ويا عجباً لمن يقول بالكلام النفسي ويجعل هذا دالاً عليه كيف تروعه هذه القعاقع أم كيف تغره هذه الفقاقع ؟! نعم لو ذهب ذاهب إلى هذا القول لما فيه من مزيد إثبات العظمة لله تعالى ما ليس في الأول لا لأن الأول باطل في نفسه كان حريا بالقبول ولعلي أقول به والآية مسوقة لبيان كيفية الإبداع ومعطوفة على قوله تعالى : ﴿ بَدِيعُ السموات والأرض ﴾ مشتملة على تقرير معنى الإبداع وفيها تلويح بحجة أخرى لإبطال ذلك الهذيان بأن اتخاذ الولد من الوالد إنما يكون بعد قصده بأطوار ومهلة لما أن ذلك لا يمكن إلا بعد انفصال مادته عنه وصيرورته حيواناً ، وفعله تعالى بعد إرادته أو تعلق قوله مستغن عن المهلة فلا يكون اتخاذ الولد فعله تعالى ، وكأن السبب في هذه الضلالة أنه ورد إطلاق الأب على الله تعالى في الشرائع المتقدمة باعتبار أنه السبب الأول وكثر هذا الإطلاق في إنجيل يوحنا ثم ظنت الجهلة أن المراد به معنى الولادة فاعتقدوا ذلك تقليداً وكفروا ، ولم يجوز العلماء اليوم إطلاق ذلك عليه تعالى مجازاً ، قطعاً لمادة الفساد ، وقرأ ابن عامر ﴿ فَيَكُونُ ﴾ بالنصب ، وقد أشكلت على النحاة حتى تجرأ أحمد بن موسى فحكم بخطئها وهو سوء أدب بل من أقبح الخطأ ووجهها أن تكون حينئذ جواب الأمر حملاً على صورة اللفظ وإن كان معناه الخبر إذ ليس معناه تعليق مدلول مدخول الفاء بمدلول صيغة الأمر الذي يقتضيه سببية ما قبل الفاء لما بعدها

اللازمة لجواب الأمر بالفاء إذ لا معنى لقولنا ليكن منك كون فكون ، وقيل : الداعي إلى الحمل على اللفظ أن الأمر ليس حقيقياً فلا ينصب جوابه وإن من شرط ذلك أن ينعقد منهما شرط وجزاء نحو ائتني فأكرمك إذ تقديره إن تأتني أكرمك ، وهنا لا يصح أن يكن يكن وإلا لزم كون الشيء سبباً لنفسه ، وأجيب بأن المراد إن يكن في علم الله تعالى وإرادته يكن في الخارج فهو على حد " من كانت هجرته

(124/64)

إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله" وبأن كون الأمر غير الحقيقي لا ينصب في جوابه ممنوع فإن كان بلفظ فظاهر ولكنه مجاز عن سرعة التكوين وإن لم يعتبر فهو مجاز عن إرادة سرعته فيؤول إلى إن يراد سرعة وجود شيء يوجد في الحال فلا محذور للتغاير الظاهر ولا يخفى ما فيه ، ووجه الرفع الاستئناف أي فهو يكون وهو مذهب سيبويه ، وذهب الزجاج إلى عطفه على ﴿ يِقُولُ ﴾ وعلى التقديرين لا يكون ﴿ يَكُونَ ﴾ داخلاً في المقول ومن تتمته ليوجه العدول عن الخطاب بأنه من باب الالتفات تحقيراً لشأن الأمر في سهولة تكونه ووجهه به غير واحد على تقدير الدخول . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 369.368 ﴾

فائدة

قال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ فَيَكُونُ ﴾ قُرِىء برفع النون على الاستئناف .

قال سيبويه : فهو يكون ، أو فإنه يكون .

وقال غيره : وهو معطوف على " يقول " ؛ فعلى الأوّل كائناً بعد الأمر ، وإن كان معدوماً فإنه بمنزلة الموجود إذ هو عنده معلوم ؛ على ما يأتي بيانه .

وعلى الثاني كائناً مع الأمر ؛ واختاره الطبري وقال : أمره للشيء ب " كن " لا يتقدّم الوجود ولا يتأخّر عنه ؛ فلا يكون الشيء مأموراً بالوجود إلا وهو موجود بالأمر ، ولا موجوداً إلا وهو مأمور بالوجود ، على ما يأتي بيانه .

قال : ونظيره قيام الناس من قبورهم لا يتقدّم دعاء الله ولا يتأخّر عنه ؛ كما قال ﴿ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ [الروم : 25] .

وضعّف ابن عطية هذا القول وقال : هو خطأ من جهة المعنى ؛ لأنه يقتضي أن القول مع التكوين والوجود .

وتلخيص المعتقد في هذه الآية : أن الله عزّ وجلّ لم يزل آمراً للمعدومات بشرط وجودها ، قادراً مع تأخر المقدورات ، عالماً مع تأخّر المعلومات .

فكلُّ ما في الآية يقتضي الاستقبال فهو بحسب المأمورات ؛ إذ الحَدثات تجيء بعد أن لم

تكن .

وكل ما يُسند إلى الله تعالى من قدرة وعلم فهو قديم لم يزل .

(125/64)

والمعنى الذي تقتضيه عبارة "كن" : هو قدم قائم بالذات .

وقال أبو الحسن الماوَرْدِي فإن قيل : ففي أي حال يقول له كن فيكون ؟ أفي حال عدمه ، أم في حال وجوده ؟ فإن كان في حال عدمه استحال أن يأمر إلا مأموراً ، كما يستحيل أن يكون الأمر إلا من آمر ؛ وإن كان في حال وجوده فتلك حال لا يجوز أن يأمر فيها بالوجود والحدوث ؛ لأنه موجود حادث ؟ قيل عن هذا السؤال أجوبة ثلاثة :

أحدها : أنه خبر من الله تعالى عن نفوذ أوامره في خلقه الموجود ؛ كما أمر في بني إسرائيل أن يكونوا قِرَدَةً خاسئين ؛ ولا يكون هذا وارداً في إيجاد المعدومات .

الثاني : أن الله عزّ وجلّ عالم بما هو كائن قبل كونه ؛ فكانت الأشياء التي لم تكن وهي كائنة بعلمه قبل كونها مشابهة للتي هي موجودة ؛ فجاز أن يقول لها : كوني ، ويأمرها بالخروج من حال العدم إلى حال الوجود ؛ لتصوّر جمعيها له ولعلمه بها في حال العدم .

الثالث : أن ذلك خبر من الله تعالى عامّ عن جميع ما يُحدثه ويكوّنه إذا أراد خلقه وإنشاءه

كان ، ووجد من غير أن يكون هناك قول يقوله ، وإنما هو قضاء يريده ؛ فعبر عنه بالقول وإن لم يكن قولاً ؛ كقول أبي النَّجْم :

قد قالتِ الأُنساع للبَطْنِ الحق . . .

ولا قول هناك ، وإنما أراد أن الظَّهْر قد لَحِق بالبطن ، وكقول عمرو بن حممة الدَّوسِيّ :

فأصبحتُ مثلَ النسْر طارتِ فِراخُه . . .

إذا رامَ تطْياراً يقل له قَع

وكما قال الآخر :

قالت جناحاه لساقَيْهِ الحقا . . .

ونجّيَا لحمكما أن يمزّقا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 2 صـ 90 . 91 ﴾

(126/64)

وقال البيضاوى :

﴿ وَإِذَا قضى أَمْرًا ﴾ أي أراد شيئاً ، وأصل القضاء إتمام الشيء قوة كقوله تعالى : ﴿ وقضى ربُّكَ ﴾ أو فعلاً كقوله تعالى : ﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سموات ﴾ وأطلق على تعلق الإرادة الإلهية بوجود الشيء من حيث إنه يوجبه . ﴿ فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ من كان

التامة بمعنى أحدث فيحدث ، وليس المراد به حقيقة أمر وامتثال ، بل تمثيل حصول ما تعلقت به إرادته بلا مهلة بطاعة المأمور المطيع بلا توقف . وفيه تقرير لمعنى الإبداع ، وإيماء إلى حجة خامسة وهي : أن اتخاذ الولد مما يكون بأطوار ومهلة ، وفعله تعالى مستغن عن ذلك . وقرأ ابن عامر ﴿ فَيَكُونَ ﴾ بفتح النون . واعلم أن السبب في هذه الضلالة ، أن أرباب الشرائع المتقدمة كانوا يطلقون الأب على الله تعالى باعتبار أنه السبب الأول ، حتى قالوا إن الأب هو الرب الأصغر ، والله سبحانه وتعالى هو الرب الأكبر ، ثم ظنت الجهلة منهم أن المراد به معنى الولادة ، فاعتقدوا ذلك تقليداً ، ولذلك كُفِّرَ قائله ومنع منه مطلقاً حسماً لمادة الفساد . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 1 صـ 390 . 391 ﴾

وقال النسفى :

﴿ وَإِذَا قضى أَمْرًا ﴾ أي حكم أو قدر ﴿ فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ هو من "كان" التامة أي أحدث فيحدث وهذا مجاز عن سرعة التكوين وتمثيل ولا قول ثَمَّ .

وإنما المعنى أن ما قضاه من الأمور وأراد كونه فإنما يتكون ، ويدخل تحت الوجود من غير امتناع ولا توقف كما أن المأمور المطيع الذي يؤمر فيمتثل لا يتوقف ولا يمتنع ولا يكون منه إباء .

وأكد بهذا استبعاد الولادة لأن من كان بهذه الصفة من القدرة كانت صفاته مباينة لصفات الأجسام فأنى يتصور التوالد ثمّ .

والوجه الرفع في " فيكون" وهو قراءة العامة على الاستئناف أي فهو يكون ، أو على العطف على " يقول" .

ونصبه ابن عامر على لفظ "كن" لأنه أمر وجواب الأمر بالفاء نصب .

(127/64)

وقلنا : إن "كن" ليس بأمر حقيقة إذ لا فرق بين أن يقال وإذ قضى أمرا فإنما يكونه فيكون وبين أن يقال فإنما يقول له كن فيكون ، وإذا كان كذلك فلا معنى للنصب .

وهذا لأنه لو كان أمراً فإما أن يخاطب به الموجود والموجود لا يخاطب ب "كن" أو المعدوم والمعدوم لا يخاطب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 1 صـ 71 ﴾

سؤال : فإن قيل : في أي حال يقول له كن فيكون ؟ أفي حالة عدمه أم في حال وجوده ؟ فإن كان في حال عدمه ، استحال أن يأمر إلا مأموراً ، كما يستحيل أن يكون الأمر إلا من آمر ، وإن كان في حال وجوده ، فتلك حال لا يجوز أن يأمر فيها بالوجود والحدوث ، لأنه موجود حادث ؟ .

قيل : عن هذا السؤال أجوبة ثلاثة :

أحدها : أنه خبر من الله تعالى عن نفوذ أوامره في خلقه الموجود ، كما أمر في بني إسرائيل ،

أن يكونوا قردة خاسئين ، ولا يكون هذا وارداً في إيجاد المعدومات .

الثاني : أن الله عز وجل عالم ، بما هو كائن قبل كونه ، فكانت الأشياء التي لم تكن وهي كائنة بعلمه ، قبل كونها مشابهة للأشياء التي هي موجودة ، فجاز أن يقول لها كوني ، ويأمرها بالخروج من حال العدم إلى حال الوجود ، لتصور جميعها له ولعلمه بها في حال العدم .

والثالث : أن ذلك خبر من الله تعالى ، عامٌ عن جميع ما يُحْدِثُه ، ويكوّنه ، إذا أراد خلقه وإنشاءه كان ووجد من غير أن يكون هناك قول يقوله ، وإنما هو قضاء يريده ، فعبر عنه بالقول وإن لم يكن قولاً ، كقول أبي النجم :

قد قالت الأنساع للبطن الحق . . . قدما فآضت كالغسق المحقق

ولا قول هناك ، وإنما أراد أن الظهر قد لحق بالبطن ، وكقوله عمرو بن حممة الدوسي .

فأصبحت مثل النسر طارت فراخه . . . إذا رام تطياراً يقال له قَعِ . انتهى انتهى . اهـ

﴿ النكت والعيون حـ 1 صـ 178 . 179 ﴾

وقال ابن الجوزى :

فإن قيل : هذا خطاب لمعدوم ؛

فالجواب أنه خطاب تكوين يُظهر أثر القدرة ، ويستحيل أن يكون المخاطب موجوداً ، لأنه بالخطاب كان ، فامتنع وجوده قبله أو معه .

ويحقق هذا أن ما سيكون متصور للعلم ، فضاهى بذلك الموجود ، فجاز خطابه لذلك .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير حـ 1 صـ 136. 137 ﴾

(128/64)

وقال ابن جزي :

قال الأصوليون : هذه عبارة عن تعود قدرة الله وليس بقول حقيقي لأنه إذا كان قول [كن] خطاباً للشيء في حال عدمه لم يصح ، لأن المعدوم لم يخاطب وإن كان خطاباً في حال وجوده ، لأنه قد كان ، وتحصيل الحاصل غير مطلوب ، وحمله المفسرون على حقيقته ، وأجابوا عن ذلك بأربعة أجوبة .

أحدها : أن الشيء الذي يقول له [كن فيكون] ه وموجود في علم الله ، وإنما يقول له [كن] ليخرجه إلى العيان لنا .

والثاني : أن قوله [كن] لا يتقدم على وجود الشيء ولا يتأخر عنه قاله الطبري .

والثالث : أن ذلك خطاباً لمن كان موجوداً على حاله فيأمره بأن يكون على حالة أخرى ، كإحياء الموتى ، ومسخ الكفار ، وهذا ضعيف ، لأنه تخصيص من غير مخصص .

والرابع : أن معنى يقول له : يقول من أجله ، فلا يلزم خطابه ، والأول أحسن هذه الأجوبة .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التسهيل حـ 1 صـ 58 ﴾

(129/64)

فائدة

حول معنى قوله تعالى ((كن فيكون))

للشيخ محمود غريب :

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى وسلام على النبيّ المصطفى

أما بعد

قال تعالى : ----

﴿ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ البقرة 117

وقال جلّ ذكره :

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ

تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ الأعراف 54

ومن الطريف : ـــــ

أن الآيات التي ذكر فيها أن الله تعالى خلق السّموات والأرض في ستة أيام

تكررت ثماني مرات في القرآن كله

. وهو نفس العدد الذي تكرر فيه قوله تعالى (كن فيكون) .

ويتساءل الشّباب الكريم هل هناك تعارض بين الآيتين ؟

وأريح صدورهم من أول لحظة

كل تعارض يفهم بين آيتين من القرآن الكريم أو بين آية وحديث شريف صحيح

سببه خطأ في الفهم . . .

قال تعالى : ـــــــ

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ النساء 82

ومعنى الآية . . . . . .

لو كان القرآن من عند غير الله ، لوجدوا فيه اختلافا كثيرا . .

لكنّه من عند الله . . . إذن لا اختلاف فيه .

والحديث الشّريف وحي بالمعنى . . . . . .

لذلك قال الرسول صلّ يا ربّ عليه وآله وبارك وسلّم كما تحبه وترضاه آمين

: أوتيت القرآن ومثله معه (أي السّنة الشّريفة) .

والآن مع الآية الأولى . . . . . دراسة وتحليل (بديع السّموات والأرض)

الشّيء البديع هو الجديد الذي لم يسبق .

ومنه البدعة

وهي إنشاء عبادة أو شيء في الدين لم يثبت في مصادره الأولى وهي ضلالة ومردودة على صاحبها .

(130/64)

فمعنى بديع السّموات والأرض . . . . . أي خلقها من غير سبق مثال .

(وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) .

استعمل القرآن الكريم --- كلمة كن فيكون -----

لتقريب معنى تحقق مراده تعالى . . . . بمجرد أن يريد . . . .

إلى أذهان الناس .

فهي تشّبيه وتقريب للعقول . . .

وذلك لأن الإيجاد والتكوين من أسرار الألوهية

عبّر عنها القرآن بما يقربهما من الفهم فالكلام تشبيه .

ولا يتصور صدور كلمة ---- (كن) ---- بحقيقتها اللغوية

لأنّها إن صدرت للشّيء قبل أن يوجد فهي خطاب للمعدوم والمعدوم لا يخاطب .

وإن صدرت للشّيء بعد وجوده فهو موجود بالفعل فكيف يقول له : - كن -

بعد أن وجد . . .

إذن المسألة كناية عن تحقيق الشّيء بمجرد أن يريده سبحانه . . .

وكل الآيات الثماني التي ذكر فيها قوله تعالى (كن فيكون)

جاءت متعلقة بنفاذ الأمر . . .

أمّا الخلق والإيجاد . . . . . .

فإنّه يتم حسب سنة الله تعالى في خلق الأشياء

وهي أن يتدرج الشّيء في النمو حتى تتم خلقته

فالطفل يتكون بأمر الله تعالى ومع ذلك يمكث مدة الحمل في بطن أمه . .

فأي تعارض بين إرادة الله تعالى في خلق الطفل وبين حمل الأم . . . . .

والشّجر يتكون بأمر الله تعالى ومع ذلك يتدرج في الإنبات . . . . حتى يعطي الثمر

فأي تعارض بين إرادة الله تعالى في خلق الشّجر وبين سنة الله تعالى في الإنبات

وشفاء المريض بأمر الله تعالى ومع ذلك يتمّ الشفاء حسب قانون العلاج . . .

فأي تعارض بين إرادة الله تعالى في شفاء المريض وبين الأخذ بالأسباب ؟ ؟

أي تعارض بين إرادة الله تعالى وبين سنة الله تعالى في خلق الكائنات .

إذن فما هو التعارض: ـــــ

بين خلق الدنيا في مدة من الزمن حتى تتهيأ لاستقبال الكائنات الحيّة عليها

وبين نفاذ إرادته العظمى في الأمور

لا تعارض أبدا بين إرادة الله تعالى وسنة الله تعالى التي فطر الناس عليها

أمّا الأيام السّتة التي تمّ فيها الخلق فهل هي أيام كأيامنا ؟ ؟

(131/64)

على الأرض الآن ؟ ؟ . . . . . لست أدري . . . . . .

قال تعالى : ـــــــ

﴿ مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً ﴾ الكهف 51

وقال تعالى : ـــــــ

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ الحج 47

بل ويقول في سورة المعارج :---

﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ . فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلاً . إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً . وَنَرَاهُ قَرِيباً ﴾

المعارج 4 - 7

فما حقيقة الأيام السّتة . . . . . ؟ ؟ ؟

إنّه غيب بعيد وحساب بغير لغتنا في الحساب

لأن الشّمس لم تكن يومها قد وجدت

ولا الأرض من حولها تدور

فلعلّ هذه المدة كناية عن الزمن الذي استغرقه حتى استقر الكون وصلحت

الأرض للحياة . . . . . .

وبعد :---

إن محاولة إيهام الشّباب

وجود تعارض بين آيات القرآن . . . .

صناعة رخيصة

يجيدها المستشرقون وتلامذتهم في البلاد الإسلامية

يريدون بذلك تفريغ الشّباب المسلم من الفكر الإسلامي الصحيح

ويومها تسهل قيادة المسلمين نحو التبعية الفكرية للغرب اللعين . . . . .

أقول ذلك :ـــ

حتى لا نخطئ فهم القرآن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ سلسلة حتى لا نخطئ فهم القرآن / من محاضرات الأستاذ الشيخ محمود غريب ﴾

(132/64)

ومن فوائد ابن عرفة فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ بَدِيعُ السماوات . . . ﴾ .

قال الزمخشري : هذا إما من إضافة الصفة المشبهة باسم الفاعل .

قال ابن عرفة : ف " بدِيعُ " صفة " السماوات " .

قال : أو من إضافة اسم الفاعل .

قال ابن عرفة : "بَدِيعُ" صفة الله تعالى أي مبتدع السماوات .

وقال أبو حيان : الجمهور بالرفع على أنه خبر مبتدإ ، وقرئ بالنصب على المدح ، وبالجر على البدل من الضمير في قوله "له" ، وهي صفة مشبهة باسم الفاعل (والمجرور) مشبه بالمفعول ، وأصله : بديع سماواته ، ثم شبه الوصف فأضمر فيه ضمير عائد على الله ونصب سماواته على التشبيه .

وقيل : بديع سماواته ثم أضيف فانجرَّ مِنْ نصب .

وقال الزمخشري : هو من إضافة الصّفة المشبهة إلى فاعلها واعترض بأن الصفة لا تكون مشبهة إلا إذا نصبت أو أضيفت عن نصب ، أما إذا رفعت فليست مشبهة لأن عمل الرفع في الفاعل تستوي فيه الصفات المتعدية وغيرها ، وأيضا بإضافة الصفة إلى (فاعلها) لا يجوز لأنه من إضافة الشيء إلى نفسه ، وقد يتناول كلامه على أن معناه من إضافة الصفة المشبهة إلى ما كان فاعلا لها قبل أن تشبه .

انتهى .

قلنا قوله : واعترض بكذا ، نقل ابن عصفور في شرح الجمل عن الأستاذ أبي الحسن علي بن جابر الرماح أن الإضافة : في مررت برجل حسن وجهه ، يمكن أن يكون من رفع ، وأنه حكى ذلك عن أشياخه وحمل عليه كلام سيبويه واعترضه ابن عصفور فانظره .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قضى أَمْراً . . . ﴾ .

أي أراد فيرجع للارادة القديمة (التنجيزية) .

(وقال الزمخشري : إنه عبارة عن سرعة التكوين .

فجرى على مذهبه .

وقال ابن عطية .

أي قدر في الأزل وأمضى فيه) . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عرفة حـ 1 صـ 404 .

406 ﴾

(133/64)

ومن فوائد ابن عطية فى الآية

قال رحمه الله :

و ﴿ بديع ﴾ مصروف من مبدع كبصير من مبصر ، ومثله قول عمرو بن معديكرب : [الوافر] :

أَمِنْ ريحانة الداعي السميعِ . . . يريد المسمع ، والمبدع المخترع المنشيء ، ومنه أصحاب البدع ، ومنه قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه في صلاة رمضان : " نعمت البدعة هذه " .

وخص ﴿ السماوات والأرض ﴾ بالذكر لأنها أعظم ما نرى من مخلوقاته جل وعلا ، و﴿ قضى ﴾ ، معناه قدر ، وقد يجيء بمعنى أمضى ، ويتجه في هذه الآية المعنيان ، فعلى مذهب أهل السنة قدر في الأزل وأمضى فيه ، وعلى مذهب المعتزلة أمضى عند الخلق والإيجاد .

والأمر واحد الأمور ، وليس هنا بمصدر أمر يأمر ، ويكون رفع على الاستئناف ، قال سيبويه : " معناه فهو يكون " ، قال غيره : " يكون " عطف على " يقول " ، واختاره الطبري وقرره ، وهو خطأ من جهة المعنى ، لأنه يقتضي أن القول مع التكوين والوجود ، وتكلم أبو علي الفارسي في هذه المسألة بما هو فاسد من جملة الاعتزال لا من جهة العربية .

وقرأ ابن عامر " فيكونَ " بالنصب ، وضعفه أبو علي ، ووجهه مع ضعفه على أن يشفع له شبه اللفظ ، وقال أحمد بن موسى في قراءة ابن عامر : " هذا لحن " .

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه : لأن الفاء لا تعمل في جواب الأمر إلا إذا كانا فعلين يطرد فيها معنى الشرط ، تقول أكرم زيداً فيكرمك ، والمعنى إن تكرم زيداً يكرمك ، وفي هذه الآية لا يتجه هذا ، لأنه يجيء تقديره : إن تكن يكن ، ولا معنى لهذا ، والذي يطرد فيه معنى الشرط هو أن يختلف الفاعلان أو الفعلان فالأول أكرم زيداً فيكرمك والثاني أكرم زيداً فتسود .

وتلخيص المعتقد في هذه الآية ، أن الله عز وجل لم يزل آمراً للمعدومات بشرط وجودها ،

قادراً مع تأخر المقدورات ، عالماً مع تأخر وقوع المعلومات ، فكل ما في الآية مما يقتضي الاستقبال ، فهو بحسب المأمورات ، إذ المحدثات تجيء بعد أن لم تكن ، وكل ما يستند إلى الله تعالى من قدرة وعلم وأمر فهو قديم لم يزل ، ومن جعل من المفسرين ﴿ قضى ﴾ بمعنى أمضى عند الخلق والإيجاد ، فكأن إظهار المخترعات في أوقاتها المؤجلة قول لها ﴿ كن ﴾ ، إذ التأمل يقتضي ذلك ، على نحو قول الشاعر [أبو النجم العجلي] : [الرجز]

وقالتِ الأقرابُ للبطن الحق . . . قال القاضي أبو محمد : وهذا كله يجري مع قول المعتزلة ، والمعنى الذي تقتضيه عبارة ﴿ كن ﴾ هو قديم قائم بالذات ، والوضوح التام في هذه المسألة يحتاج أكثر من هذا البسط . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 1 صـ 201. 202 ﴾

(134/64)

ومن فوائد أبى حيان فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ بديع السموات والأرض ﴾ : لما ذكر أنه مالك لجميع من في السموات والأرض ، وأنهم كلّ قانتون له ، وهم المظروف للسموات والأرض ، ذكر الظرفين وخصهما بالبداعة ، لأنهما

أعظم ما نشاهده من المخلوقات .

وارتفاع بديع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، وهو من باب الصفة المشبهة باسم الفاعل .

فالمجرور مشبه بالمفعول ، وأصله الأول بديع سمواته ، ثم شبه الوصف فأضمر فيه ، فنصب السموات ، ثم جر من نصب .

وفيه أيضاً ضمير يعود على الله تعالى ، ويكون المعنى في الأصل أنه تعالى بدعت سمواته ، أي جاءت في الخلق على شكل مبتدع لم يسبق نظيره .

وهذا الوجه ابتدأ به الزمخشري ، إلا أنه قال : وبديع السموات من إضافة الصفة المشبهة إلى فاعلها ، وهذا ليس عندنا .

كذلك بل من إضافة الصفة المشبهة إلى منصوبها .

والصفة عندنا لا تكون مشبهة حتى تنصب أو تخفض ، وأما إذا رفعت ما بعدها فليس عندنا صفة مشبهة ، لأن عمل الرفع في الفاعل يستوي فيه الصفات المتعدية وغير المتعدية .

فإذا قلنا : زيد قائم أبوه ، فقائم رافع للأب على حدّ رفع ضارب له .

إذا قلت : زيد ضارب أبوه عمراً ، لا تقول : إن قائماً هنا من حيث عمل الرفع شبه بضارب ، وإذا كان كذلك ، فإضافة اسم الفاعل إلى مرفوعه لا يجوز لما تقرّر في علم العربية ، إلا إن أخذنا كلام الزمخشري على التجوّز فيمكن ، ويكون المعنى من إضافة الصفة المشبهة إلى ما كان فاعلاً بها قبل أن يشبه .

وحكى الزمخشري وجهاً ثانياً قال : وقيل البديع بمعنى المبدع ، كما أن السميع في قول عمرو :

أمن ريحانة الداعي السميع . . .

بمعنى : المسمع ، وفيه نظر .

انتهى كلامه .

وهذا الوجه لم يذكر ابن عطية غيره ، قال : وبديع مصروف من مبدع ، كبصير من مبصر ، ومنه قول عمرو بن معدى كرب :

أمن ريحانة الداعي السمي . . .

ع يؤرّقني وأصحابي هجوع

يريد : المسمع والمبدع والمنشىء ، ومنه أصحاب البدع ، ومنه قول عمر بن الخطاب في صلاة رمضان : نعمت البدعة هذه ، انتهى .

والنظر الذي ذكره الزمخشري ، والله أعلم ، أن فعيلاً بمعنى مفعل لا ينقاس مع أن بيت عمرو محتمل للتأويل .

وعلى هذا الوجه يكون من باب إضافة اسم الفاعل لمفعوله .

وقرأ المنصور : بديع بالنصب على المدح ، وقرىء بالجرّ على أنه بدل من الضمير في له .

﴿ وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ﴾ : لما ذكر ما دل على الاختراع، ذكر ما يدل على طواعية المخترع وسرعة تكوينه .

(135/64)

ومعنى قضى هنا : أراد ، أي إذا أراد إنشاء أمر واختراعه .

قال ابن عطية : وقضى : معناه قدر ، وقد يجيء بمعنى : أمضى .

ويتجه في هذه الآية المعنيان .

فعلى مذهب أهل السنة : قدر في الأزل وأمضى فيه ، وعلى مذهب المعتزلة : أمضى عند الخلق والإيجاد .

والأمر : واحد الأمور ، وليس هنا مصدر أمر يأمر .

والمعتقد في هذه الآية أن الله لم يزل آمراً للمعدومات بشرط وجودها ، قادراً مع تأخر المقدورات ، عالماً مع تأخر وقوع المعلومات .

وكل ما في الآية مما يقتضي الاستقبال فهو بحسب المأمورات ، إذ المحدثات تجيء بعد أن لم تكن ، وكلّ ما استند إلى الله من قدرة وعلم فهو قديم لم يزل .

انتهى ما نقلناه هنا من كلامه .

وقال المهدوي : ﴿ وإذا قضى أمراً ﴾ ، أي أتقنه وأحكمه وفرغ منه .

ومعنى : فإنما يقول له كن فيكون ، يقول من أجله .

وقيل : قال له كن ، وهو معدوم ، لأنه بمنزلة الموجود ، إذ هو عنده معلوم .

قال الطبري : أمره للشيء بكن لا يتقدّم الوجود ولا يتأخر عنه ، فلا يكون الشيء مأموراً بالوجود إلا وهو موجود بالأمر ، ولا موجوداً بالأمر إلا وهو مأمور بالوجود .

قال : ونظيره قيام الأموات من قبورهم لا يتقدّم دعاء الله ولا يتأخر عنه ، كما قال : ﴿ ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون ﴾ فالهاء في له تعود على الأمر ، أو على القضاء الذي دلّ عليه قضى ، أو على المراد الذي دلّ عليه الكلام .

انتهى ما نقلناه من كتابه .

وقال مكي : معنى الآية أنه عالم بما سيكون وما هو كائن ، فقوله : كن ، إنما هو للموجود في علمه ليخرجه إلى العيان لنا .

انتهى كلامه .

وقال الزمخشري : كن فيكون ، من كان التامة ، أي أحدث فيحدث ، وهذا مجاز من الكلام وتمثيل ولا قول ، ثم كما لا قول في قوله :

إذ قالت الأنساع للبطن الحق . . .

وإنما المعنى : ما قضاه من الأمور وأراد كونه ، فإنما يتكوّن ويدخل تحت الوجود من غير امتناع ولا توقف .

(136/64)

كما أن المأمور المطيع الذي يؤمر فيمتثل ، لا يتوقف ولا يمتنع ، ولا يكون منه الإباء .

أكد بهذا استبعاد الولادة ، لأن من كان بهذه الصفة من القدرة ، كانت حاله مباينة لأحوال الأجسام في توالدها .

انتهى كلامه .

وقال السجاوندي : كن على التمثيل لنفاذ الأمر ، قال :

فقالت له العينان سمعاً وطاعة . . .

وإلا فالمعدوم كيف يخاطب

أو علامة للملائكة بحدوث الموجود ، أو على تقدير ما تصوّر كونه في علمه ، أو مخصوص في تحويل الموجود من حال إلى حال ، ولو كان كن مخلوقاً ، لاحتاج إلى أخرى ولا يتناهي ، فدلَّ على أن القرآن غير مخلوق .

انتهى كلامه .

قال المهدوي : وفي هذه الآية دليل على أن كلام الله غير مخلوق ، لأنه لو كان مخلوقاً لكان قائلاً له : كن ، ولكان قائلاً : لكن كن ، حتى ينتهي ذلك إلى ما لا يتناهى ، وذلك مستحيل مع ما يؤدّي إليه ذلك من أنه لا يوجد من الله فعل ألبتة ، إذ لا بد أن يوجد قبله أفعال ، هي أقاويل لا غاية لها ، وذلك مستحيل .

ولا يجوز أن يحمل على المجاز ، إذ ذلك إنما يكون في الجمادات ، ولا يكون فيمن يصح منه القول إلا بدليل .

ويقوي ذلك أن المصدر فيه الذي هو قولنا من قوله : ﴿ إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴾ وكد بمصدر آخر ، وهو أن نقول ، وأهل العربية مجمعون ، على أنهم إذا أكدوا الفعل بالمصدر كان حقيقة ، ولذلك جاء قوله : ﴿ وكلم الله موسى تكليماً ﴾ إذ كان الله تعالى متولي تكليمه .

وقد قيل : إن معنى فإنما يقول له كن فيكون بكونه .

انتهى كلام المهدوي .

(137/64)

وقال في المنتخب : كن فيكون ليس المراد أنه تعالى يقول كن ، فحينئذ يكون ذلك الشيء ، فإن ذلك فاسد من وجوه ، فلا بد من تأويله ، وفيه وجوه : الأول : وهو الأقوى ، أن المراد نفاذ سرعة قدرة الله في تكوين الأشياء ، وإنما يخلقها لا لفكرة ، ونظيرة ﴿ قالتا أتينا طائعين ﴾ الثاني : أنها علامة يعقلها الملائكة ، إذا سمعوها علموا أنه أحدث أمراً ، قاله أبو الهذيل .

الثالث : أنه جاء للموجودين الذين قال لهم : ﴿ كونوا قردة خاسئين ﴾ ومن جرى مجراهم ، وهو قول الأصم .

الرابع : أنه أمر للأحياء بالموت ، وللموتى بالحياة ، والكل ضعيف ، والقوي هو الأول .

انتهى كلامه .

هذا ما نقلناه من كلام أهل التفسير في الآية .

وظاهر الآية يدل على أن الله تعالى إذا أراد إحداث شيء قال له : كن ، تبينه الآية الأخرى : ﴿ إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴾ وقوله : ﴿ وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر ﴾ لكن دليل العقل صد عن اعتقاد مخاطبة المعدوم ، وصد عن أن يكون الله تعالى محلاً للحوادث ، لأن لفظة كن محدثة ، ومن يعقل مدلول اللفظ .

وكونه يسبق بعض حروفه بعضاً ، لم يدخله شك في حدوثه ، وإذا كان كذلك ، فلا خطاب ولا قول لفظياً ، وإنما ذلك عبارة عن سرعة الإيجاد وعدم اعتياصه ، فهو من مجاز التمثيل

، وكأنه قدر أن المعدوم موجود يقبل الأمر ويمتثله بسرعة ، بحيث لا يتأخر عن امتثال ما أمر به .

وقرأ الجمهور : فيكون بالرفع ، ووجه على أنه على الاستئناف ، أي فهو يكون ، وعزى إلى سيبويه .

وقال غيره : فيكون عطف على يقول ، واختاره الطبري وقرّره .

وقال ابن عطية : وهو خطأ من جهة المعنى ، لأنه يقتضي أن القول مع التكوين حادث ، وقد انتهى ما رده به ابن عطية .

ومعنى رده : أن الأمر عنده قد تم ، والتكوين حادث ، وقد نسق عليه بالفاء ، فهو معه ، أي يعقبه ، فلا يصح ذلك ، لأن القديم لا يعقبه الحادث .

(138/64)

وتقرير الطبري له هو ما تقدم في أوائل الكلام على هذه المسألة ، من أن الأمر لا يتقدم الوجود ولا يتأخر عنه .

وما رده به ابن عطية لا يتم إلا بأن تحمل الآية على أن ثم قولاً وأمراً قديماً .

أما إذا كان ذلك على جهة المجاز ، ومن باب التمثيل ، فيجوز أن يعطف على نقول .

وقرأ ابن عامر : فيكون بالنصب ، وفي آل عمران : ﴿ كن فيكون ﴾ ونعلمه ، وفي النحل ، وفي مريم ، وفي يس ، وفي المؤمن .

ووافقه الكسائي في النحل ويس ، ولم يختلف في ﴿ كن فيكون ﴾ الحق في آل عمران .

﴿ وكن فيكون ﴾ قوله الحق في الأنعام أنه بالرفع ، ووجه النصب أنه جواب على لفظ كن ، لأنه جاء بلفظ الأمر ، فشبه بالأمر الحقيقي .

ولا يصح نصبه على جواب الأمر الحقيقي ، لأن ذلك إنما يكون على فعلين ينتظم منهما شرط وجزاء نحوه : ائتني فأكرمك ، إذ المعنى : إن تأتني أكرمك .

وهنا لا ينتظم ذلك ، إذ يصير المعنى : إن يكن يكن ، فلا بد من اختلاف بين الشرط والجزاء ، إما بالنسبة إلى الفاعل ، وإما بالنسبة إلى الفعل في نفسه ، أو في شيء من متعلقاته .

وحكى ابن عطية ، عن أحمد بن موسى ، في قراءة ابن عامر : أنها لحن ، وهذا قول خطأ ، لأن هذه القراءة في السبعة ، فهي قراءة متواترة ، ثم هي بعد قراءة ابن عامر ، وهو رجل عربي ، لم يكن ليلحن .

وقراءة الكسائي في بعض المواضع ، وهو إمام الكوفيين في علم العربية ، فالقول بأنها لحن ، من أقبح الخطأ المؤثم الذي يجر قائله إلى الكفر ، إذ هو طعن على ما علم نقله بالتواتر من كتاب الله تعالى . (1) انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 1 صـ 533. 536 ﴾

(1) رحم الله العلامة أبا حيان فهذا قول فى غاية الصحة فلا يجوز الطعن فى قراءة متواترة ولا التفضيل بين القراءات المتواترة وقد ابتلى بعض العلماء بالوقوع فى هذا المحظور غفر الله لنا ولهم.

(139/64)

ومن فوائد القاسمى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾

أي : مبدعهما وخالقهما على غير مثال سبق . وكل من فعل ما لم يسبق إليه يقال له : أبدعت . ولهذا قيل لمن خالف السنة والجماعة : مبتدع ؛ لأنه يأتي في دين الإسلام ، ما لم يسبقه إليه الصحابة والتابعون رضي الله عنهم ، وهذه الجملة حجة أخرى لدفع تشبثهم في ولادة عيسى بلا أب ، وعلم عزير بالتوراة بلا تعلم . وتقرير الحجة : إن الله سبحانه مبدع الأشياء كلها ، فلا يُبْعد أن يوجِد أحداً بلا أب ، أو يعلم بلا واسطة بشر .

وقال الراغب : ذكر تعالى في هذه الآية حجة رابعة ، شرحها : إن الأب هو عنصر للابن ، منه تكوّن . والله مبدع الأشياء كلها ، فلا يكون عنصراً للولد ، فمن المحال أن يكون المنفعل

فاعلاً . وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [البقرة : 117] أي : إذا أراد أمراً . والقضاء : إنفاذ المقدر . والمقدر ما حد من مطلق المعلوم .

قال الراغب : القضاء إتمام الشيء قولاً أو فعلاً ، فمن القول آية : ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء : 23] ، ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ ﴾ [الإسراء : 4] ، ومن الفعل قوله : ﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ [فصلت : 12] وقضى فلان دينه ، وقضى نحبه ، وانقضى الأمر .

(140/64)

ثم قال : ونبّه بقوله : ﴿ وَإِذَا قَضَى أَمْراً ﴾ على حجة خامسة ، وهو أن الولد يكون بنشوء وتركيب ، حالاً بعد حال ، وهو إذا أراد شيئاً ، فقد فعل بلا مهلة ، ولم يرد بـ : ﴿ إذا ﴾ حقيقة الزمان ، إذ كان ذلك إشارة إلى ما قبل وجود الزمان ، ولم يرد أيضاً بـ : ﴿ كن ﴾ حقيقة اللفظ ، ولا بالفاء التعقيب الزماني . بل استعير كل ذلك لأنه أقرب ما يتراءى لنا به سرعة الفعل وتمامه ، وذكر لفظ القضاء إذ هو لإتمام الفعل ، والأمر لكونه منطوياً على اللفظ والفعل ، والقول ؛ إذ هو أخف موجد منا وأسرعه إيجاداً ، ولفظ : ﴿ كُنْ ﴾ لعموم معناه واختصار لفظه ، ثم قال : ﴿ فيكون ﴾ تنبيهاً لأنه لا يمتنع عليه شيء

يريد إيجاده . و : ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾ وإن كان مخرجها مخرج شيئين ، أحدهما مبني على الآخر ، فهو في الحقيقة شيء واحد . انتهى .

والذين ذهبوا إلى أن المراد بـ : ﴿ كن ﴾ حقيقة اللفظ ، ورد عليهم سؤال مشهور ، وهو : إن : ﴿ كن ﴾ لفظ أمر ، والأمر لا يكون إلا لموجود ؟ . فبعضٌ أجاب بأنه أمرٌ للشيء في حال تكونه لا قبله ولا بعده . وبعضٌ قال : هو أمر لمعلوم له ، وذلك في حكم الموجود ، وإن كان معدوم الذات . وبعضٌ قال : هو أمر للمعدوم . قال ويصح أمر المعدوم كما يصح أمر الموجود .

ولهم أجوبة أكثر تكلفاً وتمحلاً .

وقد سئل شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية رحمه الله تعالى عن هذا بأنه إن كان المخاطب بـ : ﴿ كن ﴾ موجوداً ، فتحصيل الحاصل محال . وإن كان معدوماً ، فكيف يتصور خطاب المعدوم ؟ فأجاب بقوله : هذه المسألة مبينة على أصلين :

أحدهما : الفرق بين خطاب التكوين الذي لا يطلب به سبحانه فعلاً من المخاطب ، بل هو الذي يكوّن المخاطب به ، ويخلقه بدون فعل من المخاطب ، أو قدرة أو إرادة أو وجود له ،

وبين خطاب التكليف الذي يطلب به من المأمور فعلاً أو تركاً يفعله بقدرة وإرادة ، وإن كان ذلك جميعه بحول الله وقوته ؛ إذ لا حول ولا قوة إلا بالله ، وهذا الخطاب قد تنازع فيه الناس ، هل يصح أن يخاطب به المعدوم بشرط وجوده أم لا يصح أن يخاطب به إلا بعد وجوده ؟ لا نزاع بينهم أنه لا يتعلق به حكم الخطاب إلا بعد وجوده ، وكذلك تنازعوا في الأول هل هو خطاب حقيقي ؟ أم هو عبارة عن الاقتدار وسرعة التكوين بالقدرة ؟ . والأول هو المشهور عند المنتسبين إلى السنة . والأصل الثاني : أن المعدوم في حال عدمه ، هل هو شيء أم لا ؟ فإنه قد ذهب طوائف من متكلمة المعتزلة والشيعة إلى أنه شيء في الخارج وذات وعين ، وزعموا أن الماهيات غير مجعولة ولا مخلوقة ، وأن وجودها زائد على حقيقتها ، وكذلك ذهب إلى هذا طوائف من المتفلسفة والاتحادية وغيرهم من الملاحدة .

(142/64)

والذي عليه جماهير الناس ، وهو قول متكلمة أهل الإثبات والمنتسبين إلى السنة والجماعة ، إنه في الخارج عن الذهن قبل وجوده ليس بشيء أصلا ولا ذات ولا عين ، وإنه ليس في الخارج شيئان أحدهما حقيقة ، والآخر وجوده الزائد على حقيقته . فإن الله أبدع

الذوات التي هي الماهيات . فكل ما سواه سبحانه مخلوق ومجعول ومبدع ومبدوء له سبحانه وتعالى . ولكن في هؤلاء من يقول : المعدوم ليس بشيء أصلاً ، وإن سمي شيئاً باعتبار ثبوته في العلم ، كان مجازاً . ومنهم من يقول : لا ريب أن له ثبوتاً في العلم . ووجوداً فيه فهو باعتبار هذا الثبوت والوجود هو شيء وذات ، وهؤلاء لا يفرقون بين الوجود والثبوت . كما فرق من قال : المعدوم شيء . ولا يفرقون في كون المعدوم ليس بشيء بين الممكن والممتنع ، كما فرق أولئك ؛ إذ قد اتفقوا على أن الممتنع ليس بشيء وإنما النزاع في الممكن . وعمدة من جعله شيئاً ، إنما هو لأنه ثابت في العلم ، وباعتبار ذلك صح أن يخص بالقصد والخلق والخبر عنه والأمر به والنهي عنه ، وغير ذلك . قالوا : وهذه التخصيصات تمتنع أن تتعلق بالعدم المحض . فإن خُص الفرق بين الوجود الذي هو الثبوت العيني ، وبين الوجود الذي هو الثبوت العلمي ، زالت الشبهة في هذا الباب .

(143/64)

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [النحل : 40] ذلك الشيء هو معلوم قبل إبداعه وقيل توجيه هذا الخطاب إليه ، وبذلك كان مقدراً مقضياً . فإن الله سبحانه وتعالى يقول ويكتب مما يعلمه ما شاء . كما قال النبي صلى الله عليه

وسلم في الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عُمَر وقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : < كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة > . قال : < وعرشه على الماء > . وفي " صحيح البخاري " عن عِمْرَان بن حصين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : < كان الله ولم يكن شيء غيره وكان عرشه على الماء ، وكتب في الذكر كل شيء ، ثم خلق السماوات والأرض > . وفي " سنن أبي داود " وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : < إن أول ما خلق الله القلم ، فقال له : اكتب قال : رب ، وماذا أكتب ؟ قال : أكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة > . إلى أمثال ذلك من النصوص التي تبين أن المخلوق قبل أن يخلق كان معلوماً مخبراً عنه ، مكتوباً ، فهو شيء باعتبار وجوده العلميّ الكلاميّ الكتابيّ ، وإن كانت حقيقته التي هي وجوده العيني ليس ثابتاً في الخارج . بل هو عدم محض ونفيٌ في صرف .

(144/64)

وهذه المراتب الأربعة المشهورة موجودات ، وقد ذكرها الله سبحانه في أول سورة أنزلها على نبيه في قوله : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ

الْأَكْرَمُ ۞الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۞ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق : 1 – 4] وقد بسطنا الكلام في ذلك في غير هذا الموضع ، وإذا كان كذلك كان الخطاب موجهاً إلى من توجهت إليه الإرادة ، وتعلقت به القدرة ، وخلق كوّن ، كما قال : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [النحل : 40] في الذي يقال له : ﴿ كن ﴾ هو الذي يراد ، وهو ، حين يراد قبل أن يخلق ، له ثبوت وتميز في العلم والتقدير . ولولا ذلك لما تميز المراد المخلوق من غيره ، وبهذا يحصل الجواب عن التقسيم . فإن فوق السائل : إن كان المخاطب موجوداً ، فتحصيل الحاصل محال ، يقال له هذا إذا كان موجوداً في الخارج وجودَه الذي هو وجوده . ولا ريب أن المعدوم ليس موجوداً ، ولا هو في نفسه ثابت . وأما ما علم وأريد وكان شيئاً في العلم والإرادة والتقدير فليس وجوده في الخارج محالاً ، بل جميع المخلوقات لا توجد إلا بعد وجودها في العلم والإرادة .

(145/64)

وقول السائل : إن كان معدوماً فكيف يتصور خطاب المعدوم ؟ يقال له : أما إذا قصد أن يخاطب المعدوم بخطاب يفهمه ويمتثله فهذا محال ، إذ من شرط المخاطب أن يتمكن من الفهم والفعل ، والمعدوم لا يتصور أن يفهم ويفعل ، فيمتنع خطاب التكليف له حال عدمه

بمعنى أنه مطلوب منه حين عدمه أن يفهم ويفعل ، ولذلك أيضاً يمتنع أن يخاطب المعدوم في الخارج خطاب تكوين . بمعنى أن يعتقد أنه شيء ثابت في الخارج ، وأنه يخاطب بأن يكون . وأما الشيء المعلوم المذكور المكتوب إذا كان توجيه خطاب التكوين إليه مثل توجيه الإرادة إليه ، فليس ذلك محالاً . بل هو أمر ممكن . بل مثل ذلك يجده الْإِنْسَانْ في نفسه ، فيقدر أمراً في نفسه يريد أن يفعله وبوجه إرادته وطلبه إلى ذلك المراد المطلوب ، الذي قدره في نفسه ، ويكون حصول المارد المطلوب بحسب قدرته ، فإن كان قادراً على حصوله حصل مع الإرادة والطلب الجازم . وإن كان عاجزاً ، لم يحصل ، وقد يقول الْإِنْسَانْ : ليكن كذا ونحو ذلك من صيغ الطلب . فيكون المطلوب بحسب قدرته عليه ، والله سبحانه على كل شيء قدير ، وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، فإن أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون . انتهى . انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 2 صـ 424. 428 ﴾

(146/64)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (117) ﴾

بعد أن بين الله تبارك وتعالى . . أن قولهم اتخذ الله ولدا هو افتراء على الله . . أراد الحق أن يلفتنا إلي بعض من قدراته . . فقال جل جلاله : " بديع السماوات والأرض " . . أي خلق السماوات والأرض وكل ما فيها من خلق على غير مثال سابق . . أي لم يكن هناك سماء أو أرض أو ملائكة أو جن أو إنسان . . ثم جاء الله سبحانه وتعالى وأوجد متشابها لهم في شكل أو حجم أو قدرة . . أي أنه سبحانه لم يلجأ إلي ما نسميه نحن بالقالب . إن الذي يصنع كوب الماء يصنع أولا قالبا يصب فيه خام الزجاج المنصهر . . فتخرج في النهاية أكواب متشابهة . . وكل صناعة لغير الله تتم على أساس صنع القالب أولا ثم بعد ذلك يبدأ الإنتاج . . ولذلك فإن التكلفة الحقيقية هي في إعداد القالب الجيد الذي يعطينا صورة لما نريد . . والذي يخبز رغيفا مثلا قد لا يستخدم قالبا ولكنه يقلد شيئا سبق . . فشكل الرغيف وخامته سبق أن تم وهو يقوم بتقليدهما في كل مرة . . ولكنه لا يستطيع أن يعطي التماثل في الميزان أو الشكل أو الاستدارة . . بل هناك اختلاف في التقليد ولا يجود كمال في الصناعة .

وحين خلق الله جل جلاله الخلق من آدم إلي أن تقوم الساعة . . جعل الخلق متشابهين في كل شيء . . في تكوين الجسم وفي شكله في الرأس والقدمين واليدين والعينين . . وغير ذلك من أعضاء الجسم . . تماثلا دقيقا في الشكل وفي الوظائف . . بحيث يؤدي كل عضو مهمته في الحياة . . ولكن هذا التماثل لم يتم على قالب وإنما تم بكلمة كن . . ورغم التشابه في الخلق فكل منا مختلف عن الآخر اختلافا يجعلك قادرا على تمييزه بالعلم والعين . . فبالعلم كل منا له بصمة إصبع وبصمة صوت يمكن أن يميزها خبراء التسجيل . . وبصمة رائحة قد لا نميزها نحن ولكن تميزها الكلاب المدربة . . فتشم الشيء ثم تسرع فتدلنا على صاحبه ولو كان بين ألف من البشر . . وبصمة شفرة تجعل الجسد يعرف بعضه بعضا . . فإن جئت بخلية من جسد آخر لفظها . وإن جئت بخلية من الجسد نفسه اتحد معها وعالج جراحها .

وإذا كان هذا بعض ما وصل إليه العلم . . فإن هناك الكثير مما قد نصل إليه ليؤكد لنا أنه رغم تشابه بلايين الأشخاص . . فإن لكل واحد ما يميزه وحده ولا يتكرر مع خلق الله كلهم . . وهذا هو الإعجاز في الخلق ودليل على طلاقة قدرة الله في كونه . والله سبحانه وتعالى يعطينا المعنى العام في القرآن الكريم بأن هذا من آياته وأنه لم يحدث مصادفة ولم يأت بطريق غير مخطط بل هو معد بقدرة الله سبحانه . . فيقول جل جلاله :

وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ

لِّلْعَالِمِينَ(22)

(سورة الروم)

(148/64)

هذا الاختلاف يمثل لنا طلاقة قدرة الله سبحانه في الخلق على غير مثال . . فكل مخلوق يختلف عمن قبله وعمن بعده وعمن حوله . . مع أنهم في الشكل العام متماثلون . . ولو أنك جمعت الناس كلهم منذ عهد آدم إلي يوم القيامة تجدهم في صورة واحدة . . وكل واحد منهم مختلف عن الآخر . . فلا يوجد بشران من خلق الله كل منهما طبق الأصل من الآخر . . هذه دقة الصنع وهذا ما نفهمه من قوله تعالى : " بديع " . . والدقة تعطي الحكمة . . والإبراز في صور متعددة يعطي القدرة . . ولذلك بعد أن نموت وتتبعثر عناصرنا في التراب يجمعنا الله يوم القيامة . . والإعجاز في هذا الجمع هو أن كل إنسان سيبعث من عناصره نفسها وصورته نفسها وهيئته نفسها التي كان عليها في الدنيا .

ولذلك قال الحق سبحانه :

قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ(4)

(سورة ق)

إذن الله سبحانه وتعالى بطلاقة قدرته في الإيجاد قد خلقنا . . وبطلاقة قدرته في إعادة الخلق يحيينا بعد الموت . . بشكلنا ولحمنا وصفاتنا وكل ذرة فينا . . هل هناك دقة بعد ذلك ؟ . لو أننا أتينا بأدق الصناع وأمهرهم وقلنا له : اصنع لنا شيئاً تجيده . فلما صنعه قلنا له : اصنع مثله . إنه لا يمكن أن يصنع نموذجا مثله بالمواصفات نفسها ؛ لأنه يفتقد المقاييس الدقيقة التي تمده بالمواصفات نفسها التي صنعها . إنه يستطيع أن يعطينا نموذجا متشابها ولكن ليس مثل ما صنع تماما . لكن الله سبحانه وتعالى يتوفى خلقه وساعة القيامة أو ساعة بعثهم يعيدهم بمكوناتهم نفسها التي كانوا عليها دون زيادة أو نقص . وذلك لأنه الله جل جلاله لا يخلق وفق قوالب معينة ، وإنما يقول للشيء : كن فيكون .

(149/64)

تقول الآية الكريمة : " بديع السماوات والأرض إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون " . " كن " وردت كثيرا في القرآن الكريم . . وفي اللغة شيء يسمى المشترك اللفظ يكون واحدا ومعانيه تختلف حسب السياق . . فمثلا كلمة قضى لها معاني متعددة ولها معنى يجمع كل معانيها . . مرة يأتي بها الحق بمعنى فرغ أو انتهى . . في قوله تعالى :

فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُواْ اللّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً

(من الآية 200 سورة البقرة)

ومعناها إذا انتهيتم من مناسك الحج . . ومرة يقول سبحانه :

فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا

(من الآية 72 سورة طه)

والمعنى افعل ما تريد . . وفي آية أخرى يقول الله تعالى :

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ

(من الآية 36 سورة الأحزاب)

والمعنى أنه إذا قال الله شيئًا لا يترك للمؤمنين حق الاختيار . . ومرة يصور الله جل جلاله الكفار في الآخرة وهم في النار يريدون أن يستريحوا من العذاب بالموت : واقرأ قوله سبحانه :

وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ(77)

(سورة الزخرف)

ليقض علينا هنا معناها يميتنا . . ومعنى آخر في قوله تعالى :

وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ

(من الآية 22 سورة إبراهيم)

أي لما انتهى الأمر ووقع الجزاء . . وفي موقع آخر قوله سبحانه :

فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ

(من الآية 29 سورة القصص)

قضى الأجل هنا بمعنى أتم الأجل وفي قوله تعالى :

وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ

(من الآية 54 سورة يونس)

أي حكم وفصل بينهم . . وقوله جل جلاله :

وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ

(من الآية 4 سورة الإسراء)

بمعنى أعلمنا بني إسرائيل في كتابهم . . إذن " قضى " لها معان متعددة يحددها السياق . . ولكن هناك معنى تلتقي فيه كل المعاني . . وهو قضى أي حكم وهذا هو المعنى الأم . إذن معنى قوله تعالى : " إذا قضى أمرا " . . أي إذا حكم بحكم فإنه يكون على أننا يجب أن نلاحظ قول الحق : " وإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن " . . معنى يقول له أن الأمر موجود عنده . . موجود في علمه . . ولكنه لم يصل إلي علمنا . . أي أنه ليس أمرا جديدا

. . لأنه مادام الله سبحانه وتعالى قال : " يقول له " . . كأنه جل جلاله يخاطب موجودا . . ولكن هذا الموجود ليس في علمنا ولا نعلم عنه شيئا . . وإنما هو موجود في علم الله سبحانه وتعالى . . ولذلك قيل أن لله أموراً يبديها ولا يبتديها . . إنها موجودة عنده لأن الأقلام رفعت ، والصحف جفت . . ولكنه يبديها لنا نحن الذين لا نعلمها فنعلمها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 549. 553 ﴾

(151/64)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (117) ﴾

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي العالية ﴿ بديع السموات والأرض ﴾ يقول : ابتدع خلقهما ولم يشركه في خلقهما أحد .

وأخرج ابن جرير عن السدي في الآية قال : ابتدعهما فخلقهما ولم يخلق قبلهما شيء فتمثل به .

وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن سابط " إن داعياً دعا في عهد النبي صلى الله عليه وسلم

فقال : اللهم إني أسألك باسمك الذي لا إله إلا أنت الرحمن الرحيم ، بديع السموات والأرض ، وإذا أردت أمراً فإنما تقول له كن فيكون ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لقد كدت أن تدعو باسمه العظيم " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 1 صـ 271 ﴾

(152/64)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله تعالى : " بَدِيعُ السَّمَوَاتِ " المشهور رفعه على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أي : هو بديع . وقرىء بالجر على أنه بدل من الضمير في " لَهُ " [وفيه الخلاف المشهور] وقرىء بالنصب على المدح .

و " بديع السموات " من باب الصفة المشبهة أضيفت إلى منصوبها الذي كان فاعلاً في الأصل ، والأصل بديع سماواتُه ، أي بَدُعَت لجيئها على شكل فائق حسن غريب ، ثم شبهت هذه الصفة باسم الفاعل ، فنصبت ما كان فاعلاً ، ثم أضيفت إليه تخفيفاً ، وهكذا كلّ ما جاء نظائره ، فالإضافة لا بد وأن تكون من نصب ؛ لئلا يلزم إضافته الصفة إلى فاعلها ، وهو لا يجوز في اسم الفاعل الذي هو الأصل .

وقال الزمخشري رحمه الله : و" بديعُ السَّمَوَاتِ " من باب إضافة الصفة المشبهة إلى فاعلها .

ورده أبو حيان بما تقدم ، ثم أجاب عنه بأنه يحتمل أن يريد إلى فاعلها في الأصل قبل أن يشبه .

وأجاز الزمخشري فيه وجهاً ثانياً : وهو أن يكون " بديع " بمعنى مُبْدِع ؛ كما أن سميعاً في قول عَمْرو بمعنى مسمع ؛ نحو : [الوافر]

753 أَمِنْ رَيْحَانَةَ الدَّاعي السَّمِيعُ . . .

يُؤَرِّقُنِي وأَصْحَابِي هُجُوعُ

إلا أنه قال : " فيه نظر " ، وهذا الوجه لم يذكر أبن عطية غيره ، وكأن النظر الذى ذكره الزمخشري والله أعلم هو أن " فعيلاً " بمعنى " مُفْعِل " غيرُ مقبس ، وبيت عمرو رضي الله عنه متأول ، وعلى هذا القول يكون بديع السموات من باب إضافة اسم الفاعل لمصوبة تقديراً .

والمبدع : المخترع المنشىء ، والبديع : الشيء الغريب الفائق غيره حسناً .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قضى أَمْراً ﴾ العامل في " إذَا " محذوف يدل عليه الجواب من قوله : " فَإِنَّمَا يَقُولُ " ، والتقدير : إذا قضى أمراً يكون ، فيكون هو الناصب له .

و " قضى " له معانٍ كثيرة .

قال الأزهري رحمه الله تعالى : " قضى " على وجوه مرجعُها إلى انقطاع الشَّيء وتمامه ؛

قال أبو ذُؤَيْبٍ : [الكامل]

(153/64)

---

754 وَعَلَيْهِمَا مَسْرُودَتَانِ قَضَاهُمَا . . .

دَاوُدُ أَوْ صَنَعُ السَّوَابِغِ تُبَّعُ

وقال الشَّماخ : [الطويل]

755 قَضَيْتَ أُمُورا ثُمَّ غَادَرْتَ بَعْدَهَا . . .

بَوَائِقَ فِي أَكْمَامِهَا لَمْ تُفَتَّقِ

فيكون بمعنى " خَلَقَ " نحو : ﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ﴾ [فصلت : 12] وبمعنى أَعلم : ﴿ وَقَضَيْنَا آلى بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [الإسراء : 4] .

وبمعنى أمر : ﴿ وقضى رَبُّكَ أَلَّا تعبدوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء : 23] .

وبمعنى ألزم : ﴿ فَلَمَّا قضى مُوسَى الأجل ﴾ [القصص : 29] .

وبمعنى ألزم : قضى القاضي بكذا .

وبمعنى أراد : " إِذَا قَضَى أَمْرًا " .

وبمعنى أَنْهَى ، ويجيء بمعنى قَدَّر وأَمْضَى ، تقول : قَضَى يَقْضِي قَضَاءَ ؛ قال : [الطويل]

756 سَأَغْسِلُ عَنّي العَارَ بَالسَّيْفِ جَالِباً . . .

عَلَيَّ قَضَاءُ اللهِ مَا كَانَ جَالِبَا

ومعناه الذي يدل تركيبه عليه هو معنى القطع ، من قولهم : قضى القاضي لفلان على فلان بكذا إذا حكم ؛ لأنه فصل للدعوى .

ولهذا قيل : حاكم فَيْصل إذا كان قاطعاً للخصومات .

وحكى ابن الأنباري عن أهل اللّغة أنهم قالوا : القاضي معناه القاطع الأمور المحكم لها .

ومنه : انقضى الشيء : إذا تم وانقطع .

وقولهم : قضى حاجته أي : قطعها عن المحتاج ودفعها عنه .

وقضى دينه : إذا أدّاه إليه كأنه قطع التقاضي والاقتضاء عن نفسه ، أو انتفع كل منهما من صاحبه .

وقولهم : قضى الأمر ، إذا أتمه وأحكمه .

وأما قولهم : قضى المريض وقضى نَحْبَه : إذا مات ، وقضى عليه : قتله فمجاز .

قوله تعالى : " فيكون " الجمهور على رفعه ، وفيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أن يكون مستأنفاً أي خبراً لمبتدأ محذوف أي : فهو يكون ، ويعزى لسيبويه ، وبه قال الزَّجَّاج في أحد قوليه .

والثاني : أن يكون معطوفاً على "يقول" ، وهو قول الزَّجاج والطبري ، ورد ابن عطية هذا القول ، وقال : إنه خطأ من جهة المعنى ؛ لأنه يقتضي أن القول مع التَّكوين الوجود .

انتهى .

يعني أن الأمر قديم والتكوين حادث فكيف يعطف عليه بما يقتضي تعقيبه له ؟

وهذا الرد إنما يلزم إذا قيل بأن الأمر حقيقة .

أما أذا قيل بأنه على سبيل التمثيل ، وهو [الأصح] فلا .

ومثله قوله أبي النجم : [الرجز]

757 إذْ قَالَتِ الأَنْسَاعُ لِلْبَطْنِ الْحَقِي . . .

الثالث : أن يكون معطوفاً على "كن" من حيث المعنى ، وهو قول الفارسي ، وضَعَّفَ أن يكون عطفاً على "يقول" ؛ لأن من المواضع ما ليس فيه "يقول" كالموضع الثاني في "آل عمران" ، وهو "ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ" ولم ير عطفه على "قال" من حيثُ إنه مضارع فلا يعطف على ماضي ، فأورد على نفسه : [الكامل]

758 وَلَقَدْ أَمُرُّ عَلَى اللَّئِيمِ يَسُبُّنِي . . .

فَمَضَيْتُ ثُمَّتَ قُلْتُ : لاَ يَعْنِينِي

فقال : " أَمُرُّ بمعنى مَرَرْتُ " .

قال بعضهم : ويكون في هذه الآية ت يعنى في آية " آل عمران " ت بمعنى " كان " فَلْيَجُزْ عَطْفُهُ على " قال " .

وقرأ ابن عامر : " فيكونَ " نصباً هنا ، وفي الأولى من " آل عمران " ، وهي ﴿ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ ، تحرزاً من قوله تعالى : ﴿ كُن فَيَكُونُ الحق مِن رَّبِّكَ ﴾ [آل عمران : 5060] .

وفي مريم : ﴿ كُن فَيَكُونُ وَإِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ ﴾ [مريم : 3536] .

وفي غافر : ﴿ كُن فَيَكُونُ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين يُجَادِلُونَ ﴾ [غافر : 6869] .

ووافقه الكسائي على ما في " النحل " و " يس " .

وهي : ﴿ أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس : 82] .

أما آيتا " النحل " و " يس " فظاهرتان : لأن ما قبل الفعل منصوباً يصح عطفه عليه ، وسيأتي .

وأما ما انفرد به ابن عامل في هذه المواضع الأربعة ، فقد اضطرب كلام النَّاس فيها ، وهي لَعَمْري تحتاج إلى فضل نظر وتأمل ، ولذلك تجرأ بعض الناس على هذا الإمام الكبير ، فقال ابن مجاهد : قرأ ابن عامر : "فَيَكُونَ" نصباً ، وهذا غير جائز في العربية لأنه لا يكون الجواب هنا للأمر بالفاء إلاَّ في "يس" و"النحل" ن فإنه نسق لا جواب .

وقال في "آل عمران" : قرأ ابن عامر وحده : "كُنْ فَيَكُونَ" بالنصب وهو وَهَمٌ .

قال : وقال هشام : كان أيوب بن تميم يقرأ : "فَيَكُونَ" نصباً ، ثم رجع فقرأ : "يَكُونُ" رفعاً .

وقال الزجاج : "كُنْ فَيَكُونُ" رفع لا غير .

وأكثر ما أجابوا بأن هذا مما روعي فيه ظاهر اللَّفظ من غير ناظر للمعنى ، يريدون أنه قد وجد في اللفظ صورة أمر فَنُصِبَتا في جوابه بالفاء .

وأما إذا نظرنا إلى جانب المعنى ، فإن ذلك لا يصح لوجهين :

أحدهما : أن هذا وإن كان بلفظ الأمر ، فمعناه الخبر نحو : ﴿ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرحمن ﴾ [مريم : 75] .

أي فيمدّ ، وإذا كان معناه الخبر ، لم ينتصب في جوابه بالفاء إلا ضرورة ؛ كقوله : [الوافر]

759 سَأَتْرُكُ مَنْزِلي تَمِيمٍ . . .

وَأَلْحَقُ بِالحِجَازِ فَأَسْتَرِيحَا

وقول الآخر : [الطويل]

760 لَنَا هَضْبَةٌ لَا يَنْزِلُ الذُّلُّ وَسْطَهَا . . .

وَيَأْوِي إِلَيْهَا الْمُسْتَجِيرُ فَيُعْصَمَا

والثاني : أن من شرط النصب بالفاء في جواب الأمر أن ينعقد منهما شرط وجزاء نحو : " ائتني فأكرمك " تقديره : " إن أتيتني أكرمتك " .

(156/64)

وها هنا لا يصح ذلك إذ يصير التدقير : إن تكن تكن ، فيتحد فعلا الشرط والجزاء معنى وفاعلاً ، وقد علمت أنه لابد من تغايرهما ، وإلا يلزم أن يكون الشيء شرطاً لنفسه وهو مُحَال ، قالوا : والمُعَاملة اللفظية ، واردةٌ في كلامهم نحو : ﴿ قُل لِّعِبَادِيَ الذين آمَنُواْ يُقِيمُواْ ﴾ [إبراهيم : 31] ﴿ قُل لِّلَّذِينَ آمَنُواْ يَغْفِرُواْ ﴾ [الجاثية : 14] .

وقال عمر بن أبي ربيعة : [الطويل]

761 فَقُلْتُ لِجَنَّادٍ خُذِ السَّيْفَ وَاشْتَمِلْ . . .

عَلَيْهِ بِرِفْقٍ وَارْقُبِ الشَّمْسَ تَغْرُبِ

وَأَسْرِجْ لِيَ الدَّهْمَاءَ وَاذْهَبْ بِمِمْطَرِي وَلَا يَعْلَمَنْ خَلْقٌ مِنَ النَّاسِ مَذْهَبِي

فجعل " تَغْرُب " جواباً لـ " ارقب " وهو غير مترتّب عليه ، وكذلك لا يلزمُ من قوله أَنْ يفعلوا ، وإنما ذلك مُرَاعة لجانب اللفظ .

أما ما ذكره في بيت عمر فصحيح .

وأما الآيات فلا نسلم أَنَّه غير مترتب عليه ؛ لأنه أراد بالعباد الخُلّص ، وبذلك أضافهم إليه .

أو تقولُ : إن الجزمَ على حَذْفِ لامِ الأمر ، وسيأتي تحقيقه في موضعه إن شاء الله تعالى .

وقال ابن مالك : " إنَّ " " أنْ " الناصبةَ قد تُضْمر بعد الحَصْر بـ " إنما " اختياراً ، وحكاه عن بعض الكوفيين .

قال : وحكوا عن العرب : إنما هي ضربة من الأسد فتحطمَ ظهره بنصب " تحطم " ، فعلى هذا يكون النَّصْب في قراءة ابن عامر محمولاً على ذلك إلاَّ أَنَّ هذا الذي نصبوه دليلاً لا دليل فيه لاحتمال أن يكون من باب العطف على الاسم تقديره : إنما هي ضَرْبَةٌ فَحَطمح كقوله :

[الوافر]

762 لَلُبْسُ عَبَاءَةٍ وَتَقرَّ عَيْنِي . . .

أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ لُبْسِ الشُّفُوفِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 2 صـ 422 .

429 ﴾ . باختصار .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (117) ﴾

(157/64)

البديع عند العلماء مُوجِد العين لا على مِثْل ، وعند أهل الإشارة الذي ليس له شيء مِثله . فهذا الاسم يشير إلى نفي المثل عن ذاته ، ونفي المثال عن أفعاله ، فهو الأحد الذي لا عدد يجمعه ، والصمد الذي لا أَمَدَ يقطعه ، والحق الذي لا وهم يصوّره ، والموجود الذي لا فهم يقدره . وإذا قضى أمراً فلا يعارض عليه مقدور ، ولا ينفكُ من حكمه محظور . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 117 ﴾

(158/64)

قوله تعالى ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (118) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما تقرر بما أنبأ من بديع آياته في منبث مصنوعاته أن عظمته تقصر عنها الأوهام وتنكص خاسئةً دونها نوافذ الأفهام عجب من الجرأة عليه بما استوى فيه حال الجهلة من العرب بالعلماء من أهل الكتاب تبكيتاً لهم وتنفيراً منهم بأنه لا حامل لهم على الرضى لأنفسهم بالنزول من أوج العلم إلى حضيض أهل الجهل إلا اتباع الهوى فقال : ﴿ وقال الذين لا يعلمون ﴾ أي ليس لهم علم من العرب ﴿ لولا ﴾ أي هلا ﴿ يكلمنا الله ﴾ أي يوجد كلامه لنا على ما له من جميع الصفات ﴿ أو تأتينا آية ﴾ أي على حسب اقتراحنا عادّين ما آتاهم من الآيات – على ما فيها من آية القرآن التي لا يوازيها آية أصلاً – عدماً .

ولما كان قولهم هذا جديراً بأن لا يصدق نبه عليه بقوله : ﴿ كذلك ﴾ أي الأمر كما ذكرنا عنهم .

ولما كان كأنه قيل : هل وقع مثل هذا قط ؟ قيل : نعم ، وقع ما هو أعجب منه ، وهو أنه ﴿ قال الذين ﴾ ولما كان المراد بعض من تقدم أدخل الجار فقال : ﴿ من قبلهم ﴾ ممن ينسب إلى العلم من أهل الكتاب ﴿ مثل قولهم ﴾ ، ثم علله بقوله : ﴿ تشابهت قلوبهم ﴾ في هذا وإن كانت مختلفة باعتبار العلم ، وفي ذلك تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم بأنه كما تعنت عليه تعنت على من قبله .

ولما كان ذلك توقّع السامع الإخبار عن البيان فكان كأنه قيل : هل قالوا ذلك جهلاً أو عناداً

؟ فقيل : بل عناداً لأنا ﴿ قد بينا الآيات ﴾ في كل آية في الكتاب المبين المسموع والكتاب الحكيم المرئي .

ولما كان يقع البيان خاصاً بأهل الإيقان قال : ﴿ لقوم يوقنون ﴾ وفيه بعث للشاك على تعاطي أسباب الإيقان ، وهو صفاء العلم عن كدر بطرق الريب لاجتماع شاهدي السمع والعين .

قال الحرالي : وفيه إشارة لما حصل للعرب من اليقين ، كما قال سيد العرب علي رضي الله عنه : لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً .

استظهاراً لما بطن من عالم الملكوت على ظاهر عالم الملك إكمالاً للفهم عن واضح هذا البيان الذي تولاه الله ومن اصطفاه الذي اشتمل عليه استتباع ضمير ﴿ بينا ﴾ ؛ وفي استواء العالم وغيره في الجهل بعد البيان دليل على مضمون التي قبلها في أن ما أراد كان .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 232 . 233 ﴾

فصل

قال الفخر :

إن الله تعالى لما حكى عن اليهود والنصارى والمشركين ما يقدح في التوحيد وهو أنه تعالى اتخذ الولد ، حكى الآن عنهم ما يقدح في النبوة ،

وقال أكثر المفسرين ؛ هؤلاء هم مشركو العرب والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حتى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأرض يَنْبُوعًا ﴾ [الإسراء : 90] وقالوا : ﴿ فليأتنا بآية كما أرسل الأولون ﴾ [الأنبياء : 5] ، وقالوا ﴿ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْنَا الملائكة أَوْ نرى رَبَّنَا ﴾ [الفرقان : 21] هذا قول أكثر المفسرين ، إلا أنه ثبت أن أهل الكتاب سألوا ذلك ، والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الكتاب أَن تُنَزّلَ عَلَيْهِمْ كتابا مّنَ السماء فَقَدْ سَأَلُواْ موسى أَكْبَرَ مِن ذلك ﴾ [النساء : 153] فإن قيل : الدليل على أن المراد مشركو العرب أنه تعالى وصفهم بأنهم لا يعلمون ، وأهل الكتاب أهل العلم ، قلنا : المراد أنهم لا يعلمون التوحيد والنبوة كما ينبغي ، وأهل الكتاب كانوا كذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 4 صـ 27 ﴾

فصل

قال الفخر :

تقرير هذه الشبهة التي تمسكوا بها أن الحكيم إذا أراد تحصيل شيء فلا بد وأن يختار أقرب الطرق المفضية إليه وأبعدها عن الشكوك والشبهات ، إذا ثبت هذا فنقول : إن الله تعالى يكلم الملائكة وكلم موسى وأنت تقول : يا محمد ، إنه كلمك والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ فأوحى إلى عَبْدِهِ مَا أوحى ﴾ [النجم : 10] فلم لا يكلمنا مشافهة ولا ينص على نبوتك حتى يتأكد الاعتقاد وتزول الشبهة وأيضاً فإن كان تعالى لا يفعل ذلك فلم لا يخصك بآية ومعجزة وهذا منهم طعن في كون القرآن آية ومعجزة ، لأنهم لو أقروا بكونه معجزة لاستحال أن يقولوا : هلا يأتينا بآية ثم أنه تعالى أجاب عن هذه الشبهة بقوله : ﴿ كذلك قَالَ الذين مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تشابهت قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الآيات لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ ، وحاصل هذا الجواب أنا قد أيدنا قول محمد صلى الله عليه وسلم بالمعجزات ، وبينا صحة قوله بالآيات وهي القرآن وسائر المعجزات ، فكان طلب هذه الزوائد من باب التعنت وإذا كان كذلك لم يجب إجابتها لوجوه .

الأول : أنه إذا حصلت الدلالة الواحدة فقد تمكن المكلف من الوصول إلى المطلوب ، فلو كان غرضه طلب الحق لاكتفى بتلك الدلالة ، فحيث لم يكتف بها وطلب الزائد عليها علمنا أن ذلك للطلب من باب العناد واللجاج ، فلم تكن إجابتها واجبة ونظيره قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آية من ربه قل إِنَّمَا الايات عِندَ الله وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا

أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الكتاب يتلى عَلَيْهِمْ ﴾ [العنكبوت : 50 ، 51] فبكتهم بما في القرآن من الدلالة الشافية .

(161/64)

وثانيها : لو كان في معلوم الله تعالى أنهم يؤمنون عند إنزال هذه الآية لفعلها ، ولكنه علم أنه لو أعطاهم ما سألوه لما ازدادوا إلا لجاجاً فلا جرم لم يفعل ذلك ولذلك قال تعالى : ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللهِ فِيهِمْ خَيْرًا لأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنفال : 23] .

وثالثها : إنما حصل في تلك الآيات أنواع من المفاسد وربما أوجب حصولها هلاكهم واستئصالهم إن استمروا بعد ذلك على التكذيب وربما كان بعضها منتهياً إلى حد الإلجاء المخل بالتكليف ، وربما كانت كثرتها وتعاقبها يقدح في كونها معجزة ، لأن الخوارق متى توالت صار اخراق العادة عادة ، فحينئذ يخرج عن كونه معجزاً وكل ذلك أمور لا يعلمها إلا الله علام الغيوب فثبت أن عدم إسعافهم بهذه الآيات لا يقدح في النبوة . انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 4 صـ 27 ﴾

قال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الذين لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ قال ابن عباس : هم اليهود .

مجاهد : النصارى ؛ ورجّحه الطبري ؛ لأنهم المذكورون في الآية أوّلاً .

وقال الربيع والسُّدّي وقتادة : مشركو العرب .

و" لولا" بمعنى " هَلاّ" تحضيض ؛ كما قال الأشهب بن رُمَيْلة :

تَعُدّون عَقْر النّيب أفضل مجدكم . . .

بني ضَوْطَرَى لولا الكَمِيّ المُقَنَّعَا

وليست هذه " لولا" التي تعطي منع الشيء لوجود غيره ؛ والفرق بينهما عند علماء اللسان أن " لولا" بمعنى التحضيض لا يليها إلا الفعل مُظْهراً أو مقدّراً ، والتي للامتناع يليها الابتداء ، وجرت العادة بحذف الخبر .

ومعنى الكلام هَلاّ يكلمنا الله بنبوّة محمد صلى الله عليه وسلم فنعلم أنه نبيّ فنؤمن به ، أو يأتينا بآية تكون علامة على نبوّته .

والآية : الدلالة والعلامة ؛ وقد تقدّم .

(162/64)

و ﴿ الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ اليهود والنصارى في قول من جعل ﴿ الذين لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ كفار العرب ، أو الأمم السالفة في قول من جعل ﴿ الذين لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ اليهود والنصارى ، أو

اليهود في قول من جعل ﴿ الذين لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ النصارى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 2 صـ 92.91 ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وَقَالَ الذين لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ عطف على قوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ اتخذ الله ﴾ [البقرة : 6 11] ووجه الارتباط أن الأول : كان قدحاً في التوحيد وهذا قدح في النبوة ، والمراد من الموصول جهلة المشركين ، وقد روي ذلك عن قتادة والسدي والحسن وجماعة ، وعليه أكثر المفسرين ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حتى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأرض يَنْبُوعًا ﴾ [الإسرار : 90] وقالوا : ﴿ بَلْ قَالُواْ أضغاث أَحْلاَمٍ بَلِ ﴾ [الأنبياء : 5] وقالوا : ﴿ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْنَا الملائكة أَوْ نرى رَبَّنَا ﴾ [الفرقان : 21] وقيل : المراد به اليهود الذين كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بدليل ما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن رافع بن خزيمة من اليهود قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إن كنت رسولاً من عند الله تعالى فقل لله يكلمنا حتى نسمع كلامه فأنزل الله تعالى هذه الآية ، وقوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الكتاب أَن تُنَزّلَ عَلَيْهِمْ كتابا مّنَ السماء فَقَدْ سَأَلُواْ موسى أَكْبَرَ مِن ذلك ﴾ [النساء : 153] وقال مجاهد : المراد به النصارى ورجحه الطبري بأنهم المذكورون في الآية ، وهو كما ترى ، ونفي العلم على الأول عنهم على حقيقته لأنهم لم يكن لهم كتاب ولا هم أتباع نبوة ، وعلى الأخيرين لتجاهلهم أو لعدم علمهم بمقتضاه

﴿ لَوْلاَ يُكَلِّمُنَا الله ﴾ أي هلا يكلمنا بأنك رسوله إما بالذات كما يكلم الملائكة أو بإنزال الوحي إلينا ، وهو استكبار منهم بعدّ أنفسهم الخبيثة كالملائكة والأنبياء المقدسين عليهم الصلاة والسلام ﴿ أَوْ تَأْتِينَا ءايَةٌ ﴾ أي حجة على صدقك وهو جحود منهم قاتلهم الله تعالى لما آتاهم من الآيات البينات ، والحجج الباهرات التي تخر لها صم الجبال ، وقيل : المراد إتيان آية مقترحة ، وفيه أن تخصيص النكرة خلاف الظاهر ﴿ كذلك قَالَ الذين مِن قَبْلِهِم ﴾ جواب لشبهتهم يعني أنهم يسألون عن تعنت واستكبار مثل الأمم السابقة والسائل المتعنت لا يستحق إجابة مسألته ﴿ مّثْلَ قَوْلِهِمْ ﴾ هذا الباطل الشنيع ﴿ فَقَالُواْ أَرِنَا الله جَهْرَةً ﴾ [النساء : 153] ﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً ﴾ [المائدة : 112] ﴿ اجعل لَّنَا إلها ﴾ [الأعراف : 138] وقد تقدم الكلام على هذين التشبيهين ، ولبعضهم هنا زيادة على ما مر احتمال تعلق ﴿ كذلك ﴾ ب ﴿ تَأْتِينَا ﴾ وحينئذ يكون الوقف عليه لا على ﴿ ءايَةً ﴾ أو جعل ﴿ مّثْلَ قَوْلِهِمْ ﴾ متعلقاً ب ﴿ تشابهت ﴾ وحينئذ يكون الوقف على ﴿ مِن قَبْلِهِمُ ﴾ وأنت تعلم أنه لا ينبغي تخريج

كلام الله تعالى الكريم على مثل هذه الاحتمالات الباردة. انتهى انتهى. اهـ ﴿روح المعانى حـ 1 صـ 369. 370﴾

(164/64)

قوله تعالى ﴿تشابهت قُلُوبُهُمْ﴾

قال الفخر:

أما قوله تعالى: ﴿تشابهت قُلُوبُهُمْ﴾ فالمراد أن المكذبين للرسل تتشابه أقوالهم وأفعالهم، فكما أن قوم موسى كانوا أبداً في التعنت واقتراح الأباطيل، كقولهم: ﴿لَن نَّصْبِرَ على طَعَامٍ واحد﴾ [البقرة: 61] وقولهم: ﴿اجعل لَّنَا إلها كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف: 138] وقولهم: ﴿أَتَتَّخِذنَا هُزُوًا﴾ [البقرة: 67] وقولهم: ﴿أَرِنَا الله جَهْرَةً﴾ [النساء: 153] فكذلك هؤلاء المشركون يكونون أبداً في العناد واللجاج وطلب الباطل. انتهى انتهى. اهـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 4 صـ 27. 28﴾

وقال الآلوسى:

﴿تشابهت قُلُوبُهُمْ﴾ أي قلوب هؤلاء ومن قبلهم في العمى والعناد، وقيل: في التعنت والاقتراح، والجملة مقررة لما قبلها، وقرأ أبو حيوة وابن أبي إسحاق بتشديد الشين قال أبو

عمرو الداني : وذلك غير جائز لأنه فعل ماض والتاآن المزيدتان إنما يجيئان في المضارع فيدغم أما الماضي فلا ، وفي غرائب التفسير أنهم أجمعوا على خطئه ، ووجه ذلك الراغب بأنه حمل الماضي على المضارع فزيد فيه ما يزاد فيه ولا يخفى أنه بهذا القدر لا يندفع الإشكال ، وقال ابن سهمي في الشواذ : إن العرب قد تزيد على أول تفعل في الماضي تاء فتقول تتفعل وأنشد .

تتقطعت بي دونك الأسباب . . .

وهو قول غير مرضي ولا مقبول فالصواب عدم صحة نسبة هذه القراءة إلى هذين الإمامين وقد أشرنا إلى نحو ذلك فيما تقدم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 370 ﴾

وقال السمرقندى :

﴿ تشابهت قُلُوبُهُمْ ﴾ ، أي في القسوة والكفر .

ويقال : تشابهت كلمتهم كما تشابهت قلوبهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ 115 ﴾

قوله تعالى ﴿ قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾

قال الفخر :

أما قوله تعالى : ﴿ قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ فالمراد أن القرآن وغيره من المعجزات كمجيء الشجرة وكلام الذئب ، وإشباع الخلق الكثير من الطعام القليل ، آيات قاهرة ،

ومعجزات باهرة لمن كان طالباً لليقين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 4 صـ 28 ﴾

(165/64)

وقال السمرقندى :

﴿ قَدْ بَيَّنَّا الآيات ﴾ ، يعني أمرك في التوراة أي العلامات لنبوتك إنك نبي مرسل الصفة والنعت .

ويقال : قد بينا العلامات لنبوتك .

ويقال : لم يكن لنبي من الأنبياء معجزة وعلامة إلاّ وقد كان للنبي صلى الله عليه وسلم مثلها .

﴿ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ ، يعني مؤمني أهل التوراة .

ويقال : من كان له عقل وتمييز . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ 115 ﴾

وقال الزمخشرى :

﴿ قَدْ بَيَّنَّا الآيات لِقَوْمٍ ﴾ ينصفون فيوقنون أنها آيات يجب الاعتراف بها والإذعان لها والاكتفاء بها عن غيرها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشاف حـ 1 صـ 182 ﴾

وقال ابن عطية :

وقوله تعالى : ﴿ قد بينا الآيات لقوم يوقنون ﴾ لما تقدم ذكر الذين أضلهم الله حتى كفروا بالأنبياء وطلبوا ما لا يجوز لهم أتبع ذلك الذين بين لهم ما ينفع وتقوم به الحجة ، لكن البيان وقع وتحصل للموقنين ، فلذلك خصهم بالذكر ، ويحتمل أن يكون المعنى قد بينا البيان الذي هو خلق الهدى ، فكأن الكلام قد هدينا من هدينا ، واليقين إذا اتصف به العلم خصصه وبلغ به نهاية الوثاقة ، وقوله تعالى ﴿ بينا ﴾ قرينة تقتضي أن اليقين صفة لعلمهم ، وقرينة أخرى ، وهي أن الكلام مدح لهم ، وأما اليقين في استعمال الفقهاء إذا لم يتصف به العلم فإنه أحط من العلم ، لأن العلم عندهم معرفة المعلوم على ما هو به واليقين معتقد يقع للموقن في حقه والشيء على خلاف معتقده ، ومثال ذلك تيقن المقادة ثبوت الصانع ، ومنه قول مالك – رحمه الله – في " الموطأ " في مسألة الحالف على الشيء يتيقنه الشيء في نفسه على غير ذلك .

قال القاضي أبو محمد : وأما حقيقة الأمر فاليقين هو الأخص وهو ما علم على الوجه الذي لا يمكن أن يكون إلا عليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 1 صـ 203 ﴾

(166/64)

وقال الخازن :

﴿ قد بينا الآيات ﴾ أي الدلالات على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ لقوم يوقنون ﴾ يعني أن آيات القرآن وما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من المعجزات الباهرات كافية لمن كان طالباً لليقين ، وإنما خص أهل الإيقان بالذكر لأنهم هم أهل التثبت في الأمور ومعرفة الأشياء على يقين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 1 صـ 101 ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ قَدْ بَيَّنَّا الآيات ﴾ أي نزلناها بينة بأن جعلناها كذلك في أنفسها فهو على حد سبحان من صغر البعوض وكبر الفيل ﴿ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ أي يعلمون الحقائق علماً ذا وثاقة لا يعتريهم شبهة ولا عناد وهؤلاء ليسوا كذلك فلهذا تعنتوا واستكبروا وقالوا ما قالوا ، والجملة على هذا معللة لقوله تعالى : ﴿ كذلك قَالَ الذين مِن قَبْلِهِم ﴾ كما صرح به بعض المحققين ، ويحتمل أن يراد من الإتيان طلب الحق واليقين .

والآية رد لطلبهم الآية وفي تعريف الآيات وجمعها وإيراد التبيين مكان الإتيان الذي طلبوه ما لا يخفى من الجزالة ، والمعنى أنهم اقترحوا آية فذة ونحن قد بينا الآيات العظام لقوم يطلبون الحق واليقين وإنما لم يتعرض سبحانه لرد قولهم ﴿ لَوْلاَ يُكَلِّمُنَا الله ﴾ إيذاناً بأنه منهم أشبه شيء بكلام الأحمق وجواب الأحمق السكوت . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 370 ﴾

فائدة

قال الشيخ الشنقيطي :

قوله تعالى : ﴿ قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ .

هذه الآية تدل بظاهرها على أن البيان خاص بالموقنين .

وقد جاءت آيات أخر تدل على أن البيان عام لجميع الناس كقوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ وكقوله : ﴿ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ ﴾ .

ووجه الجمع أن البيان عام لجميع الخلق, إلا أنه لما كان الانتفاع به خاصا بالمتقين خص في هذه الآية بهم لأن ما لا نفع فيه كالعدم .

ونظيرها قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا ﴾ وقوله : ﴿ إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ ﴾ الآية, مع أنه منذر للأسود والأحمر, وإنما خص الإنذار بمن يخشى ومن يتبع الذكر لأنه المنتفع به . انتهى انتهى . اهـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 27 . 28 ﴾

ومن فوائد ابن عرفة فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الذين لاَ يَعْلَمُونَ . . . ﴾ .

قال ابن عرفة : إن أريد بهم مشركو العرب فواضح ، وإن أريد أهل الكتاب فواضح ، لأن جهل المشركين بسيط ، وجهل أهل الكتاب مركب .

واستشكل الفخر قول من فسره بأهل الكتاب قال : لأنّهم يعلمون .

قال ابن عرفة : ويجاب بما قلناه : من أنهم جاهلون جهلا مركبا وكان بعضهم يقول : إنما نفى عنهم العلم لوضعهم الشيء في غير محله ، لأنّهم طُلب منهم الإقرار بصحة الرسالة فَطَلَبُوا هم أن يكلمهم الله مشافهة وهذا مناف للرسالة لأن هؤلاء إذا حصلت لهم المباشرة بالكلام فلا حاجة إلى الرسالة .

قيل لابن عرفة : إنهم طلبوا أن يكلّمهم الله (بتصديق رسوله) .

فقال : وفي هذا وقع الكلام معه ، فإذا (بُوشروا) به فلا حاجة إلى الرسالة .

وقال : وتنكير " ءَايَة " لتعم (في) المعجزات كلها ، وتفيد التقليل فهو محض مكابرة ومباهتة منهم (حتى) (كأنه) لم يأتهم بشيء من الآيات .

قوله تعالى : ﴿ مِّثْلَ قَوْلِهِمْ . . . ﴾ .

قيل لابن عرفة : ما فائدة زيادة " مِّثْلَ قَوْلِهِمْ " مع أنه مستغنى عنه لأن التشبيه الأول (يكفي) في حصول المثلية ؟ فأجاب بوجهين :

- إما أنه تأكيد في مقام التسلية للنَّبي صلى الله عليه وسلّم بتكذيب من قبله وتعنتهم .

- وإما أن قوله " كَذَلِكَ " تشبيه لا يقتضي المساواة من جميع الوجوه بل (المقابلة) ، لأن المشبه بالشيء لا يقوى قوّته فزاد " مِّثْلَ قَوْلِهِمْ " ليفيد كمال المماثلة والمساواة ، ولم يقل : مثل كلامهم ، لأن القول أعم من الكلام ، ولازم الأعم لازم الأخص ، فأفاد حصول المساواة في قولهم المفرد والمركب .

قوله تعالى : ﴿ قَدْ بَيَّنَّا الأيات . . . ﴾ .

رد عليهم في قوله : ﴿ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ ﴾ ولم يرد عليهم قولهم : ﴿ لَوْلاَ يُكَلِّمُنَا الله ﴾ لظهور بطلانه بالبَديهة .

قوله تعالى : ﴿ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾

ابن عطية : اليقين عند الفقهاء أخص من العلم لأن العلم عندهم معرفة المعلوم على ما هو به ، واليقين معتقد يقع للموقن في حقّه ، والشيء على خلاف معتقده كتيقن (المقلدة) ثبوت الصانع .

ثم قال : وحقيقة الأمر أنّ اليقين هو الأخص ، وهو ما علم على الوجه الذي لا يمكن أن يكون إلا عليه .

قال ابن عرفة : كان ابن عبد / السلام يقول : هذا كلام خلف ، لأنه ذكر أنّ اليقين أخص ثم فسر بما يقتضي أنه أعم من العلم .

والصواب أن يقال : اليقين أخص من العلم لأن العلم أخص من الاعتقاد ، فالاعتقاد أعمها ثم العلم ، ثم اليقين ، واليقين هو اعتقاد الشيء بدليل قاطع لا تعرض له الشكوك ، والعلم اعتقاد الشيء بدليل يقبل الشكوك والمعارضة ، وهي مسألة المدنة قال : إنّما اللغو أن يحلف بالله على أمر تيقّنه ثم تبين له خلاف ذلك فلا شيء عليه .

وانظر ما قيدت في سورة الذاريات . انتهى انتهى . ا هـ ﴾ تفسير ابن عرفة حـ 1 صـ 408.406 ﴿

(170/64)

ومن فوائد ابن عاشور فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ ﴾

عطف على قوله : ﴿ وقالوا اتخذ الله ولداً ﴾ [البقرة : 116] المعطوف على قوله : ﴿ وقالت اليهود ليست النصارى ﴾ [البقرة : 113] .

لمناسبة اشتراك المشركين واليهود والنصارى في الأقوال والعقائد الضالة إلا أنه قدم قول أهل الكتاب في الآية الماضية وهي ﴿ وقالت اليهود ﴾ لأنهم الذين ابتدأوا بذلك أيام مجادلتهم في تفاضل أديانهم ويومئذ لم يكن للمشركين ما يوجب الاشتغال بذلك إلى أن جاء الإسلام فقالوا مثل قول أهل الكتاب .

وجمع الكل في ﴿ وقالوا اتخذ الله ولداً ﴾ إلا أنه لم يكن فريق من الثلاثة فيه مقتبساً من الآخر بل جميعه ناشىء من الغلو في تقديس الموجودات الفاضلة ومنشؤه سوء الفهم في العقيدة سواء كانت مأخوذة من كتاب كما تقدم في منشأ قول أهل الكتابين ﴿ اتخذ الله ولداً ﴾ أم مأخوذة من أقوال قادتهم كما قالت العرب : الملائكة بنات الله .

وقدم قول المشركين هنا لأن هذا القول أعلق بالمشركين إذ هو جديد فيهم وفاشٍ بينهم ، فلما كانوا مخترعي هذا القول نسب إليهم ، ثم نظر بهم الذين من قبلهم وهم اليهود والنصارى ، إذ قالوا مثل ذلك لرسلهم .

و ﴿ لولا ﴾ هنا حرف تحضيض قصد منه التعجيز والاعتذار عن عدم الإصغاء للرسول استكباراً بأن عدوا أنفسهم أحرياء بالرسالة وسماع كلام الله تعالى وهذا مبالغة في الجهالة لا يقولها أهل الكتاب الذين أثبتوا الرسالة والحاجة إلى الرسل .

وقوله : ﴿ أو تأتينا آية ﴾ أرادوا مطلق آية فالتنكير للنوعية وحينئذ فهو مكابرة وجحود لما جاءهم من الآيات وحسبك بأعظمها وهو القرآن وهذا هو الظاهر من التنكير وقد سألوا آيات مقترحات ﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً ﴾ [الإسراء : 90] الآيات وهم يحسبون أن الآيات هي عجائب الحوادث أو المخلوقات وما دروا أن الآية العلمية العقلية أوضح المعجزات لعمومها ودوامها وقد تحداهم الرسول بالقرآن فعجزوا عن معارضته وكفاهم بذلك آية لو كانوا أهل إنصاف .

وقوله : ﴿ كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم ﴾ أي كمثل مقالتهم هذه قال الذين من قبلهم من الأمم مثل قولهم .

والمراد بالذين من قبلهم اليهود والنصارى فقد قال اليهود لموسى : ﴿ لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ﴾ [البقرة : 55] وسأل النصارى عيسى ﴿ هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء ﴾ [المائدة : 112] .

وفي هذا الكلام تسلية للنبيء صلى الله عليه وسلم بأن ما لقيه من قومه مثل ما لاقاه الرسل قبله ولذلك أردفت هذه الآية بقوله : ﴿ إنا أرسلناك بالحق ﴾ [البقرة : 119] الآية .

ثم يجوز أن تكون جملة ﴿ كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم ﴾ واقعة موقع الجواب لمقالة الذين لا يعلمون وهو جواب إجمالي اقتصر فيه على تنظير حالهم بحال من قبلهم فيكون ذلك التنظير كناية عن الإعراض عن جواب مقالهم وأنه لا يستأهل أن يجاب لأنهم ليسوا بمرتبة من يكلمهم الله وليست أفهامهم بأهل لإدراك ما في نزول القرآن من أعظم آية وتكون جملة ﴿ تشابهت قلوبهم ﴾ تقريراً أي تشابهت عقولهم في الأفن وسوء النظر ، وتكون جملة ﴿ قد بينا الآيات لقوم يوقنون ﴾ تعليلاً للإعراض عن جوابهم بأنهم غير أهل للجواب لأن أهل الجواب هم القوم الذين يوقنون وقد بينت لهم آيات القرآن بما اشتملت عليه من الدلائل ، وأما هؤلاء فليسوا أهلاً للجواب لأنهم ليسوا بقوم يوقنون بل ديدنهم المكابرة .

(172/64)

ويجوز أن تكون جملة ﴿ كذلك ﴾ (قال) إلى آخرها معترضة بين جملة ﴿ وقال الذين لا يعلمون ﴾ وبين جملة ﴿ قد بيَّنَّا الآيات ﴾ وتجعل جملة ﴿ قد بينا الآيات ﴾ هي الجواب عن مقالتهم .

والمعنى لقد أتتكم الآية وهي آيات القرآن ولكن لا يعقلها إلا الذين يوقنون أي دونكم فيكون على وزان قوله تعالى : ﴿ أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ﴾ [العنكبوت :

.[51

ووقع الإعراض عن جواب قولهم ﴿ لولا يكلمنا الله ﴾ لأنه بديهي البطلان كما قال تعالى : ﴿ وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتو عتواً كبيراً ﴾ [الفرقان : 21] .

والقول في مرجع التشبيه والمماثلة من قوله ﴿ كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم ﴾ على نحو القول في الآية الماضية ﴿ كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم ﴾ [البقرة : 113] .

وقوله : ﴿ تشابهت قلوبهم ﴾ تقرير لمعنى ﴿ قال الذين من قبلهم مثل قولهم ﴾ ، أي كانت عقولهم متشابهة في الأفن وسوء النظر فلذا اتحدوا في المقالة .

فالقلوب هنا بمعنى العقول كما هو المتعارف في اللغة العربية .

وقوله ﴿ تشابهت ﴾ صيغة من صيغ التشبيه وهي أقوى فيه من حروفه وأقرب بالتشبيه البليغ ، ومن محاسن ما جاء في ذلك قول الصابىء :

تشابه دمعي إذ جرى ومُدامتي . . .

فمِن مثل ما في الكأس عيني تسكُب

وفي هذه الآية جعلت اليهود والنصارى مماثلين للمشركين في هذه المقالة لأن المشركين أعرق فيها إذ هم أشركوا مع الله غيره فليس ادعاؤهم ولداً لله بأكثر من ادعائهم شركة الأصنام مع الله في الإلاهية فكان اليهود والنصارى ملحقين بهم لأن دعوى الابن لله طرأت عليهم ولم

تكن من أصل ملتهم وبهذا الأسلوب تأتى الرجوع إلى بيان أحوال أهل الكتابين الخاصة بهم وذلك من رد العجز على الصدر .

(173/64)

وجيء بالفعل المضارع في ﴿ يوقنون ﴾ لدلالته على التجدد والاستمرار كناية عن كون الإيمان خُلقاً لهم فأما الذين دأبهم الإعراض عن النظر والمكابرة بعد ظهور الحق فإن الإعراض يحول دون حصول اليقين والمكابرة تحول عن الانتفاع به فكأنه لم يحصل فأصحاب هذين الخلقين ليسوا من الموقنين .

وتبيين الآيات هو ما جاء من القرآن المعجز للبشر الذي تحدى به جميعهم فلم يستطيعوا الإتيان بمثله كما تقدم ، وفي الحديث : " ما من الأنبياء نبيء إلا أوتي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذي أوتيت وحياً أوحى الله إليَّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة " فالمعنى قد بينا الآيات لقوم من شأنهم أن يوقنوا ولا يشككوا أنفسهم أو يعرضوا حتى يحول ذلك بينهم وبين الإيقان أو يكون المعنى قد بينا الآيات لقوم يظهرون اليقين ويعترفون بالحق لا لقوم مثلكم من المكابرين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 1 صـ 672.670 ﴾

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (118) ﴾

الحق سبحانه وتعالى حين قال : " الذين لا يعلمون " . . أي لا يعلمون عن كتاب الله شيئا لأنهم كفار . . وهؤلاء سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكلمهم الله . . ومعنى أن يكلمهم الله أن يسمعوا كلاما من الله سبحانه . . كما سمع موسى كلام الله . وماذا كانوا يريدون من كلام الله تبارك وتعالى . . أكانوا يريدون أن يقول لهم الله إنه أرسل محمداً رسولا ليبلغهم بمنهج السماء . . وكأن كل المعجزات التي أيد الله بها رسوله صلى الله عليه وسلم. وعلى رأسها القرآن الكريم. لم تكن كافية لإقناعهم . . مع أن القرآن كلام معجز وقد أتى به رسول أمي . . سألوه عن أشياء حدثت فأوحى الله بها إليه بالتفصيل . . جاء القرآن ليتحدى في أحداث المستقبل وفي أسرار النفس البشرية . . وكان ذلك يكفيهم لو أنهم استخدموا عقولهم ولكنهم أرادوا العناد كلما جاءتهم آية كذبوا بها وطلبوا آية أخرى . .

والله سبحانه وتعالى قد أبلغنا أنه لا يمكن لطبيعة البشر أن تتلقى عن الله مباشرة . . واقرأ قوله سبحانه :

وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ

(من الآية 51 سورة الشورى)

(175/64)

إذن فالبشر حتى المصطفى من الله والمؤهل للتلقي عن الله . . لا يكلمه الله إلا وحيا أو إلهام خاطر أو من وراء حجاب كما كلم موسى . . أو يرسل رسولا مبلغا للناس لمنهج الله . . أما الاتصال المباشر فهو أمر تمنعه بشرية الخلق . ثم يقول الحق تبارك وتعالى : " أو تأتينا آية" . . والآيات التي يطلبها الكفار ويأتي بها الله سبحانه وتعالى ويحققها لهم . . لا يؤمنون بها بل يزدادون كفرا وعنادا . . والله جل جلاله يقول :

وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا

(من الآية 59 سورة الإسراء)

إذن فالآيات التي يطلبها الكفار ليؤمنوا لا تجعلهم يؤمنون . . ولكن يزدادون كفرا حتى ولو

علموا يقينا أن هذه الآيات من عند الله سبحانه وتعالى كما حدث لآل فرعون . . واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

فَلَمَّا جَاءتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ(13) وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ(14)

(سورة النمل)

(176/64)

وهكذا فإن طلبها أن يكلمهم الله أو تأتيهم آية كان من باب العناد والكفر والحق سبحانه يقول : "كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم" . . فبنو إسرائيل قالوا لموسى أرنا الله جهرة . . الذين لا يعلمون قالوا لولا يكلمنا الله . . ولكن الذين قالوا أرنا الله جهرة كانوا يعلمون لأنهم كانوا يؤمنون بالتوراة . . فتساوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون . . لذلك قال الله تبارك وتعالى : " تشابهت قلوبهم" . . أي قلوب أولئك الذين كانوا خاضعين للمنهج والذين لا يخضعون لمنهج قد تشابهت بمنطق واحد . ولو أن الذين لا يعلمون قالوا ولم يقل الذين يعلمون لهان الأمر . . وقلنا جهلهم هو الذي أوحى إليهم بما قالوا . . ولكن ما عذر الذين علموا وعندهم كتاب أن يقولوا أرنا الله جهرة . . إذن فهناك شيء مشترك بينهم تشابهت

قلوبهم في الهوى . . إن مصدر كل حركة سلوكية أو حركة جارحة إنما هو القلب الذي تصدر عنه دوافع الحركة . . ومادام القلب غير خالص لله فيستوى الذي يعلم والذي لا يعلم .

(177/64)

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : " قد بينا الآيات لقوم يوقنون" . . ما هو اليقين ؟ هو استقرار القضية في القلب استقرارا لا يحتمل شكا ولا زلزلة . . ولا يمكن أن تخرج القضية مرة أخرى إلي العقل . . لتناقش من جديد لأنه أصبح يقينا . . واليقين يأتي من إخبار من تثق به وتصبح أخباره يقينا . . فإذا قال الله قال اليقين . . وإذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم فكلامه حق . . ولذلك من مصداقية الإيمان أن سيدنا أبا بكر رضي الله عنه . . عندما قيل له إن صاحبك يقول إنه صعد به إلي السماء السابعة وذهب إلي بيت المقدس في ليلة واحدة . . قال إن كان قد قال فقد صدق . إن اليقين عنده نشأ من إخبار من يثق فيه وهذا نسميه علم يقين . . وقد يرتقي الأمر ليصير عين يقين . . عندما ترى الشيء بعينك بعد أن حدثت عن رؤية غيرك له . . ثم تدخل في حقيقة الشيء فيصبح حق يقين . . إذن اليقين علم إذا جاء عن إخبار من تثق به . . وعين يقين إذا كان الأمر قد

شوهد مشاهدة العين . . وحق يقين هو أن تدخل في حقيقة الشيء . . والله سبحانه وتعالى يشرح هذا في قوله تعالى :

أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ(1) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ(2) كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ(3) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ(4) كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ(5) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ(6)

(سورة التكاثر)

هذه هي المرحلة الأولى أن يأتينا علم اليقين من الله سبحانه وتعالى . . ثم تأتي المرحلة الثانية في قوله تبارك وتعالى :

ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ(7)

(سورة التكاثر)

أي أنتم ستشاهدون جهنم بأعينكم يوم القيامة . . هذا علم يقين وعين يقين . . يأتي بعد ذلك حق اليقين في قوله تعالى :

وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ(92) فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ(93) وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ(94) إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ(95)

(سورة الواقعة)

والمؤمن عافاه الله من أن يعاين النار كحق يقين . . إنه سيراها وهو يمر على الصراط . . ولكن الكافر هو الذي سيصلاها حقيقة يقين . . ولقد قال أهل الكتاب لأنبيائهم ما يوافق قول غير المؤمنين . . فاليهود قالوا لموسى : " لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة " . . والمسيحيون قالوا لعيسى : " هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء " قال : " اتقوا الله إن كنتم مؤمنين " . . وهكذا شجع المؤمنون بالكتاب غير المؤمنين بأن يطلبوا رؤية الله ويطلبوا المعجزات المادية . انتهى انتهى . اهـ ﴾ تفسير الشعراوى صـ 554 . 557 ﴿

(179/64)

" فصل "

قال السيوطى

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (118) ﴾

أخرج ابن إسحق وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال " قال رافع بن حريملة لرسول

الله صلى الله عليه وسلم يا محمد إن كنت رسولاً من الله كما تقول فقل لله فليكلمنا حتى نسمع كلامه ، فأنزل الله في ذلك ﴿ وقال الذين لا يعلمون ﴾ قال : هم كفار العرب ﴿ لولا يكلمنا الله ﴾ قالا : هلا يكلمنا ﴿ كذلك قال الذين من قبلهم ﴾ يعني اليهود والنصارى وغيرهم ﴿ تشابهت قلوبهم ﴾ يعني العرب واليهود والنصارى وغيرهم " .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد في قوله ﴿ وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله ﴾ قال : النصارى يقوله ، والذين من قبلهم يهود . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 1 صـ 271 ﴾

(180/64)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

" لو " و " لولا " يكونان حرفي ابتداء ، وقد تقدم عند قوله : ﴿ فَلَوْلاَ فَضْلُ الله ﴾ [البقرة : 64] ويكونان حرفي تحضيض بمنزلة : " هلا " فيختصَّان بالأفعال ظاهرة أو مضمرة ، كقوله : [الطويل]

766 تَعُدُّونَ عَقْرَ النِّيبِ أَفْضَلَ مَجْدِكُمْ . . .

بَنِي ضَوْطَرَى لَوْلاَ الكَمِيَّ المُقَنَّعَا

أي : لولا تعدون الكمَيَّ ، فإن ورد ما يوهم وقوع الاسم بعد حرف التخصيص يؤوَّل ؛

كقوله : [الطويل]

767 ونُبِّئْتُ لَيْلَى أَرْسَلَتْ بِشَفَاعَةٍ . . .

إِلَيَّ فَهَلاَّ نَفْسُ لَيْلَى شَفِعُهَا

ف " نفس ليلى " مرفوع بفعل محذوف يفسره " شفيعها " أي : فهلا شفعت نفس ليلى .

وقال أبو البقاء : إذا وقع بعدها المستقبل كانت للتحضيض ، وإن وقع بعدها الماضي كانت للتوبيخ وهذا شيء يقوله علماء البيان ، وهذه الجملة التخضيضية في محلّ نصب بالوقل .

قوله : ﴿ كَذَلِكَ قَالَ الذين ﴾ قد تقدم الكلام على نظيره فليطلب هناك .

وقرأ أبو حيوة ، وابن أبي إسحاق : " تَشَّابَهَت " بتشديد الشين .

قال الدَّاني : " وذلك غير جائز ؛ لأنه فعل ماض " ، يعني : أن التاءين المزيدتين إنما تجيئان في المضارع فتدغم أما الماضي فلا . انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 2 صـ 432 . 433 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (118) ﴾

كلام الله سبحانه متعلق بجميع المخلوقات بأعيانها وآثارها ، وأمر التكوين (يتناول المكلفين وأفعال المكلفين) ، لكن من عَدم سمع الفهم تصامم عن استماع الحق ، فإنه – سبحانه – خاطب قوماً من أهل الكتاب ، وأسمعهم خطابه ، فلم يطيقوا سماعه ، وبعد ما رأوا من عظيم الآيات حرَّفوا وبدَّلوا . وفي الآيات التي أظهرها ما يزيح العِلَّة من الأغيار ، ويشفي الغُلَّة من الأخيار ، ولكن ما تُغْني الدلائل – وإنْ وَضُحَتْ – عمن حُقَّتْ لهم الشقاوة وسبقت ؟ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 118 ﴾

(181/64)

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (114) وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (115) وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ

وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ (116) بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (117) وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (118) ﴾

التفسير : عن ابن عباس أن ملك النصارى غزا بيت المقدس فخربه وألقى فيه الجيف وحاصر أهله وقتلهم وسبى الذرية وأحرق التوراة ، ولم يزل خراباً حتى بناه أهل الإسلام في زمان عمر فنزلت الآية فيهم . وعن الحسن وقتادة والسدي نزلت في بختنصر

(182/64)

حيث خرب بيت المقدس وأعانه على ذلك بعض النصارى . ورد بأن بختنصر كان قبل مولد المسيح بزمان . وقيل : نزلت في مشركي العرب الذين منعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الدعاء إلى الله بمكة ألجأوه إلى الهجرة ، فصاروا مانعين له ولأصحابه أن يذكروا الله في المسجد الحرام . وقيل : المراد منع المشركين رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدخل المسجد الحرام عام الحديبية . ووجه اتصال الآية بما قبلها على القولين الأولين . هو أن النصارى ادعوا أنهم من أهل الجنة فقط ، فبين أنهم أظلم منهم فكيف يدخلون الجنة ؟

وعلى الآخرين هو أنه جرى ذكر مشركي العرب في قوله ﴿ كذلك قال الذين لا يعلمون ﴾ فعقب ذلك بسائر قبائحهم و " من " استفهامية لتقرير النفي أي ليس أحد أظلم ممن منع و ﴿ أن يذكر ﴾ ثاني مفعوليه لأنك تقول : منعته كذا أو بدل من ﴿ مساجد ﴾ أو حذف حرف الجر مع أن والتقدير كراهة أن يذكر فيكون مفعولاً له .

(183/64)

وهذا حكم عام لجنس مساجد الله ، وأن مانعها من ذكر الله تعالى مفرط في الظلم ، ولا بأس أن يجيء الحكم عاماً وإن كان السبب خاصاً كما تقول لمن آذى صالحاً واحداً من أظلم ممن آذى الصالحين ؟ ومثله ﴿ ويل لكل همزة لمزة ﴾ [الهمزة : 1] والمنزول فيه الأخنس بن شريق . وينبغي أن يراد بمن منع العموم أيضاً لا الذين منعوا من أولئك النصارى أو المشركين بأعيانهم والسعي في خراب المساجد بانقطاع الذكر أو تخريب البنيان قيل : إن قوله ﴿ ومن أظلم ﴾ الذي هو في قوة ليس أحد أظلم ليس على عمومه لأن الشرك أعظم من هذا الفعل ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ [لقمان : 13] وكذا الزنا وقتل النفس قلت : أما استعمال لفظ الظلم في هذا المعنى في غاية الحسن ، لأن المسجد موضوع لذكر الله تعالى فيه ، فالمانع من ذلك واضع للشيء في غير موضعه .

وأما أنه لا أظلم منه فلأنه إن كان مشركاً فقد جمع مع شركه هذه الخصلة الشنعاء فلا أظلم منه ، وإن كان يدعي الإسلام ففعله مناقض لقوله ، لأن من اعتقد أن لو معبوداً عرف وجوب عبادته له عقلاً أو شرعاً ، والعبادة تستدعي متعبداً لا محالة . فتخريب المتعبد ينبئ عن إنكار العبادة وإنكار العبادة يستلزم إنكار المعبود ، فهذا الشخص لا يكون في الحقيقة مسلماً وإنما هو منخرط في سلك أهل النفاق ، والمنافق كافر أسوأ حالاً من الكافر الأصلي بالاتفاق ﴿ أولئك ﴾ المانعون ﴿ ما كان لهم ﴾ أي ما ينبغي لهم ﴿ أن يدخلوها ﴾ في حال من الأحوال ﴿ إلا خائفين ﴾ على حال التهيب وارتعاد الفرائص من المؤمنين أن يبطشوا بهم فضلاً أن يستولوا عليها ويلوها ويمنعوا المؤمنين منها . والمعنى : ما كان الحق والواجب إلا ذلك لولا ظلم الكفرة وعتوهم . وقيل : هذه بشارة للمؤمنين أنه سيظهرهم على المسجد الحرام وعلى سائر المساجد ، وأنه يذل المشركين لهم حتى لا يدخلوا المسجد الحرام إلا خائفين من أن يعاقبوا أو يقتلوا إن لم يسلموا . وقد أنجز الله هذا الوعد فمنعهم من دخول المسجد الحرام ونادى فيهم عام حج أبو بكر : ألا لا يحجن بعد العام مشرك . وأمر النبي صلى الله عليه وسلم بإخراج اليهود من جزيرة العرب ، وصار

بيت المقدس في أيدي المسلمين . وقيل : يحرم عليهم دخول المسجد إلا في أمر يتضمن الخوف نحو أن يدخلوا للمحاكمة أو المخاصمة أو المحاجة . وقيل : اللفظ خبر ولكن معناه النهي عن تمكينهم من الدخول والتخلية بينهم وبينه كقوله ﴿ وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ﴾ [الأحزاب : 53] فمن هنا قال مالك : لا يجوز للكافر دخول المساجد .

وخصص الشافعي المنع بالمسجد الحرام لجلالة قدره ومزيد شرفه ، للتصريح بذلك في قوله ﴿ إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ﴾ [التوبة : 28] .

وجوز أبو حنيفة دخول المساجد كلها لما روي أنه صلى الله عليه وسلم قدم عليه

(185/64)

وفد ثقيف فأنزلهم المسجد . وأجيب بأنه في أول الإسلام ثم نسخ بالآية ﴿ خزي ﴾ ذل يمنعهم من المساجد أو بالجزية في حق أهل الذمة وبالسبي والقتل في حق أهل الحرب ، وفيه ردع لهم عن ثباتهم على الكفر . وقيل : الخزي فتح مدائنهم قسطنطينية وعمورية ورومية ، والعذاب العظيم يناسب الظلم العظيم ولنذكر هنا فوائد :

(الأولى) في بيان فضل المساجد ومن ذاك إضافتها إلى الله في الآية وذلك دليل على شرفها وكذا في قوله ﴿ وأن المساجد لله ﴾ [الجن : 18] بلام الاختصاص ﴿ إنما يعمر

مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر ﴾ [التوبة : 18] ﴿ في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ﴾ [النور : 39] وقال صلى الله عليه وسلم

" أحب البلاد إلى الله مساجدها وأبغض البلاد إلى الله أسواقها " وليس ذلك إلا لأن المسجد يذكر الحبيب ، والسوق يشغل عنه ، وفي الآية نكتة وهي أن مخرب المساجد لما كان في نهاية الظلم والكفر يلزم أن يكون عامر المساجد في غاية العدل والإيمان .

(الثانية) في فضل المشي إلى المساجد عن أبي هريرة أنه صلى الله عليه وسلم قال " من تطهر في بيته ثم مشى إلى بيت من بيوت الله ليقضي فيه فريضة من فرائض الله كانت خطواته إحداها تحط خطيئة والأخرى ترفع درجة " وقال صلى الله عليه وسلم لبني سلمة حين أرادوا أن ينتقلوا إلى قرب المسجد " دياركم تكتب آثاركم "

(الثالثة) في تزيين المساجد . عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " ما أمرت بتشييد المساجد " قال ابن عباس : بزخرفتها كما زخرفت اليهود والنصارى . التشييد رفع البناء وتطويله ، والزخرفة التزيين والتمويه . وأمر عمر ببناء مسجد فقال : أكن الناس من المطر وإياك أن تحمر أو تصفر فتفتن الناس .

(الرابعة) في تحية المسجد . عن أبي قتادة أنه صلى الله عليه وسلم قال : "إذا دخل أحدكم المسجد فليركع ركعتين قبل أن يجلس" وتؤدى التحية بالفرض أو النفل نواها أولا وهذا مذهب الحسن البصري ومكحول والشافعي وأحمد وإسحق . وقيل : يجلس ولا يصلي وإليه ذهب ابن سيرين وعطاء بن أبي رباح والنخعي وقتادة ومالك والثوري وأصحاب الرأي .

(الخامسة) في الدعاء عند الدخول في المسجد والخروج منه . روت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أبيها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل المسجد صلى على محمد صلى الله عليه وسلم وقال : "رب اغفر لي ذنوبي وافتح لي ابواب رحمتك وإذا خرج صلى على محمد وسلم وقال : رب اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب فضلك" .

(السادسة) في فضيلة القعود فيه لانتظار الصلاة عن أبي هريرة أنه صلى الله عليه وسلم قال : "الملائكة تصلي على أحدكم ما دام في مصلاه الذي صلى فيه فتقول : اللهم اغفر له وارحمه ما لم يحدث" .

(السابعة) في كراهية البيع والشراء فيه ، عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن تناشد الأشعار في المساجد وعن البيع والشراء فيها ، وأن يتحلق الناس يوم الجمعة قبل الصلاة يعني لمذاكرة العلم ونحوه ، بل يشتغل بالذكر والصلاة

والإنصات للخطبة ثم لا بأس بالاجتماع والتحلق بعد الصلاة ، وأما طلب الضالة في المسجد ورفع الصوت بغير الذكر فمكروه أيضاً . عن أبي هريرة أنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " من سمع رجلاً ينشد ضالة في المسجد فليقل : لا أداها الله إليك فإن المساجد لم تبن لهذا "

(187/64)

وقد كره بعض السلف المسالة في المسجد ، وكان بعضهم لا يرى أن يتصدق على السائل المتعرض في المسجد ، وقال معاذ بن جبل : إن المساجد طهرت من خمس : من أن تقام فيها الحدود ، أو يقبض فيها الخراج ، أو ينطق فيها بالأشعار ، أو ينشد فيها الضالة ، أو تتخذ سوقاً . ولم ير بعضهم بالقضاء في المسجد بأساً لأن النبي صلى الله عليه وسلم لاعن بين العجلاني وامرأته في المسجد ، ولاعن عمر عند منبر النبي صلى الله عليه وسلم ، وقضى شريح والشعبي ويحيى بن يعمر في المسجد ، وكان الحسن وزرارة بن أبي أوفى يقضيان في الرحبة خارجاً من المسجد .

(الثامنة) النوم في المسجد . عن عبادة بن تميم عن عمه أنه رأى رسول الله مستلقياً في المسجد واضعاً إحدى رجليه على الأخرى . وفيه دليل على جواز الاتكاء

والاضطجاع وأنواع الاستراحة في المسجد وجوازها في البيت إلا الانبطاح، فإنه صلى الله عليه وسلم نهى عنه وقال: "إنها ضجعة يبغضها الله"

(التاسعة) في كراهة البزاق في المسجد . عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "البزاق في المسجد خطيئة وكفارتها دفنها" وعنه صلى الله عليه وسلم "إذا قام أحدكم إلى الصلاة فلا يبصق أمامه فإنه يناجي الله ما دام في مصلاه، ولا عن يمينه فإن عن يمينه ملكاً ولكن ليبصق عن شماله أو تحت رجله فيدفنه"

(العاشرة) عن جابر أنه صلى الله عليه وسلم قال: "من أكل ثوماً أو بصلاً فليعتزل مسجدنا" وعنه صلى الله عليه وسلم "من أكل من هذه الشجرة المنتنة فلا يقربن مسجدنا فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه الإنس" .

(الحادية عشرة) في بناء المساجد في الدور عن عائشة قالت: أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ببناء المساجد في الدور وأن تنظف وتطيب . وفيه دليل أن مجرد تسمية الموضع بالمسجد لا يخرجه عن ملكه ما لم يسبله .

قوله عز من قائل ﴿ ولله المشرق والمغرب ﴾ الآية ، الأكثرون على أنها نزلت في أمر يختص بالصلاة ، ومنهم من زعم أنها نزلت في أمر لا يختص بالصلاة أما الفرقة الأولى فاختلفوا على وجوه : أحدها : أراد به تحويل المسلمين عن استقبال بيت المقدس إلى الكعبة فقال : إن المشرق والمغرب وجميع الأطراف مملوكة له سبحانه ومخلوقة له ، فأينما أمركم باستقباله فهو القبلة لأن القبلة ليست قبلة لذاتها بل بجعل الله تعالى ، فكانت الآية مقدمة لما أراد من نسخ القبلة ، وثانيها عن ابن عباس : لما حولت القبلة عن بيت المقدس أنكر اليهود ذلك فنزلت رداً عليهم . وثالثها قول أبي مسلم : إن كلاً من اليهود والنصارى زعمت أن الجنة لهم وحدهم فرد الله عليهم ، وذلك أن اليهود إنما استقبلوا بيت المقدس لاعتقادهم أنه تعالى صعد السماء من الصخرة ، والنصارى استقبلوا المشرق لأن عيسى ولد هناك

(189/64)

﴿ إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً ﴾ [مريم : 16] فكل منهما وصف معبوده بالحلول في الأماكن ، ومن كان هكذا فهو مخلوق لا خالق فكيف تخلص لهم الجنة وهم لا يفرقون بين المخلوق والخالق ؟ ورابعها : قول قتادة وابن زيد : إن الله تعالى نسخ بيت المقدس بالتخيير إلى أي جهة شاءوا بهذه الآية ، وكان للمسلمين ذلك إلا أن النبي صلى الله

عليه وسلم كان يختار التوجه إلى بيت المقدس ، ثم إنه تعالى نسخ ذلك التخيير بتعيين الكعبة . وخامسها أن الآية في حق من يشاهد الكعبة فله الاستقبال من أي جهة شاء . وسادسها : روى عبد الله بن عامر بن ربيعة : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزاة في ليلة سوداء مظلمة فلم نعرف القبلة ، فجعل كل رجل منا مسجده حجارة موضوعة بين يديه ثم صلينا ، فلما أصبحنا إذا نحن على غير القبلة فذكرنا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله هذه الآية عذراً لنا في خطئنا . وهذا الحديث يدل على أنهم حينئذ قد نقلوا إلى الكعبة ، لأن القتال فرض بعد الهجرة بعد نسخ القبلة . وسابعها : عن ابن عمر نزلت في المسافر يصلي النوافل حيث توجهت به راحلته ، وكان صلى الله عليه وسلم إذا رجع من مكة صلى على راحلته تطوعاً يومئ برأسه نحو المدينة . فمعنى الآية أينما تولوا وجوهكم لنوافلكم في أسفاركم فثم وجه الله ، أي فقد صادفتم رضاه إن الله واسع الفضل عليم بمصالحكم فمن ثم رخص لكم كيلا يلزم ترك النوافل والتخلف عن الرفقة ، فإن النوافل غير محصورة بخلاف الفرائض فإنها محصورة . فتكليف النزول عن الراحلة لاستقبال القبلة لا يفضي فيها إلى الحرج ، ولا يخفى أن الآية على الوجه الأول ناسخة ، وعلى الوجه الرابع منسوخة ، وعلى سائر الوجوه لا ناسخة ولا منسوخة . وأما الفرقة الثانية فاختلفوا أيضاً فقيل : الخطاب في ﴿ تولوا ﴾ للمانعين والساعين يريد أنهم أين هربوا فإن سلطاني يلحقهم وتدبيري يسبقهم وعلمي محيط بمكانهم . عن قتادة أن النبي

(190/64)

صلى الله عليه وسلم قال : " إن أخاكم النجاشي قد مات فصلوا عليه فقالوا نصلي على رجل ليس بمسلم " فنزلت ﴿ وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم ﴾ [آل عمران : 199] الآية . فقالوا : إنه كان لا يصلي إلى القبلة فنزلت هذه الآية أي الجهات التي يصلي إليها أهل كل ملة لي . فمن وجه وجهه نحو شيء منها يريد طاعتي وجد ثوابي ، فكان في هذا عذر للنجاشي وأصحابه الذين ماتوا على استقبال المشرق كقوله ﴿ وما كان الله ليضيع إيمانكم ﴾

(191/64)

[البقرة : 143] وعن الحسن ومجاهد والضحاك : لما نزلت ﴿ ادعوني أستجب لكم ﴾ [غافر : 60] قالوا : أين ندعوه ؟ فنزلت ، وعن علي بن عيسى أنه خطاب للمسلمين أي لا يمنعكم تخريب من خرب مساجد الله عن ذكره حيث كنتم من أرضه فلله بلاد المشرق والمغرب والجهات كلها ، ففي أي مكان فعلتم التولية التي أمرتم بها بدليل ﴿ فولِّ

وجهك شطر المسجد الحرام ﴾ [البقرة : 144] ﴿ فولوا وجوهكم شطره ﴾ [البقرة : 144] فثم الجهة المأمورة المرضية وهذا كقوله صلى الله عليه وسلم " جعلت لي الأرض مسجداً " وقيل : نزلت في المجتهدين في الصلاة أو في غيرها ، وفيه أن المجتهد إذا رأى بشرائط الاجتهاد رأياً فهو مصيب . ومعنى تولوا في جميع الوجوه تقبلوا بوجوهكم إليها . ويقال : ولى هارباً أي أدبر ، فالتولية من الأضداد ، ومن جعل الخطاب للمانعين احتمل أن يريد بالتولية الإدبار و ﴿ ثم ﴾ إشارة إلى المكان خاصة . وقد زعمت المجسمة من الآية أن لله تعالى وجهاً وأيضاً سماه واسعاً ، والسعة من نعوت الأجسام . والجواب أن الآية عليه لا له ، فإن الوجه لو حمل على مفهومه اللغوي لزم خلاف المعقول فإنه إن كان محاذياً للشرقي استحال أن يكون حينئذ محاذياً للغربي ، فلا بد من تأويل هو : أن الإضافة للتشريف مثل " بيت الله " " وناقة الله " لأنه خلقهما وأوجدهما فأي وجه من وجوه العالم وجهاته المضافة إليه بالخلق والتكوين نصبه وعينه فهو قبلة والمراد بالوجه القصد والنية مثل ﴿ وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض ﴾ [الأنعام : 79] أو المراد فثم مرضاة الله مثل ﴿ إنما نطعمكم لوجه الله ﴾ [الدهر : 9] فإن المتقرب إلى رضا أحد شيئاً فشيئاً كالمتوجه إلى شخص ذاهباً إليه شيئاً فشيئاً . وكيف يكون له وجه أو وجهة ، أم كيف يكون جسماً أو جسمانياً وأنه خالق الأمكنة والأحياز والجواهر والأعراض والخالق مقدم على المخلوق تقدماً بالذات والعلية والشرف ؟ فالمراد بالسعة كمال

(192/64)

الاستيلاء والقدرة والملك وكثرة العطاء والرحمة والإنعام ، وأنه تعالى قادر على الإطلاق وفي توفية ثواب من يقوم بالمأمورات على شرطها ، وتوفية عقاب من يتكاسل فيها ، عليم بمواقع نياتهم فيجازيهم على حسب أعمالهم .

قوله ﴿ وقالوا اتخذ الله ولداً ﴾ نوع آخر من قبائح أفعال اليهود والنصارى والمشركين جميعاً فقد مر ذكرهم في قوله ﴿ كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم ﴾ وفي قوله ﴿ ومن أظلم ﴾ كما مر . والضمير يصلح للعود إليهم ، فاليهود قالوا عزير ابن الله ، والنصارى قالوا المسيح ابن الله ، والمشركون من العرب قالوا الملائكة بنات الله ﴿ سبحانه ﴾ تنزيه له عن ذلك وتبعيد ﴿ بل له ما في السموات والأرض ﴾ ملكاً وخلقاً وإبداعاً وصنعاً ، ومن جملتهم الملائكة وعزير والمسيح . والولد لا بد أن يكون من جنس الوالد ، ومن أين المناسبة بين واجب الوجود لذاته وممكن الوجود لذاته ؟ اللهم إلا في مطلق الوجود ، وذلك لا يقتضي شركة في الحقيقة الخاصة بكل منهما .

(193/64)

وقد يتخذ الولد للحاجة إليه في الكبر ورجاء الانتفاع بمعونته وذلك على الغني المطلق والقيوم الحق محال ﴿ كل له قانتون ﴾ التنوين عوض عن محذوف أي كل ما في السموات والأرض والقنوت في الأصل الدوام ثم الطاعة ، أو طول القيام أو السكوت فالمعنى أن دوام الممكنات واستمرارها جميعاً به ولأجله وقيل : عن مجاهد وابن عباس مطيعون فسئل ما للكفار ، فأجاب : أنهم يطيعون يوم القيامة فسئل هذا للمكلفين . وقوله ﴿ بل له ما في السموات ﴾ يعم المكلف وغيره ، فعدل إلى تفسير آخر قائلاً المراد كونها شاهدة على وجود الخالق بما فيها من آثار القدرة وأمارات الحدوث ، أو كون جميعها في ملكه وتحت قهره لا يمتنع عن تصرفه فيها كيف يشاء . وعلى هذه الوجوه جمع السلامة في ﴿ قانتون ﴾ للتغليب ، أو يراد كل من الملائكة وعزير والمسيح عابدون له مقرون بربوبيته منكرون لما أضافوا إليهم من الولدية ، وعلى هذا الوجه يجمع على الأصل . يحكى أن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه قال لبعض النصارى : لولا تمرد عيسى عن عبادة الله تعالى لصرت على دينه . فقال النصراني : كيف يجوز أن ينسب ذلك إلى عيسى مع جده في طاعة الله ؟ فقال علي : إن كان عيسى إلهاً فالإله كيف يعبد غيره ؟ وإنما العبد هو الذي يليق به العبادة فانقطع النصراني وبهت ﴿ بديع ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي هو بديع ﴿ السموات والأرض ﴾ عم أولاً لأن الملكية والاختصاص لا يستلزم كون المالك موجداً للمملوك ، ثم خص ثانياً فقال بديع : بدع الشيء بالضم فهو بديع ، وأبدعته اخترعته لأعلى مثال ، وهذا

من إضافة الصفة المشبهة إلى فاعلها أي بديع سمواته وأرضه . وقيل : بمعنى المبدع كأليم بمعنى مؤلم وضعف ، ثم إنه تعالى بين كيفية إبداعه فقال : ﴿ وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ﴾ أصل التركيب من " ق ض ى " يدل على القطع . قضى القاضي بهذا إذا فصل الدعوى ، وانقضى الشيء انقطع ، وقضى حاجته قطعها عن المحتاج ، وقضى الأمر إذا أتمه

(194/64)

وأحكمه ، لأن إتمام العمل قطع له ، وقضى دينه أداه لأنه انقطع كل منهما عن صاحبه وضاق الشيء لأنه كأنه مقطوع الأطراف ، والأمر الشأن ، والفعل ههنا ، ومعنى قضى أمراً أتمه أو حكم بأنه يفعله أو أحكمه قال :

وعليهما مسرودتان قضاهما . . . داود أو صنع السوابغ تبع

ثم من قرأ ﴿ فيكون ﴾ بالرفع على تقدير فهو يكون فلا إشكال ، وأما من قرأ بالنصب على أنه جواب الأمر فأورد عليه أن جواب الأمر لا بد أن يخالف الأمر في الفعل أو في الفاعل أو فيهما نحو : اذهب تنتفع ، أو اذهب يذهب زيد ، أو اذهب ينفعك زيد ، فإما أن يتفق الفعلان والفاعلان نحو : اذهب تذهب فغير جائز لأن الشيء لا يكون شرطاً لنفسه .

قلت : لا استبعاد في هذا ، لأن الغرض الذي رتب على الأمر قد يكون شيئاً مغايراً لفعل الأمر وذلك أكثري ، وقد لا يكون الغرض إلا مجرد ذلك الفعل فيوقع في جواب نفسه ليعلم أن الغرض منه ليس شيئاً آخر مغايراً له . فقول القائل " اذهب تذهب أو فتذهب " معناه إعلام أن الغرض من الأمر هو نفس صدور الذهاب عنه لا شيء آخر ، كما أن المقصود في الآية من الأمر بالوجود هو نفس الوجود ، فأوقع "كان" التامة جواباً لمثلها لهذا الغرض ، على أنه يمكن أن يشبه الواقع بعد الأمر بجواب الأمر وإن لم يكن جواباً له من حيث المعنى . فإن قلت : إن قوله ﴿ فيكون ﴾ لما كان من تتمة المقول . فالصواب أن يكون بتاء الخطاب نحو " اذهب فتذهب " قلت : هذا الحادث قد ذكر مرتين بلفظ الغيبة في قوله ﴿ أمراً ﴾ وفي قوله ﴿ له ﴾ ومرة على سبيل الخطاب فغلب جانب الغيبة ، ويحتمل أن يكون من باب الالتفات تحقيراً لشأنه في سهولة تكونه ، ولأن أول الكلام مع المكلفين فروعي ذلك . وههنا بحث آخر وهو أنه لا يجوز أن يتوقف إيجاد الله تعالى لشيء على صدور لفظة "كن" منه لوجوه : الأول أن قوله ﴿ كن ﴾ إما أن يكون قديماً أو محدثاً لا جائز أن يكون قديماً ، لأن النون لكونه مسبوقاً بالكاف يكون محدثاً لا محالة ، والكاف لكونه متقدماً على المحدث

بزمان مقدر يكون محدثاً أيضاً ، ولأن " إذا " للاستقبال فالقضاء محدث ، وقوله "كن " مرتب عليه بفاء التعقيب ، والمتأخر عن المحدث محدث ، ولأن تكون المخلوق مرتب على قوله "كن " بالفاء والمتقدم على المحدث بزمان محصور محدث أيضاً ، ولا جائز أن يكون " كن " محدثاً وإلا احتاج إلى مثله ويلزم إما الدور وإما التسلسل وإذا بطل القسمان بطل توقف الأشياء على "كن " (الثاني) إما أن يخاطب المخلوق ب "كن " قبل دخوله في الوجود وخطاب المعدوم سفه ، وإما بعد دخوله في الوجود لا فائدة فيه . (الثالث) المخلوق قد يكون جماداً وتكليف الجماد لا يليق

(196/64)

بالحكمة . (الرابع) إذا فرضنا القادر المريد منفكاً عن قوله ﴿ كن ﴾ فإن تمكن من الإيجاد فلا حاجة إلى ﴿ كن ﴾ ، وإن لم يتمكن فلا يكون القادر قادراً على الفعل إلا عند تكلمه ب ﴿ كن ﴾ فيلزم عجز القادر بالنظر إلى ذاته ، أو يرجع الحاصل إلى تسمية القدرة ب ﴿ كن ﴾ ولا نزاع في اللفظ . (الخامس) أنا نعلم بالضرورة أنه لا تأثير لهذه الكلمة إذا تكلمنا بها وكذا إذا تكلم بها غيرنا . (السادس) المؤثر إما مجموع الكاف والنون ولا وجود لهما مجموعين ، فعند مجيء الثاني ينقضي الأول ، وإما أحدهما وهذا

خلاف المفروض فثبت بهذه الوجوه أن حمل الآية على الظاهر غير جائز فلا بد من تأويل ، وأصحه أن يقال : المراد أن ما قضاه من الأمور وأراد كونه فإنما يتكون ويدخل تحت الوجود من غير امتناع ولا توقف ، فشبه حال هذا المتكون بحال المأمور المطيع الذي يؤمر فيتمثل لا يتوقف ولا يمتنع ولا يأبى ، وفيه تأكيد لاستبعاد الولادة لأن من كان بهذه الصفة من القدرة كانت حاله مباينة لأحوال الأجسام في توالدها وقيل : إنه علامة وضعها الله تعالى للملائكة إذا سمعوها علموا أنه أحدث أمراً ، عن أبي الهزيل .

(197/64)

وقيل إنه خاص بالموجودين الذين قال لهم كونوا قردة ومن يجري مجراهم من الأمم . وقيل : أمر للأحياء بالموت وللموتى بالحياة ﴿ وقال الذين لا يعلمون ﴾ يعني الجهلة من المشركين . وقيل : من أهل الكتاب أيضاً . ونفى عنهم العلم لأنهم لم يعملوا به . فالآية الأولى فيها بيان قدحهم في التوحيد ، وهذه الآية فيها بيان قدحهم في النبوة . ولولا حرف تحضيض أي هلا يكلمنا وتقرير الشبهة أن الحكيم إذا أراد تحصيل شيء اختار أقرب الطريق المؤدية إلى المطلوب ، ثم إنه تعالى كلم الملائكة وكلم موسى وأنت تقول يا محمد إنه كلمك ﴿ فأوحى إلى عبده ما أوحى ﴾ [النجم : 10] فلم لا يكلمنا مشافهة ولا ينص على نبوتك حتى

يتأكد الاعتقاد وتزول الشبهة ؟ فإن لم يفعل ذلك فلم لا تأتي بآية ومعجزة ؟ وهذا طعن منهم في كون القرآن آية ومعجزة فأجابهم الله تعالى بقوله ﴿ كذلك قال الذين من قبلهم ﴾ من مكذبي الرسل ﴿ تشابهت قلوبهم ﴾ أي قلوب هؤلاء ومن قبلهم في العمى كقوله ﴿ أتواصوا به ﴾ [الذاريات : 53] فكما أن قوم موسى كانوا أبداً في التعنت واقتراح الأباطيل ﴿ لن نصبر على طعام واحد ﴾ [البقرة : 61] ﴿ أرنا الله جهرة ﴾ [النساء : 153] ﴿ اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ﴾ [الأعراف : 138] فكذلك هؤلاء المشركون ﴿ قالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً ﴾ [الإسراء : 90] ﴿ لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا ﴾ [الفرقان : 21] وكذلك المعاصرون من اليهود والنصارى ﴿ يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء ﴾ [النساء : 153] ﴿ قد بينا الآيات لقوم ﴾ يفقهون ف ﴿ يوقنون ﴾ أنها آيات . فلو كان غرضهم طلب الحق لوقع الاكتفاء بها لكونها آيات ظاهرة هي القرآن العظيم الذي أخرس شقاشق الفصحاء عن آخرهم ، ومعجزات باهرة كمجيء الشجرة وحنين الجذع وتسبيح الحصى وإشباع الخلق الكثير من الطعام القليل ، وأيضاً لو كان في معلوم الله تعالى أنهم يؤمنون عند إنزال ما

اقترحوه لفعلها ، لكنه علم لجاجهم وعنادهم فلا جرم لم يفعل ذلك وأيضاً ، لعل في تلك الآيات مفاسد لا يعلمها إلا علام الغيوب كإفضائها إلى حد الإلجاء المخل بالتكليف ، وكإيجابها استئصالهم بالكلية إذا استمروا على التكذيب ، وكخروجها عن القدر الصالح لإلزام الحجة ، وأيضاً كثرة الآيات وتعاقبها ينافي كونها خوارق لعادة فلا تبقى آيات ، وكل ما أدى وجوده إلى عدمه ففرض وجوده محال ، فثبت بهذه البيانات أن عدم إسعافهم بما اقترحوه لا يقدح في صحة النبوة والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 1 صـ 380.370 ﴾

(199/64)

قوله تعالى ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ (119) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما تضمن هذا السياق الشهادة بصحة رسالته صلى الله عليه وسلم وأنه ليس عليه إلا

البيان صرح بالأمرين في قوله مؤكداً لكثرة المنكرين ﴿ إنا أرسلناك ﴾ هذا على أن يكون المراد بذلك جميع الأمم ، أما إذا أريد هذه الأمة فقط فيكون المعنى : قد بينا الآيات الدالات على طريق الحق بأعظم برهان وبالإخبار عن دقائق لا يعلمها إلا حُذّاق أهل الكتاب لقوم يحق عليهم الإيقان لما وضح لهم من الأدلة ، ثم علل ذلك لقوله : ﴿ إنا أرسلناك ﴾ إرسالاً ملتبساً ﴿ بالحق ﴾ أي بالأمر الكامل الذي يطابقه الواقع في كل جزئية يخبر بها .

قال الحرالي : والحق التام المكمل بكلمة " أل " هو استنطاق الخلق عن أمر الله فيهم على وجه أعلى لرسالته العلية الخاصة به عن عموم مّا وقعت به رسالة المرسلين من دون هذا الخصوص ، وذلك " حق " منكر ، كما تقدم أي عند قوله : ﴿ وهو الحق مصدقاً لما معهم ﴾ [البقرة : 91] لأن ما أحق غيباً مما أنزله الله فهو " حق " حتى السحر ، وما أظهر غيب القضاء والتقدير وأعلن بإبداء حكمة الله على ما أبداها من نفوذ مشيئته في متقابل ما أبداه من خلقه فهو " الحق " الذي خلقت به السماوات والأرض ابتداء وبه ختمت الرسالة انتهاء لتطابق الأول والآخر كمالاً ، حال كونك ﴿ بشيراً ونذيراً ﴾

وقال الحرالي : لما أجرى الله سبحانه من الخطاب عن أهل الكتاب والعرب نبّأ ردهم لما أنزل أولاً وآخراً ونبأ ما افتروه مما لا شبهة فيه دعواه أعرض بالخطاب عن الجميع وأقبل به على النبي صلى الله عليه وسلم تسلية له وتأكيداً لما أعلمه به في أول السورة من أن الأمر مجرى على تقديره وقسمته الخلق بين مؤمن وكافر ومنافق ، فأنبأه تعالى أنه ليس مضمون رسالته أن يدعو الخلق إلى غير ما جبلوا عليه ، وأن مضمون رسالته أن يستظهر خبايا الأفئدة والقلوب على الألسنة والأعمال ، فيبشر المهتدي والثابت على هدى سابق ، وينذر الأبيّ والمنكر لما سبق إقراره به قبل ، فعم بذلك الأولين والآخرين من المبشرين والمنذرين – انتهى – أي فليس عليك إلا ذلك فبشر وأنذر فإنما عليك البلاغ وليس عليك خلق الهداية في قلوب أهل النعيم ﴿ ولا تسأل ﴾ ويجوز أن يكون حالاً من ﴿ أرسلناك ﴾ أو من ﴿ بشيراً ﴾ ﴿ عن أصحاب الجحيم ﴾ والمراد بهم من ذكر في الآية السابقة من الجهلة ومن قبلهم ، أي عن أعمالهم لتذهب نفسك عليهم حسرات لعدم إيمانهم ، كما قال تعالى ﴿ ولا تسألون عما كانوا يعملون ﴾ [البقرة : 141] أي فحالك مستو بالنسبة إلينا وإليهم .

(201/64)

لأنك إن بلغتهم جميع ما أرسلت به إليهم لم نحاسبك بأعمالهم ، وإن تركت بعض ذلك محاسنة لهم لم يحبّوك ما دمت على دينك فأقبل على أمرك ولا تبال بهم ، وهو معنى قراءة نافع ﴿ ولا تسأل ﴾ على النهي ، أي احتقرهم فإنهم أقل من أن يلتفت إليهم ، فبلغهم جميع الأمر فإنهم لا يحبونك إلا إذا انسخلت مما أنت عليه ؛ وفي الحكم بكونهم أصحابها إثبات لما نفوه عن أنفسهم بقوله : ﴿ لن تمسنا النار ﴾ [البقرة : 80] ونفى لما خصصوا به أنفسهم في قولهم : ﴿ لن يدخل الجنة ﴾ [البقرة : 111] الآية ، والجحم قال الحرالي : انضمام الشيء وعظم فيه ، ومن معنى حروفه الحجم وهو التضام وظهور المقدار إلا أن الحجم فيما ظهر كالأجسام والجحم – بتقديم الجيم – فيما يلطف كالصوت والنار . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 233. 234 ﴾

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ ولا تسئل ﴾ على النهي : نافع ويعقوب . الباقون بضم التاء ورفع اللام على الخبر .

الوقوف : ﴿ ونذيراً ﴾ (لا) للعطف أي نذيراً وغير مسؤول إلا لمن قرأ ﴿ ولا تسئل ﴾ على النهي لاختلاف الجملتين ﴿ الجحيم ﴾ (5) ﴿ ملتهم ﴾ (ط) ﴿ الهدى ﴾ (ط) ﴿ من العلم ﴾ (لا) لأن نفي الولاية والنصرة يتعلق بشرط اتباع أهوائهم فكان في

الإطلاق حظر ﴿ نصير ﴾ (5) ﴿ تلاوته ﴾ (ط) لأن ما بعدها مبتدأ آخر مع خبره . وعندي أن الأصوب عدم الوقف لتكون الجملة أعني يتلونه حالاً من مفعول آتينا أو من فاعله مقدرة وقوله ﴿ أولئك يؤمنون به ﴾ الجملة خبر " الذين " لأن الإخبار عن أهل الكتاب مطلقاً بأنهم يتلونه حق تلاوته لا يصح ، اللهم إلا أن يحمل الكتاب على القرآن كما يجيء ﴿ يؤمنون به ﴾ (ط) للابتداء بالشرط ﴿ الخاسرون ﴾ (5) ﴿ العالمين ﴾ (5) ﴿ ينصرون ﴾ (5) . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 1 صـ 381 ﴾

(202/64)

فصل

قال الفخر :

اعلم أن القوم لما أصروا على العناد واللجاج الباطل واقترحوا المعجزات على سبيل التعنت بين الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم أنه لا مزيد على ما فعله في مصالح دينهم من إظهار الأدلة وكما بين ذلك بين أنه لا مزيد على ما فعله الرسول في باب الإبلاغ والتنبيه لكي لا يكثر غمه بسبب إصرارهم على كفرهم

وفي قوله : ﴿ بالحق ﴾ وجوه .

أحدها : أنه متعلق بالإرسال ، أي أرسلناك إرسالاً بالحق .

وثانيها : أنه متعلق بالبشير والنذير أي أنت مبشر بالحق ومنذر به .

وثالثها : أن يكون المراد من الحق الدين والقرآن ، أي أرسلناك بالقرآن حال كونه بشيراً لمن أطاع الله بالثواب ونذيراً لمن كفر بالعقاب ، والأولى أن يكون البشير والنذير صفة للرسول صلى الله عليه وسلم فكأنه تعالى قال : إنا أرسلناك يا محمد بالحق لتكون مبشراً لمن اتبعك واهتدى بدينك ومنذراً لمن كفر بك وضل عن دينك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 4 صـ 28 ﴾

(203/64)

وقال السمرقندى :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أرسلناك بالحق بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ ، أي بالقرآن .

ويقال بالحق يعني بالدعوة إلى الحق .

ويقال : بالحق أي لأجل الحق .

ويقال : أي بالدعوة إلى الحق .

ويقال : ببيان الحق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ 115 ﴾

وقال السعدى :

ثم ذكر تعالى بعض آية موجزة مختصرة جامعة للآيات الدالة على صدقه صلى الله عليه وسلم وصحة ما جاء به فقال : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ فهذا مشتمل على الآيات التي جاء بها ، وهي ترجع إلى ثلاثة أمور :

الأول : في نفس إرساله ، والثاني : في سيرته وهديه ودله ، والثالث : في معرفة ما جاء به من القرآن والسنة .

فالأول والثاني ، قد دخلا في قوله : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ ﴾ والثالث دخل في قوله : ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ .

وبيان الأمر الأول وهو – نفس إرساله – أنه قد علم حالة أهل الأرض قبل بعثته صلى الله عليه وسلم وما كانوا عليه من عبادة الأوثان والنيران ، والصلبان ، وتبديلهم للأديان ، حتى كانوا في ظلمة من الكفر ، قد عمتهم وشملتهم ، إلا بقايا من أهل الكتاب ، قد انقرضوا قبيل البعثة .

وقد علم أن الله تعالى لم يخلق خلقه سدى ، ولم يتركهم هملا لأنه حكيم عليم ، قدير رحيم ، فمن حكمته ورحمته بعباده ، أن أرسل إليهم هذا الرسول العظيم ، يأمرهم بعبادة الرحمن وحده لا شريك له ، فبمجرد رسالته يعرف العاقل صدقه ، وهو آية كبيرة على أنه رسول الله ، وأما الثاني : فمن عرف النبي صلى الله عليه وسلم معرفة تامة ، وعرف سيرته

وهديه قبل البعثة ، ونشوءه على أكمل الخصال ، ثم من بعد ذلك ، قد ازدادت مكارمه وأخلاقه العظيمة الباهرة للناظرين ، فمن عرفها ، وسبر أحواله ، عرف أنها لا تكون إلا أخلاق الأنبياء الكاملين ، لأن الله تعالى جعل الأوصاف أكبر دليل على معرفة أصحابها وصدقهم وكذبهم .

(204/64)

وأما الثالث : فهو معرفة ما جاء به صلى الله عليه وسلم من الشرع العظيم ، والقرآن الكريم ، المشتمل على الإخبارات الصادقة ، والأوامر الحسنة ، والنهي عن كل قبيح ، والمعجزات الباهرة ، فجميع الآيات تدخل في هذه الثلاثة .

قوله : ﴿ بَشِيرًا ﴾ أي لمن أطاعك بالسعادة الدنيوية والأخروية ، ﴿ نَذِيرًا ﴾ لمن عصاك بالشقاوة والهلاك الدنيوي والأخروي . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير السعدى صـ 64 ﴾

(205/64)

وقال الآلوسى :

﴿ إِنَّا أرسلناك بالحق ﴾ أي متلبسا مؤيداً به فالظرف مستقر ، وقيل : لغو متعلق بأرسلنا أو بما بعده ، وفسر الحق بالقرآن أو بالاسلام وبقاؤه على عمومه أولى ﴿ بَشِيراً وَنَذِيراً ﴾ حالان من الكاف ، وقيل : من الحق والآية اعتراض لتسلية الرسول صلى الله عليه وسلم لأنه كان يهتم ويضيق صدره لإصرارهم على الكفر والمراد : إنا أرسلناك لأن تبشر من أطاع وتنذر من عصى لا لتجبر على الإيمان فما عليك إن أصروا أو كابروا ؟

والتأكيد لإقامة غير المنكر مقام المنكر بما لاح عليه من أمارة الإنكار والقصر إفرادي .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 370 ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾

جملة معترضة بين حكايات أحوال المشركين وأهل الكتاب ، القصد منها تأنيس الرسول عليه الصلاة والسلام من أسفه على ما لقيه من أهل الكتاب مما يماثل ما لقيه من المشركين وقد كان يود أن يؤمن به أهل الكتاب فيتأيد بهم الإسلام على المشركين فإذا هو يلقى منهم ما لقي من المشركين أو أشد وقد قال " لو آمن بي عشرة من اليهود لآمن بي اليهود كلهم " فكان لتذكير الله إياه بأنه أرسله تهدئة لخاطره الشريف وعذر له إذ أبلغ الرسالة وتطمين لنفسه بأنه غير مسؤول عن قوم رضوا لأنفسهم بالجحيم .

وفيه تمهيد للتأييس من إيمان اليهود والنصارى .

وجيء بالتأكيد وإن كان النبي لا يتردد في ذلك لمزيد الاهتمام بهذا الخبر وبيان أنه ينوه به لما تضمنه من تنويه شأن الرسول .

وجيء بالمسند إليه ضمير الجلالة تشريفاً للنبيء صلى الله عليه وسلم بعز الحضور لمقام التكلم مع الخالق تعالى وتقدس كأن الله يشافهه بهذا الكلام بدون واسطة فلذا لم يقل له إن الله أرسلك .

وقوله : ﴿ بالحق ﴾ متعلق بأرسلناك .

والحق هو الهدى والإسلام والقرآن وغير ذلك من وجوه الحق المعجزات وهي كلها ملابسة للنبيء صلى الله عليه وسلم في رسالته بعضها بملابسة التبليغ وبعضها بملابسة التأييد .

(206/64)

فالمعنى إنك رسول الله وإن القرآن حق منزل من الله .

وقوله : ﴿ بشيراً ونذيراً ﴾ حالان وهما بزنة فعيل بمعنى فاعل مأخوذان من بشر المضاعف وأنذر المزيد فمجيئهما من الرباعي على خلاف القياس كالقول في ﴿ بديع السماوات والأرض ﴾ [البقرة : 117] المتقدم آنفاً ، وقيل : البشير مشتق من بشر

المخفف الشين من باب نصر ولا داعي إليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 1 صـ 673 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَلاَ تُسْئَلُ عَنْ أصحاب الجحيم ﴾

فصل

قال الفخر :

أما قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تُسْئَلُ عَنْ أصحاب الجحيم ﴾ ففيه قراءتان :

الجمهور برفع التاء واللام على الخبر ، وأما نافع فبالجزم وفتح التاء على النهي .

أما على القراءة الأولى ففي التأويل وجوه .

أحدها : أن مصيرهم إلى الجحيم فمعصيتهم لا تضرك ولست بمسؤول عن ذلك وهو كقوله : ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ البلاغ وَعَلَيْنَا الحساب ﴾ [الرعد : 40] ، وقوله : ﴿ عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَّا حُمِّلْتُمْ ﴾ [النور : 54] .

والثاني : أنك هاد وليس لك من الأمر شيء ، فلا تأسف ولا تغتم لكفرهم ومصيرهم إلى العذاب ونظيره قوله : ﴿ فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حسرات ﴾ [فاطر : 8] .

الثالث : لا تنظر إلى المطيع والعاصي في الوقت ، فإن الحال قد يتغير فهو غيب فلا تسأل عنه ، وفي الآية دلالة على أن أحداً لا يسأل عن ذنب غيره ولا يؤاخذ بما اجترمه سواه سواء كان قريباً أو كان بعيداً .

أما القراءة الثانية ففيها وجهان ، الأول : روي أنه قال : ليت شعري ما فعل أبواي ؟ فنهي عن السؤال عن الكفرة وهذه الرواية بعيدة لأنه عليه الصلاة والسلام كان عالماً بكفرهم ، وكان عالماً بأن الكافر معذب ، فمع هذا العلم كيف يمكن أن يقول : ليت شعري ما فعل أبواي .

(207/64)

والثاني : معنى هذا النهي تعظيم ما وقع فيه الكفار من العذاب ، كما إذا سألت عن إنسان واقع في بلية فيقال لك : لا تسأل عنه ، ووجه التعظيم أن المسؤول يجزع أن يجري على لسانه ما هو فيه لفظاعته فلا تسأله ولا تكلفه ما يضجره ، أو أنت يا مستخبر لا تقدر على استماع خبره لإيحاشه السامع وإضجاره ، فلا تسأل ، والقراءة الأولى يعضدها قراءة أبي : (وما تسأل) وقراءة عبد الله (ولن تسأل) . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 4 صـ 28 . 29 ﴾

وقال القرطبى :

﴿ وَلاَ تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الجحيم ﴾

قال مقاتل : إن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " لو أنزل الله بأسه باليهود لآمنوا " ؛ فأنزل

الله تعالى : ﴿ وَلاَ تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الجحيم ﴾ برفع تسأل ، وهي قراءة الجمهور ، ويكون في موضع الحال بعطفه على ﴿ بَشِيراً وَنَذِيراً ﴾ .

والمعنى إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً غير مسؤول .

وقال سعيد الأخفش : ولا تَسأَلُ (بفتح التاء وضم اللام) ؛ ويكون في موضع الحال عطفاً على ﴿ بَشِيراً وَنَذِيراً ﴾ .

والمعنى : إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً غير سائل عنهم ؛ لأن علم الله بكفرهم بعد إنذارهم يغني عن سؤاله عنهم .

هذا معنى غير سائل .

ومعنى غير مسؤول لا يكون مؤاخذاً بكفر من كفر بعد التبشير والإنذار .

وقال ابن عباس ومحمد بن كعب : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذات يوم : " ليت شعري ما فعل أبواي " فنزلت هذه الآية ؛ وهذا على قراءة من قرأ " ولا تسأَلْ" جزماً على النّهي ، وهي قراءة نافع وحده ؛ وفيه وجهان :

أحدهما : أنه نهى عن السؤال عمن عصى وكفر من الأحياء ؛ لأنه قد يتغيّر حاله فينتقل عن الكفر إلى الإيمان ، وعن المعصية إلى الطاعة .

والثاني : وهو الأظهر ، أنه نهى عن السؤال عمن مات على كفره ومعصيته ، تعظيماً لحاله

وتغليظاً لشأنه ، وهذا كما يقال : لا تسأل عن فلان ! أي قد بلغ فوق ما تحسب .

وقرأ ابن مسعود " ولن تسأل " .

(208/64)

وقرأ أُبَيّ " وما تسأل " ؛ ومعناهما موافق لقراءة الجمهور ، نَفي أن يكون مسؤولاً عنهم .

وقيل : إنما سأل أيّ أبويه أحدث موتاً ؛ فنزلت .

وقد ذكرنا في كتاب " التذكرة " أن الله تعالى أحيا له أباه وأمّه وآمنَا به ، وذكرنا " قوله عليه السلام للرجل : إن أبي وأباك في النار " وبيّنا ذلك ، والحمد لله . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 2 صـ 92 . 93 ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ ولا تسأل عن أصحاب الجحيم ﴾ : قراءة الجمهور : بضم التاء واللام .

وقرأ أبي : وما تسأل .

وقرأ ابن مسعود : ولن تسأل ، وهذا كله خبر .

فالقراءة الأولى ، وقراءة أبي يحتمل أن تكون الجملة مستأنفة ، وهو الأظهر ، ويحتمل أن تكون في موضع الحال .

وأما قراءة ابن مسعود فيتعين فيها الاستئناف ، والمعنى على الاستئناف أنك لا تسأل عن الكفار ما لهم لم يؤمنوا ، لأن ذلك ليس إليك ، ﴿ إن عليك إلا البلاغ ﴾ ﴿ إنك لا تهدي من أحببت ﴾ ﴿ إنما أنت منذر ﴾ وفي ذلك تسلية له صلى الله عليه وسلم ، وتخفيف ما كان يجده من عنادهم ، فكأنه قيل : لست مسؤولاً عنهم ، فلا يحزنك كفرهم .

وفي ذلك دليل على أن أحداً لا يسأل عن ذنب أحد ، ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾

وأما الحال فعطف على ما قبلها من الحال ، أي وغير مسؤول عن الكفار ما لهم لا يؤمنون ، فيكون قيداً في الإرسال ، بخلاف الاستئناف .

وقرأ نافع ويعقوب : ولا تسأل ، بفتح التاء وجزم اللام ، وذلك على النهي ، وظاهره : أنه نهى حقيقة ، نهى صلى الله عليه وسلم أن يسأل عن أحوال الكفار .

قال محمد بن كعب القرظي : قال النبي صلى الله عليه وسلم : " ليت شعري ما فعل أبواي " فنزلت ، واستبعد في المنتخب هذا ، لأنه عالم بما آل إليه أمرهما .

وقد ذكر عياض أنهما أحييا له فأسلما .

وقد صح أن الله أذن له في زيارتهما ، واستبعد أيضاً ذلك ، لأن سياق الكلام يدل على أن ذلك عائد على اليهود والنصارى ومشركي العرب ، الذين جحدوا نبوّته ، وكفروا عناداً ، وأصروا على كفرهم .

وكذلك جاء بعده : ﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى ﴾ إلا إن كان ذلك على سبيل الانقطاع من الكلام الأول ، ويكون من تلوين الخطاب وهو بعيد .

وقيل : يحتمل أن لا يكون نهياً حقيقة ، بل جاء ذلك على سبيل تعظيم ما وقع فيه أهل الكفر من العذاب ، كما تقول : كيف حال فلان ، إذا كان قد وقع في بلية ، فيقال لك : لا تسأل عنه .

ووجه التعظيم : أن المستخبر يجزع أن يجري على لسانه ما ذلك الشخص فيه لفظاعته ، فلا تسأله ولا تكلفه ما يضجره ، أو أنت يا مستخبر لا تقدر على استماع خبره لإيحاشه السامع وإضجاره ، فلا تسأل ، فيكون معنى التعظيم : إما بالنسبة إلى المجيب ، وإما بالنسبة إلى المجاب ، ولا يراد بذلك حقيقة النهي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 1 صـ 538 ﴾

(210/64)

وقال السمرقندى :

﴿ وَلاَ تُسْئَلُ عَنْ أصحاب الجحيم ﴾ ؛ قرأ نافع ﴿ وَلاَ تُسْئَلُ ﴾ بنصب التاء وجزم

اللام ، والباقون بضم التاء واللام .

فمن قرأ بالرفع ، فمعناه أنك إذا بلغت الرسالة ، فإنك قد فعلت ما عليك ، ولا تُسْأَلُ عن أصحاب الجحيم فيما فعلوا ، وهذا كما قال في آية أخرى : ﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الذى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ البلاغ وَعَلَيْنَا الحساب ﴾ [الرعد : 4] وأما ومن قرأ بالنصب ، فهو على معنى النهي ، أي لا تَسأَلْ عن أصحاب الجحيم أي عما فعلوا .

قال القاضي الخليل بن أحمد : أخبرنا الديلمي قال : أخبرنا أبو عبيد الله قال : حدثنا سفيان ، عن موسى بن عبيدة الربذي ، عن محمد بن كعب القرظي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لَيْتَ شِعْرِي مَا فُعِلَ بأَبَوَيَّ " فنزلت هذه الآية ﴿ إِنَّا أرسلناك بالحق بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلاَ تُسْئَلُ عَنْ أصحاب الجحيم ﴾ الآية . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ 115 ﴾

وقال الزمخشرى :

" ولا تَسْأَلْ " على النهي .

روي أنه قال : " ليت شعري ما فعل أبواي " .

فنهى عن السؤال عن أحوال الكفرة والاهتمام بأعداء الله .

وقيل : معناه تعظيم ما وقع فيه الكفار من العذاب كما تقول : كيف فلان ؟

سائلاً عن الواقع في بلية ، فيقال لك : لا تسأل عنه .

ووجه التعظيم أن المستخبر يجزع أن يجري على لسانه ما هو فيه لفظاعته ، فلا تسأله ولا تكلفه ما يضجره ، وأنت يا مستخبر لا تقدر على استماع خبره لإيحاشه السامع وإضجاره ، فلا تسأل ، وتعضد القراءة الأولى قراءة عبد الله : " ولن تسأَل " ، وقراءة أبيّ : " وما تسأل " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشاف حـ 1 صـ 182 ﴾

(211/64)

وقال البغوى :

قرأ نافع ويعقوب ﴿ وَلا تُسْأَلُ ﴾ على النهي قال عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما : وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ذات يوم : " ليت شعري ما فعل أبواي " فنزلت هذه الآية (1) ، وقيل : هو على معنى قولهم ولا تسأل عن شر فلان فإنه فوق ما تحسب وليس على النهي ، وقرأ الآخرون " ولا تسأل " بالرفع على النفي بمعنى ولست بمسئول عنهم (2) كما قال الله تعالى : " فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب " (20 - آل عمران) ، ﴿ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴾ والجحيم معظم النار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البغوى حـ 1 صـ 143 ﴾

---

(1) نقله ابن كثير عن عبد الرزاق بسنده عن محمد بن كعب القرظي ، وقال : رواه ابن

جرير عن أبي كريب عن وكيع عن موسى بن عبيدة ، وقد تكلموا فيه – ابن كثير : 1 / 285 دار الأرقم . قال ابن حجر في التقريب موسى بن عبيدة بن نشيط الربذي ضعيف . وقال الشيخ أحمد شاكر تعقيبا على روايتي الطبري : " هما حديثان مرسلان ، فإن محمد بن كعب بن سليم القرظي : تابعي ، والمرسل لا تقوم به حجة ، ثم هما إسنادان ضعيفان أيضا لضعف روايهما : موسى بن عبيدة بن نشيط الربذي : ضعيف جدا ، مترجم في التهذيب ، والكبير للبخاري : 4 / 1 / 291 ، والصغير : 172 – 173 ، وابن أبي حاتم : 4 / 1 / 151 – 152 فقال البخاري : " منكر الحديث ، قاله أحمد بن حنبل ، وقال علي بن المديني عن القطان : كنا نتقيه تلك الأيام " . . . . انظر تفسير الطبري : 2 / 558 – 559 بتعليق الشيخ شاكر ، وعزاه السيوطي لعبد بن حميد أيضا وابن المنذر ، وقال : هذا مرسل ضعيف الإسناد " الدر المنثور : 1 / 271 .

(212/64)

قال ابن عطية :

" ولا تسألْ " بالجزم على النهي ، وفي ذلك معنيان : أحدهما لا تسأل على جهة التعظيم لحالهم من العذاب ، كما تقول : فلان لا تسأل عنه ، تعني أنه في نهاية تشهره من خير أو شر ،

والمعنى الثاني روي فيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " ليت شعري ما فعل أبواي " فنزلت ﴿ ولا تسأل ﴾ .

وحكى المهدوي رحمه الله أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " ليت شعري أي أبوي أحدث موتاً " ، فنزلت .

قال القاضي أبو محمد : وهذا خطأ ممن رواه أو ظنه لأن أباه مات وهو في بطن أمه ، وقيل وهو ابن شهر ، وقيل ابن شهرين ، وماتت أمه بعد ذلك بخمس سنين منصرفة به من المدينة من زيارة أخواله ، فهذا مما لا يتوهم أنه خفي عليه صلى الله عليه وسلم ، وقرأ باقي السبعة " ولا تُسأَلُ " بضم التاء واللام ، وقرأ قوم " ولا تَسأَلُ " بفتح التاء وضم اللام ، ويتجه في هاتين القراءتين معنيان : أحدهما الخبر أنه لا يسأل عنهم ، أو لا يسأل هو عنهم ، والآخر أن يراد معنى الحال كأنه قال : وغير مسؤول أو غير سائل عنهم ، عطفاً على قوله ﴿ بشيراً ونذيراً ﴾ ، وقرأ أبي كعب " وما تسأل " وقرأ ابن مسعود " ولن تسأل " ، وهاتان القراءتان تؤيدان معنى القطع والاستئناف في غيرهما ، و ﴿ الجحيم ﴾ إحدى طبقات النار . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 1 صـ 203 . 204 ﴾

وقال الثعالبي :

وقرأ نافع وحده ولا تسأل ، أي : لا تسأل عن شدَّة عذابهم ؛ كما تقول : فلانٌ لا تَسْأَلْ عَنْه ، تعني أنه في نهاية تشهره من خيْرٍ أو شرٍّ .

* ت * : وزاد في " مختصر الطبرِي " ، قال : وتحتمل هذه القراءة معنى آخر ، وهو ، واللَّه أعلم ، أظهر ، أي : ولا تسأل عنهم سؤالَ مكْتَرِثٍ بما أصابهم ، أو بما هم عليه من الكُفْر الذي يوردهم الجحيمَ ؛ نظيرَ قوله عز وجل : ﴿ فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حسرات ﴾ [فاطر : 8] ، وأما ما روي عن محمَّد بن كعب القُرَظِيّ ومن وافقه ؛ من أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم سَأَلَ ، مَا فَعَلَ أَبَوَايَ ؟ فنَزَلَتِ الآيةُ في ذلك ، فهو بعيدٌ ، ولا يتصل أيضاً بمعنى مَا قبله . انتهى . ا هـ ﴿ الجواهر الحسان حـ 1 صـ 103 ﴾

(213/64)

وقال العلامة نظام الدين النيسابوري :

وأما قراءة النهي فيروى أنه قال : ليت شعري ما فعل أبواي فنهي عن السؤال عن أحوال الكفرة والاهتمام بأعداء الله . وفي هذه الرواية بُعْدٌ ، لأن سياق الكلام ينبو عن ذلك ، ولأنه صلى الله عليه وسلم مع علمه الإجمالي بحال الكفار ، كيف يتمنى ذلك ؟ والأقرب أن معناه تعظيم ما وقع فيه الكفار من المحن كما إذا سألت عمن وقع في بلية فيقال لك لا تسأل عنه ، فكان المسؤول يحرج أن يجري على لسانه ما هو فيه لفظاعته ، أو يرى أنك لا تقدر على استماع خبره لأنه يورث الوحشة والضجر . انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن

حـ 1 صـ 382.381 ﴾

وقال ابن كثير :

وقوله : ﴿ وَلا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴾ قراءة أكثرهم ﴿ وَلا تُسْأَلُ ﴾ بضم التاء على الخبر . وفي قراءة أبي بن كعب : " وما تسأل" وفي قراءة ابن مسعود : " ولن تسأل عن أصحاب الجحيم" نقلهما ابن جرير ، أي : لا نسألك عن كفر من كفر بك ، ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ [الرعد : 40] وكقوله تعالى : ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ* لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ ﴾ الآية [الغاشية : 21 ، 22] وكقوله تعالى : ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ [ق : 45] وأشباه ذلك من الآيات .

وقرأ آخرون " ولا تَسْأَلْ عن أصحاب الجحيم" بفتح التاء على النهي ، أي : لا تسأل عن حالهم ، كما قال عبد الرزاق :

أخبرنا الثوري ، عن موسى بن عبيدة ، عن محمد بن كعب القرظي ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ليت شعري ما فعل أبواي ، ليت شعري ما فعل أبواي ، ليت شعري ما فعل أبواي ؟" . فنزلت : ﴿ وَلا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴾ فما ذكرهما حتى توفاه الله ، عز وجل .

ورواه ابن جرير ، عن أبي كُرَيب ، عن وَكِيع ، عن موسى بن عبيدة ، [وقد تكلموا فيه عن محمد بن كعب] بمثله وقد حكاه القرطبي عن ابن عباس ومحمد بن كعب قال القرطبي : وهذا كما يقال لا تسأل عن فلان ؛ أي : قد بلغ فوق ما تحسب ، وقد ذكرنا في التذكرة أن الله أحيا له أبويه حتى آمنا ، وأجبنا عن قوله : (إن أبي وأباك في النار) . (قلت) : والحديث المروي في حياة أبويه عليه السلام ليس في شيء من الكتب الستة ولا غيرها ، وإسناده ضعيف والله أعلم .

ثم قال [ابن جرير] وحدثني القاسم ، حدثنا الحسين ، حدثني حجاج ، عن ابن جُرَيج ، أخبرني داود بن أبي عاصم : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ذات يوم : "أين أبواي ؟" . فنزلت : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴾ .

وهذا مرسل كالذي قبله . وقد رد ابن جرير هذا القول المروي عن محمد بن كعب [القرظي] وغيره في ذلك ، لاستحالة الشك من الرسول صلى الله عليه وسلم في أمر أبويه . واختار القراءة الأولى . وهذا الذي سلكه ها هنا فيه نظر ، لاحتمال أن هذا كان في حال استغفاره لأبويه قبل أن يعلم أمرهما ، فلما علم ذلك تبرأ منهما ، وأخبر عنهما أنهما من أهل النار [كما ثبت ذلك في الصحيح] ولهذا أشباه كثيرة ونظائر ، ولا يلزم ما ذكر ابن جرير . والله أعلم .

وقال الإمام أحمد : حدثنا موسى بن داود ، حدثنا فُلَيح بن سليمان ، عن هلال بن علي ، عن عطاء بن يسار ، قال : لقيت عبد الله بن عَمْرو بن العاص ، فقلت : أخبرني عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوراة . فقال : أجل ، والله إنه لموصوف في التوراة بصفته في القرآن : يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا ، وحرزاً للأميين ، وأنت عبدي ورسولي ، سميتك المتوكل ، لا فظٍّ ولا غليظ ولا سَخَّاب في الأسواق ، ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر ، ولن يقبضه حتى يقيم به الملة العوجاء ، بأن يقولوا : لا إله إلا الله . فيفتح به أعينا عُمْيًا ، وآذانًا صُمًّا ، وقلوبا غُلْفًا .

انفرد بإخراجه البخاري ، فرواه في البيوع عن محمد بن سنان ، عن فُلَيح ، به (1) .

وقال : تابعه عبد العزيز بن أبي سلمة ، عن هلال . وقال سعيد : عن هلال ، عن عطاء ، عن عبد الله بن سلام . ورواه في التفسير عن عبد الله ، عن عبد العزيز بن أبي سلمة ، عن هلال ، عن عطاء ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، به (2) . فذكر نحوه ، فعبد الله هذا هو ابن صالح ، كما صرح به في كتاب الأدب . وزعم أبو مسعود الدمشقي أنه عبد الله بن رجاء .

وقد رواه الحافظ أبو بكر بن مَرْدُويه في تفسير هذه الآية من البقرة ، عن أحمد بن الحسن بن أيوب ، عن محمد بن أحمد بن البراء ، عن المعافَى بن سليمان ، عن فليح ، به . وزاد : قال عطاء : ثم لقيت كعب الأحبار ، فسألته فما اختلفا في حرف ، إلا أن كعبًا قال بلُغَتِهِ : أعينًا عمومى ، وآذانًا صمومى ، وقلوبًا غلوفًا . انتهى انتهى . ا هـ ﴾ تفسير ابن كثير حـ 1 صـ 402.400 ﴾

---

(1) المسند (174/2) وصحيح البخاري برقم (2125) .

(2) صحيح البخاري برقم (4838) .

وقال أبو السعود :

﴿ وَلَا تُسْئَلُ عَنْ أصحاب الجحيم ﴾ ما لهم لم يؤمنوا بعد ما بلّغْتَ ما أُرسلتَ به وقرئ (لن تُسأل) وقرئ لا تَسْأَلْ على صيغة النهي إيذاناً بكمال شدةِ عقوبةِ الكفار وتهويلاً لها كأنها لغاية فظاعتها لا يقدِرُ المخبِرُ على إجرائها على لسانه أو لا يستطيع السامعُ أن يسمع خبرَها ، وحملُه على نهي النبي صلى الله عليه وسلم عن السؤال عن حال أبويه مما لا يساعدُه النظمُ الكريمُ والجحيمُ : المتأججُ من النار ، وفي التعبير عنهم بصاحبية الجحيم

دون الكفر والتكذيب ونحوهما وعيدٌ شديد لهم وإيذانٌ بأنهم مطبوعٌ عليهم لا يرجى منهم الإيمانُ قطعاً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 1 صـ 152 ﴾

وقال الشوكانى :

وقرأ نافع : ﴿ وَلَا تُسْئَلُ ﴾ بالجزم : أي : لا يصدر منك السؤال عن هؤلاء ، أو لا يصدر منك السؤال عمن مات منهم على كفره ، ومعصيته تعظيماً لحاله ، وتغليظاً لشأنه ، أي أن هذا أمر فظيع ، وخطب شنيع ، يتعاظم المتكلم أن يجريه على لسانه ، أو يتعاظم السامع أن يسمعه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ فتح القدير حـ 1 صـ 135 ﴾

وقال فى روح البيان :

﴿ وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴾ ما لهم لم يؤمنوا بعد أن بلغت والجحيم المكان الشديد الحر وقرىء ولا تسأل بفتح التاء وجزم اللام على أنه نهي لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عن السؤال عن حال أبويه على ما روي أنه عليه السلام قال : " ليت شعري ما فعل أبواي " أي : ما فعل بهما وإلى أي : حال انتهى أمرهما فنزلت .

واعلم أن السلف اختلفوا في أن أبوي النبي صلى الله عليه وسلّم هل ماتا على الكفر أو لا ؟ ذهب إلى الثاني جماعة متمسكين بالأدلة على طهارة نسبه عليه الصلاة والسلام من دنس الشرك وشين الكفر وعبادة قريش صنماً وإن كانت مشهورة بين الناس لكن الصواب خلافه لقول إبراهيم عليه السلام ﴿ وَاجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ ﴾ (إبراهيم : 35) وقوله تعالى في حق إبراهيم ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِ ﴾ وذهب إلى الأول جمع منهم صاحب " التيسير" حيث قال ولما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلّم بتبشير المؤمنين وإنذار الكافرين كان يذكر عقوبات الكفار فقام رجل فقال : يا رسول الله أين والدي فقال في النار فحزن الرجل فقال عليه السلام : " إن والديك ووالدي ووالدي إبراهيم في النار " فنزل قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴾ فلم يسألوه شيئاً بعد ذلك وهو كقوله ﴿ لاَ تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ (المائدة : 101) وذهب نفر من هذا الجمع بنجاتهما من النار منهم الإمام القرطبي حيث قال في " التذكرة" إن عائشة رضي الله عنها قالت : حج بنا رسول الله صلى الله عليه وسلّم حجة الوداع فمر على عقبة الحجون وهو باكٍ حزين مغتم فبكيت لبكاء رسول الله صلى الله عليه وسلّم ثم إنه ظفر فنزل فقال : " يا حميراء استمسكي " أي زمام الناقة فاستندت إلى جنب البعير فمكث عني طويلاً ثم إنه عاد إلي وهو فرح متبسم فقلت له بأبي أنت وأمي يا رسول الله نزلت من عندي وأنت باكٍ حزين مغتم فبكيت لبكائك يا رسول الله ؟ ثم إنك عدت إلي وأنت فرح

متبسم فعما ذا يا رسول الله فقال : " ذهبت لقبر آمنة أمي فسألت الله ربي أن يحييها فأحياها فآمنت" وروى أن الله أحيا له أباه وأمه وعمه أبا طالب وجده عبد المطلب قال الحافظ شمس الدين الدمشقي :

حبا الله النبي مزيد فضل

على فضل وكان به رؤوفاً

فأحيا أمه وكذا أباه

(218/64)

لإيمان به فضلاً لطيفاً

فسلم فالقديم به قدير

وإن كان الحديث به ضعيفاً

وفي " الأشباه والنظائر " : من مات على الكفر أبيح لعنه إلا والدي رسول الله صلى الله عليه وسلّم لثبوت أن الله تعالى أحياهما له حتى آمنا كذا في " مناقب الكردي " .

وذكر أن النبي عليه السلام بكى يوماً بكاء شديداً عند قبر أبويه وغرس شجرة يابسة وقال : " إن اخضرت فهو علامة إمكان إيمانهما " فاخضرت ثم خرجا من قبرهما ببركة دعاء

النبي صلى الله عليه وسلّم وأسلما ثم ارتحلا .

قال حضرة الشيخ الشهير بافتاده أفندي قدس سره ومما يدل على ذلك أن اسم أبيه كان عبد الله والله من الأعلام المختصة بذاته تعالى لم يسم به صنم في الجاهلية فإن اسم بعض أصنامهم اللات وبعضها العزى انتهى كلامه وليس إحياهما وإيمانهما به ممتنعاً عقلاً ولا شرعاً وقد ورد في الكتاب إحياء قتيل بني إسرائيل وإخباره بقاتله وكان عيسى عليه السلام يحيي الموتى وكذلك نبينا عليه السلام أحيا الله على يديه جماعة من الموتى وإذا ثبت هذا فما يمنع من إيمانهما بعد إحيائهما زيادة في كرامته وفضيلته وما روى من أنه عليه السلام زار قبر أمه فبكى وأبكى من حوله فقال : " استأذنت في أن استغفر لها فلم يؤذن لي واستأذنت في أن أزور قبرها فأذن لي فزوروا القبور فإنها تذكركم الموت" فهو متقدم على إحيائهما لأنه كان في حجة الوداع ولم يزل عليه السلام راقباً في المقامات السنية صاعداً في الدركات العلية صاعداً في الدرجات العلية إلى أن قبض الله روحه الطاهرة فمن الجائز أن تكون هذه درجة حصلت له عليه السلام بعد أن لم تكن .

فإن قلت الإيمان لا يقبل عند المعاينة فكيف بعد الإعادة .

قلت : الإيمان عند المعاينة إيمان يأس فلا يقبل بخلاف الإيمان بعد الإعادة وقد دل على هذا ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ ﴾ (الأنعام : 28) وورد أن أصحاب الكهف يبعثون في آخر الزمان ويحجون ويكونون من هذه الأمة تشريفاً لهم بذلك وورد مرفوعاً " أصحاب الكهف أعوان المهدي فقد اعتد بما يفعله أصحاب الكهف بعد إحيائهم من الموت" ولا بدع أن يكون الله تعالى كتب لأبوي النبي عمراً ثم قبضهما قبل استيفائه ثم أعادهما لاستيفائه تلك اللحظة الباقية وآمنا فيها فيعتد به وتكون تلك البقية بالمدة الفاصلة بينهما لاستدراك الإيمان من جملة ما أكرم الله تعالى به نبيه صلى الله عليه وسلّم كما أن تأخير أصحاب الكهف هذه المدة من جملة ما أكرموا به ليجوزوا شرف الدخول في هذه الأمة .

وذهب خاتمة الحفاظ والمحدثين الإمام السخاوي في هذه المسألة إلى التوقف حيث قال في " المقاصد الحسنة" بعد ما أورد الشعر المذكور للحافظ الدمشقي وقد كتبت فيه جزءاً والذي أراه الكف عن التعرض لهذا إثباتاً ونفياً انتهى .

(220/64)

وسئل القاضي أبو بكر ابن العربي أحد الأئمة المالكية عن رجل قال إن آباء النبي عليه السلام في النار فأجاب بأنه ملعون لأن الله تعالى يقول : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ

اللَّهُ فِى الدُّنيَا وَالاخِرَةِ ﴾ (الأحزاب : 57) وفي الحديث "لا تؤذوا الأحياء بسبّ الأموات" وسئل الإمام الرستغفي عن قول بعض الناس عن آدم عليه السلام لما بدت منه تلك الزلة أسود منه جميع جسده فلما أهبط إلى الأرض أمر بالصيام والصلاة فصام وصلى فابيض جسده أيصح هذا القول قال لا يجوز في الجملة القول في الأنبياء عليهم السلام بشيء يؤدي إلى العيب والنقصان فيهم وقد أمرنا بحفظ اللسان عنهم لأن مرتبتهم أرفع وهم على الله أكرم وقد قال عليه السلام : "إذا ذكر أصحابي فأمسكوا" فلما أمرنا أن لا نذكر الصحابة رضي الله عنهم بشيء يرجع إلى العيب والنقص فلأن نمسك ونكف عن الأنبياء أولى وأحق فحق المسلم أن يمسك لسانه عما يخل بشرف نسب نبينا عليه السلام ليست من الاعتقاديات فلاحظ للقلب منها وأما اللسان فحقه أن يصان عما يتبادر منه النقصان خصوصاً إلى وهم العامة لأنهم لا يقدرون على دفعه وتداركه فهذا هو البيان الشافي في هذا الباب بطرقه المختلفة التقطته من الكتب النفيسة وقرنت كل نظير إلى مثله والحمد لله تعالى وحده . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح البيان حـ 1 صـ 273. 275 ﴾

وقال الآلوسى ولله دره :

﴿ وَلَا تُسْئَلُ عَنْ أصحاب الجحيم ﴾ تذييل معطوف على ما قبله ، أو اعتراض أو حال أي أرسلناك غير مسؤول عن أصحاب الجحيم ما لهم لم يؤمنوا بعد أن بلغت ما أرسلت به وألزمت الحجة عليهم ؟! ، وقرأ أبيّ و(ما) بدل و ﴿ لا ﴾ وابن مسعود (ولن) بدل (ذلك) وقرأ نافع ، ويعقوب لا تسأل على صيغة النهي إيذاناً بكمال شدة عقوبة الكفار وتهويلاً لها كما تقول كيف حال فلان وقد وقع في مكروه فيقال لك لا تسأل عنه أي أنه لغاية فظاعة ما حل به لا يقدر المخبر على إجرائه على لسانه أو لا يستطيع السامع أن يسمعه ، والجملة على هذا اعتراض أو عطف على مقدر أي فبلغ ، والنهي مجازي ، ومن الناس من جعله حقيقة ، والمقصود منه بالذات نهيه صلى الله عليه وسلم عن السؤال عن حال أبويه على ما روي أنه عليه الصلاة والسلام سأل جبريل عن قبريهما فدله عليهما فذهب فدعا لهما وتمنى أن يعرف حالهما في الآخرة وقال : ليت شعري ما فعل أبواي ؟ فنزلت ولا يخفى بعد هذه الرواية لأنه صلى الله عليه وسلم كما في " المنتخب" عالم بما آل إليه أمرهما ، وذكر الشيخ ولي الدين العراقي أنه لم يقف عليها ، وقال الإمام السيوطي : لم يرد في هذا إلا أثر معضل ضعيف الإسناد فلا يعول عليه ، والذي يقطع به أن الآية في كفار أهل الكتاب كالآيات السابقة عليها والتالية لها لا في أبويه صلى الله عليه وسلم ، ولتعارض الأحاديث في هذا الباب وضعفها ، قال السخاوي : الذي ندين الله تعالى به الكف عنهما وعن

الخوض في أحوالهما .

والذي أدين الله تعالى به أنا أنهما ماتا موحدين في زمن الكفر ، وعليه يحمل كلام الإمام أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه إن صح بل أكاد أقول : إنهما أفضل من عَلِيّ القاري وأضرابه .

والجحيم النار بعينه إذا شب وقودها ويقال : جحمت النار تجحم جحماً إذا اضطربت .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 370. 371 ﴾

(222/64)

وقال المظهرى :

وما ذكر البغوي انه قال عطاء عن ابن عباس ان النبي صلى اللّه عليه وسلم قال ذات يوم ليت شعرى ما فعل أبواي فنزلت هذه الآية – وقال عبد الرزاق أخبرني الثوري عن موسى بن عبيدة عن محمد بن كعب القرظي عنه – وأخرج ابن جرير من طريق ابن جريج أخبرني داود بن عاصم عنه فذكرا نحوه فليس بمرضى عندى وليس بقوى – ولو صح ذلك فهذا زعم من ابن عباس فإنه لو سلم ان النبي صلى اللّه عليه وسلم قال ليت شعرى ما فعل أبواي ونزلت في هذا اليوم تلك الآية اتفاقا فلا دليل فيه على ان المراد باصحاب الجحيم أبواه صلى اللّه عليه وسلم وعلى تقدير التسليم فتلك الآية لا تدل على كفرهما فان المؤمن قد

يكون من اصحاب الجحيم لاكتساب بعض المعاصي حتى تدركه المغفرة بشفاعة شافع أو دون ذلك أو يبلغ الكتاب أجله – وقد صح عنه صلى اللّه عليه وسلم أنه قال بعثت من خير قرون بنى آدم قرنا فقرنا حتى بعثت من القرن الذي كنت فيه رواه البخاري من حديث أبى هريرة وقال صلى اللّه عليه وسلم ما افترق الناس فرقتين إلا جعلنى اللّه فى خيرهما فأخرجت من بين أبوي ولم يصبنى شىء من عهد الجاهلية خرجت من نكاح لم أخرج من سفاح من لدن آدم حتى انتهيت إلى أبى وأمي فأنا خيركم نفسا وخيركم أبا – ورواه البيهقي في

(223/64)

دلائل النبوة من حديث أنس وأبو نعيم في دلائل النبوة من حديث ابن عباس نحوه – وقد صنف الشيخ الأجل جلال الدين السيوطي رضى اللّه عنه في إثبات إسلام آباء النبي صلى اللّه عليه وسلم رسائل وأخذت من تلك الرسائل رسالة فذكرت فيها ما يثبت إسلامهم ويفيد أجوبة شافية لما يدل على خلافه فللّه الحمد . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير المظهرى حـ 1 صـ 120. 121 ﴾

(224/64)

وقال ابن عاشور :

وقوله : ﴿ ولا تسأل عن أصحاب الجحيم ﴾ الواو للعطف وهو إما على جملة ﴿ إنا أرسلناك ﴾ أو على الحال في قوله : ﴿ بشيراً ونذيراً ﴾ ويجوز كون الواو للحال .

قرأ نافع ويعقوب بفتح الفوقية وسكون اللام على أنَّ (لا) حرف نهي جازم للمضارع وهو عطف إنشاء على خبر والسؤال هنا مستعمل في الاهتمام والتطلع إلى معرفة الحال مجازاً مرسلاً بعلاقة اللزوم لأن المعني بالشيء المتطلع لمعرفة أحواله يكثر من السؤال عنه ، أو هو كناية عن فظاعة أحوال المشركين والكافرين حتى إن المتفكر في مصير حالهم ينهى عن الاشتغال بذلك لأنها أحوال لا يحيط بها الوصف ولا يبلغ إلى كنهها العقل في فظاعتها وشناعتها ، وذلك أن النهي عن السؤال يرد لمعنى تعظيم أمر المسؤول عنه نحو قول عائشة : " يصلي أربعاً فلا تَسْأَلْ عن حسنهن وطولهن " ولهذا شاع عند أهل العلم إلقاء المسائل الصعبة بطريقة السؤال نحو (فإن قلت) للاهتمام .

وقرأه جمهور العشرة بضم الفوقية ورفع اللام على أن (لا) نافية أي لا يسألك الله عن أصحاب الجحيم وهو تقرير لمضمون ﴿ إنا أرسلناك بالحق ﴾ والسؤال كناية عن المؤاخذة واللوم مثل قوله صلى الله عليه وسلم " وكلكم مسؤول عن رعيته " أي لست مؤاخذاً ببقاء الكافرين على كفرهم بعد أن بلغت لهم الدعوة .

وما قيل إن الآية نزلت في نهيه صلى الله عليه وسلم عن السؤال عن حال أبويه في الآخرة فهو استناد لرواية واهية ولو صحت لكان حمل الآية على ذلك مجافياً للبلاغة إذ قد علمت أن قوله : ﴿ إنا أرسلناك ﴾ تأنيس وتسكين فالإتيان معه بما يذكّر المكدرات خروج عن الغرض وهو مما يعبر عنه بفساد الوضع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 1 صـ 674.673 ﴾

(225/64)

" فائدة لغوية "

قال الطبرسى :

وأما قراءة نافع (ولا تسأل) بالجزم ففيه قولان

أحدهما : أن يكون على النهي عن المسألة والآخر : أن يكون النهي لفظا ، والمعنى على تفخيم ما أعد لهم من العقاب ، كقول القائل : لا تسأل عن حال فلان أي : قد صار إلى أكثر مما تريده .

وسألت يتعدى إلى مفعولين مثل أعطيت ، قال الشاعر : سألتاني الطلاق إذ رأتاني * قل مالي قد جئتماني بنكر ويجوز أن يقتصر فيه على مفعول واحد ، ثم يكون على ضربين

أحدهما : أن يتعدى بغير حرف كقوله (واسألوا ما أنفقتم) . (فاسألوا أهل الذكر) والآخر : أن يتعدى بحرف كقوله تعالى : (سأل سائل بعذاب واقع) وقولهم : سألت عن زيد . وإذا تعدى إلى مفعولين كان على ثلاثة أضرب أحدها : أن يكون بمنزلة أعطيت ، كقوله : سألت عمرا بعد بكر حقا ، فمعنى هذا استعطيته أي : سألته أن يفعل ذلك والآخر : أن يكون بمنزلة اخترت الرجال زيدا ، وذلك قوله تعالى : (ولا يسئل حميم حميما) أي : لا يسأل حميم عن حميمه . والثالث : أن يتعدى إلى مفعولين ، فيقع موقع المفعول الثاني منهما استفهام ، وذلك كقوله تعالى : (سل بني إسرائيل كم آتيناهم) . (وسئل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مجمع البيان حـ 1 صـ 367 ﴾

(226/64)

فائدة

قال ابن الجوزى :

أما الجحيم ؛ فقال الفراء : الجحيم : النار ، والجمر على الجمر .

وقال أبو عبيدة : الجحيم : النار المستحكمة المتلظية .

وقال الزجاج: الجحيم: النار الشديدة الوقود، وقد جحم فلان النار: إذا شدد وقودها،

ويقال لعين الأسد: جحمة لشدة توقدها.

ويقال لوقود الحرب، وهو شدة القتال فيها: جاحم.

وقال ابن فارس: الجاحم: المكان الشديد الحر.

قال الأعشى:

يُعدون للهيجاء قبل لقائها . . .

غداة احتضار البأس والموت جاحم

ولذلك سميت الجحيم.

وقال ابن الأنباري: قال أحمد بن عبيد: إنما سميت النار جحيماً، لأنها أكثر وقودها، من

قول العرب: جحمت النار أجحمها: إذا أكثرت لها الوقود.

قال عمران بن حطان:

يرى طاعة الله الهدى وخلافه . . .

الضلالة يصلي أهلها جاحم الجمر. انتهى انتهى. ا هـ ﴿زاد المسير حـ 1 صـ 138﴾

(227/64)

فائدة

قال فى الأمثل :

" أصلان تربويان "

" البشارة" و" الإنذار " أو " التشجيع" و" التهديد " من أهم الأُصول اللازمة للتربية وللحركة الاجتماعية . ينبغي أن يلقي الفرد تشجيعاً على أعماله الصالحة ، وتوبيخاً على أعماله الطالحة ، كي يواصل مسيره الأول ، ويرتدع عن ارتياد المسير الثاني .

" التشجيع" وحده لا يكفي لدفع الفرد والمجتمع على طريق التكامل ، لأن الانسان سوف يكون مطمئناً من عدم الخطر في حالة إرتكاب المعاصي .

على سبيل المثال ، نرى ارتكاب المعاصي بين النصارى الحاليين أمراً عادياً ، لأنهم يعتقدون بالفداء ، أي بأن السيد المسيح (عليه السلام) قد ضحى بنفسه لغفران ذنوب أتباعه ، أو لإعتقادهم بأن أحبارهم قادرون أن يغفروا لهم ذنوبهم بسبل شتى ، منها منحهم صكوك الغفران . أو يبيعون لهم الجنّة مثل هؤلاء القوم يسمحون لأنفسهم إرتكاب الذنوب بسهولة .

جاء في قاموس الكتاب المقدس : " . . . الفداء أيضاً إشارة إلى كفارة دم المسيح ، الذي أخذ على عاتقه كل ذنوبنا وتحمل ذنوبنا في جسده على الصليب" .

هذا المنطق يجعل الأفراد دون شك جريئين على ارتكاب المعاصي .

بعبارة أخرى ، من يرى أن التشجيع وحده كاف لتربية الإنسان (طفلا كان أم كبيراً) ،

وضرورة ترك التهديد والتقريع ، فهو مجانب للصواب ومخطئ تماماً .

وهكذا أُولئك الذين يعتقدون أن التربية ينبغي أن تقوم على أساس التخويف والتأنيب لا غير .

الفريقان المذكوران خاطئان في فهم الإِنسان ، حيث إن الإِنسان يتجاذبه كلّ الخوف والرجاء ، حبّ الذات وكره الفناء ، تحصيل المنفعة ودفع الضرر . وهل يمكن لموجود يحمل في ذاته هذين البعدين أن يربّى وفق بعد واحد ؟ !

والتعادل ضروري بين هذين الجانبين ، فلو تجاوز التشجيع حدّه لأدّى إلى التجرؤ والغفلة ، ولو تعدّى التخويف حدّه لبعث على اليأس والقنوط وانطفاء شعلة الشوق والتحرك في النفوس .

(228/64)

ممّا سبق نفهم سبب اقتران البشارة بالإِنذار أو " البشير " بـ" النذير " في القرآن الكريم ، فتارة تقدم كلمة البشير على النذير كالآية التي نحن بصددها : (بَشيراً وَنَذِيراً) وتارة تقدم كلمة النذير كقوله تعالى في الآية 188 من سورة الأعراف : (إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) .

واكثر الآيات القرآنية في هذا المورد تتقدم فيها صفة البشير ، ولعل ذلك يعود إلى أن رحمة

الله من حيث المجموع سابقة على غضبه : (يَا مَنْ سَبَقَتْ رَحْمَتُهُ غَضَبَهُ) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الأمثل حـ 1 صـ 357. 358 ﴾

(229/64)

ومن فوائد ابن عرفة فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَاكَ بالحق . . . ﴾ .

الظاهر أن المعجزات هي المراد .

وقدم البشارة على النذارة لأنّ القاعدة في محاولة الأمور الصعبة أن يبدأ فيها بالتلطّف والتيسير ليكون أدعى للقبول ، كما إذا كان لك جمل معك وأردت أن تدخله موضعا فإنك تسايسه بربيع تطعمه له أو تفتل شعره أو نحو ذلك ، كما قال ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّناً ﴾ قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُسْئَلُ عَنْ أَصْحَابِ الجحيم ﴾

الظاهر أنها تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عرفة حـ 1 صـ 408. 409 ﴾

(230/64)

ومن فوائد صاحب المنار فى الآيات السابقة

قال رحمه الله :

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ إِنَّ اللهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)

الْكَلَامُ فِي أَهْلِ الْكِتَابِ عَامَّةً وَمَنْ عَلَى شَاكِلَتِهِمْ ، فَقَوْلُهُ – تَعَالَى – : (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا) الْآيَةَ فِيهِ وُجُوهٌ : (أَحَدُهَا) : أَنَّهُ يُشِيرُ إِلَى حَادِثَةٍ وَقَعَتْ بَعْدَ الْمَسِيحِ بِسَبْعِينَ سَنَةً ، وَهِيَ دُخُولُ (تَيْطُسَ الرُّومَانِيِّ) بَيْتَ الْمَقْدِسِ وَتَخْرِيبُهَا حَتَّى صَارَتِ الْمَدِينَةُ تَلًّا مِنَ التُّرَابِ ، وَهَدْمُهُ هَيْكَلَ سُلَيْمَانَ – عَلَيْهِ السَّلَامُ – حَتَّى لَمْ يَبْقَ مِنْهُ إِلَّا بَعْضُ الْجُدُرِ الْمُدَعْثَرَةِ ، وَإِحْرَاقُهُ مَا كَانَ عِنْدَ الْيَهُودِ مِنْ نُسَخِ التَّوْرَاةِ ، وَكَانَ الْمَسِيحُ – عَلَيْهِ السَّلَامُ – قَدْ أَوْعَدَ الْيَهُودَ بِذَلِكَ . وَقَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ : إِنَّ أَتْبَاعَ الْمَسِيحِ هُمُ الَّذِينَ هَيَّجُوا الرُّومَانِيِّينَ وَأَغْرَوْهُمْ بِهَذَا الْعَمَلِ .

(231/64)

قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : وَلَا أَدْرِي هَلْ يَصِحُّ هَذَا الْخَبَرُ أَمْ لَا ، فَإِنَّ قَائِلِيهِ لَمْ يَأْتُوا عَلَيْهِ بِأَدِلَّةٍ وَلَا بِنُقُولٍ تَارِيخِيَّةٍ ، وَلَكِنَّنِي أَعْلَمُ أَنَّ الْمَسِيحِيِّينَ عَلَى قِلَّتِهِمْ وَتَشَتُّتِهِمْ وَاسْتِخْفَائِهِمْ مِنِ اضْطِهَادِ الْيَهُودِ كَانُوا قَدْ وَصَلُوا إِلَى (رُومِيَّةَ) وَكَانُوا يَوَدُّونَ الْإِيقَاعَ بِالْيَهُودِ الَّذِينَ اضْطَرُّوهُمْ إِلَى الْخُرُوجِ مِنْ بِلَادِهِمُ انْتِقَامًا مِنْهُمْ ، وَتَحْقِيقًا لِوَعِيدِ الْمَسِيحِ ، وَأَنَّ الرُّومَانِيِّينَ – وَإِنْ كَانُوا وَثَنِيِّينَ يَرَوْنَ أَنَّ الْيَهُودَ لَيْسُوا عَلَى شَيْءٍ – لَمْ تَكُنْ حُرُوبُهُمْ دِينِيَّةً وَإِنَّمَا كَانُوا يُحَارِبُونَ الْيَهُودَ وَغَيْرَهُمْ لِشَغَبِهِمْ وَفِتَنِهِمْ أَوْ لِلطَّمَعِ فِي بِلَادِهِمْ وَذَلِكَ لَا يَقْضِي بِهَدْمِ الْمَعْبَدِ وَإِحْرَاقِ كُتُبِ الدِّينِ ، فَهَذِهِ قَرَائِنُ تُرَجِّحُ أَنَّهُ كَانَ لِلْمَسِيحِيِّينَ يَدٌ فِي إِغَارَةِ تِيطُسَ ، وَلَكِنْ لَا يُجْزَمُ بِهِ إِلَّا إِذَا وُجِدَ نَقْلٌ تَارِيخِيٌّ صَحِيحٌ يُؤَيِّدُ الْخَبَرَ .

(232/64)

وَمِنَ الْغَرِيبِ أَنَّ ابْنَ جَرِيرٍ الطَّبَرِيَّ قَالَ فِي تَفْسِيرِهِ : إِنَّ الْآيَةَ فِي اتِّحَادِ الْمَسِيحِيِّينَ مَعَ (بَخْتِنْصَرَ الْبَابِلِيِّ) عَلَى تَخْرِيبِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ مَعَ أَنَّ حَادِثَةَ بَخْتِنْصَرَ كَانَتْ قَبْلَ وُجُودِ

الْمَسِيحِ وَالْمَسِيحِيَّةِ بِسِتِّمِائَةٍ وَثَلَاثٍ وَثَلَاثِينَ سَنَةً . وَلَوْ لَمْ يَكُنْ مُؤَرِّخًا مِنْ أَكْبَرِ الْمُؤَرِّخِينَ لَالْتُمِسَ لَهُ الْعُذْرُ بِحَمْلِ قَوْلِهِ عَلَى حَادِثَةِ (أَدْرِينَالَ الرُّومَانِيِّ) الَّذِي جَاءَ بَعْدَ الْمَسِيحِ بِمِائَةٍ وَثَلَاثِينَ سَنَةٍ ، وَبَنَى مَدِينَةً عَلَى أَطْلَالِ أُورْشَلِيمَ وَزَيَّنَهَا وَجَعَلَ فِيهَا الْحَمَّامَاتِ ، وَبَنَى هَيْكَلًا لِلْمُشْتَرَى عَلَى أَطْلَالِ هَيْكَلِ سُلَيْمَانَ ، وَحَرَّمَ عَلَى الْيَهُودِ دُخُولَ هَذِهِ الْمَدِينَةِ ، وَجَعَلَ جَزَاءَ مَنْ يَدْخُلُهَا الْقَتْلَ ؛ فَلِذَلِكَ كَانَ الْيَهُودُ يُسَمُّونَهُ (بَخْتْنَصَرَ الثَّانِيَ) لِشِدَّةِ مَا قَاسَوْا مِنْ ظُلْمِهِ وَاضْطِهَادِهِ . وَلَكِنَّ هَذَا لَا يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ عُذْرًا لِلْمُؤَرِّخِ .

(الثَّانِي) : ذَهَبَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ إِلَى أَنَّ قَوْلَهُ – تَعَالَى – : (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ) نَزَلَ فِي مَنْعِ مُشْرِكِي الْعَرَبِ النَّبِيَّ وَأَصْحَابَهُ مِنْ دُخُولِ مَكَّةَ فِي قِصَّةِ عُمْرَةِ الْحُدَيْبِيَّةِ ، وَقَالُوا : إِنَّ حَادِثَةَ الرُّومَانِيِّينَ كَانَتْ قَدْ طَالَ عَلَيْهَا الْأَمَدُ فَلَا مُنَاسَبَةَ لِإِرَادَتِهَا بِالْآيَةِ .

(233/64)

وَاعْتُرِضَ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ بِأَنَّ مُشْرِكِي الْعَرَبِ مَا سَعَوْا فِي خَرَابِ الْكَعْبَةِ ، بَلْ كَانُوا عَمَرُوهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَكَانُوا يُعَظِّمُونَهَا وَيَرَوْنَهَا مَنَاطَ عِزِّهِمْ وَمَحِلَّ شَرَفِهِمْ وَفَخْرِهِمْ .

وَقَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : يَصِحُّ أَنْ تَكُونَ الْآيَةُ فِي الْأَمْرَيْنِ عَلَى التَّوْزِيعِ ، فَالَّذِينَ مَنَعُوا مَسَاجِدَ

اللهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ هُمْ مُشْرِكُو مَكَّةَ ، وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي خَرَابِهَا هُمْ مُشْرِكُو الرُّومَانِيِّينَ .

وَيَكُونُ قَرْنُ مَا عَمِلَ الْمُشْرِكُونَ مِنْ مَنْعِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهِ اسْمُ اللهِ بِزِيَارَةِ النَّبِيِّ وَأَصْحَابِهِ بِمَا عَمِلَ مَنْ قَبْلَهُمْ مِنْ مُشْرِكِي الرُّومَانِيِّينَ مِنَ التَّخْرِيبِ مِنْ قَبِيلِ الْإِشَارَةِ إِلَى تَسَاوِي الْفِعْلَيْنِ فِي الْقُبْحِ .

(الثَّالِثُ) : أَنَّ الْكَلَامَ فِي أَهْلِ الْكِتَابِ ، وَأَنَّ الْآيَةَ لَيْسَتْ مُنْبِئَةً بِأَمْرٍ وَقَعَ ، وَلَكِنْ بِأَمْرٍ سَيَقَعُ ، وَهُوَ مَا كَانَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ إِغَارَةِ الصَّلِيبِيِّينَ عَلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَغَيْرِهِ مِنْ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ وَصَدِّهِمْ إِيَّاهُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى ، وَتَخْرِيبِهِمْ كَثِيرًا مِنَ الْمَسَاجِدِ .

(234/64)

(الرَّابِعُ) : وَهُوَ مَبْنِيٌّ أَيْضًا عَلَى أَنَّ الْآيَةَ مُنْبِئَةٌ عَنْ أَمْرٍ سَيَقَعُ وَأَنَّ الْمُرَادَ بِهَا حَادِثَةُ (الْقَرَامِطَةِ) الَّذِينَ هَدَمُوا الْكَعْبَةَ وَمَنَعُوا الْمُسْلِمِينَ مِنْهَا ، وَهَدَمُوا كَثِيرًا مِنَ الْمَسَاجِدِ ، كَأَنَّهُ بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ حَالَ أَهْلِ الْكِتَابِ فِي طَعْنِ الْيَهُودِ مِنْهُمْ بِالنَّصَارَى وَقَوْلِهِمْ فِيهِمْ : إِنَّهُمْ لَيْسُوا عَلَى شَيْءٍ مِنَ الدِّينِ ، وَطَعْنِ النَّصَارَى فِي الْيَهُودِ كَذَلِكَ ، وَبَعْدَ قَوْلِهِ فِي الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ : إِنَّهُمْ قَالُوا مِثْلَ قَوْلِهِمْ ، لَمْ يَبْقَ إِلَّا مَا سَيَقَعُ لِلْمُسْلِمِينَ وَفِي الْمُسْلِمِينَ ، فَأَنْبَأَ اللهُ – تَعَالَى – بِهَذِهِ الْحَادِثَةِ مِنَ الْإِخْبَارِ بِالْغَيْبِ فَوَقَعَتْ ، وَكَانَتْ حَادِثَتُهُمْ مِنْ أَكْبَرِ

الْأَحْدَاثِ فِي الْمُسْلِمِينَ ، فَإِنَّهُمُ اسْتَوْلَوْا عَلَى جُزْءٍ كَبِيرٍ مِنْ مَمَالِكِ الْإِسْلَامِ وَهَدَمُوا الْمَسَاجِدَ ، وَعَاثُوا فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَلَمْ يَكُنْ فِي أَيَّامِ الْحُرُوبِ الصَّلِيبِيَّةِ عَلَى طُولِهَا مِنَ الصَّدِّ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ مِثْلَمَا كَانَ عَلَى عَهْدِ (الْقَرَامِطَةِ) فَالْآيَاتُ عَلَى هَذَا مُبَيِّنَةٌ لِأَحْوَالِ جَمِيعِ الْمِلَلِ .

(235/64)

(قَالَ شَيْخُنَا) : سَوَاءٌ كَانَتِ الْآيَةُ فِي حَادِثَةٍ وَاقِعَةٍ أَوْ مُنْتَظَرَةٍ أَوْ كَانَتْ وَعِيدًا لِلَّذِينَ لَا يَحْتَرِمُونَ الْمَعَابِدَ عَلَى الْإِطْلَاقِ ، هِيَ عَلَى كُلِّ حَالٍ نَاطِقَةٌ بِوُجُوبِ احْتِرَامِ كُلِّ مَعْبَدٍ يُذْكَرُ فِيهِ اسْمُ اللهِ – تَعَالَى – بِالصَّلَاةِ وَالتَّسْبِيحِ وَبِتَحْرِيمِ السَّعْيِ فِي خَرَابِ الْمَعَابِدِ ، وَبِالْحُكْمِ عَلَى الَّذِينَ يَصُدُّونَ النَّاسَ عَنْهَا وَيَسْعَوْنَ فِي خَرَابِهَا – أَيْ هَدْمِهَا أَوْ تَعْطِيلِ شَعَائِرِهَا وَمَنْعِ عِبَادَةِ اللهِ فِيهَا – بِكَوْنِهِمْ أَظْلَمَ النَّاسِ كَمَا يُسْتَفَادُ مِنِ اسْتِفْهَامِ الْإِنْكَارِ ؛ لِأَنَّ الْمَنْعَ مِنْ ذِكْرِ اللهِ – تَعَالَى – ، وَإِبْطَالَ شَعَائِرِ الْمَعَابِدِ الَّتِي تُذَكِّرُ بِهِ ، وَتُشْعِرُ الْقُلُوبَ عَظَمَتَهُ انْتِهَاكٌ لِحُرْمَةِ الدِّينِ يُفْضِي إِلَى نِسْيَانِ النَّاسِ الرَّقِيبَ الْمُهَيْمِنَ عَلَيْهِمْ ، فَيُمْسُونَ كَالْهُمْلِ وَتَفْشُو فِيهِمُ الْمُنْكَرَاتُ وَالْفَوَاحِشُ ، وَانْتِهَاكُ الْحُرُمَاتِ ، وَهَضْمُ الْحُقُوقِ ، وَسَفْكُ الدِّمَاءِ . وَعِبَادَةُ اللهِ – تَعَالَى – بِذِكْرِهِ وَالصَّلَاةُ لَهُ تَنْهَى بِطَبِيعَتِهَا عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ، وَلَا يُنَافِي ذَلِكَ مَا

عَسَاهُ يَطْرَأُ عَلَى الْعِبَادَةِ أَوْ يُوجَدُ فِي الْمَسَاجِدِ مِنَ الْأَشْيَاءِ الْمُبْتَدَعَةِ الَّتِي لَمْ يَأْمُرْ بِهَا الْكِتَابُ ، فَمَنْ عَلِمَ بِهَذِهِ الْبِدَعِ فَعَلَيْهِ أَنْ يُنْكِرَهَا وَيَسْعَى فِي إِزَالَتِهَا وَلَا يَجُوزُ لَهُ السَّعْيُ فِي إِزَالَةِ الْمَعَابِدِ مِنَ الْأَرْضِ لِمَا فِي ذَلِكَ مِنَ الْفَسَادِ الَّذِي أَشَرْنَا إِلَيْهِ . وَهَذَا هُوَ السِّرُّ

(236/64)

فِي حُكْمِ الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ بِاحْتِرَامِ كَنَائِسِ أَهْلِ الْكِتَابِ

وَبِيَعِهِمْ وَصَوَامِعِهِمْ وَعُبَّادِهِمْ ، وَاحْتِرَامِ مَعَابِدِ الَّذِينَ لَهُمْ شُبْهَةُ كِتَابٍ أَيْضًا كَالْمَجُوسِ وَالصَّابِئِينَ ، بَلِ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ يَعُدُّ الصَّابِئِينَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ، وَأَمَّا الْوَثَنِيُّونَ الْخُلَّصُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ وَيَبْنُونَ الْمَسَاجِدَ لِذِكْرِ غَيْرِهِ وَالتَّقَرُّبِ إِلَى سِوَاهُ ، فَهَؤُلَاءِ لَمْ يَتَعَرَّضْ لِذِكْرِهِمْ وَلَمْ يَتَوَعَّدْ مَنْ يَمْنَعُهُمْ مِنْ سُخْفِهِمْ .

(أَقُولُ) : لَكِنْ ذَكَرَ بَعْضُ الْفُقَهَاءِ أَنَّهُ يَجِبُ هَدْمُ مَا بُنِيَ مِنَ الْمَسَاجِدِ وَالْقِبَابِ عَلَى قُبُورِ كَثِيرٍ مِنَ الْأَئِمَّةِ آلِ الْبَيْتِ ، وَأَئِمَّةِ الْفِقْهِ ، وَغَيْرِهِمْ مِنَ الصَّالِحِينَ ، وَارْتَكَبُوا فِيهَا الْمَحْظُورَاتِ الْكَثِيرَةَ الَّتِي يُعَدُّ بَعْضُهَا مِنَ الشِّرْكِ الصَّرِيحِ وَبَعْضُهَا مِنَ الْبِدَعِ وَالْمَعَاصِي ، وَلَا سِيَّمَا الْمَعَاصِي الَّتِي تُفْعَلُ تَدَيُّنًا وَتَقَرُّبًا وَتَوَسُّلًا إِلَى اللهِ – تَعَالَى – ، كَمَا تَرَى فِي كِتَابِ الزَّوَاجِرِ لِلْفَقِيهِ ابْنِ حَجَرٍ مِنْ فُقَهَاءِ الشَّافِعِيَّةِ وَغَيْرِهِ مِنْ كُتُبِهِمْ ، وَفِي كَثِيرٍ مِنْ كُتُبِ الْحَنَابِلَةِ

وَيَحْتَجُّونَ بِهَدْمِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لِمَسْجِدِ الضِّرَارِ ، إنَّمَا يَعْنِي شَيْخُنَا بِتَعْطِيلِ الْمَسَاجِدِ هُنَا إبْطَالَ التَّدَيُّنِ وَالْعِبَادَةِ مُطْلَقًا كَمَا يُعْلَمُ مِمَّا يَأْتِي ، لَا إبْطَالَ الْبِدَعِ الَّتِي شَوَّهَتِ الْإِسْلَامَ .

(237/64)

ثُمَّ قَالَ – تَعَالَى – فِي شَأْنِ الْمُعْتَدِينَ عَلَى الْمَسَاجِدِ : (أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إلَّا خَائِفِينَ) أَيْ فَكَيْفَ يَدْخُلُونَهَا مُفْسِدِينَ وَمُخَرِّبِينَ ؟ وَلَا يَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يُقْدِمَ عَلَى أَمْرٍ إلَّا بَعْدَ النَّظَرِ فِيهِ وَالْعِلْمِ بِدَرَجَةِ نَفْعِهِ أَوْ ضَرِّهِ . وَمَا كَانَتْ عِبَادَةُ اللهِ – تَعَالَى – إلَّا نَافِعَةً وَمَا كَانَ تَرْكُهَا إلَّا ضَارًّا .

وَمَا عَسَاهُ يُوجَدُ فِي عِبَادَاتِ الْأُمَمِ مِنَ الْخُرَافَاتِ الضَّارَّةِ ، فَإِنَّمَا الْمَكْرُوهُ مِنْهُ مَا فِيهِ مِمَّا يُبْعِدُ عَنْ عِبَادَةِ اللهِ – تَعَالَى – ، وَيُوقِعُ فِي إشْرَاكِ غَيْرِهِ فِيهَا ، عَلَى أَنَّ الْعِبَادَةَ الْمَمْزُوجَةَ بِنَزَغَاتِ الْوَثَنِيَّةِ أَهْوَنُ مِنَ التَّعْطِيلِ الْقَاضِي بِالْجُحُودِ الْمُطْلَقِ ؛ لِذَلِكَ تَوَعَّدَ اللهُ – تَعَالَى – أُولَئِكَ الْمُعْتَدِينَ الظَّالِمِينَ بِقَوْلِهِ : (لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ) فَأَمَّا خِزْيُ الدُّنْيَا فَهُوَ مَا يُعْقِبُهُ الظُّلْمُ مِنْ فَسَادِ الْعُمْرَانِ ، الْمُفْضِي إلَى الذُّلِّ وَالْهَوَانِ ، وَنَاهِيكَ بِظُلْمٍ يَحِلُّ الْقُيُودَ وَيَهْدِمُ الْحُدُودَ ، وَيُغْرِي النَّاسَ بِالْفَوَاحِشِ وَالْمُنْكَرَاتِ ، وَيُسَهِّلُ عَلَيْهِمْ

سُبُلَ الشُّرُورِ وَالْمُوبِقَاتِ ، وَهُوَ ظُلْمُ إِبْطَالِ الْعِبَادَةِ مِنَ الْمَسَاجِدِ ، وَالسَّعْيِ فِي خَرَابِ الْمَعَابِدِ ، إِذَا وَقَعَ هَذَا الظُّلْمُ كَانَ الْحَاكِمُ الظَّالِمُ مَخْذُولًا فِي حُكْمِهِ ، وَالْفَاتِحُ الظَّالِمُ غَيْرَ أَمِينٍ فِي فَتْحِهِ ، وَإِذَا أَرَدْتَ

(238/64)

تَطْبِيقَ ذَلِكَ عَلَى مَنْ نُسِبَ إِلَيْهِمْ هَذَا الظُّلْمُ فَانْظُرْ مَاذَا حَلَّ بِالرُّومَانِيِّينَ ، وَمَاذَا كَانَتْ عَاقِبَةُ الْعَرَبِ الْمُشْرِكِينَ ، وَبِمَاذَا انْتَهَى عُدْوَانُ الصَّلِيبِيِّينَ ، وَكَيْفَ انْقَرَضَ حِزْبُ الْقَرَامِطَةِ الْمُجْرِمِينَ ، وَأَمَّا عَذَابُ الْآخِرَةِ فَاللهُ أَعْلَمُ بِهِ ، وَنَحْنُ بِوَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ .

ثُمَّ قَالَ – تَعَالَى – : (وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ) ، ذَهَبَ الْمُفَسِّرُ (الْجَلَالُ) إِلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ الْأَرْضُ كُلُّهَا ؛ لِأَنَّهُمَا نَاحِيَتَاهَا ، وَقَالَ فِي قَوْلِهِ : (فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ) أَيْ أَيَّ مَكَانٍ تَسْتَقْبِلُونَهُ فِي صَلَاتِكُمْ فَهُنَاكَ وَجْهُ الْقِبْلَةِ الَّتِي أَمَرَ اللهُ بِأَنْ تُتَوَجَّهَ إِلَيْهَا .

وَوَجَّهَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ هَذَا بِقَوْلِهِ : إِنَّ مِنْ شَأْنِ الْعَابِدِ أَنْ يَسْتَقْبِلَ وَجْهَ الْمَعْبُودِ ، وَلَمَّا كَانَ سُبْحَانَهُ مُنَزَّهًا عَنِ

الْمَادَّةِ وَالْجِهَةِ وَاسْتِقْبَالُهُ بِهَذَا الْمَعْنَى مُسْتَحِيلًا ، شَرَعَ لِلنَّاسِ مَكَانًا مَخْصُوصًا يَسْتَقْبِلُونَهُ فِي عِبَادَتِهِمْ إِيَّاهُ . وَجَعَلَ اسْتِقْبَالَ ذَلِكَ الْمَكَانِ كَاسْتِقْبَالِ وَجْهِهِ – تَعَالَى . ثُمَّ قَالَ :

هَذِهِ الْآيَةُ مُتَّصِلَةٌ بِمَا قَبْلَهَا وَهُوَ قَوْلُهُ – تَعَالَى – : (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ) . . . إِلَخْ ، وَأَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ عَلَى خِلَافِ مَا قَالَ (الْجَلَالُ) فِي تَفْسِيرِ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ، قَالُوا : إِنَّ الْمُرَادَ بِهِمَا الْجِهَتَانِ الْمَعْلُومَتَانِ لِكُلِّ أَحَدٍ ؛ وَلِذَلِكَ خَصَّهُمَا بِالذِّكْرِ ، فَهُوَ كَقَوْلِهِ – تَعَالَى – : (رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ) (55 : 17) وَهُوَ يَسْتَلْزِمُ مَا قَالَهُ (الْجَلَالُ) ، فَإِنَّ الْمُرَادَ عَلَى كُلِّ حَالٍ : أَيَّةُ جِهَةٍ اسْتَقْبَلْتَ وَتَوَجَّهْتَ إِلَيْهَا فِي صَلَاتِكَ فَأَنْتَ مُتَوَجِّهٌ إِلَى اللهِ – تَعَالَى – ؛ لِأَنَّ كُلَّ الْجِهَاتِ لَهُ (إِنَّ اللهَ وَاسِعٌ) لَا يَتَحَدَّدُ وَلَا يُحْصَرُ ، فَيَصِحُّ أَنْ يُتَوَجَّهَ إِلَيْهِ فِي كُلِّ مَكَانٍ ، (عَلِيمٌ) بِالْمُتَوَجِّهِ إِلَيْهِ أَيْنَمَا كَانَ ، أَيْ فَاعْبُدِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْتَ ، وَتَوَجَّهْ إِلَيْهِ أَيْنَمَا حَلَلْتَ ، وَلَا تَتَقَيَّدْ بِالْأَمْكِنَةِ ، فَإِنَّ مَعْبُودَكَ غَيْرُ مُقَيَّدٍ .

أَقُولُ : بَلْ هُوَ فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ بَائِنًا مِنْهُ .

وَأَزِيدُ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ بَعْضَ رُوَاةِ الْمَأْثُورِ قَالُوا : إِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ قَبْلَ الْأَمْرِ بِالتَّوَجُّهِ إِلَى قِبْلَةٍ مُعَيَّنَةٍ . وَقَالَ آخَرُونَ : إِنَّهَا نَزَلَتْ فِي تَحْوِيلِ الْقِبْلَةِ عَنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ إِلَى الْكَعْبَةِ ، وَلَكِنَّ هَذَا فِيهِ آيَاتٌ مُفَصَّلَةٌ سَتَأْتِي فِي أَوَّلِ الْجُزْءِ الثَّانِي مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : إِنَّهَا نَزَلَتْ فِي صَلَاةِ تَطَوُّعٍ فِي السَّفَرِ لَا يُشْتَرَطُ فِيهَا اسْتِقْبَالُ الْقِبْلَةِ . وَقَالَ آخَرُونَ : إِنَّهَا فِيمَنْ يَجْتَهِدُونَ فِي الْقِبْلَةِ فَيُخْطِئُونَ فَإِنَّ صَلَاتَهُمْ صَحِيحَةٌ ؛ لِأَنَّ إِيجَابَ اسْتِقْبَالِ جِهَةٍ مُعَيَّنَةٍ إِنَّمَا هُوَ لِلْمَعْنَى الِاجْتِمَاعِيِّ فِي الصَّلَاةِ وَوَحْدَةِ الْأُمَّةِ فِيهَا ، وَالتَّعْلِيلُ يَصِحُّ فِي كُلِّ قَوْلٍ مِنْ هَذِهِ الْأَقْوَالِ ، فَإِنَّهُ أَيْنَمَا تَوَجَّهَ الْمُصَلِّي فِي

صَلَاتِهِ الصَّحِيحَةِ فَهُوَ مُتَوَجِّهٌ إِلَى اللهِ – تَعَالَى – لَا يَقْصِدُ بِصَلَاتِهِ غَيْرَهُ ، وَهُوَ – تَعَالَى – مُقْبِلٌ عَلَيْهِ رَاضٍ عَنْهُ ، وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ يَلْتَزِمُونَ فِي صَلَاتِهِمْ جِهَةً مُعَيَّنَةً كَالْتِزَامِ النَّصَارَى جِهَةَ الْمَشْرِقِ ، وَأَنَّ اسْتِقْبَالَ الْمُسْلِمِينَ الْكَعْبَةَ يَقْتَضِي أَنْ يُصَلِّيَ أَهْلُ كُلِّ قُطْرٍ إِلَى جِهَةٍ مِنَ الْجِهَاتِ الْأَرْبَعِ فَهُمْ يُصَلُّونَ إِلَى جَمِيعِ الْجِهَاتِ ، وَلَا يُنَافِي ذَلِكَ تَوَجُّهَهُمْ إِلَى اللهِ – تَعَالَى – ، وَالْوَجْهُ هُنَا قِيلَ : إِنَّهُ بِمَعْنَى الْجِهَةِ وَهُوَ صَحِيحٌ لُغَةً ، وَالْمَعْنَى : فَهُنَاكَ الْقِبْلَةُ

الَّتِي يَرْضَاهَا لَكُمْ . وَقِيلَ : إِنَّهُ عَلَى حَدِّ (مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ) (58 : 7) .

(242/64)

وَوَجْهُ الْمُنَاسَبَةِ وَالِاتِّصَالِ بَيْنَ هَذِهِ الْآيَةِ وَمَا قَبْلَهَا ظَاهِرٌ عَلَى هَذَا التَّفْسِيرِ ، فَإِنَّ فِيهَا إِبْطَالَ مَا كَانَ عَلَيْهِ أَهْلُ الْمِلَلِ السَّابِقَةِ مِنِ اعْتِقَادِ أَنَّ الْعِبَادَةَ لِلَّهِ - تَعَالَى - لَا يَصِحُّ أَنْ تَكُونَ إِلَّا فِي الْهَيْكَلِ وَالْمَعْبَدِ الْمَخْصُوصِ ، وَفِي إِبْطَالِ هَذَا إِزَالَةُ مَا عَسَاهُ يُتَوَهَّمُ مِنْ وَعِيدِ مَنْ مَنْعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ مِنْ أَنَّهُ وَعِيدٌ عَلَى إِبْطَالِ الْعِبَادَةِ فِي الْمَوَاضِعِ الْمَخْصُوصَةِ ؛ لِأَنَّهُ إِبْطَالٌ لَهَا بِالْمَرَّةِ ، إِذْ لَا تَصِحُّ إِلَّا فِي تِلْكَ الْمَوَاضِعِ ، فَهَذِهِ الْآيَةُ تَنْفِي ذَلِكَ التَّوَهُّمَ مِنْ حَيْثُ تُثْبِتُ لَنَا قَاعِدَةً مِنْ أَهَمِّ قَوَاعِدِ الِاعْتِقَادِ ، وَهِيَ أَنَّ اللهَ - تَعَالَى - لَا تُحَدِّدُهُ الْجِهَاتُ ، وَلَا تَحْصُرُهُ الْأَمْكِنَةُ ، وَلَا يُتَقَرَّبُ إِلَيْهِ بِالْبِقَاعِ وَالْمَعَاهِدِ ، وَلَا تَنْحَصِرُ عِبَادَتُهُ فِي الْهَيَاكِلِ وَالْمَسَاجِدِ ، وَإِنَّمَا ذَلِكَ الْوَعِيدُ لِانْتِهَاكِ حُرُمَاتِ اللهِ وَإِبْطَالِ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ عِبَادَتِهِ ، وَهُوَ الْعِبَادَةُ الِاجْتِمَاعِيَّةُ الَّتِي يَجْتَمِعُ لَهَا النَّاسُ فِي أَشْرَفِ الْمَعَاهِدِ عَلَى خَيْرِ الْأَعْمَالِ الَّتِي تُطَهِّرُ نُفُوسَهُمْ وَتُهَذِّبُ أَخْلَاقَهُمْ .

(243/64)

وَهَذَا الضَّرْبُ مِنَ الْبَيَانِ مِمَّا امْتَازَ بِهِ الْقُرْآنُ عَلَى سَائِرِ الْكَلَامِ ، فَإِنَّكَ لَتَرَى فِيهِ فُنُونًا مِنَ الِاسْتِدْرَاكِ وَالِاحْتِرَاسِ قَدْ جَاءَتْ فِي خِلَالِ الْقَصَصِ وَسِيَاقِ الْأَحْكَامِ ، تَقْرَأُ الْآيَةَ فِي حُكْمٍ مِنَ الْأَحْكَامِ ، أَوْ عِظَةٍ مِنَ الْمَوَاعِظِ ، أَوْ وَاقِعَةٍ تَارِيخِيَّةٍ فِيهَا عِبْرَةٌ مِنَ الْعِبَرِ ، فَتَرَاهَا مُسْتَقِلَّةً بِالْبَيَانِ ، وَلَكِنَّهَا بِاتِّصَالِهَا بِمَا قَبْلَهَا قَدْ أَزَالَتْ وَهْمًا أَوْ تَمَّمَتْ حُكْمًا ، وَكَانَ يَنْبَغِي لِأَهْلِ الْعَرَبِيَّةِ أَنْ يَقْتَبِسُوا هَذِهِ الضُّرُوبَ مِنَ الْبَيَانِ ، وَيَتَوَسَّعُوا بِهَا فِي أَسَالِيبِ الْكَلَامِ ، فَإِنَّ الْقُرْآنَ قَدْ أَطْلَقَ لَهُمُ اللُّغَةَ مِنْ عِقَالِهَا ، وَعَلَّمَهُمْ مِنَ الْأَسَالِيبِ الرَّفِيعَةِ مَا كَانَتْ تَسْتَحْلِيهِ أَذْوَاقُهُمْ ، وَتَنْفَعِلُ لَهُ قُلُوبُهُمْ ، وَتَهْتَزُّ لَهُ نُفُوسُهُمْ ، وَتَتَحَرَّكُ بِهِ أَرْيَحِيَّتُهُمْ ، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يُوَفَّقُوا لِاقْتِبَاسِ هَذِهِ الْأَسَالِيبِ الْجَدِيدَةِ ، عَلَى أَنَّ مَلَكَتَهُمْ فِي حُسْنِ الْبَيَانِ ، قَدِ ارْتَفَعَتْ بَعْدَ نُزُولِ الْقُرْآنِ .

(قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ) : وَسَنُعْطِي هَذَا الْمَوْضُوعَ حَقَّهُ مِنَ الْبَيَانِ فِي مَوْضِعٍ تَكُونُ مُنَاسَبَتُهُ أَقْوَى مِنْ هَذِهِ الْمُنَاسَبَةِ .

ثُمَّ عَادَ الْكِتَابُ إِلَى النَّسَقِ السَّابِقِ فِي تَعْدَادِ مَخَازِي أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ بَعْدَمَا ذَكَرَ مِنْ وَعِيدِ مَنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ مَا ذَكَرَ ، وَبَيَّنَ أَنَّهُ بَعِيدٌ فِي كُلِّ مَكَانٍ ، فَقَالَ جَلَّ وَعَزَّ : (وَقَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا) ، فَهَذَا عَطْفٌ عَلَى قَوْلِهِ – تَعَالَى – : (وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى) (2 : 111) وَقَوْلِهِ : (وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ) (2 : 113) . . . إِلَخْ ، وَيَصِحُّ أَنْ يُنْسَبَ هَذَا إِلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ جَمِيعًا . وَإِلَى فِرْقَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْهُمْ . وَوَجْهُ الْعُمُومِ أَنَّ اللهَ – تَعَالَى – أَخْبَرَنَا فِي مَوَاضِعَ مِنْ كِتَابِهِ بِأَنَّ الْيَهُودَ قَالَتْ : عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ ، وَأَنَّ النَّصَارَى قَالَتِ : الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ ، وَأَنَّ الْمُشْرِكِينَ قَالُوا : إِنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ اللهِ . وَلَا فَرْقَ فِي الْأَحْكَامِ الَّتِي تُسْنَدُ إِلَى الْأُمَمِ بَيْنَ كَوْنِهَا صَدَرَتْ مِنْ جَمِيعِ أَفْرَادِ الْأُمَّةِ أَوْ صَدَرَتْ مِنْ بَعْضِهِمْ ، فَإِنَّ مِثْلَ هَذَا الْإِسْنَادِ مُنْبِئٌ بِتَكَافُلِ الْأُمَمِ كَمَا تَقَدَّمَ غَيْرَ مَرَّةٍ . وَقَدْ نُقِلَ أَنَّ كَلِمَةَ (عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ) قَالَهَا بَعْضُ الْيَهُودِ لَا كُلُّهُمْ . ، وَكَذَلِكَ اعْتِقَادُ كَوْنِ الْمَلَائِكَةِ بَنَاتِ اللهِ لَمْ يَكُنْ عَامًّا فِي مُشْرِكِي الْعَرَبِ ، وَإِنَّمَا عُرِفَ عَنْ بَعْضِهِمْ . ثُمَّ رَدَّ عَلَى مُدَّعِي اتِّخَاذِ الْوَلَدِ بِقَوْلِهِ : (سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ) نَزَّهَ – تَعَالَى –

نَفْسَهُ بِكَلِمَةِ (سُبْحَانَهُ) الَّتِي تُفِيدُ التَّنْزِيهَ ، مَعَ التَّعَجُّبِ مِمَّا يُنَافِيهِ ، كَأَنَّ الَّذِي يَعْرِفُهُ – تَعَالَى – لَا يَنْبَغِي أَنْ يَصْدُرَ عَنْهُ مِثْلَ هَذَا الْقَوْلِ الَّذِي يُشْعِرُ بِأَنَّ لَهُ – تَعَالَى – جِنْسًا يُمَاثِلُهُ ، فَإِنَّ قَائِلَ ذَلِكَ لَا يَكُونُ عَلَى عِلْمٍ بِاللهِ – تَعَالَى – ، وَإِنَّمَا يَكُونُ زَاعِمًا فِيهِ الْمَزَاعِمَ وَظَانًّا فِيهِ الظُّنُونَ ، أَيْ تَنْزِيهًا لَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ كَمَا زَعَمَ هَؤُلَاءِ الْجَاهِلُونَ الظَّانُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ ، فَإِنَّهُ لَا جِنْسَ لَهُ فَيَكُونُ لَهُ وَلَدٌ مِنْهُ ، وَهَذَا الْوَلَدُ الَّذِي نَسَبُوهُ إِلَيْهِ

– تَعَالَى – لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْعَالَمِ الْعُلْوِيِّ وَهُوَ السَّمَاءُ ، أَوْ مِنَ الْعَالَمِ السُّفْلِيِّ وَهُوَ الْأَرْضُ ، وَلَا يَصْلُحُ شَيْءٌ مِنْهُمَا أَنْ يَكُونَ مُجَانِسًا لَهُ – عَزَّ وَجَلَّ – ؛ لِأَنَّ جَمِيعَ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِلْكٌ لَهُ ، قَانِتٌ لِعِزَّتِهِ وَجَلَالِهِ ، أَيْ خَاضِعٌ لِقَهْرِهِ مُسَخَّرٌ لِمَشِيئَتِهِ ، فَإِذَا كَانُوا سَوَاءً فِي كَوْنِهِمْ مُسَخَّرِينَ لَهُ بِفِطْرَتِهِمْ ، مُنْقَادِينَ لِإِرَادَتِهِ

بِطَبِيعَتِهِمْ وَاسْتِعْدَادِهِمْ ، فَلَا مَعْنَى حِينَئِذٍ لِتَخْصِيصِ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِالِانْتِسَابِ إِلَيْهِ وَجَعْلِهِ وَلَدًا مُجَانِسًا لَهُ (إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا) (19 : 93)

نَعَمْ إِنَّ لَهُ سُبْحَانَهُ أَنْ يَخْتَصَّ مَنْ شَاءَ كَمَا اخْتَصَّ الْأَنْبِيَاءَ بِالْوَحْيِ ، وَلَكِنَّ هَذَا التَّخْصِيصَ لَا يَرْتَقِي بِالْمَخْلُوقِ إِلَى مَرْتَبَةِ الْخَالِقِ ، وَلَا يُعَرِّجُ بِالْمَوْجُودِ الْمُمْكِنِ إِلَى دَرَجَةِ الْوُجُودِ

الْوَاجِبِ ، وَإِنَّمَا يُودِعُ سُبْحَانَهُ فِي فِطْرَةِ مَنْ شَاءَ مَا يُؤَهِّلُهُ لِمَا شَاءَ مِنْهُ (أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى) (20 : 50) وَلَيْسَتْ شُبْهَةُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا بَعْضَ الْبَشَرِ آلِهَةً بِأَمْثَلَ مِنْ شُبْهَةِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا بَعْضَ الْكَوَاكِبِ آلِهَةً ، إِذِ التَّفَاوُتُ بَيْنَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ أَظْهَرُ مَثَلًا مِنَ التَّفَاوُتِ بَيْنَ الْمَسِيحِ ، وَبَيْنَ سَائِرِ النَّاسِ الَّذِينَ عَبَدُوهُ وَقَالُوا : هُوَ ابْنُ اللهِ أَوْ هُوَ اللهُ .

وَقَدْ غَلَّبَ فِي الْمِلْكِيَّةِ مَا لَا يَعْقِلُ فَقَالَ : (لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ) . . . إِلَخْ ، لِأَنَّ الْمُرَادَ بِتَسْخِيرِهَا لَهُ التَّسْخِيرُ الطَّبِيعِيُّ الَّذِي لَا يُشْتَرَطُ فِيهِ الِاخْتِيَارُ ، لَا التَّسْخِيرُ الشَّرْعِيُّ الْمُعَبَّرُ عَنْهُ بِالتَّكْلِيفِ الَّذِي يَفْعَلُهُ الْكَاسِبُ بِاخْتِيَارِهِ ، وَيَسْتَوِي فِي التَّسْخِيرِ الطَّبِيعِيِّ الْعَاقِلُ وَغَيْرُهُ ، وَلَكِنَّهُ فِي غَيْرِ الْعَاقِلِ أَظْهَرُ .

(247/64)

وَلَمَّا ذَكَرَ الْقُنُوتَ لَهُ – تَعَالَى – ، جَمَعَهُ بِضَمِيرِ الْعَاقِلِ فَغَلَّبَ فِيهِ الْعُقَلَاءَ ؛ لِأَنَّ مِنْ شَأْنِ الْقُنُوتِ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْعَاقِلِ الَّذِي يَشْعُرُ بِمُوجَبِهِ وَيَفْعَلُهُ بِاخْتِيَارِهِ ، وَإِنْ كَانَ لِغَيْرِ الْعَاقِلِ قُنُوتٌ يَلِيقُ بِهِ . وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ : أَنَّ الْآيَةَ نَاطِقَةٌ بِأَنَّ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِلْكٌ لِلَّهِ – تَعَالَى – وَمُسَخَّرٌ لِإِرَادَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ لَا فَرْقَ بَيْنَ الْعَاقِلِ وَغَيْرِهِ ، فَقَدْ حَكَمَ عَلَى الْجَمِيعِ بِالْمِلْكِيَّةِ وَبِالْقُنُوتِ الَّذِي يُرَادُ بِهِ التَّسْخِيرُ وَقَبُولُ تَعَلُّقِ الْإِرَادَةِ وَالْقُدْرَةِ ، وَلَكِنَّهُ عِنْدَ ذِكْرِ الْمِلْكِ عَبَّرَ

عَنْهُ بِالْكَلِمَةِ الَّتِي تُسْتَعْمَلُ غَالِبًا فِي غَيْرِ الْعَاقِلِ وَهِيَ كَلِمَةُ (مَا) ؛ لِأَنَّ الْمَعْهُودَ فِي ذَوْقِ اللُّغَةِ وَعُرْفِ أَهْلِهَا أَنَّ الْمِلْكَ يَتَعَلَّقُ بِمَا لَا يَعْقِلُ ، وَعِنْدَ ذِكْرِ الْقُنُوتِ عَبَّرَ عَنْهُ بِضَمِيرِ الْعُقَلَاءِ ؛ لِأَنَّهُ مِنْ أَعْمَالِهِمْ ، وَمِمَّا يُعْهَدُ مِنْهُمْ وَيُسْنَدُ إِلَيْهِمْ لُغَةً وَعُرْفًا وَهَذَا كَمَا تَرَى مِنْ أَدَقِّ التَّعْبِيرِ وَأَلْطَفِهِ ، وَأَعْلَى الْبَيَانِ وَأَشْرَفِهِ .

ثُمَّ زَادَ هَذَيْنِ الْحُكْمَيْنِ بَيَانًا وَتَأْكِيدًا فَقَالَ : (بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) . قَالَ الْمُفَسِّرُونَ : إِنَّ الْبَدِيعَ بِمَعْنَى الْمُبْدِعِ ، فَهُوَ مِنَ الرُّبَاعِيِّ " أَبْدَعَ " وَاسْتَشْهَدُوا بِبَيْتٍ مِنْ كَلَامِ عَمْرِو بْنِ مَعْدِيكَرِبَ جَاءَ فِيهِ (سَمِيعٌ) بِمَعْنَى مُسْمِعٍ ، وَقَالُوا : قَدْ تَعَاقَبَ

فَعِيلٌ وَمُفْعِلٌ فِي حُرُوفٍ كَثِيرَةٍ كَحَكِيمٍ وَمُحْكِمٍ ، وَقَعِيدٍ وَمُقْعِدٍ ، وَسَخِينٍ وَمُسْخِنٍ .

وَقَالُوا : إِنَّ الْإِبْدَاعَ هُوَ إِيجَادُ الشَّيْءِ بِصُورَةٍ مُخْتَرَعَةٍ عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ سَبَقَ وَهُوَ لَا يَقْتَضِي سَبْقَ الْمَادَّةِ ، وَأَمَّا الْخَلْقُ فَمَعْنَاهُ : التَّقْدِيرُ وَهُوَ يَقْتَضِي شَيْئًا مَوْجُودًا يَقَعُ فِيهِ التَّقْدِيرُ ، وَإِذَا كَانَ هُوَ الْمُبْدِعُ لِلسَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْمُخْتَرِعُ

لَهُمَا وَالْمُوجِدُ لِجَمِيعِ مَا فِيهِمَا ، فَكَيْفَ يَصِحُّ أَنْ يُنْسَبَ إِلَيْهِ شَيْءٌ مِنْهُمَا عَلَى أَنَّهُ جِنْسٌ لَهُ ، – تَعَالَى – اللهُ عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا .

وَكَانَ الْأَصْمَعِيُّ يُنْكِرُ فَعِيلًا بِمَعْنَى مُفْعِلٍ ؛ لِأَنَّ الْقِيَاسَ بِنَاؤُهُ مِنَ الثُّلَاثِيِّ وَيَقُولُ : إِنَّ بَدِيعًا صِفَةٌ مُشَبَّهَةٌ بِمَعْنَى لَا نَظِيرَ لَهُ ، وَبَدِيعَ السَّمَاوَاتِ مَعْنَاهُ : الْبَدِيعَةُ سَمَاوَاتُهُ ، وَفِي هَذَا تَرْكٌ لِلْقِيَاسِ الَّذِي قَضَى فِي الصِّفَةِ الْمُشَبَّهَةِ الَّتِي تُضَافُ إِلَى الْفَاعِلِ ، أَنْ تَكُونَ مُتَضَمِّنَةً ضَمِيرًا يَعُودُ عَلَى الْمَوْصُوفِ ، وَالْحَقُّ أَنَّ تَحْكِيمَ الْقِيَاسِ فِيمَا ثَبَتَ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ تَحْكِيمٌ جَائِزٌ ، فَمَا كَانَ لِلدَّخِيلِ فِي الْقَوْمِ أَنْ يَعْمِدَ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْ كَلَامِهِمْ ، فَيَضَعَ لَهَا قَانُونًا يُبْطِلُ بِهِ كَلَامًا آخَرَ ثَبَتَ عَنْهُمْ ، وَيَعُدُّهُ خَارِجًا عَنْ لُغَتِهِمْ بَعْدَ ثُبُوتِ نُطْقِهِمْ بِهِ ، فَإِذَا كَانَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْوَجْهَيْنِ صَحِيحَ الْمَعْنَى ، حَكَمْنَا بِصِحَّةِ كُلٍّ مِنْهُمَا ، وَالْأَوَّلُ أَظْهَرُ ، وَشَوَاهِدُهُ الْمَسْمُوعَةُ أَكْثَرُ .

(249/64)

وَأَمَّا قَوْلُهُ : (وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) فَمَعْنَاهُ : أَنَّهُ إِذَا أَرَادَ إِيجَادَ أَمْرٍ وَإِحْدَاثَهُ ، فَإِنَّمَا يَأْمُرُهُ أَنْ يَكُونَ مَوْجُودًا ، فَيَكُونُ مَوْجُودًا ، فَكُنْ وَيَكُونُ مِنْ كَانَ التَّامَّةِ . وَقَدْ ذَهَبَ جُمْهُورُ الْعُلَمَاءِ إِلَى أَنَّ هَذَا ضَرْبٌ مِنَ التَّمْثِيلِ ، أَيْ أَنَّ تَعَلُّقَ إِرَادَتِهِ – تَعَالَى – بِإِيجَادِ الشَّيْءِ يَعْقُبُهُ وُجُودُهُ ، كَأَمْرٍ يَصْدُرُ فَيَعْقُبُهُ الِامْتِثَالُ ، فَلَيْسَ بَعْدَ الْإِرَادَةِ إِلَّا حُصُولُ الْمُرَادِ . وَقَالَ بَعْضُهُمْ : بَلْ هُوَ قَوْلٌ حَقِيقِيٌّ . قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : وَقَدْ وَقَعَ هَذَا الْخِلَافُ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ وَغَيْرِهِمْ ، وَعَجِيبٌ وُقُوعُهُ مِنْهُمْ ، فَإِنَّ عِنْدَهُمْ مَذْهَبَيْنِ فِي الْمُتَشَابِهَاتِ

الَّتِي يَسْتَحِيلُ حَمْلُهَا عَلَى ظَاهِرِهَا ، وَهُمَا : مَذْهَبُ السَّلَفِ فِي التَّفْوِيضِ ، وَمَذْهَبُ الْخَلَفِ فِي التَّأْوِيلِ ، وَظَاهِرٌ أَنَّ هَذَا مِنَ الْمُتَشَابِهِ ، وَالْقَاعِدَةُ فِي تَأْوِيلِ مِثْلِهِ مَعْرُوفَةٌ وَمُتَّفَقٌ عَلَيْهَا ، وَهِيَ إِرْجَاعُ النَّقْلِيِّ إِلَى الْعَقْلِيِّ ؛ لِأَنَّهُ الْأَصْلُ ، وَهَا هُنَا يَقُولُونَ : إِنَّ الْأَمْرَ بِمَعْنَى تَعَلُّقِ الْإِرَادَةِ وَأَنَّ مَعْنَى (يَكُونُ) يُوجَدُ .

وَأَقُولُ : إِنَّ الْأَمْرَ بِكَلِمَةِ (كُنْ) هُنَا هُوَ الْأَصْلُ فِيمَا يُسَمُّونَهُ أَمْرَ التَّكْوِينِ ، وَيُقَابِلُهُ أَمْرُ التَّكْلِيفِ ، فَالْأَوَّلُ مُتَعَلِّقُ صِفَةِ الْإِرَادَةِ ، وَالثَّانِي مُتَعَلِّقُ صِفَةِ الْكَلَامِ ،

(250/64)

وَأَمْرُ التَّكْلِيفِ يُخَاطَبُ بِهِ الْعَاقِلُ فَيُسَمَّى الْمُكَلَّفَ ، وَلَا يُخَاطَبُ بِهِ غَيْرُهُ فَضْلًا عَنِ الْمَعْدُومِ ، وَأَمْرُ التَّكْوِينِ يَتَوَجَّهُ إِلَى الْمَعْدُومِ كَمَا يَتَوَجَّهُ إِلَى الْمَوْجُودِ ؛ إِذِ الْمُرَادُ بِهِ جَعْلُهُ مَوْجُودًا ، وَإِنَّمَا يُوَجَّهُ إِلَيْهِ ؛ لِأَنَّهُ مَعْلُومٌ ، فَاللَّهُ - تَعَالَى - يَعْلَمُ الشَّيْءَ قَبْلَ وُجُودِهِ ، وَأَنَّهُ سَيُوجَدُ فِي وَقْتِ كَذَا . فَتَتَعَلَّقُ إِرَادَتُهُ بِوُجُودِهِ عَلَى حَسَبِ مَا فِي عِلْمِهِ فَيُوجَدُ . وَشَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ يُسَمِّيهِ الْأَمْرَ الْقَدَرِيَّ الْكَوْنِيَّ ، وَيُسَمِّي مُقَابِلَهُ الْأَمْرَ الشَّرْعِيَّ .

قَرَأَ الْجُمْهُورُ (فَيَكُونُ) فِي كُلِّ مَوْضِعٍ بِضَمِّ النُّونِ عَلَى تَقْدِيرِ فَهُوَ يَكُونُ كَمَا أَرَادَ ، وَقَرَأَهُ ابْنُ عَامِرٍ بِفَتْحِهَا فِي كُلِّ مَوْضِعٍ إِلَّا فِي آلِ عِمْرَانَ وَالْأَنْعَامِ بِنَاءً عَلَى أَنَّ جَوَابَ الْأَمْرِ بِالْفَاءِ يَكُونُ

مَنْصُوبًا .

ذَلِكَ شَأْنُهُ – تَعَالَى – فِي الْإِيجَادِ وَالتَّكْوِينِ ، وَهُوَ أَغْمَضُ أَسْرَارِ الْأُلُوهِيَّةِ ، فَمَنْ عَرَفَ حَقِيقَتَهُ فَقَدْ عَرَفَ حَقِيقَةَ الْمُبْدِعِ الْأَوَّلِ ، وَذَلِكَ مَا لَا مَطْمَعَ فِيهِ . وَقَدْ عَبَّرَ عَنْ هَذَا السِّرِّ بِهَذَا التَّعْبِيرِ

(251/64)

الَّذِي يُقَرِّبُهُ مِنَ الْفَهْمِ بِمَا لَا يَتَشَعَّبُ فِيهِ الْوَهْمُ ، وَلَا يُوجَدُ فِي الْكَلَامِ تَعْبِيرٌ آخَرُ أَلْيَقُ بِهِ مِنْ هَذَا التَّعْبِيرِ : يَقُولُ لِلشَّيْءِ : (كُنْ فَيَكُونُ) ، فَالتَّوَالُدُ مُحَالٌ فِي جَانِبِهِ – تَعَالَى – ؛ لِأَنَّ مَا يُعْهَدُ فِي حُدُوثِ بَعْضِ الْأَشْيَاءِ وَتَوَلُّدِهَا مِنْ بَعْضٍ ، فَهُوَ لَا يَعْدُو طَرِيقَيْنِ : الِاسْتِعْدَادُ الْقَهْرِيُّ الَّذِي لَا مَجَالَ لِلِاخْتِيَارِ فِيهِ كَحُدُوثِ الْحَرَارَةِ مِنَ النُّورِ ، وَتَوَلُّدِ الْعُفُونَةِ مِنَ الْمَاءِ يَتَّحِدُ بِغَيْرِهِ ، وَالسَّعْيِ الِاخْتِيَارِيِّ كَتَوَلُّدِ النَّاسِ بِالِازْدِوَاجِ الَّذِي يُسَاقُونَ إِلَيْهِ مَعَ اخْتِيَارِهِ وَالْقَصْدِ إِلَيْهِ ، وَإِذَا كَانَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْأَمْرَيْنِ مُحَالًا عَلَى اللهِ – تَعَالَى – ، وَكَانَ – تَعَالَى – هُوَ الْمُبْدِعُ لِجَمِيعِ الْكَائِنَاتِ ، وَهِيَ بِأَسْرِهَا مِلْكُهُ وَمُسَخَّرَةٌ لِإِرَادَتِهِ فَلَا مَعْنَى لِإِضَافَةِ الْوَلَدِ إِلَيْهِ (سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) (37 : 180 – 182) .

(وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ

(252/64)

أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ)

قُلْنَا : إِنَّ السِّيَاقَ قَدِ انْتَقَلَ مِنَ الْكَلَامِ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ تُجَاهَ الْقُرْآنِ وَدَعْوَةِ الْإِسْلَامِ وَرَسُولِهِ إِلَى الْكَلَامِ فِي شُئُونِ الْمُؤْمِنِينَ مَعَهُمْ وَمَعَ النَّصَارَى وَالْوَثَنِيِّينَ ، وَشَيْخُنَا لَا يَزَالُ يَجْعَلُ السِّيَاقَ وَاحِدًا غَيْرَ مُلْتَفِتٍ فِي التَّنَاسُبِ بَيْنَ الْآيَاتِ إِلَى هَذَا التَّفْصِيلِ لِذَلِكَ الْمُجْمَلِ ، وَقَدْ قَالَ هُنَا مَا مِثَالُهُ : الْكَلَامُ لَا يَزَالُ فِي الْقُرْآنِ ، وَمَا كَانَ مِنْ أَمْرِ النَّاسِ فِي الْإِيمَانِ بِهِ وَعَدَمِ الْإِيمَانِ ، وَذَكَرَ فِي الْآيَاتِ الْمُتَقَدِّمَةِ آنِفًا مِنْ شَأْنِ أَهْلِ الْكِتَابِ ، مَا تَبَيَّنَ بِهِ أَنَّ عَدَمَ إِيمَانِهِمْ بِالنَّبِيِّ وَمَا جَاءَ بِهِ غَيْرُ قَادِحٍ فِيهِ ، وَلَا يَنْهَضُ شُبْهَةً عَلَيْهِ ، وَأَنَّ مَطَاعِنَهُمْ فِيهِ مُتَهَافِتَةٌ مَنْقُوضَةٌ بِطَعْنِهِمْ فِي أَنْفُسِهِمْ ، وَتَخَبُّطِهِمْ فِي أَمْرِ كُتُبِهِمْ ، ثُمَّ انْتَقَلَ إِلَى ذِكْرِ شُبْهَةِ مُشْرِكِي الْعَرَبِ ، وَبَيَّنَ أَنَّهُمْ جَرَوْا فِيهَا عَلَى الْأَصْلِ الْمَعْهُودِ مِنْ أَمْثَالِهِمُ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ سَبَقُوهُمْ بِالضَّلَالِ فَقَالَ : (وَقَالَ

الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) أَيِ الْجَاهِلُونَ بِالْكِتَابِ وَالشَّرَائِعِ مِنْ مُشْرِكِي الْعَرَبِ . وَقَالَ (الْجَلَالُ) : إِنَّ الْمُرَادَ بِالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ كُفَّارُ مَكَّةَ خَاصَّةً وَلَا دَلِيلَ عَلَى التَّخْصِيصِ ، وَيُرَجِّحُ الْعُمُومَ كَوْنُ الْآيَةِ مَدَنِيَّةً (لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللهُ) كَمَا

(253/64)

كَلَّمَ هَذَا الرَّسُولَ مَعَ أَنَّهُ بَشَرٌ مِثْلُنَا (أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ) مِنَ الْآيَاتِ الَّتِي اقْتَرَحْنَاهَا . يَعْنُونَ مَا حَكَاهُ اللهُ – تَعَالَى – عَنْهُمْ بِمِثْلِ قَوْلِهِ : (وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا) (17 : 90) الْآيَاتِ (كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ) أَيْ مِثْلَ هَذَا الْقَوْلِ قَالَ الْكُفَّارُ الَّذِينَ أَرْسَلَ اللهُ إِلَيْهِمُ الرُّسُلَ مِنْ قَبْلِهِمْ فِي مَعْنَاهُ ، وَهُوَ أَنَّهُمْ أَنْكَرُوا عَلَى الرُّسُلِ الِاخْتِصَاصَ بِالْوَحْيِ مِنْ دُونِهِمْ وَاقْتَرَحُوا عَلَيْهِمُ الْآيَاتِ تَعَنُّتًا وَعِنَادًا (تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ) لِأَنَّ الطُّغْيَانَ قَدْ سَاوَى بَيْنَهُمْ حَتَّى كَأَنَّهُمْ تَوَاصَوْا بِمَا يَقُولُونَ كَمَا قَالَ فِي سُورَةِ الذَّارِيَاتِ : (أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ) (51 : 53) وَيُشْبِهُ هَذَا مَا وَرَدَ مِنْ أَنَّ الْكُفْرَ مِلَّةٌ وَاحِدَةٌ وَذَلِكَ أَنَّ الْحَقَّ وَاحِدٌ ، وَمُخَالَفَتَهُ هِيَ الْبَاطِلُ أَوِ الضَّلَالُ ، وَهُوَ وَاحِدٌ وَإِنْ تَعَدَّدَتْ طُرُقُهُ وَاخْتَلَفَتْ وُجُوهُهُ ؛ وَآثَارُ الشَّيْءِ الْوَاحِدِ الْكُلِّيِّ تَتَشَابَهُ فِيمَنْ تَصْدُرُ عَنْهُمْ وَإِنِ اخْتَلَفَتِ الْجُزْئِيَّاتُ ، وَالتَّشَابُهُ

هُنَا إِنَّمَا هُوَ فِي مُكَابَرَةِ الْحَقِّ وَاسْتِبْعَادِ كَوْنِ وَاحِدٍ مِنَ الْبَشَرِ رَسُولًا يُوحَى إِلَيْهِ وَاقْتِرَاحِ الْآيَاتِ تَعَنُّتًا وَعِنَادًا .

(254/64)

وَمِثَالُ الِاخْتِلَافِ فِي الْجُزْئِيَّاتِ طَلَبُ قَوْمِ مُوسَى رُؤْيَةَ اللهِ جَهْرَةً ، وَطَلَبُ قَوْمِ مُحَمَّدٍ أَنْ يَرْقَى فِي السَّمَاءِ أَمَامَهُمْ فَيَأْتِيَهُمْ بِكِتَابٍ يَقْرَءُونَهُ ، وَالطَّلَبُ الَّذِي مَصْدَرُهُ الْعِنَادُ وَالتَّعَنُّتُ لَا تُقَيِّدُ إِجَابَتُهُ ؛ لِأَنَّ صَاحِبَهُ لَا يَقْصِدُ بِهِ مَعْرِفَةَ الْحَقِّ ، وَلِذَلِكَ قَالَ تَعَالَى : (وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ) (6 : 7)

وَالدَّلِيلُ الْمَعْقُولُ عَلَى هَذَا أَنَّهُ مَا مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا وَقَدْ جَاءَ بِآيَةٍ أَوْ آيَاتٍ كَوْنِيَّةٍ أَوْ عَقْلِيَّةٍ ، وَكَانُوا مَعَ ذَلِكَ يَصِفُونَهُمْ بِالسِّحْرِ ثُمَّ يَقْتَرِحُونَ عَلَيْهِمُ الْآيَاتِ ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ – تَعَالَى – بَعْدَ حِكَايَةِ شُبْهَةِ هَؤُلَاءِ الْجَاهِلِينَ : (قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ) أَيْ أَنَّنَا لَمْ نَدَعْكَ يَا مُحَمَّدُ بِغَيْرِ آيَةٍ بَلْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ عَلَى يَدَيْكَ بَيَانًا لَا يَدَعُ لِلرَّيْبِ طَرِيقًا إِلَى نَفْسِ مَنْ يَعْقِلُهَا . وَقَدْ قَالَ : (بَيَّنَّا الْآيَاتِ) وَلَمْ يَقُلْ : أَعْطَيْنَاكَ الْآيَاتِ لِلتَّفْرِقَةِ وَالْفَصْلِ بَيْنَ آيَاتِ الْقُرْآنِ الَّتِي هِيَ مِنْ عِلْمِ اللهِ وَكَلَامِهِ ، يَظْهَرُ بِهَا الْحَقُّ بِطَرِيقٍ مَعْقُولٍ بَيِّنٍ لَا يَشْتَبِهُ فِيهِ الْفَهْمُ ، وَلَا يَحَارُ فِيهِ الذِّهْنُ ، وَبَيْنَ الْآيَاتِ

الْكَوْنِيَّةِ الَّتِي هِيَ مِنْ صُنْعِهِ يَسْتَخْذِي لَهَا الْعَقْلُ وَيَخْضَعُ لَهَا ؛ لِشُعُورِهِ بِأَنَّهَا مِنْ قُوَّةٍ فَوْقَ قُوَّتِهِ . وَلِلنَّاسِ فِيمَا يَرَوْنَهُ فَوْقَ مَا يَعْقِلُونَ طَرِيقَانِ مَعْهُودَانِ : مِنْهُمْ مَنْ يُسْنِدُهُ

(255/64)

إِلَى الْقُوَّةِ الْغَيْبِيَّةِ الْعُلْيَا ، سَوَاءٌ كَانَ لَهُ سَبَبٌ خَفِيٌّ فِي الْوَاقِعِ أَوْ لَا ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُسْنِدُهُ إِلَى الْأَسْبَابِ الْخَفِيَّةِ الَّتِي يُسَمُّونَهَا السِّحْرَ ، وَإِنْ كَانَ فَوْقَ قُدْرَةِ الْبَشَرِ ؛ وَلِذَلِكَ ضَلَّتِ الْأُمَمُ فِي آيَاتِ الْأَنْبِيَاءِ السَّابِقِينَ وَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَضِلَّ فِي آيَاتِ الْقُرْآنِ لِأَنَّهَا بَيِّنَةٌ مَعْقُولَةٌ وَلِذَلِكَ قَالَ : (ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ) (2 : 2) .

نَعَمْ إِنَّ الْآيَاتِ الْعِلْمِيَّةَ لَا يَعْقِلُهَا إِلَّا أَهْلُ الِاسْتِعْدَادِ لِلْعِلْمِ وَالْيَقِينِ ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ : (لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ) . قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : الَّذِينَ يُوقِنُونَ هُمُ الَّذِينَ خَلَصَتْ نُفُوسُهُمْ مِنْ كُلِّ رَأْيٍ وَتَقْلِيدٍ ، وَتَوَجَّهُوا إِلَى طَلَبِ الْحَقِّ فِي الْأُمُورِ الِاعْتِقَادِيَّةِ ، وَأَخَذُوا عَلَى أَنْفُسِهِمُ الْعَهْدَ أَنْ يَطْلُبُوهُ بِدَلِيلِهِ وَبُرْهَانِهِ ، فَهُمْ إِذَا قَامَ عِنْدَهُمُ الْبُرْهَانُ اعْتَقَدُوا

(256/64)

وَأَيْقَنُوا إِيقَانًا ، وَإِنَّمَا يُتَوَقَّعُ الْيَقِينُ مِنْ مِثْلِهِمْ لَا مِنْ قَوْمٍ يَعْتَقِدُونَ الشَّيْءَ أَوَّلًا بِلَا دَلِيلٍ وَلَا بُرْهَانٍ ، ثُمَّ يَلْتَمِسُونَ لَهُ الدَّلِيلَ ؛ لِأَنَّ مُقَلِّدِيهِمْ قَالُوا بِوُجُوبِ مَعْرِفَةِ الدَّلِيلِ ، فَإِذَا أَصَابُوهُ مُوَافِقًا لِمَا اعْتَقَدُوا ، رَضُوا بِهِ وَإِنْ كَانَ ظَنِّيًّا ، وَإِذَا نَهَضَ لَهُمْ مُخَالِفًا لِتَقَالِيدِهِمْ ، رَفَضُوهُ وَتَعَلَّلُوا بِالتَّعِلَّاتِ الْمُنْتَحَلَةِ ، وَهَؤُلَاءِ هُمُ الْجَمَاهِيرُ مِنَ النَّاسِ الَّذِينَ وُصِفُوا فِي الْأَثَرِ بِأَنَّهُمْ أَتْبَاعُ كُلِّ نَاعِقٍ ، وَالْعِبْرَةُ فِي خِطَابِ الشَّرْعِ بِأَهْلِ الْيَقِينِ الَّذِينَ صَفَتْ نُفُوسُهُمْ ، وَمُحِّصَتْ أَفْكَارُهُمْ ، فَسَلِمُوا مِنْ عِلَّةِ الْعِنَادِ وَالْمُكَابَرَةِ الْمَانِعَيْنِ لِشُعَاعِ الْحَقِّ أَنْ يَنْفُذَ إِلَى الْعُقُولِ ، وَلِحَرَارَتِهِ أَنْ تَخْتَرِقَ الصُّدُورَ إِلَى الْقُلُوبِ ، هَؤُلَاءِ هُمْ أَنْصَارُ الْحَقِّ ؛ لِأَنَّهُمْ بِيَقِينِهِمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ الْمُرُوقَ مِنْهُ ، وَلَا السُّكُوتَ عَنِ الِانْتِصَارِ لَهُ ، أَلَمْ تَرَ أَنَّ كِبَارَ الصَّحَابَةِ كَانُوا يُرَاجِعُونَ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِيمَا لَمْ يَظْهَرْ لَهُمْ دَلِيلُهُ ؛ لِأَنَّهُمْ طُبِعُوا عَلَى مَعْرِفَةِ الْحَقِّ بِالدَّلِيلِ ، هَؤُلَاءِ هُمُ النَّاسُ الَّذِينَ تَنْزِلُ الشَّرَائِعُ لِأَجْلِهِمْ ، وَلَوْلَا اسْتِعْدَادُهُمْ لَهَا لَمَا شُرِعَتْ أَوْ لَمَا نَجَحَتْ ، وَأَمَّا سَائِرُ النَّاسِ فَتَبَعٌ لَهُمْ وَعِيَالٌ عَلَيْهِمْ .

(257/64)

ثُمَّ قَالَ - تَعَالَى - : (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ) أَيْ بِالشَّيْءِ الثَّابِتِ الْحَقِيقِيِّ الَّذِي لَا يَضِلُّ مَنْ يَأْخُذُ بِهِ ، وَلَا تَعْبَثُ بِهِ رِيَاحُ الْأَبَاطِيلِ وَالْأَوْهَامِ ، بَلْ يَكُونُ الْآخِذُ بِهِ سَعِيدًا بِالطُّمَأْنِينَةِ

وَالْيَقِينِ . قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : إِنَّ الْحَقَّ فِي هَذَا الْمَقَامِ يَشْمَلُ الْعُلُومَ الِاعْتِقَادِيَّةَ وَغَيْرَهَا فَهُوَ يَقُولُ : إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْعَقَائِدِ الْحَقِّ الْمُطَابِقَةِ لِلْوَاقِعِ ، وَالشَّرَائِعِ الصَّحِيحَةِ الْمُوصِلَةِ إِلَى سَعَادَةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، (بَشِيرًا) لِمَنْ يَتَّبِعُ الْحَقَّ بِالسَّعَادَتَيْنِ ، (وَنَذِيرًا) لِمَنْ لَا يَأْخُذُ بِهِ بِشَقَاءِ الدُّنْيَا وَخِزْيِ الْآخِرَةِ (وَلَا تُسْئَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ) أَيْ فَلَا يَضُرُّكَ تَكْذِيبُ الْمُكَذِّبِينَ الَّذِينَ يُسَاقُونَ بِجُحُودِهِمْ إِلَى الْجَحِيمِ ؛ لِأَنَّكَ لَمْ تُبْعَثْ مُلْزِمًا لَهُمْ وَلَا جَبَّارًا عَلَيْهِمْ ، فَيُعَدُّ عَدَمُ إِيمَانِهِمْ تَقْصِيرًا مِنْكَ تُسْئَلُ عَنْهُ ، بَلْ بُعِثْتَ مُعَلِّمًا وَهَادِيًا بِالْبَيَانِ وَالدَّعْوَةِ وَحُسْنِ الْأُسْوَةِ ، لَا هَادِيًا بِالْفِعْلِ وَلَا مُلْزِمًا بِالْقُوَّةِ ، (لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) (2 : 272) وَفِي الْآيَةِ تَسْلِيَةٌ لِلنَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لِئَلَّا يَضِيقَ صَدْرُهُ ، كَمَا تَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ آيَاتٌ أُخْرَى ،

(258/64)

وَفِي الْآيَةِ مِنَ الْعِبْرَةِ أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ بُعِثُوا مُعَلِّمِينَ لَا مُسَيْطِرِينَ ، وَلَا مُتَصَرِّفِينَ فِي الْأَنْفُسِ وَلَا مُكْرِهِينَ ، فَإِذَا جَاهَدُوا فَإِنَّمَا يُجَاهِدُونَ دِفَاعًا عَنِ الْحَقِّ لَا إِكْرَاهًا عَلَيْهِ ، وَفِيهَا أَنَّ اللهَ – تَعَالَى – لَا يُطَالِبُ النَّاسَ بِأَنْ يَأْخُذُوا عَنْهُمْ إِلَّا الْعِلْمَ الَّذِي يَهْدِيهِمْ إِلَى مَعْرِفَةِ حُقُوقِ اللهِ وَحُقُوقِ الْعِبَادِ ، وَفِي قِرَاءَةِ نَافِعٍ وَيَعْقُوبَ : (وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ) بِالنَّهْيِ ، أَيْ لَا

تَسْأَلْ عَمَّا سَيُلَاقُونَ مِنَ الِانْتِقَامِ فَإِنَّهُ عَظِيمٌ ، فَمِثْلُ هَذَا النَّهْيِ مُسْتَعْمَلٌ فِي التَّهْوِيلِ لَا فِي حَقِيقَتِهِ ، وَهُوَ اسْتِعْمَالٌ مَعْرُوفٌ بَيْنَ النَّاسِ حَتَّى الْيَوْمِ .

وَزَعَمَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ أَنَّ النَّهْيَ عَلَى حَقِيقَتِهِ ، وَأَنَّهُ خَاصٌّ بِنَهْيِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَنِ السُّؤَالِ عَنْ أَبَوَيْهِ ، وَرَوَوْا فِي ذَلِكَ أَنَّهُ سَأَلَ جِبْرِيلَ عَنْ قَبْرَيْهِمَا فَدَلَّهُ عَلَيْهِمَا ، فَزَارَهُمَا وَدَعَا لَهُمَا وَتَمَنَّى لَوْ يَعْرِفُ حَالَهُمَا فِي الْآخِرَةِ وَقَالَ : (لَيْتَ شِعْرِي مَا فَعَلَ أَبَوَايَ) ؟ فَنَزَلَتِ الْآيَةُ

فِي ذَلِكَ . وَالْحَدِيثُ قَالَ الْحَافِظُ الْعِرَاقِيُّ : إِنَّهُ لَمْ يَقِفْ عَلَيْهِ ، وَقَالَ السُّيُوطِيُّ : لَمْ يَرِدْ فِي ذَلِكَ إِلَّا أَثَرٌ مُعْضَلٌ ضَعِيفُ الْإِسْنَادِ .

(259/64)

قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : وَقَدْ فَشَا هَذَا الْقَوْلُ ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَمْ نَذْكُرْهُ ، وَإِنَّمَا نُرِيدُ بِذِكْرِهِ التَّنْبِيهَ عَلَى أَنَّ الْبَاطِلَ صَارَ يَفْشُو فِي الْمُسْلِمِينَ بِضَعْفِ الْعِلْمِ ، وَالصَّحِيحَ يُهْجَرُ وَيُنْسَى . وَلَا شَكَّ أَنَّ مَقَامَ النَّبِيِّ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - فِي مَعْرِفَةِ أَسْرَارِ الدِّينِ وَحُكْمِ اللهِ فِي الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ يُنَافِي صُدُورَ مِثْلِ هَذَا السُّؤَالِ عَنْهُ ، كَمَا أَنَّ أُسْلُوبَ الْقُرْآنِ يَأْبَى أَنْ يَكُونَ هُوَ الْمُرَادَ مِنْهُ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير المنار حـ 1 صـ 355. 365 ﴾

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلاَ تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ (119) ﴾

هنا لابد أن نلتفت إلي أن الله سبحانه وتعالى حينما يخبرنا عن قضية من فعله يأتي دائما بنون العظمة التي نسميها نون المتكلم . . ونلاحظ أن نون العظمة يستخدمها رؤساء الدول والملوك ويقولون نحن فلان أمرنا بما هو آت . . فكأن العظمة في الإنسان سخرت المواهب المختلفة لتنفيذ القرار الذي يصدره رئيس الدولة . . فيشترك في تنفيذه الشرطة والقضاء والدولة والقوات المسلحة إذا كان قرار حرب . . تشترك مواهب متعددة من جماعات مختلفة تتكاتف لتنفيذ القرار . . والله تبارك وتعالى . . فإذا تحدث الله جل جلاله عن فعل يحتاج إلي كمال المواهب من الله تبارك وتعالى يقول " إنا " :

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ(9)

(سورة الحجر)

ولكن حين يتكلم الله عن ألوهيته وحده وعن عبادته وحده يستخدم ضمير المفرد . .

مثل قوله سبحانه :

إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي(14)

(سورة طه)

ولا يقول فاعبدنا . . إذن ففي كل فعل يأتي الله سبحانه بنون العظمة . . وفي كل أمر يتعلق بالعبادة والتوحيد يأتي بالمفرد . . وذلك حتى نفهم أن الفعل من الله ليس وليد قدرته وحدها . . ولا علمه وحده ولا حكمته وحدها ولا رحمته وحدها . . وإنما كل فعل من أفعال الله تكاملت فيه صفات الكمال المطلق لله . إن نون العظمة تأتي لتلفتنا إلي هذه الحقيقة لتبرز للعقل تكامل الصفات في الله . . لأنك قد تقدر ولا تعلم . . وقد تعلم ولا تقدر ، وقد تعلم وتغيب عنك الحكمة . إذن فتكامل الصفات مطلوب .

(261/64)

قوله تعالى : " إنا أرسلناك بالحق " يعني بعثناك بالحق رسولا . . والحق هو الشيء الثابت الذي لا يتغير ولا يتناقض . . فإذا رأيت حدثا أمامك ثم طلب منك أن تحكي ما رأيت رويت ما حدث . . فإذا طلب منك بعد فترة أن ترويه مرة أخرى فإنك ترويه بنفس التفاصيل . . أما إذا كنت تكذب فستتناقض في أقوالك . . ولذلك قيل إن كنت كذوبا

فكن ذكورا . إن الحق لا يتناقض ولا يتغير . . ومادام رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أرسل والإنذار هو الإخبار بشيء يسوؤك زمنه قادم ربما استطعت أن تتلافاه . . بشير بماذا ؟ ونذير بماذا ؟ يبشر من آمن بنعيم الجنة وينذر الكافر بعذاب النار . . والبشرى والإنذار يقتضيان منهجا يبلغ . . من آمن به كان بشارة له . ومن لا يؤمن كان إنذارا له . ثم يقول الحق جل جلاله : " ولا تسأل عن أصحاب الجحيم " . . أي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس مسئولا عن الذين سيلقون بأنفسهم في النار والعذاب . إنه ليس مسئولا عن هداهم وإنما عليه البلاغ . . واقرأ قوله تبارك وتعالى :

فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (6)

(سورة الكهف)

ويقول جل جلاله :

لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (3) إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (4)

(سورة الشعراء)

فالله سبحانه وتعالى لو أرادنا أن نؤمن قسرا وقهرا . . ما استطاع واحد من الخلق أن يكفر . . ولكنه تبارك وتعالى يريد أن نأتيه بقلوب تحبه وليس بقلوب مقهورة على الإيمان . . إن الله سبحانه وتعالى خلق الناس مختارين أن يؤمنوا أو لا يؤمنوا . . وليس لرسول أن يرغم الناس على الإيمان بالقهر . . لأن الله لو أراد لقهر كل خلقه . أما أصحاب الجحيم فهم أهل النار . والجحيم مأخوذة من الجموح . . وجمحت النار يعني اضطربت ، وعندما ترى النار متأججة يقال جمحت النار . . أي أصبح لهيبها مضاعفا بحيث يلتهم كل ما يصل إليها فلا تخمد أبدا . والحق سبحانه وتعالى يريد أن يطمئن رسوله صلى الله عليه وسلم . . أنه لا يجب أن ينشغل قلبه بالذين كفروا لأنه قد أنذرهم . . وهذا ما عليه ، وهذه مهمته التي كلفه الله بها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 558.560 ﴾

(263/64)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ (119) ﴾

أخرج وكيع وسفيان بن عيينة وعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن

محمد بن كعب القرظي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ليت شعري ما فعل أبواي ، فنزل ﴿ إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً ولا تسأل عن أصحاب الجحيم ﴾ فما ذكرهما حتى توفاه الله " قلت : هذا مرسل ضعيف الإِسناد .

وأخرج ابن جرير عن داود بن أبي عاصم " أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ذات يوم : أين أبواي ؟ فنزلت " قلت : والآخر معضل الإِسناد ضعيف لا يقوم به ولا بالذي قبله حجة .

وأخرج ابن المنذر عن الأعرج أنه قرأ ﴿ ولا تسأل عن أصحاب الجحيم ﴾ أي أنت يا محمد .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي مالك قال : الجحيم ما عظم من النار . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الدر المنثور حـ 1 صـ 271 ﴾

(264/64)

" فصل جامع فى الآية الكريمة "

قوله تعالى " ولا تسأل عن أصحاب الجحيم "

أقوال العلماء فى الآية الكريمة

قال السمعاني : [ولا تسأل] قرئ بقراءتين " ولا تُسأَلُ – ولا نَسْأَلْ "

قوله تعالى ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بشيرا ونذيرا . . . ﴾

فأما قوله " ولا تَسأَلْ " يعني أرسلناك غير مسئول عن حال الكفار ، وذلك مثل قوله " فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب " [الرعد : 4] وقرأ ابن مسعود وما تسأل ، وقرأ أبي بن كعب " ولن تسأل " ومعنى الكل واحد .

وأما قوله " ولا تسأل " له معنيان :

أحدهما أنه على معنى قولهم : لا تسأل عن شر فلان فإنه فوق ما تحب ، وقيل : هو على النهى ، وسببه ما روى محمد بن كعب القرظي : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ليت شعري ما فعل أبواي ، فنزل قوله تعالى : " ولا تسأل عن أصحاب الجحيم (1) .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير السمعاني حـ 1 صـ 132 ﴾

وقد ذكر هذه الرواية أيضا الماوردى فى النكت والعيون حـ 1 صـ 181 ولم يعلق عليها .

وقال الواحدي (1) : " ولا تسأل عن أصحاب الجحيم " أي لست بمسؤول عنهم ، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم - قال لو أن الله عز وجل : أنزل بأسه باليهود لآمنوا (2) فأنزل الله تعالى هذه الآية أي ليس عليك من شأنهم عهدة ولا تبعة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الواحدي حـ 1 صـ 129 ﴾

وقال الثعالبي في قوله تعالى : " ولا تسأل " [بالجزم] ما نصه :

وتحتمل هذه القراءة معنى آخر وهو - والله أعلم - أظهر ، أي لا تسأل عنهم سؤال مكترث

بما أصابهم ، أو بما هم عليه من الكفر الذي يوردهم الجحيم نظير قوله عز وجل " فلا تذهب نفسك عليهم حسرات " [فاطر : 8] وأما روى عن محمد بن كعب القرظي ومن وافقه من أن النبي صلى الله عليه وسلم – سأل ما فعل أبواي ؟ فنزلت الآية في ذلك فهو بعيد ، ولا يتصل أيضاً بمعنى ما قبله . انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الثعالبي حـ 1 صـ 1 . 3 ﴾

---

(1) – هذه رواية ضعيفة ولا تصح كما سنبين لاحقاً إن شاء الله .

(2) – لا يخفى ما في هذه الرواية من البعد ، ولو تمنى ذلك النبي صلى الله عليه وسلم لليهود لتمناه لقومه من باب أولى في مرحلة مكة ، وقد كان يحزن ويتألم كثيراً لعدم إيمان القوم وما طلب ذلك أبداً ، ثم هذا الكلام قد يتعارض ولو من وجه مع قوله تعالى : " لا إكراه في الدين " والله أعلم بالصواب .

وقال البيضاوي : وقرأ نافع ويعقوب " ولا تسأل " على أنه نهى للرسول صلى الله عليه وسلم عن السؤال عن حال أبويه أو تعظيم لعقوبة الكفار ، كأنها لفظاعتها لا يقدر أن يخبر عنها أو السامع لا يصبر على استماع خبرها فنهاه عن السؤال . انتهى . ا هـ ﴿

تفسير البيضاوي حـ 1 صـ 392 ﴾

وقال ابن عطية (5) : وحكى المهدوي – رحمه الله – أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ليت شعري .

أي أبوى أحدث موتاً ؟ فنزلت .

قال القاضي أبو محمد : وهذا خطأ ممن رواه أو ظنه ، لأن أباه مات وهو في بطن أمه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 1 صـ 204.1 ﴾

وقال ابن كثير بعد أن ذكر أن ابن جرير رحمه الله – رد رواية محمد بن كعب القرظي وغيره ، لاستحالة الشك من رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمر أبويه ، واختياره القراءة الأولى " ولا تسأل " قال ما نصه :

وهذا الذي سلكه فيه نظر لاحتمال أن هذا كان في حال استغفاره لأبويه قبل أن يعلم أمرهما ، فلما علم ذلك تبرأ منهما وأخبر عنهما أنهما من أهل النار

(266/64)

، كما ثبت في الصحيح (1) انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن كثير حـ 1 صـ 401 ﴾

وقد ذكر الفخر الرازي الرواية السابقة وقال إنها بعيدة لأنه عليه الصلاة والسلام كان عالماً

بكفرهم (1) ، وكان عالماً بأن الكافر معذب ، فمع هذا العلم كيف يمكن أن يقول : ليت شعرى ما فعل أبواي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير الكبير حـ 4 صـ 28 . 29 ﴾

---

(1) – هذا الكلام فيه نظر ، فمتى تبرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم من أبويه ، فإن أراد بهذا الكلام قياس والدي رسول الله صلى الله علية وسلم على والد سيدنا إبراهيم ، فالقياس فاسد ، لأنه قياس مع الفارق وهو لا يصح ، لأن والد الخليل عليه السلام – قد بلغته دعوة الخليل عليه السلام ، ولم يؤمن بل توعده كما في قوله تعالى " لئن لم تنته لأرجمنك وهذا بخلاف حال والدى رسول الله صلى الله عليه وسلم اللذين ماتا قبل ببعثته صلى الله عليه وسلم . وسيأتي بيان شاف وكاف إن شاء الله لهذا الموضوع عند الكلام عن قوله تعالى " وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً " [الإسراء : 15] .

---

(1) قوله : «كان عالماً بكفرهم إلخ» هذا كلام تقشعر منه جلود المؤمنين ، ويرفضه من كان في عداد المسلمين ، وهو خطأ صريح ، والصواب أن أصحاب الجحيم هم اليهود والنصارى المذكورون في الآيات السابقة ، وهذا هو الموافق لنظم الكتاب الكريم ، وهو ما رجحه الإمام أبو حيان في تفسيره ، وتوجد مؤلفات عدة لكثير من علماء المتقدمين والمتأخرين في نجاة الأبوين .

وقد ذكر هذه الرواية كثير من المفسرين دون تعليق منهم . الزمخشري في الكشاف حـ 1 صـ 181 ، ومنهم ابن الجوزى في زاد المسير حـ 1 صـ 137 ، ومنهم السمرقندي في بحر العلوم حـ 1 صـ 115 ومنهم البيضاوي حـ 1 صـ 392 ومنهم النسفى حـ 1 صـ 122 ، ومنهم السمعاني حـ 1 صـ 132 والواحدي حـ 1 صـ 129 ، ومنهم الصنعاني حـ 1 صـ 77 ، ومنهم ابن جزى في التسهيل حـ 1 صـ . 59

وقد رد هذه الرواية كثير من المحققين من العلماء والمفسرين منهم القرطبي رحمه الله حـ 2 صـ 93 ، وأبو السعود حـ 1 صـ 152 ، والآلوسى حـ 1 صـ 371 ، والثعالبي حـ 1 صـ 1 (3 ، والخطيب الشربيني في السراج المنير حـ 1 صـ 89 . وغيرهم وسيأتي كلامهم إن شاء الله تعالى . أ هـ .

(268/64)

وقال الخطيب الشربيني قال عطاء عن ابن عباس ، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ذات يوم : ليت شعري ما فعل أبواي ؟ فنزلت هذه الآية ، فنهى عن السؤال عن أحوال الكفرة ، والاهتمام بأعداء الله تعالى ، والخبر ضعيف ، والمختار أنها نزلت في كفار أهل

الكتاب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ السراج المنير حـ 1 صـ 89 ﴾

وقال أبو السعود : وقرئ " ولا تَسْأَلْ " على صيغة النهى إيذانا بكمال شدة عقوبة الكفار وتهويلا لها كأنها لغاية فظاعتها لا يقدر المخبر على إجرائها على لسانه أو لا يستطيع السامع أن يسمع خبرها ، وحمله على نهى النبي عن السؤال عن حال أبويه مما لا يساعده النظم الكريم انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 1 صـ 152 ﴾

وقال فى التحرير والتنوير حـ 1 صـ 674 ﴾ ما نصه : وما قيل إن الآية نزلت في نهيه صلى الله عليه وسلم عن السؤال عن حال أبويه في الآخرة فهو استناد لرواية واهية ولو صحت لكان حمل الآية على ذلك مجافيا للبلاغة إذ قد علمت أن قوله (إنا أرسلناك) تأنيس وتسكين فالإتيان معه بما يذكر المكدرات خروج عن الغرض وهو مما يعبر عنه بفساد الوضع . انتهى كلامه .

(269/64)

وقال البقاعى :

والمراد بهم من ذكر في الآية السابقة من الجهلة ومن قبلهم ، أي عن أعمالهم لتذهب نفسك عليهم حسرات لعدم إيمانهم ، كما قال تعالى ﴿ ولا تسألون عما كانوا يعملون ﴾ [البقرة :

141] أي فحالك مست وبالنسبة إلينا وإليهم . لأنك إن بلغتهم جميع ما أرسلت به إليهم لم نحاسبك بأعمالهم ، وإن تركت بعض ذلك محاسنة لهم لم يحبّوك ما دمت على دينك فأقبل على أمرك ولا تبال بهم ، وهو معنى قراءة نافع ﴿ ولا تسأل ﴾ على النهي ، أي احتقرهم فإنهم أقل من أن يلتفت إليهم ، فبلغهم جميع الأمر فإنهم لا يحبونك إلا إذا انسخلت مما أنت عليه ؛ وفي الحكم بكونهم أصحابها إثبات لما نفوه عن أنفسهم بقوله : ﴿ لن تمسنا النار ﴾ [البقرة : 8] ونفى لما خصصوا به أنفسهم في قولهم : ﴿ لن يدخل الجنة ﴾ [البقرة : 111] الآية . انتهى انتهى . اهـ [نظم الدرر حـ 1 صـ]

وقال الآلوسي عن هذه الرواية ما نصه :

" لا يخفى بعد هذه الرواية ، لأنه صلى الله عليه وسلم كما في [المنتخب] عالم بما آل إليه أمرهما ، وذكر الشيخ ولي الدين العراقي أنه لم يقف عليها ، وقال الإمام السيوطي : لم يرد في هذا إلا أثر معضل ضعيف الإسناد ، فلا يعول عليه ، والذي يقطع به أن الآية في كفار أهل الكتاب ، كالآيات السابقة عليها والتالية لها – لا في أبويه صلى الله عليه وسلم ، ولتعارض الأحاديث في هذا الباب ، وضعفها .

وقال السخاوي : الذي ندين لله تعالى به الكف عنهما وعن الخوض في أحوالهما ، والذي أدين لله تعالى به أنا : أنهما ماتا موحدين في زمن الكفر ، وعليه يحمل كلام الإمام أبي حنيفة – رضي الله عنه – إن صح . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعاني حـ 1 صـ 371 ﴾

وقال صاحب المنار ما نصه :

وزعم بعض المفسرين أن النهى على حقيقته ، وأنه خاص بنهى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن السؤال عن أبويه ، ورووا فى ذلك أنه سأل جبريل عن قبريهما فدله عليهما فزارهما ودعا لهما وتمنى لو يعرف حالهما فى الآخرة وقال : ليت شعرى ما فعل أبواى ؟ فنزلت الآية فى ذلك . والحديث قال الحافظ العراقى : إنه لم يقف عليه ، وقال السيوطى : لم يرد فى ذلك إلا أثر معضل ضعيف الإسناد

قال الأستاذ الإمام : وقد فشا هذا القول ، ولولا ذلك لم نذكره ، وإنما نريد بذكره التنبيه على أن الباطل صار يفشو فى المسلمين بضعف العلم ، والصحيح يهجر وينسى ، ولا شك أن مقام النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى معرفة أسرار الدين وحكم الله فى الأولين والآخرين ينافى صدور مثل هذا السؤال عنه ، كما أن أسلوب القرآن يأبى أن يكون هو المراد منه .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المنار حـ 1 صـ 264 ﴾

وقال الشيخ محمد الغزالي – رحمه الله – في كتابه [السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث / ص144-145] .

وقد غاظني أن أحدهم كان يطير في المجامع بحديث " أبي وأبوك في النار " وكأنما يسوق البشرى إلى المسلمين وهو يشرح لهم كيف أن أبوي رسولهم صلى الله عليه وسلم في النار !!

قلت : قبحك الله من داع أعمى البصيرة : ما لديك شيء من فقه الإسلام ولا من أدب الدعوة ، ومثلك لا يزيد الأمة إلا خبالاً باسم السنة ، والسنة منك براء

ثم قال : " قال الشيخ القرضاوي في شرح حديث " أبي وأبوك في النار " أن الأب قد يطلق لغة واصطلاحاً على العم (1) ، فلعل المقصود بالأب هنا عمه أبو طالب . ذلك أن أبا طالب عرضت عليه كلمة التوحيد قبل أن يموت فأبى أن ينطلق بها ، وقد سمعت بأذني من يقول : الحديث صحيح وهو يخصص عموم الآية (2) ، فأهل الفطرة ناجون جميعاً – عدا عبد الله بن عبد المطلب . . . !!

---

(1) كأنه يشير إلى قوله تعالى " قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق " [البقرة : 133] ومعلوم أن إسماعيل كان عماً ليعقوب – عليهما السلام – وهذا الرأي وجيه جداً ويجب أن يحمل عليه الحديث السابق جمعاً بين الأدلة وصيانة لها عن التعارض . وأيضاً فتأويل الحديث ليوافق الكتاب أولى من تأويل الكتاب ليوافق السنة . والله أعلم .

(2) لعله يقصد قوله تعالى " وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً " [الإسراء : 15]

قلت له : ماذا فعل حتى يستحق وحده النار ؟ كان عبد الله شاباً شريفاً عنيفاً حكى عنه التاريخ ما يزينه ! ولم يحك عنه ما يشينه ! والآية خبر لا يحتمل استثناء ، فما حماسكم في تعذيب عبد الله ؟ وما جريكم هنا وهناك بهذه الشائعة ؟ وماذا وراء تأكيدكم أن أبوي الرسول صلى الله عليه وسلم – في النار . . !

إنني أشم رائحة النيل منه في هذا الحماس الأعمى . أ هـ .

فائدة

سئل القاضي أبو بكر ابن العربي أحد الأئمة المالكية عن رجل قال : إن آباء النبي ـ عليه السلام ـ في النار ، فأجاب بأنه ملعون ؛ لأن الله تعالى يقول : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ﴾ (الأحزاب : 57) وفي الحديث " لا تؤذوا الأحياء بسبّ الأموات " وسئل الإمام الرستغفي عن قول بعض الناس عن آدم ـ عليه السلام ـ لما بدت منه تلك الزلة أسود منه جميع جسده ، فلما أهبط إلى الأرض أمر بالصيام والصلاة ، فصام وصلى فابيض جسده ، أيصح هذا القول ؟

قال : لا يجوز في الجملة القول في الأنبياء ـ عليهم السلام ـ بشيء يؤدي إلى العيب والنقصان فيهم ، وقد أمرنا بحفظ اللسان عنهم ؛ لأن مرتبتهم أرفع ، وهم على الله أكرم ، وقد قال عليه السلام : " إذا ذكر أصحابي فأمسكوا " فلما أمرنا أن لا نذكر الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ بشيء يرجع إلى العيب والنقص ، فلأن نمسك ونكف عن الأنبياء أولى وأحق فحق المسلم أن يمسك لسانه عما يخل بشرف نسب نبينا ـ عليه السلام ـ وليست من الاعتقاديات فلاحظ للقلب منها ، وأما اللسان ، فحقه أن يصان عما يتبادر منه النقصان ، خصوصاً إلى وهم العامة ، لأنهم لا يقدرون على دفعه وتداركه ، فهذا هو البيان الشافي في هذا الباب بطرقه المختلفة التقطته من الكتب النفيسة وقرنت كل نظير إلى مثله والحمد لله تعالى وحده . انتهى انتهى . اهـ [روح البيان حـ 1 صـ 395] .

(273/64)

كلام نفيس للشيخ الشنقيطي يتعلق بهذا الموضوع

قال عليه الرحمة :

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ .

هذه الآية الكريمة فيها التصريح بأن الله تعالى لا يعذب أحداً حتى ينذره على ألسنة رسله عليهم الصلاة والسلام, ونظيرها قوله تعالى : ﴿ رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ , وقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴾ , إلى غير ذلك من الآيات, ويؤيده تصريحه تعالى بأن كل أفواج أهل النار جاءتهم الرسل في دار الدنيا في قوله تعالى : ﴿ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا ﴾ الآية.

ومعلوم أنّ (كلما) صيغة عموم, ونظيرها قوله تعالى : ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ فقوله : ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ يعمّ كل كافر, لما تقرر في الأصول من أن الموصولات من صيغ العموم, لعمومها كلّما تشمله صلاتها كما أشار له في مراقي السعود بقوله :

وقد تلا الذي التي الفروع

صيغة كل أو لجميع

ومعنى قوله : (وقد تلا الذي الخ.

.

) : أن (الذي) , و(التي) وفروعها صيغ عموم ككل وجميع, ونظيره أيضا قوله تعالى :

﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا ﴾ إلى قوله : ﴿ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ﴾ فانه عام أيضاً ؛ لأن أول الكلام ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ ﴾ وأمثال هذا كثيرة في القرآن مع أنه جاء في بعض الآيات ما يفهم منه أن أهل الفترة في النار, كقوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ , فإن عمومها يدل على دخول من لم يدرك النبي صلى الله عليه وسلم ، وكذلك عموم قوله تعالى : ﴿ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيماً ﴾ , وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ .

وقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَباً ﴾ الآية .

إلى غير ذلك من الآيات .

اعلم أولا : أن من يأته نذير في دار الدنيا وكان كافرا حتى مات اختلف العلماء فيه هل هو من أهل النار لكفره أو هو معذور لأنه لم يأته نذير ؟ كما أشار له في مراقي السعود بقوله :

ذو فترة بالفرع لا يراع

وفي الأصول بينهم نزاع

وسنذكر إن شاء الله جواب أهل كل واحد من القولين, ونذكر ما يقتضي الدليل رجحانه, فنقول : –وبالله نستعين– قد قال قوم : إن الكافر في النار ولو مات في زمن الفترة وممن جزم بهذا القول النووي في شرح مسلم ؛ لدلالة الأحاديث على تعذيب بعض أهل الفترة, وحكى القرافي في (شرح التنقيح) الإجماع على أن موتى أهل الجاهلية في النار لكفرهم كما حكاه عنه صاحب (نشر البنود) وأجاب أهل هذا القول عن آية : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ ﴾ وأمثالها من ثلاثة أوجه :

(275/64)

الأول : إن التعذيب المنفي في قوله : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ ﴾ وأمثالها هو التعذيب الدنيوي فلا ينافي ثبوت التعذيب في الآخرة, وذكر الشوكاني في تفسيره أن اختصاص هذا التعذيب المنفي بالدنيا دون الآخرة ذهب إليه الجمهور, واستظهر هو خلافه, ورد التخصيص بعذاب الدنيا بأنه خلاف الظاهر من الآيات, وبأن الآيات المتقدمة الدالة على اعتراف أهل النار جميعا بأن الرسل أنذروهم في دار الدنيا صريح في نفيه .

الثاني : أن محل العذر بالفترة المنصوص في قوله : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ ﴾ الآية وأمثالها في غير الواضح الذي لا يلتبس على عاقل, أما الواضح الذي لا يخفى على من عنده عقل كعبادة

الأوثان فلا يعذر فيه أحد ؛ لأن جميع الكفار يقرّون بأن الله هو ربهم وهو خالقهم ورازقهم, ويتحققون أن الأوثان لا تقدر على جلب نفع ولا على دفع ضر, لكنهم غالطوا أنفسهم فزعموا أنها تقربهم إلى الله زلفى, وأنها شفعاؤهم عند الله مع أن العقل يقطع بنفي ذلك .

الثالث : أن عندهم بقية إنذار مما جاءت به الرسل الذين أرسلوا قبله – صلى الله عليه وسلم – تقوم عليهم بها الحجة, ومال إليه بعض الميل ابن قاسم في (الآيات البينات) وقد قدمنا في سورة آل عمران أن هذا القول يرده القرآن في آيات كثيرة مصرحة بنفي أصل النذير عنهم كقوله : ﴿لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ﴾ وقوله : ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ , وقوله : ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ وقوله : ﴿وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ﴾ , إلى غير ذلك من الآيات .

(276/64)

وأجاب القائلون بأن أهل الفترة معذورون عن مثل قوله ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ﴾ – إلى قوله – ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ من الآيات المتقدمة, بأنهم لا يتبين أنهم من أصحاب الجحيم ولا يحكم لهم بالنار, ولو ماتوا كفارا إلا بعد إنذارهم وامتناعهم من

الإيمان كأبي طالب, وحملوا الآيات المذكورة على هذا المعنى, واعترض هذا الجواب بما ثبت في الصحيح من دخول بعض أهل الفترة النار كحديث "إن أبي وأباك في النار" الثابت في صحيح مسلم وأمثاله من الأحاديث, واعترض هذا الاعتراض بأن الأحاديث – وإن صحت – فهي أخبار آحاد يقدم عليها القاطع كقوله: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾, واعترض هذا الاعتراض أيضا بأنه لا يتعارض عام وخاص فما أخرجه حديث صحيح خرج من العموم وما لم يخرجه نص صحيح بقي داخلا في العموم, واعترض هذا الاعتراض أيضاً بأن هذا التخصيص يبطل علة العام؛ لأن الله تعالى تمدح بكمال الإنصاف, وصرح بأنه لا يعذب حتى يقطع حجة المعذب بإنذار الرسل في دار الدنيا, وبيّن أن ذلك الإنصاف التام علة لعدم التعذيب, فلو عذب إنسانا واحدا من غير إنذار لاختلت تلك الحكمة ولثبتت لذلك المعذب الحجة التي بعث الله الرسل لقطعها كما صرح به في قوله: ﴿ رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ وهذه الحجة بيّنها في سورة طه بقوله: ﴿ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ ﴾ الآية, وأشار لها في سورة القصص بقوله: ﴿ وَلَوْلا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾, وهذا الاعتراض الأخير يجري على الخلاف في النقض هل هو قادح في العلة أو تخصيص لها ؟ وهو اختلاف كثير معروف في الأصول عقده في مراقي السعود بقوله: – في تعداد القوادح في الدليل –:

منها وجود الوصف دون الحكم

سماه بالنقض وعاة العلم

(277/64)

والأكثرون عندهم لا يقدح

بل هو تخصيص وذا مصحح

وقد روى عن مالك تخصيص

إن يك الاستنباط لا التنصيص

وعكس هذا قد رآه البعض

ومنتقى ذي الاختصار النقض

إن لم تكن منصوصة بظاهر

وليس فيما استنبطت بضائر

إن جاء لفقد الشرط أو لما منع

والوفق في مثل العرايا قد وقع

(278/64)

والمحققون من أهل الأصول على أن عدم تأثير العلة إن كان لوجود مانع من التأثير أو انتفاء شرط التأثير فوجودها مع تخلف الحكم لا ينقضها ولا يقدح فيها وخروج بعض أفراد الحكم حينئذ تخصيص للعلة لا نقض لها كالقتل عمدا عدوانا فانه علة القصاص إجماعا ولا يقدح في هذه العلة تخلف الحكم عنها في قتل الوالد لولده لأن تأثيرها منع منه مانع هو الأبوة وأما إن كان عدم تأثيرها لا لوجود مانع أو انتفاء بشرط فانه يكون نقضا لها وقدحا فيها ولكن يرد على هذا التحقيق ما ذكره بعض العلماء من أن قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّه ﴾ علة منصوصة لقوله : ﴿ وَلَوْلا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلاءَ لَعَذَّبَهُم ﴾ الآية, مع أن هذه العلة قد توجد ولا يوجد ما عذب به بنو النضير من جلاء أو تعذيب دنيوي وهو يؤيد كون النقض تخصيصا مطلقا لا قدحاً .

ويجاب عن هذا بأن بعض المحققين من الأصوليين قال : إن التحقيق المذكور محله في العلة المستنبطة دون المنصوصة وهذه منصوصة كما قدمنا ذلك في أبيات مراقي السعود في قوله :

وليس فيما استنبطت بضائر . . .

إن جاء لفقد الشرط أو لما منع

هذا ملخص كلام العلماء وحججهم في المسألة, والذي يظهر رجحانه بالدليل هو الجمع بين

الأدلة ؛ لان الجمع واجب إذا أمكن بلا خلاف كما أشار له في المراقي بقوله : والجمع واجب متى ما أمكنا . .

الخ . .

(279/64)

ووجه الجمع بين هذه الأدلة هو عذرهم بالفترة وامتحانهم يوم القيامة بالأمر باقتحام نار فمن اقتحمها دخل الجنة وهو الذي كان يصدق الرسل لو جاءته في الدنيا ومن امتنع عذب بالنار وهو الذي كان يكذب الرسل لو جاءته في الدنيا لان الله يعلم ما كانوا عاملين لو جاءتهم الرسل وبهذا الجمع تتفق الأدلة فيكون أهل الفترة معذورين, وقوم منهم من أهل النار بعد الامتحان, وقوم منهم من أهل الجنة بعده أيضا , ويحمل كل واحد من القولين على بعض منهم علم الله مصيرهم, وأعلم به نبيه صلى الله عليه وسلم ، فيزول التعارض .

والدليل على هذا الجمع ورود الأخبار به عنه صلى الله عليه وسلم .

قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ بعد أن ساق طرق الأحاديث الدالة على عذرهم وامتحانهم يوم القيامة رادّا على ابن عبد البر تضعيف أحاديث عذرهم وامتحانهم ما نصه : " والجواب عما قال, إن أحاديث هذا

الباب منها ما هو صحيح كما قد نص على ذلك كثير من أئمة العلماء, ومنها ما هو حسن, ومنها ما هو ضعيف يتقوى بالصحيح و الحسن, و إذا كانت أحاديث الباب الواحد متصلة متعاضدة على هذا النمط أفادت الحجة عند الناظر فيها" انتهى محل الغرض منه بلفظه, ثم قال " إن هذا قال به جماعة من محققي العلماء والحفاظ والنقاد وما احتج به البعض لرد هذه الأحاديث من أن الآخرة دار جزاء لا دار عمل وابتلاء فهو مردود من وجهين : الأول أن ذلك لا ترد به النصوص الصحيحة عنه صلى الله عليه وسلم ولو سلمنا عموم ما قال من أن الآخرة ليست دار عمل لكانت الأحاديث المذكورة مخصصة لذلك العموم .

(280/64)

الثاني : أنا لا نسلم انتفاء الامتحان في عرصات المحشر بل نقول دل القاطع عليه ؛ لأن الله تعالى صرّح في سورة القلم بأنهم يُدعون إلى السجود في قوله جل وعلا : ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُونَ﴾ الآية ومعلوم أن أمرهم بالسجود تكليف في عرصات المحشر, وثبت في الصحيح أن المؤمنين يسجدون يوم القيامة وأن المنافق لا يستطيع ذلك ويعود ظهره كالصفيحة الواحدة طبقاً واحداً كلما أراد السجود خرّ لقفاه, وفي الصحيحين في الرجل الذي يكون آخر أهل النار خروجا منها أن الله يأخذ عهوده

ومواثيقه أن لا يسأل غير ما هو فيه, ويتكرر ذلك مرارا, ويقول الله تعالى يا ابن آدم ما أغدرك ثم يأذن له في دخول الجنة, ومعلوم أن تلك العهود والمواثيق تكليف في عرصات المحشر والعلم عند الله تعالى. انتهى انتهى. اهـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 178. 186 ﴾

(281/64)

ذكر الإمام السيوطي رحمه الله – في الدر المنثور طائفة من الأحاديث التي تؤيد الرأي السابق الذي رجحه الشيخ الشنقيطي رحمه الله – منها :

" فصل "

قال السيوطى :

أخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : إذا كان يوم القيامة جمع الله أهل الفترة ، المعتوه والأصم والأبكم والشيوخ الذين لم يدركوا الإسلام ، ثم أرسل إليهم رسولاً أن ادخلوا النار فيقولون كيف ولم تأتنا رسل ، قال : وأيم الله لو دخلوها لكانت عليهم برداً وسلاماً ، ثم يرسل إليهم ، فيطيعه من كان يريد أن يطيعه ، قال أبو هريرة رضي الله عنه : اقرؤوا إن شئتم " وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً " .

وأخرج إسحاق بن راهويه وأحمد وابن حيان وأبو نعيم في المعرفة والطبراني وابن مردويه والبيهقي في كتاب الاعتقاد عن الأسود بن سريع رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : أربعة يحتجون يوم القيامة : رجل أصم لا يسمع شيئاً ، ورجل أحمق ، ورجل هرم ، ورجل مات في الفطرة ، فأما الأصم فيقول : رب لقد جاء الإسلام وما أسمع شيئاً ، وأما الأحمق فيقول : رب جاء الإسلام والصبيان يحذفونني بالبعر ، وأما الهرم فيقول : رب لقد جاء الإسلام وما أعقل شيئاً ، وأما الذي مات في الفطرة فيقول : رب ما أتاني لك رسول ، فيأخذ مواثيقهم ، ويرسل إليهم رسولاً : أن ادخلوا النار قال : فوالذي نفس محمد بيده لو دخلوها لكانت عليهم برداً وسلاماً ، ومن لم يدخلها سحب إليها .

وأخرج بن راهويه وأحمد وابن مردويه والبيهقي عن أبي هريرة رضي الله عنه مثله غير أنه قال في آخره : فمن دخلها كانت عليه برداً وسلاماً ، ومن لم يدخلها سحب إليها .

(282/64)

وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ، والطبراني وأبو نعيم عن معاذ بن جبل رضي الله عنه عن رسول صلى الله عليه وسلم قال : يؤتى يوم القيامة بالمسوخ عقلاً ، وبالهالك في الفترة وبالهالك صغيراً ، فيقول المسوخ عقلاً : يا رب لو آتيتني عقلاً ما كان من آتيته

عقلاً بأسعد بعقله مني ، ويقول الهالك في الفترة : رب لو أتاني منك عهد ما كان من أتاه منك عهد بأسعد بعهدك مني ، ويقول الهالك صغيراً : يا رب لو آتيتني عمراً ما كان من آتيته عمراً بأسعد بعمره مني ، فيقول الرب تبارك وتعالى لهم : اذهبوا فادخلوا جهنم ، ولو دخلوها ما ضرتهم شيئاً ، فخرج عليهم قوابض من نار يظنون أنها قد أهلكت ما خلق الله من شيء فيرجعون سراعاً ويقولون : يا ربنا خرجنا وعزتك نريد دخولها ، فخرجت علينا قوابض من نار ، ظننا أن قد أهلكت ما خلق الله من شيء ، ثم يأمرهم ثانية كذلك ، ويقولون كذلك ، فيقول الرب : خلقتكم على علمي ، وإلى علمي تصيرون ضميهم فتأخذهم النار .

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي صالح رضي الله عنه قال : يحاسب يوم القيامة الذين أرسل إليهم فيدخل الله من أطاعه الجنة ، ويدخل النار من عصاه ، ويبقى قوم من الولدان والذين ماتوا في الفترة فيقول : وإني آمركم أن تدخلوا هذه النار ، فيخرج لهم عنق منها ، فمن دخلها كانت نجاته ، ومن نكص فلم يدخلها كانت هلكته . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 5 صـ 254 : 252 ﴾

(283/64)

تعليق

الأولى في هذا الأمر وما شابهه أن نفوض الأمر فيه إلى صاحب الخلق والأمر [ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين] فالخلق لله والأمر لله والحكم لله [إن الحكم إلا لله] وهو عز اسمه يصيب برحمته من يشاء ومن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه فإن كان هذا واجباً في حق البشر فكيف يسوغ لعاقل فضلاً عن فاضل أن يحكم في أمر مرده إلى صاحب الخلق والأمر ، فإذا وجب مراعاة الأدب مع الخلق فهو مع الله عز وجل أوجب وأعظم .

وسيأتي إن شاء الله تفصيل هذه المسألة وذكر خلاف العلماء فيها عند الكلام عن قوله تعالى " وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً " [الإسراء : 15]

والله أعلم وأحكم .

(284/64)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " بالحَقِّ " يجوز فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أن يكون مفعولاً به ، أي : بسبب إقامة الحق .

الثاني : أن يكون حالاً من المفعول في " أَرْسَلْنَاكَ " أي : أرسلناك ملتبساً بالحق .

الثالث : أن يكون حالاً من الفاعل ، أي : ملتبسين في الحق .

وفيه وجوه :

أحدها : أنه الصدق كقوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ﴾ [يونس : 53] أي : صدق وقال ابن عباس رضي الله عنهما : " بالقرآن " ، لقوله تعالى : ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بالحق لَمَّا جَآءَهُمْ ﴾ [ق : 5] .

وقال ابن كيسان : " بالإسلام وشرائعه " ، لقوله تعالى : ﴿ وَقُلْ جَآءَ الحق ﴾ [الإسراء : 81] ، وقال مقاتل : " لم نُرسِلْك عبثاً وإنما أرسناك بالحق " لقوله عز وجل : ﴿ مَا خَلَقْنَا السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلاَّ بالحق ﴾ [الأحقاف : 3] وعلى هذه الأقوال في تعلّق هذا الجار وجوه :

أحدها : أنه متعلق بالإرسال .

وثانيها : أنه متعلّق بالبشير والنذير أي : أنت مبشر بالحق ومنذر به .

وثالثها : أن يكون المراد من الحق الدين والقرآن ، أي أرسلناك بالقرآن حال كونك بشيراً لمن أطاع الله بالثواب ، ونذيراً لمن كفر بالعقاب ، والأولى أن يكون البشير والنذير حالاً من الرسول ، أي : أرسلناك بالحق لتكون بشيراً ونذيراً لمن اتبعك [ونذيراً لمن كفر بك] ويجوز أن يكون بشيراً ونذيراً حالاً من " الحق " ؛ لأنه يوصف أيضاً بالبشارة والنَّذَارة ، وبشير ونذير على صيغة " فعيل " .

أما بشير فتقول : هو من بَشَرَ مخففاً ؛ لأنه مسموع فيهن و" فعيل " مطرد من الثلاثي .

وأما : " نذير " فمن الرباعي ، ولا ينقاس عَدْل مُفْعِل إلى فَعِيل ، إلا أن له هنا مُحَسِّناً .

قوله تعالى : " وَلاَ تُسْأَلُ " قرأ الجمهور : " تُسْأَلُ " مبنيًّا للمعفول مع رفع الفعل معلى النفي ، وفي معنى هذه القراءة وجوه :

أحدها : أن مصيرهم إلى الجحيم ، فمعصيتهم لا تضّرك ، ولست مسؤولاً عن ذلك ، وهنو كقوله : ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ البلاغ وَعَلَيْنَا الحساب ﴾ [الرعد : 40] وقوله : ﴿ عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَّا حُمِّلْتُمْ ﴾ [النور : 54] .

الثاني : أنك هَادٍ وليسي لك من الأمر شيء ، ولا تَغْتَمّ لكفرهم ومصيرهم إلى العذاب ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ﴾ [فاطر : 8] .

الثالث : أنك لا تسأل عن ذنْب غيرك ويعضد هذه القراءة قراءة أُبَيّ : " وما تسأل " ، وقراءة عبد الله " ولن تسأل " .

وقال مقاتل رحمه الله تعالى : إن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لَوْ أَنَّ اللهَ تَعَالَى أَنْزَلَ بَأْسَهُ بِاليَهُودِ لآمَنُوا " ؛ فأنزل

(286/64)

الله تعالى : ﴿ وَلاَ تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الجحيم ﴾ وقُرِىء " تَسْأَلُ " مبيناً للفاعل مرفوعاً أيضاً ، وفي هذه الجملة وجهان :

أحدهما : أنه حال ، فيكون معطوفاً على الحال قبلها ، كأنه قيل : بشيراً أو نذيراً ، وغيرك مسؤول .

والثاني : أن تكون مستأنفةً .

وقرأ نافع ويعقوب : " تَسْأَلْ " على النَّهي ، وهذا مستأنف فقط ، ولا يجوز أن تكون حالاً ؛ لأن الطَّلب لا يقع حالاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 2 صـ 434 .

436 ﴾

(287/64)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ (119) ﴾

أفردناكَ بخصائص لم نُظْهِرْها على غيرك ؛ فالجمهور والكافة تحت لوائك ، والمقبول من وافقَك ، والمردود من خالفَك ، وليس عليك من أحوال الأغيار سؤال ، ولا عنك لأحدٍ (. . .) . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 118 ﴾

(288/64)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العَاجِزُ الْفَقِيرُ

عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مُحَمَّدٍ الْقَمَّاش

إِمَامُ وَخَطِيبُ مَسْجِدِ بُورُسْلِى - رَأْسُ الْخَيمَةِ

دَوْلَةُ الإِمَارَاتِ الْعَرَبِيَّةِ الْمُتَّحِدَةِ

(عَفَا اللهُ عَنْهُ وَغَفَرَ لَهُ)

الجزء الخامس والستون

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الخامس والستون

من الآية ﴿ 120 ﴾ من سورة البقرة

وحتى الآية ﴿ 126 ﴾ من نفس السورة

قوله تعالى ﴿ وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (120) ﴾

سبب نزول الآية الكريمة

في سبب نزولها ثلاثة أقوال .

أحدها أن يهود المدينة ونصارى نجران كانوا يرجون أن يصلي النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى قبلتهم ، فلما صرف إلى الكعبة يئسوا منه ، فنزلت هذه الآية ، قاله ابن عباس . والثاني : أنهم دعوه إلى دينهم ، فنزلت ، قاله مقاتل . والثالث : أنهم كانوا يسألونه الهدنة ، ويطمعونه في أنه إن هادنهم وافقوه ؛ فنزلت ، ذكر معناه الزجاج . . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ زاد المسير حـ1 صـ 138 ﴾

(5/65)

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما جرت العادة بأن المبشر يسرّ بالبشير أخبر تعالى أن أهل الكتاب في قسم المنذرين فهم لا يزالون عليه غضاباً فقال عطفاً على ما اقتضاه ما قبله : ﴿ ولن ترضى ﴾ من الرضى وهو إقرار ما ظهر عن إرادة – قاله الحرالي : ﴿ عنك اليهود ولا النصارى ﴾ لشيء من الأشياء ﴿ حتى تتبع ملتهم ﴾ أي حتى تكون بشيراً لهم ، ولن تكون بشيراً لهم حتى توافقهم فيما

أحدثوه من أهوائهم بأن تتبع كتابهم على ما بدلوا فيه وحرفوا وأخفوا على ما أفهمته إضافة الملة إليهم لا إلى صاحبها المعصوم وهو إبراهيم عليه السلام ، ويكون ذلك برغبة منك تامة على ما أفهمته صيغة الافتعال وتترك كتابك الناسخ لفروع كتابهم ، والملة قال الحرالي : الأخذ والعمل بما في العقل هدايته من إعلام المحسوسات .

ولما قيل ذلك اقتضى الحال سؤالاً وهو : فما أقول ؟ فقال : ﴿ قل ﴾ ولم يقيده بلهم إعراضاً عنهم ﴿ إن هدى الله ﴾ الذي هو جميع ما أنزل الجامع لصفات الكمال على رسله من كتابي وكتابكم ﴿ هو ﴾ أي خاصة ﴿ الهدى ﴾ أي كله مشيراً بأداة التعريف إلى كمال معناه ، وبالحصر إلى أن غيره هو الهوى ؛ وأضافه إلى الاسم الأعظم وأكده بأن وأعاده بلفظه وعبر عنه بالمصدر واستعمل فيه ضمير الفصل رداً لإنكارهم له ، فإن اتبعوه كله فآمنوا بأن كتابهم داع إلى كتابك فبشرهم ، وإن لم يتبعوه فالزم إنذارهم ، وفي الآية إشارة إلى ذلك الكتاب لا ريب فيه .

ثم عطف على ما أفهمه السياق من نحو : فلئن زغت عنه لتتركن الهدى كله باتباع الهوى ، قوله : ﴿ ولئن اتبعت أهواءهم ﴾ الداعية لهم إلى تغيير كتابهم .

قال الحرالي : فأظهر إفصاحاً ما أفهمته إضافة الملة إليهم من حيث كانت وضعاً بالهوى لا هداية نور عقل كما هي في حق الحنيفيين – انتهى .

ولما كان الكلام هنا في أمر الملة التي هي ظاهرة للعقل أسقط من وأتى بالذي بخلاف ما يأتي

في القبلة فقال : ﴿ بعد الذي ﴾ قال الحرالي : أشارت كلمة ﴿ الذي ﴾ إلى معنى قريب من الظاهر المحسوس كأنه عَلَم ظاهر ، ففيه إنباء بأن أدنى ما جاءه من العلم مظهر لإبطال ما هم عليه في وجوه تلبيسهم وأهوائهم ﴿ جاءك من العلم ﴾ بأنهم على ضلال وأنك على جميع الهدى .

وخاطبهم بذلك صلى الله عليه وسلم والمراد والله أعلم من اتبع أهواءهم بعد الإسلام من المنافقين تمسكاً بولايتهم طمعاً في نصرتهم ولذا ختم بقوله : ﴿ ما لك من الله ﴾ الذي له الأمر كله ولا كفؤ له ، وأكد النفي بالجار فقال : ﴿ من ولي ولا نصير ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 234 . 235 ﴾

(6/65)

قال الإمام الفخر الرازى - رحمه الله -

اعلم أنه تعالى لما صبر رسوله بما تقدم من الآية وبين أن العلة قد انزاحت من قبله لا من قبلهم وأنه لا عذر لهم في الثبات على التكذيب به عقب ذلك بأن القوم بلغ حالهم في تشددهم في باطلهم وثباتهم على كفرهم أنهم يريدون مع ذلك أن يتبع ملتهم ولا يرضون منه بالكتاب ، بل يريدون منه الموافقة لهم فيما هم عليه فبين بذلك شدة عداوتهم للرسول وشرح ما يوجب

اليأس من موافقتهم والملة هي الدين ثم قال : ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الهدى ﴾ بمعنى أن هدى الله هو الذي يهدي إلى الإسلام وهو الهدي الحق والذي يصلح أن يسمى هدى وهو الهدى كله ليس وراءه هدى ، وما يدعون إلى اتباعه ما هو بهدى إنما هو هوى ، ألا ترى إلى قوله : ﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُمْ ﴾ أي أقوالهم التي هي أهواء وبدع ، ﴿ بَعْدَ الذي جَاءكَ مِنَ العلم ﴾ أي من الدين المعلوم صحته بالدلائل القاطعة . ﴿ مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِن وَلِيّ وَلاَ نَصِيرٍ ﴾ أي معين يعصمك ويذب عنك ، بل الله يعصمك من الناس إذا أقمت على الطاعة والاعتصام بحبله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الفخر الرازى حـ 4 صـ 129 ﴾

وقال القرطبى :

﴿ ولن ترضى عنك اليهود ﴾ يعني إلا باليهودية ، ﴿ ولا النصارى ﴾ يعني إلا بالنصرانية وهذا شيء لا يتصور إذ لا يجتمع في رجل واحد شيئان في وقت واحد وهو قوله : ﴿ حتى تتبع ملتهم ﴾ يعني دينهم وطريقتهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 2 صـ 114 ﴾

وقال الطبرى :

وليست اليهود ، يا محمد ، ولا النصارى براضية عنك أبدا ، فدع طلب ما يرضيهم ويوافقهم ، وأقبل على طلب رضا الله في دعائهم إلى ما بعثك الله به من الحق ، فإن الذي تدعوهم إليه من ذلك لهو السبيل إلى الاجتماع فيه معك على الألفة والدين القيم . ولا سبيل لك إلى إرضائهم باتباع ملتهم ، لأن اليهودية ضد النصرانية ، والنصرانية ضد اليهودية ، ولا تجتمع النصرانية واليهودية في شخص واحد في حال واحدة ، واليهود والنصارى لا تجتمع على الرضا بك ، إلا أن تكون يهوديا نصرانيا ، وذلك مما لا يكون منك أبدا ، لأنك شخص واحد ، ولن يجتمع فيك دينان متضادان في حال واحدة . وإذا لم يكن إلى اجتماعهما فيك في وقت واحد سبيل ، لم يكن لك إلى إرضاء الفريقين سبيل . وإذا لم يكن لك إلى ذلك سبيل ، فالزم هدى الله الذي لجمع الخلق إلى الألفة عليه سبيل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الطبرى حـ 2 صـ562 ﴾

سؤال : فإن قيل لماذا أمر الله نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يدعوهم إلى هدى الله ؟

فالجواب : لأن فيه تكذيب اليهود والنصارى فيما قالوا من أن الجنة لن يدخلها إلا من كان هودا أو نصارى ، وبيان أمر محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وأن المكذب به من أهل النار دون المصدق به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الطبرى حـ 2 صـ532 ﴾

سؤال : فإن قيل لم جاء بقوله ﴿ ملتهم ﴾ دون [ملتيهما] ؟

فالجواب كما ذكره ابن عطية : جمعهم إيجازاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ1 صـ 204 ﴾

وقال ابن عادل :

دلت هذه الآية على أن الكفر ملّة واحدة لقوله تعالى : " مِلَّتَهُمْ " فوحّد الملّة ، وبقوله تعالى : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ [الكافرون : 6] ، وأمّا قوله صلوات الله وسلامه عليه : " لا يتوارَثُ أَهْل ملّتين شيء " المراد به الإسلام والكفر بدليل قوله عليه الصلاة والسلام : " لا يُوَرّثُ المُسْلِمُ الكَافِرَ ، وَلا الكَافِرُ المُسْلِمَ " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل الحنبلى حـ2 صـ 438 ﴾

سؤال : لم جمع الأهواء ولم يقل : هواهم ؟

فالجواب لأن أهواهم مختلفة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ1 صـ 204 ﴾

وقال البيضاوى :

﴿ وَلَئِنِ اتبعت أَهْوَاءهُم ﴾ آراءهم الزائفة . والملة ما شرعه الله تعالى لعباده على لسان أنبيائه ، من أمللت الكتاب إذا أمليته ، والهوى : رأي يتبع الشهوة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير البيضاوى حـ1 صـ 293 ﴾

وهذه مجموعة من الأسئلة واللطائف ذكرها العلامة الطاهر بن عاشور

.رحمه الله.

سؤال : ما معنى الغاية في قوله ﴿ حتى تتبع ملتهم ﴾

الجواب : الكناية عن اليأس من اتباع اليهود والنصارى لشريعة الإسلام يومئذ لأنهم إذا كانوا لا يرضون إلا باتباعه ملتهم فهم لا يتبعون ملته ، ولما كان اتباع النبيء ملتهم مستحيلاً كان رضاهم عنه كذلك على حد ﴿ حتى يلج الجمل في سم الخياط ﴾ [الأعراف : 40] وقوله : ﴿ لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ [الكافرون : 2 ، 3] والتصريح بلا النافية بعد حرف العطف في قوله : ﴿ ولا النصارى ﴾ للتنصيص على استقلالهم بالنفي وعدم الاقتناع باتباع حرف العطف لأنهم كانوا يظن بهم خلاف ذلك لإظهارهم شيئاً من المودة للمسلمين كما في قوله تعالى : ﴿ ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ﴾ [المائدة : 82] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 1صـ 399 ﴾

سؤال : لم أضيف الهدى إلى الله ؟ وما نوع القصر في الآية الكريمة ؟

الجواب : إضافة الهدى إلى الله تشريف ، والقصر إضافي . وفيه تعريض بأن ما هم عليه يومئذ شيء حرفوه ووضعوه ، فيكون القصر إما حقيقياً ادعائياً بأن يراد هو الهدى الكامل في الهداية فهدى غيره من الكتب السماوية بالنسبة إلى هدى القرآن كلاَ هدى لأن هدى القرآن أعم وأكمل فلا ينافي إثبات الهداية لكتابهم كما في قوله تعالى : ﴿ إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور ﴾ [المائدة : 44] وقوله : ﴿ وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقاً لما بين يديه من التوراة ﴾ [المائدة : 46] وإما قصراً إضافياً أي هو الهدى دون ما أنتم عليه من ملة مبدلة مشوبة بضلالات وبذلك أيضاً لا ينتفي الهدى عن كثير من التعاليم والنصايح الصالحة الصادرة عن الحكماء وأهل العقول الراجحة والتجربة لكنه هدى ناقص . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 1 صـ 399 ﴾

سؤال : لم عبر القرآن عن طريقتهم بالملة مرة وبالأهواء أخرى ؟

والجواب : عبر عن طريقتهم هنالك بالملة نظراً لاعتقادهم وشهرة ذلك عند العرب ، وعبر عنها هنا بالأهواء بعد أن مهد له بقوله : ﴿ إن هدى الله هو الهدى ﴾ فإن الهوى رأي ناشيء عن شهوة لا عن دليل ، ولهذا لم يؤت بالضمير الراجع للملة وعبر عنها بالاسم الظاهر فشملت أهواؤهم التكذيبَ بالنبيء وبالقرآن واعتقادَهم أن ملتهم لا ينقضها شرع آخر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ1 صـ 399 ﴾

سؤال : فإن قيل لم عطف النصير على الولى ؟

فالجواب : عطف النصير على الولي احتراس لأن نفي الولي لا يقتضي نفي كل نصير إذ لا يكون لأحد ولي لكونه دخيلاً في قبيلة ويكون أنصاره من جيرته . وكان القصد من نفي الولاية التعريض بهم في اعتقادهم أنهم أبناء الله وأحباؤه فنفى ذلك عنهم حيث لم يتبعوا دعوة الإسلام ثم نفى الأعم منه وهذه نكتة عدم الاقتصار على نفي الأعم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 1 صـ 399 ﴾

(10/65)

فائدة لغوية

وقد اشتملت جملة ﴿ ولئن اتبعت أهواءهم ﴾ إلى آخرها على تحذير من الطمع في استدناء اليهود أو النصارى بشيء من استرضائهم طمعاً في إسلامهم بتألف قلوبهم فأكد ذلك التحذير بعشرة مؤكدات وهي القسم المدلول عليه باللام الموطئة للقسم . وتأكيد جملة الجزاء بإنَّ وبلام الابتداء في خبرها . واسميةُ جملة الجزاء وهي ﴿ مَالَك من الله من ولي ولا نصير ﴾ . وتأكيدُ النفي بِمنْ في قوله ﴿ من ولي ﴾ . والاجمالُ ثم التفصيل بذكر اسم الموصول وتبيينه بقوله ﴿ من العِلم ﴾ . وجعل الذي جاء (أي أنزل إليه) هو العلم كله لعدم

الاعتداد بغيره لنقصانه . وتأكيدُ ﴿ من ولي ﴾ بعطف ﴿ ولا نصير ﴾ الذي هو آيل إلى معناه وإن اختلف مفهومه ، فهو كالتأكيد بالمرادف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 1 صـ 400 ﴾

(11/65)

كلام نفيس لأبى حيان فى هذه الآية

والظاهر أن قوله تعالى : ﴿ ولن ترضى ﴾ خطاب للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، علق رضاهم عنه بأمر مستحيل الوقوع منه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وهو اتباع ملتهم . والمعلق بالمستحيل مستحيل ، سواء فسرنا الملة بالشريعة ، أو فسرناها بالقبلة ، أو فسرناها بالقرآن . وقيل : هو خطاب له ، وهو تأديب لأمته ، فإنهم يعلمون قدره عند ربه ، وإنما ذلك ليتأدب به المؤمنون ، فلا يوالون الكافرين ، فإنهم لا يرضيهم منهم إلا اتباع دينهم . وقيل : هو خطاب له ، والمراد أمته ، لأن المخاطب لا يمكن ما خوطب به أن يقع منه ، فيصرف ذلك إلى من يمكن ذلك منه ، مثل قوله : ﴿ لئن أشركت ليحبطن عملك ﴾ ويكون تنبيهاً من الله على أن اليهود والنصارى يخادعونكم بما يظهرون من الميل وطلب المهادنة والوعد بالموافقة ، ولا يقع رضاهم إلا باتباع ملتهم . ووحدت الملة ، وإن كان لهم ملتان ، لأنهما

يجمعهما الكفر ، فهي واحدة بهذا الاعتبار ، أو للإيجاز فيكون من باب الجمع في الضمير ، نظير : ﴿ وقالوا كونوا هوداً أو نصارى ﴾ لأن المعلوم أن النصارى لن ترضى حتى تتبع ملتهم ، واليهود لن ترضى حتى تتبع ملتهم . وقد اختلف العلماء في الكفر ، أهو ملة واحدة أو ملل ؟ وثمرة الخلاف تظهر في الارتداد من ملة إلى ملة ، وفي الميراث ، وذلك مذكور في الفقه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 1 صـ 538 ﴾

سؤال : لم أضاف الأهواء إليهم ؟

الجواب : أضاف الأهواء إليهم لأنها بدعهم وضلالاتهم ، ولذلك سمى أصحاب البدع : أرباب الأهواء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 1 صـ 539 ﴾

فصل في المراد بهذا الخطاب

سؤال من المخاطب بقوله تعالى ﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ ﴾

قيل : المراد بهذا الخطاب الأمة كقوله تعالى : ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ [الزمر : 65] ، فالخطاب مع الرسول - صلى الله عليه وسلم - والمراد الأمة . ﴿ بَعْدَ الذي جَآءَكَ مِنَ العلم ﴾ البيان بأن دين الله هو الإسلام ، والقبلة قبلة إبراهيم عليه الصلاة والسلام وهي

الكَعْبَةُ. انتهى انتهى . ا هـ ﴿ اللباب لابن عادل الحنبلى حـ2 صـ 73 ﴾

فائدة جليلة

سئل الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ عمن يقول : القرآن مخلوق ، فقال : كافر .

فقيل : بم كفرته ؟ فقال : بآية من كتاب الله ، تعالى ، ﴿ وَلَئِنِ اتبعت أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ العلم ﴾ [البقرة : 145] فالقرآن من علم الله تعالى ، فمن زعم أنه مخلوق فقد كفر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ اللباب لابن عادل الحنبلى حـ2 صـ 73 ﴾

سؤال : ما المراد بالذى جاءه من العلم ؟

الجواب : وفي الذي جاءه من العلم أربعة أقوال . أحدها : أنه التحول إلى الكعبة ، قاله ابن عباس . والثاني : أنه البيان بأن دين الله الإسلام ، والثالث : أنه القرآن . والرابع : العلم بضلالة القوم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 1 صـ 138 ﴾

فروق دقيقة بين الملة والدين والشريعة

والملة في الأصل اسم من أمللت الكتاب بمعنى أمليته كما قال الراغب ، ومنه طريق ملول أي مسلوك معلوم كما نقله الأزهري ثم نقلت إلى أصول الشرائع باعتبار أنها يمليها النبي ـ

صلى الله عليه وسلم. ولا يختلف الأنبياء عليهم السلام فيها ، وقد تطلق على الباطل كالكفر ملة واحدة ، ولا تضاف إليه سبحانه فلا يقال ملة الله ، ولا إلى آحاد الأمة ، والدين يرادفها صدقاً لكنه باعتبار قبول المأمورين لأنه في الأصل الطاعة والانقياد ولاتحاد ما صدقهما قال تعالى : ﴿ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ ﴾ [الأنعام : 161] وقد يطلق الدين على الفروع تجوزاً ، ويضاف إلى الله تعالى وإلى الآحاد وإلى طوائف مخصوصة نظراً إلى الأصل على أن تغاير الاعتبار كاف في صحة الإضافة ، ويقع على الباطل أيضاً ، وأما الشريعة فهي المورد في الأصل ، وجعلت اسماً للأحكام الجزئية المتعلقة بالمعاش والمعاد سواء كانت منصوصة من الشارع أو لا لكنها راجعة إليه والنسخ والتبديل يقع فيها ، وتطلق على الأصول الكلية تجوزاً قاله بعض المحققين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 371 ﴾

فائدة جليلة فى قوله تعالى ﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ وما شابهها

وقد أجاب القاضى عِيَاضٌ عن الآيِ الواردةِ في القرآن ممَّا يوهمُ ظاهره إشكالاً ، فقال – رحمه اللَّه – : اعلم ، وفَّقنا اللَّه وإياك ، أنه – عليه السلام – لا يصحُّ ولا يجوز علَيْه ألَّا يبلغ ،

وأن يخالف أمر ربه ، ولا أن يشرك ولا أن يتقوّل على اللَّه ما لا يجبُ أو يفترى عليه ، أو يضل ، أو يختم على قلبه ، أو يطيع الكافرين ، لكن اللَّه أمره بالمكاشفةِ والبيان في البلاغ للمخالِفِينَ ، وإن إبلاغه ، إنْ لم يكُنْ بهذا البيان فكأنه ما بلَّغ ، وطيَّب نفسه ، وقوّى قلبه بقوله تعالى : ﴿ واللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ الناس ﴾ [المائدة : 67] كما قال لموسى وهارون – عليها السلام : ﴿ لاَ تَخَافَا ﴾ [طه : 46] لتشتد بصائرهم في الإبلاغ وإظهار دين اللَّهِ ، ويذهب عنهمْ خَوْفُ العدوّ المضعف لليقين ، وأما قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأقاويل . . . ﴾ [الحاقة : 44] وقوله ﴿ إذاً لأذقناك ضِعْفَ الحياة ﴾ [الإسراء : 75] فمعناه : أنَّ هذا هو جزاء من فعل هذا ، وجزاؤك لو كنت ممن يفعله ، وهو ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا يفعله ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأرض ﴾ [الأنعام : 116] فالمراد غيره ، كما قال : ﴿ إِن تُطِيعُواْ الذين كَفَرُواْ . . . ﴾ [آل عمران : 149] وقوله : ﴿ فَإِن يَشَإِ الله يَخْتِمْ على قَلْبِكَ ﴾ [الشورى : 24] وَ ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ [الزمر : 65] وما أشبهه ، فالمراد غيره ، وأن هذا حال مَنْ أشرك ، والنبيُّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا يَجُوزُ عليه هذا ، وقوله تعالى ﴿ اتق الله وَلاَ تُطِعِ الكافرين ﴾ [الأحزاب : 1] فليس فيه أنه أطاعهم ، واللَّه يَنْهَاهُ عما يشاء ، ويأمره بما يشاء ؛ كما قال تعالى : ﴿ وَلاَ تَطْرُدِ الذين يَدْعُونَ رَبَّهُم ﴾ [الأنعام : 52] الآية ، وما كان طَرَدَهُمْ – عليه السلام ـ ولا كَانَ من الظالمين .

انتهى من "الشِّفَا" .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية الكريمة

لا تبالِ برضاء الأعداء بعد ما حصل لك رضانا ، فإنهم لا يرضون عنك إلا بمتابعة أديانهم ، ودون ذلك لهم حظ القتال فَأَعْلِنْ التبري منهم ، وأظهر الخلاف معهم ، وانصب العداوة لهم ، واعلم أن مساكنتهم إلى ما يرضون سبب الشقاوة المؤبدة ، فاحرص ألا يخطر ذلك ببالِك ، وادعُ – إلى البراءةِ عنهم وعن طريقتهم – أُمَّتَكَ ، وكُنْ بِنا لَنَا ، مُتَبَرِّيًا عمن سوانا ، واثقاً بنصرتنا ، فإنَّكَ بِنَا ولَنَا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 119 ﴾

لطيفة

قيل لابن عرفة : النصارى يوافقوننا على ذلك ويقولون : إن دينهم هُو هُدى الله ؟

فقال : إن هُدَى الله على ثلاثة أقسام : هدى باعتبار ما في نفس الأمر ، وهدى باعتبار الدليل العقلي ، وهدى باعتبار الدعوى ؛ فالمراد أن هدى الله الذي دل الدليل العقلي عليه

هو الهدى ، وهو الهادي إلى الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير ابن عرفة حـ 1 صـ410 ﴾

ومن فوائد ابن عرفة فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : (وَلَن ترضى عَنكَ اليهود .

. .

(كان بعضهم يقول : غالب استعمال الملة فيما عدا الدّين المحمدي ، ولذلك كانوا ينتقدون على أثير الدين الأبهري في كتابه في أصول الدين حيث قالوا : قال الملّيون : يعني به الإسلاميين قال : وهذا على حذف وَلَن تَرْضَى عَنكَ اليَهُودُ حَتّى تتبعَ مِلتهُم ولا النصارى حتى تتبع ملتهم ، وفيه المبالغة في لفظ (لَن) و (حَتَّى) وفي تكرير (لاَ) .

ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عرفة حـ 1 صـ 409 ﴾

بحوث مهمة

1 ـ سؤال عن عصمة الأنبياء

العبارة القرآنية : (وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ) قد تثير سؤالا بشأن عصمة الأنبياء ، فهل يمكن للنبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) ـ وهو معصوم ـ أن يتبع أهواء المنحرفين من اليهود والنصارى ؟

في الجواب نقول : مثل هذه التعبيرات تكررت في القرآن الكريم ، ولا تتعارض مع مقام عصمة الأنبياء ، لأنها ـ من جهة ـ جملة شرطية ، والجملة الشرطيّة لا تدل على تحقق الشرط . ومن جهة أخرى ، عصمة الأنبياء لا تجعل الذنب على الأنبياء محالا ، بل المعصوم له قدرة على ارتكاب الذنب ، ولم يسلب منه الاختيار ، ومع ذلك لم يتلوث بالذنوب . بعبارة أخرى : إن المعصوم قادر على الذنب ، ولكن إيمانه وعلمه وتقواه بدرجة لا تجعله يتجه معها إلى ذنب . من هنا فالتحذيرات المذكورة بشأنهم مناسبة تماماً .

من جهة ثالثة ، هذا الخطاب وإن اتجه إلى النّبي(صلى الله عليه وآله وسلم) ولكن قد يكون موجهاً إلى النّاس جميعاً .

2 .للاسترضاء حدود

صحيح أن الإنسان الرّسالي يجب أن يسعى بأخلاقه إلى جذب الأعداء إلى صفوف الدعوة ، لكن مثل هذا الموقف يجب أن يكون تجاه المخالفين المرنين اللّينين ، أما الموقف تجاه المعاندين المتصلبين فينبغي أن يكون غير ذلك . لا يجوز إهدار الوقت مع هؤلاء ، بل لابدّ من الإعراض عنهم وتركهم .

3 .إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى

نفهم من الآية المذكورة أن القانون الوحيد القادر على إنقاذ البشرية هو قانون الهداية الإلهية ، لأن علم البشر ـ مهما قدر له من التكامل ـ يبقى مخلوطاً بالجهل والشك والقصور في جهات مختلفة . والهداية في ضوء مثل هذا العلم الناقص لا يمكن أن تكون هداية مطلقة ، ولا يستطيع أن يضع للإنسان برنامج " الهداية المطلقة" إلا من له " علم مطلق " ، ومن هو خال من الجهل والنقص ، وهو الله وحده . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الأمثل حـ 1 صـ 361 . 362 ﴾

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (120) ﴾

أخرج الثعلبي عن ابن عباس " أن يهود المدينة ونصارى نجران كانوا يرجون أن يصلي النبي صلى الله عليه وسلم إلى قبلتهم ، فلما صرف الله القبلة إلى الكعبة شق ذلك عليهم وأيسوا منه أن يوافقهم على دينهم ، فأنزل الله ﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى . . . ﴾ الآية " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 1 صـ 271 ﴾

" فوائد بلاغية "

قال فى صفوة التفاسير :

البلاغة :

1- [سبحانه] جملة اعتراضية وفائدتها بيان بطلان دعوى الظالمين الذين زعموا لله الولد

، قال أبو السعود : وفيه من التنزيه البليغ من حيث الاشتقاق من " السبح " ومن جهة النقل إلى التفعيل " التسبيح " ومن جهة العدول إلى المصدر ما لا يخفى ، والمراد أنزهه تنزيها لائقا به .

2- [كل له قانتون] صيغة جمع العقلاء في [قانتون] للتغليب أي تغليب العقلاء على غير العقلاء ، والتغليب من الفنون المعدودة في محاسن البيان .

3- التعبير عن الكافرين والمكذبين بكلمة [أصحاب الجحيم] إيذان بأن أولئك المعاندين من المطبوع على قلوبهم ، فلا يرجى منهم الرجوع عن الكفر والضلال إلى الإيمان والإذعان .

4- إيراد الهدى معرفا بأل في قوله : [هو الهدى] يفيد قصر الهداية على (دين الإسلام) ، فالإسلام هو الهدى كله ، وما عداه فهو هوى وعمى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 1 صـ 92 ﴾

(21/65)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾

كان اليهود يدخلون على رسول الله صلى الله عليه وسلم مدخل لؤم وكيد فيقولون هادنا ، أي قل لنا ما في كتابنا حتى ننظر إذا كنا نتبعك أم لا . . يريد الله تبارك وتعالى أن يقطع على اليهود سبيل الكيد والمكر برسول الله صلى الله عليه وسلم . . بأنه لا اليهود ولا النصارى سيتبعون ملتك . . وإنما هم يريدون أن تتبع أنت ملتهم . . أنت تريد أن يكونوا معك وهم يطمعون أن تكون معهم . . فقال الله سبحانه : " ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم " . . نلاحظ هنا تكرار النفي وذلك حتى نفهم أن رضا اليهود غير رضا النصارى . . ولو قال الحق تبارك وتعالى ، ولن ترضى عنك اليهود والنصارى بدون لا . . لكان معنى ذلك أنهم مجتمعون على رضا واحد أو متفقون . . ولكنهم مختلفون بدليل أن الله تعالى قال :

وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ

(من الآية 113 سورة البقرة)

إذن فلا يصح أن يقال فلن ترضى عنك اليهود والنصارى . . والله سبحانه وتعالى يريد أن يقول لن ترضى عنك اليهود ولن ترضى عنك النصارى . . وإنك لو صادفت رضا اليهود فلن ترضى عنك النصارى . . وإن صادفت رضا النصارى فلن ترضى عنك اليهود . . ثم يقول الحق سبحانه : " حتى تتبع ملتهم " . . والملة هي الدين وسميت بالملة لأنك تميل إليها حتى ولو كانت باطلا . . والله سبحانه وتعالى يقول :

وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (3) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ (4) وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (5) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (6)

(سورة الكافرون)

فجعل لهم دينا وهم كافرون ومشركون . . ولكن ما الذي يعصمنا من أن نتبع ملة اليهود أو ملة النصارى . . الحق جل جلاله يقول :

قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللّهِ

(من الآية 73 سورة آل عمران)

فاليهود حرفوا في ملتهم والنصارى حرفوا فيها . . ورسول الله صلى الله عليه وسلم معه هدى الله . . والهدى هو ما يوصلك إلي الغاية من أقصر طريق . . أو هو الطريق المستقيم باعتباره أقصر الطرق إلي الغاية . . وهدى الله طريق واحد ، أما هدى البشر فكل واحد له هدى ينبع من هواه . ومن هنا فإنها طرق متشبعة ومتعددة توصلك إلي الضلال . . ولكن الهدى الذي يوصل للحق هو هدى واحد . . هدى الله عز وجل . وقوله تعالى : " ولئن اتبعت أهواءهم " إشارة من الله سبحانه وتعالى إلي أن ملة اليهود وملة النصارى أهواء بشرية . . والأهواء جمع هوى . . والهوى هو ما تريده النفس باطلا بعيدا عن الحق . . لذلك يقول الله جل جلاله : " ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا نصير " . .

والله تبارك وتعالى يقول لرسوله لو اتبعت الطريق المعوج المليء بالشهوات بغير حق . .

سواء كان طريق اليهود أو طريق النصارى بعد ما جاءك من الله من الهدى فليس لك من الله من ولي يتولى أمرك ويحفظك ولا نصير ينصرك . وهذا الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم يجب أن نقل معه وقفة لنتأمل كيف يخاطب الله رسوله صلى الله عليه وسلم الذي اصطفاه . . فالله حين يوجه هذا الخطاب لمحمد عليه الصلاة والسلام . . فالمراد به أمة رسول الله صلى الله عليه وسلم اتباع رسول الله الذين سيأتون من بعده . . وهم الذين يمكن أن تميل قلوبهم إلي اليهود والنصارى . . أما الرسول فقد عصمه الله من أن يتبعهم . والله سبحانه وتعالى يريدنا أن نعلم يقينا أن ما لم يقبله من رسوله عليه الصلاة والسلام . . لا يمكن أن يقبله من أحد من أمته مهما علا شأنه . . وذلك حتى لا يأتي بعد رسول الله من يدعي العلم . . ويقول نتبع ملة اليهود أو النصارى لنجذبهم إلينا . . نقول له لا ما لم يقبله الله من حبيبه ورسوله لا يقبله من أحد . إن ضرب المثل هنا برسول الله صلى الله عليه وسلم مقصود به أن اتباع ملة اليهود أو النصارى مرفوض تماما تحت أي ظرف من الظروف ، لقد ضرب الله سبحانه المثل برسوله حتى يقطع على المغرضين أي طريق للعبث بهذا الدين بحجة التقارب مع اليهود والنصارى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 561. 563 ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

والرِّضَا : ضد الغضب ، وهو من ذوات " الواو " لقولهم : الرضوان ، والمصدر : رضاً ورِضَاء بالقصر والمد ، ورِضْواناً بكسر " الفاء " وضمها .

قال القرطبي رحمه الله : رَضِيَ يَرْضَى رِضاً ورِضاءً ورِضْواناً ورُضواناً ومَرْضاة ، وهو من ذوات " الواو " ويقال في التثنية : رِضَوان ، وحكى الكسائي رحمه الله : رِضيان ، وحكى رضاء ممدود ، وكأنه مصدر رَاضَى يُرَاضِي مُرَاضَاعةً ورِضَاءً .

وقد يتضمّن معنى " عَطَف " فيتعدى بـ " عَلى " ؛ قال : [الوافر]

إذَا رَضِيَتْ عَلَيَّ بَنُو قُشَيْرٍ . . . . . .

والمِلّة في الأصل : الطريقة ، يقال : طريق مُمِلٌّ أي : أثَّر فيه [المشي] ، ويعبر بها عن الشريعة تشبيهاً بالطريقة .

وقيل : بل اشتقت من " أَمْلَلْتُ " ؛ لأن الشريعة فيها مَن يُمْلي ويُمْلَى عليه .

قوله : " تَتَّبِعَ " منصوب بـ " أن " مضمرة بعد " حتى " قاله الخليل ، وذلك أن " حتى " خافضة بالاسم لقوله عز وجل : ﴿ حتى مَطْلَعِ الفجر ﴾ [القدر : 5] وما يعمل في الاسم لا يعمل في الفعل ألبتة وما يخفض اسماً لا ينصب شيئاً .

وقال النَّحاس: "تَتَّبع" منصوب بـ"حتى"، و"حتى" بدل من "أن".

قوله تعالى: "هو" يجوز في "هو" أن يكون فصلاً أو مبتدأ، وما بعده خبره، ولا يجوز أن يكون بدلاً من "هُدَى اللهِ" لمجيئه بصيغة الرفع.

وأجاز أبو البقاء رحمه الله تعالى فيه أن يكون توكيداً لاسم "إن"، وهذا لا يجوز فإن المضمر لا يؤكّد المظهر.

قوله: "وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ" هذه تسمى "اللام" الموطِّئَة للقسم، وعلامتها أن تقع قبل أدوات الشرط، وأكثر مجيئها مع "إن" وقد تأتي مع غيرها نحو: ﴿ لَمَآ آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ ﴾ [آل عمران: 81]، ﴿ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ ﴾ ﴿ مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِن وَلِيٍّ ﴾ وحذف جواب الشَّرْط، ولو أجيب الشرط لوجبت "الفاء" وقد تحذف هذه "اللاَّم" ويعمل بمقتضاها، فيجاب القسم نحو قوله تعالى: ﴿ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ﴾ [المائدة: 73].

والأهواء جمع هوى، كما تقول: "جمل وأجمال"، ولما كانت مختلفة جمعت، ولو حمل على أفراد الملة لقال: هواهم. قوله: "مِن العِلْمِ" في محلّ نصب على الحال من فاعل "جَاءَكَ"

و"مِن" للتبعيض، أي جاءك حال كونه بعَ العلم. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 2 صـ 437. 437 ﴾. بتصرف يسير.

قوله تعالى ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (121)

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما أفصح بمن يستحق النذارة منهم بتغيير الدين بأهوائهم فأفهم من يستحق البشارة تلاه بالإفصاح بالقسمين : من يستحق البشارة منهم ، ومن يستحق النذارة ، فقال : ﴿ الذين آتيناهم الكتاب ﴾ أي التوراة والإنجيل ﴿ يتلونه حق تلاوته ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : يتبعونه حق اتباعه ، من تلا فلان فلاناً إذا تبعه – رواه عنه أبو عبيد .

وهي ناظرة إلى قوله قريباً : ﴿ وهم يتلون الكتاب ﴾ أي لا حق تلاوته بل تلاوة ليس فيها تدبّر لمعانيه ولا عمل بما فيه ؛ هذا إذا جعلناه حالاً ، وإن جعلناه خبراً وقوله : ﴿ أولئك ﴾ أي العظيم الرتبة خاصة ﴿ يؤمنون به ﴾ خبراً ثانياً فالمعنى أن من لم يؤمن

بالكتاب حق الإيمان من غير تحريف له ، لا إخفاء لشيء فيه لما انتفى عنهم المقصود بالذات وهو الانتفاع بالكتاب المؤتى انتفى عنهم أصل الإيتاء لأنه تجرد عن الفائدة ؛ والضمير في ﴿ به ﴾ يصح أن يكون للهدى .

قال الحرالي : وحقية الأمر هي وفاؤه إلى غايته ، والإحاطة به إلى جماع حدوده حتى لا يسقط منه شيء ولا يقصر فيه غاية إشعاراً باشتمال الكتاب على أمر محمد صلى الله عليه وسلم .

ولما وصف المؤمنين به ولم يبين ما لهم أتبعه بالكافرين فقال : ﴿ ومن يكفر به ﴾ أي بالكتاب ، ثم حصر الخسر فيهم بقوله : ﴿ فأولئك ﴾ أي البعداء البغضاء ﴿ هم ﴾ خاصة ﴿ الخاسرون ﴾ فافهم أن المؤمنين به هم الرابحون ؛ ومن الوصف بالخسار يعلم أنهم كانوا على حق وشيء يمكن الربح فيه بتكملة الإيمان بكتابهم بالإيمان بالكتاب الخاتم فضيعوه فخسروا ، فإنه لا يخسر إلا من له أصل مال متهيىء للنماء والربح – والله أعلم .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 235. 236 ﴾

فصل

قال الخازن : قوله عز وجل : ﴿ الذين آتيناهم الكتاب ﴾ قال ابن عباس : نزلت في أهل السفينة الذين قدموا مع جعفر بن أبي طالب وكانوا أربعين رجلاً اثنان وثلاثون رجلاً من الحبشة وثمانية من رهبان الشام منهم بحيرا الرهب ، وقيل : هم مؤمنو أهل الكتاب مثل عبد الله بن سلام وأصحابه . وقيل : هم أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ خاصة وقيل : هم مؤمنون عامة ﴿ يتلونه حق تلاوته ﴾ أي يقرؤونه كما أنزل لا يغيرونه ولا يحرّفونه ولا يبدلون ما فيه من نعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ . وقيل : معناه يتبعونه حق اتباعه فيحلون حلاله ويحرمون حرامه ويعملون بمحكمه ويؤمنون بمتشابهه ويقفون عنده ويكلون علمه إلى الله تعالى . وقيل : معناه تدبروه حق تدبره وتفكروا في معانيه وحقائقه وأسراره ﴿ أولئك ﴾ يعني الذين يتلونه حق تلاوته ﴿ يؤمنون به ﴾ أي يصدقون به . فإن قلنا : إن الآية في أهل الكتاب فيكون المعنى إن المؤمن بالتوراة الذي يتلوها حق تلاوتها هو المؤمن بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأن في التوراة نعته وصفته . وإن قلنا : إنها نزلت في المؤمنين عامة فظاهر ﴿ ومن يكفر به ﴾ أي يجحد ما فيه من فرائض الله ونبوة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿ فأولئك هم الخاسرون ﴾ أي خسروا أنفسهم حيث استبدلوا الكفر بالإيمان . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 1 صـ 102 ﴾

سؤال : ما المراد بـ ﴿ الذين آتيناهم الكتاب ﴾ ؟

الجواب كما ذكره ابن عطية : وقال قتادة : المراد بـ ﴿ الذين ﴾ في هذا الموضع من أسلم من أمة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، و ﴿ الكتاب ﴾ على هذا التأويل القرآن ، وقال ابن زيد : المراد من آمن بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ من بني إسرائيل ، و ﴿ الكتاب ﴾ على هذا التأويل التوراة ، و ﴿ آتيناهم ﴾ معناه أعطيناهم ، وقال قوم : هذا مخصوص في الأربعين الذين وردوا مع جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه في السفينة ، فأثنى الله عليهم ، ويحتمل أن يراد بـ ﴿ الذين ﴾ العموم في مؤمني بني إسرائيل والمؤمنين من العرب ، ويكون ﴿ الكتاب ﴾ اسم الجنس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز جـ 1 صـ 204 ﴾

وقال الفخر الرازى : المراد بقوله : ﴿ الذين ءاتيناهم الكتاب ﴾ من هم فيه قولان :

القول الأول : أنهم المؤمنون الذين آتاهم الله القرآن واحتجوا عليه من وجوه . أحدها : أن قوله : ﴿ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِهِ ﴾ حث وترغيب في تلاوة هذا الكتاب ، ومدح على تلك التلاوة ، والكتاب الذي هذا شأنه هو القرآن لا التوراة والإنجيل ، فإن قراءتهما غير جائزة . وثانيها : أن قوله تعالى : ﴿ أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ يدل على أن الإيمان مقصود عليهم ، ولو كان المراد أهل الكتاب لما كان كذلك . وثالثها : قوله : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الخاسرون ﴾ والكتاب الذي يليق به هذا الوصف هو القرآن .

القول الثاني : أن المراد بالذين آتاهم الكتاب ، هم الذين آمنوا بالرسول من اليهود ، والدليل عليه أن الذين تقدم ذكرهم هم أهل الكتاب فلما ذم طريقتهم وحكى عنهم سوء أفعالهم ، أتبع ذلك بمدح من ترك طريقتهم ، بل تأمل التوراة وترك تحريفها وعرف منها صحة نبوة محمد عليه السلام.. ﴿ مفاتيح الغيب حـ 4 صـ 30 ﴾

سؤال : ما المراد بقوله تعالى ﴿ ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِهِ ﴾

الجواب كما ذكره الإمام الفخر :

(27/65)

التلاوة لها معنيان . أحدهما : القراءة . الثاني : الإتباع فعلاً ، لأن من اتبع غيره يقال تلاه فعلاً ، قال الله تعالى : ﴿ والقمر إِذَا تلاها ﴾ [الشمس : 2] فالظاهر أنه يقع عليهما جميعاً ، ويصح فيهما جميعاً المبالغة لأن التابع لغيره قد يستوفي حق الاتباع فلا يخل بشيء منه ، وكذلك التالي يستوفي حق قراءته فلا يخل بما يلزم فيه ، والذين تأولوه على القراءة هم الذين اختلفوا على وجوه . فأولها : أنهم تدبروه فعملوا بموجبه حتى تمسكوا بأحكامه من حلال وحرام وغيرهما . وثانيها : أنهم خضعوا عند تلاوته ، وخشعوا إذا قرأوا القرآن في صلاتهم وخلواتهم . وثالثها : أنهم عملوا بمحكمه وآمنوا بمتشابهه ، وتوقفوا فيما أشكل

عليهم منه وفوضوه إلى الله سبحانه . ورابعها : يقرؤنه كما أنزل الله ، ولا يحرفون الكلم عن مواضعه ، ولا يتأولونه على غير الحق . وخامسها : أن تحمل الآية على كل هذه الوجوه لأنها مشتركة في مفهوم واحد ، وهو تعظيمها ، والانقياد لها لفظاً ومعنى ، فوجب حمل اللفظ على هذا القدر المشترك تكثيراً لفوائد كلام الله تعالى والله أعلم .

أهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 4 صـ 30 ﴾

سؤال : لماذا لم ذكر قوله تعالى ﴿ الذين ءاتيناهم الكتاب ﴾ بدون واو العطف مع أن الآية نازلة فى حقهم ؟

الجواب كما ذكره البقاعى ﴿ الذين ءاتيناهم الكتاب ﴾

اعتراض لبيان حال مؤمني أهل الكتاب بعد ذكر أحوال كفرتهم ولم يعطف تنبيهاً على كمال التباين بين الفريقين والآية نازلة فيهم وهم المقصودون منها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 236 ﴾

سؤال : ما مرجع الضمير فى قوله تعالى : ﴿ أولئك يؤمنون به ﴾

الجواب : في هاء " به" قولان . أحدهما : أنها تعود على الكتاب ، والثاني : على النبي محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير حـ 1 صـ 139 ﴾

وقيل : يعود على الله تعالى ، ويكون التفاتاً أيضاً وخروجاً من ضمير المتكلم المعظم نفسه إلى ضمير الغائب المفرد . قال ابن عطية : ويحتمل عندي أن يعود الضمير على الهدى الذي تقدّم ، وذلك أنه ذكر كفار اليهود والنصارى في الآية ، وحذر رسوله من اتباع أهوائهم ، وأعلمه بأن هدى الله هو الهدى الذي أعطاه وبعثه به . ثم ذكر له أن المؤمنين التالين لكتاب الله هم المؤمنون بذلك الهدى المقتدون بأنواره . انتهى كلامه ، وهو محتمل لما ذكر . لكن الظاهر أن يعود على الكتاب لتتناسب الضمائر ولا تختلف ، فيحصل التعقيد في اللفظ ، والإلباس في المعنى ، لأنه إذا كان جعل الضمائر المتناسبة عائدة على واحد ، والمعنى فيها جيد صحيح الإسناد ، كان أولى من جعلها متنافرة ، ولا نعدل إلى ذلك إلا بصارف عن الوجه الأول ، إمّا لفظي ، وإمّا معنوي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 1 صـ540 ﴾

سؤال : فإن قيل لم جيء قولُه تعالى : ﴿ أولئك يؤمنون به ﴾ باسم الإشارة في تعريفهم دون الضمير وغيره ؟

فالجواب كما ذكره الشيخ الطاهر ابن عاشور ـ رحمه الله ـ

للتنبيه على أن الأوصاف المتقدمة التي استحضروا بواسطتها حتى أشير إليهم باتصافهم بها هي الموجبة لجدارتهم بالحكم المسند لاسم الإشارة على حد ﴿ أولئك على هدى من

ربهم ﴾ [البقرة : 5] فلا شك أن تلاوتهم الكتاب حق تلاوته تثبت لهم أَوْحَدِيَّتهم بالإيمان بذلك الكتاب لأن إيمان غيرهم به كالعدم. (1) انتهى انتهى. اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 1 صـ 401 ﴾

قوله تعالى : ﴿ ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون ﴾ أي : الكاملون في الخسران ، حيث بخسوا أنفسهم من عَزِّ الدارين. انتهى انتهى. اهـ البحر المديد حـ 1 صـ 61 ﴾

---

(1) تنبيه : تم الاعتماد من أول هذه الآية وحتى (آخر سورة البقرة)

فى توثيق تفسير التحرير والتنوير للشيخ محمد الطاهر بن عاشور - رحمه الله - على طبعة :

الدار التونسية 1984

وباقى الكتاب موثق وفقا لطبعة : مؤسسة التاريخ العربي ، بيروت – لبنان

الطبعة : الأولى ، 1420 هـ / 2000 م

والله ولى التوفيق

فائدة

قال ابن عرفة : وفي الآية رحمة وترجّ لكونها لم يذكر فيها إلا من آمن بالكتاب ومن كفر به ،

ويبقى من كان في زمن الفترة والمجانين والصغار مسكوتا عنهم لم يتنا ولهم هذا الوعيد .

وجاءت الآية مفصولة بغير عطف غير موصولة مع أنهم شرطوا في ذلك اختلاف الجملتين بأن تكون إحداهما طلبية ، والأخرى خبرية وكذا الأمر والنهي وهاتان متفقتان في الخبر لكنهما مختلفان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عرفة حـ 1 صـ 411 ﴾

فائدة فى الفرق بين القراءة والتلاوة

التلاوة لا تكون إلا لكلمتين فصاعدا والقراءة تكون للكلمة الواحدة يقال قرأ فلان اسمه ولا يقال تلا اسمه وذلك أن أصل التلاوة اتباع الشيء الشيء يقال تلاه إذا تبعه فتكون التلاوة في الكلمات يتبع بعضها بعضا ولا تكون في الكلمة الواحدة إذ لا يصح فيها التلو . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الفروق فى اللغة لأبى هلال العسكرى حـ1 صـ 43 ﴾

" فصل "

قال السيوطى :

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (121)

أخرج عبد الرزاق عن قتادة في قوله ﴿ الذين أتيناهم الكتاب ﴾ قال : هم اليهود والنصارى .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه عن ابن عباس في قوله ﴿ يتلونه حق تلاوته ﴾ قال : يحلون حلاله ويحرمون حرامه ، ولا يحرفونه عن مواضعه .

وأخرج أبو عبيد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والهروي في فضائله ن ابن عباس في قوله ﴿ يتلونه حق تلاوته ﴾ قال : يتبعونه حق اتباعه ، ثم قرأ ﴿ والقمر إذا تلاها ﴾ [الشمس : 2] يقول : اتبعها .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عمر بن الخطاب في قوله ﴿ يتلونه حق تلاوته ﴾ قال : إذا مر بذكر الجنة سأل الله الجنة ، وإذا مر بذكر النار تعوّذ بالله من النار .

وأخرج الخطيب في كتاب الرواة عن مالك بسند فيه مجاهيل عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله ﴿ يتلونه حق تلاوته ﴾ قال : يتبعونه حق اتباعه .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير من طرق عن ابن مسعود قال : في قوله ﴿ يتلونه حق تلاوته ﴾ قال : أنّ يحل حلاله ويحرم حرامه ، ويقرأه كما أنزل الله ولا يحرف الكلم عن مواضعه ، ولا يتأول منه شيئاً غير تأويله . وفي لفظ : يتبعونه حق اتباعه " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم في قوله ﴿ يتلونه حق تلاوته ﴾ قال : يتكلمونه كما أنزل الله ولا يكتمونه .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة في قوله ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به ﴾ قال : منهم أصحاب محمد الذين آمنوا بآيات الله وصدقوا بها . قال : وذكر لنا أن ابن مسعود كان يقول : والله إن حق تلاوته أن يحل حلاله ، ويحرم حرامه ، ويقرأه كما أنزله الله ، ولا يحرفه عن مواضعه . قال : وحدثنا عن عمر بن الخطاب قال : لقد مضى بنو إسرائيل وما يعني بما تسمعون غيركم .

(31/65)

وأخرج وكيع وابن جرير عن الحسن في قوله ﴿ يتلونه حق تلاوته ﴾ قال : يعملون بمحكمه ، ويؤمنون بمتشابهه ، ويكلون ما أشكل عليهم إلى عالمه .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد ﴿ يتلونه حق تلاوته ﴾ قال : يتبعونه حق اتباعه . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 1 صـ 272 . 273 ﴾

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِهِ أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (121) ﴾

بعد أن بين الله سبحانه وتعالى . . أن اليهود والنصارى قد حرفوا كتبهم ، أراد أن يبين أن هناك من اليهود والنصارى من لم يحرفوا في كتبهم . . وأن هؤلاء يؤمنون بمحمد عليه الصلاة والسلام وبرسالته . . لأنهم يعرفونه من التوراة والإنجيل . ولو أن الله سبحانه لم يذكر هذه الآية لقال الذين يقرأون التوراة والإنجيل على حقيقتيهما . . ويفكرون في الإيمان برسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم . . لقالوا كيف تكون هذه الحملة على كل اليهود وكل النصارى ونحن نعتزم الإيمان بالإسلام . . وهذا ما يقال عنه قانون الاحتمال . . أي أن هناك عددا مهما قل من اليهود أو النصارى يفكرون في اعتناق الإسلام باعتباره دين الحق . . وقد كان هناك جماعة من اليهود عددهم أربعون قادمون من سيناء مع جعفر بن أبي طالب ليشهدوا أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم قرأوا التوراة غير المحرفة وآمنوا برسالته . . وأراد الله أن يكرمهم ويكرم كل من سيؤمن من أهل الكتاب . . فقال جل جلاله :

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِهِ

(من الآية 121 سورة البقرة)

أي يتلونه كما أنزل بغير تحريف ولا تبديل . . فيعرفون الحقائق صافية غير مخلوطة بهوى البشر . . ولا بالتحريف الذي هو نقل شيء من حق إلي باطل . يقول الله تبارك وتعالى : " أولئك يؤمنون به ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون " . . ونلاحظ أن القرآن الكريم يأتي دائما بالمقارنة . . ليكرم المؤمنين ويلقى الحسرة في نفوس المكذبين . . لأن المقارنة دائما تظهر الفارق بين الشيئين . إن الله سبحانه يريد أن يعلم الذين آتاهم الله الكتاب فلم يحرفوه وآمنوا به . . ليصلوا إلي النعمة التي ستقودهم إلي النعيم الأبدي . . وهي نعمة الإسلام والإيمان . . مقابل الذين يحرفون التوراة والإنجيل فمصيرهم الخسران المبين والخلود في النار . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 564. 565 ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله تعالى : ﴿ الذين آتَيْنَاهُمُ الكتاب ﴾

رفع بالابتداء ، وفي خبره وجهان :

أحدهما : " يَتْلُونَهُ " ، وتكون الجملة من قوله : " أولَئِكَ يُؤْمِنُونَ " : إما مستأنفة وهو الصحيح .

وإما حالاً على قول ضعيف مثله أو السورة .

والثاني : أن الخبر هو الجملة من قوله : " أولَئِكَ يُؤْمِنُونَ " .

ويكون "يَتْلُونَهُ" وتكون الجملة في محلّ نصب على الحال إما من المفعول في "آتَيْنَاهُمْ" وإما من الكتاب ، وعلى كلا القولين فهي حال مقدرة ؛ لأن وقت الإيتاء لم يكونوا تالين ، ولا كان الكتاب متلوًّا .

وجوز الحوفي أن يكون "يتلونه" خبراً ، و"أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ" خبراً بعد خبر ، قال : مثل قولهم : "هذا حلو حامض" كأنه يريد جعل الخبرين في معنى واحد ، هذا إن أريد بـ "الذين" قوم مخصوصون .

وإن أريد بهم العموم ، كان "أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ" الخبر .

قال جماعة منهم ابن عطية رحمه الله وغيره و"يَتْلُونَهُ" حالاً يستغنى عنها ، وفيها الفائدة .

وقال أيضاً أبو البقاء : ولا يجوز أن يكون "يَتْلُونَهُ" خبراً ؛ لئلا يلزم منه أنّ كل مؤمن يتلو الكتاب حَقَّ تلاوته بأي تفسير فسرت التلاوة قال أبو حيان : ونقول : ما لزم من الامتناع مِنْ جَعْلِهَا خبراً يلزم من جعلها حالاً ؛ لأنه ليس كل مؤمن على حال التلاوة بأي تفسير فسرت التلاوة .

قوله تعالى : "حَقَّ تِلاَوَتِهِ" فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه نصب على المصدر وأصله : " تلاوةً حقًّا " ثم قدم الوصف ، وأضيف إلى المصدر ، وصار نظير " ضربت شديد الضرب " أي : ضَرْباً شديداً . فلما قدم وصف المصدر نصب نصبه .

الثاني : أنه حال من فاعل "يَتْلُونَهُ " أي : يتلونه محقين .

الثالث : أنه نعت مصدر محذوف .

وقال ابن عطية : و" حَقَّ " مصدر ، والعامل فيه فعل مضمرن وهو بمعنى " أفعل " ، ولا تجوز إضافته إلى واحد معرف ، إنما جازت هنا ؛ لأن تَعَرُّفَ التلاوة بإضافتها إلى الضمير ليس بتعرف محض ، وإنما هو بمنزلة قولهم : رجل وَاحِدُ أُمِّه وَسِيجُ واحده يعني : أنه في قوة " أفعل " التفضيل بمعنى أحقّ التلاوة ، وكأنه يرى أن إضافة " أفعل " غير محضة ، ولاحاجة إلى تقدير عامل فيه ؛ لأن ما قبله يطلبه . والضمير في " به " فيه أربعة أقوال :

أحدهما وهو الظاهر : عوده على الكتاب .

الثاني : عوده على الرسول ، قالوا : " ولم يَجْرِ له ذكر لكنه معلوم " ، ولا حاجة إلى هذا الاعتذار ، فإنه مذكور في قوله : ﴿ أَرْسَلْنَاكَ ﴾ [البقرة : 119] ، إلا أن فيه التفاتاً من خطاب إلى غيبة .

الثالث : أنه يعود على الله تعالى ، وفيه التفات أيضاً من ضمير المتكلّم المعظم في قوله : " أَرْسَلْنَاكَ " إلى الغيبة .

الرابع : قال ابن عطية : إنه يعود على " الهدى " وقرره بكلام حسن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 6 صـ 439. 440 ﴾ . بتصرف يسير .

(34/65)

قوله تعالى ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (122) وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (123) ﴾

كلام نفيس ذكره الإمام البقاعى فى مناسبة هذه الآيات الكريمة وما بعدها لما قبلها

قال - رحمه الله - ما نصه :

ولما طال المدى في استقصاء تذكيرهم بالنعم ثم في بيان عوارهم وهتك أستارهم وختم ذلك بالترهيب بخسارهم لتضييع أديانهم بأعمالهم وأحوالهم وأقوالهم أعاد ما صدر به قصتهم من التذكير بالنعم والتحذير من حلول النقم يوم يجمع الأمم ويدوم فيه الندم لمن زلت به القدم ، ليعلم أن ذلك فذلكة القصة والمقصود بالذات في الحث على انتهاز الفرصة في التفصّي عن حرمة النقص إلى لذة الربح بدوام الشكر . قال الحرالي : فلبعده بالتقدم كرره تعالى إظهاراً لمقصد التئام آخر الخطاب بأوله وليتخذ هذا الإفصاح والتعليم أصلاً لما يمكن

أن يرد من نحوه في سائر القرآن حتى كأن الخطاب إذا انتهى إلى غاية خاتمة يجب أن يلحظ القلب بداية تلك الغاية فيتلوها ليكون في تلاوته جامعاً لطرفي البناء وفي تفهمه جامعاً لمعاني طرفي المعنى ؛ انتهى – فقال تعالى : ﴿ يا بني إسرائيل ﴾ أي ولد الأنبياء الأصفياء ووالد الأنبياء السعداء ﴿ اذكروا نعمتي ﴾ أي الشريفة بالنسبة إليّ ﴿ التي أنعمت عليكم ﴾ بها في الدنيا ﴿ وأني فضلتكم ﴾ واقتصر هنا على نعمة التفضيل ولم يذكر الوفاء الذي هو فضيلة النفس الباطنة إشارة إلى جمودهم باقتصارهم على النظر في الظاهر على ﴿ العالمين ﴾ في تلك الأزمان كلها بإتمام نعمة الدنيا بشرع الدين المقتضى للنعمة في الأخرى ، فإنكم إذا ذكرتم النعمة شكرتموها فقيدتموها واستوجبتم من الله الزيادة في الدنيا والرضى في العقبى ﴿ واتقوا يوماً لا تجزي ﴾ أي تقضى ، أي يصنع فيه ﴿ نفس عن نفس شيئاً ﴾ أي من الجزاء .

ولما ختمت الآية الماضية بحصر الخسارة فيهم ناسب تقديم نفي القبول فقال : ﴿ ولا يقبل منها عدل ﴾ يبذل في فكاكها من غير الأعمال الصالحة ﴿ ولا تنفعها شفاعة ﴾ غير مأذون فيها ﴿ ولا هم ينصرون ﴾ وإن كثرت جموعهم . قال الحرالي : أجراها تعالى في

هذا التكرار على حدها في الأول إلا ما خالف بين الإيرادين في قوله ﴿ واتقوا يوماً ﴾ إلى آخره ليجمع النبأ في كل واحد من الشفاعة والعدل بين مجموع الردين من الأخذ والقبول فيكون شفاعتها لا مقبولة ولا نافعة ، ويكون عدلها لا مأخوذاً ولا مقبولاً ، ذلك لأن المعروض للقبول أول ما يؤخذ أخذاً بحسبه من أخذ سمع أو عين ، ثم ينظر إليه نظر تحقيق في المسموع وتبصر في المنظور ، فإذا صححه التحقيق والتبصير قُبل ، وإذا لم يصححه رد ، وإنما يكون ذلك لمن في حاله حظ صحة ظاهرة لا يثبت مع الخبرة ، فأنبأ تعالى بمضمون الآيتين الفاتحة والخاتمة أن هؤلاء ليس في حالهم حظ صحة البتة لا في شفاعة ولا في عدل فلا يقبل ولا يؤخذ إنباء بغرائه عن لبسه ظاهر صحة يقتضي أخذه بوجه مّا ، ففيه تبرئة ممن حاله حال ما نبّىء به عنهم على ما تقدم معناه في مضمون الآية ، وبهذه الغاية انصرف الخطاب عنهم على خصوص ما أوتوا من الكتاب الذي كان يوجب لهم أن يتدّينوا بقبول ما جاء مصدقاً لما معهم فاتخذوا لهم بأهوائهم ملة افتعلتها أهواؤهم ، فنظم تعالى بذلك ذكر صاحب الملة التي يرضاها وافتتح بابتداء أمره في ابتلائه ليجتمع عليهم الحجتان السابقة بحسب الملة الحنيفية الإبراهيمية واللاحقة بحسب الدين المحمدي ، كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول في الصباح : " أصبحنا على فطرة الإسلام وكلمة الإخلاص وعلى دين نبينا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعلى ملة أبينا إبراهيم ـ صلى الله عليه وسلم ـ " فخص

المحمدية بالدين والإبراهيمية بالملة لينتظم ابتداء الأبوة الإبراهيمية بطوائف أهل الكتاب سابقهم ولاحقهم بنبأ ابتداء الأبوة الآدمية في متقدم

(36/65)

قوله تعالى : ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة ﴾ - الآيات لينتظم رؤوس الخطابات بعضها ببعض وتفاصيلها بتفاصيلها ، وليكون إظهار ذلك في سورة سنام القرآن أصلاً لما في سائره من ذلك ، وذكر قبل ذلك أن الملة ما يدعو إليه هدى العقل المبلغ عن الله توحيده من ذوات الحنيفيين ، وأن الدين الإسلام ، والإسلام إلقاء ما باليد ظاهراً وباطناً ، وذلك إنما يكون عن بادي غيب التوحيد - انتهى . ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 237.236 ﴾

(37/65)

سؤال : لم كرر هذه الآية ؟

الجواب : كررها في أول السورة وهنا للتوكيد وتذكير النعم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير

الخازن حـ1 صـ 102 ﴾

وقال الآلوسى : تكرير لتذكير بني إسرائيل وإعادة لتحذيرهم للمبالغة في النصح ، وللإيذان بأن ذلك فذلكة القصة والمقصود منها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ1 صـ 373 ﴾

لطيفة فى قوله تعالى ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾

جرت سُنتُه – سبحانه – في الخطاب مع قوم موسى ـ عليه السلام ـ أن يناديهم بنداء العلامة فيقول : يا بني إسرائيل اذكروا ، أي يا بني يعقوب ، ومع هذه الأُمة أن يخاطبهم بنداء الكرامة فيقول :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ1 صـ 119 ﴾

ومن فوائد العلامة الزمخشرى فى الآيات

قال رحمه الله :

﴿ ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِها نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْها أَوْ مِثْلِها ﴾

روى أنهم طعنوا في النسخ فقالوا : ألا ترون إلى محمد يأمر أصحابه بأمر ، ثم ينهاهم عنه

ويأمرهم بخلافه ، ويقول اليوم قولا ويرجع عنه غدا ؟ فنزلت . وقرئ (ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ وما ننسخ : بضم النون ، من أنسخ . أو ننسأها . وقرئ (نُنْسِها) وننسها بالتشديد . وتنسها وتنسها ، على خطاب رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم . وقرأ عبد اللَّه . ما ننسك من آية أو ننسخها وقرأ حذيفة : ما ننسخ من آية أو ننسكها . ونسخ الآية : إزالتها بإبدال أخرى مكانها وإنساخها .

الأمر بنسخها ، وهو أن يأمر جبريل عليه السلام بأن يجعلها منسوخة بالإعلام بنسخها . ونسؤها ، تأخيرها وإذهابها . لا إلى بدل . وإنساؤها أنّ يذهب بحفظها عن القلوب . والمعنى أن كل آية يذهب بها على ما توجبه المصلحة من إزالة لفظها وحكمها معا ، أو من إزالة أحدهما إلى بدل أو غير بدل نَأْتِ بآية خير منها للعباد ، أى بآية العمل بها أكثر للثواب أو مثلها في ذلك عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فهو يقدر على الخير ، وما هو خير منه ، وعلى مثله في الخير لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ فهو يملك أموركم ويدبرها ويجريها على حسب ما يصلحكم ، وهو أعلم بما يتعبدكم به من ناسخ ومنسوخ . لما بين لهم أنه مالك أمورهم ومدبرها على حسب مصالحهم من نسخ الآيات وغيره ، وقررهم على ذلك بقوله : (أَلَمْ تَعْلَمْ) أراد أن يوصيهم بالثقة به فيما هو أصلح لهم مما يتعبدهم به وينزل عليهم وأن لا يقترحوا على رسولهم ما اقترحه آباء اليهود على موسى عليه السلام من الأشياء التي كانت عاقبتها وبالا عليهم كقولهم : اجعل لنا إلها ، أرنا اللَّه جهرة ، وغير ذلك وَمَنْ يَتَبَدَّلِ

الْكُفْرَ بِالْإِيمانِ ومن ترك الثقة بالآيات المنزلة ، وشك فيها ، واقترح غيرها فَقَدْ ضَلَّ سَواءَ السَّبِيلِ روى أن فنحاص بن عازوراء وزيد بن قيس ونفراً من اليهود قالوا لحذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر بعد وقعة أحد : ألم يروا ما أصابكم . ولو كنتم على الحق ما هزمتم ، فارجعوا إلى ديننا فهو خير لكم وأفضل ، ونحن أهدى منكم سبيلا فقال عمار : كيف نقض العهد فيكم ؟ قالوا شديد . قال : فإنى قد عاهدت أن لا أكفر بمحمد ما عشت : فقالت اليهود : أما هذا فقد صبأ . وقال حذيفة : وأما أنا فقد رضيت باللَّه ربا ، وبمحمد نبيا ، وبالإسلام دينا ، وبالقرآن إماما ، وبالكعبة قبلة ، وبالمؤمنين إخوانا . ثم أتيا رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم وأخبراه فقال : أصبتما خيرا وأفلحتما «1» . فنزلت .

فإن قلت : بم تعلق قوله : مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ ؟ «2» قلت : فيه وجهان : أحدهما أن يتعلق بودّ ، على معنى أنهم تمنوا

---

(1) . لم أجده مسنداً . وهو في تفسير الثعلبي كذلك بلا سند ولا راو .

(2) . قال محمود رحمه اللَّه : «إن قلت : بم تعلق قوله من عند أنفسهم . . . الخ ؟» . قال أحمد رحمه اللَّه : يبعد الوجه الثاني دخول عند . ويقرب الأول قوله تعالى : (تِلْكَ أَمانِيُّهُمْ) .

أن ترتدوا عن دينكم وتمنيهم ذلك من عند أنفسهم ومن قبل شهوتهم ، لا من قبل التدين والميل مع الحق ، لأنهم ودّوا ذلك من بعد ما تبين لهم أنكم على الحق ، فكيف يكون تمنيهم من قبل الحق ؟

وإما أن يتعلق بحسدا ، أى حسدا متبالغا منبعثا من أصل أنفسهم فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا فاسلكوا معهم سبيل العفو والصفح عما يكون منهم من الجهل والعداوة حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ الذي هو قتل بنى قريظة وإجلاء بنى النضير وإذلالهم بضرب الجزية عليهم إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فهو يقدر على الانتقام منهم مِنْ خَيْرٍ من حسنة صلاة أو صدقة أو غيرهما تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ تجدوا ثوابه عند اللَّه إِنَّ اللَّهَ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ عالم لا يضيع عنده عمل عامل .

[سورة البقرة (2) : الآيات 111 إلى 112]

وَقالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ كانَ هُوداً أَوْ نَصارى تِلْكَ أَمانِيُّهُمْ قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (111) بَلى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (112)

الضمير في وَقالُوا لأهل الكتاب من اليهود والنصارى . والمعنى : وقالت اليهود : لن يدخل الجنة إلا من كان هودا ، وقالت النصارى : لن يدخل الجنة إلا من كان نصارى ، فلف بين

القولين ثقة بأنّ السامع يردّ إلى كل فريق قوله ، وأمنا من الإلباس لما علم من التعادي بين الفريقين وتضليل كل واحد منهما لصاحبه . ونحوه (وَقالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصارى تَهْتَدُوا) ، والهود : جمع هائد ، كعائذ وعُوذ ، وبازل وبُزل . فإن قلت : كيف قيل كان هوداً على توحيد الاسم وجمع الخبر ؟ قلت : حمل الاسم على لفظ «من» والخبر على معناه ، كقراءة الحسن إلا من هو صالوا الجحيم . وقوله : (فَإِنَّ لَهُ نارَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها) . وقرأ أبيّ بن كعب : إلا من كان يهوديا أو نصرانيا . فإن قلت : لم قيل تِلْكَ أَمانِيُّهُمْ وقولهم (لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ) أمنية واحدة «1» ؟ قلت :

---

(1) . قال محمود رحمه اللَّه : «فان قلت : لم قيل تلك أمانيهم وقولهم لن يدخل الجنة أمنية واحدة . . . الخ» ؟

قال أحمد رحمه اللَّه : يبعد هذا الجواب قوله تعالى عقيب ذلك : (قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ ، بَلى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ) فان البرهان المطلوب منهم ها هنا إنما هو على صحة دعواهم أن الجنة لا يدخلها غيرهم . ويحقق هذا قوله : (بَلى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ) فإنما يعنى الجنة ونعيمها ، رداً عليهم في نفى غيرهم عن دخولها ففي هذا دليل بين على أن الأمانى المشار إليها ليس إلا ما طولبوا بإقامة البرهان على صحته وهو أمنية واحدة واللَّه أعلم . والجواب القريب : أنهم لشدة تمنيهم لهذه الأمنية ومعاودتهم لها

وتأكدها في نفوسهم جمعت ، ليفيد جمعها أنها متأكدة في قلوبهم ، بالغة منهم كل مبلغ ، والجمع يفيد ذلك وإن كان مؤداه واحداً . ونظيره قولهم : معاً جياع ، فجمعوا الصفة ومؤداها واحد ، لأن موصوفها واحد تأكيداً لثبوتها وتمكنها . وهذا المعنى أحد ما روى في قوله تعالى : (إِنَّ هؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ) فانه جمع قليلا وقد كان الأصل إفراده ، فيقال لشرذمة قليلة كقوله تعالى : (كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ) لولا ما قصد إليه من تأكيد معنى القلة بجمعها . ووجه إفادة الجمع في مثل هذا للتأكيد أن الجمع يفيد بوضعه الزيادة في الآحاد ، فنقل إلى تأكيد الواحد ، وإبائه زيادته على نظرائه نقلا مجازيا بديعاً ، فتدبر هذا الفصل فانه من نفائس صناعة البيان واللَّه الموفق .

أشير بها إلى الأمانى المذكورة وهو أمنيتهم «1» أن لا ينزل على المؤمنين خير من ربهم ، وأمنيتهم أن يردّوهم كفاراً ، وأمنيتهم أن لا يدخل الجنة غيرهم : أى تلك الأمانى الباطلة أمانيهم . وقوله (قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ) متصل بقولهم : لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى . وتلك أمانيهم :

اعتراض ، أو أريد أمثال تلك الأمنية أمانيهم ، على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه

مقامه.

يريد أن أمانيهم جميعا في البطلان مثل أمنيتهم هذه. والأمنية أفعولة من التمني، مثل الأضحوكة والأعجوبة هاتُوا بُرْهانَكُمْ هلموا حجتكم على اختصاصكم بدخول الجنة إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ في دعواكم، وهذا أهدم شيء لمذهب المقلدين. وأنّ كل قول لا دليل عليه فهو باطل غير ثابت.

و«هات» صوت بمنزلة هاء، بمعنى أحضر بَلى إثبات لما نفوه من دخول غيرهم الجنة مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ من أخلص نفسه له لا يشرك به غيره وَهُوَ مُحْسِنٌ في عمله فَلَهُ أَجْرُهُ الذي يستوجبه. فإن قلت: من أسلم وجهه كيف موقعه؟ قلت: يجوز أن يكون (بَلى) ردّاً لقولهم، ثم يقع (مَنْ أَسْلَمَ) كلاما مبتدأ، ويكون (مَنْ) متضمنا لمعنى الشرط، وجوابه (فَلَهُ أَجْرُهُ)، وأن يكون (مَنْ أَسْلَمَ) فاعلا لفعل محذوف، أى بلى يدخلها من أسلم، ويكون قوله: (فَلَهُ أَجْرُهُ) كلاما معطوفا على يدخلها من أسلم.

[سورة البقرة (2): الآيات 113 إلى 114]

وَقالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصارى عَلى شَيْءٍ وَقالَتِ النَّصارى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتابَ كَذلِكَ قالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (113) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَساجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعى فِي خَرابِها أُولئِكَ ما كانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوها إِلَّا خائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذابٌ

عَظِيمٌ (114)

عَلى شَيْءٍ أى على شيء يصح ويعتدّ به . وهذه مبالغة عظيمة ، لأنّ المحال والمعدوم يقع عليهما اسم الشيء «2» ، فإذا نفى إطلاق اسم الشيء عليه ، فقد بولغ في ترك الاعتداد به إلى ما ليس بعده «3» . وهذا كقولهم : أقل من لا شيء وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتابَ الواو للحال ، والكتاب

---

(1) . قوله «و هو أمنيتهم» لعله : وهي . (ع)

(2) . قال محمود رحمه اللَّه : «هذه مبالغة عظيمة لأن المحال والمعدوم يقع عليهما اسم الشيء . . . الخ» . قال أحمد رحمه اللَّه : وتفسيره الشيء مخالف لفريقى أهل السنة والبدعة ، فانه عند أهل السنة قاصر على الموجود وعند المعتزلة يطلق على الموجود وعلى المعدوم الذي يصح وجوده ، فليس متناولا للمحال بحال عندهما ، وقد تقدم له مثله .

(3) . قوله «إلى ما ليس بعده» لعل المعنى : إلى حد ليس بعده حد . (ع)

للجنس . أى قالوا ذلك ، وحالهم أنهم من أهل العلم والتلاوة للكتب . وحق من حمل التوراة أو الإنجيل أو غيرهما من كتب اللَّه وآمن به أن لا يكفر بالباقي لأن كل واحد من الكتابين مصدّق للثاني شاهد بصحته ، وكذلك كتب اللَّه جميعا متواردة على تصديق بعضها بعضا كَذٰلِكَ أى مثل ذلك الذي سمعت به على ذلك المنهاج قالَ الجهلة الَّذِينَ لا علم عندهم ولا كتاب كعبدة الأصنام والمعطلة ونحوهم قالوا لأهل كل دين : ليسوا على شيء . وهذا توبيخ عظيم لهم حيث نظموا أنفسهم مع علمهم في سلك من لا يعلم . وروى أنّ وفد نجران لما قدموا على رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم أتاهم أحبار اليهود فتناظروا حتى ارتفعت أصواتهم ، فقالت اليهود : ما أنتم على شيء من الدين ، وكفروا بعيسى والإنجيل . وقالت النصارى لهم نحوه ، وكفروا بموسى والتوراة «1» فَاللَّهُ يَحْكُمُ بين اليهود والنصارى يَوْمَ الْقِيامَةِ بما يقسم لكل فريق منهم من العقاب الذي استحقه . وعن الحسن : حكم اللَّه بينهم أن يكذبهم ويدخلهم النار أَنْ يُذْكَرَ ثانى مفعولي منع . لأنك تقول : منعته كذا . ومثله (وَما مَنَعَنا أَنْ نُرْسِلَ) ، (وَما مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا) ويجوز أن يحذف حرف الجر مع أن ، ولك أن تنصبه مفعولا له بمعنى كراهة أن يذكر ، وهو حكم عام لجنس مساجد اللَّه ، وأن مانعها من ذكر اللَّه مفرط في الظلم ، والسبب فيه أن النصارى كانوا يطرحون في بيت المقدس الأذى ويمنعون الناس أن يصلوا فيه ، وأن الروم غزوا أهله فخربوه وأحرقوا التوراة وقتلوا وسبوا . وقيل أراد به منع المشركين رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم

أن يدخل المسجد الحرام عام الحديبية .

فإن قلت : فكيف قيل مساجد اللَّه وإنما وقع المنع والتخريب على مسجد واحد وهو بيت المقدس أو المسجد الحرام ؟ قلت : لا بأس أن يجيء الحكم عاما وإن كان السبب خاصا ، كما تقول لمن أذى صالحا واحداً : ومن أظلم ممن أذى الصالحين . وكما قال اللَّه عز وجل : (وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ) والمنزول فيه الأخنس بن شريق وَسَعى فِي خَرابِها بانقطاع الذكر أو بتخريب البنيان . وينبغي أن يراد ب «من» منع العموم كما أريد بمساجد اللَّه ، ولا يراد الذين منعوا بأعيانهم من أولئك النصارى أو المشركين أُولئِكَ المانعون ما كانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوها أى ما كان ينبغي لهم أن يدخلوا مساجد اللَّه إِلَّا خائِفِينَ على حال التهيب وارتعاد الفرائض من المؤمنين أن يبطشوا بهم ، فضلا أن يستولوا عليها ويلوها ويمنعوا المؤمنين منها . والمعنى ما كان الحق والواجب إلا ذلك لولا ظلم الكفرة وعتوّهم . وقيل ما كان لهم في حكم اللَّه ، يعنى أن اللَّه قد حكم وكتب في اللوح أنه ينصر المؤمنين ويقوّيهم حتى

---

(1) . أخرجه الطبري من رواية ابن إسحاق حدثني محمد بن أبى محمد حدثني سعيد أو عكرمة عن ابن عباس به وفيه «أن قائل اليهود اسمه رافع بن حريملة» .

لا يدخلوها إلا خائفين. روى أنه لا يدخل بيت المقدس أحد من النصارى إلا متنكراً مسارقة.

وقال قتادة: لا يوجد نصراني في بيت المقدس إلا أنهك ضربا وأبلغ إليه في العقوبة. وقيل: نادى رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم «ألا لا يحجنّ بعد هذا العام مشرك، ولا يطوفنّ بالبيت عريان «1»» وقرأ عبد اللَّه: إلا خيفا، وهو مثل صيم «2». وقد اختلف الفقهاء في دخول الكافر المسجد: فجوّزه أبو حنيفة رحمه اللَّه، ولم يجوّزه مالك، وفرق الشافعي بين المسجد الحرام وغيره. وقيل: معناه النهى عن تمكينهم من الدخول والتخلية بينهم وبينه، كقوله: (وَما كانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ). خِزْيٌ قتلٌ وسبىٌ، أو ذلة بضرب الجزية. وقيل: فتح مدائنهم قسطنطينية ورومية وعمورية.

[سورة البقرة (2): آية 115]

وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ واسِعٌ عَلِيمٌ (115)

وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ أى بلاد المشرق والمغرب والأرض كلها للَّه هو مالكها ومتوليها فَأَيْنَما تُوَلُّوا ففي أى مكان فعلتم التولية، يعنى تولية وجوهكم شطر القبلة بدليل قوله تعالى: (فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ، وَحَيْثُ ما كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ). فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ أى جهته التي أمر بها ورضيها. والمعنى أنكم إذا منعتم أن تصلوا في المسجد الحرام أو في بيت المقدس، فقد جعلت لكم الأرض مسجداً فصلوا في أى بقعة شئتم من بقاعها،

وافعلوا التولية فيها فإن التولية ممكنة في كل مكان لا يختص إسكانها في مسجد دون مسجد ولا في مكان دون مكان إِنَّ اللَّهَ واسِعٌ الرحمة يريد التوسعة على عباده والتيسير عليهم عَلِيمٌ بمصالحهم. وعن ابن عمر نزلت في صلاة المسافر على الراحلة أينما توجهت. وعن عطاء: عميت القبلة على قوم فصلوا إلى أنحاء مختلفة، فلما أصبحوا تبينوا خطأهم فعذروا. وقيل: معناه فأينما تولوا للدعاء والذكر ولم يرد الصلاة. وقرأ الحسن: فأينما تولوا، بفتح التاء من التولي يريد: فأينما توجهوا القبلة.

[سورة البقرة (2): آية 116]

وَقالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحانَهُ بَلْ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قانِتُونَ (116)

وَقالُوا وقرئ بغير واو، يريد الذين قالوا المسيح ابن اللَّه وعزير ابن اللَّه والملائكة بنات اللَّه. سُبْحانَهُ تنزيه له عن ذلك وتبعيد بَلْ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ هو خالقه ومالكه، ومن جملته الملائكة وعزير والمسيح كُلٌّ لَهُ قانِتُونَ منقادون، لا يمتنع شيء منه على

---

(1). متفق عليه من رواية حميد بن عبد الرحمن: عن أبي هريرة رضى اللَّه عنه.

(2). قوله «و هو مثل صيم» في الصحاح: قوم صوم وصيم. (ع)

تكوينه وتقديره ومشيئته ، ومن كان بهذه الصفة لم يجانس ، ومن حق الولد أن يكون من جنس الوالد . والتنوين في : (كلّ) عوض من المضاف إليه ، أى كل ما في السموات والأرض . ويجوز أن يراد كلّ من جعلوه للَّه ولداً له قانتون مطيعون عابدون مقرون بالربوبية منكرون لما أضافوا إليهم . فإن قلت : كيف جاء بما التي لغير أولى العلم مع قوله قانتون ؟ قلت : هو كقوله : سبحان ما سخر كنّ لنا . وكأنه جاء ب «ما» دون «من» تحقيراً لهم وتصغيراً لشأنهم ، كقوله : (وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً) .

[سورة البقرة (2) : آية 117]

بَدِيعُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَإِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (117)

يقال بدع الشيء فهو بديع ، كقولك : بزع الرجل «1» فهو بزيع . وبَدِيعُ السَّماواتِ من إضافة الصفة المشبهة إلى فاعلها أى بديع سماواته وأرضه . وقيل البديع بمعنى المبدع ، كما أنّ السميع في قول عمرو :

أَمِنْ رَيْحَانَةَ الدَّاعِي السَّمِيعُ «2»

بمعنى المسمع وفيه نظر كُنْ فَيَكُونُ من كان التامّة ، أى أحدث فيحدث . وهذا مجاز من الكلام وتمثيل ولا قول ثم ، كما لا قول في قوله :

إِذْ قَالَتِ الْأَنْسَاعُ لِلْبَطْنِ الْحَقِ «3»

وإنما المعنى أنّ ما قضاه من الأمور وأراد كونه ، فإنما يتكوّن ويدخل تحت الوجود من غير

امتناع ولا توقف ، كما أنّ المأمور المطيع الذي يؤمر فيمتثل لا يتوقف ولا يمتنع ولا يكون منه الإباء .

---

(1) . قوله «بزع الرجل» بزع بالزاي كظرف وزنا ومعنى . أفاده الصحاح وصرح كقولك بأنه لا يوصف به الأحداث . (ع) [. . . . .]

(2) . مر شرح هذا الشاهد صفحة 60 من هذا الجزء فراجعه إن شئت اه مصححه .

(3) إذا قالت الأنساع للبطن الحق قدوما فآضت كالفنيق المحنق

لأبى النجم العجلى . والنسع – بالكسر – : حزام عريض يشد به وسط الدابة وستر الهودج . والحق : فعل أمر ، أى التصق يا بطن بالظهر وانضمر . وقدوما : نصب على المصدر بمحذوف أو بما قبله على أنه مفعول له . وآض يئيض أيضا : إذا صار يصير ، أو رجع يرجع ، أى صارت الناقة كالفنيق . ويروى : فأحنت ، أى حقدت واغتاظت الناقة ، وأصله بكسر الحاء فسكن تخفيفاً كما تقدم في ضجر ودبر . والفنيق : الفحل المنعم المكرم . يقال : أفنقه ، إذا نعمه . وجارية فنقة : ناعمة . والمحنق : المغيظ ، من الحنق وهو الحقد والغيظ . ويروى «إذ قالت» بدل «إذا قالت» . والحق : بوصل الهمزة وقطعها . والمحنق بسكون الحاء ، فيكون من الرجز ، لا من الطويل . وقدم قدما ، كنصر نصراً ، إذا تقدم . والظاهر أن هذه الرواية هي الصواب لكثرة رجز أبى النجم . وإثبات القول للأنساع

ومخاطبتها البطن من باب التمثيل . والمعنى أنه شد عليها أدوات السفر فاغتاظت غيظاً شديداً ، كالفحل المكرم الذي غاظه غيره .

أكد بهذا استبعاد الولادة لأنّ من كان بهذه الصفة من القدرة كانت حاله مباينة لأحوال الأجسام في توالدها . وقرئ (بديع السماوات) مجروراً على أنه بدل من الضمير في له . وقرأ المنصور بالنصب على المدح.

[سورة البقرة (2) : آية 118]

وَقالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ لَوْلا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينا آيَةٌ كَذلِكَ قالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآياتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (118)

وَقالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ وقال الجهلة من المشركين ، وقيل من أهل الكتاب ، ونفى عنهم العلم لأنهم لم يعملوا به : لَوْلا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ هلا يكلمنا كما يكلم الملائكة وكلم موسى ؟ استكباراً منهم وعتوا أَوْ تَأْتِينا آيَةٌ جحوداً لأن يكون ما أتاهم من آيات اللَّه آيات ، واستهانة بها تَشابَهَتْ قُلُوبُهُمْ أى قلوب هؤلاء ومن قبلهم في العمى ، كقوله : (أَ تَواصَوْا بِهِ) . قَدْ بَيَّنَّا الْآياتِ لِقَوْمٍ ينصفون فيوقنون أنها آيات يجب الاعتراف بها والإذعان لها والاكتفاء بها عن

غيرها .

[سورة البقرة (2) : آية 119]

إِنَّا أَرْسَلْناكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلا تُسْئَلُ عَنْ أَصْحابِ الْجَحِيمِ (119)

إِنَّا أَرْسَلْناكَ لأن تبشر وتنذر لا لتجبر على الإيمان ، وهذه تسلية لرسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم وتسرية عنه ، لأنه كان يغتم ويضيق صدره لإصرارهم وتصميمهم على الكفر . ولا نسألك عَنْ أَصْحابِ الْجَحِيمِ ما لهم لم يؤمنوا بعد أن بلغت وبلغت جهدك في دعوتهم ، كقوله : (فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسابُ) وقرئ : (وَلا تُسْئَلُ) على النهى . روى أنه قال : ليت شعري ما فعل أبواى ، فنهى عن السؤال عن أحوال الكفرة والاهتمام بأعداء اللَّه . وقيل : معناه تعظيم ما وقع فيه الكفار من العذاب كما تقول : كيف فلان ؟ سائلا عن الواقع في بلية ، فيقال لك : لا تسأل عنه . ووجه التعظيم أن المستخبر يجزع أن يجرى على لسانه ما هو فيه لفظاعته ، فلا تسأله ولا تكلفه ما يضجره ، أو أنت يا مستخبر لا تقدر على استماع خبره لإيحاشه السامع وإضجاره ، فلا تسأل .

وتعضد القراءة الأولى قراءة عبد اللَّه : ولن تسئل ، وقراءة أبىّ : وما تسئل .

[سورة البقرة (2) : آية 120]

وَلَنْ تَرْضى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصارى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْواءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ما لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (120)

كأنهم قالوا : لن نرضى عنك وإن أبلغت في طلب رضانا حتى تتبع ملتنا ، إقناطا منهم لرسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم عن دخولهم في الإسلام ، فحكى اللَّه عزّ وجلّ كلامهم ، ولذلك قال :

قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدى على طريقة إجابتهم عن قولهم ، يعنى أن هدى اللَّه الذي هو الإسلام هو الهدى بالحق والذي يصح أن يسمى هدى ، وهو الهدى كله ليس وراءه هدى ، وما تدعون إلى اتباعه ما هو بهدى إنما هو هوى . ألا ترى إلى قوله : وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْواءَهُمْ أى أقوالهم التي هي أهواء وبدع بَعْدَ الَّذِي جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ أى من الدين المعلوم صحته بالبراهين الصحيحة .

[سورة البقرة (2) : الآيات 121 إلى 123]

الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُولئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ (121) يا بَنِي إِسْرائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعالَمِينَ (122) وَاتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلا يُقْبَلُ مِنْها عَدْلٌ وَلا تَنْفَعُها شَفاعَةٌ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ (123)

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ هم مؤمنون أهل الكتاب يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ لا يحرفونه ولا يغيرون ما فيه من نعت رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بكتابهم دون المحرفين وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ من المحرفين فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ حيث اشتروا الضلالة بالهدى. انتهى. ا هـ ﴿الكشاف حـ 1 صـ 176. 183﴾

(46/65)

ومن فوائد صاحب المنار فى الآيات السابقة

قال رحمه الله:

ثُمَّ قَالَ - عَزَّ وَجَلَّ -: (وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ) فَعَادَ إِلَى ذِكْرِ أَهْلِ الْكِتَابِ عَلَى مَا عَهِدْنَا فِي أَسَالِيبِ الْقُرْآنِ مِنْ ضُرُوبِ الِانْتِقَالِ بِالْمُنَاسَبَاتِ الدَّقِيقَةِ.

وَقَدْ قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ غَيْرَ مَرَّةٍ: إِنَّ الْقُرْآنَ لَمْ يَأْتِ عَلَى طَرِيقَةِ الْمُنْشِئِينَ وَالْمُؤَلِّفِينَ الَّذِينَ يَخُصُّونَ كُلَّ طَائِفَةٍ مِنَ الْكَلَامِ بِمَوْضُوعٍ مُعَيَّنٍ وَيُسَمُّونَهَا فَصْلًا أَوْ بَابًا، وَلَكِنَّ لِلْقُرْآنِ أَغْرَاضًا يُبْرِزُهَا بِصُوَرٍ مُخْتَلِفَةٍ، فَكُلَّمَا لَاحَتِ الْمُنَاسَبَةُ لِذِكْرِ شَيْءٍ مِنْهَا أَوِ الِاحْتِجَاجِ عَلَيْهِ أَوِ الدِّفَاعِ عَنْهُ، جَاءَ بِهِ يَجْذِبُ إِلَيْهِ الْأَذْهَانَ، وَيُسَارِقُ بِهِ خَطَرَاتِ الْقُلُوبِ، مَعَ مُرَاعَاةِ

التَّنَاسُقِ ، وَحِفْظِ الْأُسْلُوبِ الْبَلِيغِ ، لِهَذَا يَتَكَرَّرُ فِيهِ الْمَعْنَى الْوَاحِدُ بِعِبَارَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ ، وَيَتَجَلَّى الرُّوحُ الْوَاحِدُ فِي أَشْكَالٍ مُتَنَوِّعَةٍ ، فَلَمْ يَذْكُرْ هَا هُنَا الْمُشْرِكِينَ إِلَّا لِمَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنَ التَّنَاسُبِ وَالتَّقَارُبِ فِي الْمُجَاحَدَةِ وَالْمُعَانَدَةِ ، فَكَانَ ذِكْرُهُمْ مِنْ مُتِمَّاتِ الْحُجَّةِ عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ حَيْثُ

أَدَّى غَرَضًا مَقْصُودًا فِي ذَاتِهِ . وَلَمَّا كَانَ ذِكْرُهُمْ فِي عَرَضِ الْكَلَامِ كَالْجُمْلَةِ الِاعْتِرَاضِيَّةِ ، كَانَ الرُّجُوعُ إِلَى سَرْدِ شُئُونِ أَهْلِ الْكِتَابِ مَعَ النَّبِيِّ – عَلَيْهِ السَّلَامُ – رُجُوعًا إِلَى أَصْلِ الْمَوْضُوعِ .

وَقَالَ فِي مَعْنَى الْآيَةِ : مِنْ شَأْنِ الْإِنْسَانِ أَنْ يَتَأَلَّمَ مِنَ الْقَبِيحِ أَشَدَّ التَّأَلُّمِ إِذَا وَقَعَ مِمَّنْ لَا يُتَوَقَّعُ مِنْهُ ، فَكَانَ النَّبِيُّ – عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ – يَرْجُو أَنْ يُبَادِرَ أَهْلُ الْكِتَابِ إِلَى الْإِيمَانِ بِهِ ، وَأَلَّا يَرَى مِنْهُمُ الْمُكَابَرَةَ وَالْمُجَاحَدَةَ وَالْعِنَادَ ؛ وَلِهَذَا كَبُرَ عَلَيْهِ أَنْ رَأَى مِنْ إِعْرَاضِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى عَنْ إِجَابَةِ دَعْوَتِهِ ، وَإِسْرَافِهِمْ فِي مُجَاحَدَتِهِ أَشَدَّ مِمَّا رَأَى مِنْ مُشْرِكِي الْعَرَبِ الَّذِينَ جَاءَ لِمَحْوِ دِينِهِمْ مِنَ الْأَرْضِ ، مَعَ مُوَافَقَتِهِ لِأَهْلِ الْكِتَابِ فِي أَصْلِ دِينِهِمْ وَمَقْصِدِهِ مِنْ تَوْحِيدِ اللهِ – تَعَالَى – وَالْإِخْلَاصِ لَهُ وَتَقْوِيمِ عِوَجِ الْفِطْرَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ الَّذِي طَرَأَ عَلَيْهَا بِسَبَبِ

التَّقَالِيدِ ، وَتَرْقِيَةِ الْمَعَارِفِ الدِّينِيَّةِ إِلَى أَعْلَى مَا اسْتَعَدَّ لَهُ الْإِنْسَانُ مِنَ الِارْتِقَاءِ الْعَقْلِيِّ وَالْأَدَبِيِّ ؛ وَلِذَلِكَ كَانَ يُخَاطِبُهُمْ بِمِثْلِ قَوْلِهِ – تَعَالَى – : (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ) (3 : 64) الْآيَةَ ، وَغَيْرِهَا مِنَ الْآيَاتِ . وَلَقَدْ كَانَ مِنَ الصَّعْبِ – لَوْلَا إِعْلَامُ اللهِ – تَعَالَى – أَنْ تَعْرِفَ دَرَجَةَ فَتْكِ التَّقْلِيدِ بِعُقُولِ أَهْلِ الْكِتَابِ وَإِفْسَادِ الْأَهْوَاءِ لِقُلُوبِهِمْ ، لِذَلِكَ سَلَّى اللهُ – تَعَالَى – نَبِيَّهُ عَمَّا كَانَ يَجِدُهُ مِنْ عِنَادِهِمْ وَإِيذَائِهِمْ بِآيَاتٍ كَثِيرَةٍ عَرَّفَهُ فِيهَا حَقِيقَةَ حَالِهِمْ ، مِنْهَا هَذِهِ الْآيَةُ النَّاطِقَةُ بِأَنَّ كُلًّا مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى عَلَى اتِّحَادِهِمْ فِي أَصْلِ

الدِّينِ قَدْ تَعَصَّبَ لِتَقَالِيدِهِ ، وَاتَّخَذَ الدِّينَ جِنْسِيَّةً لَا يُرْضِيهِ مِنْ أَحَدٍ شَيْءٌ إِلَّا الدُّخُولَ فِيهَا وَقَبُولَ لَقَبِهَا ، فَقَوْلُهُ تَعَالَى : (حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ) مُرَادٌ بِهِ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ التَّقَالِيدِ وَالْأَهْوَاءِ الَّتِي غَيَّرُوا بِهَا وَجْهَ الدِّينِ الْوَاحِدِ حَتَّى صَارَ بَعْضُهُمْ يَحْكُمُ بِكُفْرِ بَعْضٍ كَمَا تَقَدَّمَ فِي الْآيَاتِ السَّابِقَةِ .

ثُمَّ أَمَرَهُ – تَعَالَى – فِي مُقَابَلَةِ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ : (قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى) أَيِ اجْهَرْ بِقَوْلِ الْحَقِّ

.

وَهُوَ أَنَّ الْهُدَى الصَّحِيحَ هُوَ هُدَى اللهِ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى أَنْبِيَائِهِ دُونَ مَا أَضَافَهُ إِلَيْهِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى بِآرَائِهِمْ وَأَهْوَائِهِمْ ، فَفَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا ، كُلُّ شِيعَةٍ تُكَفِّرُ الْأُخْرَى وَتَقُولُ : إِنَّهَا لَيْسَتْ عَلَى شَيْءٍ ، أَيْ فَإِنْ أَرَدْتَ اسْتِرْضَاءَهُمْ فَلَنْ يَرْضُوا عَنْكَ إِلَّا أَنْ تَتَّبِعَ أَهْوَاءَهُمْ ، (وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ) الَّتِي أَضَافُوهَا عَلَى كُتُبِهِمْ ، وَجَعَلُوهَا أُصُولًا وَفُرُوعًا لِدِينِهِمْ ، (بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ) الْيَقِينِ بِالْوَحْيِ الْإِلَهِيِّ الْمُبِينِ ، وَالَّذِي بَيَّنَ مَا كَانَ مِنْهُمْ مِنْ تَحْوِيلِ الْقَوْلِ عَنْ مَعْنَاهُ بِالتَّأْوِيلِ ، وَتَحْرِيفِهِمُ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ، وَنِسْيَانِهِمْ حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ، (مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ) أَيْ فَإِنَّكَ لَنْ تَنْجَحَ وَلَنْ تَصِلَ إِلَى حَقِّكَ بِمُجَارَاتِهِمْ عَلَى بَاطِلِهِمْ ؛ وَلِأَنَّ اللهَ لَا يَنْصُرُكَ عَلَى ذَلِكَ إِذْ لَا يُرْضِيهِ أَنْ يَكُونَ اتِّبَاعُ الْهَوَى طَرِيقًا إِلَى الْهُدَى ، وَالضَّالُّ لَا يُرْضِيهِ إِلَّا مُوَافَقَتُهُ عَلَى ضَلَالِهِ وَمُجَارَاتُهُ عَلَى فَسَادِهِ ، وَإِذَا لَمْ يَكُنِ اللهُ هُوَ الَّذِي يَتَوَلَّى شُئُونَكَ وَيَنْصُرُكَ بِمَعُونَتِهِ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكَ وَيَتَوَلَّاكَ مِنْ بَعْدِهِ ؟

(أَقُولُ) : وَمَفْهُومُ هَذَا الْمُصَرَّحِ بِهِ فِي آيَاتٍ أُخْرَى ، أَنَّ ثَبَاتَهُ عَلَى هُدَى اللهِ الْمُؤَيَّدِ بِالْعِلْمِ هُوَ الَّذِي يَكُونُ سَبَبًا لِتَوَلِّيهِ - تَعَالَى - لَهُ وَنَصْرِهِ إِيَّاهُ عَلَيْهِمْ . وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ شَرْطَ (إِنْ) لَا يَقْتَضِي الْوُقُوعَ ، فَهُوَ لَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ اتِّبَاعَ أَهْوَائِهِمْ مُتَوَقَّعٌ مِنْهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، وَإِنَّمَا هُوَ فَرْضٌ فُرِضَ لِبَيَانِ مَضْمُونِهِ الَّذِي ذَكَرْنَا ، وَفِيهِ أَنَّ مِنْ سُنَنِ اللهِ تَأْيِيدُ مُتَّبِعِي الْهُدَى عَلَى عِلْمٍ صَحِيحٍ وَأَنَّهُمْ هُمُ الْغَالِبُونَ الْمَنْصُورُونَ ، وَهُوَ مَا يُعَبِّرُ عَنْهُ عُلَمَاءُ الِاجْتِمَاعِ بِبَقَاءِ الْأَمْثَلِ فِي كُلِّ تَنَازُعٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا دُونَهُ .

(الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ) : مَنْ تَدَبَّرَ هَذَا الْإِنْذَارَ الشَّدِيدَ الْمُوَجَّهَ مِنَ اللهِ - تَعَالَى - إِلَى نَبِيِّ الرَّحْمَةِ ، الْمُؤَيَّدِ مِنْهُ بِالْكَرَامَةِ وَالْعِصْمَةِ ، عَلِمَ أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ الْوَعِيدُ وَالتَّشْدِيدُ عَلَى الْأُمَّةِ ، عَلَى حَدِّ (إِيَّاكِ أَعْنِي وَاسْمَعِي يَا جَارَةُ) فَإِنَّ اللهَ - تَعَالَى - يُخَاطِبُ النَّاسَ كَافَّةً فِي شَخْصِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، كَمَا جَرَى عُرْفُ التَّخَاطُبِ مَعَ الرُّؤَسَاءِ وَالزُّعَمَاءِ ، فَقَدْ يُقَالُ لِلْمَلِكِ : إِذَا فَعَلْتَ هَذَا كَانَتْ عَاقِبَتُهُ كَذَا ، وَالْمُرَادُ إِذَا فَعَلَتْهُ دَوْلَتُكَ أَوْ أُمَّتُكَ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ غَيْرَ مَرَّةٍ إِسْنَادُ عَمَلِ بَعْضِ الْأَفْرَادِ إِلَى الْأُمَّةِ كُلِّهَا ، وَلَكِنَّ قَوْلَهُ : (وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ)

وَهُوَ يَعْلَمُ جَلَّ شَأْنُهُ أَنَّهُ لَا يَتَّبِعُ أَهْوَاءَهُمْ فِي حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ ، وَقَدْ عَصَمَهُ مِنَ الزَّيْغِ وَالضَّلَالِ ، إِنَّمَا جَاءَ عَلَى هَذَا الْأُسْلُوبِ ؛ لِيُرْشِدَ مَنْ يَأْتِي بَعْدَهُ مِمَّنْ يَتَّبِعُ سُنَّتَهُ وَيَأْخُذُ بِهَدْيِهِ ، فَهُوَ يُرْشِدُنَا بِهَذَا التَّهْدِيدِ الْعَظِيمِ إِلَى الصَّدْعِ بِالْحَقِّ وَالِانْتِصَارِ لَهُ وَعَدَمِ الْمُبَالَاةِ بِمَنْ يُخَالِفُهُ ، مَهْمَا قَوِيَ حِزْبُهُمْ وَاشْتَدَّ أَمْرُهُمْ ، وَإِنَّهُ لَتَهْدِيدٌ تَرْتَعِدُ مِنْهُ فَرَائِصُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ، وَلَا سِيَّمَا إِذَا أَنِسُوا مِنْ أَنْفُسِهِمْ ضَعْفًا فِي الْحَقِّ ، كَأَنْ تَرَكُوا الْجَهْرَ بِهِ أَوِ الدِّفَاعَ عَنْهُ خَوْفًا مِنْ إِنْكَارِ الْعَامَّةِ عَلَيْهِمْ وَلَغَطِ النَّاسِ بِهِمْ ، فَمَنْ عَرَفَ الْحَقَّ وَعَرَفَ أَنَّ اللهَ – تَعَالَى – وَلِيُّ أَهْلِهِ وَنَاصِرُهُمْ ، لَا يَخَافُ فِي تَأْيِيدِهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ ، وَلَا يَغْتَرَّنَّ أَحَدٌ بِمَنْ يُسَمِّيهِمُ النَّاسُ عُلَمَاءَ وَعَارِفِينَ فِي سُكُوتِهِمْ عَنِ الْحَقِّ ، وَمُجَارَاتِهِمْ لِأَهْلِ الْبَاطِلِ ، فَإِنَّهُمْ لَيْسُوا عَلَى شَيْءٍ مِنَ الْعِلْمِ الْحَقِيقِيِّ ، وَإِنْ هِيَ إِلَّا كَلِمَاتٌ يَتَلَقَّفُونَهَا وَعَادَاتٌ يَتَقَلَّدُونَهَا ، لَا حُجَّةَ لِلْأَحْيَاءِ فِيهَا سِوَى قَوْلِهِمْ : إِنَّ الْمَيِّتِينَ دَرَجُوا عَلَيْهَا .

(قَالَ) : وَلَيْسَ هَذَا هُوَ الْعِلْمَ الَّذِي جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَإِنَّمَا هُوَ شَيْءٌ كَانَ يُلَقَّبُ بِالْعِلْمِ عِنْدَ الضَّالِّينَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ كَذَلِكَ ، وَقَدْ نُفِيَ عَنْهُ كَوْنُهُ عِلْمًا عَلَى الْحَقِيقَةِ بِمِثْلِ قَوْلِهِ : (إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ) (53 : 23) وَبِقَوْلِهِ : (لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا

أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ) (2 : 78) فَمَنْ أَخَذَ بِقَوْلِ الْقَائِلِينَ ، وَاتَّبَعَ مَا وَجَدَ عَلَيْهِ السَّابِقِينَ ، بِدُونِ بَيِّنَةٍ يَعْرِفُ بِهَا وَجْهَ الْحَقِّ مِنْ ذَلِكَ ، وَكِتَابُ اللهِ بَيْنَ يَدَيْهِ لَا يَنْظُرُ فِيهِ وَلَا يَرْجِعُ إِلَيْهِ ، فَقَدِ اتَّبَعَ الْهَوَى بَعْدَ الَّذِي جَاءَ مِنَ الْعِلْمِ إِلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَبَاءَ بِالْخِزْيِ فِي الدُّنْيَا ، وَبِالنَّكَالِ فِي الْآخِرَةِ ، وَلَمْ يَكُنْ وَلَنْ يَكُونَ لَهُ مِنَ اللهِ وَلِيٌّ وَلَا نَصِيرٌ ، اللهُمَّ أَعِنَّا عَلَى الْجَهْرِ بِالْحَقِّ بَعْدَ مَا عَرَفْنَاهُ ، وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا .

(الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ)

الصِّلَةُ بَيْنَ قَوْلِهِ - تَعَالَى - : (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ) الْآيَةَ ، وَبَيْنَ مَا قَبْلَهَا وَاضِحَةٌ جَلِيَّةٌ وَهِيَ أَنَّ هَذِهِ جَاءَتْ فِي مَوْضِعِ الِاسْتِدْرَاكِ عَلَى مَا سَبَقَهَا مِنْ إِيئَاسِ النَّبِيِّ وَالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ .

فَقَدْ عَلِمْنَا أَنَّ آيَةَ : (وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى) قَدْ سَلَّتْ مَا كَانَ يُخَالِجُ النُّفُوسَ

مِنَ الرَّجَاءِ بِإِيْمَانِ أَهْلِ الْكِتَابِ كُلِّهِمْ ، وَهَذِهِ الْآيَةُ تَنْطِقُ بِأَنَّ مِنْهُمْ مَنْ يُرْجَى إِيْمَانُهُ ، وَهُمُ الَّذِينَ وَصَفَهُمْ بِمَا هُوَ عِلَّةُ الرَّجَاءِ وَمَنَاطُ

الْأَمَلِ ، وَهُوَ تِلَاوَةُ كِتَابِهِمْ حَقَّ تِلَاوَتِهِ ، وَعَدَمُ الْجُمُودِ عَلَى الظَّوَاهِرِ وَالتَّقَالِيدِ ، وَالِاكْتِفَاءِ بِالْأَمَانِيِّ وَالظُّنُونِ ، كَأَنَّهُ يَقُولُ : إِنْ كَانَتْ نَفْسُكَ

تُحَدِّثُكَ بِأَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ أَقْرَبُ إِلَى الْإِيْمَانِ بِمَا جِئْتَ بِهِ ؛ لِأَنَّهُ يُشْبِهُ مَا عِنْدَهُمْ وَيُصَدِّقُ أَنْبِيَاءَهُمْ وَأُصُولَ شَرَائِعِهِمْ مِنْ حَيْثُ يَقْتَلِعُ جُذُورَ دِينِ الْوَثَنِيِّينَ وَيَمْحُوهُ مَحْوًا ، فَيَكُونُ الْوَثَنِيُّونَ أَجْدَرَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ بِمُعَانَدَتِكَ وَمُجَاحَدَتِكَ ، فَاعْلَمْ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَدْ أُلْحِقُوا بِدِينِهِمْ مِنَ التَّقَالِيدِ وَالْمُخْتَرَعَاتِ ، وَأُلْصِقُوا بِهِ مِنَ الْبِدَعِ وَالْعَادَاتِ مَا غَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ بِغَيْرِ فَهْمٍ ، وَجَعَلَهُمْ يَتَعَصَّبُونَ لَهُ بِغَيْرِ عَقْلٍ ، فَكَانُوا بِذَلِكَ أَبْعَدَ عَنْ حَقِيقَةِ الْإِيْمَانِ مِنْ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ الْأَوْثَانَ ، وَذَلِكَ أَنَّهُمُ اتَّخَذُوا الدِّينَ جِنْسِيَّةً فَلَيْسَ لَهُمْ مِنْهُ إِلَّا الْجُمُودُ عَلَى عَادَاتٍ صَارَتْ مُمَيِّزَةً لِلْمُنْتَسِبِينَ إِلَيْهِ ، وَلَكِنْ لَا يَزَالُ فِيهِمْ نَفَرٌ يُرْجَى مِنْهُمْ تَدَبُّرُ الشَّيْءِ وَالتَّمْيِيزُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ وَهُمُ (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ) وَهُمْ (يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ) ، أَيْ يَفْهَمُونَ أَسْرَارَهُ وَيَفْقَهُونَ حِكْمَةَ تَشْرِيعِهِ . وَفَائِدَةَ نَوْطِ التَّكْلِيفِ بِهِ ، لَا يَتَقَيَّدُونَ فِي ذَلِكَ

بِآرَاءِ مَنْ سَبَقَهُمْ فِيهِ ، وَلَا بِتَحْرِيفِهِمْ كَلِمَهُ عَنْ مَوَاضِعِهِ ، (أُولَئِكَ) هُمُ الَّذِينَ يُقَدِّرُونَ مَا جِئْتَ بِهِ مِنَ التَّرَقِّي فِي الدِّينِ ، وَإِقَامَةِ قَوَاعِدِهِ عَلَى الْأَسَاسِ الْمَتِينِ ، وَ(يُؤْمِنُونَ بِهِ) بَعْدَ الْعِلْمِ بِأَنَّهُ الْحَقُّ الَّذِي يُزِيلُ مَا بَيْنَهُمْ مِنَ الْخِلَافِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى طَرِيقِ السَّعَادَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، (وَمَنْ يَكْفُرْ

بِهِ) مِنَ الرُّؤَسَاءِ الْمُعَانِدِينَ وَالْمُقَلِّدِينَ الْجَاهِلِينَ وَهُمُ الْأَكْثَرُونَ ، (فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) لِهَذِهِ السَّعَادَةِ ، الْمَحْرُومُونَ مِمَّا يَكُونُ لِلْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْمَجْدِ وَالسِّيَادَةِ ، سَوَاءٌ كَانَ كُفْرُهُمْ بِتَحْرِيفِهِ لِيُوَافِقَ مَذَاهِبَهُمُ التَّقْلِيدِيَّةَ ، أَمْ بِإِهْمَالِهِ اكْتِفَاءً بِقَوْلِ عُلَمَائِهِمْ ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ (بِهِ) لِلْهُدَى الَّذِي ذُكِرَ فِي الْآيَاتِ السَّابِقَةِ .

(الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ) : عَبَّرَ عَنِ التَّدَبُّرِ وَالْفَهْمِ بِالتِّلَاوَةِ حَقَّ التِّلَاوَةِ لِيُرْشِدَنَا إِلَى أَنَّ ذَلِكَ هُوَ الْمَقْصُودُ مِنَ التِّلَاوَةِ الَّتِي يَشْتَرِكُ فِيهَا أَهْلُ الْأَهْوَاءِ وَالْبِدَعِ مَعَ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْفَهْمِ ، وَالتَّعْبِيرُ يُشْعِرُ بِأَنَّ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَكَمَ بِنَفْيِ رِضَاهُمْ عَنِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – نَفْيًا مُؤَكَّدًا لَا حَظَّ لَهُمْ مِنَ الْكِتَابِ إِلَّا مُجَرَّدَ التِّلَاوَةِ وَتَحْرِيكِ اللِّسَانِ بِالْأَلْفَاظِ ، لَا يَعْقِلُونَ عَقَائِدَهُ ، وَلَا يَتَدَبَّرُونَ حِكَمَهُ وَمَوَاعِظَهُ ، وَلَا يَفْقَهُونَ أَحْكَامَهُ وَشَرَائِعَهُ ؛ لِأَنَّهُمُ اسْتَغْنَوْا عَنْهُ بِتَقْلِيدِ بَعْضِ

الرُّؤَسَاءِ وَالِاكْتِفَاءِ بِمَا يَقُولُونَ ، فَلَا عَجَبَ إِذَا أَعْرَضُوا عَمَّا جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ وَلَا ضَرَرَ فِي إِعْرَاضِهِمْ .

(56/65)

وَأَمَّا الْآخَرُونَ فَإِنَّهُمْ لَتَدَبُّرِهِمْ وَفَهْمِهِمْ أَسْرَارَ الدِّينِ ، وَعِلْمِهِمْ بِوُجُوبِ مُطَابَقَتِهَا لِمَصَالِحِ الْمُكَلَّفِينَ ، يَعْقِلُونَ أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ هُوَ الْحَقُّ الَّذِي يَتَّفِقُ مَعَ مَصْلَحَةِ الْبَشَرِ فِي تَرْقِيَةِ أَرْوَاحِهِمْ ، وَفِي نِظَامِ مَعَايِشِهِمْ ، فَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَإِنَّمَا يُنْتَفَعُ بِإِيمَانِ أَمْثَالِهِمْ .

وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ أَنَّ هَذَا التَّعْبِيرَ أَفَادَ حُكْمًا جَدِيدًا وَإِرْشَادًا عَظِيمًا ، وَهُوَ أَنَّ الَّذِي يَتْلُو الْكِتَابَ لِمُجَرَّدِ التِّلَاوَةِ مَثَلُهُ كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ، فَلَا حَظَّ لَهُ مِنَ الْإِيمَانِ بِالْكِتَابِ ؛ لِأَنَّهُ لَا يَفْهَمُ أَسْرَارَهُ وَلَا يَعْرِفُ هِدَايَةَ اللهِ فِيهِ . وَقِرَاءَةُ الْأَلْفَاظِ لَا تُفِيدُ الْهِدَايَةَ وَإِنْ كَانَ الْقَارِئُ يَفْهَمُ مَدْلُولَاتِهَا كَمَا يَقُولُ الْمُفَسِّرُ وَالْمُعَلِّمُ لَهَا ؛ لِأَنَّ هَذَا الْفَهْمَ مِنْ قَبِيلِ التَّصَوُّرِ ، وَمَا التَّصَوُّرُ إِلَّا خَيَالٌ يَلُوحُ وَيَتَرَاءَى ثُمَّ يَغِيبُ وَيَتَنَاءَى ، وَإِنَّمَا الْفَهْمُ فَهْمُ التَّصْدِيقِ وَالْإِذْعَانِ مِمَّنْ يَتَدَبَّرُ الْكِتَابَ مُسْتَهْدِيًا مُسْتَرْشِدًا مُلَاحِظًا أَنَّهُ مُخَاطَبٌ بِهِ مِنَ اللهِ – تَعَالَى – لِيَأْخُذَ بِهِ فَيَهْتَدِيَ وَيَرْشُدَ ، وَالْمُقَلِّدُونَ مَحْرُومُونَ مِنْ هَذَا فَلَا يَخْطُرُ لَهُمْ بِبَالٍ أَنَّهُمْ مُطَالَبُونَ بِالِاهْتِدَاءِ بِكِتَابِ

اللهِ – تَعَالَى – ، وَإِنَّمَا الْهِدَايَةُ عِنْدَهُمْ مَحْصُورَةٌ فِي كَلَامِ رُؤَسَائِهِمُ الدِّينِيِّينَ ، وَلَا سِيَّمَا إِذَا كَانُوا مَيِّتِينَ .

وَإِذَا كُنَّا نَعْتَبِرُ بِمَا قَصَّ اللهُ – تَعَالَى – عَلَيْنَا مِنْ خَبَرِ أَهْلِ الْكِتَابِ ، كَمَا قَالَ : (لَقَدْ

كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ) (12 : 111) فَإِنَّنَا نَعْرِفُ حُكْمَ أَهْلِ الْقُرْآنِ عِنْدَهُ – تَعَالَى – مِمَّا ذَكَرَهُ عَنْ أَهْلِ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ ، كَمَا نَعْرِفُهُ مِثْلَ قَوْلِهِ – عَزَّ وَجَلَّ – : (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا) (47 : 24 (وَقَوْلِهِ : (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ) (38 : 29) فَكُلُّ هَذِهِ الْآيَاتِ وَالْعِبَرِ لَمْ تَحُلْ دُونَ اتِّبَاعِ هَذِهِ الْأُمَّةِ سَنَنَ مَنْ قَبْلَهَا شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ كَمَا أُنْبِئْتُ لِلتَّحْذِيرِ ، وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ عَلَيْهَا كَمَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ (وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ) (2) وَلَا شَكَّ أَنَّ مَنْ يَتْلُو أَلْفَاظَ الْقُرْآنِ وَهُوَ مُعْرِضٌ عَنْ هِدَايَتِهِ غَيْرُ مُعْتَبِرٍ بِوَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ فَهُوَ كَالْمُسْتَهْزِئِ بِرَبِّهِ .

سَأَلَ سَائِلٌ مِنَ الْمُقَلِّدِينَ حَاضِرِي الدَّرْسِ بِأَنَّ الْعُلَمَاءَ قَالُوا : إِنَّ الْقُرْآنَ يُتَعَبَّدُ بِتِلَاوَتِهِ ، فَقَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : نَعَمْ ، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَقُولُوا إِنَّهُ أُنْزِلَ لِذَلِكَ وَكَيْفَ يَقُولُونَ ذَلِكَ ، وَاللهُ الَّذِي أَنْزَلَهُ يَقُولُ إِنَّهُ أَنْزَلَهُ : (لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ) (38 : 29) ، فَالْقُرْآنُ وَكَذَلِكَ السُّنَّةُ يُصَرِّحَانِ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ بِخِلَافِ هَذَا الْقَوْلِ إِذَا أُخِذَ عَلَى إِطْلَاقِهِ ، وَجُعِلَ مَعْنَاهُ – أَوْ مِنْ مَعْنَاهُ – أَنَّ اللهَ – تَعَالَى – يُطَالِبُ عِبَادَهُ بِقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ بِدُونِ تَدَبُّرٍ وَلَا تَذَكُّرٍ . وَقَدْ جَاءَ مِنَ الْأَحَادِيثِ مَا يَصِفُ حَالَ قَوْمٍ يَأْتُونَ بَعْدُ (يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ) وَقَدْ سَمَّاهُمْ شِرَارَ الْخَلْقِ ، فَهَؤُلَاءِ الْأَشْرَارُ قَدِ اتَّخَذُوا الْقُرْآنَ مِنَ الْأَغَانِي وَالْمُطْرِبَاتِ ، وَإِذَا طَالَبْتَ أَحَدَهُمْ بِالْفَهْمِ وَالتَّدَبُّرِ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ وَاحْتَجَّ عَلَيْكَ بِكَلِمَةٍ قَالَهَا فُلَانٌ أَوْ حُلْمٍ رَآهُ فُلَانٌ ، وَهَكَذَا انْقَلَبَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ

وَضْعُ الدِّينِ ، ثُمَّ هُمْ يَتَعَجَّبُونَ مَعَ ذَلِكَ كَيْفَ حُرِمُوا مِنْ وَعْدِ اللهِ فِي قَوْلِهِ : (وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ) (30 : 47) (أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ) (23 : 68 ، 69) ، وَضَرَبَ الْأُسْتَاذُ مَثَلًا رَجُلًا يُرْسِلُ كِتَابًا إِلَى آخَرَ فَيَقْرَؤُهُ الْمُرْسَلُ إِلَيْهِ هَذْرَمَةً أَوْ يَتَرَنَّمُ بِهِ ، وَلَا يَلْتَفِتُ إِلَى مَعْنَاهُ ، وَلَا يُكَلِّفُ

نَفْسَهُ إِجَابَةَ مَا طَلَبَ فِيهِ ، ثُمَّ يَسْأَلُ الرَّسُولَ أَوْ غَيْرَهُ : مَاذَا قَالَ صَاحِبُ الْكِتَابِ فِيهِ ، وَمَاذَا يُرِيدُ مِنْهُ ؟ أَيَرْضَى الْمُرْسِلُ مِنَ الْمُرْسَلِ إِلَيْهِ بِهَذَا أَمْ يَرَاهُ اسْتِهْزَاءً بِهِ ؟ فَالْمَثَلُ ظَاهِرٌ وَإِنْ كَانَ الْحَقُّ لَا يُقَاسُ عَلَى الْخَلْقِ ، فَإِنَّ الْكِتَابَ لَا يُرْسَلُ لِأَجْلِ وَرَقِهِ ، وَلَا لِأَجْلِ نُقُوشِهِ ، وَلَا لِأَجْلِ أَنْ تُكَيِّفَ الْأَصْوَاتُ حُرُوفَهُ وَكَلِمَهُ ، وَلَكِنْ لِيَعْلَمَ مُرَادَ الْمُرْسَلِ مِنْهُ وَيَعْمَلَ بِهِ .

(الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ) : إِنَّ الِاسْتِهْدَاءَ بِالْقُرْآنِ وَاجِبٌ عَلَى كُلِّ مُكَلَّفٍ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ ، فَعَلَى كُلِّ قَارِئٍ أَنْ يَتْلُوَ الْقُرْآنَ بِالتَّدَبُّرِ ، وَأَنْ يُطَالِبَ نَفْسَهُ بِفَهْمِهِ وَالْعَمَلِ بِهِ ، وَلَا شَكَّ أَنَّ كُلَّ مَنْ لَهُ مَعْرِفَةٌ – وَلَوْ قَلِيلَةً – بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ ، فَإِنَّهُ يَفْهَمُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا يَهْتَدِي بِهِ ، وَمَنْ كَانَ أُمِّيًّا أَوْ أَعْجَمِيًّا فَإِنَّهُ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَسْأَلَ الْقَارِئِينَ أَنْ يَقْرَءُوا لَهُ الْقُرْآنَ وَيُفْهِمُوهُ مَعْنَاهُ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ التَّنْبِيهُ عَلَى هَذَا فِي مُقَدِّمَةِ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ . بَلْ قَالَ الْأُسْتَاذُ فِي هَذَا الْمَقَامِ : إِنِّي أَعْتَقِدُ أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَقْرَأَ الْقُرْآنَ أَوْ يَسْمَعَهُ كُلَّهُ ، وَلَوْ مَرَّةً وَاحِدَةً فِي عُمُرِهِ ، وَمِنْ فَوَائِدِ ذَلِكَ أَنْ يَأْمَنَ مِنْ إِنْكَارِ شَيْءٍ مِنْهُ إِذَا عُرِضَ عَلَيْهِ أَوْ سَمِعَهُ مَعَ التَّشْكِيكِ فِيهِ .

أَقَامَ اللهُ – تَعَالَى – الْحُجَجَ الدَّامِغَةَ عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ ثُمَّ نَادَاهُمْ وَدَعَاهُمْ إِلَى تَرْكِ أَسْبَابِ الْغُرُورِ الْمَانِعِ فِي الْإِيمَانِ فَقَالَ : (يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ) ، وَقَدْ سَبَقَ التَّذْكِيرُ بِهَذِهِ النِّعْمَةِ فِي أَوَّلِ الْمُحَاجَّةِ ثُمَّ أُعِيدَ هُنَا لِلْمُنَاسَبَةِ الظَّاهِرَةِ ، وَهِيَ أَنَّهُ بَعْدَ مَا ذَكَرَ أَنَّ الْإِعْرَاضَ عَنْ تَدَبُّرِ الْكِتَابِ وَالتَّفَقُّهِ فِيهِ هُوَ كُفْرٌ بِهِ ، ذَكَّرَهُمْ بِأَنَّهُ لَا يَلِيقُ بِمَنْ كَرَّمَهُ رَبُّهُ ، وَفَضَّلَهُ عَلَى غَيْرِهِ مِنَ الشُّعُوبِ بِإِيتَائِهِ الْكِتَابَ أَنْ يَكُونَ حَظُّهُ مِنْهُ كَحَظِّ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا . فَإِذَا كَانَ ابْتَدَأَ الْعِظَةَ وَالدَّعْوَةَ بِذِكْرِ هَذَا التَّفْضِيلِ لِتَتَوَجَّهَ إِلَيْهَا الْأَنْظَارُ ، وَتُصْغِيَ إِلَيْهَا الْأَسْمَاعُ كَمَا تَقَدَّمَ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ الْأُولَى (2 : 47) فَلَا غَرْوَ أَنْ يَذْكُرَ هَذَا التَّفْضِيلَ ثَانِيًا : بَعْدَ التَّوْبِيخِ وَالتَّقْرِيعِ لِإِزَالَةِ مَا رُبَّمَا يُحْدِثُهُ ذَلِكَ مِنَ الِاسْتِيَاءِ الَّذِي يُتَوَقَّعُ أَنْ يَكُونَ مِنْ أَسْبَابِ التَّنْفِيرِ عَمَّا فِي الْآيَةِ التَّالِيَةِ ، وَلَيْسَ هَذَا مِنَ التَّكْرَارِ الَّذِي يَتَحَامَاهُ الْبُلَغَاءُ ، وَإِنَّمَا هُوَ مِنْ إِعَادَةِ الشَّيْءِ لِإِفَادَةِ مَا لَا يُسْتَفَادُ بِدُونِهِ . كَأَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ تَمْهِيدٌ لِمَا بَعْدَهَا وَهُوَ فَذْلَكَةُ الْقِصَّةِ ، وَالْمَقْصُودُ مِنْ إِقَامَةِ الْحُجَّةِ .

ذَلِكَ قَوْلُهُ – تَعَالَى – : (وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا) ، فَلَا يَنْفَعُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنْ تَعْتَذِرُوا عَنِ الْإِعْرَاضِ عَنْ فَهْمِ كِتَابِ اللهِ بِأَنَّ بَعْضَ سَلَفِكُمْ كَانُوا يَفْهَمُونَهُ وَيَتَدَبَّرُونَهُ ، وَأَنَّكُمُ اسْتَغْنَيْتُمْ بِتَدَبُّرِهِمْ وَفَهْمِهِمْ عَنْ أَنْ تَفْهَمُوا وَتَتَدَبَّرُوا ، فَإِنَّهُ يَوْمٌ لَا يُغْنِي فِيهِ أَحَدٌ عَنْ أَحَدٍ شَيْئًا . وَيُؤَيِّدُ الْآيَةَ حَدِيثُ الصَّحِيحَيْنِ : (يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ ، سَلِينِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتِ ، لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا) . . . إِلَخْ ، وَإِذَا كَانَ لَا يُجْزِي فَهْمُ سَلَفِكُمْ عَنْكُمْ أَنَّكُمْ أَعْرَضْتُمْ عَنْ هِدَايَةِ كِتَابِهِ ، فَلَا تَنْفَعُكُمْ شَفَاعَتُهُمْ أَيْضًا ، كَمَا أَنَّهُ لَا يُقْبَلُ مِنْكُمْ عَدْلٌ وَلَا فِدَاءٌ تَفْتَدُونَ بِهِ ، وَتَجْعَلُونَهُ مُعَادِلًا لِمَا فَرَّطْتُمْ فِيهِ كَمَا قَالَ : (وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ) ، وَكَانُوا يَعْتَقِدُونَ بِالْمُكَفِّرَاتِ تُؤْخَذُ عَدْلًا عَمَّا فَرَّطُوا فِيهِ وَبِشَفَاعَةِ أَنْبِيَائِهِمْ ، فَأَخْبَرَهُمُ اللهُ – تَعَالَى – أَنَّهُ لَا يَقُومُ مَقَامَ الِاهْتِدَاءِ بِكِتَابِهِ شَيْءٌ آخَرُ ، ثُمَّ قَطَعَ حَبْلَ رَجَائِهِمْ مِنْ كُلِّ نَاصِرٍ يَنْصُرُهُمْ فَقَالَ : (وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ) أَيْ أَنَّهُ لَا يَأْتِيهِمْ نَصْرٌ مِنْ هَاتَيْنِ الْجِهَتَيْنِ وَلَا مِنْ غَيْرِهِمَا .

وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي تَفْسِيرِ الْآيَاتِ الْأُولَى مَا يُغْنِي عَنِ الْإِطَالَةِ هُنَا ، وَلَيْسَ فِي هَذِهِ زِيَادَةٌ فِي الْمَعْنَى إِلَّا أَنَّ التَّعْبِيرَ قَدِ اخْتَلَفَ تَفَنُّنًا ، فَفِي الْآيَةِ الْأُولَى تَقَدَّمَ ذِكْرُ الشَّفَاعَةِ مَنْفِيَّةَ الْقَبُولِ ،

وَتَأَخَّرَ ذِكْرُ الْعَدْلِ غَيْرَ مَأْخُوذٍ ، وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ نَفْيُ قَبُولِ الْعَدْلِ أَوَّلًا ، ثُمَّ نَفْيُ نَفْعِ الشَّفَاعَةِ ثَانِيًا ، وَكَأَنَّهُ يُشِيرُ بِهَذَا التَّفَنُّنِ إِلَى أَنَّهُ لَا فَرْقَ بَيْنَ الْفِدَاءِ وَالشَّفَاعَةِ فِي الْجَوَازِ وَالْمَنْعِ ، فَمَنْ مَنَعَ الْعِوَضَ فِي الْآخَرِ ، لَزِمَهُ مَنْعُ الشَّفَاعَةِ ، فَإِنْ جَوَّزَهَا جَوَّزَهُ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير المنار حـ 1 صـ 365. 371 ﴾

(64/65)

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ (119) وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (120) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (121) يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (122) وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (123) ﴾

التفسير : لما بين غاية إصرارهم على العناد وتصميمهم على الكفر بعد نزول ما يكفي في باب الاقتداء والاهتداء من الآيات البينات ، أراد أن يسلي ويسري عن رسوله لئلا يضيق صدره فقال إنا أرسلناك يا محمد بالحق . والصواب حسب ما تقتضيه الحكمة

وهو أن لا يكون لك أن تجبرهم على الإيمان بل لا يتجاوز حالك عن أن تكون بشيراً لمن اتبعك بكل خبر ونذيراً لمن خالفك بكل سوء ﴿ فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ﴾ [فاطر : 8] فإنك غير مسؤول عن أصحاب الجحيم وهو من أسماء النار ، وكل نار عظيمة في مهواة فهي جحيم من قوله تعالى ﴿ قالوا ابنوا له بنياناً فألقوه في الجحيم ﴾ [الصافات : 97] والجاحم المكان الشديد الحر ، وهذا كقوله ﴿ فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب ﴾ [الرعد : 40] وأما قراءة النهي فيروى أنه قال : ليت شعري ما فعل أبواي فنهي عن السؤال عن أحوال الكفرة والاهتمام بأعداء الله . وفي هذه الرواية بُعْدٌ ، لأن سياق الكلام ينبو عن ذلك ، ولأنه صلى الله عليه وسلم مع علمه الإجمالي بحال الكفار ، كيف يتمنى ذلك ؟ والأقرب أن معناه تعظيم ما وقع فيه الكفار من المحن كما إذا سألت عمن وقع في بلية فيقال لك لا تسأل عنه ، فكان المسؤول يحرج أن يجري على لسانه ما هو فيه لفظاعته ، أو

يرى أنك لا تقدر على استماع خبره لأنه يورث الوحشة والضجر . وقوله ﴿ ولن ترضى ﴾ فيه إقناط لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن إسلامهم وأن القوم قد بلغوا من التصميم على ما هم فيه إلى حد لا يقنعون بالكفاف ولا يرضون رأساً برأس ، بل يريدون منك عكس ما تطمع منهم زاعمين أن ملتهم التي حان نسخها هي الهدى ﴿ قل إن هدى الله ﴾ الذي هو الإسلام ﴿ هو الهدى ﴾ الحق ليس وراءه هدى لأنه ناسخ للأديان كلها ﴿ ولو اتبعت أهواءهم ﴾ مشتهياتهم وآراءهم الباطلة المنسوخة ﴿ بعد الذي جاءك من العلم ﴾ بأمر الديانة لوضوح البراهين وسطوع الدلائل ﴿ ما لك من الله ﴾ من عقابه وسخطه ﴿ من ولي ﴾ معين

(66/65)

يعصمك ﴿ ولا نصير ﴾ يذب عنك .

(67/65)

قال أهل البرهان إنما لم يقل في هذه الآية ﴿ بعد ما جاءك من العلم ﴾ كما قال في آية القبلة على ما يجيء ، لأن العلم في الآية الأولى علم كامل ليس وراءه علم وهو العلم بالله وبصفاته وأن الهدى هدى الله ، فكأن لفظ " الذي " أليق لأنه في التعريف أبلغ ، فإن " الذي " يعرفه صلته ولا يتنكر قط ، ويلزمه الألف واللام . بخلاف ما فإنه نكرة ولا يدخله الألف واللام وخصت آية القبلة " بما " و " من " التي لابتداء الغاية ، لأن المراد هناك قليل من كثير العلم وهو العلم بالقبلة وليس الأول موقتاً بوقت أعني العلم بالله وبصفاته – فلم يحتج إلى زيادة من التوقيتية ، وقريب من معنى القبلة ما في آل عمران ﴿ من بعد ما جاءك من العلم ﴾ [آل عمران : 61] فلهذا جاء بلفظ " ما " وزاد لفظة " من " وأما في سورة الرعد فإنه ﴿ ولو اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم ﴾ [الرعد : 37] لأن العلم فيها هو الحكم العربي أي القرآن ، فكأن بعضاً من الأول وهو العلم بالله وبصفاته فجاء لفظ " ما " ولم يزد لفظ " من " التوقيتية لأنه غير موقت والله أعلم بأسرار كلامه . وفي الآية دليل على بطلان التقليد فيما إلى تحقيقه سبيل حتى لا يكون اتباع الهوى ، وفيها أنه لا يجوز الوعيد إلا بعد نصب الأدلة على العلم بالمأمور به لقوله ﴿ بعد ما جاءك من العلم ﴾ فلأن لا يجوز التوعد إلا بعد القدرة على المأمور به كان أولى ، فبطل القول بتكليف ما لا يطاق . وفيها أن الذي علم الله منه أنه لا يفعل الشيء يجوز منه أن يتوعده على فعله ونظيره وقوله ﴿ لئن أشركت ليحبطن عملك ﴾ [الزمر : 65] وإنما يحسن هذا الوعيد لاحتمال أن الصارف له عن

ذلك الفعل هو هذا الوعيد أو هو أحد صوارفه ، ولأن فيه زجراً شديداً لأمته لأنهم إذا علموا مآل حال النبي صلى الله عليه وسلم لو فرض منه اتباع أهوائهم مع ما ورد في حقه ﴿ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ﴾ [الفتح : 2] ولم يبق لهم طمع في الخلاص لو

وجد منهم ذلك ﴿ الذين آتيناهم الكتاب ﴾ قيل : إنهم المؤمنون الذين آتاهم القرآن ، لأن الكتاب الذي يمدح على تلاوته هو القرآن . والأصح أنه لما قدم ذكر المعاندين من أهل الكتاب أراد أن يذكر مؤمنيهم . ومعنى يتلونه حق تلاوته لا يحرفونه ولا يغيرون ما فيه من نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو يتبعون مقتضاه من غير تكاسل ومنع متمسكين بأحكامه من حلال وحرام وغيرهما ، أو يخضعون عند تلاوته ويخشعون ، أو يعملون بمحكمه ويؤمنون بمتشابهه ، أولئك يؤمنون بكتابهم دون من ليس على حالهم ممن لا يتلو الكتاب حق تلاوته كما يستحق أن يتلى ﴿ ومن يكفر به ﴾ من المحرفين أو من الواضعين من حقه ﴿ فأولئك هم الخاسرون ﴾ حيث لم ينتفعوا بما يحق أن ينتفع به ويغتنم وروده فرجعوا منه بخفي حنين وفازوا بكل حين . ﴿ يا بني إسرائيل ﴾ الآيتان رجوع إلى أول

القصة تذكيراً للنعم بعد تعداد مواجب النقم ليتنبه منهم من وفق للتنبه والله المستعان .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 1 صـ 381. 383 ﴾

(69/65)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : مساجد الله التي يذكر فيها أساميها عند أهل النظر ، النفس والقلب والروح ، والسر والخفي – وهو سر السر – وذكر كل مسجد منها مناسب لذلك المسجد . فذكر مسجد النفس الطاعات والعبادات ومنع الذكر فيه بترك الحسنات وملازمة السيئات ، وذكر مسجد القلب التوحيد والمعرفة ومنع الذكر فيه بالتمسك بالشبهات والتعلق بالشهوات ، كما أوحى الله إلى داود عليه السلام : يا داود حذر وأنذر أصحابك كل الشهوات فإن القلوب المعلقة بالشهوات عقولها عني محجوبة . وذكر مسجد الروح الشوق والمحبة ومنع الذكر فيه بالحظوظ والمسكنات ، وذكر مسجد السر المراقبة والشهود ومنع الذكر فيه بالركون إلى الكرامات والقربات ، وذكر مسجد الخفي بذل الوجود ومنع الذكر فيه بالالتفات إلى المشاهدات والمكاشفات ﴿ أولئك ما كان لهم ﴾ أن يدخلوا هذه

المشاهد بقدم السلوك إلا بخطوات الخوف من سوء الحساب وألم العقاب ﴿ لهم في الدنيا خزي ﴾ من ذل الحجاب ﴿ ولهم في الآخرة عذاب ﴾ الحرمان من جوار الله . ﴿ ولله المشرق والمغرب ﴾ القلوب مشارق شموس المعارف ومغاربها ، والله في مشرق كل قلب ومغربه شارق وطارق ، فطارق القلب من هواجس النفس يطرق بظلمات المنى عند غلبات الهوى وغروب نجم الهدى ، وشارق القلب من واردات الروح يشرق بأنوار الفتوح عند غلبات الشوق وطلوع قمر الشهود ، فتكون القبلة واضحة والدلالات لائحة ، فإذا تحلت شمس صفات الجلال خفيت نجوم صفات الجمال ، وإذا استولى سلطان الحقيقة على ممالك الخليقة طويت بأيدي سطوات الجود سرادقات الوجود ، فما بقيت الأرض ولا السماء ولا الظلمة ولا الضياء ، إذ ليس عند الله صباح ولا مساء . وتلاشي العبدية في كعبة العندية ، وتودوا بفناء الفناء من عالم البقاء ، رفعت القبلة وما بقي إلا الله ﴿ فأينما تولوا فثم وجه الله ﴾ ﴿ إن الله واسع ﴾ يوسع قلب من يشاء من عباده ليسعه ﴿ عليم ﴾ بتوسيع القلب لسعته بلا كيف وحيف كما قال لا يسعني أرضي ولا سمائي وإنما يسعني قلب عبدي المؤمن والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 1 صـ 380. 381 ﴾

فصل

قال الشيخ سيد قطب في الآيات السابقة :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (104) ﴾

إلى قوله تعالى :

﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (123) ﴾

يمضي هذا الدرس في كشف دسائس اليهود وكيدهم للإسلام والمسلمين ؛ وتحذير الجماعة المسلمة من ألاعيبهم وحيلهم ، وما تكنه نفوسهم للمسلمين من الحقد والشر ، وما يبيتون لهم من الكيد والضر ؛ ونهى الجماعة المسلمة عن التشبه بهؤلاء الذين كفروا من أهل الكتاب في قول أو فعل ؛ ويكشف للمسلمين عن الأسباب الحقيقية الدفينة التي تكمن وراء أقوال اليهود وأفعالهم ، وكيدهم ودسهم ، وألاعيبهم وفتنهم ، التي يطلقونها في الصف الإسلامي .

ويبدو أن اليهود كانوا يتخذون من نسخ بعض الأوامر والتكاليف ، وتغييرها وفق مقتضيات النشأة الإسلامية الجديدة ، والظروف والملابسات التي تحيط بالجماعة

المسلمة . . يبدو أنهم كانوا يتخذون من هذا ذريعة للتشكيك في مصدر هذه الأوامر والتكاليف ؛ ويقولون للمسلمين : لو كانت من عند الله ما نسخت ولا صدر أمر جديد يلغي أو يعدل أمراً سابقاً .

(71/65)

واشتدت هذه الحملة عند تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة بعد ستة عشر شهراً من الهجرة . وكان النبي – صلى الله عليه وسلم – قد اتجه بالصلاة – عقب الهجرة – إلى بيت المقدس – قبلة اليهود ومصلاهم – فاتخذ اليهود من هذا التوجه حجة على أن دينهم هو الدين ، وقبلتهم هي القبلة ؛ مما جعل الرسول – صلى الله عليه وسلم – يرغب ولا يصرح في التحول عن بيت المقدس إلى الكعبة ، بيت الله المحرم . وظلت هذه الرغبة تعتمل في نفسه حتى استجاب له ربه فوجهه إلى القبلة التي يرضاها – كما سيجيء في سياق السورة – ونظراً لما يحمله هذا التحول من دحض لحجة بني إسرائيل فقد عز عليهم أن يفقدوا مثل هذه الحجة ، فشنوها حملة دعاية ماكرة في وسط المسلمين ، بالتشكيك في مصدر الأوامر التي يكلفهم بها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وفي صحة تلقيه عن الوحي . . أي إنهم وجهوا المعول إلى أساس العقيدة في نفوس المسلمين ! ثم قالوا لهم : إن

كان التوجه إلى بيت المقدس باطلاً فقد ضاعت صلاتكم وعبادتكم طوال هذه الفترة .
وإن كان صحيحاً . ففيم التحول عنه ؟ أي أنهم وجهوا المعول إلى أساس الثقة في نفوس المسلمين برصيدهم من ثواب الله ، وقبل كل شيء في حكمة القيادة النبوية !
ويبدو أن هذه الحملة الخبيثة الماكرة آتت ثمرتها الكريهة في بعض نفوس المسلمين . فأخذوا يسألون الرسول – صلى الله عليه وسلم – في قلق وزعزعة ؛ ويطلبون البراهين والأدلة ، الأمر الذي لا يتفق مع الطمأنينة المطلقة إلى القيادة ، والثقة المطلقة بمصدر العقيدة . فنزل القرآن يبين لهم أن نسخ بعض الأوامر والآيات يتبع حكمة الله الذي يختار الأحسن لعباده ؛ ويعلم ما يصلح لهم في كل موقف . وينبههم في الوقت ذاته إلى أن هدف اليهود هو ردهم كفاراً بعد إيمانهم ؛ حسداً من عند أنفسهم على اختيار الله لهم ، واختصاصهم برحمته وفضله ، بتنزيل الكتاب الأخير عليهم ، وانتدابهم لهذا الأمر العظيم .

(72/65)

ويكشف لهم ما وراء أضاليل اليهود من غرض دفين ! ويفند دعواهم الكاذبة في أن الجنة من حقهم وحدهم . ويقص عليهم التهم المتبادلة بين فريقي أهل الكتاب إذ يقول اليهود : ليست النصارى على شيء ، وتقول النصارى ليست اليهود على شيء ؛ وكذلك يقول

المشركون عن الجميع !

ثم يفظع نيتهم التي يخفونها من وراء قصة القبلة ؛ وهي منع الاتجاه إلى الكعبة بيت الله ومسجده الأول ، ويعده منعا لمساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعياً في خرابها .

ويمضي السياق في هذا الدرس على هذا النحو ، حتى ينتهي إلى أن يضع المسلمين وجهاً لوجه أمام الهدف الحقيقي لأهل الكتاب من اليهود والنصارى . . إنه تحويل المسلمين من دينهم إلى دين أهل الكتاب ولن يرضوا عن النبي – صلى الله عليه وسلم – حتى يتبع ملتهم ، وإلا فهي الحرب والكيد والدس إلى النهاية ! وهذه هي حقيقة المعركة التي تكمن وراء الأباطيل والأضاليل ، وتتخفى خلف الحجج والأسباب المقنعة ! ! !

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا : راعنا . وقولوا : انظرنا ، واسمعوا ، وللكافرين عذاب أليم . ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم ، والله يختص برحمته من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم . ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير ؟ ألم تعلم أن الله له ملك السماوات والأرض وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير . أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل ؟ ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل . ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق ، فاعفوا

واصفحوا حتى يأتي الله بأمره ، إن الله على كل شيء قدير وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله ، إن الله بما تعملون بصير ﴾ . .

(73/65)

يتجه الخطاب في مطلع هذا الدرس إلى ﴿ الذين آمنوا ﴾ يناديهم بالصفة التي تميزهم ، والتي تربطهم بربهم ونبيهم ، والتي تستجيش في نفوسهم الاستجابة والتلبية .

وبهذه الصفة ينهاهم أن يقولوا للنبي – صلى الله عليه وسلم – : ﴿ راعنا ﴾ – من الرعاية والنظر – وأن يقولوا بدلاً منها مرادفها في اللغة العربية : ﴿ أنظرنا ﴾ . . ويأمرهم بالسمع بمعنى الطاعة ، ويحذرهم من مصير الكافرين وهو العذاب الأليم :

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا : راعنا وقولوا انظرنا . واسمعوا . وللكافرين عذاب أليم ﴾ .

وتذكر الروايات أن السبب في ذلك النهي عن كلمة ﴿ راعنا ﴾ . . أن سفهاء اليهود كانوا يميلون ألسنتهم في نطق هذا اللفظ ، وهم يوجهونه للنبي – صلى الله عليه وسلم – حتى يؤدي معنى آخر مشتقاً من الرعونة .

فقد كانوا يخشون أن يشتموا النبي – صلى الله عليه وسلم – مواجهة ، فيحتالون على سبه

– صلوات الله وسلامه عليه – عن هذا الطريق الملتوي ، الذي لا يسلكه إلا صغار السفهاء ! ومن ثم جاء النهي للمؤمنين عن اللفظ الذي يتخذه اليهود ذريعة ، وأمروا أن يستبدلوا به مرادفه في المعنى ، الذي لا يملك السفهاء تحريفه وإمالته . كي يفوتوا على اليهود غرضهم الصغير السفيه !

واستخدام مثل هذه الوسيلة من اليهود يشي بمدى غيظهم وحقدهم ، كما يشي بسوء الأدب ، وخسة الوسيلة ، وانحطاط السلوك . والنهي الوارد بهذه المناسبة يوحي برعاية الله لنبيه وللجماعة المسلمة ، ودفاعه – سبحانه – عن أوليائه ، بإزاء كل كيد وكل قصد شرير من أعدائهم الماكرين .

ثم يكشف للمسلمين عما تكنه لهم صدور اليهود حولهم من الشر والعداء ، وعما تنغل به قلوبهم من الحقد والحسد ، بسبب ما اختصهم به الله من الفضل . ليحذروا أعداءهم ، ويستمسكوا بما يحسدهم هؤلاء الأعداء عليه من الإيمان ، ويشكروا فضل الله عليهم ويحفظوه :

﴿ ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم . والله يختص برحمته من يشاء . والله ذو الفضل العظيم ﴾ . .

ويجمع القرآن بين أهل الكتاب والمشركين في الكفر . . وكلاهما كافر بالرسالة الأخيرة فهما على قدم سواء من هذه الناحية ؛ وكلاهما يضمر للمؤمنين الحقد والضغن ، ولا يود لهم الخير . وأعظم ما يكرهونه للمؤمنين هو هذا الدين . هو أن يختارهم الله لهذا الخير وينزل عليهم هذا القرآن ، ويحبوهم بهذه النعمة ، ويعهد إليهم بأمانة العقيدة في الأرض ، وهي الأمانة الكبرى في الوجود .

ولقد سبق الحديث عن حقدهم وغيظهم من أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده ، حتى لقد بلغ بهم الغيظ أن يعلنوا عداءهم لجبريل – عليه السلام – إذ كان ينزل بالوحي على الرسول – صلى الله عليه وسلم – :

﴿ والله يختص برحمته من يشاء ﴾ . .

فالله أعلم حيث يجعل رسالته ؛ فإذا اختص بها محمداً – صلى الله عليه وسلم – والمؤمنين به ، فقد علم – سبحانه – أنه وأنهم أهل لهذا الاختصاص .

﴿ والله ذو الفضل العظيم ﴾ . .

وليس أعظم من نعمة النبوة والرسالة ؛ وليس أعظم من نعمة الإيمان والدعوة إليه . وفي هذا التلميح ما يستجيش في قلوب الذين آمنوا الشعور بضخامة العطاء وجزالة الفضل ، وفي

التقرير الذي سبقه عما يضمره الذين كفروا للذين آمنوا ما يستجيش الشعور بالحذر والحرص الشديد . . وهذا الشعور وذاك ضروريان للوقوف في وجه حملة البلبلة والتشكيك التي قادها – ويقودها – اليهود ، لتوهين العقيدة في نفوس المؤمنين ، وهي الخير الضخم الذي ينفسونه على المسلمين !

وكانت الحملة – كما أسلفنا – تتعلق بنسخ بعض الأوامر والتكاليف .

وبخاصة عند تحويل القبلة إلى الكعبة . الأمر الذي أبطل حجتهم على المسلمين :

﴿ ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ﴾ . .

(75/65)

وسواء كانت المناسبة هي مناسبة تحويل القبلة – كما يدل سياق هذه الآيات وما بعدها – أم كانت مناسبة أخرى من تعديل بعض الأوامر والتشريعات والتكاليف ، التي كانت تتابع نمو الجماعة المسلمة ، وأحوالها المتطورة . أم كانت خاصة بتعديل بعض الأحكام التي وردت في التوراة مع تصديق القرآن في عمومه للتوراة . . سواء كانت هذه أم هذه أم هذه ، أم هي جميعاً المناسبة التي اتخذها اليهود ذريعة للتشكيك في صلب العقيدة . . فإن القرآن يبين هنا بياناً حاسماً في شأن النسخ والتعديل ؛ وفي القضاء على تلك الشبهات التي أثارتها

يهود ، على عادتها وخطتها في محاربة هذه العقيدة بشتى الأساليب .

فالتعديل الجزئي وفق مقتضيات الأحوال – في فترة الرسالة – هو لصالح البشرية ، ولتحقيق خير أكبر تقتضيه أطوار حياتها . والله خالق الناس ، ومرسل الرسل ، ومنزل الآيات ، هو الذي يقدر هذا . فإذا نسخ آية ألقاها في عالم النسيان – سواء كانت آية مقروءة تشتمل حكماً من الأحكام ، أو آية بمعنى علامة وخارقة تجيء لمناسبة حاضرة وتطوى كالمعجزات المادية التي جاء بها الرسل – فإنه يأتي بخير منها أو مثلها ! ولا يعجزه شيء ، وهو مالك كل شيء ، وصاحب الأمر كله في السماوات وفي الأرض . . ومن ثم تجيء هذه التعقيبات :

﴿ ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير ؟ ألم تعلم أن الله له ملك السماوات والأرض ؟ وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير ﴾ . .

والخطاب هنا للمؤمنين يحمل رائحة التحذير ، ورائحة التذكير بأن الله هو وليهم وناصرهم وليس لهم من دونه ولي ولا نصير . . ولعل هذا كان بسبب انخداع بعضهم بحملة اليهود التضليلية ؛ وبلبلة أفكارهم بحججهم الخادعة ؛ وإقدامهم على توجيه أسئلة للرسول – صلى الله عليه وسلم – لا تتفق مع الثقة واليقين . يدل على هذا ما جاء في الآية التالية من صريح التحذير والاستنكار :

﴿ أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل ؟ ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل ﴾ . .

(76/65)

فهو استنكار لتشبه بعض المؤمنين بقوم موسى في تعنتهم وطلبهم للبراهين والخوارق وإعناتهم لرسولهم كلما أمرهم بأمر أو أبلغهم بتكليف ، على نحو ما حكى السياق عنهم في مواضع كثيرة . .

وهو تحذير لهم من نهاية هذا الطريق ، وهي الضلال ، واستبدال الكفر بالإيمان ، وهي النهاية التي صار إليها بنو إسرائيل . كما أنها هي النهاية التي يتمنى اليهود لو قادوا إليها المسلمين !

﴿ ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً ، حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق ﴾ .

.

وذلك ما يفعله الحقد اللئيم بالنفوس . . الرغبة في سلب الخير الذي يهتدي إليه الآخرون . . لماذا ؟ لا لأن هذه النفوس الشريرة لا تعلم . ولكنها لأنها تعلم !

﴿ حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق ﴾ . .

والحسد هو ذلك الانفعال الأسود الخسيس الذي فاضت به نفوس اليهود تجاه الإسلام والمسلمين ، وما زالت تفيض ، وهو الذي انبعثت منه دسائسهم وتدبيراتهم كلها وما تزال . وهو الذي يكشفه القرآن للمسلمين ليعرفوه ، ويعرفوا أنه السبب الكامن وراء كل جهود اليهود لزعزعة العقيدة في نفوسهم ؛ وردهم بعد ذلك إلى الكفر الذي كانوا فيه ، والذي أنقذهم الله منه بالإيمان ، وخصهم بهذا بأعظم الفضل وأجل النعمة التي تحسدهم عليها يهود !

وهنا – في اللحظة التي تتجلى فيها هذه الحقيقة ، وتنكشف فيها النية السيئة والحسد اللئيم – هنا يدعو القرآن المؤمنين إلى الارتفاع عن مقابلة الحقد بالحقد ، والشر بالشر ، ويدعوهم إلى الصفح والعفو حتى يأتي الله بأمره ، وقتما يريد :

﴿ فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره . إن الله على كل شيء قدير ﴾ . .

وامضوا في طريقكم التي اختارها الله لكم ، واعبدوا ربكم وادخروا عنده حسناتكم :

﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله . إن الله بما تعملون بصير ﴾ . .

وهكذا . . يوقظ السياق القرآني وعي الجماعة المسلمة ويركزه على مصدر الخطر ، ومكمن الدسيسة ؛ ويعبىء مشاعر المسليمن تجاه النوايا السيئة والكيد اللئيم والحسد الذميم . . ثم يأخذهم بهذه الطاقة المعبأة المشحونة كلها إلى جناب الله ؛ ينتظرون أمره ، ويعلقون تصرفهم بإذنه . . وإلى أن يحين هذا الأمر يدعوهم إلى العفو والسماحة ، لينقذ قلوبهم من نتن الحقد والضغينة . ويدعها طيبة في انتظار الأمر من صاحب الأمر والمشيئة . .

ثم يمضي في تفنيد دعاوى أهل الكتاب عامة : اليهود والنصارى ، وقولهم : إنهم هم المهتدون وحدهم ! وإن الجنة وقف عليهم لا يدخلها سواهم ! على حين يجبه كل فريق منهم الآخر بأنهم ليسوا على شيء ! ويقرر في ثنايا عرض هذه الدعاوى العريضة حقيقة الأمر ، ويقول كلمة الفصل في العمل والجزاء :

﴿ وقالوا : لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى . تلك أمانيهم . قل : هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين . بلى ! من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون . وقالت اليهود : ليست النصارى على شيء ، وقالت النصارى : ليست اليهود على شيء - وهم يتلون الكتاب - كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم . فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ . .

والذين كانوا يواجهون المسلمين في المدينة كانوا هم اليهود ؛ إذ لم تكن هناك كتلة من النصارى تقف مواقف اليهود . ولكن النص هنا عام يواجه مقولات هؤلاء وهؤلاء . ثم يجبه هؤلاء بهؤلاء ! ويحكي رأي المشركين في الطائفتين جميعاً !

﴿ وقالوا : لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى ﴾ .

.

وهذه حكاية قوليهم مزدوجة . وإلا فقد كانت اليهود تقول : لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً – أي من يهود – وكانت النصارى تقول : لن يدخل الجنة إلا من كان من النصارى . .

(78/65)

وهذه القولة كتلك ، لا تستند إلى دليل ، سوى الادعاء العريض ! ومن ثم يلقن الله رسوله – صلى الله عليه وسلم – أن يجبههم بالتحدي وأن يطالبهم بالدليل :

﴿ قل : هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾ . .

وهنا يقرر قاعدة من قواعد التصور الإسلامي في ترتيب الجزاء على العمل بلا محاباة لأمة ولا لطائفة ولا لفرد . إنما هو الإسلام والإحسان ، لا الاسم والعنوان :

﴿ بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن ، فله أجره عند ربه ، ولا خوف عليهم ولا هم

يحزنون ﴾ . .

ومن قبل قرر هذه القاعدة في العقاب ردا على قولهم : ﴿ لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة ﴾ . . فقال : ﴿ بلى ! من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ . .

إنها قاعدة واحدة بطرفيها في العقوبة والمثوبة . طرفيها المتقابلين : ﴿ من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته ﴾ . . فهو حبيس هذه الخطيئة المحيطة ، في معزل عن كل شيء وعن كل شعور وعن كل وجهة إلا وجهة الخطيئة . . و ﴿ من أسلم وجهه لله وهو محسن ﴾ . . فأخلص ذاته كلها لله ، ووجه مشاعره كلها إليه ، وخلص لله في مقابل خلوص الآخر للخطيئة . . ﴿ من أسلم وجهه لله ﴾ . . هنا تبرز سمة الإسلام الأولى : إسلام الوجه – والوجه رمز على الكل – ولفظ أسلم يعني الاستسلام والتسليم . الاستسلام المعنوي والتسليم العملي . ومع هذا فلا بد من الدليل الظاهر على هذا الاستسلام : ﴿ وهو محسن ﴾ . . فسمة الإسلام هي الوحدة بين الشعور والسلوك ، بين العقيدة والعمل ، بين الإيمان القلبي والإحسان العملي . . بذلك تستحيل العقيدة منهجا للحياة كلها ؛ وبذلك تتوحد الشخصية الإنسانية بكل نشاطها واتجاهاتها ؛ وبذلك يستحق المؤمن هذا العطاء كله :

﴿ فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ . .

الأجر المضمون لا يضيع عند ربهم . . والأمن الموفور لا يساوره خوف ، والسرور الفائض لا يمسه حزن . . وتلك هي القاعدة العامة التي يستوي عندها الناس جميعاً . فلا محسوبية عند الله سبحانه ولا محاباة !

(79/65)

ولقد كانوا – يهوداً ونصارى – يطلقون تلك الدعوى العريضة ، بينما يقول كل منهما عن الفريق الآخر إنه ليس على شيء ؛ وبينما كان المشركون يجبهون الفريقين بالقولة ذاتها : ﴿ وقالت اليهود ليست النصارى على شيء ، وقالت النصارى ليست اليهود على شيء – وهم يتلون الكتاب – كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم ، فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ . .

والذين لا يعلمون هم الأميون العرب الذين لم يكن لهم كتاب ؛ وكانوا يرون ما عليه اليهود والنصارى من الفرقة ومن التقاذف بالإتهام ، ومن التمسك بخرافات وأساطير لا ترتفع كثيراً على خرافات العرب وأساطيرهم في الشرك ونسبة الأبناء – أو البنات – لله سبحانه ؛ فكانوا يزهدون في دين اليهود ودين النصارى ويقولون : إنهم ليسوا على شيء !

والقرآن يسجل على الجميع ما يقوله بعضهم في بعض ؛ عقب تفنيد دعوى اليهود والنصارى

في ملكية الجنة ! ثم يدع أمر الخلاف بينهم إلى الله :

﴿ فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ .

فهو الحكم العدل ، وإليه تصير الأمور . . وهذه الإحالة إلى حكم الله هي وحدها المجدية في مواجهة قوم لا يستمدون من منطق ، ولا يعتمدون على دليل ، بعد دحض دعواهم العريضة في أنهم وحدهم أهل الجنة ، وأنهم وحدهم المهديون !

ثم يعود إلى ترذيل محاولتهم تشكيك المسلمين في صحة الأوامر والتبليغات النبوية – وبخاصة ما يتعلق منها بتحويل القبلة – ويعدها سعيا في منع ذكر الله في مساجده ، وعملا على خرابها :

﴿ ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها ؟ أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين . لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم . ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله ، إن الله واسع عليم ﴾ . .

وأقرب ما يتوارد إلى الخاطر أن هاتين الآيتين تتعلقان بمسألة تحويل القبلة ؛ وسعي اليهود لصد المسلمين عن التوجه إلى الكعبة . . أول بيت وضع للناس وأول قبلة . . وهناك

روايات متعددة عن أسباب نزولهما غير هذا الوجه . .

وعلى أية حال فإن إطلاق النص يوحي بأنه حكم عام في منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه ، والسعي في خرابها . كذلك الحكم الذي يرتبه على هذه الفعلة ، ويقرر أنه هو وحده الذي يليق أن يكون جزاء لفاعليها . وهو قوله :

﴿ أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين ﴾ . .

أي أنهم يستحقون الدفع والمطاردة والحرمان من الأمن ، إلا أن يلجأوا إلى بيوت الله مستجيرين محتمين بحرمتها مستأمنين (وذلك كالذي حدث في عام الفتح بعد ذلك إذ نادى منادي رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يوم الفتح : من دخل المسجد الحرام فهو آمن . . فلجأ إليها المستأمنون من جبابرة قريش ، بعد أن كانوا هم الذي يصدون رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ومن معه ويمنعونهم زيارة المسجد الحرام !) .

ويزيد على هذا الحكم ما يتوعدهم به من خزي في الدنيا وعذاب عظيم في الآخرة :

﴿ لهم في الدنيا خزي ، ولهم في الآخرة عذاب عظيم ﴾ . .

وهناك تفسير آخر لقوله : ﴿ أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين ﴾ . . أي أنه ما كان ينبغي لهم أن يدخلوا مساجد الله إلا في خوف من الله وخشوع لجلاله في بيوته . فهذا هو الأدب اللائق ببيوت الله ، المناسب لمهابته وجلاله العظيم . . وهو وجه من التأويل جائز في هذا المقام .

والذي يجعلنا نرجح أن الآيتين نزلتا في مناسبة تحويل القبلة ، هو الآية الثانية منهما :

﴿ ولله المشرق والمغرب ، فأينما تولوا فثم وجه الله ، إن الله واسع عليم ﴾ .

(81/65)

فهي توحي بأنها جاءت رداً على تضليل اليهود في ادعائهم إن صلاة المسلمين إذن إلى بيت المقدس كانت باطلة ، وضائعة ولا حساب لها عند الله ! والآية ترد عليهم هذا الزعم ، وهي تقرر أن كل اتجاه قبلة ، فثم وجه الله حيثما توجه إليه عابد . وإنما تخصيص قبلة معينة هو توجيه من عند الله فيه طاعة ، لا أن وجه الله – سبحانه – في جهة دون جهة . والله لا يضيق على عباده ، ولا ينقصهم ثوابهم ، وهو عليم بقلوبهم ونياتهم ودوافع اتجاهاتهم . وفي الأمر سعة . والنية لله ﴿ إن الله واسع عليم ﴾ . . .

بعد ذلك يستعرض السياق ضلال تصورهم لحقيقة الألوهية ، وانحرافهم عن التوحيد الذي هو قاعدة دين الله ، وأساس التصور الصحيح في كل رسالة . ويقرن تصورهم المنحرف إلى تصورات الجاهلية عن ذات الله – سبحانه – وصفاته . ويقرر التشابه بين قلوب المشركين من العرب وقلوب المشركين من أهل الكتاب ، ويصحح للجميع انحرافهم إلى الشرك ، ويوضح لهم قاعدة التصور الإيماني الصحيح :

﴿ وقالوا : اتخذ الله ولداً . سبحانه ! بل له ما في السماوات والأرض ، كل له قانتون . بديع السماوات والأرض ، وإذا قضى أمرا فإنما يقول له : كن . فيكون . وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية . كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم . تشابهت قلوبهم . قد بينا الآيات لقوم يوقنون ﴾ . .

(82/65)

وهذه المقولة الفاسدة : ﴿ اتخذ الله ولداً ﴾ . . ليست مقولة النصارى وحدهم في المسيح ، فهي كذلك مقولة اليهود في العزير . كما كانت مقولة المشركين في الملائكة . ولم تفصل الآية هنا هذه المقولات ، لأن السياق سياق إجمال للفرق الثلاث التي كانت تناهض الإسلام يومئذ في الجزيرة – ومن عجب أنها لا تزال هي التي تناهضه اليوم تماما ، ممثلة في الصهيونية العالمية والصليبية العالمية ، والشيوعية العالمية ، وهي أشد كفراً من المشركين في ذلك الحين ! – ومن هذا الإدماج تسقط دعوى اليهود والنصارى في أنهم وحدهم المهتدون ؛ وها هم أولاء يستوون مع المشركين !

وقبل أن يمضي إلى الجوانب الفاسدة الأخرى من تصورهم لشأن الله – سبحانه – يبادر بتنزيه الله عن هذا التصور ، وبيان حقيقة الصلة بينه وبين خلقه جميعاً :

﴿ سبحانه ! بل له ما في السماوات والأرض ، كل له قانتون . بديع السماوات والأرض وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن . فيكون ﴾ . .

هنا نصل إلى فكرة الإسلام التجريدية الكاملة عن الله سبحانه ، وعن نوع العلاقة بين الخالق وخلقه ، وعن طريقة صدور الخلق عن الخالق ، وهي أرفع وأوضح تصور عن هذه الحقائق جميعاً . . لقد صدر الكون عن خالقه ، عن طريق توجه الإرادة المطلقة القادرة : ﴿ كن ، فيكون ﴾ .

(83/65)

. فتوجه الإرادة إلى خلق كائن ما كفيل وحده بوجود هذا الكائن ، على الصورة المقدرة له ، بدون وسيط من قوة أو مادة . . أما كيف تتصل هذه الإرادة التي لا نعرف كنهها ، بذلك الكائن المراد صدوره عنها ، فذلك هو السر الذي لم يكشف للإدراك البشري عنه ، لأن الطاقة البشرية غير مهيأة لإدراكه . وهي غير مهيأة لإدراكه لأنه لا يلزمها في وظيفتها التي خلقت لها وهي خلافة الأرض وعمارتها . . وبقدر ما وهب الله للإنسان من القدرة على كشف قوانين الكون التي تفيده في مهمته ، وسخر له الانتفاع بها ، بقدر ما زوى عنه الأسرار الأخرى التي لا علاقة لها بخلافته الكبرى . . ولقد ضربت الفلسفات في تيه لا

منارة فيه ، وهي تحاول كشف هذه الأسرار ؛ وتفترض فروضاً تنبع من الإدراك البشري الذي لم يهيأ لهذا المجال ، ولم يزود أصلاً بأدوات المعرفة فيه والارتياد . فتجيء هذه الفروض مضحكة في أرفع مستوياتها . مضحكة إلى حد يحير الإنسان : كيف يصدر هذا عن " فيلسوف " ! وما ذلك إلا لأن أصحاب هذه الفلسفات حاولوا أن يخرجوا بالإدراك البشري عن طبيعة خلقته ، وأن يتجاوزوا به نطاقه المقدور له ! فلم ينتهوا إلى شيء يطمأن إليه ؛ بل لم يصلوا إلى شيء يمكن أن يحترمه من يرى التصور الإسلامي ويعيش في ظله .

وعصم الإسلام أهله المؤمنين بحقيقته أن يضربوا في هذا التيه بلا دليل ، وأن يحاولوا هذه المحاولة الفاشلة ، الخاطئة المنهج ابتداء . فلما أن أراد بعض متفلسفتهم متأثرين بأصداء الفلسفة الإغريقية – على وجه خاص – أن يتطاولوا إلى ذلك المرتقى ، باءوا بالتعقيد والتخليط ، كما باء أساتذتهم الإغريق ! ودسوا في التفكير الإسلامي ما ليس من طبيعته ، وفي التصور الإسلامي ما ليس من حقيقته . . وذلك هو المصير المحتوم لكل محاولة العقل البشري وراء مجاله ، وفوق طبيعة خلقته وتكوينه . .

والنظرية الإسلامية : أن الخلق غير الخالق . وأن الخالق ليس كمثله شيء . . ومن هنا تنتفي من التصور الإسلامي فكرة : " وحدة الوجود " على ما يفهمه غير المسلم من هذا الاصطلاح – أي بمعنى أن الوجود وخالقه وحدة واحدة – أو أن الوجود إشعاع ذاتي للخالق ، أو أن الوجود هو الصورة المرئية لموجده . . أو على أي نحو من أنحاء التصور على هذا الأساس . . والوجود وحدة في نظر المسلم على معنى آخر : وحدة صدوره عن الإرادة الواحدة الخالقة ، ووحدة ناموسه الذي يسير به ، ووحدة تكوينه وتناسقه واتجاهه إلى ربه في عبادة وخشوع :

﴿ بل له ما في السماوات والأرض كل له قانتون ﴾ . .

فلا ضرورة لتصور أن له من بين ما في السماوات والأرض ولداً . . فالكل من خلقه بدرجة واحدة ، وبأداة واحدة :

﴿ بديع السماوات والأرض . وإذا قضى أمراً فإنما يقول له : كن فيكون ﴾ . .

وتوجه الإرادة يتم بكيفية غير معلومة للإدراك البشري ، لأنها فوق طاقة الإدراك البشري . فمن العبث إنفاق الطاقة في اكتناه هذا السر ، والخبط في التيه بلا دليل !

وإذ ينتهي من عرض مقولة أهل الكتاب في ادعاء الولد لله – سبحانه – وتصحيح هذه المقولة وردها ، يتبعها بمقولة للمشركين فيها من سوء التصور ما يتسق مع سوء التصور عن أهل الكتاب :

﴿ وقال الذين لا يعلمون : لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية ! كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم ﴾ .

والذين لا يعلمون هم الأميون الذين كانوا مشركين ؛ إذ لم يكن لديهم علم من كتاب . وكثيراً ما تحدوا النبي – صلى الله عليه وسلم – أن يكلمهم الله أو أن تأتيهم خارقة من الخوارق المادية . . وذكر هذه المقولة هنا مقصود لبيان أن الذين من قبلهم – وهم اليهود وغيرهم – طلبوا مثل هذا من أنبيائهم . فلقد طلب قوم موسى أن يروا الله جهرة ، وطلبوا وتعنتوا في طلب الخوارق المعجزة . فبين هؤلاء وهؤلاء شبه في الطبيعة ، وشبه في التصور ، وشبه في الضلال :

﴿ تشابهت قلوبهم ﴾ . .

(85/65)

فلا فضل لليهود على المشركين . وهم متشابهو القلوب في التصور والعنت والضلال :

﴿ قد بينا الآيات لقوم يوقنون ﴾ . .

والذي يجد راحة اليقين في قلبه يجد في الآيات مصداق يقينه ، ويجد فيها طمأنينة ضميره . فالآيات لا تنشىء اليقين ، إنما اليقين هو الذي يدرك دلالتها ويطمئن إلى حقيقتها . ويهيئ

القلوب للتلقي الواصل الصحيح .

وإذا انتهت مقولاتهم ، وفندت أباطيلهم ، وكشفت الدوافع الكامنة وراء أضاليلهم ، يتجه الخطاب إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يبين له وظيفته ، ويحدد له تبعاته ، ويكشف له عن حقيقة المعركة بينه وبين اليهود والنصارى ، وطبيعة الخلاف الذي لا حل له إلا بثمن لا يملكه ولا يستطيعه ! ولو أداه لتعرض لغضب الله مولاه ؛ وحاشاه !

﴿ إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً ، ولا تسأل عن أصحاب الجحيم . ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم . قل : إن هدى الله هو الهدى ، ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم ما لك من الله من ولي ولا نصير . الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته . أولئك يؤمنون به . ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون ﴾ . .

﴿ إنا أرسلناك بالحق ﴾ . . وهي كلمة فيها من التثبيت ما يقضي على شبهات المضللين ، ومحاولات الكائدين ، وتلبيس الملفقين . وفي جرسها صرامة توحي بالجزم واليقين .

﴿ بشيراً ونذيراً ﴾ . . وظيفتك البلاغ والأداء ، تبشر الطائعين وتنذر العصاة ، فينتهي دورك .

﴿ ولا تسأل عن أصحاب الجحيم ﴾ . . الذين يدخلون الجحيم بمعصيتهم ، وتبعتهم على أنفسهم .

وسيظل اليهود والنصارى يحاربونك ، ويكيدون لك ، ولا يسالمونك ولا يرضون عنك ، إلا

أن تحيد عن هذا الأمر ، وإلا أن تترك هذا الحق ، وإلا أن تتخلى عن هذا اليقين ، تتخلى عنه إلى ما هم فيه من ضلال وشرك وسوء تصور كالذي سبق بيانه منذ قليل :

﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم ﴾ .

.

(86/65)

فتلك هي العلة الأصيلة . ليس الذي ينقصهم هو البرهان ؛ وليس الذي ينقصهم هو الاقتناع بأنك على الحق ، وأن الذي جاءك من ربك الحق . ولو قدمت إليهم ما قدمت ، ولو توددت إليهم ما توددت . . لن يرضيهم من هذا كله شيء ، إلا أن تتبع ملتهم وتترك ما معك من الحق .

إنها العقدة الدائمة التي نرى مصداقها في كل زمان ومكان . . إنها هي العقيدة . هذه حقيقة المعركة التي يشنها اليهود والنصارى في كل أرض وفي كل وقت ضد الجماعة المسلمة . . إنها معركة العقيدة هي المشبوبة بين المعسكر الإسلامي وهذين المعسكرين اللذين قد يتخاصمان فيما بينهما ؛ وقد تتخاصم شيع الملة الواحدة فيما بينها ، ولكنها تلتقي دائما في المعركة ضد الإسلام والمسلمين !

إنها معركة العقيدة في صميمها وحقيقتها . ولكن المعسكرين العريقين في العداوة للإسلام والمسلمين يلونانها بألوان شتى ، ويرفعان عليها أعلاماً شتى ، في خبث ومكر وتورية . إنهم قد جربوا حماسة المسلمين لدينهم وعقيدتهم حين واجهوهم تحت راية العقيدة . ومن ثم استدار الأعداء العريقون فغيروا أعلام المعركة . . لم يعلنوها حربا باسم العقيدة – على حقيقتها – خوفا من حماسة العقيدة وجيشانها . إنما أعلنوها باسم الأرض ، والاقتصاد ، والسياسة ، والمراكز العسكرية . . وما إليها . وألقوا في روع المخدوعين الغافلين منا أن حكاية العقيدة قد صارت حكاية قديمة لا معنى لها ! ولا يجوز رفع رايتها ، وخوض المعركة باسمها . فهذه سمة المتخلفين المتعصبين ! ذلك كي يأمنوا جيشان العقيدة وحماستها . . بينما هم في قرارة نفوسهم : الصهيونية العالمية والصليبية العالمية – بإضافة الشيوعية العالمية – جميعاً يخوضون المعركة أولاً وقبل كل شيء لتحطيم هذه الصخرة العاتية التي نطحوها طويلاً ، فأدمتهم جميعاً ! ! !

(87/65)

إنها معركة العقيدة . إنها ليست معركة الأرض . ولا الغلة . ولا المراكز العسكرية . ولا هذه الرايات المزيفة كلها . إنهم يزيفونها علينا لغرض في نفوسهم دفين . ليخدعونا عن

حقيقة المعركة وطبيعتها ، فإذا نحن خدعنا بخديعتهم لنا فلا نلومن إلا أنفسنا . ونحن نبعد عن توجيه الله لنبيه – صلى الله عليه وسلم – ولأمته ، وهو – سبحانه – أصدق القائلين :

﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم ﴾ . .

فذلك هو الثمن الوحيد الذي يرتضونه . وما سواه فمرفوض ومردود !

ولكن الأمر الحازم ، والتوجيه الصادق :

﴿ قل : إن هدى الله هو الهدى ﴾ . .

على سبيل القصر والحصر . هدى الله هو الهدى . وما عداه ليس بهدى . فلا براح منه ، ولا فكاك عنه ، ولا محاولة فيه ، ولا ترضية على حسابه ، ولا مساومة في شيء منه قليل أو كثير ، ومن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر . وحذار أن تميل بك الرغبة في هدايتهم وإيمانهم ، أو صداقتهم ومودتهم عن هذا الصراط الدقيق .

﴿ ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم ما لك من الله من ولي ولا نصير ﴾ .

.

بهذا التهديد المفزع ، وبهذا القطع الجازم ، وبهذا الوعيد الرعيب . . ولمن ؟ لنبي الله ورسوله وحبيبه الكريم !

إنها الأهواء . . إن أنت ملت عن الهدى . . هدى الله الذي لا هدى سواه . . وهي

الأهواء التي تقفهم منك هذا الموقف ؛ وليس نقص الحجة ولا ضعف الدليل .

والذين يتجردون منهم من الهوى يتلون كتابهم حق تلاوته ، ومن ثم يؤمنون بالحق الذي معك ؛ فأما الذين يكفرون به فهم الخاسرون ، لا أنت ولا المؤمنون !

﴿ الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته . أولئك يؤمنون به . ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون ﴾ . .

وأي خسارة بعد خسارة الإيمان ، أعظم آلاء الله على الناس في هذا الوجود ؟

(88/65)

وبعد هذا التقرير الحاسم الجازم ينتقل السياق بالخطاب إلى بني إسرائيل . كأنما ليهتف بهم الهتاف الأخير ، بعد هذه المجابهة وهذ الجدل الطويل ، وبعد استعراض تاريخهم مع ربهم ومع أنبيائهم ، وبعد الالتفات عنهم إلى خطاب النبي – صلى الله عليه وسلم – وخطاب المؤمنين . . هنا يجيء الالتفات إليهم كأنه الدعوة الأخيرة ، وهم على أبواب الإهمال والإغفال والتجريد النهائي من شرف الأمانة . . أمانة العقيدة . . التي نيطت بهم من قديم . . وهنا يكرر لهم الدعوة ذاتها التي وجهها إليهم في أول الجولة . . يا بني إسرائيل . .

﴿ يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم ، وأني فضلتكم على العالمين . واتقوا

يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ، ولا يقبل منها عدل ، ولا تنفعها شفاعة ، ولا هم ينصرون ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 1 صـ 99. 109 ﴾

(89/65)

قوله تعالى ﴿ وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (124) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما عاب سبحانه أهل الضلال وكان جُلُّهم من ذرية إبراهيم عليه السلام وجميع طوائف الملل تعظمه ومنهم العرب وبيته الذي بناه أكبر مفاخرهم وأعظم مآثرهم ذكر الجميع ما أنعم به عليه تذكيراً يؤدي إلى ثبوت هذا الدين باطلاع هذا النبي الأمي الذي لم يخالط عالماً قط على ما لا يعلمه إلا خواص العلماء ، وذكر البيت الذي بناه فجعله الله عماد صلاحهم ، وأمر بأن يتخذ بعض ما هناك مصلى تعظيماً لأمره وتفخيماً لعلي قدره ؛ وفي التذكير بوفائه بعد ذكر الذين وفوا بحق التلاوة وبعد دعوة بني إسرائيل عامة إلى الوفاء بالشكر حث على الاقتداء به ، وكذا في ذكر الإسلام والتوحيد هزّ لجميع من يعظمه إلى اتباعه في ذلك .

وقال الحرالي : لما وصل الحق تعالى بالدعوة العامة الأولى في قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس ﴾ ذكر أمر آدم وافتتاح استخلافه ليقع بذلك جمع الناس كافة في طرفين في اجتماعهم في أب واحد ولدين واحد نظم تعالى بذلك وصل خطاب أهل الكتاب بذكر إبراهيم ، ليقع بذلك اجتماعهم أيضاً في أب واحد وملة واحدة اختصاصاً بتبعية الإمامة الإبراهيمية من عموم تبعية الخلافة الآدمية تنزيلاً للكتاب وترفيعاً للخلق إلى علو اختصاص الحق ، فكما ذكر تعالى في الابتداء تذكيراً معطوفاً على أمور تجاوزها الإفصاح من أمر آدم عطف أيضاً التذكير بابتداء أمر إبراهيم عليه السلام على أمور تجاوزها الإفصاح هي أخص من متجاوز الأول كما أن إفصاحها أخص من إفصاحها وأعلى رتبة من حيث إن الخلق والأمر مبدوء من حد لم يزل ولا يزال يتكامل إلى غاية ليس وراءها مرمى فقال تعالى : ﴿ وإذ ابتلى إبراهيم ﴾ انتهى .

(90/65)

والمعنى أنه عامله بالأمر بأمور شاقة معاملة المختبر الممتحن ، وقال : ﴿ ربه ﴾ أي المحسن إليه إشعاراً بأن تكليف العباد هو غاية الإحسان إليهم وفي ابتداء قصته بقوله : ﴿ بكلمات فأتمهن ﴾ بيان لأن أسنى أحوال العباد الإذعان والتسليم لمن قامت الأدلة

على صدقه والمبادرة لأمره دون اعتراض ولا توقف ولا بحث عن علة ، وفي ذلك إشارة إلى تبكيت المدعين لاتباعه من بني إسرائيل حيث اعترضوا في ذبح البقرة وارتكبوا غاية التعنت مع ما في ذبحها من وجوه الحكم بعد أن أساؤوا الأدب على نبيهم في ذلك وفي غيره في أول أمرهم وأثنائه وآخره فأورثهم ذلك نكالاً وبعداً ، فظهر أن الصراط المستقيم حال إبراهيم ومن ذكر معه من الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام ، وأنهم المنعم عليهم ؛ والظاهر عطف ﴿ إذ ﴾ على ﴿ نعمتي ﴾ في قوله ﴿ يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم ﴾ [البقرة : 122] أي واذكروا إذ ابتلى أباكم إبراهيم فأتم ما ابتلاه به فما لكم أنتم لا تقتدون به فتفعلوا عند الابتلاء فعله في إيفاء العهد والثبات على الوعد لأجازيكم على ذلك جزائي للمحسنين ، والإتمام التوفية لما له صورة تلتئم من أجزاء وآحاد – قاله الحرالي .

فكأنه قيل : فما جوزي على شكره بالإتمام قبل ؟ ﴿ قال ﴾ له ربه ، ويجوز أن يكون " قال " بياناً لابتلى ﴿ إني جاعلك للناس ﴾ أي كافة ﴿ إماماً ﴾ كما كانت خلافة أبيه آدم لبنيه كافة ، والإمام ما يتبع هداية إلى سداد – قاله الحرالي .

واستأنف قوله : ﴿ قال ﴾ أي إبراهيم ﴿ ومن ﴾ أي واجعل من ﴿ ذريتي ﴾ أئمة ﴿ قال لا ينال ﴾ أي قد أجبتك وعاهدتك بأن أحسن إلى ذريتك لكن لا ينال ﴿ عهدي ﴾ الذي عهدته إليك بالإمامة ﴿ الظالمين ﴾ منهم ، لأنهم نفوا أنفسهم عنك في أبوة الدين ؛ وفي ذلك أتم ترغيب في التخلق بوفائه لا سيما للذين دعوا قبلها إلى الوفاء بالعهد ، وإشارة إلى أنهم إن شكروا أبقى رفعتهم كما أدام رفعته ، وإن ظلموا لم تنلهم دعوته فضربت عليهم الذلة وما معها ولا يجزي أحد عنهم شيئاً ولا هم ينصرون ؛ والذرية مما يجمع معنى الذرّ والدرء ، والذريّ مختلف كونه على وجوه اشتقاقه ، فيكون فعلولة كأنه ذرورة ثم خفف بقلب الراء ياء استثقالاً للتضعيف ثم كسر ما قبل الياء ين تحقيقاً لهما . لأنه اجتمع بعد القلب واو وياء سبقت إحداهما بالسكون فقلبت الواو ياء ، أو تكون فعليّة من الذر منسوباً ، ومن الذر مخفف فعولة بقلب الهمزة ياء ثم الواو ياء لاجتماعها معها سابقة إحداهما بالسكون ثم الإدغام ، أو فعيلة إن يكن في الكلام لما فيه من ثقل اجتماع الضم والكسر – قاله الحرالي ، وفيه تصرف . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 239.237 ﴾

اللغة :

[ابتلى] امتحن والابتلاء : الاختبار

[فأتمهن] أتى بهن على وجه التمام والكمال

[إماما] الإمام : القدوة الذي يؤتم به في الأقوال والأفعال

[مثابة] مرجعاً من ثاب يثوب إذا رجع ، أي إنهم يأتون ويترددون إليه لا يقضون منه وطرهم ، قال الشاعر :

جعل البيت مثابا لهم ليس منه الدهر يقضون الوطر .

[وأمنا] الأمن : السلامة من الخوف والطمأنينة في النفس والأهل

[وعهدنا] أمرنا وأوحينا

[للطائفين] جمع طائف من الطواف وهو الدوران حول الشيء

[والعاكفين] جمع عاكف من العكوف وهو الإقامة على الشيء والملازمة له ، والمراد المقيمون في الحرم بقصد العبادة

[فأمتعه] من التمتيع وهو إعطاء الإنسان ما ينتفع به كقوله : [قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار]

[القواعد] جمع قاعدة وهي الأساس

[مناسكنا] جمع منسك وهي العبادة والطاعة

[الحكمة] العلم النافع المصحوب بالعمل ، والمراد بها السنة النبوية المطهرة

[ويزكيهم] من التزكية وهي في الأصل التنمية يقال : زكى الزرع إذا نما ثم استعملت في معنى الطهارة النفسية قال تعالى : [قد أفلح من زكاها] . انتهى انتهى . ا هـ ﴾ صفوة التفاسير حـ 1 صـ 93 ﴾

(93/65)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ إبراهام ﴾ بالألف في البقرة والنساء إلا ﴿ فقد آتينا آل إبراهيم ﴾ وفي الأنعام ﴿ ملة إبراهام ﴾ وفي جميع براءة إلا ﴿ وقوم إبراهيم ﴾ وفي إبراهيم ﴿ وإذ قال إبراهام ﴾ وفي النحل ومريم والعنكبوت ﴿ ولما جاءت رسلنا إبراهام ﴾ خاصة وفي " حم عَسَقَ " وجميع المفصل وإلا قوله في المودة ﴿ إلا قول إبراهيم ﴾ وفي الأعلى ﴿ صحف إبراهيم ﴾ هشام وابن ذكوان وروى ابن مجاهد في هذه السورة فقط . (واعلم) أن ذكر إبراهيم في القرآن تسعة وستون موضعاً منها ثلاثة وثلاثون " إبراهام " بالألف في قراءة ابن عامر عن ابن ذكوان ، وستة وثلاثون " إبراهيم " بالياء ، والعلة في ذلك اتباع

مصحفهم . فما كتب بالألف قرئ بالألف ، وما كتب بالياء قرئ بالياء ، والاختيار عند الأئمة أن يقرأ ههنا بالألف لبيان المذهب والبواقي بالياء ، لأنه أحسن في اللفظ وأشهر ، ويوافقه سائر الأسماء الأعجمية كإسرائيل وإسرافيل وإسماعيل ﴿ عهدي ﴾ مرسلة الياء : حمزة وحفص ﴿ وإذ جعلنا ﴾ وبابه مدغمة الذال في الجيم : أبو عمرو وهشام ﴿ بيتي ﴾ بالفتح : أبو جعفر ونافع . وحفص وهشام ﴿ واتخذوا ﴾ بفتح الخاء : نافع وابن عامر الباقون بالكسر ﴿ فأمتعه ﴾ خفيفاً ابن عامر . الباقون بالتشديد .

الوقوف : ﴿ فأتمهن ﴾ (ط) ﴿ إماماً ﴾ (ط) ﴿ ذريتي ﴾ (ط) ﴿ الظالمين ﴾ (5) ﴿ وأمنا ﴾ (ط) لمن قرأ ﴿ واتخذوا ﴾ بالكسر لاعتراض الأمرين ماضيين ﴿ مصلى ﴾ (ط) كذلك ومن فتح الخاء نسق الأفعال الثلاثة فلا وقف ﴿ السجود ﴾ (5) ﴿ واليوم الآخر ﴾ (ط) ﴿ عذاب النار ﴾ (ط) لأن "نعم" و "بئس" للمبالغة في المدح والذم فيبتدئ بهما تنبيهاً على المدح والذم ﴿ المصير ﴾ (5) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 1 صـ 383. 384 ﴾

فصل

قال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ إبراهيم اسم أعجمي ومعناه أب رحيم وهو إبراهيم بن تارخ وهو آزر بن ناخور بن شاروع بن أرغو بن فالغ بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح ـ عليه السلام ـ ، وكان مولد إبراهيم بالسوس من أرض الأهواز وقيل : ببابل وقيل بكوثى وهي قرية من سواد الكوفة . وقيل : بحران ولكن أباه نقله إلى أرض بابل وهي أرض نمروذ الجبار . وإبراهيم ـ عليه السلام ـ تعترف بفضله جميع الطوائف قديماً ، وحديثاً فأما اليهود والنصارى فإنهم مقرون بفضله ويتشرفون بالنسبة إليه وأنهم من أولاده وأما العرب في الجاهلية فإنهم أيضاً يعترفون بفضله ويتشرفون على غيرهم به لأنهم من أولاده ، ومن ساكني حرمه وخدام بيته ، ولما جاء الإسلام زاده الله شرفاً وفضلاً فحكى الله تعالى عن إبراهيم أموراً توجب على المشركين والنصارى واليهود قبول قول محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ والاعتراف بدينه والانقياد لشرعه لأن ما أوجبه الله على إبراهيم ـ عليه السلام ـ هو من خصائص دين محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفي ذلك حجة على اليهود والنصارى ومشركي العرب في وجوب الانقياد لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ والإيمان به وتصديقه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ1 صـ 102 ـ 103 ﴾

سؤال : ما معنى ﴿ ابتلى ﴾

الجواب : وأصل الابتلاء الامتحان والاختبار ليعرف حال الإنسان وسمي التكليف بلاء لأنه يشق على الأبدان . وقيل : ليختبر به حال الإنسان فإذا قيل : ابتلى فلان بكذا يتضمن أمرين : أحدهما تعرف حاله والوقوف على ما يجهل من أمره . والثاني ظهرو جودته ورداءته وابتلاء

الله العباد ليس ليعلم أحوالهم ، والوقوف على ما يجهل منها لأنه عالم بجميع المعلومات التي لا نهاية لها على سبيل التفصيل من الأزل إلى الأبد .

ولكن ليعلم العباد أحوالهم من ظهور جودة ورداءة وعلى هذا ينزل قوله تعالى :

﴿ وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ1 صـ 103 ﴾

(95/65)

وقال فى روح البيان :

والابتلاء فى الأصل الاختبار أى تطلب الخبر بحال المختبر بتعريضه لأمر يشق عليه غالبا فعله أو تركه وذلك إنما يتصور حقيقة ممن لا وقوف له على عواقب الأمور

وأما من العليم الخبير فلا يكون إلا مجازا عن تمكينه للعبد من اختيار أحد الأمرين ما يريد

الله تعالى وما يشتهيه العبد كأنه يمتحنه بما يكون منه حتى يجازيه على حسب ذلك كما علم الكفر من إبليس ولم يلعنه بعلمه ما لم يختبره بما يستوجب اللعنة به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح البيان حـ1 صـ 279 ﴾

سؤال : لم قدم المفعول على الفعل ؟

الجواب : قدم على الفاعل للاهتمام ، إذ كون الرب مبتلياً معلوم ، فإنما يهتم السامع بمن ﴿ ابتلي ﴾ ، وكون ضمير المفعول متصلاً بالفاعل موجب تقديم المفعول ، فإنما بني الكلام على هذا الاهتمام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ1 صـ 205 ﴾

وقال صاحب التحرير والتنوير :

وتقديمُ المفعول وهو لفظ (إبراهيم) لأن المقصود تشريف إبراهيم بإضافة اسم رب إلى اسمه مع مراعاة الإيجاز فلذلك لم يقل وإذ ابتلى اللَّهُ إبراهيم . أ هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ1 صـ 404 ﴾

قراءة شاذة

قرأ أبو الشعثا جابر بن زيد : ﴿ إِبْرَاهِيمَ ﴾ ربه إبراهيم رفعاً وربه نصباً على معنى سأل ودعا فقيل له ومن أين لك هذا ؟

فقال : أقرأنيه ابن عباس . وهذا غير قوي لأجل الباء في قوله ﴿ بِكَلِمَاتٍ ﴾ وقرأ الباقون بالنصّب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الثعلبى حـ 1 صـ 267 ﴾

سؤال : ما المراد بالكلمات في قوله تعالى ﴿ بكلمات فأتمهن ﴾ ؟

الجواب كما ذكره الماوردي :

وفي الكلمات التي ابتلاه الله عز وجل بها ، ثمانية أقاويل :

أحدها : هي شرائع الإسلام ، قال ابن عباس : ما ابتلى الله أحداً بهن ، فقام بها كلها ، غير إبراهيم ، ابتلي بالإسلام فأتمه ، فكتب الله له البراءة فقال : ﴿ وإبراهيم الذي وَفَّى ﴾ [النجم : 37] قال : وهي ثلاثون سهماً :

(96/65)

عشرة منها في سورة براءة : ﴿ التائبون ، العابدون ، الحامدون ، السائحون ، الراكعون ، الساجدون ﴾ [التوبة : 112] .

وعشرة في الأحزاب : ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ ، وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ، وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ ، وَالصَادِقِينَ والصَادِقَاتِ ، وَالصَابِرِينَ وَالصَابِرَاتِ ، وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ ، وَالْمُتَصَدِّقِينَ ، وَالْمُتَصَدِّقَاتِ ، وَالصَائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ ، وَالْحَافِظِينَ فروجَهُم وَالْحافِظَاتِ ، وَالذَاكِرِينَ اللهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ ، أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ مَغفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً ﴾ [الأحزاب : 35] .

وعشرة في سورة المؤمنين : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤمِنُونَ ، الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاَتِهِم خَاشِعُونَ ، وَالَّذِينَ هُم عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ، إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِم أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيمَانُهُم فَإِنَّهُم غَيرُ مَلُومِينَ ، فَمَنِ ابتغى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِم وَعَهْدِهِم رَاعُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ، أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ، الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [المؤمنون : 1 – 11] وفي سورة سأل سائل من ﴿ إِلا الْمُصَلِّينَ ، الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ دَائِمُونَ ﴾ [المعارج : 23] ، إلى ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاَتِهِم يُحَافظُون ﴾ [المعارج : 34] .

(97/65)

والقول الثاني : إنها خصال من سُنَنِ الإسلام ، خمس في الرأس ، وخمس في الجسد ، فروى ابن عباس في الرأس : قص الشارب ، والمضمضة ، والاستنشاق ، والسواك ، وفرق الرأس . وفي الجسد تقليم الأظفار ، وحلق العانة ، والختان ، ونتف الإبط ، وغسل أثر البول والغائط بالماء . وهذا قول قتادة .

والقول الثالث : إنها عشر خصال ، ست في الإنسان وأربع في المشاعر ، فالتي في الإنسان : حَلْقُ العانة ، والختان ، ونَتْفُ الإبط ، وتقليم الأظفار ، وقص الشارب ، والغُسل يوم

الجمعة . والتي في المشاعر : الطواف ، والسعي بين الصفا والمروة ، ورمي الجمار ، والإفاضة . روى ذلك الحسن عن ابن عباس .

والقول الرابع : إن الله تعالى قال لإبراهيم : إني مبتليك يا إبراهيم ، قال : تجعلني للناس إماماً ؟ قال نعم ، قال : ومن ذريتي ؟ قال : لا ينال عهدي الظالمين ، قال : تجعل البيت مثابة للناس ؟ قال : نعم ، قال : وأمناً ؟ قال : نعم ، قال : وتجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ؟ قال : نعم ، قال : وأرنا مناسكنا وتب علينا ؟ قال : نعم ، قال : وتجعل هذا البلد آمناً ؟ قال : نعم ، قال : وترزق أهله من الثمرات من آمن ؟ قال : نعم ، فهذه الكلمات التي ابتلى الله بها إبراهيم ، وهذا قول مجاهد .

والخامس : أنها مناسك الحج خاصة ، وهذا قول قتادة .

والقول السادس : أنها الخلال الست : الكواكب ، والقمر ، والشمس ، والنار ، والهجرة ، والختان ، التي ابتلي بهن فصبر عليهن ، وهذا قول الحسن .

(98/65)

والقول السابع : ما رواه سهل بن معاذ بن أنس عن أمه قال : كان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : " ألا أخبركم لم سمى الله إبراهيم خليله الذي وفّى ؟ لأنه كان يقول كلما

أصبح وكلما أمسى : سبحان الله حين تُمْسُونَ وحينَ تُصْبِحُونَ ، وله الحَمْدُ في السّمواتِ والأرْضِ وعَشِيّاً وحين تُظْهِرُونَ " . والقول الثامن ، ما رواه القاسم بن محمد ، عن أبي أمامة قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴾ قَالَ : أَتَدْرُونَ مَا وَفَّى ؟

قَالُوا : اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ : وَفّى عَمَلَ يَوْمٍ بِأَرْبَعِ رَكْعَاتٍ فِي النَّهَارِ " . انتهى انتهى . اهـ ﴿ النكت والعيون حـ1 صـ 182 . 185 ﴾

كلام نفيس للقفال فى هذا الموضع

قال القفال رحمه الله : وجملة القول أن الابتلاء يتناول إلزام كل ما في فعله كلفة شدة ومشقة ، فاللفظ يتناول مجموع هذه الأشياء ويتناول كل واحد منها ، فلو ثبتت الرواية في الكل وجب القول بالكل ، ولو ثبتت الرواية في البعض دون البعض فحينئذ يقع التعارض بين هذه الروايات ، فوجب التوقف والله أعلم .

أهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ4 صـ 35 . 36 ﴾

وقريب من هذا الرأى قول الإمام أبى جعفر الطبرى ـ رحمه الله ـ فبعد أن ذكر جميع الأقوال فى المراد من الكلمات قال ما نصه :

قال أبو جعفر : والصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال : إن الله عز وجل أخبر عباده أنه اختبر إبراهيم خليله بكلمات أوحاهن إليه ، وأمره أن يعمل بهن فأتمهن ، كما أخبر الله جل ثناؤه عنه أنه فعل . (1) وجائز أن تكون تلك الكلمات جميع ما ذكره من ذكرنا قوله في تأويل " الكلمات " ، وجائز أن تكون بعضه . لأن إبراهيم صلوات الله عليه قد كان امتحن فيما بلغنا بكل ذلك ، فعمل به ، وقام فيه بطاعة الله وأمره الواجب عليه فيه . وإذ كان ذلك كذلك ، فغير جائز لأحد أن يقول : عنى الله بالكلمات التي ابتلي بهن إبراهيم شيئا من ذلك بعينه دون شيء ، ولا عنى به كل ذلك ، إلا بحجة يجب التسليم لها : من خبر عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، أو إجماع من الحجة . ولم يصح في شيء من ذلك خبر عن الرسول بنقل الواحد ، ولا بنقل الجماعة التي يجب التسليم لما نقلته . غير أنه روي عن النبي - صلى الله عليه وسلم - في نظير معنى ذلك خبران ، لو ثبتا ، أو أحدهما ، كان القول به في تأويل ذلك هو الصواب . انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الطبرى حـ2 صـ 15 ﴾

تعليق

قد ضعف الإمام الطبرى الروايتين

والأولى التوقف عن تعيين المراد بهذه الكلمات ويكفى أن الله تعالى امتدحه بقوله

﴿ وإبراهيم الذى وفى ﴾ أى أتى بكل شىء وافيا ، والمتأمل فى قصة الخليل - عليه السلام - يجد فيها عجبا ، ولك أن تتصور رجلا بعد سن التسعين يرزق غلاما ثم يأمر بتركه فى صحراء جرداء لا زرع بها ولا ماء ولا أنيس مع بعد المكان كيف يطيق بشر هذا الأمر ثم بعد ذلك عندما يقوى ولده وينضج يؤمر - بمجرد رؤيا - بذبحه ولده والعجيب من يتولى الذبح إنه الأب ومع ذلك يستجيب ويسارع لتلبية أمر الرب فى أمر قال عنه بعض العلماء : إنه تكليف بالمحال ويصف رب العالمين هذا الأمر بقوله تعالى ﴿ إن هذا لهو البلاء المبين ﴾

ويكفى أنه كما قال علماؤنا السابقون - رحمهم الله - عن الخليل - عليه السلام - قدم ماله للضيفان وبدنه للنيران وولده للقربان ، لذا فالأولى ترك الأمر على عمومه دون تخصيص فالله تعالى قال عنه فى معرض المدح والثناء ﴿ وإبراهيم الذى وفى ﴾ ولم يذكر بأى شىء وفى ومن المعلوم أنه أتى بكل شىء على وجه التمام والكمال ، وتأمل فالمخبر هو الله ﴿ إخلص العمل فإن الناقد البصير ﴾ وها هو البصير جل جلاله يخبر ويثنى على خليله

من هنا أقول :

يجب التوقف عند ما توقف عنده الوحى بنوعيه من كتاب وسنة . والله أعلم وأحكم

وقال صاحب الأمثل : المقصود من " الكلمات"

من دراسة آيات القرآن الكريم بشأن إبراهيم(عليه السلام) ، وما أدّاه هذا النّبي العظيم من أعمال جسيمة استحق ثناء الله ، نفهم أن المقصود من الكلمات هو مجموعة المسؤوليات والمهام الثقيلة الصعبة التي وضعها الله على عاتق إبراهيم(عليه السلام) ، فحملها وأحسن حملها ، وأدّى ما عليه خير أداء ، وهي عبارة عن : أخذ ولده إلى المذبح والإِستعداد التام لذبحه ، إطاعة لأمر الله سبحانه .

إسكان الزوج والولد في واد غير ذي زرع بمكة ، حيث لم يسكن فيه إنسان .

النهوض بوجه عَبَدة الأصنام وتحطيم الأصنام ، والوقوف ببطولة في تلك المحاكمة التاريخية ، ثم إلقاؤه في وسط النيران . وثباته ورباطة جأشه في كل هذه المراحل .

الهجرة من أرض عبدة الأصنام والإِبتعاد عن الوطن ، والإِتجاه نحو أصقاع نائية لأداء رسالته . . . وأمثالها (401) .

يكان كل واحد من هذه الإِختبارات ثقي وصعباً حقّاً ، لكنه بقوة إيمانه نجح فيها جميعاً ، وأثبت لياقته لمقام " الإِمامة" . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الأمثل حـ1 صـ 367. 368 ﴾

سؤال : لم سميت تلك الخصال كلمات ؟

الجواب : وإنما سمّيت هذه الخصال كُلماتٍ ؛ لأنها اقترنتْ بها أوامر هي كلمات ، وروي أن إبراهيم ، لما أتمَّ هذه الكلماتِ أو أتمَّها اللَّه عليه ، كتب اللَّه له البراءة من النَّار ، فذلك قوله تعالى : ﴿ وإبراهيم الذي وفى ﴾ [النجم : 37] . أ هـ

﴿ تفسير الثعالبى حـ1 صـ 106 ﴾

سؤال : لم أوثر النيل على الجعل فى قوله تعالى ﴿ قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ ؟

الجواب : إنما أُوثِرَ النيلُ على الجعلِ إيماءً إلى أن إمامة الأنبياءِ عليهم السلام من ذريته ـ عليه السلام ـ كإسماعيلَ وإسحاقَ ويعقوبَ ويوسفَ وموسى وهارونَ وداودَ وسليمانَ وأيوبَ ويونسَ وزكريا ويحيى وعيسى وسيدِنا محمدٍ ـ صلى الله عليه وسلم ـ تسليماً كثيراً ليست بجعل مستقل بل هي حاصلة في ضمن إمامة إبراهيمَ ـ عليه السلام ـ تنال كلا منهم في وقت قدّره الله عز وجل . أ هـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ1 صـ 156 ﴾

لطائف وفوائد ذكرها الإمام الفخر فى الآية الكريمة

المسألة السادسة : الآية تدل على عصمة الأنبياء من وجهين . الأول : أنه قد ثبت أن المراد من هذا العهد : الإمامة . ولا شك أن كل نبي إمام ، فإن الإمام هو الذي يؤتم به ، والنبي أولى

الناس ، وإذا دلت الآية على أن الإمام لا يكون فاسقاً ، فبأن تدل على أن الرسول لا يجوز أن يكون فاسقاً فاعلاً للذنب والمعصية أولى . الثاني : قال : ﴿ لاَ يَنَال عَهْدِي الظالمين ﴾ فهذا العهد إن كان هو النبوة ؛ وجب أن تكون لا ينالها أحد من الظالمين وإن كان هو الإمامة ، فكذلك لأن كل نبي لا بد وأن يكون إماماً يؤتم به ، وكل فاسق ظالم لنفسه فوجب أن لا تحصل النبوة لأحد من الفاسقين والله أعلم .

(102/65)

المسألة السابعة ؛ اعلم أنه سبحانه بين أن له معك عهداً ، ولك معه عهداً ، وبين أنك متى تفي بعهدك ، فإنه سبحانه يفي أيضاً بعهده فقال : ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِى أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾ [البقرة : 40] ثم في سائر الآيات فإنه أفرد عهدك بالذكر ، وأفرد عهد نفسه أيضاً بالذكر ، أما عهدك فقال فيه : ﴿ والموفون بِعَهْدِهِمْ إِذَا عاهدوا ﴾ [البقرة : 177] وقال : ﴿ والذين هُمْ لأماناتهم وَعَهْدِهِمْ راعون ﴾ [المؤمنون : 8] وقال : ﴿ يا أَيُّهَا الذين ءَامَنُواْ أَوْفُواْ بالعقود ﴾ [المائدة : 1] وقال : ﴿ لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتاً عِندَ الله أَن تَقُولُواْ مَا لاَ تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف : 32] وأما عهده سبحانه وتعالى فقال فيه : ﴿ وَمَنْ أوفى بِعَهْدِهِ مِنَ الله ﴾ [التوبة : 111] ثم بين كيفية عهده إلى أبينا آدم فقال : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلى آدم

من قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً ﴾ [طه : 115] ثم بين كيفية عهده إلينا فقال : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبَنِى آدم وَإِذْ أَخَذ ﴾ [ياس : 60] ثم بين كيفية عهده مع بني إسرائيل فقال : ﴿ إِنَّ اللهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ ﴾ [آل عمران : 183] ثم بين كيفية عهده مع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فقال : ﴿ وَعَهِدْنَا إلى إبراهيم وإسماعيل ﴾ [البقرة : 125] ثم بين في هذه الآية أن عهده لا يصل إلى الظالمين فقال : ﴿ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظالمين ﴾ فهذه المبالغة الشديدة في هذه المعاهدة تقتضي البحث عن حقيقة هذه المعاهدة فنقول : العهد المأخوذ عليك ليس إلا عهد الخدمة والعبودية ، والعهد الذي التزمه الله تعالى من جهته ليس إلا عهد الرحمة والربوبية ، ثم إن العاقل إذا تأمل في حال هذه المعاهدة لم يجد من نفسه إلا نقض هذا العهد ، ومن ربه إلا الوفاء بالعهد ، فلنشرع في معاقد هذا الباب فنقول : أول إنعامه عليك إنعام الخلق

(103/65)

والإيجاد والإحياء وإعطاء العقل والآلة والمقصود من كل ذلك اشتغالك بالطاعة والخدمة والعبودية على ما قال : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجن والإنس إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : 56] ونزه نفسه عن أن يكون هذا الخلق والإيجاد منه على سبيل العبث فقال : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا

السماء والأرض وَمَا بَيْنَهَا لاَعِبِينَ ﴾ [الأنبياء : 16] ﴿ مَا خلقناهما إِلاَّ بالحق ﴾ [الدخان : 39] وقال أيضاً : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السماء والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا باطلا ذلك ظَنُّ الذين كَفَرُواْ ﴾ [ص : 27] وقال : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خلقناكم عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون : 115] ثم بين على سبيل التفصيل ما هو الحكمة في الخلق والإيجاد فقال : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجن والإنس إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ فهو سبحانه وفى بعهد الربوبية حيث خلقك وأحياك وأنعم عليك بوجوه النعم وجعلك عاقلاً مميزاً فإذا لم تشتغل بخدمته وطاعته وعبوديته فقد نقضت عهد عبوديتك مع أن الله تعالى وفى بعهد ربوبيته . وثانيها : أن عهد الربوبية يقتضي إعطاء التوفيق والهداية وعهد العبودية منك يقتضي الجد والاجتهاد في العمل ، ثم إنه وفى بعهد الربوبية فإنه ما ترك ذرة من الذرات إلا وجعلها هادية لك إلى سبيل الحق

﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ [الإسراء : 44] وأنت ما وفيت البتة بعهد الطاعة والعبودية . وثالثها : أن نعمة الله بالإيمان أعظم النعم ، والدليل عليه أن هذه النعمة لو فاتتك

لكنت أشقى الأشقياء أبد الآبدين ودهر الداهرين ، ثم هذه النعمة من الله تعالى لقوله : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ ﴾ [النحل : 53] ثم مع أن هذه النعمة منه فإنه يشكرك عليها وقال : ﴿ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ [الإسراء : 19] فإذا كان الله تعالى يشكرك على هذه النعمة فبأن تشكره على ما أعطى من التوفيق والهداية كان أولى ، ثم إنك ما أتيت إلا بالكفران على ما قال : ﴿ قُتِلَ الإِنسانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴾ [عبس : 17] فهو تعالى وفى بعهده ، وأنت نقضت عهدك . ورابعها : أن تنفق نعمه في سبيل مرضاته ، فعهده معك أن يعطيك أصناف النعم وقد فعل وعهدك معه أن تصرف نعمه في سبيل مرضاته وأنت ما فعلت ذلك : ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسانَ لَيَطْغَى أَن رَّءَاهُ اسْتَغْنَى ﴾ [العلق : 6 ، 7] . وخامسها : أنعم عليك بأنواع النعم لتكون محسناً إلى الفقراء : ﴿ وَأَحْسِنُواْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ المحسنين ﴾ ثم إنك توسلت به إلى إيذاء الناس وإيحاشهم : ﴿ الذين يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ الناس بالبخل ﴾ [الحديد : 24] [النساء : 37] . وسادسها : أعطاك النعم العظيمة لتكون مقبلاً على حمده وأنت تحمد غيره فانظر إن السلطان العظيم لو أنعم عليك بخلعة نفيسة ، ثم إنك في حضرته تعرض عنه وتبقى مشغولاً بخدمة بعض الأسقاط كيف تستوجب الأدب والمقت فكذا ههنا ، واعلم أنا لو اشتغلنا بشرح كيفية وفائه سبحانه بعهد الإحسان والربوبية وكيفية نقضنا لعهد الإخلاص والعبودية لما قدرنا على ذلك فإنا

من أول الحياة إلى آخرها ما صرنا منفكين لحظة واحدة من أنواع نعمه على ظاهرنا وباطننا وكل واحدة من تلك النعم تستدعي شكراً على حدة وخدمة على حدة ، ثم أنا ما أتينا

(105/65)

بها بل ما تنبهنا لها وما عرفنا كيفيتها وكميتها ، ثم إنه سبحانه على تزايد غفلتنا وتقصيرنا يزيد في أنواع النعم والرحمة والكرم ، فكنا من أول عمرنا إلى آخره لا نزال نتزايد في درجات النقصان والتقصير واستحقاق الذم ، وهو سبحانه لا يزال يزيد في الإحسان واللطف والكرم ، واستحقاق الحمد والثناء فإنه كلما كان تقصيرنا أشد كان إنعامه علينا بعد ذلك أعظم وقعاً وكلما كان إنعامه علينا أكثر وقعاً ، كان تقصيرنا في شكره أقبح وأسوأ ، فلا تزال أفعالنا تزداد قبائح ومحاسن أفعاله على سبيل الدوام بحيث لا تفضي إلى الانقطاع ثم إنه قال في هذه الآية : ﴿ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظالمين ﴾ وهذا تخويف شديد لكنا نقول : إلهنا صدر منك ما يليق بك من الكرم والعفو والرحمة والإحسان وصدر منا ما يليق بنا من الجهل والغدر

والتقصير والكسل ، فنسألك بك وبفضلك العميم أن تتجاوز عنا يا أرحم الراحمين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ4 صـ 40ـ 42 ﴾

قوله تعالى ﴿ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾

سؤال : ما المراد بالإمام في الآية الكريمة ؟

الجواب كما ذكره الإمام الفخر :

أما قوله تعالى : ﴿ إِنِّي جاعلك لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ فالإمام اسم من يؤتم به كالإزار لما يؤتزر به ، أي يأتمون بك في دينك . وفيه مسائل :

المسألة الأولى : قال أهل التحقيق : المراد من الإمام ههنا النبي ويدل عليه وجوه . أحدها : أن قوله : ﴿ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ يدل على أنه تعالى جعله إماماً لكل الناس والذي يكون كذلك لا بد وأن يكون رسولاً من عند الله مستقلاً بالشرع لأنه لو كان تبعاً لرسول آخر لكان مأموماً لذلك الرسول لا إماماً له ، فحينئذ يبطل العموم . وثانيها : أن اللفظ يدل على أنه إمام في كل شيء والذي يكون كذلك لا بد وأن يكون نبياً . وثالثها : أن الأنبياء عليهم السلام أئمة من حيث يجب على الخلق اتباعهم ، قال الله تعالى :

(106/65)

﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾ [الأنبياء : 73] والخلفاء أيضاً أئمة لأنهم رتبوا في المحل الذي يجب على الناس اتباعهم وقبول قولهم وأحكامهم والقضاة والفقهاء أيضاً أئمة لهذا

المعنى ، والذي يصلي بالناس يسمى أيضاً إماماً لأن من دخل في صلاته لزمه الائتمام به .

قال عليه الصلاة والسلام : " إنما جعل الإمام إماماً ليؤتم به فإذا ركع فاركعوا وإذا سجد فاسجدوا ولا تختلفوا على إمامكم " فثبت بهذ أن اسم الإمام لمن استحق الاقتداء به في الدين وقد يسمى بذلك أيضاً من يؤتم به في الباطل ، قال الله تعالى : ﴿ وجعلناهم أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النار ﴾ [القصص : 41] إلا أن اسم الإمام لا يتناوله على الإطلاق بل لا يستعمل فيه إلا مقيداً ، فإنه لما ذكر أئمة الضلال قيده بقوله تعالى : ﴿ يَدْعُونَ إِلَى النار ﴾ كما أن اسم الإله لا يتناول إلا المعبود الحق ، فأما المعبود الباطل فإنما يطلق عليه اسم الإله مع القيد ، قال الله تعالى : ﴿ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءالِهَتُهُمُ التى يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ مِن شَىْءٍ ﴾ [هود : 101] وقال : ﴿ وانظر إلى إلهك الذى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً ﴾ [طه : 97] إذا ثبت أن اسم الإمام يتناول ما ذكرناه ، وثبت أن الأنبياء في أعلى مراتب الإمامة وجب حمل اللفظ ههنا عليه ، لأن الله تعالى ذكر لفظ الإمام ههنا في معرض الامتنان ، فلا بد وأن تكون تلك النعمة من أعظم النعم ليحسن نسبة الامتنان فوجب حمل هذه الإمامة على النبوة .

(107/65)

المسألة الثانية : أن الله تعالى لما وعده بأن يجعله إماماً للناس حقق الله تعالى ذلك الوعد فيه إلى قيام الساعة ، فإن أهل الأديان على شدة اختلافها ونهاية تنافيها يعظمون إبراهيم عليه الصلاة والسلام ويتشرفون بالانتساب إليه إما في النسب وإما في الدين والشريعة حتى إن عبدة الأوثان كانوا معظمين لإبراهيم ـ عليه السلام ـ ، وقال الله تعالى في كتابه : ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتبع مِلَّةَ إبراهيم حَنِيفاً ﴾ [النحل : 123] وقال : ﴿ مِنْ يَرْغَبُ عَن مِلَّةِ إبراهيم إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ ﴾ [البقرة : 130] وقال في آخر سورة الحج : ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إبراهيم هُوَ سماكم المسلمين مِن قَبْلُ ﴾ [الحج : 78] وجميع أمة محمد عليه الصلاة والسلام يقولون في آخر الصلاة وارحم محمداً وآل محمد كما صليت وباركت وترحمت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ4 صـ 36 . 37 ﴾

سؤال : لم عدل عن التعبير ﴿ برسولاً ﴾ إلى ﴿ إماماً ﴾ ؟

وإنما عدل عن التعبير ﴿ برسولاً ﴾ إلى ﴿ إماماً ﴾ ليكون ذلك دالاً على أن رسالته تنفع الأمة المرسَل إليها بطريق التبليغ ، وتنفع غيرهم من الأمم بطريق الاقتداء ، فإن إبراهيم ـ عليه السلام ـ رحل إلى آفاق كثيرة فتنقل من بلاد الكلدان إلى العراق وإلى الشام والحجاز ومصر ، وكان في جميع منازله محل التبجيل ولا شك أن التبجيل يبعث على الاقتداء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ1 صـ 404 ﴾

قوله تعالى ﴿ قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ﴾

سؤال : لم قال إبراهيمُ ـ عليه السلام ـ : ﴿ ومن ذريتي ﴾ ولم يقل وَذُريتي ؟

وإنما قال إبراهيمُ : ﴿ ومن ذريتي ﴾ ولم يقل وَذُريتي لأنه يعلَم أن حكمة الله من هذا العالم لم تجر بأن يكون جميع نسل أحد ممن يصلحون لأن يُقتدَى بهم فلم يسأل ما هو مستحيل عادة لأن سؤال ذلك ليس من آداب الدعاء .

(108/65)

وإنما سأل لذريته ولم يقصر السؤال على عقبه كما هو المتعارف في عصبية القائل لأبناء دينه على الفطرة التي لا تقتضي تفاوتاً فيرى أبناء الابن وأبناء البنت في القرب من الجد بل هما سواء في حكم القرابة ، وأما مبنى القبلية فعلى اعتبارات عرفية ترجع إلى النصرة والاعتزاز . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ1 صـ 405 ﴾

قوله تعالى : ﴿ لا ينال عهدي الظالمين ﴾

فصل في تحرير معنى العهد

اختلفوا في العَهْدِ ، فقيل : الإمامة .

وقال السدي : النبوة ، وهو قول ابن عباس .

وقال عطاءك رحمتي .

[آل عمران : 183] أي : أمرنا ، وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بني آدَمَ ﴾ [يس : 60] يعنى ألم أقدم إليكم الأمر به ، فيكون معنى قوله تعالى : ﴿ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظالمين ﴾ أي : لا يجوز أن يكونوا بمحلّ من يقبل أوامر الله .

[قال قتادة رحمه الله تعالى : هو الإيمان .

وقال مجاهد والضحاك رحمهما الله هو طاعتي ، أي : ليس لظالم أن يطاع في ظلمه ومعنى الآية : لا ينال ما عهدت إليك من النبوة والإمامة من كان ظالماً من ولدك .

وقال أبو عبيدة رحمه الله تعالى : العهد الأمان من النار ؛ لقوله عز وجل : ﴿ الذين آمَنُواْ وَلَمْ يلبسوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أولئك لَهُمُ الأمن ﴾ [الأنعام : 82] .

قال ابن الخطيب : والأول أولى ؛ لأنه جواب لسؤال الإمامة .

وقيل : عهده أمره ، ويطلق على الأمر ، مقال سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ الله عَهِدَ إِلَيْنَا ﴾ .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ اللباب ـ لابن عادل حـ2 صـ85 ﴾

سؤال : فإن قيل : أفما كان إبراهيم عليه الصَّلاة والسَّلام عالماً بأن النبوة لا تليق بالظَّالمين ؟

فالجواب : بلى ، ولكن لم يعلم حال ذرّيته ، فبيّن الله تعالى أن فيهم من هذا حاله ، وأن النبوة إنما تحصل لمن ليس بظالم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ اللباب ـ لابن عادل حـ2 صـ85 ﴾

وقوله تعالى : ﴿ لا ينال عهدي الظالمين ﴾ استجابة مطوية بإيجاز وبيان للفريق الذي تتحقق فيه دعوة إبراهيم والذي لا تتحقق فيه بالاقتصار على أحدهما لأن حكم أحد الضدين يثبت نقيضه للآخر على طريقة الإيجاز ، وإنما لم يُذكر الصنف الذي تحقق فيه الدعوة لأن المقصد ذكر الصنف الآخر تعريضاً بأن الذين يزعمون يومئذ أنهم أولى الناس بإبراهيم وهم أهل الكتاب ومشركو العرب هم الذين يُحرمون من دعوته ، قال تعالى : ﴿ ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه ﴾ [آل عمران : 67 ، 68] ولأن المربي يقصد التحذير من المفاسد قبل الحث على المصالح ، فبيان الذين لا تتحقق فيهم الدعوة أولى من بيان الآخرين .

أهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ1 صـ 405 ﴾

سؤال : لم سمي وعد الله عهداً ؟

وسمي وعد الله عهداً لأن الله لا يخلف وعده كما أخبر بذلك فصار وعده عهداً ولذلك سماه النبيء عهداً في قوله " أَنشُدك عهدك ووعدك " ، أي لا ينال وعدي بإجابة دعوتك الظالمين منهم ، ولا يحسن أن يفسر العهد هنا بغير هذا وإن كان في مواقع من القرآن أريد به غيره ، وسيأتي ذكر العهد في سورة الأعراف .

ومن دقة القرآن اختيار هذا اللفظ هنا لأن اليهود زعموا أن الله عهد لإبراهيم عهداً بأنه مع ذريته ففي ذكر لفظ العهد تعريض بهم وإن كان صريح الكلام لتوبيخ المشركين . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ1 صـ 406 ﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظالمين ﴾ .

الجمهور على نَصْب " الظَّالِمِينَ " مفعولاً ، و" عَهْدِي " فاعل ، اي : لا يصل عهدي إلى الظالمين فيدركهم .

وقرأ قتادة ، والأعمش ، وأبو رجاء : " الظَّالِمُونَ " بالفاعلية ، و" عَهْدِي " مفعول به ، والقراءتان ظاهرتان ؛ إذ الفعل يصحّ نسبته إلى كل منهما ، فإن من نالك فقد نِلْته . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ اللباب ـ لابن عادل حـ2 صـ84 ﴾

(110/65)

من فوائد الإمام الجصاص فى الآية

قال رحمه الله :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ ابْتَلَى إبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ ؛ اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : " ابْتَلَاهُ بِالْمَنَاسِكِ " .

وَقَالَ الْحَسَنُ : " ابْتَلَاهُ بِقَتْلِ وَلَدِهِ وَالْكَوَاكِبِ " .

وَرَوَى طَاوُسٌ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : " ابْتَلَاهُ بِالطَّهَارَةِ خَمْسٌ فِي الرَّأْسِ وَخَمْسٌ فِي الْجَسَدِ فَالْخَمْسَةُ فِي الرَّأْسِ : قَصُّ الشَّارِبِ ، وَالْمَضْمَضَةُ ، وَالِاسْتِنْشَاقُ ، وَالسِّوَاكُ ، وَفَرْقُ الرَّأْسِ ؛ وَفِي الْجَسَدِ : تَقْلِيمُ الْأَظْفَارِ ، وَحَلْقُ الْعَانَةِ ، وَالْخِتَانُ ، وَنَتْفُ الْإِبْطِ ، وَغَسْلُ أَثَرِ الْغَائِطِ وَالْبَوْلِ بِالْمَاءِ " .

وَرُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ عَشْرٌ مِنْ الْفِطْرَةِ ﴾ وَذَكَرَ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ إلَّا أَنَّهُ قَالَ مَكَانَ الْفَرْقِ : ﴿ إعْفَاءُ اللِّحْيَةِ ﴾ وَلَمْ يَذْكُرْ فِيهِ تَأْوِيلَ الْآيَةِ .

(111/65)

وَرَوَاهُ عَمَّارٌ وَعَائِشَةُ وَأَبُو هُرَيْرَةَ عَلَى اخْتِلَافٍ مِنْهُمْ فِي الزِّيَادَةِ وَالنُّقْصَانِ ، كَرِهْتُ الْإِطَالَةَ بِذِكْرِ أَسَانِيدِهَا وَسِيَاقَةِ أَلْفَاظِهَا ؛ إذْ هِيَ الْمَشْهُورَةُ ، وَقَدْ نَقَلَهَا النَّاسُ قَوْلًا وَعَمَلًا وَعَرَفُوهَا مِنْ سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَا ذُكِرَ فِيهِ مِنْ تَأْوِيلِ الْآيَةِ مَعَ مَا قَدَّمْنَا مِنْ اخْتِلَافِ السَّلَفِ فِيهِ فَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ تَعَالَى ابْتَلَى إبْرَاهِيمَ بِذَلِكَ كُلِّهِ ، وَيَكُونُ مُرَادُ الْآيَةِ جَمِيعَهُ ، وَأَنَّ إبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَتَمَّ ذَلِكَ كُلَّهُ وَوَفَّى بِهِ وَقَامَ بِهِ عَلَى حَسَبِ مَا أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ مِنْ غَيْرِ نُقْصَانٍ ؛ لِأَنَّ ضِدَّ الْإِتْمَامِ النَّقْصُ ، وَقَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ بِإِتْمَامِهِنَّ وَمَا رُوِيَ عَنْ

النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ الْعَشْرَ الْخِصَالِ فِي الرَّأْسِ وَالْجَسَدِ مِنْ الْفِطْرَةِ ، فَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ فِيهَا مُقْتَدِيًا بِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾ وَبِقَوْلِهِ : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمْ اقْتَدِهِ ﴾ وَهَذِهِ الْخِصَالُ قَدْ ثَبَتَتْ مِنْ سُنَّةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهِيَ تَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ التَّنْظِيفُ وَنَفْيُ الْأَقْذَارِ وَالْأَوْسَاخِ عَنْ الْأَبْدَانِ وَالثِّيَابِ مَأْمُورًا بِهَا .

(112/65)

أَلَا تَرَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمَّا حَظَرَ إزَالَةَ التَّفَثِ وَالشَّعْرِ فِي الْإِحْرَامِ أَمَرَ بِهِ عِنْدَ الْإِحْلَالِ بِقَوْلِهِ : ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ ﴾ وَمِنْ نَحْوِ ذَلِكَ مَا رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي غُسْلِ يَوْمِ الْجُمُعَةِ ﴿ أَنْ يَسْتَاكَ وَأَنْ يَمَسَّ مِنْ طِيبِ أَهْلِهِ ﴾ فَهَذِهِ كُلُّهَا خِصَالٌ مُسْتَحْسَنَةٌ فِي الْعُقُولِ مَحْمُودَةٌ مُسْتَحَبَّةٌ فِي الْأَخْلَاقِ وَالْعَادَاتِ ، وَقَدْ أَكَّدَهَا التَّوْقِيفُ مِنْ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وَقَدْ حَدَّثَنَا عَبْدُ الْبَاقِي قَالَ : حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عُمَرَ بْنِ حَيَّانَ التَّمَّارُ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو الْوَلِيدِ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ الْمُبَارَكِ قَالَا : حَدَّثَنَا قُرَيْشُ بْنُ حَيَّانَ الْعِجْلِيّ قَالَ : حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ

فَرُّوخ أَبُو وَاصِلٍ قَالَ : أَتَيْت أَبَا أَيُّوبَ فَصَافَحْتُهُ فَرَأَى فِي أَظْفَارِي طُولًا فَقَالَ : ﴿ جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْأَلُهُ عَنْ خَبَرِ السَّمَاءِ ، فَقَالَ : يَجِيءُ أَحَدُكُمْ يَسْأَلُ عَنْ خَبَرِ السَّمَاءِ وَأَظْفَارُهُ كَأَنَّهَا أَظْفَارُ الطَّيْرِ يَجْتَمِعُ فِيهَا الْخَبَاثَةُ وَالتَّفَثُ ؟ ﴾ .

وَحَدَّثَنَا عَبْدُ الْبَاقِي قَالَ : حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ سَهْلِ بْنِ أَيُّوبَ قَالَ : حَدَّثَنَا عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ الْحَذَّاءُ قَالَ : حَدَّثَنَا الضَّحَّاكُ بْنُ زَيْدٍ الْأَهْوَازِيُّ عَنْ إِسْمَاعِيلَ بْنِ خَالِدٍ عَنْ قَيْسِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ﴿ إِنَّكَ تَهُمُّ قَالَ : وَمَا لِي لَا أَهِمُّ وَرُفْعُ أَحَدِكُمْ بَيْنَ أَظْفَارِهِ وَأَنَامِلِهِ ﴾ .

(113/65)

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ ﴿ كَانَ يُقَلِّمُ أَظْفَارَهُ وَيَقُصُّ شَارِبَهُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ قَبْلَ أَنْ يَرُوحَ إِلَى الْجُمُعَةِ .

﴿ وَحَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَكْرٍ الْبَصْرِيُّ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُد قَالَ : حَدَّثَنَا عُثْمَانُ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ ، عَنْ وَكِيعٍ ، عَنْ الْأَوْزَاعِيِّ ، عَنْ حَسَّانَ ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْمُنْكَدِرِ ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ : ﴿ أَتَانَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَرَأَى رَجُلًا شَعِثًا قَدْ تَفَرَّقَ شَعْرُهُ فَقَالَ : أَمَا كَانَ يَجِدُ هَذَا مَا يُسَكِّنُ بِهِ شَعْرَهُ ؟ وَرَأَى رَجُلًا آخَرَ عَلَيْهِ ثِيَابٌ وَسِخَةٌ فَقَالَ :

أَمَا كَانَ يَجِدُ هَذَا مَا يَغْسِلُ بِهِ ثَوْبَهُ ؟ ﴾ حَدَّثَنَا عَبْدُ الْبَاقِي قَالَ : حَدَّثَنَا حُسَيْنُ بْنُ إِسْحَاقَ قَالَ : حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عُقْبَةَ السَّدُوسِيُّ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو أُمَيَّةَ بْنُ يَعْلَى قَالَ : حَدَّثَنَا هِشَامُ بْنُ عُرْوَةَ ، عَنْ أَبِيهِ ، عَنْ عَائِشَةَ ، قَالَتْ : ﴿ خَمْسٌ لَمْ يَكُنْ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدَعُهُنَّ فِي سَفَرٍ وَلَا حَضَرٍ : الْمِرْآةُ وَالْمُكْحُلَةُ وَالْمُشْطُ وَالْمِدْرَى وَالسِّوَاكِ ﴾ .

(114/65)

وَقَدْ رُوِيَ أَنَّهُ وَقَّتَ فِي ذَلِكَ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ؛ حَدَّثَنَا عَبْدُ الْبَاقِي قَالَ : حَدَّثَنَا الْحُسَيْنُ بْنُ الْمُثَنَّى عَنْ مُعَاذٍ قَالَ : حَدَّثَنَا مُسْلِمُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ قَالَ : حَدَّثَنَا صَدَقَةُ الدَّقِيقِيُّ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو عِمْرَانَ الْجَوْنِيُّ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : ﴿ وَقَّتَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَلْقِ الْعَانَةِ وَقَصِّ الشَّارِبِ وَنَتْفِ الْإِبْطِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ﴾ .

وَرُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ كَانَ يَتَنَوَّرُ ؛ حَدَّثَنَا عَبْدُ الْبَاقِي قَالَ : حَدَّثَنَا إِدْرِيسُ الْحَدَّادُ قَالَ : حَدَّثَنَا عَاصِمُ بْنُ عَلِيٍّ قَالَ : حَدَّثَنَا كَامِلُ بْنُ الْعَلَاءِ قَالَ : حَدَّثَنَا حَبِيبُ بْنُ أَبِي ثَابِتٍ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ : ﴿ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا اطَّلَى وَلِيَ مَغَابِنَهُ بِيَدِهِ ﴾ .

حَدَّثَنَا عَبْدُ

الْبَاقِي : حَدَّثَنَا مُطَيْرٌ : حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْمُنْذِرِ : حَدَّثَنَا مَعْنُ بْنُ عِيسَى عَمَّنْ حَدَّثَهُ عَنْ ابْنِ أَبِي نَجِيحٍ ، عَنْ مُجَاهِدٍ ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ ﴿ : اطَّلَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَطَلَاهُ رَجُلٌ فَسَتَرَ عَوْرَتَهُ بِثَوْبٍ وَطَلَى الرَّجُلُ سَائِرَ جَسَدِهِ ، فَلَمَّا فَرَغَ قَالَ لَهُ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ : اخْرُجْ عَنِّي ثُمَّ طَلَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَوْرَتَهُ بِيَدِهِ ﴾ وَقَدْ رَوَى حَبِيبُ بْنُ أَبِي ثَابِتٍ عَنْ أَنَسٍ قَالَ : ﴿ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يَتَنَوَّرُ ، فَإِذَا كَثُرَ شَعْرُهُ حَلَقَهُ ﴾ .

(115/65)

وَهَذَا يَحْتَمِلُ أَنْ يُرِيدَ بِهِ أَنَّ عَادَتَهُ كَانَتْ الْحَلْقَ ، وَأَنَّ ذَلِكَ كَانَ الْأَكْثَرَ الْأَعَمَّ لِيَصِحَّ الْحَدِيثَانِ ، وَأَمَّا مَا ذُكِرَ مِنْ تَوْقِيتِ الْأَرْبَعِينَ فِي الْحَدِيثِ الْمُتَقَدِّمِ فَجَائِزٌ أَنْ تَكُونَ الرُّخْصَةُ فِي التَّأْخِيرِ مُقَدَّرَةً بِذَلِكَ وَأَنَّ تَأْخِيرَهَا إلَى مَا بَعْدَ الْأَرْبَعِينَ مَحْظُورٌ يَسْتَحِقُّ فَاعِلُهُ اللَّوْمَ لِمُخَالَفَةِ السُّنَّةِ ، لَا سِيَّمَا فِي قَصِّ الشَّارِبِ وَقَصِّ الْأَظْفَارِ .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ ذَكَرَ أَبُو جَعْفَرٍ الطَّحَاوِيُّ أَنَّ مَذْهَبَ أَبِي حَنِيفَةَ وَزُفَرَ وَأَبِي يُوسُفَ وَمُحَمَّدٍ فِي شَعْرِ الرَّأْسِ وَالشَّارِبِ أَنَّ الْإِحْفَاءَ أَفْضَلُ مِنْ التَّقْصِيرِ عَنْهُ وَإِنْ كَانَ مَعَهُ حَلْقُ بَعْضِ الشَّعْرِ ؛

قَالَ : وَقَالَ ابْنُ الْهَيْثَمِ عَنْ مَالِكٍ إِحْفَاءُ الشَّارِبِ عِنْدِي مُثْلَةٌ قَالَ مَالِكٌ : وَتَفْسِيرُ حَدِيثِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي إِحْفَاءِ الشَّارِبِ الْإِطَارُ ، وَكَانَ يَكْرَهُ أَنْ يُؤْخَذَ مِنْ أَعْلَاهُ ، وَإِنَّمَا كَانَ يُوَسِّعُ فِي الْإِطَارِ مِنْهُ فَقَطْ وَذَكَرَ عَنْهُ أَشْهَبُ قَالَ : وَسَأَلْت مَالِكًا عَمَّنْ أَحْفَى شَارِبِهِ قَالَ : أَرَى أَنْ يُوجَعَ ضَرْبًا ، لَيْسَ حَدِيثُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْإِحْفَاءِ كَانَ يَقُولُ لَيْسَ يُبْدِي حَرْفَ الشَّفَتَيْنِ الْإِطَارُ ثُمَّ قَالَ : لَمْ يَحْلِقْ شَارِبَهُ ، هَذِهِ بِدَعٌ تَظْهَرُ فِي النَّاسِ ، كَانَ عُمَرُ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ نَفَخَ فَجَعَلَ يَفْتِلُ شَارِبَهُ .

(116/65)

وَسُئِلَ الْأَوْزَاعِيُّ عَنْ الرَّجُلِ يَحْلِقُ رَأْسَهُ ، فَقَالَ : أَمَّا فِي الْحَضَرِ لَا يُعْرَفُ إِلَّا فِي يَوْمِ النَّحْرِ ، وَهُوَ فِي الْعُرْفِ وَكَانَ عَبْدَةُ بْنُ أَبِي لُبَابَةَ يَذْكُرُ فِيهِ فَضْلًا عَظِيمًا .

وَقَالَ اللَّيْثُ : لَا أُحِبُّ أَنْ يَحْلِقَ أَحَدٌ شَارِبَهُ حَتَّى يَبْدُوَ الْجِلْدُ ، وَأَكْرَهُهُ ؛ وَلَكِنْ يَقُصُّ الَّذِي عَلَى طَرَفِ الشَّارِبِ ، وَأَكْرَهُ أَنْ يَكُونَ طَوِيلَ الشَّارِبِ وَقَالَ إِسْحَاقُ بْنُ أَبِي إِسْرَائِيلَ : سَأَلْتُ عَبْدَ الْمَجِيدِ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ أَبِي رَوَّادٍ عَنْ حَلْقِ الرَّأْسِ فَقَالَ : أَمَّا بِمَكَّةَ فَلَا بَأْسَ بِهِ ؛ لِأَنَّهُ بَلَدُ الْحَلْقِ ، وَأَمَّا فِي غَيْرِهِ مِنْ الْبُلْدَانِ فَلَا ، قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ : وَلَمْ نَجِدْ فِي ذَلِكَ عَنْ الشَّافِعِيِّ شَيْئًا مَنْصُوصًا ؛ وَأَصْحَابُهُ الَّذِينَ رَأَيْنَاهُمْ : الْمُزَنِيُّ وَالرَّبِيعُ ، كَانَا يُحْفِيَانِ

شَوَارِبِهُمَا ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُمَا أَخَذَا ذَلِكَ عَنْ الشَّافِعِيِّ ، وَقَدْ رَوَتْ عَائِشَةُ وَأَبُو هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ الْفِطْرَةُ عَشْرَةٌ ، مِنْهَا قَصُّ الشَّارِبِ ﴾ .

وَرَوَى الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ أَنَّ ﴿ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخَذَ مِنْ شَوَارِبِهِ عَلَى سِوَاكٍ ﴾ .

(117/65)

وَهَذَا جَائِزٌ مُبَاحٌ ، وَإِنْ كَانَ غَيْرُهُ أَفْضَلَ ، وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ فَعَلَهُ لِعَدَمِ آلَةِ الْإِحْفَاءِ فِي الْوَقْتِ ، وَرَوَى عِكْرِمَةُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : ﴿ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَجُزُّ شَارِبَهُ ﴾ ؛ وَهَذَا يَحْتَمِلُ الْإِحْفَاءَ ، وَرَوَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ عَنْ نَافِعٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ أَحْفُوا الشَّارِبَ وَأَعْفُوا اللِّحَى ﴾ .

وَرَوَى الْعَلَاءُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ أَبِيهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ جُزُّوا الشَّوَارِبَ وَأَرْخُوا اللِّحَى ﴾ وَهَذَا يَحْتَمِلُ الْإِحْفَاءَ أَيْضًا وَرَوَى عُمَرُ بْنُ سَلَمَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ أَحْفُوا الشَّوَارِبَ وَأَعْفُوا اللِّحَى ﴾ وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مُرَادَهُ بِالْخَبَرِ الْأَوَّلِ الْإِحْفَاءُ ، وَالْإِحْفَاءُ يَقْتَضِي ظُهُورَ الْجِلْدِ بِإِزَالَةِ الشَّعْرِ ، كَمَا يُقَالُ رِجْلٌ حَافٍ ، إذَا لَمْ يَكُنْ فِي رِجْلِهِ

شَيْءٌ وَيُقَالُ حَفِيَتْ رِجْلُهُ وَحَفِيَتْ الدَّابَّةُ ؛ إذَا أَصَابَ أَسْفَلَ رِجْلِهَا وَهْنٌ مِنْ الْحَفَاءِ قَالَ : وَرُوِيَ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ وَأَبِي أُسَيْدَ وَرَافِعِ بْنِ خَدِيجٍ وَسَهْلِ بْنِ سَعْدٍ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ وَجَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ وَأَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُمْ كَانُوا يُحْفُونَ شَوَارِبَهُمْ وَقَالَ إبْرَاهِيمُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ خَطَّابٍ : رَأَيْت ابْنَ عُمَرَ يَحْلِقُ شَارِبَهُ كَأَنَّهُ يَنْتِفُهُ .

وَقَالَ بَعْضُهُمْ : حَتَّى يُرَى بَيَاضُ الْجِلْدِ .

(118/65)

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : وَلَمَّا كَانَ التَّقْصِيرُ مَسْنُونًا فِي الشَّارِبِ عِنْدَ الْجَمِيعِ كَانَ الْحَلْقُ أَفْضَلَ ؛ قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿ رَحِمَ اللَّهُ الْمُحَلِّقِينَ ﴾ ثَلَاثًا ؛ وَدَعَا لِلْمُقَصِّرِينَ مَرَّةً ، فَجَعَلَ حَلْقَ الرَّأْسِ أَفْضَلَ مِنْ التَّقْصِيرِ ، وَمَا احْتَجَّ بِهِ مَالِكٌ أَنَّ عُمَرَ كَانَ يَفْتِلُ شَارِبَهُ إذَا غَضِبَ فَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ كَانَ يَتْرُكُهُ حَتَّى يُمْكِنَ فَتْلُهُ ثُمَّ يَحْلِقُهُ كَمَا تَرَى كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ يَفْعَلُهُ .

وَقَوْله تَعَالَى : ﴿ إنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إمَامًا ﴾ فَإِنَّ الْإِمَامَ مَنْ يُؤْتَمُّ بِهِ فِي أُمُورِ الدِّينِ مِنْ طَرِيقِ النُّبُوَّةِ ، وَكَذَلِكَ سَائِرُ الْأَنْبِيَاءِ أَئِمَّةٌ عَلَيْهِمْ السَّلَامُ لِمَا أَلْزَمَ اللَّهُ تَعَالَى النَّاسَ مِنْ اتِّبَاعِهِمْ وَالِائْتِمَامِ بِهِمْ فِي أُمُورِ دِينِهِمْ ؛ فَالْخُلَفَاءُ أَئِمَّةٌ ؛ لِأَنَّهُمْ رُتِّبُوا فِي الْمَحَلِّ الَّذِي يَلْزَمُ النَّاسَ اتِّبَاعُهُمْ

وَقَبُولُ قَوْلِهِمْ وَأَحْكَامِهِمْ ، وَالْقُضَاةُ وَالْفُقَهَاءُ أَئِمَّةٌ أَيْضًا ، وَلِهَذَا الْمَعْنَى الَّذِي يُصَلِّي بِالنَّاسِ يُسَمَّى إمَامًا ؛ لِأَنَّ مَنْ دَخَلَ فِي صَلَاتِهِ لَزِمَهُ الِاتِّبَاعُ لَهُ وَالِائْتِمَامُ بِهِ .

(119/65)

وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ إنَّمَا جُعِلَ الْإِمَامُ إمَامًا لِيُؤْتَمَّ بِهِ ؛ فَإِذَا رَكَعَ فَارْكَعُوا ، وَإِذَا سَجَدَ فَاسْجُدُوا ﴾ وَقَالَ : ﴿ لَا تَخْتَلِفُوا عَلَى إمَامِكُمْ ﴾ فَثَبَتَ بِذَلِكَ أَنَّ اسْمَ الْإِمَامَةِ مُسْتَحَقٌّ لِمَنْ يَلْزَمُ اتِّبَاعُهُ وَالِاقْتِدَاءُ بِهِ فِي أُمُورِ الدِّينِ أَوْ فِي شَيْءٍ مِنْهَا وَقَدْ يُسَمَّى بِذَلِكَ مَنْ يُؤْتَمُّ بِهِ فِي الْبَاطِلِ ، إلَّا أَنَّ الْإِطْلَاقَ لَا يَتَنَاوَلُهُ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إلَى النَّارِ ﴾ فَسُمُّوا أَئِمَّةً ؛ لِأَنَّهُمْ أَنْزَلُوهُمْ بِمَنْزِلَةِ مَنْ يُقْتَدَى بِهِمْ فِي أُمُورِ الدِّينِ وَإِنْ لَمْ يَكُونُوا أَئِمَّةً يَجِبُ الِاقْتِدَاءُ بِهِمْ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمْ الَّتِي يَدْعُونَ ﴾ وَقَالَ : ﴿ وَانْظُرْ إلَى إلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ﴾ يَعْنِي فِي زَعْمِكَ وَاعْتِقَادِك وَقَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿ أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي أَئِمَّةٌ مُضِلُّونَ ﴾ وَالْإِطْلَاقُ إنَّمَا يَتَنَاوَلُ مَنْ يَجِبُ الِائْتِمَامُ بِهِ فِي دِينِ اللَّهِ تَعَالَى وَفِي الْحَقِّ وَالْهُدَى .

أَلَا تَرَى أَنَّ قَوْله تَعَالَى : ﴿ إنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إمَامًا ﴾ قَدْ أَفَادَ ذَلِكَ مِنْ غَيْرِ تَقْيِيدٍ ، وَأَنَّهُ

لَمَّا ذَكَرَ أَئِمَّةَ الضَّلَالِ قَيَّدَهُ بِقَوْلِهِ ﴿ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ﴾ .

(120/65)

وَإِذَا ثَبَتَ أَنَّ اسْمَ الْإِمَامَةِ يَتَنَاوَلُ مَا ذَكَرْنَاهُ ، فَالْأَنْبِيَاءُ عَلَيْهِمْ السَّلَامُ فِي أَعْلَى رُتْبَةِ الْإِمَامَةِ ، ثُمَّ الْخُلَفَاءُ الرَّاشِدُونَ بَعْدَ ذَلِكَ ، ثُمَّ الْعُلَمَاءُ وَالْقُضَاةُ الْعُدُولُ وَمَنْ أَلْزَمَ اللَّهُ تَعَالَى الِاقْتِدَاءَ بِهِمْ ، ثُمَّ الْإِمَامَةُ فِي الصَّلَاةِ وَنَحْوِهَا ، فَأَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ عَنْ إبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ جَاعِلُهُ لِلنَّاسِ إمَامًا وَأَنَّ إبْرَاهِيمَ سَأَلَهُ أَنْ يَجْعَلَ مِنْ وَلَدِهِ أَئِمَّةً بِقَوْلِهِ : ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ﴾ لِأَنَّهُ عُطِفَ عَلَى الْأَوَّلِ فَكَانَ بِمَنْزِلَةِ " وَاجْعَلْ مِنْ ذُرِّيَّتِي أَئِمَّةً " .

(121/65)

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يُرِيدَ بِقَوْلِهِ ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ﴾ مَسْأَلَتَهُ تَعْرِيفَهُ هَلْ يَكُونُ مِنْ ذُرِّيَّتِي أَئِمَّةٌ ؟ فَقَالَ تَعَالَى فِي جَوَابِهِ : ﴿ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ فَحَوَى ذَلِكَ مَعْنَيَيْنِ أَنَّهُ سَيَجْعَلُ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ أَئِمَّةً إمَّا عَلَى وَجْهِ تَعْرِيفِهِ مَا سَأَلَهُ أَنْ يُعَرِّفَهُ إيَّاهُ ، وَإِمَّا عَلَى وَجْهِ إجَابَتِهِ إلَى مَا سَأَلَ لِذُرِّيَّتِهِ

إذَا كَانَ قَوْلُهُ ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ﴾ مَسْأَلَتَهُ أَنْ يَجْعَلَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ أَئِمَّةً ، وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ أَرَادَ الْأَمْرَيْنِ جَمِيعًا ، وَهُوَ مَسْأَلَتُهُ أَنْ يَجْعَلَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ أَئِمَّةً وَأَنْ يُعَرِّفَهُ ذَلِكَ ، وَأَنَّهُ إجَابَةٌ إلَى مَسْأَلَتِهِ ؛ لِأَنَّهُ لَوْ لَمْ يَكُنْ مِنْهُ إجَابَةٌ إلَى مَسْأَلَتِهِ لَقَالَ : " لَيْسَ فِي ذُرِّيَّتِك أَئِمَّةٌ " وَقَالَ : " لَا يَنَالُ عَهْدِي مِنْ ذُرِّيَّتِك أَحَدٌ " فَلَمَّا قَالَ : ﴿ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ دَلَّ عَلَى أَنَّ الْإِجَابَةَ قَدْ وَقَعَتْ لَهُ فِي أَنَّ فِي ذُرِّيَّتِهِ أَئِمَّةً ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ فَأَخْبَرَ أَنَّ الظَّالِمِينَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ لَا يَكُونُونَ أَئِمَّةً وَلَا يَجْعَلُهُمْ مَوْضِعَ الِاقْتِدَاءِ بِهِمْ وَقَدْ رُوِيَ عَنْ السُّدِّيِّ فِي قَوْله تَعَالَى : ﴿ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ أَنَّهُ النُّبُوَّةَ .

وَعَنْ مُجَاهِدٍ : أَنَّهُ

أَرَادَ أَنَّ الظَّالِمَ لَا يَكُونُ إمَامًا ، وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ : " لَا يَلْزَمُ الْوَفَاءُ بِعَهْدِ الظَّالِمِ ، فَإِذَا عَقَدَ عَلَيْك فِي ظُلْمٍ فَانْقُضْهُ " .

(122/65)

وَقَالَ الْحَسَنُ : " لَيْسَ لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدٌ يُعْطِيهِمْ عَلَيْهِ خَيْرًا فِي الْآخِرَةِ " .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ جَمِيعُ مَا رُوِيَ مِنْ هَذِهِ الْمَعَانِي يَحْتَمِلُهُ اللَّفْظُ ، وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ جَمِيعُهُ مُرَادًا لِلَّهِ تَعَالَى ، وَهُوَ مَحْمُولٌ عَلَى ذَلِكَ عِنْدَنَا ، فَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الظَّالِمُ نَبِيًّا وَلَا خَلِيفَةً لِنَبِيٍّ وَلَا

قَاضِيًا ، وَلَا مَنْ يَلْزَمُ النَّاسَ قَبُولُ قَوْلِهِ فِي أُمُورِ الدِّينِ مِنْ مُفْتٍ أَوْ شَاهِدٍ أَوْ مُخْبِرٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَبَرًا فَقَدْ أَفَادَتْ الْآيَةُ أَنَّ شَرْطَ جَمِيعِ مَنْ كَانَ فِي مَحَلِّ الِائْتِمَامِ بِهِ فِي أَمْرِ الدِّينِ الْعَدَالَةُ وَالصَّلَاحُ ، وَهَذَا يَدُلُّ أَيْضًا عَلَى أَنَّ أَئِمَّةَ الصَّلَاةِ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونُوا صَالِحِينَ غَيْرَ فُسَّاقٍ وَلَا ظَالِمِينَ لِدَلَالَةِ الْآيَةِ عَلَى شَرْطِ الْعَدَالَةِ لِمَنْ نُصِبَ مَنْصِبَ الِائْتِمَامِ بِهِ فِي أُمُورِ الدِّينِ ؛ لِأَنَّ عَهْدَ اللَّهِ هُوَ أَوَامِرُهُ ، فَلَمْ يُجْعَلْ قَبُولُهُ عَنْ الظَّالِمِينَ مِنْهُمْ وَهُوَ مَا أَوْدَعَهُمْ مِنْ أُمُورِ دِينِهِ وَأَجَازَ قَوْلَهُمْ فِيهِ وَأَمَرَ النَّاسَ بِقَبُولِهِ مِنْهُمْ وَالِاقْتِدَاءِ بِهِمْ فِيهِ .

(123/65)

أَلَا تَرَى إلَى قَوْله تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ يَعْنِي أُقَدِّمُ إلَيْكُمْ الْأَمْرَ بِهِ ؛ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ الَّذِينَ قَالُوا إنَّ اللَّهَ عَهِدَ إلَيْنَا ﴾ وَمِنْهُ عَهْدُ الْخُلَفَاءِ إلَى أُمَرَائِهِمْ وَقُضَاتِهِمْ إنَّمَا هُوَ مَا يَتَقَدَّمُ بِهِ إلَيْهِمْ لِيَحْمِلُوا النَّاسَ عَلَيْهِ وَيَحْكُمُوا بِهِ فِيهِمْ وَذَلِكَ لِأَنَّ عَهْدَ اللَّهِ إذَا كَانَ إنَّمَا هُوَ أَوَامِرُهُ لَمْ يَخُلْ قَوْلُهُ : ﴿ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ مِنْ أَنْ يُرِيدَ أَنَّ الظَّالِمِينَ غَيْرُ مَأْمُورِينَ أَوْ أَنَّ الظَّالِمِينَ لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونُوا بِمَحَلِّ مَنْ يُقْبَلُ مِنْهُمْ أَوَامِرُ اللَّهِ تَعَالَى وَأَحْكَامُهُ وَلَا يُؤْمَنُونَ عَلَيْهَا ؛ فَلَمَّا بَطَلَ الْوَجْهُ الْأَوَّلُ لِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى أَنَّ أَوَامِرَ اللَّهِ تَعَالَى لَازِمَةٌ لِلظَّالِمِينَ كَلُزُومِهَا لِغَيْرِهِمْ وَأَنَّهُمْ إنَّمَا

اسْتَحَقُّوا سِمَةَ الظُّلْمِ لِتَرْكِهِمْ أَوَامِرَ اللَّهِ ، ثَبَتَ الْوَجْهُ الْآخَرُ وَهُوَ أَنَّهُمْ غَيْرُ مُؤْتَمَنِينَ عَلَى أَوَامِرِ اللَّهِ تَعَالَى وَغَيْرُ مُقْتَدًى بِهِمْ فِيهَا ، فَلَا يَكُونُونَ أَئِمَّةً فِي الدِّينِ ، فَثَبَتَ بِدَلَالَةِ هَذِهِ الْآيَةِ بُطْلَانُ إِمَامَةِ الْفَاسِقِ وَأَنَّهُ لَا يَكُونُ خَلِيفَةً ، وَأَنَّ مَنْ نَصَّبَ نَفْسَهُ فِي هَذَا الْمَنْصِبِ وَهُوَ فَاسِقٌ لَمْ يَلْزَمْ النَّاسَ اتِّبَاعُهُ وَلَا طَاعَتُهُ .

وَكَذَلِكَ قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿ لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ ﴾ .

(124/65)

وَدَلَّ أَيْضًا عَلَى أَنَّ الْفَاسِقَ لَا يَكُونُ حَاكِمًا ، وَأَنَّ أَحْكَامَهُ لَا تَنْفُذُ إِذَا وَلِيَ الْحُكْمَ ، وَكَذَلِكَ لَا تُقْبَلُ شَهَادَتُهُ وَلَا خَبَرُهُ إِذَا أَخْبَرَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَا فُتْيَاهُ إِذَا كَانَ مُفْتِيًا ، وَأَنَّهُ لَا يُقَدَّمُ لِلصَّلَاةِ ، وَإِنْ كَانَ لَوْ قُدِّمَ وَاقْتَدَى بِهِ مُقْتَدٍ كَانَتْ صَلَاتُهُ مَاضِيَةً فَقَدْ حَوَى قَوْلُهُ : ﴿ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ هَذِهِ الْمَعَانِي كُلَّهَا وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَظُنُّ أَنَّ مَذْهَبَ أَبِي حَنِيفَةَ تَجْوِيزُ إِمَامَةِ الْفَاسِقِ وَخِلَافَتِهِ وَأَنَّهُ يُفَرِّقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْحَاكِمِ فَلَا يُجِيزُ حُكْمَهُ ، وَذُكِرَ ذَلِكَ عَنْ بَعْضِ الْمُتَكَلِّمِينَ وَهُوَ الْمُسَمَّى زُرْقَانَ وَقَدْ كَذَبَ فِي ذَلِكَ وَقَالَ بِالْبَاطِلِ ، وَلَيْسَ هُوَ أَيْضًا مِمَّنْ تُقْبَلُ حِكَايَتُهُ وَلَا فَرْقَ عِنْدَ أَبِي حَنِيفَةَ بَيْنَ الْقَاضِي وَبَيْنَ الْخَلِيفَةِ فِي أَنَّ شَرْطَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا الْعَدَالَةُ ، وَأَنَّ الْفَاسِقَ لَا يَكُونُ خَلِيفَةً وَلَا يَكُونُ حَاكِمًا ؛ كَمَا لَا تُقْبَلُ شَهَادَتُهُ

وَلَا خَبَرُهُ لَوْ رَوَى خَبَرًا عَنْ النَّبِيّ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَكَيْفَ يَكُونُ خَلِيفَةً وَرِوَايَتُهُ غَيْرُ مَقْبُولَةٍ وَأَحْكَامُهُ غَيْرُ نَافِذَةٍ وَكَيْفَ يَجُوزُ أَنْ يُدْعَى ذَلِكَ عَلَى أَبِي حَنِيفَةَ وَقَدْ أَكْرَهَهُ ابْنُ هُبَيْرَةَ فِي أَيَّامِ بَنِي أُمَيَّةَ عَلَى الْقَضَاءِ وَضَرَبَهُ فَامْتَنَعَ مِنْ ذَلِكَ وَحُبِسَ فَلَجَّ ابْنُ هُبَيْرَةَ وَجَعَلَ يَضْرِبُهُ كُلَّ يَوْمٍ أَسْوَاطًا .

(125/65)

فَلَمَّا خِيفَ عَلَيْهِ قَالَ لَهُ الْفُقَهَاءُ : فَتَوَلَّ شَيْئًا مِنْ أَعْمَالِهِ أَيَّ شَيْءٍ كَانَ حَتَّى يَزُولَ عَنْك هَذَا الضَّرْبُ فَتَوَلَّى لَهُ عَدَّ أَحْمَالِ التِّبْنِ الَّذِي يَدْخُلُ ، فَخَلَّاهُ ، ثُمَّ دَعَاهُ الْمَنْصُورُ إلَى مِثْلِ ذَلِكَ فَأَبَى ، فَحَبَسَهُ حَتَّى عَدَّ لَهُ اللَّبِنَ الَّذِي كَانَ يُضْرَبُ لِسُورِ مَدِينَةِ بَغْدَادَ وَكَانَ مَذْهَبُهُ مَشْهُورًا فِي قِتَالِ الظَّلَمَةِ وَأَئِمَّةِ الْجَوْرِ ، وَلِذَلِكَ قَالَ الْأَوْزَاعِيُّ : " احْتَمَلْنَا أَبَا حَنِيفَةَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى جَاءَنَا بِالسَّيْفِ يَعْنِي قِتَالَ الظَّلَمَةِ فَلَمْ نَحْتَمِلْهُ ، وَكَانَ مِنْ قَوْلِهِ : وُجُوبُ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنْ الْمُنْكَرِ فَرْضٌ بِالْقَوْلِ ، فَإِنْ لَمْ يُؤْتَمَرْ لَهُ فَبِالسَّيْفِ ، عَلَى مَا رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وَسَأَلَهُ إبْرَاهِيمُ الصَّائِغُ وَكَانَ مِنْ فُقَهَاءِ أَهْلِ خُرَاسَانَ وَرُوَاةِ الْأَخْبَارِ وَنُسَّاكِهِمْ عَنْ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنْ الْمُنْكَرِ ، فَقَالَ : " هُوَ فَرْضٌ " وَحَدَّثَهُ بِحَدِيثٍ عَنْ عِكْرِمَةَ عَنْ ابْنِ

عَبَّاس ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ أَفْضَلُ الشُّهَدَاءِ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، وَرَجُلٌ قَامَ إِلَى إِمَامٍ جَائِرٍ فَأَمَرَهُ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَاهُ عَنْ الْمُنْكَرِ فَقُتِلَ ﴾ .

فَرَجَعَ إِبْرَاهِيمُ إِلَى مَرْوَ وَقَامَ إِلَى أَبِي مُسْلِمٍ صَاحِبِ الدَّوْلَةِ فَأَمَرَهُ وَنَهَاهُ وَأَنْكَرَ عَلَيْهِ ظُلْمَهُ وَسَفْكَهُ الدِّمَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ، فَاحْتَمَلَهُ مِرَارًا ثُمَّ قَتَلَهُ .

(126/65)

وَقَضِيَّتُهُ فِي أَمْرِ زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ مَشْهُورَةٌ وَفِي حَمْلِهِ الْمَالَ إلَيْهِ وَفُتْيَاهُ النَّاسَ سِرًّا فِي وُجُوبِ نُصْرَتِهِ وَالْقِتَالِ

مَعَهُ وَكَذَلِكَ أَمْرُهُ مَعَ مُحَمَّدٍ وَإِبْرَاهِيمَ ابْنَيْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَسَنٍ ، وَقَالَ لِأَبِي إِسْحَاقَ الْفَزَارِيِّ حِينَ قَالَ لَهُ : لِمَ أَشَرْت عَلَى أَخِي بِالْخُرُوجِ مَعَ إِبْرَاهِيمَ حَتَّى قُتِلَ ؟ قَالَ : مَخْرَجُ أَخِيك أَحَبُّ إلَيَّ مِنْ مَخْرَجِك " .

(127/65)

وَكَانَ أَبُو إِسْحَاقَ قَدْ خَرَجَ إِلَى الْبَصْرَةِ ، وَهَذَا إِنَّمَا أَنْكَرَهُ عَلَيْهِ أَغْمَارُ أَصْحَابِ الْحَدِيثِ الَّذِينَ بِهِمْ فُقِدَ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنْ الْمُنْكَرِ حَتَّى تَغَلَّبَ الظَّالِمُونَ عَلَى أُمُورِ الْإِسْلَامِ ، فَمَنْ كَانَ هَذَا مَذْهَبُهُ فِي الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنْ الْمُنْكَرِ كَيْفَ يَرَى إمَامَةَ الْفَاسِقِ ؟ فَإِنَّمَا جَاءَ غَلَطُ مَنْ غَلِطَ فِي ذَلِكَ ، إنْ لَمْ يَكُنْ تَعَمَّدَ الْكَذِبَ مِنْ جِهَةِ قَوْلِهِ وَقَوْلِ سَائِرِ مَنْ يَعْرِفُ قَوْلَهُ مِنْ الْعِرَاقِيِّينَ ، أَنَّ الْقَاضِيَ إذَا كَانَ عَدْلًا فِي نَفْسِهِ فَوَلِيَ الْقَضَاءَ مِنْ قِبَلِ إمَامٍ جَائِرٍ أَنَّ أَحْكَامَهُ نَافِذَةٌ وَقَضَايَاهُ صَحِيحَةٌ وَأَنَّ الصَّلَاةَ خَلْفَهُمْ جَائِزَةٌ مَعَ كَوْنِهِمْ فُسَّاقًا وَظَلَمَةً ، وَهَذَا مَذْهَبٌ صَحِيحٌ وَلَا دَلَالَةَ فِيهِ عَلَى أَنَّ مِنْ مَذْهَبِهِ إمَامَةَ الْفَاسِقِ ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْقَاضِيَ إذَا كَانَ عَدْلًا فَإِنَّمَا يَكُونُ قَاضِيًا بِأَنْ يُمْكِنَهُ تَنْفِيذُ الْأَحْكَامِ وَكَانَتْ لَهُ يَدٌ وَقُدْرَةٌ عَلَى مَنْ امْتَنَعَ مِنْ قَبُولِ أَحْكَامِهِ حَتَّى يُجْبِرَهُ عَلَيْهَا ، وَلَا اعْتِبَارَ فِي ذَلِكَ بِمَنْ وَلَّاهُ ؛ لِأَنَّ الَّذِي وَلَّاهُ إنَّمَا هُوَ بِمَنْزِلَةِ سَائِرِ أَعْوَانِهِ .

(128/65)

وَلَيْسَ شَرْطُ أَعْوَانِ الْقَاضِي أَنْ يَكُونُوا عُدُولًا ؛ أَلَا تَرَى أَنَّ أَهْلَ بَلَدٍ لَا سُلْطَانَ عَلَيْهِمْ لَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى الرِّضَا بِتَوْلِيَةِ رَجُلٍ عَدْلٍ مِنْهُمْ الْقَضَاءَ حَتَّى يَكُونُوا أَعْوَانًا لَهُ عَلَى مَنْ امْتَنَعَ مِنْ

قَبُولِ أَحْكَامِهِ لَكَانَ قَضَاؤُهُ نَافِذًا وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وِلَايَةٌ مِنْ جِهَةِ إِمَامٍ وَلَا سُلْطَانٍ ؟ وَعَلَى هَذَا تَوَلَّى شُرَيْحٌ وَقُضَاةُ التَّابِعِينَ الْقَضَاءَ مِنْ قِبَلِ بَنِي أُمَيَّةَ ، وَقَدْ كَانَ شُرَيْحٌ

(129/65)

قَاضِيًا بِالْكُوفَةِ إِلَى أَيَّامِ الْحَجَّاجِ ، وَلَمْ يَكُنْ فِي الْعَرَبِ وَلَا آلِ مَرْوَانَ أَظْلَمُ وَلَا أَكْفَرُ وَلَا أَفْجَرُ مِنْ عَبْدِ الْمَلِكِ ، وَلَمْ يَكُنْ فِي عُمَّالِهِ أَكْفَرُ وَلَا أَظْلَمُ وَلَا أَفْجَرُ مِنْ الْحَجَّاجِ وَكَانَ عَبْدُ الْمَلِكِ أَوَّلَ مَنْ قَطَعَ أَلْسِنَةَ النَّاسِ فِي الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنْ الْمُنْكَرِ ، صَعِدَ الْمِنْبَرَ فَقَالَ : " إِنِّي وَاَللَّهِ مَا أَنَا بِالْخَلِيفَةِ الْمُسْتَضْعَفِ يَعْنِي عُثْمَانَ وَلَا بِالْخَلِيفَةِ الْمُصَانِعِ يَعْنِي مُعَاوِيَةَ وَإِنَّكُمْ تَأْمُرُونَنَا بِأَشْيَاءَ تَنْسَوْنَهَا فِي أَنْفُسِكُمْ ؛ وَاَللَّهِ لَا يَأْمُرُنِي أَحَدٌ بَعْدَ مَقَامِي هَذَا بِتَقْوَى اللَّهِ إِلَّا ضَرَبْت عُنُقَهُ " وَكَانُوا يَأْخُذُونَ الْأَرْزَاقَ مِنْ بُيُوتِ أَمْوَالِهِمْ وَقَدْ كَانَ الْمُخْتَارُ الْكَذَّابُ يَبْعَثُ إلَى ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُحَمَّدِ ابْنِ الْحَنَفِيَّةِ وَابْنِ عُمَرَ بِأَمْوَالٍ ، فَيَقْبَلُونَهَا ، وَذَكَرَ مُحَمَّدُ بْنُ عَجْلَانَ عَنْ الْقَعْقَاعِ قَالَ : كَتَبَ عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ مَرْوَانَ إلَى ابْنِ عُمَرَ " ارْفَعْ إلَيَّ حَوَائِجَك " فَكَتَبَ إلَيْهِ : إنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ إنَّ الْيَدَ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنْ الْيَدِ السُّفْلَى ﴾ وَأَحْسَبُ أَنَّ الْيَدَ الْعُلْيَا يَدُ الْمُعْطِي وَأَنَّ الْيَدَ السُّفْلَى يَدُ الْآخِذِ ، وَإِنِّي لَسْت سَائِلَك شَيْئًا وَلَا رَادًّا عَلَيْك رِزْقًا رَزَقَنِيهِ اللَّهُ مِنْك ، وَالسَّلَامُ وَقَدْ كَانَ الْحَسَنُ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ

وَالشَّعْبِيُّ وَسَائِرُ التَّابِعِينَ يَأْخُذُونَ أَرْزَاقَهُمْ مِنْ أَيْدِي هَؤُلَاءِ الظَّلَمَةِ ، لَا عَلَى أَنَّهُمْ كَانُوا يَتَوَلَّوْنَهُمْ وَلَا

(130/65)

يَرَوْنَ إِمَامَتَهُمْ ، وَإِنَّمَا كَانُوا يَأْخُذُونَهَا عَلَى أَنَّهَا حُقُوقٌ لَهُمْ فِي أَيْدِي قَوْمٍ فَجَرَةٍ .

وَكَيْفَ يَكُونُ ذَلِكَ عَلَى وَجْهِ مُوَالَاتِهِمْ وَقَدْ ضَرَبُوا وَجْهَ الْحَجَّاجِ بِالسَّيْفِ ، وَخَرَجَ عَلَيْهِ مِنْ الْقُرَّاءِ أَرْبَعَةُ آلَافِ رَجُلٍ هُمْ خِيَارُ التَّابِعِينَ وَفُقَهَاؤُهُمْ فَقَاتَلُوهُ مَعَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ الْأَشْعَثِ

بِالْأَهْوَازِ ثُمَّ بِالْبَصْرَةِ ثُمَّ بِدَيْرِ الْجَمَاجِمِ مِنْ نَاحِيَةِ الْفُرَاتِ بِقُرْبِ الْكُوفَةِ وَهُمْ خَالِعُونَ لِعَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ لَا عِنُونَ لَهُمْ مُتَبَرِّئُونَ مِنْهُمْ وَكَذَلِكَ كَانَ سَبِيلُ مَنْ قَبْلَهُمْ مَعَ مُعَاوِيَةَ حِينَ تَغَلَّبَ عَلَى الْأَمْرِ بَعْدَ قَتْلِ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَدْ كَانَ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ يَأْخُذَانِ الْعَطَاءَ وَكَذَلِكَ مَنْ كَانَ فِي ذَلِكَ الْعَصْرِ مِنْ الصَّحَابَةِ وَهُمْ غَيْرُ مُتَوَلِّينَ لَهُ بَلْ مُتَبَرِّئُونَ مِنْهُ عَلَى السَّبِيلِ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ إلَى أَنْ تَوَفَّاهُ اللَّهُ تَعَالَى إلَى جَنَّتِهِ وَرِضْوَانِهِ .

(131/65)

فَلَيْسَ إذًا فِي وِلَايَةِ الْقَضَاءِ مِنْ قِبَلِهِمْ وَلَا أَخْذِ الْعَطَاءِ مِنْهُمْ دَلَالَةٌ عَلَى تَوْلِيَتِهِمْ وَاعْتِقَادِ إمَامَتِهِمْ وَرُبَّمَا احْتَجَّ بَعْضُ أَغْبِيَاءِ الرَّفْضَةِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ فِي رَدِّ إمَامَةِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَعُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ؛ لِأَنَّهُمَا كَانَا ظَالِمَيْنِ حِينَ كَانَا مُشْرِكَيْنِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَهَذَا جَهْلٌ مُفْرِطٌ ؛ لِأَنَّ هَذِهِ السِّمَةَ إنَّمَا تَلْحَقُ مَنْ كَانَ مُقِيمًا عَلَى الظُّلْمِ ، فَأَمَّا التَّائِبُ مِنْهُ فَهَذِهِ السِّمَةُ زَائِلَةٌ عَنْهُ ، فَلَا جَائِزَ أَنْ يَتَعَلَّقَ بِهِ حُكْمٌ ؛ لِأَنَّ الْحُكْمَ إذَا كَانَ مُعَلَّقًا بِصِفَةٍ فَزَالَتْ الصِّفَةُ زَالَ الْحُكْمُ ، وَصِفَةُ الظُّلْمِ صِفَةُ ذَمٍّ ، فَإِنَّمَا يَلْحَقُهُ مَا دَامَ مُقِيمًا عَلَيْهِ ، فَإِذَا زَالَ عَنْهُ زَالَتْ الصِّفَةُ عَنْهُ ؛ كَذَلِكَ يَزُولُ عَنْهُ الْحُكْمُ الَّذِي عَلِقَ بِهِ مِنْ نَفْيِ نَيْلِ الْعَهْدِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ أَلَا تَرَى أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى ﴿ وَلَا تَرْكَنُوا إلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ : إنَّمَا هُوَ نَهْيٌ عَنْ الرُّكُونِ إلَيْهِمْ مَا أَقَامُوا عَلَى الظُّلْمِ ؟ وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ إنَّمَا هُوَ مَا أَقَامُوا عَلَى الْإِحْسَانِ فَقَوْلُهُ : ﴿ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ لَمْ يَنْفِ بِهِ

الْعَهْدَ عَمَّنْ تَابَ عَنْ ظُلْمِهِ ؛ لِأَنَّهُ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ لَا يُسَمَّى ظَالِمًا كَمَا لَا يُسَمَّى مَوْسُومًا مَنْ تَابَ مِنْ الْكُفْرِ كَافِرًا .

وَمَنْ تَابَ مِنْ الْفِسْقِ فَاسِقًا ، وَإِنَّمَا يُقَال : كَانَ كَافِرًا ، وَكَانَ فَاسِقًا ، وَكَانَ ظَالِمًا ؛ وَاَللَّهُ تَعَالَى لَمْ يَقُلْ : " لَا يَنَالُ عَهْدِي مَنْ كَانَ ظَالِمًا " وَإِنَّمَا نَفَى ذَلِكَ عَمَّنْ كَانَ مَوْسُومًا بِسِمَةِ الظَّالِمِ ، وَالِاسْمُ لَازِمٌ لَهُ بَاقٍ عَلَيْهِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 1 صـ 89.81 ﴾

(133/65)

ومن لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ .

البلاء تحقيق الولاء ، فأصدقهم ولاءً أشدُّهم بلاء .

ولقد ابتلى الحق – سبحانه – خليلَه – عليه السلام – بما فرض عليه وشرع له ، فقام بشرط وجوبها ، ووَفَّى بحكم مقتضاها ، فأثنى عليه سبحانه بقوله : ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴾ [النجم : 37] – من التوفيه – أي لم يُقَصِّر بوجهٍ ألبتة .

يقال حمَّله أعباء النبوة ، وطالبه بأحكام الخُلَّة ، وأشد بلاء له كان قيامه بشرائط الخلة ، والانفراد له بالتجافي عن كل واحد وكل شيء ، فقام بتصحيح ذلك مختليًا عن جميع ما

سواه ، سِرًّا وعَلَنًا .

كذلك لم يلاحظ جبريلَ ـ عليه السلام ـ حين تعرض له وهو يُقْذف في لُجة الهلاك ، فقال : هل من حاجة ؟ فقال : أمَّا إليكَ . . . فلا .

ومن كمال بلائه تعرض جبريل ـ عليه السلام ـ في تلك الحالة ، وأي بقية كانت بقيت له منه حتى يكون لمخلوق فيه مساغ كائنًا من كان ؟ !

وفي هذا إشارة دقيقة إلى الفَرْقِ بين حال نبيّنا ـ صلى الله عليه وسلم ـ وحال إبراهيم ـ عليه السلام ـ ، لأنه تعرض جبريل للخليل وعَرَضَ عليه نفسه :

فقال : أمَّا إليكَ . . . فَلاَ . ولم يُطِقْ جبريل صحبة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فنطق بلسان العجز وقال :

لو دنوتُ أنملة لاحترقتُ .

وشتّان بين حالة يكون فيها جبريل ـ عليه السلام ـ من قُوّته بحيث يعرض للخليل ـ عليه السلام ـ نفسه ، وبين حالةٍ يعترف للحبيب – صلوات الله عليه – فيها بعجزه .

قوله جلّ ذكره : ﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا ﴾ .

الإمام مَنْ يُقْتَدى به ، وقد حقَّق له هذا حتى خاطب جميع الخلائق إلى يوم القيامة بالاقتداء به فقال : ﴿ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ﴾ [الحج : 78] أي اتبعوا ملة إبراهيم يعني التوحيد ، وقال : ﴿ وَاتَّخَذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ .

هذا هو تحقيق الإمامة . ورتبة الإمامة أن يَفْهَم عن الحق ثم يُفْهِمَ الخَلق ؛ فيكون واسطة بين الحق والخَلْق ، يكون بظاهره مع الخَلْق لا يفتر عن تبليغ الرسالة ، وبباطنه مشاهدًا للحق ، لا يتغير له صفاء الحالة ، ويقول للخلْق ما يقوله له الحق .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِى ﴾ .

نطق بمقتضى الشفقة عليهم ، فطلب لهم ما أُكرِم به . فأخبره أن ذلك ليس باستحقاق نَسَب ، أو باستيجاب سبب ، وإنما هي أقسام مضت بها أحكام فقال له : ﴿ لاَ يَنَالُ عَهْدِى الظَّالِمِينَ ﴾ وليس هذا كنعيم الدنيا وسعة الأرزاق فيها ، فهي لا ادّخار لها عن أحد وإن كان كافرًا ، ولذلك قال جلّ ذكره : ﴿ وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ .

فقال الله تعالى : ﴿ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ﴾ .

يعني ليس للدنيا من الخطر ما يمنعها عن الكفار ، ولكن عهدي لا يناله إلا مَنْ اخترته مِنْ خواص عبادي . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 121. 122 ﴾

ومن فوائد ابن العربى فى الآية

قال رحمه الله :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ الْآيَةُ فِيهَا ثَلَاثُ مَسَائِلَ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : ابْتَلَى مَعْنَاهُ اخْتَبَرَ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ بَيَانُهُ فِي كِتَابِ الْمُشْكَلَيْنِ ، وَبَيَّنَّا أَنَّ مَعْنَاهُ أَمَرَ لِيَعْلَمَ مِنْ الِامْتِثَالِ أَوْ التَّقْصِيرِ مُشَاهَدَةً مَا عَلِمَ غَيْبًا ، وَهُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ، تَخْتَلِفُ الْأَحْوَالُ عَلَى الْمَعْلُومَاتِ ، وَعِلْمُهُ لَا يَخْتَلِفُ ، بَلْ يَتَعَلَّقُ بِالْكُلِّ تَعَلُّقًا وَاحِدًا .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ بِكَلِمَاتٍ ﴾ هِيَ : جَمْعُ كَلِمَةٍ ، وَيَرْجِعُ تَحْقِيقُهَا إلَى كَلَامِ الْبَارِي سُبْحَانَهُ ، لَكِنَّهُ تَعَالَى عَبَّرَ بِهَا عَنْ الْوَظَائِفِ الَّتِي كَلَّفَهَا إبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَلَمَّا كَانَ تَكْلِيفُهَا بِالْكَلَامِ سُمِّيَتْ بِهِ ، كَمَا يُسَمَّى عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ كَلِمَةً ؛ لِأَنَّهُ صَدَرَ عَنْ الْكَلِمَةِ ، وَهِيَ : كُنْ ، وَتَسْمِيَةُ الشَّيْءِ بِمُقَدِّمَتِهِ أَحَدُ قِسْمِي الْمَجَازِ الَّذِي بَيَّنَّاهُ فِي مَوْضِعِهِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : مَا تِلْكَ الْكَلِمَاتُ ؟ وَقَدْ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِيهَا اخْتِلَافًا كَثِيرًا ، لُبَابُهُ قَوْلَانِ :

أَحَدُهُمَا : أَنَّهَا شَرِيعَةُ الْإِسْلَامِ ، فَأَكْمَلَهَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

(136/65)

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : وَمَا قَامَ أَحَدٌ بِوَظَائِفِ الدِّينِ مِثْلُهُ يَعْنِي وَاَللَّهُ أَعْلَمُ قَبْلَهُ ؛ فَقَدْ قَامَ بِهَا بَعْدَهُ كَثِيرٌ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ ، وَخُصُوصًا مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَلَيْهِمْ .

الثَّانِي : أَنَّهَا الْفِطْرَةُ الَّتِي أَوْعَزَ اللَّهُ تَعَالَى بِهَا إِلَيْهِ ، وَرَتَّبَهَا عَلَيْهِ ، وَرَوَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فِي الصَّحِيحِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ ﴿ عَشْرٌ مِنْ الْفِطْرَةِ : قَصُّ الشَّارِبِ وَإِعْفَاءُ اللِّحْيَةِ وَالسِّوَاكُ وَاسْتِنْشَاقُ الْمَاءِ وَقَصُّ الْأَظْفَارِ وَغَسْلُ الْبَرَاجِمِ وَحَلْقُ الْعَانَةِ وَنَتْفُ الْإِبْطِ وَانْتِقَاصُ الْمَاءِ وَنَسِيتُ الْعَاشِرَةَ إِلَّا أَنْ تَكُونَ الْمَضْمَضَةَ ﴾ .

وَرَوَى عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ الْحَدِيثَ ، وَقَالَ : ﴿ الْمَضْمَضَةُ وَالِاسْتِنْشَاقُ ﴾ ، وَزَادَ : ﴿ الْخِتَانُ ﴾ ، وَذَكَرَ ﴿ الِانْتِضَاحُ ﴾ بَدَلَ ﴿ انْتِقَاصُ الْمَاءِ ﴾ .

وَقَدْ قَالَ بَعْضُ عُلَمَائِنَا : إنَّ مَعْنَى قَوْلِهِ هُنَا : ﴿ مِنْ الْفِطْرَةِ ﴾ يَعْنِي مِنْ السُّنَّةِ ، وَأَنَا أَقُولُ : إنَّهَا مِنْ الْمِلَّةِ ، وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ إبْرَاهِيمَ ابْتُلِيَ بِهَا فَرْضًا ، وَهِيَ لَنَا سُنَّةٌ ، وَالَّذِي يَصِحُّ أَنَّ

إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ابْتُلِيَ بِهَا تَكْلِيفًا غَيْرَ مُعَيَّنٍ مِنْ الْفَرْضِ أَوْ النَّدْبِ فِي جَمِيعِهَا أَوْ انْقِسَامِ الْحَالِ فِيهَا .

(137/65)

وَقَدْ اتَّفَقَتْ الْأُمَّةُ عَلَى أَنَّهَا مِنْ الْمِلَّةِ ، وَاخْتَلَفُوا فِي مَرَاتِبِهَا ؛ فَأَمَّا قَصُّ الشَّارِبِ وَإِعْفَاءُ اللِّحْيَةِ فَمُخَالَفَةٌ لِلْأَعَاجِمِ فَإِنَّهُمْ يَقُصُّونَ لِحَاهُمْ ، وَيُوَفِّرُونَ شَوَارِبَهُمْ ، أَوْ يُوَفِّرُونَهُمَا مَعًا ، وَذَلِكَ عَكْسُ الْجَمَالِ وَالنَّظَافَةِ .

وَأَمَّا السِّوَاكُ وَالْمَضْمَضَةُ وَالِاسْتِنْشَاقُ فَلِتَنْظِيفِ الْفَمِ مِنْ الطَّعَامِ وَالْقَلَحِ .

وَأَمَّا قَصُّ الْأَظْفَارِ فَلِتَنْزِيهِ الطَّعَامِ عَمَّا يَلْتَئِمُ مِنْ الْوَسَخِ فِيهَا وَالْأَقْذَارِ .

وَأَمَّا غَسْلُ الْبَرَاجِمِ فَلِمَا يَجْتَمِعُ مِنْ الْأَوْسَاخِ فِي غُضُونِهَا .

وَحَلْقُ الْعَانَةِ وَنَتْفُ الْإِبْطِ تَنْظِيفًا عَمَّا يَتَلَبَّدُ مِنْ الْوَسَخِ فِيهِمَا عَلَى شَعْرِهِمَا وَمِمَّا يَجْتَمِعُ مِنْ الرَّمَصِ فِيهِمَا ، وَالِاسْتِنْجَاءُ لِتَنْظِيفِ ذَلِكَ الْمَحَلِّ وَتَطْيِيبِهِ عَنْ الْأَذَى وَالْأَدْوَاءِ .

وَأَمَّا الْخِتَانُ فَلِنَظَافَةِ الْقُلْفَةِ عَمَّا يَجْتَمِعُ مِنْ أَذَى الْبَوْلِ فِيهَا ، وَلَمْ يَخْتَتِنْ أَحَدٌ قَبْلَ إبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ؛ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ : ﴿ أَنَّهُ اخْتَتَنَ بِالْقَدُومِ وَهُوَ ابْنُ مِائَةٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً ﴾ .

وَقَدْ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِيهِ ، فَرَأَى الشَّافِعِيُّ أَنَّهُ سُنَّةٌ لِمَا قُرِنَ بِهِ مِنْ إخْوَتِهِ فِي هَذَا الْحَدِيثِ ،

وَرَأَى مَالِكٌ أَنَّهُ فَرْضٌ ؛ لِأَنَّهُ تُكْشَفُ لَهُ الْعَوْرَةُ وَلَا يُبَاحُ الْحَرَامُ إلَّا لِلْوَاجِبِ ، وَقَدْ مَهَّدْنَاهُ فِي مَسَائِلِ الْخِلَافِ ، فَلَمَّا أَتَمَّ إبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ هَذِهِ الْوَظَائِفَ أَثْنَى اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَلَيْهِ ، فَقَالَ : ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴾ .

(138/65)

سَمِعْت بَعْضَ الْعُلَمَاءِ يَقُولُ : وَإِبْرَاهِيمُ الَّذِي وَفَّى بِمَالِهِ لِلضِّيفَانِ ، وَبِبَدَنِهِ لِلنِّيرَانِ ، وَبِقَلْبِهِ لِلرَّحْمَنِ .

الْآيَةُ الْمُوَفِّيَةُ عِشْرِينَ قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا ﴾ هَذَا تَنْبِيهٌ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى لِعِبَادِهِ عَلَى فَضْلِهِ ، وَتَعْدِيدٌ لِنِعَمِهِ الَّتِي مِنْهَا جَعَلَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ لِلْعَرَبِ عُمُومًا وَلِقُرَيْشٍ خُصُوصًا مَثَابَةً لِلنَّاسِ أَيْ مَعَادًا فِي كُلِّ عَامٍ لَا يَخْلُو مِنْهُمْ ، يُقَالُ : ثَابَ إلَى كَذَا أَيْ : رَجَعَ وَعَادَ إلَيْهِ ، فَإِنْ قِيلَ : لَيْسَ كُلُّ مَنْ جَاءَهُ عَادَ إلَيْهِ .

قُلْنَا : لَا يَخْتَصُّ ذَلِكَ بِمَنْ وَرَدَ عَلَيْهِ ، وَإِنَّمَا الْمَعْنَى أَنَّهُ لَا يَخْلُو مِنْ الْجُمْلَةِ ، وَلَمْ يَعْدَمْ قَاصِدًا مِنْ النَّاسِ ؛ وَكَذَلِكَ جَعَلَهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَمْنًا يَلْقَى الرَّجُلُ فِيهِ قَاتِلَ وَلِيِّهِ فَلَا يُرَوِّعُهُ .

وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ﴾ وَكَذَلِكَ : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ وَهَذَا لِمَا كَانَ اللَّهُ تَعَالَى قَدْ رَكَّبَ فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ تَعْظِيمِ

الْبُقْعَةِ وَتَفْضِيلِ الْمَوْضِعِ عَلَى غَيْرِهِ مِنْ الْأَرْضِ الْمُشَابِهَةِ لَهُ فِي الصِّفَةِ ، بِهَذِهِ الْخَصِّيصَى الْمُعَظَّمَةِ .

وَقَدْ سَمِعْت أَنَّ الْكَلْبَ الْخَارِجَ مِنْ الْحَرَمِ لَا يُرَوِّعُ الصَّيْدَ بِهَا ، وَهَذَا مِنْ آيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى فِيهَا ؛ وَهَذَا اللَّفْظُ وَإِنْ كَانَ وَرَدَ بِالْبَيْتِ ، فَإِنَّ الْمُرَادَ بِهِ الْحَرَمُ كُلُّهُ ؛ لِأَنَّ الْفَائِدَةَ فِيهِ كَانَتْ وَعَلَيْهِ دَامَتْ .

(139/65)

وَقَدْ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي تَفْسِيرِ الْأَمْنِ عَلَى أَرْبَعَةِ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : أَنَّهُ أَمْنٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْآخِرَةِ ، وَالْمَعْنَى أَنَّ مَنْ دَخَلَهُ مُعَظِّمًا لَهُ وَقَصَدَهُ مُحْتَسِبًا فِيهِ لِمَنْ تَقَدَّمَ إلَيْهِ .

وَيَعْضُدُهُ مَا رُوِيَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ مَنْ حَجَّ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ ﴾ .

الثَّانِي : مَعْنَاهُ مَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا مِنْ التَّشَفِّي وَالِانْتِقَامِ ، كَمَا كَانَتْ الْعَرَبُ تَفْعَلُهُ فِيمَنْ أَنَابَ إلَيْهِ مِنْ تَرْكِهَا لِحَقٍّ يَكُونُ لَهَا عَلَيْهِ .

الثَّالِثُ : أَنَّهُ أَمْنٌ مِنْ حَدٍّ يُقَامُ عَلَيْهِ ، فَلَا يُقْتَلُ بِهِ الْكَافِرُ ، وَلَا يُقْتَصُّ فِيهِ مِنْ الْقَاتِلِ ، وَلَا يُقَامُ الْحَدُّ عَلَى الْمُحْصَنِ وَالسَّارِقِ ؛ قَالَهُ جَمَاعَةٌ مِنْ فُقَهَاءِ الْأَمْصَارِ ، وَمِنْهُمْ أَبُو حَنِيفَةَ ،

وَسَيَأْتِي عَلَيْهِ الْكَلَامُ.

الرَّابِعُ: أَنَّهُ أَمْنٌ مِنْ الْقِتَالِ؛ لِقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: ﴿ إنَّ اللَّهَ حَبَسَ عَنْ مَكَّةَ الْفِيلَ أَوْ الْقَتْلَ وَسَلَّطَ عَلَيْهَا رَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ، لَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي وَلَا تَحِلُّ لِأَحَدٍ بَعْدِي، وَإِنَّمَا أُحِلَّتْ لِي سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ ﴾.

(140/65)

وَالصَّحِيحُ فِيهِ الْقَوْلُ الثَّانِي، وَهَذَا إخْبَارٌ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى عَنْ مِنَّتِهِ عَلَى عِبَادِهِ، حَيْثُ قَرَّرَ فِي قُلُوبِ الْعَرَبِ تَعْظِيمَ هَذَا الْبَيْتِ، وَتَأْمِينَ مَنْ لَجَأَ إلَيْهِ؛ إجَابَةً لِدَعْوَةِ إبْرَاهِيمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ أَنْزَلَ بِهِ أَهْلَهُ وَوَلَدَهُ، فَتَوَقَّعَ عَلَيْهِمْ الِاسْتِطَالَةَ، فَدَعَا أَنْ يَكُونَ أَمْنًا لَهُمْ فَاسْتُجِيبَ دُعَاؤُهُ.

وَأَمَّا مَنْ قَالَهُ: إنَّهُ أَمْنٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ تَعَالَى، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى نَبَّهَ بِجَعْلِهِ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا عَلَى حُجَّتِهِ عَلَى خَلْقِهِ، وَالْأَمْنُ فِي الْآخِرَةِ لَا تُقَامُ بِهِ حُجَّةٌ.

وَأَمَّا امْتِنَاعُ الْحَدِّ فِيهِ فَقَوْلٌ سَاقِطٌ؛ لِأَنَّ الْإِسْلَامَ الَّذِي هُوَ الْأَصْلُ، وَبِهِ اعْتَصَمَ الْحَرَمُ، لَا يَمْنَعُ مِنْ إقَامَةِ الْحُدُودِ وَالْقِصَاصِ؛ وَأَمْرٌ لَا يَقْتَضِيهِ الْأَصْلُ أَحْرَى أَلَّا يَقْتَضِيهِ الْفَرْعُ.

وَأَمَّا الْأَمْنُ عَنْ الْقَتْلِ وَالْقِتَالِ [فَقَوْلٌ لَا يَصِحُّ؛ لِأَنَّهُ قَدْ كَانَ فِيهِ الْقَتْلُ وَالْقِتَالُ] بَعْدَ ذَلِكَ

وَيَكُونُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَإِنَّمَا أَخْبَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ التَّحْلِيلِ لِلْقِتَالِ ، فَلَا جَرَمَ لَمْ يَكُنْ فِيهَا تَحْلِيلٌ قَبْلَ ذَلِكَ الْيَوْمِ ، وَلَا يَكُونُ لِعَدَمِ النُّبُوَّةِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَإِنَّمَا أَخْبَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ امْتِنَاعِ تَحْلِيلِ الْقِتَالِ شَرْعًا لَا عَنْ مَنْعِ وُجُودِهِ حِسًّا . انتهى انتهى . اهـ ﴿أحكام القرآن لابن العربى حـ 1 صـ 54. 59﴾

(141/65)

" فصل "

قال السيوطى :

وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (124)

أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه والبيهقي في سننه عن ابن عباس في قوله ﴿ وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات ﴾ قال : ابتلاه الله بالطهارة خمس في الرأس وخمس في الجسد ، في الرأس قص الشارب ، والمضمضة ، والاستنشاق ، والسواك ، وفرق الرأس . وفي الجسد تقليم الأظفار ، وحلق العانة ، والختان ، ونتف الابط ، وغسل مكان الغائط والبول بالماء .

وأخرج ابن إسحق وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : الكلمات التي ابتلي بهن إبراهيم فأتمهن : فراق قومه في الله حين أمر بمفارقتهم ، ومحاجته نمرود في الله حين وقفه على ما وقفه عليه من خطر الأمر الذي فيه خلافهم ، وصبره على قذفهم إياه في النار ليحرقوه في الله ، والهجرة بعد ذلك من وطنه وبلاده حين أمره بالخروج عنهم ، وما أمره به من الضيافة والصبر عليها ، وما ابتلي به من ذبح ولده . فلما مضى على ذلك كله وأخلصه البلاء قال الله له أسلم ﴿ قال أسلمت لرب العالمين ﴾ [البقرة : 131] .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : الكلمات التي ابتلى بها عشر ، ست في الإِنسان وأربع في المشاعر . فأما التي في الإِنسان : فحلق العانة ، ونتف الإِبط ، أو الختان ، وتقليم الأظفار ، وقص الشارب ، والسواك ، وغسل يوم الجمعة . والأربعة التي في المشاعر : الطواف بالبيت ، والسعي بين الصفا والمروة ، ورمي الجمار ، والإِفاضة .

(142/65)

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وابن مردويه وابن عساكر عن ابن عباس قال : ما ابتلي أحد بهذا الدين فقام به كله إلا إبراهيم قال ﴿ وإذ ابتلى إبراهيم ربه

بكلمات فأتمهن ﴾ قيل ما الكلمات ؟ قال : سهام الإِسلام ثلاثون سهماً . عشر في براءة التائبون العابدون إلى آخر الآية ، وعشر في أول سورة قد أفلح ، وسأل سائل ، والذين يصدقون بيوم الدين الآيات ، وعشر في الأحزاب أن المسلمين والمسلمات إلى آخر الآية فأتمهن كلهن ، فكتب له براءة قال تعالى ﴿ وإبراهيم الذي وفى ﴾ [النجم : 37] .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والحاكم من طرق عن ابن عباس ﴿ وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن ﴾ قال : منهن مناسك الحج .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : الكلمات ﴿ إني جاعلك للناس إماماً ﴾ [البقرة : 124] . ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد ﴾ [البقرة : 127] والآيات في شأن المنسك ، والمقام الذي جعل لإِبراهيم ، والرزق الذي رزق ساكنو البيت ، وبعث محمد في ذريتهما .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير عن مجاهد في قوله ﴿ وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات ﴾ قال : ابتلى بالآيات التي بعدها .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير عن الحسن قال : ابتلاه بالكوكب فرضي عنه ، وابتلاه بالقمر فرضي عنه ، وابتلاه بالشمس فرضي عنه ، وابتلاه بالهجرة فرضي عنه ، وابتلاه بالختان فرضي عنه ، وابتلاه بابنه فرضي عنه .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله ﴿ فأتمهن ﴾ قال : فأدّاهن .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عطاء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من فطرة

إبراهيم السواك " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد قال : من فطرة إبراهيم غسل الذكر والبراجم .

وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف عن مجاهد قال : ست من فطرة إبراهيم : قص الشارب ، والسواك ، والفرق ، وقص الأظفار ، والاستنجاء ، وحلق العانة ، قال : ثلاثة في الرأس ، وثلاثة في الجسد .

(143/65)

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة " سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : الفطرة خمس ، أو خمس من الفطرة : الختان ، والاستحداد ، وقص الشارب ، وتقليم الأظفار ، ونتف الآباط " .

وأخرج البخاري والنسائي عن ابن عمر " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من الفطرة حلق العانة ، وتقليم الأظفار ، وقص الشارب " .

وأخرج ابن أبي شيبة ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " عشر من الفطرة : قص الشارب ، واعفاء اللحية ، والسواك ، والاستنشاق بالماء ، وقص الأظفار ، وغسل البراجم ، ونتف الآباط ، وحلق

العانة ، وانتقاص الماء يعني الاستنجاء بالماء . قال مصعب : نسيت العاشرة إلا أن تكون المضمضة " .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد وأبو داود وابن ماجه عن عمار بن ياسر " إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : الفطرة المضمضة ، والاستنشاق ، والسواك ، وقص الشارب ، وتقليم الأظفار ، ونتف الابط ، والاستحداد ، وغسل البراجم والانتضاح ، والاختتان " .

وأخرج البزار والطبراني عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " الطهارات أربع : قص الشارب ، وحلق العانة ، وتقليم الأظفار ، والسواك " .

وأخرج مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه عن أنس بن مالك قال " وقَّت لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في قص الشارب ، وتقليم الأظفار ، وحلق العانة ، ونتف الإبِط ، أن لا نترك أكثر من أربعين يوماً " .

وأخرج أحمد والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس " قال للنبي صلى الله عليه وسلم : لقد أبطأ عنك جبريل . فقال : ولم لا يبطىء عني وأنتم حولي لا تستنون لا تقلمون أظفاركم ، ولا تقصون شواربكم ، ولا تنقون براجمكم " .

وأخرج الترمذي وحسنه عن ابن عباس قال "كان النبي صلى الله عليه وسلم يقص أو يأخذ من شاربه قال : لأن خليل الرحمن إبراهيم يفعله " .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد والترمذي وصححه والنسائي عن زيد بن أرقم "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من لم يأخذ من شاربه فليس منا " .

وأخرج مالك والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال "خالفوا المشركين ، وفروا اللحى وأحفوا الشوارب " .

وأخرج البزار عن أنس "أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : خالفوا المجوس ، جزوا الشوارب واعفوا اللحى " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن عبيد الله بن عبد الله بن عبيد الله قال "جاء رجل من المجوس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد حلق لحيته وأطال شاربه ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : ما هذا ؟ قال : هذا في ديننا . قال : ولكن في ديننا أن تجز الشارب وأن تعفي اللحية " .

وأخرج البزار عن عائشة "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أبصر رجلاً وشاربه طويل فقال : ائتوني بمقص وسواك ، فجعل السواك على طرفه ، ثم أخذ ما جاوز " .

وأخرج البزار والطبراني في الأوسط والبيهقي في شعب الإِيمان بسند حسن عن أبي هريرة

" أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقلم أظفاره ويقص شاربه يوم الجمعة قبل أن يخرج إلى الصلاة " .

وأخرج ابن عدي بسند ضعيف عن أنس قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحلق الرجل عانته كل أربعين يوماً ، وأن ينتف ابطه كلما طلع ، ولا يدع شاربيه يطولان ، وأن يقلم أظفاره من الجمعة إلى الجمعة " .

وأخرج ابن عساكر بسند ضعيف عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " قصوا أظافيركم فإن الشيطان يجري ما بين اللحم والظفر " .

وأخرج الطبراني بسند ضعيف عن وابصة بن معبد قال " سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كل شيء حتى سألته عن الوسخ الذي يكون في الأظفار فقال : دع ما يريبك إلى ما لا يريبك " .

(145/65)

وأخرج البزار عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ما لي لا أهم ورفع أحدكم بين أنملته وظفره " .

وأخرج البيهقي في شعب الإِيمان عن قيس بن حازم قال " صلى النبي صلى الله عليه وسلم

صلاة فأوهم فيها ، فسأل فقال : ما لي لا أهم ورفع أحدكم بين ظفره وأنملته " .

وأخرج ابن ماجة والطبراني بسند ضعيف عن أبي أمامة " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : تسوكوا فإن السواك مطهرة للفم مرضاة للرب ، ما جاءني جبريل إلا أوصاني بالسواك حتى خشيت أن يفرض علي وعلى أمتي ، ولولا أني أخاف أن أشق على أمتي لفرضته لهم ، وإني لأستاك حتى أني لقد خشيت أن أحفي مقادم فيَّ " .

وأخرج الطبراني بسند ضعيف عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " السواك مطهرة للفم مرضاة للرب ، ومجلاة للبصر " .

وأخرج ابن عدي والبيهقي في شعب الإِيمان وضعفه عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " عليكم بالسواك فإنه مطهرة للفم مرضاة للرب مفرحة للملائكة يزيد في الحسنات ، وهو من السنة يجلو البصر ، ويذهب الحفر ، ويشد اللثة ، ويذهب البلغم ، ويطيب الفم " .

وأخرج البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة " .

وأخرج أحمد بسند حسن عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم عند كل صلاة بوضوء ، وعند كل وضوء بسواك " .

وأخرج البزار وأبو يعلى والطبراني بسند ضعيف عن عائشة قالت " ما زال النبي صلى الله

عليه وسلم يذكر السواك حتى خشينا أن ينزل فيه قرآن " .

وأخرج أحمد والحرث بن أبي أسامة والبزار وأبو يعلى وابن خزيمة والدارقطني والحاكم وصححه وأبو نعيم في كتاب السواك والبيهقي في شعب الإيمان عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " فضل الصلاة بسواك على الصلاة بغير سواك سبعون ضعفاً " .

(146/65)

وأخرج البزار والبيهقي بسند جيد عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " ركعتان بسواك أفضل من سبعين ركعة بغير سواك " .

وأخرج أحمد وأبو يعلى بسند جيد عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " لقد أمرت بالسواك حتى ظننت أنه ينزل عليّ به قرآن أو وحي " .

وأخرج أحمد وأبو يعلى والطبراني بسند ضعيف عن ابن عمر " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا ينام إلا والسواك عنده ، فإذا استيقظ بدأ بالسواك " .

وأخرج الطبراني بسند حسن عن أم سلمة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ما زال جبريل يوصيني بالسواك حتى خفت على أضراسي " .

وأخرج البزار والترمذي الحكيم في نوادر الأصول عن كليح بن عبد الله الخطمي عن أبيه

عن جده قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " خمس من سنن المرسلين : الحياء ، والحلم ، والحجامة ، والسواك ، والتعطر " .

وأخرج الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة قال " كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينام ليلة ولا ينتبه إلا استن " .

وأخرج الطبراني بسند حسن عن زيد بن خالد الجهني قال " ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرج من بيته لشيء من الصلوات حتى يستاك " .

وأخرج ابن أبي شيبة وأبو داود بسند ضعيف عن عائشة " أن النبي صلى الله عليه وسلم كان لا يرقد من ليل ولا نهار فيستيقظ إلا تسوّك قبل أن يتوضأ " .

وأخرج ابن أبي شيبة ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه عن عائشة " أنها سئلت بأي شيء كان النبي صلى الله عليه وسلم يبدأ إذا دخل بيته ؟ قالت : كان إذا دخل يبدأ بالسواك " .

وأخرج ابن ماجه عن علي بن أبي طالب قال : إن أفواهكم طرق للقرآن فطيبوها بالسواك . وأخرجه أبو نعيم في كتاب السواك عن علي مرفوعاً .

وأخرج ابن السني وأبو نعيم معاً في الطب النبوي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن السواك ليزيد الرجل فصاحة " .

وأخرج ابن السني عن علي بن أبي طالب قال : قراءة القرآن والسواك يذهب البلغم .

وأخرج أبو نعيم في معرفة الصحابة عن سمويه " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما نام ليلة حتى استن " .

وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف وأبو نعيم في كتاب السواك بسند ضعيف من طريق أبي عتيق عن جابر . أنه كان ليستاك إذا أخذ مضجعه ، وإذا قام من الليل ، وإذا خرج إلى الصلاة . فقلت له : لقد شققت على نفسك . فقال : إن أسامة أخبرني أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يستاك هذا السواك .

وأخرج أبو نعيم بسند حسن عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم أن يستاكوا بالأسحار " .

وأخرج الطبراني في الأوسط بسند حسن عن علي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك مع كل وضوء " .

وأخرج الشافعي وابن أبي شيبة وأحمد والنسائي وأبو يعلى وابن خزيمة وابن حبان والحاكم والبيهقي عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " السواك مطهرة للفم مرضاة للرب " .

وأخرج أحمد والطبراني في الأوسط بسند حسن عن ابن عمر " أن النبي صلى الله عليه

وسلم قال : عليكم بالسواك فإنه مطيبة للفم مرضاة للرب تبارك وتعالى " .

وأخرج أحمد بسند ضعيف عن قثم أو تمام بن عباس قال : أتينا النبي صلى الله عليه وسلم فقال " ما لكم تأتوني قلحاً لا تسوكون ، لولا أن أشق على أمتي لفرضت عليهم السواك كما فرضت عليهم الوضوء " .

وأخرج الطبراني عن جابر قال : كان السواك من أذن النبي صلى الله عليه وسلم موضع القلم من أذن الكاتب .

وأخرج العقيلي في الضعفاء وأبو نعيم في السواك بسند ضعيف عن عائشة قالت "كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا سافر حمل السواك والمشط والمكحلة والقارورة والمرآة" .

وأخرج أبو نعيم بسند واهٍ عن رافع بن خديج مرفوعاً " السواك واجب " .

(148/65)

وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن عباس قال : لقد كنا نؤمر بالسواك حتى ظننا أنه سينزل فيه .

وأخرج ابن أبي شيبة عن حسان بن عطية مرفوعاً " الوضوء شطر الإيمان ، والسواك شطر الوضوء ، ولولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة ، ركعتان يستاك فيهما العبد أفضل من سبعين ركعة لا يستاك فيها " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن سليمان بن سعد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " استاكوا وتنظفوا وأوتروا ، فإن الله وتر يحب الوتر " .

وأخرج ابن عدي عن أنس " أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بتعاهد البراجم عند الوضوء لأن الوسخ إليها سريع " .

وأخرج الترمذي الحكيم في نوادر الأصول بسند فيه مجهول عن عبد الله بن بسر رفعه " قصوا أظفاركم ، وادفنوا قلاماتكم ، ونقوا براجمكم " .

وأخرج البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي في الشمائل والنسائي وابن ماجة عن ابن عباس قال " كان أهل الكتاب يسدلون أشعارهم ، وكان المشركون يفرقون رؤوسهم ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يعجبه موافقة أهل الكتاب فيما لم يؤمر به ، فسدل رسول الله صلى الله عليه وسلم ناصيته ثم فرق بعد " .

وأخرج ابن ماجة والبيهقي بسند جيد عن أم سلمة " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا اطلى ولى عانته بيده " .

وأخرج البيهقي بسند ضعيف جداً عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان لا يتنور ، وكان إذا كثر شعره حلقه .

وأخرج أحمد والبيهقي عن شداد بن أوس رفعه " الختان سنة للرجال مكرمة للنساء " .

وأخرج الطبراني في مسند الشاميين وأبو الشيخ في كتاب العقيقة والبيهقي من حديث ابن

عباس . مثله .

وأخرج أبو داود عن عيثم بن كليب عن أبيه عن جده " أنه جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : قد أسلمت – فقال له : ألق عنك شعر الكفر – يقول : احلق " قال : وأخبرني آخر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لآخر معه " ألق عنك شعر الكفر واختتن " .

(149/65)

وأخرج البيهقي عن الزهري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " من أسلم فليختتن " .

وأخرج أحمد والطبراني عن عثمان بن أبي العاص أنه دعي إلى ختان فقال : ما كنَّا نأتي الختان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا ندعى له .

وأخرج الطبراني في الأوسط عن ابن عباس قال : سبع من السنة في الصبي يوم السابع يسمى ، ويختن ، ويماط عنه الأذى ، ويعق عنه ، ويحلق رأسه ، ويلطخ من عقيقته ، ويتصدق بوزن شعر رأسه ذهباً أو فضة .

وأخرج أبو الشيخ في كتاب العقيقة والبيهقي عن جابر " أن النبي صلى الله عليه وسلم عق عن الحسن والحسين وختنهما لسبعة أيام " .

وأخرج البيهقي عن موسى بن علي بن رباح عن أبيه . أن إبراهيم عليه السلام ختن إسحق لسبعة أيام ، وختن إسماعيل عند بلوغه .

وأخرج ابن سعد عن حي بن عبد الله قال : بلغني أن إسماعيل عليه السلام اختتن وهو ابن ثلاث عشرة سنة .

وأخرج أبو الشيخ في العقيقة من طريق موسى بن علي بن رباح عن أبيه . أن إبراهيم عليه السلام أمر أن يختتن وهو حينئذ ابن ثمانين سنة ، فعجل واختتن بالقدوم فاشتد عليه الوجع ، فدعا ربه فأوحى إليه " أنك عجلت قبل أن نأمرك بآلته قال : " يا رب كرهت أن أؤخر أمرك " " .

وأخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " اختتن إبراهيم عليه السلام وهو ابن ثلاثين سنة بالقدوم " .

وأخرج ابن عدي والبيهقي في شعب الإِيمان عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " كان إبراهيم أول من اختتن وهو ابن عشرين ومائة سنة واختتن بالقدوم ، ثم عاش بعد ذلك ثمانين سنة " .

وأخرج ابن سعد وابن أبي شيبة والحاكم والبيهقي وصححاه من طريق سعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال : اختتن إبراهيم خليل الله وهو ابن عشرين ومائة سنة بالقدوم ، ثم عاش بعد ذلك ثمانين سنة . قال سعيد : وكان إبراهيم أول من اختتن وأول من رأى الشيب ، فقال : يا رب ما هذا ؟ قال : وقار يا إبراهيم . قال : رب زدني وقاراً . وأول من أضاف الضيف ، وأول من جز شاربه ، وأول من قص أظافيره ، وأول من استحد .

وأخرج ابن عدي والبيهقي عن أبي هريرة " أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إن إبراهيم أول من أضاف الضيف ، وأول من قص الشارب ، وأول من رأى الشيب ، وأول من قص الأظافير ، وأول من اختتن بقدومه " .

وأخرج البيهقي عن علي رضي الله عنه قال : كانت هاجر لسارة ، فأعطت هاجر إبراهيم ، فاستبق إسماعيل وإسحاق فسبقه إسماعيل فقعد في حجر إبراهيم . قالت سارة : والله لأغيرن منها ثلاثة أشراف ، فخشي إبراهيم أن تجدعها أو تخرم أذنيها ، فقال لها : هل لك أن تفعلي شيئاً وتبري يمينك ؟ تثقبين أذنيها وتخفضينها ، فكان أول الخفاض هذا " .

وأخرج البيهقي عن سفيان بن عيينة قال : شكا إبراهيم عليه السلام إلى ربه ما يلقى من رداءة خلق سارة ، فأوحى الله إليه يا إبراهيم أول من تسرول ، وأول من فرق ، وأوّل من استحد ، وأول من اختتن ، وأول من قرى الضيف ، وأول من شاب .

وأخرج وكيع عن واصل مولى ابن عيينة قال : أوحى الله إلى إبراهيم يا إبراهيم انك أكرم أهل الأرض إلي فإذا سجدت فلا تر الأرض عورتك .

قال : فاتخذ سراويل .

(151/65)

وأخرج الحاكم عن أبي أمامة قال : طلعت كف من السماء بين أصبعين من أصابعها شعرة بيضاء ، فجعلت تدنو من رأس إبراهيم ثم تدنو ، فالقتها في رأسه وقالت : اشعل وقاراً ، ثم أوحى الله إليها أن تظهر ، وكان أول من شاب واختتن ، وأنزل الله على إبراهيم مما أنزل على محمد ﴿ التائبون العابدون الحامدون ﴾ [التوبة : 112] إلى قوله ﴿ وبشر المؤمنين ﴾ [التوبة : 112] و ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ [المؤمنون : 1] إلى قوله ﴿ هم فيها خالدون ﴾ [المؤمنون : 11] و ﴿ إن المسلمين والمسلمات . . . ﴾ [الأحزاب : 35] الآية . والتي في سأل ، و ﴿ الذين هم على صلاتهم دائمون ﴾ [المعارج : 23-33] إلى قوله ﴿ قائمون ﴾ فلم يف بهذه السهام إلا إبراهيم ومحمد صلى الله عليه وسلم .

وأخرج ابن سعد في الطبقات عن سلمان قال : سأل إبراهيم ربه خيراً فأصبح ثلثا رأسه

أبيض ، فقال : ما هذا ؟ ! فقيل له : عبرة في الدنيا ونور في الآخرة .

وأخرج أحمد في الزهد عن سلمان الفارسي قال : أوى إبراهيم إلى فراشه فسأل الله أن يؤتيه خيراً ، فأصبح وقد شاب ثلثا رأسه ، فساءه ذلك فقيل : لا يسوءنك فإنه عبرة في الدنيا ونور لك في الآخرة ، وكان أول شيب كان .

وأخرج الديلمي عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " أول من خضب بالحناء والكتم إبراهيم عليه السلام " .

وأخرج البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجة عن إبراهيم قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم " إن اليهود والنصارى لا يصبغون فخالفوهم " .

وأخرج أبو داود والترمذي وصححه والنسائي وابن ماجة عن أبي ذر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن أحسن ما غيرتم به الشيب الحناء والكتم " .

وأخرج الترمذي وصححه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " غيروا الشيب ولا تشبهوا باليهود " .

وأخرج البزار عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " لا تشبهوا بالأعاجم غيروا اللحى " .

وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف والبزار عن سعد بن إبراهيم عن أبيه قال : أول من خطب على المنبر إبراهيم عليه السلام حين أسر لوط واستأسرته الروم ، فغزا إبراهيم حتى استنقذه من الروم .

وأخرج ابن عساكر عن حسان بن عطية قال : أول من رتب العسكر في الحرب ميمنة وميسرة وقلباً إبراهيم عليه السلام لما سار لقتال الذين أسروا لوطا عليه السلام .

وأخرج ابن أبي شيبة عن يزيد بن أبي يزيد عن رجل قد سماه قال : أوّل من عقد الألوية إبراهيم عليه السلام ، بلغه أن قوماً أغاروا على لوط فسبوه ، فعقد لواء وسار إليهم بعبيده ومواليه حتى أدركهم ، فاستنقذه وأهله .

وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب الرمي عن ابن عباس قال : أوّل من عمل القسي إبراهيم عليه السلام .

وأخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي في شعب الإِيمان عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " كان أوّل من ضيف الضيف إبراهيم عليه السلام " .

وأخرج ابن سعد وابن أبي الدنيا وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في شعب الإِيمان عن عكرمة قال : كان إبراهيم خليل الرحمن يكنى أبا الضيفان ، وكان لقصره أربعة أبواب لكي لا يفوته أحد .

وأخرج البيهقي عن عطاء قال : كان إبراهيم خليل الله عليه السلام ، إذا أراد أن يتغدى طلب من يتغدى معه إلى ميل .

(153/65)

وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب الإخوان والخطيب في تاريخه والديلمي في مسند الفردوس والغسولي في جزئه المشهور واللفظ له عن تميم الداري " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن معانقة الرجل الرجل إذا هو لقيه ؟ قال : كانت تحية الأمم . وفي لفظ : كانت تحية أهل الإيمان وخالص ودّهم ، وإن أول من عانق خليل الرحمن ، فإنه خرج يوماً يرتاد لماشيته في جبال من جبال بيت المقدس إذا سمع صوت مقدس يقدس الله تعالى ، فذهل عما كان يطلب فقصد قصد الصوت ، فإذا هو بشيخ طوله ثمانية عشر ذراعاً أهلب يوحد الله عز وجل ، فقال له إبراهيم : يا شيخ من ربك ؟ قال : الذي في السماء . قال : من رب الأرض ؟ قال : الذي في السماء . قال : فيها رب غيره ؟ قال : ما فيها رب غيره ، لا إله إلا هو وحده .

قال إبراهيم : فأين قبلتك ؟ قال : إلى الكعبة . فسأله عن طعامه فقال : أجمع من هذه الثمرة في الصيف فآكله في الشتاء . قال : هل بقي معك أحد من قومك ؟ قال : لا . قال :

أين منزلك ؟ قال : تلك المغارة . قال : اعبر بنا إلى بيتك . قال : بيني وبينها واد لا يخاض . قال : فكيف تعبره ؟ فقال : أمشي عليه ذاهباً وأمشي عليه عائداً . قال : فانطلق بنا فافعل الذي ذلله لك يذلله لي .

(154/65)

فانطلقا حتى انتهيا فمشيا جميعاً عليه كل واحد منهما يعجب من صاحبه ، فلما دخلا المغارة فإذا بقبلته قبلة إبراهيم قال له إبراهيم : أي يوم خلق الله أشد ؟ قال الشيخ : ذلك اليوم الذي يضع كرسيه للحساب ، يوم تسعر جهنم لا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل إلاَّ خر يهمه نفسه . قال له إبراهيم : ادع الله يا شيخ أن يؤمني وإياك من هول ذلك اليوم . قال الشيخ : وما تصنع بدعائي ولي في السماء دعوة محبوسة منذ ثلاث سنين ؟ قال إبراهيم : ألا أخبرك ما حبس دعاءك قال : بلى . قال : إن الله عز وجل إذا أحب عبداً احتبس مسألته يحب صوته ، ثم جعل له على كل مسألة ذخراً لا يخطر على قلب بشر ، وإذا أبغض الله عبداً عجل له حاجته أو ألقى الأياس في صدره ليقبض صوته ، فما دعوتك التي هي في السماء محبوسة ؟

قال : مر بي ههنا شاب في رأسه ذؤابة منذ ثلاث سنين ومعه غنم ، قلت : لمن هذه ؟ قال

: لخليل الله إبراهيم .

قلت : اللهم إن كان لك في الأرض خليل فأرنيه قبل خروجي من الدنيا . قال له إبراهيم عليه السلام : قد أجيبت دعوتك ثم اعتنقا ، فيومئذ كان أصل المعانقة ، وكان قبل ذلك السجود هذا لهذا وهذا لهذا ، ثم جاء الصفاح مع الإِسلام فلم يسجد ولم يعانق ، ولن تفترق الأصابع حتى يغفر لكل مصافح " .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد في الزهد وأبو نعيم في الحلية عن كعب قال : قال إبراهيم عليه السلام : إنني ليحزنني أن لا أرى أحداً في الأرض يعبدك غيري ، فأنزل الله إليه ملائكة يصلون معه ويكونون معه .

وأخرج أحمد وأبو نعيم عن نوف البكالي قال : قال إبراهيم عليه السلام : يا رب إنه ليس في الأرض أحد يعبدك غيري ، فأنزل الله عز وجل ثلاثة آلاف ملك فأمهم ثلاثة أيام .

وأخرج ابن سعد عن الكلبي قال : إبراهيم عليه السلام أول من أضاف الضيف ، وأول من ثرد الثريد ، وأول من رأى الشيب ، وكان قد وسع عليه في المال والخدم .

وأخرج ابن أبي شيبة عن السدي قال : أول من ثرد الثريد إبراهيم عليه السلام .

وأخرج الديلمي عن نبيط بن شريط قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " أول من اتخذ الخبز المبلقس إبراهيم عليه السلام " .

وأخرج أحمد في الزهد عن مطرف قال : أول من راغم إبراهيم عليه السلام حين راغم قومه إلى الله بالدعاء .

وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف واللفظ له والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن ابن عباس قال " قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أول الخلائق يلقى بثوب – يعني يوم القيامة – إبراهيم عليه السلام " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن سعيد بن جبير قال : يحشر الناس عراة حفاة ، فأول من يلقى بثوب إبراهيم .

وأخرج أبو نعيم في الحلية عن عبيد بن عمير قال : يحشر الناس حفاة عراة ، فيقول الله : ألا أرى خليلي عرياناً ، فيكسى إبراهيم عليه السلام ثوباً أبيض ، فهو أول من يكسى .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد في الزهد عن عبد الله بن الحرث قال : أول من يكسى يوم القيامة إبراهيم عليه السلام قبطيتين ، ثم يكسى النبي صلى الله عليه وسلم حلة الحيرة وهو على يمين العرش .

وأخرج ابن أبي شيبة وأبو داود والترمذي والنسائي عن أنس قال " جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا خير البرية . قال : ذاك إبراهيم " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي صالح قال : انطلق إبراهيم عليه السلام يمتار فلم يقدر على الطعام ، فمر بسهلة حمراء ، فأخذ منها ، ثم رجع إلى أهله فقالوا : ما هذا ؟ قال : حنطة حمراء ، ففتحوها فوجدوها حنطة حمراء ، فكان إذا زرع منها شيئاً نبتت سنبلة من أصلها إلى فرعها حباً متراكباً .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد في الزهد وأبو نعيم في الحلية عن سلمان قال : أرسل على إبراهيم عليه السلام أسدان مجوّعان ، فلحساه وسجدا له .

(156/65)

وأخرج أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي عن أبي بن كعب " أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : أرسل إلي ربي أن أقرأ القرآن على حرف ، فرددت عليه يا رب هوّن على أمتي ، فرد على الثانية أن أقرأ على حرفين ، قلت : يا رب هوّن على أمتي ، فرد على الثالثة أن أقرأ على سبعة أحرف ولك بكل ردة رددتها مسألة فسلنيها . فقلت : اللهم اغفر لأمتي ، اللهم اغفر لأمتي ، وأخرت الثالثة إلى يوم يرغب إلي فيه الخلائق حتى إبراهيم " .

وأخرج أحمد في الزهد وأبو نعيم في الحلية عن كعب قال : كان إبراهيم عليه السلام يقري الضيف ويرحم المسكين وابن السبيل ، فابطأت عليه الأضياف حتى أشرأب بذلك ،

فخرج إلى الطريق يطلب ، فجلس فمر ملك الموت عليه السلام في صورة رجل ، فسلم عليه فرد عليه السلام ، ثم سأله من أنت ؟ قال : أنا ابن السبيل قال : إنما قعدت ههنا لمثلك ، فأخذ بيده فقال له : انطلق . فذهب إلى منزله ، فلما رآه إسحق عرفه فبكى إسحق ، فلما رأت سارة إسحق يبكي بكت لبكائه ، فلما رأى إبراهيم سارة تبكي فبكى لبكائها ، فلما رأى ملك الموت إبراهيم يبكي بكى لبكائه ثم صعد ملك الموت ، فلما ارتقى غضب إبراهيم فقال : بكيتم في وجه ضيفي حتى ذهب فقال إسحق : لا تلمني يا أبت فإني رأيت ملك الموت معك لا أرى أجلك إلا قد حضر فارث في أهلك أي أوصه ، وكان لإبراهيم بيت يتعبد فيه فإذا خرج أغلقه لا يدخله غيره ، فجاء إبراهيم ففتح بيته الذي يتعبد فيه فإذا هو برجل جالس فقال إبراهيم : من أدخلك ، بإذن من دخلت ؟ ! قال : بإذن رب البيت . قال : رب البيت أحق به ، ثم تنحى في ناحية البيت فصلى ودعا كما كان يصنع ، وصعد ملك الموت فقيل له : ما رأيت ؟ قال : يا رب جئتك من عند عبدك ليس بعده في الأرض خير . قيل له : ما رأيت منه ؟ قال : ما ترك خلقاً من خلقك إلا قد دعا له بخير في دينه وفي معيشته .

(157/65)

ثم مكث إبراهيم عليه السلام ما شاء الله ، ثم جاء ففتح بابه فإذا هو برجل جالس قال له : من أنت ؟ قال : إنما أنا ملك الموت . قال إبراهيم : إن كنت صادقاً فأرني آية أعرف أنك ملك الموت .

قال : اعرض بوجهك يا إبراهيم . قال : ثم أقبل فأراه الصورة التي يقبض بها المؤمنين ، فرأى شيئاً من النور والبهاء لا يعلمه إلا الله ، ثم قال : انظر فأراه الصورة التي يقبض فيها الكفار والفجار ، فرعب إبراهيم عليه السلام رعباً حتى ألصق بطنه بالأرض ، كادت نفس إبراهيم تخرج فقال : أعرف الذين أُمِرْتَ به فامض له .

فصعد ملك الموت فقيل له : تلطف بإبراهيم ، فأتاه وهو في عنب له وهو في صورة شيخ كبير لم يبق منه شيء ، فلما رآه إبراهيم رحمه فأخذ مكتلاً ثم دخل عنبه فقطف من العنب في مكتله ، ثم جاء فوضعه بين يديه فقال : كل . . . فجعل يضع ويريه أنه يأكل ويمجه على لحيته وعلى صدره ، فعجب إبراهيم فقال : ما أبقت السن منك شيئاً كم أتى لك ؟ فحسب مدة إبراهيم فقال : امالي كذا وكذا . . . فقال إبراهيم : قد أتي لي هذا إنما انتظر أن أكون مثلك اللهم اقبضني إليك ، فطابت نفس إبراهيم على نفسه وقبض ملك الموت نفسه تلك الحال .

وأخرج الحاكم عن الواقدي قال : ولد إبراهيم بغوطة دمشق في قرية يقال لها برزة ، ومن جبل يقال له قاسيون .

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن أبي السكن الهجري قال : مات خليل الله فجأة ، ومات داود فجأة ، ومات سليمان بن داود فجأة ، والصالحون ، وهو تخفيف على المؤمن وتشديد على الكافر .

وأخرج " أن ملك الموت جاء إلى إبراهيم عليه السلام ليقبض روحه ، فقال إبراهيم : يا ملك الموت هل رأيت خليلاً يقبض روح خليله ؟ فعرج ملك الموت إلى ربه فقال : قل له : هل رأيت خليلاً يكره لقاء خليله ؟ فرجع قال : فاقبض روحي الساعة " .

(158/65)

وأخرج أبو نعيم في الحلية عن سعيد بن جبير قال " كان الله يبعث ملك الموت إلى الأنبياء عياناً ، فبعثه إلى إبراهيم عليه السلام ليقبضه ، فدخل دار إبراهيم في صورة رجل شاب جميل وكان إبراهيم غيوراً ، فلما دخل عليه حملته الغيرة على أن قال له : يا عبد الله ما أدخلك داري ؟ قال : أدخلنيها ربها . فعرف إبراهيم أن هذا الأمر حدث قال يا إبراهيم : إني أمرت بقبض روحك . قال : أمهلني يا ملك الموت حتى يدخل إسحق فامهله ، فلما دخل إسحق قام إليه فاعتنق كل واحد منهما صاحبه ، فرق لهما ملك الموت فرجع إلى ربه فقال : يا رب رأيت خليلك جزع من الموت . قال : يا ملك الموت فائت خليلي في منامه

فاقبضه ، فأتاه في منامه فقبضه " .

وأخرج أحمد في الزهد والمروزي في الجنائز عن أبي مليكة " أن إبراهيم لما لقي الله قيل له : كيف وجدت الموت ؟ قال : وجدت الموت ؟ قال : وجدت نفسي كأنما تنزع بالسلي . قيل له : قد يسرنا عليك الموت " .

وأخرج أحمد وابن أبي الدنيا في العزاء وابن أبي داود في البعث وابن حبان والحاكم وصححه والبيهقي في البعث عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " أولاد المؤمنين في جبل في الجنة ، يكفلهم إبراهيم وسارة عليهما السلام حتى يردهم إلى آبائهم يوم القيامة " .

وأخرج سعيد بن منصور عن مكحول " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن ذراري المسلمين في عصافير خضر في شجر في الجنة ، يكفلهم إبراهيم عليه السلام " .

أما قوله تعالى : ﴿ وقال إني جاعلك للناس إماماً ﴾ الآية .

أخرج عبد بن حميد عن ابن عباس ﴿ قال : إني جاعلك للناس إماماً ﴾ يقتدى بدينك وهديك وسنتك ﴿ قال ومن ذريتي ﴾ إماماً لغير ذريتي ﴿ قال لا ينال عهدي الظالمين ﴾ أن يقتدى بدينهم وهديهم وسنتهم .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن قتادة قال : هذا عند الله يوم القيامة لا ينال عهده ظالماً ، فاما في الدنيا فقد نالوا عهده فوارثوا به المسلمين ، وغازوهم ، وناكحوهم ، فلما كان يوم القيامة قصر الله عهده وكرامته على أوليائه .

وأخرج ابن جرير عن الربيع في قوله ﴿ إني جاعلك للناس إماما ﴾ يؤتم به ويقتدى قال إبراهيم ﴿ ومن ذريتي ﴾ فاجعل من يؤتم به ويقتدى به .

وأخرج الفريابي وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : قال الله لإبراهيم ﴿ إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي ﴾ فأبى أن يفعل ، ثم ﴿ قال لا ينال عهدي الظالمين ﴾ .

وأخرج وكيع وعبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد في قوله ﴿ لا ينال عهدي الظالمين ﴾ قال : لا اجعل اماماً ظالماً يقتدى به .

وأخرج ابن إسحق وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في الآية قال : يخبره أنه كائن في ذريته ظالم لا ينال عهده ، ولا ينبغي له أن يوليه شيئاً من أمره .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ لا ينال عهدي الظالمين ﴾ قال : ليس لظالم عليك عهد في معصية الله أن تطيعه .

وأخرج وكيع وابن مردويه عن علي بن أبي طالب " عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله ﴿ لا ينال عهدي الظالمين ﴾ قال : لا طاعة إلا في المعروف " .

وأخرج عبد بن حميد عن عمران بن حصين "سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : "لا طاعة لمخلوق في معصية الله" " .

وأخرج عبد بن حميد عن إبراهيم قال : لا طاعة مفترضة إلا لنبي . انتهى انتهى . اهـ

﴿ الدر المنثور حـ 1 صـ 273 . 288 ﴾

(160/65)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (124) ﴾

يأتي الحق سبحانه وتعالى إلي قصة إبراهيم عليه السلام . . ليصفي الجدل والتشكيك الذي أحدثه اليهود عند تغيير القبلة . . واتجاه المسلمين إلي الكعبة المشرفة بدلا من بيت المقدس . . كذلك الجدل الذي أثاره اليهود بأنهم شعب الله المختار وأنه لا يأتي نبي إلا منهم . يريد الله تبارك وتعالى أن يبين صلة العرب بإبراهيم وصلتهم بالبيت . . فيقول الحق جل جلاله : "وإذ ابتلى إبراهيم ربه" . . ومعناها اذكر إذا ابتلى الله إبراهيم . . وإذ هنا

ظرف وهناك فرق بينها وبين إذا الشرطية في قوله تعالى :

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (1) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً (2)

(سورة النصر)

إذا هنا ظرف ولكنه يدل على الشرط . . أما إذ فهي ظرف فقط . . وقوله تعالى : " وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن " . . معناها اذكر وقت أن ابتلى إبراهيم بكلمات . ما معنى الابتلاء ؟ الناس يظنون أنه شر ولكنه في الحقيقة ليس كذلك . . لأن الابتلاء هو امتحان إن نجحنا فيه فهو خير وإن رسبنا فيه فهو شر . . فالابتلاء ليس شرا ولكنه مقياس لاختبار الخير والشر . الذي ابتلى هو الله سبحانه . . هو الرب . . والرب معناه المربي الذي يأخذ من يربيه بأساليب تؤهله إلي الكمال المطلوب منه . . ومن أساس التربية أن يمتحن المربي من يربيه ليعلم هل نجح في التربية أم لا ؟ والابتلاء هنا بكلمات والكلمات جمع كلمة . . والكلمة قد تطلق على الجملة مثل قوله تعالى :

وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً (4) مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً (5)

(سورة الكهف)

إذن فالكلمة قد تطلق على الجملة وقد تطلق على المفرد . . كأن تقول مثلا محمد وتسكت . . وفي هذه الحالة لا تكون جملة مفيدة . . والكلمة المرادة في هذه الآية هي التكليف من الله . قوله سبحانه افعل ولا تفعل . . فكأن التكليف من الله مجرد كلمة وأنت تؤدي مطلوبها أو لا تؤديه . . وقد اختلف العلماء حول الكلمات التي تلقاها إبراهيم من ربه . . نقول لهم أن هذه الكلمات لابد أن تناسب مقام إبراهيم أبي الأنبياء . . إنها ابتلاء يجعله أهلا لحمل الرسالة . . أي لابد أن يكون الابتلاء كبيراً . . ولقد قال العلماء أن الابتلاءات كانت عشرة وقالوا أربعين منها عشرة في سورة التوبة وهي قوله تعالى :

التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللّهِ

(من الآية 112 سورة التوبة)

وهذه رواية عبد الله بن عباس . . وعشرة ثانية في سورة المؤمنون . وفي قوله سبحانه :

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (1) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (2) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (3) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (4) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (5) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (6) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاء ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (7) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (8) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (9) أُوْلَئِكَ

هُمُ الْوَارِثُونَ (10)

(سورة المؤمنون)

(162/65)

وبعد ذلك قال : " أولئك هم الوارثون" . وفي سورة الأحزاب يذكر منهم قوله جل جلاله :

إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً (35)

(سورة الأحزاب)

وفي سورة المعارج يقول :

إِلَّا الْمُصَلِّينَ (22) الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ (23) وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (24) لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (25) وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (26) وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ (27) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (28) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (29) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (30) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ

ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (31) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (32) وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ (33) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (34)

(سورة المعارج)

(163/65)

نخرج من هذا الجدل ، بأن نقول إن الله ابتلى إبراهيم بكلمات تكليفية افعل كذا ولا تفعل كذا . . وابتلاه بأن ألقى في النار وهو حي فلم يجزع ولم يتراجع ولم يتجه إلا لله وكانت قمة الابتلاء أن يذبح ابنه . وكون إبراهيم أدى جميع التكليفات بعشق وحب وزاد عليه من جنسها . . وكونه يلقى في النار ولا يبالي يأتيه جبريل فيقول ألك حاجة فيرد إبراهيم أما إليك فلا وأما إلي الله فعلمه بحالي يغنيه عن سؤالي . . وكونه وهو شيخ كبير يبتلى بذبح ابنه الوحيد فيطيع بنفس مطمئنة ورضا بقدر الله . . يقول الحق :

أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى (36) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى (37)

(سورة النجم)

أي وفي كل ما طلب منه وأداه بعشق للمنهج ولابتلاءات الله . . لقد نجح إبراهيم عليه السلام في كل ما ابتلى به أو اختبر به . . والله كان أعز عليه من أهله ومن نفسه ومن ولده

. . ماذا كافأه الله به ؟ قال :

قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً

(من الآية 124 سورة البقرة

أي أن الحق تبارك وتعالى أئتمنه أن يكون إماماً للبشر . . والله سبحانه كان يعلم وفاء إبراهيم ولكنه اختبره لنعرف نحن البشر كيف يصطفي الله تعالى عباده المقربين وكيف يكونوا أئمة يتولون قيادة الأمور . . استقبل إبراهيم هذه البشرى من الله وقال كما يروي لنا القرآن الكريم :

قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي

(من الآية 124 سورة البقرة)

ما هي الذرية ؟ هي النسل الذي يأتي والولد الذي يجئ . . لأنه يحب استطراق الخير على أولاده وأحفاده وهذه طبيعة البشر ، فهم يعطون ثمرة حركتهم وعملهم في الحياة لأولادهم وأحفادهم وهم مسرورون . . ولذلك أراد إبراهيم أن ينقل الإمامية إلي أولاده وأحفاده . . حتى لا يحرموا من القيم الإيمانية تحرس حياتهم وتؤدي بهم إلي نعيم لا يزول . . ولكن الله سبحانه وتعالى يرد على إبراهيم بقضية إيمانية أيضا هي تقريع لليهود . . الذي تركوا القيم وعبدوا المادة فيقول جل جلاله :

لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ

(من الآية 124 سورة البقرة)

فكأن إبراهيم بأعماله قد وصل الإمامية . . ولكن هذا لا ينتقل إلا للصالحين من عباده العابدين المسبحين . وقول الحق سبحانه : " لا ينال عهدي الظالمين" مقصود به اليهود الذين باعوا قيمهم الإيمانية بالمادة ، وهو استقراء للغيب أنه سيأتي من ذرية إبراهيم من سيفسق ويظلم . ومن العجائب أن موسى وهارون عليهما السلام كانا رسولين . . الرسول الأصلي موسى وهارون جاء ليشد أزره لأنه فصيح اللسان . . وشاءت إرادة الله سبحانه أن تستمر الرسالة في ذرية هارون وليس في ذرية موسى . . والرسالة ليست ميراثا . . وقوله تعالى " لا ينال عهدي الظالمين" . . فكأن عهد الله هو الذي يجذب صاحبه أي هو الفاعل . . نأتي بعد ذلك إلي مسألة الجنس والدم واللون . . بنوة الأنبياء غير بنوة الناس كلهم فالأنبياء اصطفاؤهم اصطفاء قيم وأبناؤهم هم الذين يأخذون منهم هذه القيم وليسوا الذين يأخذون الجنس والدم واللون . . ولو رجعنا إلي قصة نوح عليه السلام حين غرق ابنه . . رفع يديه إلي السماء وقال :

إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي

(من الآية 45 سورة هود)

فرد عليه الحق سبحانه وتعالى فقال :

قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ

(من الآية 46 سورة هود)

إن أهل النبوة هم الذين يأخذون القيم عن الأنبياء . . ولولا أن الحق سبحانه قال لنا " إنه عمل غير صالح" . . لاعتقدنا أنه ربما جاء من رجل آخر أو غير ذلك . . ولكن الله يريدنا أن نعرف أن عدم نسبة ابن نوح إلي أبيه بسبب " إنه عمل غير صالح" . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ 569. 574 ﴾

(165/65)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله تعالى ﴿ وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (124) ﴾

العامل في " إذ " " قال " .

وقيل : العامل فيه " اذكر " مقدراً ، وهو مفعول ، وقد تقدم أنه لا يتصرف فالأولى ما ذكرته

أولاً .

وقدره الزمخشري رحمه الله تعالى كان كيت وكيت ، فجعله ظرفاً ، ولكن عامله مقدر .

و" ابْتَلَى " ما بعده في محلّ خفض بإضافة الظرف إليه .

وأصل ابتلى : ابْتَلَوَ ، فألفه عن " واو ؛ لأنه " من بَلاَ يَبْلو " أي ؛ اختبر .

و" إبْرَاهِيم " مفعول مقدم ، وهو واجب التقديم عند جمهور النحاة ؛ لأنه متى اتَّصَل بالفاعل ضمير يعود على المفعول وجب تقديمه ، لئلا يعود الضمير على متأخر لفظاً ورتبة ، هذا هو المَشْهور ، وما جاء على خلافه عدوه ضرورة .

وخالف أبو الفتح في ذلك وقال : " إن الفعل كما يطلب الفاعل يطلب المفعول ، فصار للفظ به شعور وطلب " .

وقد أنشد ابن مالك أبياتاً كثيرة تأخر فيها المفعول المتصل ضميره بالفاعل ، منها : [السريع]

لَمَّا عَصَى أَصْحَابُهُ مُصْعَباً . . . أَدَّى إِلَيْهِ الكَيْلَ صَاعاً بِصَاعْ

ومنها : [البسيط]

جَزَى بَنُوهُ أَبَا الْغِيلاَنِ عَنْ كِبَرٍ . . . وَحُسْنِ فِعْلٍ كَمَا يُجْزَى سِنِمَّارُ

وقال ابن عطية : وقدم المفعول للاهتمام بمن وقع الابتلاء به ، إذا معلوم أن الله هو المبتلي ، واتِّصَال ضمير الفعل بالفاعل موجب للتقديم ، يعنى أن الموجب للتقديم سببان : سبب

معنوي وسبب صناعي .

و" إبراهيم " علم أعجمي .

قيل : معناه قبل النقل أب رحيم .

(166/65)

قوله : " قَالَ إِنِّي " هذه الجملة القولية يجوز أن تكون معطوفة على ما قبلها ، إذا قلنا بأنها عاملة في " إذْ " ؛ [لأن التقدير : وقال إِنِّي جاعلك إذ ابتلى ، ويجوز أن تكون استئنافاً إذا قلنا : إن العامل في " إذْ " مضمر] ، كأنه قيل : فماذا قال له ربه حين أتم الكلمات ؟ فقيل : قال : إِنِّي جَاعِلُكَ .

ويجوز فيها أيضاً على هذا القول أن تكون بياناً لقوله : " ابْتَلَى " وتفسيراً له ، فيراد بالكلمات ما ذكره من الإمامة ، وتطهير البيت ، ورفع القواعد ، وما بعدها ، نقل ذلك الزمخشري .

قوله : " جَاعِلُكَ " هو اسم فاعل من " جَعَلَ " بمعنى " صَيَّرَ " فيتعدّى لاثنين :

أحدهما : " الكاف " ، وفيها الخلاف المشهور هل هي في محلّ نصب أو جر ؟

وذلك أن الضمير المتصل باسم الفاعل فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه في محل جر بالإضافة .

والثاني : أنه في محل نصب ، وإنما حذف التنوين لشدة اتّصال الضمير ، قالوا : ويدلّ على ذلك وجوده في الضرورة ؛ كقولهم : [الوافر]

774 فَمَا أَدْرِ وَظَنِّي كُلَّ ظَنّ . . . أَمُسْلِمُنِي إِلَى قَوْمِي شَرَاحِي

وقال آخر : [الطويل]

775 هُمُ الْفَاعِلُونَ الْخَيْرَ

وَالآمِرُونَهُ . . . . . .

وهذا يدل على تسليم كون " نون " مسلمني تنويناً ، وإلاّ فالصحيح أنها نون وقاية .

الثالث وهو مذهب سيبويه أنّ حكم الضمير حكم مظهره ، فما جاز في المظهر يجوز في مضمره .

والمفعول الثاني " إمَاماً " .

قوله : " لِلنَّاسِ " يجوز فيه وجهان :

أحدهما : أنه متعلق بجاعل أي لأجل النَّاس .

والثاني : أنه حال من " إمَاماً " ، فإنه صفةُ نكرةٍ قدم عليها ، فيكون حالاً منها ؛ إذ الأصل : إمَاماً للناس ، فعلى هذا يتعلق بمحذوف .

قوله : " وَمِنْ ذُرِّيتِي " فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : أى " ومنْ ذُرِّيَتي " صفة لموصوف محذوف هو مفعول أول ، والمفعول الثَّاني والعامل فيهما محذوف تقديره : قال : واجعل فريقاً من ذريتي إماماً قاله أبو البقاء .

الثاني : أن " وَمِنْ ذُرِّيَتي " عطف على " الكاف " ، كأنه قال : " وجاعل بعض ذرّيتي " كما يقال لك : سأكرمك ، فتقول : وزيداً .

قال أبو حَيَّان : لا يصح العطف على الكاف ؛ لأنها مجرورة ، فالعطف عليها لا يكون إلاَّ بإعادة الجار ، ولم يُعَدْ ؛ ولأن " مِنْ " لا يمكن تقدير إضافة الجار إليها لكونها حرفاً ، وتقديرها مرادفة لبعض حتى تصحّ الإضافة إليها لا يصح ، ولا يصح أن يقدر العطف من باب العطف على موضع الكاف ؛ لأنه نصب ، فتجعل " مِنْ " في موضع نصب ؛ لأنه ليس مما يعطف فيه على الموضع [في مذهب سيبويه رحمه الله تعالى] لفوات المحرز ، وليس نظير ما ذكر ؛ لأن " الكاف " في " سأكرمك " في موضع نصب .

الثالث : قال أبو حيان : والذي يقتضيه المعنى أني يكون " مِنْ ذُرِّيَتي " متعلقاً بمحذوف ، التقدير : واجعل من ذريتي إماماً ، لأن " إبراهيم " فهم من قوله : إني جاعلك للنَّاس إماماً الاختصاص فسأل أ ، يجعل من ذرّيته إماماً .

قال شهاب الدّين : إن أراد الشيخ التعلّق الصناعي ، فيتعدّى " جاعل " لواحد ، فهذا ليس بظاهر .

وإن أراد التعلق المعنوي ، فيجوز أن يريد ما يريده أبو البقاء ، ويجوز أن يكون " مِنْ ذُرِّيَّتِي " مفعولاً ثانياً قدم على الأول ، فيتعلّق بمحذوف ، وجاز ذلك لأنه ينعقد من هذين الجزءين مبتدأ وخبر لو قلت : " من ذريتي إمام " لصح .

وقال ابن عطية : وقيل هذا منه على جهة الاستفهام عنهم أي : ومن ذرّيتي يا رب ماذا يكون ؟ فيتعلّق على هذا بمحذوف ، ولو قدره قبل " مِنْ ذُرِّيَّتِي " لكان أولى ؛ لأن ما في حَيّز الاستفهام لا يتقدم عليه .

(168/65)

وفي " ذرية " ثلاث لغات ضمّ الذال وكسرها وفتحها ، وبالضم قرأ الجمهور ، وبالفتح قرأ أبو جعفر الداني وبالكسر قرأ زيد بن ثابت . وفي تصريفها كلام طويل يحتاج الناظر فيه إلى تأمل .

فصل في اشتقاق ذرّية

فأما اشتقاقها ففيه أربعة مذاهب :

أحدها : أنها مشتقة من " ذَرَوْتُ " .

الثاني : من " ذَرَيْتُ " .

الثالث : من ذَرَأَ اللهُ الخَلْق .

الرابع : من الذَّرِّ .

وأما تصريفها فَذُرِّيَة بالضم إن كانت من ذَرَوْتُ ، فيجوز فيها أن يكون وزنها " فُعُّولَة " ، والأصلك " ذُرُّوْوَة " ، فاجتمع واوان : الأولى زائدة للمد ، والثانية لام الكلمة فقلبت لام الكلمة ياء تخفيفاً ، فصار اللفظ " ذُرُّوَيَة " ، فاجتمع ياء وواو ، وسَبَقَتْ إحداهما بالسكون ، فقلبت الواو ياء ، وأدغمت في الياء التي هي منقلبة من لام الكلمة ، وكسر ما قبل الياء ، وهي الراء للتجانس .

ويجوز أن يكون وزنها " فُعِّيلَة " ، والأصل : " ذُرِّيْوَة " ، فاجتمع ياء المد والواو التي هي لام الكلمة ، وسبقت إحداهما بالسكون ، فقلبت الواو ياء ، وأدغمت فيها ياء المد . وإن كانت من ذَرَيْتُ لغة في ذَرَوْتُ فيجوز فيها أيضاً أن يكون وزنها " فُعُّولة " أو فُعِّيلَة كما تقدم ، وإن كانت " فُعُّولة " فالأصل " ذُرُّوُيَة " ففعل به ما تقدم من القلب والإدغام .

وإن كانت " فُعِّيْلَة " فالأصل " ذُرِّيَية " ، فأدغمت الياء الزائدة في الياء التي هي لام . وإن كانت من ذرأ مهموزاً ، فوزنها ، " فُعِّيْلة " ، والأصل : " ذُرِّيْئَة " فخففت الهمزة بأن أبدلت

ياء كهمزة " خطيئة " والنسيء " ، ثم أدغمت الياء الزائدة في الياء المبدلة من الهمزة .

وإن كانت من " الذَّر " فيجوز في وزنها أربعة أوجه :

(169/65)

أحدها : " فُعْلِيَّة " وتحتمل هذه الياء أن تكون للنَّسب ، وغَيَّرُوا الذَّال من الفتح إلى الضم كما قالوا في النسب إلى الدهر : دُهْرِي ، وإلى السهل سُهْلي بضم الدال والسين ، وأن تكون الغير النسب فتكون كـ " قُمْرية " .

الثاني : أن تكون " فُعَيْلَة " كـ " مُرَيقَة " والأصل " ذُرِيرة " ، فقلبت الراء الآخيرة ياء لتوالي الأمثال ، كما قالوا : تسرّيت وتظنّيت في تسررت وتظننت .

الثالث : أن تكون " فُعُّولَة " كـ " قدوس " و " سبُّوح " ، والأصل : " ذُرُّوْرَة " فقلبت الراء ياء لما تقدم ، فصار ذُرُّوُيَة فاجتمع واو وياء ، فجاء القلب والإدغام كما تقدم .

الرابع : أن تكون فعلولة ، والأصل : ذُرُّوْرَة ، ففعل بها ما تقدم في الوجه الذي قبله .

وأما ذِرِّية بكسر الذال فإن كانت من ذروت فوزنها فِعَّيلة ، والأصل : ذِرِّيوَة ، فأبدلت الواو ياء وأدغمت في الياء بعدها ، فإ ، كانت من ذريت فوزنها فِعلية أيضاً ، وإن كانت من ذرأ فوزنها فِعَّيلَة أيضاً كبطِّيخة ، والأصل ذِرِّيْئَة ، ففعل فيها ما تقدم في المضمومة الذال . وإن

كانت من الذَّرِّ فتحتمل ثلاثة أوجه :

أحدها : أن يكون وزنها فِعَلِيَّة نسبة إلى الذر على غير قياس في المضمومة .

الثاني : أن تكون " فِعَّيلَة " .

اثالث : أن تكون " فِعْليلة " كـ " حلتيت " والأصل فيها : ذِرِّيرة ففعل فيهما من إبدال الراء الآخيرة ياء والإدغام فيها .

وأما " ذَرِّيَة " بفتح الذال : فإن كانت من ذروت أو ذريت فوزنها : فَعِّيْلة كـ " سكينة " والأصل " ذَرِيْوة أو ذَرِّية أو فَعُّولة والأصل ذَرُّورَة أو ذَرُّوَيَة ، ففعل به ما تقدم في نظيره .

وإن كانت من ذرأ فوزنها : إما فعِّيلَة كـ " سكينة " ، والأصل ذَرِّيئة وإما فَعُّولة كـ " خرّوية " والأصل : ذَرَّوءة ففعل به ما تقدم في نظيره .

وإن كانت من الذر ففي وزنها أيضاً أربعة أوجه :

(170/65)

أحدها : فَعْلِيَّة ، والياء أيضاً تحتمل أن تكون للنسب ، ولم يَشِذُّوا فيه بتغيير كما شذّوا في الضم والكسر وألاّ يكون نحو : بَرْنية .

الثاني : فَعُّولة كـ " خَرُّوبة " والاصل ذَرُّوْرَة .

الثالث : فَعَّيلَة كـ" سكينة " والأصل : ذريرة .

الرابع : فَعْلُولة كـ" بكُّولة " ، والأصل ذرورة أيضاً ، ففعل به ما تقدم في نظيره من إبدال الراء الأخير ، وإدغام ما قبلها وكسرت الذال إتباعاً ، وبهذا الضبط الذي فعلته اتضح القول في هذه اللفظة .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظالمين ﴾ .

الجمهور على نَصْب " الظَّالِمِينَ " مفعولاً ، و" عَهْدِي " فاعل ، أى : لا يصل عهدي إلى الظالمين فيدركهم .

وقرأ قتادة ، والأعمش ، وأبو رجاء : " الظَّالِمُونَ " بالفاعلية ، و" عَهْدِي " مفعول به ، والقراءتان ظاهرتان ؛ إذ الفعل يصحّ نسبته إلى كل منهما ، فإن من نالك فقد نِلْته .

والنَّيْل : الإدراك ، وهو العطاء أيضاً ، نال يَنَال نيلاً فهو نائل ، وقرأ حمزة وحفص بإسكان الياء من : " عَهْدِيْ " ، الباقون بفتحها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 2 صـ 456.441 ﴾ . بتصرف .

(171/65)

قوله تعالى ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (125) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان من إمامته اتباع الناس له في حج البيت الذي شرفه الله ببنائه قال إثر ذلك ناعياً على أهل الكتاب مخالفته وترك دينه وموطئاً لأمر القبلة : ﴿ وإذ جعلنا البيت ﴾ أي الذي بناه إبراهيم بأم القرى ﴿ مثابة للناس ﴾ أي مرجعاً يرجعون إليه بكلياتهم .

كلما تفرقوا عنه اشتاقوا إليه هم أو غيرهم آية على رجوعهم من الدنيا إلى ربهم .

قال الحرالي : وهو مفعلة من الثوب وهو الرجوع ترامياً إليه بالكلية .

وفي صيغة المفعلة دوام المعاودة مثابرة ﴿ وأمناً ﴾ لكونه بيت الملك .

من حرب الدنيا ومن عذاب الآخرة إلا في حق من استثناه الله من الكافرين فعلاً بالشرك وقوة بالإلحاد ، والأمن براءة عيب من تطرق أذى إليه – قاله الحرالي .

وقد كانوا في الجاهلية يرى الرجل قاتل أبيه في الحرم فلا يتعرض له .

قال الأصبهاني : وهذا شيء توارثوه من زمن إسماعيل عليه السلام فقرأ عليه إلى أيام النبي صلى الله عليه وسلم ، فاليوم من أصاب في الحرم جريرة أقيم عليه الحد بالإجماع .

ولما كان التقدير : فتاب الناس عليه ائتماماً ببانيه وآمنوا بدعوته فيه عطف عليه قوله :

﴿ واتخذوا ﴾ ، وعلى قراءة الأمر يكون التقدير : فتوبوا إليه أيها الناس ائتماماً به واتخذوا ﴿ من مقام إبراهيم ﴾ خليلنا ﴿ مصلى ﴾ وهو مفعل لما تداوم فيه الصلاة ، ومقام إبراهيم هو الحجر الذي قام عليه حين جاء لزيارة ولده إسماعيل عليهما الصلاة والسلام فلم يجده ، فغسلت امرأة إسماعيل رأسه وهو معتمد برجله عليه وهو راكب ، غسلت شق رأسه الأيمن وهو معتمد على الحجر برجله اليمنى ، ثم أدارت الحجر إلى الجانب الأيسر وغسلت شقه الأيسر ، فغاصت رجلاه فيه ؛ ولهذا أثر قدميه مختلف ، أصابع هذه عند عقب هذه ، وهو قبل أن يبني البيت – والله أعلم بمراده .

(172/65)

﴿ وعهدنا ﴾ عطف على قوله ﴿ جعلنا ﴾ ﴿ إلى إبراهيم ﴾ الوفي ﴿ وإسماعيل ﴾ ابنه الصادق الوعد ، وفي ذكره إفصاح بإجابة دعوته فيه في قوله : ﴿ ومن ذريتي ﴾ [البقرة : 124] و [إبراهيم : 37] وإشارة إلى أن في ذريته من يختم الأمم بأمته ويكون استقباله بيته في أجل العبادات من شرعته وأتم الإشارة بقوله : ﴿ أن طهرا بيتي ﴾ أي عن كل رجس حسي ومعنوي ، فلا يفعل بحضرته شيء لا يليق في الشرع ؛ والبيت موضع المبيت المخصوص من الدار المخصوصة من المنزل المختص من البلد – قاله الحرالي .

﴿ للطائفين ﴾ به الذين فعلهم فعل العارف بأنه ليس وراء الله مرمى ولا مهرب منه إلا إليه ﴿ والعاكفين ﴾ فيه ، والعكوف الإقبال على الشيء وملازمته والاقتصار عليه ، والطواف التحليق بالشيء في غيب أو لمعنى غيب – قاله الحرالي .

﴿ والركع السجود ﴾ قال الحرالي : وفي ذكر الركوع تخصيص للعرب الذين إنما شرع الركوع في دينهم ، وفي ذلك تبكيت لمن أخرج المؤمنين ومنعهم من البيت ، وفي تكرير تفصيل هذه الآيات بإذ تنبيه على توبيخهم بترك دينه وهو الخليل واتباع من لا يعلم وهو العدو . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 239. 240 ﴾

(173/65)

سؤال : ما المراد بالبيت ؟

الجواب ما ذكره البغوى وأكثر المفسرين :

﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ ﴾ يعني الكعبة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير البغوى حـ 1 صـ 146 ﴾

وقال الفخر الرازى :

ليس المراد نفس الكعبة ، لأنه تعالى وصفه بكونه (أمناً) وهذا صفة جميع الحرم لا صفة

الكعبة فقط والدليل على أنه يجوز إطلاق البيت والمراد منه كل الحرم قوله تعالى : ﴿ هَدْياً بالغ الكعبة ﴾ [المائدة : 95] والمراد الحرم كله لا الكعبة نفسها ، لأنه لا يذبح في الكعبة ، ولا في المسجد الحرام وكذلك قوله : ﴿ فَلاَ يَقْرَبُواْ المسجد الحرام بَعْدَ عَامِهِمْ هذا ﴾ [التوبة : 28] ، والمراد والله أعلم منعهم من الحج حضور مواضع النسك ، وقال في آية أخرى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً ءامِناً ﴾ [العنكبوت : 67] وقال الله تعالى في آية أخرى مخبراً عن إبراهيم : ﴿ رَبِّ اجعل هذا البلد امِنًا ﴾ [إبراهيم : 35] فدل هذا على أنه وصف البيت بالأمن فاقتضى جميع الحرم ، والسبب في أنه تعالى أطلق لفظ البيت وعنى به الحرم كله أن حرمة الحرم لما كانت معلقة بالبيت جاز أن يعبر عنه باسم البيت . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ4 صـ 42 ﴾

قوله تعالى ﴿ مثابة للناس ﴾ أي مرجعاً يرجعون إليه بكلياتهم . كلما تفرقوا عنه اشتاقوا إليه هم أو غيرهم آية على رجوعهم من الدنيا إلى ربهم . قال الحرالي : وهو مفعلة من الثوب وهو الرجوع ترامياً إليه بالكلية . وفي صيغة المفعلة دوام المعاودة مثابرة ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ1 صـ 139 ﴾

قوله تعالى : ﴿ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ ﴾

قال أهل اللغة : أصله من ثاب يثوب مثابة وثوباً إذا رجع

قال الحسن : معناه أنهم يثوبون إليه في كل عام ، وعن ابن عباس ومجاهد : أنه لا ينصرف

عنه أحد إلا وهو يتمنى العود إليه ، قال الله تعالى : ﴿ فاجعل أَفْئِدَةً مِّنَ الناس تَهْوِى إِلَيْهِمْ ﴾ [إبراهيم : 37] وقيل : مثابة أي يحجون إليه فيثابون عليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 4 صـ 42 ﴾

(174/65)

سؤال : فإن قيل : كون البيت مثابة يحصل بمجرد عودهم إليه ، وذلك يحصل بفعلهم لا بفعل الله تعالى ، فما معنى قوله : ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا البيت مَثَابَةً لِّلنَّاسِ ﴾ ؟

الجواب : قلنا : أما على قولنا ففعل العبد مخلوق لله تعالى فهذه الآية حجة على قولنا في هذه المسألة ، وأما على قول المعتزلة فمعناه أنه تعالى ألقى تعظيمه في القلوب ليصير ذلك داعياً لهم إلى العود إليه مرة بعد أخرى ، وإنما فعل الله تعالى ذلك لما فيه من منافع الدنيا والآخرة ، أما منافع الدنيا فلأن أهل المشرق والمغرب يجتمعون هناك ، فيحصل هناك من التجارات وضروب المكاسب ما يعظم به النفع ، وأيضاً فيحصل بسبب السفر إلى الحج عمارة الطريق والبلاد ، ومشاهدة الأحوال المختلفة في الدنيا ، وأما منافع الدين فلأن من قصد البيت رغبة منه في النسك والتقرب إلى الله تعالى ، وإظهار العبودية له ، والمواظبة على العمرة والطواف ، وإقامة الصلاة في ذلك المسجد المكرم والاعتكاف فيه ، يستوجب

بذلك ثواباً عظيماً عند الله تعالى. انتهى انتهى. ا هـ ﴿مفاتيح الغيب حـ4 صـ 43﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَمْناً﴾ فيه قولان:

أحدهما: لأمنه في الجاهلية من مغازي العرب، لقوله: ﴿وءَامَنَهُم مِنْ خَوفٍ﴾ [قريش: 4].

والثاني: لأمن الجناة فيه من إقامة الحدود عليهم حتى يخرجوا منه. انتهى انتهى. ا هـ ﴿النكت والعيون حـ1 صـ 186﴾

وقال ابن عطية:

و﴿أمناً﴾ معناه أن الناس يغيرون ويقتتلون حول مكة وهي أمنة من ذلك، يلقى الرجل بها قاتل أبيه فلا يهيجه، لأن الله تعالى جعل في النفوس حرمة وجعلها أمناً للناس والطير والوحوش، وخصص الشرع من ذلك الخمس الفواسق، على لسان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ. انتهى انتهى. ا هـ ﴿المحرر الوجيز حـ1 صـ 207﴾

وقال الإمام الجصاص ـ رحمه الله ـ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ إنَّمَا هُوَ حُكْمٌ مِنْهُ بِذَلِكَ لَا خَبَرٌ.

وَكَذَلِكَ قَوْله تَعَالَى : ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا ﴾ ﴿ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ﴾ كُلُّ هَذَا مِنْ طَرِيقِ الْحُكْمِ ، لَا عَلَى وَجْهِ الْإِخْبَارِ بِأَنَّ مَنْ دَخَلَهُ لَمْ يَلْحَقْهُ سُوءٌ ؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ خَبَرًا لَوَجَدَ مُخْبِرُهُ عَلَى مَا أَخْبَرَ بِهِ ؛ لِأَنَّ أَخْبَارَ اللَّهِ تَعَالَى لَا بُدَّ مِنْ وُجُودِهَا عَلَى مَا أَخْبَرَ بِهِ ، وَقَدْ قَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ : ﴿ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ ﴾ فَأَخْبَرَ بِوُقُوعِ الْقَتْلِ فِيهِ ؛ فَدَلَّ أَنَّ الْأَمْرَ الْمَذْكُورَ إنَّمَا هُوَ مِنْ قَبْلِ حُكْمِ اللَّهِ تَعَالَى بِالْأَمْنِ فِيهِ وَأَنْ لَا يُقْتَلَ الْعَائِذُ بِهِ وَاللَّاجِئُ إلَيْهِ .

وَكَذَلِكَ كَانَ حُكْمُ الْحَرَمِ مُنْذُ عَهْدِ إبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إلَى يَوْمِنَا هَذَا ، وَقَدْ كَانَتْ الْعَرَبُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ تَعْتَقِدُ ذَلِكَ لِلْحَرَمِ وَتَسْتَعْظِمُ الْقَتْلَ فِيهِ عَلَى مَا كَانَ بَقِيَ فِي أَيْدِيهِمْ مِنْ شَرِيعَةِ إبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ1 صـ 90 ﴾

سؤال : فإن قيل : لم سماه الله "أمنا" ؟

فالجواب : إنما سماه الله "أمنا" ، لأنه كان في الجاهلية معاذا لمن استعاذ به ، وكان الرجل منهم لو لقي به قاتل أبيه أو أخيه ، لم يهجه ولم يعرض له حتى يخرج منه ، وكان كما قال الله جل ثناؤه : (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ) . [سورة العنكبوت : 67] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الطبرى حـ2 صـ29 ﴾

سؤال : فإن قيل : ليس كل من جاءه يعود إليه ،

قيل : ليس يختص بمن ورد عليه ، وإنما المعنى أنه لا يخلو من الجملة ، ولا يعدم قاصداً من الناس ؛ والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 2 صـ 111 ﴾

كلام نفيس فى معنى ﴿ الأمن ﴾

والأمن مصدر أخبر به عن البيت باعتبار أنه سبب أمن فجعل كأنه نفس الأمن مبالغة .

والأمن حفظ الناس من الأضرار فتشريد الدعَّار وحراسة البلاد وتمهيد السبل وإنارة الطرق أمن ، والانتصاف من الجناة والضرب على أيدي الظلمة وإرجاع الحقوق إلى أهلها أمن ، فالأمن يفسر في كل حال بما يناسبه ، ولما كان الغالب على أحوال الجاهلية أخذ القوي مال الضعيف ولم يكن بينهم تحاكم ولا شريعة كان الأمن يومئذ هو الحيلولة بين القوي والضعيف ، فجعل الله لهم البيت أمناً للناس يومئذ أي يصد القوي عن أن يتناول فيه الضعيف قال تعالى : ﴿ أو لم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم ﴾ [العنكبوت : 67] فهذه منة على أهل الجاهلية ، وأما في الإسلام فقد أغنى الله تعالى بما شرعه من أحكامه وما أقامه من حكامه فكان ذلك أمناً كافياً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 1 صـ 407 ﴾

من فوائد الإمام الجصاص في الآية

قال رحمه الله :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا ﴾ أَمَّا الْبَيْتُ فَإِنَّهُ يُرِيدُ بَيْتَ اللَّهِ الْحَرَامَ ، وَاكْتَفَى بِذِكْرِ الْبَيْتِ مُطْلَقًا لِدُخُولِ الْأَلِفِ وَاللَّامِ عَلَيْهِ ؛ إذْ كَانَا يَدْخُلَانِ لِتَعْرِيفِ الْمَعْهُودِ أَوْ الْجِنْسِ ، وَقَدْ عَلِمَ الْمُخَاطَبُونَ أَنَّهُ لَمْ يُرِدْ الْجِنْسَ ، فَانْصَرَفَ إلَى الْمَعْهُودِ عِنْدَهُمْ وَهُوَ الْكَعْبَةُ ، وَقَوْلُهُ : ﴿ مَثَابَةً لِلنَّاسِ ﴾ رُوِيَ عَنْ الْحَسَنِ أَنَّ مَعْنَاهُ أَنَّهُمْ يَثُوبُونَ إلَيْهِ فِي كُلِّ عَامٍ .

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ : أَنَّهُ لَا يَنْصَرِفُ عَنْهُ أَحَدٌ وَهُوَ يَرَى أَنَّهُ قَدْ قَضَى وَطَرًا مِنْهُ ، فَهُمْ يَعُودُونَ إلَيْهِ ، وَقِيلَ فِيهِ : إنَّهُمْ يَحُجُّونَ إلَيْهِ فَيُثَابُونَ عَلَيْهِ ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ : قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ : أَصْلُهُ مِنْ ثَابَ يَثُوبُ مَثَابَةً وَثَوَابًا : إذَا رَجَعَ ؛ قَالَ بَعْضُهُمْ : إنَّمَا أَدْخَلَ الْهَاءَ عَلَيْهِ لِلْمُبَالَغَةِ لَمَّا كَثُرَ مَنْ يَثُوبُ إلَيْهِ ، كَمَا يُقَالُ : نَسَّابَةٌ وَعَلَّامَةٌ وَسَيَّارَةٌ وَقَالَ الْفَرَّاءُ : هُوَ كَمَا قِيلَ الْمَقَامَةُ وَالْمَقَامُ .

وَإِذَا كَانَ اللَّفْظُ مُحْتَمِلًا لَمَا تَأَوَّلَهُ السَّلَفُ مِنْ رُجُوعِ النَّاسِ إلَيْهِ فِي كُلِّ عَامٍ ، وَمِنْ قَوْلِ مَنْ قَالَ إنَّهُ لَا يَنْصَرِفُ عَنْهُ أَحَدٌ إلَّا وَهُوَ يُحِبُّ الْعَوْدَ إلَيْهِ وَمِنْ أَنَّهُمْ يَحُجُّونَ إلَيْهِ فَيُثَابُونَ ؛ فَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ ذَلِكَ كُلَّهُ .

وَيَشْهَدُ لِقَوْلِ مَنْ قَالَ إِنَّهُمْ يُحِبُّونَ الْعَوْدَ إِلَيْهِ بَعْدَ الِانْصِرَافِ قَوْله تَعَالَى : ﴿ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنْ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ﴾ وَقَدْ نَصَّ هَذَا اللَّفْظُ عَلَى فِعْلِ الطَّوَافِ ؛ إذْ كَانَ الْبَيْتُ مَقْصُودًا وَمَثَابَةً لِلطَّوَافِ وَلَا دَلَالَةَ فِيهِ عَلَى وُجُوبِهِ ، وَإِنَّمَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ يَسْتَحِقُّ الثَّوَابَ بِفِعْلِهِ .

وَرُبَّمَا احْتَجَّ مُوجِبُو الْعُمْرَةِ بِهَذِهِ الْآيَةِ ، فَقَالُوا : إذَا كَانَ اللَّهُ تَعَالَى قَدْ جَعَلَهُ مَثَابَةً لِلنَّاسِ يَعُودُونَ إلَيْهِ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى فَقَدْ اقْتَضَى الْعَوْدَ إلَيْهِ

لِلْعُمْرَةِ بَعْدَ الْحَجِّ وَلَيْسَ هَذَا بِشَيْءٍ ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ فِي اللَّفْظِ دَلِيلُ الْإِيجَابِ ، وَإِنَّمَا فِيهِ أَنَّهُ جَعَلَ لَهُمْ الْعَوْدَ إلَيْهِ وَوَعَدَهُمْ الثَّوَابَ عَلَيْهِ ، وَهَذَا إنَّمَا يَقْتَضِي النَّدْبَ لَا الْإِيجَابَ ؛ أَلَا تَرَى أَنَّ الْقَائِلَ : لَك أَنْ تَعْتَمِرَ وَلَك أَنْ تُصَلِّيَ ، لَا دَلَالَةَ فِيهِ عَلَى الْوُجُوبِ وَعَلَى أَنَّهُ لَمْ يُخَصِّصْ الْعَوْدَ إلَيْهِ بِالْعُمْرَةِ دُونَ الْحَجِّ ؟ وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّ الْحَجَّ فِيهِ طَوَافُ الْقُدُومِ وَطَوَافُ الزِّيَارَةِ وَطَوَافُ الصَّدَرِ ، وَيَحْصُلُ بِذَلِكَ كُلِّهِ الْعَوْدُ إلَيْهِ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى ، فَإِذَا فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ قَضَى عُهْدَةَ اللَّفْظِ .

فَلَا دَلَالَةَ فِيهِ إذَا عَلَى وُجُوبِ الْعُمْرَةِ .

وَأَمَّا قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَأَمْنًا ﴾ فَإِنَّهُ وَصَفَ الْبَيْتَ بِالْأَمْنِ ، وَالْمُرَادُ جَمِيعُ الْحَرَمِ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ ﴾ وَالْمُرَادُ الْحَرَمُ لَا الْكَعْبَةُ نَفْسُهَا ؛ لِأَنَّهُ لَا يُذْبَحُ فِي الْكَعْبَةِ وَلَا فِي الْمَسْجِدِ ؛ وَكَقَوْلِهِ : ﴿ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : " وَذَلِكَ أَنَّ الْحَرَمَ كُلَّهُ مَسْجِدٌ " .

وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا ﴾ وَالْمُرَادُ وَاَللَّهُ أَعْلَمُ مَنْعُهُمْ مِنْ الْحَجِّ وَحُضُورِهِمْ مَوَاضِعَ النُّسُكِ ، أَلَا تَرَى إلَى قَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ بَعَثَ بِالْبَرَاءَةِ مَعَ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : ﴿ وَأَنْ لَا يَحُجَّ بَعْدَ الْعَامِ مُشْرِكٌ ﴾ مُنْبِئًا عَنْ مُرَادِ الْآيَةِ ؟ وَقَوْله تَعَالَى فِي آيَةٍ أُخْرَى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا ﴾ وَقَالَ حَاكِيًا عَنْ إبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا ﴾ يَدُلُّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ وَصْفَهُ الْبَيْتَ بِالْأَمْنِ اقْتَضَى جَمِيعَ الْحَرَمِ ؛ وَلِأَنَّ حُرْمَةَ الْحَرَمِ لَمَّا كَانَتْ مُتَعَلِّقَةً بِالْبَيْتِ جَازَ أَنْ يُعَبَّرَ عَنْهُ بِاسْمِ الْبَيْتِ لِوُقُوعِ الْأَمْنِ بِهِ وَحَظْرِ الْقِتَالِ وَالْقَتْلِ فِيهِ ؛ وَكَذَلِكَ حُرْمَةُ الْأَشْهُرِ الْحُرُمِ مُتَعَلِّقَةٌ بِالْبَيْتِ ، فَكَانَ أَمْنُهُمْ فِيهَا لِأَجْلِ الْحَجِّ وَهُوَ مَعْقُودٌ بِالْبَيْتِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا ﴾ إنَّمَا هُوَ حُكْمٌ مِنْهُ بِذَلِكَ لَا خَبَرٌ .

وَكَذَلِكَ قَوْله تَعَالَى : ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا ﴾ ﴿ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ﴾ كُلُّ هَذَا مِنْ طَرِيقِ الْحُكْمِ ، لَا عَلَى وَجْهِ الْإِخْبَارِ بِأَنَّ مَنْ دَخَلَهُ لَمْ يَلْحَقْهُ سُوءٌ ؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ خَبَرًا لَوَجَدَ مُخْبِرُهُ عَلَى مَا أَخْبَرَ بِهِ ؛ لِأَنَّ أَخْبَارَ اللَّهِ تَعَالَى لَا بُدَّ مِنْ وُجُودِهَا عَلَى مَا أَخْبَرَ بِهِ ، وَقَدْ قَالَ فِي

مَوْضِعٍ آخَرَ : ﴿ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ ﴾ فَأَخْبَرَ بِوُقُوعِ الْقَتْلِ فِيهِ ؛ فَدَلَّ أَنَّ الْأَمْرَ الْمَذْكُورَ إنَّمَا هُوَ مِنْ قَبْلِ حُكْمِ اللَّهِ تَعَالَى بِالْأَمْنِ فِيهِ وَأَنْ لَا يُقْتَلَ الْعَائِذُ بِهِ وَاللَّاجِئُ إلَيْهِ .

(181/65)

وَكَذَلِكَ كَانَ حُكْمُ الْحَرَمِ مُنْذُ عَهْدِ إبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إلَى يَوْمِنَا هَذَا ، وَقَدْ كَانَتْ الْعَرَبُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ تَعْتَقِدُ ذَلِكَ لِلْحَرَمِ وَتَسْتَعْظِمُ الْقَتْلَ فِيهِ عَلَى مَا كَانَ بَقِيَ فِي أَيْدِيهِمْ مِنْ شَرِيعَةِ إبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ؛ حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَكْرٍ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُد قَالَ : حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ قَالَ : حَدَّثَنَا الْوَلِيدُ بْنُ مُسْلِمٍ قَالَ : حَدَّثَنَا الْأَوْزَاعِيُّ قَالَ : حَدَّثَنَا يَحْيَى ، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : لَمَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَكَّةَ قَامَ رَسُولُ

اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ حَبَسَ عَنْ مَكَّةَ الْفِيلَ وَسَلَّطَ عَلَيْهَا رَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ ، وَإِنَّمَا أُحِلَّتْ لِي سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ ثُمَّ هِيَ حَرَامٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، لَا يُعْضَدُ شَجَرُهَا وَلَا يُنَفَّرُ صَيْدُهَا وَلَا تَحِلُّ لُقَطَتُهَا إِلَّا لِمُنْشِدِهَا فَقَالَ الْعَبَّاسُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِلَّا الْإِذْخِرَ فَإِنَّهُ لِقُبُورِنَا وَبُيُوتِنَا .

فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إِلَّا الْإِذْخِرَ ﴾ .

حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَكْرٍ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُد قَالَ : حَدَّثَنَا عُثْمَانُ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ قَالَ : حَدَّثَنَا جَرِيرٌ ، عَنْ مَنْصُورٍ ، عَنْ مُجَاهِدٍ وَطَاوُسٍ ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ : " وَلَا يُخْتَلَى خَلَاهَا " .

(182/65)

وَقَالَ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ مَكَّةَ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ، لَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي وَلَمْ تَحِلَّ لِي إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ ﴾ .

وَرَوَى ابْنُ أَبِي ذِئْبٍ عَنْ سَعِيدٍ

الْمَقْبُرِيِّ عَنْ أَبِي شُرَيْحٍ الْكَعْبِيِّ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى حَرَّمَ مَكَّةَ وَلَمْ يُحَرِّمْهَا النَّاسُ ، فَلَا يُسْفَكَنَّ فِيهَا دَمٌ وَإِنَّ اللَّهَ أَحَلَّهَا لِي سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ

وَلَمْ يُحِلَّهَا لِلنَّاسِ ﴾ .

وَأَخْبَرَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَحَظَرَ فِيهَا سَفْكَ الدِّمَاءِ ، وَأَنَّ حُرْمَتَهَا بَاقِيَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ .

وَأَخْبَرَ أَنَّ مِنْ تَحْرِيمِهَا تَحْرِيمَ صَيْدِهَا وَقَطْعَ الشَّجَرِ وَالْخَلَا .

(183/65)

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ : مَا وَجْهُ اسْتِثْنَائِهِ الْإِذْخِرَ مِنْ الْحَظْرِ عِنْدَ مَسْأَلَةِ الْعَبَّاسِ وَقَدْ أَطْلَقَ قَبْلَ ذَلِكَ حَظْرَ الْجَمِيعِ وَمَعْلُومٌ أَنَّ النَّسْخَ قَبْلَ التَّمْكِينِ مِنْ الْفِعْلِ لَا يَجُوزُ ؟ قِيلَ لَهُ : يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ تَعَالَى خَيَّرَ نَبِيَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي إبَاحَةِ الْإِذْخِرِ وَحَظْرِهِ عِنْدَ سُؤَالِ مَنْ يَسْأَلُهُ إبَاحَتَهُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ ﴾ فَخَيَّرَهُ فِي الْإِذْنِ عِنْدَ الْمَسْأَلَةِ وَمَعَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ حُرْمَتِهَا بِالنَّصِّ وَالتَّوْقِيفِ ، فَإِنَّ مِنْ آيَاتِهَا وَدَلَالَاتِهَا عَلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ تَعَالَى وَاخْتِصَاصِهِ لَهَا مَا يُوجِبُ تَعْظِيمَهَا مَا يُشَاهَدُ فِيهَا مِنْ أَمْنِ الصَّيْدِ فِيهَا وَذَلِكَ أَنَّ سَائِرَ بِقَاعِ الْحَرَمِ مُشْبِهَةٌ لِبِقَاعِ الْأَرْضِ وَيَجْتَمِعُ فِيهَا الظَّبْيُ وَالْكَلْبُ فَلَا يُهِيجُ الْكَلْبُ الصَّيْدَ وَلَا يَنْفِرُ مِنْهُ ، حَتَّى إذَا خَرَجَا مِنْ الْحَرَمِ عَدَا الْكَلْبُ عَلَيْهِ وَعَادَ هُوَ إلَى النُّفُورِ وَالْهَرَبِ وَذَلِكَ دَلَالَةٌ عَلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى .

وَعَلَى تَفْضِيلِ إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَتَعْظِيمِ شَأْنِهِ ، وَقَدْ رُوِيَ عَنْ جَمَاعَةٍ مِنْ الصَّحَابَةِ حَظْرُ صَيْدِ الْحَرَمِ وَشَجَرِهِ وَوُجُوبُ الْجَزَاءِ عَلَى قَتْلِهِ أَوْ قَطْعِهِ

(184/65)

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ يَدُلُّ عَلَى لُزُومِ رَكْعَتَيْ الطَّوَافِ ، وَذَلِكَ لِأَنَّ قَوْله تَعَالَى ﴿ مَثَابَةً لِلنَّاسِ ﴾ لَمَّا اقْتَضَى فِعْلَ الطَّوَافِ ثُمَّ عَطَفَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ : ﴿ وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ وَهُوَ أَمْرٌ ظَاهِرُهُ الْإِيجَابُ ، دَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ الطَّوَافَ مُوجِبٌ لِلصَّلَاةِ ، وَقَدْ رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ أَرَادَ بِهِ صَلَاةَ الطَّوَافِ ؛ وَهُوَ مَا حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَكْرٍ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُد قَالَ : حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ النُّفَيْلِيُّ قَالَ : حَدَّثَنَا حَاتِمُ بْنُ إسْمَاعِيلَ قَالَ : حَدَّثَنَا جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَابِرٍ وَذَكَرَ حَجَّةَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلَى قَوْلِهِ : ﴿ اسْتَلَمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الرُّكْنَ فَرَمَلَ ثَلَاثًا وَمَشَى أَرْبَعًا ثُمَّ تَقَدَّمَ إلَى مَقَامِ إبْرَاهِيمَ فَقَرَأَ : ﴿ وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ فَجَعَلَ الْمَقَامَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْبَيْتِ وَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ ﴾ .

(185/65)

فَلَمَّا تَلَا عَلَيْهِ السَّلَامُ عِنْدَ إِرَادَتِهِ الصَّلَاةَ خَلْفَ الْمَقَامِ : ﴿ وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ دَلَّ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالْآيَةِ فِعْلُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الطَّوَافِ ، وَظَاهِرُهُ أَمْرٌ فَهُوَ عَلَى الْوُجُوبِ ، وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ صَلَّاهُمَا عِنْدَ الْبَيْتِ ؛ وَهُوَ مَا حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَكْرٍ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُد قَالَ : حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ الْقَوَارِيرِيُّ قَالَ : حَدَّثَنِي يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ قَالَ : حَدَّثَنَا السَّائِبُ عَنْ مُحَمَّدٍ الْمَخْزُومِيِّ قَالَ : حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ السَّائِبِ عَنْ أَبِيهِ ، أَنَّهُ كَانَ يَقُودُ ابْنَ عَبَّاسٍ فَيُقِيمُهُ عِنْدَ الشُّقَّةِ الثَّالِثَةِ مِمَّا يَلِي الرُّكْنَ الَّذِي يَلِي الْحَجَرَ مِمَّا يَلِي الْبَابَ فَيَقُولُ ابْنُ عَبَّاسٍ : " أُثْبِتُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يُصَلِّي هَا هُنَا " فَيَقُومُ فَيُصَلِّي .

فَدَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى وُجُوبِ صَلَاةِ الطَّوَافِ ، وَدَلَّ فِعْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَهَا تَارَةً عِنْدَ الْمَقَامِ وَتَارَةً عِنْدَ غَيْرِهِ عَلَى أَنَّ فِعْلَهَا عِنْدَهُ لَيْسَ بِوَاجِبٍ .

وَرَوَى عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْقَارِي عَنْ عُمَرَ أَنَّهُ طَافَ بَعْدَ صَلَاةِ الصُّبْحِ ، ثُمَّ رَكِبَ وَأَنَاخَ بِذِي طَوًى ، فَصَلَّى رَكْعَتَيْ طَوَافِهِ .

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ صَلَّاهَا فِي الْحَطِيمِ ، وَعَنْ الْحَسَنِ وَعَطَاءٍ أَنَّهُ إِنْ لَمْ يُصَلِّ خَلْفَ الْمَقَامِ أَجْزَأَ .

.

وَقَدْ اخْتَلَفَ السَّلَفُ فِي الْمُرَادِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : " الْحَجُّ كُلُّهُ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ " .

وَقَالَ " عَطَاءٌ : مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ عَرَفَةُ وَالْمُزْدَلِفَةُ وَالْجِمَارُ " .

وَقَالَ مُجَاهِدٌ : " الْحَرَمُ كُلُّهُ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ " .

وَقَالَ السُّدِّيُّ : مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ هُوَ الْحَجَرُ الَّذِي كَانَتْ زَوْجَةُ إِسْمَاعِيلَ وَضَعَتْهُ تَحْتَ قَدَمِ إِبْرَاهِيمَ حِينَ غَسَلَتْ رَأْسَهُ ، فَوَضَعَ إِبْرَاهِيمُ رِجْلَهُ عَلَيْهِ وَهُوَ رَاكِبٌ فَغَسَلَتْ شِقَّهُ ثُمَّ رَفَعَتْهُ مِنْ تَحْتِهِ وَقَدْ غَابَتْ رِجْلُهُ فِي الْحَجَرِ ، فَوَضَعَتْهُ تَحْتَ الشِّقِّ الْآخَرِ فَغَسَلَتْهُ فَغَابَتْ رِجْلُهُ أَيْضًا فِيهِ ، فَجَعَلَهُ اللَّهُ مِنْ شَعَائِرِهِ فَقَالَ : ﴿ وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ وَرُوِيَ نَحْوُهُ عَنْ الْحَسَنِ وَقَتَادَةَ وَالرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ ، وَالْأَظْهَرُ أَنْ يَكُونَ هُوَ الْمُرَادُ ؛ لِأَنَّ الْحَرَمَ يُسَمَّى عَلَى الْإِطْلَاقِ مَقَامَ إِبْرَاهِيمَ ، وَكَذَلِكَ سَائِرُ الْمَوَاضِعِ الَّتِي تَأَوَّلَهُ غَيْرُهُمْ عَلَيْهَا مِمَّا ذَكَرْنَاهُ ، وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ هُوَ الْمُرَادُ مَا رَوَى حُمَيْدٌ عَنْ أَنَسٍ قَالَ ﴿ : قَالَ عُمَرُ : قُلْت يَا رَسُولَ اللَّهِ : لَوْ اتَّخَذْت مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ ﴾ ثُمَّ صَلَّى فَدَلَّ عَلَى أَنَّ مُرَادَ اللَّهِ تَعَالَى بِذِكْرِ الْمَقَامِ هُوَ الْحَجَرُ .

وَيَدُلُّ عَلَيْهِ أَمْرُهُ تَعَالَى إيَّانَا بِفِعْلِ الصَّلَاةِ ، وَلَيْسَ لِلصَّلَاةِ تَعَلُّقٌ بِالْحَرَمِ وَلَا سَائِرِ الْمَوَاضِعِ الَّذِي تَأَوَّلَهُ عَلَيْهَا مَنْ ذَكَرْنَا قَوْلَهُ ، وَهَذَا الْمَقَامُ دَلَالَةٌ عَلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ وَنُبُوَّةِ إبْرَاهِيمَ ؛ لِأَنَّهُ جَعَلَ لِلْحَجَرِ رُطُوبَةَ الطِّينِ حَتَّى دَخَلَتْ قَدَمُهُ فِيهِ ، وَذَلِكَ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إلَّا اللَّهُ ؛ وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ مُعْجِزَةٌ لِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَدَلَّ عَلَى نُبُوَّتِهِ .

وَقَدْ اُخْتُلِفَ فِي الْمَعْنَى الْمُرَادِ بِقَوْلِهِ ﴿ مُصَلًّى ﴾ فَقَالَ فِيهِ

مُجَاهِدٌ : " مُدَّعًى " وَجَعَلَهُ مِنْ الصَّلَاةِ ؛ إذْ هِيَ الدُّعَاءُ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ ﴾ .

وَقَالَ الْحَسَنُ : " أَرَادَ بِهِ قِبْلَةً " .

وَقَالَ قَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ : " أُمِرُوا أَنْ يُصَلُّوا عِنْدَهُ " .

وَهَذَا هُوَ الَّذِي يَقْتَضِيهِ ظَاهِرُ اللَّفْظِ ؛ لِأَنَّ لَفْظَ الصَّلَاةِ إذَا أُطْلِقَ تُعْقَلُ مِنْهُ الصَّلَاةُ الْمَفْعُولَةُ بِرُكُوعٍ وَسُجُودٍ ، أَلَا تَرَى أَنَّ مُصَلَّى الْمِصْرِ هُوَ الْمَوْضِعُ الَّذِي يُصَلَّى فِيهِ صَلَاةُ الْعِيدِ ؟ وَقَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِأُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ ﴿ : الْمُصَلَّى أَمَامَك ﴾ يَعْنِي بِهِ مَوْضِعَ الصَّلَاةِ الْمَفْعُولَةِ ، وَقَدْ دَلَّ عَلَيْهِ أَيْضًا فِعْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدَ تِلَاوَتِهِ الْآيَةَ .

وَأَمَّا قَوْلُ مَنْ قَالَ " قِبْلَةٌ " فَذَلِكَ يَرْجِعُ إِلَى مَعْنَى الصَّلَاةِ ؛ لِأَنَّهُ إِنَّمَا يَجْعَلُهُ الْمُصَلِّي بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْبَيْتِ فَيَكُونُ قِبْلَةً لَهُ ، وَعَلَى أَنَّ الصَّلَاةَ فِيهَا الدُّعَاءُ ، فَحَمْلُهُ عَلَى الصَّلَاةِ أَوْلَى ؛ لِأَنَّهَا تَنْتَظِمُ سَائِرَ الْمَعَانِي الَّتِي تَأَوَّلُوا عَلَيْهَا الْآيَةَ .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ قَالَ قَتَادَةُ وَعُبَيْدُ بْنُ عُمَيْرٍ وَمُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ : " طَهِّرَا مِنْ الشِّرْكِ وَعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا الْمُشْرِكُونَ قَبْلَ أَنْ يَصِيرَ فِي يَدِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ " .

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ ﴿ لَمَّا كَانَ فَتْحُ مَكَّةَ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَوَجَدَهُمْ قَدْ نَصَبُوا عَلَى الْبَيْتِ الْأَوْثَانَ فَأَمَرَ بِكَسْرِهَا وَجَعَلَ يَطْعَنُ فِيهَا بِعُودٍ فِي يَدِهِ وَيَقُولُ : جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ .

وَقِيلَ فِيهِ : طَهِّرَاهُ مِنْ فَرْثٍ وَدَمٍ كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَطْرَحُونَهُ عِنْدَهُ وَقَالَ السُّدِّيُّ : ﴿ طَهِّرَا بَيْتِي ﴾ : ابْنِيَاهُ عَلَى الطَّهَارَةِ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ ﴾ الْآيَةَ .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : وَجَمِيعُ مَا ذُكِرَ يَحْتَمِلُهُ اللَّفْظُ غَيْرَ مُنَافِيهِ ، فَيَكُونُ مَعْنَاهُ : " ابْنِيَاهُ عَلَى تَقْوَى اللَّهِ وَطَهِّرَاهُ مَعَ ذَلِكَ مِنْ الْفَرْثِ وَالدَّمِ وَمِنْ الْأَوْثَانِ أَنْ تُجْعَلَ فِيهِ أَوْ تَقْرَبَهُ " .

(189/65)

وَأَمَّا " الطَّائِفِينَ " فَقَدْ اُخْتُلِفَ فِي مُرَادِ الْآيَةِ مِنْهُ ، فَرَوَى جُوَيْبِرٌ عَنْ الضَّحَّاكِ قَالَ : " الطَّائِفِينَ " مَنْ جَاءَ مِنْ الْحُجَّاجِ " وَالْعَاكِفِينَ " : أَهْلُ مَكَّةَ وَهُمْ الْقَائِمُونَ .

وَرَوَى عَبْدُ الْمَلِكِ عَنْ عَطَاءٍ قَالَ : " الْعَاكِفُونَ " : مِنْ انْتَابَهُ مِنْ أَهْلِ الْأَمْصَارِ وَالْمُجَاوِرِينَ "

.

وَرَوَى أَبُو بَكْرٍ الْهُذَلِيّ قَالَ : " إذَا كَانَ طَائِفًا فَهُوَ مِنْ الطَّائِفِينَ ، وَإِذَا كَانَ جَالِسًا فَهُوَ مِنْ الْعَاكِفِينَ ، وَإِذَا كَانَ مُصَلِّيًا فَهُوَ مِنْ الرُّكَّعِ السُّجُودِ " وَرَوَى ابْنُ فُضَيْلٍ عَنْ عَطَاءٍ ، عَنْ سَعِيدٍ ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ : ﴿ طَهِّرَا بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ قَالَ : " الطَّوَافُ قَبْلَ الصَّلَاةِ "

.

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : قَوْلُ الضَّحَّاكِ : مَنْ جَاءَ مِنْ الْحُجَّاجِ فَهُوَ مِنْ الطَّائِفِينَ " رَاجِعٌ أَيْضًا إلَى مَعْنَى

الطَّوَافِ بِالْبَيْتِ ؛ لِأَنَّ مَنْ يَقْصِدُ الْبَيْتَ فَإِنَّمَا يَقْصِدُهُ لِلطَّوَافِ بِهِ ، إلَّا أَنَّهُ قَدْ خَصَّ بِهِ الْغُرَبَاءَ ، وَلَيْسَ فِي الْآيَةِ دَلَالَةُ التَّخْصِيصِ ؛ لِأَنَّ أَهْلَ مَكَّةَ وَالْغُرَبَاءَ فِي فِعْلِ الطَّوَافِ سَوَاءٌ .

(190/65)

فَإِنْ قِيلَ : فَإِنَّمَا تَأَوَّلَهُ الضَّحَّاكُ عَلَى الطَّائِفِ الَّذِي هُوَ طَارِئٌ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿ إذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنْ الشَّيْطَانِ ﴾ قِيلَ لَهُ : إنَّهُ وَإِنْ أَرَادَ ذَلِكَ فَالطَّوَافُ مُرَادٌ لَا مَحَالَةَ ؛ لِأَنَّ الطَّارِئَ إنَّمَا يَقْصِدُهُ لِلطَّوَافِ فَجَعَلَهُ هُوَ خَاصًّا فِي بَعْضِهِمْ دُونَ بَعْضٍ ، وَهَذَا لَا دَلَالَةَ لَهُ فِيهِ ، فَالْوَاجِبُ إذَا حَمَلَهُ عَلَى فِعْلِ الطَّوَافِ ، فَيَكُونُ قَوْلُهُ : وَالْعَاكِفِينَ مَنْ يَعْتَكِفُ فِيهِ ؛ وَهَذَا يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا : الِاعْتِكَافُ الْمَذْكُورُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ ﴾ فَخَصَّ الْبَيْتَ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ .

وَالْوَجْهُ الْآخَرُ : الْمُقِيمُونَ بِمَكَّةَ اللَّائِذُونَ بِهِ ، إذَا كَانَ الِاعْتِكَافُ هُوَ اللُّبْثُ ، وَقِيلَ فِي الْعَاكِفِينَ : الْمُجَاوِرُونَ ، وَقِيلَ : أَهْلُ مَكَّةَ ، وَذَلِكَ كُلُّهُ يَرْجِعُ إلَى مَعْنَى اللُّبْثِ وَالْإِقَامَةِ فِي الْمَوْضِعِ .

(191/65)

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : وَهُوَ عَلَى قَوْلِ مَنْ تَأَوَّلَ قَوْلَهُ الطَّائِفِينَ عَلَى الْغُرَبَاءِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الطَّوَافَ لِلْغُرَبَاءِ أَفْضَلُ مِنْ الصَّلَاةِ ؛ وَذَلِكَ ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ ذَلِكَ قَدْ أَفَادَ لَا مَحَالَةَ الطَّوَافَ لِلْغُرَبَاءِ ؛ إذْ كَانُوا إنَّمَا يَقْصِدُونَهُ لِلطَّوَافِ ، وَأَفَادَ جَوَازَ الِاعْتِكَافِ فِيهِ بِقَوْلِهِ ﴿ وَالْعَاكِفِينَ ﴾ وَأَفَادَ فِعْلَ الصَّلَاةِ فِيهِ أَيْضًا وَبِحَضْرَتِهِ ، فَخَصَّ الْغُرَبَاءَ بِالطَّوَافِ ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ فِعْلَ الطَّوَافِ لِلْغُرَبَاءِ أَفْضَلُ مِنْ فِعْلِ الصَّلَاةِ وَالِاعْتِكَافِ الَّذِي هُوَ لُبْثٌ مِنْ غَيْرِ طَوَافٍ ، وَقَدْ رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ وَعَطَاءٍ : أَنَّ الطَّوَافَ لِأَهْلِ الْأَمْصَارِ أَفْضَلُ ، وَالصَّلَاةَ لِأَهْلِ مَكَّةَ أَفْضَلُ ؛ فَتَضَمَّنَتْ الْآيَةُ مَعَانِيَ ، مِنْهَا : فِعْلُ الطَّوَافِ فِي الْبَيْتِ وَهُوَ قُرْبَةٌ إلَى اللَّهِ تَعَالَى يَسْتَحِقُّ فَاعِلُهُ الثَّوَابَ ، وَأَنَّهُ لِلْغُرَبَاءِ أَفْضَلُ مِنْ الصَّلَاةِ وَفِعْلُ الِاعْتِكَافِ فِي الْبَيْتِ وَبِحَضْرَتِهِ بِقَوْلِهِ ﴿ وَالْعَاكِفِينَ ﴾ .

وَقَدْ دَلَّ أَيْضًا عَلَى جَوَازِ الصَّلَاةِ فِي الْبَيْتِ فَرْضًا كَانَتْ أَوْ نَفْلًا ؛ إذْ لَمْ تُفَرِّقْ الْآيَةُ بَيْنَ شَيْءٍ مِنْهَا ، وَهُوَ خِلَافُ قَوْلِ مَالِكٍ فِي امْتِنَاعِهِ مِنْ جَوَازِ فِعْلِ الصَّلَاةِ الْمَفْرُوضَةِ فِي الْبَيْتِ .

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ أَنَّهُ صَلَّى فِي الْبَيْتِ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ ﴾ فَتِلْكَ الصَّلَاةُ لَا مَحَالَةَ كَانَتْ تَطَوُّعًا ؛ لِأَنَّهُ صَلَّاهَا حِينَ دَخَلَ ضُحًى وَلَمْ يَكُنْ وَقْتَ صَلَاةٍ .

وَقَدْ دَلَّ أَيْضًا عَلَى جَوَازِ الْجِوَارِ بِمَكَّةَ ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ : ﴿ وَالْعَاكِفِينَ ﴾ يَحْتَمِلُهُ إذَا كَانَ اسْمًا لِلُّبْثِ ، وَقَدْ يَكُونُ ذَلِكَ مِنْ الْمَجَازِ ؛ عَلَى أَنَّ عَطَاءً وَغَيْرَهُ قَدْ تَأَوَّلَهُ عَلَى الْمُجَاوِرِينَ ، وَدَلَّ أَيْضًا عَلَى أَنَّ الطَّوَافَ قَبْلَ الصَّلَاةِ لِمَا تَأَوَّلَهُ عَلَيْهِ ابْنُ عَبَّاسٍ عَلَى مَا قَدَّمْنَاهُ .

فَإِنْ قِيلَ : لَيْسَ فِي تَقْدِيمِ الطَّوَافِ عَلَى الصَّلَاةِ فِي اللَّفْظِ دَلَالَةٌ عَلَى التَّرْتِيبِ ؛ لِأَنَّ الْوَاوَ لَا تُوجِبُهُ ، قِيلَ لَهُ : قَدْ اقْتَضَى اللَّفْظُ فِعْلَ الطَّوَافِ وَالصَّلَاةِ جَمِيعًا ، وَإِذَا ثَبَتَ طَوَافٌ مَعَ صَلَاةٍ فَالطَّوَافُ لَا مَحَالَةَ مُقَدَّمٌ عَلَيْهَا مِنْ وَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا : فِعْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالثَّانِي : اتِّفَاقُ أَهْلِ الْعِلْمِ عَلَى تَقْدِيمِهِ عَلَيْهَا فَإِنْ اعْتَرَضَ مُعْتَرِضٌ عَلَى مَا ذَكَرْنَا مِنْ دَلَالَةِ الْآيَةِ عَلَى جَوَازِ فِعْلِ الصَّلَاةِ فِي الْبَيْتِ ، وَزَعَمَ أَنَّهُ لَا دَلَالَةَ فِي اللَّفْظِ عَلَيْهِ ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَقُلْ " وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ فِي الْبَيْتِ " وَكَمَا

(193/65)

لَمْ يَدُلَّ عَلَى جَوَازِ فِعْلِ الطَّوَافِ فِي جَوْفِ الْبَيْتِ وَإِنَّمَا دَلَّ عَلَى فِعْلِهِ خَارِجَ الْبَيْتِ كَذَلِكَ دَلَالَتُهُ مَقْصُورَةٌ عَلَى جَوَازِ فِعْلِ الصَّلَاةِ إلَى الْبَيْتِ مُتَوَجِّهًا إلَيْهِ قِيلَ لَهُ : ظَاهِرُ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ قَدْ اقْتَضَى فِعْلَ ذَلِكَ فِي الْبَيْتِ كَمَا

دَلَّ عَلَى جَوَازِ فِعْلِ الِاعْتِكَافِ فِي الْبَيْتِ ، وَإِنَّمَا خَرَجَ مِنْهُ الطَّوَافُ فِي كَوْنِهِ مَفْعُولًا خَارِجَ الْبَيْتِ بِدَلِيلِ الِاتِّفَاقِ .

(194/65)

وَلِأَنَّ الطَّوَافَ بِالْبَيْتِ إنَّمَا هُوَ بِأَنْ يَطُوفَ حَوَالَيْهِ خَارِجًا مِنْهُ ؛ وَلَا يُسَمَّى طَائِفًا بِالْبَيْتِ مَنْ طَافَ فِي جَوْفِهِ ؛ وَاَللَّهُ سُبْحَانَهُ إنَّمَا أَمَرَنَا بِالطَّوَافِ بِهِ لَا بِالطَّوَافِ فِيهِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ وَمَنْ صَلَّى دَاخِلَ الْبَيْتِ يَتَنَاوَلُهُ الْإِطْلَاقُ بِفِعْلِ الصَّلَاةِ فِيهِ وَأَيْضًا لَوْ كَانَ الْمُرَادُ التَّوَجُّهَ إلَيْهِ لَمَا كَانَ لِذِكْرِ تَطْهِيرِ الْبَيْتِ لِلرُّكَّعِ وَالسُّجُودِ وَجْهٌ ؛ إذْ كَانَ حَاضِرُو الْبَيْتِ وَالنَّاءُونَ عَنْهُ سَوَاءً فِي الْأَمْرِ بِالتَّوَجُّهِ إلَيْهِ ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ تَطْهِيرَهُ إنَّمَا هُوَ لِحَاضِرِيهِ ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يُرَدْ بِهِ التَّوَجُّهُ إلَيْهِ دُونَ فِعْلِ الصَّلَاةِ فِيهِ ؛ أَلَا تَرَى أَنَّهُ أَمَرَ بِتَطْهِيرِ نَفْسِ الْبَيْتِ لِلرُّكَّعِ السُّجُودِ وَأَنْتَ مَتَى حَمَلْته عَلَى الصَّلَاةِ خَارِجًا كَانَ التَّطْهِيرُ لِمَا حَوْلَ الْبَيْتِ ؟ وَأَيْضًا إذَا كَانَ اللَّفْظُ مُحْتَمِلًا لِلْأَمْرَيْنِ فَالْوَاجِبُ حَمْلُهُ عَلَيْهِمَا ، فَيَكُونَانِ جَمِيعًا مُرَادَيْنِ ، فَيَجُوزُ فِي الْبَيْتِ وَخَارِجِهِ .

فَإِنْ قِيلَ : كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ كَذَلِكَ قَالَ : ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ

شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ وَذَلِكَ يَقْتَضِي فِعْلَهَا خَارِجَ الْبَيْتِ فَيَكُونُ مُتَوَجِّهًا إلَى شَطْرِهِ ، قِيلَ لَهُ : لَوْ حَمَلْت اللَّفْظَ عَلَى حَقِيقَتِهِ

(195/65)

فَعَلَى قَضِيَّتِك أَنَّهُ لَا تَجُوزُ الصَّلَاةُ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ؛ لِأَنَّهُ قَالَ : ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ وَمَتَى كَانَ فِيهِ فَعَلَى قَوْلِك لَا يَكُونُ مُتَوَجِّهًا إلَيْهِ فَإِنْ قَالَ : أَرَادَ بِالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الْبَيْتَ نَفْسَهُ ، لِاتِّفَاقِ الْجَمِيعِ عَلَى أَنَّ التَّوَجُّهَ إلَى الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ لَا يُوجِبُ جَوَازَ الصَّلَاةِ إذَا لَمْ يَكُنْ مُتَوَجِّهًا إلَى الْبَيْتِ .

قِيلَ لَهُ : فَمَنْ كَانَ فِي جَوْفِ الْبَيْتِ هُوَ مُتَوَجِّهٌ شَطْرَ الْبَيْتِ ؛ لِأَنَّ شَطْرَهُ نَاحِيَتُهُ ، وَلَا مَحَالَةَ أَنَّ مَنْ كَانَ فِيهِ فَهُوَ مُتَوَجِّهٌ إلَى نَاحِيَتِهِ ؛ أَلَا تَرَى أَنَّ مَنْ كَانَ خَارِجَ الْبَيْتِ فَتَوَجَّهَ إلَيْهِ فَإِنَّمَا يَتَوَجَّهُ إلَى نَاحِيَةٍ مِنْهُ دُونَ جَمِيعِهِ .

(196/65)

وَكَذَلِكَ مَنْ كَانَ فِي الْبَيْتِ فَهُوَ مُتَوَجِّهٌ شَطْرَهُ ، فَفِعْلُهُ مُطَابِقٌ لِظَاهِرِ الْآيَتَيْنِ جَمِيعًا مِنْ قَوْلِه تَعَالَى : ﴿ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ وقَوْله تَعَالَى : ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ إذْ مَنْ كَانَ فِي الْبَيْتِ فَهُوَ مُتَوَجِّهٌ إلَى نَاحِيَةٍ مِنْ الْبَيْتِ وَمِنْ الْمَسْجِدِ جَمِيعًا قَالَ أَبُو بَكْرٍ : وَالَّذِي تَضَمَّنَتْهُ الْآيَةُ مِنْ الطَّوَافِ عَامٌّ فِي سَائِرِ مَا يُطَافُ مِنْ الْفَرْضِ وَالْوَاجِبِ وَالنَّدْبِ ؛ لِأَنَّ الطَّوَافَ عِنْدَنَا عَلَى هَذِهِ الْأَنْحَاءِ الثَّلَاثَةِ ، فَالْفَرْضُ هُوَ طَوَافُ الزِّيَارَةِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ وَالْوَاجِبُ هُوَ طَوَافُ الصَّدَرِ ، وَوُجُوبُهُ مَأْخُوذٌ مِنْ السُّنَّةِ بِقَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿ مَنْ حَجَّ الْبَيْتَ فَلْيَكُنْ آخِرُ عَهْدِهِ بِالْبَيْتِ الطَّوَافَ ﴾ وَالْمَسْنُونُ وَالْمَنْدُوبُ إلَيْهِ وَلَيْسَ بِوَاجِبٍ طَوَافُ الْقُدُومِ لِلْحَجِّ فَعَلَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ قَدِمَ مَكَّةَ حَاجًّا ، فَأَمَّا طَوَافُ الزِّيَارَةِ فَإِنَّهُ لَا يَنُوبُ عَنْهُ شَيْءٌ ، يَبْقَى الْحَاجُّ مُحْرِمًا مِنْ النِّسَاءِ حَتَّى يَطُوفَهُ ، وَأَمَّا طَوَافُ الصَّدَرِ فَإِنَّ تَرْكَهُ يُوجِبُ دَمًا إذَا رَجَعَ الْحَاجُّ إلَى أَهْلِهِ وَلَمْ يَطُفْهُ ، وَأَمَّا طَوَافُ الْقُدُومِ فَإِنَّ تَرْكَهُ لَا يُوجِبُ شَيْئًا ؛ وَاَللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ .

بَابُ ذِكْرِ صِفَةِ الطَّوَافِ

قال أبو بكر رحمه الله :

كُلُّ طَوَافٍ بَعْدَهُ سَعْيٌ فَفِيهِ رَمَلٌ فِي الثَّلَاثَةِ الْأَشْوَاطِ الْأُوَلِ ، وَكُلُّ طَوَافٍ لَيْسَ بَعْدَهُ سَعْيٌ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ فَلَا رَمَلَ فِيهِ ، فَالْأَوَّلُ مِثْلُ طَوَافِ الْقُدُومِ إذَا أَرَادَ السَّعْيَ بَعْدَهُ ، وَطَوَافِ الزِّيَارَةِ إذَا لَمْ يَسْعَ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ حِينَ قَدِمَ ، فَإِنْ كَانَ قَدْ سَعَى حِينَ قَدِمَ عَقِيبَ طَوَافِ الْقُدُومِ فَلَا رَمَلَ فِيهِ وَطَوَافُ الْعُمْرَةِ فِيهِ رَمَلٌ ؛ لِأَنَّ بَعْدَهُ سَعْيًا بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ وَقَدْ رَمَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ قَدِمَ مَكَّةَ حَاجًّا .

رَوَاهُ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ وَابْنُ عَبَّاسٍ فِي رِوَايَةِ عَطَاءٍ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وَكَذَلِكَ رَوَى ابْنُ عُمَرَ أَنَّ ﴿ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَمَلَ فِي الثَّلَاثَةِ الْأَشْوَاطِ مِنْ الْحَجَرِ إلَى الْحَجَرِ ﴾ .

وَرُوِيَ نَحْوُ ذَلِكَ عَنْ عُمَرَ وَابْنِ مَسْعُودٍ وَابْنِ عُمَرَ مِنْ قَوْلِهِمْ مِثْلُ ذَلِكَ ، وَرَوَى أَبُو الطُّفَيْلِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ ﴿ النَّبِيَّ رَمَلَ مِنْ الرُّكْنِ الْيَمَانِيِّ ثُمَّ مَشَى إلَى الرُّكْنِ الْأَسْوَدِ ﴾ .

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

(198/65)

وَالنَّظَرُ يَدُلُّ عَلَى مَا رَوَاهُ الْأَوَّلُونَ مِنْ قِبَلِ اتِّفَاقِ الْأَوَّلِينَ جَمِيعًا عَلَى تَسَاوِي الْأَرْبَعِ الْأَوَاخِرِ فِي الْمَشْيِ فِيهِنَّ ، كَذَلِكَ يَجِبُ أَنْ يَسْتَوِيَ الثَّلَاثُ الْأُوَلُ فِي الرَّمَلِ فِيهِنَّ فِي جَمِيعِ الْجَوَانِبِ ؛ إذْ لَيْسَ فِي الْأُصُولِ اخْتِلَافُ حُكْمِ جَوَانِبِهِ فِي الْمَشْيِ وَلَا الرَّمَلِ فِي سَائِرِ أَحْكَامِ الطَّوَافِ

وَقَدْ اخْتَلَفَ السَّلَفُ فِي بَقَاءِ سُنَّةِ الرَّمَلِ ، فَقَالَ قَائِلُونَ : إنَّمَا كَانَ ذَلِكَ سُنَّةً حِينَ فَعَلَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُرَائِيًا بِهِ لِلْمُشْرِكِينَ إظْهَارًا لِلتَّجَلُّدِ وَالْقُوَّةِ فِي عُمْرَةِ الْقَضَاءِ ؛ لِأَنَّهُمْ قَالُوا : قَدْ أَوْهَنَتْهُمْ حُمَّى

يَثْرِبَ ؛ فَأَمَرَهُمْ بِإِظْهَارِ الْجَلَدِ لِئَلَّا يَطْمَعَ فِيهِمْ .

وَقَالَ زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ : سَمِعْت عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ يَقُولُ : " فِيمَ الرَّمَلَانُ الْآنَ وَالْكَشْفُ عَنْ الْمَنَاكِبِ وَقَدْ أَظْهَرَ اللَّهُ الْإِسْلَامَ وَنَفَى الْكُفْرَ وَأَهْلَهُ ؟ وَمَعَ ذَلِكَ لَا نَدَعُ شَيْئًا كُنَّا نَفْعَلُهُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " .

وَقَالَ أَبُو الطُّفَيْلِ : قُلْت لِابْنِ عَبَّاسٍ : إنَّ قَوْمَك يَزْعُمُونَ ﴿ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَمَلَ بِالْبَيْتِ ﴾ وَأَنَّهُ سُنَّةٌ ، قَالَ : " صَدَقُوا وَكَذَبُوا ، قَدْ رَمَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَيْسَ بِسُنَّةٍ " .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : وَمَذْهَبُ أَصْحَابِنَا أَنَّهُ سُنَّةٌ ثَابِتَةٌ لَا يَنْبَغِي تَرْكُهَا ، وَإِنْ كَانَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَمَرَ بِهِ بَدِيًّا لِإِظْهَارِ الْجَلَدِ وَالْقُوَّةِ مُرَاءَاةً لِلْمُشْرِكِينَ ؛ لِأَنَّهُ قَدْ رُوِيَ أَنَّ ﴿ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَمَلَ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ وَلَمْ يَكُنْ هُنَاكَ مُشْرِكُونَ ﴾ ؛ وَقَدْ فَعَلَهُ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَابْنُ مَسْعُودٍ وَابْنُ عُمَرَ وَغَيْرُهُمْ ؛ فَثَبَتَ بَقَاءُ حُكْمِهِ وَلَيْسَ تَعَلُّقُهُ بَدِيًّا بِالسَّبَبِ الْمَذْكُورِ مِمَّا يُوجِبُ زَوَالَ حُكْمِهِ حَيْثُ زَالَ السَّبَبُ .

أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَدْ رُوِيَ أَنَّ سَبَبَ رَمْيِ الْجِمَارِ أَنَّ إبْلِيسَ لَعَنَهُ اللَّهُ عَرَضَ لِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِمَوْضِعِ الْجِمَارِ فَرَمَاهُ ، ثُمَّ صَارَ الرَّمْيُ سُنَّةً بَاقِيَةً مَعَ عَدَمِ ذَلِكَ السَّبَبِ ؟ وَرُوِيَ أَنَّ سَبَبَ السَّعْيِ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ أَنَّ أُمَّ إسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ صَعِدَتْ الصَّفَا تَطْلُبُ الْمَاءَ ثُمَّ نَزَلَتْ فَأَسْرَعَتْ الْمَشْيَ فِي بَطْنِ الْوَادِي لِغَيْبَةِ الصَّبِيِّ عَنْ عَيْنِهَا ، ثُمَّ لَمَّا صَعِدَتْ مِنْ الْوَادِي رَأَتْ الصَّبِيَّ فَمَشَتْ عَلَى هِينَتِهَا وَصَعِدَتْ الْمَرْوَةَ تَطْلُبُ الْمَاءَ ، فَعَلَتْ ذَلِكَ سَبْعَ مَرَّاتٍ ، فَصَارَ السَّعْيُ بَيْنَهُمَا سُنَّةً ، وَإِسْرَاعُ الْمَشْيِ فِي

الْوَادِي سُنَّةٌ مَعَ زَوَالِ السَّبَبِ الَّذِي فُعِلَ مِنْ أَجْلِهِ ، فَكَذَلِكَ الرَّمَلُ فِي الطَّوَافِ .

وَقَالَ أَصْحَابُنَا : يَسْتَلِمُ الرُّكْنَ الْأَسْوَدَ وَالْيَمَانِيَ دُونَ غَيْرِهِمَا .

وَقَدْ رُوِيَ ذَلِكَ عَنْ ابْنِ عُمَرَ عَنْ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَرُوِيَ أَيْضًا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنْهُ ، وَقَالَ ابْنُ عُمَرَ حِينَ أُخْبِرَ بِقَوْلِ عَائِشَةَ إنَّ الْحَجَرَ بَعْضُهُ مِنْ الْبَيْتِ : " إنِّي لَأَظُنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَتْرُكْ اسْتِلَامَهُمَا إلَّا أَنَّهُمَا لَيْسَا عَلَى قَوَاعِدِ الْبَيْتِ وَلَا طَافَ النَّاسُ مِنْ وَرَاءِ الْحَجَرِ إلَّا لِذَلِكَ " .

وَقَالَ يَعْلَى بْنُ أُمَيَّةَ : طُفْت مَعَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ، فَلَمَّا كُنْت عِنْدَ الرُّكْنِ الَّذِي يَلِي الْحَجَرَ أَخَذْت أَسْتَلِمُهُ فَقَالَ : مَا طُفْت مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ قُلْت : بَلَى قَالَ فَرَأَيْته يَسْتَلِمُهُ ؟ قُلْت : لَا قَالَ : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ . انتهى

انتهى . اهـ ﴿أحكام القرآن للجصاص حـ 1 صـ 89. 97﴾

(201/65)

ومن لطائف الإمام القشيرى فى الآية الكريمة

﴿ لِلنَّاسِ وَأَمْنًا ﴾ .

واذكر يا محمد حين جعلنا البيت – يعني الكعبة – مثابة للناس إليه يثوبون ، ومأمنًا لهم إليه يرجعون ، وإياه من كل نحوٍ يقصدون .

هو بيت خلقتُه من الحجر ولكن أضفته إلى الأزل ؛ فمن نظر إلى البيت بعين الخِلْقَة انفصل ،

ومن نظر إليه بعين الإضافة وصل واتصل (1) ، وكلٌّ من التجأ إلى ذلك البيت أَمِنَ من عقوبة الآخرة إذا كان التجاؤه على جهة الإعظام والاحترام ، والتوبة عن الآثام .

ويقال بُنِيَ البيتُ من الحجر لكنه حجر يجذب القلوب كحجر المغناطيس يجذب الحديد .

بيتٌ من وقع عليه ظِلُّه أناخ بعَقْوَةِ (2) الأمن .

بيتٌ مَنْ وقع عليه طَرْفُه بُشِّرَ بتحقيق الغفران .

بيتٌ مَنْ طاف حَوْلَه طافت اللطائف بقلبه ، فطَوْفَة بطوفة ، وشَوْطة بشوطة وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان .

بيتٌ ما خَسِرَ مَنْ أنفق على الوصول إليه مَالَه .

بَيت ما ربح مَنْ ضَنَّ عليه بشيءٍ ؛ مَنْ زاره نَسِيَ مزارَه ، وهجر ديارَه .

بيت لا تُسْتَبْعَدُ إليه المسافة ، بيت لا تُتْرَك زيارته لحصول مخافة ، أو هجوم آفة ، بيت ليس له بمهجة الفقراء آفة .

بيت من قعد عن زيارته فلِعدَمِ قُوَّتِه ، أو لقلة محبته .

بيتٌ من صَبَرَ عنه فقلبه أقسى من الحجارة . بيت من وقع عليه شعاعُ أنواره تَسَلَّى عن شموسه وأقماره .

بيت ليس العجب ممن بقي (عنه) كيف يصبر ، إنما العجب ممن حضره كيف يرجع ! .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ1 صـ 122 . 123 ﴾

(1) قارن رأى القشيري الصوفي الحريص بآراء بعض الصوفية الذين أوتوا حظا من الجرأة في التعبير.

عن هذا الموضوع، من ذلك مثلا قول رابعة «لا أريد الكعبة بل رب الكعبة أما الكعبة فماذا أفعل بها . . . ولم تشأ أن تنظر إليها (تذكرة الأولياء. العطار ج 1 ص 61).

وقول الحلاج: «إن شوقنا إلى اللّه يجب أن يمحو عقليا في نفوسنا صورة الكعبة، كيما نجد من أقامها «شخصيات قلقة في الإسلام. د. بدوي ص 68.

(2) العقوة - الموضع المتسع أمام الدار أو المحلة أو حولهما (الوسيط ص 624).

كلام نفيس للعلامة ابن القيم في خواص البيت العتيق

قال رحمه الله:

ومن خواصه أنه يعاقب فيه على الهم بالسيئات وإن لم يفعلها قال تعالى: ﴿ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم﴾ [الحج: 25] فتأمل كيف عدى فعل الإرادة ها هنا بالباء ولا يقال: أردت بكذا إلا لما ضمن معنى فعل هم فإنه يقال: هممت بكذا فتوعد من هم بأن يظلم فيه بأن يذيقه العذاب الأليم

ومن هذا تضاعف مقادير السيئات فيه لأكمياتها فإن السيئة جزاؤها سيئة لكن سيئة كبيرة وجزاؤها مثلها وصغيرة جزاؤها مثلها فالسيئة في حرم الله وبلده وعلى بساطه آكد وأعظم منها في طرف من أطراف الأرض ولهذا ليس من عصى الملك على بساط ملكه كمن عصاه في الموضع البعيد من داره وبساطه فهذا فصل النزاع في تضعيف السيئات والله أعلم

وقد ظهر سر هذا التفضيل والاختصاص فى انجذاب الأفئدة وهوى القلوب وانعطافها ومحبتها لهذا البلد الأمين

فجذبه للقلوب أعظم من جذب المغناطيس للحديد فهو الأولى بقول القائل

محاسنه هيولى كل حسن . . . ومغناطيس أفئدة الرجال

ولهذا أخبر سبحانه أنه مثابة للناس أي : يثوبون إليه على تعاقب الأعوام من جميع الأقطار ولا يقضون منه وطرا بل كلما ازدادوا له زيارة ازدادوا له اشتياقا

لا يرجع الطرف عنها حين ينظرها . . . حتى يعود إليها الطرف مشتاقا

فلله كم لها من قتيل وسليب وجريح وكم أنفق في حبها من الأموال والأرواح ورضي المحب بمفارقة فلذ الأكباد والأهل والأحباب والأوطان مقدما بين يديه أنواع المخاوف والمتالف والمعاطف والمشاق وهو يستلذ ذلك كله ويستطيبه ويراه – لو ظهر سلطان المحبة في قلبه

- أطيب من نعم المتحليه وترفهم ولذاتهم

وليس محبا من يعد شقاءه . . . عذابا إذا ما كان يرضى حبيبه

(203/65)

وهذا كله سر إضافته إليه سبحانه وتعالى بقوله : ﴿ وطهر بيتي ﴾ [الحج : 26]

فاقتضت هذه الإضافة الخاصة من هذا الإجلال والتعظيم والمحبة ما اقتضته كما اقتضت إضافته لعبده ورسوله إلى نفسه ما اقتضته من ذلك وكذلك إضافته عباده المؤمنين إليه كستهم من الجلال والمحبة والوقار ما كستهم فكل ما أضافه الرب تعالى إلى نفسه فله من المزية والاختصاص على غيره ما أوجب له الاصطفاء والاجتباء ثم يكسوه بهذه الإضافة تفضيلا آخر وتخصيصا وجلالة زائدا على ما كان له قبل الإضافة ولم يوفق لفهم هذا المعنى من سوى بين الأعيان والأفعال والأزمان والأماكن وزعم أنه لا مزية لشئ منها على شئ وإنما هو مجرد الترجيح بلا مرجح وهذا القول باطل بأكثر من أربعين وجها قد ذكرت في غير هذا الموضع ويكفي تصور هذا المذهب الباطل في فساده فإن مذهبا يقتضي أن تكون ذوات الرسل كذوات أعدائهم في الحقيقة وإنما التفضيل بأمر لا يرجع إلى اختصاص الذوات بصفات ومزايا لا تكون لغيرها وكذلك نفس البقاع واحدة بالذات ليس لبقعة على بقعة

مزية ألبتة وإنما هو لما يقع فيها من الأعمال الصالحة فلا مزية لبقعة البيت والمسجد الحرام ومنى وعرفة والمشاعر على أي بقعة سميتها من الأرض وإنما التفضيل باعتبار أمر خارج عن البقعة لا يعود إليها ولا إلى وصف قائم بها والله سبحانه وتعالى قد رد هذا القول الباطل بقوله تعالى : ﴿ وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله ﴾ قال الله تعالى : ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ [الأنعام : 124] أي : ليس كل أحد أهلا ولا صالحا لتحمل رسالته بل لها محال مخصوصة لا تليق إلا بها ولا تصح إلا لها والله أعلم بهذه المحال منكم ولو كانت الذوات متساوية كما قال هؤلاء لم يكن في ذلك رد عليهم وكذلك قوله تعالى : ﴿ وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين ﴾ [الأنعام : 53] أي : هو سبحانه أعلم بمن

يشكره على نعمته فيختصه بفضله ويمن عليه ممن لا يشكره فليس كل محل يصلح لشكره واحتمال منته والتخصيص بكرامته فذوات ما اختاره واصطفاه من الأعيان والأماكن والأشخاص وغيرها مشتملة على صفات وأمور قائمة بها ليس لغيرها ولأجلها اصطفاها الله وهو سبحانه الذي فضلها بتلك الصفات وخصها بالاختيار فهذا خلقه

وهذا اختياره ﴿ وربك يخلق ما يشاء ويختار ﴾ [القصص : 67] وما أبين بطلان رأي يقضي بأن مكان البيت الحرام مساو لسائر الأمكنة وذات الحجر الأسود مساوية لسائر حجارة الأرض وذات رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مساوية لذات غيره ، وإنما التفضيل في ذلك بأمور خارجة عن الذات والصفات القائمة بها وهذه الأقاويل وأمثالها من الجنايات التي جناها المتكلمون على الشريعة ونسبوها إليها وهي بريئة منها وليس معهم أكثر من اشتراك الذوات في أمر عام وذلك لا يوجب تساويها في الحقيقة لأن المختلفات قد تشترك في أمر عام مع اختلافها في صفاتها النفسية

وما سوى الله تعالى بين ذات المسك وذات البول أبدا ولا بين ذات الماء وذات النار أبدا والتفاوت البين بين الأمكنة الشريفة وأضدادها والذوات الفاضلة وأضدادها أعظم من هذا التفاوت بكثير فبين ذات موسى ـ عليه السلام ـ وذات فرعون من التفاوت أعظم مما بين المسك والرجيع وكذلك التفاوت بين نفس الكعبة وبين بيت السلطان أعظم من هذا التفاوت أيضا بكثير فكيف تجعل البقعتان سواء في الحقيقة والتفضيل باعتبار ما يقع هناك من العبادات والأذكار والدعوات ؟

ولم نقصد استيفاء الرد على هذا المذهب المردود المرذول وإنما قصدنا تصويره وإلى اللبيب العادل العاقل التحاكم ولا يعبأ الله وعباده بغيره شيئا والله سبحانه لا يخصص شيئا ولا يفضله ويرجحه إلا لمعنى يقتضي تخصيصه وتفضيله نعم هو معطي ذلك المرجح

وواهبه فهو الذي خلقه ثم اختاره بعد خلقه ﴿ وربك يخلق ما يشاء ويختار ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المعاد حـ 1 صـ 47 ﴾

(205/65)

قوله تعالى : ﴿ وَاتَّخِذُوا ﴾ قرأ نافع وابن عامر بفتح الخاء على الخبر ، وقرأ الباقون بكسر الخاء على الأمر ﴿ مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ قال ابن يمان (2) المسجد كله مقام إبراهيم ، وقال إبراهيم النخعي : الحرم كله مقام إبراهيم ، وقيل : أراد بمقام إبراهيم جميع مشاهد الحج ، مثل عرفة ومزدلفة وسائر المشاهد .

والصحيح أن مقام إبراهيم هو الحجر الذي في المسجد يصلي إليه الأئمة ، وذلك الحجر الذي قام عليه إبراهيم ـ عليه السلام ـ عند بناء البيت ، وقيل : كان أثر أصابع رجليه بينا فيه فاندرس من كثرة المسح بالأيدي ، قال قتادة ومقاتل والسدي : أمروا بالصلاة عند مقام إبراهيم ولم يؤمروا بمسحه وتقبيله . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير البغوى حـ 1 صـ 147 ﴾

ومقام إبراهيم هو الحجر الذي قام عليه حين جاء لزيارة ولده إسماعيل عليهما الصلاة والسلام فلم يجده ، فغسلت امرأة إسماعيل رأسه وهو معتمد برجله عليه وهو راكب ، غسلت شق رأسه الأيمن وهو معتمد على الحجر برجله اليمنى ، ثم أدارت الحجر إلى

الجانب الأيسر وغسلت شقه الأيسر ، فغاصت رجلاه فيه ؛ ولهذا أثر قدميه مختلف ، أصابع هذه عند عقب هذه ، وهو قبل أن يبني البيت – والله أعلم بمراده . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ1 صـ 240 ﴾

وقال ابن عطية :

واختلف في ﴿ مقام إبراهيم ﴾ ، فقال ابن عباس وقتادة وغيرهما ، وخرجه البخاري : إنه الحجر الذي ارتفع عليه إبراهيم حين ضعف عن رفع الحجارة التي كان إسماعيل يناوله إياها في بناء البيت وغرقت قدماه فيه .

وقال الربيع بن أنس : هو حجر ناولته إياه امرأته فاغتسل عليه وهو راكب ، جاءته به من شق ثم من شق فغرقت رجلاه فيه حين اعتمد عليه ، وقال فريق من العلماء : المقام المسجد الحرام ، وقال عطاء بن أبي رباح : المقام عرفة والمزدلفة والجمار ، وقال ابن عباس : مقامه مواقف الحج كلها ، وقال مجاهد : مقامه الحرم كله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ1 صـ 208 ﴾

وقد رجح الفخر الرازى القول الأول واحتج له فقال :

واتفق المحققون على أن القول الأول أولى ويدل عليه وجوه . الأول : ما روى جابر أنه ـ عليه السلام ـ لما فرغ من الطواف أتى المقام وتلا قوله تعالى : ﴿ واتخذوا مِن مَّقَامِ إبراهيم مُصَلًّى ﴾ فقراءة هذه اللفظة عند ذلك الموضع تدل على أن المراد من هذه اللفظة هو ذلك الموضع ظاهر . وثانيها : أن هذا الاسم في العرف مختص بذلك الموضع والدليل عليه أن سائلاً لو سأل المكي بمكة عن مقام إبراهيم لم يجبه ولم يفهم منه إلا هذا الموضع . وثالثها : ما روي أنه ـ عليه السلام ـ مر بالمقام ومعه عمر فقال : يا رسول الله أليس هذا مقام أبينا إبراهيم ؟ قال : بلى . قال : أفلا نتخذه مصلى ؟ قال : لم أومر بذلك ، فلم تغب الشمس من يومهم حتى نزلت الآية . ورابعها : أن الحجر صار تحت قدميه في رطوبة الطين حتى غاصت فيه رجلا إبراهيم ـ عليه السلام ـ ، وذلك من أظهر الدلائل على وحدانية الله تعالى ومعجزة إبراهيم ـ عليه السلام ـ فكان اختصاصه بإبراهيم أولى من اختصاص غيره به ، فكان إطلاق هذا الاسم عليه أولى . وخامسها : أنه تعالى قال : ﴿ واتخذوا مِن مَّقَامِ إبراهيم مُصَلًّى ﴾ وليس للصلاة تعلق بالحرم ولا بسائر المواضع إلا بهذا الموضع ، فوجب أن يكون مقام إبراهيم هو هذا الموضع . وسادسها : أن مقام إبراهيم هو موضع قيامه ، وثبت بالأخبار أنه قام على هذا الحجر عند المغتسل ولم يثبت قيامه على غيره فحمل هذا اللفظ ، أعني : مقام إبراهيم ـ عليه السلام ـ على الحجر يكون أولى . انتهى انتهى . اهـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 4 صـ 45 ﴾

فائدة فى قوله تعالى ﴿ واتخذوا ﴾

والقراءتان تقتضيان أن اتخاذ مقام إبراهيم مصلًّى كان من عهد إبراهيم ـ عليه السلام ـ ولم يكن الحَجَر الذي اعتلى عليه إبراهيم في البناء مخصوصاً بصلاة عنده ولكنه مشمول للصلاة في المسجد الحرام ولما جاء الإسلام بقي الأمر على ذلك إلى أن كان عام حجة الوداع أو عام الفتح دخل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ المسجدَ الحرام ومعه عمر بن الخطاب ثم سنت الصلاة عند المقام في طواف القدوم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ1 صـ 408 ﴾

سؤال : ما المراد بقوله ﴿ مصلى ﴾ ؟

الجواب : ذكروا في المراد بقوله : ﴿ مُصَلًّى ﴾ وجوهاً . أحدها : المصلى المدعى فجعله من الصلاة التي هي الدعاء ، قال الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين ءامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ ﴾ [الأحزاب : 56] وهو قول مجاهد ، وإنما ذهب إلى هذا التأويل ليتم له قوله : إن كل الحرم مقام إبراهيم . وثانيها : قال الحسن : أراد به قبلة . وثالثها : قال قتادة والسدي : أمروا أن يصلوا عنده . قال أهل التحقيق : هذا القول أولى لأن لفظ الصلاة إذا أطلق يعقل منه الصلاة

المفعولة بركوع وسجود ألا ترى أن مصلى المصر وهو الموضع الذي يصلى فيه صلاة العيد وقال ـ عليه السلام ـ لأسامة بن زيد المصلى أمامك يعني به موضع الصلاة المفعولة ، وقد دل عليه أيضاً فعل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ للصلاة عنده بعد تلاوة الآية ولأن حملها على الصلاة المعهودة أولى لأنها جامعة لسائر المعاني التي فسروا الآية بها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 4 صـ 45 ﴾

ومن لطائف الإمام القشيرى فى قوله جلّ ذكره : ﴿ وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ . عَبْدٌ رفع لله سبحانه قَدمًا فإلى القيامة جعل أثر قَدَمِه قِبْلَةً لجميع المسلمين إكرامًا لا مدى له . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 123 ﴾

(208/65)

قوله تعالى ﴿ وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل ﴾

قال الخازن :

أي أمرناهما وألزمناهما وأوجبنا عليهما . قيل : إنما سمي إسماعيل لأن إبراهيم كان يدعو الله أن يرزقه ولداً ، ويقول في دعائه : اسمع يا إيل وإيل بلسان السريانية هو الله . فلما رزق الولد سماه به ﴿ أن طهرا بيتي ﴾ يعني الكعبة أضافه إليه تشريفاً وتفضيلاً وتخصيصاً .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 1 صـ 107.108 ﴾

وقال الآلوسى :

وإسماعيل علم أعجمي قيل : معناه بالعربية مطيع الله ، وحكي أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ كان يدعو أن يرزقه الله تعالى ولداً ، ويقول : اسمع إيل أي استجب دعائي يا الله فلما رزقه الله تعالى ذلك سماه بتلك الجملة ، وأراه في غاية البعد وللعرب فيه لغتان اللام والنون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 380 ﴾

سؤال : فإن قيل : لم يكن هناك بيت ؛ فما معنى أمرهما بتطهيره ؟

فعنه جوابان :

أحدهما : أنه كانت هناك أصنام ، فأمرا بإخراجها ، قاله عكرمة .

والثاني : أن معناه : ابنياه مطهراً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 1 صـ 142 ﴾

(209/65)

وقال الفخر الرازى :

إن المفسرين ذكروا وجوهاً . أحدها : أن معنى : ﴿ طَهِّرَا بَيْتِىَ ﴾ ابنياه وطهراه من الشرك وأسساه على التقوى ، كقوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ على تقوى مِنَ اللَّهِ ﴾

[التوبة : 109] . وثانيها : عرفا الناس أن بيتي طهرة لهم متى حجوه وزاروه وأقاموا به ، ومجازه : اجعلاه طاهراً عندهم ، كما يقال : الشافعي رضي الله عنه يطهر هذا ، وأبو حنيفة ينجسه . وثالثها : ابنياه ولا تدعا أحداً من أهل الريب والشرك يزاحم الطائفين فيه ، بل أقراه على طهارته من أهل الكفر والريب ، كما يقال : طهر الله الأرض من فلان ، وهذه التأويلات مبنية على أنه لم يكن هناك ما يوجب إيقاع تطهيره من الأوثان والشرك ، وهو كقوله تعالى : ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا أزواج مُّطَهَّرَةٌ ﴾ [البقرة : 25] فمعلوم أنهن لم يطهرن من نجس بل خلقن طاهرات ، وكذا البيت المأمور بتطهيره خلق طاهراً ، والله أعلم . ورابعها : معناه نظفا بيتي من الأوثان والشرك والمعاصي ، ليقتدي الناس بكما في ذلك . وخامسها : قال بعضهم : إن موضع البيت قبل البناء كان يلقى فيه الجيف والأقذار فأمر الله تعالى إبراهيم بإزالة تلك القاذورات وبناء البيت هناك ، وهذا ضعيف لأن قبل البناء ما كان البيت موجوداً فتطهير تلك العرصة لا يكون تطهيراً للبيت ، ويمكن أن يجاب عنه بأنه سماه بيتاً لأنه علم أن مآله إلى أن يصير بيتاً ولكنه مجاز .

أهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 4 صـ 47 . 48 ﴾

سؤال : لم كان الخطاب فى هذه الآية ﴿ وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ ﴾ لـ [إبراهيم . وإسماعيل] عليهما السلام وفى سورة الحج اختص بالخليل وحده فى قوله تعالى ﴿ وَإِذْ

بَوَّأْنَا لإبراهيم مَكَانَ البيت ﴾ [الحج : 26] ؟

الجواب ما ذكره الآلوسى بقوله :

(210/65)

وتوجيه الأمر هنا إلى إبراهيم وإسمعيل لا ينافي ما في سورة الحج من تخصيصه بإبراهيم. عليه السلام. فإن ذلك واقع قبل بناء البيت كما يفصح عنه قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لإبراهيم مَكَانَ البيت ﴾ [الحج : 26] وكان إسماعيل حينئذ بمعزل من مثابة الخطاب ، وظاهر أن هذا بعد بلوغه مبلغ الأمر والنهي ، وتمام البناء بمباشرته كما ينبىء عنه إيراده إثر حكاية جعله مثابة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ1 صـ 381 ﴾

سؤال : لم أضاف الله البيت إليه ؟

وأضاف الباري البيت إليه لفوائد ، منها : أن ذلك يقتضي شدة اهتمام إبراهيم وإسماعيل بتطهيره ، لكونه بيت الله ، فيبذلان جهدهما ، ويستفرغان وسعهما في ذلك .

ومنها : أن الإضافة تقتضي التشريف والإكرام ، ففي ضمنها أمر عباده بتعظيمه وتكريمه .

ومنها : أن هذه الإضافة هي السبب الجاذب للقلوب إليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير السعدى حـ1 صـ 65 ﴾

قوله تعالى : ﴿ لِلطَّائِفِينَ والعاكفين والركع السجود ﴾

في هذه الأوصاف الثلاثة قولان ، الأول : وهو الأقرب أن يحمل ذلك على فرق ثلاثة ، لأن من حق المعطوف أن يكون غير المعطوف عليه ، فيجب أن يكون الطائفون غير العاكفين والعاكفون غير الركع السجود لتصح فائدة العطف ، فالمراد بالطائفين : من يقصد البيت حاجاً أو معتمراً فيطوف به ، والمراد بالعاكفين : من يقيم هناك ويجاور ، والمراد بالركع السجود : من يصلي هناك . والقول الثاني : وهو قول عطاء : أنه إذا كان طائفاً فهو من الطائفين ، وإذا كان جالساً فهو من العاكفين ، وإذا كان مصلياً فهو من الرجع السجود . أ هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 4 صـ 48 ﴾

(211/65)

سؤال : لم خص الركوع والسجود بالذكر ؟

وخص الركوع والسجود بالذكر لأنهما أقرب أحوال المصلي إلى الله تعالى ، وكل مقيم عند بيت الله إرادة ذات الله فلا يخلو من إحدى هذه الرتب الثلاث ، إما أن يكون في صلاة أو في طواف فإن كان في شغل من دنياه فحال العكوف على مجاورة البيت لا يفارقه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 1 صـ 208 ﴾

سؤال : لم جمع الطائف والعاكف جمع سلامة ، وجمع الراكع والساجد جمع تكسير ؟

وقد جمع الطائف والعاكف جمع سلامة ، وجمع الراكع والساجد جمع تكسير ، تفنناً في الكلام وبعداً عن تكرير الصيغة أكثر من مرة بخلاف نحو قوله : ﴿ مسلمات مؤمنات قانتات تائبات ﴾ [التحريم : 5] الآية ، وقوله : ﴿ إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات ﴾ [الأحزاب : 35] الآية ، وقال ابن عرفة " جمع الطائفين والعاكفين جمع سلامة لأنه أقرب إلى لفظ الفعل بمنزلة يطوفون أي يجدد دون الطواف للإشعار بعلة تطهير البيت وهو قرب هذين من البيت بخلاف الركوع والسجود فإنه لا يلزم أن يكونا في البيت ولا عنده فلذلك لم يجمع جمع سلامة" ، وهذا الكلام يؤذن بالفرق بين جمع السلامة وجمع التكسير من حيث الإشعار بالحدوث والتجدد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ1 صـ 409 ﴾

سؤال : لم لم يعطف السجود على (الركع) ؟

ولم يعطف السجود على (الركع) لأن الوصفين متلازمان ولو عطف لتوهم أنهما وصفان مفترقان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ1 صـ 409 ﴾

أسئلة وأجوبة لابن عرفة فى الآية الكريمة

قال ابن عرفة : وقدم الطائفين لقرب الطواف من البيت (واختصاصه) به والعكوف في

سائر البلد ، وإن أريد به الاعتكاف فهو أحرى لأنه يكون فيه (وفي) كل مسجد تصلى فيه الجمعة ثم الرّكوع والسجود لأنه يكون في سائر المساجد والمواضع الطاهرة .

(212/65)

وقال السماكي : لأن العكوف يخص موضعا واحدا من المسجد والطواف يكون بجميع البيت فهو أعم والأعم قبل الأخص . قال وجمع : (الطائفين) جمع سلامة لأنه أقرب إلى لفظ بمنزلة يطوفون للاشعار بعلة تطهير البيت وهو حدوث الطواف وتجرده ولو قيل : الطواف : لم يفد ذلك لأن المصدر يخفي ذلك ، وجمع العاكفين جمع سلامة لقربهم من البيت كالطائفين بخلاف الركوع والسجود فإنّه لا يلزم أن يكون في البيت ولا عنده ، فلذلك لم يجمع جمع سلامة ولم يعطف (السجود على الركوع) لأنّ الرّكع هم السّاجدون ومن لم يسجد فليس براكع شرعا ، ولأن السجود يكون مصدر " سَجَدَ " ويكون جمع " سَاجِد " ولو عطف لأوهم أنه مصدر .

فإن قلت : هلا قيل : السجّد ، كما قيل : الركع ، قال الله تعالى : ﴿ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً ﴾ قلت : يراد بالسجود وضع (الجبهة على) الأرض ويراد به الخشوع ولو قيل (السجَّد) لم يتناول إلا السجود المرئي بالعين ، فقيل : السجود ليعم المعنوي والحسي

بخلاف الركوع. وجعل السجود وصفا له لأن الخشوع روح الصلاة وسرها . انتهى .

اهـ ﴿ تفسير ابن عرفة حـ1 صـ 416. 417 ﴾

(213/65)

ومن فوائد ابن العربى فى الآية

قال رحمه الله :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ فِيهَا مَسْأَلَتَانِ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : فِي تَحْقِيقِ الْمَقَامِ : هُوَ مَفْعَلٌ بِفَتْحِ الْعَيْنِ ، مِنْ قَامَ ، كَمَضْرَبٍ بِفَتْحِ الْعَيْنِ أَيْضًا ، مِنْ ضَرَبَ ؛ فَمِنْ النَّاسِ مَنْ حَمَلَهُ عَلَى عُمُومِهِ فِي مَنَاسِكِ الْحَجِّ ؛ وَالتَّقْدِيرُ : " وَاتَّخِذُوا مِنْ مَنَاسِكِ إبْرَاهِيمَ فِي الْحَجِّ عِبَادَةً وَقُدْوَةً " .

وَالْأَكْثَرُ حَمَلَهُ عَلَى الْخُصُوصِ فِي بَعْضِهَا ، وَاخْتَلَفُوا فِيهِ : فَقَالَ قَوْمٌ : هُوَ الْحَجَرُ الَّذِي جَعَلَ إبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ رِجْلَهُ حِينَ غَسَلَتْ زَوْجُ إسْمَاعِيلَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ رَأْسَهُ .

وَقَدْ رَأَيْت بِمَكَّةَ صُنْدُوقًا فِيهِ حَجَرٌ ، عَلَيْهِ أَثَرُ قَدَمٍ قَدْ انْمَحَى وَاخْلَوْلَقَ ، فَقَالُوا كُلُّهُمْ : هَذَا أَثَرُ قَدَمِ إبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهُوَ مَوْضُوعٌ بِإِزَاءِ الْكَعْبَةِ .

وَقَالَ آخَرُونَ : هُوَ الْمَوْضِعُ الَّذِي دَعَا إبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِيهِ رَبَّهُ تَعَالَى حِينَ اسْتَوْدَعَ

ذُرِّيَّتَهُ.

فَمَنْ حَمَلَهُ عَلَى الْعُمُومِ قَالَ: مَعْنَاهُ كَمَا قَدَّمْنَا مُصَلًّى: مَدْعَى أَيْ مَوْضِعًا لِلدُّعَاءِ.

وَمَنْ خَصَّصَهُ قَالَ: مَعْنَاهُ مَوْضِعًا لِلصَّلَاةِ الْمَعْهُودَةِ؛ وَهُوَ الصَّحِيحُ؛ ثَبَتَ مِنْ كُلِّ طَرِيقٍ ﴿ أَنَّ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: وَافَقْتُ رَبِّي فِي ثَلَاثٍ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ لَوْ اتَّخَذْتَ مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى فَنَزَلَتْ: وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾.

(214/65)

الْحَدِيثَ، ﴿ فَلَمَّا قَضَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طَوَافَهُ مَشَى إِلَى الْمَقَامِ الْمَعْرُوفِ الْيَوْمَ، وَقَرَأَ: ﴿ وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ وَصَلَّى فِيهِ رَكْعَتَيْنِ ﴾، وَبَيَّنَ بِذَلِكَ أَرْبَعَةَ أُمُورٍ: الْأَوَّلُ: أَنَّ ذَلِكَ الْمَوْضِعَ هُوَ الْمَقَامُ الْمُرَادُ فِي الْآيَةِ.

الثَّانِي: أَنَّهُ بَيَّنَ الصَّلَاةَ وَأَنَّهَا الْمُتَضَمِّنَةُ لِلرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ لَا مُطْلَقَ الدُّعَاءِ.

الثَّالِثُ: أَنَّهُ عَرَّفَ وَقْتَ

الصَّلَاةِ فِيهِ، وَهُوَ عَقِبَ الطَّوَافِ، وَغَيْرُهُ مِنَ الْأَوْقَاتِ مَأْخُوذٌ مِنْ دَلِيلٍ آخَرَ.

الرَّابِعُ: أَنَّهُ أَوْضَحَ أَنَّ رَكْعَتَيِ الطَّوَافِ وَاجِبَتَانِ، فَمَنْ تَرَكَهُمَا فَعَلَيْهِ دَمٌ. انتهى انتهى. اهـ

﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 1 صـ 59. 60 ﴾

" فصل "

قال السيوطى :

وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (125)

أخرج ابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم في قوله ﴿ وإذ جعلنا البيت ﴾ قال : الكعبة .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ مثابة للناس ﴾ قال : يثوبون إليه ثم يرجعون .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله ﴿ مثابة للناس ﴾ قال لا يقضون منه وطراً يأتونه ، ثم يرجعون إلى أهليهم ، ثم يعودون إليه .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن عطاء في قوله ﴿ وإذ جعلنا البيت مثابة للناس ﴾ قال : يأتون إليه من كل مكان .

وأخرج سفيان بن عيينة وعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير والبيهقي في شعب الإيمان عن مجاهد في قوله ﴿ مثابة للناس ﴾ قال : يأتون إليه لا يقضون منه وطراً أبداً ،

يحجون ثم يعودون ﴿ وأمنا ﴾ قال : تحريمه لا يخاف من دخله .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ وأمنا ﴾ قال : أمناً للناس .

وأخرج ابن جرير عن أبي العالية في قوله ﴿ وأمناً ﴾ قال : أمناً من العدوان يحمل فيه السلاح ، وقد كانوا في الجاهلية يتخطف الناس من حولهم وهم آمنون .

أما قوله تعالى : ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾ .

أخرج عبد بن حميد عن أبي إسحق أن أصحاب عبد الله كانوا يقرأون ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾ قال : أمرهم أن يتخذوا .

وأخرج عبد بن حميد عن عبد الملك بن أبي سليمان قال : سمعت سعيد بن جبير قرأها ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾ بخفض الخاء .

(216/65)

وأخرج سعيد بن منصور وأحمد والعدني والدارمي والبخاري والترمذي والنسائي وابن ماجة وابن أبي داود في المصاحف وابن المنذر وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية والطحاوي وابن حبان والدارقطني في الإفراد والبيهقي في سننه عن أنس بن مالك قال : قال عمر بن الخطاب : وافقت ربي في ثلاث . قلت : يا رسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى ؟

فنزلت ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾ وقلت : يا رسول الله إن نساءك يدخل عليهم البر والفاجر فلو أمرتهن أن يحتجبن ، فنزلت آية الحجاب . واجتمع على رسول الله صلى الله عليه وسلم نساؤه في الغيرة فقلت لهن ﴿ عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن ﴾ [التحريم : 5] فنزلت كذلك .

وأخرج مسلم وابن أبي داود وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في سننه عن جابر " أن النبي صلى الله عليه وسلم رمل ثلاثة أشواط ومشى أربعاً ، حتى إذا فرغ عمد إلى مقام إبراهيم فصلى خلفه ركعتين ، ثم قرأ ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾ " .

وأخرج ابن ماجة وابن أبي حاتم وابن مردويه عن جابر قال " لما وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة عند مقام إبراهيم قال له عمر : يا رسول الله هذا مقام إبراهيم الذي قال الله ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾ ؟ قال : نعم " .

وأخرج الطبراني والخطيب في تاريخه عن ابن عمر " أن عمر قال : يا رسول الله لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى ؟ فنزلت ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾ " .

وأخرج عبد بن حميد والترمذي عن أنس " أن عمر قال : يا رسول الله لو صلينا خلف المقام ؟ فنزلت ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾ " .

وأخرج ابن أبي داود عن مجاهد قال : كان المقام إلى لزق البيت فقال عمر بن الخطاب " يا

رسول الله لو نحيته إلى البيت ليصلي إليه الناس ، ففعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾ " .

(217/65)

وأخرج ابن أبي داود وابن مردويه عن مجاهد قال : قال عمر " يا رسول الله لو صلينا خلف المقام ، فأنزل الله ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾ فكان المقام عند البيت فحوّله رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى موضعه هذا . قال مجاهد : وقد كان عمر يرى الرأي فينزل به القرآن " .

وأخرج ابن مردويه من طريق عمر بن ميمون عن عمر " أنه مر بمقام إبراهيم فقال : يا رسول الله أليس نقوم مقام إبراهيم خليل ربنا ؟ قال : بلى . قال : أفلا نتخذه مصلى ؟ فلم يلبث إلا يسيراً حتى نزلت ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾ " .

وأخرج ابن أبي شيبة في مسنده والدارقطني في الإفراد عن أبي ميسرة قال : قال عمر " يا رسول الله هذا مقام خليل ربنا أفلا نتخذه مصلى ؟ فنزلت ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : أما مقام إبراهيم الذي ذكر ههنا فمقام إبراهيم

هذا الذي في المسجد ، ومقام إبراهيم بعد كثير مقام إبراهيم الحج كله .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : مقام إبراهيم الحرم كله .

وأخرج ابن سعد وابن المنذر عن عائشة قالت : ألقي المقام من السماء .

وأخرج ابن أبي حاتم والأزرقي عن ابن عمر قال : إن المقام ياقوتة من ياقوت الجنة محي نوره ، ولولا ذلك لأضاء ما بين السماء والأرض ، والركن مثل ذلك .

وأخرج الترمذي وابن حبان والحاكم والبيهقي في الدلائل عن ابن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " الركن والمقام ياقوتتان من يواقيت الجنة طمس الله نورهما ، ولولا ذلك لأضاءتا ما بين المشرق والمغرب " .

وأخرج الحاكم عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " الركن والمقام ياقوتتان من يواقيت الجنة " .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال : الحجر مقام إبراهيم لينه الله فجعله رحمة وكان يقوم عليه ويناوله إسمعيل الحجارة .

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن الركن والمقام من ياقوت الجنة ، ولولا ما مسهما من خطايا بني آدم لأضاءا ما بين المشرق والمغرب ، وما مسهما من ذي عاهة ولا سقيم إلا شفي " .

وأخرج البيهقي عن ابن عمر رفعه ، ولولا ما مسه من انجاس الجاهلية ما مسه ذو عاهة إلا شفي ، وما على وجه الأرض شيء من الجنة غيره .

وأخرج الجندي في فضائل مكة عن سعيد بن المسيب قال : الركن والمقام حجران من حجارة الجنة .

وأخرج الأزرقي في تاريخ مكة والجندي عن مجاهد قال : يأتي الحجر والمقام يوم القيامة كل واحد منهما مثل أحد ، لهما عينان وشفتان يناديان بأعلى أصواتهما ، يشهدان لمن وافاهما بالوفاء .

وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن الزبير ، أنه رأى قوماً يمسحون المقام فقال : لم تؤمروا بهذا ، إنما أمرتم بالصلاة عنده .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والأزرقي عن قتادة ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾ قال : إنما أمروا أن يصلوا عنده ولم يؤمروا بمسحه ، ولقد تكلفت هذه الأمة شيئاً ما تكلفته الأمم قبلها ، وقد ذكر لنا بعض من رأى أثر عقبه وأصابعه ، فما زالت هذه الأمة تمسحه حتى اخلولق وانماح .

وأخرج الأزرقي عن نوفل بن معاوية الديلمي قال " رأيت في المنام في عهد عبد المطلب مثل المهاة " قال أبو محمد الخزاعي : المهاة خرزة بيضاء .

(219/65)

وأخرج الأزرقي عن أبي سعيد الخدري قال : سألت عبد الله بن سلام عن الأثر الذي في المقام فقال : كانت الحجارة على ما هي عليه اليوم إلا أن الله أراد أن يجعل المقام آية من آياته ، فلما أمر إبراهيم عليه السلام أن يؤذن في الناس بالحج قام على المقام ، أو ارتفع المقام حتى صار أطول الجبال وأشرف على ما تحته ، فقال : يا أيها الناس اجيبوا ربكم فأجابه الناس فقالوا : لبيك اللهم لبيك ، فكان أثره فيه لما أراد الله ، فكان ينظر عن يمينه وعن شماله اجيبوا ربكم فلما فرغ أمر بالمقام فوضعه قبله ، فكان يصلي إليه مستقبل الباب فهو قبلته إلى ما شاء الله ، ثم كان إسماعيل بعد يصلي إليه إلى باب الكعبة ، ثم كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمر أن يصلي إلى بيت المقدس ، فصلى إليه قبل أن يهاجر وبعد ما هاجر ، ثم أحب الله أن يصرفه إلى قبلته التي رضي لنفسه ولأنبيائه فصلى إلى الميزاب وهو بالمدينة ، ثم قدم مكة فكان يصلي إلى المقام ما كان بمكة " .

وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير عن مجاهد في قوله ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾ قال : مدعى .

(220/65)

وأخرج الأزرقي عن كثير بن أبي كثير بن المطلب بن أبي وداعة السهمي عن أبيه عن جده قال : كانت السيول تدخل المسجد الحرام من باب بني شيبة الكبير قبل أن يردم عمر الردم الأعلى ، فكانت السيول ربما رفعت المقام عن موضعه وربما نحته إلى وجه الكعبة حتى جاء سيل أم نهشل في خلافة عمر بن الخطاب ، فاحتمل المقام من موضعه هذا فذهب به حتى وجد بأسفل مكة ، فأتي به فربط إلى أستار الكعبة ، وكتب في ذلك إلى عمر ، فأقبل فزعاً في شهر رمضان وقد عفى موضعه وعفاه السيل ، فدعا عمر بالناس فقال : أنشد الله عبداً علم في هذا المقام . فقال المطلب بن أبي وداعة : أنا يا أمير المؤمنين عندي ذلك ، قد كنت أخشى عليه هذا فأخذت قدره من موضعه إلى الركن ، ومن موضعه إلى باب الحجر ، ومن موضعه إلى زمزم بمقاط وهو عندي في البيت . فقال له عمر : فاجلس عندي وارسل إليه . فجلس عنده وأرسل فأتي بها ، فمدها فوجدها مستوية إلى موضعه هذا ، فسأل الناس وشاورهم فقالوا : نعم ، هذا موضعه . فلما استثبت ذلك عمر وحق عنده

أمر به ، فاعلم ببناء ربضه تحت المقام ثم حوّله ، فهو في مكانه هذا إلى اليوم .

وأخرج الأزرقي من طريق سفيان بن عيينة عن حبيب بن الأشرس قال : كان سيل أم نهشل قبل أن يعمل عمر الردم بأعلى مكة ، فاحتمل المقام من مكانه فلم يدر أين موضعه ، فلما قدم عمر بن الخطاب سأل من يعلم موضعه ؟ فقال عبد المطلب بن أبي وداعة : أنا يا أمير المؤمنين قد كنت قدرته وذرعته بمقاط وتخوّفت عليه هذا من الحجر إليه ، ومن الركن إليه ، ومن وجه الكعبة . فقال : ائت به . فجاء به فوضعه في موضعه هذا وعمل عمر الردم ، عند ذلك قال سفيان : فذلك الذي حدثنا هشام بن عروة عن أبيه ، أن المقام كان عند سقع البيت ، فاما موضعه الذي هو موضعه فموضعه الآن ، وأما ما يقول الناس : إنه كان هنالك موضعه فلا .

(221/65)

وأخرج الأزرقي عن ابن أبي مليكة قال : موضع المقام هذا هو الذي به اليوم ، هو موضعه في الجاهلية ، وفي عهد النبي ، وأبي بكر وعمر ، إلا أن السيل ذهب به في خلافة عمر ، فجعل في وجه الكعبة حتى قدم عمر فرده بمحضر الناس .

وأخرج البيهقي في سننه عن عائشة . أن المقام كان في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم

زمان أبي بكر ملتصقاً بالبيت ، ثم أخره عمر بن الخطاب .

وأخرج ابن سعد عن مجاهد . قال عمر بن الخطاب : من له علم بموضع المقام حيث كان ؟ فقال أبو وداعة بن صبيرة السهمي : عندي يا أمير المؤمنين قدرته إلى الباب ، وقدرته إلى ركن الحجر ، وقدرته إلى الركن الأسود ، وقدرته إلى زمزم .

فقال عمر : هاته . فأخذه عمر فرده إلى موضعه اليوم للمقدار الذي جاء به أبو وداعة .

وأخرج الحميدي وابن النجار عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من طاف بالبيت سبعاً ، وصلى خلف المقام ركعتين ، وشرب من ماء زمزم ، غفرت له ذنوبه كلها بالغة ما بلغت " .

وأخرج الأزرقي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " المرء يريد الطواف بالبيت أقبل يخوض الرحمة فإذا دخله غمرته ، ثم لا يرفع قدماً ولا يضع قدماً إلا كتب الله له بكل قدم خمسمائة حسنة ، وحط عنه خمسمائة سيئة ، ورفعت له خمسمائة درجة ، فإذا فرغ من طوافه فأتى مقام إبراهيم ، فصلى ركعتين ، دبر المقام خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه ، وكتب له أجر عتق عشر رقاب من ولد إسماعيل ، واستقبله ملك على الركن فقال له : استأنف العمل فيما بقي فقد كفيت ما مضى وشفع في سبعين من أهل بيته " .

وأخرج أبو داود عن أبي هريرة " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما دخل مكة طاف

بالبيت وصلى ركعتين خلف المقام ، يعني يوم الفتح " .

وأخرج البخاري وأبو داود والنسائي وابن ماجة عن عبد الله بن أبي أوفى " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اعتمر فطاف بالبيت وصلى خلف المقام ركعتين " .

(222/65)

وأخرج الأزرقي عن طلق بن حبيب قال : كنا جلوساً مع عبد الله بن عمرو بن العاص في الحجر ، إذ قلص الظل وقامت المجالس ، إذا نحن ببريق ايم طلع من هذا الباب – يعني من باب بني شيبة ، والأيم الحية الذكر – فاشرأبت له أعين الناس ، فطاف بالبيت سبعاً وصلى ركعتين وراء المقام ، فقمنا إليه فقلنا : أيها المعتمر قد قضى الله نسكك ، وأن بأرضنا عبيداً وسفهاء وإنما نخشى عليك منهم ، فكوّم برأسه كومة بطحاء فوضع ذنبه عليها فسما بالسماء حتى ما نراه .

وأخرج الأزرقي عن أبي الطفيل قال : كانت امرأة من الجن في الجاهلية تسكن ذا طوى ، وكان لها ابن ولم يكن لها ولد غيره ، فكانت تحبه حباً شديداً ، وكان شريفاً في قومه فتزوّج وأتى زوجته ، فلما كان يوم سابعه قال لأمه : يا أماه إني أحب أن أطوف بالكعبة سبعاً نهاراً . قالت له أمه : أي بني إني أخاف عليك سفهاء قريش فقال : أرجو السلامة .

فأذنت له فولى في صورة جان ، فمضى نحو الطواف ، فطاف بالبيت سبعاً وصلى خلف المقام ركعتين ثم أقبل منقلباً ، فعرض له شاب من بني سهم فقتله ، فثارت بمكة غبرة حتى لم يبصر لها الجبال .

قال أبو الطفيل : بلغنا أنه إنما تثور تلك الغبرة عند موت عظيم من الجن . قال : فأصبح من بني سهم على فرشهم موتى كثير من قتل الجن ، فكان فيهم سبعون شيخاً أصلع سوى الشاب .

وأخرج الأزرقي عن الحسن البصري قال : ما أعلم بلداً يصلي فيه حيث أمر الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم إلا بمكة . قال الله ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾ قال : ويقال : يستجاب الدعاء بمكة في خمسة عشر . عند الملتزم ، وتحت الميزاب ، وعند الركن اليماني ، وعلى الصفا ، وعلى المروة ، وبين الصفا والمروة ، وبين الركن والمقام ، وفي جوف الكعبة ، وبمنى ، وبجمع ، وبعرفات ، وعند الجمرات الثلاث .

وأما قوله تعالى ﴿ وعهدنا إلى إبراهيم ﴾ الآية .

أخرج ابن جرير عن عطاء وعهدنا إلى إبراهيم قال : أمرناه .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ أن طهرا بيتي ﴾ قال : من الأوثان .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد وسعيد بن جبير في قوله ﴿ أن طهرا بيتي ﴾ قالا : من الأوثان والريب وقول الزور والرجس .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة في قوله ﴿ أن طهرا بيتي ﴾ قال : من عبادة الأوثان والشرك وقول الزور . وفي قوله ﴿ والركع السجود ﴾ قال : هم أهل الصلاة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : إذا كان قائماً فهو من الطائفين ، وإذا كان جالساً فهو من العاكفين ، وإذا كان مصلياً فهو من الركع السجود .

وأخرج عبد بن حميد عن سويد بن غفلة قال : من قعد في المسجد وهو طاهر فهو عاكف حتى يخرج منه .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن ثابت قال : قلت لعبد الله بن عبيد بن عمير : ما أراني إلا مكلم الأمير أن أمنع الذين ينامون في المسجد الحرام فإنهم يجنبون ويحدثون . قال : لا تفعل فإن ابن عمر سئل عنهم فقال : هم العاكفون .

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي بكر بن أبي موسى قال : سئل ابن عباس عن الطواف أفضل أم الصلاة ؟ فقال : أما أهل مكة فالصلاة ، وأما أهل الأمصار فالطواف .

وأخرج ابن أبي شيبة عن سعيد بن جبير قال : الطواف للغرباء أحب إلي من الصلاة .

وأخرج ابن أبي شيبة عن مجاهد قال : الصلاة لأهل مكة أفضل والطواف لأهل العراق .

وأخرج ابن أبي شيبة عن حجاج قال : سألت عطاء فقال : أما أنتم فالطواف ، وأما أهل مكة فالصلاة .

وأخرج ابن أبي شيبة عن مجاهد قال : الطواف أفضل من عمرة بعد الحجر .

وفي لفظ : طوافك بالبيت أحب إلي من الخروج إلى العمرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 1 صـ 289.296 ﴾

(224/65)

ومن فوائد القاسمى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾

﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ ﴾ أي : الذي بناه إبراهيم بأم القرى ، وهو اسم غالب للكعبة كالنجم للثريا : ﴿ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ ﴾ مباءة مرجعاً للحجاج والعمار ، يتفرقون عنه ثم يتوبون إليه . ومثابة مفعلة من الثوب ؛ وهو الرجوع تراميا إليه بالكلية ، وسر هذا التفضل ظاهر في انجذاب الأفئدة وهوى القلوب وانعطافها ومحبتها له . فجذبه للقلوب أعظم من جذب المغناطيس للحديد فهو الأولى بقول القائل :

~مَحَاسِنُهُ هُيُوْلَى كُلِّ حُسْنٍ وَمِغْنَاطِيْسِ أَفْئِدَةِ الرِّجَالِ

فهم يثوبون إليه على تعاقب الأعوام من جميع الأقطار ، ولا يقضون منه وطراً . بل كلما ازدادوا له زيارة ، ازدادوا له اشتياقاً .

~لَا يَرْجِعُ الطَّرْفُ عَنْهَا حِيْنَ يُبْصِرُهَا حَتَّى يَعُوْدَ إِلَيْهَا الطَّرْفُ مُشْتَاقَا

فلله كم لها من قتيل وسليب وجريح ! وكم أنفق في حبها من الأموال والأرواح ! ورضي المحب بمفارقة فلذا الأكباد والأهل والأحباب والأوطان ، مقدماً بين يديه أنواع المخاوف ، والمتالف ، والمعاطب ، والمشاق ، وهو يستلذ ذلك كله ويستطيبه !

ذكر هذه الشذرة الإمام ابن القيم في أوائل " زاد المعاد " .

(225/65)

﴿ وَأَمْناً ﴾ موضع أمن . كقوله : ﴿ حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ [العنكبوت : 67] ، وكقوله : ﴿ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً ﴾ [آل عِمْرَان : 97] ، وقد كانوا في الجاهلية يتخطف الناس من حولهم وهم آمنون لا يُسْبَون . وكان الرجل يلقى قاتل أبيه أو أخيه فلا يعرض له ، وفي هذا بيان شرف البيت من كونه محلاً تشتاق إليه الأرواح ولا تقضي منه وطراً ، ولو ترددت إليه كل عام ، استجابة من الله تعالى لدعاء خليله في قوله :

﴿ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ﴾ [إبراهيم: 37]، إلى أن قال: ﴿ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴾ [إبراهيم: 40]، ومن كونه مأمناً لمن دخله. كما بيَّنَّا.

وفي الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم فتح مكة: < إن هذا بلد حرّمه الله يوم خلق السماوات والأرض، وهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة. وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قلبي، ولم يحل لي إلا ساعة من نهار >. الحديث.

وقوله تعالى: ﴿ وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ قرئ بكسر الخاء، أمراً معترضاً بين الجملتين الخبريتين، أو بتقدير: وقلنا اتخذوا. وقرئ بفتح الخاء ماضياً معطوفاً على جعلنا. أي: واتخذوه مصلى، ومقام إبراهيم هو الحرم كله، عن مجاهد. وعنه: هو جمع ومزدلفة ومنى ومكة. ويقال: هو مقامه الذي هو في المسجد الحرام. فقد قال قتادة: إنما أمروا أن يصلُّوا عنده، ولم يؤمروا بمسحه، ولقد تكلفت الأمم شيئاً مما تكلفته الأمم قبلها. قال الراغب الأصفهاني: والأولى أنه الحرم كله، فما من موضع ذكروه إلا هو مصلى، أو مدعى أو موضع صلاة.

أقول: كان الأصل في الآية: وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً ومصلى. إلا أنه عدل إلى هذا الأسلوب الحكيم دون ذاك، ودون أن يقال مثلاً: واتخذوا منه مصلى - لوجوه:

أحدها : التنويه بأمر الصلاة فيه ، والتعظيم لشأنها حيث أفرد ، للعناية بها ، جملة على حدة .

وثانيها : التذكير بأنه مقام الأب الأكبر للأنبياء كافة ، وما كان مقامه فجدير أن يحترم ويعظم .

وثالثها : التنصيص على أن هذا الاتخاذ بأمر رباني لا بتشريع بشر ، تمهيداً للأمر باستقباله ، وإلزاماً لمن جادل فيه ، وهم اليهود .

وقد روى الشيخان وغيرهما أن عمر رضي الله عنه قال : يا رسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى ، فنزلت : ﴿ وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾

قال ابن كثير : ومقام إبراهيم هو الحجر الذي يصلي عنده الأئمة ، وذلك الحجر هو الذي قام إبراهيم عليه السلام عند بناء البيت ، لما ارتفع الجدار أتاه إسماعيل عليه السلام به ليقوم فوقه ويناوله الحجارة فيضعها بيد لرفع الجدار ، وكلما كمل ناحية انتقل إلى الناحية الأخرى ، يطوف حول الكعبة وهو واقف عليه ، كلما فرغ من جدار نقله إلى الناحية التي تليها ، وهكذا حتى تم جدران الكعبة ، كما جاء بيانه في قصة إبراهيم وإسماعيل في بناء البيت من رواية ابن عباس عند البخاري .

قال ابن كثير : وقد كان هذا المقام ملصقاً بجدار الكعبة قديماً ، ومكانه معروف اليوم إلى

جانب الباب مما يلي الحجر يمنة الداخل من الباب في البقعة المستقلة هناك ، وكان الخليل عليه السلام ، لما فرغ من بناء البيت ، وضعه إلى جدار الكعبة ، أو أنه انتهى عنده البناء ، فتركه هناك ، ولهذا – والله أعلم – أمر بالصلاة هناك عند الفراغ من الطواف ، وناسب أن يكون عند مقام إبراهيم حيث انتهى بناء الكعبة فيه . كما فعل رسول صلى الله عليه وسلم ، فإنه لما قدم مكة طاف بالبيت سبعاً ، وجعل المقام بينه وبين البيت ، فصلى ركعتين .

(227/65)

قال ابن كثير : وإنما أخره عن جدار الكعبة إلى موضعه الآن عمر رضي الله عنه ، ولم ينكر ذلك عليه أحد من الصحابة ، وقد روى البيهقي بسنده إلى عائشة رضي الله عنها قالت : إن المقام كان في زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وزمان أبي بكر رضي الله عنه ملتصقاً بالبيت ، ثم آخره عُمَر بن الخطاب رضي الله عنه .

وقال سفيان بن عيينة ، وهو إمام المكيين في زمانه : كان المقام من سُقع البيت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فحوله عمر إلى مكانه بعد النبي صلى الله عليه وسلم .

قال : ذهب السيل به بعد تحويل عمر إياه من موضعه هذا فردّه عمر إليه . وقال سفيان : لا

أدري كم بينه وبين الكعبة قبل تحويله : وقال أيضاً : لا أدري أكان لاصقاً بها أم لا .

وأثر عائشة المتقدم يدل على أنه كان لاصقاً بها . والله أعلم .

وقال الحافظ الشيخ عُمَر بن الحافظ التقيّ محمد بن فهد المكيّ الهاشميّ ، في كتاب إتحاف الورى بأخبار أم القرى " في حوادث سنة سبع عشرة : فيها جاء سيل عظيم يعرف بسيل أم نهشل من أعلى مكة من طريق الردم ، فدخل المسجد الحرام واقتلع مقام إبراهيم من موضعه ، وذهب به حتى وجد بأسفل مكة ، وعيّن مكانه الذي كان فيه لما عفاه السيل ، فأتى به وربط بلصق الكعبة في وجهها ، وذهب السيل بأم نهشل بنت عبيدة بن سعد بن العاص بن أمية . فماتت فيه واستخرجت بأسفل مكة ، وكان سيلاً هائلاً . فكتب بذلك إلى أمير المؤمنين عُمَر بن الخطاب رضي الله عنه وهو بالمدينة الشريفة ، فهاله ذلك ، وركب فزعاً إلى مكة ، فدخلا بعمرة في شهر رمضان ، فلما وصل إلى مكة وقف على حجر المقام وهو ملصق بالبيت الشريف . ثم قال : أنشد الله عبداً عنده علم في هذا المقام ! .

(228/65)

فقال المطلب بن أبي وداعة السهمي رضي الله عنه : أنا يا أمير المؤمنين عندي علم ذلك ، فقد كنت أخشى عليه مثل هذا الأمر ، فأخذت قدره من موضعه إلى باب الحجر ، ومن موضعه إلى زمزم بمقاط ، وهي عندي في البيت . فقال له عمر : اجلس عندي وأرسل إليها من يأتي بها . فجلس عنده وأرسل إليها فأتي بها ، فقيس ، ووضع حجر المقام في هذا المحل الذي هو فيه الآن ، وأحكم ذلك واستمر إلى الآن . انتهى : ﴿ وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ ﴾ أي : أمرناهما . وتعديته بـ : ﴿ إلى ﴾ لأنه في معنى : تقدمنا وأوحينا : ﴿ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ ﴾ أي : عن كل رجس حسي ومعنوي : فلا يفعل بحضرته شيء لا يليق في الشرع ، أو ابنياه على طهر من الشرك بي . كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ [الحج : 26] ، أو أخلصاه للطائفين وما بعده لئلا يغشاه غيرهم . فاللام صلة : ﴿ طهراً ﴾ على هذا . وعلى ما قبله ، لام العلة ؛ أي : طهراه لأجلهم . وقوله تعالى : ﴿ لِلطَّائِفِينَ ﴾ أي : حوله . وعن سعيد بن جبير : يعني من أتاه من غربة : ﴿ وَالْعَاكِفِينَ ﴾ يعني أهله المقيمين فيه أو المعتكفين . كما روى ابن أبي حاتم بسنده إلى ثابت قال : قلنا لعبد الله بن عبيد بن عمير : ما أُراني إلا مكلّم الأمير : أن أمنع الذين ينامون في المسجد الحرام ، فإنهم يُجنبون ويُحدثون . قال : لا تفعل فإن ابن عمر سئل عنهم فقال : هم العاكفون . ورواه عبد بن حميد في مسنده . وقد ثبت في الصحيح أن ابن عمر كان ينام في

مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم وهو عزب .

وفي " الكشاف " : يجوز أن يريد بالعاكفين الواقفين ، يعني القائمين في الصلاة .

(229/65)

كما قال للطائفين والقائمين : ﴿ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ جمع راكع وساجد والمعنى للطائفين والمصلين ؛ لأن القيام والركوع والسجود هيآت المصلي ، ولتقارب الأخيرين ذاتاً وزماناً ترك العاطف بين موصوفيهما . وجمع صفتين جمع سلامة ، وآخر بين جمع تكسير لأجل المقابلة ؛ وهو نوع من الفصاحة . وأخّر صيغة : فُعُول على فُعَّل ؛ لأنها فاضلة ، والمراد من الآية الرد على المشركين الذين كانوا يشركون بالله عند بيته المؤسس على عبادته وحده لا شريك له ، ثم مع ذلك يصدون أهله المؤمنين عنه ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الحج : 25] ففي ذلك تبكيت لهم وتنبيه على توبيخهم بترك دينه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 2 صـ 434. 438 ﴾

(230/65)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (125) ﴾

وضحت لنا الآية التي سبقت أن اليهود قد انتفت صلتهم بإبراهيم عليه السلام . . بعد أن تركوا القيم والدين واتجهوا إلي ماديات الحياة . . أنتم تدعون أنكم أفضل شعوب الأرض لأنكم من ذرية إسحق بن إبراهيم والعرب لهم هذه الأفضلية والشرف لأنهم من ذرية إسماعيل بن إبراهيم . . إذن فأنتم غير مفضلين عليهم . . فإذا انتقلنا إلي قصة بيت المقدس وتحول القبلة إلي الكعبة . . نقول إن ذلك مكتوب منذ بداية الخلق أن تكون الكعبة قبلة كل من يعبد الله .

الحق سبحانه وتعالى يقول : " وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا " . . تأمل كلمة البيت وكلمة مثابة . . بيت مأخوذ من البيتوته وهو المأوى الذي تأوى إليه وتسكن فيه وتستريح وتكون فيه زوجتك وأولادك . . ولذلك سميت الكعبة بيتا لأنها هي المكان الذي يستريح إليه كل خلق الله . . ومثابة يعني مرجعا تذهب إليه وتعود . . ولذلك فإن الذي يذهب إلي بيت الله الحرام مرة يحب أن يرجع مرات ومرات . . إذن فهو مثابة له لأنه ذاق حلاوة

وجودة في بيت ربه . . وأتحدى أن يوجد شخص في بيت الله الحرام يشغل ذهنه غير ذكر الله وكلامه وقرآنه وصلاته . . تنظر إلي الكعبة فيذهب كل ما في صدرك من ضيق وهم وحزن ولا تتذكر أولاد ولا شئون دنياك ولو ظلت جاذبية بيت الله في قلوب الناس مستمرة لتركوا كل شيء دنياهم ليبقوا بجوار البيت . . ولذلك كان عمر بن الخطاب حريصا على أن يعود الناس إلي أوطانهم وأولادهم بعد انتهاء مناسك الحج مباشرة . .

(231/65)

ومن رحمة الحق سبحانه أن الدنيا تختفي من عقل الحاج وقلبه . . لأن الحجيج في بيت ربهم وهم في بيته فيذهب عنهم الهم والكرب . . ولذلك فإن الحق سبحانه وتعالى يقول :

فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ

(من الآية 37 سورة إبراهيم)

أفئدة وليست أجساما وتهوى أي يلقون أنفسهم إلي البيت . . والحج هو الركن الوحيد الذي يحتال الناس ليؤدوه . . حتى غير المستطيع يشق على نفسه ليؤدي الفريضة . . والذي يؤديه مرة ويسقط عنه التكليف يريد أن يؤديه مرة أخرى ومرات . إن من الخير أن تترك الناس يثوبون إلي بيت الله . . ليمحو الله سبحانه ما في صدورهم من ضيق وهموم

مشكلات الحياة. وقوله تعالى: "مثابة للناس وأمنا" . . أمنا يعني يؤمن الناس فيه . . العرب حتى بعد أن تحللوا من دين إسماعيل وعبدوا الأصنام كانوا يؤمنون حجاج بيت الله الحرام . . يلقي أحدهم قاتل أبيه في بيت الله فلا يتعرض له إلا عندما يخرج.

والله سبحنه وتعالى يضع من التشريعات ما يريح الناس من تقاتلهم ويحفظ لهم كبرياءهم فيأتي إلي مكان ويجعله آمنا . . ويأتي إلي شهر ويجعله آمنا لا قتال فيه لعلهم حين يذوقون السلام والصفا يمتنعون عن القتال. والكلام عن هذه الآية يسوقنا إلي توضيح الفرق بين أن يخبرنا الله أن البيت آمن وأن يطلب منا جعله آمنا . . إنه سبحانه لا يخبرنا بأن البيت آمن ولكن يطلب منا أن نؤمن من فيه . . الذي يطيع ربه يؤمن من في البيت والذي لا يطيعه لا يؤمنه . . عندما يحدث هياج من جماعة في الحرم اتخذته ستاراً لتحقيق أهدافها . . هل يتعارض هذا مع قوله تعالى: "مثابة للناس وأمنا" . . نقول لا . . إن الله لم يعط لنا هذا كخبر ولكن كتشريع . . إن أطعنا الله نفذنا هذا التشريع وإن لم نطعه لا ننفذه. وقوله تعالى: "واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى" . . وهنا نقف قليلا فهناك مقام بفتح الميم ومقام بضم الميم . . قوله تعالى:

يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ

(من الآية 13 سورة الأحزاب)

مقام بفتح الميم اسم لمكان من قام . . ومقام بضم الميم اسم لمكان من أقام فإذا نظرت إلي الإقامة فقل مقام بضم الميم . . وإذا نظرت إلي مكان القيام فقل مقام بفتح الميم . . إذن فقوله تعالى : " واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى " بفتح الميم اسم المكان الذي قام إبراهيم فيه ليرفع القواعد من البيت ويوجد فيه الحجر الذي وقف إبراهيم عليه وهو يرفع القواعد . ولكن لماذا أمرنا الله بأن نتخذ من مقام إبراهيم مصلى ؟ لأنهم كانوا يتحرجون عن الصلاة فيه . . فالذي يصلي خلف المقام يكون الحجر بينه وبين الكعبة . . وكان المسلمون يتحرجون أن يكون بينهم وبين الكعبة شيء فيخلون من الصلاة ذلك المكان الذي فيه مقام إبراهيم . . ولذلك قال سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا نتخذ من مقام إبراهيم مصلى ؟ وسؤال عمر ينبع من الحرص على عدم الصلاة وبينه وبين الكعبة عائق وهم لا يريدون ذلك ولما رأى عمر مكانا في البيت ليس فيه صلاة يصنع فجوة بين المصلين أراد أن تعم الصلاة على البيت . . فنزلت الآية الكريمة : " واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى " .

وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد أمرنا أن نتخذ من مقام إبراهيم مصلى . . فكأنه جل جلاله أقر وجود مكان إبراهيم في مكانه فاصلا بين المصلين خلفه وبين الكعبة . . وذلك

لأن مقام إبراهيم له قصة تتصل بالعبادة وإتمامها على الوجه الأكمل ، والمقام سيعطينا حيثية الإتمام لأن الله سبحانه وتعالى يقول :

فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ

(من الآية 97 سورة آل عمران)

(233/65)

إذن هناك آيات واضحة يريدنا الله سبحانه أن نراها ونتفهمها . . فمقام إبراهيم هو مكان قيامه عندما أمره الله برفع القواعد من البيت . . والترتيب الزمني للأحداث هو أن البيت وجد أولا . . ثم بعد ذلك رفعت القواعد ووضع الحجر الأسود في موقعه وقد وضعه إبراهيم عليه السلام . إن الله سبحانه وتعالى لا يريد أن يعطينا التاريخ بقدر ما يريد أن يعطينا العبرة ، فقصة بناء البيت وقع فيها خلاف بين العلماء . . متى بني البيت ؟ بعض العلماء جعلوا بداية البناء أيام إبراهيم وبعضهم يرى أنه من عهد آدم وفريق ثالث يقول إنه من قبل آدم . . وإذا حكمنا المنطق والعقل وقرأنا قول الحق تبارك وتعالى :

وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

(127)

(سورة البقرة)

نسأل ما الرفع أولا ؟ هو الصعود والإعلاء ، فكل بناء له طول وله عرض وله ارتفاع . . وما دامت مهمة إبراهيم هي رفع القواعد فكأن هناك طولا وعرضا للبيت وإن إبراهيم سيحدد البعد الثالث وهو الارتفاع . . إن البيت كان موجودا قبل إبراهيم . . ثم جاء الطوفان الذي غمر الأرض في عهد نوح فأخفى معالمه . . فأراد الله سبحانه وتعالى أن يظهره ويبين مكانه للناس . والكعبة ليست هي البيت ولكنها هي المكين الذي يدلنا على مكان البيت . . إذن فالذين فهموا من قوله تعالى : " وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت " . . بمعنى أن إبراهيم هو الذي بنى البيت . . نقول لهم أن البيت كان موجودا قبل إبراهيم وأن مهمة إبراهيم اقتصرت على رفع القواعد لإظهار مكان البيت للناس . . ودليلنا على ذلك أنه الآن وقد ارتفع البناء حول الكعبة . . من يصلي على السطح لا يسجد للكعبة ولكنه يسجد لجو الكعبة . . ومن يصلي في الدور السفلي يصلي أيضا للكعبة لأن المكان غير المكين .

(234/65)

ولعل اكبر دليل على ذلك من القرآن الكريم . . أن إبراهيم حين أخذ هاجر وابنها إسماعيل وتركهما في بيت الله الحرام ولم يكن قد بنى الكعبة في ذلك الوقت . . ذكر البيت واقرأ قول الحق تبارك وتعالى في دعاء إبراهيم وهو يترك هاجر وطفلها الرضيع :

رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ

(من الآية 37 سورة إبراهيم)

يعني أن البيت كان موجود وإسماعيل طفل رضيع . . ولكن القواعد من البيت قد أقيمت بعد أن أصبح إسماعيل شابا يافعا يستطيع أن يعاون أباه في بناء الكعبة . . إذن فمكان بيت الله الحرام كان موجودا قبل أن يبني إبراهيم عليه السلام الكعبة . . ولكن مكان البيت لم يكن ظاهرا للناس ، ولذلك بين الله سبحانه وتعالى لإبراهيم مكان البيت حتى يضع له العلامة التي تدل الناس عليه . . واقرأ قوله تبارك وتعالى :

وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا

(من الآية 36 سورة الحج)

إن كثيرا من المفسرين يخفى عليهم حقيقة ما جاء في القرآن . والمفروض أننا حين نتعرض لقضية بناء البيت لابد أن نستعرض جميع الآيات التي وردت في القرآن الكريم حول هذه القصة . . ومنها قوله تبارك وتعالى :

إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (96)

(سورة آل عمران)

(235/65)

والكلام هنا عن البيت والقول إنه وضع للناس والناس هم آدم وذريته حتى تقوم الساعة . . وعلى ذلك لابد أن نفهم أن البيت مادام وضع للناس فالناس لم يضعوه . . ولكن الله سبحانه وتعالى هو الذي وضعه وحدده ، وعدل الله يأبى إلا أن يوجد البيت قبل أن يخلق آدم . ولذلك فإن الملائكة هم الذين وضعوه بأمر الله وحيث أراد الله لبيته أن يوضع . . والله مع نزول آدم إلي الأرض شرع التوبة وأعد هذا البيت ليتوب الناس فيه إلي ربهم وليقيموا الصلاة ويتعبدوا فيه . وعندما أراد إبراهيم أن يقيم القواعد من البيت كان يكفي أن يقيمها على قدر طول قامته ولكنه أتى بالحجر ليزيد القواعد بمقدار ارتفاع الحجر . . ويريد الله سبحانه وتعالى بمقام إبراهيم واتخاذه مصلى أن يلفتنا إلي أن الإنسان المؤمن لابد أن يعشق التكليف . . فلا يؤديه شكلا ولكن يؤديه بحب ويتحايل ليزيد تطوعا من جنس ما فرض الله عليه .

إن الحجر الموجود في مقام إبراهيم إنما هو دليل على عشقه عليه السلام لتكاليف ربه

ومحاولته أن يزيد عليها . وإن الحجر الذي كان يقف عليه إبراهيم به حفر على شكر قدميه . . وهما بين قائل أن الحجر لان تحت قدمي إبراهيم من خشية الله . . وبين قائل إن إبراهيم هو الذي قام بحفر مكان في الحجر على هيئة قدميه . . حتى إذا وقف عليه ورفع يده إلي أعلى ما يمكن ليعلى القواعد من البيت كان توازنه محفوظا . وقوله تعالى : " طهرا بيتي " دليل على البيت زالت معالمه تماما وأصبح مثل سائر الأرض فذبحت فيه الذبائح وألقيت المخلفات ، فأمر الله سبحانه وتعالى أن يطهر هو وإسماعيل البيت من كل هذا الدنس ويجعله مكانا لثلاث طوائف : " الطائفين " وهذه مأخوذة من الطواف وهو الدوران حول الشيء . . ولذلك يسمون شرطة الحراسة بالليل طوافة لأنهم يطوفون في الشوارع في أثناء الليل . والله جل جلاله يقول :

فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (19) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (20)

(سورة القلم)

(236/65)

وهذه هي قصة الحديقة التي منع أولاد الرجل الصالح بعد وفاته حق الفقراء والمساكين فيها فأرسل الله سبحانه من طاف بها . . أي مشى في كل جزء منها فأحرق أشجارها . .

فالطائف هو الذي يطوف . . " والعاكفين" هم المقيمون " والركع السجود" هم المصلون فتطهير البيت للطواف به والإقامة والصلاة فيه . . وهو مطهر أيضا لأنه سيكون قبلة للمسلمين لكل راكع أو ساجد في الأرض حتى قيام الساعة . انتهى انتهى . ا هـ ﴾ تفسير الشعراوى صـ 575. 580 ﴾

(237/65)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله تعالى ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (125) ﴾

" إِذْ " عطف على " إِذْ " قبلها ، وقد تقدم الكلام فيها ، و" جَعَلْنَا " يحتمل أن يكون بمعنى " خَلَقَ " و" وضعَ " فيتعدّى لواحد ن وهو " البيت " ، ويكون " مَثَابَةً " نصباً على الحال وأن يكون بمعنى " صيّر فيتعدى لاثنين ، فيكون " مَثَابَةً " هو المفعول الثاني . والأصل في " مثابة " " مثوبة " فأعل بالنقل والقلب ، وهل هو مصدر أو اسم مكان قولان ؟

وهل الهاء فيه للمبالغة كـ " عَلاَّمَة " و" نَسَّابة " لكثكرة من يثوب إليه ، أي يرجعن أو لتأنيث

المصدر كـ" مقامة " أو لتأنيث البقعة ؟ ثلاثة أقوال ، وقد جاء حذف هذه الهاء ؛ قال ورقةُ بنُ نَوْفَل (1) : [الطويل]

776 مَثابٌ لأَفْنَاءِ القَبَائِلِ كُلِّهَا . . . تَخُبُّ إِلَيْهَا اليَعْمَلاَتُ الذَّوَامِلُ

وقال : [الرمل]

777 جَعَلَ البَيْتَ مَثَابا لَهُمُ . . . لَيْسَ مِنْهُ الدَّهْرَ يَقْضُونَ الوَطَرْ

وهل معناه من ثاب يثوب أي : رجع أو من الثواب الذي هو الجزاء ؟

قولان :

أظهرهما : أولهما قال الحسن ومجاهد وسعيد بن جبير رضي الله عنهم : إنهم يثوبون إليه في كل عام .

وعن ابن عباس ومجاهد رضي الله عنهما : [أنه لا ينصرف عنه أحد إلا وهو يتمنى العود إليه] ، وقرأ الأعمش وطلحة " مَثَابَاتٍ " جمعاً ، ووجهه أنه مثابة لكلّ واحد من الناس .

قوله تعالى : " لِلنَّاسِ " فيه وجهان :

أحدهما : أنه متعلّق بمحذوف ؛ لأنه صفة لمثابة ومحلّه النصب .

والثاني : أنه متعلّق بجعل أي : لأجل الناس يعنى مناسكهم .

قوله تعالى : " وَأَمْناً " فيه وجهان :

---

(1) جاء في لسان العرب أن البيت لأبي طالب .

أحدهما : أنه عطف على " مثابة " وفيه التأويلات المشهورة : إما في جعله نفس المصدر ، وإما على حذف مضاف ، أي : ذا أمن ، وأما على وقوع المصدر موقع اسم الفاعل ، أيك آمناً ، على سبيل المجاز كقوله : ﴿ حَرَماً آمِناً ﴾ [العنكبوت : 67] .

والثاني : أنه معمول لفعل محذوف تقديره : وإذ جعلنا البيت مثابة ، فجعلوه آمناً لا يعتدي فيه أحد على أحد .

والمعنى : أن الله جعل البيت محترماً بحكمه ، وربما يؤيد هذا بقرأءة : " اتَّخِذُوا " على الأمر ، فعلى هذا يكون " وأَمْناً " وما عمل فيه من باب عطف الجمل عطفت جملة أمرية على خبرية ، وعلى الأول يكون من عَطْفِ المفردات .

قوله تعالى : " واتَّخِذُوا " قرأ نافع وابن عامر : " واتَّخَذُوا " فعلاً ماضياً على فلظ الخبر ، والباقون على لفظ الأمر .

فأما قراءة الخبر ففيها ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه معطوف على " جَعَلْنَا " المخفوض بـ " إذ " تقديراً ، فيكون الكلام جملة واحدة .

الثاني : أنه معطوف على مجموع قوله : " وإذْ جَعَلْنَا " فيحتاج إلى تقدير " إذْ " أي : وإذ اتَّخذُوا ، ويكون الكلام جملتين .

الثالث : ذكره أبو البقاء أن يكون معطوفاً على محذوف تقديره : فثابوا واتخذوا .

وأما قراءة الأمر فيها أربعة أوجه :

أحدها : أنها عطف على " اذكروا " إذا قيل بأن الخطاب هنا لبني إسْرَائِيل ، أي : اذكروا نعمتي واتخذوا .

والثاني : أنها عطف على الأمر الذي تضمنه قوله : " مثابة " ، كأنه قال : ثوبوا واتخذوا ، ذكر هذين الوجهين المَهْدَوِي .

الثالث : أنه مفعول لقول محذوف ، أي : وقلنا : اتخذوا ، إن قيل بأن الخطاب لإبراهيم وذريته ، أو لمحمد عليه الصلاة والسلام وأمته .

الرابع : أن يكون مستأنفاً ذكره أبو البقاء .

قوله تعالى : " مِنْ مَقَامِ " في " من " ثلاثة أوجه :

أحدها : أنها تبعيضية ، وهذا هو الظاهر .

الثاني : أنها بمعنى " في " .

الثالث : أنها زائدة على قول الأخفش ، وليس بشيء .

والمقام هنا مكان القيام، وهو يصلح للزمان والمصدر أيضاً. واصله: "مَقْوَم" فأعل بنقل حركة "الواو" إلى السَّاكن قبلها، وقلبها آلفاً، ويعبر به عن الجماعة مجازاً؛ كما يعبر عنهم بالمجلس؛ قال زهير: [الطويل]

778 وفِيهِمْ مَقَامَاتٌ حِسَانٌ وُجُوهُهُمٍ . . . وَأَنْدِيَةٌ يَنْتَابُهَا القَوْلُ وَالفِعْلُ

قوله: "مُصَلًّى" مفعلو "اتَّخِذُوا"، وهو هنا اسم مكان أيضاً، وجاء في التفسير بعنى قبله.

وقيل: هو مصدر، فلا بد من حذف مضاف أي: مكان صلاة، وألفه منقلبة عن واو، والأصل: "مُصَلًّو"؛ لأن الصلاة من ذوات "الواو" كما تقدم أول الكتاب.

قوله: "وَإِسْمَاعِيلَ" إسماعيل علم أعجميٌّ، وفيه لغتان: باللام والنون؛ وعليه قول الشاعر: [الرجز]

779 قَالَ جَوَارِي الحَيِّ لَمَّا جِينَا . . . هَذَا وَرَبِّ البَيْتِ إِسْمَاعِينَا

ويجمع على: "سَمَاعلة" و"سماعيل" و"أساميع".

ومن أغرب ما نقل في التسمية أن إبراهيم عليه السلام لما دعا الله أن يرزقه ولداً كان يقول: اسمع إيل اسمع إيل، وإيل هو الله تعالى فسمى ولده بذلك.

قوله: "أَنْ طَهِّرَا" يجوز في "أن" وجهان:

أحدهما : أنها تفسيرية لجملة قوله : " عَهِدْنَا " ، فإنه يتضمن معنى القول ؛ لأنه بمعنى أمرنا أو وصينا ، فهي بمنزلة " أي " التي للتفسير ، وشرط " أن " التفسيرية أن تقع بَعْدَما هو بمعنى القول لا حروفه .

وقال أبو البقاء : والمفسرة تقع بعد القول ، وما كان في معناه .

فقد غلط في ذلك ، وعلى هذا فلا محل لها من الإعراب .

والثاني : أن تكون مصدرية ، وخرجت على نظائرها في جواز وصلها بالجملة الأمرية ، قالوا : " كتبت إليه بإن قم " وفيها بحث ليس هذا موضعه ، والأصل : بأن ظهرا ، ثم حذفت الباء ، فيجيء فيها الخلاف المشهور من كونها في محل نصب ، أو خفض .

(240/65)

و " بَيْتِيَ " معفول به أضيف إليه تعالى تشريفاً وقرأ أهل " المدينة " وحفص " بيتيَ " بفتح الياء هاهنا ، وفي سورة " الحج " ، وزاد حفص في سورة " نوح " عليه الصلاة والسلام .

و " الطائف " اسم فاعل من : " طاف يطوف " ، ويقال : أطاف رباعياً ، قال : [الطويل]

780 أَطَافَتْ بِهِ جَيْلاَنُ عِنْدَ قِطَاعِهِ . . . . . .

وهذا من باب " فَعَل وأفْعَل " بمعنى .

قوله تعالى : ﴿ لِلطَّائِفِينَ والعاكفين والركع السجود ﴾ .

الطائفين : الدَّائرين حوله والعاكفين المقيمين الملازمين .

والرَّكع " ، وجمع " راكع " .

والعكوف لغة : اللزوم واللبث قال : [الوافر]

781 . . . . . عَلَيْهِ الطَّيْرُ تَرْقُبُهُ عُكُوفَا

وقال : [الرجز]

782 عَكْفَ النَّبِيطِ يَلْعَبُونَ الفَنْزَجَا . . . ويقال : عَكَفَ يَعْكُفُ ويَعْكِفُ ، بالفتح في الماضي ، والضم والكسر في المضارع ، وقد قرئ بهما .

و" السُّجُود " يجوز فيه وجهان :

أحدهما : أنه جمع ساجد نحو : قاعد وقعود ، وراقد ورقود ، وهو مناسب لما قبله .

والثاني : أنه مصدر نحو : الدخول والقعود ، فعلى هذا لابد من حذف مضاف أي : ذوي السّجود ذكره أبو البقاء .

وعطف أحد الوصفين على الآخر في قوله : " الطَّائِفِينَ والعَاكِفِينَ " لتبايُنِ ما بينهما ، ولم يعطف إحدى الصّفتين على الأخرى في قوله : " الرُّكَّعِ السُّجُودِ " ، لأن المراد بهما شيء واحد وهو الصلاة إذ لو عطف لتوهم أن كل واحد منهما عبادة على حِيَالِهَا ، وجمع صفتين جمع سلامة ، وأُخْرَيْن جمع تكسير لأجل المقابلة ، وهو نوع من الفَصَاحة ، وأخر

صيغة "فعُول" على "فعّل" ؛ لأنها فاصلة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 2 صـ 459. 468 ﴾ . باختصار .

(241/65)

قوله تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (126) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما ذكر أمر البيت الشريف فيما تكفل به سبحانه وفيما أمر به الخليل وولده عليهما السلام من تطهيره ذكر باهتمامه بأهله ودعائه لهم مبكتاً لمن عقّه من ذريته بالتصريح بكفرهم بيوم الجزاء الأمر بكل خير الزاجر عن كل ضير فقال : وإذ قال إبراهيم رب ﴾ فأسقط أداة البعد إنباء بقربه كما هو حال أهل الصفوة ﴿ اجعل هذا ﴾ أي الموضع الذي جعلت فيه بيتك وأمرتني بأن أسكنته من ذريتي .

ولما كان السياق للمنع من المسجد وللسعي في خرابه وكان ذلك شاملاً بعمومه للبادي

ولذلك قرر أنه مثابة للناس عامة وأمناً كان الأنسب تنكير البلد فقال : ﴿ بلداً ﴾ يأنس من يحل به ﴿ آمناً ﴾ إفصاحاً بما أفهمه ﴿ وإذ جعلنا البيت ﴾ [البقرة : 125] الآية ، والمعنى أنكم عققتم أعظم آبائكم في دعوتيه كلتيهما : في كونه بلداً فإنه إذا انقطع الناس عن أهله خرب ، وفي كونه آمناً ، وهذا بخلاف ما يأتي في سورة إبراهيم عليه السلام .

(242/65)

ولما ذكر القرار والأمن أتبعه الرزق وقال : ﴿ وارزق أهله ﴾ وقال : ﴿ من الثمرات ﴾ ، ولم يقل : من الحبوب ، لما في تعاطيها من الذل المنافي للأمن ، لما روى أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى سكة حرث فقال : " ما دخلت هذه بيتاً إلا ذل " وقال : ﴿ من آمن منهم بالله ﴾ الجامع لصفات الكمال ﴿ واليوم الآخر ﴾ تقييداً لدعوة الرزق بما قيدت به دعوة الإمامة تأدباً معه حيث قال : ﴿ لا ينال عهدي الظالمين ﴾ [البقرة : 124] ﴿ قال ﴾ الله تعالى معلماً أن شمول الرحمانية بأمن الدنيا ورزقها لجميع عمرة الأرض ﴿ ومن كفر ﴾ أي أنيله أيضاً ما ألهمتك من الدعاء بالأمن والرزق ، وعبر عن ذلك بقوله : ﴿ فأمتعه ﴾ تخسيساً له بما أفهمه لفظ المتاع بكونه كما مضى من أسماء الجيفة التي إنما هي منال المضطر على شعور يرفضه على قرب من مترجي الغناء عنها ، وأكد ذلك بقوله : ﴿ قليلاً ﴾ لكن

فيه إيماء إلى أنه يكون أطيب حالاً في الدنيا وأوسع رزقاً من المؤمن ، وكذا في قوله : ﴿ ثم أضطره ﴾ بما لي من العظمة الباهرة ﴿ إلى عذاب النار ﴾ أي بما أستدرجه به من النعم الحاملة له على المعاصي التي هي أسباب النقم ، وفي التعبير بلفظ الاضطرار إلى ما لا يقدم عليه أحد باختيار إشعار بإجبار الله خلقه على ما يشاء منهم من إظهار حكمته وأن أحداً لا يقدر على حركة ولا سكون إلا بمشيئته ؛ والاضطرار الإلجاء إلى ما فيه ضرر بشدة وقسر .

ولما كان التقدير : فبئس المتاع ما ذكر له في الدنيا ، عطف عليه قوله : ﴿ وبئس المصير ﴾ أي العذاب له في الآخرة ، وهو مفعل مما منه التصيير وهو التنقيل في أطوار وأحوال ينتهي إلى غاية تجب أن تكون غير حالة الشيء الأولى بخلاف المرجع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 240.242 ﴾

(243/65)

فصل

قال الفخر :

اعلم أن هذا هو النوع الثالث من أحوال إبراهيم ـ عليه السلام ـ التي حكاها الله تعالى ههنا

، قال القاضي : في هذه الآيات تقديم وتأخير ، لأن قوله : ﴿ رَبِّ اجعل هذا بَلَدًا آمِنًا ﴾ لا يمكن إلا بعد دخول البلد في الوجود ، والذي ذكره من بعد وهو قوله : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إبراهيم القواعد مِنَ البيت ﴾ [البقرة : 128] وإن كان متأخراً في التلاوة فهو متقدم في المعنى .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 4 صـ 49 ﴾

وقال النيسابورى :

في ترتيب القصة فوائد منها : أنه أجمل القصة في قوله ﴿ وإذ ابتلى ﴾ إلى ﴿ فأتمهن ﴾ ثم فسر ، وفي التفسير قدم الأهم فالأهم ، ولا ريب أن ذكر جعل إبراهيم إماماً أولى بالتقديم لعموم نفعه للخلائق ولتقدمه في الوجود أيضاً ، ثم ذكر جعل البيت مثابة للناس وأمناً لأنه المقصود من عمارة البيت ثم حكاية عمارة البيت . وقد حصل في ضمن رعاية الأهم فوائد أخر منها : أنه كما كان مبنى القصة على الإجمال والتفسير وقع كل من أجزائها أيضاً كذلك فقوله ﴿ وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً ﴾ مجمل ، ثم فسر ذلك بأن جعله ذا أمن كان بسبب دعاء إبراهيم . وذكر البيت أولاً وقع مجملاً ثم فسر بأنه كيف بني ومنها أنه وقع ختم الكلام بأدعية إبراهيم - عليه السلام - ووقع ختم الأدعية بذكر خاتم النبيين ، وهذا ترتيب لا يتصور أحسن منه ولعل ما فاتنا من أسرار هذا الترتيب أكثر مما أحصينا .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن ورغائب الفرقان حـ 1 صـ 394 ﴾

قوله تعالى ﴿ وإذ قال إبراهيم رب ﴾

سؤال : لم أسقط حرف النداء ﴿ يا ﴾ فى قوله ﴿ رب ﴾ ؟

الجواب : أسقط أداة البعد إنباء بقربه كما هو حال أهل الصفوة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ1 صـ 241 ﴾

سؤالان

السؤال الأول : أليس أن الحجاج حارب ابن الزبير وخرب الكعبة وقصد أهلها بكل سوء وتم له ذلك ؟

الجواب : لم يكن مقصوده تخريب الكعبة لذاتها ، بل كان مقصوده شيئاً آخر .

(244/65)

السؤال الثاني : المطلوب من الله تعالى هو أن يجعل البلد آمناً كثير الخصب ، وهذا مما يتعلق بمنافع الدنيا فكيف يليق بالرسول المعظم طلبها .

والجواب عنه من وجوه ، أحدها : أن الدنيا إذا طلبت ليتقوى بها على الدين ، كان ذلك من أعظم أركان الدين ، فإذا كان البلد آمناً وحصل فيه الخصب تفرغ أهله لطاعة الله تعالى ، وإذا كان البلد على ضد ذلك كانوا على ضد ذلك . وثانيها : أنه تعالى جعله مثابة للناس والناس إنما يمكنهم الذهاب إليه إذا كانت الطرق آمنة والأقوات هناك رخيصة . وثالثها :

لا يبعد أن يكون الأمن والخصب مما يدعو الإنسان إلى الذهاب إلى تلك البلدة ، فحينئذ يشاهد المشاعر المعظمة والمواقف المكرمة فيكون الأمن والخصب سبب اتصاله في تلك الطاعة . أهـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 4 صـ 49 . 50 ﴾

سؤال : لم عدل هنا عن بيان المشار إليه ؟

وقد عدل هنا عن بيان المشار إليه اكتفاء عنه بما هو الواقع عند الدعاء ، فإن إبراهيم دعا دعوته وهو في الموضع الذي بنى فيه الكعبة لأن الغرض ليس تفصيل حالة الدعاء إنما هو بيان استجابة دعائه وفضيلة محل الدعوة وجعل مكة بلداً آمناً ورزق أهله من الثمرات ، وتلك عادة القرآن في الإعراض عما لا تعلق به بالمقصود ألا ترى أنه لما جعل البلد مفعولاً ثانياً استغنى عن بيان اسم الإشارة ، وفي سورة إبراهيم (35) لما جعل ﴿ آمناً ﴾ مفعولاً ثانياً بين اسم الإشارة بلفظ (البلد) ، فحصل من الآيتين أن إبراهيم دعا لبلد بأن يكون آمناً . أهـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 1 صـ 410 ﴾

سؤال : لم دعا إبراهيم ـ عليه السلام ـ للبلد بالأمن ؟

إنما دعا إبراهيم له بالأمن لأنه بلد ليس فيه زرع ولا ثمر فإذا لم يكن آمناً ، لم يجلب إليه شيء من النواحي فيتعذر المقام به . فأجاب الله تعالى دعاء إبراهيم وجعله بلداً آمناً ، فما

قصده جبار إلا قصمه الله تعالى كما فعل بأصحاب الفيل وغيرهم من الجبابرة. انتهى

انتهى. اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 1 صـ 108 ﴾

(245/65)

سؤال : فإن قيل : ما الفائدة في قول إبراهيم عليه الصلاة والسلام : ﴿ رَبِّ اجعل هذا بلد آمِناً ﴾ ، وقد أخبر الله تعالى قبل ذلك بقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا البيت مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً ﴾ [البقرة : 125] ؟

فالجواب : من وجوه :

أحدها : أن الله تعالى لما أخبره بأنه جعل البيت مثابة للناس وأمناً ، ووقع في خاطره أنه إنما جعل البيت وحده آمناً ، فطلب إبراهيم عليه ـ الصلاة والسلام ـ أن يكون الأمن بجميع البلد .

وثانيها : أن يكون قوله تعالى : " وَإِذْ جَعَلْنَا البَيْتَ " بعد قوله إبراهيم عليه ـ الصلاة والسلام ـ ﴿ رَبِّ اجعل هذا بَلَداً آمِناً ﴾ فيكون إجابة لدعائه ، وعلى هذا فيكون مقدماً في التلاوة مؤخراً في الحكم .

وثالثها : أن يكون المراد من الأَمْنِ المذكور في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا البيت مَثَابَةً لِّلنَّاسِ

وَأَمْناً ﴾ [البقرة: 125] هو الأمن من الأعداء والخيف والخَسْف والمَسْخ، والمراد من الأمن في دعاء إبراهيم هو الأمن من القَحْط، ولهذا قال: ﴿ وارزق أَهْلَهُ مِنَ الثمرات ﴾.

انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير ابن عدل حـ 2 صـ 97 ﴾

من جوامع الكلم فى دعوة الخليل ـ عليه السلام ـ

ولقد كانت دعوة إبراهيم هذه من جوامع كلم النبوءة فإن أمن البلاد والسبُلِ يستتبع جميع خصال سعادة الحياة ويقتضي العدل والعزة والرخاء إذ لا أمن بدونها، وهو يستتبع التعمير والإقبالَ على ما ينفع والثروةَ فلا يختل الأمن إلا إذا اختلت الثلاثة الأول وإذا اختل اختلت الثلاثة الأخيرة، وإنما أراد بذلك تيسير الإقامة فيه على سكانه لتوطيد وسائل ما أراده لذلك البلد من كونه منبع الإسلام. أ هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 1 صـ 410 ﴾

سؤال: فإن قلت: قد غزا مكة الحجاج وخرب الكعبة.

(246/65)

قلت لم يكن قصده بذلك مكة ولا أهلها ولا إخراب الكعبة، وإنما كان قصده خلع ابن الزبير من الخلافة ولم يتمكن من ذلك إلا بذلك فلما حصل قصده أعاد بناء الكعبة فبناها

وشيدها وعظم حرمتها وأحسن إلى أهلها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ1 صـ 108 ﴾

سؤال : المطلوب من الله تعالى هو أن يجعل البلد آمناً كثير الخصب ، وهذا مما يتعلق بمنافع الدنيا فكيف يليق بالرسول المعظم طلبها . ؟

والجواب عنه من وجوه ، أحدها : أن الدنيا إذا طلبت ليتقوى بها على الدين ، كان ذلك من أعظم أركان الدين ، فإذا كان البلد آمناً وحصل فيه الخصب تفرغ أهله لطاعة الله تعالى ، وإذا كان البلد على ضد ذلك كانوا على ضد ذلك . وثانيها : أنه تعالى جعله مثابة للناس والناس إنما يمكنهم الذهاب إليه إذا كانت الطرق آمنة والأقوات هناك رخيصة . وثالثها : لا يبعد أن يكون الأمن والخصب مما يدعو الإنسان إلى الذهاب إلى تلك البلدة ، فحينئذ يشاهد المشاعر المعظمة والمواقف المكرمة فيكون الأمن والخصب سبب اتصاله في تلك الطاعة . أ هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 4 صـ 40 ﴾

رواية بعيدة تفتقر إلى سند

وروي أن الله تعالى لما دعاه إبراهيم أمر جبريل صلوات الله عليه فاقتلع فلسطين ، وقيل قطعة من الأردن فطاف بها حول البيت سبعاً وأنزلها بوجّ ، فسميت الطائف بسبب ذلك الطواف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ صـ 209 ﴾ وكذا ذكرها البغوى أيضا

وغيره ولا يخفى ما فيها من بعد بعيد .

سؤال : ما المراد بقوله بلدا آمنا ؟

الجواب :

أي اجعل هذا البلد أو هذا المكان ﴿ بَلَدًا آمِنًا ﴾ ذا أمن ، كقوله ﴿ عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ [الحاقة : 21] . أو آمنا من فيه ، كقوله : ليل نائم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشاف حـ1 صـ 186 ﴾

سؤال : متى حرمت مكة ؟

الجواب كما ذكره ابن عطية :

واختلف في تحريم مكة متى كان ؟ فقالت فرقة : جعلها الله حراماً يوم خلق السماوات والأرض ، وقالت فرقة : حرمها إبراهيم .

(247/65)

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه : والأول قاله النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في خطبته ثاني يوم الفتح ، والثاني قاله أيضاً النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، ففي الصحيح عنه : " اللهم إن إبراهيم حرم مكة ، وإني حرمت المدينة ، ما بين لابتيها حرام "

ولا تعارض بين الحديثين ، لأن الأول إخبار بسابق علم الله فيها وقضائه ، وكون الحرمة مدة آدم وأوقات عمارة القطر بإيمان ، والثاني إخبار بتجديد إبراهيم لحرمتها وإظهاره ذلك بعد الدثور ، وكل مقال من هذين الإخبارين حسن في مقامه ، عظم الحرمة ثاني يوم الفتح على المؤمنين بإسناد التحريم إلى الله تعالى ، وذكر إبراهيم عند تحريمه المدينة مثالاً لنفسه ، ولا محالة أن تحريم المدينة هو أيضاً من قبل الله تعالى من نافذ قضائه وسابق علمه . أ هـ

﴿ المحرر الوجيز حـ1 صـ 209 ﴾

وقد جمع بين القولين الخازن رحمه الله. فقال :

ووجه الجمع بين القولين وهو الصواب أن الله تعالى حرم مكة يوم خلقها كما أخبر النبي. صلى الله عليه وسلم. في قوله : " إن الله حرم مكة يوم خلق السماوات والأرض " ولكن لم يظهر ذلك التحريم على لسان أحد من أنبيائه ورسله ، وإنما كان تعالى يمنعها ممن أرادها بسوء ، ويدفع عنها وعن أهلها الآفات والعقوبات فلم يزل ذلك من أمرها حتى بوأها الله تعالى إبراهيم وأسكن بها أهله فحينئذ سأل إبراهيم ربه عز وجل أن يظهر التحريم مكة لعباده على لسانه فأجاب الله تعالى دعوته ، وألزم عباده تحريم مكة فصارت مكة حراماً بدعوة إبراهيم ، وفرض على الخلق تحريمها والامتناع من استحلالها واستحلال صيدها وشجرها فهذا وجه الجمع بين القولين وهو الصواب ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الخازن حـ1 صـ 108 ﴾

سؤال : قوله ﴿ رب اجعل هذا بلدا آمنا (126 وفي إبراهيم ﴾ هذا البلد آمنا (35 لأن) هذا (هنا إشارة إلى المذكور في قوله) بواد غير ذي زرع (37 قبل بناء الكعبة وفي إبراهيم إشارة إلى البلد بعد الكعبة فيكون) بلدا (في هذه السورة المفعول الثاني و) آمنا (صفته) وهذا البلد (في إبراهيم المفعول الأول و) آمنا (المفعول الثاني

وقيل لأن النكرة إذا تكررت صارت معرفة وقيل تقديره في البقرة البلدا بلدا آمنا فحذف اكتفاء بالإشارة فتكون الآيتان سواء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أسرار التكرار في القرآن. للكرماني صـ 35 ﴾

وأجاب صاحب ملاك التأويل عن هذا السؤال بما نصه :

قوله تعالى : " وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلداً آمنا " وفى سورة إبراهيم : " رب اجعل هذا البلد آمنا " ، فنكر فى سورة البقرة وعرف فى سورة إبراهيم بأداة العهد فيسأل عن ذلك . ووجهه والله أعلم أن اسم الإشارة الذى هو " هذا " فى سورة البقرة لم يقصد تبعيته اكتفاء بالواقع قبله من قوله تعالى : " وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا " ، وقوله : " وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع

السجود . . . .الآية" وتعريف البيت حاصل منه تعريف البلد لا سيما بما تقدم من قول إبراهيم عند نزوله بولده بحرم الله ودعائه أولا بقوله : " ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم . . . .الآية" ، فتعرف البيت تعريف للبلد فورد اسم الإشارة غير مفتقر إلى التابع المبين جنسه كالجارى فى أسماء الإشارة اكتفاء بما تقدمه مما يحصل منه مقصود البيان ، فانتصب بلدا مفعولا ثانيا وآمنا نعتا له واسم الإشارة مفعولا أول غير محتاج إلى تابع لقيام ما تقدم مقامه ولو تعرف لفظ بلد بالألف واللام وجرى على اسم الإشارة لم يكن ليحرز بيانا زائدا على ما تحصل مما تقدم بل كان يكون كالتكرار . فورد الكلام على ما هو أحرز للإيجاز وأبلغ فى المقصود مع حصول ما كانت التبعية تعطيه فجاء على ما يجب

وأما سورة ابراهيم فلم يتقدم فيها ما يقوم لاسم الإشارة مقام التابع النعرف بجنس ما يشار إليه فلم يكن بد من إجراء البلد عليه تابعا له بالألف واللام على المعهود الجارى فى أسماء الإشارة من تعيين جنس المشار إليه باسم جامد فى الغالب عطف بيان على قول الخليل . أو نعتا على الظاهر من كلام سيبويه ، وانتصب اسم الإشارة المتبع على أنه مفعول أول و"

آمنا" على أنه مفعول ثان ولم يكن عكس الوارد ليحسن ولا ليناسب وقيل فى الوارد فى سورة البقرة أنه أشار اليه قبل استقراره ﴿ بلدا ﴾ فأراد اجعل هذا الموضع أو هذا المكان بلدا آمنا واكتفى عن ذكر الموضع بالإشارة إليه واسم الإشارة على هذا مفعول أول و" بلدا" مفعول ثان و" آمنا" نعت له ، وأشار إليه فى سورة ابراهيم بعد استقراره ﴿ بلدا ﴾ فجرى البلد على اسم الإشارة نعتا له وآمنا مفعول ثان قاله صاحب كتاب الدرة وهو عندى بعيد إذ ليس بمفهوم من لفظ الآى وهو بعد ممكن والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل ـ للعلامة أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي العاصمي الغرناطي صـ 50 ـ 51 ﴾

وقد ذكر ابن جزى ثلاثة أجوبة عن هذا السؤال هى :

بثلاثة أجوبة الجواب الأول قاله أستاذنا الشيخ أبو جعفر بن الزبير وهو أنه تقدم في البقرة ذكر البيت في قوله القواعد من البيت وذكر البيت يقتضي بالملازمة ذكر البلد الذي هو فيه فلم يحتج إلى تعريف بخلاف آية إبراهيم فإنها لم يتقدم قبلها ما يقتضي ذكر البلد ولا المعرفة به فذكره بلام التعريف

الجواب الثاني قاله السهيلي وهو أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان بمكة حين نزلت آية إبراهيم لأنها مكية فلذلك قال فيه البلد بلام التعريف التي للحضور كقولك هذا الرجل وهو حاضر بخلاف آية البقرة فإنها مدنية ولم تكن مكة حاضرة حين نزولها فلم يعرفها بلام

الحضور وفي هذا نظر لأن ذلك الكلام حكاية عن إبراهيم ـ عليه السلام ـ فلا فرق بين نزوله بمكة أو المدينة

الجواب الثالث قاله بعض المشارقة أنه قال ﴿ هذا بلدا آمنا ﴾ قبل أن يكون بلدا فكأنه قال : اجعل هذا الموضع بلدا آمنا وقال هذا البلد بعد ما صار بلدا وهذا يقتضي أن إبراهيم دعا بهذا الدعاء مرتين والظاهر أنه مرة واحدة حكى لفظه فيها على وجهين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التسهيل ـ حـ 1 صـ 60 ﴾

(250/65)

وقيل لابن عرفة : إنه دعا بصيرورته بلدا آمنا ، فظاهره أنه لم يكن حينئذ بلدا فدعا (هنا بصيرورته بلدا ثم بعد حصوله بلدا دعا بما في) سورة إبراهيم ؟ فقال : إنك تقول : رب اجعل هذا رجلا صالحا ، فلم تدع بحصول الرجولية له بل بكونه صالحا .

قيل له / قد ذكروا في الجواب عن معارضة الآيتين أنه لم يكن حينئذ بلدا فدعا هنا بصيرورته ثم بعد حصوله بلدا دعا بما في سورة إبراهيم ؟ فقال : الظاهر أنه كان في موطنين فقال أولا :) رَبِّ اجعل هذا بَلَداً ءَامِناً (ثم أعاد الدعاء في إبراهيم إما لأنه استجيب له وطلب دوام الأمن ، أو تأخرت الإجابة وأعاد الدعاء تأكيدا ، وإن كان ذلك منه في موطن

(واحد) فيشكل فهم الآيتين لأنه إن كان نطق به معرّفا فِلِمَ حكى منكّرا ، وإن قاله منكّرا فِلِمَ حكي معرّفا ؟ ومنهم من أجاب بانه على حذف الصفة أي اجعل هذا البلد آمنا ، وخص بعض ذريته بالدعاء دون بعض إما لأنه علم أن (فيهم) الظالمين أو لأن الله أوحى إليه بذلك أو لأن هذا اسلام أخص فخصص البعض (به دون البعض) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عرفة حـ 1 صـ 417 ﴾

(251/65)

قوله تعالى ﴿ وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ ﴾

سؤال : لم قال : ﴿ من الثمرات ﴾ ، ولم يقل : من الحبوب ؟

وقال : ﴿ من الثمرات ﴾ ، ولم يقل : من الحبوب ، لما في تعاطيها من الذل المنافي للأمن .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 241 ﴾

سؤال : ما نوع ﴿ أل ﴾ فى كلمة ﴿ الثمرات ﴾ ؟

والتعريف في الثمرات تعريف الاستغراق وهو استغراق عُرفي أي من جميع الثمرات المعروفة للناس ودليل كونه تعريف الاستغراق مجيء مِن التي للتبعيض ، وفي هذا دعاء لهم بالرفاهية حتى لا تطمح نفوسهم للارتحال عنه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 1

﴿ صـ 410 ﴾

سؤال : لم اشترط إبراهيم ـ عليه السلام ـ في دعائه فقال : ﴿ مِنَ الثمرات مَنْ ءامَنَ مِنْهُم بالله ﴾ ؟

واشترط إبراهيم في دعائه فقال : ﴿ مِنَ الثمرات مَنْ ءامَنَ مِنْهُم بالله ﴾ . وإنما اشترط هذا الشرط ، لأنه قد سأل ربه الإمامة لذريته ، فلم يستجب له في الظالمين ، فخشي إبراهيم أن يكون أمر الرزق هكذا ، فسأل الرزق للمؤمنين خاصة ، فأخبره الله تعالى : أنه يرزق الكافر والمؤمن ، وأن أمر الرزق ليس كأمر الإمامة . قالوا : لأن الأمامة فضل ، والرزق عدل ، فالله تعالى يعطي بفضله من يشاء من عباده من كان أهلاً لذلك ، وعدله لجميع الناس لأنهم عباده ، وإن كانوا كفاراً . فذلك قوله تعالى : ﴿ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ﴾ . أ هـ

﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ 119 ﴾

وأجاب الفخر عن هذا التخصيص ﴿ من آمن بالله واليوم الآخر ﴾ بقوله :

وسبب هذا التخصيص النص والقياس ، أما النص فقوله تعالى : ﴿ فَلاَ تَأْسَ عَلَى القوم الكافرين ﴾ [المائدة : 68] وأما القياس فمن وجهين :

الوجه الأول : أنه لما سأل الله تعالى أن يجعل الإمامة في ذريته ، قال الله تعالى : ﴿ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظالمين ﴾ [البقرة : 124] فصار ذلك تأديباً في المسألة ، فلما ميز الله تعالى المؤمنين عن الكافرين في باب الإمامة ، لا جرم خصص المؤمنين بهذا الدعاء دون الكافرين ثم أن الله تعالى أعلمه بقوله : ﴿ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ﴾ الفرق بين النبوة ورزق الدنيا ، لأن منصب النبوة والإمامة لا يليق بالفاسقين ، لأنه لا بد في الإمامة والنبوة من قوة العزم والصبر على ضروب المحنة حتى يؤدي عن الله أمره ونهيه ولا تأخذه في الدين لومة لائم وسطوة جبار ، أما الرزق فلا يقبح إيصاله إلى المطيع والكافر والصادق والمنافق ، فمن آمن فالجنة مسكنه ومثواه ، ومن كفر فالنار مستقره ومأواه .

الوجه الثاني : يحتمل أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ قوي في ظنه أنه إن دعا للكل كثر في البلد الكفار فيكون في غلبتهم وكثرتهم مفسدة ومضرة من ذهاب الناس إلى الحج ، فخص المؤمنين بالدعاء لهذا السبب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 4 صـ 51 ﴾

قوله تعالى ﴿ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ﴾

سؤال : لم وصف المتاع بالقلة ؟

والوصف بالقلة لسرعة انقضائه ، إما لحلول الأجل ، وإما بظهور محمد ـ صلى الله عليه

وسلم- فيقتله ، أو يخرجه عن هذا البلد ، إن أقام على الكفر والإمتاع بالنعيم والزينة ، أو بالإمهال عن تعجيل الانتقام فيها ، أو بالرزق ، أو بالبقاء في الدنيا .

أهـ ﴿ البحر المحيط حـ1 صـ 557 ﴾

وأجاب السمعانى عن هذا السؤال بقوله :

وإنما ذكر القليل لأن الإمتاع أصله الطول والكثرة يقال متع النهار أي طال وارتفع ونخلة ماتعة أي طويلة وإنما أراد به الإمتاع في الدنيا وهو قليل لانقطاعه

أهـ ﴿ تفسير السمعانى حـ1 صـ 139 ﴾

قوله تعالى : ﴿ ثم أضطره إلى عذاب النار ﴾ احتراس من أن يَغتر الكافر بأنَّ تخويله النعم في الدنيا يؤذن برضى الله فلذلك ذُكر العذاب هنا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 1 صـ 478 ﴾

(253/65)

من فوائد الإمام الجصاص فى الآية

قال رحمه الله :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا ﴾ الْآيَةَ ؛ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ :

أَحَدُهُمَا : مَعْنَى " مَأْمُونٍ فِيهِ " كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴾ يَعْنِي مَرْضِيَّةً .

وَالثَّانِي : أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ " أَهْلَ الْبَلَدِ " كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَاسْأَلْ الْقَرْيَةَ ﴾ مَعْنَاهُ : أَهْلَهَا ؛ وَهُوَ مَجَازٌ ؛ لِأَنَّ الْأَمْنَ وَالْخَوْفَ لَا يَلْحَقَانِ الْبَلَدَ وَإِنَّمَا يَلْحَقَانِ مَنْ فِيهِ .

وَقَدْ اخْتُلِفَ فِي الْأَمْنِ الْمَسْئُولِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ، فَقَالَ قَائِلُونَ : سَأَلَ الْأَمْنَ مِنْ الْقَحْطِ وَالْجَدْبِ ؛ لِأَنَّهُ أَسْكَنَ أَهْلَهُ بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ وَلَا ضَرْعٍ ، وَلَمْ يَسْأَلْهُ الْأَمْنَ مِنْ الْخَسْفِ وَالْقَذْفِ ؛ لِأَنَّهُ كَانَ آمِنًا مِنْ ذَلِكَ قَبْلُ ، وَقَدْ قِيلَ : إنَّهُ سَأَلَ الْأَمْرَيْنِ جَمِيعًا .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : هُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا ﴾ .

وَقَوْلِهِ : ﴿ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ﴾ .

وَقَوْلِهِ : ﴿ وَإِذْ قَالَ إبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا ﴾ وَالْمُرَادُ وَاَللَّهُ أَعْلَمُ بِذَلِكَ الْأَمْنُ مِنْ الْقَتْلِ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ قَدْ سَأَلَهُ مَعَ رِزْقِهِمْ مِنْ الثَّمَرَاتِ : ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنْ الثَّمَرَاتِ ﴾ وَقَالَ عَقِيبَ مَسْأَلَةِ الْأَمْنِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴾ ثُمَّ قَالَ فِي سِيَاقِ الْقِصَّةِ : ﴿ رَبَّنَا إنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ﴾ إلَى قَوْلِهِ ﴿ وَارْزُقْهُمْ مِنْ الثَّمَرَاتِ ﴾ فَذَكَرَ

مَعَ مَسْأَلَتِهِ الْأَمْنَ وَأَنْ يَرْزُقَهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ ، فَالْأَوْلَى حَمْلُ مَعْنَى مَسْأَلَةِ الْأَمْنِ عَلَى فَائِدَةٍ جَدِيدَةٍ غَيْرِ مَا ذَكَرَهُ فِي سِيَاقِ الْقِصَّةِ وَنَصَّ عَلَيْهِ مِنَ الرِّزْقِ .

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ : إِنَّ حُكْمَ اللَّهِ تَعَالَى بِأَمْنِهَا مِنَ الْقَتْلِ قَدْ كَانَ مُتَقَدِّمًا لِعَهْدِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْلِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ مَكَّةَ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي وَلَا تَحِلُّ لِأَحَدٍ بَعْدِي ، وَإِنَّمَا أُحِلَّتْ لِي سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ ﴾ يَعْنِي الْقِتَالَ فِيهَا ؛ فَسَأَلَهُ إِدَامَةَ هَذَا الْحُكْمِ فِيهَا وَتَبْقِيَتَهُ عَلَى أُسْنَةِ رُسُلِهِ وَأَنْبِيَائِهِ بَعْدَهُ .

(255/65)

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ إِنَّهَا لَمْ تَكُنْ حَرَمًا وَلَا أَمْنًا قَبْلَ مَسْأَلَةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، لِمَا رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَرَّمَ مَكَّةَ وَإِنِّي حَرَّمْتُ الْمَدِينَةَ ﴾ .

وَالْأَخْبَارُ الْمَرْوِيَّةُ عَنِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى حَرَّمَ مَكَّةَ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنَّهَا لَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي وَلَا تَحِلُّ لِأَحَدٍ بَعْدِي ، أَقْوَى وَأَصَحُّ مِنْ هَذَا الْخَبَرِ ، وَمَعَ ذَلِكَ فَلَا دَلَالَةَ فِيهِ أَنَّهُ لَمْ تَكُنْ حَرَامًا قَبْلَ ذَلِكَ ؛ لِأَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَرَّمَهَا بِتَحْرِيمِ اللَّهِ تَعَالَى إِيَّاهَا قَبْلَ ذَلِكَ فَاتَّبَعَ أَمْرَ اللَّهِ تَعَالَى فِيهَا .

وَلَا دَلَالَةَ فِيهِ عَلَى نَفْيِ تَحْرِيمِهَا قَبْلَ عَهْدِ إبْرَاهِيمَ مِنْ غَيْرِ الْوَجْهِ الَّذِي صَارَتْ بِهِ حَرَامًا بَعْدَ الدَّعْوَةِ ، وَالْوَجْهُ الْأَوَّلُ يَمْنَعُ مِنْ اصْطِلَامِ أَهْلِهَا وَمِنْ الْخَسْفِ بِهِمْ وَالْقَذْفِ الَّذِي لَحِقَ غَيْرَهَا وَبِمَا جَعَلَ فِي النُّفُوسِ مِنْ تَعْظِيمِهَا وَالْهَيْبَةِ لَهَا ، وَالْوَجْهُ الثَّانِي بِالْحُكْمِ بِأَمْنِهَا عَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ ، فَأَجَابَهُ اللَّهُ تَعَالَى إلَى ذَلِكَ .

(256/65)

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ كَفَرَ ﴾ قَدْ تَضَمَّنَ اسْتِجَابَتَهُ لِدَعْوَتِهِ وَإِخْبَارَهُ أَنَّهُ يَفْعَلُ ذَلِكَ أَيْضًا بِمَنْ كَفَرَ مِنْهُمْ فِي الدُّنْيَا ، وَقَدْ كَانَتْ دَعْوَةُ إبْرَاهِيمَ خَاصَّةً لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاَللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، فَدَلَّتْ " الْوَاوُ " الَّتِي فِي قَوْلِهِ ﴿ وَمَنْ كَفَرَ ﴾ عَلَى إجَابَةِ دَعْوَةِ إبْرَاهِيمَ وَعَلَى اسْتِقْبَالِ الْأَخْبَارِ بِمُتْعَةِ مَنْ كَفَرَ قَلِيلًا ، وَلَوْلَا

الْوَاوُ لَكَانَ كَلَامًا مُنْقَطِعًا مِنْ الْأَوَّلِ غَيْرَ دَالٍّ عَلَى اسْتِجَابَةِ دَعْوَتِهِ فِيمَا سَأَلَهُ ، وَقِيلَ فِي مَعْنَى ﴿ فَأُمَتِّعُهُ ﴾ أَنَّهُ إنَّمَا يُمَتِّعُهُ بِالرِّزْقِ الَّذِي يَرْزُقُهُ إلَى وَقْتِ مَمَاتِهِ .

وَقِيلَ : " أُمَتِّعُهُ " بِالْبَقَاءِ فِي الدُّنْيَا " وَقَالَ الْحَسَنُ : " أُمَتِّعُهُ " بِالرِّزْقِ وَالْأَمْنِ إلَى خُرُوجِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَقْتُلُهُ إنْ قَامَ عَلَى كُفْرِهِ أَوْ يُجْلِيهِ عَنْهَا " .

فَتَضَمَّنَتْ الْآيَةُ حَظْرَ قَتْلِ مَنْ لَجَأَ إلَيْهِ مِنْ وَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا : قَوْلُهُ ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا

آمِنًا ﴾ مَعَ وُقُوعِ الِاسْتِجَابَةِ لَهُ ، وَالثَّانِي : قَوْلُهُ ﴿ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ﴾ لِأَنَّهُ قَدْ نَفَى قَتْلَهُ بِذِكْرِ الْمُتْعَةِ إلَى وَقْتِ الْوَفَاةِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 1 صـ 99.97 ﴾

(257/65)

" فصل "

قال السيوطى :

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (126)

أخرج أحمد ومسلم والنسائي وابن جرير عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن إبراهيم حرم مكة وإني حرمت المدينة ما بين لابتيها ، فلا يصاد صيدها ولا يقطع عضاهها " .

وأخرج مسلم وابن جرير عن رافع بن خديج قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن إبراهيم حرم مكة ، وإني أحرم ما بين لابتيها " .

وأخرج أحمد عن أبي قتادة " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم توضأ ثم صلى بأرض

سعد بأرض الحرة عند بيوت السقيا ، ثم قال : اللهم إن إبراهيم خليلك وعبدك ونبيك دعاك لأهل مكة ، وأنا محمد عبدك ورسولك أدعوك لأهل المدينة مثل ما دعاك إبراهيم بمكة ، أدعوك أن تبارك لهم في صاعهم ومدهم وثمارهم ، اللهم حبب إلينا المدينة كما حببت إلينا مكة واجعل ما بها من وراء خم ، اللهم إني حرمت ما بين لابتيها كما حرمت على لسان إبراهيم الحرم " .

وأخرج البخاري ومسلم عن أنس " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أشرف على المدينة فقال : اللهم إني أحرم ما بين جبليها مثل ما أحرم به إبراهيم مكة ، اللهم بارك لهم في مدهم وصاعهم " .

وأخرج مسلم عن أبي هريرة " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : اللهم إن إبراهيم عبدك وخليلك ونبيك وإني عبدك ونبيك ، وإنه دعاك لمكة وإني أدعوك للمدينة بمثل ما دعاك به لمكة ، ومثله معه " .

(258/65)

وأخرج الطبراني في الأوسط عن علي بن أبي طالب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " اللهم إن إبراهيم عبدك وخليلك دعاك لأهل مكة بالبركة ، وأنا محمد عبدك

ورسولك ، وإني أدعوك لأهل المدينة أن تبارك لهم في صاعهم ومدهم مثل ما باركت لأهل مكة ، واجعل مع البركة بركتين " .

وأخرج أحمد والبخاري ومسلم عن عبد الله بن زيد بن عاصم المازني عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " إن إبراهيم حرم مكة ودعا لها ، وحرمت المدينة كما حرم إبراهيم مكة ودعوت لها في مدها وصاعها مثل ما دعا إبراهيم لمكة " .

وأخرج البخاري والجندي في فضائل مكة عن عائشة " أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : اللهم إن إبراهيم عبدك ونبيك دعاك لأهل مكة ، وأنا أدعوك لأهل المدينة بمثل ما دعاك إبراهيم لأهل مكة " .

وأخرج أحمد والبخاري ومسلم عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " اللهم اجعل بالمدينة ضعفي ما بمكة من البركة " .

وأخرج الأزرقي في تاريخ مكة والجندي عن محمد بن الأسود . أن إبراهيم عليه السلام هو أوّل من نصب أنصاب الحرم ، أشار له جبريل إلى مواضعها .

وأخرج الجندي عن ابن عباس قال : إن في السماء لحرماً على قدر حرم مكة .

وأخرج الأزرقي والطبراني والبيهقي في شعب الإيمان عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ستة لعنتهم وكل نبي مجاب . الزائد في كتاب الله ، والمكذب بقدر

الله ، والمتسلط بالجبروت ليذل من أعز الله ويعز من أذل الله ، والتارك لسنتي ، والمستحل من عترتي ما حرم الله عليه ، والمستحل لحرم الله " .

(259/65)

وأخرج البخاري تعليقاً وابن ماجة عن صفية بنت شيبة قالت : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يخطب عام الفتح فقال : " يا أيها الناس إن الله تعالى حرم مكة يوم خلق السموات والأرض وهي حرام إلى يوم القيامة ، لا يعضد شجرها ، ولا ينفر صيدها ، ولا يأخذ لقطتها إلا منشد ، فقال العباس : إلا الإِذخر فإنه للبيوت والقبور . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إلا الإِذخر " .

وأخرج ابن أبي شيبة والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي والأزرقي عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة " إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض والشمس والقمر ، ووضع هذين الاخشبين فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي ولا يحل لأحد بعدي ، ولم يحل لي إلا ساعة من نهار فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، لا يختلى خلاها ، ولا يعضد شجرها ، ولا ينفر صيدها ، ولا يلتقط لقطتها إلا من عرفها . قال العباس : إلا الإِذخر فإنه لقينهم

وبيوتهم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إلا الإِذخر " .

وأخرج أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة عن أبي هريرة قال " لما فتح الله على رسوله مكة قام فيهم ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إن الله حبس عن مكة الفيل وسلط عليها رسوله والمؤمنين ، وإنما أحلت لي ساعة من النهار ثم هي حرام إلى يوم القيامة ، لا يعضد شجرها ، ولا ينفر صيدها ، ولا تحل لقمتها إلا لمنشد ، ومن قتل له قتيل فهو بخير النظرين ، أما أن يفدى وإما أن يقتل . فقام رجل من أهل اليمن يقال له أبو شاه فقال له : يا رسول الله اكتب لي . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اكتبوا لأبي شاه . فقال العباس : يا رسول الله إلا الإِذخر فإنه لقبورنا وبيوتنا . فقال : إلا الإِذخر " .

(260/65)

وأخرج ابن أبي شيبة عن مجاهد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " مكة حرم حرمها الله ، لا يحل بيع رباعها ولا إجارة بيوتها " .

وأخرج الأزرقي في تاريخ مكة عن الزهري في قوله ﴿ رب اجعل هذا بلداً آمناً ﴾ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

" إن الناس لم يحرموا مكة ولكن الله حرمها فهي حرام إلى يوم القيامة ، وإن من أعتى الناس

على الله رجل قتل في الحرم ، ورجل قتل غير قاتله ، ورجل أخذ بذحول الجاهلية " .

وأخرج الأزرقي عن قتادة قال : ذكر لنا أن الحرم حرم بحياله إلى العرش .

وأخرج الأزرقي عن مجاهد قال : إن هذا الحرم حرم مناه من السموات السبع والأرضين السبع ، وإن هذا البيت رابع أربعة عشر بيتاً في كل سماء بيت وفي كل أرض بيت ، ولو وقعن وقعن بعضهن على بعض .

وأخرج الأزرقي عن الحسن قال : البيت بحذاء البيت المعمور ، وما بينهما بحذائه إلى السماء السابعة ، وما أسفل منه بحذائه إلى الأرض السابعة حرام كله .

وأخرج الأزرقي عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " البيت المعمور الذي في السماء يقال له الضراح ، وهو على بناء الكعبة يعمره كل يوم سبعون ألف ملك لم تزره قط ، وإن للسّماء السابعة لحرما على منى حرم مكة " .

وأخرج ابن سعد والأزرقي عن ابن عباس قال : أوّل من نصب أنصاب الحرم إبراهيم عليه السلام يريه ذلك جبريل عليه السلام ، فلما كان يوم الفتح بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم تميم بن أسد الخزاعي فجدد ما رث منها .

وأخرج الأزرقي عن حسين بن القاسم قال : سمعت بعض أهل العلم يقول : إنه لما خاف آدم على نفسه من الشيطان استعاذ بالله ، فأرسل الله ملائكته حفوا بمكة من كل جانب ووقفوا حواليها قال : فحرم الله الحرم من حيث كانت الملائكة وقفت . قال : ولما قال إبراهيم عليه السلام : ربنا أرنا مناسكنا نزل إليه جبريل ، فذهب به فأراه المناسك ووقفه على حدود الحرم ، فكان إبراهيم يرضم الحجارة وينصب الأعلام ويحثي عليها التراب ، فكان جبريل يقفه على الحدود . قال : وسمعت أن غنم اسمعيل كانت ترعى في الحرم ولا تجاوزه ولا تخرج ، فإذا بلغت منتهاه من ناحية رجعت صابة في الحرم .

وأخرج الأزرقي عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة قال " إن إبراهيم عليه السلام نصب أنصاب الحرم يريه جبريل عليه السلام ، ثم لم تحرك حتى كان قُصَيْ فجددها ، ثم لم تحرك حتى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبعث عام الفتح تميم بن أسد الخزاعي فجددها " .

وأخرج البزار والطبراني عن محمد بن الأسود بن خلف عن أبيه " أن النبي صلى الله عليه وسلم أمره أن يجدد أنصاب الحرم . . . " .

وأخرج الأزرقي عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال : أيها الناس ان هذا البيت لاق ربه فسائله عنكم ، ألا فانظروا فيما هو سائلكم عنه من أمره ، ألا واذكروا الله إذ كان أحدكم ساكنه ، لا تسفكون فيه دماء ولا تمشون فيه بالنميمة " .

وأخرج البزار عن عبد الله بن عمرو " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بنفر من قريش وهم جلوس بفناء الكعبة فقال : انظروا ما تعملون فيها فإنها مسؤولة عنكم فتخبر عن أعمالكم ، واذكروا إذ ساكنها من لا يأكل الربا ولا يمشي بالنميمة " .

وأخرج الأزرقي عن أبي نجيح قال : لم يكن كبار الحيتان تأكل صغارها في الحرم زمن الغرق .

(262/65)

وأخرج ابن أبي الدنيا في ذم الملاهي عن جويرية بن أسماء عن عمه قال : حججت مع قوم ، فنزلنا منزلاً ومعنا امرأة ، فانتبهت وحية عليها لا تضرها شيئاً حتى دخلنا انصاب الحرم فانسابت ، فدخلنا مكة فقضينا نسكنا وانصرفنا ، حتى إذا كنا بالمكان الذي تطوقت عليها فيه الحية وهو المنزل الذي نزلنا ، فنامت فاستيقظت والحية منطوية عليها ، ثم صفرت الحية فإذا بالوادي يسيل علينا حيات ، فنهشنها حتى بقيت عظاماً ، فقلت لجارية كانت لها : ويحك اخبرينا عن هذه المرأة ؟ ! قال : بغت ثلاث مرات كل مرة تلد ولداً ، فإذا وضعته سجرت التنور ثم ألقته فيه .

وأخرج الأزرقي عن مجاهد قال : من أخرج مسلماً من ظله في حرم الله من غير ضرورة

أخرجه الله من ظل عرشه يوم القيامة .

وأخرج ابن أبي شيبة والأزرقي عن عبد الله بن الزبير قال : إن كانت الأمة من بني إسرائيل لتقدم مكة ، فإذا بلغت ذا طوى خلعت نعالها تعظيماً للحرم .

وأخرج أبو نعيم في الحلية عن مجاهد قال : كان يحج من بني إسرائيل مائة ألف ، فإذا بلغوا أنصاب الحرم خلعوا نعالهم ثم دخلوا الحرم حفاة .

وأخرج ابن أبي شيبة عن مجاهد قال : كانت الأنبياء إذا أتت علم الحرم نزعوا نعالهم .

وأخرج الأزرقي وابن عساكر عن ابن عباس قال : حج الحواريون فلما دخلوا الحرم مشوا تعظيماً للحرم .

وأخرج الأزرقي عن عبد الرحمن بن سابط قال " لما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم ان ينطلق إلى المدينة استلم الحجر وقام وسط المسجد والتفت إلى البيت فقال : إني لأعلم ما وضع الله في الأرض بيتاً أحب إليه منك ، وما في الأرض بلد أحب إليه منك ، وما خرجت عنك رغبة ولكن الذين كفروا هم أخرجوني " .

وأخرج الأزرقي عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما خرج من مكة " أما والله اني لأخرج وإني لأعلم أنك أحب البلاد إلى الله وأكرمها على الله ، ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت " .

وأخرج الترمذي والحاكم وصححاه والبيهقي في الشعب عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمكة " ما أطيبك من بلدة وأحبك إليّ ، ولولا أن قومك أخرجوني ما سكنت غيرك " .

وأخرج ابن سعد وأحمد والترمذي وصححه والنسائي وابن ماجة والأزرقي والجندي عن عبد الله بن عدي بن الحمراء قال " رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على ناقته واقف بالحزورة يقول لمكة : والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إلى الله ، ولولا أخرجت منك ما خرجت " .

وأخرج الأزرقي عن ابن عباس قال : كان بمكة حي يقال لهم العماليق ، فكانوا في عز وثروة وكثرة ، فكانت لهم أموال كثيرة من خيل وإبل وماشية ، فكانت ترعى مكة وما حواليها من مر ونعمان وما حول ذلك ، فكانت الحرف عليهم مظلة ، والأربعة مغدقة ، والأودية بحال ، والعضاه ملتفة ، والأرض مبقلة ، فكانوا في عيش رخى ، فلم يزل بهم البغي والإِسراف على أنفسهم بالظلم والجهار بالمعاصي والاضطهاد لمن قاربهم حتى سلبهم الله ذلك ، فنقصهم بحبس المطر وتسليط الجدب عليهم ، وكانوا يكرون بمكة الظل ويبيعون الماء ، فأخرجهم الله من مكة بالذي سلطه عليهم حتى خرجوا من الحرم فكانوا حوله ، ثم ساقهم الله بالجدب يضع الغيث أمامهم ويسوقهم بالجدب حتى ألحقهم بمساقط رؤوس آبائهم ،

وكانوا قوماً غرباء من حمير ، فلما دخلوا بلاد اليمن تفرقوا وهلكوا ، فأبدل الله الحرم بعدهم جرهم ، فكانوا سكانه حتى بغوا فيه واستخفوا بحقه ، فأهلكهم الله جميعاً .

وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن سابط قال : كان إذا كان الموسم بالجاهلية خرجوا ، فلم يبق أحد بمكة ، وإنه تخلف رجل سارق فعمد إلى قطعة من ذهب ثم دخل ليأخذ أيضاً ، فلما أدخل رأسه سرة البيت فوجدوا رأسه في البيت واسته خارجه ، فألقوه للكلاب واصلحوا البيت .

(264/65)

وأخرج الأزرقي والطبراني عن حويطب بن عبد العزى قال : كنا جلوساً بفناء الكعبة في الجاهلية ، فجاءت امرأة إلى البيت تعوذ به من زوجها ، فجاء زوجها فمد يده إليها فيبست يده ، فلقد رأيته في الإسلام وإنه لأشل .

وأخرج الأزرقي عن ابن جريج قال : الحطيم ما بين الركن والمقام وزمزم والحجر ، وكان أساف ونائلة رجلاً وامرأة دخلا الكعبة فقبلها فيها فمسخا حجرين ، فأخرجا من الكعبة فنصب أحدهما في مكان زمزم ونصب الآخر في وجه الكعبة ليعتبر بهما الناس ويزدجروا عن مثل ما ارتكبا ، فسمي هذا الموضع الحطيم لأن الناس كانوا يحطمون هنالك

بالإيمان ويستجاب فيه الدعاء على الظالم المظلوم ، فقلّ من دعا هنالك على ظالم إلا هلك وقلّ من حلف هنالك آثماً إلا عجلت عليه العقوبة ، وكان ذلك يحجز بين الناس عن الظلم ويتهيب الناس الإيمان هنالك ، فلم يزل ذلك كذلك حتى جاء الله بالإسلام ، فأخر الله ذلك لما أراد إلى يوم القيامة .

وأخرج الأزرقي عن أيوب بن موسى . أن امرأة كانت في الجاهلية معها ابن عم لها صغير تكسب عليه ، فقالت له : يا بني إني أغيب عنك ، وإني أخاف عليك أن يظلمك ظالم ، فإن جاءك ظالم بعدي فإن لله بمكة بيتاً لا يشبهه شيء من البيوت ولا يقاربه مفاسد وعليه ثياب ، فإن ظلمك ظالم يوماً فعذبه فإن له رباً يسمعك .

قال : فجاءه رجل فذهب به فاسترقه ، فلما رأى الغلام البيت عرف الصفة فنزل يشتد حتى تعلق بالبيت ، وجاءه سيده فمد يده إليه ليأخذه فيبست يده ، فمد الأخرى فيبست ، فاستفتى في الجاهلية فافتي ينحر عن كل واحدة من يديه بدنة ، ففعل فانطلقت له يداه وترك الغلام وخلى سبيله .

(265/65)

وأخرج الأزرقي عن عبد المطلب بن ربيعة بن الحرث قال : غدا رجل من بني كنانة من هذيل في الجاهلية علي ابن عم له يظلمه واضطهده ، فناشده بالله والرحم فأبى إلا ظلمه ، فلحق بالحرم فقال : اللهم إني أدعوك دعاء جاهد مضطر على فلان ابن عمي لترمينه بداء لا دواء له . قال : ثم انصرف فوجد ابن عمه قد رمي في بطنه فصار مثل الزق ، فما زالت تنتفخ حتى اشتق ، قال عبد المطلب : فحدثت هذا الحديث ابن عباس فقال : أنا رأيت رجلاً دعا على ابن عم له بالعمى فرأيته يقاد أعمى .

وأخرج ابن أبي شيبة والبيهقي في شعب الإِيمان عن عمر بن الخطاب أنه قال : يا أهل مكة اتقوا الله في حرمكم هذا ، أتدرون من كان ساكن حرمكم هذا من قبلكم ؟ كان فيه بنو فلان فاحلوا حرمته فهلكوا ، وبنو فلان فاحلوا حرمته فهلكوا ، حتى عد ما شاء الله ثم قال : والله لأن أعمل عشر خطايا بغيره أحب إلي من أن أعمل واحدة بمكة .

وأخرج الجندي عن طاوس قال : إن أهل الجاهلية لم يكونوا يصيبون في الحرم شيئاً إلا عجل لهم ، ويوشك أن يرجع الأمر إلى ذلك .

وأخرج الأزرقي والجندي وابن خزيمة عن عمر بن الخطاب ، أنه قال لقريش : إنه كان ولاة هذا البيت قبلكم طسم ، فاستخفوا بحقه واستحلوا حرمته فأهلكهم الله ، ثم ولى بعدهم جرهم فاستخفوا بحقه واستحلوا حرمته فأهلكهم الله ، فلا تهاونوا به وعظموا حرمته .

وأخرج الأزرقي والجندي عن عمر بن الخطاب قال : لأن اخطىء سبعين خطيئة مزكية

أحب إلي من أن أخطىء خطيئة واحدة بمكة .

وأخرج الجندي عن مجاهد قال : تضعف بمكة السيئات كما تضعف الحسنات .

وأخرج الأزرقي عن ابن جريج قال : بلغني أن الخطيئة بمكة مائة خطيئة ، والحسنة على نحو ذلك .

(266/65)

وأخرج أبو بكر الواسطي في فضائل بيت المقدس عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال " إن مكة بلد عظمه الله وعظم حرمته ، خلق مكة وحفها بالملائكة قبل أن يخلق شيئاً من الأرض يومئذ كلها بألف عام ووصل المدينة ببيت المقدس ، ثم خلق الأرض كلها بعد ألف عام خلقاً واحداً " .

أما قوله تعالى : ﴿ وارزق أهله من الثمرات ﴾ .

أخرج الأزرقي عن محمد بن المنكدر عن النبي صلى الله عليه وسلم " لما وضع الله الحرم نقل له الطائف من فلسطين " .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن محمد بن مسلم الطائفي قال : بلغني أنه لما دعا إبراهيم للحرم ﴿ وارزق أهله من الثمرات ﴾ نقل الله الطائف من فلسطين .

وأخرج ابن أبي حاتم والأزرقي عن الزهري قال : إن الله نقل قرية من قرى الشام فوضعها بالطائف لدعوة إبراهيم عليه السلام .

وأخرج الأزرقي عن سعيد بن المسيب بن يسار قال : سمعت بعض ولد نافع بن جبير بن مطعم وغيره ؛ يذكرون أنهم سمعوا : أنه لما دعا إبراهيم بمكة أن يرزق أهله من الثمرات نقل الله أرض الطائف من الشام فوضعها هنالك رزقاً للحرم .

وأخرج الأزرقي عن محمد بن كعب القرظي قال : دعا إبراهيم للمؤمنين وترك الكفار لم يدع لهم بشيء فقال ﴿ ومن كفر فأمتعه قليلاً ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير ﴾ .

وأخرج سفيان بن عيينة عن مجاهد في قوله ﴿ وارزق أهله من الثمرات من آمن ﴾ قال : استرزق إبراهيم لمن آمن بالله واليوم الآخر قال الله : ومن كفر فأنا أرزقه .

وأخرج ابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس في قوله ﴿ من آمن منهم بالله ﴾ قال : كان إبراهيم احتجرها على المؤمنين دون الناس ، فأنزل الله ﴿ ومن كفر ﴾ أيضاً فأنا أرزقهم كما أرزق المؤمنين ، أخلق خلقاً لأرزقهم ﴿ أمتعهم قليلاً ثم اضطرهم إلى عذاب النار ﴾ ثم قرأ ابن عباس ﴿ كلاًّ نمد هؤلاء ﴾ [الإسراء : 20] الآية .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي العالية قال أبي بن كعب في قوله ﴿ ومن كفر ﴾ : إن هذا من قول الرب قال ﴿ ومن كفر فأمتعه قليلاً ﴾ وقال ابن عباس : هذا من قول إبراهيم يسأل ربه أن من كفر فامتعه قليلاً . قلت : كان ابن عباس يقرأ ﴿ فامتعه ﴾ بلفظ الأمر ، فلذلك قال هو من قول إبراهيم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 1 صـ 296 . 304 ﴾

(268/65)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدا آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (126) ﴾

يقول الحق سبحانه وتعالى : " وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا " . . وما دام الله قد جعل أمنا فما هي جدوى دعوة إبراهيم أن تكون مكة بلدا آمنا . . نقول إذا رأيت طلبا لموجود فاعلم أن القصد منه هو دوام بقاء ذلك الموجود . . فكأن إبراهيم يطلب من الله سبحانه

وتعالى أن يديم نعمة الأمن في البيت . . ذلك لأنك عندما تقرأ قول الحق تبارك وتعالى :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً بَعِيداً (136)

(سورة النساء)

هو خاطبهم بلفظ الإيمان ثم طلب منهم أن يؤمنوا . . كيف ؟ نقول إن الله سبحانه يأمرهم أن يستمروا ويداوموا على الإيمان . . ولذلك فإن كل مطلوب لموجود هو طلب لاستمرار هذا الموجود . وقول إبراهيم : " رب اجعل هذا بلدا آمنا " . . أي يا رب إذا كنت قد جعلت هذا البيت آمنا من قبل فأمنه حتى قيام الساعة . . ليكون كل من يدخل إليه آمنا لأنه موجود في واد غير ذي زرع . . وكانت الناس في الماضي تخاف أن تذهب إليه لعدم وجود الأمان في الطريق . . أو آمنا أي أن يديم الله على كل من يدخله نعمة الإيمان .

(269/65)

وقوله تعالى : " اجعل هذا بلدا آمنا " تكررت في آية أخرى تقول : " اجعل هذا البلد آمنا " . . فمرة جاء بها نكرة ومرة جاء بها معرفة . . نقول إن إبراهيم حين قال : " رب اجعل هذا البلد آمنا " . . طلب من الله شيئين . . أن يجعل هذا المكان بلدا وأن يجعله آمنا . ما

معنى أن يجعله بلدا ؟ هناك أسماء تؤخذ من المحسات . . فكلمة غصب تعني سلخ الجلد عن الشاة وكأن من يأخذ شيئا من إنسان غصبا كأنه يسلخه منه بينما هو متمسك به . كلمة بلد حين تسمعها تنصرف إلي المدينة . . والبلد هو البقة تنشأ في الجلد فتميزه عن باقي الجلد كأن تكون هناك بقعة بيضاء في الوجه أو الذراعين فتكون البقعة التي ظهرت مميزة ببياض اللون . . والمكان إذا لم يكن فيه مساكن ومبان فيكون مستويا بالأرض لا تستطيع أن تميزه بسهولة . . فإذا أقمت فيه مباني جعلت فيه علامة تميزه عن باقي الأرض المحيطة به . وقوله تعالى : " وارزق أهله من الثمرات " . . هذه من مستلزمات الأمن لأنه مادام هناك رزق وثمرات تكون مقومات الحياة موجودة فيبقى الناس في هذا البلد . . ولكن إبراهيم قال : " وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم " فكأنه طلب الرزق للمؤمنين وحدهم . . لماذا ؟ لأنه حينما قال له الله :

إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً

(من الآية 124 سورة البقرة)

قال إبراهيم :

وَمِن ذُرِّيَّتِي

(من الآية 124 سورة البقرة)

قال الله سبحانه :

لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ

(من الآية 124 سورة البقرة)

(270/65)

فخشى إبراهيم وهو يطلب لمن سيقيمون في مكة أن تكون استجابة الله سبحانه كالاستجابة السابقة . . كأن يقال له لا ينال رزق الله الظالمون فاستدرك إبراهيم وقال : " وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم " . . ولكن الله سبحانه أراد أن يلفت إبراهيم إلي أن عطاء الألوهية ليس كعطاء الربوبية . . فإمامة الناس عطاء الوهية لا يناله إلا المؤمن ، أما الرزق فهو عطاء ربوبية يناله المؤمن والكافر لأن الله هو الذي استدعانا جميعا إلي الحياة وكفل لنا جميعا رزقنا . . وكأن الحق سبحانه حين قال : " لا ينال عهدي الظالمين " . . كان يتحدث عن قيم المنهج التي لا تعطي إلا للمؤمن ولكن الرزق يعطي للمؤمن والكافر . . لذلك قال الله سبحانه : " ومن كفر " . . وفي هذا تصحيح مفاهيم بالنسبة لإبراهيم ليعرف أن كل من استدعاه الله تعالى للحياة له رزقه مؤمنا كان أو كافرا والخير في الدنيا على الشيوع . فمادام الله قد استدعاك فإنه ضمن لك رزقك .

إن الله لم يقل للشمس أشرقي على أرض المؤمن فقط ، ولم يقل للهواء لا يتنفسك ظالم وإنما

أعطى نعمة استبقاء الحياة واستمرارها لكل من خلق آمن أو كفر . . ولكن من كفر قال عنه الله سبحانه وتعالى : " ومن كفر فأمتعة قليلا" . . التمتع هو شيء يحبه الإنسان ويتمنى دوامه وتكراره . وقوله تعالى : " فأمتعه" دليل على دوام متعته ، أي له المتعة في الدنيا . ولكل نعمة متعة ، فالطعام له متعة والشراب له متعة والجنس له متعة . . إذن التمتع في الدنيا بأشياء متعددة . ولكن الله تبارك وتعالى وصفه بأنه قليل . . لأن المتعة في الدنيا مهما بلغت وتعددت ألوانها فهي قليلة .

(271/65)

واقرأ قوله تعالى : " ثم اضطره إلي عذاب النار" . . ومعنى أضطره أنه لا اختيار له في الآخرة ، فكأن الإنسان له اختيار في الحياة الدنيا يأخذ هذا ويترك هذا ولكن في الآخرة ليس له اختيار . . فلا يستطيع وهو من أهل النار مثلا أن يختار الجنة بل إن أعضاءه المسخرة لخدمته في الحياة الدنيا والتي يأمرها بالمعصية فتفعل ، لا ولاية له عليها في الآخرة وهذا معنى قوله سبحانه :

يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (24)

(سورة النور)

أي أن الجوارح التي كانت تطيع الكافر المعاصي في الدنيا لا تطيعه يوم القيامة ؛ فاللسان الذي كان ينطق كلمة الكفر والعياذ بالله يأتي يوم القيامة يشهد على صاحبه . . والقدم التي كانت تمشي إلي أماكن الخمر واللهو والفسوق تشهد على صاحبها ، واليد التي كانت تقتل وتسرق تشهد على صاحبها . وقوله : " اضطره" معناه أن الإنسان يفقد اختياره في الآخرة ثم ينتهي إلي النار وإلي العذاب الشديد مصداقا لقوله تعالى : " ثم اضطره إلي عذاب النار وبئس المصير" . . أي أن الله سبحانه وتعالى يحذر الكافرين بأن لهم النار والعذاب في الآخرة ليس على اختيار منهم ولكن وهم مقهورون . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ 581.585 ﴾

(272/65)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (126) ﴾

قوله : ﴿ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ] يجوز في " من " ثلاثة أوجه .

أحدها : أن تكون موصولة ، وفي محلّها وجهان :

أحدهما : أنها في محلّ نصب بفعل محذوف تقديره ، قال الله : وأرزق من كفر ، ويكون " فأمتعه " معطوفاً على هذا الفعل المقدر .

والثاني : [من الوجهين] : أن يكون في محلّ رفع بالابتداء ، و" فأمتعه " الخبر ، دخلت الفاء في الخبر تشبيهاً له بالشرط .

وسيأتي أن أبا البقاء يمنع هذا ، والرد عليه .

الثَّاني من الثلاثة الأوجه : أن تكون نكرة موصوفة ذكره أبو البقاء ، والحكم فيها ما تقدّم من كونها في محلّ نصب أو رفع .

الثالث : أن تكون شرطية ، ومحلّها الرفع على الابتداء فقط ، و" فَأُمَتِّعُهُ " جواب الشرط .

ولا يجوز في " من " في جميع وجوهها أن تكون منصوبةً على الاشتغال .

أما إذا كانت شرطاً فظاهر لأن الشرطية إنما يفسر عاملها فعل الشرط لا الجزاء ، وفعل الشرط عنا غير ناصب لضميرها بل رافعة .

وأما إذا كانت موصولة فلأن الخبر الذي هو " فأمتعه " شبيه بالجزاء ، وذلك دخلته الفاء ، فكما أن الجمزاء لا يفسر عاملاً فما أشبهه أولى بذلك ، وكذا إذا كانت موصوفة فإن

الصفة لا تفسر .

وقال أبو البقاء : لا يجوز أن تكون " من " مبتدأ ، و" فأمتعه " الخبر ؛ لأن " الذي " لا تدخل " الفاء " في خبرها إلا إذا كان الخبر مستحقاً بالصلة نحو : الذي يأتينين فله درهم ، والكُفْر لا يستحقّ به التمتع .

فإن جعلت الفاء زائدة على قوله الأخفش جاز ، أو جعلت الخبر محذوفاً ، و" فامتعه " دليلاً عليه جاز تقديرهك ومن كفر أرزقه فأمتعه .

(273/65)

ويجوز أن تكون " من " شرطية ، والفاء جوابها .

وقيل : الجواب محذوف تقديره : ومن كفر أرزق ، و" من " على هذا رفع بالابتداء ، ولا يجوز أن تكون منصوبة ؛ لأن أدوات الشرط لا يعمل فيها جوابها ، بل فعل الشرط انتهى .

أما قوله : " لأن الكفر لا يستحقّ به التمتّع " فليس بمسلّم ، بل التمتُّع القليل والمصير إلى النار مستحقَّان بالكفر .

وأيضاً فإن التمتُّع وإن سلّمنا أنه ليس مستحقّاً بالكفر ؛ ولكن قد عطف عليه ما هو مستحقّ به ، وهو المصير إلى النار ، فناسب ذلك أن يقعا جميعاً خبراً .

وأيضاً فقد ناقض كلامه ؛ لأنه جوز فيها أن تكون شرطية ، وهل الجزاء إلاَّ مستحق بالشرط ، ومترتب عليه ؟ فكذلك الخبر المشبه به .

وأما تجويزه زيادة الفاء ، وحذف الخبر ، أو جواب الشرط فأوجه بعيدة لا حاجة إليها .

وقرئ " أُمْتِعُهُ " مخففاً من أمتع يمتع ، وهي قراءة ابن عامر رضي الله عنه ، و " فأمتعه " بسكون العين ، وفيها وجهان :

أحدهما : أنه تخفيف كقوله : [السريع]

784 فَاليَوْمَ أَشْرَبْ غَيْرَ

مُسْتَحْقِبِ . . . . . .

والثاني : أن " الفاء " زائدة وهو جواب الشرط ؛ فلذلك جزم بالسكون ، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد " فَأَمْتِعْهُ ثُمَّ اضْطَرَه " على صيغة الأمر فيهما ، ووجهها أن يكون الضمير في " قال " لإبراهيم يعني سأل ربه ذلك و " من " على هذه القراءة يجوز أن تكون مبتدأ ، وأن تكون منصوبة على الاشتغال بإضمار فعل سواء جعلتها موصولة أو شرطية ، إلا أنك إذا جعلتها شرطية قدرت الناصب لها متأخراً عنها ؛ لأن أداة الشرط لها صدر الكلام .

وقال الزمخشري : " وَمَنْ كَفَرَ " عطف على " من آمن " كما عطف " ومن ذرّيتي " على الكاف في " جاعلك " قال أبو حيان : أما عطف " من كفر " على " من آمن " فلا يصح ؛ لأنه يتنافى تركيب الكلام ؛ لأنه يصير المعنى : قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام وأرزق من كفر ؛ لأنه لا يكون معطوفاً عليه حتى يشركه في العامل .

" من آمن " العامل فيه فعل الأمر ، وهو العامل في " ومن كفر " ، وإذا قدرته أمراً تنافى مع قوله : " فأمتعه " ؛ لأن ظاهر هذا إخبار من الله تعالى بنسبة التمتع ، وإلجائهم إليه تعالى وأن كلاًّ من الفعلين تضمَّن ضميراً ، وذلك لا يجوز إلاَّ على بعد بأن يكون بعد الفاء قول محذوف فيه ضمير لله تعالى ، أيك قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام : وارزق من كفر ، فقال الله : أمتعه قليلاً ثم أَصطره ، ثم ناقض الزمخشري قوله هذا أنه عطف على " من " كما عطف " ومن ذريتي " على الكاف في " جاعلك " .

فقال : فإن قلت لم خص إبراهيم بذلك المؤمنين حتى رد عليه ؟

فالجواب : قاس الرزق على الإمامة ، فعرف الفرق بينهما بأن الإمامة لا تكون للظالم ، وأما الرزق فربما يكون استدراجاً .

والمعنى : قال : " وارزق من كفر فأمتعه " فظاهر قوله " والمعنى قال " أن الضمير في " قال " لله تعالى ، وأن " من كفر " منصوب بالفعل المضارع المسند إلى ضمير المتكلم .

و" قليلاً " نعت لمصدر محذوف أو زمان ، وقد تقدم له نظاره واختبار سيبويه فيه .

وقرأ الجمهور : " أَضْطَرُّهُ " خبراً .

وقرأ يحيى بن وثاب بكسر الهمزة ، ووجهها كسر حرف المضارعة كقولهم في أخال : إِخَال .

(275/65)

وقرأ ابن محيصن " أَطَّرَه " بإدغام الضاد في الطاء ، [نحو] : اطَّجع في اضطجع وهي مَزْذولة ؛ لأن الضاد من الحروف الخمسة التي يدغم فيها ، ولا تدغم هي في غيرها وهي حروف : ضغم شقر ، نحو : اطجع في اضطجع ، قاله الزمخشري وفيه نظر ؛ فإن هذه الحروف أدغمت في غيرها ، أدغم أبو عمرو الدّاني اللام في ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ [نوح : 4] والضاد في الشين : ﴿ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ ﴾ [النور : 62] والشين في السين : ﴿ العرش سَبِيلاً ﴾ [الإسراء : 42] .

وأدغم الكسائي الفاء في الباء : ﴿ نَخْسِفْ بِهِمُ ﴾ [سبأ : 9] .

وحكى سيبويه رحمه الله تعالى أن " مْضَّجَعًا " أكثر ، فدلّ على أن " مطّجعاً " كثيرٌ .

وقرأ يزيد بن أبي حبيب : " أَضطُرُّهُ " بضم الطاء كأنه للإتباع .

وقرأ أبي : " فَنُمَتِّعُهُ ثُمَّ نَضْطَرُّهُ " بالنون .

واضطر افتعل من الضَّرِّ ، وأصله : اضْتَرَّ ، فأبدلت التاء طاء ؛ لأن تاء الافتعال تبدل طاء بعد حروف الإطباق وهو متعدّ ، عليه جاء التنزيل ؛ وقال : [البسيط]

785 إِضْطَرَّكَ الْحِرْزُ مِنْ سَلْمَى إِلَى أَجَإٍ . . . . . .

والاضطرار : الإلجاء والإلزاز إلى الأمر المكوره .

قوله : " أُمَتِّعُهُ " قيل : بالرزق .

وقيل : بالبقاء في الدنيا .

وقيل : بهما إلى الخروج محمد صلى الله عليه وسلم فيقتله أو يخرجهُ من هذه الديار إن قام على الكُفْر ، [وقيد المتاع بالقلّة] ؛ لأن متاع الدنيا قليلٌ بالنسبة إلى متاع الآخرة المؤبد .

قوله : " وَبِئْسَ الْمَصِيرُ " المصير فاعل ، والمخصوص بالذم محذوف ، أي : النار ومصير : مفعل من صار يصير ، وهو صالح للزمان والمكان .

وأما المصدر فيقاسه الفتح ؛ لأن ما كسر عين مضارعه ، فقياس ظرفية الكسر ومصدره الفتح ، ولكن النحويين اختلفوا فيما كانت عينه ياء على ثلاثة مذاهب .

أحدها : كالصحيح [وقد تقدم] .

والثاني : أنه مخير فيه .

والثالث : أن يتبع المسموع فما سمع بالكسر أو الفتح لا يتعدّى ، فإن كان " المصير في الآية اسم مكان فهو قياسي اتفاقاً ، والتقدير : وبئس المصير النّار كما تقدم ، وإن كان مصدراً على رأي من أجازه فالتقدير : وبئس الصيرورة صيرورتهم إلى النّار . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 2 صـ 473 ـ 477 ﴾ . بتصرف .

(277/65)

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (124) وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (125) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (126) ﴾

التفسير : إنه تعالى لما استقصى في شرح نعمه على بني إسرائيل والمشركين ومقابلتهم النعمة بالكفران والعناد ، شرع في نوع آخر من البيان وهو ذكر قصة إبراهيم عليه السلام لأن كلهم معترفون بفضله وأنهم من أولاده ومن ساكني حرمه وخدام بيته ، وفي قصته أمور توجب

(278/65)

الاعتراف بدين محمد صلى الله عليه وسلم والانقياد لشرعه منها : أنه أمر ببعض التكاليف ثم وفى بها فنال منصب الاقتداء به ، فيعلم أن الخيرات كلها لا تحصل إلا بترك التمرد والانقياد لحكم الله والتزام تكاليفه ، ومنها أنه طلب الإمامة لذريته فقيل له ﴿ لا ينال عهدي الظالمين ﴾ فيعرف أن طالب الحق يجب أن يترك التعصب والمراء ووضع ما رفعه الله لينال رياسة الدارين ، ومنها أن القبلة لما حولت إلى الكعبة شق ذلك على اليهود فأريد إزالة غيظهم بأن هذا البيت قبلة إبراهيم الذي اعترفوا بتعظيمه والاقتداء به ، ومنها أنه دعا بإرسال نبي من ذريته وهو محمد صلى الله عليه وسلم كما يجيء فيجب على من يعترف بإبراهيم أن يعترف بمحمد صلى الله عليه وسلم . أما قوله ﴿ وإذ ابتلى ﴾ العامل في " إذ " إما مضمر نحو " واذكر " وتكون بمعنى الوقت فقط ، أو وإذ ابتلى كان كيت وكيت

، وإما ﴿ قال إني جاعلك للناس إماماً ﴾ وعلى هذين التقديرين تكون ظرفاً لكان أو قال

.

(279/65)

وموقع " قال " على الأولين استئناف كأنه قيل : فماذا قال له ربه حين أتم الكلمات ؟ فأجيب ﴿ قال إني جاعلك ﴾ وعلى الثاني جملة معطوفة على ما قبلها من الآيات ولا يخفى أن الاستئناف أصوب ليناسب سياق الجملتين الآتيتين لورودهما أيضاً على طريقة السؤال المقدر والجواب ، وليكون على منهاج ﴿ وإذا جعلنا ﴾ ﴿ وإذا قال إبراهيم ﴾ ﴿ وإذ يرفع ﴾ [البقرة : 127] والابتلاء الاختبار والامتحان ، عبر تكليفه إياه بالبلوى تشبيهاً لأمره بأمر المخلوقين وبناء على العرف بيننا ، فإن كثيراً منا قد يأمر ليعرف ما يكون من المأمور حينئذ وإلا فكيف يجوز حقيقة الابتلاء عليه تعالى مع أنه عالم بجميع المعلومات التي لا نهاية لها على سبيل التفصيل من الأزل إلى الأبد وقيل : مجاز عن تمكينه العبد من اختيار أحد الأمرين ما يريد الله وما يشتهيه هو كأنه يمتحنه ما يكون منه حتى يجازيه على حسب ذلك . واعلم أن هشام بن الحكم ومن تابعه زعم أنه تعالى كان في الأزل عالماً بحقائق الأشياء وماهياتها فقط ، وأما حدوث تلك الماهيات ودخولها في الوجود فهو

تعالى لا يعلمها إلا عند وقوعها بدليل هذه الآية وأمثالها المذكور فيها الابتلاء . وكلمة " لعل " والجواب عنها ما مر ، وقد يستدل أيضاً على مذهبه بوجوه معقولة منها أنه تعالى لو كان عالماً بالأشياء قبل وقوعها لزم نفي القدرة عن الخالق ، لأن ما علم الله وقوعه استحال أن لا يقع ، وما علم أنه لا يقع استحال أن يقع ولا قدرة على الواجب وعلى الممتنع بالاتفاق ، والجواب أن الوجوب بالغير وكذا الامتناع بالغير لا ينافيان قدرة القادر عليه ، وإنما المنافي للقدرة عليه كونه واجباً لذاته أو ممتنعاً لذاته ، ومنها أنه لو كان عالماً بجميع الجزئيات لكان له علوم غير متناهية أو كان لعلمه تعلقات غير متناهية ، فيلزم حصول موجودات غير متناهية دفعة واحدة وذلك محال ، لأن مجموع تلك الأشياء أزيد من ذلك المجموع بعينه عند نقصان عشرة منها

(280/65)

، فالناقص متناه وكذا الزائد . ونوقض بمراتب الأعداد التي لا نهاية لها ، وأيضاً المجموعية والزيادة والنقصان كلها من خواص المتناهي ، فأما الذي لا نهاية له ففرض هذه الأعراض فيه محال . ومنها أن هذه المعلومات التي لا نهاية لها هل يعلم الله عددها مفصلة أو لا يعلم ؟ فإن علم عددها فهي متناهية ، وإن لم يعلم فهو المطلوب . والجواب الاختيار أنه لا يعلم

عددها ، ولا يلزم الجهل لأن الجهل هو أن يكون لها عدد معين ثم إن الله لا يعلم عددها ، فأما إذا لم يكن لها عدد في نفسها فلا جهل ومنها أن كل معلوم فهو متميز في الذهن عما عداه ، وكل متميز عما عداه خارج عنه ، وكل ما خرج عنه غيره فهو متناه ، وكل معلوم متناه فما هو غير متناه استحال أن يكون معلوماً .

(281/65)

والجواب أنه ليس من شرط المعلوم تميزه من غيره عند العالم ، لأن العلم بتميزه عن غيره موقوف على العلم بذلك الغير ، ويلزم منه أن لا يعلم الإنسان شيئاً إلا إذا علم أموراً لا نهاية لها . والحق أن نور الأنوار لا يتناهى ووراء لا يتناهى ، ما لا يتناهى ، وإحاطة غير المتناهي بغير المتناهي غير بعيد وقد يتعلق علمنا بكثير من الأشياء قبل حصولها ، فإذا كان علمنا مع تناهي قوتنا ونوريتنا . هكذا فما ظنك بالعليم الخبير الذي هو نور النور ومدبر الأمور وكل عسير عليه يسير ؟ ﴿ إبراهيم ﴾ بالنصب ﴿ ربه ﴾ بالرفع هو المشهور وهذه الصورة مما يجب فيه تأخير الفاعل وإزالته عن مركزه الأصلي ، فإنه لو قدم الفاعل وقد اتصل به ضمير المفعول لزم الإضمار قبل الذكر لفظاً ، وعن ابن عباس وأبي حنيفة رفع ﴿ إبراهيم ﴾ ونصب ﴿ ربه ﴾ فالمعنى أنه دعاه بكلمات من الدعاء فعل

المختبر هل يجيب الله تعالى إليهن أم لا ؟ واختلف المفسرون في أن ظاهر لفظ التنزيل هل يدل على تلك الكلمات أم لا ؟ فقال بعضهم : اللفظ يدل عليها وهي الإمامة وتطهير البيت ورفع قواعده والدعاء بابتعاث محمد صلى الله عليه وسلم ، فكل هذه تكاليف شاقة ، أما الإمامة فلأن المراد بها النبوة ، وأعباؤها أكثر من أن تحصى ، ولهذا فإن ثواب النبي أعظم من ثواب غيره ، وأما بناء البيت وتطهيره ورفع قواعده ، فمن وقف على ما روي في كيفية بنائه عرف شدة البلوى فيه . ثم إنه يتضمن إقامة المناسك ، وقد امتحن الله الخليل بالشيطان في الموقف كرمي الجمار وغيره . وأما الاشتغال بالدعاء ببعث نبي آخر الزمان فيحتاج فيه إلى الإخلاص وإزالة الحسد عن القلب وذلك في غاية الصعوبة . واعترض على هذا القول بأن المراد من الكلمات لو كانت هذه لناسب أن يذكر قوله ﴿ فأتمهن ﴾ بعد تعداد الجميع . وأجيب بأنه أخبر أنه ابتلاه بكلمات على الإجمال ثم أخبر أنه أتمها ثم فصل تلك الأمور ، وهذا ترتيب في غاية الحسن ، إذ لو ذكر ﴿ فأتمهن ﴾

(282/65)

بعد هذا التفصيل لوقع ضائعاً ولانقطع النظم . والقائلون بأن ظاهر الآية لا دلالة فيه على الكلمات زعم بعضهم أنها الكلمات التي تكلم بها إبراهيم مع قومه وقت تبليغ الرسالة ،

وزعم بعضهم أنها أوامر ونواهٍ . فعن ابن عباس هي عشر خصال كانت فريضة في شرعه وهي عندنا سنة : خمس في الرأس : المضمضة والاستنشاق وفرق الرأس وقص الشارب والسواك ، وخمس في الجسد : الختان وحلق العانة ونتف الإبط وتقليم الأظفار والاستنجاء بالماء .

(283/65)

وقيل : ابتلاه الله تعالى من شرائع الإسلام بثلاثين سهماً ، عشرة في براءة ﴿ التائبون العابدون ﴾ [التوبة : 112] الآية وعشرة في الأحزاب ﴿ إن المسلمين والمسلمات ﴾ [الأحزاب : 35] وعشرة في " المؤمنين " " وسأل سائل " إلى قوله ﴿ والذين هم على صلاتهم يحافظون ﴾ [المعارج : 34] وقيل : هن مناسك الحج كالطواف والسعي والرمي والإحرام والوقوف بعرفة . وقيل : ابتلاه بسبعة أشياء : بالكواكب والقمر والشمس والختان على الكبر والنار وذبح الولد والهجرة ، فوفى بالكل ﴿ وإبراهيم الذي وفى ﴾ [النجم : 34] وقيل : ما ذكره في قوله ﴿ إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين ﴾ [البقرة : 131] وقيل : المناظرات التي جرت بينه وبين أبيه ونمروذ وقومه ، والصلاة والزكاة والصوم ، وقسم الغنائم والضيافة والصبر عليها . وجملة القول أن الابتلاء

بتناول إلزام كل ما في فعله كلفة ، واللفظ يتناول مجموع هذه الأشياء وكلاً منها إلا أن الكلام في الرواية ، ثم قيل : إن هذا الابتلاء كان قبل النبوة لأنه تعالى نبه على أن قيامه بهن كالسبب لأن جعله إماماً . وقيل : إنه بعد النبوة لأنه لم يعلم كونه مكلفاً بتلك التكاليف إلا من الوحي . والحق أن هذا يختلف باختلاف تفسير التكاليف ، فمنها ما يعلم بالضرورة كونها قبل النبوة كحديث الكوكب والشمس والقمر ، ومنها ما ثبت أنه كان بعد النبوة كذبح الولد والهجرة والنار ، وكذا الختان فإنه يروى أنه ختن نفسه وكان سنه مائة وعشرين ، ومنها ما هو بصدد الاحتمال فقد يمكن أن يكون إلى معرفته سبيل سوى الوحي كمنام أو إلهام .

والضمير في " أتمهن " على القراءة المشهورة لإبراهيم عليه السلام بمعنى فقام بهن حق القيام وأداهن أحسن التأدية من غير تفريط وتوانٍ وفي الأخرى لله تعالى أي فأعطاه ما طلبه ولم ينقص منه شيئاً ، ويعضده ما روي عن مقاتل أنه فسر الكلمات بما سأل إبراهيم ربه في قوله ﴿ رب اجعل هذا بلداً آمناً ﴾ ﴿ واجعلنا

مسلمين لك ﴾ [البقرة : 128] ﴿ وابعث فيهم رسولاً ﴾ [البقرة : 129] ﴿ ربنا تقبل منا ﴾ [البقرة : 127] والإمام اسم لمن يؤتم به " فعال " بمعنى " مفعول " كالإزار لما

يؤتزر به أي يأتمون بك في دينهم . والأكثرون على أن الإمام ههنا النبي لأنه جعله إماماً لكل الناس ، فلو لم يكن مستقلاً بشرع كان تابعاً لرسول ويبطل العموم ولأن إطلاق الإمام يدل على أنه إمام في كل شيء ، والذي يكون كذلك لا بد أن يكون نبياً ، ولأن الله تعالى سماه بهذا الاسم في معرض الامتنان فينبغي أن يحمل على أجلّ مراتب الإمامة كقوله ﴿ وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا ﴾ [السجدة : 24] لا على من هو دونه ممن يستحق الاقتداء به في الدين كالخليفة والقاضي والفقيه وإمام الصلاة ، ولقد أنجز الله تعالى هذا الوعد فعظمه في عيون أهل الأديان كلها ، وقد اقتدى به من بعده من الأنبياء في أصول مللهم ﴿ ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً ﴾

(285/65)

[النحل : 123] وكفى به فضلاً أن جميع أمة محمد صلى الله عليه وسلم يقولون في صلاتهم " اللهم صل على محمد وآل محمد كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم " ثم القائلون بأن الإمام لا يصير إماماً إلا بالنص تمسكوا بهذه الآية وأمثالها من نحو ﴿ إني جاعل في الأرض خليفة ﴾ [البقرة : 30] ﴿ يا داود إنا جعلناك خليفة ﴾ [ص : 26] ومنع بأن الإمام يراد به ههنا النبي سلمنا أن المراد به مطلق الإمام لكن الآية تدل على أن النص

طريق الإمامة وذلك لا نزاع فيه ، إنما النزاع في أنه لا طريق للإمامة سوى النص ، ولا دلالة في الآية على ذلك وفي الآية دليل على أنه صلى الله عليه وسلم كان معصوماً عن جميع الذنوب ، لأنه لو صدرت عنه معصية لوجب علينا الاقتداء به وذلك يؤدي إلى كون الفعل الواحد ممنوعاً منه مندوباً إليه وذلك محال . والذرية نسل الثقلين من ذرأ الله الخلق ذرأ خلقهم إلا أن العرب تركت همزها كما في البرية ، ويحتمل أن يكون منسوباً إلى الذر صغار النمل ، والضم من تغيير النسب كالدهري في النسبة إلى دهر ﴿ ومن ذريتي ﴾ عطف على الكاف كأنه قال : وجاعل بعض ذريتي كما يقال " سأكرمك فتقول وزيداً " ولا يخفى أن " من " التبعيضية تدل على أنه طلب الإمامة لبعض ذريته لعلمه بأن كلهم قد لا يليق بذلك لأن ناساً غير محصورين لا يخلو من ظالم فيهم غالباً ، ولعلمه بأن بعضهم يليق بها كإسماعيل وإسحق . وقد حقق الله تعالى أمله فجعل في أولاده وأحفاده كإسماعيل وإسحق ويعقوب ويوسف وموسى وهارون وداود وسليمان وأيوب ويونس وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس ثم محمد صلى الله عليه وسلم أفضلهم وأشرفهم ، ولأنه لم يطلب الإمامة إلا للبعض فكان يكفي في الجواب نعم إلا أنه لم يكن حينئذ نصاً في أن ذلك البعض من المؤمنين أم من الظالمين . ولو قال " ينال عهدي المؤمنين " كان غاية ذلك خروج الظالمين بالمفهوم لا بالنص ، فلمكان التنصيص على إخراج الظالم قال ﴿ لا ينال عهدي

الظالمين ﴾ والمراد بالعهد هو الإمامة المطلوبة ، سميت عهداً لاشتمالها على كل عهد عهد به الله تعالى إلى بنى آدم إذ لا رياسة أعظم من ذلك كقوله ﴿ ولقد عهدنا إلى آدم من قبل ﴾ [طه : 115] ﴿ وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ﴾ [الأحزاب : 7] وإذا خرج الظالم تعين الصالح للإمامة بطريق برهاني . وذلك أن دعاءه مستجاب ألبتة فكل نبي مجاب ، ولأنه لو لم يكن الصالح إماماً لم يكن لإخراج الظالم وتخصيصه بالذكر معنى . ويحتمل أن يقال : إنه أراد الإمامة لأولاده المؤمنين لا محالة لعلمه بأن الكفرة والظلمة لا تصلح لذلك ، فأجيب بما أجيب إسعافاً لطلبته بأبلغ معنى وأتمه كما إذا قيل لمن أشرف " أوص لابنك بشيء " فيقول : لا يرث مني أجنبي أي كل ما يبقى مني فهو لابني ، فكيف أوصي له بشيء ؟ ولا يرد أن يونس نال عهده مع أنه ظالم

(287/65)

﴿ سبحانك إني كنت من الظالمين ﴾ [الأنبياء : 87] لأن الظلم فيه محمول على ترك الأولى كما في حق آدم ﴿ ربنا ظلمنا أنفسنا ﴾ [الأعراف : 23] لا على الكفر والفسق . وقد يستدل الإمامية على إبطال غير إمامة علي كرم الله وجهه قالوا : إنهم كانوا مشركين

قبل الإسلام بالاتفاق ، وكل مشرك ظالم ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ [لقمان : 13] وكل ظالم فإنه لا ينال عهد الإمامة قالوا : لا يقال إنهم كانوا ظالمين حال كفرهم ، فبعد زوال الكفر لا يبقى هذا الاسم لأنا نقول : الظالم من ثبت له الظلم ، وهذا المعنى صادق عليه دائماً ولهذا يسمى النائم مؤمناً لأنه ثبت له الإيمان وإن لم يكن التصديق حاصلاً حال النوم ، وأيضاً المتكلم والماشي حقيقة في مفهومهما مع أن أجزاء التكلم والمشي لا توجد دفعة ، فدل هذا على أن حصول المشتق منه ليس شرطاً لكون الاسم المشتق حقيقة . وعورض بأنه لو حلف لا يسلم على كافر فسلم على إنسان مؤمن في الحال إلا أنه كان كافراً قبل بسنين متطاولة فإنه لا يحنث ، وبأن التائب عن المعصية لا يسمى عاصياً فكذا التائب عن الكفر ، وإن قيل : لعل هذا المانع شرعي هو تعظيم الصحابة أو لمانع عرفي فهذا القدر يكفينا على أنا بينا أن المراد من الإمامة في الآية النبوة ، فمن كفر بالله طرفة عين فإنه لا يصلح للنبوة وكذا الفاسق حال الفسق لا يجوز عقد الإمامة له باتفاق الجمهور من الفقهاء والمتكلمين ، فإن كل عاصٍ ظالم . والعبرة بالعدالة الظاهرة فنحن نحكم بالظاهر والله يتولى السرائر خلافاً للشيعة فإنهم يقولون بوجوب العصمة ظاهراً وباطناً ، ومما يدل على بطلان إمامة الفاسق أن العهد في كتاب الله تعالى قد يستعمل بمعنى الأمر ﴿ ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان ﴾ [يس : 60] أي ألم آمركم ؟ لكن المراد في الآية لا يمكن أن يكون ذلك

فإن أوامره تعالى لازمة للظالمين كما للمطيعين ، فثبت أن المراد كونهم غير مؤتمنين على أوامر الله

(288/65)

وغير مقتدى بهم فيها قال صلى الله عليه وسلم " لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق " فالفاسق لا ينبغي أن يكون حاكماً ولا تنفذ أحكامه إذا ولي الحكم ، ولا تقبل شهادته ولا خبره إذا أخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا فتياه إذا أفتى ، ولا يقدم للصلاة وإن كان بحيث لو اقتدى به لم تفسد صلاته . قال أبو بكر الرازي : ومن الناس من يظن أن مذهب أبي حنيفة أنه يجوز كون الفاسق إماماً وخليفة ولا يجوز كون الفاسق قاضياً ، وهذا خطأ عظيم . نعم أنه قال : القاضي إذا كان عدلاً في نفسه وتولى القضاء من إمام جائر فإن أحكامه نافذة والصلاة خلفه جائزة ، لأن الذي ولاه بمنزلة سائر أعوانه .

(289/65)

وليس من شرط أعوان القاضي أن يكون عدولاً ، ألا ترى أن أهل بلد لا سلطان عليهم لو اجتمعوا على الرضا بتولية رجل عدل منهم القضاء حتى يكونوا أعواناً له على من امتنع من قبول أحكامه كان قضاؤه نافذاً وإن لم يكن له ولاية من جهة إمام ولا سلطان ؟ قال : وكيف يجوز أن يدعي ذلك على أبي حنيفة وقد أكرهه ابن هبيرة في أيام بني أمية على قضائه وضربه فامتنع من ذلك فحبس فلج ابن هبيرة وجعل يضربه كل يوم أسواطاً ، فلما خيف عليه قال له الفقهاء : اقبل له شيئاً من عمله أي شيء كان حتى يزول عنك الضرب ، فتولى له عد أحمال التبن التي تدخل عليه فخلاه ثم دعاه المنصور إلى مثل ذلك حتى عد له اللبن الذي كان يضرب لسور المدينة ، وذلك أنه كان يقول في المنصور وأشياعه : لو أرادوا بناء مسجد وأرادوني على عد آجره لما فعلت ، وقصته في أمر زيد بن علي مشهورة ، وحمله المال إليه وفتياه الناس سراً في وجوب نصرته والقتال معه ، وكذلك أمره مع محمد وإبراهيم ابني عبد الله بن الحسن . وفي الآية إنذار بليغ وتخويف شديد عن وخامة عاقبة الظلم وقبح موقعه فإنه يحط أولاً عن رتبة النبوة ﴿ لا ينال عهدي الظالمين ﴾ وثانياً عن درجة الولاية ﴿ ألا لعنة الله على الظالمين ﴾ [هود : 18] وثالثاً عن مرتبة السلطنة " بيت الظالم خراب ولو بعد حين " ، ورابعاً عن نظر الخلائق " جبلت القلوب على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها " وخامساً عن حظ نفسه ﴿ وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ [البقرة : 57] ولله در القائل :

لا تظلمن إذا ما كنت مقتدراً . . . فالظلم آخره يأتيك بالندم

نامت عيونك والمظلوم منتبه . . . يدعو عليك وعين الله لم تنم

ولآخر :

مرتع ظلم الورى وخيم . . . يا صاحب اللب والحجاره

لا تظلم الناس واخش ناراً . . . وقودها الناس والحجاره

غيره :

أيحسب الظالم في ظلمه . . . أهمله القادر أم أمهلا

ما أهملوا بل لهم موعد . . . لن يجدوا من دونه موئلا

غيره :

(290/65)

أتلعب بالدعاء وتزدريه . . . وما يدريك ما صنع الدعاء

سهام الليل لا تخطي ولكن . . . لها أمد وللأمد انقضاء

واعلم أن عهد الله الذي أخذ على عباده هو بالحقيقة عهد العبودية ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ [الذاريات : 56] والعهد الذي التزمه لعباده هو عهد الربوبية ﴿

ربكم ورب آبائكم الأولين ﴾ [الشعراء : 26] ثم إنه تعالى لا يزال يلاحظك بنظر الربوبية فيربيك ويربيك وبعد نعمة الوجود يعطيك نعم الصحة المكنة والعافية والسلامة والإيمان والأمان والإخوان والأخدان ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾ [إبراهيم : 34] وأنك لا تنفك عن تقصير ونسيان وجهل وعدوان وإيذاء لملائكة الله وعبيده وإرضاء لحزب الشيطان وجنوده .

فيا أيها المغرور ما هذا التقصير فإن لله المصير وما للظالمين من نصير .

(291/65)

قوله ﴿ وإذ جعلنا البيت ﴾ تقرير تكليف آخر . والبيت اسم غالب للكعبة كالنجم للثريا وهذا من الأسماء التي كانت في الأصل للجنس ، ثم كثر استعماله في واحد من ذلك الجنس لخصلة مختصة به من بين سائر الأفراد حتى صار علماً له . ولا بد أن يكون وقت استعماله لذلك الواحد قبل العلمية مع لام العهد ليفيد الاختصاص به ويسمى بالعلم الاتفاقي ، وإنما لزمت اللام في مثله لأنه لم يصر علماً إلا مع اللام فصارت كبعض حروفه ، إلا أنه تعالى لم يرد بالبيت نفس الكعبة فقط بل جميع الحرم لأن حكم الأمن يشمل الكل . وصح هذا الإطلاق لأن الحرمة نشأت بسبب الكعبة نفسها ومثله قوله تعالى ﴿ هدياً بالغ الكعبة

﴾ [المائدة : 95] والمراد الحرم كله لأنه لا يذبح في الكعبة ولا في المسجد الحرام . وقوله ﴿ فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ﴾ [التوبة : 28] والمراد – والله أعلم – منعهم من الحج وحضور مواضع النسك ، ويحتمل أن يكون المراد جعلنا البيت سبب الأمن ، وعلى هذا يكون البيت نفس الكعبة ، وعلى الأول يكون معنى ﴿ أمناً ﴾ موضع أمن كقوله ﴿ حرماً آمناً ﴾ [القصص : 57] والمثابة المباءة والمرجع قيل : إن مثاباً ومثابة لغتان مثل مقام ومقامة . وقيل : التاء للمبالغة كعلامة . عن الحسن : أي يثوبون إليه في كل عام . وعن ابن عباس ومجاهد : لا ينصرف عنه أحد إلا وهو يتمنى العود إليه وذلك لدعاء إبراهيم عليه السلام ﴿ فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم ﴾ [إبراهيم : 37] وقيل : مثابة أي يحجون فيثابون عليه . وكون البيت مثابة إنما يكون بجعل الله تعالى بناء على أن فعل العبد مخلوق لله ، أو بأن الله تعالى ألقى تعظيمه في القلوب ليصير ذلك داعياً لهم إلى العود إليه مرة بعد أخرى وذلك لمنافع دينية ودنيوية ، قال صلى الله عليه وسلم " من حج لله فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه " وقال : " العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما والحج المبرور ليس له جزاء إلا

الجنة " ثم إن قطان الخافقين يجتمعون هناك للتجارات وضروب المكاسب فيعظم فيه النفع لمن أراد ولا شك أن قوله ﴿ وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً ﴾ [البقرة : 125] خبر فتارة تتركه على ظاهره وتقول إنه خبر بأن يكون ﴿ حرماً آمناً يجبى إليه ثمرات كل شيء ﴾ [القصص : 57] لا أن يكون إخباراً عن عدم وقوع القتل فيه أصلاً ، فإن الموجود بخلافه فقد يقع القتل الحرام وكذا المباح قال تعالى ﴿ ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم ﴾ [البقرة : 191] وتارة تصرفه عن ظاهره وتقول . إنه أمر بأن يجعلوا ذلك الموضع أمناً من الغارة والقتل قال صلى الله عليه وسلم

(293/65)

" إن الله حرم مكة وإنها لم تحل لأحد قبلي وإنما أحلت لي ساعة من نهار " وقد عادت حرمتها كما كانت ، فذهب الشافعي إلى أن المعنى أنها لم تحل لأحد أن ينصب الحرب عليها وأن ذلك أحل لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأما من دخل البيت من الذين وجبت عليهم الحدود فقال الشافعي : إن الإمام يأمر بالضيق عليه بما يؤدي إلى خروجه ، فإذا خرج أقيم عليه الحد في الحل ، فإن لم يخرج جاز قتله فيه ، وكذلك من قاتل في الحرم

جاز قتاله فيه . وعند أبي حنيفة لا يستوفى قصاص النفس في الحرم إلا أن ينشئ القتل فيه ، ولكن يضيق الأمر عليه ولا يكلم ولا يطعم ولا يعامل حتى يخرج فيقتل وسلم أن يستوفى منه قصاص الطرف . وعند أحمد : لا يستوفى من الملتجئ واحد من القصاصين ، ولو التجأ إلى المسجد الحرام قال الإمام : أو مسجد آخر يخرج منه ويقتل لأنه تأخير يسير ، وفيه صيانة المسجد وحفظ حرمته . وقيل : تبسط الأنطاع ويقتل في المسجد تعجيلاً لتوفية الحق ﴿ واتخذوا ﴾ بفتح الخاء معطوف على ﴿ جعلنا ﴾ أي اتخذ الناس من مكان إبراهيم الذي وسم به لاهتمامه به وإسكان ذريته عنده قبلة يصلون إليها ، وعلى هذا المراد بالمصلى القبلة . وأما من قرأ بالكسر على الأمر فعلى إرادة القول أي وقلنا اتخذوا منه موضع صلاة تصلون فيه استحباباً لا وجوباً . وفي مقام إبراهيم أقوال . فعن الحسن وقتادة والربيع بن أنس : أنه لما جاء إبراهيم من الشام إلى مكة قالت له امرأة إسماعيل : انزل حتى تغسل رأسك فلم ينزل ، لأن سارة شرطت عليه أن لا ينزل غيرة على هاجر فجاءته بحجر فوضعته على شقه الأيمن فوضع قدمه عليه حتى غسلت شق رأسه ثم حولته إلى شقه الأيسر حتى غسلت الشق الآخر فبقي أثر قدميه عليه . وعن ابن عباس : أن إبراهيم عليه السلام كان يبني البيت وإسماعيل يناوله الحجارة ، فلما ارتفع البنيان وضعف إبراهيم عن رفع الحجارة قام على حجر فغاصت فيه قدماه . وقيل : إنه الحجر الذي قام عليه إبراهيم

عند الأذان بالحج . قال القفال : ويحتمل أن يكون إبراهيم عليه السلام قام على هذا الحجر في هذه الأمور كلها . وعن مجاهد : مقام إبراهيم الحرم كله ، فعلى هذا يراد بالمصلى المدعى من الصلاة بمعنى الدعاء . وعن عطاء : مقام إبراهيم عرفة ومزدلفة والجمار لأنه قام في هذه المواضع ودعا بها ، والقول بأن مقام إبراهيم الحجر الذي فيه أثر قدميه أولى ، لأن هذا الاسم في العرب مختص بذلك الموضع يعرفه المكي وغيره ، ولأن الحجر صار تحت قدميه في رطوبة الطين حتى غاصت فيه رجله وذلك من أظهر الدلائل على صنع الله تعالى وإعجاز إبراهيم ، وكان أشد اختصاصاً به ، فإطلاق مقام إبراهيم عليه أولى ، ولما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه أخذ بيد عمر فقال : هذا مقام إبراهيم ، فقال عمر : أفلا نتخذه مصلى ؟ فقال : لم أؤمر بذلك ، فلم تغب الشمس حتى نزلت .

وعن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استلم الحجر ورمل ثلاثة أشواط ومشى أربعة حتى إذا فرغ عمد إلى مقام إبراهيم فصلى خلفه ركعتين وقرأ ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾ "ومن" هذه تجريدية على نحو "رأيت منك أسداً" و "وهب الله لي منك ولياً مشفقاً" ففيه بيان المتخذ والمرئي والموهوب وتمييزه في ذلك المعنى عن غيره . ولا ريب أن للصلاة به فضلاً على غيره من حيث التيمن والتبرك بموطئ قدم إبراهيم عليه السلام ، وركعتا الطواف خلف المقام ثم في الحجر ثم في المسجد أي مسجد كان حيث شاء متى شاء ليلاً أو نهاراً سنة عند الشافعي في أصح قوليه بعد الفراغ من الطواف لقوله صلى الله عليه وسلم للأعرابي حين قال هل علي غيرها ؟ قال : لا إلا أن تطوع ، وفي قوله الآخر فرض لظاهر قوله ﴿ واتخذوا ﴾ والأمر للوجوب ، والرواية عن أبي حنيفة أيضاً مختلفة ، ﴿ وعهدنا ﴾ المراد بالعهد هنا الأمر أي ألزمناهما ذلك وأمرناهما أمراً ووثقنا عليهما فيه أن طهرا إن كانت "أن" مخففة فالتقدير بأن طهرا وإن كانت مفسرة فمعناه أي طهراً والمراد التطهير من كل أمر لا يليق بالبيت ، أما من الأنجاس والأقذار فلأن موضع البيت وحواليه مصلى ، وأما من الشرك ومظانه فلأنه مقام العبادة والإخلاص وكل هذه إما أن لا تكون موجودة هناك أصلاً والمراد أقراه على طهارته مثل ﴿ ولهم فيها أزواج مطهرة ﴾ [البقرة : 25] فمعلوم أنهن لم يطهرن بل خلقن طاهرات ، وإما أن تكون موجودة فأمر بإزالتها . وقيل : عرّفا الناس أن بيتي طهر لهم متى حجوه

للطائفين إلى آخره . العطف يقتضي مغايرة ، فالطائف من يقصد البيت حاجاً ومعتمراً فيطوف به ، والعاكف من يقيم هناك . ويجاور أو يعتكف ، والركع السجود جمعاً راكع وساجد أي من يصلي هناك ، وعن عطاء ، إذا كان طائفاً فهو من الطائفين ، وإذ كان جالساً فهو من العاكفين ، وإذا كان مصلياً فهو من الركع السجود . ويجوز أن يريد بالعاكفين

(296/65)

الواقفين يعني القائمين كما قال ﴿ للطائفين والقائمين والركع السجود ﴾ [الحج : 26] والمعنى للطائفين والمصلين لأن القيام والركوع والسجود هيئات للمصلي ، ولعل الوجه الأول أولى ليكون الركع والسجود كلاهما فقط بمعنى المصلين ولهذا لم يفصل بينهما بالواو . ثم إذا فسرنا الطائعين بالغرباء دلت الآية على أن الطواف للغرباء أفضل من الصلاة ، لأنه تعالى مدحهم بذلك . وقد روي عن ابن عباس ومجاهد وعطاء أن الطواف لأهل الأمصار أفضل ، والصلاة لأهل مكة أفضل .

وفي إطلاق الآية دليل على جواز الصلاة في البيت فرضاً كانت أو نفلاً خلافاً لأحمد ومالك في الفريضة قالا ﴿ فولِّ وجهك شطر المسجد الحرام ﴾ [البقرة : 144] ومن كان داخل المسجد لم يكن متوجهاً إلى المسجد بل إلى جزء من أجزائه ، وأجيب بأن التوجه إلى

جزئه كافٍ لأن المتوجه الواحد لا يكون إلا كذلك وإن كان خارج المسجد ، وبأن الفرق بين الفرض والنفل لاغٍ .

(297/65)

قوله تعالى ﴿ وإذ قال إبراهيم ﴾ قيل : في الآية تقديم وتأخير لأن قوله ﴿ رب اجعل هذا بلداً آمناً ﴾ لا يمكن لا بعد دخول البلد في الوجود . فقوله ﴿ وإذ يرفع ﴾ [البقرة : 127] وإن كان متأخراً في التلاوة فهو متقدم من حيث المعنى قلت : في ترتيب القصة فوائد منها : أنه أجمل القصة في قوله ﴿ وإذ ابتلى ﴾ إلى ﴿ فأتمهن ﴾ ثم فسر ، وفي التفسير قدم الأهم فالأهم ، ولا ريب أن ذكر جعل إبراهيم إماماً أولى بالتقديم لعموم نفعه للخلائق ولتقدمه في الوجود أيضاً ، ثم ذكر جعل البيت مثابة للناس وأمناً لأنه المقصود من عمارة البيت ثم حكاية عمارة البيت . وقد حصل في ضمن رعاية الأهم فوائد أخر منها : أنه كما كان مبنى القصة على الإجمال والتفسير وقع كل من أجزائها أيضاً كذلك فقوله ﴿ وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً ﴾ مجمل ، ثم فسر ذلك بأن جعله ذا أمن كان بسبب دعاء إبراهيم . وذكر البيت أولاً وقع مجملاً ثم فسر بأنه كيف بني ومنها أنه وقع ختم الكلام بأدعية إبراهيم عليه السلام ووقع ختم الأدعية بذكر خاتم النبيين ، وهذا ترتيب لا يتصور

أحسن منه ولعل ما فاتنا من أسرار هذا الترتيب أكثر مما أحصينا . ﴿ هذا بلداً آمناً ﴾ ذا أمن مثل عيشة راضية أو آمناً من فيه كقولك " ليل نائم " وإنما قيل ههنا بلداً آمناً على التنكير وفي سورة إبراهيم ﴿ هذا البلد آمناً ﴾ إما لأن هذا الدعاء صدر منه قبل جعل المكان بلداً فكأنه قال : واجعل هذا الوادي بلداً آمناً ، وذاك الدعاء صدر وقد جعل بلداً فكأنه قال : اجعل هذا المكان الذي صيرته بلداً بلداً ذا أمن ، وإما لأن الدعوتين واحدة والمراد اجعل هذا البلد بلداً آمناً فيفيد مبالغة زائدة كقولك " هذا اليوم يوم جار " معناه اجعله من البلدان الكاملة من الأمن بخلاف قوله ﴿ اجعل هذا البلد آمناً ﴾ [إبراهيم : 35] ففيه طلب الأمن نفسه قيل : سأل الأمن من القحط لأنه أسكن أهله بواد غير ذي ضرع ولا زرع وقيل : من الخسف

والمسخ ، وقيل : من القتل كيلا يكون سؤال الرزق بعده تكراراً ، وأجيب بأن التوسعة في الرزق مغايرة لطلب إزالة القحط . ثم إنه تعالى استجاب دعاءه فجعله آمناً من الآفات فلم يصل إليه جبار إلا قصمه الله كما فعل بأصحاب الفيل . قيل : أليس أن الحجاج حارب ابن

الزبير وخرب الكعبة وقصد أهلها بكل سوء ؟ وأجيب بأن مقصوده لم يكن تخريب الكعبة نفسها وإنما كان غرضه شيئاً آخر .

(299/65)

﴿ من الثمرات ﴾ " من " للابتداء لا للتبعيض بدليل قوله ﴿ يجبى إليه ثمرات كل شيء ﴾ [القصص : 57] وإنما سأل إبراهيم عليه السلام الأمن وأن يجبى إليه الثمرات وإن كان يتعلق بالدنيا لأن البلد إذا كان آمناً ذا خصب تفرغ أهله لطاعة الله تعالى ويكون سبباً لاجتماع الناس وإتيانهم إليه من كل أوب زائرين وعاكفين ، وطلب الدنيا لأجل الدين من سنن الصالحين " نعم المال الصالح للرجل الصالح " واختلف في أن مكة هل كانت آمنة محرمة قبل دعوة إبراهيم وصار ذلك مؤكداً بدعائه فقيل : نعم لما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم " إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض " ولقوله ﴿ عند بيتك المحرم ﴾ [إبراهيم : 37] وقيل : إنما صارت حرماً آمناً بدعوته ، وقبلها كانت كسائر البلاد بدليل قوله : " إني حرمت المدينة كما حرم إبراهيم مكة " وقيل بالجمع بينهما ، وذلك أنه كان ممنوعاً قبله بمنع الله تعالى من الاصطلام وبما أوقع في النفوس من التعظيم ثم صار آمناً على ألسنة الرسل . و ﴿ من آمن منهم ﴾ بدل من ﴿ أهله ﴾ يعني وارزق المؤمنين من أهله

خاصة كأنه قاس الرزق على الإمامة حيث ميز هناك بين المؤمن والكافر فقيل : ﴿ لا ينال عهدي الظالمين ﴾ فعرف الفرق بينهما فقيل ﴿ ومن كفر ﴾ عطفاً على ﴿ من آمن ﴾ كما مر في ﴿ ومن ذريتي ﴾ أو هو مبتدأ مضمن معنى الشرط جوابه ﴿ فأمتعه ﴾ وذلك أن الاستخلاف استرعاء يختص بمن ينصح للمرعي فيؤدي عن الله أمره ونهيه ولا يأخذه في الدين لومة لائم ولا سطوة جبار وظالم وأبعد الناس عن النصيحة الظالم ولهذا قيل : من استرعى الذئب فقد ظلم . وأما الرزق فلا يقبح إيصاله إلى المؤمن والكافر والصالح والفاجر لعموم الرحمة ، ولأنه قد يكون استدراجاً للمرزوق وإلزاماً للحجة على أنه متاع قليل وأمد يسير فيما بين الأزل والأبد و ﴿ قليلاً ﴾ أي إمتاعاً أو تمتيعاً قليلاً أو زماناً قليلاً فنعمة المؤمنين في العاجل موصولة بنعيمهم في الآجل ،

(300/65)

ونعمة الكافرين مقطوعة عنهم بعد الموت ، والزائل لا يجدي بطائل ﴿ أفرأيت إن متعناهم سنين . ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون ﴾ [الشعراء : 205-207] ومعنى الاضطرار أن يفعل به ما يلجئه إلى النار كقوله ﴿ يوم يدعُّون إلى نار جهنم دعا ﴾ [الطور : 13] ﴿ وسيق الذين كفروا إلى جهنم ﴾ [الزمر : 71] أو

أن يصير الفاعل بالتخويف والتهديد إلى أن يفعل ذلك الفعل اختياراً كالاضطرار إلى أكل الميتة مثلاً ﴿ وبئس المصير ﴾ ذلك الذي اضطر إليه أو ذلك الاضطرار ، فحذف المخصوص للعلم به . والمصير إما مصدر بمعنى الصيرورة يقال : صرت إلى فلان مصيراً وإما موضع وكلاهما شاذ والقياس مصار مثل " معاش " وكلاهما مستعمل والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 1 صـ 384. 395 ﴾

(301/65)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العَاجِزُ الْفَقِيرُ

عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مُحَمَّدٍ الْقَمَّاش

إِمَامُ وَخَطِيبُ مَسْجِدِ بُورُسْلِى - رَأْسُ الْخَيمَةِ

دَولَةُ الإِمَارَاتِ الْعَرَبِيَّةِ الْمُتَّحِدَةِ

(عَفَا اللهُ عَنْهُ وَغَفَرَ لَهُ)

الجزء السادس والستون

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/66)

الجزء السادس والستون

من الآية ﴿ 127 ﴾ من سورة البقرة

وحتى الآية ﴿ 131 ﴾ من نفس السورة

(4/66)

قوله تعالى ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (127) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما ذكر بما مهده من أمر البيت ديناً ودنيا أتبعه ببنائه مشيراً إلى ما حباهم به من النعمة وما قابلوه به من كفرها باختيارهم لأن يكونوا من غير الأمة المسلمة التي دعا لها لما دعا للرسول فقال عاطفاً على ﴿ إذ ابتلى ﴾ تعديداً لوجوه النعم على العرب بأبيهم الأعظم استعطافاً إلى التوحيد ﴿ وإذ يرفع إبراهيم ﴾ أي اذكر الوقت الذي يباشر بالرفع ﴿ القواعد من البيت ﴾ قال الحرالي : عدّد تعالى وجوه عنايته بسابقة العرب في هذه الآيات كما عدد وجوه نعمته على بني إسرائيل في سابقة الخطاب ، فكانت هذه في أمر إقامة دين الله ، وكانت تلك في محاولة مدافعته ، ليظهر بذلك تفاوت ما بين الاصطفاء والعناية ، والقاعدة ما يقعد عليه الشيء أي يستقر ويثبت ويجوز أن يراد بها سافات البناء ، لأن كل ساف قاعدة للذي يبنى عليه – قاله الأصبهاني .

ولما أفرد الخليل عليه السلام بهذا الرفع إظهاراً لشرفه بكونه هو السبب الأعظم في ذلك عطف عليه ولده فقال : ﴿ وإسماعيل ﴾ أي يرفع القواعد أيضاً ، ووصل بهذا العمل الشريف قوله : ﴿ ربنا ﴾ مراداً فيه القول محذوفاً منه أداة البعد : أي يقولان : ﴿ ربنا تقبل منا ﴾ أي عملنا بفضلك ولا ترده علينا ، إشعاراً بالاعتراف بالتقصير لحقارة العبد وإن اجتهد في جنب عظمة مولاه .

ولما تضمن سؤال القبول المشعر بخوف الرد علم الناقد البصير بالتقصير علله بقوله : ﴿ إنك ﴾ وأكده بقوله : ﴿ أنت السميع العليم ﴾ أي فإن كنت سمعت أو علمت منا

حسناً فرده حسناً ، وإن كنت سمعت أو علمت غير ذلك من نحو قول ناشىء عن اختلاج في النفس بما سببه كلال أو إعياء فاغفره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 242 ﴾

(5/66)

سؤال : لم كان التعبير بالمضارع ﴿ يرفع ﴾ دون الماضى فلم يقل : وإذ رفع ؟

الجواب : خولف الأسلوب الذي يقتضيه الظاهر في حكاية الماضي أن يكون بالفعل الماضي بأن يقول وإذ رفع إلى كونه بالمضارع لاستحضارِ الحالة وحكايتها كأنها مشاهدة لأن المضارع دال على زمن الحال فاستعماله هنا استعارة تبعية ، شبه الماضي بالحال لشهرته ولتكرر الحديث عنه بينهم فإنهم لحبهم إبراهيم وإجلالهم إياه لا يزالون يذكرون مناقبه وأعظمها بناء الكعبة فشبه الماضي لذلك بالحال ولأن ما مضى من الآيات في ذكر إبراهيم من قوله : ﴿ وإذ ابتلى إبراهيم ربه ﴾ [البقرة : 124] إلى هنا مما يوجب امتلاء أذهان السامعين بإبراهيم وشؤونه حتى كأنه حاضر بينهم وكأن أحواله حاضرة مشاهدة ، وكلمة (إذ) قرينة على هذا التنزيل لأن غالب الاستعمال أن يكون للزمن الماضي وهذا معنى قول النحاة أن إذ تخلص المضارع إلى الماضي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ1صـ

﴾412﴿

سؤال : لم أوقع العطف على الفاعل بعد ذكر المفعول والمتعلقات ؟

أجاب الشيخ الطاهر ابن عاشور بقوله :

وللإشارة إلى التفاوت بين عمل إبراهيم وعمل إسماعيل أوقع العطف على الفاعل بعد ذكر المفعول والمتعلقات ، وهذا من خصوصيات العربية في أسلوب العطف فيما ظهر لي ولا يحضرني الآن مثله في كلام العرب ، وذلك أنك إذا أردت أن تدل على التفاوت بين الفاعلين في صدور الفعل تجعل عطف أحدهما بعد انتهاء ما يتعلق بالفاعل الأول ، وإذا أردت أن تجعل المعطوف والمعطوف عليه سواء في صدور الفعل تجعل المعطوف موالياً للمعطوف عليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴾ التحرير والتنوير حـ1 صـ412 ﴿

(6/66)

روايات واهية ذكرت فى الآية الكريمة

قال البغوى :

قوله عز وجل : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيل ﴾ قال الرواة : إن الله تعالى خلق موضع البيت قبل الأرض بألفي عام ، وكانت زبدة بيضاء على الماء فدحيت

الأرض من تحتها فلما أهبط الله آدم ـ عليه السلام ـ إلى الأرض استوحش ، فشكا إلى الله تعالى فأنزل الله البيت المعمور من ياقوتة من يواقيت الجنة له بابان من زمرد أخضر ، باب شرقي وباب غربي فوضعه على موضع البيت وقال : يا آدم إني أهبطت لك بيتا تطوف به كما يطاف حول عرشي ، تصلي عنده كما يصلى عند عرشي وأنزل الحجر وكان أبيض فاسود من لمس الحيض في الجاهلية فتوجه آدم من أرض الهند إلى مكة ماشيا وقيض الله له ملكا يدله على البيت فحج البيت وأقام المناسك ، فلما فرغ تلقته الملائكة وقالوا : بر حجك يا آدم لقد حججنا هذا البيت قبلك بألفي عام ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : حج آدم أربعين حجة من الهند إلى مكة على رجليه فكان على ذلك إلى أيام الطوفان ، فرفعه الله تعالى إلى السماء الرابعة يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه ، وبعث جبريل ـ عليه السلام ـ حتى خبأ الحجر الأسود في جبل أبي قبيس صيانة له من الغرق ، فكان موضع البيت خاليا إلى زمن إبراهيم ، ثم إن الله تعالى أمر إبراهيم بعد ما ولد له إسماعيل وإسحاق ببناء بيت يذكر فيه ، فسأل الله عز وجل أن يبين له موضعه ، فبعث الله السكينة لتدله على موضع البيت وهي ريح خجوج لها رأسان شبه الحية فأمر إبراهيم أن يبني حيث تستقر السكينة فتبعها إبراهيم حتى أتيا مكة فتطوت السكينة على موضع البيت كتطوي الحجفة هذا قول علي والحسن .

وقال ابن عباس : بعث الله تعالى سحابة على قدر الكعبة فجعلت تسير وإبراهيم يمشي في ظلها إلى أن وافق مكة ووقفت على موضع البيت فنودي منها إبراهيم أن ابن على ظلها لا تزد ولا تنقص ، وقيل : أرسل الله جبريل ليدله على موضع البيت كقوله تعالى ﴿ وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت ﴾ فبنى إبراهيم وإسماعيل البيت فكان إبراهيم يبنيه وإسماعيل يناوله الحجر ، فذلك قوله تعالى : ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ﴾ .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير البغوى حـ1 صـ 150 ﴾

ومن هذه الروايات ما ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير :

وقال علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه : لما أمر الله تعالى إبراهيم ببناء البيت ؛ ضاق به ذرعاً ، ولم يدر كيف يصنع ، فأنزل الله عليه كهيئة السحابة ، فيها رأس يتكلم ، فقال : يا إبراهيم ! علّم على ظلي ، فلما علّم ارتفعت . وفي رواية أنه كان يبني عليها كل يوم ، قال : وحفر إبراهيم من تحت السكينة ، فأبدى عن قواعد ، ما تحرك القاعدة منها دون ثلاثين رجلاً . فلما بلغ موضع الحجر ، قال لإسماعيل : التمس لي حجراً ، فذهب يطلب حجراً ، فجاء جبريل بالحجر الأسود ، فوضعه ، فلما جاء إسماعيل ، قال : من جاءك بهذا الحجر ؟ قال : جاء به من لم يتكل على بنائي وبنائك . وقال ابن عباس ، وابن المسيب ، وأبو العالية : رفعا القواعد التي كانت قواعد قبل ذلك . وقال السدي : لما أمره الله ببناء البيت

؛ لم يدر أين يبني ، فبعث الله له ريحاً ، فكنست حول الكعبة عن الأساس الأول الذي كان البيت عليه قبل الطوفان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ1 صـ 145 ﴾

وقد ذكر هذه الروايات الموضوعة والمختلقة جمع من المفسرين منهم الطبرى والزمخشرى والخازن وابن عادل الحنبلى والسيوطى ﴿ فى الدر المنثور ﴾ وغيرهم

وقد رد ابن عطية هذه الروايات فقال :

واختلف بعض رواة القصص : فقيل إن آدم أمر ببنائه ، فبناه ، ثم دثر ودرس حتى دل عليه إبراهيم فرفع قواعده ، وقيل : إن آدم هبط به من الجنة ، وقيل : إنه لما استوحش في الأرض حين نقص طوله وفقد أصوات الملائكة أهبط إليه وهو كالدرة ، وقيل : كالياقوتة ، وقيل : إن البيت كان ربوة حمراء ، وقيل بيضاء ، ومن تحته دحيت الأرض ، وإن إبراهيم ابتدأ بناءه بأمر الله ورفع قواعده .

والذي يصح من هذا كله أن الله أمر إبراهيم برفع قواعد البيت ، وجائز قدمه وجائز أن يكون ذلك ابتداء ، ولا يرجح شيء من ذلك إلا بسند يقطع العذر ، وقال عبيد بن عمير : رفعها إبراهيم وإسماعيل معاً ، وقال ابن عباس : رفعها إبراهيم ، وإسماعيل يناوله

الحجارة ، وقال علي بن أبي طالب : رفعها إبراهيم ، وإسماعيل طفل صغير .

قال القاضي أبو محمد : ولا يصح هذا عن علي رضي الله عنه ، لأن الآية والآثار تردهُ .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ1 صـ 210 ﴾

وقد رد أبو حيان هذه الروايات بقوله :

ذكر المفسرون في ماهية هذا البيت وقدمه وحدوثه ، ومن أي شيء كان باباه ، وكم مرة حجة آدم ، ومن أي شيء بناه إبراهيم ، ومن ساعده على البناء ، قصصاً كثيرة .

واستطردوا من ذلك للكلام في البيت المعمور ، وفي طول آدم ، والصلع الذي عرض له ولولده ، وفي الحجر الأسود ، وطولوا في ذلك بأشياء لم يتضمنها القرآن ولا الحديث الصحيح .

وبعضها يناقض بعضاً ، وذلك على جري عاداتهم في نقل ما دب وما درج . ولا ينبغي أن يعتمد إلا على ما صح في كتاب الله وسنة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ1 صـ 558 ﴾

وقال ابن جرير بعد أن ذكر الروايات السابقة :

والصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال : إن الله تعالى ذكره أخبر عن إبراهيم خليله أنه

وابنه إسماعيل ، رفعا القواعد من البيت الحرام . وجائز أن يكون ذلك قواعد بيت كان أهبطه مع آدم ، فجعله مكان البيت الحرام الذي بمكة . وجائز أن يكون ذلك كان القبة التي ذكرها عطاء ، مما أنشأه الله من زبد الماء . وجائز أن يكون كان ياقوتة أو درة أهبطا من السماء . وجائز أن يكون كان آدم بناه ثم انهدم ، حتى رفع قواعده إبراهيم وإسماعيل . ولا علم عندنا بأي ذلك كان من أي ، لأن حقيقة ذلك لا تدرك إلا بخبر عن الله وعن رسوله صلى الله عليه وسلم ، بالنقل المستفيض . ولا خبر بذلك تقوم به الحجة فيجب التسليم لها ، ولا هو - إذ لم يكن به خبر ، على ما وصفنا - مما يدل عليه بالاستدلال والمقاييس ، فيمثل بغيره ، ويستنبط علمه من جهة الاجتهاد ، فلا قول في ذلك هو أولى بالصواب مما قلنا . والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الطبرى حـ 3 صـ 64 ﴾

قصة بناء البيت

فى البخارى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ لَمَّا كَانَ بَيْنَ إِبْرَاهِيمَ وَبَيْنَ أَهْلِهِ مَا كَانَ خَرَجَ بِإِسْمَاعِيلَ وَأُمِّ إِسْمَاعِيلَ وَمَعَهُمْ شَنَّةٌ فِيهَا مَاءٌ فَجَعَلَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ تَشْرَبُ مِنْ الشَّنَّةِ فَيَدِرُّ لَبَنُهَا عَلَى صَبِيِّهَا حَتَّى قَدِمَ مَكَّةَ فَوَضَعَهَا تَحْتَ دَوْحَةٍ ثُمَّ رَجَعَ إِبْرَاهِيمُ إِلَى أَهْلِهِ

فَاتَّبَعَتْهُ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ حَتَّى لَمَّا بَلَغُوا كَدَاءً نَادَتْهُ مِنْ وَرَائِهِ يَا إِبْرَاهِيمُ إِلَى مَنْ تَتْرُكُنَا قَالَ إِلَى اللَّهِ قَالَتْ رَضِيتُ بِاللَّهِ قَالَ فَرَجَعَتْ فَجَعَلَتْ تَشْرَبُ مِنْ الشَّنَّةِ وَيَدِرُّ لَبَنُهَا عَلَى صَبِيِّهَا حَتَّى لَمَّا فَنِيَ الْمَاءُ قَالَتْ لَوْ ذَهَبْتُ فَنَظَرْتُ لَعَلِّي أُحِسُّ أَحَدًا قَالَ فَذَهَبَتْ فَصَعِدَتْ الصَّفَا فَنَظَرَتْ وَنَظَرَتْ هَلْ تُحِسُّ أَحَدًا فَلَمْ تُحِسَّ أَحَدًا فَلَمَّا بَلَغَتْ الْوَادِيَ سَعَتْ وَأَتَتْ الْمَرْوَةَ فَفَعَلَتْ ذَلِكَ أَشْوَاطًا ثُمَّ قَالَتْ لَوْ ذَهَبْتُ فَنَظَرْتُ مَا فَعَلَ تَعْنِي الصَّبِيَّ فَذَهَبَتْ فَنَظَرَتْ فَإِذَا هُوَ عَلَى حَالِهِ كَأَنَّهُ يَنْشَغُ لِلْمَوْتِ فَلَمْ تُقِرَّهَا نَفْسُهَا فَقَالَتْ لَوْ ذَهَبْتُ فَنَظَرْتُ لَعَلِّي أُحِسُّ أَحَدًا فَذَهَبَتْ فَصَعِدَتْ الصَّفَا فَنَظَرَتْ وَنَظَرَتْ فَلَمْ تُحِسَّ أَحَدًا حَتَّى أَتَمَّتْ سَبْعًا ثُمَّ قَالَتْ لَوْ ذَهَبْتُ فَنَظَرْتُ مَا فَعَلَ فَإِذَا هِيَ بِصَوْتٍ فَقَالَتْ أَغِثْ إِنْ كَانَ عِنْدَكَ خَيْرٌ فَإِذَا جِبْرِيلُ قَالَ فَقَالَ بِعَقِبِهِ هَكَذَا وَغَمَزَ عَقِبَهُ عَلَى الْأَرْضِ قَالَ فَانْبَثَقَ الْمَاءُ فَدَهَشَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ فَجَعَلَتْ تَحْفِزُ قَالَ فَقَالَ أَبُو الْقَاسِمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَوْ تَرَكَتْهُ كَانَ الْمَاءُ ظَاهِرًا قَالَ فَجَعَلَتْ

تَشْرَبُ مِنْ الْمَاءِ وَيَدِرُّ لَبَنُهَا عَلَى صَبِيِّهَا قَالَ فَمَرَّ نَاسٌ مِنْ جُرْهُمَ بِبَطْنِ الْوَادِي فَإِذَا هُمْ بِطَيْرٍ كَأَنَّهُمْ أَنْكَرُوا ذَاكَ وَقَالُوا مَا يَكُونُ الطَّيْرُ إِلَّا عَلَى مَاءٍ فَبَعَثُوا رَسُولَهُمْ فَنَظَرَ فَإِذَا هُمْ بِالْمَاءِ

فَأَتَاهُمْ فَأَخْبَرَهُمْ فَأَتَوْا إِلَيْهَا فَقَالُوا يَا أُمَّ إِسْمَاعِيلَ أَتَأْذَنِينَ لَنَا أَنْ نَكُونَ مَعَكِ أَوْ نَسْكُنَ مَعَكِ فَبَلَغَ ابْنُهَا فَنَكَحَ فِيهِمْ امْرَأَةً قَالَ ثُمَّ إِنَّهُ بَدَا لِإِبْرَاهِيمَ فَقَالَ لِأَهْلِهِ إِنِّي مُطَّلِعٌ تَرِكَتِي قَالَ فَجَاءَ فَسَلَّمَ فَقَالَ أَيْنَ إِسْمَاعِيلُ فَقَالَتْ امْرَأَتُهُ ذَهَبَ يَصِيدُ قَالَ قُولِي لَهُ إِذَا جَاءَ غَيِّرْ عَتَبَةَ بَابِكَ فَلَمَّا جَاءَ أَخْبَرَتْهُ قَالَ أَنْتِ ذَاكِ فَاذْهَبِي إِلَى أَهْلِكِ قَالَ ثُمَّ إِنَّهُ بَدَا لِإِبْرَاهِيمَ فَقَالَ لِأَهْلِهِ إِنِّي مُطَّلِعٌ تَرِكَتِي قَالَ فَجَاءَ فَقَالَ أَيْنَ إِسْمَاعِيلُ فَقَالَتْ امْرَأَتُهُ ذَهَبَ يَصِيدُ فَقَالَتْ أَلَا تَنْزِلُ فَتَطْعَمَ وَتَشْرَبَ فَقَالَ وَمَا طَعَامُكُمْ وَمَا شَرَابُكُمْ قَالَتْ طَعَامُنَا اللَّحْمُ وَشَرَابُنَا الْمَاءُ قَالَ اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُمْ فِي طَعَامِهِمْ وَشَرَابِهِمْ قَالَ فَقَالَ أَبُو الْقَاسِمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَرَكَةٌ بِدَعْوَةِ إِبْرَاهِيمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمَا وَسَلَّمَ قَالَ ثُمَّ إِنَّهُ بَدَا لِإِبْرَاهِيمَ فَقَالَ لِأَهْلِهِ إِنِّي مُطَّلِعٌ تَرِكَتِي فَجَاءَ فَوَافَقَ إِسْمَاعِيلَ مِنْ وَرَاءِ زَمْزَمَ يُصْلِحُ نَبْلًا لَهُ فَقَالَ يَا إِسْمَاعِيلُ إِنَّ رَبَّكَ أَمَرَنِي أَنْ أَبْنِيَ لَهُ بَيْتًا قَالَ أَطِعْ رَبَّكَ قَالَ إِنَّهُ قَدْ أَمَرَنِي أَنْ تُعِينَنِي عَلَيْهِ قَالَ إِذَنْ

أَفْعَلَ أَوْ كَمَا قَالَ قَالَ فَقَامَا فَجَعَلَ إِبْرَاهِيمُ يَبْنِي وَإِسْمَاعِيلُ يُنَاوِلُهُ الْحِجَارَةَ وَيَقُولَانِ

﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

قَالَ حَتَّى ارْتَفَعَ الْبِنَاءُ وَضَعُفَ الشَّيْخُ عَنْ نَقْلِ الْحِجَارَةِ فَقَامَ عَلَى حَجَرِ الْمَقَامِ فَجَعَلَ يُنَاوِلُهُ

الْحِجَارَةَ وَيَقُولَانِ

﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

أهـ صحيح البخارى ﴿ 3114 ﴾

(13/66)

سؤال : فإن قلت : هلا قيل : قواعد البيت ، وأي فرق بين العبارتين ؟

قلت : في إبهام القواعد وتبيينها بعد الإبهام ما ليس في إضافتها لما في الإيضاح بعد الإبهام من تفخيم لشأن المبين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الكشاف حـ1 صـ 188 ﴾

فائدة

قال العلماء : ولا ينبغي أن يؤخذ من كسوة الكعبة شيء ، فإنه مهدًى إليها ، ولا ينقص منها شيء . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 2 صـ 125 ﴾

لطيفة

عن وهيب بن الورد : أنه قرأ : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ﴾ ثم يبكي ويقول : يا خليل الرحمن ، ترفع قوائم بيت الرحمن وأنت مُشْفق أن لا يتقبل منك . وهذا كما حكى الله تعالى عن حال المؤمنين المخلصين في قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ

يُؤْتُونَ مَا آتَوْا ﴾ أي : يعطون ما أعطوا من الصدقات والنفقات والقربات ﴿ وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ [المؤمنون : 60] أي : خائفة ألا يتقبل منهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن كثير حـ1 صـ427 ﴾

قوله تعالى ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

سؤال : لم عقب هذا الدعاء بقوله : ﴿ إِنَّكَ أَنتَ السميع العليم ﴾ ؟

إنما عقب هذا الدعاء بقوله : ﴿ إِنَّكَ أَنتَ السميع العليم ﴾ كأنه يقول : تسمع دعاءنا وتضرعنا ، وتعلم ما في قلبنا من الإخلاص وترك الالتفات إلى أحد سواك . فإن قيل : قوله : ﴿ إِنَّكَ أَنتَ السميع العليم ﴾ يفيد الحصر وليس الأمر كذلك ، فإن غيره قد يكون سميعاً . قلنا : إنه سبحانه لكماله في هذه الصفة يكون كأنه هو المختص بها دون غيره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 4 صـ 53 ﴾

فائدة

وفي الآية دليل : أن الإنسان إذا عمل خيراً ينبغي أن يدعو الله بالقبول ، ويقال : ينبغي أن يكون خوف الإنسان على قبول العمل بعد الفراغ أشد من شغله بالعمل ، لأن الله تعالى قال

: ﴿ واتل عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابنى آدَمَ بالحق إِذْ قَرَّبَا قربانا فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخر قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ المتقين ﴾ [المائدة: 27] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ1 صـ120 ﴾

من فوائد الإمام الجصاص فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنْ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ ﴾ الْآيَةَ .

قَوَاعِدُ الْبَيْتِ : أَسَاسُهُ ، وَقَدْ اُخْتُلِفَ فِي بِنَاءِ إبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ هَلْ بَنَاهُ عَلَى قَوَاعِدَ قَدِيمَةٍ أَوْ أَنْشَأَهَا هُوَ ابْتِدَاءً ؟ فَرَوَى مَعْمَرٌ عَنْ أَيُّوبَ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ ﴿ الْقَوَاعِدَ مِنْ الْبَيْتِ ﴾ قَالَ : " الْقَوَاعِدُ الَّتِي كَانَتْ قَبْلَ ذَلِكَ قَوَاعِدُ الْبَيْتِ .

وَرُوِيَ نَحْوُهُ عَنْ عَطَاءٍ وَرَوَى مَنْصُورٌ عَنْ مُجَاهِدٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ : " خَلَقَ اللَّهُ الْبَيْتَ قَبْلَ الْأَرْضِ بِأَلْفَيْ عَامٍ ثُمَّ دُحِيَتْ الْأَرْضُ مِنْ تَحْتِهِ " .

وَرُوِيَ عَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ إنَّ الْمَلَائِكَةَ كَانَتْ تَحُجُّ الْبَيْتَ قَبْلَ آدَمَ ، ثُمَّ حَجَّهُ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴾ .

وَرُوِيَ عَنْ مُجَاهِدٍ وَعَمْرِو بْنِ دِينَارٍ : أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أُنْشَأَهُ بِأَمْرِ اللَّهِ إِيَّاهُ ، وَقَالَ الْحَسَنُ : " أَوَّلُ مَنْ حَجَّ الْبَيْتَ إِبْرَاهِيمُ " .

وَاخْتُلِفَ فِي الْبَانِي مِنْهُمَا لِلْبَيْتِ ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : " كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَبْنِي وَإِسْمَاعِيلُ يُنَاوِلُهُ الْحِجَارَةَ " وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى جَوَازِ إِضَافَةِ فِعْلِ الْبِنَاءِ إِلَيْهِمَا وَإِنْ كَانَ أَحَدُهُمَا مَعْنِيًّا فِيهِ ، وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ قُلْنَا فِي قَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِعَائِشَةَ : ﴿ لَوْ قَدْ مُتِّ قَبْلِي لَغَسَّلْتُكِ وَدَفَنْتُكِ ﴾ يَعْنِي أَعَنْتِ فِي غَسْلِكَ .

وَقَالَ السُّدِّيُّ وَعُبَيْدُ بْنُ عُمَيْرٍ : " هُمَا بَنَيَاهُ جَمِيعًا " .

وَقِيلَ فِي رِوَايَةٍ شَاذَّةٍ : إِنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَحْدَهُ رَفَعَهَا وَكَانَ إِسْمَاعِيلُ صَغِيرًا فِي وَقْتِ رَفْعِهَا ؛ وَهُوَ غَلَطٌ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَضَافَ الْفِعْلَ إِلَيْهِمَا ، وَذَلِكَ يُطْلَقُ عَلَيْهِمَا إِذَا رَفَعَاهُ جَمِيعًا ، أَوْ رَفَعَ أَحَدُهُمَا وَنَاوَلَهُ الْآخَرُ الْحِجَارَةَ ، وَالْوَجْهَانِ الْأَوَّلَانِ جَائِزَانِ ، وَالْوَجْهُ الثَّالِثُ لَا يَجُوزُ ، وَلَمَّا قَالَ تَعَالَى : ﴿ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ ﴾ وَقَالَ فِي آيَةٍ أُخْرَى : ﴿ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ اقْتَضَى ذَلِكَ الطَّوَافَ بِجَمِيعِ الْبَيْتِ .

وَرَوَى هِشَامٌ عَنْ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

﴿ إِنَّ أَهْلَ الْجَاهِلِيَّةِ اقْتَصَرُوا فِي بِنَاءِ الْكَعْبَةِ ، فَادْخُلِي الْحِجْرَ وَصَلِّي عِنْدَهُ ﴾ .

وَلِذَلِكَ طَافَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَصْحَابُهُ حَوْلَ الْحَجَرِ لِيَحْصُلَ الْيَقِينُ بِالطَّوَافِ بِجَمِيعِ الْبَيْتِ ؛ وَلِذَلِكَ أَدْخَلَهُ ابْنُ الزُّبَيْرِ فِي الْبَيْتِ لَمَّا بَنَاهُ حِينَ احْتَرَقَ ، ثُمَّ لَمَّا جَاءَ الْحَجَّاجُ أَخْرَجَهُ مِنْهُ .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ﴾ مَعْنَاهُ : "يَقُولَانِ رَبَّنَا تَقَبَّلْ" فَحُذِفَ لِدَلَالَةِ الْكَلَامِ عَلَيْهِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ يَعْنِي : "يَقُولُونَ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ" .

وَالتَّقَبُّلُ : هُوَ إِيجَابُ الثَّوَابِ عَلَى الْعَمَلِ ، وَقَدْ تَضَمَّنَ ذَلِكَ كَوْنَ بِنَاءِ الْمَسَاجِدِ قُرْبَةً ؛ لِأَنَّهُمَا بَنَيَاهُ لِلَّهِ تَعَالَى فَأُخْبِرَا بِاسْتِحْقَاقِ الثَّوَابِ بِهِ ؛ وَهُوَ كَقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ مَنْ بَنَى مَسْجِدًا وَلَوْ مِثْلَ مَفْحَصِ قَطَاةٍ بَنَى اللَّهُ لَهُ بِهِ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ ﴾ .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا ﴾ يُقَالُ : إِنَّ أَصْلَ النُّسُكِ فِي اللُّغَةِ الْغَسْلُ ، يُقَالُ مِنْهُ : نَسَكَ ثَوْبَهُ إِذَا غَسَلَهُ ، وَقَدْ أُنْشِدَ فِيهِ بَيْتُ شِعْرٍ : وَلَا يُنْبِتُ الْمَرْعَى سِبَاخُ عَرَاعِرٍ وَلَوْ نُسِكَتْ بِالْمَاءِ سِتَّةَ أَشْهُرٍ وَفِي الشَّرْعِ : اسْمٌ لِلْعِبَادَةِ ، يُقَالُ : رَجُلٌ نَاسِكٌ ، أَيْ : عَابِدٌ .

وَقَالَ الْبَرَاءُ بْنُ عَازِبٍ : خَرَجَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ الْأَضْحَى فَقَالَ ﴿ إِنَّ أَوَّلَ نُسُكِنَا فِي هَذَا الْيَوْمِ الصَّلَاةُ ثُمَّ الذَّبْحُ ﴾ .

(18/66)

فَسَمَّى الصَّلَاةَ نُسُكًا ، وَالذَّبِيحَةُ عَلَى وَجْهِ الْقُرْبَةِ تُسَمَّى نُسُكًا ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ﴾ يَعْنِي ذَبْحَ شَاةٍ ، وَمَنَاسِكُ الْحَجِّ : مَا يَقْتَضِيهِ مِنْ الذَّبْحِ وَسَائِرِ أَفْعَالِهِ ، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ دَخَلَ مَكَّةَ : ﴿ خُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ ﴾ وَالْأَظْهَرُ مِنْ مَعْنَى قَوْلِهِ : ﴿ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا ﴾ سَائِرُ أَعْمَالِ الْحَجِّ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَهُمَا بِبِنَاءِ الْبَيْتِ لِلْحَجِّ ، وَقَدْ رَوَى ابْنُ أَبِي لَيْلَى عَنْ ابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ عَنْ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ : ﴿ أَتَى جِبْرِيلُ إبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ فَرَاحَ بِهِ إلَى مَكَّةَ ثُمَّ مِنًى ﴾ وَذَكَرَ أَفْعَالَ الْحَجِّ عَلَى نَحْوِ مَا فَعَلَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَجَّتِهِ ، قَالَ : ثُمَّ أَوْحَى اللَّهُ إلَى نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾ .

وَكَذَلِكَ أَرْسَلَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ إلَى قَوْمٍ بِعَرَفَاتٍ وُقُوفٍ خَلْفَهُ وَهُوَ وَاقِفٌ بِهَا فَقَالَ : ﴿ كُونُوا عَلَى مَشَاعِرِكُمْ فَإِنَّكُمْ عَلَى إرْثٍ مِنْ إرْثِ إبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴾ .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ﴾ يَدُلُّ عَلَى لُزُومِ اتِّبَاعِ إِبْرَاهِيمَ فِي شَرَائِعِهِ فِيمَا لَمْ يَثْبُتْ نَسْخُهُ .

وَأَفَادَ بِذَلِكَ أَنَّ مَنْ رَغِبَ عَنْ مِلَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَهُوَ رَاغِبٌ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ ؛ إِذْ كَانَتْ مِلَّةُ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ مُنْتَظِمَةً لِمِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَزَائِدَةً عَلَيْهَا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 1 صـ 99. 100 ﴾

" فصل "

قال السيوطى :

وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (127)

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : القواعد أساس البيت .

وأخرج أحمد وعبد بن حميد والبخاري وابن جرير وابن أبي حاتم والجندي وابن مردويه والحاكم والبيهقي في الدلائل عن سعيد بن جبير أنه قال : سلوني يا معشر الشباب فإني قد أوشكت أن أذهب من بين أظهركم ، فأكثر الناس

(21/66)

مسألته فقال له رجل : أصلحك الله أرأيت المقام أهو كما تتحدث ؟ قال : وماذا كنت تتحدث ؟ قال : كنا نقول أن إبراهيم حين جاء عرضت عليه امرأة اسماعيل النزول فأبى أن ينزل ، فجاءت بهذا الحجر فقال : ليس كذلك فقال سعيد بن جبير : قال ابن عباس : إن أوّل من اتخذ المناطق من النساء أم اسماعيل ، اتخذت منطقاً لتعفي أثرها على سارة ، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها اسماعيل وهي ترضعه حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد ، وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماء ، فوضعهما هنالك ووضع عندهما جراباً فيه تمر وسقاء فيه ماء ، ثم قفى إبراهيم منطلقاً فتبعته أم اسماعيل فقالت : يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه أنس ولا شيء ؟ قالت له ذلك مراراً وجعل لا يلتفت إليهما . قالت له : آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم . قالت : إذاً لا يضيعنا ، ثم رجعت . فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه ، استقبل

بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الدعوات ورفع يديه قال ﴿ ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ﴾ [إبراهيم : 37] وجعلت أم اسماعيل ترضع اسماعيل وتشرب من ذلك الماء ، حتى إذا نفذ ما في السقاء عطشت وعطش ابنها ، وجعلت تنظر إليه يتلوى أو قال : يتلبط . فانطلقت كراهية أن تنظر إليه ، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها ، فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً فلم تر أحداً ، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها ، ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي ، ثم أتت المروة فقامت عليها ونظرت هل

ترى أحداً ، ففعلت ذلك سبع مرات . قال ابن عباس : قال النبي صلى الله عليه وسلم " فلذلك سعى الناس بينهما " .

فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً فقالت : صه ، تريد نفسها ، ثم تسمعت فسمعت صوتاً أيضاً فقالت : قد اسمعت ان كان عندك غواث ، فإذا هي بالملك موضع زمزم ، فَنَحَت بعقبه – أو قال بجناحه – حتى ظهر الماء ، فجعلت تحوضه بيدها وتغرف من

الماء في سقائها وهي تفور بعد ما تغرف . قال ابن عباس : قال النبي صلى الله عليه وسلم " يرحم الله أم اسماعيل لو تركت زمزم – أو قال – لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم عيناً معيناً فشربت وأرضعت ولدها " .

فقال لها الملك : لا تخافي الضيعة فإن ههنا بيتاً لله عز وجل يبنيه هذا الغلام وأبوه ، وأن الله لا يضيع أهله ، وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وعن شماله ، فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم أو أهل بيت من جرهم مقبلين من طريق كذا ، فنزلوا في أسفل مكة فرأوا طائراً عائفاً فقالوا : إن هذا الطائر ليدور على الماء لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء . . . ! فأرسلوا جرياً أو جريين فإذا هم بالماء ، فرجعوا فأخبروهم بالماء ، فأقبلوا قال : وأم اسماعيل عند الماء . فقالوا به : أتأذنين لنا أن ننزل عندك ؟ قالت : نعم ، ولكن لا حق لكم في الماء ، قالوا : نعم . قال ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم " فألفى ذلك أم اسماعيل وهي تحب الأنس " .

فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم ، وشب الغلام وتعلم العربية منهم وأنفسهم وأعجبهم حين شب ، فلمّا أدرك زوجوه امرأة منهم وماتت أم اسماعيل ، فجاء إبراهيم بعد ما تزوج اسماعيل يطالع تركته فلم يجد اسماعيل ، فسأل زوجته عنه . . . ! فقالت : خرج يبتغي لنا . ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم ؟ فقالت :

نحن بشر نحن في ضيق وشدة وشكت إليه قال : إذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام وقولي له يغير عتبة بابه .

(23/66)

فلما جاء إسماعيل كأنه آنس شيئاً فقال : هل جاءكم من أحد ؟ قالت : نعم . جاءنا شيخ كذا وكذا ، فسألني عنك فأخبرته ، وسألني كيف عيشنا ؟ فأخبرته أنا في جهد وشدة . قال : فهل أوصاك بشيء ؟ قالت : نعم ، أمرني أن أقرىء عليك السلام ، ويقول : غير عتبة بابك . قال : ذاك أبي وأمرني أن أفارقك فالحقي بأهلك ، فطلقها وتزوّج منهم أخرى ، فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله ، ثم أتاهم بعد ذلك فلم يجده ؟ فدخل على امرأته فسألها عنه فقالت : خرج يبتغي لنا . قال : كيف أنتم ؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت : نحن بخير وسعة وأثنت على الله . فقال : ما طعامكم ؟ قالت : اللحم . قال : فما شرابكم ؟ قالت : الماء . فقال : اللهم بارك لهم في اللحم والماء . قال النبي صلى الله عليه وسلم " ولم يكن لهم يومئذ حب ، ولو كان لهم حب لدعا لهم فيه . قال : فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه " قال : فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام ومريه يثبت عتبة بابه .

فلما جاء اسماعيل قال : هل أتاكم من أحد ؟ قالت : نعم ، أتانا شيخ حسن الهيئة وأثنت عليه ، فسألني عنك فأخبرته ، وسألني كيف عيشنا ؟ فأخبرته أنا بخير . قال : أما أوصاك بشيء ؟ قالت : نعم ، وهو يقرأ عليك السلام ويأمرك أن تثبت عتبة بابك ، قال : ذاك أبي وأنت العتبة فأمرني أن أمسكك .

ثم لبث عنهم ما شاء الله ، ثم جاء بعد ذلك واسماعيل يبري نبلاً تحت دوحة قريباً من زمزم ، فما رآه قام إليه فصنعا كما يصنع الولد بالوالد والوالد بالولد ، ثم قال : يا اسماعيل إن الله أمرني بأمر . قال : فاصنع ما أمرك . قال : وتعينني . . . ؟ قال : وأعينك . . . قال : فإن الله أمرني أن أبني ههنا بيتاً ، وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها قال : فعند ذلك رفع القواعد من البيت ، فجعل اسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني ، حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له ، فقام عليه وهو يبني واسماعيل يناوله الحجارة وهما يقولان : ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم .

قال معمر : وسمعت رجلاً يقول : كان إبراهيم يأتيهم على البراق قال معمر : وسمعت رجلاً يذكر أنهما حين التقيا بكيا حتى أجابتهما الطير .

وأخرج ابن سعد في الطبقات عن أبي جهم بن حذيفة بن غانم قال : أوحى الله عز وجل إلى إبراهيم يأمره بالمسير إلى بلده الحرام ، فركب إبراهيم البراق وجعل اسماعيل أمامه وهو ابن سنتين وهاجر خلفه ، ومعه جبريل عليه السلام يدله على موضع البيت حتى قدم به مكة ، فأنزل اسماعيل وأمه إلى جانب البيت ، ثم انصرف إبراهيم إلى الشام ، ثم أوحى الله إلى إبراهيم أن يبني البيت ، وهو يومئذ ابن مائة سنة واسماعيل يومئذ ابن ثلاثين فبناه معه ، وتوفي اسماعيل بعد أبيه فدفن داخل الحجر مما يلي الكعبة مع أمه هاجر ، وولي ثابت بن اسماعيل البيت بعد أبيه مع أخواله جرهم .

وأخرج الديلمي عن علي عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت . . . ﴾ الآية . قال " جاءت سحابة على تربيع البيت لها رأس تتكلم ، ارتفاع البيت على تربيعي فرفعاه على تربيعها " .

وأخرج ابن أبي شيبة واسحق بن راهويه في مسنده وعبد بن حميد والحرث بن أبي أسامة وابن جرير وابن أبي حاتم والأزرقي والحاكم وصححه والبيهقي في الدلائل من طريق خالد بن عرعرة عن علي بن أبي طالب . أن رجلاً قال له : ألا تخبرني عن البيت أهو أول بيت

وضع في الأرض ؟ قال : لا ، ولكنه أول بيت وضع للناس فيه البركة والهدى ، ومقام إبراهيم ، ومن دخله كان آمناً ، ثم حدث أن إبراهيم لما أمر ببناء البيت ضاق به ذرعاً فلم يدر كيف يبنيه ، فأرسل الله إليه السكينة – وهي ريح خجوج ولها رأسان – فتطوّقت له على موضع البيت ، وأمر إبراهيم أن يبني حيث تستقر السكينة فبنى إبراهيم ، فلمّا بلغ موضع الحجر قال لاسماعيل : اذهب فالتمس لي حجراً أضعه ههنا . فذهب اسماعيل يطوف في الجبال ، فنزل جبريل بالحجر فوضعه ، فجاء اسماعيل فقال : من أين هذا الحجر ؟ ! قال : جاء به من لم يتكل على بنائي ولا بنائك ، فلبث ما شاء الله أن يلبث ثم انهدم فبنته العمالقة ، ثم انهدم فبنته جرهم ، ثم انهدم فبنته قريش ، فلما أرادوا أن يضعوا الحجر تشاحنوا في وضعه فقالوا : أول من يخرج من هذا الباب فهو يضعه ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من قبل باب بني شيبة ، فأمر بثوب فبسط ، فأخذ الحجر فوضعه في وسطه ، وأمر من كل فخذ من أفخاذ قريش رجلاً يأخذ بناحية الثوب فرفعوه ، فأخذه رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده فوضعه في موضعه .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والأزرقي والحاكم من طريق سعيد بن المسيب عن علي قال : أقبل إبراهيم على أرمينية ومعه السكينة تدله على موضع البيت كما تبني العنكبوت بيتها ، فحفر من تحت السكينة فأبدى عن قواعد

البيت ، ما يحرك القاعدة منها دون ثلاثين رجلاً . قلت : يا أبا محمد فان الله يقول ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت ﴾ قال : كان ذلك بعد .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله ﴿ يرفع إبراهيم القواعد ﴾ قال : القواعد التي كانت قواعد البيت قبل ذلك .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر والجندي عن عطاء قال : قال آدم : أي رب ما لي لا أسمع أصوات الملائكة ؟ قال : لخطيئتك ، ولكن اهبط إلى الأرض فابن لي بيتاً ثم احفف به كما رأيت الملائكة تحف ببيتي الذي في السماء ، فزعم الناس أنه بناه من خمسة جبال . من حراء ، ولبنان ، وطورزيتا ، وطورسينا ، والجودي ، فكان هذا بناء آدم حتى بناه إبراهيم بعده .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : لما أهبط الله آدم من الجنة قال : إني مهبط معك بيتاً يطاف حوله كما يطاف حول عرشي ، ويصلى عنده كما يصلى عند عرشي ، فلما كان زمن الطوفان رفعه الله إليه ، فكانت الأنبياء

يحجونه ولا يعلمون مكانه حتى بوّأه الله بعد لإبراهيم وأعلمه مكانه فبناه من خمسة جبال : حراء ، ولبنان ، وثبير ، وجبل الطور ، وجبل الحمر ، وهو جبل بيت المقدس .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ في العظمة عن ابن عباس قال : وضع البيت على أركان الماء على أربعة أركان قبل أن تخلق الدنيا بألفي عام ، ثم دحيت الأرض من تحت البيت .

وأخرج عبد الرزاق والأزرقي في تاريخ مكة والجندي عن مجاهد قال : خلق الله موضع البيت الحرام من قبل أن يخلق شيئاً من الأرض بألفي سنة ، وأركانه في الأرض السابعة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن علياء بن أحمر أن ذا القرنين قدم مكة فوجد إبراهيم واسماعيل يبنيان قواعد البيت من خمسة جبال فقال : ما لكما ولأرضي ؟ ! فقالا : نحن عبدان مأموران أمرنا ببناء هذه الكعبة .

قال : فهاتا بالبينة على ما تدعيان . فقام خمسة أكبش فقلن : نحن نشهد أن إسمعيل وإبراهيم عبدان مأموران أمرا ببناء هذه الكعبة . فقال : قد رضيت وسلمت ثم مضى .

وأخرج ابن جرير عن قتادة قال : ذكر لنا أن الحرم حرم بحياله إلى العرش ، وذكر لنا أن البيت هبط مع آدم حين هبط قال الله له : اهبط معك بيتي يطاف حوله كما يطاف حول عرشي ،

فطاف آدم حوله ومن كان بعده من المؤمنين ، حتى إذا كان زمن الطوفان حين أغرق الله قوم نوح رفعه وطهره فلم تصبه عقوبة أهل الأرض ، فتتبع منه آدم أثراً ، فبناه على أساس قديم كان قبله .

وأخرج ابن عساكر عن مجاهد قال : بني البيت من أربعة جبال . من حراء ، وطورزيتا ، وطورسينا ، ولبنان .

وأخرج البيهقي في الدلائل عن السدي قال : خرج آدم من الجنة ومعه حجر في يده وورق في الكف الآخر ، فبث الورق في الهند فمنه ما ترون من الطيب ، وأما الحجر فكان ياقوتة بيضاء يستضاء بها ، فلما بنى إبراهيم البيت فبلغ موضع الحجر قال لاسماعيل : ائتني بحجر أضعه ههنا ، فأتاه بحجر من الجبل ، فقال : غير هذا . فرده مراراً لا يرضى ما يأتيه به ، فذهب مرة وجاء جبريل عليه السلام بحجر من الهند الذي خرج به آدم من الجنة فوضعه ، فلما جاء إسمعيل قال : من جاءك بهذا ؟ ! قال : من هو أنشط منك .

وأخرج الثعلبي قال : سمعت أبا القاسم الحسن بن محمد بن حبيب يقول : سمعت أبا بكر محمد بن محمد بن أحمد القطان البلخي وكان عالماً بالقرآن يقول : كان إبراهيم عليه السلام يتكلم بالسريانية ، وإسماعيل عليه السلام يتكلم بالعربية ، وكل واحد منهما يعرف ما يقول صاحبه ولا يمكنه التفوّه به ، فكان إبراهيم يقول لإسماعيل : هل لي كثيباً - يعني ناولني حجراً - ويقول له إسمعيل : هاك الحجر فخذه . قال : فبقي موضع حجر فذهب

إسماعيل يبغيه ، فجاء جبريل عليه السلام بحجر من السماء ، فأتى إسماعيل وقد ركب إبراهيم الحجر في موضعه فقال : يا أبت من أتاك بهذا ؟ ! قال : أتاني من لم يتكل على بنائك ، فأتما البيت . فذلك قوله عز وجل ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ﴾ .

وأخرج البيهقي عن ابن شهاب قال " لما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم الحلم أجمرت امرأة الكعبة ، فطارت شرارة من مجمرتها في ثياب الكعبة فاحترقت فهدموها ، حتى إذا بنوها فبلغوا موضع الركن اختصمت قريش في الركن أي القبائل تلي رفعه ، فقالوا : تعالوا نحكم أول من يطلع علينا . فطلع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو غلام عليه وشاح نمرة ، فحكموه فأمر بالركن فوضع في ثوب ، ثم أخرج سيد كل قبيلة فأعطاه ناحية من الثوب ، ثم ارتقى هو فرفعوا إليه الركن فكان هو يضعه ، ثم طفق لا يزداد على الألسن إلا رضي حتى دعوه الأمين قبل أن ينزل عليه الوحي ، فطفقوا لا ينحرون جزوراً إلا التمسوه فيدعو لهم فيها " .

وأخرج أبو الوليد الأزرقي في تاريخ مكة عن سعيد بن المسيب قال : قال كعب الأحبار :

كانت الكعبة غثاء على الماء قبل أن يخلق الله السموات والأرض بأربعين سنة ، ومنها دحيت الأرض .

وأخرج الأزرقي عن مجاهد قال : خلق الله هذا البيت قبل أن يخلق شيئاً من الأرضين .

وأخرج الأزرقي عن ابن عباس قال : لما كان العرش على الماء قبل أن يخلق الله السموات والأرض ، بعث الله تعالى ريحاً هفافة فصفقت الريح الماء ، فأبرزت عن حشفة في موضع البيت كأنها قبة ، فدحا الله تعالى الأرض من تحتها ، فمادت ثم مادت فأوتدها الله بالجبال ، فكان أول جبل وضع فيه أبو قبيس ، فلذلك سميت أم القرى .

وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس قال : كان البيت على أربعة أركان في الماء قبل أن يخلق السموات والأرض ، فدحيت الأرض من تحته .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد قال : دحيت الأرض من تحت الكعبة .

وأخرج الأرزقي عن علي بن الحسين . أن رجلاً سأله ما بدء هذا الطواف بهذا البيت ؟ لم كان ، وأنى كان ، وحيث كان ، فقال : اما بدء هذا الطواف بهذا البيت فإن الله تعالى قال للملائكة ﴿ إني جاعل في الأرض خليفة ﴾ [البقرة : 30] فقالت : رب أي خليفة من

غيرنا ممن يفسد فيها ويسفك الدماء ويتحاسدون ويتباغضون ؟ ! أي رب اجعل ذلك الخليفه منا فنحن لا نفسد فيها ولا نسفك الدماء ولا نتباغض ولا نتحاسد ولا نتباغى ، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ونطيعك ولا نعصيك . قال الله تعالى ﴿ إني أعلم ما لا تعلمون ﴾ [البقرة : 30] قال : فظنت الملائكة أن ما قالوا رد على ربهم عز وجل ، وإنه قد : غضب عليهم من قولهم فلاذوا بالعرش ورفعوا رؤوسهم وأشاروا بالأصابع يتضرعون ويبكون اشفاقاً لغضبه ، فطافوا بالعرش ثلاث ساعات ، فنظر الله إليهم فنزلت الرحمة عليهم ، فوضع الله سبحانه تحت العرش بيتاً على أربع أساطين من زبرجد وغشاهن بياقوتة حمراء وسمي البيت الضراح ، ثم قال الله للملائكة : طوفوا بهذا البيت ودعوا العرش ، فطافت الملائكة بالبيت وتركوا العرش فصار أهون عليهم ، وهو البيت المعمور الذي ذكره الله يدخله كل يوم وليلة سبعون ألف ملك لا يعودون فيه أبداً ، ثم أن الله تعالى بعث ملائكته فقال : ابنوا لي بيتاً في الأرض بمثاله وقدره ، فأمر الله سبحانه من في الأرض من خلقه أن يطوفوا بهذا البيت كما تطوف أهل السماء بالبيت المعمور .

وأخرج الأزرقي عن ليث بن معاذ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " هذا البيت خامس خمسة عشر بيتاً ، سبعة منها في السماء وسبعة منها إلى تخوم الأرض السفلى ، واعلاها الذي يلي العرش البيت المعمور ، لكل بيت منها حرم كحرم هذا البيت ، لو سقط

منها بيت لسقط بعضها على بعض إلى تخوم الأرض السفلى ، ولكل بيت من أهل السماء ومن أهل الأرض من يعمر كما يعمر هذا البيت " .

وأخرج الأزرقي عن عمرو بن يسار المكي قال : بلغني أن الله إذا أراد أن يبعث ملكاً من الملائكة لبعض أموره في الأرض استأذنه ذلك الملك في الطواف ببيته ، فهبط الملك مهلاً .

وأخرج ابن المنذر والأزرقي عن وهب بن منبه قال : لما تاب الله على آدم أمره أن يسير إلى مكة فطوى له المفاوز والأرض ، فصار كل مفازة يمر بها خطوة وقبض له ما كان فيها من مخاض أو بحر فجعله له خطوة ، فلم يضع قدمه في شيء من الأرض إلا صار عمراناً وبركة ، حتى انتهى إلى مكة فكان قبل ذلك قد اشتد بكاؤه وحزنه لما كان به من عظم المصيبة ، حتى أن كانت الملائكة لتبكي لبكائه وتحزن لحزنه ، فعزاه الله بخيمة من خيام الجنة ، وضعها له بمكة في موضع الكعبة قبل أن تكون الكعبة .

وتلك الخيمة ياقوتة حمراء من يواقيت الجنة ، فيها ثلاث قناديل من ذهب ، فيها نور يلتهب من نور الجنة ، ونزل معها يومئذ الركن ، وهو يومئذ ياقوتة بيضاء من ربض الجنة ، وكان كرسياً لآدم يجلس عليه ، فلما صار آدم بمكة حرسه الله وحرس له تلك الخيمة بالملائكة ،

كانوا يحرسونها ويذودون عنها سكان الأرض وساكنها يومئذ الجن والشياطين ، ولا ينبغي لهم أن ينظروا إلى شيء من الجنة لأنه من نظر إلى شيء من الجنة وجبت له ، والأرض يومئذ طاهرة نقية طيبة لم تنجس ، ولم يسفك فيها الدم ، ولم يعمل فيها بالخطايا ، فلذلك جعلها الله مسكن الملائكة ، وجعلهم فيها كما كانوا في السماء يسبحون الليل والنهار لا يفترون .

(31/66)

وكان وقوفهم على أعلام الحرم صفاً واحداً مستدبرين بالحرم كله من خلفهم والحرم كله من أمامهم ، ولا يجوزهم جني ولا شيطان من أجل مقام الملائكة حرم الحرم حتى اليوم ، ووضعت أعلامه حيث كان مقام الملائكة ، وحرم الله على حوّاء دخول الحرم والنظر إلى خيمة آدم من أجل خطيئتها التي أخطأت في الجنة ، فلم تنظر إلى شيء من ذلك حتى قبضت ، وأن آدم إذا أراد لقاءها ليلة ليلم بها للولد خرج من الحرم كله حتى يلقاها ، فلم تزل خيمة آدم مكانها حتى قبض الله آدم ورفعها الله إليه ، وبنى بنو آدم بها من بعدها مكانها بيتاً بالطين والحجارة ، فلم يزل معموراً يعمرونه ومن بعدهم حتى كان زمن نوح ، فنسفه الغرق وخفي مكانه ، فلما بعث الله إبراهيم خليله طلب الأساس الأول الذي وضع بنو آدم في موضع الخيمة ، فلم يزل يحفر حتى وصل إلى القواعد التي وضع بنو آدم في موضع الخيمة ،

فلما وصل إليها ظلل الله له مكان البيت بغمامة ، فكانت حفاف البيت الأول ، فلم تزل راكدة على حفافه تظل إبراهيم وتهديه مكان القواعد حتى رفع القواعد قامة ، ثم انكشفت الغمامة فذلك قوله عز وجل

﴿ وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت ﴾ [الحج : 26] للغمامة التي ركدت على الحفاف لتهديه مكان القواعد ، فلم يزل يحمد الله مذ رفعه الله معموراً .

قال وهب بن منبه : وقرأت في كتاب من كتب الأول ذكر فيه أمر الكعبة ، فوجد فيه أن ليس من ملك بعثه الله إلى الأرض إلا أمره بزيارة البيت ، فينقض من عند العرش محرماً ملبياً حتى يستلم الحجر ، ثم يطوف سبعاً بالبيت ويصلي في جوفه ركعتين ، ثم يصعد .

وأخرج الجندي في فضائل مكة عن وهب بن منبه قال : ما بعث الله ملكاً قط ولا سحابة ، فيمر حيث بعث حتى يطوف بالبيت ثم يمضي حيث أمر .

وأخرج البيهقي في الدلائل عن ابن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " بعث الله جبريل إلى آدم وحواء فقال لهما : ابنيا بيتاً . فخط لهما جبريل ، فجعل آدم يحفر وحواء تنقل حتى أجابه الماء نودي من تحته : حسبك يا آدم . فلما بنياه أوحى الله إليه : أن يطوف

به ، وقيل له : أنت أول الناس وهذا أول بيت ، ثم تناسخت القرون حتى حجة نوح ، ثم تناسخت القرون حتى رفع إبراهيم القواعد منه " .

وأخرج ابن إسحاق والأزرقي والبيهقي في الدلائل عن عروة قال : ما من نبي إلا وقد حج البيت إلا ما كان من هود وصالح ، ولقد حجه نوح فلما كان في الأرض ما كان من الغرق أصاب البيت ما أصاب الأرض ، وكان البيت ربوة حمراء فبعث الله عز وجل هوداً ، فتشاغل بأمر قومه حتى قبضه الله إليه ، فلم يحجه حتى مات ، فلما بوأه الله لإبراهيم عليه السلام حجه ، ثم لم يبق نبي بعده إلا حجه .

وأخرج أحمد في الزهد عن مجاهد قال : حج البيت سبعون نبياً ، منهم موسى بن عمران عليه عباءتان قطوانيتان ، ومنهم يونس يقول : لبيك كاشف الكرب .

وأخرج الأزرقي وأبو الشيخ في العظمة وابن عساكر عن ابن عباس قال : لما أهبط الله آدم إلى الأرض من الجنة كان رأسه في السماء ورجلاه في الأرض ، وهو مثل الفلك من رعدته ، فطأطأ الله منه إلى ستين ذراعاً فقال : يا رب ما لي لا أسمع أصوات الملائكة ولا حسهم ؟ قال : خطيئتك يا آدم ولكن اذهب فابن لي بيتاً فطف به ، واذكرني حوله كنحو ما رأيت

الملائكة تصنع حول عرشي ، فأقبل آدم يتخطى فطويت له الأرض ، وقبض الله له المفاوز فصارت كل مفازة يمر بها خطوة ، وقبض الله ما كان فيها من مخاض أو بحر ، فجعله له خطوة ولم يقع قدمه في شيء من الأرض إلا صار عمراناً وبركة ، حتى انتهى إلى مكة فبنى البيت الحرام ، وأن جبريل عليه السلام ضرب بجناحه الأرض ، فأبرز عن أس ثابت على الأرض السابعة ، فقذفت فيه الملائكة الصخر ، ما يطيق الصخرة منها ثلاثون رجلاً ، وأنه بناه من خمسة أجبل : من لبنان ، وطورزيتا ، وطورسينا ، والجودي ، وحراء ، حتى استوى على وجه الأرض ، فكان أول من أسس البيت وصلى فيه وطاف به آدم عليه السلام ، حتى بعث الله الطوفان فكان غضباً ورجساً ، فحيثما انتهى الطوفان ذهب ريح آدم عليه السلام ، ولم يقرب الطوفان أرض السند والهند ، فدرس موضعه الطوفان حتى بعث الله إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، فرفعا قواعده وأعلامه ، ثم بنته قريش بعد ذلك وهو بجذاء البيت المعمور ، لو سقط ما سقط إلا عليه .

وأخرج الأزرقي عن ابن عباس قال : لما أهبط الله آدم إلى الأرض أهبطه إلى موضع البيت الحرام وهو مثل الفلك من رعدته ، ثم أنزل عليه الحجر الأسود وهو يتلألأ من شدة بياضه ، فأخذه آدم فضمه إليه آنساً به ، ثم نزل عليه القضاء فقيل له : تخط يا آدم ، فتخطى فإذا هو بأرض الهند أو السند فمكث بذلك ما شاء الله ، ثم استوحش إلى الركن فقيل له :

احجج . فحج فلقيته الملائكة فقالوا : برّ حجك يا آدم ، ولقد حججنا هذا البيت قبلك بألفي عام .

وأخرج الأزرقي عن أبان . أن البيت أهبط ياقوتة واحدة ، أو ذرة واحدة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : كان البيت من ياقوتة حمراء ، ويقولون : من زمردة خضراء .

وأخرج الأزرقي عن عطاء بن أبي رباح قال : لما بنى ابن الزبير الكعبة أمر العمال أن يبلغوا في الأرض ، فبلغوا صخراً أمثال الإبِل الخلف قال زيد : فاحفروا فلما زادوا بلغوا هواء من نار يلقاهم فقال : مالكم ؟ ! قالوا : لسنا نستطيع أن نزيد رأينا أمراً عظيماً ، فقال لهم : ابنوا عليه . قال عطاء : يروون أن ذلك الصخر مما بنى آدم عليه السلام .

وأخرج الأزرقي عن عبيد الله بن أبي زياد قال : لما أهبط الله آدم من الجنة قال : يا آدم ابن لي بيتاً بحذاء بيتي الذي في السماء ، تتعبد فيه أنت وولدك كما يتعبد ملائكتي حول عرشي ، فهبطت عليه الملائكة فحفر حتى بلغ الأرض السابعة ، فقذف فيه الملائكة الصخر حتى أشرف على وجه الأرض ، وهبط آدم بياقوتة حمراء مجوفة لها أربعة أركان بيض فوضعها

على الأساس ، فلم تزل الياقوتة كذلك حتى كان زمن الغرق فرفعها الله .

وأخرج الأزرقي عن عثمان بن ساج قال : أخبرني سعيد أن آدم عليه السلام حج على رجليه سبعين حجة ماشياً ، وأن الملائكة لقيته بالمأزمين فقالوا : برَّ حجك يا آدم ، أما أنا قد حججنا قبلك بألفي عام .

وأخرج الأزرقي عن مقاتل يرفع الحديث إلى النبي صلى الله عليه وسلم . أن آدم عليه السلام قال : أي رب أني أعرف شقوتي لا أرى شيئاً من نورك بعد ، فأنزل الله عليه البيت الحرام على عرض البيت الذي في السماء وموضعه من ياقوت الجنة ، ولكن طوله ما بين السّماء والأرض ، وأمره أن يطوف به فأذهب عنه الهم الذي كان قبل ذلك ، ثم رفع على عهد نوح عليه السلام .

وأخرج الأزرقي من طريق ابن جريج عن مجاهد قال : بلغني أنه لما خلق الله السموات والأرض كان أوّل شيء وضعه فيها البيت الحرام ، وهو يومئذ ياقوتة حمراء جوفاء لها بابان أحدهما شرقي والآخر غربي ، فجعله مستقبل البيت المعمور ، فلما كان زمن الغرق رفع في ديباجتين فهو فيهما إلى يوم القيامة ، واستودع الله الركن أبا قبيس قال ابن عباس : كان

ذهباً فرفع في زمان الغرق. قال ابن جريج: قال جويبر: كان بمكة البيت المعمور، فرفع زمن الغرق فهو في السماء.

وأخرج الأزرقي عن عروة بن الزبير قال: بلغني أن البيت وضع لآدم عليه السّلام يطوف به ويعبد الله عنده، وأن نوحاً قد حجه وجاءه وعظمه قبل الغرق، فلما أصاب الأرض من الغرق حين أهلك الله قوم نوح أصاب البيت ما أصاب الأرض، فكان ربوة حمراء معروف مكانه، فبعث الله هوداً إلى عاد فتشاغل بأمر قومه حتى هلك ولم يحجه، ثم بعث الله صالحاً إلى ثمود فتشاغل حتى هلك ولم يحجه، ثم بوّأه الله لإبراهيم عليه السلام فحجه وعلم مناسكه ودعا إلى زيارته، ثم لم يبعث الله نبياً بعد إبراهيم إلا حجه.

وأخرج الأزرقي عن أبي قلابة قال: قال الله لآدم: إني مهبط معك بيتي يطاف حوله كما يطاف حول عرشي، ويصلى عنده كما يصلى عند عرشي، فلم يزل حتى كان زمن الطوفان، فرفع حتى بوّئ لإبراهيم مكانه فبناه من خمسة جبال. من حراء، وثبير، ولبنان، والطور، والجبل الأحمر.

وأخرج الجندي عن معمر قال: إن سفينة نوح طافت بالبيت سبعاً حتى إذا غرق قوم نوح رفعه وبقي أساسه، فبوّأه الله لإبراهيم فبناه بعد ذلك. وذلك قوله تعالى ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ﴾ واستودع الركن أبا قبيس حتى إذا كان بناء

إبراهيم نادى أبو قبيس إبراهيم فقال يا إبراهيم : هذا الركن فجاء فحفر عنه فجعله في البيت حين بناه إبراهيم عليه السلام .

(36/66)

وأخرج الأصبهاني في ترغيبه وابن عساكر عن أنس . أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " أوحى الله إلى آدم حج هذا البيت قبل أن يحدث بك حدث . قال : وما يحدث علي يا رب ؟ قال : ما لا تدري وهو الموت . قال : وما الموت ؟ قال : سوف تذوق . قال : ومن أستخلف في أهلي ؟ قال : أعرض ذلك على السموات والأرض والجبال ، فعرض على السموات فأبت ، وعرض على الأرض فأبت ، وعرض على الجبال فأبت ، وقبله ابنه قاتل أخيه ، فخرج آدم من أرض الهند حاجاً ، فما نزل منزلاً أكل فيه وشرب إلا صار عمراناً بعده ، وقرى حتى قدم مكة فاستقبلته الملائكة بالبطحاء ، فقالوا : السلام عليك يا آدم ، برّ حجك . أما إنا قد حججنا هذا البيت قبلك بألفي عام . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " والبيت يومئذ ياقوتة حمراء جوفاء لها بابان ، من يطوف يرى من جوف البيت ، ومن في جوف البيت يرى من يطوف " فقضى آدم نسكه ، فأوحى الله إليه : يا آدم قضيت نسكك ؟ قال : نعم ، يا رب قال : فسل حاجتك تعط . قال : حاجتي أن تغفر لي

ذنبي وذنب ولدي . قال : أما ذنبك يا آدم فقد غفرناه حين وقعت بذنبك ، وأما ذنب ولدك فمن عرفني وآمن بي وصدق رسلي وكتابي غفرنا له ذنبه " .

وأخرج ابن خزيمة وأبو الشيخ في العظمة والديلمي عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن آدم أتى هذا البيت ألف أتية ، لم يركب قط فيهن من الهند على رجليه ، من ذلك ثلثمائة حجة وسبعمائة عمرة ، وأول حجة حجها آدم وهو واقف بعرفات أتاه جبريل فقال : يا آدم برّ نسكك ، أما إنا قد طفنا بهذا البيت قبل أن تخلق بخمسين ألف سنة " .

وأخرج الطبراني عن ابن عباس قال : أول من طاف بالبيت الملائكة ، وأن ما بين الحجر إلى الركن اليماني لقبور من قبور الأنبياء ، كان النبي منهم عليهم السلام ، إذا آذاه قومه خرج من بين أظهرهم فعبد الله فيها حتى يموت .

وأخرج الأزرقي والبيهقي في شعب الإيمان عن وهب بن منبه " أن آدم لما أهبط إلى الأرض استوحش فيها لما رأى من سعتها ، ولم ير فيها أحداً غيره فقال : يا رب أما لأرضك هذه عامر يسبحك فيها ويقدس لك غيري ؟ ! قال الله : إني سأجعل فيها من ذريتك من يسبح

بحمدي ويقدس لي ، وسأجعل فيها بيوتاً ترفع لذكري فيسبح فيها خلقي ، وسأبوّئك فيها بيتاً أختاره لنفسي ، وأخصه بكرامتي ، وأوثره على بيوت الأرض كلها باسمي ، واسميه بيتي ، أنطقه بعظمتي ، وأحوزه بحرمتي ، واجعله أحق البيوت كلها ، وأولاها بذكري ، وأضعه في البقعة المباركة التي اخترت لنفسي ، فإني اخترت مكانه يوم خلقت السموات والأرض ، وقبل ذلك قد كان بغيتي فهو صفوتي من البيوت ولست أسكنه ، وليس ينبغي أن أسكن البيوت ، ولا ينبغي لها أن تحملني ، اجعل ذلك البيت لك ومن بعدك حرماً وأمنا ، احرم بحرمته ما فوقه وما تحته وما حوله ، حرمه بحرمتي فقد عظم حرمتي ، ومن أجله فقد أباح حرمتي ، من أمن أهله استوجب بذلك أماني ، ومن أخافهم فقد أخفرني في ذمتي ، ومن عظم شأنه فقد عظم في عيني ، ومن تهاون به صغر عندي .

(38/66)

ولكل ملك حيازة ، وبطن مكة حوزتي التي اخترت لنفسي دون خلقي ، فأنا الله ذو بكة ، أهلها خفرتي وجيران بيتي ، وعمارها وزوّارها وفدي وأضيافي وضماني وذمتي وجواري ، أجعله أول بيت وضع للناس ، وأعمره بأهل السماء وأهل الأرض يأتونه أفواجاً شعثاً غبراً على كل ضامر يأتين من كل فج عميق ، يعجون بالتكبير عجيجاً ، يرجون

بالتلبية رجيجاً ، فمن اعتمره وحق الكريم أن يكرم وفده وأضيافه وزوّاره ، وأن يسعف كل واحد منهم بحاجته تعمره يا آدم ما كنت حياً ، ثم يعمره من بعدك الأمم والقرون والأنبياء من ولدك ، أمة بعد أمة ، وقرناً بعد قرن ، ونبياً بعد نبي ، حتى ينتهي ذلك إلى نبي من ولدك يقال له محمد وهو خاتم النبيين ، فاجعله من عماره وسكانه وحماته وولاته وحجابه وسقاته ، يكون أميني عليه ما كان حياً ، فإذا انقلب إليّ وجدني قد ادخرت له من أجره ونصيبه ما يتمكن به من القربة إلي والوسيلة عندي ، وأفضل المنازل في دار المقامة .

وأجعل اسم ذلك البيت وذكره وشرفه ومجده وسناه مكرمة لنبي من ولدك يكون قبيل هذا النبي وهو أبوه يقال له إبراهيم ، أرفع له قواعده ، وأقضي على يديه عمارته ، وأنيط له سقايته ، وأريه حله وحرمه ومواقفه ، وأعلمه مشاعره ومناسكه ، واجعله أمة واحدة قانتاً بأمري داعياً إلى سبيلي ، واجتبيه وأهديه إلى صراط مستقيم . أبتليه فيصبر ، وأعافيه فيشكر ، وآمره فيفعل ، وينذر لي فيفي ، ويعدني فينجز ، أستجيب دعوته في ولده وذريته من بعده ، وأشفعه فيهم وأجعلهم أهل ذلك البيت وحماته وسقاته وخدمه وخزنته وحجابه ، حتى يبتدعوا ويغيروا ويبدلوا .

فإذا فعلوا ذلك فأنا أقدر القادرين على أن أستبدل من أشاء بمن أشاء ، وأجعل إبراهيم إما ذلك وأهل تلك الشريعة ، يأتمُّ به من حضر تلك المواطن من جميع الإِنس والجن ، يطأون فيها آثاره ، ويتبعون فيها سنته ، ويقتدون فيها بهديه ، فمن فعل ذلك منهم أوفى بنذره ، واستكمل نسكه ، وأصاب بغيته ، ومن لم يفعل ذلك منهم ضيع نسكه ، وأخطأ بغيته ، ولم يوف بنذره . فمن سأل عني يومئذ في تلك المواطن أين أنا ؟ فأنا مع الشعث الغبر الموبقين الموفين بنذرهم ، المستكملين مناسكهم ، المتبتلين إلى ربهم الذي يعلم ما يبدون وما يكتمون . وأخرجه الجندي عن عكرمة ووهب بن منبه رفعاه إلى ابن عباس بمثله سواء "

.

وأخرج ابن أبي شيبة والبيهقي في شعب الإِيمان عن أنس بن مالك " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : كان موضع البيت في زمن آدم عليه السلام شبراً أو أكثر علماً ، فكانت الملائكة تحج إليه قبل آدم ، ثم حج فاستقبلته الملائكة قالوا : يا آدم من أين جئت ؟ قال : حججت البيت . فقالوا : قد حجته الملائكة قبلك بألفي عام " .

وأخرج البيهقي عن عطاء قال : أهبط آدم بالهند فقال : يا رب ما لي لا أسمع صوت الملائكة كما كنت أسمعها في الجنة ؟ ! فقال له : لخطيئتك يا آدم ، فانطلق فابن لي بيتاً

فتطوّف به كما رأيتهم يتطوّفون . فانطلق حتى أتى مكة فبنى البيت ، فكان موضع قدمي آدم قرى وأنهاراً وعمارة وما بين خطاه مفاوز ، فحج آدم البيت من الهند أربعين سنة .

(40/66)

وأخرج البيهقي عن وهب بن منبه قال : لما تاب الله على آدم وأمره أن يسير إلى مكة فطوى له الأرض حتى انتهى إلى مكّة ، فلقيته الملائكة بالأبطح فرحبت به وقالت له : يا آدم إنا لننظرك برّ حجك ، أما إنَّا قد حججنا هذا البيت قبلك بألفي عام ، وأمر الله جبريل فعلمه المناسك والمشاعر كلها ، وانطلق به حتى أوقفه في عرفات والمزدلفة وبمنى وعلى الجمار ، وأنزل عليه الصلاة والزكاة والصوم والاغتسال من الجنابة . قال : وكان البيت على عهد آدم ياقوتة حمراء يلتهب نوراً من ياقوت الجنة ، لها بابان شرقي وغربي من ذهب من تبر الجنة ، وكان فيها ثلاث قناديل من تبر الجنة ، فيها نور يلتهب بابها بنجوم من ياقوت أبيض ، والركن يومئذ نجم من نجومها ياقوتة بيضاء ، فلم يزل على ذلك حتى كان في زمان نوح وكان الغرق ، فرفع من الغرق فوضع تحت العرش ومكثت الأرض خراباً ألفي سنة .

فلم يزل على ذلك حتى كان إبراهيم فأمره أن يبني بيتي ، فجاءت السكينة كأنها سحابة فيها رأس تتكلم ، لها وجه كوجه الإِنسان ، فقالت : يا إبراهيم خذ قدر ظلي فابن عليه لا

تزد شيئاً ولا تنقص . فأخذ إبراهيم قدر ظلها ثم بنى هو وإسمعيل البيت ، ولم يجعل له سقفاً فكان الناس يلقون فيه الحلي والمتاع ، حتى إذا كاد أن يمتلئ أنفذ له خمس نفر ليسرقوا ما فيه ، فقام كل واحد على زاوية واقتحم الخامس فسقط على رأسه فهلك ، وبعث الله عند ذلك حية بيضاء سوداء الرأس والذنب ، فحرست البيت خمسمائة عام لا يقربه أحد إلا أهلكته ، فلم يزل كذلك حتى بنته قريش .

وأخرج الأزرقي والبيهقي عن عطاء . أن عمر بن الخطاب سأل كعباً فقال أخبرني عن هذا البيت ما كان أمره ؟ فقال : إن هذا البيت أنزله الله من السماء ياقوتة حمراء مجوّفة مع آدم ، فقال : يا آدم إن هذا بيتي فطف حوله وصلِّ حوله كما رأيت ملائكتي تطوف حول عرشي وتصلي ، ونزلت معه الملائكة فرفعوا قواعده من حجارة ، ثم وضع البيت على القواعد ، فلما أغرق الله قوم نوح رفعه الله إلى السماء وبقيت قواعده .

وأخرج البيهقي من طريق عطاء بن أبي رباح عن كعب الأحبار قال : شكت الكعبة إلى ربها وبكت إليه ، فقالت : أي رب قلَّ زوّاري وجفاني الناس . . . ! فقال الله لها : " إني محدث لك انجيلاً ، وجاعل لك زوّاراً يحنون إليك حنين الحمامة إلى بيضاتها " .

وأخرج الأزرقي والبيهقي من طريق عبد الرحمن بن سابط عن عبد الله بن ضمرة السلولي قال : ما بين المقام إلى الركن إلى بئر زمزم إلى الحجر قبر سعة وسبعين نبياً ، جاؤوا حاجين فماتوا فقبروا هنالك .

وأخرج البيهقي عن ابن عباس قال : أقبل تبّع يريد الكعبة ، حتى إذا كان بكراع الغميم بعث الله عليه ريحاً لا يكاد القائم يقوم إلا عصفته ، وذهب القائم ليقعد فيصرع وقامت عليهم ، ولقوا منها عناء ، ودعا تبع حبريه فسألهما ما هذا الذي بعث عليّ ؟ قالا : أو تؤمننا ؟ قال : أنتم آمنون . قالا : فإنك تريد بيتاً يمنعه الله ممن أراده . قال : فما يذهب هذا عني ؟ قالا : تجرد في ثوبين ، ثم تقول لبيك لبيك ، ثم تدخل فتطوف بذلك البيت ولا تبيح أحداً من أهله . قال : فإن اجمعت على هذا ذهبت هذه الريح عني ؟ قالا : نعم . فتجرد ثم لبى . قال ابن عباس : فأدبرت الريح كقطع الليل المظلم .

وأخرج البيهقي عن ابن عباس قال : لما نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الكعبة فقال " مرحباً بك من بيت ، ما أعظمك وأعظم حرمتك ، وللمؤمن أعظم عند الله حرمة منك " .

وأخرج الطبراني في الأوسط عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي صلى الله عليه وسلم " أنه نظر إلى الكعبة فقال : لقد شرفك الله وكرمك ، والمؤمن أعظم حرمة منك " .

وأخرج الطبراني في الأوسط عن جابر قال " لما افتتح النبي صلى الله عليه وسلم مكة استقبلها بوجهه ، وقال : أنت حرام ما أعظم حرمتك ، وأطيب ريحك ، وأعظم حرمة عند الله منك المؤمن " .

وأخرج ابن أبي شيبة والأزرقي عن مكحول " أن النبي صلى الله عليه وسلم لما رأى البيت حين دخل مكة رفع يديه ، وقال : اللهم زد هذا البيت تشريفاً وتعظيماً وتكريماً ومهابة ، وزد من شرفه وكرمه ممن حجه واعتمره تشريفاً وتعظيماً وتكريماً وبراً " .

وأخرج الشافعي في الأم عن ابن جريج " أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا رأى البيت رفع يديه ، وقال : اللهم زد هذا البيت تشريفاً وتكريماً وتعظيماً ومهابة ، وزد من شرفه وكرمه ممن حجه أو اعتمره تشريفاً وتكريماً وتعظيماً وبراً " .

وأخرج الطبراني في الأوسط عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن للكعبة لساناً وشفتين ، وقد اشتكت فقالت : يا رب قل عوّادي وقل زوّاري . فأوحى الله : أني خالق بشراً خشعاً سجداً ، يحنون إليك كما تحن الحمامة إلى بيضها " .

وأخرج الأزرقي عن جابر الجزري قال : جلس كعب الأحبار أو سلمان الفارسي بفناء

البيت فقال : شكت الكعبة إلى ربها ما نصب حولها من الأصنام وما استقسم به من الأزلام ، فأوحى الله إليها : أني منزل نوراً ، وخالق بشراً يحنون إليك حنين الحمام إلى بيضه ، ويدفون إليك دفيف النسور . فقال له قائل : وهل لها لسان ؟ قال : نعم ، وأذنان وشفتان .

وأخرج الأزرقي عن ابن عباس . أن جبريل وقف على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه عصابة خصراء قد علاها الغبار ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم " ما هذا الغبار الذي أرى على عصابتك ؟ قال : إني زرت البيت فازدحمت الملائكة على الركن ، فهذا الغبار الذي ترى مما تثير بأجنحتها " .

وأخرج الأزرقي عن أبي هريرة قال : حج آدم عليه السلام فقضى المناسك ، فلما حج قال : يا رب إن لكل عامل أجراً قال الله تعالى : أما أنت يا آدم فقد غفرت لك ، وأما ذريتك فمن جاء منهم هذا البيت فباء بذنبه غفرت له . فحج آدم عليه السلام فاستقبلته الملائكة بالردم ، فقالت : بر حجك يا آدم ، قد حججنا هذا البيت قبلك بألفي عام . قال : فما كنتم تقولون حوله ؟ قالوا : كنا نقول : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر . قال

: فكان آدم إذا طاف يقول هؤلاء الكلمات ، فكان طواف آدم سبع أسابيع بالليل وخمسة أسابيع بالنهار .

وأخرج الأزرقي والجندي وابن عساكر عن ابن عباس قال : حج آدم فطاف بالبيت سبعاً ، فلقيته الملائكة في الطواف فقالوا : بر حجك يا آدم ، أما إنا قد حججنا هذا البيت قبلك بألفي عام . قال : فماذا كنتم تقولون في الطواف ؟ قالوا : كنا نقول : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر . قال آدم : فزيدوا فيها ولا حول ولا قوة إلا بالله ، فزادت الملائكة فيها ذلك ، ثم حج إبراهيم بعد بنائه البيت ، فلقيته الملائكة في الطواف فسلموا عليه فقال لهم : ماذا كنتم تقولون في طوافكم ؟ قالوا : كنا نقول قبل أبيك آدم سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر فاعلمناه ذلك ، فقال : زيدوا ولا حول ولا قوّة إلا بالله . فقال إبراهيم : زيدوا فيها العلي العظيم . فقالت الملائكة ذلك .

وأخرج الجندي والديلمي عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "كان البيت قبل هبوط آدم ياقوتة من يواقيت الجنة ، وكان له بابان من زمرد أخضر ، باب شرقي وباب غربي ، وفيه قناديل من الجنة ، والبيت المعمور الذي في السماء يدخله كل يوم سبعون

ألف ملك لا يعودون فيه إلى يوم القيامة حذاء الكعبة الحرام ، وأن الله عز وجل لما أهبط آدم إلى موضع الكعبة وهو مثل الفلك من شدة رعدته ، وأنزل عليه الحجر الأسود وهو يتلألأ كأنه بيضاء فأخذه آدم فضمه إليه استئناساً ، ثم أخذ الله من بني آدم ميثاقهم فجعله في الحجر الأسود ، ثم أنزل على آدم العصا ، ثم قال : يا آدم تخط . فتخطى فإذا هو بأرض الهند ، فمكث هناك ما شاء الله ثم استوحش إلى البيت ، فقيل له : احجج يا آدم . فأقبل يتخطى ، فصار كل موضع قدم قرية وما بين ذلك مفازة حتى قدم مكة ، فلقيته الملائكة فقالوا : بر حجك يا آدم ، لقد حججنا هذا البيت قبلك بألفي عام . قال : فما كنتم تقولون حوله ؟ قالوا : كنا نقول : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ، وكان آدم إذا طاف بالبيت قال هؤلاء الكلمات ، وكان آدم يطوف سبعة أسابيع بالنهار " .

قال آدم : يا رب اجعل لهذا البيت عماراً يعمرونه من ذريتي ، فأوحى الله تعالى أني معمره نبياً من ذريتك اسمه إبراهيم ، اتخذه خليلاً أقضي على يديه عمارته ، وأنيط له سقايته ، وأريه حله وحرمه ومواقفه ، واعلمه مشاعره ومناسكه . وقال النبي صلى الله عليه وسلم " إن آدم سأل ربه فقال : يا رب أسألك من حج هذا البيت من ذريتي لا يشرك بك شيئاً أن تلحقه بي في الجنة . فقال الله تعالى : يا آدم من مات في الحرم لا يشرك بي شيئاً بعثته آمنا يوم القيامة " .

وأخرج الجندي عن مجاهد . أن آدم طاف بالبيت ، فلقيته الملائكة فصافحته وسلمت عليه ، وقالت : بر حجك يا آدم ، طف بهذا البيت فإنَّا قد طفناه قبلك بألفي عام . قال لهم آدم : فما كنتم تقولون في طوافكم ؟ قالوا : كنا نقول : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر . قال آدم : وأنا أزيد فيها ولا حول ولا قوّة إلا بالله .

وأخرج الأزرقي عن مجاهد قال : كان موضع الكعبة قد خفي ودرس زمان الغرق فيما بين نوح وإبراهيم عليهما السلام ، وكان موضعه أكمة حمراء مدرة لا تعلوها السيول ، غير أن الناس يعلمون أن موضع البيت فيما هنالك ولا يثبت موضعه ، وكان يأتيه المظلوم والمتعوذ من أقطار الأرض ويدعو عنده المكروب ، فقل من دعا هنالك إلا استجيب له ، فكان الناس يحجون إلى موضع البيت حتى بوأ الله مكانه لإبراهيم عليه السلام ، لما أراد من عمارة بيته واظهار دينه وشعائره ، فلم يزل منذ اهبط الله آدم إلى الأرض معظماً محرماً بيته تتناسخه الأمم والملل أمة بعد أمة وملة بعد ملة . قال : وقد كانت الملائكة تحجه قبل ذلك .

وأخرج الأزرقي عن عثمان بن ساج قال : بلغنا – والله أعلم – أن إبراهيم خليل الله عرج به إلى السماء ، فنظر إلى الأرض مشارقها ومغاربها فاختار موضع الكعبة ، فقالت له الملائكة : يا خليل الله اخترت حرم الله في الأرض ، فبناه من حجارة سبعة أجبل ويقولون

خمسة ، فكانت الملائكة تأتي بالحجارة إلى إبراهيم عليه السلام من تلك الجبال .

وأخرج الأزرقي عن مجاهد قال : أقبل إبراهيم عليه السلام والسكينه والصرد والملك من الشام ، فقالت السكينة : يا أبراهيم ربض على البيت ، فلذلك لا يطوف بالبيت ملك من جبابرة الملوك ، ولا اعرابي نافر إلا وعليه السكينة والوقار .

وأخرج الأزرقي عن بشر بن عاصم قال : أقبل إبراهيم من أرمينية معه السكينة والملك والصرد دليلاً ، به يتبوّأ إبراهيم كما تتبوّأ العنكبوت بيتها ، فرفع صخرة فما رفعها عنه إلا ثلاثون رجلاً ، فقالت السكينة : ابن عليّ . فلذلك لا يدخله أعرابي نافر ولا جبار إلا رأيت عليه السكينة .

وأخرج الأزرقي عن علي بن أبي طالب قال : اقبل إبراهيم والملك والسكينة والصرد دليلاً ، حتى تبوّأ البيت كما تبوّأت العنكبوت بيتها ، فحفر ما برز عن أسها أمثال خلف الإبِل لا يحرك الصخرة إلا ثلاثون رجلاً ، ثم قال الله لإبراهيم : قم فابن لي بيتاً . قال : يا رب وأين ؟ قال : سنريك . فبعث الله سحابة فيها رأس يكلم إبراهيم ، فقال : يا إبراهيم إن ربك يأمرك أن تخط قدر هذه السحابة ، فجعل ينظر إليها ويأخذ قدرها . فقال له الرأس : أقد

فعلت ؟ قال : نعم . فارتفعت السحابة ، فأبرز عن أس نابت من الأرض ، فبناه إبراهيم عليه السلام .

وأخرج الأزرقي عن قتادة في قوله ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت ﴾ قال : ذكر لنا أنه بناه من خمسة أجبل : من طور سينا ، وطور زيتا ، ولبنان ، والجودي ، وحراء ، وذكر لنا أن قواعده من حراء .

وأخرج الأزرقي عن الشعبي قال : لما أمر إبراهيم أن يبني البيت وانتهى إلى موضع الحجر قال لإسماعيل : ائتني بحجر ليكون علماً للناس يبتدئون منه الطواف ، فأتاه بحجر فلم يرضه ، فأتى إبراهيم بهذا الحجر ثم قال : أتاني به من لم يكلني إلى حجرك .

وأخرج الأزرقي عن عبد الله بن عمرو أن جبريل عليه السلام هو الذي نزل عليه بالحجر من الجنة ، وأنه وصعه حيث رأيتم ، وأنكم لن تزالوا بخير ما دام بين ظهرانيكم ، فتمسكوا به ما استطعتم فإنه يوشك أن يجيء فيرجع به إلى حيث جاء به .

وأخرج أحمد والترمذي وصححه وابن خزيمة عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " نزل الحجر الأسود من الجنة وهو أشد بياضاً من اللبن ، فسوّدته خطايا بني آدم " .

وأخرج البزار عن أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " الحجر الأسود من حجارة الجنة " .

وأخرج الأزرقي والجندي عن مجاهد قال : الركن من الجنة ، ولو لم يكن من الجنة لفني .

وأخرج الأزرقي والجندي عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

" لولا ما طبع من الركن من أنجاس الجاهلية وأرجاسها وأيدي الظلمة والأثمة لاستشفي به من كل عاهة ، ولألقاه اليوم كهيئته يوم خلقه الله ، وإنما غيره الله بالسواد لئلا ينظر أهل الدنيا إلى زينة الجنة ، وأنه لياقوتة بيضاء من ياقوت الجنة ، فوضعه الله يومئذ لآدم حين أنزله في موضع الكعبة قبل أن تكون الكعبة ، والأرض يومئذ طاهرة لم يعمل فيها بشيء من المعاصي وليس لها أهل ينجسونها ، ووضع لها صفاً من الملائكة على أطراف الحرم يحرسونه من جان الأرض ، وسكانها يومئذ الجن وليس ينبغي لهم أن ينظروا إليه لأنه من الجنة ، ومن نظر إلى الجنة دخلها ، فهم على أطراف الحرم حيث أعلامه اليوم محدقون به من كل جانب بينه وبين الحرم " .

وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن ابن عباس . أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " إن البيت الذي بوأه الله لآدم كان من ياقوتة حمراء لها بابان أحدهما شرقي والآخر غربي ، فكان فيها قناديل من نور الجنة ، آنيتها الذهب منظومة بنجوم من ياقوت أبيض ، والركن

يومئذ نجم من نجومه ، ووضع لها صفاً من الملائكة على أطراف الحرم ، فهم اليوم يذبون عنه لأنه شيء من الجنة ، لا ينبغي أن ينظر إليه إلا من وجبت له الجنة ومن نظر إليها دخلها ، وإنما سمي الحرم لأنهم لا يجاوزونه ، وأن الله وضع البيت لآدم حيث وضعه والأرض يومئذ طاهرة لم يعمل عليها شيء من المعاصي ، وليس لها أهل ينجسونها ، وكان سكانها الجن "

.

وأخرج الجندي عن ابن عباس قال : الحجر الأسود يمين الله في الأرض ، فمن لم يدرك بيعة رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستلم الحجر فقد بايع الله ورسوله .

وأخرج الأزرقي والجندي عن ابن عباس قال : إن هذا الركن الأسود يمين الله في الأرض يصافح به عباده .

وأخرج الأزرقي عن ابن عباس قال : ليس في الأرض من الجنة إلا الركن الأسود والمقام ، فإنهما جوهرتان من جوهر الجنة ، ولولا ما مسهما من أهل الشرك ما مسهما ذو عاهة إلا شفاه الله تعالى .

وأخرج الأزرقي عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : نزل الركن وأنه لأشد بياضاً من

الفضة ، ولولا ما مسه من أنجاس الجاهلية وأرجاسهم ما مسه ذو عاهة إلا برئ .

وأخرج الأزرقي عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " أكثروا استلام هذا الحجر فإنكم توشكون أن تفقدوه ، بينما الناس يطوفون به ذات ليلة إذ أصبحوا وقد فقدوه ، إن الله لا ينزل شيئاً من الجنة إلا أعاده فيها قبل يوم القيامة " .

وأخرج الأزرقي عن يوسف بن ماهك قال : إن الله جعل الركن عيد أهل هذه القبلة كما كانت المائدة عيداً لبني إسرائيل ، وإنكم لن تزالوا بخير ما دام بين ظهرانيكم ، وإن جبريل عليه السلام وضعه في مكانه .

وأخرج الأزرقي عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : إن الله يرفع القرآن من صدور الرجال والحجر الأسود قبل يوم القيامة .

وأخرج الأزرقي عن مجاهد قال : كيف بكم إذا أسري بالقرآن فرفع من صدوركم ، ونسخ من قلوبكم ، ورفع الركن ؟

وأخرج الأزرقي عن عثمان بن ساج قال : بلغني أن النبي صلى الله عليه وسلم قال " أوّل ما يرفع الركن والقرآن ورؤيا النبي في المنام " .

وأخرج ابن أبي شيبة والطبراني عن عبد الله بن عمرو قال : حجوا هذا البيت واستلموا هذا الحجر ، فوالله ليرفعن أو ليصيبنه أمر من السماء ، إن كانا لحجرين أهبطا من الجنة

فرفع أحدهما وسيرفع الآخر ، وإن لم يكن كما قلت فمن مر على قبري فليقل هذا قبر عبد الله بن عمرو الكذاب " .

وأخرج الحاكم وصححه والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عمر قال : " استقبل النبي صلى الله عليه وسلم الحجر فاستلمه ، ثم وضع شفتيه عليه يبكي طويلاً ، فالتفت فإذا بعمر يبكي فقال : يا عمر ههنا تسكب العبرات " .

وأخرج الطبراني عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " الحجر الأسود من حجارة الجنة ، وما في الأرض من الجنة غيره وكان أبيض كالمهاة ، ولولا ما مسه من رجس الجاهلية ما مسه ذو عاهة إلا برىء " .

وأخرج الطبراني عن ابن عمر قال : نزل الركن الأسود من السماء فوضع على أبي قبيس كأنه مهاة بيضاء ، فمكث أربعين سنة ثم وضع على قواعد إبراهيم .

وأخرج الأزرقي عن عكرمة قال : الركن ياقوتة من يواقيت الجنة وإلى الجنة مصيره . قال : وقال ابن عباس : لولا ما مسه من أيدي الجاهلية لأبرأ الأكمه والأبرص .

وأخرج الأزرقي عن ابن عباس قال : أنزل الله الركن والمقام مع آدم عليه السلام ليلة نزل بين

الركن والمقام ، فلما أصبح رأى الركن والمقام فعرفهما فضمهما وأنس بهما .

وأخرج الأزرقي عن أبيّ بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " الحجر الأسود نزل به ملك من السماء " .

وأخرج الأزرقي عن ابن عباس قال : أنزل الله الركن الأسود من الجنة وهو يتلألأ تلألؤاً من شدة بياضه ، فأخذه آدم فضمه إليه آنساً به .

وأخرج الأزرقي عن ابن عباس قال : نزل آدم من الجنة ومعه الحجر الأسود متأبطه ، وهو ياقوتة من ياقوت الجنة ، ولولا أن الله طمس ضوءه ما استطاع أحد أن ينظر إليه ، ونزل بالباسة ونخلة العجوة . قال أبو محمد الخزاعي : الباسة آلات الصناع .

وأخرج الأزرقي عن ابن عباس . أن عمر بن الخطاب سأل كعباً عن الحجر فقال : مروة من مرو الجنة .

وأخرج الأزرقي عن ابن عباس قال : لولا أن الحجر تمسه الحائض وهي لا تشعر والجنب وهو لا يشعر ، ما مسه أجذم ولا أبرص إلا برئ .

وأخرج الأزرقي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : كان الحجر الأسود أبيض كاللبن ، وكان طوله كعظم الذراع وما اسود إلا من المشركين كانوا يمسحونه ، ولولا ذلك ما مسه ذو عاهة إلا برىء .

وأخرج الأزرقي عن عثمان بن ساج قال : أخبرني ابن نبيه الحجبي عن أمه أنها حدثته ، أن أباها حدثها : أنه رأى الحجر قبل الحريق وهو أبيض يتراءى الإِنسان فيه وجهه . قال عثمان : وأخبرني زهير : أنه بلغه أن الحجر من رضراض ياقوت الجنة ، وكان أبيض يتلألأ فسوّده ارجاس المشركين وسيعود إلى ما كان عليه ، وهو يوم القيامة مثل أبي قبيس في العظم ، له عينان ولسان وشفتان يشهد لمن استلمه بحق ، ويشهد على من استلمه بغير حق .

وأخرج ابن خزيمة عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " الحجر الأسود ياقوتة بيضاء من ياقيت الجنة وإنما سوّدته خطايا المشركين ، يبعث يوم القيامة مثل أحد يشهد لمن استلمه وقبله من أهل الدنيا " .

وأخرج أحمد والترمذي وحسنه وابن ماجة وابن خزيمة وابن حبان وابن مردويه والبيهقي في شعب الإِيمان عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " إن الله يبعث الركن الأسود له عينان يبصر بهما ، ولسان ينطق به ، ويشهد لمن استلمه بحق " .

وأخرج الأزرقي عن سلمان الفارسي قال : الركن من حجارة الجنة ، أما والذي نفس

سلمان بيده ليجيئن يوم القيامة له عينان ولسان وشفتان ، يشهد لمن استلمه بالحق .

وأخرج الأزرقي عن ابن عباس قال : الركن يمين الله في الأرض يصافح بها خلقه ، والذي نفسي بيده ما من امرىء مسلم يسأل الله عنده شيئاً إلا أعطاه إياه .

وأخرج ابن ماجة عن عطاء بن أبي رباح . أنه سئل عن الركن الأسود فقال : حدثني أبو هريرة أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول " من فاوضه فإنما يفاوض يد الرحمن " .

وأخرج الترمذي وحسنه والحاكم وصححه والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن لهذا الحجر لساناً وشفتين ، يشهد لمن استلمه يوم القيامة بحق " .

وأخرج ابن خزيمة والطبراني في الأوسط والحاكم والبيهقي في الأسماء والصفات عن عبد الله بن عمرو " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يأتي الركن يوم القيامة أعظم من أبي قبيس له لسان وشفتان ، يتكلم عمن استلمه بالنية ، وهو يمين الله التي يصافح بها خلقه " .

واخرج الطبراني في الأوسط عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " اشهدوا هذا الحجر خيراً فانه يأتي يوم القيامة ، شافع مشفع ، له لسان وشفتان يشهد لمن استلمه " .

وأخرج الجندي من طريق عطاء بن السائب عن محمد بن سابط عن النبي صلى الله عليه وسلم قال "كان النبي من الأنبياء إذ هلكت أمته لحق بمكة فيتعبد فيها النبي ومن معه حتى يموت ، فمات بها نوح وهود وصالح وشعيب عليهم السلام ، وقبورهم بين زمزم والحجر " .

وأخرج الأزرقي والجندي من طريق عطاء بن السائب عن محمد بن سابط قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " مكة لا يسكنها سافك دم ولا تاجر بربا ولا مشاء بنميمة . قال : ودحيت الأرض من مكة وكانت الملائكة تطوف بالبيت وهي أول من طاف به ، وهي الأرض من مكة وكانت الملائكة تطوف بالبيت وهي أول من طاف به ، وهي الأرض التي قال الله ﴿ إني جاعل في الأرض خليفة ﴾ [البقرة : 30] وكان النبي من الأنبياء إذا هلك قومه فنجا هو والصالحون معه أتاها بمن معه فيعبدون الله حتى يموتوا فيها ، وإن قبر نوح وهود وشعيب وصالح بين زمزم والركن والمقام " .

وأخرج الأزرقي عن مجاهد قال : حج موسى عليه السلام على جمل أحمر ، فمر بالروحاء عليه عباءتان قطوانيتان ، متزر باحداهما مرتد بالأخرى ، فطاف بالبيت ثم طاف بين الصفا والمروة ، فبينما هو يطوف ويلبي بين الصفا والمروة إذ سمع صوتاً من السماء ، وهو يقول : لبيك عبدي أنا معك ، فخر موسى عليه السلام ساجداً .

وأخرج الأزرقي عن مقاتل قال : في المسجد الحرام بين زمزم والركن قبر سبعين نبياً ، منهم هود وصالح وإسمعيل ، وقبر آدم وإبراهيم وإسحق ويعقوب ويوسف في بيت المقدس .

وأخرج الأزرقي والجندي عن ابن عباس قال : النظر إلى الكعبة محض الإيمان .

وأخرج الأزرقي والجندي عن ابن المسيب قال : من نظر إلى الكعبة إيماناً وتصديقاً خرج من الخطايا كيوم ولدته أمه .

وأخرج الأزرقي والجندي من طريق زهير بن محمد عن أبي السائب المدني قال : من نظر إلى الكعبة إيماناً وتصديقاً تحاتت ذنوبه كما يتحات الورق من الشجر . قال : والجالس في المسجد ينظر إلى البيت لا يطوف به ولا يصلي أفضل من المصلي في بيته لا ينظر إلى البيت .

وأخرج ابن أبي شيبة والأزرقي والجندي والبيهقي في شعب الإيمان عن عطاء قال : النظر إلى البيت عبادة ، والناظر إلى البيت بمنزلة القائم الصائم المخبت المجاهد في سبيل الله .

وأخرج الجندي عن عطاء قال : إن نظرة إلى هذا البيت في غير طواف ولا صلاة تعدل عبادة سنة ، قيامها وركوعها وسجودها .

وأخرج ابن أبي شيبة والجندي عن طاوس قال : النظر إلى هذا البيت أفضل من عبادة الصائم القائم الدائم المجاهد في سبيل الله .

وأخرج الأزرقي عن إبراهيم النخعي قال : الناظر إلى الكعبة كالمجتهد في العبادة في غيرها من البلاد .

وأخرج ابن أبي شيبة والأزرقي عن مجاهد قال : النظر إلى الكعبة عبادة .

(53/66)

وأخرج الأزرقي والجندي وابن عدي والبيهقي في شعب الإِيمان وضعفه والأصبهاني في الترغيب عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن لله في كل يوم وليلة عشرين ومائة رحمة ، تنزل على هذا البيت ستون للطائفين ، وأربعون للمصلين ، وعشرون للناظرين " .

وأخرج الجندي عن ابن مسعود قال : أكثروا بالبيت قبل أن يرفع وينسى الناس مكانه .

وأخرج البزار في مسنده وابن خزيمة وابن حبان والطبراني والحاكم وصححه عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " استمتعوا بهذا البيت فقد هدم مرتين ، ويرفع في الثالثة " .

وأخرج الجندي عن الزهري قال : إذا كان يوم القيامة رفع الله الكعبة البيت الحرام إلى بيت المقدس ، فمر بقبر النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، فيقول : السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته . فيقول صلى الله عليه وسلم : وعليك السلام يا كعبة الله ، ما حال أمتي ؟ فتقول : يا محمد أما من وفد إليّ من أمتك فأنا القائم بشأنه ، وأما من لم يفد من أمتك فأنت القائم بشأنه " .

وأخرج أبو بكر الواسطي في فضائل بيت المقدس عن خالد بن معدان قال : لا تقوم الساعة حتى تزف الكعبة إلى الصخرة زف العروس ، فيتعلق بها جميع من حج واعتمر ، فإذا رأتها الصخرة قالت لها : مرحباً بالزائرة والمزورة إليها .

وأخرج الواسطي عن كعب قال : لا تقوم الساعة حتى يزف البيت الحرام إلى بيت المقدس فينقادان إلى الجنة وفيهما أهلهما ، والعرض والحساب ببيت المقدس .

وأخرج ابن مردويه والأصبهاني في الترغيب والديلمي عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إذا كان يوم القيامة زفت الكعبة البيت الحرام إلى قبري فتقول : السلام عليك يا محمد ، فأقول : وعليك السلام يا بيت الله ما صنع بك أمتي بعدي ؟ فتقول : يا محمد من أتاني فأنا أكفيه وأكون له شفيعاً ، ومن لم يأتني فأنت تكفيه وتكون له شفيعاً " .

وأخرج الأزرقي عن أبي إسحق قال : بنى إبراهيم عليه السلام البيت وجعل طوله في السماء تسعة أذرع ، وعرضه في الأرض اثنين وثلاثين ذراعاً ، من الركن الأسود إلى الركن الشامي الذي عند الحجر من وجهه ، وجعل عرض ما بين الركن الشامي إلى الركن الغربي الذي فيه الحجر اثنين وعشرين ذراعاً ، وجعل طول ظهرها من الركن الغربي إلى الركن اليماني أحداً وثلاثين ذراعاً ، وجعل عرض شقها اليماني من الركن الأسود إلى الركن اليماني عشرين ذراعاً . قال : فلذلك سميت الكعبة لأنها على خلقة الكعب .

قال : وكذلك سنن أساس آدم ، وجعل لها غلقاً فارسياً ، وكساها كسوة تامة ، ونحر عندها ، وجعل إبراهيم عليه السلام الحجر إلى جنب البيت عريشاً من أراك تقتحمه العنز ، فكان زرباً لغنم إسمعيل ، وحفر إبراهيم جباً في بطن البيت على يمين ، من دخله يكون خزانة للبيت يلقي فيه ما يهدى للكعبة ، وكان الله استودع الركن أبا قبيس حين أغرق الله الأرض زمن نوح ، وقال : إذا رأيت خليلي يبني بيتي ، فأخرجه له فجاء به جبريل فوضعه في مكانه وبنى عليه إبراهيم ، وهو حينئذ يتلألأ نوراً من شدة بياضه ، وكان نوره يضيء إلى منتهى أنصاف الحرم من كل ناحية .

قال : وإنما شدة سواده لأنه أصابه الحريق مرة بعد مرة في الجاهلية والإِسلام .

وأخرج مالك والشافعي والبخاري ومسلم والنسائي عن عائشة " أن رسول الله صلى الله

عليه وسلم قال : ألم تر إلى قومك حين بنوا الكعبة أقصروا عن قواعد إبراهيم ؟فقلت : يا رسول الله ألا تردها على قواعد إبراهيم ؟ قال : لولا حدثان قومك بالكفر . فقال ابن عمر : ما أرى رسول الله صلى الله عليه وسلم ترك استلام الركنين اللذين يليان الحجر إلا أن البيت لم يتمم على قواعد إبراهيم " .

(55/66)

وأخرج الأزرقي عن ابن جرير قال : كان ابن الزبير بنى الكعبة من الذرع على ما بناها إبراهيم عليه السلام . قال : وهي مكعبة على خلقة الكعب ولذلك سميت الكعبة . قال : ولم يكن إبراهيم سقف الكعبة ولا بناها بمدر ، وإنما رضمها رضماً .

وأخرج الأزرقي عن أبي المرتفع قال : كنا مع ابن الزبير في الحجر ، فأول حجر من المنجنيق وقع في الكعبة سمعنا لها أنيناً كأنين المريض : آه آه .

وأخرج الجندي عن مجاهد قال : رأيت الكعبة في النوم وهي تكلم النبي صلى الله عليه وسلم ، وهي تقول : لئن لم تنته أمتك يا محمد عن المعاصي لأنتفضن حتى يصير كل حجر مني في مكان .

وأخرج الجندي عن وهيب بن الورد قال : كنت أطوف أنا وسفيان بن سعيد الثوري ليلاً ،

فانقلب سفيان وبقيت في الطواف ، فدخلت الحجر فصليت تحت الميزاب ، فبينا أنا ساجد إذ سمعت كلاماً بين أستار الكعبة والحجارة ، وهي تقول : يا جبريل أشكو إلى الله ثم إليك ما يفعل هؤلاء الطائفون حولي ، تفكههم في الحديث ولغطهم وشؤمهم . قال وهيب : فأولت أن البيت يشكو إلى جبريل عليه السلام .

وأما قوله تعالى : ﴿ ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ﴾ .

أخرج الدارقطني عن ابن عباس قال : "كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أفطر قال : اللهم لك صمنا ، وعلى رزقك أفطرنا ، فتقبل منا أنك أنت السميع العليم" .

وأخرج ابن أبي داود في المصاحف عن الأعمش . أنه قرأ ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل يقولان ربنا تقبل منا ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 1 صـ 331.304 ﴾

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

يقول الله سبحانه وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم اذكر عندما كان إبراهيم يرفع القواعد من البيت . . وجاءت "يرفع" هنا فعلا مضارعا لتصوير الحدث الآن في المستقبل . ولكن هل يرفع إبراهيم القواعد من البيت الآن ؟ أم أنه رفع وانتهى ؟ طبعا هو رفع وانتهى ، ولكن الله سبحانه وتعالى يريد أن يستحضر حالة إبراهيم وإسماعيل وهما يرفعان القواعد من البيت . . والله يريد من المؤمنين أن يتصوروا عملية الرفع ، فلم يكن إبراهيم يملك سلما حتى يرفعه ويقف فوقه ، ولم يكن يملك "سقالة" . . ولكن غياب هذه النعم لم يمنع إبراهيم من أن يتحايل ويأتي بالحجر .

إن الله يريد منا ألا ننسى هذه العملية ، وإبراهيم وابنه إسماعيل يذهبان للبحث عن حجر ، ولابد أن يكون الحجر خفيف الوزن ليستطيعا أن يحملاه إلي مكان البناء . . ثم يقف إبراهيم على الحجر وإسماعيل يناوله الأحجار الأخرى التي سيتم بها رفع القواعد من البيت . ورغم المشقة التي يتحملها الاثنان . . هما سعيدان . . وكل ما يطلبانه من الله هو أن يتقبل منهما . والقبول والمقابلة والاستقبال كلها من مادة مواجهة . . أي أنهما يسألان الله في موقف المعرض عن عمله ، إنهما لا يريدان إلا الثواب : "تقبل منا" أي اعطنا الثواب عما نعمله لأجلك وتنفيذا لأمرك .

وقوله تعالى : " إنك أنت السميع العليم " . . أي أنت يا رب السميع الذي تسمع دعاءنا وتسمع ما نقول . . " والعليم " . . العليم بنيتنا ومدى إخلاصنا لك . . وإننا نفعل هذا العمل ابتغاء لوجهك ولا نقصد غيرك . . ذلك أن الأعمال بالنيات ، وقد يعمل رجلان عملا واحدا . أحدهما يثاب لأنه يعمله إرضاء لله وتقربا منه والآخر لا يثاب لأنه يفعله من أجل الدنيا . والله سبحانه وتعالى عليم بالنية فإن كان العمل خاصا لله تقبله ، وإذا لم يكن خالصا لوجهه لا يتقبله . .

<ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلي الله ورسوله ، فهجرته إلي الله ورسوله ومن كانت هجرته إلي دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلي ما هاجر إليه " > أخرجه البخارى ومسلم وابوداود والنسائى والترمذى وابن ماجة وابو نعيم فى الحلية والدارقطنى بالفاظ مختلفة .

إذن فالعمل إن لم يكن خالصا لله فلا ثواب عليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 585. 587 ﴾

قوله تعالى ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (128) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما سأل القبول سأل الزيادة عليه بقوله : ﴿ ربنا ﴾ على ما مضى من طرز دعاء المقربين بإسقاط أداة البعد ﴿ واجعلنا ﴾ أي أنا وابني هذا الذي أعانني ﴿ مسلمين لك ومن ذريتنا ﴾ قال الحرالي : لما تحقق مرجو الإيمان في ذريته في قوله : ﴿ من آمن منهم ﴾ [البقرة : 126] طلب التكملة بإسلام الوجه والمسألة له ولابنه ولمن رزق الإيمان من ذريته وذرية ابنه ، فإن الإسلام لما كان ظاهر الدين كان سريع الانثلام لأجل مضايقة أمر الدنيا ، وإنما يتم الإسلام بسلامة الخلق من يد العبد ولسانه والإلقاء بكل ما بيده لربه مما ينازع فيه وجود النفس ومتضايق الدنيا ، ولذلك هو مطلب لأهل الصفوة في خاتمة العمر ليكون الخروج من الدنيا عن إلقاء للحق وسلام للخلق كما قال يوسف عليه السلام ﴿ توفني مسلماً ﴾ [يوسف : 101] وطلب بقوله : ﴿ أمة مسلمة لك ﴾ أن يكونوا بحيث يؤم بعضهم بعضاً .

ولما كان المسلم مضطراً إلى العلم قال : ﴿ وأرنا مناسكنا ﴾ وفي ذلك ظهور لشرف عمل الحج حيث كان متلقي عن الله بلا واسطة لكونه علماً على آتي يوم الدين حيث لا واسطة هناك بين الرب والعباد .

والمنسك مفعل من النسك وهو ما يفعل قربة وتديناً .

تشارك حروفه حرف السكون – قاله الحرالي .

ولما كان الإنسان محل العجز فهو أضر شيء إلى التوفيق قال : ﴿ وتب علينا ﴾ إنباء بمطلب التوبة أثر الحسنة كما هو مطلب العارفين بالله المتصلين بالحسنات رجّعا بها إلى من له الخلق والأمر ، ثم علل طمعه في ذلك بأن عادته تعالى التطول والفضل فقال : ﴿ إنك أنت التواب ﴾ أي الرّجاع بعباده إلى موطن النجاة من حضرته بعد ما سلط عليهم عدوهم بغوايته ليعرفوا فضله عليهم وعظيم قدرته ثم أتبعه وصفاً هو كالتعليل له فقال : ﴿ الرحيم ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 242. 243 ﴾

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ أرنا ﴾ وبابه ساكنة الراء : ابن كثير ورويس قياساً على كسرة فخذ إذ تسكن فيقال " فخذ " . وقرأ أبو عمرو بالاختلاس طلباً للخفة وحذراً من الإجحاف ﴿ ويعلمهم ﴾ بالاختلاس : ابن عباس ، وكذلك كل فعل مستقبل مجموع حيث وقع . وروى

ابن رومي عن ابن عباس ﴿ يكلمنا ﴾ و ﴿ تعدنا ﴾ وكل كلمة تضمنت جمعين من الأسماء باختلاس مثل ﴿ في أعينكم ﴾ ﴿ وأسلحتكم ﴾ ﴿ وأمتعتكم ﴾ و ﴿ أوصى ﴾ من الإيصاء : أبو جعفر ونافع وابن عامر . الباقون ﴿ وصى ﴾ بالتشديد . ﴿ شهداء إذ ﴾ عاصم وحمزة وعلي وخلف وابن عامر . والباقون ﴿ شهداء يذ ﴾ وكذلك ما أشبهه في كل القرآن .

الوقوف : ﴿ وإسماعيل ﴾ (ط) لإضمار القول أي يقولان ومحله نصب على الحال ﴿ منا ﴾ (ط) للابتداء بأن ولجواز الوصل وجه لطيف على تقدير فإنك أو لأنك ﴿ العليم ﴾ (5) ﴿ مسلمة لك ﴾ (ص) لعطف المتفقين ﴿ علينا ﴾ (ط) وقد ذكر ﴿ الرحيم ﴾ (5) ﴿ ويزكيهم ﴾ (ط) ﴿ الحكيم ﴾ (5) ﴿ نفسه ﴾ (ط) للفصل بين الاستفهام والإخبار ﴿ في الدنيا ﴾ (ج) لعطف الجملتين ﴿ الصالحين ﴾ (5) ﴿ أسلم ﴾ (ط) لأن قوله "قال" عامل "إذ" وإلا وجب أن يقال "فقال" وإلا انقطع النظم ﴿ العالمين ﴾ (5) ﴿ ويعقوب ﴾ (ط) لإرادة القول على الأصح ، ومن وصل جعل الوصية في معنى القول ﴿ مسلمون ﴾ (ط) لأن "أم" بمعنى همزة الاستفهام للإنكار ﴿ الموت ﴾ (لا) لأن "إذ" بدل من "إذ" الأولى و "إذ" الأولى ظرف ﴿ شهدا ﴾ و "إذ" الثانية ظرف ﴿ حضر ﴾ ومن قطعها عن الأول فوقف على الموت وجعل ﴿ قالوا ﴾ عاملاً ولم يقف على ﴿ بعدي ﴾ فله وجه لا يتضح لأن الإنكار متوجه على

قولهم : إن يعقوب أوصى بنيه باليهودية لا على أن يعقوب قد مات ﴿ من بعدي ﴾ (ط) ﴿ واحداً ﴾ (ج) لعطف الجملتين المختلفتين والوصل أجوز على جعل الواو حالاً ﴿ مسلمون ﴾ (5) ﴿ قد خلت ﴾ (ج) لأن ما بعدها تصلح صفة للأمة وتصلح استئنافاً وهو واضح لعطف ﴿ ولكم ما كسبتم ﴾ عليها ﴿ ولكم ما كسبتم ﴾ (ج) لعطف الجملتين المختلفتين ﴿ يعلمون ﴾ (5) . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 1 صـ 396. 397 ﴾

فائدة تكرير النداء بقوله : ﴿ ربنا ﴾ إظهار الضراعة إلى الله تعالى وإظهار أن كل دعوى من هاته الدعوات مقصودة بالذات ، ولذلك لم يكرر النداء إلا عند الانتقال من دعوة إلى أخرى فإن الدعوة الأولى لطلب تقبل العمل والثانية لطلب الاهتداء فجملة النداء معترضة بين المعطوف هنا والمعطوف عليه في قوله الآتي : ﴿ ربنا وابعث فيهم رسولاً ﴾ [البقرة : 129] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 1 صـ 413 ﴾

فائدة

يقال : إنه لم يدع نَبِيٌّ إلا لنفسه ولأمته إلا إبراهيم فإنه دعا مع دعائه لنفسه ولأمته لهذه الأمة

في قوله : ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ1 صـ 191 ﴾

سؤال : فإن قلت : الإسلام إما أن يكون المراد منه الدين والاعتقاد أو الاستسلام والانقياد وقد كانا كذلك حالة هذا الدعاء فيما فائدة هذا الطلب ؟

قلت فيه وجهان أحدهما أن الإسلام عرض قائم بالقلب وقد لا يبقى ، فقوله : واجعلنا مسلمين لك يعني في المستقبل وذلك لا ينافي حصوله في الحال . الوجه الثاني يحتمل أن يكون المراد منه طلب الزيادة في الإيمان فكأنهما طلبا زيادة اليقين والتصديق وذلك لا ينافي حصوله في الحال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ1 صـ 109 ﴾

وأجاب صاحب الميزان عن هذا السؤال بكلام نفيس فقال :

من البديهي أن الإسلام على ما تداول بيننا من لفظه ، ويتبادر إلى أذهاننا من معناه أول مراتب العبودية ، وبه يمتاز المنتحل من غيره ، وهو الأخذ بظاهر الاعتقادات ، والأعمال الدينية أعم من الإيمان والنفاق ، وإبراهيم (عليه السلام) – وهو النبي الرسول أحد الخمسة أولي العزم ، صاحب الملة الحنيفية – أجل من أن يتصور في حقه أن لا يكون قد ناله

إلى هذا الحين ، وكذا ابنه إسماعيل رسول الله وذبيحه ، أو يكونا قد نالاه ولكن لم يعلما بذلك ، أو يكونا علما بذلك وأرادا البقاء على ذلك ، وهما في ما هما فيه من القربى والزلفى ، والمقام مقام الدعوة عند بناء البيت المحرم ، وهما أعلم بمن يسألانه ، وأنه من هو ، وما شأنه ، على أن هذا الإسلام من الأمور الاختيارية التي يتعلق بها الأمر والنهى كما قال تعالى : (إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين) البقرة – 131 ، ولا معنى لنسبة ما هو كذلك إلى الله سبحانه أو مسألة ما هو فعل اختياري للإنسان من حيث هو كذلك من غير عناية يصح معها ذلك .

فهذا الإسلام المسئول غير ما هو المتداول المتبادر عندنا منه ، فإن الإسلام مراتب والدليل على أنه ذو مراتب قوله تعالى : (إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت الآية) حيث يأمرهم إبراهيم بالإسلام وقد كان مسلما ، فالمراد بهذا الإسلام المطلوب غير ما كان عنده من الإسلام الموجود ، ولهذا نظائر في القرآن .

فهذا الإسلام هو الذي سنفسره من معناه ، وهو تمام العبودية وتسليم العبد كل ما له إلى ربه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الميزان حـ1 صـ284 ﴾

ومن فوائد ابن عرفة فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : (وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ . . .)

(قال : إنما فصل بين إسماعيل وإبراهيم بالمفعول (ليظهر كمال المباينة بينهما) لأن إبراهيم هو متولي البناء وهو الذي كان يضع الحجر في الحائط وإسماعيل إنما كان يناوله خاصة .

قوله تعالى : (رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ . . .

(مع قوله :) رَبَّنَا واجعلنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ (دليل واضح لأهل السنة في قاعدة الكسب لأن مجرد الدعاء بقبول العمل دليل على أن العبد مستقل بفعله والدعاء (بتحصيل) الإسلام دليل على سلب القدرة على العبد فالجمع بينهما موضح لقاعدة الكسب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عرفة حـ 1 صـ 418 ﴾

بحث نفيس فى مراتب الإسلام

الإسلام والتسليم والاستسلام بمعنى واحد ، من السلم ، وأحد الشيئين إذا كان بالنسبة إلى الآخر بحال لا يعصيه ولا يدفعه فقد أسلم وسلم واستسلم له ، قال تعالى (بلى من أسلم

وجهه لله) البقرة – 112 ، وقال تعالى : (وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفا مسلما) الأنعام – 79 ، ووجه الشئ ما يواجهك به ، وهو بالنسبة إليه تعالى تمام وجود الشئ فإسلام الإنسان له تعالى هو وصف الانقياد والقبول منه لما يرد عليه من الله سبحانه من حكم تكويني ، من قدر وقضاء ، أو تشريعي من أمر أو نهى أو غير ذلك ، ومن هنا كان له مراتب بحسب ترتب الواردات بمراتبها .

الأولى : من مراتب الإسلام ، القبول لظواهر الأوامر والنواهي بتلقي الشهادتين لسانا ، سواء وافقه القلب ، أو خالفه ، قال تعالى : (قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم) الحجرات – 14 ﴾ ، ويتعقب الإسلام بهذا المعنى أول مراتب الإيمان وهو الإذعان القلبي بمضمون الشهادتين إجمالا ويلزمه العمل في غالب الفروع .

الثانية : ما يلي الإيمان بالمرتبة الأولى ، وهو التسليم والانقياد القلبي لجل الاعتقادات الحقة التفصيلية وما يتبعها من الأعمال الصالحة وإن أمكن التخطي في بعض الموارد ، قال الله تعالى في وصف المتقين : (الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين) الزخرف – 69 ﴾ ، وقال أيضا : (يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة) البقرة – 208 ﴾ ، فمن الإسلام ما يتأخر عن الإيمان محققا فهو غير المرتبة الأولى من الإسلام ويتعقب هذا الإسلام المرتبة الثانية من الإيمان وهو الاعتقاد التفصيلي بالحقائق الدينية ، قال تعالى : (إنما المؤمنون الذين

آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون) الحجرات – 15 ﴾ ، وقال

أيضا : (يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ، تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم) الصف – 11 ﴾ ، وفيه إرشاد المؤمنين إلى الإيمان ، فالإيمان غير الإيمان .

الثالثة : ما يلي الإيمان بالمرتبة الثانية فإن النفس إذا أنست بالإيمان المذكور وتخلقت بأخلاقه تمكنت منها وانقادت لها سائر القوى البهيمية والسبعية ، وبالجملة القوى المائلة إلى هوسات الدنيا وزخارفها الفانية الداثرة ، وصار الإنسان يعبد الله كأنه يراه فإن لم يكن يراه فإن الله يراه ، ولم يجد في باطنه وسره ما لا ينقاد إلى أمره ونهيه أو يسخط من قضائه وقدره ، قال الله سبحانه : (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما) النساء – ﴾ 65 ، ويتعقب هذه المرتبة من الإسلام المرتبة الثالثة من الإيمان ، قال الله تعالى (قد أفلح المؤمنون) إلى أن قال : (والذين هم عن اللغو معرضون) المؤمنون – 3 ﴾ ، ومنه قوله تعالى : (إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت

لرب العالمين) إلى غير ذلك ، وربما عدت المرتبتان الثانية والثالثة مرتبة واحدة .

والأخلاق الفاضلة من الرضاء والتسليم ، والحسبة والصبر في الله ، وتمام الزهد والورع ، والحب والبغض في الله من لوازم هذه مرتبة .

الرابعة ما يلي ، المرتبة الثالثة من الإيمان فإن حال الإنسان وهو في المرتبة السابقة مع ربه حال العبد المملوك مع مولاه ، إذ كان قائما بوظيفة عبوديته حق القيام ، وهو التسليم الصرف لما يريده المولى أو يحبه ويرتضيه ، والأمر في ملك رب العالمين لخلقه أعظم من ذلك وأعظم وإنه حقيقة الملك الذي لا استقلال دونه لشئ من الأشياء لا ذاتا ولا صفة ، ولا فعلا على ما يليق بكبريائه جلت كبريائه .

فالإنسان – وهو في المرتبة السابقة من التسليم – ربما أخذته العناية الربانية فاشهدت له أن الملك لله وحده لا يملك شئ سواه لنفسه شيئا إلا به لا رب سواه ، وهذا معنى وهبي ، وإفاضة إلهية لا تأثير لأرادة الإنسان فيه ، ولعل قوله تعالى : ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا الآية ، إشارة

إلى هذه المرتبة من الإسلام فإن قوله تعالى : ﴿ إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب

العالمين ﴾ الآية ظاهره أنه أمر تشريعي لا تكويني ، فإبراهيم كان مسلما باختياره ، إجابة لدعوة ربه وامتثالا لأمره ، وقد كان هذا من الأوامر المتوجهة إليه (عليه السلام) في مبادئ حاله ، فسؤاله في أواخر عمره مع ابنه إسماعيل الإسلام وإرائة المناسك سؤال لأمر ليس زمامه بيده أو سؤال لثبات على أمر ليس بيده فالإسلام المسئول في الآية هو هذه المرتبة من الإسلام ويتعقب الإسلام بهذا المعنى المرتبة الرابعة من الإيمان وهو استيعاب هذا الحال لجميع الأحوال والافعال ، قال تعالى : (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، الذين آمنوا وكانوا يتقون) يونس - 62 ، فإن هؤلاء المؤمنين المذكورين في الآية يجب أن يكونوا على يقين من أن لا استقلال لشئ دون الله ، ولا تأثير لسبب إلا بإذن الله حتى لا يحزنوا من مكروه واقع ، ولا يخافوا محذورا محتملا ، وإلا فلا معنى لكونهم بحيث ، لا يخوفهم شئ ولا يحزنهم أمر ، فهذا النوع من الإيمان بعد الإسلام المذكور فافهم .

أهـ ﴿ الميزان حـ 1 صـ 301 . 303 ﴾

سؤال : فإن قلت : لم خص ذريتهما بالدعاء .

قلت : لأنهم أحق بالشفقة والنصيحة ، قال الله تعالى : ﴿ قوا أنفسكم وأهليكم ناراً ﴾ ولأن أولاد الأنبياء إذا صلحوا صلح بهم غيرهم ألا ترى أن المتقدمين من العلماء والكبراء : إذا كانوا على السداد كيف يتسببون لسداد من وراءهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 1 صـ 110 ﴾

سؤال : لم خصا بعض الذرية بالدعاء ؟

الجواب : وخصا البعض لما علما من قوله سبحانه : ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وظالم لِّنَفْسِهِ ﴾ [الصافات : 113] أو من قوله عز شأنه : ﴿ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظالمين ﴾ [البقرة : 124] باعتبار السياق إن في ذريتهما ظلمة وأن الحكمة الإلهية تستدعي الانقسام إذ لولاه ما دارت أفلاك الأسماء ولا كان ما كان من أملاك السماء . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ1 صـ 385 ﴾

قوله تعالى ﴿ وأَرِنَا مَنَاسِكَنَا ﴾

﴿ وأَرِنَا مَنَاسِكَنَا ﴾ أي عرفنا مناسكنا ، وفيها تأويلان :

أحدهما : أنها مناسك الحج ومعالمه ، وهذا قول قتادة والسدي .

والثاني : أنها مناسك الذبائح التي تنسك لله عز وجل ، وهذا قول مجاهد وعطاء .

والمناسك جمع منسك ، واختلفوا في تسميته منسكاً على وجهين :

أحدهما : لأنه معتاد ويتردد الناس إليه في الحج والعمرة ، من قولهم إن لفلان منسكاً ، إذا كان له موضع معتاد لخير أو شر ، فسميت بذلك مناسك الحج لاعتيادها .

والثاني : أن النسك عبادة الله تعالى ، ولذلك سُمّي الزاهد ناسكاً لعبادة ربه ، فسميت هذه مناسك لأنها عبادات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ1 صـ 191 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

" مسلمين " : منقادين لحكمك حتى لا يتحرك مِنّا عرْق بغير رضاك ، واجعل من ذريتنا أمة مسلمة لك لتقوم بعدنا مقامنا في القيام بحقوقك ، وشتان بين من يطلب وارثاً لماله ، وبين من يطلب نائباً بعده يقوم بطاعته في أحواله .

أهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ1 صـ 125 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَتُبْ عَلَيْنَا ﴾

واختلف في معنى طلبهم التوبة وهم أنبياء معصومون ، فقالت طائفة : طلبا التثبيت والدوام ، وقيل : أرادا من بعدهما من الذرية كما تقول برني فلان وأكرمني وأنت تريد في ولدك وذريتك ، وقيل وهو الأحسن عندي : إنهما لما عرفا المناسك وبنيا البيت وأطاعا أرادا أن يسنا للناس أن ذلك الموقف وتلك المواضع مكان التنصل من الذنوب وطلب التوبة . وقال الطبري : إنه ليس أحد من خلق الله تعالى إلا وبينه وبين الله تعالى معانٍ يحب

أن تكون أحسن مما هي .

وأجمعت الأمة على عصمة الأنبياء في معنى التبليغ ومن الكبائر ومن الصغائر التي فيها رذيلة ، واختلف في غير ذلك من الصغائر ، والذي أقول به أنهم معصومون من الجميع ، وأن قول النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ " إني لأتوب إلى الله في اليوم وأستغفره سبعين مرة " إنما هو رجوعه من حالة إلى أرفع منها لتزيد علومه واطلاعه على أمر الله ، فهو يتوب من المنزلة الأولى إلى الأخرى ، والتوبة هنا لغوية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ1 صـ 212 ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَتُبْ عَلَيْنَآ ﴾ اختلف في معنى قول إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ؛ «وَتُبْ عَلَيْنَا» وهم أنبياء معصومون ؛ فقالت طائفة : طلبا التثبيت والدوام ، لا أنهما كان لهما ذنب .

قلت : وهذا حسن ، وأحسن منه أنهما لما عرفا المناسك وبنيا البيت أرادا أن يبنيا للناس ويعرّفاهم أن ذلك الموقف وتلك المواضع مكان التنصّل من الذنوب وطلب التوبة . وقيل : المعنى وَتُبْ على الظلمة منّا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ2 صـ 130 ﴾

وقال الفخر :

أما قوله : ﴿ وَتُبْ عَلَيْنَا ﴾ ففيه مسائل

المسألة الأولى : احتج من جوز الذنب على الأنبياء بهذه الآية قال : لأن التوبة مشروطة بتقدم الذنب ، فلولا تقدم الذنب وإلا لكان طلب التوبة طلباً للمحال ، وأما المعتزلة فقالوا : إنا نجوز الصغيرة على الأنبياء فكانت هذه التوبة توبة من الصغيرة ، ولقائل أن يقول : إن الصغائر قد صارت مكفرة بثواب فاعلها وإذا صارت مكفرة فالتوبة عنها محال ، لأن تأثير التوبة في إزالتها وإزالة الزائل محال .

وههنا أجوبة أخر تصلح لمن جوز الصغائر ولمن لم يجوزها ، وهي من وجوه .

أولها : يجوز أن يأتي بصورة التوبة تشدداً في الانصراف عن المعصية ، لأن من تصور نفسه بصورة النادم العازم على التحرز الشديد ، كان أقرب إلى ترك المعاصي ، فيكون ذلك لطفاً داعياً إلى ترك المعاصي ، وثانيها : أن العبد وإن اجتهد في طاعة ربه فإنه لاينفك عن التقصير من بعض الوجوه : إما على سبيل السهو ، أو على سبيل ترك الأولى ، فكان هذا الدعاء لأجل ذلك .

وثالثها : أنه تعالى لما أعلم إبراهيم عليه السلام أن في ذريته من يكون ظالماً عاصياً ، لا جرم سأل ههنا أن يجعل بعض ذريته أمة مسلمة ، ثم طلب منه أن يوفق أولئك العصاة المذنبين

للتوبة فقال : ﴿ وَتُبْ عَلَيْنَا ﴾ أي على المذنبين من ذريتنا ، والأب المشفق على ولده إذا أذنب ولده فاعتذر الوالد عنه فقد يقول : أجرمت وعصيت وأذنبت فاقبل عذري ويكون مراده : إن ولدي أذنب فاقبل عذره ، لأن ولد الإنسان يجري مجرى نفسه ، والذي يقوي هذا التأويل وجوه .

الأول : ما حكى الله تعالى في سورة إبراهيم أنه قال : ﴿ واجنبنى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ الأصنام رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مّنَ الناس فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُ مِنّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [إبراهيم : 35 ، 36] فيحتمل أن يكون المعنى : ومن عصاني فإنك قادر على أن تتوب عليه إن تاب ، وتغفر له ما سلف من ذنوبه .

الثاني : ذكر أن في قراءة عبد الله : وأرهم مناسكهم وتب عليهم .

الثالث : أنه قال عطفاً على هذا : ﴿ رَبَّنَا وابعث فِيهِمْ رَسُولاً مّنْهُمْ ﴾ .

الرابع : تأولوا قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خلقناكم ثُمَّ صورناكم ﴾ [الأعراف : 11] بجعل خلقه إياه خلقاً لهم إذ كانوا منه ، فكذلك لا يبعد أن يكون قوله : ﴿ أَرِنَا مَنَاسِكَنَا ﴾ أي أر ذريتنا .

المسألة الثانية : احتج الأصحاب بقوله : ﴿ وَتُبْ عَلَيْنَا ﴾ على أن فعل العبد خلق لله تعالى ، قالوا لأنه عليه السلام طلب من الله تعالى أن يتوب عليه ، فلو كانت التوبة مخلوقة للعبد ، لكان طلبها من الله تعالى محالاً وجهلاً ، قالت المعتزلة : هذا معارض بما أن الله تعالى طلب التوبة منا .

فقال : ﴿ يأَيُّهَا الذين ءامَنُواْ تُوبُواْ إِلَى الله تَوْبَةً نَّصُوحاً ﴾ [التحريم : 8] ولو كانت فعلاً لله تعالى ، لكان طلبها من العبد محالاً وجهلاً ، وإذا ثبت ذلك حمل قوله : ﴿ وَتُبْ عَلَيْنَا ﴾ على التوفيق وفعل الألطاف أو على قبول التوبة من العبد ، قال الأصحاب : الترجيح معنا لأن دليل العقل يعضد قولنا من وجوه .

أولها : أنه متى لم يخلق الله تعالى داعية موجبة للتوبة استحال حصول التوبة ، فكانت التوبة من الله تعالى لا من العبد ، وتقرير دليل الداعي قد تقدم غير مرة .

وثانيها : أن التوبة على ما لخصه الشيخ الغزالي رحمه الله : عبارة عن مجموع أمور ثلاثة مرتبة : علم وحال وعمل ، فالعلم أول والحال ثانٍ وهو موجب العلم والعمل ثالث وهو موجب الحال ، أما العلم فهو معرفة عظم ضرر الذنوب ، يتولد من هذه المعرفة تألم القلب

بسبب فوت المنفعة وحصول المضرة ، وهذا التألم هو المسمى بالندم ثم يتولد من هذا الندم صفة تسمى : إرادة ولها تعلق بالحال والماضي والمستقبل ، أما تعلقه بالحال فهو الترك للذنب الذي كان ملابساً له ، وأما بالاستقبال فبالعزم على ترك ذلك الفعل المفوت للمحبوب إلى آخر العمر ، وأما في الماضي فبتلافي ما فات بالجبر والقضاء إن كان قابلاً للجبر فالعلم هو الأول وهو مطلع هذه الخيرات وأعني بهذا العلم الإيمان واليقين ، فإن الإيمان عبارة عن التصديق بأن الذنوب سموم مهلكة واليقين عبارة عن تأكد هذا التصديق وانتفاء الشك عنه واستيلائه على القلب ، ثم إن هذا اليقين مهما استولى على القلب اشتعل نار الندم فيتألم به القلب حيث يبصر بإشراق نور الإيمان ، أنه صار محجوباً عن محبوبه كمن يشرق عليه نور الشمس وقد كان في ظلمة فرأى محبوبه قد أشرف على الهلاك فتشتعل نيران الحب في قلبه فيتولد من تلك الحالة إرادته للانتهاض للتدارك إذا عرفت هذا فنقول : إن ترتب الفعل على الإرادة ضروري لأن الإرادة الجازمة الخالية عن المعارض لا بد وأن يترتب عليها الفعل وترتب الإرادة على تألم القلب أيضاً ضروري ، فإن من تألم قلبه بسبب مشاهدة أمر مكروه لا بد وأن يحصل في قلبه إرادة الدفع وترتب ذلك الألم على العلم بكون ذلك الشيء جالباً للمضار ، ودفعاً للمنافع أيضاً أمر ضروري ، فكل هذه المراتب ضرورية فكيف تحصل تحت الاختبار والتكلف . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 4 صـ 58. 59 ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ وتب علينا ﴾ : قالوا التوبة من حيث الشريعة تختلف باختلاف التائبين ، فتوبة سائر المسلمين الندم بالقلب ، والرجوع عن الذنب ، والعزم على عدم العود ، ورد المظالم إذا أمكن ، ونية الرد إذا لم يمكن ، وتوبة الخواص الرجوع عن المكروهات من خواطر السوء ، والفتور في الأعمال ، والإتيان بالعبادة على غير وجه الكمال ، وتوبة خواص الخواص لرفع الدرجات ، والترقي في المقامات ، فإن كان إبراهيم وإسماعيل دعوا لأنفسهما بالتوبة ، وكان الضمير في قوله : ﴿ وتب علينا ﴾ خاصاً بهما ، فيحتمل أن تكون التوبة هنا من هذا القسم الأخير .

قالوا : ويحتمل أن يريد التثبيت على تلك الحالة مثل : ﴿ ربنا واجعلنا مسلمين لك ﴾ .

وإن كان الضمير شاملاً لهما وللذرية ، كان الدعاء بالتوبة منصرفاً لمن هو من أهل التوبة .

وإن كان الضمير قبله محذوفاً مقدراً ، فالتقدير على عصاتنا ، ويكون دعا بالتوبة للعصاة .

ولا تدل هذه الآية على جواز وقوع الذنب من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، لما ذكرناه من الاحتمال . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ1 صـ 561.562 ﴾

قوله تعالى ﴿ إنك أنت التواب الرحيم ﴾ :

يجوز في أنت : الفصل والتأكيد والابتداء ، وهاتان الصفتان مناسبتان لأنهما دعوا بأن يجعلهما مسلمين ومن ذريتهما أمة مسلمة ، وبأن يريهما مناسكهما ، وبأن يتوب عليهما . فناسب ذكر التوبة عليهما ، أو الرحمة لهما . وناسب تقديم ذكر التوبة على الرحمة ، لمجاورة الدعاء الأخير في قوله : ﴿ وتب علينا ﴾ . وتأخرت صفة الرحمة لعمومها ، لأن من الرحمة التوبة ، ولكنها فاصلة . والتواب لا يناسب أن تكون فاصلة هنا ، لأن قبلها ﴿ إنك أنت السميع العليم ﴾ ، وبعدها : ﴿ إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ1 صـ 562 ﴾

(72/66)

موعظة

تب إلى الله ثم سله حوائجك

رأيت من نفسي عجبا : تسأل الله عز وجل حاجاتها وتنسى جناياتها ؟

فقلت : يا نفس السوء أو مثلك ينطق ؟

فإن نطق فينبغي أن يكون السؤال فحسب

فقالت : فممن أطلب مراداتي ؟

قلت : ما أمنعك من طلب المراد إنما أقول حققي وانطقى

كما نقول في العاصي بسفره إذا اضطر إلى الميتة لا يجوز له أن يأكل فإن قيل لنا : أفيموت !

قلنا : لا بل يتوب ويأكل

فالله الله من جراءة على طلب الأغراض مع نسيان ما تقدم من الذنوب التي توجب تنكيس

الرأس ولئن تشاغلت بإصلاح ما مضى والندم عليه جاءتك مراداتك

كما روى : [من شغله ذكرى عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين]

وقد كان بشر الحافي يبسط يديه للسؤال ثم يسلبهما ويقول : مثلي لا يسأل [ما أبقت الذنوب

لي وجها]

وهذا يختص ببشر لقوة معرفته كان وقت السؤال كالمخاطب كفاحا فاستحى للزلل

فأما أهل الغفلة فسؤالهم على بعد فافهم ما ذكرته وتشاغل بالتوبة من الزلل ثم العجب من

سؤالاتك فإنك لا تكاد تسأل مهما من الدنيا بل فضول العيش

ولا تسأل صلاح القلب والدين مثل ما تسأل صلاح الدنيا

فاعقل أمرك فإنك من الانبساط والغفلة على شفا جرف

وليكن حزنك على زلاتك شاغلا لك عن مراداتك فقد كان الحسن البصري شديد الخوف

فلما قيل له في ذلك قال :

وما يؤمنني أن يكون اطلع على بعض ذنوبي فقال اذهب لا غفرت لك . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ صيد الخاطر صـ 138 ﴾

(73/66)

من أقوال يحيى بن معاذ ـ رحمه الله ـ

قال محمد بن محمود السمرقندي :

سمعت يحيى بن معاذ يقول : إن قال لي يوم القيامة عبدي ما غرك بي قلت إلهي برك بي

وسمعته يقول وسئل أرنا عارفا قال : وأين أنتم فأريكم عجبا لقوم عموا عن العرفاء يطلبون الخلفاء

وسمعته يقول استسلم القوم عند ما فهموا

وسمعته يقول من قوة اليقين ترك ما يرى لما لا يرى

وسمعته يقول أيها المريدون إن اضررتم إلى طلب الدنيا فاطلبوها ولا تحبوها واشغلوا بها أبدانكم وعلقوا بغيرها قلوبكم فإنها دار ممر وليست بدار مقر الزاد منها والمقيل في غيرها

وسمعته يقول : رضي الله عن قوم فغفر لهم السيئات وغضب على قوم فلم يقبل منهم الحسنات

وسمعته يقول : يا ابن آدم مالك تأسف على مفقود لا يرده عليك الفوت ومالك تفرح بموجود لا يتركه في يديك الموت

وسمعته يقول التوحيد في كلمة واحدة ما تصور في الأوهام فهو بخلافه

وسمعته يقول طاعة لا حاجة بي إليها لا تمنعني مغفرة لا غناء بي عنها

وسمعته يقول هو ألقاهم في الذنب يوم سمى نفسه العفو الغفور

وسمعته يقول ذنب أفتقر به إليه أحب إلي من عمل أدل به عليه

وسمعته يقول إلهي كيف لا أرجوك تغفر لي ذنبا رجاؤك ألقاني فيه

وسمعته يقول إن الحكيم يشبع من ثمار فيه

وسمعته يقول كيف أحب نفسي وقد عصتك وكيف لا أحبها وقد عرفتك

وسمعته يقول إن وضع علينا عدله لم تبق لنا حسنة وإن أتى فضله لم تبق لنا سيئة

وسمعته يقول إن غفرت فخير راحم وإن عذبت فغير ظالم

وسمعته يقول إلهي ضيعت بالذنب نفسي فارددها بالعفو علي

وسمعته يقول إلهي ارحمني لقدرتك علي أو لحاجتي إليك

وسمعته يقول مسكين من علمه حجيجه ولسانه وفهمه القاطع لعذره

وسمعته يقول ذنوب مزدحمة على عاقبة مبهمة ثم قال : إلهي سلامة إن لم تكن كرامة

وسمعته يقول وسئل ما العبادة فقال حرفة حانوتها الخلوة وربحها الجنة

وسمعته يقول يا من رباني في الطريق بنعمه وأشار لي في الورود إلى كرمه معرفتي بك دليلي عليك وحبي لك شفيعي إليك

وسمعته يقول يا من أعطانا خير ما في خزائنه الإيمان به قبل السؤال لا تمنعنا عفوك مع السؤال

وسمعته يقول إلهي إن إبليس لك عدو وهو لنا عدو وإنك لا تغيظه بشيء هو أنكأ له من عفوك فاعف عنا يا أرحم الراحمين

وسمعته يقول يا من يغضب على من لا يسأله لا تمنع من قد سألك

وسمعته يقول لا تقع للمؤمن سيئة إلا وهو خائف أن يؤخذ بها والخوف حسنة فيرجو أن يعفى عنها والرجاء حسنة وسمعته يقول إلهي لا تنس لي دلالتي عليك وإشارتي بالربوبية إليك رفعت إليك يدا بالذنوب مغلولة وعينا بالرجاء مكحولة فاقبلني لأنك ملك لطيف وارحمني لأني عبد ضعيف

وسمعته يقول هذا سروري بك خائفا فكيف سروري بك آمنا هذا سروري بك في المجالس فكيف سروري بك في تلك المجالس هذا سروري بك في دار الفناء فكيف يكون سروري بك في دار البقاء

عبد الله بن سهل قال سمعت يحيى بن معاذ يقول من أحب زينة الدنيا والآخرة فلينظر في العلم ومن أحب أن يعرف الزهد فلينظر في الحكمة ومن أحب أن يعرف مكارم الأخلاق فلينظر في فنون الآداب ومن أحب أن يستوثق من أسباب المعاش فليستكثر من الإخوان ومن أحب أن لا يؤذى فلا يؤذين ومن أحب رفعة الدنيا والآخرة فعليه بالتقوى

أهـ صفة الصفوة حـ 4 صـ 96. 97 ﴾

(75/66)

(بحث علمي)

إذا رجعنا إلى قصة إبراهيم (عليه السلام) وسيره بولده وحرمته إلى أرض مكة ، وإسكانهما هناك ، وما جرى عليهما من الأمر ، حتى آل الأمر ، إلى ذبح إسماعيل وفدائه من جانب الله وبنائهما البيت ، وجدنا القصة دورة كاملة من السير العبودي الذي يسير به العبد من موطن نفسه إلى قرب ربه ، ومن أرض البعد إلى حظيرة القرب بالاعراض عن زخارف الدنيا ، وملاذها ، وأمانيها من جاه ، ومال ، ونساء وأولاد ، والانقلاع والتخلص عن وساوس الشياطين ، وتكديرهم صفو الإخلاص والإقبال والتوجه إلى مقام الرب ودار الكبرياء .

فها هي وقائع متفرقة مترتبة تسلسلت وتألفت قصة تاريخية تحكي عن سير عبودي من العبد إلى الله سبحانه وتشمل من أدب السير والطلب والحضور ورسوم الحب والوله والإخلاص على ما كلما زدت في تدبره إمعانا زادك استنارة ولمعانا .

ثم : إن الله سبحانه أمر خليله إبراهيم ، أن يشرع للناس عمل الحج ، كما قال (وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق إلى آخر الآيات) الحج - 27 ، وما شرعه (عليه السلام) وإن لم يكن معلوما لنا بجميع خصوصياته ، لكنه كان شعارا دينيا عند العرب في الجاهلية إلى أن بعث الله النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وشرع فيه ما شرع ولم يخالف فيه ما شرعه إبراهيم إلا بالتكميل كما يدل عليه قوله تعالى : (قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا) الأنعام - 161 ، وقوله تعالى : (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا ، والذي أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى ، وعيسى) الشورى - 13 .

وكيف كان فما شرعه النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من نسك الحج المشتمل على الاحرام والوقوف بعرفات ومبيت المشعر والتضحية ورمى الجمرات والسعى بين الصفا والمروة والطواف والصلاة بالمقام تحكي قصة إبراهيم ، وتمثل مواق فهو مواقف أهله ومشاهدهم ويا لها من مواقف طاهرة إلهية القائد إليها جذبة الربوبية والسائق نحوها ذلة العبودية .

والعبادات المشروعة – على مشرعيها أفضل السلام – صور لمواقف الكملين من الأنبياء من ربهم ، وتماثيل تحكي عن مواردهم ومصادرهم في مسيرهم إلى مقام القرب والزلفى ، كما قال تعالى : (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة) الأحزاب – 21 ﴾ انتهى

انتهى . اهـ ﴿ الميزان حـ1 صـ299 ﴾

" فصل "

قال السيوطى :

رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (128)

أخرج ابن أبي حاتم عن عبد الكريم في قوله تعالى ﴿ ربنا واجعلنا مسلمين ﴾ قال : مخلصين .

أخرج ابن أبي حاتم عن سلام بن أبي مطيع في هذه الآية قال : كانا مسلمين ولكن سألاه الثبات .

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي في قوله ﴿ ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ﴾ يعنيان العرب .

وأما قوله تعالى : ﴿ وأرنا مناسكنا ﴾ .

أخرج سعيد بن منصور وابن أبي حاتم والأزرقي عن مجاهد قال : قال إبراهيم عليه السلام : رب أرنا مناسكنا . فاتاه جبريل فأتى به البيت فقال : ارفع القواعد . فرفع القواعد وأتم البنيان ، ثم أخذ بيده فأخرجه ، فانطلق به إلى الصفا قال : هذا من شعائر الله ، ثم انطلق به إلى المروة فقال : وهذا من شعائر الله ، ثم انطلق به نحو منى ، فلما كان من العقبة إذا إبليس قائم عند الشجرة فقال : كبر وارمه . فكبر ورماه ، ثم انطلق إبليس فقام عند الجمرة الوسطى ، فلما حاذى به جبريل وإبراهيم قال له : كبر وارمه . فكبر ورمى ، فذهب إبليس حتى أتى الجمرة القصوى ، فقال له جبريل : كبر وارمه . فكبر ورمى ، فذهب إبليس وكان الخبيث أراد أن يدخل في الحج شيئاً فلم يستطع ، فأخذ بيد إبراهيم حتى أتى به المشعر الحرام ، فقال : هذا المشعر الحرام ، ثم ذهب حتى أتى به عرفات قال : قد عرفت ما أريتك ؟ قالها ثلاث مرات . قال : نعم . قال : فأذن في الناس بالحج . قال : وكيف أؤذن ؟ قال : قل يا أيها الناس أجيبوا ربكم ثلاث مرات ، فأجاب العباد لبيك اللهم

ربنا لبيك ، فمن أجاب إبراهيم يومئذ من الخلق فهو حاج .

وأخرج ابن جرير من طريق ابن المسيب عن علي قال : لما فرغ إبراهيم من بناء البيت قال : قد فعلت أي رب فأرنا مناسكنا ، أبرزها لنا ، علمناها ، فبعث الله جبريل فحج به .

(78/66)

وأخرج سعيد بن منصور الأزرقي عن مجاهد قال : حج إبراهيم وإسمعيل وهما ماشيان .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس قال : كان المقام في أصل الكعبة ، فقام عليه إبراهيم فتفرجت عنه هذه الجبال أبو قبيس وصاحبه إلى ما بينه وبين عرفات ، فأراه مناسكه حتى انتهى إليه ، فقال : عرفت ؟ قال : نعم . فسميت عرفات .

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي مجلز في قوله ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ﴾ [البقرة : 127] قال : لما فرغ إبراهيم من البيت جاءه جبريل أراه الطواف بالبيت والصفا والمروة ، ثم انطلقا إلى العقبة فعرض لهما الشيطان ، فأخذ جبريل سبع حصيات وأعطى إبراهيم سبع حصيات ، فرمى وكبّر وقال لإبراهيم : ارم وكبر مع كل رمية حتى أمَلَّ الشيطان ، ثم انطلقا إلى الجمرة الوسطى فعرض لهما الشيطان ، فأخذ جبريل سبع حصيات فرميا وكبرا مع كل رمية حتى املَّ الشيطان ، ثم أتيا الجمرة القصوى

فعرض لهما الشيطان ، فأخذ جبريل سبع حصيات وأعطى إبراهيم سبع حصيات ، وقال : ارم وكبر .

فرميا وكبرا مع كل رمية حتى أقل ، ثم أتى به إلى منى فقال : ههنا يحلق الناس رؤوسهم ، ثم أتى به جمعاً فقال : ههنا يجمع الناس الصلاة ، ثم أتى به عرفات فقال : عرفت . . . ؟ قال : نعم . فمن ثم سميت عرفات .

واخرج الأزرقي عن زهير بن محمد قال : لما فرغ إبراهيم من البيت الحرام قال : أي رب قد فعلت فأرنا مناسكنا ، فبعث الله إليه جبريل فحج به ، حتى إذا جاء يوم النحر عرض له إبليس فقال : احصب . فحصب سبع حصيات ، ثم الغد ثم اليوم الثالث فملأ ما بين الجبلين ، ثم علا على منبر فقال : يا عباد الله أجيبوا ربكم ، فسمع دعوته من بين الأبحر ممن في قلبه مثقال ذرة من إيمان ، قالوا : لبيك اللهم لبيك . قال : ولم يزل على وجه الأرض سبعة مسلمون فصاعداً ، ولولا ذلك لأهلكت الأرض ومن عليها . قال : وأول من أجاب حين أذن بالحج أهل اليمن .

وأخرج الأزرقي عن مجاهد في قوله ﴿ وأرنا مناسكنا ﴾ قال : مذابحنا .

وأخرج الجندي عن مجاهد قال : قال الله لإبراهيم عليه السلام " قم فابن لي بيتاً . قال : أي رب أين . . . ؟ قال : سأخبرك " فبعث الله إليه سحابة لها رأس فقالت : يا إبراهيم إن ربك يأمرك أن تخط قدر هذه السحابة . قال : فجعل إبراهيم ينظر إلى السحابة ويخط . فقالت : قد فعلت ؟ قال : نعم . فارتفعت السحابة فحفر إبراهيم فأبرز عن أساس نابت من الأرض فبنى إبراهيم ، فلما فرغ قال : أي رب قد فعلت فأرنا مناسكنا . فبعث الله إليه جبريل يحج به ، حتى إذا جاء يوم النحر عرض له إبليس فقال له جبريل : احصب . فحصب بسبع حصيات ، ثم الغد ، ثم اليوم الثالث فالرابع ، ثم قال : أعل ثبيراً . فعلا ثبيراً فقال : أي عباد الله أجيبوا ، أي عباد الله أطيعوا الله . فسمع دعوته ما بين الأبحر ممن في قلبه مثقال ذرة من الإيمان ، قالوا : لبيك أطعناك اللهم أطعناك ، وهي التي أتى الله إبراهيم في المناسك : لبيك اللهم لبيك ، ولم يزل على الأرض سبعة مسلمون فصاعداً ، لولا ذلك هلكت الأرض ومن عليها .

وأخرج ابن خزيمة والطبراني والحاكم وصححه والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس رفعه قال " لما أتى إبراهيم خليل الله المناسك عرض له الشيطان عند جمرة العقبة ، فرماه بسبع حصيات حتى ساخ في الأرض ، ثم عرض له عند الجمرة الثانية ، فرماه بسبع حصيات حتى ساخ في الأرض ، ثم عرض له عند الجمرة الثالثة ، فرماه بسبع حصيات

حتى ساخ في الأرض ، قال ابن عباس : الشيطان ترجمون ، وملة أبيكم إبراهيم تتبعون .

وأخرج الطيالسي وأحمد وابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الإِيمان عن ابن عباس قال : إن إبراهيم لما رأى المناسك عرض له الشيطان عند المسعى ، فسابق إبراهيم فسبقه إبراهيم ، ثم انطلق به جبريل حتى أراه مِنى فقال : هذا مناخ الناس .

(80/66)

فلما انتهى إلى جمرة العقبة فعرض له الشيطان ، فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ، ثم أتى به جمرة الوسطى فعرض له الشيطان ، فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ، ثم أتى به جمرة القصوى فعرض له الشيطان ، فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ، فأتى به جمعاً فقال : هذا المشعر . ثم أتى به عرفة فقال : هذه عرفة . فقال له جبريل : أعرفت ؟ قال : نعم . ولذلك سميت عرفة . أتدري كيف كانت التلبية ؟ : أن إبراهيم لما أمر أن يؤذن في الناس بالحج ، أمرت الجبال فخفضت رؤوسها ورفعت له القرى ، فأذن في الناس بالحج .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة في قوله ﴿ وأرنا مناسكنا ﴾ قال : أراهما الله مناسكهما . الموقف بعرفات ، والإِفاضة من جمع ، ورمي الجمار والطواف بالبيت ، والسعي بين الصفا والمروة . انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 1 صـ 331 . 334 ﴾

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (128) ﴾

هناك فرق بين أن تكلف بشيء فتفعله بحب ، وأن تفعل شكلية التكليف وتخرج من عملك خروج الذي ألقى عن كاهله عبء التكليف . . في هذه الآية الكريمة دعاء إبراهيم وابنه إسماعيل وكانا يقولان يا رب أنت أمرتنا أن نرفع القواعد من البيت وقد فعلنا ما أمرتنا . . وليس معنى ذلك أننا اكتفينا بتكليفك لنا لأننا نريد أن نذوق حلاوة التكليف منك مرات ومرات . . " ربنا واجعلنا مسلمين لك" نسلم كل أمورنا إليك . إن الإنسان لا يمكن أن ينتهي من تكليف ليطلب تكليفا غيره إلا إذا كان قد عشق حلاوة التكليف ووجد فيه استمتاعا . . ولا يجد الإنسان استمتاعا في التكليف إلا إذا استحضر الجزاء عليه . . كلما عمل شيئا استحضر النعيم الذي ينتظره على هذا العمل فطلب المزيد .

إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بمجرد أن فرغا من رفع القواعد من البيت قالا : " ربنا واجعلنا مسلمين لك" ولم يكتفيا بذلك بل أرادا امتداد حلاوة التكليف إلي ذريتهما من بعدهما . . فيقولان : " ومن ذريتنا أمة مسلمة" . . ليتصل أمد منهج الله في الأرض ويستمر التكليف من ذرية إلي ذرية إلي يقوم القيامة . . ثم يقولان : " وأرنا مناسكنا " . . أي بين لنا يا رب ما تريده منا . بين لنا كيف نعبدك وكيف نتقرب إليك . . والمناسك هي الأمور التي يريد الله سبحانه وتعالى أن نعبده بها . وقوله : " وأرنا مناسكنا " ترينا أن إبراهيم يرغب في فتح أبواب التكليف على نفسه ، لأنه لا يرى في كل تكليف إلا تطهيرا للنفس وخيرا للذرية ونعيما في الآخرة . . ولذلك يقول كما يروي لنا الحق : " وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم" . . وتب علينا ليس ضروريا أن نفهمها على أنها توبة من المعصية . . وأن إبراهيم وإسماعيل وقعا في المعصية فيريدان التوبة إلي الله . . وإنما لأنهما علما أن من سيأتي بعدهما سيقع في الذنب فطلبا التوبة لذريتهما . . ومن أين علما ؟ عندما قال الله سبحانه وتعالى لإبراهيم : " ومن كفر فأمتعه قليلا ثم اضطره إلي عذاب النار وبئس المصير" . .

لقد طلبا من الله تبارك وتعالى التوبة والرحمة لذريتهما . . والله يحب التوبة من عباده وهو سبحانه أفرح بتوبة عبده المؤمن من أحدكم وقع على بعيره وقد أضله في فلاة . . لأن

المعصية عندما تأخذ الإنسان من منهج الله لتعطيه نفعا عاجلا فإن حلاوة الإيمان. إن كان مؤمنا. ستجذبه مرة أخرى إلي الإيمان بعيدا عن المعاصي . . ولذلك قيل إن انتفعت بالتوبة وندمت على ما فعلت فإن الله لا يغفر لك ذنوبك فقط ولكن يبدل سيئاتك حسنات . . وقلنا أن تشريع التوبة كان وقاية للمجتمع كله من أذى وشر كبير . . لأنه لو كان الذنب الواحد يجعلك خالدا في النار ولا توبة بعده لتجبر العصاة وازدادوا شرا . . ولأصيب المجتمع كله بشرورهم وليئس الناس من آخرتهم لأن

<رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون" >
أخرجه الترمذى وابن ماجة والدارمى فى سننه والحاكم فى مستدركه
لذلك فمن رحمة الله سبحانه أنه شرع لنا التوبة ليرحمنا من شراسة الأذى والمعصية. انتهى
انتهى. اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 587. 588 ﴾

" فصل فى الإسرائيليات في بناء الكعبة : البيت الحرام والحجر الأسود "

قال الدكتور محمد أبو شهبة :

وكذلك أكثَرَ السيوطي في تفسيره : " الدر المنثور" عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ 1 ، من النقل عن الأزرقي ، وأمثاله من المؤرخين والمفسرين الذين هم كحاطبي ليل ، ولا يميزون بين الغث والسمين ، والمقبول ، والمردود ، في بناء البيت ، ومن بناه قبل إبراهيم : أهم الملائكة أم آدم ؟ والحجر الأسود ومن أين جاء ؟ وما ورد في فضلهما ، وقد استغرق في هذا النقل الذي معظمه من الإسرائيليات التي أخذت عن أهل الكتاب بضع عشرة صحيفة2 ، لا يزيد ما صح منها أو ثبت عن عُشْرِ هذا المقدار .

ولو أنه اقتصر على الرواية الصحيحة التي رواها البخاري في صحيحه3 ، ورواها غيره من العلماء الأثبات ، لأراحنا ، وأراح نفسه ، ولما أفسد العقول ، وسمم النفوس بكل هذه الإسرائيليات ، التي نحن في غنية عنها بما تواتر من القرآن ، وثبت من السنة الصحيحة ؛ وفي الحق : أن ابن جرير كان مقتصدا في الإكثار من ذكر الإسرائيليات في هذا الموضع ، وإن كان لم يسلم منها ، وذكر بعضها ، وذلك مثل ما رواه بسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : لما أهبط الله آدم من الجنة قال : إني مهبط معك بيتا يطاف حوله كما يطاف حول عرشي ، ويصلى عنده ، كما يصلى عند عرشي ، فلما كان زمن الطوفان ، رفع ، فكانت الأنبياء

يحجونه ، ولا يعلمون مكانه4 ، حتى بوأه الله إبراهيم

---

1 البقرة : 127 .

2 الدر المنثور ج1 من ص 125- 137 .

3 صحيح البخاري كتاب أحاديث الأنبياء باب " واتخذ الله إبراهيم خليلا" .

4 ولا أدري كيف يحجونه ولا يعلمون مكانه ؟

عليه السلام وأعلمه مكانه ، فبناه من خمسة أجبل : من حراء ، وثبير ، ولبنان ، وجبل الطور ، وجبل الخمر .

وأعجب من ذلك : ما رواه بسنده عن عطاء بن أبي رباح ، قال : لما أهبط الله آدم من الجنة : كان رجلاه في الأرض ، ورأسه في السماء ! ! يسمع كلام أهل السماء ودعاءهم ، يأنس إليهم فهابته الملائكة ، حتى شكت إلى الله في دعائها ، وفي صلاتها ، فوجه إلى مكة ، فكان موضع قدمه قرية وخطوه مفازة حتى انتهى إلى مكة وأنزل الله ياقوتة من ياقوت الجنة ، فكانت على موضع البيت الآن فلم يزل يطوف به ، حتى أنزل الله الطوفان فرفعت تلك الياقوتة ، حتى بعث الله إبراهيم ، فبناه ، فذلك قول الله تعالى : ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ

الْبَيْتِ ﴾ 1 إلى غير ذلك مما مرجعه إلى أخبار بني إسرائيل وخرافاتهم ، ولم يصح في ذلك خبر عن المعصوم صلى الله عليه وسلم ، ويرحم الله الإمام الحافظ ابن كثير ؛ فقد بين لنا منشأ معظم هذه الروايات التي هي من صنع بني إسرائيل ، ودس زنادقتهم ، فقد قال فيما رواه البيهقي في الدلائل من طرق عن عبد الله بن عمرو ابن العاص عن النبي صلى الله عليه وسلم : " بعض الله جبريل إلى آدم ، فأمره ، ببناء البيت ، فبناه آدم ، ثم أمره بالطواف به ، وقال له : أنت أول الناس ، وهنا أول بيت وضع للناس " .

قال ابن كثير : إنه من مفردات ابن لهيعة ، وهو ضعيف ، والأشبه والله أعلم أن يكون موقوفا على عبد الله بن عمرو بن العاص ، ويكون من الزاملتين2 اللتين أصابهما يوم اليرموك ، من كتب أهل الكتاب ، فكان يحدث بما فيهما 3 .

وقال في " بدايته " : ولم يجئ في خبر صحيح عن المعصوم : أن البيت كان مبنيا قبل الخليل عليه السلام ومن تمسك في هذا بقوله : ﴿ مَكَانَ الْبَيْتِ ﴾ فليس بناهض ولا ظاهر ، لأن مراده : مكانه المقدر في علم الله تعالى ، المقرر في قدرته ، المعظم عند الأنبياء موضعه من لدن آدم إلى زمان إبراهيم4 . انتهى . اهـ ﴾ الإسرائيليات والموضوعات فى كتب التفسير صـ 168. 169 ﴾

---

1 تفسير ابن جرير ج1 ص 428 ، 429 .

2 الزاملة : البعير الذي يحمل عليه المتاع .

3 تفسيري ابن كثير والبغوي ج1 ص 316 ط المنار فتح الباري ج6 ص 310 .

4 البداية والنهاية ج1 ص 163 ، ج2 ص 299 .

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله تعالى ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (127) ﴾

" إذ " عطف على " إذ " قبلها ، فالكلام فيهما واحد .

و " يرفع " في معنى ماضياً ؛ لأنها من الأدوات المخلصة المضارع للمضي .

وقال الزمخشري " هي حكاية حال ماضية " قال أبو حيان : وفيه نظر .

و " القوعد " جمع قاعدة ، وهي الأساس والأصل لما فوق ، وهي صفة غالبة ، ومعناها الثابتة ، ومنه " قَعَّدَكَ الله " أي : أسأل الله تثبيتك ، ومعنى رَفْعِها البناءُ عليها ؛ لأنه إذا بني عليها نقلت من هيئة الانخفاض إلى الارتفاع .

وأما القواعد من النِّسَاء فمفردها " قاعد " من غير تاء ؛ لأن المذكر لا حظَّ له فيها إذ هي

من : قَعَدَتْ عن الزوج.

ولم يقل " قواعد البيت " ، بالإضافة لما في البيان بعد الإبهام من تفخيم شأن المبين .

قوله : " وَإِسْمَاعِيلُ " فيه قولان :

أحدهما : وهو الظاهر أنه عطف على " إبراهيم " ن فيكون فاعلاً مشاركاً في الرفع ، ويكون قوله : ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ﴾ في محلّ نصب بإضمار القول ، ذلك القول في محل نصب على الحال منهما ، أي : يرفعان يقولان : ربنا تقبل ، ويؤيد هذا قراءة عبد الله بإظهار فعل القول ، وقرأ : "يَقُولاَنِ : رَبَّنَا تَقَبَّلْ " أي : قائلين ذلك ، ويجوز ألا يكون هذا القول حالاً ، بل هو جملة معطوفة على ما قبلها ، ويكون هو العامل في " إذ " قبله ، والتقدير : يقولان : ربنا تقبل إذ يرفعان ، أي : وقت رفعهما .

والثَّاني : الواو [واو الحال] ، و" إسماعيل " مبتدأ وخبره قول محذوف هو العامل في قوله : " رَبَّنَا تَقَبَّلْ " فيكون إبراهيم هو الرَّافع ، وإسماعيل هو الدَّاعي فقط ، قالوا : لأن إسماعيل كان حينئذ طفلاً صغيراً ، ورَوَوْه عن علي رضي الله عنه والتقدير إذ يرفع إبراهيم حال كون إسماعيل يقول : ربنا تقبل منّا .

وفي المجيْ بلفظ " الرب " جل وعز تنبيه بذكر هذه الصفة على التربية والإصلاح.

و" تقبّل " بمعنى " اقبل " ، ف " تَفَعَّلْ " هنا بمعنى المجرد .

وتقدم الكلام على نحو " إنك أنت السميع " من كان " أنت " يجوز فيه التأكيد والابتداء والفَصْل . وتقدمت صفة السَّمع ، وإن كان سؤال التقبل متأخراً عن العمل للمجاورة ، كقوله تعالى ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الذين اسودت ﴾ [آل عمران : 106] وتأخرت صفة العلم ، لأنها فاصلة ، ولأنها تشمل المسموعات وغيرها .

[فإن قيل : قوله : ﴿ إِنَّكَ أَنتَ السميع العليم ﴾ يفيد الحصر ، وليس الأمر كذلك ، فإن غعيره قد يكون سميعاً .

فالجواب أنه تعالى لكماله ف يهذه الصفة كأنه هو المختص بها دن غيره] .

قوله : " مسلمين " مفعول ثاني للجعل ؛ لأنه بمعنى [التصييير ، والمفعول الأول هو] " ن " .

وقرأ ابن عباس : مُسْلِمِيْنَ " بصيغة الجمع وفي ذلك تأويلان :

أحدهما : أنهما أجريا التثنية مجرى الجمع ، وبه استدل من يجعل التثنية جمعاً .

والثاني : أنها أرادا أنفسهما وأهلهما كـ " هاجر " .

قوله : " لك " فيه وجهان :

أحدهما : أن يتعلق بـ " مسلمين " لأنه بمعنى نُخْلص لك أوجهنا نحو : ﴿ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ للَّهِ ﴾ [آل عمران : 20] فيكون المفعول محذوفاً لفهم المعنى .

والثاني : أنه نعت لمسلمين أي : مسلميمن مستقرين لك أي مستسلمين . والأول أقوى معنى .

قوله : ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً ﴾ فيه قولان :

أحدهما : وهو الظاهر أن " من ذرّيتنا " صفة لموصوف محذوف وهو مفعول أول ، و" أمة مسلمة " مفعول ثاني تقديره : واجعل فريقاً من ذرّيتنا أمة مسلمة .

وفي " من " حينئذ ثلاثة أقوال :

أحدها : أنها للتعبيض .

والثاني : أجازه الزمخشري أن تكون للتبيين ، قال تبارك وتعالى : ﴿ الذين آمَنُواْ مِنْكُمْ ﴾ [النور : 55] .

الثالث : أن تكون لابتداء غاية الجعل ، قاله أبو البقاء .

والثاني : من القولين : أن يكون " أمة " وهو المفعول الأول ، و" من ذرّيتنا " حال منها ؛ لأنه في الأصل صفة نكرة ، فلما قدم عليها انتصب حالاً ، و" مسملة " هو المفعول الثاني ،

والأصل : واجعل الأمة من ذريتنا مسلمة ، ف " الواو " داخلة في الأصل على " أمة " ،

وإنما فصل بينهما بقوله : " مِنْ ذُرِّيَّتِنَا " وهو جائز ؛ لأنه من جملة الكلام المعطوف ، وفي إجازته ذلك نظر ، فإن النحويين كأبي عليٍّ وغيره منعوا الفصل بالظَّرف [بين حرف العطف] إذا كان على حرف واحد وبين المعطوف وجعلوا منه قوله : [المنسرح]

786 يَوْماً تَرَاهَا كَشِبْهِ أَرْدِيَةٍ . . . الْعَصْبِ وَيَوْماً أَدِيمُا نَغِلاَ

ضرورة ، فالفصل في الحال أبعد ، وصار ما أجازه نظير قولك : " ضرب الرجل ومتجردة المرأة زيد " وهذا غير فصيح ، ولا يجوز أن يكون أجعل المقدرة بمعنى أخْلُقُ وأُوْجِد ، فيتعدى لواحد ، ويتعلق " من ذرّيتنا " به ، ويكون " أمة " مفعولاً به ، لأنه إن كان من عطف المفردات لزم التشريك في العامل الأول ، والعامل الأول ليس معناه " اخلق " إنما معناه " صَيِّرْ " .

(89/66)

وإن كان من عطف الجمل ، فلا يحذف إلا ما دلّ عليه المنطوقن والمنطوق ليس بمعنى الخلق ، فكذلك المحذوف ألا تراهم منعوا في قوله : ﴿ هُوَ الذي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلاَئِكَتُهُ ﴾ [الأحزاب : 43] أن يكون التقدير : وملائكته يصلون لا ختلاف مدلول الصَّلاتين ، وتأولوا

ذلك على قدر مشترك بينهما ، وقوله : " لك " فيه الوجهان المتقدمان بعد " مسلمين " .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 2 صـ 477. 485 ﴾ . بتصرف .

(90/66)

قوله تعالى ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (129) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما طلب ما هو له في منصب النبوة من تعليم الله له المناسك بغير واسطة طلب لذريته مثل ذلك بواسطة من جرت العادة به لأمثالهم فقال : ﴿ ربنا وابعث فيهم ﴾ أي الأمة المسلمة التي من ذريتي وذرية ابني إسماعيل ﴿ رسولاً منهم ﴾ ليكون أرفق بهم وأشفق عليهم ويكونوا هم أجدر باتباعه والترامي في نصره ، وذلك الرسول هو محمد صلى الله عليه وسلم ، فإنه لم يبعث من ذريتهما بالكتاب غيره ، فهو دعوة إبراهيم عليه السلام أبي العرب وأكرم ذريته ؛ ففي ذلك أعظم ذم لهم بعداوته مع كونه مرسلاً لتطهيرهم بالكتاب الذي هو الهدى لا ريب فيه ، وإليه الإشارة بقوله : ﴿ يتلوا ﴾ أي يقرأ متابعاً مواصلاً ﴿ عليهم

آياتك ﴾ أي علاماتك الدالات عليك أعم من أن يكون نزل بها الكتاب أو استنبطت منه ﴿ ويعلمهم الكتاب ﴾ الكامل الشامل لكل كتاب " أوتيت جوامع الكلم " ﴿ والحكمة ﴾ وهي كل أمر يشرعه لهم فيحفظهم في صراطي معاشهم ومعادهم من الزيغ المؤدي إلى الضلال الموجب للهلاك .

ولما كان ظاهر دعوته عليه السلام أن البعث في الأمة المسلمة كانوا إلى تعليم ما ذكر أحوج منهم إلى التزكية فإن أصلها موجود بالإسلام فأخر قوله : ﴿ ويزكيهم ﴾ أي يطهر قلوبهم بما أوتي من دقائق الحكمة ، فترتقي بصفائها ، ولطفها من ذروة الدين إلى محل يؤمن عليها فيه أن ترتد على أدبارها وتحرف كتابها كما فعل من تقدمها ، والتزكية إكساب الزكاة ، وهي نماء النفس بما هو لها بمنزلة الغذاء للجسم – قاله الحرالي .

(91/66)

ولما ذكر سبحانه في سورة الجمعة بعثه في الأميين عامة اقتضى المقام تقديم التزكية التي رأسها البراءة من الشرك الأكبر ليقبلوا ما جاءهم من العلم ، وأما تقديمها في آل عمران مع ذكر البعث للمؤمنين فلاقتضاء الحال بالمعاتبة على الإقبال على الغنائم الذي كان سبب الهزيمة لكونها إقبالاً على الدنيا التي هي أم الأدناس ؛ ثم علل ذلك بقوله : ﴿ إنك أنت

العزيز ﴾ أي الذي يغلب كل شيء ولا يغالبه شيء ، لأن العزة كما قال الحرالي : الغلبة الآتية على كلية الظاهر والباطن ، ﴿ الحكيم ﴾ أي الذي يتيقن ما أراد فلا يتأتى نقضه ، ولا متصف بشيء من ذلك غيرك ؛ وفي ذلك إظهار عظيم لشرف العلم وطهارة الأخلاق ، وأن ذلك لا ينال إلا بمجاهدات لا يطيقها البشر ولا تدرك أصلاً إلا بجد تطهّره العزة وترتيب أبرمته الحكمة ؛ هذا لمطلق ذلك فكيف بما يصلح منه للرسالة ؟ وفيه إشارة إلى أنه يكبت أعداء الرسل وإن زاد عددهم وعظم جدهم .

ويحكم أمورهم فلا يستطيع أحد نقض شيء منها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 243. 244 ﴾

(92/66)

فصل

قال الفخر :

قوله : ﴿ رَبَّنَا وابعث فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ ﴾ واعلم أنه لا شبهة في أن قوله : ﴿ رَبَّنَا وابعث فِيهِمْ رَسُولاً ﴾ يريد من أراد بقوله : ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ﴾ لأنه المذكور من قبل ووصفه لذريته بذلك لا يليق إلا بأمة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فعطف عليه بقوله

تعالى : ﴿ رَبَّنَا وابعث فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ ﴾ وهذا الدعاء يفيد كمال حال ذريته من وجهين .

أحدهما : أن يكون فيهم رسول يكمل لهم الدين والشرع ويدعوهم إلى ما يثبتون به على الإسلام .

والثاني : أن يكون ذلك المبعوث منهم لا من غيرهم لوجوه .

أحدها : ليكون محلهم ورتبتهم في العز والدين أعظم ، لأن الرسول والمرسل إليه إذا كانا معاً من ذريته ، كان أشرف لطلبته إذا أجيب إليها .

وثانيها : أنه إذا كان منهم فإنهم يعرفون مولده ومنشأه فيقرب الأمر عليهم في معرفة صدقه وأمانته .

وثالثها : أنه إذا كان منهم كان أحرص الناس على خيرهم وأشفق عليهم من الأجنبي لو أرسل إليهم ، إذا ثبت هذا فنقول : إذا كان مراد إبراهيم ـ عليه السلام ـ عمارة الدين في الحال وفي المستقبل ، وكان قد غلب على ظنه أن ذلك إنما يتم ويكمل بأن يكون القوم من ذريته حسن منه أن يريد ذلك ليجتمع له بذلك نهاية المراد في الدين ، وينضاف إليه السرور العظيم بأن يكون هذا الأمر في ذريته لأن لا عز ولا شرف أعلى من هذه الرتبة .

وأما إن الرسول هو محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيدل عليه وجوه .

أحدها : إجماع المفسرين وهو حجة .

وثانيها : ما روي عنه ـ عليه السلام ـ أنه قال : " أنا دعوة إبراهيم وبشارة عيسى " وأراد بالدعوة هذه الآية ، وبشارة عيسى ـ عليه السلام ـ ما ذكر في سورة الصف من قوله : ﴿ مُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِن بَعْدِى اسمه أَحْمَدُ ﴾ [الصف : 6] .

وثالثها : أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ إنما دعا بهذا الدعاء بمكة لذريته الذين يكونون بها وبما حولها ولم يبعث الله تعالى إلى من بمكة وما حولها إلا محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 4 صـ 59 . 60 ﴾

سؤال وهو أنه يقال : ما الحكمة في ذكر إبراهيم ـ عليه السلام ـ مع محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ في باب الصلاة حيث يقال : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ؟

وأجابوا عنه من وجوه ، أولها : أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ دعا لمحمد ـ عليه السلام ـ حيث قال : ﴿ رَبَّنَا وابعث فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتك ﴾ فلما وجب للخليل على الحبيب حق دعائه له قضى الله تعالى عنه حقه بأن أجرى ذكره على ألسنة أمته إلى يوم القيامة .

وثانيها : أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ سأل ذلك ربه بقوله : ﴿ واجعل لّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى الأخرين ﴾ [الشعراء : 84] يعني ابق لي ثناء حسناً في أمة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فأجابه الله تعالى إليه وقرن ذكره بذكر حبيبه إبقاء للثناء الحسن عليه في أمته .

وثالثها : أن إبراهيم كان أب الملة لقوله : ﴿ مّلَّةَ أَبِيكُمْ إبراهيم ﴾ [الحج : 78] ومحمد كان أب الرحمة ، وفي قراءة ابن مسعود : (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أب لهم) وقال في قصته : ﴿ بالمؤمنين رَءوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة : 128] وقال ـ عليه السلام ـ : " إنما أنا لكم مثل الوالد " يعني في الرأفة والرحمة ، فلما وجب لكل واحد منهم حق الأبوة من وجه قرب بين ذكرهما في باب الثناء والصلاة .

(94/66)

ورابعها : أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ كان منادي الشريعة في الحج : ﴿ وَأَذّن فِى الناس بالحج ﴾ [الحج : 27] وكان محمد ـ عليه السلام ـ منادي الدين : ﴿ سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِى للإيمان ﴾ [آل عمران : 193] فجمع الله تعالى بينهما في الذكر الجميل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 4 صـ 60 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَيُعَلّمُهُمُ الكتاب ﴾

قال الفخر :

قوله : ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ الكتاب ﴾ والمراد أنه يأمرهم بتلاوة الكتاب ويعلمهم معاني الكتاب وحقائقه ، وذلك لأن التلاوة مطلوبة لوجوه : منها بقاء لفظها على ألسنة أهل التواتر فيبقى مصوناً عن التحريف والتصحيف ، ومنها أن يكون لفظه ونظمه معجزاً لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، ومنها أن يكون في تلاوته نوع عبادة وطاعة ، ومنها أن تكون قراءته في الصلوات وسائر العبادات نوع عبادة ، فهذا حكم التلاوة إلا أن الحكمة العظمى والمقصود الأشرف تعليم ما فيه من الدلائل والأحكام ، فإن الله تعالى وصف القرآن بكونه هدى ونوراً لما فيه من المعاني والحكم والأسرار ، فلما ذكر الله تعالى أولاً أمر التلاوة ذكر بعده تعليم حقائقه وأسراره فقال : ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ الكتاب ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 4 صـ 60 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَالْحِكْمَةَ ﴾

سؤال : ما المراد بالحكمة ؟

اختلف المفسرون في المراد بالحكمة ههنا على وجوه .

أحدها : قال ابن وهب قلت لمالك : ما الحكمة ؟ قال : معرفة الدين ، والفقه فيه ، والاتباع له .

وثانيها : قال الشافعي رضي الله عنه : الحكمة سنة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

وهو قول قتادة ، قال أصحاب الشافعي رضي الله عنه : والدليل عليه أنه تعالى ذكر تلاوة الكتاب أولاً وتعليمه ثانياً ثم عطف عليه الحكمة فوجب أن يكون المراد من الحكمة شيئاً خارجاً عن الكتاب ، وليس ذلك إلا سنة الرسول ـ عليه السلام ـ .

(95/66)

فإن قيل : لم لا يجوز حمله على تعليم الدلائل العقلية على التوحيد والعدل والنبوة ؟ قلنا : لأن العقول مستقبلة بذلك فحمل هذا اللفظ على ما لا يستفاد من الشرع أولى .

وثالثها : الحكمة هي الفصل بين الحق والباطل ، وهو مصدر بمعنى الحكم ، كالقعدة والجلسة .

والمعنى : يعلمهم كتابك الذي تنزله عليهم ، وفصل أقضيتك وأحكامك التي تعلمه إياها ، ومثال هذا : الخبر والخبرة ، والعذر والعذرة ، والغل والغلة ، والذل والذلة .

ورابعها : ويعلمهم الكتاب أراد به الآيات المحكمة .

(والحكمة) أراد بها الآيات المتشابهات .

وخامسها : ﴿ يَعْلِمُهُمُ الكتاب ﴾ أي يعلمهم ما فيه من الأحكام .

(والحكمة) أراد بها أنه يعلمهم حكمة تلك الشرائع وما فيها من وجوه المصالح والمنافع ،

ومن الناس من قال : الكل صفات الكتاب كأنه تعالى وصفه بأنه آيات ، وبأنه كتاب ، وبأنه حكمة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 4 صـ 61 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾

قال الفخر :

الصفة الرابعة : من صفات الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ : قوله : " ويزكيهم " واعلم أن كمال حال الإنسان في أمرين .

أحدهما : أن يعرف الحق لذاته .

والثاني : أن يعرف الخير لأجل العمل به ، فإن أخل بشيء من هذين الأمرين لم يكن طاهراً عن الرذائل والنقائص ، ولم يكن زكياً عنها ، فلما ذكر صفات الفضل والكمال أردفها بذكر التزكية عن الرذائل والنقائص ، فقال : (ويزكيهم) واعلم أن الرسول لا قدرة له على التصرف في بواطن المكلفين ، وبتقدير أن تحصل له هذه القدرة لكنه لا يتصرف فيها وإلا لكان ذلك الزكاء حاصلاً فيهم على سبيل الجبر لا على سبيل الاختيار ، فإذن هذه التزكية لها تفسيران .

الأول : ما يفعله سوى التلاوة وتعليم الكتاب والحكمة ، حتى يكون ذلك كالسبب لطهارتهم ، وتلك الأمور ما كان يفعله ـ عليه السلام ـ من الوعد والإيعاد ، والوعظ والتذكير ، وتكرير ذلك عليهم ، ومن التشبث بأمور الدنيا إلى أن يؤمنوا ويصلحوا ، فقد كان ـ عليه السلام ـ يفعل من هذا الجنس أشياء كثيرة ليقوي بها دواعيهم إلى الإيمان والعمل الصالح ، ولذلك مدحه تعالى بأنه على خلق عظيم ، وأنه أوتي مكارم الأخلاق .

الثاني : يزكيهم ، يشهد لهم بأنهم أزكياء يوم القيامة إذا شهد على كل نفس بما كسبت ، كتزكية المزكي الشهود ، والأول أجود لأنه أدخل في مشاكلة مراده بالدعاء ، لأن مراده أن يتكامل لهذه الذرية الفوز بالجنة ، وذلك لا يتم إلا بتعليم الكتاب والحكمة ، ثم بالترغيب الشديد في العمل والترهيب عن الإخلال بالعمل وهو التزكية ، هذا هو الكلام الملخص في هذه الآية . أ هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 4 صـ 61 . 62 ﴾

قوله تعالى ﴿ إِنَّكَ أَنتَ العزيز الحكيم ﴾

اعلم أنه ـ عليه السلام ـ لما ذكر هذه الدعوات ختمها بالثناء على الله تعالى فقال : ﴿ إِنَّكَ أَنتَ العزيز الحكيم ﴾ والعزيز : هو القادر الذي لا يغلب ، والحكيم هو العالم الذي لا يجهل شيئاً ، وإذا كان عالماً قادراً كان ما يفعله صواباً ومبرأ عن العبث والسفه ، ولولا كونه كذلك لما صح منه إجابة الدعاء ولا بعثة الرسل ، ولا إنزال الكتاب ، واعلم أن العزيز من

صفات الذات إذا أريد اقتداره على الأشياء وامتناعه من الهضم والذلة ، لأنه إذا كان منزهاً عن الحاجات لم تلحقه ذلة المحتاج ، ولا يجوز أن يمنع من مراده حتى يلحقه اهتضام ، فهو عزيز لا محالة ، وأما الحكيم فإذا أريد به معنى العليم فهو من صفات الذات ، فإذا أريد بالعزة كمال العزة وهو الامتناع من استيلاء الغير عليه ، وأريد بالحكمة أفعال الحكمة لم يكن العزيز والحكيم من صفات الذات بل من صفات الفعل . أ هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 4 صـ 62 ﴾

(97/66)

أسئلة وأجوبة

سؤال : لم قال : ﴿ فيهم ﴾ ولم يقل لهم ؟

الجواب : إنما قال : ﴿ فيهم ﴾ ولم يقل لهم لتكون الدعوة بمجيء رسول برسالة عامة فلا يكون ذلك الرسول رسولاً إليهم فقط ، ولذلك حذف متعلق ﴿ رسولاً ﴾ ليعم . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ1 صـ 414 ﴾

وأجاب الآلوسى عن هذا السؤال بقوله :

ليكون أشفق عليهم ، ويكونوا أعز به وأشرف ، وأقرب للإجابة ، لأنهم يعرفون منشأه

وصدقه وأمانته. انتهى انتهى. اهـ ﴿روح المعانى حـ1 صـ 386﴾

سؤال: لم جيء بالمضارع في قوله: ﴿يتلو﴾ ؟

وجيء بالمضارع في قوله: ﴿يتلو﴾ للإشارة إلى أن هذا الكتاب تتكرر تلاوته.

أهـ ﴿التحرير والتنوير حـ1 صـ 414﴾

سؤال: لماذا ختمت الآية بقوله ﴿إنك أنت العزيز الحكيم﴾

الجواب: ختمت الآية بقوله ﴿إنك أنت العزيز الحكيم﴾ لأن بعث الرسول تولية، والتولية لا تكون إلا من عزيز غالب على ما يريد، وتعليم الرسول الحكمة لقومه إنما يكون مستندا إلى حكمة مرسله؛ لأن الرسول واسطة بين المرسل والمرسل إليه فلا بد وأن يكون حكيما فلا جرم كان اقترانهما مناسبا. انتهى انتهى. اهـ ﴿البهان-للزركشى حـ1 صـ 88﴾

كلام نفيس لابن عرفة

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وابعث فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ...﴾

إعادة النداء للاهتمام بالسبب وزيادة "مِنهُم" تنبيه على عموم رسالته-صلى الله عليه وسلم-في العرب لأن ضمير الذرية يعم العرب والعجم لأن بعض كفار قريش زعم أنه لم يرسل إليهم.

قوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الكتاب والحكمة وَيُزَكِّيهِمْ...﴾

هذا جاء على الأصل في تقديم العلم أولا ثم (العمل) به لأن العلم شرط في العمل، ولذلك

قال : كل شيء يمكن حصوله للولي الجاهل إلا العلم ، لأن العلم لا يحصل له إلا بالتعلم وما يحكى في بعض المسائل عن الشيخ الصالح أبي الحسن علي الشاذلي وغيره إنما هي مسائل جزئية يمكن أن يطلعه الله على حكمها في مرآة يراها مسطورة بين يديه ، فيجيب بما فيها ، إنما العلم الكلي من حيث هو بحيث (يتصدى) لإقرائه وتعلمه فلم يوجد في العادة لأحد (بوجه) ، كذا كان بعض الشيوخ يقول .

وقدم هنا وفي الحزب الذي يليه بعده "يُعَلِّمُهُمُ" "يُزَكِّيهِمْ" ، وآخّره في سورة الجمعة .

(98/66)

كان الشيخ محمد بن عبد السلام يقول : إنه بحسب المجالس فحيث تقدم التعليم تكون تلك الآية نزلت عليه بمحضر الخواص ومن هو أهل للتعليم ، فيكون التعليم أَهَمّ ، وحيث تقدم التزكية تكون الآية نزلت عليه في موضع أكثره عوام ، فتكون التزكية في حقهم أهمّ .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ أَنتَ العزيز الحكيم ﴾ .

(لَمْ) يَقُلْ : الغفور الرحيم لأن العزيز هو الذي ينفذ مراده ولا ينفّذ فيه مراد (أحد) والحكيم هو الذي تضمنه قوله تعالى : ﴿ اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ وقوله ﴿ وكانوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ﴾ انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عرفة حـ 1 صـ 419. 420 ﴾

كلام نفيس فى الاسمين الجليلين لحجة الإسلام

قال الإمام الغزالى قدس سره فى شرح الأسماء الحسنى :

العزيز : هو الخطير الذى يقل وجود مثله وتشتد الحاجة إليه ويصعب الوصول إليه فما لم تجتمع هذه المعانى الثلاثة لم يطلق ﴿ العزيز ﴾ فكم من شئ يقل وجوده ولكن إذا لم يعظم خطره ولم يكثر نفعه لم يسم عزيزا ، وكم من شئ يعظم خطره ويكثر نفعه ولا يوجد نظيره ولكن إذا لم يصعب الوصول إليه لم يسم عزيزا كالشمس مثلا فإنها لا نظير لها والأرض كذلك والنفع عظيم فى كل واحدة منهما والحاجة شديدة إليهما ولكن لا توصفان بالعزة لأنه لا يصعب الوصول إلى مشاهدتهما فلا بد من اجتماع المعانى الثلاثة

ثم فى كل من المعانى الثلاثة كمال ونقصان فالكمال فى قلة الوجود أن يرجع إلى واحد إذ لا أقل من الواحد ويكون بحيث يستحيل وجود مثله وليس هذا إلا الله تعالى ، فإن الشمس وإن كانت واحدة فى الوجود فليست واحدة فى الإمكان فيمكن وجود مثلها والكمال فى النفاسة وشدة الحاجة أن يحتاج إليه كل شئ فى كل شئ حتى فى وجوده وبقائه وصفاته وليس ذلك الكمال إلا لله تعالى فهو العزيز المطلق الحق الذى لا يوازيه فيه غيره .

والعزيز من العباد من يحتاج إليه عباد الله فى أهم أمورهم وهى الحياة الأخروية والسعادة الأبدية وذلك مما يقل لا محالة وجوده ويصعب إدراكه وهذه رتبة الأنبياء ـ عليهم السلام ـ ويشاركهم فى العز من يتفرد بالقرب من درجتهم فى عصره كالخلفاء وورثتهم من العلماء وعزة كل واحد بقدر علو رتبته عن سواه فى النيل والمشاركة وبقدر عنائه فى إرشاد الخلق والحق ذو الحكمة .

والحكمة عبارة عن معرفة أفضل الأشياء بأجل العلوم وأجل الأشياء هو الله تعالى ولا يعرف كنه معرفته غيره فهو الحكيم المطلق لأنه يعلم أجل الأشياء بأجل العلوم ، إذ أجل العلوم هو العلم الأزلى الدائم الذى لا يتصور زواله المطابق للمعلوم مطابقة لا يتطرق إليها خفاء وشبهة ولا يتصف بذلك إلا علم الله تعالى ، وقد يقال لمن يحسن دقائق الصناعات ويحكمها ويتقن صنعتها حكيما ، وكمال ذلك أيضا ليس إلا لله تعالى فهو الحكيم المطلق ومن عرف جميع الأشياء ولم يعرف الله تعالى لم يستحق أن يسمى حكيما لأنه لم يعرف أجل الأشياء وأفضلها ، والحكمة أجل العلوم ، وجلالة العلم بقدر جلالة المعلوم ، ولا أجل من الله ومن عرف الله فهو حكيم وإن كان ضعيف المنة فى سائر العلوم الرسمية كليل اللسان قاصر البيان فيها إلا أن نسبة حكمة العبد إلى حكمة الله تعالى كنسبة معرفته إلى معرفته بذاته وشتان بين المعرفتين فشتان بين الحكمتين ، ولكنه مع بعده عنه فهو أنفس المعارف وأكثرها خيرا ومن أوتى الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا وما يتذكر إلا أولوا الألباب .

نعم من عرف الله كان كلامه مخالفا لكلام غيره فإنه قلما يتعرض للجزئيات بل يكون كلامه جمليا ولا يتعرض لمصالح العاجلة ، بل يتعرض لما ينفع فى العاقبة ولما كانت الكلمات الكلية أظهر عند الناس من أحوال الحكيم من معرفته بالله ربما أطلق الناس اسم الحكمة على مثل تلك الكلمات الكلية ويقال للناطق بها حكيم وذلك مثل قول سيد الأنبياء ـ عليه السلام ـ :

(100/66)

رأس الحكمة مخافة الله .

الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله .

ما قل وكفى خير مما كثر وألهى . السعيد من وعظ بغيره .

القناعة مال ينفد .

الصبر نصف الإيمان .

اليقين الإيمان كله .

فهذه الكلمات وأمثالها تسمى حكمة وصاحبها يسمى حكيما انتهى ﴿ روح البيان حـ 1 صـ 294.296 ﴾

(101/66)

" فصل "

قال السيوطى :

رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (129)

أخرج أحمد وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن العرباض بن سارية قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إني عند الله في أم الكتاب لخاتم النبيين ، وإن آدم لمنجدل في طينته ، وسأنبئكم بأول ذلك دعوة أبي إبراهيم ، وبشارة عيسى بي ، ورؤيا أمي التي رأت ، وكذلك أمهات النبيين يَرَيْن " .

وأخرج أحمد وابن سعد والطبراني وابن مردويه والبيهقي عن أبي أمامة قال : قلت " يا رسول الله ما كان بدء أمرك ؟ قال : دعوة إبراهيم ، وبشرى عيسى ، ورأت أمي أنه يخرج منها نور أضاءت له قصور الشام " .

وأخرج ابن سعد في طبقاته وابن عساكر من طريق جويبر عن الضحاك " أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : أنا دعوة إبراهيم . قال وهو يرفع القواعد من البيت ﴿ ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم ﴾ حتى أتم الآيه " .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي العاليه في قوله ﴿ ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم

﴾ يعني أمة محمد . فقيل له : قد استجيب لك وهو كائن في آخر الزمان .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي في قوله ﴿ وابعث فيهم رسولاً منهم ﴾ قال : هو محمد صلى الله عليه وسلم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن في قوله ﴿ ويعلمهم الكتاب والحكمة ﴾ قال : السنة .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة في قوله ﴿ ويعلمهم الكتاب والحكمة ﴾ قال : الحكمة السنة . قال : ففعل ذلك بهم ، فبعث فيهم رسولاً منهم يعرفون اسمه ونسبه ، يخرجهم من الظلمات إلى النور ، ويهديهم إلى صراط مستقيم .

وأخرج أبو داود في مراسيله عن مكحول قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " آتاني الله القرآن ومن الحكمة مِثْلَيْه " .

(102/66)

وأخرج ابن جرير عن ابن جريج في قوله ﴿ ويزكيهم ﴾ قال : يطهرهم من الشرك ويخلصهم منه .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية في قوله ﴿ العزيز الحكيم ﴾ قال : عزيز في نقمته إذا انتقم حكيم في أمره . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 1 صـ 334 . 335 ﴾

ومن فوائد القاسمي في الآية

قال رحمه الله :

﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

هذا إخبار عن تمام دعوة إبراهيم لأهل الحرم أن يبعث الله فيهم رسولاً منهم ، أي : من ذرية إبراهيم ، وهم العرب من ولد إسماعيل ، وقد أجاب الله تعالى لإبراهيم عليه السلام هذه الدعوة ، فبعث في ذريته رسولاً [في المطبوع : رسول] منهم ، وهو محمد صلى الله عليه وسلم ، إلى الناس كافة ، وقد أخبر صلى الله عليه وسلم عن نفسه أنه دعوة إبراهيم ، ومراده هذه الدعوة ؛ وذلك فيما خرجه الإمام أحمد عن العرباض بن سارية قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : < إني ، عند الله ، لخاتم النبيّين ، إن آدم عليه السلام لمنجدل في طينته ، وسأنبئكم بأول ذلك ، أنا دعوة أبي إبراهيم ، وبشارة عيسى بي ، ورؤيا أمي التي رأت ، وكذلك أمهات النبيّين يرين > وأخرج أيضاً نحوه عن أبي أمامة ، قال

: قلت : يا نبي الله ! ما كان أول بدء أمرك ؟ قال : < دعوة أبي إبراهيم ، وبشرى عيسى بي ، ورأت أمي أنه يخرج منها نور أضاءت منها قصور الشام > .

(104/66)

والمراد أن أول من نوه بذكره وشَهَرَه في الناس إبراهيم عليه السلام ، ولم يزل ذكره في الناس مشهوراً حتى أفصح باسمه عيسى ابن مريم ، عليهما السلام ، حيث قال : ﴿ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ [الصف : 6] ، وهذا معنى قوله في الحديث : < دعوة أبي إبراهيم ، وبشرى عيسى ابن مريم > . وقوله فيه < ورأت أمي أنه خرج منها نور أضاءت منها قصور الشام > . قيل : كان منها ما رأته حين حملت به ، وقصته على قومها ، فشاع فيهم واشتهر بينهم ، وكان ذلك توطئة وإرهاصاً . وتخصيص الشام بظهور نوره إشارة إلى استقرار دينه ونبوته ببلاد الشام ، ولهذا يكون الشام في آخر الزمان معقلاً للإسلام وأهله ، وبها ينزل عيسى ابن مريم – إذا نزل بدمشق – بالمنارة الشرقية البيضاء منها .

ولهذا جاء في الصحيحين : < لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق ، لا يضرهم من خذلهم ، حتى يأتي أمر الله ، وهم كذلك > وفي صحيح البخاري < وهم بالشام >

وقوله تعالى : ﴿ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ ﴾ هي إما الفرقان الذي أنزل على النبي صلى الله عليه وسلم ، المتلوّ عليهم ، وإما الأعلام الدالة على وجود الصانع وصفاته تعالى ، ومعنى تلاوته إياها عليهم أنه كان يذكرهم بها ، ويدعوهم إليها ، ويحملهم على الإيمان بها . وقوله تعالى : ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ ﴾ أي : الكامل الشامل لكل كتاب وهو القرآن : ﴿ الحكمة ﴾ هي السنة ، فسرها بها كثيرون . وعن مالك : هي معرفة الدين ، والفقه فيه ، والإتباع له . وقوله تعالى : ﴿ ويزكيهم ﴾ أي : يطهرهم من الشرك ، وسائر الأرجاس ، كقوله : ﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ ﴾ [الأعراف : 157] .

(105/66)

ولما ذكر عليه السلام هذه الدعوات ، ختمها بالثناء على الله تعالى فقال : ﴿ إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ ، والعزيز ذو العزة وهي القوة ، والشدة ، والغلبة ، والرفعة ، و : ﴿ الحكيم ﴾ بمعنى الحاكم ، أو بمعنى الذي يحكم الأشياء ويتقنها ، وكلاهما من أوصاف تعالى .

قال الراغب : إن قيل ما وجه الترتيب في الآية ؟ قيل : أما الآيات فهي الآيات الدالة على معجز النبي صلى الله عليه وسلم . وذكر التلاوة لما كان أعظم دلالة نبوته متعلقاً بالقرآن .

وأما الترتيب ، فلأن أول منزلة النبي صلى الله عليه وسلم بعد ادعاء النبوة ، الإتيان بالآيات الدالة على نبوته ، ثم بعده تعليمهم الكتاب ، أي : تعريفهم حقائقه لا ألفاظه فقط ، ثم بتعليمهم الكتاب يوصلهم إلى إفادة الحكمة ، وهي أشرف منزلة العلم ، ولهذا قال : ﴿ ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا ﴾ [البقرة : 269] ثم بالتدرج في الحكمة يصير الْإِنْسَانْ مزكى أي : مطهرًا مستصلحاً لمجاورة الله عز وجل . . انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 2 صـ 442. 444 ﴾

(106/66)

ومن فوائد صاحب المنار فى الآيات السابقة

قال رحمه الله :

(وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ)

أَقُولُ : بَعْدَ أَنْ أَقَامَ اللهُ الْحُجَّةَ عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ وَبَيَّنَ شُئُونَهُمْ فِي الْكُفْرِ بِالنَّبِيِّ الَّذِي كَانُوا يَنْتَظِرُونَهُ لِبِشَارَةِ رُسُلِهِمْ بِهِ ، وَشُئُونَهُمْ فِي التَّلَاعُبِ بِدِينِهِمْ وَشُئُونَهُمْ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ، بَيَّنَ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ وَمَا بَعْدَهَا مَا يَسْتَنِدُ إِلَيْهِ الْإِسْلَامُ وَنَبِيُّ الْإِسْلَامِ مِنْ أَصْلٍ

وَنَسَبٍ يُجِلُّهُ أَهْلُ الْكِتَابِ وَالْعَرَبِ جَمِيعًا ، وَهُوَ مِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ وَنَسَبُهُ ، فَهُوَ فِي هَذَا السِّيَاقِ يُبَيِّنُ لِأَهْلِ الْكِتَابِ – وَلَا سِيَّمَا الْيَهُودُ – الْمُحْتَكِرِينَ لِلْوَحْيِ فِي قَوْمِهِمْ وَالْمُفَضِّلِينَ لِأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْعَرَبِ بِنَسَبِهِمْ أَنَّ هَذَا لَوْ كَانَ حُجَّةً لَمَا قَامَتْ هَذِهِ

الْحُجَّةُ عَلَى مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَقَوْمِهِ ، إِذِ الْمِلَّةُ فِي الْأَصْلِ وَاحِدَةٌ وَالنَّسَبُ وَاحِدٌ ، وَلَكِنَّهُمْ كَفَرُوا النِّعْمَتَيْنِ بِمَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ مِنْ أَعْمَالِهِمْ ، فَجَاءَ النَّبِيُّ الْمَوْعُودُ بِهِ لِإِصْلَاحِ حَالِهِمْ وَحَالِ غَيْرِهِمْ ، وَسَيَأْتِي قَوْلُهُ – تَعَالَى – فِي هَذَا السِّيَاقِ : (يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ) (2 : 146) وَجَرَى شَيْخُنَا فِي الدَّرْسِ عَلَى طَرِيقَتِهِ فِي التَّنَاسُبِ بَيْنَ هَذَا السِّيَاقِ وَمَا قَبْلَهُ فَقَالَ مَا مِثَالُهُ .

(107/66)

كَانَ الْكَلَامُ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ إِلَى هَذِهِ الْآيَةِ بِأُسْلُوبٍ وَاحِدٍ فِي سِيَاقٍ وَاحِدٍ ، ذَكَرَ حَقِّيَّةَ الْكِتَابِ وَكَوْنَهُ مِنْ نُصُوعِ الْبُرْهَانِ بِحَيْثُ يَدْفَعُ رَيْبَ الْمُرْتَابِينَ أَنْ يَدْنُوَ مِنْهُ أَوْ يَتَسَامَى إِلَيْهِ ، ثُمَّ ذَكَرَ أَصْنَافَ النَّاسِ فِي أَمْرِ الْإِيمَانِ بِهِ وَعَدَمِ الْإِيمَانِ بِهِ ، وَأَطَالَ الْحِجَاجَ وَالْمُنَاظَرَةَ فِي خِطَابِ أَهْلِ الْكِتَابِ خَاصَّةً لِمَا تَقَدَّمَ مِنْ أَنَّهُمْ كَانُوا مَوْضِعَ الرَّجَاءِ فِي الْمُبَادَرَةِ إِلَى الْإِيمَانِ بِالنَّبِيِّ وَمَا جَاءَ بِهِ ؛ لِأَنَّهُ وَافَقَهُمْ فِي أَهْلِ الدِّينِ ، وَصَدَّقَ أَنْبِيَاءَهُمْ وَكُتُبَهُمْ وَذَكَّرَهُمْ بِمَا نَسُوا

، وَعَلَّمَهُمْ مَا جَهِلُوا ، وَأَصْلَحَ لَهُمْ مَا حَرَّفُوا وَزَادَهُمْ مَعْرِفَةً بِأَسْرَارِ الدِّينِ وَحِكْمَتِهِ ، كَمَا أَنَّهُمْ فِي مَوْضِعِ الشُّبْهَةِ عِنْدَ الْمُشْرِكِينَ وَالْمُنَافِقِينَ بِمَا كَفَرُوا ، وَفِي مَوْضِعِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ بِمَا آمَنُوا ، قَالَ – تَعَالَى – فِي الِاحْتِجَاجِ عَلَى الْمُشْرِكِينَ : ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (26 : 197) وَقَدْ جَاءَتْ مُحَاجَّةُ أَهْلِ الْكِتَابِ عَلَى طَرِيقَةِ الْإِطْنَابِ لِمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ جُمُودِ الْقَرَائِحِ وَالْبُعْدِ عَنِ الْبَلَاغَةِ ، كَمَا حَكَى عَنْهُمْ أَنَّهُمْ قَالُوا : ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ وَمِنْ فَسَادِ الْأَذْهَانِ بِالتَّعَوُّدِ عَلَى التَّأْوِيلِ وَالتَّحْرِيفِ ، فَكَانَ يُبْدَأُ لَهُمُ الْمَعْنَى وَيُعَادُ ، وَيُسَاقُ إِلَيْهِمُ الْقَوْلُ بِطُرُقٍ بَيِّنَةٍ ، وَيُؤَكَّدُ بِضُرُوبٍ مِنَ التَّأْكِيدِ تَبْعُدُ بِهِ عَنْ قَبُولِ التَّأْوِيلِ وَالتَّحْوِيلِ ، وَكَانَ مِمَّا حُجُّوا

(108/66)

بِهِ التَّذْكِيرُ بِحَالِ سَلَفِهِمُ الْأَنْبِيَاءِ وَبِحَالِهِمْ مَعَهُمْ مِنْ عِصْيَانِهِمْ وَإِيذَائِهِمْ بَلْ قَتْلِهِمْ فِي عَهْدِهِمْ ، وَالْغُرُورِ بِانْتِظَارِ شَفَاعَتِهِمْ ، وَالِاسْتِغْنَاءِ بِهَا مِنْ بَعْدِهِمْ .

ثُمَّ إِنَّ الْكَلَامَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ (وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ) وَمَا بَعْدَهَا مُوَجَّهٌ إِلَى مُشْرِكِي الْعَرَبِ ، وَوَجْهُ الِاتِّصَالِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ مَا قَبْلَهَا أَنَّ ذَلِكَ كَانَ يَتَضَمَّنُ الِاحْتِجَاجَ عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ بِسَلَفِهِمُ الصَّالِحِ ، وَهَذَا يَتَضَمَّنُ الِاحْتِجَاجَ عَلَى مُشْرِكِي قُرَيْشٍ وَأَمْثَالِهِمْ

بِسَلَفِهِمُ الصَّالِحِ ، فَإِنَّهُمْ يَنْتَسِبُونَ إِلَى إِسْمَاعِيلَ وَإِبْرَاهِيمَ وَيَفْتَخِرُونَ بِأَنَّهُمَا بَنَيَا لَهُمُ الْكَعْبَةَ مَعْبَدَهُمُ الْأَكْبَرَ ، وَكَانُوا فِي عَهْدِ التَّنْزِيلِ قَدِ اخْتَلَطُوا بِالْأُمَمِ الْمُجَاوِرَةِ الَّتِي تَعْرِفُ لَهُمْ هَذَا النَّسَبَ .

(109/66)

وَإِنَّكَ لَتَرَى الْكَلَامَ هُنَا جَارِيًا عَلَى طَرِيقَةِ الْإِيجَازِ وَالْإِشَارَةِ لِمَا كَانَ عَلَيْهِ الْعَرَبُ مِنْ حِدَّةِ الْفِكْرِ وَصَفَاءِ الْأَذْهَانِ وَدِقَّةِ الْفَهْمِ وَرِقَّةِ الْوِجْدَانِ ، عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ تَصْلُحُ حُجَّةً عَلَى الْفَرِيقَيْنِ ؛ لِأَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ كَافَّةً يُجِلُّونَ إِبْرَاهِيمَ – عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ – وَيَعْتَقِدُونَ نُبُوَّتَهُ ، وَالْإِسْرَائِيلِيُّونَ مِنْهُمْ يَنْتَسِبُونَ إِلَيْهِ ، وَلَكِنَّ الْخِطَابَ فِي قِصَّتِهِ مُوَجَّهٌ إِلَى الْعَرَبِ أَوَّلًا بِالذَّاتِ ، فَتِلْكَ حُجَجُ الْقُرْآنِ عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِي جَاءَ لِإِصْلَاحِ دِينِهِمْ وَتَرْقِيَتِهِمْ فِيهِ ، وَدِينُ اللهِ وَاحِدٌ فِي جَوْهَرِهِ ، وَهَذِهِ حُجَجُهُ عَلَى أَهْلِ الشِّرْكِ وَالْوَثَنِيَّةِ الْخَاصَّةِ الَّتِي جَاءَ لِمَحْوِهَا مِنَ الْأَرْضِ وَإِثْبَاتِ نَقِيضِهَا ، وَهُوَ التَّوْحِيدُ وَالتَّنْزِيهُ وَإِثْبَاتُ الْبَعْثِ وَالنُّشُورِ ، وَقَدْ أَقَامَ الْحُجَجَ عَلَى هَذَيْنِ الْأَصْلَيْنِ مِنَ الطُّرُقِ الْعَقْلِيَّةِ وَالْكَوْنِيَّةِ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ وَلَا سِيَّمَا فِي السُّوَرِ الْمَكِّيَّةِ .

قَالَ تَبَارَكَ اسْمُهُ : (وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ) ، أَقُولُ : أَشْهَرُ الْأَقْوَالِ وَأَظْهَرُهَا فِي مُتَعَلَّقِ " إِذْ " هُنَا قَوْلَانِ :

(110/66)

---

(1) أَنَّهُ مُقَدَّرٌ مَعْلُومٌ مِنَ السِّيَاقِ وَمِنْ أَمْثَالِهِ وَهُوَ " اذْكُرْ " إِذَا جُعِلَ الْخِطَابُ لِلرَّسُولِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أَيْ " وَاذْكُرْ " لِأَهْلِ الْكِتَابِ وَلِقَوْمِكَ وَغَيْرِهِمْ (إِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ) . . . إِلَخْ ، وَإِذَا جُعِلَ الْخِطَابُ لِلْمُكَلَّفِينَ (وَاذْكُرُوا) وَتَقَدَّمَ نَظِيرُهُ فِي خِطَابِ بَنِي إِسْرَائِيلَ .

(2) أَنَّهُ مُتَعَلِّقٌ بِقَوْلِهِ : (قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا) ، وَالْكَلِمَاتُ جَمْعُ كَلِمَةٍ وَتُطْلَقُ عَلَى اللَّفْظِ الْمُفْرَدِ وَعَلَى الْجُمَلِ الْمُفِيدَةِ مِنَ الْكَلَامِ . وَالْمُرَادُ مِنْهَا هُنَا مَضْمُونُهَا مِنْ أَمْرٍ وَنَهْيٍ ، رَوَى عِكْرِمَةُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : (لَمْ يُبْتَلَ أَحَدٌ بِهَذَا الدِّينِ فَأَقَامَهُ كُلَّهُ إِلَّا إِبْرَاهِيمُ ، ابْتَلَاهُ اللهُ بِثَلَاثِينَ خَصْلَةً مِنْ خِصَالِ الْإِسْلَامِ) . وَاسْتَنْبَطَهَا ابْنُ عَبَّاسٍ بِالْعَدَدِ مِنْ أَرْبَعِ سُوَرٍ لَيْسَ فِيهَا خِطَابٌ لَهُ – عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ – ، وَقَالَ شَيْخُنَا فِي الدَّرْسِ : جَعَلَ التَّكْلِيفَ بِالْكَلِمَاتِ ؛ لِأَنَّهَا تَدُلُّ عَلَيْهَا ، وَتُعْرَفُ بِهَا عَادَةً ، وَلَمْ يَذْكُرِ الْكَلِمَاتِ مَا هِيَ وَلَا الْإِتْمَامَ كَيْفَ كَانَ ؛ لِأَنَّ الْعَرَبَ تَفْهَمُ الْمُرَادَ بِهَذَا الْإِبْهَامِ وَالْإِجْمَالِ ،

وَأَنَّ الْمَقَامَ مَقَامُ إثْبَاتِ أَنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - عَامَلَ إبْرَاهِيمَ مُعَامَلَةَ الْمُبْتَلِي أَيِ الْمُخْتَبِرِ لَهُ لِتَظْهَرَ حَقِيقَةُ حَالِهِ وَيَتَرَتَّبَ عَلَيْهَا مَا هُوَ أَثَرٌ لَهَا ، فَظَهَرَ بِهَذَا الِابْتِلَاءِ وَالِاخْتِبَارِ فَضْلُهُ بِإِتْمَامِهِ مَا كَلَّفَهُ اللَّهُ - تَعَالَى - إيَّاهُ وَإِتْيَانِهِ بِهِ عَلَى وَجْهِ الْكَمَالِ . هَذَا هُوَ الْمُبَادِرُ ، وَلَكِنَّ الْمُفَسِّرِينَ لَمْ يَأْلُوا فِي تَفْسِيرِ الْكَلِمَاتِ وَالْخَبْطِ فِي تَعْيِينِهَا فَقَالَ بَعْضُهُمْ : إنَّهَا مَنَاسِكُ الْحَجِّ ، وَقَالَ آخَرُونَ : إنَّهَا خِصَالُ الْإِيمَانِ وَاسْتَخْرَجُوهَا مِنْ آيَاتٍ مِنَ الْقُرْآنِ ، وَذَهَبَ بَعْضُهُمْ إلَى أَنَّ الْإِشَارَةَ بِالْكَلِمَاتِ إلَى الْكَوْكَبِ وَالْقَمَرِ وَالشَّمْسِ الَّتِي رَآهَا وَاسْتَدَلَّ بِأُفُولِهَا عَلَى وَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ - تَعَالَى - ، وَكَأَنَّ قَائِلَ هَذَا يَعْتَقِدُ أَنَّ إبْرَاهِيمَ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - كَانَ يَظُنُّ أَنَّ هَذِهِ الْكَوَاكِبَ أَرْبَابٌ ، وَحَاشَ لِلَّهِ ، مَا كَانَ مِنْهُ إلَّا قَالَ : (هَذَا رَبِّي) تَمْهِيدًا لِلْحُجَّةِ وَالْبُرْهَانِ ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ - تَعَالَى - بَعْدَ حِكَايَةِ ذَلِكَ عَنْهُ : (وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ) (6 : 83) وَذَهَبَ قَوْمٌ إلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِهَا جَعْلُ اللَّهِ إيَّاهُ إمَامًا وَتَكْلِيفُهُ بِإِقَامَةِ الْبَيْتِ وَتَطْهِيرِهِ وَأَنَّ بَقِيَّةَ الْآيَةِ مُفَسِّرٌ لِلْإِبْهَامِ فِيهَا . وَادَّعَى بَعْضُهُمْ أَنَّ الْمُرَادَ أَمْرُهُ فِي الْمَنَامِ بِذَبْحِ وَلَدِهِ ، وَإِنَّمَا هَذَا الْأَمْرُ كَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ ، فَكَيْفَ جَعَلُوهَا عَشْرًا ؟ وَزَعَمَ آخَرُونَ أَنَّ الْكَلِمَاتِ هِيَ

الْخِصَالُ الْعَشْرُ الَّتِي تُسَمَّى خِصَالَ الْفِطْرَةِ ، وَهِيَ : قَصُّ الشَّارِبِ وَالْمَضْمَضَةُ وَالِاسْتِنْشَاقُ ، وَالسِّوَاكُ ، وَفَرْقُ الرَّأْسِ ، وَتَقْلِيمُ الْأَظْفَارِ ، وَحَلْقُ الْعَانَةِ ، وَالْخِتَانُ ، وَنَتْفُ الْإِبِطِ ، وَالِاسْتِحْدَادُ وَقِيلَ غَيْرَ ذَلِكَ .

قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ عِنْدَ إِيرَادِ قَوْلِ الْمُفَسِّرِ (الْجَلَالِ) فِي تَفْسِيرِ الْكَلِمَاتِ إِنَّهَا الْخِصَالُ الْعَشْرُ : إِنَّ هَذَا مِنَ الْجَرَاءَةِ الْغَرِيبَةِ عَلَى الْقُرْآنِ ، وَلَا شَكَّ عِنْدِي فِي أَنَّ هَذَا مِمَّا أَدْخَلَهُ الْيَهُودُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ

لِيَتَّخِذُوا دِينَهُمْ هُزُوًا ، وَأَيُّ سَخَافَةٍ أَشَدُّ مِنْ سَخَافَةِ مَنْ يَقُولُ : إِنَّ اللهَ – تَعَالَى – ابْتَلَى نَبِيًّا مِنْ أَجْلِ الْأَنْبِيَاءِ بِمِثْلِ هَذِهِ الْأُمُورِ ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِإِتْمَامِهَا ، وَجَعَلَ ذَلِكَ كَالتَّمْهِيدِ لِجَعْلِهِ إِمَامًا لِلنَّاسِ وَأَصْلًا لِشَجَرَةِ النُّبُوَّةِ ، وَإِنَّ هَذِهِ الْخِصَالَ لَوْ كُلِّفَ بِهَا صَبِيٌّ مُمَيِّزٌ لَسَهُلَ عَلَيْهِ إِتْمَامُهَا وَلَمْ يُعَدَّ ذَلِكَ مِنْهُ أَمْرًا عَظِيمًا ؟ وَالْحَقُّ أَنَّ مِثْلَ هَذَا يُؤْخَذُ كَمَا أَخْبَرَ اللهُ – تَعَالَى – بِهِ وَلَا يَنْبَغِي تَعْيِينُ الْمُرَادِ بِهِ إِلَّا بِنَصٍّ عَنِ الْمَعْصُومِ .

هَذَا مُلَخَّصُ مَا قَالَهُ شَيْخُنَا فِي الدَّرْسِ وَهُوَ صَفْوَةُ الْحَقِيقَةِ ، وَلَكِنْ كَتَبَ إِلَيْهِ رَجُلٌ مِنَ الْمُشْتَغِلِينَ بِالْعِلْمِ فِي سُورِيَا كِتَابًا عَقِبَ قِرَاءَتِهِ ذَلِكَ فِي الْمَنَارِ يَقُولُ فِيهِ : إِنَّ

تَفْسِيرَ الْكَلِمَاتِ بِخِصَالِ الْفِطْرَةِ مَرْوِيٌّ عَنْ تُرْجُمَانِ الْقُرْآنِ ابْنِ عَبَّاسٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا – فَكَيْفَ يُخَالِفُهُ فِيهِ ؟ وَشَدَّدَ النَّكِيرَ فِي ذَلِكَ وَأَطْنَبَ فِي مَدْحِ ابْنِ عَبَّاسٍ . وَقَدْ أَرْسَلَ إِلَيَّ الْأُسْتَاذُ كِتَابَهُ عِنْدَ وُصُولِهِ وَكَتَبَ عَلَيْهِ : (الشَّيْخُ رَشِيدٌ يُجِيبُ هَذَا الْحَيَوَانَ) . . . فَكَتَبْتُ إِلَيْهِ – وَكَانَ صَدِيقًا لِي – كِتَابًا لَطِيفًا كَانَ مِمَّا قُلْتُهُ فِيهِ عَلَى مَا أَتَذَكَّرُ : إِنَّنَا لَمْ نَرَ أَحَدًا مِنَ الْمُفَسِّرِينَ وَلَا مِنْ أَئِمَّةِ الْعُلَمَاءِ الْتَزَمَ مُوَافَقَةَ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي كُلِّ مَا يُرْوَى عَنْهُ ، وَإِنْ صَحَّ سَنَدُهُ عِنْدَهُ ، فَكَيْفَ إِذَا لَمْ يَصِحَّ ؟ وَقَدْ قَالَ الشَّيْخُ مُحَمَّد عَبْده : إِنَّهُ يُجِلُّ ابْنَ عَبَّاسٍ عَنْ هَذِهِ الرِّوَايَةِ وَلَا يُصَدِّقُهَا ، وَلَمَّا كَانَتْ مِثْلُ هَذِهِ الشُّبْهَةِ أَوِ الطَّعْنِ فِي أَيِّ عَالِمٍ بِأَنَّهُ خَالَفَ فُلَانًا الصَّحَابِيَّ أَوِ الْإِمَامَ فُلَانًا مِمَّا يَرُوجُ فِي سُوقِ الْعَوَامِّ ، نَذْكُرُ هُنَا مَا قَالَهُ شَيْخُ الْمُفَسِّرِينَ ابْنُ جَرِيرٍ الطَّبَرِيُّ بَعْدَ ذِكْرِ رِوَايَاتِهِ الْمُخْتَلِفَةِ فِي تَفْسِيرِ (الْكَلِمَاتِ) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَغَيْرِهِ مِنْ مُفَسِّرِي السَّلَفِ وَنَقَلَهُ عَنْهُ ابْنُ كَثِيرٍ مُقِرًّا لَهُ ، قَالَ هَذَا : قَالَ أَبُو جَعْفَرِ بْنُ جَرِيرٍ مَا حَاصِلُهُ : إِنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِالْكَلِمَاتِ جَمِيعَ مَا ذُكِرَ ، وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ بَعْضَ ذَلِكَ ، وَلَا يَجُوزُ الْجَزْمُ بِشَيْءٍ مِنْهَا أَنَّهُ الْمُرَادُ عَلَى التَّعْيِينِ إِلَّا بِحَدِيثٍ أَوْ إِجْمَاعٍ ، (قَالَ) : وَلَمْ يَصِحَّ فِي ذَلِكَ خَبَرٌ بِنَقْلِ الْوَاحِدِ

وَلَا بِنَقْلِ الْجَمَاعَةِ الَّذِي يَجِبُ التَّسْلِيمُ لَهُ ا هـ .

الْمُرَادُ مِنْهُ وَهُوَ عَيْنُ مَا ذَهَبَ إلَيْهِ شَيْخُنَا وَهَذِهِ الْحُجَّةُ يُدْلِي بِهَا ابْنُ جَرِيرٍ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ مِنْ تَفْسِيرِهِ وَهِيَ الْحَقُّ .

ذَكَرَ - تَعَالَى - أَنَّ إبْرَاهِيمَ أَتَمَّ الْكَلِمَاتِ ، وَأَنَّهُ - تَعَالَى - (قَالَ) لَهُ : (إنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إمَامًا) وَقَدْ فُصِلَتِ الْجُمْلَةُ عَمَّا قَبْلَهَا ؛ لِأَنَّهَا جَوَابٌ عَنْ سُؤَالٍ مُقَدَّرٍ تَدُلُّ عَلَيْهِ الْقَرِينَةُ ، قَالَ شَيْخُنَا : وَلَمْ يَقُلْ : فَقَالَ إنِّي جَاعِلُكَ ، لِلْإِشْعَارِ بِأَنَّ هَذِهِ الْإِمَامَةَ بِمَحْضِ فَضْلِ اللَّهِ - تَعَالَى - وَاصْطِفَائِهِ لَا بِسَبَبِ إتْمَامِ الْكَلِمَاتِ ، فَإِنَّ الْإِمَامَةَ هُنَا عِبَارَةٌ عَنِ الرِّسَالَةِ وَهِيَ لَا تُنَالُ بِكَسْبِ الْكَاسِبِ .

وَلَيْسَ فِي الْكَلَامِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الِابْتِلَاءَ كَانَ قَبْلَ النُّبُوَّةِ ، وَأَمَّا فَائِدَةُ الِابْتِلَاءِ : فَهِيَ تَعْرِيفُ إبْرَاهِيمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - بِنَفْسِهِ ، وَأَنَّهُ جَدِيرٌ بِمَا اخْتَصَّهُ اللَّهُ بِهِ ، وَتَقْوِيَةٌ لَهُ عَلَى الْقِيَامِ بِمَا يُوَجَّهُ إلَيْهِ ، وَقَدْ تَحَقَّقَتْ إمَامَتُهُ لِلنَّاسِ بِدَعْوَتِهِ إيَّاهُمْ إلَى التَّوْحِيدِ الْخَالِصِ - وَكَانَتِ الْوَثَنِيَّةُ قَدْ عَمَّتْهُمْ وَأَحَاطَتْ بِهِمْ - فَقَامَ عَلَى عَهْدِهِ بِالْحَنِيفِيَّةِ وَهِيَ الْإِيمَانُ بِتَوْحِيدِ اللَّهِ وَالْبَرَاءَةُ مِنَ الشِّرْكِ وَإِثْبَاتُ

الرِّسَالَةِ ، وَتَسَلْسَلَ ذَلِكَ فِي ذُرِّيَّتِهِ خَاصَّةً ، فَلَمْ يَنْقَطِعْ مِنْهَا دِينُ التَّوْحِيدِ ؛ وَلِذَلِكَ وَصَفَ اللهُ الْإِسْلَامَ بِأَنَّهُ مِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ .

(115/66)

وَمَاذَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ لَمَّا بَشَّرَهُ اللهُ – تَعَالَى – بِجَعْلِهِ إِمَامًا لِلنَّاسِ ؟ (قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي) أَيْ قَالَ : وَاجْعَلْ مِنْ ذُرِّيَّتِي أَئِمَّةً لِلنَّاسِ ، وَهُوَ إِيجَازٌ فِي الْحِكَايَةِ عَنْهُ لَا يُعْهَدُ مِثْلُهُ إِلَّا فِي الْقُرْآنِ . وَقَدْ جَرَى إِبْرَاهِيمُ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – عَلَى سُنَّةِ الْفِطْرَةِ فِي دُعَائِهِ هَذَا ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ لَمَّا يَعْلَمُ مِنْ أَنَّ بَقَاءَ وَلَدِهِ بَقَاءٌ لَهُ يُحِبُّ أَنْ تَكُونَ ذُرِّيَّتُهُ عَلَى أَحْسَنِ حَالٍ يَكُونُ هُوَ عَلَيْهَا ، لِيَكُونَ لَهُ حَظٌّ مِنَ الْبَقَاءِ جَسَدًا وَرُوحًا . وَمِنْ دُعَاءِ إِبْرَاهِيمَ الَّذِي حَكَاهُ اللهُ عَنْهُ فِي السُّورَةِ الْمُسَمَّاةِ بِاسْمِهِ (رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي) (14 : 40) وَقَدْ رَاعَى الْأَدَبَ فِي طَلَبِهِ ، فَلَمْ يَطْلُبِ الْإِمَامَةَ لِجَمِيعِ ذُرِّيَّتِهِ بَلْ لِبَعْضِهَا ؛ لِأَنَّهُ الْمُمْكِنُ وَفِي هَذَا مُرَاعَاةٌ لِسُنَنِ الْفِطْرَةِ أَيْضًا . وَذَلِكَ مِنْ شُرُوطِ الدُّعَاءِ وَآدَابِهِ ، فَمَنْ خَالَفَ فِي دُعَائِهِ سُنَنَ اللهِ فِي خَلِيقَتِهِ أَوْ فِي شَرِيعَتِهِ ، فَهُوَ غَيْرُ جَدِيرٍ بِالْإِجَابَةِ ، بَلْ هُوَ سَيِّئُ الْأَدَبِ مَعَ اللهِ – تَعَالَى – ؛ لِأَنَّهُ يَدْعُوهُ لِأَنْ يُبْطِلَ لِأَجْلِهِ سُنَّتَهُ الَّتِي لَا تَتَبَدَّلُ وَلَا تَتَحَوَّلُ أَوْ يَنْسَخَ شَرِيعَتَهُ بَعْدَ خَتْمِ النُّبُوَّةِ وَإِتْمَامِ الدِّينِ .

(116/66)

وَبِمَاذَا أَجَابَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ حِينَ دَعَاهُ هَذَا الدُّعَاءَ ؟ (قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ) أَيْ إِنَّنِي أُعْطِيكَ مَا طَلَبْتَ ، وَسَأَجْعَلُ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ أَئِمَّةً لِلنَّاسِ ، وَلَكِنَّ عَهْدِي بِالْإِمَامَةِ لَا يَنَالُ الظَّالِمِينَ ؛ لِأَنَّهُمْ لَيْسُوا بِأَهْلٍ لِأَنْ يُقْتَدَى بِهِمْ ، فَفِي الْعِبَارَةِ مِنَ الْإِيجَازِ مَا يُنَاسِبُ مَا قَبْلَهَا .

وَإِنَّمَا اكْتَفَى فِي الْجَوَابِ بِذِكْرِ الْمَانِعِ مِنْ مَنْصِبِ الْإِمَامَةِ مُطْلَقًا ، وَهُوَ الظُّلْمُ لِتَنْفِيرِ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ مِنَ الظُّلْمِ وَتَبْغِيضِهِ إِلَيْهِمْ لِيَتَحَامَوْهُ وَيُنَشِّئُوا أَوْلَادَهُمْ عَلَى كَرَاهَتِهِ ، وَيُرَبُّوهُمْ عَلَى التَّبَاعُدِ عَنْهُ لِكَيْلَا يَقَعُوا فِيهِ فَيُحْرَمُوا مِنْ هَذَا الْمَنْصِبِ الْعَظِيمِ الَّذِي هُوَ أَعْلَى الْمَنَاصِبِ وَأَشْرَفُهَا ، وَلِتَنْفِيرِ سَائِرِ النَّاسِ مِنَ الظَّالِمِينَ وَتَرْغِيبِهِمْ عَنِ الِاقْتِدَاءِ بِهِمْ ، فَإِنَّ النَّاسَ قَدِ اعْتَادُوا الِاقْتِدَاءَ بِالرُّؤَسَاءِ وَالْمُلُوكِ الظَّالِمِينَ لِأَنْفُسِهِمْ وَلِغَيْرِهِمْ بِالْخُرُوجِ عَنِ الشَّرِيعَةِ إِلَّا مَا يُوَافِقُ أَهْوَاءَهُمْ ، وَيُحَرِّفُونَ أَوْ يُؤَوِّلُونَ الْأَحْكَامَ لِتُطَابِقَ شَهَوَاتِهِمْ ، وَقَدْ دَرَجُوا عَلَى ذَلِكَ فِي كُلِّ عَصْرٍ مَا عَدَا عَصْرَ النُّبُوَّةِ وَمَا قَارَبَهُ ، كَعَصْرِ خِلَافَةِ النُّبُوَّةِ كَمَا يُعْلَمُ مِنْ شَهَادَةِ التَّارِيخِ الَّتِي لَا تُرَدُّ .

(117/66)

أَقُولُ : وَذَهَبَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ إِلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالظُّلْمِ هُنَا أَشَدُّ أَنْوَاعِهِ قُبْحًا وَضَرَرًا وَهُوَ الشِّرْكُ وَالْكُفْرُ ، وَمِنْهُ (إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) (31 : 13) وَ (وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ) (2 : 254) وَلَكِنْ لَا دَلِيلَ هُنَا عَلَى الْحَصْرِ أَوِ الْقَصْرِ ، وَمَنْ يَظْلِمُ النَّاسَ مِنَ الْمُوَحِّدِينَ الْمُقِرِّينَ

بِالرِّسَالَةِ غَيْرُ أَهْلٍ لِإِمَامَتِهِمْ ؛ لِأَنَّهُ قُدْوَةٌ بَاطِلٌ وَشَرٌّ يُفْسِدُ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَدُنْيَاهُمْ . وَإِذَا كَانَ فُقَهَاؤُنَا يَقُولُونَ : بِأَنَّ الْإِمَامَ لَا يُنْبَذُ عَهْدُهُ إِلَّا بِالْكُفْرِ الصَّرِيحِ دُونَ الظُّلْمِ وَالْفِسْقِ ، فَإِنَّمَا يَقُولُونَ ذَلِكَ خَوْفًا مِنْ وُقُوعِ الْفِتْنَةِ ؛ لَا لِأَنَّ الظَّالِمَ أَهْلٌ لِلْإِمَامَةِ ، أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ يَشْتَرِطُونَ

فِي اخْتِيَارِهِ وَبَيْعَتِهِ الْعَدَالَةَ ، وَمِنْ قَوَاعِدِهِمْ أَنَّهُ يُغْتَفَرُ فِي الْبَقَاءِ وَالِاسْتِمْرَارِ مَا لَا يُغْتَفَرُ فِي الِابْتِدَاءِ ، وَلَيْسَ هَذَا فِي كُلِّ شَيْءٍ أَيْضًا .

(118/66)

(قَالَ الْأُسْتَاذُ) : الْإِمَامَةُ الصَّحِيحَةُ وَالْأُسْوَةُ الْحَسَنَةُ هِيَ فِيمَا تَكُونُ عَلَيْهِ الْأَرْوَاحُ مِنَ الصِّفَاتِ الْفَاضِلَةِ وَالْمَلَكَاتِ الْعِلْمِيَّةِ الَّتِي تَمْلِكُ عَلَى صَاحِبِهَا طُرُقَ الْعَمَلِ فَتَسُوقُهُ إِلَى خَيْرِهَا وَتَزَعُهُ عَنْ شَرِّهَا ، وَلَا حَظَّ لِلظَّالِمِينَ فِي شَيْءٍ مِنْهَا ، وَإِنَّمَا هُمْ أَصْحَابُ الرَّسْمِ وَأَهْلُ الْخِدَاعِ وَالِانْخِدَاعِ بِالظَّاهِرِ ، وَلِذَلِكَ يَصِفُونَ أَعْمَالَهُمْ وَأَحْكَامَهُمْ بِالرَّسْمِيَّةِ . وَقَدْ

جَعَلَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ إِمَامًا لِلنَّاسِ وَذَكَرَ لَنَا فِي كِتَابِهِ كَثِيرًا مِنْ صِفَاتِهِ الْجَلِيلَةِ كَقَوْلِهِ – تَعَالَى – : (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا) (16 : 20) الْآيَةَ ، وَقَوْلِهِ : (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ) (11 : 75) وَلَمْ يَذْكُرْ لَنَا شَيْئًا مِنْ زِيِّهِ وَصِفَةِ ثِيَابِهِ ، وَلَا وَصَفَ أَنْوَاعَ طَعَامِهِ وَشَرَابِهِ ، بَلْ أَرْشَدَنَا إِلَى أَنَّ دَعْوَتَهُ الصَّالِحَةَ لَا يَدْخُلُ فِيهَا وَلَا يَنْتَفِعُ بِهَا أَحَدٌ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ إِلَّا مَنِ اجْتَنَبَ الظُّلْمَ لِنَفْسِهِ وَلِلنَّاسِ .

قَالَ : وَقَدْ أَخَذُوا مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ حُكْمًا أُصُولِيًّا ، وَهُوَ أَنَّ الظَّالِمَ لَا يَجُوزُ أَنْ يُوَلَّى مَنْصِبَ الْإِمَامَةِ الْعُظْمَى ، وَاشْتَرَطُوا لِصِحَّةِ الْخِلَافَةِ فِيمَا اشْتَرَطُوا الْعِلْمَ وَالْعَدْلَ ، وَنُقِلَ أَنَّ أَبَا حَنِيفَةَ (رح) كَانَ يُفْتِي سِرًّا بِجَوَازِ الْخُرُوجِ عَلَى الْمَنْصُورِ ، وَيُسَاعِدُ عَلِيَّ بْنَ الْحَسَنِ عَلَى مَا كَانَ يَنْزِعُ إِلَيْهِ مِنَ الْخُرُوجِ عَلَيْهِ . اكْتَفَى الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ مِنَ الدَّرْسِ بِهَذَا الْقَدْرِ مِنَ الِاسْتِشْهَادِ .

(119/66)

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعَلِّلُ إِبَاءَ أَبِي حَنِيفَةَ مِنَ الْأَئِمَّةِ مَنْصِبَ الْقَضَاءِ فِي زَمَنِ الْمَنْصُورِ وَأَمْثَالِهِ مِنَ الْأُمَرَاءِ ، بِاعْتِقَادِ عَدَمِ صِحَّةِ إِمَامَتِهِمْ ، وَعَدَمِ انْعِقَادِ وِلَايَتِهِمْ ، وَيُرْوَى أَنَّ أَبَا حَنِيفَةَ كَانَ يَرَى يَوْمَئِذٍ أَنَّ الْإِمَامَةَ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ لِلْعَلَوِيِّينَ خَاصَّةً .

ثُمَّ ذَكَرَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ هُنَا أَئِمَّةَ الْعِلْمِ وَقَالَ : إنَّ النَّاسَ لَمْ يَرْعَوُوا عَنِ الِاقْتِدَاءِ بِالظَّالِمِينَ حَتَّى بَعْدَ هَذَا التَّحْذِيرِ الَّذِي أَوْحَاهُ اللَّهُ إلَى إبْرَاهِيمَ ، ثُمَّ أَعْلَمَ بِهِ مُحَمَّدًا - عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - ؛ فَإِنَّهُمْ ظَلُّوا عَلَى دِينِ مُلُوكِهِمْ وَهُمُ الْيَوْمَ وَقَبْلَ الْيَوْمِ يَدَّعُونَ الِاقْتِدَاءَ بِالْأَئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ، وَهُمْ كَاذِبُونَ فِي هَذِهِ الدَّعْوَى ، فَإِنَّهُمْ لَيْسُوا عَلَى شَيْءٍ مِنْ سِيرَتِهِمْ فِي التَّخَلُّقِ بِأَخْلَاقِ الْقُرْآنِ ، وَتَحَرِّي اتِّبَاعِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فِي جَمِيعِ الْأَعْمَالِ . اكْتَفَى الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ بِهَذِهِ الْإِشَارَةِ فِي الدَّرْسِ ، وَنَزِيدُهَا إيضَاحًا فَنَقُولُ : قَدْ غَلَبَتْ عَلَى النَّاسِ أَهْوَاءُ السَّلَاطِينِ وَالْحُكَّامِ الظَّالِمِينَ ، حَتَّى إنَّ هَؤُلَاءِ الْأَئِمَّةَ الْأَرْبَعَةَ لَمْ يَسْلَمُوا مِنْ أُولَئِكَ الظَّالِمِينَ ، فَقَدْ سُجِنَ أَبُو حَنِيفَةَ وَحَاوَلُوا إكْرَاهَهُ عَلَى قَبُولِ الْقَضَاءِ ، لَمَّا رَأَوْا مِنْ إقْبَالِ النَّاسِ عَلَى الْأَخْذِ عَنْهُ فَلَمْ يَقْبَلْ ، فَضَرَبُوهُ وَحَبَسُوهُ وَلَمْ يَقْبَلْ كَمَا هُوَ مَشْهُورٌ .

(120/66)

وَضُرِبَ الْإِمَامُ مَالِكٌ سَبْعِينَ سَوْطًا لِأَجْلِ فَتْوَى لَمْ تُوَافِقْ غَرَضَ السُّلْطَانِ ، نَقَلَهُ ابْنُ خَلِّكَانَ عَنْ شُذُورِ الْعُقُودِ لِابْنِ الْجَوْزِيِّ ، وَنَقَلَ عَنِ الْوَاقِدِيِّ : أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي آخِرِ عَهْدِهِ يَشْهَدُ الصَّلَوَاتِ فِي الْمَسْجِدِ وَلَا الْجُمُعَةَ ، وَكَانَ يَقُولُ : لَيْسَ كُلُّ النَّاسِ يَقْدِرُ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِعُذْرِهِ . وَسُعِيَ بِهِ إلَى جَعْفَرِ بْنِ سُلَيْمَانَ بْنِ عَلِيِّ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْعَبَّاسِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - وَهُوَ

عَمُّ

أَبِي جَعْفَرٍ الْمَنْصُورِ وَقَالُوا لَهُ : إِنَّهُ لَا يَرَى أَيْمَانَ بَيْعَتِكُمْ هَذِهِ بِشَيْءٍ ، فَغَضِبَ جَعْفَرٌ وَدَعَا بِهِ وَجَرَّدَهُ وَضَرَبَهُ بِالسِّيَاطِ ، وَمُدَّتْ يَدُهُ حَتَّى انْخَلَعَتْ كَتِفُهُ ، وَارْتَكَبَ مِنْهُ أَمْرًا عَظِيمًا .

وَخَبَرُ طَلَبِ هَارُونَ الرَّشِيدِ الشَّافِعِيَّ لِلْقَضَاءِ وَإِبَائِهِ وَاخْتِفَائِهِ ثُمَّ هَرَبِهِ مَشْهُورٌ ، وَسَبَبُهُ الْوَرَعُ .

وَأَشْهَرُ مِنْهُ مِحْنَةُ الْإِمَامِ أَحْمَدَ وَحَبْسُهُ وَضَرْبُهُ الضَّرْبَ الْمُبَرِّحَ ؛ لِيَقُولَ بِخَلْقِ الْقُرْآنِ .

فَهَكَذَا عَامَلَ الْمُلُوكُ الظَّالِمُونَ هَؤُلَاءِ الْأَئِمَّةَ وَبَلَغُوا مِنْهُمْ وَمِنَ النَّاسِ بِظُلْمِهِمْ مَا أَرَادُوا مِنْ إِفْسَادِ الدِّينِ وَالدُّنْيَا .

(121/66)

وَكُلُّنَا يَعْلَمُ أَنَّ أُولَئِكَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الْأَئِمَّةَ الَّذِينَ يَدَّعِي الْأُمَرَاءُ وَالْحُكَّامُ الْيَوْمَ اتِّبَاعَهُمْ كَانُوا أَقَلَّ تَوَغُّلًا وَإِسْرَافًا فِي الظُّلْمِ مِنْ أَكْثَرِ الْمُلُوكِ وَالْأُمَرَاءِ الْمُتَأَخِّرِينَ ، وَإِنَّكَ لَتَرَى أَكْثَرَ النَّاسِ تَبَعًا لِأَهْوَاءِ هَؤُلَاءِ الرُّؤَسَاءِ إِلَّا مَنْ وَفَّقَهُ اللهُ وَهَدَاهُ – وَقَلِيلٌ مَا هُمْ – بَلْ هُمُ الْغُرَبَاءُ فِي الْأَرْضِ .

وَالْعِبْرَةُ فِي مِثْلِ مَا أَشَرْنَا إِلَيْهِ مِنَ الْأَحْدَاثِ أَنَّ الظَّالِمِينَ مِنْ حُكَّامِ هَذِهِ الْأُمَّةِ بَدَءُوا بِتَحْكِيمِ أَهْوَائِهِمُ السِّيَاسِيَّةِ فِي الدِّينِ وَأَهْلِهِ مِنَ الْقَرْنِ الْأَوَّلِ ، وَكَانُوا إِذَا رَأَوُا النَّاسَ قَدْ أَقْبَلُوا عَلَى

رَجُلٍ مِنْ رِجَالِ الدِّينِ اسْتَمَالُوهُ ، فَإِنْ لَمْ يَمِلْ إِلَيْهِمْ آذَوْهُ وَأَهَانُوهُ ، وَلَكِنْ كَانَ الدِّينُ وَطَلَبُ الْحَقِّ غَالِبًا عَلَى أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ ، فَقَدْ نَقَلَ الْمُؤَرِّخُونَ أَنَّ الْإِمَامَ مَالِكًا لَمْ يَزَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الضَّرْبِ فِي عُلُوٍّ وَرِفْعَةٍ ، وَكَأَنَّمَا كَانَتْ تِلْكَ السِّيَاطُ حُلِّيًا حُلِّيَ بِهِ . وَلَوْ أَمَرَ أَحَدُ السَّلَاطِينِ الْمُتَأَخِّرِينَ بِضَرْبِ عَالِمٍ مِنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الْعَصْرِ ؛ لِأَنَّهُ لَا يَرَى عَهْدَ بَيْعَتِهِ صَحِيحًا أَوْ لِأَنَّهُ أَفْتَى بِمَا لَا يُوَافِقُ غَرَضَهُ (كَمَا نُقِلَ عَنْ مَالِكٍ) لَمَا رَأَيْتَ لَهُ رِفْعَةً وَلَا احْتِرَامًا عِنْدَ النَّاسِ ، وَلَأَعْرَضَ الْجَمِيعُ عَنْهُ .

(122/66)

فَأَمَّا الْعُقَلَاءُ الْعَارِفُونَ بِفَضْلِهِ ، فَيُعْرِضُونَ عَنْهُ بِوُجُوهِهِمْ ، وَأَمَّا الْغَوْغَاءُ مِنَ الْعَامَّةِ وَمَنْ فِي حُكْمِهِمْ ، فَيُعْرِضُونَ عَنْهُ بِقُلُوبِهِمْ وَوُجُوهِهِمْ ، وَيَعْتَقِدُونَ كُفْرَهُ أَوْ فِسْقَهُ وَابْتِدَاعَهُ .

ذَلِكَ أَنَّ الظَّالِمِينَ مِنَ الْأُمَرَاءِ قَدِ اسْتَعَانُوا بِالظَّالِمِينَ مِنَ الْفُقَهَاءِ عَلَى إِقْنَاعِ الْعَامَّةِ بِأَنَّهُمْ أَئِمَّةُ الدِّينِ الَّذِينَ يَجِبُ اتِّبَاعُهُمْ حَتَّى فِي الْأُمُورِ الدِّينِيَّةِ ، وَحَالُوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ كِتَابِ اللهِ الَّذِي يَنْطِقُ بِأَنَّ عَهْدَ اللهِ بِالْإِمَامَةِ لَا يَنَالُ الظَّالِمِينَ . وَغَشُّوهُمْ بِأَنَّ أَئِمَّةَ الْفِقْهِ الْأَرْبَعَةِ يَحْكُمُونَ بِذَلِكَ ، وَلَوْ عَرَفَ النَّاسُ سِيرَتَهُمْ مَعَ خُلَفَاءِ زَمَنِهِمْ لَمَا تَيَسَّرَ غِشُّهُمْ . هَذَا وَإِنَّ الْحَاكِمِينَ عَلَى عَهْدِهِمْ كَانُوا عَلَى عِلْمٍ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، وَاتِّبَاعٍ لَهُمَا فِي أَكْثَرِ أَعْمَالِهِمْ وَأَحْكَامِهِمْ ،

وَأَمَّا الْمُتَأَخِّرُونَ فَلَا يَعْرِفُونَ مِنْ ذَلِكَ أَكْثَرَ مِمَّا يَعْرِفُهُ السُّوقَةُ ، وَيَعْمَلُونَ بِخِلَافِ مَا يَعْلَمُونَ ، بَلْ يَشْرَعُونَ لِلنَّاسِ أَحْكَامًا جَدِيدَةً يَأْخُذُونَهَا مِنْ قَوَانِينِ الْأُمَمِ تُخَالِفُ الشَّرِيعَةَ وَلَا تُوَافِقُ مَصْلَحَةَ الْأُمَّةِ ، وَيُلْزِمُونَ عُمَّالَهُمْ وَقُضَاتَهُمُ الْحُكْمَ بِهَا بِاسْمِهِمْ لَا بِاسْمِ اللهِ – تَعَالَى – (وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) (5 : 45)

(123/66)

(وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

قَوْلُهُ – تَعَالَى – : (وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا) مَعْطُوفٌ عَلَى مَا قَبْلَهُ

وَالْمَعْنَى : وَاذْكُرْ أَيُّهَا الرَّسُولُ – أَوْ أَيُّهَا النَّاسُ – إِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ الْحَرَامَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا أَيْ ذَا أَمْنٍ ، بِأَنْ خَلَقْنَا بِمَا لَنَا مِنَ الْقُدْرَةِ فِي قُلُوبِ النَّاسِ مِنَ الْمَيْلِ إِلَى حَجِّهِ وَالرِّحْلَةِ إِلَيْهِ الْمَرَّةَ بَعْدَ الْمَرَّةِ مِنْ كُلِّ فَجٍّ وَصَوْبٍ مَا كَانَ بِهِ مَثَابَةً لَهُمْ ، وَمِنِ احْتِرَامِهِ وَتَعْظِيمِهِ وَعَدَمِ سَفْكِ

دَمٍ فِيهِ مَا كَانَ بِهِ أَمْنًا ، وَلَفْظُ (الْبَيْتَ) مِنَ الْأَعْلَامِ الْغَالِبَةِ عَلَى بَيْتِ اللهِ الْحَرَامِ بِمَكَّةَ كَالنَّجْمِ عَلَى الثُّرَيَّا ، كَانَ كُلُّ عَرَبِيٍّ يَفْهَمُ هَذَا مِنْ إِطْلَاقِ الْكَلِمَةِ .

(124/66)

يُذَكِّرُ اللهُ – تَعَالَى – الْعَرَبَ بِهَذِهِ النِّعْمَةِ أَوِ النِّعَمِ الْعَظِيمَةِ وَهِيَ جَعْلُ الْبَيْتِ الْحَرَامِ مَرْجِعًا لِلنَّاسِ يَقْصِدُونَهُ ثُمَّ يَثُوبُونَ إِلَيْهِ ، وَمَأْمَنًا لَهُمْ فِي تِلْكَ الْبِلَادِ بِلَادِ الْمَخَاوِفِ الَّتِي يُتَخَطَّفُ النَّاسُ فِيهَا مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ، وَبِدَعْوَةِ إِبْرَاهِيمَ – عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ – لِلْبَيْتِ وَأَهْلِهِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَفِي هَذَا التَّذْكِيرِ مَا فِيهِ مِنَ الْفَائِدَةِ فِي تَقْرِيرِ دَعْوَةِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَبَيَانِ بِنَائِهَا عَلَى أُصُولِ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ ، الَّذِي تَحْتَرِمُهُ قُرَيْشٌ وَغَيْرُهَا مِنَ الْعَرَبِ ، وَقَدِ اخْتَارَ الْمَثَابَةَ عَلَى نَحْوِ الْقَصْدِ وَالْمَزَارِ ؛ لِأَنَّ لَفْظَ الْمَثَابَةِ يَتَضَمَّنُ هَذَا وَزِيَادَةً فَإِنَّهُ لَا يُقَالُ : ثَابَ الْمَرْءُ إِلَى الشَّيْءِ إِلَّا إِذَا كَانَ قَصَدَهُ أَوَّلًا ثُمَّ رَجَعَ إِلَيْهِ . وَلَمَّا كَانَ الْبَيْتُ مَعْبَدًا وَشِعَارًا عَامًّا ، كَانَ النَّاسُ الَّذِينَ يَدِينُونَ بِزِيَارَتِهِ وَالْقَصْدِ إِلَيْهِ لِلْعِبَادَةِ يَشْتَاقُونَ الرُّجُوعَ إِلَيْهِ ، فَمَنْ سَهُلَ عَلَيْهِ أَنْ يَثُوبَ إِلَيْهِ فَعَلَ ، وَمَنْ لَمْ يَتَمَكَّنْ مِنَ الرُّجُوعِ إِلَيْهِ بِجُثْمَانِهِ ، رَجَعَ إِلَيْهِ بِقَلْبِهِ وَوِجْدَانِهِ ، وَكَوْنُهُ مَثَابَةً لِلنَّاسِ أَمْرٌ مَعْرُوفٌ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ ، وَهُوَ يَصْدُقُ بِرُجُوعِ بَعْضِ زَائِرِيهِ إِلَيْهِ ، وَحَنِينِ غَيْرِهِمْ وَتَمَنِّيهِمْ لَهُ عِنْدَ عَجْزِهِمْ عَنْهُ .

وَكَذَلِكَ جَعْلُهُ أَمْنًا مَعْرُوفٌ عِنْدَهُمْ ، فَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ يَرَى قَاتِلَ أَبِيهِ فِي الْحَرَمِ فَلَا يُزْعِجُهُ ، عَلَى مَا هُوَ مَعْرُوفٌ عِنْدَهُمْ مِنْ حُبِّ الِانْتِقَامِ وَالتَّفَاخُرِ بِأَخْذِ الثَّأْرِ .

(الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ) قَدْ يُقَالُ : مَا وَجْهُ الْمِنَّةِ عَلَى الْعَرَبِ عَامَّةً بِكَوْنِ الْبَيْتِ أَمْنًا لِلنَّاسِ وَالْفَائِدَةُ فِيهِ إِنَّمَا هِيَ لِلنُّجَاةِ وَالضُّعَفَاءِ الَّذِينَ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى الْمُدَافَعَةِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ ؟ وَالْجَوَابُ عَنْ هَذَا : أَنَّهُ مَا مِنْ قَوِيٍّ إِلَّا وَيُوشِكُ أَنْ يُضْطَرَّ فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ إِلَى مَفْزَعٍ يَلْجَأُ إِلَيْهِ لِدَفْعِ عَدُوٍّ أَقْوَى مِنْهُ أَوْ لِهُدْنَةٍ يَصْطَلِحُ فِي غُضُونِهَا مَعَ خَصْمٍ يَرَى سِلْمَهُ خَيْرًا مِنْ حَرْبِهِ ، وَوَلَاءُهُ أَوْلَى مِنْ عَدَائِهِ ، فَبِلَادُ كُلِّهَا أَخْطَارٌ وَمَخَاوِفُ لَا رَاحَةَ فِيهَا لِأَحَدٍ ، وَقَدْ بَيَّنَ اللهُ الْمِنَّةَ عَلَى الْعَرَبِ إِذْ جَعَلَ لَهُمْ مَكَانًا آمِنًا بِقَوْلِهِ فِي سُورَةِ الْعَنْكَبُوتِ : (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ

حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللهِ يَكْفُرُونَ) (29 : 67) .

قَالَ – تَعَالَى – : (وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى) قَرَأَ نَافِعٌ وَابْنُ عَامِرٍ (وَاتَّخَذُوا) بِفَتْحِ الْخَاءِ عَلَى أَنَّهُ فِعْلٌ مَاضٍ مَعْطُوفٌ عَلَى (جَعَلْنَا) وَالْبَاقُونَ بِكَسْرِهَا عَلَى أَنَّهُ أَمْرٌ ، أَيْ وَقُلْنَا اتَّخِذُوا أَوْ قَائِلِينَ اتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ، فَحُذِفَ الْقَوْلُ لِلْإِيجَازِ ، وَفَائِدَتُهُ أَنْ يَسْتَحْضِرَ ذِهْنُ التَّالِي أَوِ السَّامِعِ الْمَأْمُورِينَ حَاضِرِينَ وَالْأَمْرُ يُوَجَّهُ إِلَيْهِمْ ، فَهُوَ تَصْوِيرٌ لِلْمَاضِي بِصُورَةِ الْحَاضِرِ لِيَقَعَ فِي نُفُوسِ الْمُخَاطَبِينَ بِالْقُرْآنِ أَنَّ الْأَمْرَ يَتَنَاوَلُهُمْ ، وَأَنَّهُ مُوَجَّهٌ إِلَيْهِمْ كَمَا وُجِّهَ إِلَى سَلَفِهِمْ فِي عَهْدِ أَبِيهِمْ إِبْرَاهِيمَ ، وَهُمْ وَلَدُهُ إِسْمَاعِيلُ وَآلُ بَيْتِهِ وَمَنْ أَجَابَ دَعْوَتَهُمَا إِلَى حَجِّ الْبَيْتِ ، لَا أَنَّهُ حِكَايَةٌ تَارِيخِيَّةٌ سِيقَتْ لِلْفُكَاهَةِ وَالتَّسْلِيَةِ بَلْ شَرِيعَةٌ وَدِينٌ . وَهَذَا الْقَوْلُ أَحْسَنُ مِنْ قَوْلِ بَعْضِهِمْ : إِنَّ (اتَّخِذُوا) أَمْرٌ لِأُمَّةِ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ الْقَوْلَ يَقْتَصِرُ عَلَى مَعْنَى صِيغَةِ الْأَمْرِ ، وَمَا قُلْنَا يَتَضَمَّنُ مَعَ ذَلِكَ مَعْنَى الْقِرَاءَةِ بِصِيغَةِ الْمَاضِي الدَّالَّةِ عَلَى أَنَّ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ مَعَهُ قَدِ اتَّخَذُوا مَقَامَهُ مُصَلًّى ؛ وَلِأَنَّهُ أَبْلَغُ لِمَا فِيهِ مِنْ تَحْرِيكِ شُعُورِ الْخَلَفِ بِشَرَفِ عَمَلِ السَّلَفِ وَبَعْثِهِمْ عَلَى الِاقْتِدَاءِ بِهِمْ .

(127/66)

وَ (مَقَامِ) اسْمُ مَكَانٍ مِنَ الْقِيَامِ ، وَقَدِ اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ : إِنَّهُ الْحَجَرُ الَّذِي كَانَ يَقُومُ عَلَيْهِ عِنْدَ بِنَاءِ الْكَعْبَةِ . قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَجَابِرٌ وَقَتَادَةُ وَغَيْرُهُمْ

وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ ، وَعَلَيْهِ مُفَسِّرُنَا (الْجَلَالُ) ، وَقَالَ آخَرُونَ : إنَّهُ الْحَرَمُ كُلُّهُ وَهُوَ مَرْوِيٌّ عَنِ النَّخَعِيِّ وَمُجَاهِدٍ ، وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَعَطَاءٍ أَنَّهُ مَوَاقِفُ الْحَجِّ كُلُّهَا ، وَقَالَ الشَّعْبِيُّ : إنَّهُ عَرَفَةُ وَمُزْدَلِفَةُ وَالْجِمَارُ . اخْتَلَفُوا أَيْضًا فِي تَفْسِيرِ الْمُصَلَّى ، فَقَالَ مَنْ فَسَّرَ الْمَقَامَ بِالْحَجَرِ : إنَّهُ مَكَانُ الصَّلَاةِ أَيْ صَلَاتُنَا الْمَخْصُوصَةُ وَعَلَيْهِ (الْجَلَالُ) وَاسْتَدَلُّوا لَهُ بِحَدِيثِ جَابِرٍ عِنْدَ مُسْلِمٍ قَالَ : (إنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَمَّا فَرَغَ مِنْ طَوَافِهِ عَمَدَ إلَى مَقَامِ إبْرَاهِيمَ فَصَلَّى خَلْفَهُ رَكْعَتَيْنِ وَقَرَأَ الْآيَةَ) وَذَهَبَ الْآخَرُونَ إلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالْمُصَلَّى مَوْضِعُ الصَّلَاةِ بِمَعْنَاهَا اللُّغَوِيِّ الْعَامِّ ، وَهُوَ الدُّعَاءُ وَالتَّوَجُّهُ إلَى اللَّهِ - تَعَالَى - وَعِبَادَتُهُ مُطْلَقَةً ، وَالْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ يُرَجِّحُ قَوْلَ هَؤُلَاءِ ، وَذَكَرَ مِنْ دَلِيلِهِ أَنَّ الْحِجْرَ لَا يَسَعُ لِلصَّلَاةِ الْمَخْصُوصَةِ ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ جَابِرٌ : (إنَّ النَّبِيَّ صَلَّى خَلْفَهُ) فَكَيْفَ يُتَّخَذُ مِنْهُ مَحَلٌّ لِلصَّلَاةِ ؟ وَأَجَابَ عَنْ حَدِيثِ مُسْلِمٍ وَحَدِيثِ أَبِي نُعَيْمٍ مَرْفُوعًا (هَذَا مَقَامُ إبْرَاهِيمَ)

(128/66)

بِأَنَّهُ لَيْسَ فِيهِمَا مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْحَجَرَ هُوَ الْمُرَادُ بِمَقَامِ إبْرَاهِيمَ فِي الْآيَةِ دُونَ غَيْرِهِ

(129/66)

وَإِنَّمَا صَلَاتُهُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الصَّلَاةَ هُنَاكَ مَشْرُوعَةٌ ، عَلَى أَنَّ فِي سَنَدِ حَدِيثِ أَبِي نُعَيْمٍ مَقَالًا ، وَالْخِطَابُ فِي الْأَصْلِ لِلْمُؤْمِنِينَ فِي زَمَنِ إِبْرَاهِيمَ – عَلَيْهِ السَّلَامُ – وَلَمْ تَكُنْ صَلَاتُنَا هَذِهِ صَلَاتَهُمْ ، فَحَمْلُ الْمَقَامِ عَلَى جَمِيعِ شَعَائِرِ الْحَجِّ الَّتِي قَامَ فِيهَا إِبْرَاهِيمُ وَالصَّلَاةِ عَلَى مَعْنَاهَا اللُّغَوِيِّ الَّذِي يَشْمَلُ صَلَاةَ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ كَانَ مَعَهُ عَلَى عِبَادَتِهِ كَمَا يَشْمَلُ صَلَاتَنَا وَمَنَاسِكَنَا أَظْهَرُ ، كَمَا قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ ، وَالصَّلَاةُ عِنْدَ الْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْأُمَمِ تَشْمَلُ الدُّعَاءَ وَالثَّنَاءَ عَلَى اللهِ ، وَالتَّوَسُّلَ إِلَيْهِ بِكُلِّ قَوْلٍ وَعَمَلٍ يَدُلُّ عَلَى التَّوَجُّهِ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ ، وَيَقُولُ الْمُحَقِّقُونَ مِنَ الْفُقَهَاءِ : حَيْثُمَا صَلَّيْتَ مِنَ الْمَسْجِدِ فَثَمَّ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ ، وَالنَّاسُ يَتَحَرَّوْنَ صَلَاةَ رَكْعَتَيِ الطَّوَافِ خَلْفَ الْبِنَاءِ الْمُرْتَفِعِ الَّذِي وُضِعَ فِيهِ الْحَجَرُ الَّذِي فِيهِ أَثَرُ قَدَمِ إِبْرَاهِيمَ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – إِنْ أَمْكَنَ ، وَالْمَرْوِيُّ أَنَّهُ كَانَ مُلَاصِقًا لِلْكَعْبَةِ فَأَخَّرَهُ إِلَى ذَلِكَ الْمَكَانِ عُمَرُ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – كَمَا رَوَاهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ بِسَنَدٍ قَوِيٍّ عِنْدَهُمْ ، وَرَوَى ابْنُ مَرْدَوَيْهِ عَنْ مُجَاهِدٍ بِسَنَدٍ ضَعِيفٍ أَنَّ النَّبِيَّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – هُوَ الَّذِي أَخَّرَهُ ، وَسَيَأْتِي فِي تَفْسِيرِ آلِ عِمْرَانَ مِنْ أَوَّلِ الْجُزْءِ الرَّابِعِ مَزِيدُ كَلَامٍ فِي هَذَا الْمُقَامِ .

قَالَ – تَعَالَى – : (وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ) . . . إِلَخْ ؛ عَهِدَ إِلَيْهِ بِالشَّيْءِ وَصَّاهُ بِهِ ، وَالْمُرَادُ أَنَّ اللهَ كَلَّفَهُمَا أَنْ يُطَهِّرَا ذَلِكَ الْمَكَانَ الَّذِي نَسَبَهُ إِلَيْهِ وَسَمَّاهُ بَيْتَهُ ؛ لِأَنَّهُ جَعَلَهُ مَعْبَدًا يُعْبَدُ فِيهِ الْعِبَادَةَ الصَّحِيحَةَ ، وَلَمْ يَذْكُرْ مَا يَجِبُ أَنْ يُطَهِّرَاهُ مِنْهُ لِيَشْمَلَ جَمِيعَ الرِّجْسِ الْحِسِّيِّ وَالْمَعْنَوِيِّ كَالشِّرْكِ وَأَصْنَامِهِ وَاللَّغْوِ وَالرَّفَثِ وَالتَّنَازُعِ .

وَتَخْصِيصُ اللهِ – تَعَالَى – ذَلِكَ الْبَيْتَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى ذَاتِهِ الْمُنَزَّهَةِ عَنْ صِفَاتِ الْأَجْسَامِ ، لَيْسَ لِخُصُوصِيَّةٍ فِي مَوْقِعِهِ وَلَا فِي أَحْجَارِهِ ، وَإِنَّمَا كَانَ بَيْتًا لِلَّهِ لِأَنَّ اللهَ – تَعَالَى – سَمَّاهُ بَيْتَهُ ، وَأَمَرَ بِأَنْ يَتَوَجَّهَ إِلَيْهِ الْمُصَلُّونَ ، وَبِأَنْ يُعْبَدَ فِيهِ عِبَادَةً خَاصَّةً . وَالْحِكْمَةُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْبَشَرَ يَعْجِزُونَ عَنِ التَّوَجُّهِ إِلَى مَوْجُودٍ غَيْبِيٍّ مُطْلَقٍ لَا يَتَقَيَّدُ بِمَكَانٍ ، وَلَا يَنْحَصِرُ فِي جِهَةٍ وَهُمْ فِي حَاجَةٍ إِلَى التَّوَجُّهِ إِلَى خَالِقِهِمْ وَشُكْرِهِ وَالتَّوَسُّلِ إِلَيْهِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ ، وَاسْتِمْدَادِ رَحْمَتِهِ وَمَعُونَتِهِ لِمَا فِي ذَلِكَ مِنَ الْفَائِدَةِ لَهُمْ ؛ لِأَنَّهُ يُعْلِي مَدَارِكَهُمْ عَنِ التَّقَيُّدِ فِي دَائِرَةِ الْأَسْبَابِ الْمَعْرُوفَةِ عَلَى ضِيقِهَا وَعَنِ الِاسْتِخْذَاءِ لِمَا لَا يَعْرِفُونَ لَهُ سَبَبًا ، وَيَرْفَعُ نُفُوسَهُمْ عَنِ الرِّضَى بِالْحَيَاةِ الْحَيَوَانِيَّةِ ، فَلَهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ أَنْ عَيَّنَ لَهُمْ مَكَانًا نَسَبَهُ إِلَيْهِ فَسَمَّاهُ بَيْتَهُ

رَمْزًا إِلَى أَنَّ ذَاتَهُ الْمُقَدَّسَةَ تَحْضُرُهُ ، فَإِذَا كَانَ الْحُضُورُ الْحَقِيقِيُّ مُحَالًا عَلَيْهَا ، فَإِنَّهَا تَحْضُرُهُ رَحْمَتُهُ الْإِلَهِيَّةُ ؛ وَلِذَلِكَ كَانَ التَّوَجُّهُ إِلَيْهِ بِمَنْزِلَةِ التَّوَجُّهِ إِلَى تِلْكَ الذَّاتِ الْعَلِيَّةِ ، لَوْ وَجَدَ الْعَبْدُ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا ، وَلَوْ كَلَّفَ اللهُ عِبَادَهُ بِعِبَادَتِهِ مُطْلَقًا – وَقَدْ عَلَّمَهُمْ بِنَظَرِ الْعَقْلِ وَإِرْشَادِ الشَّرْعِ أَنَّهُ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ – لَوَقَعُوا فِي الْحَيْرَةِ وَالِاضْطِرَابِ لَا يَدْرُونَ كَيْفَ يَتَوَجَّهُونَ إِلَى ذَاتٍ غَيْبِيَّةٍ مُطْلَقَةٍ ، وَلَوِ اخْتَارَ بَعْضُهُمْ لِنَفْسِهِ عِبَادَةً تَلِيقُ بِهَذَا التَّنْزِيهِ الَّذِي أَرْشَدَ إِلَيْهِ الْكِتَابُ وَصَدَّقَهُ الْعَقْلُ ، لَمَا اهْتَدَى إِلَيْهِ الْآخَرُونَ ، وَبِذَلِكَ يَفْقِدُ الْمُؤْمِنُونَ الْجَامِعَةَ الَّتِي تَجْمَعُهُمْ عَلَى أَفْضَلِ الْأَعْمَالِ الَّتِي تُؤَلِّفُ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ، لِذَلِكَ قُلْنَا : إِنَّ اللهَ رَحِمَهُمْ إِذْ جَعَلَ لِنَفْسِهِ بَيْتًا يَقْصِدُونَهُ

وَيَثُوبُونَ إِلَيْهِ عِنْدَ الْإِمْكَانِ ، وَيَتَوَجَّهُونَ إِلَيْهِ فِي صَلَاتِهِمْ وَإِنْ بَعُدَ الْمَكَانُ ، وَلَا يُخْشَى عَلَى الْمُؤْمِنِ تَوَهُّمُ الْحُلُولِ فِي ذَاتِ اللهِ بِنِسْبَةِ الْبَيْتِ إِلَيْهِ بَعْدَ مَا نَفَى سُبْحَانَهُ كُلَّ إِيهَامٍ بِقَوْلِهِ : (وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ إِنَّ اللهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) (2 : 115) .

أَقُولُ : وَلَا يَرِدُ عَلَى هَذَا كَوْنُ السَّمَاءِ قِبْلَةَ الدُّعَاءِ لِإِشْعَارِهَا بِعُلُوِّهِ – تَعَالَى – عَلَى جَمِيعِ خَلْقِهِ لِلْفَرْقِ الظَّاهِرِ بَيْنَ الصَّلَاةِ وَالدُّعَاءِ .

وَقَوْلُهُ – تَعَالَى – : (لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ) يُؤَيِّدُ مَا رَجَّحَهُ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ مِنْ جَعْلِ الْمُصَلَّى بِالْمَعْنَى الْعَامِّ أَيِ الْمَعْبَدِ ، فَإِنَّهُ بَعْدَ أَمْرِ النَّاسِ بِاتِّخَاذِ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى بَيَّنَ لَنَا أَنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ طَهَّرَاهُ بِأَمْرِهِ لِأَدَاءِ أَنْوَاعٍ مِنَ الْعِبَادَاتِ فِيهِ كَالطَّوَافِ ، وَفِي مَعْنَاهُ السَّعْيُ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ وَالْعُكُوفِ فِي الْمَسْجِدِ ، وَالرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ ، وَهُمَا مِنْ أَعْمَالِ الصَّلَاةِ ، (وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ) جَمْعُ الرَّاكِعِ وَالسَّاجِدِ وَالْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ مَأْمُورًا هُوَ وَمَنْ آمَنَ بِهِ بِهَذِهِ الْعِبَادَاتِ ، وَلَكِنْ لَا دَلِيلَ فِيهَا عَلَى أَنَّهُمْ كَانُوا يُؤَدُّونَهَا عَلَى الْوَجْهِ الْمَشْرُوعِ عِنْدَنَا .

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا) هَذِهِ الْآيَةُ مَعْطُوفَةٌ عَلَى مَا قَبْلَهَا مَسُوقَةٌ لِبَيَانِ مِنَّةٍ أَوْ مِنَنٍ أُخْرَى عَلَى أَهْلِ الْحَرَمِ ، وَهِيَ مَا تَضَمَّنَهُ دُعَاءُ إِبْرَاهِيمَ مِنْ جَعْلِ الْبَلَدِ آمِنًا فِي نَفْسِهِ ، وَهُوَ غَيْرُ مَا سَبَقَتْ بِهِ الْمِنَّةُ مِنْ جَعْلِ الْبَيْتِ آمِنًا . وَقَدْ فَسَّرَ الْجَلَالُ (أَمِنًا) بِقَوْلِهِ : ذَا أَمْنٍ : مَعَ أَنَّ الْمَعْنَى ظَاهِرٌ وَهُوَ أَنْ يَكُونَ مَحْفُوظًا مِنَ الْأَعْدَاءِ الَّذِينَ يَقْصِدُونَهُ بِالسُّوءِ ، وَهُوَ غَيْرُ مَعْنَى كَوْنِهِ ذَا أَمْنٍ ، أَيْ أَنَّ مَنْ يَكُونُ فِيهِ يَكُونُ آمِنًا

مِمَّنْ يَسْطُو عَلَيْهِ فَيَظْلِمُهُ أَوْ يَنْتَقِمُ مِنْهُ . وَقَدِ اسْتَجَابَ اللهُ دُعَاءَ إِبْرَاهِيمَ فِي ذَلِكَ ، وَمَنْ تَعَدَّى عَلَى الْبَيْتِ لَمْ يَطُلْ زَمَنُ تَعَدِّيهِ بِحَيْثُ يُقَالُ : إِنَّهُ قَدْ مَرَّ زَمَنٌ طَوِيلٌ لَمْ يَكُنِ الْبَيْتُ فِيهِ آمِنًا ، بَلْ لَمْ يَنْجَحْ أَحَدٌ تَعَدَّى عَلَيْهِ لِذَاتِهِ ، وَإِنَّمَا كَانَ التَّعَدِّي الْقَصِيرُ هُوَ التَّعَدِّي الْعَارِضُ عَلَى بَعْضِ مَنِ اعْتَصَمَ فِيهِ (وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ) فَسَّرَ (الْجَلَالُ) الرِّزْقَ مِنَ الثَّمَرَاتِ بِنَقْلِ جِبْرِيلَ الطَّائِفَ مِنْ حَوْرَانَ فِي بِلَادِ الشَّامِ أَوْ فِلَسْطِينَ إِلَى مَكَانِهِ الْآنَ فِي أَرْضِ الْحِجَازِ ، مَعَ أَنَّ الْكَلَامَ فِي الْبَيْتِ وَبَلَدِهِ مَكَّةَ لَا فِي الطَّائِفِ . وَرِزْقُ أَهْلِ هَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ مِنَ الثَّمَرَاتِ ظَاهِرٌ مَعْرُوفٌ بِالْمُشَاهَدَةِ وَالِاخْتِبَارِ الْمُصَدِّقَيْنِ لِمَا جَاءَ بِهِ الْكِتَابُ فِي سُورَةِ الْقَصَصِ بِقَوْلِهِ : (أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ) (28 : 57) فَالثَّمَرَاتُ تُجْبَى وَتُجْمَعُ مِنْ حَيْثُ تَكُونُ وَتُسَاقُ إِلَى مَكَّةَ ، وَلَا فَرْقَ فِي ذَلِكَ بَيْنَ كَوْنِهَا مِنَ الطَّائِفِ أَوْ مِنَ الشَّامِ أَوْ مِصْرَ أَوِ الرُّومِ مَثَلًا ، وَكَوْنُهَا تُجْمَعُ مِنْ أَقْطَارٍ مُتَفَرِّقَةٍ أَظْهَرُ فِي صِدْقِ الْآيَةِ وَأَدَلُّ عَلَى التَّسْخِيرِ . وَحَدِيثُ نَقْلِ الطَّائِفِ لَا يَصِحُّ ، وَلَكِنَّهُمْ أَلْصَقُوهُ بِكِتَابِ اللهِ وَجَعَلُوهُ تَفْسِيرًا لَهُ وَهُوَ بَرِيءٌ مِنْهُ وَغَيْرُ مُحْتَاجٍ فِي صِدْقِهِ إِلَيْهِ .

وَقَدْ خَصَّ إِبْرَاهِيمُ بِدُعَائِهِ الْمُؤْمِنِينَ كَمَا هُوَ اللَّائِقُ بِهِ ، وَلَكِنَّ اللهَ وَاسِعُ الرَّحْمَةِ وَقَدْ جَعَلَ رِزْقَ الدُّنْيَا عَامًّا لِلْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ (كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا) (17 : 20) وَلَكِنَّ تَمْتِيعَ الْكَافِرِ مَحْدُودٌ بِهَذَا الْعُمُرِ الْقَصِيرِ ، وَمَصِيرُهُ فِي الْآخِرَةِ إِلَى شَرِّ مَصِيرٍ ، وَذَلِكَ جَوَابُ اللهِ – تَعَالَى – لِإِبْرَاهِيمَ : (قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) أَيْ وَأَرْزُقُ مَنْ كَفَرَ أَيْضًا فَأُمَتِّعُهُ بِهَذَا الرِّزْقِ قَلِيلًا ، وَهُوَ مُدَّةُ وُجُودِهِ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ أَسُوقُهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ سَوْقًا اضْطِرَارِيًّا لَا يَقْصِدُهُ هُوَ وَلَا يَعْلَمُ أَنَّ كُفْرَهُ يَنْتَهِي بِهِ إِلَيْهِ ، وَذَلِكَ أَنَّ لِجَمِيعِ أَعْمَالِ الْبَشَرِ الِاخْتِيَارِيَّةِ غَايَاتٍ وَآثَارًا اضْطِرَارِيَّةً تَفْضِي وَتَنْتَهِي إِلَيْهَا بِطَبِيعَتِهَا بِحَسَبِ نِظَامِ الْأَسْبَابِ وَالْمُسَبَّبَاتِ ، كَمَا يُفْضِي الْإِسْرَافُ فِي الشَّهَوَاتِ أَوِ التَّعَبُ أَوِ الرَّاحَةُ إِلَى بَعْضِ الْأَمْرَاضِ فِي الدُّنْيَا . فَالْكُفَّارُ وَالْفُسَّاقُ مُخْتَارُونَ فِي كُفْرِهِمْ وَفِسْقِهِمْ ، فَعِقَابُهُمْ عَلَيْهَا إِنَّمَا هُوَ عِقَابٌ عَلَى أَعْمَالٍ اخْتِيَارِيَّةٍ ، وَهُوَ أَنَّ كُفْرَهُمْ بِآيَاتِ اللهِ سَيَسُوقُهُمْ إِلَى عَذَابِ اللهِ بِمَا أَقَامَ اللهُ – تَعَالَى – عَلَيْهِ الْإِنْسَانَ مِنَ السُّنَنِ الْحَكِيمَةِ ،

وَأَسَاسُهَا أَنَّ عِلْمَ الْإِنْسَانِ وَأَعْمَالَهُ النَّفْسِيَّةَ وَالْبَدَنِيَّةَ لَهَا الْأَثَرُ الَّذِي يُفْضِي بِهِ إِلَى سَعَادَتِهِ أَوْ شَقَائِهِ اضْطِرَارًا ، وَلَمَّا كَانَتْ هَذِهِ السُّنَّةُ بِقَضَاءِ اللهِ وَتَقْدِيرِهِ صَحَّ أَنْ يُقَالَ : إِنَّ اللهَ قَدِ اضْطَرَّ الْكَافِرَ إِلَى الْعَذَابِ وَأَلْجَأَهُ إِلَيْهِ ، إِذْ جَعَلَ الْأَرْوَاحَ الْمُدَنَّسَةَ بِالْعَقَائِدِ الْفَاسِدَةِ وَالْأَخْلَاقِ الْمَذْمُومَةِ مَحِلَّ سُخْطِهِ ، وَمَوْضِعَ انْتِقَامِهِ فِي الْآخِرَةِ ، كَمَا جَعَلَ أَصْحَابَ الْأَجْسَادِ الْقَذِرَةِ عُرْضَةً لِلْأَمْرَاضِ فِي الدُّنْيَا .

وَلَمَّا كَانَتْ هَذِهِ الْعَقَائِدُ وَالْمَعَارِفُ وَالْأَخْلَاقُ وَالْأَعْمَالُ كَسْبِيَّةً ، وَكَانَ الْإِنْسَانُ مُتَمَكِّنًا مِنِ اخْتِيَارِ الْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ وَالطَّيِّبِ عَلَى الْخَبِيثِ ، وَقَدْ هَدَاهُ اللهُ إِلَى ذَلِكَ بِمَا أَعْطَاهُ مِنَ الْعَقْلِ ، وَمَا نَزَّلَهُ مِنَ الْوَحْيِ ، صَحَّ أَنْ يُقَالَ : إِنَّهُ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَعَرَّضَهَا لِلْعَذَابِ وَالشَّقَاءِ بِأَعْمَالِهِ الَّتِي مَبْدَؤُهَا كَسْبِيٌّ ، وَأَثَرُهَا ضَرُورِيٌّ .

وَفِي قَوْلِهِ – تَعَالَى – : (وَمَنْ كَفَرَ) . . . إِلَخْ إِيجَازٌ بِالْعَطْفِ عَلَى مَحْذُوفٍ ، عُلِمَ مِنْهُ أَنَّهُ – تَعَالَى – اسْتَجَابَ دُعَاءَ إِبْرَاهِيمَ فِي الْمُؤْمِنِينَ ، فَجَعَلَ لَهُمْ هَذَا الْخَبَرَ فِي الدُّنْيَا ، وَأَعَدَّ لَهُمْ مَا هُوَ أَفْضَلُ مِنْهُ فِي الْآخِرَةِ .

وَهُوَ إِيجَازٌ لَمْ يَكُنْ يُعْهَدُ فِي غَيْرِ الْقُرْآنِ ، جَارٍ عَلَى الْأَصْلِ الَّذِي تَقَدَّمَ بَيَانُهُ فِي خِطَابِ الْقُرْآنِ لِلْعَرَبِ خَاصَّةً دُونَ مَا كَانَ يُخَاطِبُ بِهِ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَإِنْ كَانَ كُلُّ مَا فِي الْقُرْآنِ عِبْرَةً عَامَّةً لِجَمِيعِ الْمُعْتَبِرِينَ ، كَمَا تَكَرَّرَ عَنِ الْأُسْتَاذِ الْإِمَامِ .

(وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

ذَكَّرَ اللهُ – تَعَالَى – الْعَرَبَ أَوَّلًا بِنِعْمَتِهِ عَلَيْهِمْ بِهَذَا الْبَيْتِ ، أَنْ جَعَلَهُ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا ، وَبِدُعَاءِ إِبْرَاهِيمَ – عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ – لِبَلَدِ الْبَيْتِ وَاسْتِجَابَةِ اللهِ – تَعَالَى – دُعَاءَهُ

إِذْ جَعَلَهُ بَلَدًا آمِنًا تُجْبَى إِلَيْهِ الثَّمَرَاتُ مِنَ الْبِلَادِ الْبَعِيدَةِ فَيَتَمَتَّعُ أَهْلُهُ بِهَا ، وَهِيَ نِعَمٌ يَعْرِفُونَهَا لَا يُنْكِرُهَا أَحَدٌ ، وَانْتَقَلَ مِنْهَا إِلَى التَّذْكِيرِ بِالنِّعَمِ الْمَعْنَوِيَّةِ فَذَكَّرَ عَهْدَهُ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ بِأَنْ يُطَهِّرَا بَيْتَهُ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ؛ لِيُنَبِّهَهُمْ بِإِضَافَةِ الْبَيْتِ إِلَى نَفْسِهِ أَنَّهُ لَا يَلِيقُ أَنْ يُعْبَدَ فِيهِ غَيْرُهُ ، وَبِتَطْهِيرِهِ لِأَجْلِ الطَّوَافِ وَالِاعْتِكَافِ وَالصَّلَاةِ أَنَّهُ يَجِبُ تَنْزِيهُهُ عَنِ

الْأَصْنَامِ وَالتَّمَاثِيلِ وَعِبَادَتَهَا الْفَاسِدَةِ وَعَنْ سَائِرِ الْأَعْمَالِ الذَّمِيمَةِ كَطَوَافِ الْعُرْيَانِ ، وَكَانُوا يَفْعَلُونَهُ .

ثُمَّ ذَكَّرَهُمْ بَعْدَ هَذَا بِأَنَّ إِبْرَاهِيمَ هُوَ الَّذِي بَنَى هَذَا الْبَيْتَ بِمُسَاعَدَةِ ابْنِهِ إِسْمَاعِيلَ ، وَذَكَرَ لَهُمْ مِنْ دُعَائِهِمَا هُنَالِكَ مَا يُرْشِدُهُمْ إِلَى الْعِبَادَةِ الصَّحِيحَةِ وَالدِّينِ الْحَقِّ ، وَيَجْذِبُهُمْ إِلَى الِاقْتِدَاءِ بِذَلِكَ السَّلَفِ الصَّالِحِ الَّذِي يَنْتَمُونَ إِلَيْهِ وَيُفَاخِرُونَ بِهِ ، فَإِنَّ قُرَيْشًا كَانَتْ تَنْتَسِبُ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ بِحَقٍّ وَتَدَّعِي أَنَّهَا عَلَى مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ ، وَلِذَلِكَ كَانَتْ تَرَى أَنَّهَا أَهْدَى مِنَ الْفُرْسِ وَالرُّومِ ، وَسَائِرُ الْعَرَبِ تَبَعٌ لِقُرَيْشٍ .

(138/66)

قَوْلُهُ – تَعَالَى – : (وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ) ظَاهِرٌ فِي أَنَّهُمَا هُمَا اللَّذَانِ بَنَيَا هَذَا الْبَيْتَ لِعِبَادَةِ اللهِ – تَعَالَى – فِي تِلْكَ الْبِلَادِ الْوَثَنِيَّةِ ، وَلَكِنَّ الْقَصَّاصِينَ وَمَنْ تَبِعَهُمْ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ جَاءُونَا مِنْ ذَلِكَ بِغَيْرِ مَا قَصَّهُ اللهُ – تَعَالَى – عَلَيْنَا ، وَتَفَنَّنُوا فِي رِوَايَاتِهِمْ عَنْ قِدَمِ الْبَيْتِ ، وَعَنْ حَجِّ آدَمَ وَمَنْ بَعْدَهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ إِلَيْهِ ، وَعَنِ ارْتِفَاعِهِ إِلَى السَّمَاءِ فِي وَقْتِ الطُّوفَانِ ، ثُمَّ نُزُولِهِ مَرَّةً أُخْرَى ، وَهَذِهِ الرِّوَايَاتُ يُنَاقِضُ أَوْ يُعَارِضُ بَعْضُهَا

بَعْضًا ، فَهِيَ فَاسِدَةٌ فِي تَنَاقُضِهَا وَتَعَارُضِهَا ، وَفَاسِدَةٌ فِي عَدَمِ صِحَّةِ أَسَانِيدِهَا ، وَفَاسِدَةٌ فِي مُخَالَفَتِهَا لِظَاهِرِ الْقُرْآنِ ، وَلَمْ يَسْتَحِ بَعْضُ النَّاسِ مِنْ إِدْخَالِهَا

(139/66)

فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ وَإِلْصَاقِهَا بِهِ وَهُوَ بَرِيءٌ مِنْهَا . وَمِنْ ذَلِكَ زَعْمُهُمْ أَنَّ الْكَعْبَةَ نَزَلَتْ مِنَ السَّمَاءِ فِي زَمَنِ آدَمَ ، وَوَصْفُهُمْ حَجَّ آدَمَ إِلَيْهَا وَتَعَارُفَهُ بِحَوَّاءَ فِي عَرَفَةَ ، بَعْدَ أَنْ كَانَتْ قَدْ ضَلَّتْ عَنْهُ بَعْدَ هُبُوطِهِمَا مِنَ الْجَنَّةِ ، وَحَاوَلُوا تَأْكِيدَ ذَلِكَ بِتَزْوِيرِ قَبْرٍ لَهَا فِي جُدَّةَ . وَزَعْمُهُمْ أَنَّهَا هَبَطَتْ مَرَّةً أُخْرَى إِلَى الْأَرْضِ بَعْدَ ارْتِفَاعِهَا بِسَبَبِ الطُّوفَانِ وَحُلِّيَتْ بِالْحَجَرِ الْأَسْوَدِ ، وَأَنَّ هَذَا الْحَجَرَ كَانَ يَاقُوتَةً بَيْضَاءَ – وَقِيلَ : زُمُرُّدَةً – مِنْ يَوَاقِيتِ الْجَنَّةِ أَوْ زُمُرُّدِهَا ، وَأَنَّهَا كَانَتْ مُودَعَةً فِي بَاطِنِ جَبَلِ أَبِي قُبَيْسٍ فَتَمَخَّضَ الْجَبَلُ فَوَلَدَهَا ، وَأَنَّ الْحَجَرَ إِنَّمَا اسْوَدَّ لِمُلَامَسَةِ النِّسَاءِ الْحُيَّضِ لَهُ ، وَقِيلَ : لِاسْتِلَامِ الْمُذْنِبِينَ إِيَّاهُ ، وَكُلُّ هَذِهِ الرِّوَايَاتِ خُرَافَاتٌ إِسْرَائِيلِيَّةٌ بَثَّهَا زَنَادِقَةُ الْيَهُودِ فِي الْمُسْلِمِينَ لِيُشَوِّهُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَيُنَفِّرُوا أَهْلَ الْكِتَابِ مِنْهُ .

(140/66)

(الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ) : لَوْ كَانَ أُولَئِكَ الْقَصَّاصُونَ يَعْرِفُونَ الْمَاسَ لَقَالُوا : إِنَّ الْحَجَرَ الْأَسْوَدَ مِنْهُ ؛ لِأَنَّهُ أَبْهَجُ الْجَوَاهِرِ مَنْظَرًا وَأَكْثَرُهَا بَهَاءً ، وَقَدْ أَرَادَ هَؤُلَاءِ أَنْ يُزَيِّنُوا الدِّينَ وَيُرَقِّشُوهُ بِرِوَايَاتِهِمْ هَذِهِ ، وَلَكِنَّهَا إِذَا رَاقَتْ لِلْبُلْهِ مِنَ الْعَامَّةِ ، فَإِنَّهَا لَا تَرُوقُ لِأَهْلِ الْعَقْلِ وَالْعِلْمِ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ أَنَّ الشَّرِيفَ – هَذَا الضَّرْبُ مِنَ الشَّرَفِ الْمَعْنَوِيِّ – هُوَ مَا شَرَّفَهُ اللهُ – تَعَالَى – ، فَشَرَفُ هَذَا الْبَيْتِ إِنَّمَا هُوَ بِتَسْمِيَةِ اللهِ – تَعَالَى – إِيَّاهُ بَيْتَهُ ، وَجَعْلِهِ مَوْضِعًا لِضُرُوبٍ مِنْ عِبَادَتِهِ لَا تَكُونُ فِي غَيْرِهِ كَمَا تَقَدَّمَ ، لَا بِكَوْنِ أَحْجَارِهِ تَفْضُلُ سَائِرَ الْأَحْجَارِ ، وَلَا بِكَوْنِ مَوْقِعِهِ يَفْضُلُ سَائِرَ الْمَوَاقِعِ ، وَلَا بِكَوْنِهِ مِنَ السَّمَاءِ ، وَلَا بِأَنَّهُ مِنْ عَالَمِ الضِّيَاءِ ، وَكَذَلِكَ شَرَفُ الْأَنْبِيَاءِ عَلَى غَيْرِهِمْ مِنَ الْبَشَرِ لَيْسَ لِمَزِيَّةٍ فِي أَجْسَامِهِمْ وَلَا فِي مَلَابِسِهِمْ ، وَإِنَّمَا هُوَ لِاصْطِفَاءِ اللهِ – تَعَالَى – إِيَّاهُمْ ، وَتَخْصِيصِهِمْ بِالنُّبُوَّةِ الَّتِي هِيَ أَمْرٌ مَعْنَوِيٌّ ، وَقَدْ كَانَ أَهْلُ الدُّنْيَا أَحْسَنَ زِينَةً وَأَكْثَرَ نِعْمَةً مِنْهُمْ .

(141/66)

وَقَدْ أَفْصَحَ عَنْ هَذَا الْمَعْنَى الَّذِي قَرَّرَهُ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَمُشَيِّدُ دَعَائِمِ الْإِسْلَامِ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ – رَضِيَ اللهُ – تَعَالَى – عَنْهُ – إِذْ قَالَ عِنْدَ اسْتِلَامِ الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ : (أَمَا

وَاللهِ إِنِّي لَأَعْلَمُ أَنَّكَ حَجَرٌ لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ ، وَلَوْلَا أَنِّي رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَبَّلَكَ مَا قَبَّلْتُكَ ثُمَّ دَنَا فَقَبَّلَهُ) رَوَاهُ أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ وَالْإِمَامُ أَحْمَدُ وَالْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَأَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ وَغَيْرُهُمْ مِنْ عِدَّةِ طُرُقٍ . وَرَوَى ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ وَالدَّارَقُطْنِيُّ فِي الْعِلَلِ عَنْ عِيسَى بْنِ طَلْحَةَ عَنْ رَجُلٍ رَأَى النَّبِيَّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَقَفَ عِنْدَ الْحَجَرِ فَقَالَ : (إِنِّي لَأَعْلَمُ أَنَّكَ حَجَرٌ لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ) ثُمَّ قَبَّلَهُ . ثُمَّ حَجَّ أَبُو بَكْرٍ فَوَقَفَ عِنْدَ الْحَجَرِ ثُمَّ قَالَ : إِنِّي لَأَعْلَمُ أَنَّكَ حَجَرٌ لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ ، وَلَوْلَا أَنِّي رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يُقَبِّلُكَ مَا قَبَّلْتُكَ) وَحَدِيثُ عُمَرَ يُؤَيِّدُ الرِّوَايَةَ الْمَرْفُوعَةَ ، وَإِنَّمَا قَدَّمْنَاهُ لِأَنَّهُ أَصَحُّ سَنَدًا ، وَمَا رُوِيَ مِنْ مُرَاجَعَةِ عَلِيٍّ لِعُمَرَ فِي ذَلِكَ غَيْرُ صَحِيحٍ ، فَلَا يُعَوَّلُ عَلَيْهِ ، وَالْحَدِيثُ يُرْشِدُنَا إِلَى أَنَّ الْحَجَرَ لَا مَزِيَّةَ لَهُ فِي ذَاتِهِ فَهُوَ كَسَائِرِ الْحِجَارَةِ ، وَإِنَّمَا اسْتِلَامُهُ أَمْرٌ تَعَبُّدِيٌّ فِي مَعْنَى اسْتِقْبَالِ الْكَعْبَةِ وَجَعْلِ التَّوَجُّهِ إِلَيْهَا تَوَجُّهًا إِلَى اللهِ

(142/66)

الَّذِي لَا يُحَدِّدُهُ مَكَانٌ ، وَلَا تَحْصُرُهُ جِهَةٌ مِنَ الْجِهَاتِ ، عَلَى أَنَّهُ قَدْ غُرِزَ فِي طَبَائِعِ الْبَشَرِ تَكْرِيمُ الْبُيُوتِ وَالْمَعَاهِدِ ، وَالْآثَارِ وَالْمَشَاهِدِ الَّتِي تُنْسَبُ لِلْأَحْيَاءِ ، أَوْ تُضَافُ إِلَى الْعُظَمَاءِ :

أَمُرُّ عَلَى الدِّيَارِ دِيَارَ لَيْلَى أُقَبِّلُ ذَا الْجِدَارَ وَذَا الْجِدَارَا

وَمَا حُبُّ الدِّيَارِ شَغَفْنَ قَلْبِي

وَلَكِنْ حُبُّ مَنْ سَكَنَ الدِّيَارَا

وَإِنَّمَا يَكُونُ التَّعْظِيمُ وَالتَّكْرِيمُ لِلدِّيَارِ ، فِي حَالِ غَيْبَةِ السَّاكِنِ وَالدِّيَارِ ؛ لِأَنَّ النَّفْسَ إِذَا حُرِمَتْ مِنَ الْمُشَاهَدَةِ الَّتِي تُذْكِي نَارَ الْحُبِّ ، وَتُهَيِّجُ الْإِحْسَاسَ وَالشُّعُورَ بِلَذَّةِ الْقُرْبِ ، تُحَاوِلُ أَنْ تُذْكِيَ تِلْكَ النَّارَ ، بِالتَّعَلُّلِ بِالْأَطْلَالِ وَالْآثَارِ ، وَلَا يُقَالُ : لِمَاذَا خَصَّصَ الْحَجَرَ الْأَسْوَدَ بِالتَّقْبِيلِ ؟ فَإِنَّ كُلَّ مَشْعَرٍ مِنْ تِلْكَ الْمَشَاعِرِ قَدْ خُصَّ بِمَزِيَّةٍ تُثِيرُ شُعُورًا دِينِيًّا خَاصًّا يَلِيقُ بِهِ ، فَلَا يُقَالُ : لِمَاذَا كَانَ الْوُقُوفُ وَالِاجْتِمَاعُ ، وَتَعَارُفُ أَهْلِ الْآفَاقِ وَالْأَصْقَاعِ ، مَخْصُوصًا بِعَرَفَةَ دُونَ غَيْرِهَا مِنَ الْبِقَاعِ ؟ وَلِهَذِهِ الْمَشَاعِرِ وَالشَّعَائِرِ مَعَانٍ وَأَسْرَارٌ أُخْرَى عِنْدَ بَعْضِ الْخَوَاصِّ ، لَا يَنْبَغِي شَرْحُهَا لِعَامَّةِ النَّاسِ .

(143/66)

وَقَدْ جَعَلَ الْقُصَّاصُ تِلْكَ الْأَحَادِيثَ وَالْآثَارَ ، وَهَذِهِ الْمَعَانِيَ وَالْأَسْرَارَ ، وَجَعَلُوا مَزِيَّةَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ وَمَشَاعِرِهُ وَحَجَرَهُ الْمُكَرَّمَ مَحْصُورَةً فِي مُخَالَفَتِهَا لِسَائِرِ الْحِجَارَةِ ، وَكَوْنِ أَصْلِهَا مِنْ جَوَاهِرِ الْجَنَّةِ الَّتِي هِيَ مِنْ عَالَمِ الْغَيْبِ ، وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ صَحِيحًا لَبَقِيَتْ حِجَارَتُهَا كَمَا

كَانَتْ عِنْدَمَا نَزَلَتْ مِنَ الْجَنَّةِ بِزَعْمِهِمْ ، وَقَدْ رَاجَتْ بِضَاعَتُهُمُ الْمُزْجَاةُ عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْعَقْلِ ، عِنْدَ مَنْ لَا يَعْرِفُ مِنَ الدِّينِ إِلَّا هَذِهِ الرُّسُومَ الظَّاهِرَةَ ، وَمِنْهَا كُسْوَةُ الْكَعْبَةِ الْحَرِيرِيَّةُ الْمُزَرْكَشَةُ فَإِنَّهَا عِنْدَ عَامَّتِنَا فِي هَذِهِ الْأَزْمِنَةِ مِنْ أَعْظَمِ شَعَائِرِ الدِّينِ ، وَإِنْ حَرَّمَ حُضُورَ احْتِفَالِهَا أَوْ رُؤْيَتَهَا بَعْضُ عُلَمَاءِ الْأَزْهَرِ الْمُتَأَخِّرِينَ (كَالْبَاجُورِيِّ) وَلَيْسَ هَذَا التَّحْرِيمُ لِذَاتِهَا فَإِنَّهَا مَشْرُوعَةٌ ، بَلْ لِمَا فِي الِاحْتِفَالِ بِهَا مِنَ الْبِدَعِ ، وَمَا عَلَيْهِ مِنِ اعْتِقَادِ الْبَرَكَةِ فِيهَا ، وَفِي جَمْلِهَا الَّذِي يُقَبِّلُ مِقْوَدَهُ الْأُمَرَاءُ وَالْوُزَرَاءُ وَرُؤَسَاءُ الْعُلَمَاءِ الرَّسْمِيِّينَ الْمُدْهِنِينَ لَهُمْ ، وَهَكَذَا كُلُّ وَاحِدٍ يَفْهَمُ الدِّينَ ، وَيَأْخُذُ مِنْ كُتُبِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ، مَا يُنَاسِبُ اسْتِعْدَادَ عَقْلِهِ ، وَيَحْسُنُ فِي نَظَرِ جِيرَانِهِ وَأَهْلِهِ ، حَتَّى يَخْرُجَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ هَذِهِ الْفَوْضَى فِي الدِّينِ وَالْعِلْمِ ، وَيُدِيرَ شُئُونَهُمُ الِاجْتِمَاعِيَّةَ أَهْلُ الْحِكْمَةِ وَالْفَهْمِ ، فَيَضَعُونَ لَهُمْ نِظَامًا يُتَّبَعُ فِي تَعْمِيمِ التَّرْبِيَةِ وَالتَّعْلِيمِ (وَمَنْ

يَعْتَصِمْ بِاللهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) (3 : 101) .

وَمِنْ مَبَاحِثِ اللَّفْظِ فِي الْجُمْلَةِ : أَنَّ الْقَوَاعِدَ جَمْعُ قَاعِدَةٍ ، وَهِيَ مَا يَقْعُدُ وَيَقُومُ عَلَيْهِ الْبِنَاءُ مِنَ الْأَسَاسِ أَوْ مِنَ السَّاقَاتِ ، وَرَفْعُهَا : إِعْلَاءُ الْبِنَاءِ عَلَيْهَا أَوْ إِعْلَاؤُهَا نَفْسِهَا عَلَى الْخِلَافِ

، وَ (مِنَ الْبَيْتِ) قَالَ (الْجَلَالُ) : إنَّهُ مُتَعَلِّقٌ بِيَرْفَعُ ، وَهَذَا إنَّمَا يَصِحُّ إذَا أُرِيدَ بِ (الْبَيْتِ) الْعَرْصَةُ أَوِ الْبُقْعَةُ الَّتِي وَقَعَ فِيهَا الْبِنَاءُ ، وَالْأَكْثَرُونَ عَلَى أَنَّ (مِنْ) لِلْبَيَانِ : وَعَلَيْهِ يَكُونُ الْبَيْتُ بِمَعْنَى نَفْسِ الْبِنَاءِ وَالْجُدْرَانِ ، وَهُنَاكَ قَوْلٌ ثَالِثٌ : وَهُوَ أَنَّ (مِنْ) لِلتَّبْعِيضِ بِنَاءً عَلَى أَنَّ (الْبَيْتِ) مَجْمُوعُ الْعَرْصَةِ وَالْبِنَاءِ .

قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : وَفِي الْكَلَامِ نُكْتَةٌ لَطِيفَةٌ وَهِيَ أَنَّ ذِكْرَ الْقَوَاعِدِ أَوَّلًا يُنَبِّهُ الذِّهْنَ وَيُحَرِّكُهُ إلَى طَلَبِ مَعْرِفَةِ الْقَوَاعِدِ مَا هِيَ ؟ وَقَوَاعِدُ أَيِّ شَيْءٍ هِيَ ؟ فَإِذَا جَاءَ الْبَيَانُ بَعْدَ ذَلِكَ كَانَ أَحْسَنَ وَقْعًا فِي النَّفْسِ ، وَأَشَدَّ تَمَكُّنًا فِي الذِّهْنِ ، وَأَمَّا النُّكْتَةُ فِي تَأْخِيرِ ذِكْرِ إسْمَاعِيلَ عَنْ ذِكْرِ الْمَفْعُولِ ، مَعَ أَنَّ الظَّاهِرَ أَنْ يُقَالَ : وَإِذْ يَرْفَعُ إبْرَاهِيمُ وَإِسْمَاعِيلُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ : فَهِيَ الْإِلْمَاعُ إلَى كَوْنِ الْمَأْمُورِ مِنَ اللهِ بِبِنَاءِ الْبَيْتِ هُوَ إبْرَاهِيمُ ، وَإِنَّمَا كَانَ إسْمَاعِيلُ مُسَاعِدًا لَهُ وَقَدْ وَرَدَ أَنَّهُ كَانَ يُنَاوِلُهُ الْحِجَارَةَ .

(145/66)

وَقَوْلُهُ – تَعَالَى – : (رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا) . . . إلَخْ حِكَايَةٌ لِدُعَاءِ إبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ عِنْدَ الْبِنَاءِ وَهُوَ أَنَّهُمَا كَانَا يَقُولَانِ ذَلِكَ ، حُذِفَ الْقَوْلُ لِلْإِيجَازِ الَّذِي عُهِدَ مِنَ الْقُرْآنِ فِي خِطَابِ

الْعَرَبِ كَمَا تَقَدَّمَ ، وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ بَيَانٌ لِحَالِهِمَا وَقْتَئِذٍ ، وَتَقَبَّلَ اللهُ الْعَمَلَ : قَبِلَهُ وَرَضِيَ بِهِ (إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ) لِأَقْوَالِنَا (الْعَلِيمُ) بِأَعْمَالِنَا وَنِيَّتِنَا فِيهَا .

(146/66)

(رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ) الْمُسْلِمُ وَالْمُسَلِّمُ وَالْمُسْتَسْلِمُ وَاحِدٌ وَهُوَ : الْمُنْقَادُ الْخَاضِعُ ، وَالْمُرَادُ بِالْكَلِمَةِ : مَا يَشْمَلُ التَّوْحِيدَ وَالْإِخْلَاصَ لِلَّهِ – تَعَالَى – فِي الِاعْتِقَادِ وَالْعَمَلِ جَمِيعًا ، وَمَعْنَى الْأَوَّلِ – أَيِ الْإِخْلَاصُ فِي الِاعْتِقَادِ – أَيْ لَا يَتَوَجَّهُ الْمُسْلِمُ بِقَلْبِهِ إِلَّا إِلَى اللهِ وَلَا يَسْتَعِينُ بِأَحَدٍ فِيمَا وَرَاءَ الْأَسْبَابِ الظَّاهِرَةِ إِلَّا بِاللهِ ، وَمَعْنَى الثَّانِي : أَنْ يَقْصِدَ بِعَمَلِهِ مَرْضَاةَ اللهِ – تَعَالَى – لَا اتِّبَاعَ الْهَوَى وَإِرْضَاءَ الشَّهْوَةِ ، وَإِنَّمَا يُرْضِيهِ – تَعَالَى – مِنَّا أَنْ نُزَكِّيَ نُفُوسَنَا بِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ ، وَنُرَقِّيَ عُقُولَنَا بِالِاعْتِقَادِ الصَّحِيحِ الْمُؤَيَّدِ بِالْبُرْهَانِ ، فَبِذَلِكَ نَكُونُ مَحَلَّ عِنَايَتِهِ – تَعَالَى – وَمُسْتَوْدَعَ مَعْرِفَتِهِ ، وَمَوْضِعَ كَرَامَتِهِ ، وَمَنْ يَقْصِدُ بِأَعْمَالِهِ إِرْضَاءً لِشَهْوَتِهِ وَاتِّبَاعَ هَوَاهُ لَا يَزِيدُ نَفْسَهُ إِلَّا خُبْثًا ، وَبِذَلِكَ يَكُونُ بَعِيدًا عَنِ الْإِسْلَامِ وَيَصْدُقُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ : (أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا) (25 : 43) ؟ .

(147/66)

وَقَدْ يُقَالُ : إِنَّ الْإِسْلَامَ يَنْدَفِعُ لِمُعْظَمِ الْأَعْمَالِ بِسَائِقِ طَلَبِ الْمَنْفَعَةِ وَاللَّذَّةِ وَهُوَ سَائِقٌ فِطْرِيٌّ ، فَكَيْفَ يُنَافِيهِ الْإِسْلَامُ وَهُوَ دِينُ الْفِطْرَةِ . وَمِثَالُهُ طَلَبُ الْغِذَاءِ لِقِوَامِ الْجِسْمِ يَسُوقُ إِلَيْهِ التَّلَذُّذُ بِالطَّعَامِ ، وَمِثْلُ ذَلِكَ طَلَبُ اللَّذَّاتِ الْعَقْلِيَّةِ وَالْأَدَبِيَّةِ فَكَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ مَا يُطْلَبُ لِلَذَّةٍ خَالِصًا لِلَّهِ وَحْدَهُ ؟ وَالْجَوَابُ : أَنَّ الْإِسْلَامَ قَدْ حَلَّ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ حَلًّا لَا يَجِدُهُ الْإِنْسَانُ فِي دِيَانَةٍ أُخْرَى ، ذَلِكَ أَنَّهُ لَمْ يُحَرِّمْ عَلَيْنَا إِلَّا مَا هُوَ ضَارٌّ بِنَا ، وَلَمْ يُوجِبْ عَلَيْنَا إِلَّا مَا هُوَ نَافِعٌ لَنَا ، وَقَدْ أَبَاحَ لَنَا مَا لَا ضَرَرَ فِي فِعْلِهِ وَلَا فِي تَرْكِهِ مِنْ ضُرُوبِ الزِّينَةِ وَاللَّذَّةِ إِذَا قُصِدَ بِهَا مُجَرَّدُ اللَّذَّةِ ، وَأَمَّا إِذَا قُصِدَ بِهَا مَعَ اللَّذَّةِ غَرَضٌ صَحِيحٌ وَفُعِلَتْ بِنِيَّةٍ صَالِحَةٍ فَهِيَ فِي حُكْمِ الطَّاعَاتِ الَّتِي يُثَابُ عَلَيْهَا ، وَمِنْ نِيَّةِ الْمَرْءِ الصَّالِحَةِ فِي الزِّينَةِ وَالطِّيبِ أَنْ يَسُرَّ إِخْوَانَهُ بِلِقَائِهِ ، وَأَنْ يُظْهِرَ نِعَمَ اللهِ عَلَيْهِ ، وَأَنْ يَتَقَرَّبَ إِلَى امْرَأَتِهِ وَيُدْخِلَ السُّرُورَ عَلَيْهَا ، وَإِنَّمَا الْهَوَى الْمَذْمُومُ فِي الْإِسْلَامِ هُوَ الْهَوَى الْبَاطِلُ ، كَأَنْ يَتَزَيَّنَ الرَّجُلُ وَيَتَطَيَّبَ لِلْمُفَاخَرَةِ وَالْمُبَاهَاةِ ، أَوْ لِيَسْتَمِيلَ إِلَيْهِ النِّسَاءَ الْأَجْنَبِيَّاتِ عَنْهُ ، وَبِذَلِكَ تَكُونُ الزِّينَةُ مَذْمُومَةً شَرْعًا وَ (إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ) .

دَعَا هَذَانِ النَّبِيَّانِ الْعَظِيمَانِ لِأَنْفُسِهِمَا بِحَقِيقَةِ الْإِسْلَامِ ، ثُمَّ دَعَوَا بِذَلِكَ لِذُرِّيَّتِهِمَا فَقَالَا : (وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ) أَيْ وَاجْعَلْ مِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ كَإِسْلَامِنَا لِيَسْتَمِرَّ الْإِسْلَامُ لَكَ بِقُوَّةِ الْأُمَّةِ وَتَعَاوُنِ الْجَمَاعَةِ .

قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : أَضَافَا الذُّرِّيَّةَ إِلَى ضَمِيرِ الِاثْنَيْنِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ الذُّرِّيَّةُ الَّتِي تُنْسَبُ إِلَيْهِمَا مَعًا وَهِيَ مَا يَكُونُ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ ، اللَّفْظُ ظَاهِرٌ فِي هَذَا الْمَعْنَى وَيُرَجِّحُهُ الْحَالُ وَالْمَحِلُّ الَّذِي كَانَا فِيهِ ، وَعَزْمُ إِبْرَاهِيمَ عَلَى أَنْ يَدَعَ إِسْمَاعِيلَ فِي بِلَادِ الْعَرَبِ دَاعِيًا إِلَى تَوْحِيدِ اللهِ ، وَإِسْلَامِ الْقَلْبِ إِلَيْهِ ، وَيَرْجِعَ هُوَ إِلَى بِلَادِ الشَّامِ ، وَكَذَلِكَ الدُّعَاءُ لِهَذِهِ الذُّرِّيَّةِ بِأَنْ يَبْعَثَ اللهُ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ كَمَا سَيَأْتِي .

وَقَدِ اسْتَجَابَ اللهُ – تَعَالَى – دُعَاءَ إِبْرَاهِيمَ وَوَلَدِهِ – عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ، وَجَعَلَ فِي ذُرِّيَّتِهِمَا أُمَّةَ الْإِسْلَامِ ، وَبَعَثَ فِيهَا مِنْهَا خَاتَمَ النَّبِيِّينَ – عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وَإِلَى هَذَا الدُّعَاءِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ فِي سُورَةِ الْحَجِّ : (مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ) (22 : 78) وَعُلِمَ مِمَّا تَقَدَّمَ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْإِسْلَامِ

مَعْنَاهُ الَّذِي شَرَحْنَاهُ ، فَمَنْ قَامَ بِهِ هَذَا الْمَعْنَى فَهُوَ الْمُسْلِمُ فِي عُرْفِ الْقُرْآنِ ، وَلَيْسَ الْمُرَادَ بِهِ اسْمٌ فِي حُكْمِ الْجَامِدِ يُطْلَقُ عَلَى أُمَّةٍ مَخْصُوصَةٍ حَتَّى يَكُونَ كُلُّ مَنْ يُولَدُ فِيهَا أَوْ يَقْبَلُ لَقَبَهَا مُسْلِمًا ذَلِكَ الْإِسْلَامَ الَّذِي نَطَقَ بِهِ الْقُرْآنُ ، وَيَكُونُ مِنَ الَّذِينَ تَنَالُهُمْ دَعْوَةُ إِبْرَاهِيمَ – عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ – ، وَقَدْ جَرَى إِبْرَاهِيمُ وَوَلَدُهُ عَلَى سُنَّةِ الْفِطْرَةِ فِي هَذَا الدُّعَاءِ أَيْضًا ، فَخَصَّاهُ بِبَعْضِ الذُّرِّيَّةِ ؛ لِأَنَّهُ قَدْ يَكُونُ مِنْهَا مَنْ لَا يَتَنَاوَلُ الْإِسْلَامَ .

(وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا) أَيْ عَلِّمْنَا إِيَّاهَا عِلْمًا يَكُونُ كَالرُّؤْيَةِ الْبَصَرِيَّةِ فِي الْجَلَاءِ وَالْوُضُوحِ ، وَالْمَنَاسِكُ : جَمْعُ مَنْسَكٍ بِفَتْحِ السِّينِ فِي الْأَفْصَحِ مِنَ النُّسُكِ (بِضَمَّتَيْنِ) وَمَعْنَاهُ غَايَةُ الْعِبَادَةِ ، وَغَلَبَ اسْتِعْمَالُ النُّسُكِ فِي عِبَادَةِ الْحَجِّ خَاصَّةً ، وَالْمَنَاسِكِ فِي مَعَالِمِهِ أَوْ أَعْمَالِهِ ، (وَتُبْ عَلَيْنَا) أَيْ وَفِّقْنَا لِلتَّوْبَةِ لِنَتُوبَ وَنَرْجِعَ إِلَيْكَ مِنْ كُلِّ حَالٍ أَوْ عَمَلٍ يَشْغَلُنَا عَنْكَ . وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ – تَعَالَى – : (ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا) (9 : 118) أَوِ الْمَعْنَى : اقْبَلْ تَوْبَتَنَا ، وَمِنْهُ الْحَدِيثُ : (وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ تَابَ) وَتَابَ – بِالْمُثَنَّاةِ – كَثَابَ (بِالْمُثَلَّثَةِ) وَمَعْنَاهُ : رَجَعَ . وَيُقَالُ : تَابَ الْعَبْدُ : إِلَى رَبِّهِ أَيْ رَجَعَ

إِلَيْهِ ؛ لِأَنَّ اقْتِرَافَ الذَّنْبِ إِعْرَاضٌ عَنِ اللهِ أَيْ عَنْ طَرِيقِ دِينِهِ وَمُوجِبَاتِ رِضْوَانِهِ ، وَيُقَالُ : تَابَ اللهُ عَلَى الْعَبْدِ ؛ لِأَنَّ التَّوْبَةَ مِنَ اللهِ تَتَضَمَّنُ مَعْنَى الرَّحْمَةِ وَالْعَطْفِ ؛ كَأَنَّ الرَّحْمَةَ الْإِلَهِيَّةَ تَنْحَرِفُ عَنِ الْمُذْنِبِ بِاقْتِرَافِهِ أَسْبَابَ الْعُقُوبَةِ ، فَإِذَا تَابَ عَادَتْ إِلَيْهِ ، وَعَطَفَ رَبُّهُ عَلَيْهِ ، وَالتَّوْبَةُ تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ دَرَجَاتِ النَّاسِ ، فَعَبْدُكَ يَتُوبُ إِلَيْكَ مِنْ تَرْكِ مَا أَمَرْتَهُ بِفِعْلِهِ أَوْ فِعْلِ مَا أَمَرْتَهُ بِتَرْكِهِ ، وَصَدِيقُكَ يَتُوبُ إِلَيْكَ وَيَعْتَذِرُ إِذَا هُوَ قَصَّرَ فِي عَمَلٍ لَكَ فِيهِ فَائِدَةٌ عَمَّا فِي إِمْكَانِهِ وَاسْتِطَاعَتِهِ ، وَوَلَدُكَ يَتُوبُ إِذَا قَصَّرَ فِي أَدَبٍ مِنَ الْآدَابِ الَّتِي تُرْشِدُهُ إِلَيْهَا ؛ لِيَكُونَ فِي نَفْسِهِ عَزِيزًا كَرِيمًا ، وَكَذَلِكَ تَخْتَلِفُ تَوْبَاتُ التَّائِبِينَ إِلَى اللهِ – تَعَالَى – بِاخْتِلَافِ دَرَجَاتِهِمْ فِي مَعْرِفَتِهِ ، وَفَهْمِ أَسْرَارِ شَرِيعَتِهِ ، فَعَامَّةُ الْمُؤْمِنِينَ لَا يَعْرِفُونَ مِنْ مُوجِبَاتِ سُخْطِ اللهِ – تَعَالَى – وَأَسْبَابِ عُقُوبَتِهِ إِلَّا الْمَعَاصِيَ الَّتِي شَدَّدَتِ الشَّرِيعَةُ فِي النَّهْيِ عَنْهَا ، وَإِذَا تَابُوا مِنْ عَمَلٍ سَيِّئٍ فَإِنَّمَا يَتُوبُونَ مِنْهَا ، وَخَوَاصُّ الْمُؤْمِنِينَ يَعْرِفُونَ أَنَّ لِكُلِّ عَمَلٍ سَيِّئٍ لَوْثَةً فِي النَّفْسِ تُبْعِدُ بِهَا عَنِ الْكَمَالِ ، وَلِكُلِّ عَمَلٍ صَالِحٍ أَثَرًا فِيهَا يُقَرِّبُهَا مِنَ اللهِ وَصِفَاتِهِ ، فَالتَّقْصِيرُ فِي الصَّالِحَاتِ يُعَدُّ عِنْدَ هَؤُلَاءِ مِنَ الذُّنُوبِ الَّتِي تَهْبِطُ بِالنَّفْسِ وَتُبْعِدُهَا عَنِ اللهِ – تَعَالَى – ، فَهِيَ إِذَا

قَصَّرَتْ فِيهَا تَتُوبُ ، وَإِذَا شَمَّرَتْ لَا تَأْمَنُ النَّقَائِصَ وَالْعُيُوبَ ، وَيَخْتَلِفُ اتِّهَامُ هَؤُلَاءِ الْأَبْرَارِ لِأَنْفُسِهِمْ بِاخْتِلَافِ مَعْرِفَتِهِمْ بِصِفَاتِ النَّفْسِ ، وَمَا يَعْرِضُ لَهَا مِنَ الْآفَاتِ فِي سَيْرِهَا ، وَمَعْرِفَتِهِمْ بِكَمَالِ اللهِ جَلَّ جَلَالُهُ وَمَعْنَى الْقُرْبِ مِنْهُ وَاسْتِحْقَاقِ رِضْوَانِهِ ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ بَعْضُ الْعَارِفِينَ : (حَسَنَاتُ الْأَبْرَارِ سَيِّئَاتُ الْمُقَرَّبِينَ) وَمِنْ هُنَا نَفْهَمُ مَعْنَى التَّوْبَةِ الَّتِي طَلَبَهَا إِبْرَاهِيمُ وَإِسْمَاعِيلُ – عَلَيْهِمَا وَعَلَى آلِهِمَا الصَّلَاةُ وَالتَّسْلِيمُ – (إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) أَيْ إِنَّكَ أَنْتَ وَحْدَكَ الْكَثِيرُ التَّوْبِ عَلَى عِبَادِكَ – وَإِنْ كَثُرَ تَحَوُّلُهُمْ عَنْ سَبِيلِكَ – بِتَوْفِيقِهِمْ لِلتَّوْبَةِ إِلَيْكَ وَقَبُولِ تَوْبَتِهِمْ مِنْهُمْ ، الرَّحِيمُ بِالتَّائِبِينَ .

(152/66)

(رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ) أَيْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَيَتَضَمَّنُ هَذَا الدُّعَاءُ لَهُمْ بِالِارْتِقَاءِ الَّذِي يُؤَهِّلُهُمْ وَيُعِدُّهُمْ لِظُهُورِ النَّبِيِّ مِنْهُمْ ، وَقَدْ أَجَابَ اللهُ – تَعَالَى – هَذِهِ الدَّعْوَةَ بِخَاتَمِ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – كَمَا وَرَدَ فِي حَدِيثِ أَحْمَدَ (أَنَا دَعْوَةُ إِبْرَاهِيمَ وَبِشَارَةُ عِيسَى) . . . إِلَخْ ، ثُمَّ وُصِفَ هَذَا الرَّسُولُ بِقَوْلِهِ : (يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ) الدَّالَّةَ عَلَى وَحْدَانِيَّتِكَ وَتَنْزِيهِكَ وَعَظَمَةِ شَأْنِكَ ، وَالدَّالَّةَ عَلَى صِدْقِ رُسُلِكَ إِلَى خَلْقِكَ ، فَالْمُرَادُ بِالْآيَاتِ : الْآيَاتُ الْكَوْنِيَّةُ وَالْعَقْلِيَّةُ ، أَوِ الْمُرَادُ آيَاتُ الْوَحْيِ الَّتِي تُنْزِلُهَا عَلَيْهِ فَتَكُونُ

دَلِيلًا عَلَى صِدْقِهِ ، وَمُشْتَمِلَةً عَلَى تَفْصِيلِ آيَاتِ اللهِ فِي خَلْقِهِ كَبَرَاهِينِ التَّوْحِيدِ وَالتَّنْزِيهِ وَدَلَائِلِ النُّبُوَّةِ وَالْبَعْثِ . وَتِلَاوَتُهَا : ذِكْرُهَا الْمَرَّةَ بَعْدَ الْمَرَّةِ لِتَرْسَخَ فِي النَّفْسِ وَتُؤَثِّرَ فِي الْقَلْبِ

.

(وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ) قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : فَسَّرُوا الْكِتَابَ بِالْقُرْآنِ ، وَالْحِكْمَةَ

بِالسُّنَّةِ ، وَالثَّانِي غَيْرُ مُسَلَّمٍ عَلَى عُمُومِهِ ، أَمَّا الْأَوَّلُ فَلَهُ وَجْهٌ ، وَعَلَيْهِ يَكُونُ الْمُرَادُ بِالْآيَاتِ فِيمَا سَبَقَ دَلَائِلَ الْعَقَائِدِ وَبَرَاهِينَهَا – كَمَا تَقَدَّمَ فِيمَا سَبَقَ – دُونَ الْوَحْيِ وَإِلَّا كَانَ مُكَرَّرًا .

وَفِيهِ وَجْهٌ ثَانٍ : وَهُوَ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْكِتَابِ مَصْدَرُ كَتَبَ ، يُقَالُ : كَتَبَ كِتَابًا وَكِتَابَةً ، وَإِنَّمَا الدُّعَاءُ لِأُمَّةٍ أُمِّيَّةٍ لَا بُدَّ فِي إِصْلَاحِهَا وَتَهْذِيبِهَا مِنْ تَعْلِيمِهَا الْكِتَابَةَ ، وَقَدْ كَانَتِ الْأُمَمُ الْمُجَاوِرَةُ لَهَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ، فَلَا يَتَيَسَّرُ لَهَا اللَّحَاقُ بِهَا أَوْ سَبْقُهَا ، حَتَّى تَكُونَ مِنَ الْكَاتِبِينَ مِثْلَهَا ، وَأَمَّا الْحِكْمَةُ فَهِيَ فِي كُلِّ شَيْءٍ مَعْرِفَةُ سِرِّهِ وَفَائِدَتِهِ ، وَالْمُرَادُ بِهَا أَسْرَارُ الْأَحْكَامِ الدِّينِيَّةِ وَالشَّرَائِعُ وَمَقَاصِدُهَا ، وَقَدْ بَيَّنَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ذَلِكَ بِسِيرَتِهِ فِي الْمُسْلِمِينَ ، وَمَا فِيهَا مِنَ الْفِقْهِ فِي الدِّينِ ، فَإِنْ أَرَادُوا مِنَ السُّنَّةِ هَذَا

الْمَعْنَى فِي تَفْسِيرِ الْحِكْمَةِ فَهُوَ مُسَلَّمٌ ، وَهُوَ الَّذِي كَانَ يُفْهَمُ مِنِ اسْمِهَا فِي الصَّدْرِ الْأَوَّلِ ، وَإِنْ أَرَادُوا بِالسُّنَّةِ مَا يُفَسِّرُهَا بِهِ أَهْلُ الْأُصُولِ وَالْمُحَدِّثُونَ ، فَلَا تَصِحُّ عَلَى إِطْلَاقِهَا ، فَالْحِكْمَةُ مَأْخُوذَةٌ مِنَ الْحَكَمَةِ - بِالتَّحْرِيكِ - وَهِيَ مَا أَحَاطَ بِحَنَكَيِ الْفَرَسِ مِنَ اللِّجَامِ وَفِيهَا الْعِذَارَانِ ، وَفِي ذَلِكَ مَعْنَى مَا يُضْبَطُ بِهِ الشَّيْءُ ، وَمِنْ ذَلِكَ إِحْكَامُ الْأَمْرِ وَإِتْقَانُهُ ، وَمَا كُلُّ مَنْ يَرْوِي الْأَحَادِيثَ يُحَقَّقُ لَهُ هَذَا الْمَعْنَى ، وَلَكِنَّ الَّذِي يَتَفَقَّهُ فِي الدِّينِ وَيَفْهَمُ أَسْرَارَهُ وَمَقَاصِدَهُ يَصِحُّ أَنْ يُقَالَ : إِنَّهُ قَدْ أُوتِيَ الْحِكْمَةَ الَّتِي قَالَ اللهُ فِيهَا : (وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا) (2 : 269) وَلَنْ يَكُونَ أَحَدٌ دَاخِلًا فِي دَعْوَةِ إِبْرَاهِيمَ حَتَّى يَقْبَلَ تَعْلِيمَ الْحِكْمَةِ مِنْ هَذَا النَّبِيِّ الْكَرِيمِ .

(155/66)

عَلِمَ إِبْرَاهِيمُ وَإِسْمَاعِيلُ - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ - أَنَّ تَعْلِيمَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةَ لَا يَكْفِي فِي إِصْلَاحِ الْأُمَمِ وَإِسْعَادِهَا ، بَلْ لَا بُدَّ أَنْ يُقْرَنَ التَّعْلِيمُ بِالتَّرْبِيَةِ عَلَى الْفَضَائِلِ ، وَالْحَمْلِ عَلَى الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ بِحُسْنِ الْأُسْوَةِ وَالسِّيَاسَةِ ، فَقَالَ : (وَيُزَكِّيهِمْ) أَيْ يُطَهِّرُ نُفُوسَهُمْ مِنَ الْأَخْلَاقِ الذَّمِيمَةِ ، وَيَنْزِعُ مِنْهَا تِلْكَ الْعَادَاتِ الرَّدِيئَةَ ، وَيُعَوِّدُهَا الْأَعْمَالَ الْحَسَنَةَ الَّتِي تَطْبَعُ فِي النُّفُوسِ

مَلَكَاتِ الْخَيْرِ ، وَيُبَغِّضُ إِلَيْهَا الْقَبِيحَةَ الَّتِي تُغْرِيهَا بِالشَّرِّ ، ثُمَّ خَتَمَا الدُّعَاءَ بِهَذَا الثَّنَاءِ (إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) ، الْعَزِيزُ : هُوَ الْقَوِيُّ الْغَالِبُ عَلَى أَمْرِهِ فَلَا يُنَالُ بِضَيْمٍ ، وَلَا يُغْلَبُ عَلَى أَمْرٍ ، وَالْحَكِيمُ : هُوَ الَّذِي يَضَعُ الْأَشْيَاءَ أَحْسَنَ مَوْضِعٍ ، وَيُتْقِنُ الْعَمَلَ وَيُحْسِنُ الصُّنْعَ ، وَالسِّرُّ فِي ذِكْرِ هَذَيْنِ الْوَصْفَيْنِ هُنَا إِزَالَةُ مَا رُبَّمَا يَتَعَلَّقُ بِالذِّهْنِ ، أَوْ يَسْبِقُ إِلَى الْوَهْمِ ، مِنْ أَنَّ هَذِهِ الْأُمُورَ الَّتِي دُعِيَ بِهَا لِلْعَرَبِ مُنَافِيَةٌ لِطَبَائِعِهِمْ ، بَعِيدَةٌ مِنْ أَحْوَالِهِمْ وَمَعَايِشِهِمْ ، فَإِنَّهُمْ جَمَدُوا عَلَى بَدَاوَتِهِمْ ، وَأَلِفُوا غِلْظَتَهُمْ وَخُشُونَتَهُمْ ، فَهُمْ أَعْدَاءُ الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ ، خُصَمَاءُ التَّهْذِيبِ وَالتَّرْبِيَةِ ، لَا يَخْضَعُونَ لِنِظَامٍ ، وَلَا يُؤْخَذُونَ بِالْأَحْكَامِ ، وَلَا اسْتِعْدَادَ فِيهِمْ لِلْمَدَنِيَّةِ وَالْحَضَارَةِ ، الَّتِي هِيَ أَثَرُ تَعْلِيمِ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ ، وَتَزْكِيَةِ أَفْرَادِ الْأُمَّةِ ، فَكَانَ يُتَوَقَّعُ

(156/66)

أَنْ يَقُولَ قَائِلٌ : مَنْ يَقْدِرُ أَنْ يُغَيِّرَ طِبَاعَ الْأُمَّةِ الْمَعْرُوفَةِ بِالْخُشُونَةِ وَالْقَسْوَةِ ، فَيَجْعَلُهَا مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْمَدَنِيَّةِ وَالْحِكْمَةِ ؟ لَوْلَا أَنْ عُلِمَ أَنَّ الْمَدْعُوَّ وَالْمَسْئُولَ هُوَ الْعَزِيزُ الَّذِي لَا مَرَدَّ لِأَمْرِهِ ، وَالْحَكِيمُ الَّذِي لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير المنار حـ 1 صـ 371.

﴿390﴾

(157/66)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ (129) ﴾

دعاء إبراهيم عليه السلام الله سبحانه وتعالى ليتم نعمته على ذريته ويزيد رحمته على عباده . . بأن يرسل لهم رسولا يبلغهم منهج السماء حتى لا تحدث فترة ظلام في الأرض تنتشر فيها المعصية والفساد والكفر ويعبد الناس فيها الأصنام كما حدث قبل إبراهيم .

كلمة " رسولا منهم " ترد على اليهود الذين أحزنهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم من العرب ، وأن الرسالة كان يجب أن تكون فيهم . . ونحن نقول لهم أن جدنا وجدكم إبراهيم وأنتم من ذرية يعقوب بن اسحق ومحمد صلى الله عليه وسلم من ذرية إسماعيل بن إبراهيم وأخ لإسحاق . . ولا حجة لما تدعونه من أن الله فضلكم واختاركم على سائر الشعوب . . إنما أراد الحق سبحانه وتعالى أن يسلب منكم النبوة لأنكم ظلمتم في الأرض وعهد الله لا يناله الظالمون .

أراد الحق تبارك وتعالى أن يقول لهم أن هذا النبي من نسل إبراهيم وأنه ينتمي إلي إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام . وقوله تعالى : " يتلو عليهم آياتك " . . أي آيات القرآن الكريم .

وقوله تعالى : " ويعلمهم الكتاب والحكمة" . . يجب أن نعرف أن هناك فرقا بين التلاوة وبين التعليم . فالتلاوة هي أن تقرأ القرآن ، أما التعليم فهو أن تعرف معناها وما جاءت به لتطبقه وتعرف من أين جاءت . . وإذا كان الكتاب هو القرآن الكريم فإن الحكمة هي أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم التي قال الحق سبحانه وتعالى فيها في خطابه لزوجات النبي :

وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ

(من الآية 34 سورة الأحزاب)

(158/66)

وقوله تعالى : " ويزكيهم" أي ويطهرهم ويقودهم إلي طريق الخير وتمام الإيمان . وقوله جل جلاله : " إنك أنت العزيز الحكيم" . . أي العزيز الذي لا يغلب لجبروته ولا يسأله أحد . . " والحكيم" الذي لا يصدر منه الشيء إلا بحكمة بالغة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 589.590 ﴾

(159/66)

" فوائد بلاغية "

قال فى صفوة التفاسير :

البلاغة :

1- التعرض لعنوان الربوبية [ابتلى إبراهيم ربه] تشريف له عليه السلام ، وإيذان بأن ذلك الابتلاء تربية له ، وترشيح لأمر خطير ، والمراد أنه سبحانه عامله معاملة المختبر ، حيث كلفه بأوامر ونواهي ، يظهر بها استحقاقه للإمامة العظمى .

2- إيقاع المصدر موقع اسم الفاعل في قوله : [وأمنا] للمبالغة ، والإسناد مجازي ، أي آمنا من دخله كقوله تعالى : [ومن دخله كان آمنا] وخير ما فسرته بالوارد .

3- إضافة البيت إلى ضمير الجلالة [وطهر بيتي] للتشريف والتعظيم .

4- قوله تعالى : [وإذ يرفع إبراهيم] ورد التعبير بصيغة المضارع حكاية عن الماضي ، ولذلك وجه معروف في محاسن البيان ، وهو استحضار الصورة الماضية ، وكأنها مشاهدة بالعيان ، فكأن السامع ينظر ويرى إلى البنيان وهو يرتفع أمامه ، والبناء هو إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، قال أبو السعود : وصيغة الاستقبال لحكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها العجيبة المنبئة عن المعجزة الباهرة .

5- [التواب الرحيم] صيغتان من صيغ المبالغة ، لأن " فعال " و " فعيل " من صيغ المبالغة

، أي عظيم المغفرة ، واسع الرحمة ، لا يخيب من دعاه . انتهى انتهى . ا هـ ﴾ صفوة التفاسير حـ 1 صـ 95 ﴿

(160/66)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله تعالى ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (129) ﴾

في ضمير " فيهم " قولان :

أحدهما : أنه عائد على معنى الأمة ؛ إذ لو عاد على لفظها لقال : " فيها " قاله أبو البقاء .

والثاني : أنه يعنود على الذّرية بالتأويل المتقدم وقيل : يعود على أهل " مكة " ، ويؤيده : ﴿ هُوَ الذي بَعَثَ فِي الأميين رَسُولاً مِّنْهُمْ ﴾ [الجمعة : 2] ، وفي قراءة أبي : " وَابْعَثْ فيهِمْ فِي آخِرِهُمْ رَسُلاً مِنْهُمْ " .

قوله : " مِنْهُمْ " في محلّ نصب ، لأنه صفة لـ " رسولاً " ، فيتعلّق بمحذوف ، أي : رسولاً كائناً منهم .

قال ابن الأنباري : يشبه أن يكون أصله من قولهم : ناقة مرْسَال ورسلة ، إذا كانت سهلة السير ماضية أمام النُّوق .

ويقال للجماعة المهملة المرسلة : رسل ، وجمعه أَرْسَال . ويقال : جاء القوم أَرْسالاً ، أي بعضهم في أثر بعض ، ومنه يقال للبن : رسل ، لأنه يرسل من الضرع . نقله القرطبي رحمه الله تعالى .

قوله : " يَتْلُوا " في محلّ هذه الجملة ثلاثة أوجه :

أحدهما : أنها في محلّ نصب صفة ثانية لـ " رسولاً " ، وجاء هذا على الترتيب الأحسن ، إذا تقدم ما هو شبيه بالمفرد ، وهو المجرور على الجملة .

والثاني : أنها في محل نصب على الحال من " سولاً " ؛ لأنه لما وصف تخصص .

الثالث : أنها حال من المضير في " منهم " ، والعامل فيها الاستقرار الذي تعلّق به " منهم " لوقوعه صفةً .

وتقدم قوله : " العزيز " ؛ لأنها صفة ذات ، وتأخر " الحكيم " ؛ لأنها صفة فعل .

ويقال : عَزَّ ، وَيَعَزُّ ، ويعِزُّ ، ولكن باختلاف معنى ، فالمَضْمُوم بمعنى " غلب " ، ومنه : ﴿ وَعَزَّنِي فِي الخطاب ﴾ [ص : 23] .

والمفتوح بمعنى [الشدة ، ومنه : عزّ لحم الناقة ، أي : اشتد ، وعَزّ عليّ هذا الأمر ،

والمكسور بمعنى] التَّفَاسة وقلّة النظير . انتهى انتهى . ا هـ ﴾ تفسير ابن عادل حـ 2 صـ 492.491 ﴿ .

(161/66)

قوله تعالى ﴿ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (130) ﴾

سبب نزول هذه الآية

قال الخازن :

إن عبد الله بن سلام دعا ابني أخيه إلى الإسلام مهاجراً وسلمة ، وقال لهما : قد علمتما أن الله تعالى قال في التوراة إني باعث من ولد إسماعيل نبياً اسمه أحمد فمن آمن به فقد اهتدى ، ومن لم يؤمن به فهو ملعون ، فأسلم سلمة وأبى مهاجر أن يسلم فأنزل الله تعالى :

﴿ ومن يرغب عن ملة إبراهيم ﴾ أي يترك دينه وشريعته ، وفيه تعريض باليهود والنصارى ومشركي العرب لأن اليهود والنصارى يفتخرون بالانتساب إلى إبراهيم والوصلة إليه ، لأنهم من بني إسرائيل وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ، والعرب يفتخرون به لأنهم من ولد إسماعيل بن إبراهيم وإذا كان كذلك كان إبراهيم هو الذي طلب بعثة هذا الرسول في

آخر الزمان فمن رغب عن الإيمان بهذا الرسول الذي هو دعوة إبراهيم فقد رغب عن ملة إبراهيم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ1 صـ 112 ﴾

(162/66)

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان التقدير : فمن يرغب في مخالفة من يرسله من هو بهذه الصفة عطف عليه قوله : ﴿ ومن يرغب عن ملة إبراهيم ﴾ المستقيم الطريقة ، الطاهر الخليقة ، الشفيق على ذريته ، الباني لهم أعظم المفاخر ، المجتهد لهم في جليل المناقب والمآثر ﴿ إلا من سفه نفسه ﴾ أي امتهنها واحتقرها واستخف بها ، أي فعل بها ما أدى إلى ذلك ؛ وفي ذلك تعريض بمعاندي أهل الكتاب .

قال الحرالي : والسفاهة خفة الرأي في مقابلة ما يراد منه من المتانة والقوة ، وفي نصب النفس إنباء بلحاق السفاهة بكلية ذي النفس ، لأن من سفهت نفسُه اختص السفه بها ، ومن سفه نفسَه – بالنصب – استغرقت السفاهة ذاته وكليته وكان بدء ذلك وعاديته من جهة نفسه ، يفهم ذلك نصبها ، وذلك لأن الله عز وجل جعل النفس مبدأ كل شر أبداه في ذات

ذي النفس ، فإنه تعالى يعطي الخير بواسطة وبغير واسطة ، ولا يُحذى الشر إلا بواسطة نفس ليكون في ذلك حجة الله على خلقه ؛ وإنما استحق السفاهة من يرغب عن ملة إبراهيم لظهور شاهدها في العقل وعظيم بركتها في التجربة ، لأن من ألقى بيده لم يؤاخذ في كل مرتبة من رتب الدنيا والآخرة ، فلا عذر لمن رغب عن ذلك ، لظهوره في شاهدي العقل والحس اللذين هما أظهر حجج الله على خلقه ﴿ وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه ﴾ [الأنعام : 83] .

(163/66)

ولما كان التقدير : فلقد آتيناه من المزايا ما قدّمنا لكم مما لا يعدل عنه ذو مسكة عطف عليه قوله : ﴿ ولقد اصطفيناه ﴾ فذكره بمظهر العظمة تعظيماً له ، فإن العبد يشرف بشرف سيده ، وتشريفاً لاصطفائه فإن الصنعة تجل بجلالة مبدعها ﴿ في الدنيا ﴾ بما ذكرناه من كريم المآثر التي يجمعها إسلامه ؛ وهو افتعال من الصفوة وهي ما خلص من اللطيف عن كثيفه ومكدره ، وفي صيغة الافتعال من الدلالة على التعمد والقصد ما يزيد فيما أشير إليه من الشرف ﴿ وإنه في الآخرة لمن الصالحين ﴾ وفي هذا أكبر تفخيم لرتبة الصلاح حيث جعله من المتصفين بها ، فهو حقيق بالإمامة لعلو رتبته عند الله في الدارين ،

ففي ذلك أعظم ترغيب في اتباع دينه والاهتداء بهديه ، وأشد ذم لمن خالفه ؛ وكل ذلك تذكير لأهل الكتاب بما عندهم من العلم بأمر هذا النبي الكريم وما هو سبب له ، وإقامة للحجة عليهم ، لأن أكثر ذلك معطوف على ﴿ اذكروا ﴾ قوله :

﴿ يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي ﴾ [البقرة : 122] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 244.245 ﴾

(164/66)

اللغة :

[سفه نفسه] امتهنها واستخف بها ، وأصل السفه : الخفة ومنه زمام سفيه أي خفيف

[اصطفيناه] أي جعلناه صافيا من الأدناس ، مشتق من الصفوة ومعناه تخير الأصفى ، والمراد اصطفاؤه بالرسالة والخلة والإمامة العظمى

[وصى] التوصية : إرشاد الغير إلى ما فيه صلاح وقربة

[شهداء] جمع شاهد أي حاضر

[خلت] مضت وانقرضت . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 1 صـ 96 ﴾

(165/66)

قوله تعالى ﴿ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (130) ﴾

فصل

قال فى الميزان :

قوله تعالى : ولقد اصطفيناه في الدنيا ، الاصطفاء أخذ صفوة الشئ وتمييزه عن غيره إذا اختلطا ، وينطبق هذا المعنى بالنظر إلى مقامات الولاية على خلوص العبودية وهو أن يجري العبد في جميع شؤونه على ما يقتضيه مملوكيته وعبوديته من التسليم الصرف لربه ، وهو التحقق بالدين في جميع الشؤون فإن الدين لا يشتمل إلا على مواد العبودية في أمور الدنيا والآخرة وتسليم ما يرضيه الله لعبده في جميع أموره كما قال الله تعالى : (إن الدين عند الله الإسلام) آل عمران – 19 ، فظهر : أن مقام الاصطفاء هو مقام الإسلام بعينه ويشهد بذلك قوله تعالى : (إذ قال له ربه أسلم ، قال أسلمت لرب العالمين الآية) فإن الظاهر أن الظرف متعلق بقوله : اصطفيناه ، فيكون المعنى أن اصطفائه إنما كان حين قال له ربه : أسلم ، فأسلم لله رب العالمين فقوله تعالى : (إذ قال له ربه أسلم : قال أسلمت لرب العالمين ، بمنزله التفسير لقوله : اصطفيناه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الميزان حـ 1 صـ300 ﴾

وقال الإمام السمرقندى :

﴿ وَلَقَدِ اصطفيناه فِي الدنيا ﴾ ، يقول : اخترناه في الدنيا للنبوة والرسالة والإسلام

والخلة . ﴿ وَإِنَّهُ فِى الآخرة لَمِنَ الصالحين ﴾ ، أي في الجنة . ويقال : مع الصالحين في الجنة وهو أفضل الصالحين ما خلا محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ1 صـ 121 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (130) ﴾

بحث نفيس عن الصلاح ومراتبه

قوله تعالى : وإنه في الآخرة لمن الصالحين ، الصلاح ، وهو اللياقة بوجه ربما نسب في كلامه إلى عمل الإنسان وربما نسب إلى نفسه وذاته ، قال تعالى : فليعمل عملا صالحا) الكهف – 110 ، وقال تعالى : (وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم) النور – 32 ﴾ .

وصلاح العمل وإن لم يرد به تفسير بين من كلامه تعالى غير أنه نسب إليه من الآثار ما يتضح به معناه .

(166/66)

فمنها : أنه صالح لوجه الله ، قال تعالى : (صبروا ابتغاء وجه ربهم) الرعد – 22 ﴾ ، وقال تعالى : (وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله) البقرة – 272 .

ومنها : أنه صالح لأن يثاب عليه ، قال تعالى : (ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا) القصص – 80 ﴾ .

ومنها : أنه يرفع الكلم الطيب الصاعد إلى الله سبحانه قال تعالى : (إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) فاطر – 10 ﴾ ، فيستفاد من هذه الآثار المنسوبة إليه : أن صلاح العمل معنى تهيؤه ولياقته لأن يلبس لباس الكرامة ويكون عونا وممدا لصعود الكلام الطيب إليه تعالى ، قال تعالى : (ولكن يناله التقوى منكم) الحج – ﴾ وقال تعالى : (وكلا نمد هؤلاء ، وهؤلاء من عطاء ربك ، وما كان عطاء ربك محظورا) الإسراء – 20 ، فعطائه تعالى بمنزلة الصورة ، وصلاح العمل بمنزله المادة .

(167/66)

وأما صلاح النفس والذات فقد قال تعالى : (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا) النساء – 69 ﴾ وقال تعالى : (وأدخلناهم في رحمتنا إنهم من الصالحين) الأنبياء – 86 ﴾ وقال تعالى حكاية عن سليمان : (وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين) النمل – 19 ﴾ وقال تعالى : ﴿ ولوطا آتيناه حكما وعلما .إلى قوله.وأدخلناه في رحمتنا إنه الصالحين) الأنبياء

- 75 ﴾ وليس المراد الصلاح لمطلق الرحمة العامة الإلهية الواسعة لكل شئ ولا الخاصة بالمؤمنين على ما يفيده قوله تعالى : (ورحمتي وسعت كل شئ فسأكتبها للذين يتقون) الاعراف - 156 ﴾ إذ هؤلاء القوم وهم الصالحون ، طائفة خاصة من المؤمنين المتقين ، ومن الرحمة ما يختص ببعض دون بعض ، قال تعالى (يختص برحمته من يشاء) البقرة - 105 ﴾ وليس المراد أيضا مطلق كرامة الولاية ، وهو تولي الحق سبحانه أمر عبده ، فإن الصالحين وإن شرفوا بذلك وكانوا من الأولياء المكرمين على ما بيناه سابقا في قوله تعالى : (اهدنا الصراط المستقيم) فاتحة الكتاب - 6 ﴾ وسيجئ في تفسير الآية لكن هذه أعني الولاية صفة مشتركة بينهم وبين النبيين ، والصديقين ، والشهداء فلا يستقيم إذن عدهم طائفة خاصة في قبالهم .

نعم الأثر الخاص بالصلاح هو الإدخال في الرحمة ، وهو الأمن العام من العذاب كما ورد المعنيان معا في الجنة ، قال تعالى : فيدخلهم ربهم في رحمته) الجاثية - 30 ﴾ أي في الجنة ، وقال تعالى : (يدعون فيها بكل فاكهة آمنين) الدخان - 55 ﴾ أي في الجنة .

وأنت إذا تدبرت قوله تعالى : (وأدخلناه في رحمتنا) الأنبياء - 75 ، وقوله : (وكلا جعلنا صالحين) الأنبياء - 72 - حيث نسب الفعل إلى نفسه تعالى لا إلى

العبد – ثم تأملت أنه تعالى قصر الأجر والشكر على ما بجذاء العمل والسعي قضيت بأن الصلاح الذاتي كرامة ليست بجذاء العمل والإرادة وربما تبين به معنى قوله تعالى : (لهم ما يشاؤن فيها) وهو ما بالعمل – وقوله : (ولدينا مزيد) – وهو أمر غير ما بالعمل على ما سيجئ بيانه إن شاء الله في تفسير قوله تعالى : (لهم ما يشاؤن فيها) ق – 35 ﴾ .

ثم إنك إذا تأملت حال إبراهيم ومكانته في أنه كان نبيا مرسلا وأحد أولي العزم من الأنبياء ، وأنه إمام ، وأنه مقتدى عدة ممن بعده من الأنبياء والمرسلين وأنه من الصالحين بنص قوله تعالى : (وكلا جعلنا صالحين) الأنبياء – 72 ﴾ الظاهر في الصلاح المعجل على أن من هو دونه في الفضل من الأنبياء أكرم بهذا الصلاح المعجل وهو مع ذلك كله يسأل اللحوق بالصالحين الظاهر في أن هناك قوما من الصالحين سبقوه وهو يسأل اللحوق بهم فيما سبقوه إليه ،

وأجيب بذلك في الآخرة كما يحكيه الله تعالى في ثلاثة مواضع من كلامه حيث قال تعالى : (ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين) البقرة – 130 ﴾ وقال تعالى : ﴿ وآتيناه أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين) العنكبوت – 27 ﴾ وقال تعالى : (وآتيناه في الدنيا حسنة وإنه في الآخرة لمن الصالحين) النحل – 122 ﴾ فإذا تأملت ذلك

حق التأمل قضيت بأن الصلاح ذو مراتب بعضها فوق بعض . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الميزان ـ 306.303 ﴾

(169/66)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله تعالى ﴿ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (130) ﴾

" من " اسم استفهام بمعنى الإنكار ، فهو نفي في المعنى ، لذلك جاءت بعده " إلاَّ " التي للإيجاب ، ومحلّه رفع بالابتداء .

و " يرغب " خبره ، وفيه ضمير يعود عليه .

والرغبة أصلها الطلب ، فإن تعدت بـ " في " كانت بمعنى الإيثَار له ، والاختيار نحو : رغبت في كذا ، وإن تعدت بـ " عن " كانت بمعنى الزّهَادة نحو : رغبت عنك .

قوله : ﴿ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ ﴾ في " مَنْ " وجهان .

أحدهما : أنها في محلّ رفع البدل من الضمير في " يرغب " ، وهو المختار ؛ لأن الكلام غير

موجب ، والكوفيون يجعلون هذا من باب العطف .

فإذا قلت : ما قام القوم إلاَّ زيد ، ف " إلاَّ " عندهم حرف عطف ، وزيد معطوف على القوم ، وتحقيق هذا مذكور في كتب النحو .

الثاني : أنها في محلّ نصب على الاستثناء ، و" من " يحتمل أن تكون موصولة ، وأن تكون نكرة موصوفة ، فالجملة بعدها لا محلّ لها على الأول ، ومحلها الرفع ، أو النصب على الثاني .

قوله : " نَفْسَهُ " في نصبه سبعة أوجه :

أحدها : وهو المختار أن يكون مفعولاً به ؛ لأنه حكي أن " سَفِهَ " بكسر الفاء يتعدّى بنفسه كما يتعدى " سَفَّه " بفتح الفاء والتشديد ، وحكى عن أبي الخَطّاب أنها لغة ، وهو اختيار الزّمخشري [فإنه قال] : " سفه نفسه : امتهنها ، واستخف بها " ، ثم ذكر أوجهاً أخرى .

ثم قال الوجه الاول ، وكفى شاهداً له بما جاء في الحديث : " الكِبْرُ أَنْ تَسْفَهَ الحَقَّ وَتُغْمِضَ النَّاسَ " .

الثاني : أنه مفعول به ولكن على تضمين " سفه " معنى فعل يتعدى ، فقدره الزجاج وابن جني بمعنى " جهل " ، وقدره أبو عبيدة بمعنى " أهلك " .

قال القرطبي : وأمام سَفُهَ بالضم فلا يتعدى قاله ثعلب والمبرد] .

الثالث : أنه منصوب على إسقاط حرف الجَرّ تقديره : سَفِهَ فِي نَفْسه .

الرابع : توكيد لمؤكد محذوف تقديره : سفه في نفسه ، فحذف المؤكد قياساً على النعت والمنعوت ، حكاه مكّي .

الخامس : أنه تمييز ، وهو قول الكوفيين .

قال الزمخشري : ويجز أن يكون في شذوذ تعريف المميّز ؛ نحو قوله : [الوافر]

792 . . . . . وَلاَ بِفزَارَةَ الشُّعْرِ الرِّقَابَا

[الوافر]

793 . . . . . أَجَبَّ الظَّهْرَ لَيْسَ لَهُ سَنَامُ

فجعل " الرِّقَاب " و" الظَّهر " تمييزين ، وليس كذلكن بل هما مُشَبَّهان بالمفعول به ؛ لأنهما معمولا صفة مشبهة ، وهي " الشُّعْر " جمع أَشْعَر ، و" أَجَبّ " وهو اسم .

السادس : أنه مشبه بالمفعول وهو قول بعض الكوفيين .

السابع : أنه توكيد لمن سفه ؛ لأنه في محل نصب على الاستثناء في أحد القولين ، وهو تخريج غريب نقله صاحب " العَجَائب والغَرَائب " .

والمختار الأول ؛ لأن التضمين لا ينقاس ، وكذلك حرف الجر .

وأما حذف المؤكد وإبقاء التوكيد ، فالصحيح لا يجوز .

وأما التمييز فلا يقع معرفة ، ما ورد نادر أو متأول .

وأما النصب على التشبيه بالمفعول ، فلا يكون في الأفعال إنما يكون في الصّفات المشبهة خاصة .

قوله : " فِي الآخِرَةِ " فيه خمسة أوجه :

أحدها : أنه متعلّق بالصالحين على أن الألف واللام للتعريف ، وليست موصولة .

الثاني : أنه متعلّقة بمحذوف تقديره أعني في الآخرة كقولك : بعد سقياه .

الثالث : يتعلق بمحذوف أيضاً ، لكن من جنس المفلوظ به أي : وإنه لصالح في الآخرة لمن الصالحين .

الرابع : أن يتعلق بقوله الصالحين ، وإن كانت " آل " موصولة ؛ لأنه يُغْتفر في الظروف وشبهها ما لا يغتفر في غيرها اتساعاً ، ونظيره قول الشاعر : [الرجز]

794 رَبَّيْتُهُ حَتَّى إِذَا تَمَعْدَدَا . . . كَانَ جَزَائِي بِالْعَصَا أَنْ أُجْلَدَا

الخامس : أن يتلّق بـ " اصطفيناه " .

قال الحسين بن الفضل : في الكلام تقديم وتأخير مجازه : ولقد اصطفيناه في الدنيا وفي الآخرة .

وهذا ينبغي ألا يجوز مثله في القرآن لنُبُوِّ السمع عنه .

والاصطفاه : الاختيار ، " افتعال " من صورة الشيء ، وهي خياره ، وأصله : اصتفى ، وإنما قلبت تاء الافتعال " طاء " مناسبة للصاد لكونها حرف إطْبَاق ، وتقدم ذلك عند قوله : ﴿ أَضْطَرُّهُ ﴾ [البقرة : 126] .

وأكد جملة الأصطفاء باللام ، والثانية بـ " أن " و " اللام " ؛ لأن الثانية محتاجة لمزيد تأكيد ، وذلك أن كونه في الآخرة من الصالحين أمر مُغَيَّب ، فاحتاج الإخبار به إلى فَضْل توكيد .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 2 صـ 495. 499 ﴾ . باختصار يسير .

(172/66)

قوله تعالى ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (131) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما ذكر إمامته ذكر ما يؤتم به فيه وهو سبب اصطفائه وصلاحه وذلك دينه ، وما أوصى به عليه السلام بنيه ، وما أوصى به بنوه بنيهم سلفاً لخلف ولا سيما يعقوب عليه السلام المنوه بنسبة أهل الكتاب إليه فقال : ﴿ إذ ﴾ أي اصطفيناه بعظمتنا لأنه قال له ربه أسلم ﴾ أي لإحسان ربك إليك ، وحذف المفعول ليتناول كل ما يصح إسلامه إلى المسلم إليه وقصره عليه وتخلى المسلم عنه ﴿ قال أسلمت لرب العالمين ﴾ أي المحسن إليّ وإلى جميع الخلائق . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 245 ﴾

(173/66)

فائدة

في الكلام التفات من التكلم إلى الغيبة في قوله : إذ قال له ربه أسلم ، ولم يقل إذ قلنا له أسلم ، والتفات آخر من الخطاب إلى الغيبة في المحكي من قول إبراهيم : قال أسلمت لرب العالمين ، ولم يقل : قال أسلمت لك

أما الأول ، فالنكتة فيه : الإشارة إلى أنه كان سرا استسر به ربه إذ أسره إليه فيما خلى به معه فإن للسامع المخاطب اتصالا بالمتكلم فإذا غاب المتكلم عن صفة حضوره انقطع المخاطب عن مقامه وكان بينه وبين ما للمتكلم من الشأن والقصة ستر مضروب ، فأفاد :

أن القصة من مسامرات الأنس وخصائص الخلوة .

وأما الثاني : فلأن قوله تعالى : إذ قال له ربه ، يفيد معنى الاختصاص باللطف والاسترسال في المسارة لكن أدب الحضور كان يقتضى من إبراهيم وهو عبد عليه طابع الذلة والتواضع أن لا يسترسل ، ولا يعد نفسه مختصا بكرامة القرب متشرفا بحظيرة الأنس ، بل يراها واحدا من العبيد الأذلاء المربوبين ، فيسلم لرب يستكين إليه جميع العالمين فيقول : أسلمت لرب العالمين . أهـ

﴿ الميزان حـ1 صـ301 ﴾

سؤال : ما معنى الإسلام فى قوله ﴿ أسلم ﴾ ؟

قال الإمام الفخر : قوله : ﴿ أَسْلَمَ ﴾ ليس المراد منه الإسلام والإيمان بل أمور أخر .

أحدها : الانقياد لأوامر الله تعالى ، والمسارعة إلى تلقيها بالقبول ، وترك الإعراض بالقلب واللسان ، وهو المراد من قوله : ﴿ رَبَّنَا واجعلنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ ﴾ [البقرة : 128] .

وثانيها : قال الأصم : (أسلم) أي أخلص عبادتك واجعلها سليمة من الشرك وملاحظة الأغيار . وثالثها : استقم على الإسلام واثبت على التوحيد كقوله تعالى : ﴿ فاعلم أَنَّهُ لاَ إله إِلا الله ﴾ [محمد : 19] . ورابعها : أن الإيمان صفة القلب والإسلام صفة الجوارح ، وأن إبراهيم ـ عليه السلام ـ كان عارفاً بالله تعالى بقلبه وكلفه الله تعالى بعد ذلك بعمل الجوارح والأعضاء بقوله : (أسلم) . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ1 صـ65 ﴾

وقال الآلوسى :

ولا يمكن الحمل على الحقيقة أعني إحداث الإسلام والإيمان لأن الأنبياء معصومون عن الكفر قبل النبوة وبعدها ولأنه لا يتصور الوحي والاستنباء قبل الإسلام نعم إذا حمل الإسلام على العمل بالجوارح لا على معنى الإيمان أمكن الحمل على الحقيقة كما قيل به وفي الالتفات مع التعرض لعنوان الربوبية والإضافة إليه ـ عليه السلام ـ إظهار لمزيد اللطف به والاعتناء بتربيته ، وإضافة الرب في الجواب إلى ﴿ العالمين ﴾ للإيذان بكمال قوة إسلامه حيث أتقن حين النظر شمول ربوبيته تعالى للعالمين قاطبة لا لنفسه فقط كما هو المأمور به ظاهراً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ1 صـ 388 ﴾

قوله تعالى ﴿ قال أسلمت ﴾

وقوله : ﴿ قال أسلمت ﴾ مشعر بأنه بادر بالفور دون تريث كما اقتضاه وقوعه جواباً ، قال ابن عرفة : إنما قال لرب العالمين دون أن يقول أسلمت لك ليكون قد أتى بالإسلام وبدليله اه . يعني أن إبراهيم كان قد علم أن لهذا العالم خالقاً عالماً حصل له بإلهام من الله فلما أوحى الله إليه بالإيمان صادف ذلك عقلاً رشداً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير

والتنوير حـ 1 صـ 417 ﴾

وقال فى روح البيان :

﴿ ولقد اصطفيناه فى الدنيا ﴾ أى وبالله لقد اخترنا ابراهيم فى الدنيا من بين سائر الخلق بالنبوة والحكمة ﴿ وانه فى الآخرة ﴾ متعلق بقوله ﴿ لمن الصالحين ﴾ أى من المشهود لهم بالثبات على الاستقامة والخير والصلاح فمن كان صفوة العباد فى الدنيا مشهودا له فى الآخرة بالصلاح كان حقيقا بالاتباع لا يرغب عن ملته إلا سفيه أى فى أصل خلقته أو متسفه يتكلف السفاهة بمباشرة افعال السفهاء باختيار فيذل نفسه بالجهل والإعراض عن النظر والتأمل فقوله ﴿ وانه فى الآخرة لمن الصالحين ﴾ بشارة له فى الدنيا بصلاح الخاتمة ووعد له بذلك وكم من صالح فى أول حاله ذهب صلاحه فى مآله وكان فى الآخرة لعذابه ونكاله كبلعم وبرصيصا وقارون وثعلبة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح البيان حـ 1 صـ 296 ﴾

(175/66)

وقال البقاعى :

﴿ ولقد اصطفيناه ﴾ ذكره بمظهر العظمة تعظيماً له ، فإن العبد يشرف بشرف سيده ،

وتشريفاً لاصطفائه فإن الصنعة تجل بجلالة مبدعها . . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 245 ﴾

تنبيه : قال الحسين بن الفضل : في الآية تقديم وتأخير تقديره ولقد اصطفيناه في الدنيا والآخرة وإنه لمن الصالحين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ السراج المنير حـ 1 صـ 150 ﴾

(بصيرة فى الإسلام)

وقد ورد فى القرآن على ثلاثة أَوجه :

الأَوّل : بمعنى الإِخلاص : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ ﴾ أَى أَخْلِص .

الثانى : بمعنى الإِقرار : ﴿ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ ﴾ أَى أَقرّ له بالعبودّية .

الثالث : بمعنى الدّين ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ ﴾ ﴿ وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً ﴾ .

قال أَبو القاسم الأَصفهانى : الإِسلام فى الشَّرع على ضربين :

أَحدهما دون الإِيمان . وهو الاعتراف باللّسان ، وبه يُحقَن الدّم ، حصل معه الاعتقاد ، أَولم يحصل . وإِيّاه قَصَد بقوله : ﴿ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَاكِن قُولُواْ أَسْلَمْنَا ﴾ .

والثانى فوق الإِيمان . وهو أَن يكون مع الاعتراف اعتقاد بالقلب ، ووفاءٌ بالفعل . وقوله : ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِماً ﴾ أَى اجعلنى ممّن استسلم لرضاك . ويجوز أَنْ يكون معناه : اجعلنى سالماً عن كيد الشيطان حيث قَال : ﴿ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ .

وقوله : ﴿ إِن تُسْمِعُ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾ أَى منقادون للحقّ ، مذعنون له .

وقوله ﴿ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُواْ ﴾ أى الذين انقادوا من الأَنبياء الَّذين لسيوا من أُولى العزم ، الذين يهتدون بأَمر الله ، ويأْتون بالشَّرائع .

والإِسلام أَيضاً : الدّخول فى السّلم . وهو أَن يَسْلم كلُّ واحد منهما أَن يناله أَلَمٌ من صاحبه ، ومصدر أَسمت الشىءَ إِلى فلان إِذا أَخرجته إِليه . ومنه السَّلَم فى البيع .

أهـ ﴿ بصائر ذوى التمييز ـ للفيروزابادى ـ حـ2 صـ 183 ـ 184 ﴾

(176/66)

تعليق

خلاصة القول فى هذه الآية وأمثالها أن الصلاح والإسلام والإيمان والفلاح والعلم والقرب والحب والإكرام والتقوى والنعيم وما قاربها من معان درجات ومنازل

فمن المعلوم أننى مسلم وأبو بكر ـ رضى الله عنه ـ مسلم ، ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مسلم ، بل أول المسلمين

فهل درجات الإسلام بهذا الاعتبار متساوية ؟ ؟ ؟ ! ! !

كلا وألف كلا

ونحن فى دنيا الناس نرى أن لفظ النجاح كما يطلق على من حصل على أعلى الدرجات

فى امتحانه فإنه كذلك يطلق على من حصل على نصف الدرجات ، وكلاهما يستحق لقب النجاح لكنهما لا يستويان فى المرتبة ، فهذه المكارم والفضائل منازل ودرجات أصاب بعض الناس أعلاها وأصاب آخرون أدناها

والأنبياء والمرسلون فى أسمى مراتبها وأرقى منازلها

﴿ ولكل درجات مما عملوا ﴾ والله أعلم .

(177/66)

ومن فوائد القاسمى فى الآيتين

قال رحمه الله :

﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ ﴾

هذا إنكار واستبعاد لأن يكون في العقلاء من يرغب عن الحق الواضح الذي هو ملة إبراهيم ، وهو ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، وفي ذلك تعريض بمعاندي أهل الكتاب والمشركين ، أي : لا يرغب عن ملته الواضحة الغراء إلا من سفه نفسه ، أي : حملها على السفه وهو الجهل .

قال الراغب : وسفه نفسه أبلغ من جهلها ، وذاك أن الجهل ضربان : جهل بسيط ، وهو أن

لا يكون للإنسان اعتقاد في الشيء . وجهل مركب وهو أن يعتقد في الحق أنه الباطل ، وفي الباطل أنه حق . والسفه : أن يعتقد ذلك ويتحرى بالفعل مقتضى ما اعتقده . فبيّن تعالى أن من رغب عن ملة إبراهيم ، فإن ذلك لسَفَه نفسه ، وذلك أعظم مذمة ، فهو مبدأ كل نقيضة ، وذاك أن من جهل نفسه ، جهل أنه مصنوع ، وإذا جهل كونه مصنوعاً جهل صانعه ، وإذا لم يعلم أن له صانعاً ، فكيف يعرف أمره ونهيه ، وما حسّنه وقبّحه ؟ ولكون معرفتها ذريعة إلى معرفة الخالق جل ثناؤه ، قال : ﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات : 21] ، وقال : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ [الحشر : 19] .

(178/66)

وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا ﴾ أي : اخترناه من بين سائر الخلق بالرسالة والنبوة والإمامة ، وتكثير الأنبياء من نسله ، وإعطاء الخلة ، وإظهار المناسك عليه ، وجعل بيته آمناً ، ذا آيات بينات إلى يوم القيامة ﴿ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ الذين لهم الدرجات العلى ، وفي هذا أكبر تفخيم لرتبة الصلاح ، حيث جعله من المتصفين بها ، فهو حقيق بالإمامة ، لعلو رتبته عند الله تعالى في الدارين ، ففي ذلك أعظم ترغيب في

اتباع دينه ، والاهتداء بهديه . وأشدّ ذم لمن خالفه .

قال الراغب : إن قيل كيف وصفه بالاصطفاء في الدنيا ، وبالصلاح في الآخرة ، والنظر يقتضي عكس ذلك ؛ فإن الصلاح وصف يرجع إلى الفعل ، وذلك يكون في الدنيا ، والاصطفاء حال يستحقه العبد بكونه صالحاً ، فحقه أن يكون في الآخرة ؟

(179/66)

قيل : الاصطفاء ضربان ، أحدهما كما قلت ، والآخر في الدنيا ، وهو اختصاص الله بعض العبيد بولايته ونبوته بخصوصية فيه ، وهو المعنيّ بقوله : ﴿ شَاكِراً لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ ﴾ [النحل : 121] ، والصلاح وإن اعتبر بأحوال الدنيا ، فمجازى به في الآخرة ، فبيّن تعالى أنه مجتبى في الدنيا لما علم الله من حكمته فيه ، ومحكوم له في الآخرة ، بصلاحه في الدنيا ، تنبيهاً أن الثواب في الآخرة لم يستحقه باصطفائه في الدنيا ، وإنما استحقه بصلاحه فيها ، ويجوز أن يكون قوله : ﴿ فِي الآخِرَةِ ﴾ أي : في أفعال الآخرة حال وفاته ، ويكون الإشارة بصلاحه إلى الثناء الحسن عليه ، الذي رغب إلى الله تعالى فيه بقوله : ﴿ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴾ [الشعراء : 84] ويجوز أنه لما كان الناس ثلاثة أضرب : ظالم ، ومقتصد ، وسابق ، عبر عن السابق بالصالح ، فكل سابق إلى طاعة الله ورحمته

صالح . انتهى . وكل ذلك تذكير لأهل الكتاب بما عندهم من العلم بأمر هذا النبي الكريم ، وإقامة الحجة عليهم ، لأن أكثر ذلك معطوف على : ﴿ اذْكُرُواْ ﴾ في قوله : ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ ﴾ [البقرة : 40] ولما ذكر إمامته عليه السلام ، ذكر ما يؤتم به فيه ، وهو سبب اصطفائه ، وصلاحه ، وذلك دينه ، وما أوصى به بنيه ، وما أوصى به بنوه بنيهم سلفاً عن خلف ، ولاسيما يعقوب عليه السلام المنوه بنسبه أهل الكتاب إليه فقال :

(180/66)

﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [131]

﴿ إِذْ ﴾ أي : أصطفيناه لأنه : ﴿ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ ﴾ أي : لربك ، أي : انقد له ، وأخلص نفسك له ، أو استقم على الإسلام ، واثبت على التوحيد : ﴿ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ وظاهر النظم الكريم أن القول حقيقي ، وليس في ذلك مانع ، ولا ما جاء ما يوجب تأويله . وقول بعضهم : هو تمثيل ، والمعنى : أخطر بباله دلائل التوحيد المؤدية إلى المعرفة الداعية إلى الإسلام ليس بشيء . ولا معنى لحمل شيء من الكلام على المجاز ، إذا أمكنت فيه الحقيقة بوجه ما . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 2 صـ 444 .

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآيتين

قال رحمه الله :

﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (130) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (131) ﴾

سورة البقرة

ما ملة إبراهيم ؟ إنها عبادة الله وحده لا شريك له وعشق التكاليف ؛ فإبراهيم وفي كل ما كلفه به الله وزاد عليه . . وقابل الابتلاء بالطاعة الصبر . . فعندما ابتلاه الله بذبح ابنه الوحيد لم يتردد وكان يؤدي التكاليف بعشق ويحاول أن يستبقي المنهج السليم في ذريته .

قوله تعالى : " ومن يرغب" يعني يعرض ويرفض . ويقال رغب في كذا أي أحبه وأراده . ورغب عن كذا أي صد عنه وأعرض . . والذين يصدون عن ملة إبراهيم ويرفضونها هؤلاء هم السفهاء والجهلة ، لذلك قال عنهم الله سبحانه وتعالى : " إلا من سفه نفسه" . . دليل على ضعف الرأي وعدم التفرقة بين النافع والضار . . فعندما يكون هناك من ورثوا مالاً وعم غير ناضجي العقل لا يتفق عقلهم مع سنهم نسميهم السفهاء . . والسفيه هو من

لم ينضج رأيه ولذلك تنقل قوامته على ماله إلي ولي أو وصي ؛ لأنه بسفهه غير قادر على أن ينفق المال فيما ينفع . والقرآن الكريم يعالج هذه المسألة علاجا دقيقا فيقول :

﴿ ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياماً وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولاً معروفاً " 5" ﴾

(سورة النساء)

(182/66)

نلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى سمى أموال السفهاء بأموالي الولي ولم يعتبرها مال السفيه لأنه ليس أهلا للقيام عليها . . وجعل هذه الأموال تحت إشراف شخص آخر أكثر نضجا وحكمة . وقوله تعالى : " أموالكم" ليكون الولي أو الوصي حريصا عليها كماله أو أكثر ولكن هو قيم فقط . . فإذا بلغ الإنسان سن الرشد أو شفى السفيه من سفاهته يرد إليه ماله ليتصرف فيه . ونحن نرى عددا من الأبناء يرفعون قضايا على آبائهم وأمهاتهم يتهمونهم فيها بالسفه لأنهم لا يحسنون التصرف في أموالهم . . ثم يأخذون هذه الأموال ويبعثرونها هم . . والذي يجب أن يعلمه كل من يقوم بهذه العملية أنه لا حق له في إنفاق المال وتبذيره لحسابه الخاص ، ولكن هناك حكمين : إما أن يكون الشخص فقيرا فله أن يأكل بالمعروف

. . وإما أن يكون غنيا فيجعل عمله في الولاية لله لا يتقاضى عنه شيئا . . أما أن يأخذ المال ويبعثره على نفسه وشهواته وعلى زوجته وأولاده فهذا مرفوض ويحاسب عليه . .

والله سبحانه وتعالى يقول :

وَمَن كَانَ غَنِيّاً فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ

(من الآية 6 سورة النساء)

إذن الذي يعرض عن ملة إبراهيم هو سفيه لا يملك عقلا يميز بين الضار والنافع . ويقول الله سبحانه وتعالى : " ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين" . . اصطفاه في الدنيا بالمنهج وبأن جعله إماما وبالابتلاء . . وكثير من الناس يظن أن ارتفاع مقامات بعضهم في أمور الدنيا هو اصطفاء من الله لهم بأن أعطاهم زخرف الحياة الدنيا ويكون هذا مبررا لأن يعتقدوا أن لهم منزلة عالية في الآخرة . . نقول لا ، فمنازل الدنيا لا علاقة لها بالآخرة . ولذلك قال الله تبارك وتعالى : " ولقد اصطفيناه في الدنيا " . . وأضاف : " وإنه في الآخرة لمن الصالحين" . . لنعلم أن إبراهيم عليه السلام له منزلة عالية في الدنيا ونعيم في الآخرة أي الاثنين معا .

﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (131) ﴾

والله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلي أنه قال لإبراهيم أسلم فقال أسلمت . . إذن فمطلوب الحق سبحانه وتعالى من عبده أن يسلم إليه . . ولم يقل الحق أسلم إلي لأنها مفهومة . . ولم يقل أسلم لربك لأن الإسلام لا يكون إلا لله لأنه هو سبحانه المأمون علينا . . على أن إبراهيم عليه السلام قال في رده : " أسلمت لرب العالمين " . ومعنى ذلك أنه لن يكون وحده في الكون لأنه إذا أسلم لله الذي سخر له ما في السماوات والأرض . . يكون قد انسجم مع الكون المخلوق من الله للإنسان . . ومن أكثر نضجاً في العقل ممن يسلم وجهه لله سبحانه . . لأنه يكون بذلك قد أسلمه إلي عزيز حكيم قوي لا يقهر ، قادر لا تنتهي قدرته . . غالب لا يغلب ، رزاق لا يأتي الرزق إلا منه . فكأنه أسلم وجهه للخير كله . والدين عند الله سبحانه وتعالى منذ عهد آدم إلي يوم القيامة هو إسلام الوجه لله ، ولماذا الوجه ؟ لأن الوجه أشرف شيء في الإنسان يعتز به ويعتبره سمة من سمات كرامته وعزته . . ولذلك فنحن حين نريد منتهى الخضوع لله في الصلاة نضع جباهنا ووجوهنا على الأرض . . وهذا منتهى الخضوع أن تضع أشرف ما فيك وهو وجهك على الأرض إعلانا لخضوعك لله سبحانه وتعالى . والله جل جلاله يريد من الإنسان أن يسلم قيادته لله . . بأن يجعل اختياراته في الدنيا لما يريده الله تبارك وتعالى . . فإذا تحدث لا يكذب ، لأن الله يحب الصدق ، وإذا كلف بشيء يفعله لأن التكليف في صالحنا ولا يستفيد الله منه شيئا

. . وإذا قال الله تعالى تصدق بمالك أسرع يتصدق بماله ليرد له أضعافا مضاعفة في الآخرة وبقدرة الله .

(184/66)

وهكذا نرى أن الخير كله للإنسان هو أن يجعل مراداته في الحياة الدنيا طبقا لما أراده الله . . وفي هذه الحالة يكون قد انسجم مع الكون كله وتجد أن الكون يخدمه ويعطيه وهو سعيد . أما من يسلم وجهه لغير الله فقد اعتمد على قوي يمكن أن يضعف ، وعلى غني يمكن أن يفتقر . . وعلى موجود يمكن أن يموت ويصبح لا وجود له . ولذلك فهو في هذه الحالة يتصف بالسفاهة لأنه اعتمد على الضار وترك النافع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 591.594 ﴾

(185/66)

فروق لغوية دقيقة

الفرق بين الإسلام والإيمان والصلاح

أن الصلاح استقامة الحال وهو مما يفعله العبد لنفسه ويكون بفعل الله له لطفا وتوفيقا ، والإيمان الطاعة التي يؤمن بها العقاب على ضدها وسميت النافلة إيمانا على سبيل التبع لهذه الطاعة والإسلام طاعة الله التي يسلم بها من عقاب الله وصار كالعلم على شريعة محمد ولذلك ينتفي منه اليهود وغيرهم ولا ينتفون من الإيمان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الفروق فى اللغة صـ 194 ﴾

(186/66)

" فصل "

قال السيوطى :

وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (130) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (131)

أخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية في قوله ﴿ ومن يرغب عن ملة إبراهيم ﴾ قال : رغبت اليهود والنصارى عن ملته ، واتخذوا اليهودية والنصرانية بدعة ليست من الله ، وتركوا ملة إبراهيم الإِسلام ، وبذلك بعث الله نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم بملة إبراهيم .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة مثله .

وأخرج ابن جرير عن ابن زيد في قوله ﴿ إلا من سفه نفسه ﴾ قال : إلا من أخطأ حظه .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي مالك في قوله ﴿ ولقد اصطفيناه ﴾ قال : اخترناه . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 1 صـ 335 ﴾

(187/66)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

في " إذ " خمسة أوجه :

أصحها : أنه منصوب بـ " قال أسلمت " ، أي : قال أسلمت وقت قول الله لم أسلم .

الثاني : أنه بدل من قوله : " في الدنيا " .

الثالث : أنه منصوب بـ " اصطفيناه " .

الرابع : أنه منصوب بـ " اذكر " مقدراً ، ذكر أبو البقاء ، والزمخشري ، وعلى تقدير كونه معمولاً لـ " اصطفيناه " أو لـ " اذكر " مقدراً يبقى قوله : " قَالَ : أَسْلَمْتُ " غير منتظم مع ما قبله ، إلاّ أن يقدر حذف حرف عطف أي : فقال ، أو يجعل جواباً بسؤالٍ مقدر ، أي ما كان جوابه ؟

فقيل : قال أسلمت .

الخامس : أبعد بعضهم ، فجعله مع ما بعده في محلّ نصب على الحال ، والعامل في " اصْطَفَيْنَاه : .

وفي قوله : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ ﴾ التفات ، إذ لو جاء على نسقه لقيل : إذ قلنا ؛ لأنه بعد " ولقد اصطفيناه " ، وعكسه في الخروج من الغيبة إلى الخطاب قوله : [البسيط]

795 بَاتَتْ تَشَكَّى إِلَيَّ النَّفْسُ مُجْهِشَةً . . . وَقَدْ حَمَلْتُكِ سَبْعاً بَعْدَ سَبْعِينا

وقوله : " لِرَبِّ الْعَالَمِينَ " فيه من الفخامة ما ليس في قوله " لك " أو " لربي " ، لأنه إذا اعترف بأنه ربّ جميعا العالمين اعترف بأنه بربه وزيادة ، بخلاف الأول ، فذلك عدل عن العبارتين .

وفي قوله : " أسلم " حَذْفُ مفعول تقديره : أسلم لربك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 2 صـ 499. 500 ﴾ .

(188/66)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العَاجِزُ الْفَقِيرُ

عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مُحَمَّدٍ الْقَمَّاش

إِمَامُ وَخَطِيبُ مَسْجِدِ بُورُسْلِى - رَأْسُ الْخَيمَةِ

دَوْلَةُ الإِمَارَاتِ الْعَرَبِيَّةِ الْمُتَّحِدَةِ

(عَفَا اللهُ عَنْهُ وَغَفَرَ لَهُ)

الجزء السابع والستون

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء السابع والستون

من الآية ﴿ 132 ﴾ من سورة البقرة

وحتى الآية ﴿ 137 ﴾ من نفس السورة

قوله تعالى ﴿ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (132) ﴾

فصل

قال البقاعي :

﴿ ووصى بها ﴾ أي بهذه المقالة أو الوصية أو الخصلة التي اصطفاه الله بها ، ولعله لم يذكر الضمير لئلا يوهم الرجوع إلى ربه ؛ وقرئ " وأوصى " فهو من إيصاء والوصية وهي التقدم في الشيء النافع المحمود عاقبته ، وقراءة التشديد أبلغ لدلالتها على التكرر والتكثر ﴿ إبراهيم بنيه ويعقوب ﴾ وصّى بها أيضاً بنيه فقال كل منهم : ﴿ يا بنيّ إن الله ﴾ بعظمته وكماله ﴿ اصطفى لكم الدين ﴾ وهو الإسلام ، فأغناكم عن تطلبه وإجالة الفكر فيه رحمة منه لكم ﴿ فلا ﴾ أي فتسببت عن ذلك أني أقول لكم : لا ﴿ تموتن ﴾ على حالة من الحالات ﴿ إلا وأنتم ﴾ أي والحال أنكم ﴿ مسلمون ﴾ أي ملقون بأيديكم وجميع ما ينسب إليكم لله لا حظ لكم في شيء أصلاً ولا التفات إلى غير مولاكم ، فإن من كمل افتقاره إلى الغني الحكيم أغناه بحسب ذلك .

وقرر سبحانه بالآيات الآتية بطلان ما عليه المتعنتون من اليهودية والنصرانية ، وبرّأ خليله

والأنبياء من ذلك على وجه أوجب القطع بأنهم عالمون ببطلانه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 245 ﴾

فصل

قال الفخر :

قرأ نافع وابن عامر (وأوصى) بالألف وكذلك هو في مصاحف المدينة والشام والباقون بغير ألف بالتشديد وكذلك هو في مصاحفهم والمعنى واحد إلا أن في (وصى) دليل مبالغة وتكثير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 2 صـ 66 ﴾

وقال الماوردى :

ووصّى أبلغ من أوصى ، لأن أوصى يجوز أن يكون قاله مرة واحدة ، ووَصَّى لا يكون إلا مراراً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 1 صـ 193 ﴾

سؤال : الضمير في (بها) إلى أي شيء يعود ؟

الجواب : قال أبو عبيدة : إن شئت رددت الكناية إلى الملة لأنه ذكر ملة إبراهيم ، وإن شئت رددتها إلى الوصية : أي وصى إبراهيم بنيه الثمانية إسماعيل وأمه هاجر القبطية ،

وإسحاق وأمه سارة ، وستة أمهم قنطورة بنت يقطن الكنعانية تزوجها إبراهيم بعد وفاة سارة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البغوى حـ 1 صـ 153 ﴾

وقال ابن عادل :

وبنو إبراهيم ثمانية : إسماعيل وهو أكبر بنيه وأمه هاجر ، وإسحاق وأمه سارة وهو ثاني بنيه ، ومديان ، ومدان ، وزمران ، ويقشان ، وبشباق ، وشوح ، وهؤلاء أمهم قطورة التي تزوجها إبراهيم بعد موت سارة ، وليس لغير إسماعيل وإسحاق خبر مفصل في التوراة سوى أن ظاهر التوراة أن مديان هو جد أمة مدين أصحاب الأيكة وأن موسى ـ عليه السلام ـ لما خرج خائفاً من مصر نزل أرض مديان وأن يثرون أو رعوئيل (هو شعيب) كان كاهن أهل مدين . وأما يعقوب فهو ابن إسحاق من زوجه رفقة الأرامية تزوجها سنة ست وثلاثين وثمانمائة وألف قبل المسيح في حياة جده إبراهيم فكان في زمن إبراهيم رجلاً ولقب بإسرائيل وهو جد جميع بني إسرائيل ومات يعقوب بأرض مصر سنة تسع وثمانين وتسعمائة وألف قبل المسيح ودفن بمغارة المكفلية بأرض كنعان (بلد الخليل) حيث دفن جده وأبوه عليهم السلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 2 صـ 502 ﴾

تعليق

الجزم بأن عدد أولاد إبراهيم ـ عليه السلام ـ ثمانية وذكر أسمائهم كما فعل ابن عادل وغيره أمر فيه نظر فإن القرآن الكريم لم يذكر لنا من أولاد الخليل ـ عليه السلام ـ إلا إسماعيل وإسحاق ، ويرجح هذا حكاية القرآن قول أولاد يعقوب ـ عليه السلام ـ جوابا لأبيهم عند سؤاله لهم ﴿ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ حيث أطلقوا الأب على العم فإسماعيل ـ عليه السلام ـ عم ليعقوب ، والعرب تطلق الأب وتريد العم ، كما فى الآية الكريمة ، كما تسمي الخالة أما قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " عم الرجل صنو أبيه" وقال في عمه العباس : " ردوا علي أبي فإني أخشى أن تفعل به قريش ما فعلت ثقيف بعروة بن مسعود " . وذلك أنهم قتلوه .

فلو كان لإبراهيم ـ عليه السلام ـ أولاد غير إسماعيل وإسحاق لذكرهم أولاد يعقوب ـ عليه السلام ـ فى الجواب ، كما ذكروا إسماعيل ـ عليه السلام ـ .

لذا يجب التوقف عند ما أخبر به القرآن وعدم الجزم بما سواه إلا إذا دلت عليه السنة الصحيحة . والله أعلم بالصواب .

فصل فى ذكر قصة إبراهيم عليه السلام من التوراة

قال البقاعى :

ذكر قصة إبراهيم عليه السلام من التوراة : ذكر في السفر الأول منها أنه إبراهيم بن تارح بن ناحور بن شارغ بن آرغو بن فالغ بن عابر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح ؛ لأنه قال في التوراة : لما أتت على سام مائة سنة ولد له أرفخشد فأتت عليه خمس وثلاثون سنة فولد له شالاح وسماه في موضع آخر شالح ، فأتت عليه ثلاثون سنة فولد له عابر فأتت عليه أربع وثلاثون سنة فولد له فالغ ، فأتت عليه ثلاثون سنة فولد له آرغُو ، فأتت عليه اثنتان وثلاثون سنة فولد له شارغ فأتت عليه ثلاثون سنة فولد له ناحور ، فأتت عليه تسع وعشرون سنة فولد له تارَح فأتت عليه خمس وسبعون سنة فولد له إبرم وناحور وهاران .

وخالفه في الإنجيل بعض المخالفة فقال في إنجيل لوقا : ناحور بن شارغ بن أرغو بن فالغ بن عابر بن صالا بن قينان بن أرفخشد بن سام بن نوح ؛ ونوح على ما قال في التوراة ابن لمك بن متوشلح بن خَنُوخ بن يارذ بن هليل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم عليه السلام .

وهكذا قال في أثناء إنجيل لوقا إلا أنه قال في لمك : لامك ، وفي يارذ : يرذ بن مهلالايل .

ثم قال في التوراة : وولد هاران لوطاً ، ومات هاران في حياة أبيه تارح في الأرض التي ولد فيها وهي أور الكلدانيين – وفي نسخة : الكزدانيين – " فتزوج إبرم سُرّى وكانت عاقراً فلم يولد لها ولد ، فانطلق تارح بابنه إبرم وبلوط ابن ابنه هاران وبكَنّته سرى من أور الكلدانيين متيمماً أرض كنعان ، فانتهوا إلى حرّان فسكنوها ، فتوفي تارح بحرّان عن مائتي سنة وخمس سنين ؛ وقال الرب لإبرم : اخرج من أرضك من حيث ولدت ومن آل أبيك إلى الأرض التي أريك فأجعلك لشعب عظيم وأباركك وأعظم اسمك وكن مباركاً وأبارك بنيك وألعن لاعنيك ويتبارك بك جميع قبائل الأرض وبزرعك ، فصنع إبرم كما أمره الرب وانطلق معه لوط ابن أخيه وسرى زوجته وكان إذ ذاك ابن خمس وسبعين سنة ومعهم جميع مواشيهم وما اتخذوا بحرّان من ولدان وخدم ، فخرجوا يريدون أرض كنعان فأتوها ، فجاء إبرم حتى أتى بلاد سُحام وإلى بَلُّوط مُمرى وكان الكنعانيون بعد سكاناً في الأرض فاعتلن الرب لإبرم وقال له : إني معطٍ ذريتك هذه الأرض ، وبنى إبرم هنالك مذبحاً للرب إذ ظهر له وانتقل من هنالك إلى الجبل من المشرق إلى بيت إيل ، فنصب خيمته في بيت إيل من غربها قبالة الحرب وعاي من شرقها ، وبنى ثم لرب مذبحاً ودعا باسم الرب ، ثم ظعن منطلقاً وكان مظعنه إلى مهب الجنوب وكان جوع في الأرض ، فهبط إبرم إلى مصر ليسكنها لأن الجوع اشتد في الأرض ، فلما دنا من مصر قال لسرى امرأته : إني عالم أنك امرأة حسناء

، فإن رآك المصريون يقولون : امرأته ، فيقتلونني ؛ قولي : إني أخته – فذكر قصة أخذ فرعون مصر لها والقوارع التي أصابته فحالت بينه وبينها فخلى سبيلها وأحسن إليها وإلى إبراهيم – إلى أن قال : فخرج إبرم من مصر هو وامرأته ولوط معه إلى أرض التيمن – وفي نسخة : إلى القبلة – وهي جهة الجنوب فاستغنى إبرم جداً ، فظعن لمظعنه من الجنوب حتى أتى بيت إيل إلى الموضع الذي كان نصب فيه خيمته من قبل ولوط معه كان له

غنم وبقر وخير كثير جداً وأخبية ، ولم تكن تلك الأرض تسعهما كليهما لأن مواشيهما كثرت جداً ؛ فذكر أن لوطاً رفع بصره فنظر إلى أرض الأردن فإذا هي كلها أرض سقي وشرب مثل فردوس الله ومثل أرض مصر التي في مدخل صاغار – وفي نسخة : زغر فاختار لوط أرض الأردن ؛ فسكن إبرم أرض كنعان ، وسكن لوط قرى عاجار وورث – وفي نسخة : قرى المرج – وخيّم إلى سدوم وكان أهل سدوم أشراراً خطأة جداً ، فقال الرب لإبرم بعد ما اعتزله لوط : مد بصرك فانظر من المكان الذي أنت فيه إلى الجرنيا والتيمن – وفي نسخة : إلى الشمال والجنوب والمشرق والمغرب – لأن جميع الأرض التي ترى إياك أعطيها وذريتك من بعدك إلى الأبد ، واجعل ذريتك مثل ثرى الأرض ، فإن قدرت أن

تحصي تراب الأرض فإن زرعك يحصى ، فأتى إبرم فسكن بين بلوط – وفي نسخة : في مرج ممرى الأموراني التي بحبرون – وبنى هنالك مذبحاً للرب ، وكان على عهد أمرقال ملك شنعار – وفي نسخة : شنوار – وأرنوخ ملك ذي اللاشار – وفي نسخة : الخزر – وكدر لعمر ، ملك عيلم – وفي نسخة : خوزستان وترغيل ملك جيلان – وفي نسخة : الأمم – اجتمع هؤلاء في قاع السدوميين وهو البحر المالح فقتلوا الجبابرة الذين في العشرة القرى والأبطال الذين بها والحورانيين الذين في جبال ساعير – وفي نسخة : شراة – إلى بطمة فاران التي في البرية ، ورجعوا وأتوا عين الدنيا – وفي نسخة : الحكم – وهي رقيم وقتلوا كل رؤساء العمالقة والأموراتيين سكان عين جاد ، وخرج بارع ملك سدوم وبَرْشع ملك عامرا وشنآب ملك أدوما وشاليم ملك صَبويم وملك بالاع التي هي صاغر – وفي نسخة : زغر – خمسة ملوك ، قاتلوا الأربعة بقاع السدوميين ، فهرب ملك سدوم وملك عامرا فوقعوا هناك ، وهرب البقية إلى الجبل فاستباحوا جميع مواشي سدوم وعامُرا وجميع طعامهم واستاقوا لوطاً ابن أخي إبرم وماشيته وانطلقوا ، فأتى من نجا منهم وأخبر إبرم العبراني ، فعبى فتيانه ومولّديه ثلاثمائة وثمانية

عشر رجلاً وسار في طلبهم إلى داريا – وفي نسخة : بانياس – فأحاط بهم ليلاً ، فقاتلهم وهزمهم إلى الجوف – وفي نسخة : المزة – التي عن شمال دمشق وهي قرية يقال لها حلبون ورد لوطاً ابن أخيه وماشيته وجميع المواشي والنساء والشعب ، فخرج ملك سدوم فتلقاه فرد إليه جميع ما سلب منه ؛ ومن بعد هذا حلّ وحي الله على إبرم في الرؤيا وقال له : يا إبرم ! أنا أكافئك وأساعدك ، لأن ثوابك قد جزل جداً ، فقال إبرم : اللهم ! رب ما الذي تنحلني وأنا خارج من الدنيا بلا نسب ويرثني اليعازر غلامي الدمشقي ؟ فقال له الرب : لا يرثك هذا بل ابنك الذي يخرج من صلبك فهو يرثك ، وقال له : انظر إلى السماء واحص النجوم إن كنت تقدر أن تحصيها ، ثم قال له : كذلك تكون ذريتك ، فآمن إبرم بالله ، وقال له الرب : أنا الرب إلهك الذي أخرجك من أور الكلدانيين – وفي نسخة : أتون الكزدانيين – لأعطينك هذه الأرض لترثها ، فلما كان غروب الشمس وقع الصمت على إبرم وغشيه خوف وظلمة عظيمة فقال الرب لإبرم : اعلم علماً يقيناً أن نسلك سيسكنون في أرض ليست لهم ، فيتعبدونهم ويكدونهم أربعمائة سنة ، والشعب الذين يتعبدونهم فإني أدينهم ويخرجون من هناك بعد ذلك بمال عظيم ، وأنت تنتقل إلى آبائك بسلام وتدفن بشيخوخة خير وصلاح ، والحقب الرابع يرجعون إلى ههنا ، لأن إثم الأموراتيين لم يكمل بعد ، فلما غربت الشمس صار دجى حندسة وإذا بتنور يدخن ومصباح نار يلتهب ويتردد بين تلك الأنصبة ، وفي ذلك اليوم عاهد الرب إبرم عهداً وقال : إني معط ذريتك هذه الأرض من نهر

مصر وإلى الفرات النهر الأعظم ، وإن سُرّى امرأة إبرم لم تكن تلد وكانت لها أمة مصرية اسمها هاجر فقالت سُرّى لإبرم وهما بأرض كنعان : إن الرب قد حرمني الولد فإدخل على أمتي وابن بها لعلي أتعزى بولد منها ، تسمّع إبرم قول سرى وأطاعها ، وذلك بعد ما سكن أرض كنعان عشر سنين ، فحبلت فقالت سرى لإبرم : أنت صاحب ظلامتي ، أنا وضعت أمتي في

حضنك ، فلما حبلت هنت عليها بحكم الرب بيني وبينك ، فقال : هذه أمتك مسلمة إليك .

(11/67)

اصنعي بها ما أحببت ، فأهانتها سرى سيدتها فهربت منها ، فلقيها ملاك الرب على عين ماء في البرية في طريق سور – وفي رواية : في طريق حذر ، وفي نسخة : على العين التي بطريق الجفار – فقال لها : يا هاجر أمة سرى ! ارجعي إلى سيدتك واستكدّي تحت يدها ، ثم قال لها ملاك الله : لأكثرن نسلك حتى لا يحصى ، ثم قال لها : ها أنت حامل – وفي نسخة : إنك حبلى – وستلدين ابناً وتدعين اسمه إسماعيل ، لأن الرب قد عرف لك خضوعك ، ويكون ابنك هذا رجلاً يأوي البرية ويده في جميع الناس – وفي نسخة :

وحشى الناس – يده على كل ويد كل به ، وسيحل على جميع حدود إخوته ، فدعت اسم الرب الذي كلمها فقالت : أنت الله ذو الوحي والرؤيا ، وذلك لأنها قالت : إني رأيت رؤيا ، ولذلك دعت تلك الطوى بئر الحي وهي بئر رقيم وحذر – وفي نسخة : فيما بين قادس وبارد – ثم ولدت هاجر لإبرم ابناً فدعا إبرم اسمه إسماعيل ، وكان إبرم ابن ست وثمانين سنة إذ ولدت هاجر له إسماعيل ، فلما أتى على إبرم تسع وتسعون سنة اعتلن له الرب وقال له : أنا الله إله المواعيد ، أرضني تكن غير ذي عيب وأثبت عهدي بيني وبينك – وفي رواية : فأحسن أمامي ولا تكن ملوماً فإني جاعل بيني وبينك ميثاقاً ، وأكثرك جداً جداً ، فخر إبراهيم على وجهه فكلمه الله وقال له : أنا أثبت لك عهدي – وفي نسخة : فأوحى الله إليه قائلاً له : إني قد جعلت ميثاقي معك – وتكون أباً لشعوب كثيرة ، ولا يدعى اسمك فيما بعد إبرم بل يكون اسمك إبراهيم ، لأني جعلتك أباً لشعوب كثيرة ، وأنميك وأثريك جداً جداً ، وأجعلك للشعوب رئيساً ، والملوك من صلبك يخرجون ، وأثبت العهد – وفي نسخة : وأني بميثاقي – بيني وبينك وبين نسلك من بعدك عهداً دائماً ، وأكون لك إلهاً ولزرعك من بعدك ، وأعطيك وذيتك من بعدك أرض سكناك وجميع أرض كنعان ميراثاً إلى الأبد وأكون لهم إلهاً ، وقال الله لإبراهيم : احفظ عهدي أنت وزرعك من بعدك لأحقابهم ، هذا عهدي

الذي آمركم به لتحفظوه ليكون بيني وبين نسلك من بعدك أن تختنوا كل ذكر وتختنوا لحم غُرلكم ويكون علامة العهد بيني وبينكم ، وليختن كل ذكر منكم ابن ثمانية أيام لأحقابكم ولاد البيت والمبتاع بالمال .

وكل من كان من أبناء الغرباء الذين ليسوا من زرعك فليختتن اختتان المولود في بيتك والمبتاع بمالك ، ويكون عهدي ميسماً في أجسادكم عهداً دائماً إلى الأبد ؛ وكل ذكر ذي غرلة لا تختتن غرلته في اليوم الثامن فلتهلك تلك النفس من شعبها ، لأنها أبطلت عهدي .

وقال الله لإبراهيم : سرى صاحبتك ، لا تدع اسمها سرى لأن اسمها سارة وأبارك فيها ، وأعطيك منها ابناً وأباركه ، ويكون رئيساً لشعوب كثيرة وملوك الشعوب من نسله يخرجون ؛ فخر إبراهيم على وجهه ضاحكاً وقال في قلبه – وفي رواية متعجباً يقول في نفسه – وهل يولد لابن مائة سنة ابن وسارة تلد وقد أتى عليها تسعون سنة ! وقال إبراهيم لله : يا ليت إسماعيل يحيى بين يديك ! وقال الله لإبراهيم : حقاً – وفي نسخة : نعم – إن سارة صاحبتك ستلد ابناً وتسميه إسحاق ، وأثبت العهد بيني وبينه إلى الأبد ولذريته من بعده ، وقد استجبت لك في إسماعيل فباركته وكثرته وأنميته جداً جداً ، ويولد له اثنا عشر عظيماً ، وأجعله رئيساً لشعب عظيم ؛ وأثبت عهدي لإسحاق الذي تلد لك سارة في هذا الحين من قابل .

فلما فرغ من كلامه ارتفع استعلان الرب عن إبراهيم ، فانطلق إبراهيم بإسماعيل ابنه وجميع أولاد بيته والمبتاعين بما له كل ذكر من بيت إبراهيم فختن غرلهم في ذلك اليوم كما أمره الله ، وكان قد أتى على إبراهيم تسع وتسعون سنة إذ ختن غرلته وكان قد أتى إسماعيل ابنه إذ اختتن ثلاث عشرة سنة ، وختن أيضاً معه أبناء الغرباء المشايعين ثم أكمل البشارة بإسحاق ، كما سيأتي في سورة هود إن شاء الله تعالى – إلى أن قال : وذكر الرب سارة كما قال : وصنع الله تبارك وتعالى بسارة كما وعد ، فحبلت وولدت لإبراهيم ابناً على كبره في الوقت الذي وعد الله ، فسمى إبراهيم ابنه من سارة إسحاق ، فختن إبراهيم إسحاق ابنه في اليوم الثامن كما أمره الرب ، وكان إبراهيم ابن مائة سنة ، فقالت سارة : لقد أنعم الله عليّ وفرحني فرحاً عظيماً ، فمن سمع فليفرح لي ، وقالت : من كان يقول لإبراهيم : إن سارة ترضع غلاماً وتلد ابناً بعد الكبر ؛ فشب الغلام وفطم وصنع إبراهيم يوم فطم مأدبة عظيمة – ثم أعاد ذكر أمر سارة بإخراج هاجر وإبعادها وأن هذا شق على إبراهيم جداً وقال : فقال الله لإبراهيم : لا يشقن عليك حال الصبي وأمتك ، فغدا إبراهيم باكراً وأخذ خبزاً وإداوة من ماء فأعطاها هاجر وحملها والصبي والطعام فانطلقت وتاهت في برية بئر

سبع – وفي نسخة بئر الحلف ، لأن إبراهيم حالف صاحب تلك الأرض عندها – ونفد الماء من الإداوة فألقت الصبي تحت شجرة من الشيح وانطلقت وجلست قبالته وتباعدت عنه كرمية بسهم كيلا تعاين موته ، فلما صرخ الغلام وبكى سمع الرب صوته فدعا ملاك الرب هاجر من السماء وقال لها : ما لك يا هاجر ؟ لا تخافي ، لأن الرب قد سمع صوت الصبي حيث هو ، قومي فاحملي الصبي وشدي به يديك ، لأني أجعله رئيساً لشعب عظيم ، فجلى الله عن بصرها فرأت بئر ماء ، فانطلقت فملأت الإدواة وسقت الغلام ، وكان الله مع الغلام فشب وسكن برية فاران وكان يتعلم الرمي في تلك البرية

وزوجته أمه امرأة – انتهى .

وفيه إن هذا الكلام في إخراج هاجر وولدها ظاهره مناقض لما تقدم في ختان إسماعيل عليه السلام ، فإن فيه أنه كان ابن ثلاث عشرة سنة ، وهذا ظاهره أنه كان رضيعاً ، وفي الحديث الصحيح " أنه وضعه عند البيت وهو يرضع " ويمكن حمل هذا عليه بهذا الكلام الأخير .

وأما الأول فلم يقل فيه إنه كان عند الختان ببيت المقدس ، فيمكن أن إبراهيم عليه السلام

طوى له الله الأرض بالبراق أو غيره فذهب إلى مكة المشرفة فختنه ثم رجع .

وفيه بشارة بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم أصرح مما ذكروه وهي قوله : ويتبارك بك جميع قبائل الأرض ، لأن ذلك لم يحصل بأحد من أولاد إبراهيم عليه السلام إلا بالنبي صلى الله عليه وسلم ، فقد أثبت البركة به صلى الله عليه وسلم والخير في غالب قبائل الأرض ، ويكون الباقي بعد نزول عيسى عليه السلام .

وكذا قوله : ويده في جميع الناس – إلى آخره ، لأن إسماعيل عليه السلام لم ينقل أحد أن يده كانت على جميع الناس ، ولا حل على جميع حدود إخوته ، ولا اتصف من أولاده أحد بهذا الوصف إلا النبي صلى الله عليه وسلم ؛ ثم رأيت في شرح المقاصد للشيخ سعد الدين التفتازاني وشرح الصحائف للإمام السمرقندي التنبيه على هذا النص . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 245 . 250 ﴾

من لطائف السهيلى

وبنو إسرائيل : هم بنو يعقوب وكان يسمى : إسرائيل أي سري الله لكن لم يذكروا في القراءة إلا أضيفوا إلى إسرائيل ولم يسموا فيه بنو يعقوب ومتى ، ذكر إبراهيم وإسحاق ويعقوب لم

يسم إسرائيل وذلك لحكمة فرقانية وهو أن القوم لما خوطبوا بعبادة الله وفكروا بدين أسلافهم موعظة لهم وتنبيها من غفلتهم سموا بالاسم الذي فيه تذكرة بالله فإن إسرائيل اسم مضاف إلى الله تعالى في التأويل . ألا ترى : كيف نبه على هذا المعنى رسول الله صلى الله عليه وسلم – حين دعا إلى الإسلام قوما ، يقال لهم بنو عبد الله فقال لهم يا بني عبد الله إن الله قد حسن اسم أبيكم يحرضهم بذلك على ما يقتضيه اسمهم من العبودية لله فكذلك قوله سبحانه يا بني إسرائيل إنما ورد في معرض التذكرة لهم بدين أبيهم وعبوديته لله فكان ذكرهم بهذا الاسم أليق بمقام التذكرة والتحريض من أن يقول لهم يا بني يعقوب ولما ذكر موهبته لإبراهيم وتبشيره بإسحاق ثم يعقوب كان لفظ يعقوب أولى بذلك المقام لأنها موهبة بعقب أخرى ، وبشرى عقب بها بشرى وإن كان اسم يعقوب عبرانيا ، ولكن لفظه موافق للعربي في العقب والتعقيب فانظر مشاكلة الاسمين للمقامين فإنه من باب النظر في إعجاز القرآن وبلاغة ألفاظه وتنزيل الكلام في منازله اللائقة به . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الروض الأنف حـ 1 صـ 249 ﴾

فائدة

قال الإمام الفخر ـ رحمه الله ـ :

اعلم أن هذه الحكاية اشتملت على دقائق مرغبة في قبول الدين . أحدها : أنه تعالى لم يقل وأمر إبراهيم بنيه بل قال : وصاهم ولفظ الوصية أوكد من الأمر ، لأن الوصية عند الخوف من الموت ، وفي ذلك الوقت يكون احتياط الإنسان لدينه أشد وأتم ، فإذا عرف أنه ـ عليه السلام ـ في ذلك الوقت كان مهتماً بهذا الأمر متشدداً فيه ، كان القول إلى قبوله أقرب . وثانيها : أنه ـ عليه السلام ـ خصص بنيه بذلك ، وذلك لأن شفقة الرجل على أبنائه أكثر من شفقته على غيرهم ، فلما خصهم بذلك في آخر عمره ، علمنا أن اهتمامه بذلك كان أشد من اهتمامه بغيره . وثالثها : أنه عمم بهذه الوصية جميع بنيه ولم يخص أحداً منهم بهذه الوصية ، وذلك أيضاً يدل على شدة الاهتمام . ورابعها : أنه ـ عليه السلام ـ أطلق هذه الوصية غير مقيدة بزمان معين ومكان معين ، ثم زجرهم أبلغ الزجر عن أن يموتوا غير مسلمين ، وذلك يدل أيضاً على شدة الاهتمام بهذا الأمر . وخامسها : أنه ـ عليه السلام ـ ما مزج بهذه الوصية وصية أخرى ، وهذا يدل أيضاً على شدة الاهتمال بهذا الأمر ، ولما كان إبراهيم ـ عليه السلام ـ هو الرجل المشهود له بالفضل وحسن الطريقة وكمال السيرة ، ثم عرف أنه كان في نهاية الاهتمام بهذا الأمر ، عرف حينئذ أن هذا الأمر أولى الأمور بالاهتمام ، وأجراها بالرعاية ، فهذا هو السبب في أنه خص أهله وأبناءه بهذه الوصية ،

وإلا فمعلوم من حال إبراهيم ـ عليه السلام ـ أنه كان يدعو الكل أبداً إلى الإسلام والدين .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 4 صـ 66 ﴾

سؤال : لم عطف يعقوب على إبراهيم فى الآية الكريمة ؟

(17/67)

وعطف يعقوب على إبراهيم هنا إدماج مقصود به تذكير بني إسرائيل (الذي هو يعقوب) بوصية جدهم فكما عرض بالمشركين في إعراضهم عن دين أوصى به أبوهم عرض باليهود كذلك لأنهم لما انتسبوا إلى إسرائيل وهو يعقوب الذي هو جامع نسبهم بعد إبراهيم لتقام الحجة عليهم بحق اتباعهم الإسلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 1 صـ 728 ﴾

سؤال : فإن قلت ، لم قال : وصى بها إبراهيم بنيه ولم يقل أمرهم ؟ .

الجواب : قلت : لأن لفظ الوصية أوكد من لفظ الأمر لأن الوصية إنما تكون عند الخوف من الموت وفي ذلك الوقت يكون احتياط الإنسان لولده أشد وأعظم ، وكانوا هم إلى قبول وصيته أقرب وإنما خص بنيه بهذه الوصية لأن شفقة الرجل على بنيه أكثر من شفقته على غيرهم . وقيل : لأنهم كانوا أئمة يقتدى بهم فكان صلاحهم صلاحاً لغيرهم . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 1 صـ 113 ﴾

سؤال : لم أدخل " الألف واللام " في " الدين " ؟

الجواب : وإنما أدخل " الألف واللام " في " الدين " ، لأن الذين خوطبوا من ولدهما وبنيهما بذلك ، كانوا قد عرفوه بوصيتهما إياهم به ، وعهدهما إليهم فيه ، ثم قالا لهم –بعد أن عرفاهموه– : إن الله اصطفى لكم هذا الدين الذي قد عهد إليكم فيه ، فاتقوا الله أن تموتوا إلا وأنتم عليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الطبرى حـ 3 صـ 96 ﴾

سؤال : فإن قيل : كيف يُنْهَونَ عن الموت وليس من فعلهم ، وإنما يُمَاتُون ؟

الجواب : قيل : هذا في سعة اللغة مفهوم المعنى ، لأن النهي تَوَجَّهَ إلى مفارقة الإسلام ، لا إلى الموت ، ومعناه : الزموا الإسلام ولا تفارقوه إلى الموت . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 1 صـ 193 ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ فَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ نهي عن الاتصاف بخلاف حال الإسلام وقت الموت ، والمفهوم من الآية ظاهراً النهي عن الموت على خلاف تلك الحال ، وليس بمقصود لأنه غير

مقدور وإنما المقدور قيده فيعود النهي إليه ، والمراد من الأمر الذي يشير إليه ذلك النهي الثبات على الإسلام لأنه اللازم له ، والمقصود من التوصية ، ولأن أصل الإسلام كان حاصلاً لهم ، وإنما أدخل حرف النفي على الفعل مع أنه ليس منهياً عنه للدلالة على أن موتهم لا على الإسلام موت لا خير فيه ، وأن حقه أن لا يحل بهم وأنه يجب أن يحذروه غاية الحذر ، وذكر بعضهم أن الإسلام المأمور به هنا ما يكون بالقلب دون العمل بالجوارح لأن ذلك مما لا يكاد يمكن عند الموت ولهذا ورد في الحديث : " اللهم من أحييته منا فأحيه على الإسلام ومن توفيته منا فتفوه على الإيمان " ولا يخفى ما فيه .

أهـ ﴿ روح المعانى ـ حـ 1 صـ 390 ـ باختصار يسير ﴾

وقال الخازن :

﴿ فلا تموتن إلاّ وأنتم مسلمون ﴾ أي مؤمنون مخلصون فالمعنى دوموا على إسلامكم حتى يأتيكم الموت وأنتم مسلمون لأنه لا يعلم في أي وقت يأتي الموت على الإنسان . وقيل : في معنى وأنتم مسلمون أي محسنون الظن بالله عز وجل يدل عليه ما روي عن جابر قال سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قبل موته بثلاثة أيام يقول : " لا يموتن أحدكم إلاّ وهو يحسن الظن بربه " أخرجاه في الصحيحين . انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 1 صـ 114.113 ﴾

وقال فى البحر المحيط :

﴿ فلا تموتنّ إلا وأنتم مسلمون ﴾ : هذا استثناء من الأحوال ، أي إلا على هذه الحالة ، والمعنى : الثبوت على الإسلام ، والنهي في الحقيقة إنما هو عن كونهم على خلاف الإسلام . إلا أن ذلك نهى عن الموت ، ونظير ذلك في الأمر : مت وأنت شهيد ، لا يكون أمراً بالموت ، بل أمر بالشهادة ، فكأنه قال : لتستشهد في سبيل الله ، وذكر الموت على سبيل التوطئة للشهادة . وقد تضمن هذا الكلام إيجازاً بليغاً ووعظاً وتذكيراً ، وذلك أن الإنسان يتيقن بالموت ولا يدري متى يفاجئه . فإذا أمر بالتباس بحالة لا يأتيه الموت إلا عليها ، كان متذكراً للموت دائماً ، إذ هو مأمور بتلك الحالة دائماً ، . وهذا على الحقيقة نهي عن تعاطي الأشياء التي تكون سبباً للموافاة على غير الإسلام ، ونظير ذلك قولهم : لا أرينك هنا ، لا ينهي نفسه عن الرؤية ، ولكن المعنى على النهي عن حضوره في هذا المكان ، فيكون يراه ، فكأنه قال : اذهب عن هذا المكان . ألا ترى أن المخاطب ليس له أن يحجب إدراك الآمر عنه إلا بالذهاب عن ذلك المكان ، فأتى بالمقصود بلفظ يدل على الغضب والكراهة ، لأن الإنسان لا ينهى إلا عن شيء يكره وقوعه .

وقد اشتملت هذه الجملة على لطائف ، منها : الوصية ، ولا تكون إلا عند خوف الموت . ففي ذلك ما كان عليه إبراهيم من الاهتمام بأمر الدين ، حتى وصى به من كان ملتبساً به ، إذ كان بنوه على دين الإسلام . ومنها اختصاصه ببنيه ، ولا يختصهم إلا بما فيه سلامة عاقبتهم . ومنها أنه عمم بنيه ، ولم يخص أحداً منهم ، كما جاء في حديث النعمان بن بشير ، حين نحله أبوه شيئاً ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أتحب أن يكونوا لك في البر سواء ؟ » ورد نحله إياه وقال : لا أشهد على جور . ومنها إطلاق الوصية ، ولم يقيدها بزمان ولا مكان . ثم ختمها بأبلغ الزجر أن يموتوا غير مسلمين . ثم التوطئة لهذا النهي والزجر بأن الله تعالى هو الذي اختار لكم دين الإسلام ، فلا تخرجوا عما اختاره الله لكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 1 صـ 571 ﴾

وقال ابن عاشور :

وللعرب في النهي المراد منه النهي عن لازمه طرق ثلاثة : الأول : أن يجعلوا المنهي عنه مما لا قدرة للمخاطب على اجتنابه فيدلوا بذلك على أن المراد نفي لازمه مثل قولهم لا تنس كذا

أي لا ترتكب أسباب النسيان ، ومثل قولهم : لا أعرفنك تفعل كذا أي لا تفعل فأعرفك لأن معرفة المتكلم لا ينهى عنها المخاطب ، وفي الحديث : " فلا يذادن أقوام عن حوضي " ، الثاني : أن يكون المنهي عنه مقدوراً للمخاطب ولا يريد المتكلم النهي عنه ولكن عما يتصل به أو يقارنه فيجعل النهي في اللفظ عن شيء ويقيده بمقارنه للعلم بأن المنهي عنه مضطر لإيقاعه فإذا أوقعه اضطر لإيقاع مقارنه نحو قولك لا أراك بثياب مشوهة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ ، الثالث : أن يكون المنهي عنه ممكن الحصول ويجعله مفيداً مع احتمال المقام لأن يكون النهي عن الأمرين إذا اجتمعا ولو لم يفعل أحدهما نحو لا تجئني سائلاً وأنت تريد أن لا يسألك فإما أن يجيء ولا يسأل وإما أن لا يجيء بالمرة ، وفي الثانية إثبات أن بني إبراهيم ويعقوب كانوا على ملة الإسلام وأن الإسلام جاء بما كان عليه إبراهيم وبنوه حين لم يكن لأحد سلطان عليهم ، وفيه إيماء إلى أن ما طرأ على بنيه بعد ذاك من الشرائع إنما اقتضته أحوال عرضت وهي دون الكمال الذي كان عليه إبراهيم ولهذا قال تعالى : ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾ [آل عمران : 19] وقال : ﴿ وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل ﴾ [الحج : 78] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 1 صـ 729 ﴾

وقال التستري :

﴿ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصطفى لَكُمُ الدين فَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [132] . وإنما تعبد الله الخلق على حسب طاقاتهن ، والذين قيل لهم : ﴿ اتقوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾ [آل عمران : 102] طولبوا بالتقوى على حسب معرفتهم بالله ، فكان معنى ذلك ، أي اتقوا الله حق تقاته ما قدرتم عليه ، لا أنه رخص في ترك التقوى بتلك الآية : ﴿ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : 102] أي مسلمون لأمر الله بكل حال مفوضون إليه ، والآخرون ردوا إلى الاجتهاد ، فافهم الفرق بين الاثنين في الخطاب ، إذا كان اللفظ متفقاً والمعنى مختلفاً خاص وعام . قال أبو بكر : ثم قال سهل : لو دعا المتقون على المسرفين لهلك الأولون والآخرون منهم ، ولكن الله جعل المتقين رحمة للظالمين ليستنقذهم بهم ، فإنّ أكرم الخلق على الله عزَّ وجلَّ المتقون كما قال الله : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات : 13] فمن أراد كرامة الله عزَّ وجلَّ فليتَّقِه ، فإنه ينال بالتقوى كرامته ، والدخول إلى جنته ، ويسكن في جواره ، ويفوز فوزاً عظيماً . ﴿ تفسير التستري صـ 34 ـ 35 ﴾

فائدة لغوية

" يعقوب " علم أعجمي ولذلك لا ينصرف ، ومن زعم أنه سُمِّي يعقوب ؛ لأنه وُلد عقب

العيص أخيه ، وكانا توأمين ، أو لأنه كثر عَقبهُ ونَسْلُه فقد وهم ؛ لأنه كان ينبغي أن ينصرف ، لأنه عربي مشتق .

ويعقوب أيضاً ذَكَرُ الْحَجَل ، إذ سمي به المذكر انصرف ؛ والجمع يَعَاقِبَة ويَعَاقِيب ، و" اصْطَفَى " ألفه عن ياء تلك الياء منقلبة عن " واو " ؛ لأنها من الصَّفْوة ، ولما صارت الكلمة أربعة فصاعداً ، قلبت ياء ، ثم انقلبت ألفاً . أ هـ

﴿ تفسير ابن عادل حـ 2 صـ 503 ﴾

وقال القشيرى :

وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ ﴾

أخبر أن إبراهيم - عليه السلام - وصَّى بنيه ، وكذلك يعقوب - عليه السلام - قال لبنيه لا يصيبنكم الموت إلا وأنتم بوصف الإسلام . فشرائعهم - وإن اختلفت في الأفعال - فالأصل واحد ، ومشرب التوحيد لا ثاني - له في التقسيم - وقوله تعالى : ﴿ إن الله اصطفى لكم الدين ﴾ بشارة بما تقوي به دواعيهم على الرغبة فيما يكلفهم من الإسلام ، لأنهم إذا تحققوا أن الله سبحانه اصطفى لهم ذلك علموا أنه لا محالة يعينهم فيسهل عليهم القيام بحق الإسلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 127 . 128 ﴾

فروق لغوية دقيقة

الفرق بين الدين والملة

أن الملة اسم لجملة الشريعة والدين اسم لما عليه كل واحد من أهلها ألا ترى أنه يقال فلان حسن الدين ولا يقال حسن الملة وإنما يقال هو من أهل الملة ويقال لخلاف الذمي الملي نسب إلى جملة الشريعة فلا يقال له ديني وتقول ديني دين الملائكة ولا تقول ملتي ملة الملائكة لأن الملة اسم للشرائع مع الإقرار بالله ، والدين ما يذهب إليه الإنسان ويعتقد أنه يقربه إلى الله وإن لم يكن فيه شرائع مثل دين أهل الشرك وكل ملة دين وليس كل دين ملة واليهودية ملة لأن فيها شرائع وليس الشرك ملة وإذا اطلق الدين فهو الطاعة العامة التي يجازي عليه بالثواب مثل قوله تعالى ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾

وإذا قيد اختلفت دلالته ، وقد يسمى كل واحد من الدين والملة باسم الآخر في بعض المواضع لتقارب معنييهما ، والأصل ما قلنا ، والفرس تزعم أن الدين لفظ فارسي وتحتج بأنهم يجدونه في كتبهم المؤلفة قبل دخول العربية أرضهم بألف سنة ويذكرون أن لهم خطا يكتبون به كتابهم المنزل برعمهم يسمى دين دوري أي كتابة الذي سماه بذلك صاحبهم زرادشت ونحن نجد للدين أصلا واشتقاقا صحيحا في العربية وما كان كذلك لا نحكم عليه بأنه أعجمي وإن صح ما قالوه فإن الدين قد حصل في العربية والفارسية اسما

لشيء واحد على جهة الاتفاق وقد يكون على جهة الاتفاق ما هو أعجب من هذا

وأصل الملة في العربية المل وهو أن يعدو الذئب على شيء ضربا من العدو فسميت الملة ملة لاستمرار أهلها عليها ، وقيل أصلها التكرار من قولك طريق مليل إذا تكرر سلوكه حتى توطأ ومنه الملل وهو تكرار الشيء على النفس حتى تضجر ، وقيل الملة مذهب جماعة يحمي بعضهم لبعض عند الأمور الحادثة

وأصلها من المليلة وهي ضرب من الحمى ومنه الملة موضع النار وذلك أنه إذا دفن فيه اللحم وغيره تكرر عليه الحمى ومنه الملة موضع النار وذلك أنه إذا دفن فيه اللحم وغيره تكرر عليه الحمى حتى ينضج

وأصل الدين الطاعة ودان الناس لملكهم أي أطاعوه ، ويجوز أن يكون أصله العادة ثم قيل للطاعة دين لأنها تعتاد وتوطن النفس عليها .

الفرق بين الدين والشريعة

أن الشريعة هي الطريقة المأخوذ فيها إلى الشيء ومن ثم سمي الطريق إلى الماء شريعة ومشرعة وقيل الشارع لكثرة الأخذ فيه والدين ما يطاع به المعبود ولكل واحد منا دين

وليس لك واحد منا شريعة ، والشريعة في هذا المعنى نظير الملة إلا أنها تفيد ما يفيده الطريق المأخوذ ما لا تفيده الملة ويقال شرع في الدين شريعة كما يقال طرق فيه طريقا والملة تفيد استمرار أهلها عليها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الفروق فى اللغة صـ 188 ﴾

(25/67)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُم مُّسْلِمُونَ (132) ﴾

عندما تقرأ كلمة وصى فاعلم أن الوصية تأتي لحمل الإنسان على شيء نافع في آخر وقت لك في الدنيا ؛ لأن آخر ساعات الإنسان في الدنيا إن كان قد عاش فيها يغش الناس جميعا فساعة يحتضر لا يغش نفسه أبدا ولا يغش أحدا من الناس لماذا ؟ لأنه يحس إنه مقبل على الله سبحانه فيقول كلمة الحق . النصح أو الوصية هي عظة تحب أن يستمسك بها من تنصحه وتقولها له مخلصا في آخر لحظة من لحظات حياته . . ولذلك سيأتي الله سبحانه وتعالى ليبين لنا ذلك في قوله :

أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي

(من الآية 133 سورة البقرة)

وهكذا يريد الله سبحانه أن يبين لنا أن الوصية دائما تكون لمن تحب . . وأن حب الإنسان لأولاده أكيد سواء أكان هذا الإنسان مؤمنا أم كافرا . . ونحن لا نتمنى أن يكون في الدنيا من هو احسن منا إلا أبناءنا ونعمل على ذلك ليكون لهم الخير كله . وصى إبراهيم بنيه ، ويعقوب وصى بنيه . . ولكانت الوصية " يا بني إن الله اصطفى لكم الدين " إذن فالوصية لم تكن أمرا من عند إبراهيم ولا أمرا من عند يعقوب ولكن كانت أمرا اختاره الله للناس فلم يجد إبراهيم ولا يعقوب أن يوصيا أولادهما إلا بما اختاره الله . . فكأن إبراهيم ائتمن الله على نفسه فنفذ التكاليف وائتمنه على أولاده فأراد منهم أن يتمسكوا بما اختاره لهم الله .

قوله تعالى : " ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب " . . إبراهيم هو الأب الكبير وابنه اسحق وابن اسحق يعقوب . . ويعقوب هو الأب المباشر لليهود . . ويعقوب وصاهم كما يروي لنا القرآن الكريم : " يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون " . أنت لا تنهى إنسانا عن أمر إلا إذا كان في إمكانه أن يتجنبه ولا تأمره به إلا إذا كان في إمكانه أن

ينفذه . . فهل يملك أولاد يعقوب أن يموتوا وهم مسلمون ؟ والموت لا يملكه أحد . . إنه يأتي في أي وقت فجأة . . ولكن مادام يعقوب قد وصى بنيه : " لا تموتن إلا وأنتم مسلمون" فالمعنى لا تفارقوا الإسلام لحظة حتى لا يفاجئكم الموت إلا وأنتم مسلمون .

والله سبحانه وتعالى أخفى موعد الموت ومكانه وسببه . . ليكون هذا إعلاما به ويتوقعه الناس في أي سن وفي أي مكان وفي أي زمان . . ولذلك قد نلتمس العافية في أشياء يكون الموت فيها . . والشاعر يقول :

إن نام عنك فكل طب نافع

أو لم ينم فالطب من أسبابه

أي إن لم يكن قد جاء الأجل ، فالطب ينفعك ويكون من أسباب الشفاء . . أما إذا جاء الأجل فيكون الطب سببا في الموت ، كأن تذهب لإجراء عملية جراحية فتكون سبب موتك . . فالإنسان لابد أن يتمسك بالإسلام وبالمنهج ولا يغفل عنه أبدا . . حتى لا يأتيه الموت في غفلته فيموت غير مسلم . . والعياذ بالله . انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 595.596 ﴾

" فصل "

قال السيوطى :

وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (132)

أخرج ابن أبي داود في المصاحف عن أسد بن يزيد قال : في مصحف عثمان ﴿ ووصَّى ﴾ بغير ألف .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ ووصى بها إبراهيم بنيه ﴾ قال : وصاهم بالإِسلام ، ووصى يعقوب بنيه مثل ذلك .

وأخرج الثعلبي عن فضيل بن عياض في قوله ﴿ فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ أي محسنون بربكم الظن .

وأخرج ابن سعد عن الكلبي قال : ولد لإِبراهيم اسمعيل وهو أكبر ولده وأمه هاجر وهي قبطية ، وإسحق وأمه سارة ، ومدن ومدين ، وبيشان وزمران ، وأشبق وشوح وأمهم قنطوراء من العرب العاربة ، فأما بيشان فلحق بنوه بمكة وأقام مدين بأرض مدين فسميت به ، ومضى سائرهم في البلاد وقالوا لإِبراهيم : يا أبانا أنزلت إسمعيل وإسحق معك وأمرتنا أن ننزل أرض الغربة والوحشة ؟ قال : بذلك أمرت . فعلمهم اسماً من أسماء الله ، فكانوا يستسقون به ويستنصرون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 1 صـ 336 ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله تعالى ﴿ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (132) ﴾

قرىء : " وَصَّى " ، وفيه معنى التكثير باعتبار المفعول الموصَّى ، وأوصى رباعياً ، وهي قراءة نافع ، وابن عامر ، وكذلك هي في مصاحف " المدينة " و " الشام " .

وقيل : أوصى ووصى بمعنى .

والضمير في " بها " فيه ستّة أقوال :

أحدها : أنه يعود على الملّة في قوله : ﴿ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ [البقرة : 130] .

قال أبو حيان : " وبه أبتدأ الزمخشري ، ولم يذكر المهدوي غيره " .

والزمخشري رحمه الله لم يذكر هذا ، وإنما ذكر عوده على قوله " أسلمت " لتأويله بالكلمة .

قال الزمخشري : والضمير في " بها " لقوله : ﴿ أسلمت لرب العالمين ﴾ على تأويل الكلمة

والجملة، ونحوه رجوع الضمير في قوله: ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً ﴾ [الزخرف: 28] إلى قوله: ﴿ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ إِلاَّ الذي فَطَرَنِي ﴾ [الزخرف: 26 27] وقوله: " كَلِمَةً بَاقِيَةً " دليل على أن التأنيث على معنى الكلمة. انتهى.

الثاني: أنه يعود على الكلمة المفهومة من قوله: " أسلمت " كما تقدم تقريره عن الزمخشري.

قال ابن عطية: " وهو أصوب لأنه أقرب مذكور " .

الثالث: أنه يعود على متأخر وهو الكلمة المفهومة من قوله: ﴿ فَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ .

الرابع: أنه يعود على كلمة الإخلاص، وإن لم يَبْدُ لها ذكر قاله الكلبي ومقاتل.

الخامس: أنه يعود على الطَّاعة للعلم بها أيضاً.

السادس: أنه يعود على الوصيّة المدلول عليها بقوله: " ووصّى "، و" بها " يتعلّق بـ " وَصَّى " و" بينه " مفعول به.

قوله: " وَيَعْقُوب " والجمهور على رفعة وفيه قولان:

أظهرهما : أنه عطف على " إبراهيم " ، ويكون مفعوله محذوفاً ، أي : ووصى يعقوب بنيه أيضاً .

والثاني : أن يكون مرفوعاً بالابتداء ، وخبره محذوف تقديره : ويعقوب قال : يا بني إن الله اصطفى .

وقرأ إسماعيل بن عبد الله ، وعمرو بن فائد بنصبه عطفاً على " بنيه " ، أي : ووصّى إبراهيم يعقوب أيضاً .

[ولم ينقل أنّ يعقوب جده إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، وإنما ولد بعد موته قاله الزمخشري ، وعاش يعقوب مائة وسبعة وأربعين سنة ، ومات بمصر ، وأوصى أن يحمل إلى الأرض المقدسة ويدفن عند ابنه إسحاق ، فحمله يوسف ، ودفنه عنده] .

قوله : "يَا بَنِي " فيه وجهان :

أحدهما : أنه مقول إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، وذلك على القول بعطف يعقوب على إبراهيم ، أو على قراءته منصوباً .

والثَّاني : أنه من مقول يعقول إن قلنا رفعه بالابتداء ، ويكون قد حذف مقول إبراهيم عليه الصلاة والسلام للدلالة عليه تقديره : " ووصّى إبراهيم بنيه يا بني " .

وعلى كل تقدير فالجملة من قوله : " يا بني " وما بعدها منصوبة بقول محذوف على رأي البصريين ، أي : فقال يا بني ، وبفعل الوصية ؛ لأنها في معنى القول على رأي الكوفيين ، [قال

النحاس : يا بني نداء مضاف ، وهذه ياء النفس لا يجوز هنا إلا فتحها ؛ لأنها لو سكنت لا لتقى سكنان ، وبمعناه ﴿ بِمُصْرِخِيَّ ﴾ [إبراهيم : 22] ونحوه] . وقال الراجز : [الرجز]

797 رَجْلاَنِ مِنْ ضَبَّةَ أَخْبَرَانَا . . . إِنَّا رَأَيْنَا رَجُلاً عُرْيَانَا

بكسر الهمزة على إضمار القول ، أو لإجراء الخبر مجرى القول ، ويؤيد تعلّقها بالوصية قراءة ابن مسعود : " أن يا بني " بـ " أن " المفسرة ولا يجوز أن تكون هنا مصدرية لعدم ما يَنْسبك منه مصدر .

قال الفراء : ألغيت " أن " لأن التوصية كالقول ، وكل كلام رجع إلى القول جاز فيه دخول " أن " وجاز إلغائها ، وقال النحويون : إنما أراد " أن " وألغيت ليس بشيء . ومَنْ أَبى جعلها مفسرة وهم الكوفيون يجعلونها زائدة .

و " يعقوب " علم أعجمي ولذلك لا ينصرف ، ومن زعم أنه سُمِّي يعقوب ؛ لأنه وُلِد عقب العيص أخيه ، وكانا توأمين ، أو لأنه كثر عَقِبُهُ ونَسْلُه فقد وهم ؛ لأنه كان ينبغي أن ينصرف ، لأنه عربي مشتق .

ويعقوب أيضاً ذَكَرُ الْحَجَل ، إذ سمي به المذكر انصرف ؛ والجمع يَعَاقِبَة ويَعَاقِيب ، و" اصْطَفَى " ألفه عن ياء تلك الياء منقلبة عن " واو " ؛ لأنها من الصَّفْوة ، ولما صارت الكلمة أربعة فصاعداً ، قلبت ياء ، ثم انقلبت ألفاً .

اصْطَفَى : اختار .

قال الراجز : [الرجز]

798 يا ابْنَ مُلُوكٍ وَرَّثُوا الأَمْلاَكَا . . . خِلاَفَةَ اللهِ الَّتِي أَعْطَاكَا

لَكَ اصْطَفَاهَا وَلَهَا اصْطَفَاكَا . . . والدين : الإسلام .

و" لكم " أي لأجلكم ، والألف واللام في " الدين " للعهد ؛ لأنهم كانوا عرفوه .

قوله : ﴿ إِلَّا وَأَنْتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ هذا استثناء مفرغ من الأحوال العامة ، و" أنتم مسلمون " مبتدأ وخبر في محلّ نصب على الحال ، كأنه قال تعالى : " لا تموتنّ على كل حالا إلا على هذه الحال " ، والعامل فيها ما قبل إلا . انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 2 صـ 504.501 ﴾ . باختصار يسير .

قوله تعالى ﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (133) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما قرر سبحانه لبني إسرائيل أن أباهم يعقوب ممن أوصى بنيه بالإسلام قال مبكتاً لهم : ﴿ أم ﴾ فعلم قطعاً من ذكر حرف العطف أن المعطوف عليه محذوف كما قالوا في أحد التقادير في هذه الآية وفي ﴿ أمّن هو قانت آناء الليل ﴾ [الزمر : 9] في سورة الزمر فكان التقدير هنا لتوبيخهم وتقريعهم بأن أيّ شق اختاروه لزمهم به ما يكرهون : أكنتم غائبين عن هذه الوصية من إبراهيم ويعقوب عليهما السلام أم حاضرين وكنتم غائبين في أمر يعقوب عليه السلام خاصة أم ﴿ كنتم شهداء ﴾ الآية ، أي أكنتم غائبين عن علم ذلك أم لا حين حكمتم بتخصيص أنفسكم بالجنة ليمنعكم ذلك عن مثل هذا الحكم ؛ وعلى كل تقدير لا يضركم جهله ، لأن عندكم في كتاب الله المنزل على بيتكم من الأمر بمثله عن الله ما يغنيكم عنه ، وهو مانع لكم أيضاً من هذا الحكم على وجه قطعي ؛ وفي ذلك إشارة إلى عدم وجوب التقيد بالآباء ، وإرشاد إلى توسيع الفكر إلى المنعم الأول وهو رب الآباء للتقيد

بأوامره والوقوف عند زواجره سواء كان ذلك موافقاً لشرع الآباء أو مخالفاً ؛ ولما كان هذا لازماً لمضمون قوله تعالى :

﴿ تلك أمة قد خلت ﴾ [البقرة : 134] أتبعه بها ، أي فما لكم وللسؤال عنها في ادعائكم أنهم كانوا هوداً أو نصارى ؟ كما سيأتي النص بالتوبيخ على ذلك وإتباعه مثل هذه الآية ، لأنه إما أن يكون السؤال عن النسب أو عن العمل ولا ينفعكم شيء منهما ، لأنه ليس للإنسان إلا ما سعى ، فليس السؤال عنهم حينئذ لمن عنده علم ما يأتي وما يذر إلا فضولاً ، وفيه تنبيه على أنهم قطعوا أنفسهم عنهم ، لأنهم لما لم يتبعوهم في الإسلام فصلوا ما بينهم وبينهم من الوصلة بالنسب وحصلت براءتهم منهم ، لأن نسب الدين أعظم من نسب الماء والطين ، أو يقال وهو أحسن : لما ادعى أهل الكتاب أن الجنة خاصة بهم ورد ذلك سبحانه عليهم بأنها لمن أسلم محسناً وذكرهم بأحوال الخليل عليه السلام حتى ختم بأنه من رؤوس المتصفين بهذا الوصف وأنه أوصى بنيه به فكان كأنه قيل إنكاراً عليهم في دعواهم الاختصاص بالجنة وتقريراً لهم : أكنتم شهداء لذلك منه حتى تكونوا ممن ائتمر بأمره في وصيته فتكونوا أهلاً للجنة أم كنتم شهداء يا بني يعقوب ﴿ إذ حضر يعقوب ﴾

صاحب نسبكم الأشهر ﴿ الموت ﴾ وهو على ما أوصى به إبراهيم بنيه ﴿ إذ قال ﴾ أي يعقوب ﴿ لبنيه ﴾ .

ولما كان مراده صلى الله عليه وسلم التعميم في كل شيء ليقع التخصيص موقعه فلا يحتاج إلى سؤال آخر عبر بما العامة للعاقل وغيره فقال : ﴿ ما تعبدون ﴾ ولو عبر بمن لم يفد جوابهم هذا التصريح ينفي عبادة شيء مما لا يعقل ، وقيده بقوله : ﴿ من بعدي ﴾ لأن الخليفة كثيراً ما يخلف الغائب بسوء وإن كان مصلحاً في حضوره ، وأدخل الجار لأن أعمارهم لا تستغرق الزمان ﴿ قالوا نعبد إلهك ﴾ الذي خلقك ﴿ وإله آبائك ﴾ الذي خلقهم وبقي بعدهم ويبقى بعد كل شيء ولا بعد له ، كما كان قبل كل شيء ولا قبل له ؛ ثم بينوا الآباء بقولهم : ﴿ إبراهيم ﴾ أي جدك ﴿ وإسماعيل ﴾ لأنه عم والعم صنو الأب فهو أب مجازاً ﴿ وإسحاق ﴾ .

ولما تقدم ذكر الإله في إضافتين بينوا أن المراد به فيهما واحد تحقيقاً للبراءة من الشرك وتسجيلاً على أهل الكتاب بتحتم بطلان قولهم فقالوا : ﴿ إلهاً واحداً ﴾ ثم أخبروا بعد توحيدهم الذي تقدم أنه معنى الإحسان في قوله : ﴿ وهو محسن ﴾ [البقرة : 112]

بإخلاصهم في عبادتهم بقولهم ﴿ ونحن له ﴾ أي وحده لا للأب ولا غيره ﴿ مسلمون ﴾ أي لا اختيار لنا معه بل نحن له كالجمل الآنف حيثما قادنا انقدنا ، أي أم كنتم شهداء له في هذه الوصية لنشهد لكم بما شهدنا لبنيه الموجودين إذ ذاك من الإسلام فتكونوا من أهل الجنة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 251.252 ﴾

(34/67)

سؤال : ما نوع ﴿ أم ﴾ فى قوله تعالى ﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ ﴾ ؟

الجواب : فيه قولان الأول : أنها منقطعة عما قبلها ، ومعنى الهمزة فيها الإنكار أي : بل ما كنتم شهداء ، " والشهداء " جمع شهيد بمعنى الحاضر أي ما كنتم حاضرين عند ما حضر يعقوب الموت ، والخطاب مع أهل الكتاب ، كأنه تعالى قال لهم فيما كانوا يزعمون من أن الدين الذي هم عليه دين الرسل : كيف تقولون ذلك وأنتم تشهدون وصايا الأنبياء بالدين ولو شهدتم ذلك لتركتم ما أنتم عليه من الدين ولرغبتم في دين محمد - صلى الله عليه وسلم - الذي هو نفس ما كان عليه إبراهيم - عليه السلام - ويعقوب وسائر الأنبياء عليهم السلام بعده .

(35/67)

فإن قيل : الاستفهام على سبيل الإنكار إنما يتوجه على كلام باطل ، والمحكى عن يعقوب في هذه الآية ليس كلاًما باطلاً بل حقاً ، فكيف يمكن صرف الاستفهام على سبيل الإنكار إليه ؟

قلنا : الاستفهام على سبيل الإنكار متعلق بمجرد ادعائهم الحضور عند وفاته هذا هو الذي أنكره الله تعالى . فأما ذكره بعد ذلك من قول يعقوب ـ عليه السلام ـ : ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِى ﴾ فهو كلام مفصل بل كأنه تعالى لما أنكر حضورهم في ذلك الوقت شرح بعد ذلك كيفية تلك الوصية .

القول الثاني : في أن ﴿ أم ﴾ في هذه الآية متصلة ، وطريق ذلك أن يقدر قبلها محذوف كأنه قيل : أتدعون على الأنبياء اليهودية ، أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت ؛ يعني إن أوائلكم من بني إسرائيل كانوا مشاهدين له إذ دعا بنيه إلى ملة الإسلام والتوحيد ، وقد علمتم ذلك فما لكم تدعون على الأنبياء ما هم منه برآء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 4 صـ 67. 68 ﴾

سؤال : لفظة ﴿ ما ﴾ لغير العقلاء فكيف أطلقه في المعبود الحق ؟

وجوابه من وجهين : الأول : أن ﴿ ما ﴾ عام في كل شيء والمعنى أي شيء تعبدون .

والثاني : قوله : ﴿ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ كقولك عند طلب الحد والرسم : ما الإنسان ؟ .

أهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ4 صـ 68 ﴾

فائدة

حكى القاضي عن ابن عباس : أن يعقوب ـ عليه السلام ـ جمعهم إليه عند الوفاة ، وهم كانوا يعبدون الأوثان والنيران ، فقال : يا بني ما تعبدون من بعدي ؟ قالوا : نعبد إلهك وإله آبائك ثم قال القاضي : هذا بعيد لوجهين . الأول : أنهم بادروا إلى الاعتراف بالتوحيد مبادرة من تقدم منه العلم واليقين . الثاني : أنه تعالى ذكر في الكتاب حال الأسباط من أولاد يعقوب وأنهم كانوا قوماً صالحين وذلك لا يليق بحالهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ4 صـ 69 ﴾

سؤال : لم ذكر هذه العبارة ﴿ إذ حضر يعقوب الموت ﴾ قبل ذكر الخبر ؟

الجواب : قوله تعالى : ﴿ إذ قال لبنيه ﴾ بدل من ﴿ إذ حضر يعقوب الموت ﴾ وفائدة المجيء بالخبر على هذه الطريقة دون أن يقال أم كنتم شهداء إذ قال يعقوب لبنيه عند الموت ، هي قصد استقلال الخبر وأهمية القصة وقصد حكايتها على ترتيب حصولها ، وقصد الإجمال ثم التفصيل لأن حالة حضور الموت لا تخلو من حدث هام سيحكى بعدها فيترقبه

السامع وهذه الوصية جاءت عند الموت وهو وقت التعجيل بالحرص على إبلاغ النصيحة في آخر ما يبقى من كلام الموصى فيكون له رسوخ في نفوس الموصين . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ2 صـ 420 ﴾

أسئلة وأجوبة

وجاء يعقوب في وصيته بأسلوب الاستفهام لينظر مقدار ثباتهم على الدين حتى يطّلع على خالص طويتهم ليلقي إليهم ما سيوصيهم به من التذكير وجيء في السؤال بما الاستفهامية دون من لأن ما هي الأصل عند قصد العموم لأنه سألهم عما يمكن أن يعبده العابدون .

واقترن ظرف ﴿ بعدي ﴾ بحرف (من) لقصد التوكيد فإن (من) هذه في الأصل ابتدائية فقولك : جئت من بعد الزوال يفيد أنك جئت في أول الأزمنة بعد الزوال ثم عوملت معاملة حرف تأكيد .

وجملة : قالوا نعبد إلهك ﴾ جواب عن قوله : ﴿ ما تبعدون ﴾ جاءت على طريقة المحاورات بدون واو وليست استئنافاً لأن الاستئناف إنما يكون بعد تمام الكلام ولا تمام له قبل حصول الجواب .

وجيء في قوله : ﴿ نعبد إلهك ﴾ معرفاً بالإضافة دون الاسم العلم بأن يقول نعبد الله لأن إضافة إله إلى ضمير يعقوب وإلى آبائه تفيد جميع الصفات التي كان يعقوب وآباؤه يصفون الله بها فيما لقنه لأبنائه منذ نشأتهم ، ولأنهم كانوا سكنوا أرض كنعان وفلسطين مختلطين

ومصاهرين لأمم تعبد الأصنام من كنعانيين وفلسطينيين وحثيين وأراميين ثم كان موت يعقوب في أرض الفراعنة وكانوا يعبدون آلهة أخرى . وأيضاً فمن فوائد تعريف الذي يعبدونه بطريق الإضافة إلى ضمير أبيهم وإلى لفظ آبائه أن فيها إيماء إلى أنهم مقتدون بسلفهم .

وفي الإتيان بعطف البيان من قولهم ﴿ إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ﴾ ضرب من محسن الاطراد تنويهاً بأسماء هؤلاء الأسلاف كقول ربيعة بن نصر بن قعين :

إنْ يقتلوك فقد ثَللت عُروشهم . . . بعُتَيْبَةَ بن الحارث بن شهاب

وإنما أعيد المضاف في قوله : ﴿ وإلهك آبائك ﴾ لأن إعادة المضاف مع المعطوف على المضاف إليه أفصح في الكلام وليست بواجبة ، وإطلاق الآباء على ما شمل إسماعيل وهو عم ليعقوب إطلاق من باب التغليب ولأن العم بمنزلة الأب .

وإنما أعيد لفظ إلها ولم يقتصر على وصف واحداً لزيادة الإيضاح لأن المقام مقام إطناب ففي الإعادة تنويه بالمعاد وتوكيد لما قبله ، وهذا أسلوب من الفصاحة إذ يعاد اللفظ ليبنى عليه وصف أو متعلق ويحصل مع ذلك توكيد اللفظ السابق تبعاً ، وليس المقصود من ذلك

مجرد التوكيد ومنه قوله تعالى : ﴿ وإذا مروا باللغو مروا كراماً ﴾ [الفرقان : 72] وقوله : ﴿ إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم ﴾ [الإسراء : 7] وقوله : ﴿ واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون أمدكم بأنعام وبنين ﴾ [الشعراء : 132 ، 133] إذ أعاد فعل أمدكم .

أهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ2 صـ 421 ﴾ . بتصرف يسير ﴿

(38/67)

ومن لطائف الإمام القشيرى فى الآية الكريمة

قوله جلّ ذكره : ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ ﴾ .

جروا كلهم – صلوات الله عليهم – على منهاج واحد في التوحيد والإسلام ، وتوارثوا ذلك خَلَفًا عن سَلَف ، فهم أهل بيت الزلفة ، ومستحقو القربة ، والمُطَهَّرون من قِبَل الله – على الحقيقة .

قوله جلّ ذكره : ﴿ نعبد إِلَهَكَ وَإِلَهَ ءابَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ .

لم يقولوا إلهنا مراعاة لخصوصية قَدْره ، حيث سلموا له المزية ، ورأوا أنفسهم ملحقين بمقامه

، ثم أخبروا عن أنفسهم أنهم طيِّع له بقولهم ﴿ ونحن له مسلمون ﴾ .

أهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ1 صـ 128 ﴾

فروق لغوية دقيقة

الفرق بين الولد والابن

أن الابن يفيد الاختصاص ومداومة الصحبة ولهذا يقال ابن الفلاة لمن يداوم سلوكها وابن السرى لمن يكثر منه وتقول تبنيت ابنا إذا جعلته خاصا بك ويجوز أن يقال إن قولنا هو ابن فلان يقتضي أنه منسوب إليه ؛ ولهذا يقال الناس بنو آدم لأنهم منسوبون إليه وكذلك بنو إسرائيل ، والابن في كل شيء صغير فيقول الشيخ كانوا يسمعون أيهم أبناءهم ولهذا كني الرجل بأبي فلان وإن لم يكن له ولد على التعظيم والحكماء والعلماء يسمون المتعلمين أبناءهم ، ويقال لطالبي العلم أبناء العلم ، وقد يكنى بالابن كما يكنى بالأب كقولهم ابن عرس وابن تمرة وابن آوى وبنات طبق وبنات نعش وبنات وردان

وقيل أصل الابن التأليف والاتصال من قولك بنية وهو مبني وأصله بني وقيل بنو ولهذا جمع على أبناء فكان بين الأب والابن تأليف والولد يقتضي الولادة ولا يقتضيها الابن ، والابن

يقتضي أبا يقتضي والدا ولا يسمى الإنسان والدا إلا إذا صار له ولد وليس هو مثل الأب لأنهم يقولون في التكنية أبو فلان وإن لم يلد فلانا ولا يقولون في هذا والد فلان إلا أنهم قالوا في الشاة والد في حملها قبل أن تلد وقد ولدت إذا ولدت يقال الابن للذكر والولد للذكر والأنثى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الفروق فى اللغة صـ 241 ﴾

من فوائد الإمام الجصاص فى الآية

قال رحمه الله :

بَابُ مِيرَاثِ الْجَدِّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا ﴾ فَسَمَّى الْجَدَّ وَالْعَمَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا أَبًا ، وَقَالَ تَعَالَى حَاكِيًا عَنْ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ وَقَدْ احْتَجَّ ابْنُ عَبَّاسٍ بِذَلِكَ فِي تَوْرِيثِ الْجَدِّ دُونَ الْإِخْوَةِ .

وَرَوَى الْحَجَّاجُ عَنْ عَطَاءٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : " مَنْ شَاءَ لَاعَنْتُهُ عِنْدَ الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ أَنَّ الْجَدَّ أَبٌ وَاَللَّهِ مَا ذَكَرَ اللَّهُ جَدًّا وَلَا جَدَّةً إلَّا أَنَّهُمْ الْآبَاءُ ﴿ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ

وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ .

وَاحْتِجَاجُ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي تَوْرِيثِ الْجَدِّ دُونَ الْإِخْوَةِ وَإِنْزَالِهِ مَنْزِلَةَ الْأَبِ فِي الْمِيرَاثِ عِنْدَ فَقْدِهِ يَقْتَضِي جَوَازَ الِاحْتِجَاجِ بِظَاهِرِ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ ﴾ فِي اسْتِحْقَاقِهِ الثُّلُثَيْنِ دُونَ الْإِخْوَةِ كَمَا يَسْتَحِقُّ الْأَبُ دُونَهُمْ إذَا كَانَ بَاقِيًا ؛ وَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ إطْلَاقَ اسْمِ الْأَبِ يَتَنَاوَلُ الْجَدَّ ، فَاقْتَضَى ذَلِكَ أَنْ لَا يَخْتَلِفَ حُكْمُهُ وَحُكْمُ الْأَبِ فِي الْمِيرَاثِ ؛ إذْ لَمْ يَكُنْ أَبٌ ؛ وَهُوَ مَذْهَبُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ فِي آخَرِينَ مِنْ الصَّحَابَةِ ، قَالَ عُثْمَانُ : قَضَى أَبُو بَكْرٍ أَنَّ الْجَدَّ أَبٌ ، وَأَطْلَقَ اسْمَ الْأُبُوَّةِ عَلَيْهِ .

وَهُوَ قَوْلُ أَبِي حَنِيفَةَ .

وَقَالَ أَبُو يُوسُفَ وَمُحَمَّدٌ وَمَالِكٌ وَالشَّافِعِيُّ بِقَوْلِ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ فِي الْجَدِّ أَنَّهُ بِمَنْزِلَةِ الْإِخْوَةِ مَا لَمْ تَنْقُصْهُ الْمُقَاسَمَةُ مِنْ الثُّلُثِ فَيُعْطَى الثُّلُثَ وَلَمْ يُنْقِصْ مِنْهُ شَيْئًا .

وَقَالَ ابْنُ أَبِي لَيْلَى بِقَوْلِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الْجَدِّ أَنَّهُ بِمَنْزِلَةِ أَحَدِ الْإِخْوَةِ مَا لَمْ تَنْقُصْهُ الْمُقَاسَمَةُ مِنْ السُّدُسِ ، فَيُعْطَى السُّدُسَ وَلَمْ يُنْقِصْ مِنْهُ شَيْئًا ، وَقَدْ ذَكَرْنَا اخْتِلَافَ الصَّحَابَةِ فِيهِ فِي شَرْحِ مُخْتَصَرِ الطَّحَاوِيِّ .

وَالْحِجَاجُ لِلْفَرْقِ الْمُخْتَلِفِينَ فِيهِ إلَّا أَنَّ الْحِجَاجَ بِالْآيَةِ فِيهِ مِنْ وَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا : ظَاهِرُ تَسْمِيَةِ اللَّهِ تَعَالَى إيَّاهُ أَبًا ، وَالثَّانِي : احْتِجَاجُ ابْنِ عَبَّاسٍ بِذَلِكَ وَإِطْلَاقُهُ أَنَّ الْجَدَّ أَبٌ ، وَكَذَلِكَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ ؛ لِأَنَّهُمَا مِنْ أَهْلِ اللِّسَانِ لَا يَخْفَى عَلَيْهِمَا حُكْمُ الْأَسْمَاءِ مِنْ طَرِيقِ اللُّغَةِ ؛ وَإِنْ كَانَا أَطْلَقَاهُ مِنْ جِهَةِ الشَّرْعِ فَحُجَّتُهُ ثَابِتَةٌ ؛ إذْ كَانَتْ أَسْمَاءُ الشَّرْعِ طَرِيقُهَا التَّوْقِيفُ ، وَمَنْ يَدْفَعُ الِاحْتِجَاجَ بِهَذَا الظَّاهِرِ يَقُولُ : إنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ سَمَّى الْعَمَّ أَبًا فِي الْآيَةِ لِذِكْرِهِ إسْمَاعِيلَ فِيهَا وَهُوَ عَمُّهُ وَلَا يَقُومُ مَقَامَ الْأَبِ ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ رُدُّوا عَلَيَّ أَبِي ﴾ يَعْنِي الْعَبَّاسَ وَهُوَ عَمُّهُ قَالَ أَبُو بَكْرٍ : وَيَعْتَرِضُ عَلَيْهِ مِنْ جِهَةِ أَنَّ الْجَدَّ إنَّمَا سُمِّيَ أَبًا عَلَى وَجْهِ الْمَجَازِ لِجَوَازِ انْتِفَاءِ اسْمِ الْأَبِ عَنْهُ ؛ لِأَنَّك لَوْ قُلْت لِلْجَدِّ إنَّهُ لَيْسَ بِأَبٍ لَكَانَ ذَلِكَ نَفْيًا صَحِيحًا ، وَأَسْمَاءُ الْحَقَائِقِ لَا تَنْتَفِي عَنْ مُسَمَّيَاتِهَا بِحَالٍ .

وَمِنْ جِهَةٍ أُخْرَى أَنَّ الْجَدَّ إنَّمَا سُمِّيَ أَبًا بِتَقْيِيدٍ ، وَالْإِطْلَاقُ لَا يَتَنَاوَلُهُ ، فَلَا يَصِحُّ الِاحْتِجَاجُ فِيهِ بِعُمُومِ لَفْظِ الْأَبَوَيْنِ فِي الْآيَةِ ، وَمِنْ جِهَةٍ أُخْرَى أَنَّ الْأَبَ الْأَدْنَى فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ ﴾ مُرَادٌ بِالْآيَةِ فَلَا جَائِزَ أَنْ يُرَادَ بِهِ الْجَدُّ ؛ لِأَنَّهُ مَجَازٌ وَلَا يَتَنَاوَلُ الْإِطْلَاقُ لِلْحَقِيقَةِ وَالْمَجَازِ فِي لَفْظٍ وَاحِدٍ .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : فَأَمَّا دَفْعُ الِاحْتِجَاجِ بِعُمُومِ لَفْظِ الْأَبِ فِي إثْبَاتِ الْجَدِّ أَبًا مِنْ حَيْثُ سُمِّيَ الْعَمُّ أَبًا فِي الْآيَةِ مَعَ اتِّفَاقِ الْجَمِيعِ عَلَى أَنَّهُ لَا يَقُومُ مَقَامَ الْأَبِ بِحَالٍ ، فَإِنَّهُ مِمَّا لَا يُعْتَمَدُ ؛ لِأَنَّ إطْلَاقَ اسْمِ الْأَبِ إنْ كَانَ يَتَنَاوَلُ الْجَدَّ وَالْعَمَّ فِي اللُّغَةِ وَالشَّرْعِ فَجَائِزٌ اعْتِبَارُ عُمُومِهِ فِي سَائِرِ مَا أُطْلِقَ فِيهِ ، فَإِنْ خُصَّ الْعَمُّ بِحُكْمٍ دُونَ الْجَدِّ لَا يَمْنَعُ ذَلِكَ بَقَاءَ حُكْمِ الْعُمُومِ فِي الْجَدِّ وَيَخْتَلِفَانِ أَيْضًا فِي الْمَعْنَى مِنْ قِبَلِ أَنَّ الْأَبَ إنَّمَا سُمِّيَ بِهَذَا الِاسْمِ ؛ لِأَنَّ الِابْنَ مَنْسُوبٌ إلَيْهِ بِالْوِلَادَةِ ، وَهَذَا الْمَعْنَى مَوْجُودٌ فِي الْجَدِّ ، وَإِنْ كَانَا يَخْتَلِفَانِ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى أَنَّ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَدِّ وَاسِطَةٌ وَهُوَ الْأَبُ ، وَلَا وَاسِطَةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْأَبِ ؛ وَالْعَمُّ لَيْسَتْ لَهُ هَذِهِ الْمَنْزِلَةُ ؛ إذْ لَا نِسْبَةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ مِنْ طَرِيقِ الْوِلَادِ .

أَلَا تَرَى أَنَّ الْجَدَّ وَإِنْ بَعُدَ فِي الْمَعْنَى بِمَعْنَى مَنْ قَرُبَ فِي إطْلَاقِ الِاسْمِ وَفِي الْحُكْمِ جَمِيعًا ؛ إذْ لَمْ يَكُنْ مَنْ هُوَ أَقْرَبُ مِنْهُ ، فَكَانَ لِلْجَدِّ هَذَا الضَّرْبُ مِنْ الِاخْتِصَاصِ ، فَجَائِزٌ أَنْ يَتَنَاوَلَ

إطْلَاقُ اسْمِ الْأَبِ ، وَلَمَّا لَمْ يَكُنْ لِلْعَمِّ هَذِهِ الْمَزِيَّةُ لَمْ يُسَمَّ بِهِ مُطْلَقًا ، وَلَا يُعْقَلُ مِنْهُ أَيْضًا إلَّا بِتَقْيِيدٍ ، وَالْجَدُّ مُسَاوٍ لِلْأَبِ فِي مَعْنَى الْوِلَادِ فَجَائِزٌ أَنْ يُسَمَّى وَلَهُ اسْمُ الْأَبِ وَأَنْ يَكُونَ حُكْمُهُ عِنْدَ فَقْدِهِ حُكْمَهُ ، وَأَمَّا مَنْ دَفَعَ ذَلِكَ مِنْ جِهَةِ أَنَّ تَسْمِيَةَ الْجَدِّ بِاسْمِ الْأَبِ مَجَازٌ ، وَأَنَّ الْأَبَ الْأَدْنَى مُرَادٌ بِالْآيَةِ ، فَغَيْرُ جَائِزٍ إرَادَةُ الْجَدِّ بِهِ لِانْتِفَاءِ أَنْ يَكُونَ اسْمٌ وَاحِدٌ مَجَازًا حَقِيقَةً ؛ فَغَيْرُ وَاجِبٍ مِنْ قِبَلِ أَنَّهُ جَائِزٌ أَنْ يُقَالَ إنَّ الْمَعْنَى الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ سُمِّيَ الْأَبُ بِهَذَا الِاسْمِ وَهُوَ النِّسْبَةُ إلَيْهِ مِنْ طَرِيقِ الْوِلَادِ مَوْجُودٌ فِي الْجَدِّ .

وَلَمْ يَخْتَلِفْ الْمَعْنَى الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ قَدْ سُمِّيَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا ، فَجَازَ إطْلَاقُ الِاسْمِ عَلَيْهِمَا وَإِنْ كَانَ أَحَدُهُمَا أَخَصَّ بِهِ مِنْ الْآخَرِ كَالْإِخْوَةِ يَتَنَاوَلُ جَمِيعَهُمْ هَذَا الِاسْمُ لِأَبٍ كَانُوا أَوْ لِأَبٍ وَأُمٍّ ، وَيَكُونُ الَّذِي

لِلْأَبِ وَالْأُمِّ أَوْلَى بِالْمِيرَاثِ وَسَائِرِ أَحْكَامِ الْأُخُوَّةِ مِنْ الَّذِينَ لِلْأَبِ وَالِاسْمُ فِيهِمَا جَمِيعًا حَقِيقَةٌ وَلَيْسَ يَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ الِاسْمُ حَقِيقَةً فِي مَعْنَيَيْنِ وَإِنْ كَانَ الْإِطْلَاقُ إنَّمَا يَتَنَاوَلُ أَحَدَهُمَا دُونَ الْآخَرِ ، أَلَا تَرَى أَنَّ اسْمَ النَّجْمِ يَقَعُ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ نُجُومِ السَّمَاءِ حَقِيقَةً ، وَالْإِطْلَاقُ عِنْدَ الْعَرَبِ يَتَنَاوَلُ النَّجْمَ الَّذِي هُوَ الثُّرَيَّا ؟ يَقُولُ الْقَائِلُ مِنْهُمْ : فَعَلَتْ كَذَا وَكَذَا وَالنَّجْمُ عَلَى قِمَّةِ

الرَّأْسِ ؛ يَعْنِي الثُّرَيَّا وَلَا تَعْقِلُ الْعَرَبُ بِقَوْلِهَا طَلَعَ النَّجْمُ " عِنْدَ الْإِطْلَاقِ غَيْرَ الثُّرَيَّا ؛ وَقَدْ سَمَّوْا هَذَا الِاسْمَ لِسَائِرِ نُجُومِ السَّمَاءِ عَلَى الْحَقِيقَةِ ، فَكَذَلِكَ اسْمُ الْأَبِ لَا يَمْتَنِعُ عِنْدَ الْمُحْتَجِّ بِمَا وَصَفْنَا أَنْ يَتَنَاوَلَ الْأَبَ وَالْجَدَّ عَلَى الْحَقِيقَةِ وَإِنْ اخْتُصَّ الْأَبُ بِهِ فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ ، وَلَا يَكُونُ فِي اسْتِعْمَالِ اسْمِ الْأَبِ فِي الْأَبِ الْأَدْنَى وَالْجَدِّ إِيجَابُ كَوْنِ لَفْظَةٍ وَاحِدَةٍ حَقِيقَةً مَجَازًا .

فَإِنْ قِيلَ : لَوْ كَانَ اسْمُ الْأَبِ مُخْتَصًّا بِالنِّسْبَةِ مِنْ طَرِيقِ الْوِلَادِ لَلَحِقَ الْأُمَّ هَذَا الِاسْمُ لِوُجُودِ الْوِلَادِ فِيهَا ، فَكَانَ الْوَاجِبُ أَنْ تُسَمَّى الْأُمُّ أَبًا ، وَكَانَتْ الْأُمُّ أَوْلَى بِذَلِكَ مِنْ الْأَبِ وَالْجَدِّ لِوُجُودِ الْوِلَادَةِ حَقِيقَةً مِنْهَا قِيلَ لَهُ : لَا يَجِبُ ذَلِكَ ؛ لِأَنَّهُمْ قَدْ خَصُّوا الْأُمَّ بِاسْمٍ دُونَهُ لِيُفَرِّقُوا بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ وَإِنْ كَانَ الْوَلَدُ مَنْسُوبًا إلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِالْوِلَادِ ، وَقَدْ سَمَّى اللَّهُ تَعَالَى الْأُمَّ أَبًا حِينَ جَمَعَهَا مَعَ الْأَبِ فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ ﴾ .

وَمِمَّا يَحْتَجُّ لِأَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ وَلِلْقَائِلِينَ بِقَوْلِهِ أَنَّ الْجَدَّ يَجْتَمِعُ لَهُ الِاسْتِحْقَاقُ بِالنِّسْبَةِ وَالتَّعْصِيبِ مَعًا .

أَلَا تَرَى أَنَّهُ لَوْ تَرَكَ بِنْتًا وَجَدًّا كَانَ لِلْبِنْتِ النِّصْفُ وَلِلْجَدِّ السُّدُسُ وَمَا بَقِيَ

(47/67)

بِالنَّسْبَةِ وَالتَّعْصِيبِ ، كَمَا لَوْ تَرَكَ بِنْتًا وَأَبًا يَسْتَحِقُّ بِالنَّسْبَةِ وَالتَّعْصِيبِ مَعًا فِي حَالٍ وَاحِدَةٍ ؟ فَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ بِمَنْزِلَتِهِ فِي اسْتِحْقَاقِ الْمِيرَاثِ دُونَ الْإِخْوَةِ وَالْأَخَوَاتِ وَوَجْهٌ آخَرُ : وَهُوَ أَنَّ الْجَدَّ يَسْتَحِقُّ بِالتَّعْصِيبِ مِنْ طَرِيقِ الْوِلَادِ ، فَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ بِمَنْزِلَةِ الْأَبِ فِي نَفْيِ مُشَارَكَةِ الْإِخْوَةِ ، إذْ كَانَتْ الْإِخْوَةُ إنَّمَا تَسْتَحِقُّهُ بِالتَّعْصِيبِ مُنْفَرِدًا عَنْ الْوِلَادَةِ ، وَوَجْهٌ آخَرُ فِي نَفْيِ الشَّرِكَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْإِخْوَةِ عَلَى وَجْهِ الْمُقَاسَمَةِ ، وَهُوَ أَنَّ الْجَدَّ يَسْتَحِقُّ السُّدُسَ مَعَ الِابْنِ كَمَا يَسْتَحِقُّهُ الْأَبُ مَعَهُ ، فَلَمَّا لَمْ يَسْتَحِقَّ الْإِخْوَةُ مَعَ الْأَبِ بِهَذِهِ الْعِلَّةِ وَجَبَ أَنْ لَا يَجِبَ لَهُمْ ذَلِكَ مَعَ الْجَدِّ .

(48/67)

فَإِنْ قِيلَ : الْأُمُّ تَسْتَحِقُّ السُّدُسَ مَعَ الِابْنِ وَلَمْ يَنْتَفِ بِذَلِكَ تَوْرِيثُ الْإِخْوَةِ مَعَهَا قِيلَ لَهُ : إنَّمَا نُصِّفَ بِهَذِهِ الْعِلَّةِ لِنَفْيِ الشَّرِكَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْإِخْوَةِ عَلَى وَجْهِ الْمُقَاسَمَةِ ، وَإِذَا انْتَفَتْ الشَّرِكَةُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ فِي الْمُقَاسَمَةِ إذَا انْفَرَدُوا مَعَهُ سَقَطَ الْمِيرَاثُ ؛ لِأَنَّ كُلَّ مَنْ وَرِثَهُمْ مَعَهُ يُوجِبُ

الْقِسْمَةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ إذَا لَمْ يَكُنْ غَيْرُهُمْ عَلَى اعْتِبَارٍ مِنْهُمْ فِي الثُّلُثِ أَوْ السُّدُسِ ، وَأَمَّا الْأُمُّ فَلَا تَقَعُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْإِخْوَةِ مُقَاسَمَةٌ بِحَالٍ ، وَنَفْيُ الْقِسْمَةِ لَا يَنْفِي مِيرَاثَهُمْ ، وَنَفْيُ مُقَاسَمَةِ الْإِخْوَةِ لِلْجَدِّ إذَا انْفَرَدُوا يُوجِبُ إسْقَاطَ مِيرَاثِهِمْ مَعَهُ ؛ إذْ كَانَ مَنْ يُوَرِّثُهُمْ مَعَهُ إنَّمَا يُوَرِّثُهُمْ بِالْمُقَاسَمَةِ وَإِيجَابِ الشَّرِكَةِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ .

فَلَمَّا سَقَطَ الْمُقَاسَمَةُ بِمَا وَصَفْنَا سَقَطَ مِيرَاثُهُمْ مَعَهُ ؛ إذْ لَيْسَ فِيهِ إلَّا قَوْلَانِ : قَوْلُ مَنْ يُسْقِطُ مَعَهُ مِيرَاثَهُمْ رَأْسًا ، وَقَوْلُ مَنْ يُوجِبُ الْمُقَاسَمَةَ ، فَلَمَّا بَطَلَتْ الْمُقَاسَمَةُ بِمَا وَصَفْنَا ثَبَتَ سُقُوطُ مِيرَاثِهِمْ مَعَهُ ، فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ

: الْجَدُّ يُدْلِي بِابْنِهِ وَهُوَ أَبُو الْمَيِّتِ ، وَالْأَخُ يُدْلِي بِأَبِيهِ ، فَوَجَبَتْ الشَّرِكَةُ بَيْنَهُمَا كَمَنْ تَرَكَ أَبَاهُ وَابْنَهُ قِيلَ لَهُ : هَذَا غَلَطٌ مِنْ وَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّهُ لَوْ صَحَّ هَذَا الِاعْتِبَارُ لَمَا وَجَبَتْ الْمُقَاسَمَةُ بَيْنَ الْجَدِّ وَالْأَخِ ، بَلْ كَانَ الْوَاجِبُ أَنْ يَكُونَ لِلْجَدِّ السُّدُسُ وَلِلْأَخِ مَا بَقِيَ ، كَمَنْ تَرَكَ أَبًا وَابْنًا ، لِلْأَبِ السُّدُسُ وَالْبَاقِي لِلِابْنِ .

وَالْوَجْهُ الْآخَرُ : أَنَّهُ يُوجِبُ أَنْ يَكُونَ الْمَيِّتُ إذَا تَرَكَ جَدَّ أَبٍ وَعَمًّا أَنْ يُقَاسِمَهُ الْعَمُّ ؛ لِأَنَّ جَدَّ الْأَبِ يُدْلِي بِالْجَدِّ الْأَدْنَى ، وَالْعَمُّ أَيْضًا يُدْلِي بِهِ ؛ لِأَنَّهُ ابْنُهُ ، فَلَمَّا اتَّفَقَ الْجَمِيعُ عَلَى سُقُوطِ

مِيرَاثِ الْعَمِّ مَعَ جَدِّ الْأَبِ مَعَ وُجُودِ الْعِلَّةِ الَّتِي وُصِفَتْ دَلَّ عَلَى انْتِقَاضِهَا وَفَسَادِهَا وَيَلْزَمُهُ أَيْضًا عَلَى هَذَا الِاعْتِلَالِ أَنَّ ابْنَ الْأَخِ يُشَارِكُ الْجَدَّ فِي الْمِيرَاثِ ؛ لِأَنَّهُ يَقُولُ : أَنَا ابْنُ ابْنِ الْأَبِ ، وَالْجَدُّ أَبُ الْأَبِ ، وَلَوْ تَرَكَ أَبًا وَابْنَ ابْنٍ كَانَ لِلْأَبِ السُّدُسُ وَمَا بَقِيَ لِابْنِ الِابْنِ . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 1 صـ 100. 104 ﴾

(50/67)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (133) ﴾

هذا خطاب من يعقوب ينطبق ويمس اليهود المعاصرين لنزول القرآن الكريم . . يعقوب قال لأبنائه ماذا تعبدون من بعدي : " قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل واسحق إلها واحدا ونحن له مسلمون" . هذا إقرار من الأسباط أبناء يعقوب بأنهم مسلمون وأن آباءهم مسلمون . . وتأمل دقة الأداء القرآني في قوله تعالى : " نعبد إلهك وإله آبائك" . . فكأنه لم يحدث بعد موت إبراهيم وحين كان يعقوب يموت لم يحدث أن تغير المعبود وهو الله

سبحانه وتعالى الواحد . . ولذلك قالوا كما يروي لنا القرآن الكريم : "إلها واحدا" . .

وسنأخذ من هذه الآية لقطة تفيدنا في أشياء كثيرة لأن القرآن سيتعرض في قصة إبراهيم أنه تحدث مع أبيه في شئون العقيدة . . فقال كما يروي لنا القرآن الكريم :

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ (74)

(سورة الأنعام)

ونحن نعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم من سلالة إسماعيل ابن إبراهيم . .

والرسول عليه الصلاة والسلام قال : (أنا سيد ولد آدم) أخرجه الإمام مسلم . فإذا كان آزر أبو إبراهيم كافراً وعابداً للأصنام . . فكيف تصح سلسلة النسب الشريف ؟ نقول إنه لو أن القرآن قال " وإذا قال إبراهيم لأبيه" وسكت لكان المعنى أن المخاطب هو أبو إبراهيم . . ولكن قول الله : " لأبيه آزر " . . جاءت لحكمة . لأنه ساعة يذكر اسم الأب يكون ليس الأب ولكن العم . . فأنت إذا دخلت منزلا وقابلك أحد الأطفال تقول له هل أبوك موجود ولا تقول أبوك فلان لأنه معروف بحيث لن يخطئ الطفل فيه . . ولكن إذا كنت تقصد العم فإنك تسأل الطفل هل أبوك فلان موجود ؟ فأنت في هذه الحالة تقصد العم ولا

تقصد الأب . . لأن العم في منزلة الأب خصوصا إذا كان الأب متوفيا .

إذن قول الحق سبحانه وتعالى : " لأبيه آزر " بذكر الاسم فمعناه لعمه آزر . . فإذا قال إنسان هل هناك دليل على ذلك ؟ نقول نعم هناك دليل من القرآن في هذه الآية الكريمة : " أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك " . . والآباء جمع أب ، ثم حدد الله تبارك وتعالى الآباء ، إبراهيم وهو الجد يطلق عليه أب . . وإسماعيل وهو العم يطلق عليه أب واسحق وهو أبو يعقوب وجاء إسماعيل قبل اسحق .

إذن ففي هذه الآية جمع أب من ثلاثة هم إبراهيم وإسماعيل واسحق . . ويعقوب الذي حضره الموت وهو ابن اسحق ، ولكن أولاد يعقوب لما خاطبوا أباهم قالوا آباءك ثم جاءوا بأسمائهم بالتحديد . . وهم إبراهيم الجد وإسماعيل العم واسحق أبو يعقوب وأطلقوا عليهم جميعا لقب الأب . . فكأن إسماعيل أطلق عليه الأب وهو العم وإبراهيم أطلق عله الأب وهو الجد واسحق أطلق عليه الأب وهو الأب . .

<فإذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أنا أشرف الناس حسباً ولا فخر " >

أخرجه الديلمى فى مسند الفردوس

يقول بعض الناس كيف ذلك ووالد إبراهيم كان غير مسلم . .

<ورسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " أنا سيد ولد آدم " > أخرجه الإمام مسلم

فإذا قال أحدهم كيف هذا وأبو إبراهيم عليه السلام كان مشركا عابدا للأصنام . . نقول له لم يكن آزر أبا لإبراهيم وإنما كان عمه ، ولذلك قال القرآن الكريم " لأبيه آزر " وجاء بالاسم يريد به الأبوة غير الحقيقية . . فأبوة إبراهيم وأبوة اسحق معلومة لأولاد يعقوب . . ولكن إسماعيل كان مقيما في مكة بعيدا عنهم ، فلماذا جاء اسمه بين إبراهيم واسحق ؟ نقول جاء بالترتيب الزمني لأن إسماعيل اكبر من اسحق بأربعة عشر عاما . . وكونه وصف الثلاثة بأنهم آباء . . إشارة لنا من الله سبحانه وتعالى أن لفظ الأب يطلق على العم . . والله تبارك وتعالى يريدنا أن نتنبه لمعنى كلمة آزر . . ويريد أن يلفتنا أيضا إلي أن تعدد البلاغ عن الله لا يعني تعدد الآلهة . . لذلك قال سبحانه : " إلها واحدا " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 597 . 599 ﴾

" فصل "

قال السيوطى :

أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (133)

أخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية في قوله ﴿ أم كنتم شهداء ﴾ يعني أهل مكة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن في قوله ﴿ أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت ﴾ الآية . قال : يقول لم تشهد اليهود ولا النصارى ولا أحد من الناس يعقوب إذ أخذ على بنيه الميثاق إذ حضره الموت ألا تعبدوا إلا إياه ، فأقروا بذلك وشهد عليهم أن قد أقروا بعبادتهم ، وأنهم مسلمون .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس . أنه كان يقول : الجد أب ، ويتلو ﴿ قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ﴾ .

وأخرج ابن جرير عن أبي زيد في الآية قال : يقال بدأ بإسمعيل لأنه أكبر .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية في الآية قال : سمى العم أبا .

وأخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن كعب قال : الخال والد والعم والد ، وتلا ﴿ قالوا نعبد إلهك وإله آبائك . . . ﴾ الآية .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن أنه كان يقرأ ﴿ نعبد إلهك وإله أبيك ﴾ على معنى الواحد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 1 صـ 336.337 ﴾

" فوائد بلاغية "

قال في صفوة التفاسير :

البلاغة :

1- [ومن يرغب] استفهام يراد به الإنكار والتقريع ، وقع فيه معنى النفي أي لا يرغب عن ملة إبراهيم إلا السفيه الأحمق ، والجملة واردة مورد التوبيخ للكافرين .

2- التأكيد ب " إن " و " اللام " [وإنه في الآخرة لمن الصالحين] لأنه لما كان إخباراً عن حالة مغيبة في الآخرة ، احتاجت إلى تأكيد ، بخلاف حال الدنيا فإنه معلوم ومشاهد .

3- [إذ قال له ربه أسلم] هو من باب الالتفاف إذ السياق [إذ قلنا] والالتفات من محاسن البيان ، والتعرض بعنوان الربوبية [ربه] لإظهار مزيد اللطف والاعتناء بتربيته ، كما أن جواب إبراهيم جاء على هذا المنوال [أسلمت لرب العالمين] ولم يقل : أسلمت لك للإيذان بكمال قوة إسلامه ، وللإشارة إلى أن من كان رباً للعالمين ، لا يليق إلا أن يتلقى أمره بالخضوع

وحسن الطاعة.

4- قوله: [آبائك] شمل العم، والأب، والجد، فالجد إبراهيم، والعم إسماعيل، والأب إسحاق، وهو من باب "التغليب" وهو من المجازات المعهودة في فصيح الكلام. انتهى انتهى. اهـ ﴿صفوة التفاسير حـ 1 صـ 97﴾

"فوائد لغوية وإعرابية"

قال ابن عادل:

قوله تعالى ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (133)﴾

"أم" في أم هذه ثلاثة أقوال:

أحدها وهو المشهور: أنها منقطعة والمنقطعة تقدر بـ "بل"، وهمزة الاستفهام. وبعضهم يقدرها بـ "بل" وحدها، ومعنى الإضراب انتقال من شيء إلى شيء لا إبطال. ومعنى الاستفهام الإنكار والتوبيخ فيؤول معناه إلى النفي، أي: بل أكنتم شهداء يعني لم تكونوا.

الثاني : أنها بمعنى همزة الإستفهام من وهو قول ابن عطية والطبري ، إلا أنهما اختلفا في محلها . فإن ابن عطية قال : و" إم " تكون بمعنى ألف الاستفهام ف يصدر الكلام ، لغة يمانية .

وقال الطبري : إن أم يستفهم بها وسط كلام قد تقدم صدره .

قال أبو حيان في قول ابن عطية : " ولم أقف لأحد من النحويين على ما قال " .

وقال في قول الطبري : وهذا أيضاً قول غريب .

الثالث : أنها متصلة ، وهو قول الزمخشري .

قال الزمخشري بعد أن جعلها منقطعة ، وجعل الخطاب للمؤمنين قال بعد ذلك : وقيل : الخطاب لليهود ؛ لأنهم كانوا يقولون : ما مات نبي إلا على اليَهُودية ، إلا أنهم لو شهدوه ، وسمعوا ما قاله لبنيه ، وما قاله لظهر لهم حرصُه على ملّة الإسلام ، ولَمَا ادَّعوا عليه اليهودية ، فالآية الكريمة مُنَافية لقولهم ، فكيف يقال لهم : أم كنتم شهداء ؟

ولكن الوجه أن تكون " أم " متصلة على أن يقدر قبلها محذوف كأنه قيل : أَتَدَّعُون على الأنبياء اليهودية أم كنتم شهداء ، يعني أن أوائلكم من بني إسرائيل كانوا مشاهدين له إذْ أراد بنيه على التوحيد وملّة الإسلام ، فما لكم تَدَّعُونَ على الأنبياء ما هم منه براء ؟

قال أبو حيان : ولا أعلم أحداً أجاز حذف هذه الجملة ، لا يحفظ ذلك في شعر ولا غيره ، لو قلت " أم زيد " تريد : " أقام عمرو وأم زيد " لم يجز ، وإنما يجوز حذف المعطوف عليه مع الواو والفاء إذا دلّ عليه دليل كقولك : " بلى وعمراً " لمن قال : لم يضرب زيداً ، وقوله تعالى : ﴿ فانفجرت ﴾ [البقرة : 60] أي فضرب فانفجرت ، وندر حذفه مع " أو " ؛ كقوله : [الطويل]

799 فَهَلْ لَكَ أَوْ مِنْ وَالِدٍ لَكَ قَبْلَنَا . . . . . .

أي : من أخ أو والد ، ومع حتى كقوله : [الطويل]

800 فَوَعَجَبَا حَتَّى كُلَيْبٌ تُسُبُّنِي . . . كَأَنَّ أَبَاهَا نَهْشَلٌ أَوْ مُجَاشِعُ

أي : يسبني الناسُ حتى كليبٌ ، على نظر فيه ، وإنما الجائز حذف " أم " مع ما عطفت كقوله : [الطويل]

801 دَعَانِي إِلَيْهَا الْقَلْبُ إِنِّي لأَمْرِهِ . . . سَمِيعٌ فَمَا أَدْرِي أَرُشْدٌ طِلاَبُهَا

أي : أم غَيٌّ ، وإنما جاز ذلك ؛ لإن المستفهم على الإثبات يتضمّن نقيضه ، ويجوز حذف الثواني المقابلات إذا دلّ عليها المعنى ، ألا ترى إلى قوله : ﴿ تَقِيكُمُ الحر ﴾ [النحل : 81] كيف حذف و " الْبَرْدَ " انتهى .

و " شهداء " خبر كان ، وهو جمع شاهد أو شهيد ، وقد تقدم أول السورة .

قوله : " إذ حضر " إذ منصوب بشهداء على أنه ظرف لا مفعول به أي : شهداء وقت حضور الموت إياه ، وحضور الموت كناية عن حضور أسبابه مقدماته ؛ قال الشاعر : [البسيط]

802 وَقُلْ لَهُمْ بَادِرُوا بِالعُذْرِ وَالْتَمِسُوا . . . قَوْلاً يُبَرِّئُكُمْ إِنِّي أَنَا الْمَوْتُ

أي : أنا سببه ، والمشهور نصب " يعقوب " ، ورفع " الموت " ، قدم المفعول اهتماماً وقرأ بعضهم بالعكس .

وقرئ : " حَضِر " بكسر الضاد ، قالوا : والمضارع يَحْضُر بالضم شاذ ، وكأنه من التداخل وقد تقدم .

قوله : " إِذْ قَالَ " ، " إذ " هذه فيها قولان :

أحدهما : بدل من الأولى ، والعامل فيها ، إما العامل في " إذ " الأولى إن قلنا : إن البدل لا على نية تكرار العامل ، أو عامل مضمر إن قلنا بذلك .

الثاني : أنها ظرف لـ " حضر " .

قوله : " مَا تَعْبُدُونَ " ، ما اسم استفهام في محلّ نصب ؛ لأنه مفعول مقدم بتعبدون ، وهو

واجب التقديم ؛ لأن له صدر الكلام

قوله : " إلهاً واحداً " فيه ثلاثة أَوْجُهٍ :

أحدها : أَنَّهُ بَدَلٌ من " إلهك " بدل نكرة موصوفة من معرفة كقوله : ﴿ بالناصية نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ ﴾ [العلق : 1516] .

والبصريون لا يشترطون الوصف مستدلين بقوله : [الوافر]

805 فَلاَ وَأَبِيكِ خَيْرٍ مِنْكِ إِنِّي . . . لَيُؤْذِينِي التَّحَمْحُمُ والصَّهِيلُ

ف " خير " يدلٌ من " أبيك " ، وهو نكرةٌ غيرُ موصوفةٍ .

والثاني : أَنَّهُ حال من " إلهك " والعامل فيه " نعبد " ، وفائدة البدل الحال التنصيص على أَنَّ معبودهم فَرْدٌ إذْ إضافة الشيء إلى كثير تُوهِم تَعْدَادَ المضاف ، فنصَّ بها على نفي ذلك الإبهام . وهذه الحال تمسى " حالاً مُوَطِّئَة " ، وهي أن تذكرها ذاتاً موصوفة ، نحو : جاء زيد رجلاً صالحاً .

الثالث : وإليه نَحَا الزَّمَخْسَرِيُّ : أن يكون منصوباً على الاختصاص ، أي : نريد بإلهك إلهاً واحداً .

قالوا : أبو حيَّان رحمه الله : وقد نصّ النحويون على أن المنصوب على الاختصاص لا يكون نكرةً ولا مبهماً .

قوله : ﴿ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ في هذه الجملة ثلاثة أوجهٍ :

أحدها : أَنَّها معطوفةٌ على قوله : " نعبد " يعني : أنها تتمّةٌ جوابهم له ، فأجابوه بزيادة .

والثاني : أنهَّا حال من فاعل " نعبد " ، والعامل " نعبد " .

والثالث : وإليه نَحَا الزَّمخشري : ألاَّ يكون لها محل ، بل هي جملة اعتراضيّة مؤكدة ، أي : ومن حالنا أَنَّا له مخلصون .

قال أبو حيّان : ونصّ النحويون على أنَّ جملة الاعتراض هي التي تفيد تقويةً في الحكم ، أمّا بين جزئَيْ صلة وموصول ؛ كقوله : [البسيط]

---

806 مَاذَا وَلاَ عَتْبَ فِي المَقْدُورِ رُمْتَ أَمَا . . . يَكْفِيكَ بِالنُّجْحِ أَمْ خُسْرٌ وتَظْلِيلُ

وقوله : [الكامل]

807 ذَاكَ الَّذِي وأَبِيكَ يَعْرِفُ مالِكاً . . . وَالحَقُّ يَدْفَعُ تُرَّهَاتِ البَاطِلِ

أو من مُسْنَد ومُسْنَد إليه كقوله : [الطويل]

808 وَقَدْ أَدْرَكَتْنِي والحَوَادِثُ جَمَّةٌ . . . أَسِنَّةُ قَوْمٍ ضِعَافٍ وَلاَ عُزْلِ

أو بين شرط وجزاء ، أو قسم وجوابه ، مما بينهما تلازم .

وهذه الجملة قبلها كلامٌ مستقل عمّا بعدها ، لا يُقَال : إنَّ بين المشار إلَيْهِ وبين الإخبار عنه

تلازماً ؛ لأنَّ ما قبلها من مقول بني يعقوب ، وما بعدها من كلام الله تعالى ، أخبر بها عنهم ، والجملة الاعتراضية إنما تكون من الناطق بالمتلازمين لتوكيد كلامه . انتهى ملخصا .

وقال ابن عطية : " ونَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ " ابتداء وخبر ، أي : كذلك كنا ، ونحن نكون .

قال أبو حيان : يظهر منه أَنَّهُ جعل هذه الجملة عطفاً على جملةٍ محذوفة ، ولا حاجة إليه .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 2 صـ 504. 512 ﴾ . باختصار .

(59/67)

قوله تعالى ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (134) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان في ذلك أعظم تسجيل عليهم بأنهم نابذوا وصية الأصفياء من أسلافهم ومرقوا من دينهم وتعبدوا بخلافهم وكان من المعلوم قطعاً أن الجواب أنهم ما شهدوا ذلك ولا هم مسلمون عبر عنه بقوله : ﴿ تلك أمة قد خلت ﴾ أي قبلكم بدهور لم تشهدوها ، ونبه على أنهم عملوا بغير أعمالهم بقوله : ﴿ لها ﴾ أي الأمة ﴿ ما كسبت ﴾ أي من دين

الإسلام خاص بها لا شركة لكم فيه ﴿ ولكم ما كسبتم ﴾ أي مما أنتم عليه من الهوى خاص بكم لا يسألون هم عن أعمالكم ﴿ ولا تسألون ﴾ أي أنتم ﴿ عما كانوا يعملون ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 252. 253 ﴾

" فصل "

قال السيوطى :

تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (134)

أخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية في قوله ﴿ تلك أمة قد خلت ﴾ قال : يعني إبراهيم وإسمعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 1 صـ 337 ﴾

فائدة

قال فى مجمع البيان :

الأمة على وجوه :

الأول : الجماعة كما في الآية

والثاني : القدوة والإمام في قوله (إن إبراهيم كان أمة قانتا) .

والثالث : القامة في قول الأعشى :

وإن معاوية الأكرمين * حسان الوجوه ، طوال الأمم

والرابع : الاستقامة في الدين والدنيا . قال النابغة : حلفت فلم أترك لنفسي ريبة ، * وهل يأثمن ذو أمة ، وهو طائع أي : ذو ملة ودين

والخامس : الحين في قوله : (وادكر بعد أمة)

والسادس : أهل الملة الواحدة في قولهم أمة موسى وأمة عيسى وأمة محمد صلى الله عليه وعليهما .

وأصل الباب القصد من أمه يومه أما : إذا قصده . انتهى انتهى . اهـ ﴾ مجمع البيان حـ1 صـ 401. 402 ﴿

كلام نفيس فى الآية الكريمة

﴿ تلك ﴾ إشارة إلى الأمة المذكورة التى هى إبراهيم ويعقوب وبنوهما الموحدون

﴿ أمة ﴾ هى فى الأصل المقصود كالعهدة بمعنى المعهود وسمى بها الجماعة لأن فرق الناس تؤمها أى يقصدونها ويقتدون بها وهى خبر تلك ﴿ قد خلت ﴾ أى مضت بالموت وانفردت عمن عداها ، وأصله صارت إلى الخلاء وهى الأرض التى لا أنيس بها ، والجملة نعت لأمة ﴿ لها ما كسبت ﴾ تقديم المسند لقصره على المسند إليه أى لها كسبها لا كسب غيرها ﴿ ولكم ما كسبتم ﴾ لا كسب غيركم ﴿ ولا تسئلون عما كانوا يعملون ﴾ أى لا تؤاخذون بسيئات الأمة الماضية كما فى قوله ﴿ ولا تسألون عما أجرمنا ﴾ ، كما لا تثابون بحسناتهم فلكل أجر عمله وذلك لما ادعى اليهود أن يعقوب - عليه السلام - مات على اليهودية وأنه - عليه السلام - وصى بها بنيه يوم مات وردوا بقوله تعالى ﴿ أم كنتم شهداء ﴾ الآية قالوا هب أن الأمر كذلك

أليسوا آباءنا وإليهم ينتهى نسبنا فلا جرم ننتفع بصلاحهم ومنزلتهم عند الله تعالى قالوا ذلك مفتخرين بآبائهم فردوا بأنهم لا ينفعهم انتسابهم إليهم وإنما ينفعهم اتباعهم فى الأعمال فإن أحدا لا ينفعه كسب غيره كما قال - عليه السلام - " يا بنى هاشم لا يأتينى الناس بأعمالهم وتأتونى بأنسابكم " وقال - عليه السلام - " من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه " يعنى من أخره فى الآخرة عمله السيئ أو تفريطه فى العمل الصالح لم ينفعه شرف نسبه ولم تنجبر نقيصته به قال الشاعر

أتفخر باتصالك من على . . . واصل البؤسة الماء القراح

وليس بنافع نسب زكى . . . يدنسه صنائعك القباح

والأبناء وإن كانوا يتشرفون بشرف آبائهم إلا إنه إذا نفخ فى الصور فلا أنساب والافتخار بمثل هذا كالافتخار بمتاع غيره وإنه من الجنون فلا بد من كسب العمل والإخلاص فيه فإنه المنجى بفضل الله تعالى وجاء فى حديث طويل وهو أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال " إنى رأيت البارحة عجبا رأيت رجلا من أمتى جاءه ملك الموت ليقبض روحه فجاء بره لوالديه فرده عنه ورأيت رجلا من أمتى قد بسط عليه عذاب القبر فجاءه وضوؤه فاستنقذه من ذلك ورأيت رجلا من أمتى قد احتوشته الشياطين فجاءه ذكر الله فخلصه من بينهم ورأيت رجلا من أمتى قد احتوشته ملائكة العذاب فجاءته صلاته فاستنقذته من أيديهم ورأيت رجلا من أمتى يلهث عطشا كلما ورد حوضا منع منه فجاءه صيامه فسقاه وأرواه ورأيت رجلا من أمتى والنبيون قعود حلقا حلقا كلما دنا لحلقة طرد فجاءه اغتساله من الجنابة فأخذ بيده وأقعده إلى جنبى ورأيت رجلا من أمتى بين يديه ظلمة ومن خلفه ظلمة وعن يمينه ظلمة وعن شماله ظلمة ومن فوقه ظلمة ومن تحته ظلمة فهو متحير

فجاءته حجته وعمرته فاستخرجتاه من الظلمة وأدخلتاه فى النور ورأيت رجلا من أمتى يكلم المؤمنين فلا يكلمونه فجاءته صلة الرحم فقالت يا معشر المؤمنين كلموه كلموه ورأيت رجلا من أمتى يتقى وهج النار وشررها بيده عن وجهه فجاءته صدقته فصارت سترا على وجهه وظلا على رأسه ورأيت رجلا من أمتى قد أخذته الزبانية من كل مكان فجاءه أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر فاستنقذاه من أيديهم وأدخلاه مع ملائكة الرحمة ورأيت رجلا من أمتى جاثيا على ركبتيه بينه وبين الله حجار فجاءه حسن خلقه فاخذ بيده فأدخله على الله ورأيت رجلا من أمتى قد هوت صحيفته من قبل شماله فجاءه خوفه من الله فأخذ صحيفته فجعلها فى يمينه ورأيت رجلا من أمتى قد خف ميزانه فجاءته أفراطه فثقلوا ميزانه ورأيت رجلا من أمتى قائما على شفير جهنم فجاءه وجله من الله فاستنقذه من ذلك ومضى ورأيت رجلا من أمتى أهوى

فى النار فجاءته دموعه التى بكى بها من خشية الله فاستخرجته من النار ورأيت رجلا من أمتى قائما على الصراط يرعد كما ترعد السعفة فجاءه حسن ظنه بالله فسكن رعدته ومضى ورأيت رجلا من أمتى على الصراط يزحف أحيانا ويحبو أحيانا ويتعلق

أحيانا فجاءته صلاته على فأخذت بيده وأقامته ومضى على الصراط ورأيت رجلا من أمتى انتهى إلى أبواب الجنة فغلقت الأبواب دونه فجاءته شهادة أن لا إله إلا الله ففتحت له الأبواب وأدخلته الجنة "

قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - " من قال لا إله إلا الله مخلصا دخل الجنة " قيل يا رسول الله وما إخلاصها قال " أن تحجزه عن محارم الله " فعلم من هذا التفصيل أن الخلاص وإن كان بفضل الله تعالى لكنه منوط بالأعمال الصالحة فالقرابة لا تغنى شيئًا إذا فسد العمل ، وأما قول من قال : إذا طاب أصل المرء طابت فروعه فباعتبار الغالب فإن من عادته تعالى أن يخرج الحى من الميت والميت من الحى

والعود الذى تفوح رائحته وإن كان فى الأصل شجرة كسائر الأشجار إلا إنه لما كان له استعداد لتلك المرتبة وحصل ذلك بالتربية فاق على الأقران وخرج من جنس الأصل وكذا المسك فإن أصله دم وكم من نسيب يعود على أصله بالعكس فيظهر فيه أثر الصلاح الباطن فى أبيه إن كان أى أبوه فاسقا أو الفساد الباطن فيه إن كان صالحا وكم من فرع يميل إلى أصله على وجه فانظر حال آدم - عليه السلام - وولديه هابيل وقابيل ومن بعدهم إلى قيام الساعة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح البيان - حـ 1 صـ 301 . 302 ﴾

فوائد جليلة دلت عليها الآية الكريمة

الآية دالة على مسائل :

المسألة الأولى : الآية دالة على بطلان التقليد ، لأن قوله : ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ ﴾ يدل على أن كسب كل أحد يختص به ولا ينتفع به غيره ، ولو كان التقليد جائزاً لكان كسب المتبوع نافعاً للتابع ، فكأنه قال : إني ما ذكرت حكاية أحوالهم طلباً منكم أن تقلدوهم ، ولكن لتنبهوا على ما يلزمكم فتستدلوا وتعلموا أن ما كانوا عليه من الملة هو الحق .

المسألة الثانية : الآية دالة على ترغيبهم في الإيمان ، واتباع محمد عليه الصلاة والسلام ، وتحذيرهم من مخالفته .

المسألة الثالثة : الآية دالة على أن الأبناء لا يثابون على طاعة الآباء بخلاف قول اليهود من أن صلاح آبائهم ينفعهم ، وتحقيقه ما روي عنه ـ عليه السلام ـ أنه قال : " يا صفية عمة محمد ، يا فاطمة بنت محمد ، ائتوني يوم القيامة بأعمالكم لا بأنسابكم فإني لا أغني عنكم من الله شيئاً " .

المسألة الرابعة الآية تدل على بطلان قول من يقول الأبناء يعذبون بكفر آبائهم وكان اليهود يقولون إنهم يعذبون في النار لكفر آبائهم باتخاذ العجل وهو قوله تعالى وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً (البقرة 80) وهي أيام عبادة العجل فبين الله تعالى بطلان ذلك . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ4 صـ 71 ﴾

ومن لطائف الإمام القشيرى فى الآية الكريمة

أنزل الحقُّ – سبحانه – كُلاًّ بمحلّه ، وأفرد لكل واحدٍ قَدْراً بموجب حكمه ، فلا لهؤلاء عن أشكالهم خبر ، ولا بما خَصَّ به كل طائفة إلى آخرين أثر ، وكلٌّ في إقليمه مَلِك ، ولكلٍ يدور بالسعادة فَلَك . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ1 صـ 128 ﴾

فوائد ولطائف

المراد بما كسبت وبما كسبتم ثواب الأعمال بدليل التعبير فيه بلها ولكم ، ولك أن تجعل الكلام من نوع الاحتباك والتقرير لها ما كسبت وعليكم ما كسبتم أي إثمه .

وتقديم المسندين على المسند إليهما في ﴿ لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ﴾ لقصر المسند إليه على المسند أي ما كسبت الأمة لا يتجاوزها إلى غيرها وما كسبتم لا يتحاوزكم ونفى السؤال عن العمل لأنه أقل أنواع المؤاخذة بالجريمة فإن المرء يؤخذ بجريمته فيسأل عنها ويعاقب وقد يسأل المرء عن جريمة غيره ولا يعاقب كما يلام على القوم فعل بعضهم ما لا يليق وهو شائع عند العرب قال زهير :

لعمري لِنِعْمَ الحيُّ جَرَّ عليهم . . . بما لا يُواتيهم حُصَين بن ضَمْضَمِ

فنفي أصل السؤال أبلغ وأشمل للأمرين ، وإن جعلت قوله : ﴿ ولكم ما كسبتم ﴾ مراداً به الأعمال الذميمة المحيطة بهم كان قوله : ﴿ ولا تسألون ﴾ إلخ احتراساً واستيفاء لتحقيق معنى الاختصاص أي كل فريق مختص به عمله أو تبعته ولا يلحق الآخر من ذلك شيء ولا السؤال عنه ، أي لا تحاسبون بأعمال سلفكم وإنما تحاسبون بأعمالكم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ1 صـ 422. بتصرف يسير ﴾

لطيفة

حكى عن بعض العلماء أنه سئل عما وقع من الفتن بين علي ومعاوية وطلحة والزبير وعائشة. رضوان الله عليهم – فقرأ ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (134) ﴾ الآية وهذا جواب حسن في مثل هذا السؤال . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير السمعانى حـ 1 صـ 148 ﴾

(بصيرة فى الأمة)

الأُمَّة لغة : الرّجُل الجامع للخير ، والإِمام ، وجماعةٌ أُرسل إِليهم رَسُول ، والجيل من كل حىّ ، والجنس ، ومَن هو على الحقّ ، ومُخالف لسائر الأَديان ، والحِين ، والقامة ، والأُمّ ، والوجه والنشاط ، والطَّاعة ، والعالِم ، ومن الوجه : مُعظمُه ، ومن الرجل قومه . وأُمَّه الله تعالى : خَلْقه .

وقد ورد فى نصّ القرآن على عشرة أوجه .

الأوّل : بمعنى الصّف المصفوف ﴿ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾ أى صفوف .

(66/67)

الثانى : بمعنى السّنين الخالية : ﴿ وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ أى بعد سنين .

الثالث : بمعنى الرّجل الجامع للخير : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾ .

الرابع : بمعنى الدّين ، والمِلّة : ﴿ إِنَّ هذه أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدةً ﴾ ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ ﴾ .

الخامس : بمعنى الأمَم السّالفة ، والقرون الماضية : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ ﴾ .

السّادس : بمعنى القوم بلا عدد ﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ﴾ .

السابع : بمعنى القوم المعدود : ﴿ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ ﴾ ، ﴿ وَإِذَا قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً ﴾ أى أربعين رجلاً .

الثامن : بمعنى الزّمان الطّويل : ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ ﴾ .

التاسع : بمعنى الكُفّار خاصّة : ﴿ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ ﴾ .

العاشر : بمعنى أَهل الإسلام : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ أَى صِنفاً واحداً ، وعلى طريقة واحدة فى الضَّلال والكفر ، ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ أَى فى الإيمان ، ﴿ وَلْتَكُن مِّنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ ﴾ أَى جماعة يتَخَيَّرُون العلم ، والعمل الصَّالح ، أَى يكونون أُسْوة لغيرهم . أهـ

﴿ بصائر ذوى التمييز ـ للفيروزابادى حـ 2 صـ 79 . 80 ﴾

(67/67)

من فوائد الإمام الجصاص فى الآية

قال رحمه الله :

قَوْله تَعَالَى ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ يَدُلُّ عَلَى ثَلَاثَةِ مَعَانٍ : أَحَدُهَا : أَنَّ الْأَبْنَاءَ لَا يُثَابُونَ عَلَى طَاعَةِ الْآبَاءِ وَلَا يُعَذَّبُونَ عَلَى ذُنُوبِهِمْ .

وَفِيهِ إبْطَالُ مَذْهَبِ مَنْ يُجِيزُ تَعْذِيبَ أَوْلَادِ الْمُشْرِكِينَ بِذُنُوبِ الْآبَاءِ ، وَيُبْطِلُ مَذْهَبَ مَنْ يَزْعُمُ مِنْ الْيَهُودِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَغْفِرُ لَهُمْ ذُنُوبَهُمْ بِصَلَاحِ آبَائِهِمْ .

وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى هَذَا الْمَعْنَى فِي نَظَائِرِ ذَلِكَ مِنْ الْآيَاتِ ، نَحْوَ قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَلَا

تَكْسِبُ كُلُّ نفسٍ إلَّا عَلَيْهَا ﴾ ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ وَقَالَ : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ ﴾ وَقَدْ بَيَّنَ ذَلِكَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ قَالَ لِأَبِي رِمْثَةَ وَرَآهُ مَعَ ابْنِهِ " أَهُوَ ابْنُك ؟ " فَقَالَ : نَعَمْ قَالَ : أَمَا إنَّهُ ﴿ لَا يَجْنِي عَلَيْك وَلَا تَجْنِي عَلَيْهِ ﴾ .

وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿ يَا بَنِي هَاشِمٍ لَا يَأْتِينِي النَّاسُ بِأَعْمَالِهِمْ وَتَأْتُونَ بِأَنْسَابِكُمْ فَأَقُولُ لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا ﴾ وَقَالَ : ﴿ مَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ ﴾ . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 1 صـ 104 ﴾

(68/67)

ومن فوائد العلامة الزمخشرى فى الآيات

قال رحمه الله :

﴿ وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾

ابْتَلى إِبْراهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِماتٍ اختبره بأوامر ونواه . واختبار اللَّه عبده مجاز عن تمكينه عن اختيار «1» أحد الأمرين : ما يريد اللَّه ، وما يشتهيه العبد ، كأنه يمتحنه ما يكون منه حتى يجازيه على حسب ذلك . وقرأ أبو حنيفة رضى اللَّه عنه وهي قراءة ابن عباس

رضى اللَّه عنه : (إبراهيمُ ربَّه) رفع إبراهيم ونصب ربه . والمعنى : أنه دعاه بكلمات من الدعاء فعل المختبر هل يجيبه إليهنّ أم لا ؟ فإن قلت : الفاعل في القراءة المشهورة يلي الفعل في التقدير ، فتعليق الضمير به إضمار قبل الذكر . قلت : الإضمار قبل الذكر أن يقال : ابتلى ربه إبراهيم . فأما ابتلى إبراهيم ربه ، أو ابتلى ربه إبراهيم ، فليس واحداً منهما بإضمار قبل الذكر . أما الأوّل فقد ذكر فيه صاحب الضمير قبل الضمير ذكرا ظاهرا . وأما الثاني فإبراهيم فيه مقدّم في المعنى ، وليس كذلك : ابتلى ربه إبراهيم . فإن الضمير فيه قد تقدم لفظا ومعنى فلا سبيل إلى

---

(1) . قوله «تمكينه عن اختيار» لعله من .

صحته . والمستكن في فَأَتَمَّهُنَّ في إحدى القراءتين لإبراهيم بمعنى : فقام بهنّ حق القيام وأدّاهنّ أحسن التأدية من غير تفريط وتوان . ونحوه (وَإِبْراهِيمَ الَّذِي وَفَّى) وفي الأخرى للَّه تعالى بمعنى فأعطاه ما طلبه لم ينقص منه شيئا . ويعضده ما روى عن مقاتل أنه فسر الكلمات بما سأل إبراهيم ربه في قوله : (رَبِّ اجْعَلْ هذا بَلَداً آمِناً) ، (وَاجْعَلْنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ) ، (وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ) . (رَبَّنا تَقَبَّلْ مِنَّا) فإن قلت : ما العامل في إذ ؟ قلت : إما

مضمر نحو : واذكر إذ ابتلى أو وإذا ابتلاه كان كبت وكيت ، وإما قالَ إِنِّي جاعِلُكَ . فإن قلت : فما موقع قال ؟ قلت : هو على الأوّل استئناف ، كأنه قيل : فما ذا قال له ربه حين أتم الكلمات ؟ فقيل : قال إنى جاعلك للناس إماما . وعلى الثاني جملة معطوفة على ما قبلها . ويجوز أن يكون بيانا لقوله : (ابْتَلى) وتفسيراً له فيراد بالكلمات ما ذكره من الإمامة وتطهير البيت ورفع قواعده . والإسلام قبل ذلك في قوله : (إِذْ قالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ) وقيل في الكلمات : هنّ خمس في الرأس : الفرق ، وقص الشارب ، والسواك ، والمضمضة والاستنشاق . وخمس في البدن : الختان ، والاستحداد ، والاستنجاء ، وتقليم الأظفار ، ونتف الإبط . وقيل ابتلاه من شرائع الإسلام بثلاثين سهما : عشر في براءة (التَّائِبُونَ الْعابِدُونَ) ، وعشر في الأحزاب (إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِماتِ) ، وعشر في المؤمنون وسأل سائل إلى قوله (وَالَّذِينَ هُمْ عَلى صَلاتِهِمْ يُحافِظُونَ) وقيل هي مناسك الحج ، كالطواف والسعى والرمي والإحرام والتعريف وغيرهنّ . وقيل : ابتلاه بالكوكب والقمر والشمس والختان وذبح ابنه والنار والهجرة .

والإمام اسم من يؤتم به على زنة الآلة ، كالإزار لما يؤتزر به ، أى يأتمون بك في دينهم وَمِنْ ذُرِّيَّتِي عطف على الكاف ، كأنه قال : وجاعل بعض ذريتي ، كما يقال لك : سأكرمك ، فتقول : وزيدا لا يَنالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ وقرئ : الظالمون ، أى من كان ظالما من ذرّيتك . لا يناله استخلافى وعهدى إليه بالإمامة ، وإنما ينال من كان عادلا بريئا من

الظلم.

وقالوا: في هذا دليل على أن الفاسق لا يصلح للإمامة. وكيف يصلح لها من لا يجوز حكمه وشهادته، ولا تجب طاعته ولا يقبل خبره، ولا يقدّم للصلاة. وكان أبو حنيفة رحمه اللَّه يفتي سراً بوجوب نصرة زيد بن علىّ رضوان اللَّه عليهما، وحمل المال إليه، والخروج معه على اللص المتغلب المتسمى بالإمام والخليفة، كالدوانيقى وأشباهه. وقالت له امرأة: أشرت على ابني بالخروج مع إبراهيم ومحمد ابني عبد اللَّه بن الحسن حتى قتل. فقال: ليتني مكان ابنك. وكان يقول في المنصور وأشياعه: لو أرادوا بناء مسجد وأرادونى على عدّ آجره لما فعلت. وعن ابن عيينة: لا يكون الظالم إماما قط. وكيف يجوز نصب الظالم للامامة، والإمام إنما هو لكف الظلمة. فإذا نصب من كان ظالما في نفسه فقد جاء المثل السائر: من استرعى الذئب ظلم. والْبَيْتَ

اسم غالب للكعبة، كالنجم للثريا مَثَابَةً لِلنَّاسِ مباءة ومرجعاً للحجاج والعمار، يتفرقون عنه ثم يثوبون إليه أى يثوب إليه أعيان الذين يزورونه أو أمثالهم وَأَمْناً موضع أمن، كقوله (حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ) ولأن الجاني يأوى إليه فلا يتعرض له حتى يخرج.

وقرئ : مثابات ، لأنه مثابة لكل من الناس لا يختص به واحد منهم (سَواءً الْعاكِفُ فِيهِ وَالْبادِ) وَاتَّخِذُوا على إرادة القول ، أى وقلنا اتخذوا منه موضع صلاة تصلون فيه . وهو على وجه الاختيار والاستحباب دون الوجوب . وعن النبي صلى اللَّه عليه وسلم «أنه أخذ بيد عمر فقال : هذا مقام ابراهيم ، فقال عمر أفلا نتخذه مصلى - يريد أفلا نؤثره لفضله بالصلاة فيه تبركا به وتيمنا بموطئ قدم إبراهيم - فقال : لم أومر بذلك ، فلم تغب الشمس حتى نزلت» «1» . وعن جابر بن عبد اللَّه «أنّ رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم استلم الحجر ورمل ثلاثة أشواط ومشى أربعة ، حتى إذا فرغ عمد إلى مقام إبراهيم فصلى خلفه ركعتين وقرأ (وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقامِ إِبْراهِيمَ مُصَلًّى) «2» وقيل :

مصلى مدعى . ومقام إبراهيم : الحجر الذي فيه أثر قدميه ، والموضع الذي كان فيه الحجر حين وضع عليه قدميه ، وهو الموضع الذي يسمى مقام إبراهيم . وعن عمر رضى اللَّه عنه أنه سأل المطلب بن أبى وداعة : هل تدرى أين كان موضعه الأوّل ؟ قال : نعم ، فأراه موضعه اليوم . وعن عطاء (مَقامِ إِبْراهِيمَ) عرفة والمزدلفة والجمار ، لأنه قام في هذه المواضع ودعا فيها . وعن النخعي :

الحرم كله مقام إبراهيم . وقرئ (واتخذوا) بلفظ الماضي عطفا على : (جَعَلْنَا) أى واتخذ الناس من مكان إبراهيم الذي وسم به لاهتمامه به وإسكان ذرّيته عنده قبلة يصلون إليها عَهِدْنا أمرناهما أَنْ طَهِّرا بَيْتِيَ بأن طهرا ، أو أى طهرا . والمعنى طهراه من الأوثان والأنجاس

وطواف الجنب والحائض والخبائث كلها ، أو أخلصاه لهؤلاء لا يغشه غيرهم وَالْعاكِفِينَ المجاورين الذين عكفوا عنده ، أى أقاموا لا يبرحون ، أو المعتكفين . ويجوز أن يريد بالعاكفين الواقفين يعنى القائمين في الصلاة ، كما قال : (لِلطَّائِفِينَ وَالْقائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ) ، والمعنى : للطائفين والمصلين ، لأنّ القيام والركوع والسجود هيآت المصلى .

---

(1) . أخرجه أبو نعيم من رواية مجاهد عن ابن عمر «أن النبي صلى اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم أخذ بيد عمر رضى اللَّه عنه فمر على المقام فقال له : يا نبى اللَّه هذا مقام ابراهيم ؟ قال نعم . قال ألا نتخذه مصلى ؟ فأنزل اللَّه (وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقامِ إِبْراهِيمَ مُصَلًّى) – الآية وقال : غريب من رواية – مجاهد . تفرد به جعفر بن محمد المدائني عن أبيه عن هارون الأعور عن أبان بن تغلب عن الحكم عن مجاهد . وفي الصحيحين عن أنس رضى اللَّه عنه قال : قال عمر رضى اللَّه عنه «وافقنى ربى في ثلاث – فذكر الحديث» وفيه «قلت يا رسول اللَّه ، لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى ، فنزلت» .

(2) . هكذا ذكره . والذي في صحيح مسلم في الحديث الطويل في صفة الحج «أنه قرأ الآية لما فرغ من الطواف ثم صلى»

[سورة البقرة (2) : آية 126]

وَإِذْ قالَ إِبْراهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هذا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَراتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلى عَذابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (126)

أى اجعل هذا البلد أو هذا المكان بَلَداً آمِناً ذا أمن، كقوله: (عِيشَةٍ راضِيَةٍ). أو آمنا من فيه، كقوله: ليل نائم. وَمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بدل من أهله، يعنى وارزق المؤمنين من أهله خاصة. وَمَنْ كَفَرَ عطف على من آمن كما عطف (وَمِنْ ذُرِّيَّتِي) على الكاف في جاعلك فإن قلت: لم خص إبراهيم صلوات اللَّه عليه المؤمنين حتى ردّ عليه؟ قلت: قاس الرزق على الإمامة فعرّف الفرق بينهما، لأنّ الاستخلاف استرعاء يختص بمن ينصح للمرعى، وأبعد الناس عن النصيحة الظالم، بخلاف الرزق فإنه قد يكون استدراجا للمرزوق وإلزاما للحجة له. والمعنى:

وأرزق من كفر فأمتعه. ويجوز أن يكون (وَمَنْ كَفَرَ) مبتدأ متضمنا معنى الشرط. وقوله (فَأُمَتِّعُهُ) جوابا للشرط، أى ومن كفر فأنا أمتعه. وقرئ فأمتعه فأضطره «1» فألزه إلى عذاب النار لزّ المضطر الذي لا يملك الامتناع مما اضطر إليه، وقرأ أبىّ: فنمتعه قليلا ثم نضطره.

وقرأ يحيى بن وثاب: فاضطره، بكسر الهمزة. وقرأ ابن عباس فأمتعه قليلا ثم اضطره، على لفظ الأمر. والمراد الدعاء من إبراهيم دعا ربه بذلك. فإن قلت: فكيف تقدير

الكلام على هذه القراءة؟ قلت: في: (قال) ضمير إبراهيم، أى قال إبراهيم بعد مسألته اختصاص المؤمنين بالرزق: ومن كفر فأمتعه قليلا ثم اضطره. وقرأ ابن محيصن: فاطره، بإدغام الضاد في الطاء كما قالوا: اطجع، وهي لغة مرذولة، لأنّ الضاد من الحروف الخمسة التي يدغم فيها ما يجاورها ولا تدغم هي فيما يجاورها، وهي حروف «ضم شفر».

[سورة البقرة (2): الآيات 127 إلى 129]

وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْراهِيمُ الْقَواعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْماعِيلُ رَبَّنا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (127) رَبَّنا وَاجْعَلْنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنا مَناسِكَنا وَتُبْ عَلَيْنا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (128) رَبَّنا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (129)

---

(1). قوله «فأضطره» التلاوة: ثم أضطره (ع)

يَرْفَعُ حكاية حال ماضية. والْقَواعِدَ جمع قاعدة وهي الأساس والأصل لما فوقه، وهي صفة غالبة، ومعناها الثابتة. ومنه قعدك الله، أى أسأل الله أن يقعدك أى يثبتك. ورفع

الأساس :

البناء «1» عليها لأنها إذا بنى عليها نقلت عن هيئة الانخفاض إلى هيئة الارتفاع وتطاولت بعد التقاصر ويجوز أن يكون المراد بها سافات البناء «2» لأنّ كل ساف قاعدة للذي يبنى عليه ويوضع فوقه . ومعنى رفع القواعد : رفعها بالبناء لأنه إذا وضع سافا فوق ساف فقد رفع السافات . ويجوز أن يكون المعنى : وإذ يرفع إبراهيم ما قعد من البيت – أى استوطأ – يعنى جعل هيئته القاعدة المستوطئة مرتفعة عالية بالبناء ، وروى أنه كان مؤسسا قبل إبراهيم فبنى على الأساس . وروى أن اللَّه تعالى أنزل البيت ياقوتة من ياقيت الجنة له بابان من زمرد : شرقى وغربي ، وقال لآدم عليه السلام :

أهبطت لك ما يطاف به كما يطاف حول عرشي ، فتوجه آدم من أرض الهند إليه ماشيا ، وتلقته الملائكة فقالوا : بر حجك يا آدم ، لقد حججنا هذا البيت قبلك بألفي عام «3» وحج آدم أربعين حجة من أرض الهند إلى مكة على رجليه ، فكان على ذلك إلى أن رفعه اللَّه أيام الطوفان إلى السماء الرابعة فهو البيت المعمور ثم إن اللَّه تعالى أمر إبراهيم ببنائه وعرّفه جبريل مكانه . وقيل بعث اللَّه سحابة أظلته : ونودي : أن ابن على ظلها لا تزد ولا تنقص . وقيل : بناه من خمسة أجبل طور سينا ، وطور زيتا ، ولبنان ، والجودي ، وأسسه من حراء . وجاءه جبريل بالحجر الأسود من السماء . وقيل : تمخض أبو قبيس فانشق عنه ، وقد خبئ فيه في أيام الطوفان وكان ياقوتة بيضاء من الجنة ، فلما لمسته الحيض في

الجاهلية اسودّ . وقيل كان إبراهيم يبنى وإسماعيل يناوله الحجارة رَبَّنا أى يقولان ربنا . وهذا الفعل في محل النصب على الحال ، وقد أظهره عبد اللَّه في قراءته ،

---

(1) . قوله «و رفع الأساس البناء» لعله الأسس – بضمتين . (ع)

(2) . قوله «المراد بها سافات البناء» قوله «سافات» عبارة أبى السعود . والفخر «ساقات» بالقاف بدل الفاء .

والصواب أنه بالفاء كما في الصحاح في باب الفاء : الساف : كل عرق من الحائط . (ع)

(3) . أخرجه الفاكهي في كتاب مكة من رواية الضحاك هو ابن مزاحم . قال : قال حذيفة : وسلمان الفارسي «سمعنا رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم يقول إن اللَّه أنزل البيت من ياقوتة حمراء نزلت به الملائكة مع آدم ، فنزلت به في الحرم ونزل آدم في الهند في جبل يقال له واشب بأرض الهند ونزل إبليس بالحرم فحول اللَّه إبليس إلى أرض الهند وحول آدم إلى الحرم . الحديث . وفي إسناده ضعف وانقطاع . ورواه أيضا من طريق ابن إدريس عن أبيه عن عطاء أن عمر بن الخطاب رضى اللَّه عنه سأل كعبا قال : أخبرنى عن بناء هذا البيت ما كان أمره ؟ فقال : إن هذا البيت ، أنزله اللَّه من السماء ياقوتة حمراء مجوفة مع آدم» وفي رواية النهاس بن قهم : سمعت عطاء يقول «قال آدم يا رب أين توجهني ؟ قال تبنى لي بتهامة بيتا مما يلي البحر يطاف حوله ، كما تطوف الملائكة حول عرشي . ويصلى عنده كما تصلى الملائكة عند عرشي . فأقبل نحو البيت . مما يلي الصفا . فطاف بالبيت

وصلى عنده. قال النهاس: وحدثني عقيل على بن سفيان. حدثنا عطاء عن عبد اللَّه بن عمرو بمثله وقال الفاكهي في كتاب مكة أيضا: حدثنا ابن عمرو.

حدثنا سفيان عن ابن أبى لبيد قال «حج آدم فتلقته الملائكة فقالوا: أبر نسكك. فقد حججنا هذا البيت قبلك بألفي عام» وهكذا هو في جامع سفيان بن عيينة.

(73/67)

ومعناه: يرفعانها قائلين ربنا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ لدعائنا الْعَلِيمُ بضمائرنا ونياتنا. فإن قلت: هلا قيل: قواعد البيت، وأى فرق بين العبارتين؟ قلت: في إبهام القواعد وتبيينها بعد الإبهام ما ليس في إضافتها لما في الإيضاح بعد الإبهام من تفخيم لشأن المبين مُسْلِمَيْنِ لَكَ مخلصين لك أوجهنا، من قوله: (أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ) أو مستسلمين. يقال: أسلم له وسلم واستسلم، إذا خضع وأذعن. والمعنى: زدنا إخلاصا أو إذعانا لك. وقرئ (مسلمين) على الجمع، كأنهما أرادا أنفسهما وهاجر، أو أجريا التثنية على حكم الجمع لأنها منه وَمِنْ ذُرِّيَّتِنا واجعل من ذرّيتنا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ و(من) للتبعيض أو للتبيين، كقوله: (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ). فإن قلت:

لم خصا ذرّيتهما بالدعاء؟ قلت: لأنهم أحق بالشفقة والنصيحة (قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ

ناراً) ، ولأنّ أولاد الأنبياء إذا صلحوا صلح بهم غيرهم وشايعوهم على الخير. ألا ترى أن المقدّمين من العلماء والكبراء إذا كانوا على السداد ، كيف يتسببون لسداد من وراءهم؟ وقيل: أراد بالأمة أمة محمد صلى اللَّه عليه وسلم وَأَرِنا منقول من رأى بمعنى أبصر أو عرّف. ولذلك لم يتجاوز مفعولين ، أى وبصرنا متعبداتنا في الحج ، أو وعرفناها. وقيل: مذابحنا. وقرئ: وأرنا ، بسكون الراء قياس على فخذ في فخذ. وقد استرذلت ، لأنّ الكسرة منقولة من الهمزة الساقطة دليل عليها ، فإسقاطها إجحاف. وقرأ أبو عمرو بإشمام الكسرة. وقرأ عبد اللَّه: وأرهم مناسكهم. وَتُبْ عَلَيْنا ما فرط منا «1» من الصغائر أو استتابا لذرّيتهما وَابْعَثْ فِيهِمْ في الأمة المسلمة رَسُولًا مِنْهُمْ من أنفسهم. وروى أنه قيل له: قد استجيب لك وهو في آخر الزمان ، فبعث اللَّه فيهم محمداً صلى اللَّه عليه وسلم. قال عليه الصلاة والسلام «أنا دعوة أبى إبراهيم وبشرى أخى عيسى ورؤيا أمى «2»

---

(1). قوله «و تب علينا ما فرط منا» لعله على تضمين تب معنى اغفر. (ع)

(2). أخرجه أحمد والبزار وابن حبان. والطبراني والحاكم من حديث العرباض بن سارية: سمعت رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم يقول «إنى عبد اللَّه وخاتم النبيين ، وأبى آدم منجدل في طينته وأخبركم عن ذلك. دعوة أبى إبراهيم ، وبشارة عيسى ، ورؤيا أمى التي رأت - الحديث» ولأحمد من حديث أبى أمامة رضى اللَّه عنه «قلت:

يا رسول اللَّه . ما كان بدؤ أمرك قال : دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى ، ورأت أمي أنه خرج منها نور أضاءت به قصور الشام» ورواه البيهقي في الشعب . ثم قال «أما دعوة إبراهيم فهي قوله : (رَبَّنا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ) وأما بشارة عيسى فهي قوله تعالى : (يا بَنِي إِسْرائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْراةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ) . قال : وأما رؤيا أمه فذكر ابن إسحاق في السيرة قال «كانت آمنة بنت وهب أم رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم تحدث أنها أتيت» ولأبي يعلى عن شداد بن أوس رفعه «أنا دعوة أبي إبراهيم ، وبشرى أخي عيسى ابن مريم ، وأن أمي رأت في المنام نوراً قالت : فجعلت أتبع بصري النور فجعل النور يسبق بصري حتى أضاء لي مشارق الأرض ومغاربها» وللحاكم في المستدرك من طريق ابن إسحاق عن ثور بن يزيد عن خالد ابن معدان عن أصحاب رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم «قالوا : يا رسول اللَّه أخبرنا عن نفسك قال : دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى ، ورأت أمي أنه خرج منها نور أضاءت منه قصور الشام» .

يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِكَ يقرأ عليهم ويبلغهم ما يوحى إليه من دلائل وحدانيتك وصدق أنبيائك وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ القرآن وَالْحِكْمَةَ الشريعة وبيان الأحكام وَيُزَكِّيهِمْ ويطهرهم من الشرك وسائر الأرجاس، كقوله: (وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّباتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبائِثَ).

[سورة البقرة (2): الآيات 130 إلى 131]

وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْراهِيمَ إِلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْناهُ فِي الدُّنْيا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (130) إِذْ قالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعالَمِينَ (131)

وَمَنْ يَرْغَبُ إنكار واستبعاد لأن يكون في العقلاء من يرغب عن الحق الواضح الذي هو ملة إبراهيم. ومَنْ سَفِهَ في محل الرفع على البدل من الضمير في يرغب، وصح البدل لأنّ من يرغب غير موجب، كقولك: هل جاءك أحد إلا زيد (سَفِهَ نَفْسَهُ) امتهنها واستخف بها.

وأصل السفه: الخفة. ومنه زمام سفيه. وقيل انتصاب النفس على التمييز، نحو: غبن رأيه وألم رأسه. ويجوز أن يكون في شذوذ تعريف المميز نحو قوله:

وَلَا بِفَزَارَةَ الشُّعُرِ الرِّقَابَا «1»

أَجَبَّ الظَّهْرِ لَيْسَ لَهُ سَنَامُ «2»

---

(1) فما قومي بثعلبة بن سعد ولا بفزارة الشعر الرقابا

وقومي - إن سألت - بنو لؤي بمكة علموا مضر الصوابا

لحارث بن ظالم المري ، يدعى أنه من قريش ، وأن أمه خرجت به إلى مرة وهو صغير ، فنسب إليهم . وثعلبة وفزارة ومضر : أسماء قبائل ، ووصف ثعلبة بابن لها للأصل فانه اسم أبى القبيلة . والشعر : جمع أشعر كحمر وأحمر . والرقاب :

تمييز معرفة على رأى الكوفيين . وأشعر الرقبة يطلق على الأسد ، وعلى أغم القفا – وهو المراد . يقول : ليس قومي هؤلاء الأخسة ، وإنما أنا من بنى لؤي . وإن سألت : اعتراض بين المبتدأ وخبره . ومضر ، والصواب :

مفعولان لعلموا .

(2) فان يهلك أبو قابوس يهلك ربيع الناس والشهر الحرام

ونأخذ بعده بذئاب عيش أجب الظهر ليس له سنام

النابعة الذبياني يرثى النعمان المعافى بن الحارث الأصغر ملك العرب . وقيل لجرير ، وليس بذاك . يقول : فان يتبين هلاك النعمان يتبين هلاك ربيع الناس . شبهه بالربيع وهو المطر ، أو النهر ، أو فصل الربيع ، أو الخصب ، في أن كلا يعم خيره الناس . وشبهه بالشهر الحرام في أن كلا أمان للناس من الحروب والمخاوف . وروى : والبلد الحرام .

أى مكة . شبهه بها في الأمان أيضا . ويجوز أن المعنى إن يهلك هو يهلك تبعا له عطاؤه وجاهه الشبيهان بالربيع وبالشهر الحرام في النفع والأمان ، وكل ذلك على سبيل الاستعارة التصريحية . ويجوز أنه كان يحفظ لهم ربيعهم عن رعى غيرهم وحرمة شهرهم عن هتكها

، بأن يغار عليهم فيه ، فلا استعارة إلا في هلاك الشهر . وروى نأخذ : بالحركات الثلاث ، وكذلك كل مضارع معطوف على جواب الشرط ، فالجزم على العطف ، والرفع على الاستئناف . والنصب بإضمار إن لشبه الشرط بالنفي ، لكنه قليل . والذناب – بالكسر – : ذنب البعير والفرس ، وعقب كل شيء . وشبه العيش الضنك الضيق الناقص ببعير مهزول على طريق المكنية . والذناب ، والظهر ، والسنام – بالفتح – تخييل ، وأجب الظهر : منقطعه ، أي وتمسك بعده بطرف عيش وبقية منه ضيقة قليلة ، كالبعير المقطوع الظهر ، وبين ذلك بقوله : ليس له سنام . وأجب : صفة مشبهة ممنوع من الصرف ، فيجر بالفتحة على الصفة لعيش . وقيل نصب على الحال . وروى بالرفع على الخبرية لمحذوف ، ويروى الظهر بالرفع ، فاعلا للصفة ، أو بدلا من الضمير فيها وفتحه النحاة ، وبالنصب تشبيها بالمفعول أو تمييزاً على مذهب من ميز بالمعرفة وضعفوه وبالجر باضافة أجب إليه فيجر أجب بالكسرة ، وحسنوا هذا .

وقيل معناه : سفه في نفسه ، فحذف الجار ، كقولهم : زيد ظنى مقيم ، أي في ظنى . والوجه هو الأوّل . وكفى شاهداً له بما جاء في الحديث «1» «الكبر أن تسفه الحق

وتغمص الناس «2»» وذلك أنه إذا رغب عما لا يرغب عنه عاقل قط فقد بالغ في إذالة نفسه «3» وتعجيزها ، حيث خالف بها كل نفس عاقبة وَلَقَدِ اصْطَفَيْناهُ بيان لخطإ رأى من رغب عن ملته ، لأنّ من جمع

---

(1) . أخرجه البزار من رواية ابن إسحاق عن عمرو بن دينار عن ابن عمر «قيل : يا رسول اللَّه ، أمن الكبر أن يتخذ الرجل الطعام فيكون عليه الجماعة ، يلبس القميص النظيف» قال : ليس ذلك بالكبر . وإنما الكبر أن تسفه الحق وتغمص الناس» وذكر فيه قصة . وقال : لا نعلم رواه عن عمرو عن ابن عمر إلا ابن إسحاق اه .

وأخرجه الطبراني من رواية ابن إسحاق عن عمرو بن دينار عن عبد اللَّه بن عمرو بن العاص قال «قلت يا رسول اللَّه أمن الكبر أن ألبس الثوب الحسن ؟ قال : لا . قلت : فما الكبر ؟ فذكره» ورواه البخاري في الأدب المفرد . من طريق الصعب بن زهير عن زيد بن أسلم قال لا نعلمه إلا عن عطاء بن يسار عن عبد اللَّه بن عمرو قال «جاء رجل فقال يا رسول اللَّه : الكبر أن يكون لأحدنا حلة يلبسها ؟ قال : لا . . . الحديث» وأخرجه أيضا من رواية عبد العزيز ابن محمد . وأخرجه البزار . من رواية أبى بكر بن أبى سبرة .

وأخرجه أحمد في الزهد من رواية هشام بن سعد كلهم عن زيد به . وقال عبد بن حميد في مسنده : أخبرنا عبد اللَّه بن موسى عن موسى بن عبيدة عن زيد بن أسلم عن جابر فذكر حديثا وفيه : فقال معاذ «يا رسول اللَّه أمن الكبر أن يكون لأحدنا الدابة فيركبها ، أو

النعلان ، أو الثياب يلبسها ، أو الطعام يجمع عليه أصحابه ؟ قال : لا . ولكن الكبر أن يسفه الحق ويغمص المؤمنين» وموسى ضعيف .

وفي الطبراني من رواية عبد الحميد بن سليمان ، عن عمارة بن غزية عن فاطمة بنت الحسين عن أبيها . أن عبد اللَّه ابن عمرو قال «يا رسول اللَّه ، أمن الكبر أن ألبس الحلة الحسنة ؟ الحديث» وأخرجه الطبراني في الأوسط ، ومسند الشاميين عن عطاء الخراساني عن نافع عن ابن عمر نحوه ، وفي الباب عن أبى هريرة : أخرجه ابن حبان وأخاكم من طريق ابن سيرين عنه ، وعن ابن مسعود ، أخرجه إسحاق وأبو يعلى والحاكم : أن مالك بن مرارة الرهاوي .

قال «يا رسول اللَّه إن لي من الجمال ما ترى ، وإنى لا أحب أحداً ان يفضلني بشركين فما فوقهما . أفهذا من البغي ؟

قال : لا . الحديث» وعن أبى ريحانة . أخرجه أحمد والطبراني . وعن ثابت بن قيس ، أخرجه الدارمي والطبراني .

وعن سوداء بن عمرو والحسين بن على أخرجهما الطبراني . وعن ابن عباس . أخرجه عبد بن حميد وعن عقبة بن عامر أخرجه أبو مسلم في الجامع من السنن له . [. . . . .]

(2) . قوله «و تغمص الناس» أى تستصغرهم وتعيبهم . أفاده الصحاح (ع)

(3) . قوله «في إذالة نفسه» أى إهانتها . أفاده الصحاح (ع)

الكرامة عند اللَّه في الدارين ، بأن كان صفوته وخيرته في الدنيا وكان مشهوداً له بالاستقامة على الخير في الآخرة ، لم يكن أحد أولى بالرغبة في طريقته منه إِذْ قالَ ظرف لاصطفيناه ، أى :

اخترناه في ذلك الوقت . أو انتصب بإضمار «اذكر» استشهاداً على ما ذكر من حاله . كأنه قيل :

اذكر ذلك الوقت لتعلم أنه المصطفى الصالح الذي لا يرغب عن ملة مثله . ومعنى قال له : أسلم ، أخطر بباله النظر في الدلائل المؤدية إلى المعرفة والإسلام قالَ أَسْلَمْتُ أى فنظر وعرف .

وقيل أسلمْ : أى أذعنْ وأطعْ . وروى أنّ عبد اللَّه بن سلام دعا ابني أخيه سلمة ومهاجراً إلى الإسلام فقال لهما : قد علمنا أنّ اللَّه تعالى قال في التوراة : إنى باعث من ولد إسماعيل نبيا اسمه أحمد ، فمن آمن به فقد اهتدى ورشد ، ومن لم يؤمن به فهو ملعون . فأسلم سلمة وأبى مهاجر أن يسلم ، فنزلت .

[سورة البقرة (2) : آية 132]

وَوَصَّى بِها إِبْراهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (132)

قرئ: وأوصى، وهي في مصاحف أهل الحجاز والشام. والضمير في بها لقوله أسلمت لرب العالمين على تأويل الكلمة والجملة، ونحوه رجوع الضمير في قوله: (وَجَعَلَها كَلِمَةً باقِيَةً) إلى قوله: (إِنَّنِي بَراءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي) وقوله: كلمة باقية، دليل على أن التأنيث على تأويل الكلمة وَيَعْقُوبُ عطف على إبراهيم، داخل في حكمه. والمعنى: ووصى بها يعقوب بنيه أيضا.

وقرئ: ويعقوب، بالنصب عطفا على بنيه. ومعناه: ووصى بها إبراهيم بنيه ونافلته يعقوب يا بَنِيَّ على إضمار القول عند البصريين. وعند الكوفيين يتعلق بوصي، لأنه في معنى القول.

ونحوه قول القائل:

رَجْلَانِ مِنْ ضَبَّةَ أَخْبَرَانَا إِنّا رَأَيْنَا رَجُلًا عُرْيَانَا «1»

بكسر الهمزة: فهو بتقدير القول عندنا، وعندهم يتعلق بفعل الإخبار. وفي قراءة أبيّ وابن مسعود: أن يا بنيَّ اصْطَفى لَكُمُ الدِّينَ أعطاكم الدين الذي هو صفوة الأديان وهو دين الإسلام.

ووفقكم للأخذ به فَلا تَمُوتُنَّ معناه فلا يكن موتكم إلا على حال كونكم ثابتين على الإسلام

، فالنهي في الحقيقة عن كونهم على خلاف حال الإسلام إذا ماتوا ، كقولك : لا تصلّ إلا وأنت

---

(1) . رجلان بالسكون للتخفيف والوزن ، كما يسكن عضد . وضبة : اسم قبيلة . وروى بدله «من مكة» والاخبار فيه معنى القول ، فلذلك كسرت بعده إن على الحكاية ، أى قالا لنا ذلك القول وهو : أنا رأينا . ومذهب الكوفيين أن الجملة المحكية في محل نصب بالفعل المذكور . ومذهب البصريين بقول مقدر . وقال بعضهم : الظاهر أنها مفسرة فلا محل لها ، وروى بالفتح على حذف الجار ، أى بأنا رأينا .

خاشع ، فلا تنهاه عن الصلاة ، ولكن عن ترك الخشوع في حال صلاته . فإن قلت : فأى نكتة في إدخال حرف النهى على الصلاة وليس بمنهى عنها ؟ قلت : النكتة فيه إظهار أن الصلاة التي لا خشوع فيها كلا صلاة ، فكأنه قال : أنهاك عنها إذا لم تصلها على هذه الحالة . ألا ترى إلى قوله عليه الصلاة والسلام «لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد» «1» فإنه كالتصريح بقولك لجار المسجد :

لا تصلِّ إلا في المسجد : وكذلك المعنى في الآية إظهار أن موتهم لا على حال الثبات على

الإسلام موت لا خير فيه ، وأنه ليس بموت السعداء ، وأن من حق هذا الموت أن لا يحل فيهم . وتقول في الأمر أيضا : مت وأنت شهيد . وليس مرادك الأمر بالموت . ولكن بالكون على صفة الشهداء إذا مات وإنما أمرته بالموت اعتداداً منك بميتته ، وإظهاراً لفضلها على غيرها ، وأنها حقيقة بأن يحث عليها .

[سورة البقرة (2) : آية 133]

أَمْ كُنْتُمْ شُهَداءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قالَ لِبَنِيهِ ما تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قالُوا نَعْبُدُ إِلهَكَ وَإِلهَ آبائِكَ إِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ إِلهاً واحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (133)

أَمْ كُنْتُمْ شُهَداءَ هي أم المنقطعة «2» . ومعنى الهمزة فيها الإنكار . والشهداء جمع شهيد ، بمعنى الحاضر : أى ما كنتم حاضرين يعقوب عليه السلام إذ حضره الموت ، أى حين احتضر والخطاب للمؤمنين بمعنى : ما شاهدتم ذلك «3» وإنما حصل لكم العلم به من طريق الوحى . وقيل

---

(1) . أخرجه الدارقطني والحاكم من رواية أبى سلمة . عن أبى هريرة وفيه سليمان بن داود اليماني . وهو ضعيف .

والدارقطني وابن عدى . والعقيلي من حديث جابر . وفيه محمد بن مسكين . وهو ضعيف . وأخرجه ابن حبان في الضعفاء في ترجمة عمر بن راشد عن ابن أبى ذئب عن الزهري عن عروة عن عائشة ، وقال كان عمر بن راشد يضع الحديث . وقد صح موقوفا

عن على رضى اللَّه عنه . أخرجه ابن أبى شيبة

(2) . قوله «هي أم المنقطعة» هي تفسير ببل والهمزة . (ع)

(3) . قال محمود رحمه اللَّه : «الخطاب فيه للمؤمنين بمعنى ما شاهدتم . . . الخ» . قال أحمد رحمه اللَّه : وإنما اختار على هذا التفسير أن تكون متصلة ، لأنه لو جعلها منقطعة كالأول ، لكان مضمون الكلام نفى شهود المخاطبين وهم اليهود على هذا التفسير الثاني ، لوفاة يعقوب والوصية بالإسلام ، وحينئذ يكون ذلك كاقامة حجتهم على جحد الإسلام وإنكار أن يكون الأنبياء مسلمين والغرض ضد ذلك . وإنما كان الكلام يقتضى النفي حينئذ ، لأن الاستفهام من اللَّه تعالى لا يحمل على ظاهره ، فتعين صرفه إلى الإنكار ، لأن السياق يقتضيه . ولهذا كان نفيا لشهود المسلمين وفاة يعقوب ووصيته على التفسير الأول ، لا سيما والمعتاد خطاب اليهود المعاصرين للنبي عليه الصلاة والسلام بما يخاطب به أوائلهم ، تنزيلا لعلمهم ورضاهم منزلة حضورهم وتعاطيهم ، كقوله تعالى : (وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً) ، (وَإِذْ قُلْتُمْ يا مُوسى) إلى أشباه ذلك ، فإذا كانت أم متصلة والخطاب لليهود فقد جرى الأمر في خطابهم على المعتاد ، وإذا كانت منقطعة انعكس الأمر .

الخطاب لليهود ، لأنهم كانوا يقولون : ما مات نبيٌّ إلا على اليهودية ، إلا أنهم لو شهدوه وسمعوا ما قاله لبنيه وما قالوه ، لظهر لهم حرصه على ملة الإسلام ، ولما ادعوا عليه اليهودية . فالآية منافية لقولهم ، فكيف يقال لهم : أم كنتم شهداء ؟ ولكن الوجه أن تكون أم متصلة على أن يقدر قبلها محذوف ، كأنه قيل : أتدّعون على الأنبياء اليهودية ؟ أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت ، يعنى أن أوائلكم من بنى إسرائيل كانوا مشاهدين له إذ أراد بنيه على التوحيد وملة الإسلام ، وقد علمتم ذلك ، فما لكم تدّعون على الأنبياء ما هم منه برآء ؟ وقرئ (حضر) بكسر الضاد وهي لغة . ما تَعْبُدُونَ أىّ شيء تعبدون ؟ و(ما) عامّ في كل شيء فإذا علم فرق بما ومن ، وكفاك دليلا قول العلماء «من» لما يعقل . ولو قيل : من تعبدون ، لم يعم إلا أولى العلم وحدهم . ويجوز أن يقال : (ما تَعْبُدُونَ) سؤال عن صفة المعبود . كما تقول : ما زيد ؟ تريد : أفقيه أم طبيب أم غير ذلك من الصفات ؟ وإِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ عطف بيان لآبائك . وجعل إسماعيل وهو عمه من جملة آبائه ، لأنّ العمّ أب والخالة أمّ ، لانخراطهما في سلك واحد وهو الأخوة لا تفاوت بينهما . ومنه قوله عليه السلام «عمّ الرجل صنو أبيه» «1» أى لا تفاوت بينهما كما لا تفاوت بين صنوي النخلة . وقال عليه الصلاة والسلام في العباس «هذا بقية «2» آبائي» وقال «ردّوا علىّ أبى ، فإنى أخشى أن تفعل به قريش ما فعلت ثقيف بعروة بن مسعود» «3» وقرأ أبىّ : وإله إبراهيم ، بطرح آبائك . وقرئ : أبيك . وفيه وجهان : أن يكون واحداً

وإبراهيم وحده عطف بيان له ، وأن يكون جمعاً بالواو والنون . قال :

وَفَدَّيْنَنَا بِالْأَبِينَا «4»

إِلهاً واحِداً بدل من إله آبائك ، كقوله تعالى : (بِالنَّاصِيَةِ ناصِيَةٍ كاذِبَةٍ) أو على

---

(1) . متفق عليه من حديث أبى هريرة . في قصة العباس وخالد بن الوليد وابن جميل لما امتنعوا من إعطاء الصدقة .

(2) . أخرجه ابن أبى شيبة . حدثنا ابن عيينة عن داود بن سابور عن مجاهد . قال : قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم «احفظوني في العباس فانه بقية آبائي . وإن عم الرجل صنو أبيه» ورواه الطبراني في الأوسط من رواية موسى بن عبد اللَّه بن الحسن بن الحسن عن أبيه عن جده عن الحسن عن النبي صلى اللَّه عليه وسلم قال «احفظوني – فذكر مثله» ورواه في الكبير من حديث ابن عباس من وجهين .

(3) . قال ابن أبى شيبة في المغازي في مصنفه : حدثنا سليمان بن حرب حدثنا حماد بن زيد عن أيوب ، عن عكرمة . قال : «لما وادع رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم أهل مكة الحديث» إلى أن قال «فانطلق العباس فركب بغلة النبي صلى اللَّه عليه وسلم الشهباء وانطلق إلى قريش ليدعوهم إلى اللَّه فأبطأ عليه . يقال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم : ردوا على أبى فان عم الرجل صنو أبيه . إنى أخاف أن تفعل به قريش ما فعلت ثقيف بعروة بن مسعود :

دعاهم إلى اللَّه فقتلوه. أما واللَّه لئن ركبوها منه لأضر منها عليهم ناراً.

(4) فلما تبين أصواتنا بكين وفدينا بالأبينا

يقول لما تبين النساء أصواتنا في الحرب وعرفتها، بكين شفقة علينا ورحمة لنا، وفدينا: أى كل واحدة تقول:

فداكم أبى، أو تقول لصاحبتها: فداك أبى. والأبينا: جمع أب معرب إعراب جمع التصحيح.

الاختصاص، أى نريد بإله آبائك إلهاً واحداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ حال من فاعل نعبد، أو من مفعوله، لرجوع الهاء إليه في له. ويجوز أن تكون جملة معطوفة على نعبد، وأن تكون جملة اعتراضية مؤكدة، أى ومن حالنا أنا له مسلمون مخلصون التوحيد أو مذعنون.

[سورة البقرة (2): آية 134]

تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَها ما كَسَبَتْ وَلَكُمْ ما كَسَبْتُمْ وَلا تُسْئَلُونَ عَمَّا كانُوا يَعْمَلُونَ (134)

تِلْكَ إشارة إلى الأمّة المذكورة التي هي إبراهيم ويعقوب وبنوهما الموحدون. والمعنى: أنّ أحداً لا ينفعه كسب غيره متقدّماً كان أو متأخراً، فكما أن أولئك لا ينفعهم إلا ما

اكتسبوا ، فكذلك أنتم لا ينفعكم إلا ما اكتسبتم . وذلك أنهم افتخروا بأوائلهم . ونحوه قول رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم : «يا بنى هاشم ، لا يأتينى الناس بأعمالهم وتأتونى بأنسابكم «1»» وَلا تُسْئَلُونَ عَمَّا كانُوا يَعْمَلُونَ ولا تؤاخذون بسيئاتهم كما لا تنفعكم حسناتهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿الكشاف حـ 1 صـ 183. 194﴾

---

(1) . لم أجده .

ومن فوائد صاحب المنار فى الآيات السابقة

قال رحمه الله :

(وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

الْكَلَامُ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ مُتَّصِلٌ بِمَا سَبَقَهُ مِنِ ابْتِدَاءِ قَوْلِهِ : (وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ) فَقَدْ ذَكَرَ أَنَّهُ – تَعَالَى – ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ، وَأَنَّهُ جَعَلَهُ إِمَامًا لِلنَّاسِ وَجَعَلَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ أَئِمَّةً ، وَأَنَّهُ عَهِدَ إِلَيْهِ بِبِنَاءِ بَيْتِهِ وَتَطْهِيرِهِ لِعِبَادَتِهِ فَفَعَلَ ، وَكَانَ يَوْمَئِذٍ يَدْعُو بِمَا عُلِمَ مِنْهُ مَا هِيَ مِلَّتُهُ ، وَإِنْ هِيَ إِلَّا تَوْحِيدُ اللهِ وَإِسْلَامُ الْقَلْبِ إِلَيْهِ ، وَالْإِخْلَاصُ لَهُ بِالْأَعْمَالِ ، وَتَعْظِيمُ الْبَيْتِ بِتَطْهِيرِهِ ، وَإِقَامَةُ الْمَنَاسِكِ فِيهِ عَنْ بَصِيرَةٍ بِأَسْرَارِهَا تَجْعَلُ الْمَعْنَى الْمُتَصَوَّرَ كَالْمَحْسُوسِ الْمُبْصَرِ . ثُمَّ قَالَ بَعْدَ هَذَا : (وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ) أَيِ امْتَهَنَهَا وَاسْتَخَفَّ بِهَا ؛ كَأَنَّهُ – تَعَالَى – يَقُولُ : هَذِهِ هِيَ مِلَّةُ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ الَّذِي تَنْتَسِبُونَ إِلَيْهِ وَتَفْخَرُونَ بِهِ ، فَكَيْفَ تَرْغَبُونَ عَنْهَا ، وَتَنْتَحِلُونَ لِأَنْفُسِكُمْ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ، وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا لَا بِالذَّاتِ وَلَا بِالْوَسَاطَةِ ! .

قَالَ : (وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا) بِهَذِهِ الْمِلَّةِ فَجَعَلْنَاهُ إِمَامًا لِلنَّاسِ ، وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ الْكِتَابَ وَالنُّبُوَّةَ (وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ) لِجِوَارِ اللهِ بِعَمَلِهِ بِهَذِهِ الْمِلَّةِ وَدَعْوَتِهِ إِلَيْهَا ، وَإِرْشَادِهِ النَّاسَ بِهَا . فَمِلَّةٌ جَعَلَتْ لِإِبْرَاهِيمَ هَذِهِ الْمَكَانَةَ عِنْدَ اللهِ –

تَعَالَى – فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، لَا يَرْغَبُ عَنْهَا إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ، وَجَنَى عَلَى إِدْرَاكِ عَقْلِهِ فَاسْتَحَبَّ الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ، وَإِنْ خَسِرَ الْآخِرَةَ وَالْأُولَى .

وَمِنْ مَبَاحِثِ اللَّفْظِ فِي الْآيَةِ : قَوْلُ (الْجَلَالِ) فِي تَفْسِيرِ (سَفِهَ نَفْسَهُ) أَيْ جَهِلَ أَنَّهَا مَخْلُوقَةٌ لِلَّهِ . قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : وَلَمْ يَقُلْ بِهَذَا أَحَدٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ الَّذِينَ يُعْتَدُّ بِهِمْ وَالسِّيَاقُ لَا يَقْتَضِيهِ ، وَسَفِهَ : يُسْتَعْمَلُ لَازِمًا وَمُتَعَدِّيًا ، وَمَعْنَى الْمُتَعَدِّي : اسْتَخَفَّ وَامْتَهَنَ وَأَخَّرَهُ (الْجَلَالُ) وَهُوَ الرَّاجِحُ .

وَفِي الْكَشَّافِ أَنَّ (نَفْسَهُ) تَمْيِيزٌ لِفَاعِلِ (سَفِهَ) وَلَا يَمْنَعُ مِنْ ذَلِكَ الْإِضَافَةُ إِلَى الضَّمِيرِ ؛ لِأَنَّهُ تَعْرِيفٌ لَفْظِيٌّ ، وَالْمَعْنَى : أَنَّهُ لَا يَرْغَبُ عَنْ ذَلِكَ إِلَّا مَنْ سَفِهَتْ نَفْسُهُ ، أَيْ حَمُقَتْ .

وَقَدَّمَ هَذَا الْقَوْلَ كَأَنَّهُ رَجَّحَهُ عَلَى مَا قَبْلَهُ .

وَأَقُولُ : سَفُهَ بِالضَّمِّ – كَضَخُمَ – سَفَاهَةً صَارَ سَفِيهًا ، وَسَفِهَ بِالْكَسْرِ – كَتَعِبَ – سَفَهًا هُوَ الَّذِي قِيلَ : إِنَّهُ يُسْتَعْمَلُ لَازِمًا وَمُتَعَدِّيًا ، وَقِيلَ : بَلْ هُوَ لَازِمٌ دَائِمًا وَأَنَّ أَصْلَ سَفِهَ نَفْسَهُ بِالرَّفْعِ ، فَنُصِبَ عَلَى التَّمْيِيزِ كَسَفِهَ نَفْسًا ، فَأُضِيفَتِ النَّفْسُ إِلَى ضَمِيرِهِ كَمَا تَقَدَّمَ وَمِثْلُهُ غَبِنَ رَأْيُهُ . وَسَيَأْتِي تَوْضِيحُ مَعْنَاهُ فِي تَفْسِيرِ (سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ) (2 : 142) .

(إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ) أَيِ اصْطَفَاهُ إِذْ دَعَاهُ إِلَى الْإِسْلَامِ بِمَا أَرَاهُ مِنْ آيَاتِهِ وَنَصَبَ لَهُ مِنْ بَيِّنَاتِهِ ، فَأَجَابَ الدَّعْوَةَ وَ (قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ) وَ (الْجَلَالُ) قَدَّرَ كَلِمَةَ " اذْكُرْ " مُتَعَلِّقًا لِلظَّرْفِ " إِذْ " كَمَا هِيَ عَادَتُهُ فِي مِثْلِهِ وَإِنْ وُجِدَ فِي الْكَلَامِ مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ ، كَقَوْلِهِ هُنَا : (اصْطَفَيْنَاهُ) وَقَدْ نَشَأَ إِبْرَاهِيمُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي قَوْمٍ يَعْبُدُونَ الْكَوَاكِبَ وَيَتَّخِذُونَ الْأَصْنَامَ ، فَأَرَاهُ اللهُ حُجَّتَهُ ، وَأَنَارَ بَصِيرَتَهُ ، فَنَفَذَتْ أَشِعَّتُهَا مِنَ الْعَالَمِ الشَّمْسِيِّ ، وَأَدْرَكَتْ أَنَّ لِجَمِيعِ الْعَالَمِينَ رَبًّا وَاحِدًا مُنْفَرِدًا بِالْخَلْقِ وَالتَّدْبِيرِ ، وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ فَبَهَرَهُمْ بِبُرْهَانِهِ ، وَأَفْحَمَهُمْ بِبَيَانِهِ ، وَقَدْ قَصَّ اللهُ - تَعَالَى - خَبَرَهُ مَعَهُمْ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ ، وَسَيَأْتِي تَفْسِيرُ الْآيَاتِ إِنْ شَاءَ اللهُ - تَعَالَى .

(وَوَصَّى بِهَا) أَيْ بِالْمِلَّةِ أَوِ الْخَصْلَةِ الَّتِي ذُكِرَتْ أَخِيرًا ، (إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ) بَنِيهِ أَيْضًا ، إِذْ قَالَ كُلٌّ مِنْهُمَا لِوَلَدِهِ : (يَا بَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ) أَيِ اخْتَارَهُ لَكُمْ بِهِدَايَتِكُمْ إِلَيْهِ وَجَعَلَ الْوَحْيَ فِيكُمْ (فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) أَيْ فَحَافِظُوا عَلَى الْإِسْلَامِ لِلَّهِ وَالْإِخْلَاصِ فِي الِانْقِيَادِ إِلَيْهِ بِحَيْثُ لَا تَتْرُكُوا ذَلِكَ لَحْظَةً

وَاحِدَةً لِئَلَّا تَمُوتُوا فِيهَا فَتَمُوتُوا غَيْرَ مُسْلِمِينَ ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَضْمَنُ حَيَاتَهُ بَيْنَ الشَّهِيقِ وَالزَّفِيرِ ، وَيَتَضَمَّنُ هَذَا النَّهْيُ إِرْشَادَ مَنْ كَانَ مُنْحَرِفًا عَنِ الْإِسْلَامِ إِلَى عَدَمِ الْيَأْسِ وَأَنْ يُبَادِرَ بِالرُّجُوعِ إِلَيْهِ وَالِاعْتِصَامِ بِحَبْلِهِ لِئَلَّا يَمُوتَ عَلَى غَيْرِهِ .

وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ انْتِقَالٌ إِلَى إِشْرَاكِ أَهْلِ الْكِتَابِ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْعَالَمِينَ مِنَ الْعَرَبِ فِي التَّذْكِيرِ وَالْإِرْشَادِ إِلَى الْإِسْلَامِ ؛ وَلِذَلِكَ ذُكِرَتْ وَصِيَّةُ يَعْقُوبَ ، وَاخْتَلَفَ الْأُسْلُوبُ فَقَدْ كَانَ جَارِيًا عَلَى طَرِيقَةِ الْإِيجَازِ ، فَانْتَقَلَ إِلَى طَرِيقَةِ الْإِطْنَابِ وَالْإِلْحَاحِ ؛ لِمَا تَقَدَّمَ الْإِلْمَاعُ إِلَيْهِ مِنْ مُرَاعَاةِ الْأُولَى فِي خِطَابِ الْعَرَبِ ، وَالثَّانِيَةِ فِي خِطَابِ أَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِينَ لَا يَكْتَفُونَ بِالْإِشَارَةِ وَالْعِبَارَةِ الْمُخْتَصَرَةِ لِجُمُودِ أَذْهَانِهِمْ وَاعْتِيَادِهِمْ عَلَى التَّأْوِيلِ وَالتَّحْرِيفِ ، وَفَصَلَ بَيْنَ الْعَاطِفِ وَالْمَعْطُوفِ بِالْمَفْعُولِ وَلَمْ يَقُلْ : وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ وَيَعْقُوبُ بَنِيهِمَا ، لِئَلَّا يُتَوَهَّمَ أَنَّ الْوَصِيَّةَ كَانَتْ مِنْهُمَا فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ أَوْ أَنَّهَا خَاصَّةٌ بِأَبْنَائِهِمَا مَعًا ، وَهُمْ أَوْلَادُ يَعْقُوبَ عَلَى نَحْوِ مَا تَقَدَّمَ فِي تَفْسِيرِ (وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ) .

ذَكَرَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ وَحُكْمَ الرَّاغِبِ عَنْهَا وَوَصِيَّتَهُ بَنِيهِ بِهَا ، وَوَصِيَّةَ حَفِيدِهِ يَعْقُوبَ بَنِيهِ بِهَا أَيْضًا ، وَذَلِكَ يُشْعِرُ بِأَنَّ بَنِي إِبْرَاهِيمَ كَانُوا يُوصَوْنَ بِمَا أَوْصَاهُمْ أَبُوهُمْ ، فَإِنَّ يَعْقُوبَ أَخَذَ

الْوَصِيَّةَ عَنْ أَبِيهِ إِسْحَاقَ ، وَذَلِكَ مِنْ ضُرُوبِ الْإِيجَازِ الدَّقِيقَةِ .

ثُمَّ أَرَادَ أَنْ يُقَرِّرَ أَمْرَ هَذِهِ الْوَصِيَّةِ وَيُؤَكِّدَهَا وَيُقِيمَ الْحُجَّةَ بِهَا عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ ، فَقَالَ : (أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي)

أَقُولُ : هَذَا إِضْرَابٌ عَمَّا قَبْلَهُ وَانْتِقَالٌ إِلَى اسْتِفْهَامٍ إِنْكَارِيٍّ وُجِّهَ إِلَى الْيَهُودِ عَنْ وَصِيَّةِ جَدِّهِمْ يَعْقُوبَ لِآبَائِهِمُ الْأَسْبَاطِ ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ : مَعْنَاهُ أَكُنْتُمْ غَائِبِينَ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذِ احْتَضَرَ يَعْقُوبُ فَسَأَلَ بَنِيهِ عَمَّا يَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِهِ سُؤَالَ تَقْرِيرٍ لِيُشْهِدُوهُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالتَّوْحِيدِ الْخَالِصِ ، وَالسُّؤَالُ بِ (مَا) أَعَمُّ مِنَ السُّؤَالِ بِ " مَنْ " لِأَنَّ هَذَا خَاصٌّ بِمَنْ يَعْقِلُ وَمَا أُنْزِلَ مَنْزِلَتَهُ بِسَبَبٍ يُجِيزُ ذَلِكَ ، وَالسُّؤَالُ بِكَلِمَةِ (مَا) يَعُمُّ الْعَاقِلَ وَغَيْرَهُ ، وَتَتَعَيَّنُ (مَا) فِي السُّؤَالِ عَنِ الْعَاقِلِ إِذَا أُرِيدَ وَصْفُهُ نَحْوَ (قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ) (26 : 23) ؟ وَهَذَا الِاصْطِلَاحُ لِلنُّحَاةِ لَا يَدُلُّ عَلَى جَوَازِ وَصْفِ اللهِ – تَعَالَى – بِلَفْظِ (الْعَاقِلِ) شَرْعًا ؛ لِأَنَّ أَسْمَاءَهُ وَصِفَاتِهُ – تَعَالَى – تَوْقِيفِيَّةٌ ، (قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ

وَإِسْحَاقَ) عَرَّفُوا الْإِلَهَ بِالْإِضَافَةِ إِلَى آبَائِهِمْ لِأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ انْفَرَدُوا بِعِبَادَةِ رَبِّ الْعَالَمِينَ خَالِقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَحْدَهُ، وَدَعَوُا الْأُمَمَ إِلَى ذَلِكَ فِي وَقْتٍ فَشَتْ فِيهِ عِبَادَةُ آلِهَةٍ كَثِيرِينَ مِنَ الْكَوَاكِبِ وَالْأَصْنَامِ وَالْحَيَوَانَاتِ وَغَيْرِهَا ، وَلِذَلِكَ قَالَ سَحَرَةُ مُوسَى عِنْدَمَا آمَنُوا : (آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ) (7 : 121 - 122) . وَإِسْمَاعِيلُ عَمُّ يَعْقُوبَ ، ذُكِرَ مَعَ آبَائِهِ لِلتَّغْلِيبِ أَوْ لِتَشْبِيهِ الْعَمِّ بِالْأَبِ ، كَمَا فِي حَدِيثِ (عَمُّ الرَّجُلِ صِنْوُ أَبِيهِ) رَوَاهُ الشَّيْخَانِ . وَالْجَمْعُ بَيْنَ الْحَقِيقَةِ وَالْمَجَازِ جَائِزٌ يَكْثُرُ فِي الْقُرْآنِ وِفَاقًا لِلشَّافِعِيِّ وَابْنِ جَرِيرٍ الطَّبَرِيِّ وَخِلَافًا لِجُمْهُورِ الْأُصُولِيِّينَ (إِلَهًا وَاحِدًا) أَيْ نَعْبُدُهُ حَالَ كَوْنِهِ إِلَهًا وَاحِدًا لَا نُشْرِكُ مَعَهُ أَحَدًا بِدُعَاءٍ ، وَلَا تَوَجُّهٍ فِي قَضَاءِ حَاجَةٍ وَلَا غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْعِبَادَاتِ (وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ) أَيْ وَالْحَالُ أَنَّنَا نَحْنُ مُنْقَادُونَ مُذْعِنُونَ مُسْتَسْلِمُونَ لَهُ وَحْدَهُ دُونَ غَيْرِهِ كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ تَقْدِيمُ الظَّرْفِ (لَهُ) .

وَقَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ فِي الْآيَةِ مَا مَعْنَاهُ :

خُلَاصَةُ هَذِهِ الْوَصِيَّةِ عَقِيدَةُ الْوَحْدَانِيَّةِ فِي الْعِبَادَةِ وَإِسْلَامِ الْقَلْبِ لِلَّهِ – تَعَالَى – وَالْإِخْلَاصِ لَهُ . وَتَكْرَارُ لَفْظِ (الْإِسْلَامِ) فِي هَذِهِ الْآيَاتِ يُرَادُ بِهِ تَقْرِيرُ حَقِيقَةِ الدِّينِ . ذَلِكَ أَنَّ الْعَرَبَ كَانَتْ تَدَّعِي أَنَّ لَهَا دِينًا خَاصًّا بِهَا وَأَنَّهُ الْحَقُّ ، وَإِنِ اخْتَلَفَتْ فِيهِ الْقَبَائِلُ وَالشُّعُوبُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ يَنْتَمِي إِلَى إِبْرَاهِيمَ عَلَى وَثَنِيَّتِهِمْ ، وَكَذَلِكَ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى كُلٌّ يَدَّعِي دِينًا خَاصًّا بِهِ وَأَنَّهُ الْحَقُّ ،

(89/67)

فَبَيَّنَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ أَنَّ هَذِهِ الدَّعَاوَى مِنَ التَّعَصُّبِ لِلتَّقَالِيدِ وَأَنَّ دِينَ اللهِ – تَعَالَى – وَاحِدٌ فِي حَقِيقَتِهِ ، وَرُوحَهُ التَّوْحِيدُ وَالِاسْتِسْلَامُ لِلَّهِ – تَعَالَى – ، وَالْخُضُوعُ وَالْإِذْعَانُ لِهِدَايَةِ الْأَنْبِيَاءِ ، وَبِهَذَا كَانَ يُوصِي أُولَئِكَ النَّبِيُّونَ أَبْنَاءَهُمْ وَأُمَمَهُمْ ، فَتَبَيَّنَ أَنَّ دِينَ اللهِ – تَعَالَى – وَاحِدٌ فِي كُلِّ أُمَّةٍ وَعَلَى لِسَانِ كُلِّ نَبِيٍّ ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ فِي آيَةٍ أُخْرَى : (شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ) (42 : 13) فَالتَّفَرُّقُ فِي الدِّينِ مَا جَاءَ إِلَّا مِنَ الْجَهْلِ وَالتَّعَصُّبِ لِلْأَهْوَاءِ ، وَالْمُحَافَظَةِ عَلَى الْحُظُوظِ وَالْمَنَافِعِ الْمُتَبَادَلَةِ بَيْنَ الْمَرْءُوسِينَ وَالرُّؤَسَاءِ ، فَالْقُرْآنُ يُطَالِبُ

الْجَمِيعَ بِالِاتِّفَاقِ فِي الدِّينِ وَالِاجْتِمَاعِ عَلَى أَصْلَيْهِ ، الْعَقْلِيِّ : وَهُوَ التَّوْحِيدُ وَالْبَرَاءَةُ مِنَ الشِّرْكِ بِأَنْوَاعِهِ ، وَالْقَلْبِيِّ : وَهُوَ الْإِسْلَامُ وَالْإِخْلَاصُ لِلَّهِ فِي جَمِيعِ الْأَعْمَالِ .

(90/67)

وَعُلِمَ مِنْ هَذَا أَنَّ لَفْظَ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ فِي كَلَامِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَيَعْقُوبَ يُرَادُ بِهِ مَعْنَاهُ الَّذِي تَقَدَّمَ ، فَمَنْ لَمْ يَكُنْ مُتَحَقِّقًا بِهَذَا الْمَعْنَى فَلَيْسَ بِمُسْلِمٍ ، أَيْ لَيْسَ عَلَى دِينِ اللهِ الْقَيِّمِ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ جَمِيعُ أَنْبِيَاءِ اللهِ . وَأَمَّا لَفْظُ الْإِسْلَامِ فِي عُرْفِنَا الْيَوْمَ ، فَهُوَ لَقَبٌ يُطْلَقُ عَلَى طَوَائِفَ مِنَ النَّاسِ لَهُمْ مُمَيِّزَاتٌ دِينِيَّةٌ وَعَادِيَّةٌ تُمَيِّزُهُمْ عَنْ سَائِرِ طَوَائِفِ النَّاسِ الَّذِينَ يُلَقَّبُونَ بِأَلْقَابٍ دِينِيَّةٍ أُخْرَى ، وَلَا يُشْتَرَطُ فِي إِطْلَاقِ هَذَا اللَّقَبِ الْعُرْفِيِّ عِنْدَ أَهْلِهِ أَنْ يَكُونَ الْمُسْلِمُ خَاضِعًا مُسْلِمًا لِدِينِ اللهِ مُخْلِصًا لَهُ أَعْمَالَهُ ، بَلْ يُطْلِقُونَهُ أَيْضًا عَلَى مَنِ ابْتَدَعَ فِيهِ مَا لَيْسَ مِنْهُ ، أَوْ مَا يُنَافِيهِ ، وَمَنْ فَسَقَ عَنْهُ وَاتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ . وَمَعْنَى الْإِسْلَامِ الَّذِي دَعَا إِلَيْهِ الْقُرْآنُ تَقُومُ بِهِ الْحُجَّةُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ، وَيَعْتَرِفُ بِهِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى ؛ لِأَنَّهُ رُوحُ كُلِّ دِينٍ ، وَهُوَ الَّذِي دَعَا إِلَيْهِ النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، وَالدَّعْوَةُ إِلَى اللَّقَبِ لَا مَعْنَى لَهَا .

قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ بَعْدَ تَقْرِيرِهِ هَذَا الْمَعْنَى : وَبِهِ يَظْهَرُ خَطَأُ مَنْ خَصَّصَ الرَّغْبَةَ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ بِالْمَيْلِ إِلَى الْيَهُودِيَّةِ أَوِ النَّصْرَانِيَّةِ .

وَمِنْ مَبَاحِثِ اللَّفْظِ فِي الْآيَةِ أَنَّ " أَمْ " تُسْتَعْمَلُ فِي الِاسْتِفْهَامِ إِذَا كَانَ مَبْنِيًّا عَلَى كَلَامٍ سَابِقٍ كَمَا هُنَا لِمَا فِيهَا مِنَ الْإِشْعَارِ بِالِانْتِقَالِ ، فَفِيهَا مَعْنَى الْإِضْرَابِ .

(تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ) ، أَقُولُ : الْأُمَّةُ هُنَا الْجَمَاعَةُ مِنَ النَّاسِ ، وَالْمُشَارُ إِلَيْهِ يَعْقُوبُ وَآبَاؤُهُ وَأَبْنَاؤُهُ ، وَإِذَا بَدَأْتَ بِالْأَفْضَلِ قُلْتَ : إِبْرَاهِيمُ وَأَوْلَادُهُ وَأَحْفَادُهُ الْمَذْكُورُونَ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ . (قَدْ خَلَتْ) مَضَتْ وَذَهَبَتْ مِنْ هَذَا الْعَالَمِ (لَهَا مَا كَسَبَتْ) مِنْ عَمَلٍ تُجْزَى بِهِ (وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ) مِنْ عَمَلٍ تُجْزَوْنَ بِهِ ، وَلَا يُجْزَى أَحَدٌ بِعَمَلِ غَيْرِهِ (وَلَا تُسْأَلُونَ) يَوْمَ الْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ (عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ) سُؤَالَ حِسَابٍ وَجَزَاءٍ ، وَلَا يُسْأَلُونَ عَمَّا تَعْمَلُونَ كَذَلِكَ ، بَلْ كُلٌّ يُسْأَلُ عَنْ عَمَلِهِ وَيُجَازَى بِهِ دُونَ عَمَلِ غَيْرِهِ ، فَلَا يَنْتَفِعُ أَحَدٌ بِعَمَلِ غَيْرِهِ وَلَا يَتَضَرَّرُ بِهِ مِنْ حَيْثُ هُوَ عَمَلُهُ ، إِلَّا أَنَّهُ قَدْ يَنْتَفِعُ أَوْ يَتَضَرَّرُ بِعَمَلِ غَيْرِهِ إِذَا كَانَ هُوَ سَبَبًا لَهُ ؛ لِأَنَّهُ أَرْشَدَهُ إِلَيْهِ وَكَانَ قُدْوَةً لَهُ فِيهِ .

(الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ) : جَاءَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ بَعْدَ الْكَلَامِ عَنْ وَصِيَّةِ إِبْرَاهِيمَ لِبَنِيهِ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ لِبَنِيهِمْ ؛ اسْتِدْرَاكًا عَلَى مَا عَسَاهُ يَقَعُ فِي أَذْهَانِ ذَرَارِي هَؤُلَاءِ الْأَنْبِيَاءِ الْكِرَامِ – عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ – مِنْ أَنَّ هَذَا السَّلَفَ الَّذِي لَهُ عِنْدَ اللهِ هَذِهِ الْمَكَانَةُ يَشْفَعُ لَهُمْ فَيَنْجُونَ وَيَسْعَدُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِمُجَرَّدِ الِانْتِسَابِ إِلَيْهِمْ ، فَبَيَّنَ اللهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ سُنَّتَهُ فِي عِبَادِهِ أَلَّا يُجْزَى أَحَدٌ إِلَّا بِكَسْبِهِ وَعَمَلِهِ ، وَلَا يُسْأَلُ إِلَّا عَنْ كَسْبِهِ وَعَمَلِهِ ، وَقَدْ بَيَّنَ فِي سُورَةِ النَّجْمِ أَنَّ هَذِهِ الْقَضِيَّةَ مِنْ أُصُولِ الدِّينِ الْعَامَّةِ الَّتِي جَاءَ بِهَا الْأَنْبِيَاءُ مِنْ قَبْلُ (أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى) (53 : 36 – 39) . . . إِلَخْ .

(93/67)

وَبَيَّنَ فِي آيَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ فِي سُوَرٍ مُتَفَرِّقَةٍ : أَنَّ الْمُرْسَلِينَ لَمْ يُرْسَلُوا إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ، فَمَنْ آمَنَ بِهِمْ وَعَمِلَ بِمَا يُرْشِدُونَ إِلَيْهِ كَانَ نَاجِيًا وَإِنْ بَعُدَ عَنْهُمْ فِي النَّسَبِ ، وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ هَدْيِهِمْ كَانَ هَالِكًا وَإِنْ أَدْلَى إِلَيْهِمْ بِأَقْرَبِ سَبَبٍ (قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ) (11 : 46) وَإِذَا لَمْ تَنْتَفِعْ بِهِمْ ذُرِّيَّاتُهُمُ الَّذِينَ لَمْ يَقْتَدُوا بِهِمْ فَكَيْفَ يَنْتَفِعُ بِهِمْ أُولَئِكَ الْبُعَدَاءُ الَّذِينَ لَيْسَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُمْ صِلَةٌ إِلَّا الْأَقْوَالَ الْكَاذِبَةَ الَّتِي يُعَبِّرُ عَنْهَا أَهْلُ هَذَا الْعَصْرِ

(بِالْمَحْسُوبِيَّةِ) ، وَيَقُولُونَ فِي مُخَاطَبَةِ أَصْحَابِ الْقُبُورِ عِنْدَ الِاسْتِغَاثَةِ بِهِمْ : (الْمَحْسُوبُ كَالْمَنْسُوبِ) وَمَا أَحْسَنَ قَوْلَ الْإِمَامِ الْغَزَالِيِّ : إِذَا كَانَ الْجَائِعُ يَشْبَعُ إِذَا أَكَلَ وَالِدُهُ دُونَهُ ، وَالظَّمْآنُ يَرْوَى بِشُرْبِ وَالِدِهِ . انتهى انتهى . اهـ ﴾ تفسير المنار حـ 1 صـ 390. 394 ﴿

(94/67)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (134) ﴾

وقوله تعالى : " خلت" أي انفردت وخلا فلان بفلان أي انفرد به . . وخلا المكان من نزيله أي أصبح المكان منفردا ، والنزيل منفردا ولا علاقة لأحدهما بالآخر . . الله تبارك وتعالى يقول :

وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (14)

(من الآية 14 سورة البقرة)

أي انفردوا هم وشياطينهم ولم يعد في المكان غيرهم ؛ ولقد قلنا إن كل حدث لابد أن يكون له محدث ، ولا حدث يوجد بذاته ، وكل حدث يحتاج إلي زمان ويحتاج إلي مكان . . فإذا قال الحق تبارك وتعالى : " تلك أمة قد خلت" فمعناه إنه انقضى زمانها وانفرد عن زمانكم . والمقصود بقوله تعالى : " تلك أمة قد خلت" أي انتهى زمانها . . وتلك اسم إشارة لمؤنث مخاطب وأمة هي المشار إليه والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ولعامة المسلمين . . والله سبحانه وتعالى حين يقول : " تلك أمة" فكأنها مميزة بوحدة عقيدتها ووحدة إيمانها حتى أصبحت شيئا واحدا . . ولذلك لابد أن يخاطبها بالوحدة . .

واقرأ قوله تعالى :

إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (92)

(سورة الأنبياء)

وتلك هنا إشارة لأمة إبراهيم وإسماعيل واسحق ويعقوب . . هم جماعة كثيرة لهم عقيدة واحدة . وقوله تعالى : " لها ما كسبت ولكم ما كسبتم" . . أي تلك جماعة على دين واحد تحاسب عما فعلته كما ستحاسبون أنتم على ما فعلتم . . ولكن الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ إن إبراهيم كان أمةً ﴾

(من الآية 120 سورة النحل)

وإبراهيم فرد وليس جماعة ؟ نقول نعم إن إبراهيم فرد ولكن اجتمعت فيه من خصال الخير ومواهب الكمال ما لا يجتمع إلا في أمة . وقوله تعالى : " قد خلت" يراد بها إفهام اليهود ألا ينسبوا أنفسهم إلي إبراهيم نسبا كاذبا لأن نسب الأنبياء ليس نسباً دمويا أو جنسيا أو انتماء . . وإنما نسب منهج واتباع . . فكأن الحق يقول لليهود لن ينفعكم أن تكونوا من سلالة إبراهيم ولا اسحق ولا يعقوب . . لأن نسب النبوة هو نسب إيماني فيه اتباع للمنهج والعقيدة . . ولا يشفع هذا النسب يوم القيامة لأن لكل واحد عمله .

قوله تعالى : " لها ما كسبت ولكم ما كسبتم" . . الكسب يؤخذ على الخير والاكتساب يؤخذ في الشر لأن الشر فيه افتعال . أننا لابد أن نلتفت ونتنبه إلي آيات القرآن الكريم حتى نستطيع أن نرد على أولئك الذين يحاولون الطعن في القرآن . . فلا يوجد معنى لآية تهدمها آية أخرى ولكن يوجد عدم فهم . يأتي بعض المستشرقين ليقول هناك آية في القرآن تؤكد أن الله سبحانه وتعالى يعطي بالأنساب وذلك في قوله جل جلاله :

﴿ والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء ﴾

(من الآية 21 سورة الطور)

الأبناء مؤمنون ، وقوله تعالى : " ألحقنا بهم ذريتهم" كلمة ألحقنا تأتي عندما تلحق ناقصا بكامل . . فإذا كان الاثنان مؤمنين فكأنك تزيد درجة الأبناء إكراما لآبائهم المؤمنين . . نقول إن الإيمان شيء والعمل بمقتضى الإيمان شيء آخر . . الأب والذرية مؤمنون ولكن الآباء تفانوا في العمل والأبناء ربما قصروا قليلا . . ولكن هنا رفع درجة بالنسبة للمؤمنين أي لابد أن يكون الأب والذرية مؤمنين . . ولكن غير المؤمنين مبعدون ليس لهم علاقة بآبائهم انقطعت الصلة بينهم بسبب الإيمان والكفر . . فالآباء لهم أعمال حسنة كثيرة . . والأبناء لهم أعمال حسنة أقل . . ينزل الله الأبناء في الجنة مع آبائهم لأن الإيمان واحد .

(96/67)

وقوله تعالى : " وما ألتناهم" أي أنقصناهم من عملهم من شيء . . إذن فالآباء والذرية مأخوذون بإيمانهم ، والله بفضله يلحق الأبناء بالآباء . قوله تعالى : " لها ما كسبت ولكم ما كسبتم" . . هذه عملية الإيمان في العقيدة . . قد يقول البعض إن الله تبارك وتعالى يقول :

﴿ كل امرئ بما كسب رهين ﴾

(من الآية 21 سورة الطور)

ويقول سبحانه :

﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى " 39" ﴾

(سورة النجم)

فكيف يأخذ الأبناء جزاء بدون سعي ؟ نقول افهموا النصوص جيدا . قوله تعالى : " وإن ليس للإنسان إلا ما سعى" تحدد العدل ولكنها لا تحدد الفضل الذي يعطيه الله سبحانه لمن شاء من عباده ، وهذا يعطي بلا حساب . . ثم من الذي قال إن هذا ليس من سعيهم ؟ إن إلحاق الأبناء المؤمنين بالمنزلة العالية لآبائهم تكريم لعمل الآباء وليس زيادة لعمل الأبناء . ولقد روى لنا العلماء أن ولدا كان مؤمنا طائعا عابدا وأبوه كان مسرفا على نفسه . . فلما مات الأب حزن عليه ابنه ولكنه رأى أن أباه جالس فوق رأسه ومعه واحدة من الحور العين تؤنسه . . فتعجب الابن كيف ينال أبوه هذه المكافأة وقد كان مسرفا على نفسه فسأله : كيف وصلت لهذه المنزلة ؟ فقال الأب أي منزلة . . قال الابن أن تكون معك واحد من الحور العين . . فقال الأب وهل فهمت أنها نعيم لي . . قال الابن نعم . . يقول :

﴿ قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون " 58" ﴾

(سورة يونس)

إذن أنت في الآخرة ستفرح بفضل الله ورحمته أكثر من فرحك بعملك الصالح . .

<مصداقا صلى الله عليه وسلم : " سددوا وقاربوا وابشروا فإنه لن يدخل الجنة أحداً

عمله ، قالوا ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا إلا أن يتغمدني الله منه برحمته" > ربما يأتي أحد ويقول الصلاة على الميت ما هو القصد الشرعي منها . . إن كانت تفيده فستكون الفائدة زيادة على عمله . . وإن لم تكن تعطيه أكثر من عمله فما فائدتها ؟ .

(97/67)

نقول مادام الشرع كلفنا بها فلها فائدة . وهل تظن أن الصلاة على الميت ليست من عمله ؟ هي داخلة في عمله لأنه مؤمن وإيمانه هو الذي دفعك للصلاة عليه . . والذي تدعو له بالخير وبالرحمة وبالمغفرة ويتقبلها الله . . أيقال أنه أخذ غير عمله ؟ لا ؛ إنك لم تدع له إلا بعد أن أصابك الخير منه . . ولكنك لا تدعو مثلا لإنسان أخذ بيدك إلي خمارة أو إلي فاحشة أو إلي منكر . . بل تدعو لمن أعطاك خيرا فإن استجاب الله لك فهو من عمل الله سبحانه وتعالى يقول إن ما كان يعمله من سبقكم من أمم لا تسألون عنه . . وإن كنتم تدعون أن إبراهيم كان يهوديا أو نصرانيا نقل لكم أنتم لن تسألوا عما كان يعمل إبراهيم ولكن عليكم أنفسكم . . السؤال يكون عن عملكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 604.600 ﴾

(98/67)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله تعالى ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (134) ﴾

" تِلْكَ " مُبْتَدَأ ، و " أُمَّةٌ " خبره ، ويجوز أنْ تَكُونَ " أُمَّة " بدلاً من " تلك " ، و " قد خلت " خبر للمبتدأ .

وأصل " تلك " : " تي " ، فلمَّا جاء باللاَّم للبعد حُذِفَتِ الياء لالتقاء الساكنين ، فإن قيل : لِمَ لَمْ تسكر اللام حتى لا تحذف الياء ؟

فالجواب : أَنَّهُ يثقل اللفظ بوقوع الياء بين كسرتين .

وزعم الكوفيون أنَّ التاء وحدَها هي الاسمن وليس ثَمَّ شيء محذوف .

وقوله : " قد خلت " جملة فعلية في محل رفع صفة لـ " أُمَّة " إنْ قيل إنها خبر " تلك " أو خبرُ " تلك " إن قيل : إن " أمة " بدل من " تلك " كما تقدم ، و " خلت " أي صارت إلى الخلاء وهي الأرض التي لا أنيس بها ، والمراد به ماتت ، والمشار إليه هو إبراهيم ويعقوب وأبناؤهم .

والأمة : الجماعة ، وقيل : الصنف .

قوله : ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ ﴾ في هذه الجملة ثلاثة أوجه :

أحدها : أن تكون صفة لـ " أمة " أيضاً ، فيكون محلها رفعاً .

والثاني : أن تكون حالاً من الضمير في " خلت " فحملها نصب ، أي : خلت ثابتاً لَهَا كَسْبُها .

والثالث : أن تكون استئنافاً فلا محلّ لها .

وفي " ما " من قوله : " ما كسبت " ثلاثة أوجه :

أظهرها : أنها بمعنى الذي .

والثاني : أنها نكرة موصوفة ن والعائد على كلا القولين محذوف أي : كسبته ، إلا أن الجملة لا محلّ لها على الأول .

والثالث : أن تكون مصدرية ، فلا تحتاج إلى عائد على المشهور ، ويكون المصدر واقعاً موقع المفعول أي : لها مكسوباً أو يكون ثَمَّ مضاف ، أي : لها جزاء كسبها .

قوله : ﴿ وَلَكُمْ مَّا كَسَبْتُمْ ﴾ إن قيل : إن قوله : ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ ﴾ مستأنف كانت هذه الجملة عطفاً عليه .

وإن قيل : إنه صفة أو حال فلا .

أما الصفة فلعدم الرابط فيها .

وأما الحال فلاختلاف زمان استقرار كسبها لها ، وزمان استقرار كسب المخاطبين ، وعطف الحال على الحال يوجب اتحاد الزمان ، و" ما " من قوله : " ما كسبتم " ك" ما " المتقدمة .

قوله : " وَلَا تُسْأَلُونَ " هذه الجملة استئناف ليس إلاَّ ، ومعناها التوكيد لما قبلها ؛ لأنه لما تقدم أن أحداً لا ينفعه كسب أحد ، بل هو مختص به إن خَيْراً وإن شرًّا ، فلذلك لا يسأل أحد عن غيره ، وذلك أن اليهود افتخروا بأسلافهم ، فأخبروا بذلك .

و" ما " يجوز فيها الأوجه الثلاثة من كونها موصلة اسمية ، أو حرفية ، أو نكرة ، وفي الكلام حذف ، أي : ولا يُسْألون عما كنتم تعملون .

قال أبو البقاء : ودلّ عليه : لها ما كسبت ، ولكم ما كسبتم انتهى .

ولو جُعِل الدالُّ قوله : " ولا تسألون عما كانوا يعملون " كان أوْلى ؛ لأنه مقابلة . انتهى انتهى .

ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 2 صـ 513.514 ﴾ . بتصرف يسير .

(100/67)

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (127) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (128) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (129) وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (130) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (131) وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (132) أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (133) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (134) ﴾

التفسير : عن وهب بن منبه قال : إن آدم صلى الله عليه وسلم لما أهبط إلى الأرض استوحش منها لما رأى من سعتها ، ولأنه لم ير فيها أحداً غيره فقال : يا رب أما لأرضك عامر يسبحك فيها ويقدس لك غيري ؟ فقال الله : إني سأجعل فيها من ذريتك من يسبح بحمدي ويقدس لي ،

وسأجعل فيها بيوتاً ترفع لذكري وسأبوئك منها بيتاً أختاره لنفسي وأخصه بكرامتي وأوثره على بيوت الأرض كلها باسمي وأسميه بيتي ، أعظمه بعظمتي وأحوطه بحرمتي ، وأضعه في البقعة التي اخترت لنفسي ، فإني اخترت مكانه يوم خلقت السموات والأرض ، أجعل ذلك البيت لك ولمن بعدك حرماً وأمناً أحرم بحرمته ما فوقه وما تحته وما حوله ، فمن حرمه بحرمتي فقد عظم حرمتي ، ومن أحله فقد أباح حرمتي ، ومن أمن أهله استوجب بذلك أماني ، ومن أخافهم فقد جفاني ، ومن عظم شأنه فقد عظم في عيني ، ومن تهاون به فقد صغر في عيني ، سكانها جيراني ، وعمارها وفدي ، وزوارها أضيافي ، أجعله أوّل بيت وضع للناس ، وأعمره بأهل السماء والأرض ، يأتونه أفواجاً شعثاً غبراً على كل ضامر يأتين من كل فج عميق ، يعجون بالتكبير عجيجاً ويضجون بالتلبية ضجيجاً ، فمن اعتمره لا يريد غيري فقد زارني وضافني ووفد عليّ ونزل بي فحق علي أن ألحقه بكرامتي وحق على الكريم أن يكرم وفده وأضيافه وزواره وأن يسعف كل واحد منهم بحاجته ، تعمره يا آدم ما كنت حياً ثم يعمره من بعدك الأمم في القرون والأنبياء من ولدك أمة بعد أمة وقرناً بعد قرن ونبياً بعد نبي حتى ينتهي بعد ذلك إلى نبي من ولدك يقال له

" محمد " وهو خاتم النبيين فأجعله من عماره ، وسكانه وحماته وولاته ، يكون أميني عليه ما دام حياً ، فإذا انقلب إلي وجدني وقد ذخرت له من أجره ما يتمكن به من القربة إلي والوسيلة عندي وأجعل اسم ذلك البيت وشرفه وذكره ومجده وسناه ومكرمته لنبي من ولدك يكون قبل هذا النبي صلى الله عليه وسلم وهو أبوه يقال له " إبراهيم " ، أرفع به قواعده وأقضي

(102/67)

على يديه عمارته ، وأعلمه مشاعره ومناسكه ، وأجعله أمة واحدة قانتاً قائماً بأمري داعياً إلى سبيلي ، أجتبيه وأهديه إلى صراط مستقيم ، أبتليه فيصبر وأعافيه فيشكر وآمره فيفعل وينذر لي فَيَفي ، أستجيب دعاءه في ولده وذريته من بعده ، وأشفعه فيهم وأجعلهم أهل ذلك البيت وحماته وسقاته وخدمه وخزانه وحجابه حتى يبدلوا ويغيروا وأجعل إبراهيم إمام ذلك البيت وأهل تلك الشريعة ، يأتم به من حضر تلك المواطن من جميع الخلق الجن والإنس .

وروي أن الله تعالى أنزل البيت ياقوتة من ياقيت الجنة له بابان من زمرد شرقي وغربي .

وقال لآدم : أهبطت لك بيتاً يطاف به كما يطاف حول عرشي ، فتوجه إليه آدم من أرض

الهند ماشياً وتلقته الملائكة فقالوا : برّ حجك يا آدم لقد حججنا هذا البيت قبلك بألفي عام . وحج آدم أربعين حجة من أرض الهند إلى مكة على رجليه ، فكان على ذلك إلى أن رفعه الله أيام الطوفان إلى السماء الرابعة ، فهو البيت المعمور . ثم إن الله تعالى أمر إبراهيم ببنائه وعرفه جبرائيل مكانه . وعن علي عليه السلام : البيت المعمور بيت في السماء يقال له " الضراح " وهو بحيال الكعبة من فوقها ، حرمته في السماء كحرمة البيت في الأرض ، يصلي فيه كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة لا يعودون فيه أبداً .

(103/67)

وعن عبد الله بن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال " الركن والمقام ياقوتتان من يواقيت الجنة طمس الله نورهما ولولا ذلك لأضاءا ما بين المشرق والمغرب وما مسهما ذو عاهة ولا سقيم إلا شفي " وعن ابن عباس أنه كان أشد بياضاً من الثلج حتى سودته خطايا أهل الشرك . وأما قصة إسماعيل عليه السلام وأمه ، فعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " لم يكذب إبراهيم عليه السلام قط إلا ثلاث كذبات ثنتين في ذات الله قوله ﴿ إني سقيم ﴾ [الصافات : 89] وقوله ﴿ بل فعله كبيرهم هذا ﴾ [الأنبياء : 63] وواحدة في شأن سارة فإنه قدم أرض جبار ومعه سارة وكانت أحسن الناس فقال لها :

إن هذا الجبار إن يعلم أنك امرأتي يغلبني عليك فإن سألك فأخبريه أنك أختي فإنك أختي في الإسلام فإني لا أعلم في الأرض مسلماً غيري وغيرك . فلما دخل أرضه رآها بعض أهل الجبار فأتاه فقال : لقد قدم أرضك امرأة لا ينبغي لها أن تكون إلا لك ، فأرسل إليها فأتى بها وقام إبراهيم إلى الصلاة ، فلما دخلت عليه لم يتمالك أن بسط يده إليها فقبضت يده قبضة شديدة فقال لها : ادعي الله أن يطلق يدي ولا أضرك ففعلت ، فعاد فقبضت يده أشد من القبضة الأولى فقال لها مثل ذلك ، فعاد فقبضت يده أشد من القبضتين الأولتين فقال : ادعي الله أن يطلق يدي ولا أضرك ففعلت فأطلقت يده ودعا الذي جاء بها فقال له : إنك إنما جئتني بشيطان ولم تأتني بإنسان ، فأخرجها من أرضي وأعطها هاجر . قال : فأقبلت تمشي فلما رآها إبراهيم انصرف فقال : مهيم . فقالت : خيراً كفى الله يد الفاجر وأخدم خادماً " قال أبو هريرة : فتلك أمكم يا بني ماء السماء . قلت : وذلك أنها ملكتها سارة إبراهيم فولدت له إسماعيل أبا العرب . وأما تتمة القصة ، بعد أن غارت سارة على هاجر حيث لم يكن لسارة من إبراهيم ولد فإنها ولدت إسحق بعد ولادة هاجر إسماعيل بأربع عشرة سنة . فقد روى سعيد بن جبير عن ابن عباس : أول ما اتخذت

النساء المنطق من قبل أم إسماعيل اتخذت منطقاً لتعفي أثرها على سارة ، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهي ترضعه حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماء ، فوضعهما هناك ووضع عندهما جراباً فيه تمر وسقاء فيه ماء ، ثم قفىَ إبراهيم منطلقاً فتبعته أم إسماعيل فقالت : يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه أنيس ولا شيء ؟ فقالت له ولك مراراً وجعل لا يلتفت إليها فقالت له : الله أمرك بهذا ؟ قال : نعم ، قالت : إذن لا يضيعنا .

(105/67)

ثم رجعت فانطلق إبراهيم صلى الله عليه وسلم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الدعوات فرفع يديه فقال ﴿ ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع ﴾ حتى بلغ ﴿ يشكرون ﴾ [إبراهيم : 37] وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء حتى إذا نفد ما في السقاء عطشت وعطش ابنها وجعلت تنظر إليه يتلوى فانطلقت كراهية أن تنظر إليه فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى

جاوزت الوادي ثم أتت المروة فقامت عليها فنظرت هل ترى أحداً ففعلت ذلك سبع مرات . قال ابن عباس : قال النبي صلى الله عليه وسلم " فلذلك سعى الناس بينهما " . فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً فقالت : صه تريد نفسها ، ثم تسمعت فسمعت صوتاً أيضاً فقالت : قد أسمعت إن كان عندك غواث فإذا هي بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبه – أو قال بجناحه – حتى ظهر الماء ، فجعلت تحوّض وتقول بيدها هكذا وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعد أن تغرف . قال ابن عباس : قال النبي صلى الله عليه وسلم : " يرحم الله أم إسماعيل لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم عيناً معيناً " . قال : فشربت وأرضعت ولدها فقال لها الملك : لا تخافي الضيعة فإن ههنا بيتاً لله يبنيه هذا الغلام وأبوه وإن الله لا يضيع أهله . وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وعن شماله ، فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم مقبلين من طريق كداء فنزلوا في أسفل مكة فرأوا طائراً عائفاً فقالوا : إن هذا الطائر ليدور على ماء ، لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء . فأرسلوا جرياً أو جريين فإذا هم بالماء فرجعوا وأخبروهم ، فأقبلوا وأم إسماعيل عند الماء فقالوا : أتأذنين لنا أن ننزل عندك ؟ قالت : نعم ولكن لا حق لكم في الماء . قالوا : نعم

. قال ابن عباس : قال النبي صلى الله عليه وسلم : " فألفى ذلك أم إسماعيل وهي تحب الإنس " . فنزلوا وأرسلوا إلى أهاليهم فنزلوا معهم حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم ، وشب الغلام وتعلم العربية منهم وأنفسهم وأعجبهم حين شب الغلام ، فلما أدرك الغلام زوجوه امرأة منهم . وماتت أم إسماعيل فجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسماعيل يطالع تركته فلم يجد إسماعيل فسأل امرأته عنه فقالت : خرج يبتغي لنا ، ثم سألها عن عيهم وهيئتهم فقالت : نحن بشر ، نحن في ضيق وشدة وشكت . قال : فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام وقولي له يغير عتبة بابه ، فلما جاء إسماعيل كأنه آنس شيئاً فقال : هل جاءكم من أحد ؟ قالت : نعم ، جاءنا شيخ كذا وكذا فسألني عنك فأخبرته فسألني كيف عيشنا فأخبرته أنا في جهد وشدة قال : أوصاك بشيء ؟ قالت : نعم ، أمرني أن أقرأ عليك السلام ويقول : غير عتبة بابك .

(107/67)

قال : ذاك أبي وقد أمرني أن أفارقك الحقي بأهلك فطلقها . وتزوج منهم أخرى فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله أن يلبث ، ثم أتاهم بعد ذلك فلم يجده فدخل على امرأته فسأل

عنه قالت : خرج يبتغي لنا قال : كيف أنتم ؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت : نحن بخير وسعة وأثنت على الله عز وجل . قال : فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام وقولي له يثبت عتبة بابه . فلما جاء إسماعيل قال : هل أتاكم من أحد ؟ قالت : نعم ، أتانا شيخ حسن الهيئة وأثنت عليه فسألني عنك فأخبرته فسألني كيف عيشنا فأخبرته أنا بخير . قال : فأوصاك بشيء ؟ قالت : نعم ، يقرأ عليك السلام ويأمرك أن تثبت عتبة بابك . قال : ذاك أبي وأنت العتبة أمرني أن أمسكك . ثم لبث عنهم ما شاء الله ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يبري نبلاً له تحت دوحة قريباً من زمزم ، فلما رآه قام إليه وصنعا ما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد ثم قال : يا إسماعيل إن الله أمرني بأمر قال : فاصنع ما أمرك ربك . قال : وتعينني ؟ قال : وأعينك . قال : فإن الله أمرني أن أبني بيتاً ههنا وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها ، فعند ذلك رفع القواعد من البيت ، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني ، حتى إذا ارتفع البناء جاء إبراهيم بهذا الحجر فوضعه له فقام عليه وهو يبني وإسماعيل يناوله الحجارة وهما يقولان ﴿ ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ﴾ وعن علي كرم الله وجهه أنه مر عليه الدهر بعد بناء إبراهيم فانهدم فبنته العمالقة ، ومر عليه الدهر فانهدم فبناه قريش ورسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ شاب ، فلما أرادوا أن يرفعوا الحجر الأسود اختصموا فيه فقالوا : يحكم بيننا أول رجل يخرج من هذه السكة ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أول من خرج عليهم فقضى بينهم أن يجعلوا

الحجر في مرط ثم يرفعه جميع القبائل فرفعوه فأخذه رسول الله صلى الله عليه وسلم فوضعه .

(108/67)

واعلم أن للبيت أربعة أركان : ركنان يمانيان وركنان شاميان ، وكان لاصقاً بالأرض ، وله بابان شرقي وغربي فذكر أن السيل هدمه قبل مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعشر سنين فأعادت قريش عمارته على الهيئة التي هي عليها اليوم ، ولم يجدوا من النذور والهدايا والأموال الطيبة ما يفي بالنفقة فتركوا من جانب الحجر بعض البيت وخلفوا الركنين الشاميين عن قواعد إبراهيم صلى الله عليه وسلم ، وضيقوا عرض الجدار من الأسود إلى الشامي الذي يليه فبقي من الأساس شبه الدكان مرتفعاً وهو الذي يسمى الشاذروان ، وروي أنه صلى الله عليه وسلم قال لعائشة

(109/67)

" " لولا حدثان قومك بالشرك لهدمت البيت ولبنيته على قواعد إبراهيم فألصقته بالأرض وجعلت لها بابين شرقياً وغربياً " ثم إن ابن الزبير هدمه أيام ولايته وبناه على قواعد إبراهيم ، ثم لما استولى عليه الحجاج هدمه وأعاده على الصورة التي هو عليها اليوم وهي بناء قريش . ولنعد إلى المقصود فنقول ﴿ يرفع ﴾ حكاية حال ماضية ، والقواعد جمع قاعدة وهي الأساس والأصل لما فوقه وهي صفة غالبة معناها الثابتة ، ورفع الأساس البناء عليها لأنها إذا بنى عليها نقلت من هيئة الانخفاض إلى هيئة الارتفاع ، ويجوز أن يكون المراد بها سافات البناء لأن كل ساف قاعدة للذي يبنى عليه ويوضع فوقه فيرتفع كل منها بسبب وضع الآخر عليه ، ورفع القواعد صريح فيما ذهب إليه الأكثرون من أن القواعد كانت موجودة وأن إبراهيم عمّرها ورفعها كما مر في الأحاديث . وإنما لم يقل " قواعد البيت " ليكون الكلام مبنياً على تبيين بعد إبهام ففيه تفخيم لشأن المبين ، ثم إن الله تعالى حكى عنهما ثلاثة أنواع من الدعاء في تلك الحالة ؛ الأول : قولهما ﴿ تقبل منا ﴾ وقبول الله عمل العبد عبارة عن كون العمل بحيث يرضاه الله تعالى أو يثبت عليه ، والأول ألذ عند العارفين من الثاني ، شبه الفعل من العبد بالهدية ، وإثابة الله تعالى عليه ورضاه به بالقبول . وقيل : إن بين القبول والتقبل فرقاً ، فالتقبل عبارة عن تكلف القبول وذلك حيث يكون العمل ناقصاً لا يستحق أن يقبل ، فاختير تقبل هضماً وتواضعاً واستقصاراً . وقد يستدل بهذا على أن الفعل المقرون بالإخلاص لا يجب ترتب الثواب عليه وإلا لم يكن في

طلبه فائدة ، ويحتمل أن يقال : الطلب متوجه إلى جعله من جملة الأفعال المقرونة بالإخلاص ، فكنى بطلب القبول عن ذلك ويؤكده قولهما ﴿ إنك أنت السميع ﴾ يعني سماع إجابة العليم بنياتنا . النوع الثاني ﴿ ربنا واجعلنا مسلمين لك ﴾ فإن أريد بالإسلام الدين والاعتقاد توجه الطلب إلى الثبات والدوام أي

(110/67)

ثبتنا على ذلك وإلا كان تحصيلاً للحاصل بالنسبة إليهما وقتئذ ، وإن أريد الاستسلام والخضوع والإذعان الكلي والرضا بكل ما قدر وأمر فتوجه الطلب إلى هذه الأمور أنفسها غير مفيد لأنها أمور خارجة عن الضبط لا تتيسر إلا بمجرد تيسير الله وتوفيقه بخلاف أصل الإسلام الذي وقع به التكليف فإنه مضبوط . وقد يظن أن للعبد اختياراً فيه وإن كان اختياره على تقدير ثبوته ينتهي إلى مسبب الأسباب . وقوله ﴿ واجعلنا ﴾ إما معطوف على ﴿ تقبل ﴾ وقوله ﴿ إنك أنت السميع العليم ﴾ ﴿ ربنا ﴾ اعتراض للتأكيد وإما معطوف على محذوف أي ربنا افعل هذا واجعلنا . ﴿ ومن ذريتنا ﴾ من للتبعيض كما في قوله ﴿ ومن ذريتي ﴾

[البقرة : 124] .

والأمة الجماعة من الناس ، وقيل أراد أمة محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ مسلمة ﴾ يحتمل ههنا أصل الإسلام والزيادة عليه أيضاً . وقيل : أسلم مطلقاً يفيد الإيمان والاعتقاد ومعدى باللام معناه الاستسلام والانقياد الكلي . طلب الإسلام لهم بعد ما طلب لهم الإمامة إظهاراً للشفقة . فالشفيق بسوء الظن مولع ، ويحتمل أن يكون هذا الدعاء بياناً لما أجمل هناك فيكونان واحداً . وتخصيص الذرية بالدعاء من بين الخلائق لأنهم أحق بالنصيحة وأقوم ﴿ قوا أنفسكم وأهليكم ناراً ﴾ [التحريم : 6] ولأنهم أئمة بصلاحهم يصلح غيرهم وفي سدادهم يكون سداد من وراءهم . ولقد استجاب الله دعاءه فلم يزل في ذريتهما من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً ، ولم يزل الرسل من ذرية إبراهيم ، وقد كان في الجاهلية زيد بن عمرو ابن نفيل وقس بن ساعدة . ويقال عبد المطلب بن هاشم جد رسول الله صلى الله عليه وسلم على دين الحق قائلين بالإبداء والإعادة والثواب والعقاب يوحدون الله ولا يأكلون الميتة ولا يعبدون الأوثان ﴿ وأرنا ﴾ إن كان منقولاً عن رؤية العلم فمعناه علمنا أن شرائع حجنا كيف هي إذ أمرتنا ببناء البيت لنحجه وندعو الناس إلى حجه ، وإن كان منقولاً عن رؤية البصر – وهو الأظهر – ولذلك لم يتجاوز مفعولين ظاهراً

. فالمعنى بصرنا متعبداتنا في الحج . قال الحسن : إن جبريل أرى إبراهيم المناسك كلها حتى بلغ عرفات فقال : يا إبراهيم أعرفت ما أريتك من المناسك ؟ قال : نعم ، فسميت عرفات . فلما كان يوم النحر أراد أن يزور البيت عرض له إبليس فسد عليه الطريق ، فأمر جبريل أن يرميه بسبع حصيات ففعل فذهب الشيطان ، ثم عرض له في اليوم الثاني والثالث والرابع وكل ذلك يأمره جبريل برمي الحصيات . وقيل : المراد العلم والرؤية معاً لأن الحج لا يتم إلا بأمور بعضها يعلم ولا يرى ، وبعضها لا يتم الغرض منه إلا بالرؤية ، فوجب حمل اللفظ على الأمرين جميعاً وليس ببعيد ، فإن اللفظ المشترك

(112/67)

يصح إطلاقه على معنييه معاً وكذلك مدلولا الحقيقة والمجاز يصح إرادتهما معاً من لفظ واحد كالعقد والوطء من النكاح . غاية ما في الباب أن يكون هذا الإطلاق مجازاً ، ومن الناس من يحمل المناسك على المذابح . فقد يسمى الذبح للتقرب نسكاً والذبيحة نسيكة ، وليس لهذا التخصيص وجه فإن الذبح إنما يسمى نسكاً لدخوله تحت أصل معنى النسك وهو التعبد ، فحمل المناسك على جميع أعمال الحج أولى قال صلى الله عليه وسلم " خذوا عني مناسككم لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا " بل لا يبعد أن يحمل على جميع ما

شرعه الله لإبراهيم أي علمنا كيف نعبدك ومتى وأين نعبدك ، وبماذا نتقرب إليك حتى نخدمك بذلك خدمة العبد لمولاه ؟ ﴿ وتب علينا ﴾ التوبة منهما محمولة على ما عسى أن يكون فرط منهما من الصغائر عند من يجوّزها على الأنبياء ، وعلى ترك الأولى ونحو ذلك عند غيرهم ، ويمكن أن تكون التوبة منهما تصويراً لأنفسهما بصورة النادم العازم على التحرز تشدداً في الانصراف عما لا يليق بهما .

(113/67)

قال صلى الله عليه وسلم " يا أيها الناس توبوا إلى الله فإني أتوب في اليوم مائة مرة " وأيضاً لعلهما استتابا لذريتهما لعلمهما بأن فيهم ظالمين لقوله تعالى ﴿ لا ينال عهدي الظالمين ﴾ وذلك لغاية شفقتهما عليهم . وباقي مباحث التوبة ، قد مر في قصة آدم فليتذكر النوع الثالث ﴿ ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم ﴾ وفيه أمران : الأول : أن يبعث في تلك الأمة رسولاً ليبين لهم الشرع القويم وينهج الصراط المستقيم ، والثاني : أن يكون ذلك الرسول منهم لا من غيرهم لأن الرسول والمرسل إليهم إذا كانوا جميعاً من ذريته كان رتبته أجل ، ولأنه إذا كان منهم عرفوا مولده ومنشأه فيقرب الأمر عليهم في معرفة صدقه وأمانته ، ولأنه إذا كان منهم كان أحرص عليهم وأشفق من أجنبي لو أرسل إليهم . وأما الرسول فهو محمد

صلى الله عليه وسلم بإجماع المفسرين وهو حجة ولقوله تعالى في موضع آخر ﴿ لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين ﴾ [آل عمران : 164] ولقوله صلى الله عليه وسلم " أنا دعوة إبراهيم وبشرى عيسى ورؤيا أمي " أما الدعوة فهذه ، وأما البشارة فقوله تعالى في سورة الصف ﴿ ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد ﴾ [الصف : 6] وأما الرؤيا فما رأت آمنة وهي حامل أنه خرج منها نور أضاء ما بين الخافقين . وههنا نكتة وهي أن الخليل لما دعا للحبيب بقوله ﴿ ربنا وابعث فيهم رسولاً ﴾ فلا جرم قضى الله تعالى حق الحبيب للخليل بأن أجرى ذكره على ألسنة أمته إلى يوم القيامة يقولون في صلاتهم : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم .

ولهذا الذكر مناسبات أخر منها : أن الخليل دعا لنفسه بقوله ﴿ واجعل لي لسان صدق في الآخرين ﴾ [الشعراء : 84] أي أبق لي ثناءً حسناً في أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، فأجابه الله تعالى وقرن ذكره بذكر حبيبه . ومنها

أن إبراهيم أبو الملة ﴿ ملة أبيكم إبراهيم ﴾ [الحج : 78] ومحمد صلى الله عليه وسلم أبو الرحمة ﴿ بالمؤمنين رءوف رحيم ﴾ [التوبة : 128] ﴿ النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم ﴾ [الأحزاب : 6] " إنما أنا لكم مثل الوالد لولده " يعني في الرأفة والرحمة ، فلما ثبت لكل منهما الأبوة قرن بين ذكرهما في التحية . ومنها أن إبراهيم منادي الشريعة ﴿ وأذن في الناس بالحج ﴾ [الحج : 27] ومحمد منادي الدين ﴿ سمعنا منادياً ينادي للإيمان ﴾ [آل عمران : 193] ومنها أنه كان أول الأنبياء بعد الطوفان ، ومحمد خاتم النبيين ورسول آخر الزمان . ومنها إن الخليل تبرأ عن سائر الأديان

﴿ إني بريء مما تشركون ﴾ [هود : 54] والحبيب تنزه عن جميع الأكوان ﴿ ما زاغ البصر وما طغى ﴾ [النجم : 17] ثم إن إبراهيم عليه السلام ذكر لذلك الرسول صفات أولاها ﴿ يتلو عليهم آياتك ﴾ فهو الفرقان المتلو عليهم ، أو جميع ما بلغه من دلائل التوحيد وغيره " أوتيت القرآن ومثله معه " وثانيتها " ويعلمهم الكتاب " أي معانيه وحقائقه ، وذلك أن التلاوة وإن كانت مطلوبة لبقاء لفظها على ألسنة أهل التواتر فيبقى مصوناً من التحريف ، ولأن لفظه ونظمه معجز وفي تلاوته نوع عبادة ولا سيما في الصلوات إلا أن الحكمة

العظمى والمقصود الأسنى تعليم ما فيه من الدلائل والأحكام . وثالثتها قوله ﴿ والحكمة ﴾ أي ويعلمهم الحكمة . وقيل : هي الإصابة في القول والعمل جميعاً ، فلا يسمى حكيماً إلا وقد اجتمع فيه الأمران فيضع كل شيء موضعه ولهذا عبر عنها بعض الحكماء بأنها التشبه بالإله بقدر الطاقة البشرية ، ويناسبه قوله صلى الله عليه وسلم " تخلقوا بأخلاق الله " وعن ابن وهب قلت لمالك : ما الحكمة ؟ قال : معرفة الدين والفقه فيه والاتباع له . وعن قتادة وإليه ذهب الشافعي : هي سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه ذكر تلاوة الكتاب ثم تعليمه ثم عطف عليه الحكمة فيكون شيئاً خارجاً عنهما وليس ذلك إلا سنة الرسول ، فإن الدلائل العقلية الدالة على التوحيد والنبوة وما يتلوهما مستقلة بالفهم فحمل اللفظ على ما لا يستفاد إلا من الشرع أولى . وقيل : هي الفصل بين الحق والباطل من الحكم . وقيل : المراد بالكتاب الآيات المحكمات ، وبالحكمة المتشابهات . وقيل : هي ما في أحكام الكتاب من الحكم والمصالح . ورابعتها ﴿ ويزكيهم ﴾ لأن الإرشاد يتم بأمرين : التحلية والتخلية . فكما يجب على المعلم التنبيه على نعوت الكمال ليحظى المتعلم بها ، يجب عليه التحذير عن النقصان ليتحرز عنها وذلك بنحو ما يفعله النبي صلى الله عليه وسلم سوى التلاوة وتعليم الكتاب والحكمة من الوعد

والإبعاد والوعظ والتذكير والتشبث بأمور الدنيا لتتقوى بها دواعيهم إلى الإيمان والعمل الصالح ، ولذلك مدح بأنه على خلق عظيم وأنه أوتي مكارم الأخلاق . وقيل : يزكيهم يطهرهم عن الشرك وسائر الأرجاس كقوله ﴿ ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ﴾ [الأعراف : 157] وقيل : يشهد لهم بأنهم عدول يوم القيامة ﴿ ويكون الرسول عليكم شهيداً ﴾ [البقرة : 143] وعن ابن عباس : التزكية هي الطاعة لله والإخلاص ﴿ إنك أنت العزيز ﴾ القادر الذي لا يغلب ﴿ الحكيم ﴾ العالم الذي لا يفعل إلا على وفق المصالح ، وإذا كان كذلك صح منه إجابة الدعاء وبعثة الرسل وإنزال الكتب ﴿ ومن يرغب ﴾ الاستفهام فيه لتقرير النفي أي لا يرغب أحد . يقال : رغب عن الأمر إذا كرهه ورغب فيه إذا أراده . ومحل ﴿ من سفه ﴾ الرفع على البدل من الضمير في ﴿ يرغب ﴾ وذلك أنه غير موجب مثل " هل جاءك أحد إلا زيد " وسفه الإما متعد : ومعنى سفه نفسه امتهنها واستخفها فأصل السفه الخفة وفي الحديث

" الكبر أن نسفه الحق وتغمص الناس " لأنه إذا رغب عما لا يرغب عنه عاقل قط فقد بالغ في إذالة نفسه وتعجيزها حيث خالف بها كل نفس عاقلة . وعن الحسن : إلا من جهل نفسه فلم يفكر فيها ، فيستدل بما يجده فيها من آثار الصنع على وحدانية الله تعالى وحكمته ويرتقي إلى صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم . وعن أبي عبيدة : أهلك نفسه وأوبقها . وقيل : أضل نفسه وإما لازم فمعناه سفه في نفسه فحذف الجار نحو " زيد ظني مقيم " أي في ظني وقيل : نصب على التمييز نحو " غبن رأيه وألم رأسه " وهذا عند الكوفيين . فإن التمييز عندهم يجوز أن يكون معرفة . وفيه توبيخ لليهود والنصارى ومشركي العرب وتعجيب من حالهم ، فإن أعظم مفاخرهم وفضائلهم الانتماء إلى إبراهيم ، ثم إنهم لا يؤمنون بالرسول الذي هو دعوته ومطلوبه بالتضرع والإخلاص . فإن قيل : ملة إبراهيم عين ملة محمد في الأصول والفروع ، أو هما متحدتان في الأصول كالتوحيد والنبوة ، وأصول مكارم الأخلاق ولكنهما مختلفتان في فروع الأعمال ولا سبيل إلى الأول وإلا لم يكن شرع محمد صلى الله عليه وسلم ناسخاً لسائر الشرائع ولا إلى الثاني لأنه يلزم أن يكون محمد أيضاً راغباً عن ملة إبراهيم ، ولأن الاعتراف بالأصول لا يقتضي الاعتراف بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ؟ قلنا : المختار اتحاد الملتين في الأصول فقط ، لكن نبوة محمد صلى الله عليه وسلم من جملة الأصول التي مهدها إبراهيم عليه السلام . والمراد بملة إبراهيم في الآية أصولها التي لا تختلف بمر الأعصار وكر الدهور ، فلا يلزم أن يكون محمد

صلى الله عليه وسلم راغباً عنها لأنه أمر باتباعها ﴿ ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً ﴾ [النحل : 123] روي أن عبد الله بن سلام دعا ابني أخيه سلمة ومهاجراً إلى الإسلام فقال لهما : قد علمنا أن الله قال في التوراة : إني باعث من ولد إسماعيل نبياً اسمه أحمد ، فمن آمن به فقد اهتدى ورشد ، ومن لم يؤمن به فهو

ملعون . فأسلم سلمة وأبى مهاجر أن يسلم فنزلت . ثم إنه تعالى لما سفه من يرغب عن ملة إبراهيم بين السبب في ذلك فقال ﴿ ولقد اصطفيناه في الدنيا ﴾ أي أخترناه للرسالة من دون الخليقة وعرفناه الملة الجامعة للتوحيد والعدل والإمامة الباقية إلى قيام الساعة حتى نال منزلة الخلة ﴿ وإنه في الآخرة لمن الصالحين ﴾ فيلزمه ما يلزمهم من الكرامة وحسن الثواب فليتحقق كل ذي لب أن الراغب عن سيرة من هو فائز بسعادة الدارين لا رأي له والله الموفق . ثم بين سبب الاصطفاء فأعمل ﴿ اصطفينا ﴾ في ﴿ إذ قال ﴾ أي اخترناه في ذلك الوقت ، ويجوز أن ينتصب بإضمار " اذكر " استشهاداً على ما ذكر من حاله كأنه قيل له : اذكر الوقت لتعلم أنه المصطفى الصالح الذي لا يرغب عن ملة مثله ﴿ إذ قال له ربه ﴾ من باب الالتفات ، ولولا ذلك لكان حقه أن يقال : إذ قلنا له ، والأكثرون على

أنه تعالى قال له ذلك قبل النبوة وقبل البلوغ وذلك عند استدلاله بالكوكب والقمر والشمس واطلاعه على أمارة الحدوث فيها ، فلما عرف ربه قال له أسلم ، فإنه لا يجوز أن يقول له قبل أن عرف ربه .

(119/67)

ويحتمل أن يكون ذلك قبل الاستدلال ، ولا يكون المراد منه نفس القول بل دلالة الدليل عليه كقولهم " نطق الحال " قال تعالى ﴿ أم أنزلنا عليهم سلطاناً فهو يتكلم بما كانوا به يشركون ﴾ [الروم : 35] فجعل دلالة البرهان كلاماً ، ويحتمل أن يكون هذا بعد النبوة والمراد استقامته على الإسلام وثباته عليه كقوله ﴿ فاستقم كما أمرت ﴾ [هود : 112] أو المقصود الانقياد لأوامر الله تعالى والمسارعة إلى تلقيها بالقبول وترك الاعتراض بالقلب واللسان . وقيل : الإيمان صفة القلب والإسلام صفة الجوارح وإن إبراهيم عليه السلام كان عارفاً بالله تعالى بقلبه فكلفه الله تعالى بعد ذلك بعمل الجوارح . وفي تخصيص لفظ الرب بهذا الموضع بل بأكثر قصص إبراهيم إشارة إلى أن طريق عرفانه النظر في المربوبات فلا جرم وصل إلى الرب ، وطريق عرفان محمد صلى الله عليه وسلم عكس ذلك الترتيب فلا جرم بدأ من الله ﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله ﴾ [محمد : 19] والأول طريق حسن ﴿

سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾ [فصلت : 53] لكن الطريق الثاني أحسن ﴿ أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ﴾ [فصلت : 53] ومن هنا يعرف أكملية محمد صلى الله عليه وسلم .

وإني وإن كنت الأخير زمانه . . . لآت بما لم يستطعه الأوائل

(120/67)

فألف إبراهيم دلالة على استقامة سيرته ، وميم محمد دليل على أنه مكمل الأوضاع وبه ابتدأ الأمر من حيث انتهى فتمت دائرة النبوة وحصلت الخاتمة . وكما أن ألف إبراهيم دليل على وجود الاستقامة ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ﴾ [فصلت : 31] فألف إبليس دليل عدم الاستقامة ﴿ إلا إبليس أبى واستكبر ﴾ [البقرة : 34] والوجود خير والعدم شر فحصل من خاء الخير مع لام الابتلاء ﴿ وإذ ابتلى إبراهيم ربه ﴾ [البقرة : 124] تركيب الخلة ﴿ واتخذ الله إبراهيم خليلاً ﴾ [النساء : 125] ومن شين الشر مع دال الدوام على الكفر ﴿ وكان من الكافرين ﴾ [البقرة : 34] اسم الشدة ﴿ والكافرون لهم عذاب شديد ﴾ [الشورى : 26] ثم إن الخلة مأخوذة من التخلل بين الشيئين ومنه الخلال فلا جرم كان إبراهيم عليه السلام واسطة في الطريقة ﴿ أن

اتبع ملة إبراهيم حنيفاً ﴾ [النحل : 123] والمحبة مأخوذة من الحبة وهو خالص كل شيء وداخله ، ومنه حبة القلب فلا جرم كان محمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين وحبيب رب العالمين وزبدة الكائنات وغاية الحركات ، لولاك لما خلقت الأفلاك ، أول الفكر آخر العمل

(121/67)

" أول ما خلق الله تعالى نوري ، أنا أول من ينشق عنه قبر ، آدم ومن دونه تحت لوائي ، أنا سيد المرسلين ولا فخر " محمد صلى الله عليه وسلم أبو الحقيقة وإن كان إبراهيم عليه السلام أبا الطريقة ، والحقيقة لكونها مقصودة بالذات أقوى من الطريقة ، لا جرم وقع الصلاة على إبراهيم في الصلاة تبعاً للصلاة على محمد " اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم " وأن الصلاة لا تصح بدون الصلاة على محمد بخلاف الصلاة على غيره . ولنعد إلى ما كنا فيه ﴿ ووصى ﴾ التوصية من جملة الأمور المستحسنة التي حكاها الله تعالى عن إبراهيم . أوصيته بكذا ووصيته بمعنى ، وأصله من وصيت الشيء بكذا بالتخفيف إذا وصلته إليه . وأرض واصية متصلة النبات ، فالموصي يصل القربة الحاصلة له بعد الموت إلى القربات الحاصلة له في الحياة ويحمد الموصي على هذا

الوصل بسبب الوصية . والضمير في (بها) قيل : يعود إلى الكلمة أو الجملة وهي أسلمت لرب العالمين ، ونحوه رجوع الضمير في قوله ﴿ وجعلها كلمة باقية ﴾ [الزخرف : 28] إلى قوله ﴿ إنني براء مما تعبدون إلا الذي فطرني ﴾ [الزخرف : 26] وقيل : الأولى أن يرجع إلى الملة لأنها مذكورة صريحاً في قوله ﴿ ومن يرغب عن ملة إبراهيم ﴾ ولأن الوصية بالملة جامعة لجميع أسباب الفلاح بخلاف الوصية بالشهادة وحدها اللهم إلا أن يحمل الإسلام على الانقياد الكلي . وفي الآية دقائق مرعية في قبول الدين منها : أنه لم يقل وأمر بها لأن الوصية عند أمارات الموت وعند ذلك يكون الاهتمام بالأمور أشد . ومنها أنه خص نبيه بذلك في آخر عمره مع أنه كان يدعو كل الناس إلى الدين ، فدل على أنه لا شيء عنده أهم من ذلك . ومنها التعميم لجميع الأبناء وأنه لم يقيد الوصية بزمان أو مكان ولم يخلطها بشيء آخر ، ثم نهاهم أن يموتوا غير مسلمين وكل هذه دلائل شدة الاهتمام بالأمور وهو المشهود له بالفضل وحسن السيرة ، فيجب قبول قوله لكل عاقل وكذلك

وصى بها يعقوب بنيه . وقرئ يعقوب بالنصب فمعناه ووصى بها إبراهيم بنيه ونافلته يعقوب قائلاً لكل منهما ﴿ يا بني ﴾ أصله يا بنون فأضيف إلى ياء المتكلم فسقطت النون

وصار الواو ياء لأجل النصب فأدغم الياء في الياء ﴿ إن الله اصطفى لكم الدين ﴾ استخلصه واختاره لكم بأن أقام عليه الدلائل الواضحة ودعاكم إليه ومنعكم من غيره ووفقكم للأخذ به ﴿ فلا تموتن ﴾ فلا يكن موتكم إلا على حال كونكم ثابتين على الإسلام نحو " لا تصل إلا وأنت خاشع " لا ينهاه عن نفس الصلاة ولكن عن ترك الخشوع في صلاته . والنكتة فيه إظهار أن الصلاة التي لا خشوع فيها كلا صلاة ومثله قوله صلى الله عليه وسلم

" لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد " فإنه في قوة قوله لجار المسجد : لا تصل إلا في المسجد . فكان موتهم لا على حال الإسلام موتاً لا خير فيه لأنه ليس بموت السعداء ومن حق هذا الموت أن لا يحل فيهم .

(123/67)

﴿ أم كنتم شهداء ﴾ يحتمل أن تكون " أم " منقطعة ، ومعنى الهمزة فيها الإنكار لمجرد الحضور عند وفاته والخطاب للمؤمنين أي ما كنتم حاضرين حين احتضر يعقوب ، وإنما حصل لكم العلم به من طريق الوحي ، أو لأهل الكتاب المعاصرين كأنه قيل لهم : كيف تزعمون أن ما أنتم عليه دين الرسل ولم تشهدوا وصايا الأنبياء ولو شهدتم ذلك وسمعتم

قولهم لنبيهم لظهر لكم حرصهم على ملة الإسلام والدين الحنيفي فرغبتم في دين محمد صلى الله عليه وسلم ؟ ويحتمل كون " أم " متصلة على أن يقدر قبلها محذوف معناه ، أتدعون على الأنبياء اليهودية ﴿ أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت ﴾ قيل : أي إن أوائلكم من بني إسرائيل كانوا مشاهدين له إذ أراد بنيه على التوحيد ودين الإسلام ، فما لكم تدعون على الأنبياء ما هم منه براء وفيه نظر ، لأن " أم " المعادلة أحد الأمرين كائن فيها فقط ، فإن كان الحضور ثابتاً لم تكن الدعوى ثابتة لكنها ثابتة ولهذا توجه الإنكار عليها ، فالوجه أن يقال : المراد أن الحضور غير ثابت لتطاول الزمان ، فإذن دعواهم يهودية الأنبياء دعوى بلا دليل فلا تسمع منهم على أنه تعالى نص على بطلانها بقوله ﴿ إذ قال لبنيه ﴾ إلى آخره ، ويتجه على هذا التقدير أن تكون " أم " منقطعة كأنه استفهم أولاً على سبيل الإنكار أي لم تدعون ، ثم استأنف استفهاماً ثانياً لتقرير النفي أي ما كنتم شهداء أو لتقرير الإثبات على أن أوائلهم قد شهدوا فيكون مؤكداً لذلك الإنكار ﴿ ما تعبدون ﴾ أي شيء تعبدون . و " ما " عام لأولي العلم وغيرهم ، " ومن " مختص بأولي العلم ولهذا قال العلماء " من " لما يعقل . و " من " خصص " ما " بغير أولي العقل قال : المراد السؤال عن صفة المعبود كما تقول " ما زيد " تريد أفقيه أم طبيب روي أن يعقوب عليه السلام لما دخل مصر رأى أهلها يعبدون الأوثان والنيران فخاف على بنيه بعد وفاته فقال لهم هذا القول تحريضاً على التمسك بعبادة الله لا أنهم كانوا

(124/67)

يعبدون غير الله ، لأن مبادرتهم إلى الاعتراف بالتوحيد تنافي ذلك ، ولأن المشهور من أمر الأسباط أنهم كانوا قوماً صالحين ، و ﴿ إبراهيم وإسماعيل وإسحق ﴾ عطف بيان لآبائك ، وقدم إسماعيل لأنه أسن ، وجعل إسماعيل وهو عمه من جملة آبائه لأن العمل أب والخالة أم لانخراطهما في سلك واحد هو الأخوة قال صلى الله عليه وسلم

(125/67)

" عم الرجل صنو أبيه " أي لا تفاوت بينهما كما لا تفاوت بين صنوي النخلة . وأيضاً أطلق اسم الأب على إبراهيم وهو جده فعن الشافعي أنه مجاز ولهذا قال : الإخوة والأخوات للأب والأم لا يسقطون بالجد ، وإليه ذهب مالك وأبو يوسف ومحمد وهو قول عمر وعثمان وعلي وابن مسعود وزيد ، وقال أبو حنيفة : إنه حقيقة وإنهم يسقطون بالجد وهو قول أبي بكر وابن عباس وعائشة والحسن وطاوس وعطاء . ثم التعليمية قالوا : لا طريق لنا إلى معرفة الله تعالى إلا بتعليم الرسول والإمام لأنهم لم يقولوا نعبد الإله الذي دل العقل عليه بل

قالوا : نعبد الإله الذي أنت تعبده وآباؤك يعبدونه ، فدل على أن طريق المعرفة هو التعليم .

وأجيب بمنع دلالة الآية على ذلك بل لعل المعرفة حلت لهم بالاستدلال إلا أنهم اختصروا الكلام فتركوا شرح صفات الله وبيان ذلك ، وأيضاً إنه أقرب إلى سكون نفس يعقوب فكأنهم قالوا : لسنا نجري إلا على مثل طريقتك من اليقين بالله والإخلاص له في عبادته .

وأيضاً لعل مرادهم نعبد الإله الذي دل عليه وجودك ووجود آبائك كقوله ﴿ اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم ﴾ [البقرة : 21] ﴿ إلهاً واحداً ﴾ بدل من ﴿ إله آبائك ﴾ مثل ﴿ بالناصية كاذبة ﴾ [العلق : 15 ، 16] أو نصب على الاختصاص والمدح ﴿ ونحن له مسلمون ﴾ مذعنون أو مخلصون التوحيد ومحله النصب حالاً من فاعل ﴿ نعبد ﴾ أو من مفعوله لرجوع الضمير في ﴿ له ﴾ إليه ، ويجوز أن يكون جملة معطوفة على ﴿ نعبد ﴾ أو جملة معترضة مؤكدة ﴿ تلك ﴾ إشارة إلى الأمة المذكورة التي هي إبراهيم ويعقوب وبنوهما الموحدون ، ﴿ خلت ﴾ مضت وانقرضت والغرض أنه لم يبق منهم أثر سوى ما عملوا ، ولهذا قيل ﴿ لها ما كسبت ﴾ أي ثوابه يريد أني اقتصصت عليكم أخبارهم وما كانوا عليه من الدعوة إلى الإسلام فليس لكم نفع في سيرتهم دون أن تفعلوا ما فعلوه ، فإن أنتم فعلتم ذلك فزتم كما فازوا ، وإن أبيتم خسرتم أنتم دونهم ﴿ ولا تسئلون

عما كانوا يعملون ﴾ لا تؤاخذون بسيئاتهم كما لا ينفعكم حسناتهم ، وفيه تكذيب لليهود حيث قالوا إنهم يعذبون أياماً معدودة لكفر آبائهم باتخاذ العجل . وفي الآية وعيد شديد للأبناء إذا لم يعملوا بعمل الآباء قال صلى الله عليه وسلم " يا صفية عمة محمد يا فاطمة بنت محمد ائتوني يوم القيامة بأعمالكم لا بأنسابكم فإني لا أغني عنكم من الله شيئاً " " من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه " ثم الآية تدل على أن للعبد كسباً ولكن الأئمة اختلفوا في تفسيره ، فالأشعري على أنه لا تأثير لقدرة العبد في مقدور أصلاً ، لأنه لو كان موجداً لأفعاله لكان عالماً بتفاصيل فعله وليس كذلك ، ولما وقع إلا ما أراده العبد وليس كذلك ، بل المقدور والقدرة كلاهما واقع بقدرة الله تعالى ، لكن الشيء الذي حصل بخلق الله وهو متعلق القدرة الحادثة هو الكسب ، واعترض عليه بأن مقدور العبد إذا كان واقعاً بخلق الله تعالى ، فإذا خلقه فيه استحال من العبد أن لا يتصف حينئذ به ، وإذا لم يخلقه فيه استحال أن يتصف به ، فأي معنى لكون العبد قادراً عليه ؟ وأيضاً الذي هو مكتسب العبد إما أن يكون واقعاً بقدرة الله فلا أثر للعبد فلا يكون مكتسباً له وإن وقع بالقدرتين معاً فلا تكون قدرة الله تعالى مستقلة ، والمفروض بالخلاف ، فبقي أن يكون بقدرة العبد ، وعن القاضي : أن ذات الفعل واقعة بقدرة الله تعالى ثم يحصل لذلك الفعل صفة طاعة أو صفة معصية ، فهذه الصفة تقع بقدرة العبد .

وضعف بأن المحرم من الجلوس في الدار المغصوبة ليس إلا شغل تلك الأحياز ، فهذا الشغل إن حصل بفعل الله تعالى فعين المنهي عنه قد خلقه الله فيه وهذا تكليف ما لا يطاق ، وإن حصل بقدرة العبد فهو المطلوب . وزعم الأستاذ أبو إسحق الإسفرايني أن ذات الفعل تقع بالقدرتين ، وزيف بأن قدرة الله مستقلة بالتأثير . ومنهم من زعم أن القدرة الحادثة مع الداعي توجب الفعل ، فالله تعالى هو الخالق للكل بمعنى أنه سبحانه هو الذي وضع الأسباب المؤدية إلى دخول هذه الأفعال في الوجود ، والعبد هو المكتسب بمعنى أن المؤثر في وقوع فعله هو القدرة والداعية القائمتان به ، وإلى هذا ذهب إمام الحرمين وهو مناسب لقول الفلاسفة . وزعم جمهور المعتزلة أن القدرة مع الداعي لا توجب الفعل بل العبد قادر على الفعل والترك متمكن منهما إن شاء فعل وإن شاء ترك وهذا هو الفعل والكسب . فهذا تقرير المذاهب ، وقول الأشعري أقرب إلى الأدب ، وقول إمام الحرمين أقرب إلى التحقيق لأن نسبة الأثر إلى المؤثر القريب لا تنافي كون ذلك المؤثر منسوباً إلى أثر آخر بعيد ، ثم إلى أبعد إلى أن ينتهي إلى مسبب الأسباب وفاعل الكل ومبدأ المبادئ وإليك الاختيار بعقلك دون هواك . انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 1 صـ 397 . 410 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (135) ﴾

سبب نزول الآية الكريمة

قوله (وَقالوا كونوا هودًا أَو نَصارى تَهتَدوا) قال ابن عباس : نزلت في رؤوس يهود المدينة : كعب بن الأشرف ، ومالك بن الصيف ، وأبي ياسر بن أخطب ، وفي نصارى أهل نجران ، وذلك أنهم خاصموا المسلمين في الدين كل فرقة تزعم أنها أحق بدين الله تعالى من غيرها ، فقالت اليهود : نبينا موسى أفضل الأنبياء ، وكتابنا التوراة أفضل الكتب ، وديننا أفضل الأديان ، وكفرت بعيسى والإنجيل ومحمد والقرآن ، وقالت النصارى : نبينا عيسى أفضل الأنبياء وكتابنا أفضل الكتب ، وديننا أفضل الأديان ، وكفرت بمحمد والقرآن . وقال كل واحد من الفريقين للمؤمنين : كونوا على ديننا فلا دين إلا ذلك ودعوهم إلى دينهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أسباب النزول للنيسابوري صـ 43 ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أخبر تعالى أنهم تركوا السنة في تهذيب أنفسهم بالاقتداء في الاهتداء بالأصفياء من أسلافهم وبين بطلان ما هم عليه الآن من كل وجه وأوضح أنه محض الضلال بين أنه عاقبهم على ذلك بأن صيرهم دعاة إلى الكفر ، لأن سنته الماضية سبقت ولن تجد لسنته تحويلاً أن من أمات سنة أحيى على يديه بدعة عقوبة له .

قال الحرالي : لأنهما متناوبان في الأديان تناوب المتقابلات في الأجسام فقال تعالى معجباً منهم عاطفاً على قوله : ﴿ وقالوا لن يدخل ﴾ [البقرة : 111] ﴿ وقالوا ﴾ أي الفريقان من أهل الكتاب لأتباع الهدى ﴿ كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا ﴾ أي لم يكفهم ارتكابهم للباطل وسلوكهم طرق الضلال حتى دعوا إلى ما هم عليه ووعدوا بالهداية الصائرة إليه فأمره تعالى بأن يجيبهم أنه مستن بسنة أبيهم لا يحول عنها كما حالوا فقال موجهاً الخطاب إلى أشرف خلقه لعلو مقام ما يخبر به وصعوبة التقيد به على النفس : ﴿ قل بل ﴾ مضرباً عن مقالهم ، أي لا يكون شيئاً مما ذكرتم بل نكون أو نلابس أنا ومن لحق بي من كمل أهل الإسلام ﴿ ملة إبراهيم ﴾ ملابسة نصير بها إياها كأننا تجسدنا منها ، وهو كناية عن عدم الانفكاك عنها ، فهو أبلغ مما لو قيل : بل أهل ملة إبراهيم .

قال الحرالي : ففيه كمال تسنن محمد صلى الله عليه وسلم في ملته بملة إبراهيم عليه السلام الذي هو الأول لمناسبة ما بين الأول والآخر ، وقد ذكر أن الملة ما أظهره نور العقل من الهدى في ظلم ما التزمه الناس من عوائد أمر الدنيا ، فكان أتم ما أبداه نور العقل ملة إبراهيم

﴿ حنيفاً ﴾ أي ليناً هشاً سهلاً قابلاً للاستقامة مائلاً مع داعي الحق منقاداً له مسلماً أمره إليه ، لا يتوجه إليه شيء من العشاوة والكثافة والغلظة والجمود التي يلزم منها العصيان والشماخة والطغيان ، وذلك لأن مادة حنف بكل ترتيب تدور على الخفة واللطافة ، ويشبه أن تكون الحقيقة الأولى منها النحافة ، ويلزم هذا المعنى الانتشار والضمور والميل ، فيلزمه سهولة الانقياد والاستقامة ، ويكشفه آية آل عمران

﴿ ولكن كان حنيفاً مسلماً ﴾ [آل عمران : 67] فبذلك حاد عن بنيات طرق الخلق في انحرافهم عن جادة طريق الإسلام .

وقال الحرالي : الحنيف المائل عن متغير ما عليه الناس عادة إلى ما تقتضيه الفطرة حنان قلب إلى صدق حسه الباطن .

ولما أثبت له الإسلام بالحنيفية نفى عنه غيره بقوله : ﴿ وما كان من المشركين ﴾ قال الحرالي : فيه إنباء بتبرئة كيانه من أمر الشرك في ثبت الأمور والأفعال والأحوال وفي إفهامه أنه من أمر محمد صلى الله عليه وسلم في الكمال الخاتم كما أن محمداً صلى الله عليه وسلم منه في الابتداء الفاتح ، قال تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم : ﴿ قل إن صلاتي ﴾ [الأنعام : 162] إلى قوله : ﴿ وأنا أول المسلمين ﴾ [الأنعام : 163] فهذه أولية رتبة الكمال التي هي خاصة به ومن سواه فهو منه فيها ، لأن نفي الشيء يفهم البراءة واللحاق بالمتأصل في مقابله ، فمن لم يكن مثلاً من الكافرين فهو من المؤمنين ، لأنه لو كان هو المؤمن لذكر بالصفة المقابلة لما نفى عنه ، لما في ذلك من معنيي إثبات الوصف ونفي مقابله ، ومثل هذا كثير الدور في خطاب القرآن ، وبين من له الوصف ومن هو منه تفاوت ما بين السابق واللاحق في جميع ما يرد من نحوه يعني ومثل هذا التفاوت ظاهر للفهم خفي عن مشاهد العلم ، لأن العلم من العقل بمنزلة النفس ؛ والفهم من العقل بمنزلة الروح ، فللفهم مدرك لا يناله العلم ، كما أن للروح معتلى لا تصل إليه النفس ، لتوجه النفس إلى ظاهر الشهود ووجهة الروح إلى على الوجود – . انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 253 . 254 ﴾

اللغة :

[حنيفا] الحنيف : المائل عن الدين الباطل إلى الدين الحق ، والحنف الميل ، وبه سمي الاحنف لميل في إحدى قدميه ، قال الشاعر : ولكنا خلقنا إذ خلقنا حنيفا ديننا عن كل دين .

[الأسباط] جمع سبط وهم حفدة يعقوب أي ذريات أبنائه وكانوا اثنى عشر سبطا وهم في

بني إسرائيل كالقبائل في العرب

[شقاق] الشقاق : المخالفة والعداوة ، وأصله من الشق وهو الجانب ، أي صار هذا في شق

وهذا في شق .

[فسيكفيكهم] من الكفاية بمعنى الوقاية

[صبغة الله] الصبغة مأخوذة من الصبغ وهو تغيير الشيء بلون من الألوان ، والمراد بها هنا : الدين

[أتحاجوننا] أتجادلوننا من المحاجة وهي المجادلة

[مخلصون] الإخلاص أن يقصد بالعمل وجه الله وحده ، من غير مباهاة ولا رياء . انتهى انتهى . اهـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 1 صـ 98 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أنه تعالى لما بين الدلائل التي تقدمت صحة دين الإسلام حكى بعدها أنواعاً من شبه المخالفين الطاعنين في الإسلام .

الشبهة الأولى : حكى عنهم أنهم قالوا : ﴿ كُونُواْ هُودًا أَوْ نصارى تَهْتَدُواْ ﴾ ولم يذكروا في تقرير ذلك شبهة ، بل أصروا على التقليد ، فأجابهم الله تعالى عن هذه الشبهة من وجوه .

الأول : ذكر جواباً إلزامياً وهو قوله : ﴿ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إبراهيم حَنِيفًا ﴾ وتقرير هذا الجواب أنه إن كان طريق الدين التقليد فالأولى في ذلك اتباع ملة إبراهيم ، لأن هؤلاء المختلفين قد اتفقوا على صحة دين إبراهيم والأخذ بالمتفق أولى من الأخذ بالمختلف إن كان المعول في الدين على التقليد ، فكأنه سبحانه قال : إن كان المعول في الدين على الاستدلال والنظر ، فقد قدمنا الدلائل ، وإن كان المعول على التقليد فالرجوع إلى دين إبراهيم ـ عليه السلام ـ وترك اليهودية والنصرانية أولى .

فإن قيل : أليس أن كل واحد من اليهود والنصارى يدعي أنه على دين إبراهيم ـ عليه

السلام.

قلنا : لما ثبت أن إبراهيم كان قائلاً بالتوحيد ، وثبت أن النصارى يقولون بالتثليث ، واليهود يقولون بالتشبيه ، فثبت أنهم ليسوا على دين إبراهيم. عليه السلام. ، وأن محمداً. عليه السلام. لما دعا إلى التوحيد ، كان هو على دين إبراهيم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ4 صـ 73 ﴾

﴿ وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نصارى تَهْتَدُواْ ﴾ الضمير الغائب لأهل الكتاب ، والجملة عطف على ما قبلها عطف القصة على القصة ، والمراد منها رد دعوتهم إلى دينهم الباطل إثر رد ادعائهم اليهودية على يعقوب. عليه السلام. ، و ﴿ أَوْ ﴾ لتنويع المقال لا للتخيير بدليل أن كل واحد من الفريقين يكفر الآخر ، أي : قال اليهود للمؤمنين كونوا هوداً وقالت النصارى لهم كونوا نصارى و ﴿ تَهْتَدُواْ ﴾ جواب الأمر ، أي إن كنتم كذلك تهتدوا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ1 صـ 393 ﴾

وقال الفخر :

﴿ وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نصارى ﴾ لا يجوز أن يكون المراد به التخيير ، إذ المعلوم من حال اليهود أنها لا تجوز اختيار النصرانية على اليهودية ، بل تزعم أنه كفر . والمعلوم من حال النصارى أيضاً ذلك بل المراد أن اليهود تدعو إلى اليهودية والنصارى إلى النصرانية ، فكل فريق يدعو إلى دينه ، ويزعم أنه الهدي فهذا معنى قوله : ﴿ تَهْتَدُواْ ﴾ أي أنكم إذا فعلتم

ذلك اهتديتم وصرتم على سنن الاستقامة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ4 صـ 74 ﴾

قوله تعالى ﴿ حنيفا ﴾

﴿ حنيفاً ﴾ أصله من الحنف وهو ميل واعوجاج يكون في القدم ، قال ابن عباس : الحنيف المائل عن الأديان كلها إلى دين الإسلام ، قال الشاعر :

ولكنا خلقنا إذ خلقنا . . . حنيفاً ديننا عن كل دين

والعرب تسمي كل من حج أو اختتن حنيفاً تنبيهاً على أنه على دين إبراهيم ، وقيل : الحنيفية الختان وإقامة المناسك مسلماً ، يعني أن الحنيفية هي دين الإسلام وهو دين إبراهيم عليه السلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 1 صـ 115 ﴾

(134/67)

وقال أبو السعود :

﴿ حَنِيفاً ﴾ أي مائلاً عن الباطل إلى الحق وهو حالٌ من المضاف إليه كما في رأيت وجهَ هندٍ قائمةً أو المضافِ كما في قوله تعالى : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مّنْ غِلّ إِخْوَانًا ﴾ الخ ﴿ وَمَا كَانَ مِنَ المشركين ﴾ تعريضٌ بهم وإيذانٌ ببُطلان دعواهم اتباعَه ـ عليه السلام ـ مع

إشراكهم بقولهم عزيرٌ ابنُ الله والمسيحُ ابن الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴾ تفسير أبى السعود حـ1 صـ166 ﴿

(135/67)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَقَالُواْ كُونُواْ هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُواْ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (135) ﴾

عندما تأتي ـ قالوا ـ فمعناها إن الذين قالوا جماعة . . الذين قالوا هم اليهود والنصارى ولكن كلا منهم قال قولا مختلفا عن الآخر . . قالت اليهود كونوا هودا . وقالت النصارى كونوا نصارى . . ونحن عندنا عناصر ثلاثة : اليهود والنصارى والمشركون . ويقابل كل هؤلاء المؤمنون . . " وقالوا كونوا" من المقصود بالخطاب ؟ المؤمنين . . أو قد يكون المعنى وقالت اليهود للمؤمنين والمشركين والمؤمنين كونوا نصارى . . لأن كل واحد منهما لا يرى الخير إلا في نفسه . . ولكن الإسلام جاء وأخذ من اليهودية موسى وتوراته الصحيحة . وأخذ من المسيحية عيسى وإنجيله الصحيح . . وكل ما جاء به محمد صلى الله عليه

وسلم . ومعنى ذلك أن الإسلام أخذ وحدة الصفقة الإيمانية المعقودة بين الله سبحانه وبين كل مؤمن . . ولذلك تجد في القرآن الكريم قوله تعالى :

لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ

(من الآية 285 سورة البقرة)

ونلاحظ أن المشركين لم يدخلوا في القول لأنهم ليسوا أهل كتاب . قوله تعالى : " بل ملة إبراهيم حنيفا " . . أي رد عليهم ، والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأنني سأكون تابعا لدين إبراهيم وهو الحنيفية . . وهم لا يمكن أن يخالفوا في إبراهيم فاليهود اعتبروه نبيا من أنبيائهم . . والنصارى اعتبروه نبيا من أنبيائهم ولم ينفوا عنه النبوة ولكن كلا منهم أراد أن ينسبه لنفسه . ما معنى حنيفا ؟ إن الاشتقاقات اللفظية لابد أن يكون لها علاقة بالمعنى اللغوي . . الحنف ميل في القدمين أن تميل قدم إلي أخرى . . هو تقوس في القدمين فتميل القدم اليمنى إلي اليسار أو اليسرى إلي اليمين هذا هو الحنف . . ولكن كيف يؤتي بلفظ يدل على العوج ويجعله رمزا للصراط المستقيم ؟

لقد قلنا إن الرسل لا يأتون إلا عندما تعم الغفلة منهج الله . . لأنه مادام وجد من اتباع الرسول من يدعو إلي منهجه ويأمر بالمعروف وينهي عن المنكر يكون هناك خير . النفس البشرية لها ألوان . . فهناك النفس اللوامة تصنع شرا مرة فيأتي من داخل النفس ما يستنكر هذا الشر فتعود إلي الخير . . ولكن هناك النفس الأمارة بالسوء وهي التي لا تعيش إلا في الشر تأمر به وتغري الآخرين بفعله . . إذا فسد المجتمع وأصبحت النفوس أمارة بالسوء ينطبق عليها قول الحق سبحانه :

كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ

(من الآية 79 سورة المائدة)

تتدخل السماء برسول يعالج اعوجاج المجتمع . . ولكن الله تبارك وتعالى وضع عنصر الخيرية في أمة محمد صلى الله عليه وسلم إلي قيام الساعة . قال تعالى :

كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (110)

(سورة آل عمران)

إذن فقد ائتمن الله تبارك وتعالى أمة محمد على المنهج . . ومادام فيها من يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر فلن يأتي رسول بعد محمد صلى الله عليه وسلم . نعود إلي قوله تعالى حنيفا . . قلنا إن الحنف هو الاعوجاج . . ونقول إن الاعوجاج عن المعوج اعتدال . .

والرسل لا يأتون إلا بعد اعوجاج كامل في المجتمع . . ليصرفوا الناس عن الاعوجاج القائم فيميلون إلي الاعتدال . . لأن مخالفة الاعوجاج اعتدال . . وقوله تعالى : " حنيفا " تذكرنا بنعمة الله على الوجود كله لأنه يصحح غفلة البشر عن منهج الله ويأخذ الناس من الاعوجاج الموجود إلي الاعتدال . . والهداية عند اليهود والنصارى ومفهومها تحقيق شهوات نفوسهم لأن بشرا يهدي بشرا . . والله سبحانه وتعالى قال :

(137/67)

وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ

(من الآية 120 سورة البقرة)

ولقد تعايش رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة مع اليهود ولكنهم حاربوه ولم يرضوا عنه . . وإبراهيم عليه السلام كان مؤمنا حقا ولم يكن مشركا . . انتهى انتهى . اهـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ 605. 607 ﴾

(138/67)

" فصل "

قال السيوطى :

وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (135)

أخرج ابن إسحق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : قال عبد الله بن صوريا الأعور للنبي صلى الله عليه وسلم " ما الهدى إلا ما نحن عليه فاتبعنا يا محمد تهتد ، وقالت النصارى مثل ذلك ، فأنزل الله فيهم ﴿ وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا ﴾ الآية " .

وأما قوله تعالى : ﴿ حنيفاً ﴾ .

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ حنيفاً ﴾ قال : حاجاً .

وأخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن كعب قال : الحنيف المستقيم .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ حنيفاً ﴾ قال : متبعاً .

وأخرج ابن أبي حاتم عن خصيف قال : الحنيف المخلص .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي قلابة قال : الحنيف الذي يؤمن بالرسل كلهم من أولهم إلى آخرهم .

وأخرج ابن المنذر عن السدي قال : ما كان في القرآن حنيفاً مسلماً ، وما كان في القرآن

حنفاء مسلمين حجاجاً .

وأخرج أحمد عن أبي أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " بعثت بالحنيفية السمحة " .

وأخرج أحمد والبخاري في الأدب المفرد وابن المنذر عن ابن عباس قال " قيل : يا رسول الله أي الأديان أحب إلى الله ؟ قال : الحنيفية السمحة " .

وأخرج أبو الترس في الغرائب والحاكم في تاريخه وأبو موسى المديني في الصحابة وابن عساكر عن سعد بن عبد الله بن مالك الخزاعي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة " . انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 1 صـ 338.337 ﴾

(139/67)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله تعالى ﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (135) ﴾

و" تهتدوا " جزم على جواب الأمر وقد عرف ما فيه من الخلاف : أعني هل جزمه بالجملة قبله ، أو بـ " إن " مقدرة .

قوله : " مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ " قرأ الجمهور : " ملّة " نصباً ، وفيها أربعة أوجه :

أحدها : أنه مفعول فعل مضمر ، أي بل نتبع ملة ؛ [فحذف المضاف وإقيم المضاف إليه مقامه] لأن معنى كونوا هوداً : اتبعوا اليهودية أو النصرانية .

الثاني : أنه منصوب على خبر " كان " ، أي : بل نكون ملّة أي : أهل ملّة كقول عدي ابن حاتم : " إني من دين " أي من أهل دين ، وهو قول الزَّجَّاج ، وتبعه الزمخشري .

الثالث : أنه منصوب على الإغْرَاء ، أي : الزموا ملّة ، هو قول أبي عبيدة ، وهو كالوجه الأول في أنه مفعول به ، وإن اختلف العامل .

الرابع : أنه منصوب على إسقاط حرف الجر ، والأصل : نقتدي بملّة إبراهيم ، فلما حذف الحرف انتصب .

وهذا يحتمل أن يكون من كلام المؤمنين ، فيكون تقدير الفعل : بل نكون ، أو نتبع ، أو نقتدي كما تقدم ، وإن يكون خطاباً للكفار ، فيكون التقدير : كونوا أو اتبعوا أو اقتدوا .

وقرأ ابن هرمز ، وابن أبي عبلة " مِلَّةٌ " رفعاً وفيها وجهان :

أحدهما : أنه خبر لمبتدأ محذوف ، أي : بل ملتنا ملّة إبراهيم ، أو نحن ملة ، أي : أهل ملة .

الثاني : أنها مبتدأ حذف خبره ، تقديره : ملة إبراهيم ملتنا .

قوله : " حَنيفاً " في نصبه أربعة أقوال :

أحدها : أنه حال من " إبراهيم " ؛ لأن الحال تجيء من المضاف إليه قياساً في ثلاثة مواضع على ما ذكر بعضهم .

أحدها : أن يكون المضاف عاملاص عمل الفعل .

الثاني : أن يكون جزءاً نحو : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَاناً ﴾ [الحجر : 47] .

الثالث : أن يكون الجزء كهذة الآية ؛ لأن إبراهيم لما لازمها تنزلت منه منزلة الجزء .

(140/67)

والنحويون يستضعفون مجيئها من المضاف إليه ، ولو كان المضاف جزءاً ، قالوا : لأن الحال لا بد لها من عامل ، والعامل في الحال هو العامل في صاحبها ، والعامل في صاحبها لا يعمل عمل الفعل ، ومن جوز ذلك قدر العامل فيها معنى اللام ، أو معنى الإضافة ، وهما عاملان في صاحبها عند هذا القائل .

ولم يذكر الزمخشري غير هذا الوجه وشبهه بقولك : " رأيت وجه هند قائمة " ، وهو قول الزجاج .

الثاني : نصبه بإضمار فعل ، أي : نبتع حنيفاً وقدره أبو البقاء ، بـ " أعني " ، وهو قول الأخفش الصغير ، وجعل الحال خطأ .

الثالث : أنه منصوب على القطع ، وهو رأي الكوفيين ، وكان الأصل عندهم : إبراهيم الحنيف ، فلما نكره لم يمكن إتْباعه ، وقد تقدم تحرير ذلك .

الرابع : وهو المختار : أن يكون حالاً من " ملّة " فالعامل فيه ما قَدَّرناه عاملاً فيها ، وتكون حالاً لازمة ؛ لأن الملة لا تتغير عن هذا الوصف ، وكذلك على القول بجعلها حالاً من " إبراهيم " ؛ لأنه لم ينتقل عنها .

فإن قيل : صاحب الحال مؤنث ، فكان ينبغي أن يطابقه التأنيث ، فيقال : حنيفة .

فالجواب من وجهين :

أحدهما : أن " فعيلاً " يستوي فيه المذكر والمؤنث .

والثاني : أن الملّة بمعنى الدين ، ولذلك أبدلت منه في قوله ﴿ دِيناً قِيَماً مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً ﴾ [الأنعام : 161] ذكر ذلك ابن الشَّجَرِيّ في " أماليه " .

و " الحَنَفُ " : الميل ، ومنه سمي الأَحْنَفُ ؛ لميل إحدى قدميه بالأصابع إلى الأخرى ؛ قالت أُمُّهُ : [الرجز]

وَاللهِ لَوْلاَ حَنَفٌ بِرِجْلِهِ . . . مَا كَانَ فِي فِتْيَانِكُمْ مِنْ مِثْلِهِ

ويقال : رجل أَحْنَفُ ، وامرأة حَنْفَاءُ .

وقيل : هو الاستقامة ، وسمي المائل الرِّجْل بذلك تفاؤلاً ؛ كقولهم للَّديغ " سَلِيم " وللْمَهْلكة : " مَفَازة " قاله ابن قتيبة [وهو مروي عن محمد بن كعب القرظيّ] .

وقيل : الحَنيفُ لقب لمن تديَّن بالإسلام ؛ قال عَمْرٌو : [الوافر]

(141/67)

حَمِدْتُ اللهَ حِينَ هَدَى فُؤَادِي . . . إلى الإِسْلاَمِ وَالدِّينِ الحَنِيفِ

[قاله القفال . وقيل : الحنيف : المائل عما عليه العامة إلى ما لزمه] .

قال الزجاج ؛ وأنشد : [الوافر]

وَلَكِنَّا خُلِقْنَا إِذْ خُلِقْنَا . . . حَنِيْفاً دِينُنَا عَنْ كُلِّ دِيْنِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 2 صـ 514.517 ﴾ . بتصرف يسير .

(142/67)

قوله تعالى ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ

مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (136) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما قيل ذلك توجهت النفس إلى ما به يوصل إلى ملة إبراهيم .

فصرف الخطاب الذي كان عند الحجاج للأكل على وجه يشمل من قاربه إلى من دونه بما يشمله ، لأن المراد العموم ، وساقه تعالى في جواب من كأنهم قالوا : ما نقول : حتى نكون إياها فقال : ﴿ قولوا ﴾ أي يا أيها الذين آمنوا ﴿ آمنا بالله ﴾ الذي له جميع صفات الكمال .

ولما كان المأمور المؤمنين وكانت تعدية الإنزال بإلى تقتضي الانتهاء وكان ذلك يقتضي واسطة قبل الانتهاء وكان الانتهاء إلى الاتباع إنما هو بالقصد الثاني كان الأنسب في هذه الآية لتوجيه الأمر إليهم التعبير بإلى بخلاف آية آل عمران كما سيأتي إن شاء الله تعالى فقال : ﴿ وما أنزل إلينا ﴾ أي من الكتاب الذي تقدم أنه الهدى على أي وجه كان من الأحكام والنسخ والنسيء وغير ذلك وقيل ﴿ وما أنزل إلى إبراهيم ﴾ ليكون المهيع واحداً ﴿ وإسماعيل وإسحاق ﴾ ابنيه .

قال الحرالي : فلقن العرب الأميين المحسودين على ما آتاهم الله من فضله نسق ما أجرى من لفظ بني إسرائيل في عهده لهم ، فكان فيه وصل العرب الذين هم أبناء إسماعيل بإبراهيم

وبنيه وقطع بني إسرائيل عنهم ، وفيه إظهار لمزية فضل الله على العرب حين يلقنهم ولا يستنطقهم فيقصروا في مقالهم فأغناهم بما لقنهم فتلوه عما كانوا يقولونه لو وكلوا إلى أنفسهم فسكّنهم ربهم فأقرأهم ما يصلح من القول لهم وقال : ﴿ ويعقوب والأسباط ﴾ تكملة لما تقدم في العهد السابق – انتهى .

(143/67)

﴿ وما أوتي موسى وعيسى ﴾ أي من ربهم من المنزل من التوراة والإنجيل وغير المنزل ، وغيّر الأسلوب تفضيلاً لما لهما من الكتابين والمعجزات وغير ذلك من المكنة ؛ ثم أسند الإيتاء إلى الجميع لكون أهل الكتب العظيمة فيهم على سبيل التغليب فقال مؤكداً الكلام لأنه على لسان الأتباع وهم بالتأكيد أحق : ﴿ وما أوتي النبيون ﴾ أي قاطبة من تقدم وغيرهم من المنزل من كتاب وغيره ﴿ من ربهم ﴾ المحسن إليهم بذلك ﴿ لا نفرق بين أحد منهم ﴾ في أمر الإيمان باصطفائهم مع توجيه الأوامر إليهم ﴿ ونحن له ﴾ أي لربهم المحسن إلينا بإحسانه إليهم وحده ﴿ مسلمون ﴾ أي منقادون في الظاهر بعد انقياد الباطن ، لا آمر لنا معه أصلاً ، قال الحرالي : فأجرى على ألسنة الذين آمنوا من هذه الأمة تلقيناً لهم ما أجراه على ألسنة الأسباط قولاً منهم ، فكانت العرب أحق بهم من أبناء إسرائيل بما

استووا في الدين وإن افترقوا في نسب الإسرائيلية – انتهى .

والأسباط جمع سبط ، قال في القاموس : والسبط – بالكسر – ولد الولد والقبيلة من اليهود وجمعه أسباط .

وقال البيضاوي : والأسباط جمع سبط وهو الحافد ، يريد به حفدة يعقوب وأبناءه وذراريهم فإنهم حفدة لإبراهيم وإسحاق .

وقال الأصبهاني : قيل أصل السبط في اللغة شجرة ملتفة كثير الأغصان من شجرة واحدة ، وقال البغوي : والأسباط يعني أولاد يعقوب ، واحدهم سبط ، وهم اثنا عشر سبطاً ، وسبط الرجل حافده ، ومنه قيل للحسن والحسين : سبطا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

والأسباط من بني إسرائيل كالقبائل من العرب من بني إسماعيل ، والشعوب من العجم ، وكان في الأسباط أنبياء فلذلك قال : ﴿ وما أنزل إليهم ﴾ [آل عمران : 199] وقيل : هم بنو يعقوب من صلبه صاروا كلهم أنبياء – انتهى .

(144/67)

قلت : وهذا هو الذي يظهر إذا تأملت هذه الآية مع التي بعدها وآية النساء ، فإن الأسباط – أعني القبائل – كانت منهم الضلال ، وقد أنكر الله على من قال : إنهم كانوا هوداً أو نصارى ، وأخبر في آية النساء أنه أوحى إليهم ، وقد عد الأسباط – أعني أولاد يعقوب – جماعة ، فاختلفت عباراتهم عنهم ، والذي حررته أنا من التوراة من عدة نسخ أصح ، عدّهم في آخر السفر الأول منها ثم قال في أول السفر ثاني : وهذه أسماء بني إسرائيل الذين دخلوا مصر مع يعقوب أبيهم ، دخل كل أمرىء منهم وأهل بيته ، روبيل وشمعون ولاوى ويهودا وايساخار وزبلون وبنيامين ودان ونفتالي وجاد وأشير ، ويوسف كان بمصر – انتهى .

قلت : وبنيامين شقيق يوسف عليهما السلام وربما قيل فيه : بنمن ، وفي روبيل : روبال ، وفي شمعون : شمعان ، وفي ايساخار : ايساخر ، وفي زبلون : زبلون وزبولون – والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 254. 255 ﴾

(145/67)

فصل

قال البغوى :

﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا ﴾ يعني القرآن ﴿ وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ ﴾ عشر صحف ﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ ﴾ يعني أولاد يعقوب وهم اثنا عشر سبطا واحد هم سبط سموا بذلك لأنه ولد لكل واحد منهم جماعة وسبط الرجل حافده ، ومنه قيل للحسن والحسين رضي الله عنهما سبطا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ.

والأسباط من بني إسرائيل كالقبائل من العرب من بني إسماعيل والشعوب من العجم ، وكان في الأسباط أنبياء ولذلك قال : وما أنزل إليهم وقيل هم بنو يعقوب من صلبه صاروا كلهم أنبياء ﴿ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى ﴾ يعني التوراة ﴿ وَعِيسَى ﴾ يعني الإنجيل ﴿ وَمَا أُوتِيَ ﴾ أعطي ﴿ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ ﴾ أي نؤمن بالكل لا نفرق بين أحد منهم فنؤمن ببعض ونكفر ببعض كما فعلت اليهود والنصارى ﴿ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾

(146/67)

أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا محمد بن بشار أنا عثمان بن عمر أنا علي بن المبارك عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال : كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية ، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام ، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " لا تصدقوا أهل الكتاب

ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله الآية" ﴾ رواه البخاري : في الاعتصام – باب : قول النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء : 13 333 . ﴿ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير البغوى حـ 1 صـ 156 ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

اعلم أنه تعالى لما أجاب بالجواب الجدلي أولاً ، ذكر بعده جواباً برهانياً في هذه الآية وهو : أن الطريق إلى معرفة نبوة الأنبياء عليهم السلام ظهور المعجز عليهم ، ولما ظهر المعجز على يد محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وجب الاعتراف بنبوته والإيمان برسالته ، فإن تخصيص البعض بالقبول وتخصيص البعض بالرد يوجب المناقضة في الدليل وأنه ممتنع عقلاً ، فهذا هو المراد من قوله : ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا ﴾ إلى آخر الآية ، وهذا هو الغرض الأصلي من ذكر هذه الآية . أهـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ4 صـ 75 ﴾

سؤال : فإن قيل : كيف يجوز الإيمان بإبراهيم وموسى وعيسى مع القول بأن شرائعهم منسوخة ،

قلنا : نحن نؤمن بأن كل واحد من تلك الشرائع كان حقاً في زمانه فلا يلزم منا المناقضة ، أما اليهود والنصارى لما اعترفوا بنبوة بعض من ظهر المعجز عليه ، وأنكروا نبوة محمد ـ صلى

الله عليه وسلم ـ مع قيام المعجز على يده ، فحينئذ يلزمهم المناقضة فظهر الفرق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ4 صـ 75 ﴾

(147/67)

سؤال : لم كان التعبير هنا بـ ﴿ إلى ﴾ ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ ﴾ وفى آل عمران كان التعبير بـ ﴿ على ﴾ ﴿ قل آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴾ ؟

الجواب : لما كان المأمور المؤمنين وكانت تعدية الإنزال بإلى تقتضي الانتهاء وكان ذلك يقتضي واسطة قبل الانتهاء وكان الانتهاء إلى الاتباع إنما هو بالقصد الثاني كان الأنسب في هذه الآية لتوجيه الأمر إليهم التعبير بإلى بخلاف آية آل عمران . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ1 صـ 255 ﴾

وقال الكرمانى :

الخطاب في هذه السورة لهذه الأمة لقوله تعالى ﴿ قولوا 136 ﴾ فلم يصح إلا ﴿ إلى ﴾ و ﴿ على ﴾ مختص بجانب الفوق وهو مختص بالأنبياء لأن الكتب منزلة عليهم لا شركة للأمة فيها ، وفي آل عمران ﴿ قل 84 ﴾ وهو مختص بالنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ دون

أمته فكان الذي يليق به على وزاد في هذه السورة ﴿ وما أوتى ﴾ وحذف من آل عمران لأن في آل عمران قد تقدم ذكر الأنبياء حيث قال ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أسرار التكرار فى القرآن صـ 26 ﴾

وأجاب ابن عرفة بجواب آخر : وهو أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما كان خاطره إلى العالم العلوي أميل ، إذ في السّماء الجنّة والعرش والكرسيّ والملائكة ، ناسب تعدي الإنزال إليه بـ " على " ليشعر بإتيانه من الجهة الشريفة المحبوبة بخلاف هذه فإنّ فيها " قُولُوا " وهو خطاب له ولغيره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عرفة حـ 1 صـ 430 . 431 ﴾

(148/67)

سؤال : ما المراد من الأمر بالقول فى الآية الكريمة ﴿ قولوا ﴾ ؟

والأمر بالقول أمر بما يتضمنه إذ لا اعتداد بالقول إلا لأنه يطابق الاعتقاد ، إذ النسبة إنما وضعت للصدق لا للكذب ، والمقصود من الأمر بهذا القول الإعلان به والدعوة إليه لما يشتمل عليه من الفضيلة الظاهرة بحصول فضيلة سائر الأديان لأهل هاته الملة ولما فيه من الإنصاف وسلامة الطوية ، ليرغب في ذلك الراغبون ويكمد عند سماعه المعاندون وليكون هذا كالاحتراس بعد قوله : ﴿ قل بل ملة إبراهيم حنيفاً ﴾ أي نحن لا نطعن في

شريعة موسى وشريعة عيسى وما أوتي النبيئون ولا نكذبهم ولكنا مسلمون لله بدين الإسلام الذي بقي على أساس ملة إبراهيم وكان تفصيلاً لها وكمالاً لمراد الله منها حين أراد الله إكمالها فكانت الشرائع التي جاءت بعد إبراهيم كمنعرجات الطريق سلك بالأمم فيها لمصالح ناسبت أحوالهم وعصورهم بعد إبراهيم كما يسلك بمن أتعبه المسير طريق منعرج ليهدأ من ركز السيارة في المحجة فيحط رحله وينام ثم يرجع به بعد حين إلى الجادة ، ومن مناسبات هذا المعنى أن ابتدىء بقوله ﴿ وما أنزل إلينا ﴾ ، واختتم بقوله ﴿ ونحن له مسلمون ﴾ ، ووُسِّط ذكر ما أنزل على النبيئين بين ذلك . أ هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ1 صـ 423 ﴾

سؤال : لماذا قدم الإيمان بالقرآن على الإيمان بغيره فى قوله تعالى ﴿ وما أنزل إلينا ﴾ أي : من القرآن . ؟

الجواب : إنما قدّم ذكره ؛ لأنه أوّل الكتب بالنسبة إلينا أو لأنه سبب للإيمان بغيره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ السراج المنير حـ1 صـ 153 ﴾

قوله : ﴿ وَالأَسْبَاطَ ﴾ قال الخليل : السبط في بني إسرائيل كالقبيلة في العرب ، وقال صاحب " الكشاف" السبط ، الحافد ، وكان الحسن والحسين سبطي رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، والأسباط : الحفدة وهم حفدة يعقوب ـ عليه السلام ـ وذراري أبنائه الإثني عشر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ4 صـ 75 ﴾

سؤال : لم سموا بالأسباط ، وهؤلاء بالقبائل

الجواب : إنما سموا بالأسباط ، وهؤلاء بالقبائل ليفصل بين ولد إسماعيل وولد إسحاق .

(149/67)

قال ابن الأعرابى : ﴿ السبط ﴾ فى كلام العرب : خاصة الأولاد ، وكان فيهم أنبياء ؛ لذلك قال ﴿ وما أنزل إليهم ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الوسيط للنيسابورى حـ1 صـ 220 ﴾

أسئلة وأجوبة للعلامة الطاهر ابن عاشور

وجمع الضمير ليشمل النبيء ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمسلمين فهم مأمورون بأن يقولوا ذلك . وجعله بدلاً يدل على أن المراد من الأمر في قوله : ﴿ قل بل ملة ﴾ النبيء وأمته . وأفرد الضمير في الكلامين اللذين للنبيء فيهما مزيد اختصاص بمباشرة الرد على اليهود والنصارى لأنه مبعوث لإرشادهم وزجرهم وذلك في قوله : ﴿ قل بل ملة إبراهيم ﴾ إلخ وقوله الآتي : ﴿ قل أتحاجوننا في الله ﴾ [البقرة : 139] وجمع الضمير في الكلام الذي للأمة فيه مزيد اختصاص بمضمون المأمور به في سياق التعليم أعني قوله : ﴿ قولوا آمنا بالله ﴾ إلخ لأن النبيء ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد علم ذلك من قبل فيما تضمنته علوم

الرسالة ، ولذلك لم يخل واحد من هاته الكلامات ، عن الإيذان بشمول الأمة مع النبيء ، أما هنا فظاهر بجمع الضمائر كلها ، وأما في قوله : ﴿ قل بل ملة ﴾ إلخ فلكونه جواباً موالياً لقولهم : ﴿ كونوا هوداً ﴾ [البقرة : 135] بضمير الجمع فعلم أنه رد عليهم بلسان الجميع ، وأما في قوله الآتي : ﴿ قل أتحاجوننا ﴾ فلأنه بعد أن أفرد قل جمع الضمائر في ﴿ أتحاجوننا ﴾ ، و﴿ ربنا ﴾ ، و﴿ لنا ﴾ ، و﴿ أعمالنا ﴾ ، و﴿ نحن ﴾ ، و﴿ مخلصون ﴾ ، فانظر بدائع النظم في هاته الآيات ودلائل إعجازها .

وقدم الإيمان بالله لأنه لا يختلف باختلاف الشرائع الحق ، ثم عطف عليه الإيمان بما أنزل من الشرائع .

(150/67)

والمراد بما أنزل إلينا القرآن ، وبما عطف عليه ما أنزل على الأنبياء والرسل من وحي وما أوتوه من الكتب ، والمعنى أنا آمنا بأن الله أنزل تلك الشرائع ، وهذا لا ينافي أن بعضها نسخ بعضاً ، وأن ما أنزل إلينا نسخ جميعها فيما خالفها فيه ، ولذلك قدم ﴿ وما أنزل إلينا ﴾ للاهتمام به ، والتعبير في جانب بعض هذه الشرائع بلفظ (أنزل) وفي بعضها بلفظ (أوتي) تفنن لتجنب إعادة اللفظ الواحد مراراً ، وإنما لم يفرد أحد الفعلين ولم تعطف متعلقاته

بدون إعادة الأفعال تجنباً لتتابع المتعلقات فإنه كتتابع الإضافات في ما نرى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ1 صـ 423 ﴾

سؤال : لم كرر الموصول في قوله : ﴿ وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ ﴾ ؟

كرر الموصول في قوله : ﴿ وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ ﴾ لاختلاف المنزل إلينا ، والمنزل إليه ، فلو لم يكرر لأوهم أن المنزل إلينا هو المنزل إليهم ، ولم يكرر في " عيسى " ؛ لأنه لم يخالف شريعة موسى إلاّ في نزر يسير ، فالذي أوتيه عيسى هو عَيْن ما أوتيه موسى إلا يسيراً ، وقدم المنزل إلينا في الذكر ، وإن كان متأخراً في الإنزال تشريفاً له . انتهى . ا هـ ﴿ اللباب . لابن عادل حـ2 صـ 133 ﴾

فائدة

﴿ وَمَا أُنزِلَ إِلَى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق وَيَعْقُوبَ وَالاسْبَاطَ ﴾ يعني الصحف وهي وإن نزلت على إبراهيم عليه الصلاة والسلام لكن لما كان ما عطف عليه متعبدين بتفاصيلها داخلين تحت أحكامها صح نسبة نزولها إليهم أيضاً كما صح تعبدنا بتفاصيل القرآن ودخولنا تحت أحكامه نسبة نزوله إلينا .

أهـ ﴿ روح المعاني حـ1 صـ 395 ﴾

سؤال : لم أفرد موسى وعيسى بالذكر ﴿ وَمَا أُوتِيَ موسى وعيسى ﴾ ؟

الجواب : لكون أهل الكتاب زادوا ونقصوا وحرفوا فيهما وادعوا أنهما أنزلا كذلك ، والمؤمنون ينكرونه اهتم بشأنهما فأفردهما بالذكر وبين طريق الإيمان بهما ولم يدرجهما في الموصول السابق ، ولأن أمرهما أيضاً بالنسبة إلى موسى وعيسى أنهما منزلان عليهما حقيقة ، لا باعتبار التعبد فقط كما في المنزل على إسحاق ويعقوب والأسباط . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ1 صـ 395 ﴾

سؤال : لم عبر بالإيتاء دون الإنزال فى قوله ﴿ وَمَا أُوتِىَ موسى وعيسى ﴾ ؟

عبر بالإيتاء دون الإنزال لأنه أبلغ لكونه المقصود منه ، ولما فيه من الدلالة على الإعطاء الذي فيه شبه التمليك والتفويض . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ1 صـ 395 ﴾

وأجاب ابن عرفة وبعض طلبته عن تخصيص أول الآية بالإنزال وآخرها بالإيتاء بأنه لما كان ظهور المعجزات الفعلية على يد موسى وعيسى أكثر (وأشهر) من ظهورها على يد إسحاق ويعقوب وإبراهيم لأن موسى ضرب البحر فانفلق ، وألقى العصا فعادت ثعبانا ، وأخرج يده فصارت بيضاء من غير سوء ، (ورفع) من على البئر الصخرة لابنة شعيب ، ووضع ثوبه على حجر ، ودخل النهر فمضى الحجر به فتبعه وهو يقول : ثوبي حجر . وعيسى كان يبرئ الأكمه والأبرص ويحيى الموتى بإذن الله ، فناسب لفظ الإيتاء سَيدَنَا إبراهيم - عليه السلام - وأولاده فإن اشتهارهم بإنزال الوحي أكثر من اشتهارهم

بالمعجزات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عرفة حـ 1 صـ 431 ﴾

سؤال : فإن قيل : كيف صح إضافة بين إلى أحد وهو مفرد ؟

أجيب : بأنه في معنى الجماعة وعلله السعد التفتازاني بأنه اسم لمن يصلح أن يخاطب يستوي فيه المفرد والمثنى والمجموع والمذكر والمؤنث قال : ويشترط أن يكون استعماله مع كلمة كل أو في كلام غير موجب . أ هـ

﴿ السراج المنير حـ 1 صـ 153 ﴾

قوله تعالى ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ ﴾

الفرق بين التفريق

الفرق بين التفريق والفرق أن التفريق جعل الشئ مفارقا لغيره .

والفرق : نقيض الجمع .

والجمع : جعل الشئ مع غيره .

والفرق : جعل الشئ لا مع غيره . والفرق بالحجة : هو البيان الذي يشهد أن الحكم لأحد الشيئين دون الآخر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مجمع البيان حـ 1 صـ 401 . 404 ﴾

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (136) ﴾

هذه الآية الكريمة تعطينا تفسيرا لقوله تعالى : " ملة إبراهيم " . . إيمان بالله وحده لا شريك له . . إيمان بما أنزل إلينا وهو القرآن وما أنزل لإبراهيم وإسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى أي التوراة وما أوتي عيسى أي الإنجيل وما أوتي النبيون بالإجمال . . فالبلاغ الصحيح عن الله منذ عهد آدم حتى الآن هو وحدة العقيدة بأنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له . . ووحدة الكون بأن الله هو الخالق وهو المدبر وكل شيء يخرج عن الألوهية لله الواحد الأحد . . وأن كل شيء يخرج عن ذلك يكون من تحريف الديانات السابقة هو افتراء على الله سبحانه لا نقبله .

وقوله تعالى : " قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا " وهو القرآن الكريم . ولا يمكن أن يعطف عليه ما يصطدم معه . . ولذلك فإن ما أنزل على إبراهيم وإسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط هذه ملة إبراهيم . . وهذا يؤكد لنا أن ملة إبراهيم من وحي الله إليه . . والرسالات كلها كما قلنا تدعو لعبادة الله الواحد الأحد الذي لا شريك له .

(153/67)

وقوله تعالى : " ونحن له مسلمون" . . أي أن إبراهيم كان مسلما وكل الأنبياء كانوا مسلمين وكل ما يخالف ذلك من صنع البشر . . ومعنى الإسلام أن هناك مسلما ومسلما إليه هو الله عز وجل . ونحن نسلم له في العبودية ـ سبحانه ـ وفي اتباع منهجه . . والإنسان لا يسلم وجهه إلا لمن هو أقدر منه وأعلم منه وأقوى منه ولمن لا هوى له . . فإن تشككت في أحد العناصر فإسلامك ليس حقيقة وإنما تخيل وأنت لا تسلم زمامك لله سبحانه وتعالى إلا وأنت متأكد أن قدراته سبحانه فوق قدرات المخلوقين جميعا ، وأنه سبحانه غني عن العالمين ، ولذلك فإنه غير محتاج إلي ما في يدك بل هو يعطيك جل جلاله من الخير والنعم ولا يوجد إلا الوجود الأعلى لتسلم وجهك له . انتهى انتهى . ا هـ ﴾ تفسير الشعراوى صـ 609.608 ﴿

(154/67)

" فصل "

قال السيوطى :

قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (136)

أخرج ابن أبي حاتم عن معقل بن يسار قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " آمنوا بالتوراة والزبور والإنجيل ، وليسعكم القرآن " .

وأخرج أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي والبيهقي في سننه عن ابن عباس قال " كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ في ركعتي الفجر في الأولى منهما الآية التي في البقرة ﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا . . . ﴾ الآية . كلها ، وفي الآخرة ب ﴿ آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون ﴾ [آل عمران : 52] " .

وأخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس قال " أكثر ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ في ركعتي الفجر ﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم . . . ﴾ الآية . وفي الثانية ﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة . . . ﴾ [آل عمران : 64] " .

وأخرج وكيع عن الضحاك قال : علموا نساءكم وأولادكم وخدمكم أسماء الأنبياء المسمين في الكتاب ليؤمنوا بهم ، فإن الله أمر بذلك فقال ﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا ﴾ إلى قوله

﴿ ونحن له مسلمون ﴾ .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : الأسباط بنو يعقوب ، كانوا اثني عشر رجلاً ، كل واحد منهم ولد سبطاً أمة من الناس .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي قال : الأسباط بنو يعقوب : يوسف ، وبنيامين ، وروبيل ، ويهوذا وشمعون ، ولاوي ، ودان ، وقهات ، وكوذ ، وباليوق .

(155/67)

وأخرج الطبراني وأبو نعيم وابن عساكر عن عبد الله بن عبد الثمالي أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول : " لو حلفت لبررت أنه لا يدخل الجنة قبل الرعيل الأوّل من أمتي إلا بضعة عشر إنساناً : إبراهيم ، وإسمعيل ، وإسحق ، ويعقوب ، والأسباط ، وموسى ، وعيسى بن مريم " . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 1 صـ 338 . 339 ﴾

(156/67)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (136)

" قولوا " : في هذا الضمير قولان :

أحدهما : أنه للمؤمنين ، والمراد بالمنزل إليهم القرآن على هذا .

والثاني : أنه يعود على القائلين كانوا هوداً أو نصارى .

والمراد بالمُنزل إليهم : إما القرآن ، وإما التوراة والإنجيل

[قال الحسن رحمه الله تعالى : لما حكى الله تعالى عنهم أنهم قالوا : كونوا هوداً أو نصارى ذكر في مقابلته للرسول عليه الصلاة والسلام قل : بل " ملة " إبراهيم ، قال : ﴿ قولوا آمَنَّا بالله ﴾] .

وجملة " آمنَّا " في محلّ نصب بـ " قولوا " ، وكرر الموصول في قوله : ﴿ وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ ﴾ لاختلاف المنزل إلينا ، والمنزل إليه ، فلو لم يكرر لأوهم أن المنزل إلينا هو المنزل إليهم ، ولم يكرر في " عيسى " ؛ لأنه لم يخالف شريعة موسى إلاّ في نزر يسير ، فالذي أوتيه عيسى هو عَيْن ما أوتيه موسى إلا يسيراً ، وقدم المنزل إلينا في الذكر ، وإن كان متأخراً في الإنزال

تشريفاً له .

والأسباط جمع " سِبْط " وهم في ولد يعقوب كالقبائل في ولد إسماعيل والشّعوب في العجم .

وقيل : هم بنو يعقوب لصلبه .

وقال الزمخشري : " السبط هو الحَافِدُ " .

واشتقاقهم من السبط وهو التتابع ، سموا بذلك ؛ لأنهم أمة متتابعون .

وقيل : من " السَّبَط " بالتحريك جمع " سَبَطَة " وهو الشجر الملتف .

وقيل لـ " الحَسَنَيْنِ " : سِبْطا رسول الله صلى الله عليه وسلم لانتشار ذرّيتهم .

ثم قيل لكل ابن بنت : " سِبْط " .

(157/67)

قال القرطبي رحمه الله تعالى : جميع إبراهيم براهم ، وإسماعيل سماعيل ، قاله الخليل وسيبويه والكوفيون ، وحكوا : بَراهِمة وسَماعِلة ، وحكوا براهِم وسماعِل .

قال محمد بن يزيد : هذا غلط ؛ لأنه الهمزة ليس هذا موضع زيادتها ، ولكن أقول : أباره وأسامع ، ويجوز أباريه وأساميع .

وأجاز أحمد بن يحيى "براه" ، كما يقال في التصغير "يريه" .

قوله : ﴿ وَمَآ أُوتِيَ موسى ﴾ يجوز في "ما" وجهان :

أحدهما : أن تكون في محل جر عطفاً على المؤمن به ، وهو الظاهر .

والثاني : أنها في محل رفع بالابتداء ، ويكون ﴿ وَمَا أُوتِيَ النبيون ﴾ عطفاً عليها .

وفي الخبر وجهان :

أحدهما : أن يكون "من ربهم" .

والثاني : أن يكون "لا نُفَرِّقُ" هكذا ذكر أبو حيان ، إلا أن في جعله "لا نُفَرِّقُ" خبراً عن "ما" نظر لا يخفى من حيث عدم عد الضمير عليها .

ويجوز أن تكون "ما" الأولى عطفاً على المجرور ، و"ما" الثانية مبتدأه ، وفي خبرها الوجهان ، وللشيخ أن يجيب عن عدم عود الضمير بأنه محذوف تقديره : لا نفرق فيه ، وحذف العائد المجرور بـ "في" مطَّرِد كما ذكر بعضهم ، وأنشد : [المتقارب]

812 فَيَوْمٌ عَلَيْنَا وَيَوْمٌ لَنَا . . .

وَيَوْمٌ نُسَاءُ وَيَوْمٌ نُسَرْ

أي : نُسَاءُ فيه ونُسَرُّ فيه .

قوله : "من ربِّهم" فيه ثلاثة أوجه :

أحدهما وهو الظاهر أنه في محل نصب ، و"من" لابتداء الغاية ن ويتعلّق بـ "أوتي" الثانية إن

أَعَدْنَا الضمير على النبيين فقط دون موسى وعيسى ، أو بـ " أوتي " الأولى ، وتكون الثانية تكراراً لسقوطها في " آل عمران " إن أعدنا الضمير على موسى وعيسى عليهما السلام والنبيين .

الثاني : أن يكون في محلّ نصب على الحال من العائد على الموصول فيتعلّق بمحذوف تقديره : وما أوتيه كائناً من ربهم .

الثالث : أنه في محل رفع لوقوعه خبراً إذا جعلنا " ما " مبتدأ .

قوله : " بين أحد " متعلق بـ " لا نفرق " ، وفي " أحد " قولان :

أظهرهما : أنه الملازم للنفي الذي همزته أصلية ، فهو للعموم وتحته أفراد ، فلذلك صحّ دخول " بين : عليه من غير تقدير معطوف نحو : " المال بين الناس " .

والثاني : أنه الذي همزته بدل من " واو " بمعنى واحدٍ ، وعلى هذا فلا بد من تقدير معطوف ليصح دخول " بين " على متعدد ، ولكنه حذف لفهم المعنى ، والتقدير : بَيْنَ أحدٍ منهم ؛ ونظيره ومثله قول النابغة : [الطويل]

813 فَمَا كَانَ بَيْنَ الخَيْرِ لَوْ جَاءَ سَالِماً . . .

أَبو حُجُرٍ إلاَّ لَيَالٍ قَلاَئِلُ

أي : بين الخير وبَيْني .

و" له " متعلّق بـ " مُسْلِمُون " ، قدم للاهتمام به لعود الضمير على الله تعالى أو لتناسب الفواصل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 2 صـ 519. 521 ﴾ .

باختصار .

(159/67)

ومن لطائف الإمام القشيرى فى الآية الكريمة

لَمَّا آمن نبيُّنا - صلى الله عليه وسلم - بجميع ما أُنْزِلَ من قَبْلِهِ أُكْرِمَ بجميع ما أَكْرَمَه من قبله ، فلمَّا أظهر موافقة الجميع أَمَرَ الكُلَّ بالكَوْنِ تحت لوائه فقال : " آدمُ ومَنْ دونه تحت لوائي يوم القيامة " .

ولَمَّا آمنت أُمَّتُهُ بجميع ما أَنزل الله على رسله ، ولم يفرقوا بين أحدٍ فهم ضربوا في التكريم بالسَّهم الأعلى فتقدموا على كافة الأمم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 129 ﴾

(160/67)

قوله تعالى ﴿ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (137) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما قدم تعالى ما أمرهم به وكان عين الهدى تسبب عنه قوله معبراً بأداة الشك إشارة إلى أن إيمانهم لما لهم من الكثافة والغلظة والجلافة في غاية البعد : ﴿ فإن آمنوا ﴾ أي أهل الكتاب الذين أرادوا أن يستتبعوكم ﴿ بمثل ﴾ أي بنفس وحقيقة ﴿ ما آمنتم به ﴾ كما يأتي بيانه في ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ [الشورى : 11] من الشورى ، فكانوا تبعاً لكم ﴿ فقد اهتدوا ﴾ عكس ما قالوا مثلنا تهتدوا ، وعبر بفعل المطاوعة لكون الإيمان مع ظهوره بظهور دلائله موافقاً للفطرة الأولى ، وأما الكفر فإنه لما كان لأجل ظهور الإيمان وانطباعه في الجنان بعيداً عن المزاج لا يكون إلا بنوع من العلاج بين الهوى والعقل وكان لا يكون إلا بعد الإعراض عن الإيمان وغيبته عن العيان عبر عن ارتكابه بما يشعر بذلك بصيغة التفعل فقال : ﴿ وإن تولوا ﴾ قال الحرالي : فيه إشعار بإيمان مؤمن منهم وتولي متول منهم ، لأن الله تعالى إذا صنف الخطاب كان نبأ عن تصنيف الكيان ، فهو تعالى لا يخرج نبأه على غير كائن فيكون نبأ لا كون له ، إنما ذلك أدنى أوصاف بعض الخلق ﴿ فإنما هم في

شقاق ﴾ أي يريدون أن يكونوا في شق غير شقكم ، لأنهم يعلمون أن الهدى ليس في شيء غيره كما اقتضته " إنما " .

ولما كان اللازم لمشاقّتهم على هذا الحال المكايدة والمحاربة وكان ذلك على وجه العناد لم يكل سبحانه كفاية أوليائه إلى غيره فسبب ذلك قوله : ﴿ فسيكفيكهم الله ﴾ ؛ أي بوعد لا خلف فيه أصلاً وإن تأخر شيئاً من تأخر بما له من قدرة وغيرها من صفات الكمال التي أفهمها الاسم الشريف ، والكفاية إغناء المقاوم عن مقاومة عدوه بما لا يحوجه إلى دفع له – قاله الحرالي .

ولما كان المناوىء لشخص إما أن يكيده بقوله أو بفعله وكان الفعل مسبوقاً بالارتسام في الضمير وكان الكافي لشخص إنما يتوقف كفايته على العلم بما يصلحه قال : ﴿ وهو السميع ﴾ أي لما يقول أعداؤكم ﴿ العليم ﴾ بما يضمرون فهو يسبب لكل قول وضمير منهم ما يرد ضرره عليه ، فحظكم منهم مقصور على أذى في القول وسوء في وُدّ في الضمير ، وحظهم منكم قهرهم وسبيهم والاستيلاء على ديارهم وأموالهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 255.256 ﴾

سؤال : دين الإسلام وهو الحق واحد فما معنى المثل في قوله ﴿ بمثل ما آمنتم به ﴾ ؟

والجواب أن قوله ﴿ فإن آمنوا ﴾ بكلمة الشك ﴿ حرف إن ﴾ دليل على أن الأمر مبني على الفرض ، والتقدير أي فإن حصلوا ديناً آخر مثل دينكم ومساوياً له في الصحة والسداد ﴿ فقد اهتدوا ﴾ لكن لا دين صحيحاً سوى هذا لسلامته عن التناقض بخلاف غيره فلا اهتداء إلا بهذا ، ونظيره قولك للرجل الذي تشير عليه " هذا هو الرأي الصواب فإن كان عندك رأي أصوب منه فاعمل به " وقد علمت أن لا أصوب من رأيك ، ولكنك تريد تبكيت صاحبك وتوقيفه على أن ما رأيت لا رأي وراءه وقيل : الباء للاستعانة لا للإلصاق والتمثيل بين التصديقين أي فإن دخلوا في الإيمان بشهادة مثل شهادتكم . وقيل : المثل صلة ويؤيده قراءة ابن عباس وابن مسعود ﴿ فإن آمنوا بما آمنتم به ﴾ وقيل : معناه إنكم آمنتم بالفرقان من غير تصحيف وتحريف ، فإن آمنوا هم بمثل ذلك في التوراة فقد اهتدوا لأنهم يتوسلون به إلى معرفة نبوة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ4 صـ 76 ﴾

وقال فى التحرير والتنوير :

والباء في قوله : ﴿ بمثل ما آمنتم به ﴾ للملابسة وليست للتعدية أي إيماناً مماثلاً لإيمانكم ، فالمماثلة بمعنى المساواة في العقيدة والمشابهة فيها باعتبار أصحاب العقيدة وليست مشابهة معتبراً فيها تعدد الأديان لأن ذلك ينبو عنه السياق ، وقيل لفظ مثل زائد ، وقيل الباء للآلة والاستعانة ، وقيل : الباء زائدة ، وكلها وجوه متكلفة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ1 صـ 424 ﴾

فوائد

الشقاق شدة المخالفة ، مشتق من الشق بفتح الشين وهو الفلق وتفريق الجسم ، وجيء بفي للدلالة على تمكن الشقاق منهم حتى كأنه ظرف محيط بهم . والإتيان بإن هنا مع أن توليهم هو المظنون بهم لمجرد المشاكلة لقوله : ﴿ فإن آمنوا ﴾ .

وفرع قوله : ﴿ سيكفيكهم الله ﴾ على قوله : ﴿ فإنما هم في شقاق ﴾ تثبيتاً للنبيء ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأن إعلامه بأن هؤلاء في شقاق مع ما هو معروف من كثرتهم وقوة أنصارهم مما قد يتحرج له السامع فوعده الله بأنه يكفيه شرهم الحاصل من توليهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ1 صـ 424 ﴾

فائدة لغوية

الشقاق في اللغة : له ثلاثة معان ، أحدها : العداوة مثل قوله تعالى : و ﴿ ويا قوم لاَ

يَجْرِمَنَّكُمْ شقاقى أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صالح وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴾ [هود : 89] ، والثاني : الخلاف مثل قوله : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فابعثوا حَكَماً مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصلاحا يُوَفِّقِ اللهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً ﴾ [النساء : 35] ، والثالث : الضلالة مثل قوله : ﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى الشيطان فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ والقاسية قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظالمين لَفِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ [الحج : 53] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ1 صـ 124 ﴾

(163/67)

كلام نفيس فى الآية الكريمة

﴿ فإن آمنوا ﴾ أى اليهود والنصارى ﴿ بمثل ما ﴾ أى بمثل الدين الذى ﴿ آمنتم به ﴾ هذا من باب التعجيز والتبكيت أى إلزام الخصم وإلجائه إلى الاعتراف بالحق بإرخاء عنانه وسد طرق المجادلة عليه والمثل مقحم والمعنى فإن آمنوا بما آمنتم به وهو الله فإنه ليس لله تعالى مثل وكذا لدين الإسلام ﴿ فقد اهتدوا ﴾ إلى الحق وأصابوه كما اهتديتم وحصل بينكم الإتحاد والاتفاق ﴿ وإن تولوا ﴾ أى إن اعرضوا عن الإيمان على الوجه المذكور بأن أخلوا بشئ من ذلك كأن آمنوا ببعض وكفروا ببعض كما هو ديدنهم ودينهم ﴿ فإنما هم فى

شقاق ﴾ أى مستقرون فى خلاف عظيم بعيد من الحق وهذا لدفع ما يتوهم من احتمال الوفاق بسبب إيمانهم ببعض ما آمن به المؤمنون فقوله فى شقاق خبر لقوله هم وجعل الشقاق ظرفا لهم وهم مظروفون له مبالغة فى الإخبار باستيلائه عليهم فإنه أبلغ من قولك هم مشاقون والشقاق مأخوذ من الشق وهو الجانب فكأن كل واحد من الفريقين فى شق غير شق صاحبه بسبب العداوة ولما دل تنكير الشقاق على امتناع الوفاق وأن ذلك مما يؤدى إلى الجدال والقتال لا محالة عقب ذلك بتسلية رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتفريح المؤمنين بوعد النصرة والغلبة وضمان التأييد والإعزاز بالسين للتأكيد الدالة على تحقق الوقوع ألبتة فقيل ﴿ فسيكفيكهم الله ﴾ الضميران منصوبا المحل على أنهما مفعولان ليكفى يقال كفاه مؤنته كفاية وإن كثر استعمالة معدى إلى واحد نحو كفاك الشئ والظاهر أن المفعول الثانى حقيقة فى الآية هو المضاف المقدر أى فسيكفى الله إياك أمر اليهود والنصارى ويدفع شرهم عنك وينصرك عليهم فإن الكفاية لا تتعلق بالأعيان بل بالأفعال وقد أنجز الله وعده الكريم بالقتل والسبى فى بنى قريظة والجلاء والنفى إلى الشام وغيره فى بنى النضير والجزية والذلة فى نصارى نجران ﴿ وهو السميع العليم ﴾ تذييل لما سبق من الوعد وتأكيد له والمعنى إنه تعالى يسمع ما تدعو به ويعلم ما فى نيتك من إظهار الدين فيستجيب لك ويوصلك إلى مرادك . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح البيان حـ 1 صـ 303. 304 ﴾

(164/67)

من فوائد الإمام الجصاص فى الآية

قال رحمه الله :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمْ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ إخْبَارٌ بِكِفَايَةِ اللَّه تَعَالَى لِنَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمْرَ أَعْدَائِهِ ، فَكَفَاهُ مَعَ كَثْرَةِ عَدَدِهِمْ وَحِرْصِهِمْ ، فَوَجَدَ مُخْبِرُهُ عَلَى مَا أَخْبَرَ بِهِ ، وَهُوَ نَحْوُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَاَللَّهُ يَعْصِمُك مِنْ النَّاسِ ﴾ فَعَصَمَهُ مِنْهُمْ وَحَرَسَهُ مِنْ غَوَائِلِهِمْ وَكَيْدِهِمْ وَهُوَ دَلَالَةٌ عَلَى صِحَّةِ نُبُوَّتِهِ ؛ إذْ غَيْرُ جَائِزٍ اتِّفَاقُ وُجُودِ مُخْبِرِهِ عَلَى مَا أَخْبَرَ بِهِ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ إلَّا وَهُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ؛ إذْ غَيْرُ جَائِزٍ وُجُودُ مُخْبِرِ أَخْبَارِ الْمُتَخَرِّصِينَ وَالْكَاذِبِينَ عَلَى حَسَبِ مَا يُخْبِرُونَ ، بَلْ أَكْثَرُ أَخْبَارِهِمْ كَذِبٌ وَزُورٌ يَظْهَرُ بُطْلَانُهُ لِسَامِعِيهِ ، وَإِنَّمَا يَتَّفِقُ لَهُمْ ذَلِكَ فِي الشَّاذِّ النَّادِرِ إنْ اتَّفَقَ . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 1 صـ 104 ﴾

(165/67)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ فَإِنْ آمَنُواْ بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (137) ﴾

نقول إن السؤال الذي يطرح نفسه بالنسبة لهذه الآية . . هل لما آمنا به مثل حتى يؤمنوا به ؟ إنك لكي تؤمن لابد أن تقول لا إله إلا الله محمد رسول الله . . فهل إذا قالها أحد بعدك يكون قال ما قلته أم مثل ما قلته ؟ يكون قال مثل ما قلت . أي إنني حين أعلن إيماني وآخذ الشهادة التي قلتها أنت أكون قد قلت مثلها لأن ما نطقت به لا يفارقك أنت . . ولكني إذا صنعت شيئا وقلت لغيري اصنع مثله ، هو سيصنع شيئا جديدا ولن يصنع ما صنعته أنا . الشيء نفسه حين تقول لي : تصدق بمثل ما تصدق به فلان . لن تكون الصدقة هي المال نفسه بل تكون مثله . نقول لمن يردد هذا الكلام : إنك لم تفهم المعنى إيمانهم أن يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله وإيمان غيرهم أن يقولوا مثل هذه العبارة أي أن يعلنوا إيمانهم مثلنا بالله ورسوله . . فالمثل هنا يرتبط بالشهادة وكل من آمن بالإسلام نطق بالشهادتين مثل من سبقوه في الإيمان . فالمثلية هنا في العبارة وإيمانهم هو أن يقولوا مثل ما قلنا .

يقول الحق تبارك وتعالى : " فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا " أي اهتدوا إلي الحق . . " وإن تولوا فإنما هم في شقاق " وتولوا يعني أعرضوا ، وشقاق يعني خلافا معكم وخلافا مع

بعضهم البعض ؛ فلكل منهم وجهة نظر يدعيها ، وهداية اخترعها . . حتى إذا التقوا في الكفر فلن يلتقوا في أسباب الكفر كل واحد اتخذ سببا ولذلك اختلفوا . . والشقاق من المشقة والنزاع والمشاجرة ، والشق هو الفرقة بين شيئين . وقوله تعالى : " فسيكفيكهم الله " أي لا تلتفت إلي معاركهم ولا إلي حوارهم فالله يكفيك بكل الوسائل عمن سواه واقرأ قوله سبحانه :

(166/67)

أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (36) (سورة الزمر)

الله سبحانه وتعالى يقول لنبيه صلى الله عليه وسلم إذا حاول اليهود والنصارى والمنافقون أن يكيدوا لك ويؤذوك والمؤمنين ، فالله سبحانه وتعالى يكفيك لأنه عليم سميع بصير لا يخفي عليه شيء . . ولقد حاول اليهود قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم اكثر من مرة وحاولوا إيذاءه بالسحر فأبطل الله كيدهم وأظهر ما خفي منه وأطلع رسوله عليه . . فمهما استخدموا من وسائل ظاهرة أو خفية فسيكفيك الله شرها ولذلك قال تعالى : " فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم " . . أي سميع بما يقال ، عليم بما يدبرونه . بل يعلم ما

في صدورهم قبل أن ينطقوا به . . فلا تعتقد أن شيئا يفوت على الله سبحانه أو يفلت منه . إن كل حركة قبل أن تحدث يعلمها سبحانه ، وكل كيد قبل أن يتم هو محبطه . فإذا كان الله سبحانه وتعالى معك فماذا تخشى ؟ وممن تخاف ؟ ومن ذا الذي يستطيع أن يصل إليك ؟ . وأنت معك عليم بكل ما سيحدث حتى يوم القيامة وبعد يوم القيامة . . ومادام معك القوي الذي لا يضعف أبدا والحي الذي لا يموت أبدا والعليم بكل شيء فلا تخشى أحد لأنك في أمان الله سبحانه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 610. 611﴾

(167/67)

" فصل "

قال السيوطى :

فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (137)

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس قال : لا تقولوا ﴿ فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به ﴾ فإن الله لا مثل له ، ولكن قولوا : فإن آمنوا بالذي آمنتم به .

وأخرج ابن أبي داود في المصاحف والخطيب في تاريخه عن أبي جمرة قال : كان ابن عباس يقرأ ﴿ فإن آمنوا بالذي آمنتم به ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية في قوله ﴿ فإنما هم في شقاق ﴾ قال : فراق .

وأخرج الحاكم عن ابن عباس قال : كنت قاعداً إذ أقبل عثمان ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم " يا عثمان تقتل وأنت تقرأ سورة البقرة ، فتقع قطرة من دمك على ﴿ فسيكفيكهم الله ﴾ " قال الذهبي في مختصر المستدرك : هذا كذب بحت ، وفي إسناده أحمد بن محمد بن عبد الحميد الجعفي ، وهو المتهم به .

وأخرج ابن أبي داود في المصاحف وأبو القاسم بن بشران في أماليه وأبو نعيم في المعرفة وابن عساكر عن أبي سعيد مولى بني أسد قال : لما دخل المصريون على عثمان والمصحف بين يديه فضربوه بالسيف على يديه ، فجرى الدم على ﴿ فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم ﴾ فمد يده وقال : والله لإنها أوّل يد خطت المفصل .

وأخرج ابن أبي حاتم عن نافع بن أبي نعيم قال : أرسل إلي بعض الخلفاء بمصحف عثمان بن عفان فقلت له : إن الناس يقولون : إن مصحفه كان في حجره حين قتل ، فوقع الدم على ﴿ فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم ﴾ فقال نافع : بصرت عيني بالدم على هذه الآية .

وقد تقدم .

وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد عن عمرة بنت أرطاة العدوية قال : خرجت مع عائشة سنة قتل عثمان إلى مكة ، فمررنا بالمدينة ورأينا المصحف الذي قتل وهو في حجره ، وكانت أوّل قطرة من دمه على هذه الآية ﴿ فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم ﴾ قالت عمرة : فما مات منهم رجل سوياً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 1 صـ 340.339 ﴾

(169/67)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (137)

" الباء " في قوله " بمثل " فيه أقوال :

أحدها : أنها زائدة كهي في قوله : ﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ ﴾ [البقرة : 195] وقوله : ﴿ وهزي إِلَيْكِ بِجِذْعِ ﴾ [مريم : 25] ؛ وقوله : [البسيط]

814 . . . . . .

سُودُ المَحَاجِرِ لاَ يَقْرَأْنَ بِالسُّوَرِ

والثاني : أنها بمعنى "على" ، أي : فإن آمنوا على مثل إيمانكم بالله .

والثالث : أنها للاستعانة كهي في "نجرت بالقدُّوم" ، و"كتبت بالقلم" ، والمعنى :

فإن دخلوا في الإيمان بشهادةٍ مثل شهادتكم .

وعلى هذه الأوجه ، فيكون المؤمَن به حذوفاً ، و"ما" مصدرية ، والضمير في "به" عائداً

على الله تعالى والتقدير : فإن آمنوا بالله إيماناً مثل إيمانكم به ، و"مثل" هنا فيها قولان :

أحدهما : أنها زائدة ، والتقدير : بما آمنتم به ، وهي قراءة عبدالله بن مسعود ، وابن عباس

[وذكر البيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما لا تقولوا بمثل ما آمنتم به ، فإن الله تعالى

ليس له مثل ، ولكن قولوا بالذي آمنتم به ، وهذا يروى قراءة أُبيّ] ونظيرها في الزيادة قول

الشاعر : [السريع أو الرجز]

815 فَصُيِّرُوا مِثْلَ كَعَصْفٍ مَأْكُولْ . . .

وقال بعضهم : هذا من مجاز الكلام تقوم : هذا أمر لا يفعله مثلك ، أي : لا تفعله أنت .

والمعنى : فإن آمنوا بالذي آمنتم به ، نقله ابن عطية ، وهو يؤول إلى إلغاء "مثل" وزيادتها .

والثاني : أنها ليست بزائدة ، والمثليّة متعلقة بالاعتقاد ، أي : فإن اعتقدوا بمثل اعتقادكم ، أو متعلقة بالكتاب ، أي : فإن آمنوا بكتاب مثل الكتاب الذي آمنتم به ، والمعنى : فإن آمنوا بالقرآن الذي هو مصدق لما في التوراة والإنجيل ، وهذا التأويل ينفي زيادة " الباء " .

و " ما " في قوله : " بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ " فيها وجهان :

أحدهما : أنها بمعنى الذي ، والمراد بها حينئذ : إما الله تعالى بالتأويل المتقدم عند من يجيز وقوع " ما " على أولي العلم نحو :

﴿ والسمآء وَمَا بَنَاهَا ﴾ [الشمس : 5] .

وإما الكتاب المنزل .

[والثاني : أنها مصدرية ، وقد تقدم ذلك .

والضمير في " به " فيه أيضاً وجهان :

أحدهما : أنه يعود على الله تعالى كما تقدم]

والثاني : أن يعود على " ما " إذا قيل : إنها بمعنى الذي .

قوله : " فَقَدِ اهْتَدَوا " جواب الشرط في قوله : " فَإِنْ آمَنُوا " ، وليس الجواب محذوفاً ، كهو في قوله : ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ ﴾ [فاطر : 40] ، لأن تكذيب الرسل ماض محقق هناك ، فاحتجنا إلى تقدير جواب .

وأما هنا فالهداية منهم لم تقع بعد ، فهي مستقبلة معنى ، وإن أبرزت في لفظ المعنى .

قوله : "فِي شِقَاقٍ" خبر لقوله : "هم" ، وجعل الشقاق ظرفاً لهم ، وهم مظروفون له مبالغة في الأخبار باستعماله عليهم ، وهو أبلغ من قولك : هم مُشَاقّونَ ، وفيه : ﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ ﴾ [الأعراف : 66] ونحوه .

والشِّقَاق : مصدر من شاقَّهُ يُشَاقّه نحو : ضاربه ضِراباً ، ومعناه المخالفة والمعاداة .

وفي اشتقاقه ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه من الشّق وهو الجانب .

وذلك أن أحد المشاقين يصير في شقّ صاحبه ، أي : جانبه ؛ قال امرؤ القيس : [الطويل]

816 إذَا مَا بَكَى مِنْ خَلْفِهَا انْصَرَفَتْ لَهُ . . .

بِشِقّ وَشِقٌّ عِنْدَنَا لَمْ يُحَوَّلِ

أي : بجانب .

الثاني : أنه من المشقة ، فإن كلاًّ منهما يحرص على ما يَشُقّ على صاحبه .

الثالث : أنه من قولهم : "شققتُ العَصَا بين وبينك" ، وكانوا يفعلون ذلك عند تعاديهم .

و" الفاء " في قوله : " فَسَيَكْفِيكَهُمْ " تشعر بتعقيب الكفاية عقب شقاقهم ، وجيء بـ " السين " دون " سوف " ؛ لأنها أقرب منها زماناً بوضعها ، ولا بد من حذف مضاف أي : فسيكفيك شقاقهم ؛ لأن الذوات لا تكفى إنما تكفى أفعالها ، والمكفي به محذوف ، أي : بمن يهديه الله ، أو بتفريق كلمتهم .

[ولقد كفى بإجلاء بني النضير ، وقتل بني قريظة ، وبني قينقاع ، وضرب الجزية على اليهود والنصارى] .

والكاف والهاء والميم في موضع نصب مفعولان ؛ ويجوز في غير القرآن الكريم : " فسيكفيك " . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 2 صـ 521. 525 ﴾ .

باختصار .

(172/67)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العَاجِزُ الْفَقِيرُ

عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مُحَمَّدٍ الْقَمَّاش

إِمَامُ وَخَطِيبُ مَسْجِدِ بُورُسْلِى - رَأْسُ الْخَيمَةِ

دَوْلَةُ الإِمَارَاتِ الْعَرَبِيَّةِ الْمُتَّحِدَةِ

(عَفَا اللهُ عَنْهُ وَغَفَرَ لَهُ)

الجزء الثامن والستون

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الثامن والستون

من الآية ﴿ 138 ﴾ من سورة البقرة

وحتى الآية ﴿ 141 ﴾ من نفس السورة

قوله تعالى ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ (138) ﴾

فصل

قال البقاعى :

وجعل الحرالي ﴿ صبغة الله ﴾ أي هيئة صبغ الملك الأعلى التي هي حلية المسلم وفطرته كما أن الصبغة حلية المصبوغ حالاً تقاضاها معنى الكلام ، وعاب على النحاة كونهم لا يعرفون الحال إلا من الكلم المفردة ولا يكادون يتفهمون الأحوال من جملة الكلام ، وقال : الصيغة تطوير معاجل بسرعة وحيه ، وقال : فلما كان هذا التلقين تلقيناً وحياً سريع التصيير من حال الضلال المبين الذي كانت فيه العرب في جاهليتها إلى حال الهدى المبين الذي كانت فيه الأنبياء في هدايتها من غير مدة جعله تعالى صبغة كما يصبغ الثوب في الوقت فيستحيل من لون إلى لون في مقابلة ما يصبغه أهل الكتاب بأتباعهم المتبعين لهم في أهوائهم في نحو الذي يسمونه الغِطاس ﴿ ومن أحسن من الله ﴾ أي الذي له الكمال كله ﴿ صبغة ﴾ لأنها صبغة قلب لا تزول لثباتها بما تولاها الحفيظ العليم ، وتلك صبغة جسم لا تنفع ، وفيه إفهام بما يختص به الذين آمنوا من انقلاب جوهرهم نوراً ، كما قال عليه الصلاة والسلام : اللهم اجعلني نوراً ! فكان ما انقلب إليه جوهر الأئمة انصبغت به قلوب الأمة ﴿ ونحن له ﴾ أي خاصة ﴿ عابدون ﴾ تكملة لرد الخطاب على خطاب عهد إسرائيل حيث قال :

﴿ ما تعبدون من بعدي ﴾ [البقرة : 133] إلا أن العبادة في عهد إسرائيل سابقة والإسلام حتم ، والإسلام في هذا التلقين بدء لتقع العبادة شكراً - يختص برحمته من يشاء ، وجاء به بالوصف الثابت الدائم ففيه إشعار بأن أحداً منهم لا يرتد عن دينه سخطة له بعد أن خالط الإيمان بشاشة قلبه ، وهو حظ عام من العصمة الثابت خاصها للنبي صلى الله عليه وسلم في عليِّ أمره - . انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 256 . 257 ﴾

(5/68)

سؤال : ما المراد بالصبغ ؟

الجواب : اختلفوا في المراد بصبغة الله على أقوال . الأول : أنه دين الله وذكروا في أنه لم سمي دين الله بصبغة الله وجوهًا . أحدها : أن بعض النصارى كانوا يغمسون أولادهم في ماء أصفر يسمونه المعمودية ويقولون : هو تطهير لهم . وإذا فعل الواحد بولده ذلك قال : الآن صار نصرانياً . فقال الله تعالى : اطلبوا صبغة الله وهي الدين ، والإسلام لا صبغتهم ، والسبب في إطلاق لفظ الصبغة على الدين طريقة المشاكلة كما تقول لمن يغرس الأشجار وأنت تريد أن تأمره بالكرم : اغرس كما يغرس فلان تريد رجلاً مواظباً على الكرم ، ونظيره

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءونَ اللهُ يَسْتَهْزِىء بِهِمْ ﴾ [البقرة : 14 ، 15] ، ﴿ يخادعون الله وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾ [النساء : 142] ، ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ الله ﴾ [آل عمران : 54] ، ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ [الشورى : 40] ، ﴿ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ ﴾ [هود : 38] . وثانيها : اليهود تصبغ أولادها يهودا والنصارى تصبغ أولادها نصارى بمعنى يلقونهم فيصبغونهم بذلك لما يشربون في قلوبهم ، عن قتادة قال ابن الأنباري : يقال : فلان يصبغ فلاناً في الشيء ، أي يدخله فيه ويلزمه إياه كما يجعل الصبغ لازماً للثواب وأنشد ثعلب :

دع الشر وأنزل بالنجاة تحرزا . . . إذا أنت لم يصبغك في الشر صابغ

وثالثها : سمي الدين صبغة لأن هيئته تظهر بالمشاهدة من أثر الطهارة والصلاة ، قال الله تعالى : ﴿ سيماهم فِى وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السجود ﴾ [الفتح : 29] . ورابعها : قال القاضي قوله : ﴿ صِبْغَةَ الله ﴾ متعلق بقوله : ﴿ قُولُواْ ءامَنَّا بالله ﴾ [البقرة : 136] إلى قوله : ﴿ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُون ﴾ [العنكبوت : 46] فوصف هذا الإيمان منهم بأنه صبغة الله تعالى ليبين أن المباينة بين هذا الدين الذي اختاره الله ، وبين الدين الذي اختاره المبطل

ظاهرة جلية ، كما تظهر المباينة بين الألوان والأصباغ لذي الحس السليم . القول الثاني : أن صبغة الله فطرته وهو كقوله : ﴿ فِطْرَةَ اللهِ التى فَطَرَ الناس عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ﴾ [الروم : 30] ومعنى هذا الوجه أن الإنسان موسوم في تركيبه وبنيته بالعجز والفاقة ، والآثار الشاهدة عليه بالحدوث والافتقار إلى الخالق فهذه الآثار كالصبغة له وكالسمة اللازمة . قال القاضي : من حمل قوله : ﴿ صِبْغَةَ اللهِ ﴾ على الفطرة فهو مقارب في المعنى ، لقول من يقول : هو دين الله لأن الفطرة التي أمروا بها هو الذي تقتضيه الأدلة من عقل وشرع ، وهو الدين أيضاً ، لكن الدين أظهر لأن المراد على ما بينا هو الذي وصفوا أنفسهم به في قوله ﴿ قُولُواْ ءامَنَّا بالله ﴾ فكأنه تعالى قال في ذلك : إن دين الله الذي ألزمكم التمسك به فالنفع به سيظهر ديناً ودنيا كظهور حسن الصبغة ، وإذا حمل الكلام على ما ذكرناه لم يكن لقول من يقول : إنما قال ذلك لعادة جارية لليهود والنصارى في صبغ يستعملونه في أولادهم معنى ، لأن الكلام إذا استقام على أحسن الوجوه بدونه فلا فائدة فيه ولنذكر الآن بقية أقوال المفسرين :

القول الثالث : أن صبغة الله هي الختان ، الذي هو تطهير ، أي كما أن المخصوص الذي للنصارى تطهير لهم فكذلك الختان تطهير للمسلمين عن أبي العالية .

القول الرابع : إنه حجة الله ، عن الأصم ، وقيل : إنه سنة الله ، عن أبي عبيدة ، والقول الجيد هو الأول ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ4 صـ 78 . 79 ﴾

وقال القرطبى :

وقيل : إن الصّبغة الاغتسال لمن أراد الدخول في الإسلام ، بدلاً من معمودية النصارى ؛ ذكره الماوردي .

قلت : وعلى هذا التأويل يكون غسل الكافر واجباً تعبُّداً ، وهي المسألة :

الثانية : لأن معنى " صبغةَ الله" غُسل الله ؛ أي اغتسلوا عند إسلامكم الغسل الذي أوجبه الله عليكم . وبهذا المعنى جاءت السُّنة الثابتة في قيس بن عاصم وثُمَامة بن أثَال حين أسلما . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 2 صـ 145 ﴾

(8/68)

وقال ابن عادل :

قرأ الجمهور « صبغة » بالنصب .

وقال الطبري رحمه الله : من قرأ : « ملّةُ إبراهيم » بالرفع قرأ « صبغة » بالرفع وقد تقدم

أنها قراءة ابن هرمز ، وابن أبي عبلة .

فأما قراءة الجمهور ففيها أربعة أوجه :

أحدها : أن انتصابها انتصاب المصدر المؤكد ، وهذا اختاره الزمخشري ، وقال : « هو الذي ذكره سيبويه ، والقول ما قالت حَذَام انتهى قوله .

واختلف حينئذ عن ماذا انْتَصَبَ هذا المصدر ؟

فقيل : عن قوله : » قولوا : آمنا « .

وقيل عن قوله : » ونَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ « .

وقيل عن قوله : » فَقَد اهْتَدُوا « .

الثاني : أن انتصابها على الإغراء أي : الزموا صبغة الله .

وقال أبو حيان وهذا ينافره آخر الآية ، وهو قوله : ﴿ وَنَحْنُ لَهُ عَابِدونَ ﴾ [فإنه خبر والأمر يناني الخبر] إلا أن يقدر هنا قول ، وهو تقدير لا حاجة إليه ، ولا دليل من الكلام عليه .

الثالث : أنها بدل من » ملة « وهذا ضعيف ؛ إذ قد وقع الفصل بينهما بجمل كثيرة .

الرابع : انتصابها بإضمار فعل أي : اتبعوا صِبْغَةَ الله ، ذكر ذلك أبو البقاء مع وجه الإغراء ، وهو في الحقيقة ليس زائداً فإنَّ الإغراء أيضاً هو نصب بإضمار فعل . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير ابن عادل حـ 2 صـ 525.526 ﴾

قوله تعالى ﴿ ومن أحسن من الله ﴾

﴿ ومن أحسن من الله ﴾ أي الذي له الكمال كله ﴿ صبغة ﴾ لأنها صبغة قلب لا تزول لثباتها بما تولاها الحفيظ العليم ، وتلك صبغة جسم لا تنفع ، وفيه إفهام بما يختص به الذين آمنوا من انقلاب جوهرهم نوراً ، كما قال عليه الصلاة والسلام : اللهم اجعلني نوراً ! فكان ما انقلب إليه جوهر الأئمة انصبغت به قلوب الأمة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ1 صـ 257 ﴾

(9/68)

ومن فوائد القاسمى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ صِبْغَةَ اللّهِ ﴾ مصدر مؤكد منتصب من قوله : ﴿ آمنا بالله ﴾ كذا قاله سيبويه ، فهو بمثابة فِعْلَه . كأنه قيل صبغنا الله صبغة . أي : صبغ قلوبنا بالهداية والبيان صبغة كاملة لا ترتفع بماء الشبه ، ولا تغلب صبغةُ غيره عليه . والصبغة كالصبغ بالكسر فيهما لغة ، ما يصبغ به وتلون به الثياب . ووصف الإيمان بذلك لكونهم تطهيراً للمؤمنين من أوضار الكفر ، وحلية تزّينهم بآثاره الجميلة ، ومتداخلاً في قلوبهم ، كما أن شأن الصبغ بالنسبة إلى

الثوب كذلك ، ويقال : صبغ يده بالماء غمسها فيه ، وأنشد ثعلب :

~دَعِ الشَّرَّ وَأَنْزِلَ بِالنَّجَاةِ تَحَرُّزًا إِذَا أَنْتَ لَمْ يَصْبِغْكَ فِي الشَّرِّ صَابِغُ

وقال الراغب : الصبغة إشارة من الله عز وجل إلى ما أوجده في الناس من بداية العقول التي ميزنا بها من البهائم ، ووشحنا بها لمعرفته ومعرفة حسن العدالة وطلب الحق ، وهو المشار إليه بالفطرة في قوله : ﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ [الروم : 30] الآية ، والمعني بقوله عليه السلام : < كل مولود يولد على الفطرة . . . > الخبر ، وتسمية ذلك بالصبغة من حيث إن قوى الْإِنْسَانْ التي ركب عليها ، إذا اعتبرت بذاته ، تجري مجرى الصبغة التي هي زينة المصبوغ . ولما كانت اليهود والنصارى ، إذا لقنوا أولادهم اليهودية والنصرانية ، يقولون : قد صبغناه – بيّن تعالى أن الإيمان بمثل ما آمنتم به هو صبغة الله وفطرته التي ركزها في الخلق ، ولا أحد أحسن صبغة منه .

(10/68)

ثم قال : وقول الحسن وقتادة ومجاهد : إن الصبغة هي الدين ، وقول غيرهم : إنها الشريعة ، وقول من قال : هو الختان – إشارة إلى مغزى واحد : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً ﴾ الاستفهام للإنكار والنفي . أي : لا صبغة أحسن من صبغته تعالى ؛ لأنها صبغة قلب لا

تزول ؛ لثباتها بما تولاها الحفيظ العليم ، فلا يرتد أحد عن دينه سخطة له بعد أن خالط الإيمان بشاشة قلبه . والجملة اعتراضية مقررة لما في : ﴿ صبغة الله ﴾ من معنى الابتهاج : ﴿ وَنَحْنُ لَهُ عَابِدونَ ﴾ شكراً لتلك النعمة ولسائر نعمه ، فكيف تذهب عنا صبغته ونحن نوكدها بالعبادة ، وهي تزيل رَيْن القلب فينطبع فيه صورة الهداية ؟ وهو عطف على آمنا ، داخل معه تحت الأمر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 2 صـ 454.453 ﴾

(11/68)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدونَ (138) ﴾

ما هي الصبغة ؟ الصبغة هي إدخال لون على شيء بحيث يغيره بلون آخر . . تصبغ الشيء أحمر أو أزرق أو أي لون تختاره . والصبغ ينفذ في المصبوغ خاصة إذا كان المصبوغ له شعيرات مسام كالقطن أو الصوف . . ولذلك فإن الألياف الصناعية لا يمكن أن تصبغ لماذا ؟ لأن شعرة القطن أو الصوف أشبه بالأنبوبة في تركيبها . وإذا جئنا بقنديل من الزيت

ووضعنا فيه فتيلا من القطن بحيث يكون رأس الفتيل في الزيت ثم تشغله من أعلاه نجد أن الزيت يسري في الأنابيب ويشعل الفتيل . . فإذا جربنا هذا في الألياف الصناعية فلا يمكن أن يسري فيها الزيت وإنما النار تأكل الألياف لأنه ليس فيها أنابيب شعرية كالقطن والصوف . . ولذلك تجد الألياف الصناعية سهلة في الغسيل لأن العرق لا يدخل في مسامها بينما الملابس القطنية تحتاج لجهد كبير لأن مسامها مشبعة بالعرق والتراب .

إذن الصبغة لابد أن تتدخل مادتها من مسام القماش . . أما الطلاء فهو مختلف . إنه طبقة خارجية تستطيع أن تزيلها . . ولذلك فإن الذين يفتون في طلاء الأظافر بالنسبة للسيدات ويقولون إنه مثل الحناء نقول لهم لا . . الحناء صبغة تتخلل المادة الحية وتبقى حتى يذهب الجلد بها أي لا تستطيع أن تزيلها عندما تريد . . ولكن الطلاء يمكن أن تزيله في أي وقت ولو بعد إتمامه بلحظات . . إذن فطلاء الأظافر ليس صبغة . قوله سبحانه : " فكأن الإيمان بالله وملة إبراهيم وما أنزل الله على رسله هي الصبغة الإلهية التي تتغلغل في الجسد البشري . . ولماذا كلمة صبغة ؟ حتى نعرف أن الإيمان يتخلل جسدك كله . . إنه ليس صبغة من خارج جسمك ولكنها صبغة جعلها الله في خلايا القلب موجودة فيه ساعة

الخلق . . ولذلك فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه) . أخرجه البخارى ومسلم وابوداود والترمذى والطبرانى فى الكبير والبيهقى فى سننه

فكأن الإيمان صبغة موجودة بالفطرة . . إنها صبغة الله . . فإن كان أبواه مسلمين ظل على الفطرة . وإن كان أبواه من اليهود أو النصارى يهودانه أو ينصرانه أي يأخذانه ويضعانه في ماء ويقولون صبغناه بماء المعمودية . . هذا هو معنى صبغة الله . ويريد الحق سبحانه أن يبين لنا ذلك بأن يجعل من آيات قدرته اختلاف ألواننا . . هذا الاختلاف في اللون من صبغة الله . . اختلاف ألوان البشر ليس طلاء وإنما في ذات التكوين . . فيكون هذا أبيض وهذا أسمر وهذا أصفر وهذا أحمر ، هذه هي صبغة الله . . وما يفعلونه من تعميد للطفل لا يعطي صبغة . لأن الإيمان والدين لا يأتي من خارج الإنسان وإنما يأتي من داخله . . ولذلك فإن الإيمان يهز كل أعضاء الجسد البشري . واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ

(سورة الزمر)

هذا هو التأثير الذي يضعه الله في القلوب . . أمر داخلي وليس خارجيا . . أما إيمان غير المسلمين فهو طلاء خارجي وليس صبغة لأنهم تركوا صبغة الله . . ونقول لهم : لا هذا الطلاء من عندكم أنتم ، أما ديننا فهو صبغة الله . . وقوله تعالى : " ومن أحسن من الله صبغة" . . استفهام لا يمكن أن يكذبوه ولكن الجواب يأتي على وفق ما يريده السائل سبحانه من أنه لا يوجد من هو أحسن من الله صبغة . وقوله تعالى : " ونحن له عابدون" أي مطيعون لأوامره والعابد هو من يطيع أوامر الله ويجتنب ما نهى عنه .

والأوامر دائما تأتي بأمر فيه مشقة يطلب منك أن تفعله والنهي يأتي عن أمر محبب إلي نفسك هناك مشقة أن تتركه . . ذلك أن الإنسان يريد النفع العاجل ، النفع السطحي ، والله سبحانه وتعالى يوجهنا إلي النفع الحقيقي . . النفع العاجل يعطيك لذة عاجلة اما النفع الحقيقى يمنحك نعيما دائما في الآخرة وتمتعا بقدرات الله سبحانه وتعالى . . وأنت حين تسمع المؤذن ولا تقوم للصلاة لأنها ثقيلة على نفسك قد أعطيت نفسك لذة عاجلة كأن تشغل نفسك بالحديث مع شخص أو بلعب الطاولة أو بغير ذلك وتترك ذلك النفع الحقيقي الذي يقودك إلي الجنة . . ولذلك قال الله سبحانه :

وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ (45) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُوا رَبِّهِمْ

(من الآيتين 45.46 سورة البقرة)

إذن العبادة أمر ونهى . . أمر يشق على نفسك فتستثقله ، ونهى عن شيء محبب إلي نفسك يعطيك لذة عاجلة ولذلك تريد أن تفعله . . إذن فقوله تعالى : " ونحن له عابدون" . . أي مطيعون لأوامره لأننا آمنا بالآمر إلها وربا يعبد . . فإذا آمنت حبب الله إليك فعل الأشياء التي كنت تستثقلها وسهل عليك الامتناع عن الأشياء التي تحبها لأنها تعطيك لذة عاجلة . . هذه هي صبغة الله التي تعطينا العبادة . . واقرأ قوله تبارك وتعالى :

وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (7)

(سورة الحجرات)

وهكذا فإن الله سبحانه وتعالى بصبغة الإيمان يحبب إلينا الخير ويجعلنا نبغض الشر . . لا عن رياء ونفاق خارج النفس كالطلاء ولكن كالصبغة التي تتخلل الشيء وتصبح هي وهو شيئا واحدا لا يفترقان . . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 612.615 ﴾

"فوائد لغوية وإعرابية"

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً ﴾ مبتدأ وخبر ، والاستفهام للإنكار ، وقوله تعالى :

﴿ صِبْغَةَ ﴾ تمييز منقول من المبتدأ نحو زيد أحسن من عمرو وجهاً والتقدير ومن صبغته أحسن من صبغة الله تعالى كما يقدر وجه زيد أحسن من وجه عمرو ، والتفضيل جار بين الصبغتين لا بين فاعليهما أي لا صبغة أحسن من صبغته تعالى على معنى أنه أحسن من كل صبغة وحيث كان مدار التفضيل على تعميم الحسن للحقيقي والفرضي المبني على زعم الكفرة لم يلزم أن يكون في (صبغة) غيره تعالى حسن في الجملة ، والجملة معترضة مقررة لما في صبغة الله تعالى من التبجح والابتهاج أو جارية مجرى التعليل للإغراء

﴿ وَنَحْنُ لَهُ عابدون ﴾ أي موحدون أو مطيعون متبعون ملة إبراهيم أو خاضعون مستكنون في اتباع تلك الملة ، وتقديم الجار لإفادة اختصاص العبادة له تعالى ، وتقديم المسند إليه لإفادة قصر ذلك الاختصاص عليهم ، وعدم تجاوزه إلى أهل الكتاب فيكون تعريضاً لهم بالشرك أو عدم الانقياد له تعالى باتباع ملة إبراهيم ، والجملة عطف على ﴿ آمنا ﴾ [البقرة : 631] وذلك يقتضي دخولة صبغة الله في مفعول ﴿ قُولُواْ ﴾ [البقرة

: 631] لئلا يلزم الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه بالأجنبي ، وإيثار الجملة الاسمية للاشعار بالدوام ، ولمن نصب ﴿ صِبْغَةَ ﴾ على الإغراء أو البدل أن يضمر (قولوا) قبل هذه الجملة معطوفاً على الزموا على تقدير الإغراء ، وإضمار القول سائغ شائع ، والقرينة السياق لأن ما قبله مقول المؤمنين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ1 صـ 398 ﴾

لطيفة

قال القشيري : وللقلوب صبغة ، وللأرواح صبغة ، وللسرائر صبغة ، وللظواهر صبغة ، فصبغة الأشباح والظواهر بآثار التوفيق ، وصبغة الأرواح والسرائر بأنوار التحقيق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 130 ﴾ .

وقال الورتجبي : صبغة الله : صفته الخاصة التي خلق آدم عليها ، وأورثت ذلك في أرواح ذريته من الأنبياء والأولياء . ثم قال : وسقاها من شراب الزلفة ، وألهمها خصائص علوم الربوبية ، فاستنارت بنور المعرفة ، وخاضت في بحر الربوبية ، وخرجت منها تجليات أسرار الوحدانية ، وتكوّنت بصبغ الصفات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المديد حـ 1 صـ 172.171

وقال فى روح البيان :

اعلم أن العابد هو العامل بحق العبودية فى مرضاة الله تعالى والعبادة دون العبودية وهى دون العبودة لأن من لم يبخل بروحه فهو صاحب عبودة فالعبادة ببذل الروح فوق العبادة

ببذل النفس

قال سهل بن عبد الله لا يصح التعبد لأحد حتى لا يجزع من أربعة أشياء من الجوع والعرى والفقر والذل

قال الشيخ أبو العباس رحمه الله : أوقات العبد أربعة لا خامس لها الطاعة والمعصية والنعمة والبلية ولكل وقت منها سهم من العبودية يقتضيه الحق منك بحكم الربوبية فمن كان وقته النعمة فسبيله الشكر وهو فرح القلب بالله تعالى ومن كان وقته البلية فسبيله الرضى والصبر فعليك أن تراقب الأوقات إلى أن تصل أعلى الدرجات وغاية الغايات . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ روح البيان حـ1 صـ 305 ﴾

" فصل "

قال السيوطى :

صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ (138)

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ صبغة الله ﴾ قال : دين الله .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد في قوله ﴿ صبغة الله ﴾ قال : فطرة الله التي

فطر الناس عليها .

وأخرج ابن مردويه والضياء في المختارة عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال "إن بني إسرائيل قالوا : يا موسى هل يصبغ ربك ؟ فقال : اتقوا الله . فناداه ربه : يا موسى سألوك هل يصبغ ربك فقل : نعم ، أنا أصبغ الألوان الأحمر والأبيض والأسود ، والألوان كلها في صبغتي ، وأنزل الله على نبيه ﴿ صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ﴾ وأخرجه ابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة عن ابن عباس موقوفاً " .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة قال : إن اليهود تصبغ أبناءها يهود ، وإن النصارى تصبغ أبناءها نصارى ، وإن صبغة الله الإِسلام ، ولا صبغة أحسن من صبغة الله الإِسلام ولا أطهر ، وهو دين الله الذي بعث به نوحاً ومن كان بعده من الأنبياء .

وأخرج ابن النجار في تاريخ بغداد عن ابن عباس في قوله ﴿ صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ﴾ قال : البياض . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 1 صـ 340 . 341 ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ (138)

قرأ الجمهور "صبغة" بالنصب.

وقال الطبري رحمه الله: من قرأ: "ملّةُ إبراهيم" بالرفع قرأ "صبغة" بالرفع وقد تقدم أنها قراءة ابن هرمز، وابن أبي عبلة.

فأما قراءة الجمهور ففيها أربعة أوجه:

أحدها: أن انتصابها انتصاب المصدر المؤكد، وهذا اختاره الزمخشري، وقال: "هو الذي ذكره سيبويه، والقول ما قالت حَذَام انتهى قوله.

واختلف حينئذ عن ماذا انْتَصَبَ هذا المصدر؟

فقيل: عن قوله: "قولوا: آمنا".

وقيل عن قوله: "وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ".

وقيل عن قوله: "فَقَدِ اهْتَدَوا".

الثاني: أن انتصابها على الإغراء أي: الزموا صبغة الله.

وقال أبو حيان وهذا ينافره آخر الآية، وهو قوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُ عَابِدونَ﴾ [فإنه خبر والأمر ينافي الخبر] إلا أن يقدر هنا قول، وهو تقدير لا حاجة إليه، ولا دليل من الكلام عليه.

الثالث: أنها بدل من "ملة" وهذا ضعيف؛ إذ قد وقع الفصل بينهما بجمل كثيرة.

الرابع : انتصابها بإضمار فعل أي : اتبعوا صِبْغَةَ الله ، ذكر ذلك أبو البقاء مع وجه الإغراء ، وهو في الحقيقة ليس زائداً فإنَّ الإغراء أيضاً هو نصب بإضمار فعل .

قال الزمخشري رحمه الله : هي أي الصبغة من " صَبَغَ " كالجِلْسَة من " جَلَس " ، وهي الحالة التي يقع عليها الصَّبْغُ ، والمعنى : تطهير الله ؛ لأن الإيمان يطهر النُّفُوس .

فصل في الكلام على الصّبغ

الصّبغ ما يلون به الثياب ويقال : صبغ الثوب يصبغُهُ بفتح الباء وكسرها وضمها ثلاث لغات صبغاً بفتح الصاد وكسرها .

و" الصِّبْغة " فعلة من صبغ كالجِلْسَة من جلس ، وهي الحالة التي يقع عليها الصبغ .

ثم اختلفوا في المراد بصبغة الله على أقوال :

الأول : أنه دين الله ، وذكروا في تسمية دين الله بالصبغة وجوهاً .

أحدها : أن بعض لنصارى كانوا يغمسون أولادهم في ماء أصفر يسمونه المعمودية ، ويقولون : هو تطهير لهم .

وإذا فعل الواحد بولده ذلك قال : الآن صار نصرانياً فأمر المسلمون أن يقولوا : آمنا وصبغنا

الله صِبْغة لا مثل صِبْغتكم ، وإنما جيء بفلظ الصّبغة على طريق المُشَاكلة كما توقول لمن يغرس الأشجار : [اغرس كما يغرس فلان ، تريد رجلاً يصطنع الكرم .

والسبب في إطلاق لفظ الصبغة على الدين طريقة المُشَاكلة كما تقول لمن يغرس الأشجار وأنت تريد أن تأمره بالكرم] : اغرس كما يغرس فلان ، تريد رجلاً مواظباً على الكرم .

ونظيره قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ [البقرة : 1415] ، ﴿ يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾ [النساء : 142] ، ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ اللهُ ﴾ [آل عمران : 54] ، ﴿ وَجَزَآءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ [الشورى : 40] ، ﴿ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ ﴾ [هود : 38] .

وثانيها : اليهود تصبغ أولادها يهوداً ، والنصارى تصبغ أولادها نصارى بمعنى يلقونهم ، فيصبغونهم بذلك لما يشربون في قُلُوبهم .

عن قتادة قال ابن الأنباري رحمه الله يقال : فلان يصبغ فلاناً في الشيء ، أي : يدخله فيه ، ويلزمه إياه كما يجعل الصبغ لازماً للثوب .

وأنشد ثعلب : [الطويل]

817 دَعِ الشَّرَّ وانْزِلْ بالنَّجَاةِ تَحَرُّزاً . . .

إِذا أَنْتَ لَمْ يَصْبَغْكَ بِالشَّرْعِ صَابِغُ

وثالثها : سمي الدين صبغة ؛ لأن هيئته تظهر بالمشاهدة من أثر الطَّهَارة والصلاة قال الله تعالى : ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السجود ﴾ [الفتح : 29] .

(19/68)

[وقال مجاهد والحسن وأبو العالية وقتادة رضي الله تعالى عنهم أصل ذلك أن النصارى كانوا يصبغون أولادهم فيما يسمونه المعمودية ، وصبغوه بذلك ليطهروه به ، كأنه الخِتَان ، لأن الختان تطهير ، فلما فعلوا ذلك قالوا : الآن قد صار نصرانياً حقًّا ، فرد الله تعالى عليهم بقوله : ﴿ صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً ﴾ وهي الإسلام فسمى الإسلام صبغة استعارة ومجازاً من حيث تظهر أعماله وسمته على المتدين كما يظهر أثر الصبغ في الثوب .

قال بعض شعراء ملوك " همدان " : [المتقارب]

818 وَكُلُّ أُنَاسٍ لَهُمْ صِبْغَةٌ . . .

وَصِبْغَةُ هَمْدَانَ خَيْرُ الصِّبَغْ

صَبَغْتَنَا عَلَى ذَاكَ أَبْنَاءَنَا . . .

فَأَكْرِمْ بِصِبْغَتِنَا فِي الصِّبَغْ]

ورابعها : قال القاضي : قوله : " صِبْغَةَ اللهِ " متعلّق بقوله : ﴿ قولوا آمَنَّا بالله ﴾ [البقرة : 136] إلى قوله : " وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ " فوصف هذا الإيمان منهم بأنه صبغة الله تعالى ؛ ليبيّن أن المُبَاينة بين هذا الدين الذي اختاره الله ، بين الدّين الذي اختاره المبطل ظاهرة جلية ، كما تظهر المباينة بين الألوان والأصباغ لذي الحسّ السليم .

القول الثاني : أن صبغة الله فطرته ، وهو كقوله : ﴿ فِطْرَةَ اللهِ التي فَطَرَ الناس عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ الله ﴾ [الروم : 30] .

ومعنى هذا الوجه أن الإنسان موسوم في تركيبه وبِنْيَتِهِ بالعَجْزِ والفَاقَة ، والآثار الشاهدة عليه بالحدوث والافتقار إلى الخالق ، فهذه الآثار كالصبغة له وكالسِّمَة اللاَّزمة .

[قال القاضي رحمه الله تعالى : من حمل قوله تعالى : " صبغة الله " على الفطرة فهو مقارب في المعنى لقول من يقول : هو دين الله ؛ لأن الفطرة التي أمروا بها هو الدين الذي تقتضيه الأدلّة من عَقْل وشرع ، وهو الدين أيضاً الذي ألزمكم الله تعالى التمسّك به ، فالنفع به سيظهر دُنيا ودين ، كالظهور حُسْن الصبغة ، وإذا حمل الكلام على ما ذكرنا ، لم يكن لقول من يقول إنما قال ذلك لعادة جارية لليهود والنصارى ، وفي صبغ يستعملونه في أولادهم معنى

؛ لأن الكلام إذا استقام على أحسن الوجوه بدونه ، فلا فائدة فيه] .

القول الثالث : أن صبغة الله هي الختان ، الذي هو تطهير ، أي كما أن المخصوص الذي للنصارى تطهير لهم ، فكذلك الختان تظهير للمسلمين قاله أبو العالية .

القول الرابع : قال الأصم رحمه الله تعالى : أنه حجة الله .

القول الخامس : قال أبو عبيدة رحمه الله تعالى : إنه سُنة الله

وأما قراءة الرفع فتحتمل وجهين :

أحدهما : أنها خبر مبتدأ محذوف أي : ذلك الإيمان صبغة الله .

والثاني : أن تكون بدلاً من " ملَّة " ؛ لأن من رفع " صبغة " رفع " ملة " كما تقدم فتكون بدلاً منها كما قيل بذلك في قراءة النصب .

قال القرطبي رحمه الله تعالى : وقيل : الصِّبْغة الاغتسال لمن أراد الدخول في الإسلاَم ، بدلاً من مَعْمُودية النصارى ، ذكر ذلك الماوردي رحمه الله تعالى .

وعلى هذا التأويل يكون غسل الكافر واجباً ، وبهذا المعنى جاءت السُّنة الثابتة في قيس بن عاصم وثمامة بن أثال حين أسلما .

وقيل : " وَمَنْ أَحْسَنُ " مبتدأ وخبر ، وهذا استفهام معناه النفي أي : لا أحد ، و" أحسن " هنا فيها احتمالان :

أحدهما : أنها ليست للتفضيل ؛ إذ صبغة غير الله منتف عنها الحسن .

والثاني : أن يراد التفضيل باعتبار من يظنّ أن في " صبغة " غير الله حسناً لا أن ذلك بالنسبة على حقيقة الشيء .

و" من الله " متعلق بأحسن ، فهو في محل نصب .

(21/68)

و " صبغة " نصب على التمييز من أحسن ، وهو من التمييز المنقول من المبتدأ والتقدير : ومن أحسن من صبغة الله ، فالتفضيل إنما يجري بين الصّبغتين لا بين الصّابغين .

[وهذا غريب معنى ، وغني عن القول كون التمييز منقولاً عن المبتدأ] .

قوله تعالى : ﴿ وَنَحْنُ لَهُ عَابِدونَ ﴾ جملة من مبتدأ خبر معطوف على قوله : " قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ " فهي في محلّ نصب بالقول .

قال الزمخشري : وهذا العطف يرد قول من زعم أن " صبغة الله " بدل من " ملّة " ، أو نصب على الإغراء بمعنى عليكم صبغة الله لما فيه من فكّ النظم ، وإخراج الكلام عن الْتِئَامِهِ واتساقه .

قال أبو حيان : وتقديره في الإغراء : علكيم صبغة ليس بجيد ؛ لأن الإغراء إذا كان بالظروف والمجرورات لا يجوز حذف ذلك الظرف ولا المجرور ، ولذلك حين ذكرنا وجه

الإغراء قدّرناه : بـ " الزموا صبغة الله " انتهى .

كأنه لضعف العمل بالظّروف والمجرورات ضعف حذفها وإبقاء عملها . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير ابن عادل حـ 2 صـ 525. 529 ﴾ . باختصار .

(22/68)

قوله تعالى ﴿ قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ (139) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما أمر تعالى بقوله : ﴿ قل بل ملة إبراهيم ﴾ [البقرة : 135] وما بعده بإعلام الخصم بالمخالفة وأن لا موافقة إلا بترك الهوى واتباع الهدى أمر بمجادلتهم بما يوهي أقوالهم ويزيح شبههم فقال معرضاً بالخطاب عن الجمع موجهاً له إلى رسوله صلى الله عليه وسلم رفعاً لمقامه وتعريفاً بعلي منصبه إعلاماً بأنه لا ينهض بذلك غيره لما لهم من العلم مع ما عندهم من الجدل واللدد : ﴿ قل ﴾ منكراً لمحاجتهم وموبخاً لهم عليها ﴿ أتحاجوننا ﴾ ولما كان الأنسب في المقارعة إعلام الخصم بالمخالفة لأنه أقطع لطمعه وأمكن لغيظه مع أنه هنا أقرب

إلى رضى الخالق قدم على المجادلة ، ومعنى قوله : ﴿ في الله ﴾ في اختصاصكم بالملك الذي لا ملك سواه ، لأن له الكمال كله المشار إلى إبطاله فيما سبق بقوله : ﴿ قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة ﴾ [البقرة : 94] أي أتحاجوننا في ذلك ولا وجه لاختصاصكم به ﴿ وهو ﴾ أي والحال أنه ﴿ ربنا وربكم ﴾ نحن وأنتم في العبودية له سواء ﴿ ولنا أعمالنا ﴾ نختص به دونكم ﴿ ولكم أعمالكم ﴾ تختصون بها دوننا ، لا نخاف منه أن يخصكم بأعمالنا ولا بشيء منها لتختصوا بها عنده ولا أن يخصنا بأعمالكم ولا بشيء منها لنبعد بها عنه ظلماً ولا غلطاً ، لأنه السميع العليم الغني الحميد ﴿ ونحن ﴾ أحسن أعمالاً منكم لأنا دونكم ﴿ له ﴾ وحده ﴿ مخلصون ﴾ لا نشرك به شيئاً وأنتم تشركون به عزيراً والمسيح والأحبار والرهبان ، وأنتم تعلمون ذلك في باطن الأمر وإن أظهرتم خلافه ، فلزم قطعاً أنا أخص به منكم ؛ والإخلاص عزل النفس جملة ، فلا يبلغ عبد حقيقته حتى لا يحب أن يحمد على عمل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 257 ﴾

فصل

قال البيضاوى :

﴿ قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا ﴾ أتجادلوننا . ﴿ فِى اللهِ ﴾ في شأنه واصطفائه نبياً من العرب دونكم ، روي أن أهل الكتاب قالوا : الأنبياء كلهم منا ، لو كنت نبياً لكنت منا . فنزلت : ﴿ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ﴾ لا اختصاص له بقوم دون قوم ، يصيب برحمته من يشاء من عباده . ﴿ وَلَنَا أعمالنا وَلَكُمْ أعمالكم ﴾ فلا يبعد أن يكرمنا بأعمالنا ، كأنه ألزمهم على كل مذهب ينتحلونه إفحاماً وتبكيتاً ، فإن كرامة النبوة إما تفضل من الله على من يشاء والكل فيه سواء ، وإما إفاضة حق على المستعدين لها بالمواظبة على الطاعة والتحلي بالإخلاص . وكما أن لكم أعمالاً ربما يعتبرها الله في إعطائها ، فلنا أيضاً أعمال . ﴿ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴾ موحدون نخصه بالإيمان والطاعة دونكم . انتهى . اهـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ1 صـ 414 ﴾

وقال الفخر :

اعلم أن في الآية مسائل :

المسألة الأولى : اختلفوا في تلك المحاجة وذكروا وجوهاً . أحدها : أن ذلك كان قولهم أنهم أولى بالحق والنبوة لتقدم النبوة فيهم والمعنى : أتجادلوننا في أن الله اصطفى رسولا من العرب لا منكم وتقولون : لو أنزل الله على أحد لأنزل عليكم ، وترونكم أحق بالنبوة منا . وثانيها :

قولهم : نحن أحق بالإيمان من العرب الذين عبدوا الأوثان . وثالثها : قولهم ؛ ﴿ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ﴾ وقولهم : ﴿ لَن يَدْخُلَ الجنة إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نصارى ﴾ [البقرة : 111] وقولهم : ﴿ كُونُواْ هُودًا أَوْ نصارى تَهْتَدُواْ ﴾ [البقرة : 135] عن الحسن .

ورابعها : ﴿ أَتُحَاجُّونَنَا فِى اللَّهِ ﴾ أي : أتحاجوننا في دين الله .

المسألة الثانية : هذه المحاجة كانت مع من ؟ ذكروا فيه وجوهاً . أحدها : أنه خطاب لليهود والنصارى . وثانيها : أنه خطاب مع مشركي العرب حيث قالوا : ﴿ لَوْلا أُنزِلَ هذا القرءان على رَجُلٍ مّنَ القريتين عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف : 31] والعرب كانوا مقرين بالخالق . وثالثها : أنه خطاب مع الكل ، والقول الأول أليق بنظم الآية . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ4 صـ 80 ﴾

وقال العلامة الطاهر بن عاشور ـ رحمه الله ـ :

والاستفهام للتعجب والتوبيخ ، ومعنى المحاجة في الله الجدال في شؤونه بدلالة الاقتضاء إذ لا محاجة في الذات بما هي ذات والمراد الشأن الذي حمل أهل الكتاب على المحاجة مع المؤمنين فيه وهو ما تضمنته بعثة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ من أن الله نسخ شريعة اليهود والنصارى وأنه فضله وفضل أمته ، ومحاجتهم راجعة إلى الحسد واعتقاد اختصاصهم بفضل الله تعالى وكرامته . فلذلك كان لقوله ﴿ وهو ربنا وربكم ﴾ موقع في تأييد الإنكار أي بلغت بكم الوقاحة إلى أن تحاجونا في إبطال دعوة الإسلام بلا دليل سوى

زعمكم أن الله اختصكم بالفضيلة مع أن الله ربنا كما هو ربكم فلماذا لا يمن علينا بما مَنَّ به عليكم ؟ .

(24/68)

فجملة ﴿ وهو ربنا ﴾ حالية أي كيف تحاجوننا في هاته الحالة المعروفة التي لا تقبل الشك ، وبهذه الجملة حصل بيان لموضوع المحاجة ، وكذلك جملة ﴿ ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ﴾ وهي عطف على الحال ارتقاء في إبطال مجادلتهم بعد بيان أن المربوبية تؤهل لإنعامه كما أهلتهم ، ارتقى فجعل مرجع رضى الله تعالى على عباده أعمالهم فإذا كان قد أكرمكم لأجل الأعمال الصالحة فلعله أكرمنا لأجل صالحات أعمالنا فتعالوا فانظروا أعمالكم وانظروا أعمالنا تجدوا حالنا أقرب إلى الصلاح منكم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ1 صـ 427 ﴾

قوله تعالى ﴿ ﴿ ونحن له مخلصون ﴾

﴿ ونحن له مخلصون ﴾ أي مخلصوا الطاعة والعبادة له وفيه توبيخ لليهود والنصارى والمعنى وأنتم به مشركون . والإخلاص أن يخلص العبد دينه ، وعمله لله تعالى فلا يشرك في دينه ولا يرائي بعمله ، قال الفضيل بن عياض : ترك العمل من أجل الناس رياء والعمل من

أجل الناس شرك والإخلاص أن يعافيك الله منهما وهذه الآية منسوخة بآية السيف .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ1 صـ 117 ﴾

" فائدة "

وتقديم المجرور في ﴿ لنا أعمالنا ﴾ للاختصاص أي لنا أعمالنا لا أعمالكم فلا تحاجونا في أنكم أفضل منا ، وعطف ﴿ ولكم أعمالكم ﴾ احتراس لدفع توهم أن يكون المسلمون مشاركين للمخاطبين في أعمالهم وأن لنا أعمالنا يفيد اختصاص المتكلمين بما عملوا مع الاشتراك في أعمال الآخرين وهو نظير عطف قوله تعالى : ﴿ ولي دين على قوله : لكم دينكم ﴾ [الكافرون : 6] .

وهذا كله من الكلام المصنف مثل قوله تعالى : ﴿ وإنا أوْ إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين ﴾ [سبأ : 24] .

وجملة ﴿ نحن له مخلصون ﴾ عطف آخر على جملة الحال وهي ارتقاء ثالث لإظهار أن المسلمين أحق بإفاضة الخير فإنهم وإن اشتركوا مع الآخرين في المربوبية وفي الصلاحية لصدور الأعمال الصالحة فالمسلمون قد أخلصوا دينهم لله ومخالفوهم قد خلطوا عبادة الله

بعبادة غيره ، أي فلماذا لا نكون نحن أقرب إلى رضى الله منكم إليه ؟ .

والجملة الاسمية مفيدة الدوام على الإخلاص كما تقدم في قوله : ﴿ ونحن له مسلمون ﴾ [البقرة : 136] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ1 صـ 428 ﴾

(26/68)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي اللّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ (139) ﴾

تحديد الأمر بقل إيقاظ لمهمة التكليف عند رسول الله صلى الله عليه وسلم . . والله سبحانه وتعالى حين يقول لرسوله عليه الصلاة والسلام - قل - كان يكفي أن يقول ما يريده سبحانه . . فأنت إذا قلت لابنك اذهب إلي أخيك وقل له أبوك يأمرك بكذا فيذهب الولد ويقول هذا الكلام دون أن يقول كلمة قل . . ولكن خطاب الله لرسوله صلى الله عليه وسلم بكلمة قل تلفتنا إلي أن هذا الأمر ليس من عنده ولكنه من عند الله سبحانه ، ومهمة الرسول هي الإبلاغ . إن تكرار كلمة " قل " في الآيات هي نسبة الكلام المقول إلي عظمة قائله

الأول وهو الله تبارك وتعالى . . فالكلام ليس من عند رسول الله ولكن قائله هو الله جل جلاله . قوله تعالى : " قل أتحاجوننا في الله وهو ربنا وربكم " . . المحاجة معناها حوار بالحجة ، كل من المتحاورين يأتي بالحجة التي تؤيد رأيه أو وجهة نظره . . وإذا قرأت قوله تعالى :

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ

(من الآية 258 سورة البقرة)

أي قال كل منهما حجته . . ولابد أن يكونا خصمين كل منهما يعاند رأيه الرأي الآخر وكل يحاول أن يأتي بالحجة التي تثبت صدق كلامه فيرد عليه خصمه بالحجة التي تهدم هذا الكلام وهكذا . قوله تعالى : " أتحاجوننا في الله وهو ربنا وربكم " . . ومادام الله رب الجميع كان من المنطق أن نلتقي لأنه ربي وربكم حظنا منه سواء . . ولكن مادامت قد قامت الحجة بيننا فأحدنا على باطل . . واقرأ قوله سبحانه :

وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (16)

(سورة الشورى)

والمحاجة لا يمكن أن تقوم بين حق وحق وإنما تقوم بين حق وباطل وبين باطل وباطل . . لأن هناك حقا واحدا لكن هناك مائة طريق إلي الباطل . . فمادامت المحاجة قد قامت بيننا وبينكم ونحن على حق فلابد أنكم على باطل . . وليحسم الحق سبحانه وتعالى هذه المسألة ويمنع الجدل والجدال قال سبحانه : " ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون" . . أي لا نريد جدلا لأن الجدل لن يفيد شيئا . . نحن لنا أعمالنا وأنتم لكم أعمالكم وكل عمل سيجازي صاحبه عليه بمدى إخلاصه لله . . ونحن أخلصنا العبادة لله وحدة وأنتم اتجهتم بعبادتكم إلي ما تحبه أهواؤكم .

إن الله سبحانه وتعالى الذي هو ربنا وربكم لا يفضل أحدا على أحد إلا بالعمل الصالح المخلص لوجه الله . . ولذلك فنحن نضع الإخلاص أولا وقد يكون العمل واحدا أمام الناس . . هذا يأخذ به ثوابا وذلك يأخذ به وزرا وعذابا فالمهم هو أن يكون العمل خالصا لله . قد يقول إنسان إن الإخلاص في العمل والعمل مكانه القلب . . ومادام الإنسان لا يؤذي أحدا ولا يفعل منكرا فليس من الضروري أن يصلي مادامت النية خالصة . . نقول إن المسألة ليست نيات فقط ولكنها أعمال ونيات . . ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (إنما الأعمال بالنيات) .

فلابد من عمل بعد النية . . لأن النية تنتفع بها وحدك والعمل ويعود على الناس . . فإذا

كان في نيتك أن تتصدق وتصدقت انتفع الفقراء بمالك . . ولكن إذا لم يكن في نيتك فعل الخير وفعلته لتحصل على سمعة أو لترضي بشرا انتفع الفقراء بمالك ولن تنتفع أنت بثواب هذا المال . . والله سبحانه وتعالى يريد أن يقترن عملك بنية الإخلاص لله . . والعمل حركة في الحياة . والنية هي التي تعطي الثواب لصاحبه أو تمنع عنه الثواب ولذلك يقول الله جل جلاله :

إِن تُبْدُواْ الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاء فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (271)

(سورة البقرة)

فالله سبحانه وتعالى يريدنا أن نتصدق . . والفقير سينتفع بالصدقة سواء كانت نيتك أن يقال عنك رجل الخير المتصدق . . أو أن يقال عنك رجل البر والتقوى أو أن تخفي صدقتك . . فالعمل يفعل فينتفع به الناس سواء أردت أو لم ترد . أنت إذا قررت أن تبني عمارة ، النية هنا هي التملك ولكن انتفع ألوف الناس بهذا العمل ابتداء من الذي باع لك قطعة الأرض والذي أعد لك الرسم الهندسي وعمال الحفر والذي وضع الأساس ومن قام

بالبناء وغيرهم وغيرهم . . هؤلاء انتفعوا من عملك برزق لهم . . سواء أكان في بالك الله أم لم يكن في بالك الله فقد انتفعوا .

إذن فكل عمل فيه نفع للناس أردت أو لم ترد . . ولكن الله لا يجزي على الأعمال بإطلاقها وإنما يجزي على النيات بإخلاصها . . فإن كان عملك خالصا لله جزاك الله عليه . . وإن كان عملك لهدف آخر فلا جزاء لك عند الله لأنه سبحانه أغنى الشركاء عن الشرك . إن الذين يتعجبون من أن إنسانا كافرا قدم كشفاً هاماً للبشرية ولكنه لم يكن مؤمنا بالله . . يتعجبون أيعذب في النار ؟ نقول نعم لأنه عمل وليس في قلبه الله . . ولذلك يجازي في الحياة الدنيا ، فتقام له التماثيل ويطلق اسمه على الميادين ويخلد اسمه في الدنيا التي عمل من أجلها . . ولكن مادام ليس في نيته الله فلا جزاء له عند الله . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 618.616 ﴾

" فوائد بلاغية "

قال فى صفوة التفاسير :

البلاغة :

1- [وقالوا كونوا هودا أو نصارى] فيه إيجاز بالحذف أي قال اليهود كونوا يهوداً ، وقال النصارى كونوا نصارى ، وليس المعنى أن الفريقين قالوا ذلك ، لأن كل فريق يعد دين الآخر باطلا .

2- [فسيكفيكهم الله] فيه إيجاز ظاهر أي يكفيك الله شرهم ، وتصدير الفعل بالسين دون سوف ، مشعر بأن ظهوره عليهم واقع في زمن قريب .

3- [السميع العليم] من صيغ المبالغة ومعناه الذين أحاط سمعه وعلمه بجميع الأشياء .

4- [صبغة الله] سمي الدين صبغة بطريق الاستعارة حيث تظهر سمته على المؤمن كما يظهر أثر الصبغ في الثوب .

5- [أتجادلوننا في الله] الاستفهام وارد على جهة التوبيخ والتقريع . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ صفوة التفاسير حـ 1 صـ 100 ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ (139)

الاستفهام في قوله : " أَتُحَاجُّونَنَا " للإنكار والتوبيخ .

والجمهور : " أتحاجوننا " بنونين الأولى للرفع ، والثانية نون " ن " .

وقرأ زيد والحسن والأعمش رحمهم الله بالإدغام .

وأجاز بعضهم حذف النون الأولى .

فأما قراءة الجمهور فواضحة .

وأما قراءة الإدغام فلاجتماع مثلين ، وسوغ الإدغام وجود حرف المد واللين قبله القائم مقام الحركة .

وأما من حذف فبالحمل على نون الوقاية كقراءة : ﴿ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴾ [الحجر : 54] ؛

وقوله [الوافر]

819 تَرَاهُ كَالثَّغَامِ يُعَلُّ مِسْكاً . . .

يَسُوءُ الفَالِيَاتِ إِذَا فَلَيْنِي

يريد " فَلَيْنَنِي " ، وهذه الآية مثل قوله : ﴿ أَفَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرونِي أَعْبُدُ ﴾ [الزمر : 64] ، فإنه قرئت بالأوجه الثلاثة : الفَكّ والإدغام والحذف ، ولكن في المتواتر .

وها لم يُقْرأ في المشهور كما تقدَّم إلا بالفكّ .

ومَحَلُّ هذه الجملة النصب بالقول قبلها .

والضمير في " قل " يَحْتَمِلُ أن يكون للنبي عليه الصلاة والسَّلام أو لكلّ من يصلح للخطاب ، والضمير المرفوع في : " أتحاجُّوننا " اليهود والنصارى ، أو لمشركي العرب أو للكلّ .

و " المحاجّة " مفالعة من حَجَّةَ يَحُجُّهُ .

قوله : " وَهُوَ رَبُّنَا " مبتدأ وخبر في محلّ نصب على الحال ، وكذا ما عطف عليه من قوله : " وَلَنَا أعمالنا " ولا بد من حذف مضاف أي : جزاء أعمالنا ، ولكم جزاء أعمالكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 2 صـ 529. 530 ﴾ . باختصار .

(31/68)

(بصيرة فى الإخلاص)

قال العلامة الفيروزابادى :

وقد ورد فى القرآن على وجوه :

الأَوّل : قال فى حقّ الكفَّار عند مشاهدتهم البلاءَ : ﴿ دَعَوُاْ اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدّينَ ﴾ .

الثانى : فى أَمر المؤمنين : ﴿ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدّينَ ﴾ .

الثَّالث : فى أَنَّ المؤمنين لم يؤمروا إِلاَّ به : ﴿ وَمَآ أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ اللَّهَ مُخْلِصِينَ ﴾ .

الرّابع : فى حقّ الأَنبياءِ ﴿ إِنَّآ أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ﴾ .

الخامس : فى المنافقين إذا تابوا : ﴿ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ للَّهِ ﴾ .

السّادس : أَنَّ الجنّة لم تصلح إِلاَّ لأَهله : ﴿ إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ .

السّابع : لم يَنْجُ من شَرَكِ تلبيس إِبليس إِلاَّ أَهله : ﴿ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ . وقيل : الناس كلُّهم هلكى إِلاَّ العالمون . والعالمون كلُّهم موتى إِلاَّ العامِلون ، والعاملون كلُّهم حَيَارَى إِلاَّ المخلصون . والمخلصون على خَطَرٍ عظيم . وفى الأَحاديث القدسيّة " الإِخلاص سِرّ من سِرّى استودعته قلبَ من أَحبَبْتُهُ من عبادى " .

وإِخلاص المسلمين : أَنَّهم تبرّءوا ممّا يدّعيه اليهود : من التشبيه ، والنَّصارى : من التَّثليث .

فحقيقة الإِخلاص : التعرّى مِن دون الله . و ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾ سمّيت سورة الإِخلاص ؛ لأَنَّها خالص التَّوحيد ؛ وسبب خلاص أَهله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ2 صـ 172. 173 ﴾

كلام نفيس فى الإخلاص

وقد تنوعت عبارتهم في الإخلاص والصدق والقصد واحد فقيل : هو إفراد الحق

سبحانه بالقصد في الطاعة وقيل : تصفية الفعل عن ملاحظة المخلوقين وقيل : التوقي من ملاحظة الخلق حتى عن نفسك والصدق التنقي من مطالعة النفس فالمخلص لا رياء له والصادق لا إعجاب له ولا يتم الإخلاص إلا بالصدق ولا الصدق إلا بالإخلاص ولا يتمان إلا بالصبر

وقيل : من شهد في إخلاصه الإخلاص احتاج إخلاصه إلى إخلاص فنقصان كل مخلص في إخلاصه : بقدر رؤية إخلاصه فإذا سقط عن نفسه رؤية الإخلاص صار مخلصا مخلصا

وقيل : الإخلاص استواء أعمال العبد في الظاهر والباطن والرياء : أن يكون ظاهره خيرا من باطنه والصدق في الإخلاص : أن يكون باطنه أعمر من ظاهره وقيل : الإخلاص نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الخالق ومن تزين للناس بما ليس فيه سقط من عين الله

ومن كلام الفضيل ترك العمل من أجل الناس : رياء والعمل من أجل الناس : شرك والإخلاص : أن يعافيك الله منهما

أحدهما : مطالعة عيوبه وآفاته وتقصيره فيه وما فيه من حظ النفس ونصيب الشيطان فقل عمل من الأعمال إلا وللشيطان فيه نصيب وإن قل وللنفس فيه حظ سئل النبي - صلى الله عليه وسلم - عن التفات الرجل في صلاته فقال : " هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد "

فإذا كان هذا التفات طرفه أو لحظه فكيف التفات قلبه إلى ما سوى الله هذا أعظم نصيب الشيطان من العبودية

(33/68)

وقال ابن مسعود لا يجعل أحدكم للشيطان حظا من صلاته يرى أن حقا عليه : أن لا ينصرف إلا عن يمينه فجعل هذا القدر اليسير النزر حظا ونصيبا للشيطان من صلاة العبد فما الظن بما فوقه وأما حظ النفس من العمل : فلا يعرفه إلا أهل البصائر الصادقون الثاني : علمه بما يستحقه الرب جل جلاله : من حقوق العبودية وآدابها الظاهرة والباطنة وشروطها وأن العبد أضعف وأعجز وأقل من أن يوفيها حقا وأن يرضى بها لربه فالعارف لا يرضى بشيء من عمله لربه ولا يرضى نفسه لله طرفة عين ويستحيي من مقابلة الله بعمله فسوء ظنه بنفسه وعمله وبغضه لها وكراهته لأنفاسه وصعودها إلى الله : يحول بينه وبين الرضى بعمله والرضى عن نفسه وكان بعض السلف يصلي في اليوم والليلة أربعمائة ركعة ثم يقبض على لحيته ويهزها ويقول لنفسه : يا مأوى كل سوء وهل رضيتك لله طرفة عين

وقال بعضهم : آفة العبد رضاه عن نفسه ومن نظر إلى نفسه باستحسان شيء منها فقد

أهلكها ومن لم يتهم نفسه على دوام الأوقات فهو مغرور

فصل : قال صاحب المنازل : الدرجة الثانية : الخجل من العمل مع بذل المجهود وتوفير الجهد بالاحتماء من الشهود ورؤية العمل في نور التوفيق من عين الجود

(34/68)

هذه ثلاثة أمور خجلة من عمله وهو شدة حيائه من الله إذ لم ير ذلك العمل صالحا له مع بذل مجهوده فيه قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ : أنهم إلى ربهم راجعون [المؤمنون : 60] قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : هو الرجل يصوم ويصلي ويتصدق ويخاف أن لا يقبل منه وقال بعضهم : إني لأصلي ركعتين فأقوم عنهما بمنزلة السارق أو الزاني الذي يراه الناس حياء من الله عز وجل فالمؤمن : جمع إحسانا في مخافة وسوء ظن بنفسه والمغرور : حسن الظن بنفسه مع إساءته الثاني : توفير الجهد باحتمائه من الشهود أي يأتي بجهد الطاقة في تصحيح العمل محتميا عن شهوده منك وبك الثالث : أن تحتمي بنور التوفيق الذي ينور الله به بصيرة العبد فترى في ضوء ذلك النور : أن عملك من عين جوده لا بك ولا منك فقد اشتملت هذه الدرجة على خمسة أشياء : عمل واجتهاد فيه وخجل وحياء من الله عز وجل وصيانة عن شهوده منك ورؤيته من عين جود الله سبحانه

ومنه

قال : الدرجة الثالثة : إخلاص العمل بالخلاص من العمل تدعه يسير سير العلم وتسير أنت مشاهدا للحكم حرا من رق الرسم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مدارج السالكين حـ 1 صـ 94.93 ﴾

(35/68)

وقال حجة الإسلام الغزالى ـ رحمه الله ـ :

معنى الإخلاص أن يخلص قلبه لله فلا يبقى فيه شرك لغير الله فيكون الله محبوب قلبه ومعبود قلبه ومقصود قلبه فقط ومن هذا حاله فالدنيا سجنه لأنها مانعة له من مشاهدة محبوبه وموته خلاص من السجن وقدوم على المحبوب فما حال من ليس له إلا محبوب واحد وقد طال اليه شوقه وتمادى عنه حبسه فخلى من السجن ومكن من المحبوب وروح بالأمن ابد الآباد فاحد أسباب ضعف حب الله في القلوب قوة حب الدنيا ومنه حب الأهل والمال والولد والأقارب والعقار والدواب والبساتين والمنتزهات حتى إن المتفرج بطيب أصوات الطيور وروح نسم الأسحار ملتفت إلى نعيم الدنيا ومتعرض لنقصان حب الله تعالى بسببه فبقدر ما أنس بالدنيا فينقص أنسه بالله ولا يؤتى أحد من الدنيا شيئا إلا

وينقص بقدره من الآخرة بالضرورة كما أنه لا يقرب الإنسان من المشرق إلا ويبعد بالضرورة من المغرب بقدره ولا يطيب قلب امرأته إلا ويضيق به قلب ضرتها فالدنيا والآخرة ضرتان وهما كالمشرق والمغرب وقد انكشف ذلك لذوى القلوب انكشافا أوضح من الأبصار بالعين وسبيل قلع حب الدنيا من القلب سلوك طريق الزهد وملازمة الصبر والانقياد إليهما بزمام الخوف والرجاء . انتهى انتهى . اهـ ﴿الإحياء .حـ4 صـ 216﴾

بيان أقاويل الشيوخ في الإخلاص

قال السوسى الإخلاص فقد رؤية الإخلاص فإن من شاهد في إخلاصه الإخلاص فقد احتاج إخلاصه إلى إخلاص

وما ذكره إشارة إلى تصفية العمل عن العجب بالفعل فإن الالتفات إلى الإخلاص والنظر إليه عجب وهو من جملة الآفات

والخالص ما صفا عن جميع الآفات فهذا تعرض لآفة واحد وقال سهل رحمه الله تعالى الإخلاص أن يكون سكون العبد وحركاته لله تعالى خاصة وهذه كلمة جامعة محيطة بالغرض وفي معناه قول إبراهيم بن أدهم الإخلاص صدق النية مع الله تعالى

وقيل لسهل أى شىء أشد على النفس فقال الإخلاص إذ ليس لها فيه نصيب وقال رويم الإخلاص في العمل هو أن لا يريد صاحبه عليه عوضا في الدارين

وهذا إشارة إلى أن حظوظ النفس آفة آجلا وعاجلا

والعابد لأجل التنعم بالشهوات في الجنة معلول بل الحقيقة أن لا يراد بالعمل إلا وجه الله تعالى

وهو إشارة إلى إخلاص الصديقين وهو الإخلاص المطلق

فأما من يعمل لرجاء الجنة وخوف النار فهو مخلص بالإضافة إلى الحظوظ العاجلة وإلا فهو

في طلب حظ البطن والفرج وإنما المطلوب الحق لذوى الألباب وجه الله تعالى فقط وهو

القائل لا يتحرك الإنسان إلا لحظ والبراءة من الحظوظ صفة الإلهية ومن ادعى ذلك فهو

كافر

وقد قضى القاضى أبو بكر الباقلانى بتكفير من يدعى البراءة من الحظوظ وقال هذا من

صفات الإلهية وما ذكره حق ولكن القوم إنما أرادوا به البراءة عما يسميه الناس حظوظا

وهو الشهوات الموصوفة في الجنة فقط فأما التلذذ بمجرد المعرفة والمناجاة والنظر إلى وجه

الله تعالى فهذا حظ هؤلاء وهذا لا يعده الناس حظا بل يتعجبون منه

وهؤلاء لو عوضوا عما هم فيه من لذة الطاعة والمناجاة وملازمة السجود للحضرة الإلهية

سرا وجهرا جميع نعيم الجنة لاستحقروه ولم يلتفتوا إليه فحركتهم لحظ وطاعتهم لحظ ولكن

حظهم معبودهم فقط دون غيره

وقال أبو عثمان الإخلاص نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الخالق فقط

وهذا إشارة إلى آفة الرياء فقط ولذلك قال بعضهم الإخلاص في العمل أن لا يطلع عليه شيطان فيفسده ولا ملك فيكتبه فإنه إشارة إلى مجرد الإخفاء

وقد قيل الإخلاص ما استتر عن الخلق وصفا عن العلائق

وهذا أجمع للمقاصد

وقال المحاسبى الإخلاص هو إخراج الخلق عن معاملة الرب

وهذا إشارة إلى مجرد نفى الرياء

وكذلك قول الخواص من شرب من كأس الرياسة فقد خرج عن إخلاص العبودية

وقال الحواريون لعيسى ـ عليه السلام ـ ما الخالص من الأعمال فقال الذى يعمل لله تعالى لا يحب أن يحمده عليه أحد

وهذا أيضا تعرض لترك الرياء وإنما خصه بالذكر لأنه أقوى الأسباب المشوشة للإخلاص

وقال الجنيد الإخلاص تصفية العمل من الكدورات

وقال الفضيل ترك العمل من أجل الناس رياء والعمل من أجل الناس شرك والإخلاص أن يعافيك الله منهما

وقيل الإخلاص دوام المراقبة ونسيان الحظوظ كلها

وهذا هو البيان الكامل والأقاويل في هذا كثيرة ولا فائدة في تكثير النقل بعد انكشاف الحقيقة

وإنما البيان الشافى بيان سيد الأولين والآخرين صلى الله عليه وسلم إذ سئل عن الإخلاص فقال أن تقول ربى الله ثم تستقيم كما أمرت

أى لا تعبد هواك ونفسك ولا تعبد إلا ربك وتستقيم في عبادته كما أمرت وهذا إشارة إلى قطع ما سوى الله عن مجرى النظر وهو الإخلاص حقا .

قال الحافظ العراقى : حديث سئل عن الإخلاص فقال أن تقول ربى الله ثم تستقيم كما أمرت لم أره بهذا اللفظ وللترمذى وصححه وابن ماجه من حديث سفيان بن عبد الله الثقفى قلت يا رسول الله حدثنى بأمر أعتصم به قال قل ربى الله ثم استقم وهو عند مسلم بلفظ قل لى في الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدا بعدك قال قل آمنت بالله ثم استقم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الإحياء .حـ4 صـ 382 ﴾

قوله تعالى ﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (140) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان قد بقي من مباهتاتهم أنهم يدعون أن أسلافهم كانوا على دينهم فيكون دعواهم الاختصاص بالجنة صحيحة أبطلها سبحانه بقوله : ﴿ أم ﴾ أي أرجعوا عن قولهم : ﴿ كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا ﴾ [البقرة : 135] لما ثبت من مخالفة ذلك لملة إبراهيم وآله أم ﴿ تقولون ﴾ ولا يخفى أن التقدير على قراءة ابن عامر وحمزة والكسائي وخلف وحفص ورويس بالخطاب : أرجعتم عن قولكم : ﴿ إن إبراهيم ﴾ خليل الله ﴿ وإسماعيل وإسحاق ﴾ ابنيه ﴿ ويعقوب ﴾ ابن إسحاق ﴿ والأسباط ﴾ أولاد يعقوب ﴿ كانوا هوداً أو نصارى ﴾ لتصح دعواهم في أن الجنة خالصة لأهل ملتهم ، فكأنه قيل : فما يقال لهم إن قالوا ذلك ؟ فقيل : ﴿ قل أنتم أعلم ﴾ بذلك وبغيره ﴿ أم الله ﴾ الذي له الإحاطة كلها أعلم ، فلا يمكنهم أن يقولوا : نحن ، وإن قالوا : الله ، فقد برّأ إبراهيم من ذلك فبطل ما ادعوا .

ولما كان العلم عندهم عن الله بأن الخليل ومن ذكر معه عليهم السلام على دين الإسلام

وكانوا يكتمون ما عندهم من ذلك مع تقرير الله لهم واستخبارهم عنه ونهيه لهم عن كتمانه وما يقاربه بقوله : ﴿ ولا تلبسوا الحق بالباطل ﴾ [البقرة : 42] وكان التقدير : فمن أظلم ممن ادعى أنه أعلم من الله بدعواه ذلك صريحاً أو لزومه له بإخباره بخلاف ما ثبت في القرآن المعلوم صدقه بإعجازه ! قال تعالى عطفاً على هذا المقدور : ﴿ ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده ﴾ أي موجودة ومودعة عنده ﴿ من الله ﴾ أي كتمها من الملك الأعظم ، أو هي عنده منه وهو يستخبره عنها مع علمه بأنه فاضحه لأنه العالم بالسرائر .

ولما كان التقدير : فإنه يعلم ما عمله من كتمانه عطف عليه ما هو أعم منه فقال : ﴿ وما الله ﴾ المحيط بكل شيء قدرة وعلماً ﴿ بغافل عما تعملون ﴾ إشعاراً بصيغة المضارع بتماديهم بعد هذا كله على سوء أعمالهم وتحذيراً من مثل ذلك . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 257.258 ﴾

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ أم تقولون ﴾ بتاء الخطاب : ابن عامر وحمزة وعلي وخلف وعاصم غير

أبي بكر والحماد والمفضل ، الباقون : بياء الغيبة .

الوقوف : ﴿ تهتدوا ﴾ (ط) ﴿ المشركين ﴾ (5) ﴿ ومن ربهم ﴾ (ج) لطول الكلام والاستئناف والأصح أنه حال أي آمنا غير مفرقين ﴿ منهم ﴾ (ج) لاحتمال الابتداء والحال أوجه ﴿ مسلمون ﴾ (5) ﴿ اهتدوا ﴾ (ج) لابتداء شرط آخر مع العطف ﴿ شقاق ﴾ ج للابتداء بسين الوعيد مع دخول الفاء ﴿ فسيكفيكهم الله ﴾ (ج) لاحتمال الواو الابتداء والحال ﴿ العليم ﴾ (ط) لأن الجملة الناصبة لقوله ﴿ صبغة الله ﴾ محذوفة يدل عليها قوله ﴿ آمنا بالله ﴾ وقوله ﴿ فإن آمنوا ﴾ شرط معترض ﴿ صبغة الله ﴾ (ج) لابتداء الاستفهام مع أن الواو للحال ﴿ صبغة ﴾ (ج) على جعل الواو للابتداء أو للحال أو للعطف على آمنا ﴿ عابدون ﴾ (5) ﴿ وربكم ﴾ (ج) لأن الواو يصلح أن يكون عطفاً على الحال الأولى ويصلح أن يكون مستأنفاً ﴿ أعمالكم ﴾ (ج) ﴿ مخلصون ﴾ (ط) لمن قرأ ﴿ أم يقولون ﴾ بياء الغيبة ، ومن قرأ بالتاء لم يقف لكون "أم" معادلة للهمزة في ﴿ أتحاجوننا ﴾ ﴿ أو نصارى ﴾ (ط) ﴿ أم الله ﴾ (ط) ﴿ من الله ﴾ (ط) ﴿ تعملون ﴾ (5) ﴿ فدخلت ﴾ (ج) ﴿ ما كسبتم ﴾ (ج) ﴿ يعملون ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 1 صـ 412 ﴾

﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إبراهيم وإسماعيل وإسحاق وَيَعْقُوبَ وَالاسْبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوْ نصارى ﴾

﴿ أَمْ ﴾ إما متصلة معادلة للهمزة في ﴿ أَتُحَاجُّونَنَا ﴾ [البقرة: 931] داخلة في حيز الأمر والمراد بالاستفهام إنكارهما معاً بمعنى كل من الأمرين منكر ينبغي أن لا يكون إقامة الحجة وتنوير البرهان على حقية ما أنتم عليه، والحال ما ذكر والتشبث بذيل التقليد والافتراء على الأنبياء عليهم السلام، وفائدة هذا الأسلوب مع أن العلم حاصل بثبوت الأمرين الإشارة إلى أن أحدهما كاف في الذم فكيف إذا اجتمعا كما تقول لمن أخطأ تدبيراً ومقالاً: أتدبيرك أم تقريرك.

أهـ ﴿ روح المعاني حـ1 صـ 400 ﴾

وقال السعدي:

رد الله عليهم بقوله: ﴿ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ﴾ فالله يقول: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ وهم يقولون: بل كان يهوديا أو نصرانيا.

فإما أن يكونوا، هم الصادقين العالمين، أو يكون الله تعالى هو الصادق العالم بذلك، فأحد الأمرين متعين لا محالة، وصورة الجواب مبهم، وهو في غاية الوضوح والبيان، حتى إنه - من وضوحه - لم يحتج أن يقول بل الله أعلم وهو أصدق، ونحو ذلك، لانجلائه لكل أحد،

كما إذا قيل : الليل أنور ، أم النهار ؟ والنار أحر أم الماء ؟ والشرك أحسن أم التوحيد ؟ ونحو ذلك . أ هـ

﴿ تفسير السعدى صـ 69 ﴾

(41/68)

وقال أبو حيان :

﴿ قل أأنتم أعلم أم الله ﴾ : القول في القراءات في أأنتم ، كهو في قوله :

﴿ أأنذرتهم أم لم تنذرهم ﴾ وقد توسط هنا المسؤول عنه ، وهو أحسن من تقدمه وتأخره ، إذ يجوز في العربية أن يقول : أأعلم أنتم أم الله ؟ ويجوز : أأنتم أم الله أعلم ؟ ولا مشاركة بينهم وبين الله في العلم حتى يسأل : أهم أزيد علماً أم الله ؟ ولكن ذلك على سبيل التهكم بهم والاستهزاء ، وعلى تقدير أن يظن بهم علم ، وهذا نظير قول حسان :

فشركما لخيركما الفداء . . . وقد علم أن الذي هو خير كله ، هو الرسول عليه السلام ، وأن الذي هو شر كله ، هو هاجيه . وفي هذا ردّ على اليهود والنصارى ، لأن الله قد أخبر بقوله : ﴿ ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين ﴾ ولأن اليهودية والنصرانية إنما حدثتا بعد إبراهيم ، ولأنه أخبر في التوراة

والإنجيل أنهم كانوا مسلمين مميزين عن اليهودية والنصرانية . وخرجت هذه الجملة مخرج ما يتردد فيه ، لأن اتباع أحبارهم ربما توهموا ، أو ظنوا ، أن أولئك كانوا هوداً أو نصارى لسماعهم ذلك منه ، فيكون ذلك ردًّا من الله عليهم ، أو لأن أحبارهم كانوا يعلمون بطلان مقالتهم في إبراهيم ومن ذكر معه ، لكنهم كتموا ذلك ونحلوهم إلى ما ذكروا ، فنزلوا لكتمهم ذلك منزلة من يتردد في الشيء ، وردّ عليهم بقوله : أأنتم أعلم أم الله ، لأن من خوطب بهذا الكلام بادر إلى أن يقول : الله أعلم ، فكان ذلك أقطع للنزاع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 1 صـ 588 ﴾

سؤال : فإن قيل لم أنكر الله تعالى ذلك القول عليهم ؟

فالجواب : إنما أنكر الله تعالى ذلك القول عليهم لوجوه . أحدها : لأن محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثبتت نبوته بسائر المعجزات ، وقد أخبر عن كذبهم في ذلك فثبت لا محالة كذبهم فيه . وثانيها : شهادة التوراة والإنجيل على أن الأنبياء كانوا على التوحيد والحنيفية . وثالثها : أن التوراة والإنجيل أنزلا بعدهم . ورابعها : أنهم ادعوا ذلك من غير برهان فوبخهم الله تعالى على الكلام في معرض الاستفهام على سبيل الإنكار والغرض منه

الزجر والتوبيخ وأن يقرر الله في نفوسهم أنهم يعلمون أنهم كانوا كاذبين فيما يقولون . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب.حـ4 صـ 81 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ ﴾

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شهادة عِندَهُ مِنَ الله ﴾ أي كتم شهادة الله التي عنده أنه شهد بها وهي شهادته لإبراهيم بالحنيفية . ويحتمل معنيين : أحدهما أن أهل الكتاب لا أحد أظلم منهم ، لأنهم كتموا هذه الشهادة وهم عالمون بها . والثاني : أنا لو كتمنا هذه الشهادة لم يكن أحد أظلم منا فلا نكتمها . وفيه تعريض بكتمانهم شهادة الله لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالنبوة في كتبهم وسائر شهاداته . أهـ

﴿ الكشاف حـ1 صـ 197 ﴾

سؤال : ما المراد بالشهادة فى قوله تعالى ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ ﴾ ؟

واختلف في الشهادة هنا ما هي ؟ فقال مجاهد والحسن والربيع : هي ما في كتبهم من أن الأنبياء على الحنيفية لا على ما ادعوا هم ، وقال قتادة وابن زيد : هي ما عندهم من الأمر بتصديق محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ واتباعه ، والأول أبه بسياق معنى الآية ،

واستودعهم الله تعالى هذه الشهادة ولذلك قال : ﴿ من الله ﴾ ،

ف ﴿ من ﴾ على هذا متعلقة بـ ﴿ عنده ﴾ ، كأن المعنى شهادة تحصلت له من الله ،

ويحتمل أن تتعلق ﴿ من ﴾ بـ ﴿ كتم ﴾ ، أي كتمها من الله . أهـ

﴿ المحرر الوجيز ـ حـ1 صـ 217 ﴾

(43/68)

وقال الآلوسى :

وفي " ري الظمآن " أن مَنْ صلة ﴿ أَظْلَمَ ﴾ والكلام على التقديم والتأخير كأنه قيل : ومن أظلم من الله ممن كتم شهادة حصلت عنده كقولك ومن أظلم من زيد من جملة الكاتمين للشهادة ، والمعنى لو كان إبراهيم وبنوه يهوداً أو نصارى ثم إن الله تعالى كتم هذه الشهادة لم يكن أحد ممن يكتم الشهادة أظلم منه لكن لما استحال ذلك مع عدله وتنزيهه عما لا يليق علمنا أن الأمر ليس كذلك ، وقيل : إن (من) صلة (كتم) والكلام على حذف مضاف أي كتم من عباد الله شهادة عنده ومعناه أنه تعالى ذمهم على منع أن يوصلوا إلى عباد الله تعالى ، ويؤدوا إليهم شهادة الحق ، ولا يخفى ما في هذين الوجهين من التكلف والتعسف وانحطاط المعنى فلينزه كتاب الله تعالى العظيم عنه ، على أنك لو نظرت بعين الانصاف رأيت الوجه الثاني من الأولين لا يخلو عن بعد لأن الآية إنما تقدمها الإنكار لما نسب إلى إبراهيم ـ عليه السلام ـ ، ومن ذكر معه فالذي يليق أن يكون الكلام مع أهل الكتاب لا مع

الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأتباعه لأنهم مقرون بما أخبر الله تعالى به وعالمون بذلك فلا يفرض في حقهم كتمانه والتذييل الذي ادعى فيه خلاف الظاهر أيضاً . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى ـ حـ 1 صـ 401 ﴾

فائدة

قال ابن عرفة :

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللهِ . . . ﴾

جمعه مع ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ ﴾ ومع ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللهِ ﴾ يقتضي التساوي إلا ما دل الدليل على (التفاوت) فيه (بل أقوالهم تضمنت كتم الشهادة فيقال : إنما علق الظلم على الكتم ليعلم أن شهادة الزور أعظم جريمة فقد وعده بالعذاب على الوجهين (ووبخوا) بفعل ما ارتكبوا من ذلك) والشهداء على ثلاثة أقسام : شاهد بالحق ، وشاهد بالزور ، وكاتم للشهادة ، فلا يشهد بشيء) مع علمه بها . وهؤلاء شهدوا بالزور ولم يكتموا الشهادة فقالوا : ﴿ كُونُواْ هُوداً أَوْ نصارى ﴾ فعلق الحكم على الأخف ليفيد العقوبة على ما هو أشد منه من باب أحرى . انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عرفة

حـ 1 صـ 434.435 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَمَا اللهُ بغافل عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

وأما قوله تعالى ﴿ وَمَا اللهُ بغافل عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ فهو الكلام الجامع لكل وعيد ، ومن تصور أنه تعالى عالم بسره وإعلانه ولا يخفى عليه خافية أنه من وراء مجازاته إن خيراً فخير وإن شراً فشر لا يمضي عليه طرفة عين إلا وهو حذر خائف ألا ترى أن أحدنا لو كان عليه رقيب من جهة سلطان يعد عليه الأنفاس لكان دائم الحذر والوجل مع أن ذلك الرقيب لا يعرف إلا الظاهر ، فكيف بالرب الرقيب الذي يعلم السر وأخفى إذا هدد وأوعد بهذا الجنس من القول . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب . حـ 4 صـ 81 ﴾

وقال الإمام السمرقندى :

هذا القول وعيد للظالم وتعزية للمظلوم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم . حـ 1 صـ 125 ﴾

فإن قيل : ما الحكمة في عدوله عن قوله : " وَاللهُ عَلِيمٌ " إلى " وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ " .

فالجواب : أن نفي النقائص وسلبها عن صفاتا لله تعالى أكمل من ذكر الصفات مجردة عن ذكر نفي نقيضها ، فإن النقيض يستلزم إثبات النقيض وزيادة ، والإثبات لا يستلزم نفي النقيض ؛ لأن العليم قد يفضل عن النقيض ، فلما قال الله تعالى : " وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ " دلّ ذلك على أنه عالم ، وعلى أنه غير غافل ، وذلك أبلغ في الزجر المقصود من الآية .

فإن قيل : قد قال تعالى في موضع آخر : ﴿ واللهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ [يوسف : 19] .

فالجواب : أن ذلك سيق لمجرد الإعلام بالقصّة لا للزجر ، بخلاف هذه الآية ، فإن المقصود بها الزجر والتهديد . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ2 صـ 535 ﴾

(46/68)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (140) ﴾

اليهود والنصارى ادعوا أن الأنبياء السابقين لموسى وعيسى كانوا يهودا أو نصارى .

فاليهود ادعوا أنهم كانوا يهودا . والنصارى ادعوا أنهم كانوا نصارى ، الله سبحانه وتعالى يرد عليهم بقوله : " قل أأنتم أعلم أم الله" . والسؤال هنا لا يوجد له إلا رد واحد لأنهم لن يستطيعوا أن يقولوا نحن أعلم من الله . . وقلنا إنه إذا طرح سؤال في القرآن الكريم فلابد أن يكون جوابه مؤيدا بما يريده الحق سبحانه وتعالى ولا يوجد له إلا جواب واحد . . ولذلك فإن قوله تعالى : " أأنتم أعلم أم الله" والله لاشك أعلم وهذا واقع .

إذن فكأن الله بالسؤال قد أخبر عن القضية . . ولكن يلاحظ في الآية الكريمة ذكر إبراهيم وإسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط . . وفي ذكر إسماعيل دائما مع اسحق ويعقوب يدل على وحدة البلاغ الإيماني عن الله ؛ لأن إسماعيل كان في أمة العرب واسحق ويعقوب كانا في بني إسرائيل . والحق سبحانه وتعالى يتحدث عن وحدة المصدر الإيماني لخلقه ؛ لأنه لا علاقة أن يكون إسماعيل للعرب واسحق لغير العرب بوحدة المنهج الإلهي . ولذلك تقرأ قول الحق تعالى :

قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ

(من الآية 133 سورة البقرة)

والله الذي بعث إسماعيل هو الله الذي بعث اسحق إله واحد أحد . . ومادام الإله واحداً فالمنهج الإيماني لابد أن يكون واحدا . . فإذا حدث خلاف فالخلاف من البشر الذين يحرفون المنهج ليحققوا شهوات ومكاسب لهم . . وكل نفس لها ما كسبت فلن ينفعكم نسبكم إليهم ولن يضيف إليكم شيئا في الآخرة . . إن كانوا مؤمنين فلن ينفعكم أن تكفروا وأن تقولوا نحن ننتسب إلي إبراهيم وإسماعيل واسحق . . وإن كانوا غير ذلك فلا يضركم شيئا

أهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 620.619 ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (140)

قال القرطبي رحمه الله : وجمع إسحاق : أساحيق .

وحكى الكوفيون : أساحقة ، وأساحق ؛ وكذا يعقوب ويعاقيب ويعاقبة ويعاقب .

قال النحاس رحمه الله : فأما إسرائيل فلا نعلم أحداً يجيز حذف الهمزة من أوّله ، وإنما يقال : " أساريل " .

وحكى الكوفيون " اسارلة " ، و" أسارل " .

والباب في هذا كله أن يجمع مسمًّى فيقال : " إبراهيمون " ، و" إسحاقون " ، و" يعقوبون " ، والمسلَّم لا عمل فيه .

قال القرطبي رحمه الله تعالى وقوله تعالى " أَمْ تَقُولُونَ " : قرأ حمزة ، والكسائي ، وحفص ، وابن عامر بتاء الخطاب ، والباقون بالياء .

فأما قراءة الخطاب ، فتحتمل " أم " فيها وجهين :

أحدهما : أن تكون المتّصلة ، والتعادل بين هذه الجملة وبين قوله : " أَتُحَاجُّونَنَا " فالاستفهام عن وقوع أحد هذين الأمرين : المُحَاجَّة في الله ، أو ادعاء على إبراهيم ، ومن ذكر معه اليهودية والنصرانية ، وهو استفهام إنكار وتوبيخ كما تقدم ، فإنّ كلا الأمرين باطلٌ .

قال ابن الخَطِيبِ : إن كانت متّصلة تقديره : بأي الحُجّتين تتعلّقون في أمرنا ؟ أَبِالتَّوْحِيدِ فنحن موحدون ، أم باتباع دين الأنبياء فنحن متّبعون ؟

والثاني : أن تكون المنقطعة ، فتتقدر بـ " بل " والهمزة على ما تقدر في المنقطعة على أصح

المذاهب .

والتقدير : بل أتقولون ؟

والاستفهام للإنكار والتوبيخ أيضاً فيكون قد انتقل عن قوله : أتحاجوننا وأخذ في الاستفهام عن قضية أخرى ، والمعنى على إنكار نسبة اليهودية والنصرانية إلى إبراهيم ومن ذكر معه ، [كأنه قيل : أتقولون : إن الأنبياء عليهم السلام كانوا قبل نزول التوراة والإنجيل هوداً أو نصارى] .

وأما قراءة الغيبة فالظاهر أن " أم " فيها منقطعة على المعنى المتقدم ، وحكى الطبري عن بعض النحويين أنها متّصلة ؛ لأنك إذا قلت : أتقوم أم يقوم عمرو ؛ أيكون هذا أم هذا ، أورد ابن عطية هذا الوجه فقال : هذا المثال غير جيّد ؛ لأن القائل غير واحد ، والمخاطب واحد ، والقول في الآية من اثنين ، والمخاطب اثنان غيران ، وإما تتّجه معادلة " أم " للألف على الحكم المعنوى ، كأن معنى قل : أتحاجوننا : " أيحاجون يا محمد أم تقولون " .

وقال الزمخشري : وفيمن قرأ بالياء لا تكون إلاَّ منطقعة .

قال أبو حيان رحمه الله تعالى : ويمكن الاتصال مع قراءة الياء ، ويكون ذلك من الالتفات إذا

صار فيه خروج من خطاب إلى غيبة ، والضمير لناس مخصوصين .

وقال أبو البقاء : أم تقولون يقرأ بالياء ردًّا على قوله : " فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ " ، فجعل هذه الجملة متعلّقة بقوله : " فَسَيَكْفِيكَهُمُ " ، وحينئذ لا تكون إلا منقطعة لما عرفت أن من شرط المتصلة تقدم همزة استفهام أو تسوية مع أن المعنى ليس على أن الانتقال من قوله : " فسيكفيكهم " إلى قوله : " أم يقولون " حتى يجعله ردّاً عليه ، وهو بعيد عنه لفظاً ومعنى .

وقال أبو حيان : الأحسن في القراءتين أن تكون " أم " منقطعة ، وكأنه أنكر عليهم محاجتهم في الله ، وسبة أنبيائه لليهودية والنصرانية ، وقد وقع منهم ما أنكر عليهم ألا ترى إلى قوله : ﴿ ياأهل الكتاب لِمَ تُحَآجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ ﴾ [آل عمران : 65] الآيات .

وإذا جعلناها متصلة كان ذلك غير متضمن وقوع الجملتين ، بل إحداهما ، وصار السؤال عن تعيين إحداهما ، وليس الأمر كذلك إذ وقعا معاً .

وهذا الذي قاله الشيخ حَسَن جداً .

و " أو " في قوله : " هُوداً أو نصارى " كهي في قوله : ﴿ لَن يَدْخُلَ الجنة إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نصارى ﴾ [البقرة : 111] وقد تقدم تحقيقه .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللهُ ﴾ .

معناه : أن الله أعلم ، وَخَبره أصدق ، وقد أخبر في التوراة والإنجيل ، وفي القرآن على لسان محمد صلى الله عليه وسلم أنه كانوا مسلمين مبرئي عن اليهودية والنصرانية .

فإن قيل : إنما يقال هذا فيمن لا يعلمن وهم علموه وكتموه ، فكيف يصح الكلام ؟

فالجواب : من قال " إنهم كانوا على ظَنّ وتوهم ، فالكلام ظاهر ، ومن قال : علموا وجحدوا ، فمعناه : أن منزلتكم منزلة المعترضين على ما يعلم أن الله أخبر به ، فلا ينفعه ذلك مع إقراره بأن الله تعالى أعلم .

[و" أم " في قوله تعالى : " أم الله " متصلة ، والجلالة ، عطف على " أنتم " ، ولكنه فصل بي المتعاطفين بالمسؤول عنه ، وهو أحسن الاستعمالات الثلاثة ؛ وذلك أنه يجوز في مثل هذا التركيب ثلاثة أوجه : تقدم المسؤول عنه نحو قوله : " أأعلم أم الله " ، وتوسطه نحو " أأنتم أعلم أم الله " ، وتأخيره نحو : أأنتم أم الله أعلم .

وقال أبو البقاء رحمه الله تعالى : " أم الله " مبتدأ ، والخبر محذوف أي : أم الله أعلم ، و" أم " هنا متصلة ، أي : ربكم أعلم ، وفيه نظر ؛ لأنه إذا قدر له خبراً صناعياً صار جملة ، و" أم " المتصلة لا تعطف الجمل ، بل المفرد وما فيها معناه .

وليس قول أبي البقاء بتفسير معنى ، فيغتفر له ذلك ، بل تفسير إعراب ، والتفصيل في قوله : " أعلم " على سبيل الاستهزاء ، وعلى تقدير أن يظن بهم علم ، فيكون من الجهلة ، وإلا

فلا مشاركة ، ونظيره قول حسان : [الوافر]

أَتَهْجُوهُ وَلَسْتَ لَهُ بِكُفْءٍ . . .

شَرُّكُمَا لِخَيْرِكُمَا الفِدَاءُ

وقد علم أن الرسول عليه الصلاة والسلام خير الكل] .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللهِ ﴾ .

في " من " من قوله : " مِنَ اللهِ " أربعة أوجه :

أحدها : أنها متعلقة بـ " كتم " ، وذلك على حذف مضاف أي : كتم من عباد الله شهادة عنده .

الثاني : أن تتعلق بمحذوف على أنها صفة لشهادة بعد صفة ؛ لأن " عنده " صفة لشهادة ، وهو ظاهر قول الزمخشري رحمه الله ، فإنه قال : و" من " في قوله : " شَهَادَةً مِنَ اللهِ " مثلها في قولك : " هذه شهادة مني لفلان " إذا شهدت له ، ومثله : ﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ ﴾ [التوبة : 1] .

الثالث : أنها في محلّ نصب على الحال من المضمر في " عنده " يعني : من الضمير المرفوع

بالظَّرف لوقوعه صفة ، ذكره أبو البقاء رحمه الله تعالى .

الرابع : أن يتعلّق بذلك المحذوف الذي تعلق به الظرف ، وهو " عنده " لوقوعه صفة ، والفرق بينه وبين الوجه الثاني أن ذلك له عامل مستقل غير العامل في الظرف .

قال أبو البقاء : ولا يجوز أن تعلق " من " بشهادة لئلاَّ يفصل بين الصلة والموصول بالصفة يعني : أن " شهادة " مصدر مؤول بحرف مصدري وفعل ، فلو عَلّقت " مِنْ " بها لكنت قد فصلت بين ما هو في معنى الموصول ، وبين أبعاض الصّلة بأجنبي ، وهو الظرف الواقع صفة لشهادة .

وفيه نظر من وجهين :

أحدهما : لا نسلم أن " شهادة " ينحل إلى الموصول وصلته فإن كل مصدر لا ينحل لهما .

والثاني : سلمنا ذلك ، ولكن لا نسلم والحالة هذه أن الظرف صفة ، بل هو معمول لها ، فيكون بعض الصلة أجنبياً حتى يلزم الفصل به بين الموصول وصلته ، وإنما كان طريق منع هذا بغير ما ذكر ، وهو أن المعنى يأبى ذلك .

و "كتم" يتعدّى لاثنين، فأولهما في الآية الكريمة محذوف تقديره: كتم النَّاس شهادةً، والأحسن من هذه الوجوه أن تكون "من الله" صفة لشهادة أو متعلّقة بعامل الظرف لا متعلقة بـ "كتم"، وذلك أن كتمان الشهادة مع كونها مستدعة من الله عنده ابلغ في الأظلمية من كتمان شهادة مطلقة من عبادة الله.

وقال في "ري الظمآن": في الآية تقديم وتأخير، والتقدير: ومن أظلم من الله ممن كتم شهادة حصلت له كقولك: "ومن أظلم من زيد من جملة الكلمتين للشهادة"، والمعنى: لو كان إبراهيم وبنوه يهوداً أو نصارى، ثم إن الله كتم هذه الشهادة لم يكن أحد ممن يكتم الشهادة أظلم منه، لكن لما استحال ذلك مع عدلهن وتنزيهه عن الكذب علمنا أن الأمر ليس كذلك.

قال أبو حيان: وهذا متكلّف جدّاً من حيث التركيب، ومن حيث المدلول.

أما التركيب فإن التقديم والتأخير من الضَّرائر عند الجمهور.

وأيضاً فيبقى قوله: "مِمَّنْ كَتَمَ" متعلقاً: إما بـ "أظلم"، فيكون ذلك على طريق البدلية، ويكون إذ ذلك بدل عام من خاص، وليس بثابت، وإن كان بعضهم زعم وروده، لكن الجمهور تأولوه بوضع العامّ موضع الخاص، أو تكون "من" متعلقة بمحذوف، فتكون في موضع الحال، أي: كائناً من الكاتمين.

وإمّا من حيث المدلول، فإن ثبوت الأظلمية لمن جُرَّ بـ "من" يكون على تقدير، أي: إن

كتمها فلا أحد أظلم منه ، وهذا كله معنى لا يليق به تعالى وينزه كتابه عنه .

قوله تعالى : " ﴿ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ وعيد وإعلام بأنه لم يترك أمرهم سُدى ، وأنه يجازيهم على أعمالهم .

والغافل الذي لا يفطن إلى الأمور إهمالاً منه ؛ مأخوذ من الأرض الغُفْل ، وهي التي لا عَلَم لها ولا أثر عمارة .

وناقة غُفْل : لا سِمَة بها .

ورجل غُفْل : لم يجرب الأمور .

وقال الكسائي : " أرض غُفْل لم تمطر " ، غفلت عن الشيء غَفْلَةً وغُفُولَةً ، وأغفلت الشيء : تركته على ما ذكر منك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 2 صـ 531. 534 ﴾ . باختصار .

(53/68)

قوله تعالى ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (141) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال الفخر :

اعلم أنه تعالى لما حاج اليهود في هؤلاء الأنبياء عقبه بهذه الآية لوجوه .

أحدها : ليكون وعظاً لهم وزجراً حتى لا يتكلوا على فضل الآباء فكل واحد يؤخذ بعمله . وثانيها : أنه تعالى بين أنه متى لا يستنكر أن يكون فرضكم عين فرضهم لاختلاف المصالح لم يستنكر أن تختلف المصالح فينقلكم محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ من ملة إلى ملة أخرى . وثالثها : أنه تعالى لما ذكر حسن طريقة الأنبياء الذين ذكرهم في هذه الآيات بين أن الدليل لا يتم بذلك بل كل إنسان مسؤول عن عمله ، ولا عذر له في ترك الحق بأن توهم أنه متمسك بطريقة من تقدم ، لأنهم أصابوا أم أخطأوا لا ينفع هؤلاء ولا يضرهم لئلا يتوهم أن طريقة الدين التقليد .

أهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ4 صـ 82 ﴾

(54/68)

وقال البقاعى :

ولما لم يدع لهم متمسكاً من جهة إبراهيم عليه السلام أتبع ذلك الإشارة على تقدير صحة دعواهم إلى أن الدين دائر مع أمره في كل زمان لا مع ما قرره لأحد من خلقه فإنه لا حجر

عليه ولا اعتراض بل له أن يأمر اليوم بأمر وغداً مثلاً بضده وأن يفعل ما يشاء من إحكام ونسخ ونسيء وإنساء فقال : ﴿ تلك أمة ﴾ أي إبراهيم وآله ﴿ قد خلت ﴾ أي فهب أنهم على ما زعمتم فقد مضوا وقدم زمانهم فلا ينفعكم إلا ما تستجدونه في وقتكم هذا بحكم ما تجدد من المنزل المعجز لكافة أهل الأرض أحمرهم وأسودهم ، ويجوز أن يقال : لما كان مضمون ما سبق من إثبات الأعلمية لله وكتمانهم الشهادة بما عندهم ثبوت ما أخبر به سبحانه على لسان هذا النبي الكريم من كون أصفيائه على دينه الإسلام فهم برآء منهم كان المعنى : إن ادعيتم بهتاً أن العلم جاءكم عن الله بما ادعيتموه قيل : إن من تدعون عليه ذلك من الأنبياء قد انقضت معجزته بموته ، وكتابكم غير مأمون عليه التحريف والتبديل لكونه غير معجز ، وهذا النبي الآتي بالقرآن قائم بين أظهركم وهو يخبركم عن الله بكذب دعواكم ، ويؤيد قوله بالمعجزات التي منها هذا القرآن الذي عجزت العرب كلها عن الإتيان بسورة من مثله وأنتم كذلك مع مشاركتكم لهم في الفصاحة نظماً ونثراً واختصاصكم عنهم بالعلم فلزمكم قبوله ، لأنكم لا تستندون في ترويج كذبكم بعد الجهد إلا إلى من ثبت صدقه بثبوت رسالته ، وثبتت رسالته بظهور معجزته ، فوجب عليكم قبول أمره ، وذلك ينتج قطعاً أنه يجب عليكم قبول هذا الداعي بهذا القرآن لمثل ذلك سواء ، وإلا كان قبول بعض من ثبت له هذا الوصف دون البعض تحكماً واتباعاً للهوى المذموم في كل شرعة المنعي عليكم بقوله تعالى :

﴿ أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم ﴾ [البقرة : 87] هذا مع أن رد قولكم هذا فيهم أظهر ظاهر من حيث إنه لا يعقل أن يكون السابق على نسبة اللاحق ما حدثت به إلا بعده بمُدد متطاولة ، وسيأتي النص الصريح بإبطال ذلك في آل عمران إن شاء الله تعالى والإشارة إلى منابذته للعقل بقوله : ﴿ أفلا تعقلون ﴾ [آل عمران : 65] ليتطابق على إبطاله صادق النقل وحاكم العقل ، وإلى هذا كله الإشارة بقوله : ﴿ تلك أمة قد خلت ﴾ أي من قبلكم بدهور ولا يقبل الإخبار عنهم بعدها إلا بقاطع ، ولا سبيل لكم إليه وقد قام القاطع على مخالفتكم لهم بهذا القرآن المقطوع بصدقه بإعجازه بما تقدم وبما أشار إليه قوله تعالى : ﴿ لها ما كسبت ﴾ أي من أعمالها ﴿ ولكم ما كسبتم ﴾ أي من أعمالكم ، فلا يسألون هم عن أعمالكم ﴿ ولا تسألون ﴾ أي أنتم ﴿ عما كانوا يعملون ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 258 ـ 259 ﴾

سؤال : فإن قيل : لم كررت هذه الآية ؟

فالجواب من وجهين :

الأول : قال الجُبَّائي : إنه عني بالآية الأولى إبراهيم ، ومن ذكر معه ، والثانية أسلاف اليهود .

قال القاضي : هذا بعيد ؛ لأن أسلاف اليهود والنصارى لم يَجْرِ لهم ذلك مصرح ، وموضع الشبهة في هذا القول أن القوم لما قالوا في إبراهيم وبينه : إنهم كانوا هوداً ، فكأنهم قالوا : إنهم كانوا على مثل طريقة أسلافنا من اليهود ، فصار سلفهم في حكم المذكورين فجاز أن يقول : ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ﴾ ويعنيهم ولكن ذلك كالتعسُّف ، بل المذكور السابق هو إبراهيم وبنوه ، فقوله : " تلك أمة " يجب أن يكون عائداً إليهم .

الوجه الثاني : أنه متى اختلفت الأوقات والأحوال والمواطن لم يكن التَّكْرار عبثاً ، فكأنه تعالى قال : ما هذا إلا بشر ، فوصف هؤلاء الأنبياء فيما أنتم عليه من الدين لا يسوغ التقليد في هذا [الجنس] ، فعليكم بترك الكلام في تلك الأمة ، فلها ما كسبت ، وانظر فيما دعاكم إليه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فإن ذلك أنفع لكم ، وأعود عليكم ، ولا تُسألون إلا عن عملكم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ2 صـ 535 ـ 536 ﴾

وقال القرطبي رحمه الله تعالى : كررها ، لأنها تضمّنت معنى التهديد والتخويف ، أي : إذا كان أولئك الأنبياء على إمامتهم وفضلهم يجازون بكسبهم ، فأنتم أحرى ، فوجب التأكيد

فلذلك كررها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ2صـ 147 ﴾

فائدة

قال صاحب الأمثل :

افترضوا أن ادعاءاتكم صحيحة ، فهذا لا يعود عليكم بالنفع لأنه (تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْئَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ) .

الأمّة الحية ينبغي أن تعتمد على أعمالها لا على ذكريات تاريخها ، والإنسان يجب أن يستند إلى فضائله ، لا أن يجترّ مفاخر الآباء والأجداد . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الأمثل حـ1صـ 399 ﴾

لطيفة

قيل لما انصرف هارون الرشيد من الحج أقام بالكوفة أياما فلما خرج وقف بهلول المجنون على طريقه وناداه بأعلى صوته يا هارون ثلاثا ، فقال هارون من الذى ينادينى تعجبا ، فقيل له بهلول المجنون ، فوقف هارون وأمر برفع الستر وكان يكلم الناس وراء الستر فقال له : ألم تعرفنى قال : بلى أعرفك فقال من أنا ؟

قال أنت الذى لو ظلم أحد فى المشرق وأنت فى المغرب سألك الله عن ذلك يوم القيامة

فبكى هارون وقال كيف ترى حالى قال : اعرضه على كتاب الله وهى الجزء الثانى ﴿ إن

الأبرار لفى نعيم وإن الفجار لفى جحيم ﴾

وقال أين أعمالنا ؟

قال إنما يتقبل الله من المتقين

قال وأين قرابتنا من رسول الله ـ صلى الله تعالى عليه وسلم ـ ؟

قال ﴿ فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم ﴾

قال وأين شفاعة رسول الله لنا ؟

قال ﴿ يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولا ﴾

فلا بد من الأعمال الصالحة والإخلاص فيها فإن الله يتقبلها لا غيرها . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ روح البيان حـ1 صـ 307 ﴾

ومن فوائد القاسمى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ ﴾

فلا يسألون عن أعمالكم : ﴿ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ لما ذكر تعالى حسن طريقة الأنبياء المتقدمين ، ولم يدع لهم متمسكاً من جهتهم ، أتبع ذلك الإشارة إلى أن الدين دائر مع أمره في كل زمان . وأنه لا ينفعهم إلا ما يستجدّونه بحكم ما تجدد من المُنْزَل المعجز لكافة أهل الأرض ، أحمرهم وأسودهم . . . أي : فعليكم بترك الكلام في تلك الأمة ؛ فلها ما كسبت ، وانظروا فيما دعاكم إليه خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم ؛ فإن ذلك أنفع لكم وأعود عليكم ، ولا تُسألون إلا عن عملكم .

قال الراغب : إعادة هذه الآية من أجل أن العادة مستحكمة في الناس ، صالحهم وطالحهم أن يفتخروا بآبائهم ويقتدوا بهم في متحرياتهم لاسيما في أمور دينهم .

ولهذا حكى عن الكفار قولهم : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ ﴾ [الزخرف : 22] . فأكد الله تعالى القول في إنزالهم عن هذه الطريقة ، وذكر في أثر ما حكى من وصية إبراهيم ويعقوب بنيه بذلك ، تنبيهاً أن الأمر سواء على ما قلت أو لم يكن ، فليس لكم ثواب فعلهم ولا عليكم عقابه ، وفي الثاني لما ذكر ادعاءهم اليهودية والنصرانية لآبائهم أعاد أيضاً تأكيداً عليهم تنبيهاً على نحو ما قال : ﴿ وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ﴾ [الإسراء : 13] ، وقوله : ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾ [البقرة : 286] ، وقوله : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ [الأنعام : 164] ولما

جرت به عادتهم وتفردت به معرفتهم ؛ كل شاة تناط برجليها . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ محاسن التأويل حـ 2 صـ 455.456 ﴾

ومن فوائد العلامة الزمخشرى فى الآيات

قال رحمه الله :

﴿ وَقالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصارى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً وَما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (135) ﴾

بَلْ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ بل تكون ملة إبراهيم أى أهل ملته كقول عدىّ بن حاتم . إنى من دين «1» يريد من أهل دين . وقيل : بل نتبع ملة إبراهيم . وقرئ : (ملة إبراهيم) بالرفع ، أى ملته ملتنا ، أو أمرنا ملته ، أو نحن ملته بمعنى أهل ملته . وحَنِيفاً حال من المضاف إليه ، كقولك : رأيت وجه هند قائمة . والحنيف : المائل عن كل دين باطل إلى دين الحق . والحنف : الميل في القدمين . وتحنف إذا مال . وأنشد :

وَلكِنّا خُلِقْنَا إِذْ خُلِقْنَا حَنِيفاً دِينُنَا عَنْ كُلِّ دِينِ «2»

وَما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ تعريض بأهل الكتاب وغيرهم لأن كلا منهم يدعى اتباع إبراهيم

(1) . أخرجه ابن سعد من رواية ابن سيرين عن أبى عبيدة بن حذيفة . قال : قال عدى بن حاتم . فذكر قصة إسلامه . وفيه فقال لي النبي صلى اللَّه عليه وسلم «يا عدى ، أسلم تسلم . قال : إنى من دين . قال أنا أعلم بدينك منك»

(2) . الحنف والتحنف : الميل . والحنيف : المائل عن الباطل إلى الحق . يقول : خلقنا حال كوننا مائلا ديننا عن الأديان الباطلة كلها إلى دين أبينا إبراهيم ، لأن العرب اتفقت على أنه حق ، وذلك من وقت ابتداء خلقنا ، فإذا :

ظرف للخلق الأول بعد تقييده بالحال بعده .

وهو على الشرك قُولُوا خطاب للمؤمنين . ويجوز أن يكون خطابا للكافرين ، أى قولوا لتكونوا على الحق ، وإلا فأنتم على الباطل وكذلك قوله : (بَلْ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ) يجوز أن يكون على : بل اتبعوا أنتم ملة إبراهيم ، أو كونوا أهل ملته .

[سورة البقرة (2) : الآيات 136 إلى 137]

قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَما أُنْزِلَ إِلَيْنا وَما أُنْزِلَ إِلى إِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْباطِ وَما أُوتِيَ مُوسى وَعِيسى وَما أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ

مُسْلِمُونَ (136) فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ ما آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّما هُمْ فِي شِقاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (137)

والسبط : الحافد . وكان الحسن والحسين سبطي رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم وَالْأَسْباطِ حفدة يعقوب ذرارىّ أبنائه الاثني عشر لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ لا نؤمن ببعض ونكفر ببعض كما فعلت اليهود والنصارى . و(أَحَدٍ) في معنى الجماعة «1» . ولذلك صح دخول (بين) عليه بِمِثْلِ ما آمَنْتُمْ بِهِ من باب التبكيت ، لأن دين الحق واحد لا مثل له وهو دين الإسلام (وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ) فلا يوجد إذاً دين آخر يماثل دين الإسلام في كونه حقاً ، حتى إن آمنوا بذلك الدين المماثل له كانوا مهتدين ، فقيل : فإن آمنوا بكلمة الشك على سبيل الفرض والتقدير ، أى : فإن حصلوا ديناً آخر مثل دينكم مساوياً له في الصحة والسداد فقد اهتدوا . وفيه أنّ دينهم الذي هم عليه وكل دين سواه مغاير له غير مماثل ، لأنه حق وهدى وما سواه باطل وضلال . ونحو هذا قولك للرجل الذي تشير عليه . هذا هو الرأى الصواب ، فإن كان عندك رأى أصوب منه فاعمل به ، وقد علمت أن لا أصوب من رأيك . ولكنك تريد تبكيت صاحبك ، وتوقيفه على أن ما رأيت لا رأى وراءه .

ويجوز أن لا تكون الباء صلة وتكون باء الاستعانة ، كقولك : كتبت بالقلم ، وعملت بالقدوم أى فإن دخلوا في الإيمان بشهادة مثل شهادتكم التي آمنتم بها . وقرأ ابن عباس وابن

مسعود : بما آمنتم به ، وقرأ أبى : بالذي آمنتم به . وَإِنْ تَوَلَّوْا عما تقولون لهم ولم ينصفوا فما هم إلا

(1) . قال محمود رحمه اللَّه : «وأحد في معنى الجماعة . . . الخ» . قال أحمد رحمه اللَّه : وفيه دليل على أن النكرة الواقعة في سياق النفي تفيد العموم لفظاً حتى يتنزل المفرد فيها منزلة الجمع في تناوله الآحاد مطابقة ، لا كما ظنه بعض الأصوليين من أن مدلولها بطريق المطابقة في النفي كمدلولها في الإثبات . وذلك الدلالة على الماهية . وإنما لزم فيها العموم من حيث أن سلب الماهية يستوجب سلب الافراد لما بين الأعم والأخص من التلازم في جانب النفي ، إذ سلب الأعم أخص من سلب الأخص فيستلزمه ، فلو كان لفظا ما لا إشعار له بالتعدد والعموم وضعا لما جاز دخول بين عليها . [. . . . .]

فِي شِقاقٍ أى في مناواة ومعاندة «1» لا غير ، وليسوا من طلب الحق في شيء . أو : وإن تولوا عن الشهادة والدخول في الإيمان بها فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ ضمان من اللَّه لإظهار رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم عليهم ، وقد أنجز وعده بقتل قريظة وسبيهم وإجلاء بنى النضير . ومعنى السين أنّ ذلك كائن لا محالة وإن تأخر إلى حين وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ وعيد لهم ، أى

يسمع ما ينطقون به ، ويعلم ما يضمرون من الحسد والغل وهو معاقبهم عليه . أو وعد لرسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم بمعنى : يسمع ما تدعو به ويعلم نيتك وما تريده من إظهار دين الحق ، وهو مستجيب لك وموصلك إلى مرادك .

[سورة البقرة (2) : آية 138]

صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عابِدُونَ (138)

صِبْغَةَ اللَّهِ مصدر مؤكد منتصب على قوله : (آمَنَّا بِاللَّهِ) كما انتصب (وعد اللَّه) عما تقدمه ، وهي «فعلة» من صبغ ، كالجلسة من جلس ، وهي الحالة التي يقع عليها الصبغ والمعنى : تطهير اللَّه ، لأن الإيمان يطهر النفوس . والأصل فيه أن النصارى كانوا يغمسون أولادهم في ماء أصفر يسمونه المعمودية ، ويقولون : هو تطهير لهم ، وإذا فعل الواحد منهم بولده ذلك قال : الآن صار نصرانيا حقا ، فأمر المسلمون بأن يقولوا لهم : قولوا آمنا باللَّه ، وصبغنا اللَّه بالإيمان صبغة لا مثل صبغتنا ، وطهرنا به تطهيراً لا مثل تطهيرنا . أو يقول المسلمون . صبغنا اللَّه بالإيمان صبغته ولم نصبغ صبغتكم . وإنما جيء بلفظ الصبغة على طريقة المشاكلة ، كما تقول لمن يغرس الأشجار : اغرس كما يغرس فلان ، تريد رجلا يصطنع الكرم وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً يعنى أنه يصبغ عباده بالإيمان ، ويطهرهم به من أو ضار الكفر فلا صبغة أحسن من صبغته . وقوله وَنَحْنُ لَهُ عابِدُونَ عطف على آمنا باللَّه . وهذا العطف يردّ قول من زعم أن (صِبْغَةَ اللَّهِ) بدل من (مِلَّةَ إِبْراهِيمَ) أو نصب على

الإغراء بمعنى : عليكم صبغة اللَّه ، لما فيه من فك النظم وإخراج الكلام عن التئامه واتساقه ، «2» وانتصابها على أنها مصدر مؤكد هو الذي ذكره سيبويه ، والقول ما قالت حذام

[سورة البقرة (2) : الآيات 139 إلى 141]

قُلْ أَتُحَاجُّونَنا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنا وَرَبُّكُمْ وَلَنا أَعْمالُنا وَلَكُمْ أَعْمالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ (139) أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْباطَ كانُوا هُوداً أَوْ نَصارى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (140) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَها ما كَسَبَتْ وَلَكُمْ ما كَسَبْتُمْ وَلا تُسْئَلُونَ عَمَّا كانُوا يَعْمَلُونَ (141)

---

(1) . قوله : «في مناوأة ومعاندة» في الصحاح : ناوأت الرجل مناوأة ونواء ، عاديته . وربما لم يهمز .

وأصله الهمز . (ع)

(2) . قوله «و اتساقه» في الصحاح : الاتساق الانتظام . وفيه أيضا : التنسيق التنظيم . (ع)

قرأ زيد بن ثابت (أتحاجونا) بإدغام النون. والمعنى: أتجادلوننا في شأن اللَّه واصطفائه النبي من العرب دونكم، وتقولون: لو أنزل اللَّه على أحد لأنزل علينا، وترونكم أحق بالنبوّة منا وَهُوَ رَبُّنا وَرَبُّكُمْ نشترك جميعا في أننا عباده، وهو ربنا، وهو يصيب برحمته وكرامته من يشاء من عباده، هم فوضى في ذلك لا يختص به عجمى دون عربى إذا كان أهلا للكرامة وَلَنا أَعْمالُنا وَلَكُمْ أَعْمالُكُمْ يعنى أن العمل هو أساس الأمر وبه العبرة، وكما أن لكم أعمالا يعتبرها اللَّه في إعطاء الكرامة ومنعها فنحن كذلك. ثم قال وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ فجاء بما هو سبب الكرامة، أى ونحن له موحدون نخلصه بالإيمان فلا تستبعدوا أن يؤهل أهل إخلاصه لكرامته بالنبوّة، وكانوا يقولون: نحن أحق بأن تكون النبوة فينا، لأنا أهل كتاب والعرب عبدة أوثان أَمْ تَقُولُونَ يحتمل فيمن قرأ بالتاء أن تكون أم معادلة للهمزة في: (أَتُحَاجُّونَنا) بمعنى أىّ الأمرين تأتون: أ لمحاجة في حكمة اللَّه أم ادّعاء اليهودية والنصرانية على الأنبياء؟ والمراد بالاستفهام عنهما إنكارهما معاً، وأن تكون منقطعة بمعنى: بل أتقولون، والهمزة للإنكار أيضا، وفيمن قرأ بالياء لا تكون إلا منقطعة قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ يعنى أن اللَّه شهد لهم بملة الإسلام في قوله: (ما كانَ إِبْراهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرانِيًّا وَلكِنْ كانَ حَنِيفاً مُسْلِماً). وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ أى كتم شهادة اللَّه التي عنده أنه شهد بها وهي شهادته لإبراهيم بالحنيفية. ويحتمل معنيين: أحدهما أن أهل الكتاب لا

أحد أظلم منهم ، لأنهم كتموا هذه الشهادة وهم عالمون بها . والثاني : أنا لو كتمنا هذه الشهادة لم يكن أحد أظلم منا فلا نكتمها . وفيه تعريض بكتمانهم شهادة اللَّه لمحمد صلى اللَّه عليه وسلم بالنبوّة في كتبهم وسائر شهاداته . (و من) في قوله : (شَهادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ) مثلها في قولك : هذه شهادة منى لفلان إذا شهدت له ، ومثله (بَراءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشاف حـ 1 صـ 194. 197 ﴾

(63/68)

ومن فوائد صاحب المنار فى الآيات السابقة

قال رحمه الله :

(وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ)

(64/68)

وَإِنْ لَمْ يَشْرَبْ فَالْعَاصِي يَنْجُو بِصَلَاحِ وَالِدِهِ . وَالْآيَاتُ الَّتِي تُؤَيِّدُ هَذِهِ الْآيَةَ كَثِيرَةٌ جِدًّا ، فَهِيَ أَصْلٌ مِنْ أُصُولِ الدِّينِ الْإِلَهِيِّ لَا يُفِيدُ مَعَهَا تَأْوِيلُ الْمَغْرُورِينَ وَلَا غُرُورُ الْجَاهِلِينَ ، بَيَّنَ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ السَّابِقَةِ حَقِيقَةَ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ فِي سِيَاقِ دَعْوَةِ الْعَرَبِ إِلَى الْإِسْلَامِ ، ثُمَّ أَشْرَكَ مَعَهُمْ أَهْلَ الْكِتَابِ لِأَنَّهُمْ أَقْرَبُ إِلَى الْإِيمَانِ بِإِبْرَاهِيمَ وَأَجْدَرُ بِإِجْلَالِهِ وَاتِّبَاعِهِ ، وَانْتَقَلَ الْكَلَامُ بِهَذِهِ الْمُنَاسَبَةِ إِلَى بَيَانِ وَحْدَةِ الدِّينِ الْإِلَهِيِّ وَاتِّفَاقِ النَّبِيِّينَ فِي جَوْهَرِهِ ، وَبَيَانِ جَهْلِ أَهْلِ الْكِتَابِ بِهَذِهِ الْوَحْدَةِ ، وَقِصَرِ نَظَرِهِمْ عَلَى مَا يَمْتَازُ بِهِ كُلُّ دِينٍ مِنَ الْفُرُوعِ وَالْجُزْئِيَّاتِ ، أَوِ التَّقَالِيدِ الَّتِي أَضَافُوهَا عَلَى التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ ، فَبَعُدَ بِهَا كُلُّ فَرِيقٍ مِنَ الْآخَرِ أَشَدَّ الْبُعْدِ ، وَصَارَ الدِّينُ الْوَاحِدُ كُفْرًا وَإِيمَانًا ، كُلُّ فَرِيقٍ مِنْ أَهْلِهِ يَحْتَكِرُ الْإِيمَانَ لِنَفْسِهِ وَيَرْمِي الْآخَرَ بِالْكُفْرِ وَالْإِلْحَادِ ، وَإِنْ كَانَ نَبِيُّهُمْ وَاحِدًا وَكِتَابُهُمْ وَاحِدًا .

فَقَوْلُهُ – تَعَالَى – : (وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا) بَيَانٌ لِعَقِيدَةِ الْفَرِيقَيْنِ فِي التَّفَرُّقِ فِي الدِّينِ ، وَالضَّمِيرُ فِي (وَقَالُوا) لِأَهْلِ الْكِتَابِ وَ (أَوْ) لِلتَّوْزِيعِ أَوِ التَّنْوِيعِ ، أَيْ إِنَّ الْيَهُودَ يَدْعُونَ إِلَى الْيَهُودِيَّةِ الَّتِي هُمْ عَلَيْهَا وَيَحْصُرُونَ الْهِدَايَةَ فِيهَا ، وَالنَّصَارَى يَدْعُونَ إِلَى

النَّصْرَانِيَّةِ الَّتِي هُمْ عَلَيْهَا وَيَحْصُرُونَ الْهِدَايَةَ فِيهَا – وَهَذَا الْأُسْلُوبُ مَعْهُودٌ فِي اللُّغَةِ – وَلَوْ صدقَ أَيُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا لَمَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ مُهْتَدِيًا ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا ، وَكَيْفَ وَهُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَى كَوْنِهِ إِمَامَ الْهُدَى وَالْمُهْتَدِينَ ؛ لِذَلِكَ قَالَ – تَعَالَى – مُلَقِّنًا لِنَبِيِّهِ الْبُرْهَانَ الْأَقْوَى فِي مُحَاجَّتِهِمْ (قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) أَيْ بَلْ نَتَّبِعُ أَوِ اتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ الَّذِي لَا نِزَاعَ فِي هُدَاهُ وَلَا فِي هَدْيِهِ ، فَهِيَ الْمِلَّةُ الْحَنِيفِيَّةُ الْقَائِمَةُ عَلَى الْجَادَّةِ بِلَا انْحِرَافٍ وَلَا زَيْغٍ ، الْعَرِيقَةُ فِي التَّوْحِيدِ وَالْإِخْلَاصِ بِلَا وَثَنِيَّةٍ وَلَا شِرْكٍ .

وَالْحَنِيفُ فِي اللُّغَةِ : الْمَائِلُ ، وَإِنَّمَا أُطْلِقَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ؛ لِأَنَّ النَّاسَ فِي عَصْرِهِ كَانُوا عَلَى طَرِيقَةٍ وَاحِدَةٍ وَهِيَ الْكُفْرُ ، فَخَالَفَهُمْ كُلَّهُمْ وَتَنَكَّبَ طَرِيقَتَهُمْ ، وَلَا يُسَمَّى الْمَائِلُ حَنِيفًا إِلَّا إِذَا كَانَ الْمَيْلُ عَنِ الْجَادَّةِ الْمُعَبَّدَةِ ، وَفِي الْأَسَاسِ : مَنْ مَالَ عَنْ كُلِّ دِينٍ أَعْوَجَ ، وَيُطْلَقُ عَلَى الْمُسْتَقِيمِ ، وَبِهِ فَسَّرَ الْكَلِمَةَ بَعْضُهُمْ ، أَوْرَدَ لَهُ شَاهِدًا مِنَ اللُّغَةِ وَهُوَ أَقْرَبُ . وَمِنَ التَّأْوِيلَاتِ الْبَعِيدَةِ : مَا رُوِيَ مِنْ تَفْسِيرِ الْحَنِيفِ بِالْحَاجِّ وَوَجْهُ الْقَوْلِ بِهِ أَنَّهُ مِمَّا حُفِظَ مِنْ دِينِ إِبْرَاهِيمَ

.

(الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ) : قَالَ بَعْضُ الْمُشْتَغِلِينَ بِالْعَرَبِيَّةِ مِنَ الْإِفْرِنْجِ : إِنَّ الْحَنِيفِيَّةَ هِيَ

مَا كَانَ عَلَيْهِ الْعَرَبُ مِنَ الشِّرْكِ ، وَاحْتَجُّوا عَلَى ذَلِكَ بِقَوْلِ بَعْضِ النَّصَارَى فِي زَمَنِ الْجَاهِلِيَّةِ : إِنْ فَعَلْتُ هَذَا أَكُونُ حَنِيفِيًّا . وَإِنَّهَا لَفَلْسَفَةٌ جَاءَتْ مِنَ الْجَهْلِ بِاللُّغَةِ ، وَقَدْ نَاظَرْتُ بَعْضَ الْإِفْرِنْجِ فِي هَذَا فَلَمْ يَجِدْ مَا يَحْتَجُّ بِهِ إِلَّا عِبَارَةَ ذَلِكَ النَّصْرَانِيِّ ، وَهُوَ الْآنَ يَجْمَعُ كُلَّ مَا نُقِلَ عَنِ الْعَرَبِ مِنْ هَذِهِ الْمَادَّةِ لِيَنْظُرَ كَيْفَ كَانُوا يَسْتَعْمِلُونَهَا ، وَلَا دَلِيلَ فِي كَلِمَةِ النَّصْرَانِيِّ الْعَرَبِيِّ عَلَى أَنَّ الْكَلِمَةَ تَدُلُّ لُغَةً عَلَى الشِّرْكِ ، وَإِنَّمَا مُرَادُهُ بِكَلِمَتِهِ الْبَرَاءَةُ مِنْ دِينِ الْعَرَبِ مُطْلَقًا ؛ ذَلِكَ أَنَّ بَعْضَ الْعَرَبِ كَانُوا يُسَمُّونَ أَنْفُسَهُمُ الْحُنَفَاءَ وَيَنْتَسِبُونَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَيَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ عَلَى دِينِهِ ، وَكَانَ النَّاسُ يُسَمُّونَهُمُ الْحُنَفَاءَ أَيْضًا ، وَالسَّبَبُ فِي التَّسْمِيَةِ وَالدَّعْوَى أَنَّ سَلَفَهُمْ كَانُوا عَلَى مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ حَقِيقَةً

ثُمَّ طَرَأَتْ عَلَيْهِمُ الْوَثَنِيَّةُ فَأَخَذَتْهُمْ عَنْ عَقِيدَتِهِمْ وَأَنْسَتْهُمْ أَحْكَامَ مِلَّتِهِمْ وَأَعْمَالَهَا – نَسُوا بَعْضَهَا بِالْمَرَّةِ وَخَرَجُوا بِبَعْضٍ آخَرَ عَنْ أَصْلِهِ وَوَصْفِهِ كَالْحَجِّ ، وَنَفْيُ الشِّرْكِ عَنْ إِبْرَاهِيمَ فِي آخِرِ الْآيَةِ احْتِرَاسٌ مِنْ وَهْمِ الْوَاهِمِينَ ، وَتَكْذِيبٌ لِدَعْوَى الْمُدَّعِينَ .

أَقُولُ : لَا بِدْعَ أَنْ يَنْسَى الْأُمِّيُّونَ مَا كَانُوا عَلَيْهِ ، فَإِنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ خَرَجُوا بِدِينِهِمْ عَنْ وَضْعِهِ الْأَوَّلِ فَنَسُوا بَعْضًا وَحَرَّفُوا بَعْضًا ، وَزَادُوا فِيهِ وَنَقَصُوا مِنْهُ ؛ فَالْيَهُودُ أَضَافُوا التَّلْمُودَ إِلَى مَا عِنْدَهُمْ مِنَ التَّوْرَاةِ ، وَسَمَّوْا مَجْمُوعَ ذَلِكَ مَعَ تَفَاسِيرِهِ وَآرَاءِ أَحْبَارِهِمْ فِيهِ الْيَهُودِيَّةَ .

وَأَمَّا النَّصَارَى فَقَدْ ظَهَرَ دِينُهُمْ بِشَكْلٍ لَوْ رَآهُ الْحَوَارِيُّونَ الَّذِينَ أَخَذُوا الدِّينَ عَنِ الْمَسِيحِ مُبَاشَرَةً لَمَا عَرَفُوا أَيَّ دِينٍ هُوَ . وَهَؤُلَاءِ الْمُسْلِمُونَ عَلَى حِفْظِ كِتَابِهِمْ فِي الصُّدُورِ وَالسُّطُورِ يَعْمَلُونَ بِاسْمِ الدِّينِ أَعْمَالًا يَظُنُّهَا الْجَاهِلُونَ بِدِينِهِمْ أَعْظَمَ أَرْكَانِ الدِّينِ ، وَمَا هِيَ مِنَ الدِّينِ وَإِنَّمَا هِيَ بِدَعُ الْمُضِلِّينَ ، فَالْإِفْرِنْجُ يَكْتُبُونَ فِي رِحْلَاتِهِمْ أَنَّ رَقْصَ الْمَوْلَوِيَّةِ مِنْ أَعْظَمِ الْعِبَادَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، وَأَنَّ مَا يَكُونُ فِي جَامِعِ الْقَلْعَةِ فِي لَيَالِي الْمَوْلِدِ وَالْمِعْرَاجِ وَنِصْفِ شَعْبَانَ مِنَ الرَّقْصِ وَالْعَزْفِ بِالطُّبُولِ وَالدُّفُوفِ وَغَيْرِهَا مِنْ أَهَمِّ الشَّعَائِرِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، وَسَمَّاهَا بَعْضُهُمُ (الصَّلَاةَ الْكُبْرَى) وَلَوْلَا أَنَّ الْقُرْآنَ مَحْفُوظٌ وَسُنَّةَ الرَّسُولِ وَسِيرَةَ السَّلَفِ الصَّالِحِ مُدَوَّنَتَانِ فِي الْكُتُبِ لَنَسِينَا الْأَصْلَ وَاكْتَفَيْنَا بِهَذِهِ الْبِدَعِ ، فَإِنَّ مِئَاتِ الْأُلُوفِ الَّتِي تَحُجُّ إِلَى مَشَاهِدِ أَهْلِ الْبَيْتِ وَالْجِيلَانِيِّ بِالْعِرَاقِ ، وَالْبَدَوِيِّ وَأَمْثَالِهِ بِمِصْرَ كُلَّ عَامٍ لَا يُقِيمُ الصَّلَاةَ

وَيُؤْتِي الزَّكَاةَ وَيَحُجُّ الْبَيْتَ مِنْهُمْ إلَّا أَقَلُّهُمْ ، وَهُمْ فِي عِبَادَتِهِمُ الْبَاطِلَةِ أَخْشَعُ مِنْهُمْ فِي عِبَادَتِهِمُ الْمَشْرُوعَةِ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ أَرَادَ بَقَاءَ هَذَا الدِّينِ وَحِفْظَهُ وَسَيَرْجِعُ إلَى كِتَابِهِ الرَّاجِعُونَ ، وَيَهْتَدِي بِهِ الْمُهْتَدُونَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُقَلِّدُونَ ، وَعِنْدَ ذَلِكَ تَنْقَشِعُ ظُلُمَاتُ هَذِهِ الْبِدَعِ الَّتِي هُمْ فِيهَا يَتَخَبَّطُونَ .

(70/68)

وَقَدْ تَوَهَّمَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ أَنَّ هَذَا الْجَوَابَ (بَلْ مِلَّةَ إبْرَاهِيمَ) . . . إلَخْ جَاءَ عَلَى طَرِيقَةِ الْإِقْنَاعِ وَلَيْسَ حُجَّةً حَقِيقِيَّةً ، وَوَجَّهُوهُ بِقَوْلِهِمْ : إنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ يُعَانِدُونَ الْحَقَّ وَيُكَابِرُونَ فِي مُعْجِزَةِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، فَأَمَرَ اللَّهُ نَبِيَّهُ بِأَنْ يُلْزِمَهُمْ بِالدَّلَائِلِ الْإِقْنَاعِيَّةِ الَّتِي لَا يَقْدِرُونَ عَلَى مُكَابَرَتِهَا وَالْمِرَاءِ فِيهَا . وَالْحَقُّ أَنَّ هَذَا الْجَوَابَ حُجَّةٌ حَقِيقِيَّةٌ ، وَقَدْ أَشَرْنَا إلَى وَجْهِهَا الْوَجِيهِ أَوَّلَ الْكَلَامِ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ . وَقَدْ تَجَرَّأَ كَثِيرٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ عَلَى مِثْلِ هَذَا الْكَلَامِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْآيَاتِ الَّتِي احْتَجَّ بِهَا الْقُرْآنُ حَتَّى فِي إثْبَاتِ الْوَحْدَانِيَّةِ ، وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ افْتِتَانُهُمْ بِالطَّرِيقَةِ النَّظَرِيَّةِ الَّتِي أَخَذُوهَا عَنْ كُتُبِ الْيُونَانِ ، وَلَقَدِ اهْتَدَى بِحُجَجِ الْقُرْآنِ الْأُلُوفُ وَأُلُوفُ الْأُلُوفِ ، وَقَلَّمَا اهْتَدَى بِتِلْكَ الْأَدِلَّةِ النَّظَرِيَّةِ الْمَحْضَةِ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ ، وَإِنَّمَا تُفِيدُ فِي وُقُوعِ شُبُهَاتِهِمُ الَّتِي يُورِدُونَهَا عَلَى الْعَقَائِدِ ، وَلَا فَائِدَةَ فِيهَا سِوَى الْمِرَاءِ

وَالْجَدَلِ ، وَقَدْ مُحِيَتْ فِي عَصْرِنَا تِلْكَ الشُّبُهَاتُ ، وَرَغِبَ النَّاسُ عَنْ هَاتِيكَ النَّظَرِيَّاتِ ، وَقَامَ بِنَاءُ الْعِلْمِ عَلَى أُسُسِ الْوَقَائِعِ وَالْحَوَادِثِ وَالْمُجَرَّبَاتِ .

وَقَالَ (الْجَلَالُ) : إِنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي يَهُودِ الْمَدِينَةِ وَنَصَارَى نَجْرَانَ ، فَهُمُ الْقَائِلُونَ مَا ذُكِرَ

وَالتَّحْقِيقُ أَنَّ الْآيَةَ فِي بَيَانِ طَبِيعَةِ أَهْلِ الْمِلَّتَيْنِ كَمَا تَقَدَّمَ ، وَقَوْلُ يَهُودِ الْمَدِينَةِ وَنَصَارَى نَجْرَانَ مَا ذُكِرَ – إِنْ صَحَّ – لَا يَقْتَضِي التَّخْصِيصَ ، فَإِنَّهُمْ مَا قَالُوا إِلَّا مَا هُوَ لِسَانُ حَالِ مِلَّتِهِمْ . وَغَيْرُهُمْ يَقُولُ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ، أَوْ يُصَدِّقُ الْقَائِلِينَ بِاعْتِقَادِهِ وَسِيرَتِهِ .

أَمَرَ اللهُ النَّبِيَّ بِأَنْ يَدْعُوَ إِلَى اتِّبَاعِ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ ، ثُمَّ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمِثْلِ ذَلِكَ فَقَالَ : (قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ) أَيْ لَا تَكُنْ دَعْوَتُكُمْ إِلَى شَيْءٍ خَاصٍّ بِكُمْ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ سَائِرِ أَهْلِ الْأَدْيَانِ السَّمَاوِيَّةِ ، بَلِ انْظُرُوا إِلَى جِهَةِ الْجَمْعِ وَالِاتِّفَاقِ ، وَادْعُوا إِلَى أَصْلِ الدِّينِ وَرُوحِهِ الَّذِي لَا خِلَافَ فِيهِ وَلَا نِزَاعَ ، وَهُوَ التَّسْلِيمُ بِنُبُوَّةِ جَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ ، مَعَ الْإِسْلَامِ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ، لَا نَعْبُدُ إِلَّا اللهَ ، وَلَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِ اللهِ .

وَالْأَسْبَاطُ أَوْلَادُ يَعْقُوبَ ، وَالْفِرَقُ أَوِ الشُّعُوبُ الْإِثْنَى عَشَرَ الْمُتَشَعِّبَةُ مِنْهُمْ . قَالَ – تَعَالَى – : (وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا) (7 : 160) وَقَدْ وَرَدَ أَنَّ أَوْلَادَ يَعْقُوبَ كَانُوا أَنْبِيَاءَ وَلَمْ يَرِدْ أَنَّهُمْ كَانُوا مُرْسَلِينَ ، فَإِنْ صَحَّ هَذَا كَمَا يُفْهَمُ مِنْ إِطْلَاقِ الْأُسْتَاذِ الْإِمَامِ فِي الدَّرْسِ ، فَالْمُرَادُ بِالْأَسْبَاطِ الْإِطْلَاقُ الْأَوَّلُ ، وَإِلَّا كَانَ فِي الْكَلَامِ تَقْدِيرُ مُضَافٍ ، أَيْ أَنْبِيَاءَ الْأَسْبَاطِ ، كَأَنَّهُ قَالَ : وَسَائِرُ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَهُوَ الْمُخْتَارُ ، وَلَمْ يَصِحَّ فِي نُبُوَّةِ غَيْرِ يُوسُفَ مِنْ أَبْنَاءِ يَعْقُوبَ شَيْءٌ .

(وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ) قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : وَهَا هُنَا نُكْتَةٌ دَقِيقَةٌ فِي اخْتِلَافِ التَّعْبِيرِ عَنِ الْوَحْيِ الَّذِي مَنَحَهُ اللهُ الْأَنْبِيَاءَ إِذْ عَبَّرَ بِأُنْزِلَ تَارَةً وَبِأُوتِيَ تَارَةً أُخْرَى ، وَهِيَ أَنَّ التَّعْبِيرَ بِأُنْزِلَ ذُكِرَ هُنَا فِي جَانِبِ الْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ كُتُبٌ تُؤْثَرُ ، وَلَا صُحُفٌ تُنْقَلُ ، وَذَلِكَ أَنَّ إِنْزَالَ الْوَحْيِ عَلَى نَبِيٍّ لَا يَسْتَلْزِمُ إِعْطَاءَهُ كِتَابًا يُؤْثَرُ عَنْهُ ، وَهَذَا ظَاهِرٌ إِذَا كَانَ النَّبِيُّ غَيْرَ مُرْسَلٍ فَإِنَّ الْوَحْيَ إِلَيْهِ يَكُونُ خَاصًّا بِهِ ، وَيَكُونُ إِرْشَادُهُ لِلنَّاسِ أَنْ يَعْمَلُوا بِشَرْعِ رَسُولٍ آخَرَ إِنْ كَانَ بُعِثَ فِيهِمْ رَسُولٌ وَإِلَّا كَانَ قُدْوَةً فِي الْخَيْرِ وَمُعِدًّا لِلنُّفُوسِ

لِبَعْثَةِ نَبِيٍّ مُرْسَلٍ ، وَأَمَّا النَّبِيُّ الْمُرْسَلُ فَقَدْ يُؤْمَرُ بِالتَّبْلِيغِ الشِّفَاهِيِّ وَلَا يُعْطَى كِتَابًا بَاقِيًا ، وَقَدْ يُكْتَبُ مَا يُوحَى إِلَيْهِ فِي عَصْرِهِ فَيَضِيعُ مِنْ بَعْدِهِ ، فَهَؤُلَاءِ الرُّسُلُ الْكِرَامُ الَّذِينَ عَبَّرَ عَنْهُمْ بِقَوْلِهِ : (وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ) لَا يُؤْثَرُ عَنْ أَحَدٍ مِنْهُمْ كِتَابٌ مُسْنَدٌ صَحِيحٌ وَلَا غَيْرُ صَحِيحٍ ، وَأَنَّنَا نُؤْمِنُ بِأَنَّهُمْ كَانُوا أَنْبِيَاءَ ، وَأَنَّ مَا نَزَلَ عَلَيْهِمْ هُوَ دِينُ اللهِ الْحَقُّ ، وَأَنَّهُ مُوَافِقٌ فِي جَوْهَرِهِ وَأُصُولِهِ لِمَا أُنْزِلَ عَلَى مَنْ بَعْدَهُمْ . وَمَا ذَكَرَ اللهُ مِنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ بِالنَّصِّ هُوَ رُوحُ ذَلِكَ الْوَحْيِ كُلِّهِ ، وَقَدْ جَاءَ فِي سُورَةِ النَّجْمِ وَسُورَةِ

الْأَعْلَى ذِكْرُ صُحُفٍ لِإِبْرَاهِيمَ . وَقَالَ (الْجَلَالُ) هُنَا : إِنَّهَا عَشْرٌ ، فَنُؤْمِنُ أَنَّهُ كَانَ لَهُ صُحُفٌ وَلَا نَزِيدُ عَلَى مَا وَرَدَ شَيْئًا ، وَأَمَّا إِسْمَاعِيلُ وَإِسْحَاقُ وَيَعْقُوبُ وَالْأَسْبَاطُ فَلَمْ يَثْبُتْ أَنَّ لَهُمْ صُحُفًا وَلَا كُتُبًا ، فَنُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ بِالْإِجْمَالِ وَنَعْتَقِدُ أَنَّهُ عَيْنُ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ ، وَجَاءَ التَّعْبِيرُ عَنْ وَحْيِ الَّذِينَ كَانَ لَهُمْ كُتُبٌ تُؤْثَرُ بِقَوْلِهِ : (وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ) فَهُوَ يُشِيرُ بِالْإِيتَاءِ إِلَى أَنَّ مَا أُوحِيَ إِلَيْهِمْ لَهُ وُجُودٌ يُمْكِنُ الرُّجُوعُ إِلَيْهِ وَالنَّظَرُ فِيهِ ، فَإِنَّ أَقْوَامَهُمْ يَأْثُرُونَ عَنْهُمْ كُتُبًا .

وَأَقُولُ الْآنَ : إِنَّ الْمُرَادَ الْإِيمَانُ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ – تَعَالَى – وَمَا أَعْطَاهُ لِأُولَئِكَ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ

إِجْمَالًا ، وَأَنَّهُ كَانَ وَحْيًا مِنَ اللهِ فَلَا نُكَذِّبُ أَحَدًا مِنْهُمْ بِمَا ادَّعَاهُ وَدَعَا إِلَيْهِ فِي عَصْرِهِ ، بِصَرْفِ النَّظَرِ عَمَّا طَرَأَ عَلَيْهِ مِنْ ضَيَاعِ بَعْضِهِ وَتَحْرِيفِ بَعْضٍ ، فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَضُرُّنَا ؛ لِأَنَّ الْإِيمَانَ التَّفْصِيلِيَّ وَالْعَمَلَ مَقْصُورٌ عَلَى مَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا ، فَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ (أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ كَانُوا يَقْرَءُونَ التَّوْرَاةَ بِالْعِبْرَانِيَّةِ وَيُفَسِّرُونَهَا بِالْعَرَبِيَّةِ لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ ، فَقَالَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : (لَا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الْكِتَابِ وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ وَقُولُوا (آمَنَّا بِاللهِ) الْآيَةَ)

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ فِي تَفْسِيرِهِ عَنْ مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ مَرْفُوعًا (آمِنُوا بِالتَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالزَّبُورِ وَلْيَسَعْكُمُ الْقُرْآنُ) وَأَمَّا مَا ذَكَرَهُ شَيْخُنَا مِنْ نُكْتَةِ اخْتِلَافِ التَّعْبِيرِ فَيُشْكِلُ بِقَوْلِهِ فِي أَوَّلِ الْآيَةِ : (وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا) أَيْ مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ وَهُوَ الْقُرْآنُ وَقَوْلِهِ بَعْدُ : (وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ) وَلَمْ يُعْلَمْ أَنَّهُ كَانَ لِغَيْرِ دَاوُدَ مِنْهُمْ كِتَابٌ مُنَزَّلٌ ، عَلَى أَنَّ عَدَمَ الْعِلْمِ بِكُتُبٍ أُنْزِلَتْ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ لَا يَدُلُّ عَلَى عَدَمِ تِلْكَ الْكُتُبِ ، وَلَعَلَّ نُكْتَةَ اخْتِلَافِ التَّعْبِيرِ أَنْ يَشْمَلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى تِلْكَ الْآيَاتِ الَّتِي أَيَّدَهُمَا بِهَا كَمَا قَالَ : (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ

بَيِّنَاتٍ) (17 : 101) وَقَالَ : (وَآتَيْنَا عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ) (2 : 87) ثُمَّ قَالَ : (وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ) لِيَدُلَّ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ خَاصًّا بِمُوسَى وَعِيسَى وَاللهُ أَعْلَمُ .

(76/68)

وَقَالَ بَعْدَ مَا ذَكَرَ الْفَرِيقَيْنِ : (لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ) أَيْ سَوَاءٌ مِنْهُمْ مَنْ لَهُ كِتَابٌ يُؤْثَرُ وَمَنْ لَيْسَ لَهُ ذَلِكَ ، نُؤْمِنُ بِالْجَمِيعِ إِجْمَالًا وَنَأْخُذُ التَّفْصِيلَ عَنْ خَاتَمِهِمُ الَّذِي بَيَّنَ لَنَا أَصْلَ مِلَلِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا وَزَادَنَا مِنَ الْحِكَمِ وَالْأَحْكَامِ مَا يُنَاسِبُ هَذَا الزَّمَانَ وَمَا بَعْدَهُ مِنَ الْأَزْمَانِ ، وَالْعُمْدَةُ فِي الدِّينِ عَلَى إِسْلَامِ الْقَلْبِ لِلَّهِ – تَعَالَى – (وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ) : أَيْ مُذْعِنُونَ مُنْقَادُونَ كَمَا يَقْتَضِي الْإِيمَانُ الصَّحِيحُ وَلَسْتُمْ كَذَلِكَ أَهْلَ الْكِتَابِ ، وَإِنَّمَا أَنْتُمْ مُتَّبِعُونَ لِأَهْوَائِكُمْ وَتَقَالِيدِكُمْ لَا تَحُولُونَ عَنْهَا .

(فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا) قَالَ صَاحِبُ الْكَشَّافِ : إِنَّ الْآيَةَ تَعْرِيضٌ بِأَهْلِ الْكِتَابِ وَتَبْكِيتٌ لَهُمْ . وَقَالَ (الْجَلَالُ) : إِنَّ لَفْظَ (مِثْلِ) زَائِدٌ وَاسْتَنْكَرَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ ذَلِكَ وَاسْتَكْبَرَهُ كَعَادَتِهِ ، فَإِنَّهُ يُخَطِّئُ كُلَّ مَنْ يَقُولُ : إِنَّ فِي الْقُرْآنِ كَلِمَةً زَائِدَةً أَوْ حَرْفًا زَائِدًا .

وَقَالَ : إِنَّ لِمِثْلِ هُنَا مَعْنًى لَطِيفًا وَنُكْتَةً دَقِيقَةً ، وَذَلِكَ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَبِمَا أُنْزِلَ

عَلَى الْأَنْبِيَاءِ وَلَكِنْ طَرَأَتْ عَلَى إِيْمَانِهِمْ بِاللهِ نَزَغَاتُ الْوَثَنِيَّةِ ، وَأَضَاعُوا لُبَابَ مَا أُنْزِلَ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ وَهُوَ الْإِخْلَاصُ وَالتَّوْحِيدُ وَتَزْكِيَةُ النَّفْسِ وَالتَّأْلِيفُ بَيْنَ النَّاسِ ، وَتَمَسَّكُوا بِالْقُشُورِ وَهِيَ رُسُومُ

(77/68)

الْعِبَادَاتِ الظَّاهِرَةِ ، وَنَقَصُوا مِنْهَا وَزَادُوا عَلَيْهَا مَا يُبْعِدُ كُلًّا مِنْهُمْ عَنِ الْآخَرِ ، وَيَزِيدُ فِي عَدَاوَتِهِ وَبَغْضَائِهِ لَهُ ، فَفَسَقُوا عَنْ مَقْصِدِ الدِّينِ مِنْ حَيْثُ يَدَّعُونَ الْعَمَلَ بِالدِّينِ ، فَلَمَّا بَيَّنَ اللهُ لَنَا حَقِيقَةَ دِينِ الْأَنْبِيَاءِ وَأَنَّهُ وَاحِدٌ لَا خِلَافَ فِيهِ وَلَا تَفْرِيقَ ، وَأَنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَدَّعُونَ اتِّبَاعَ الْأَنْبِيَاءِ قَدْ ضَلُّوا عَنْهُ فَوَقَعُوا فِي الْخِلَافِ وَالشِّقَاقِ ، أَمَرَنَا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ نَدْعُوَهُمْ إِلَى الْإِيْمَانِ الصَّحِيحِ بِاللهِ وَبِمَا أُنْزِلَ عَلَى النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ بِأَنْ يُؤْمِنُوا بِمِثْلِ مَا نُؤْمِنُ نَحْنُ بِهِ لَا بِمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنِ ادِّعَاءِ حُلُولِ اللهِ فِي بَعْضِ الْبَشَرِ ، وَكَوْنِ رَسُولِهِمْ إِلَهًا أَوِ ابْنَ اللهِ ، وَمِنَ التَّفَرُّقِ وَالشِّقَاقِ لِأَجْلِ الْخِلَافِ فِي بَعْضِ الرُّسُومِ وَالتَّقَالِيدِ ، فَالَّذِي يُؤْمِنُونَ بِهِ فِي اللهِ لَيْسَ مِثْلَ الَّذِي نُؤْمِنُ بِهِ ، فَنَحْنُ نُؤْمِنُ بِالتَّنْزِيهِ ، وَهُمْ يُؤْمِنُونَ بِالتَّشْبِيهِ ، وَعَلَى ذَلِكَ الْقِيَاسُ ، فَلَوْ قَالَ : فَإِنْ آمَنُوا بِاللهِ وَبِمَا أُنْزِلَ عَلَى أُولَئِكَ النَّبِيِّينَ وَمَا أُوتُوهُ ، فَقَدِ اهْتَدَوْا لَكَانَ لَهُمْ أَنْ

يُجَادِلُونَا بِقَوْلِهِمْ : إِنَّنَا نَحْنُ الْمُؤْمِنُونَ بِذَلِكَ دُونَكُمْ ، وَلَفْظُ (مِثْلِ) هُوَ الَّذِي يَقْطَعُ عِرْقَ الْجَدَلِ .

(78/68)

عَلَى أَنَّ الْمُسَاوَاةَ فِي الْإِيمَانِ بَيْنَ شَخْصَيْنِ بِحَيْثُ يَكُونُ إِيمَانُ أَحَدِهِمَا كَإِيمَانِ الْآخَرِ فِي صِفَتِهِ وَقُوَّتِهِ وَانْطِبَاقِهِ عَلَى الْمُؤْمِنِ بِهِ ، وَمَا يَكُونُ فِي نَفْسِ كُلٍّ مِنْهُمَا مِنْ مُتَعَلَّقِ الْإِيمَانِ يَكَادُ يَكُونُ مُحَالًا ، فَكَيْفَ يَتَسَاوَى إِيمَانُ أُمَمٍ وَشُعُوبٍ كَثِيرَةٍ ، مَعَ الْخِلَافِ الْعَظِيمِ فِي طُرُقِ التَّعْلِيمِ وَالتَّرْبِيَةِ وَالْفَهْمِ وَالْإِدْرَاكِ ؟ وَلَوْ كَانَتِ الْقِرَاءَةُ : فَإِنْ آمَنُوا بِمَا آمَنْتُمْ بِهِ – كَمَا رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي الشَّوَاذِّ – لَكَانَ الْأَوْلَى أَنْ يُقَدَّرَ الْمِثْلُ ، فَكَيْفَ نَقُولُ وَقَدْ وَرَدَ لَفْظُ مِثْلٍ مُتَوَاتِرًا : إِنَّهُ زَائِدٌ ؟ .

(وَإِنْ تَوَلَّوْا) أَيْ أَعْرَضُوا عَمَّا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ مِنَ الرُّجُوعِ إِلَى أَصْلِ دِينِ الْأَنْبِيَاءِ وَلُبَابِهِ بِإِيمَانٍ كَإِيمَانِكُمْ (فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ) أَيْ إِنَّ أَمْرَهُمْ مَحْصُورٌ فِي الْعَدَاوَةِ وَالْمُشَاقَّةِ ، أَيِ الْإِيذَاءِ وَالْإِيقَاعِ فِي الْمَشَقَّةِ ، أَوْ شَقِّ الْعَصَا بِتَحَرِّي الْخِلَافِ وَالتَّعَصُّبِ لِمَا يَفْصِلُهُمْ وَيُبَيِّنُهُمْ مِنْكُمْ (فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) أَيْ يَكْفِيكَ إِيذَاءَهُمْ وَمَكْرَهُمْ

(79/68)

السَّيِّئَ وَيُؤَيِّدُ دَعْوَتَكَ ، وَيَنْصُرُ أُمَّتَكَ ؛ فَهَذَا الْوَعْدُ بِالْكِفَايَةِ عَامٌّ لِلْمُؤْمِنِينَ ، وَإِنْ كَانَ الْخِطَابُ خَاصًّا ، فَإِنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ وَغَيْرَهُمْ مَا شَاقُّوا النَّبِيَّ لِذَاتِهِ وَمَا كَانَ لَهُمْ حَظٌّ فِي مُقَاوَمَةِ شَخْصِهِ ، فَالْإِيذَاءُ كَانَ مُتَوَجِّهًا إِلَيْهِ مِنْ حَيْثُ هُوَ نَبِيٌّ يَدْعُو إِلَى دِينٍ غَيْرِ مَا كَانُوا عَلَيْهِ ، وَقَدْ أَنْجَزَ اللهُ وَعْدَهُ لِلنَّبِيِّ وَالْمُؤْمِنِينَ عِنْدَمَا كَانُوا عَلَى ذَلِكَ الْإِيمَانِ وَكَانَ النَّاسُ يُقَاوِمُونَهُمْ لِأَجْلِهِ ، فَلَمَّا انْحَرَفُوا مِنْ بَعْدِهِمْ عَنْهُ خَرَجُوا عَنِ الْوَعْدِ ، وَلَوْ عَادَ لَعَادَ اللهُ عَلَيْهِمْ بِالْكِفَايَةِ وَالنَّصْرِ (وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ) (22 : 40) .

(صِبْغَةَ اللهِ) أَيْ صُبِغْنَا بِمَا ذُكِرَ مِنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ صِبْغَةَ اللهِ وَفِطْرَتَهُ فُطِرْنَا عَلَيْهَا ، وَهِيَ مَا صَبَغَ اللهُ بِهِ أَنْبِيَاءَهُ وَرُسُلَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ مِنْ عِبَادِهِ عَلَى سُنَّةِ الْفِطْرَةِ ، فَلَا دَخْلَ فِيهَا لِلتَّقَالِيدِ الْوَضْعِيَّةِ وَلَا لِآرَاءِ الرُّؤَسَاءِ وَأَهْوَاءِ الزُّعَمَاءِ ، وَإِنَّمَا هُوَ مِنَ اللهِ – تَعَالَى – بِلَا وَاسِطَةٍ مُتَوَسِّطٍ وَلَا صُنْعِ صَانِعٍ ، وَالصِّبْغَةُ فِي أَصْلِ اللُّغَةِ صِيغَةٌ لِلْهَيْئَةِ مِنْ صَبَغَ الثَّوْبَ إِذَا لَوَّنَهُ بِلَوْنٍ خَاصٍّ (وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً) أَيْ لَا أَحْسَنَ مِنْ صِبْغَتِهِ فَهِيَ جِمَاعُ الْخَيْرِ الَّذِي يُؤَلِّفُ بَيْنَ الشُّعُوبِ وَالْقَبَائِلِ ، وَيُزَكِّي

النُّفُوسَ وَيُطَهِّرُ الْعُقُولَ وَالْقُلُوبَ . وَأَمَّا مَا أَضَافَهُ أَهْلُ الْكِتَابِ إِلَى الدِّينِ مِنْ آرَاءِ أَحْبَارِهِمْ وَرُهْبَانِهِمْ فَهُوَ مِنَ الصَّنْعَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ ، وَالصِّبْغَةِ الْبَشَرِيَّةِ قَدْ جَعَلَ الدِّينَ الْوَاحِدَ مَذَاهِبَ مُتَفَرِّقَةً مُفَرِّقَةً ، وَالْأُمَّةَ الْوَاحِدَةَ شِيَعًا مُتَنَافِرَةً مُتَمَزِّقَةً (وَنَحْنُ لَهُ) وَحْدَهُ (عَابِدُونَ) فَلَا نَتَّخِذُ أَحْبَارَنَا وَعُلَمَاءَنَا أَرْبَابًا يَزِيدُونَ فِي دِينِنَا وَيَنْقُصُونَ ، وَيُحِلُّونَ لَنَا بِآرَائِهِمْ وَيُحَرِّمُونَ ، وَيَمْحُونَ مِنْ نُفُوسِنَا صِبْغَةَ اللهِ الْمُوجِبَةَ لِلتَّوْحِيدِ ، وَيُثْبِتُونَ مَكَانَهَا صِبْغَةَ الْبَشَرِ الْقَاضِيَةَ بِالشِّرْكِ وَالتَّنْدِيدِ .

قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : وَالْآيَةُ تُشِيرُ إِلَى أَنَّهُ لَا حَاجَةَ فِي الْإِسْلَامِ إِلَى تَمْيِيزِ الْمُسْلِمِ مِنْ غَيْرِهِ بِأَعْمَالٍ صِنَاعِيَّةٍ كَالْمَعْمُودِيَّةِ عِنْدَ النَّصَارَى مَثَلًا ، وَإِنَّمَا الْمَدَارُ فِيهِ عَلَى مَا صَبَغَ اللهُ بِهِ الْفِطْرَةَ السَّلِيمَةَ مِنَ الْإِخْلَاصِ وَحُبِّ الْخَيْرِ وَالِاعْتِدَالِ ، وَالْقَصْدِ فِي الْأُمُورِ (فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) (30 : 30) :

(قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا

وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللهِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

هَذَا ضَرْبٌ آخَرُ مِنْ مُحَاجَّةِ أَهْلِ الْكِتَابِ جَارٍ عَلَى نَسَقِ سَابِقِهِ مُؤْتَلِفٌ مَعَهُ مُتَّصِلٌ بِهِ غَيْرُ مُنْقَطِعٍ وَلَا نَازِلٍ فِي وَاقِعَةٍ خَاصَّةٍ لِلرَّدِّ عَلَى كَلِمَاتٍ قَالَهَا الْيَهُودُ كَمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ (الْجَلَالُ) وَغَيْرُهُ إِذْ قَالُوا : إِنَّ الْيَهُودَ قَالُوا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ جَمِيعُ النَّاسِ تَابِعِينَ لَنَا فِي الدِّينِ ؛ لِأَنَّ الْأَنْبِيَاءَ مِنَّا وَالشَّرِيعَةَ نَزَلَتْ عَلَيْنَا ، وَلَمْ يُعْهَدْ فِي الْعَرَبِ أَنْبِيَاءُ وَلَا شَرَائِعُ ، نَعَمْ لَا نُنْكِرُ صُدُورَ هَذَا الْقَوْلِ مِنَ الْيَهُودِ ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا يَقُولُونَ مِثْلَهُ دَائِمًا ، وَإِنَّمَا نَقُولُ : إِنَّ الْآيَاتِ مُتَنَاسِقَةٌ مَعَ مَا قَبْلَهَا مُتَمِّمَةٌ لَهُ ، مُزِيلَةٌ لِشُبُهَاتٍ كَانَتْ فَاشِيَةً فِي الْقَوْمِ فِي كُلِّ مَكَانٍ ، لَا خَاصَّةً بِرَدِّ قَوْلِ لِأَحَدِ يَهُودِ الْحِجَازِ .

الْآيَاتُ السَّابِقَةُ بَيَّنَتْ أَنَّ الْمِلَّةَ الصَّحِيحَةَ هِيَ مِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ ، وَهِيَ لَمْ تَكُنْ يَهُودِيَّةً وَلَا نَصْرَانِيَّةً ، وَإِنَّمَا هِيَ صِبْغَةُ اللهِ الَّتِي لَا صُنْعَ لِأَحَدٍ فِيهَا ، بَلْ هِيَ بَرِيئَةٌ مِنِ اصْطِلَاحَاتِ النَّاسِ

وَتَقَالِيدِ الرُّؤَسَاءِ فَهِيَ الْجَدِيرَةُ بِالِاتِّبَاعِ ، وَلَكِنَّ التَّقَالِيدَ وَالْأَوْضَاعَ قَدْ طَمَسَتْهَا بَعْدَمَا جَرَى الْأَنْبِيَاءُ عَلَيْهَا .

وَحَلَّتْ تِلْكَ التَّقَالِيدُ مَحِلَّهَا حَتَّى ذَابَتْ هِيَ فِيهَا ، وَخَفِيَتْ فَلَمْ تَعُدْ تُعْرَفُ ، وَلِذَلِكَ جَاءَ مُحَمَّدٌ

–

عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ – بِبَيَانِهَا ، وَدَعْوَةِ النَّاسِ إِلَى الرُّجُوعِ إِلَيْهَا ، فَيُبَيِّنُ – تَعَالَى – بِتِلْكَ الْمُحَاجَّةِ الْحَقَّ الَّذِي يَجِبُ التَّعْوِيلُ عَلَيْهِ ، ثُمَّ أَخَذَ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ يُزِيلُ الْمَوَانِعَ وَيُبْطِلُ الشُّبُهَاتِ الْمُعْتَرِضَةَ فِي طَرِيقِ ذَلِكَ الْحَقِّ ، فَأَمَرَ نَبِيَّهُ بِمَا تَرَى مِنَ الْحُجَّةِ فِي قَوْلِهِ : (قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللهِ) بِدَعْوَاكُمُ الِاخْتِصَاصَ بِالْقُرْبِ مِنْهُ ، وَزَعْمِكُمْ أَنَّكُمْ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ، وَأَنَّهُ لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى ، وَمِنْ أَيْنَ جَاءَكُمْ هَذَا الْقُرْبُ وَالِاخْتِصَاصُ بِاللهِ دُونَنَا (وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ) وَرَبُّ الْعَالَمِينَ ، فَنِسْبَةُ

الْجَمِيعِ إِلَيْهِ وَاحِدَةٌ : هُوَ الْخَالِقُ وَهُمُ الْمَخْلُوقُونَ ، وَهُوَ الرَّبُّ وَهُمُ الْمَرْبُوبُونَ ، وَإِنَّمَا يَتَفَاضَلُونَ بِالْأَعْمَالِ الْبَدَنِيَّةِ وَالنَّفْسِيَّةِ (وَلَنَا أَعْمَالُنَا) الَّتِي تَخْتَصُّ آثَارُهَا بِنَا إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ

، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ (وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ) كَذَلِكَ ، وَرُوحُ الْأَعْمَالِ كُلِّهَا الْإِخْلَاصُ ، فَهُوَ وَحْدَهُ الَّذِي يَجْعَلُهَا مُقَرِّبَةً لِصَاحِبِهَا مِنَ اللهِ وَوَسِيلَةً لِمَرْضَاتِهِ (وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ) مِنْ دُونِكُمْ ، فَإِنَّكُمُ اتَّكَلْتُمْ عَلَى أَنْسَابِكُمْ وَأَحْسَابِكُمْ ، وَاغْتَرَرْتُمْ بِمَا كَانَ مِنْ صَلَاحِ آبَائِكُمْ وَأَجْدَادِكُمْ ، وَاتَّخَذْتُمْ لَكُمْ وُسَطَاءَ وَشُفَعَاءَ مِنْهُمْ تَعْتَمِدُونَ عَلَى جَاهِهِمْ ، مَعَ انْحِرَافِكُمْ عَنْ صِرَاطِهِمْ ، وَمَا هُوَ إِلَّا التَّقَرُّبُ إِلَى اللهِ – تَعَالَى – بِإِحْسَانِ الْأَعْمَالِ ، مَعَ الْإِخْلَاصِ الْمَبْنِيِّ عَلَى صِدْقِ الْإِيمَانِ ، وَهُوَ مَا نَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ الْآنَ ، فَكَيْفَ تَزْعُمُونَ أَنَّ الْإِدْلَاءَ إِلَى ذَلِكَ السَّلَفِ الصَّالِحِ بِالنَّسَبِ ، وَالتَّوَسُّلَ إِلَيْهِمْ بِالْقَوْلِ هُوَ الَّذِي يَنْفَعُ عِنْدَ اللهِ – تَعَالَى – وَأَنَّ الِاسْتِقَامَةَ عَلَى صِرَاطِهِمُ الْمُسْتَقِيمِ وَالتَّوَسُّلَ إِلَى اللهِ – تَعَالَى – بِمَا كَانُوا يَتَوَسَّلُونَ إِلَيْهِ بِهِ مِنْ صَالِحِ الْأَعْمَالِ وَالْإِخْلَاصِ فِي الْقَلْبِ لَا يَنْفَعُ وَلَا يُفِيدُ ، وَمَا كَانَ سَلَفُكُمْ مَرْضِيًّا عِنْدَ اللهِ – تَعَالَى – إِلَّا بِهِ ؟ هَلْ كَانَ إِبْرَاهِيمُ مُقَرَّبًا مِنَ اللهِ – تَعَالَى – بِأَبِيهِ (آزَرَ) الْمُشْرِكِ ، أَمْ كَانَ قُرْبُهُ وَفَضْلُهُ بِإِخْلَاصِهِ وَإِسْلَامِ قَلْبِهِ إِلَى رَبِّهِ ؟

فَكَمَا جَعَلَ اللهُ النُّبُوَّةَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَجَعَلَهُ إِمَامًا لِلنَّاسِ فِي الْإِسْلَامِ وَالْإِخْلَاصِ جَعَلَهَا كَذَلِكَ فِي مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فَإِذَا صَحَّ لَكُمْ إِنْكَارُ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي

سَلَفِهِ الْعَرَبِ أَنْبِيَاءُ فَأَنْكَرُوا نُبُوَّةَ إِبْرَاهِيمَ ، فَإِنَّ الْعِلَّةَ وَاحِدَةٌ ، فَكَيْفَ لَا يَتَّحِدُ الْمَعْلُولُ ؟

وَحَاصِلُ مَعْنَى الْآيَةِ : إِبْطَالُ مَعْنَى شُبْهَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ أَنَّهُمْ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ، وَأَنَّهُ لَا يَنْجُو مَنْ كَانَ عَلَى غَيْرِ طَرِيقَتِهِمْ ، وَإِنْ أَحْسَنَ فِي عَمَلِهِ وَأَخْلَصَ فِي قَصْدِهِ ، وَأَنَّهُمْ هُمُ النَّاجُونَ الْفَائِزُونَ وَإِنْ أَسَاءُوا عَمَلًا وَنِيَّةً ؛ لِأَنَّ أَنْبِيَاءَهُمْ هُمُ الَّذِينَ يُنْجُونَهُمْ وَيُخَلِّصُونَهُمْ بِجَاهِهِمْ ، فَالْفَوْزُ عِنْدَهُمْ بِعَمَلِ سَلَفِهِمْ لَا بِصَلَاحِ أَنْفُسِهِمْ وَلَا أَعْمَالِهِمْ ، وَهَذَا الِاعْتِقَادُ هَدْمٌ لِدِينِ اللهِ الَّذِي بَعَثَ بِهِ جَمِيعَ أَنْبِيَائِهِ وَدَرَجَ عَلَيْهِ مَنِ اتَّبَعَ سَبِيلَهُمْ ، فَإِنَّ رُوحَ الدِّينِ الْإِلَهِيِّ وَمِلَاكَهُ هُوَ التَّوْحِيدُ وَالْإِخْلَاصُ الْمُعَبَّرُ عَنْهُ بِالْإِسْلَامِ ، وَكُلُّ عَمَلٍ أَمَرَ بِهِ الدِّينُ فَإِنَّمَا الْغَرَضُ مِنْهُ إِصْلَاحُ الْقَلْبِ وَالْعَقْلِ بِسَلَامَةِ الِاعْتِقَادِ وَحُسْنِ الْقَصْدِ ، فَإِذَا زَالَ هَذَا الْمَعْنَى وَحُفِظَتْ جَمِيعُ الْأَعْمَالِ الصُّورِيَّةِ فَإِنَّهَا لَا تُفِيدُ شَيْئًا ، بَلْ إِنَّهَا تَضُرُّ بِدُونِهِ ، لِأَنَّهَا تَشْغَلُ الْإِنْسَانَ بِمَا لَا يُفِيدُ ، وَتَصُدُّهُ عَنِ الْمُفِيدِ

وَلَا شَكَّ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ كَانُوا قَدْ أَزْهَقُوا هَذَا الرُّوحَ الْإِلَهِيَّ مِنْ دِينِهِمْ ، فَسَوَاءٌ كَانَ مَا حَفِظُوهُ مِنَ التَّقَالِيدِ وَالْأَعْمَالِ مَأْثُورًا عَنْ أَنْبِيَائِهِمْ أَمْ غَيْرَ مَأْثُورٍ ، إِنَّهُمْ لَيْسُوا عَلَى دِينِ اللهِ ، وَمَنْ كَانَ عَلَى بَصِيرَةٍ مِنْهُمْ عَرَفَ أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – هُوَ إِحْيَاءٌ

لِرُوحِ الدِّينِ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ جَمِيعُ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ ، وَتَكْمِيلٌ لِشَرَائِعِهِ وَآدَابِهِ بِمَا يَصْلُحُ لِجَمِيعِ الْبَشَرِ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ .

ثُمَّ إِنَّ مَنْ تَأَمَّلَ هَذَا وَتَأَمَّلَ حَالَ الْمُسْلِمِينَ يَظْهَرُ لَهُ أَنَّهُمْ قَدِ اتَّبَعُوا سَنَنَ مَنْ قَبْلَهُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ ، وَسَيَرْجِعُ مَنْ يُرِيدُ اللهُ بِهِمُ الْخَيْرَ إِلَى دِينِ اللهِ – تَعَالَى – بِالرُّجُوعِ إِلَى كِتَابِهِ الَّذِي حَرَّمَ عَلَيْهِمْ تَقْلِيدَ آرَاءِ النَّاسِ فَجَاوَزُوهُ بِأَنْ حَرَّمُوا الْعَمَلَ بِهِ ، كَمَا رَجَعَ الْأُلُوفُ وَأُلُوفُ الْأُلُوفِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَى ذَلِكَ فِي الْقُرُونِ الْأُولَى مِنْ ظُهُورِ الْإِسْلَامِ ، وَسَيَرْجِعُ غَيْرُهُمْ مِنْ سَائِرِ الْبَشَرِ إِلَيْهِ فَيَعُمُّ الْعَالَمِينَ (وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ) (38 : 88)

(أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى) ؟

قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : إِنَّ (أَمْ) هُنَا مُعَادِلَةٌ لِمَا قَبْلَهَا خِلَافًا (لِلْجَلَالِ) وَمَنْ عَلَى رَأْيِهِ الْقَائِلِينَ : إِنَّهَا بِمَعْنَى بَلْ ، كَأَنَّهُ قَالَ : أَتَقُولُونَ : إِنَّ هَذَا الِامْتِيَازَ لَكُمْ عَلَيْنَا وَالِاخْتِصَاصَ بِالْقُرْبِ مِنَ اللهِ دُونَنَا هُوَ مِنَ اللهِ ، وَالْحَالُ أَنَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ . . . إِلَخْ ؟ أَمْ تَقُولُونَ : إِنَّ امْتِيَازَ الْيَهُودِيَّةِ أَوِ النَّصْرَانِيَّةِ الَّتِي أَنْتُمْ عَلَيْهَا بِأَنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا عَلَيْهَا ؟ إِنْ كُنْتُمْ تَقُولُونَ هَذَا فَإِنَّ اللهَ يُكَذِّبُكُمْ فِيهِ ، وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَيْضًا أَنَّ اسْمَيِ الْيَهُودِيَّةِ

وَالنَّصْرَانِيَّةِ حَدَثَا بَعْدَ هَؤُلَاءِ ، بَلْ حَدَثَ اسْمُ الْيَهُودِيَّةِ بَعْدَ مُوسَى ، وَاسْمُ النَّصْرَانِيَّةِ بَعْدَ عِيسَى ، كَمَا حَدَثَ لِلْيَهُودِ تَقَالِيدُ كَثِيرَةٌ صَارَ مَجْمُوعُهَا مُمَيِّزًا لَهُمْ . وَأَمَّا النَّصَارَى فَجَمِيعُ تَقَالِيدِهِمُ الْخَاصَّةِ بِهِمُ الْمُمَيِّزَةِ لِلنَّصْرَانِيَّةِ حَادِثَةٌ ، فَإِنَّ عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - كَانَ عَدُوَّ التَّقَالِيدِ ، وَلِهَذَا كَانَ النَّصَارَى عَلَى كَثْرَةِ مَا أَحْدَثُوا أَقْرَبَ إِلَى الْإِسْلَامِ ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَنْسُوا جَمِيعًا كَيْفَ زَلْزَلَ (رُوحُ اللهِ) تَقَالِيدَ الْيَهُودِ الظَّاهِرَةَ مَا كَانَ مِنْهَا فِي التَّوْرَاةِ وَمَا لَمْ يَكُنْ ، وَلَكِنَّ الَّذِينَ ادَّعَوُا اتِّبَاعَهُ زَادُوا عَلَيْهِمْ مِنْ بَعْدِهِ فِي ابْتِدَاعِ التَّقَالِيدِ وَالرُّسُومِ .

(87/68)

وَزَعَمَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي الرَّدِّ عَلَى الْيَهُودِ ، إِذْ كَانُوا يَقُولُونَ : إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ يَهُودِيًّا ، وَعَلَى النَّصَارَى إِذْ كَانُوا يَقُولُونَ : إِنَّهُ كَانَ نَصْرَانِيًّا ، قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : وَهَذَا غَيْرُ صَحِيحٍ . كَلَّا إِنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي إِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ بِأَنَّهُمْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ عَلَى الْحَقِّ وَأَنَّ مِلَّتَهُ هِيَ الْمِلَّةُ الْإِلَهِيَّةُ الْمَرْضِيَّةُ عِنْدَ اللهِ - تَعَالَى - وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ وَكَانَتْ هَذِهِ التَّقَالِيدُ الَّتِي تَقَلَّدُوهَا غَيْرَ مَعْرُوفَةٍ عَلَى عَهْدِ إِبْرَاهِيمَ فَمَا بَالُهُمْ صَارُوا يَنُوطُونَ النَّجَاةَ بِهَا ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّ مَا عَدَاهَا كُفْرٌ وَضَلَالٌ ؟ فَهُوَ لَا يُثْبِتُ لَهُمُ الْقَوْلَ بِأَنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا ، وَإِنَّمَا يَقُولُ : إِنَّهُمْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى الْقَوْلِ بِذَلِكَ لِأَنَّ

الْبَدَاهَةَ قَاضِيَةٌ بِكَذِبِهِمْ فِيهِ ، وَلِذَلِكَ قَالَ

لِنَبِيِّهِ (قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللهُ) أَيْ إِذَا كَانَ اللهُ قَدِ ارْتَضَى لِلنَّاسِ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ بِاعْتِرَافِكُمْ وَتَصْدِيقِ كُتُبِكُمْ ، وَذَلِكَ قَبْلَ وُجُودِ الْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ ، فَلِمَاذَا لَا تَرْضَوْنَ أَنْتُمْ تِلْكَ الْمِلَّةَ لِأَنْفُسِكُمْ ؟ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ بِالْمَرْضِيِّ عِنْدَ اللهِ أَمِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُرْضِيهِ وَمَا لَا يُرْضِيهِ ؟ لَا شَكَّ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ .

وَقَدْ صَرَّحَ ابْنُ جَرِيرٍ الطَّبَرِيُّ بِأَنَّ قِرَاءَةَ (أَمْ يَقُولُونَ) بِالتَّحْتِيَّةِ شَاذَّةٌ ، وَعَلَى الْقَوْلِ بِأَنَّهَا سَبْعِيَّةٌ يَكُونُ فِي الْكَلَامِ الْتِفَاتٌ . (وَأَقُولُ) : قِرَاءَةُ التَّاءِ هِيَ لِابْنِ عَامِرٍ وَحَمْزَةَ وَالْكِسَائِيِّ وَحَفْصٍ ، وَهِيَ لِلْخِطَابِ ، وَقِرَاءَةُ الْيَاءِ لِلْبَاقِينَ ، فَلَا عِبْرَةَ بِعَدِّ ابْنِ جَرِيرٍ إِيَّاهَا شَاذَّةً .

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللهِ) ؟ فِي هَذَا الِاسْتِفْهَامِ وَجْهَانِ :

أَحَدُهُمَا : أَنَّهُ مُتَمِّمٌ لِمَا قَبْلَهُ مِنْ إِقَامَةِ الْحُجَّةِ بِمِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ ، يَقُولُ : إِنَّ عِنْدَكُمْ شَهَادَةً مِنَ اللهِ بِأَنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ عَلَى حَقٍّ ، وَكَانَ مَرْضِيًّا عِنْدَ اللهِ – تَعَالَى – فَإِذَا كَتَمْتُمْ ذَلِكَ لِأَجْلِ الطَّعْنِ بِالْإِسْلَامِ ، فَقَدْ كَتَمْتُمْ شَهَادَةَ اللهِ ، وَكُنْتُمْ أَظْلَمَ الظَّالِمِينَ ، وَإِذَا اعْتَرَفْتُمْ بِهِ فَإِمَّا أَنْ تَقُولُوا :

إِنَّكُمْ أَنْتُمْ أَعْلَمُ مِنَ اللهِ بِمَا يُرْضِيهِ ، وَإِمَّا أَنْ تَقُومَ عَلَيْكُمُ الْحُجَّةُ وَتَحِقَّ عَلَيْكُمُ الْكَلِمَةُ إِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا بِمَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ مِنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ ، وَأَحَدُ الْأَمْرَيْنِ ثَابِتٌ ، لَا يَقْبَلُ مُرَاوَغَةً مُبَاهِتٍ .

(89/68)

وَالْوَجْهُ الثَّانِي – وَهُوَ أَظْهَرُ – أَنَّ الشَّهَادَةَ الْمَكْتُومَةَ هِيَ شَهَادَةُ الْكِتَابِ الْمُبَشِّرَةِ بِأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ فِيهِمْ نَبِيًّا مِنْ بَنِي إِخْوَتِهِمْ ، وَهُمُ الْعَرَبُ أَبْنَاءُ إِسْمَاعِيلَ ، وَكَانُوا – وَلَا يَزَالُونَ – يَكْتُمُونَهَا بِالْإِنْكَارِ عَلَى غَيْرِ الْمُطَّلِعِ عَلَى التَّوْرَاةِ وَبِالتَّحْرِيفِ عَلَى الْمُطَّلِعِ ، فَهُوَ يُبَيِّنُ هُنَا – بَعْدَ إِقَامَةِ الْحُجَّةِ بِإِبْرَاهِيمَ عَلَى أَنَّ زَعْمَهُمْ حَصْرَ الْوَحْيِ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ بَاطِلٌ – أَنَّ هُنَاكَ شَهَادَةً صَرِيحَةً بِأَنَّ اللهَ سَيَبْعَثُ فِيهِمْ نَبِيًّا مِنَ الْعَرَبِ ، فَكَانَ هَذَا دَلِيلًا ثَالِثًا وَرَاءَ الدَّلِيلِ الْعَقْلِيِّ الْمُشَارِ إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ : (وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ) وَالدَّلِيلِ الْإِلْزَامِيِّ الْمُشَارِ إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ : (أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ) . . . إِلَخْ ، فَكَأَنَّهُ يَقُولُ :

(90/68)

إِنْ هَؤُلَاءِ إِلَّا مُجَادِلُونَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ ، مُبَاهِتُونَ لِلنَّبِيِّ مَعَ الْعِلْمِ بِأَنَّهُ نَبِيٌّ ، إِذْ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَشْتَبِهُوا فِي أَمْرِهِ بَعْدَ شَهَادَةِ كِتَابِهِمْ لَهُ ؛ فَإِذَا كَانَ ظُلْمُهُمْ أَنْفُسَهُمْ قَدِ انْتَهَى بِهِمْ إِلَى آخِرِ حُدُودِ الظُّلْمِ – وَهُوَ كِتْمَانُ شَهَادَةِ اللهِ – تَعَالَى – تَعَصُّبًا لِجِنْسِيَّتِهِمُ الدِّينِيَّةِ ، الَّتِي ارْتَبَطَ بِهَا الرُّؤَسَاءُ بِالْمَرْءُوسِينَ بِرَوَابِطِ الْمَنَافِعِ الدُّنْيَوِيَّةِ مِنْ مَالٍ وَجَاهٍ – فَكَيْفَ يُنْتَظَرُ مِنْهُمْ أَنْ يُصْغُوا إِلَى بَيَانٍ ، أَوْ يَخْضَعُوا لِبُرْهَانٍ ؟ وَالِاسْتِفْهَامُ هُنَا يَتَضَمَّنُ التَّوْبِيخَ وَالتَّقْرِيعَ الْمُؤَكَّدَيْنِ بِالْوَعِيدِ فِي قَوْلِهِ : (وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) ، وَإِنَّمَا الْجَزَاءُ عَلَى الْأَعْمَالِ ، ثُمَّ خَتَمَ الْمُحَاجَّةَ بِتَأْكِيدِ أَمْرِ الْعَمَلِ ، وَعَدَمِ فَائِدَةِ النَّسَبِ فَقَالَ :

(تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ) وَإِنَّمَا تُسْأَلُونَ عَنْ أَعْمَالِكُمْ وَتُجَازَوْنَ عَلَيْهَا ، فَلَا يَنْفَعُكُمْ وَلَا يَضُرُّكُمْ سِوَاهَا ، وَهَذِهِ قَاعِدَةٌ يُثْبِتُهَا كُلُّ دِينٍ قَوِيمٍ ، وَكُلُّ عَقْلٍ سَلِيمٍ ، وَلَكِنَّ قَاعِدَةَ الْوَثَنِيَّةِ الْقَاضِيَةَ بِاعْتِمَادِ النَّاسِ فِي طَلَبِ سَعَادَةِ الْآخِرَةِ ، وَبَعْضِ مَصَالِحِ الدُّنْيَا عَلَى كَرَامَاتِ الصَّالِحِينَ تَغْلِبُ مَعَ الْجَهْلِ كُلَّ دِينٍ وَكُلَّ عَقْلٍ ،

وَمَنَعَ الْجَهْلُ التَّقْلِيدَ الْمَانِعَ مِنَ النَّظَرِ فِي الْأَدِلَّةِ الْعَقْلِيَّةِ وَالدِّينِيَّةِ جَمِيعًا ، اللَّهُمَّ إِلَّا مُكَابَرَةَ الْحِسِّ وَالْعَقْلِ ، وَتَأْوِيلَ نُصُوصِ الشَّرْعِ ، تَطْبِيقًا لَهُمَا عَلَى مَا يَقُولُ الْمُقَلَّدُونَ الْمُتَّبَعُونَ (بِفَتْحِ اللَّامِ وَالْبَاءِ) وَقَدْ أَوَّلَ الْمُؤَوِّلُونَ نُصُوصَ أَدْيَانِهِمْ تَقْرِيرًا لِاتِّبَاعِ رُؤَسَائِهِمْ وَالِاعْتِمَادِ عَلَى جَاهِهِمْ فِي الْآخِرَةِ ؛ لِذَلِكَ جَاءَ الْقُرْآنُ يُبَالِغُ فِي تَقْرِيرِ قَاعِدَةِ ارْتِبَاطِ السَّعَادَةِ بِالْعَمَلِ وَالْكَسْبِ وَتَبْيِينِهَا ، وَنَفْيِ الِانْتِفَاعِ بِالْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ لِمَنْ لَمْ يَتَأَسَّ بِهِمْ فِي الْعَمَلِ الصَّالِحِ ؛ وَلِذَلِكَ أَعَادَ هَذِهِ الْآيَةَ بِنَصِّهَا فِي مَقَامِ مُحَاجَّةِ أَهْلِ الْكِتَابِ الْمُفْتَخِرِينَ بِسَلَفِهِمْ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ الْعِظَامِ ، الْمُعْتَمِدِينَ عَلَى شَفَاعَتِهِمْ وَجَاهِهِمْ وَإِنْ قَصَّرُوا عَنْ غَيْرِهِمْ فِي الْأَعْمَالِ . وَفَائِدَةُ الْإِعَادَةِ تَأْكِيدُ تَقْرِيرِ قَاعِدَةِ بِنَاءِ السَّعَادَةِ عَلَى الْعَمَلِ دُونَ الْآبَاءِ وَالشُّفَعَاءِ ، بِحَيْثُ لَا يَطْمَعُ فِي تَأْوِيلِ الْقَوْلِ طَامِعٌ ، وَالْإِشْعَارُ بِمَعْنًى يُعْطِيهِ السِّيَاقُ هُنَا وَهُوَ : أَنَّ أَعْمَالَ هَؤُلَاءِ الْمُجَادِلِينَ الْمُشَاغِبِينَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مُخَالِفَةٌ لِأَعْمَالِ سَلَفِهِمْ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ ، فَهُمْ فِي الْحَقِيقَةِ عَلَى غَيْرِ دِينِهِمْ .

وَقَدْ سَبَقَ الْقَوْلُ بِأَنَّ الْآيَةَ أَفَادَتْ فِي وَضْعِهَا الْأَوَّلِ : أَنَّ إِبْرَاهِيمَ وَبَنِيهِ وَحَفَدَتَهُ ، قَدْ مَضَوْا إِلَى رَبِّهِمْ بِسَلَامَةِ قُلُوبِهِمْ وَإِخْلَاصِهِمْ فِي أَعْمَالِهِمْ ، وَانْقَطَعَتِ النِّسْبَةُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَنْ جَاءَ

بَعْدَهُمْ فَتَنَكَّبَ طَرِيقَهُمْ ، وَانْحَرَفَ عَنْ صِرَاطِهِمْ ، وَإِنْ أَدْلَى إِلَيْهِمْ بِالنَّسَبِ ، فَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ مَجْزِيٌّ بِعَمَلِهِ ، لَا يَنْفَعُ أَحَدًا مِنْهُمْ عَمَلُ غَيْرِهِ مِنْ حَيْثُ هُوَ عَمَلُ ذَلِكَ الْغَيْرِ وَلَا شَخْصُهُ بِالْأَوْلَى ، وَذَلِكَ أَنَّهَا جَاءَتْ عَقِبَ بَيَانِ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِيصَاءِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا بِهَا ، وَبَيَانِ دُرُوجِهِمْ عَلَيْهَا ، ثُمَّ جَاءَ بَعْدَ ذَلِكَ الِاحْتِجَاجُ عَلَى الْقَوْمِ بِمَنْ يَعْتَقِدُونَ فِيهِمُ الْخَيْرَ وَالْكَمَالَ ، وَكَوْنُهُمْ لَمْ يَكُونُوا عَلَى هَذِهِ الْيَهُودِيَّةِ وَلَا هَذِهِ النَّصْرَانِيَّةِ اللَّتَيْنِ حَدَثَتَا بَعْدَهُمْ ، فَجَاءَتْ قَاعِدَةُ الْأَعْمَالِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ تُبَيِّنُ أَنَّ الْمُتَخَالِفِينَ فِي الْأَعْمَالِ وَالْمَقَاصِدِ لَا يَكُونُونَ مُتَّحِدِينَ فِي الدِّينِ وَلَا مُتَسَاوِينَ فِي الْجَزَاءِ ، فَأَفَادَتْ هُنَا مَا لَمْ تُفِدْهُ هُنَاكَ . وَلِلْمُسْلِمِينَ أَنْ يُحَاسِبُوا أَنْفُسَهُمْ ، وَيُحَكِّمُوا قَاعِدَةَ الْعَمَلِ وَالْجَزَاءِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ سَلَفِهِمْ ، وَلَا يَغْتَرُّوا بِالتَّسْمِيَةِ إِنْ كَانُوا يَعْقِلُونَ .

(93/68)

وَأَزِيدُ عَلَى مَا تَقَدَّمَ أَنَّ انْتِفَاعَ النَّاسِ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ فِي الدُّنْيَا إِنَّمَا يَكُونُ بِمُقْتَضَى سُنَنِ اللهِ – تَعَالَى – فِي الْأَسْبَابِ وَالْمُسَبَّبَاتِ ، وَمِنَ الْمَعْلُومِ شَرْعًا وَعَقْلًا : أَنَّ الْمَيِّتَ يَنْقَطِعُ عَمَلُهُ بِخُرُوجِهِ مِنْ عَالَمِ الْأَسْبَابِ إِلَى الْبَرْزَخِ مِنْ عَالَمِ الْغَيْبِ ، وَأَمَّا الْآخِرَةُ فَلَا كَسْبَ فِيهَا ، وَأَمْرُهَا إِلَى اللهِ وَحْدَهُ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا ، كَمَا قَالَ – تَعَالَى – : (يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا

وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ) (82 : 19) . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير المنار حـ 1 صـ 394. 404 ﴾

(94/68)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (141) ﴾

بعض الناس يقول إن هذه الآية مكررة فقد تقدمتها آية تقول :

أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (133) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (134)

(سورة البقرة)

بعض السطحيين يقولون إن في هاتين الآيتين تكرارا . . نقول إنك لم تفهم المعنى . . الآية الأولى تقول لليهود إن نسبكم إلي إبراهيم واسحق لن يشفع لكم عند الله بما حرفتموه

وغيرتموه في التوراة . . وبما تفعلونه من غير ما شرع الله . فاعملوا أن عملكم هو الذى ستحاسبون عليه وليس نسبكم .

(95/68)

أما في الآية التي نحن بصددها فقد قالوا إن إبراهيم وإسماعيل واسحق كانوا هودا أو نصارى . . الله تبارك وتعالى لا يجادلهم وإنما يقول لهم لنفرض . وهذا فرض غير صحيح . إن إبراهيم وإسماعيل واسحق كانوا هودا أو نصارى فهذا لن يكون عذرا لكم . . لأن لهم ما كسبوا ولكم ما كسبتم ، فلا تأخذوا ذلك حجة على الله يوم القيامة . . ولا تقولوا إننا كنا نحسب أن إبراهيم وإسماعيل واسحق كانوا هودا أو نصارى أي كانوا على غير دين الإسلام لأن هذه حجة غير مقبولة . . وهل أنتم أعلم أم الله سبحانه الذي يشهد بأنهم كانوا مسلمين . إياك أن تقول إن هناك تكراراً . . فإن السياق في الآية الأولى يقول لا شفاعة لكم يوم القيامة في نسبكم إلى إبراهيم وإسماعيل واسحق . . والسياق في الآية الثانية يقول لا حجة لكم يوم القيامة في قولكم إنهم كانوا هودا أو نصارى . . فلن ينفعكم نسبكم إليهم ولن يقبل الله حجتكم . . وهكذا فإن المعنى مختلف تماما يمس موقفين مختلفين يوم القيامة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 622.621 ﴾

"فصل"

قال السيوطى :

قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ (139) أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (140) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (141)

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ أتحاجوننا في الله ﴾ قال : أتخاصموننا ؟

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله ﴿ أتحاجوننا ﴾ تجادلوننا ؟

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد في قوله ﴿ ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله ﴾ قال : في قول يهود لإبراهيم وإسمعيل ومن ذكر معهما أنهم كانوا يهوداً أو نصارى ، فيقول الله لهم : لا تكتموا مني شهادة إن كانت عندكم ، وقد علم الله أنهم كاذبون .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة في قوله ﴿ ومن أظلم ممن كتم شهادة . . . ﴾

الآية. قال: أولئك أهل الكتاب كتموا الإسلام وهم يعلمون أنه دين الله، واتخذوا اليهودية والنصرانية وكتموا محمداً وهم يعلمون أنه رسول الله.

وأخرج ابن جرير عن الحسن في قوله ﴿ ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله ﴾ قال: كان عند القوم من الله شهادة أن أنبياءه برآء من اليهودية والنصرانية.

وأخرج ابن جرير عن قتادة والربيع في قوله ﴿ تلك أمة قد خلت ﴾ قالا: يعني إبراهيم وإسمعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط.

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي المليح قال: الأمة ما بين الأربعين إلى المائة فصاعداً. انتهى انتهى. اهـ ﴿الدر المنثور حـ 1 صـ 342.341﴾

(97/68)

"فصل"

قال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة:

﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (135) قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ

وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (136) فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (137) صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ (138) قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ (139) أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (140) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (141) ﴾

التفسير : إنه تعالى لما بين بالدلائل المتقدمة صحة دين الإسلام ، ذكر أنواعاً من شبه الطاعنين منها : أن اليهود قالوا ﴿ كونوا هوداً ﴾ تهتدوا ، والنصارى قالوا كذلك ، لما علم من التعادي بين الفريقين كما بين كل منهما وبين

المسلمين وقد مر مثل هذا في قوله تعالى ﴿ وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى ﴾ [البقرة : 111] فأجابهم الله بقوله ﴿ قل بل ملة إبراهيم ﴾ أي نكون أهل ملته مثل ﴿ واسئل القرية ﴾ [يوسف : 82] أي أهلها ، أو بل نتبع ملة إبراهيم وقرئ

بالرفع أي ملتنا أو أمرنا ملته أو نحن أهل ملته ، وحنيفاً حال من المضاف إليه كقولك " رأيت وجه هند قائمة " وذلك أن المضاف إليه متضمن للحرف فيقتضي متعلقاً هو الفعل أو شبهه ، وحينئذ يشتمل على فاعل ومفعول . فالحال عن المضاف إليه ترجع في التحقيق إلى الحال عن أحدهما وعند الكوفيين نصب على القطع أراد ملة إبراهيم الحنيف ، فلما سقطت الألف واللام لم تتبع النكرة المعرفة فانقطع منها فانتصب ، والحنيف المائل عن كل دين باطل إلى دين الحق ، وتحنف إذا مال وحاصل الجواب أن المعّول في الدين إن كان النظر والاستدلال فقد قدمنا الدلائل ، وإن كان التقليد فالمتفق أولى من المختلف . وقد اتفق الكل على صحة دين إبراهيم فاتباعه أولى وهذا جواب إلزامي ، ثم لما كان من المحتمل أن يزعم اليهود والنصارى أنهم على دين إبراهيم أزيحت علتهم بقوله ﴿ وما كان من المشركين ﴾ لكون النصارى قائلين بالتثليث واليهود بالتشبيه ، وأيضاً قالوا عزير ابن الله والمسيح ابن الله ، فليسوا من ملة إبراهيم التي هي محض التوحيد وخالص الإسلام في شيء ﴿ قولوا ﴾ خطاب للمؤمنين ، ويجوز أن يكون للكافرين أي قولوا لتكونوا على الحق وإلا فأنتم على الباطل ، وكذلك قوله ﴿ بل ملة إبراهيم ﴾ يجوز أن يكون أمراً لهم أي اتبعوا ملة إبراهيم أو كونوا أهل ملته ، وهذا جواب آخر برهاني ، وذلك أن طريق معرفة نبوة الأنبياء ظهور

المعجز على أيديهم ، ولما ظهر المعجز على يد محمد صلى الله عليه وسلم وجب الاعتراف بنبوته والإيمان به وبما أنزل عليه كما اعترفوا بنبوة إبراهيم وموسى وعيسى ، فإن تخصيص البعض بالقبول وتخصيص البعض بالرد يوجب المناقضة في الدليل وعن الحسن أن قوله ﴿ قل بل ملة إبراهيم ﴾ خطاب للنبي وقوله ﴿ قولوا ﴾ خطاب لأمته والظاهر العموم وإنما قدم الإيمان بالله لأن معرفة النبي والكتاب متوقفة على معرفته وفيه إبطال ما ذهب إليه التعليمية والمقلدة من أن طريق معرفة الله الكتاب والسنة ، قال الخليل : الأسباط في بني إسرائيل كالقبيلة في العرب .

(100/68)

وقيل : السبط الحافد ، وكان الحسن والحسين سبطي النبي صلى الله عليه وسلم فهم حفدة يعقوب ذراري أبنائه الاثني عشر ، عدّد بعض الأنبياء لتقدمهم وشرفهم ثم عمم لتعذر التفصيل . ﴿ لا نفرق بين أحد منهم ﴾ لا نؤمن ببعض ونكفر ببعض كأهل الكتاب . ومعنى الإيمان بجميعهم أن كلا منهم حق في زمانه أولا نقول إنهم متفرقون في أصول الديانة ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً ﴾ [الشورى : 13] وأحد في معنى الجماعة

ولذلك صح دخول بين عليه ﴿ ونحن له مسلمون ﴾ إذعاناً وإخلاصاً فلا جرم لا نخص بالقبول بعض عبيده المؤيدين بالمعجزات خلاف من كان إسلامه تقليداً أو هوى . ولما بين الطريق الواضح في الدين وهو أن يعترف الإنسان بنبوة كل من قامت الدلالة على نبوته من غير مناقضة ، رغبهم في مثل هذا الإيمان ، وههنا سؤال وهو أن دين الإسلام وهو الحق واحد فما معنى المثل في قوله ﴿ بمثل ما آمنتم به ﴾ ؟ والجواب أن قوله ﴿ فإن آمنوا ﴾ بكلمة الشك دليل على أن الأمر مبني على الفرض ، والتقدير أي فإن حصلوا ديناً آخر مثل دينكم ومساوياً له في الصحة والسداد ﴿ فقد اهتدوا ﴾ لكن لا دين صحيحاً سوى هذا لسلامته عن التناقض بخلاف غيره فلا اهتداء إلا بهذا ، ونظيره قولك للرجل الذي تشير عليه " هذا هو الرأي الصواب فإن كان عندك رأي أصوب منه فاعمل به " وقد علمت أن لا أصوب من رأيك ، ولكنك تريد تبكيت صاحبك وتوقيفه على أن ما رأيت لا رأي وراءه وقيل : الباء للاستعانة لا للإلصاق والتمثيل بين التصديقين أي فإن دخلوا في الإيمان بشهادة مثل شهادتكم . وقيل : المثل صلة ويؤيده قراءة ابن عباس وابن مسعود ﴿ فإن آمنوا بما آمنتم به ﴾ وقيل : معناه إنكم آمنتم بالفرقان من غير تصحيف وتحريف ، فإن آمنوا هم بمثل ذلك في التوراة فقد اهتدوا لأنهم يتوسلون به إلى معرفة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم .

وفي الآية دليل على أن الهداية كانت موجودة قبل هذا الاهتداء وهي الدلائل التي نصبها الله تعالى وكشف عن وجوهها ، والاهتداء قبولها والعمل بها ليفوزوا بالسعادة العظمى . وإن تولوا عما قيل لهم ولم ينصفوا فما هم إلا في شقاق خلاف وعداوة وهو مأخوذ من الشق كأنه صار في شق غير شق صاحبه ، أو من الشق لأنه فارق الجماعة وشق عصاهم ، أو من المشقة لأن كل واحد منهما يحرص على ما يشق على صاحبه ويؤذيه ، وفي وصف القوم بذلك دليل على معاداتهم الرسول وإضمارهم له كل سوء وتربصهم به الإيقاع في المحن ، فلا جرم آمنه الله تعالى والمؤمنين من كيدهم وقال ﴿ فسيكفيكهم الله ﴾ وناهيك به من كاف كافل . ومعنى السين أن ذلك كائن لا محالة وإن تأخر إلى حين وذلك أن فيها معنى التوكيد لوقوعها في مقابلة " لن " قال سيبويه : لن أفعل نفى سأفعل ، ولقد أنجز وعده عما قريب بقتل قريظة وسبيهم وإجلاء بني النضير وضرب الجزية عليهم ، وهذا إخبار بالغيب وكم من مثله في القرآن وكل ذلك مما يتأكد به إعجاز التنزيل العزيز وحصوله بطريق الوحي الصراح ﴿ وهو السميع العليم ﴾ وعد لرسول الله صلى الله عليه وسلم أي يسمع دعاءك ويعلم نيتك في أعلاء كلمة الحق وإعلانها فهو يستجيب لك لا محالة ، ووعيد لأعدائه أي هو منهم بمرأى ومسمع يعلم ما يسرون من الحسد والحقد والغل فيكافئهم على ذلك ﴿ صبغة الله ﴾ مصدر مؤكد منتصب عن قوله ﴿ آمنا بالله ﴾ مثل وعد الله قاله سيبويه

وقيل : بدل من ﴿ ملة إبراهيم ﴾ أو نصب على الإغراء أي عليكم صبغة الله ، وفيما فك لنظم الكلام وإخراج له عن الالتئام . والصبغة فعلة من صبغ للحالة التي يقع عليها الصبغ كالجلسة . والمعنى تطهير الله لأن الإيمان يطهر النفس . وأصله أن النصارى كانوا يغمسون أولادهم في ماء أصفر يسمونه بالمعمودية ويقولون هو تطهير لهم وبه يصير الواحد منهم نصرانياً حقاً ، فأمر المسلمون أن يقولوا لهم آمنا وصبغنا الله بالإيمان صبغة لا مثل

صبغتكم ، وذلك على طريق المشاكلة كما تقول لمن يغرس الأشجار اغرس كما يغرس فلان تريد رجلاً يصطنع الكرام ، ونظيره قوله ﴿ إنما نحن مستهزءون الله يستهزئ بهم ﴾ [البقرة : 15] وقيل : اللفظة من قولهم " فلان يصبغ فلاناً في الشر " أي يدخله فيه ويلزمه إياه كما يجعل الصبغ لازماً للثوب . وقيل : سمي الدين صبغة لظهور هيئته عند صاحبه . ﴿ سيماهم في وجوههم من أثر السجود ﴾ [الفتح : 29] من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار " وقيل : وصف هذا الإيمان منهم بأنه صبغة الله ليبين أن المباينة بينه وبين غيره ظاهرة جلية يدركها كل ذي حس سليم كما يدرك الألوان .

وقيل : صبغة الله فطرته . أقول : وذلك أن آثار النقص الإمكاني لازمة للإنسان لزوم الصبغ

للثوب ، فيمكنه أن يتدرج منها إلى وجود الصانع والإيمان به . وقيل : صبغة الله الختان . وقيل : حجة الله . وقيل : سنة الله .

(103/68)

﴿ ومن أحسن من الله صبغة ﴾ معنى الاستفهام الإنكار وصبغة تمييز أي لا صبغة أحسن من الإيمان بالله والدين الذي شرع لكم ليطهركم به من أوضار الكفر وأوزار الشرك . ﴿ ونحن له عابدون ﴾ عبارة عن كمال الإيمان كما تقدم مراراً . ﴿ قل أتحاجوننا ﴾ أما المحاجة فهي إما قولهم نحن أحق بأن تكون النبوة فينا لأنا أهل الكتاب والعرب عبدة أوثان ، وإما قولهم ﴿ نحن أبناء الله وأحباؤه ﴾ [المائدة : 18] وقولهم ﴿ كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا ﴾ وأما الخطاب فإما لأهل الكتاب وإما لمشركي العرب حيث قالوا ﴿ لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ [الزخرف : 31] وإما للكل والمعنى ، أتجادلون في شأن الله أو في دينه وهو ربنا وربكم وللرب أن يفعل بمربوبه ما يعلم فيه مصلحته ويعرفه أهلاً له ، عبيده كلهم فوضى في ذلك لا يختص به عجمي دون عربي ﴿ ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ﴾ فكما أن لكم أعمالاً ترجون نيل الكرامة بها فنحن كذلك ، فالعمل هو الأساس وبه الاعتبار ولكن ﴿ نحن له مخلصون ﴾ موحدون لا نقصد بالعبادة

أحداً سواه ، فلا يبعد أن يؤهل أهل إخلاصه بمزيد الكرامة من عنده . ﴿ أم تقولون ﴾ من قرأ بتاء الخطاب احتمل أن تكون " أم " منقطعة بمعنى استئناف استفهام آخر أي بل أتقولون والهمزة للإنكار كما في ﴿ أتحاجوننا ﴾ واحتمل أن تكون متصلة بمعنى أي الأمرين تأتون المحاجة في حكمة الله أم ادعاء اليهودية والنصرانية على الأنبياء إنكاراً عليهم واستجهالاً لهم بما كان منهم . وعن الزجاج : بأي الحجتين تتعلقون في أمرنا ، أبالتوحيد فنحن موحدون ، أم باتباع دين الأنبياء فنحن متبعون ؟ ومن قرأ بياء الغيبة فلا تكون إلا منقطعة لانقطاع الاستفهام الأول بسبب الالتفات . ﴿ قل أأنتم أعلم أم الله ﴾ بل الله أعلم وخبره أصدق ، وقد أخبر في التوراة والإنجيل والقرآن بأن إبراهيم ما كان يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً ، وكيف لا وما أنزلت التوراة والإنجيل

(104/68)

إلا من بعده ؟ ولأنهم مقرون بأن الله أعلم ، وقد أخبر بنقيض ما ادعوه فإن قالوا ذلك عن ظن فقد بان لهم خطؤه ، وإن قالوا ذلك عن جحود وعناد فما أجهلهم وأشقاهم ، فإذن فائدة الكلام إما التنبيه وإما التجهيل . ﴿ ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله ﴾ قوله ﴿ من الله ﴾ إما أن يتعلق بأظلم والمعنى لو كان إبراهيم وبنوه هوداً أو نصارى ، ثم إن الله

كتم هذه الشهادة لم يكن أحد ممن يكتم شهادة أظلم منه لأن الظلم من الأعدل أشنع ، وإما أن يتعلق بكتم أي لا أحد أظلم ممن عنده شهادة ، ثم إنه لم يقمها عند الله وكتمها وأخفاها منه وأما أن يتعلق بشهادة كقولك " عندي شهادة من فلان " ومثله ﴿ براءة من الله ورسوله ﴾ والمعنى ليس أحد أظلم ممن كتم شهادة عنده جاءته من الله ، وفيه إشارة إلى أن المؤمنين لم يكتموا ما عندهم من الحق وشهدوا لإبراهيم بالحنيفية ، وتعريض بأن أهل الكتاب قد كتموا شهادات الله فأنكروا نبوة محمد وحنيفية إبراهيم وغير ذلك من تحريفاتهم .

﴿ وما الله بغافل عما تعملون ﴾ كلام جامع لكل وعيد لهم ولأضرابهم ، ولو أن أحداً كان عليه رقيب من قبل ملك مجازي لكان دائم الحذر والوجل ، فكيف بالرقيب القريب الذي يعلم أسراره ويعد عليه أنفاسه وأفكاره ثم هو يقدر على أن يدخله جنته أو ناره ؟

﴿ تلك أمة ﴾ إشارة إلى إبراهيم وبنيه . كما مر ، وإنما أعيدت الآية ههنا لغرض آخر وهو زجرهم عن الاشتغال بوصف ما عليه الأمم السالفة من الدين فإن أديانهم لا تنفع إلا إياهم لاندراس آثارها وانطماس أنوارها ، وأما الآن فالدين هو الإسلام الثابت بالدليل القاطع والبرهان البين فيجب اتباع المعلوم واقتفاؤه وإلقاء المظنون وإلغاؤه ، ولا يسأل المتأخر عن المتقدم ولا المحسن عن المسيء وكل بعمله مجزي . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 1 صـ 413. 416 ﴾

فصل

قال الشيخ سيد قطب في الآيات السابقة :

﴿ وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (124)

إلى قوله تعالى :

تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (141) ﴾

في القطاعات التي مضت من هذه السورة كان الجدل مع أهل الكتاب ، دائراً كله حول سيرة بني إسرائيل ، ومواقفهم من أنبيائهم وشرائعهم ، ومن مواثيقهم وعهودهم ، ابتداء من عهد موسى – عليه السلام – إلى عهد محمد – صلى الله عليه وسلم – أكثره عن اليهود ، وأقله عن النصارى ، مع إشارات إلى المشركين ، عند السمات التي يلتقون فيها مع أهل الكتاب ، أو يلتقي معهم فيها أهل الكتاب .

فالآن يرجع السياق إلى مرحلة تاريخية أسبق من عهد موسى . . يرجع إلى إبراهيم . .

وقصة إبراهيم – على النحو الذي تساق به في موضعها هذا – تؤدي دورها في السياق ،

كما أنها تؤدي دوراً هاماً فيما شجر بين اليهود والجماعة المسلمة في المدينة من نزاع حاد متشعب الأطراف .

إن أهل الكتاب ليرجعون بأصولهم إلى إبراهيم عن طريق إسحاق – عليهما السلام – ويعتزون بنسبتهم إليه ، وبوعد الله له ولذريته بالنمو والبركة ، وعهده معه ومع ذريته من بعده . ومن ثم يحتكرون لأنفسهم الهدى والقوامة على الدين ، كما يحتكرون لأنفسهم الجنة أيا كان ما يعملون !

وإن قريشاً لترجع بأصولها كذلك إلى إبراهيم عن طريق إسماعيل – عليهما السلام – وتعتز بنسبتها إليه ؛ وتستمد منها القوامة على البيت ، وعمارة المسجد الحرام ؛ وتستمد كذلك سلطانها الديني على العرب ، وفضلها وشرفها ومكانتها .

(106/68)

وقد وصل السياق فيما مضى إلى الحديث عن دعاوى اليهود والنصارى العريضة في الجنة : ﴿ وقالوا : لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى ﴾ . . وعن محاولتهم أن يجعلوا المسلمين يهوداً أو نصارى . . ليهتدوا . . ﴿ وقالوا : كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا ﴾ . .

كذلك وصل إلى الحديث عن الذين يمنعون مساجد الله أن يذكر فيها اسمه ويسعون في

خرابها . وقلنا هناك : إنها قد تكون خاصة بموقف اليهود من قضية تحويل القبلة ، وبالدعاية المسمومة التي أثاروها في الصف الإسلامي بهذه المناسبة .

فالآن يجيء الحديث عن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ؛ والحديث عن البيت الحرام وبنائه وعمارته وشعائره . . في جوه المناسب ، لتقرير الحقائق الخالصة في ادعاءات اليهود والنصارى والمشركين جميعاً حول هذه النسب وهذه الصلات . ولتقرير قضية القبلة التي ينبغي أن يتجه إليها المسلمون . . كذلك تجيء المناسبة لتقرير حقيقة دين إبراهيم – وهي التوحيد الخالص – وبعد ما بينها وبين العقائد المشوهة المنحرفة التي عليها أهل الكتاب والمشركون سواء ؛ وقرب ما بين عقيدة إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب – وهو إسرائيل الذي ينتسبون إليه – وعقيدة الجماعة المسلمة بآخر دين . ولتقرير وحدة دين الله ، واطراده على أيدي رسله جميعاً ، ونفي فكرة احتكاره في أيدي أمة أو جنس . وبيان أن العقيدة تراث القلب المؤمن لا تراث العصبية العمياء . وأن وراثة هذا التراث لا تقوم على قرابة الدم والجنس ولكن على قرابة الإيمان والعقيدة .

فمن آمن بهذه العقيدة ورعاها في أي جيل ومن أي قبيل فهو أحق بها من أبناء الصلب وأقرباء العصب ! فالدين دين الله . وليس بين الله وبين أحد من عباده نسب ولا صهر ! ! !

هذه الحقائق التي تمثل شطراً من الخطوط الأساسية في التصور الإسلامي ، يجلوها القرآن الكريم هنا في نسق من الأداء عجيب ، وفي عرض من الترتيب والتعبير بديع . . يسير بنا خطوة خطوة من لدن إبراهيم – عليه السلام – منذ أن ابتلاه ربه واختبره فاستحق اختياره واصطفاءه ، وتنصيبه للناس إماماً . . إلى أن نشأت الأمة المسلمة المؤمنة برسالة محمد – صلى الله عليه وسلم – استجابة من الله لدعوة إبراهيم وإسماعيل وهما يرفعان القواعد من البيت الحرام ؛ فاستحقت وراثة هذه الأمانة دون ذرية إبراهيم جميعاً ، بذلك السبب الوحيد الذي تقوم عليه وراثة العقيدة . سبب الإيمان بالرسالة ، وحسن القيام عليها ، والاستقامة على تصورها الصحيح .

وفي ثنايا هذا العرض التاريخي يبرز السياق : أن الإسلام – بمعنى إسلام الوجه لله وحده – كان هو الرسالة الأولى ، وكان هو الرسالة الأخيرة . . هكذا اعتقد إبراهيم ، وهكذا اعتقد من بعده إسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ، حتى أسلموا هذه العقيدة ذاتها إلى موسى وعيسى . . ثم آلت أخيراً إلى ورثة إبراهيم من المسلمين . . فمن استقام على هذه العقيدة الواحدة فهو وريثها ، ووريث عهودها وبشاراتها . ومن فسق عنها ، ورغب بنفسه عن ملة إبراهيم ، فقد فسق عن عهد الله ، وقد فقد وراثته لهذا العهد وبشاراته . عندئذ تسقط كل دعاوى اليهود والنصارى في اصطفائهم واجتبائهم ، لمجرد أنهم أبناء

إبراهيم وحفدته ، وهم ورثته وخلفاؤه ! لقد سقطت عنهم الوراثة منذ ما انحرفوا عن هذه العقيدة . . وعندئذ تسقط كذلك كل دعاوى قريش في الاستئثار بالبيت الحرام وشرف القيام عليه وعمارته ، لأنهم قد فقدوا حقهم في وراثة باني هذا البيت ورافع قواعده بانحرافهم عن عقيدته . . ثم تسقط كل دعاوى اليهود فيما يختص بالقبلة التي ينبغي أن يتجه إليها المسلمون . فالكعبة هي قبلتهم وقبلة أبيهم إبراهيم . .

(108/68)

كل ذلك في نسق من العرض والأداء والتعبير عجيب ؛ حافل بالإشارات الموحية ، والوقفات العميقة الدلالة ، والإيضاح القوي التأثير . فلنأخذ في استعراض هذا النسق العالي في ظل هذا البيان المنير :

﴿ وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن . قال : إني جاعلك للناس إماماً . قال : ومن ذريتي ؟ قال : لا ينال عهدي الظالمين ﴾ . .

يقول للنبي – صلى الله عليه وسلم – اذكر ما كان من ابتلاء الله لإبراهيم بكلمات من الأوامر والتكاليف ، فأتمهن وفاء وقضاء . . وقد شهد الله لإبراهيم في موضع آخر بالوفاء بالتزاماته على النحو الذي يرضى الله عنه فيستحق شهادته الجليلة : ﴿ وإبراهيم الذي

وفى ﴿ . وهو مقام عظيم ذلك المقام الذي بلغه إبراهيم . مقام الوفاء والتوفية بشهادة الله عز وجل .

والإنسان بضعفه وقصوره لا يوفي ولا يستقيم !

عندئذ استحق إبراهيم تلك البشرى . أو تلك الثقة :

﴿ قال : إني جاعلك للناس إماماً ﴾ . .

إماماً يتخذونه قدوة ، ويقودهم إلى الله ، ويقدمهم إلى الخير ، ويكونون له تبعاً ، وتكون له فيهم قيادة .

(109/68)

عندئذ تدرك إبراهيم فطرة البشر : الرغبة في الامتداد عن طريق الذراري والأحفاد . ذلك الشعور الفطري العميق ، الذي أودعه الله فطرة البشر لتنمو الحياة وتمضي في طريقها المرسوم ، ويكمل اللاحق ما بدأه السابق ، وتتعاون الأجيال كلها وتتساوق . . ذلك الشعور الذي يحاول بعضهم تحطيمه أو تعويقه وتكبيله ؛ وهو مركوز في أصل الفطرة لتحقيق تلك الغاية البعيدة المدى . وعلى أساسه يقرر الإسلام شريعة الميراث ، تلبية لتلك الفطرة ، وتنشيطاً لها لتعمل ، ولتبذل أقصى ما في طوقها من جهد . وما المحاولات التي

تبذل لتحطيم هذه القاعدة إلا محاولة لتحطيم الفطرة البشرية في أساسها ؛ وإلا تكلف وقصر نظر واعتساف في معالجة بعض عيوب الأوضاع الاجتماعية المنحرفة . وكل علاج يصادم الفطرة لا يفلح ولا يصلح ولا يبقى . وهناك غيره من العلاج الذي يصلح الانحراف ولا يحطم الفطرة . ولكنه يحتاج إلى هدى وإيمان ، وإلى خبرة بالنفس البشرية أعمق ، وفكرة عن تكوينها أدق ، وإلى نظرة خالية من الأحقاد الوبيلة التي تنزع إلى التحطيم والتنكيل ، أكثر مما ترمي إلى البناء والإصلاح :

﴿ قال : ومن ذريتي ؟ ﴾ . .

وجاءه الرد من ربه الذي ابتلاه واصطفاه ، يقرر القاعدة الكبرى التي أسلفنا . . إن الإمامة لمن يستحقونها بالعمل والشعور ، وبالصلاح والإيمان ، وليست وراثة أصلاب وأنساب . فالقربى ليست وشيجة لحم ودم ، إنما هي وشيجة دين وعقيدة . ودعوى القرابة والدم والجنس والقوم إن هي إلا دعوى الجاهلية ، التي تصطدم اصطداماً أساسياً بالتصور الإيماني الصحيح :

﴿ قال : لا ينال عهدي الظالمين ﴾ . .

والظلم أنواع وألوان : ظلم النفس بالشرك ، وظلم الناس بالبغي . . والإمامة الممنوعة على الظالمين تشمل كل معاني الإمامة : إمامة الرسالة ، وإمامة الخلافة ، وإمامة الصلاة . . وكل معنى من معاني الإمامة والقيادة . فالعدل بكل معانيه هو أساس استحقاق هذه الإمامة في أية صورة من صورها . ومن ظلم – أي لون من الظلم – فقد جرد نفسه من حق الإمامة وأسقط حقه فيها ؛ بكل معنى من معانيها .

وهذا الذي قيل لإبراهيم – عليه السلام – وهذا العهد بصيغته التي لا التواء فيها ولا غموض قاطع في تنحية اليهود عن القيادة والإمامة ، بما ظلموا ، وبما فسقوا ، وبما عتوا عن أمر الله ، وبما انحرفوا عن عقيدة جدهم إبراهيم . .

وهذا الذي قيل لإبراهيم – عليه السلام – وهذا العهد بصيغته التي لا التواء فيها ولا غموض قاطع كذلك في تنحية من يسمون أنفسهم المسلمين اليوم . بما ظلموا ، وبما فسقوا وبما بعدوا عن طريق الله ، وبما نبذوا من شريعته وراء ظهورهم . . ودعواهم الإسلام ، وهم ينحون شريعة الله ومنهجه عن الحياة ، دعوى كاذبة لا تقوم على أساس من عهد الله .

إن التصور الإسلامي يقطع الوشائج والصلات التي لا تقوم على أساس العقيدة والعمل . ولا يعترف بقربى ولا رحم إذا أنبتّت وشيجة العقيدة والعمل ويسقط جميع الروابط والاعتبارات ما لم تتصل بعروة العقيدة والعمل . . وهو يفصل بين جيل من الأمة الواحدة وجيل إذا خالف أحد الجيلين الآخر في عقيدته ، بل يفصل بين الوالد والولد ، والزوج والزوج إذا انقطع بينهما حبل العقيدة . فعرب الشرك شيء وعرب الإسلام شيء آخر . ولا صلة بينهما ولا قربى ولا وشيجة . والذين آمنوا من أهل الكتاب شيء ، والذين انحرفوا عن دين إبراهيم وموسى وعيسى شيء آخر ، ولا صلة بينهما ولا قربى ولا وشيجة . . إن الأسرة ليست آباء وأبناء وأحفاداً . . إنما هي هؤلاء حين تجمعهم عقيدة واحدة . وإن الأمة ليست مجموعة أجيال متتابعة من جنس معين . . إنما هي مجموعة من المؤمنين مهما اختلفت أجناسهم وأوطانهم وألوانهم . . وهذا هو التصور الإيماني ، الذي ينبثق من خلال هذا البيان الرباني ، في كتاب الله الكريم . .

﴿ وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً ، واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ، وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود ﴾ . .

هذا البيت الحرام الذي قام سدنته من قريش فروعوا المؤمنين وآذوهم وفتنوهم عن دينهم حتى هاجروا من جواره . . لقد أراده الله مثابة يثوب إليها الناس جميعاً ، فلا يروعهم أحد ؛ بل يأمنون فيه على أرواحهم وأموالهم . فهو ذاته أمن وطمأنينة وسلام .

ولقد أمروا أن يتخذوا من مقام إبراهيم مصلى – ومقام إبراهيم يشير هنا إلى البيت كله وهذا ما نختاره في تفسيره – فاتخاذ البيت قبلة للمسلمين هو الأمر الطبيعي ، الذي لا يثير اعتراضاً . وهو أولى قبلة يتوجه إليها المسلمون ، ورثة إبراهيم بالإيمان والتوحيد الصحيح ، بما أنه بيت الله ، لا بيت أحد من الناس . وقد عهد الله – صاحب البيت – إلى عبدين من عباده صالحين أن يقوما بتطهيره وإعداده للطائفين والعاكفين والركع السجود – أي للحجاج الوافدين عليه ، وأهله العاكفين فيه ، والذين يصلون فيه ويركعون ويسجدون فحتى إبراهيم وإسماعيل لم يكن البيت ملكاً لهما ، فيورث بالنسب عنهما ، إنما كانا سادنين له بأمر ربهما ، لإعداده لقصاده وعباده من المؤمنين .

﴿ وإذ قال إبراهيم : رب اجعل هذا بلداً آمنا ، وارزق أهله من الثمرات . . من آمن منهم بالله واليوم الآخر . . قال : ومن كفر فأمتعه قليلاً ، ثم أضطره إلى عذاب النار ، وبئس المصير ﴾ . .

ومرة أخرى يؤكد دعاء إبراهيم صفة الأمن للبيت . ومرة أخرى يؤكد معنى الوراثة للفضل والخير . . إن إبراهيم قد أفاد من عظة ربه له في الأولى . لقد وعى منذ أن قال له ربه : ﴿

لا ينال عهدي الظالمين ﴾ . . وعى هذا الدرس . . فهو هنا ، في دعائه أن يرزق الله أهل هذا البلد من الثمرات ، يحترس ويستثني ويحدد من يعني :

﴿ من آمن منهم بالله واليوم الآخر ﴾ .

.

إنه إبراهيم الأواه الحليم القانت المستقيم ، يتأدب بالأدب الذي علمه ربه ، فيراعيه في طلبه ودعائه . . وعندئذ يجيئه رد ربه مكملاً ومبيناً عن الشطر الآخر الذي سكت عنه .

شطر الذين لا يؤمنون ، ومصيرهم الأليم :

﴿ قال : ومن كفر فأمتعه قليلاً ، ثم أضطره إلى عذاب النار ، وبئس المصير ﴾ . .

ثم يرسم مشهد تنفيذ إبراهيم وإسماعيل للأمر الذي تلقياه من ربهما بإعداد البيت وتطهيره للطائفين والعاكفين والركع السجود . . يرسمه مشهوداً كما لو كانت الأعين تراهما اللحظة وتسمعهما في آن :

﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل : ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم . ربنا واجعلنا مسلمين لك ، ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ، وأرنا مناسكنا وتب علينا ، إنك

أنت التواب الرحيم . ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ، ويزكيهم ، إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ . .

إن التعبير يبدأ بصيغة الخبر . . حكاية تحكى :

﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ﴾ . .

وبينما نحن في انتظار بقية الخبر ، إذا بالسياق يكشف لنا عنهما ، ويرينا إياهما ، كما لو كانت رؤية العين لا رؤيا الخيال . إنهما أمامنا حاضران ، نكاد نسمع صوتيهما يبتهلان :

﴿ ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم . ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم . . ربنا . . ﴾

فنغمة الدعاء ، وموسيقى الدعاء ، وجو الدعاء . . كلها حاضرة كأنها تقع اللحظة حية شاخصة متحركة . . وتلك إحدى خصائص التعبير القرآني الجميل . رد المشهد الغائب الذاهب ، حاضراً يسمع ويرى ، ويتحرك ويشخص ، وتفيض منه الحياة . . إنها خصيصة " التصوير الفني " بمعناه الصادق ، اللائق بالكتاب الخالد .

وماذا في ثنايا الدعاء ؟ إنه أدب النبوة ، وإيمان النبوة ، وشعور النبوة بقيمة العقيدة في هذا الوجود . وهو الأدب والإيمان والشعور الذي يريد القرآن أن يعلمه لورثة الأنبياء ، وأن يعمقه في قلوبهم ومشاعرهم بهذا الإيحاء :

﴿ ربنا تقبل منا . إنك أنت السميع العليم ﴾ . .

إنه طلب القبول . . هذه هي الغاية . . فهو عمل خالص لله . الاتجاه به في قنوت وخشوع إلى الله . والغاية المرتجاة من ورائه هي الرضى والقبول . . والرجاء في قبوله متعلق بأن الله سميع للدعاء . عليهم بما وراءه من النية والشعور .

ربنا واجعلنا مسلمين لك ، ومن ذريتنا أمة مسلمة لك . وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ﴾ .

(114/68)

إنه رجاء العون من ربهما في الهداية إلى الإسلام ؛ والشعور بأن قلبيهما بين أصبعين من أصابع الرحمن ؛ وأن الهدى هداه ، وأنه لا حول لهما ولا قوة إلا بالله ، فهما يتجهان ويرغبان ، والله المستعان .

ثم هو طابع الأمة المسلمة . . التضامن . . تضامن الأجيال في العقيدة : ﴿ ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ﴾ . . وهي دعوة تكشف عن اهتمامات القلب المؤمن .

إن أمر العقيدة هو شغله الشاغل ، وهو همه الأول . وشعور إبراهيم وإسماعيل – عليهما السلام – بقيمة النعمة التي أسبغها الله عليهما . . نعمة الإيمان . . تدفعهما إلى الحرص عليها في عقبهما ، وإلى دعاء الله ربهما ألا يحرم ذريتهما هذا الإنعام الذي لا يكافئه

إنعام . . لقد دعوا الله ربهما أن يرزق ذريتهما من الثمرات ولم ينسيا أن يدعواه ليرزقهم من الإيمان ؛ وأن يريهم جميعاً مناسكهم ، ويبين لهم عباداتهم ، وأن يتوب عليهم . بما أنه هو التواب الرحيم .

ثم ألا يتركهم بلا هداية في أجيالهم البعيدة :

﴿ ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم . إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ . .

وكانت الاستجابة لدعوة إبراهيم وإسماعيل هي بعثة هذا الرسول الكريم بعد قرون وقرون . بعثة رسول من ذرية إبراهيم وإسماعيل ، يتلو عليهم آيات الله ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ويطهرهم من الأرجاس والأدناس . إن الدعوة المستجابة تستجاب ، ولكنها تتحقق في أوانها الذي يقدره الله بحكمته . غير أن الناس يستعجلون ! وغير الواصلين يملون ويقنطون !

(115/68)

وبعد فإن لهذا الدعاء دلالته ووزنه فيما كان يشجر بين اليهود والجماعة المسلمة من نزاع عنيف متعدد الأطراف . إن إبراهيم وإسماعيل اللذين عهد الله إليهما برفع قواعد البيت

وتطهيره للطائفين والعاكفين والمصلين ، وهما أصل سادني البيت من قريش . . إنهما يقولان باللسان الصريح : ﴿ ربنا واجعلنا مسلمين لك ﴾ . . ﴿ ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ﴾ . . كما يقولان باللسان الصريح : ﴿ ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ﴾ . . وهما بهذا وذاك يقرران وراثة الأمة المسلمة لإمامة إبراهيم ، ووراثتها للبيت الحرام سواء . وإذن فهو بيتها الذي تتجه إليه ، وهي أولى به من المشركين . وهو أولى بها من قبلة اليهود والمسيحيين !

وإذن فمن كان يربط ديانته بإبراهيم من اليهود والنصارى ، ويدعي دعاواه العريضة في الهدى والجنة بسبب تلك الوراثة ، ومن كان يربط نسبه بإسماعيل من قريش . . فليسمع : إن إبراهيم حين طلب الوراثة لبنيه والإمامة ، قال له ربه : ﴿ لا ينال عهدي الظالمين ﴾ . . ولما أن دعا هو لأهل البلد بالرزق والبركة خص بدعوته : ﴿ من آمن بالله واليوم الآخر ﴾ . . وحين قام هو وإسماعيل بأمر ربهما في بناء البيت وتطهيره كانت دعوتهما : أن يكونا مسلمين لله ، وأن يجعل الله من ذريتهما أمة مسلمة ، وأن يبعث في أهل بيته رسولاً منهم . . فاستجاب الله لهما ، وأرسل من أهل البيت محمد بن عبد الله ، وحقق على يديه الأمة المسلمة القائمة بأمر الله . الوارثة لدين الله .

وعند هذا المقطع من قصة إبراهيم ، يلتقط السياق دلالته وإيحاءه ، ليواجه بهما الذين ينازعون الأمة المسلمة الإمامة ؛ وينازعون الرسول – صلى الله عليه وسلم – النبوة

والرسالة ؛ ويجادلون في حقيقة دين الله الأصيلة الصحيحة :

﴿ ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ؟ ولقد اصطفيناه في الدنيا ، وإنه في الآخرة لمن الصالحين .

(116/68)

إذ قال له ربه أسلم . قال : أسلمت لرب العالمين . ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب : يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ . .

هذه هي ملة إبراهيم . . الإسلام الخالص الصريح . . لا يرغب عنها وينصرف إلا ظالم لنفسه ، سفيه عليها ، مستهتر بها . . إبراهيم الذي اصطفاه ربه في الدنيا إماماً ، وشهد له في الآخرة بالصلاح . . اصطفاه ﴿ إذ قال له ربه أسلم ﴾ . . فلم يتلكأ ، ولم يرتب ، ولم ينحرف ، واستجاب فور تلقي الأمر .

﴿ قال : أسلمت لرب العالمين ﴾ . .

هذه هي ملة إبراهيم . . الإسلام الخالص الصريح . . ولم يكتف إبراهيم بنفسه إنما تركها في عقبه ، وجعلها وصيته في ذريته ، ووصى بها إبراهيم بنيه كما وصى بها يعقوب بنيه . ويعقوب هو إسرائيل الذي ينتسبون إليه ، ثم لا يلبون وصيته ، ووصية جده وجدهم

إبراهيم !

ولقد ذكر كل من إبراهيم ويعقوب بنيه بنعمة الله عليهم في اختياره الدين لهم :

﴿ يا بني إن الله اصطفى لكم الدين ﴾ . .

فهو من اختيار الله . فلا اختيار لهم بعده ولا اتجاه . وأقل ما توجبه رعاية الله لهم ، وفضل الله عليهم ، هو الشكر على نعمة اختياره واصطفائه ، والحرص على ما اختاره لهم ، والاجتهاد في ألا يتركوا هذه الأرض إلا وهذه الأمانة محفوظة فيهم :

﴿ فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ . .

وها هي ذي الفرصة سانحة ، فقد جاءهم الرسول الذي يدعوهم إلى الإسلام ، وهو ثمرة الدعوة التي دعاها أبوهم إبراهيم . .

تلك كانت وصية إبراهيم لبنيه ووصية يعقوب لبنيه . . الوصية التي كررها يعقوب في آخر لحظة من لحظات حياته ؛ والتي كانت شغله الشاغل الذي لم يصرفه عنه الموت وسكراته ، فليسمعها بنو إسرائيل :

﴿ أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت . إذ قال لبنيه : ما تعبدون من بعدي ؟ قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون ﴾ . .

إن هذا المشهد بين يعقوب وبنيه في لحظة الموت والاحتضار لمشهد عظيم الدلالة ، قوي الإيحاء ، عميق التأثير . . ميت يحتضر . فما هي القضية التي تشغل باله في ساعة الاحتضار ؟ ما هو الشاغل الذي يعني خاطره وهو في سكرات الموت ؟ ما هو الأمر الجلل الذي يريد أن يطمئن عليه ويستوثق منه ؟ ما هي التركة التي يريد أن يخلفها لأبنائه ويحرص على سلامة وصولها إليهم فيسلمها لهم في محضر ، يسجل فيه كل التفصيلات ؟ . . إنها العقيدة . . هي التركة . وهي الذخر . وهي القضية الكبرى ، وهي الشغل الشاغل ، وهي الأمر الجلل ، الذي لا تشغل عنه سكرات الموت وصرعاته :

﴿ ما تعبدون من بعدي ؟ ﴾ . .

هذا هو الأمر الذي جمعتكم من أجله . وهذه هي القضية التي أردت الاطمئنان عليها . وهذه هي الأمانة والذخر والتراث . .

﴿ قالوا : نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق . إلهاً واحداً . ونحن له مسلمون ﴾ . .

إنهم يعرفون دينهم ويذكرونه . إنهم يتسلمون التراث ويصونونه .

إنهم يطمئنون الوالد المحتضر ويريحونه .

وكذلك ظلت وصية إبراهيم لبنيه مرعية في أبناء يعقوب . وكذلك هم ينصون نصاً صريحاً

على أنهم ﴿ مسلمون ﴾ .

والقرآن يسأل بني إسرائيل : ﴿ أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت ؟ ﴾ . . فهذا هو الذي كان ، يشهد به الله ، ويقرره ، ويقطع به كل حجة لهم في التمويه والتضليل ؛ ويقطع به كل صلة حقيقية بينهم وبين أبيهم إسرائيل !

وفي ضوء هذا التقرير يظهر الفارق الحاسم بين تلك الأمة التي خلت ، والجيل الذي كانت تواجهه الدعوة . . حيث لا مجال لصلة ، ولا مجال لوراثة ، ولا مجال لنسب بين السابقين واللاحقين :

﴿ تلك أمة قد خلت ، لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ، ولا تسألون عما كانوا يعملون ﴾ . .

(118/68)

فلكل حساب ؛ ولكل طريق ؛ ولكل عنوان ؛ ولكل صفة . . أولئك أمة من المؤمنين فلا علاقة لها بأعقابها من الفاسقين . إن هذه الأعقاب ليست امتداداً لتلك الأسلاف . هؤلاء حزب وأولئك حزب . لهؤلاء راية ولأولئك راية . . والتصور الإيماني في هذا غير التصور الجاهلي . . فالتصور الجاهلي لا يفرق بين جيل من الأمة وجيل ، لأن الصلة هي

صلة الجنس والنسب . أما التصور الإيماني فيفرق بين جيل مؤمن وجيل فاسق ؛ فليسا أمة واحدة ، وليس بينهما صلة ولا قرابة . . إنهما أمتان مختلفتان في ميزان الله ، فهما مختلفتان في ميزان المؤمنين . إن الأمة في التصور الإيماني هي الجماعة التي تنتسب إلى عقيدة واحدة من كل جنس ومن كل أرض ؛ وليست هي الجماعة التي تنتسب إلى جنس واحد أو أرض واحدة . وهذا هو التصور اللائق بالإنسان ، الذي يستمد إنسانيته من نفخة الروح العلوية ، لا من التصاقات الطين الأرضية !

في ظل هذا البيان التاريخي الحاسم ، لقصة العهد مع إبراهيم : وقصة البيت الحرام كعبة المسلمين ؛ ولحقيقة الوراثة وحقيقة الدين ؛ يناقش ادعاءات أهل الكتاب المعاصرين ، ويعرض لحججهم وجدلهم ومحالهم ، فيبدو هذا كله ضعيفاً شاحباً ، كما يبدو فيه العنت والادعاء بلا دليل : كذلك تبدو العقيدة الإسلامية عقيدة طبيعية شاملة لا ينحرف عنها إلا المتعنتون :

﴿ وقالوا : كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا . قل : بل ملة إبراهيم حنيفاً ، وما كان من المشركين . قولوا : آمنا بالله ، وما أنزل إلينا ، وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق

ويعقوب والأسباط ، وما أوتي موسى وعيسى ، وما أوتي النبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون . فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا ، وإن تولوا فإنما هم في شقاق فسيكفيكهم الله ، وهو السميع العليم . صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ؟ ونحن له عابدون . قل : أتحاجوننا في الله وهو ربنا وربكم ، ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، ونحن له مخلصون ؟ . أم تقولون : إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى ؟ قل : أأنتم أعلم أم الله ؟ ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله ؟ وما الله بغافل عما تعملون ﴾ .

.

وإنما كان قول اليهود : كونوا يهوداً تهتدوا ؛ وكان قول النصارى : كونوا نصارى تهتدوا . فجمع الله قوليهم ليوجه نبيه – صلى الله عليه وسلم – أن يواجههم جميعاً بكلمة واحدة :

﴿ قل : بل ملة إبراهيم حنيفاً ، وما كان من المشركين ﴾ . .

قل : بل نرجع جميعاً ، نحن وأنتم ، إلى ملة إبراهيم ، أبينا وأبيكم ، وأصل ملة الإسلام ، وصاحب العهد مع ربه عليه . . ﴿ وما كان من المشركين ﴾ . . بينما أنتم تشركون . .

ثم يدعو المسلمين لإعلان الوحدة الكبرى للدين ، من لدن إبراهيم أبي الأنبياء إلى عيسى بن مريم ، إلى الإسلام الأخير . ودعوة أهل الكتاب إلى الإيمان بهذا الدين الواحد :

﴿ قولوا : آمنا بالله ، وما أنزل إلينا ، وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب

والأسباط ، وما أوتي موسى وعيسى ، وما أوتي النبيون من ربهم . لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾ . .

(120/68)

تلك الوحدة الكبرى بين الرسالات جميعاً ، وبين الرسل جميعاً ، هي قاعدة التصور الإسلامي وهي التي تجعل من الأمة المسلمة ، الأمة الوارثة لتراث العقيدة القائمة على دين الله في الأرض ، الموصولة بهذا الأصل العريق ، السائرة في الدرب على هدى ونور . والتي تجعل من النظام الإسلامي النظام العالمي الذي يملك الجميع الحياة في ظله دون تعصب ولا اضطهاد . والتي تجعل من المجتمع الإسلامي مجتمعاً مفتوحاً للناس جميعاً في مودة وسلام . ومن ثم يقرر السياق الحقيقة الكبيرة ، ويثبت عليها المؤمنين بهذه العقيدة . حقيقة أن هذه العقيدة هي الهدى . من اتبعها فقد اهتدى . ومن أعرض عنها فلن يستقر على أصل ثابت ؛ ومن ثم يظل في شقاق مع الشيع المختلفة التي لا تلتقي على قرار :

﴿ فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا ، وإن تولوا فإنما هم في شقاق ﴾ . .

وهذه الكلمة من الله ، وهذه الشهادة منه سبحانه ، تسكب في قلب المؤمن الاعتزاز بما هو عليه . فهو وحده المهتدي . ومن لا يؤمن بما يؤمن به فهو المشاق للحق المعادي للهدى . ولا

على المؤمن من شقاق من لا يهتدي ولا يؤمن ، ولا عليه من كيده ومكره . ولا عليه من جداله ومعارضته . فالله سيتولاهم عنه ، وهو كافيه وحسبه :

﴿ فسيكفيكهم الله . وهو السميع العليم ﴾ .

إنه ليس على المؤمن إلا أن يستقيم على طريقته ، وأن يعتز بالحق المستمد مباشرة من ربه ، وبالعلامة التي يضعها الله على أوليائه ، فيعرفون بها في الأرض :

﴿ صبغة الله . ومن أحسن من الله صبغة ؟ ونحن له عابدون ﴾ . .

صبغة الله التي شاء لها أن تكون آخر رسالاته إلى البشر . لتقوم عليها وحدة إنسانية واسعة الآفاق ، لا تعصب فيها ولا حقد ، ولا أجناس فيها ولا ألوان .

ونقف هنا عند سمة من سمات التعبير القرآني ذات الدلالة العميقة . . إن صدر هذه الآية من كلام الله التقريري : ﴿ صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ﴾ . . أما باقيها فهو من كلام المؤمنين .

يلحقه السياق – بلا فاصل – بكلام الباريء سبحانه في السياق . وكله قرآن منزل . ولكن الشطر الأول حكاية عن قول الله ، والشطر الثاني حكاية عن قول المؤمنين . وهو تشريف

عظيم أن يلحق كلام المؤمنين بكلام الله في سياق واحد ، بحكم الصلة الوثيقة بينهم وبين ربهم ، وبحكم الاستقامة الواصلة بينه وبينهم . وأمثال هذا في القرآن كثير . وهو ذو مغزى كبير .

ثم تمضي الحجة الدامغة إلى نهايتها الحاسمة :

﴿ قل : أتحاجوننا في الله ، وهو ربنا وربكم ، ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، ونحن له مخلصون ؟ ﴾ . .

ولا مجال للجدل في وحدانية الله وربوبيته . فهو ربنا وربكم ، ونحن محاسبون بأعمالنا ، وعليكم وزر أعمالكم . ونحن متجردون له مخلصون لا نشرك به شيئاً ، ولا نرجو معه أحداً . . وهذا الكلام تقرير لموقف المسلمين واعتقادهم ؛ وهو غير قابل للجدل والمحاجة واللجاج . .

ومن ثم يضرب السياق عنه ، وينتقل إلى مجال آخر من مجالات الجدل . يظهر أنه هو الآخر غير قابل للجاجة والمحال :

﴿ أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى ؟ ﴾ .

وهم كانوا أسبق من موسى ، وأسبق من اليهودية والنصرانية . والله يشهد بحقيقة دينهم – وهو الإسلام كما سبق البيان – :

﴿ قل : أأنتم أعلم أم الله ؟ ﴾ . .

وهو سؤال لا جواب عليه ! وفيه من الاستنكار ما يقطع الألسنة دون الجواب عليه !

ثم إنكم لتعلمون أنهم كانوا قبل أن تكون اليهودية والنصرانية . وكانوا على الحنيفية الأولى التي لا تشرك بالله شيئاً . ولديكم كذلك شهادة في كتبكم أن سيبعث نبي في آخر الزمان دينه الحنيفية ، دين إبراهيم . ولكنكم تكتمون هذه الشهادة :

﴿ ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله ؟ ﴾ . .

والله مطلع على ما تخفون من الشهادة التي ائتمنتم عليها ، وما تقومون به من الجدال فيها لتعميتها وتلبيسها :

﴿ وما الله بغافل عما تعملون ﴾ . .

(122/68)

وحين يصل السياق إلى هذه القمة في الإفحام ، وإلى هذا الفصل في القضية ، وإلى بيان ما بين إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وبين اليهود المعاصرين من مفارقة تامة في كل اتجاه . . عندئذ يعيد الفاصلة التي ختم بها الحديث من قبل عن إبراهيم وذريته المسلمين :

﴿ تلك أمة قد خلت . لها ما كسبت ولكم ما كسبتم . ولا تسألون عما كانوا يعملون ﴾ . .

وفيها فصل الخطاب ، ونهاية الجدل ، والكلمة الأخيرة في تلك الدعاوى الطويلة العريضة .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ الظلال حـ 1 صـ 110. 119 ﴾

(123/68)

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى الآيات السابقة

[سورة البقرة (2) : آية 75]

أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ ما عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (75)

الإعراب :

(الهمزة) للاستفهام الإنكاري (الفاء) عاطفة " 1 " ، (تطمعون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل . . (أن) حرف مصدري ونصب (يؤمنوا) مضارع منصوب وعلامة النصب حذف النون . . والواو فاعل (اللام) حرف جرّ و(كم) ضمير في محل جرّ متعلّق بـ (يؤمنوا) بتضمينه معنى ينقادوا .

والمصدر المؤوّل من أن والفعل في محلّ جرّ بحرف جرّ محذوف تقديره في أن يؤمنوا متعلّق بـ (تطمعون) .

---

(1) يرى بعض المحقّقين ومنهم عبّاس حسن صاحب كتاب (النحو الوافي) – أن الفاء يمكن أن تكون بحسب المعنى . . . .

استئنافيّة أو عاطفة أو غير ذلك في مثل هذا التركيب خلافا لرأي المتقدّمين من أنها للعطف ليس غير ثمّ إنّ جمهور المحقّقين القدامى يذهبون إلى أن الهمزة مقدّمة من تأخير لأن لها الصدر ولا حذف في الكلام والتقدير أ فتطمعون . .

وذهب الزمخشري إلى أنها داخلة على محذوف دلّ عليه سياق الكلام ، والتقدير هنا أ تسمعون أخبارهم وتعلمون أحوالهم فتطمعون . . وقد أخذنا برأي الزمخشري في الإعراب أعلاه .

(الواو) حاليّة (قد) حرف تحقيق (كان) فعل ماض ناقص (فريق) اسم كان مرفوع (من) حرف جرّ و(هم) ضمير متّصل في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف نعت لـ (فريق) ، (يسمعون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل (كلام) مفعول به منصوب (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه

مجرور (ثمّ) حرف عطف (يحرّفون) مثل يسمعون ، و(الهاء) ضمير مفعول به (من بعد) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يحرّفون) ، (ما) حرف مصدريّ (عقلوا) فعل وفاعل (الهاء) مفعول به .

والمصدر المؤوّل من (ما) والفعل في محلّ جرّ مضاف إليه .

(الواو) حاليّة (هم) ضمير منفصل في محلّ رفع مبتدأ (يعلمون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل .

جملة : تطمعون لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدّر ، أي :

أتعلمون أخبارهم فتطمعون .

وجملة : " قد كان فريق منهم . . . " في محل نصب حال .

وجملة : " يسمعون . . . " في محلّ نصب خبر كان .

وجملة : " يحرّفونه " في محلّ نصب معطوفة على جملة يسمعون .

وجملة : " هم يعلمون " في محلّ نصب حال .

وجملة : " يعلمون " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هم) .

الصرف :

(فريق) ، اسم جمع بمعنى الطائفة والجماعة ، لا مفرد له من لفظه ، جمعه فرقاء وأفرقة وفروق بضم الفاء .

(كلام) ، اسم بمعنى القول أو اسم مصدر للرباعيّ كلّم ، وزنه فعال بفتح الفاء .

[سورة البقرة (2) : آية 76]

وَإِذا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قالُوا آمَنَّا وَإِذا خَلا بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ قالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِما فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ (76)

الإعراب :

(الواو) عاطفة (إذا لقوا . . . قالوا آمنّا) مرّ إعرابها في الآية (14) مفردات وجملا . .

(الواو) عاطفة (إذا) ظرف للمستقبل يتضمّن معنى الشرط متعلّق بالجواب قالوا (خلا) فعل ماض مبني على الفتح المقدّر على الألف (بعض) فاعل مرفوع و(هم) ضمير متّصل في محلّ جرّ مضاف إليه (الى بعض) جارّ ومجرور متعلّق بفعل (خلا) ، (قالوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ . . وفاعله (الهمزة) للاستفهام التوبيخي (تحدّثون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل و(هم) مفعول به (الباء) حرف جرّ (ما) اسم موصول في محلّ جرّ متعلّق بـ (تحدّثون) . (فتح) ماض (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (على) حرف جر و(كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (فتح) ، (اللام) للتعليل " 1 " (يحاجّوا) مضارع منصوب بـ (أن)

مضمرة بعد اللام و(الواو) ضمير فاعل و(كم) ضمير مفعول به ، (الباء) حرف جرّ و(الهاء) ضمير متّصل في محلّ جرّ متعلّق بـ (يحاجّوكم) ، (عند) ظرف مكان منصوب متعلّق بـ (يحاجّوكم) ، (رب) مضاف إليه مجرور و(كم) مضاف إليه .

والمصدر المؤوّل من (أن) المضمرة والفعل في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (تحدّثونهم) .

(الهمزة) للاستفهام التوبيخي (الفاء) عاطفة (لا) نافية (تعقلون) مثل تحدّثون .

---

(1) أو هي للصيرورة والمآل .

جملة : " لقوا . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " آمنوا " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " آمنّا " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " خلا بعضهم " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " أتحدّثونهم . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " فتح اللّه " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " تعقلون " في محلّ نصب معطوفة على جملة تحدثونهم لأنها في حيّز قولهم أي قالوا أ تحدثونهم . . وقالوا أ لا تعقلون .

الصرف :

(خلا) ، فيه إعلال بالقلب أصله خلو بفتح الواو ، جاءت الواو متحرّكة بعد فتح قلبت ألفا .

[سورة البقرة (2) : آية 77]

أَوَلا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَما يُعْلِنُونَ (77)

الإعراب :

(الهمزة) للاستفهام التقريري أو التوبيخي (الواو) عاطفة " 1 " ، (يعلمون) مضارع مرفوع وعلامة الرفع ثبوت النون . . والواو فاعل (أنّ) حرف مشبّه بالفعل للتوكيد (اللّه) لفظ الجلالة اسم أنّ منصوب (يعلم) مضارع مرفوع والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (ما) اسم موصول " 2 " مبنيّ في محلّ نصب مفعول به والعائد محذوف (يسرّون) مثل

---

(1) هذا على رأي الجمهور ، ولكنّ الاستئناف فيها ليس ببعيد ، والجملة بعدها استئنافيّة .

(2) أو حرف مصدريّ ، والمصدر المؤوّل من (ما) والفعل بعدها في محلّ نصب مفعول به لـ (يعلم) ، ومثلها (ما يعلنون) .

(127/68)

يعلمون (الواو) عاطفة (ما يعلنون) مثل ما يسرّون .

وجملة : "يعلمون" لا محلّ لها معطوفة على مستأنف محذوف أي :

أيلومونهم ولا يعلمون .

جملة : "يعلم" في محلّ رفع خبر أنّ .

وجملة : "يسرّون" لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الأول .

وجملة : "يعلنون" لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الثاني .

والمصدر المؤوّل من أنّ واسمها وخبرها سدّ مسدّ مفعولي يعلمون .

الصرف :

(يعلنون) ، فيه حذف للهمزة في أوّله جرى فيه مجرى ينفقون . . انظر الآية (3) .

(يسرون) ، فيه حذف للهمزة في أوّله جرى فيه مجرى ينفقون . . .

[سورة البقرة (2) : آية 78]

وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتابَ إِلاَّ أَمانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ (78)

الإعراب :

(الواو) عاطفة (من) حرف جرّ (هم) ضمير متّصل في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف خبر مقدّم (أميّون) مبتدأ مؤخّر مرفوع وعلامة الرفع الواو (لا) نافية (يعلمون) فعل مضارع مرفوع . . والواو فاعل (الكتاب) مفعول به منصوب (إلّا) أداء استثناء (أمانيّ) منصوب على الاستثناء المنقطع (الواو) عاطفة (ان) نافية (هم) ضمير منفصل في محلّ رفع مبتدأ (إلّا) أداة حصر (يظنون) فعل مضارع مرفوع والواو فاعل .

جملة : " منهم أمّيون " في محلّ نصب معطوفة على جملة قد كان فريق منهم " 1 " .

وجملة : " لا يعلمون الكتاب " في محلّ رفع نعت لـ (أميّون) .

وجملة : " إن هم إلّا يظنون " معطوفة على جملة منهم أميّون تأخذ

---

(1) في الآية (75) . . ويجوز قطعها عن العطف وجعلها استئنافيّة فلا محلّ لها .

محلّها من الإعراب .

وجملة : " يظنّون " في محلّ رفع خبر (هم) ، ومفعولا يظنّون محذوفان اي يظنّون الأباطيل

حقّا .

الصرف :

(أميّون) ، جمع أمّيّ نسبة إلى أم ، وكأنّه باق على أصل الخلقة ، ووزن أمّيّ فعليّ بضمّ الفاء وسكون العين .

(أمانيّ) ، جمع أمنيّة بتشديد الياء في المفرد والجمع ، وقد تخفّف فيهما ، وهو اسم لما يقدّره الإنسان في نفسه . وزنه أفعيلة بضمّ الهمزة ، ووزن أمانيّ بتشديد الياء أفاعيل ، وبدون تشديد أفاعل .

[سورة البقرة (2) : آية 79]

فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هذا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ (79)

الإعراب :

(الفاء) استئنافيّة (ويل) مبتدأ مرفوع " 1 " ، (اللام) حرف جرّ (الذين) اسم موصول مبنيّ في محل جرّ متعلّق بمحذوف خبر (يكتبون) مضارع مرفوع وعلامة الرفع ثبوت النون و(الواو) ضمير متّصل مبنيّ في محل رفع فاعل (الكتاب) مفعول به منصوب (بأيدي) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يكتبون) وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على الياء و(هم) ضمير متّصل في محل جرّ مضاف إليه (ثمّ) حرف عطف (يقولون) مثل يكتبون (ها) حرف تنبيه (ذا) اسم

إشارة مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (من عند) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف خبر ذا (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (اللام) للتعليل (يشتروا) مضارع منصوب بـ (أن) مضمرة بعد

---

(1) جاز البدء بالنكرة لأنها دعاء ، وهو في مفهوم العموم الذي تصحّ به النكرة أن تكون مبتدأ .

اللام والواو فاعل (الباء) حرف جرّ و(الهاء) ضمير متّصل في محلّ جرّ متعلّق به (يشتروا) بتضمينه معنى يستبدلوا .

والمصدر المؤوّل من (أن) المضمرة والفعل في محلّ جرّ باللام بـ (يقولون) .

(ثمنا) مفعول به منصوب (قليلا) نعت لـ (ثمنا) منصوب مثله .

(الفاء) عاطفة (ويل) مثل الأول (اللام) حرف جرّ و(هم) متّصل في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف خبر (من) حرف جرّ (ما) اسم موصول " 1 " في محلّ جرّ بـ (من) متعلّق بالخبر المحذوف (كتب) فعل ماض و(التاء) للتأنيث (أيدي) فاعل مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء و(هم) متّصل في محلّ جرّ مضاف إليه (الواو) عاطفة (ويل لهم ممّا) مرّ إعرابها (يكسبون) مثل يكتبون .

جملة : ويل للذين يكتبون . . لا محلّ لها استئناف مقرّر لمضمون ما سبق .

وجملة : " يكتبون . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " يقولون . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة : " هذا من عند اللّه " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " ويل لهم . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ويل للذين .

وجملة : " كتبت أيديهم " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

---

(1) أو نكرة موصوفة في محلّ جرّ . . والجملة بعدها نعت لها . . أو حرف مصدري والمصدر المؤوّل في محلّ جرّ .

وجملة : " ويل لهم (الثانية) " لا محلّ لها معطوفة على جملة ويل لهم (الأولى) .

وجملة : " يكسبون " لا محل لها صلة الموصول (ما) الثاني .

الصرف :

(ويل) ، مصدر لا فعل له لاعتلال فائه وعينه ، وزنه فعل بفتح فسكون . . وفي التفسير اسم واد في جهنّم .

(أيدي) ، جمع يد وفيه حذف لامه أصله بدو لأن الواو تعود في النسب فيقال يدوي . .

وأصل أيدي أيدو بضمّ الدال زنة أفلس ، ثمّ استثقلت الضمّة على الدال فكسرت ، ثمّ قلبت الواو ياء لسكونها وانكسار ما قبلها فقيل أيدي ، وزنه أفعل بضمّ العين أصلا .

(ثمنا) ، اسم لما كان عوض المبيع ، وزنه فعل لفتحتين .

البلاغة

- الاطناب : في قوله تعالى يَكْتُبُونَ الْكِتابَ بِأَيْدِيهِمْ فقد ذكر اليد مع أن الكتابة لا تكون إلا بها وذلك لتحقيق مباشرتهم ما حرّفوه بأنفسهم ، زيادة في تقبيح فعلهم .

[سورة البقرة (2) : آية 80]

وَقالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْداً فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (80)

الإعراب :

(الواو) عاطفة (قالوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ . .

والواو فاعل (لن) حرف نفي ونصب (تمسّ) فعل مضارع منصوب و(نا) ضمير متّصل في محلّ نصب مفعول به (النار) فاعل مرفوع (إلا) أداة حصر والاستثناء مفرّغ (أياما) ظرف زمان منصوب (معدودة) نعت لـ (أياما) منصوب مثله . (قل) فعل أمر والفاعل ضمير

مستتر تقديره أنت (الهمزة) للاستفهام (اتّخذتم) فعل ماض مبنيّ على السكون وفاعله (عند)

(131/68)

ظرف مكان منصوب متعلّق بـ (اتّخذتم) " 1 " ، (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (عهدا) مفعول به منصوب (الفاء) عاطفة (لن) كالأول (يخلف) مضارع منصوب (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (عهد) مفعول به منصوب و(الهاء) ضمير مضاف إليه ، (أم) حرف عطف وهي المتّصلة " 2 " ، (تقولون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل (على اللّه) جارّ الفعل . . فهمزة الوصل دخلت على الفعل للتخلص من البدء بالساكن ، فلمّا جاءت همزة الاستفهام حلّت محلّ همزة الوصل .

[سورة البقرة (2) : آية 81]

بَلى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولئِكَ أَصْحابُ النّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (81)

الإعراب :

(بلى) حرف جواب إيجاب لنفي متقدّم لا محلّ له (من) اسم شرط جازم مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (كسب) فعل ماض في محلّ جزم فعل الشرط ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو

(سيّئة) مفعول به منصوب (الواو) عاطفة (أحاط) فعل ماض و(التاء) للتأنيث (الباء) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (أحاطت) ، (خطيئة) فاعل مرفوع و(الهاء) مضاف إليه (الفاء) رابطة لجواب شرط (أولاء) اسم إشارة مبنيّ على الكسر في محلّ رفع مبتدأ و(الكاف) حرف خطاب (أصحاب) خبر مرفوع (النار) مضاف إليه مجرور (هم) ضمير منفصل في محلّ رفع مبتدأ (في) حرف جرّ و(ها) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (خالدون) وهو خبر المبتدأ مرفوع وعلامة الرفع الواو .

جملة " من كسب . " لا محلّ لها استئنافيّة .

---

(1) هذا إن كان الفعل بمعنى وجد المتعدّي لواحد . . ويجوز أن يتعلّق بالمفعول الثاني متقدّما لفعل اتّخذ المتعدّي لمفعولين .

(2) أو هي المنقطعة بمعنى بل .

وجملة : " كسب سيّئة " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) " 1 " .

وجملة : " أحاطت به خطيئته " في محلّ رفع معطوفة على جملة كسب . .

وجملة : " أولئك أصحاب . . . " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة : هم فيها خالدون في محلّ رفع خبر ثان للمبتدأ (أولئك) " 2 " .

الصرف :

(سيّئة) مؤنث سيئ ، فيه إعلال بالقلب ، أصله سيوئ زنة فيعل ، عينه واو لأنه من ساء يسوء باب نصر . . التقت الياء والواو في الكلمة وكانت الأولى منهما ساكنة قلبت الواو ياء وأدغمت مع الياء الأولى فهو كصيّب وميّت ، وسيئة صفة مشتقّة .

(خطيئة) ، اسم بمعنى الذنب وزنه فعيلة ، وفعله خطئ يخطأ باب فرح .

البلاغة

- الاستعارة التصريحية : في قوله تعالى بَلى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ .

شبه المبالغة في اقتراف الذنوب بالشيء يحيط بالشيء ، والصفة المشتركة بينهما عدم التخلص في كل منهما وهذه أبلغ استعارة ، وذلك أن الإنسان إذا ارتكب ذنبا واستمر عليه ، دفعه إلى إتيان ما هو أعظم منه فلا يزال يرتقي حتى يطبع على قلبه ، فلا يمكنه أن يخرج عن تعاطيه .

---

(1) يجوز أن يكون الخبر جملتي الشرط والجواب معا .

(2) أو في محلّ نصب حال من أصحاب والعامل فيها الإشارة .

[سورة البقرة (2) : آية 82]

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (82)

الإعراب :

(الواو) عاطفة (الذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (آمنوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ . . والواو فاعل (الواو) عاطفة (عملوا) مثل آمنوا (الصالحات) مفعول به منصوب وعلام النصب الكسرة (أولئك أصحاب . . .) سبق إعراب نظيرها في الآية السابقة .

جملة : الذين آمنوا . . . لا محلّ لها معطوفة على جملة الاستئناف في السابقة .

وجملة : " آمنوا " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " عملوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة صلة الموصول .

وجملة : " أولئك أصحاب . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (الذين) .

وجملة : " هم فيها خالدون " في محلّ رفع خبر ثان للمبتدأ أولئك " 1 " .

[سورة البقرة (2) : آية 83]

وَإِذْ أَخَذْنا مِيثاقَ بَنِي إِسْرائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً وَذِي الْقُرْبى وَالْيَتامى

وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ (83)

الإعراب :

(الواو) عاطفة (إذ) اسم ظرفي في محلّ نصب مفعول به لفعل محذوف تقديره اذكروا

(أخذنا) فعل ماض مبنيّ على السكون .

و(نا) ضمير متّصل في محلّ رفع فاعل (ميثاق) مفعول به منصوب (بني) مضاف إليه مجرور وعلامة جرّه الياء ملحق بجمع المذكّر السالم

---

(1) يجوز أن تكون في محلّ نصب حال من أصحاب . . والعامل فيها الإشارة .

(إسرائيل) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الفتحة فهو ممنوع من التنوين (لا) نافية (تعبدون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل (إلّا) أداة حصر (اللّه) مفعول به منصوب (الواو) عاطفة ، (وبالوالدين) جار ومجرور متعلّق بفعل محذوف تقديره استوصوا (إحسانا) مفعول به للفعل المحذوف .

جاء في البحر المحيط لابن حيان ما يلي :

اختلفوا فيما تتعلق به الباء في قوله (بالوالدين) ، وفي انتصاب (إحسانا) على وجوه :

الأول : أن يكون (إحسانا) معطوفا على (لا تعبدون) أعني على المصدر المنسبك من الحرف المصدري والفعل إذ التقدير عند هذا القائل بافراد اللّه بالعبادة وبالوالدين أي وببر الوالدين أو بإحسان إلى الوالدين ، ويكون انتصاب (إحسانا) على المصدر من ذلك المضاف المحذوف ، فالعامل فيه الميثاق لأنه يتعلق به الجار والمجرور ، وروائح الأفعال تعمل في الظروف والمجرورات .

الثاني : أن يكون الجار متعلقا بـ (إحسانا) ، ويكون (إحسانا) مصدرا موضوعا موضع فعل الأمر كأن قال وأحسنوا بالوالدين . . قالوا والباء ترادف إلى في هذا الفعل تقول أحسنت به وإليه بمعنى واحد ، وقد تكون على هذا التقدير على حذف مضاف أي وأحسنوا ببر الوالدين والمعنى وأحسنوا إلى الوالدين ببرهما . . وعلى هذين الوجهين يكون العامل في الجار والمجرور ملفوظا به .

[وقد ردّ ابن حيان قول ابن عطية بأن عامل المصدر لا يتقدم عليه ، بأن ذلك في المصدر الذي يصح أن يؤول بحرف مصدري وفعل ، لا المصدر النائب مناب الفعل كما جاء في الآية] .

الثالث : أن يكون العامل محذوفا ويقدّر وأحسنوا أو ويحسنون بالوالدين ، وينتصب (إحسانا) على أنه مصدر مؤكد لذلك الفعل المحذوف .

الرابع : أن يكون العامل محذوفا وتقديره واستوصوا بالوالدين ، وينتصب (إحسانا) على أنه مفعول به لذلك الفعل المحذوف [وبهذا الوجه تمّ إعراب الآية الكريمة] .

الخامس : أن يكون العامل محذوفا وتقديره ووصيناهم بالوالدين ، وينتصب (إحسانا) على أنه مفعول لأجله أي وصيناهم بالوالدين إحسانا منا أي لأجل إحساننا . . وقد جاء الفعل مصرحا به في قوله تعالى :

ووصّينا الإنسان بوالديه حسنا .

قال ابن حيان : والمختار الوجه الثاني لعدم الإضمار فيه ولاطّراد مجيء المصدر في معنى فعل الأمر .

(135/68)

(الواو) عاطفة (ذي) معطوفة على الوالدين مجرور مثله وعلامة الجرّ الياء فهو من الأسماء الخمسة (القربى) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على الألف (اليتامى) معطوفة بالواو على الوالدين مجرور مثله وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على الألف (المساكين) معطوفة بالواو على الوالدين مجرور مثله . (الواو) عاطفة (قولوا) فعل أمر مبنيّ على حذف النون . . والواو فاعل (للناس) جارّ ومجرور متعلّق بـ (قولوا) ، (حسنا)

مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو صفته أي قولا حسنا . (الواو) عاطفة (أقيموا) مثل قولوا (الصلاة) مفعول به منصوب (الواو) عاطفة (آتوا) مثل قولوا (الزكاة) مفعول به منصوب . (ثمّ) حرف عطف (توليتم) فعل ماض مبنيّ على السكون . . و(التاء) فاعل و(الميم) حرف لجمع الذكور (إلّا) أداة استثناء (قليلا) منصوب بالاستثناء من ضمير الرفع في

تولّيتم (من) حرف جرّ و(كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف نعت لـ (قليلا) ، (الواو) حاليّة (أنتم) ضمير منفصل في محلّ رفع مبتدأ (معرضون) خبر مرفوع وعلامة الرفع الواو .

جملة : أخذنا في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : لا تعبدون إلا اللّه لا محلّ لها جواب قسم لأن أخذ الميثاق قسم " 1 " .

والجملة المقدّرة : " استوصوا بالوالدين . . " مقول القول لقول مقدّر أي قلنا استوصوا . .

وجملة : " قولوا . . " في محلّ نصب معطوفة على الجملة المقدّرة استوصوا .

وجملة : " أقيموا . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة قولوا .

وجملة : " آتوا . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة قولوا .

وجملة : " تولّيتم " لا محل لها معطوفة على استئناف مقدّر أي : فقبلتم ذلك ثمّ تولّيتم .

وجملة : " أنتم معرضون " في محلّ نصب حال وهي حالّ مؤكّدة لأنها في معنى تولّيتم .

---

(1) الجملة في لفظها خبرية وفي معناها إنشائية لأنها في معنى النهي فهي مقول القول لقول محذوف أي قلنا : لا تعبدوا إلا اللّه . أو مقول القول لحال محذوفة أي قائلين : لا تعبدون إلا اللّه .

وعلى رأي العكبري يجوز أن تكون الجملة حالا مصاحبة أو مقدّرة من ضمير الغائب أي أخذنا ميثاقهم موحّدين ، كما يصحّ عنده ان تكون (أن) مقدّرة أمام الفعل فالمصدر المؤوّل في محلّ جرّ بحرف جر : أي على ألّا تعبدوا . . أو بألا تعبدوا ولما حذفت أن رفع الفعل ولكن هذا الرأي غير قياسي . [. . . . .]

الصرف :

(إحسانا) ، مصدر قياسيّ لفعل أحسن الرباعيّ ، وزنه إفعال أي على وزن الماضي بكسر الأول وزيادة ألف قبل الآخر .

(القربى) ، مصدر قرب يقرب باب فرح وباب كرم ، وزنه فعلى بضمّ الفاء .

(اليتامى) ، جمع يتيم صفة مشبّهة من باب ضرب وباب فتح وباب كرم ، وزنه فعيل . . وجمع فعيل على فعالى بفتح الميم قليل .

(المساكين) ، جمع المسكين ، صفة مشبّهة من سكن ، فالميم زائدة وزنه مفعيل .

(حسنا) ، مصدر حسن يحسن باب نصر وباب كرم ، وجمعه محاسن على غير قياس ، وزنه فعل بضمّ فسكون . وقال ابن حيّان : قيل يكون أيضا صفة كالحلو والمرّ فيكون الحسن بضم فسكون والحسن بفتحتين كالحزن والحزن والعرب والعرب .

(معرضون) ، جمع معرض ، اسم فاعل من أعرض الرباعيّ ، فهو على وزن مضارعه بإبدال حرب المضارعة ميما مضمومة وكسر ما قبل الآخر ، وفيه حذف الهمزة من أوله كما حذفت من فعله في المضارع

البلاغة

1 – قوله تعالى لا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ إخبار في معنى النهي كقوله تعالى وَلا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلا شَهِيدٌ وكما تقول تذهب إلى فلان وتقول كيت وكيت وهو أبلغ من صريح النهي لما فيه من إيهام أن المنهي حقه أن يسارع إلى الانتهاء عما نهي عنه فكأنه انتهى عنه فيخبر به الناهي .

2 – الالتفات : في قوله تعالى ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ فهذا التفات إلى خطاب بني

إسرائيل جميعا بتغليب أخلافهم على أسلافهم لجريان ذكرهم كلهم حينئذ على نهج الغيبة.

3 - الالتفات: من الغيبة إلى الخطاب في قوله تعالى لا تَعْبُدُونَ

[سورة البقرة (2): آية 84]

وَإِذْ أَخَذْنا مِيثاقَكُمْ لا تَسْفِكُونَ دِماءَكُمْ وَلا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (84)

الإعراب:

(الواو) عاطفة (إذا أخذنا ميثاقكم) مرّ إعراب نظيرها في الآية السابقة (لا) نافية (تسفكون) مضارع مرفوع.. والواو فاعل (دماء) مفعول به منصوب و(كم) ضمير متّصل في محلّ جرّ مضاف إليه (الواو) عاطفة (لا تخرجون أنفسكم) مثل لا تسفكون دماءكم (من ديار) جارّ ومجرور متعلّق بـ (تخرجون)، و(كم) مضاف إليه (ثمّ) حرف عطف (أقررتم) فعل ماضي مبنيّ على السكون و(تم) ضمير متّصل في محلّ رفع فاعل (الواو) حاليّة (أنتم) ضمير منفصل في محلّ رفع مبتدأ (تشهدون) مثل تسفكون.

جملة: "أخذنا... "في محلّ جرّ مضاف إليه.

وجملة: "لا تسفكون... "لا محلّ لها جواب قسم فأخذ الميثاق قسم "1".

وجملة: "لا تخرجون... "لا محلّ لها معطوفة على جملة لا تسفكون.

وجملة : " أقررتم " لا محلّ لها معطوفة على جملة محذوفة مستأنفة أي تفهّمتم ثمّ أقررتم .

---

(1) انظر الحاشية (1) في اعراب الجمل للآية الآية (83) . وجعلها الجلال مقول القول لقول مقدّر تقديره قلنا .

وجملة : " أنتم تشهدون " في محلّ نصب حال .

وجملة : " تشهدون " في محلّ رفع خبر المبتدأ أنتم .

الصرف :

(دياركم) ، جمع دار ، والألف في دار منقلبة عن واو فجمعها أيضا دور ، وعلى هذا فالياء في ديار منقلبة عن واو ، أصلها دوار بكسر الدال ، جاءت الواو عينا في جمع تكسير صحيح اللام ، وقبلها كسرة وهي معلّة في المفرد .

[سورة البقرة (2) : آية 85]

ثُمَّ أَنْتُمْ هؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِنْكُمْ مِنْ دِيارِهِمْ تَظاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسارى تُفادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْراجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَما جَزاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَيَوْمَ

الْقِيامَةِ يُرَدُّونَ إِلى أَشَدِّ الْعَذابِ وَمَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (85)

الإعراب :

(ثمّ) حرف عطف (أنتم) ضمير مبتدأ (ها) حرف تنبيه (أولاء) اسم إشارة مبنيّ على الكسر في محلّ رفع خبر على حذف مضاف أي أنتم مثل هؤلاء " 1 " ، (تقتلون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل

---

(1) أو في محلّ نصب منادى لأداة نداء محذوفة ! ، وجملة تقتلون خبر (أنتم) ، وجملة النداء اعتراضيّة .

جاء في كتاب البحر المحيط لابن حيان ما يلي :

اختلف المعربون في إعراب هذه الجملة ، فالمختار أن (أنتم) مبتدأ وهؤلاء خبر وتقتلون حال وقد قالت العرب : ها أنت ذا قائما . . وإنما أخبر عن الضمير باسم الإشارة في اللفظ وكأنه قال أنت حاضر ، والمقصود من حيث المعنى الإخبار بالحال ، ويدل على أن الجملة حال مجيئهم بالاسم المفرد منصوبا على الحال . .

(أنفس) مفعول به منصوب و(كم) مضاف إليه (الواو) عاطفة (تخرجون) مثل تقتلون (فريقا) مفعول به منصوب (من) حرف جرّ و(كم) ضمير متّصل في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف نعت لـ (فريقا) ، (من ديار) جار ومجرور متعلّق بـ (تخرجون) ، و(هم) مضاف إليه (تظاهرون) مضارع مرفوع محذوف منه التاء . . . والواو فاعل (على) حرف جرّ و(هم) ضمير متّصل في محلّ جرّ متعلّق بـ (تظاهرون) ، (بالإثم) جار ومجرور متعلّق بمحذوف حال من الفاعل في (تظاهرون) أي تتظاهرون عليهم بحلفائكم وأنتم متلبسون بالإثم والعدوان (العدوان) معطوف بالواو على الإثم مجرور مثله ، (الواو) عاطفة (إن) حرف شرط جازم (يأتوا) مضارع مجزوم وعلامة الجزم حذف النون . . . والواو فاعل و(كم) ضمير متّصل في محلّ نصب مفعول به (أسارى) حال منصوبة وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على الألف (تفادوا) مضارع مجزوم جواب الشرط وعلامة الجزم حذف

(قال ابن عطية) هؤلاء مبتدأ خبره أنتم مقدّم عليه وجملة تقتلون حال بها تمّ المعنى وهي كانت المقصود فهي غير مستغنى عنها وإنما جاءت بعد أن تم الكلام في المسند والمسند إليه كما تقول هذا زيد منطلقا وأنت قصدت الإخبار بانطلاقه لا الإخبار بأنه زيد . . ثم يعلّق ابن حيان فيقول : لا أدري ما العلة في العدول عن جعل أنتم المبتدأ وهؤلاء الخبر إلى العكس .

وذهب بعض المعربين إلى أن (هؤلاء) منادى محذوف من حرف النداء وهذا لا يجوز عند

البصريين لأن اسم الإشارة لا يجوز أن يحذف منه حرف النداء . .

وعلى هذا جملة تقتلون خبر المبتدأ أنتم .

وذهب ابن كيسان وغيره إلى أن أنتم مبتدأ وجملة تقتلون خبر وهؤلاء تخصيص للمخاطبين فهو منصوب بأعني . وقد نص النحويون على أن التخصيص لا يكون بالنكرات ولا بأسماء الإشارة .

وذهب بعضهم إلى أن هؤلاء موصول بمعنى الذي وهو خبر عن أنتم والجملة بعده صلة وهو غير جائز على مذهب البصريين .

(140/68)

النون . . والواو فاعل و(هم) ضمير متّصل في محلّ نصب مفعول به .

(الواو) حاليّة (هو) ضمير الشأن في محلّ رفع مبتدأ " 1 " ، (محرّم) خبر مقدّم مرفوع " 2 " ، (على) حرف جرّ و(كم) ضمير متّصل في محلّ جرّ متعلّق بـ (محرم) ، (إخراج) مبتدأ مؤخّر مرفوع و(هم) ضمير متّصل مضاف إليه .

وجملة : " أنتم هؤلاء " لا محلّ لها معطوفة على جملة أقررتم في الآية السابقة .

وجملة : " تقتلون . . . " في محلّ رفع خبر ثان " 3 " وجملة : " تخرجون . . . " معطوفة

على جملة تقتلون . . . تتبعها في المحلّ .

وجملة : " تظاهرون " في محلّ نصب حال من فاعل تخرجون .

وجملة : " يأتوكم . . . " في محلّ رفع – أو نصب – معطوفة على جملة تقتلون .

وجملة : " تفادوهم " لا محلّ لها جواب شرط جازم غير مقترنة بالفاء .

وجملة : " هو محرّم . . . " في محلّ نصب حال " 4 " .

---

(1) قد يكون الضمير عائدا على الإخراج المفهوم من قوله يخرجون ، فهو ضمير منفصل في محلّ رفع مبتدأ خبره محرّم و(إخراج) يصبح بدلا من الضمير في محرّم .

(2) أو هو مبتدأ ، وإخراج نائب فاعل سدّ مسدّ الخبر .

(3) يجوز أن تكون حالا العامل فيها معنى التشبيه في قولنا : مثل هؤلاء .

(4) أو هي معطوفة بالواو على الجملة الحاليّة تظاهرون عليهم ، وتصبح جملة الشرط اعتراضيّة لأنها بين متعاطفين .

(الهمزة) للاستفهام الإنكاري التوبيخي و(الفاء) حرف عطف – أو استئنافيّة – (تؤمنون) مثل تقتلون ، (ببعض) جارّ ومجرور متعلّق بـ (تؤمنون) ، (الكتاب) مضاف إليه

مجرور (الواو) عاطفة (تكفرون) مثل تقتلون (ببعض) مثل الأول متعلّق بـ (تكفرون) ، (الفاء) استئنافيّة (ما) نافية " 1 " ، (جزاء) مبتدأ مرفوع (من) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ مضاف إليه (يفعل) مضارع مرفوع والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (ذا) اسم إشارة مبنيّ في محل نصب مفعول به و(اللام) للبعد و(الكاف) للخطاب (من) حرف جرّ و(كم) ضمير متّصل في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف حال من فاعل يفعل (إلّا) أداة حصر (خزي) خبر مرفوع للمبتدأ جزاء (في الحياة) جارّ ومجرور متعلّق بـ (خزي) ، (الدنيا) نعت لـ (الحياة) مجرور مثله وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على الألف . (الواو) استئنافيّة (يوم) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (يردّون) ، (القيامة) مضاف إليه مجرور (يردّون) مضارع مبنيّ للمجهول مرفوع . . والواو نائب فاعل (الى أشدّ) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يردّون) ، (العذاب) مضاف إليه مجرور (الواو) استئنافيّة (ما) نافية عاملة عمل ليس (اللّه) لفظ الجلالة اسم ما مرفوع (الباء) حرف جرّ زائد (غافل) اسم مجرور لفظا منصوب محلّا خبر ما (عن) حرف جرّ (ما) اسم موصول " 2 " مبنىّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (غافل) ، (تعملون) مضارع مرفوع وعلامة الرفع ثبوت النون . . والواو فاعل .

جملة : " تؤمنون " لا محلّ لها معطوفة على مقدر تقديره أ تفعلون ذلك . . أو لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " تكفرون معطوفة " على جملة تؤمنون .

---

(1) أو اسم استفهام مبتدأ خبره جزاء ، وخزي بدل من جزاء .

(2) أو حرف مصدري ، أو نكرة موصوفه .

(142/68)

وجملة : " ما جزاء . . . " لا محل لها استئنافية .

وجملة : " يفعل ذلك " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " يردّون " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " ما اللّه بغافل " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " تعملون " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

الصرف :

(تظاهرون) ، حذفت منه إحدى التاءين تخفيفا ، وفي أيّ منهما وقع ذلك خلاف .

(الإثم) ، اسم لما يستحقّ به صاحبه الذمّ واللوم ، أو لما تنفر منه النفس ، وقد يكون الإثم مصدرا لفعل أثم يأثم باب فرح ، وزنه فعل بكسر فسكون .

(العدوان) مصدر سماعيّ لفعل عدا يعدو باب نصر ، وزنه فعلان بضمّ الفاء ، وقد تكسر الفاء ، وثمّة مصادر أخرى للفعل هي عدو بفتح العين وضمّها وسكون الدال ، وعداء بفتح

العين .

(أسارى) ، جمع أسير – يحتمل أن يكون جمع أسرى الذي هو جمع أسير – وأسير فعيل بمعنى مفعول فعله أسر يأسر باب ضرب .

(تفادوهم) ، فيه إعلال أصله تفاديوهم بضمّ الياء ، استثقلت الضمّة على الياء ونقلت إلى الدال ، فلمّا اجتمع ساكنان الياء والواو حذفت الياء فهو إعلال بالتسكين وإعلال بالحذف . . وزنه تفاعوهم .

(محرّم) ، اسم مفعول لفعل حرّم الرباعيّ ، على وزن مضارعه المبنيّ للمجهول بإبدال حرف المضارعة ميما مضمومة .

(إخراج) ، مصدر قياسيّ لفعل أخرج الرباعي ، وزنه إفعال .

(الكتاب) ، اسم جامد وقصد به التوراة ، وزنه فعال بكسر الفاء . انظر الآية (2) من هذه السورة .

(جزاء) ، مصدر سماعيّ لفعل جزى يجزي باب ضرب ، وزنه فعال بفتح الفاء ، وفيه قلب حرف العلّة همزة ، أصله جزاي ، جاءت الياء متطرّفة بعد ألف ساكنة قلبت همزة .

(خزي) مصدر سماعيّ لفعل خزي يخزي باب فرح ، وزنه فعل بكسر فسكون ، وثمّة مصدر آخر هو خزي وزنه فعل بفتحتين .

(الحياة) ، مصدر سماعيّ لفعل حيي يحيى باب فرح وزنه فعلة بفتح الفاء والعين واللام ، وفيه إعلال بالقلب أصله حيية ، جاءت الياء الثانية متحرّكة بعد فتح قلبت ألفا .

(143/68)

(الدنيا) ، صفة مشتقّة وزنه فعلى بضمّ الفاء ، مؤنّث اسم التفضيل أدنى ، وقد جاءت لام الكلمة واوا في فعلى ، وفعله دنا يدنو باب نصر " 1 " ، وقد رسمت الألف في دنيا برسم الطويلة لأن ما قبلها ياء ، وهو هنا واجب التأنيث لأنه محلّى بـ (ال) صفة لـ (الحياة) .

(القيامة) ، اسم يوم الانبعاث ، وهو على وزن المصدر المنتهي بتاء مربوطة أي فعالة بكسر الفاء ، وفيه إعلال بالقلب ، أصله قوامة ، قلبت الواو ياء لأن اللفظ مصدر استعمل اسما والواو معلّة في الفعل " 2 " .

[سورة البقرة (2) : آية 86]

أُولئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَياةَ الدُّنْيا بِالْآخِرَةِ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذابُ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ (86)

الإعراب :

(أولاء) اسم إشارة مبنيّ على الكسر في محلّ رفع مبتدأ و(الكاف) حرف خطاب (الذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع خبر (اشتروا) فعل ماضي مبنيّ على الضمّ المقدّر على

الألف المحذوفة

---

(1) انظر النحو الوافي ج4 ص 588 .

(2) انظر النحو الوافي ج4 ص 586 .)

لالتقاء الساكنين . . والواو فاعل (الحياة) مفعول به منصوب (الدنيا) نعت لـ (الحياة) منصوب مثله وعلامة نصبه الفتحة المقدّرة (بالآخرة) جارّ ومجرور متعلّق بـ (اشتروا) بتضمينه معنى استبدلوا (الفاء) عاطفة للربط السببي (لا) نافية (يخفّف) مضارع مبنيّ للمجهول مرفوع (عن) حرف جرّ و(هم) ضمير متّصل في محلّ جرّ متعلّق بـ (يخفّف) ، (العذاب) نائب فاعل مرفوع (الواو) عاطفة (لا) زائدة لتأكيد النفي (هم) ضمير منفصل في محلّ رفع مبتدأ (ينصرون) مضارع مبنيّ للمجهول مرفوع وعلامة الرفع ثبوت النون . . والواو نائب فاعل .

جملة : "أولئك الذين . . . "لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : "اشتروا . . . "لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : "لا يخفّف عنهم العذاب "لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة : " لا هم ينصرون " لا محلّ لها معطوفة على جملة لا يخفّف .

وجملة : " ينصرون " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هم) .

الصرف :

(الآخرة) ، مؤنّث الآخر ، اسم ليوم القيامة . وانظر الآية (4) من هذه السورة .

البلاغة

- الاستعارة المكنية التبعية : في قوله تعالى اشْتَرَوُا الْحَياةَ الدُّنْيا بِالْآخِرَةِ أي آثروا الحياة الدنيا واستبدلوها بالآخرة . والشراء مستعار .

[سورة البقرة (2) : آية 87]

وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ وَقَفَّيْنا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّناتِ وَأَيَّدْناهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّما جاءَكُمْ رَسُولٌ بِما لا تَهْوى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ (87)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (قد) حرف تحقيق (آتينا) فعل وفاعل (موسى) مفعول به منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على الألف (الكتاب) مفعول به ثان منصوب (الواو) عاطفة (قفّينا) فعل وفاعل (من بعد) جارّ ومجرور متعلّق بـ (قفّينا) ، و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ مضاف إليه (بالرسل) جارّ ومجرور متعلّق بـ (قفّينا) . (الواو) عاطفة (آتينا) كالأول (عيسى) مفعول به منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة (بن) بدل من عيسى أو نعت له منصوب مثله (مريم) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الفتحة فهو ممنوع من الصرف (البيّنات) مفعول به ثان منصوب وعلامة نصبه الكسرة فهو جمع مؤنّث سالم (الواو) عاطفة (أيّدنا) فعل وفاعل و(الهاء) ضمير متّصل مفعول به (بروح) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أيّدناه) ، (القدس) مضاف إليه مجرور . (الهمزة) للاستفهام الإنكاري التوبيخيّ (الفاء) استئنافيّة (كلّما) ظرفية حينيّة متضمّنة معنى الشرط " 1 " (جاء) فعل ماض و(كم) ضمير متّصل في محلّ نصب مفعول به (رسول) فاعل مرفوع (الباء) حرف جرّ (ما) اسم موصول في محلّ جرّ متعلّق بـ (جاءكم) ، (لا) نافية (تهوى) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الألف (أنفس) فاعل مرفوع و(كم) مضاف إليه (استكبر) ماض مبنيّ على السكون و(تم) ضمير متّصل في محلّ رفع فاعل ، (الفاء) عاطفة (فريقا) مفعول به مقدّم منصوب (كذّبتم) مثل استكبرتم ، (الواو) عاطفة (فريقا) مثل الأول (تقتلون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل .

(1) قد تعرب (كل) ظرف زمان متعلّق بـ (استكبرتم) ، و(ما) حرف مصدري ، والمصدر المؤوّل في محلّ جرّ مضاف إليه .

(146/68)

جملة : "آتينا . . . " لا محلّ لها جواب قسم مقدّر .

وجملة : "قفّينا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة آتينا .

وجملة : "آتينا (الثانية) " لا محلّ لها معطوفة على جملة آتينا (الأولى) .

وجملة : "أيدناه . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة آتينا (الثانية) .

وجملة : "جاءكم رسول " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : "لا تهوى أنفسكم " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : "استكبرتم " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : "كذّبتم " لا محلّ لها معطوفة على جملة الجواب .

وجملة : "تقتلون " لا محلّ لها معطوفة على جملة الجواب .

الصرف :

(قفّينا) ، الياء منقلبة عن واو لأن مجرّده الثلاثي قفوت إذا اتبعت قفاه ، فالواو تقلب ألفا في

الرباعي على وزن فعّل لتحركها وانفتاح ما قبلها ، ثم قلبت الألف ياء – وهي رابعة – في حال بناء الفعل على السكون " 1 " .

(الرسل) ، جمع الرسول بمعنى المرسل ، ووزن الرسول فعول ، ووزن الرسل فعل بضمّتين وهو جمع غير قياسي .

(عيسى) ، قيل هو مأخوذ من العيس وهو بياض يخالطه شقرة ، وقيل هو أعجميّ ليس مشتقّا من شيء .

(مريم) ، قيل هو أعجمي وهو بالسريانيّة صفة بمعنى الخادم . . وفي لسان العرب هي المرأة التي تكره مخالطة الرجال . وزنه مفعل بفتح الميم والعين إذا كان مشتقّا من رام يريم .

---

(1) انظر النحو الوافي ج 4 ص 588 .)

(البيّنات) ، جمع البيّنة مؤنّث البيّن ، وزنه فيعل بكسر العين من فعل بان يبين .

(روح) ، في الأصل اسم لما به حياة الأنفس ، ثمّ أستعير لجبريل عليه السلام .

(القدس) ، مصدر قدس يقدس باب كرم ، وهنا استعمل استعمال الصفة بمعنى المقدّس ، وزنه فعل بضمّتين ، وقد تأتي الدال ساكنة .

[سورة البقرة (2) : آية 88]

وَقالُوا قُلُوبُنا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً ما يُؤْمِنُونَ (88)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (قالوا) فعل وفاعل (قلوب) مبتدأ مرفوع و(نا) ضمير متّصل في محلّ جرّ مضاف إليه (غلف) خبر مرفوع. (بل) حرف إضراب وابتداء (لعن) فعل ماض و(هم) ضمير متّصل مفعول به (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (بكفر) جارّ ومجرور متعلّق بـ (لعن) والباء للسببيّة و(هم) مضاف إليه (الفاء) عاطفة (قليلا) مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو صفته أي يؤمنون إيمانا قليلا " 1 " ، (ما) زائدة لتأكيد المعنى " 2 " ، (يؤمنون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل.

جملة : " قالوا . . . " لا محل لها استئنافيّة.

وجملة : " قلوبنا غلف " في محلّ نصب مقول القول.

وجملة : " لعنهم اللّه " لا محلّ لها استئنافيّة أو هي اعتراضيّة بين متعاطفين.

---

(1) يجوز أن يكون ظرفا نائبا عن زمان محذوف أي يؤمنون مدّة قليلة أو زمانا قليلا . . أو حال على رأي سيبويه. [. . . . .]

(2) لا يجوز أن تكون (ما) مصدريّة لأن (قليلا) لا يبقى له ناصب . . وقيل (ما) نافية ،

أي فما يؤمنون قليلا ولا كثيرا ، وهذا أقوى في المعنى وإنّما يضعف شيئا من جهة تقدّم معمول ما في حيّزها عليها . . (اه من العكبري) .

(148/68)

وجملة : " يؤمنون " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة الثانية - أو الأولى - .

الصرف :

(غلف) ، جمع أغلف صفة مشبّهة من فعل غلف يغلف باب فرح ، وزنه أفعل والجمع فعل بضمّ فسكون .

(كفر) ، مصدر سماعيّ لفعل كفر يكفر باب نصر ، وزنه فعل بضمّ فسكون .

[سورة البقرة (2) : آية 89]

وَلَمَّا جاءَهُمْ كِتابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِما مَعَهُمْ وَكانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جاءَهُمْ ما عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكافِرِينَ (89)

الإعراب :

(الواو) عاطفة (لمّا) ظرف بمعنى حين متضمّن معنى الشرط متعلّق بالجواب (جاء) فعل ماض و(هم) ضمير متّصل في محلّ نصب مفعول به (كتاب) فاعل مرفوع (من عند) جارّ

ومجرور متعلّق بـ (جاء) " 1 " ، (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (مصدّق) نعت لـ (كتاب) مرفوع مثله (اللام) حرف جرّ " 2 " ، (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (مصدّق) ، (مع) ظرف مكان منصوب متعلّق بمحذوف صلة ما و(هم) ضمير متّصل مضاف إليه (الواو) اعتراضيّة (كانوا) فعل ماض ناقص مبنيّ على الضمّ . . والواو اسم كان (من) حرف جرّ (قبل) اسم مبنيّ على الضمّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (يستفتحون) وهو مضارع مرفوع . . والواو فاعل (على) حرف جرّ (الذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (يستفتحون) بتضمينه معنى يستنصرون (كفروا) فعل ماض وفاعله (الفاء) عاطفة (لّما جاءهم) كالسابق (ما) اسم

---

(1) أو متعلّق بمحذوف نعت لـ (كتاب) .

(2) يجوز أن تكون اللام زائدة للتقوية ، فاسم الموصول مفعول اسم الفاعل مصدّق .

موصول في محلّ رفع فاعل (عرفوا) فعل ماض وفاعله (كفروا) مثل عرفوا (الباء) حرف جرّ (الهاء) ضمير متّصل في محلّ جرّ متعلّق بـ (كفروا) .

(الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (لعنة) مبتدأ مرفوع (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه

مجرور (على الكافرين) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف خبر المبتدأ . . وعلامة الجرّ الياء .

جملة : " جاءهم كتاب " في محلّ جرّ مضاف إليه . . وجواب الشرط محذوف دلّ عليه جواب الشرط الثاني .

وجملة : " كانوا . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة .

وجملة : " يستفتحون " في محلّ نصب خبر كانوا .

وجملة : " كفروا " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " جاءهم (الثانية) " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " عرفوا " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

(150/68)

وجملة : " كفروا به " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم . . والجملة المكوّنة من الشرط وفعله وجوابه معطوفة على الجملة الأولى من الشرط وفعله وجوابه لأنها معطوفة على استئناف مقدّم .

وجملة : " لعنة اللّه على الكافرين " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي ان كانوا كذلك فلعنة اللّه على الكافرين .

الصرف :

(مصدّق) ، اسم فاعل من صدّق الرباعيّ ، فهو على وزن مضارعه بإبدال حرف المضارعة ميما مضمومة وكسر ما قبل الآخر .

(لعنة) ، مصدر بمعنى اللعن لفعل لعن يلعن باب فتح ، أو هو مصدر المرّة من لعن وزنه فعلة بفتح الفاء .

[سورة البقرة (2) : آية 90]

بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِما أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ فَباؤُ بِغَضَبٍ عَلى غَضَبٍ وَلِلْكافِرِينَ عَذابٌ مُهِينٌ (90)

الإعراب :

(بئس) فعل ماض جامد لإنشاء الذّم (ما) نكرة موصوفة في محلّ نصب تمييز للضمير المستتر الذي هو فاعل بئس ، أي بئس الشيء شيئا اشتروا . . . (اشتروا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ . . والواو فاعل (الباء) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (اشتروا) بتضمينه معنى استبدلوا (أنفس) مفعول به منصوب (هم) ضمير متّصل في محلّ جرّ مضاف إليه ، (أن) حرف مصدري ونصب (يكفروا) مضارع منصوب وعلامة النصب حذف النون . . والواو فاعل .

والمصدر المؤوّل من أن والفعل في محلّ رفع مبتدأ خبره جملة بئس . . وهو المخصوص بالذم

. " 1 "

(الباء) حرف جرّ (ما) اسم موصول في محلّ جرّ متعلّق بـ (يكفروا) (أنزل) فعل ماض (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (بغيا) مفعول لأجله منصوب " 2 " ، (أن) كالأول (ينزّل) مضارع منصوب (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (من فضل) جارّ ومجرور متعلّق بـ (ينزل) ، و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ مضاف إليه .

والمصدر المؤوّل من (أن) والفعل في محلّ جرّ بحرف جرّ محذوف تقديره على أن ينزّل . . متعلّق بـ (بغيا) .

(على) حرف جرّ (من) اسم موصول " 3 " في محلّ جرّ بحرف الجرّ

---

(1) أو خبر لمبتدأ محذوف وجوبا تقديره هو ، وجملة بئس . . استئنافيّة لا محلّ لها .

(2) أو مفعول مطلق لفعل محذوف .

(3) يجوز أن يكون اسما نكرة موصوفة أي : على رجل يشاء اللّه نزوله عليه .

متعلّق بـ (ينزل) ، (يشاء) مضارع مرفوع والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (من عباد) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف حال من الضمير المحذوف في (يشاء) أي على من يشاء نزوله

عليه من عباده ، و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ مضاف اليه . (الفاء) عاطفة (باءوا) فعل وفاعل (بغضب) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف حال من الواو في (باءوا) أي باءوا متلبسين بغضب أي مغضوبا عليهم (على غضب) جارّ ومجرور متعلّق بنعت لـ (غضب) الأول . (الواو) استئنافيّة (للكافرين) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف خبر مقدّم ، وعلامة الجرّ الياء (عذاب) مبتدأ مؤخّر مرفوع (مهين) نعت لـ (عذاب) مرفوع مثله .

جملة : " بئسما . . . " في محلّ رفع خبر مقدّم للمخصوص بالذم (أن يكفروا . . .) .

وجملة : " اشتروا " في محلّ نصب نعت لـ (ما) " 1 " وجملة : " أنزل اللّه " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " يشاء " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " باءوا " لا محلّ لها معطوفة على جملة الاستئناف الاسميّة أن يكفروا بما أنزل اللّه بئسما اشتروا به أنفسهم .

وجملة : " للكافرين عذاب " لا محلّ لها استئنافيّة .

الصرف :

(بغيا) ، مصدر سماعيّ لفعل بغى يبغي باب ضرب وزنه فعل بفتح فسكون ، وثمّة مصادر أخرى للفعل هي : بغاء بضمّ الباء وبغي بضمّ الباء وبغية بضمّ الباء وكسرها .

(1) يجوز في (ما) أن تكون اسما معرفة في محلّ رفع فاعل بئس ، والجملة بعده لا محلّ لها صلة ما . . وثمّة أوجه أخرى في إعراب ما لا ضرورة لذكرها لأن فيها تكلّفا وتأويلا كثيرا .

(عباده) ، جمع عبد صفة مشبّهة للإنسان حرّا كان أم مملوكا من فعل عبد يعبد باب نصر ، وزنه فعل بفتح فسكون .

(غضب) ، مصدر سماعيّ لفعل غضب يغضب باب فرح ، وزنه فعل بفتحتين (انظر الآية 61 من هذه السورة) .

(مهين) ، اسم فاعل من أهان الرباعيّ ، فهو على وزن مضارعه بإبدال حرف المضارعة ميما مضمومة وكسر ما قبل آخره ، وفيه إعلال بالقلب أصله مهون لأنه مأخوذ من الهوان ، استثقلت الكسرة على الواو فسكّنت ، ونقلت الحركة إلى الهاء – وهو الإعلال بالتسكين – ثمّ قلبت الواو ياء لسكونها وانكسار ما قبلها فقيل مهين .

[سورة البقرة (2) : آية 91]

وَإِذا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِما أَنْزَلَ اللَّهُ قالُوا نُؤْمِنُ بِما أُنْزِلَ عَلَيْنا وَيَكْفُرُونَ بِما وَراءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ

مُصَدِّقاً لِما مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِياءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (91)

الإعراب :

(153/68)

(الواو) عاطفة (إذا) ظرف للمستقبل يتضمّن معنى الشرط مبنيّ في محلّ نصب متعلّق بالجواب قالوا (قيل) فعل ماض مبنيّ للمجهول (اللام) حرف جرّ و(هم) ضمير متّصل في محلّ جرّ متعلّق بـ (قيل) ، (آمنوا) فعل أمر مبنيّ على حذف النون . . . والواو فاعل (الباء) حرف جرّ (ما) اسم موصول مبني في محلّ جرّ متعلّق بـ (آمنوا) ، (أنزل) فعل ماض (اللّه) فاعل مرفوع (قالوا) فعل ماض وفاعله (نؤمن) مضارع مرفوع والفاعل ضمير مستتر تقديره نحن (بما) مثل الأول متعلّق بـ (نؤمن) ، (أنزل) ماض مبنيّ للمجهول ونائب الفاعل ضمير مستتر تقديره هو (على) حرف جرّ و(نا) ضمير متّصل في محلّ جرّ متعلّق بـ (أنزل) ، (الواو) حاليّة (يكفرون) مضارع مرفوع وعلامة الرفع ثبوت النون . . والواو فاعل (بما) مثل الأول متعلّق بـ (يكفرون) ، (وراء) ظرف مكان منصوب

متعلّق بمحذوف صلة ما و(الهاء) مضاف إليه . (الواو) حاليّة (هو) ضمير منفصل في محل رفع مبتدأ (الحق) خبر مرفوع (مصدّقا) حال مؤكدة من ضمير الحقّ (اللام) حرف جر

(ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (مصدّقا) " 1 " ، (مع) ظرف مكان منصوب متعلّق بمحذوف صلة ما و(هم) ضمير متّصل مضاف إليه . (قل) فعل أمر والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (اللام) حرف جرّ (ما) اسم استفهام مبنيّ في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (تقتلون) وهو مضارع مرفوع . . والواو فاعل (أنبياء) مفعول به منصوب (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (من) حرف جرّ (قبل) اسم مبنيّ على الضمّ في محلّ جرّ متعلق بـ (تقتلون) لأنه بمعنى قتلتم (إن) حرف شرط جازم " 2 " ، (كنتم) فعل ماض ناقص مبنيّ على السكون في محل جزم . . و(تم) ضمير متّصل اسم كان (مؤمنين) خبر كان منصوب وعلامة النصب الياء .

جملة : " قيل . . . " في محلّ جرّ بإضافة (إذا) إليها .

وجملة : " آمنوا " في محلّ رفع نائب فاعل " 3 " .

(154/68)

وجملة : " أنزل اللّه " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الأول .

وجملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " نؤمن " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " أنزل علينا " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الثاني .

(1) يجوز اعتبار اللام زائدة للتقوية ، وحينئذ يكون (ما) في محلّ نصب مفعول به لاسم الفاعل (مصدّقا) ، وانظر الآية (41) من هذه السورة .

(2) يجوز أن تكون أداة نفي أي : ما كنتم مؤمنين . . (قاله الجمل في حاشية الجلالين) .

(3) انظر الآية (11) من هذه السورة ففيها تعليق عن الأسباب الداعية إلى اعتبار الجملة نائب فاعل خلافا لبعض علماء النحو .

وجملة : " يكفرون " في محلّ نصب حال من فاعل قالوا وهو العامل أي قالوا ذلك وهم يكفرون .

وجملة : " هو الحقّ " في محلّ نصب حال من (ما) .

وجملة : " قل " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " تقتلون " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر مقترنة بالفاء أي أن كنتم كذلك فلم تقتلون . . وجملة الشرط المقدّرة مع جوابها في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " كنتم مؤمنين " لا محلّ لها استئنافيّة . . وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله وهو قوله : لم تقتلون .

الصرف :

(وراء) ، الهمزة فيها قولان : الأول أنها أصل ، والى هذا الرأي ذهب ابن جنّي مستدلّا

ثبوتها في التصغير في قولهم وريئة . الثاني أنها منقلبة عن ياء لقولهم تواريت ، ولا يجوز أن تكون منقلبة عن واو لأن ما فاؤه واو لا تكون لامه واوا إلا نادرا .

(الحقّ) مصدر سماعي لفعل حقّ يحق باب ضرب ، وزنه فعل بفتح فسكون (انظر الآية 26) .

[سورة البقرة (2) : آية 92]

وَلَقَدْ جاءَكُمْ مُوسى بِالْبَيِّناتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظالِمُونَ (92)

الإعراب :

(الواو) عاطفة (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (قد) حرف تحقيق (جاء) فعل ماض و(كم) ضمير متصل في محلّ نصب مفعول به (موسى) فاعل مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الألف (بالبيّنات)

جارّ ومجرور متعلّق بـ (جاءكم) " 1 " ، (ثمّ) حرف عطف (اتّخذتم) فعل ماض مبنيّ على السكون . . و(تم) ضمير متّصل فاعل (العجل) مفعول به منصوب . والمفعول الثاني محذوف تقديره إلها . . (من بعد) جارّ ومجرور متعلّق بـ (اتّخذ) و(الهاء) مضاف إليه

(الواو) حالّية (أنتم) ضمير منفصل في محلّ رفع مبتدأ (ظالمون) خبر مرفوع وعلامة الرفع الواو . .

جملة : " جاءكم موسى " لا محلّ لها جواب قسم مقدّر ، وجملة القسم معطوفة على استئناف سابق .

وجملة : " اتّخذتم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جاءكم .

وجملة : " أنتم ظالمون " في محلّ نصب حال .

الصرف :

(جاءكم) ، فيه إعلال بالقلب ، قلبت فيه الياء ألفا لتحيئها متحرّكة بعد فتح ، وأصله جيأ بفتح الياء ومضارعه يجيء .

(العجل) ، اسم جامد وزنه فعل بكسر فسكون .

[سورة البقرة (2) : آية 93]

وَإِذْ أَخَذْنا مِيثاقَكُمْ وَرَفَعْنا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا ما آتَيْناكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قالُوا سَمِعْنا وَعَصَيْنا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَما يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (93)

الإعراب :

(الواو) عاطفة (إذ) اسم ظرفي للماضي مبنيّ في محلّ نصب مفعول به لفعل محذوف تقديره

اذكروا ، (أخذنا) فعل ماض مبنيّ على السكون . . و(نا) ضمير متّصل فاعل في محلّ رفع (ميثاق) مفعول به منصوب و(كم) ضمير مضاف إليه (الواو) حاليّة (رفعنا) مثل أخذنا (فوق)

---

(1) أو متعلّق بمحذوف حال من موسى .

(156/68)

ظرف مكان منصوب متعلّق بـ (رفعنا) و(كم) ضمير مضاف إليه (الطور) مفعول به منصوب . (خذوا) فعل أمر مبنيّ على حذف النون . . والواو فاعل (ما) اسم موصول في محلّ نصب مفعول به (آتينا) مثل أخذنا و(كم) ضمير مفعول به (بقوّة) جارّ ومجرور متعلّق بـ (آتينا) والباء سببية " 1 " ، (الواو) عاطفة (اسمعوا) مثل خذوا . (قالوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ . . . والواو فاعل (سمعنا) مثل أخذنا ، ومثله (عصينا) ، (الواو) حاليّة (أشربوا) فعل ماض مبني للمجهول مبنيّ على الضمّ . . والواو نائب فاعل (في قلوب) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أشربوا) و(هم) مضاف إليه (العجل) مفعول به منصوب على حذف مضاف أي حبّ العجل (بكفر) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أشربوا) والباء سببيّة و(هم) مضاف إليه . (قل) فعل أمر والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت (بئس) فعل ماض جامد

الإنشاء الذمّ ، والفاعل ضمير مستتر وجوبا تقديره هو (ما) نكرة موصوفة في محلّ نصب تمييز للضمير المستتر " 2 " ، (يأمر) فعل مضارع مرفوع (كم) ضمير مفعول به (الباء) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (يأمر) ، (إيمان) فاعل مرفوع و(كم) ضمير مضاف إليه (إن كنتم مؤمنين) مرّ إعرابها في الآية (91) .

جملة : " أخذنا . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " رفعنا " في محلّ نصب حال بتقدير (قد) .

وجملة : " خذوا . . . " في محلّ نصب مقول القول لقول محذوف أي قلنا خذوا .

---

(1) أو متعلّق بمحذوف حال من فاعل خذوا . . أي : خذوا ما آتيناكم متلبّسين بقوّة أي متمكّنين .

(2) ثمة أوجه أخرى لإعراب (ما) قد مرّت سابقا . انظر الحاشية (4) في إعراب جمل الآية (90) .

وجملة : " آتيناكم " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " اسمعوا " في محلّ نصب معطوفة على جملة خذوا .

وجملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " سمعنا " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " عصينا " في محلّ نصب معطوفة على جملة سمعنا .

وجملة : " أشربوا " في محلّ نصب حال بتقدير (قد) .

وجملة : " قل " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " بئسما . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " يأمركم به إيمانكم " في محلّ نصب نعت لـ (ما) ، والمخصوص بالذم محذوف تقديره عبادة العجل .

وجملة : إن كنتم مؤمنين لا محلّ لها استئنافيّة . . وجواب الشرط محذوف تقديره بئس ما يأمركم . . أو فلا تقتلوا أنبياء الله ولا تكذّبوا الرسل ولا تكتموا الحقّ . . .

الصرف :

(إيمان) ، مصدر قياسي لفعل آمن ، وزنه إفعال ، والياء منقلبة عن همزة أصله ائمان لأن المدّة في آمن أصلها همزتان الأولى مفتوحة والثانية ساكنة أي أأمن على زنة أفعل ، فلمّا جاء ما قبل الهمزة الثانية مكسورا قلبت ياء للمناسبة والتخفيف .

البلاغة

التشبيه البليغ : في قوله تعالى وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ حيث جعلت قلوبهم لتمكّن حب

العجل منها كأنها تشرب أي تداخلهم حبه ورسخ في قلوبهم صورته لفرط شغفهم به وحرصهم على عبادته كما يتداخل الصبغ الثوب والشراب أعماق البدن.

[سورة البقرة (2) : آية 94]

قُلْ إِنْ كانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (94)

الإعراب:

(قل) فعل أمر والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت (إن) حرف شرط جازم (كان) فعل ماض ناقص مبنيّ على الفتح في محلّ جزم فعل الشرط، و(التاء) للتأنيث (اللام) حرف جرّ و(كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف خبر مقدّم " 1 "، (الدار) اسم كانت مرفوع على حذف مضاف أي نعيم الدار (الآخرة) نعت لـ (الدار) مرفوع مثله، (عند) ظرف مكان منصوب متعلّق بـ (خالصة)، أو بمحذوف خبر كان (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه (خالصة) حال منصوبة من الدار (من دون) جارّ ومجرور متعلّق بـ (خالصة)، (الناس) مضاف إليه مجرور (الفاء) رابطة لجواب الشرط (تمنّوا) فعل أمر مبنيّ على حذف النون

. . والواو فاعل (الموت) مفعول به منصوب (إن كنتم صادقين) مثل إن كنتم مؤمنين " 2 "

.

جملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " كانت لكم الدار " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " تمنّوا . . . " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة : " كنتم صادقين " لا محلّ لها استئنافيّة . . وهي قيد للشرط الأول ، وجوابها محذوف دل عليه الجواب الأول .

الصرف :

(خالصة) ، إمّا مصدر خلص جاء على وزن فاعلة

---

(1) أو متعلّق بـ (خالصة) وهو الخبر . [. . . . .]

(2) في الآية (91) من هذه السورة .

كالعافية ، وإمّا اسم فاعل لحقته تاء التأنيث .

(تمنّوا) ، فيه إعلال بالحذف ، حذف حرف العلّة – لام الكلمة – لمجيئه ساكنا قبل واو

الجماعة الساكنة ، وزنه تفعّوا بفتح العين .

البلاغة

في قوله تعالى فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ خروج الأمر عن معناه الأصلي إلى معنى التعجيز لأن ذلك ليس من سماتهم ولا من ظواهرهم المألوفة وتمني الموت من شأن المقربين الأبرار لأن من أيقن بالشهادة اشتاق إليها .

[سورة البقرة (2) : آية 95]

وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (95)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (لن) حرف نصب ونفي (يتمنّوا) مضارع منصوب وعلامة النصب حذف النون . . والواو فاعل و(الهاء) ضمير مفعول به (أبدا) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (يتمنّوه) ، (الباء) حرف جرّ (ما) اسم موصول مبنيّ في محل جرّ متعلّق بـ (يتمنّوه) " 1 " ، (قدّم) فعل ماض و(التاء) للتأنيث (أيدي) فاعل مرفوع وعلامة رفعه الضمّة المقدّرة على الياء و(هم) ضمير متّصل مضاف إليه . (الواو) استئنافيّة (اللّه) لفظ الجلالة مبتدأ مرفوع (عليم) خبر مرفوع (بالظالمين) جارّ ومجرور متعلّق بـ (عليم) وعلامة الجرّ الياء .

جملة : يتمنّوه لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : قدّمت أيديهم لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

(1) يجوز أن يكون (ما) حرفا مصدريا والمصدر المؤوّل في محلّ جرّ، أو نكرة موصوفة والجملة بعده نعت له.

(160/68)

وجملة: اللّه عليم لا محلّ لها استئنافيّة.

الصرف:

(يتمنّوه)، فيه إعلال جرى فيه مجرى (تمنّوا) في الآية السابقة.

الفوائد

ها تان الآيتان تحملان الحجة الدامغة وروح التحدي لليهود لأن اللّه سبحانه قطع بأنهم لن يتمنوا الموت أبدا وما عهدنا عليهم في تاريخهم الطويل أنهم ألقوا بأنفسهم إلى الموت طمعا بدخول الجنة.

وقد انتصر المسلمون على دولتي كسرى وقيصر لأنهم تمنوا الموت وطلبوا الشهادة مؤمنين بأنهم سينتقلون من دار الفناء إلى دار البقاء وهذه سمة المؤمنين حقا في كل عصر.

ولعل في موقف خالد بن الوليد من الموت أحسن عبرة فقد بكى عند ما أدرك انه ملاق الموت فسئل ما يبكيك فقال: لقد حضرت كذا وكذا معركة، حتى لم يبق في جسمي

موضع شبر إلا وفيه طعنة رمح أو ضربة سيف وها أنا ذا أموت على فراشي كما يموت البعير فلا نامت أعين الجبناء .

[سورة البقرة (2) : آية 96]

(161/68)

وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلى حَياةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَما هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِما يَعْمَلُونَ (96)

الإعراب :

(الواو) عاطفة (اللام) لام القسم لقسم محذوف (تجدنّ) فعل مضارع مبني على الفتح في محلّ رفع (النون) نون التوكيد الثقيلة و(هم) ضمير متّصل في محلّ نصب مفعول به ، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت ، (أحرص) مفعول به ثان منصوب (الناس) مضاف إليه مجرور (حياة) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أحرص) . (الواو) عاطفة (من) حرف جرّ (الذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف دلّ عليه المذكور أي أحرص من الذين أشركوا ، (أشركوا) فعل وفاعل . (يودّ) مضارع مرفوع (أحد) فاعل مرفوع و(هم) متّصل مضاف إليه (لو) حرف مصدريّ (يعمّر) مضارع مبنيّ للمجهول مرفوع ، ونائب

الفاعل ضمير مستتر تقديره هو (ألف) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (يعمّر) ، (سنة) مضاف إليه مجرور .

والمصدر المؤوّل (لو يعمّر . .) في محلّ نصب مفعول به لفعل يودّ .

(الواو) استئنافيّة (ما) نافية حجازيّة عاملة عمل ليس (هو) منفصل في محلّ رفع اسم ما (الباء) حرف جرّ زائد (مزحزح) مجرور لفظا منصوب محلّا خبر ما و(الهاء) مضاف إليه ، (من العذاب) جارّ ومجرور متعلّق باسم الفاعل مزحزح (أن) حرف مصدريّ (يعمّر) مضارع مبنيّ للمجهول منصوب ، ونائب الفاعل ضمير مستتر تقديره هو .

والمصدر المؤوّل (أن يعمّر . . .) في محلّ رفع فاعل اسم الفاعل مزحزح " 1 " . (الواو) استئنافيّة (اللّه) لفظ الجلالة مبتدأ مرفوع (بصير) (بصير) خبر مرفوع (الباء) حرف جرّ (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (بصير) " 2 " ، (يعملون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل .

جملة : تجدنّهم لا محلّ لها جواب قسم مقدّر .

وجملة : أشركوا لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : يودّ أحدهم لا محلّ لها استئناف بياني . . أو في محلّ نصب حال من الهاء في تجدنّهم .

---

(1) أي ما هو بمزحزحه تعميره . . ويجوز أن يكون المصدر المؤوّل بدلا من الضمير (هو)

إذا كان دالا على التعمير

(2) أو حرف مصدري والمصدر المؤوّل في محلّ جرّ . . أو نكرة موصوفة في محلّ جرّ .

(162/68)

وجملة : يعمّر لا محلّ لها صلة الموصول الحرفي .

وجملة : ما هو بمزحزحه . . لا محلّ لها استئنافيّة . . أو في محلّ نصب حال من أحدهم .

وجملة : يعمّر (الثانية) لا محلّ لها صلة الموصول الحرفي (أن) .

وجملة : اللّه بصير . . . لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : يعملون لا محلّ لها صلة الموصول الاسمي أو الحرفي أو في محلّ جرّ نعت لـ (ما) .

الصرف :

(أحرص) اسم تفضيل من فعل حرص يحرص باب ضرب وباب فرح ، وزنه أفعل .

(ألف) ، اسم جامد للعدد وزنه فعل بفتح فسكون .

(سنة) ، اسم للمدّة المعروفة من الأشهر والأيام ، فيه حذف لامه وهو الواو أو الهاء لأن تصغيره سنيّة وسنيهة ، والنسبة إليه سنوي وسنهي . جمعه سنون بضمّ السين وكسرها وسنوات وسنهات .

(مزحزح) اسم فاعل من زحزح الرباعيّ المجرّد ، فهو على وزن مضارعه بإبدال حرف المضارعة ميما مضمومة وكسر ما قبل آخره .

(بصير) ، وزنه فعيل وهو إمّا صفة مشبّهة باسم الفاعل من باب كرم أو مبالغة اسم الفاعل من باب فرح .

البلاغة

1 - الإيجاز : في الآية ففي تنكير " حياة " إبهام وفيه يعلم حرصهم على الحياة المتطاولة .

2 - الكناية : في قوله تعالى : أَلْفَ سَنَةٍ فهي كناية عن الكثرة ليشمل من يود أن لا يموت أبدا .

(163/68)

[سورة البقرة (2) : آية 97]

قُلْ مَنْ كانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدىً وَبُشْرى لِلْمُؤْمِنِينَ (97)

الإعراب :

(قل) فعل أمر ، والفاعل ضمير مستتر تقدير ، أنت (من) اسم شرط جازم مبنيّ في محل رفع

مبتدأ ، (كان) فعل ماض ناقص مبنيّ على الفتح في محلّ جزم فعل الشرط ، واسمه ضمير مستتر تقديره هو (عدوا) خبر كان منصوب (لجبريل) جارّ ومجرور متعلّق بعدو " 1 " ، وعلامة الجرّ الفتحة (الفاء) تعليليّة (إنّ) حرف مشبّه بالفعل و(الهاء) ضمير اسم إنّ (نزّل) فعل ماض و(الهاء) مفعول به ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (على قلب) جارّ ومجرور متعلّق بـ (نزّل) ، و(الكاف) ضمير مضاف إليه (بإذن) جارّ ومجرور متعلّق بـ (نزّل) ، (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (مصدّقا) حال منصوبة من الهاء في نزّله (اللام) حرف جرّ (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (مصدّقا) " 2 " ، (بين) ظرف مكان منصوب متعلّق بمحذوف صلة ما (يدي) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الياء و(الهاء) مضاف إليه ، (الواو) عاطفة (هدى) معطوف على (مصدّقا) منصوب مثله وكذلك (بشرى) وعلامة النصب في كليهما الفتحة المقدّرة على الألف (للمؤمنين) جارّ ومجرور متعلّق بـ (هدى وبشرى) .

جملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " من كان عدوّا " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : "كان عدوّا . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) " 3 " . . وجواب

---

(1) أو بمحذوف نعت لـ (عدوّا) .

(2) أو اللام زائدة للتقوية و(ما) مفعول به لاسم الفاعل (مصدقا) .

(3) يجوز أن يكون الخبر جملتي الشرط والجواب معا .

(164/68)

الشرط محذوف تقديره فلا وجه لعداوته ، أو فليمت غيظا . . . إلخ .

وجملة : " إنّه نزّله . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " نزّله على قلبك " في محلّ رفع خبر (إنّ) .

الصرف :

(جبريل) اسم أعجمي لا ينصرف ، وقول من قال إنّه مشتقّ من الجبروت بعيد ، وكذا بعيد كونه مركّبا تركيب إضافة ، وأن جبر معناه عبد وايل اسم من أسماء اللّه تعالى . . وفي جبريل ثلاث عشرة لغة أفصحها جبريل زنة قنديل ، ومنها فتح الجيم ومنها جبرئيل كسلسبيل . . .

إلخ .

(إذن) ، مصدر سماعيّ لفعل أذن يأذن باب فرح وزنه فعل بكسر فسكون .

(بشرى) اسم بمعنى الخبر المفرح ، وقد استعمل استعمال المصدر مؤوّلا بمشتقّ أي مبشّرا

، وزنه فعلى بضمّ فسكون .

الفوائد

1 - يجزم فعل المضارع في ثلاث حالات . الأولى إذا سبق بإحدى الجوازم التي تجزم فعلا واحدا ، الثانية أن يسبق بإحدى أدوات الشرط التي تجزم فعلين مضارعين : فعل الشرط وجوابه . الثالثة : أن يكون جوابا للطلب . ونجد ذلك مفصلا في كتب النحو المطولة .

2 - جبريل : كلمتان مركبتان الأولى : جبر بمعنى عبد ، وإيل بمعنى الإله ، وبعد التركيب تصبح " جبرائيل " مع شيء من التصرف ، وهي بمعنى " عبد اللّه " .

[سورة البقرة (2) : آية 98]

مَنْ كانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكافِرِينَ (98)

الإعراب :

(من كان عدوّا للّه) سبق إعراب نظيرها في الآية السابقة (وملائكته ورسله وجبريل وميكال) أسماء مجرورة معطوفة بحروف العطف على لفظ الجلالة (الفاء) رابطة لجواب الشرط (إنّ) حرف مشبّه بالفعل (اللّه) لفظ الجلالة اسم انّ منصوب (عدو) خبر مرفوع (للكافرين) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف نعت لـ (عدوّ) " 1 " .

جملة : " من كان عدوّا " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : "كان عدوّا " في محل رفع خبر المبتدأ (من) " 2 " .

وجملة : " إن اللّه عدوّ . . . " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

الصرف :

(ميكال) ، اسم أعجمي والكلام فيه كالكلام في جبريل " 3 " من كونه مشتقّا من ملكوت اللّه أو أنّ ميك معناه عبد وايل اسم من أسماء اللّه ، وأنّ تركيبه تركيب إضافة . . . إلخ ، وفيه سبع لغات أفصحها ميكال زنة مفعال وهي لغة الحجاز ، أو بعد الألف همزة من غير ياء بعدها أو بياء بعدها . . . إلخ .

[سورة البقرة (2) : آية 99]

وَلَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ آياتٍ بَيِّناتٍ وَما يَكْفُرُ بِها إِلَّا الْفاسِقُونَ (99)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (قد)

---

(1) أو متعلّق بـ (عدوّ) .

(2) يجوز أن يكون الخبر جملتي الشرط والجواب معا .

(3) في الآية (97) .

حرف تحقيق (أنزلنا) فعل وفاعل (الى) حرف جرّ و(الكاف) ضمير متصل في محلّ جرّ متعلّق بـ (أنزلنا) ، (آيات) مفعول به منصوب وعلامة النصب الكسرة ، (بيّنات) نعت لآيات منصوب مثله وعلامة النصب الكسرة (الواو) عاطفة (ما) نافية (يكفر) مضارع مرفوع (الباء) حرف جرّ و(ها) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (يكفر) ، (إلّا) أداة حصر (الفاسقون) فاعل مرفوع وعلامة الرفع الواو .

جملة : " أنزلنا " لا محلّ لها جواب قسم مقدّر .

وجملة : " ما يكفر بها إلا الفاسقون " لا محلّ لها معطوفة على جملة أنزلنا .

الفوائد

1 - إلا : تكون أداة استثناء وتكون أداة حصر ، ويشترط في كونها أداة حصر أن يكون الفعل منفيا وأن يكون أسلوب الاستثناء مفرغا بمعنى أن يكون المستثنى منه محذوفا وقد تحقق الشرطان في هذه الآية ولذلك حق لنا أن نقرر أنها أداة حصر .

وأما كونها أداة استثناء فلها شروط وحالات يمكن مراجعتها في كتب النحو .

[سورة البقرة (2) : آية 100]

أَوَكُلَّما عاهَدُوا عَهْداً نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (100)

الإعراب :

(الهمزة) للاستفهام الإنكاري (الواو) عاطفة (كلّما) ظرفيّة حينيّة شرطيّة متعلّقة بالجواب " 1 " ، (عاهدوا) فعل ماض وفاعله (عهدا)

(1) ويجوز إعرابها كما يلي (كل) ظرف (ما) حرف مصدريّ يؤوّل مع الفعل بعده بمصدر في محلّ جرّ مضاف إليه .

(167/68)

مفعول به ثان بتضمين عاهدوا معنى أعطوا ، والمفعول الأول محذوف أي عاهدوا اللّه عهدا " 1 " ، (نبذ) فعل ماض و(الهاء) ضمير مفعول به (فريق) فاعل مرفوع (من) حرف جرّ و(هم) ضمير متّصل في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف نعت لـ (فريق) ، (بل) حرف إضراب وابتداء (أكثر) مبتدأ و(هم) مضاف إليه (لا) نافية (يؤمنون) مضارع مرفوع و(الواو) فاعل .

جملة : " عاهدوا " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " نبذه فريق " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : "أكثرهم" لا يؤمنون لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : "لا يؤمنون" في محلّ رفع خبر المبتدأ (أكثرهم) .

الصرف :

(عهدا) ، اسم مصدر لفعل عاهد الرباعيّ ، لأن المصدر القياسي هو معاهدة ، وزنه فعل بفتح فسكون (انظر الآية 27) .

(أكثر) ، صفة مشتقّة على وزن أفعل ، والغالب أنّها مجرّدة من التفضيل فهي بمعنى كثير .

الفوائد

أو كلما : كلما من أدوات الشرط غير الجازمة . هي في محل نصب على الظرفية الزمانية أما الهمزة فهي للاستفهام الاستنكاري وقدمت على الفعل والواو .

لأن أحرف الاستفهام لها الصدارة .

وهي تدخل عليها ثلاثة من حروف العطف وهي " الواو والفاء وثم " .

---

(1) يجوز أن يكون (عهدا) مفعولا مطلقا نائبا عن المصدر لأنه اسم مصدر .

[سورة البقرة (2) : آية 101]

وَلَمَّا جاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِما مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ كِتابَ اللَّهِ وَراءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ (101)

الإعراب :

(الواو) عاطفة (لمّا) ظرف بمعنى حين متضمّن معنى الشرط متعلّق بالجواب نبذ (جاء) فعل ماض (وهم) ضمير متّصل مفعول به (رسول) فاعل مرفوع (من عند) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف نعت لـ (رسول) ، (اللّه) مضاف إليه مجرور (مصدّق) نعت ثان لـ (رسول) مرفوع مثله (اللام) حرف جرّ (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (مصدّق) " 1 " ، (مع) ظرف مكان منصوب متعلّق بمحذوف صلة ما و(هم) مضاف إليه (نبذ) فعل ماض (فريق) فاعل مرفوع (من) حرف جرّ (الذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف نعت لـ (فريق) (أوتوا) فعل ماض مبنيّ للمجهول مبنيّ على الضمّ . . والواو نائب فاعل (الكتاب) مفعول به منصوب عامله أوتوا (كتاب) مفعول به منصوب عامله نبذ (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (وراء) ظرف مكان منصوب متعلّق بـ (نبذ) (ظهور) مضاف إليه مجرور و(هم) مضاف إليه (كأنّ) حرف مشبّه بالفعل للتشبيه و(هم) اسم كأن (لا) نافية (يعلمون) مضارع مرفوع والواو فاعل .

جملة : " جاءهم رسول " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " نبذ فريق " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " أوتوا الكتاب " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

---

(1) أو اللام للتقوية زائدة و(ما) مفعول به لـ (مصدّق) لأنه اسم فاعل .

وجملة : " كأنهم لا يعلمون " في محلّ نصب حال من فريق " 1 " وجملة : " لا يعلمون " في محلّ رفع خبر كأنّ .

الصرف :

(أوتوا) ، فيه إعلال بالحذف ، أصله أوتيوا ، استثقلت الضمّة على الياء فنقلت إلى التاء وسكّنت الياء - إعلال بالتسكين - ثمّ حذفت الياء لالتقائها ساكنة مع واو الجماعة ، وفيه أيضا تخفيف الهمزة الثانية وجعلها واو أوصله أؤتوا . . وزنه أفعوا .

(ظهور) ، جمع ظهر اسم للعضو المعروف وهو جامد وزنه فعل بفتح فسكون ، ووزن ظهور فعول بضمّتين .

البلاغة

الاستعارة التصريحية : في قوله تعالى نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ

ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ.

شبه ترك الالتفات إلى كتاب اللّه وعدم الاهتمام به واتباعه بمن ألقى شيئا وراء ظهره، فهو لا يقبل عليه، ولا يكترث به، فالنبذ في حقيقته طرح الشيء، واستعمل هنا في عدم الاتباع ليبدو في صورة محسوسة تقع أمام البصر وتتمثل رؤيته في وضوح.

[سورة البقرة (2): آية 102]

وَاتَّبَعُوا ما تَتْلُوا الشَّياطِينُ عَلى مُلْكِ سُلَيْمانَ وَما كَفَرَ سُلَيْمانُ وَلكِنَّ الشَّياطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَما أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبابِلَ هارُوتَ وَمارُوتَ وَما يُعَلِّمانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّما نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُما ما يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَما هُمْ بِضارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ ما يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَراهُ ما لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ وَلَبِئْسَ ما شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ (102)

---

(1) النكرة هنا تخصّصت بالوصف. [. . . . .]

الإعراب:

(الواو) عاطفة (اتّبعوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ . .

والواو فاعل (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به والعائد محذوف (تتلو) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الواو (الشياطين) فاعل مرفوع (على ملك) جارّ ومجرور متعلّق بـ (تتلو) بتضمينه معنى تتقوّل (سليمان) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الفتحة لامتناعه من الصرف (الواو) اعتراضيّة (ما) نافية (كفر) فعل ماض (سليمان) فاعل مرفوع (الواو) عاطفة (لكنّ) حرف مشبّه بالفعل للاستدراك (الشياطين) اسم لكنّ منصوب (كفروا) مثل اتّبعوا ، (يعلّمون) مضارع مرفوع وعلامة الرفع ثبوت النون . . والواو فاعل (الناس) مفعول به منصوب (السحر) مفعول به ثان منصوب (الواو) عاطفة (ما) اسم موصول في محلّ نصب معطوف على السحر (أنزل) فعل ماض مبنيّ للمجهول ، ونائب الفاعل ضمير مستتر تقديره هو (على الملكين) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أنزل) وعلامة الجرّ الياء فهو مثنّى (ببابل) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف حال من الملكين " 1 " ، وعلامة الجرّ الفتحة لامتناعه من التنوين للعلميّة والعجمة (هاروت) بدل من الملكين مجرور مثله وعلامة الجرّ الفتحة لامتناعه من الصرف للعلميّة والعجمة (ماروت) معطوف بالواو على هاروت مجرور مثله وعلامة الجرّ الفتحة لامتناعه من الصرف .

جملة : " اتّبعوا . . " لا محلّ لها معطوفة على مجموع جملة الشرط

---

(1) يصحّ التعليق بـ (أنزل) .

والجواب في الآية السابقة (لمّا جاءهم رسول . . نبذ فريق . .) .

وجملة : " تتلو الشياطين " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " ما كفر سليمان " لا محلّ لها اعتراضيّة .

وجملة : " لكنّ الشياطين كفروا " لا محلّ لها معطوفة على الاعتراضيّة .

وجملة : " كفروا " في محلّ رفع خبر لكنّ .

وجملة : " يعلّمون الناس " في محلّ نصب حال من فاعل اتّبعوا " 1 " .

وجملة : " أنزل . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

(الواو) استئنافيّة (ما) نافية (يعلّمان) مضارع مرفوع وعلامة الرفع ثبوت النون . .

و(الألف) ضمير متّصل في محلّ رفع فاعل (من) حرف جرّ زائد (أحد) مجرور لفظا منصوب محلّا مفعول به (حتّى) حرف غاية وجرّ (يقولا) مضارع منصوب بـ (أن) مضمرة بعد حتّى وعلامة النصب حذف النون .

والمصدر المؤوّل من (أن يقولا) في محلّ جرّ بـ (حتّى) متعلّق بـ (يعلّمان) .

(إنّما) كافّة ومكفوفة (نحن) ضمير منفصل في محلّ رفع مبتدأ (فتنة) خبر مرفوع (الفاء)

رابطة لجواب شرط مقدّر (لا) ناهية جازمة (تكفر) مضارع مجزوم والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت (الفاء) استئنافيّة (يتعلّمون) مثل يعلّمون (من) حرف جرّ و(هما) ضمير متّصل في محلّ

---

(1) يجوز اعتبارها استئنافيّة لا محلّ لها ، هذا إذا كان الضمير في (يعلّمون) يعود إلى الذين اتبعوا ما تتلو الشياطين ، أما إذا كان يعود إلى الشياطين فيجوز في الجملة أن تكون حالا من فاعل كفروا ، أو في محلّ رفع خبر ثان لـ (لكنّ) ، أو في محلّ رفع بدل من جملة كفروا .

(172/68)

جرّ متعلّق بـ (يتعلّمون) ، (ما) اسم موصول " 1 " في محلّ نصب مفعول به (يفرّقون) مثل يعلّمون (الباء) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (يفرّقون) (بين) ظرف مكان منصوب متعلّق بـ (يفرّقون) ، (المرء) مضاف إليه مجرور (زوج) معطوف بالواو على المرء مجرور مثله و(الهاء) مضاف إليه . (الواو) اعتراضيّة أو حاليّة (ما) نافية حجازية تعمل عمل ليس (هم) ضمير منفصل في محلّ رفع اسم ما (الباء) حرف جرّ زائد (ضارّين) اسم مجرور لفظا منصوب محلّا خبر ما وعلامة الجرّ الياء (به) مثل السابق متعلّق بمحذوف حال من أحد أي : من أحد واقع به (من) حرف جرّ زائد (أحد) مجرور لفظا منصوب محلّا

مفعول به لاسم الفاعل ضارّين (الا) أداة حصر (بإذن) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف حال من الهاء في به ، أي مقرونا بإذن اللّه ، أو من الضمير في ضارّين ، أو من أحد " 2 " ، (اللّه) مضاف إليه مجرور .

وجملة : " يعلّمان " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " إنّما نحن فتنة " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " لا تكفر " لا محل لها جواب شرط مقدّر أي : إذا كنّا كذلك فلا تكفر .

وجملة : " يتعلّمون " لا محلّ لها معطوفة على جملة يعلّمان .

وجملة : " يفرّقون " لا محلّ لها صلة الموصول .

وجملة : " ما هم بضارّين " لا محلّ لها اعتراضيّة أو في محلّ نصب حال .

---

(1) أو نكرة موصوفة ، والجملة نعت .

(2) صحّ مجيء الحال من النكرة هنا لأنها معتمدة على نفي .

(الواو) عاطفة (يتعلّمون) مثل السابق (ما) موصول في محلّ نصب مفعول به (يضرّ) مضارع مرفوع والفاعل ضمير مستتر تقديره هو و(هم) ضمير متّصل مفعول به (الواو) عاطفة (لا)

نافية (ينفع) مضارع مرفوع ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو و(هم) مفعول به . (الواو) عاطفة (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (قد) حرف تحقيق (علموا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ وفاعله (اللام) لام الابتداء علّقت علم عن العمل (من) اسم موصول في محلّ رفع مبتدأ (اشترى) فعل ماض والهاء مفعول به ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (ما) نافية مهملة (اللام) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف خبر مقدّم (في الآخرة) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف حال من خلاق – نعت تقدّم على المنعوت – " 1 " ، (من) حرف جرّ زائد (خلاق) مجرور لفظا مرفوع محلّا مبتدأ مؤخّر .

وجملة : " يتعلّمون " لا محلّ لها معطوفة على جملة يتعلمون الأولى . .

أو هي استئنافيّة .

وجملة : " يضرّهم " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) ، أو في محلّ نصب نعت لـ (ما) النكرة الموصوفة .

وجملة : " لا ينفعهم " معطوفة على جملة يضرّهم تأخذ إعرابها .

وجملة : " علموا " لا محلّ لها جواب قسم مقدّر .

وجملة : " من اشتراه " سدّت مسدّ مفعولي علموا .

وجملة : " اشتراه " لا محلّ لها صلة الموصول .

---

(1) أو متعلّق بالخبر المحذوف .

وجملة : " ما له " في الآخرة من خلاق في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) .

(الواو) عاطفة (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (بئس) فعل ماض جامد لانشاء الذمّ ، والفاعل ضمير مستتر وجوبا تقديره هو (ما) نكرة في محلّ نصب تمييز للضمير المستتر " 1 " ، (شروا) فعل وفاعل (الباء) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (شروا) بتضمينه معنى استبدلوا (أنفس) مفعول به منصوب و(هم) ضمير متّصل مضاف إليه ، (لو) حرف شرط غير جازم (كانوا) فعل ماض ناقص مبنيّ على الضمّ . . والواو اسم كان (يعلمون) مثل يعلّمون .

وجملة : بئس ما شروا . . . لا محلّ لها جواب قسم مقدّر ، والقسم وجوابه معطوفة على القسم الاول .

وجملة : " شروا . . . " في محلّ نصب نعت لـ (ما) .

وجملة : " كانوا يعلمون " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يعلمون " في محلّ نصب خبر كانوا . . وجواب لو محذوف تقديره : لما فعلوا ذلك من تعلّم السحر وإيذاء الناس . . أو لما باعوا أنفسهم .

الصرف :

(ملك) اسم لما يملكه الإنسان ويتصرّف به ، وقد يكون مصدرا لفعل ملك يملك باب ضرب ، وزنه فعل بضم فسكون .

(سليمان) ، قيل هو علم أعجمي وهو سبب امتناعه من الصرف ،

---

(1) يجوز أن تكون (ما) معرفة فاعل بئس ، والجملة بعدها صلتها ، أو أن تكون مصدريّة ، والمصدر المؤوّل فاعل بئس ، والمخصوص بالذمّ محذوف تقديره الكفر أو السحر .

(175/68)

وقيل الألف والنون فيه مزيدتان وأصله سليم تصغير سلم بفتح فسكون .

(السحر) ، مصدر سماعي لفعل سحر يسحر باب فتح ، وزنة فعل بكسر فسكون .

(بابل) ، اسم علم أعجمي . . وقيل سمّيت بذلك لتبلبل ألسنة الخلائق .

(هاروت وماروت) ، علمان أعجميان سريانيّان ، وليس صحيحا .

(أحد) ، صفة مشتقّة وزنه فعل بفتحتين ، والهمزة منقلبة عن واو أصله وحد ، مؤنّثة احدى ولا تكون إلا مع غيرها .

(فتنة) ، مصدر فتن يفتن ، باب ضرب ، وزنه فعلة بكسر فسكون .

(المرء) ، مثلّثة الميم ، اسم بمعنى الإنسان ، جمعه رجال من غير لفظه ، وسمع مرءون ، مؤنّثة مرأة ومرة ، وزنه فعل بفتح فسكون .

(ضارّين) ، جمع ضارّ اسم فاعل من ضرّ الثلاثي ، وزنه فاعل وقد أدغمت عينه مع لامه .

(خلاق) ، اسم لما يناله المرء من خير ، وزنه فعال بفتح الفاء .

(شروا) ، فيه إعلال بالحذف ، حذفت لامه – حرف علّة – لمجيئها ساكنة قبل واو الجماعة ، وزنه فعوا بفتح العين .

الفوائد

هاروت وماروت : اسمان لملكين من ملائكة السماء . .

وقد نسجت حول هذين الملكين قصص طريفة أكثرها ضعيف التوثيق .

وأسندت إلى الرسول (صلّى اللّه عليه وسلّم) أحاديث كثيرة في موضوع هذين الملكين ، بعضها ضعيفة وأكثرها موضوعة ، وقد أورد ابن كثير في تفسيره بعض هذه الروايات التي لا تخرج عن كونها من الخرافات وقد ضعّف بعضها وردّ البعض . يعلّق ابن كثير على ما ورد في قصتهما من روايات بقوله :

" حاصلها راجع في تفصيلها إلى أخبار بني إسرائيل إذ ليس فيها حديث مرفوع صحيح متصل الاسناد إلى الصادق الصدوق المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى " .

ومن شاء المزيد فليراجع تفسير ابن كثير الجزء الأول من ص 135 وحتى الصفحة 148

ففيها حديث طويل عن السحر والسحرة ورأي الفقهاء والمحدثين فيهما . .

[سورة البقرة (2) : آية 103]

وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ (103)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (لو) حرف شرط غير جازم (أنّ) حرف مشبّه بالفعل للتوكيد و(هم) ضمير متّصل في محلّ نصب اسم إنّ (آمنوا) فعل وفاعل .

(176/68)

والمصدر المؤوّل من (أنّ) واسمها وخبرها في محلّ رفع فاعل لفعل محذوف تقديره ثبت .

(الواو) عاطفة (اتّقوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ المقدّر على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين . . والواو فاعل (اللام) واقعة في جواب لو " 1 " ، (مثوبة) مبتدأ مرفوع (من عند) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف نعت لـ (مثوبة) ، (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (خير) خبر مرفوع (لو) مثل الأول (كانوا) فعل ماض ناقص . . والواو اسم كان (يعلمون) فعل مضارع مرفوع . . والواو فاعل .

---

(1) وهو اختيار الزمخشري وعند بعض المحقّقين هي لام القسم لقسم مقدّر - أشار إلى

ذلك ابن هشام في المغني – وعلى هذا فجواب (لو) محذوف تقديره لأثابهم عليه اللّه .

وعند ابن حيان هي لام الابتداء وجواب لو محذوف والجملة الاسمية لا محل لها استئنافية .

(177/68)

جملة : " ثبت إيمانهم (المحذوفة) " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " آمنوا في محل رفع خبر أنّ .

وجملة : " اتقوا " في محلّ رفع معطوفة على جملة آمنوا .

وجملة : " مثوبة . . خير " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " كانوا يعلمون " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يعلمون " في محلّ نصب خبر كانوا . . وجواب (لو) الثانية محذوف تقديره : ما آثروا عليه .

الصرف :

(اتقوا) ، فيه إعلال بالحذف ، حذفت الألف لام الفعل لالتقاء الساكنين وزنه افتعوا ، وفيه إبدال .

(مثوبة) ، مصدر سماعي بمعنى الثواب ، وقيل هو على وزن اسم المفعول من ثاب بحذف واو مفعول وأصله مثووبة بضمّ الواو الأولى ، أو بحذف عين الكلمة وذلك بنقل ضمّة الواو إلى الثاء لاستثقالها وتسكين الواو ثمّ حذف الواو الأولى لالتقاء الساكنين في الواوين . وقيل هو مصدر على وزن مفعلة بضمّ العين ، وإنّما نقلت الضمّة إلى الثاء .

(178/68)

(خير) ، صفة مشتقّة خرجت عن معنى التفضيل بمعنى فاضلة ، أو هو مصدر استعمل استعمال الصفات ، وزنه فعل بفتح فسكون ، وقد يراد به التفضيل ، وأصله أخير وقد حذفت الهمزة لكثرة الاستعمال تخفيفا .

الفوائد

لو ولولا : ينظر إليهما من وجهين ، الوجه الأول معناهما : فقد أطلق علماء اللغة على " لو " انها حرف امتناع لامتناع وعلى " لولا " أنها حرف امتناع للوجود أما الوجه الآخر فهو عملهما فكل منهما أداة شرط غير جازمة .

[سورة البقرة (2) : آية 104]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا راعِنا وَقُولُوا انْظُرْنا وَاسْمَعُوا وَلِلْكافِرِينَ عَذابٌ أَلِيمٌ (104)

الإعراب :

(يا) أداة نداء (أي) منادى نكرة مقصودة مبنيّ على الضمّ في محلّ نصب و(ها) حرف تنبيه (الذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب نعت لـ (أيّ) أو بدل منه (آمنوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ . .

والواو فاعل (لا) ناهية جازمة (تقولوا) مضارع مجزوم وعلامة الجزم حذف النون . .

والواو فاعل (راع) فعل أمر مبنيّ على حذف حرف العلّة و(نا) ضمير مفعول به والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت (الواو) عاطفة (قولوا) أمر مبنيّ على حذف النون . . والواو فاعل (انظر) أمر دعائي (ونا) مفعول به والفاعل أنت ، (الواو) عاطفة (اسمعوا) مثل قولوا . (الواو) استئنافيّة (للكافرين) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف خبر مقدّم (عذاب) مبتدأ مؤخّر مرفوع (أليم) نعت لـ (عذاب) مرفوع مثله .

جملة النداء يأيّها . . . لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " آمنوا " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " لا تقولوا . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " راعنا " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " قولوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة النداء .

وجملة : " انظرنا " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " اسمعوا " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب النداء .

(179/68)

وجملة : " للكافرين عذاب . . . " لا محل لها استئنافيّة .

الصرف :

(راعنا) ، فيه إعلال بالحذف لمناسبة البناء ، حذف حرف العلّة في الأمر لكونه معتلّ الاخر في المضارع ، وزنه فاعنا .

الفوائد

- كان المسلمون يستعملون كلمة " راعنا " بمعنى تمهّل وترفّق بنا وكان هذا اللفظ يوافق كلمة (راعينو) العبرية التي معناها (شرير) فراح اليهود يستعلمون هذه الكلمة في حديثهم مع الرسول (صلّى اللّه عليه وسلّم) وهم يميلون ألسنتهم لتكون قريبة من (راعينو) العبرية . وإن دلت هذه القصة على شيء فإنما تدل على مكر اليهود وخبثهم وسوء طينتهم حيال الرسول والمسلمين منذ أن كان اليهود وكان المسلمون . . .

[سورة البقرة (2) : آية 105]

مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (105)

الإعراب :

(ما) نافية (يودّ) مضارع مرفوع (الذين) اسم موصول فاعل (كفروا) فعل وفاعل (من أهل) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف حال من فاعل كفروا (الكتاب) مضاف إليه مجرور (الواو) عاطفة (لا) زائدة لتأكيد النفي (المشركين) معطوفة على أهل مجرور مثله وعلامة الجرّ الياء (أن) حرف مصدري ونصب (ينزّل) مضارع مبنيّ للمجهول منصوب (على) حرف جرّ و(كم) ضمير متّصل في محلّ جرّ متعلّق بـ (ينزّل) ، (من) حرف جرّ زائد (خير) مجرور لفظا مرفوع محلّا نائب فاعل (من ربّ) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف نعت لـ (خير) " 1 " ، و(كم) مضاف إليه .

---

(1) أو متعلّق بـ (ينزّل) .

والمصدر المؤوّل من (أن ينزّل) في محلّ نصب مفعول به لـ (يودّ) .

(الواو) استئنافيّة (اللّه) لفظ الجلالة مبتدأ مرفوع (يختصّ) مضارع مرفوع والفاعل ضمير

مستتر تقديره هو (برحمة) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يختصّ) ، و(الهاء) ضمير مضاف إليه

(من) اسم موصول في محلّ نصب مفعول به " 1 " ، (يشاء) فعل مضارع مرفوع ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو أي اللّه ، ومفعول يشاء محذوف أي يشاء اختصاصه (الواو) عاطفة (اللّه) لفظ الجلالة مبتدأ مرفوع (ذو) خبر مرفوع وعلامة الرفع الواو (الفضل) مضاف إليه مجرور (العظيم) نعت للفضل مجرور مثله .

جملة : " ما يودّ الذين . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : "كفروا " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " اللّه يختصّ . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يختص . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (اللّه) .

وجملة : " اللّه ذو الفضل " لا محلّ لها معطوفة على جملة اللّه يختصّ .

الصرف :

(أهل) ، اسم جمع لا مفرد له من لفظه ، جمعه أهلون وأهال وآهال وأهلات بسكون الهاء وفتحها مع فتح الهمزة ، وزنه فعل بفتح فسكون .

(المشركين) ، جمع المشرك وهو اسم فاعل من أشرك الرباعي على وزن مضارعه بإبدال حرف المضارعة ميما مضمومة وكسر ما قبل آخره .

(خير) مصدر استعمل استعمال الاسم بمعنى وحي ، وزنه فعل بفتح فسكون .

(1) قد يكون الموصول فاعلا لفعل يختصّ فيتضمّن حينئذ معنى يتميّز اللازم ، أي يتميّز من يشاء اللّه تمييزه برحمة اللّه .

(181/68)

البلاغة

الكناية : في قوله تعالى ما يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ فالنفي في هذه الآية كناية عن الكراهة .

الفوائد

"

ذو " هي من الأسماء الخمسة تعرب بالأحرف بدلا من الحركات بشرط أن تكون بمعنى صاحب وبشرط أن تكون مفردة ، فإذا ثنيت أعربت إعراب المثنى بالألف رفعا ، وبالياء نصبا وجرا ، وإذا جمعت فسوف تعرب إعراب جمع المذكر السالم وتلحق به وسوف نستوفي هذا البحث في إعراب الأسماء الخمسة .

[سورة البقرة (2) : آية 106]

ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِها نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْها أَوْ مِثْلِها أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

(106)

الإعراب :

(ما) اسم شرط جازم في محلّ نصب مفعول به مقدّم (ننسخ) مضارع مجزوم فعل الشرط ، والفاعل ضمير مستتر تقديره نحن للتعظيم (من آية) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف حال من اسم الشرط " 1 " ، (أو) حرف عطف (ننس) مضارع مجزوم معطوف على ننسخ و(ها) ضمير مفعول به ، والفاعل ضمير مستتر تقديره نحن (نأت) مضارع مجزوم جواب الشرط وعلامة الجزم حذف حرف العلّة ، والفاعل نحن للتعظيم (بخير) جارّ ومجرور متعلّق بـ (نأت) ، (من) حرف جرّ و(ها) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (خير) ، (أو) مثل الأول (مثل) معطوف على خير

(1) ويجوز أن يكون الجار والمجرور تمييزا للشرط أي : أيّ شيء ننسخ من آية ، وهذا إذا كانت (من) زائدة وأما إذا كانت تبعيضيّة فالجار والمجرور نعت لـ (ما)

مجرور مثله و(ها) مضاف إليه . (الهمزة) للاستفهام التقريريّ (لم) حرف نفي وجزم وقلب (تعلم) مضارع مجزوم ، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت (أنّ) حرف مشبّه بالفعل للتوكيد (اللّه) لفظ الجلالة اسم أنّ منصوب (على كلّ) جارّ ومجرور متعلّق بـ (قدير) ، (شيء) مضاف إليه مجرور (قدير) خبر مرفوع .

والمصدر المؤوّل من أنّ واسمها وخبرها سدّ مسدّ مفعولي تعلم .

جملة : " ننسخ " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " ننسها " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " نأت بخير منها " لا محلّ لها جواب شرط جازم غير مقترنة بالفاء .

وجملة : " تعلم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

الصرف :

(ننسها) ، فيه إعلال بالحذف لمناسبة الجزم وأصله ننسيها ، وزنه نفعها بضمّ النون الأولى .

(نأت) ، فيه إعلال بالحذف لمناسبة الجزم وأصله نأتي ، وزنه نفع .

(182/68)

(شيء) ، اسم لما يصحّ أن يعلم ويخبر عنه . . . أو مصدر سماعيّ لفعل شاء (انظر الآية 20) .

الفوائد

1 – نلاحظ أن فعل " نسخ " يدل على التحوّل من حال إلى حال أفضل وأحسن وقيل إن كل فعل أوله نون وثانيه سين يدل على التبدل من حسن إلى أحسن وهذه النظرية طرقها علماء فقه اللغة واستدلوا بها على نشوء اللغة وتطورها ومن أمثلتهم أن كل فعل مبدوء

بحرف النون يدل على النشوء والظهور مثل " نبغ ونبع ، ونجم ، ونفذ ، ونبر ، ونبش ، ونبت . . "

فالنون تدل على المعنى الأولي أو الأصلي ثم يتطور المعنى الأصلي إلى معان كثيرة بواسطة ما يضاف إلى النون من أحرف الهجاء . ولا ندري هل هذه الخاصة وقف على اللغة العربية وحدها ، أم تجر ذيلها على بعض اللغات أو سائرها . وعلى كل فإنها دليل قاطع على عبقرية لغتنا وأصالتها .

2 – نأت : فعل مضارع مجزوم لأنه جواب لأداة الشرط " ما " وقد جزم بحذف حرف العلة من آخره . وعلامات الجزم ثلاث السكون في الأفعال الصحيحة الآخر ، وحذف النون في الأفعال الخمسة ، وحذف حرف العلة في الفعل المعتل الآخر .

[سورة البقرة (2) : آية 107]

أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (107)

الإعراب :

(ألم تعلم أنّ اللّه) مر إعرابها في الآية السابقة مفردات وجملا ومصدرا مؤوّلا (اللام) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف خبر مقدّم (ملك) مبتدأ مؤخّر مرفوع (السموات) مضاف إليه مجرور (الأرض) معطوف بالواو على السموات مجرور مثله.

(الواو) استئنافيّة (ما) نافية مهملة (لكم) مثل له متعلّق بمحذوف خبر مقدّم (من دون) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف حال من وليّ - نعت تقدّم على المنعوت - " 1 " (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (من) حرف جرّ زائد (وليّ) مجرور لفظا مرفوع محلّا مبتدأ مؤخّر (الواو) عاطفة (لا) زائدة لتأكيد النفي (نصير) معطوف بلفظه على وليّ تبعه في الجرّ.

وجملة: له ملك السموات في محلّ رفع خبر أنّ.

---

(1) ويجوز تعليقه بالخبر المحذوف الذي تعلّق بـ (لكم).

وجملة: ما لكم من دون اللّه . . . لا محلّ لها استئنافيّة.

الصرف:

(ملك)، أتى بمعنى الشيء المملوك، فهو اسم، وانظر الآية (102) من هذه السورة.

(وليّ)، صفة مشبّهة من ولي يلي باب وثق، وزنه فعيل، وقد يكون من صيغ المبالغة لأن

فعله متعدّ .

(نصير) ، من صيغ المبالغة ، على وزن فعيل من فعل نصر ينصر المتعدّى .

[سورة البقرة (2) : آية 108]

أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْئَلُوا رَسُولَكُمْ كَما سُئِلَ مُوسى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمانِ فَقَدْ ضَلَّ سَواءَ السَّبِيلِ (108)

الإعراب :

(أم) حرف ابتداء وهو المنقطع بمعنى بل والهمزة والاستفهام على معنى الإنكار (تريدون) مضارع مرفوع وعلامة الرفع ثبوت النون . . والواو فاعل (أن) حرف مصدريّ ونصب (تسألوا) مضارع منصوب وعلامة النصب حذف النون . . والواو فاعل (رسول) مفعول به منصوب و(كم) ضمير مضاف إليه .

والمصدر المؤوّل من (أن) والفعل في محلّ نصب مفعول به عامله تريدون .

(الكاف) حرف جرّ " 1 " ، (ما) حرف مصدري (سئل) فعل ماض مبنيّ للمجهول (موسى) نائب فاعل مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الألف .

(1) أو اسم بمعنى مثل في محلّ نصب مفعول مطلق نائب عن المصدر لأنه صفته .

(186/68)

والمصدر المؤوّل (ما سئل) في محلّ جرّ بالكاف متعلّق بمحذوف مفعول مطلق ، أي : تسألوا رسولكم سؤالا كسؤال قوم موسى نبيّهم موسى .

(من) حرف جرّ (قبل) اسم مبنيّ على الضمّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (سئل) . (الواو) استئنافيّة (من) اسم شرط جازم مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (يتبدّل) مضارع مجزوم فعل الشرط ، وحرّك بالكسر لالتقاء الساكنين والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (الكفر) مفعول به منصوب (بالإيمان) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يتبدّل) ، (الفاء) رابطة لجواب الشرط (قد) حرف تحقيق (ضلّ) فعل ماض والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (سواء) مفعول به منصوب (السبيل) مضاف إليه مجرور ، من إضافة الصفة إلى الموصوف .

جملة : " تريدون . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " تسألوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " سئل . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

وجملة : " من يتبدّل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يتبدّل . . . " في محلّ رفع خبر " 1 " .

وجملة : " ضلّ . . . " في محلّ جزم جواب الشرط .

الصرف :

(تريدون) ، فيه إعلال بالقلب أصله ترودون لأنه من راد يرود ، نقلت حركة الواو إلى الراء ، ثمّ قلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها وهي ساكنة ، وزنه تفعلون .

---

(1) يجوز أن يكون الخبر جملتي الشرط والجواب معا .

(السبيل) ، اسم يذكّر ويؤنّث وزنه فعيل ، جمعه سبل بضمّتين ، وضمّة وسكون وأسبل بضمّ الباء وأسبله بكسر الباء وسبول بضمّ السين .

[سورة البقرة (2) : آية 109]

وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (109)

الإعراب :

(ودّ) فعل ماض (كثير) فاعل مرفوع (من أهل) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف نعت لكثير (الكتاب) مضاف إليه مجرور (لو) حرف مصدري (يردّون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل و(كم) ضمير مفعول به .

والمصدر المؤوّل من (لو) والفعل في محلّ نصب مفعول به عامله (يودّ) .

(من بعد) جارّ ومجرور متعلّق بـ(يردّون) ، (إيمان) مضاف إليه مجرور و(كم) مضاف إليه (كفارا) مفعول به ثان عامله يردّون بمعنى يصيّرون " 1 " ، (حسدا) مفعول لأجله منصوب عامله يردّون أو ودّ ، (من عند) جارّ ومجرور متعلّق بـ(حسدا) ، (أنفس) مضاف إليه مجرور و(هم) ضمير متّصل مضاف إليه (من بعد) جارّ ومجرور متعلّق بـ(ودّ) " 2 " ، (ما) مصدريّة (تبيّن) فعل ماض (اللام) حرف جرّ و(هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ(تبيّن) ، (الحقّ) فاعل مرفوع .

---

(1) أو حال من مفعول يردون ، قال ذلك العكبري . [. . . . .]

(2) أو متعلّق بـ(يردّون) .

والمصدر المؤول (ما تبيّن) في محلّ جرّ مضاف إليه .

(الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (اعفوا) فعل أمر مبنيّ على حذف النون . . والواو فاعل ، (الواو) عاطفة (اصفحوا) مثل اعفوا (حتّى) حرف غاية وجرّ (يأتي) مضارع منصوب بـ (أن) مضمرة وجوبا بعد حتى (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (بأمر) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يأتي) ، و(الهاء) مضاف إليه .

والمصدر المؤوّل (أن يأتي . .) في محلّ جرّ بـ (حتى) متعلّق بـ (اعفوا واصفحوا) .

(إنّ) حرف مشبّه بالفعل للتوكيد (اللّه) لفظ الجلالة اسم إنّ منصوب (على كلّ) جارّ ومجرور متعلّق بقدير (شيء) مضاف إليه مجرور (قدير) خبر إنّ مرفوع .

جملة : " ودّ كثير . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يردّونكم " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (لو) .

وجملة : " تبيّن . . " الحقّ لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

وجملة : " اعفوا " لا محلّ لها جواب شرط مقدّر أي إذا كان أمرهم كذلك فاعفوا .

وجملة : " اصفحوا " لا محلّ لها معطوفة على جملة اعفوا .

وجملة : " إن اللّه . . . " قدير لا محلّ لها تعليليّة أو استئناف من غير تعليل .

الصرف :

(كفارا) ، جمع كافر اسم فاعل من كفر يكفر باب نصر وزنه فاعل . (انظر الآية 19)

(حسدا) ، مصدر حسد يحسد من بابي نصر وضرب وزنه فعل بفتحتين ، وثمّة مصدر آخر هو حسادة بفتح الحاء .

(اعفوا) ، فيه إعلال بالحذف أصله اعفووا بضمّ الواو الأولى ، فلمّا استثقلت الضمّة على الواو نقلت إلى الفاء قبلها ، ثمّ حذفت الواو الأولى لمجيئها ساكنة قبل واو الجماعة الساكنة ، وزنه افعوا .

(أمره) ، مصدر سماعي من أمر يأمر باب نصر ، وزنه فعل بفتح فسكون .

[سورة البقرة (2) : آية 110]

وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ وَما تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (110)

الإعراب :

(الواو) استئنافية (أقيموا) فعل أمر مبنيّ على حذف النون . والواو فاعل (الصلاة) مفعول به منصوب (الواو) عاطفة (آتوا) مثل أقيموا (الزكاة) مفعول به منصوب . (الواو) استئنافيّة (ما) اسم شرط جازم مبني في محلّ نصب مفعول به مقدّم (تقدّموا) مضارع

مجزوم فعل الشرط وعلامة الجزم حذف النون . . والواو فاعل (لأنفس) جارّ ومجرور متعلّق بـ (تقدّموا) و(كم) ضمير مضاف إليه (من خير) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف حال من ما " 1 " ، (تجدوا) مضارع مجزوم جواب الشرط ، وعلامة الجزم حذف النون . . . والواو فاعل و(الهاء) مفعول به (عند) ظرف مكان منصوب متعلّق بـ (تجدوا) " 2 " ، (اللّه) لفظ

---

(1) أو تمييز لـ (ما) .

(2) يجوز أن يكون حالا من المفعول به أي تجدوا ثوابه مدّخرا عند اللّه .

الجلالة مضاف إليه مجرور . (إِنَّ اللَّهَ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) سبق إعراب نظيرها " 1 " . .

و(ما) اسم موصول أو حرف مصدري أو نكرة موصوفة .

جملة : " أقيموا . . . " لا محل لها استئنافية .

وجملة : " آتوا . . . " لا محل لها معطوفة على أقيموا . . .

وجملة : " تقدّموا " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " تجدوه " لا محلّ لها جواب شرط جازم غير مقترنة بالفاء .

وجملة : " إن اللّه بصير . . " لا محلّ لها تعليلية .

وجملة : " تعملون " لا محلّ لها صلة الموصول الاسمي أو الحرفي أو في محلّ جرّ نعت لـ (ما) .

الفوائد

1 - أقيموا فعل أمر مبني على حذف النون لأن مضارعه من الأفعال الخمسة .

وثمة قاعدة تقول : إن فعل الأمر يبنى على ما يجزم به مضارعه .

وفحوى ذلك أن فعل الأمر يبنى على السكون إذا كان صحيح الآخر ، ويبنى على حذف النون إذا اتصل بألف الاثنين أو واو الجماعة أو ياء المؤنثة المخاطبة ويبنى على حذف حرف العلة إذا كان معتل الآخر .

[سورة البقرة (2) : آية 111]

وَقالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ كانَ هُوداً أَوْ نَصارى تِلْكَ أَمانِيُّهُمْ قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (111)

---

(1) في الآية (96) من هذه السورة .

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (قالوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ . .

والواو فاعل (لن) حرف نفي ونصب (يدخل) مضارع منصوب (الجنّة) مفعول به " 1 "

منصوب (إلا) أداة حصر (من) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع فاعل (كان) فعل ماض ناقص

، واسمه ضمير مستتر تقديره هو (هودا) خبر كان منصوب (أو) حرف عطف للتفصيل

(نصارى) معطوف على (هودا) منصوب مثله وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على

الألف . (تي) اسم إشارة مبنيّ على السكون الظاهر على الياء المحذوفة لالتقاء الساكنين

في محلّ رفع مبتدأ و(اللام) للبعد و(الكاف) للخطاب (أمانيّ) خبر مرفوع و(هم) ضمير

متصل في محلّ جرّ مضاف إليه (قل) فعل أمر والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت (ها توا)

فعل أمر مبنيّ على حذف النون . . والواو فاعل " 2 " ، (برهان) مفعول به منصوب

و(كم) ضمير مضاف إليه (إن) حرف شرط جازم (كنتم) فعل ماض ناقص مبنيّ على

السكون في محلّ جزم فعل الشرط . . . و(تم) ضمير اسم كان في محلّ رفع (صادقين) خبر

كان منصوب وعلامة النصب الياء .

جملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة " 3 " .

وجملة : " لن يدخل . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " كان هودا " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " تلك أمانيّهم " لا محلّ لها اعتراضيّة .

---

(1) هذا على السّعة ، فأصله إلى الجنّة . . وقد يكون مفعولا به في الأصل .

(2) والفعل على رأي ابن هشام جامد لا ماضي ولا مضارع له . . وعلى رأي الزمخشريّ هو اسم فعل وقد ردّ ذلك ابن هشام .

(3) يجوز أن تكون معطوفة بالواو على جملة ودّ كثير . . (الآية 109) وما بينهما اعتراض

وجملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " هاتوا . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " إن كنتم صادقين " لا محلّ لها استئنافيّة . . . وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله أي إن كنتم صادقين فهاتوا برهانكم .

الصرف :

(هودا) ، جمع هائد وهو اسم فاعل من هاد بمعنى تاب ، وهود وزنه فعل بضمّ فسكون .

(نصارى) ، جمع نصران مؤنّثه نصرانه ولكنّه لا يستعمل إلا بياء النسب ، وفي المصباح

النصارى جمع نصارى . ووزن نصارى فعالى (انظر الآية 62 من هذه السورة) .

(برهان) ، اسم بمعنى الحجّة ، وزنه فعلال بضمّ الفاء ، وقيل وزنه فعلان فالنون فيه زائدة .

البلاغة

قد يقال : لم قيل " تِلْكَ أَمانِيُّهُمْ " وقولهم " لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ " أمنية واحدة .

فنقول : في ذلك سر عجيب في صناعة البيان وهو أنه لشدة تمنيهم لهذه الأمنية وتأصلها في نفوسهم جمعت وأنها بمثابة أماني توزعت في كل قلب فلم تترك فراغا لغيرها .

الفوائد

1 – تلك أمانيهم : مفردها أمنية على وزن " افعولة " وقد عبر عنها بالجمع لأنهم يتمنون أن لا ينزل على المؤمنين خير من ربهم ويتمنون أن يردوهم كفارا ، ويتمنون أن لا يدخل الجنة غيرهم . وكلها أمان باطلة .

2 – في البرهان قولان : أحدهما أنه من البرة ونونه زائدة وهو بمعنى القطع ويفيد العلم القطعي ، والثاني من " برهن " ومنه البرهنة والبرهان بمعنى البيان

وعلى هذا القول تكون نونه أصلية ، وترتاح النفس لهذا القول والله أعلم . .

[سورة البقرة (2) : آية 112]

بَلى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ

(112)

الإعراب :

(193/68)

(بلى) حرف جواب لإثبات ما نفوه (من) اسم شرط جازم في محلّ رفع مبتدأ (أسلم) فعل ماض ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (وجه) مفعول به منصوب و(الهاء) مضاف إليه (اللّه) جارّ ومجرور متعلّق بـ(أسلم) ، (الواو) حاليّة (هو) ضمير منفصل في محلّ رفع مبتدأ (محسن) خبر مرفوع (الفاء) رابطة لجواب الشرط (اللام) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف خبر مقدّم (أجر) مبتدأ مؤخّر مرفوع و(الهاء) مضاف إليه (عند) ظرف مكان منصوب متعلّق بمحذوف حال من أجر (ربّ) مضاف إليه مجرور و(الهاء) مضاف إليه (الواو) عاطفة (لا) نافية مهملة " 1 " ، (خوف) مبتدأ مرفوع (على) حرف جرّ و(هم) ضمير متّصل في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف خبر (الواو) عاطفة (لا) زائدة لتأكيد النفي (هم) ضمير منفصل في محلّ رفع مبتدأ (يحزنون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل .

جملة : " من أسلم . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " أسلم وجهه " في محلّ رفع خبر (من) " 2 " .

وجملة : " هو محسن " في محلّ نصب حال .

وجملة : " له أجره " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

---

(1) أو تعمل عمل ليس و(خوف) اسمها و(عليهم) خبرها -

(2) يجوز أن يكون الخبر جملتي الشرط والجواب معا .

(194/68)

وجملة : " لا خوف عليهم " في محل جزم معطوفة على جملة جواب الشرط .

وجملة : " لا هم يحزنون " في محلّ جزم معطوفة على جملة لا خوف عليهم .

وجملة : " يحزنون " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هم) .

الصرف :

(وجهه) ، اسم جامد للعضو المعروف ، وزنه فعل بفتح فسكون .

(محسن) ، اسم فاعل من أحسن الرباعي وزنه مفعل بضمّ الميم وكسر العين .

[سورة البقرة (2) : آية 113]

وَقالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصارى عَلى شَيْءٍ وَقالَتِ النَّصارى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلى شَيْءٍ

وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (113)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (قالت) فعل ماض . . و(التاء) للتأنيث (اليهود) فاعل مرفوع (ليس) فعل ماض ناقص . . و(التاء) للتأنيث (النصارى) اسم ليس مرفوع وعلامة رفعه الضمّة المقدّرة (على شيء) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف خبر ليس . (الواو) عاطفة (قالت النصارى ليست اليهود على شيء) مثل نظيرتها المتقدّمة . (الواو) حاليّة (هم) ضمير منفصل في محلّ رفع مبتدأ (يتلون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل (الكتاب) مفعول به منصوب . (الكاف) حرف جرّ (ذا) اسم إشارة مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف مفعول مطلق أي قال الذين لا يعلمون قولا كذلك ، (قال) فعل ماض (الذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع فاعل

(لا) نافية (يعلمون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل (مثل) مفعول به عامله قال ، منصوب " 1 " ، (قول) مضاف إليه مجرور و(هم) متّصل مضاف إليه (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (اللّه) لفظ الجلالة مبتدأ مرفوع (يحكم) مضارع مرفوع والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (بين) ظرف مكان منصوب متعلّق بـ (يحكم) بتضمينه معنى يفصل ، و(هم) متّصل مضاف إليه (يوم) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (يحكم) ، (القيامة) مضاف إليه مجرور

(في) حرف جرّ (ما) اسم موصول في محلّ جرّ " 2 " متعلّق بـ (يحكم) ، (كانوا) ماض ناقص مبنيّ على الضمّ . . والواو اسم كان (في) حرف جرّ و(الهاء) في محلّ جرّ متعلّق بـ (يختلفون) وهو مضارع مرفوع . . والواو فاعل .

جملة : " قالت اليهود . . . " لا محلّ لها استئنافيّة أو معطوفة على جملة قالوا لن يدخل . . " 3 " .

(195/68)

وجملة : " ليست النصارى على شيء " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " قالت النصارى " لا محلّ لها معطوفة على جملة قالت اليهود .

وجملة : " ليست اليهود على شيء " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " هم يتلون . . . " في محلّ نصب حال من اليهود والنصارى .

وجملة : " يتلون . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هم) .

وجملة : " قال الذين . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

---

(1) أجاز العكبري أن يكون مفعولا به لفعل يعلمون . . ويجوز أن يكون (مثل) مفعولا مطلقا نائبا عن المصدر إذا جعلنا الكاف اسما في محلّ رفع مبتدأ ، جملة قال خبره والمفعول

مقدّر أي قاله الذين . . .

(2) يجوز أن يكون حرفا مصدريّا ، والمصدر المؤوّل في محلّ جرّ .

(3) في الآية (111) .

(196/68)

وجملة : " لا يعلمون لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " اللّه يحكم بينهم " لا محل لها جواب شرط مقدّر أي إذا كانوا يختلفون فاللّه يحكم .

وجملة : " يحكم بينهم " في محلّ رفع خبر المبتدأ (اللّه) .

وجملة : " كانوا فيه يختلفون " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الاسمي أو الحرفي .

وجملة : " يختلفون " في محلّ نصب خبر كانوا .

الصرف :

(يتلون) ، فيه إعلال بالحذف ، أصله يتلوون بضمّ الواو الأولى ثمّ نقلت حركتها إلى اللام قبلها ، فالتقى سكونان ، فحذفت الواو الأولى للتخلّص من السكونين فأصبح يتلون وزنه يفعون (انظر الآية 44 من هذه السورة .

[سورة البقرة (2) : آية 114]

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَساجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعى فِي خَرابِها أُولئِكَ ما كانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوها إِلاَّ خائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذابٌ عَظِيمٌ (114)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (من) اسم استفهام مبني في محلّ رفع مبتدأ (أظلم) خبر مرفوع (من) حرف جرّ (من) اسم موصول " 1 " مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (أظلم) ، (منع) فعل ماض والفاعل هو وهو العائد (مساجد) مفعول به منصوب (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (أن) حرف مصدريّ ونصب (يذكر) مضارع مبنيّ للمجهول منصوب (في)

---

(1) يجوز أن يكون (من) نكرة موصوفة والجملة بعده نعت له .

حرف جرّ و(ها) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (يذكر) ، (اسم) نائب فاعل مرفوع و(الهاء) ضمير مضاف إليه .

والمصدر المؤوّل (أن يذكر . . .) في محلّ نصب مفعول به ثان لـ (منع) " 1 " ، (الواو) عاطفة (سعى) ماض مبنيّ على الفتح المقدّر على الألف والفاعل ضمير مستتر تقديره هو

(في خراب) جارّ ومجرور متعلّق بـ (سعى) ، و(ها) ضمير مضاف إليه . (أولاء) اسم اشارة مبنيّ على الكسر في محلّ رفع مبتدأ و(الكاف) حرف خطاب (ما) نافية (كان) فعل ماض ناقص (اللام) حرف جرّ و(هم) متّصل في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف خبر مقدّم (أن) مثل الأول (يدخلوا) مضارع منصوب وعلامة النصب حذف النون . . . والواو فاعل و(ها) ضمير مفعول به (إلا) أداة حصر (خائفين) حال منصوبة من فاعل يدخلوها ، وعلامة نصبه الياء .

والمصدر المؤوّل (أن يدخلوها) في محلّ رفع اسم كان مؤخّر .

جملة "من أظلم . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : "منع مساجد "لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : "سعى . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة منع . . أو في محلّ جرّ .

وجملة : "أولئك ما كان . . . "لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : "ما كان لهم أن يدخلوها "في محلّ رفع خبر المبتدأ (أولئك) .

(اللام) حرف جرّ (هم) ضمير متّصل في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف

---

(1) يجوز أن يكون مفعولا لأجله بحذف مضاف أي خشية أن يذكر . . أو بدل اشتمال من مساجد ، أو مجرور بحرف جرّ محذوف تقديره من أن يذكر متعلّق بـ (منع) .

[. . . . .]

خبر مقدّم (في الدنيا) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف حال من خزي – نعت تقدّم على المنعوت – " 1 " ، وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على الألف (خزي) مبتدأ مؤخّر مرفوع ، (الواو) عاطفة (لهم في الآخرة عذاب) تعرب كنظيرتها . . . (عظيم) نعت لعذاب مرفوع مثله .

وجملة : " لهم في الدنيا خزي " لا محلّ لها استئنافيّة " 2 " .

وجملة : " لهم في الآخرة عذاب " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة أو في محلّ نصب .

الصرف :

(أظلم) ، اسم تفضيل من ظلم ، وزنه أفعل .

(مساجد) ، جمع مسجد ، اسم مكان من سجد باب نصر ، وقد جاء على وزن مفعل بكسر العين على غير القياس إذا القياس أن تكون عينه مفتوحة لانضمام عينه في المضارع .

(خراب) ، اسم مصدر للتخريب ، نقص عن عدد حروف المصدر ، وزنه فعال بفتح الفاء .

(خائفي) ، جمع خائف اسم فاعل من خاف ، قلب حرف العلّة إلى همزة لمجيئه بعد ألف

فاعل ، وهو قلب مطّرد .

الفوائد

المسجد : اسم مكان على وزن مفعل وكان حقه أن يأتي على وزن مفعل قياسا على ما كانت عينه مضمومة وقد سمعت شذوذا على غرار مغرب ومشرق .

---

(1) يجوز تعليقه بالخبر المحذوف .

(2) أو حال من الضمير في خائفين ، فهي حال متداخلة ، في محلّ نصب .

(199/68)

[سورة البقرة (2) : آية 115]

وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ واسِعٌ عَلِيمٌ (115)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (للّه) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف خبر مقدّم (المشرق) مبتدأ مؤخّر مرفوع ، (المغرب) معطوف على المشرق بالواو مرفوع مثله (الفاء) عاطفة لربط المسبّب بالسبب (أينما) اسم شرط جازم مبنيّ في محلّ نصب على الظرفيّة المكانية متعلّق بالجواب " 1 " (تولّوا) مضارع مجزوم وعلامة الجزم حذف النون . . والواو فاعل (الفاء) رابطة

لجواب الشرط (ثمّ) ظرف مكان مبنيّ على الفتح في محلّ نصب متعلّق بمحذوف خبر مقدّم (وجه) مبتدأ مؤخّر مرفوع (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور . (إنّ) حرف مشبّه بالفعل (اللّه) لفظ الجلالة اسم إن منصوب (واسع) خبر مرفوع (عليم) خبر ثان مرفوع .

جملة : " للّه المشرق " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " تولوا " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " ثمّ وجه اللّه " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة : " إنّ اللّه واسع " لا محلّ لها استئنافيّة .

الصرف :

(المشرق) ، اسم مكان من شرق باب نصر ، وزنه مفعل بكسر العين على غير القياس إذ قياسه فتح العين لأن عينه مضمومة في المضارع .

(المغرب) ، اسم مكان من غرب باب نصر ، وهو مثل المشرق بخروجه عن القياس .

---

(1) يجوز تعليقه بفعل الشرط .

(تولّوا) ، فيه إعلال بالحذف ، أصله تولاوا ، التقى ساكنان فحذفت الألف وبقيت الفتحة على اللام قبلها دلالة عليها فأصبح تولّوا وزنه تفعّوا بفتح العين .

(ثمّ) اسم يشار به إلى البعيد بمعنى هناك وزنه فعل بفتح فسكون وعينه ولامه من حرف واحد ومثله ثمّة .

(وجه) ، اسم للعضو المعروف ، واستعمل في الآية على سبيل الاستعارة ، وزنه فعل بفتح فسكون .

(واسع) ، اسم فاعل من وسع يسع باب فرح ، وزنه فاعل .

[سورة البقرة (2) : آية 116]

وَقالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحانَهُ بَلْ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قانِتُونَ (116)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (قالوا) فعل وفاعل (اتّخذ) فعل ماض (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (ولدا) مفعول به منصوب – وهو المفعول الثاني ، أمّا الأول فمحذوف تقديره بعض مخلوقاته – (سبحان) مفعول مطلق لفعل محذوف منصوب و(الهاء) مضاف إليه (بل) حرف إضراب وابتداء (اللام) حرف جرّ (الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف خبر مقدّم (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ مؤخّر (في السموات) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف صلة ما (الأرض) معطوف على السموات بالواو مجرور مثله (كلّ) مبتدأ مرفوع "

1 " (له) مثل الأول متعلّق بـ (قانتون) وهو خبر المبتدأ مرفوع وعلامة رفعه الواو .

---

(1) الذي سوغ اعرابه مبتدأ وهو نكرة كونه دالا على عموم ، وهو على حذف مضاف ، أي : كلّ ما خلق اللّه .

(201/68)

وجملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة " 1 " .

وجملة : " اتّخذ اللّه ولدا " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " سبحانه " لا محلّ لها اعتراضيّة دعائيّة .

وجملة : " له ما في السموات " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " كلّ له قانتون " لا محلّ لها استئنافيّة .

الصرف :

(ولدا) ، الأصل فيه أنّه صفة مشتقّة من ولد يلد باب ضرب ، ثمّ استعمل اسما لكلّ من ولد . ويطلق على الذكر والأنثى والمثنّى والجمع ، وزنه فعل بفتحتين .

(قانتون) ، جمع قانت ، اسم فاعل من قنت ، وزنه فاعل .

الفوائد

1 - لفظ " سبحانه وتعالى ، وجل جلاله " وما على غرارها كلها جمل اعتراضية ويقصد بها تنزيه اللّه ، وتعظيمه ، و . . .

[سورة البقرة (2) : آية 117]

بَدِيعُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَإِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (117)

الإعراب :

(بديع) خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو (السموات) مضاف إليه مجرور (الأرض) معطوف بالواو على السموات مجرور مثله ، (الواو) عاطفة (إذا) ظرف للمستقبل يتضمّن معنى الشرط متعلّق بالجواب (قضى) فعل ماض مبنيّ على الفتح المقدّر والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (أمرا)

---

(1) بعضهم يعطفها على جملة : قالوا لن يدخل . في الآية (111) . . وفيه بعد . .

مفعول به منصوب (الفاء) رابطة لجواب الشرط (إنّما) كافّة ومكفوفة (يقول) مضارع مرفوع والفاعل هو (اللام) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جر متعلّق بـ (يقول) ، (كن) فعل أمر تام والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت (الفاء) عاطفة " 1 " لربط المسبّب بالسبب

(يكون) مضارع مرفوع تام ، والفاعل هو .

جملة : " (هو) بديع السموات . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " قضى . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " إنّما يقول . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " كن " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " يكون " في محلّ رفع خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو والجملة الاسمية معطوفة على جملة يقول أو هي استئنافيّة .

الصرف :

(بديع) صفة مشبّهة من بدع يبدع باب كرم ، وزنه فعيل .

(قضى) ، فيه إعلال بالقلب أصله قضي مضارعه يقضي ، فلمّا جاءت الياء متحرّكة بعد فتح قلبت ألفا .

(كن) ، فيه إعلال بالحذف لمناسبة البناء على السكون ، وأصله كون بضمّ الكاف وسكون الواو . وزنه فل .

البلاغة

الاستعارة التمثيلية : في قوله تعالى فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ حيث شبهت هيأة حصول المراد بعد تعلق الارادة بلا مهلة بطاعة المأمور المطيع عقيب أمر المطاع بلا توقف .

(1) أو هي استئنافيّة عند بعضهم . . وابن هشام رفض ذلك .

[سورة البقرة (2) : آية 118]

وَقالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ لَوْلا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينا آيَةٌ كَذلِكَ قالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآياتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (118)

الإعراب :

(الواو) عاطفة (قال) فعل ماض (الذين) اسم موصول فاعل (لا) نافية (يعلمون) فعل مضارع مرفوع . . والواو فاعل (لولا) حرف تحضيض (يكلّم) مضارع مرفوع و(نا) ضمير متّصل في محلّ نصب مفعول به (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (أو) حرف عطف (تأتي) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة و(نا) مفعول به (آية) فاعل مرفوع (كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم) مرّ إعراب نظيرها " 1 " ، (تشابه) فعل ماض و(التاء) للتأنيث (قلوب) فاعل مرفوع و(هم) ضمير متّصل مضاف إليه (قد) حرف تحقيق (بيّنا) فعل ماض مبنيّ على السكون . . ونا فاعل (الآيات) مفعول به منصوب وعلامة النصب الكسرة (لقوم) جارّ ومجرور متعلّق بـ (بيّنا) ، (يوقنون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل .

جملة : " قال الذين . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة قالوا اتّخذ " 2 " .

وجملة : " لا يعلمون " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " لولا يكلّمنا اللّه " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " تأتينا آية " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول .

---

(1) انظر الآية (113) .

(2) في الآية (116) .

وجملة : " قال الذين . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " تشابهت قلوبهم " لا محلّ لها استئنافيّة أو اعتراضيّة .

وجملة : " قد بيّنا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يوقنون " في محلّ جرّ نعت لقوم .

الصرف :

(يوقنون) انظر مزيد شرح عن صرفها في الآية (4) من هذه السورة .

الفوائد

لولا : حرف امتناع للوجود ومعناها الحض مثل " هلّا " ويقال لها :

حرف تحضيض . .

[سورة البقرة (2) : آية 119]

إِنَّا أَرْسَلْناكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلا تُسْئَلُ عَنْ أَصْحابِ الْجَحِيمِ (119)

الإعراب :

(إنّ) حرف مشبّه بالفعل و(نا) ضمير متّصل في محلّ نصب اسم إنّ (أرسلنا) فعل ماض مبنيّ على السكون . . و(نا) فاعل و(الكاف) ضمير مفعول به (بالحقّ) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف حال من الفاعل أو المفعول (بشيرا) حال منصوبة من المفعول (نذيرا) معطوف بالواو على (بشيرا) منصوب مثله . (الواو) عاطفة (لا) نافية (تسأل) مضارع مبنيّ للمجهول مرفوع ، ونائب الفاعل ضمير مستتر تقديره أنت (عن أصحاب) جارّ ومجرور متعلّق بـ (تسأل) ، (الجحيم) مضاف إليه مجرور .

وجملة : " إنّا أرسلناك " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " أرسلناك " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " لا تسأل . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة إنّا أرسلناك .

الصرف :

(بشيرا) ، صفة مشبّهة من فعل بشر يبشر باب ضرب وباب فرح ، وزنه فعيل .

(نذيرا) ، مصدر غير قياسي لفعل أنذر الرباعيّ ، ويستعمل استعمال الصفات كصفة مشبّهة بمعنى المنذر - بكسر الذال - وزنه فعيل .

(الجحيم) ، اسم للنار الشديدة التأجج ، وهي في الأصل صفة مشتقّة على وزن فعيل بمعنى الجاحم ، فهي من أوزان المبالغة .

[سورة البقرة (2) : آية 120]

وَلَنْ تَرْضى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصارى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْواءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ما لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (120)

الإعراب :

(الواو) عاطفة (لن) حرف نفي ونصب (ترضى) مضارع منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدرة على الألف (عن) حرف جرّ و(الكاف) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (ترضى) ، (اليهود) فاعل مرفوع (الواو) عاطفة (لا) زائدة لتأكيد النفي (النصارى) معطوف على اليهود بالواو مرفوع مثله وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة (حتّى) حرف غاية وجرّ (تتّبع) فعل مضارع منصوب بـ (أنّ) مضمرة بعد حتّى ، والفاعل ضمير مستتر تقديره

أنت (ملّة) مفعول به منصوب و(هم) ضمير متّصل مضاف إليه .

والمصدر المؤوّل (أن تتّبع) في محلّ جرّ بـ (حتّى) متعلّق بـ (ترضى) .

(قل) فعل أمر والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت (انّ) حرف مشبّه بالفعل (هدى) اسم انّ منصوب وعلامة نصبه الفتحة المقدّرة (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (هو) ضمير فصل " 1 " ، (الهدى) خبر انّ مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة . (الواو) استئنافيّة (اللام) موطئة للقسم (ان) حرف شرط جازم (اتّبع) فعل ماض مبنيّ على السكون في محلّ جزم فعل الشرط . . والتاء فاعل (أهواء) مفعول به منصوب و(هم) ضمير متّصل مضاف إليه (بعد) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (اتّبعت) ، الذي اسم موصول في محلّ جرّ مضاف إليه (جاء) فعل ماض و(الكاف) ضمير مفعول به ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (من العلم) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف حال من فاعل جاء (ما) نافية (اللام) حرف جرّ و(الكاف) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف خبر مقدّم (من اللّه) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف حال من وليّ – نعت تقدّم على المنعوت – " 2 " (من) حرف جرّ زائد (وليّ) مجرور لفظا مرفوع محلّا مبتدأ مؤخّر (الواو) عاطفة (لا) زائدة لتأكيد النفي (نصير) معطوف على لفظ (وليّ) مجرور مثله .

جملة : " لن ترضى عنك اليهود – " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة في الجملة السابقة .

وجملة : " تتّبع . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفي .

وجملة : " قل . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " أنّ هدى اللّه هو الهدى " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " اتّبعت . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " جاءك من العلم " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

---

(1) أو هو ضمير منفصل مبتدأ خبره (الهدى) ، وجملة هو الهدى خبر انّ .

(2) يجوز تعليقه بالخبر المحذوف .

(206/68)

وجملة : " مالك من اللّه . . " لا محلّ لها جواب قسم مقدّر . . وجواب الشرط محذوف دلّ عليه جواب القسم المذكور .

الصرف :

(ترضى) ، فيه إعلال بالقلب ، أصله ترضي بضمّ الياء ، فلمّا جاءت الياء متحرّكة بعد فتح قلبت ألفا .

(ملّة) ، اسم بمعنى الدين أو الطريقة أو الشريعة ، وزنه فعلة بكسر الفاء وسكون العين . . وقد أدغمت العين واللام معا .

(أهواء) ، جمع هوى ، مصدر هوي يهوى باب فرح ، وزنه فعل بفتحتين . . وفي أهواء قلب لام الكلمة وهي الياء همزة لمجيئها متطرّفة بعد ألف ساكنة ، وأصله أهواي .

[سورة البقرة (2) : آية 121]

الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُولئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ (121)

الإعراب :

(الذين) موصول مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (آتينا) فعل ماض مبنيّ على السكون . . و(نا) فاعل (هم) ضمير متصل مفعول به (الكتاب) مفعول به ثان منصوب (يتلون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل و(الهاء) مفعول به (حقّ) مفعول مطلق نائب عن المصدر لأنه صفة المصدر في الأصل (تلاوة) مضاف إليه مجرور و(الهاء) مضاف إليه في محلّ جرّ . (أولاء) اسم إشارة مبنيّ على الكسر في محل رفع مبتدأ و(الكاف) حرف خطاب (يؤمنون) مضارع مرفوع . والواو فاعل (الباء) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (يؤمنون) . (الواو) عاطفة (من) اسم شرط جازم مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (يكفر) مضارع مجزوم

فعل الشرط والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (به) مثل الأول متعلّق بـ (يكفر) (الفاء) رابطة لجواب الشرط (أولاء) مثل الأول و(الكاف) حرف خطاب (هم) ضمير فصل " 1 " ، (الخاسرون) خبر المبتدأ أولئك مرفوع وعلامة الرفع الواو .

جملة : " الذين آتيناهم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " آتيناهم الكتاب " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " يتلونه " في محلّ نصب حال من ضمير المفعول في آتيناهم أو من الكتاب " 2 " .

وجملة : " أولئك يؤمنون . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (الذين) .

وجملة : " يؤمنون به . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (أولئك) .

وجملة : " من يكفر به . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الذين آتيناهم الكتاب .

وجملة : " يكفر به . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) " 3 " .

وجملة : " أولئك هم الخاسرون " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء –

الصرف :

(يتلونه) ، فيه إعلال بالحذف ، أصله يتلوونه بضمّ الواو الأولى ، نقلت حركتها إلى اللام ثمّ حذفت لالتقائها ساكنة مع واو الجماعة فأصبح يتلونه ، وزنه يفعلونه (انظر الآية 44 من هذه السورة) .

(1) أو ضمير منفصل مبتدأ خبره الخاسرون ، والجملة خبر أولئك .

(2) يجوز أن تكون في محلّ رفع خبر المبتدأ (الذين) ، وجملة أولئك يؤمنون . .

استئنافيّة تعليليّة لا محلّ لها .

(3) يجوز أن يكون الخبر جملتي الشرط والجواب معا .

(208/68)

(تلاوته) ، مصدر تلا يتلو ، وزنه فعالة بكسر الفاء .

الفوائد

فَأُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ ، الفاء رابطة لجواب الشرط ولدي وجود الفاء تعرب الجملة في محل جزم جواب الشرط ويجب ربط الجواب بالفاء في المواضع التالية : إذا كانت الجملة اسمية أو طلبية أو فعلها جامد أو مسبوقة بما أو من أو قد أو السين أو سوف .

[سورة البقرة (2) : آية 122]

يا بَنِي إِسْرائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعالَمِينَ (122)

الإعراب :

هذه الآية الكريمة مرّت من قبل فارجع إلى إعرابها في الآية (47) .

[سورة البقرة (2) : آية 123]

وَاتَّقُوا يَوْماً لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلَا يُقْبَلُ مِنْها عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُها شَفاعَةٌ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ (123)

الإعراب :

(الواو) عاطفة (اتّقوا) فعل أمر مبنيّ على حذف النون . .

الواو فاعل (يوما) مفعول به منصوب على حذف مضاف أي : عذاب يوم (لا) نافية

(تجزي) مضارع مرفوع وعلامة رفعه الضمّة المقدّرة (نفس) فاعل مرفوع (عن نفس) جارّ ومجرور متعلّق بـ (تجزي) ، (شيئا) مفعول مطلق نائب عن المصدر منصوب (الواو) عاطفة (لا) نافية (يقبل) مضارع مبنيّ للمجهول مرفوع (من) حرف جرّ و(ها) ضمير في محلّ جرّ متعلّق

ب (يقبل) ، (عدل) نائب فاعل مرفوع (الواو) عاطفة (لا) نافية (تنفع) مضارع مرفوع و(ها) ضمير مفعول به (شفاعة) فاعل مرفوع (ولا) مثل السابق (هم) ضمير منفصل في محلّ رفع مبتدأ (ينصرون) مضارع مبنيّ للمجهول مرفوع وعلامة الرفع ثبوت النون . .

و(الواو) نائب فاعل .

جملة : " اتقوا يوما " لا محلّ لها معطوفة على جملة النداء في الآية السابقة وجملة : " لا تجزي نفس . . " في محلّ نصب نعت لـ (يوما) ، والرابط محذوف تقديره فيه .

وجملة : "لا يقبل منها عدل" في محلّ نصب معطوفة على جملة تجزى .

وجملة : "لا تنفعها شفاعة" في محلّ نصب معطوفة على جملة تجزي .

وجملة : "لا هم ينصرون" في محلّ نصب معطوفة على جملة تجزي .

وجملة : "ينصرون" في محل رفع خبر المبتدأ (هم) .

[سورة البقرة (2) : آية 124]

(209/68)

وَإِذِ ابْتَلى إِبْراهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِماتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قالَ إِنِّي جاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِماماً قالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قالَ لا يَنالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (124)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (إذ) اسم ظرفي للزمن الماضي مبنيّ في محلّ نصب مفعول به لفعل محذوف تقديره اذكر (ابتلى) فعل ماض مبنيّ على الفتح المقدّر (إبراهيم) مفعول به مقدّم منصوب (ربّ) فاعل مرفوع و(الهاء) مضاف إليه (بكلمات) جارّ ومجرور متعلّق بـ (ابتلى) ، (الفاء) عاطفة (أتم) فعل ماض و(هنّ) ضمير متّصل مبنيّ في محلّ نصب مفعول به والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (قال) فعل ماض والفاعل هو (إن) حرف مشبّه بالفعل للتوكيد

و(الياء) اسم إنّ (جاعل) خبر إنّ مرفوع و(الكاف) ضمير مضاف إليه (للناس) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف حال من (إماما) " 1 " – نعت تقدّم على المنعوت – (إماما) مفعول به لاسم الفاعل جاعل (قال) مثل الأول (الواو) عاطفة (من ذرّيّة) جارّ ومجرور متعلّق بفعل محذوف تقديره اجعل " 2 " ، والمفعول به محذوف تقديره إماما أي اجعل من ذرّيتي إماما (قال) مثل الأول (لا) نافية (ينال) مضارع مرفوع (عهد) فاعل مرفوع و(الياء) مضاف إليه (الظالمين) مفعول به منصوب وعلامة النصب الياء .

جملة : " ابتلى إبراهيم ربّه " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " أتمّهنّ " في محلّ جرّ معطوفة على جملة ابتلى .

وجملة : " قال . . " لا محلّ لها استئناف بياني أو تفسير للابتلاء .

وجملة : " إنّي جاعلك " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " قال الثانية " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " (اجعل) من ذرّيتي . . " في محلّ نصب مقول القول وهو معطوف بالنسق على مقول اللّه تعالى : إنّي جاعلك .

وجملة : " قال الثالثة " لا محلّ لها استئناف بياني .

وجملة : " لا ينال عهدي الظالمين " في محلّ نصب مقول القول .

---

(1) يجوز تعليقه باسم الفاعل جاعل أي : لأجل الناس . [. . . . .]

(2) يجوز تعليقه بنعت من مفعول اجعل الأول أي : اجعل فريقا من ذرّيتي إماما .

الصرف :

(ابتلى) ، فيه إعلال بالقلب ، أصله ابتلي ، جاءت الياء متحرّكة بعد فتح قلبت ألفا .

(جاعل) ، اسم فاعل من جعل الثلاثي ، وزنه فاعل (انظر الآية 30 من هذه السورة) .

(إماما) ، اسم لما يؤتمّ به يستوي فيه التذكير والتأنيث ، جمعه أيمّه وأئمة ، ووزن إمام فعال بكسر الفاء .

(ذرّية) ، اسم للولد والنسل ، وهو في الأصل مثلّث الذال ، وهنا بضمّ الذال ، جمعه الذراري والذرّيات ، ووزن ذرّية فعليّة بضمّ الفاء وتسكين العين وكسر اللام وتشديد الياء المفتوحة .

(ينال) ، فيه إعلال بالقلب بدءا من الماضي ، أصله ينيل قلبت الياء ألفا بعد نقل حركتها إلى النون . .

البلاغة

في هذه الآية فن طريف من فنون البيان يقال له : فنّ المراجعة وهو أن يحكي المتكلم مراجعة في القول جرت بينه وبين محاور في الحديث أو بين اثنين بأوجز عبارة ، وأبلغ اشارة ، وأرشق محاورة مع عذوبة اللفظ وجزالته ، وسهولة السبك . وقد جمعت هذه الآية معاني الكلام من الخبر والاستخبار والأمر والنهي والوعد والوعيد .

الفوائد

1 – لا يجوز تقدم الفاعل على فعله فإذا تقدم يعرب مبتدءا ويقدر الفاعل ضميرا . بخلاف المفعول به فإنه يجوز تقديمه على الفعل في حالات خاصة مذكورة في المطولات من كتب النحو . كقوله تعالى " وَإِذِ ابْتَلى إِبْراهِيمَ رَبُّهُ " .

2 – إبراهيم معناه في السريانية الأب الرحيم ، ولفظها في العبرية " ابراهام " .

3 – جاعل اسم فاعل عمل عمل فعله فأخذ مفعولين الأول الكاف من " جاعلك " فهو من اضافة اسم الفاعل إلى مفعوله والثاني " إماما " .

(211/68)

---

4 – قيل الكلمات التي ابتلى اللّه بها إبراهيم هي المناسك وقد قام بها إبراهيم ولذلك قال تعالى بحقه " وَإِبْراهِيمَ الَّذِي وَفَّى " وقيل الكلمات هي : " الشرائع والأوامر والنواهي " .

5 – في هذه الآية يتجلّى بلاغة القرآن في هذا الفن من الحوار والذي يسمونه " المراجعة " . وتستطيع أن تتملّى هذا الأسلوب لما فيه من الحوار اللطيف . والإيجاز البليغ ، وفي الآداب العربية أمثلة من هذا القبيل لا يتسع لها صدد هذا الكتاب .

فليراجعها من شاء لدى البحتري وعمر بن أبي ربيعة وأضرابهما من الشعراء .

[سورة البقرة (2) : آية 125]

وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقامِ إِبْراهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنا إِلى إِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ أَنْ طَهِّرا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (125)

الإعراب :

(الواو) عاطفة (إذ) مرّ إعرابه في الآية السابقة (جعلنا) فعل ماض وفاعله (البيت) مفعول به منصوب (مثابة) مفعول به ثان منصوب " 1 " (للناس) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف نعت لمثابة " 2 " ، (أمنا) معطوفة على مثابة بالواو منصوب مثله . (الواو) استئنافيّة (اتّخذوا)

---

(1) يجوز أن يكون حالا إذا ضمّن (جعل) معنى خلق .

(2) يجوز أن يتعلق بفعل جعل .

فعل أمر مبنيّ على حذف النون . . والواو فاعل (من مقام) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف مفعول به ثان مقدّم (إبراهيم) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الفتحة (مصلّى) مفعول به أوّل منصوب . (الواو) استئنافيّة (عهدنا) مثل (جعلنا) (إلى إبراهيم) جارّ ومجرور متعلّق بـ (عهدنا) ، وعلامة الجرّ الفتحة (إسماعيل) معطوف على إبراهيم بالواو مجرور مثله وعلامة الجرّ الفتحة (أن) حرف تفسير " 1 " ، (طهّرا) فعل أمر مبنيّ على حذف النون . .

والألف فاعل (بيت) مفعول به منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على آخره منع من ظهورها اشتغال المحلّ بالحركة المناسبة و(الياء) ضمير مضاف إليه ، (للطائفين) جارّ ومجرور متعلّق بـ (طهّرا) وعلامة الجرّ الياء (العاكفين) معطوف على الطائفين بالواو مجرور مثله وعلامة الجرّ الياء (الرّكّع) معطوف على الطائفين بالواو مجرور مثله (السجود) نعت للركّع مجرور مثله " 2 " .

وجملة : " جعلنا . . . " في محل جرّ مضاف إليه .

وجملة : " اتخذوا . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " عهدنا . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " طهّرا . . " لا محلّ لها تفسيريّة .

الصرف :

(مثابة) ، اسم مكان من ثاب يثوب بمعنى رجع ، وأصل مثابة مثوبة – بسكون الثاء وفتح الواو – ثمّ نقلت حركة الواو إلى الثاء وسكّنت الواو – إعلال بالتسكين – ثمّ قلبت الواو ألفا لانفتاح ما قبلها

---

(1) أجاز العكبري جعله حرفا مصدريّا ، وجملة طهّرا صلة له ، والمصدر المؤوّل مجرور بحرف جرّ محذوف متعلّق بـ (عهد) .

(2) هذا إذا كان جمع ساجد ، ويجوز أن يكون مصدرا ، وحينئذ فيه حذف مضاف أي ذوي السجود .

(213/68)

وتحركها في الأصل فأصبح مثابة والتاء زائدة للمبالغة وزنه مفعلة .

(أمنا) ، مصدر سماعي لفعل أمن باب فرح ، وزنه فعل بفتح فسكون .

(مقام) ، اسم مكان من قام يقوم ، والألف فيه منقلبة عن واو ، أصله مقوم – بسكون القاف وفتح الواو – ثمّ سكّنت الواو وفتحت القاف – إعلال بالتسكين – ثمّ قلبت الواو ألفا لانفتاح ما قبلها وتحركها في الأصل ، وزنه مفعل بفتح العين .

(مصلّى) ، اسم مكان من صلّى يصلّي الرباعيّ ، وهو على وزن مضارعه المبنيّ للمجهول بإبدال حرف المضارعة ميما مضمومة والألف في مصلّى أصلها واو ، فلمّا انفتح ما قبلها قلبت ألفا .

(الطائفين) ، جمع الطائف ، اسم فاعل من طاف يطوف ، وزنه فاعل وقد قلبت الواو همزة لمجيئها بعد ألف فاعل .

(العاكفين) ، جمع العاكف ، اسم فاعل من عكف الثلاثيّ ، وزنه فاعل .

(الركّع) ، جمع الراكع ، اسم فاعل من ركع يركع باب فتح ، وزنه فاعل ، ووزن ركّع فعّل بضمّ الفاء وفتح العين المشدّدة .

(السجود) ، جمع الساجد ، اسم فاعل من سجد وزنه فاعل ، والسجود وزنه فعول بضمّ الفاء . .

وقد يكون السجود مصدرا لفعل سجد الثلاثيّ .

[سورة البقرة (2) : آية 126]

وَإِذْ قالَ إِبْراهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هذا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَراتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلى عَذابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (126)

الإعراب :

(الواو) عاطفة (إذ) مرّ إعرابه في الآية (124) ، (قال) فعل ماض (إبراهيم) فاعل مرفوع

(ربّ) منادى مضاف منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على الباء منع من ظهورها اشتغال المحلّ بحركة الياء المحذوفة والياء المحذوفة للتخفيف ضمير مضاف إليه (اجعل) فعل أمر دعائيّ ، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت (ها) حرف تنبيه (ذا) اسم إشارة في محلّ نصب مفعول به (بلدا) مفعول به ثان منصوب (آمنا) نعت لـ (بلدا) منصوب مثله (الواو) عاطفة (ارزق) مثل اجعل (أهل) مفعول به منصوب و(الهاء) ضمير مضاف إليه (من الثمرات) جارّ ومجرور متعلّق بـ (ارزق) ، (من) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب بدل من أهل (آمن) فعل ماض والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (من) حرف جرّ و(هم) ضمير متّصل في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف حال من فاعل آمن (باللّه) جارّ ومجرور متعلّق بـ (آمن) ، (اليوم) معطوف على لفظ الجلالة بالواو مجرور مثله . (قال) مثل الأول والفاعل اللّه . (الواو) عاطفة (من) اسم موصول في محلّ نصب " 1 " مفعول به لفعل محذوف تقديره

---

(1) أو في محلّ رفع مبتدأ خبره جملة أمتّعه . . هذا ويجوز أن يكون (من) اسم شرط جازم مبتدأ جوابه محذوف تقديره أرزقه ، وجملة أمتّعه معطوفة على جملة الجواب بتقدير أنا أمتّعه ، وخبر المبتدأ جملة كفر . . أرزقه من فعل الشرط وجوابه .

(أرزق) (كفر) فعل ماض والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (الفاء) عاطفة (أمتّع) مضارع مرفوع والفاعل ضمير مستتر تقديره أنا و(الهاء) ضمير مفعول به (قليلا) ظرف زمان ناب عن ظرف محذوف أي زمنا قليلا ، منصوب متعلّق بـ (أمتّعه) " 1 " ، (ثمّ) حرف عطف (أضطرّ) مثل (أمتّع) و(الهاء) مفعول به (إلى عذاب) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أضطرّه) بتضمينه معنى ألجئه (النار) مضاف إليه مجرور . (الواو) استئنافيّة (بئس) فعل ماض جامد لإنشاء الذمّ (المصير) فاعل مرفوع – والمخصوص بالذمّ محذوف تقديره عذاب النار

-جملة : " قال إبراهيم . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " ربّ اجعل . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " اجعل . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " ارزق . . " لا محلّ لها معطوفة على جواب النداء .

وجملة : " آمن . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " قال . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " (أرزق) من كفر . . " في محلّ نصب معطوفة على مقول القول مقدّرا أي : أرزقه وأرزق من كفر .

وجملة : "كفر . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " أمتّعه . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة (أرزق) المحذوفة .

وجملة : " أضطرّه . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة أمتّعه .

---

(1) أو مفعول مطلق نائب عن المصدر أي : تمتيعا قليلا .

(215/68)

وجملة : " بئس المصير " لا محلّ لها استئنافيّة " 1 " .

الصرف :

(آمنا) ، اسم فاعل من أمن يأمن وزنه فاعل ، وهو مستعمل بمعنى (ذا أمن) .

(أضطرّه) ، فيه إبدال تاء الافتعال طاء لمجيئها بعد الضاد ، وزنه أفتعله .

(المصير) ، مصدر ميميّ لفعل صار يصير بمعنى رجع ، وزنه مفعل بكسر العين ، وفي الكلمة إعلال بالتسكين حيث نقلت حركة الياء إلى الصاد قبلها فسكّنت .

الفوائد

1 - " ربّ " منادى مضاف حذف منه شيئان ياء النداء من أوّله وياء المتكلم من آخره ، ويحسن هنا ذكر أقسام المنادي وهي خمسة اثنان مبنيان على الضم في محل نصب وهما مفرد العلم ، والنكرة المقصودة وثلاثة منصوبة وهي النكرة غير المقصودة ، والمضاف ، والشبيه بالمضاف . وجملة هذه الأقسام منصوبة بفعل محذوف تقديره : " ادعو أو أنادي "

نابت عنه أداة النداء .

[سورة البقرة (2) : آية 127]

وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْراهِيمُ الْقَواعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْماعِيلُ رَبَّنا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (127)

الإعراب :

(الواو) عاطفة (إذ) مفعول به لفعل محذوف تقديره اذكر (يرفع) مضارع مرفوع (إبراهيم) فاعل مرفوع (القواعد) مفعول به

---

(1) أو في محلّ رفع خبر مقدّم للمبتدأ المؤخّر المقدّر وهو المخصوص بالذمّ أي : عذاب النار بئس المصير .

منصوب (من البيت) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف حال من القواعد (الواو) عاطفة (إسماعيل) معطوف على إبراهيم مرفوع مثله (ربّ) منادى مضاف منصوب محذوف منه أداة النداء و(نا) ضمير متّصل في محلّ جرّ مضاف إليه (تقبّل) فعل أمر دعائيّ والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت (من) حرف جرّ و(نا) في محلّ جرّ متعلّق بـ (تقبّل) ، (إنّ) حرف

مشبّه بالفعل للتوكيد و(الكاف) ضمير اسم إنّ (أنت) ضمير فصل " 1 " (السميع) خبر إنّ مرفوع (العليم) خبر ثان مرفوع.

جملة : " يرفع إبراهيم . . " في محلّ جرّ مضاف إليه.

وجملة : " ربّنا تقبّل . . " في محلّ نصب مقول القول لفعل محذوف تقديره. يقولان ربنا ، وجملة يقولان في محلّ نصب حال من إبراهيم وإسماعيل.

وجملة : " تقبّل منّا . . " لا محلّ لها جواب النداء.

وجملة : " إنّك أنت السميع " لا محلّ لها تعليليّة.

الصرف :

(القواعد) ، جمع القاعدة ، مؤنّث القاعد ، وهو اسم للأساس الذي يقوم عليه البناء ، ولفظه في الأصل مشتقّ على وزن فاعل ثمّ استعمل اسما.

(إسماعيل) ، اسم علم أعجمي.

(السميع) ، من مبالغات اسم الفاعل ، صفة مشتقّة على وزن فعيل من سمع المتعدّي ، وقد يكون صفة مشبّهة باسم الفاعل لدلالته على الدوام والاستمرار.

---

(1) أو مبتدأ خبره السميع . . وجملة أنت السميع خبر إنّ. ويجوز أن يكون مستعارا لمحلّ النصب توكيدا لاسم إنّ.

[سورة البقرة (2) : آية 128]

رَبَّنا وَاجْعَلْنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنا مَناسِكَنا وَتُبْ عَلَيْنا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (128)

الإعراب :

(ربّنا) سبق إعرابه في الآية السابقة (الواو) عاطفة (اجعل) فعل أمر دعائيّ والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت و(نا) ضمير متّصل في محلّ نصب مفعول به (مسلمين) مفعول به ثان منصوب وعلامة النصب الياء فهو مثنّى (اللام) حرف جرّ و(الكاف) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (مسلمين) أي منقادين (الواو) عاطفة (من ذرّيّة) جارّ ومجرور متعلّق بفعل محذوف تقديره اجعل . و(نا) ضمير متّصل في محلّ جرّ مضاف إليه (أمّة) مفعول به منصوب للفعل المحذوف (مسلمة) نعت لأمة منصوب مثله (لك) مثل الأول متعلّق بمسلمة (الواو) عاطفة (أرنا) مثل اجعلنا (مناسك) مفعول به ثان منصوب و(نا) مضاف إليه (الواو) عاطفة (تب) مثل اجعل (على) حرف جرّ و(نا) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (تب) ، (إنّك أنت التّواب الرحيم) مثل نظيرها في الآية السابقة .

جملة النداء "ربّنا . . "لا محلّ لها اعتراضيّة للاسترحام.

وجملة: "اجعلنا . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة تقبّل منا في الآية. السابقة.

وجملة: "(اجعل) من ذرّيّتنا "لا محلّ لها معطوفة على جملة اجعلنا .

(218/68)

وجملة: "أرنا . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة اجعلنا .

وجملة: "تب علينا . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة اجعلنا .

وجملة: "إنّك أنت التوّاب "لا محلّ لها تعليليّة.

الصرف:

(مسلمين) ، مثنّى مسلم ، اسم فاعل من أسلم

الرباعيّ وزنه مفعل بضمّ الميم وكسر العين.

(أمّة) ، اسم للجماعة وزنه فعلة بضمّ الفاء تماثل فيه عينه ولامه.

(أرنا) ، فيه إعلال بالحذف لمناسبة البناء ، فقد حذف منه لامه وهو حرف علّة ،

وكذلك فيه حذف الهمزة تخفيفا وأصله أرئينا . . وزنه أفنا .

(مناسك) ، جمع منسك اسم مكان من نسك ينسك باب نصر وزنه مفعل بفتح العين . .

وقد تكسر العين على غير قياس .

[سورة البقرة (2) : آية 129]

رَبَّنا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (129)

الإعراب :

(ربّنا) سبق إعرابها - الآية 127 - وكرّرت لتأكيد الاسترحام (وابعث) مثل واجعل - الآية 128 - (في) حرف جرّ و(هم) ضمير متّصل في محلّ جرّ متعلّق بـ (ابعث) ، (رسولا) مفعول به منصوب (من) حرف جرّ و(هم) متّصل في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف نعت لـ (رسولا) ، (يتلو) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الواو والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (عليهم) مثل فيهم متعلّق بـ (يتلو) ، (آيات) مفعول به منصوب وعلامة النصب الكسرة و(الكاف) مضاف إليه (الواو) عاطفة (يعلّم) مضارع مرفوع . . والفاعل هو و(هم) متّصل مفعول به (الكتاب) مفعول به ثان منصوب (الحكمة) معطوف على الكتاب بالواو منصوب مثله (الواو) عاطفة (يزكّيهم) مثل يعلّمهم (إنّك أنت العزيز الحكيم) مثل إنّك أنت السميع العليم " 1 " .

---

(1) في الآية (127) .

وجملة النداء " ربّنا . . " لا محلّ لها اعتراضيّة استرحاميّة .

وجملة : " ابعث فيهم . . " لا محل لها معطوفة على جملة اجعلنا مسلمين " 1 " .

وجملة : " يتلو عليهم " في محلّ نصب نعت لـ (رسولا) " 2 " .

وجملة : " يعلّمهم . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة يتلو .

وجملة : " يزكّيهم . . " في محل نصب معطوفة على جملة يتلو .

وجملة : " إنّك أنت العزيز " لا محلّ لها تعليليّة .

الصرف :

(الحكمة) ، مصدر سماعيّ لفعل حكم يحكم باب كرم أي صار حكيما ، وزنه فعلة بكسر الفاء وسكون العين .

(العزيز) ، صفة مشبّهة من عزّ يعزّ باب ضرب ، وزنه فعيل .

[سورة البقرة (2) : آية 130]

وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْراهِيمَ إِلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْناهُ فِي الدُّنْيا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (130)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (من) اسم استفهام مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ وقد تضمّن معنى النفي والإنكار (يرغب) مضارع مرفوع والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (عن ملّة) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يرغب) ، (إبراهيم) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الفتحة (إلا) أداة استثناء (من) اسم موصول " 3 " في محلّ رفع بدل من فاعل يرغب " 4 " ، (سفه) فعل

---

(1) في الآية (128) .

(2) يجوز أن تكون في محلّ نصب حال من (رسولا) لأنه موصوف .

(3) أو نكرة موصوفة والجملة بعده نعت له .

(4) أو في محلّ نصب على الاستثناء . [. . . . .]

ماض والفاعل هو (نفس) مفعول به منصوب و(الهاء) مضاف إليه . (الواو) استئنافيّة (اللام) واقعة في جواب قسم مقدّر (قد) حرف تحقيق (اصطفينا) فعل ماض مع فاعله و(الهاء) ضمير مفعول به (في الدنيا) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف حال من الهاء وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على الألف (الواو) عاطفة (إنّ) حرف مشبّه بالفعل للتوكيد و(الهاء)

ضمير اسم أنّ (في الآخرة) جارّ ومجرور متعلّق بالصالحين (اللام) لام القسم تفيد التوكيد "

1 " (من الصالحين) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف خبر إنّ .

جملة : " من يرغب . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يرغب عن ملّة . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) .

وجملة : " سفه . . " لا محلّ لها صلة الموصول .

وجملة : " اصطفيناه . . " لا محلّ لها جواب قسم مقدّر .

وجملة : " إنّه في الآخرة . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب القسم .

الصرف :

(اصطفيناه) ، فيه إبدال تاء الافتعال طاء لمجيئها بعد الصاد ، وأصله اصتفيناه ، وفيه إعلال بالقلب قلبت الألف ياء - لأنها رابعة - بإسناد الفعل إلى ضمير المتكلم .

الفوائد

1 - فعل " رغب " له معنيان متغايران الأول أراده وأحبه " رغب فيه ورغب به " والثاني : كره الشيء وزهد به ومثاله " رغب عنه ، ورغب عن ملة إبراهيم " .

[سورة البقرة (2) : آية 131]

إِذْ قالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعالَمِينَ (131)

---

(1) أو هي المزحلقة .

الإعراب :

(إذ) ظرف للزمن الماضي قد يخلص للظرفية فيتعلّق بـ (اصطفيناه) في الآية السابقة ، أو مفعول به لفعل محذوف تقديره اذكر (قال) فعل ماض (اللام) حرف جرّ متعلّق بـ (قال) و(الهاء) في محلّ جرّ باللام (ربّ) فاعل مرفوع و(الهاء) مضاف إليه (أسلم) فعل أمر والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت (قال) مثل الأول (أسلمت) فعل ماض مع فاعله (لربّ) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أسلمت) ، (العالمين) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الياء .

جملة : " قال له ربّه . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " أسلم " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " قال . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " أسلمت . . " في محلّ نصب مقول القول .

الفوائد

1 – إذ قال له ربه : " جملة قال في محل جر بالإضافة لأنها وقعت بعد الظرف " إذ " .

2 – في هذه الآية نجد الأمر بالإسلام من قبل اللّه إلى أبي الأنبياء إبراهيم ، وقد استجاب

لأمر ربه ثم نجد ذلك ينتقل في أنبياء بني إسرائيل فقد وصى بها إبراهيم بنيه كما وصى بها يعقوب بنيه . يا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفى لَكُمُ الدّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ، ويقول سبحانه في هذا المقام : أَمْ كُنْتُمْ شُهَداءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قالَ لِبَنِيهِ ما تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قالُوا نَعْبُدُ إِلهَكَ وَإِلهَ آبائِكَ إِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ إِلهاً واحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ .

ونحن نجد هذا المعنى يتكرر على لسان عديد من الأنبياء مما يحملنا على القول بأن الدين الحق دين واحد وان الإسلام كان دين الأنبياء جميعا ولو تجرد

الناس من أهوائهم لالتقوا على صعيد واحد الحقيقة الواحدة والحق الذي لا يتعدّد .

(222/68)

---

3 – نحن نعرف أن جمع المذكر السالم يعرب بالواو رفعا وبالياء نصبا وجرا وله شروط فإذا افتقد الاسم بعض شروطه وأعرب بنفس الاعراب ، أسميناه ملحقا بجمع المذكر السالم . والملحقات به معدودة وهي عالمون ، وعليون ووابلون وراضون وبنون وسنون وأهلون وذوو وعضون وعشرون إلى تسعين . وتعريف الملحق هو كل اسم ثلاثي استبدلت لامه بهاء التأنيث ، مثل عضة عضين وعزة عزين وثبة ثبين ومائة مائتين وظبة ظبين ونحو ذلك .

4 – تجنح اللغة العربية نحو التخفيف وتسهيل النطق وقد وجد علماء النحو واللغة كثيرا

من الأمثلة التي تحقق هذه الغاية وتؤيد هذا الاتجاه منها تكرار الحرف الواحد فقد ينشأ عنه عسر النطق نحو توالي التاءات في أول بعض أفعال المضارعة ، وقبل التقاء الساكنين وتجاور الأحرف المتقاربة في مخارج النطق ففي هذه الحالات وما شابهها يعمد لتخفيف اللفظ عن طريق الحذف أو الإبدال أو الإدغام . وهذ البحث لا يتسع له صدر هذا الكتاب فليراجعه من شاء في كتب فقه اللغة وما شاكلها .

[سورة البقرة (2) : آية 132]

وَوَصَّى بِها إِبْراهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (132)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (وصّى) فعل ماض مبنيّ على الفتحة المقدّرة على الألف (الباء) حرف جرّ و(ها) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (وصّى) ، (إبراهيم) فاعل مرفوع (بني) مفعول به منصوب وعلامة النصب الياء فهو ملحق بجمع المذكّر السالم و(الهاء) مضاف إليه (الواو) عاطفة (يعقوب) معطوف على إبراهيم مرفوع مثله (يا) أداة نداء (بنيّ)

منادى مضاف منصوب وعلامة نصبه الياء . . و(الياء) الثانية ضمير متصل في محلّ جرّ مضاف إليه (إنّ) حرف مشبّه بالفعل للتوكيد (اللّه) لفظ الجلالة اسم إنّ منصوب (اصطفى) فعل ماض مبنيّ على الفتح المقدّر ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (اللام) حرف جرّ و(كم) ضمير متّصل في محلّ جرّ متعلّق بفعل اصطفى (الدين) مفعول به منصوب (الفاء) عاطفة لربط المسبّب بالسبب " 1 " ، (لا) ناهية جازمة (تموتنّ) مضارع مجزوم وعلامة الجزم حذف النون فهو من الأفعال الخمسة والواو المحذوفة لالتقاء الساكنين فاعل . . و(النون) نون التوكيد الثقيلة (إلا) أداة حصر (الواو) حاليّة (أنتم) ضمير منفصل في محلّ رفع مبتدأ (مسلمون) خبر مرفوع وعلامة الرفع الواو .

جملة : " وصّى بها إبراهيم . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة النداء " وجوابها . . " في محلّ نصب مقول القول لفعل قال المحذوف " 2 " .

وجملة : " إنّ اللّه اصطفى " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " اصطفى لكم . . " في محلّ رفع خبر (إنّ) .

وجملة : " لا تموتنّ " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب النداء .

وجملة : " أنتم مسلمون " في محلّ نصب حال .

الصرف :

(وصّى) ، فيه إعلال بالقلب أصله وصّي لأن مصدر المجرّد منه وصاية ، فلمّا جاءت الياء

متحرّكة بعد فتح قلبت ألفا ، وزنه فعّل .

---

(1) أو رابطة لجواب شرط مقدّر ، والجملة هي جواب الشرط أي إذا كان الأمر كذلك فلا تموتنّ إلا . .

(2) هي عند بعضهم تفسيريّة لفعل الوصاية .

(224/68)

(اصطفى) ، فيه إبدال وإعلال ، كالآية السابقة – 130 – (تموتنّ) ، حذف منه واو الجماعة لمجيئها ساكنة قبل نون التوكيد الثقيلة ، أصله تموتونّ ، والنون الأولى من نون التوكيد ساكنة لمناسبة التضعيف ، ولهذا حذفت واو الجماعة .

البلاغة

في قوله تعالى فَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ نكتة بلاغية رائعة .

فالموت ليس في قدرة الإنسان حتّى ينهى عنه . ولكن في الحقيقة النهي إنما هو عن عدم إسلامهم حال موتهم ، كقولك ، لا تصلّ إلّا وأنت خاشع ، إذ النهي فيه إنما هو عن ترك الخشوع حال صلاته ، لا عن الصلاة .

والنكتة في التعبير بذلك ، إظهار أن موتهم لا على الإسلام موت لا خير فيه ، وأن الصلاة

التي لا خشوع فيها ك "لا صلاة" .

[سورة البقرة (2) : آية 133]

أَمْ كُنْتُمْ شُهَداءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قالَ لِبَنِيهِ ما تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قالُوا نَعْبُدُ إِلهَكَ وَإِلهَ آبائِكَ إِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ إِلهاً واحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (133)

الإعراب :

(أم) منقطعة بمعنى بل والهمزة وتفيد الابتداء " 1 " ، (كنتم) فعل ماض ناقص . و(تم) ضمير اسم كان (شهداء) خبر كنتم منصوب ومنع من التنوين لأنه على وزن فعلاء (إذ) ظرف للزمن الماضي مبنيّ في محلّ نصب متعلّق بشهداء (حضر) فعل ماض (يعقوب) مفعول

---

(1) أجاز الزمخشري أن تكون متّصلة ، وأنّ ما عطفت عليه محذوف أي أ تدّعون على الأنبياء اليهوديّة أم كنتم شهداء .

به مقدّم منصوب ومنع من التنوين للعلمية والعجمة (الموت) فاعل مرفوع (إذ) ظرف بدل من الظرف الأول في محلّ نصب (قال) فعل ماض والفاعل هو (لبني) جارّ ومجرور متعلّق بـ

(قال) ، وعلامة الجرّ الياء و(الهاء) ضمير مضاف إليه (ما) اسم استفهام مبنيّ في محلّ نصب مفعول به مقدّم (تعبدون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل (من بعد) جارّ ومجرور متعلّق بـ (تعبدون) ، و(الياء) ضمير مضاف إليه (قالوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ . . والواو فاعل (نعبد) مضارع مرفوع والفاعل ضمير مستتر تقديره نحن (إله) مفعول به منصوب و(الكاف) ضمير مضاف إليه (إله) معطوف على الأول بالواو منصوب مثله (آباء) مضاف إليه مجرور و(الكاف) ضمير مضاف إليه (إبراهيم) بدل من آباء مجرور مثله وعلامة الجرّ الفتحة لامتناعه من الصرف (إسماعيل وإسحاق) اسمان معطوفان على إبراهيم بحرفي العطف مجروران مثله (إلها) بدل من إله الأول منصوب مثله " 1 " (واحدا) نعت لإله منصوب مثله . (الواو) حاليّة (نحن) ضمير منفصل في محلّ رفع مبتدأ (اللام) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (مسلمون) وهو خبر مرفوع وعلامة الرفع الواو .

جملة : "كنتم شهداء . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " حضر . . الموت " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " قال لبنيه . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " ما تعبدون . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " قالوا . " لا محلّ لها استئناف بياني .

وجملة : " نعبد . . " في محلّ نصب مقول القول .

---

(1) : يجوز أن يكون منصوبا على الحال وإن كان جامدا لأنه وصف .

(226/68)

وجملة : " نحن له مسلمون " في محلّ نصب حال " 1 " .

الصرف :

(شهداء) ، جمع شاهد ، اسم فاعل من شهد يشهد باب فرح ، وزنه فاعل ، ووزن شهداء فعلاء (الآية 23) .

(آباء) ، المدّة فيه مكوّنة من همزتين الأولى مفتوحة والثانية ساكنة أصله أأباء ، ثمّ أدغمت الألفان ووضع فوقها مدّة ، والهمزة الأخيرة منقلبة عن واو - آباو - فلمّا جاءت متطرّفة بعد ألف ساكنة قلبت همزة فأصبح آباء ، وزنه أفعال .

(يعقوب) ، قيل سمي بذلك لأنه كان توأما لشقيقه العيص ، وقد تأخّر عنه في الولادة وعقبة في الخروج . . وقيل هو أعجمي ليس له اشتقاق .

(إسماعيل) ، علم أعجمي ، يجمع على سماعلة وسماعيل وأسامع .

(إسحاق) ، علم أعجمي .

[سورة البقرة (2) : آية 134]

تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَها ما كَسَبَتْ وَلَكُمْ ما كَسَبْتُمْ وَلا تُسْئَلُونَ عَمَّا كانُوا يَعْمَلُونَ (134)

الإعراب :

(تي) اسم إشارة مبني على السكون على الياء المحذوفة لالتقاء الساكنين في محل رفع مبتدأ و(اللام) للبعد و(الكاف) للخطاب (أمّة) خبر مرفوع (قد) حرف تحقيق (خلت) فعل ماض مبنيّ على الفتح المقدّر على ، الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين . . و(التاء) للتأنيث والفاعل ضمير مستتر تقديره هي (اللام) حرف جرّ و(ها) ضمير في محل جرّ متعلّق بمحذوف خبر مقدّم (ما) اسم موصول في محل رفع مبتدأ مؤخّر على حذف مضاف أي جزاء

---

(1) يجوز أن تكون الواو عاطفة ، والجملة معطوفة على جملة مقول القول نعبد .

ما كسبت " 1 " ، (كسبت) فعل ماض . . و(التاء) للتأنيث ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هي والعائد محذوف أي كسبته . (الواو) عاطفة (لكم) مثل لها متعلّق بمحذوف خبر مقدّم (ما) مثل الأول " 2 " (كسبتم) فعل وفاعل والعائد محذوف أي كسبتموه

(الواو) استئنافيّة (لا) نافية (تسألون) مضارع مبني للمجهول مرفوع . . والواو نائب فاعل (عن) حرف جرّ (ما) اسم موصول في محلّ جرّ متعلّق بـ (تسألون) " 3 " ، (كانوا) فعل ماض ناقص . . والواو اسم كان (يعملون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل .

جملة : " تلك أمّة . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " قد خلت . . " في محلّ رفع نعت لأمّة .

وجملة : " لها ما كسبت " لا محلّ لها استئنافيّة " 4 " .

وجملة : " كسبت " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الأول .

وجملة : " لكم ما كسبتم " معطوفة على جملة لها ما كسبت تأخذ محلّها من الإعراب في الأوجه الثلاثة .

وجملة : " كسبتم " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الثاني .

وجملة : " لا تسألون . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " كانوا يعملون " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الثالث .

وجملة : " يعملون " في محلّ نصب خبر (كانوا) .

(1 ، 2) يجوز أن يكون (ما) حرفا مصدريّا يؤوّل مع ما بعده بمصدر في محلّ رفع مبتدأ .

(3) يجوز أن يكون (ما) حرفا مصدريّا أو نكرة موصوفة .

(4) يجوز أن تكون في محلّ رفع نعت ثان لأمة ، أو في محلّ نصب حال من فاعل خلت .

الصرف :

(خلت) ، فيه إعلال بالحذف ، أصله خلات ، جاءت الألف ساكنة قبل التاء الساكنة ، فحذفت ، وزنه فعت .

[سورة البقرة (2) : آية 135]

وَقالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصارى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً وَما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (135)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (قالوا) فعل وفاعله (كونوا) فعل أمر ناقص مبنيّ على حذف النون . . والواو اسم كان (هودا) خبر كان منصوب (أو) حرف عطف (نصارى) معطوف على (هودا) منصوب مثله وعلامة النصب الفتحة المقدّرة (تهتدوا) مضارع مجزوم جواب الطلب . .

والواو فاعل . (قل) فعل أمر والفاعل ضمير مستتر تقديره (أنت) (بل) حرف إضراب وابتداء (ملّة) مفعول به لفعل محذوف تقديره نتبع " 1 " ، (إبراهيم) مضاف إليه مجرور

وعلامة الجرّ الفتحة (حنيفا) حال منصوبة من إبراهيم " 2 " ، (والواو) استئنافيّة (ما) نافية (كان) فعل ماض ناقص ، واسمه ضمير مستتر تقديره هو (من المشركين) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف خبر كان .

جملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : "كونوا هودا " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " تهتدوا . . " لا محلّ لها جواب شرط مقدّر غير مقترنة بالفاء أي : إن تكونوا هودا تهتدوا .

---

(1) يجوز أن يكون منصوبا على الإغراء بفعل محذوف جوازا تقديره الزموا .

(2) الذي سوّغ صحة مجيء الحال من المضاف إليه أن المضاف جزء من المضاف إليه ، فالملّة وهي الدين جزء من إبراهيم .

وجملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " (نتبع) ملّة " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " ما كان من المشركين . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

الصرف :

(حنيفا) صفة مشبّهة من حنف يحنف باب فرح ، وحنف يحنف باب كرم ، وزنه فعيل .

الفوائد

حنيفا : الحنف هو الميل ويوجد في القدمين على كثرة وفي اليدين على قلّة ، ومن أسرار فقه اللغة أن الحاء والنون في أول الفعل تدلان على الميل واللين والانعطاف ، مثل حنف ، وحنث ، وحنق وحنو " حنا " فكلها تدل على اللين والانحناء بشكل أو بآخر فتأمّل . . .

[سورة البقرة (2) : آية 136]

قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَما أُنْزِلَ إِلَيْنا وَما أُنْزِلَ إِلى إِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْباطِ وَما أُوتِيَ مُوسى وَعِيسى وَما أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (136)

الإعراب :

(قولوا) فعل أمر مبنيّ على حذف النون . . . والواو فاعل (آمنّا) فعل ماض مبنيّ على السكون . . و(نا) فاعل (باللّه) جارّ ومجرور متعلّق بـ (آمنّا) ، (الواو) عاطفة (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ معطوف على لفظ الجلالة (أنزل) فعل ماض مبنيّ للمجهول ، ونائب الفاعل ضمير مستتر تقديره هو وهو العائد (إلى) حرف جرّ و(نا) ضمير متّصل في محلّ جرّ متعلق بـ (أنزل) ، (الواو) عاطفة (ما أنزل) مثل الأول (إلى إبراهيم) جارّ ومجرور متعلّق بـ

(أنزل) ، (إسماعيل ، إسحاق ،

يعقوب ، الأسباط) أسماء معطوفة على لفظ إبراهيم بحروف العطف مجرورة مثله ،

(الواو) عاطفة (ما أوتي) مثل ما أنزل (موسى) نائب فاعل مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الألف (عيسى) معطوف على موسى بالواو مرفوع مثله وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الألف (الواو) عاطفة (ما أوتي النبيّون) مثل ما أوتي موسى . . وعلامة الرفع في نائب الفاعل الواو (من ربّ) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أوتي) الأول أو الثاني . . و(هم) ضمير متّصل مضاف إليه (لا) نافية (نفرّق) مضارع مرفوع ، والفاعل ضمير مستتر تقديره نحن (بين) ظرف مكان منصوب متعلّق بـ (نفرّق) ، (أحد) مضاف إليه مجرور (من) حرف جرّ و(هم) ضمير متّصل في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف نعت لأحد (الواو) عاطفة (نحن) ضمير منفصل في محلّ رفع مبتدأ (اللام) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (مسلمون) وهو خبر مرفوع وعلامة الرفع الواو .

جملة : " قولوا " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " آمنّا " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " أنزل " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الأول .

وجملة : " أنزل (الثانية) لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الثاني .

وجملة : " أوتي " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الثالث .

وجملة : " أوتي (الثانية) " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الرابع .

(230/68)

وأملة : " لا نفرّق " في محلّ نصب حال من فاعل آمنّا .

وجملة : " نحن له مسلمون " في محلّ نصب معطوفة على جملة لا نفرّق " 1 " .

---

(1) أو في محلّ نصب حال من فاعل نفرّق .

(231/68)

الصرف :

(أحد) ، اسم في معنى الجماعة يستوي فيه المذكّر والمؤنّث والمثنّى والجمع ، وهو غير أحد الذي أول العدد ، وزنه فعل بفتحتين .

الفوائد

1 – السبط ، ورد أن السبط ولد البنت وفي الكشاف للزمخشري أن السبط هو الحافد

بمعنى الحفيد . وفي لسان العرب إن ولد كل ولد من ولد إسحاق سبط وقال أيضا إن السبط هو الفرقة وأن الأسباط من ولد إسحاق بمثابة القبائل من ولد إسماعيل .

[سورة البقرة (2) : آية 137]

فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ ما آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّما هُمْ فِي شِقاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (137)

الإعراب :

(الفاء) عاطفة (إن) حرف شرط جازم (آمنوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ في محلّ جزم فعل الشرط والواو فاعل (الباء) حرف جرّ " 1 " ، (مثل) اسم زائد لئلّا يلزم ثبوت المثل للّه أو للقرآن (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ بالباء على المحلّ البعيد متعلّق بـ (آمنوا) . (آمنتم) فعل ماض مبنيّ على السكون . و(تم) ضمير فاعل (الباء) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (آمنتم) ، (الفاء) رابطة لجواب الشرط (قد) حرف تحقيق (اهتدوا) مثل آمنوا وحركة البناء مقدّرة على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين (الواو) عاطفة (إن تولّوا)

---

(1) أو حرف جرّ زائد (مثل) مجرور لفظا منصوب محلا مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو صفته (ما) حرف مصدري والمصدر المؤول (ما آمنتم) في محلّ جرّ مضاف إليه أي : آمنوا إيمانا مثل إيمانكم به .

مثل إن آمنوا وحركة البناء مقدّرة على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين (الفاء) رابطة لجواب الشرط (إنّما) كافّة ومكفوفة (هم) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (في شقاق) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف خبر (هم) ، (الفاء) رابطة لجواب الشرط المقدّر (السين) حرف استقبال (يكفي) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة و(الكاف) ضمير مفعول به أوّل و(هم) ضمير متّصل مفعول به ثان (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (الواو) استئنافيّة (هو) ضمير منفصل في محلّ رفع مبتدأ (السميع) خبر مرفوع (العليم) خبر ثان مرفوع.

جملة : "آمنوا" لا محلّ لها معطوفة على الجملة الاستئنافيّة "1" .

وجملة : "آمنتم به" لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : "قد اهتدوا" في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة : "تولّوا" لا محلّ لها معطوفة على جملة آمنوا .

وجملة : "هم في شقاق" في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة : "سيكفيكهم اللّه" في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي : إن أرادوا الكيد لك

فسيكفيكهم اللّه.

وجملة: "هو السميع" لا محلّ لها استئنافيّة.

الصرف:

(اهتدوا) فيه إعلال بالحذف، حذف حرف العلّة اللام لالتقائه ساكنا مع واو الجماعة الساكن، أصله اهتدوا. وزنه افتعوا بفتح العين للدلالة على الألف المحذوفة.

(تولّوا)، فيه إعلال جري مجرى اهتدوا (انظر الآية 115 من هذه السورة).

---

(1) جملة قولوا في الآية السابقة. [. . . . .]

(شقاق)، مصدر سماعي لفعل شاقّ الرباعيّ الذي على وزن فاعل، وزنه فعال بكسر الفاء.

[سورة البقرة (2): آية 138]

صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عابِدُونَ (138)

الإعراب:

(صبغة) مفعول مطلق لفعل محذوف أي صبغنا اللّه صبغة "1"، (اللّه) لفظ الجلالة

مضاف إليه مجرور (الواو) اعتراضية (من) اسم استفهام في محلّ رفع مبتدأ (أحسن) خبر مرفوع (من اللّه) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أحسن) ، (صبغة) تمييز منصوب (الواو) عاطفة (نحن) ضمير منفصل في محلّ رفع مبتدأ (اللام) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (عابدون) وهو خبر نحن مرفوع وعلامة الرفع الواو .

الصرف :

(صبغة) مصدر هيئة من صبغ الثلاثي ، وزنه فعلة بكسر الفاء وسكون العين .

(أحسن) ، اسم تفضيل من حسن الثلاثيّ وزنه أفعل .

(عابدون) ، جمع عابد ، اسم فاعل من عبد الثلاثيّ وزنه فاعل .

البلاغة

الاستعارة التحقيقية التصريحية : في قوله تعالى صِبْغَةَ اللَّهِ حيث عبر بها عن التطهير بالإيمان لأنه ظهر أثره عليهم ظهور – الصبغ – على المصبوغ وتداخل في قلوبهم تداخله فيه وصار حلية لهم . والقرينة الإضافة .

وقيل : للمشاكلة التقديرية فإن النصارى كانوا – يصبغون – أولادهم بماء أصفر يسمونه المعمودية يزعمون أنه الماء الذي ولد فيه عيسى عليه الصلاة

---

(1) أو مفعول به لفعل محذوف أي : نتبع صبغة اللّه أي دين اللّه ، ويجوز أن يكون منصوبا على الإغراء أي الزموا صبغة اللّه .

والسلام ويعتقدون أنه تطهير للمولود كالختان لغيرهم .

[سورة البقرة (2) : آية 139]

قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمالُنا وَلَكُمْ أَعْمالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ

(139)

الإعراب :

(قل) فعل أمر والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت (الهمزة) للاستفهام الإنكاري (تحاجّون) مضارع مرفوع والواو فاعل و(نا) ضمير مفعول به (في اللّه) جارّ ومجرور متعلّق بـ (تحاجّون) على حذف مضاف أي في شأن اللّه (الواو) حاليّة (هو) ضمير منفصل في محلّ رفع مبتدأ (ربّ) خبر مرفوع و(نا) مضاف إليه (ربّ) الثاني معطوف على الأول بحرف العطف مرفوع مثله و(كم) ضمير متّصل مضاف إليه (الواو) عاطفة (اللام) حرف جرّ و(نا) ضمير في محل جرّ متعلّق بمحذوف خبر مقدّم (أعمال) مبتدأ مؤخّر مرفوع و(نا) مضاف إليه (الواو) عاطفة (لكم أعمالكم) مثل لنا أعمالنا ، (الواو) عاطفة (نحن) ضمير منفصل في محلّ رفع مبتدأ (له) مثل لنا . . متعلّق بـ (مخلصون) وهو خبر المبتدأ مرفوع

وعلامة الرفع الواو .

جملة : " قل . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " أتحاجّوننا " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " هو ربّنا " في محلّ نصب حال من الواو في تحاجّوننا .

وجملة : " لنا أعمالنا " في محل نصب معطوفة على جملة هو ربنا .

وجملة : " لكم أعمالكم " في محل نصب معطوفة على جملة لنا أعمالنا .

وجملة : " نحن له مسلمون " في محلّ نصب معطوفة على جملة هو ربّنا .

الصرف :

(ربّنا) ، انظر الآية (2) من سورة الفاتحة .

(أعمالنا) ، جمع عمل وهو مصدر سماعي لفعل عمل يعمل باب فرح .

(مخلصون) ، جمع مخلص ، اسم فاعل من الرباعيّ أخلص وزنه مفعل بضمّ الميم وكسر العين .

[سورة البقرة (2) : آية 140]

أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْباطَ كانُوا هُوداً أَوْ نَصارى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ

(140)

الإعراب :

(235/68)

(أم) هي المنقطعة بمعنى بل والهمزة (تقولون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل (إنّ) حرف مشبّهة بالفعل للتوكيد (إبراهيم) اسم إنّ منصوب وقد منع من التنوين للعلميّة والعجمة (إسماعيل . . . ،

الأسباط) أسماء معطوفة على إبراهيم بحروف العطف الواو منصوبة مثله (كانوا) فعل ماض ناقص مبنيّ على الضمّ . . والواو اسم كان (هودا) خبر كان منصوب (أو) حرف عطف (نصارى) معطوف على (هودا) منصوب مثله وعلامة النصب الفتحة المقدّرة علق الألف . (قل) فعل أمر والفاعل أنت (الهمزة) للاستفهام الإنكاري (أنتم) ضمير منفصل في محلّ رفع مبتدأ (أعلم) خبر مرفوع (أم) حرف عطف هي المتصّلة (اللّه) لفظ الجلالة معطوف على الضمير المنفصل وهو مرفوع " 1 " . (الواو) استئنافيّة (من) اسم استفهام في محلّ رفع مبتدأ (أظلم) خبر مرفوع (من) حرف جرّ (من) اسم موصول في محلّ جرّ متعلّق بـ (أظلم) ، (كتم) فعل ماض والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (شهادة) مفعول به

منصوب ، وهو المفعول الثاني ، والأول محذوف تقديره الناس (عند) ظرف مكان منصوب متعلّق بمحذوف نعت لشهادة ، و(الهاء) ضمير مضاف إليه (من اللّه) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف نعت ثان لشهادة ، أو متعلّق بـ (كتم) على حذف مضاف أي من عباد اللّه .

(الواو) استئنافيّة (ما) نافية عاملة عمل ليس (اللّه) اسم ما مرفوع (الباء) حرف جرّ زائد (غافل) مجرور لفظا منصوب محلّا خبر ما (عن) حرف جرّ (ما) اسم موصول " 2 " في محلّ جرّ متعلّق بغافل والعائد محذوف (تعملون) مضارع مرفوع . والواو فاعل .

جملة : " تقولون " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " إنّ إبراهيم . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " كانوا هودا " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " قل . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " أأنتم أعلم " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " من أظلم " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " كتم شهادة " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " ما اللّه بغافل " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " تعملون " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

---

(1) يجوز أن يكون لفظ الجلالة مبتدأ خبره محذوف تقديره أعلم ، والجملة معطوفة على

جملة أأنتم أعلم.

(2) أو حرف مصدري أو نكرة موصوفة والجملة بعدها نعت لها.

(236/68)

الصرف:

(أعلم)، اسم تفضيل من علم الثلاثيّ وزنه أفعل.

(أظلم)، اسم تفضيل من ظلم الثلاثيّ وزنه أفعل (انظر الآية 114 من هذه السورة).

(شهادة)، مصدر سماعيّ لفعل شهد يشهد باب فرح، وباب كرم، وزنه فعالة بفتح الفاء.

[سورة البقرة (2): آية 141]

تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَها ما كَسَبَتْ وَلَكُمْ ما كَسَبْتُمْ وَلا تُسْئَلُونَ عَمَّا كانُوا يَعْمَلُونَ (141)

الإعراب:

مرّ اعراب هذه الآية آنفا " 1 " مفردات وجملا.. انتهى انتهى. اهـ ﴿ الجدول فى إعراب القرآن الكريم / لمحمود صافى حـ 1 صـ 167. 200 ﴾

---

(1) انظر الآية (134) من هذه السورة.

وقال العلامة محيي الدين الدرويش :

[سورة البقرة (2) : آية 75]

أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ ما عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (75)

اللغة :

(الطمع) تعلق النفس بإدراك أمر تعلقا قويا فهو أشد من الرجاء يقال : طمع يطمع طمعا وطماعية وطماعية . قال المتنبي :

إلام طماعية العاذل ولا رأي في الحبّ للعاقل

الإعراب :

(أَفَتَطْمَعُونَ) الهمزة للاستفهام والمراد به النهي أو الاستنكار وقد تقدم بحث دخول الهمزة على حروف العطف والمعنى : لا تطمعوا في إقناع هؤلاء العتاة الجفاة القاسية قلوبهم (أَنْ يُؤْمِنُوا) أن وما بعدها

في تأويل مصدر منصوب بنزع الخافض (لَكُمْ) جار ومجرور متعلق بيؤمنوا على تضمين

يؤمنوا معنى الانقياد (وَقَدْ) الواو حالية وقد حرف تحقيق (كانَ) فعل ماض ناقص (فَرِيقٌ) اسمها (مِنْهُمْ) جار ومجرور صفة لفريق (يَسْمَعُونَ) فعل مضارع مرفوع والواو فاعل وجملة يسمعون خبر كان (كَلامَ اللَّهِ) مفعول به (ثُمَّ) حرف عطف للتراخي (يُحَرِّفُونَهُ) عطف على يسمعون (مِنْ بَعْدِ) الجار والمجرور متعلقان بيحرفونه (ما) مصدرية مؤولة مع ما بعدها بمصدر في محل جر بالإضافة (عَقَلُوهُ) فعل وفاعل ومفعول به (وَهُمْ) الواو حالية وهم مبتدأ (يَعْلَمُونَ) الجملة في موضع رفع خبرهم والجملة الاسمية في موضع نصب على الحال أي والحال أنهم عالمون بكفرهم وعنادهم وافترائهم.

[سورة البقرة (2) : الآيات 76 إلى 77]

وَإِذا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قالُوا آمَنَّا وَإِذا خَلا بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ قالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِما فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ (76) أَوَلا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَما يُعْلِنُونَ (77)

الإعراب:

(وَإِذا) الواو استئنافية أو عاطفة وإذا ظرف لما يستقبل من الزمان خافض لشرطه متعلّق بجوابه (لَقُوا) فعل ماض مبني على الفتح والواو فاعل وجملة لقوا فعلية لا محل لها من الاعراب لإضافة الظرف إليها (الَّذِينَ) اسم موصول مفعول به (آمَنُوا) فعل وفاعل

(239/68)

والجملة لا محل لها لأنها صلة الموصول (قالُوا) فعل وفاعل والجملة لا محل لها من الاعراب لأنها جواب شرط غير جازم (آمَنَّا) فعل وفاعل والجملة في محل نصب مقول القول (وَإِذا) عطف على وإذا الأولى (خَلا بَعْضُهُمْ) فعل وفاعل والجملة في محل جر باضافة الظرف إليها (إِلى بَعْضٍ) جار ومجرور متعلقان بخلا (قالُوا) الجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم (أَتُحَدِّثُونَهُمْ) الهمزة للاستفهام الانكاري وتحدثونهم فعل وفاعل ومفعول به والجملة في محل نصب مقول القول (بِما) جار ومجرور متعلقان بتحدثونهم (فَتَحَ اللَّهُ) فعل وفاعل والجملة لا محل لها لأنها صلة الموصول (عَلَيْكُمْ) جار ومجرور متعلقان بفتح (لِيُحَاجُّوكُمْ) اللام هي لام العاقبة أو الصيرورة لا للتعليل في المعنى لأنهم لم يقصدوا ذلك وإنما كان المآل والعاقبة له ولكنها مثل لام التعليل في العمل ويحاجوكم فعل مضارع منصوب بأن مضمرة جوازا بعد لام العاقبة أو الصيرورة واللام ومجرورها متعلقان بتحدثونهم (بِهِ)

الجار والمجرور متعلقان بيحاجوكم (عِنْدَ رَبِّكُمْ) الظرف متعلق بمحذوف حال (أَفَلا تَعْقِلُونَ) تقدم حكم همزة الاستفهام إذا دخلت على حرف العطف كثيرا (أَوَلا) الهمزة للاستفهام التقريري ومعناه حمل المخاطب على الإقرار والاعتراف ولا يخلو من التوبيخ والواو عاطفة وهي بنية التقديم على الهمزة وانما أخرت لقوة الهمزة ولا نافية (يَعْلَمُونَ) معطوف على فعل محذوف والمعنى أيلومونهم على التحدث بما ذكر ولا يعلمون (أَنَّ اللَّهَ) ان واسمها وما بعدها سدت مسد مفعولي يعلمون ولذلك فتحت همزتها (يَعْلَمُ) فعل مضارع وفاعله ضمير مستتر تقديره هو والجملة في محل رفع خبر أن (ما) اسم موصول أو مصدرية وهي على كل مع مدخولها مفعول يعلم (يُسِرُّونَ) الجملة لا محل لها على كل حال (وَما يُعْلِنُونَ) عطف عليها .

(240/68)

[سورة البقرة (2) : الآيات 78 إلى 79]

وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتابَ إِلاَّ أَمانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ (78) فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هذا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ (79)

اللغة :

(أُمِّيُّونَ) : لا يحسنون الكتابة والقراءة والمفرد أمي نسبة إلى الأم لأنه ليس من شعل النساء عندهم أو إلى الأمة وهي القامة والخلقة كأن الذي لا يكتب ولا يقرأ قائم على الفطرة والجبلة أو إلى الأمة لأنها ساذجة قبل أن تعرف المعارف .

(أَمانِيَّ) جمع أمنية بتشديد الياء وتخفيفها وهي في الأصل ما يقدره الإنسان في نفسه ويحدس به ولذلك تطلق على الكذب والمراد أنهم لا يعلمون الكتاب إلا كما حدسوه أو تخيلوه في هواجسهم من أنهم شعب اللّه المختار وأن اللّه يعفو عنهم وان آباءهم الأنبياء يشفعون لهم وما ذلك كله إلا أكاذيب منمقة لفقها لهم أحبارهم فتناقلوها من دون تمحيص أو رويّة .

(الويل) مصدر لا فعل له من لفظه ولم يجيء من هذه المادة التي فاؤها واو وعينها ياء إلا ويل وويح وويس وويب ولا يثنى ولا يجمع وقيل : يجمع على ويلات قال امرؤ القيس :

ويوم دخلت الخدر خدر عنيزة فقالت : لك الويلات إنك مرجلي

وإذا أضيف فالأحسن فيه النصب على المفعولية المطلقة لأنه مصدر لفعل أماته العرب وإذا لم يضيف فالأحسن فيه الرفع على الابتداء وساغ الابتداء لتضمنه معنى خاصا والويل معناه الفضيحة والحسرة وقال الخليل : شدة الشر ، وقال غيره الويل : الهلكة .

الإعراب :

)

(241/68)

وَمِنْهُمْ) الواو حرف عطف ومنهم جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم (أُمِّيُّونَ) مبتدأ مؤخر (لا) نافية (يَعْلَمُونَ) فعل مضارع والواو فاعل (الْكِتابَ) مفعول به وجملة لا يعلمون صفة أميون (إِلَّا) أداة استثناء (أَمانِيَّ) مستثنى بإلا وهو استثناء منقطع لأن الأماني ليست مندرجة تحت مدلول الكتاب ولهذا وجب نصبه رغم تقدم النفي وإنما يكون ذلك كذلك في كل موضع حسن أن يوضع فيه مكان إلا لكن فيعلم حينئذ انقطاع معنى الثاني عن معنى الاول (وَإِنْ) الواو حالية وإن نافية (هُمْ) مبتدأ (إِلَّا) أداة حصر لتقدم النفي ، (يَظُنُّونَ) فعل مضارع وفاعل والجملة فعلية خبرهم (فَوَيْلٌ) الفاء استئنافية وويل مبتدأ ساغ الابتداء به لتضمنه معنى الدعاء والتهويل (لِلَّذِينَ) الجار والمجرور خبر ويل (يَكْتُبُونَ) فعل مضارع وفاعل والجملة صلة الموصول (الْكِتابَ) مفعول به (بِأَيْدِيهِمْ) الجار والمجرور متعلقان بيكتبون (ثُمَّ يَقُولُونَ) عطف على يكتبون (هذا) مبتدأ (مِنْ عِنْدِ اللَّهِ) الجار والمجرور خبر والجملة الاسمية مقول القول (لِيَشْتَرُوا) اللام لام التعليل ويشتروا فعل

مضارع منصوب بأن مضمرة جوازا بعد لام التعليل والواو فاعل (بِهِ) الجار والمجرور متعلقان بيشتروا (ثَمَناً) مفعول به (قَلِيلًا) صفة (فَوَيْلٌ) تقدم إعرابها وكررها للتأكيد (لَهُمْ) الجار والمجرور خبر ويل (مِمَّا) الجار والمجرور متعلقان بويل (كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ) فعل وفاعل والجملة لا محل لها لأنها صلة ما (وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ) عطف على ما تقدم وقد سبق اعرابها .

البلاغة :

(الإطناب) بذكر أيديهم فقد ذكرها والكتابة لا تكون إلا بها لتصوير الحالة في النفس كما وقعت ، وتجسيمها أمام السامع حتى يكاد يكون مشاهدا لها ولتسجيل الأمر عليهم كما تقول لمن ينكر معرفته ما كتب ووقع : أنت كتبته بيمينك .

(242/68)

[سورة البقرة (2) : الآيات 80 إلى 82]

وَقالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْداً فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (80) بَلى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (81) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِكَ أَصْحابُ

الْجَنَّةِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (82)

الإعراب :

(وَقالُوا) الواو استئنافية قالوا : فعل وفاعل (لَنْ) حرف نفي ونصب واستقبال (تَمَسَّنَا) فعل مضارع منصوب بلن ونا ضمير متصل

(243/68)

في محل نصب مفعول به (النَّارُ) فاعل والجملة فعلية في محل نصب مقول القول (إِلَّا) أداة حصر (أَيَّاماً) نصب على الظرفية الزمانية متعلق بتمسنا (مَعْدُودَةً) صفة لأياما (قُلْ) فعل أمر وفاعله ضمير مستتر فيه وجوبا تقديره أنت والجملة استئنافية (أَتَّخَذْتُمْ) حذفت همزة الوصل المتصلة بالماضي الخماسي لاجتماع همزتين والجملة في محل نصب مقول القول (عِنْدَ اللَّهِ) ظرف متعلق باتخذتم (عَهْداً) مفعول به (فَلَنْ) الفاء الفصيحة لأنها أفصحت عن شرط مقدّر والتقدير ان اتخذتم عند اللّه عهدا فلن (يُخْلِفَ) فعل مضارع منصوب بلن (اللَّهِ) فاعل (عَهْدَهُ) مفعول به (أَمْ) حرف عطف معادل للاستفهام فهي متصلة ويحتمل أن تكون منقطعة بمعنى بل وكلاهما يفيد معنى التقرير والتوبيخ (تَقُولُونَ) عطف على ما قبله (عَلَى اللَّهِ) الجار والمجرور متعلقان بتقولون (ما) اسم موصول مفعول تقولون (لا) نافية

(تَعْلَمُونَ) فعل مضارع والواو فاعل والجملة لا محل لها لأنها صلة الموصول (بَلى) حرف جواب يثبت ما بعد حرف النفي (مَنْ) اسم شرط جازم مبتدأ (كَسَبَ) فعل ماض في محل جزم فعل الشرط وفاعله مستتر تقديره هو (سَيِّئَةً) مفعول به (وَأَحاطَتْ) عطف على كسب (بِهِ) الجار والمجرور متعلقان بأحاطت (خَطِيئَتُهُ) فاعل أحاطت (فَأُولئِكَ) الفاء رابطة لجواب الشرط واسم الاشارة مبتدأ (أَصْحابُ النَّارِ) خبره (هُمْ) مبتدأ (فِيها) متعلق بخالدون (خالِدُونَ) خبر هم والجملة الاسمية في محل جزم جواب الشرط الجازم (وَالَّذِينَ) الواو عاطفة والذين اسم موصول مبتدأ (آمَنُوا) فعل وفاعل والجملة صلة الموصول (وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ) عطف على آمنوا (أُولئِكَ) مبتدأ أيضا

(أَصْحابُ الْجَنَّةِ) خبر أولئك والجملة الاسمية خبر الذين (هُمْ) مبتدأ (فِيها) الجار والمجرور متعلقان بخالدون (خالِدُونَ) خبر هم والجملة الاسمية خبر ثان لاسم الموصول .

الفوائد :

(بَلى) حرف جواب مثل نعم والفرق بينهما أن بلى تختص بوقوعها بعد النفي لتجعله إثباتا أما نعم ومثلها أجل فان الجواب بهما يتبع ما قبلهما في إثباته ونفيه فإن قلت لرجل : أليس لي

عليك ألف درهم ؟ فإن قال : بلى ، لزمه ذلك وإن قال : نعم لم يلزمه ومن أحرف الجواب إي وجير .

[سورة البقرة (2) : آية 83]

وَإِذْ أَخَذْنا مِيثاقَ بَنِي إِسْرائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً وَذِي الْقُرْبى وَالْيَتامى وَالْمَساكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ (83)

الإعراب :

(وَإِذْ أَخَذْنا) تقدم إعرابه كثيرا (مِيثاقَ) مفعول به (بَنِي) مضاف إليه مجرور وعلامة جرّه الياء لأنه ملحق بجمع المذكر السالم (إِسْرائِيلَ) مضاف اليه وعلامة جره الفتحة نيابة عن الكسرة لأنه علم أعجمي (لا) نافية (تَعْبُدُونَ) فعل مضارع مرفوع والواو فاعل

(إِلَّا) أداة حصر (اللَّهَ) مفعول به والجملة لا محل لها لأنها مفسرة والخبر بمعنى النهي أي (وَبِالْوالِدَيْنِ) الواو حرف عطف على موضع ان المحذوفة في لا تعبدون إلا اللّه فكان معنى الكلام وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل بأن لا تعبدوا إلا اللّه وأحسنوا بالوالدين بالوالدين

الجار والمجرور ومتعلقان بفعل المصدر أي وأحسنوا بالوالدين (إِحْساناً) مفعول مطلق لفعل محذوف (وَذِي الْقُرْبى وَالْيَتامى وَالْمَساكِينِ) عطف على الوالدين (وَقُولُوا) عطف ولكن لا بد من تقدير محذوف أي وقلنا قولوا (لِلنَّاسِ) متعلق بالفعل المحذوف (حُسْناً) صفة لمفعول مطلق محذوف أو قولا حسنا (وَأَقِيمُوا) عطف أيضا على ما تقدم (الصَّلاةَ) مفعول به (وَآتُوا الزَّكاةَ) عطف على أقيموا الصلاة (ثُمَّ) حرف عطف عطفت على محذوف أي فقبلتم الميثاق (تَوَلَّيْتُمْ) فعل وفاعل (إِلَّا) أداة استثناء لأن الكلام تام موجب (قَلِيلًا) مستثنى بإلا (مِنْكُمْ) الجار والمجرور صفة لقليلا (وَأَنْتُمْ) الواو حالية وأنتم مبتدأ (مُعْرِضُونَ) خبر والجملة الاسمية في محل نصب على الحال.

البلاغة:

1- جملة لا تعبدون خبر معناه النهي وهو أبلغ من التصريح به.

2- الالتفات: من الغيبة إلى الخطاب في قوله: "لا تعبدون" ومن خطاب بني إسرائيل القدامى إلى خطاب الحاضرين منهم في زمن النبي صلى اللّه عليه وسلم.

[سورة البقرة (2): الآيات 84 إلى 85]

وَإِذْ أَخَذْنا مِيثاقَكُمْ لا تَسْفِكُونَ دِماءَكُمْ وَلا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (84) ثُمَّ أَنْتُمْ هؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِنْكُمْ مِنْ دِيارِهِمْ تَظاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسارى تُفادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْراجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَما جَزاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذلِكَ مِنْكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَيَوْمَ الْقِيامَةِ يُرَدُّونَ إِلى أَشَدِّ الْعَذابِ وَمَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (85)

اللغة :

(تَظاهَرُونَ) تتعاونون وحذفت احدى التاءين وأصل المظاهرة المعاونة مشتقة من الظهر لأن بعضهم يقوي بعضا فيكون له كالظهر (تُفادُوهُمْ) تنقذوهم من الأسر بالمال .

الاعراب :

(وَإِذْ أَخَذْنا مِيثاقَكُمْ) تقدم إعراب هذه الجملة قريبا (لا تَسْفِكُونَ دِماءَكُمْ) خبر معناه النهي أيضا وقد تقدم اعراب هذه الجملة (وَلا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ) عطف على ما تقدم أي اعترفتم على أنفسكم بعد التراخي وطول الأمد (ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ) ثم حرف عطف وأقررتم فعل وفاعل (وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ) تقدم إعرابها (ثُمَّ) حرف عطف للتراخي (أَنْتُمْ) مبتدأ (هؤُلاءِ) اسم اشارة في محل نصب على الذم بفعل محذوف تقديره أذمّ وقيل في محل نصب منادى محذوف منه حرف النداء (تَقْتُلُونَ)

فعل مضارع والواو فاعل وجملة تقتلون خبر أنتم (أَنْفُسَكُمْ) مفعول به وقيل : اسم الاشارة هو الخبر وجملة تقتلون حال وقد قالت العرب :

(247/68)

ها أنت ذا قائما وإنما أخبر عن الضمير باسم الاشارة في اللفظ وكأنه قال : أنت الحاضر (وَتُخْرِجُونَ) عطف على تقتلون (فَرِيقاً) مفعول به (مِنْكُمْ) الجار والمجرور متعلقان بمحذوف صفة لفريقا (مِنْ دِيارِهِمْ) متعلقان بتخرجون (تَظاهَرُونَ) فعل مضارع مرفوع والواو فاعل والجملة في محل نصب حال من الواو أي متعاونين عليهم (عَلَيْهِمْ) جار ومجرور متعلقان بتظاهرون (بِالْإِثْمِ) الجار والمجرور متعلقان بمحذوف حال والمعنى تظاهرون عليهم حال كونهم ملتبسين بالإثم (وَالْعُدْوانِ) عطف على الإثم وهذه الآية عجب في صدق تصويرها لحقيقة هؤلاء الذين نشاهد اليوم مصداقا لها (وَإِنْ) الواو استئنافية وإن شرطية (يَأْتُوكُمْ) فعل الشرط مجزوم وعلامة جزمه حذف النون والواو فاعل والكاف مفعول به (أُسارى) حال (تُفادُوهُمْ) جواب الشرط مجزوم (وَهُوَ) الواو حالية وهو مبتدأ وهو المسمى بضمير الشأن وسيأتي الحديث عنه (مُحَرَّمٌ) خبر مقدم (عَلَيْكُمْ) جار ومجرور متعلقان بمحرم (إِخْراجُهُمْ) مبتدأ مؤخر والجملة الاسمية في محل رفع خبر لضمير

الشأن ويجوز أن يعرب قوله محرم خبر هو وإخراجهم نائب فاعل لمحرم لأنه اسم مفعول (أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ) تقدم إعراب نظيرها (فَما) الفاء الفصيحة لأنها أفصحت عن شرط مقدر كأنه قيل إن شئتم أن تعرفوا جزاء من يفعل وما نافية (جَزاءُ) مبتدأ (مِنْ) اسم موصول في محل جر بالإضافة (يَفْعَلُ) فعل مضارع وفاعله مستتر تقديره هو والجملة صلة الموصول (ذلِكَ) اسم الاشارة مفعول به

(مِنْكُمْ) الجار والمجرور متعلقان بمحذوف حال أي حال كونه منكم (إِلَّا) أداة حصر (خِزْيٌ) خبر جزاء لأنه استثناء مفرغ (فِي الْحَياةِ) الجار والمجرور صفة لخزي (الدُّنْيا) صفة للحياة (وَيَوْمَ الْقِيامَةِ) الواو استئنافية والظرف معلق يردون (يُرَدُّونَ) الجملة الفعلية لا محل لها من الاعراب لأنها مستأنفة (إِلى أَشَدِّ الْعَذابِ) الجار والمجرور متعلقان يردون (وَمَا) الواو استئنافية وما نافية حجازية تعمل عمل ليس (اللَّهُ) اسمها المرفوع (بِغافِلٍ) الباء حرف جر زائد وغافل خبر ما محلا (عَمَّا) الجار والمجرور متعلقان بتعملون (تَعْمَلُونَ) الجملة الفعلية صلة الموصول.

[سورة البقرة (2) : آية 86]

أُولئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَياةَ الدُّنْيا بِالْآخِرَةِ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذابُ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ (86)

الإعراب :

(أُولئِكَ) اسم الاشارة مبتدأ (الَّذِينَ) اسم موصول خبر (اشْتَرَوُا) الجملة الفعلية لا محل لها لانها صلة الموصول (الْحَياةَ) مفعول به (الدُّنْيا) صفة للحياة (بِالْآخِرَةِ) الجار والمجرور متعلقان باشتروا (فَلا) الفاء الفصيحة ولا نافية (يُخَفَّفُ) فعل مضارع مبني للمجهول والجملة خبر ثان لاسم الاشارة (عَنْهُمُ) الجار والمجرور متعلقان بيخفف (الْعَذابُ) نائب فاعل (وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ) الواو عاطفة على ما تقدم ولا نافية وهم مبتدأ وجملة ينصرون خبر.

البلاغة :

الاستعارة المكنية التبعية في شراء الحياة الدنيا بالآخرة وقد تقدم نظيرها .

[سورة البقرة (2) : آية 87]

وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ وَقَفَّيْنا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّناتِ وَأَيَّدْناهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّما جاءَكُمْ رَسُولٌ بِما لا تَهْوى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ (87)

اللغة :

(قَفَّيْنا) اتبعنا والمادة كلها تدل على التبعية ، والقفا كل تابع وهو مؤخر العنق ومنه قافية الشعر لأنها تتبع البيت (عِيسَى) : علم أعجمي وهو بالسريانية ايشوع وليس مشتقا من العيس وهو بياض يخالطه شقرة .

(مَرْيَمَ) علم أعجمي ولهذا منع من الصرف . والمريم في اللغة العربية من النساء كالزير من الرجال والزّير هو الذي يخالط النساء ويمازحهن بغير شر او به .

الاعراب :

(وَلَقَدْ) الواو حرف عطف واللام جواب قسم محذوف وقد :

حرف تحقيق (آتَيْنا) فعل وفاعل (مُوسَى) مفعول به أول (الْكِتابَ) مفعول به ثان (وَقَفَّيْنا) عطف على آتينا (مِنْ بَعْدِهِ) جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال (بِالرُّسُلِ) جار ومجرور متعلقان بقفينا (وَآتَيْنا) عطف على ما تقدم (عِيسَى) مفعول به أول (ابْنَ) بدل أو صفة (مَرْيَمَ) مضاف اليه (الْبَيِّناتِ) مفعول به ثان وعلامة نصبه الكسرة لأنه جمع مؤنث سالم (وَأَيَّدْناهُ) عطف على ما تقدم (بِرُوحِ الْقُدُسِ) الجار والمجرور متعلقان بأيدناه (أَفَكُلَّما) الهمزة للاستفهام والفاء عاطفة وكلما ظرف زمان متضمن معنى الشرط (جاءَكُمْ) فعل ماض ومفعول به مقدّم (رَسُولٌ) فاعل جاء والجملة في محل جر بإضافة الظرف إليها (بِما) الباء حرف جر وما اسم موصول مجرور بالباء محلا والجار والمجرور متعلقان بجاءكم (لا)

نافية (تَهْوى) فعل مضارع (أَنْفُسُكُمُ) فاعل والجملة لا محل لها لانها صلة (اسْتَكْبَرْتُمْ) فعل ماض وفاعل والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم (فَفَرِيقاً) الفاء عاطفة وفريقا مفعول به مقدّم (كَذَّبْتُمْ) فعل (وَفَرِيقاً) الواو عاطفة وفريقا مفعول مقدم لتقتلون (تَقْتُلُونَ) فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعه ثبوت النون والواو فاعل .

[سورة البقرة (2) : آية 88]

وَقالُوا قُلُوبُنا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً ما يُؤْمِنُونَ (88)

اللغة :

(250/68)

(غُلْفٌ) : جمع أغلف وهو في الأصل الذي لم يختن أي لا يعي ولا يفهم والمعنى هي مغشّاة بأغطية لا يدري أحد ما وراءها .

الاعراب :

)

وَقالُوا) الواو استئنافية وقالوا فعل ماض وفاعل (قُلُوبُنا) مبتدأ ونا مضاف اليه (غُلْفٌ) خبر قلوبنا والجملة الاسمية في محل نصب مقول القول (بَلْ) حرف عطف وإضراب (لَعَنَهُمُ

اللَّهُ) فعل ماض ومفعول به مقدم وفاعل (بِكُفْرِهِمْ) الجار والمجرور متعلقان بلعنهم أي بسبب كفرهم (فَقَلِيلًا) الفاء استئنافية وقليلا نعت لمصدر محذوف أي يؤمنون إيمانا قليلا (ما) نكرة مبهمة صفة لقليلا (يُؤْمِنُونَ) فعل مضارع مرفوع.

[سورة البقرة (2) : الآيات 89 إلى 90]

وَلَمَّا جاءَهُمْ كِتابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِما مَعَهُمْ وَكانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جاءَهُمْ ما عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكافِرِينَ (89) بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِما أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْياً أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ فَباؤُ بِغَضَبٍ عَلى غَضَبٍ وَلِلْكافِرِينَ عَذابٌ مُهِينٌ (90)

اللغة :

(يَسْتَفْتِحُونَ) : يستنصرون وفتح اللّه على نبيّه نصره وهنا ناحية طريفة من وصف اليهود ، فقد كانوا يستنصرون الكافرين إذا قاتلوهم قائلين : اللهم انصرنا بالنبي المذكور عندنا في التوراة.

الاعراب :

)

وَلَمَّا) الواو استئنافية ولما ظرفية بمعنى حين أو هي حرف لمجرد الربط وهي متضمنة معنى الشرط (جاءَهُمْ) فعل ومفعول به (كِتابٌ) فاعل (مِنْ عِنْدِ اللَّهِ) الجار والمجرور متعلقان بمحذوف نعت لكتاب والجملة في محل جر بإضافة الظروف إليها إذا أعربنا لما ظرفية أو لا محل لها إذا كانت رابطة وجواب لما محذوف تقديره كذبوا أو نحوه (مُصَدِّقٌ) نعت لكتاب أيضا (لَمَّا) اللام حرف جر وما اسم موصول في محل جر باللام والجار والمجرور متعلقان بمصدق (مَعَهُمْ) مفعول به ظرف مكان متعلق بمحذوف صلة (وَكانُوا) الواو حرف عطف والمعطوف هو الجواب المحذوف وكان واسمها (مِنْ قَبْلُ) الجار والمجرور متعلقان بمحذوف حال (يَسْتَفْتِحُونَ) فعل مضارع والواو فاعل والجملة فعلية في محل نصب خبر كانوا (عَلَى الَّذِينَ) جار ومجرور متعلقان بيستفتحون (كَفَرُوا) فعل وفاعل والجملة لا محل لأنها صلة الموصول (فَلَمَّا) الفاء عاطفة ولما حينية أو رابطة (جاءَهُمْ) تقدم اعرابها (ما) اسم موصول فاعل (عَرَفُوا) فعل وفاعل والجملة صلة الموصول (كَفَرُوا بِهِ) جملة فعلية لا محل لها من الاعراب لأنها جواب لما (فَلَعْنَةُ) الفاء للتعليل ولعنة مبتدأ والجملة لا محل لها من الاعراب لأنها في حكم الاستئنافية (اللَّهِ) مضاف اليه (عَلَى الْكافِرِينَ) جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر لعنة والمعنى أن لعنة الله متسببة عما تقدم (بِئْسَمَا) بئس فعل ماض

لانشاء الذم وما نكرة تامة بمعنى شيء في محل نصب على التمييز وهي مفسرة لفاعل بئس بمعنى بئس شيئا (اشْتَرَوْا) فعل وفاعل والجملة صفة لما (بِهِ) الجار والمجرور

(252/68)

متعلقان باشتروا (أَنْفُسَهُمْ) مفعول به (أَنْ يَكْفُرُوا) أن وما في حيزها في تأويل مصدر مبتدأ لأنه المخصوص بالذم وجملة بئس هي الخبر المقدم (بما) الباء حرف جر وما اسم موصول في محل جر بالباء والجار والمجرور متعلقان بيكفروا (أَنْزَلَ اللَّهُ) فعل وفاعل والجملة صلة الموصول (بَغْياً) مفعول لأجله وهو علة اشتروا أو علة يكفروا (أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ) أن وما بعدها في تأويل مصدر منصوب بنزع الخافض أي بغوا لانزال الله (مِنْ فَضْلِهِ) الجار والمجرور متعلقان بينزل أيضا (عَلى مَنْ يَشاءُ) جار ومجرور متعلقان بينزل ويشاء فعل وفاعله مستتر (مِنْ عِبادِهِ) الجار والمجرور متعلقان بمحذوف حال مبنية لمن يشاء (فَباؤُ بِغَضَبٍ) الفاء حرف عطف وباءوا فعل وفاعل والجار والمجرور متعلقان بباءوا (عَلى غَضَبٍ) الجار والمجرور متعلقان بمحذوف صفة لغضب أو مترادف (وَلِلْكافِرِينَ) الواو استئنافية وللكافرين جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم (عَذابٌ) مبتدأ مؤخر (مُهِينٌ) صفة لعذاب.

الفوائد :

1- (ما) المتصلة بنعم وبئس من أفعال المدح والذم اختلف فيها النحاة والأكثر أنها نكرة تامة بمعنى شيء فتكون موضع نصب على التمييز وقيل هي موصولة فتكون هي الفاعل .

2- المخصوص بالمدح والذّم يعرب مبتدأ والجملة الفعلية قبله خبر ولك أن تعربه خبرا لمبتدأ محذوف واجب الحذف .

[سورة البقرة (2) : آية 91]

وَإِذا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِما أَنْزَلَ اللَّهُ قالُوا نُؤْمِنُ بِما أُنْزِلَ عَلَيْنا وَيَكْفُرُونَ بِما وَراءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِما مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِياءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (91)

الإعراب :

)

(253/68)

وَإِذا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا) تقدم اعراب نظائرها وجملة آمنوا في محل نصب مقول القول (بِما أَنْزَلَ اللَّهُ) الباء حرف جر وما اسم موصول في محل جر بالباء وجملة أنزل اللّه لا محل لها (قالُوا) الجملة لا محل لها من الإعراب لأنها جواب شرط غير جازم (نُؤْمِنُ) الجملة في محل نصب

مقول القول (بِما أُنْزِلَ) الجار والمجرور متعلقان بنؤمن (عَلَيْنا) جار ومجرور متعلقان بأنزل (وَيَكْفُرُونَ) الواو حالية (بِما) الجار والمجرور متعلقان بيكفرون (وَراءَهُ) ظرف متعلق بمحذوف لا محل له لأنه صلة الموصول (وَهُوَ الْحَقُّ) الواو حالية وهو مبتدأ والحق خبره وجملة المبتدأ والخبر في محل نصب على الحال (مُصَدِّقاً) حال مؤكدة لأن تصديق القرآن لازم لا ينتقل (لِما) الجار والمجرور متعلقان بمصدقا (مَعَهُمْ) ظرف مكان متعلق بمحذوف صلة ما (قُلْ) فعل أمر (فَلِمَ) الفاء هي الفصيحة لأنها أفصحت عن شرط مقدر أي إن كانت دعواكم صحيحة فلم تقتلون واللام حرف جر وما اسم استفهام في محل جر باللام أي لأي شيء وحذفت الألف من ما فرقا بينها وبين ما الخبرية والجار والمجرور متعلقان بتقتلون (تَقْتُلُونَ) فعل مضارع (أَنْبِياءَ اللَّهِ) مفعول به (مِنْ قَبْلُ) الجار والمجرور متعلقان بمحذوف حال (إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) ان شرطية وكنتم كان فعل ماض ناقص في محل جزم فعل الشرط والتاء اسمها وجملة تقتلون خبرها وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه أي فلم تقتلون .

الفوائد :

1- (وراء) من الظروف المتوسطة التصرف وهو ظرف مكان والمشهور أنه بمعنى خلف وقد يكون بمعنى أمام فهو من الأضداد .

2- إذا سبق ما الاستفهامية حرف جر حذفت ألفها ونزلت الكلمتان منزلة الكلمة

الواحدة فتقول : إلام ، علام ، حتام ، لم . بم ، حتّام ، عمّ ، فيم ، ممّ .

[سورة البقرة (2) : الآيات 92 إلى 93]

(254/68)

وَلَقَدْ جاءَكُمْ مُوسى بِالْبَيِّناتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظالِمُونَ (92) وَإِذْ أَخَذْنا مِيثاقَكُمْ وَرَفَعْنا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا ما آتَيْناكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قالُوا سَمِعْنا وَعَصَيْنا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَما يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (93)

الإعراب :

(وَلَقَدْ) الواو استئنافية واللام جواب قسم محذوف وقد حرف تحقيق (جاءَكُمْ مُوسى) فعل ومفعول به مقدم وفاعل الكلام مستأنف مسوق للاعتراض عليهم بقتل الأنبياء مع ادعائهم بأنهم يؤمنون بالتوراة والتوراة لا تسوغ ذلك بحال (بِالْبَيِّناتِ) جار ومجرور

(255/68)

متعلقان بجاءكم (ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ) ثم حرف عطف للترتيب مع التراخي واتخذتم فعل وفاعل والعجل مفعول به (مِنْ بَعْدِهِ) الجار والمجرور متعلقان بمحذوف حال (وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ) الواو حالية وأنتم مبتدأ وظالمون خبره والجملة نصب على الحال (وَإِذْ) تقدم إعرابها (أَخَذْنا مِيثاقَكُمْ) فعل ماض وفاعل ومفعول به والجملة في محل جر بإضافة الظرف إليها (وَرَفَعْنا) عطف على أخذنا ولك أن تعربها حالية (فَوْقَكُمُ) ظرف مكان متعلق برفعنا (الطُّورَ) مفعول به (خُذُوا) فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعل والجملة مقول قول محذوف وجملة القول نصب على الحال أي قائلين لكم (ما) اسم موصول مفعول به (آتَيْناكُمْ) فعل وفاعل ومفعول به والجملة صلة (بِقُوَّةٍ) جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال (وَاسْمَعُوا) عطف على ما تقدم (قالُوا) فعل وفاعل والجملة مستأنفة مسوقة لذكر سماعهم وعصيانهم في وقت واحد وتلك طبيعة مركوزة في اليهود (سَمِعْنا وَعَصَيْنا) الجملتان مقول للقول (وَأُشْرِبُوا) الواو حالية أو عاطفة واشربوا فعل ماض مبني للمجهول والواو نائب فاعل (فِي قُلُوبِهِمُ) جار ومجرور متعلقان باشربوا (الْعِجْلَ) مفعول به ثان على تقدير مضاف أي حب العجل (بِكُفْرِهِمْ) جار ومجرور متعلقان بأشربوا والباء للسببية أي بسبب كفرهم (قُلْ) فعل أمر وفاعله ضمير مستتر والجملة مستأنفة (بِئْسَما) تقدم اعرابها قريبا (يَأْمُرُكُمْ) فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به والجملة لا محل لها (بِهِ) جار ومجرور متعلقان بيأمركم (إِيمانُكُمْ) فاعل (إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) شرط وفعله والجواب محذوف فلم

فعلتم ذلك وكان واسمها ومؤمنين خبرها .

البلاغة :

(التشبيه البليغ) أي جعلت قلوبهم لتمكّن حب العجل منها كأنها تشرب ومثله قول زهير :

فصحوت عنها بعد حبّ داخل والحبّ يشربه فؤادك دائما

(256/68)

و انما عبر عن حبّ العجل بالشرب دون الأكل لأن شرب الماء يتغلغل في الأعضاء حتى يصل إلى باطنها والطعام لا يتغلغل فيها .

[سورة البقرة (2) : الآيات 94 إلى 95]

قُلْ إِنْ كانَتْ لَكُمُ الدّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خالِصَةً مِنْ دُونِ النّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (94) وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظّالِمِينَ (95)

الإعراب :

(قُلْ) فعل أمر وفاعله ضمير مستتر تقديره أنت والجملة مستأنفة مسوقة للدخول في فن آخر من أراجيفهم التي يحيكونها (إِنْ) شرطية تجزم فعلين (كانَتْ) فعل ماض ناقص في محل جزم فعل الشرط (لَكُمُ) جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر كانت لمقدم (الدّارُ) اسمها

المؤخر (الْآخِرَةُ) نعت للدار (عِنْدَ اللَّهِ) ظرف مكان متعلق بخالصة (خالِصَةً) حال من الدار أي سالمة (مِنْ دُونِ النَّاسِ) الجار والمجرور متعلقان بمحذوف حال مؤكدة للحال لأن دون تستعمل للاختصاص

يقال : هذا لي دونك أو من دونك أي لا حق لك فيه (فَتَمَنَّوُا) الفاء واقعة في جواب الشرط لأن الكلام طلبي وتمنوا فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعل والجملة في محل جزم جواب الشرط (الْمَوْتَ) مفعول به (إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ) تكرر اعرابها وجواب الشرط محذوف أي فتمنوا الموت (وَلَنْ) الواو استئنافية ولن حرف نفي ونصب واستقبال (يَتَمَنَّوْهُ) فعل مضارع منصوب بلن وعلامة نصبه حذف النون والواو فاعل والهاء مفعول به (أَبَداً) ظرف زمان متعلق بيتمنوه (بِما) الجار والمجرور متعلقان بيتمنوه أيضا (قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ) جملة فعلية لا محل لها من الاعراب لأنها صلة ما والعائد محذوف أي قدمته أيديهم (وَاللَّهُ عَلِيمٌ) الواو استئنافية والجملة مستأنفة (بِالظَّالِمِينَ) الجار والمجرور متعلقان بعليم .

البلاغة :

في قوله : " فتمنوا الموت " خروج الأمر عن معناه الأصلي إلى معنى التعجيز لأن ذلك ليس من سماتهم ولا من ظواهرهم المألوفة وتمنى الموت من شأن المقربين الأبرار لأن من أيقن بالشهادة اشتاق إليها . وبكى حنينا إليها وقد روي عن علي بن أبي طالب أنه كان يطوف بين الصفين في غلالة فقال ابنه الحسن : ما هذا بزي المحاربين فقال :

يا بني لا يبالي أبوك سقط أم سقط عليه الموت ، ولما احتضر خالد بن الوليد بكى فقيل له : ما يبكيك ؟ قال : واللّه ما أبالي إشفاقا من الموت ولكن لأني حضرت كذا وكذا معركة ثم أموت هكذا كما تموت العنز

فلا نامت أعين الجبناء ، وعن حذيفة أنه كان يتمنى الموت فلما احتضر قال حبيب : جاء على فاقة لا أفلح من ندم يعني على التمني . وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم : " لو تمنّوا الموت لغصّ كل انسان بريقه فمات مكانه وما بقي على وجه الأرض يهودي " .

[سورة البقرة (2) : آية 96]

وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلى حَياةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَما هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِما يَعْمَلُونَ (96)

اللغة :

(زحزح) : يستعمل متعديا ولازما وتكرار الحروف بمثابة تكرار العمل .

الاعراب :

(وَلَتَجِدَنَّهُمْ) الواو عاطفة واللام جواب لقسم محذوف وتجدنهم فعل مضارع مبني على الفتح وفاعله ضمير مستتر فيه وجوبا تقديره أنت والهاء مفعوله الأول (أَحْرَصَ النَّاسِ) مفعوله الثاني (عَلى حَياةٍ) الجار والمجرور متعلقان بأحرص (وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا) الواو عاطفة والعطف هنا محمول على المعنى والتقدير أحرص من الذين أشركوا ولكنه حذف " أحرص " للتخصيص بعد التعميم (يَوَدُّ أَحَدُهُمْ) فعل مضارع وفاعل

والجملة حالية أو استئنافية لا محل لها (لَوْ يُعَمَّرُ) لو مصدرية غير عاملة أي يود التعمير وهي خاصة بفعل الودادة وهي والفعل بعدها في تأويل مصدر مفعول يود أي يود التعمير ويعمر فعل مضارع مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر فيه جوازا تقديره هو (أَلْفَ سَنَةٍ) ظرف زمان متعلق بيعمر (وَما هُوَ) الواو حالية وما نافية حجازية وهو اسمها (بِمُزَحْزِحِهِ) الباء حرف جر زائد ومزحزحه مجرور لفظا منصوب محلا على أنه خبر ما (مِنَ الْعَذابِ) الجار والمجرور متعلقان بمزحزحه (أَنْ يُعَمَّرَ) ان وما في حيزها في تأويل مصدر في محل رفع فاعل لمزحزحه لأنه اسم فاعل والضمير في قوله وما هو راجع إلى أحدهم وقيل هو لما دل عليه يعمر من مصدر أي وما التعمير بمزحزحه ويكون قوله أن يعمر بدلا منه وكلاهما جيد (وَاللَّهُ

بَصِيرٌ بِما يَعْمَلُونَ) الواو استئنافية ويجوز في ما أن تكون موصولة أو مصدرية .

البلاغة :

1- الإيجاز في الآية ففي تنكير حياة فائدة عجيبة فحواها أنّ الحريص لا بد أن يكون حيا ، وحرصه لا يكون على الحياة الماضية والراهنة فانهما حاصلتان بل على الحياة المستقبلة ولما لم يكن الحرص متعلقا بالحياة على الإطلاق بل بالحياة في بعض الأحوال وجب التنكير وفي الحذف توبيخ عظيم لليهود لأن الذين لا يؤمنون بالمعاد ولا يعرفون الا الحياة الدنيا لا يستبعد حرصهم عليها فإذا زاد أهل الكتاب عليهم في الحرص وهم مقرون بالبعث والجزاء كانوا أحرى باللوم والتوبيخ .

2- الكناية في قوله (أَلْفَ سَنَةٍ) وهي كناية عن الكثرة فليس المراد خصوص الألف .

[سورة البقرة (2) : الآيات 97 إلى 98]

قُلْ مَنْ كانَ عَدُوًّا لِجبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدىً وَبُشْرى لِلْمُؤْمِنِينَ (97) مَنْ كانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجبْرِيلَ وَمِيكالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكافِرِينَ (98)

الإعراب :

)

قُلْ) فعل أمر وفاعله أنت (مَنْ) اسم شرط جازم في محل رفع مبتدأ وجملة قل مستأنفة مسوقة لبيان نمط آخر من أنماط لجاجهم وعنادهم (كانَ) فعل ماض ناقص في محل جزم فعل الشرط واسمها يعود على من (عَدُوًّا) خبرها (لِجبْرِيلَ) اللام حرف جر وجبريل اسم مجرور باللام وعلامة جره الفتحة نيابة عن الكسرة لأنه علم أعجميّ والجار والمجرور متعلقان بمحذوف صفة لعدوا (فَإِنَّهُ) الفاء عاطفة على جواب الشرط المحذوف بمثابة التعليل له والتقدير فليمت غيظا أو فلا موجب لعداوته ولا يصح أن يكون قوله فإنه هو الجواب لأن جواب الشرط لا بد أن يكون فيه ضمير يعود عليه فلا يصح أن تقول من يكرمني فزيد قائم وان واسمها ولأن فعل التنزيل متحقق المعنى والجزاء لا يكون الا مستقبلا (نَزَّلَهُ) فعل وفاعل مستتر ومفعول به والضمير يعود على القرآن وفي إضماره على ما لم يسبق ذكره تفخيم لشأن صاحبه كأنه يدل على نفسه وجملة نزله خبر كأن

(عَلى قَلْبِكَ) الجار والمجرور متعلقان بنزله (بِإِذْنِ اللَّهِ) الجار والمجرور متعلقان بمحذوف حال (مُصَدِّقاً) حال ثانية (لِما) الجار والمجرور متعلقان بمصدقا (بَيْنَ يَدَيْهِ) الظرف متعلق بمحذوف لا محل له لأنه صلة الموصول (وَهُدىً وَبُشْرى) معطوفان على مصدقا (لِلْمُؤْمِنِينَ) الجار والمجرور متعلقان ببشرى أو بمحذوف صفة وخبر من فعل الشرط والجواب المحذوف (مَنْ) اسم شرط جازم في محل رفع مبتدأ (كانَ) فعل ماض ناقص واسمها مستتر يعود على من (عَدُوًّا) خبر كان (لِلَّهِ) متعلقان بمحذوف صفة لعدو (وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكالَ) عطف (فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكافِرِينَ) الجملة معطوفة على جواب الشرط وقد تقدم تقرير ذلك.

الفوائد :

العرب إذا نطقت بالأعجمي تصرفت فيه وجبر معناه عبد ، وايل هو اللّه فهو بمنزلة عبد اللّه ومعنى ميكال أو ميكائيل عبيد اللّه فكأنه أصغر منزلة من جبريل.

[سورة البقرة (2) : الآيات 99 إلى 101]

وَلَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ آياتٍ بَيِّناتٍ وَما يَكْفُرُ بِها إِلَّا الْفاسِقُونَ (99) أَوَكُلَّما عاهَدُوا عَهْداً نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (100) وَلَمَّا جاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِما مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ كِتابَ اللَّهِ وَراءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ (101)

اللغة :

)

(261/68)

نبذ) : لهذا الفعل خصائص عجيبة فهو في الأصل بمعنى الطّرح يقال : نبذ الشيء من يده أي طرحه ورمى به ، وصبي منبوذ ونهي عن المنابذة في البيع وهي أن تقول : انبذ إليّ المتاع أو أنبذه إليك . ومن مجاز هذا الفعل قولهم : نبذ أمري وراء ظهره إذا لم يعمل به ومنه قوله تعالى : " نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب اللّه وراء ظهورهم " قالوا : ويتعيّن أن يكون نبذ من أفعال التحويل أو التصيير لدلالتها على الانتقال من حالة إلى حالة أخرى وعلى هذا فكتاب اللّه مفعول به أول ووراء ظهورهم مفعول به ثان ويبعد بل يتعذر جعله ظرفا لنبذ لأن الظرف لا بد أن يكون حاويا لفاعل العامل فيه والنابذون غير كائنين وراء ظهورهم على أن بعض النحاة لا يشترطون وجود الفاعل والمفعول في الظرف وقال ابن حجر في شرح المنهاج : ولك أن تقول : إن للقاعدة وجها وجيها لأن ظرف المكان من الحسيات فاذا جعل ظرفا لفعل حسي متعد لزم كون الفاعل والمفعول فيه لأن الفعل المذكور لا يتحقق إلا بوجودهما بخلاف الفعل المعنوي فانه أجنبي من الظرف الحسي فاكتفى بما هو لازم له لكل

تقدير وهو الفاعل فقط وللفقهاء أحكام في التشريع مستندة إلى هذا الخلاف الطويل ، فتدبر هذا الفصل فانه وإن طال بعض الطول فهو كالحسن غير مملول .

الاعراب :

(وَلَقَدْ) الواو استئنافية واللام جواب لقسم محذوف وقد حرف تحقيق (أَنْزَلْنا إِلَيْكَ) فعل وفاعل والجار والمجرور متعلقان بأنزلنا (آياتٍ) مفعول به منصوب وعلامة نصبه الكسرة لأنه جمع مؤنث

سالم (بَيِّناتٍ) صفة (وَما) الواو عاطفة وما نافية (يَكْفُرُ بِها) فعل مضارع مرفوع والجار والمجرور متعلقان به (إِلَّا) أداة حصر (الْفاسِقُونَ) فاعل يكفر (أَوَكُلَّما) الهمزة للاستفهام الانكاري والواو عاطفة على محذوف تقديره اكفروا بالآيات البينات أو أن الأصل تقديم العاطف على حرف الاستفهام وإنما قدمت الهمزة لأن لها صدر الكلام وكلما ظرف زمان متضمن معنى الشرط وقد تقدم اعرابها (عاهَدُوا) فعل وفاعل (عَهْداً) مفعول به وعاهدوا بمعنى أعطوا والمفعول الأول محذوف أي اعطوا الله عهدا ويجوز أن نعرب عهدا مفعولا مطلقا (نَبَذَهُ) فعل ومفعول به مقدم (فَرِيقٌ) فاعل (مِنْهُمْ) الجار والمجرور صفة لفريق

(بَلْ) حرف إضراب وعطف (أَكْثَرُهُمْ) مبتدأ (لا يُؤْمِنُونَ) لا نافية وجملة لا يؤمنون خبر أكثرهم والجملة الاسمية عطف على الجملة السابقة (وَلَمَّا) الواو عاطفة ولما ظرفية حينية أو رابطة (جاءَهُمْ) فعل ومفعول به (رَسُولٌ) فاعل وجملة جاءهم في محل جر باضافة الظرف إليها أو لا محل لها (مِنْ عِنْدِ اللَّهِ) الجار والمجرور صفة لرسول (مُصَدِّقٌ) صفة ثانية (لِمَا) جار ومجرور متعلقان بمصدق (مَعَهُمْ) ظرف مكان متعلق بمحذوف صلة للموصول (نَبَذَ فَرِيقٌ) فعل وفاعل والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم (مِنَ الَّذِينَ) الجار والمجرور صفة لفريق (أُوتُوا الْكِتابَ) فعل ماض ونائب فاعل ومفعول به ثان (كِتابَ اللَّهِ) مفعول نبذ (وَراءَ ظُهُورِهِمْ) مفعول ثان لنبذ لتضمنه معنى جعل أو ظرف مكان متعلق بمحذوف هو المفعول الثاني وقد تقدم القول فيه (كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ) كأن واسمها وجملة لا يعلمون خبرها وجملة كأنهم حالية.

[سورة البقرة (2) : آية 102]

وَاتَّبَعُوا ما تَتْلُوا الشَّياطِينُ عَلى مُلْكِ سُلَيْمانَ وَما كَفَرَ سُلَيْمانُ وَلكِنَّ الشَّياطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَما أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبابِلَ هارُوتَ وَمارُوتَ وَما يُعَلِّمانِ مِنْ أَحَدٍ

حَتَّى يَقُولا إِنَّما نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُما ما يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَما هُمْ بِضارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ ما يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَراهُ ما لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ وَلَبِئْسَ ما شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ (102)

اللغة :

(هارُوتَ وَمارُوتَ) : علمان أعجميان بدليل منع الصرف ولو كانا من الهرت والمرت أي الكسر كما زعم بعضهم لانصرفا وقد نسجت حولهما أساطير طريفة يرجع إليها في المطوّلات .

(خَلاقٍ) : بفتح الخاء أي نصيب .

(بابل) : مدينة قديمة والمنع من الصرف للعلمية والعجمة وتقع أنقاضها على الفرات قرب الحلة شرقي بغداد .

الاعراب :

(وَاتَّبَعُوا) الواو عاطفة واتبعوا فعل ماض وفاعل (ما) اسم موصول مفعول اتبعوا (تَتْلُوا الشَّياطِينُ) فعل مضارع وفاعل والجملة صلة الموصول (عَلى مُلْكِ سُلَيْمانَ) الجار والمجرور متعلقان بتتلو

و سليمان مضاف اليه وعلامة جره الفتحة لأنه ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة وزيادة الألف والنون موقوفة على معرفة الاشتقاق (وَما كَفَرَ) الواو حالية أو استئنافية وما نافية (سُلَيْمانَ) فاعل كفر (وَلكِنَّ) الواو عاطفة ولكن حرف استدراك مشبه بالفعل (الشَّياطِينُ) اسم لكن (كَفَرُوا) الجملة الفعلية خبر لكن (يُعَلِّمُونَ) فعل مضارع والواو فاعل والجملة حالية أو خبر ثان (النَّاسَ) مفعول به أول (السِّحْرَ) مفعول به ثان (وَما أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ) الواو حرف عطف وما اسم موصول معطوف على السحر وجملة أنزل صلة ما والجار والمجرور متعلقان بأنزل (بِبابِلَ) جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال (هارُوتَ وَمارُوتَ) بدل من الملكين (وَما) الواو استئنافية وما نافية (يُعَلِّمانِ) فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعه ثبوت النون والألف فاعل (مِنْ أَحَدٍ) من حرف جر زائد وأحد مجرور لفظا منصوب محلا لأنه مفعول يعلمان (حَتَّى) حرف غاية وجر ومن الغريب أن يزعم أبو البقاء أنها تأتي بمعنى إلا ولم ترد في اللغة بهذا المعنى (يَقُولا) فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتى (إِنَّما) كافة ومكفوفة (نَحْنُ) مبتدأ (فِتْنَةٌ) خبر والجملة الاسمية في محل نصب مقول للقول (فَلا تَكْفُرْ) الفاء هي الفصيحة ولا ناهية وتكفر فعل مضارع مجزوم بلا ، أي إذا شئت اتباع الطريق السويّ فلا تكفر بتعلمه (فَيَتَعَلَّمُونَ) الفاء استئنافية وقال سيبويه هي عاطفة (مِنْهُما) جار ومجرور متعلقان بيتعلمون (ما) اسم موصول مفعول به (يُفَرِّقُونَ)

الجملة صلة ما (بِهِ) جار ومجرور متعلقان بيفرقون (بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ) الظرف متعلق بيفرقون أيضا (وَما) الواو حالية وما حجازية (هُمْ) اسمها (بِضارِّينَ) الباء حرف جر زائد وضارين مجرور لفظا خبر ما محلا (بِهِ) جار ومجرور متعلقان

ج 1 ، ص محل لها (ما) نافية أو

حجازية (لَهُ) الجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم أو خبر ما (فِي الْآخِرَةِ) الجار والمجرور في محل نصب حال (مِنْ) حرف جر زائد (خَلاقٍ) اسم مجرور بمن لفظا مبتدأ مؤخر أو اسم ما والجملة في محل رفع خبر من والجملة كلها في حيز النصب وقد سدت مفعولي علموا المعلقة عن العمل (وَلَبِئْسَ) الواو عاطفة واللام موطئة للقسم وبئس فعل ماض جامد لانشاء الذّم (ما) نكرة بمعنى شيء في محل نصب على التمييز مفسرة لفاعل بئس أي شيئا (شَرَوْا) فعل وفاعل والجملة صفة (بِهِ) جار ومجرور متعلقان بشروا (أَنْفُسَهُمْ) مفعول به (لَوْ) شرطية (كانُوا) كان واسمها وجملة (يَعْلَمُونَ) خبرها وجواب لو محذوف أي لما أقدموا على ما اجترحوه من عمل مغاير .

البلاغة :

في هذه الآية فن رفيع من فنون البلاغة وهو تنزيل العالم منزلة الجاهل فإن صدر الآية يدل على ثبوت العلم في أنه لا نفع لهم في اشتراء

كتب السحر والشعوذة واختيارها على كتب اللّه وآخر الآية ينفي عنهم العلم فإن لو تدل على امتناع الثاني لامتناع الاول إلا أن نفي العلم عنهم لأمر خطابي نظرا إلى أنهم لا يعملون على مقتضى العلم ولكن في ذلك مبالغة من حيث الاشارة إلى أن علمهم بعدم الثواب كاف في الامتناع فكيف العلم بالذم والرداءة.

[سورة البقرة (2) : الآيات 103 إلى 104]

وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ (103) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا راعِنا وَقُولُوا انْظُرْنا وَاسْمَعُوا وَلِلْكافِرِينَ عَذابٌ أَلِيمٌ (104)

اللغة:

(راعِنا) : راقبنا وتأنّ بنا حتى نفهمه، روي أن المسلمين كانوا يقولون لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إذا ألقى عليهم شيئا من العلم راعنا، وكانت لليهود كلمة عبرانية يتسابّون بها وهي "راعنا" قيل:

معناها : اسمع لا سمعت فلما سمعوا قول المؤمنين راعنا افترصوا ذلك وخاطبوا الرسول ، ولما سمعها سعد بن معاذ منهم وكان يعرف العبرية قال : يا أعداء اللّه عليكم لعنة اللّه والذي نفسي بيده لئن سمعتها من رجل منكم يقولها لرسول اللّه لأضربنّ عنقه فقالوا : أولستم تقولونها فنزلت الآية .

(انْظُرْنا) أنسئنا وأمهلنا .

الاعراب :

)

(267/68)

وَلَوْ) الواو استئنافية أو عاطفة ولو شرطية ولسيبويه في تسميتها اسم طريف وهو حرف لما كان سيقع لوقوع غيره (أَنَّهُمْ) أن واسمها (آمَنُوا) فعل ماض وفاعل والجملة الفعلية خبر ان وان واسمها وخبرها في تأويل مصدر مبتدأ خبره محذوف أي لو أن إيمانهم ثابت وقيل في محل رفع فاعل لفعل محذوف أي لو ثبت إيمانهم (وَاتَّقَوْا) عطف على آمنوا (لَمَثُوبَةٌ) اللام للابتداء وقيل هي واقعة في جواب لو وقد أو ثرت الجملة الاسمية على الفعلية في جواب لو للدلالة على الثبوت والديمومة للمثوبة ومثوبة مبتدأ أو ساغ الابتداء بالنكرة لأنها وصفت

(مِنْ عِنْدِ اللَّهِ) الجار والمجرور صفة لمثوبة (خَيْرٌ) خبر مثوبة (لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ) تقدم إعرابها وجواب لو محذوف دلّ عليه ما قبله أي لأثيبوا (يا أَيُّهَا) يا حرف نداء وأي منادى نكرة مقصودة مبني على الضم في محل نصب والهاء للتنبيه (الَّذِينَ) بدل من أيها (آمَنُوا) فعل وفاعل والجملة صلة الموصول (لا) ناهية (تَقُولُوا) فعل مضارع مجزوم بلا (راعِنا) فعل أمر والفاعل مستتر تقديره أنت ونا مفعول به وذلك في الأصل والمراد بها هنا الحكاية فتعرب كلمة أريد بها لفظها دون معناها في محل نصب مفعول به (وَقُولُوا) عطف على لا تقولوا (انْظُرْنا) في الأصل فعل أمر ونا مفعوله والمراد بها هنا الحكاية (وَاسْمَعُوا) الواو عاطفة واسمعوا معطوفة على لو والمفعول به محذوف أي اسمعوا ما يكلمكم به الرسول ويلقي عليكم من المسائل المؤدية إلى فلا حكم (وَلِلْكافِرِينَ) الواو استئنافية مسوقة للاجمال بعد التفصيل والجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم (عَذابٌ) مبتدأ مؤخر (أَلِيمٌ) نعت لعذاب.

البلاغة:

ألمعت الآية إلى فن من أجلّ فنون البلاغة وأكثرها استقطابا للمقاصد السامية والمثل الرفيعة وهو فن التهذيب أي ترداد النظر فيما يكتبه الكاتب وينظمه الشاعر ، فقد خلصت من الإيهام ودلت على آداب المخاطبة ليكون الكلام بريئا من المطاعن ، بعيدا عن الملاحن . .

[سورة البقرة (2) : آية 105]

مٰا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتٰابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشٰاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (105)

اللغة :

(اختص) فعل متعدّ يقال خصّه بكذا واختصّه وخصّصه وأخصّه فاختصّ به وجميع ما فاؤه خاء وعينه صاد يدل على الاجتماع والتكاثر والانضمام كخصب المكان وأخصب أي وقع فيه الخصب وهو اجتماع النبت وتكاثره وخاصر المرأة قبض على خاصرتها قال عبد الرحمن بن حسان بن ثابت :

ثم خاصرتها إلى القبة الخضراء تمشي في مرمر مسنون

وخصف الأوراق : اتبع بعضها ببعض وهم خصوم وخصماء ولا يكون ذلك إلا في اجتماع .

الاعراب :

)

ما) نافية (يَوَدُّ) فعل مضارع مرفوع (الَّذِينَ كَفَرُوا) فاعل يود وجملة كفروا صلة (مِنْ) حرف جر (أَهْلِ الْكِتابِ) مجرور بمن والجار والمجرور في محل نصب على الحال (وَلَا الْمُشْرِكِينَ) عطف على أهل الكتاب ودخلت لا للتأكيد ولو كانت في غير القرآن لجاز حذفها (أَنْ يُنَزَّلَ) أن وما في حيزها في تأويل مصدر مفعول يود وينزل مبني للمجهول (عَلَيْكُمْ) جار ومجرور متعلقان بينزل (مِنْ) حرف جر زائد (خَيْرٍ) مجرور لفظا مرفوع محلا على أنه نائب فاعل (مِنْ رَبِّكُمْ) صفة لخير (وَاللَّهُ) الواو استئنافية والله مبتدأ (يَخْتَصُّ) فعل مضارع مرفوع وفاعله مستتر تقديره هو والجملة خبر الله (بِرَحْمَتِهِ) جار ومجرور متعلقان بيختص (مِنْ) اسم موصول مفعول به (يَشاءُ) الجملة صلة الموصول (وَاللَّهُ) الواو عاطفة والله مبتدأ (ذُو الْفَضْلِ) خبر وعلامة رفعه الواو لأنه من الأسماء الخمسة (الْعَظِيمِ) نعت للفضل .

[سورة البقرة (2) : الآيات 106 إلى 107]

ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِها نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْها أَوْ مِثْلِها أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (106) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (107)

اللغة :

(النسخ) الإزالة والنقل يقال : نسخت الريح الأثر أي أزالته ونسخت الكتاب أي نقلته

وتفيد معنى طروء حال أحسن وجميع ما فاؤه

(270/68)

نون وعينه سين يدل على التجدد والتبدل وطروء الأحسن أو الذهاب والانتقال فمن ذلك نسأ الشيء والأمر : أخّره وأنسأ اللّه أجلك أخره وأطاله ونسب : تغزّل ووصف المرأة بأوصاف ملائمة لمفاتنها وهذا من أعاجيب لغتنا العربية فتأمله فإنه مما ابتدعناه لأول مرة ومعنى الآية عجيب أيضا أي أن كل آية نذهب بها على ما تقتضيه الحكمة من إزالة لفظها أو حكمها أو كليهما معا نأتي بخير منها .

الاعراب :

(ما) اسم شرط جازم في محل مفعول به مقدم لننسخ (نَنْسَخْ) فعل الشرط مجزوم (مِنْ آيَةٍ) الجار والمجرور متعلقان بمحذوف صفة لاسم الشرط واسم الشرط ليس معرفة فلا يجوز أن يكون الجار والمجرور حالا منه والمعنى أي شيء ننسخ من الآيات فهو مفرد وقع موقع الجمع وهذا مطرد بعد الشرط لما فيه من معنى العموم وعلى هذا يخرج كل ما جاء من هذا

التركيب كقوله : ما يفتح اللّه للناس من رحمة ، وما بكم من نعمة فمن اللّه ، وأجاز بعضهم أن تكون من آية في موضع نصب على التمييز والمميّز ما وليس ببعيد أيضا وأعربها ابن هشام في موضع نصب على الحال وليس ببعيد أيضا (أَوْ) حرف عطف (نُنْسِها) معطوف على ننسخ وقد سهّلت الهمزة فلم يظهر السكون والأصل ننسئها أي نرجئها والهاء مفعول به (نَأْتِ) جواب الشرط مجزوم وعلامة جزمه حذف حرف العلة (بِخَيْرٍ) الجار والمجرور متعلقان بنأت (مِنْها) جار ومجرور متعلقان بخير لأنها اسم تفضيل (أَوْ مِثْلِها) عطف على بآية (أَلَمْ) الهمزة للاستفهام التقديري ولم حرف نفي وقلب وجزم (تَعْلَمْ) فعل مضارع مجزوم بلم (أَنَّ اللَّهَ) أن واسمها (عَلى كُلِّ شَيْءٍ) الجار

والمجرور متعلقان بقدير (قَدِيرٌ) خبر أن وأن وما في حيزها سدت مسد مفعولي تعلم (أَلَمْ تَعْلَمْ) تقرير ثان (أَنَّ اللَّهَ) أن واسمها (لَهُ) الجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم (مُلْكُ السَّماواتِ) مبتدأ مؤخر (وَالْأَرْضِ) عطف على السموات (وَما لَكُمْ) الواو عاطفة وما نافية ولكم خبر مقدم (مِنْ دُونِ اللَّهِ) الجار والمجرور متعلقان بمحذوف حال (مِنْ وَلِيٍّ) من حرف جر زائد وولي مجرور لفظا مرفوع محلا على أنه مبتدأ مؤخر (وَلا نَصِيرٍ) عطف على

ولي.

[سورة البقرة (2) : آية 108]

أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْئَلُوا رَسُولَكُمْ كَما سُئِلَ مُوسى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمانِ فَقَدْ ضَلَّ سَواءَ السَّبِيلِ (108)

الإعراب:

(أَمْ) عاطفة منقطعة بمعنى بل (تُرِيدُونَ) فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعه ثبوت النون والواو فاعل (أَنْ تَسْئَلُوا) أن وما في حيزها في تأويل مصدر مفعول تريدون (رَسُولَكُمْ) مفعول به لتسألوا (كَما سُئِلَ مُوسى) الكاف حرف جر وما مصدرية مؤولة مع ما بعدها بمصدر مفعول مطلق أو حال وموسى نائب فاعل سئل (مِنْ قَبْلُ) جار ومجرور متعلقان بسئل (وَمَنْ) الواو استئنافية ومن اسم شرط جازم مبتدأ (يَتَبَدَّلِ) فعل الشرط (الْكُفْرَ) مفعول به (بِالْإِيمانِ) جار ومجرور متعلقان بيتبدل وهو المتروك (فَقَدْ) الفاء رابطة لجواب الشرط وقد حرف تحقيق (ضَلَّ) فعل ماض وفاعله هو (سَواءَ السَّبِيلِ) مفعوله والجملة في محل جزم جواب الشرط.

[سورة البقرة (2) : آية 109]

وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

(109)

الإعراب :

(272/68)

(وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ) فعل وفاعل والجار والمجرور صفة لكثير (لَوْ يَرُدُّونَكُمْ) لو مصدرية وهي مؤوّلة مع ما بعدها بمصدر مفعول ود ، يردونكم فعل وفاعل ومفعول أول (مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ) جار ومجرور متعلقان بيردون وايمانكم مضاف إليه (كُفَّاراً) مفعول ثان ليردونكم (حَسَداً) مفعول لأجله (مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ) الجار والمجرور متعلقان بود على معنى أنهم تمنوا أن ترتدوا عن دينكم وتمنيهم ذلك من عند أنفسهم لا من قبل الجنوح إلى الحق لأنهم ودوا ذلك من بعد ما تبين لهم أنكم على الحق ويؤكده قوله فيما بعد " تلك أمانيهم " (مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ) الجار والمجرور متعلقان بود وما مصدرية مؤولة مع الفعل بعدها بمصدر مضاف لبعد والحق فاعل تبين (فَاعْفُوا) الفاء هي الفصيحة واعفوا فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعل (وَاصْفَحُوا) عطف على فاعفوا (حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ) حتى حرف غاية وجر ويأتي فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتى واللّه فاعل وبأمره الجار والمجرور متعلقان بيأتي (إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) إن واسمها وقدير خبرها والجار

والمجرور متعلقان بقدير وجملة إن اللّه استئنافية أو بمثابة التعليل .

[سورة البقرة (2) : آية 110]

وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ وَما تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (110)

الإعراب :

)

(273/68)

وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ) الواو استئنافية وأقيموا فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعل والصلاة مفعول به (وَآتُوا الزَّكاةَ) عطف على ما تقدم (وَما تُقَدِّمُوا) الواو استئنافية وما اسم شرط جازم في محل نصب مفعول به مقدم وتقدموا فعل الشرط والواو فاعل (لِأَنْفُسِكُمْ) الجار والمجرور متعلقان بتقدموا (مِنْ خَيْرٍ) الجار والمجرور صفة لاسم الشرط أو تمييز كما تقدم (تَجِدُوهُ) جواب الشرط مجزوم وعلامة جزمه حذف النون والواو فاعل والهاء مفعول به (عِنْدَ اللَّهِ) الظرف متعلق بتجدوه أو بمحذوف حال (إِنَّ اللَّهَ) إن واسمها (بِما تَعْمَلُونَ) الجار والمجرور متعلقان ببصير (بَصِيرٌ) خبر إن وجملة إن وما تلاها مستأنفة

أو تعليلية.

[سورة البقرة (2) : الآيات 111 إلى 112]

وَقالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ كانَ هُوداً أَوْ نَصارى تِلْكَ أَمانِيُّهُمْ قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (111) بَلى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (112)

الإعراب:

(وَقالُوا) عطف على ودّ والضمير لأهل الكتاب من اليهود

و النصارى (لَنْ) حرف نفي ونصب واستقبال (يَدْخُلَ) فعل مضارع منصوب بلن (الْجَنَّةَ) مفعول به على السعة (إِلَّا) أداة حصر (مَنْ) اسم موصول فاعل (كانَ) فعل ماض ناقص واسمها ضمير مستتر تقديره هو (هُوداً) خبرها (أَوْ نَصارى) عطف على هودا (تِلْكَ) اسم اشارة مبتدأ (أَمانِيُّهُمْ) خبر والجملة الاسمية لا محل لها لأنها اعتراض بين قوله وقالوا وبين قوله قل هاتوا برهانكم (قُلْ) فعل أمر وفاعله مستتر تقديره أنت والجملة مستأنفة (هاتُوا) فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعل (بُرْهانَكُمْ) مفعول به (إِنْ كُنْتُمْ

صادِقِينَ) شرط وفعله والجواب محذوف والتقدير فها توا برهانكم (بَلى) حرف جواب لاثبات ما نفوه من دخول غيرهم الجنة (مَنْ) اسم شرط جازم مبتدأ (أَسْلَمَ وَجْهَهُ) فعل الشرط (لِلَّهِ) الجار والمجرور متعلقان بأسلم (وَهُوَ) الواو للحال وهو مبتدأ (مُحْسِنٌ) خبره والجملة في محل نصب على الحال (فَلَهُ أَجْرُهُ) الفاء رابطة والجار والمجرور خبر مقدم وأجره مبتدأ مؤخر والجملة الاسمية في محل جزم جواب الشرط (عِنْدَ رَبِّهِ) الظرف متعلق بمحذوف حال (وَلا خَوْفٌ) الواو عاطفة ولا نافية وخوف مبتدأ ساغ الابتداء به لتقدم النفي عليه (عَلَيْهِمْ) الجار والمجرور خبر خوف (وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ) عطف على ما تقدم.

الفوائد :

اختلف اللغويون في نون البرهان فقال قوم : زائدة لأنه مشتق من البرة وهو القطع وذلك لأنه دليل يفيد العلم القطعيّ ومنه البرهة للقطعة الطويلة من الزمن فوزنه فعلان وقال آخرون : انها أصلية لأنه من برهن يبرهن برهنة والبرهنة البيان فوزنه فعلال وعلى هذا فبرهان إذا كان علما لرجل يجوز صرفه ومنعه حسب الاعتبارين الآنفين.

البلاغة :

)

جمع الأماني) في حين ما تمنّوه لا يعدو كونه أمنية واحدة وهي دخول الجنة لسرّ عجيب في صناعة البيان وهو انها لشدة تمنيهم لهذه الأمنية وتأصلها في نفوسهم جمعت وأنها بمثابة أمان توزعت في كل قلب فلم تترك فراغا لغيرها .

[سورة البقرة (2) : آية 113]

وَقالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصارى عَلى شَيْءٍ وَقالَتِ النَّصارى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتابَ كَذلِكَ قالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (113)

الإعراب :

(وَقالَتِ الْيَهُودُ) الواو استئنافية والجملة مستأنفة مسوقة لبيان حالة من حالات الجهالة المتأصلة في نفوسهم ، روي أنّ وفد نجران لما قدموا على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أتاهم أحبار اليهود فتناظروا حتى ارتفعت أصواتهم وضلل كل فريق صاحبه (لَيْسَتِ النَّصارى عَلى شَيْءٍ) ليس فعل ماض ناقص ووزنها فعل بكسر العين وهو بناء نادر في الثلاثي اليائيّ العين والنصارى اسمها وعلى شيء خبرها والجملة مقول القول (وَقالَتِ النَّصارى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلى شَيْءٍ) عطف على الجملة الأولى (وَهُمْ) الواو حالية وهم

مبتدأ (يَتْلُونَ) فعل مضارع وفاعل والجملة خبرهم والجملة الاسمية في محل نصب على الحال

)

الْكِتابَ) مفعول به (كَذلِكَ) الجار والمجرور في محل نصب نعت لمفعول مطلق محذوف أي قالوا قولا مثل ذلك ولك أن تعرب الجار والمجرور في محل نصب على الحال (قالَ الَّذِينَ) فعل وفاعل (لا يَعْلَمُونَ) لا نافية ويعلمون فعل مضارع مرفوع والواو فاعل والجملة لا محل لها لأنها صلة (مِثْلَ قَوْلِهِمْ) صفة لمصدر محذوف والمعنى مثل قول اليهود والنصارى (فَاللَّهُ) الفاء استئنافية واللّه مبتدأ (يَحْكُمُ) فعل مضارع وفاعله هو والجملة خبر اللّه (بَيْنَهُمْ) ظرف متعلق بيحكم (يَوْمَ الْقِيامَةِ) الظرف متعلق بمحذوف حال (فِيما) جار ومجرور متعلقان بيحكم (كانُوا) كان واسمها والجملة صلة الموصول (فِيهِ) جار ومجرور متعلقان بيختلفون (يَخْتَلِفُونَ) الجملة الفعلية خبر كانوا .

[سورة البقرة (2) : الآيات 114 إلى 115]

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَساجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعى فِي خَرابِها أُولئِكَ ما كانَ لَهُمْ أَنْ

يَدْخُلُوها إِلاَّ خائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذابٌ عَظِيمٌ (114) وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ واسِعٌ عَلِيمٌ (115)

اللغة :

(المساجد) : جمع مسجد وهو اسم مكان للسجود وكان من حقّه أن يأتي على مفعل بفتح العين لأن عين مضارعه مضمومة ولكنه

سمع بالكسر شذوذا كما شذّت ألفاظ جاءت بالكسر مع أنها مصوغة من مضموم العين في المضارع وهي المطلع والمغرب والمشرق والمسجد والمنسك والمجزر والمنبت والمسقط والمفرق والمسكن ويجوز فيها الفتح ولكن السماع أفصح .

الاعراب :

)

(277/68)

وَمَنْ) الواو استئنافية ومن اسم استفهام في محل رفع مبتدأ ومعناه النفي (أَظْلَمُ) خبر من (مِمَّنْ) جار ومجرور متعلقان بأظلم (مَنَعَ مَساجِدَ اللَّهِ) فعل ماض وفاعل مستتر يعود على من ومساجد اللّه مفعول به والجملة لا محل لها لأنها صلة الموصول (أَنْ يُذْكَرَ) أن وما في

حيّزها في تأويل مصدر مفعول ثان لمنع ولك أن تعرب المصدر مفعولا لأجله أي كراهة أن يذكر فيها اسمه (فِيهَا) جار ومجرور متعلقان بيذكر (اسْمُهُ) نائب فاعل ولك أن تعرب المصدر بدل اشتمال من مساجد اللّه لأنها تشتمل على الذكر (وَسَعى) عطف على منع (فِي خَرابِها) الجار والمجرور متعلقان بسعى (أُولئِكَ) اسم اشارة مبتدأ والجملة مستأنفة (ما) نافية (كانَ) فعل ماض ناقص (لَهُمْ) خبر مقدم لكان (أَنْ يَدْخُلُوها) المصدر المؤول من أن وما في حيزها اسم كان المؤخر (إِلَّا) أداة حصر (خائِفِينَ) حال من فاعل يدخلوها (لَهُمْ) الجار والمجرور خبر مقدم (فِي الدُّنْيا) جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال (خِزْيٌ) مبتدأ مؤخر والجملة لا محل لها لأنها استئنافية (وَلَهُمْ) الواو عاطفة لهم خبر مقدم (فِي الْآخِرَةِ) الجار والمجرور في محل نصب حال (عَذابٌ) مبتدأ مؤخر (عَظِيمٌ) نعت لعذاب (وَلِلَّهِ) الواو عاطفة والجار والمجرور خبر مقدم (الْمَشْرِقُ) مبتدأ مؤخر (وَالْمَغْرِبُ) عطف على المشرق (فَأَيْنَما) الفاء استئنافية وأينما اسم شرط جازم في محل نصب ظرف مكان متعلق بما بعده (تُوَلُّوا) فعل الشرط (فَثَمَّ) الفاء رابطة لجواب الشرط وثم ظرف مكان متعلق بمحذوف خبر مقدم (وَجْهُ اللَّهِ) مبتدأ مؤخر والجملة في محل جزم جواب الشرط (إِنَّ اللَّهَ واسِعٌ عَلِيمٌ) إن واسمها وخبراها .

الفوائد :

(ثم) : بفتح التاء ويقال للمؤنث ثمة إشارة للمكان البعيد ولا يجران الا بمن والى .

[سورة البقرة (2) : الآيات 116 إلى 117]

(278/68)

وَقالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحانَهُ بَلْ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قانِتُونَ (116) بَدِيعُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَإِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (117)

اللغة :

(اتَّخَذَ) : من أفعال التحويل التي تنصب مفعولين وأخواتها تخذ وصير وردّ وترك وجعل وهب وقد أثيرت معركة طريفة حول اتخذ فقد استدرك ابن هشام على الجوهري صاحب الصحاح فقال : " وقول الجوهريّ في اتّخذ أنه افتعل من الأخذ وهم وإنما التاء أصل وهو من تخذ كاتبع من تبع " ويعتمد ابن هشام في تخطئته للجوهري على أنه لو كان من أخذ لوجب أن يقال : أيتخذ لأن الضابط في ذلك انك

تقول في افتعل من الإزار ايتزر بابدال الهمزة ياء تحتانية ولا يجوز ابدال هذه الياء التحتانية تاء فوقانية وإدغامها في التاء لأن هذه الياء بدل من همزة وليست أصلية ، وقد استدرك آخرون على ابن هشام فقالوا : إن الإقدام على تغليط الجوهري ليس بالهين فيجوز أن يكون

ذلك مذهبا له ، ولا يقال : الجوهري ليس من أرباب المذاهب مع أن الظاهر يساعده فما قاله الجوهري وجه والوجه الثاني ما ذكره ابن هشام .

الاعراب :

)

(279/68)

وَقالُوا) الواو حرف عطف وقالوا فعل وفاعل (اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً) فعل وفاعل ومفعول به والجملة مقول القول (سُبْحانَهُ) مفعول مطلق لفعل محذوف والجملة معترضة للتنزيه (بَلْ) حرف عطف وإضراب (لَهُ) جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم (ما) اسم موصول مبتدأ مؤخر (فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ) الجار والمجرور متعلقان بمحذوف صلة الموصول (كُلٌّ) مبتدأ ساغ الابتداء به لما فيه من معنى العموم والتنوين في كل عوض عن كلمة أي كل فرد من أفراد المخلوقات (لَهُ) جار ومجرور متعلقان بقانتون أي خاضعون منقادون وقد غلب في الملكية ما لا يعقل فقال ما في السموات لأن المراد تسخيرها له التسخير الطبيعي الذي لا يشترط فيه الاختيار ولا التسخير الشرعي المعبر عنه بالتكليف الذي يفعله الكاسب باختياره ويستوي في التسخير الطبيعي العاقل وغيره ولكنه في غير العاقل أظهر

ولما ذكر القنوت له تعالى جمعه جمعا مذكرا سالما فغلب فيه العقلاء لأن من شأن القنوت أن يكون من العاقل الذي يشعر بموجبه ويفعله باختياره وإن كان لغير العاقل قنوت يليق به (قانِتُونَ)

خبر كل (بَدِيعُ السَّماواتِ) خبر لمبتدأ محذوف وهو من باب إضافة الصفة المشبهة إلى فاعلها والأصل بديع سمواته (وَالْأَرْضِ) عطف على السموات (وَإِذا) ظرف لما يستقبل من الزمن خافض لشرطه منصوب بجوابه (قَضى أَمْراً) الجملة في محل جر بإضافة الظرف إليها (فَإِنَّما) الفاء رابطة وإنما كافة (يَقُولُ لَهُ) الجار والمجرور متعلقان بيقول والجملة لا محل لها (كُنْ) فعل أمر من كان التامة بمعنى حدث (فَيَكُونُ) الفاء استئنافية ويكون فعل مضارع تام مرفوع أي فهو يحدث وجملة كن مقول القول .

البلاغة :

)

المجاز العقلي) في إسناد الفعل أو ما في معناه إلى غير ما هو له لعلاقة مع قرينة مانعة من الإسناد وهو يدرك بالعقل ومن أمثلته البديعة في الشعر قول المتنبي :

كلّما أثبت الزمان قناة ركب المرء في القناة سنانا

وقد يلتبس بالاستعارة والفرق بينهما قصد التشبيه أو عدمه كما هو مقرر في كتب البلاغة.

[سورة البقرة (2) : الآيات 118 إلى 119]

وَقالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ لَوْلا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينا آيَةٌ كَذلِكَ قالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآياتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (118) إِنَّا أَرْسَلْناكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلا تُسْئَلُ عَنْ أَصْحابِ الْجَحِيمِ (119)

الإعراب:

(وَقالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ) الواو استئنافية وقال فعل ماض والذين فاعل وجملة لا يعلمون صلة الموصول (لَوْلا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ) لولا حرف تحضيض بمعنى هلّا ويكلمنا اللّه فعل ومفعول به مقدم وفاعل (أَوْ) حرف عطف (تَأْتِينا) عطف على يكلمنا (آيَةٌ) فاعل (كَذلِكَ) الجار والمجرور صفة لمفعول مطلق محذوف أو حال وقد تقدم بحثه (قالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) فعل وفاعل ومن قبلهم صلة الموصول (مِثْلَ قَوْلِهِمْ) بدل من كذلك (تَشابَهَتْ قُلُوبُهُمْ) فعل وفاعل (قَدْ) حرف تحقيق (بَيَّنَّا الْآياتِ) فعل وفاعل والآيات مفعول به وعلامة نصبه الكسرة (لِقَوْمٍ) الجار والمجرور متعلقان ببينا (يُوقِنُونَ) الجملة صفة لقوم (إِنَّا) إن واسمها (أَرْسَلْناكَ) فعل وفاعل ومفعول به (بِالْحَقِّ) الجار والمجرور متعلقان بمحذوف حال ملتبسا به

ومصاحبا له وجملة أرسلناك خبرها (بَشِيراً) حال أيضا (وَنَذِيراً) عطف على بشيرا (وَلا تُسْئَلُ) الواو استئنافية على الأرجح ولا نافية وتسأل فعل مضارع مبني للمجهول ونائب الفاعل ضمير مستتر وجوبا تقديره أنت (عَنْ أَصْحابِ الْجَحِيمِ) جار ومجرور متعلقان بتسأل.

[سورة البقرة (2) : الآيات 120 إلى 121]

وَلَنْ تَرْضى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصارى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْواءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ما لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (120) الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُولئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ (121)

الاعراب:

)

وَلَنْ) الواو استئنافية ولن حرف نفي ونصب واستقبال (تَرْضى) فعل مضارع منصوب بلن (عَنْكَ) الجار والمجرور متعلقان بترضى (الْيَهُودُ) فاعل (وَلَا النَّصارى) عطف على اليهود (حَتَّى) حرف غاية وجر (تَتَّبِعَ) فعل مضارع منصوب بأن مضمرة وجوبا بعد حتى (مِلَّتَهُمْ) مفعول به والفاعل مستتر تقديره أنت (قُلْ) فعل أمر مبني على السكون والجملة مستأنفة (إِنَّ) حرف مشبه بالفعل (هُدَى اللَّهِ) اسمها والجملة في محل نصب مقول القول (هُوَ) مبتدأ (الْهُدى) خبره والجملة الاسمية خبر إن (وَلَئِنِ) الواو استئنافية واللام موطئة للقسم وإن حرف شرط جازم (اتَّبَعْتَ) فعل ماض مبني على السكون في محل جزم فعل الشرط والتاء فاعل (أَهْواءَهُمْ) مفعول به وجواب الشرط محذوف دلّ عليه جواب القسم (بَعْدَ) ظرف (الَّذِي) اسم موصول في محل جر بالإضافة والظرف متعلق با تبعت وجملة (جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ) لا محل لها لأنها صلة الموصول ومن العلم في محل نصب حال (ما لَكَ) ما نافية ولك جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم (مِنَ اللَّهِ) جار ومجرور متعلقان بولي (مِنْ وَلِيٍّ) من حرف جر زائد وولي مجرور لفظا مرفوع محلا لأنه مبتدأ مؤخر (وَلا نَصِيرٍ) عطف على ولي (الَّذِينَ) اسم موصول مبتدأ (آتَيْناهُمُ الْكِتابَ) فعل وفاعل ومفعولا آتينا وجملة آتيناهم لا محل لها لأنها صلة الموصول (يَتْلُونَهُ) فعل مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والهاء مفعول به والجملة

خبر الذين (حَقَّ تِلاوَتِهِ) مفعول مطلق (أُولئِكَ) اسم إشارة مبتدأ (يُؤْمِنُونَ بِهِ) الجملة خبر أولئك ، وجملة أولئك يؤمنون به خبر بعد خبر (وَمَنْ) الواو عاطفة ومن اسم شرط جازم مبتدأ (يَكْفُرْ) فعل الشرط (بِهِ) جار ومجرور متعلقان بيكفر (فَأُولئِكَ) الفاء رابطة واسم الاشارة مبتدأ (هُمُ) مبتدأ ثان (الْخاسِرُونَ) خبر هم والجملة الاسمية خبر أولئك ويحتمل أن يكون هم ضمير فصل أو عماد لا محل له .

الفوائد :

إذا اجتمع شرط وقسم استغني بجواب المتقدّم منهما عن جواب المتأخر لشدة الاعتناء بالمتقدم ما لم يتقدم عليهما مبتدأ فحينئذ يترجح جانب الشرط.

[سورة البقرة (2) : الآيات 122 إلى 123]

يا بَنِي إِسْرائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعالَمِينَ (122) وَاتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلا يُقْبَلُ مِنْها عَدْلٌ وَلا تَنْفَعُها شَفاعَةٌ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ (123)

الإعراب :

(يا بَنِي إِسْرائِيلَ) يا حرف نداء للمتوسط وبني منادى مضاف وإسرائيل مضاف اليه وقد تقدم اعراب نظيره (اذْكُرُوا) فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعل (نِعْمَتِيَ) مفعول به والجملة مستأنفة

(284/68)

مسوقة للتذكير بالنعم التي أسبغها اللّه على بني إسرائيل وجحدوا بها (الَّتِي) اسم موصول صفة (أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ) الجملة لا محل لها لأنها صلة الموصول (وَأَنِّي) اني وما بعدها عطف على نعمتي أي وتفضيلي إياكم على عالمي زمانكم (فَضَّلْتُكُمْ) فعل وفاعل ومفعول والجملة خبر اني (عَلَى الْعالَمِينَ) جار ومجرور متعلقان بفضلكم (وَاتَّقُوا) الواو حرف عطف واتقوا فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعل (يَوْماً) مفعول به على حذف مضاف أي خافوا عذابه (لا تَجْزِي) لا نافية وتجزى فعل مضارع مرفوع (نَفْسٌ) فاعل (عَنْ نَفْسٍ) الجار والمجرور متعلقان بتجزي (شَيْئاً) مفعول به أو مفعول مطلق والجملة الفعلية صفة ليوما (وَلا يُقْبَلُ مِنْها عَدْلٌ) عطف على ما تقدم وعدل نائب فاعل (وَلا تَنْفَعُها شَفاعَةٌ) عطف أيضا (وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ) عطف أيضا وهم مبتدأ وجملة ينصرون خبر والواو نائب فاعل.

[سورة البقرة (2) : آية 124]

وَإِذِ ابْتَلى إِبْراهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِماتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قالَ إِنِّي جاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِماماً قالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قالَ لا يَنالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (124)

اللغة :

(إِبْراهِيمَ) : معناه في السريانية أب رحيم .

الاعراب :

(وَإِذِ) الواو استئنافية والجملة مستأنفة مسوقة للتأسّي بما جرى للماضين مما يدل إلى التوحيد ويزع عن الشرك وإذا ظرف لما

(285/68)

مضى من الزمان في محل نصب بفعل محذوف تقديره اذكر (ابْتَلى) فعل ماض (إِبْراهِيمَ) مفعول به مقدم (رَبُّهُ) فاعل مؤخر وجملة ابتلى في محل جر باضافة الظرف إليها (بِكَلِماتٍ) جار ومجرور متعلقان بابتلى (فَأَتَمَّهُنَّ) معطوف على ابتلى ومعنى الإتمام أداؤهن أحسن تأدية من غير تفريط أو توان والمراد بالكلمات ما أوحي اليه من أوامر ونواه (قالَ) فعل ماض وفاعله ضمير مستتر تقديره هو والجملة مفسرة لا محل لها (إِنِّي) ان واسمها (جاعِلُكَ) خبرها والجملة مقول القول (لِلنَّاسِ) جار ومجرور متعلقان بجاعلك ولك أن تعلقه بمحذوف

في محل نصب حال لأن كان في الأصل صفة لإماما (إِماماً) مفعول جاعلك الثاني ، أما المفعول الثاني فهو الكاف لأنه من إضافة اسم الفاعل إلى مفعوله (قالَ) فعل ماض وفاعله هو (وَمِنْ ذُرِّيَّتِي) الواو عاطفة والجار والمجرور عطف على الكاف كأنه قال وجاعل بعض ذريتي كما يقال لك سأكرمك فتقول : وأخي هذا ما أعربه الكثيرون . وفي النفس منه شيء فالأولى في رأينا أن يتعلقا بمحذوف والتقدير : واجعل من ذريتي إماما (قالَ : لا يَنالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ) عهدي فاعل والظالمين مفعول به .

البلاغة :

في هذه الآية فن طريف من فنونهم يقال له : فنّ المراجعة وهو أن يحكي المتكلم مراجعة في القول جرت بينه وبين محاور في الحديث أو بين اثنين غيره بأوجز عبارة ، وأبلغ اشارة ، وأرشق محاورة ، مع عذوبة اللفظ وجزالته ، وسهولة السبك ، انظر إلى هذه القطعة من الكلام التي عدة ألفاظها ثلاث عشرة لفظة كيف جمعت معاني الكلام من الخبر والاستخبار ، والأمر والنهي والوعد والوعيد وهذا هو التفصيل :

1 - الخبر في قوله : " إني جاعلك " وهو في الحقيقة وعد باستخلافه على الناس .

ب - الاستخبار في ضمن الخبر لأنه فرع عليه إذ الخبر يصير استخبارا بتصدير ما يدلّ على الاستفهام .

ج– الأمر في قوله : " ومن ذريتي " فإن معناه الطلب لذريته ما وعد به من الاستخلاف ، فكأنه قال : رب وافعل ذلك لبعض ذريتي وكل طلب أمر لكنه إذا كان من اللّه سبحانه أوجب حسن الأدب أن يسمى دعاء ولا يطلق عليه لفظ الأمر وإن كان أمرا في أصل الوعد .

د– النهي وهو في ضمن الأمر لأن الأمر بالشيء نهي عن ضده فكأن معناه ولا تحرم بعض ذريتي ذلك .

ه– الوعد تقدم بيانه في الخبر .

و– الوعيد في قوله : " لا ينال عهدي الظالمين " فإن حاصل ذلك أن الظالمين من ذريتك لا ينالهم استخلافي وحرمان ذلك غاية الوعيد .

ومن شواهد هذا الفن الشعرية قول عمر بن أبي ربيعة المخزومي :

بيننا ينعتني ابصرنني دون قيد الميل يعدو بي الأغر

قالت الكبرى : ترى من ذا الفتى ؟ قالت الوسطى لها : هذا عمر

قالت الصغرى وقد تيمتها قد عرفناه وهل يخفى القمر ؟

وفي هذه الأبيات نكتتان بليغتان تدلان على قوة عارضة الشاعر

صاحب الفسق المقشر ، كما يسمون شعره ، ومعرفته بوضع الكلام مواضعه وهما :

1- أن قوافي الأبيات لو أطلقت لكانت كلها مرفوعة .

2- انه جعل التي عرفته من جملة البنات وعرّفت به وشبهته تشبيها يدل على شغفها بحبه هي الصغرى منه ليدل على أنه فتيّ السن بدليل الالتزام إذ الفتية من النساء لا تميل إلا إلى الفتى من الرجال غالبا ليدمج في ذلك عذره بالصّبوة وأنه إنما كان منه ذلك في أيام الشبيبة .

(287/68)

3- ونكتة ثالثة تربو على جميع ما تقدم وهي في التذييل الذي أخرجه مخرج المثل السائر حيث قال في الحكاية عنها : وهل يخفى القمر ولا يحسب أحد أن الصغرى مالت إليه لغرارتها وضعف عقلها وتقاصره عن التمييز وقلة التجربة ، ذلك أنه أخبر عن الكبرى أنها ما كانت تعرفه وقد راقها وشغفها حبا حين رأته حتى لم تتمالك عن التساؤل عنه ، أو أنها عارفة به وإنما سألت عنه تغطية لأمرها وتعمية فيه من باب تجاهل العارف ، إما إظهارا لفرط التّولّه والتّدلّه في الحب أو لأنها كانت تنتظر أن تجاب باسمه فتلتذ بسمعه ، أما الوسطى فقد صرحت باسمه لأن منزلتها في رجاحة العقل وحصافته ورصانة اللب ونزاهته دون منزلة الكبرى فلما سترت الكبرى نفسها بالسؤال عنه لما يقتضيه عقلها صرحت الوسطى باسمه ومعرفته بالنسبة وأبانت الصغرى عما في نفسها منه بوصفها له

بصفة تدل على عظم مكانته من قلبها لمكان سنها من الأختين وهذا من عجائب ما يسمع في هذا الباب ولا نحب أن نختم بحث هذا الفن قبل أن نورد بعض الشواهد فمن شواهده قول ديك الجن واسمه عبد السلام بن رغبان :

مرّت فقلت لها : تحية مغرم ماذا عليك من السلام ؟ فسلمي

قالت : بمن تعني ؟ فطرفك شاهد بنحول جسم قلت : بالمتكلّم

فتضاحكت ، فبكيت قالت : لا ترع فلربّ مثل هواك بالمتبسّم

قلت : اتفقنا في الهوى فزيارة أو موعدا قبل الزيارة قدّمي

فتبسمت خجلا وقالت : يا فتى لو لم أدعك تنام بي لم تحلم

وللبحتري واسمه الوليد :

ونديم حلو الشمائل كالدينار محض النّجار عذب المصفّى

بتّ أسقيه صفوة الرّاح حتى وضع الكأس مائلا يتكفّا

قلت : عبد العزيز تفديك نفسي قال : لبيك قلت : لبيك ألفا

هاكها قال : هاتها قلت : خذها قال : لا أستطيعها ثمّ أغفى

وحسبنا ما تقدم .

[سورة البقرة (2) : آية 125]

وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقامِ إِبْراهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنا إِلى إِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ أَنْ طَهِّرا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (125)

اللغة :

(مَثابَةً) : مباءة ومرجعا للحجاج يتفرقون عنه ثمّ يثوبون إليه فهو من ثاب يثوب أي رجع وقيل : هو من الثواب الذي هو الجزاء ويجوز أن يكون مصدرا ميميا أو اسم مكان والهاء فيه إما للمبالغة كعلّامة ونسّابة لكثرة من يثوب إليه أو لتأنيث المصدر كمقامة أو لتأنيث البقعة .

الاعراب :

(وَإِذْ) تقدم كثيرا اعراب نظائره (جَعَلْنَا) فعل وفاعل والجملة في محل جر باضافة الظرف إليها (الْبَيْتَ) مفعول جعلنا الاول (مَثابَةً) مفعول جعلنا الثاني (لِلنَّاسِ) متعلق بمحذوف صفة لمثابة (وَأَمْناً) عطف على مثابة (وَاتَّخِذُوا) الواو عاطفة واتخذوا فعل أمر

مبني على حذف النون والواو فاعل والجملة مقول القول محذوف معطوف على جعلنا (مِنْ مَقامِ) الجار والمجرور متعلقان باتخذوا (إِبْراهِيمَ) مضاف اليه مجرور بالفتحة لأنه ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة (مُصَلًّى) مفعول اتخذوا ومن للابتداء كأنه قيل : اتخذوا مصلّى بادئين من هذا المكان ولا داعي لما تكلفه المعربون من أوجه لا يستقيم واحد منها (وَعَهِدْنا) فعل وفاعل (إِلى إِبْراهِيمَ) متعلق بعهدنا (وَإِسْماعِيلَ) عطف على ابراهيم وهو علم أعجمي أيضا وفيه لغتان اللام والنون (أَنْ) الأظهر فيها أنها تفسيرية بمعنى أي لأنها واقعة بعد جملة فيها معنى القول دون حروفه (طَهِّرا) فعل أمر مبني على حذف النون والجملة لا محل لها من الاعراب لأنها مفسرة ويجوز أن تكون مصدرية والمصدر المؤول في موضع نصب بنزع الخافض (بَيْتِيَ) مفعول به (لِلطَّائِفِينَ) متعلق بطهرا (وَالْعاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ) عطف على الطائفين ولما كان الركّع والسجود بمثابة واحدة لأن الركوع والسجود يؤلفان الصلاة أسقط حرف العطف ونزلهما منزلة الكلمة الواحدة ولو عطف السجود بالواو لأوهم أنهما عبادتان منفصلتان.

[سورة البقرة (2) : آية 126]

وَإِذْ قالَ إِبْراهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هذا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَراتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلى عَذابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (126)

الإعراب :

(وَإِذْ قالَ إِبْراهِيمُ) تقدم اعرابها (رَبِّ) منادى محذوف منه حرف النداء وهو مضاف إلى ياء المتكلم المحذوفة (اجْعَلْ) فعل أمر

و فاعله أنت (هذا) اسم إشارة مفعول به أول (بَلَداً) مفعول به ثان (آمِناً) صفة (وَارْزُقْ أَهْلَهُ) عطف على اجعل وأهله مفعول به (مِنَ الثَّمَراتِ) متعلق بارزق (مِنَ) اسم موصول بدل من أهله (آمَنَ) الجملة لا محل لها لأنها صلة الموصول (مِنْهُمْ) الجار والمجرور متعلقان بمحذوف حال (بِاللَّهِ) متعلقان بآمن (وَالْيَوْمِ الْآخِرِ) عطف على اللّه (قالَ) فعل ماض والجملة استئنافية لا محل لها (وَمَنْ) اسم موصول معطوف على من الأولى (كَفَرَ) الجملة لا محل لها لأنها صلة (فَأُمَتِّعُهُ) الفاء رابطة لتضمن الموصول معنى الشرط وأمتعه فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به (قَلِيلاً) مفعول مطلق (ثُمَّ) حرف عطف (أَضْطَرُّهُ) عطف على أمتعه (إِلى عَذابِ النَّارِ) متعلق باضطره (وَبِئْسَ) الواو استئنافية وبئس فعل ماض جامد لإنشاء الذّم (الْمَصِيرُ) فاعل بئس والمخصوص بالذم محذوف تقديره مصيره.

[سورة البقرة (2) : آية 127]

وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْراهِيمُ الْقَواعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْماعِيلُ رَبَّنا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

(127)

الإعراب :

(وَإِذْ) الواو عاطفة على ما تقدم وإذ ظرف لما مضى من الزمن وقد تقدم بحثها (يَرْفَعُ إِبْراهِيمُ) فعل مضارع وفاعل والجملة في محل جر بإضافة الظرف إليها (الْقَواعِدَ) مفعول به (مِنَ الْبَيْتِ) الجار والمجرور في موضع نصب على الحال ومعنى الرفع هنا البناء (إِسْماعِيلُ) عطف على ابراهيم (رَبَّنا) منادى مضاف محذوف منه حرف النداء ولا بد من تقدير قول محذوف أي يقولان ربنا ويكثر حذف الحال إذا كان

قولا أغنى عنه المقول (تَقَبَّلْ) فعل أمر معناه الدعاء (مِنَّا) الجار والمجرور متعلقان بتقبل (إِنَّكَ) إن واسمها (أَنْتَ) ضمير متصل لا محل له من الاعراب أو مبتدأ (السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) خبران لإن أو لأنت والجملة الاسمية خبر إن .

(291/68)

[سورة البقرة (2) : الآيات 128 إلى 129]

رَبَّنا وَاجْعَلْنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنا مَناسِكَنا وَتُبْ عَلَيْنا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (128) رَبَّنا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ

وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (129)

اللغة :

(يُزَكِّيهِمْ) : يطهرهم ويصفّي نفوسهم من الحوبات والآثام .

الاعراب :

(رَبَّنا) منادى مضاف وقد تقدم إعرابه (وَاجْعَلْنا) عطف على ما تقدّم (مُسْلِمَيْنِ) مفعول به ثان (لَكَ) الجار والمجرور متعلقان بمحذوف نعت مسلمين (وَمِنْ ذُرِّيَّتِنا) الواو عاطفة والجار والمجرور متعلقان بمحذوف دلّ عليه المذكور أي واجعل من ذريتنا (أُمَّةً) مفعول به أول للفعل المحذوف ومن ذريتنا هو المفعول الثاني (مُسْلِمَةً) نعت (لَكَ) نعت ثان لأمة (وَأَرِنا) الواو عاطفة وأر فعل أمر مبني

على حذف حرف العلة والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت ونا ضمير متصل في محل نصب مفعول به أول (مَناسِكَنا) مفعول به ثان (وَتُبْ عَلَيْنا) عطف أيضا (إِنَّكَ) ان واسمها (أَنْتَ) ضمير منفصل في محل رفع مبتدأ (التَّوَّابُ) خبر أول (الرَّحِيمُ) خبر ثان والجملة الاسمية خبر إن ولك أن تعرب الضمير ضمير فصل لا محلّ له من الاعراب والتواب الرحيم

خبران لأن (رَبَّنا) منادى مضاف (وَابْعَثْ) عطف على ما تقدم (فِيهِمْ) متعلقان بابعث (رَسُولًا) مفعول به (مِنْهُمْ) صفة لرسولا (يَتْلُوا) الجملة إما صفة ثانية وإما حال لأن رسولا وصف بقوله منهم (عَلَيْهِمْ) متعلقان بيتلو (آياتِكَ) مفعول يتلو (وَيُعَلِّمُهُمُ) عطف على يتلو والهاء مفعول به أول (الْكِتابَ) مفعول به ثان (وَالْحِكْمَةَ) عطف على الكتاب (وَيُزَكِّيهِمْ) عطف على يعلمهم (إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) تقدم اعرابها قبل قليل.

[سورة البقرة (2) : آية 130]

وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْراهِيمَ إِلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْناهُ فِي الدُّنْيا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (130)

اللغة:

رغب عن الشيء: مال عنه وكرهه. ورغب فيه: أراده ومال اليه وأحبه. السفه: الخفة والمراد به هنا امتهان النفس.

الاعراب:

(وَمَنْ يَرْغَبُ) الواو استئنافية ومن: اسم استفهام معناه النفي

و الإنكار في محل رفع مبتدأ وجملة يرغب خبره (عَنْ مِلَّةِ) الجار والمجرور متعلقان بيرغب (إِبْراهِيمَ) مضاف اليه وعلامة جره الفتحة لأنه ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة (إِلَّا) أداة حصر (مَنْ) اسم موصول في محل رفع بدل من الضمير في يرغب لأن الكلام غير موجب أو نصب على الاستثناء (سَفِهَ نَفْسَهُ) سفه فعل ماض وفاعله مستتر تقديره هو والجملة لا محل لها لأنها صلة الموصول ونفسه منصوب بنزع الخافض أي سفه في نفسه وقيل : إن سفه يتعدى بنفسه كما حكى ثعلب والمبرّد فهو مفعول سفه يقال سفه نفسه : أي امتهنها وقيل : هي نصب على التمييز ولكن فيه تعريف التمييز وهو لا يكون إلا شذوذا فلا يجوز حمل القرآن عليه (وَلَقَدِ) الواو استئنافية واللام جواب قسم محذوف وقد حرف تحقيق (اصْطَفَيْناهُ) فعل ماض وفاعل ومفعول به (فِي الدُّنْيا) الجار والمجرور متعلقان باصطفيناه (وَإِنَّهُ) الواو حالية وان واسمها (فِي الْآخِرَةِ) الجار والمجرور متعلقان بمحذوف حال (لَمِنَ الصَّالِحِينَ) اللام المزحلقة والجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر ان .

[سورة البقرة (2) : الآيات 131 إلى 132]

إِذْ قالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعالَمِينَ (131) وَوَصَّى بِها إِبْراهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (132)

الإعراب :

(إِذْ) إن أضفنا الآيات بعضها إلى بعض فالظرف متعلق باصطفيناه والأسهل أن نجري على النسق المتبع في القرآن وقد ألفناه فيها وهو

(294/68)

تعليقه بمضمر أي اذكر (قالَ) الجملة الفعلية في محل جر باضافة الظرف إليها (لَهُ) الجار والمجرور متعلقان بقال (رَبُّهُ) فاعل قال والهاء ضمير متصل في محل جر بالإضافة (أَسْلِمْ) فعل أمر وفاعله ضمير مستتر تقديره أنت والجملة الفعلية في محل نصب مقول القول (قالَ) فعل ماض وفاعله ضمير مستتر تقديره هو (أَسْلَمْتُ) الجملة الفعلية في محل نصب مقول القول (لِرَبِّ) جار ومجرور متعلقان بأسلمت (الْعالَمِينَ) مضاف اليه وعلامة جره الياء لأنه ملحق بجمع المذكر السالم (وَوَصَّى) الواو عاطفة ووصى فعل ماض (بِها) الجار والمجرور متعلقان بوصي (إِبْراهِيمُ) فاعل وصى (بَنِيهِ) مفعول به منصوب وعلامة نصبه الياء لأنه ملحق بجمع المذكر السالم والهاء ضمير متصل في محل جر بالإضافة (وَيَعْقُوبُ) معطوف على ابراهيم داخل في حكمه (يا بَنِيَّ) منادى مضاف على إضمار القول أي قائلين فالجملة حالية (إِنَّ اللَّهَ) إن واسمها (اصْطَفى) الجملة الفعلية في محل رفع خبر إن وفاعل اصطفى مستتر تقديره هو (لَكُمُ) الجار والمجرور متعلقان باصطفى (الدِّينَ) مفعول به (فَلا تَمُوتُنَّ)

الفاء الفصيحة وسيأتي معناها أي إذا عرفتم هذا ولا ناهية وتموتن : فعل مضارع مجزوم بلا الناهية وعلامة جزمه حذف النون والنون المشددة للتوكيد وواو الجماعة المحذوفة لالتقاء الساكنين فاعل والأصل تموتونّ (إِلَّا) أداة حصر (وَأَنْتُمْ) الواو حالية وأنتم ضمير منفصل في محل رفع مبتدأ (مُسْلِمُونَ) خبر والجملة الاسمية في محل نصب حال .

الفوائد :

1- يلحق بجمع المذكر السالم في إعرابه ما ورد عن العرب مجموعا جمع المذكر السالم غير مستوف لشروطه نحو : أولي وأهلين

(295/68)

وعالمين ووابلين وأرضين وبنين وعشرين إلى تسعين وسنين وبابه وهو كل ثلاثي حذفت لامه وعوّض عنها هاء التأنيث نحو عضين وعزين وثبين ومئين وظبين ونحوها ومفردها سنة وعضة وعزة وثبة ومائة وظبة ويلحق به ما سمّي من الأسماء المجموعة جمع المذكر السالم مثل عليّين وسجّين وغيرها .

2- كيفية اجراء الفعل المؤكد الذي تتوالى فيه النونات إذا جزم أن يقال فيه : أصل تموتنّ تموتونّ النون الأولى علامة الرفع والثانية والثالثة نون التوكيد الثقيلة فاجتمعت ثلاثة أمثال

فحذفت نون الرفع للجزم لأن نون التوكيد الثقيلة أولى بالبقاء باعتبارها دالة على معنى مستقبل فالتقى ساكنان : الواو والنون الأولى المدغمة فحذفت الواو لالتقاء الساكنين وبقيت الضمة تدل عليها وهكذا كل ما جاء من نظائره .

البلاغة :

في النهي عن الموت أو الأمر به نكتة بلاغية رائعة فهو في حدّ ذاته ليس بمنهي عنه ولا مأمور به لأنه من الأمور التي لا تدخل في الارادة الانسانية ولكنه نهى عنه هنا لإظهار أن الموت على خلاف الإسلام هو موت لا خير فيه وانه ليس بموت السعداء وكذلك الأمر بالموت تقول مت وأنت شهيد لا تريد الأمر بموته ولكن مت الميتة التي تورثك خلود الذكر في الدنيا والجنة والحياة الراغدة في الآخرة وقد تشبث أبو الطيب المتنبي بهذه النكتة فقال :

عش عزيزا أو مت وأنت كريم بين طعن القنا وخفق البنود

[سورة البقرة (2) : آية 133]

أَمْ كُنْتُمْ شُهَداءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قالَ لِبَنِيهِ ما تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قالُوا نَعْبُدُ إِلهَكَ وَإِلهَ آبائِكَ إِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ إِلهاً واحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (133)

الإعراب :

(أَمْ) يجوز فيها أن تكون متصلة عاطفة على محذوف مقدّر كأنه قيل :

أ تدعون على الأنبياء اليهودية أم كنتم شهداء وحضورا ؟ ويجوز أن تكون منقطعة بمعنى بل أي لم تكونوا حاضرين عند ما حضر يعقوب الموت والشهداء الحضور جمع شاهد ويجوز أن تكون لمجرد الاستفهام بمعنى الهمزة (كُنْتُمْ) كان واسمها (شُهَداءَ) خبرها (إِذْ) ظرف لما مضى متعلق بشهداء (حَضَرَ) فعل ماض والجملة في محل جر باضافة الظرف إليها (يَعْقُوبَ) مفعول به مقدم (الْمَوْتُ) فاعل مؤخر (إِذْ) ظرف بدل من إذ الاولى (قالَ) فعل ماض وفاعله مستتر والجملة فعلية في محل جر باضافة الظرف إليها (لِبَنِيهِ) جار ومجرور متعلقان بقال (ما تَعْبُدُونَ) ما اسم استفهام في محل نصب مفعول به مقدم لتعبدون وتعبدون فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعه ثبوت النون والواو فاعل والجملة في محل نصب مقول القول (مِنْ بَعْدِي) الجار والمجرور متعلقان بمحذوف حال (قالُوا) فعل وفاعل والجملة استئنافية (نَعْبُدُ إِلهَكَ) الجملة في محل نصب مقول القول (وَإِلهَ آبائِكَ) عطف على إلهك (إِبْراهِيمَ) بدل من آبائك (وَإِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ) عطف على ابراهيم (إِلهاً) بدل من إلهك أو حال موطئة

أو نصب على الاختصاص لنفي ما قد يخطر على البال من تعدد الإله فأتى به لدفع التوهم (واحِداً) صفة (وَنَحْنُ) الواو اما عاطفة وما بعدها وهو جزء الجواب معطوف على الجزء الاول ومن الجزأين يتألف الجواب وإما اعتراضية وإما حالية نحن مبتدأ (لَهُ) جار ومجرور

متعلقان بمسلمون (مُسْلِمُونَ) خبر نحن .

البلاغة :

(297/68)

في قوله تعالى : (نَعْبُدُ إِلهَكَ وَإِلهَ آبائِكَ) الآية ، فنّ من فنون البلاغة يسمى الاطراد وهو أن يطرد للمتكلم أسماء الآباء المخاطب مرتبة على حكم ترتيبها في الميلاد فقد تجاوز جدهم الأدنى إلى جدهم الأعلى لكونه المبتدأ بالملة المتبعة وفيه أيضا فنّ المساواة لأن ألفاظ هذا المعنى لا فضل فيها عنه ولا تقصير وفيه أيضا حسن البيان لأن فيها بيانا عن الدين بأحسن بيان لا يتوقف أحد في فهمه وفيها أيضا فن الاحتراس لأنه لو وقف عند آبائك لاختلت صحة المعنى لأن مطلق الآباء يتناول من الأب الأدنى إلى آدم وفي آباء يعقوب عليه السلام من لا يجب اتباع ملته فاحترس بذكر البدل عما يرد على المبدل منه لو كان وقع الاختصار عليه فتأمل واعجب .

[سورة البقرة (2) : الآيات 134 إلى 135]

تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَها ما كَسَبَتْ وَلَكُمْ ما كَسَبْتُمْ وَلا تُسْئَلُونَ عَمَّا كانُوا يَعْمَلُونَ (134)

وَقالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصارى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً وَما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ

(135)

اللغة :

(حَنِيفاً) من الحنف بفتحتين وهو الميل وأصله في القدمين وقد تستعمل في اليدين والحاء والنون إذا وقعتا في أول الفعل دلّ على الميل والانعطاف ومنه الحنين إلى الوطن أي الميل اليه والنزوع نحوه وحنا عليه أي أعطف ومال وحنق عليه : التصق بطنه بظهره من الألم .

الاعراب :

)

(298/68)

تِلْكَ أُمَّةٌ) مبتدأ وخبر (قَدْ خَلَتْ) الجملة صفة لأمة (لَها) الجار والمجرور خبر مقدم (ما) مبتدأ مؤخر (كَسَبَتْ) الجملة لا محل لها لأنها صلة ما الموصولية ، (وَلَكُمْ ما كَسَبْتُمْ) عطف على الجملة السابقة (وَلا تُسْئَلُونَ) الواو استئنافية وتسألون فعل مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة مستأنفة (عَمَّا) الجار والمجرور متعلقان بتسألون (كانُوا) الجملة صلة ما (يَعْمَلُونَ) الجملة الفعلية خبر كانوا (وَقالُوا) الواو استئنافية وقالوا فعل وفاعل (كُونُوا هُوداً) كان واسمها وخبرها والجملة في محل نصب مقول القول (أَوْ)

حرف عطف ومعنى أو هنا التفصيل وهذا من اللف والنشر والسامع يرد إلى كل فريق قوله (نَصارى) عطف على هودا (تَهْتَدُوا) فعل مضارع مجزوم لوقوعه جوابا للطلب (قُلْ) فعل أمر والجملة مستأنفة (بَلْ) حرف إضراب وعطف (مِلَّةَ) مفعول به لفعل محذوف أي نتبع أو منصوب على الإغراء بتقدير الزموا (إِبْراهِيمَ) مضاف إليه (حَنِيفاً) حال من ابراهيم (وَما) الواو عاطفة وما نافية (كانَ) فعل ماض ناقص

واسمها ضمير مستتر تقديره هو (مِنَ الْمُشْرِكِينَ) جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبرها .

[سورة البقرة (2) : آية 136]

قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَما أُنْزِلَ إِلَيْنا وَما أُنْزِلَ إِلى إِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْباطِ وَما أُوتِيَ مُوسى وَعِيسى وَما أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (136)

اللغة :

(الْأَسْباطِ) : جمع سبط بكسر السين وهو ولد البنت مقابل الحفيد الذي هو ولد الابن .

الاعراب :

)

قُولُوا) فعل أمر مبني على حذف النون لأن مضارعه من الأفعال الخمسة والواو فاعل (آمَنَّا) فعل وفاعل والجملة في محل نصب مقول القول (بِاللَّهِ) جار ومجرور متعلقان بآمنا (وَما أُنْزِلَ إِلَيْنا) عطف على اللّه وجملة أنزل إلينا صلة ما الموصولية (وَما أُنْزِلَ إِلى إِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْباطِ) عطف أيضا (وَما) عطف أيضا (أُوتِيَ) الجملة صلة ما (مُوسى) نائب فاعل (وَعِيسى) عطف على موسى (وَما أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ) عطف أيضا (لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ) الجملة الفعلية حالية ومنهم صفة لأحد (وَنَحْنُ) الواو حالية ونحن

مبتدأ (لَهُ) جار ومجرور متعلقان بمسلمون (مُسْلِمُونَ) خبر نحن والجملة في محل نصب على الحال.

البلاغة:

النكرة الواقعة في سياق النفي تفيد العموم لفظا حتى يتنزّل المفرد منها بمنزلة الجمع في تناوله الآحاد، ولذلك صح دخول بين عليه وهي لا تكون إلا بين شيئين.

[سورة البقرة (2): آية 137]

فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ ما آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّما هُمْ فِي شِقاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (137)

اللغة :

(الشقاق) بكسر الشين : الخلاف لأن كل واحد من المتشاقّين يكون في شق غير شق صاحبه وله في اللغة ثلاثة معان لا تخرج عن المفهوم الأول والثاني العداوة وهي وليدة الخلاف والثالث الضلال وهو سمة المتنازعين والمتشاقّين لأنهم يذهبون مع أهوائهم ومن غريب أمر الشين والقاف أنهما إذا وقعتا فاء للكلمة وعينا لها دلتا على هذا المعنى أو ما يقرب منه فالشّقّ : الصدع والاشتقاق شق الكلمة من الكلمة وهذا مما لم نسبق إلى استخراجه .

الاعراب :

)

(300/68)

فَإِنْ آمَنُوا) الفاء استئنافية وان حرف شرط جازم وآمنوا فعل ماض مبني على الضم في محل جزم فعل الشرط (بِمِثْلِ) جار ومجرور متعلقان بآمنوا (ما) اسم موصول في محل جر بالإضافة (آمَنْتُمْ) الجملة الفعلية لا محل لها لأنها صلة الموصول (فَقَدِ) الفاء رابطة لجواب الشرط وقد حرف تحقيق (اهْتَدَوْا) فعل ماض وفاعل والجملة الفعلية في محل جزم جواب

الشرط (وَإِنْ تَوَلَّوْا) عطف على فإن آمنوا (فَإِنَّما) الفاء رابطة وانما كافة ومكفوفة (هُمْ) مبتدأ (فِي شِقاقٍ) الجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر هم (فَسَيَكْفِيكَهُمُ) الفاء عاطفة للتعقيب وفائدة التعقيب الاشعار بأن الكفاية تأتي عقيب شقاقهم والسين حرف استقبال وهي أقرب في التنفيس من سوف أي في المستقبل القريب ويكفي فعل مضارع مرفوع والكاف مفعول به أول والهاء مفعول به ثان (اللَّهُ) فاعل (وَهُوَ) الواو استئنافية وهو مبتدأ (السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) خبران وتعدد الخبر جائز.

[سورة البقرة (2) : الآيات 138 إلى 139]

صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عابِدُونَ (138) قُلْ أَتُحَاجُّونَنا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنا وَرَبُّكُمْ وَلَنا أَعْمالُنا وَلَكُمْ أَعْمالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ (139)

اللغة :

(صِبْغَةَ) : بكسر الصاد مصدر هيئة من صبغ والمراد بها هنا الدين وسمّي صبغة لظهور أثره على معتنقه.

الاعراب :

)

صِبْغَةَ اللَّهِ) مصدر مؤكد فهو مفعول مطلق لفعل محذوف ، وفيها إشارة إلى ما أوجده الله في الناس من بدائه العقول (وَمَنْ) الواو عاطفة ومن اسم استفهام وقد خرج الاستفهام هنا إلى معنى النفي في محل رفع مبتدأ (أَحْسَنُ) خبر (مِنَ اللَّهِ) الجار والمجرور متعلقان بأحسن (صِبْغَةَ) تمييز (وَنَحْنُ) الواو عاطفة ونحن مبتدأ (لَهُ) الجار والمجرور متعلقان بعابدون (عابِدُونَ) خبر نحن (قُلْ) فعل أمر وفاعله أنت (أَتُحَاجُّونَنا) الهمزة للاستفهام الانكاري وتحاجون فعل مضارع والواو فاعل والضمير المشترك في محل نصب مفعول (فِي اللَّهِ) الجار والمجرور متعلقان بتحاجوننا (وَهُوَ) الواو حالية وهو مبتدأ (رَبُّنا) خبر والجملة الاسمية في محل نصب على الحال (وَرَبُّكُمْ) عطف على ربنا (وَلَنا) الواو عاطفة ولنا الجار والمجرور خبر مقدم (أَعْمالُنا) مبتدأ مؤخر والجملة حالية (وَلَكُمْ أَعْمالُكُمْ) عطف على الجملة السابقة (وَنَحْنُ) الواو حالية ونحن مبتدأ (لَهُ) الجار والمجرور متعلقان بمخلصون (مُخْلِصُونَ) خبر نحن والجملة حالية أيضا .

البلاغة :

في قوله : صبغة الله استعارة تصريحية شبّه الدين الاسلامي بالصبغة وحذف المشبه وأبقى المشبه به وقد تشبث بالمعنى واللفظ أعشى همدان حيث قال :

وكل أناس لهم صبغة وصبغة همدان خير الصّبغ

صبغنا على ذاك أولادنا فأكرم بصبغتنا في الصّبغ

[سورة البقرة (2) : آية 140]

أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْباطَ كانُوا هُوداً أَوْ نَصارى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (140)

الإعراب :

)

(302/68)

أَمْ) عاطفة متصلة معادلة للهمزة أو منقطعة بمعنى بل (تَقُولُونَ) فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعه ثبوت النون والواو فاعل (إِنَّ إِبْراهِيمَ) إن واسمها (وَإِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْباطَ) أسماء منسوقة على إبراهيم والجملة في محل نصب مقول القول (كانُوا) كان واسمها (هُوداً) خبر كان (أَوْ) عاطفة (نَصارى) معطوف على هودا والجملة الفعلية في محل رفع خبر إن (قُلْ) فعل أمر وفاعله ضمير مستتر تقديره أنت (أَأَنْتُمْ) الهمزة للاستفهام الانكاري وأنتم مبتدأ (أَعْلَمُ) خبر (أَمِ اللَّهُ) عطف على أنتم (وَمَنْ) الواو استئنافية ومن

اسم استفهام مبتدأ (أَظْلَمُ) خبر (مِمَّنْ) الجار والمجرور متعلقان بأظلم والجملة مستأنفة مسوقة للتعريض بكتمانهم شهادة اللّه وهذا ديدن اليهود دائما (كَتَمَ) فعل ماض وفاعله مستتر تقديره هو والجملة لا محل لها من الاعراب لأنها صلة الموصول (شَهادَةً) مفعول به (عِنْدَهُ) الظرف متعلق بمحذوف صفة لشهادة (مِنَ اللَّهِ) الجار والمجرور متعلقان بمحذوف صفة ثانية لشهادة تقول : هذه شهادة مني

لفلان إذا شهدت له ولك أن تعلقها بكتم ولا بدّ لك حينئذ من تقدير مضاف أي من كتم من عباد اللّه شهادة عنده (وَمَا) الواو عاطفة أو استئنافية وما نافية حجازية تعمل عمل ليس (اللَّهُ) اسمها (بِغافِلٍ) الباء حرف جر زائد وغافل مجرور بالباء لفظا في محل نصب خبر ما (عَمَّا) الجار والمجرور متعلقان بغافل (تَعْمَلُونَ) فعل مضارع وفاعل والجملة صلة ما .

[سورة البقرة (2) : الآيات 141 إلى 142]

تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَها ما كَسَبَتْ وَلَكُمْ ما كَسَبْتُمْ وَلا تُسْئَلُونَ عَمَّا كانُوا يَعْمَلُونَ (141)

الإعراب :

(تِلْكَ) اسم إشارة في محل رفع مبتدأ (أُمَّةٌ) خبر (قَدْ) حرف تحقيق (خَلَتْ) فعل ماض مبني على الفتح المقدر على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين والتاء تاء التأنيث الساكنة والفاعل مستتر تقديره هي

والجملة الفعلية صفة لأمة (لَها) الجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم (ما) اسم موصول مبتدأ مؤخر (كَسَبَتْ) الجملة الفعلية لا محل لها لأنها صلة ما (وَلَكُمْ ما كَسَبْتُمْ) عطف على الجملة قبلها (وَلا) الواو عاطفة ولا نافية (تُسْئَلُونَ) فعل مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل (عَمَّا) الجار والمجرور متعلقان بتسألون (كانُوا) كان واسمها (يَعْمَلُونَ) الجملة الفعلية خبر كانوا والجملة معطوفة على ما قبلها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إعراب القرآن وبيانه حـ 1 صـ 131. 200﴾

(304/68)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العَاجِزُ الْفَقِيرُ

عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مُحَمَّدٍ الْقَمَّاش

إِمَامُ وَخَطِيبُ مَسْجِدِ بُورُسْلِى - رَأْسُ الْخَيمَةِ

دَوْلَةُ الإِمَارَاتِ الْعَرَبِيَّةِ الْمُتَّحِدَةِ

(عَفَا اللهُ عَنْهُ وَغَفَرَ لَهُ)

الجزء التاسع والستون

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء التاسع والستون

من الآية ﴿ 142 ﴾ من سورة البقرة

وحتى الآية ﴿ 147 ﴾ من نفس السورة

قوله تعالى ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (142) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان ادعاؤهم أن أسلافهم على دينهم لئلا تنتقض دعواهم أن الجنة خاصة بهم مع كونه فضولاً لا سند له يثبت به شيء محاولة لعدم جواز النسخ وكان إبطال الله تعالى لقولهم وعيبهم بما أحدثوا في دينهم وتقريعهم به ملزوماً لأن يكونوا أباحوا أنفسهم منه ما منعوا منه خالقهم وهو لا يسأل عما يفعل كانوا أسفه الناس فعقبه بالتصريح بعيبهم والتعجيب منهم في إنكارهم لنسخ القبلة وخفتهم بالاعتراض على ربهم فقال واصلاً له بما قبله على وجه أعم .

﴿ سيقول ﴾ إلى آخره ، لأنهم إذا لم يكونوا يعلمون حقية ذلك فلم يتبعوهم فلا أقل من أن يكفوا عن عيبهم فكيف وهم عالمون بأنه الحق ! وقال : ﴿ السفهاء ﴾ ولم يقل : سيقولون ، إظهاراً للوصف الذي استخفهم إلى هذا القول الظاهر عواره لأهل كل دين والسفيه الذي يعمل بغير دليل ، إما بأن لا يلتفت إلى دليل فلا يتوقف إلى أن يلوح له بل يتبع هواه ، أو يرى غير الدليل دليلاً ، وأكد الوصف بالطيش بقوله : ﴿ من الناس ﴾ المأخوذ من النوس وهو التحرك ، دون أن يقول : من أهل الكتاب ، أو بني إسرائيل – ونحو ذلك تصريحاً بذمهم

وتعميماً لكل من مالأهم على ذلك ﴿ ما ولاهم ﴾ ولم يقولوا : مَن ، زيادة في الأذى بالاحتقار ﴿ عن قبلتهم ﴾ .

قال الحرالي : القبلة ما تجعل قبالة الوجه ، والقبل ما أقبل من الجسد في مقابلة الدبر لما أدبر منه ﴿ التي كانوا عليها ﴾ أي بيت المقدس ، ولعله ترك الإفصاح ليصلح ذلك لإرادة الكعبة أيضاً ليصير المعنى : إن كانوا انتقلوا عن الكعبة بأمر الله فهم مبطلون في رجوعهم وإلا فهم في كل حال أتباع الهوى ؛ وفي ذلك إشارة إلى أنه لما انقطعت حججهم ألقوا هذه الشبهة إلى من اخدعوه من المنافقين ولم يقدروا أن يواجهوا بها أحداً من الثابتي الإيمان ، كما قالوا فيما تقدم : ﴿ كونوا هوداً أو نصارى ﴾ [البقرة : 135] ونحوه علماً منهم بأن المحاج لهم عن المؤمنين من له الحجة البالغة ؛ ولذا جاء جوابهم بقوله : ﴿ قل ﴾ خالياً عن خطاب لا كما مضى في قوله : ﴿ قل أتخذتم عند الله عهداً ﴾ [البقرة : 80] ﴿ قل هاتوا برهانكم ﴾ [البقرة : 111] ونحوه ؛ وساق سبحانه الإخبار عنهم بذلك على طريق هو من أعلام النبوة وجلائل الرسالة ؛ فإنه إخبار عما سيكون من الأعداء ، فكان منهم على وفق الخبر ؛ ولم يقدروا مع شدة عداوتهم واجتهادهم في القدح بأدنى شبهة في التكذيب على تكذيبه

بالكف عن ذلك ؛ هذا مع توطئة لذلك فيما سلف في خمسة مواضع : تحريفهم لكلام الله ، وإيقاعه النسخ واستدلاله على حسن فعله ، وإخباره بظلم مانع المسجد ، وإخباره بأنه لا يختص به جهة دون أخرى ، وذكره بناء البيت وما أمر به من تعظيمه واتخاذه مصلى ؛ مع ما في ذلك من توطين نفوس أهل الإسلام وإكرامهم بتعليم الجواب قبل الحاجة ، ليكون أقطع للخصم وأكسر لشوكته وأردّ لشغبه .

وتسميتهم سفهاء ناظر إلى قوله فيما مضى عمن نافق منهم ومن غيرهم ﴿ ألا إنهم هم السفهاء ﴾ [البقرة : 13] ، لأنهم وإن كانوا مصارحين بالكفر فاسم النفاق منطبق عليه من جهة أخرى وهو أنهم أظهروا الكفر وأبطنوا معرفة الإيمان ، أظهروا التكذيب وأبطنوا ما هم عارفون به من صدقه ، وأيضاً فإذا كان المنافقون الذين أظهروا حسناً سفهاء لما أبطنوه من القبيح فالذين عمهم القبح ظاهراً وباطناً أسفه : وإلى قوله قريباً ﴿ ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ﴾ [البقرة : 130] لما تقرر من مخالفتهم له وإن ادعوا الموافقة .

وقال : ﴿ لله ﴾ أي الملك المحيط بكل شيء عظمة وعلماً ﴿ المشرق والمغرب ﴾

مخصصاً لهما لكونهما مجمعي الآفاق كما مضى فلا تختص بالوجهة إليه جهة دون أخرى فما أمر به فهو الحق .

ولما قرر أن الجهات كلها بالنسبة إليه سواء لأنها ملكه ، على أن من توجه إلى شيء منها بأمره أصاب رضاه وذلك هو الوصول إليه فعبر عن ذلك مستأنفاً بقوله معظماً لأهل الإسلام ومعرفاً بعنايته بهم : ﴿ يهدي إليه من يشاء ﴾ أي من عباده ، وعظم الكعبة بقوله : ﴿ إلى صراط المستقيم ﴾ في أي جهة كانت ، فمتى سلكه وصل إلى المقصود من غير ضلال ، ونكّره لأن المراد به جزئيات من الشريعة ؛ وأما الصراط المعرف في الفاتحة فالمراد به الشريعة كلها بما دلت عليه " أل " من الكمال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 261.259 ﴾

اللغة :

[السفهاء] جمع سفيه وهو الجاهل الرأي ، القليل المعرفة بالمنافع والمضار ، وأصل السفه : الخفة والرقة ، من قولهم ثوب سفيه إذا كان خفيف النسج

[ولاهم] صرفهم يقال : ولى عن الشيء وتولى عنه أي انصرف

[وسطا] قال الطبري : الوسط في كلام العرب : الخيار وقيل : العدل ، وأصل هذا أن خير الأشياء أوساطها ، وأن الغلو والتقصير مذمومان

[عقبيه] تثنية عقب وهو مؤخر القدم

[كبيرة] شاقة وثقيلة

[شطر] الشطر في اللغة يأتى بمعنى الجهة ، كقول الشاعر : " تعدو بنا شطر نجد وهي عائدة " ويأتي بمعنى النصف ، ومنه الحديث " الطهور شطر الإيمان " أي نصف الإيمان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 1 صـ 101 ﴾

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابورى رحمه الله :

القراءات : ﴿ من يشاء إلى ﴾ بهمزتين : عاصم وحمزة وعلي وخلف وابن عامر . الباقون ﴿ يشاء ولى ﴾ بقلب الثانية واواً . وروى الخزاعي وابن شنبوذ عن أهل مكة ﴿ يشاو إلى ﴾ بقلب الأولى واواً ﴿ لرؤف ﴾ مهموزاً مشبعاً : ابن كثير وأبو جعفر ونافع وابن عامر وحفص والمفضل والبرجمي . وقرأ يزيد بتليين الهمزة والإشباع . الباقون

: ﴿ لرؤف ﴾ على وزن "الرعف" ﴿ . . يعملون ولئن ﴾ بياء الغيبة : ابن كثير ونافع وخلف وعاصم وأبو عمرو ويعقوب ، الباقون : بالتاء ﴿ مولاها ﴾ بالألف : ابن عامر والباقون : بالباء وكسر اللام ﴿ يعملون ومن حيث ﴾ بياء المغايبة : أبو عمرو . الباقون : بالتاء ﴿ ليلاً ﴾ مدغمة غير مهموزة عن ورش ، وعن ابن كثير وحمزة وعلي وخلفٍ ويعقوب مدغماً مهموزاً . الباقون : مظهراً مهموزاً ، والاختيار عن يعقوب وهشام الإظهار . ﴿ فاذكروني ﴾ بفتح الياء : ابن كثير .

الوقوف : ﴿ عليها ﴾ ط ﴿ المغرب ﴾ ط ﴿ مستقيم ﴾ 5 ﴿ شهيداً ﴾ ط ﴿ عقبيه ﴾ ط ﴿ هدى الله ﴾ ط ﴿ ايمانكم ﴾ ط ﴿ رحيم ﴾ 5 ﴿ في السماء ﴾ ج لأن الجملتين وإن اتفقتا فقد دخل الثانية حرفا توكيد يختصان بالقسم والقسم مصدّر ﴿ ترضيها ﴾ ص لأن فاء التعقيب لتعجيل الموعود ﴿ الحرام ﴾ ط ﴿ شطره ﴾ ط ﴿ من ربهم ﴾ ط ﴿ تعملون ﴾ 5 ﴿ قبلتك ﴾ ج ﴿ قبلتهم ﴾ ج وكلاهما لتفصيل الأحوال مع اتحاد المقصود ﴿ قبلة بعض ﴾ ط ﴿ من العلم ﴾ لا لأن "ان" جواب معنى القسم في "لئن" ، فلو فصل كان ﴿ من الظالمين ﴾ مطلقاً وفي الاطلاق حظر ﴿ الظالمين ﴾ 5 م لأنه لو وصل صار "الذين" صفة وهو مبتدأ في مدح عبد الله ابن سلام وأضرابه ﴿ أبناءهم ﴾ ط ﴿ يعملون ﴾ 5 ﴿ الممترين ﴾ 5 ﴿ الخيرات ﴾ ط ﴿ جميعاً ﴾ ط ﴿ قدير ﴾ 5 ﴿ الحرام ﴾ (ط) ﴿ من ربك ﴾ ط ﴿ تعملون ﴾ 5 ﴿

الحرام ﴾ ط لأن "حيث" متضمن الشرط ﴿ شطره ﴾ لا لتعلق لام في ﴿ حجة ﴾ ط قبل تحرزاً عن إثبات الحجة بعد النفي والوصل 5 في العربية أوضح ، ولا منافاة لأن المراد من الحجة الخصومة وبيان الحق لا ينافي الخصومة ﴿ تهتدون ﴾ إذا علق ﴿ كما أرسلنا ﴾ بما قبله ووقف على ﴿ تعلمون ﴾ وإن علق بما بعده وقف على ﴿ تهتدون ﴾ دون ﴿ تعلمون ﴾ ﴿ تعلمون ﴾ 5 ﴿ ولا تكفرون ﴾ 5 . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 1 صـ 417.418 ﴾

فصل

قال البخاري : حدثنا أبو نُعَيم ، سمع زُهَيراً ، عن أبي إسحاق ، عن البراء ، رضي الله عنه ؛ أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ صلى إلى بيت المقدس ستَّة عشر شهرا أو سبعة عشر شهراً ، وكان يعجبه أن تكون قبلته قبل البيت ، وأنه صلى أول صلاة صلاها ، صلاة العصر ، وصلى معه قوم . فخرج رجل ممن كان صلى معه ، فمر على أهل المسجد وهم راكعون ، فقال : أشهد بالله لقد صليتُ مع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قبَل مكة ، فدارُوا كما هم قبل البيت . وكان الذي مات على القبلة قبل أن تُحَوّل قبل البيت رجالا قتلوا لم ندر

ما نقول فيهم ، فأنزل الله عز وجل ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾

انفرد به البخاري من هذا الوجه ﴿ صحيح البخاري برقم (4486) ﴾ .

. ورواه مسلم من وجه آخر

﴿ صحيح مسلم برقم (525) ﴾ .

(10/69)

مناسبة الآية الكريمة لما قبلها

قال العلامة الطاهر بن عاشور ما نصه :

والذي استقر عليه فهمي أن مناسبة وقوع هذه الآية هنا مناسبةٌ بديعة وهي أن الآيات التي قبلها تكرر فيها التنويه بإبراهيم وملته ، والكعبة وأن من يرغب عنها قد سفِه نفسه ، فكانت مثاراً لأن يقول المشركون ، ما ولَّى محمداً وأتباعه عن قبلتهم التي كانوا عليها بمكة أي استقبال الكعبة مع أنه يقول إنه على ملة إبراهيم ويأبى عن إتباع اليهودية والنصرانية ، فكيف ترك قبلة إبراهيم واستقبل بيت المقدس ؟ ولأنه قد تكررت الإشارة في الآيات السابقة إلى هذا الغرض بقوله : ﴿ ولله المشرق والمغرب ﴾ [البقرة : 115] . وقوله :

﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم ﴾ [البقرة: 120] كما ذكرناه هنالك ، وقد علم الله ذلك منهم فأنبأ رسوله بقولهم وأتى فيه بهذا الموقع العجيب وهو أن جعله بعد الآيات المثيرة له وقبل الآيات التي أُنزلت إليه في نسخ استقبال بيت المقدس والأمر بالتوجه في الصلاة إلى جهة الكعبة ، لئلا يكون القرآن الذي فيه الأمر باستقبال الكعبة نازلاً بعد مقالة المشركين فيشمخوا بأنوفهم يقولون غيَّر محمد قبلته من أجل اعتراضنا عليه فكان لموضع هذه الآية هنا أفضل تمكن وأوثق ربط ، وبهذا يظهر وجه نزولها قبل آية النسخ وهي قوله : ﴿ قد نرى تقلب وجهك في السماء ﴾ [البقرة: 144] الآيات ، لأن مقالة المشركين أو توقُّعَها حاصل قبل نسخ استقبال بيت المقدس وناشىء عن التنويه بملة إبراهيم والكعبة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 2 صـ 6.5 ﴾

سؤال : فيمن نزلت هذه الآية ؟

اختلف المفسرون فيمن نزلت هذه الآية فقيل : نزلت هذه الآية في اليهود وذلك أنهم طعنوا في تحويل القبلة عن بيت المقدس إلى الكعبة لأنهم لا يرون النسخ . وقيل : نزلت في مشركي مكة وذلك أنهم قالوا قد تردد على محمد أمره واشتاق مولده ، وقد توجه إلى نحو بلدكم

فلعله يرجع إلى دينكم وقيل نزلت في المنافقين وإنما قالوا ذلك استهزاء بالإسلام وقيل : يحتمل أن لفظ السفهاء للعموم فيدخل فيه جميع الكفار والمافقين واليهود ويحتمل وقوع هذا الكلام من كلهم إذ لا فائدة في التخصيص ، ولأن الأعداء يبالغون في الطعن والقدح فإذا وجدوا مقالاً قالوا أو مجالاً جالوا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 1 صـ 117 ﴾

أما قوله : ﴿ سَيَقُولُ السفهاء ﴾ ففيه قولان . الأول – وهو اختيار القفال – : أن هذا اللفظ وإن كان للمستقبل ظاهراً لكنه قد يستعمل في الماضي أيضاً ، كالرجل يعمل عملاً فيطعن فيه بعض أعدائه فيقول : أنا أعلم أنهم سيطعنون علي فيما فعلت ، ومجاز هذا أن يكون القول فيما يكرر ويعاد ، فإذا ذكروه مرة فسيذكرونه بعد ذلك مرة أخرى ، فصح على هذا التأويل أن يقال : سيقول السفهاء من الناس ذلك ، وقد وردت الأخبار أنهم لما قالوا ذلك نزلت الآية . القول الثاني : إن الله تعالى أخبر عنهم قبل أن ذكروا هذا الكلام أنهم سيذكرونه وفيه فوائد . أحدها : أنه عليه الصلاة والسلام إذا أخبر عن ذلك قبل وقوعه ، كان هذا إخباراً عن الغيب فيكون معجزاً . وثانيها : أنه تعالى إذا أخبر عن ذلك أولاً ثم سمعه منهم ، فإنه يكون تأذية من هذا الكلام أقل مما إذا سمعه منهم أولاً . وثالثها : أن الله تعالى إذا أسمعه ذلك أولاً ثم ذكر جوابه معه فحين يسمعه النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ منهم يكون الجواب حاضراً ، فكان ذلك أولى مما إذا سمعه ولا يكون الجواب حاضراً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ4صـ 83 ﴾

وقال فى التحرير والتنوير :

ووجه فصل هذه الآية عما قبلها بدون عطف ، اختلافُ الغرض عن غرض الآيات السابقة فهي استئناف محض ليس جواباً عن سؤال مقدر .

والأولى بقاء السين على معنى الاستقبال إذ لا داعي إلى صرفه إلى معنى المضي وقد علمتم الداعي إلى الإخبار به قبل وقوعه منهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 2 صـ 7 ﴾

فائدة فى معنى السفه

إن من لا يميز بين ما له وعليه ، ويعدل عن طريق منافعه إلى ما يضره ، يوصف بالخفة والسفه ، ولا شك أن الخطأ في باب الدين أعظم مضرة منه في باب الدنيا فإذا كان العادل عن الرأي الواضح في أمر دنياه يعد سفيهاً ، فمن يكون كذلك في أمر دينه كان أولى بهذا الاسم فلا كافر إلا وهو سفيه فهذا اللفظ يمكن حمله على اليهود ، وعلى المشركين وعلى المنافقين ، وعلى جملتهم . أهـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ4صـ 83 ﴾

وقال البقاعى :

قال : ﴿ السفهاء ﴾ ولم يقل : سيقولون ، إظهاراً للوصف الذي استخفهم إلى هذا القول الظاهر عواره لأهل كل دين والسفيه الذي يعمل بغير دليل ، إما بأن لا يلتفت إلى دليل فلا يتوقف إلى أن يلوح له بل يتبع هواه ، أو يرى غير الدليل دليلاً ، وأكد الوصف بالطيش بقوله : ﴿ من الناس ﴾ المأخوذ من النوس وهو التحرك ، دون أن يقول : من أهل الكتاب ، أو بني إسرائيل – ونحو ذلك تصريحاً بذمهم وتعميماً لكل من مالأهم على ذلك ﴿ ما ولاهم ﴾ ولم يقولوا : مَن ، زيادة في الأذى بالاحتقار ﴿ عن قبلتهم ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 260 ﴾

(13/69)

سؤال : لم سماهم سفهاء ؟

الجواب : تسميتهم سفهاء ناظر إلى قوله فيما مضى عمن نافق منهم ومن غيرهم ﴿ ألا إنهم هم السفهاء ﴾ [البقرة : 13] ، لأنهم وإن كانوا مصارحين بالكفر فاسم النفاق منطبق عليه من جهة أخرى وهو أنهم أظهروا الكفر وأبطنوا معرفة الإيمان ، أظهروا التكذيب وأبطنوا ما هم عارفون به من صدقه ، وأيضاً فإذا كان المنافقون الذين أظهروا حسناً

سفهاء لما أبطنوه من القبيح فالذين عمهم القبح ظاهراً وباطناً أسفه : وإلى قوله قريباً ﴿ ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ﴾ [البقرة : 130] لما تقرر من مخالفتهم له وإن ادعوا الموافقة . أهـ

﴿ نظم الدرر حـ1 صـ 260 ﴾

وقال فى التحرير والتنوير :

وفائدة وصفهم بأنهم من الناس مع كونه معلوماً هو التنبيه على بلوغهم الحد الأقصى من السفاهة بحيث لا يوجد في الناس سفهاء غير هؤلاء فإذا قسم نوع الإنسان أصنافاً كان هؤلاء صنف السفهاء فيفهم أنه لا سفيه غيرهم على وجه المبالغة ، والمعنى أن كل من صدر منه هذا القول هو سفيه سواء كان القائل اليهود أو المشركين من أهل مكة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 2 صـ 7 ﴾

سؤال : لماذا سميت القبلة بهذا الاسم ؟

الجواب : إنما سميت قبلة لأن المصلي يقابلها وتقابله . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 1 صـ 117 ﴾

سؤال : لم أضيفت القبلة إلى ضمير المسلمين فى قوله تعالى ﴿ عَنْ قِبْلَتِهِمُ ﴾ ؟

الجواب : إضافة القبلة إلى ضمير المسلمين للدلالة على مزيد اختصاصها بهم إذ لم يستقبلها غيرهم من الأمم لأن المشركين لم يكونوا من المصلين وأهل الكتاب لم يكونوا يستقبلون في

صلاتهم ، وهذا مما يعضد حمل " السفهآء" على المشركين إذ لو أريد بهم اليهود لقيل عن قبلتنا إذ لا يرضون أن يضيفوا تلك القبلة إلى المسلمين ، ومن فسر " السفهآء" باليهود ونسب إليهم استقبال بيت المقدس حَمَل الإضافة على أدنى ملابسة لأن المسلمين استقبلوا تلك القبلة مدة سنةٍ وأشهرٍ فصارت قبلة لهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 2 صـ 8. 9 ﴾

(14/69)

فائدة

اعلم أن اليهود يستقبلون بيت المقدس وليس هذا الاستقبال من أصل دينهم لأن بيت المقدس إنما بني بعد موسى ـ عليه السلام ـ بناه سليمان ـ عليه السلام ـ ، فلا تجد في أسفار " التوراة" الخمسة ذكراً لاستقبال جهة معينة في عبادة الله تعالى والصلاة والدعاء ، ولكن سليمان ـ عليه السلام ـ هو الذي سنّ استقبال بيت المقدس ففي سفر الملوك الأول : أن سليمان لما أتم بناء بيت المقدس جمع شيوخ إسرائيل وجمهورهم ووقف أمام المذبح في بيت المقدس وبسط يديه ودعا الله دعاء جاء فيه : " إذا انكسر شعبُ إسرائيل أمام العدو ثم رجعوا واعترفوا وصلوا نحو هذا البيت فأرجعهم إلى الأرض التي أعطيت لآبائهم وإذا

خرج الشعب لمحاربة العدو وصلَّوا إلى الرب نحو المدينة التي اخترتَها والبيتِ الذي بنيتُه لاسمك فاسمعْ صلاتهم وتضرعهم " إلخ ، وذكر بعد ذلك أن الله تجلّى لسليمان وقال له " قد سمعتُ صلاتك وتضرعك الذي تضرعتَ به أمامي "

وهذا لا يدل على أن استقبال بيت المقدس شرط في الصلاة في دين اليهود وقصاراه الدلالة على أن التوجه نحو بيت المقدس بالصلاة والدعاء هيئة فاضلة ، فلعل بني إسرائيل التزموه لا سيما بعد خروجهم من بيت المقدس أو أن أنبياءهم الموجودين بعد خروجهم أمروهم بذلك بوحي من الله .

وأما النصارى فإنهم لم يقع في إنجيلهم تغيير لما كان عليه اليهود في أمر الاستقبال في الصلاة ولا تعيين جهة معينة ولكنهم لما وجدوا الروم يجعلون أبواب هياكلهم مستقبلة لمشرق الشمس بحيث تدخل أشعة الشمس عند طلوعها من باب الهيكل وتقع على الصَّنم صاحب الهيكل الموضوع في منتهى الهيكل عكسوا ذلك فجعلوا أبواب الكنائس إلى الغرب وبذلك يكون المذبح إلى الغرب والمصلون مستقبلين الشرق ، وذكر الخفاجي أن بولس هو الذي أمرهم بذلك ، فهذه حالة النصارى في وقت نزول الآية ثم إن النصارى من العصور الوسطى

إلى الآن توسعوا فتركوا استقبال جهة معينة فلذلك تكون كنائسهم مختلفة الاتجاه وكذلك المذابح المتعددة في الكنيسة الواحدة. انتهى انتهى. اهـ ﴿التحرير والتنوير حـ 2 صـ 9. 10. باختصار يسير﴾

فوائد

اختلف العلماء هل كانت صلاة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى بيت المقدس بأمر من الله تعالى في القرآن أو بوحي غير متلو ؟ ، فذكر ابن فورك عن ابن عباس قال : أول ما نسخ من القرآن القبلة ، وقال الجمهور : بل كان أمر قبلة بيت المقدس بوحي غير متلو ، وقال الربيع : خُيِّر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في النواحي فاختار بيت المقدس ، ليستألف بها أهل الكتاب ، ومن قال كان بوحي غير متلو قال : كان ذلك ليختبر الله تعالى من آمن من العرب ، لأنهم كانوا يألفون الكعبة وينافرون بيت المقدس وغيره .

واختلف كم صلى إلى بيت المقدس ، ففي البخاري : ستة عشر أو سبعة عشر شهراً ، وروي عن أنس بن مالك : تسعة أو عشرة أشهر ، وروي عن غيره : ثلاثة عشرة شهراً ، وحكى مكي عن إبراهيم بن إسحاق أنه قال : أول أمر الصلاة أنها فرضت بمكة ركعتين

في أول النهار وركعتين في آخر ، ثم كان الإسراء ليلة سبع عشرة من شهر ربيع الآخر ، قبل الهجرة بسنة ، ففرضت الخمس ، وأَمّ فيها جبريل ـ عليه السلام ـ ، وكانت أول صلاة الظهر ، وتوجه بالنبي صلى الله عليهما وسلم إلى بيت المقدس ، ثم هاجر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى المدينة في ربيع الأول ، وتمادى إلى بيت المقدس إلى رجب من سنة اثنتين ، وقيل إلى جمادى ، وقيل إلى نصف شعبان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 1 صـ 218 ﴾

قوله تعالى : ﴿ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمْ . . . ﴾

سؤال : لم عبر بلفظ الغيبة فى قوله تعالى ﴿ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمْ . . . ﴾

عبر بلفظ الغيبة إشارة إلى أنّهم قالوا ذلك فيما بينهم ولم يباشروا به المؤمنين بوجه ، وهذا مرجح لأن تكون المقالة من المنافقين .

قال العلامة ابن العربي في القبس : إن هذا مما نسخ ثلاث مرات وليس في القرآن ما نسخ ثلاث مرات غيره .

قال ابن عرفة : يريد أنه كان يصلي لبيت المقدس ثم نسخ بالصلاة للكعبة ، ثم نسخ فصلى لبيت المقدس ثم نسخ فصلى للكعبة وقيل : كان يصلي لمكّة ثم صلى لبيت المقدس ثم صلى لمكة فيجيء التحويل ثلاث مرات والنسخ مرتين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عرفة حـ 2 صـ 450 ﴾

قوله تعالى ﴿ قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ﴾

قال الفخر :

أما قوله تعالى : ﴿ قُل لِّلَّهِ المشرق والمغرب ﴾ فاعلم أن هذا هو الجواب الأول عن تلك الشبهة ، وتقريره أن الجهات كلها لله ملكاً وملكاً ، فلا يستحق شيء منها لذاته أن يكون قبلة ، بل إنما تصير قبلة لأن الله تعالى جعلها قبلة ، وإذا كان الأمر كذلك فلا اعتراض عليه بالتحويل من جهة إلى جهة أخرى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 4 صـ 85 ﴾

(17/69)

وقال صاحب التحرير والتنوير :

وقوله : ﴿ قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ جواب قاطع معناه أن الجهات كلها سواء في أنها مواقع لبعض المخلوقات المعظمة فالجهات ملك لله تبعاً للأشياء الواقعة فيها المملوكة له ، وليست مستحقة للتوجه والاستقبال استحقاقاً ذاتياً .

وذكر المشرق والمغرب مراد به تعميم الجهات كما تقدم عند قوله تعالى : ﴿ ولله المشرق والمغرب ﴾ [البقرة : 115] ، ويجوز أن يكون المراد من المشرق والمغرب الكناية عن الأرض كلها لأن اصطلاح الناس أنهم يقسمون الأرض إلى جهتين شرقية وغربية بحسب

مطلع الشمس ومغربها ، والمقصود أن ليس لبعض الجهات اختصاص بقرب من الله تعالى لأنه منزه عن الجهة وإنما يكون أمره باستقبال بعض الجهات لحكمة يريدها كالتيمن أو التذكر فلا بدع في التولي لجهة دون أخرى حسب ما يأمر به الله تعالى ، فقوله تعالى : ﴿ قل لله المشرق والمغرب ﴾ ، إشارة إلى وجه صحة التولية إلى الكعبة . أ هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 2صـ 12 ﴾

سؤال : لم نكر الصراط ؟

تنكير الصراط لأن الصراط يختلف باختلاف الأمم في استعداداتها للهداية إلى الكمال والسعادة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الميزان حـ 1صـ 319 ﴾

فائدة

قال القرطبى :

دلّت الآية على جواز نسخ السُّنة بالقرآن ؛ وذلك أن النبيّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ صلّى نحو بيت المقدس ؛ وليس في ذلك قرآن ، فلم يكن الحُكم إلا من جهة السُّنة ثم نسخ ذلك بالقرآن ؛ وعلى هذا يكون : ﴿ كُنتَ عَلَيْهَآ ﴾ بمعنى أنت عليها .

أهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 2صـ 151 ﴾

لطيفة

قال بعض العارفين : (لي أربعون سنة ما أقامني الحق في شيء فكرهته ، ولا نقلني إلى غيره فسخطته) . بخلاف السفهاء من الجهال ، فشأنهم الإنكار عند اختلاف الأحوال ، فمن رأوه تجرد عن الأسباب وانقطع إلى الكريم الوهاب ، قالوا : ما ولاَّه عن حاله الذي كان عليه ؟ وأكثروا من الاعتراض والانتقاد عليه ، وكذلك من رأوه رجع إلى الأسباب بعد الكمال ، قالوا : قد انحط عن مراتب الرجال . وهو إنما زاد في مراتب الكمال . فالملك كله لله ، يهدي مَن يشاء إلى الصراط مستقيم ، ويضلّ مَن يشاء بعدله الحكيم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المديد حـ 2 صـ 174

من أسرار تغيير القبلة

تغيير القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة أثار لدى الجميع تساؤلات عديدة ، أولئك الذين قالوا إن الأحكام ينبغي أن تبقى ثابتة راحوا يتساءلون عن سبب هذا التغيير ، فلو كانت القبلة الصحيحة هي الكعبة ، فلماذا لم يؤمر المسلمون بالصلاة نحوها منذ البدء ، وإن كانت بيت المقدس فلِمَ هذا التغيير ؟ !

وأعداء الإسلام وجدوا الفرصة سانحة لبث سمومهم ولإعلامهم المضّاد . قالوا : إن تغيير القبلة تمّ بدافع عنصري ، وزعموا أن النّبي اتجه أوّلا إلى قبلة الأنبياء السابقين ، ثم عاد إلى

قبلة قومه بعد تحقيق انتصاراته ! وقالوا : إن محمّداً (صلى الله عليه وآله وسلم) أراد استعطاف أهل الكتاب باتخابه بيت المقدس قبلة له ، ولما يئس منهم استبدل الكعبة بها .

واضح مدى القلق والاضطراب الذي تتركه هذه الوساوس على مجتمع لم يتغلغل نور العلم والإيمان في كل زواياه ، ولم يتخلص بعد تماماً من رواسب الشرك والعصبية .

لذلك تصرّح الآية أعلاه أن تغيير القبلة اختبار كبير لتمييز المؤمنين من المشركين .

لا نستبعد أن يكون أحد أسباب تغيير القبلة مايلي :

لما كانت الكعبة في بداية البعثة المباركة بيتاً لأصنام المشركين ، فقد أُمر المسلمون مؤقتاً بالصلاة تجاه بيت المقدس ، ليتحقّق الانفصال التام بين الجبهة الإسلامية وجبهة المشركين .

وبعد الهجرة وإقامة الدولة الإسلامية والمجتمع الإسلامي ، حدث الانفصال الكامل بين الجبهتين ، ولم تعد هناك ضرورة لاستمرار وضع القبلة ، حينئذ عاد المسلمون إلى الكعبة أقدم قاعدة توحيدية ، وأعرق مركز للأنبياء .

ومن الطبيعي أن يستثقل الصلاة نحو بيت المقدس لأولئك الذين كانوا يعتبرون الكعبة

الرصيد المعنوي لقوميتهم ، وأن يستثقلوا أيضاً العودة إلى الكعبة بعد أن اعتادوا على قبلتهم الأولى (بيت المقدس) .

المسلمون بهذا التحوّل وُضعوا في بوتقة الاختبار ، لتخليصهم ممّا علّق في نفوسهم من آثار الشرك ، ولتنقطع كل انشداداتهم بماضيهم المشرك ، ولتنمو في وجودهم روح التسليم المطلق أمام أوامر الله سبحانه .

إن الله سبحان ليس له مكان ومحل - كما ذكرنا - والقبلة رمز لوحدة صفوف المسلمين ولإحياء ذكريات خط التوحيد ، وتغييرها لا يغيّر شيئاً ، المهم هو الاستسلام الكامل أمام الله ، وكسر أوثان التعصب واللجاج والأنانية في النفوس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الأمثل حـ 1 صـ 408 . 409 ﴾

كلمة العلم الحديث فى إثبات توسط مكة المكرمة لليابسة :

في دراسة علمية دقيقة لتحديد اتجاهات القبلة من المدن الرئيسية في العالم , أثبت الأستاذ الدكتور حسين كمال الدين (رحمه الله رحمة واسعة) تمركز مكة المكرمة في قلب دائرة تمر بأطراف جميع القارات , أي أن اليابسة موزعة حول مكة المكرمة توزيعا منتظما ,

واستنتج من ذلك أن هذه المدينة المباركة تعتبر مركزا لليابسة .

ثالثا : انتفاء الانحراف المغناطيسي علي مسار خط طول مكة المكرمة :

كذلك أثبت هذا العالم المصري الجليل (الذي نسأل الله تعالي له الرحمات) أن الأماكن التي تشترك مع مكة المكرمة في نفس خط الطول (39.817 درجة شرقا) تقع جميعها في الإسقاط الذي قام به علي خط مستقيم هو خط الشمال ـ الجنوب الجغرافي , بمعني انعدام الانحراف المغناطيسي علي طول هذا الخط , مع وجوده علي باقي خطوط الطول الأخري , وهي ميزة ينفرد بها خط طول مكة المكرمة .

هذه الخصوصية لا (ولم) تمنع تعرض تلك الأرض المباركة لبعض التغيرات المناخية التي تسبب هطول الأمطار الموسمية بغزارة علي ندرة حدوث ذلك , وقد تصاحب هذه الأمطار الغزيرة بالسيول الجارفة التي طاف فيها بعض الطائفين حول الكعبة المشرفة سباحة .

بعض الشواهد الإسلامية علي كرامة الحرم المكي

في عشرات الآيات

يقابل القرآن الكريم الأرض (علي ضآلتها النسبية) بالسماء (علي اتساعها المذهل) , وهذه المقابلة لابد أنها متعلقة بوضع خاص للأرض بالنسبة إلي السماء .

* يذكر القرآن الكريم تعبير السماوات والأرض وما بينهما في عشرين آية قرآنية صريحة ,

وهذه البينية لا تتم إلا إذا كانت الأرض في مركز السماوات , أي في مركز الكون .

* يؤكد هذا الوضع (قرآنيا) قول الحق (تبارك وتعالى) في سورة الرحمن :

يامعشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان (الرحمن : 33) .

وذلك لأن قطر أي شكل هندسي هو الخط الواصل بين طرفيه مرورا بمركزه , فإذا انطبقت أقطار السماوات (مع ضخامتها النسبية) مع أقطار الأرض (علي ضآلتها النسبية) فلابد أن تكون الأرض في مركز السماوات .

* إثبات الأستاذ الدكتور حسين كمال الدين (رحمه الله رحمة واسعة) توسط مكة المكرمة لليابسة , وإثبات وجود الأرضين السبع كلها في أرضنا , انطلاقا من حديث سيد المرسلين (عليه أفضل الصلاة وأزكي التسليم) الذي قال فيه : من أخذ شيئا من الأرض بغير حقه خسف به يوم القيامة إلي سبع أرضين ومن دراسات التركيب الداخلي للأرض ثبت ذلك , مما ينطبق وقول رسول الله (صلي الله عليه وسلم) : إن الحرم حرم مناء من السماوات السبع والأرضين السبع , وقوله (صلي الله عليه وسلم) : يامعشر قريش ,

يامعشر أهل مكة , إنكم بجذاء وسط السماء , وأقل الأرض ثيابا , فلا تتخذوا المواشي .

وقوله (صلي الله عليه وسلم) : البيت المعمور منا مكة . ووصفه البيت المعمور بأنه بيت في السماء السابعة علي حيال الكعبة تماما حتي لو خر لخر فوقها .

كل ذلك يؤكد لنا أن الأرض في مركز الكون , وأن الكعبة المشرفة في مركز الأرض الأولي , ودونها ست أرضين , وحولها سبع سماوات , والكعبة تحت البيت المعمور مباشرة , والبيت المعمور

تحت العرش , هذا الموقع المتميز للحرم المكي أعطاه من الشرف والكرامة , والبركة والعناية الإلهية ما جعل من هذا الوصف القرآني : . . . ومن دخله كان آمنا حقيقة مدركة ملموسة لأنه دخل في أمان الله وظل عرشه , وهل يمكن أن يضام من نال شرف التواجد في هذا المكان ؟ ؟

من هنا كان اختيار الحرم المكي ليكون أول بيت عبد الله (تعالي) فيه علي الأرض , وجعله قبلة للمسلمين , ومقصدا لحجهم واعتمارهم , وجعل الصلاة فيه بمائة ألف صلاة , والحسنة فيه بمائة ألف حسنة , لذلك قال رسول الله (صلي الله عليه وسلم) في حق مكة

المكرمة عشرات الأحاديث النبوية الشريفة التي تؤكد خصوصية المكان , ومكانته عند الله (سبحانه وتعالي) ومنها قوله (عليه أفضل الصلاة وأزكي التسليم) :

هذا البيت دعامة الإسلام , من خرج يؤم هذا البيت من حاج أو معتمر كان مضمونا علي الله إن قبضه أن يدخله الجنة , وإن رده أن يرده بأجر وغنيمة .

فسبحان الذي اختار مكة المكرمة موقعا لأول بيت عبد فيه في الأرض , واختاره بهذه المركزية من الكون , وغمره بالكرامات والبركات , وقرر أن من دخله كان آمنا , وهذه حقائق ما كان للإنسان أن يدركها لولا نزول القرآن الكريم , وحفظه بلغة وحيه بحفظ الرحمن الرحيم , فالحمد لله علي نعمة الإسلام , والحمد لله علي نعمة مكة المكرمة , والحمد لله علي نعمة القرآن , والحمد لله علي بعثة خاتم الأنبياء والمرسلين الذي قال فيه ربه (تبارك وتعالي) :

يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا * وداعيا إلي الله بإذنه وسراجا منيرا * (الأحزاب : 46,45)

فصلي الله وسلم وبارك عليه وعلي آله وصحبه , ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلي يوم الدين , والحمد لله رب العالمين .

أهـ ﴿ الإعجاز العلمى فى القرآن ـ للدكتور زغلول النجار ﴾

الطواف حول الكعبة

فرض الله الحج والعمرة بمكة المكرمة خاصة جعلها الله تعالى فيها .

ومن كرامات هذا المكان أن الله قد اختصه بأن يكون أول مكان يعبد فيه الله على الأرض ، وفي كلا الشعيرتين .

الحج والعمرة يطالب المسلم بالطواف حول البيت الحرام سبعة أشواط بدءاً من الحجر الأسود وانتهاءً بالحجر الأسود ، وهذا الطواف يتم في عكس عقارب الساعة ، وهو نفس اتجاه الدوران الذي تتم به حركة الكون من ادق دقائقه إلى أكبر وحداته ، فالإلكترون يدور حول نفسه ، ثم يدور حول نواة الذرة في نفس اتجاه الطواف عكس عقارب الساعة ، والذرات في داخل السوائل المختلفة تتحرك حركة موجبة .

حتى في داخل كل خلية حية تتحرك حركة دائرية ، البروتوبلازم يتحرك حركة دائرية في نفس الاتجاه الأرض تدور حول الشمس والقمر يدور حول الأرض ، والمجموعات الشمسية تدور حول مركز المجرة ، والمجرة تدور حول مركز تجمع مجري ، والتجمع المجري يدور حول مركز الكون لا يعلمه إلا الله عكس عقارب الساعة .

وكذلك أن البيضة عندما تخرج من المبيض إلى قناة الرحم ، قناة (فالوب) في رحلتها إلى الانغراس في بطانة الرحم تدور حول محورها بعكس اتجاه عقرب الساعة وهي تحيطها

الحيوانات المنوية في دوران عكس اتجاه عقرب الساعة ، مثل دوران الحجيج أو الطواف حول الكعبة ومن الغريب أيضاً في كافة أجسام الكائنات الحية وهي تتكون من البروتينات وهي جزيئات معقدة للغاية لبناتها الأحماض الأمينية ، وهي مكونة من خمسة عناصر (الكربون ـ الهيدروجين ـ الأكسجين ـ الكبريت ـ النتروجين) هذه العناصر تترتب حول ذرة الكربون تترتب ترتيباً يسارياً أي نفس اتجاه الطواف حول الكعبة . انتهى انتهى . ا هـ ﴾ من آيات الإعجاز في القرآن الكريم للدكتور زغلول النجار ﴾

(24/69)

من فوائد الإمام الجصاص فى الآية

قال رحمه الله :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنْ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمْ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ﴾ قَالَ أَبُو بَكْرٍ : لَمْ يَخْتَلِفْ الْمُسْلِمُونَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يُصَلِّي بِمَكَّةَ إلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَبَعْدَ الْهِجْرَةِ مُدَّةً مِنْ الزَّمَانِ ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالْبَرَاءُ بْنُ عَازِبٍ : " كَانَ التَّحْوِيلُ إلَى الْكَعْبَةِ بَعْدَ مَقْدَمِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِسَبْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا " .

وَقَالَ قَتَادَةُ : " لِسِتَّةَ عَشَرَ " وَرُوِيَ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّهُ تِسْعَةُ أَشْهُرٍ أَوْ عَشَرَةُ أَشْهُرٍ ، ثُمَّ

أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِالتَّوَجُّهِ إِلَى الْكَعْبَةِ وَقَدْ نَصَّ اللَّهُ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ عَلَى أَنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ إِلَى غَيْرِ الْكَعْبَةِ ثُمَّ حَوَّلَهَا إِلَيْهَا بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنْ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمْ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ﴾ الْآيَةَ ، وقَوْله تَعَالَى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ ﴾ وقَوْله تَعَالَى : ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ﴾ .

فَهَذِهِ الْآيَاتُ كُلُّهَا دَالَّةٌ عَلَى أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ كَانَ يُصَلِّي إلَى غَيْرِ الْكَعْبَةِ وَبَعْدَ ذَلِكَ حَوَّلَهُ إلَيْهَا وَهَذَا يُبْطِلُ قَوْلَ مَنْ يَقُولُ : لَيْسَ فِي شَرِيعَةِ النَّبِيِّ نَاسِخٌ وَلَا مَنْسُوخٌ ثُمَّ اُخْتُلِفَ فِي تَوَجُّهِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ هَلْ كَانَ فَرْضًا لَا يَجُوزُ غَيْرُهُ أَوْ كَانَ مُخَيَّرًا فِي تَوَجُّهِهِ إلَيْهَا وَإِلَى غَيْرِهَا .

فَقَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ "كَانَ مُخَيَّرًا فِي ذَلِكَ" وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : "كَانَ الْفَرْضُ التَّوَجُّهُ إلَيْهِ بِلَا تَخْيِيرٍ" .

وَأَيُّ الْوَجْهَيْنِ كَانَ فَقَدْ كَانَ التَّوَجُّهُ فَرْضًا لِمَنْ يَفْعَلُهُ ؛ لِأَنَّ التَّخْيِيرَ لَا يُخْرِجُهُ مِنْ أَنْ يَكُونَ فَرْضًا كَكَفَّارَةِ الْيَمِينِ

أَيُّهَا كَفَّرَ بِهِ فَهُوَ الْفَرْضُ ، وَكَفِعْلِ الصَّلَاةِ فِي أَوَّلِ الْوَقْتِ وَأَوْسَطِهِ وَآخِرِهِ وَحَدَّثَنَا جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ الْيَمَانِ قَالَ : حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ صَالِحٍ ، عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ صَالِحٍ ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : " أَوَّلُ مَا نُسِخَ مِنَ الْقُرْآنِ شَأْنُ الْقِبْلَةِ ، وَذَلِكَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا هَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَسْتَقْبِلَ بَيْتَ الْمَقْدِسِ ، فَفَرِحَتِ الْيَهُودُ بِذَلِكَ ، فَاسْتَقْبَلَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِضْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا .

وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحِبُّ قِبْلَةَ أَبِيهِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَيَدْعُو اللَّهَ تَعَالَى وَيَنْظُرُ إِلَى السَّمَاءِ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ﴾ الْآيَةَ " وَذَكَرَ الْقِصَّةَ فَأَخْبَرَ ابْنُ عَبَّاسٍ أَنَّ الْفَرْضَ كَانَ التَّوَجُّهَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَأَنَّهُ نُسِخَ بِهَذِهِ الْآيَةِ وَهَذَا لَا دَلَالَةَ فِيهِ عَلَى قَوْلِ مَنْ يَقُولُ : إِنَّ الْفَرْضَ كَانَ التَّوَجُّهَ إِلَيْهِ بِلَا تَخْيِيرٍ ؛ لِأَنَّهُ جَائِزٌ أَنْ يَكُونَ كَانَ الْفَرْضُ عَلَى وَجْهِ التَّخْيِيرِ وَوَرَدَ النَّسْخُ عَلَى التَّخْيِيرِ وَقُصِرُوا عَلَى التَّوَجُّهِ إِلَى الْكَعْبَةِ بِلَا تَخْيِيرٍ ، وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ النَّفَرَ الَّذِينَ قَصَدُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْمَدِينَةِ إِلَى مَكَّةَ لِلْبَيْعَةِ قَبْلَ الْهِجْرَةِ كَانَ فِيهِمُ الْبَرَاءُ بْنُ مَعْرُورٍ ، فَتَوَجَّهَ بِصَلَاتِهِ إِلَى الْكَعْبَةِ فِي طَرِيقِهِ وَأَبَى الْآخَرُونَ وَقَالُوا : إِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَوَجَّهُ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ ، فَلَمَّا قَدِمُوا مَكَّةَ

سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ ذَلِكَ ، فَقَالُوا لَهُ ، فَقَالَ : " قَدْ كُنْت عَلَى قِبْلَةٍ يَعْنِي بَيْتَ الْمَقْدِسِ لَوْ ثَبَتَّ عَلَيْهَا أَجْزَأَكَ " وَلَمْ يَأْمُرْهُ بِاسْتِئْنَافِ الصَّلَاةِ .

فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُمْ

كَانُوا مُخَيَّرِينَ وَإِنْ كَانَ اخْتَارَ التَّوَجُّهَ إلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ .

فَإِنْ قِيلَ : قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : " إنَّ ذَلِكَ أَوَّلُ مَا نُسِخَ مِنْ الْقُرْآنِ الْأَمْرُ بِالتَّوَجُّهِ إلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ " .

قِيلَ لَهُ جَائِزٌ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ مِنْ الْقُرْآنِ الْمَنْسُوخِ التِّلَاوَةَ .

وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ : ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنْ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمْ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ﴾ وَكَانَ نُزُولُ ذَلِكَ قَبْلَ النَّسْخِ وَفِيهِ إخْبَارٌ بِأَنَّهُمْ عَلَى قِبْلَةٍ غَيْرُهَا ، وَجَائِزٌ أَنْ يُرِيدَ أَوَّلَ مَا نَسَخَ مِنْ الْقُرْآنِ فَيَكُونُ مُرَادُهُ النَّاسِخَ مِنْ الْقُرْآنِ دُونَ الْمَنْسُوخِ .

وَرَوَى ابْنُ جُرَيْجٍ عَنْ عَطَاءٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : " أَوَّلُ مَا نُسِخَ مِنْ الْقُرْآنِ شَأْنُ الْقِبْلَةِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنْ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمْ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ﴾ إلَى قَوْلِهِ : ﴿ فَوَلِّ

وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ وَهَذَا الْخَبَرُ يَدُلُّ عَلَى مَعْنَيَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّهُمْ كَانُوا مُخَيَّرِينَ فِي التَّوَجُّهِ إِلَى حَيْثُ شَاءُوا .

وَالثَّانِي : أَنَّ الْمَنْسُوخَ مِنْ الْقُرْآنِ هَذَا التَّخْيِيرِ الْمَذْكُورِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِقَوْلِهِ : ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ وَقَوْله تَعَالَى : ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنْ النَّاسِ ﴾ قِيلَ فِيهِ : إنَّهُ أَرَادَ بِذِكْرِ السُّفَهَاءِ هَاهُنَا الْيَهُودَ فَإِنَّهُمْ الَّذِينَ عَابُوا تَحْوِيلَ الْقِبْلَةِ ، وَرُوِيَ ذَلِكَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَالْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ .

وَأَرَادُوا بِهِ إنْكَارَ النَّسْخِ ؛ لِأَنَّ قَوْمًا مِنْهُمْ لَا يَرَوْنَ النَّسْخَ .

وَقِيلَ إنَّهُمْ قَالُوا : يَا مُحَمَّدُ مَا وَلَّاكَ عَنْ قِبْلَتِك الَّتِي كُنْت عَلَيْهَا ؟ ارْجِعْ إلَيْهَا نَتَّبِعْك وَنُؤْمِنْ بِك وَإِنَّمَا أَرَادُوا فِتْنَتَهُ .

فَكَانَ إنْكَارُ الْيَهُودِ لِتَحْوِيلِهِ عَنْ الْقِبْلَةِ الْأُولَى إلَى الثَّانِيَةِ عَلَى أَحَدِ هَذَيْنِ الْوَجْهَيْنِ وَقَالَ الْحَسَنُ : ﴿ لَمَّا حُوِّلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلَى الْكَعْبَةِ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ قَالَ مُشْرِكُو الْعَرَبِ : يَا مُحَمَّدُ رَغِبْت عَنْ مِلَّةِ آبَائِك ثُمَّ رَجَعْت إلَيْهَا آنِفًا ، وَاَللَّهِ لَتَرْجِعَنَّ إلَى دِينِهِمْ ﴾ .

وَقَدْ بَيَّنَ اللَّهُ تَعَالَى الْمَعْنَى الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ نَقَلَهُمْ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ الْقِبْلَةِ الْأُولَى إلَى الثَّانِيَةِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ ﴾ وَقِيلَ : إنَّهُمْ كَانُوا أُمِرُوا بِمَكَّةَ أَنْ يَتَوَجَّهُوا إلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ لِيَتَمَيَّزُوا مِنْ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ كَانُوا بِحَضْرَتِهِمْ يَتَوَجَّهُونَ إلَى الْكَعْبَةِ ، فَلَمَّا هَاجَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلَى الْمَدِينَةِ كَانَتْ الْيَهُودُ الْمُجَاوِرُونَ لِلْمَدِينَةِ يَتَوَجَّهُونَ إلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ ، فَنُقِلُوا إلَى الْكَعْبَةِ لِيَتَمَيَّزُوا مِنْ هَؤُلَاءِ كَمَا تَمَيَّزُوا مِنْ الْمُشْرِكِينَ بِمَكَّةَ بِاخْتِلَافِ الْقِبْلَتَيْنِ ، فَاحْتَجَّ تَعَالَى عَلَى الْيَهُودِ فِي إنْكَارِهَا النَّسْخَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ وَجْهُ الِاحْتِجَاجِ بِهِ أَنَّهُ إذَا كَانَ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ لِلَّهِ فَالتَّوَجُّهُ إلَيْهِمَا سَوَاءٌ لَا فَرْقَ بَيْنَهُمَا فِي الْعُقُولِ ، وَاَللَّهُ تَعَالَى يَخُصُّ بِذَلِكَ أَيَّ الْجِهَاتِ شَاءَ عَلَى وَجْهِ الْمَصْلَحَةِ فِي الدِّينِ وَالْهِدَايَةِ إلَى الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ .

وَمِنْ جِهَةٍ أُخْرَى أَنَّ الْيَهُودَ زَعَمَتْ أَنَّ الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ أَوْلَى بِالتَّوَجُّهِ إلَيْهَا ؛ لِأَنَّهَا مِنْ مَوَاطِنِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمْ السَّلَامُ وَقَدْ شَرَّفَهَا تَعَالَى وَعَظَّمَهَا ، فَلَا وَجْهَ لِلتَّوَلِّي عَنْهَا .

فَأَبْطَلَ اللَّه قَوْلَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّ الْمَوَاطِنَ مِنْ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لِلَّهِ تَعَالَى يَخُصُّ مِنْهَا مَا يَشَاءُ فِي كُلِّ زَمَانٍ عَلَى حَسَبِ مَا

يَعْلَمُ مِنْ الْمَصْلَحَةِ فِيهِ لِلْعِبَادِ ؛ إذْ كَانَتْ الْمَوَاطِنُ بِأَنْفُسِهَا لَا تَسْتَحِقُّ التَّفْضِيلَ وَإِنَّمَا تُوصَفُ بِذَلِكَ عَلَى حَسَبِ مَا يُوجِبُ اللَّهُ تَعَالَى تَعْظِيمَهَا لِتَفْضِيلِ الْأَعْمَالِ فِيهَا .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : هَذِهِ الْآيَةُ يَحْتَجُّ بِهَا مَنْ يُجَوِّزُ نَسْخَ السُّنَّةِ بِالْقُرْآنِ ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يُصَلِّي إلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ ، وَلَيْسَ فِي الْقُرْآنِ ذِكْرُ ذَلِكَ ، ثُمَّ نُسِخَ بِهَذِهِ الْآيَةِ .

وَمَنْ يَأْبَى ذَلِكَ يَقُولُ ذَكَرَ ابْنُ عَبَّاسٍ أَنَّهُ نُسِخَ قَوْله تَعَالَى ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ فَكَانَ التَّوَجُّهُ إلَى حَيْثُ كَانَ مِنْ الْجِهَاتِ فِي مَضْمُونِ الْآيَةِ ، ثُمَّ نُسِخَ بِالتَّوَجُّهِ إلَى الْكَعْبَةِ قَالَ أَبُو بَكْرٍ : وَقَوْلُهُ : ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ لَيْسَ بِمَنْسُوخٍ عِنْدَنَا ، بَلْ هُوَ مُسْتَعْمَلُ الْحُكْمِ فِي الْمُجْتَهِدِ إذَا صَلَّى إلَى غَيْرِ جِهَةِ الْكَعْبَةِ وَفِي الْخَائِفِ وَفِي الصَّلَاةِ عَلَى الرَّاحِلَةِ .

وَقَدْ رَوَى ابْنُ عُمَرَ وَعَامِرُ بْنُ رَبِيعَةَ : أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي الْمُجْتَهِدِ إذَا تَبَيَّنَ أَنَّهُ صَلَّى إلَى غَيْرِ جِهَةِ الْكَعْبَةِ ، وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ أَيْضًا : أَنَّهُ فِيمَنْ صَلَّى عَلَى رَاحِلَتِهِ .

وَمَتَى أَمْكَنَنَا اسْتِعْمَالُ الْآيَةِ مِنْ غَيْرِ إيجَابِ نَسْخٍ لَهَا لَمْ يَجُزْ لَنَا الْحُكْمُ بِنَسْخِهَا .

وَقَدْ تَكَلَّمْنَا فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ فِي الْأُصُولِ بِمَا يُغْنِي وَيَكْفِي وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ حُكْمٌ آخَرُ ، وَهُوَ مَا رَوَى حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ عَنْ ثَابِتٍ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ : أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يُصَلِّي نَحْوَ الْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ فَنَزَلَتْ : ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ فَنَادَى مُنَادِي رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ قَدْ أُمِرْتُمْ أَنْ تُوَجِّهُوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ فَحَوَّلَتْ بَنُو سَلِمَةَ وُجُوهَهَا نَحْوَ الْبَيْتِ وَهُمْ رُكُوعٌ وَقَدْ رَوَى عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ مُسْلِمٍ ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ دِينَارٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ : ﴿ بَيْنَمَا النَّاسُ فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ بِقُبَاءَ ؛ إِذْ جَاءَهُمْ رَجُلٌ فَقَالَ : إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ أُنْزِلَ عَلَيْهِ قُرْآنٌ وَأُمِرَ أَنْ يَسْتَقْبِلَ الْكَعْبَةَ ، أَلَا فَاسْتَقْبِلُوهَا فَاسْتَدَارُوا كَهَيْئَتِهِمْ إِلَى الْكَعْبَةِ ، وَكَانَ وَجْهُ النَّاسِ إِلَى الشَّامِ ﴾ .

وَرَوَى إِسْرَائِيلُ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ عَنْ الْبَرَاءِ قَالَ : ﴿ لَمَّا صُرِفَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْكَعْبَةِ بَعْدَ نُزُولِ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ﴾ مَرَّ رَجُلٌ صَلَّى مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى نَفَرٍ مِنْ الْأَنْصَارِ وَهُمْ يُصَلُّونَ نَحْوَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ

فَقَالَ : إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ صَلَّى إِلَى الْكَعْبَةِ فَانْحَرَفُوا قَبْلَ أَنْ يَرْكَعُوا وَهُمْ فِي صَلَاتِهِمْ ﴾ .

(32/69)

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : وَهَذَا خَبَرٌ صَحِيحٌ مُسْتَفِيضٌ فِي أَيْدِي أَهْلِ الْعِلْمِ قَدْ تَلَقَّوْهُ بِالْقَبُولِ فَصَارَ فِي حَيِّزِ التَّوَاتُرِ الْمُوجِبِ لِلْعِلْمِ ، وَهُوَ أَصْلٌ فِي الْمُجْتَهِدِ إِذَا تَبَيَّنَ لَهُ جِهَةُ الْقِبْلَةِ فِي الصَّلَاةِ أَنَّهُ يَتَوَجَّهُ إِلَيْهَا وَلَا يَسْتَقْبِلُهَا ، وَكَذَلِكَ الْأَمَةُ إِذَا أُعْتِقَتْ فِي الصَّلَاةِ أَنَّهَا تَأْخُذُ قِنَاعَهَا وَتَبْنِي وَهُوَ أَصْلٌ فِي قَبُولِ خَبَرِ الْوَاحِدِ فِي أَمْرِ الدِّينِ ؛ لِأَنَّ الْأُنْصَارَ قَبِلَتْ خَبَرَ الْوَاحِدِ الْمُخْبِرِ لَهُمْ بِذَلِكَ فَاسْتَدَارُوا إِلَى الْكَعْبَةِ بِالنِّدَاءِ فِي تَحْوِيلِ الْقِبْلَةِ .

وَمِنْ جِهَةٍ أُخْرَى أَمَرَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ الْمُنَادِيَ بِالنِّدَاءِ فِي تَحْوِيلِ الْقِبْلَةِ ، وَلَوْلَا أَنَّهُمْ لَزِمَهُمْ قَبُولُ خَبَرِ الْوَاحِدِ لَمْ يَكُنْ لِأَمْرِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالنِّدَاءِ وَجْهٌ وَلَا فَائِدَةٌ .

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ : مِنْ أَصْلِكُمْ أَنَّ مَا يَثْبُتُ مِنْ طَرِيقٍ يُوجِبُ الْعِلْمَ لَا يَجُوزُ قَبُولُ خَبَرِ الْوَاحِدِ فِي رَفْعِهِ ، وَقَدْ كَانَ الْقَوْمُ مُتَوَجِّهِينَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ بِتَوْقِيفٍ مِنْ

النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِيَّاهُمْ عَلَيْهِ ثُمَّ تَرَكُوهُ إِلَى غَيْرِهِ بِخَبَرِ الْوَاحِدِ قِيلَ لَهُ : ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا عَلَى يَقِينٍ مِنْ بَقَاءِ الْحُكْمِ الْأَوَّلِ بَعْدَ غَيْبَتِهِمْ عَنْ حَضْرَتِهِ ، لِتَجْوِيزِهِمْ وُرُودَ النَّسْخِ ،

فَكَانُوا فِي بَقَاءِ الْحُكْمِ الْأَوَّلِ عَلَى غَالِبِ الظَّنِّ دُونَ الْيَقِينِ ، فَلِذَلِكَ قَبِلُوا خَبَرَ الْوَاحِدِ فِي رَفْعِهِ .

(33/69)

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ : هَلَّا أَجَزْتُمْ لِلْمُتَيَمِّمِ الْبِنَاءَ عَلَى صَلَاتِهِ إِذَا وَجَدَ الْمَاءَ كَمَا بَنَى هَؤُلَاءِ عَلَيْهَا بَعْدَ تَحْوِيلِ الْقِبْلَةِ قِيلَ لَهُ : هُوَ مُفَارِقٌ لِمَا ذَكَرْت ، مِنْ قِبَلِ أَنَّ تَجْوِيزَ الْبِنَاءِ لِلْمُتَيَمِّمِ لَا يُوجِبُ عَلَيْهِ الْوُضُوءَ وَيُجِيزُ لَهُ الْبِنَاءَ بِالتَّيَمُّمِ مَعَ وُجُودِ الْمَاءِ ، وَالْقَوْمُ حِينَ بَلَغَهُمْ تَحْوِيلُ الْقِبْلَةِ اسْتَدَارُوا إلَيْهَا وَلَمْ يَبْقُوا عَلَى الْجِهَةِ الَّتِي كَانُوا مُتَوَجِّهِينَ إلَيْهَا ، فَنَظِيرُ الْقِبْلَةِ أَنْ يُؤْمَرَ الْمُتَيَمِّمُ بِالْوُضُوءِ وَالْبِنَاءِ ، وَلَا خِلَافَ أَنَّ الْمُتَيَمِّمَ إذَا لَزِمَهُ الْوُضُوءُ لَمْ يَجُزْ الْبِنَاءُ عَلَيْهِ .

وَمِنْ جِهَةٍ أُخْرَى إنَّ أَصْلَ الْفَرْضِ لِلْمُتَيَمِّمِ إنَّمَا هُوَ الطَّهَارَةُ بِالْمَاءِ وَالتُّرَابُ بَدَلٌ مِنْهُ ، فَإِذَا وَجَدَ الْمَاءَ عَادَ إلَى أَصْلِ فَرْضِهِ ، كَالْمَاسِحِ عَلَى الْخُفَّيْنِ إذَا خَرَجَ وَقْتُ مَسْحِهِ فَلَا يَبْنِي ، فَكَذَلِكَ الْمُتَيَمِّمُ .

وَلَمْ يَكُنْ أَصْلُ فَرْضِ الْمُصَلِّينَ إلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ حِينَ دَخَلُوا فِيهَا الصَّلَاةَ إلَى الْكَعْبَةِ ، وَإِنَّمَا ذَلِكَ فَرْضٌ لَزِمَهُمْ فِي الْحَالِ .

وَكَذَلِكَ الْأَمَةُ إذَا أُعْتِقَتْ فِي الصَّلَاةِ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهَا قَبْلَ ذَلِكَ فَرْضُ السَّتْرِ ، وَإِنَّمَا هُوَ فَرْضٌ

لَزِمَهَا فِي الْحَالِ ، فَأَشْبَهَتْ الْأَنْصَارَ حِينَ عَلِمَتْ بِتَحْوِيلِ الْقِبْلَةِ .

وَكَذَلِكَ الْمُجْتَهِدُ فَرْضُهُ التَّوَجُّهُ إلَى الْجِهَةِ الَّتِي أَدَّاهُ إلَيْهَا اجْتِهَادُهُ لَا فَرْضَ عَلَيْهِ غَيْرُ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ : ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ فَإِنَّمَا انْتَقَلَ مِنْ

فَرْضٍ إلَى فَرْضٍ وَلَمْ يَنْتَقِلْ مِنْ بَدَلٍ إلَى أَصْلِ الْفَرْضِ وَفِي الْآيَةِ حُكْمٌ آخَرُ ، وَهُوَ : أَنَّ فِعْلَ الْأَنْصَارِ فِي ذَلِكَ عَلَى مَا وَصَفْنَا أَصْلٌ فِي أَنَّ الْأَوَامِرَ وَالزَّوَاجِرَ إنَّمَا يَتَعَلَّقُ أَحْكَامُهَا بِالْعِلْمِ .

وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ قَالَ أَصْحَابُنَا فِيمَنْ أَسْلَمَ فِي دَارِ الْحَرْبِ وَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ عَلَيْهِ صَلَاةً ثُمَّ خَرَجَ إلَى دَارِ الْإِسْلَامِ : إنَّهُ لَا قَضَاءَ عَلَيْهِ فِيمَا تَرَكَ ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ يَلْزَمُ مِنْ طَرِيقِ السَّمْعِ ، وَمَا لَمْ يَعْلَمْهُ لَا يَتَعَلَّقُ عَلَيْهِ حُكْمُهُ كَمَا لَمْ يَتَعَلَّقْ حُكْمُ التَّحْوِيلِ عَلَى الْأَنْصَارِ قَبْلَ بُلُوغِهِمْ الْخَبَرُ ، وَهُوَ أَصْلٌ فِي أَنَّ الْوَكَالَاتِ وَالْمُضَارَبَاتِ وَنَحْوِهِمَا مِنْ أَوَامِرِ الْعِبَادِ لَا يُنْسَخُ شَيْءٌ مِنْهَا إذَا فَسَخَهَا مَنْ لَهُ الْفَسْخُ إلَّا بَعْدَ عِلْمِ الْآخَرِ بِهَا .

وَكَذَلِكَ لَا يَتَعَلَّقُ حُكْمُ الْأَمْرِ بِهَا عَلَى مَنْ لَمْ يَبْلُغْهُ ، وَلِذَلِكَ قَالُوا : لَا يَجُوزُ تَصَرُّفُ الْوَكِيلِ قَبْلَ الْعِلْمِ بِالْوَكَالَةِ .

وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ. انتهى انتهى. اهـ ﴿أحكام القرآن للجصاص حـ 1 صـ 104. 108﴾

ومن فوائد ابن العربى فى الآية

قال رحمه الله:

قَوْله تَعَالَى: ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنْ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمْ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ﴾ قَالَ عُلَمَاؤُنَا: الْمُرَادُ بِذَلِكَ الْيَهُودُ، عَابُوا عَلَى الْمُسْلِمِينَ رُجُوعَهُمْ إلَى الْكَعْبَةِ عَنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحِبُّ أَوَّلًا أَنْ يَتَوَجَّهَ إلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ، حَتَّى إذَا دَانَى الْيَهُودَ فِي قِبْلَتِهِمْ كَانَ أَقْرَبَ إلَى إجَابَتِهِمْ، فَإِنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى تَأْلِيفِ الْكَلِمَةِ، وَجَمْعِ النَّاسِ عَلَى الدِّينِ، فَقَابَلَتْ الْيَهُودُ هَذِهِ النِّعْمَةَ بِالْكُفْرَانِ، فَأَعْلَمَهُمْ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّ الْجِهَاتِ كُلَّهَا لَهُ، وَأَنَّ الْمَقْصُودَ وَجْهُهُ، وَامْتِثَالُ أَمْرِهِ، فَحَيْثُمَا أُمِرَ بِالتَّوَجُّهِ إلَيْهِ تَوَجَّهَ إلَيْهِ؛ وَصَحَّ ذَلِكَ فِيهِ.

وَتَمَامُ الْكَلَامِ فِي الْقِسْمِ الثَّانِي، وَهُوَ قَرِيبٌ مِنْ الَّذِي تَقَدَّمَ مِنْ قَبْلُ. انتهى انتهى. اهـ

﴿أحكام القرآن لابن العربى حـ 1 صـ 60. 61﴾

ومن فوائد القاسمى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ﴾

روى البخاريّ في صحيحه عن البراء رضي الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعجبه أن تكون قبلته قِبَلَ البيت ، وأنه صلى أول صلاة صلاها ، صلاة العصر وصلى معه قوم ، فخرج رجل ممن كان صلى معه فمرّ على أهل المسجد وهم راكعون ، فقال : أشهد بالله لقد صليت مع النبي صلى الله عليه وسلم قِبَلَ مكة ، فداروا كما هم قِبَلَ البيت .

وروى مسلم : عن البراء رضي الله عنه نحو ما تقدم ولفظه : صلينا مع رسول . الله صلى الله عليه وسلم نحو بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً ، ثم صرفنا نحو الكعبة .

وروى الشيخان ابن عمر قال : بينا الناس بقباء في صلاة الصبح إذ جاءهم آت فقال : إن

رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أنزل عليه الليلة قرآن . وقد أمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها ، وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة . اللفظ لمسلم .

والأحاديث في تحويل القبلة من القدس إلى الكعبة متوافرة ، وفيما ذكرنا كفاية .

وقد أعلم الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين أن فريقاً من الناس سينكرون تغيير القبلة وسماهم سفهاء ، جمع سفيه ، وهو الخفيف الحلم والأحمق والجاهل . قال أبو السعود : أي : الذين خفّت أحلامهم واستمهنوها بالتقليد والإعراض عن التدبر والنظر . انتهى .

ومعنى قوله : ﴿ مَا وَلَّاهُمْ ﴾ أي : أي : شيء صرفهم عن قبلتهم التي كانوا عليها ، أي : ثابتين على التوجه إليها ، وهي بيت المقدس . ومدار الإنكار ، إن كان القائلون هم اليهود ، كراهتهم للتحويل عنها لأنها قبلتهم ، وإن كان غيرهم ، فمجرد القصد إلى الطعن في الدين والقدح في أحكامه . وقد روي عن ابن عباس : أن القائلين هم اليهود ، وعن الحسن أنهم مشركو العرب . وعن السدي أنهم المنافقون .

قال الراغب : ولا تنافي بين أقوالهم فكل قد عابوا ، وكلٌّ سفهاء .

تنبيه :

ظاهر قوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاء ﴾ الخ ، أنه إخبار بقولهم المذكور ، ثم إن الإخبار قبل وقوعه ، وفائدته توطين النفس وإعداد ما يبكتهم ، فإن مفاجأة المكروه على النفس أشق وأشد ، والجواب العتيد الشغب الخصم الألد أردّ ، مع ما فيه من دلائل النبوة حيث يكون إخباراً عن غيب ، فيكون معجزاً : ﴿ قُل لِّلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ﴾ جواب عن شبهتهم ، وتقريره أن الجهات كلها لله ملكاً ، فلا يستحق شيء منها لذاته أن يكون قبلة . بل إنما تصير قبلة لأن الله تعالى جعلها قبلة ، فلا اعتراض عليه بالتحويل من جهة إلى أخرى ، وما أمر به فهو الحق : ﴿ يَهْدِي مَن يَشَاء إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ فيه تعظيم أهل الإسلام وإظهار عنايته تعالى بهم ، وتفخيم شأن الكعبة . كما فخمه بإضافته إليه في قوله تعالى : ﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِيَ ﴾ [الحج : 26] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 2 صـ 456 ﴾ 458.

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (142) ﴾

هذه الآية نزلت لتصفي مسألة توجه محمد صلى الله عليه وسلم والمؤمنين إلي الكعبة بدلا من بيت المقدس . . وهذا أول نسخ في القرآن الكريم . . يريد الله سبحانه وتعالى أن يعطيه العناية اللائقة ؛ لأنه سيكون مثار تشكيك وجدل عنيف من كل من يعادي الإسلام ؛ فكفار قريش سيأخذون منه ذريعة للتشكيك وكذلك المنافقون واليهود . الله تبارك وتعالى يريد أن يحدد المسألة قبل أن تتم هذه التشكيكات . . فيقول جل جلاله : " سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها " . . حرف السين هنا يؤكد إنهم لم يقولوا بعد . . ولذلك قال سبحانه : " سيقول السفهاء " فقبل أن يتم تحويل القبلة قال الحق تعالى : إن هذه العملية ستحدث هزة عنيفة يستغلها المشككون .

وبرغم أن الله سبحانه وتعالى قال : " سيقولون السفهاء " . . أي أنهم لم يقولوها إلا بعد أن نزلت هذه الآية . . مما يدل على أنهم سفهاء حقا ؛ لأن الله جل جلاله أخبر رسوله صلى الله عليه وسلم في قرآن يتلى ويصلى به ولا يتغير ولا يتبدل إلي يوم القيامة . . قال : " سيقول السفهاء من الناس " . . فلو أنهم امتنعوا عن القول ولم يعلقوا على تحويل القبلة لكان ذلك تشكيكا في القرآن الكريم . . لأنهم في هذه الحالة كانوا يستطيعون أن يقولوا : إن قرآنا أنزله

الله على رسوله صلى الله عليه وسلم لا يتغير ولا يتبدل إلي يوم القيامة . . قال : " سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم " . . ولم يقل أحد شيئا . .

ولكن لأنهم سفهاء فعلا . . والسفه جهل وحمق وطيش قالوها . . فكانوا وهم الكافرون بالقرآن الذين يريدون هدم هذا الدين من المثبتين للإيمان الذين تشهد أعمالهم بصدق القرآن . لأن الله سبحانه قال : " سيقول السفهاء " وهم قالوا فعلا . . ولقد قال كفار مكة عن الكعبة إنها بيتنا وبيت آبائنا وليست بيت الله . . فصرف الله ورسوله في أول الإسلام ووجهه إلي بيت المقدس . . وعندئذ قال اليهود : يسفه ديننا ويتبع قبلتنا . . والله سبحانه وتعالى أراد أن يحتوي الإسلام كل دين قبله فتكون القداسة للكل . . ولذلك أسرى برسول صلى الله عليه وسلم من مكة إلي بيت المقدس . . حتى يدخل بيت المقدس في مقدسات الإسلام لأنه أصبح محتوى في الإسلام .

ولم يشأ الله أن يجعل القبلة إلي الكعبة أول الأمر لأنهم كانوا يقدسونها على أنها بيت العرب وكانوا يضعون فيها أصنامهم . . ووضع الأصنام في الكعبة شهادة بأن لها قداسة في ذاتها . . فالقداسة لم تأت بأصنامهم بل هم أرادوا أن يحموا هذه الأصنام فوضعوها في الكعبة . . لماذا لم يضعوها في مكان آخر ؟ لأن الكعبة مقدسة بدون أصنام . والله سبحانه وتعالى حين قال : " سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها " . . ولاه يعني حرفه ورده . . والقبلة التي كانوا عليها هي بيت المقدس . . وهنا يأتي الحق برد جامع هو أن أوامر الله الإيمانية لا ترتبط بالعلة . . إنما علة التنفيذ فيما يأمرنا الله سبحانه به جل جلاله أن الله هو الآمر . . ولو أن الله تبارك وتعالى بين لنا السبب أو العلة في تغيير القبلة لما كان الأمر امتحانا للإيمان في القلوب . . لأن الإيمان والعبادة هي طاعة معبود فيما يأمر وما ينهي . . يقول لك الله عظم هذا الحجر وهو الحجر الأسود الموجود في الكعبة تعظمه بالاستلام والتقبيل . . ويقول لك : ارجم هذا الحجر الذي يرمز إلي إبليس فترجمه بالحصى ، ولا يقول الله سبحانه لماذا ؟ لأنه لو قال لماذا ضاع الإيمان هنا وأصبح الأمر مسألة إقناع واقتناع .

فأنا حين أقول لك لا تأكل هذا لأنه مر وكل هذا لأنه حلو يكون السبب واضحا . . ولكن الله تبارك وتعالى يقول لك كل هذا ولا تأكل هذا . . فإن أكلت مما حرمه تكون آثما . وإن امتنعت تكون طائعا وتثاب . إذن العلة الإيمانية هي أن الأمر صادر من الله سبحانه . .

ولو أنك امتنعت عن شرب الخمر لأنها ضارة بالصحة أو تفسد الكبد فلا ثواب لك ، ولو امتنعت عن أكل لحم الخنزير لأن فيه كمية كبيرة من الكولسترول وله مضار كثيرة فلا ثواب لك . . ولكنك لو امتنعت عن شرب الخمر وأكل لحم الخنزير لأن الله حرمهما . . فهذه هي العبادة وهذا هو الثواب .

الله سبحانه وتعالى أراد أن يرد على هؤلاء السفهاء فقال : " قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلي صراط مستقيم " . . أي أنك إذا اتجهت إلي بيت المقدس أو اتجهت إلي خصوصية بذاته ، والكعبة ليس لها خصوصية بذاتها . . ولكن أمر الله تبارك وتعالى هو الذي يعطيهما هذه الخصوصية . . فإذا اتجهنا إلي بيت المقدس فنحن نتجه إليه طاعة لأمر الله . . فإذا قال الله سبحانه اتجهوا إلي الكعبة اتجهنا إليها طاعة لأمر الله . قوله تعالى : " يهدي من يشاء إلي صراط مستقيم " . . الصراط هو الطريق المستقيم لا التواء فيه بحيث يكون أقرب المسافات إلي الهدف . والله سبحانه وجهنا لبيت المقدس فهو صراط مستقيم نتبعه . . وجهنا إلي الكعبة فهو صراط مستقيم نتبعه . . فالأمر لله . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 623.625 ﴾

"فصل"

قال السيوطى :

سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (142)

أخرج ابن سعد وابن أبي شيبة وعبد بن حميد والبخاري ومسلم وأبو داود في ناسخه والترمذي والنسائي وابن جرير وابن حبان والبيهقي في سننه عن البراء بن عازب "أن النبي صلى الله عليه وسلم كان أول ما قدم المدينة نزل على أخواله من الأنصار ، وأنه صلى إلى بيت المقدس ستة عشر أو سبعة عشر شهراً ، وكان يعجبه أن تكون قبلته إلى البيت ، وأن أول صلاة صلاها صلاة العصر ، وصلى معه قوم فخرج رجل ممن كان صلى معه ، فمر على أهل المسجد وهم راكعون فقال : أشهد بالله لقد صليت مع النبي صلى الله عليه وسلم قبل الكعبة ، فداروا كما هم قبل البيت ثم أنكروا ذلك ، وكان الذي مات على القبلة قبل أن تحوّل قبل البيت رجالاً وقتلوا فلم ندر ما نقول فيهم ، فأنزل الله ﴿ وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرؤوف رحيم ﴾ [البقرة : 143] .

وأخرج ابن إسحاق وعبد بن حميد وابن أبي حاتم عن البراء قال "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي نحو بيت المقدس ويكثر النظر إلى السماء ينتظر أمر الله ، فأنزل الله ﴿ قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فولِّ وجهك شطر المسجد الحرام ﴾ [البقرة : 144] فقال رجال من المسلمين : وددنا لو علمنا من مات منا قبل أن نصرف إلى القبلة ، وكيف بصلاتنا نحو بيت المقدس ؟ فأنزل الله ﴿ وما كان الله ليضيع إيمانكم ﴾ [البقرة : 143] وقال السفهاء من الناس وهم من أهل الكتاب : ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها ؟ فأنزل الله ﴿ سيقول السفهاء من الناس . . . ﴾ إلى آخر الآية" .

وأخرج الترمذي والنسائي وابن المنذر وابن أبي حاتم والدارقطني والبيهقي عن البراء قال "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد صلى نحو بيت المقدس ستة عشر أو سبعة عشر شهراً ، وكان يحب أن يصلي نحو الكعبة ، فكان يرفع رأسه إلى السماء ، فأنزل الله ﴿ قد نرى تقلب وجهك . . . ﴾ [البقرة : 144] الآية . فوجه نحو الكعبة ، وقال السفهاء من الناس وهم اليهود ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها ؟ فأنزل الله ﴿ قل لله

المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ " .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والنحاس في ناسخه والبيهقي عن ابن عباس قال إن أول ما نسخ في القرآن القبلة ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما هاجر إلى المدينة وكان أكثر أهلها اليهود أمره الله أن يستقبل بيت المقدس ففرحت اليهود ، فاستقبلها رسول الله صلى الله عليه وسلم بضعة عشر شهراً ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب قبلة إبراهيم ، وكان يدعو الله وينظر إلى السماء ، فأنزل الله ﴿ قد نرى تقلب وجهك ﴾ إلى قوله ﴿ فولوا وجوهكم شطره ﴾ يعني نحوه ، فارتاب من ذلك اليهود وقالوا : ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها ؟ فأنزل الله ﴿ قل لله المشرق والمغرب ﴾ وقال : ﴿ أينما تولوا فثم وجه الله ﴾ [البقرة : 115] " .

وأخرج ابن أبي شيبة وأبو داود في ناسخه والنحاس والبيهقي في سننه عن ابن عباس " أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يصلي وهو بمكة نحو بيت المقدس والكعبة بين يديه ، وبعدها تحول إلى المدينة ستة عشر شهراً ، ثم صرفه الله إلى الكعبة " .

وأخرج أبو داود في ناسخه عن ابن عباس قال : أوّل ما نسخ من القرآن القبلة ، وذلك أن محمداً كان يستقبل صخرة بيت المقدس وهي قبلة اليهود ، فاستقبلها سبعة عشر شهراً ليؤمنوا به وليتبعوه وليدعوا بذلك الأميين من العرب . فقال الله ﴿ ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله ﴾ وقال ﴿ قد نرى تقلب وجهك ﴾ الآية " .

وأخرج ابن جرير عن عكرمة مرسلاً .

وأخرج أبو داود في ناسخه عن أبي العالية " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نظر نحو بيت المقدس فقال لجبريل " وددت أن الله صرفني عن قبلة اليهود إلى غيرها ؟ " فقال له جبريل : إنما أنا عبد مثلك ، ولا أملك لك شيئاً إلا ما أمرت ، فادع ربّك وسله ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يديم النظر إلى السماء رجاء أن يأتيه جبريل بالذي سأل ، فأنزل الله ﴿ قد نرى تقلب وجهك في السماء ﴾ [البقرة : 144] يقول : إنك تديم النظر إلى السماء للذي سألت ﴿ فولِّ وجهك شطر المسجد الحرام ﴾ يقول فحوّل وجهك في الصلاة نحو المسجد الحرام ﴿ وحيثما كنتم ﴾ يعني من الأرض ﴿ فولوا وجوهكم ﴾ في الصلاة ﴿ شطره ﴾ نحو الكعبة " .

وأخرج ابن إسحق وابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال : " صرفت القبلة عن الشام إلى الكعبة في رجب ، على رأس سبعة عشر شهراً من مقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينه ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم رفاعة بن قيس ، وقردم بن عمرو ، وكعب بن الأشرف ، ونافع بن أبي نافع ، والحجاج بن عمرو ،

حليف كعب بن الأشرف ، والربيع بن أبي الحقيق ، وكنانة بن أبي الحقيق ، فقالوا له : يا محمد ما ولاك عن قبلتك التي كنت عليها وأنت تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه ، ارجع إلى قبلتك التي كنت عليها نتبعك ونصدقك ، وإنما يريدون فتنته عن دينه . فأنزل الله ﴿ سيقول السفهاء من الناس ﴾ إلى قوله ﴿ إلاَّ لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه ﴾ أي ابتلاء واختباراً ﴿ وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله ﴾ [البقرة : 143] أي ثبت الله ﴿ وما كان الله ليضيع إيمانكم ﴾ يقول : صلاتكم بالقبلة الأولى ، وتصديقكم نبيكم ، واتباعكم اياه إلى القبلة الآخرة ، أي ليعطينكم أجرهما جميعاً ﴿ إن الله بالناس لرؤوف رحيم ﴾ إلى قوله ﴿ فلا تكونن من الممترين ﴾ .

وأخرج وكيع وعبد بن حميد وأبو داود في ناسخه والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن البراء في قوله ﴿ سيقول السفهاء من الناس ﴾ قال : اليهود .

وأخرج أبو داود في ناسخه من طريق مجاهد عن ابن عباس قال : أول آية نسخت من القرآن القبلة ، ثم الصلاة الأولى .

وأخرج الطبراني عن ابن عبّاس قال " صلى النبي صلى الله عليه وسلم ومن معه نحو بيت

المقدس ستة عشر شهراً ، ثم حوّلت القبلة بعد " .

وأخرج البيهقي في الدلائل عن الزهري قال : " صرفت القبلة نحو المسجد الحرام في رجب على رأس ستة عشر شهراً من مخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقلب وجهه في السماء وهو يصلي نحو بيت المقدس ، فأنزل الله حين وجهه إلى البيت الحرام ﴿ سيقول السفهاء من الناس ﴾ وما بعدها من الآيات ، فأنشأت اليهود تقول : قد اشتاق الرجل إلى بلده وبيت أبيه ، وما لهم حتى تركوا قبلتهم يصلون مرة وجهاً ومرة وجهاً آخر ، وقال رجال من الصحابة : فكيف بمن مات منا وهو يصلي قبل بيت المقدس ؛ وفرح المشركون وقالوا : إن محمداً قد التبس عليه أمره ، ويوشك أن يكون على دينكم ، فأنزل الله في ذلك هؤلاء الآيات " .

وأخرج ابن جرير عن السدي قال : لما وجه النبي صلى الله عليه وسلم قبل المسجد الحرام اختلف الناس فيها فكانوا أصنافاً ، فقال المنافقون : ما بالهم كانوا على قبلة زماناً ثم تركوها وتوجهوا غيرها ؟ وقال المسلمون : ليت شعرنا عن إخواننا الذين ماتوا وهم يصلون قبل بيت المقدس هل يقبل الله منا ومنهم أم لا ؟ وقال اليهود : إن محمداً اشتاق إلى

بلد أبيه ومولده ، ولو ثبت على قبلتنا لكنا نرجو أن يكون هو صاحبنا الذي ننتظر ، وقال المشركون من أهل مكة : تحير على محمد دينه فتوجه بقبلته إليكم وعلم أنكم كنتم أهدى منه ، ويوشك أن يدخل في دينكم ، فأنزل الله في المنافقين ﴿ سيقول السفهاء من الناس ﴾ إلى قوله ﴿ إلا على الذين هدى الله ﴾ ، وأنزل في الآخرين الآيات بعدها .

وأخرج مالك وأبو داود في ناسخه وابن جرير والبيهقي في الدلائل عن سعيد بن المسيب " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى بعد أن قدم المدينة ستة عشر شهراً نحو بيت المقدس ، ثم تحوّلت القبلة إلى الكعبة قبل بدر بشهرين " .

وأخرج ابن عدي والبيهقي في السنن والدلائل من طريق سعيد بن المسيب قال : سمعت سعد بن أبي وقاص يقول " صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ما قدم المدينة ستة عشر شهراً نحو بيت المقدس ، ثم حوّل بعد ذلك قبل المسجد الحرام قبل بدر بشهرين " .

وأخرج أبو داود في ناسخه عن سعيد بن عبد العزيز " أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى نحو بيت المقدس من شهر ربيع الأول إلى جمادى الآخرة " .

وأخرج ابن جرير عن سعيد بن المسيب " أن الأنصار صلت للقبلة الأولى قبل قدوم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة بثلاث حجج ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم صلى للقبلة الأولى بعد قدومه المدينة ستة عشر شهراً " .

وأخرج ابن جرير عن معاذ بن جبل " أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى للقبلة الأولى بعد قدومه المدينة ستة عشر شهراً " .

وأخرج ابن جرير عن معاذ بن جبل " أن النبي صلى الله عليه وسلم قدم المدينة فصلى نحو بيت المقدس ثلاثة عشر شهراً " .

وأخرج البزار وابن جرير عن أنس قال " صلى النبي صلى الله عليه وسلم نحو بيت المقدس تسعة أشهر أو عشرة أشهر ، فبينما هو قائم يصلي الظهر بالمدينة وقد صلى ركعتين نحو بيت المقدس انصرف بوجهه إلى الكعبة ، فقال السفهاء : ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها ؟ " .

وأخرج البخاري عن أنس قال : لم يبق ممن صلى للقبلتين غيري .

وأخرج أبو داود في ناسخه وأبو يعلى والبيهقي في سننه عن أنس " أن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه كانوا يصلون نحو بيت المقدس ، فلما نزلت هذه الآية ﴿ فولِّ وجهك شطر المسجد الحرام ﴾ [البقرة : 144] مر رجل من بني سلمة فناداهم وهم ركوع في صلاة الفجر نحو بيت المقدس ألا إنَّ القبلة قد حوّلت إلى الكعبة مرتين ، فمالوا كما هم

ركوع إلى الكعبة " .

وأخرج مالك وعبد بن حميد والبخاري ومسلم وأبو داود في ناسخه والنسائي عن ابن عمر قال : بينما الناس بقباء في صلاة الصبح إذ جاءهم آت فقال " إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أنزل عليه الليلة قرآن ، وقد أمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها ، وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة " .

وأخرج الزبير بن بكار في أخبار المدينة عن عثمان بن عبد الرحمن قال " كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام يصلي انتظر أمر الله في القبلة ، وكان يفعل أشياء لم يؤمر بها ولم ينه عنها من فعل أهل الكتاب ، فبينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي الظهر في مسجده ، قد صلى ركعتين إذ نزل عليه جبريل ، فأشار له أنْ صل إلى البيت وصلى جبريل إلى البيت ، وأنزل الله

﴿ قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فوَلِ وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره ﴾ [البقرة : 144] . و ﴿ وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون ﴾ [البقرة : 144] قال :

فقال المنافقون : حن محمد إلى أرضه وقومه ، وقال المشركون : أراد محمد أن يجعلنا له قبلة ويجعلنا له وسيلة ، وعرف أن ديننا أهدى من دينه . وقال اليهود للمؤمنين : ما صرفكم إلى مكة وتركك به القبلة ، قبلة موسى ويعقوب والأنبياء ، والله إن أنتم إلا تفتنون . وقال المؤمنون : لقد ذهب منا قوم ماتوا ما ندري أكنا نحن وهم على قبلة أو لا ؟ قال : فأنزل الله عز وجل في ذلك ﴿ سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها ﴾ إلى قوله ﴿ إن الله بالناس لرؤوف رحيم ﴾ " .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة قال "كانت القبلة فيها بلاء وتمحيص ، صلت الأنصار نحو الكعبة حولين قبل قدوم النبي صلى الله عليه وسلم ، وصلى نبي الله بعد قدومه المدينة نحو بيت المقدس ستة عشر شهراً ، ثم وجهه الله بعد ذلك إلى الكعبة البيت الحرام فقال في ذلك قائلون من الناس : ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها لقد اشتاق الرجل إلى مولده ؟ ! قال الله عز وجل ﴿ قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ وقال أناس من أناس : لقد صرفت القبلة إلى البيت الحرام فكيف أعمالنا التي عملنا في القبلة الأولى ؟ فأنزل الله ﴿ وما كان الله ليضيع إيمانكم ﴾ [البقرة : 143] وقد يبتلي الله عباده بما شاء من أمره الأمر بعد الأمر ، ليعلم من يطيعه ممن يعصيه ، وكل ذلك مقبول في درجات في الإيمان بالله والاخلاص ، والتسليم لقضاء الله " .

وأخرج ابن سعد وابن أبي شيبة عن عمارة بن أوس الأنصاري قال : صلينا إحدى صلاتي العشي ، فقام رجل على باب المسجد ونحن في الصلاة ، فنادى أن الصلاة قد وجبت نحو الكعبة ، فحوّل أو انحرف أمامنا نحو الكعبة والنساء والصبيان .

وأخرج ابن أبي شيبة والبزار عن أنس بن مالك قال : جاءنا منادي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال " إن القبلة قد حوّلت إلى بيت الله الحرام ، وقد صلى الإِمام ركعتين فاستداروا ، فصلوا الركعتين الباقيتين نحو الكعبة " .

وأخرج ابن سعد عن محمد بن عبد الله بن جحش قال " صلّيت القبلتين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فصرفت القبلة إلى البيت ونحن في صلاة الظهر ، فاستدار رسول الله صلى الله عليه وسلم بنا فاستدرنا معه " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية في قوله ﴿ يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ قال : يهديهم إلى المخرج من الشبهات والضلالات والفتن .

وأخرج أحمد والبيهقي في سننه عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إنهم - يعني أهل الكتاب - لا يحسدونا على شيء كما يحسدونا على الجمعة التي هدانا الله لها وضلوا عنها ، وعلى القبلة التي هدانا الله لها وضلوا عنها ، وعلى قولنا خلف الإِمام آمين " .

وأخرج الطبراني عن عثمان بن حنيف قال "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يقدم من مكة يدعو الناس إلى الإيمان بالله في تصديق به قولاً بلا عمل ، والقبلة إلى بيت المقدس ، فلما هاجر إلينا نزلت الفرائض ، ونسخت المدينة مكة والقول فيها ، ونسخ البيت الحرام بيت المقدس ، فصار الإيمان قولاً وعملاً " .

وأخرج البزار والطبراني عن عمرو بن عوف قال "كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة فصلى نحو بيت المقدس سبعة عشر شهراً ، ثم حولت إلى الكعبة " .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 1 صـ 342. 348 ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (142)

قوله : ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : وهو اختيار القفال أن هذا اللفظ وإن كان للمستقبل ظاهراً ، لكنه قد يستعمل

في الماضي أيضاً كالرجل يعمل عملاً ، فيطعن فيه بعض أعدائه ، فيقول : أنا أعلم أنهم [سيطعنون عليَّ فيما فعلت ، ومجاز هذا أن يكون القول فيما يكرر ويعاد] ، فإذا ذكروه مَرَّة ، فسيذكرونه بعد ذلك مرات ، فصحّ على هذا التأويل أن يقال : سيقول السُّفهاء من الناس ذلك ، وقد وردت الأخبار أنهم لما قالوا ذلك [نزلت الآية] .

[قال القرطبي : " سيقول " بمعنى : قال ؛ جعل المستقبل موضع الماضي ، دلالة على استدامة ذلك] وأنهم يستمرون على ذلك القول .

و" السفهاء " جمع ، واحده سفيه ، وهو الخفيف العقل ، من قولهم : ثوب سفيه إذا كان خفيف النسج وقد تقدم .

والنساء سفائه .

وقال المؤرج : السَّفيه : البهات الكاذب المتعمد خلاف ما يعلم .

وقال قُطْرب : الظلوم الجهول .

القول الثاني : أن الله تعالى أخبر عنهم قبل أن ذكروا هذا الكلام أنهم سيذكرونه وفيه فوائد .

أحدها : أنه – عليه الصلاة والسلام – إذا أخبر عن ذلك قبل وقوعه ، كان هذا إخباراً عن الغيب فيكون معجزاً .

وثانيها : أنه – تعالى – إذا أخبر عن ذلك أولاً ، ثم سمعه منهم ، فإنه يكون تأذيه من هذا

الكلام أقلّ مما إذا سمعه فيهم أولاً .

وثالثها : أن الله – تعالى – إذا أسمعه ذلك أولاً ، ثم ذكر جوابه معه ، فحين يسمعه النبي – عليه الصلاة والسلام – منهم يكون الجواب حاضراً ، كان ذلك أولى مما إذا سمعه ولا يكون الجواب حاضراً .

قوله تعالى : ﴿ مِنَ النَّاسِ ﴾ في محلّ نصب على الحال من " السفهاء " والعامل فيها " سيقول " ، وهي حال مبينة ، فإن السَّفه كما يوصف به الناس يوصف به غيرهم من الجماد والحيوان ، وكما ينسب القول إليهم حقيقة ينسب لغيرهم مجازاً ، فرفع المجاز بقوله : " مِنَ النَّاسِ " ذكره ابن عطية وغيره .

قوله : ﴿ ما وَلاَّهُمْ ﴾ " ما " مبتدأ ، وهي استفهامية على وجه الاستهزاء والتعجب ، والجملة بعدها خبر عنها و ﴿ عن قبلتهم ﴾ متعلّق بـ " ولاّهم " ، ولا بد من حذف مضاف في قوله : " عليها " أي : على توجهها ، أو اعتقادها ، وجملة الاستفهام في محلّ نصب بالقول والاستعلاء في قوله : " عليها " مجاز ، نزّل مواظبتهم على المُحَافظة عليها منزلة من اسْتَعْلَى على الشيء ، والله أعلم .

فصل في الكلام على التولّي

ولاَّه عنه : صرفه عنه ، وولى إليه بخلاف ولّى عنه ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ ﴾ [الأنفال : 16] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 3 صـ 5.3 ﴾ .

باختصار .

(52/69)

قوله تعالى ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (143) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما بين استقامة القبلة التي وجههم إليها عرف أنها وسط لا جور فيها فاتبع ذلك قوله : ﴿ وكذلك ﴾ أي ومثل ما جعلنا قبلتكم وسطاً لأنها إلى البيت العتيق الذي هو وسط الأرض وهو بناء إبراهيم عليه السلام هو أوسط الأنبياء وهو مع ذلك خيار البيوت فهو

وسط بكل معنى ﴿ جعلناكم ﴾ بالهداية إليه في الاستقبال وإلى غيره مما نأمركم به ﴿ أمة ﴾ .

قال الحرالي : من الأم وهو تتبع الجملة والعدد بعضها لبعض إلى أن ينتهي لإمام أول ، فالإمام والأمة كالمتقابلين ، الإمام قاصد أماً ، والأمة قاصدة إمامها الذي هو أمها ، والإمام ما بين اليدين بمشهد الحس وسبيل القصد – انتهى .

﴿ وسطاً ﴾ أي شريفة خياراً ، لأن الوسط العدل الذي نسبة الجوانب كلها إليه سواء ، فهو خيار الشيء .

قال أبو تمام الطائي .

كانت هي الوسط المحمي فاكتنفت . . .

بها الحوادث حتى أصبحت طرفا

وسالك الوسط من الطريق محفوظ من الغلط ، ومتى زاغ عن الوسط حصل الجور الموقع في الضلال عن القصد ؛ ففي هذا أنهم لما ادعوا الخصوصية كذبوا وردت حججهم ثم أثبتت الخصوصية لهذه الأمة ؛ والوسط بالتحريك اسم لعين ما بين طرفي الشيء كمركز الدائرة ، وبالسكون اسم مبهم لداخل الدائرة مثلاً ، وكذا كان ظرفاً ، فالأول يجعل مبتدأ وفاعلاً ومفعولاً به ، ولا يصح شيء من هذا في الساكن – قاله الأصبهاني .

ومادة وسط مهموزة وغير مهموزة واوية ويائية بتراكيبها الأحد عشر : وسط ، وطس ، سوط ، سطو ، طوس ، طسو ، طيس ، طسى ، سيط سطأ طسأ ، تدور على العدل السواء الذي نسبته إلى كل جانب على التساوي ، ويلزم أن يكون أعلى من غيره ، لأن أكثر المخلوقات كُريّ ؛ وكل ما كان في وسط الكرة كان أعلى ، ولأن كل جزء بعد الوسط إذا نسبته إلى الطرف الذي يليه كان ما بينه وبينه أقل مما بينه وبين الوسط ؛ ويلزم العدل الجودة ويلزم العلو الغلبة والسطوة والكثرة والشدة ، وقد يلزم العلو الاضطراب فيأتي الاختلاط والاقتطاع والضعف ؛ فمن الأصل الوسط من كل شيء أعدله ، ووسط الشيء ما بين طرفيه ، فإذا سكنت السين كان ظرفاً أو هو فيما هو مصمت فإذا كانت أجزاؤه متخلصة متباينة فبالإسكان ؛ ووسطه قطّعه نصفين ، وتوسط بينهم عمل الوساطة وأخذ الوسط بين الرديء والجيد ، ووسط القوم وتوسطهم هو وسط فيهم أوسطهم نسباً وأرفعهم محلاً وهو المتوسط بين القوم ، وواسطة الرحل ما بين قادمته وآخرته ، وأوطاس واد بديار هوازن لما وصفه به دريد بن الصمة من أنه لا حزن ضرس ولا سهل دهس ، أي يثقل المشي فيه بكونه شبه الرمل وما هو برمل ولا تراب .

ومن الجودة وهي ملزومة لحسن الوسط الباب ، والصلاة الوسطى أفضل الصلوات ، والطاووس طائر حسن ، والجميل من الرجال والفضة ، والأرض المخضرة فيها كل ضرب

من النبت ، والمطوس كمعظم الشيء الحسن ، والطوس بالفتح القمر وحسن الوجه ونضارته بعد علة ، وتطوست المرأة تزينت ، وطواس كسحاب ليلة من ليالي المحاق كأنه من باب الإزالة أو بالنظر إلى أن النجوم في شدة الظلام أحسن .

(54/69)

ومن العلو : سطا الفرس أبعد الخطو ، والساطىء الفرس البعيد الخطوة والذي يرفع ذنبه في حضره ، والطويل وواسط الكور مقدمه ، ومن الشدة والغلبة : صار الماء وسيطه غلب على الطين ، وسطا عليه وبه صال أو قهر بالبطش ، والراعي على الناقة أدخل يده في رحمها ليخرج ما فيها من ماء الفحل ، والفرس ركب رأسه ، وساطاه شدد عليه ؛ والساطي الفحل المغتلم يخرج من إبل إلى إبل ، وسطأها مهموزاً كمنع جامعها ؛ والوطس كالوعد الضرب الشديد والكسر ، والوطيس التنور وحرّ الحرب ، والوطيس شدة الأمر ، وككَتّاب الراعي ، وتواطسوا عليّ أي تواطحوا أي تداولوا الشر بينهم ، والموج تلاطم ، وأوطاس واد بديار هوازن لأنه أشد مما هو رمل صرف ، والسوط الذي يضرب به والشدة والضرب ، والمسواط فرس لا يعطى حضره إلا بالسوط ، والسياط قضبان الكراب الذي عليه دماليقه أي عراجينه والكراب أصول السعف الغلاظ العراض ، وسوَّط أخرج ذلك ،

والطوس بالفتح الوطء وبالضم دوام الشيء ودواء يشرب للحفظ ، وطواس كسحاب ليلة من ليالي المحاق ، وما أدري أين طوّس به أي ذهب به وطسى كرضى طس غلب الدسم على قلبه فاتخم كطسا أي واوياً ؛ وطسيء مهموزاً أيضاً كفرح وجمع طَسأ وطساء فهو طسيء اتخم أو تغير من أكل الدسم ، وأطسأه الشبع ونفسي طاسئة ويدخل هذا في الاضطراب والاختلاط والضعف .

(55/69)

ومن الكثرة الوسط وهي الناقة تملأ الإناء ويدخل في الجيد ، الطيس العدد الكثير ، وكل ما في وجه الأرض من تراب وقِمام أو خلق كثير النسل كالذباب والنمل والهوام أو دقاق التراب كالطيسل في الكل وكثرة كل شيء من الرمل والماء وغيرهما ؛ وسطا الماء كثر ؛ والسويطاء مرقة كثيرة الماء ، ومن الاختلاط سياط ككتاب مغن مشهور ؛ وسطا الطعام ذاقه ؛ والساطىء الفحل المغتلم يخرج من إبل إلى إبل ، وسطا الراعي على الناقة أدخل يده في رحمها ليخرج ما فيها من ماء الفحل ؛ والسوط الذي يضرب به والخلط والضرب ، والسياط قضبان الكراب الذي عليه دماليقه ، وسوط باطل ضوء يخرج من الكوّة ، وسطت الشيء بالسوط ضربته به ، والسوط أيضاً ما يخلط به كالمسواط وولد لإبليس ،

والمسواط فرس لا يعطى حُضره إلا بالسوط ، واستوط أمره اضطرب واختلط ، وأموالهم سويطة بينهم مختلطة ، والطوس بالضم دواء يشرب للحفظ ، والطاووس طائر والأرض المخضرة فيها كل ضرب من النبت ، ومن الاقتطاع الطاس أي الإناء يشرب فيه ، والسوط النصيب والفضلة من الغدير .

ومن الضعف الوسط من بيوت الشعراء وهو أصغرها ، وطساً كمنع مهموزاً استحيى .

ولما أثبت لهم الوسط الذي من حله كان جديراً بأن لا يخفى عليه شيء من الجوانب واستلزم ذلك كونه خياراً قال : ﴿ لتكونوا ﴾ أي أنتم لا غيركم ﴿ شهداء ﴾ كما أفاده التعبير بهذا دون أن يقال : لتشهدوا ، وقال : ﴿ على الناس ﴾ أي كافة .

ولما كان الرسول صلى الله عليه وسلم أوسطهم قال : ﴿ ويكون الرسول ﴾ أي لا غيره بما اقتضاه اختصاصه بكونه وسط الوسط ﴿ عليكم ﴾ خاصة ﴿ شهيداً ﴾ بأنكم تابعتموه وصدقتموه فكنتم خير أمة أخرجت للناس ، وبأنه قد بلغكم مدة حياته ، فلما مات خلف فيكم كتاباً معجزاً متواتراً لا يغسله الماء ولا تحرقه النار ، لأنه محفوظ في الصدور متلو بالألسن إلى أن يأتي أمر الله ، ولذلك عبر بأداة الاستعلاء فافهم صوغ الكلام

هكذا : إنهم حازوا شرفين أنه لا يشهد عليهم إلا الرسول ، وأنه لا يحتاج في الشهادة على سائر الأمم إلى غير شهادتهم دفعاً لتوهم أن غيرهم يشهد عليهم كما شهدوا عليهم ، ولتوهم أن غيرهم لا يكتفى في الشهادة عليه إلا بشهادة الرسول كما لم يكتف فيهم إلا بذلك .

ولما أعلم بما ﴿ سيقول السفهاء ﴾ [البقرة : 142] وعلم جوابهم وبين سر التحويل بين علة التوجيه إلى قبلتين بقوله : ﴿ وما جعلنا ﴾ أي بعظمتنا التي لا يقاويها أحد ﴿ القبلة ﴾ قال الحرالي : في جملته إنباء بأن القبلة مجعولة أي مصيرة عن حقيقة وراءها ابتلاء بتقليب الأحكام ليكون تعلق القلب بالله الحكيم لا بالعمل المحكم ، فالوجهة الظاهرة ليكون ذلك علماً على المتبع عن صدق فيثبت عند تقلب الأحكام بما في قلبه من صدق التعلق بالله والتوجه له أيان ما وجهه ، وعلى المجيب عن غرض ظاهر ليس يسنده صدق باطن فيتعلق من الظاهر بما لا يثبت عند تغيره – انتهى .

وبين أنها الأولى بقوله : ﴿ التي كنت عليها ﴾ وبين أن العلة التمييز بين الناس بقوله : ﴿ إلا لنعلم ﴾ أي بما لنا من العظمة بالجنود والرسل وغيرهم حين وجود الأمر بالتحول عنها ﴿ من يتبع الرسول ﴾ في كل ما يأمر به اتباعاً دالاً على تمكن إيمانه ﴿ ممن ينقلب ﴾ أي يرتد فيدبر بعد إقباله متنكساً ﴿ على عقبيه ﴾ علماً متعلقاً بموجود تقوم به الحجة في مجاري عاداتكم ، والعقب مؤخر القدم .

وقال الحرالي : لنجعل علماً ظاهراً على الصادق وغيره يشتمل العلم به من علم الغيب قبل كونه وبعد كونه ، ومن لم يعلم الغيب إلا عن علم بما ينبئني عنه نون الاستتباع فهذا وجهه ووجه ما يرد من نحوه في القرآن والسنة – انتهى .

ثم بين شدتها على من أخلد إلى العادة لغلبة القوة الحيوانية البهيمية ولم يتمرن في الانقياد للأوامر الإلهية على خلع الإلف وذل النفس فقال : ﴿ وإن كانت ﴾ أي الجعلة ﴿ لكبيرة ﴾ أي ثقيلة شاقة جداً لأن مفارقة الألف بعد طمأنينة النفس إليه أمر شاق جداً ، ثم استثنى من أيده سبحانه بروح منه وسكينة فقال : ﴿ إلا على الذين هدى الله ﴾ أي خلق الذي له الأمر كله الهداية في قلوبهم فانقادوا لما هداهم إليه بنصيب الأدلة .

ولما كان قبولهم لهذا الأمر وثباتهم عند تغير الأحكام إنما كان عن إيمان وعلم محيط جعل الله عز وجل أعمالهم وتوجههم للقبلة الأولى من الإيمان فقال : ﴿ وما كان الله ﴾ الذي له الكمال المطلق ﴿ ليضيع ﴾ قال الحرالي : مما منه الضياع والضيعة وهو التفريط فيما له غناء وثمرة إلى أن لا يكون له غناء ولا ثمرة ﴿ إيمانكم ﴾ أي المصرح به في قولكم : ﴿ آمنا بالله ﴾ [البقرة : 8] المشار إلى صدق الدعوى فيه بقولكم : ﴿ ونحن له مخلصون ﴾ [

البقرة : 139] في شيء من الأشياء لا في صلاتكم إلى القبلة الأولى ، ولا في تمييز الصادق منكم من المنافق بالامتحان بتغيير الأحكام من القبلة وغيرها ولا في اختصاصكم به سبحانه دون أهل الكتاب الجاحدين لآياته الناكبين عن مرضاته الناكثين لعهوده .

ولما نزه نفسه المقدسة عن جميع هذه الإضاعة علل ذلك بما هو أعم فقال : ﴿ إن الله ﴾ أي المحيط بجميع صفات الكمال ﴿ بالناس ﴾ أي الذين هم أعم من المؤمنين وغيرهم ممن ينوسون بين حال الهدى والفتنة ﴿ لرءوف ﴾ أي فيرحم من يشاء ممن توصل إليه بعمل صالح رأفة منه به ، فإن الرأفة كما قال الحرالي في التفسير عطف العاطف على من لم يجد عنده منه وصلة ، فهي رحمة ذي الصلة بالراحم ، قال : والرحمة تعم من لا صلة له بالراحم ، وقال في شرح الأسماء : إن المرؤوف به تقيمه عناية الرأفة حتى تحفظ بمسراها في سره ظهور ما يُستدعى العفو لأجله على علنه – انتهى .

وذلك مقتضى لكونها أشد الرحمة وأبلغها وألطفها كما قالوه ﴿ رحيم ﴾ لمن يشاء ولو لم يكن منه سعي في الوصلة فتقتلعه من ذنوبه اقتلاعاً أشد ما كان بها اعتلاقاً فتقيمه فيما ترضاه الإلهية وذلك مع موافقته لما قاله العلماء ترق من العالي إلى الأعلى ، فإن رحمة من لا

سبب منه تقتضي العطف عليه أبلغ في نوعها من حيث كونها ابتداء والأولى أبلغ في نفسها لما اقتضاها من السبب ، فإن كان المراد بالناس العرب فهو بشارة له صلى الله عليه وسلم بأنه يقر عينه بجعلهم من حزبه بالتثبيت لمن كان إذ ذاك مقبلاً والإقبال لمن كان مدبراً . وإن كان المراد أعم منهم فهو بشارة باتباع أكثر الخلائق له صلى الله عليه وسلم ، فإذا نزل عيسى عليه السلام وقع العموم الحقيقي في الطريق المحمدي باتباع الكل له صلى الله عليه وسلم والله أعلم ؛ ويجوز أن يكون تعليلاً للكلام من أوله فيكون المعنى أن صفتي رأفته ورحمته مقتضيتان للتمييز بين المؤمنين وغيرهم للعدل بين الناس ، لأن تسوية المصلح بالمفسد يؤلم المصلح وسيأتي إن شاء الله تعالى في آخر براءة ما ينفع استحضاره هنا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 261. 265 ﴾

سؤال : الكاف في ﴿ كذلك ﴾ كاف التشبيه ، والمشبه به أي شيء هو ؟

الجواب : فيه وجوه . أحدها : أنه راجع إلى معنى يهدي ، أي كما أنعمنا عليكم بالهداية ، كذلك أنعمنا عليكم بأن جعلناكم أمة وسطاً . وثانيها : قول أبي مسلم تقريره كما هدينا كم إلى قبلة هي أوسط القبل وكذلك جعلناكم أمة وسطاً . وثالثها : أنه عائد إلى ما تقدم من

قوله في حق إبراهيم ـ عليه السلام ـ : ﴿ وَلَقَدِ اصطفيناه فِى الدنيا ﴾ [البقرة : 130] أي فكما اصطفيناه في الدنيا فكذلك جعلناكم أمة وسطاً . ورابعها : يحتمل عندي أن يكون التقدير : ﴿ وَلِلَّهِ المشرق والمغرب ﴾ [البقرة : 115] فهذه الجهات بعد استوائها في كونها ملكاً لله وملكاً له ، خص بعضها بمزيد التشريف والتكريم بأن جعله قبلة فضلاً منه وإحساناً فكذلك العباد كلهم مشتركون في العبودية إلا أنه خص هذه الأمة بمزيد الفضل والعبادة فضلاً منه وإحساناً لا وجوباً . وخامسها : أنه قد يذكر ضمير الشيء وإن لم يكن المضمر مذكوراً إذا كان المضمر مشهوراً معروفاً كقوله تعالى : ﴿ إِنَّا أنزلناه فِى لَيْلَةِ القدر ﴾ [القدر : 1] ثم من المشهور المعروف عند كل أحد أنه سبحانه هو القادر على إعزاز من شاء وإذلال من شاء فقوله : ﴿ وكذلك جعلناكم ﴾ أي ومثل ذلك الجعل العجيب الذي لا يقدر عليه أحد سواه جعلناكم أمة وسطاً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 4 صـ 88 ﴾ .

سؤال : ما المراد من الوسط ؟

الجواب : اختلفوا في تفسير الوسط وذكروا أموراً . أحدها : أن الوسط هو العدل والدليل عليه الآية والخبر والشعر والنقل والمعنى ، أما الآية فقوله تعالى : ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ ﴾ [القلم : 28] أي أعدلهم ، وأما الخبر فما روى القفال عن الثوري عن أبي سعيد الخدري عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " أمة وسطاً قال عدلاً " وقال عليه الصلاة والسلام : " خير

الأمور أوسطها " أي أعدلها ، وقيل : كان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أوسط قريش نسباً ، وقال عليه الصلاة والسلام : " عليكم بالنمط الأوسط " وأما الشعر فقول زهير :

هم وسط يرضى الأنام بحكمهم . . . إذا نزلت إحدى الليالي العظائم

وأما النقل فقال الجوهري في " الصحاح " : ﴿ وكذلك جعلناكم أُمَّةً وَسَطًا ﴾ أي عدلاً وهو الذي قاله الأخفش والخليل وقطرب ، وأما المعنى فمن وجوه . أحدها : أن الوسط حقيقة في البعد عن الطرفين ولا شك أن طرفي الإفراط والتفريط رديئان فالمتوسط في الأخلاق يكون بعيداً عن الطرفين فكان معتدلاً فاضلاً . وثانيها : إنما سمي العدل وسطاً لأنه لا يميل إلى أحد الخصمين ، والعدل هو المعتدل الذي لا يميل إلى أحد الطرفين . وثالثها : لا شك أن المراد بقوله : ﴿ وكذلك جعلناكم أُمَّةً وَسَطًا ﴾ طريقة المدح لهم لأنه لا يجوز أن يذكر الله تعالى وصفاً ويجعله كالعلة في أن جعلهم شهوداً له ثم يعطف على ذلك شهادة الرسول إلا وذلك مدح فثبت أن المراد بقوله : (وسطاً) ما يتعلق بالمدح في باب الدين ، ولا يجوز أن يمدح الله الشهود حال حكمه عليهم بكونهم شهوداً إلا بكونهم عدولاً ، فوجب أن يكون المراد في الوسط العدالة . ورابعها : أن أعدل بقاع الشيء وسطه ، لأن حكمه مع

سائر أطرافه على سواء وعلى اعتدال ، والأطراف يتسارع إليها الخلل والفساد والأوسط محمية محوطة فلما صح ذلك في الوسط صار كأنه عبارة عن المعتدل الذي لا يميل إلى جهة دون جهة .

القول الثاني : أن الوسط من كل شيء خياره قالوا : وهذا التفسير أولى من الأول لوجوه :

الأول : أن لفظ الوسط يستعمل في الجمادات قال صاحب " الكشاف " : اكتريت جملاً من أعرابي بمكة للحج فقال : أعطى من سطا تهنة أراد من خيار الدنانير ووصف العدالة لا يوجد في الجمادات فكان هذا التفسير أولى . الثاني : أنه مطابق لقوله تعالى : ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران : 110] .

القول الثالث : أن الرجل إذا قال : فلان أوسطنا نسباً فالمعنى أنه أكثر فضلاً وهذا وسط فيهم كواسطة القلادة ، وأصل هذا أن الاتباع يتحوشون الرئيس فهو في وسطهم وهم حوله فقيل وسط لهذا المعنى .

القول الرابع : يجوز أن يكونوا وسطاً على معنى أنهم متوسطون في الدين بين المفرط والمفرط والغالي والمقصر في الأشياء لأنهم لم يغلوا كما غلت النصارى فجعلوا ابناً وإلهاً ولا قصروا

كتقصير اليهود في قتل الأنبياء وتبديل الكتب وغير ذلك مما قصروا فيه .

واعلم أن هذه الأقوال متقاربة غير متنافية والله أعلم . أ هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 4 صـ 88. 89 ﴾ .

" الأمة الوسط "

" الوسط " ما توسط بين شيئين ، وبمعنى الجميل والشريف ، والمعنيان يعودان ظاهراً إلى حقيقة واحدة لأن الجمال والشرف فيما اعتدل وابتعد عن الإفراط والتفريط .

ما أجمل التعبير القرآني عن الأمة المسلمة . . . الأمة الوسط .

الوسط : المعتدلة في " العقيدة" لا تسلك طريق " الغلو" ولا طريق " التقصير والشرك" ، لا تنحو منحى " الجبر" ولا تؤمن " بالتشبيه" في صفات الله ولا " بالتعطيل" .

معتدلة في " القيم المادية والمعنوية" لا تغطّ في عالم المادة وتنسى المعنويات ، ولا تغرق في المعنويات وتتناسى الماديات . ليست كمعظم اليهود لا يفهمون سوى المادة ، وليست كرهبان النصارى يتركون الدنيا تماماً .

معتدلة في " الجانب العلمي" . . . لا ترفض الحقائق العلمية ، ولا تقبل كل نعرة ترتفع باسم العلم .

معتدلة في " الرّوابط الاجتماعية" لا تضرب حولها حصاراً يعزلها عن العالم ، ولا تفقد استقلالها وتذوب في هذه الكتلة أو تلك ، كما نرى الذائبين في الشرق والغرب اليوم !

معتدلة في "الجانب الأخلاقي" . . . في عباداتها . . . في تفكيرها . . . وفي جميع أبعاد حياتها .

المسلم الحقيقي لا يمكن إطلاقاً أن يكون إنساناً ذا بعد واحد ، بل هو إنسان ذو أبعاد مختلفة . . . مفكر ، مؤمن ، عادل ، مجاهد ، مكافح ، شجاع ، عطوف ، واع ، فعّال ، ذو سماح.

عبارة الأمة الوسط توضّح من جانب مسألة شهادة الأمة الإسلامية ، لأن من يقف على خطّ الوسط يستطيع أن يشهد كل الخطوط الانحرافية المتجهة نحو اليمين واليسار .

ومن جانب آخر تحمل العبارة دليلها وتقول : إِنَّمَا كُنْتُمْ شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ لأَنَّكُمْ معتدلون وأنكم أمة وَسَط" . انتهى انتهى . اهـ ﴿الأمثل حـ 1 صـ 410﴾

قوله تعالى : ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾

﴿لتكونوا﴾ أي أنتم لا غيركم ﴿شهداء﴾ كما أفاده التعبير بهذا دون أن يقال : لتشهدوا ، وقال : ﴿على الناس﴾ أي كافة . ولما كان الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أوسطهم قال : ﴿ويكون الرسول﴾ أي لا غيره بما اقتضاه اختصاصه بكونه وسط

الوسط ﴿ عليكم ﴾ خاصة ﴿ شهيداً ﴾ بأنكم تابعتموه وصدقتموه فكنتم خير أمة أخرجت للناس ، وبأنه قد بلغكم مدة حياته ، فلما مات خلف فيكم كتاباً معجزاً متواتراً لا يغسله الماء ولا تحرقه النار ، لأنه محفوظ في الصدور متلو بالألسن إلى أن يأتي أمر الله ، ولذلك عبر بأداة الاستعلاء فافهم صوغ الكلام هكذا : إنهم حازوا شرفين أنه لا يشهد عليهم إلا الرسول ، وأنه لا يحتاج في الشهادة على سائر الأمم إلى غير شهادتهم دفعاً لتوهم أن غيرهم يشهد عليهم كما شهدوا عليهم ، ولتوهم أن غيرهم لا يكتفى في الشهادة عليه إلا بشهادة الرسول كما لم يكتف فيهم إلا بذلك . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 263 ﴾ .

كلام نفيس لصاحب التحرير والتنوير

و(الناس) عام والمراد بهم الأمم الماضون والحاضرون وهذه الشهادة دنيوية وأخروية . فأما الدنيوية فهي حكم هاته الأمة على الأمم الماضين والحاضرين بتبرير المؤمنين منهم بالرسل المبعوثين في كل زمان وبتضليل الكافرين منهم برسلهم والمكابرين في العكوف على مللهم بعد مجيء ناسخها وظهورِ الحق ، وهذا حكم تاريخي ديني عليه إذا نشأت عليه الأمة نشأت على تعود عرض الحوادث كلها على معيار النقد المصيب .

والشهادة الأخروية هي ما رواه البخاري والترمذي عن أبي سعيد الخدري قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ "يجاء بنوح يوم القيامة فيقال له هل بلغت فيقول نعَمْ يا رب فتُسْأل أمتُه هل بلغكم فيقولون ما جاءنا من نذير فيقول الله مَن شهودك فيقول محمد وأمته فيجاء بكم فتشهدون ثم قرأ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿ وكذلك جعلناكم أمةً وسطاً ﴾ قال عدلاً ﴿ لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً " اه .

فقوله ثم قرأ يدل على أن هذه الشهادة من جملة معنى الآية لا أنها عين معنى الآية .

ومن مكملات معنى الشهادة على الناس في الدنيا وجوب دَعوتنا الأمَمَ للإِسلام ، ليقوم ذلك مقامَ دعوة الرسول إياهم حتى تتم الشهادة للمؤمنين منهم على المعرضين .

والشهادة على الأمم تكون لهم وعليهم ، ولكنه اكتفى في الآية بتعديتها بعلى إشارة إلى أن معظم شهادة هذه الأمة وأهمها شهادتهم على المعرضين لأن المؤمنين قد شَهِد لهم إيمانهم فالاكتفاء بعلى تحذير للأمم من أن يكونوا بحيث يشهد عليهم وتنويه بالمسلمين بحالة سلامتهم من وصمة أن يكونوا ممن يشهد عليهم وبحالة تشريفهم بهاته المنقبة وهي إثقاف المخالفين لهم بموجب شهادتهم .

وقد دلت هذه الآية على التنويه بالشهادة وتشريفها حتى أظهر العليم بكل شيء أنه لا يقضي إلاّ بعد حصولها . ويؤخذ من الآية أن الشاهد شهيد بما حصل له من العلم وإن لم

يشهده المشهود عليه وأنه يشهد على العلم بالسماع والأدلة القاطعة وإن لم ير بعينه أو يسمع بأذنيه ، وأن التزكية أصل عظيم في الشهادة ، وأن المزكي يجب أن يكون أفضل وأعدل من المزكَّى ، وأن المزكي لا يحتاج للتزكية ، وأن الأمَّة لا تشهد على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولهذا كان يقول في حجة الوداع : " أَلاَ هل بَلغْتُ فيقولون نعم فيقول اللهم اشْهَد " فجعل الله هو الشاهد على تبليغه وهذا من أدق النكت .

(64/69)

وتقديم الجار والمجرور على عامله لا أراه إلاّ لمجرد الاهتمام بتشريف أمر هذه الأمة حتى أنها تشهد على الأمم والرسل وهي لا يشهد عليها إلاّ رسولها أ هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 2 صـ 20 ـ 22 باختصار يسير ﴾ .

سؤال : فإن قيل : لم قدم المجرور في قوله ﴿ عليكم شهيدا ﴾ وآخره في قوله ﴿ شهداء على الناس ﴾ ؟

فالجواب : أن تقديم المعمولات يفيد الحصر فقدم المجرور في قوله ﴿ عليكم شهيدا ﴾ لاختصاص شهادة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأمته ، ولم يقدمه في قوله ﴿ شهداء على الناس ﴾ لأنه لم يقصد الحصر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التسهيل حـ 1 صـ 62 ﴾ .

سؤال : ما الحكمة في ذلك تمييز أمة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ في الفضل عن سائر الأمم ؟

الجواب : الحكمة في ذلك تمييز أمة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ في الفضل عن سائر الأمم بالمبادرة إلى تصديق الله تعالى وتصديق جميع الأنبياء ، والإيمان بهم جميعاً ، فهم بالنسبة إلى سائر الأمم كالعدل بالنسبة إلى الفاسق ، فلذلك يقبل الله شهادتهم على سائر الأمم ولا يقبل شهادة الأمم عليهم إظهاراً لعدالتهم وكشفاً عن فضيلتهم ومنقبتهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 4 صـ 92 ﴾ .

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ وَيَكُونَ الرسول عَلَيْكُمْ شَهِيداً ﴾ .

لم يبين هنا هل هو شهيد عليهم في الدنيا أو الآخرة ؟ ولكنه بين في موضع آخر أنه شهيد عليهم في الآخرة ، وذلك في قوله : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ على هؤلاء شَهِيداً يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الذين كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ الرسول لَوْ تسوى بِهِمُ الأرض وَلاَ يَكْتُمُونَ الله حَدِيثا ﴾ [النساء : 41-42] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 1 صـ 46 ﴾ .

فائدة

قال ابن زيد : الأشهاد أربعة . أولها : الملائكة الموكلون بإثبات أعمال العباد . قال تعالى : ﴿ وَجَاءتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾ [ق : 21] وقال : ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق : 18] وقال : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لحافظين كِرَاماً كَاتبين يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُون ﴾ [الإنفطار : 10 12] . وثانيها : شهادة الأنبياء وهو المراد بقوله حاكياً عن عيسى ـ عليه السلام ـ : ﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ على كُلّ شَىْء شَهِيدٌ ﴾ [المائدة : 117] وقال في حق محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأمته في هذه الآية : ﴿ لّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى الناس وَيَكُونَ الرسول عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ وقال : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ على هَؤُلاء شَهِيداً ﴾ [النساء : 41] . وثالثها : شهادة أمة محمد خاصة . قال تعالى : ﴿ وَجِىء بالنبيين والشهداء ﴾

[الزمر : 69] وقال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَقُومُ الأشهاد ﴾ [غافر : 51] . ورابعها : شهادة الجوارح وهي بمنزلة الإقرار بل أعجب منه قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ ﴾ [النور : 24] الآية ، وقال : ﴿ اليوم نَخْتِمُ على أفواههم ﴾ [يس : 65] الآية . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 4 صـ 92 ﴾ .

قوله تعالى ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ ﴾

(66/69)

قال البيضاوى :

﴿ وَمَا جَعَلْنَا القبلة التى كُنتَ عَلَيْهَا ﴾ أي الجهة التي كنت عليها ، وهي الكعبة فإنه عليه الصلاة والسلام كان يصلي إليها بمكة ، ثم لما هاجر أمر بالصلاة إلى الصخرة تألفاً لليهود (1) . أو الصخرة لقول ابن عباس رضي الله عنهما : "كانت قبلته بمكة بيت المقدس إلا أنه كان يجعل الكعبة بينه وبينها " فالمخبر به على الأول الجعل الناسخ ، وعلى الثاني المنسوخ. والمعنى أن أصل أمرك أن تستقبل الكعبة ، وما جعلنا قبلتك بيت المقدس . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 1 صـ 417 ﴾

---

(1) لا يخفى ما فى هذا الوجه من بعد بعيد ومجانبة للصواب ؛ لمكان العصمة الشريفة ، وعلو مقام رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذى لا ينطق عن الهوى والذى حكى الله على لسانه فى أكثر من موضع قوله ﴿ إن أتبع إلا ما يوحى إلى ﴾ فهل من المتصور أن يطلب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ رضا اليهود فى مقابل أمر الله أو دون أمر من الله ومن

المعلوم أن اليهود من أول وهلة دخل فيها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ المدينة لم يتوقفوا عن مساومته لدرجة أنهم عند تحويل القبلة طلبوا من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يرجع إلى قبلة بيت المقدس فى مقابل دخولهم الإسلام فهل أجابهم ؟ ؟ ! ! !

لقد أنزل الله إليه قوله تعالى ﴿ ولا تتبع أهوائهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك ﴾

ويكفى فى رد هذا الافتراء قوله تعالى بعد هذه الآية ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ ﴾

﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ﴾

والسؤال الذى يفرض نفسه فى الآيتين السابقتين هو هل يفهم من نص الآيتين الكريمتين تخيير النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى التوجه إلى بيت المقدس

ولا شك أن هذا السؤال غنى عن الجواب

إن هذا الزعم الباطل والزائف هو عين ما يدعيه المستشرقون الآن مع يقينهم بافترائهم وتجنيهم على الإسلام وعلى رسول الإسلام ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿ إن هذا لشىء عجاب ﴾ ومواضع مخالفة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لليهود مشهورة بل وأمره صلى الله عليه وسلم بمخالفة اليهود والنصارى ظاهر وجلى فهل يتصور عاقل فضلا عن فاضل أن يأمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمته بمخالفة اليهود والنصارى ثم يميل بل يتوجه

على مدى ستة عشر شهرا أو سبعة عشر شهرا ـ على خلاف فى الروايات ـ إلى قبلة بيت المقدس لإرضاء اليهود

إن الشرع والعقل يأبى هذه الفرية ويقضى ببطلانها . والله أعلم

(67/69)

سؤال : ما معنى الانقلاب ؟ ولم قيده بقوله ﴿ على عقبيه ﴾ ؟

الجواب : الانقلاب الرجوع إلى المكان الذي جاء منه ، يقال انقلب إلى الدار ، وقوله : ﴿ على عقيبه ﴾ زيادة تأكيد في الرجوع إلى ما كان وراءه لأن العقبين هما خلف الساقين أي انقلب على طريق عقيبه وهو هنا استعارة تمثيلية للارتداد عن الإسلام رجوعاً إلى الكفر السابق . أ هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 2 صـ 23 ـ 24 ﴾ .

إشكال وجوابه

وما جعلنا كذا وكذا إلا لنعلم كذا يوهم أن العلم بذلك الشيء لم يكن حاصلاً فهو فعل ذلك الفعل ليحصل له ذلك العلم وهذا يقتضي أن الله تعالى لم يعلم تلك الأشياء قبل وقوعها ، ونظيره في الإشكال قوله : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حتى نَعْلَمَ المجاهدين مِنكُمْ والصابرين ﴾ [محمد :

31] وقوله : ﴿ الآن خَفَّفَ اللهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً ﴾ [الأنفال : 66] وقوله : ﴿ لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يخشى ﴾ [طه : 44] وقوله : ﴿ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الذين صَدَقُواْ ﴾ [العنكبوت : 3] وقوله : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الجنة وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الذين جاهدوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصابرين ﴾

[آل عمران : 142] وقوله : ﴿ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مّن سلطان إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بالأخرة ﴾ [سبأ : 21] والكلام في هذه المسألة أمر مستقصى في قوله : ﴿ وَإِذِ ابتلى ﴾ والمفسرون أجابوا عنه من وجوه . أحدها : أن قوله : ﴿ إِلاَّ لِنَعْلَمَ ﴾ معناه إلا ليعلم حزبنا من النبيين والمؤمنين كما يقول الملك : فتحنا البلدة الفلانية بمعنى : فتحها أولياؤنا ، ومنه يقال : فتح عمر السواد ، ومنه قول عليه الصلاة والسلام فيما يحكيه عن ربه : " استقرضت عبدي فلم يقرضني ، وشتمني ولم يكن ينبغي له أن يشتمني يقول وادهراه وأنا الدهر " وفي الحديث : " من أهان لي ولياً فقد أهانني " . وثانيها : معناه ليحصل المعدوم فيصير موجوداً ، فقوله : ﴿ إِلاَّ لِنَعْلَمَ ﴾ معناه : إلا لنعلمه موجوداً ، فإن قيل : فهذا يقتضي حدوث العلم ، قلنا : اختلفوا في أن العلم بأن الشيء سيوجد هل هو علم بوجوده إذا وجد الخلاف فيه مشهور .

وثالثها : إلا لنميز هؤلاء من هؤلاء بانكشاف ما في قلوبهم من الإخلاص والنفاق ، فيعلم المؤمنون من يوالون منهم ومن يعادون ، فسمي التمييز علماً ، لأنه أحد فوائد العلم وثمراته . ورابعها : ﴿ إِلاَّ لِنَعْلَمَ ﴾ معناه : إلا لنرى ، ومجاز هذا أن العرب تضع العلم مكان الرؤية ، والرؤية مكان العلم كقوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ﴾ [الفجر : 6] [الفيل : 1] [إبراهيم : 19] ورأيت ، وعلمت ، وشهدت ، ألفاظ متعاقبة . وخامسها : ما ذهب إليه الفراء : وهو أن حدوث العلم في هذه الآية راجع إلى المخاطبين ، ومثاله أن جاهلاً وعاقلاً اجتمعا ، فيقول الجاهل : الحطب يحرق النار ، ويقول العاقل : بل النار تحرق الحطب ، وسنجمع بينهما لنعلم أيهما يحرق صاحبه معناه : لنعلم أينا الجاهل ، فكذلك قوله : ﴿ إِلاَّ لِنَعْلَمَ ﴾ إلا لتعلموا والغرض من هذا الجنس من الكلام : الاستمالة والرفق في الخطاب ، كقوله : ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ

لعلى هُدًى ﴾ [سبأ : 24] فأضاف الكلام الموهم للشك إلى نفسه ترقيقاً للخطاب ورفقاً بالمخاطب ، فكذا قوله : ﴿ إِلاَّ لِنَعْلَمَ ﴾ . وسادسها : نعاملكم معاملة المختبر الذي كأنه لا يعلم ، إذ العدل يوجب ذلك . وسابعها : أن العلم صلة زائدة ، فقوله ؛ ﴿ إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن

يَتَّبِعُ الرسول مِمَّن يَنقَلِبُ على عَقِبَيْهِ ﴾ معناه : إلا ليحصل اتباع المتبعين ، وانقلاب المنقلبين ، ونظيره قولك في الشيء الذي تنفيه عن نفسك : ما علم الله هذا مني أي ما كان هذا مني والمعنى : أنه لو كان لعلمه الله . أهـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 4 صـ 95. 96 ﴾ .

وقال فى أضواء البيان :

قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا القبلة التي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلاَّ لِنَعْلَمَ ﴾ الآية .

ظاهر هذه الآية قد يتوهم منه الجاهل أنه تعالى يستفيد بالاختبار علماً لم يكن يعلمه ، سبحانه وتعالى عن ذلك علوّاً كبيراً ، بل هو تعالى عالم بكل ما سيكون قبل أن يكون . وقد بين أنه لا يستفيد بالاختبار علماً لم يكن يعلمه بقوله جل وعلا : ﴿ وَلِيَبْتَلِيَ الله مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ والله عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور ﴾ [آل عمران : 154] فقوله : ﴿ والله عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور ﴾ بعد قوله : ﴿ وَلِيَبْتَلِيَ ﴾ دليل قاطع على أنه لم يستفد بالاختبار شيئاً لم يكن عالماً به ، سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً ، لأن العليم بذات الصدور غني عن الاختبار ، وفي هذه الآية بيان عظيم لجميع الآيات التي يذكر الله فيها اختباره لخلقه . ومعنى ﴿ إِلاَّ لِنَعْلَمَ ﴾ أي علماً يترتب عليه الثواب والعقاب فلا ينافي أنه كان عالماً به قبل ذلك ، وفائدة الاختبار ظهور الأمر للناس . أما عالم السر والنجوى فهو

عالم بكل ما سيكون ، كما لا يخفى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أضواء البيان حـ 1 صـ 46﴾ .

(70/69)

كلام نفيس لصاحب المنار

قال الشيخ محمد رشيد رضا ـ رحمه الله ـ

والمختار عندى التعبير عن علمه تعالى بالشىء قبل وجوده بعلم الغيب ، وبعد وجوده بعلم الشهادة كما قلت آنفا ، وإن كانت كلمات الله فى الآيتين الأخيرتين كلمات التكوين أنفسها لا متعلقاتها التى هى الموجودات ، فعلم الله قسمان :

غيب وشهادة ، وكلماته قسمان : تشريع وتكوين . أ هـ

﴿ تفسير المنار حـ 2 صـ 9 ﴾

" علم الله "

عبارة (لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ . . .) وأمثالها من التعبيرات القرآنية ، لا تعني أن الله لم يكن يعلم شيئاً ، ثم علم به بعد ذلك ، بل تعني تحقّق هذه الواقعيات .

بعبارة أوضح ، الله سبحانه يعلم منذ الأزل بكل الحوادث والموجودات ، وإن ظهرت

بالتدريج على مسرح الوجود . فحدوث الموجودات والأحداث لا يزيد الله علماً ، بل إن هذا الحدوث تحقّق لما كان في علم الله . وهذا يشبه علم المهندس بكل تفاصيل البناء عند وضعه التصميم . ثم يتحول التصميم إلى بناء عملي . والمهندس يقول حين ينفّذ تصميمه على الأرض : أريد أن أرى عملياً ما كان في علمي نظرياً . (علم الله يختلف دون شك عن علم البشر اختلافاً كبيراً كما ذكرنا ذلك في بحث صفات الله ، وإنما ذكرنا هذا المثال للتوضيح) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الأمثل حـ 1 صـ 411 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللهُ ﴾ فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : معناه وإن التولية عن بيت المقدس إلى الكعبة والتحويل إليها لكبيرةٌ ، وهذا هو قول ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة .

والثاني : إن الكبيرة هي القبلة بعينها التي كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يتوجه إليها من بيت المقدس قبل التحويل ، وهذا قول أبي العالية الرياحي .

والثالث : أن الكبيرة هي الصلاة ، التي كانوا صَلَّوْهَا إلى القبلة الأولى ، وهذا قول عبد الرحمن بن زيد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 1 صـ 201 ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُم ﴾ يعني صلاتكم إلى بيت المقدس ، فسمى الصلاة إيماناً لاشتمالها على نية وقول وعمل ، وسبب ذلك أن المسلمين لما حُوِّلوا عن استقبال بيت المقدس إلى الكعبة ، قالوا لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : كيف من مات من إخواننا ؟ فأنزل الله عز وجل : ﴿ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضيعَ إِيمَانَكُم ﴾

فإن قيل : هم سألوه عن صلاةِ غيرهم ، فأجابهم بحال صلاتهم ؟ قيل : لأن القوم أشفقوا ، أن تكون صلاتهم إلى بيت المقدس مُحْبَطةً لمنْ مات ومن بقي ، فأجابهم بما دَلَّ على الأمرين ، على أنه قد روى قوم أنهم قالوا : كيف تضيع صلاتنا إلى بيت المقدس فأنزل الله تعالى ذلك . ﴿ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 1 صـ 201 ﴾ .

وقال السعدى :

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ﴾ أي : ما ينبغي له ولا يليق به تعالى ، بل هي من الممتنعات عليه ، فأخبر أنه ممتنع عليه ، ومستحيل ، أن يضيع إيمانكم ، وفي هذا بشارة عظيمة لمن مَنَّ الله عليهم بالإسلام والإيمان ، بأن الله سيحفظ عليهم إيمانهم ، فلا يضيعه ، وحفظه نوعان :

حفظ عن الضياع والبطلان ، بعصمته لهم عن كل مفسد ومزيل له ومنقص من المحن المقلقة ، والأهواء الصادة ، وحفظ له بتنميته لهم ، وتوفيقهم لما يزداد به إيمانهم ، ويتم به إيقانهم ، فكما ابتدأكم ، بأن هداكم للإيمان ، فسيحفظه لكم ، ويتم نعمته بتنميته وتنمية أجره ، وثوابه ، وحفظه من كل مكدر ، بل إذا وجدت المحن المقصود منها ، تبيين المؤمن الصادق من الكاذب ، فإنها تمحص المؤمنين ، وتظهر صدقهم ، وكأن في هذا احترازا عما قد يقال إن قوله : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ ﴾ قد يكون سببا لترك بعض المؤمنين إيمانهم ، فدفع هذا الوهم بقوله : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ﴾ بتقديره لهذه المحنة أو غيرها .

ودخل في ذلك من مات من المؤمنين قبل تحويل الكعبة ، فإن الله لا يضيع إيمانهم ، لكونهم امتثلوا أمر الله وطاعة رسوله في وقتها ، وطاعة الله ، امتثال أمره في كل وقت ، بحسب ذلك ، وفي هذه الآية ، دليل لمذهب أهل السنة والجماعة ، أن الإيمان تدخل فيه أعمال الجوارح. انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير السعدى صـ 70 ﴾ .

أسئلة وأجوبة

فإن قيل : هلا قيل لكم شهيداً إذ شهادته لهم لا عليهم ؟

أجيب : بأنّ الشهيد لما كان كالرقيب والمهيمن على المشهود له جيء بكلمة الاستعلاء

ومنه قوله تعالى : ﴿ والله على كل شيء شهيد ﴾ (المجادلة) .

فإن قيل : لم أخرت صلة الشهادة أوّلاً وقدّمت آخراً ؟

أجيب : بأنّ الغرض في الأوّل إثبات شهادتهم على الأمم ، وفي الآخر اختصاصهم بكون الرسول شهيداً عليهم .

فإن قيل : كيف : قال الله تعالى لنعلم وهو عالم بالأشياء كلها ؟

أجيب : بأنه أراد به علم ظهور وهو العلم الذي يتعلق به الثواب والعقاب ، فإنه لا يتعلق بما هو عالم به في الغيب إنما يتعلق بما يوجد ، ومعناه أي : لنعلم العلم الذي يستحق العامل عليه الثواب والعقاب ونظيره قوله تعالى : ﴿ ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ﴾ (آل عمران ،) وقيل : ليعلم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمؤمنون ، وإنما أسند علمهم إلى ذاته تعالى ؛ لأنهم خواصه وأهل الزلفى عنده وقيل : معناه لتمييز التابع من الناكص كما قال الله تعالى : ﴿ ليميز الله الخبيث من الطيب ﴾ (الأنفال) فوضع العلم موضع التمييز التابع ؛ لأنّ بالعلم يقع التمييز ، فالعلم سبب والتمييز مسبب ، فأطلق السبب وهو العلم على المسبب وهو التمييز .

تنبيه : العلم في الآية إمّا بمعنى المعرفة ، فيتعدى إلى مفعول واحد وهو من يتبع ، وإمّا معلق لما في من معنى الاستفهام ، وإمّا أن يكون مفعوله الثاني ممن ينقلب أي : ليعلم من يتبع الرسول مميزاً ممن ينقلب .

فإن قيل : على الأوّل كيف يكون العلم بمعنى المعرفة والله تعالى لا يوصف بها ؛ لأنها تقتضي سبق جهل والله منزه عن ذلك ؟

أجيب : بأنّ ذلك لشيوعها فيما تقتضي أن يكون مسبوقاً بالعدم وليس العلم الذي بمعنى المعرفة ، كذلك إذ المراد به الإدراك الذي لا يتعدى إلى مفعولين ، بل قال الوليّ العراقي : قد وقع إطلاق المعرفة على الله تعالى في كلام النبيّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأقوال الصحابة أو كلام أهل اللغة .

فإن قيل : لم قدم الرؤوف على الرحيم مع أنه أبلغ ؟

أجيب : بأنه قدم محافظة على الفواصل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ السراج المنير حـ 1 صـ 159 ﴾ .

وقال ابن عرفة :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ بالناس لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

دليل على أنّ الكافر منعم عليه لعموم الناس ، وفيه خلاف ،

وأجيب بأنه منعم عليه في الدنيا فقط .

قال ابن الخطيب في شرح الأسماء الحسنى : إنما قدم الرؤوف على الرحيم لأن الرحمة في الشاهد إنما تحصل لمعنى وفي المرحوم من حاجة وضعف ، والرأفة تطلق عند حصول الرحمة لمعنى في الفاعل من شفقة منه على المرحوم فمنشأ

(الرأفة) كمال في إيصال الإحسان ومنشأ (الرحمة) كمال حال المرحوم في الاحتياج إلى الإحسان ، وتأثير حال الفاعل في إيجاد الفعل أقوى من احتياج المفعول إليه .

أهـ ﴿ تفسير ابن عرفة حـ 2 صـ 453 ﴾ .

سؤال : ما الفرق بين الرأفة والرحمة ؟

الجواب : قال القفال رحمه الله : الفرق بين الرأفة والرحمة أن الرأفة مبالغة في رحمة خاصة وهي دفع المكروه وإزالة الضرر كقوله : ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ ﴾ [النور : 2] أي لا ترأفوا بهما فترفعوا الجلد عنهما ، وأما الرحمة فإنها اسم جامع يدخل فيه ذلك المعنى ويدخل فيه الإفضال والإنعام ، وقد سمى الله تعالى المطر رحمة فقال : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾ [الأعراف : 57] لأنه إفضال من الله وإنعام ، فذكر الله تعالى الرأفة أولاً بمعنى أنه لا يضيع أعمالهم ويخفف المحن عنهم ، ثم ذكر الرحمة لتكون

أعم وأشمل ، ولا تختص رحمته بذلك النوع بل هو رحيم من حيث أنه دافع للمضار التي هي الرأفة وجالب للمنافع معاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 4 صـ 99 ﴾ .

سؤال : ما وجه تعلق هذين الاسمين بما قبلهما ؟

ذكروا في وجه تعلق هذين الاسمين بما قبلهما وجوهاً . أحدها : أنه تعالى لما أخبر أنه لا يضيع إيمانهم قال : ﴿ إِنَّ اللهَ بالناس لَرَءوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحج : 65] والرؤف الرحيم كيف يتصور منه هذه الإضاعة . وثانيها : أنه لرؤف رحيم فلذلك ينقلكم من شرع إلى شرع آخر وهو أصلح لكم وأنفع في الدين والدنيا . وثالثها : قال : ﴿ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الذين هَدَى الله ﴾ فكأنه تعالى قال : وإنما هداهم الله ولأنه رؤف رحيم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 4 صـ 99 ﴾ .

فائدة

دلت الآية على أن من ظهر كفره وفسقه نحو المشبهة والخوارج والروافض فإنه لا يعتد به في الإجماع لأن الله تعالى إنما جعل الشهداء من وصفهم بالعدالة والخيرية ، ولا يختلف في ذلك

الحكم من فسق أو كفر بقوله أو فعل ، ومن كفر برد النص أو كفر بالتأويل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 4 صـ 93 ﴾ .

(76/69)

من فوائد الإمام الجصاص فى الآية

قال رحمه الله :

بَابُ الْقَوْلِ فِي صِحَّةِ الْإِجْمَاعِ قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ : الْوَسَطُ : الْعَدْلُ ، وَهُوَ الَّذِي بَيْنَ الْمُقَصِّرِ وَالْغَالِي .

وَقِيلَ : هُوَ الْخِيَارُ وَالْمَعْنَى وَاحِدٌ ؛ لِأَنَّ الْعَدْلَ هُوَ الْخِيَارُ ، قَالَ زُهَيْرٌ : هُمْ وَسَطٌ يَرْضَى الْأَنَامُ بِحُكْمِهِمْ إذَا طَرَقَتْ إحْدَى اللَّيَالِي بِمُعْظَمِ وَقَوْله تَعَالَى : ﴿ لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ مَعْنَاهُ كَيْ تَكُونُوا ، وَلِأَنْ تَكُونُوا كَذَلِكَ .

وَقِيلَ فِي الشُّهَدَاءِ : إنَّهُمْ يَشْهَدُونَ عَلَى النَّاسِ بِأَعْمَالِهِمْ الَّتِي خَالَفُوا الْحَقَّ فِيهَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ ﴾ وَقِيلَ فِيهِ : إنَّهُمْ يَشْهَدُونَ لِلْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمْ السَّلَامُ وَعَلَى أُمَمِهِمْ الْمُكَذِّبِينَ بِأَنَّهُمْ قَدْ بَلَّغُوهُمْ لِإِعْلَامِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ إيَّاهُمْ وَقِيلَ :

لِتَكُونُوا حُجَّةً فِيمَا تَشْهَدُونَ كَمَا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَهِيدٌ بِمَعْنَى حُجَّةٍ دُونَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا .

(77/69)

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : وَكُلُّ هَذِهِ الْمَعَانِي يَحْتَمِلُهَا اللَّفْظُ ، وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ بِأَجْمَعِهَا مُرَادُ اللَّهِ تَعَالَى ، فَيَشْهَدُونَ عَلَى النَّاسِ بِأَعْمَالِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَيَشْهَدُونَ لِلْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمْ السَّلَامُ عَلَى أُمَمِهِمْ بِالتَّكْذِيبِ لِإِخْبَارِ اللَّهِ تَعَالَى إيَّاهُمْ بِذَلِكَ وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ حُجَّةٌ عَلَى مَنْ جَاءَ بَعْدَهُمْ فِي نَقْلِ الشَّرِيعَةِ وَفِيمَا حَكَمُوا بِهِ وَاعْتَقَدُوا مِنْ أَحْكَامِ اللَّهِ تَعَالَى وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلَالَةٌ عَلَى صِحَّةِ إجْمَاعِ الْأُمَّةِ مِنْ وَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا : وَصْفُهُ إيَّاهَا بِالْعَدَالَةِ وَأَنَّهَا خِيَارٌ ، وَذَلِكَ يَقْتَضِي تَصْدِيقَهَا وَالْحُكْمَ بِصِحَّةِ قَوْلِهَا وَنَافٍ لِإِجْمَاعِهَا عَلَى الضَّلَالِ .

وَالْوَجْهُ الْآخَرُ قَوْلُهُ : ﴿ لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ بِمَعْنَى الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ ، كَمَا أَنَّ الرَّسُولَ لَمَّا

كَانَ حُجَّةً عَلَيْهِمْ وَصَفَهُ بِأَنَّهُ شَهِيدٌ عَلَيْهِمْ ، وَلَمَّا جَعَلَهُمْ اللَّهُ تَعَالَى شُهَدَاءَ عَلَى غَيْرِهِمْ فَقَدْ حَكَمَ لَهُمْ بِالْعَدَالَةِ وَقَبُولِ الْقَوْلِ ؛ لِأَنَّ شُهَدَاءَ اللَّهِ تَعَالَى لَا يَكُونُونَ كُفَّارًا وَلَا ضُلَّالًا ، فَاقْتَضَتْ الْآيَةُ أَنْ يَكُونُوا شُهَدَاءَ فِي الْآخِرَةِ عَلَى مَنْ شَاهَدُوا فِي كُلِّ عَصْرٍ بِأَعْمَالِهِمْ دُونَ

مَنْ مَاتَ قَبْلَ زَمَنِهِمْ ، كَمَا جُعِلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَهِيدًا عَلَى مَنْ كَانَ فِي عَصْرِهِ .

(78/69)

هَذَا إِذَا أُرِيدَ بِالشَّهَادَةِ عَلَيْهِمْ بِأَعْمَالِهِمْ فِي الْآخِرَةِ ، فَأَمَّا إِذَا أُرِيدَ بِالشَّهَادَةِ الْحُجَّةُ فَذَلِكَ حُجَّةٌ عَلَى مَنْ شَاهَدُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْعَصْرِ الثَّانِي وَعَلَى مَنْ جَاءَ بَعْدَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، كَمَا كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حُجَّةً عَلَى جَمِيعِ الْأُمَّةِ أَوَّلِهَا وَآخِرِهَا وَلِأَنَّ حُجَّةَ اللَّهِ إِذَا ثَبَتَتْ فِي وَقْتٍ فَهِيَ ثَابِتَةٌ أَبَدًا .

وَيَدُلُّكَ عَلَى فَرْقِ مَا بَيْنَ الشَّهَادَةِ عَلَى الْأَعْمَالِ فِي الْآخِرَةِ وَالشَّهَادَةِ الَّتِي هِيَ الْحُجَّةُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ لَمَّا أَرَادَ الشَّهَادَةَ عَلَى أَعْمَالِهِمْ خَصَّ أَهْلَ عَصْرِهِ وَمَنْ شَاهَدَهُ بِهَا ، وَكَمَا قَالَ تَعَالَى حَاكِيًا عَنْ عِيسَى صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ : ﴿ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ﴾ فَتَبَيَّنَ أَنَّ الشَّهَادَةَ بِالْأَعْمَالِ إِنَّمَا هِيَ مَخْصُوصَةٌ بِحَالِ الشَّهَادَةِ ، وَأَمَّا الشَّهَادَةُ الَّتِي هِيَ الْحُجَّةُ فَلَا تَخْتَصُّ بِهَا أَوَّلُ الْأُمَّةِ وَآخِرُهَا فِي كَوْنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حُجَّةً عَلَيْهِمْ .

كَذَلِكَ أَهْلُ كُلِّ عَصْرٍ لَمَّا كَانُوا شُهَدَاءَ اللَّهِ مِنْ طَرِيقِ الْحُجَّةِ وَجَبَ أَنْ يَكُونُوا حُجَّةً عَلَى أَهْلِ عَصْرِهِمْ الدَّاخِلِينَ مَعَهُمْ فِي إجْمَاعِهِمْ وَعَلَى مَنْ بَعْدَهُمْ مِنْ سَائِرِ أَهْلِ الْأَعْصَارِ .

فَهُوَ يَدُلُّ

(79/69)

عَلَى أَنَّ أَهْلَ عَصْرٍ إذَا أَجْمَعُوا عَلَى شَيْءٍ ثُمَّ خَرَجَ بَعْضُهُمْ عَنْ إجْمَاعِهِمْ أَنَّهُ مَحْجُوجٌ بِالْإِجْمَاعِ الْمُتَقَدِّمِ ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ شَهِدَ لِهَذِهِ الْجَمَاعَةِ بِصِحَّةِ قَوْلِهَا وَجَعَلَهَا حُجَّةً وَدَلِيلًا ، فَالْخَارِجُ عَنْهَا بَعْد ذَلِكَ تَارِكٌ لِحُكْمِ دَلِيلِهِ وَحُجَّتِهِ ؛ إذْ غَيْرُ جَائِزٍ وُجُود دَلِيلِ اللَّهِ تَعَالَى عَارِيًا مِنْ مَدْلُولِهِ ، وَيَسْتَحِيلُ وُجُودُ النَّسْخِ بَعْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيُتْرَكُ حُكْمُهُ مِنْ طَرِيقِ النَّسْخِ ، فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ الْإِجْمَاعَ فِي أَيِّ حَالٍ حَصَلَ مِنْ الْأُمَّةِ فَهُوَ حُجَّةٌ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ غَيْرُ سَائِغٍ لِأَحَدٍ تَرْكُهُ وَلَا الْخُرُوجُ عَنْهُ .

وَمِنْ حَيْثُ دَلَّتْ الْآيَةُ عَلَى صِحَّةِ إجْمَاعِ الصَّدْرِ الْأَوَّلِ ، فَهِيَ دَالَّةٌ عَلَى صِحَّةِ إجْمَاعِ أَهْلِ الْأَعْصَارِ ، إذْ لَمْ يُخَصِّصْ بِذَلِكَ أَهْلُ عَصْرٍ دُونَ عَصْرٍ .

وَلَوْ جَازَ الِاقْتِصَارُ بِحُكْمِ الْآيَةِ عَلَى إجْمَاعِ الصَّدْرِ الْأَوَّلِ دُونَ أَهْلِ سَائِرِ الْأَعْصَارِ لَجَازَ الِاقْتِصَارُ بِهِ عَلَى إجْمَاعِ أَهْلِ سَائِرِ الْأَعْصَارِ دُونَ الصَّدْرِ الْأَوَّلِ .

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ : لَمَّا قَالَ : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ فَوَجَّهَ الْخِطَابَ إِلَى الْمَوْجُودِينَ فِي حَالِ نُزُولِهِ ، دَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُمْ هُمْ الْمَخْصُوصُونَ بِهِ دُونَ غَيْرِهِمْ ، فَلَا يَدْخُلُونَ فِي حُكْمِهِمْ إلَّا بِدَلَالَةٍ قِيلَ لَهُ : هَذَا غَلَطٌ ؛ لِأَنَّ قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ هُوَ خِطَابٌ لِجَمِيعِ الْأُمَّةِ : أَوَّلِهَا وَآخِرِهَا ، مَنْ كَانَ مِنْهُمْ مَوْجُودًا فِي وَقْتِ نُزُولِ الْآيَةِ وَمَنْ جَاءَ بَعْدَهُمْ إلَى قِيَامِ السَّاعَةِ ، كَمَا أَنَّ قَوْله تَعَالَى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ وَقَوْلُهُ : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ الْقِصَاصُ ﴾ وَنَحْوُ ذَلِكَ مِنْ الْآيِ خِطَابٌ لِجَمِيعِ الْأُمَّةِ ، كَمَا كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَبْعُوثًا إلَى جَمِيعِهَا : مَنْ كَانَ مِنْهُمْ مَوْجُودًا فِي عَصْرِهِ وَمَنْ جَاءَ بَعْدَهُ .

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ إنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ وَمَا أَحْسِبُ مُسْلِمًا يَسْتَجِيزُ إطْلَاقَ الْقَوْلِ بِأَنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَكُنْ مَبْعُوثًا إلَى جَمِيعِ الْأُمَّةِ أَوَّلِهَا وَآخِرِهَا ، وَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ حُجَّةً عَلَيْهَا وَشَاهِدًا ، وَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ رَحْمَةً لِكَافَّتِهَا .

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ : لَمَّا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ وَاسْمُ الْأُمَّةِ يَتَنَاوَلُ الْمَوْجُودِينَ فِي عَصْرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَنْ جَاءَ بَعْدَهُمْ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ ، فَإِنَّمَا حُكْمُ لِجَمَاعَتِهَا بِالْعَدَالَةِ وَقَبُولِ الشَّهَادَةِ ، وَلَيْسَ فِيهِ حُكْمٌ لِأَهْلِ عَصْرٍ وَاحِدٍ بِالْعَدَالَةِ وَقَبُولِ الشَّهَادَةِ ، فَمِنْ أَيْنَ حَكَمْتَ لِأَهْلِ كُلِّ عَصْرٍ بِالْعَدَالَةِ حَتَّى جَعَلْتَهُمْ حُجَّةً عَلَى مَنْ بَعْدَهُمْ ؟ قِيلَ لَهُ : لَمَّا جُعِلَ مَنْ حُكِمَ لَهُ بِالْعَدَالَةِ حُجَّةً عَلَى غَيْرِهِ فِيمَا يُخْبِرُ بِهِ أَوْ يَعْتَقِدُهُ مِنْ أَحْكَامِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَكَانَ مَعْلُومًا أَنَّ ذَلِكَ صِفَةٌ قَدْ حَصَلَتْ لَهُ فِي الدُّنْيَا وَأَخْبَرَ تَعَالَى بِأَنَّهُمْ شُهَدَاءُ عَلَى النَّاسِ ، فَلَوْ اعْتُبِرَ أَوَّلُ الْأُمَّةِ وَآخِرُهَا فِي كَوْنِهَا حُجَّةً لَهُ عَلَيْهِمْ ، لَعَلِمْنَا أَنَّ الْمُرَادَ أَهْلُ كُلِّ عَصْرٍ ؛ لِأَنَّ أَهْلَ كُلِّ عَصْرٍ يَجُوزُ أَنْ يُسَمَّوْا أُمَّةً ؛ إِذْ كَانَتْ الْأُمَّةُ اسْمًا لِلْجَمَاعَةِ الَّتِي تَؤُمُّ جِهَةً وَاحِدَةً ، وَأَهْلُ كُلِّ عَصْرٍ عَلَى حِيَالِهِمْ يَتَنَاوَلُهُمْ هَذَا الِاسْمُ ، وَلَيْسَ يَمْنَعُ إِطْلَاقَ لَفْظِ الْأُمَّةِ وَالْمُرَادُ أَهْلُ عَصْرٍ ، أَلَا تَرَى أَنَّك تَقُولُ أَجْمَعَتْ الْأُمَّةُ عَلَى تَحْرِيمِ اللَّهِ تَعَالَى الْأُمَّهَاتِ وَالْأَخَوَاتِ ، وَنَقَلَتْ الْأُمَّةُ الْقُرْآنَ .

وَيَكُونُ ذَلِكَ إِطْلَاقًا صَحِيحًا قَبْلَ أَنْ يُوجَدَ آخِرُ الْقَوْمِ ؟

فَثَبَتَ بِذَلِكَ أَنَّ مُرَادَ اللَّهِ تَعَالَى بِذَلِكَ أَهْلُ كُلِّ عَصْرٍ .

وَأَيْضًا فَإِنَّمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ فَعَبَّرَ عَنْهُمْ بِلَفْظٍ مُنْكَرٍ حِينَ وَصَفَهُمْ بِهَذِهِ الصِّفَةِ وَجَعَلَهُمْ حُجَّةً ، وَهَذَا يَقْتَضِي أَهْلَ كُلِّ عَصْرٍ ؛ إذْ كَانَ قَوْلُهُ : ﴿ جَعَلْنَاكُمْ ﴾ خِطَابًا لِلْجَمِيعِ ، وَالصِّفَةُ لَاحِقَةٌ بِكُلِّ أُمَّةٍ مِنْ الْمُخَاطَبِينَ .

أَلَا تَرَى إلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ ﴾ وَجَمِيعُ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ لَهُ وَسَمَّى بَعْضَهُمْ عَلَى الِانْفِرَادِ أُمَّةً لِمَا وَصَفَهُمْ بِمَا وَصَفَهُمْ بِهِ ؟ فَثَبَتَ بِذَلِكَ أَنَّ أَهْلَ كُلِّ عَصْرٍ جَائِزٌ أَنْ يُسَمُّوا أُمَّةً وَإِنْ كَانَ الِاسْمُ قَدْ يَلْحَقُ أَوَّلَ الْأُمَّةِ وَآخِرَهَا وَفِي الْآيَةِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ مَنْ ظَهَرَ كُفْرُهُ نَحْوَ الْمُشَبِّهَةِ بِهِ ؟ وَمَنْ صَرَّحَ بِالْجَبْرِ وَعُرِفَ ذَلِكَ مِنْهُ ، لَا يُعْتَدُّ بِهِ فِي الْإِجْمَاعِ .

وَكَذَلِكَ مَنْ ظَهَرَ فِسْقُهُ لَا يُعْتَدُّ بِهِ فِي الْإِجْمَاعِ ، مِنْ نَحْوِ الْخَوَارِجِ وَالرَّوَافِضِ .

وَسَوَاءٌ مَنْ فَسَقَ مِنْ طَرِيقِ الْفِعْلِ أَوْ مِنْ طَرِيقِ الِاعْتِقَادِ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى إنَّمَا جَعَلَ الشُّهَدَاءَ مَنْ وَصَفَهُمْ بِالْعَدَالَةِ وَالْخَيْرِ ، وَهَذِهِ الصِّفَةُ لَا تَلْحَقُ الْكُفَّارَ وَلَا الْفُسَّاقَ .

وَلَا يَخْتَلِفُ فِي ذَلِكَ حُكْمُ مَنْ فَسَقَ أَوْ كَفَرَ بِالتَّأْوِيلِ أَوْ بِرَدِّ النَّصِّ ؛ إذْ الْجَمِيعُ شَمِلَهُمْ صِفَةُ الذَّمِّ وَلَا يَلْحَقُهُمْ صِفَةُ الْعَدَالَةِ بِحَالٍ وَاَللَّهُ أَعْلَمُ .

بَابُ اسْتِقْبَالِ الْقِبْلَةِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ﴾ قِيلَ : إنَّ التَّقَلُّبَ هُوَ التَّحَوُّلُ ، وَإِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنَّمَا كَانَ يُقَلِّبُ وَجْهَهُ فِي السَّمَاءِ ؛ لِأَنَّهُ كَانَ وَعَدَ بِالتَّحْوِيلِ إلَى الْكَعْبَةِ ، فَكَانَ مُنْتَظِرًا لِنُزُولِ الْوَحْيِ بِهِ وَكَانَ يَسْأَلُ اللَّهَ ذَلِكَ ، فَأَذِنَ اللَّهِ تَعَالَى لَهُ فِيهِ ؛ لِأَنَّ الْأَنْبِيَاءَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ لَا يَسْأَلُونَ اللَّهَ إلَّا بَعْدَ الْإِذْنِ ؛ لِأَنَّهُمْ لَا يَأْمَنُونَ أَنْ لَا يَكُونَ فِيهِ صَلَاحٌ وَلَا يُجِيبُهُمْ اللَّهُ فَيَكُونَ فِتْنَةً عَلَى قَوْمِهِ . فَهَذَا هُوَ مَعْنَى تَقَلُّبِ وَجْهِهِ فِي السَّمَاءِ وَقَدْ قِيلَ فِيهِ : إنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يُحِبُّ أَنْ يُحَوِّلَهُ اللَّهُ تَعَالَى إلَى الْكَعْبَةِ مُخَالَفَةً لِلْيَهُودِ وَتَمَيُّزًا مِنْهُمْ ، وَيُرْوَى ذَلِكَ عَنْ مُجَاهِدٍ .

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : " أَحَبَّ ذَلِكَ ؛ لِأَنَّهَا قِبْلَةُ إبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ " .

وَقِيلَ : إنَّهُ أَحَبَّ ذَلِكَ اسْتِدْعَاءً لِلْعَرَبِ إلَى الْإِيمَانِ ، وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ : ﴿ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ﴾ وَقَوْلُهُ : ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ فَإِنَّ أَهْلَ اللُّغَةِ قَدْ قَالُوا : إنَّ الشَّطْرَ اسْمٌ مُشْتَرَكٌ يَقَعُ عَلَى مَعْنَيَيْنِ : أَحَدُهُمَا : النِّصْفُ ، يُقَالُ : شَطَرْتُ الشَّيْءَ أَيْ جَعَلْتُهُ نِصْفَيْنِ ، وَيَقُولُونَ فِي مَثَلٍ لَهُمْ : " احْلِبْ حَلَبًا لَك شَطْرُهُ " أَيْ نِصْفُهُ .

وَالثَّانِي : نَحْوُهُ وَتِلْقَاؤُهُ .

وَلَا خِلَافَ أَنَّ مُرَادَ الْآيَةِ هُوَ الْمَعْنَى الثَّانِي ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَأَبُو الْعَالِيَةِ وَمُجَاهِدٌ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ .

وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ الْمَعْنَى الْأَوَّلَ ؛ إذْ لَيْسَ مِنْ قَوْلِ أَحَدٍ أَنَّ عَلَيْهِ اسْتِقْبَالَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ .

وَاتَّفَقَ الْمُسْلِمُونَ أَنَّهُ لَوْ صَلَّى إلَى جَانِبٍ مِنْهُ أَجْزَأَهُ .

وَفِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّهُ لَوْ أَتَى نَاحِيَةً

مِنْ الْبَيْتِ فَتَوَجَّهَ إلَيْهَا فِي صَلَاتِهِ أَجْزَأَهُ ؛ لِأَنَّهُ مُتَوَجِّهٌ شَطْرَهُ وَنَحْوَهُ .

وَإِنَّمَا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى التَّوَجُّهَ إلَى نَاحِيَةِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمُرَادُهُ الْبَيْتُ نَفْسُهُ ؛ لِأَنَّهُ لَا خِلَافَ أَنَّهُ مَنْ كَانَ بِمَكَّةَ فَتَوَجَّهَ فِي صَلَاتِهِ نَحْوَ الْمَسْجِدِ أَنَّهُ لَا يَجْزِيهِ إذَا لَمْ يَكُنْ مُحَاذِيًا لِلْبَيْتِ .

وَقَوْله تَعَالَى : ﴿ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ خِطَابٌ لِمَنْ كَانَ مُعَايِنًا لِلْكَعْبَةِ وَلِمَنْ كَانَ غَائِبًا عَنْهَا ، وَالْمُرَادُ لِمَنْ كَانَ حَاضِرَهَا إصَابَةُ عَيْنِهَا وَلِمَنْ كَانَ غَائِبًا عَنْهَا النَّحْوَ الَّذِي هُوَ عِنْدَهُ أَنَّهُ نَحْوَ الْكَعْبَةِ وَجِهَتُهَا فِي غَالِبِ ظَنِّهِ ؛ لِأَنَّهُ مَعْلُومٌ أَنَّهُ لَمْ يُكَلَّفْ

إصَابَةَ الْعَيْنِ ؛ إذْ لَا سَبِيلَ لَهُ إلَيْهَا ، وقَالَ تَعَالَى : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إلَّا وُسْعَهَا ﴾ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ سَبِيلًا إلَى إصَابَةِ عَيْنِ الْكَعْبَةِ لَمْ يُكَلَّفْهَا .

(85/69)

فَعَلِمْنَا أَنَّهُ إنَّمَا هُوَ مُكَلَّفٌ مَا هُوَ فِي غَالِبِ ظَنِّهِ أَنَّهُ جِهَتَهَا وَنَحْوِهَا دُونَ الْمَغِيبِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى وَهَذَا أَحَدُ الْأُصُولِ الدَّالَّةِ عَلَى تَجْوِيزِ الِاجْتِهَادِ فِي أَحْكَامِ الْحَوَادِثِ ، وَأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ الْمُجْتَهِدِينَ فَإِنَّمَا كُلِّفَ مَا يُؤَدِّيهِ إلَيْهِ اجْتِهَادُهُ وَيَسْتَوْلِي عَلَى ظَنِّهِ .

وَيَدُلُّ أَيْضًا عَلَى أَنَّ لِلْمُشْتَبَهِ مِنْ الْحَوَادِثِ حَقِيقَةً مَطْلُوبَةً كَمَا أَنَّ الْقِبْلَةَ حَقِيقَةٌ مَطْلُوبَةٌ بِالِاجْتِهَادِ وَالتَّحَرِّي ، وَلِذَلِكَ صَحَّ تَكْلِيفُ الِاجْتِهَادِ فِي طَلَبِهَا كَمَا صَحَّ تَكْلِيفُ طَلَبِ الْقِبْلَةِ بِالِاجْتِهَادِ ؛ لِأَنَّ لَهَا حَقِيقَةً ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ قِبْلَةٌ رَأْسًا لَمَا صَحَّ تَكْلِيفُنَا طَلَبَهَا .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 1 صـ 108. 112 ﴾

(86/69)

ومن فوائد ابن العربى فى الآية

قال رحمه الله :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ الْوَسَطُ فِي اللُّغَةِ : الْخِيَارُ ، وَهُوَ الْعَدْلُ .

وَقَالَ بَعْضُهُمْ : هُوَ مِنْ وَسَطِ الشَّيْءِ .

، وَلَيْسَ لِلْوَسَطِ الَّذِي هُوَ بِمَعْنَى مُلْتَقَى الطَّرَفَيْنِ هَهُنَا دُخُولٌ ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ آخِرُ الْأُمَمِ ؛ وَإِنَّمَا أَرَادَ بِهِ الْخِيَارَ الْعَدْلَ ، يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْله تَعَالَى بَعْدَهُ : ﴿ لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ فَأَنْبَأَنَا رَبُّنَا تَعَالَى بِمَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْنَا مِنْ تَفْضِيلِهِ لَنَا بِاسْمِ الْعَدَالَةِ ، وَتَوْلِيَتِهِ خُطَّةَ الشَّهَادَةِ عَلَى جَمِيعِ الْخَلِيقَةِ ، فَجَعَلَنَا أَوَّلًا مَكَانًا ، وَإِنْ كُنَّا آخِرًا زَمَانًا ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ نَحْنُ الْآخِرُونَ السَّابِقُونَ ﴾ .

وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ لَا يَشْهَدُ إلَّا الْعُدُولُ ، وَلَا يَنْفُذُ عَلَى الْغَيْرِ قَوْلُ الْغَيْرِ إلَّا أَنْ يَكُونَ عَدْلًا ، وَذَلِكَ فِيمَا يَأْتِي بَعْدُ إنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى . أ هـ

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ﴾ اتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّهَا نَزَلَتْ فِيمَنْ مَاتَ وَهُوَ يُصَلِّي إلَى الْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ ، وَاخْتَلَفُوا فِي تَأْوِيلِهَا ؛ فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ بِالتَّوَجُّهِ إلَى الْقِبْلَةِ وَتَصْدِيقِكُمْ لِنَبِيِّكُمْ قَالَهُ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ ، وَتَابَعَهُ عَلَيْهِ مُعْظَمُ الْمُتَكَلِّمِينَ ، وَالْأُصُولِيُّونَ .

وَقَدْ رَوَى ابْنُ وَهْبٍ ، وَابْنُ الْقَاسِمِ ، وَابْنُ عَبْدِ الْحَكَمِ ، وَأَشْهَبُ عَنْ مَالِكٍ : أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ صَلَاتُكُمْ ، زَادَ أَشْهَبُ ، وَابْنُ عَبْدِ الْحَكَمِ : قَالَ مَالِكٌ : " أَقَامَ النَّاسُ يُصَلُّونَ نَحْوَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ سِتَّةَ عَشَرَ شَهْرًا ؛ ثُمَّ أُمِرُوا بِالْبَيْتِ ، فَقَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ أَيْ : فِي صَلَاتِكُمْ إِلَى الْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ " .

قَالَ : وَإِنِّي لَأَذْكُرُ بِهَذِهِ الْآيَةِ قَوْلَ الْمُرْجِئَةِ : إِنَّ الصَّلَاةَ لَيْسَتْ مِنْ الْإِيمَانِ .

فَإِنْ قِيلَ : فَإِنْ كَانَتْ الصَّلَاةُ مِنْ الْإِيمَانِ فَلِمَ قَالَ مَالِكٌ : إِنَّ تَارِكَهَا غَيْرُ كَافِرٍ .

وَهَذَا تَنَاقُضٌ ، فَحَقِّقُوا وَجْهَ التَّقَصِّي عَنْهُ .

فَالْجَوَابُ : إنَّا وَإِنْ قُلْنَا إنَّ الصَّلَاةَ مِنْ الْإِيمَانِ لَمْ يَبْعُدْ ذَلِكَ تَسْمِيَةً ، وَقَدْ جَاءَ ذَلِكَ فِي الْقُرْآنِ ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ إلَى قَوْله تَعَالَى : ﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ﴾ إلَى قَوْله تَعَالَى : ﴿ أُولَئِكَ هُمْ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ وَكَذَلِكَ لَا يَبْعُدُ أَنْ يُسَمَّى تَارِكُهَا كَافِرًا .

قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ الْكُفْرِ تَرْكُ الصَّلَاةِ ﴾ .

وَقَدْ قَالَ عُلَمَاؤُنَا الْأُصُولِيُّونَ : فِي ذَلِكَ وَجْهَانِ : أَحَدُهُمَا : أَنْ تَكُونَ تَسْمِيَةُ الصَّلَاةِ إِيمَانًا وَتَرْكُهَا كُفْرًا مَجَازًا .

الثَّانِي : أَنْ يُرْجَعَ ذَلِكَ إلَى اعْتِقَادِ وُجُوبِ الصَّلَاةِ أَوْ اعْتِقَادِ نَفْيِ وُجُوبِهَا ؛

وَهَذَا لَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ ؛ بَلْ يَقُولُ عُلَمَاؤُنَا مِنْ الْفُقَهَاءِ : إنَّهَا تُسَمَّى إيمَانًا ، وَهِيَ مِنْ أَرْكَانِ الْإِيمَانِ وَعَهْدِ الْإِسْلَامِ .

وَلَكِنَّ الْفَرْقَ بَيْنَ عُلَمَاءِ الْأُصُولِ وَالْمُرْجِئَةِ أَنَّ الْمُرْجِئَةَ قَالَتْ : لَيْسَتْ مِنْ الْإِيمَانِ وَتَارِكُهَا فِي الْجَنَّةِ ، وَهَؤُلَاءِ قَالُوا : لَيْسَتْ مِنْ الْإِيمَانِ وَتَارِكُهَا فِي الْمَشِيئَةِ ، وَعُلَمَاؤُنَا الْفُقَهَاءُ قَالُوا : هِيَ مِنْ الْإِيمَانِ وَتَارِكُهَا فِي الْمَشِيئَةِ ، قَضَتْ بِذَلِكَ آيُ الْقُرْآنِ وَأَحَادِيثُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ خَمْسُ صَلَوَاتٍ كَتَبَهُنَّ اللَّهُ عَلَى عِبَادِهِ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ مَنْ جَاءَ بِهِنَّ لَمْ يُضَيِّعْ شَيْئًا مِنْهُنَّ اسْتِخْفَافًا بِحَقِّهِنَّ كَانَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدٌ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ وَمَنْ لَمْ يَأْتِ بِهِنَّ فَلَيْسَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدٌ إِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ ﴾ .

فَقَضَتْ هَذِهِ الْآيَةُ وَهَذَا الْحَدِيثُ وَنَظَائِرُهُمَا عَلَى كُلِّ مُتَشَابِهٍ جَاءَ مُعَارِضًا فِي الظَّاهِرِ لَهُمَا ؛ وَلَمْ يَمْتَنِعْ أَنْ تُسَمَّى الصَّلَاةُ إيمَانًا فِي إطْلَاقِ اللَّفْظِ ، وَيُحْكَمُ لِتَارِكِهَا بِالْمَغْفِرَةِ تَخْفِيفًا وَرَحْمَةً .

وَيُحْمَلُ مَا جَاءَ مِنْ الْأَلْفَاظِ الْمُكَفِّرَةِ ؛ كَقَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿ مَنْ تَرَكَ الصَّلَاةَ فَقَدْ كَفَرَ ﴾ وَنَحْوُهُ عَلَى ثَلَاثَةِ أَوْجُهٍ : الْأَوَّلُ : عَلَى التَّغْلِيظِ .

الثَّانِي : أَنَّهُ قَدْ فَعَلَ فِعْلَ الْكَافِرِ .

الثَّالِثُ : أَنَّهُ قَدْ أَبَاحَ دَمَهُ ، كَمَا أَبَاحَهُ فِي الْكَافِرِ ؛ وَاَللَّهُ أَعْلَمُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أحكام القرآن لابن العربى حـ 1 صـ 64.61﴾

(89/69)

ومن فوائد القاسمى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ﴾

﴿ وَكَذَلِكَ ﴾ أي : كما هديناكم إلى قبلة هي أوسط القِبل وأفضلها : ﴿ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً ﴾ أي : عدولاً ، خياراً ، وقوله تعالى : ﴿ لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ﴾ تعليل للجَعْل المنوه به الذي تَمَّتْ المنة به عليهم . واعلم أن أصل الشهود والشهادة الحضور مع المشاهدة ، إما بالبصر أو بالبصيرة . قال الرازي : الشهادة

والمشاهدة والشهود هو الرؤية ، يقال شاهدت كذا إذا رأيته وأبصرته ، ولما كان بين الإبصار بالعين ، وبين المعرفة بالقلب مناسبة شديدة ، لا جرم قد تسمى المعرفة التي في القلب مشاهدة وشهوداً ، والعارف بالشيء شاهداً ومشاهداً ، ثم سميت الدلالة على الشيء شاهداً على الشيء ؛ لأنها هي التي بها صار الشاهد شاهداً . ولما كان المخبر عن الشيء والمبيّن لحاله جارياً مجرى الدليل على ذلك ، سمي ذلك المخبر أيضاً شاهداً . وبالجملة ، فكل من عرف حال شيء ، وكشف عنه كان شاهداً عليه . انتهى .

(90/69)

والشهيد أصله الشاهد والمشاهد للشيء والمخبر عن علم حصل بمشاهدة بصرٍ أو بصيرة . وهو ، بالمعنى الثالث ، من النعوت الجليلة . ولذلك وصف به النبيون والسادة والأئمة . كما ترى في هذه الآية وفي آية : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيداً ﴾ [النساء : 41] وآية : ﴿ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ ﴾ [البقرة : 23] : ﴿ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ﴾ [النساء : 69] ، ثم إن في اللام في قوله تعالى : ﴿ لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ وجهين :

الأول : إنها لام الصيرورة والعاقبة ؛ أي : فآل الأمر بهدايتكم وجعلكم وسطاً أن كنتم

شهداء على الناس ، وهم أهل الأديان الأخر ؛ أي : بصراء على كفرهم بآيات الله وما غيروا وبدلوا وأشركوا وألحدوا ، مما قص عليكم في الآيات قبل ، حتى أحطتم به خبراً ، فعرفتم حق دينهم من باطله ، ووحيه من مخترعه .

يعني : وإذا شهدتم ذلك منهم وأبصرتم فاشكروا مولاكم على ما أولاكم ، وعافكم مما ابتلى به سواكم ، حيث وفقكم للمنهج السويّ وهداكم للمهيع الرضي ، وذلك صار الرسول عليكم شهيداً بأنكم عرفتم الحق من الباطل ، والهدى من الضلال ، والنور من الظلمات ، بما بلغكم من وحيه وأراكم من آياته . فعظمت المنة لله عليكم ؛ إذ أصبحتم مهتدين بعد الضلالة ، علماء بعد الجهالة . ففيه إشارة إلى تحذير المؤمنين من أن يزيغوا بعد الهدى ، كما زاغ أولئك الذين نعى عليهم ضلالتهم ، فتقوم عليهم الحجة كما قامت من أولئك .

(91/69)

الوجه الثاني : أن تكون اللام للتعليل ، على أصلها . والمعنى : جعلناكم أمة خياراً لتكونوا شهداء على الناس ، أي : رقباء قُوّاماً عليهم بدعائهم إلى الحق ، وإرشادهم إلى الهدى وإنذارهم مما هم فيه من الزيغ والضلال ، كما كان الرسول شهيداً عليكم بقيامه عليكم بما بلغكم وأمركم ونهاكم وحذركم وأنذركم . فتكون الآية نظير آية : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ

أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ [آل عِمْرَان : 110] ، وربما آثر هذا المعنى من قال : خير ما فسّر القرآن بالقرآن ، لتماثل الآيتين بادئ بدء ؛ فإن الوسط بمعنى الخيار . وقد صرح به في قوله : ﴿ خَيْرَ أُمَّةٍ ﴾ وإلى هذا المعنى يشير قول مجاهد في الآية : لتكونوا شهداء لمحمد عليه السلام على الأمم اليهود والنصارى والمجوس : أي : شهداء على حقية رسالته ، وذلك بالدعوة إليها ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر الذي هو قطب الدعوة وروحها .

وبعد كتابة هذا رأيت السمرقنديّ في تفسيره نقل خلاصة ما قلناه ؛ وعبارته : وللآية تأويل آخر : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً ﴾ أي : عدولاً : ﴿ لتكونوا شهداء على الناس ﴾ الخ يقول : إنكم حجة على جميع من خالفكم ، ورسول الله عليه السلام حجة عليكم . والشهادة في اللغة هو البيان ولهذا سمي الشاهد بينة ؛ لأنه يبيّن حق المدعي ؛ يعني إنكم تبينون لمن بعدكم ، والنبيّ عليه السلام يبين لكم . انتهى .

وأوضح ذلك الراغب الأصفهاني : بأسلوب آخر فقال : إن قيل : على أي : وجه شهادة النبي صلى الله عليه وسلم على الأمة وشهادة الأمة على الناس ؟ قيل : الشاهد هو العالم

بالشيء المخبر عنه مثبتاً حكمه ، وأعظم شاهد من ثبت شهادته بحجة ، ولما خص الله تعالى الْإِنْسَانْ بالعقل ، والتمييز بين الخير والشر ، وكمله ببعثة الأنبياء ، وخصّ هذا الأمة بأنم كتاب ، كما وصفه بقوله : ﴿ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [الأنعام : 38] . وقوله : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ [النحل : 89] ، فأفادناه عليه السلام وبينه لنا – صار حجة وشاهداً أن يقولوا : ﴿ مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلا نَذِيرٍ ﴾ [المائدة : 19] . وجعل أمته ، المتخصصة بمعرفته ، شهوداً على سائر الناس .

إن قيل : هل أمته شهود كلهم أم بعضهم ؟ قيل : كلهم ممكن من أن يكونوا شهداء ؛ وذلك بشريطة أن يزكوا أنفسهم بالعلم والعمل الصالح ، فمن لم يزك نفسه لم يكن شاهداً ومقبولاً . ولذلك قال تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴾ [الشمس : 9] وعلى هذا قال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ ﴾ [النساء : 135] ، فالقيام بالقسط مراعاة العدالة ، وهي بالقول المجمل ثلاث : عدالة بين الْإِنْسَانْ ونفسه ، وعدالة بينه وبين الناس ، وعدالة بينه وبين الله عز وجل . فمن رعى ذلك فقد صار عدلاً شاهداً لله عز وجل .

إن قيل : فهل هم شهود على بعض الأمة أم على الناس كافة ؟ قيل : بل كلٌّ شاهد نفسه ، وعلى أمته ، وعلى الناس كافة ، فإن من عرف حكمة الله تعالى وجوده ، وعدله ، ورأفته ، علم أنه لم يغفل تعالى عنه ، ولا عن أحد من الناس ، ولا بخل عليهم ولا ظلمهم ، ومن علم ذلك فهو شاهد لله على من في زمانه ، وعلى من قبله ومن بعده ، وعلى هذا الوجه ما روي في الخبر : < أن هذه الأمة تشهد للأنبياء على الأمم > . انتهى كلام الراغب .

والخبر الذي أشار إليه رواه البخاري عن أبي سعيد الخدريّ رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : < يدعى نوح يوم القيامة فيقول : لبيك وسعديك يا رب . فيقول : هل بلغتَ ؟ فيقول : نعم . فيقال لأمته : هل بلَّغكم ؟ فيقولون : ما أتانا من نذير . فيقول : من يشهد لك ؟ فيقول : محمد وأمته . فيشهدون أنه قد بلغ ويكون الرسول عليكم شهيداً > . فذلك قوله جل ذكره : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ﴾ . وقد روي مرفوعاً عن جابر . أخرجه الطبري . وعن ثلة من التابعين من قولهم .

وأقول : قد بينا مراراً ، أن مثل هذا الخبر وكل ما يروى مرفوعاً أو غير مرفوع في تأويل هذه الآية ، فكله يفيد أن للآية عموماً يشمل ما ذكر ، لا أنها خاصة به لا يستفاد منها غيره . كما أوضحناه في المقدمة في قولهم : نزلت الآية في كذا ؛ وعليه فلا تنافي بين ما يفهم من سياق الآية أو ما يتقاضاه معناها لغة ، من حيث عمومها ، أو ما يحمل عليها من نظائرها في التنزيل الكريم ، وبين ما يروى في تفسيرها ، فمآل ما يتعدد من سبب النزول في آية ما ، أو ما يكثر من الآثار في وجوهها ، كله من باب تفسير العامّ ببعض ما يتناوله لفظه . ولذلك يكثر في بعض طرق الروايات . ثم تلا النبي صلى الله عليه وسلم قوله تعالى ، أو : ثم قرأ . أو : اقرأوا إن شئتم . مما يدل على أنه ذكرتْ الآية حجة لما أخبر به ؛ لأنه مما يندرج فيها . فاحرص على ذلك .

تنبيهات :

الأول : استدل بالآية على أن الإجماع حجة ؛ لأن الله تعالى وصف هذه الأمة بالعدالة . والعدل هو المستحق للشهادة وقبولها ، فإذا اجتمعوا على شيء وشهدوا به لزم قبوله ، فإجماع الأمة حق ؛ لا تجتمع الأمة – والحمد لله – على ضلالة . كما وصفها الله بذلك في

الكتاب فقال تعالى : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عِمْرَان : 110] ، وهذا وصف لهم بأنهم يأمرون بكل معروف ، وينهون عن كل منكر ، كما وصف نبيهم صلى الله عليه وسلم بذلك في قوله : ﴿ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ [الأعراف : 157] ، وبذلك وصف المؤمنين في قوله : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ [التوبة : 71] ، فلو قالت الأمة في الدين بما هو ضلال ، لكانت لم تأمر بالمعروف في ذلك ، ولم تنه عن المنكر فيه ، وقد جعلهم الله شهداء على الناس ، وأقام شهادتهم مقام شهادة الرسول . وقد ثبت في " الصحيح " عن عبد العزيز بن صهيب قال : سمعت أنس بن مالك رضي الله عنه فيقول : مروا بجنازة فأثنوا عليها خيراً فقال النبي صلى الله عليه وسلم < وجبت > ثم مروا بأخرى فأثنوا عليها شراً فقال < وجبت > . فقال عُمَر بن الخطاب رضي الله عنه : ما وجبت ؟ قال : < هذا أثنيتم عليه خيراً فوجبت له الجنة ، وهذا أثنيتم عليه شراً فوجبت له النار ؛ أنتم شهداء الله في الأرض > .

وعند الحاكم أنه قرأ هذه الآية : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ ﴾ إلى آخرها .

فإذا كان الرب قد جعلهم شهداء ، لم يشهدوا بباطل ، فإذا شهدوا أن الله أمر بشيء ، فقد أمر به ، وإذا شهدوا أن الله نهى عن شيء فقد نهى عنه ، ولو كانوا يشهدون بباطل أو خطأ لم يكونوا شهداء الله في الأرض . بل زكاهم الله في شهادتهم ، كما زكى الأنبياء فيما يبلّغون عنه أنهم لا يقولون عليه إلا الحق ، وكذلك الأمة لا تشهد على الله إلا الحق .

هذه نبذة من كلام الإمام ابن تيمية عليه الرحمة ، في الإجماع ، من بعض رسائله .

(97/69)

الثاني : مما يتعلق أيضاً بهذا المقام ، ما قاله أيضاً هذا الإمام في رسالته إلى جماعة عدي بن مسافر . ونصه : فعصم الله هذه الأمة أن تجتمع على ضلالة ، وجعل فيها من تقوم به الحجة إلى يوم القيامة ، ولهذا كان إجماعهم حجة ، كما كان الكتاب والسنة حجة . ولهذا امتاز أهل الحق من هذه الأمة بالسنة والجماعة ، عن أهل الباطل الذين يزعمون أنهم يتبعون الكتاب ، ويعرضون عن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعما مضت عليه جماعة المسلمين ، وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم من وجوه متعددة ، رواها عنه أهل السنن والمسانيد . كالإمام أحمد ، وأبي داود ، والترمذي وغيرهم ، أنه قال : < ستفترق

هذه الأمة على اثنتين وسبعين فرقة ، كلها في النار ، إلا واحدة ، وهي الجماعة > . وفي رواية : < من كان على مثل ما أنا عليه اليوم ، وأصحابي > . وهذه الفرقة الناجية أهل السنة . وهم وسط في النِّحل ، كما أن ملة الإسلام وسط في الملل ، فالمسلمون وسط في أنبياء الله ، ورسله ، وعباده الصالحين ، لم يغْلوا فيهم كما غلت في النصارى ف : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة : 31] . ولا جَفَوْا عنهم ، كما جفت اليهود ، فكانوا يقتلون الأنبياء بغير حق : ﴿ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ ﴾ [آل عِمْرَان : 21] . و : ﴿ كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ ﴾ [المائدة : 70] بل المؤمنون آمنوا برسل الله ، وعزروهم ، ونصروهم ، ووقروهم ، وأحبوهم ، وأطاعوهم ، ولم يعبدوهم ، ولم يتخذوهم أربابا . كما قال تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ

كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ * وَلا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [

آل عِمْرَان : 79 – 80] . ومن ذلك أن المؤمنين توسطوا في المسيح ، فلم يقولوا : هو الله ، ولا ابن الله ، ولا ثالث ثلاثة . كما تقوله النصارى . ولا كفروا به ، وقالوا على مريم بهتاناً عظيماً ، حتى جعلوه ، ولدَ غيّة ، كما زعمت اليهود . بل قالوا : هذا عبد الله ورسوله ، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول ، وروح منه . وكذلك المؤمنون وسط في شرائع دين الله ، فلم يحرّموا على الله أن ينسخ ما شاء ، ويمحو ما شاء ويثبت . كما قالته اليهود . كما حكى الله تعالى ذلك عنهم بقوله : ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ﴾ [البقرة : 142] ، وبقوله : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَهُمْ ﴾ [البقرة : 91] ، ولا جوّزوا لأكابر علمائهم وعبّادهم أن يغيّروا دين الله ، فيأمروا بما شاؤوا وينهوا عما شاؤوا . كما يفعله النصارى ؛ كما ذكر الله عنهم بقوله : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ ﴾ [التوبة : 31]

قال عديّ بن حاتم رضي الله عنه : قلت : يا رسول الله ما عبدوهم ؟ قال : < ما عبدوهم ، ولكن أحلوا لهم الحرام فأطاعوهم ، وحرموا عليهم الحلال فأطاعوهم > .

والمؤمنون قالوا : لله الخلق والأمر . فكما لا يخلق غيره ، لا يأمر غيره . وقالوا : سمعنا وأطعنا ، فأطاعوا كل ما أمر الله به . وقالوا : إن الله يحكم ما يريد . وأما المخلوق ، فليس له أن يبدل أمر الخالق تعالى ، ولو كان عظيماً . وكذلك في صفات الله تعالى ، فإن اليهود وصفوا الله تعالى بصفات المخلوق الناقصة ، فقالوا : هو : ﴿ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ ﴾ [آل عِمْرَان : 181] . وقالوا : ﴿ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ [المائدة : 64] . وقالوا : إنه تعب من الخلق فاستراح يوم السبت . إلى غير ذلك . والنصارى وصفوا المخلوق بصفات الخالق المختصة به . فقالوا إنه يخلق ويرزق ، ويرحم ويتوب على الخلق ، ويثيب ويعاقب . والمؤمنون آمنوا بالله سبحانه وتعالى ، ليس له سمي ولا ندٌّ ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص : 4] . و : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى : 11] ، فإنه رب العالمين ، وخالق كل شيء ، وكل ما سواه عَبَّاد له ، فقراء إليه .

﴿ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً * وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْداً ﴾ [مريم : 93 - 95] ، ومن ذلك : أمر الحلال والحرام ، فإن اليهود كما قال تعالى : ﴿ فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾

[النساء : 160] ، فلا يأكلون ذوات الظفر مثل الإبل والبط ، ولا شحم الثَّرْب – الثَّرْب : شحم رقيق يغشى الكَرِش والأمعاء ، وجمعه ثروب – والكليتين ، ولا الجدي في لبن أمه ، إلى غير ذلك ، مما حرم عليهم من الطعام واللباس وغيرهما ؛ حتى قيل : إن المحرمات عليهم ثلاثمائة وستون نوعاً ، والواجب عليهم مائتان وثمانية وأربعون أمراً ، وكذلك شدد عليهم في النجاسات حتى لا يواكلوا الحائض ، ولا يجامعوها في البيوت .

وأما النصارى فاستحلوا الخبائث وجميع المحرمات ، وباشروا جميع النجاسات ، وإنما قال لهم المسيح : ﴿ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ [آل عِمْرَان : 50] . ولهذا قال تعالى : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ [التوبة : 29] .

وأما المؤمنون فكما نعتهم الله به في قوله : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ *الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ

لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف : 156 - 157] .

(102/69)

وهذا باب يطول وصفه ، وهكذا أهل السنة والجماعة في الفِرق ، فهم في باب أسماء الله وآياته وصفاته ، وسط بين أهل التعطيل ، الذين يلحدون في أسماء الله وآياته ، ويعطلون حقائق ما نَعَتَ الله به نفسه حتى يشبهونه بالعدم والموات ، وبين أهل التمثيل الذين يضربون له الأمثال ويشبهونه بالمخلوقات . فيؤمن أهل السنة والجماعة بما وصف الله به نفسه ، وما وصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف وتمثيل ، وهم في باب خلْقه وأمره وسط بين المكذبين بقدرة الله ، الذين لا يؤمنون بقدرته الكاملة ومشيئته الشاملة وخلقه لكل شيء ، وبين المفسدين لدين الله الذين يجعلون العبد ليس له مشيئة ولا قدرة ولا عمل ، فيعطون الأمر ، والنهي ، والثواب ، والعقاب ، فيصيرون بمنزلة المشركين الذين قالوا : ﴿ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ ﴾ [الأنعام : 148] فيؤمن أهل السنة بأن الله على كل شيء قدير .

فيقدر أن يهدي العباد ، ويقلب قلوبهم ، وإنه ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، فلا يكون في ملكه ما لا يريد ، ولا يعجز عن إنفاذ مراده ، وإنه خالق كل شيء من الأعيان والصفات والحركات ، ويؤمنون أن العبد له قدرة ومشيئة وعمل ، وأنه مختار ، ولا يسمونه مجبوراً ؛ إذ المجبور من أكره على خلاف اختياره ، والله سبحانه جعل العبد مختاراً لما يفعله ، فهو مختار مريد ، والله خالقه وخالق اختياره ، وهذا ليس له نظير . فإن الله ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله .

(103/69)

وهم في باب الأسماء والأحكام والوعد والوعيد ، وسط بين الوعيدية الذين يجعلون أهل الكبائر من المسلمين مخلدين في النار ، ويخرجونهم من الإيمان بالكلية ، ويكذبون بشفاعة النبي صلى الله عليه وسلم . وبين المرجئة الذين يقولون : إيمان الفساق مثل إيمان الأنبياء ، والأعمال الصالحة ليست من الدين والإيمان ، ويكذبون بالوعيد والعقاب بالكلية ؛ فيؤمن أهل السنة والجماعة بأن فسّاق المسلمين معهم بعض الإيمان وأصله ، وليس معهم جميع الإيمان الواجب الذي يستوجبون به الجنة ، وأنهم لا يخلدون في النار بل يخرج منها من كان في قلبه مثقال حبة من إيمان ، أو مثقال خردلة من إيمان ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم

أدَّخر شفاعته لأهل الكبائر من أمته ، وهم أيضاً في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضي عنهم ، وسط بين الغالية الذي يغالون في علي رضي الله عنه فيفضلونه على أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، ويعتقدون أنه الإمام المعصوم دونهما ، وأن الصحابة ظلموا وفسقوا ، وكفروا الأمة بعدهم كذلك ، وربما جعلوه نبياً أو إلهاً . وبين الجافية الذين يعتقدون كفره وكفر عثمان رضي الله عنهما ، ويستحلون دماءهما ودماء من تولاهما ، ويستحبون سب عليّ وعثمان ونحوهما ، ويقدحون في خلافة عليّ رضي الله عنه وإمامته .

وكذلك في سائر أبواب السنة هم وسط . لأنهم متمسكون بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وما اتفق عليه السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ، والذين اتبعوهم بإحسان انتهى .

(104/69)

﴿ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا ﴾ أي : ما شرعنا القبلة ، كقوله تعالى : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ ﴾ [المائدة : 103] أي : ما شرعها . و : ﴿ التي كنت عليها ﴾ ليس بصفة للقبلة إنما هو ثاني مفعوليّ : ﴿ جعل ﴾ أي : وما جعلنا القبلة الجهة التي كنت عليها

، أي : في مكة تستقبلها قبل الهجرة ، وهي الكعبة . يعني : وما رددناك إليها إلا امتحاناً للناس وابتلاء . أو : ﴿ كنت عليها ﴾ بمعنى صرت عليها الآن . كقوله تعالى : : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ ﴾ [آل عِمْرَان : 110] . أو بمعنى كنت على تطلّبها ، أي : حريصاً عليه ، وراغباً فيه . كما يفصح عنه قوله تعالى بعد : ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ ﴾ [البقرة : 144] الآية .

وعلى هذه الأوجه ، فتكون الآية بياناً للحكمة في جعل الكعبة قبلة ، أو معنى : ﴿ التي كنت عليها ﴾ : قبل وقتك هذا ، وهي بيت المقدس . أي : إنما شرعنا لك التوجه أولاً إليه ثم صرفناك عنه إلى الكعبة ليظهر حال من يتبعك ، حيثما توجهت ، من غيره . فتكون الآية بياناً للحكمة في جعل بيت المقدس قبلة أولاً .

ثم اعلم أن الحكمة هو التمييز بين الناس بقوله : ﴿ إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ ﴾ في كل ما يؤمر به ، فيثبت عند تقلب الأحكام بما في قلبه من صدق التعلق بالله والتوجه له أيّان ما وجهه : ﴿ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ ﴾ أي : يرتد عن دينه فينافق ، أو يكفر ممن كان يظهر الاتّباع . وأصل المنقلب على عقبيه : الراجع مستديراً في الطريق الذي قد كان قطعه منصرفاً عنه ، استعير لكل راجع عن أمر كان فيه من دين أو خير .

قال ابن جرير : قد ارتد ، في محنة الله أصحابَ رسوله في القبلة ، رجالٌ ممن كان قد أسلم ، وأظهر كثير من المنافقين من أجل ذلك نفاقهم ، وقالوا : ما بال محمد يحوّلنا مرة إلى ههنا ومرة إلى ههنا ؟ وقال المسلمون ، فيمن مضى من إخوانهم المسلمين وهم يصلون نحو بيت المقدس : بطلت أعمالنا وأعمالهم وضاعت . وقال المشركون : تحيّر محمد في دينه . فكان ذلك فتنة للمؤمنين وتمحيصاً للمؤمنين . انتهى .

لطيفة :

العقبين تثنية عقب وهو مؤخر القدم . والانقلاب عليهما استعارة تمثيلية ، وهذه الاستعارة نظير قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴾ [المدثر : 23] ، وكقوله : ﴿ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾ [طه : 48] .

تنبيه :

قال الراغب رحمه الله : ما وجه قوله : ﴿ إِلَّا لِنَعْلَمَ ﴾ وذلك يقتضي استفادة علم ، ولم يزل تعالى عالماً بما كان وبما يكون ؟ قيل : إن ذلك من الألفاظ التي لولا السمع لما تجاسرنا على إطلاقها عليه تعالى ، ومجاز ذلك على أوجه :

الأول : أن اللام في مثل ذلك تقتضي شيئين : حدث الفعل في نفسه ، وحدوث العلم به ، ولما كان علم الله لم يزل ولا يزال ، صار اللام فيه مقتضياً حدوث الفعل لا حدوث العلم .

والثاني : أن العلم يتعلق بالشيء على ما هو به ، والله تعالى عَلِمَهُمْ ، قبل أن يتبعوه ، غير تابعين . وبعد أن تبعوه عَلِمَهُم تابعين . وهذا الجواب هو في الحقيقة الأول ؛ لأن التغيير داخل في المعلوم لا في العلم .

والثالث : معناه ليُعلِم غيرنا بنا . فنسب ذلك إلى نفسه . كقوله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ [الزمر : 42] ، وفي موضع آخر : ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ﴾ [السجدة : 11] ، وقال تعالى : ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ ﴾ [النساء : 113] ، وإنما علمه بملائكته .

(106/69)

والرابع : معناه لنجازي ، وذلك متعارف ، نحو قولك : سأعلم حسن بلائك ؛ أي : سأجزيك على حسب مقتضى علمي قبل ، فعبّر عن الجزاء بالعلم لما كان هو سببه .

والخامس : أن عادة الحليم إذا أفاد غيره علماً أن يقول : تعال حتى نعلم كذا ، وإنما يريد إعلام المخاطب ، لكن يُحله نفسه محل المشارك للمتعلم على سبيل اللطف . انتهى .

والوجه الثالث هو الذي اختاره الإمام ابن جرير قال : أما معناه عندنا : ما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا ليعلم رسول وحزبي وأوليائي : من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه .

قال : وكان من شأن العرب إضافة ما فعلته أتباع الرئيس ، إلى الرئيس ، وما فعل بهم ، إليه . نحو قولهم : فتح عُمَر بن الخطاب سواد العراق وجبى خراجها ، وإنما فعل ذلك أصحابه ، عن سببٍ كان منه في ذلك ، وكالذي روي في نظيره عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : < يقول الله جل ثناؤه : مرضت فلم يعدني عبدي ، واستقرضته فلم يقرضني > فأضاف ، تعالى ذكره ، الاستقراض والعيادة إلى نفسه ، وقد كان ذلك بغيره ، إذ كان ذلك عن سببه .

قد حكي عن العرب سماعاً : أجوع في غير بطني ، وأعرى في غير ظهري ؛ بمعنى جوع أهله وعياله وعري ظهورهم . فكذلك قوله : ﴿ إِلَّا لِنَعْلَمَ ﴾ بمعنى : يعلم أوليائي وحزبي .

(107/69)

﴿ وَإِن كَانَتْ ﴾ أي : التولية إليها أو الجعلة أو التحويلة : ﴿ لَكَبِيرَةً ﴾ أي : ثقيلة شاقة ؛ لأن مفارقة الإلف ، بعد طمأنينة النفس إليه ، أمر شاق جداً ﴿ إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ﴾ قلوبهم ، فأيقنوا بتصديق الرسول ، وأن كل ما جاء به فهو الحق الذي لا مرية فيه ، وأن الله يفعل ما يشاء ويحكم وما يريد . فله أن يكلف عباده بما شاء وينسخ ما يشاء ، وله الحكمة التامة والحجة البالغة في جميع ذلك ، بخلاف الذين في قلوبهم مرض ، فإنه كلما

حدث أمر ، أحدث لهم شكاً . كما يحصل ، للذين آمنوا ، إيقانٌ وتصديقٌ . كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سورة فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ [التوبة : 124 – 125] . وقال تعالى : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً ﴾ [الإسراء : 82] . وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ . هذا تطمين لمن صلى إلى بيت المقدس من المسلمين ، ومن أهل الكتاب قبل النسخ ، وبيان أنهم يثابون على ذلك .

وقد روى البخاري من حديث أبي إسحاق المتقدم عن البراء : وكان الذي مات على القبلة ، قبل أن تحوّل قبل البيت ، رجال قتلوا ، لم ندر ما نقول فيهم ، فأنزل الله : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ﴾ [البقرة : 143] ، أي : صلاتكم ، وإنما عدل إلى لفظ الإيمان ، الذي هو عام في الصلاة وغيرها ، ليفيدهم أنه لم يضع شيء مما عملوه ، ثم يصح عنهم ، فيندرج المسؤول عنه اندراجاً أولياً ، ويكون الحكم كلياً . وذكر بلفظ الخطاب

دون الغائب ، ليتناول الماضيين والباقين ، تغليباً لحكم المخاطب على الغائب في اللفظ ، وفي تتمة الآية إشارة إلى تعليل عدم الإضاعة ، بما اتصف به من الرأفة المنافية لما هجس في نفوسهم من الإضاعة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 2 صـ 458. 468 ﴾

(109/69)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ (143) ﴾

ساعة ترى كذلك فهناك تشبيه . . الحق سبحانه وتعالى يريدنا أن نتنبه إلي نعمته في أنه جعلنا أمة وسطاً . . فكل ما يشرعه الله يدخل في باب النعم على المؤمنين . . وإذا كان الاتجاه إلي الكعبة هو اختبار لليقين الإيماني في نفوس المسلمين . . فإنه سبحانه جعلنا أمة وسطا نعمة منه ، ومادمنا وسطا فلابد أن هناك أطرافا حتى يتحدد الوسط . . هذا

طرف ثم الوسط ثم طرف آخر . . ووسط الشيء منتصفه أو ما بين الطرفين .

ولكن ما معنى أمة وسطا ؟ وسط في الإيمان والعقيدة فهناك من أنكروا وجود الإله الحق . . وهناك من أسرفوا فعددوا الآلهة . . هذا الطرف مخطئ وهذا الطرف مخطئ . . أما نحن المسلمين فقلنا لا إله إلا الله وحده لا شريك له واحد أحد . . وهذه بديهية من بديهيات هذا الكون . . لأن الله تبارك وتعالى خلق الكون وخلق كل ما فيه وقال سبحانه إنه خلق . . ولم يأت من يدعي الخلق . . إذن فالدعوى خالصة لله تبارك وتعالى . . ولو كان في هذا الكون آلهة متعددة لادعى كل واحد منهم الخلق . . ولذلك فإن الله جل جلاله يقول :

مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (91)

(من الآية 91 سورة المؤمنون)

أي لتنازع الخلق ولاضطرب الكون . . فالإسلام دين وسط بين الإلحاد وتعدد الآلهة . . على أن هناك أناساً يسرفون في المادية ويهملون القيم الروحية . . وأناساً يهملون المادة

ويؤمنون بالقيم الروحية وحدها . واقع الحياة أن الماديين يفتنون الروحانيين لأن عندهم المال والقوة . . الإسلام جاء وسطا فيه المادة والروح . . وإياك أن تقول أن الروح احسن من المادة أو المادة احسن من الروح . . فالمادة وحدها الروح وحدها مسخرة وعابدة ومسبحة لله تعالى . . لكن حين تختل المادة بالروح فإنه توجد النفس ، والنفس هي التي لها اختيار لتطيع أو تعصى . . تعبد أو تكفر والعياذ بالله .

الله سبحانه يريد من المؤمنين أن يعيشوا مادية الحياة بقيم السماء . . وهذه وسطية الإسلام ، لم يأخذ الروح وحدها ولا المادة وحدها . . وإنما أوجد مادية الحياة محروسة بقيم السماء . . فحين يخبرنا الله سبحانه أنه سيجعلنا أمة وسطا تجمع خير الطرفين نعرف أن الدين جاء ليعصم البشر من أهواء البشر . الله تبارك وتعالى يريدنا أن نبحث في ماديات الكون بما يخلق التقدم والرفاهية والقوة للبشرية . . فما هو مادي معملي لا يختلف البشر فيه . . لكن ما يدخل فيه أهواء البشر ستضع السماء لكم قانونه . . فإذا عشتم بالأهواء ستشقون . . وإذا عشتم بنظريات السماء ستسعدون .

(111/69)

قد يتساءل البعض هل الشيوعية التي جاءت منذ اكثر من نصف قرن ارتقت بشعوبها أم لا ؟ نقول انظروا إليها الآن لقد بنت ما ادعته من ارتقاءات على الكذب والزيف . . ثم تراجعت ثم انهارت تماما . . وكما انهارت الشيوعية ستنهار الرأسمالية لأنهما طرفان متناقضان إنما نحن أمة وسطا . . ولذلك أعطانا الله سبحانه خيري الدنيا والآخرة . الحق سبحانه يقول : " لتكونوا شهداء على الناس" . . أي أن الحجة ستكون لكم في المستقبل . . وسيضطر العالم إلي الرجوع إلي ما يقننه دينكم . . والله تبارك وتعالى قال : " أمة وسطا" ولم يقل الوسط بكسر الواو أي المنتصف حتى لا يقال إن هؤلاء الرأسماليين والشيوعيين سيتراجعون إلي الحق تماما . . ولكن بعضهم سيميل قليلا إلي هذه الناحية أو تلك بحيث يتم اللقاء . . ولذلك عندما يقولون نأخذ أموال الأغنياء ونوزعها على الفقراء . . نقول لهم وعندما يأتي فقير في المستقبل . . من أين تعطيه بعد أن قضيت على الأغنياء ؟ .

وقد سمعت من شخص له تجربه في السياسة والحكم . . قال إن الذي كان يعمل معي وأضاع ماله كله على الخمر والقمار والنساء كان احسن مني . . لأنني احتفظت بأموالي ونميتها فقالوا إنك إقطاعي وصادروها . . بينما ذلك الذي أسرف لم يفعلوا به شيئا . . قلت إن الله سبحانه وتعالى يريد منك أن تنمي مالك . . لأنك إن لم تنميه ودفعت عنه زكاة 2.5% فالمال يفنى خلال أربعين سنة . . ولكن إذا نميت مالك وجاءوا إلي ناتج عملك

وأخذوه بدعوى أنك إقطاعي فإنهم يقضون على العمل في المجتمع . . لأنه إذا كنت ستأخذ ناتج عمله بدون حق فلماذا يعمل ؟ إن الإسلام جاء ليزيد مجال حركة الحياة ويضمن مال المتحرك . . ليأخذ من ماله زكاة ويعين غير القادر حتى لا يحقد على المجتمع . . هذا وسط .

(112/69)

وقوله تعالى : " لتكونوا شهداء على الناس" . . فكأن الله سبحانه وتعالى أخبرنا أنه ستحدث في الكون معركة لن يفصل فيها إلا شهادة هذه الأمة . . فاليمين أو الرأسمالية على خطأ ، والشيوعية على خطأ . . أما منهج الله الذي وضع الموازين القسط للكون ولحياة الإنسان فهو الصواب . . ثم يخبرنا الحق تبارك وتعالى أن الرسول صلى الله عليه وسلم سيكون شهيدا علينا . . هل كان عملنا وتحركنا مطابقا لما أنزله على رسوله صلى الله عليه وسلم وبلغه الرسول عليه الصلاة والسلام لنا ؟ أم أننا اتبعنا أهواءنا وانحرفنا عن المنهج . الرسول صلى الله عليه وسلم سيكون شهيداً علينا في هذه النقطة . . تلك الآية وإن كانت قد بشرت الأمة الوسط بأن العالم سيعود إلي العالم سيعود إلي حكمها ، فذلك لا يمكن أن يحدث إلا إذا سادت شهادة الحق والعدل فيها .

وقوله تعالى : " وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه" . . هذه عودة إلي تحويل القبلة من بيت المقدس إلي الكعبة . . الله تبارك وتعالى لا يفضل اتجاها على اتجاه . . ولذلك فإن الذين يتجهون إلي الكعبة ستختلف اتجاهاتهم حسب موقع بلادهم من الكعبة . . هذا يتجه إلي الشرق وهذا يتجه إلي الشمال الشرقي . . وهذا يتجه إلي الجنوب الغربي .

إنه ليس هناك عند الله اتجاه مفضل على اتجاه . . ولكن تغيير القبلة جعله الله سبحانه اختبارا إيمانيا ليس علم معرفة ولكن علم مشهد . . لأن الله سبحانه وتعالى يعلم . . ولكنه جل جلاله يريد أن يكون الإنسان شهيدا على نفسه يوم القيامة . . ولكنه اختبار إيماني ليعلم الله مدى إيمانكم ومن سيطيع الرسول فيما جاءه من الله ومن سينقلب على عقبيه . . فكأن أمر تحويل القبلة سيحدث هزة إيمانية عنيفة في المسلمين أنفسهم . . فيعلم الله من يستمر في إيمانه واتباعه لرسول الله . . ومن سيرفض ويتحول عن دين الإسلام .

(113/69)

وقوله تعالى : " وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله" . . والله يريد هنا العلم الذي سيكون شهيدا على الناس يوم القيامة . . وعملية الابتلاء أو الاختبار في تغيير القبلة عملية شاقة . . إلا على المؤمنين الذين يرحبون بكل تكليف . . لأنهم يعرفون أن الإيمان هو الطاعة ولا ينظرون إلي علة الأشياء . ولكن الكفار والمنافقين واليهود لم يتركوا عملية تحويل القبلة تمر هكذا فقالوا : إن كانت القبلة هي الكعبة فقد ضاعت صلاتكم أيام اتجهتم إلي بيت المقدس . . وإن كانت القبلة هي بيت المقدس فستضيع صلاتكم وأنتم متجهون إلي الكعبة .

نقول لهم لا تعزلوا الحكم عن زمنه . . قبلة بيت المقدس كانت في زمنها والكعبة تأتي في زمنها . . لا هذه اعتدت على هذه ولا هذه اعتدت على هذه . . ولقد مات أناس من المؤمنين وهم يصلون إلي بيت المقدس فقام المشككون وقالوا صلاتهم غير مقبولة . . ورد الله سبحانه بقوله : " وما كان الله ليضيع إيمانكم" . . لأن الذين ماتوا وهم يصلون إلي بيت المقدس كانوا مطيعين لله مؤمنين به فلا يضيع الله إيمانهم . وقوله تعالى : " إن الله بالناس لرءوف رحيم" . . أي تذكروا أنكم تؤمنون برب رءوف لا يريد بكم مشقة . . رحيم يمنع البلاء عنكم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 626. 629 ﴾

" فصل "

قال السيوطى :

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (143)

أخرج سعيد بن منصور وأحمد والترمذي والنسائي وصححه وابن جرير وابن أبي حاتم وابن حبان والإسماعيلي في صحيحه والحاكم وصححه عن أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً ﴾ قال : عدلاً .

وأخرج ابن جرير عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله ﴿ جعلناكم أمة وسطاً ﴾ قال : عدلاً .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس ﴿ جعلناكم أمة وسطاً ﴾ قال : جعلكم أمة عدلاً .

وأخرج ابن سعد عن القاسم بن عبد الرحمن قال : قال رجل لابن عمر : من أنتم ؟ قال : ما تقولون ؟ قال : نقول إنكم سبط ، وتقول إنكم وسط . فقال : سبحان الله . . . ! إنما كان السبط في بني إسرائيل ، والأمة الوسط أمة محمد جميعاً .

وأخرج أحمد وعبد بن حميد والبخاري والترمذي والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " يدعى نوح يوم القيامة فيقال له : هل بلغت ؟ فيقول : نعم . فيدعو قومه فيقال لهم : هل بلغكم ؟ فيقولون : ما أتانا من نذير وما أتانا من أحد . فيقال لنوح : من يشهد لك ؟ فيقول : محمد وأمته ، فذلك قوله ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً ﴾ قال : والوسط العدل ، فتدعون فتشهدون له بالبلاغ وأشهد عليكم " .

(115/69)

وأخرج سعيد بن منصور وأحمد والنسائي وابن ماجة والبيهقي في البعث والنشور عن أبي سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " يجيء النبي يوم القيامة ومعه الرجل والنبي ومعه الرجلان وأكثر من ذلك ، فيدعى قومه فيقال لهم : هل بلغكم هذا ؟ فيقولون : لا . فيقال له : هل بلغت قومك ؟ فيقول نعم . فيقال له : من يشهد لك ؟ فيقول : محمد وأمته . فيدعى محمد وأمته . فيقال لهم : هل بلغ هذا قومه ؟ فيقولون : نعم . فيقال : وما علمكم ؟ فيقولون : جاءنا نبينا فأخبرنا أن الرسل قد بلغوا . فذلك قوله ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً ﴾ قال : عدلاً ﴿ لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم

شهيداً ﴾ " .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن جابر بن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " أنا وأمتي يوم القيامة على كوم مشرفين على الخلائق ، ما من الناس أحد إلا ودّ أنه منا ، وما من نبي كذبه قومه إلا ونحن نشهد أنه بلغ رسالة ربه " .

وأخرج ابن جرير عن أبي سعيد في قوله ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ﴾ بأن الرسل قد بلغوا ﴿ ويكون الرسول عليكم شهيداً ﴾ بما عملتم .

(116/69)

وأخرج ابن المنذر والحاكم وصححه عن جابر قال : " شهد رسول الله صلى الله عليه وسلم جنازة في بني سلمة وكنت إلى جانبه ، فقال بعضهم : والله يا رسول الله لنعم المرء كان ، لقد كان عفيفاً مسلماً وكان ، وأثنوا عليه خيراً . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنت الذي تقول ؟ فقال : يا رسول الله ذلك بدا لنا والله أعلم بالسرائر . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وجبت . قال : وكنا معه في جنازة رجل من بني حارثة أو من بني عبد الأشهل ، فقال رجل : بئس المرء ما علمنا أن كان لفظاً غليظاً أن كان . . . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنت الذي تقول ؟ فقال : يا رسول الله ، الله أعلم

بالسرائر ، فأما الذي بدا لنا منه فذاك . فقال : وجبت ، ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ﴾ " .

وأخرج الطيالسي وأحمد والبخاري ومسلم والنسائي والحكيم الترمذي في نوادر الأصول عن أنس قال : " مروا بجنازة فأثني عليه خير فقال النبي صلى الله عليه وسلم " وجبت وجبت وجبت " ، ومر بجنازة فأثني عليه بشر فقال النبي صلى الله عليه وسلم : وجبت وجبت . فسأله عمر . . . ؟ فقال : من أثنيتم عليه خيراً وجبت له الجنة ، ومن أثنيتم عليه شراً وجبت له النار ، أنتم شهداء الله في الأرض ، أنتم شهداء الله في الأرض ، أنتم شهداء الله في الأرض . زاد الحكيم الترمذي ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ﴾ " .

(117/69)

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد والبخاري والترمذي والنسائي عن عمر : أنه مرت به جنازة فأثني على صاحبها خير فقال : وجبت وجبت ، ثم مر بأخرى فأثني شر فقال عمر : وجبت . فقال أبو الأسود : وما وجبت ؟ قال : قلت كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " أيما مسلم شهد له أربعة بخير أدخله الله الجنة . فقلنا : وثلاثة . . . ؟ فقال :

وثلاثة. فقلنا: واثنان. . . ؟ فقال: واثنان، ثم لم نسأله عن الواحد " .

وأخرج أحمد وابن ماجة والطبراني والبغوي والحاكم في الكنى والدارقطني في الافراد والحاكم في المستدرك والبيهقي في سننه عن أبي زهير الثقفي قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبناوة يقول " يوشك أن تعلموا خياركم من شراركم. قال: بم يا رسول الله ؟ قال: بالثناء الحسن والثناء السيء، أنتم شهداء الله في الأرض " .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال " أتي النبي صلى الله عليه وسلم بجنازة يصلي عليها فقال الناس: نعم الرجل. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: وجبت. وأتي بجنازة أخرى فقال الناس: بئس الرجل. فقال: وجبت. قال أبي بن كعب: ما قولك ؟ فقال: قال الله تعالى ﴿ لتكونوا شهداء على الناس ﴾ " .

وأخرج أحمد وأبو يعلى وابن حبان والحاكم وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في شعب الإِيمان والضياء في المختارة عن أنس

" أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ما من مسلم يموت فتشهد له أربعة من أهل أبيات جيرانه الأدنين أنهم لا يعلمون منه إلا خيراً إلا قال الله: قد قبلت شهادتكم فيه وغفرت له ما لا تعلمون " .

وأخرج ابن أبي شيبة وهناد وابن جرير والطبراني عن سلمة بن الأكوع قال " مر على النبي صلى الله عليه وسلم بجنازة رجل من الأنصار، فأثني عليها خيراً فقال: وجبت. ثم مر

عليه بجنازة أخرى ، فأثني عليها دون ذلك فقال : وجبت فقال : يا رسول الله وما وجبت ؟ قال : الملائكة شهود الله في السماء وأنتم شهود الله في الأرض " .

(118/69)

وأخرج الخطيب في تاريخه عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ما من مسلم يموت فيشهد له رجلان من جيرانه الأدنين فيقولان اللهم لا نعلم إلا خيراً إلا قال الله للملائكة : اشهدوا أني قد قبلت شهادتهما وغفرت ما لا يعلمان " .

وأخرج الفريابي وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن أبي حاتم عن كعب قال : أعطيت هذه الأمة ثلاث خصال لم يعطها إلا الأنبياء ، كان النبي يقال له : بلغ ولا حرج ، وأنت شهيد على قومك ، وادع اجبك . وقل لهذه الأمة ﴿ ما جعل عليكم في الدين من حرج ﴾ [الحج : 78] وقال ﴿ لتكونوا شهداء على الناس ﴾ وقال ﴿ ادعوني أستجب لكم ﴾ [غافر : 60] .

وأخرج ابن جرير عن زيد بن أسلم أن الأمم يقولون يوم القيامة : والله لقد كادت هذه الأمة أن يكونوا أنبياء كلهم لما يرون الله أعطاهم .

(119/69)

وأخرج ابن المبارك في الزهد وابن جرير عن حبان بن أبي جبلة بسنده إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " إذا جمع الله عباده يوم القيامة كان أول من يدعى إسرافيل ، فيقول له ربه : ما فعلت في عهدي هل بلغت عهدي ؟ فيقول : نعم ، رب قد بلغته جبريل . فيدعى جبريل فيقال : هل بلغك إسرافيل عهدي ؟ فيقول : نعم . فيخلى عن إسرافيل ، ويقول لجبريل : هل بلغت عهدي ؟ فيقول : نعم ، قد بلغت الرسل ، فتدعى الرسل فيقال لهم : هل بلغكم جبريل عهدي ؟ فيقولون : نعم . فيخلى جبريل ، ثم يقال للرسل : هل بلغتم عهدي ؟ فيقولون : نعم ، بلغناه الأمم . فتدعى الأمم فيقال لهم : هل بلغتكم الرسل عهدي ؟ فمنهم المكذب ومنهم المصدق . فتقول الرسل : إن لنا عليهم شهداء . فيقول : من ؟ فيقولون : أمة محمد . فتدعى أمة محمد فيقال لهم : أتشهدون أن الرسل قد بلغت الأمم ؟ فيقولون : نعم . فتقول الأمم : يا ربنا كيف يشهد علينا من لم يدركنا ؟ فيقول الله : كيف تشهدون عليهم ولم تدركوهم ؟ فيقولون : يا ربنا أرسلت إلينا رسولاً ، وأنزلت علينا كتاباً ، وقصصت علينا فيه أن قد بلغوا ، فنشهد بما عهدت إلينا . فيقول الرب : صدقوا ، فذلك قوله ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً ﴾ والوسط العدل ﴿ لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً ﴾ " .

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق أبي العالية عن أبي كعب في الآية قال ﴿ لتكونوا شهداء

على الناس ﴾ يوم القيامة ، كانوا شهداء على نوح ، وعلى قوم هود ، وعلى قوم صالح ، وعلى قوم شعيب ، وعندهم أن رسلهم بلغتهم وأنهم كذبوا رسلهم . قال أبو العالية : وهي في قراءة أبي ﴿ لتكونوا شهداء على الناس يوم القيامة ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عطاء في قوله ﴿ ويكون الرسول عليكم شهيداً ﴾ قال : يشهد أنهم قد آمنوا بالحق إذ جاءهم وقبلوه وصدقوا به .

وأخرج عبد بن حميد عن عبيد بن عمير قال : يأتي النبي صلى الله عليه وسلم بإذنه ليس معه أحد ، فتشهد له أمة محمد أنه قد بلغهم .

(120/69)

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة قال : يقال : يا نوح قد بلغت ؟ قال : نعم يا رب . قال : فمن يشهد لك ؟ قال : رب أحمد وأمته . قال : فكلما دعي نبي كذبه قومه شهدت له هذه الأمة بالبلاغ ، فإذا سأل عن هذه الأمة لم يسأل عنها إلا نبيها .

وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول عن حبان بن أبي جبلة قال : بلغني أن ترفع أمة محمد على كوم بين يدي الله تشهد للرسل على أممها بالبلاغ ، فإنما يشهد منهم يومئذ من لم يكن في قلبه أحنة على أخيه المسلم .

وأخرج مسلم وأبو داود والحكيم الترمذي عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لا يكون اللعانون شهداء ولا شفعاء يوم القيامة " .

وأما قوله تعالى : ﴿ وما جعلنا القبلة التي كنت عليها ﴾ الآية .

أخرج ابن جرير عن عطاء في قوله ﴿ وما جعلنا القبلة التي كنت عليها ﴾ قال : يعني بيت المقدس ﴿ إلا لنعلم من يتبع الرسول ﴾ قال : يبتليهم ليعلم من يسلم لأمره .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في سننه عن ابن عباس في قوله ﴿ إلا لنعلم ﴾ قال : إلا لنميز أهل اليقين من أهل الشك ﴿ وإن كانت لكبيرة ﴾ يعني تحويلها عن أهل الشك والريب .

وأخرج ابن جرير عن ابن جريج قال : بلغني أن أناساً من الذين أسلموا رجعوا فقالوا مرة ههنا ومرة ههنا .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد في قوله ﴿ وإن كانت لكبيرة ﴾ يقول : ما أمر به من التحوّل إلى الكعبة من بيت المقدس .

وأخرج وكيع والفريابي والطيالسي وأحمد وعبد بن حميد والترمذي وابن جرير والمنذر وابن حبان والطبراني والحاكم وصححه عن ابن عباس قال : لما وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى القبلة قالوا : يا رسول الله فكيف بالذين ماتوا وهم يصلون إلى بيت المقدس ؟ فأنزل الله ﴿ وما كان الله ليضيع إيمانكم ﴾ .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن البراء بن عازب في قوله ﴿ وما كان الله ليضيع إيمانكم ﴾ قال : صلاتكم نحو بيت المقدس .

(121/69)

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله ﴿ وما كان الله ليضيع إيمانكم ﴾ يقول : صلاتكم التي صليتم من قبل أن تكون القبلة ، وكان المؤمنون قد أشفقوا على من صلى منهم أن لا يقبل صلاتهم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله ﴿ رؤوف ﴾ قال : يرأف بكم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 1 صـ 348 . 353 ﴾

(122/69)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا

جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (143)

الكاف في قوله تعالى : " وَكَذَلِكَ " فيها الوجهان المَشْهُوران كما تقدم ذلك غير مَرَة : إما النصب على النعت ، أو على الحال من المصدر المحذوف .

والتقدير : وكذلك جعلناكم أمّة وسطاً جعلاً مثل ذلك ، ولكن المشار إليه بـ " ذلك " غير مذكور فيما تقدم ، وإنما تقدم ام يدلّ عليه .

واختلفوا في " ذلك " على خمسة أوجه :

أحدها : أن المشار إليه هو الهُدى المدلول عليه بقوله : ﴿ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ .

والتقدير : جعلناكم أمة وسطاً مثل ما هديناكم .

الثاني : أنه الجعل ، والتقدير : جعلناكم أمة وسطاً مثل ذلك الجَعْل القريب الذي فيه اختصاصكم بالهداية .

الثالث : قيل : المعنى كما جعلنا قبلتكم متوسّطة جعلناكم أمة وسطاً .

الخامس – وهو أبعدها – أن المشار إليه قوله : ﴿ وَلَقَدِ اصطفيناه فِي الدنيا ﴾ [البقرة : 130] أي : مثل ذلك الاصطفاء جعلناكم أمة وسطاً .

[قال ابن الخطيب : ويحتمل عندي أن يكون التقدير : ولله المشرق والمغرب ، فهذه الجهات

بعد استوائها لكونها مِلْكاً لله تعالى ، خصّ بعضها بمزيد الشرف والتكريم ، بأن جعله قبلة فضلاً منه ، وإحساناً ؛ فكذا العباد كلهم يشتركون في العبودية إلا أنه خص هذه الأمة بمزيد الفضل والعبادة ، فضلاً منه وإحساناً لا وجوباً .

(123/69)

وفيه وجه آخر : وهو أنه قد يذكر ضمير الشيء ، وإن لم يكن المضمر مذكوراً إذا كان المضمر مشهوراً معروفاً ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ القدر ﴾ [القدر : 1] لأن المعروف عند كل أحد أنه – سبحانه وتعالى – وهو القادر على إعزاز من يشاء من خلقه ، وإذلال من يشاء ، فقوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً ﴾ أي : ومثل ذلك الجعل العجيب الذي لا يقدر عليه أحد سواه جعلناكم أمة وسطاً] .

و " جعل " بمعنى صير ، فيتعدّى لاثنين ، فالضمير مفعول أول ، و " أمة " مفعول ثاني ووسطاً نعته .

والوَسَط بالتحريك : اسم لما بين الطرفين ، ويطلق على خيار الشيء ؛ لأن الأوساط محميَّة بالأطراف ؛ قال حَبِيبٌ : [البسيط] .

821 – كَانَتْ هِيَ الوَسَطَ المَحْمِيَّ فَاكْتَنَفَتْ . . .

بِهَا الحَوَادِيُ حَتَّى أَصْبَحَتُ طَرَفَا

ووسط الوادي خير موضع فيه ؛ قال زُهَيْر : [الطويل]

828 – هُمُ وَسَطٌ تَرْضَى الأَنَامُ بِحُكْمِهِمْ . . .

إِذَا نَزَلَتْ إِحْدَى البَلاَيَا بِمُفْضَلِ

[وقال آخر : [الراجز] .

822 – كُنْ مِنَ النَّاسِ جَمِيعاً وَسَطَا] . . .

وقال تعالى : ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ ﴾ [القلم : 28] أي أعدلهم .

[وروى القفال عن الثورى عن أبي سعيد الخدري – رضي الله عنه – عن النبي صلى الله عليه وسلم وشرف وبجل وعظم وكرم " أمّة وَسَطاً " ؛ قال : " عَدْلاً " .

وقال عليه صلوات الله وسلام : " خَيْرُ الأُمُورِ أَوْسَطُهَا " ؛ أي : أعدلها .

وقيل : كان النبي – صلوات الله وسلامه عليه – أوسط قريش نَسَباً .

وقال عليه أفضل الصلاة والسلام : " عَلَيْكُمْ بالنَّمطِ الأَوْسَطِ "

قال الجوهري في الصحاح : " أمة وسطاً " أي : عدلاً ، وهو الذي قاله الأخفش ، والخليل ، وقطرب ، فالقرآن والحديث والشعر يدلون على أن الوَسَط : خيار الشيء] .

وأما المعنى فمن وجوه .

أحدها : أن الوسط حقيقة في البُعْد عن الطرفين ، ولا شك أن طرفي الإفراط والتفريط رذيلتان ، فالمتوسّط في الأخلاق يكون بعيداً عن الطرفين ، فكان معتدلاً فاضلاً .

وثانيها : إنما سمي العدل وسطاً ؛ لأنه لا يميل إلى أحد الخصمين ، [والعدل هو المعتدل الذي لا يميل إلى أحد الطرفين] .

وثالثها : أن المراد بقوله : ﴿ جُعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً ﴾ طريقة المدح لهم ؛ لأنه لا يجوز أن يذكر الله – تعالى – وصفاً ، ويجعله كالعلة في أن جعلهم شهوداً له ثم عطف على ذلك شهادة الرسول ، وذلك مدح ، فثبت أن المراد بقوله : " وَسَطاً " ما يتعلّق بالمدح في باب الدين ، ولا يجوز أن يمدح الله الشُّهود حال حكمه عليهم بكونهم شهوداً لا بكونهم عدولاً ؛ فوجب أن يكون المراد من الوَسَط العدالة .

ورابعها : أن الأوساط محمية بالأطراف ، وحكمها مع الأطراف على حَدّ سواء ، والأطراف يتسارع إليها الخَلَل والفساد ، والوسط عبارة عن المعتدل الذي لا يميل إلى جِهَةٍ دون جهة .

وقال بعضهم : تفسير الوسط بأنه خيار الشيء [أَوْلى من تفسيره بالعدالة ؛ لأن العدالة لا تطلق على الجمادات ، فكان أَوْلَى ، والمراد من الآية : أنهم لم يغلوا ؛ كما غلت النصارى ، فجعلوه ابناً وإلهاً ، ولا قصّروا ؛ كتقصير اليهود في قتل الأنبياء ، وتبديل الكُتُبِ وغير ذلك

.[

وفرق بَعْضهم بين "وَسَط" بالفتح و"وَسْط" بالتسكين.

فقال: كلُّ موضع صَلَحَ فيه لفظ "بَيْن" يقال بالسكون، وإلا فبالتحريك.

تقول: جلست وَسْطَ القومِ، بالسكون.

وقال الراغب: وسط الشيء ما له طرفان متساويان القَدْر، ويقال ذلك في الكمية المتصلة كالجسم الواحد، فتقول: وسطه صلب، ووسْط بالسكون يقال في الكميّة المنفصلة؛ كشيء يفصل بين جسمين نحو: "وَسْط القوم" كذا.

(125/69)

وتحرير القول فيه هو أن المفتوح في الأصل مَصْدَرٌ، ولذلك استوى في الوصف به الواحدُ وغيره، والمؤنَّث والمذكَّر، والسَّاكن ظَرْفٌ، والغاب فيه عدم التصرُّف، وقد جاء متمكّناً في قول الفرزدق: [الطويل].

824 - أَتَتْهُ بمَجْلُومٍ كَأَنَّ جَبِينَهُ . . .

صَلاَءَةُ وَرْسٍ وَسْطُهَا قَدْ تَفَلَّقَا

روي برفع الطَّاء، والضمير لـ "صلاءة"، وبتفحها والضمير للجائية.

فصل في الكلام على قوله : لتكونوا

قوله تعالى : "لِتَكُونُوا " يجوز في هذه اللام وجهانِ :

أحدهما : أن تكون لام "كي " فتفيد العلة .

والثاني : أن تكون لام الصيرورة ، وعلى كلا التقديرين فهي حرف جر ، وبعدها " أن " مضمرة ، وهي وما بعدها في محلّ جر ، وأتى بـ " شهداء " جمع " شهيد " الذي يدلّ على المبالغة دون شاهدين وشهود جميع " شاهد " .

وفي " على " قولان :

أحدها : أنها على بابها ، وهو الظاهر .

والثاني : أنها بمعنى " اللام " ، بمعنى : أنكم تنقلون إليهم ما علمتموه من الوحي والدين ، كما نقله الرسول – عليه السلام – وكذلك القولان في " على " الأخيرة ، بمعنى أن الشهادة لمعنى التزكية منه – عليه السلام – لهم .

وإنما قدم متعلّق الشهادة آخراً ، وقدم أولاً لوجهين :

أحدهما : وهو ما ذكره الزمخشري أن الغرض في الأول إثبات شهادتهم على الأمم ، وفي الآخر اختصاصهم بكون الرسول شهيداً عليهم .

والثاني : أن " شهيداً " أشبه بالفَواصل والمقاطع من " عليكم " ، فكان قوله " شهيداً " تمام الجملة ، ومقطعها دون " عليكم " ، وهذا الوجه قاله الشيخ مختاراً له رادّاً على الزمخشري

مذهبه من أن تقديم المعفول يشعر بالاختصاص ، وقد تقدم ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا القبلة التي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرسول مِمَّن يَنقَلِبُ على عَقِبَيْهِ . . .

﴾ في هذه الآية خمسة أوجه :

(126/69)

أحدها : أن " القبلة " مفعول أول ، و" التي كنت عليها " مفعول ثان ، فإن الجعل بمعنى التصيير ، وهذا ما جزم به الزّمخشري فإنه قال : ﴿ التي كُنتَ عَلَيْهَآ ﴾ ليس بصفة للقبلة ، إنما هي ثاني مفعوليْ جعل ، يريد : وما جعلنا القِبْلَةَ الجهة التي كنت عليها ، وهي الكَعْبَة ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم كان يصلي بـ " مكة " إلى الكعبة ، ثم أمر بالصلاة إلى صخرة بيت المقدس ، ثم حول إلى الكعبة .

الثاني : أن " القِبْلَة " هي المفعول الثاني ، وإنما قدم ، و" التي كنت عليها " هو الأول ، وهذا ما اختاره الشيخ محتجّاً له بأن التصيير هو الانتقال من حَالٍ إلى حَالٍ ، فالمتلبس بالحالة الأولى هو المفعول الأول ، والمتلبس بالحالة الثانية هو المفعول الثاني ، ألا ترى أنك تقول : جعلت الطين خزفاً ، وجعلت الجاهل عالماً ، والمعنى هنا على هذا التقدير : وما جعلنا

القِبْلَة الكعبة التي كانت قبلة لك أولاً ، ثم صرفت عنها إلى " بيت المقدس " قبلتك الآن إلا لنعلم .

ونسب الزمخشري في جعله " القِبْلَة " مفعولاً أول إلى الوهم .

الأصح : أن " القِبْلَة " مفعول أول ، و" التي كنت " صفتها ، والمفعول الثَّاني محذوف تقديره : وما جعلنا القِبْلة التي كنت عليها منسوخة .

ولما ذكر أبو البقاء هذا الوجه قدره : وما جعلنا القبلة التي كنت عليها قبلة ، ولا طائل تحته .

الرابع : أن " القبلة " مفعول أول ، و" إلاَّ لنعلم " هو المفعول الثَّاني ، وذلك على حذف مضاف تقديره : وما جعلنا صرف القِبْلَة التي كنت عليها إلا لنعلم ، نحو قولك : ضرب زيد للتأديب ، أي : كائن ، أو ثابت للتأديب .

الخامس : أن " القبلة " مفعول أول ، والثاني محذوف ، و﴿ التي كُنتَ عَلَيْهَآ ﴾ صفة لذلك المحذوف ، والتقدير : وما جعلنا القِبْلة القبلة التي ، ذكره أبو البقاء ، وهو ضعيف .

وفي قوله : "كُنْتَ" وجهان :

أحدهما : أنها زائدة ، ويروى عن ابن عباس أي : أنت عليها ، وهذا منه تفسير معنى لا إعراب ، وهو كقوله تعالى : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران : 110] والقبلة في الأصل اسم للحالة التي عليها المقابلة نحو : الجِلْسَة ، وفي التعاريف صار اسماً للمكان المقابل المتوجه إليه للصلاة .

وقال قطرب رحمه الله تعالى : يقولون : ليس له قِبْلَة أي جهة يتوجه إليها .

وقال غيره : إذا تقابل رجلان فكلّ واحد قبلة للآخر .

فصل في الكلام على الآية .

في هذا الكلام وجهان :

الأول : أن يكون هذا الكلام بياناً للحكمة في جعل الكعبة قِبْلة ، وذلك لأنه – عليه الصلاة والسلام – كان يصلّي إلى الكعبة ، ثم أمر بالصلاة إلى " بيت المقدس " بعد الهجرة تأليفاً لليهود ، ثم حول إلى الكعبة فقال : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا القبلة ﴾ الجهة ﴿ التي كُنتَ عَلَيْهَآ ﴾ أولاً يعني : وما رددناك إليها إلا امتحاناً للناس .

الثاني : يجوز أن يكون قوله : ﴿ التي كُنتَ عَلَيْهَآ ﴾ لساناً للحكمة في جعل بيت المقدس قبلة يعني أصل أمرك أن تستقبل الكعبة ، وأن استقبالك " بيت المقدس " كان أمراً عارضاً لغرض ، وإنما جعلنا القبلة الجهة التي كنت عليها قبل وقتك هذا ن وهي " بيت المقدس " لنمتحن الناس ، وننظر من يتبع الرسول ، ومن لا يتبعه وينفر عنه .

وذكر أبو مسلم وجهاً ثالثاً فقال : لولا الروايات لم تدلّ على قبلة من قبل الرسول – عليه الصلاة والسلام – لأنه قد يقال : كنت بمعنى : صرت ، كقوله تعالى : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ ﴾ وقد يقال : كان في معنى لم يزل كقوله تعالى :

﴿ وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً ﴾ [النساء : 158] فلا يمتنع أن يراد بقوله : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا القبلة التي كُنتَ عَلَيْهَآ ﴾ أي : التي لم تزل عليها ، وهي الكعبة إلاَّ كذا وكذا .

قوله : " إِلاَّ لِنَعْلَمَ " قد تقدم أنه في أحد الأوجه يكون مفعولاً ثانياً .

(128/69)

وأما على غيره فهو استثناء مفرّغ من المفعول العام ، أي : ما سبب تحويل القبلة لشيء من الأشياء إلاَّ لكذا .

وقوله : " لِنَعْلَمَ " ليس على ظاهره ، فإن علمه قديم ، ونظره في الإشكال قوله : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حتى نَعْلَمَ المجاهدين مِنكُمْ والصابرين ﴾ [محمد : 31] .

وقوله : ﴿ 1649 ;الآن خَفَّفَ الله عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً ﴾ [الأنفال : 66] ، وقوله : ﴿ لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يخشى ﴾ [طه : 42] ، وقوله : ﴿ فَلَيَعْلَمَنَّ الله الذين صَدَقُواْ ﴾ [العنكبوت : 3] .

وقوله : ﴿ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالآخرة ﴾ [سبأ : 21] ، فلا بد من التأويل وهو من أوجه :

أحدها : لتمييز التابع من النّاكص إطلاقاً للسبب ، وإرادة للمسبّب .

وقيل : على حذف مضاف أي : لنعلم رسولنا فحذف ، كما يقول الملك : فتحنا البَلْدة الفلانية بمعنى : فتحها أولياؤنا .

ومنه يقال : فتح عمر السّواد .

ومنه قوله عليه الصلاة والسلام فيما يحكيه عن ربه : " اسْتَقْرَضْتُ عَبْدِي فَلَمْ يُقْرِضْنِي ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَشْتُمَنِي يقول : وادهراه وأنا الدهر "

وفي الحديث : " مَنْ أَهَانَ لِي وَلِيًّا فَقَدْ أَهَانَنِي "

وقيل : معناه : إلا لنرى .

قوله : ﴿ مَنْ يَتَّبِع ﴾ في " من " وجهان :

أحدهما : أنها موصولة ، و " يتبع " صلتها ، والموصول في محلّ المفعول لـ " نعلم " ؛ لأنه يتعدّى إلى واحد .

والثاني : أنها استفهامية في محلّ رفع بالابتداء ، و " يتبع " خبره ، والجملة في محلّ نصب ؛ لأنها معلقة للعلم ، والعلم على بابه ، وإليه نحا الزّمخشري في أحد قوليه .

وقد رد أبو البقاء هذا الوجه ، فقال : لأن ذلك يوجب تعلّق " نعلم " عن العمل ، وإذا علقت عنه لم يبق لـ " من " ما تتعلّق به ، لأن ما بعد الاستفهام لا يتعلّق بما قبله ، ولا يصحّ تعلها بـ " يتبع " ؛ لأنها في المعنى متعلّقة بلا علامة ، وليس المعنى : أي فريق يتبع ممن ينقلب انتهى .

وهو رد واضح إذ ليس المعنى على ذلك ، إنما المعنى على أن يتعلق " مِمَّنْ يَنْقَلِبُ " بـ " نعلم " نحو : علمت من أحسن إليك مِمّن أساء ، وهذا يقوي التجوز بالعلم عن التمييز ، فإن العلم لا يتعدى بـ " من " إلا إذا أريد به التمييز .

ورأ الزهري : " إلاَّ لِيُعْلم " على البناء للمفعول ، وهي قراءة واضحة لا تحتاج إلى تأويل ، لأنا لا نقدر ذلك الفاعل غير الله تعالى .

قوله : " عَلَى عَقِبَيْهِ " في محلّ نصب على الحال ، أي ينقلب مرتدّاً راجعاً على عقبيه ، وهذا مجاز ، [ووجه الاستعارة أن : المنقلب على عقبيه قد ترك ما بين يديه وأدبر عنه ، فلما تركوا الإيمان والدلائل بمنزلة المدبر عما بين يديه ، فوصفوا بذلك لما قال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ واستكبر ﴾ [المدثر : 23] وقوله تعالى : ﴿ كَذَّبَ وتولى ﴾ [طه : 48] .

وقرئ " عَلَى عَقْبَيْهِ " بسكون القاف ، وهي لغة " تميم " .

قوله : " وإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً " " إنْ " هي المخففة من الثقيلة دخلت على ناسخ المبتدأ والخبر

، وهو أغلب أحوالها ، و" اللام " للفرق بينها وبين " إن " النافية ، وهل هي لام الابتداء ، أو لام أخرى أتى بها للفرق ؟ خلاف مشهور .

وزعم الكوفيون أنها بمعنى " ما " النافية ، وأن " اللام " بمعنى " إلا " ، والمعنى : ما كانت إلا كبيرة ، نقل ذلك عنهم أبو البقاء رحمه الله [وفيه نظر .

واعلم أن " إن " المكسورة الخفيفة تكون على أربعة أوجه :

جزاء ، وهي تفيد ربط إحدى الجملتين بالأخرى ، فالمستلزم هو الشرط ، واللازم هو الجزاء ، كقولك : إن جئتني أكرمتك .

(130/69)

ومخففة من الثقيلة ، وهي تفيد توكيد المعنى في الجملة بمنزلة المشددة ، كقولك : إن زيداً لقائم ، قال تعالى : ﴿ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾ [الطارق : 4] ، ﴿ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً ﴾ [الإسراء : 108] .

وللجحد ، لقوله تعالى : ﴿ إِنِ الحكم إِلاَّ للَّهِ ﴾ [الأنعام : 57] ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظن ﴾ [الأنعام : 148] ﴿ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا ﴾ [فاطر : 41] .

أي : ما يمسكهما .

وزائدة كقوله : ما إن رأيت زيداً] ، والقراءة المشهورة نصب "كبيرة" على خبر "كان" ، واسم كان مضمر فيها يعود على التولية ، أو الصلاة ، أو القبلة المدلول عليها بسياق الكلام .

وقرأ اليزيدي عن أبي عمرو : برفعها .

وفيه تأويلان :

أحدهما – وذكره الزمخشري – : أن "كان" زائدة ، وفي زيادتها عاملةً نظر لا يخفى ؛ وقد استدلّ الزمخشري على ذلك بقوله : [الوافر] .

825 – فَكَيْفَ إذَا مَرَرْتَ بِدَارِ قَوْمٍ . . .

وَجِيرَانٍ لَنَا كَانُوا كِرَامِ

فإن قوله : "كرام" صفة لـ "جيران" ، وزاد بينهما "كانوا" ، وهي رافعة للضمير ، ومن منع ذلك تأول "لنا" خبراً مقدماً ، وجملة الكون صفة لـ "جيران" .

والثاني : أن "كان" غير زائدة ، بل يكون "كبيرة" خبراً لمبتدأ محذوف ، والتقدير : وإن كانت لهي كبيرة ، وتكون هذه الجملة في محلّ نصب خبراً لكانت ، ودخلت لام الفرق على الجملة الواقعة خبراً ، وهو توجيه ضعيفٌ ، ولكن لا توجه هذه القراءة الشّاذة بأكثر من ذلك .

[والضمير في "كانت" فيه وجهان :

الأول : أنه يعود على القبلة ؛ لأن المذكور السابق هو القبلة .

والثاني : يعود إلى ما دلّ عليه الكلام السّابق ، وهو مفارقة القبلة ، والتأنيث للتولية أي : وإن كانت التولية ؛ لأن قوله تعالى : " ما ولاهم " يدل على القولية ، ويحتمل أن يكون المعنى : وإن كانت هذه الفعلة نظيره " فبها ونعمت " .

(131/69)

ومعنى " كبيرة " ثقيلة شاقّة مُسْتنكرة .

وقوله تعالى : ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ﴾ [الكهف : 5] .

قوله : " إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ " متعلق بـ " كبيرة " ، وهو استثناء مفرغ .

فإن قيل : لم يتقدم هنا نفي ولا شبهة ، وشرط الاستثناء المفرغ تقدم شيء من ذلك .

فالجواب : أن الكلام وإن كان موجباً لفظاً فغنه في معنى النفي ؛ إذ المعنى أنها لا تخف ولا تسهل إلا على الذين ، وهذا التأويل بعينه قد ذكروه في قوله :

﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الخاشعين ﴾ [البقرة : 45] .

وقال أبو حيان : [هو استثناء من مستثنى محذوف تقديره : وإن كانت لكبيرة على النّاس إلا على الذين] وليس استثناء مفرغاً ؛ لأنه لم يتقدمه نفي ولا شبهة ، وقد تقدم جواب

ذلك [واستدل الأصحاب رحمهم الله – تعالى – بهذه الآية على خلق العمال] .

قوله : ﴿ وَمَا كَانَ اللهِ لِيُضِيعَ ﴾ في هذا التركيب وما أشبهه [مما ورد في القرآن وغيره] نحو : ﴿ وَمَا كَانَ اللهِ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الغيب ﴾ [آل عمران : 179] ، ﴿ مَّا كَانَ الله لِيَذَرَ ﴾ [آل عمران : 179] قولان :

أحدهما : قول البصريين ؛ وهو أن خبر "كان" محذوف ، وهذه اللام تسمى لام الجُحود ينتصب الفعل بعدها بإضمار "أن" وجوباً ، فينسبك منها ومن الفعل مصدر منجرّ بهذه "اللام" ، وتتعلق هذه اللام بذلك الخبر المحذوف .

والتقدير : وما كان الله مريداً لإضاعة أعمالكم ، وشرط لام الجحود عندهم أن يتقدمها كون منفي .

[واشترط بعضهم مع ذلك أن يكون كوناً ماضياً ، ويفرق بينها وبين "لام" ما ذكرنا من اشتراط تقدم كون مَنْفي] ، ويدلّ على مذهب البصريين التصريح بالخبر المحذوف في قوله : [الوافر] .

826 – سَمَوْتَ وَلَمْ تَكُنْ أَهْلاً لِتَسْمُو . . .

والقول الثاني للكوفيين : وهو أن " اللام " وما بعدها في محلّ الجر ، ولا يقدرون شيئاً محذوفاً ، ويزعمون أن النصب في الفعل بعدها بنفسها لا بإضمار " أن " ، وأن " اللام " للتأكيد ، وقد رد عليهم أبو البقاء فقال : وهو بعيد ، لأن " اللام " لام الجر ، و " أن " بعدها مرادة ، فيصير التقدير على قولهم : وما كان لله إضاعة إيمانكم ، وهذا الرد غير لازم لهم ، فإنهم لم يقولوا بإضمار " أن " بعد اللام كما قدمت نقله عنهم ، بل يزعمون النصب بها ، وأنها زائدة للتأكيد ولكن للرد عليهم موضع غير هذا .

واعلم أن قولك : " ما كان زيد ليقوم " بـ " لام " الجحود أبلغ من : " ما كان زيد يقوم " .

أما على مذهب البصريين فواضح ، وذلك أن مع " لام " الجحود نفي الإرادة للقيام والتَّهيئة ، ودونها نفي للقيام فقط ، ونفي التَّهيئة والإرادة للفعل أبلغ من نفي الفعل ؛ إذ لا يلزم من نفي الفِعْلِ نفي إرادته .

وأما على مذهب الكوفيين فلأن " اللام " عندهم للتوكيد ، والكلام مع التوكيد أبلغ منه بلا توكيد .

وقرأ الضحاك : " لِيُضَيِّعَ " بالتشديد ، وذلك أن : أَضَاعَ وَضيَّعَ بالهمزة ، والتضعيف للنقل من " ضاع " القاصر ، يقال : ضَاعَ الشيء يَضيعُ ، وأَضَعْتُه أي : أهملته ، فلم أحفظه .

وأما ضَاعَ المِسْكُ يَضُوعُ أي : فاح ، فمادة أخرى .

قوله : ﴿ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

قرأ أبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي ، وأبو بكر : "لَرَؤُفٌ" على وزن : "نَدُس" و "رَعُف" مهموزاً غير مُشْبَع ، وهي لغة فاشيةٌ ، كقول : [الوافر] .

728 - وَشَرُّ الظَّالِمين فَلا تَكُنْهُ . . .

يُقَاتِلُ عَمَّهُ الرَّؤُفَ الرَّحِيمَا

وقال آخر : [الوافر] .

828 - يَرَى لِلْمُسْلِمِينَ عَلَيْهِ حَقّاً . . .

كَحَقِّ الوَلَدِ الرِّؤُفِ الرَّحِيمِ

وقرأ الباقون : "لرؤوفٌ" مثقلاً مهموزاً مشبعاً على زنة "شكور" .

وقرأ أبو جعفر "لروف" من غير هَمْزٍ ، وهذا دأبه في كل همزة ساكنة أو متحركة .

(133/69)

و "الرأفة" : أشد الرحمة ، فهي أخص منها ، [وقيل بينهما عموم وخصوص ، فلا ترى فيه أكمل من الرحمة بالكيفية ، والرحمة اتصال النعمة برقة يكون معها إيلام كقطع العضو المتآكل وشرب الدواء] .

وفي "رءوف" لغتان أخريان لم تصل إلينا بهما قراءة وهما : "رِئف" على وزن "فَخِذ" ،

و" رأف " على وزن " ضَعْف " .

وإنما قدم على " رحيم " لأجل الفواصل ، والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 3 صـ 29.9 ﴾ . باختصار .

(134/69)

قوله تعالى ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (144) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما أشعر الكلام السابق أهل البلاغة بإحداث أمر في القبلة فتوقعوا الخبر عن ذلك وبين رأفته ورحمته بالناس عموماً بين ذلك برسوله خصوصاً بأن تحويله إلى الكعبة رأفة منه به ورحمة له مع ما تقدم من فوائده فقال تعالى : ﴿ قد نرى تقلب وجهك ﴾ قال الحرالي : فيه نبأ إسماع لمن يرتقب أمراً أو خبراً يفيد مع المستقبل ندرة الوقوع ، ففيه إعلام بأن النبي صلى الله عليه وسلم لما انطوى ضميره على إرادة التوجه للكعبة التي هي قيام للناس حين كان هو

رسولاً لكافة الناس وكان صلى الله عليه وسلم على ملة أبيه إبراهيم عليه السلام يكتفي بعلم الله به عن مسألته ، لأن الدعاء للطالبين قضاء حاجة وللمكتفين بعلم الله عبادة أجاب الله تقلب وجهه على قلة وقوع ذلك منه على ما تشعر به ﴿ قد ﴾ بالتقليل للتقلب وللرؤية ﴿ في السماء ﴾ فيه إعلام بما جعله من اختصاص السماء بوجه الداعي ، كما اختص غيب القلوب بوجهه المصلي ، فالمصلي يرجع إلى غيب قلبه ، ولا يرفع طرفه إلى السماء " ولينتهينّ أقوام عن رفع أبصارهم إلى السماء في الصلاة أو لتخطفن أبصارهم " والداعي يتوجه إلى السماء ويمد يديه كما قال : " حتى رأينا عفرة إبطيه "

- انتهى ملخصاً .

﴿ فلنولينَّك ﴾ أي فتسبب عن تلك الرؤية أنا نوليك من غير شك ﴿ قبلة ﴾ قال الحرالي : نكّرها لما كان من ورائها قبلة التوجه العام في تنقله ، فتلك هي القبلة التي هي توجه لوجه الله لا توجه لمنظر باد من خلق الله ، فكان متسع القبلة ما بين اختصاص القبلة الشامية إلى قيام القبلة الحجازية إلى إحاطة القبلة العامة الآفاقية ؛ وفي قوله : ﴿ ترضاها ﴾ إنباء بإقراره للتوجه لهذه القبلة ، لأن الرضى وصف المقر لما يريد ، فكل واقع بإرادة لا يكون رضىً إلى أن يستدركه الإقرار ، فإن تعقبه الرفع والتغيير فهو مراد غير مرضي - انتهى .

ودل على أن مرضيه الكعبة بفاء السبب في قوله : ﴿ فول وجهك ﴾ ، وأما قلبك فإنما توجهه إلى الله ، الغيب للغيب والظاهر للظاهر ، ﴿ شطر ﴾ أي عين ﴿ المسجد ﴾ كما استدل الشافعي رحمه الله في الرسالة على ذلك بجملة من أشعار العرب وقال : وهذا كله من أشعارهم يبين أن شطر الشيء قصد عين الشيء ، إذا كان معايناً فبالصواب وإن كان مغيباً فبالاجتهاد ﴿ الحرام ﴾ وتعبيره بهذا دون الكعبة فيه توسعة .

قال الحرالي : سماه الله حراماً لحرمته حيث لم يوطأ قط إلا بإذنه ولم يدخل إلا دخول تعبد وذلة فكان حراماً على من يدخله دخول متكبر أو متحير – انتهى .

وعن الإمام الماوردي أن كل موضع ذكر الله فيه المسجد الحرام فالمراد به الحرم إلا هذا فالمراد به الكعبة – انتهى .

وعبر عنه بذلك لأن السياق للصلاة التي أعظم مقصودها السجود ، وسيأتي عند ﴿ يسألونك عن الشهر الحرام ﴾ [البقرة : 217] زيادة على هذا ، وفي الموطأ عن سعيد بن المسيب أنه قال : " صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن قدم المدينة ستة عشر شهراً نحو بيت المقدس ، ثم حولت القبلة قبل بدر بشهرين " ولما بشره سبحانه بالتحويل أولاً وأوقع المبشر به ثانياً أشار إلى بشارة ثالثة بتكثير أمته ونشرهم في أقطار الأرض

فجمعهم إليه في قوله : ﴿ وحيث ما كنتم ﴾ أي من جهات الأرض التي أورثكم إياها ﴿ فولوا وجوهكم شطره ﴾ بتوجيه قلوبكم إليّ .

(136/69)

ولما حرر ذلك وقرره بيّن أن العائبين لدينه بذلك من أهل الكتاب عالمون بحقية هذا التحويل وأنه من أعلام نبوته فقال : ﴿ وإن الذين أوتوا الكتاب ﴾ أي من اليهود والنصارى ، ولم يصفهم هنا بالسفه لإثبات العلم في قوله : ﴿ ليعلمون أنه ﴾ أي هذا التحويل ﴿ الحق ﴾ أي ليس بعده في أمر القبلة حق آخر يرفعه أصلاً ﴿ من ربهم ﴾ أي المحسن إليهم بإرسال هذا الرسول الذي يرفع عنهم إصرهم وكانوا ينتظرون رسالته ، فعندما أتاهم ردوا رحمته ، وجعل ذلك سبحانه في سياق مهدد له مرج له ولأتباعه تسلية لهم وتثبيتاً وتقوية لعزائمهم وتمكيناً حيث ختم الآية بقوله : ﴿ وما الله ﴾ أي المحيط بكل شيء قدرة وعلماً ﴿ بغافل عما يعملون ﴾ قال الحرالي : بالياء أي التحتانية إعراضاً عنهم ، وبالتاء إقبالاً عليهم ، ففيه إنباء بتماديهم على سوء أحوالهم في رتبتين : في متماد على سوء هدد فيه لما أقبل عليه ، وفي متماد على أسوأ منه أوجب في تهديده الإعراض عنه والإقبال على غيره ممن لم يصل في

السوء والمكائدة إلى ما وصل إليه المعرض عنه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 267.265 ﴾

(137/69)

فائدة

قال فى روح البيان :

﴿ قد ﴾ لفظ قد فى المضارع للتقليل وقد استعمل ههنا للتكثير بطريق الاستعارة للمجانسة بين الضدين فى الضدية ﴿ نرى ﴾ مستقبل لفظا ماض معنى ومتأخر تلاوة متقدم معنى لأنها رأس القصة والمعنى شاهدنا وعلمنا ﴿ تقلب وجهك ﴾ أى تردد وجهك فى تصرف نظرك ﴿ فى السماء ﴾ أى فى جهتها تطلعا للوحى وكان عليه السلام يقع فى روعه ويتوقع من ربه أن يحوله إلى الكعبة لأنها قبلة أبيه إبراهيم وأقدم القبلتين وأدعى للعرب إلى الإيمان من حيث إنها كانت مفخرة لهم وأمنا ومزارا ومطافا ولمخالفة اليهود فإنهم كانوا يقولون إنه يخالفنا فى ديننا ثم إنه يتبع قبلتنا ولولا نحن لم يدر أين يستقبل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح البيان حـ 1 صـ 314 ﴾ .

قال ابن عطية :

المقصد تقلب البصر ، وذكر الوجه لأنه أعم وأشرف ، وهو المستعمل في طلب الرغائب ، تقول : بذلت وجهي في كذا ، وفعلت لوجه فلان ، ومنه قول الشاعر : [الطويل]

(138/69)

رَجَعْتُ بما أَبْغي وَوَجْهي بمائِهِ . . . وأيضاً فالوجه يتقلب بتقلب البصر ، وقال قتادة والسدي وغيرهما : كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقلب وجهه في الدعاء إلى الله تعالى أن يحوله إلى قبلة مكة ، وقيل كان يقلب ليؤذن له في الدعاء .

أهـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 1 صـ 121 ﴾ .

سؤال : فإن قيل : أكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ غير راض ببيت المقدس أن يكون له قبلة ، حتى قال تعالى له في الكعبة ﴿ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ﴾ ؟

قيل : لا يجوز أن يكون رسول الله غير راض ببيت المقدس ، لَمَّا أمره الله تعالى به ، لأن الأنبياء يجب عليهم الرضا بأوامر الله تعالى ، لكن معنى ترضاها : أي تحبها وتهواها .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ النكت والعيون حـ 1 صـ 202 ﴾ .

وقال محمد بن أبى بكر الرازى :

المراد بهذا الرضا رضا المحبة بالطبع ، لا رضا التسليم والانقياد لأمر الله . أهـ

﴿ تفسير الرازى صـ 30 ﴾ .

سؤال : ما المراد من قوله ﴿ ترضاها ﴾

الجواب : قوله : ﴿ تَرْضَاهَا ﴾ فيه وجوه . أحدها : ترضاها تحبها وتميل إليها ، لأن الكعبة كانت أحب إليه من غيرها بحسب ميل الطبع

وثانيها : ﴿ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ﴾ أي تحبها بسبب اشتمالها على المصالح الدينية . وثالثها : قال الأصم : أي كل جهة وجهك الله إليها فهي لك رضا لا يجوز أن تسخط ، كما فعل من انقلب على عقيبه من العرب الذين كانوا قد أسلموا ، فلما تحولت القبلة ارتدوا . ورابعها : ﴿ تَرْضَاهَا ﴾ أي ترضى عاقبتها لأنك تعرف بها من يتبعك للإسلام . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 4 صـ 102. باختصار يسير ﴾ .

قوله تعالى ﴿ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ﴾

لطيفة

قال الإمام الفخر ـ رحمه الله ـ :

إنه تعالى أظهر حبه لمحمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ بواسطة أمره باستقبال الكعبة ، وذلك لأنه عليه الصلاة والسلام كان يتمنى ذلك مدة لأجل مخالفة اليهود ، فأنزل الله تعالى : ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السماء ﴾

[البقرة : 144] الآية ، وفي الشاهد إذا وصف واحد من الناس بمحبة آخر قالوا : فلان يحول القبلة لأجل فلان على جهة التمثيل ، فالله تعالى قد حول القبلة لأجل حبيبه محمد عليه الصلاة والسلام على جهة التحقيق ، وقال : ﴿ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ﴾ [البقرة : 144] ولم يقل قبلة أرضاها ، والإشارة فيه كأنه تعالى قال : يا محمد كل أحد يطلب رضاي وأنا أطلب رضاك في الدارين ، أما في الدنيا فهذا الذي ذكرناه وأما في الآخرة فقوله تعالى : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فترضى ﴾ [الضحى : 5] . انتهى انتهى . اهـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 4 صـ 102 ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾

سؤال : ما المراد من الوجه ههنا ؟

الجواب : المراد من الوجه ههنا جملة بدن الإنسان لأن الواجب على الإنسان أن يستقبل القبلة بجملته لا بوجهه فقط والوجه يذكر ويراد به نفس الشيء لأن الوجه أشرف الأعضاء ولأن بالوجه تميز بعض الناس عن بعض ، فلهذا السبب قد يعبر عن كل الذات بالوجه .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 4 صـ 103 ﴾

سؤال : لم ذكر المسجد الحرامِ دون الكعبة ؟

الجواب : في ذكر المسجد الحرامِ دون الكعبة إيذانٌ بكفاية مراعاةِ الجهةِ لأن في مراعاةِ العينِ

من البعيد حرجاً عظيماً بخلاف القريب .

وقال ابن عجيبة :

وإنما ذكر الحق تعالى شطر المسجد ، أي : جهته ، دون عين الكعبة ، لأنه – عليه الصلاة والسلام – كان في المدينة ، والبعيد يكفيه مراعاة الجهة ، فإن استقبال عينها حَرَجٌ عليه ، بخلاف القريب ، فإنه يسهل عليه مسامته العين . وقيل : إن جبريل – عليه السلام – عيّنها له بالوحي فسميت قبلة وحْي . انتهى انتهى . اهـ البحر المديد حـ 1 صـ 177 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾

قال أبو السعود :

(140/69)

﴿ وحيثما كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ خُصَّ الرسولُ – صلى الله عليه وسلم – بالخطاب تعظيماً لجنابه وإيذاناً بإسعاف مرامِه ثم عُمّم الخطابُ للمؤمنين مع التعرُّض لاختلاف أماكنِهم تأكيداً للحُكم وتصريحاً بعُمومه لكافة العباد من كل حاضِرٍ وبادٍ وحثاً للأمة على المتابعة ، وحيثما شرطية وكنتم في محل الجزاء بها

أهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 1 صـ 175 ﴾

فائدة

اعلم أن قوله تعالى : ﴿ حيثمَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ عام في الأشخاص والأحوال ، إلا أنا أجمعنا على أن الاستقبال خارج الصلاة غير واجب ، بل أنه طاعة لقوله ـ عليه السلام ـ : " خير المجالس ما استقبل به القبلة " فبقي أن وجوب الاستقبال من خواص الصلاة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 4 صـ 107 ﴾

سؤال : هل فى الآية الكريمة تكرار ؟

هذا ليس بتكرار ، وبيانه من وجهين . أحدهما : أن قوله تعالى : ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المسجد الحرام ﴾ خطاب مع الرسول ـ عليه السلام ـ لا مع الأمة ، وقوله : ﴿ حيثمَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ خطاب مع الكل . وثانيهما : أن المراد بالأولى مخاطبتهم وهم بالمدينة خاصة ، وقد كان من الجائز لو وقع الاختصار عليه أن يظن أن هذه القبلة قبلة لأهل المدينة خاصة ، فبين الله تعالى أنهم أينما حصلوا من بقاع الأرض يجب أن يستقبلوا نحو هذه القبلة . أ هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 4 صـ 107 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾

سؤال : من أين علموا أنه الحق ؟

فيه أربعة أقوال . أحدها : أن في كتابهم الأمر بالتوجه إليها ، قاله أبو العالية . والثاني :

يعلمون أن المسجد الحرام قبلة إبراهيم . والثالث : أن في كتابهم أن محمداً رسول صادق ، فلا يأمر إلا بحق . والرابع : أنهم يعلمون جواز النسخ .

أهـ ﴿ زاد المسير حـ 1 صـ 157 ﴾

(141/69)

قوله تعالى ﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾

هذا الخبر كناية عن الوعيد بجزائهم عن سوء صنعهم لأن قول القادر ما أنا بغافل عن المجرم تحقيق لعقابه إذ لا يحول بين القادر وبين الجزاء إلاّ عدم العلم فلذلك كان وعيداً لهم ووعيدُهم يستلزم في المقام الخطابي وَعْداً للمسلمين لدلالته على عظيم منزلتهم فإن الوعيد إنما ترتب على مخالفتهم للمؤمنين فلا جرم أن سيلزم جزاء للمؤمنين على امتثال تغيير القبلة ، ولأن الذي لا يغفل عن عمل أولئك لا يَغفل عن عمل هؤلاء فيجازي كلاًّ بما يستحق . أهـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 2 صـ 34 ﴾

الكعبة مركز دائرة كبرى

لو نظر شخص من خارج الكرة الأرضية إلى المصلين المسلمين لرأى دوائر متعددّة بعضها داخل بعض وتضيق بالتدريج لتصل إلى المركز الأصلي المتمثل بالكعبة . وهذه الصورة

توضح محورية ومركزية بيت الله الحرام . وهذه ظاهرة متميزة في الإسلام دون سواه من الأديان .

جدير بالذكر أن ضرورة اتجاه المسلمين شطر المسجد الحرام كان باعثاً على تطور علم الهيئة وعلم الجغرافيا والفلك عند المسلمين بسرعة مدهشة خلال العصور الإسلامية الأولى ، لأن معرفة جهة القبلة في مختلف بقاع الأرض ما كانت متيسّرة من دون معرفة بهذه العلوم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الأمثل حـ 1 صـ 417 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية الكريمة

حَفِظَ – صلوات الله عليه – الآدابَ حيث سكت بلسانه عن سؤال ما تمنّاه من أمر القبلة بقلبه ، فَلاَحَظَ السماءَ لأنها طريق جبريل ـ عليه السلام ـ ، فأنزل الله عزَّ وجل : ﴿ قد نرى تقلب وجهك في السماء ﴾ أي علمنا سؤلك عمَّا لم تُفْصِحْ عنه بلسان الدعاء ، فلقد غيَّرنا القِبْلَةَ لأجلك ، وهذه غاية ما يفعل الحبيب لأجل الحبيب .

(142/69)

كلَّ العبيد يجتهدون في طلب رضائي وأنا أطلب رضاك ﴿ فلنولينك قِبْلَةً ترضاها ﴾ ﴿ فولِّ وجهك شطر المسجد الحرام ﴾ : ولكن لا تُعَلِّقْ قلبَكَ بالأحجار والآثار ، وأَفْرِد

قلبك لي ، ولتكن القِبلةُ مقصودَ نَفْسِك ، والحقُّ مشهودَ قلبك ، وحيثما كنتم أيها المؤمنون فولوا وجوهكم شطره ، ولكن أَخْلِصوا قلوبَكم لي وأَفرِدوا شهودكم بي . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 134 ﴾

وقال فى البحر المديد :

في الآية إشارة إلى أن ترك التصريح من كمال الأدب ، وفي الحكم : " ربما دلّهم الأدب على ترك الطلب ، كيف يكون دعاؤك اللاحق سبباً في قضائه السابق ؟ ! جلّ حكم الأزل أن يضاف إلى العلل " . فإذا تمنيت شيئاً وتوقفت على أمر فاصبر وتأدب واقتد بنبيك – عليه الصلاة والسلام – حتى يعطيك ما ترضى ، أو يعوضك منها مقام الرضا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المديد حـ 1 صـ 177 ﴾

ومن فوائد ابن العربى فى الآية

قال رحمه الله :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ الشَّطْرُ فِي اللُّغَةِ يُقَالُ عَلَى النِّصْفِ مِنْ الشَّيْءِ ، وَيُقَالُ عَلَى الْقَصْدِ ، وَهَذَا خِطَابٌ

لِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ ، مَنْ كَانَ مِنْهُمْ مُعَايِنًا لِلْبَيْتِ ، وَمَنْ كَانَ غَائِبًا عَنْهُ .

وَذَكَرَ الْبَارِي سُبْحَانَهُ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ ، وَالْمُرَادُ بِهِ الْبَيْتُ ، كَمَا ذَكَرَ فِي قَوْلِه تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا ﴾ الْكَعْبَةَ ، وَالْمُرَادُ بِهِ الْحَرَمُ ، لِأَنَّهُ تَعَالَى خَاطَبَنَا بِلُغَةِ الْعَرَبِ ، وَهِيَ تُعَبِّرُ عَنْ الشَّيْءِ بِمَا يُجَاوِرُهُ أَوْ بِمَا يَشْتَمِلُ عَلَيْهِ ؛ وَإِنَّمَا أَرَادَ سُبْحَانَهُ أَنْ يُعَرِّفَ أَنَّ مَنْ بَعُدَ عَنْ الْبَيْتِ فَإِنَّهُ يَقْصِدُ النَّاحِيَةَ لَا عَيْنَ الْبَيْتِ ، فَإِنَّهُ يَعْسُرُ [نَظَرُهُ وَ] قَصْدُهُ ؛ بَلْ لَا يُمْكِنُ أَبَدًا إلَّا لِلْمُعَايِنِ ، وَرُبَّمَا الْتَفَتَ الْمُعَايِنُ يَمِينًا أَوْ شِمَالًا فَإِذَا بِهِ قَدْ زَهَقَ عَنْهُ ، فَاسْتَأْنَفَ الصَّلَاةَ ؛ وَأَضْيَقُ مَا تَكُونُ الْقِبْلَةُ عِنْدَ مُعَايَنَةِ الْقِبْلَةِ .

وَقَدْ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ : هَلْ فَرْضُ الْغَائِبِ عَنْ الْكَعْبَةِ اسْتِقْبَالُ الْعَيْنِ ؟ أَوْ اسْتِقْبَالُ الْجِهَةِ ؟ فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : [فَرْضُهُ اسْتِقْبَالُ الْعَيْنِ] ؛ وَهَذَا ضَعِيفٌ ؛ لِأَنَّهُ تَكْلِيفٌ لِمَا لَا يَصِلُ إلَيْهِ .

وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ الْجِهَةُ ؛ وَهُوَ الصَّحِيحُ لِثَلَاثَةِ أُمُورٍ : أَحَدُهَا : أَنَّهُ الْمُمْكِنُ الَّذِي يَرْتَبِطُ بِهِ التَّكْلِيفُ .

الثَّانِي : أَنَّهُ الْمَأْمُورُ بِهِ فِي الْقُرْآنِ ، إذْ قَالَ : ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ فَلَا يُلْتَفَتُ إلَى غَيْرِ ذَلِكَ .

الثَّالِثُ : أَنَّ الْعُلَمَاءَ احْتَجُّوا بِالصَّفِّ الطَّوِيلِ الَّذِي يُعْلَمُ قَطْعًا أَنَّهُ أَضْعَافُ عَرْضِ الْبَيْتِ ، وَيَجِبُ أَنْ يُعَوَّلَ عَلَى مَا تَقَدَّمَ ؛ فَإِنَّ الصَّفَّ الطَّوِيلَ إذَا بَعُدَ عَنْ الْبَيْتِ أَوْ طَالَ وَعَرُضَ أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً لَكَانَ مُمْكِنًا أَنْ يُقَابِلَ [جَمِيعَ] الْبَيْتِ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 1 صـ 64. 65 ﴾

(145/69)

ومن فوائد القاسمى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ﴾

أي : تردد وجهك وتصرف نظرك في جهة السماء تشوفاً لنزول الوحي بالتحويل .

قالوا : وفي ذلك تنبيه على حسن أدبه حيث انتظر ولم يسأل . وهلا ألطف مما قيل : إن تقلب وجهه كناية عن دعائه ، ولا مانع أن يراد بتقلب وجهه صلى الله عليه وسلم بالتحويل ، ففيه إعلام بما جعله تعالى من اختصاص السماء بوجه الداعي ، وهذه الآية وإن كانت متأخرة في التلاوة ، فهي متقدمة في المعنى ، فإنها رأس القصة : ﴿ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ﴾ أي : لنعطينك أو لنوجهنك إلى قبلة تحبها وتميل إليها . ودل على أن مرضيّة الكعبة ،

بقاء السبب في قوله : ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ أي : نحوه وجهته .

والتعبير عن الكعبة بالمسجد الحرام إشارة إلى أن الواجب مراعاة الجهة دون العين : ﴿ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ أي : حيثما كنتم في بر أو بحر فولوا وجوهكم في الصلاة تلقاء المسجد .

(146/69)

وأما سرّ الأمر بالتولية خاصاً وعاماً ، فقال الراغب : أما خطابه الخاص فتشريفاً له وإيجاباً لرغبته . وأما خطابه العام بعده ، فلأنه كان يجوز أن يعتقد أن هذا أمر قد خُص عليه السلام به ، كما خص في قوله : ﴿ قُمِ اللَّيْلَ ﴾ [المزمل : 2] ، ولأنه لما كان تحويل القبلة أمراً له خطر ، خصهم بخطاب مفرد ليكون ذلك أبلغ وليكون لهم في ذلك تشريف ، ولأن في الخطاب العام تعليق حكم آخر به ، وهو أنه لا فرق بين القرب والبعد في وجوب التوجه إلى الكعبة .

﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ قال الفخر : الضمير في قوله : ﴿ أنه الحق ﴾ راجع إلى مذكور سابق ، وقد تقدم ذكر الرسول كما تقدم ذكر القبلة ، فجاز أن يكون المراد أن القوم يعلمون أن الرسول مع شرعه ونبوته حق ، فيشتمل ذلك على أمر القبلة

وغيرها ، ويحتمل أن يرجع إلى هذا التكليف الخاص بالقبلة ، وأنهم يعلمون أنه الحق .

وهذا الاحتمال الأخير أقرب ؛ لأنه أليق بالمساق .

ثم ذكر من وجوه علمهم لذلك : أنهم كانوا يعلمون أن الكعبة هي البيت العتيق الذي جعله الله تعالى قبلة لإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، وأنهم كانوا يعلمون نبوة محمد صلى الله عليه وسلم لما ظهر عليه من المعجزات ، ومتى علموا نبوته فقد علموا لا محالة أن كل ما أتى به فهو حق ؛ فكان هذا التحويل حقاً .

(147/69)

قلت : وثم وجه آخر أدق مما ذكره الفخر في علمهم حقيّة ذلك التحويل ، وأنه من أعلام نبوته صلى الله عليه وسلم ، وبيانه : أن أمره تعالى للنبي صلى الله عليه وسلم ، ولكافة من اتبعه ، باستقبال الكعبة ، من جملة الاستعلان في فاران المذكور في التوراة إشارةً لخاتم النبيين وبشارة به ؛ فقد جاء في الإصحاح الثالث والثلاثين من سفر التثنية – ويقال الاستثناء – هكذا : وهذه هي البركة التي بارك بها موسى رجلُ الله بني إسرائيل قبل موته فقال : جاء الرب من سيناءَ ، وأشرق لهم من سَعِير ، وتلألأ من جبل فارانَ .

وهذه البشارة تنبه على موسى وعيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم ؛ لأن الله تعالى أنزل

التوراة على موسى في طور سيناء ، والإنجيل على عيسى في جبل سُعَيْر ، لأنه عليه السلام كان يسكن أرض الخليل من سُعَيْر بقرية تدعى الناصرة . وتلألؤه من جبل فاران عبارة عن إنزاله القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم في جبل فاران ، وفاران هي مكة . لا يخالفنا في ذلك أهل الكتاب ؛ ففي الإصحاح الحادي والعشرين من سفر التكوين في حال إسماعيل عليه السلام هكذا : وكان الله مع الغلام فكبر ، وسكن في البرية ، وكان ينموا رامي قوس ، وسكن في برّية فاران .

ولا شك أن إسماعيل ، عليه السلام ، كان سكناه في مكة ، وفيها مات وبها دفن .

وقال ابن الأثير : وفي الحديث ذكر جبل فاران اسم لجبال مكة بالعبرانيّ ، له ذكر في أعلام النبوة ، وألفه الأولى ليست بهمزة ﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ قرئ بالياء والتاء . فيه إنباء بتماديهم على سوء أحوالهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 2 صـ 468. 470 ﴾

(148/69)

ومن فوائد صاحب المنار فى الآيات السابقة

قال رحمه الله :

(سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ)

كَانَ أَنْبِيَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ يُصَلُّونَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ ، وَكَانَتْ صَخْرَةُ الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الْمَعْرُوفَةُ هِيَ قِبْلَتَهُمْ ، وَقَدْ صَلَّى النَّبِيُّ وَالْمُسْلِمُونَ إِلَيْهَا زَمَنًا ، وَكَانَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يَتَشَوَّفُ لِاسْتِقْبَالِ الْكَعْبَةِ ، وَيَتَمَنَّى لَوْ حَوَّلَ اللَّهُ الْقِبْلَةَ إِلَيْهَا ; بَلْ كَانَ يَجْمَعُ بَيْنَ اسْتِقْبَالِهَا وَاسْتِقْبَالِ الصَّخْرَةِ فِي مَكَّةَ فَيُصَلِّي فِي جِهَةِ الْجَنُوبِ مُسْتَقْبِلًا لِلشَّمَالِ ، فَلَمَّا هَاجَرَ مِنْهَا إِلَى الْمَدِينَةِ تَعَذَّرَ هَذَا الْجَمْعُ ، فَتَوَجَّهَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِجَعْلِ الْكَعْبَةِ هِيَ الْقِبْلَةَ ، فَأَمَرَهُ اللَّهُ بِذَلِكَ كَمَا يَأْتِي تَفْصِيلُهُ فِي الْآيَاتِ الْآتِيَةِ ، وَقَدِ ابْتَدَأَ

الْكَلَامَ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ بِبَيَانِ مَا يَقَعُ مِنِ اعْتِرَاضِ الْيَهُودِ وَغَيْرِهِمْ عَلَى التَّحْوِيلِ وَإِخْبَارِ اللَّهِ نَبِيَّهُ وَالْمُؤْمِنِينَ بِهِ قَبْلَ وُقُوعِهِ ، وَتَلْقِينِهِمُ الْحُجَّةَ الْبَالِغَةَ عَلَيْهِ وَالْحِكْمَةَ السَّدِيدَةَ فِيهِ ،

وَيَتَضَمَّنُ هَذَا بَيَانَ سِرٍّ مِنْ أَسْرَارِ الدِّينِ وَقَاعِدَةٍ عَظِيمَةٍ مِنْ قَوَاعِدِ الْإِيمَانِ ، كَانَ أَهْلُ الْكِتَابِ فِي غَفْلَةٍ عَنْهَا وَجَهْلٍ بِهَا ، فَهَذِهِ الْآيَاتُ مُتَّصِلَةٌ بِمَا قَبْلَهَا فِي كَوْنِهَا مُحَاجَّةً لِأَهْلِ الْكِتَابِ فِي أَمْرِ الدِّينِ ؛ لِإِمَالَتِهِمْ عَنِ التَّقْلِيدِ الْأَعْمَى

فِيهِ ، وَالْجُمُودِ عَلَى ظَوَاهِرِهِ مِنْ غَيْرِ تَفَقُّهٍ فِيهِ وَلَا نُفُوذٍ إِلَى أَسْرَارِهِ وَحِكَمِهِ الَّتِي لَمْ تُشْرَعِ الْأَحْكَامُ إِلَّا لِأَجْلِهَا ، قَالَ عَزَّ وَجَلَّ :

(150/69)

(سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا) السَّفَهُ وَالسَّفَاهَةُ : الِاضْطِرَابُ فِي الرَّأْيِ وَالْفِكْرِ أَوِ الْأَخْلَاقِ . يُقَالُ : سَفَّهَ حِلْمَهُ وَرَأْيَهُ وَنَفْسَهُ ، وَمِنْهُ زِمَامٌ سَفِيهٌ ؛ أَيْ : مُضْطَرِبٌ لِمَرَحِ النَّاقَةِ وَمُنَازَعَتِهَا إِيَّاهُ . وَاضْطِرَابُ الْحِلْمِ – الْعَقْلِ – وَالرَّأْيِ : جَهْلٌ وَطَيْشٌ ، وَاضْطِرَابُ الْأَخْلَاقِ : فَسَادٌ فِيهَا لِعَدَمِ رُسُوخِ مَلَكَةِ الْفَضِيلَةِ . قَالَ الْبَيْضَاوِيُّ فِي تَفْسِيرِ السُّفَهَاءِ وَأَحْسَنَ مَا شَاءَ : هُمُ الَّذِينَ خَفَّتْ أَحْلَامُهُمْ وَاسْتَهْوَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ بِالتَّقْلِيدِ وَالْإِعْرَاضِ عَنِ النَّظَرِ ، يُرِيدُ الْمُنْكِرِينَ لِتَغْيِيرِ الْقِبْلَةِ مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَالْيَهُودِ وَالْمُشْرِكِينَ . وَفَائِدَةُ تَقْدِيمِ الْإِخْبَارِ تَوْطِينُ النَّفْسِ وَإِعْدَادُ الْجَوَابِ اهـ .

(151/69)

وَوَلَّاهُ عَنِ الشَّيْءِ : صَرَفَهُ عَنْهُ ، وَالِاسْتِفْهَامُ لِلْإِنْكَارِ وَالتَّعَجُّبِ ، وَالْمَعْنَى : سَيَقُولُ سُفَهَاءُ الْأَحْلَامِ السُّخَفَاءُ : أَيُّ شَيْءٍ جَرَى لِهَؤُلَاءِ الْمُسْلِمِينَ فَحَوَّلَهُمْ وَصَرَفَهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا وَهِيَ قِبْلَةُ النَّبِيِّينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ؟ وَهَاكَ تَفْصِيلَ الْجَوَابِ : لَيْسَتْ صَخْرَةُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ بِأَفْضَلَ مِنْ سَائِرِ الصُّخُورِ فِي مَادَّتِهَا وَجَوْهَرِهَا ، وَلَيْسَ لَهَا مَنَافِعُ وَخَوَاصُّ لَا تُوجَدُ فِي غَيْرِهَا ، وَلَا هَيْكَلُ سُلَيْمَانَ فِي نَفْسِهِ – مِنْ حَيْثُ هُوَ حَجَرٌ وَطِينٌ – أَفْضَلُ مِنْ سَائِرِ الْأَبْنِيَةِ ، وَكَذَلِكَ يُقَالُ فِي الْكَعْبَةِ وَالْبَيْتِ الْحَرَامِ كَمَا تَقَدَّمَ فِي تَفْسِيرِ : (وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ) (2 : 127) وَإِنَّمَا يَجْعَلُ اللهُ لِلنَّاسِ قِبْلَةً ; لِتَكُونَ جَامِعَةً لَهُمْ فِي عِبَادَتِهِمْ إِلَى آخِرِ مَا تَقَدَّمَ شَرْحُهُ فِي تَفْسِيرِ : (وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ) (2 : 115) وَفِي الْكَلَامِ عَلَى الْكَعْبَةِ وَالْحَجِّ ، وَلَكِنَّ سُفَهَاءَ الْأَحْلَامِ مِنْ أَهْلِ الْجُمُودِ وَالْمُقَلِّدِينَ لَهُمْ يَظُنُّونَ أَنَّ الْقِبْلَةَ أَصْلٌ فِي الدِّينِ مِنْ حَيْثُ هِيَ الصَّخْرَةُ الْمُعَيَّنَةُ أَوِ الْبِنَاءُ الْمُعَيَّنُ ; وَلِذَلِكَ كَانَتِ الْحُجَّةُ الَّتِي لَقَّنَهَا اللهُ لِنَبِيِّهِ فِي الرَّدِّ عَلَى السُّفَهَاءِ الْجَاهِلِينَ

لِهَذِهِ الْحِكْمَةِ (قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ) أَيْ: إِنَّ الْجِهَاتِ كُلَّهَا لِلَّهِ تَعَالَى لَا فَضْلَ لِجِهَةٍ مِنْهَا بِذَاتِهَا عَلَى جِهَةٍ، وَإِنَّ لِلَّهِ أَنْ يُخَصِّصَ مِنْهَا مَا شَاءَ فَيَجْعَلُهُ قِبْلَةً لِمَنْ يَشَاءُ، وَهُوَ الَّذِي (يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) وَهُوَ صِرَاطُ الِاعْتِدَالِ فِي الْأَفْكَارِ وَالْأَخْلَاقِ وَالْأَعْمَالِ، كَمَا يُبَيِّنُ فِي الْآيَةِ الْآتِيَةِ. فَعُلِمَ أَنَّ نِسْبَةَ الْجِهَاتِ كُلِّهَا إِلَى اللهِ تَعَالَى وَاحِدَةٌ، وَأَنَّ الْعِبْرَةَ فِي التَّوَجُّهِ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ بِالْقُلُوبِ، وَاتِّبَاعِ وَحْيِهِ فِي تَوَجُّهِ الْوُجُوهِ.

قَالَ تَعَالَى: (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا) وَهُوَ تَصْرِيحٌ بِمَا فُهِمَ مِنْ قَوْلِهِ: (وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) (2: 213) إِلَخْ، أَيْ: عَلَى هَذَا النَّحْوِ مِنَ الْهِدَايَةِ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا. قَالُوا: إِنَّ الْوَسَطَ هُوَ الْعَدْلُ وَالْخِيَارُ، وَذَلِكَ أَنَّ الزِّيَادَةَ عَلَى الْمَطْلُوبِ فِي الْأَمْرِ إِفْرَاطٌ، وَالنَّقْصَ عَنْهُ تَفْرِيطٌ وَتَقْصِيرٌ، وَكُلٌّ مِنَ الْإِفْرَاطِ وَالتَّفْرِيطِ مَيْلٌ عَنِ الْجَادَّةِ الْقَوِيمَةِ فَهُوَ شَرٌّ وَمَذْمُومٌ، فَالْخِيَارُ: هُوَ الْوَسَطُ بَيْنَ طَرَفَيِ الْأَمْرِ؛ أَيِ: الْمُتَوَسِّطُ بَيْنَهُمَا.

قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ بَعْدَ إِيرَادِ هَذَا: وَلَكِنْ يُقَالُ لِمَ اخْتِيرَ لَفْظُ الْوَسَطِ عَلَى لَفْظِ الْخِيَارِ مَعَ أَنَّ هَذَا هُوَ الْمَقْصُودُ، وَالْأَوَّلُ إِنَّمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ بِالِالْتِزَامِ؟ وَالْجَوَابُ مِنْ وَجْهَيْنِ:

(أَحَدُهُمَا) : أَنَّ وَجْهَ الِاخْتِيَارِ هُوَ التَّمْهِيدُ لِلتَّعْلِيلِ الْآتِي ; فَإِنَّ الشَّاهِدَ عَلَى الشَّيْءِ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ عَارِفًا بِهِ ، وَمَنْ كَانَ مُتَوَسِّطًا بَيْنَ شَيْئَيْنِ فَإِنَّهُ يَرَى أَحَدَهُمَا مِنْ جَانِبٍ وَثَانِيهُمَا مِنَ الْجَانِبِ الْآخَرِ ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ فِي أَحَدِ الطَّرَفَيْنِ فَلَا يَعْرِفُ حَقِيقَةَ حَالِ الطَّرَفِ الْآخَرِ ، وَلَا حَالَ الْوَسَطِ أَيْضًا .

(وَثَانِيهِمَا) : أَنَّ فِي لَفْظِ الْوَسَطِ إِشْعَارًا بِالسَّبَبِيَّةِ ، فَكَأَنَّهُ دَلِيلٌ عَلَى نَفْسِهِ ; أَيْ : أَنَّ الْمُسْلِمِينَ خِيَارٌ وَعُدُولٌ ; لِأَنَّهُمْ وَسَطٌ ، لَيْسُوا مِنْ أَرْبَابِ الْغُلُوِّ فِي الدِّينِ الْمُفْرِطِينَ ، وَلَا مِنْ أَرْبَابِ التَّعْطِيلِ الْمُفَرِّطِينَ ، فَهُمْ كَذَلِكَ فِي الْعَقَائِدِ وَالْأَخْلَاقِ وَالْأَعْمَالِ .

ذَلِكَ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا قَبْلَ ظُهُورِ الْإِسْلَامِ عَلَى قِسْمَيْنِ : قِسْمٌ تَقْضِي عَلَيْهِ تَقَالِيدُهُ بِالْمَادِّيَّةِ الْمَحْضَةِ ، فَلَا هَمَّ لَهُ إِلَّا الْحُظُوظَ الْجَسَدِيَّةَ كَالْيَهُودِ وَالْمُشْرِكِينَ ، وَقِسْمٌ تَحْكُمُ عَلَيْهِ تَقَالِيدُهُ بِالرُّوحَانِيَّةِ الْخَالِصَةِ وَتَرْكِ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا مِنَ اللَّذَّاتِ الْجُسْمَانِيَّةِ ، كَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ وَطَوَائِفَ مِنْ وَثَنِيِّي الْهِنْدِ أَصْحَابِ الرِّيَاضَاتِ .

وَأَمَّا الْأُمَّةُ الْإِسْلَامِيَّةُ فَقَدْ جَمَعَ اللهُ لَهَا فِي دِينِهَا بَيْنَ الْحَقَّيْنِ : حَقِّ الرُّوحِ ، وَحَقِّ

الْجَسَدِ ، فَهِيَ رُوحَانِيَّةٌ جُسْمَانِيَّةٌ ، وَإِنْ شِئْتَ قُلْتَ إِنَّهُ أَعْطَاهَا جَمِيعَ حُقُوقِ الْإِنْسَانِيَّةِ ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ جِسْمٌ وَرُوحٌ ، حَيَوَانٌ وَمَلَكٌ ، فَكَأَنَّهُ قَالَ : جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا تَعْرِفُونَ الْحَقَّيْنِ ، وَتَبْلُغُونَ الْكَمَالَيْنِ (لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ) بِالْحَقِّ (عَلَى النَّاسِ) الْجُسْمَانِيِّينَ بِمَا فَرَّطُوا فِي جَنْبِ الدِّينِ ، وَالرُّوحَانِيِّينَ إِذْ أَفْرَطُوا وَكَانُوا مِنَ الْغَالِينَ ، تَشْهَدُونَ عَلَى الْمُفَرِّطِينَ بِالتَّعْطِيلِ الْقَائِلِينَ : (مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ) (45 : 24) بِأَنَّهُمْ أَخْلَدُوا إِلَى الْبَهِيمِيَّةِ ، وَقَضَوْا عَلَى اسْتِعْدَادِهِمْ بِالْحِرْمَانِ مِنَ الْمَزَايَا الرُّوحَانِيَّةِ ، وَتَشْهَدُونَ عَلَى الْمُفْرِطِينَ بِالْغُلُوِّ فِي الدِّينِ الْقَائِلِينَ : إِنَّ هَذَا الْوُجُودَ حَبْسٌ لِلْأَرْوَاحِ وَعُقُوبَةٌ لَهَا .

(155/69)

فَعَلَيْنَا أَنْ نَتَخَلَّصَ مِنْهُ بِالتَّخَلِّي عَنْ جَمِيعِ اللَّذَّاتِ الْجُسْمَانِيَّةِ وَتَعْذِيبِ الْجَسَدِ ، وَهَضْمِ حُقُوقِ النَّفْسِ وَحِرْمَانِهَا مِنْ جَمِيعِ مَا أَعَدَّهُ اللهُ لَهَا فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ ، تَشْهَدُونَ عَلَيْهِمْ بِأَنَّهُمْ خَرَجُوا عَنْ جَادَّةِ الِاعْتِدَالِ ، وَجَنَوْا عَلَى أَرْوَاحِهِمْ بِجِنَايَتِهِمْ عَلَى أَجْسَادِهِمْ وَقُوَاهَا الْحَيَوِيَّةِ ، تَشْهَدُونَ عَلَى هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ ، وَتَسْبِقُونَ الْأُمَمَ كُلَّهَا بِاعْتِدَالِكُمْ وَتَوَسُّطِكُمْ فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا ، ذَلِكَ بِأَنَّ مَا هُدِيتُمْ إِلَيْهِ هُوَ الْكَمَالُ الْإِنْسَانِيُّ الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ كَمَالٌ ؛ لِأَنَّ

صَاحِبَهُ يُعْطِي كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ ، يُؤَدِّي حُقُوقَ رَبِّهِ ، وَحُقُوقَ نَفْسِهِ ، وَحُقُوقَ جِسْمِهِ ، وَحُقُوقَ ذَوِي الْقُرْبَى ، وَحُقُوقَ سَائِرِ النَّاسِ (وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا) أَيْ : إِنَّ الرَّسُولَ – عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ – هُوَ الْمِثَالُ الْأَكْمَلُ لِمَرْتَبَةِ الْوَسَطِ ، وَإِنَّمَا تَكُونُ هَذِهِ الْأُمَّةُ وَسَطًا بِاتِّبَاعِهَا لَهُ فِي سِيرَتِهِ وَشَرِيعَتِهِ ، وَهُوَ الْقَاضِي بَيْنَ النَّاسِ فِيمَنِ اتَّبَعَ سُنَّتَهُ وَمَنِ ابْتَدَعَ لِنَفْسِهِ تَقَالِيدَ أُخْرَى أَوْ حَذَا حَذْوَ الْمُبْتَدِعِينَ ، فَكَمَا تَشْهَدُ هَذِهِ الْأُمَّةُ عَلَى النَّاسِ بِسِيرَتِهَا وَارْتِقَائِهَا الْجَسَدِيِّ وَالرُّوحِيِّ بِأَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا عَنِ الْقَصْدِ ، يَشْهَدُ لَهَا الرَّسُولُ – بِمَا وَافَقَتْ فِيهِ سُنَّتَهُ وَمَا كَانَ لَهَا مِنَ الْأُسْوَةِ الْحَسَنَةِ فِيهِ – بِأَنَّهَا اسْتَقَامَتْ عَلَى صِرَاطِ الْهِدَايَةِ الْمُسْتَقِيمِ ، فَكَأَنَّهُ

(156/69)

قَالَ : إِنَّمَا يَتَحَقَّقُ لَكُمْ وَصْفُ الْوَسَطِ إِذَا حَافَظْتُمْ عَلَى الْعَمَلِ بِهَدْيِ الرَّسُولِ وَاسْتَقَمْتُمْ عَلَى سُنَّتِهِ ، وَأَمَّا إِذَا انْحَرَفْتُمْ عَنْ هَذِهِ الْجَادَّةِ ، فَالرَّسُولُ بِنَفْسِهِ وَدِينِهِ وَسِيرَتِهِ حُجَّةٌ عَلَيْكُمْ بِأَنَّكُمْ لَسْتُمْ مِنْ أُمَّتِهِ الَّتِي وَصَفَهَا اللهُ فِي كِتَابِهِ بِهَذِهِ الْآيَةِ ، وَبِقَوْلِهِ : (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ) (3 : 110) إِلَخْ ; بَلْ تَخْرُجُونَ بِالِابْتِدَاعِ مِنَ الْوَسَطِ وَتَكُونُونَ فِي أَحَدِ الطَّرَفَيْنِ ، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ – وَقَدِ

اسْتَشْهَدَ بِهِ الزَّمَخْشَرِيُّ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ :

كَانَتْ هِيَ الْوَسَطَ الْمَحْمِيَّ فَاكْتَنَفَتْ . . . بِهَا الْحَوَادِثُ حَتَّى أَصْبَحَتْ طَرَفَا

(157/69)

(الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ) : يُقَالُ إِنَّ هَذَا خَبَرٌ عَظِيمٌ بِمِنْحَةٍ جَلِيلَةٍ ، وَمِنَّةٌ بِنِعْمَةٍ كَبِيرَةٍ ، فَلِمَ جِيءَ بِهِ مُعْتَرِضًا فِي أَطْوَاءِ الْكَلَامِ عَنِ الْقِبْلَةِ ، وَلَمْ يَجِئْ ابْتِدَاءً أَوْ فِي سِيَاقِ تَعْدَادِ الْآلَاءِ وَالنِّعَمِ ؟ وَالْجَوَابُ : أَنَّ اللهَ تَعَالَى عَلِمَ أَنَّ الْفِتْنَةَ بِمَسْأَلَةِ الْقِبْلَةِ سَتَكُونُ عَظِيمَةً ، وَأَنْ سَيَقُولُ أَهْلُ الْكِتَابِ : إِنَّ مُحَمَّدًا لَيْسَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ لِأَنَّهُ غَيَّرَ قِبْلَتَهُ ، وَلَوْ كَانَ اللهُ هُوَ الَّذِي أَمَرَهُ بِالصَّلَاةِ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ لَمَا نَهَاهُ عَنْهُ ثَانِيًا وَصَرَفَهُ عَنْ قِبْلَةِ الْأَنْبِيَاءِ . وَيَقُولُ الْمُنَافِقُونَ : إِنَّهُ صَلَّى أَوَّلًا إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ اسْتِمَالَةً لِأَهْلِ الْكِتَابِ وَدِهَانًا لَهُمْ ، ثُمَّ غَلَبَ عَلَيْهِ حُبُّ وَطَنِهِ وَتَعْظِيمُهُ ، فَعَادَ إِلَى اسْتِقْبَالِ الْكَعْبَةِ ، فَهُوَ مُضْطَرِبٌ فِي دِينِهِ . وَأَمْثَالُ هَذِهِ الشُّبُهَاتِ – عَلَى كَوْنِهَا تَدُلُّ عَلَى عَدَمِ الِاعْتِدَالِ فِي أَفْكَارِ قَائِلِيهَا – تُؤَثِّرُ فِي نُفُوسِ الْمُسْلِمِينَ ، فَالْمُطْمَئِنُّ الرَّاسِخُ فِي الْإِيمَانِ يَحْزَنُ لِشُكُوكِ النَّاسِ وَتَشْكِيكِهِمْ فِي الدِّينِ ، وَالضَّعِيفُ غَيْرُ الْمُتَمَكِّنِ رُبَّمَا يَضْطَرِبُ وَيَتَزَلْزَلُ ؛ لِذَلِكَ بَدَأَ اللهُ بِإِخْبَارِ الْمُسْلِمِينَ بِمَا سَيَكُونُ بَعْدَ تَحْوِيلِ الْقِبْلَةِ مِنْ إِثَارَةِ رِيَاحِ الشُّبَهِ وَالتَّشْكِيكِ ، وَلَقَّنَهُمُ الْحُجَّةَ ، وَبَيَّنَ لَهُمْ مَا فِيهَا مِنَ الْحِكْمَةِ ،

وَبَيَّنَ لَهُمْ مَنْزِلَتَهُمْ مِنْ سَائِرِ الْأُمَمِ وَهِيَ أَنَّهُمْ أُمَّةٌ وَسَطٌ لَا تَغْلُو فِي شَيْءٍ ، وَلَا تَقِفُ عِنْدَ الظَّوَاهِرِ ،

(158/69)

وَأَنَّهُمْ شُهَدَاءُ عَلَى النَّاسِ وَحُجَّةٌ عَلَيْهِمْ ; بِاعْتِدَالِهِمْ فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا ، وَفَهْمِهِمْ لِحَقَائِقِ الدِّينِ وَأَسْرَارِهِ ، وَمِنْ أَهَمِّهَا أَنَّ الْقِبْلَةَ الَّتِي يُتَوَجَّهُ إِلَيْهَا لَا شَأْنَ لَهَا فِي ذَاتِهَا ، وَإِنَّمَا الْعِبْرَةُ فِيهَا بِاجْتِمَاعِ أَهْلِ الْمِلَّةِ عَلَى جِهَةٍ وَاحِدَةٍ وَصِفَةٍ وَاحِدَةٍ عِنْدَ التَّوَجُّهِ إِلَى اللهِ تَعَالَى .

وَلَمَّا كَانَتْ نِسْبَةُ الْجِهَاتِ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَاحِدَةً – إِذْ لَا تَحْصُرُهُ وَلَا تَحُدُّهُ جِهَةٌ – كَانَ الْتِزَامُ الْجِهَةِ الْمُعَيَّنَةِ مِنْهَا لِغَيْرِ مُجَرَّدِ الِاتِّبَاعِ لِأَمْرِ الرَّسُولِ عَنِ اللهِ تَعَالَى مَيْلًا مَعَ الْهَوَى ، أَوْ تَخْصِيصًا بِغَيْرِ مُخَصِّصٍ ، وَكِلَاهُمَا مِمَّا لَا يَرْضَاهُ لِنَفْسِهِ الْعَاقِلُ الْمُعْتَدِلُ فِي أَمْرِهِ ، نَعَمْ إِنَّ لَهُ أَنْ يَسْأَلَ عَنْ حِكْمَةِ التَّحَوُّلِ وَالِانْتِقَالِ ، لَا سِيَّمَا بَعْدَمَا ثَبَتَ بِالْوَاقِعِ أَنَّ الرَّسُولَ الَّذِي أُمِرَ بِهِ لَمْ يَأْمُرْ إِلَّا بِمَا ظَهَرَتْ فَائِدَتُهُ وَمَنْفَعَتُهُ لِلْمُمْتَثِلِينَ لَهُ مِنْ إِصْلَاحِ النُّفُوسِ وَحَمْلِهَا عَلَى الْخَيْرِ وَتَوْجِيهِهَا إِلَى الْبِرِّ ، مِمَّا دَلَّ عَلَيْهِ أَنَّهُ مُؤَيَّدٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى .

(159/69)

وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ أَنَّ إِعْلَامَ اللهِ رَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ بِمَا سَيَكُونُ مِنَ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَتَلْقِينَهُ إِيَّاهُمُ الْحُجَّةَ ، وَإِنْزَالَهُمْ مَنْزِلَةَ الشُّهَدَاءِ وَالْمُحَكَّمِينَ ، ثُمَّ تَبْيِينَهُ لَهُمْ حِكْمَةَ التَّحْوِيلِ ، كَانَ مُؤَيِّدًا وَمُسَدِّدًا لَهُمْ ، وَنُورًا يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ فِي ظُلْمَةِ تِلْكَ الْفِتْنَةِ الْمُدْلَهِمَّةِ ، وَلَعَمْرِي إِنَّ هَذِهِ هِيَ الْبَلَاغَةُ الَّتِي لَا غَايَةَ وَرَاءَهَا ؛ إِعْلَامٌ بِمَا سَيَكُونُ مِنَ اضْطِرَابِ السُّفَهَاءِ فِي أَقْوَالِهِمْ ، أُشِيرَ إِلَيْهِ بِالِاسْتِفْهَامِ مُجْمَلًا ، وَلَمْ يُذْكَرْ مَعَهُ وَجْهُ الشُّبْهَةِ حَتَّى لَا تَسْبِقَ إِلَى النُّفُوسِ ، وَالْغَرَضُ إِقَامَةُ الْمَوَانِعِ مِنْ تَأْثِيرِهَا عِنْدَ وُرُودِهَا مِنْ أَرْبَابِهَا ، وَاخْتِصَارٌ لِلْبُرْهَانِ بِبَيَانِ أَنَّ الْمَشْرِقَ وَالْمَغْرِبَ كَسَائِرِ الْجِهَاتِ لِلَّهِ تَعَالَى ؛ أَيْ : يُخَصِّصُ مِنْهَا مَا يَشَاءُ فَيَجْعَلُهُ قِبْلَةً لِمَنْ يَشَاءُ ، وَبَيَانٌ لِمَكَانَةِ الْأُمَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ الَّتِي أُعْطِيَتْ كُلَّ أَصْلٍ دِينِيٍّ بِدَلِيلِهِ وَحِكْمَتِهِ ، وَكُلِّفَتِ الْعَدْلَ وَالِاعْتِدَالَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ ؛ أَيْ : فَلَا يَلِيقُ بِهَا أَنْ تُبَالِيَ بِانْتِقَادِ السُّفَهَاءِ الْمُذْبَذَبِينَ بَيْنَ الْإِفْرَاطِ وَالتَّفْرِيطِ .

(وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ) أَيْ : وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ فِيمَا مَضَى هِيَ الْجِهَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَى الْيَوْمِ ثُمَّ أَمَرْنَاكَ بِالتَّحَوُّلِ عَنْهَا

إِلَى الْكَعْبَةِ إِلَّا لِيَتَبَيَّنَ لَكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ الثَّابِتَ عَلَى إِيمَانِهِ مِمَّنْ لَا ثَبَاتَ لَهُ ، فَتَعْلَمُوا الْمُتَّبِعَ لِلرَّسُولِ مِنَ الْمُنْقَلِبِ عَلَى عَقِبَيْهِ ، بِرُجُوعِهِ إِلَى الْكُفْرِ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ ، أَوْ إِلَّا لِيَكُونَ عِلْمُنَا الْغَيْبِيُّ بِحَقِيقَةِ أَمْرِهِمَا وَمَآلِهِمَا عِلْمَ شَهَادَةٍ بِوُقُوعِ مُتَعَلَّقِهِ ، وَهُوَ الَّذِي يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ الْجَزَاءُ ؛ أَيْ : إِنَّ اللهَ تَعَالَى يَخْتَبِرُ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا يَظْهَرُ بِهِ صِدْقُ الصَّادِقِينَ ، وَرَيْبُ الْمُرْتَابِينَ ، وَعَاقِبَةُ الْمُنَافِقِينَ ؛ لِيُرَتِّبَ عَلَيْهِ الْجَزَاءَ ، وَإِنَّمَا يَثْبُتُ مَنْ فَقِهَ فِي الشَّيْءِ فَعَرَفَ سِرَّهُ وَحِكْمَتَهُ ، وَأَمَّا الْمُقَلِّدُ الْآخِذُ بِالظَّوَاهِرِ مِنْ غَيْرِ فِقْهٍ وَلَا عِرْفَانٍ ، وَالْمُنَافِقُ غَيْرُ الْمُطْمَئِنِّ بِالْإِيمَانِ فَلَا يَثْبُتَانِ فِي مَهَابِّ عَوَاصِفِ الشُّكُوكِ وَالشُّبُهَاتِ .

(161/69)

وَقَالَ مُفَسِّرُنَا (الْجَلَالُ) : وَمَا صَيَّرْنَا الْقِبْلَةَ لَكَ الْآنَ الْجِهَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا أَوَّلًا وَهِيَ الْكَعْبَةُ إِلَخْ ، وَهُوَ مَبْنِيٌّ عَلَى قَوْلِ الْأَقَلِّينَ : إِنَّ النَّبِيَّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – كَانَ يُصَلِّي أَوَّلًا إِلَى الْكَعْبَةِ ثُمَّ أُمِرَ بِالصَّلَاةِ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ ، فَيَكُونُ النَّسْخُ قَدْ حَصَلَ مَرَّتَيْنِ ، وَالْأَكْثَرُونَ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالْقِبْلَةِ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا بَيْتُ الْمَقْدِسِ .

قَالَ بَعْضُ الْمُحَقِّقِينَ : إِنَّ هَذِهِ الْجُمْلَةَ مِنْ قَبِيلِ (وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ) (17 : 60) فَالرُّؤْيَا لَمْ تَكُنْ بِنَفْسِهَا فِتْنَةً وَإِنَّمَا افْتَتَنَ النَّاسُ إِذْ أُخْبِرُوا بِهَا وَلَمْ يَفْقَهُوا

الْمُرَادَ مِنْهَا ، كَذَلِكَ الْقِبْلَةُ ، لَيْسَ فِي جَعْلِ جِهَةٍ كَذَا قِبْلَةً فِتْنَةٌ وَاخْتِبَارٌ لِلنَّاسِ ، وَإِنَّمَا الْفِتْنَةُ فِيمَا تَرَتَّبَ عَلَى ذَلِكَ مِنْ حَيْثُ كَوْنُهُ صَرْفًا عَنْ قِبْلَةٍ إِلَى غَيْرِهَا . فَالسُّفَهَاءُ وَالْجُهَّالُ الَّذِينَ لَا يَفْقَهُونَ يُنْكِرُونَ هَذَا التَّحْوِيلَ وَيَرَوْنَهُ أَمْرًا إِدًّا ، وَالَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ إِلَى فِقْهِ ذَلِكَ يَرَوْنَهُ أَمْرًا حَكِيمًا جِدًّا ; وَلِذَلِكَ قَالَ تَعَالَى : (وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللهُ) فَمَنَحَهُمُ الِاعْتِدَالَ فِي الْفِكْرِ ، وَالْإِدْرَاكَ فِي الْمَيْلِ وَالرَّغْبَةِ . قَالَهُ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ .

(162/69)

ثُمَّ قَالَ : مَا مِثَالُهُ – مُوَضِّحًا قَوْلَهُ تَعَالَى : (لِنَعْلَمَ) – مَعْهُودٌ فِي الْقُرْآنِ كَثِيرًا ، وَمِثْلُهُ : (لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ) (72 : 28) وَقَوْلُهُ : (لِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَخَافُهُ) (5 : 94) وَالْعَقْلُ وَالنَّقْلُ مُتَّفِقَانِ عَلَى أَنَّ عِلْمَهُ تَعَالَى قَدِيمٌ لَا يَتَجَدَّدُ ، وَلِلْمُفَسِّرِينَ فِي هَذِهِ الْأَلْفَاظِ أَقْوَالٌ ذَكَرَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ أَظْهَرَهَا ، فَقَالَ مَا مِثَالُهُ : جَرَتْ عَادَةُ الْعَرَبِ فِي لُغَتِهَا أَنْ تَنْسِبَ إِلَى الرَّئِيسِ وَالْكَبِيرِ مَا يَحْدُثُ بِأَمْرِهِ

(163/69)

وَتَدْبِيرِهِ ، يَقُولُونَ : فَتَحَ الْأَمِيرُ الْبَلَدَ وَقَاتَلَ الْجَيْشَ ، وَكَثِيرًا مَا يَقُولُونَ هَذَا وَالْأَمِيرُ لَيْسَ وَاحِدًا مِنَ الْعَامِلِينَ ، فَهُوَ أُسْلُوبٌ مَعْهُودٌ إِذَا أُرِيدَ إِسْنَادُ الْفِعْلِ إِلَى الْجُمْهُورِ أَسْنَدُوهُ إِلَى الْمُقَدَّمِ فِيهِمْ ، وَلَمَّا كَانَ اللهُ تَعَالَى وَلِيَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَخَاطَبَهُمْ خِطَابَ السَّيِّدِ ؛ صَحَّ بِحَسَبِ هَذَا الْأُسْلُوبِ الْعَرَبِيِّ أَنْ يُذْكَرَ الْفِعْلُ بِصِيغَةِ الْجَمْعِ الَّتِي تَشْمَلُ الْمُتَكَلِّمَ وَغَيْرَهُ ، وَإِنْ كَانَ غَيْرُهُ هُوَ الْمَقْصُودُ بِالْفِعْلِ ، فَمَعْنَى (إِلَّا لِنَعْلَمَ) إِلَّا لِيَعْلَمَ عِبَادِي الْمُؤْمِنُونَ بِإِعْلَامِي إِيَّاهُمْ .

وَقَدْ عَلِمَ الْمُؤْمِنُونَ فِي هَذِهِ الْفِتْنَةِ مَنْ هُوَ الثَّابِتُ عَلَى اتِّبَاعِ الرَّسُولِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَمَنْ هُوَ الْمُنَافِقُ الَّذِي قَلَبَتْهُ رِيحُ الشُّبْهَةِ عَلَى عَقِبَيْهِ ، وَكَانَ الْمُنَافِقُونَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ بِحَيْثُ لَا يُمَازُ أَحَدُهُمْ مِنَ الْآخَرِ ؛ لِقِيَامِهِمْ جَمِيعًا بِأَدَاءِ الْأَعْمَالِ الظَّاهِرَةِ الْمَطْلُوبَةِ . وَهَكَذَا كَانَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُمَحِّصُ مَا فِي الْقُلُوبِ بِمَا يَبْتَلِي بِهِ النَّاسَ مِنَ الْفِتَنِ (أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ) (29 : 2 ، 3) وَعَلَى هَذَا الْأُسْلُوبِ جَاءَ مَا رُوِيَ فِي الْحَدِيثِ الْقُدُسِيِّ : (يَا عَبْدِي مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي ، وَجُعْتُ فَلَمْ تُطْعِمْنِي ، وَعَطِشْتُ فَلَمْ تَسْقِنِي) خَرَّجُوهُ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ مَرَضُ عِبَادِي

الْفُقَرَاءُ الَّذِينَ هُمْ عِيَالُ اللهِ فَلَمْ تَعُدْهُمْ إِلَخْ .

نَعَمْ إِنَّ الرِّوَايَةَ غَيْرُ صَحِيحَةٍ وَلَكِنْ لَمْ يَفْهَمْ أَحَدٌ مِنْهَا أَنَّهَا عَلَى ظَاهِرِهَا ; لِقَطْعِ الْعَقْلِ بِأَنَّ هَذَا مُحَالٌ ، وَلِقَوْلِهِ تَعَالَى : (مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ) (51 : 57) وَقَالَتِ الْعَرَبُ : إِنِّي جَائِعٌ فِي بَطْنِ غَيْرِي ، وَعُرْيَانٌ فِي ظَهْرِ غَيْرِي ، وَيَدْخُلُ فِي هَذَا الْأُسْلُوبِ أَيْضًا مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى : (مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا) أَيْ : يُعْطِي عِبَادَهُ الْمُحْتَاجِينَ ، وَاللهُ يُكَافِئُهُ عَنْهُمْ إِذْ كَانُوا عَاجِزِينَ .

(165/69)

وَثَمَّ وَجْهٌ آخَرُ فِي تَفْسِيرِ (لِنَعْلَمَ) وَهُوَ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْعِلْمِ فِي مِثْلِ هَذَا عِلْمُ الظُّهُورِ وَالْوُقُوعِ ، وَذَلِكَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى يَعْلَمُ الْأَشْيَاءَ قَبْلَ وُقُوعِهَا أَنَّهَا سَتَقَعُ لَا أَنَّهَا وَاقِعَةٌ ، وَيَعْلَمُهَا بَعْدَ وُقُوعِهَا أَنَّهَا وَقَعَتْ ، وَالْجَزَاءُ يَتَرَتَّبُ عَلَى مَا وَقَعَ بِالْفِعْلِ ، فَقَوْلُهُ هُنَا : (لِنَعْلَمَ) يُرَادُ الثَّانِي ; أَيْ : لِنَعْلَمَ عِلْمَ وُقُوعٍ وَوُجُودٍ يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ ، وَلَيْسَ مَعْنَاهُ أَنَّهُ تَجَدَّدَ لَهُ عِلْمٌ لَمْ يَكُنْ ، وَإِنَّمَا التَّجَدُّدُ فِي الْمَعْلُومِ لَا فِي نَفْسِ الْعِلْمِ ; أَيْ : إِنَّ الْمَعْلُومَ لَمْ يَكُنْ مَوْجُودًا ثُمَّ وُجِدَ وَظَهَرَ ، كَأَنَّهُ قَالَ : وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ جِهَةَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ إِلَّا لِنُحَوِّلَهَا وَنَمْتَحِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِالتَّحْوِيلِ لِيَظْهَرَ مَا ثَبَتَ فِي الْعِلْمِ الْقَدِيمِ مِنِ اتِّبَاعِ بَعْضِ النَّاسِ لِلرَّسُولِ وَاسْتِقَامَتِهِمْ عَلَى هِدَايَتِهِ ،

وَانْقِلَاب بَعْضِهِمْ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِظْهَارِهِ مَا أَكَنَّهُ فِي نَفْسِهِ مِنَ الرَّيْبِ ، وَبِذَلِكَ يَمْتَازُ الْمُهْتَدُونَ مِنَ الضَّالِّينَ ، وَتَقُومُ الْحُجَّةُ لِلْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ ، وَمَعْنَى الِانْقِلَابِ عَلَى الْعَقِبَيْنِ : هُوَ الِانْصِرَافُ عَنِ الشَّيْءِ بِالرُّجُوعِ إِلَى الْوَرَاءِ وَهُوَ طَرِيقُ الْعَقِبَيْنِ ، فَالْمُنْقَلِبُونَ قَدْ خَرَجُوا مِنْ عِدَادِ الْمُؤْمِنِينَ وَعَادُوا إِلَى

(166/69)

مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ . وَيُقَالُ : رَجَعَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَنَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ ، وَأَبْلَغُهَا : انْقَلَبَ عَلَى عَقِبَيْهِ لِمَا فِيهَا مِنَ الْإِشْعَارِ بِأَنَّهُ رَجَعَ عَنْ خَيْرٍ إِلَى شَرٍّ ، أَوْ مِنْ سُوءٍ إِلَى أَسْوَأَ .

قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : وَمِنْ قَبِيلِ اسْتِعْمَالِ الْعِلْمِ فِي مُتَعَلَّقِهِ وَمَا يَصْدُقُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى : (قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي) (18 : 109) الْآيَةَ ، وَقَوْلُهُ : (وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ) (31 : 27) فَالْمُرَادُ مِنَ الْكَلِمَاتِ هُنَا : الْمَوْجُودَاتُ كُلُّهَا ، عَبَّرَ عَنْهَا بِذَلِكَ ; لِأَنَّ كُلَّ مَوْجُودٍ مِنْهَا وُجِدَ بِكَلِمَةِ اللهِ (كُنْ) ا هـ .

أَقُولُ : وَالْمُخْتَارُ عِنْدِي التَّعْبِيرُ عَنْ عِلْمِهِ تَعَالَى بِالشَّيْءِ قَبْلَ وُجُودِهِ بِعِلْمِ الْغَيْبِ ، وَبَعْدَ وُجُودِهِ بِعِلْمِ الشَّهَادَةِ كَمَا قُلْتُ آنِفًا ، وَأَنَّ كَلِمَاتِ اللهِ فِي الْآيَتَيْنِ الْأَخِيرَتَيْنِ كَلِمَاتُ التَّكْوِينِ

أَنْفُسُهَا لَا مُتَعَلَّقَاتُهَا الَّتِي هِيَ الْمَوْجُودَاتُ ، فَعِلْمُ اللهِ قِسْمَانِ : غَيْبٌ وَشَهَادَةٌ ، وَكَلِمَاتُهُ قِسْمَانِ : تَشْرِيعٌ وَتَكْوِينٌ .

(167/69)

ثُمَّ قَالَ جَلَّ شَأْنُهُ : (وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً) أَيْ : وَإِنَّ الْقِبْلَةَ أَوْ قِصَّتَهَا فِي نَسْخِهَا وَالتَّحَوُّلِ عَنْهَا لَكَبِيرَةُ الشَّأْنِ شَدِيدَةُ الْوَقْعِ فِيمَا كَانَ مِنْ أَمْرِ النَّاسِ ، أَوْ مَا كَانَتْ إِلَّا كَبِيرَةً يَشُقُّ التَّحَوُّلُ عَنْهَا (إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللهُ) أَيْ : هَدَاهُمْ إِلَى الْمَعْرِفَةِ بِهِ وَالْعِلْمِ بِحِكَمِ شَرْعِهِ ، فَعَقَلُوا أَنَّ التَّعَبُّدَ بِهَا إِنَّمَا يَكُونُ بِطَاعَةِ اللهِ بِهَا لَا بِسِرٍّ فِي ذَاتِهَا أَوْ مَكَانِهَا ، وَأَنَّ حِكْمَتَهَا اجْتِمَاعُ الْأُمَّةِ عَلَيْهَا الَّذِي هُوَ مِنْ أَسْبَابِ اتِّحَادِهِمْ وَجَمْعِ كَلِمَتِهِمْ .

(168/69)

(وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ) أَقُولُ : أَيْ وَمَا كَانَ مِنْ شَأْنِ اللهِ فِي حِكْمَتِهِ وَرَحْمَتِهِ أَنْ يُضِيعَ إِيمَانَكُمُ الْبَاعِثَ لَكُمْ عَلَى اتِّبَاعِ الرَّسُولِ فِي الصَّلَاةِ وَالْقِبْلَةِ ، فَلَوْ كَانَ نَسْخُ الْقِبْلَةِ مِمَّا يُضِيعُ الْإِيمَانَ بِنَقْضِهِ أَوْ نَقْصِهِ أَوْ فَوْتِ ثَوَابِ مَا كَانَ قَبْلَهُ لَمَا نَسَخَهَا . أَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ وَمِنْهُمْ

(الْجَلَالُ) عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالْإِيمَانِ هُنَا الصَّلَاةُ ، إذْ وَرَدَ أَنَّ بَعْضَ الْمُؤْمِنِينَ أَحَبُّوا أَنْ يَعْرِفُوا حَالَ صَلَاتِهِمْ قَبْلَ التَّحْوِيلِ أَوْ صَلَاةَ مَنْ مَاتَ وَلَمْ يُصَلِّ إلَى الْكَعْبَةِ ، فَأَرَادَ اللَّهُ أَنْ يُبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ يَتَقَبَّلُ مِنَ الصَّلَاةِ مَا كَانَ أَثَرَ الْإِيمَانِ الْخَالِصِ ؛ أَيْ : مَتَى كُنْتُمْ تُصَلُّونَ إيمَانًا وَاحْتِسَابًا لَا رِيَاءً وَلَا سُمْعَةً ، فَصَلَاتُكُمْ مَقْبُولَةٌ ؛ لِأَنَّهَا أَثَرُ الْإِيمَانِ الرَّاسِخِ فِي الْقَلْبِ الْمُصْلِحِ لِلنَّفْسِ ، فَتَسْمِيَةُ الصَّلَاةِ عَلَى هَذَا إيمَانًا لَيْسَ لِأَنَّهَا أَعْظَمُ أَرْكَانِ الدِّينِ ، بَلْ لِلْإِشَارَةِ إلَى أَنَّ مَزِيَّتَهَا فِي مَنْشَئِهَا الْبَاعِثِ عَلَيْهَا مِنَ الْإِيمَانِ وَالْإِخْلَاصِ ، وَلِذَلِكَ يُقْرَنُ الْإِيمَانُ دَائِمًا بِذِكْرِ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ ، فَالصَّلَاةُ آيَةُ الْإِيمَانِ الْقَلْبِيَّةِ الْخَفِيَّةِ ؛ لِأَنَّهَا لَا تَكُونُ آيَةً إلَّا بِإِخْلَاصِ الْقَلْبِ ، وَالزَّكَاةُ هِيَ الدَّلِيلُ الْحِسِّيُّ الظَّاهِرُ عَلَيْهِ ، وَقَدْ يَغُشُّ الْجَاهِلُ نَفْسَهُ بِالصَّلَاةِ فَيَتَوَهَّمُ أَنَّهُ أَقَامَهَا كَمَا أَمَرَ اللَّهُ إذَا أَدَّى هَذِهِ الْأَعْمَالَ الظَّاهِرَةَ الَّتِي هِيَ صُورَتُهَا وَإِنْ كَانَتْ هَذِهِ

الصُّورَةُ خَالِيَةً مِنْ رُوحِ الْإِخْلَاصِ وَالتَّوَجُّهِ الْقَلْبِيِّ إلَى اللَّهِ تَعَالَى ، وَلَكِنَّ الزَّكَاةَ آيَةٌ حِسِّيَّةٌ عَلَى الْإِيمَانِ لَا يَقْدِرُ أَنْ يَغُشَّ نَفْسَهُ بِهَا إنْسَانٌ ، فَلْيُحَاسِبْ كُلُّ مُؤْمِنٍ بِاَللَّهِ وَكِتَابِهِ نَفْسَهُ .

وَقَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : إنَّ سِيَاقَ الْآيَةِ بَلِ الْآيَاتِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْإِيمَانَ هُنَا مُسْتَعْمَلٌ فِي مَعْنَاهُ ،

فَإِنَّهُ لَمَّا بَيَّنَ أَمْرَ الْفِتْنَةِ فِي تَحْوِيلِ الْقِبْلَةِ وَبَيَّنَ أَنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَنْقَلِبُ إِلَى الْكُفْرِ وَيَتْرُكُ الْإِيمَانَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَثْبُتُ عَلَى إِيمَانِهِ عَالِمًا أَنَّ الِاعْتِقَادَ فِي مِثْلِ مَسْأَلَةِ الْقِبْلَةِ عَلَى اتِّبَاعِ الرَّسُولِ ؛ لِأَنَّ الْجِهَاتِ فِي نَفْسِهَا مُتَسَاوِيَةٌ لَا فَضْلَ لِجِهَةٍ مِنْهَا عَلَى جِهَةٍ ،

(170/69)

بَشَّرَ هَؤُلَاءِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّبِعِينَ بِأَنَّهُمْ يُجْزَوْنَ عَلَى إِيمَانِهِمُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى ، فَلَا يُضِيعُ اللهُ أَجْرَهُمْ ، وَلَا يَلِتُهُمْ مِنْ ثَبَاتِهِمْ عَلَى اتِّبَاعِ الرَّسُولِ شَيْئًا . وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ الْإِمَامُ ظَاهِرٌ لِكُلِّ مَنْ يَفْهَمُ هَذَا السِّيَاقَ الْعَجِيبَ ، وَمِنْ عَجِيبِ شَأْنِ رُوَاةِ أَسْبَابِ النُّزُولِ أَنَّهُمْ يُمَزِّقُونَ الطَّائِفَةَ الْمُلْتَئِمَةَ مِنَ الْكَلَامِ الْإِلَهِيِّ وَيَجْعَلُونَ الْقُرْآنَ عِضِينَ مُتَفَرِّقَةً ، بِمَا يُفَكِّكُونَ الْآيَاتِ وَيَفْصِلُونَ بَعْضَهَا مِنْ بَعْضٍ ، وَبِمَا يَفْصِلُونَ بَيْنَ الْجُمَلِ الْمُوثَقَةِ فِي الْآيَةِ الْوَاحِدَةِ فَيَجْعَلُونَ لِكُلِّ جُمْلَةٍ سَبَبًا مُسْتَقِلًّا ، كَمَا يَجْعَلُونَ لِكُلِّ آيَةٍ مِنَ الْآيَاتِ الْوَارِدَةِ فِي مَسْأَلَةٍ وَاحِدَةٍ سَبَبًا مُسْتَقِلًّا ، انْظُرْ هَذِهِ الْآيَاتِ تَجِدْ إِعْجَازَهَا فِي بَلَاغَةِ الْأُسْلُوبِ أَنْ مَهَّدَتْ لِلْأَمْرِ بِتَحْوِيلِ الْقِبْلَةِ مَا يُشْعِرُ بِهِ فِي ضِمْنِ حِكَايَةِ شُبْهَةِ الْمُعْتَرِضِينَ الَّتِي سَتَقَعُ مِنْهُمْ ، وَبِتَوْهِينِ هَذِهِ الشُّبْهَةِ بِإِسْنَادِهَا إِلَى السُّفَهَاءِ مِنَ النَّاسِ وَإِيرَادِهَا مُجْمَلَةً ، وَبِوَصْلِهَا بِالدَّلِيلِ عَلَى فَسَادِهَا ، وَبِذِكْرِ هِدَايَةِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ الَّذِي لَا الْتِوَاءَ فِيهِ وَلَا اعْوِجَاجَ ، وَلَا تَفْرِيطَ عِنْدَ سَالِكِيهِ وَلَا إِفْرَاطَ ، وَبِذِكْرِ مَكَانَةِ هَذِهِ

الْأُمَّةِ بِدِينِهَا ، وَاعْتِدَالِهَا فِي جَمِيعِ أَمْرِهَا ، وَبَيَانِ الْحِكْمَةِ فِي جَعْلِ الْقِبْلَةِ الْأُولَى قِبْلَةً ثُمَّ التَّحْوِيلِ عَنْهَا ، وَبِالتَّلَطُّفِ فِي الْإِخْبَارِ عَمَّا سَيَكُونُ مِنَ ارْتِدَادِ بَعْضِ مَنْ يَدَّعُونَ

(171/69)

الْإِيمَانَ عَنْ دِينِهِمُ افْتِتَانًا بِالتَّحْوِيلِ وَجَهْلًا بِالْأَمْرِ ، إِذْ أَوْرَدَ الْخَبَرَ فِي سِيَاقِ بَيَانِ الْحِكْمَةِ حَتَّى لَا يَعْظُمَ وَقْعُهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُؤْمِنِينَ ، وَبَيَانِ أَنَّ الْمَسْأَلَةَ كَبِيرَةٌ عَلَى غَيْرِ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِمْ بِالْهِدَايَةِ الْإِلَهِيَّةِ الَّتِي سَبَقَ ذِكْرُهَا ، وَهِيَ الْإِيمَانُ الْكَامِلُ بِمَعْرِفَةِ دَلَائِلِ الْمَسَائِلِ وَحِكَمِ الْأَحْكَامِ ، ثُمَّ بِتَبْشِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُهْتَدِينَ الثَّابِتِينَ عَلَى اتِّبَاعِ الرَّسُولِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بِإِثَابَةِ اللهِ إِيَّاهُمْ بِرَأْفَتِهِ وَرَحْمَتِهِ وَفَضْلِهِ وَإِحْسَانِهِ .

وَبَعْدَ هَذَا كُلِّهِ أَمَرَهُ بِالتَّحَوُّلِ أَمْرًا صَرِيحًا كَمَا سَيَأْتِي فِي تَفْسِيرِ بَقِيَّةِ الْآيَاتِ . أَفَيَصِحُّ فِي مِثْلِ هَذَا السِّيَاقِ الْمُوثَقِ بَعْضُ جُمَلِهِ وَآيَاتِهِ بِبَعْضٍ أَنْ نَفُكَّ وَثَقَهُ وَيُجْعَلَ نُتَفًا نُتَفًا ، وَيُقَالُ : إِنَّ كُلَّ جُمْلَةٍ مِنْهُ نَزَلَتْ لِحَادِثَةٍ حَدَثَتْ ، أَوْ كَلِمَةٍ قِيلَتْ ، وَإِنْ أَدَّى ذَلِكَ إِلَى قَلْبِ الْوَضْعِ ، وَجَعْلِ الْأَوَّلِ آخِرًا وَالْآخِرِ أَوَّلًا ، وَجَعْلِ آيَاتِ التَّمْهِيدِ مُتَأَخِّرَةً فِي النُّزُولِ عَنْ آيَاتِ الْمَقْصِدِ ؟ أَتَسْمَحُ لَنَا اللُّغَةُ وَالدِّينُ بِأَنْ نَجْعَلَ الْقُرْآنَ عِضِينَ ؛ لِأَجْلِ رِوَايَاتٍ رُوِيَتْ وَإِنْ قِيلَ : إِنَّ

إِسْنَادَ بَعْضِهَا قَوِيٌّ بِحَسَبِ مَا عُرِفَ مِنْ تَارِيخِ الرَّاوِينَ ؟ ! (إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ)
هَذِهِ الْجُمْلَةُ اسْتِئْنَافٌ لِبَيَانِ عِلَّةِ النَّفْيِ فِي الَّتِي

(172/69)

قَبْلَهَا ، وَإِنَّ تَوْفِيَةَ الْمُؤْمِنِ الْمُخْلِصِ أَجْرَهُ هِيَ مِنْ آثَارِ رَأْفَتِهِ وَرَحْمَتِهِ سُبْحَانَهُ ، فَلَا يُخْشَى أَنْ تَتَخَلَّفَ وَأَنْ يَضِيعَ أَجْرُ الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ . قَالَ (الْجَلَالُ) : وَالرَّأْفَةُ شِدَّةُ الرَّحْمَةِ ، وَقَدَّمَ الْأَبْلَغَ
لِلْفَاصِلَةِ ، وَأَنْكَرَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ هَذَا الْقَوْلَ أَشَدَّ الْإِنْكَارِ وَيُنْكِرُ مِثْلَهُ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ ، فَيَقُولُ : إِنَّ كُلَّ كَلِمَةٍ فِي الْقُرْآنِ مَوْضُوعَةٌ فِي مَوْضِعِهَا اللَّائِقِ بِهَا فَلَيْسَ فِيهِ كَلِمَةٌ تَقَدَّمَتْ وَلَا كَلِمَةٌ تَأَخَّرَتْ لِأَجْلِ الْفَاصِلَةِ ؛ لِأَنَّ الْقَوْلَ بِرِعَايَةِ الْفَوَاصِلِ إِثْبَاتٌ لِلضَّرُورَةِ ، كَمَا قَالُوا فِي كَثِيرٍ مِنَ السَّجْعِ وَالشِّعْرِ : إِنَّهُ قَدَّمَ كَذَا وَأَخَّرَ كَذَا لِأَجْلِ السَّجْعِ وَلِأَجْلِ الْقَافِيَةِ . وَالْقُرْآنُ لَيْسَ بِشِعْرٍ ، وَلَا الْتِزَامَ فِيهِ لِلسَّجْعِ ، وَهُوَ مِنَ اللهِ الَّذِي لَا تَعْرِضُ لَهُ الضَّرُورَةُ ، بَلْ هُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ الَّذِي يَضَعُ كُلَّ شَيْءٍ فِي مَوْضِعِهِ . وَمَا قَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ مِثْلَ هَذَا الْقَوْلِ إِلَّا لِتَأَثُّرِهِمْ بِقَوَانِينِ فُنُونِ الْبَلَاغَةِ وَغَلَبَتِهَا عَلَيْهِمْ فِي تَوْجِيهِ الْكَلَامِ ، مَعَ الْغَفْلَةِ فِي هَذِهِ

النُّقْطَةِ عَنْ مَكَانَةِ الْقُرْآنِ فِي ذَاتِهِ ، وَعَدَمِ الِالْتِفَاتِ إِلَى مَا لِكُلِّ كَلِمَةٍ فِي مَكَانِهَا مِنَ التَّأْثِيرِ الْخَاصِّ عِنْدَ أَهْلِ الذَّوْقِ الْعَرَبِيِّ اهـ .

(173/69)

(وَأَقُولُ) إِنَّ الْمَسْأَلَةَ خِلَافِيَّةٌ ، وَالتَّحْقِيقُ أَنَّ الْفَوَاصِلَ مُلْتَزَمَةٌ فِي الْقُرْآنِ لَكِنْ بِغَيْرِ أَدْنَى ضَرُورَةٍ ، وَلَا مَا يُمْكِنُ أَنْ يُوصَفَ بِأَنَّهُ تَكَلُّفٌ بِتَرْجِيحِ اللَّفْظِ عَلَى بَلَاغَةِ الْمَعْنَى ، وَإِنَّمَا هُوَ كَقَوْلِهِ : (وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ) 7 : 128 وَقَوْلِهِ : (وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى) (20 : 132) .

(ثُمَّ قَالَ) : وَعِنْدِي أَنَّ الرَّأْفَةَ أَثَرٌ مِنْ آثَارِ الرَّحْمَةِ وَالرَّحْمَةُ أَعَمُّ ، فَإِنَّ الرَّأْفَةَ لَا تُسْتَعْمَلُ إِلَّا فِي حَقِّ مَنْ وَقَعَ فِي بَلَاءٍ ، وَالرَّحْمَةُ تَشْمَلُ دَفْعَ الْأَلَمِ وَالضُّرِّ وَتَشْمَلُ الْإِحْسَانَ وَزِيَادَةَ الْإِحْسَانِ ، فَذِكْرُ الرَّحْمَةِ هُنَا فِيهِ مَعْنَى التَّعْلِيلِ وَالسَّبَبِيَّةِ وَهُوَ مِنْ قَبِيلِ الدَّلِيلِ بَعْدَ الدَّعْوَى ، فَهُوَ وَاقِعٌ فِي مَوْقِعِهِ كَمَا تُحِبُّ الْبَلَاغَةُ وَتَرْضَى ، كَأَنَّهُ قَالَ : إِنَّ اللهَ رَءُوفٌ بِالنَّاسِ ; لِأَنَّهُ ذُو الرَّحْمَةِ الْوَاسِعَةِ فَلَا يُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْهُمْ ، وَلَا يَبْتَلِيهِمْ بِمَا يُظْهِرُ صِدْقَ إِيمَانِهِمْ وَإِخْلَاصِهِمْ فِي اتِّبَاعِ رَسُولِهِ لِيُضِيعَ عَلَيْهِمْ هَذَا الْإِيمَانَ وَالْإِخْلَاصَ ، بَلْ لِيَجْزِيَهُمْ عَلَيْهِ أَحْسَنَ الْجَزَاءِ .

وَإِذَا كَانَ أَثَرُ الرَّأْفَةِ دَفْعَ الْبَلَاءِ كَمَا قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ فَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ذِكْرُ الرَّحْمَةِ بَعْدَهَا

إِيمَاءً إِلَى أَنَّهُ لَا يَكْتَفِي تَعَالَى بِدَفْعِ الْبَلَاءِ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ بِرَأْفَتِهِ ، بَلْ يُعَامِلُهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ بِالرَّحْمَةِ الْوَاسِعَةِ وَالْإِحْسَانِ الشَّامِلِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ .

(174/69)

ثُمَّ إِنَّ الْمُفَسِّرِينَ قَدْ بَيَّنُوا أَنَّ كُلًّا مِنَ الرَّأْفَةِ وَالرَّحْمَةِ فِي الْإِنْسَانِ انْفِعَالٌ فِي النَّفْسِ أَثَرُهُ مَا ذُكِرَ آنِفًا مِنَ الْإِحْسَانِ وَدَفْعِ الضُّرِّ ، وَالِانْفِعَالُ مُحَالٌ عَلَى اللهِ تَعَالَى ، فَتُفَسَّرُ هَذِهِ الْأَلْفَاظُ إِذَا وُصِفَ بِهَا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِآثَارِهَا وَغَايَاتِهَا الَّتِي هِيَ أَفْعَالٌ ، وَهَذَا مِنْ تَأْوِيلِ الْمُتَكَلِّمِينَ الْمُخَالِفِ لِمَذْهَبِ السَّلَفِ ، وَتَقَدَّمَ شَرْحُ هَذَا الْمَقَامِ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ (ص 64 ج 1) وَفِي مَوَاضِعَ أُخْرَى .

قَرَأَ الْحَرَمِيَّانِ وَابْنُ عَامِرٍ وَحَفْصٌ (الرَّءُوفُ) بِالْمَدِّ ، وَالْبَاقُونَ بِالْقَصْرِ .

(قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ

الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ) .

(175/69)

قَالُوا : كَانَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يَتَشَوَّفُ لِتَحْوِيلِ الْقِبْلَةِ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَيَرْجُوهُ ، بَلْ قَالَ (الْجَلَالُ) : إِنَّهُ كَانَ يَنْتَظِرُهُ ; لِأَنَّ الْكَعْبَةَ قِبْلَةُ أَبِيهِ إِبْرَاهِيمَ ، وَالتَّوَجُّهُ إِلَيْهَا أَدْعَى إِلَى إِيمَانِ الْعَرَبِ ; أَيْ : وَعَلَى الْعَرَبِ الْمُعَوَّلُ فِي ظُهُورِ هَذَا الدِّينِ الْعَامِّ ; لِأَنَّهُمْ كَانُوا أَكْمَلَ اسْتِعْدَادًا لَهُ مِنْ جَمِيعِ الْأَنَامِ .

(176/69)

قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : وَلَا بُعْدَ فِي تَشَوُّفِهِ إِلَى قِبْلَةِ إِبْرَاهِيمَ ، وَقَدْ جَاءَ بِإِحْيَاءِ مِلَّتِهِ ، وَتَجْدِيدِ دَعْوَتِهِ ، وَلَا يُعَدُّ هَذَا مِنَ الرَّغْبَةِ عَنْ أَمْرِ اللهِ تَعَالَى إِلَى هَوَى نَفْسِهِ ، كَلَّا إِنَّ هَوَى الْأَنْبِيَاءِ لَا يَعْدُو أَمْرَ اللهِ تَعَالَى وَمُوَافَقَةَ رِضْوَانِهِ ، وَلَوْ كَانَ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ هَوًى وَرَغْبَةٌ فِي أَمْرٍ مُبَاحٍ مَثَلًا وَأَمَرَهُ اللهُ تَعَالَى بِخِلَافِهِ لَانْقَلَبَتْ رَغْبَتُهُ فِيهِ إِلَى الرَّغْبَةِ عَنْهُ إِلَى مَا أَمَرَ اللهُ تَعَالَى بِهِ وَرَضِيَهُ ;

بَلِ الْمَقَامُ أَدَقُّ وَالسِّرُّ أَخْفَى ، إِنَّ رُوحَ النَّبِيِّ مُنْطَوِيَةٌ عَلَى الدِّينِ فِي جُمْلَتِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَنْزِلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ بِتَفْصِيلِ مَسَائِلِهِ ، فَهِيَ تَشْعُرُ بِصِفَاتِهَا وَإِشْرَاقِهَا بِحَاجَةِ الْأُمَّةِ الَّتِي بُعِثَ فِيهَا شُعُورًا إِجْمَالِيًّا كُلِّيًّا ، لَا يَكَادُ يَتَجَلَّى فِي جُزْئِيَّاتِ الْمَسَائِلِ وَآحَادِ الْأَحْكَامِ إِلَّا عِنْدَ شِدَّةِ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا ، وَالِاسْتِعْدَادِ لِتَشْرِيعِهَا ، عِنْدَ ذَلِكَ يَتَوَجَّهُ قَلْبُ النَّبِيِّ إِلَى رَبِّهِ طَالِبًا بِلِسَانِ اسْتِعْدَادِهِ بَيَانَ مَا يَشْعُرُ بِهِ مُجْمَلًا ، وَإِيضَاحَ مَا يَلُوحُ لَهُ مُبْهَمًا ، فَيَنْزِلُ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِهِ ، وَيُخَاطِبُهُ بِلِسَانِ قَوْمِهِ عَنْ رَبِّهِ ، وَهَكَذَا الْوَحْيُ إِمْدَادٌ فِي مَوْطِنِ اسْتِعْدَادٍ لَا كَسْبَ فِيهِ لِلْعِبَادِ ، وَإِذَا كَانَ حُكْمٌ شُرِعَ لِسَبَبٍ مُؤَقَّتٍ وَزَمَنٍ فِي عِلْمِ اللهِ مُعَيَّنٍ ، فَإِنَّ رُوحَ النَّبِيِّ تَشْعُرُ بِذَلِكَ فِي الْجُمْلَةِ ،

(177/69)

فَإِذَا تَمَّ الْمِيقَاتُ ، وَأَزِفَ وَقْتُ الرُّقِيِّ إِلَى مَا هُوَ آتٍ وَجَدَتْ مِنَ الشُّعُورِ بِالْحَاجَةِ إِلَى النَّسْخِ مَا يُوَجِّهُهَا إِلَى الشَّارِعِ الْعَلِيمِ وَالدَّيَّانِ الْحَكِيمِ ، كَمَا كَانَ يَتَقَلَّبُ وَجْهُ نَبِيِّنَا فِي السَّمَاءِ تَشَوُّفًا إِلَى تَحْوِيلِ الْقِبْلَةِ ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : (قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ) أَيْ : إِنَّنَا نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ أَيُّهَا الرَّسُولُ وَتَرَدُّدَهُ الْمَرَّةَ بَعْدَ الْمَرَّةِ فِي السَّمَاءِ مَصْدَرِ الْوَحْيِ وَقِبْلَةِ الدُّعَاءِ ؛ انْتِظَارًا لِمَا تَرْجُوهُ مِنْ نُزُولِ الْأَمْرِ بِتَحْوِيلِ الْقِبْلَةِ .

فَسَّرَ بَعْضُهُمْ تَقَلُّبَ الْوَجْهِ بِالدُّعَاءِ ، وَحَقِيقَةُ الدُّعَاءِ هِيَ شُعُورُ الْقَلْبِ بِالْحَاجَةِ إِلَى عِنَايَةِ اللهِ تَعَالَى فِيمَا يَطْلُبُ ، وَصِدْقُ التَّوَجُّهِ إِلَيْهِ فِيمَا يَرْغَبُ ، وَلَا يَتَوَقَّفُ عَلَى تَحْرِيكِ اللِّسَانِ بِالْأَلْفَاظِ ، فَإِنَّ اللهَ يَنْظُرُ إِلَى الْقُلُوبِ وَمَا أَسَرَّتْ ، فَإِنْ وَافَقَتْهَا الْأَلْسِنَةُ فَهِيَ تَبَعٌ لَهَا ، وَإِلَّا كَانَ الدُّعَاءُ لَغْوًا يُبْغِضُهُ اللهُ تَعَالَى ، فَالدُّعَاءُ الدِّينِيُّ لَا يَتَحَقَّقُ إِلَّا بِإِحْسَاسِ الدَّاعِي بِالْحَاجَةِ إِلَى عِنَايَةِ اللهِ تَعَالَى ، وَعَنْ هَذَا الْإِحْسَاسِ يُعَبِّرُ اللِّسَانُ بِالضَّرَاعَةِ وَالِابْتِهَالِ ، فَهَذَا التَّفْسِيرُ لَيْسَ بِأَجْنَبِيٍّ مَنْ سَابِقِهِ .

فَتَقَلُّبُ الْوَجْهِ فِي السَّمَاءِ عِبَارَةٌ عَنِ التَّوَجُّهِ إِلَى اللهِ تَعَالَى انْتِظَارًا لِمَا كَانَتْ تَشْعُرُ بِهِ رُوحُ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَتَرْجُوهُ مِنْ

(178/69)

نُزُولِ الْوَحْيِ بِتَحْوِيلِ الْقِبْلَةِ ، وَلَا تَدُلُّ الْآيَةُ عَلَى أَنَّهُ كَانَ يَدْعُو بِلِسَانِهِ طَالِبًا هَذَا التَّحْوِيلَ وَلَا تَنْفِي ذَلِكَ . وَقَالَ بَعْضُ الْمُحَقِّقِينَ : مِنْ كَمَالِ أَدَبِهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أَنَّهُ انْتَظَرَ وَلَمْ يَسْأَلْ .

(179/69)

وَهَذَا التَّوَجُّهُ هُوَ الَّذِي يُحِبُّهُ اللهُ تَعَالَى وَيَهْدِي قَلْبَ صَاحِبِهِ إِلَى مَا يَرْجُوهُ وَيَطْلُبُهُ ، لِذَلِكَ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ : (فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا) أَيْ : فَلَنَجْعَلَنَّكَ مُتَوَلِّيًا قِبْلَةً تُحِبُّهَا وَتَرْضَاهَا ، وَقَرَنَ الْوَعْدَ بِالْأَمْرِ فَقَالَ : (فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ) تَوْلِيَةُ الْوَجْهِ الْمَكَانَ أَوِ الشَّيْءَ : هِيَ جَعْلُهُ قُبَالَتَهُ وَأَمَامَهُ ، وَالتَّوَلِّي عَنْهُ : جَعْلُهُ وَرَاءَهُ . وَالشَّطْرُ فِي الْأَصْلِ : الْقِسْمُ الْمُنْفَصِلُ مِنَ الشَّيْءِ تَقُولُ : جَعَلَهُ شَطْرَيْنِ ، وَمِنْهُ شَطْرُ الْبَيْتِ مِنَ الشِّعْرِ وَهُوَ الْمِصْرَاعُ مِنْهُ ، وَكَذَا الْمُتَّصِلُ كَشَطْرَيِ النَّاقَةِ وَأَشْطُرُهَا وَهِيَ أَخْلَافُهَا : شَطْرَانِ أَمَامِيَّانِ وَشَطْرَانِ خَلْفِيَّانِ . وَيُطْلَقُ عَلَى النَّحْوِ وَالْجِهَةِ ، وَهُوَ الْمُرَادُ هُنَا ، فَالْوَاجِبُ اسْتِقْبَالُ جِهَةِ الْكَعْبَةِ فِي حَالِ الْبُعْدِ عَنْهَا وَعَدَمِ رُؤْيَتِهَا وَلَا يَجِبُ اسْتِقْبَالُ عَيْنِهَا إِلَّا عَلَى مَنْ يَرَاهَا بِعَيْنِهِ ، أَوْ يَلْمِسُهَا بِيَدِهِ أَوْ بَدَنِهِ . فَإِنْ صَحَّ إِطْلَاقُ الشَّطْرِ عَلَى عَيْنِ الشَّيْءِ فِي اللُّغَةِ ، فَلَا يَصِحُّ أَنْ يُرَادَ هُنَا ؛ لِمَا فِيهِ مِنَ الْحَرَجِ الشَّدِيدِ ، لَا سِيَّمَا عَلَى الْأُمَّةِ الْأُمِّيَّةِ . ثُمَّ أَمَرَ بِذَلِكَ الْمُؤْمِنِينَ عَامَّةً فَقَالَ :

(وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ) أَيْ : وَفِي أَيِّ مَكَانٍ كُنْتُمْ فَاسْتَقْبِلُوا جِهَتَهُ بِوُجُوهِكُمْ فِي صَلَاتِكُمْ ، وَهَذَا يَقْتَضِي أَنْ يُصَلِّيَ الْمُسْلِمُونَ فِي بِقَاعِ الْأَرْضِ إِلَى جَمِيعِ الْجِهَاتِ ، لَا كَالنَّصَارَى الَّذِينَ يَلْتَزِمُونَ جِهَةَ الْمَشْرِقِ ، وَيَقْتَضِي أَنْ يَعْرِفُوا مَوْقِعَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ وَجِهَتَهُ حَيْثُمَا كَانُوا ; وَلِذَلِكَ وَضَعُوا عِلْمَ سَمْتِ الْقِبْلَةِ وَتَقْوِيمِ الْبُلْدَانِ (الْجُغْرَافِيَّةِ الْفَلَكِيَّةِ وَالْأَرْضِيَّةِ) . وَقَدْ عُهِدَ مِنْ أُسْلُوبِ الْقُرْآنِ أَنْ يَكُونَ الْأَمْرُ الَّذِي يُؤْمَرُ بِهِ النَّبِيُّ وَلَا يُذْكَرُ أَنَّهُ خَاصٌّ بِهِ أَمْرًا لَهُ وَلِلْمُؤْمِنِينَ

بِهِ ، فَإِذَا أُرِيدَ التَّخْصِيصُ جِيءَ بِمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : (وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ) (17 : 79) وَقَوْلُهُ : (خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ) (33 : 50) وَإِنَّمَا أَمَرَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِمَا أَمَرَ بِهِ النَّبِيَّ فِيهَا نَصًّا صَرِيحًا لِلتَّأْكِيدِ الَّذِي اقْتَضَتْهُ الْحَالُ فِي حَادِثَةِ الْقِبْلَةِ ، فَإِنَّهَا كَانَتْ حَادِثَةً كَبِيرَةً اسْتَتْبَعَتْ فِتْنَةً عَظِيمَةً ، فَأَرَادَ اللهُ أَنْ يُعْلِمَ الْمُؤْمِنِينَ بِعِنَايَتِهِ بِهَا وَيُقَرِّرَهَا فِي أَنْفُسِهِمْ فَأَكَّدَ الْأَمْرَ بِهَا ، وَشَرَّفَهُمْ بِالْخِطَابِ مَعَ خِطَابِ الرَّسُولِ – عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ – لِتَشْتَدَّ قُلُوبُهُمْ وَتَطْمَئِنَّ نُفُوسُهُمْ ، وَيَتَلَقَّوْا تِلْكَ الْفِتْنَةَ الَّتِي أَثَارَهَا الْمُنَافِقُونَ وَالْكَافِرُونَ

بِالْحَزْمِ وَالثَّبَاتِ عَلَى الِاتِّبَاعِ وَلِئَلَّا يُتَوَهَّمَ مِنْ سَابِقِ الْكَلَامِ أَنَّهُ خَاصٌّ بِهِ – عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ – .

بَعْدَ هَذَا عَادَ إِلَى بَيَانِ حَالِ السُّفَهَاءِ مُثِيرِي الْفِتْنَةِ فِي مَسْأَلَةِ تَحْوِيلِ الْقِبْلَةِ فَقَالَ :

(وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ) أَيْ : إِنَّ تَوَلِّيَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ هُوَ الْحَقُّ الْمُنَزَّلُ مِنَ اللهِ عَلَى نَبِيِّهِ . وَجُمْهُورُ الْمُفَسِّرِينَ عَلَى أَنَّ أَكْثَرَ أُولَئِكَ الْفَاتِنِينَ كَانُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ الْمُقِيمِينَ فِي الْحِجَازِ . وَلَوْلَا ذَلِكَ لَمْ تَكُنِ الْفِتْنَةُ عَظِيمَةً ; لِأَنَّ كَلَامَ الْمُشْرِكِينَ فِي مَسَائِلِ الْوَحْيِ وَالتَّشْرِيعِ قَلَّمَا يُلْتَفَتُ إِلَيْهِ ، وَأَمَّا أَهْلُ الْكِتَابِ فَقَدْ كَانُوا مَعْرُوفِينَ بَيْنَ الْعَرَبِ بِالْعِلْمِ ، وَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ فَإِنَّ عَامَّةَ النَّاسِ تَتَقَبَّلُ كَلَامَهُ وَلَوْ نَطَقَ بِالْمُحَالِ ; لِأَنَّ الثِّقَةَ بِمَظْهَرِهِ تَصُدُّ عَنْ تَمْحِيصِ خَبَرِهِ ، فَهُوَ فِي حَالِهِ الظَّاهِرَةِ شُبْهَةٌ إِذَا أَنْكَرَ ، وَحُجَّةٌ إِذَا اعْتَرَفَ ، وَلِأَنَّ الْجَمَاهِيرَ مِنَ النَّاسِ قَدِ اعْتَادُوا تَقْلِيدَ مِثْلِهِ مِنْ غَيْرِ بَحْثٍ وَلَا دَلِيلٍ .

(182/69)

وَقَدْ جَرَى أَصْحَابُ الْمَظَاهِرِ الْعِلْمِيَّةِ وَالدِّينِيَّةِ عَلَى الِانْتِفَاعِ بِغُرُورِ النَّاسِ بِهِمْ ، فَصَارَ الْغَرَضُ لَهُمْ مِنْ أَقْوَالِهِمُ التَّأْثِيرَ فِي نُفُوسِ النَّاسِ ، فَهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَعْتَقِدُونَ لِأَجْلِ ذَلِكَ ، وَيُسْنِدُونَ مَا يَقُولُونَ إِلَى كُتُبِهِمْ كَذِبًا صَرِيحًا أَوْ تَأْوِيلًا بَعِيدًا ، كَمَا كَانَ أَحْبَارُ الْيَهُودِ يَطْعَنُونَ

فِي النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَمَا جَاءَ بِهِ ، وَيَذْكُرُونَ لِلنَّاسِ أَقْوَالًا عَلَى أَنَّهَا مِنْ كُتُبِهِمْ وَمَا هِيَ مِنْ كُتُبِهِمْ ، إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا خِدَاعًا ، وَقَدْ كَذَّبَ اللهُ هَؤُلَاءِ الْخَادِعِينَ ، وَبَيَّنَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ غَيْرَ مَا يَعْتَقِدُونَ ، كَأَنَّهُ يَقُولُ : إِنَّ هَؤُلَاءِ قَدْ قَامَ عِنْدَهُمُ الدَّلِيلُ عَلَى مَا سَبَقَتْ بِهِ بِشَارَةُ أَنْبِيَائِهِمْ مِنْ صِحَّةِ نُبُوَّةِ الرَّسُولِ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ أَمْرَ الْقِبْلَةِ – كَغَيْرِهَا مِنْ أُمُورِ الدِّينِ – مَا جَاءَ بِهِ الْوَحْيُ عَنِ اللهِ تَعَالَى ، وَأَنَّهُ الْحَقُّ لَا مَحِيصَ عَنْهُ ، لَا مَكَانَ مُعَيَّنٌ بِذَاتِهِ لِذَاتِهِ (وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ) فَهُوَ الْمُطَّلِعُ عَلَى الظَّوَاهِرِ وَالضَّمَائِرِ ، الْحَسِيبُ عَلَى مَا فِي السَّرَائِرِ الرَّقِيبُ عَلَى الْأَعْمَالِ ، فَيُخْبِرُ نَبِيَّهُ بِمَا شَاءَ أَنْ يُخْبِرَهُ وَإِلَيْهِ الْمَرْجِعُ وَالْمَصِيرُ وَعَلَيْهِ الْحِسَابُ وَالْجَزَاءُ ، وَقَرَأَ ابْنُ عَامِرٍ وَحَمْزَةُ وَالْكِسَائِيُّ (تَعْمَلُونَ) بِالتَّاءِ لِلْخِطَابِ .

(183/69)

سَبَقَ الْقَوْلُ بِأَنَّ النَّبِيَّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – كَانَ حَرِيصًا عَلَى هِدَايَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ رَاجِيًا بِإِيمَانِهِمْ مَا لَا يَرْجُوهُ مِنْ إِيمَانِ الْمُشْرِكِينَ ، فَبِمِقْدَارِ حِرْصِهِ وَرَجَائِهِ كَانَ يَحْزُنُهُ عُرُوضُ الشُّبَهِ لَهُمْ فِي الدِّينِ وَيَتَمَنَّى لَوْ أُعْطِيَ مِنَ الْآيَاتِ وَالدَّلَائِلِ مَا يَمْحُو كُلَّ شُبْهَةٍ لَهُمْ ، فَلَمَّا كَانَتْ فِتْنَةُ تَحْوِيلِ الْقِبْلَةِ بِمُخَادَعَتِهِمُ النَّاسَ أَخْبَرَهُ اللهُ تَعَالَى بِأَنَّهُمْ غَيْرُ مُشْتَبِهِينَ فِي الْحَقِّ فَتَزَالُ شُبْهَتُهُمْ ، وَإِنَّمَا هُمْ قَوْمٌ

(184/69)

مُعَانِدُونَ جَاحِدُونَ عَلَى عِلْمٍ ، ثُمَّ أَعْلَمَهُ بِأَنَّ الْآيَاتِ لَا تُؤَثِّرُ فِي الْمُعَانِدِ وَلَا تُرْجِعُ الْجَاحِدَ عَنْ غَيِّهِ ، وَقَدْ أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى فَرْضِيَّةِ اسْتِقْبَالِ الْقِبْلَةِ فِي الصَّلَاةِ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا هَلْ هِيَ شَرْطٌ لِصِحَّتِهَا أَمْ لَا . وَفِي بَعْضِ الْأَحَادِيثِ أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - صَلَّى بِأَصْحَابِهِ إِلَى غَيْرِ الْقِبْلَةِ بِالِاجْتِهَادِ ثُمَّ ظَهَرَ لَهُمْ خَطَؤُهُمْ وَلَمْ يُعِيدُوا ، وَإِنَّمَا يَدُلُّ هَذَا - إِنْ صَحَّ - عَلَى أَنَّ خَطَأَ الِاجْتِهَادِ فِيهَا مَغْفُورٌ . وَالصَّحِيحُ أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - صَلَّى إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ بَعْدَ الْهِجْرَةِ سِتَّةَ عَشَرَ شَهْرًا ، وَأَنَّ النَّسْخَ بِنُزُولِ هَذِهِ الْآيَاتِ كَانَ فِي رَجَبٍ مِنَ السَّنَةِ الثَّانِيَةِ ، وَحَدِيثُ الْبَرَاءِ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ وَغَيْرِهِ أَنَّهُ صَلَّى إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ سِتَّةَ عَشَرَ أَوْ سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا بِالشَّكِّ ، وَرِوَايَةُ 16 عِنْدَ مُسْلِمٍ وَغَيْرِهِ بِدُونِ شَكٍّ فَهِيَ الصَّوَابُ . انتهى . اهـ ﴿ تفسير المنار حـ 2 صـ 3. 15 ﴾

(185/69)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (144) ﴾

نحن نعلم أن " قد " للتحقيق . . و" نرى " . . فعل مضارع مما يدل على أن الحدث في زمن التكلم . . الحق سبحانه وتعالى يعطينا صورة لرسول الله صلى الله عليه وسلم . . أنه يحب ويشتاق أن يتجه إلي الكعبة بدلا من بيت المقدس . . وكان عليه الصلاة والسلام قد اعتاد أن يأتيه الوحي من علو . . فكأنه صلى الله عليه وسلم كان يتجه ببصره إلي السماء مكان إيتاء الوحي . . ولا يأتي ذلك إلا إذا كان قلبه متعلقا بأن يأتيه الوحي بتغيير القبلة . . فكأن هذا أمر شغله . إن الله سبحانه يحيط رسوله صلى الله عليه وسلم بأنه قد رأى تقلب وجه رسوله الكريم في السماء وأجابه ليتجه إلي القبلة التي يرضاها . . فهل معنى ذلك أن القبلة التي كان عليها الرسول صلى الله عليه وسلم وهي بيت المقدس لم يكن راضيا عنها ؟ نقول لا . . وإنما الرضا دائما يتعلق بالعاطفة ، وهناك فرق بين حب العاطفة وحب العقل . . ولذلك لا يقول أحد إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن

راضيا عن قبلة بيت المقدس . . وإنما كان يتجه إلي بيت المقدس وفي قلبه عاطفة تتجه إلي الكعبة . . هذا يدل على الطاعة والالتزام .

(186/69)

الله يقول لرسوله عليه الصلاة والسلام : " فلنولينك قبلة ترضاها " أي تحبها بعاطفتك . . ورسول الله عليه الصلاة والسلام كان يتطلع إلي هذا التغيير ، فكأن عواطفه صلى الله عليه وسلم اتجهت لتضع مقدمات التحويل . قال الله تعالى : " فول وجهك شطر المسجد الحرام " . . والمراد بالوجه هو الذات كلها وكلمة شطر معناها الجهة ، والشطر معناه النصف . . وكلا المعنيين صحيح لأنه حين يوجد الإنسان في مكان يصبح مركزاً لدائرة ينتهي بشيء اسمه الأفق وهو مدى البصر . . وما يخيل إليك عنده أن السماء انطبقت على الأرض . إن كل إنسان منا له دائرة على حسب نظره فإذا ارتفع الإنسان تتسع الدائرة . . وإذا كان بصره ضعيفا يكون أفقه أقل ، ويكون هو في وسط دائرة نصفها أمامه ونصفها خلفه .

إذن الذي يقول الشطر هو النصف صحيح والذي يقول أن الشطر هو الجهة صحيح . وقوله تعالى : " فول وجهك شطر المسجد الحرام " . . أي اجعل وجهك جهة المسجد الحرام أو

اجعل المسجد الحرام في نصف الدائرة التي أمامك . . وفي الزمن الماضي كانت العبادات تتم في أماكن خاصة . . إلي أن جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل الله له الأرض كلها مسجدا . إن المسجد هو مكان السجود ونظراً لأن السجود هو منتهى الخضوع لله فسمى المكان الذي نصلي فيه مسجدا . . ولكن هناك فرق بين مكان تسجد فيه ومكان تجعله مقصورا على الصلاة لله ولا تزاول فيه شيئا آخر . المسجد مخصص للصلاة والعبادة . . أما المكان الذي تسجد فيه وتزاول حركة حياتك فلا يسمى مسجداً إلا ساعة تسجد فيه . . والكعبة بيت الله . باختيار الله لذلك فإن الله يدافع عنها . وجميع مساجد الأرض بيوت الله باختيار خلق الله لذلك ترك الدفاع عنها لخلق الله ولذلك أيضا كان بيت الله باختيار الله قبلة لبيوت الله باختيار خلق الله .

(187/69)

وقوله تعالى : " وحيثما كنتم" يعني أينما كنتم . . " فولوا وجوهكم شطره" . . لأن الآية نزلت وهم في مسجد بني سلمة بالمدينة فتحول المسلمون إلي المسجد الحرام . . وحتى لا يعتقد أحد أن التحويل في هذا المسجد فقط والي الوقت الذي نزلت فيه الآية فقط قال تعالى : " وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره" . . وقوله جل جلاله : " وإن الذين أوتوا

الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون" . . أي أن الذين أوتوا الكتاب ويحاولون التشكيك في اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم . . يعلمون أن رسول الله هو الرسول الخاتم ويعرفون أوصافه التي ذكرت في التوراة والإنجيل . . ويعلمون أنه صاحب القبلتين . . ولو لم يتجه الرسول صلى الله عليه وسلم من بيت المقدس إلي الكعبة . . لقالوا إن التوراة والإنجيل تقولان إن الرسول الخاتم محمداً صلى الله عليه وسلم يصلي إلي قبلتين فلماذا لم تتحقق ؟ ولكان هذا أدعى إلي التشكيك .

إذن فالذين أوتوا الكتاب يعلمون أنه الحق من ربهم . . لأنهم في التوراة أن الرسول الذي سيجيء وسيتجه إلي بيت المقدس ثم يتجه إلي البيت الحرام . . فكأن هذا التحويل بالنسبة لأهل الكتاب تثبيت لإيمانهم بالرسول عليه الصلاة والسلام وليس سببا في زعزعة اليقين . وقوله تعالى : " وما الله بغافل عما يعملون" . . يريد الحق تبارك وتعالى أن يطمئن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تشكيكهم لا يقدم ولا يؤخر . . فموقفهم ليس لطلب الحجة ولكن للمكابرة . . فهم لا يريدون حجة ولا دليلا إيمانياً . . ولكنهم يريدون المكابرة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 630.632 ﴾

(188/69)

" فصل "

قال السيوطى :

قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (144)

أخرج ابن ماجة عن البراء قال " صلينا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم نحو بيت المقدس ثمانية عشر شهراً ، وصرفت القبلة إلى الكعبة بعد دخوله إلى المدينة بشهرين ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صلى إلى بيت المقدس أكثر تقلب وجهه في السماء ، وعلم الله من قلب نبيه أنه يهوى الكعبة ، فصعد جبريل فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يتبعه بصره وهو يصعد بين السماء والأرض ينظر ما يأتيه به ، فأنزل الله ﴿ قد نرى تقلب وجهك في السماء . . . ﴾ الآية . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا جبريل كيف حالنا في صلاتنا إلى بيت المقدس ؟ فأنزل الله ﴿ وما كان الله ليضيع إيمانكم ﴾ [البقرة : 143] " .

وأخرج الطبراني عن معاذ بن جبل قال " صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن قدم المدينة إلى بيت المقدس سبعة عشر شهراً ، ثم أنزل الله أنه أمره فيها بالتحوّل إلى الكعبة فقال ﴿ قد نرى تقلب وجهك في السماء . . . ﴾ الآية " .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال "كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا سلم من صلاته إلى بيت المقدس رفع رأسه إلى السماء ، فأنزل الله ﴿ قد نرى تقلب وجهك . . . ﴾ الآية ".

(189/69)

وأخرج النسائي والبزار وابن المنذر والطبراني عن أبي سعيد بن المعلى قال "كنا نغدو إلى المسجد على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنمر على المسجد فنصلي فيه ، فمررنا يوماً ورسول الله صلى الله عليه وسلم قاعد على المنبر ، فقلت : لقد حدث أمر . . . ! فجلست . فقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية ﴿ قد نرى تقلب وجهك في السماء ﴾ حتى فرغ من الآية ، فقلت لصاحبي : تعال نركع ركعتين قبل أن ينزل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنكون أول من صلى فتوارينا فصلينا ، ثم نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلى للناس الظهر يومئذ إلى الكعبة " .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة في قوله ﴿ قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها ﴾ قال : هو يومئذ يصلي نحو بيت المقدس ، وكان يهوى قبلة نحو البيت الحرام ، فولاه الله قبلة كان يهواها ويرضاها ﴿ فول وجهك شطر المسجد الحرام

﴿ قال : تلقاء المسجد الحرام .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد قال : قالت اليهود : يخالفنا محمد ويتبع قبلتنا . . . ! فقال : يدعو الله ويستفرض القبلة ، فنزلت ﴿ قد نرى تقلب وجهك في السماء . . . ﴾ الآية فانقطع قول يهود حين وجه للكعبة ، وحوّل الرجال مكان النساء والنساء مكان الرجال .

وأخرج عبد الرزاق وابن أبي شيبة وسعيد بن منصور وأحمد بن منيع في مسنده وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني في الكبير والحاكم وصححه عن عبد الله بن عمرو في قوله ﴿ فلنولينك قبلة ترضاها ﴾ قال : قبلة إبراهيم نحو الميزاب .

وأخرج عبد بن حميد وأبو داود في ناسخه وابن جرير وابن أبي حاتم عن البراء في قوله ﴿ فول وجهك شطر المسجد الحرام ﴾ قال : قبله .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والدينوري في المجالسة والحاكم وصححه والبيهقي في سننه عن علي في قوله ﴿ فول وجهك شطر المسجد الحرام ﴾ قال : شطره قبله .

وأخرج أبو داود في ناسخه وابن جرير والبيهقي عن ابن عباس قال : شطره نحوه .

وأخرج آدم والدينوري في المجالسة والبيهقي عن مجاهد في قوله ﴿ شطره ﴾ يعني نحوه .

وأخرج وكيع وسفيان بن عيينة وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير والدينوري عن أبي العالية في قوله ﴿ شطر المسجد الحرام ﴾ قال : تلقاءه .

وأخرج ابن أبي حاتم عن رفيع قال ﴿ شطره ﴾ تلقاءه بلسان الحبش .

وأخرج أبو بكر بن أبي داود في المصاحف عن أبي رزين قال : في قراءة عبد الله (وحيثما كنتم فولوا وجوهكم قبله) .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : البيت كله قبلة وقبلة البيت الباب .

وأخرج البيهقي في سننه عن ابن عباس مرفوعاً " البيت قبلة لأهل المسجد ، والمسجد قبلة لأهل الحرم ، والحرم قبلة لأهل الأرض في مشارقها ومغاربها من أمتي " .

وأخرج ابن جرير عن السدي في قوله ﴿ وإن الذين أوتوا الكتاب ﴾ قال : أنزل ذلك في اليهود .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم ﴾ قال : يعني بذلك القبلة .

وأخرج أبو داود في ناسخه وابن جرير عن أبي العالية في قوله ﴿ وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق ﴾ يقول : ليعلمون أن الكعبة كانت قبلة إبراهيم والأنبياء ولكنهم تركوها

عمداً ﴿ وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق ﴾ [البقرة : 146] يقول : يكتمون صفة محمد وأمر القبلة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 1 صـ 353 . 355 ﴾

(191/69)

" فوائد بلاغية "

قال فى صفوة التفاسير :

البلاغة :

1- في قوله : [ينقلب على عقبيه] استعارة تمثيلية حيث مثل لمن يرتد عن دينه ، بمن ينقلب على عقبيه ، كأنه يرجع إلى الخلف ، وينتكس فى دينه كما انتكس في مشيه .

2- [لرءوف رحيم] الرأفة : شدة الرحمة ، وقدم الأبلغ مراعاة للفاصلة وهي الميم في قوله : [صراط مستقيم] وقوله : [رءوف رحيم] وكلاهما من صيغ المبالغة .

3- [فول وجهك] أطلق الوجه وأراد به الذات كقوله : [ويبقى وجه ربك] وهذا النوع يسمى " المجاز المرسل " من باب إطلاق الجزء وإرادة الكل ، ومثله قولهم : هذا ما جنته يدك ، أي ما فعلته بنفسك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 1 صـ 102 . 103 ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (144)

قال العلماء : هذه الآية متقدّمة في النزول على قَوْلِهِ تعَالى : ﴿ سَيَقُولُ السفهآء مِنَ الناس ﴾ [البقرة : 143] .

ومَعْنَى " " : تحرُّك وَجْهِكَ إلى السَّمَاءِ .

اعلم أنَّ " قَدْ " هذه قال فيها بعضُهم : إنها تَصْرِفُ المضارعَ إلى مَعْنى المُضِيّ ، وجَعَلَ مِنْ ذلك هذه الآيَةَ وأمثالَها ، وقوْلَ الشاعِرِ : [الطويل]

829 - لِقَوْمٍ لَعَمْرِي قَدْ نَرَى أَمْسِ فِيهُمُ . . .

مَرَابِطَ للأَمْهَارِ وَالعَكَرِ الدَّثْرْ

وقال الزَّمَخْشَرِيُّ : " قَدْ نَرَى " : رُبَّما نَرَى ، ومعناه كثرةُ الرؤية ؛ كقوله : [البسيط]

830 - قَدْ أَتْرُكُ الْقِرْنَ مُضفَرّاً أَنَامِلُهُ . . .

كَأَنَّ أَثْوَابَهُ مُجَّتْ بِفُرْصَادِ

قال أَبو حَيَّان : وشرحه هذا على التحقيق مُتَضَادّ ؛ لأنه شرح " قَدْ نَرَى " بـ " رُبَّمَا نَرَى " ، و " ربّ " على مَذْهب المحققين إنما تكون لِتَقْلِيل الشَّيْءِ فِي نَفْسِه ، أو لتقليل نَظِيره .

ثُمَّ قال : " ومعناه كثرةُ الرُّؤْيَةِ " فهو مضادٌّ لمدلول " رُبّ " على مذهب الجمهور .

ثم هذا الذي ادَّعاه من كثرة الرؤية لا يدل عليه اللفظ ، لأنه لم توضع للكثرة " قد " مع المضارع ، سواء أريد به المضي أم لا ، وإنَّما فُهِمَتِ الكَثْرة من متعلّق الرؤية ، وهو التقلب .

قوله : " فِي السَّمَاءِ " في متعلّق الجار ثلاثة أَقْوال :

أحدهما : أنه المصدرُ ، وهو " تَقَلُّب " ، وفي " فِي " حينئذٍ وَجْهَان :

أحدهما : أنها على بَابِهَا من الظرفية ، وهو الواضِحُ .

والثَّاني : أنها بمعنى " إلَى " أي : إلى السَّمَاءِ ولا حاجة لذلك ، فإنَّ هذا المصْدَرَ قد ثَبَت تعديه بـ " في " ، قال تعالى : ﴿ لاَ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الذين كَفَرُواْ فِي البلاد ﴾ [آل عمران : 196] .

والثاني من الأقوال : أنه " نَرَى " ، وحينئذٍ تَكُون " فِي " بمعنى " مِنْ " أي : قد نرى من السَّماءِ ، وذِكْرُ السماءِ وإن كان تَعَالى لا يتحيّز في جِهَةٍ على سَبيل التشريفِ .

والثالث : أنه محل نَصْب على الحَال من " وَجْهكَ " ذكره أَبُوا البَقَاءِ ، فيتعلّق حينئذ بمحذُوفٍ ، والمصدرُ هنا مضافٌ على فَاعِله ، ولا يجوز أَنْ يكُونَ مُضَافاً إلى مَنْصُوبه ؛ لأنه مصدرُ ذلك التقلِيبِ ، ولا حَاجَةَ إلى حَذْفٍ ، ومِنْ قَوْله : " وَجْهَكَ " وهو بَصَر وَجْهك ، لأن ذلك لا يكاد يستعمل ، بل ذكر الوجه ؛ لأنه أشرف الأعضاء ، وهو الذي يقبله السَّائل في حاجته ، وقيل : كنى بالوجه عن البصر ؛ لأنه محلّه .

قوله : ﴿ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً ﴾ " الفَاء " هنا لِلتَّسَبُّب وهو وَاضِحٌ ، وهذا جوابُ قَسَم مَحْذُوفٍ ، أيْ : فوالله لنولّيَنَّكَ ، و " نُوَلِّي " يتعدّى لاثْنين : الأولُ الكَافُ ، والثَّانِي " قِبْلَةُ " و " تَرْضَاهَا " الجملة في محلّ نَصْب صفةً لـ " قبلة " .

قال أَبُو حَيَّان : وهذا ؛ يعني : " فَلَنُوَلّينك " يدلّ على أن الجملةَ السابقةَ محذوفة تقديرهُ : قَدْ نَرَى تقلّ وَجْهِكَ في السَّماء طَالِباً قبلة غير التي أَنْت مُسْتقبلها .

فصل في الكلام على الآية

في الآية قَوْلاَنِ :

القولُ الأولُ : وهو المشهورُ الذي عليه أَكْثر المُفَسّرين أن ذلك كان لانتظارِ تَحْوِيله من " بيتِ المقْدِس " إلى الكَعْبة ، وذكروا في ذلك وجوهاً :

أحدها : أنه كان يكره التوجّه إلى بيت المقْدِس ، ويحبّ التوجّه إلى الكَعْبة ، إلاّ أنه ما كان يتلكَّم بذلك ، فكان يقلّب وجْهَهُ في السَّماء لهذا المعنى .

قوله : ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المسجد الحرام ﴾ "ولّى" يتعدى لاثنين :

أحدهما : "وجهك" .

والثاني : "شطر" .

ويجوز أن ينتصب "شَطْرَ" على الظرف المكاني ، فيتعدى الفعل لواحد ، وهو قول النحاس ، ولم يذكر الزمخشري غيره .

والأول : أوضح ، وقد يتعدى إلى ثانيهما بـ "إلى" .

[والمراد من الوجه ها هنا جملة بدن الإنسان ؛ لان الواجب على الإنسان أن يستقبل القبلة بجملته لا بوجهه فقط ، والوجه قد يُراد به العضو ، وقد يعبر عن كل الذات بالوجه .

قال أهل اللغة : "الشطر" اسم مشترك يقع على معنيين .

أحدهما : النصف من الشيء والجزء منه ، يقال : شطرت الشيء ، أي : جعلته نصفين ، ويقال في المَثَل : اجلب جلباً لك شطره ، أي : نصفه .

ومنه الحديث : " الطُّهُورُ شَطْرُ الإِيمَانِ "

وتكون من الأضداد .

ويقال : شطر إلى كذا إذا أقبل نحوه ، وشطر من كذا إذا ابتعد عنه وأعرض ، ويكون بمعنى الجهة والنحو ، واستشهد الشافعي – رضي الله عنه – في كتاب " الرسالة " في هذا الأربعة أبيات] قال : [الوافر]

831 – أَلاَ مَنْ مُبْلِغٌ عَنّي رَسُولاً . . .

وَمَا تُغْنِي الرِّسَالَةُ شَطْرَ عَمْرِو

وقال : [الوافر]

832 – أَقُولُ لأُمِّ زِنْبَاعٍ أَقِيمِي . . .

صُدُورُ العِيْسِ شَطْرَ بَنِي تَمِيمِ

وقال : [البسيط]

833 – وَقَدْ أَظَلَّكُمُ مِنْ شَطْرِ ثَغْرِكُمُ . . .

هَوْلٌ لَهُ ظُلَمٌ يَغْشَاكُمُ قِطَعَا

وقال ابْنُ أَحْمَر : [البسيط]

834 – تَعْدُو بِنَا شَطْرَ نَجْدٍ وَهْيَ عَاقِدَةٌ . . .

قَدْ قَارَبَ العَقْدُ مِنْ إِيفَادِهَا الحُقُبَا

وقال : [المتقارب]

835 - وَأَظْعَنُ بِالرُّمْحِ شَطْرَ الْمُلُو . . .

كِ . . .

وقال : [البسيط]

836 - إِنَّ الْعَسِيرَ بِهَا دَاءٌ يُخَامِرُوهَا . . .

(195/69)

وَشَطْرَهَا نَظَرُ الْعَيْنَيْنِ مَحْسُورُ

كل ذلك بمعنى : " نحو " و" تلقاء " [فعلى هذا المراد الجهة ، وهو قول جمهور المفسّرين من الصحابة والتابعين والمتأخرين ، واختار الشافعي - رضي الله عنه - أن المراد جهة المسجد الحرام وتلقاءه .

وقرأ أبي بن كعب تلقاء المسجد الحرام .

قال القرطبي : وهو في حرف ابن مسعود : " تِلْقَاء المسجد الحرام " ، وقال الجبائي : المراد من التشطير هاهنا وسط المسجد ، ومنتصفه ؛ لأن الشطر هو النصف ، والكعبة لما كانت واقعة في نصف المسجد حسن أن يقول : ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المسجد الحرام ﴾

يعني : النصف من كل جهة ، كأنه عبارة عن بُقْعة الكعبة ، وهذا اختيار القاضي ، ويدل عليه وجهان :

الأول : أن المصلي خارج المسجد لو وقف بحيث يكون متوجهاً إلى المسجد ولكن لا يكون متوجهاً إلى منتصف المسجد الذي هو موضع الكعبة لم تنفع صلاته .

الثاني : لو فسرنا الشرط بالجانب لم يَبْق لذكر الشطر مزيد فائدة ؛ لأنك لو قلت : ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المسجد الحرام ﴾ لحصلت الفائدة المطلوبة .

وإذا فسرنا الشطر بما ذكرناه كان لذكره فائدة زائدة] .

ويقال : شَطَر : بعد ، ومنه : الشّاطر ، وهو الشّاب البعيد من الجيران الغائب عن منزله ، ويقال : شَطَر شُطُوراً .

والشَّطِيرُ : البعيد ، ومنه : منزل شَطِيرٌ ، وشطر إليه أي : أقبل .

وقال الراغب : وصار يعبر بالشّاطر عن البعيد ، وجمعه : شُطُرٌ ، والشاطر أيضاً لمن يتباعد من الحق ، وجمعه شُطَّارٌ .

[فصل في الكلام على المسجد الحرام

قال الأزرقي : ذرع المسجد الحرام مقصراً مائة ألف وعشرون ألف ذِرَاع ، وعدد أساطينه من شقّه الشَّرْقي : مائة وثلاث أُسْطُوَانات .

ومن شقّه الغربي : مائة وخمس أُسْطُوانات ، ومن شقّه الشّامي : مائة وخمس وثلاثون

أسطوانة ، ومن شقّه اليمنى : مائة وإحدى وأربعون أسطوانة .

وذرع ما بين كل أُسطوانتين ستة أذرع وثلاثة عشر إصبعاً .

(196/69)

وللمسجد الحرام ثلاثة وعشرون باباً ، وعدد شُرُفاته مائتا شرفه واثنان وسبعون شرفة ونصف شرفة ، ويطلب المسجد الحرام ، ويُرَاد به الكعبة .

قال تعالى : ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المسجد الحرام ﴾ .

ويطلب ويراد به المسجد معها .

وقال عليه الصلاة والسلام : " لاَ تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلاَّ لِثَلاَثَةِ مَسَاجِدَ : المَسْجِدِ الحَرَامِ " إلى آخره ، ويطلق ويراد به " مَكّة " كلها ، وقال سبحانه وتعالى : ﴿ سُبْحَانَ الذي أسرى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مّنَ المسجد الحرام ﴾ [الإسراء : 1] قال المفسرون : كان الإسراء من بيت أُمِّ هانئ بنت أبي طالب .

ويطلق ويراد به " مكة " كلها ، قال سبحانه وتعالى : ﴿ ذلك لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي المسجد الحرام ﴾ [البقرة : 196] .

قال البعض : حاضروا المسجد الحرام من كان منه دون مسافة نفر .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا المشركون نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُواْ المسجد الحرام بَعْدَ عَامِهِمْ هذا ﴾ [التوبة : 28] ، هل تعتبر هذه المسافة من نفس " مكة " أو من طرف الحرم ؟ والأصح أنها من طرف الحرم] .

وقوله تعالى : ﴿ وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ ﴾ هنا وجهان :

أظهرهما : أنها شرطية ، وشرط كونها كذلك زيادة " ما " بعدها خلافاً للقراء ف "كنتم" في محلّ جزم بها ، و" فولُّوا " جوابها ، وتكون هي منصوبة على الظرفية بـ "كنتم" فتكون هي عاملة فيه الجزم ، وهو عامل فيها النصب نحو : ﴿ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأسمآء الحسنى ﴾ [الإسراء : 110] .

واعلم أن " حَيْثُ " من الأسماء اللازمة للإضافة فالجملة التي بعدها كان القياس يقتضي أن تكون في محلّ خفض بها ، ولكن منع من ذلك مانع ، وهو كونها صارت من عوامل الأفعال .

(197/69)

قال أبو حيان : وحيث هي ظرف مكان مضافة إلى الجملة ، فهي مقتضية للخفض بعدها ، وما اقتضى الخفض لا يقتضي الجزم ؛ لأن عوامل الأسماء لا تعمل في الأفعال والإضافة موضحة لما أضيف ، كما أن الصلة موضحة ، فينافي اسم الشرط ؛ لأن اسم الشرط مبهم

، فإذا وصلت بـ " ما " زال منها معنى الإضافة ، وضمنت معنى الشرط وجُوزِيَ بها ، وصارت من عوامل الأفعال .

والثاني : أنها ظرف غير مضمن معنى الشرط ، والناصب له قوله : " فولّوا " قاله أبو البقاء ، وليس بشيء ، لأنه متى زيدت عليها " ما " وجب تضمّنها معنى الشرط .

وأصل " ولّوا " : وليوا ، فاستثقلت الضمة على الياء ، فحذفت ، فالتقى ساكنان فحذف أولهما ، وهو الياء وضم ما قبله ليجانس الضمير ، فوزنه " فعوا " .

وقوله : " شَطْرَهُ " فيه القولان ، وهما : إما المفعول به ، وإما الظرفية كما تقدم .

قوله تعالى : " أَنَّهُ الحَقُّ " يحتمل أن تكون " أن " واسمها وخبرها سادّة مسدّ المفعولين لـ " يعلمون " عند الجمهور ، ومسدّ أحدهما عند الأخفش ، والثاني محذوف على أنها تتعدى لاثنين ، وأن تكون سادّة مسد مفعول واحد على أنها بمعنى العِرْفان ، وفي الضمير ثلاثة أقوال :

أحدها : يعود على التولّي المدلول عليه بقوله : " فولّوا " .

والثاني : على الشطر .

والثالث : على النبي صلى الله عليه وسلم ، [أي : يعلمون أن الرسول مع شرعه وبنوّته حقّ] ويكون على هذا التفاتاً من خطابه بقوله : " فلنولِّيَنَّك " إلى الغيبة .

[قوله تعالى : " من ربهم " متعلق بمحذوف على أنه حال من الحق ، أي كائناً من ربهم] .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ تقدم معناه .

(198/69)

وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي " تعملون " بالتاء على الخطاب للمسلمين وهو الظاهر أولـ " للذين " على الالتفات تحريكاً لهم وتنشيطاً ، والباقون بالغيبة رداً على الذين أوتوا الكتاب ، أو رداً على المؤمنين ، ويكون التفاتاً من خطابهم بقوله : " وجوهكم – كنتم " فإن جعلناه خطاباً للمسلمين ، فهو وعد لهم ، وبشارة أي : لا يخفى عليَّ جدّكم واجتهادكم في قَبُول الدين ، فلا أخل بثوابكم .

وإن جعلناه كلاماً مع اليهود ، فهو وعيد وتهديد لهم ، ويحتمل أيضاً أنه ليس بغافل عن مكافأتهم ومجازاتهم ، وإن لم يعجلها لهم ، كقوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظالمون إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأبصار ﴾ [إبراهيم : 42] . انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 3 صـ 29 ـ 43 ﴾ . باختصار .

(199/69)

قوله تعالى ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (145) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما أطمع أول الآية في أهل الكتاب وقطع عنهم آخرها صرح بما لوّح إليه هذا الأخير وأعلمه صلى الله عليه وسلم بعاقبة أمرهم وأنه لا اتفاق بينه وبينهم أصلاً ولا اتفاق بين فريقيهم مع كون الكل من بني إسرائيل ليريحه صلى الله عليه وسلم من التطلع إلى هدى بعضهم فقال تعالى : ﴿ ولئن أتيت الذين أوتوا ﴾ بناه للمجهول تنبيهاً على هوانهم ﴿ الكتاب ﴾ أي من اليهود والنصارى ﴿ بكل آية ﴾ أي من الآيات المسموعة مرغبة ومرهبة ومن الآيات المرئية مغرّبة ومقربة ﴿ ما تبعوا قبلتك ﴾ أي هذه التي حولت إليها وكنت الحقيق بها لكونها قياماً للناس كما أنت رسول إلى جميع الناس ، لأن إعراضهم ليس عن شبهة إذا زالت زال بل عن عناد .

ثم أوماً إلى أنهم ينصبون له الحبائل ليعود ولو ساعة من نهار إلى قبلتهم ليقدحوا بذلك فيه فقال : ﴿ وما أنت بتابع قبلتهم ﴾ ثم أشار إلى عيبهم باختلافهم وتفرقهم مع نهيهم عنه

فقال : ﴿ وما بعضهم ﴾ أي أهل الكتاب ﴿ بتابع قبلة بعض ﴾ مع تقاربهم في النسب ، وذلك حثاً للعرب على الثبات على مباعدتهم والحذر من مخادعتهم .

ولما كان دينهم قد نسخ أعلم سبحانه بأن ثباتهم على قبلتهم مع ذلك مجرد هوى فقال منفراً للأمة عنهم ومحذراً لهم منهم بخطاب الرأس ليكون ذلك أدعى لقبول الاتباع ﴿ ولئن اتبعت أهواءهم ﴾ .

(200/69)

ولما كان هذا السياق لأمر القبلة فقط قال : ﴿ من بعد ما جاءك من العلم ﴾ قال الحرالي : فأبهمه ولم يكن نحو الأول الذي قال فيه " بعد الذي " لظهور ما ذكر في الأول وخفاء ما وقعت إليه الإشارة في هذا وجاءت فيه " من " التي هي لابتداء من أولية لخفاء مبدأ أمر ما جاء من العلم هنا وظهور ذلك الأول ، لأن ذلك كان في أمر الملة التي مأخذها العقل ، وهذه في أمر التوجيه الذي مأخذه الدين والغيب ، قال الحرالي : قال تعالى : ﴿ إنك إذاً لمن الظالمين ﴾ على حد ما ذكر من أنه من لمح لمحاً من وصف كان من الموصوف به بألطف لطف ووصف كل رتبة بحسبها ، فما يرفع عنه النبي صلى الله عليه وسلم من باب إظهار رغبته وحرصه على هداية الخلق الذي جبل على الرحمة فيه وطلب المسامحة في التقاصر

عنه نظراً منه إلى حق الله تعالى ومضمون وصية الله تعالى له حين أوصاه بغير ترجمان ولا واسطة أن يصفح عمن ظلمه ويصل من قطعه ، فكان صلى الله عليه وسلم يطلب وصل المنقطع عنه حتى يعلن عليه بالإكراه في ترك ذلك وودعه فيجيبه حكماً وإن كان معه علماً ، ومنه قوله : " اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون "

(201/69)

ففي طيّ كل خطاب له يظهر الله عز وجل فيه إكراهه على أخذ حكم الحق وإمضاء العدل أعظم مدحة له والتزام لوصيته إياه ، فهو ممدوح بما هو مخاطب بخطاب الإكراه على إمضاء العدل والاختصار في أمر رحمته للعالمين ، فرفعه الله أن يكون ممن يضع رحمة في موضع استحقاق وضع النقمة ، فذلك الذي بجمع معناه بين متقابل الظالمين فيمن يضع النقمة موضع الرحمة فيكون أدنى الظلم ، أو من يضع الرحمة في موضع النقمة فيكون منه بتغيير الوضع بوضع الفضل موضع العدل ؛ وعلى ذلك جميع ما ورد في القرآن من نحو قوله : ﴿ فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فسئل الذين يقرءون الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك ﴾ أي في إمضاء العدل ﴿ فلا تكونن من الممترين ﴾ [يونس : 94] في طلب الفضل لأهل العدل فإن الله يمضي عدله كما يفيض فضله ، وكذلك قوله : ﴿ عبس وتولى أن جاءه

الأعمى ﴾ [عبس : 1-2] فيه إظهار لمدحته بحرصه على تألف الأبعدين ووصل القاطعين حتى ينصرف عنهم بالحكم وإشادة الإكراه عليه في ذلك ، فلا ينصرف عن حكم الوصية إلى حكم الكتاب بالحق إلا عن إشادة بإكراهه عليه ، فهو محمود بما هو منهي عنه ، لأن خطابه أبداً في ذلك في القرآن فيما بين الفضل والعدل ، وخطاب سائر الخلق جار فيما بين العدل والجور ، فبين الخطابين ما بين درج العلو ، ودرك السفل في مقتضى الخطابين المتشابهين في القول المتباينين في العلم – انتهى .

وسيأتي في قوله تعالى : ﴿ عفا الله عنك لم أذنت لهم ﴾ [التوبة : 43] في سورة التوبة ما يوضحه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 268. 269 ﴾

(202/69)

اللغة :

[آية] الآية : الحجة والعلامة

[أهواءهم] جمع هوى مقصور ، وهوى النفس : ما تحبه وتميل إليه

[الممترين] الامتراء : الشك ، امترى في الشيء : شك فيه ، ومنه المراء والمرية ، كقوله سبحانه : [ولا يزال الذين كفروا في مرية منه] أي شك

[وجهة] قال الفراء : وجهه وجهة ووجه بمعنى واحد ، والمراد بها القبلة

[هو موليها] أي هو موليها وجهه ، فاستغنى عن ذكر الوجه قال الفراء : أي مستقبلها

[فاستبقوا] أي بادروا وسارعوا

[الخيرات] الأعمال الصالحة جمع خير

[تخشوهم] تخافوهم والخشية : الخوف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 1 صـ 103 ﴾

(203/69)

فائدة

قال ابن عاشور :

﴿ ولئن أتيتَ ﴾ عطف على قوله : ﴿ وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون ﴾ [البقرة : 144] ، والمناسبة أنهم يعلمون ولا يعملون فلما أفيد أنهم يعلَمون أنه الحق على الوجه المتقدم في إفادته التعريض بأنهم مكابرون ناسبت أن يحقق نفي الطَّمع في اتِّباعهم القِبْلَة لدفع توهم أن يَطْمع السامع باتباعهم لأنهم يعلمون أحقيتها ، فلذا أكدت الجملة الدالة على نفي اتِّباعهم بالقَسَم واللام الموطئة ، وبالتعليق على أقصى ما يمكن عادةً .

والمراد بالذين أوتوا الكتاب عين المراد من قوله : ﴿ وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون ﴾ على ما تقدم فإن ما يفعله أحْبارهم يكون قدوة لعامتهم فإذا لم يتبع أحبارهم قبلة الإسلام فأجْدَرُ بعامتهم أن لا يتبعوها .

ووجه الإظهار في مقام الإضمار هنا الإعلان بمذمتهم حتى تكون هذه الجملة صريحة في تناولهم كما هو الشأن في الإظهار في موقع الإضمار أن يكون المقصود منه زيادة العناية والتمكن في الذهن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 2 صـ 35 ﴾

وقال البقاعى :

﴿ ولئن أتيت الذين أوتوا ﴾ بناه للمجهول تنبيهاً على هوانهم ﴿ الكتاب ﴾ أي من اليهود والنصارى ﴿ بكل آية ﴾ أي من الآيات المسموعة مرغبة ومرهبة ومن الآيات المرئية مغرّبة ومقربة ﴿ ما تبعوا قبلتك ﴾ أي هذه التي حولت إليها وكنت الحقيق بها لكونها قياماً للناس كما أنت رسول إلى جميع الناس ، لأن إعراضهم ليس عن شبهة إذا زالت زال بل عن عناد . ثم أوماً إلى أنهم ينصبون له الحبائل ليعود ولو ساعة من نهار إلى قبلتهم ليقدحوا بذلك فيه فقال : ﴿ وما أنت بتابع قبلتهم ﴾ ثم أشار إلى عيبهم باختلافهم وتفرقهم مع نهيهم عنه فقال : ﴿ وما بعضهم ﴾ أي أهل الكتاب ﴿ بتابع قبلة بعض ﴾ مع تقاربهم في النسب ، وذلك حثاً للعرب على الثبات على مباعدتهم والحذر من مخادعتهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 268 ﴾

سؤال : ما المراد بالذين أوتوا الكتاب ؟

الجواب : اختلفوا في قوله : ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الذين أُوتُواْ الكتاب ﴾ فقال الأصم : المراد علماؤهم الذين أخبر الله تعالى عنهم في الآية المتقدمة بقوله : ﴿ وَإِنَّ الذين أُوتُواْ الكتاب لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الحق مِن رَّبِّهِمْ ﴾ [البقرة : 144] واحتج عليه بوجوه . أحدها : قوله : ﴿ وَلَئِنِ اتبعت أَهْوَاءهُم ﴾ فوصفهم بأنهم يتبعون الهوى ، ومن اعتقد في الباطل أنه حق فإنه لا يكون متبعاً لهوى النفس ، بل يكون في ظنه أنه متبع للهدى فأما الذين يعلمون بقلوبهم ، ثم ينكرون بألسنتهم ، فهم المتبعون للهوى . وثانيها : أن ما قبل هذه الآية وهو قوله : ﴿ وَإِنَّ الذين أُوتُواْ الكتاب لَيَعْلَمُواْ أَنَّهُ الحق ﴾ لا يتناول عوامهم بل هو مختص بالعلماء ، وما بعدها وهو قوله : ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ ﴾ [الأنعام : 20] مختص بالعلماء أيضاً إذ لو كان عاماً في الكل امتنع الكتمان لأن الجمع العظيم لا يجوز عليهم الكتمان ، وإذا كان ما قبلها وما بعدها خاصاً فكذا هذه الآية المتوسطة . وثالثها : أن الله تعالى أخبر عنهم بأنهم مصرون على قولهم ، ومستمرون على باطلهم ، وأنهم لا يرجعون عن ذلك المذهب بسبب شيء من الدلائل والآيات ، وهذا شأن المعاند اللجوج ، لا شأن

المعاند المتحير . ورابعها : أنا لو حملناه على العموم لصارت الآية كذباً لأن كثيراً من أهل الكتاب آمن بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتبع قبلته .

(205/69)

وقال آخرون : بل المراد جميع أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، واحتجوا عليه بأن قوله : ﴿ الذين أُوتُواْ الكتاب ﴾ صيغة عموم فيتناول الكل ، ثم أجابوا عن الحجة الأولى أن صاحب الشبهة صاحب هوى في الحقيقة ، لأنه ما تمم النظر والاستدلال فإنه لو أتى بتمام النظر والاستدلال لوصل إلى الحق ، فحيث لم يصل إليه علمنا أنه ترك النظر التام بمجرد الهوى ، وأجابوا عن الحجة الثانية بأنه ليس يمتنع أن يراد في الآية الأولى بعضهم ، وفي الآية الثانية كلهم ، وأجابوا عن الحجة الثالثة أن العلماء لما كانوا مصرين على الشبهات ، والعوام كانوا مصرين على اتباع أولئك العلماء كان الإصرار حاصلاً في الكل ، وأجابوا عن الحجة الرابعة بأنه تعالى أخبر عنهم أنهم بكليتهم لا يؤمنون ، وقولنا : كل اليهود لا يؤمنون مغاير لقولنا إن أحداً منهم لا يؤمن . أ هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 4 صـ 113.114 ﴾

قوله تعالى ﴿ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ﴾

سؤال : لم أضاف القبلة إلى ضميره ـ صلى الله عليه وسلم ـ ؟

الجواب : إضافة القبلة إلى ضميره ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأن الله تعالى تعبده باستقبالها .

أهـ ﴿ روح المعانى حـ 2 صـ 11 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ﴾ ففيه أقوال . الأول : أنه دفع لتجويز النسخ ، وبيان أن هذه القبلة لا تصير منسوخة . والثاني : حسماً لأطماع أهل الكتاب فإنهم قالوا : لو ثبت على قبلتنا لكنا نرجوا أن يكون صاحبنا الذي ننتظره ، وطمعوا في رجوعه إلى قبلتهم . الثالث : المقابلة يعني ما هم بتاركي باطلهم وما أنت بتارك حقك . الرابع : أراد أنه لا يجب عليك استصلاحهم باتباع قبلتهم ، لأن ذلك معصية . الخامس : وما أنت بتابع قبلة جميع أهل الكتاب من اليهود والنصارى لأن قبلة اليهود مخالفة لقبلة النصارى ، فلليهود بيت المقدس وللنصارى المشرق ، فالزم قبلتك ودع أقوالهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 4 صـ 114 ﴾

سؤال : لم أفرد القبلة فى قوله تعالى ﴿ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ﴾ ؟

الجواب : إفراد القبلة وإن كانت مثناة إذ لليهود قبلة وللنصارى قبلة لأنهما اشتركتا في كونهما باطلتين فصار الاثنان واحداً من حيث البطلان ، وحسن ذلك المقابلة لأن قبله ﴿ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ ﴾ وقد يقال : إن الإفراد بناءً على أن قبلة الطائفتين الحقة في الأصل بيت المقدس وعيسى - عليه السلام - لم يصل جهة الشرق حتى رفع وإنما كانت قبلته قبلة بني إسرائيل اليوم ثم بعد رفعه شرع أشياخ النصارى لهم الاستقبال إلى الشرق واعتذروا بأن المسيح - عليه السلام - فوض إليهم التحليل والتحريم وشرع الأحكام وأن ما حللوه وحرموه فقد حلله هو وحرمه في السماء وذكروا لهم أن في الشرق أسراراً ليست في غيره . أهـ

﴿ روح المعانى حـ 2 صـ 11 ﴾

فائدة

قال الآلوسى :

إن هذه الجملة أبلغ في النفي من الجملة الأولى من وجوه : كونها اسمية وتكرر فيها الاسم مرتين وتأكد نفيها بالباء وفعل ذلك اعتناء بما تقدم ﴿ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ﴾ أي إن اليهود لا تتبع قبلة النصارى ولا النصارى تتبع قبلة اليهود ما داموا باقين على اليهودية والنصرانية وفي ذلك بيان لتصلبهم في الهوى وعنادهم بأن هذه المخالفة والعناد لا يختص

بك بل حالهم فيما بينهم أيضاً كذلك ، والجملة عطف على ما تقدم مؤكدة لأمر القبلة ببيان أن إنكارهم ذلك ناشىء عن فرط العناد وتسلية للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أ هـ ﴿ روح المعانى حـ 2 صـ 11 . 12 ﴾

(207/69)

قوله تعالى ﴿ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ﴾

أما قوله : ﴿ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ﴾ قال القفال : هذا يمكن حمله على الحال وعلى الاستقبال ، أما على الحال فمن وجوه . الأول : أنهم ليسوا مجتمعين على قبلة واحدة حتى يمكن إرضاؤهم باتباعها . الثاني : أن اليهود والنصارى مع اتفاقهم على تكذيبك متباينون في القبلة فكيف يدعونك إلى ترك قبلتك مع أنهم فيما بينهم مختلفون . الثالث : أن هذا إبطال لقولهم إنه لا يجوز مخالفة أهل الكتاب لأنه إذا جاز أن تختلف قبلتاهما للمصلحة جاز أن تكون المصلحة في ثالث ، وأما حمل الآية على الاستقبال ففيه إشكال وهو أن قوله : ﴿ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ﴾ ينفي أن يكون أحد منهم قد اتبع قبلة الآخر لكن ذلك قد وقع فيفضي إلى الخلف ، وجوابه أنا إن حملنا أهل الكتاب على علمائهم الذين كانوا في ذلك الزمان فلم يثبت عندنا أن أحداً منهم يتبع قبلة الآخر فالخلف غير لازم ، وإن حملناه على

الكل قلنا إنه عام دخله التخصيص . أ هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 4 صـ 114 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾

سؤال : من المخاطب فى الآية الكريمة ؟

(208/69)

الجواب : اختلفوا في المخاطب بهذا الخطاب ، قال بعضهم : الرسول وقال بعضهم : الرسول وغيره . وقال آخرون : بل غيره ، لأنه تعالى عرف أن الرسول لا يفعل ذلك فلا يجوز أن يخصه بهذا الخطاب ، وهذا القول الثالث خطأ لأن كل ما لو وقع من الرسول لقبح ، والالجاء عنه مرتفع ، فهو منهى عنه ، وإن كان المعلوم منه أنه لا يفعله ، ويدل عليه وجوه . أحدها : أنه لو كان كل ما علم الله أنه لا يفعله وجب أن لا ينهاه عنه ، لكان ما علم أنه يفعله وجب أن لا يأمره به ، وذلك يقتضي أن لا يكون النبي مأموراً بشيء ولا منهياً عن شيء وأنه بالاتفاق باطل . وثانيها : لولا تقدم النهي والتحذير لما احترز النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ عنه فلما كان ذلك الاحتراز مشروطاً بذلك النهي والتحذير فكيف يجعل ذلك الاحتراز منافياً للنهي والتحذير . وثالثها : أن يكون الغرض من النهي والوعيد أن يتأكد قبح ذلك في العقل ،

فيكون الغرض منه التأكيد ولما حسن من الله التنبيه على أنواع الدلائل الدالة على التوحيد بعد ما قررها في العقول والغرض منه تأكيد العقل بالنقل فأي بعد في مثل هذا الغرض ههنا .

ورابعاً : قوله تعالى في حق الملائكة :

(209/69)

﴿ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّى إِلَه مِّن دُونِهِ فذلك نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ﴾ [الأنبياء : 29] مع أنه تعالى أخبر عن عصمتهم في قوله : ﴿ يخافون رَبَّهُمْ مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [النمل : 50] وقال في حق محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ [الزمر : 65] وقد أجمعوا على أنه عليه الصلاة والسلام ما أشرك وما مال إليه ، وقال : ﴿ يا أَيُّهَا النبى اتق الله وَلاَ تُطِعِ الكافرين والمنافقين ﴾ [الأحزاب : 1] وقال تعالى : ﴿ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾ [القلم : 9] وقال : ﴿ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ [المائدة : 67] وقوله : ﴿ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ المشركين ﴾ [الأنعام : 14] فثبت بما ذكرنا أنه عليه الصلاة والسلام منهي عن ذلك ، وأن غيره أيضاً منهي عنه لأن النهي عن هذه الأشياء ليس من خواص الرسول عليه الصلاة والسلام بقي أن يقال : فلم خصه بالنهي دون غيره ؟

فنقول فيه وجوه ، أحدها : أن كل من كان نعم الله عليه أكثر ، كان صدور الذنب منه أقبح ، ولا شك أن نعم الله تعالى على الرسول عليه الصلاة والسلام أكثر فكان حصول الذنب منه أقبح فكان أولى بالتخصيص . وثانيها : أن مزيد الحب يقتضي التخصيص بمزيد التحذير . وثالثها : أن الرجل الحازم إذا أقبل على أكبر أولاده وأصلحهم فزجره عن أمر بحضرة جماعة أولاده فإنه يكون منبهاً بذلك على عظم ذلك الفعل إن اختاروه وارتكبوه وفي عادة الناس أن يوجهوا أمرهم ونهيهم إلى من هو أعظم درجة تنبيهاً للغير أو توكيداً ، فهذه قاعدة مقررة في أمثال هذه الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 4 صـ 116.115 ﴾

وقال الثعالبى :

(210/69)

وقوله تعالى : ﴿ وَلَئِنِ اتبعت أَهْوَاءهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ العلم . . . ﴾ الآية : خطاب للنبيِّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمرادُ أمته ، وما ورد من هذا النوع الَّذي يوهمُ من النبيِّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ ظُلْماً متوقّعاً ، فهو محمولٌ على إرادة أمته ؛ لعصمة النبيِّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وقَطْعاً أن ذلك لا يكُونُ منْه ، وإنما المرادُ مَنْ يمكن أن يقع ذلك منه ،

وخوطِبَ النبيُّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ تعظيماً للأمر ، قال الفَخْر : ودلَّت هذه الآية على أن توجه الوعيد على العلماء أشدُّ من توجُّهه على غيرهم ؛ لأن قوله : ﴿ مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ العلم ﴾ يدلُّ على ذلك . انتهى ، وهو حَسَنٌ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الجواهر الحسان حـ 1 صـ 117 ﴾

وقال فى روح البيان :

وهذه الجملة الشرطية الفرضية واردة على منهاج التهييج والإلهاب للثبات على الحق وفيه لطف للسامعين وتحذير لهم عن متابعة الهوى فإن من ليس من شأنه ذلك إذا نهى عنه ورتب على فرض وقوعه ما رتب من الانتظام فى سلك الراسخين فى الظلم فما ظن من ليس كذلك . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح البيان حـ 1 صـ 315 ﴾

وقال البيضاوى :

﴿ وَلَئِنِ اتبعت أَهْوَاءهُم مّن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ العلم ﴾ على سبيل الفرض والتقدير ، أي : ولئن اتبعتهم مثلاً بعد ما بان لك الحق وجاءك فيه الوحي ﴿ إِنَّكَ إِذَا لَّمِنَ الظالمين ﴾ وأكد تهديده وبالغ فيه من سبعة أوجه : أحدها : الإتيان باللام الموطئة للقسم . ثانيها : القسم المضمر . ثالثها : حرف التحقيق وهو أن . رابعها : تركيبه من جملة فعلية وجملة اسمية . وخامسها : الإتيان باللام في الخبر . وسادسها : جعله من ﴿ الظالمين ﴾ ، ولم يقل إنك ظالم لأن في الاندراج معهم إيهاماً بحصول أنواع الظلم . وسابعها : التقييد بمجيء العلم تعظيماً

للحق المعلوم ، وتحريضاً على اقتفائه وتحذيراً عن متابعة الهوى ، واستفظاعاً لصدور الذنب عن الأنبياء . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 1 صـ 423 ﴾

(211/69)

من أنفس ما قيل فى هذا الموضع وما شابهه

﴿ ولئن اتبعت أهواءهم ﴾ .

ولما كان هذا السياق لأمر القبلة فقط قال : ﴿ من بعد ما جاءك من العلم ﴾

قال الحرالي : فأبهمه ولم يكن نحو الأول الذي قال فيه " بعد الذي " لظهور ما ذكر في الأول وخفاء ما وقعت إليه الإشارة في هذا وجاءت فيه " من " التي هي لابتداء من أولية لخفاء مبدأ أمر ما جاء من العلم هنا وظهور ذلك الأول ، لأن ذلك كان في أمر الملة التي مأخذها العقل ، وهذه في أمر التوجيه الذي مأخذه الدين والغيب ، قال الحرالي : قال تعالى : ﴿ إنك إذاً لمن الظالمين ﴾ على حد ما ذكر من أنه من لمح لمحاً من وصف كان من الموصوف به بألطف لطف ووصف كل رتبة بحسبها ، فما يرفع عنه النبي - صلى الله عليه وسلم - من باب إظهار رغبته وحرصه على هداية الخلق الذي جبل على الرحمة فيه وطلب المسامحة في التقاصر عنه نظراً منه إلى حق الله تعالى ومضمون وصية الله تعالى له حين أوصاه بغير

ترجمان ولا واسطة أن يصفح عمن ظلمه ويصل من قطعه ، فكان ـ صلى الله عليه وسلم ـ يطلب وصل المنقطع عنه حتى يعلن عليه بالإكراه في ترك ذلك وودعه فيجيبه حكماً وإن كان معه علماً ، ومنه قوله : " اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون "

(212/69)

ففي طيّ كل خطاب له يظهر الله عز وجل فيه إكراهه على أخذ حكم الحق وإمضاء العدل أعظم مدحة له والتزام لوصيته إياه ، فهو ممدوح بما هو مخاطب بخطاب الإكراه على إمضاء العدل والاختصار في أمر رحمته للعالمين ، فرفعه الله أن يكون ممن يضع رحمة في موضع استحقاق وضع النقمة ، فذلك الذي بجمع معناه بين متقابل الظالمين فيمن يضع النقمة موضع الرحمة فيكون أدنى الظلم ، أو من يضع الرحمة في موضع النقمة فيكون منه بتغيير الوضع بوضع الفضل موضع العدل ؛ وعلى ذلك جميع ما ورد في القرآن من نحو قوله : ﴿ فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فسئل الذين يقرءون الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك ﴾ أي في إمضاء العدل ﴿ فلا تكونن من الممترين ﴾ [يونس : 94] في طلب الفضل لأهل العدل فإن الله يمضي عدله كما يفيض فضله ، وكذلك قوله : ﴿ عبس وتولى أن جاءه الأعمى ﴾ [عبس : 1-2] فيه إظهار لمدحته بحرصه على تألف الأبعدين ووصل

القاطعين حتى ينصرف عنهم بالحكم وإشادة الإكراه عليه في ذلك ، فلا ينصرف عن حكم الوصية إلى حكم الكتاب بالحق إلا عن إشادة بإكراهه عليه ، فهو محمود بما هو منهي عنه ، لأن خطابه أبداً في ذلك في القرآن فيما بين الفضل والعدل ، وخطاب سائر الخلق جار فيما بين العدل والجور (1) ، فبين الخطابين ما بين درج العلو ، ودرك السفل في مقتضى الخطابين المتشابهين في القول المتباينين في العلم – انتهى . ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 268. 269 ﴾

---

(1) هذا الكلام من أنفس ما قيل فى آيات العتاب للرسول الأكرم ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن خلال دراستى لكل آيات العتاب تبين لى أنها فى حقيقتها مدح لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكمال إلى كمال ورفعة إلى رفعه ، وسيأتى الكلام على ذلك بالتفصيل إن شاء الله تعالى عند قوله تعالى ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . ـ الأنفال (67) ﴾

وقوله تعالى ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ . . التوبة (43) ﴾

لطيفة

وجاء في هذا المكان "مِنْ بعْدِ مَا جَاءَكَ" وقال قبل هذا : ﴿بَعْدَ الذي جَآءَكَ﴾ [البقرة : 120] وفي "الرعد" : ﴿بَعْدَ مَا جَآءَكَ﴾ [الرعد : 37] فلم يأت بـ "من" الجارة إلا هنا ، واختص موضعاً بـ "الذين" ، وموضعين بـ "ما" ، فما الحكمة في ذلك ؟

والجواب : ما ذكره بعضهم وهو أن "الذي" أخص و"ما" أشد إبهاماً ، فحيث أتي بـ "الذي" أشير به إلى العلم بصحّة الدين الذي هو الإسلام المانع من ملّتي اليهود والنصارى ، فكان اللفظ الأخص الأشهر أولى فيه ؛ لأنه علم بكل أصول الدين ، وحيث أتي بلفظ "ما" أشير به إلى العلم [بركنين] من أركان الدين ، أحدهما : القبلة ، والأخر : بعض الكتاب ؛ لأنه أشار إلى قوله : ﴿وَمِنَ الأحزاب مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ﴾ [الرعد : 36] .

قال : وأما دخول "من" : ففائدته ظاهرة ، وهي بيان أول الوقت الذي وجب عليه - عليه السلام - أن يخالف أهل الكتاب في قبلتهم ، والذي يقال في هذا : إنه من باب التنوع من البلاغة . أهـ . ﴿تفسير ابن عادل حـ 3 صـ 50﴾

ومن فوائد القاسمى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ ﴾

أي : من اليهود والنصارى : ﴿ بِكُلِّ آيَةٍ ﴾ أي : برهان قاطع أن التوجه إلى الكعبة هو الحق : ﴿ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ ﴾ أي : هذه التي حوّلت إليها ؛ لأن تركهم اتباعك ليس عن شبهة تزيلها بإيراد الحجة ، إنما هو عن مكابرة وعناد ، مع علمهم بما في كتبهم من نعتك أنك على الحق ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ﴾ هذا حسم لأطماعهم في العود إليها ، أو للمقابلة ؛ يعني ما هم بتاركي باطلهم ، وما أنت بتارك حقك ﴿ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ﴾ فلا أتفاق بين فريقيهم ، مع كون الكل من بني إسرائيل .

قال الزمخشري : أخبر تعالى عن تصلب كل حزب فيما هو فيه وثباته عليه ، فالمحق منهم لا يزلّ عن مذهبه لتمسكه بالبرهان ، والمبطل لا يقلع عن باطله لشدة شكيمته في عناده ، وفيه إراحة للنبي صلى الله عليه وسلم من التطلع إلى هدى بعضهم .

فوائد :

الأولى : قال الراغب : إن قيل كيف أعلم بأنهم لا يتبعون قبلته وقد آمن منهم فريق ؟ قيل : قال بعضهم : إن هذا حكم على الكل دون الأبعاض ، وهذا صحيح ؛ بدلالة أنك لو قلت : ما آمنوا ولكن آمن بعضهم ، لم يكن منافياً . وقيل : عني به أقوام مخصوصون .

الثانية : قال الراغب : في قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ﴾ إشارة على أن من عرف الله حق معرفته ، فمن المحال أن يرتد ، ولذا قيل : ما رجع من رجع إلا من الطريق : أي : ما أخل بالإيمان إلا من لم يصل إيه حق الوصول .

(215/69)

إن قيل : فقد يوجد من يحصل له معرفة الله ثم يرتدّ ! . قيل : إن الذي يقدّر أنه معرفة ، هو ظن متصور بصورة العلم . فأما أن يحصل له العلم الحقيقي ثم يعقبه الارتداد فبعيد ، ولم يعن بهذه المعرفة ما جعله الله تعالى للإنسان بالفطنة ، فإن تكل كشررة تخمد إذا لم تتوقد .

الثالثة : قال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى ، في [في المطبوع : وفي] " بدائع الفوائد " : قبلة أهل الكتاب ليست بوحي وتوقيف من الله . بل بمشورة واجتهاد منهم . أما النصارى فلا ريب أن الله لم يأمرهم في الإنجيل ولا في غيره باستقبال المشرق ، وهم يقرّون بأن قبلة المسيح قبلة بني إسرائيل ، وهي الصخرة ، وإنما وضع لهم أشياخهم هذه القبلة ، فهم مع اليهود ، متفقون على أن الله لم يشرع استقبال بيت المقدس على رسوله أبداً . والمسلمون شاهدون عليهم بذلك الأمر . وأما اليهود فليس في التوراة الأمر باستقبال الصخرة البتة ، وإنما كانوا ينصبون التابوت ويصلون إليه من حيث خرجوا ، فإذا قدموا نصبوه على

الصخرة وصلوا إليه ، فلما رفع صلوا إلى موضعه وهو الصخرة . وقوله : ﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ بعد الإفصاح عن حقيقة حاله المعلومة عنده في قوله : ﴿ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ﴾ كلام وارد على سبيل الفرض والتقدير ؛ بمعنى : ولئن اتبعتهم ، مثلاً ، بعد وضوح البرهان والإحاطة بحقيقة الأمر : ﴿ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ أي : المرتكبين الظلم الفاحش .

وفي ذلك لطف للسامعين وزيادة تحذير واستفظاع لحال من يترك الدليل بعد إثارته ، ويتبع الهوى ، وتهييجٌ وإلهاب للثبات على الحق . أفاده الزمخشريّ .

تنبيهات :

الأول : قال الراغب : حذر تعالى نبيه من إتباع أهوائهم ، ونبه أن إتباع الهوى بعد التحقيق بالعلم يدخل متحريه في جملة الظلمة ، وقد أكثر الله تحذيره من الجنوح إلى الهوى حتى كرر ذلك في عدة مواضع . وقول من قال : الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، والمعنيّ به الأمة ، فلا معنى لتخصصه . فإن الله تعالى يحذر نبيه من إتباع الهوى أكثر مما يحذر غيره ، فذو المنزلة الرفيعة إلى تحذير الإنذار عليه أحوج ، حفظاً لمنزلته وصيانة لمكانته . وهو كلام

نفيس جداً .

الثاني : في الآية تنويه بشأن العلم ؛ حيث سمى أمر النبوات والدلائل والمعجزات باسم العلم ، فذلك ينبه على أن العلم أعظم المخلوقات شرفاً ومرتبة .

الثالث : دلت الآية على أن توجه الوعيد على العلماء أشد من توجهه على غيرهم ؛ لأن قوله تعالى : ﴿ مِّن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ يدل على ذلك . ذكره الرازيّ . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 2 صـ 472.470 ﴾

(217/69)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذاً لَّمِنَ الظَّالِمِينَ (145) ﴾

اتباع القبلة مظهر إيماني في الدين ، فما دمت آمنت بدينك فاتبع قبلتك . . لا أؤمن بدينك لا اتبع قبلتك . وقوله تعالى : " ولئن أتيت " ساعة تسمع " ولئن " واو ولام وإن . . هذا قسم

فكأن الحق تبارك وتعالى أقسم أنه لو أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل الكتاب بكل آية ما آمنوا بدينه ولا اتبعوا قبلته . . لماذا ؟ لأنهم لا يبحثون عن دليل ولا يريدون الاقتناع بصحة الدين الجديد . . ولو كانوا يريدون دليلا أو اقتناعا لوجدوه في كتبهم التي أنبأتهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنه النبي الخاتم وأعطتهم أوصافه . . فكأن الدليل عندهم ولكنهم يأخذون الأمر سفها وعنادا ومكابرة .

وقوله تعالى : " وما أنت بتابع قبلتهم " . . فكأنه حين جاءت بتغير القبلة أعلمنا الله أن المسلمين لن يعودوا مرة أخرى إلي الاتجاه نحو بين المقدس ولن يحولهم الله إلي جهة ثالثة . . ولكي يعلمنا الله سبحانه وتعالى أن اليهود والنصارى سيكونون في جانب ونحن سنكون في جانب آخر . . وأنه ليس هناك التقاء بيننا وبينهم . قال سبحانه : " وما بعضهم بتابع قبلة بعض " . . فالخلاف في القبلة مستمر إلي يوم القيامة . وقول الحق : " ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين " . . حين يخاطب الله سبحانه وتعالى رسوله وحبيبه محمداً صلى الله عليه وسلم بهذه الآية . . وهو يعلم أن محمدا الرسول المعصوم لا يمكن أن يتبع أهواءهم . . نقول إن المقصود بهذه الآية هي أمة محمد صلى الله عليه وسلم .

إن الله يخاطب أمته في شخصه قائلا : " ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذاً لمن الظالمين" . . ما هي أهواء أهل الكتاب ؟ هي أن يهادنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أو يقول إن ما حرفوه في كتبهم أنزله الله . . وهكذا يجعل هوى نفوسهم أمراً متبعا . . فكأن الله سبحانه وتعالى يريد أن يلفت أمة محمد عليه الصلاة والسلام . . إلى أن كل من يتبع أهواء أهل الكتاب وما حرفوه سيكون من الظالمين مهما كانت درجته من الإيمان . . وإذا كان الله تبارك وتعالى لن يقبل هذا من رسوله وحبيبه فكيف يقبله من أي فرد من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ؟ إن الخطاب هنا يمس قمة من قمم الإيمان التي تفسد العقيدة كلها . . والله سبحانه وتعالى يريدنا أن نعرف أنه لا يتسامح فيها ولا يقبلها حتى لو حدثت من رسوله ولو أنها لن تحدث . . ولكن لنعرف أنها مرفوضة تماما من الله على أي مستوى من مستويات الإيمان حتى في مستوى القمة فتبتعد أمة محمد عن مثل هذا الفعل تماما . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 634.633 ﴾

من الحكم العظيمة والمنن الجسيمة فى تحويل القبلة

قال العلامة ابن القيم - رحمه الله - :

وكان لله في جعل القبلة إلى بيت المقدس ثم تحويلها إلى الكعبة حكم عظيمة ومحنة للمسلمين والمشركين واليهود والمنافقين

فأما المسلمون فقالوا : سمعنا وأطعنا وقالوا : ﴿ آمنا به كل من عند ربنا ﴾ (آل عمران : 7) وهم الذين هدى الله ولم تكن كبيرة عليهم

وأما المشركون فقالوا : كما رجع إلى قبلتنا يوشك أن يرجع إلى ديننا وما رجع إليها إلا أنه الحق

وأما اليهود فقالوا : خالف قبلة الأنبياء قبله ولو كان نبيا لكان يصلي إلى قبلة الأنبياء

وأما المنافقون فقالوا : ما يدري محمد أين يتوجه إن كانت الأولى حقا فقد تركها وإن كانت الثانية هي الحق فقد كان على باطل وكثرت أقاويل السفهاء من الناس وكانت كما قال الله تعالى : ﴿ وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله ﴾ (البقرة : 143) وكانت محنة من الله امتحن بها عباده ليرى من يتبع الرسول منهم ممن ينقلب على عقبيه

ولما كان أمر القبلة وشأنها عظيما وطأ - سبحانه - قبلها أمر النسخ وقدرته عليه وأنه يأتي بخير من المنسوخ أو مثله ثم عقب ذلك بالتوبيخ لمن تعنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم ينقد له ثم ذكر بعده اختلاف اليهود والنصارى وشهادة بعضهم على بعض بأنهم

ليسوا على شئ وحذر عباده المؤمنين من موافقتهم واتباع أهوائهم ثم ذكر كفرهم وشركهم به وقولهم : إن له ولدا سبحانه وتعالى عما يقولون علوا ثم أخبر أن له المشرق والمغرب وأينما يولي عباده وجوههم فثم وجهه وهو الواسع العليم فلعظمته وسعته وإحاطته أينما يوجه العبد فثم وجه الله

(220/69)

ثم أخبر أنه لايسأل رسوله عن أصحاب الجحيم الذين لا يتابعونه ولا يصدقونه ثم أعلمه أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى لن يرضوا عنه حتى يتبع ملتهم وأنه إن فعل وقد أعاذه الله من ذلك فماله من الله من ولي ولا نصير ثم ذكر أهل الكتاب بنعمته عليهم وخوفهم من بأسه يوم القيامة ثم ذكر خليله باني بيته الحرام وأثنى عليه ومدحه وأخبر أنه جعله إماما للناس يأتم به أهل الأرض ثم ذكر بيته الحرام وبناء خليله له وفي ضمن هذا أن باني البيت كما هو إمام للناس فكذلك البيت الذي بناه إمام لهم ثم أخبر أنه لا يرغب عن ملة هذا الإمام إلا أسفه الناس ثم أمر عباده أن يأتموا برسوله الخاتم ويؤمنوا بما أنزل إليه وإلى إبراهيم وإلى سائر النبيين ثم رد على من قال : إن إبراهيم وأهل بيته كانوا هودا أو نصارى وجعل هذا كله توطئة ومقدمة بين يدي تحويل القبلة ومع هذا كله فقد كبر ذلك على الناس إلا من هدى الله

منهم وأكد سبحانه هذا الأمر مرة بعد مرة بعد ثالثة وأمر به رسوله حيثما كان ومن حيث خرج وأخبر أن الذي يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم هو الذي هداهم إلى هذه القبلة وأنها هي القبلة التي تليق بهم وهم أهلها لأنها أوسط القبل وأفضلها وهم أوسط الأمم وخيارهم فاختار أفضل القبل لأفضل الأمم كما اختار لهم أفضل الرسل وأفضل الكتب وأخرجهم في خير القرون وخصهم بأفضل الشرائع ومنحهم خير الأخلاق وأسكنهم خير الأرض وجعل منازلهم في الجنة خير المنازل وموقفهم في القيامة خير المواقف فهم على تل عال والناس تحتهم فسبحان من يختص برحمته من يشاء وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المعاد حـ 3 صـ 95 ﴾

(221/69)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (145)

قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : قول سيبويه وهو أن " اللام " هي الموطّئة للقسم المحذوف ، و" إن " شرطية ، فقد اجتمع شرط وقسم ، وسبق القسمن فالجواب له إذ لم يتقدمهما ذو خبر .

فلذلك جاء الجواب للقسم بـ " ما " النافية وما بعدها ، وحذف جواب الشرط لسدّ جواب القسم مسده ، ولذلك جاء فعل الشرط ماضياً ؛ لأنه متى حذف الجواب وجب مضيّ فعل الشرط إلا في ضرورة ، و" تَبِعُوا " وإن كان ماضياً لفظاً فهو مستقبل معنى أي : ما يتبعون لأن الشرط قيد في الجملة والشرط مستقبل ، فوجب أن يكون مضمون الجملة مستقبلاً ضرورة أن المستقبل لا يكون شرطاً في الماضي .

الثاني : وهو قول الفراء ، وينقل أيضاً عن الأخفش والزجاج أن " إن " بمعنى " لو " ، ولذلك كان " ما " في الجواب ، وجعل " ما تَبِعُوا " جواباً لـ " إن " لأنها بمعنى " لو " .

أما إذا لم تكن بمعناها ، فلا تجاب بـ " ما " وحدها ، بل لا بد من الفاء ، تقول : إن تزرني فما أزورك .

ولا يجيز الفراء : " ما أزورك " بغير فاء

وقال ابن عطية : وجاء جواب " لئن " كجواب " لو " ، وهي ضدها في أنَّ " لو " تطلب المضي والوقوع ، و" إنْ " تطلب الاستقبال ؛ لأنهما جميعاً يترتب قبلهما القسم ، فالجواب إنما هو للقسم ؛ لأن أحد الحرفين يقع موضع الآخر هذا قول سيبويه .

قال أبو حيان : هذا فيه تشبيح ، وعدم نصّ على المراد ؛ لأن أوله يقتضي أن الجواب لـ " إن " ، وقوله بعد : الجواب للقسم يدل على أنه ليس لـ " إن " ، وتعليله بقوله : لأن أحد الحرين يقع موقع الآخر لا يصلح علة لكون " ما تَبِعُوا " جواباً للقسم ، بل لكونه جواباً لـ " إن " .

وقوله : " قول سيبويه " ليس في كتاب سيبويه ذلك ، إنما فيه أن " ما تبعوا " جواب القَسَم ، ووقع فيه الماضي موقع المستقبل .

قال سيبويه وقالوا : لئن فعلت ما فعل ، يريد معنى ما هو فاعل وما يفعل .

وتلّخص مما تقدم أن قوله : " مَا تَبِعُوا " فيه قولان :

أحدهما : أنه جواب للقسم سادّ مسدّ جواب الشرط ، ولذلك لم يقترن بالفاء .

والثاني : أنه جواب لـ " إن " إجراء لها مجرى " لو " .

وقال أبو البقاء : " ما تَبِعُوا " أي : لا يتبعوا فهو ماض في معنى المستقبل ، ودخلت " ما " حملاً على لفظ الماضي ، وحذفت الفاء في الجواب ؛ لأن فعل الشرط ماض .

وقال الفراء : " إِنْ " هنا بمعنى " لو " .

وهذا من أبي البقاء يؤذن أن الجواب للشرط وإنما حذفت الفاء لكون فعل الشرط ماضياً ، وهذا منه غير مُرْضٍ ؛ لأنه خالف البصريين والكوفيين بهذه المَقَالَة .

فصل في لفظ " آية "

" الآية " : وزنها " فَعَلَة " أصلها : أَيَية " ، فاستثقلوا التشديد في الآية فأبدلوا من الياء الأولى ألفاً لانفتاح ما قبلها .

والآية : الحُجّة والعلامة ، وآية الرجل : شخصه ، وخرج القول بآيتهم أي : جماعتهم .

وسميت آية القرآن بذلك ؛ لأنها جماعة حروف .

وقيل : لأنها علامة لانقطاع الكلام الذي بعدها .

وقيل : لانها دالة على انقطاعها عن المخلوقين ، وأنها ليست إلا من كلام الله تعالى .

قوله : ﴿ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ﴾ .

" ما " تحتمل الوجهين أعني : كونها حجازية ، أو تميمية : فعلى الأول يكون " أنت " مرفوعاً بها ، و" بتابع " في محلّ نصب .

(223/69)

وعلى الثاني يكون مرفوعاً بالابتداء ، و" بتابع " في محلّ رفع ، وهذه الجملة معطوفة على جملة الشرط ، وجوابه لا على الجواب وحده ، إذ لا يحل محله ؛ لأن نفس تبعيتهم لقبلته مقيد بشرط لا يصح أن يكون قيداً في نفي تبعيته قبلتهم ، وهذه الجملة أبلغ في النفي من قوله : ﴿ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ﴾ من وجوه :

أحدها : كونها اسمية متكررة فيها الاسم ، مؤكد نفيها بالباء .

ووحّد القبلة وإن كانت مثناة : لأن لليهود قبلة ، وللنصارى قبلة أخرى لأحد وجهين :

إما لاشتراكهما في البطلان صارا قبلة واحدة ، وإما لأجل المقابلة في اللفظ ؛ لأن قبله : ﴿ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ﴾ .

وقرئ : ﴿ بِتَابِعٍ قِبْلَتِهِمْ ﴾ بالإضافة تخفيفاً ؛ لأن اسم الفاعل المستكمل لشروط العمل يجوز فيه الوجهان .

واختلف في هذه الجملة : هل المراد بها النهي أي : لا تتبع قبلتهم ، ومعناه : الدوام على ما أنت عليه ؛ لأن معصوم من اتباع قبلتهم ، أو الإخبار المَحْض بنفي الأتّباع ، والمعنى أن هذه القبلة لا تصير مَنْسوخة ، أو قطع رجاء أهل الكتاب أن يعود إلى قبلتهم ؟ قولان مشهوران .

قوله : ﴿ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ﴾ .

قال القفال : هذا يمكن حمله على الحال وعلى الاستقبال .

أما على الحال فمن وجوه :

الأول : أنهم ليسوا مجتمعين على قِبْلَةٍ واحدة حتى يمكن إرضاؤهم باتباعها .

الثاني : أن اليهود والنصارى مع اتفاقهم على تكذيبك متباينون في القبلة ، فكيف يدعونك إلى ترك قبلتك ، مع أنهم فيما بينهما مختلفون .

الثالث : أن هذا إبطال لقولهم : إنه لا يجوز مخالفة أهل الكتاب ؛ لأنه إذا جاز أن تختلف قبلتاهما للمصلحة جاز أن تكون المصلحة في ثالث .

(224/69)

وما حمل الآية على الاستقبال ففيه إشكال وهو أن قوله : ﴿ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ﴾ ينفي أن يكون أحد منهم قد اتبع قبلة الآخر ، لكن ذلك قد وقع فيفضي إلى الخلف ، وجوابه أنا إن حملنا أهل الكتاب على علمائهم الذين كانوا في ذلك الزمان ، فلم يثبت عندنا أن أحداً منهم تبع قبلة الآخر ، فالخلف غير لازم .

وإن حملناه على الكل قلنا : إنه عامّ دخله التخصيص .

قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنِ اتبعت أَهْوَآءَهُمْ ﴾ [البقرة : 120] كقوله : ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ﴾ .

وقوله : " إِنَّكَ " جواب القسم ، وجواب الشرط محذوف كما تقدم في نظيره .

قال أبو حيان : لا يقال : إنه يكون جواباً لهما لامتناع ذلك لفظاً ومعنى .

أما المعنى فلأن الاقتضاء مختلف ، فاقتضاء القسم على أنه لا عمل له فيه ؛ لأن القَسَم إنما جيء به توكيداً للجملة المقسم عليها ، وما جاء على سبيل التوكيد لا يناسب أن يكون عاملاً ، واقتضاء الشرط على أنه عامل فيه ، فتكون الجملة في موضع جزم ، وعمل

الشرط لقوة طلبه له .

وأم اللفظ فإن هذه الجملة إذا كانت جواب قسم لم تحتج إلى مزيد رابط ، فإذا كانت جواب شرط احتاجت إلى مزيد رابط وهو الفاء ، ولا يجوز أن تكون خالية من الفاء موجودة فيها ، فلذلك امتنع أن تكون جواباً لهما معاً .

فصل في الهوى

الهوى المقصور : هو ما يميل إليه الطبع [وقيل : هو شهوة نتجت عن شبهة ، والممدود هو الجو] . ؟

[قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظالمين ﴾ أي إنّك لو فعلت ذلك لكنت بمنزلة القوم في كفرهم ، وظلمهم أنفسهم] .

و" إذاً " حرف جواب وجزاء بنص سيبويه ، وتنصب المضارع بثلاثة شروط :

أن تكون صدراً ، وألا يفصل بينها وبين الفعل بغير الظرف والقسم ، وألا يكون الفعل حالاً ، ودخلت هنا بين اسم " إن " وخبرها لتقرير النسبة بينهما وكان حدها أن تتقدم أو تتأخر ، فلم تتقدم ، لأنه سبق قسم وشرط والجواب هو للقسم ، فلو تقدمت لتوهّم أنها لتقرير

النسبة التي بين الشرط والجواب المحذوف ، ولم تتأخر لئلا تفوت مناسبة الفواصل رؤوس الآي .

قال أبو حيان : وتحرير معنى " إذاً " صعب اضطرب الناس في معناها ، وفي فهم كلام سيبويه فيها ، وهو أن معناها الجواب والجزاء .

قال : والذي تحصل فيها أنها لا تقع ابتداء كلام ، بل لا بد أن يسبقها كلام لفظاً أو تقديراً ، وما بعدها في اللفظ أو التقدير ، وإن كان متسبباً عما قبلاه فهي في ذلك على وجهين :

أحدهما : أن تدلّ على إنشاء الارتباط والشرط ، بحيث لا يفهم الارتباط من غيرها ، مثال ذلك : أزورك فتقول : إذاً أزورك ، فإنما تريد الآن أن تجعل فعله شرطاً لفعلك ، وإنشاء السببية في ثاني حال من ضرورته أن يكون في الجواب ، وبالفعلية في زمان مستقبل ، وفي هذا الوجه تكون عاملة ، ولعملها شروط مذكورة في النحو .

الوجه الثاني : أن تكون مؤكّدة لجواب ارتبط بمقدم ، أو مبّهة على مسبب حصل في الحال ، وهي في الحالين غير عاملة ؛ لأن المؤكدات لا يعتمد عليها والعامل يعتمد عيله ، وذلك ، نحو : " إن تأتني إذاً آتك " ، و" والله إذاً لأفعلن " فلو أسقطت " إذاً " لفهم الارتباط ، ولما كانت في هذا الوجه غير معتمد عليها جاز دخولها على الجملة الاسمية الصريحة نحو : " أزورك " فتقول : " إذاً أنا أكرمك " ، وجاز توسطها نحو : " أنا إذاً أكرمك " وتأخرها ، وإذا تقرر هذا فجاءت " إذاً " في الآية مؤكدة للجواب المرتبط بما تقدم ، وإنما قررت معناها هنا ؛

لأنها كثيرة الدور في القرآن ، فتحمل في كل موضع على ما يناسب من هذا الذي قررناه انتهى كلامه .

(226/69)

واعلم أنها إذا تقدمها عاطف جاز إعمالها وإهمالها ، وهو الأكثر ، وهي مركبة من " همزة وذال ونون " ، وقد شبهت العرب نونها بتنوين المنصوب قلبوها في الوقف ألفاً ، وكتبوها في الكتاب على ذلك ، وهذا نهاية القول فيها .

وجاء في هذا المكان " مِنْ بعْدِ مَا جَاءَكَ " وقال قبل هذا : ﴿ بَعْدَ الذي جَآءَكَ ﴾ [البقرة : 120] وفي " الرعد " : ﴿ بَعْدَ مَا جَآءَكَ ﴾ [الرعد : 37] فلم يأت بـ " من " الجارة إلا هنا ، واختص موضعاً بـ " الذين " ، وموضعين بـ " ما " ، فما الحكمة في ذلك ؟ والجواب : ما ذكره بعضهم وهو أن " الذي " أخص و " ما " أشد إبهاماً ، فحيث أتي بـ " الذي " أشير به إلى العلم بصحّة الدين الذي هو الإسلام المانع من ملّتي اليهود والنصارى ، فكان اللفظ الأخص الأشهر أولى فيه ؛ لأنه علم بكل أصول الدين ، وحيث أتي بلفظ " ما " أشير به إلى العلم [بركنين] من أركان الدين ، أحدهما : القبلة ، والأخر : بعض الكتاب ؛ لأنه أشار إلى قوله : ﴿ وَمِنَ الأحزاب مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ ﴾ [الرعد : 36] .

قال : وأما دخول " : من " ففائدته ظاهرة ، وهي بيان أول الوقت الذي وجب عليه – عليه السلام – أن يخالف أهل الكتاب في قبلتهم ، والذي يقال في هذا : إنه من باب التنوع من البلاغة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 3 صـ 43.50 ﴾ . باختصار .

(227/69)

" من روائع الشيخ الصابونى فى الآيات "

﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (142) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (143) قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (144) وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ

إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (145) ﴾

[3] التوجه إلى الكعبة في الصلاة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

التحليل اللفظي

﴿ السفهآء ﴾ : أصل السفه في كلام العرب : الخفة والرقة ، يقال : ثوب سفيه إذا كان رديء النسخ خفيفه ، أو كان بالياً رقيقاً ، وسفّهته الرياح أي أمالته قال ذو الرمّة :

مشيْنَ كما اهتزّتْ رماحٌ تسفّهتْ . . . أعاليَها مرّ الرياح النّواسِمِ

(228/69)

والسّفه : ضد الحلم وهو خفة وسخافة يقتضيها نقصان العقل ، ولهذا سمّى الله الصبيان سفهاء ﴿ وَلَا تُؤْتُوا السفهآء أَمْوَالَكُمُ التي جَعَلَ الله لَكُمْ قياما ﴾ [النساء : 5] .

﴿ ولاهم ﴾ : يعني صرفهم ، يقال : ولّى عن الشيء وتولّى عنه أي انصرف ، وهو استفهام على جهة الاستهزاء والتعجب .

﴿ قِبْلَتِهِ ﴾ : القبلة من المقابلة وهي المواجهة ، وأصلها الحالة التي يكون عليها المقابل ، ثم خصّت بالجهة التي يستقبلها الإنسان في الصلاة .

﴿ وَسَطاً ﴾ : أي عدولاً خياراً ، ومنه قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ لَوْلاَ تُسَبِّحُونَ ﴾ [القلم : 28] أي خيرهم أو عدلهم ، قال الشاعر :

هم وسَطٌ يرضى الأنامُ بحكمِهم . . . إذا نزلت إحدى الليالي بمُعْظَم

وأصل هذا أنّ خير الأشياء أوساطها ، وأن الغلوّ والتقصير مذمومان .

قال الجوهري في " الصحاح " : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً ﴾ أي عدلاً ، وكذلك روي عن الأخفش ، والخليل .

وقال الزمخشري : وقيل للخيار وسطٌ ؛ لأن الأطراف يتسارع إليها الخلل ، والأوساط محميةٌ محوّطة ومنه قول أبي تمام .

كانت هي الوسط المحميّ فاكتنفت . . . بها الحوادثُ حتّى أصبحتْ طرفاً

﴿ عَقِبَيْهِ ﴾ : العقبان : تثنية عقب ، وهو مؤخر القدم ، والانقلابُ عليهما بمعنى الانصراف والرجوع ، يُقال : انقلب على عقبيه إذا انصرف عنه بالرجوع إلى الوراء .

والمعنى : لنعلم من يثبت على الإيمان ، ممّن يرتد عن دين الإسلام ، ويرجع إلى ما كان عليه من ضلال ، والكلام فيه استعارة كما سيأتي .

﴿ لَكَبِيرَةً ﴾ : أي شاقة ثقيلة تقول : كبر عليه الأمر أي اشتد وثقل .

﴿ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ : الرأفة هي الرحمة ، إلاّ أن الرأفة في دفع المكروه ، والرحمة أعم تشمل المكروه والمحبوب .

﴿ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ ﴾ : تقلّبُ الوجه في السماء : تردّده المرة بعد المرة فيها ، والسماءُ مصدر الوحي ، وقبلة الدعاء .

(229/69)

قال الزجاج : المراد تقلب عينيك في النظر إلى السماء .

وقال قطرب : تحول وجهك إلى السماء وهما متقاربان .

ومعنى الآية : كثيراً ما نرى تردّد وجهك ، وتصرّف نظرك في جهة السماء متشوقاً لنزول الوحي بتحويل القبلة إلى الكعبة .

﴿ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً ﴾ : أي لنمكننّك من استقبالها ، من قولك : وليّتُه كذا إذا جعلته والياً له ، فيكون من الولاية ، أو من التولي ، والمعنى : فلنجعلنّك متولياً جهتها ، وهذه بشارة من الله تعالى لرسوله الكريم بتوجيهه إلى القبلة التي يحب .

﴿ شَطْرَ المسجد ﴾ : والشطرُ في اللغة يكون بمعنى الجهة والناحية كما في هذه الآية ومنه قول الشاعر :

أقول لأمّ زِنْباعٍ أقيمي . . . صدورَ العيسِ شطرَ بني تميم

ويكون بمعنى النصف من الشيء والجزء منه ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : " الطهور

شطر الإيمان "

والشاطر : الشاب البعيد عن أهله ومنزله ، وهو من أعيا أهله خُبْثاً ، وسئل بعضهم عن الشاطر فقال : هو من أخذ في البعد عمّا نهى الله عنه .

ومعنى الآية : فولّ وجهك جهة المسجد الحرام أي جهة الكعبة .

﴿ أُوتُواْ الكتاب ﴾ : المراد بهم أحبار اليهود ، وعلماء النصارى ، والكتابُ : التوراةُ والإنجيل .

وجه المناسبة بين الآيات

كان صلوات الله عليه وهو بمكة يستقبل بيت المقدس في الصلاة ، كما كان أنبياء بني إسرائيل يفعلون ، ولكنه كان يحب استقبال الكعبة ، لأنها قبلة أبيه إبراهيم ، وقد جاء بإحياء ملته ، وتجديد دعوته ، ولأنها أقدم القبلتين ، وقد كان اليهود يقولون : يخالفنا محمد في ديننا ، ويتّبع قبلتنا ، ولولا ديننا لم يدر أين يتوجه في صلاته ، فكره النبي صلى الله عليه وسلم البقاء على قبلتهم ، حتى روي أنه قال لجبريل : وددت لو أنّ الله صرفني عن قبلة اليهود إلى غيرها ، وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يديم النظر إلى السماء رجاء أن يأتيه الوحي بتحويل القبلة إلى الكعبة .

وقد أخبر الله جل ثناؤه رسوله الكريم بما سيقوله السفهاء الجهال ، من اليهود المنافقين ، قبل تحويل القبلة ، ولقنّه الحجة البالغة ليردّ عليهم ، ويوطّن نفسه على تحمل الأذى منهم عند مفاجأة المكروه ، ويعدّ الجواب القاطع لحجة الخصم ، وقد قيل في الأمثال " مثل الرمي يراشُ السهم " وليكون الوقوع بعد الإخبار معجزة له عليه السلام .

المعنى الإجمالي

يقول الله جل ثناؤه ما معناه : سيقول السفهاء من الناس – وهم أهل الضلال من اليهود والمشركين والمنافقين – ما صرفهم وحوّلهم عن القبلة التي كانوا يتوجهون إليها جهة بيت المقدس وهي قبلة النبيّين والمرسلين من قبلهم ؟ قل لهم يا محمد : لله المشرق والمغرب ، الجهات كلّها لله ، وهو سبحانه يتصرف في ملكه كيف شاء على ما تقتضيه حكمته البالغة ، يهدي من شاء من عباده ، إلى الطريق القويم الموصل إلى سعادة الدارين .

وكما هديناكم – أيها المؤمنون – فخصصناكم بالتوفيق لقبلة إبراهيم وملته ، كذلك فضّلناكم على من سواكم من أهل الملل ، فجعلناكم أمة عدولاً خياراً ، لتشهدوا للأنبياء يوم القيامة على أممهم أنّهم قد بلّغوهم رسالة الله ، ويشهد لكم الرسول بالإيمان والاتباع لما جاء به من الدين الحنيف ، وما أمرناك بالتحول عن القبلة التي كنت عليها إلى الكعبة ، إلا ليتبيّن للناس الثابت على إيمانه من المتشكك في دينه ، الذي هو عرضة لرياح الشبهات التي يثيرها

أعداء الدين ، فينافق أو يكفر ، ويرتد عن دينه لأبسط الشبهات ، وما كان الله ليضيع صلاتكم ، إن الله رحيم بعباده ، لا يبتليهم ليضيع عليهم أعمالهم ، ولكنْ ليجزيهم أحسن الجزاء .

(231/69)

كثيراً ما رأينا تردّد بصرك – يا محمد – جهة السماء ، تطلعاً للوحي وتشوقاً لتحويل القبلة ، فلنوجهنّك إلى قبلة تحبها ، فتوجه في صلاتك نحو المسجد الحرام ، وأنتم – أيها المؤمنون – استقبلوا بصلاتكم جهته أيضاً ، فهي قبلتكم وقبلة أبيكم إبراهيم ، وإن أهل الكتاب ليعلمون أن ذلك التولي شطر المسجد الحرام ، هو الحق المنزل على نبيه صلى الله عليه وسلم ولكنّهم يفتنون ضعاف المؤمنين ، ليشككوهم في دينهم ، بإلقاء الشبهات والأباطيل في نفوسهم ، وما الله بغافل عما يعملون فهو جل ثناؤه العليم بالظاهر والباطن ، المحاسب على ما في السرائر .

سبب النزول

أ – أخرج البخاري ومسلم عن البراء بن عازب أن النبي صلى الله عليه وسلم كان أول ما نزل المدينة نزل على أخواله من الأنصار ، وأنه صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً ،

وكان يعجبه أن تكون قبلته إلى البيت ، وأنه صلى أول صلاة صلاها (صلاة العصر) وصلى معه قوم ، فخرج رجل ممن كان صلى معه فمر على أهل المسجد وهم راكعون ، فقال : أشهد بالله لقد صليت مع النبي صلى الله عليه وسلم قبل مكة ، فداروا كما هم قبل البيت ، وكان الذي قد مات على القبلة قبل أن تحول قبل البيت رجالاً قتلوا لم ندر ما نقول فيهم فأنزل الله : ﴿ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ﴾ .

ب – وعن البراء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصلي نحو بيت المقدس ، ويكثر النظر إلى السماء ينتظر أمر الله فأنزل الله : ﴿ قَدْ نرى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السمآء ﴾ فقال رجال من المسلمين : وددنا لو علمنا علم من مات منا قبل أن تصرف إلى القبلة ، وكيف بصلاتنا نحو بيت المقدس فأنزل الله : ﴿ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ﴾ .

وجوه القراءات

أولاً : قرأ الجمهور ﴿ إِنَّ الله بالناس لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ بالمد في ﴿ رؤوف ﴾ مع الهمز على وزن فعول ، وقرأ الكسائي وحمزة ﴿ لَرَءُوفٌ ﴾ على وزن رَعُف ، ويقال : هو الغالب على أهل الحجاز ، قال جرير :

ترى للمسلمين عليكَ حقاً . . . كفعل الوالد الرّؤفِ الرحيم

ثانياً : قرأ الجمهور ﴿ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ بالياء في ﴿ يَعْمَلُونَ ﴾ فيكون وعيداً لأهل الكتاب ، وقرأ الحمزة والكسائي ﴿ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ بالتاء فيكون وعيداً للفريقين : المؤمنين والكافرين .

وجوه الإعراب

أولاً : قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً ﴾ الكاف للتشبيه وهي في موضع نصب صفة لمصدر محذوف تقديره : كما هدينا كم جعلناكم أمة وسطاً ، أي مثل هدايتنا لكم كذلك جعلناكم أمة وسطاً ، و (أمة) مفعول ثانٍ لجعلنا ، و (وسطاً) صفة لها .

ثانياً : قوله تعالى : ﴿ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الذين هَدَى اللهُ ﴾ (إنْ) مخففة من (إنّ) الثقيلة واسمها ضمير الشأن ، واللام في قوله (الكبيرة) للفرق بين المخففة والنافية ، كما في قوله تعالى : ﴿ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً ﴾ [الإسراء : 108] وزعم الكوفيون أنها نافية ، واللام بمعنى إلاّ ، أي ما كانت إلا كبيرة ، قال العكبري : وهو ضعيف جداً من جهة أن وقوع اللام بمعنى إلا لا يشهد له سماع ولا قياس .

لطائف التفسير

اللطيفة الأولى : أخبر المولى جلّ وعلا عمّا سيقوله السفهاء من اليهود قبل تحويل القبلة ،

والإخبار فيه معجزة لرسول الله صلى الله عليه وسلم تدل على صدق ما جاء به ، لأنه إخبار عن أمر مغيّب ، كما فيه الجواب القاطع لحجة الخصم العنيد .

(233/69)

قال الزمخشري في " الكشاف " : " فإن قلت : أيّ فائدةٍ في الإخبار بقولهم قبل وقوعه ؟ قلت : فائدته أن مفاجأة المكروه أشد ، والعلم به قبل وقوعه أبعد من الاضطراب إذا وقع ، لما يتقدمه من توطين النفس ، وأن الجواب العتيد قبل الحاجة إليه أقطع للخصم ، وأردّ لشَغَبه ، وقبل الرمي يُراش السهم " .

اللطيفة الثانية : ردّ القرآن بالحجة الدامغة على السفهاء (اليهود ، والمشركين ، والمنافقين) في قوله جل وعلا : ﴿ قُل لِّلَّهِ المشرق والمغرب يَهْدِي مَن يَشَآءُ إلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ وتقريره أنّ الجهات كلها لله تعالى ، لا فضل لجهةٍ منها بذاته على جهة ، ولا يستحق شيء منها لذاته أن يكون قبلة ، بل إنما تصير قبلة لأن الله تعالى خصّها بذلك ، فلا اعتراض عليه بالتحويل من جهة إلى جهة ، وأن العبرة بالتوجه إليه سبحانه بالقلوب ، واتباع أمره في توجه الوجوه .

فكيف يعترضون عليك يا محمد ؟ لا شك أنهم أغبياء الأفهام ، سفهاء الأحلام .

اللطيفة الثالثة : التعبير بقوله تعالى : ﴿ أُمَّةً وَسَطاً ﴾ فيه لطيفة ، وهي أن خير الأمور أوساطها ، فالزيادة على المطلوب في الأمر إفراط ، والنقصُ عنه تفريط وتقصير ، وكلٌّ من الإفراط والتفريط ميلٌ عن الجادة القويمة ، فهو شر ومذموم ، فالخيار هو الوسط بين طرفي الأمر ، أي التوسط بينهما .

وذكر ابن جرير الطبري : " أنه من التوسط في الدين ، فإن المسلمين لم يقصّروا في دينهم كاليهود ، الذين قتلوا الأنبياء ، وبدّلوا كتاب الله ، ولم يضلوا كالنصارى الذين زعموا أن عيسى ابن الله ، وغلوا في الترهيب غلواً كبيراً ، ولكنّهم أهل توسط واعتدال فيه ، فوصفهم الله بذلك ، إذ كان أحب الأمور إلى الله أوسطها " .

(234/69)

اللطيفة الرابعة : في شهادة هذه الأمة على الأمم يوم القيامة أكبر دليل على فضل هذه الأمة المحمدية ، وقد روي أن الأمم يوم القيامة يجحدون تبليغ الأنبياء ، فيطالب الله الأنبياء بالبينة على أنهم قد بلّغوا – وهو أعلم – فيؤتى بأمة محمد فيشهدون ، فتقول الأمم : كيف تشهدون علينا ولم تدركونا ؟ فيقولون : نشهد بإخبار الله عز وجل الناطق ، على لسان نبيه الصادق بأنه قد بلغكم ، فيؤتى بمحمد صلى الله عليه وسلم فيزكيهم ويشهد بعدالتهم

.

أخرج البخاري في " صحيحه " : عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " "يُدعى نوح عليه السلام يوم القيامة فيقول : لبيك وسعديك يا رب ، فيقول : هل بلغت فيقول : نعم ، فيقال لأمته : هل بلّغكم ؟ فيقولون : ما جاءنا من نذير ، فيقول : من يشهد لك ؟ فيقول : محمد وأمته ، فيشهدون أنه قد بلّغ "

، فذلك قوله عز وجل : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى الناس وَيَكُونَ الرسول عَلَيْكُمْ شَهِيداً ﴾ .

اللطيفة الخامسة : قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرسول ﴾ أوّل علي بن أبي طالب رضي الله عنه : معنى (لنعلم) لنرى . والعرب تضع العلم ما كان الرؤية ، والرؤية مكان العلم كقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الفيل ﴾ [الفيل : 1] بمعنى : ألم تعلم .

قال الطبري : " الله تعالى عالم بالأشياء كلّها قبل وقوعها ، وإنما تأويل الآية ﴿ إِلاَّ لِنَعْلَمَ ﴾ أي ليعلم رسولي وأوليائي ، إذا كان من شأن العرب إضافة أتباع الرئيس إلى الرئيس ، نحو فتح عمر سواد العراق ، وجبى خراجها ، وإنما فعل ذلك أصحابه " .

وقال ابن عباس : المعنى : لنميز أهل اليقين من أهل الشك والريبة ، ففسّر العلم ب (التمييز) لأن بالعلم يقع التمييز .

وقال الزمخشري في "الكشاف" : المراد بالعلم (علم المعاينة) الذي يتعلق به الثواب والجزاء كقوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الجنة وَلَمَّا يَعْلَمِ الله الذين جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصابرين ﴾ [آل عمران : 142] .

اللطيفة السادسة : في قوله تعالى : ﴿ مِمَّن يَنقَلِبُ على عَقِبَيْهِ ﴾ استعارة تمثيلية حيث مثّل لمن يرتد عن دينه بمن ينقلب على عقبيه ، ووجه الاستعارة أن المنقلب على عقبيه قد ترك ما بين يديه وأدبر عنه ، فلمّا تركوا الإيمان والدلائل ، صاروا بمنزلة المدبر عمّا بين يديه فوصفوا بذلك كما قال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ واستكبر ﴾ [المدثر : 23] .

اللطيفة السابعة : سمّى الله تعالى الصلاة (إيماناً) في قوله : ﴿ وَمَا كَانَ الله لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ﴾ أي صلاتكم لأن الإيمان لا يتم إلاّ بها ، ولأنها تشتمل على نيّة ، وقول ، وعمل .

قال القرطبي : اتفق العلماء على أنها نزلت فيمن مات وهو يصلي إلى بيت المقدس ، لما روي عن ابن عباس أنه قال : لمّا وُجه النبي صلى الله عليه وسلم إلى الكعبة ، قالوا يا رسول الله : فكيف بإخواننا الذين ماتوا وهم يصلون إلى بيت المقدس ؟ فأنزل الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ الله لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ﴾ .

ثمّ قال : فسمّى الصلاة إيماناً لاشتمالها على نية وقول وعمل .

قال مالك : وفيه رد على من قال : إن الصلاة ليست من الإيمان .

اللطيفة الثامنة : قال الزمخشري : إنّ (قد) هنا بمعنى (ربما) وهي للتكثير ، ومعناه كثرة الرؤية كقول الشاعر :

قد أترك القِرْنَ مصفَرّاً أنامله . . . كأنّ أثوابَه مُجّتْ بفرصاد

قال أبو حيان : التكثير مستفاد من لفظ التقلب لأنه مطاوع التقليب ، ومن نظر مرة أو ردّد بصره مرتين أو ثلاثاً لا يقال : إنه قلّب ، فلا يقال قلّب إلا حيث الترديد كثير .

(236/69)

والتعبير بقوله تعالى : ﴿ قَدْ نرى ﴾ بمعنى قد رأينا ، لأن ﴿ قَدْ ﴾ تقلب المضارع ماضياً كما يقول النحاة ومنه قوله تعالى : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ الله المعوقين ﴾ [الأحزاب : 18] وقوله : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ ﴾ [الحجر : 97] أي قد علمنا .

اللطيفة التاسعة : قال المحققون من أهل التفسير : في قوله تعالى : ﴿ قَدْ نرى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السمآء فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ﴾ في هذه الآية تنبيه لطيف على حسن أدبه عليه السلام حيث انتظر الوحي ولم يسأل ربه ، وقد أكرمه الله تعالى على هذا الأدب بقبلة يحبها

ويهواها فقال تعالى : ﴿ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ﴾ وفي سبب محبته عليه الصلاة والسلام التوجه إلى المسجد الحرام وترك التوجه إلى بيت المقدس وجوه :

الأول : مخالفةً لليهود حيث كانوا يقولون : يخالفنا محمد ثم يتّبع قبلتنا ولولا نحن لم يدر أين يستقبل .

الثاني : أن الكعبة المشرّفة كانت قبلة أبيه إبراهيم خليل الرحمن .

الثالث : أنه عليه الصلاة والسلام كان يرغب في تحويل القبلة استمالة للعرب لدخولهم في الإسلام .

الرابع : منشأ الرسول صلى الله عليه وسلم في البلد الأمين وفيه المسجد الحرام الذي هو قبلة المساجد فأحب أن يكون هذا الشرف للمسجد الذي في بلدته ومنشئه .

اللطيفة العاشرة : في التعبير عن (الكعبة) بالمسجد الحرام إشارة لطيفة إلى أن الواجب مراعاة الجهة دون العين ، والسرّ في الأمر بالتولية خاصاً وعاماً ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المسجد الحرام ﴾ ثم قال : ﴿ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ مع أن خطاب النبي صلى الله عليه وسلم خطاب لأمته هو الاهتمام لشأن القبلة ، ودفع توهم أن الكعبة قبلة أهل المدينة وحدهم ، لأن الأمر بالصرف كان فيها ، فربما فهم أن قبلة بيت المقدس لا تزال باقية .

قال الراغب : أما خطابه الخاص فتشريفاً له وإيجاباً لرغبته عليه الصلاة والسلام ، وأما خطابه العام بعده فلأنه كان يجوز أن يعتقد أن هذا قد خُصّ عليه الصلاة والسلام به ، كما خُصّ في قوله ﴿ قُمِ اليل ﴾ [المزمل : 2] ، ولما كان تحويل القبلة له خطر خصّهم بخطاب مفرد .

الأحكام الشرعية

الحكم الأول : ما المراد بالمسجد الحرام في القرآن الكريم ؟

ورد ذكر ﴿ المسجد الحرام ﴾ في آيات متفرقة من القرآن الكريم ، وفي السنة المطهرة أيضاً ، وقصد به عدة معان :

الأول : الكعبة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المسجد الحرام ﴾ أي جهة الكعبة .

الثاني : المسجد كلّه ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : " صلاةٌ في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام " وقوله عليه الصلاة والسلام : " لا تُشدّ الرحال إلاّ إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجدي هذا ، والمسجد الأقصى " .

الثالث : مكة المكرمة كما في قوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الذي أسرى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مّنَ المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ﴾ [الإسراء : 1] وكان الإسراء من مكة المكرمة ، وقوله

تعالى : ﴿ هُمُ الذين كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ المسجد الحرام ﴾ [الفتح : 25] وقد صدورهم عن دخول مكة .

الرابع : الحرم كله (مكة وما حولها من الحرم) كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا المشركون نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُواْ المسجد الحرام بَعْدَ عَامِهِمْ هذا ﴾ [التوبة : 28] والمراد منعهم من دخول الحرم .

والمراد بالمسجد الحرام هنا هو المعنى الأول (الكعبة) والمعنى : فولّ وجهك شطر الكعبة .

الحكم الثاني : هل يجب استقبال عين الكعبة أم يكفي استقبال جهتها ؟

(238/69)

استقبال القبلة فرض من فروض الصلاة ، لا تصح الصلاة بدونه ، إلا ما جاء في صلاة الخوف والفزع ، وفي صلاة النافلة على الدابة أو السفينة ، فله أن يتوجه حيث توجهت به دابته ، لما رواه أحمد ومسلم والترمذي : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يصلي على راحلته حيثما توجهت به ، وفيه نزلت ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ الله ﴾ [البقرة : 115] .

وهذا لا خلاف فيه بين العلماء ، إنما الخلاف هل الواجب استقبال عين الكعبة أم استقبال الجهة ؟

فذهب الشافعية والحنابلة إلى أن الواجب استقبال عين الكعبة .

وذهب الحنفية والمالكية إلى أنّ الواجب استقبال جهة الكعبة ، هذا إذا لم يكن المصلي مشاهداً لها ، أمّا إذا كان مشاهداً لها فقد أجمعوا أنه لا يجزيه إلا إصابة عين الكعبة ، والفريق الأول يقولون : لا بدّ للمشاهد من إصابة العين ، والغائب لا بد له من قصد الإصابة مع التوجه إلى الجهة ، والفريق الثاني يقولون : يكفي للغائب التوجه إلى جهة الكعبة .

أدلة الشافعية والحنابلة :

استدل الشافعية والحنابلة على مذهبهم بالكتاب ، والسنة ، والقياس .

أ- أما الكتاب ، فهو ظاهر هذه الآية ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المسجد الحرام ﴾ ووجه الاستدلال : أن المراد من الشطر الجهة المحاذية للمصلي والواقعة في سمته ، فثبت أن استقبال عين الكعبة واجب .

وأما السنة : فما روي في " الصحيحين " عن أسامة بن زيد رضي الله عنه أنه قال : " لمّا دخل النبي صلى الله عليه وسلم البيت دعا في نواحيه كلّها ، ولم يصلّ حتى خرج منه ، فلمّا خرج صلى ركعتين من قِبَل الكعبة ، وقال : هذه القبلة " .

قالوا : فهذه الكلمة تفيد الحصر ، فثبت أنه لا قبلة إلا عين الكعبة .

ج – وأما القياس : فهو أنّ مبالغة الرسول صلى الله عليه وسلم في تعظيم الكعبة ، أمر بلغ مبلغ التواتر ، والصلاة من أعظم شعائر الدين ، وتوقيفُ صحتها على استقبال عين الكعبة يوجب مزيد الشرف ، فوجب أن يكون مشروعاً .

وقالوا أيضاً : كونُ الكعبة قبلة أمر مقطوع به ، وكون غيرها قبلة أمر مشكوك فيه ، ورعايةُ الاحتياط في الصلاة أمر واجب ، فوجب توقيف صحة الصلاة على استقبال عين الكعبة .

أدلة المالكية والحنفية :

واستدل المالكية والحنفية على مذهبهم بالكتاب ، والسنة وعمل الصحابة ، والمعقول .

أ – أما الكتاب : فظاهر قوله تعالى : ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المسجد الحرام ﴾ ولم يقل : شطر الكعبة ، فإنّ من استقبل الجانب الذي فيه المسجد الحرام ، فقد أتى بما أمر به سواء أصابَ عين الكعبة أم لا .

ب – وأما السنة : فقوله عليه الصلاة والسلام : " ما بين المشرق والمغرب قِبْلةٌ " .

وحديث : " البيتُ قبلةٌ لأهل المسجد والمسجدُ قبلةٌ لأهل الحرم ، والحرامُ قبلةٌ لأهل

الأرض في مشارقها ومغاربها من أمتي " .

ج – وأما عمل الصحابة : فهو أنّ أهل (مسجد قباء) كانوا في صلاة الصبح بالمدينة ، مستقبلين لبيت المقدس ، مستدبرين الكعبة ، فقيل لهم : إن القبلة قد حوّلت إلى الكعبة ، فاستداروا في أثناء الصلاة من غير طلب دلالة ، ولم ينكر النبي صلى الله عليه وسلم عليهم ، وسُمّي مسجدهم (بذي القبلتين) . ومعرفةُ عين الكعبة لا تعرف إلا بأدلة هندسية يطول النظر فيها ، فكيف أدركوها على البديهة في أثناء الصلاة ، وفي ظلمة الليل ؟

(240/69)

د – وأما المعقول : فإنه يتعذر ضبط (عين الكعبة) على القريب من مكة ، فكيف بالذي هو في أقاصي الدنيا من مشارق الأرض ومغاربها ؟ ولو كان استقبال عين الكعبة واجباً ، لوجب ألا تصحّ صلاة أحدٍ قط ، لأن أهل المشرق والمغرب يستحيل أن يقفوا في محاذاة نيّف وعشرين ذراعاً من الكعبة ، ولا بدّ أن يكون بعضهم قد توجّه إلى جهة الكعبة ولم يصب عينها ، وحيث اجتمعت الأمة على صحة صلاة الكل علمنا أنّ إصابة عينها على البعيد غير واجبة ﴿ لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾ [البقرة : 286] .

ومن جهة أخرى : فإن الناس من عهد النبي عليه الصلاة والسلام بنوا المساجد ، ولم

يحضروا مهندساً عند تسوية المحراب ، ومقابلةُ العين لا تُدرك إلا بدقيق نظر الهندسة ، ولم يقل أحد من العلماء إنّ تعلم الدلائل الهندسية واجب ، فعلمنا أن استقبال عين الكعبة غير واجب .

الترجيح : هذه خلاصة أدلة الفريقين سقناها لك ، وأنت إذا أمعنت النظر رأيت أن أدلة الفريق الثاني (المالكية والأحناف) أقوى برهاناً ، وأنصع بياناً ، لا سيما للبعيد الذي في أقاصي الدنيا ، وأصول الشريعة السمحة تأبى التكليف بما لا يطاق ، وكأنّ الفريق الأول حين أحسوا صعوبة مذهبهم ، خصوصاً من غير المشاهد لها قالوا : " إن فرض المشاهد للكعبة إصابةُ عينها حسّاً ، وفرض الغائب عنها إصابة عينها قصداً " وبعد هذا يكاد يكون الخلاف بين الفريقين شكلياً ، لأنهم صرحوا بأنّ غير المشاهد لها يكفي أن يعتقد أنه متوجه إلى عين الكعبة ، بحيث لو أزيلت الحواجز يرى أنه متوجه في صلاته إلى عينها ، وفي هذا الرأي جنوح إلى الاعتدال ، والله الهادي إلى سواء السبيل .

قال العلامة القرطبي : في تفسيره " الجامع لأحكام القرآن " ما نصّه :

" واختلفوا هل فرض الغائب استقبال العين ، أو الجهة ، فمنهم من قال بالأول ، قال ابن العربي : وهو ضعيف لأنه تكليف لما لا يصل إليه ، ومنهم من قال بالجهة وهو الصحيح لثلاثة أوجه :

الأول : أنه الممكن الذي يرتبط به التكليف .

الثاني : أنه المأمور به في القرآن لقوله تعالى : ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المسجد الحرام ﴾ .

الثالث : " أنّ العلماء احتجوا بالصف الطويل الذي يُعلم قطعاً أنه أضعاف عرض البيت "

.

الحكم الثالث : هل تصح الصلاة فوق ظهر الكعبة ؟

وبناءً على الخلاف السابق : هل القبلة عين الكعبة أم جهتها ؟ انبنى خلاف آخر في حكم الصلاة فوق الكعبة ، هل تصح أم لا ؟

فذهب الشافعية والحنابلة : إلى عدم صحة الصلاة فوقها ، لأن المستعلي عليها لا يستقبلها إنما يستقبل شيئاً آخر .

وأجاز الحنفية : الصلاة فوقها مع الكراهية ، لما في الاستعلاء عليها من سوء الأدب ، إلا أنّ الصلاة تصحّ بناء على مذهبهم من أن القبلة هي الجهة : من قرار الأرض إلى عنان السماء ، والله تعالى أعلم .

الحكم الرابع : أين ينظر المصلي وقت الصلاة ؟

ذهب المالكية : إلى أن المصلي ينظر في الصلاة أمامه .

وقال الجمهور : يستحبُ أن يكون نظره إلى موضع سجوده ، وقال شريك القاضي : ينظر في القيام إلى موضع السجود ، وفي الركوع إلى موضع قدميه ، وفي السجود إلى موضع أنفه ، وفي القعود إلى حجْره .

قال القرطبي : في هذه الآية حجة واضحة لما ذهب إليه مالك ومن وافقه ، في أنّ المصلي حكمُه أن ينظر أمامه لا إلى موضع سجوده لقوله تعالى : ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المسجد الحرام ﴾ .

قال ابن العربي : " إنما ينظر أمامه ، فإنه إن حنى رأسه ذهب بعض القيام المفترض عليه في الرأس ، وهو أشرف الأعضاء ، وإن أقام رأسه وتكلّف النظر ببصره إلى الأرض فتلك مشقة عظيمة وحرج ، وما جعل علينا في الدين من حرج " .

الترجيح :

والصحيح ما ذهب إليه الجمهور ، فإن المصلي إذا نظر إلى مكان السجود لا يخرج عن كونه متوجهاً إلى الكعبة ، وإنما استحبوا ذلك حتى لا يتشاغل في الصلاة بغيرها وليكون أخشع

لقلبه والله أعلم .

وهناك أحكام أخرى جزئية تطلب من كتب الفروع .

ما ترشد إليه الآيات الكريمة

أولاً : إعتراض اليهود على تحويل القبلة سفه وجهالة لأنه لا يعتمد على منطق سليم .

ثانياً : الجهات كلّها لله تعالى خَلْقاً وملكاً فلا اعتراض عليه بالتحويل من جهة إلى أخرى .

ثالثاً : الأمة المحمدية أفضل الأمم لذلك اختارها الله للشهادة على الخلائق يوم القيامة .

رابعاً : تحويل القبلة امتحانٌ لإيمان الناس ليتميّز المؤمن الصادق عن الفاجر المنافق .

خامساً : أدب لرسول الله صلى الله عليه وسلم كان يمنعه من سؤال تحويل القبلة ولذلك أكرمه الله بما يرضى .

سادساً : الكعبة المشرفة قبلة أبي الأنبياء وقد جمع الله بها قلوب العباد .

سابعاً : أهل الكتاب يعلمون أن تحويل القبلة حق ولكنهم أرادوا فتنة المؤمنين .

خاتمة البحث :

حكمة التشريع

هذا البيت العتيق الذي رفع قواعده أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام ، هو قبلة أهل الأرض ، كما أنّ البيت المعمور قبلة أهل السماء يطوفون حوله يسبّحون بحمد الله .

وقد اقتضت حكمة الله أن يجمع (أمة التوحيد) على قبلةٍ واحدة ، فأمر خليله إبراهيم

عليه السلام أن يبني هذا البيت العتيق ، ليكون مثابة للناس وأمناً ، ومصدراً للإشعاع والنور الرباني ، ومكاناً لحج بيته المعظم ، يأتيه الناس من كل فج عميق

(243/69)

﴿ لِّيَشْهَدُواْ مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ اسم الله في أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ ﴾ [الحج : 28] . وقد أمر الله رسوله الكريم بالتوجه إليه في الصلاة ، بعد أن توجه إلى بيت المقدس ستة عشر أو سبعة عشر شهراً ، وذلك لحكمة جليلة هي امتحان إيمان الناس ، واختبار صدق يقينهم ، ليظهر المؤمن الصادق ، من الكاذب المنافق ، وليعيد لهذه الأمة التي اختارها الله ، قيادة ركب الإنسانية ، بعد أن تخلت عنها ردحاً من الزمان كما قال تعالى : ﴿ هُوَ اجتباكم وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدين مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ المسلمين مِن قَبْلُ وَفِي هذا لِيَكُونَ الرسول شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى الناس . . . ﴾ [الحج : 78] . فالكعبة المشرفة – زادها الله شرفاً وتعظيماً – هي رمز التوحيد – ومظهر الإيمان ، وقبلة أبي الأنبياء إبراهيم خليل الرحمن وحولها تلتقي أفئدة الملايين من المؤمنين لأنها مظهر وحدتهم ، وسرّ اجتماع كلمتهم ، فلا عجب أن يأمرهم الله تعالى بالتوجه إليها في صلاتهم ، أينما كانوا في مشارق الأرض ومغاربها كما قال تعالى : ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المسجد

الحرام وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ . . . ﴾ .

قال الإمام الفخر : (وقد ذكروا في تعيين القبلة في الصلاة حِكماً :

أحدها : أن العبد الضعيف إذا وصل إلى مجلس الملك العظيم ، فإنه لا بدّ أن يستقبله بوجهه ، وألا يكون معرضاً عنه ، وأن يبالغ في الثناء عليه بلسانه ، ويبالغ في الخدمة والتضرع له ، فاستقبال القبلة في الصلاة يجري مجرى كونه مستقلاً للملك لا معرضاً عنه ، والقراءة والتسبيحات تجري مجرى الثناء عليه ، والركوع والسجود يجري مجرى الخدمة .

(244/69)

وثانيها : أن المقصود من الصلاة حضور القلب ، وهذا الحضور لا يحصل إلا مع السكون وترك الإلتفات والحركة ، وهذا لا يتأتى إلا إذا بقي في جميع صلاته مستقبلاً لجهة واحدة على التعيين ، فإذا اختص بعض الجهات بمزيد شرف كان استقبال تلك الجهة أولى .

وثالثها : أن الله تعالى يحب الألفة بين المؤمنين ، وقد ذكر المنة بها عليهم حيث قال : ﴿ واذكروا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً . . . ﴾ [آل عمران : 103] ولو توجّه كل واحد في صلاته إلى ناحية ، لكان ذلك يوهم اختلافاً ظاهراً ، فعيّن الله تعالى لهم جهة معلومة ، وأمرهم جميعاً بالتوجه نحوها ، ليحصل

لهم الموافقة بسبب ذلك .

ورابعها : أن الله تعالى خصّ الكعبة بإضافتها إليه في قوله : ﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِيَ ﴾ [الحج : 26] وخصّ المؤمنين بإضافتهم بصفة العبودية إليه ﴿ ياعبادي ﴾ [العنكبوت : 56] ، وكلتا الإضافتين للتخصيص والتكريم ، فكأنه تعالى قال : يا مؤمن أنتَ عبدي ، والكعبة بيتي ، والصلاة خدمتي ، فأقبلْ بوجهك في خدمتي إلى بيتي ، وبقلبك إليّ . .) . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ روائع البيان فى أحكام القرآن حـ 1 صـ 112 . 131 ﴾

(245/69)

قوله تعالى ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (146) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (147) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما ختم الخطاب بالإشارة بقوله : ﴿ أهواءهم ﴾ إلى علمهم بحقية هذا التحويل تلويحاً كما فتحه بالإعلام به تصريحاً كرّ على تأكيد الإعلام بما هم عليه في أمرها من التحقق إشارة إلى ما تبطنوه من العناد الموجب للتمادي في الفساد فقال مضمراً له على وجه يصلح

أن يكون للنبي صلى الله عليه وسلم معظماً لهذه المعرفة بإسناد الإيتاء إليه سبحانه : ﴿ الذين آتيناهم ﴾ أي بما لنا من العظمة التي هم بها عارفون ﴿ الكتاب يعرفونه ﴾ أي التحويل المتضمن لزيادة تحققهم لصدق الرسول صلى الله عليه وسلم وكمال علمهم به ﴿ كما يعرفون أبناءهم ﴾ لا يشكون في حقية ذلك بوجه لظهور دلائله عندهم ، لأنهم يعرفون الرسول صلى الله عليه وسلم بجميع نعوته معرفة لا يشكون فيها لكونها عن الله الذي لا خلف في قوله ، فبذلك صاروا يعرفون صحة هذا التحويل هذه المعرفة ، وذلك كما أنهم لا يشكون في شيء مما تقع به المعرفة لأبنائهم لشدة ملابستهم لهم ؛ والحاصل أن معرفتهم بنبوته تزيدهم في المعرفة بحقية التحويل بصيرة لأنه من نعته ، ومعرفتهم بأمر التحويل يثبتهم في حقية نبوته لكونه مما ثبت منها ، ولذلك قال الحرالي : في إنبائه تحققهم بعيان ما ذكر لهم من أمره ، لأن العارف بالشيء هو الذي كان له به إدراك ظاهر بأدلة ثم أنكره لاشتباهه عليه ثم عرفه لتحقق ذكره لما تقدم من ظهوره في إدراكه ، فلذلك معنى المعرفة لتعلقها بالحس وعيان القلب أتم من العلم المأخوذ عن علم بالفكر ؛ وإنما لم تجز في أوصاف الحق لما في معناها من شرط النكرة ، ولذلك يقال المعرفة حد بين علمين : علم على تشهد الأشياء ببواديها ، وعلم دون يستدل على الأشياء بأعلامها ؛ وفيه أي التشبيه بالأبناء إنباء باتصال معرفتهم به كياناً كياناً إلى ظهوره ، ولو لم يكن شاهده عليهم إلا ارتحالهم من بلادهم من الشام إلى محل الشدائد من أرض الحجاز لارتقابه وانتظاره

﴿ فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ﴾ [البقرة : 89] وأجرى المثل بذكر الأبناء لاشتداد عناية الوالد بابنه لاعتلاقه بفؤاده ، ففيه إنباء بشدة اعتلاقهم به قبل كونه ﴿ وإن فريقاً منهم ﴾ أي أهل الكتاب ﴿ ليكتمون الحق ﴾ أي يخفونه ولا يعلنونه .

ولما كان لا يلزم من ذلك علمهم به ولا يلزم من علمهم به استحضاره عند الكتمان قال : ﴿ وهم يعلمون ﴾ أي إنه حق وأنهم آثمون بكتمانه ، فجعلهم أصنافاً : صنفاً عرفوه فاتبعوه ، وصنفاً عرفوه فأنكروه كما في إفهامه وفريقاً علموه فكتموه ؛ وفي تخصيص هذا الفريق بالعلم إشعار بفرقان ما بين حال من يعرف وحال من يعلم ، فلذلك كانوا ثلاثة أصناف : عارف ثابت ، وعارف منكر هو أردؤهم ، وعالم كاتم لاحق به ؛ وفي مثال يكتمون ويعلمون إشعار بتماديهم في العالم وتماديهم في الكتمان .

ولأن هذا المجموع يفيد قهر الحق للخلق بما شاء منهم من هدى وفتنة لتظهر فيها رحمته ونقمته وهو الحق الذي هو ماضي الحكم الذي جبلّة محمد صلى الله عليه وسلم تتقاضى التوقف فيه لما هو عليه من طلب الرحمة ولزوم حكم الوصية خاطبه الحق بقوله :

﴿ الحق ﴾ أي هذا التفريق والتصنيف الموجب لعمارات درجات الجنة وعمارات

دركات النار هو الحق ، أو يكون المعنى : الحق الذي أخبرت به في هذه السورة أو الآيات ، أو جنس الحق كائن ﴿ من ربك ﴾ أي المحسن إليك بطرد من يضر اتباعه كما هو محسن إليك بالإقبال بمن ينفع اتباعه ﴿ فلا تكونن من الممترين ﴾ فيما فسر نحوه من اشتباه المرتبتين الواقعة منه فيما بين الفضل والعدل والواقعة من غيره فيما بين الجور والعدل انتهى .

وفيه زيادة وتغيير ، وفي تأكيد الأمر تارة بالعلم وتارة بالمعرفة وتارة بغيرهما تأكيد لوجوب اتباعه صلى الله عليه وسلم وإزاحة لما يلقيه السفهاء العالمون به من الشبه .

قال الحرالي : والممتري من الامتراء وهو تكلف المرية وهي مجادلة تستخرج السوء من خبيئة المجادل ، من امتراء ما في الضرع وهو استيصاله حلباً ، ولأنه حال الشاك ربما أطلق عليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 269 . 271 ﴾

(247/69)

فائدة

قال الفخر :

قوله : ﴿ الذين ءاتيناهم الكتاب ﴾ وإن كان عاماً بحسب اللفظ لكنه مختص بالعلماء منهم ، والدليل عليه أنه تعالى وصفهم بأنهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، والجمع العظيم

الذي علموا شيئاً استحال عليهم الاتفاق على كتمانه في العادة ، ألا ترى أن واحداً لو دخل البلد وسأل عن الجامع لم يجز أن لا يلقاه أحد إلا بالكذب والكتمان ، بل إنما يجوز ذلك على الجمع القليل ، والله أعلم . أ هـ .

﴿ مفاتيح الغيب حـ 4 صـ 116 ﴾

الضمير في قوله : ﴿ يَعْرِفُونَهُ ﴾ إلى ماذا يرجع ؟

ذكروا فيه وجوهاً .

أحدها : أنه عائد إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أي يعرفونه معرفة جلية ، يميزون بينه وبين غيره كما يعرفون أبناءهم ، لا تشتبه عليهم وأبناء غيرهم .

عن عمر رضي الله عنه أنه سأل عبد الله بن سلام عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : أنا أعلم به مني يا بني ، قال : ولم ؟

قال : لأني لست أشك في محمد أنه نبي وأما ولدي فلعل والدته خانت .

فقبل عمر رأسه ، وجاز الإضمار وإن لم يسبق له ذكر لأن الكلام يدل عليه ولا يلتبس على السامع ومثل هذا الإضمار فيه تفخيم وإشعار بأنه لشهرته معلوم بغير إعلام وعلى هذا

القول أسئلة .

السؤال الأول : أنه لا تعلق لهذا الكلام بما قبله من أمر القبلة .

الجواب : أنه تعالى في الآية المتقدمة لما حذر أمة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن اتباع اليهود والنصارى بقوله : ﴿ وَلَئِنِ اتبعت أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ العلم إِنَّكَ إِذَاً لَّمِنَ الظالمين ﴾ [البقرة : 145] أخبر المؤمنين بحاله عليه الصلاة والسلام في هذه الآية فقال : اعلموا يا معشر المؤمنين أن علماء أهل الكتاب يعرفون محمداً وما جاء به وصدقه ودعوته وقبلته لا يشكون فيه كما لا يشكون في أبنائهم .

السؤال الثاني : هذه الآية نظيرها قوله تعالى : ﴿ يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِى التوراة والإنجيل ﴾ [الأعراف : 157] وقال : ﴿ وَمُبَشّراً بِرَسُولٍ يَأْتِى مِن بَعْدِى اسمه أَحْمَدُ ﴾ [الصف : 6]

سؤال : لم خص الأبناء الذكور ؟

الجواب : لأن الذكور أعرف وأشهر وهم بصحبة الآباء ألزم وبقلوبهم ألصق .

القول الثاني : الضمير في قوله : ﴿ يَعْرِفُونَهُ ﴾ راجع إلى أمر القبلة : أي علماء أهل الكتاب يعرفون أمر القبلة التي نقلت إليها كما يعرفون أبناءهم وهو قول ابن عباس وقتادة والربيع وابن زيد .

واعلم أن القول الأول أولى من وجوه .

أحدها : أن الضمير إنما يرجع إلى مذكور سابق ، وأقرب المذكورات العلم في قوله : ﴿ مّن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ العلم ﴾ [البقرة : 145] والمراد من ذلك العلم : النبوة ، فكأنه تعالى قال : إنهم يعرفون ذلك العلم كما يعرفون أبناءهم ، وأما أمر القبلة فما تقدم ذكره البتة .

(249/69)

وثانيها : أن الله تعالى ما أخبر في القرآن أن أمر تحويل القبلة مذكور في التوراة والإنجيل ، وأخبر فيه أن نبوة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ مذكورة في التوراة والإنجيل ، فكان صرف هذه المعرفة إلى أمر النبوة أولى .

وثالثها : أن المعجزات لا تدل أول دلالتها إلا على صدق محمد ـ عليه السلام ـ ، فأما أمر القبلة فذلك إنما يثبت لأنه أحد ما جاء به محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فكان صرف هذه المعرفة إلى أمر النبوة أولى . أهـ . ﴿ مفاتيح الغيب حـ 4 صـ 116 ـ 117 ﴾

وعلق الآلوسى على قصة عمر وابن سلام ـ رضى الله عنهما ـ فقال :

وما حكي عن عبد الله بن سلام أنه قال في شأنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ : أنا أعلم به مني بابني ، فقال له عمر رضي الله تعالى عنه : لِمَ ؟ قال : لأني لست أشك بمحمد أنه نبي ، فأما ولدي فلعل والدته خانت ، فقبل عمر رضي الله تعالى عنه رأسه ، فمعناه : أني لست

أشك في نبوته عليه الصلاة والسلام بوجه ، وأما ولدي فأشك في بنوته وإن لم أشك بشخصه ، وهو المشبه به في الآية فلا يتوهم منه أن معرفة الأبناء لا تستحق أن يشبه بها لأنها دون المشبه للاحتمال ، ولا يحتاج إلى القول بأنه يكفي في وجه الشبه كونه أشهر في المشبه به وإن لم يكن أقوى ومعرفة الأبناء أشهر من غيرها ، ولا إلى تكلف أن المشبه به في الآية إضافة الأبناء إليهم مطلقاً سواء كانت حقة أو لا . وما ذكره ابن سلام كونه ابناً له في الواقع .

أهـ . ﴿ روح المعانى حـ 2 صـ 13 ﴾

(250/69)

وقال العلامة الطاهر بن عاشور :

الضمير المنصوب في ﴿ يَعْرِفُونه ﴾ لا يعود إلى تحويل القبلة لأنه لو كان كذلك لصارت الجملة تكريراً لمضمون قوله : ﴿ وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم ﴾ ، بل هو عائد إما إلى الرسول وإن لم يسبق ذكر لمعادٍ مناسبٍ لضمير الغيبة ، لكنه قد علم من الكلام السابق وتكرر خطابه فيه من قوله : ﴿ وما جعلنا القبلة التي كنت عليها ﴾ [البقرة : 143] ، وقوله : ﴿ قد نرى تقلب وجهك ﴾ [البقرة : 144] ، وقوله : ﴿ فلنولينك

قبلة ﴾ [البقرة: 144] ، وقوله : ﴿ فول وجهك ﴾ [البقرة: 144] فالإتيان بالضمير بطريق الغيبة من الالتفات ، وهو على تقدير مضاف أي يعرفون صِدْقَهُ ، وإما أن يعود إلى ﴿ الحق في قوله السابق : ليكتمون الحق ﴾ فيشمل رسالة الرسول وجميعَ ما جاء به ، وإما إلى العلم في قوله : ﴿ من بعد ما جاءك من العلم ﴾ [البقرة: 145] .

أهـ . ﴿ التحرير والتنوير حـ 2 صـ 39 ﴾

سؤال : لم عدل عن أن يقال يعلمونه إلى ﴿ يعرفونه ﴾ ؟

الجواب : عدل عن أن يقال يعلمونه إلى ﴿ يعرفونه ﴾ لأن المعرفة تتعلق غالباً بالذوات والأمور المحسوسة قال تعالى : ﴿ تعرف في وجوههم نضرة النعيم ﴾ [المطففين: 24]

وقال زهير :

. . . فَلأْيًا عَرَفْتُ الدَّار بعد توهم

وتقول عرفت فلاناً ولا تقول عرفت عِلْم فلان ، إلاّ إذا أردت أن علمه صار كالمشاهد عندك ، ولهذا لا يعدى فعل العرفان إلى مفعولين كما تُعدى أفعال الظن والعلم ، ولهذا يوصف الله تعالى بصفة العلم فيقال العليم ، ولا يوصف بصفة المعرفة فلا يقال الله يعرف كذا ، فالمعنى يعرفون صفات الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعلاماته المذكورة في كتبهم ، ويعرفون الحق كالشيء المشاهد . أهـ .

﴿ التحرير والتنوير حـ 2 صـ 40 ﴾

سؤال : لم خص الذكور من الأبناء دون الإناث ؟

(251/69)

الجواب : المراد بالأبناء الذكور لأنهم أكثر مباشرة ومعاشرة للآباء ، وألصق وأعلق بقلوبهم من البنات ، فكان ظن اشتباه أشخاصهم أبعد ، وكان التشبيه بمعرفة الأبناء آكد من التشبيه بالأنفس لأن الإنسان قد يمر عليه قطعة من الزمان لا يعرف فيها نفسه كزمن الطفولية بخلاف الأبناء فإنه لا يمر عليه زمان إلا وهو يعرف ابنه . أ هـ . ﴿ روح المعانى حـ 2 صـ 13 ﴾

سؤال : لم خص الفريق ؟

الجواب : خص لأن منهم من أسلم ولم يكتم ، والإشارة بالحق إلى ما تقدم من الخلاف في ضمير ﴿ يعرفونه ﴾ ، فعم الحق مبالغة في ذمهم . أ هـ . ﴿ المحرر الوجيز حـ 1 صـ 224 ﴾

سؤال : قال ابن عطية : لم شبّه معرفتهم له بمعرفتهم أبناءهم ولم يشبهها بمعرفتهم أنفسهم ؟ وأجاب بأن الإنسان يتقدم له زمن لا يعرف فيه حال نفسه وهو زمن الصغر بخلاف ولده

فإنه يشاهده من صغره إلى كبره .

قال ابن عرفة : ويحتمل عندي أن يجاب بأن ذلك التشبيه للمشاكلة لأن الكتاب منفصل عنهم فشبه بما هو منفصل عنهم وهو الولد بخلاف أنفسهم . أ هـ

﴿ تفسير ابن عرفة حـ 2 صـ 461 ﴾

إشكال وجوابه

فإن قيل : إن آخر الآية مناقض لأولها لأن قوله ﴿ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ﴾ دليل على أن جميعهم يعلمونه .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الحق . . . ﴾ .

دليل على أن بعضهم يجهلونه .

فإن قلت : إنما مقتضاه أن باقيهم يعلمون الحق ويظهرونه ؟

قلنا : لا يصح لوجهين : الأول : أن الضمير المجرور في قوله ﴿ مِّنْهُم ﴾ عائد على ﴿ الذين آتَيْنَاهُمُ الكتاب ﴾ وقد قالوا : إن ﴿ الذين ﴾ بدل من ﴿ الظالمين ﴾ ، فإذا كان كذلك بطل أن يكون بعضهم عالمين به ومظهرين له إذ لا يسمى فاعل ذلك ظالما .

- الثاني : ﴿ إِنَّ فَرِيقاً ﴾ إنما يطلق على القليل من الجماعة ولا يقال للنصف (فريقا) (فيلزم) أن يكون أكثرهم مظهرين للحق ، وذلك مخالف لسياق الآية لأنها إنما سيقت لذمهم .

وأجاب ابن عرفة عن الإشكال باحتمال كون فيهم مِن عِلم وتحقق ولم تعرض له شبهة توجب له الريبة والشك في علمه فهؤلاء هم الّذين قيل فيهم ﴿ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الحق وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ . ومنهم من علم وعرضت له شبهة توجب التردد في علمه فهؤلاء هم المسكوت عنهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عرفة حـ 2 صـ 462 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾

﴿ وإن فريقاً منهم ﴾ أي أهل الكتاب ﴿ ليكتمون الحق ﴾ أي يخفونه ولا يعلنونه .

ولما كان لا يلزم من ذلك علمهم به ولا يلزم من علمهم به استحضاره عند الكتمان قال : ﴿ وهم يعلمون ﴾ أي إنه حق وأنهم آثمون بكتمانه ، فجعلهم أصنافاً : صنفاً عرفوه فاتبعوه ، وصنفاً عرفوه فأنكروه كما في إفهامه وفريقاً علموه فكتموه ؛ وفي تخصيص هذا الفريق بالعلم إشعار بفرقان ما بين حال من يعرف وحال من يعلم ، فلذلك كانوا ثلاثة أصناف : عارف ثابت ، وعارف منكر هو أردؤهم ، وعالم كاتم لاحق به ؛ وفي مثال يكتمون ويعلمون إشعار بتماديهم في العالم وتماديهم في الكتمان .

ولأن هذا المجموع يفيد قهر الحق للخلق بما شاء منهم من هدى وفتنة لتظهر فيها رحمته

ونقمته وهو الحق الذي هو ماضي الحكم الذي جبلّة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ تتقاضى التوقف فيه لما هو عليه من طلب الرحمة ولزوم حكم الوصية . أ هـ . ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 270 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

حَمَلَتْهُمْ مُسْتَكِنَّاتُ الحَسَدِ على مكابرة ما علموه بالاضطرار ، فكذلك المغلوب في ظلمات نفسه ، ألقى جلباب الحياء فلم ينْجع فيه مَلاَم ، ولمْ يَرْدَعْه عن انهماكه كلام . أ هـ .

﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 135 ﴾

فائدة

قال صاحب روح البيان :

عندنا ثلاث مراتب . إحداها مرتبة التقليد وهى لعامة الناس . والثانية مرتبة التحقيق والإيقان وهى للمجتهدين كالأئمة الأربعة ومن يحذو حذوهم . والثالثة مرتبة المشاهدة والعيان فهى للكمل من أهل السلوك قال وإذا لم تتطهر النفس من الأخلاق الرديئة لا تحصل المعارف الآلهية وإن كان كاملا فى العقل والعلوم ألا يرى أن الشيطان مع عقله وعلمه كيف

استكبر وعصى أمر الله تعالى لما فى نفسه من الكبر والحسد وكذلك حال أهل الكتاب فى أمر القبلة وشأن النبى - صلى الله عليه وسلم - حيث لم ينفع العلم والمعرفة لخبث باطنهم فلا بد من تزكية النفوس وتصفية القلوب والاستقامة فى باب الحق إلى أن يأتى اليقين . أ هـ .

﴿ روح البيان حـ 1 صـ 316 ﴾

فائدة

قال البقاعى :

وفي تأكيد الأمر تارة بالعلم وتارة بالمعرفة وتارة بغيرهما تأكيد لوجوب اتباعه - صلى الله عليه وسلم - وإزاحة لما يلقيه السفهاء العالمون به من الشبه . أ هـ .

﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 271 ﴾

قوله تعالى ﴿ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (147) ﴾

قال ابن عادل :

قوله تعالى : " الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ " فيه ثلاثة أوجه :

أظهرها : أنه مبتدأ وخبره الجار والمجرور بعده ، وفي الألف واللام حينئذ وجهان :

أحدهما : أن تكون للعهد ، والإشارة إلى الحق الذي عليه الرسول – عليه السلام – أو إلى الحق الذي في قوله : "يَكْتُمُونَ الْحَقَّ" أي : هذا الذي يكتمونه هو الحق من ربك ، وأن تكون للجنس على معنى الحق من الله لا من غيره .

الثاني : أنه خبر مبتدأ محذوف ، أي : هو الحق من ربك ، والضمير يعود على الحق المكتوم أي : ما كتموه هو الحق .

الثالث : أنه مبتدأ والخبر محذوف تقديره : الحق من ربك يعرفونه ، والجار والمجرور على هَذَين القولين في محلّ نصب على الحال من "الحَقّ" ، ويجوز أن يكون خبراً بعد خبر في الوجه الثاني . أهـ . ﴿ تفسير ابن عادل حـ 3 صـ 53 ـ 54 ﴾

(255/69)

(بصيرة فى الحق)

أَصل الحَقّ المطابقةُ والموافقة ، كمطابقة رِجْل الباب فى حُقّه لدَوَرانه على الاستقامة .

والحَقّ يقال على أَربعة أَوجه .

الأَوّل : يقال لموجِد الشئ بحسب ما تقتضيه الحكمة . ولذلك قيل فى الله تعالى : هو الحقّ .

الثَّانى : يقال للموجَد بحسب ما تقتضيه الحكمة . ولذلك يقال : فِعْل الله تعالى كلُّه حَقّ ؛ نحو قولنا : الموت حقّ ، والبعث حقّ ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَآءً وَالْقَمَرَ نُوراً ﴾ إلى قوله ﴿ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذلك إِلاَّ بِالْحَقِّ ﴾ .

الثالث : الاعتقاد فى الشئ المطابِقُ لما عليه ذلك الشئ فى نفسه ؛ كقولنا : اعتقاد فلان فى البعث والثواب والعقاب والجنّة والنَّار حق .

الرّابع : للفعل والقول الواقع بحسب ما يجب ، وبقدر ما يجب ، وفى الوقت الذى يجب ، كقولنا : فعلك حق ، وقولك حق . وقوله تعالى ﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ يصح أَن يكون المراد به الله تعالى ، ويصحّ أَن (يراد) به الحُكْم الَّذى هو بحسب مقتضى الحكمة . ويقال : أَحققت كذا أَى أَثبتُّه حقًّا ، أَو حكمت بكونه حقّاً . وقوله تعالى : ﴿ لِيُحِقَّ الْحَقَّ ﴾ فإحقاقُ الحقّ على ضربين : أَحدهما بإظهار الأَدِلَّة والآيات ، كما قال ﴿ وَأُوْلَائِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً مُّبِيناً ﴾ أَى حجّة قويّة . والثَّانى بإكمال الشريعة وبَثّها ، كقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 2 صـ 484 . 485 ﴾ .

سؤال : فإن قلت : النبي - صلى الله عليه وسلم - لم يمتر ولم يشك فما معنى هذا النهي ؟ .

الجواب : قلت : هذا خطاب وإن كان للنبي - صلى الله عليه وسلم - ولكن المراد غيره

والمعنى فلا تشكوا أنتم أيها المؤمنون وقد تقدم نظير هذا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 1 صـ 118 ﴾

(256/69)

وقال الآلوسى :

قوله تعالى ﴿ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الممترين ﴾ أي الشاكين أو المترددين في كتمانهم الحق عالمين به ، أو في أنه من ربك وليس المراد نهي الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن ذلك لأن النهي عن شيء يقتضي وقوعه أو ترقبه من المنهي عنه وذلك غير متوقع من ساحة حضرة الرسالة ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلا فائدة في نهيه ، ولأن المكلف به يجب أن يكون اختيارياً ، وليس الشك والتردد مما يحصل بقصد واختيار بل المراد إما تحقيق الأمر وأنه بحيث لا يشك فيه أحد كائناً من كان ، أو الأمر للأمة بتحصيل المعارف المزيلة لما نهى عنه فيجعل النهي مجازاً عن ذلك الأمر وفي جعل امتراء الأمة امتراءه ـ صلى الله عليه وسلم ـ مبالغة لا تخفى ، ولك أن تقول : إن الشك ونحوه وإن لم يكن مقدور التحصيل لكنه مقدور لإزالة البقاء ، ولعل النهي عنه بهذا الاعتبار ولهذا قال الله تعالى : ﴿ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الممترين ﴾ دون فلا تمتر ، ومن ظن أن منشأ الإشكال إفخام الكون لأنه هو الذي ليس مقدوراً فلا ينهى عنه دون

الشك والتردد لم يأت بشيء . أ هـ .

﴿ روح المعانى حـ 2 صـ 14 ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ فلا تكونن من الممترين ﴾ .

(257/69)

المراد بهذا الخطاب في المعنى هو الأمّة . ودل الممترين على وجودهم ، ونهى أن يكون منهم ، والنهي عن كونه منهم أبلغ من النهي عن نفس الفعل . فقولك : لا تكن ظالماً ، أبلغ من قولك : لا تظلم ، لأن لا تظلم نهي عن الالتباس بالظلم . وقولك : لا تكن ظالماً نهي عن الكون بهذه الصفة . والنهي عن الكون على صفة ، أبلغ من النهي عن تلك الصفة ، إذ النهي عن الكون على صفة يدل بالوضع على عموم الأكوان المستقبلة على تلك الصفة ، ويلزم من ذلك عموم تلك الصفة . والنهي عن الصفة يدل بالوضع على عموم تلك الصفة . وفرق بين ما يدل على عموم ، ويستلزم عموماً ، وبين ما يدل على عموم فقط ، فلذلك كان أبلغ ، ولذلك كثر النهي عن الكون . قال تعالى : ﴿ فلا تكوننّ من الجاهلين ﴾ ﴿ ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله ﴾ ﴿ فلا تكن في مرية منه ﴾ والكينونة في الحقيقة ليست متعلق

النهي . والمعنى : لا تظلم في كل أكوانك ، أي في كل فرد فرد من أكوانك ، فلا يمر بك وقت يوجد فيه منك ظلم ، فتصير كأن فيه نصاً على سائر الأكوان ، بخلاف لا تظلم ، فإنه يستلزم الأكوان . وأكد النهي بنون التوكيد مبالغة في النهي ، وكانت المشدّدة لأنها أبلغ في التأكيد من المخففة . والمعنى : فلا تكونن من الذين يشكون في الحق ، لأن ما جاء من الله تعالى لا يمكن أن يقع فيه شك ولا جدال ، إذ هو الحق المحض الذي لا يمكن أن يلحق فيه ريب ولا شك . أ هـ . ﴿ البحر المحيط حـ 1 صـ 610 ﴾

(258/69)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآيتين

قال رحمه الله :

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (146) ﴾

الله تبارك وتعالى يقول إن الذين جاءهم الكتاب قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرفونه . . يعرفون ماذا ؟ هل يعرفون أمر تحويل القبلة ؟ أم يعرفون أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعثه ورسالته التي يحاولون أن يشككوا فيها ؟ الله سبحانه وتعالى يشرح

لنا ذلك في قوله تعالى :

وَلَمَّا جَاءهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَاءهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ اللّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (89)

(سورة البقرة)

فكأن اليهود والنصارى يعرفون رسالة محمد صلى الله عليه وسلم . . ومكتوب في التوراة والإنجيل أنه الحق ومطلوب منهم أن يؤمنوا به . . إن كعب الأحبار كان جالسا وعمر بن الخطاب رضي الله عنه كان موجودا فسأله عمر أكنتم تعرفونه يا كعب ؟ أي أكنتم تعرفون محمداً صلى الله عليه وسلم ورسالته وأوصافه ؟ فقال كعب وهو من أحبار اليهود . . أعرف كمعرفتي لابني ، ومعرفتي لمحمد أشد . . فلما سألوه لماذا ؟ قال لأن ابني أخاف أن تكون امرأتي خانتني فيه أما محمد صلى الله عليه وسلم فأوصافه مذكورة بالدقة في التوراة بحيث لا نخطئه .

(259/69)

إذا فأهل الكتاب يعرفون رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعرفون زمنه ورسالته . .

والذين أسلموا منهم وآمنوا فعلوا ذلك عن اقتناع ، أما الذين لم يؤمنوا وكفروا بما جاء به

رسول الله صلى الله عليه وسلم عرفوا ولكنهم كتموا ما يعرفونه . . ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى عنهم : " وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون" . . وساعة تقول كتم الشيء . . فكأن الشيء بطبيعته كان يحب أن يبرز وينتشر . . والحق بطبيعته لابد أن يبرز وينتشر ولكن إنكار الحق وكتمه يحتاج إلي مجهود .

إن الذين يحققون في القضايا الدقيقة يحاولون أن يمنعوا القوة أن تكتم الحق . . فيجعلون من يحققون معه لا ينام حتى تنهار قواه فينطق بالحقيقة . . لأن النطق بالحق عملية شاقة . . ولكن الله سبحانه وتعالى يقول : " ليكتمون الحق وهم يعلمون" . . أي أنهم ليسوا جاهلين ولكنهم على علم بالحقيقة . . والحق من الله فهل يستطيع هؤلاء كتمانه ؟ طبعا لا ، لابد أن يظهر . . فإذا انتشر الكذب والباطل فهو كالألم الذي يحدث في الجسد . . الناس تكره الألم ولكن الألم من جنود الشفاء لأنه يجعلك تحس أن هناك شيئا أصابه مرض فتتجه إليه بأسباب العافية .

إن أخطر الأمراض هي التي لا يصاحبها ألم ولا تحس بها إلا بعد أن يكون قد فات وقت العلاج . . والحق دائما غالب على أمره ولذلك لا توجد معركة بين حقين . . أما الباطل فتوجد معركة بين باطل وباطل وبين حق وباطل لأنه لا يوجد إلا حق واحد أما الباطل فكثير . . والمعارك بين الحق والباطل تنتهي بهزيمة الباطل بسرعة . . ولكن الذي يطول هو معركة بين باطلين . . ولذلك فإن معارك العصر الحديث تطول وتتعب الدنيا . .

فمعارك الحرب العالمية الثانية مثلا لازالت آثارها ممتدة حتى الآن في الحرب الباردة وغير ذلك من الحروب الصغيرة . . ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به)أخرجه الديلمى فى مسند الفردوس .

(260/69)

﴿ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (147) ﴾

الحق من الله سبحانه وتعالى . . ومادام من الله فلا تكونن من الذين يشكون في أن الحق سينتصر . . ولكن الحق لابد من قوة تحميه . . وكما يقول الشاعر :

السيف إن يزهي بجوهره

وليس يعمل إلا في يدي بطل

فما فائدة أن يكون معك سيف بتار . . دون أن توجد اليد القوية التي ستضرب به . . ونحن غالبا نكون مضيعين للحق لأننا لا نوفر له القوة التي ينتصر بها . وقوله تعالى : " فلا تكونن من الممترين " . . الممتري هو الذي يشك في حدوث الشيء . . والشك معناه أنه ليست هناك نسبة تتغلب على نسبة . . أي أن الاحتمالين متساويان . . ولكن الحق من

الله ولا توجد نسبة تقابله . . ولذلك لا يجب أن نشك ولا ندخل في جدل عقيم حول انتصار الحق . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 635. 637 ﴾

(261/69)

" فوائد بلاغية "

قال فى صفوة التفاسير :

البلاغة :

1- وضع اسم الموصول موضوع الضمير في قوله : [أوتوا الكتاب] للإيذان بكمال سوء حالهم من العناد .

2- [ولئن اتبعت أهواءهم] هذا من باب التهييج والإلهاب للثبات على الحق .

3- [وما أنت بتابع قبلتهم] هذه الجملة أبلغ في النفي من قوله : [ما تبعوا قبلتك] لأنها جملة اسمية أولا ، ولتأكيد نفيها بالباء ثانيا ، والتأكيد دال على أهمية الأمر ، وعظم الخطب .

4- [كما يعرفون أبناءهم] فيه تشبيه " مرسل مفصل " أي يعرفون محمدا معرفة واضحة

كمعرفة أبناءهم الذين من أصلابهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 1 صـ 105 ﴾

(262/69)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (146) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (147)

في " الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ " : ستة أوجه :

ظهرها : أنه مرفوع بالابتداء ، والخبر قوله : " يعرفونه " .

الثاني : أنه خبر مبتدأ محذوف أي : هم الذين آتيناهم .

الثالث : النصب بإضمار " أعني " .

الرابع : الجر على البدل من " الظَّالمين " .

الخامس : على الصفة للظالمين .

السادس : النصب على البدل من " الَّذين أوتوا الكتاب " في الآية قبلها .

قوله تعالى : "يَعْرِفُونَهُ" فيه وجهان :

أحدهما : أنه خبر "الذين آتيناهم" كما تقدم في أحد الأوجه المذكورة في "الَّذِينَ آتيناهم" .

الثاني : أنه نصب على الحال على بقية الأقوال المذكورة .

وفي صاحب الحال وجهان :

أحدهما : المفعول الأول لـ "آتيناهم" .

والثاني : المفعول الثاني وهو الكتاب ؛ لأن في "يعرفونه" ضميرين يعودان عليهما ، والضمير في "يعرفونه" فيه أقوال :

أحدها : أنه يعود على "الحق" الذي هو التحول ، وهو قول ابن عباس – رضي الله عنهما – وقتادة والربيع وابن زيد .

الثاني : على النبي صلى الله عليه وسلم وشرف وكرم وبجل وعظّم ؛ أي : يعرفونه معرفة جليّة كما يعرفون أبناءهم لا تشتبه أبناؤهم وأبناء غيرهم .

قوله : "كَمَا يَعْرِفُونَ" "الكاف" في محل نصب إما على كونها نَعْتاً لمصدر محذوف أي : معرفة كائنة مثل معرفتهم أبناءهم ، أو في موضع نصب على الحال من ضمير ذلك المصدر المعرفة المحذوف ، التقدير : يعرفونه معرفة مُمَاثلة لعرفانهم ، وهذا مذهب سيبويه وتقدم

تحقيق هذا .

و" ما " مصدرية لأنه ينسبك منها ومما بعدها مصدر كما تقدم تحقيقه .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الحق وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : 146] .

قوله تعالى : " وَهُمْ يَعْلَمُونَ " جملة اسمية في محلّ نصب على الحال من فاعل " يكتمون " ، والأقرب فيها أن تكون حالاً مؤكدة ؛ لأن لفظ " يَكْتُمون الحَقّ " يدل على علمه ، إذ الكتم إخفاء ما يعلم وقيل : متعلق العلم هو ما على الكاتم من العقاب ، أي : وهم يعلمون العقاب المرتب على كاتم الحق ، فتكون إذ ذاك حالاً مبينة ، وهذا ظاهر في أن كفرهم كان عِنَاداً ، ومثله : ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا واستيقنتها أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً ﴾ [النمل : 14] .

قوله تعالى : " الْحَقُّ مِنْ رَبّكَ " فيه ثلاثة أوجه :

أظهرها : أنه مبتدأ وخبره الجار والمجرور بعده ، وفي الألف واللام حينئذ وجهان :

أحدهما : أن تكون للعهد ، والإشارة إلى الحق الذي عليه الرسول – عليه السلام – أو إلى الحق الذي في قوله : " يَكْتُمُونَ الْحَقَّ " أي : هذا الذي يكتمونه هو الحق من ربك ، وأن تكون للجنس على معنى الحق من الله لا من غيره .

الثاني : أنه خبر مبتدأ محذوف ، أي : هو الحق من ربك ، والضمير يعود على الحق المكتوم أي : ما كتموه هو الحق .

الثالث : أنه مبتدأ والخبر محذوف تقديره : الحق من ربك يعرفونه ، والجار والمجرور على هَذَين القولين في محلّ نصب على الحال من " الحَقّ " ، ويجوز أن يكون خبراً بعد خبر في الوجه الثاني .

وقرأ علي بن أبي طالب : " " نصباً ، وفيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه منصوب على البدل من الحق المكتوم ، قاله الزمخشري .

الثاني : أن يكون منصوباً بإضمار " الذم " ، ويدل عليه الخطاب بعده في قوله : " فلاَ تَكُونَنَّ " .

(264/69)

الثالث : أنه يكون منصوباً بـ " يعلمون " قبله ، وذكر هذين الوجهين ابن عطية ، وعلى هذا الوجه الأخير يكون مما وقع فيه الظاهر موضع المضمر ، أي : وهم يعلمونه كائناً من ربك ، وذلك سائغ حسن في أماكن التفخيم والتهويل نحو : [الخفيف]

737 - لاَ أَرَى الْمَوْتَ يَسْبِقُ الْمَوْتَ شَيءٌ . . .

. . . . . .

والنهي عن الكون على صفة أبلغ من النهي عن نفس الصفة ، فلذلك جاء التنزيل عليه : نحو ﴿ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الممترين ﴾ ﴿ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الجاهلين ﴾ [الأنعام : 35] دُونَ : لا تمتر ولا تجهل ونحوه وتقرير ذلك أن قوله : " لا تكن ظالماً " نهي عن الكون بهذه الصفة ، والنهي عن الكون على صفة أبلغ من النهي عن تلك الصفة ؛ إذ النهي عن الكون على صفة يدلّ على عموم الأكوان المستقبلة عن تلك الصفة ، والمعنى لا تظلم في كل أكوانك ، أي : في كل فرد فرد من أكوانك فلا يمرّ بك وقت يوجد منك فيه ظلم ، فيصير كأن فيه نصاً على سائر الأكوان ، بخلاف : لا تظلم ، فإنه يستلزم الأكوان ، وفرق بين ما يدلّ دلالة بالنص وبين ما يدل دلالة بالاستلزام و" الامتراء " : افتعال من المِرْيَة وهي الشك ، ومنه المراء .

قال : [الطويل]

838 – فَإِيَّاكَ إِيَّاكَ الْمِرَاءَ فَإِنَّهُ . . .

إِلَى الشَّرِّ دَعَّاءٌ وَلِلشَّرِّ جَالِبُ

و" ماريته " : جادلته وشاكلته فيما يدعيه ، و" افتعل " فيه بمعنى " تفاعل " ، يقال : تماروا في كذا ، وامتروا فيه نحو : تجاوروا ، واجتوروا .

وقال الراغب : المِرْيَة : التردّد في الأمر ، وهي أخَصُّ من الشّك ، والامتراء والمماراة المُحاجَّةُ فيما فيه مِرْية ، وأصله من مَرَيْتُ النَّاقة إذا مَسحتَ ضَرْعَها للحَلْب .

ففرق بين المِرْية والشَّك كما ترى ، وهذا كما تقدم له الفرق بين الرّيب والشَّك ، وانشد الطبري قول الأعشى : [الطويل]

839 - تَدُرُّ عَلى أَسْؤُقِ المُمْتَرِي . . .

نَ رَكْضاً إِذَا مَا السَّرَابُ ارْجَحَنْ

شاهداً على أن الممترين الشاكون .

قال : ووهم في ذلك ؛ لأن أبا عبيدة وغيره قالوا : الممترون في البيت هم الذين يمرُّون الخيل بأرجلهم هَمْزاً لتجري كأنهم يَتحلبون الجري منها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 3 صـ 50. 55 ﴾ . باختصار .

(265/69)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العَاجِزُ الْفَقِيرُ

عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مُحَمَّدٍ الْقَمَّاش

إِمَامُ وَخَطِيبُ مَسْجِدِ بُورُسْلِى - رَأْسُ الْخَيمَةِ

دَوْلَةُ الإِمَارَاتِ الْعَرَبِيَّةِ الْمُتَّحِدَةِ

(عَفَا اللهُ عَنْهُ وَغَفَرَ لَهُ)

الجزء السبعون

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء السبعون

من الآية ﴿ 148 ﴾ من سورة البقرة

وحتى الآية ﴿ 154 ﴾ من نفس السورة

قوله تعالى ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (148) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما بين أن أحداً من هؤلاء الفرق لا يتبع قبلة الآخر وتضمن ذلك أن لكل منهم قبلة وقرر أن ذلك من أهل الكتاب على وجه العناد أثبت ما تضمنه الكلام السابق على وجه أعم منه وسبب عنه النتيجة فقال تعالى : ﴿ ولكل ﴾ أي لكل فريق من المذكورين وغيرهم ﴿ وجهة ﴾ أي مقصد يقصده ويوجه وجهه إليه ويقبل بقلبه عليه من القبلة للصلاة وغيرها من جميع المقاصد ﴿ هو موليها ﴾ إن كسر اللام كان المعنى هو متوليها أي فاعل التولي أي مائل إليها بوجهه لأن المادة تدور بكل ترتيب على الميل كما يأتي إن شاء الله تعالى في آخر الأنفال ، فيكون وليّ بمعنى تولّى كتقدم بمعنى تقدم ، ومن المعلوم الفرق بين تولاه وتولى عنه ، وإن فتح فالمعنى : هو ممال إليها .

قال الحرالي : وفي قراءة موليها – بالكسر – إشعار باختلاف جبلات أهل الملل وإقامة كل طائفة منهم بما جبلت عليه ، وفي قراءة " مولاها " إظهار حقيقة ذلك وأنه ليس ذلك منهم بل بما أقامهم فيه المولى لهم حيث شاء ، وأبهم فيه المولى لما كان في طوائف منهم حظ هوى

، وهو من التولية وهو ما يجعل مما يلي الجسد ، أو القصد أي يكون ميالاً بين يديه ملاصقاً له - انتهى .

(5/70)

ولما كان فعلهم هذا إنما هو لأجل تزكية النفس وخلاصها وكان ذلك لا يحصل إلا بفعل الخير واجتناب الشر سبب عنه قوله : ﴿ فاستبقوا الخيرات ﴾ أي فاجعلوا أنتم مقصدكم أنواع الخير من القبلة وغيرها وتسابقوا في قصدكم إليها ، أي كانوا في المبادرة إلى أفعال الخير كمن يسابق خصماً فهو يجتهد في سبقه ، فإن الاستباق تكلف السبق والسبق بروز أحد المتحاربين ، ثم حثهم على ذلك وحذرهم من تركه بقوله على وجه التعليل : ﴿ أين ما تكونوا ﴾ أي من الجهات التي استبقتم إليها الحسية والمعنوية ﴿ يأت بكم الله ﴾ أي الملك الأعظم ﴿ جميعاً ﴾ منها إليه في يوم البعث ، ثم علل هذه العلة بقوله : ﴿ إن الله ﴾ أي الذي له الأمر كله ﴿ على كل شيء قدير ﴾ وفي ذكر البعث هنا معادلة بين القبلتين : قبلة أهل الفضل الأمة الوسط التي جعلت محل الأمن ، والقبلة الأولى ، قال الحرالي : من حيث يرد الخلق في البعث إلى موطن القبلة السابقة من أرض الشام ، فيكون موطن الحق والعدل أولى القبلتين بذلك ، لأن أعلى القبلتين موطن أمنة من حيث إن من دخله كان آمناً ، فكان

المحشر إلى قبلتهم الأولى التي هي بداية الأمر ليطابق الآخر من القبلتين الأولى من حيث كان الآخر في الدنيا للفضل والأول في الآخر للعدل ومن الدعوتين من حيث كانت الدعوة الأولى في الأول حكماً وعلماً والإتيان الآخر في العقبى قهراً وملكاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 271. 272 ﴾

سؤال : ما المراد بقوله : ﴿ وَلِكُلٍّ ﴾ ؟

الجواب : اعلم أنهم اختلفوا في المراد بقوله : ﴿ وَلِكُلٍّ ﴾ وفيه مسألتان :

المسألة الأولى : إنما قال : ﴿ وَلِكُلٍّ ﴾ ولم يقل لكل قوم أو أمة لأنه معروف المعنى عندهم فلم يضر حذف المضاف إليه وهو كثير في كلامهم كقوله : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً ومنهاجا ﴾ [المائدة : 48] .

المسألة الثانية : ذكروا فيه أربعة أوجه .

أحدها : أنه يتناول جميع الفرق ، أعني المسلمين واليهود والنصارى والمشركين ، وهو قول الاصم ، قال : لأن في المشركين من كان يعبد الأصنام ويتقرب بذلك إلى الله تعالى كما حكى الله تعالى عنهم في قوله : ﴿ هَؤُلاء شفعاؤنا عِندَ الله ﴾ [يونس : 18] .

وثانيها : وهو قول أكثر علماء التابعين ، أن المراد أهل الكتاب وهم : المسلمون واليهود والنصارى ، والمشركون غير داخلين فيه .

وثالثها : قال بعضهم : المراد لكل قوم من المسلمين وجهة أي جهة من الكعبة يصلي إليها : جنوبية أو شمالية ، أو شرقية أو غربية ، واحتجوا على هذا القول بوجهين .

الأول : قوله تعالى : ﴿ هُوَ مُوَلِّيهَا ﴾ يعني الله موليها وتولية الله لم تحصل إلا في الكعبة ، لأن ما عداها تولية الشيطان .

الثاني : أن الله تعالى عقبه بقوله : ﴿ فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ ﴾ والظاهر أن المراد من هذه الخيرات ما لكل أحد من جهة ، والجهات الموصوفة بالخيرية ليست إلا جهات الكعبة .

ورابعها : قال آخرون : ولكل وجهة أي لكل واحد من الرسل وأصحاب الشرائع جهة قبلة ، فقبلة المقربين : العرش ، وقبلة الروحانيين : الكرسي ، وقبلة الكروبيين : البيت المعمور ، وقبلة الأنبياء الذين قبلك بيت المقدس ، وقبلتك الكعبة . أ هـ . ﴿ مفاتيح الغيب حـ 4 صـ 119 ﴾

سؤال ما المراد بقوله ﴿ وجهة ﴾ ؟

الجواب : اختلفوا في المراد فقال الحسن : المراد المنهاج والشرع ، وهو كقوله تعالى : ﴿ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً ﴾ [الحج : 67] ، ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ ﴾ [المائدة : 48] ﴿ شِرْعَةً ومنهاجا ﴾ [المائدة : 48] والمراد منه أن للشرائع مصالح ، فلا جرم اختلفت الشرائع بحسب اختلاف الأشخاص ، وكما اختلف بحسب اختلاف الأشخاص لم يبعد أيضاً اختلافها بحسب اختلاف الزمان بالنسبة إلى شخص واحد ، فلهذا صح القول بالنسخ والتغيير ، وقال الباقون : المراد منه أمر القبلة ، لأنه تقدم قوله تعالى : ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المسجد الحرام ﴾ [البقرة : 144] فهذه الوجهة يجب أن تكون محمولة على ذلك . أ هـ .

﴿ مفاتيح الغيب حـ 4 صـ 119 ﴾

قوله تعالى ﴿ هو موليها ﴾

﴿ هو موليها ﴾ إن كسر اللام كان المعنى هو متوليها أي فاعل التولي أي مائل إليها بوجهه لأن المادة تدور بكل ترتيب على الميل كما يأتي إن شاء الله تعالى في آخر الأنفال ، فيكون وليّ بمعنى تولّى كقدم بمعنى تقدم ، ومن المعلوم الفرق بين تولاه وتولى عنه ، وإن فتح فالمعنى : هو ممال إليها .

قال الحرالي : وفي قراءة موليها – بالكسر – إشعار باختلاف جبلات أهل الملل وإقامة كل طائفة منهم بما جبلت عليه ، وفي قراءة " مولاها " إظهار حقيقة ذلك وأنه ليس ذلك منهم بل بما أقامهم فيه المولى لهم حيث شاء ، وأبهم فيه المولى لما كان في طوائف منهم حظ هوى

، وهو من التولية وهو ما يجعل مما يلي الجسد ، أو القصد أي يكون ميالاً بين يديه ملاصقاً له - انتهى .

﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 271 ﴾

قوله تعالى ﴿ هُوَ مُوَلِّيهَا ﴾

سؤال : ما مرجع الضمير المنفصل ﴿ هو ﴾ ؟

الجواب : وفي " هو" ثلاثة أقوال . أحدها : أنها ترجع إلى الله تعالى ، فالمعنى : الله مولّيها إياهم ، أي : أمرهم بالتوجه إليها . والثاني : ترجع إلى المتولي ، فالمعنى : هو موليها نفسه ، فيكون " هو" ضمير كل . والثالث : يرجع إلى البيت ، قاله مجاهد : أمر كل قوم أن يصلُّوا إلى الكعبة . والجمهور يقرؤون : ﴿ مولّيها ﴾ وقرأ ابن عامر ، والوليد عن يعقوب : " هو مولاها " بألف بعد اللام ، فضمير " هو" لكل ، ومعنى القراءتين متقارب . انتهى . اهـ

﴿ زاد المسير حـ 1 صـ 159 ﴾

قوله تعالى ﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾

والاستباق افتعال والمراد به السبق وحقه التعدية باللام إلاّ أنه توسع فيه فعدي بنفسه كقوله

تعالى : ﴿ واستبقا الباب ﴾ [يوسف : 25] أو على تضمين استبقوا معنى اغتنموا .

فالمراد من الاستباق هنا المعنى المجازي وهو الحرص على مصادفة الخير والإكثار منه والخيرات جمع خير على غير قياس كما قالوا سرادقات وحمامات . والمراد عموم الخيرات كلها فإن المبادرة إلى الخير محمودة ومن ذلك المبادرة بالتوبة خشية هاذم اللذات وفجأة الفوات قال تعالى : ﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم ﴾ [آل عمران : 133] ، ﴿ والسابقون السابقون ، أولئك المقربون ، في جنات النعيم ﴾ [الواقعة : 10 12] ومن ذلك فضيلة السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار قال تعالى : ﴿ لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا ﴾ [الحديد : 10] وقال موسى : ﴿ وعجلت إليك رب لترضى ﴾ [طه : 84] . أ هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 2 صـ 43 ﴾

وقال أبو السعود :

وهو أبلغَ من الأمر بالمسارعة لما فيه من الحث على إحراز قصَبِ السبْقِ والمرادُ بالخيرات جميعُ أنواعِها من أمر القِبلة وغيرِه مما يُنال به سعادةُ الدارين أو الفاضلاتُ من الجهات وهي المسامته للكعبة . أ هـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 1 صـ 177 ﴾

موعظة

كان الحسن يقول : عجبت لأقوام أمروا بالزاد ونودي فيهم بالرحيل وجلس أولهم على آخرهم وهم يلعبون

وكان يقول : يا بن آدم : السكين تشحذ والتنور يسجر والكبش يعتلف

وقال أبو حازم : إن بضاعة الآخرة كاسدة فاستكثروا منها في أوان كسادها فإنه لو جاء وقت نفاقها لم تصلوا فيها إلى قليل ولا كثير وكان عون بن عبد الله يقول : ما أنزل الموت كنه منزلته ما قد غدا من أجلكم مستقبل يوم لا يستكمله وكم من مؤمل لغد لا يدركه إنكم لو رأيتم الأجل ومسيره بغضتم الأمل وغروره

وكان أبو بكر بن عياش يقول : لو سقط من أحدكم درهم لظل يومه يقول : إنا لله ذهب درهمي وهو يذهب عمره ولا يقول : ذهب عمري وقد كان لله أقوام يبادرون الأوقات ويحفظون الساعات ويلازمونها بالطاعات

فقيل عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه : إنه ما مات حتى سرد الصوم

وكانت عائشة رضي الله عنها تسرد وسرد أبو طلحة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعين سنة وقال نافع : ما رأيت ابن عمر صائما في سفره ولا مفطرا في حضره

قال سعيد بن المسيب : ما تركت الصلاة في جماعة منذ أربعين سنة وكان سعيد بن جبير

يختم القرآن في ليلتين وكان الأسود يقوم حتى يخضر ويصفر وحج ثمانين حجة

وقال ثابت البناني : ما تركت في الجامع سادنة إلا وختمت القرآن عندها وقيل لعمرو بن هانيء : لا نرى لسانك يفتر من الذكر فكم تسبح كل يوم ؟ قال : مائة ألف إلا ما تخطيء الأصابع

وصام منصور بن المعتمر أربعين سنة وقام ليلها وكان الليل كله يبكي فتقول له أمه : يا بني قتلت قتيلا فيقول : أنا أعلم بما صنعت نفسي

قال الجماني : لما حضرت أبو بكر بن عياش الوفاة بكت أخته فقال : لا تبك وأشار إلى زاوية في البيت إنه قد ختم أخوك في هذه الزاوية ثمانية عشر ألف ختمة

قال الربيع : وكان الشافعي رضي الله عنه يقرأ في كل شهر ثلاثين ختمة وفي كل شهر رمضان ستين ختمة سوى ما يقرأ في الصلوات واعلم أن الراحة لا تنال بالراحة ومعالي الأمور لا تنال بالفتور ومن زرع حصد ومن جد وجد

لله در أقوام شغلهم تحصيل زادهم عن أهاليهم وأولادهم ومال بهم ذكر المآل عن المال في معادهم وصاحت بهم الدنيا فما أجابوا شغلا بمرادهم وتوسدوا أحزانهم بدلا عن

وسادهم واتخذوا الليل مسلكا لجهادهم واجتهادهم وحرسوا جوارحهم من النار عن غيهم وفسادهم فيا طالب الهوى جز بناديهم وناديهم :

(أحيوا فؤادي ولكنهم . . . على صيحة من البين ماتوا جميعا)

(حرموا راحة النوم أجفانهم . . . ولفوا على الزفرات الضلوعا)

(طوال السواعد شم الأنوف . . . فطابوا أصولا وطابوا فروعا)

أقبلت قلوبهم ترعى حق الحق فذهلت بذلك عن مناجاة الخلق فالأبدان بين أهل الدنيا تسعى والقلوب في رياض الملكوت ترعى نازلهم الخوف فصاروا والهين وناجاهم الفكر فعادوا خائفين وجن عليهم الليل فباتوا ساهرين وناداهم منادي الصلاح حي على الفلاح فقاموا متجدهين وهبت عليهم ريح الأسحار فتيقظوا مستغفرين وقطعوا بند المجاهدة فأصبحوا واصلين فلما رجعوا وقت الفجر بالأجر بادى الهجر يا خيبة النائمين

أهـ ﴿ الياقوتة صـ 57 ﴾

قوله تعالى ﴿ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

﴿ أين ما تكونوا ﴾ أي من الجهات التي استبقتم إليها الحسية والمعنوية ﴿ يأت بكم الله ﴾

أي الملك الأعظم ﴿ جميعاً ﴾ منها إليه في يوم البعث ، ثم علل هذه العلة بقوله : ﴿ إن الله ﴾ أي الذي له الأمر كله ﴿ على كل شيء قدير ﴾ وفي ذكر البعث هنا معادلة بين القبلتين : قبلة أهل الفضل الأمة الوسط التي جعلت محل الأمن ، والقبلة الأولى ، قال الحرالي : من حيث يرد الخلق في البعث إلى موطن القبلة السابقة من أرض الشام ، فيكون موطن الحق والعدل أولى القبلتين بذلك ، لأن أعلى القبلتين موطن أمنة من حيث إن من دخله كان آمناً ، فكان المحشر إلى قبلتهم الأولى التي هي بداية الأمر ليطابق الآخر من القبلتين الأولى من حيث كان الآخر في الدنيا للفضل والأول في الآخر للعدل ومن الدعوتين من حيث كانت الدعوة الأولى في الأول حكماً وعلماً والإتيان الآخر في العقبى قهراً وملكاً . انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 271 ﴾

من فوائد الإمام الجصاص فى الآية

قال رحمه الله :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ﴾ الْوُجْهَةُ قِيلَ فِيهَا قِبْلَةٌ " رُوِيَ ذَلِكَ عَنْ مُجَاهِدٍ . وَقَالَ الْحَسَنُ : " طَرِيقَةً " وَهُوَ مَا شَرَعَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ الْإِسْلَامِ .

وَرُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ وَالسُّدِّيِّ : " لِأَهْلِ كُلِّ مِلَّةٍ مِنْ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وِجْهَةٌ " .

وَقَالَ الْحَسَنُ : " لِكُلِّ نَبِيٍّ " فَالْوِجْهَةُ وَاحِدَةٌ وَهِيَ الْإِسْلَامُ وَإِنْ اخْتَلَفَتْ الْأَحْكَامُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ قَالَ قَتَادَةُ : " هُوَ صَلَاتُهُمْ إلَى الْبَيْتِ الْمَقْدِسِ وَصَلَاتُهُمْ إلَى الْكَعْبَةِ " .

وَقِيلَ فِيهِ : لِكُلِّ قَوْمٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ أَهْلِ سَائِرِ الْآفَاقِ الَّتِي جِهَاتُ الْكَعْبَةِ وَرَاءَهَا أَوْ قُدَّامَهَا أَوْ عَنْ يَمِينِهَا أَوْ عَنْ شِمَالِهَا ، كَأَنَّهُ أَفَادَ أَنَّهُ لَيْسَ جِهَةٌ مِنْ جِهَاتِهَا بِأَوْلَى أَنْ تَكُونَ قِبْلَةً مِنْ غَيْرِهَا .

وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ كَانَ جَالِسًا بِإِزَاءِ الْمِيزَابِ فَتَلَا قَوْله تَعَالَى : ﴿ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ﴾ قَالَ : " هَذِهِ الْقِبْلَةُ " .

فَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَظُنُّ أَنَّهُ عَنَى الْمِيزَابَ ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ ؛ لِأَنَّهُ إنَّمَا أَشَارَ إلَى الْكَعْبَةِ وَلَمْ يُرِدْ بِهِ تَخْصِيصَ جِهَةِ الْمِيزَابِ دُونَ غَيْرِهَا ، وَكَيْفَ يَكُونُ ذَلِكَ مَعَ قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ وَقَوْله تَعَالَى : ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ مَعَ اتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى أَنَّ سَائِرَ جِهَاتِ الْكَعْبَةِ قِبْلَةٌ لِمُوَلِّيهَا .

وقَوْله تعَالَى : ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ﴾ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الَّذِي كُلِّفَ بِهِ مَنْ غَابَ عَنْ حَضْرَةِ الْكَعْبَةِ إنَّمَا هُوَ التَّوَجُّهُ إلَى جِهَتِهَا فِي غَالِبِ ظَنِّهِ لَا إصَابَةَ مُحَاذَاتِهَا غَيْرَ زَائِلٍ عَنْهَا ؛ إذْ لَا سَبِيلَ لَهُ إلَى ذَلِكَ وَإِذْ غَيْرُ جَائِزٍ أَنْ يَكُونَ جَمِيعُ مَنْ غَابَ عَنْ حَضْرَتِهَا مُحَاذِيًا لَهَا .

وقَوْله تعَالَى : ﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾ يَعْنِي وَاَللَّهُ أَعْلَمُ الْمُبَادَرَةُ وَالْمُسَارَعَةُ إلَى الطَّاعَاتِ .

وَهَذَا يُحْتَجُّ بِهِ فِي أَنَّ تَعْجِيلَ الطَّاعَاتِ أَفْضَلُ مِنْ تَأْخِيرِهَا مَا لَمْ تَقُمْ الدَّلَالَةُ عَلَى فَضِيلَةِ التَّأْخِيرِ ، نَحْوَ تَعْجِيلِ الصَّلَوَاتِ فِي أَوَّلِ أَوْقَاتِهَا وَتَعْجِيلِ الزَّكَاةِ وَالْحَجِّ وَسَائِرِ الْفُرُوضِ بَعْدَ حُضُورِ وَقْتِهَا وَوُجُودِ سَبَبِهَا وَيُحْتَجُّ بِهِ بِأَنَّ الْأَمْرَ عَلَى الْفَوْرِ ، وَأَنَّ جَوَازَ التَّأْخِيرِ يَحْتَاجُ إلَى دَلَالَةٍ ، وَذَلِكَ أَنَّ الْأَمْرَ إذَا كَانَ غَيْرَ مُوَقَّتٍ فَلَا مَحَالَةَ عِنْدَ الْجَمِيعِ أَنَّ فِعْلَهُ عَلَى الْفَوْرِ مِنْ الْخَيْرَاتِ فَوَجَبَ بِمَضْمُونِ قَوْله تعَالَى : ﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾ إيجَابُ تَعْجِيلِهِ ؛ لِأَنَّهُ أَمْرٌ يَقْتَضِي الْوُجُوبَ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 1 صـ 112 .

﴿ 113

ومن فوائد ابن العربى فى الآية

قال رحمه الله :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ﴾ وَهِيَ مُشْكِلَةٌ ، لُبَابُ الْكَلَامِ فِيهَا فِي مَسْأَلَتَيْنِ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : أَنَّ الْوِجْهَةَ هِيَ هَيْئَةُ التَّوَجُّهِ كَالْقِعْدَةِ بِكَسْرِ الْقَافِ : هَيْئَةُ الْقُعُودِ ، وَالْجِلْسَةِ : هَيْئَةُ الْجُلُوسِ ، وَفِي الْمُرَادِ بِهَا ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : أَنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ أَهْلُ الْأَدْيَانِ ؛ الْمَعْنَى لِأَهْلِ كُلِّ مِلَّةٍ حَالَةٌ فِي التَّوَجُّهِ إلَى الْقِبْلَةِ ؛ رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ .

الثَّانِي : أَنَّ الْمَعْنَى لِكُلٍّ وِجْهَةٌ فِي الصَّلَاةِ إلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ ، وَفِي الصَّلَاةِ إلَى الْكَعْبَةِ ؛ قَالَهُ قَتَادَةُ .

الثَّالِثُ : أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ جَمِيعُ الْمُسْلِمِينَ ، أَيْ لِأَهْلِ كُلِّ جِهَةٍ مِنْ الْآفَاقِ وِجْهَةٌ مِمَّنْ بِمَكَّةَ وَمِمَّنْ بَعُدَ ، لَيْسَ بَعْضُهَا مُقَدَّمًا عَلَى الْبَعْضِ فِي الصَّوَابِ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الَّذِي وَلَّى جَمِيعَهَا وَشَرَعَ جُمْلَتَهَا ، وَهِيَ وَإِنْ كَانَتْ مُتَعَارِضَةً فِي الظَّاهِرِ وَالْمُعَايَنَةِ ، فَإِنَّهَا مُتَّفِقَةٌ فِي الْقَصْدِ وَامْتِثَالِ الْأَمْرِ .

وَقُرِئَ : هُوَ مُوَلَّاهَا ، يَعْنِي الْمُصَلِّيَ ؛ التَّقْدِيرُ : الْمُصَلِّي هُوَ مُوَجَّهٌ نَحْوَهَا ، وَكَذَلِكَ قَبْلُ فِي قِرَاءَةِ مَنْ قَرَأَ هُوَ مُوَلِّيهَا ؛ إنَّ الْمَعْنَى أَيْضًا أَنَّ الْمُصَلِّيَ هُوَ مُتَوَجِّهٌ نَحْوَهَا ؛ وَالْأَوَّلُ أَصَحُّ فِي النَّظَرِ ، وَأَشْهَرُ فِي الْقِرَاءَةِ وَالْخَبَرِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾ مَعْنَاهُ ، افْعَلُوا الْخَيْرَاتِ ، مِنْ السَّبْقِ ، وَهُوَ الْمُبَادَرَةُ إلَى الْأَوَّلِيَّةِ ، وَذَلِكَ حَثٌّ عَلَى الْمُبَادَرَةِ وَالِاسْتِعْجَالِ إلَى الطَّاعَاتِ ، وَلَا خِلَافَ فِيهِ بَيْنَ الْأُمَّةِ فِي الْجُمْلَةِ .

وَفِي التَّفْضِيلِ اخْتِلَافٌ ؛ وَأَعْظَمُ مُهِمٍّ اخْتَلَفُوا فِي تَفْضِيلِهِ الصَّلَاةُ ؛ فَقَالَ الشَّافِعِيُّ : أَوَّلُ الْوَقْتِ فِيهَا أَفْضَلُ مِنْ غَيْرِ تَفْصِيلٍ ؛ لِظَاهِرِ هَذِهِ وَغَيْرِهَا ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَسَارِعُوا إلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : آخِرُ الْوَقْتِ أَفْضَلُ ؛ لِأَنَّهُ عِنْدَهُ وَقْتُ الْوُجُوبِ حَسْبَمَا مَهَّدْنَاهُ فِي مَسَائِلِ الْخِلَافِ .

وَأَمَّا مَالِكٌ فَفَصَّلَ الْقَوْلَ ؛ فَأَمَّا الصُّبْحُ وَالْمَغْرِبُ فَأَوَّلُ الْوَقْتِ فِيهِمَا أَفْضَلُ عِنْدَهُ مِنْ غَيْرِ خِلَافٍ .

وَأَمَّا الظُّهْرُ وَالْعَصْرُ فَلَمْ يَخْتَلِفْ قَوْلُهُ : إنَّ أَوَّلَ الْوَقْتِ أَفْضَلُ لِلْفَذِّ ، وَإِنَّ الْجَمَاعَةَ تُؤَخَّرُ " عَلَى مَا فِي حَدِيثِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

وَالْمَشْهُورُ فِي الْعِشَاءِ أَنَّ تَأْخِيرَهَا أَفْضَلُ لِمَنْ قَدَرَ عَلَيْهِ ، فَفِي صَحِيحِ الْحَدِيثِ ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخَّرَهَا لَيْلَةً حَتَّى رَقَدَ النَّاسُ وَاسْتَيْقَظُوا ، ثُمَّ قَالَ : لَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي لَأَخَّرْتُهَا هَكَذَا .

﴿ وَأَمَّا الظُّهْرُ فَإِنَّهَا تَأْتِي النَّاسَ عَلَى غَفْلَةٍ فَيُسْتَحَبُّ تَأْخِيرُهَا قَلِيلًا حَتَّى يَتَأَهَّبُوا

وَيَجْتَمِعُوا .

وَأَمَّا الْعَصْرُ فَتَقْدِيمُهَا أَفْضَلُ .

(16/70)

وَلَا خِلَافَ فِي مَذْهَبِنَا أَنَّ تَأْخِيرَ الصَّلَاةِ لِأَجْلِ الْجَمَاعَةِ أَفْضَلُ مِنْ تَقْدِيمِهَا ؛ فَإِنَّ فَضْلَ الْجَمَاعَةِ مُقَدَّرٌ مَعْلُومٌ ، وَفَضْلَ أَوَّلِ الْوَقْتِ مَجْهُولٌ ، وَتَحْصِيلُ الْمَعْلُومِ أَوْلَى .

وَأَمَّا الصُّبْحُ فَتَقْدِيمُهَا أَفْضَلُ ، لِحَدِيثِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فِي الصُّبْحِ : ﴿ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصَلِّي الصُّبْحَ فَتَنْصَرِفُ النِّسَاءُ مُتَلَفِّعَاتٍ بِمُرُوطِهِنَّ مَا يُعْرَفْنَ مِنْ الْغَلَسِ ﴾ .

وَلِحَدِيثِ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ [فِي الصُّبْحِ أَيْضًا] : ﴿ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذَا رَآهُمْ فِي صَلَاةِ الْعِشَاءِ قَدْ اجْتَمَعُوا عَجَّلَ ، وَإِذَا رَآهُمْ أَبْطَئُوا أَخَّرَ ﴾ .

وَالصُّبْحُ كَانُوا أَوْ ﴿ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصَلِّيهَا بِغَلَسٍ ﴾ ؛ مَعْنَاهُ كَانُوا مُجْتَمِعِينَ أَوْ لَمْ يَكُونُوا مُجْتَمِعِينَ كَانَ يُغَلِّسُ بِهَا .

وَأَمَّا الْمَغْرِبُ فَلِمُوَاظَبَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيهَا عَلَى الصَّلَاةِ عِنْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ اقْتُدِيَ بِهِ فِي ذَلِكَ أَوْ امْتُثِلَ أَمْرُهُ ، وَبِالْجُمْلَةِ فَلَا يُعَادِلُ الْمُبَادَرَةَ إلَى أَوَّلِ الْوَقْتِ شَيْءٌ .

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ مُوسَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴾ وَرَوَى الدَّارَقُطْنِيُّ عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ لَمَّا سَمِعَ قَوْلَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ أَوَّلُ الْوَقْتِ رِضْوَانُ اللَّهِ ، وَآخِرُهُ عَفْوُ اللَّهِ ﴾ .

(17/70)

قَالَ : رِضْوَانُ اللَّهِ أَحَبُّ إلَيْنَا مِنْ عَفْوِهِ ؛ فَإِنَّ رِضْوَانَهُ لِلْمُحْسِنِينَ ، وَعَفْوَهُ لِلْمُقَصِّرِينَ .

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يُصَلِّي الظُّهْرَ إذَا زَالَتْ الشَّمْسُ ﴾ .

وَلَعَلَّهُ فِي السَّفَرِ إذَا اجْتَمَعَ أَصْحَابُهُ ، إذْ قَدْ صَحَّ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ أَبْرِدُوا حَتَّى رَأَيْنَا فَيْءَ التُّلُولِ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 1 صـ 65. 68 ﴾

(18/70)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعاً إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (148) ﴾

شاء الله سبحانه أن يجعل الإنسان مختارا . . ومن هنا فإن له الاختيار في أن يؤمن أو لا يؤمن . . أن ينصر الحق أو ينصر الباطل . . أن يفعل الخير أو يفعل الشر . . كل هذه اختبارات شاء الله أن يعطيها للإنسان في الدنيا بحيث يستطيع أن يفعل أو لا يفعل . . ولكن هذا لن يبقى إلي الأبد إن هذا الاختيار موجود في الحياة الدنيا .

ولكن بشرية الإنسان تنتهي ساعة الاحتضار فعند مواجهة الموت ونهاية العمر يصبح الإنسان مقهورا وليس مختارا . . فهو لا يملك شيئا لنفسه ولا يستطيع أن يقول لن أموت الآن . . انتهت بشريته وسيطرته على نفسه حتى أعضاؤه تشهد عليه . . ففي الحياة الدنيا كل واحد يختار الوجهة التي يتجه إليها ، هذا يختار الكفر وهذا يختار الإيمان . . هذا يختار الطاعة وهذا يختار المعصية ، فما دام للإنسان اختيار فكل واحد له وجهة مختلفة عن الآخر . . والذي يهديه الله يتجه إلي الخيرات وكأنه يتسابق إليها . . لماذا ؟ لأنه لا يعرف متى يموت ولذلك كلما تسابق إلي خير كان ذلك حسنة أضافها لرصيده .

إن المطلوب من المؤمنين في الحياة الدنيا أن يتسابقوا إلي الخيرات قبل أن يأتيهم الأجل ولا يحسب واحد منهم أنه سيفلت من الله . . لأنه كما يقول عز وجل : " أينما تكونوا يأت بكم الله جميعا " . . أي أنه ليس هناك مكان تستطيعون أن تختفوا فيه عن علم الله تبارك وتعالى

بل هو يعرف أماكنكم جميعا واحدا واحدا وسيأتي بكم جميعا مصداقا لقوله تعالى :

وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا (47)

(سورة الكهف)

وقوله سبحانه :

فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (50)

(سورة الذاريات)

أي أن الحق جل جلاله يريدنا أن نعرف يقينا أننا لا نستطيع أن نفر من علمه ولا من قدره ولا من عذابه . . وأن الطريق الوحيد المفتوح أمامنا هو أن نفر إلي الله . . وأنه لا منجاة من الله إلا إليه . . ولذلك لا يظن كافر أو عاص أنه سيفلت من الله . . ولا يظن أنه لن يكون موجودا يوم القيامة أو أنه لن يحاسب أو أنه يستطيع أن يختفي .

إن غرور الدنيا قد يركب بعض الناس فيظنون أنهم في منعة من الله وأنهم لن يلاقوه . . نقول لهم إنكم ستفاجأون في الآخرة حين تعرفون أن الحساب حق والجنة حق والنار حق .

ستفاجأون بما سيحدث لكم . . ومن لم يؤمن ولم يسارع إلي الخير سيلقى الخزي والعذاب

الأليم . . إن الله ينصحنا أن نؤمن وأن نسارع في الخيرات لننجوا من عذابه ، ويقول لنا لن يفلت واحد منكم ولا ذرة من ذرات جسده من الوقوف بين يدي الله للحساب . . ولذلك ختم الله هذه الآية الكريمة بقوله : " إن الله على كل شيء قدير " . . أي أن الله سبحانه وتعالى لا يعجزه شيء ولا يخرج عن طاعته شيء . . إنه سبحانه على كل شيء قدير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 639.638 ﴾

" فصل "

قال السيوطى :

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (146)

أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله ﴿ الذين آتيناهم الكتاب ﴾ قال : اليهود والنصارى ﴿ يعرفونه ﴾ أي يعرفون رسول الله في كتابهم ﴿ كما يعرفون أبناءهم ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة في قوله ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما

يعرفون أبناءهم ﴾ قال : يعرفون أن البيت الحرام هو القبلة .

وأخرج ابن جرير عن الربيع في قوله ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ﴾ قال : يعرفون أن البيت الحرام هو القبلة التي أمروا بها ﴿ وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق ﴾ يعني القبلة .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد في قوله ﴿ وإن فريقاً منهم ﴾ قال : أهل الكتاب ﴿ ليكتمون الحق وهم يعلمون ﴾ قال : يكتمون محمداً وهم يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج في قوله ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه ﴾ قال : زعموا أن بعض أهل المدينة من أهل الكتاب ممن أسلم قال : والله لنحن أعرف به منا بأبنائنا من الصفة والنعت الذي نجده في كتابنا ، وأما ابناؤنا فلا ندري ما أحدث النساء .

وأخرج الثعلبي من طريق السدي الصغير عن الكلبي عن ابن عباس قال : " لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة قال عمر بن الخطاب لعبد الله بن سلام : قد أنزل الله على نبيه ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ﴾ فكيف يا عبد الله هذه

المعرفة ؟ فقال عبد الله بن سلام : يا عمر لقد عرفته حين رأيته كما أعرف ابني إذا رأيته مع الصبيان ، وأنا أشد معرفة بمحمد مني بإبني . فقال عمر : كيف ذلك ؟ قال : إنه رسول الله حق من الله ، وقد نعته الله في كتابنا ولا أدري ما تصنع النساء . فقال له عمر : وفقك الله يا ابن سلام " .

وأخرج الطبراني عن سلمان الفارسي قال : خرجت أبتغي الدين ، فوقعت في الرهبان بقايا أهل الكتاب ، قال الله تعالى ﴿ يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ﴾ فكانوا يقولون : هذا زمان نبي قد أظل يخرج من أرض العرب له علامات ، من ذلك شامة مدوّرة بين كتفيه خاتم النبوّة .

الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (147)

أخرج أبو داود في ناسخه وابن جرير عن أبي العالية قال : قال الله لنبيه ﴿ الحق من ربك فلا تكونن من الممترين ﴾ يقول : لا تكونن في شك يا محمد أن الكعبة هي قبلتك ، وكانت قبلة لأنبياء قبلك .

وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (148)

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ ولكل وجهة ﴾ يعني بذلك أهل الأديان . يقول : لكل قبلة يرضونها ووجه الله حيث توجه المؤمنون .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه قرأ ﴿ ولكل وجهة هو موليها ﴾ مضاف قال : مواجهها قال : صلوا نحو بيت المقدس مرة ونحو الكعبة قبله .

وأخرج أبو داود في ناسخه عن قتادة ﴿ ولكل وجهة هو موليها ﴾ قال : هي صلاتهم إلى بيت المقدس وصلاتهم إلى الكعبة .

وأخرج ابن جرير وابن أبي داود في المصاحف عن منصور قال : نحن نقرأها (ولكل جعلنا قبلة يرضونها) .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد في قوله ﴿ ولكل وجهة هو موليها ﴾ قال : لكل صاحب ملة قبلة وهو مستقبلها .

وأخرج أبو داود في ناسخة عن أبي العالية ﴿ ولكل وجهة هو موليها ﴾ قال : لليهود وجهة هو موليها ، وللنصارى وجهة هو موليها فهداكم الله أنتم ايتها الأمة القبلة التي هي القبلة .

وأخرج ابن الأنباري في المصاحف عن ابن عباس أنه كان يقرأ ﴿ ولكل وجهة هو مولاها ﴾ .

وأما قوله تعالى : ﴿ فاستبقوا الخيرات ﴾ الآية .

أخرج ابن جرير عن قتادة في قوله ﴿ فاستبقوا الخيرات ﴾ يقول : لا تغلبن على قبلتكم .

وأخرج ابن جرير عن أبي زيد في قوله ﴿ فاستبقوا الخيرات ﴾ قال : فسارعوا في الخيرات ﴿ أينما تكونوا يأت بكم الله جميعاً ﴾ قال : يوم القيامة .

وأخرج البخاري والنسائي والبيهقي في سننه عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من صلى صلاتنا ، واستقبل قبلتنا ، وأكل ذبيحتنا ، فذلك المسلم له ذمة الله وذمة رسوله ، فلا تخفروا الله في ذمته " . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 1 صـ 358.355 ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (148)

جمهور القراء على تنوين " كلّ " ، وتنوينهُ للعوض من المضاف إليه ، والجار خبر مقدم ، و "

وِجْهَة " مبتدأ مؤخر .

واختلف في المضاف إليه " كل " المحذوف .

فقيل : تقديره : ولكل طائفة من أهل الأديان [يعني : أن الله يفعل ما يعلمه صلاحاً ، فالجهات من الله تعالى وهو الذي ولَّى وجوه عباده إليها فانقادوا لأمر الله تعالى ، فإن انقيادكم خيرات لكم ، ولا تلتفتوا إلى طعن هؤلاء ، وقولهم : " ما ولاّهم عن قبلتهم أي التي كانوا عليها " فإن الله يجمعهم وإياكم في القيامة] .

وقيل : ولكل أهل موضع من المسلمين وِجْهَتُه إلى جهة الكعبة يميناً وشمالاً ووراء وقدّام [فهي كجهة واحدة ، ولا يخفى على الله نيّاتهم ؛ فهو يحشرهم جميعاً ويثيبهم على أعمالهم] .

وفي " وجهة " قولان :

أحدهما : ويعزى للمبرد ، والفارسي ، والمازني في أحد قوليه : أنها اسم المكان المتوجه إليه ، وعلى هذا يكون إثبات " الواو " قياساً إذ هي غير مصدر .

قال سيبويه ولو بنيت " فِعْلَة " من الوعد لقلت : وعدة ، ولو بنيت مصدراً لقلت : عدة .

والثاني : أنه مصدر ، ويعزى للمازني ، وهو ظاهر كلام سيبويه ، فإنه قال بعد ذكر حذف " الواو " من المصادر : " وقد أثبتوا فقالوا : وجهة في الجهة " وعلى هذا يكون إثبات " الواو " شاذاً مَنْبَهَةٌ على ذلك الأصل المتروك في " عدة " ونحوها ، والظاهر أن الذي سوغ إثبات " الواو " وإن كانت مصدراً أنها مصدر جاءت على حذف الزوائد ؛ إذ الفعل المسموع من هذه المادة تَوَجَّه واتَّجَهَ ، ومصدرهما التوجه والاتجاه ، ولم يسمع في فعله : " وَجَهَ يَجِهُ " كـ " وعد يَعِدُ " ، وكان الموجب لحذف " الواو " من عدة وزنة الحمل على المضارع لوقوع الواو بين ياء وكسرة ، وهنا لم يسمع فيه مضارع يحمل مصدره عليه ، فلذلك قلت : إن " وِجْهَة " مصدر على حذف الزوائد لـ " توجه " أو " اتجه " ، وقد ألم أبو البقاء بشيء من هذا .

قال القرطبي : الوِجْهَة وزنها فِعْلَة من المُوَاجهة .

والوجهة والجهة والوجه بمعنى واحد ، والمراد القِبْلة ، أي : أنهم لا يتبعون قبلتك ، وأنت لا تتبع قبلتهم ، ولك وجهة : إما بحق ، وإما بهوى .

فصل في لفظ الوجه

قال أبو العباس المقرئ : ورد لفظ الوجه في القرآن الكريم على أربعة أضرب : الأول : بمعنى الملّة ، قال تبارك وتعالى : ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ﴾ أي : ملّة .

الثاني : بمعنى الإخلاص في العمل ، قال تعالى : ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ ﴾ [الأنعام : 79] أي : أخلصت عملي ، ومثله : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ

﴿ [النساء : 122] أي : أخلص عمله لله .

الثالث : بمعنى الرِّضا ، قال تعالى :

﴿ وَلاَ تَطْرُدِ الذين يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بالغداة والعشي يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ [الأنعام : 52] أي : رضاه ، ومثله : ﴿ واصبر نَفْسَكَ ﴾ [الكهف : 28] الآية الكريمة ، ومثله : ﴿ وَمَآ آتَيْتُمْ مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ الناس فَلاَ يَرْبُو عِندَ الله وَمَآ آتَيْتُمْ مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ الله ﴾ [الروم : 29] أي : رضاه .

الرابع : الوجه هو الله تعالى كقوله تعالى : ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ الله ﴾ [البقرة : 115] ، ومثله : ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ الله ﴾ [الإنسان : 9] ، وقوله : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ﴾ [القصص : 88] أي : إلاّ إياه .

قوله تعالى : " هُوَ مُوَلِّيهَا " جملة مبتدأ وخبر في محل رفع ؛ لأنها صفة لـ " وجهة " [وهي قراءة الجمهور] واختلف في " هو " على قولين :

أحدهما : أنه يعود على لفظ " كلّ " لا على معناها ، ولذلك أفرد [قال القرطبي : ولو كان على المعنى لقال : هم مولوها وجوههم فالهاء والألف مفعول أول] .

والمفعول الثاني محذوف لفهم المعنى تقديره : هو موليها وجهه أو نفسه ، ويؤيد هذا قراءة ابن عامر : " مُوَلاَّها " على ما لم يسم فاعله .

والثاني : أنه يعود على الله – تعالى – أي : الله مولّي القبلة إياه ، أي ذلك الفريق .

وقرأ الجمهور : " مُوَلِيها " على اسم فاعل ، وقد تقدم أنه حذف أحد مفعوليه ، وقرأ ابن عامر – ويعزى لابن عباس – " مُوَلاَّها " على اسم المفعول ، وفيه ضمير مرفوع قائم مقام الفاعل والثاني : هو الضمير المتصل به وهو " ها " العائد على الوجهة .

وقيل : على التولية ذكره أبو البقاء ، وعلى هذه القراءة يتعيّن عود " هو " إلى الفريق ؛ إذ يستحيل في المعنى عوده على الله تعالى .

[ولقراءة ابن عامر معنيان :

أحدهما : ما وليته فقد ولاّك ؛ لأن معنى وليته أي : جعلته بحيث يليه ، وإذا صار بحيث يلي ذاك ، فذاك أيضاً يلي هذا ، فإذاً قد يفيد كل واحد منهما الآخر .

فهو كقوله تعالى : ﴿ فتلقى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ ﴾ [البقرة : 37] فهذا قول الفراء .

الثاني : " هُوَ مُوَلِّيها " أي : قد زينت لك تلك الجهة أي صارت بحيث تتبعها وترضاها] .

وقرأ بعضهم : " وَلَكُلِّ وجهة " بالإضافة ، ويعزى لابن عامر ، واختلفوا فيها على ثلاثة أقوال :

أحدها ، وهو قول الطبري : أنها خطأ ، وهذا ليس بشيء ؛ إذ الإقدام على تخطئة ما ثبت عن الأئمة لا يسهل .

[قال ابن عطية : وخطأها الطبري وهي متّجهة أي : فاستبقوا الخيرات لكل وجهة ولاكموها ، ولا تعترضوا فيما أمركم من هذه وهذه أي : إنما عليكم الطاعة في الجميع وقدم قوله : " ولكلٍّ وجهةٌ " على الأمر في قوله : " فَاسْتَبِقوا الخيرات " للاهتمام بالوجهة كما يقدم المفعول .

وذكر أبو عمرو الدَّاني هذه القراءة عن ابن عَبَّاس] .

والثاني : وهو قول الزمخشري وأبي البقاء أن " اللام " زائدة في الأصل .

قال الزمخشري : المعنى وكلّ وجهة اللَّهُ موليها ، فزيدت " اللام " لتقدم المفعول ، كقولك : لزيد ضربت ، ولزيد أبوه ضاربه .

قال أبو حيان : وهذا فاسد ؛ لأن العامل إذا تعدَّى لضمير الاسم لم يتعد إلى ظاهره المجرور بـ " اللام " لا تقول : لزيد ضربته ، ولا : لزيد أنا ضاربه ، لئلا يلزم أحد محذورين ، وهما : إما لأنه يكون العامل قوياً ضعيفاً .

[وذلك أنه من حيث تعدّى للضمير بنفسه يكون قويّاً ومن حيثُ تعدى للظاهر بـ " اللام "

يكون ضعيفاً] ، وإما لأنه يصير المتعدي لواحد متعدياً لاثنين ، ولذلك تأويل النحويون ما يوهم ذلك وهو قوله : [البسيط] .

840 – هَذَا سُرَاقَةُ لِلْقُرْآنِ يَدْرُسُهُ . . .

وَالْمَرْءُ عِنْدَ الرُّشَا إِنْ يَلْقَهَا ذِيْبُ

(27/70)

على أن الضمير في " يدرسه " للمصدر أي : يدرس الدرس لا للقرآن ؛ لأن الفعل قد تعدى غليه .

وأما تمثيله بقوله : " لزيد ضربت " ، فليس نظير الآية ؛ لأنه لم يتعدّ في هذا المثال إلى ضميرهن ولا يجوز أن تكون المسألة من باب الاشتغال ، فتقدر عاملاً في : " لكل وجهة " يفسره " موليها " ؛ لأن الاسم المشتغل عنه إذا كان ضميره مجروراً بحرف ينتصب ذلك الاسم بفعل يوافق العامل الظاهر في المعنى ، ولا يجوز جر المشتغل عنه إذا كان ضميره مجروراً بحرف تقول : زيداً مررت به ، أي : لابست زيداً مررت به ، ولا يجوز : لزيد مررت به .

قال تعالى : ﴿ والظالمين أَعَدَّ لَهُمْ ﴾ [الإنسان : 31] ، وقال :

841 - أَثَعْلَبَةَ الْفَوارِسِ أَمْ رِيَاحاً . . .

عَدَلْتَ بِهِمْ طُهَيَّةَ وَالْخِشَابَا

فأتى بالمشتغل عنه منصوباً ، وأما تمثيله بقوله : لزيد أبوه ضاربه ، فتركيب غير عربي .

الثالث : أن " لكلّ وجهة " متعلق بقوله : ﴿ فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ ﴾ أي : فاستبقوا الخيرات لكل وجهة ، وإنما قدم على العامل للاهتمام به ، كما تقدم المفعول ، كا ذكره ابن عطية .

(28/70)

ولا يجوز أن توجه هذه القراءة على أن " لكل وجهة " في موضع المفعول الثاني لـ " موليها " ، والمفعول الأول هو المضاف إليه اسم الفاعل الذي هو " مولّ " ، وهو " ها " ، وتكون عائدة على الطوائف ، ويكون التقدير : وكلَّ وجهة اللَّهُ مولِّي الطوائف أصحاب القِبْلاَت ، وزيدت " اللام " في المفعول لتقدمه ، ويكون العامل فرعاً ؛ لأن النحويين نصُّوا على أنه لا يجوز زيادة " اللام " للتقوية إلا في المتعدي لواحد فقط ، و " مولّ " مما يتعدّى لاثنين ، فامتنع ذلك فيه ، وهذا المانع هو الذي منع من الجواب عن الزمخشري فيما اعترض به أبو حيان عليه من كون الفعل إذا تعدى للظاهر ، فلا يتعدى لضميره ، وهو أنه كان يمكن أن يجاب عنه بأن الضمير المتصل بـ " مول " ليس بضمير المفعول ، بل ضمير المصدر وهو التَّولية ، يكون

المفعول الأول محذوفاً والتقدير : الله مولي التولية كلَّ وجهةٍ أَصْحَابَها ، فلما قدم المفعول على العامل قوي بـ " اللام " لولا أنهم نصوا على المنع من زيادتها في المتعدي لاثنين وثلاثة .

قوله تعالى : " فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ " " الخيرات " منصوبة على إسقطا حرف الجر ، التقدير : إلى الخيرات ، كقوله الراعي : [الطويل]

842 - ثَنَائِي عَلَيْكُمْ آلَ حَرْبٍ وَمَنْ يَمِلْ . . .

سِوَاكُمْ فَإِنِّي مُهْتَدٍ غَيرُ مَائِلِ

أي : إلى سواكم ، وذلك لأن " استبق " : إما بمعنى سبق المجرد ، أو بمعنى : تسابق [لا جائز أن يكون بمعنى : سبق ؛ لأن المعنى ليس على اسبقوا الخيرات ، فبقي أن يكون بمعنى : تسابق] ولا يتعدى بنفسه .

و " الخيرات " جمع : خيرة ، وفيها احتمالان .

أحدهما : أن تكون مخففة من " خَيِّرة " بالتشديد بوزن " فَيْعِلة " نحو : مَيْت في مَيِّت .

والثاني : أن تكون غير مخففة ، بل تثبت على " فَعْلَة " بوزن " جفْنَة " ، يقال : رجل خير وامرأة خير ، وعلى كلا التقديرين فليسا للتفضيل .

والسبق : الوصول إلى الشيء أولاً ، وأصله التقدم في السير ، ثم تجوز به في كل ما تقدم

قوله : " أَيْنَمَا تَكُونُوا " " أين " اسم شرط تجزم فعلين كـ " إن " ، و " ما " مزيدة عليها على سبيل الجواز ، وهي ظرف مكان ، وهي هنا في محلّ نصب خبراً لـ " كان " ، وتقديمها واجب لتضمنها معنى ما له صدر الكلام .

و " تكونوا " أيضاً مجزوم بها على الشرط ، وهو الناصب لها ، و " يأت " جوابها ، وتكون أيضاً استفهاماً فلا تعمل شيئاً ، وهي مبنية على الفتح لتضمن معنى حرف الشرط أو الاستفهام .

[ودلت الآية على أنه قادر على جميع الممكنات ، فوجب أن يكون قادراً على الإعادة ؛ لأنها ممكنة ، وهذا وَعْدٌ لأهل الطاعة ، ووعيد] لأهل المعصية . انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 3 صـ 55-64 ﴾ . باختصار .

قوله تعالى ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (149) وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا

مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (150) ﴾

مناسبة الآيتين لما قبلهما

قال البقاعى :

ولما عظم في شأن القبلة انتشار أقوالهم في تنويع شغبهم وجدالهم وكانوا أهل علم وكتاب ، وقد مرت لهم دهور وهو موسومون بأنهم على صواب ، فاشرأب لذلك النفاق ، ودارت رحى الباطل والشقاق ، وقامت سوق الفسوق فيما هنالك على ساق ، كان الحال مقتضياً لمزيد تأكيد لأمرها تعظيماً لشأنها وتوهية لشبه السفهاء فقال تعالى ثانياً معبراً بعبارة مشعرة بإمامته صلى الله عليه وسلم وانتظار المصلين له ، ﴿ ومن حيث خرجت ﴾ أي للصلاة المفروضة باتباعك من هذه الجهة التي أنت بها الآن بالمدينة الشريفة التي هي شمال الكعبة المشرفة أو من غيرها من الجهات من الشرق والغرب والجنوب ﴿ فول وجهك شطر ﴾ أي عين ﴿ المسجد الحرام ﴾ وأما قلبك فهو إلى الله

ولما كان التقدير فإنك مأمور بذلك لئلا يظن أن ذلك إنما عمل لتطلعه صلى الله عليه وسلم إليه وهو فيه بالخيار فيظن أن الرجوع إلى القبلة الأولى مصلحة لما انتشر في ذلك من الكلام الذي نفذ في القلوب نفوذ السهام عطف عليه قوله : ﴿ وإنه للحق من ربك ﴾ مؤكداً له بأنواع التأكيد مضيفاً له إلى صفة الإحسان بإحسان التربية والنظر في أدبار الأمور وأحكامها .

ولما كان التقدير : وإن ربك عالم بما قالوا من الشبه التي دارت بين الناس وخيفت عاقبتها عطف عليه ما هو أعم منه فقال : ﴿ وما الله ﴾ أي الذي له الإحاطة الكاملة ﴿ بغافل عما ﴾ أي عن شيء مما ﴿ يعملون ﴾ أي السفهاء من اليهود وغيرهم في مستقبل الزمان فيوهيه ويبطل أذاه ويرميه ويبعده ويقصيه ، وعلى قراءة الخطاب أنتم في هذا الوقف وبعده فيغلبه ويثبته ويبقيه إن كان خالصاً لوجهه وإلا جعله هباء منثوراً .

(31/70)

قال الحرالي : ومن التفت بقلبه في صلاته إلى غير ربه لم تنفعه وجهة وجه بدنه إلى الكعبة ، لأن ذلك حكم حق حقيقته توجه القلب ومن التفت بقلبه إلى شيء من الخلق في صلاته فهو مثل الذي استدبر بوجهه عن شطر قبلته ، فكما يتداعى الإجزاء الفقهي باستدبار الكعبة حساً فكذلك يتداعى القبول باستدبار وجه القلب عن الرب غيباً ، فلذلك أقبل هذا الخطاب على الذين آمنوا والذين أسلموا ، لأنه هو صلى الله عليه وسلم مبرأ عن مثله - انتهى .

﴿ ومن حيث خرجت ﴾ أي من بقاع الأرض للصلاة بأمتك ﴿ فول وجهك ﴾ أي اجعله يلي ﴿ شطر ﴾ أي عين ﴿ المسجد الحرام ﴾ .

ولما تقرر بما تكرر أن هذا التحويل فرض قي حقه صلى الله عليه وسلم حتم لا فتور عنه ولا رخصة فيه إلا ما استثنى في النفل أدخل معه أمته ليعمهم الحكم وربأ بمنصبه المنيف وقدره الشريف عن أن يكون لأحد عليه ما يسمى حجة بحق أو باطل فقال : ﴿ وحيث ما كنتم ﴾ أي أيتها الأمة من جميع جهات الكعبة في جميع أقطار الأرض الدانية والقاصية .

قال الحرالي : وذكر في أمته بالكون لا بالخروج إشعاراً يتقاصر الأمة عن علو أحوال الأئمة وأن حال الأمة في خلوتهم كحالهم في جولتهم – انتهى .

﴿ فولوا وجوهكم ﴾ أي اجعلوها والية ﴿ شطره ﴾ للصلاة .

قال الحرالي : وفيه إشعار يلحظ صحة صلواتكم فرادى وفي بيوتكم ، كما قال : إذا جئت فصل مع الناس وإن كنت قد صليت في أهلك ، بخلافه هو صلى الله عليه وسلم فإن صلاته لا تقع إلا جمعاً من حيث إنه يصلي لهم وأنه إمام لا تقع صلاته فذا – انتهى .

ولما كان ربما ظن أن الرجوع إلى القبلة الأولى يزيل الكلام بين سبحانه وتعالى أن الأمر بخلاف ذلك فقال : ﴿ لئلا يكون للناس ﴾ أي لأحد منهم ﴿ عليكم حجة ﴾ بأن يقولوا : النبي المبشر به يستقبل بيت إبراهيم عليه الصلاة والسلام ثم لا يتحول عنه وهذا لم يفعل ، أو يقولوا : ما جاء بشيء جديد وإنما هو تبع لنا في قبلتنا .

ولما كانت الحجة كلاماً ينشأ عن مقدمات يقينية مركبة تركيباً صحيحاً وقع الاستثناء باعتبار تلبس المستثنى بجزء المعنى الذي نفى عن المستثنى منه بدلالة التضمن فهو قريب من الاستخدام فقال : ﴿ إلا الذين ﴾ أي الناس الذين ﴿ ظلموا منهم ﴾ فإنهم لعنادهم ولددهم لا يرجعون إلى الحق الذي يعرفونه بل يكون لهم عليكم مجرد كلام هو مادة الحجة لا حجة بما دل عليه وصفهم بالظلم الذي هو وضع الشيء في غير محله كما هو شأن كل ماش في مأخذ الاشتقاق الذي هو الظلام ، ويكون الاستثناء على هذا منقطعاً بمعنى : لئلا يحتج أحد عليكم لكن الذين ظلموا يقولون أو يظهرون فجوراً ولدداً في ذلك كلاماً يسمونه حجة ، ولعل السر في تصويره على تقدير الانقطاع بصورة الاستثناء الحث على الثبات على أمر الله سبحانه وتعالى والإعراض عمن خالفه نظراً إلى ما تأصل من إبطاله واستحضاراً لما ظهر من فاسد أحواله وإن أبدى من الشبه ما يخفى أمره ويصعب على بعض المحقين حله حتى يظن حجة ؛ ويجوز أن يراد بالحجة أعم من القطعي والظني فيكون الاستثناء متصلاً ، قال السفاقسي : ومثار الخلاف هل الحجة الدليل الصحيح والاستثناء منقطع أو الاحتجاج والخصومة فهو متصل – انتهى .

ووصفها بالاستعلاء عليهم لما يحصل بها من الأذى بدلالتها على العداوة والشقاق لا بتغييرها في وجه شيء من الأدلة ، و ﴿ الذين ظلموا ﴾ إن أريد بهم اليهود فهم يقولون : ما

رجع إلى الكعبة إلا محبة لبلده ، ولو كان في قبلتنا على أمر من الله سبحانه ما تحول عنه ، وإن كان المشركين فهم يقولون : قد استقبل بلدكم ومسجدكم فيوشك أن يدين دينكم .

ولما نفى عن أهل هذه القبلة بالثبات عليها كل سبيل تسبب عنه قوله : ﴿ فلا تخشوهم ﴾ أي في هذا الأمر ولا غيره ، فإني أريد عنكم كيدهم وأوهن أمرهم .

(33/70)

ولما تبين أحكام فعله ومضى ما يريد من ربطه وحله حثهم على لزوم هذه القبلة محذراً من مخالفته في شيء من الأشياء فقال : ﴿ واخشوني ﴾ ثم عطف على علة الاستقبال قوله : ﴿ ولأتم ﴾ أي بهذا الدين المفيد لعز الدارين ونعيمها الذي من جملته هذا الاستقبال ﴿ نعمتي عليكم ﴾ بالتمكين من الحجج وغيره من أمور الدين حين أنزل عليكم آية ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم ﴾ [المائدة : 3] كما أتممتها على إبراهيم خليلي صاحب هذا البيت الذي وجهتكم إليه .

قال الحرالي : وفي طيه بشرى بفتح مكة واستيلائه على جزيرة العرب كلها وتمكنه بذلك من سائر أهل الأرض لاستغراق الإسلام لكافة العرب الذين فتح الله بهم له مشارق الأرض ومغاربها التي انتهى إليها ملك أمته – انتهى .

﴿ ولعلكم تهتدون ﴾ أي ولتكونوا على رجاء عند أنفسكم ومن يراكم ممن لا يعلم العواقب من أن تهتدوا إلى الثبات على هذه القبلة وغيرها من أمر هذا الدين سبب خشيتي فإنها جالبة لكل خير ودافعة لكل ضير .

قال الحرالي : وفي كلمة ﴿ لعل ﴾ على ما تقدم إبهام يشعر بتصنيفهم صنفين : مهتد للثبات على السنة ، ومتغير فيه بوجه من وجوه البدعة ، لما ذكر من أن ما هو للخلق تردد فهو من الحق تقسيم وإبهام في تعيين ذلك التقسيم والتصنيف ، ففيه إعلام لقوم بالاهتداء الدائم بما تفهمه صيغة الدوام وإشعار بانقطاع قوم عن ذلك التمادي بما يفهمه ما هو للخلق بموضع الترجي ، وفي طيه إشعار باستبدادهم بالأمر بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم وانقسامهم فيه بين ثابت عليه دائم الاهتداء فيه ومتغير عنه كما ظهر فيما كان من ثبات من ثبت بعده وردة من ارتد – . انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 272 . 274 ﴾

فصل

قال الفخر :

من أسرار التكرار فى آيات القبلة الثلاث

اعلم أن أول ما في هذه الآية من البحث أن الله تعالى قال قبل هذه الآيات : ﴿ قَد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أن الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون ﴾ [البقرة : 144] ثم ذكر ههنا ثانياً قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المسجد الحرام وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا الله بغافل عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ وذكر ثالثاً قوله : ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المسجد الحرام وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ ﴾ فهل في هذا التكرار فائدة أم لا ؟

وللعلماء فيه أقوال .

أحدها : أن الأحوال ثلاثة ، أولها : أن يكون الإنسان في المسجد الحرام .

وثانيها : أن يخرج عن المسجد الحرام ويكون في البلد .

وثالثها : أن يخرج عن البلد إلى أقطار الأرض ، فالآية الأولى محمولة على الحالة الأولى ، والثانية على الثانية ، والثالثة على الثالثة ، لأنه قد كان يتوهم أن للقرب حرمة لا تثبت فيها للعبد ، فلأجل إزالة هذا الوهم كرر الله تعالى هذه الآيات .

والجواب الثاني : أنه سبحانه إنما أعاد ذلك ثلاث مرات لأنه علق بها كل مرة فائدة زائدة أما في المرة الأولى فبين أن أهل الكتاب يعلمون أن أمر نبوة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأمر هذه القبلة حق ، لأنهم شاهدوا ذلك في التوراة والإنجيل ، وأما في المرة الثانية فبين أنه تعالى يشهد أن ذلك حق ، وشهادة الله بكونه حقاً مغايرة لعلم أهل الكتاب بكونه حقاً ، وأما في المرة الثالثة فبين أنه إنما فعل ذلك لئلا يكون للناس عليكم حجة ، فلما اختلفت هذه الفوائد حسنت إعادتها لأجل أن يترتب في كل واحدة من المرات واحدة من هذه الفوائد ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الكتاب بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هذا مِنْ عِندِ اللهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا كَتَبَتْ أيديهم وويل لهم مما يكسبون ﴾ [البقرة : 79] .

والجواب الثالث : أنه تعالى قال في الآية الأولى : ﴿ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المسجد الحرام وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ فكان ربما يخطر ببال جاهل أنه تعالى إنما فعل ذلك طلباً لرضا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأنه قال : ﴿ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ﴾ فأزال الله تعالى هذا الوهم الفاسد بقوله : ﴿ وَمِنْ حَيْثُ

خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المسجد الحرام وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾ أي نحن ما حولناك إلى هذه القبلة بمجرد رضاك ، بل لأجل أن هذا التحويل هو الحق الذي لا محيد عنه فاستقبالها ليس لأجل الهوى والميل كقبلة اليهود المنسوخة التي إنما يقيمون عليها بمجرد الهوى والميل ، ثم أنه تعالى قال ثالثاً : ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المسجد الحرام وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ والمراد دوموا على هذه القبلة في جميع الأزمنة والأوقات ، ولا تولوا فيصير ذلك التولي سبباً للطعن في دينكم ، والحاصل أن الآية السالفة أمر بالدوام في جميع الأمكنة والثانية أمر بالدوام في جميع الأزمنة والأمكنة ، والثالثة أمر بالدوام في جميع الأزمنة وإشعار بأن هذا لا يصير منسوخاً ألبتة .

والجواب الرابع : أن الأمر الأول مقرون بإكرامه إياهم بالقبلة التي كانوا يحبونها وهي قبلة أبيهم إبراهيم ـ عليه السلام ـ والثاني مقرون بقوله تعالى : ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ﴾ [البقرة : 148] أي لكل صاحب دعوة وملة قبلة يتوجه إليها فتوجهوا أنتم إلى أشرف الجهات التي يعلم الله تعالى أنها حق وذلك هو قوله : ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المسجد الحرام وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾ .

والثالث مقرون بقطع الله تعالى حجة من خاصمه من اليهود في أمر القبلة فكانت هذه عللاً ثلاثاً قرن بكل واحدة منها أمر بالتزام القبلة نظيره أن يقال : الزم هذه القبلة فإنها القبلة التي كنت تهواها ، ثم يقال : الزم هذه القبلة فإنها قبلة الحق لا قبلة الهوى ، وهو قوله : ﴿ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾ ثم يقال : لزم هذه القبلة فإن في لزومك إياها انقطاع حجج اليهود عنك ، وهذا التكرار في هذا الموضع كالتكرار في قوله تعالى : ﴿ فَبِأَيِّ ءَالاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن : 12] وكذلك ما كرر في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء : 174] .

والجواب الخامس : أن هذه الواقعة أول الوقائع التي ظهر النسخ فيها في شرعنا فدعت الحاجة إلى التكرار لأجل التأكيد والتقرير وإزالة الشبهة وإيضاح البينات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 4 صـ 124 . 126 ﴾

وقال الإمام الماوردى :

أكد الله أمره في استقبال الكعبة ، لما جرى من خوض المشركين ومساعدة المنافقين ، بإعادته فقال : ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ تبييناً لِنَبِيِّهِ وصرفاً له عن الاغترار بقول اليهود : أنهم يتبعونه إن عاد .

﴿ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : أن يقول ذلك ترغيباً لهم في الخير .

والثاني : تحذيراً من المخالفة .

ثم أعاد الله تعالى تأكيد أمره ، ليخرج من قلوبهم ما استعظموه من تحويلهم إلى غير ما أَلِفُوه ، فقال : ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُمَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ فأفاد كل واحد من الأوامر الثلاثة مع استوائها في التزام الحكم فائدة مستجده :

(38/70)

أما الأمر الأول فمفيد لنسخ غيره ، وأما الأمر الثاني فمفيد لأجل قوله تعالى :

﴿ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾ أنه لا يتعقبه نسخ .

وأما الأمر الثالث فمفيد أن لا حجة عليهم فيه ، لقوله : ﴿ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 1 صـ 207 ﴾

(39/70)

وقال العلامة ابن عاشور :

وقد تكرر الأمر باستقبال النبي الكعبة ثلاث مرات ، وتكرر الأمر باستقبال المسلمين الكعبةَ مرتين . وتكرر أَنَّه الحقُّ ثلاث مرات ، وتكرر تعميم الجهات ثلاث مرات ، والقصد من ذلك كله التنويه بشأن استقبال الكعبة والتحذير من تطرق التساهل في ذلك تقريراً للحق في نفوس المسلمين ، وزيادةً في الرد على المنكرين التأكيد ، من زيادة ﴿ ومن حيثُ خرجتَ ﴾ ، ومن جُمَل معترضة ، لزيادة التنويه بحكم الاستقبال : وهي جملة ﴿ وإنّ الذين أوتوا الكتاب ليعلمون الآيات ﴾ ، وجملة : ﴿ وإنه للحق من ربك ﴾ وجملة : ﴿ لئلا يكون للناس عليكم حجة ﴾ الآيات ، وفيه إظهار أحَقية الكعبة بذلك لأن الذي يكون على الحق لا يزيده إنكار المنكرين إلاّ تصميماً ، والتصميم يستدعي إعادة الكلام الدال على ما صمم عليه لأن الإعادة تدل على التحقُّق في معنى الكلام .

وقد ذكر في خلال ذلك من بيان فوائد هذا التحويل وما حَفَّ به ، ما يدفع قليل السآمة العارضةِ لسماع التكرار ، فذُكر قوله : ﴿ وإنه للحق من ربك وما الله بغافل ﴾ الخ ، وذُكر قوله : ﴿ لئلا يكون للناس ﴾ الخ . أ هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 2 صـ 45 ﴾

فائدة

عُطف قولُه : ﴿ ومن حيث خرجت ﴾ على قوله : ﴿ فول وجهك شطر المسجد

الحرام ﴾ [البقرة : 144] عَطْف حكم على حكم من جنسِه للإعلام بأن استقبال الكعبة في الصلاة المفروضة لا تهاوُن في القيام به ولو في حالة العذر كالسفر ، فالمراد من ﴿ حَيث خرجتَ ﴾ من كل مكان خرجتَ مسافراً لأن السفر مظنة المشقة في الاهتداء لجهة الكعبة فربما يتوهم متوهم سقوط الاستقبال عنه .

أهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 2 صـ 44 ﴾

وقال الثعالبى :

وقوله تعالى : ﴿ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ أمر باستقبال القبْلَة ، وهو شرطٌ في الفرض إلاَّ في القتالِ حالة الالتحامِ ، وفي النوافل إلا في السفرِ الطويلِ للرّاكب ، والقدرةُ على اليقينِ في مصادفتها تَمْنَعُ من الاِجتهادِ ، وعلى الاِجتهادِ تَمْنَعُ من التقليد . انتهى انتهى . اهـ

﴿ الجواهر الحسان حـ 1 صـ 119 ﴾

سؤال : ما فائدة هذا القيد ﴿ ومِّنْ حَيْثُ خَرَجْتَ ﴾

الجواب : وزاد ﴿ ومِّنْ حَيْثُ خَرَجْتَ ﴾ دفعاً لتوهم مخالفة حال السفر لحال الحضر بأن يكون حال السفر باقياً على ما كان كما في الصلاة حيث زيد في الحضر ركعتان أو يكون

مخيراً بين التوجهين كما في الصوم . أ هـ

﴿ روح المعانى حـ 2 صـ 17 ﴾

لطيفة

قال الحرالي : ومن التفت بقلبه في صلاته إلى غير ربه لم تنفعه وجهة وجه بدنه إلى الكعبة ، لأن ذلك حكم حق حقيقته توجه القلب ومن التفت بقلبه إلى شيء من الخلق في صلاته فهو مثل الذي استدبر بوجهه عن شطر قبلته ، فكما يتداعى الإجزاء الفقهي باستدبار الكعبة حساً فكذلك يتداعى القبول باستدبار وجه القلب عن الرب غيباً ، فلذلك أقبل هذا الخطاب على الذين آمنوا والذين أسلموا ، لأنه هو ـ صلى الله عليه وسلم ـ مبرأ عن مثله – انتهى . ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 272 ﴾

قوله تعالى ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ ﴾

سؤال : ما نوع التعريف فى كلمة (الناس) ؟ وما فائدته ؟

والتعريف في (الناس) للاستغراق يشمل مشركي مكة فإن من شبههم أن يقولوا لا نتبع هذا الدين إذ ليس ملة إبراهيم لأنه استقبَل قبلة اليهود والنصارى ، وأهلَ الكتاب ، والحجة أن يقولوا إنَّ محمداً اقتدى بنا واستقبل قبلتنا فكيف يدعونا إلى اتباعه . ولجميع الناس ممن عداكم حجة عليكم ، أي ليكون هذا الدين مخالفاً في الاستقبال لكل دين سبقه فلا يدعي أهل دين من الأديان أن الإسلام مقتبس منه .

ولا شك أن ظهور الاستقبال يكون في أمر مشاهد لكل أحد لأن إدراك المخالفة في الأحكام والمقاصد الشرعية والكمالات النفسانية التي فَضُل بها الإسلام غيرَه لا يدركه كل أحد بل لا يعلمه إلاّ الذين أوتوا العلم ، وعلى هذا يكون قوله : ﴿ لئلا يكون للناس عليكم حجة ﴾ ناظراً إلى قوله : ﴿ وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق ﴾ [البقرة : 144] ، وقوله : ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه ﴾ [البقرة : 146] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 2 صـ 46 ﴾

سؤال : من المراد من (الناس) ؟

الجواب : قيل : أراد بالناس أهل الكتاب : وقيل : هو على العموم وقيل هم قريش واليهود فأما قريش فقالوا : رجع محمد إلى الكعبة لأنه علم أنها الحق وأنها قبلة أبيه وسيرجع إلى ديننا كما رجع إلى قبلتنا وقالت اليهود : لم ينصرف محمد عن بيت المقدس مع علمه أنه حق إلاّ أنه يعمل برأيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 1 صـ 124 ﴾

سؤال : قال الفخر : ههنا سؤال ، وهو أن شبهة هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم ليست بحجة ، فكيف يجوز استثناؤها عن الحجة وقد اختلف الناس فيه على أقوال .

الأول : أنه استثناء متصل ثم على هذا القول يمكن دفع السؤال من وجوه :

الوجه الأول : أن الحجة كما أنها قد تكون صحيحة ، قد تكون أيضاً باطلة ، قال الله تعالى ﴿ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ [الشورى : 16] وقال تعالى : ﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ العلم ﴾ [آل عمران : 61] والمحاجة هي أن يورد كل واحد منهم على صاحبه حجة وهذا يقتضي أن يكون الذي يورد المبطل يسمى بالحجة ولأن الحجة اشتقاقها من حجة إذا علا عليه فكل كلام يقصد به غلبة الغير فهو حجة ، وقال بعضهم : إنها مأخوذة من محجة الطريق ، فكل كلام يتخذه الإنسان مسلكاً لنفسه في إثبات أو إبطال فهو حجة ، وإذا ثبت أن الشبهة قد تسمى حجة كان الاستثناء متصلاً .

الوجه الثاني : في تقرير أنه استثناء متصل : أن المراد بالناس أهل الكتاب فإنهم وجدوه في كتابهم أنه عليه الصلاة والسلام يحول القبلة فلما حولت ، بطلت حجتهم إلا الذين ظلموا بسبب أنهم كتموا ما عرفوا عن أبي روق .

الوجه الثالث : أنهم لما أوردوا تلك الشبهة على اعتقاد أنها حجة سماها الله .

(حجة) بناء على معتقدهم أو لعله تعالى سماها (حجة) تهكماً بهم .

الوجه الرابع : أراد بالحجة المحاجة والمجادلة فقال : ﴿لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلاَّ الذين ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾ فإنهم يحاجونكم بالباطل .

القول الثاني : أنه استثناء منقطع ، ومعناه لكن الذين ظلموا منهم يتعلقون بالشبهة ويضعونها موضع الحجة ، وهو كقوله تعالى : ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتباع الظن﴾ [النساء : 157] وقال النابغة :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم .

بهن فلول من قراع الكتائب

ومعناه : لكن بسيوفهم فلول وليس بعيب ويقال ما له على حق إلا التعدي يعني لكنه يتعدى ويظلم ، ونظيره أيضاً قوله تعالى : ﴿إِنّى لاَ يَخَافُ لَدَيَّ المرسلون إِلاَّ مَن ظَلَمَ﴾ [النمل : 10 ، 11] وقال : ﴿لا عَاصِمَ اليوم مِنْ أَمْرِ الله إِلاَّ مَن رَّحِمَ﴾ [هود : 43] وهذا النوع من الكلام عادة مشهورة للعرب .

القول الثالث : زعم أبو عبيدة أن (إلا) بمعنى الواو كأنه تعالى قال : لئلا يكون للناس عليكم حجة وللذين ظلموا وأنشد :

وكل أخ مفارقه أخوه .

لعمر أبيك إلا الفرقدان

يعني : والفرقدان .

القول الرابع : قال قطرب : موضع ﴿ الذين ﴾ خفض لأنه بدل من الكاف والميم في عليكم كأنه قيل : لئلا يكون عليكم حجة إلا الذين ظلموا فإنه يكون حجة عليهم وهم الكفار ، قال علي ابن عيسى : هذان الوجهان بعيدان . أ هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 4 صـ 127 ﴾

سؤال : لم وصف الحجة بالاستعلاء ﴿ عليكم حجة ﴾ ؟

(43/70)

الجواب : وصفها بالاستعلاء عليهم لما يحصل بها من الأذى بدلالتها على العداوة والشقاق لا بتغييرها في وجه شيء من الأدلة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 273 ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ واخشونى ﴾

أما قوله تعالى : ﴿ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ واخشونى ﴾ فالمعنى لا تخشوا من تقدم ذكره ممن يتعنت ويجادل ويحاج ، ولا تخافوا مطاعنهم في قبلتكم فإنهم لا يضررنكم واخشوني ، يعني احذروا عقابي إن أنتم عدلتم عما ألزمتكم وفرضت عليكم ، وهذه الآية يدل على أن الواجب على المرء في كل أفعاله وتروكه أن ينصب بين عينيه : خشية عقاب الله ، وأن يعلم أنه ليس في يد الخلق شيء ألبتة ، وأن لا يكون مشتغل القلب بهم ، ولا ملتفت الخاطر

إليهم . أ هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 4 صـ 127 ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ ﴾ يريد الناس ﴿ واخشوني ﴾ الخَشْيَةُ أصلها طمأنينة في القلب تبعث على التَّوقي . والخوف : فزع القلب تَخِفُ له الأعضاء ، ولِخفّة الأعضاء به سُمِّيَ خَوْفاً . ومعنى الآية التّحقير لكل مَن سوى الله تعالى ، والأمر باطراح أمرهم ومراعاة أمر الله تعالى . أ هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 2 صـ 170 ﴾

سؤال : قال ابن عرفة : كيف ينهى المكلف عن فعل أمر هو فيه بالطبع لأن الخوف من العدو أمر جبلي لا يستطيع الإنسان زواله ؟

وأجاب عن ذلك بأن أوائل ذلك حاصل بالطبع والدوام عليه هو المنهي (عنه) . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عرفة حـ 2 صـ 466 ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ ﴾

قال الإمام الفخر :

أما قوله تعالى : ﴿ وَلأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ ﴾ فقد اختلفوا في متعلق اللام على وجوه .

أحدها : أنه راجع إلى قوله تعالى : ﴿ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ وَلأُتِمَّ نِعْمَتِى

عَلَيْكُمْ ﴾ فبين الله تعالى أنه حولهم إلى هذه الكعبة لهاتين الحكمتين .

إحداهما : لانقطاع حجتهم عنه .

والثانية : لتمام النعمة ، وقد بين أبو مسلم بن بحر الأصفهاني ما في ذلك من النعمة ، وهو أن القوم كانوا يفتخرون باتباع إبراهيم في جميع ما كانوا يفعلون فلما حول ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى بيت المقدس لحقهم ضعف قلب ، ولذلك كان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يحب التحول إلى الكعبة لما فيه من شرف البقعة فهذا موضع النعمة .

وثانيها : أن متعلق اللام محذوف ، معناه : ولإتمام النعمة عليكم وإرادتي اهتداءكم أمرتكم بذلك .

وثالثها : أن يعطف على علة مقدرة ، كأنه قيل : واحشوني لأوفقكم ولأتم نعمتي عليكم ، والقول الأول أقرب إلى الصواب فإن قيل : إنه تعالى أنزل عند قرب وفاة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ﴿ اليوم أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى ﴾ [المائدة : 3] فبين أن تمام النعمة إنما حصل ذلك اليوم ، فكيف قال قبل ذلك اليوم بسنين كثيرة في هذه الآية : ﴿ وَلأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ ﴾ قلنا : تمام النعمة اللائقة في كل وقت هو الذي خصه به ، وفي

الحديث : " تمام النعمة دخول الجنة " وعن علي رضي الله عنه : تمام النعمة الموت على الإسلام .

أهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 4 صـ 128 ﴾

وقال البقاعى :

قال الحرالي : وفي طيه بشرى بفتح مكة واستيلائه على جزيرة العرب كلها وتمكنه بذلك من سائر أهل الأرض لاستغراق الإسلام لكافة العرب الذين فتح الله بهم له مشارق الأرض ومغاربها التي انتهى إليها ملك أمته - انتهى . ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 274 ﴾

وقال فى التحرير

المراد بالإتمام هنا إعطاء الشيء وافراً من أول الأمر لا إتمامه بعد أن كان ناقصاً ، فهو قريب من قوله تعالى : ﴿ فأتمهن ﴾ [البقرة : 124] أي امتثلهن امتثالاً تاماً وليس المراد أنه فعل بعضها ثم فعل بعضاً آخر ، فمعنى الآية ولتكون نعمتي نعمة وافرة في كل حال . انتهى .

اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 2 صـ 47 ﴾

فروق لغوية دقيقة

الفرق بين الإنعام والإحسان

أن الإنعام لا يكون إلا من المنعم على غيره لأنه متضمن بالشكر يجب وجوب الدين ويجوز إحسان الإنسان إلى نفسه تقول لمن يتعلم العلم إنه محسن إلى نفسه ولا تقول منعم على نفسه والإحسان متضمن بالحمد ويجوز حمد الحامد لنفسه والنعمة متضمنة بالشكر ولا يجوز شكر الشاكر لنفسه لأنه يجري مجرى الدين ولا يجوز أن يؤدي الإنسان الدين إلى نفسه والحمد يقتضي تبقية الإحسان إذا كان للغير والشكر يقتضي تبقية النعمة ويكون من الإحسان ما هو ضرر مثل تعذيب الله تعالى أهل النار وكل من جاء بفعل حسن فقد أحسن

ألا ترى أن من أقام حدا فقد أحسن وإن أنزل بالمحدود ضررا ثم استعمل في النفع والخير خاصة فيقال أحسن إلى فلان إذا نفعه ولا يقال أحسن إليه إذا حده ويقولون للنفع كله إحسان ولا يقولون للضرر كله إساءه فلو كان معنى الإحسان هو النفع على الحقيقة لكان معنى الإساءة الضرر على الحقيقة لأنه ضده والأب يحسن إلى ولده بسقيه الدواء المر وبالفصد والحجامة ولا يقال ينعم عليه بذلك ويقال أحسن إذا أتى بفعل حسن ولا يقال أقبح

إذا أتى قبيحا اكتفوا بقولهم أساء وقد يكون أيضا من النعمة ما هو ضرر مثل التكليف

نسميه لما يؤدي من اللذة والسرور

الفرق بين الإحسان والنفع

أن النفع قد يكون من غير قصد والإحسان لا يكون إلا مع القصد تقول ينفعني العدو بما فعله بي إذا أراد ضرا فوقع نفعا ولا يقال أحسن إلى في ذلك

الفرق بين الإحسان والإجمال

أن الإجمال هو الإحسان الظاهر من قولك رجل جميل كأنما يجري فيه السمن وأصل الجميل الودك واجتمل الرجل إذا طبخ العظام ليخرج ودكها ويقال أحسن إليه فيعدى بإلى وأجمل في أمره لأنه فعل الجميل في أمره ويقال أنعم عليه لأنه دخله معنى علو نعمة عليه فهي غامرة له ولذلك يقال هو غريق في النعمة ولا يقال غريق في الإحسان والإجمال ويقال أجمل الحساب فيعدى ذلك بنفسه لأنه مضمن بمفعول ينبىء عنه من غير وسيلة وقد يكون الإحسان مثل الإجمال في استحقاق الحمد به وكما يجوز أن يحسن الإنسان إلى نفسه يجوز أن يجمل في فعله لنفسه. انتهى انتهى. اهـ ﴿الفروق فى اللغة صـ 162. 163﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ .

سؤال : إن قلت : هذا تكرار لأن الهداية من جملة (النعم) ؟

قلنا : المراد النعم الآتية من عند الله تعالى لا تسبب فيها للمكلف بخلاف الهداية والضلال فإن له (فيها كسبا وأرادة) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عرفة حـ 2 صـ 466 ﴾

وقال السعدى - رحمه الله - :

﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ أي : تعلمون الحق ، وتعملون به ، فالله تبارك وتعالى – من رحمته – بالعباد ، قد يسر لهم أسباب الهداية غاية التيسير ، ونبههم على سلوك طرقها ، وبينها لهم أتم تبيين ، حتى إن من جملة ذلك أنه يقيض للحق ، المعاندين له فيجادلون فيه ، فيتضح بذلك الحق ، وتظهر آياته وأعلامه ، ويتضح بطلان الباطل ، وأنه لا حقيقة له ، ولولا قيامه في مقابلة الحق ، لربما لم يتبين حاله لأكثر الخلق ، وبضدها تتبين الأشياء ، فلولا الليل ، ما عرف فضل النهار ، ولولا القبيح ، ما عرف فضل الحسن ، ولولا الظلمة ما عرف منفعة النور ، ولولا الباطل ما اتضح الحق اتضاحا ظاهرا ، فلله الحمد على ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير السعدى صـ 73 ﴾

لطيفة لغوية

قال الإمام الثعلبى - رحمه الله - :

﴿ وَلَعَلَّكُمْ ﴾ في لعلّ ست لغات : علّ ولعلّ ولعنّ وعنّ ولعّا .

ولها ستة أوجه هي من الله عزّ وجلّ واجب ،

ومن النّاس على معاني قد تكون بمعنى الاستفهام كقول القائل : لعلّك فعلت ذلك مستفهماً .

وتكون بمعنى الظّن كقول القائل : قدم فلان فردّ عليه الرّاد : لعلّ ذلك .

بمعنى أظنّ وأرى ذلك .

وتكون بمعنى الإيجاب بمنزلة ما أخلقه كقوله : قد وجبت الصّلاة فيرد الرّاد : لعلّ ذلك أي ما أخلقه .

وأنشد الفرّاء :

لعلّ المنايا مرّة ستعود

وآخر عهد الزائرين جديد

وتكون بمعنى الترجّي والتمنّي كقولك : لعلّ الله أن يرزقني مالاً ،

ولعلّني أحجّ .

وأنشد الفرّاء :

لعلّي في هدى أني وجودي

وتقطيعي التنوقة واختيالي

سيوشك أن يتيح إلى كريم

ينالك بالذّرى قبل السؤال

ويكون بمعنى عسى تكون ما يراد ولا يكون كقوله : ﴿ يا هامان ابن لي صرحاً لعلّي أبلغ الأسباب ﴾ . أي عسى أبلغ .

(48/70)

وقال أبو داود :

فأبلوني بليتكم لعلّي

أُصالحكم واستدرج نويا

أي نواي ويكون بمعنى كي على الجزاء كقوله : ﴿ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ بمعنى لكي يفقهوا ونظائرها كثيرة وقوله : ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ أي لكي تهتدوا من الضّلالة . أهـ ﴿ الكشف والبيان حـ 2 صـ 18 ﴾

من لطائف الإمام القشيري في آيات القبلة

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ .

كما تستقبلون أينما كنتم القِبْلَة – قَرُبتُم منها أم بَعُدْتُم – فكذلك أَقْبَلُوا علينا بقلوبكم كيفما

كنتم ، حَظَيتم منا أو مُنِيتُم .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾ .

إذا أردت ألا يكون لأحد عليك سبيلٌ ، ولا يقع لمخلوق عليك ظِلٌّ ، ولا تصل إليك بالسوءِ يَدٌ ، فحيثما كنتَ وأينما كنتَ وكيفما كنت كن لَنَا وكُن مِنّا ، فإنَّ من انقطع إلينا لا يتطرق إليه حدثان .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ .

إتمام النعمة إضافة الكشف إلى اللطف ، فإن من كفاه بمقتضى جوده دون من أغناه بحق وجوده ، وفي معناه أنشدوا :

نحن في أكمل السرورِ ولكنْ . . . ليس إلا بكم يَتمُّ السرور

عيبُ ما نحن فيه – يا أهلَ وُدِّي – . . . أنّكم غُيَّبٌ ونحن الحُضُور . انتهى انتهى . اهـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 136 ﴾

فوائد

قال السعدى - رحمه الله - :

وكان صرف المسلمين إلى الكعبة ، مما حصلت فيه فتنة كبيرة ، أشاعها أهل الكتاب ،

والمنافقون ، والمشركون ، وأكثروا فيها من الكلام والشبه ، فلهذا بسطها الله تعالى ، وبينها أكمل بيان ، وأكدها بأنواع من التأكيدات ، التي تضمنتها هذه الآيات .

(49/70)

منها : الأمر بها ، ثلاث مرات ، مع كفاية المرة الواحدة ، ومنها : أن المعهود ، أن الأمر ، إما أن يكون للرسول ، فتدخل فيه الأمة تبعا ، أو للأمة عموما ، وفي هذه الآية أمر فيها الرسول بالخصوص في قوله : ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ ﴾ والأمة عموما في قوله : ﴿ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ ﴾ .

ومنها : أنه رد فيه جميع الاحتجاجات الباطلة ، التي أوردها أهل العناد وأبطلها شبهة شبهة ، كما تقدم توضيحها ، ومنها : أنه قطع الأطماع من اتباع الرسول قبلة أهل الكتاب ، ومنها قوله : ﴿ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ﴾ فمجرد إخبار الصادق العظيم كاف شاف ، ولكن مع هذا قال : ﴿ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ﴾ .

ومنها : أنه أخبر – وهو العالم بالخفيات – أن أهل الكتاب متقرر عندهم ، صحة هذا الأمر ، ولكنهم يكتمون هذه الشهادة مع العلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير السعدى صـ 73 ﴾

(50/70)

من فوائد الإمام الجصاص فى الآية

قال رحمه الله :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾ مِنْ النَّاسِ مَنْ يَحْتَجُّ بِهِ فِي الِاسْتِثْنَاءِ مِنْ غَيْرِ جِنْسِهِ .

وَقَدْ اخْتَلَفَ أَهْلُ اللُّغَةِ فِي مَعْنَاهُ ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ : " هُوَ اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ وَمَعْنَاهُ : لَكِنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ يَتَعَلَّقُونَ بِالشُّبْهَةِ وَيَضَعُونَ مَوْضِعَ الْحُجَّةِ ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ﴾ مَعْنَاهُ : لَكِنْ اتِّبَاعُ الظَّنِّ ، قَالَ النَّابِغَةُ : وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ الْكَتَائِبِ مَعْنَاهُ : لَكِنْ بِسُيُوفِهِمْ فُلُولٌ ، وَلَيْسَ بِعَيْبٍ " وَقِيلَ فِيهِ : " إِنَّهُ أَرَادَ بِالْحُجَّةِ الْمُحَاجَّةَ وَالْمُجَادَلَةَ ، فَقَالَ : لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حِجَاجٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا فَإِنَّهُمْ يُحَاجُّونَكُمْ بِالْبَاطِلِ " .

وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ : " إِلَّا " هَاهُنَا بِمَعْنَى الْوَاوِ ، وَكَأَنَّهُ قَالَ : لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ وَإِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا .

وَأَنْكَرَ ذَلِكَ الْفَرَّاءُ وَأَكْثَرُ أَهْلِ اللُّغَةِ ، قَالَ الْفَرَّاءُ : لَا تَجِيءُ " إِلَّا " بِمَعْنَى الْوَاوِ إِلَّا إذَا تَقَدَّمَ اسْتِثْنَاءٌ كَقَوْلِ الشَّاعِرِ : مَا بِالْمَدِينَةِ دَارٌ غَيْرُ وَاحِدَةٍ دَارُ الْخَلِيفَةِ إِلَّا دَارُ مَرْوَانَ كَأَنَّهُ قَالَ : مَا بِالْمَدِينَةِ دَارٌ إِلَّا دَارُ الْخَلِيفَةِ وَدَارُ مَرْوَانَ .

وَقَالَ قُطْرُبٌ : مَعْنَاهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إلَّا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا .

وَأَنْكَرَ هَذَا بَعْضُ النُّحَاةِ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 1 صـ 113 .

114 ﴾

(51/70)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآيتين

قال رحمه الله :

﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (149) ﴾

لابد أن نتأمل كم مرة أكد القرآن الكريم قضية تحويل القبلة . . أكدها ثلاث مرات متقاربة . . لأن تحويل القبلة أحدث هزة عنيفة في نفوس المؤمنين . . والحق سبحانه وتعالى يريد أن يذهب هذا الأثر ويؤكد تحويل القبلة تأكيدا إيمانيا . لقد جاء بثلاث آيات التي هي أقل الجمع . . واحدة للمتجه إلي الكعبة وهو داخل المسجد . . والثانية للمتجه وهو خارج المسجد . . والثالثة للمتجه من الجهات جميعا .

قوله تعالى : " ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام" . . هو رد على

المنافقين واليهود والنصارى الذين حاولوا التشكيك في الإسلام . . بأن واجهوا المسلمين بقضية تغيير القبلة . . على أساس أنها قضية ما كان يجب أن تتم لأنه ليس فيها زيادة في التكليف ولا مشقة زائدة تزيد ثواب المؤمن . . فالجهد الذي يبذله المؤمن في الاتجاه إلي المسجد الأقصى هو نفس الجهد الذي يبذله في الاتجاه إلي البيت الحرام . . فأنت إذا اتجهت في صلاتك يمينا أو شمالا أو شرقا أو غربا فإن ذلك لا يضيف إليك مشقة فما هو سبب التغيير ؟ .

نقول لهم إن هذه ليست حجة للتشكيك في تحويل القبلة لأن الاتجاه إلي المسجد الحرام هو طاعة الله . . ومادام الله سبحانه وتعالى قد قال فعلينا أن نطيع طاعة إيمانية . . يقول المولى جل جلاله : " وإنه للحق من ربك وما الله بغافل عما تعملون " . . أي أن ما فعلتموه من تحويل القبلة هو حق جاءكم من الله تبارك وتعالى . . والله عز وجل ليس غافلا عن عملكم بحيث تكونون قد اتجهتم إلي البيت الحرام . بل الله يعلم ما تبدون وما تكتمون . . فاطمئنوا أنكم على الحق وولوا وجوهكم تجاه المسجد الحرام . . واعلموا أن الله سبحانه محيط بكم في كل ما تعملون .

﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (150) ﴾

الحق تبارك وتعالى يؤكد لرسوله صلى الله عليه وسلم أن يتوجه هو والمسلمون إلي المسجد الحرام . . سواء كانوا في المدينة أو في خارج المدينة أو في أي مكان على الأرض . . وتلك هي قبلتهم في كل صلاة بصرف النظر عن المكان الذين يصلون فيه .

وقوله تعالى : " لئلا يكون للناس عليكم حجة" . . الناس هنا المقصود بهم المنافقون واليهود والنصارى . . حجة في ماذا ؟ لأن المسلمين كانوا يتجهون إلي بيت المقدس فاتجهوا إلي المسجد الحرام . . وليس لبيت المقدس قدسية في ذاته ولا للمسجد الحرام قدسية في ذاته كما قلنا . . ولكن نحن نطيع الأمر من الآمر الأعلى وهو الله . . إن الله تبارك وتعالى أطلق على المنافقين واليهود والنصارى كلمة (ظلموا) ووصفهم بأنهم الذين ظلموا . . فمن هو الظالم ؟ الظالم هو من ينكر الحق أو يغير وجهته أو ينقل الحق إلي باطل والباطل إلي حق . . والظلم هو تجاوز الحد وكأنه سبحانه وصفهم بأنهم ق تجاوزوا الحق وأنكروه يقول سبحانه : " فلا تخشوهم" أي لا تخشوا الذين ظلموا : " واخشوني ولأتم نعمتي عليكم ولعلكم تهتدون" . . أي أن الخشية لله وحده والمؤمن لا يخشى بشرا . .

لأنه يعلم أن القوة لله جميعا . . ولذلك فإنه يقدم على كل عمل بقلب لا يهاب أحدا إلا الحق .

وقوله سبحانه : " ولأتم نعمتي عليكم ولعلكم تهتدون" . . تمام النعمة هو الإيمان وتمام النعمة هو تنفيذ مطلوبات الإيمان . . فإذا هدانا الله للإيمان فهذا من تمام نعمة علينا . ولكي يكون الإيمان صحيحا ومقبولا فلابد أن أؤدي مطالبه والمداومة على تنفيذ تكليفات الله لنا ، فلا نجعل التكليف ينقطع . لأن التكليف نعمة بغيرها لا تصلح حياتنا ولا تتوالى نعم التكليف من الله سبحانه وتعالى إلا إذا أقبلنا على منهج بعشق . . وأنت حينما تأتي إلي المنهج قد يكون شاقا ، ولكن إذا تذكرت ثواب كل طاعة فإنك ستخشع وتعشق التكليف . . لأنك تعرف العمل الصالح بثوابه والعمل في المعصية بعقابه . . ولذلك قال الله تبارك وتعالى :

وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ (45) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (46)

(سورة البقرة)

إذن الخاشعون هم الذين يقرنون الطاعة بالثواب والمعصية بالعقاب والعذاب ، لأن الذي ينصرف عن الطاعة لمشقتها عزل الطاعة عن الثواب فأصبحت ثقيلة ، والذي يذهب إلي المعصية عزل المعصية عن العقاب فأصبحت سهلة . . فمن تمام النعمة أن يديم الله علينا فعل مطلوبات الإيمان . . ولذلك في حجة الوداع نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم الآية الكريمة :

الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً

(من الآية 3 سورة المائدة)

وكان ذلك إخبارا بتمام رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن الأحكام التكليفية قد انتهت . . ولكن الذين يستثقلون التكليف تجدهم يقولون لك لقد عم الفساد والله لا يكلف نفسا إلا وسعها . . كأنه يحكم بأن هذا في وسعه وهذا ليس في وسعه وعلى ضوئه يأخذ التكليف . . نقول له أكلف الله أم لم يكلف ، إن كان قد كلف فيكون التكليف في وسعك . . لأنه سبحانه حين يجد مشقة يأمر التخفيف مثل إباحة قصر الصلاة للمسافر وإباحة الإفطار في رمضان للمريض والمسافر فهو سبحانه قد حدد ما في وسعك .

قوله تعالى : " ولعلكم تهتدون " . . الهداية هي الطريق المستقيم الموصل إلي الغاية وهو أقصر الطرق ، وغاية هذه الحياة هي أن تصل إلي نعيم الآخرة . . الله أعطاك في الدنيا الأسباب لتحكم حركة حياتك ولكن هذه ليست غاية الحياة . . بل الغاية أن نذهب إلي حياة بلا أسباب وهذه هي عظمة قدرة الله سبحانه وتعالى . . والله جل جلاله يأتي ليعلمنا في الآخرة أنه خلقنا لنعيش في الدنيا بالأسباب وفي الآخرة لنعيش في كنفه بلا أسباب .

إذن قوله تعالى : " ولعلكم تهتدون " . . أي لعلكم تنتبهون وتعرفون الغاية المطلوبة منكم . . ولا يظن أحدكم أن الحياة الدنيا هي النهاية أو هي الهدف . . فيعمل من أجل الدنيا فيأخذ منها ما يستطيع حلالا أو حراما باعتبارها المتعة الوحيدة المخلوقة له . . نقول لا ، إنه في هذه الحالة يكون قد ضل ولم يهتد لأنه لو اهتدى لعرف أن الحياة الحقيقية للإنسان هي في الآخرة . ولعرف أن نعيم الآخرة الذي لا تفوته ولا يفوتك . . يجب أن يكون هدفنا في الحياة الدنيا فنعمل ما نستطيع لنصل إلي النعيم بلا أسباب في الجنة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ 640.643 ﴾

" فصل "

قال السيوطى :

وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (149) وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (150)

أخرج ابن جرير من طريق السدي عن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وناس من الصحابة قالوا : لما صرف النبي صلى الله عليه وسلم نحو الكعبة بعد صلاته إلى بيت المقدس قال المشركون من أهل مكة : تحير محمد دينه فتوجه بقبلته إليكم ، وعلم أنكم اهدى منه سبيلاً ، ويوشك أن يدخل في دينكم . فأنزل الله ﴿ لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا منهم فلا تخشوهم واخشوني ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة في قوله ﴿ لئلا يكون للناس عليكم حجة ﴾ قال : يعني بذلك أهل الكتاب ، قالوا حين صرف نبي الله إلى الكعبة البيت الحرام : اشتاق الرجل إلى بيت أبيه ودين قومه .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد في قوله ﴿ لئلا يكون للناس عليكم حجة ﴾ قال : حجتهم قولهم : قد راجعت قبلتنا .

وأخرج أبو داود في ناسخه وابن جرير وابن المنذر عن قتادة ومجاهد في قوله ﴿ إلا الذين ظلموا منهم ﴾ قال : هم مشركو العرب ، قالوا حين صرفت القبلة إلى الكعبة : قد رجع إلى قبلتكم فيوشك أن يرجع إلى دينكم .

(56/70)

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة في قوله ﴿ إلا الذين ظلموا منهم ﴾ قال : الذين ظلموا منهم مشركو قريش ، إنهم سيحتجون بذلك عليكم ، واحتجوا على نبي الله بانصرافه إلى البيت الحرام ، وقالوا : سيرجع محمد إلى ديننا كما رجع إلى قبلتنا ، فأنزل الله في ذلك كله ﴿ يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين ﴾ [البقرة : 153] .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية في قوله ﴿ لئلا يكون للناس عليكم حجة ﴾ قال : يعني بذلك أهل الكتاب ﴿ إلا الذين ظلموا منهم ﴾ بمعنى مشركي قريش . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 1 صـ 358 . 359 ﴾

(57/70)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (149) وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (150)

" مِنْ حَيْثُ " متعلق بقوله : " فول وَجْهَكَ " و " خرجت " في محلّ جر بإضافة " حيث " إليها ، وقرأ عبد الله بالفتح ، وقد تقدم أنها إحدى اللغات ، ولا تكون هنا شرطية ، لعدم زيادة " ما " ، والهاء في قوله : ﴿ وَإِنَّهُ للحَقُّ ﴾ الكلام فيها كالكلام عليها فيما تقدّم .

قوله تعالى : ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ ﴾ هذه لام " كي " بعدها " أن " المصدرية الناصبة للمضارع ، و " لا " نافية واقعة بين الناصب ومنصوبه ، كما تقع بين الجازم ومجزومه نحو : ﴿ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ ﴾ [الأنفال : 73] و " أن " هنا واجبة الإظهار ، إذ لو أضمرت لثقل اللَّفظ بتوالي لامين ، ولام الجر متعلقة بقوله سبحانه وتعالى : ﴿ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ ﴾ .

وقال أبو البقاء : متعلّقة بمحذوف تقديره : فعلنا ذلك لئلا ، ولا حاجة إلى ذلك ، و" للناس " خبر لـ" يكون " مقدّم على اسمها ، وهو " حجّة " ، و" عليكم " في محل نصب على الحال ؛ لأنه في الأصل صفة النكرة ، فلما تقدم عليها انتصب حالاً ، ولا يتعلق بـ" حجة " لئلاّ يلزم تقديم معمول المصدر عليه ، وهو ممتنع ؛ لأنه في تأويل صلة وموصول ، وقد قال بعضهم : يتعلّق بـ" حجة " وهو ضعيف ، ويجوز أن يكون " عليكم " خبراً لـ" يكون " ويتعلق " للناس " بـ" يكون " على رأي من يرى أن " كان " الناقصة تعمل في الظرف وشبهه ، وذكر الفعل في قوله " يكون " ؛ لأن تأنيث الحجّة غير حقيقي ، وحسن ذلك الفصل أيضاً .

[وقال أبو روق : المراد بـ" النّاس " : أهل الكتاب .

ونقل عن قتادة والربيع : أنهم وجدوا في كتابهم أنه – عليه الصلاة والسلام – تحوّل إلى القبلة ، فلما حوّلت بطلت حجّتهم .

" إلا الذين ظلموا " ؛ بسبب أنهم كتموا ما عرفوا .

وقيل : لام أوردوا تلك الشبهة معتقدين أنها حجّة سماها تعالى حجّة ، بناءً على معتقدهم ، أو لعله – تعالى – سمّاها حجّة تهكّماً بهم .

وقيل : أراد بالحجة المحاجّة ، فقال : ﴿ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلاَّ الذين ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ﴾ فإنهم يحاجونكم بالباطل] .

قوله تعالى : " إِلاَّ الَّذِينَ " قرأ الجمهور " إِلاَّ " بكسر " الهمزة " وتشديد " اللام " .

وقرأ ابن عباس ، وزيد بن علي ، وابن زيد بفتحها ، وتخفيف " اللام " على أنها للاستفتاح.

فأما قراءة الجمهور فاختلف النحويون في تأويلها على أربعة أقوال :

أظهرها : وهو اختيار الطبري ، وبدأ به ابن عطية ، ولم يذكر الزمخشري غيره أنه استثناء متصل.

قال الزمخشري : معناه لئلا يكون حجّة لأحد من اليهود إلا للمعاندين منهم القائلين : ما ترك قِبْلَتنا إلى الكعبة إلا ميلاً لدين قومه ، وحبّاً لهم ، وأطلق على قولهم : " حجّة " ؛ لأنهم ساقوه مساق الحجة.

والحجّة كما أنها تكون صحيحة ، فقد تكون أيضاً باطلة ، قال الله تعالى : ﴿ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ [الشورى : 16] .

وقال تعالى : ﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ العلم ﴾ [آل عمران : 61]

والمحاجّة هي أن يورد كل واحد من المحق والمبطل على صاحبه حجّة ، وهذا يقتضي أن

الذي يورده المبطل يسمى بالحجّة ، ولأن الحجّة اشتقاقها من حَجَّه إذا علا عليه ، فكل كلام يقصد به غلبة الغير فهو حجّة .

وقال بعضهم : إنها مأخوذة من محجّة الطريق ، فكل كلام يتّخذه الإنسان مسلكاً لنفسه في إثبات أو إبطال فهو حجّة .

وقال ابن عطية : المعنى أنه لا حجّة لأحد عليكم إلا الحجة الداحضة للذين ظلموا من اليهود وغيرهم الذين تكلموا في النازلة ، وسماها حجّة وحكم بفسادها حين كانت من ظالم .

الثاني : أنه استثناء منقطع ، فيقدر بـ " لكن " عند البصريين ، وب " بل " عند الكوفيين ؛ لأنه استثناء من غير الأول ، والتقدير : لكن الذين ظلموا ، فإنهم يتعلقون عليكم بالشبهة يضعونه موضع الحجة [نظيره قوله : ﴿ إِنِّي لاَ يَخَافُ لَدَيَّ المرسلون إِلاَّ مَن ظَلَمَ ﴾ النمل : 10 - 11] .

وقال : ﴿ لاَ عَاصِمَ اليوم مِنْ أَمْرِ الله إِلاَّ مَن رَّحِمَ ﴾ [هود : 43] .

ويقال : ما له عليّ مِنْ حقَ إلاّ التعدي ، أي : لكنه يتعدى] .

ومثار الخلاف هو : هل الحجّة هي الدليل الصحيح ، أن الاحتجاج صحيحاً كان أو فاسداً ؟

فعلى الأولى يكون منقطعاً ، وعلى الثاني يكون متصلاً .

الثالث : وهو قول أبي عبيدة أن " إلا " بمعنى " الواو " العاطفة وجعل من ذلك قوله : [الوافر]

843 - وَكُلُّ أَخٍ مُفَارِقُهُ أَخُوهُ . . .

لَعَمْرُ أَبِيكَ إِلاَّ الفَرْقَدانِ

يَعْني : والفرقدان .

وقول الآخر : [البسيط]

844 - مَا بِالمَدِينَةِ دَارٌ غَيرُ وَاحِدَةٍ . . .

دَارُ الخَلِيفَةِ إِلاَّ دَارُ مَرْوَانَا

تقدير ذلك عنده : " ولا الذين ظلموا ، والفرقدان ، ودار مروان " وقد خطأه النحاة في ذلك كالزجاج وغيره .

الرابع : أن " إلا بمعنى بعد ، أي : بعد الذين ظلموا ، وجعل منه قول الله تعالى : ﴿ لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا الموت إِلاَّ الموتة الأولى ﴾ [الدخان : 56] .

وقوله تعالى : ﴿ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ [النساء : 22] تقديره : بعد الموتة ، وبعد ما قد

سلف ، هذا من أَفْسَد الأقوال ، وأنكرها ، وإنما ذكرته لغرض التنبيه على ضعفه .

و" الذين " في محل نصب على الاستثناء على القولين اتّصالاً وانقطاعاً ، وأجاز قطرب أن يكون في موضع جَرّ بدلاً من ضمير الخطاب في " عليكم " ، والتقدير : لئلا تثبت حجّة للناس على غير الظالمين منهم ، وهم أنتم أيها المخاطبون بتولية وجوهكم إلى القِبْلة .

ونقل عنه أنه كان يقرأ : " إلاَّ على الذين " كأنه يكرر العامل في البدل على حَدْ قوله : ﴿ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ ﴾ [الأعراف : 75] .

وهذا عند جمهور البصريين ممتنع ؛ لأنه يؤدي إلى بدل ظاهر من ضمير حاضر بدل كلّ من كل ، ولم يجزه من البصريين إلا الأخفش ، وتأول غيره ما ورد من ذلك .

وأما قراءة ابن عباس بـ " ألا " للاستفتاح ، ففي محل " الذين " حينئذ ثلاثة أوجه :

أظهرها : أنه مبتدأ ، وخبره قوله : " فَلاَ تَخْشَوْهُمْ " ، وإنما دخلت " الفاء " في الخبر ؛ لأن الموصول تضمن معنى الشرط ، والماضي الواقع صلة مستقبل معنى كأنه قيل : من يظلم الناس فلا تخشوهم ولولا دخول الفاء لترجّح النصب على الاشتغال ، أي : لا تخشوا الذين ظلموا لا تخشوهم .

الثاني : أن يكون منصوباً بإضمار فعل على الاشتغال ، وذلك على قول الأخفش ، فإنه يجيز زيادة الفاء .

الثالث : نقله ابن عطية أن يكون منصوباً على الإغراء .

ونقل عن ابن مجاهد أنه قرأ : " إلى الَّذِينَ ظَلَمُوا " وجعل " إلى " حرف جر متأولاً لذلك بأنها بمعنى " مع " ، والتقدير : لئلا يكون للناس عليكم حجة مع الذين ، والظاهر أن هذا الراوي وقع في سمعه " إلا الذين " بتخفيف " إلاَ " فاعتقد ذلك فيها ، وله نظائر مذكورة عندهم .

و " منهم " في محل نصب على الحال فيتعلّق بمحذوف ، ويحتمل أن تكون " من " للتبعيض ، وأن تكون للبيان . أ هـ

و " الخَشْية " : أصلها : طمأنينة في القلب تبعث على التوقي والخوف و " الخوف " : فزع في القلب تخف له الأعضاء ، ولخفّة الأعضاء به يسمى خوفاً ، ومعه التحقير لك من سوى الله تعالى ، والأمر باطّراح أمرهم ومراعاة أمر الله تعالى .

قال بعضهم : الخوف أوّل المراتب ، وهو الفزع ، ثم بعده الوَجَل ، ثم الخَشْية ، ثم الرَّهْبة] .

قوله : " وَلِأُتِمَّ " فيه أربعة أوجه :

أظهرها : أنه معطوف على قوله : " لِئَلاَّ يَكُونَ " كأن المعنى : عرفناكم وجه الصواب في قبلتكم ، والحجة لكم لانتفاء حجج الناس عليكم ، ولإتمام النعمة ، فيكون التعريف معلّلاً

بها تين العلّتين :

[إحداهما : لانقطاع حجّتهم عنه .

والثانية : لإتمام النعمة .

وقد بَيَّن مسلم الأصفهاني ما في ذلك من النعمة ، وهو القوم كانوا يفتخرون باتباع إبراهيم في جميع ما يفعلون ، فلما حُوِّل – عليه الصلاة والسلام – إلى " بيت المقدس " لحقهم ضعف قلب ، ولذلك كان عليه الصلاة والسلام يحب التحوّل إلى الكعبة ، لما فيها من شرف البُقْعة ، فهذا موضع النعمة] ، والفصل بالاستثناء وما بعده كَلاَ فَصْلٍ إذ هو من متعلق العلة الأولى .

الثاني : أنه معطوف على علّة محذوفة ، وكلاهما [معلولها] الخشية السابقة فكأنه قيل : واخشوني [لأوفقكم] ولأتم نعمتي عليكم .

الثالث : أنه متعلّق بفعل محذوف مقدر بعده تقديره : وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ عرفتكم أمر قبلتكم " .

الرابع : وهو أضعفها أن تكون متعلقة بالفعل قبلها ، و" الواو " زائدة ، تقديره : واخشوني لأتم نعمتي .

وهذه لام "كي " و" أن " مضمرة بعدها ناصبة للمضارع ، فينسبك منهما مصر مجرور باللام وتقدم تحقيقه ، و" عليكم " فيه وجهان :

أحدهما : أن يتعلق بـ" أتمّ " .

الثاني : أن يتعلق بمحذوف على أنه حال من " نعمتي " ، أي : كائنة عليكم . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 3 صـ 71.64 ﴾ . باختصار .

(63/70)

قوله تعالى ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (151) ﴾

فصل

قال البقاعي :

﴿ كما ﴾ أي وجهناكم إلى الكعبة لهذه العلل ﴿ أرسلنا ﴾ أي بعظمتنا ﴿ فيكم ﴾ لأجل ذلك بعينه ولئلا تقولوا ما كانوا يقولون من أنكم لا حرمة لكم لإشراككم ولا إثم على

من آذاكم فيتم عليكم النعمة بإرسال من يستنقذكم اتباعه من الجهل والذل في الدنيا ومن العذاب في الأخرى ﴿ رسولاً ﴾ متصفاً بأنه ﴿ منكم ﴾ تعرفون من صفته العلية وهممه الشم الحاملة على اتباعه والتيمن برأيه ما لا يعرفه غيركم ﴿ يتلوا عليكم آياتنا ﴾ الحافظة لمن رعاها حق رعايتها على الصراط المستقيم عوضاً من تناشدكم الأشعار .

قال الحرالي : وفيه أخذهم بما هو في طباعهم من إيثار أمر السمع على أمر العين الذي عليه جبلت العرب ، لأنها أمة تؤثر مسموع المدح والثناء من الخلق على ما تناله من الراحة فتجهد في طلب الثناء من الخلق ما لم تجهد أمة غيرها ، فكيف بها إذا كان ما دعيت إليه ثناء الحق عليها وتخليد ذلك لها في كلام هو كلام ربها .

فتنال بذلك ما هو فوق مقصودها مما جبلت عليه من إيثار السماع على العين بخلاف ما عليه سائر الأمم ؛ ثم قال : وفيه إغناء العرب عن إعمال أفكارها في تكسب العلم والحكمة لتستخرج منه أحكاماً ، فكان في تلاوة الآيات عليهم إغناؤهم عن الاستدلال بالدلائل وأخذ الأمور بالشواهد وتولي الله ورسوله تعليمهم ليكون شرف المتعلم بحسب علاء من علمه ، ففضل علماء العرب على سائر العلماء كفضل النبي صلى الله عليه وسلم على معلمهم ممن سواه صلى الله عليه وسلم .

انتهى .

ولما كان السياق لفعل من الأفعال وهو التوجه إلى البيت للصلاة وكانت الصلاة أعظم مطهر

للقبول من أوضار الأدناس قدم قوله : ﴿ ويزكيكم ﴾ أي يطهركم في أقوالكم وأفعالكم وينميكم بإنعاش قلوبكم لتشرف بالمعاني الصالحة والأخلاق الطاهرة الموجبة للفوز الدائم والنجاة عما دنس اليهود وأوجب لهم الضلال من مرض القلب بإنكار النسخ وكتم الحق وإفشاء الباطل المثمر مع الضلال للإضلال .

(64/70)

قال الحرالي : أنبأهم بأن هذا التنزيل لأنفسهم بمنزلة الغذاء للأبدان ، فكما تتنامى أجسادهم بماء المزن وما منه فكذلك تتنامى أنفسهم بأحكام الكتاب وتلاوة الآيات ، وذلك زكاؤها ونماؤها ، لتتأكد فيه رغبتهم ، لأن للمغتذي رغبة في الغذاء إذا تحققه ، فمن علم أن التزام الأحكام غذاء لنفسه حرص عليها ، ومتى نمت النفس وزكت قويت على ما شأنها أن تناله قواها ، كما أن البدن إذا قوي بالغذاء تمكن مما شأنه عمله – انتهى .

﴿ ويعلمكم الكتاب ﴾ المقيم للدين والدنيا .

قال الحرالي : أي الفقه فيه ﴿ والحكمة ﴾ دقائق الإشارات الشافية لأمراض القلوب المانعة من اتباع الهوى .

قال الحرالي : فخص تعليم الحكمة من عموم تعليم الكتاب ، لأن التوسل بالأحكام جهد

عمل والتوسل بعلم الحكمة يسر منال عقل ، لأن الحكمة منال الأمر الذي فيه عسر بسبب فيه يسر فينال الحكيم بحكمته لاطلاعه على إفضاء مجعول الأسباب بعضها لبعض مما بين أسباب عاجل الدنيا ومسببات آجل الآخرة ما لا يصل إليه جهد العامل الكادح وفي تكملة الكتاب والحكمة بكلمة " أل " إنهاء إلى الغاية الجامعة لكل كتاب وحكمة بما يعلمه الأولون والآخرون .

(65/70)

ثم قال : وبذلك كان صلى الله عليه وسلم يتكلم في علوم الأولين بكلمات يعجز عنها إدراك الخلق نحو قوله صلى الله عليه وسلم : " استاكوا بكل عود ما خلا الآس والرمان فإنهما يهيجان عرق الجذام " لأن الخلق لا يستطيعون حصر كليات المحسوسات ، غاية إدراكهم حصر كليات المعقولات ، ومن استجلى أحواله صلى الله عليه وسلم علم اطلاع حسه على إحاطة المحسوسات وإحاطة حكمها وألسنتها ناطقها وأعجمها حيها وجمادها جمعاً ، لما في العادة حكمة ولما في خرق العادة آية ؛ ثم قال : فعلى قدر ما وهب الله سبحانه وتعالى العبد من العقل يعلمه من الكتاب والحكمة ، يؤثر عن عمر رضي الله تعالى عنه أنه قال : " كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكلم أبا بكر رضي الله عنه فكأنما

يتكلمان بلسان أعجمي لا أفهم مما يقولان شيئاً " ولما كان انتهاء ما في الكتاب عند هذه الغاية أنبأ تعالى أن رسوله صلى الله عليه وسلم يعلمهم ما لم يكن في كتابهم مثال علمه . ففيه إشعار بفتح وتجديد فطرة يترقون لها إلى ما لم يكن في كتابهم علمه – انتهى .

وذلك لأن استعمال الحكمة موجب للترقي فقال تعالى : ﴿ ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون ﴾ أي من الاستنباط من الكتاب من المعارف بما يدريكم به من الأقوال والأفعال ويسلككم فيه من طرق الخير الكاشفة لظلام الظلم الجالية لمرأى الأفكار المنورة لبصائر الاعتبار .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 274. 276 ﴾

اللغة :

[الكتاب] القرآن العظيم

[الحكمة] السنة النبوية

[فاذكروني] أصل الذكر التنبيه بالقلب للمذكور ، وسمي الذكر باللسان ذكرا لأنه علامة على الذكر القلبي

[ولنبلونكم] أصل البلاء المحنة ، ثم قد يكون بالخير أو بالشر [ونبلوكم بالشر

والخير فتنة]

[مصيبة] المصيبة : كل ما يؤذي المؤمن ويصيبه في نفسه أو ماله أو ولده

[صلوات] الأصل في الصلاة الدعاء ، وهي من الله بمعنى الرحمة ، ومن الملائكة بمعنى الاستغفار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 1 صـ 106 ﴾

وقال الفخر

اعلم أنا قد بينا أن الله تعالى استدل على صحة دين محمد عليه الصلاة والسلام بوجوه ، بعضها إلزامية ، وهو أن هذا الدين دين إبراهيم فوجب قبوله ، وهو المراد بقوله : ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِلَّةِ إبراهيم إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ ﴾ [البقرة : 130] وبعضها برهانية وهو قوله : ﴿ قُولُواْ ءامَنَّا بالله وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق وَيَعْقُوبَ والأسباط ﴾ [البقرة : 136] ثم إنه سبحانه وتعالى عقب هذا الاستدلال بحكاية شبهتين لهم .

إحداهما : قوله : ﴿ وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نصارى تَهْتَدُواْ ﴾ [البقرة : 135] .

والثانية : استدلالهم بإنكار النسخ على القدح في هذه الشريعة ، وهو قول : ﴿ سَيَقُولُ السفهاء مِنَ الناس مَا ولاهم عَن قِبْلَتِهِمُ التى كَانُواْ عَلَيْهَا ﴾ [البقرة : 142] وأطنب الله تعالى في الجواب عن الشبهة وبالحق فعل ذلك ، لأن أعظم الشبهة لليهود في إنكار نبوة محمد عليه الصلاة والسلام النسخ ، فلا جرم أطنب الله تعالى في الجواب عن هذه الشبهة ، وختم ذلك الجواب بقوله : ﴿ وَلأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ ﴾ فصار هذا الكلام مع ما فيه من الجواب عن الشبهة تنبيهاً على عظيم نعم الله تعالى ، ولا شك أن ذلك أشد استمالة لحصول العز والشرف في الدنيا ، والتخلص في الذل والمهانة يكون مرغوباً فيه ، وعند اجتماع الأمرين فقد بلغ النهاية في هذا الباب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 4 صـ 129 ﴾

مسائل نفيسه وقيمة فى الآية للإمام الفخر

المسألة الأولى : هذا الكاف إما أن يتعلق بما قبله أو بما بعده ، فإن قلنا : إنه متعلق بما قبله ففيه وجوه .

الأول : أنه راجع إلى قوله : ﴿ وَلأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ ﴾ [البقرة : 150] أي ولأتم نعمتي عليكم في الدنيا بحصول الشرف ، وفي الآخرة بالفوز بالثواب ، كما أتممتها عليكم في الدنيا بإرسال الرسول .

الثاني : أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ قال : ﴿ رَبَّنَا وابعث فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتك

وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ [البقرة: 129] وقال أيضاً : ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا ﴾ [البقرة: 128] فكأنه تعالى قال: ولأتم نعمتي عليكم ببيان الشرائع، وأهديكم إلى الدين إجابة لدعوة إبراهيم، كما أرسلنا فيكم رسولاً إجابة لدعوته عن ابن جرير.

(69/70)

الثالث: قول أبي مسلم الأصفهاني، وهو أن التقدير: وكذلك جعلناكم أمة وسطاً كما أرسلنا فيكم رسولاً، أي كما أرسلنا فيكم رسولاً من شأنه وصفته كذا وكذا، فكذلك جعلناكم أمة وسطاً، وأما إن قلنا: أنّه متعلق بما بعده، فالتقدير: كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يعلمكم الدين والشرع، فاذكروني أذكركم وهو اختيار الأصم وتقريره إنكم كنتم على صورة لا تتلون كتاباً، ولا تعلمون رسولاً، ومحمد -صلى الله عليه وسلم- رجل منكم ليس بصاحب كتاب، ثم أتاكم بأعجب الآيات يتلوه عليكم بلسانكم وفيه ما في كتب الأنبياء، وفيه الخبر عن أحوالهم، وفيه التنبيه على دلائل التوحيد والمعاد وفيه التنبيه على الأخلاق الشريفة، والنهي عن أخلاق السفهاء، وفي ذلك أعظم البرهان على صدقه فقال: كما أوليتكم هذه النعمة وجعلتها لكم دليلاً، فاذكروني بالشكر عليها،

أذكركم برحمتي وثوابي ، والذي يؤكده قوله تعالى :

﴿ لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى المؤمنين إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ [آل عمران : 164] فلما ذكرهم هذه النعمة والمنة ، أمرهم في مقابلتها بالذكر والشكر فإن قيل : ﴿ كما ﴾ هل يجوز أن يكون جواباً ؟ قلنا : جوزه الفراء وجعل لأذكروني جوابين .

أحدهما : ﴿ كَمَا ﴾ .

والثاني : ﴿ أَذْكُرْكُمْ ﴾ ووجه ذلك لأنه أوجب عليهم الذكر ليذكرهم الله برحمته ، ولما سلف من نعمته ، قال القاضي : والوجه الأول أولى لأنه قبل الكلام إذا وجد ما يتم به الكلام من غير فصل فتعلقه به أولى .

المسألة الثانية : في وجه التشبيه قولان : إن قلنا لكاف متعلق بقوله ولأتم نعمتي كان المعنى أن النعمة في أمر القبلة كالنعمة بالرسالة لأنه تعالى يفعل الأصلح ، وإن قلنا إنه متعلق بقوله تعالى : ﴿ اذكروني ﴾ دل ذلك على أن النعمة بالذكر جارية مجرى النعمة بالرسالة .

المسألة الثالثة : ﴿ مَا ﴾ في قوله : ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا ﴾ مصدرية كأنه قيل : كإرسالنا فيكم ، ويحتمل أن تكون كافة .

أما قوله تعالى : ﴿ فيكُمْ ﴾ فالمراد به العرب وكذلك قوله : ﴿ مّنكُمْ ﴾ وفي إرساله فيهم ومنهم ، نعم عظيمة عليهم لما لهم فيه الشرف ، ولأن المشهور من حال العرب الأنفة الشديدة من الإنقياد للغير فبعثه الله تعالى من واسطتهم ليكونوا إلى القبول أقرب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 4 صـ 129. 130 ﴾

(71/70)

وقال العلامة ابن عاشور :

تشبيهن للعلتين من قوله : ﴿ لأتم ﴾ [البقرة : 150] وقوله : ﴿ ولعلكم تهتدون ﴾ [البقرة : 150] أي ذلك من نعمتي عليكم كنعمة إرسال محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وجعل الإرسال مشبهاً به لأنه أسبق وأظهر تحقيقاً للمشبه أي إن المبادىء دلت على الغايات وهذا كقوله في الحديث "كما صليت على إبراهيم" ونكر (رسول) للتعظيم ولتجري عليه الصفات التي كل واحدة منها نعمة خاصة ، فالخطاب في قوله : ﴿ فيكم ﴾ وما بعده للمؤمنين من المهاجرين والأنصار تذكيراً لهم بنعمة الله عليهم بأن بعث إليهم رسولاً بين ظهرانيهم ومن قومهم لأن ذلك أقوى تيسيراً لهدايتهم ، وهذا على نحو دعوة إبراهيم : ﴿ ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم ﴾ [البقرة : 129] وقد امتن الله على عموم المؤمنين من

العرب وغيرهم بقوله : ﴿ لقد منَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم ﴾ [آل عمران : 164] أي جنسهم الإنساني لأن ذلك آنس لهم مما لو كان رسولهم من الملائكة قال تعالى : ولذلك علق بفعل ﴿ أرسلنا ﴾ حرفُ ﴿ فِي ﴾ ولم يعلَّق به حرف ﴿ إلى ﴾ كما في قوله : ﴿ إنا أرسلنا إليكم رسولاً شاهداً عليكم ﴾ [المزمل : 15] ، لأن ذلك مقام احتجاج وهذا مقام امتنان فناسب أن يذكر ما به تمام المنة وهي أن جعل رسولهم فيهم ومنهم ، أي هو موجود في قومهم وهو عربي مثلهم ، والمسلمون يومئذٍ هم العرب أي الذين يتكلمون باللغة العربية فالأمة العربية يومئذٍ تتكلم بلسان واحد سواء في ذلك العدنانيون والقحطانيون ومن تبعهم من الأحلاف والموالي مثل سلمانَ الفارسي وبلال الحبشي وعبدِ الله بن سَلاَم الإسرائيلي ، إذ نعمة الرسالة في الإبلاغ والإفهام ، فالرسول يكلمهم بلسانهم فيفهمون جميع مقاصده ، ويدركون إعجاز القرآن ، ويفوزون بمزية نقل هذا الدين إلى الأمم ، وهذه المزية ينالها كل من تعلَّم اللسان العربي كغالب الأمم الإسلامية ، وبذلك كان تبليغ الإسلام بواسطة أمة كاملة فيكون نقله متواتراً ، ويسهل

انتشاره سريعاً . انتهى انتهى . اهـ ﴿التحرير والتنوير حـ 2 صـ 48﴾

وقال ابن عرفة :

قوله تعالى : ﴿ مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا . . ﴾ .

دليل على أن الخاصية التي اختصّ الرسل بها حكمية وليست خلقية بوجه ، وفيه التنبيه على حكمة إرساله منهم وهو تبرئته ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن أن يكون ساحرا أو مجنونا ، فيقال إليهم : لم نرسل إليكم أحدا تجهلونه بل أرسلنا واحدا منكم نشأ بين أظهركم وعرفتم براءته من كل (آفة تنسب) إليه . انتهى انتهى . اهـ ﴿تفسير ابن عرفة حـ 2 صـ 467.466﴾

قوله تعالى ﴿ يتلوا عليكم آياتنا ﴾

قال الإمام البقاعى :

﴿ يتلوا عليكم آياتنا ﴾ الحافظة لمن رعاها حق رعايتها على الصراط المستقيم عوضاً من تناشدكم الأشعار . قال الحرالي : وفيه أخذهم بما هو في طباعهم من إيثار أمر السمع على أمر العين الذي عليه جبلت العرب ، لأنها أمة تؤثر مسموع المدح والثناء من الخلق على ما تناله من الراحة فتجهد في طلب الثناء من الخلق ما لم تجهد أمة غيرها ، فكيف بها إذا كان ما دعيت إليه ثناء الحق عليها وتخليد ذلك لها في كلام هو كلام ربها . فتنال بذلك ما هو فوق مقصودها مما جبلت عليه من إيثار السماع على العين بخلاف ما عليه سائر الأمم ؛

ثم قال : وفيه إغناء العرب عن إعمال أفكارها في تكسب العلم والحكمة لتستخرج منه أحكاماً ، فكان في تلاوة الآيات عليهم إغناؤهم عن الاستدلال بالدلائل وأخذ الأمور بالشواهد وتولي الله ورسوله تعليمهم ليكون شرف المتعلم بحسب علاء من علمه ، ففضل علماء العرب على سائر العلماء كفضل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ على معلمهم ممن سواه ـ صلى الله عليه وسلم ـ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 275 ﴾

(73/70)

وقال الشيخ الطاهر بن عاشور :

وقوله : ﴿ يتلوا عليكم آياتنا ﴾ أي يقرأ عليكم القرآن وسماه أولاً آيات باعتبار كون كل كلام منه معجزة ، وسماه ثانياً كتاباً باعتبار كونه كتاب شريعة ، وقد تقدم نظيره آنفاً عند قوله تعالى : ﴿ ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلوا عليهم أياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ﴾ [البقرة : 129] . عبر بيتلو لأن نزول القرآن مستمر وقراءة النبي له متوالية وفي كل قراءة يحصل علم بالمعجزة للسامعين .

وقوله : ﴿ ويزكيكم ﴾ الخ التزكية تطهير النفس مشتقة من الزكاة وهي النماء ، وذلك لأن في أصل خلقة النفوس كمالاتٍ وطهاراتٍ تعترضُها أرجاس ناشئة عن ضلال أو تضليل ،

فتهذيب النفوس وتقويمها يزيدها من ذلك الخير المودع فيها ، قال تعالى : ﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تكوين ، ثم رددناه أسفل سافلين ، إلا الذين أمنوا وعملوا الصالحات ﴾ [التين : 4 6] ، وفي الحديث : "بُعثت لأُتمم حُسْن الأخلاق " ففي الإرشاد إلى الصلاح والكمال نماء لما أودع الله في النفوس من الخير في الفطرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 2 صـ 49 ﴾

قوله تعالى ﴿ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ ﴾

قال العلامة الآلوسى :

﴿ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءايا تنا ﴾ صفة (رسولاً) وفيه إشارة إلى طريق إثبات نبوته عليه الصلاة والسلام لأن تلاوة الأمي الآيات الخارجة عن طوق البشر باعتبار بلاغتها واشتمالها على الإخبار بالمغيبات والمصالح التي ينتظم بها أمر المعاد والمعاش أقوى دليل على نبوته ﴿ وَيُزَكِّيكُمْ ﴾ أي يطهركم من الشرك وهي صفة أخرى للرسول وأتى بها عقب التلاوة لأن التطهير عن ذلك ناشىء عن إظهار المعجزة لمن أراد الله تعالى توفيقه ﴿ وَيُعَلِّمُكُمُ الكتاب والحكمة ﴾ صفة إثر صفة وأخرت لأن تعليم الكتاب وتفهيم ما انطوى عليه من

الحكمة الإلهية والأسرار الربانية إنما يكون بعد التخلي عن دنس الشرك ونجس الشك بالاتباع، وأما قبل ذلك فالكفر حجاب. انتهى انتهى. اهـ ﴿روح المعانى حـ 2 صـ 18﴾

قوله تعالى: ﴿يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ﴾

قال الإمام البقاعى:

قال الحرالي: أنبأهم بأن هذا التنزيل لأنفسهم بمنزلة الغذاء للأبدان، فكما تتنامى أجسادهم بماء المزن وما منه فكذلك تتنامى أنفسهم بأحكام الكتاب وتلاوة الآيات، وذلك زكاؤها ونماؤها، لتتأكد فيه رغبتهم، لأن للمغتذي رغبة في الغذاء إذا تحققه، فمن علم أن التزام الأحكام غذاء لنفسه حرص عليها، ومتى نمت النفس وزكت قويت على ما شأنها أن تناله قواها، كما أن البدن إذا قوي بالغذاء تمكن مما شأنه عمله - انتهى. ﴿نظم الدرر حـ 1 صـ 275﴾

سؤال: لم قدمت جملة: ﴿ويزكيكم على جملة: ويعلمكم الكتاب والحكمة هنا عكس ما في الآية السابقة في حكاية قول إبراهيم: ﴿يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم﴾ [البقرة: 129]؟

الجواب : قدمت جملة : ﴿ ويزكيكم على جملة : ويعلمكم الكتاب والحكمة هنا عكس ما في الآية السابقة في حكاية قول إبراهيم : ﴿ يتلوا عليهم أياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ﴾ [البقرة : 129] ، لأن المقام هنا للامتنان على المسلمين فقدم فيها ما يفيد معنى المنفعة الحاصلة من تلاوة الآيات عليهم وهي منفعة تزكية نفوسهم اهتماماً بها وبعثاً لها بالحرص على تحصيل وسائلها وتعجيلاً للبشارة بها . فأما في دعوة إبراهيم فقد رتبت الجمل على حسب ترتيب حصول ما تضمنته في الخارج ، مع ما في ذلك التخالف من التفنن . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 2 صـ 49 ﴾

وقال ابن عادل :

الفرق أن المراد بالتزكية هنا التطهير من الكفر ، وكذلك فسروه .

وهناك المراد بها الشهادة بأنهم خيار أزكياء ، وذلك متأخر عن تعلم الشرائع والعمل بها .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 3 صـ 74 ﴾

وقال ابن عرفة :

(قال بعضهم) : حيث يقدم التزكية يكون معظم المخاطبين عواما مقلدين ليسوا أهلا (لتعلم) الحكمة والكتاب فتكون التزكية أهم ، وحيث يقدم التعليم يكون المخاطبون خواص فيكون الأهم التعليم مع أن كِلاَ الأمرين مطلوب . والكتاب هو الكلام المعجز ،

والحكمة القول غير المعجزة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عرفة حـ 2 صـ 467 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾

سؤال : لم خص تعليم الحكمة من عموم تعليم الكتاب ؟

(76/70)

قال الحرالي : خص تعليم الحكمة من عموم تعليم الكتاب ، لأن التوسل بالأحكام جهد عمل والتوسل بعلم الحكمة يسر منال عقل ، لأن الحكمة منال الأمر الذي فيه عسر بسبب فيه يسر فينال الحكيم بحكمته لاطلاعه على إفضاء مجعول الأسباب بعضها لبعض مما بين أسباب عاجل الدنيا ومسببات آجل الآخرة ما لا يصل إليه جهد العامل الكادح وفي تكملة الكتاب والحكمة بكلمة " أل " إنهاء إلى الغاية الجامعة لكل كتاب وحكمة بما يعلمه الأولون والآخرون . ثم قال : وبذلك كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ يتكلم في علوم الأولين بكلمات يعجز عنها إدراك الخلق نحو قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " استاكوا بكل عود ما خلا الآس والرمان فإنهما يهيجان عرق الجذام " لأن الخلق لا يستطيعون حصر كليات المحسوسات ، غاية إدراكهم حصر كليات المعقولات ، ومن استجلى أحواله ـ صلى الله عليه وسلم ـ علم اطلاع حسه على إحاطة المحسوسات وإحاطة حكمها وألسنتها ناطقها

وأعجمها حيها وجمادها جمعاً ، لما في العادة حكمة ولما في خرق العادة آية ؛ ثم قال : فعلى قدر ما وهب الله سبحانه وتعالى العبد من العقل يعلمه من الكتاب والحكمة ، يؤثر عن عمر رضي الله تعالى عنه أنه قال : "كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يكلم أبا بكر رضي الله عنه فكأنما يتكلمان بلسان أعجمي لا أفهم مما يقولان شيئاً " ولما كان انتهاء ما في الكتاب عند هذه الغاية أنبأ تعالى أن رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعلمهم ما لم يكن في كتابهم مثال علمه . ففيه إشعار بفتح وتجديد فطرة يترقون لها إلى ما لم يكن في كتابهم علمه – انتهى . وذلك لأن استعمال الحكمة موجب للترقي فقال تعالى : ﴿ ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون ﴾ أي من الاستنباط من الكتاب من المعارف بما يدريكم به من الأقوال والأفعال ويسلككم فيه من طرق الخير الكاشفة لظلام الظلم الجالية لمرأى الأفكار المنورة لبصائر الاعتبار . انتهى . ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 276 ﴾

(77/70)

سؤال : لم أعاد قوله : ﴿ ويعلمكم ﴾ مع صحة الاستغناء عنه بالعطف ؟

الجواب : أعاد قوله : ﴿ ويعلمكم ﴾ مع صحة الاستغناء عنه بالعطف تنصيصاً على المغايرة لئلا يظن أن : ﴿ ما لم تكونوا تعلمون ﴾ هو الكتاب والحكمة ، وتنصيصاً على أن :

﴿ ما لم تكونوا ﴾ مفعولاً لا مبتدأ حتى لا يترقب السامع خبراً له فيضل فهمه في ذلك الترقب ، واعلم أن حرف العطف إذا جيء معه بإعادة عامل كان عاطفه عاملاً على مثله فصار من عطف الجمل لكن العاطف حينئذٍ أشبه بالمؤكد لمدلول العامل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 2 صـ 50 ﴾

وقال ابن عرفة :

قوله تعالى : ﴿ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴾ .

قيل : إن هذا تكرار ، ففصل في أولها ثم (أجمل) بـ ﴿ ما لم تكونوا تعلمون ﴾ شمل الكتاب والحكمة . ومنهم من قال : إنّ العلم قسمان : علم يكون (الإنسان) بحيث لو (شحذ) (قريحته) وفكر فيه لأدركه من تلقاء نفسه بعقله (وفطرته) ، وعلم لا يمكن للإنسان التوصل إليه من ذاته ولا يقبل أن يتعلمه وحده بعقله بوجه . وهذا هو المراد بقوله ﴿ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴾ أي ما لم تكونوا قابلين لمعرفته بعقولكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عرفة حـ 2 صـ 467 ﴾

فائدة

قال العلامة أبو السعود :

﴿ وَيُعَلِّمُكُمُ الكتاب والحكمة ﴾ صفةٌ أُخرى مترتبةٌ في الوجود على التلاوة وإنما وسَّطَ بينهما التزكيةَ التي هي عبارةٌ عن تكميل النفسِ بحسَبِ القوةِ العملية وتهذيبِها المتفرّعِ على تكميلها بحسَب القوة النظرية الحاصلِ بالتعليم المترتب على التلاوة للإيذان بأن كلاً من الأمور المترتبة نعمةٌ جليلةٌ على حِيالها مستوجبةٌ للشكر ، فلو رُوعيَ ترتيبُ الوجود كما في قوله تعالى : ﴿ وابعث فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آياتك وَيُعَلِّمُهُمُ الكتاب والحكمة وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العزيز الحكيم ﴾ لتبادَر إلى الفهم كونُ الكلِ نعمةً واحدةً كما مر نظيرُه في قصة البقرة ، وهو السرُّ في التعبير عن القرآن تارة بالآيات وأخرى بالكتابِ والحِكمة رمزاً إلى أنه باعتبار كلِ عنوانٍ نعمةٌ على حِدةٍ ، ولا يقدح فيه شمولُ الحكمةِ لما في تضاعيف الأحاديثِ الشريفةِ من الشرائع ، وقولُه عز وجل : ﴿ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴾ صريحٌ في ذلك فإن الموصولَ مع كونه عبارةً عن الكتاب والحِكمة قطعاً قد عُطف تعليمُه على تعليمها ، وما ذلك إلا لتفصيل فنونِ النعم في مقامٍ يقتضيه كما في قوله تعالى : ﴿ وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ عقيب قوله تعالى : ﴿ نَجَّيْنَا هُودًا والذين ءامَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا ﴾ والمراد بعدم علمِهم أنه ليس من شأنهم أن يعلموه بالكفر والنظر وغيرِ ذلك من طرق العلم لانحصار الطريقِ في الوحي . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 1 صـ 179 ﴾

فائدة

قال الراغب إن قيل ما معنى ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون وهل ذلك إلا الكتاب والحكمة قيل عنى بذلك العلوم التى لا طريق إلى تحصيلها إلا من جهة الوحى على ألسنة الأنبياء ولا سبيل إلى إدراك جزئياتها وكلياتها إلا به ، وعنى بالحكمة والكتاب ما كان للعقل فيه مجال فى معرفة شىء منه ، وأعاد ذكر ويعلمكم مع قوله ما لم تكونوا تعلمون تنبيها على أنه مفرد عن العلم المتقدم ذكره . أ هـ

﴿ روح البيان حـ 1 صـ 319 ﴾

كلام نفيس السعدى - رحمه الله - فى الآية الكريمة

يقول تعالى : إن إنعامنا عليكم باستقبال الكعبة وإتمامها بالشرائع والنعم المتممة ، ليس ذلك ببدع من إحساننا ، ولا بأوله ، بل أنعمنا عليكم بأصول النعم ومتمماتها ، فأبلغها إرسالنا إليكم هذا الرسول الكريم منكم ، تعرفون نسبه وصدقه ، وأمانته وكماله ونصحه .

﴿ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا ﴾ وهذا يعم الآيات القرآنية وغيرها ، فهو يتلو عليكم الآيات المبينة للحق من الباطل ، والهدى من الضلال ، التي دلتكم أولا على توحيد الله وكماله ، ثم على

صدق رسوله ، ووجوب الإيمان به ، ثم على جميع ما أخبر به من المعاد والغيوب ، حتى حصل لكم الهداية التامة ، والعلم اليقيني .

﴿ وَيُزَكِّيكُمْ ﴾ أي : يطهر أخلاقكم ونفوسكم ، بتربيتها على الأخلاق الجميلة ، وتنزيهها عن الأخلاق الرذيلة ، وذلك كتزكيتكم من الشرك ، إلى التوحيد ومن الرياء إلى الإخلاص ، ومن الكذب إلى الصدق ، ومن الخيانة إلى الأمانة ، ومن الكبر إلى التواضع ، ومن سوء الخلق إلى حسن الخلق ، ومن التباغض والتهاجر والتقاطع ، إلى التحاب والتواصل والتوادد ، وغير ذلك من أنواع التزكية .

﴿ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ ﴾ أي : القرآن ، ألفاظه ومعانيه ، ﴿ وَالْحِكْمَةَ ﴾ قيل : هي السنة ، وقيل : الحكمة ، معرفة أسرار الشريعة والفقه فيها ، وتنزيل الأمور منازلها .

(80/70)

فيكون – على هذا – تعليم السنة داخلا في تعليم الكتاب ، لأن السنة ، تبين القرآن وتفسره ، وتعبر عنه ، ﴿ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ لأنهم كانوا قبل بعثته ، في ضلال مبين ، لا علم ولا عمل ، فكل علم أو عمل ، نالته هذه الأمة فعلى يده ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وبسببه كان ، فهذه النعم هي أصول النعم على الإطلاق ، ولهي أكبر نعم ينعم بها على

عباده ، فوظيفتهم شكر الله عليها والقيام بها ؛ فلهذا قال تعالى : ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير السعدى صـ 74 ﴾

(81/70)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (151) ﴾

الله جل جلاله بعد أن حدثنا عن الهداية إلي منهجه وإلي طريقه . حدثنا عن نعمته علينا بإرسال رسول يتلو علينا آيات الله . ورسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي ستأتي على يديه قمة النعم وهو القرآن والدين الخاتم .

قوله تعالى : " رسولا منكم " أي ليس من جنس آخر . ولكنه صلى الله عليه وسلم رسول منكم تعرفونه قبل أن يكلف بالرسالة وقبل أن يأتي بالحجة . . لماذا ؟ لأنه معروف بالخلق العظيم وبالقول الكريم والأمانة وبكل ما يزيد الإنسان رفعة وعلوا واحتراما . . إن أول من آمن برسول الله صلى الله عليه وسلم السيدة خديجة وابن عمه علي بن أبي طالب . .

هؤلاء آمنوا دون أن يطلبوا دليلا لأنهم أخذوا الإيمان من معرفتهم برسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يكلف بالرسالة . . فهم لم يعرفوا عنه كذبا قط فقالوا إن الذي لا يكذب على الناس لا يمكن أن يكذب على الله فآمنوا . . فالله سبحانه وتعالى من رحمته أنه أرسل إليهم رسولا منهم أميا ليعلمه ربه . . ولذلك قال الحق تبارك وتعالى :

لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ (128)

(سورة التوبة)

(82/70)

الحق سبحانه يقول : " يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم " . . الآيات هي القرآن الكريم والتزكية هي التطهير ولابد أن يكون هناك دنس ليطهرهم منه . . فيطهرهم من عبادة الأصنام ومن وأد البنات والخمر والميسر والربا . . ومعنى التزكية أيضا سلب الضار فكأنه جاءهم بالنفع وسلب منهم الضر . وقوله تعالى : " ويعلمكم الكتاب والحكمة " . . الكتاب على إطلاقه ينصرف إلي القرآن الكريم والحكمة هي وضع الشيء في موضعه . . والكتاب يعطيك التكليف إما أن يأمرك بشيء وإما أن ينهاك عن شيء .

إذن فهي دائرة بين الفعل والترك . . والحكمة أن تفعل الفعل الذي يحقق لك خيرا ويمنع عنك الشر وهي مأخوذة من الحكمة أو الحديدة التي توضع في فم الجواد لتحكم حركته في السير والوقوف ، وتصبح كل حركة تؤدي الغرض منها والحكمة أيضا هي أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم مصداقا لقوله تعالى :

وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ

(من الآية 34 سورة الأحزاب)

وقوله سبحانه : " ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون" لأنكم أمة أمية . فإن بهرتكم الدنيا بحضارتها فستبهرونهم بالإشعاعات الإيمانية التي تجعلكم متفوقين عليهم . . فكل ما يأتيكم من السماء هو فوق كل حضارات الأرض . . لذلك يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه : ما عمر لولا الإسلام . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 644.

﴿ 645

(83/70)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (151)

قوله تعالى : "كَمَا أَرْسَلْنَا " : الكاف من قوله : "كما " فيها قولان :

أظهرها : أنها للتشبيه .

والثاني : أنها للتعليل ، فعلى القول الأول تكون نعت مصدر محذوف .

واختلفوا في متعلقها حينئذ على خمسة أوجه :

أحدها : أنها متعلقة بقوله : " ولأتم " تقديره : ولأتم نعمتي عليكم إتماماً مثل إتمام الرسول فيكم ، ومتعلّق الإتمامين مختلف ، فالأول بالثواب في الآخرة ، والثاني بإرسال الرسول في الدنيا ، أو الأول بإيجاب الدعوة الأولى لإبراهيم عليه الصلاة والسلام في قوله : ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ﴾ [البقرة : 138]

والثاني بإجابة الدعوى الثانية في قوله : ﴿ رَبَّنَا وابعث فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ ﴾ [البقرة : 129] [قاله ابن جرير] ، ورجحه مكي ؛ لأن سياق اللفظ يدلّ على أن المعنى : ولأتم نعمتي عليكم ببيانه ملة أبيكم إبراهيم ، كما أجبنا دعوته فيكم ، فأرسلنا إليكم رسولاً منكم .

والثاني : أنها متعلّقة بـ " تهتدون " ، تقديره : يهتدون اهتداء مثل إرسالنا فيكم رسولاً ، ويكون تشبيه الهداية بالإرسال في التحقيق والثبوت أي : اهتداء متحققاً كتحقيق

إرسالنا .

الثالث : وهو قول أبي مسلم : أنها متعلقة بقوله : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً ﴾ [البقرة : 143] ، أي : جعلاً مثل إرسالنا .

وهذا بعيد جداً ؛ لطول الفصل المؤذن بالانقطاع .

الرابع : أنها متعلقة بما بعدها وهو " اذكروني " [قال مجاهد وعطاء والكلبي : وروي عن علي رضي الله عنه ، واختاره الزَّجاج : كما أرسلنا فيكم رسولاً تعرفونه بالمصدق فاذكروني بالتوحيد والتصديق به ، وعلى هذا فالوقف على " تهتدون " جائز] .

(84/70)

قال الزمخشري : كما ذكرتكم بإرسال الرسل ، فاذكروني بالطاعة أذكركم بالثواب ، فيكون على تقدير مصدر محذوف ، وعلى تقدير مضاف أي : اذكروني ذكراً من ذكرنا لكم بالإرسال ، ثم صار : مثل ذكر إرسالنا ، ثم حذف المضاف ، وأقيم المضاف إليه مقامه ، وهذا كما تقول : كما أتاك فلان فإنه يكرمك ، و " الفاء " غير مانعة من ذلك .

قال أبو البقاء : " كما " لم تمنع في باب الشرط يعني أن ما بعد فاء الجزاء يعمل فيما قبلها .

وقد ردّ مكي هذا بأن الأمر إذا كان له جواب لم يتعلق به ما قبله لاشتغاله بجوابه و "

اذكروني " قد أجيب بقوله : " أذكركم " فلا يتعلق به ما قبله .

قال : ولا يجوز ذلك إلا في التشبيه بالشرط الذي يجاب بجوابين ، نحو : إذا أتاك فلان فأكرمه تَرْضَهْ ، فيكون " كما " ، و" فأذكركم " جوابين للأمر ، والاول أفصح وأشهر ، وتقول : " كما أحسنت إليك فأكرمني " فيصح أن تجعل الكاف متعلقة بـ " أكرمني " إذ لا جواب له .

وهذا الشرط منعه مكّي قال أبو حيان : " لا نعلم خلافاً في جوازه " .

وأما قوله : إلا أن يشبه بالشرط ، وجعله " كما " جواباً للأمر ، فليس بتشبيه صحيح ، ولا يتعقل ، وللاحتجاج عليه موضع غير هذا الكتاب .

قال أبو حيان : وإنما يخدش هذا عندي وجود الفاء ، فإنها لا يعمل ما بعدها فيما قبلها وتبعد زيادتها .

انتهى .

وقد تقدم [قول] أبي البقاء في أنها غير مانعة من ذلك .

الخامس : أنها متعلقة بمحذوف على أنها حال من " نعمتي " والتقدير : ولأتم نعمتي مُشبِهَةً إرسالنا فيكم رسولاً ، أي : مشبهة نعمة الإرْسَال ، فيكون على حذف مضاف .

[وقال مكي : في " إعراب المشكل " : فإن شئت جعلت " الكاف " في موضع نصب على الحال من الكاف والميم في " عليكم "] .

وأما على القول بأنها للتعليل ، فتتعلّق بما بعدها وهو قوله : " فاذكروني " أي : اذكروني لأجل إرسالنا فيكم رسولاً ، وكون " الكاف " للتعليل واضح ، وجعل بعضهم منه : ﴿ واذكروه كَمَا هَدَاكُمْ ﴾ [البقرة : 198] ، وقول الآخر : [الراجز]

845 - لاَ تَشْتُمِ النَّاس كَمَا لاَ تُشْتَم . . .

أي : لا تَشتم لامتناع النَّاس من شَتمك .

وفي " ما " المتّصلة بهذه " الكاف " ثلاثة أوجه :

أظهرها : أنها مصدرية ، وقد تقدم تحريره .

والثاني : أنها بمعنى الذي ، والعائد محذوف ، و" رسولاً " بدل منه ، والتقدير : كالذي أرسلناه رسولاً ، وهذا بعيد جداً .

وأيضاً فإن فيه وقوع " ما " على آحاد العقلاء ، وهو قول مرجوح .

الثالث : أنها كافة " للكاف " كهي في قوله : [الوافر]

846 - لَعَمْرُكَ إِنَّنِي وَأَبَا حُمَيْدٍ . . .

كَمَا النَّشْوَانُ وَالرَّجُلُ الحَلِيمُ

ولا حاجة إلى هذا ، فإنه لا يُصار إلى ذلك إلاّ حيث تعذّر أن ينسبك منها ومما بعدها مصدر ، كما إذا اتصلت بجملة اسمية كالبيت المتقدم .

و" منكم " في محلّ نصب ؛ لأنه صفة لـ " رسولاً " ، وكذلك ما بعده من الجمل ، ويحتمل أن تكون الجمل بعده حالاً لتخصيص النكرة بوصفها بقوله : " منكم " ، وأتي بهذه الصفات بصيغة المضارع ؛ لأنه يدل على التجدد والحدوث ، وهو مقصود هاهنا ، بخلاف كون " منهم " ، فإنه وصف ثابت له ، [وقوله : " فيكم " و" منكم " ، أي : من العرب ، وفي إرساله فيهم رسولاً ، ومنهم نِعَمٌ عليهم عظيمة ؛ لما لهم فيه من الشَّرَفِ ، وأن المشهور من حال العرب الأَنَفَةُ الشديدة من الانقياد إلى الغير ، فبعثه الله – تعالى – من واسطتهم ليقرب قبولهم .

وقوله : " يَتْلُو عَلَيْكُمْ " فيه نِعَمٌ عليكم عظيمة ؛ لأنه معجزة باقية تتأذى به العبادات ومستفاد منه مجامع الأخلاق الحميدة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 3 صـ 74.71 ﴾ . باختصار .

(86/70)

قوله تعالى ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ (152) ﴾

" فصل "

قال الفخر :

اعلم أن الله تعالى كلفنا في هذه الآية بأمرين : الذكر ، والشكر ، أما الذكر فقد يكون باللسان ، وقد يكون بالقلب ، وقد يكون بالجوارح ، فذكرهم إياه باللسان أن يحمدوه ويسبحوه ويمجدوه ويقرؤا كتابه ، وذكرهم إياه بقلوبهم على ثلاثة أنواع .

أحدها : أن يتفكروا في الدلائل الدالة على ذاته وصفاته ، ويتفكروا في الجواب عن الشبهة القادحة في تلك الدلائل .

وثانيها : أن يتفكروا في الدلائل الدالة على كيفية تكاليفه وأوامره ونواهيه ووعده ووعيده ، فإذا عرفوا كيفية التكليف وعرفوا ما في الفعل من الوعد ، وفي الترك من الوعيد سهل فعله عليهم .

(87/70)

وثالثها : أن يتفكروا في أسرار مخلوقات الله تعالى حتى تصير كل ذرة من ذرات المخلوقات كالمرآة المجلوة المحاذية لعالم القدس ، فإذا نظر العبد إليها انعكس شعاع بصره منها إلى عالم الجلال وهذا المقام مقام لا نهاية له ، أما ذكرهم إياه تعالى بجوارحهم ، فهو أن تكون جوارحهم مستغرقة في الأعمال التي أمروا بها ، وخالية عن الأعمال التي نهوا عنها ، وعلى هذا الوجه سمى الله تعالى الصلاة ذكراً بقوله : ﴿ فاسعوا إلى ذِكْرِ الله ﴾ فصار الأمر بقوله

: ﴿ اذكروني ﴾ متضمناً جميع الطاعات ، فلهذا روي عن سعيد بن جبير أنه قال : اذكروني بطاعتي فأجمله حتى يدخل الكل فيه ، أما قوله : ﴿ أَذْكُرْكُمْ ﴾ فلا بد من حمله على ما يليق بالموضع ، والذي له تعلق بذلك الثواب والمدح ، وإظهار الرضا والإكرام ، وإيجاب المنزلة ، وكل ذلك داخل تحت قوله : ﴿ أَذْكُرْكُمْ ﴾ انتهى . ﴿ مفاتيح الغيب حـ 4 صـ 130. 131 ﴾

قال الإمام البقاعى :

﴿ فاذكروني ﴾ أي لأجل إنعامي عليكم بهذا وبغيره ﴿ أذكركم ﴾ فأفتح لكم من المعارف وأدفع عنكم من المخاوف ما لا يدخل تحت حد ﴿ واشكروا لي ﴾ وحدي من غير شريك تشركون معي أزدكم ، وأكد هذه الإشارة بقوله ﴿ ولا تكفرون ﴾ أي أسلبكم . قال الحرالي : ولما كان للعرب ولع بالذكر لآبائهم ولوقائعهم ولأيامهم جعل سبحانه وتعالى ذكره لهم عوض ما كانوا يذكرون ، كما جعل كتابه عوضاً من إشعارهم وهز عزائهم لذلك بما يسرهم به من ذكره لهم – انتهى . ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 276. 277 ﴾

من أقوال العلماء فى الآية الكريمة

قال ابن عبّاس : اذكروني بطاعتي أذكركم بمعونتي بيانه قوله : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا ﴾ الآية .

سعيد بن جبير : بطاعتي أذكركم بمغفرتي بيانه ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ .

(88/70)

فضيل بن عيّاض : فاذكروني بطاعتي أذكركم بثوابي بيانه ﴿ إنّ الّذين آمنوا وعملوا الصالحات إنّا لا نضيع أجر من أحسن عملاً أولئك لهم جنّات عدن ﴾ وروي عن النبيّ ﴿ ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴾ " من أطاع الله فقد ذكر الله وإنّ قلّت صلاته وصيامه وتلاوته القرآن" . ﴿ شعب الإيمان ـ باب في محبة الله عز وجل ـ رقم 687 ﴾

وقيل : اذكروني بالتوحيد والإيمان أذكركم بالجنّات والدرجات بيانه : ﴿ وبشّر الّذين آمنوا . . . إلى جنات ﴾ .

وقال أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه : كفى بالتوحيد عبادة وكفى بالجنّة ثواباً .

ابن كيسان : اذكروني بالشكر أذكركم بالزّيادة : بيانه قوله ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ .

وقيل : اذكروني على ظهر الأرض أذكركم في بطنها .

قال الأصفي : رأيت أعرابياً واقفاً يوم عرفة بالموقف وهو يقول : ضجّت إليك الأصوات بضروب اللّغات يسئلونك الحاجات وحاجتي إليك أن تذكرني عند البلى إذا نسيني أهل

الدّنيا .

وقيل : أذكروني بالطّاعات أذكركم بالمعافاة ودليله ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حياةً طَيِّبَةً ﴾ .

وقيل : اذكرونى في الخلاء والملاء أذكركم في الجلاء والملأ بيانه ما روي في بعض الكتب إنّ الله قال : أنا عند من عبدني ،

فليظن بي ما شاء ،

وأنا معه إذا ذكرني ،

فمن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ،

ومن ذكرني في الملأ ذكرته في ملأ خير منه ،

ومن تقربّ إليّ شبراً تقرّبت له ذراعاً ،

ومن تقرّب إليّ ذراعاً ،

تقرّبت إليه باعاً ومن أتاني مشياً أتيته هرولة ،

ومن أتاني بقراب الأرض فضّة أتيته بمثلها مغفرة بعد أن لا يُشرك بي شيئاً .

وقيل : اذكرونى في النّعمة والرّخاء أذكركم في الشّدة والبلاء بيانه قوله ﴿ فلولا إنّه كان من المسبحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون ﴾ .

قال سلمان الفارسي : إنّ العبد إذا كان له دُعاء في السّر ؛ فإذا انزل به البلاء قالت الملائكة : عبدك نزل به البلاء فيشفعون له فينجيه الله ،

(89/70)

فإذا لم يكن له دُعاء قالوا : الآن فلا تشفعون له . بيانه لفظة فرعون ﴿ الآن وقد عصيت من قبل ﴾ .

وقيل : اذكرونى بالتسليم والتفويض أذكركم بأصلح الأختبار . بيانه ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ .

وقيل : اذكرونى بالشوق والمحبّة أذكركم بالوصل والقربة .

وقيل : اذكرونى بالحمد والثناء أذكركم بالجزاء ،

وقيل : اذكرونى بالأوبة أذكركم بغفران الحوبة ،

وقيل : اذكرونى بالدُّعاء أذكركم بالعطاء ،

اذكرونى بالسؤال أذكركم بالنوّال ،

اذكرونى بلا غفلة أذكركم بلا مهلة ،

اذكرونى بالندّم أذكركم بالكرم ،

اذكرونى بالمعذرة أذكركم بالمغفرة ،

اذكرونى بالإرادة أذكركم بالأفادة ،

اذكرونى بالتنصّل أذكركم بالتفضل اذكرونى بالإخلاص أذكركم بالخلاص ،

اذكرونى بالقلوب أذكركم بكشف الكروب ،

اذكرونى بلا نسيان أذكركم بالأمان ،

اذكرونى بالأفتقار أذكركم بالاقتدار ،

اذكرونى بالأعدام والاستغفار أذكركم بالرّحمة والإغتفار ،

اذكرونى بالأيمان أذكركم بالجنان ،

اذكرونى بالأسلام أذكركم بالأكرام ،

اذكرونى بالقلب أذكركم برفع التعجب ،

اذكرونى ذكراً فانياً أذكركم ذكراً باقياً ،

اذكرونى بالابتهال أذكركم بالأفضال ،

اذكرونى بالظل أذكركم بعفو الزلل ،

اذكرونى بالاعتراف أذكركم بمحو الاقتراف ،

اذكرونى بصفاء السّر أذكركم بخالص البّر ،

اذكرونى بالصّدق أذكركم بالرّفق ،

اذكرونى بالصفَو أذكركم بالعفو ،

اذكرونى بالتعظيم أذكركم بالتكريم ،

اذكرونى بالتكبير أذكركم بالتطهير ،

اذكرونى بالتمجيد أذكركم بالمزيد ،

اذكرونى بالمناجاة أذكركم بالنجاة ،

اذكرونى بترك الجفاء اذكركم بحفظ الوفاء ،

اذكرونى بترك الخطأ أذكركم بحفظ الوفاء ،

اذكرونى بالجهد بالخلقة أذكركم بأتمام النعمة ،

اذكرونى من حيث أنتم أذكركم من حيث أنا ولذكر الله أكبر .

الربيع في هذه الآية : إنّ الله ذاكر من ذكره ،

وزائداً من شكره ،

ومعذّبُ من كفره .

(90/70)

وقال السّدي : فيها ليس من عبد يذكر الله إلاّ ذكره الله . لا يذكره مؤمن إلاّ ذكره بالرّحمة ، ولا يذكره كافر إلاّ يذكره بعذاب .

وقال أبو عثمان النهدي : إنّي لأعلم حين يذكرني ربّي عزّ وجلّ ،

قيل : كيف ذلك ؟

قال : إنّ الله عزّ وجلّ قال : ﴿ اذكروني أذكركم ﴾ وإذا ذكرت الله تعالى ذكرني .

انتهى . (1) ﴿ الكشف والبيان حـ 2 صـ 19 . 21 ﴾

---

(1) رحم الله الإمام الثعلبى فالآية تحتمل كل هذه الوجوه وزيادة لكن الأولى حملها على العموم إذ لا يوجد ما يستلزم التخصيص . والله أعلم

قَوْله تَعَالَى : ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾

قال الجصاص بعض أن ذكر بعض أقوال السلف فى الآية :

وَاللَّفْظُ مُحْتَمِلٌ لِهَذِهِ الْمَعَانِي ، وَجَمِيعُهَا مُرَادُ اللَّهِ تَعَالَى لِشُمُولِ اللَّفْظِ وَاحْتِمَالِهِ إيَّاهُ .

فَإِنْ قِيلَ : لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْجَمِيعُ مُرَادَ اللَّهِ تَعَالَى بِلَفْظٍ وَاحِدٍ ؛ لِأَنَّهُ لَفْظٌ مُشْتَرَكٌ لِمَعَانٍ مُخْتَلِفَةٍ قِيلَ لَهُ : لَيْسَ كَذَلِكَ ؛ لِأَنَّ جَمِيعَ وُجُوهِ الذِّكْرِ عَلَى اخْتِلَافِهَا رَاجِعَةٌ إلَى مَعْنًى

وَاحِدٍ .

فَهُوَ كَاسْمِ الْإِنْسَانِ يَتَنَاوَلُ الْأُنْثَى وَالذَّكَرَ ، وَالْأُخُوَّةُ تَتَنَاوَلُ الْإِخْوَةَ الْمُتَفَرِّقِينَ ، وَكَذَلِكَ الشَّرِكَةُ وَنَحْوُهَا ، وَإِنْ وَقَعَ عَلَى مَعَانٍ مُخْتَلِفَةٍ فَإِنَّ الْوَجْهَ الَّذِي سُمِّيَ بِهِ الْجَمِيعُ مَعْنًى وَاحِدٌ .

وَكَذَلِكَ ذِكْرُ اللَّهِ تَعَالَى لَمَّا كَانَ الْمَعْنَى فِيهِ طَاعَتَهُ ، وَالطَّاعَةُ تَارَةً بِالذِّكْرِ بِاللِّسَانِ ، وَتَارَةً بِالْعَمَلِ بِالْجَوَارِحِ ، وَتَارَةً بِاعْتِقَادِ الْقَلْبِ ، وَتَارَةً بِالْفِكْرِ فِي دَلَائِلِهِ وَحُجَجِهِ ، وَتَارَةً فِي عَظَمَتِهِ ، وَتَارَةً بِدُعَائِهِ وَمَسْأَلَتِهِ ، جَازَ إِرَادَةُ الْجَمِيعِ بِلَفْظٍ وَاحِدٍ ، كَلَفْظِ الطَّاعَةِ نَفْسِهَا جَازَ أَنْ يُرَادَ بِهَا جَمِيعُ الطَّاعَاتِ عَلَى اخْتِلَافِهَا إِذَا وَرَدَ الْأَمْرُ بِهَا مُطْلَقًا نَحْوُ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ وَكَالْمَعْصِيَةِ يَجُوزُ أَنْ يَتَنَاوَلَ جَمِيعَهَا لَفْظُ النَّهْيِ .

فَقَوْلُهُ : ﴿ فَاذْكُرُونِي ﴾ قَدْ تَضَمَّنَ الْأَمْرَ بِسَائِرِ وُجُوهِ الذِّكْرِ ، وَمِنْهَا سَائِرُ وُجُوهِ طَاعَتِهِ وَهُوَ أَعَمُّ الذِّكْرِ ، وَمِنْهَا ذِكْرُهُ

بِاللِّسَانِ عَلَى وَجْهِ التَّعْظِيمِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ وَالذِّكْرِ عَلَى وَجْهِ الشُّكْرِ وَالِاعْتِرَافِ بِنِعَمِهِ .

وَمِنْهَا ذِكْرُهُ بِدُعَاءِ النَّاسِ إِلَيْهِ وَالتَّنْبِيهِ عَلَى دَلَائِلِهِ وَحُجَجِهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ وَحِكْمَتِهِ وَذِكْرُهُ بِالْفِكْرِ فِي دَلَائِلِهِ وَآيَاتِهِ وَقُدْرَتِهِ وَعَظَمَتِهِ ، وَهَذَا أَفْضَلُ الذِّكْرِ وَسَائِرُ وُجُوهِ الذِّكْرِ مَبْنِيَّةٌ

عَلَيْهِ وَتَابِعَةٌ لَهُ وَبِهِ يَصِحُّ مَعْنَاهَا لِأَنَّ الْيَقِينَ وَالطُّمَأْنِينَةَ بِهِ تَكُونُ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ يَعْنِي وَاَللَّهُ أَعْلَمُ ذِكْرَ الْقَلْبِ الَّذِي هُوَ الْفِكْرُ فِي دَلَائِلِ اللَّهِ تَعَالَى وَحُجَجِهِ وَآيَاتِهِ وَبَيِّنَاتِهِ ، وَكُلَّمَا ازْدَدْت فِيهَا فِكْرًا ازْدَدْت طُمَأْنِينَةً وَسُكُونًا .

وَهَذَا هُوَ أَفْضَلُ الذِّكْرِ لِأَنَّ سَائِرَ الْأَذْكَارِ إنَّمَا يَصِحُّ وَيَثْبُتُ حُكْمُهَا بِثُبُوتِهِ . انتهى انتهى . اهـ

﴿ أحكام القرآن ـ للجصاص حـ 1 صـ 114 ﴾

(93/70)

بحث لطيف عن الذكر للعلامة ابن جزى ـ رحمه الله ـ

وبالجملة فهذه الآية بيان لشرف الذكر وبينها قول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما يرويه عن ربه أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه حين يذكرني فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم والذكر ثلاثة أنواع ذكر بالقلب وذكر باللسان وبهما معا واعلم أن الذكر أفضل الأعمال على الجملة

وإن ورد في بعض الأحاديث تفضيل غيره من الأعمال كالصلاة وغيرها فإن ذلك لما فيها من معنى الذكر والحضور مع الله تعالى والدليل على فضيلة الذكر من ثلاثة أوجه الأول النصوص الواردة بتفضيله على سائر الأعمال قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ألا

أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم قالوا بلى يا رسول الله قال ذكر الله وسئل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أي الأعمال أفضل قال ذكر الله قيل الذكر أفضل أم الجهاد في سبيل الله فقال لو ضرب المجاهد بسيفه في الكفار حتى ينقطع سي فهو يختضب دما لكان الذاكر أفضل منه الوجه الثاني أن الله تعالى حيث ما أمر بالذكر أو أثنى على الذكر اشترط فيه الكثرة فقال اذكروا الله ذكرا كثيرا والذاكرين الله كثيرا ولم يشترط ذلك في سائر الأعمال الوجه الثالث أن للذكر مزية هي له خاصة وليست لغيره وهي الحضور في الحضرة العلية والوصول إلى القرب بالذي عبر عنه ما ورد في الحديث من المجالسة والمعية فإن الله تعالى يقول أنا جليس من ذكرني ويقول أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه حين يذكرني وللناس في المقصد بالذكر مقامان فمقصد العامة اكتساب الأجور ومقصد الخاصة القرب والحضور وما بين المقامين بون بعيد فكم بين من يأخذ أجره وهو من وراء حجاب وبين من يقرب حتى يكون من خواص الأحباب واعلم أن الذكر على أنواع كثيرة فمنها التهليل والتسبيح والتكبير والحمد والحوقلة والحسبلة وذكر كل اسم من أسماء الله تعالى والصلاة على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ والاستغفار وغير ذلك ولكل ذكر خاصيته وثمرته وأما التهليل فثمرته التوحيد أعني التوحيد الخاص فإن التوحيد العام حاصل لكل مؤمن وأما التكبير فثمرته التعظيم والإجلال لذي الجلال وأما الحمد والأسماء التي معناها الإحسان

والرحمة كالرحمن الرحيم والكريم والغفار وشبه ذلك فثمرتها ثلاث مقامات وهي الشكر وقوة

الرجاء والمحبة فإن المحسن محبوب لا محالة وأما الحوقلة والحسبلة فثمرتهما التوكل على الله والتفويض إلى الله والثقة بالله وأما الأسماء التي معناها الاطلاع والإدراك كالعليم والسميع والبصير والقريب وشبه ذلك فثمرتها المراقبة وأما الصلاة على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فثمرتها شدة المحبة فيه والمحافظة على اتباع سنته وأما الاستغفار فثمرته الاستقامة على التقوى والمحافظة على شروط التوبة مع إنكار القلب بسبب الذنوب المتقدمة ثم إن ثمرة الذكر التي تجمع الأسماء والصفات مجموعة في الذكر الفرد وهو قولنا الله الله فهذا هو الغاية وإليه المنتهى . أهـ ﴿ التسهيل حـ1 صـ 63.64 ﴾

وقال السلمى :

وقال بعض العراقيين فى قوله : ﴿ اذكرونى أذكركم ﴾ قال : لك نسيبة من الحق يتحمل بها الموارد وهو ذكره إياك , فلولا ذكره إياك ما ذكرته .

وقيل : اذكرونى بجهدكم وطاقتكم لأقرن ذكركم بذكرى فيتحقق لكم الذكر .

قال سمنون : حقيقة الذكر أن ينسى كل شئ سوى مذكوره , لاستغراقه فيه فيكون أوقاته كلها ذكرًا وأنشد :

لا لأنّي أنساك أكثر ذكراك

ولكني بذاك يجري لساني .

وقيل : اذكروني على الدوام لتطمئن قلوبكم بي, لأنه يقول : ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ وقال بعضهم : أتم الذكر أن تشهد ذكر المذكور لك بدوام ذكرك له , قال الله جل من قائل : ﴿ اذكروني أذكركم ﴾ . أهـ ﴿ حقائق التفسير صـ 68 ﴾ .

وقال الفقيه أبو الليث السمرقندي ـ رحمه الله ـ

(95/70)

اعلم أن ذكر اللَّه تعالى أفضل العبادات لأن اللَّه تعالى جعل لسائر العبادات مقدار وجعل لها أوقاتاً ولم يجعل لذكر اللَّه تعالى مقدار ولا وقتا وأمر بالكثرة بغير مقدار وهو قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً ﴾ يعني اذكروه في جميع الأحوال ، وتفسير الذكر في الأحوال كلها أن العبد لا يخلو من أربعة أحوال : إما أن يكون في الطاعة ، أو في المعصية ، أو في النعمة ، أو في الشدة ، فإن في الطاعة فينبغي أن يذكر اللَّه تعالى بالتوفيق ويسأل منه

القبول ، وإن كان في المعصية فينبغي أن يدعو اللَّه بالامتناع ويسأله التوبة ، وإن كان في النعمة يذكره بالشكر ، وإن كان في الشدة يذكره بالصبر . واعلم أن في ذكر اللَّه تعالى خمس خصال محمودة ، أولها أن فيه رضا اللَّه تعالى ، والثاني أنه يزيد في الحرص على الطاعات ، والثالث أن فيه حرزا من الشيطان إذا كان ذاكرا اللَّه تعالى ، والرابع أن فيه رقة القلب ، والخامس أن يمنعه من المعاصي ، واللهُ سبحانه وتعالى أعلم بالصواب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تنبيه الغافلين صـ 392 ﴾ .

فائدة

قال بعضهم : الذِّكر فى القرآن على عشرين وجهًا :

الأَوّل : ذِكْر اللِّسان ﴿ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ ﴾ .

الثانى : ذِكْر بالقلب ﴿ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ ﴾ .

الثَّالث : بمعنى الوعظ ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى ﴾ .

الرّابع : بمعنى التوراة ﴿ فَاسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ ﴾ .

الخامس : بمعنى القرآن ﴿ وَهَذا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ ﴾ .

السّادس : بمعنى اللَّوح المحفوظ ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ ﴾ .

السَّابع : بمعنى رسالة الرّسول ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ أَى رسالة .

الثَّامن : بمعنى العِبْرة ﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً ﴾ أَى العِبَر .

التَّاسع : بمعنى الخَبَر ﴿ هذا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي ﴾ .

العاشر : بمعنى الرّسول ﴿ قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً رَّسُولاً ﴾ .

الحادى عشر : بمعنى الشَّرف ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ أَى شرف .

الثانى عشر : بمعنى التَّوبة ﴿ ذلك ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ ﴾ .

الثالث عشر : بمعنى الصَّلوات الخمس ﴿ فَاذْكُرُواْ اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم ﴾ .

الرابع عشر : بمعنى صلاة العصر خاصّة ﴿ أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي ﴾ .

الخامس عشر : بمعنى صلاة الجمعة ﴿ فَاسْعَوْاْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ .

السّادس عشر : بمعنى العُذْر من التَّقصير ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاَةَ فَاذْكُرُواْ اللَّهَ ﴾ .

السَّابع عشر : بمعنى الشَّفاعة ﴿ اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ ﴾ .

الثامن عشر : بمعنى التَّوحيد ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي ﴾ ﴿ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ ﴾ .

التَّاسع عشر : بمعنى ذكر المنَّة ﴿ اذْكُرْ نِعْمَتِيَ عَلَيْكَ ﴾ ، ﴿ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ

عَلَيْكُمْ ﴾ .

العشرون : بمعنى الطَّاعة والخِدمة ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾ أَى اذكرونى بالطَّاعة أَذكركم بالجَنَّة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 3 صـ 13.15 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾

وقوله : ﴿ ولا تكفرون ﴾ نهي عن الكفران للنعمة ، والكفران مراتب أعلاها جحد النعمة وإنكارها ثم قصد إخفائها ، ثم السكوت عن شكرها غفلة وهذا أضعف المراتب وقد يعرض عن غير سوء قصد لكنه تقصير .

(97/70)

قال ابن عرقة : " ليس عطف قوله : ﴿ ولا تكفرون ﴾ بدليل على أن الأمر بالشيء ليس نهياً عن ضده وذلك لأن الأمر بالشكر مطلق (أي لأن الأمر لا يدل على التكرار فلا عموم له) فيصدق بشكره يوماً واحداً فلما قال ﴿ ولا تكفرون ﴾ أفاد النهي عن الكفر دائماً " انتهى انتهى . ا هـ ، يريد لأن الفعل في سياق النهي يعم ، مثل الفعل في سياق النفي لأن النهي أخو النفي . أ هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 2 صـ 51 ﴾

كلام نفيس فى هذا الموضع

قال الراغب : إن قيل ما الفرق بين شكرت لزيد وشكرت زيدا ؟

قيل شكرت له هو أن تعتبر إحسانه الصادر عنه فتثنى عليه بذلك وشكرته إذا لم تلتفت إلى فعله بل تجاوزت إلى ذكر ذاته دون اعتبار أحواله وأفعاله فهو أبلغ من شكرت له ، وإنما قال ﴿ واشكروا لى ولم يقل واشكرونى علما بقصورهم عن إدراكه بل عن إدراك آلائه كما قال تعالى ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾ فأمرهم أن يعتبروا بعض أفعاله فى الشكر لله ﴿ ولا تكفرون ﴾ بجحد النعم وعصيان الأمر

فان قيل لم قال بعد ﴿ واشكروا لى ولا تكفرون ﴾ ولم يقتصر على قوله ﴿ واشكروا لى ﴾ قلنا لو اقتصر على قوله ﴿ واشكروا لى ﴾ لكان يجوز أن يتوهم أن من شكره مرة أو على نعمة ما فقد امتثل ولو اقتصر على قوله ﴿ ولا تكفرون ﴾ لكان يجوز أن يتوهم أن ذلك نهى عن تعاطى فعل قبيح دون حث على الفعل الجميل فجمع بينهما لإزالة هذا التوهم ، ولأن فى قوله ﴿ ولا تكفرون ﴾ تنبيها على أن ترك الشكر كفران .

فإن قيل : لم قال ﴿ ولا تكفرون ﴾ ولم يقل : ولا تكفروا لى ؟

قيل : خص الكفر به تعالى بالنهى عنه للتنبيه على أنه أعظم قباحة بالنسبة إلى كفر نعمه فإن كفران النعم قد يعفى عنه بخلاف الكفر به تعالى كذا فى تفسير الراغب الأصفهانى .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح البيان حـ 1 صـ 320 ﴾

ومن فوائد القاسمى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾

قال ابن جرير : أي : اذكروني أيها المؤمنون بطاعتكم إياي فيما آمركم به وفيما أنهاكم عنه ، أذكركم برحمتي إياكم ومغفرتي لكم ، وقد كان بعضهم يتأول ذلك أنه من الذكر بالثناء والمدح . وقال القاشاني : اذكروني بالإجابة والطاعة ، أذكركم بالمزيد والتوالي ، وهي بمعنى ما قبله ، وقوله : ﴿ وَاشْكُرُوا لِي ﴾ قال ابن جرير : أي : اشكروا لي فيما أنعمت عليكم من الإسلام والهداية للدين الذي شرعته . وقوله : ﴿ وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ أي : لا تجحدوا إحساني إليكم ، فأسلبكم نعمتي التي أنعمت عليكم .

قال السمرقنديّ : أي : اشكروا نعمتي : أن أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ، ولا تجحدوا هذه النعمة ، ويقال : النعمة ، في الحقيقة هي العلم ، وما سواه فهو تحول من راحة إلى راحة ، وليس بنعمة ، والعلم لا يمل منه صاحبه ، بل يطلب منه الزيادة ، فأمر الله تعالى بشكر هذه النعمة ، وهي نعمة بعثة رسولاً

يعلمهم الكتاب والحكمة . كما قصه الحرالي . ولما كان للعرب ولع بالذكر لآبائهم ولوقائعهم ، جعل تعالى ذكره لهم عوض ما كانوا يذكرون ، كما جعل كتابه عوضاً من أشعارهم ، وهزّ عزائمهم لذلك بما يسرهم به من ذكره لهم .

وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : < يقول الله عز وجل : أنا مع عبدي حين يذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم ، وإن اقترب إليّ شبراً اقتربت إليه ذراعاً ، وإن اقترب إليّ ذراعاً اقتربت إليه باعاً ، فإن أتاني يمشي أتيته هرولة > صحيح الإسناد أخرجه البخاري أيضاً .

(99/70)

وروى مسلم عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة : أنهما شهدا على النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : < لا يقعد قوم يذكرون الله عز وجل إلا حفتهم الملائكة ، وغشيتهم الرحمة ، ونزلت عليهم السكينة ، وذكرهم الله فيمن عنده > .

والآثار في فضل الذكر متوافرة ويكفي فيه هذه الآية الكريمة .

تنبيه :

قال النووي رحمه الله تعالى : اعلم أن فضيلة الذكر غير منحصرة في التسبيح والتهليل والتحميد والتكبير ونحوهما ، بل كل عامل لله تعالى بطاعة ، فهو ذاكر لله تعالى .

كذا قاله سعيد بن جبير رضي الله عنه ، وغيره من العلماء . وقال عطاء رحمه الله : مجالس الذكر هي مجالس الحلال والحرام ، كيف تشتري وتبيع ؟ ، وتصلي وتصوم ؟ ، وتنكح وتطلّق ؟ ، وأشباه هذا . وقال النووي أيضاً : إن الأذكار المشروعة في الصلاة وغيرها ، واجبة كانت أو مستحبة ، لا يحسب شيء منها ولا يعتد به حتى يتلفظ به بحيث يسمع نفسه إذا كان صحيح السمع ، لا عارض ، وقد صنف ، في عمل اليوم والليلة ، جماعة من الأئمة كتباً نفيسة . ومن أجمعها للمتأخرين "كتاب الأذكار" للنوويّ ، وممن جمع زبدة ما روى فيها الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى في "زاد المعاد" ، وقال في طليعة ذلك : كان النبي صلى الله عليه وسلم أكمل الخلق ذكراً لله عز وجل ، بل كان كلامه كله في ذكر الله وما والاه ، وكان أمره ونهيه وتشريعه للأمة ذكراً منه لله ، وإخباره عن أسماء الرب وصفاته وأحكامه وأفعاله ووعده ووعيده ذكراً منه له ، وثناؤه عليه بآلائه وتمجيده وتسبيحه ذكراً منه له ، وسؤاله ودعاؤه إياه ورغبته ورهبته ذكراً منه له ، وسكونه وصمته ذكراً منه له بقلبه ، فكان ذكر الله في كل أحيانه وعلى جميع أحواله ، وكان ذكره الله يجري مع أنفاسه قائماً وقاعداً ، وعلى جنبه ، وفي مشية وركوبه ومسيره ، ونزوله وطعنه وإقامته . انتهى .

(100/70)

وأما الأذكار المحدثة والسماعات المبتدعة ، سماع الكف والدف ، فلم يكن الصحابة والتابعون لهم بإحسان ، وسائر الأكابر من أئمة الدين ، يجعلون هذا طريقاً إلى الله تبارك وتعالى ، ولا يعدّونه من القرب والطاعات بل يعدونه من البدع المذمومة ؛ حتى قال الشافعي : خلفت ببغداد شيئاً أحدثته الزنادقة يسمونه : التغبير ، يصدّون به الناس عن القرآن . وأولياء الله العارفون يعرفون ذلك ، ويعلمون أن للشيطان فيه نصيباً وافراً ، ولهذا تاب منه خيار من حضره منهم ، ومن كان أبعد عن المعرفة وعن كمال ولاية الله ، كان نصيب الشيطان فيه أكثر فسماع الغناء والملاهي من أعظم ما يقوي الأحوال الشيطانية ، وهو سماع المشركين ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ صَلاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً ﴾ [الأنفال : 35] ، قال ابن عباس وابن عمر رضي الله عنهم ، وغيرهما من السلف : التصدية ، التصفيق باليد . والمكاء مثل الصفير . فكان المشركون يتخذون هذا عُبَادَة .

(101/70)

وأما النبي صلى الله عليه وسلم فعبادتهم ما أمر الله به من الصلاة والقراءة والذكر نحو ذلك ، والاجتماعات الشرعية ولم يجتمع النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه على استماع غناء قط ، لا بكف ولا بدف ولا تواجد وكان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، إذا اجتمعوا ، أمروا واحداً منهم أن يقرأ ، والباقون يستمعون وكان عُمَر بن الخطاب رضي الله عنه يقول لأبي موسى الأشعري : ذكرنا ربنا . فيقرأ وهم يستمعون . ومر النبي صلى الله عليه وسلم بأبي موسى الأشعري وهو يقرأ فقال له : < مررت بك البارحة ، وأنت تقرأ فجعلت أستمع لقراءتك > . فقال : لو علمت أنك تستمع لحبرته لك تحبيراً . أي : لحسنته لك تحسيناً . كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : < زينوا القرآن بأصواتكم > . وقال صلى الله عليه وسلم : < لله أشد أذَناً – أي : استماعاً – إلى الرجل الحسن الصوت بالقرآن يجهر به ، من صاحب القينة إلى قينته > . وعن عبد الله بن مسعود قال : قال لي النبي صلى الله عليه وسلم : < اقرأ عليّ > ، قلت : يا رسول الله : أقرأ عليك وعليك أنزل ؟ قال : < نعم > . فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيداً ﴾ [النساء : 41] ، قال : < حسبك الآن > . فالتفت فإذا عيناه تذرفان .

ومثل هذا السماع هو سماع النبيين وأتباعهم كما ذكر الله تعالى ذلك في كتابه فقال : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيّاً ﴾ [مريم : 58] . وقال تعالى في أهل المعرفة : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ﴾ [المائدة : 83] ، ومدح سبحانه أهل هذا السماع بما يحصل لهم من زيادة الإيمان واقشعرار الجلد ودمع العين فقال تعالى : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ [الزمر : 23] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً ﴾ [الأنفال : 2] ، فخلاف هذا السماع ، من الباطل الذي نهى عنه ، ولذلك لم يفعله القرون الثلاثة التي أثنى عليها النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا فعله أكابر المشايخ ، فليُفقْ من كان من الفريق الأدنى في سلوك فقره ، وليصحب من هو من الرفيق الأعلى إلى حلول قبره ، وليُداوِ جراحات اجتراح بدعته ، باتباع هدي النبي صلى الله عليه وسلم ، ولزوم سنته . واعلم أن ذكر الله تعالى تارة يكون لعظمته ، فيتولد منه الهيبة والإجلال ، وتارة يكون لقدرته فيتولد منه الخوف

والحزن ، وتارة لنعمته فيتولد منه الشكر ، ولذلك قيل : ذكر النعمة شكرها ، وتارة لأفعاله الباهرة فيتولد منه العبر ، فحق المؤمن أن لا ينفك أبداً عن ذكره تعالى على

(103/70)

أحد هذه الأوجه . وقوله تعالى : ﴿ واشكروا لي ولا تكفرون ﴾ فيه أمر بشكره على نعمه وعدم جحدها ؛ فالكفر هنا ستر النعمة لا التكذيب . وقد وعد تعالى على شكره بمزيد الخير فقال : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم : 7] قال ابن عطية : اشكروا لي واشكروني بمعنى واحد . ولي أفصح وأشهر مع الشكر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 2 صـ 477. 481 ﴾

(104/70)

ومن فوائد صاحب المنار فى الآيات السابقة

قال رحمه الله :

(105/70)

(وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ) أَيْ: وَتَاللهِ لَئِنْ جِئْتَهُمْ بِكُلِّ آيَةٍ عَلَى نُبُوَّتِكَ وَكُلِّ حُجَّةٍ عَلَى صِدْقِكَ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ فَضْلًا عَنْ مِلَّتِكَ، فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ وَلَا إِعْرَاضُهُمْ وَلَا تَحْسَبَنَّ الْآيَاتِ وَالدَّلَائِلَ مُقْنِعَةً أَوْ صَارِفَةً لَهُمْ عَنْ عِنَادِهِمْ، فَهُمْ قَوْمٌ مُقَلِّدُونَ لَا نَظَرَ لَهُمْ وَلَا اسْتِدْلَالَ. وَكَمَا أَيَّأَسَهُ مِنَ اتِّبَاعِهِمْ قِبْلَتَهُ أَيَّأَسَهُمْ مِنَ اتِّبَاعِهِ قِبْلَتَهُمْ، فَقَالَ: (وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ) فَإِنَّكَ الْآنَ عَلَى قِبْلَةِ إِبْرَاهِيمَ الَّذِي يُجِلُّونَهُ جَمِيعًا، وَلَا يَخْتَلِفُ فِي حَقِّيَّةِ مِلَّتِهِ أَحَدٌ مِنْهُمْ، فَهِيَ الْأَجْدَرُ بِالِاجْتِمَاعِ عَلَيْهَا، وَتَرْكُ الْخِلَافِ إِلَيْهَا، فَإِذَا كَانَ أَتْبَاعُ إِبْرَاهِيمَ لَا يُزَحْزِحُهُمْ عَنْ تَعَصُّبِهِمْ لِمَا أَلِفُوا، وَعِنَادِهِمْ فِيمَا اخْتَلَفُوا، وَإِذَا كَانَ التَّقْلِيدُ يَحُولُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ النَّظَرِ فِي حَقِيقَةِ مَعْنَى الْقِبْلَةِ، وَكَوْنِ الْجِهَاتِ كُلِّهَا لِلَّهِ تَعَالَى، وَأَنَّ الْفَائِدَةَ فِيهَا الِاجْتِمَاعُ دُونَ الِافْتِرَاقِ فَأَيُّ دَلِيلٍ أَمْ أَيَّةُ آيَةٍ تُرْجِعُهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمْ؟ وَأَيَّةُ فَائِدَةٍ تُرَجَّى مِنْ مُوَافَقَتِكَ إِيَّاهُمْ عَلَيْهَا؟ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ اخْتَلَفُوا هُمْ فِي الْقِبْلَةِ فَجَعَلَ النَّصَارَى لَهُمْ قِبْلَةً غَيْرَ قِبْلَةِ الْيَهُودِ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا عِيسَى بَعْدَ مُوسَى؟! (وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ) لِأَنَّ كُلًّا مِنْهُمْ قَدْ جَمَدَ بِالتَّقْلِيدِ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ، وَالْمُقَلِّدُ لَا يَنْظُرُ فِي

آيَةٍ وَلَا دَلِيلٍ ، وَلَا فِي فَائِدَةِ مَا هُوَ فِيهِ ، وَالْمُقَارَنَةُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ فَهُوَ أَعْمَى لَا يُبْصِرُ ، أَصَمُّ لَا يَسْمَعُ ، أَغْلَفُ الْقَلْبِ لَا

يَعْقِلُ (وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ) أَيْ : وَلَئِنْ فُرِضَ أَنْ تَتَّبِعَ مَا يَهْوَوْنَهُ مِنَ الصَّلَاةِ إِلَى قِبْلَتِهِمْ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ اجْتِهَادًا مِنْكَ تَقْصِدُ بِهِ اسْتِمَالَتَهُمْ إِلَى دِينِكَ ، مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ الْحَقُّ الْيَقِينُ بِالنَّصِّ الْمَانِعِ مِنَ الِاجْتِهَادِ ، وَالْعِلْمِ الَّذِي لَا مَجَالَ مَعَهُ لِلظَّنِّ ، إِنَّكَ إِذْ تَفْعَلُ هَذَا فَرْضًا – وَمَا أَنْتَ بِفَاعِلِهِ – تَكُونُ مِنْ جَمَاعَةِ الظَّالِمِينَ

(وَحَاشَاكَ) وَالْكَلَامُ مِنْ بَابِ (إِيَّاكِ أَعْنِي وَاسْمَعِي يَا جَارَةُ) وَبَيَانُهُ أَنَّنَا قَدْ أَقَمْنَا لَكَ مَسْأَلَةَ الْقِبْلَةِ عَلَى قَاعِدَةِ الْعِلْمِ الَّذِي عَرَفْتَ بِهِ أَنَّ نِسْبَةَ الْجِهَاتِ إِلَى اللهِ تَعَالَى وَاحِدَةٌ ، وَأَنَّ جُمُودَ أَهْلِ الْكِتَابِ عَلَى مَا هُمْ فِيهِ إِنَّمَا جَاءَهُمْ مِنَ التَّقْلِيدِ وَحِرْمَانِ أَنْفُسِهِمْ مِنَ النَّظَرِ ، وَأَنَّ طَعْنَهُمْ فِيكَ وَفِيمَا جِئْتَ بِهِ مِنْ أَمْرِ الْقِبْلَةِ وَغَيْرِهِ لَيْسَ إِلَّا جُحُودًا وَمُعَانَدَةً لَكَ مَعَ عِلْمِهِمْ بِأَنَّكَ النَّبِيُّ الْمَوْعُودُ بِهِ فِي كُتُبِهِمْ يَأْتِي مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ . فَبَعْدَ هَذَا الْعِلْمِ كُلِّهِ لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ

مِنْ أَتْبَاعِكَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يُفَكِّرَ فِي أَهْوَاءِ الْقَوْمِ اسْتِمَالَةً لَهُمْ ; إِذْ لَا مَحَلَّ لِهَذِهِ الِاسْتِمَالَةِ ، وَالْحَقُّ قَوِيٌّ بِذَاتِهِ ، وَغَنِيٌّ بِمَنْ ثَبَتَ عَلَيْهِ ، وَمَنْ عَدَلَ عَنْهُ - مُجَارَاةً لِأَهْلِ الْأَهْوَاءِ لِمَا يَرْجُو مِنْ فَائِدَتِهِمْ أَوِ اتِّقَاءِ مَضَرَّتِهِمْ - فَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ، وَظَالِمٌ لِمَنْ يَسْلُكُ بِهِمْ هَذَا السَّبِيلَ الْجَائِرَ .

(الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ) هَذَا الْخِطَابُ بِهَذَا الْوَعِيدِ لِأَعْلَى النَّاسِ مَقَامًا عِنْدَ اللهِ تَعَالَى هُوَ أَشَدُّ وَعِيدٍ لِغَيْرِهِ مِمَّنْ يَتَّبِعُ الْهَوَى ، وَيُحَاوِلُ اسْتِرْضَاءَ النَّاسِ بِمُجَارَاتِهِمْ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْبَاطِلِ ; فَإِنَّهُ أَفْرَدَهُ بِالْخِطَابِ مَعَ أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ أُمَّتُهُ ; إِذْ يَسْتَحِيلُ أَنْ يَتَّبِعَ هَوَى أَهْوَاءِهِمْ ، أَوْ أَنْ يُجَارِيَهُمْ عَلَى شَيْءٍ نَهَاهُ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ ، لِيَتَنَبَّهَ الْغَافِلُ وَيَعْلَمَ الْمُؤْمِنُونَ أَنَّ اتِّبَاعَ أَهْوَاءِ النَّاسِ وَلَوْ لِغَرَضٍ صَحِيحٍ هُوَ مِنَ الظُّلْمِ الْعَظِيمِ الَّذِي يَقْطَعُ طَرِيقَ الْحَقِّ ، وَيُرْدِي النَّاسَ فِي مَهَاوِي الْبَاطِلِ ، كَأَنَّهُ يَقُولُ : إِنَّ هَذَا ذَنْبٌ عَظِيمٌ لَا يُتَسَامَحُ فِيهِ مَعَ أَحَدٍ ، حَتَّى لَوْ فُرِضَ وُقُوعُهُ مِنْ أَكْرَمِ النَّاسِ عَلَى اللهِ تَعَالَى لَسَجَّلَ عَلَيْهِ الظُّلْمَ ، وَجَعَلَهُ مِنْ أَهْلِهِ الَّذِينَ صَارَ وَصْفًا لَازِمًا لَهُمْ (وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ) (2 : 270) فَكَيْفَ حَالُ مَنْ لَيْسَ لَهُ مَا يُقَارِبُ مَكَانَتَهُ عِنْدَ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ ؟ .

نَقْرَأُ هَذَا التَّشْدِيدَ وَالْوَعِيدَ ، وَنَسْمَعُهُ مِنَ الْقَارِئِينَ ، وَلَا نَزْدَجِرُ عَنِ اتِّبَاعِ أَهْوَاءِ النَّاسِ وَمُجَارَاتِهِمْ عَلَى بِدَعِهِمْ وَضَلَالَاتِهِمْ ، حَتَّى إِنَّكَ تَرَى الَّذِينَ يَشْكُونَ مِنْ هَذِهِ الْبِدَعِ وَالْأَهْوَاءِ وَيَعْتَرِفُونَ بِبُعْدِهَا عَنِ الدِّينِ يُجَارُونَ أَهْلَهَا عَلَيْهَا وَيُمَازِجُونَهُمْ فِيهَا ، وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ فِي ذَلِكَ قَالُوا : (مَاذَا نَعْمَلُ ؟ مَا فِي الْيَدِ حِيلَةٌ) (الْعَامَّةُ عَمًى) 0 (آخِرُ زَمَانٍ) وَأَمْثَالَ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ هِيَ جُيُوشُ الْبَاطِلِ تُؤَيِّدُهُ وَتُمَكِّنُهُ فِي الْأَرْضِ ، حَتَّى يَحُلَّ بِأَهْلِهِ الْبَلَاءُ وَيَكُونُوا مِنَ الْهَالِكِينَ .

وَأَعْجَبُ مِنْ هَذَا الَّذِي ذَكَرَهُ الْإِمَامُ أَنَّكَ تَرَى هَؤُلَاءِ الْمُعْتَرِفِينَ بِهَذِهِ الْبِدَعِ وَالْأَهْوَاءِ يُنْكِرُونَ عَلَى مُنْكِرِهَا ، وَيُسَفِّهُونَ رَأْيَهُ وَيَعُدُّونَهُ عَابِثًا أَوْ مَجْنُونًا ، إِذْ يُحَاوِلُ مَا لَا فَائِدَةَ فِيهِ عِنْدَهُمْ ، فَهُمْ يَعْرِفُونَ الْمُنْكَرَ وَيُنْكِرُونَ الْمَعْرُوفَ ، وَيَدَّعُونَ مَعَ ذَلِكَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الْعِلْمِ وَالدِّينِ .

وَأَعْجَبُ مِنْ هَذَا الْأَعْجَبِ أَنَّ مِنْهُمْ مَنْ يَرَى أَنَّ إِزَالَةَ هَذِهِ الْمُنْكَرَاتِ وَالْبِدَعِ ، وَمُقَاوَمَةَ هَذِهِ الْأَهْوَاءِ وَالْفِتَنِ جِنَايَةٌ عَلَى الدِّينِ ، وَيَحْتَجُّ عَلَى هَذَا بِأَنَّ الْعَامَّةَ تَحْسَبُهَا مِنَ الدِّينِ ، فَإِذَا أَنْكَرَهَا الْعُلَمَاءُ عَلَيْهِمْ تَزُولُ ثِقَتُهُمْ بِالدِّينِ كُلِّهِ لَا بِهَا خَاصَّةً ! ! وَبِأَنَّهَا لَا تَخْلُو مِنْ خَيْرٍ

يُقَارِنُهَا كَالذِّكْرِ الَّذِي يَكُونُ فِي الْمَوَاسِمِ وَالِاحْتِفَالَاتِ الَّتِي تُسَمَّى بِالْمَوَالِدِ وَكُلُّهَا بِدَعٌ وَمُنْكَرَاتٌ ، حَتَّى إِنَّ الذِّكْرَ الَّذِي يَكُونُ فِيهَا لَيْسَ مِنَ الْمَعْرُوفِ فِي الشَّرْعِ ! ! وَالسَّبَبُ الصَّحِيحُ فِي هَذَا كُلِّهِ هُوَ مُحَاوَلَةُ إِرْضَاءِ النَّاسِ بِمُجَارَاتِهِمْ عَلَى أَهْوَائِهِمْ وَتَأْوِيلِهَا لَهُمْ ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَمَا سَكَتَ الْعَالِمُونَ بِكَوْنِهَا بِدَعًا وَمُنْكَرَاتٍ عَلَيْهَا ، إِنَّهُمْ سَكَتُوا بِالثَّمَنِ (اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللهِ ثَمَنًا قَلِيلًا) (9 : 9) وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ يُظْهِرُونَ التَّعَجُّبَ مِنْ جُحُودِ أَهْلِ الْكِتَابِ لِلنَّبِيِّ وَالْقُرْآنِ ، وَمَا كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ جُحُودًا ، وَلَا أَقْوَى جُمُودًا .

هَذَا إِيمَاءٌ إِلَى اتِّبَاعِ الْعُلَمَاءِ أَهْوَاءَ الْعَامَّةِ بَعْدَ مَا جَاءَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَمَا نَزَلَ عَلَيْهِمْ فِي الْكِتَابِ مِنَ الْوَعِيدِ عَلَيْهِ ، وَلَوْ شَرَحَ شَارِحٌ اتِّبَاعَهُمْ لِأَهْوَاءِ السَّلَاطِينِ وَالْأُمَرَاءِ وَالْوُجَهَاءِ وَالْأَغْنِيَاءِ ،

وَكَيْفَ يُفْتُونَهُمْ وَيُؤَلِّفُونَ الْكُتُبَ لَهُمْ ، وَيَخْتَرِعُونَ الْأَحْكَامَ وَالْحِيَلَ الشَّرْعِيَّةَ لِأَجْلِهِمْ ، وَكَيْفَ حَرَّمُوا عَلَى الْأُمَّةِ الْعَمَلَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَأَلْزَمُوهَا كُتُبَهُمْ ؛ لِظُهُورِ لِقَارِئِ الشَّرْحِ كَيْفَ أَضَاعَ هَؤُلَاءِ النَّاسُ دِينَهُمْ ، فَسَلَّطَ اللهُ عَلَيْهِمْ مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ عَلَيْهِمْ سَبِيلٌ ، وَلَبَانَ لَهُ وَجْهُ التَّشْدِيدِ فِي الْآيَةِ بِتَوْجِيهِ الْوَعِيدِ فِيهَا إِلَى النَّبِيِّ الْمَعْصُومِ الْمَشْهُودِ لَهُ بِالْخُلُقِ الْعَظِيمِ ، فَلَا يَكْبُرَنَّ

عَلَيْكَ أَنْ تَحْكُمَ عَلَى مَنْ يُسَمُّونَ أَنْفُسَهُمْ أَوْ يُسَمِّيهِمُ الْحُكَّامُ كِبَارَ الْعُلَمَاءِ بِأَنَّهُمْ مِنَ الظَّالِمِينَ ، إِذَا اتَّبَعُوا أَهْوَاءَ الْعَامَّةِ أَوْ شَهَوَاتِ الْأُمَرَاءِ وَالسَّلَاطِينِ .

(111/70)

(الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ) ذَكَرَ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ أَنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ فِي أَمْرِ الْقِبْلَةِ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَلَكِنَّهُمْ يُنْكِرُونَ وَيَمْكُرُونَ ، وَذَكَرَ فِي هَذِهِ مَا هُوَ الْأَصْلُ وَالْعِلَّةُ فِي ذَلِكَ الْعِلْمِ وَذَلِكَ الْإِنْكَارِ ، وَهُوَ أَنَّهُمْ يَعْرِفُونَ النَّبِيَّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بِمَا فِي كُتُبِهِمْ مِنَ الْبِشَارَةِ بِهِ وَمِنْ نُعُوتِهِ وَصِفَاتِهِ الَّتِي لَا تَنْطَبِقُ عَلَى غَيْرِهِ ، وَبِمَا يَظْهَرُ مِنْ آيَاتِهِ وَآثَارِ هِدَايَتِهِ ، كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَ تَرْبِيَتَهُمْ وَحِيَاطَتَهُمْ حَتَّى لَا يَفُوتَهُمْ مِنْ أَمْرِهِمْ شَيْءٌ . قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلَامٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – وَكَانَ مِنْ عُلَمَاءِ الْيَهُودِ وَأَحْبَارِهِمْ : – أَنَا أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي بِابْنِي ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : لِمَ ؟ قَالَ : لِأَنِّي لَسْتُ أَشُكُّ فِي مُحَمَّدٍ أَنَّهُ نَبِيٌّ ، فَأَمَّا وَلَدِي فَلَعَلَّ وَالِدَتَهُ خَانَتْ . فَقَدِ اعْتَرَفَ مَنْ هَدَاهُ اللهُ مِنْ أَحْبَارِهِمْ كَهَذَا الْعَالِمِ الْجَلِيلِ ، وَتَمِيمٍ الدَّارِيِّ مِنْ عُلَمَاءِ النَّصَارَى أَنَّهُمْ عَرَفُوهُ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مَعْرِفَةً لَا يَتَطَرَّقُ إِلَيْهَا الشَّكُّ (وَإِنَّ فَرِيقًا

مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) أَنَّهُ الْحَقُّ الَّذِي لَا مِرْيَةَ فِيهِ ، فَمَاذَا يُرْجَى مِنْهُمْ بَعْدَ هَذَا ؟ وَذَهَبَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ إِلَى أَنَّ الضَّمِيرَ فِي (يَعْرِفُونَهُ) لِمَا ذُكِرَ مِنْ أَمْرِ الْقِبْلَةِ ، وَاسْتَبْعَدُوا

(112/70)

عَوْدَهُ إِلَى الرَّسُولِ مَعَ تَقَدُّمِ ذِكْرِهِ فِي الْآيَاتِ ، وَمَعَ مَا يُعْهَدُ مِنَ الِاكْتِفَاءِ بِالْقَرَائِنِ فِي مِثْلِ هَذَا التَّعْبِيرِ . وَقَدْ أَسْنَدَ هَذَا الْكِتْمَانَ إِلَى فَرِيقٍ مِنْهُمْ إِذْ لَمْ يَكُونُوا كُلُّهُمْ كَذَلِكَ ; فَإِنَّ مِنْهُمْ مَنِ اعْتَرَفَ بِالْحَقِّ وَآمَنَ وَاهْتَدَى بِهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ يَجْحَدُهُ عَنْ جَهْلٍ وَلَوْ عَلِمَ بِهِ لَجَازَ أَنْ يَقْبَلَهُ ، وَهَذَا مِنْ دِقَّةِ حُكْمِ الْقُرْآنِ عَلَى الْأُمَمِ بِالْعَدْلِ . ثُمَّ قَالَ عَزَّ شَأْنُهُ :

(الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ) الِامْتِرَاءُ : الشَّكُّ وَالتَّرَدُّدُ ، وَإِنَّمَا يَعْرِضُ لِمَنْ لَا يَعْرِفُونَ الْحَقَّ ، وَالْمَعْنَى أَنَّ هَذَا الَّذِي أَنْتَ عَلَيْهِ أَيُّهَا الرَّسُولُ هُوَ الْحَقُّ ، أَوْ أَنَّ جِنْسَ الْحَقِّ فِي الدِّينِ هُوَ الْوَحْيُ مِنْ عِنْدِ رَبِّكَ الْمُعْتَنِي بِشَأْنِكَ ، فَلَا تَلْتَفِتْ إِلَى أَوْهَامِ هَؤُلَاءِ الْجَاحِدِينَ فَإِنَّهَا لَا تَصْلُحُ شُبْهَةً عَلَى الْحَقِّ الصَّرِيحِ الَّذِي عَلَّمَكَ اللهُ فَتَمْتَرِيَ بِهِ ، وَالنَّهْيُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ كَالْوَعِيدِ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ وَجَّهَ الْخِطَابَ بِهِ إِلَى

النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، وَالْمُرَادُ أُمَّتُهُ مَنْ كَانَ مِنْهُمْ غَيْرَ

رَاسِخٍ فِي الْإِيمَانِ ، وَخُشِيَ عَلَيْهِ الِاغْتِرَارُ بِمَظَاهِرِ أُولَئِكَ الْمُخَادِعِينَ الَّذِينَ يَغْتَرُّ بِأَمْثَالِهِمُ الْأَغْرَارُ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ ; وَلِذَلِكَ ارْتَدَّ بِفِتْنَةِ الْقِبْلَةِ بَعْضُ ضُعَفَاءِ الْإِيمَانِ .

(113/70)

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَمَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللهُ جَمِيعًا إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ)

احْتَجَّ تَعَالَى عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ بِقَوْلِهِ : (وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ) وَقَوْلِهِ : (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ) أَيْ : وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فَكُلُّ مَا يَأْتِي بِهِ عَنِ اللهِ فَهُوَ حَقٌّ ، فَمَا بَالُهُمْ يُشَاغِبُونَ فِي مَسْأَلَةِ الْقِبْلَةِ مِنَ الْأَحْكَامِ الْفَرْعِيَّةِ خَاصَّةً ؟ فَالْكَلَامُ مِنْ قَبِيلِ إِقَامَةِ الدَّلِيلِ بَعْدَ إِيرَادِ الدَّعْوَى وَلَيْسَ اعْتِرَاضِيًّا كَمَا تَوَهَّمَ بَعْضُهُمْ ، ثُمَّ

جَاءَ بِحُجَّةٍ أُخْرَى عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ وَغَيْرِهِمْ تُرْغِمُ أُنُوفَ الْمُعَارِضِينَ ، وَخَتَمَ بَعْدَهَا الْأَمْرَ بِتَوْلِيَةِ الْوُجُوهِ نَحْوَ الْمَسْجِدِ

(114/70)

الْحَرَامِ وَتَأْكِيدِهِ فَقَالَ : (وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا) وَقَرَأَ ابْنُ عَامِرٍ (مَوْلَاهَا) أَيْ : لِكُلِّ أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ وِجْهَةٌ تُوَلِّيهَا فِي صَلَاتِهَا ، فَلَمْ تَكُنْ جِهَةٌ مِنَ الْجِهَاتِ قِبْلَةً فِي كُلِّ مِلَّةٍ بِحَيْثُ تُعَدُّ رُكْنًا ثَابِتًا فِي الدِّينِ الْمُطْلَقِ كَتَوْحِيدِ اللهِ تَعَالَى وَالْإِيمَانِ بِالْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ ، فَإِبْرَاهِيمُ وَإِسْمَاعِيلُ كَانَا يُوَلِّيَانِ الْكَعْبَةَ ، وَكَانَ بَنُو إِسْرَائِيلَ يَسْتَقْبِلُونَ صَخْرَةَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ ، وَتَرَكَ النَّصَارَى ذَلِكَ إِلَى اسْتِقْبَالِ الْمَشْرِقِ ، وَكَانَ الْأَنْبِيَاءُ الْمُتَقَدِّمُونَ يَسْتَقْبِلُونَ جِهَاتٍ أُخْرَى ، فَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ وَلَمْ تَكُنْ جِهَةٌ مُعَيَّنَةٌ رُكْنًا ثَابِتًا فِي الْأَدْيَانِ فَأَيَّةُ شُبْهَةٍ مِنَ الْعَقْلِ أَوْ مِنْ تَقَالِيدِ الْمِلَلِ عَلَى فِتْنَةِ الْمُشَاغِبِينَ فِي أَمْرِ الْقِبْلَةِ ، وَأَيُّ وَجْهٍ لِمَا أَظْهَرُوهُ مِنَ الشُّبْهَةِ وَالْحَيْرَةِ ، وَزَجُّوا أَنْفُسَهُمْ فِيهِ مِنَ

الْغُمَّةِ ، حَتَّى جَعَلُوهُ مُسَوِّغًا لِلطَّعْنِ فِي النُّبُوَّةِ وَالتَّشْرِيعِ ؟ وَسَيَأْتِي إِيضَاحٌ لِهَذِهِ الْحُجَّةِ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى : (لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ) (2 : 177) إِلَخْ

.

(115/70)

وَإِذَا لَمْ تَكُنْ مَسْأَلَةُ الْقِبْلَةِ الْمُعَيَّنَةِ مِنْ أُصُولِ الدِّينِ وَلَا مِنْ مُخِّهِ وَجَوْهَرِهِ الَّذِي لَا يَتَغَيَّرُ ؛ بَلْ كَانَتْ وَلَا تَزَالُ مِنَ الْفُرُوعِ الَّتِي تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ حَالِ الْأُمَمِ ، فَالْوَاجِبُ فِيهَا الِاتِّبَاعُ الْمَحْضُ وَالتَّسْلِيمُ لِأَمْرِ الْوَحْيِ ، وَإِنْ لَمْ تَظْهَرْ حِكْمَةُ التَّخْصِيصِ لِلنَّاسِ كَمَا هُوَ الشَّأْنُ فِي أَمْثَالِهَا مِنَ الْفُرُوعِ الْمَأْخُوذَةِ بِالتَّسْلِيمِ ؛ كَعَدَدِ الرَّكَعَاتِ ، وَكَوْنِ الرُّكُوعِ مَرَّةً وَالسُّجُودِ مَرَّتَيْنِ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ فَكَيْفَ وَقَدْ ظَهَرَتْ ؟

(116/70)

(فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ) أَيْ : ابْتَدِرُوا كُلَّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْخَيْرِ بِالْعَمَلِ ، وَلْيَحْرِصْ كُلٌّ مِنْكُمْ عَلَى سَبْقِ غَيْرِهِ إِلَيْهِ بِاتِّبَاعِ الْإِمَامِ الْمُرْشِدِ لَا بِاتِّبَاعِ الْهَوَى ، وَهَذَا الْأَمْرُ عَامٌّ مُوَجَّهٌ إِلَى أُمَّةِ الدَّعْوَةِ لَا خَاصٌّ بِالْمُؤْمِنِينَ الْمُسْتَجِيبِينَ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ (أَيْنَمَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا) ذَكَرَ الْجَزَاءَ يَوْمَ الْبَعْثِ بَعْدَ الْأَمْرِ بِاسْتِبَاقِ الْخَيْرَاتِ لِيُفِيدَ أَنَّ الْجَزَاءَ إِنَّمَا يَكُونُ عَلَى فِعْلِ الْخَيْرَاتِ أَوْ تَرْكِهَا ، لَا عَلَى الْكَوْنِ فِي بَلَدٍ كَذَا أَوْ جِهَةٍ كَذَا ؛ أَيْ : فَفِي أَيَّةِ جِهَةٍ وَأَيِّ مَكَانٍ تُقِيمُونَ فَاللَّهُ

تَعَالَى يَأْتِي بِكُمْ وَيَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ؛ إِذِ الْبِلَادُ وَالْجِهَاتُ لَا شَأْنَ لَهَا فِي أَمْرِ الدِّينِ لِذَاتِهَا وَإِنَّمَا الشَّأْنُ لِعَمَلِ الْبِرِّ وَاسْتِبَاقِ الْخَيْرَاتِ (إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) فَلَا يُعْجِزُهُ الْإِتْيَانُ بِالنَّاسِ مَهْمَا بَعُدَتْ بَيْنَهُمُ الْمَسَافَاتُ ، وَتَنَاءَتْ بِهِمُ الدِّيَارُ وَالْجِهَاتُ ، فَالتَّصْرِيحُ بِالْقُدْرَةِ تَذْكِيرٌ بِالدَّلِيلِ عَلَى الدَّعْوَى ، وَالْأَمْرُ بِالْخَيْرَاتِ هُنَا بَعْدَ بَيَانِ اخْتِلَافِ الْمِلَلِ فِي الْقِبْلَةِ

(117/70)

إِجْمَالٌ يُفَصِّلُهُ ذِكْرُ أَنْوَاعِ الْبِرِّ فِي آيَةِ (لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ) الْمُشَارُ إِلَيْهَا آنِفًا وَسَتَأْتِي ، كَأَنَّهُ يَقُولُ لِلْفَاتِنِينَ وَالْمَفْتُونِينَ فِي مَسْأَلَةِ الْقِبْلَةِ : إِنَّ مُخَّ الدِّينِ وَجَوْهَرَهُ هُوَ فِي الْمُسَارَعَةِ إِلَى الْخَيْرَاتِ ، فَهَلْ رَأَيْتُمْ مُحَمَّدًا وَأَتْبَاعَهُ قَصَّرُوا عَنْ غَيْرِهِمْ فِي ذَلِكَ أَمْ هُمُ السَّابِقُونَ إِلَى كُلِّ مَكْرُمَةٍ ، وَالْمُسَارِعُونَ إِلَى كُلِّ مَبَرَّةٍ ، الْمُتَّصِفُونَ بِكُلِّ فَضِيلَةٍ ؟ فَفِي الْكَلَامِ مَعَ بَيَانِ رُوحِ الدِّينِ وَمَقْصِدِهِ تَعْرِيضٌ بِأَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِينَ تَرَكُوا فَضَائِلَ الدِّينِ وَقَصَّرُوا فِي عَمَلِ الْخَيْرِ وَالْبِرِّ ، وَاكْتَفَوْا مِنْ عِلْمِ الدِّينِ بِالْجَدَلِ وَالْمِرَاءِ ، وَاسْتِنْبَاطِ الشُّبَهِ لِلطَّعْنِ فِي الْعَامِلِينَ ، إِذْ لَمْ يَكُونُوا مِنَ الْمُجَادِلِينَ الْمُشَاغِبِينَ ، ثُمَّ تَرَكَ الْمُسْلِمُونَ فَضَائِلَ سَلَفِهِمْ ، وَاتَّبَعُوا سَنَنَهُمْ فِي بِدَعِهِمْ ، وَجَدَلِهِمْ حَتَّى صَارُوا حُجَّةً عَلَى دِينِهِمْ .

(118/70)

(وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ) أَيْ: وَمِنْ أَيِّ مَكَانٍ خَرَجْتَ وَفِي أَيِّ بُقْعَةٍ حَلَلْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ فِي صَلَاتِكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، فَهُوَ حُكْمٌ عَامٌّ، قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ: أَعَادَ الْأَمْرَ فِي صُورَةٍ أُخْرَى لِيُبَيِّنَ أَنَّهُ شَرِيعَةٌ عَامَّةٌ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ لَا يَخْتَصُّ بِبِلَادٍ دُونَ أُخْرَى وَلَا بِحَضَرٍ دُونَ سَفَرٍ. وَقَدْ كَانَ الْأَمْرُ بِالتَّحْوِيلِ نَزَلَ عَلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَهُوَ فِي الصَّلَاةِ فَأَعْلَمَهُ بِصِيغَةِ الْأَمْرِ أَنَّهُ لَيْسَ خَاصًّا بِتِلْكَ الصَّلَاةِ وَلَا بِذَلِكَ الْمَكَانِ؛ بَلْ عَلَيْهِ أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ مِنْ حَيْثُ خَرَجَ وَأَيْنَ تَوَجَّهَ، وَمِنْ مَزَايَا هَذِهِ الْقِبْلَةِ أَنَّ أَصْحَابَهَا يُصَلُّونَ إِلَى جَمِيعِ الْجِهَاتِ بِتَوَلِّيهِمْ إِيَّاهَا مِنْ أَقْطَارِ الْأَرْضِ الْمُخْتَلِفَةِ، وَقَدْ وَثَّقَ الْأَمْرَ وَأَكَّدَهُ بِقَوْلِهِ: (وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ) أَيْ: وَإِنَّ تَوَلِّيَكَ إِيَّاهُ لَهُوَ الْحَقُّ الْمُحْكَمُ بِوَحْيِ رَبِّكَ فَلَا يُنْسَخُ (وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

(119/70)

أَيْ : إِنَّكُمْ أَيُّهَا الْمُخَاطَبُونَ بِاتِّبَاعِ النَّبِيِّ فِي كُلِّ مَا يَجِيءُ بِهِ مِنْ أَمْرِ الدِّينِ تَحْتَ نَظَرِ الْحَقِّ دَائِمًا فَهُوَ لَا يَغْفُلُ عَنْ أَعْمَالِكُمْ (فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) (24 : 63) وَفِي الْكَلَامِ الْتِفَاتٌ عَنْ خِطَابِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إِلَى خِطَابِ جَمِيعِ الْمُكَلَّفِينَ ، بِمَا فِيهِ مِنَ التَّعْرِيضِ وَالتَّهْدِيدِ لِلْمُنَافِقِينَ ، وَقَرَأَ أَبُو عَمْرٍو (يَعْمَلُونَ) بِالْيَاءِ ، وَهُوَ يَعُودُ إِلَى أُولَئِكَ الْمُجَادِلِينَ فِي الْقِبْلَةِ . يَقُولُ لِنَبِيِّهِ : لَا يَحْزُنْكَ أَمْرُهُمْ ; فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الَّذِي يَتَوَلَّى جَزَاءَهُمْ ، وَمَا هُوَ بِغَافِلٍ عَنْ فَسَادِهِمْ وَفِتْنَتِهِمْ .

(وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ

فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ) ابْتَدَأَ هَذِهِ الْآيَةَ بِصِيغَةِ الْأَمْرِ الْوَارِدَةِ فِي الْآيَةِ قَبْلَهَا ، وَقَرَنَ بِهَا صِيغَةَ الْأَمْرِ السَّابِقَةِ وَجَمَعَ فِيهَا بَيْنَ خِطَابِ النَّبِيِّ وَخِطَابِ الْأُمَّةِ ; لِيُرَتِّبَ عَلَى ذَلِكَ التَّعْلِيلَ وَبَيَانَ الْحِكَمِ لَهُ وَهِيَ ثَلَاثٌ : الْأُولَى قَوْلُهُ : (لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ) لَيْسَ هَذَا الْجَمْعُ وَالْإِعَادَةُ لِمُجَرَّدِ التَّأْكِيدِ كَمَا قَالَ مُفَسِّرُنَا (الْجَلَالُ) وَغَيْرُهُ ، وَإِنَّمَا هُوَ تَمْهِيدٌ لِلْعِلَّةِ وَتَوْطِئَةٌ ; لِبَيَانِ الْحِكَمِ الْمَوْصُولَةِ بِهِ ، وَهُوَ أُسْلُوبٌ مَعْهُودٌ عِنْدَ الْبُلَغَاءِ ، وَالْمُتَأَخِّرُونَ الَّذِينَ لَا يَذُوقُونَ طَعْمَ الْأَسَالِيبِ الْبَلِيغَةِ يَكْتَفُونَ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَقَامِ بِقَوْلِهِمْ : كُلُّ ذَلِكَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ

حُجَّةٌ ، وَهُوَ نَظْمٌ غَيْرُ مَعْهُودٍ فِي الْكَلَامِ الْبَلِيغِ وَلَا سِيَّمَا مَقَامُ الْإِطْنَابِ وَالتَّأْكِيدِ وَالِاحْتِجَاجِ وَإِزَالَةِ الشُّبَهِ ، وَالْمُرَادُ بِالنَّاسِ : الْمُحَاجُّونَ فِي الْقِبْلَةِ الْمَعْرُوفُونَ ; وَهُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكُونَ وَتَبِعَهُمَا الْمُنَافِقُونَ .

(121/70)

وَوَجْهُ انْتِفَاءِ حُجَّتِهِمْ عَلَى الطَّعْنِ فِي النُّبُوَّةِ بِتَحْوِيلِ الْقِبْلَةِ عَنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ إِلَى الْكَعْبَةِ : هُوَ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ كَانُوا يَعْرِفُونَ مِنْ كُتُبِهِمْ أَنَّ النَّبِيَّ الَّذِي يُبْعَثُ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ يَكُونُ عَلَى قِبْلَتِهِ وَهِيَ الْكَعْبَةُ ، فَجَعْلُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ قِبْلَةً دَائِمَةً لَهُ حُجَّةٌ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ هُوَ النَّبِيُّ الْمُبَشَّرُ بِهِ ، فَلَمَّا كَانَ التَّحْوِيلُ عَرَفُوا أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ، وَأَنَّ الْمُشْرِكِينَ كَانُوا يَرَوْنَ أَنَّ نَبِيًّا مِنْ وَلَدِ إِبْرَاهِيمَ جَاءَ لِإِحْيَاءِ مِلَّتِهِ لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَسْتَقْبِلَ غَيْرَ بَيْتِ رَبِّهِ الَّذِي بَنَاهُ وَكَانَ يُصَلِّي هُوَ وَإِسْمَاعِيلُ إِلَيْهِ ، فَدُحِضَتْ حُجَّةُ الْفَرِيقَيْنِ وَكُبِتَ الْمُنَافِقُونَ مِنْ وَرَائِهِمْ (إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ) أَيْ : لَكِنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ يَظَّلُونَ يَلْغَطُونَ بِالِاحْتِجَاجِ جَهْلًا أَوْ عِنَادًا لِلْإِضْلَالِ ، كَقَوْلِ الْيَهُودِ : رَجَعَ إِلَى قِبْلَةِ قَوْمِهِ لِإِرْضَائِهِمْ وَسَيَرْجِعُ إِلَى دِينِهِمْ ، وَقَوْلِ الْمُشْرِكِينَ : رَجَعَ إِلَى قِبْلَتِنَا وَسَيَرْجِعُ إِلَى دِينِنَا ، وَقَوْلِ الْمُنَافِقِينَ : إِنَّهُ مُضْطَرِبٌ مُتَرَدِّدٌ لَا يَثْبُتُ عَلَى قِبْلَةٍ . وَأَمْثَالِ هَذِهِ الْآرَاءِ الَّتِي يُزَيِّنُهَا الْهَوَى لِلْأَعْدَاءِ ، فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ بِكِتَابٍ وَلَا يَعْتَبِرُونَ بِبُرْهَانٍ ،

وَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى حِكَمِ الْأُمُورِ وَأَسْرَارِهَا بَلْ يُجَادِلُونَ فِي اللهِ وَشَرْعِهِ بِلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ، وَهُمُ الَّذِينَ أَثَارُوا الْفِتْنَةَ ، وَحَرَّكُوا رِيَاحَ الشُّبَهِ فِي مَسْأَلَةِ الْقِبْلَةِ ،

(122/70)

وَلَا قِيمَةَ لِمَا يَقُولُ هَؤُلَاءِ الظَّالِمُونَ ؛ فَإِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ كَمَا وُصِفُوا فِي الْآيَةِ الْأُولَى (فَلَا تَخْشَوْهُمْ) إِذْ لَا مَرْجِعَ لِكَلَامِهِمْ مِنَ الْحَقِّ ، وَلَا تَمَكُّنَ لَهُ فِي النَّفْسِ ؛ لِأَنَّهُ لَا يَسْتَنِدُ إِلَى بُرْهَانٍ عَقْلِيٍّ وَلَا إِلَى هَدْيٍ سَمَاوِيٍّ

(وَاخْشَوْنِي) أَنَا ، فَلَا تَعْصُونِي بِمُخَالَفَةِ مَا جَاءَكُمْ بِهِ رَسُولِي عَنِّي ، فَإِنِّنِي الْقَدِيرُ عَلَى جَزَائِكُمْ بِمَا وَعَدْتُكُمْ وَأَوْعَدْتُكُمْ ، وَقَدْ وَعَدْتُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِأَنْ أُمَكِّنَ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَيْتُ لَهُمْ وَأُبَدِّلَهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ، وَإِنِّنِي لَا أُخْلِفُ الْمِيعَادَ .

وَالْآيَةُ تُرْشِدُنَا إِلَى أَنَّ صَاحِبَ الْحَقِّ هُوَ الَّذِي يُخْشَى جَانِبُهُ وَأَنَّ الْمُبْطِلَ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُخْشَى ؛ فَإِنَّ الْحَقَّ يَعْلُو وَلَا يُعْلَى ، وَمَا آفَةُ الْحَقِّ إِلَّا تَرْكُ أَهْلِهِ لَهُ ، وَخَوْفُهُمْ مِنْ أَهْلِ الْبَاطِلِ فِيهِ .

(123/70)

وَذَكَرَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ هُنَا مَنْ لَهُ شُبْهَةُ حَقٍّ كَصَاحِبِ النِّيَّةِ السَّلِيمَةِ يَشْتَبِهُ عَلَيْهِ الْأَمْرُ فَيَتْرُكُ الْحَقَّ لِأَنَّهُ عَمِيَ عَلَيْهِ ، وَلَوْ ظَهَرَ لَهُ لَأَخَذَ بِهِ ، وَهُوَ أَيْضًا لَا يُخْشَى جَانِبُهُ ، خِلَافًا لِمَا فَهِمَ بَعْضُ الطُّلَّابِ مِنْ كَلَامِ الْأُسْتَاذِ ، وَإِنَّمَا اسْتَثْنَاهُ مِنْ مُشَارَكَةِ الظَّالِمِينَ فِي عَدَمِ الْمُبَالَاةِ بِهِ ، فَأُولَئِكَ لَا يُخْشَوْنَ وَلَا يُبَالَى بِهِمْ ، وَهَذَا لَا يُخْشَى عَلَى الْحَقِّ وَلَكِنَّهُ يُبَالَى بِهِ ، وَيُعْتَنَى بِأَمْرِهِ بِتَوْضِيحِ السَّبِيلِ ، وَتَفْصِيلِ الدَّلِيلِ ، لِمَا يُرْجَى مِنْ قُرْبِ رُجُوعِهِ إِلَيْهِ إِذَا عَرَفَهُ ، وَقَوْلُهُ : (إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا) يَعُمُّ الْيَهُودَ وَمُشْرِكِي الْعَرَبِ وَالْمُنَافِقِينَ خِلَافًا لِمَنْ قَالُوا : إِنَّهُمُ الْمُشْرِكُونَ خَاصَّةً ، مَعَ أَنَّهُمْ فَسَّرُوا السُّفَهَاءَ بِمَا يَعُمُّ الْفَرِيقَيْنِ أَوِ الثَّلَاثَةَ ، وَمَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ ظَلَمُوا إِلَّا أُولَئِكَ السُّفَهَاءُ الَّذِينَ اعْتَرَضُوا .

(124/70)

ثُمَّ ذَكَرَ الْعِلَّةَ أَوِ الْحِكْمَةَ الثَّانِيَةَ فَقَالَ : (وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ) بِاسْتِقْلَالِ قِبْلَتِكُمْ فِي بَيْتِ رَبِّكُمُ الَّذِي بَنَاهُ جَدُّكُمْ ، وَجَعَلَ الْأُمَمَ فِيهَا تَبَعًا لَكُمْ ، وَبَيَانُهُ أَنَّ هَذَا النَّبِيَّ عَرَبِيٌّ مِنْ وَلَدِ إِبْرَاهِيمَ ، وَبِلِسَانِ الْعَرَبِ نَزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابُ ، وَهُمْ قَوْمُهُ الَّذِينَ بُعِثَ فِيهِمْ أَوَّلًا وَظَهَرَتْ دَعْوَتُهُ فِيهِمْ وَامْتَدَّتْ مِنْهُمْ وَبِهِمْ إِلَى سَائِرِ الْأُمَمِ ، وَكَانُوا إِذَا آمَنُوا يُحِبُّونَ أَنْ تَكُونَ وِجْهَتُهُمْ فِي

عِبَادَتِهِمْ بَيْتَهُمُ الْحَرَامَ ، وَأَنْ يُحْيُوا سُنَّةَ إِبْرَاهِيمَ بِتَطْهِيرِهِ مِنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ ؛ لِأَنَّهُ مَعْبَدُهُمْ وَأَشْرَفُ أَثَرٍ عِنْدَهُمْ ، يُنْسَبُ إِلَى أَبِيهِمْ إِبْرَاهِيمَ الَّذِي بَنَاهُ وَرَفَعَ قَوَاعِدَهُ لِعِبَادَةِ اللهِ تَعَالَى ، وَهُوَ شَرَفُهُمْ وَمَجْدُهُمْ ، وَمَوْطِنُ عِزِّهِمْ وَفَخْرِهِمْ ، فَأَتَمَّ اللهُ عَلَيْهِمُ النِّعْمَةَ بِإِعْطَائِهِمْ مَا يُحِبُّونَ ، وَتَوْجِيهِ جَمِيعِ شُعُوبِ الْإِسْلَامِ إِلَى بِلَادِهِمْ إِلَى أَنْ يَرِثَ اللهُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا ، وَفِي ذَلِكَ مِنَ الْفَوَائِدِ الْمَادِّيَّةِ وَالْمَعْنَوِيَّةِ مَا لَا يُحْصَى مِنَ النِّعَمِ . نَعَمْ ؛ إِنَّ كُلَّ أَمْرٍ مِنَ اللهِ تَعَالَى فَامْتِثَالُهُ نِعْمَةٌ ، وَلَكِنَّهُ إِذَا كَانَ فِيهِ حِكْمَةٌ ظَاهِرَةٌ وَشَرَفٌ لِلْأُمَّةِ يَتَعَلَّقُ بِتَارِيخِهَا الْمَاضِي وَبِمَجْدِهَا الْآتِي ، وَكَانَ أَثَرُهُ حَمِيدًا نَافِعًا فِيهَا ، تَكُونُ النِّعْمَةُ بِهِ أَتَمَّ وَالْمِنَّةُ أَكْمَلَ ؛ وَلِذَلِكَ عَبَّرَ بِالْإِتْمَامِ .

(125/70)

وَذَكَرَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ مِنَ الْحِكْمَةِ فِي جَعْلِ الْقِبْلَةِ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ بَيْتَ الْمَقْدِسِ : أَنَّ الْكَعْبَةَ كَانَتْ فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ مَشْغُولَةً بِالْأَصْنَامِ وَالْأَوْثَانِ ، وَكَانَ سُلْطَانُ أَهْلِ الشِّرْكِ مُتَمَكِّنًا فِيهَا ، وَالْأَمَلُ فِي انْكِشَافِهِ عَنْهَا بَعِيدًا فَصَرَفَهُ اللهُ أَوَّلًا عَنِ اسْتِقْبَالِ بَيْتٍ مُدَنَّسٍ بِعِبَادَةِ الشِّرْكِ – وَقَدْ كَانَ اللهُ أَمَرَ إِبْرَاهِيمَ بِتَطْهِيرِهِ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ – إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ

قِبْلَةِ الْيَهُودِ الَّذِينَ هُمْ أَقْرَبُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِلَى مَا جَاءَ بِهِ مِنَ التَّوْحِيدِ وَالتَّنْزِيهِ ، وَلَمَّا قَرُبَ زَمَنُ تَطْهِيرِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَوْثَانِ وَعِبَادَتِهَا وَإِزَالَةِ سُلْطَةِ الْوَثَنِيِّينَ عَنْهُ ، جَعَلَهُ اللهُ تَعَالَى قِبْلَةً

لِلْمُوَحِّدِينَ ; لِيُوَجِّهَ النُّفُوسَ إِلَيْهِ فَيَكُونُ ذَلِكَ مُقَدِّمَةً لِتَطْهِيرِهِ وَإِتْمَامِ النِّعْمَةِ بِالِاسْتِيلَاءِ عَلَيْهِ ، وَالسَّيْرِ فِيهِ عَلَى مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ مِنَ التَّوْحِيدِ وَالْعِبَادَةِ الصَّحِيحَةِ لِلَّهِ تَعَالَى وَحْدَهُ .

(126/70)

أَقُولُ : وَيُؤَيِّدُهُ مَا قَرَّرَهُ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ فِي تَفْسِيرِ الْإِتْمَامِ وَكَوْنِ تَحْوِيلِ الْقِبْلَةِ مُقَدِّمَةً لَهُ قَوْلُهُ تَعَالَى بَعْدَ ذِكْرِ فَتْحِ مَكَّةَ فِي سُورَةِ الْفَتْحِ : (وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا) (48 : 2) فَكَانَ فِي الْآيَةِ بِشَارَةٌ بِفَتْحِ مَكَّةَ ، وَنَصْرِ اللهِ التَّوْحِيدَ عَلَى الشِّرْكِ وَمَا يَتْلُو ذَلِكَ مِنْ نَشْرِ الْإِسْلَامِ ، وَانْتِشَارِ نُورِهِ فِي الْأَنَامِ ; وَلِذَلِكَ قَالَ فِي سُورَةِ الْفَتْحِ بَعْدَمَا ذَكَرَ : (وَيَنْصُرَكَ اللهُ نَصْرًا عَزِيزًا) (48 : 3) .

ثُمَّ ذَكَرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْحِكْمَةَ الثَّالِثَةَ لِتَحْوِيلِ الْقِبْلَةِ فَقَالَ : (وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) أَيْ : وَلْيُعِدَّكُمْ بِذَلِكَ إِلَى الِاهْتِدَاءِ بِالثَّبَاتِ عَلَى الْحَقِّ وَالرُّسُوخِ فِيهِ ، فَإِنَّ الْمُعَارَضَاتِ وَالْمَحَاجَّاتِ تُظْهِرُ ضَعْفَ الْبَاطِلِ وَزُهُوقَهُ ، وَتُبَيِّنُ قُوَّةَ الْحَقِّ وَثُبُوتَهُ ، فَالْحُجَّةُ تَتَبَخْتَرُ

اتّضَاحًا ، وَالشُّبْهَةُ تَتَضَاءَلُ افْتِضَاحًا ، وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْكَوْنِ بِأَنَّ الْفِتَنَ تُنِيرُ الطَّرِيقَ لِأَهْلِ الْحَقِّ ، وَتُرْخِي سُدُولَ ظُلْمَتِهِ عَلَى أَهْلِ الْبَاطِلِ ، وَتُمَحِّصُ الْمُؤْمِنِينَ ، وَتَمْحَقُ الْكَافِرِينَ .

(127/70)

كُلُّ إِنْسَانٍ يَرَى نَفْسَهُ عَلَى الْحَقِّ فِي الْجُمْلَةِ ، وَلَكِنَّ التَّمَكُّنَ فِي الْمَعْرِفَةِ وَالثَّبَاتِ عَلَى الْحَقِّ لَا يُعْرَفُ فِي الْغَالِبِ إِلَّا إِذَا وُجِدَ لِلْمُحِقِّ خَصْمٌ يُنَازِعُهُ وَيُعَارِضُهُ فِي الْحَقِّ ، هُنَالِكَ تَتَوَجَّهُ قُوَاهُ إِلَى تَأْيِيدِ حَقِّهِ وَتَمْكِينِهِ ، وَيُحِسُّ بِحَاجَتِهِ إِلَى الْمُنَاضَلَةِ دُونَهُ وَالثَّبَاتِ عَلَيْهِ ، وَكَثِيرًا مَا يُظْهِرُ الْبَاطِلُ الْحَقَّ بَعْدَ خَفَائِهِ ; فَإِنَّ الْمُعَارَضَةَ فِي الْحَقِّ تَحْمِلُ صَاحِبَهُ عَلَى تَنْقِيحِهِ وَتَحْرِيرِهِ وَتَنْقِيَتِهِ مِمَّا عَسَاهُ يَلْتَصِقُ بِهِ أَوْ يُجَاوِرُهُ مِنْ غَوَاشِي الْبَاطِلِ ، وَتَجْعَلُ عِلْمَهُ بِهِ مُفَصَّلًا بَعْدَ أَنْ كَانَ مُجْمَلًا ، وَمُبَرْهَنًا عَلَيْهِ بَعْدَ أَنْ كَانَ مُسَلَّمًا ، فَهِيَ مُدْرِجَةُ الْكَمَالِ لِأَهْلِ الْيَقِينِ ، وَمَزَلَّةُ الرَّيْبِ لِلْمُقَلِّدِينَ . قَالَ بَعْضُ الصُّوفِيَّةِ : جَزَى اللهُ أَعْدَاءَنَا عَنَّا خَيْرًا إِذْ لَوْلَاهُمْ مَا وَصَلْنَا إِلَى شَيْءٍ مِنْ مَقَامَاتِ الْقُرْبِ . وَقَالَ الشَّاعِرُ :

عِدَاتِي لَهُمْ فَضْلٌ عَلَيَّ وَمِنَّةٌ . . . فَلَا أَذْهَبَ الرَّحْمَنُ عَنِّي الْأَعَادِيَا

هُمُ بَحَثُوا عَنْ زَلَّتِي فَاجْتَنَبْتُهَا . . . وَهُمْ نَافَسُونِي فَاكْتَسَبْتُ الْمَعَالِيَا

(128/70)

ذَلِكَ بِأَنَّ الْعَدُوَّ يُنَقِّبُ عَنِ الزَّلَّاتِ ، وَيَبْحَثُ فِي الْهَفَوَاتِ ، وَطَالِبُ الْحَقِّ يَتَوَجَّهُ دَائِمًا إِلَى الِاسْتِفَادَةِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ، وَالنَّظَرِ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ إِلَى مَوْضِعِ الْعِبْرَةِ وَطَرِيقِ الْحَقِيقَةِ ، فَإِذَا وَجَدَ فِي كَلَامِ الْعَدُوِّ مَغْمَزًا صَحِيحًا تَوَقَّاهُ ، أَوْ عِثَارًا فِي طَرِيقِهِ نَحَّاهُ ، وَإِنْ ظَهَرَ لَهُ أَنَّهُ بَاطِلٌ ثَبَتَ عَلَى حَقِّهِ ، وَعَرَفَ مَنَافِذَ الطَّعْنِ فِيهِ فَسَدَّهَا ، فَكَانَ بِذَلِكَ مِنَ الْكَمَلَةِ الرَّاسِخِينَ ؛ لِهَذَا كُلِّهِ كَانَتِ الْفِتْنَةُ الَّتِي أَثَارَهَا السُّفَهَاءُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فِي مَسْأَلَةِ الْقِبْلَةِ مُعِدَّةً لِلِاهْتِدَاءِ وَوَسِيلَةً إِلَى الثَّبَاتِ عَلَى الْحَقِّ بَعْدَ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ وَالْحُجَجِ النَّاهِضَاتِ فِي بَيَانِهِ وَحِكْمَةِ اللهِ تَعَالَى فِيهِ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : (كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ) أَيْ : يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ بِاسْتِيلَائِكُمْ عَلَى بَيْتِهِ الَّذِي

(129/70)

جَعَلَهُ قِبْلَةً لَكُمْ ، وَتَطْهِيرِكُمْ إِيَّاهُ مِنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ وَالْأَوْثَانِ ، وَهُوَ الْبَيْتُ الَّذِي فِي قَلْبِ بِلَادِكُمْ ، وَمَوْضِعُ شَرَفِكُمْ وَفَخْرِكُمْ ، كَمَا أَتَمَّهَا عَلَيْكُمْ بِإِرْسَالِهِ رَسُولًا مِنْكُمْ ، فَالْقِبْلَةُ فِي بِلَادِكُمْ ، وَالرَّسُولُ مِنْ أُمَّتِكُمْ ، وَالْخِطَابُ لِلْعَرَبِ كَمَا هُوَ ظَاهِرٌ . ثُمَّ وَصَفَ هَذَا الرَّسُولَ

بِالْأَوْصَافِ الَّتِي كَانَ بِهَا نِعْمَةً تَامَّةً ، وَرَحْمَةً شَامِلَةً فَقَالَ : (يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا) الدَّالَّةَ عَلَى أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ مِنَ التَّوْحِيدِ وَالْهِدَايَةِ هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِ اللهِ ، وَهَذِهِ الْآيَاتُ أَعَمُّ مِنْ أَنْ تَكُونَ آيَاتِ الْقُرْآنِ أَوْ غَيْرَهَا مِنَ الدَّلَائِلِ وَالْبَرَاهِينِ عَلَى أُصُولِ الدِّينِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي تَفْسِيرِ الْآيَاتِ فِي دَعْوَةِ إِبْرَاهِيمَ بِأَنَّ الْآيَاتِ يَصِحُّ أَنْ يُرَادَ بِهَا الْآيَاتُ الْكَوْنِيَّةُ وَالْعَقْلِيَّةُ وَأَنْ يُرَادَ بِهَا آيَاتُ الْوَحْيِ ، وَالتَّعْمِيمُ أَوْلَى ، وَإِنَّمَا خَصَّهَا بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ بِآيَاتِ الْقُرْآنِ بِقَرِينَةِ (يَتْلُو) عَلَى أَنَّ التِّلَاوَةَ أَعَمُّ ، فَكُلُّ بُرْهَانٍ يُقِيمُهُ فَقَدْ تَلَا عَلَيْهِمْ عِبَارَتَهُ ، وَذَكَّرَ لَهُمْ فِيهِ آيَاتِ اللهِ فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ ، وَوَجْهُ الْمِنَّةِ أَنَّهُ يَقُودُهُمْ إِلَى الْحَقِّ بِالدَّلِيلِ وَالْبُرْهَانِ دُونَ التَّقْلِيدِ وَالتَّسْلِيمِ بِغَيْرِ فَهْمٍ وَلَا إِذْعَانٍ ،

وَالطَّرِيقَةُ الْأُولَى يَكُونُ بِهَا الْعَقْلُ مُسْتَقِلًّا ، وَالدِّينُ مُؤَيِّدًا لَهُ وَهَادِيًا ، لَا مُرْغِمًا وَلَا مُعَطِّلًا ، هَذَا مُلَخَّصُ مَا قَرَّرَهُ شَيْخُنَا .

(130/70)

وَالْمُخْتَارُ عِنْدَنَا أَنَّ الْمُرَادَ بِالْآيَاتِ آيَاتُ الْقُرْآنِ بِاعْتِبَارِ مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْآيَاتِ الْعَقْلِيَّةِ وَالْعِلْمِيَّةِ عَلَى أُصُولِ الْعَقَائِدِ وَالْقَوَاعِدِ ، فَهِيَ فِي نَفْسِهَا آيَةٌ عَلَى النُّبُوَّةِ وَالرِّسَالَةِ بِأَنْوَاعِ إِعْجَازِهَا الَّتِي تَقَدَّمَ بَيَانُهَا (ص 159 – 191 ج1) وَتَشْتَمِلُ عَلَى آيَاتٍ كَثِيرَةٍ ; عَلَى

التَّوْحِيدِ وَالْبَعْثِ وَأُصُولِ الْإِسْلَامِ كُلِّهَا .

الْآيَاتُ تَتَعَلَّقُ بِإِثْبَاتِ الْعَقَائِدِ وَأُصُولِ الدِّينِ وَهِيَ الْمَقْصِدُ الْأَوَّلُ ، وَيَلِيهَا تَهْذِيبُ الْأَخْلَاقِ ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ : (وَيُزَكِّيكُمْ) أَيْ : يُطَهِّرُ نُفُوسَكُمْ مِنَ الْأَخْلَاقِ السَّافِلَةِ ، وَالرَّذَائِلِ الْمَمْقُوتَةِ ، وَيُخَلِّقُهَا بِالْأَخْلَاقِ الْحَمِيدَةِ بِمَا لَكُمْ فِيهِ مِنْ حُسْنِ الْأُسْوَةِ لَا بِالْقَهْرِ وَالسَّطْوَةِ ، وَخَصَّ الْمُفَسِّرُ (الْجَلَالُ) التَّزْكِيَةَ بِالتَّطْهِيرِ مِنَ الشِّرْكِ .

(131/70)

قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : وَهَذَا لَا يَصِحُّ فَإِنَّ الْإِسْلَامَ كَمَا جَاءَ بِالتَّوْحِيدِ الْمَاحِي لِلشِّرْكِ ، جَاءَ بِالتَّهْذِيبِ الْمُطَهِّرِ مِنْ سَفْسَافِ الْأَخْلَاقِ وَقَبَائِحِ الْعَادَاتِ وَالْمَعَاصِي الَّتِي كَانَتْ فَاشِيَةً فِي الْعَرَبِ ، فَقَدْ كَانُوا يَئِدُونَ بَنَاتِهِمْ – يَدْفِنُونَهُنَّ حَيَّاتٍ – وَيَقْتُلُونَ أَوْلَادَهُمْ لِلتَّخَلُّصِ مِنَ النَّفَقَةِ عَلَيْهِمْ وَذَلِكَ نِهَايَةُ الْقَسْوَةِ وَالشُّحِّ ، وَكَانُوا يَسْفِكُونَ الدِّمَاءَ فِيمَا بَيْنَهُمْ لِأَهْوَنِ سَبَبٍ يُثِيرُ حَمِيَّتَهُمُ الْجَاهِلِيَّةَ ؛ وَلِمَا اعْتَادُوهُ مِنَ الْبَغْيِ فِي الثَّارَاتِ وَمِنْ شَنِّ الْغَارَاتِ وَنَهْبِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا ، وَكَانَ عِنْدَهُمْ مِنَ التَّسَفُّلِ أَنَّ أَحَدَهُمْ يَتَزَوَّجُ زَوْجَ أَبِيهِ أَوْ يَعْضِلُهَا حَتَّى تَفْتَدِيَ مِنْهُ ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ . وَقَدْ زَكَّاهُمُ النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ بِاقْتِدَائِهِمْ بِأَخْلَاقِهِ الْعَظِيمَةِ فِي عِبَادَاتِهِ الْكَامِلَةِ وَآدَابِهِ الْعَالِيَةِ ، وَجَمْعِهِمْ بَعْدَ تِلْكَ الْفُرْقَةِ ، وَأَلَّفَ اللَّهُ

بَيْنَهُمْ عَلَى يَدَيْهِ حَتَّى صَارُوا كَرَجُلٍ وَاحِدٍ ، وَجَعَلَتْ شَرِيعَتُهُ ذِمَّتَهُمْ وَاحِدَةً يَسْعَى بِهَا أَدْنَاهُمْ ، فَإِذَا أَعْطَى مَوْلًى أَوْ رَقِيقٌ لَهُمْ أَمَانًا لِأَيِّ إِنْسَانٍ مُحَارِبٍ كَانَ ذَلِكَ كَتَأْمِينِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ لَهُ ، فَأَيُّ تَزْكِيَةٍ أَعْلَى مِنْ هَذِهِ التَّزْكِيَةِ ؟ .

(132/70)

وَأَقُولُ : إِنَّهُمْ بِزَكَاةِ أَنْفُسِهِمْ هَذِهِ فَتَحُوا الْعَالَمَ وَكَانُوا أَئِمَّةَ أُمَمِ الْمَدَنِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ تَحْتَقِرُ جِنْسَهُمْ كُلَّهُ ، فَإِنَّ الْأَعَاجِمَ إِنَّمَا عَرَفُوا فَضْلَ الْإِسْلَامِ بِعَدْلِهِمْ وَفَضْلِهِمْ فِي فُتُوحِهِمْ ، وَمَا فَهِمُوا الْقُرْآنَ إِلَّا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَتَعَلُّمِهِمُ الْعَرَبِيَّةَ . وَالرَّسُولُ الَّذِي زَكَّى هَذِهِ الْأُمَّةَ الَّتِي زَكَّتْ أُمَمًا كَثِيرَةً حَقِيقٌ بِأَنْ تَكُونَ نَفْسُهُ أَزْكَى الْأَنْفُسِ وَأَكْمَلَهَا ، وَلَكِنَّنَا عَلِمْنَا أَنَّ بَعْضَ دُعَاةِ النَّصْرَانِيَّةِ يَسْتَدِلُّ بِآيَةِ (لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا) (19 : 19) عَلَى تَفْضِيلِ عِيسَى عَلَى مُحَمَّدٍ – عَلَيْهِمَا السَّلَامُ – وَوَصْفُ الْغُلَامِ بِالزَّكِيِّ لَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ أَفْضَلُ مِنْ سَائِرِ الْغِلْمَانِ ، فَضْلًا عَمَّنْ زَكَّى الْأَنَامَ . وَقَدْ قَالَ تَعَالَى فِي قِصَّةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَ الْعَبْدِ الَّذِي عَلَّمَهُ مِنْ لَدُنْهُ عِلْمًا (أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ) (18 : 74) الْآيَةَ ، فَهَلْ يَزْعُمُونَ أَنَّ هَذَا الْغُلَامَ أَفْضَلُ مِنْ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ؛ لِأَنَّهُمَا لَمْ يُوصَفَا بِوَصْفِهِ ؟

(133/70)

وَبَعْدَ ذِكْرِ التَّرْبِيَةِ الْعَمَلِيَّةِ بِالْأُسْوَةِ الْحَسَنَةِ ذَكَرَ أَمْرَ التَّعْلِيمِ فَقَالَ : (وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ) أَيِ : الْكِتَابَ الْإِلَهِيَّ ، أَوِ الْكِتَابَةَ الَّتِي تَخْرُجُونَ بِهَا مِنْ ظُلْمَةِ الْأُمِّيَّةِ وَالْجَهْلِ إِلَى نُورِ الْعِلْمِ وَالْحَضَارَةِ ، وَيَجُوزُ الْجَمْعُ بَيْنَ الْمَعْنَيَيْنِ عَلَى الْقَوْلِ الصَّحِيحِ بِاسْتِعْمَالِ الْمُشْتَرَكِ فِي مَعْنَيَيْهِ أَوْ فِيمَا يَقْتَضِيهِ الْمَقَامُ مِنْ مَعَانِيهِ ، وَأَمَّا الْحِكْمَةُ : فَهِيَ الْعِلْمُ الْمُقْتَرِنُ بِأَسْرَارِ الْأَحْكَامِ وَمَنَافِعِهَا ، الْبَاعِثُ عَلَى الْعَمَلِ ، وَفَسَّرَهَا بَعْضُهُمْ بِالسُّنَّةِ .

(134/70)

(أَقُولُ) : وَهُوَ غَلَطٌ فَإِنَّهَا أُطْلِقَتْ عَلَى بَعْضِ نُصُوصِ الْكِتَابِ كَالْعَقَائِدِ وَالْفَضَائِلِ وَالْأَحْكَامِ الْإِيجَابِيَّةِ وَالسَّلْبِيَّةِ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى بَعْدَ الْوَصَايَا الْمَقْرُونَةِ بِعِلَلِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ مِنْ سُورَةِ الْإِسْرَاءِ : (ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ) (17 : 39) وَفِي سُورَةِ لُقْمَانَ أَنَّ اللهَ آتَاهُ الْحِكْمَةَ وَذَكَرَ مِنْهَا وَصَايَاهُ لِابْنِهِ الْمُعَلَّلَةَ بِأَسْبَابِ النَّهْيِ (رَاجِعْ 31 : 12 - 19 الْآيَاتِ) فَحِكْمَةُ الْقُرْآنِ أَعْلَى الْحِكَمِ ، وَتَلِيهَا حِكْمَةُ الرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، وَقَالَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : (لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ : رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالًا فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الْحَقِّ ، وَرَجُلٌ آتَاهُ الْحِكْمَةَ فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا) رَوَاهُ الشَّيْخَانِ مِنْ حَدِيثِ

ابْنِ مَسْعُودٍ ، وَفِي بَعْضِ رِوَايَاتِهِ : (فَهُوَ يَعْمَلُ بِهَا وَيُعَلِّمُهَا النَّاسَ) وَفِي لَفْظٍ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ (الْقُرْآنَ) بَدَلَ (الْحِكْمَةَ) .

(135/70)

وَقَدْ تَقَدَّمَ مَا قَالَهُ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ فِي هَذِهِ الْكَلِمَاتِ فِي دُعَاءِ إِبْرَاهِيمَ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَجَاءَ هُنَا بِتَفْصِيلٍ فِي مَعْنَى الْحِكْمَةِ لَمْ يُذْكَرْ هُنَاكَ ، فَقَالَ مَا مِثَالُهُ : دَعَا الْقُرْآنُ إِلَى التَّوْحِيدِ وَأُمَّهَاتِ الْفَضَائِلِ وَبَيَّنَ أُصُولَ الْأَحْكَامِ ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يُفَصِّلْ سِيرَةَ الْمُلُوكِ وَالرُّؤَسَاءِ مَعَ السُّوقَةِ وَالْمَرْءُوسِينَ ، وَلَمْ يُفَصِّلْ سِيرَةَ الرَّجُلِ مَعَ أَهْلِ بَيْتِهِ فِي الْجُزْئِيَّاتِ وَهُوَ مَا يُسَمُّونَهُ نِظَامَ الْبُيُوتِ – الْعَائِلَاتِ – وَلَمْ يُفَصِّلْ طُرُقَ الْأَحْكَامِ الْقَضَائِيَّةِ وَالْمَدَنِيَّةِ وَالْحَرْبِيَّةِ ، وَذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ الْأُمُورَ يَنْبَغِي أَنْ تُؤْخَذَ بِالْأُسْوَةِ وَالْعَمَلِ بَعْدَ مَعْرِفَةِ الْقَوَاعِدِ الْعَامَّةِ الَّتِي جَاءَتْ فِي الْكِتَابِ ، وَلِذَلِكَ كَانَتِ

(136/70)

السُّنَّةُ هِيَ الْمُبَيِّنَةُ لِذَلِكَ بِالتَّفْصِيلِ بِسِيرَةِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فِي بُيُوتِهِ وَمَعَ أَصْحَابِهِ فِي السِّلْمِ وَالْحَرْبِ وَالسَّفَرِ وَالْإِقَامَةِ ، وَفِي حَالِ الضَّعْفِ وَالْقُوَّةِ وَالْقِلَّةِ وَالْكَثْرَةِ ; فَالسُّنَّةُ الْعَمَلِيَّةُ الْمُتَوَاتِرَةُ هِيَ الْمُبَيِّنَةُ لِلْقُرْآنِ بِتَفْصِيلِ مُجْمَلِهِ وَبَيَانِ مُبْهَمِهِ ، وَإِظْهَارِ مَا فِي أَحْكَامِهِ مِنَ الْأَسْرَارِ وَالْمَنَافِعِ ; وَلِهَذَا أَطْلَقَ عَلَيْهَا لَفْظَ الْحِكْمَةِ فَإِنَّهَا كَانَتْ كَالْحِكْمَةِ – بِالتَّحْرِيكِ – لِتَأْدِيبِ الْفَرَسِ ، وَلَوْلَا هَذِهِ التَّرْبِيَةُ بِالْعَمَلِ لَمَا كَانَ الْإِرْشَادُ الْقَوْلِيُّ كَافِيًا فِي انْتِقَالِ الْأُمَّةِ الْعَرَبِيَّةِ مِنْ طَوْرِ الشَّتَاتِ وَالْفُرْقَةِ وَالْعَدَاءِ وَالْجَهْلِ وَالْأُمِّيَّةِ إِلَى الِائْتِلَافِ وَالِاتِّحَادِ وَالتَّآخِي وَالْعِلْمِ وَسِيَاسَةِ الْأُمَمِ ، فَالسُّنَّةُ هِيَ الَّتِي عَلَّمَتْهُمْ كَيْفَ يَهْتَدُونَ بِالْقُرْآنِ ، وَمَرَّنَتْهُمْ عَلَى الْعَدْلِ وَالِاعْتِدَالِ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ .

(137/70)

كُلُّنَا يَعْرِفُ الْحَلَالَ وَالْحَرَامَ وَالْفَضِيلَةَ وَالرَّذِيلَةَ ، وَقَلَّمَا تَرَى أَحَدًا عَامِلًا بِعِلْمِهِ ، وَإِنَّمَا السَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْأَكْثَرِينَ يَعْرِفُونَ الْحُكْمَ يَرَوْنَ حِكْمَتَهُ ، وَدُونَ الْأُسْوَةِ الْحَسَنَةِ فِي الْعَمَلِ بِهِ ، فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ لِمَ كَانَ هَذَا حَرَامًا ؟ وَلَا تَنْفُذُ أَفْهَامُهُمْ فِي أَعْمَاقِ الْحُكْمِ فَتَصِلُ إِلَى فِقْهِهِ وَسِرِّهِ ، فَتَعْلَمُ عِلْمًا تَفْصِيلِيًّا مَا وَرَاءَ الْمُحَرَّمِ مِنَ الضَّرَرِ لِمُرْتَكِبِهِ وَلِلنَّاسِ ، وَمَا وَرَاءَ الْوَاجِبَاتِ وَالْمَنْدُوبَاتِ مِنَ الْمَنَافِعِ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ . وَلَوْ عَلِمُوا ذَلِكَ وَفَقِهُوهُ بِالتَّرْبِيَةِ عَلَيْهِ

وَمُلَاحَظَةِ آثَارِهِ وَالِاقْتِدَاءِ بِالْمُعَلِّمِينَ وَالْمُرَبِّينَ فِي الْعَمَلِ بِهِ - كَمَا أَخَذَ الصَّحَابَةُ عَنِ الرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَخَرَجُوا مِنْ ظُلْمَةِ الْإِجْمَالِ وَالْإِبْهَامِ فِي الْمَعْرِفَةِ إِلَى نُورِ التَّجَلِّي وَالتَّفْصِيلِ ، حَتَّى تَكُونَ الْجُزْئِيَّاتُ مُشْرِقَةً وَاضِحَةً ، وَلَكَانَ هَذَا الْعِلْمُ مُعِينًا لَهُمْ عَلَى إِحْلَالِ الْحَلَالِ بِالْعَمَلِ ، وَتَحْرِيمِ الْحَرَامِ بِالتَّرْكِ ، فَقَدْ وَقَفَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَصْحَابَهُ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ) عَلَى فِقْهِ الدِّينِ وَنَفَذَ بِهِمْ إِلَى سِرِّهِ ، فَكَانُوا حُكَمَاءَ عُلَمَاءَ ، عُدُولًا نُجَبَاءَ ، حَتَّى أَنْ كَانَ أَحَدُهُمْ لَيَحْكُمُ الْمَمْلَكَةَ الْعَظِيمَةَ فَيُقِيمُ فِيهَا الْعَدْلَ وَيُحْسِنُ السِّيَاسَةَ وَهُوَ لَمْ يَحْفَظْ مِنَ الْقُرْآنِ إِلَّا بَعْضَهُ ، وَلَكِنَّهُ فَقِهَهُ حَقَّ فِقْهِهِ . وَهَذَا الْمَعْنَى - فِقْهُ الدِّينِ وَمَعْرِفَةُ

(138/70)

أَسْرَارِ الْأَحْكَامِ - غَيْرُ التَّزْكِيَةِ ، بَيْدَ أَنَّهُ يَتَّصِلُ بِهَا وَيُعِينُ عَلَيْهَا ، حَتَّى يُطَابِقَ الْعِلْمُ الْعَمَلَ ، فَهَذِهِ الْآيَةُ نَبَأٌ عَنِ اسْتِجَابَةِ دَعْوَةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ (رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ) (2 : 129) الْآيَةَ .

وَقَدْ تَقَدَّمَ هُنَاكَ ذِكْرُ تَعْلِيمِ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ عَلَى التَّزْكِيَةِ ، وَقَدَّمَ هُنَا ذِكْرَ التَّزْكِيَةِ عَلَى تَعْلِيمِ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ ، وَالنُّكْتَةُ فِي ذَلِكَ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَاحَظَ فِي دَعْوَتِهِ الطَّرِيقَ

الطَّبِيعِيَّ وَهُوَ أَنَّ التَّعْلِيمَ يَكُونُ أَوَّلًا ثُمَّ تَكُونُ التَّزْكِيَةُ ثَمَرَةً لَهُ وَنَتِيجَةً ، وَهَا هُنَا ذَكَرَ التَّرْتِيبَ بِحَسَبِ الْوُجُودِ وَالْوُقُوعِ ، وَذَلِكَ أَنَّ أَوَّلَ شَيْءٍ فَعَلَهُ النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – هُوَ أَنْ دَعَا النَّاسَ إلَى الْإِيمَانِ بِمَا تَلَا عَلَيْهِمْ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى وَدَلَائِلِ تَوْحِيدِهِ ، وَإِلَى الِاعْتِقَادِ بِإِعَادَةِ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ يُحَاسِبُ اللَّهُ فِيهِ كُلَّ نَفْسٍ وَيَجْزِيهَا بِعَمَلِهَا وَصِفَاتِهَا ، فَأَجَابَ النَّاسُ دَعْوَتَهُ بِالتَّدْرِيجِ ، وَكُلُّ مَنْ آمَنَ لَهُ كَانَ يَقْتَدِي بِهِ فِي أَخْلَاقِهِ وَأَعْمَالِهِ ، وَلَمْ تَكُنْ هُنَالِكَ أَحْكَامٌ وَلَا شَرَائِعُ ، ثُمَّ شُرِعَتِ الْأَحْكَامُ بِالتَّدْرِيجِ ، فَالتَّزْكِيَةُ بِالتَّأَسِّي بِهِ – عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ – كَانَتْ مُتَأَخِّرَةً عَنْ إقَامَةِ الْآيَاتِ وَالدَّلَائِلِ عَلَى أُصُولِ الْإِيمَانِ ، وَمُقَدَّمَةً عَلَى تَلَقِّي الشَّرَائِعِ وَالتَّفَقُّهِ فِي الْأَحْكَامِ .

(139/70)

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : (وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ) أَيْ : وَيُعَلِّمُكُمْ مَعَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ مَا لَمْ يَسْبِقْ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ مِنْ شُئُونِ الْعَالَمِ وَنِظَامِ الْبُيُوتِ وَالْمُعَاشَرَةِ الزَّوْجِيَّةِ وَسِيَاسَةِ الْحُرُوبِ وَالْأُمَمِ . وَقَالَ الْبَيْضَاوِيُّ وَغَيْرُهُ : مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَهُ بِالنَّظَرِ وَالْفِكْرِ ، إذْ لَا سَبِيلَ لِمَعْرِفَتِهِ سِوَى الْوَحْيِ ، وَكَرَّرَ الْفِعْلَ لِيَدُلَّ عَلَى أَنَّهُ جِنْسٌ آخَرُ اهـ . يَعْنِي : كَأَخْبَارِ عَالَمِ الْغَيْبِ وَسِيرَةِ الْأَنْبِيَاءِ ، وَأَحْوَالِ الْأُمَمِ الَّتِي كَانَتْ مَجْهُولَةً عِنْدَكُمْ ، وَكَثِيرٌ مِنْهَا كَانَ مَجْهُولًا عِنْدَ

أَهْلِ الْكِتَابِ أَيْضًا ؛ فَإِنَّهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - صَحَّحَ أَغْلَاطَهُمْ ، وَبَيَّنَ سَقَاطَهُمْ ، وَخَصَّ هَذَا بِالذِّكْرِ - وَإِنْ كَانَ مِمَّا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابُ - اهْتِمَامًا بِهِ وَتَنْوِيهًا بِشَأْنِهِ ، وَلَكِنَّ تَكْرَارَ الْفِعْلِ وَعَطْفَهُ يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ هَذَا غَيْرَ مَا قَبْلَهُ .

(140/70)

قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : وَيَصِحُّ أَنْ يُرَادَ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ مِنْ شُئُونِ أَنْفُسِكُمْ ، وَالسُّنَنِ الْإِلَهِيَّةِ الْحَاكِمَةِ فِيكُمْ ، وَقَدْ بَلَغُوا بِتَعْلِيمِهِ وَإِرْشَادِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مَبْلَغًا فَاقُوا فِيهِ سَائِرَ الْأُمَمِ ؛ أَيْ : فَالتَّعْلِيمُ لَيْسَ مَحْصُورًا فِي الْكِتَابِ بَلْ هُنَاكَ زِيَادَةٌ أَعَدَّ اللَّهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ لِتَبْيِينِهَا ، وَالْمُقَابَلَةُ بَيْنَ هَذَا التَّعْلِيمِ وَتَعْلِيمِ الْكِتَابِ مَبْنِيَّةٌ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالْكِتَابِ : الْقُرْآنُ ، وَبِالْآيَاتِ : الدَّلَائِلُ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ فِيهِ وَجْهٌ آخَرُ وَهُوَ أَنَّهُ مَصْدَرُ كَتَبَ أَيْ : وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَةَ بَعْدَ أَنْ كُنْتُمْ أُمِّيِّينَ .

(فَاذْكُرُونِي) فِي قُلُوبِكُمْ بِمَا شَرَعْتُ مِنْ أَمْرِ الْقِبْلَةِ لِلْفَوَائِدِ الثَّلَاثِ الَّتِي تَقَدَّمَ شَرْحُهَا ، وَبِمَا أَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ مِنَ النِّعْمَةِ بِإِرْسَالِ رَسُولٍ مِنْكُمْ يُعَلِّمُكُمْ وَيُزَكِّيكُمْ ، وَبِكُلِّ مَا أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ مِنْ ثَمَرَاتِ ذَلِكَ ، وَلَا تَنْسَوْا أَنِّي أَنَا الْمُتَفَضِّلُ بِإِفَاضَةِ هَذِهِ النِّعَمِ عَلَيْكُمْ

(141/70)

(أَذْكُرْكُمْ) بِإِدَامَتِهَا وَتَمْكِينِهَا وَالزِّيَادَةِ عَلَيْهَا مِنَ النَّصْرِ وَالسُّلْطَانِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَسْبَابِ السَّعَادَةِ ، وَاذْكُرُونِي بِأَلْسِنَتِكُمْ بِأَسْمَائِي الْحُسْنَى ، وَالتَّحَدُّثِ بِنِعَمِي الَّتِي لَا تُحْصَى ، وَالثَّنَاءِ عَلَيَّ بِهَا سِرًّا وَجَهْرًا ، أَذْكُرْكُمْ فِي الْمَلَأِ الْأَعْلَى بِرِضَائِي عَنْكُمْ وَقُرْبِي مِنْكُمْ . فَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : (يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي وَأَنَا مَعَهُ ، إِذَا ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي ، وَإِذَا ذَكَرَنِي فِي مَلَأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأٍ خَيْرٍ مِنْهُ ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا) إِلَى آخِرِ الْحَدِيثِ .

(142/70)

وَقَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : هَذِهِ الْكَلِمَةُ مِنَ اللهِ تَعَالَى كَبِيرَةٌ جِدًّا كَأَنَّهُ يَقُولُ : إِنَّنِي أُعَامِلُكُمْ بِمَا تُعَامِلُونَنِي بِهِ ، وَهُوَ الرَّبُّ وَنَحْنُ الْعَبِيدُ ، وَهُوَ الْغَنِيُّ عَنَّا وَنَحْنُ الْفُقَرَاءُ إِلَيْهِ ؛ أَيْ : وَهَذِهِ أَفْضَلُ تَرْبِيَةٍ مِنَ اللهِ تَعَالَى لِعِبَادِهِ : إِذَا ذَكَرُوهُ ذَكَرَهُمْ بِإِدَامَةِ النِّعْمَةِ وَالْفَضْلِ ، وَإِذَا نَسُوهُ نَسِيَهُمْ وَعَاقَبَهُمْ بِمُقْتَضَى الْعَدْلِ . ثُمَّ بَعْدَ أَنْ عَلَّمَهُمْ مَا يَحْفَظُ النِّعَمَ أَرْشَدَهُمْ إِلَى مَا يُوجِبُ الْمَزِيدَ بِمُقْتَضَى الْجُودِ وَالْكَرَمِ فَقَالَ : (وَاشْكُرُوا لِي) هَذِهِ النِّعَمَ بِالْعَمَلِ بِهَا وَتَوْجِيهِهَا إِلَى مَا وُجِدَتْ لِأَجْلِهِ (وَلَا تَكْفُرُونِ) أَيْ : لَا تَكْفُرُوا نِعَمِي بِإِهْمَالِهَا أَوْ صَرْفِهَا إِلَى غَيْرِ مَا وُجِدَتْ

لِأَجْلِهِ بِحَسَبِ الشَّرْعِ وَالسُّنَنِ الْإِلَهِيَّةِ ، وَهَذَا تَحْذِيرٌ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ مِمَّا وَقَعَتْ فِيهِ الْأُمَمُ السَّالِفَةُ إِذْ كَفَرَتْ بِنِعَمِ اللهِ تَعَالَى فَحَوَّلَتِ الدِّينَ عَنْ قُطْبِهِ الَّذِي يَدُورُ عَلَيْهِ وَهُوَ الْإِخْلَاصُ وَإِسْلَامُ الْوَجْهِ لِلَّهِ وَحْدَهُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ الْمُصْلِحُ لِلْأَفْرَادِ وَالِاجْتِمَاعِ ،

(143/70)

وَعَطَّلَتْ مَا أَعْطَاهَا اللهُ مِنْ مَوَاهِبِ الْمَشَاعِرِ وَالْعَقْلِ وَالْمُلْكِ فَلَمْ تَسْتَعْمِلْهَا فِيمَا خُلِقَتْ لَهُ ، وَهَكَذَا انْحَرَفُوا بِكُلِّ شَيْءٍ عَنْ أَصْلِهِ ، فَسَلَبَهُمُ اللهُ مَا كَانَ وَهَبَهُمْ تَأْدِيبًا لَهُمْ وَلِغَيْرِهِمْ ، ثُمَّ رَحِمَهُمْ بِأَنْ أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ خَاتَمَ النَّبِيِّينَ بِهِدَايَةٍ عَامَّةٍ تُعَرِّفُهُمْ وَجْهَ تِلْكَ الْعُقُوبَاتِ الْإِلَهِيَّةِ وَتُحَذِّرُهُمُ الْعَوْدَ إِلَى أَسْبَابِهَا ، وَقَدِ امْتَثَلَ الْمُسْلِمُونَ هَذِهِ الْأَوَامِرَ زَمَنًا قَصِيرًا فَسَعِدُوا ، ثُمَّ تَرَكُوهَا بِالتَّدْرِيجِ فَحَلَّ بِهِمْ مَا نَرَى كَمَا قَالَ : (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ) (14 : 7) فَإِذَا عَادُوا عَادَ اللهُ عَلَيْهِمْ بِمَا كَانَ أَعْطَى سَلَفَهُمْ وَإِلَّا كَانُوا مِنَ الْهَالِكِينَ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير المنار حـ 2 صـ 15 . 27 ﴾

(144/70)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ (152) ﴾

قوله تعالى : " فاذكروني " أي كل هذه النعم والفضل عليكم يجب ألا تنسوها . . أن تعيشوا دائما في ذكر من أنعم عليكم . . فالله سبحانه وتعالى يريد من عباده الذكر وهم كلما ذكروه سبحانه وشركوه شكرهم وزادهم . . والله سبحانه وتعالى يقول في حديث قدسي :

(أنا عند حسن ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه ، وأن تقرب إلي بشبر تقربت إلي ذراعاً وإن تقرب إلي ذراعاً تقربت إليه باعاً وإن أتاني يمشي أتيته هرولة) اخرجه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى وإبن ماجة وأحمد فى مسنده بألفاظ مختلفة .

هذه هي رغبة الكريم في أن يعطي بشريط أن نكون أهلا للعطاء لأنه يريد أن يعطيك أكثر وأكثر . . فقوله تعالى : " اذكروني " أي اذكروا الله في كل شيء . في نعمه . في عطائه . في ستره . في رحمته . في توبته . يقول بعض الصالحين : سمعت فيمن سمع عن حبيبي رسول الله صلى الله عليه وسلم أنك إذا ما أقبلت على شرب الماء فقسمه ثلاثا . . أول جرعة قبل باسم الله واشربها ، ثم قل الحمد لله وابدأ شرب الجرعة الثانية قل باسم الله وبعد الانتهاء

منها قل الحمد لله . . ثم قل باسم الله واشرب الجرعة الثالثة واختمها بقولك الحمد لله .

فمادام هذه الماء في جوفك فلن تحدثك ذرة من جسدك بمعصية الله . جربها يوما في نفسك

وقل باسم الله واشرب ، وقل الحمد لله وكررها ثلاث مرات فإنك تكون قد استقبلت

النعمة بذكر المنعم وأبعدت عن نفسك حولك وقوتك ، وأنهيت النعمة بحمد الله . ولكن

لماذا الماء ؟ لأن الماء في الجوف أشبع من أي شيء آخر .

قوله تعالى : " واشكروا لي ولا تكفرون" الشكر على النعمة يجعل الله سبحانه وتعالى

يزيدك منها . واقرأ قوله تبارك وتعالى :

لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ

(145/70)

(من الآية 7 سورة إبراهيم)

وشكر الله يذهب الغرور عن نفسك فلا تفتنك الأسباب وتقول أوتيته على علم مني . "

ولا تكفرون" أي لا تستروا نعم الله بل اجعلوها دائما على ألسنتكم . . فإن كل نعمة من

نعم الله لو استقبلت بقولك " ما شاء الله لا قوة إلا بالله" لا ترى في النعمة مكروها أبدا لأنك

حصنت النعمة بسياج المنعم . . أعطيت لله حقه في نعمته فإن لم تفعل وتركتها كأنها منك

وأنت موجدها ونسيت المنعم وهو الله سبحانه وتعالى فإن النعمة تتركك . انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 646. 647 ﴾

(146/70)

" فصل "

قال السيوطى :

كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (151)

أخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية في قوله ﴿ كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم ﴾ يقول : كما فعلت فاذكروني .

فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ (152)

أخرج عبد بن حميد وابن جرير عن سعيد بن جبير في قوله ﴿ فاذكروني أذكركم ﴾ قال : اذكروني بطاعتي أذكركم بمغفرتي .

وأخرج أبو الشيخ والديلمي من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ فاذكروني أذكركم ﴾ يقول : اذكروني يا معاشر العباد

بطاعتي أذكركم بمغفرتي " .

وأخرج ابن لال والديلمي وابن عساكر عن أبي هند الداري " عن النبي صلى الله عليه وسلم قال الله : اذكروني بطاعتي أذكركم بمغفرتي ، فمن ذكرني وهو مطيع فحق علي أن أذكره بمغفرتي ، ومن ذكرني وهو لي عاص فحق علي أن أذكره بمقت " .

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة في قوله ﴿ اذكروني أذكركم ﴾ قال : قال ابن عباس : يقول الله " ذكري لكم خير من ذكركم لي " .

وأخرج الطبراني في الأوسط وأبو نعيم عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم يقول الله " يا ابن آدم إنك إذا ما ذكرتني شكرتني ، وإذا ما نسيتني كفرتني " .

وأخرج ابن أبي الدنيا وابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الإيمان عن زيد بن أسلم . أن موسى عليه السلام قال : يا رب أخبرني كيف أشكرك ؟ قال " تذكرني ولا تنساني ، فإن ذكرتني شكرتني ، وإذا نسيتني فقد كفرتني " .

وأخرج الطبراني وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من أعطى أربعاً أعطي أربعاً ، وتفسير ذلك في كتاب الله من

أعطي الذكر ذكره الله لأن الله يقول ﴿ اذكروني أذكركم ﴾ ، ومن أعطي الدعاء أعطي الإِجابة لأن الله يقول ﴿ ادعوني أستجب لكم ﴾ [غافر : 60] ، ومن أعطي الشكر أعطي الزيادة لأن الله يقول ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ﴾ [إبراهيم : 7] ، ومن أعطي الاستغفار أعطي المغفرة لأن الله يقول ﴿ استغفروا ربكم إنه كان غفاراً ﴾ [نوح : 10] " .

وأخرج ابن جرير عن السدي في قوله تعالى ﴿ فاذكروني أذكركم ﴾ قال : ليس من عبد يذكر الله إلا ذكره الله لا يذكره مؤمن إلا ذكره برحمة ، ولا يذكره كافر إلا ذكره بعذاب .

وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف وأحمد في الزهد والبيهقي في شعب الإِيمان عن ابن عباس قال : أوحى الله إلى داود " قل للظلمة لا يذكروني فإن حقاً عليّ أذكر من ذكرني ، وأن ذكري إياهم أن ألعنهم " .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن ابن عمر . أنه قيل له : أرأيت قاتل النفس وشارب الخمر والزاني يذكر الله وقد قال الله ﴿ فاذكروني أذكركم ﴾ ؟ قال : إذا ذكر الله هذا ذكره الله بلعنته حتى يسكت .

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر والبيهقي في شعب الإِيمان عن خالد بن أبي عمران قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

" من أطاع الله فقد ذكر الله وإن قلت صلاته وصيامه وتلاوته القرآن ، ومن عصى الله فقد نسي الله وإن كثرت صلاته وصيامه وتلاوته للقرآن " .

(148/70)

وأخرج أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجة والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " يقول الله : أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم ، وإن تقرب إلي شبراً تقربت إليه ذراعاً ، وإن تقرب إليّ ذراعاً تقربت إليه باعاً ، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة " .

وأخرج أحمد والبيهقي في الأسماء والصفات عن أنس " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : قال الله عز وجل : يا ابن آدم إذا ذكرتني في نفسك ذكرتك في نفسي ، وإن ذكرتني في ملأ ذكرتك في ملأ من الملائكة . أو قال : في ملأ خير منهم ، وإن دنوت مني شبراً دنوت منك باعاً ، وإن أتيتني تمشي أتيتك بهرولة " .

وأخرج الطبراني عن معاذ بن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " قال الله عز وجل ذكره : لا يذكرني أحد في نفسه إلا ذكرته في ملأ من ملائكتي ، ولا يذكرني في ملأ إلا

ذكرته في الرفيق الأعلى " .

وأخرج ابن أبي الدنيا في الذكر والبزار والبيهقي عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " قال الله : يا ابن آدم إذا ذكرتني خالياً ذكرتك خالياً ، وإذا ذكرتني في ملأ ذكرتك في ملأ خير من الذين تذكرني فيهم وأكثر " .

وأخرج ابن ماجة وابن حبان والبيهقي عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " إن الله عز وجل يقول : أنا مع عبدي إذا هو ذكرني وتحركت بي شفتاه " .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد والترمذي وحسنه وابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححه والبيهقي عن عبد الله بن بسر " أن رجلاً قال : يا رسول الله إن شرائع الإِسلام قد كثرت علي فأخبرني بشيء أستن به ، قال : " لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله " .

(149/70)

وأخرج ابن أبي الدنيا والبزار وابن حبان والطبراني والبيهقي عن مالك بن يخامر ، أن معاذ بن جبل قال لهم " إن آخر كلام فارقت عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قلت : أي الأعمال أحب إلى الله ؟ قال : أن تموت ولسانك رطب من ذكر الله " .

وأخرج ابن أبي الدنيا عن أبي المخارق قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم " مررت ليلة

أسري بي برجل في نور العرش قلت : من هذا ، ملك ؟ ! قيل : لا . قلت : نبي . . ؟ قيل : لا . قلت : من هذا ؟ قال : هذا رجل كان في الدنيا لسانه رطب من ذكر الله ، وقلبه معلق بالمساجد ، ولم يستسب لوالديه " .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد في الزهد وابن أبي الدنيا عن سالم بن أبي الجعد قال : قيل لأبي الدرداء : إن رجلاً اعتق مائة نسمة قال : إن مائة نسمة من مال رجل لكثير ، وأفضل من ذلك وأفضل إيمان ملزوم بالليل والنهار أن لا يزال لسان أحدكم رطباً من ذكر الله .

وأخرج أحمد والترمذي وابن ماجة وابن أبي الدنيا والحاكم وصححه والبيهقي عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ألا أنبئكم بخير أعمالكم ، وأزكاها عند مليككم ، وأرفعها في درجاتكم ، وخير لكم من إنفاق الذهب والورق ، وخير لكم من أن تلقوا اعداءكم فتضربوا أعناقهم ؟ قالوا : بلى . قال : ذكر الله " .

وأخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي عن عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول " إن لكل شيء صقالة وإن صقالة القلوب ذكر الله ، وما من شيء أنجى من عذاب الله من ذكر الله . قالوا : ولا الجهاد في سبيل الله ؟ قال : ولو أن يضرب بسيفه حتى ينقطع " .

وأخرج البزار والطبراني والبيهقي عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

" من عجز منكم عن الليل أن يكابده ، وبخل بالمال أن ينفقه ، وحين غدر العدو ان يجاهده فليكثر ذكر الله " .

(150/70)

وأخرج الطبراني في الأوسط عن جابر رفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال " ما عمل آدمي عملاً أنجى له من العذاب من ذكر الله . قيل : ولا الجهاد في سبيل الله ؟ قال : ولا الجهاد في سبيل الله إلا أن يضرب بسيفه حتى ينقطع " .

وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب الشكر والطبراني والبيهقي عن ابن عباس " أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : أربع من أعطيهن فقد أعطي خير الدنيا والآخرة : قلب شاكر ، ولسان ذاكر ، وبدن على البلاء صابر ، وزوجة لا تبغيه خوناً في نفسها وماله " .

وأخرج ابن حبان عن أبي سعيد الخدري " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ليذكرن الله أقوام في الدنيا على الفرش الممهدة ، يدخلهم الله الدرجات العلى " .

وأخرج البخاري ومسلم والبيهقي عن أبي موسى قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم " مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحي والميت " .

وأخرج ابن أبي الدنيا عن أبي ذر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " ما من يوم وليلة إلا

ولله عز وجل فيه صدقة من بها على من يشاء من عباده ، وما من الله على عبد بأفضل من أن يلهمه ذكره " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن خالد بن معدان قال : إن الله يتصدق كل يوم بصدقة ، فما تصدق على عبده بشيء أفضل من ذكره .

وأخرج الطبراني عن أبي موسى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لو أن رجلاً في حجره دراهم يقسمها وآخر يذكر الله لكان الذاكر لله أفضل " .

وأخرج الطبراني والبيهقي عن معاذ بن جبل قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ليس يتحسر أهل الجنة إلا على ساعة مرت بهم لم يذكر الله تعالى فيها " .

وأخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي عن عائشة " أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ما من ساعة تمر بابن آدم لم يذكر الله فيها بخير إلا تحسر عليها يوم القيامة " .

(151/70)

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد ومسلم والترمذي وابن ماجة والبيهقي عن أبي هريرة وأبي سعيد " أنهما شهدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : لا يقعد قوم يذكرون الله إلا حفتهم الملائكة ، وغشيتهم الرحمة ، ونزلت عليهم السكينة ، وذكرهم الله فيمن عنده "

.

وأخرج ابن أبي الدنيا عن أبي هريرة وأبي سعيد قالا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إن لأهل ذكر الله أربعاً . ينزل عليهم السكينة ، وتغشاهم الرحمة ، وتحف بهم الملائكة ، ويذكرهم الرب في ملأ عنده" .

وأخرج الحاكم وصححه عن أبي الدرداء "سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن الله يقول : أنا مع عبدي إذا هو ذكرني وتحركت بي شفتاه" .

وأخرج الحاكم وصححه عن أنس مرفوعاً قال الله "عبدي أنا عند ظنك بي ، وأنا معك إذا ذكرتني" .

وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف عن ابن عمر قال : ذكر الله بالغداة والعشي أعظم من حطم السيوف في سبيل الله ، وإعطاء المال سخاء .

وأخرج ابن أبي شيبة عن معاذ بن جبل قال : لو أن رجلين أحدهما يحمل على الجياد في سبيل الله ، والآخر يذكر الله لكان الذاكر أعظم وأفضل أجراً .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد في الزهد عن سلمان الفارسي قال : لو بات رجل يعطي القناة البيض . ولفظ أحمد : يطاعن الأقران ، وبات آخر يقرأ القرآن أو يذكر الله لرأيت أن ذاكر الله أفضل .

وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن عمرو لو أن رجلين أقبل أحدهما من المشرق والآخر من

المغرب ، مع أحدهما ذهب لا يضع منه شيئاً إلا في حق ، والآخر يذكر الله حتى يلتقيا في طريق كان الذي يذكر الله أفضلهما .

وأخرج البخاري ومسلم والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

(152/70)

" إن لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر ، فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله تنادوا هلموا إلى حاجتكم ، فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء ، فإذا تفرقوا عرجوا وصعدوا إلى السماء ، فيسألهم ربهم – وهو يعلم – من أين جئتم ؟ فيقولون : جئنا من عند عباد لك يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك . فيقول : هل رأوني ؟ فيقولون : لا . فيقول : كيف لو رأوني ؟ فيقولون : لو رأوك كانوا أشد لك عبادة ، وأشد لك تمجيداً ، وأكثر لك تسبيحاً . فيقول : فما يسألون ؟ فيقولون : يسألونك الجنة . فيقول : وهل رأوها ؟ فيقولون : لا . فيقول : فكيف لو رأوها ؟ فيقولون : لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصاً وأشد لها طلباً وأعظم فيها رغبة . قال : فمم يتعوّذون ؟ فيقولون : يتعوّذون من النار . فيقول : وهل رأوها ؟ فيقولون : لا . فيقول : فكيف لو رأوها ؟ فيقولون : لو أنهم

رأوها كانوا أشد منها فراراً وأشد لها مخافة . فيقول : أشهدكم أني غفرت لهم . فيقول ملك من الملائكة : فلان ليس منهم إنما جاء لحاجة . قال : هم القوم لا يشقى بهم جليسهم " .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد ومسلم والترمذي والنسائي عن معاوية " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج على حلقة من أصحابه فقال : ما أجلسكم ؟ قالوا : جلسنا نذكر الله ونحمده على ما هدانا للإسلام ومن به علينا . قال آلله ما أجلسكم إلا ذلك ؟ قالوا : آلله ما أجلسنا إلا ذلك . قال : أما إني لم أستحلفكم تهمة لكم ولكن أتاني جبريل فأخبرني أن الله يباهي بكم الملائكة " .

وأخرج أحمد وأبو يعلى وابن حبان والبيهقي عن أبي سعيد الخدري " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يقول الله يوم القيامة : سيعلم أهل الجمع اليوم من أهل الكرم . فقيل : ومن أهل الكرم يا رسول الله ؟ قال : أهل مجالس الذكر " .

(153/70)

وأخرج أحمد عن أنس قال : كان عبد الله بن رواحة إذا لقي الرجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : تعال نؤمن بربنا ساعة . فقال ذات يوم لرجل فغضب الرجل

، فجاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ألا ترى إلى ابن رواحة يرغب عن إيمانك إلى إيمان ساعة ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم " يرحم الله ابن رواحة أنه يحب المجالس التي تتباهى بها الملائكة " .

وأخرج أحمد والبزار وأبو يعلى والطبراني عن أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " ما من قوم اجتمعوا يذكرون الله لا يريدون بذلك إلا وجهه إلا ناداهم مناد من السماء أن قوموا مغفوراً لكم ، قد بدلت سيئاتكم حسنات " .

وأخرج الطبراني عن سهل بن الحنظلية قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ما جلس قوم مجلساً يذكرون الله عز وجل فيه فيقومون حتى يقال لهم : قوموا قد غفرت لكم وبدلت سيئاتكم حسنات " .

وأخرج البيهقي عن عبد الله بن مغفل قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ما من قوم اجتمعوا يذكرون الله إلا ناداهم مناد من السماء : قوموا مغفوراً لكم ، قد بدلت سيئاتكم حسنات ، وما من قوم اجتمعوا في مجلس فتفرقوا ولم يذكروا الله إلا كان ذلك عليهم حسرة يوم القيامة " .

وأخرج أحمد عن معاذ بن جبل قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ما عمل آدمي عملاً قط أنجى له من عذاب القبر من ذكر الله " وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ألا أخبركم بخير أعمالكم ، وأزكاها عند مليككم ، وأرفعها في درجاتكم ، وخير لكم من

تعاطي الذهب والفضة ، ومن أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم ؟ قالوا : بلى يا رسول الله . قال : ذكر الله " .

(154/70)

وأخرج أحمد عن معاذ بن جبل " أنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن أفضل الإيمان ؟ قال : أن تحب لله وتبغض لله ، وتعمل لسانك في ذكر الله . قال : وماذا ؟ قال : وأن تحب للناس ما تحب لنفسك ، وتكره لهم ما تكره لنفسك ، وأن تقول خيراً أو تصمت " .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد عن أبي برزة الأسلمي قال : لو أن رجلاً في حجره دنانير يعطيها وآخر ذاكر الله عز وجل لكان الذاكر أفضل .

وأخرج عبد الله بن أحمد عن أبي الدرداء قال : اذكر الله عند كل حجيرة وشجيرة ومدرة ، واذكره في سرائك تذكر في ضرائك .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد في الزهد عن أبي الدرداء قال : إن الذين لا تزال ألسنتهم رطبة بذكر الله تبارك وتعالى يدخل أحدهم الجنة وهو يضحك .

وأخرج أحمد في الزهد عن أبي الدرداء قال : لأن أكبر مائة تكبيرة أحب إلي من أن أتصدق بمائة دينار .

وأخرج عبد الله ابنه عن عبد الله بن عمرو قال : ما اجتمع ملأ يذكرون الله إلا ذكرهم الله في ملأ أعز منه وأكرم ، وما تفرق قوم لم يذكروا الله في مجلسهم إلا كان حسرة عليهم يوم القيامة .

وأخرج ابن أبي شيبة عن عمر قال : التكبيرة خير من الدنيا وما فيها .

وأخرج ابن أبي شيبة عن معاذ بن جبل قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ما عمل ابن آدم عملاً أنجى له من النار من ذكر الله . قالوا : يا رسول الله ولا الجهاد في سبيل الله ؟ قال : ولا الجهاد في سبيل الله إلاَّ أن تضرب بسيفك حتى ينقطع ، ثم تضرب بسيفك حتى ينقطع ، ثم تضرب حتى ينقطع " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن معاذ بن جبل قال : لأن أذكر الله من غدوة حتى تطلع الشمس أحب إلي من أن أحمل على الجياد في سبيل الله من غدوة حتى تطلع الشمس .

(155/70)

وأخرج ابن أبي شيبة عن عبادة بن الصامت قال : لأن أكون في قوم يذكرون الله من حين يصلون الغداة إلى حين تطلع الشمس أحب إلي من أن أكون على متون الخيل أجاهد في سبيل الله إلى أن تطلع الشمس ، ولأن أكون في قوم يذكرون من حين يصلون العصر حتى

تغرب الشمس أحب إلي من أن أكون على متون الخيل أجاهد في سبيل الله حتى تغرب الشمس .

وأخرج ابن أبي شيبة عن سلمان قال : إذا كان العبد يحمد الله في السراء ويحمده في الرخاء فأصابه ضر دعا الله قالت الملائكة : صوت معروف من امرىء ضعيف فيشفعون له ، فإذا كان العبد لا يذكر الله في السراء ولا يحمده في الرخاء فأصابه ضر فدعا الله قالت الملائكة : صوت منكر .

وأخرج ابن أبي شيبة عن جعفر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " أشد الأعمال ثلاثة ، ذكر الله على كل حال ، والإنصاف من نفسك ، والمواساة في المال " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي هريرة قال : إن أهل السماء ليرون بيوت أهل الذكر تضيء لهم كما يضيء الكوكب لأهل الأرض .

وأخرج البزار عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " إن لله سيارة من الملائكة يطلبون حلق الذكر ، فإذا أتوا عليهم حفوا بهم ، ثم بعثوا رائدهم إلى السماء إلى رب العزة تبارك وتعالى فيقولون : ربنا أتينا على عباد من عبادك يعظمون آلاءك ، ويتلون كتابك ، ويصلون على نبيك محمد صلى الله عليه وسلم ، ويسألونك لآخرتهم ودنياهم . فيقول تبارك وتعالى : غشوهم برحمتي ، فهم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم " .

وأخرج أحمد عن ابن عمر قال : " قلت : يا رسول الله ما غنيمة مجالس الذكر ؟ ؟ قال : غنيمة مجالس الذكر الجنة " .

(156/70)

وأخرج ابن أبي الدنيا والبزار وأبو يعلى والطبراني والحاكم وصححه والبيهقي في الدعوات عن جابر قال " خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا أيها الناس إن لله سرايا من الملائكة تحل وتقف على مجالس الذكر ، فارتعوا في رياض الجنة . قالوا : وأين رياض الجنة ؟ قال : مجالس الذكر ، فاغدوا وروحوا في ذكر الله وذكروه أنفسكم ، من كان يحب أن يعلم منزلته عند الله فلينظر كيف منزلة الله عنده ، فإن الله ينزل العبد منه حيث أنزله من نفسه " .

وأخرج أحمد والترمذي وحسنه عن أنس " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا . قال : وما رياض الجنة ؟ قال : حلق الذكر " .

وأخرج الطبراني عن عمرو بن عبسة " سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين رجال ليسوا بأنبياء ولا شهداء ، يغشي بياض وجوههم نظر الناظرين ، يغبطهم النبيون والشهداء بمقعدهم وقربهم من الله . قيل : يا رسول الله من هم

؟ قال : هم جماع من نوازع القبائل ، يجتمعون على ذكر الله تعالى فينتقون أطايب الكلام كما ينتقي آكل التمر أطايبه " .

وأخرج الطبراني عن أبي الدرداء قال " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ليبعثن الله أقواماً يوم القيامة في وجوههم النور على منابر اللؤلؤ يغبطهم الناس ، ليسوا بأنبياء ولا شهداء . فقال أعرابي : يا رسول الله صفهم لنا نعرفهم ؟ قال : هم المتحابون في الله من قبائل شتى وبلاد شتى ، يجتمعون على ذكر الله يذكرونه " .

وأخرج الخرائطي في الشكر عن خليد العقري قال : إن لكل بيت زينة ، وزينة المساجد الرجال على ذكر الله .

وأخرج البيهقي في الدعوات عن أبي هريرة " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهم : أتحبون أيها الناس أن تجتهدوا في الدعاء ؟ قالوا : نعم . قال : قولوا : اللهم اعنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك " .

(157/70)

وأخرج أحمد في الزهد عن عمرو بن قيس قال : أوحى الله إلى داود أنك إن ذكرتني ذكرتك وإن نسيتني تركتك ، واحذر أن أجدك على حال لا أنظر إليك فيه .

وأخرج عبد الله ابنه في زوائده عن معاوية بن قرة عن أبيه أنه قال له : يا بني إذا كنت في قوم يذكرون الله فبدت لك حاجة فسلم عليهم حين تقوم ، فإنك لا تزال لهم شريكاً ما داموا جلوساً .

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي جعفر قال : ما من شيء أحب إلى الله من الذكر والشكر .

أما قوله تعالى ﴿ واشكروا لي ولا تكفرون ﴾ .

أخرج ابن أبي الدنيا في كتاب الشكر والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن المنكدر قال : كان من دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم " اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك " .

وأخرج أحمد وأبو داود والنسائي وابن أبي الدنيا والبيهقي عن معاذ قال : قال لي النبي صلى الله عليه وسلم " إني أحبك لا تدعن أن تقول في دبر كل صلاة : اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك " .

وأخرج أحمد في الزهد وابن أبي الدنيا والبيهقي عن أبي الجلد قال : قرأت في مساءلة موسى عليه السلام . أنه قال : يا رب كيف لي أن أشكرك وأصغر نعمة وأعتها عندي من نعمك لا يجازي بها عملي كله ؟ فأتاه الوحي : أن يا موسى الآن شكرتني .

وأخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي عن سليمان التيمي قال : إن الله عز وجل أنعم على العباد على قدره ، وكلفهم الشكر على قدرهم .

وأخرج ابن أبي الدنيا عن عبد الملك بن مروان قال : ما قال عبد كلمة أحب إليه وأبلغ في الشكر عنده من أن يقول : الحمد لله الذي أنعم علينا وهدانا للإِسلام .

وأخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي عن الأصبغ بن نباتة قال : كان علي رضي الله عنه إذا دخل الخلاء قال : بسم الله الحافظ من المؤذي ، وإذا خرج مسح بيده على بطنه ثم قال : يا لها من نعمة لو يعلم العباد شكرها .

وأخرج ابن أبي الدنيا عن الحسن قال : إن الله ليمنع النعمة ما شاء ، فإذا لم يشكر قلبها عذاباً .

(158/70)

وأخرج ابن أبي الدنيا والخرائطي كلاهما في كتاب الشكر والحاكم والبيهقي في شعب الإِيمان عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " ما أنعم الله على عبد من نعمة فعلم أنها من عند الله إلا كتب الله له شكرها قبل أن يحمده ، وما علم الله من عبد ندامة على ذنب إلا غفر له ذلك قبل أن يستغفره ، إن الرجل ليشتري الثوب بالدينار فيلبسه فيحمد الله فما يبلغ ركبتيه حتى يغفر له " .

وأخرج البيهقي في الشعب عن علي رضي الله عنه قال : من قال حين يصبح : الحمد لله

على حسن المساء ، والحمد لله على حسن المبيت ، والحمد لله على حسن الصباح ، فقد أدى شكر ليلته ويومه .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن أبي الدنيا والبيهقي عن عبد الله : أدى شكر ليلته ويومه .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن أبي الدنيا والبيهقي عن عبد الله بن سلام قال : قال موسى عليه السلام : يا رب ما الشكر الذي ينبغي لك ؟ قال : لا يزال لسانك رطباً من ذكري . قال : فإنا نكون من الحال على حال نجلك إن نذكرك عليها ، قال : ما هي ؟ قال : الغائط ، واهراق الماء من الجنابة ، وعلى غير وضوء . قال : كلا . قال : يا رب كيف أقول ؟ قال : تقول سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت ، فجنبني الأذى سبحانك وبحمدك لا إله إلا أنت فقني من الأذى .

وأخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي عن إسحق بن عبد الله بن أبي طلحة ، أن رجلاً كان يأتي النبي صلى الله عليه وسلم فيسلم عليه ، فيقول النبي صلى الله عليه وسلم يدعو له ، فجاء يوماً فقال له النبي صلى الله عليه وسلم "كيف أنت يا فلان ؟ قال : بخير إن شكرت . فسكت النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال الرجل : يا نبي الله كنت تسألني وتدعو لي ، وإنك سألتني اليوم فلم تدع لي ؟ قال : إني كنت أسألك فتشكر الله ، وإني سألتك اليوم فشككت في الشكر " .

وأخرج ابن أبي الدنيا عن أبي قلابة قال : لا تضركم دنيا إذا شكرتموها .

وأخرج ابن أبي الدنيا عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه . أنه كان يقول في دعائه :

أسألك تمام النعمة في الأشياء كلها ، والشكر لك عليها حتى ترضى وبعد الرضا .

وأخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي عن أبي حازم ، أن رجلاً قال له : ما شكر العينين ؟ قال : إن رأيت بهما خيراً أعلنته ، وإن رأيت بهما شراً سترته . قال : فما شكر الأذنين ؟ قال : إن سمعت خيراً وعيته ، وإن سمعت بهما شراً أخفيته . قال : فما شكر اليدين ؟ قال : لا تأخذ بهما ما ليس لهما ، ولا تمنع حقاً لله عز وجل هو فيهما . قال : فما شكر البطن ؟ قال : أن يكون أسفله طعاماً ، وأعلاه علماً . قال : فما شكر الفرج ؟ قال : كما قال الله عز وجل ﴿ إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم ﴾ [المؤمنون : 6] إلى قوله ﴿ فأولئك هم العادون ﴾ قال : فما شكر الرجلين ؟ قال : إن رأيت حياً غبطته بهما عملته ، وإن رأيت ميتاً مقته كفقتهما عن عمله وأنت شاكر لله عز وجل ، فاما من شكر بلسانه ولم يشكر بجميع أعضائه فمثله كمثل رجل له كساء فأخذ بطرفه ولم يلبسه ، فلم ينفعه ذلك من الحر والبرد والثلج والمطر .

وأخرج البيهقي في الشعب عن علي بن المديني قال : قيل لسفيان بن عيينة : ما حد الزهد

؟ قال : أن تكون شاكراً في الرخاء صابراً في البلاء ، فإذا كان كذلك فهو زاهد . قيل لسفيان : ما الشكر ؟ قال : إن تجتنب ما نهى الله عنه .

وأخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي عن عمر بن عبد العزيز قال : قيّدوا نعم الله بالشكر لله عز وجل ، وشكر الله ترك المعصية .

وأخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي عن محمد بن لوط الأنصاري قال : كان يقال : الشكر ترك المعصية .

وأخرج ابن أبي الدنيا عن مخلد بن حسين قال : كان يقال : الشكر ترك المعاصي .

وأخرج البيهقي عن الجنيد قال : قال السري يوماً : ما الشكر ؟ فقلت له : الشكر عندي أن لا يستعان على المعاصي بشيء من نعمه .

(160/70)

وأخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي عن سفيان بن عيينة قال : قيل للزهري ما الزاهد ؟ قال : من لم يغلب الحرام صبره ، ولم يمنع الحلال شكره .

وأخرج ابن أبي الدنيا عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال : الشكر يأخذ بجرم الحمد وأصله وفرعه ، فلينظر في نعم من الله في بدنه وسمعه وبصره ويديه ورجليه وغير ذلك ،

ليس من هذا شيء إلا وفيه نعمة من الله حق على العبد أن يعمل بالنعم اللاتي هي في يديه لله عز وجل في طاعته ونعم أخرى في الرزق ، وحق عليه أن يعمل لله فيما أنعم به عليه من الرزق في طاعته ، فمن عمل بهذا كان أخذ بجرم الشكر وأصله وفرعه .

وأخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي عن عامر قال : الشكر نصف الإِيمان ، والصبر نصف الإِيمان ، واليقين الإِيمان كله . وقال البيهقي : أنبأنا أبو عبد الرحمن السلمي قال : سئل الأستاذ أبو سهل محمد بن سليمان الصعلوكي عن الشكر والصبر أيهما أفضل ؟ فقال : هما في محل الاستواء ، فالشكر وظيفة السراء ، والصبر فريضة الضراء .

وأخرج الترمذي وحسنه وابن ماجة والبيهقي عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " للطاعم الشاكر من الأجر مثل ما للصائم الصابر " .

وأخرج البيهقي عن أبي الدرداء قال : من لم يعرف نعمة الله عليه إلا في مطعمه ومشربه ، فقد قل عمله وحضر عذابه .

وأخرج البيهقي عن الفضيل بن عياض قال : عليكم بالشكر فإنه قل قوم كانت عليهم من الله نعمة فزالت عنهم ثم عادت إليهم .

وأخرج البيهقي عن عمارة بن حمزة قال : إذا وصلت إليكم أطراف النعم فلا تنفروا أقصاها بقلة الشكر .

وأخرج البيهقي عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من نظر في الدين إلى

من فوقه وفي الدنيا إلى من تحته كتبه الله صابراً شاكراً ، ومن نظر في الدين إلى من تحته ونظر في الدنيا إلى من فوقه لم يكتبه الله صابراً ولا شاكراً " .

(161/70)

وأخرج ابن أبي الدنيا عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده " سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : خصلتان من كانتا فيه كتبه الله صابراً شاكراً ، ومن لم يكونا فيه لم يكتبه الله صابراً ولا شاكراً ، من نظر في دينه إلى من فوقه فاقتدى به ، ومن نظر في دنياه إلى من هو دونه ، ونظر إلى من هو فوقه فأسف على ما فاته لم يكتبه الله شاكراً ولا صابراً " .

وأخرج مسلم والبيهقي عن صهيب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " عجباً لأمر المؤمن كله خير إن أصابته سراء فشكر كان خيراً ، وإن أصابته ضراء فصبر كان خيراً " .

وأخرج النسائي والبيهقي عن سعد بن أبي وقاص قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " عجبت للمؤمن أن أعطي قال : الحمد لله فشكر ، وإن ابتلي قال : الحمد لله فصبر ، فالمؤمن يؤجر على كل حال ، حتى اللقمة يرفعها إلى فيه " .

وأخرج البيهقي وضعفه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من

كانت فيه ثلاث أدخله الله في رحمته ، وأراه محبته ، وكان في كنفه : من إذا أعطي شكر ، وإذا قدر غفر ، وإذا غضب فتر " .

وأخرج الحاكم وصححه والبيهقي وضعفه عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ثلاث من كن فيه آواه الله في كنفه ، وستر عليه برحمته ، وأدخله في محبته . قيل : وما هن يا رسول الله ؟ قال : من إذا أعطي شكر ، وإذا قدر غفر ، وإذا غضب فتر " .

وأخرج أبو داود والنسائي وابن أبي الدنيا في الشكر والفريابي في الذكر والمعمري في عمل اليوم والليلة والطبراني في الدعاء وابن حبان والبيهقي والمستغفري كلاهما في الدعوات عن عبد الله بن غنام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

" من قال حين يصبح : اللهم ما أصبح بي من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك فلك الحمد ولك الشكر فقد أدى شكر يومه ، ومن قال مثل ذلك حين يمسي فقد أدى شكر ليلته " .

وأخرج ابن أبي الدنيا عن السري بن عبد الله أنه كان على الطائف ، فأصابهم مطر ، فخطب الناس فقال : يا أيها الناس احمدوا الله على ما وضع لكم من رزقه ، فإنه بلغني عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال " إذا أنعم الله عز وجل على عبده بنعمة فحمده عندها فقد أدّى شكرها " .

وأخرج ابن أبي الدنيا والخرائطي كلاهما في كتاب الشكر عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من رأى صاحب بلاء فقال : الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاك به وفضلني عليك وعلى جميع خلقه تفضيلاً فقد أدى شكر النعمة " .

وأخرج ابن أبي الدنيا عن كعب قال : ما أنعم الله عز وجل على عبد نعمة في الدنيا فشكرها لله عز وجل وتواضع بها لله إلا أعطاه نفعها في الدنيا ورفع له بها درجة في الآخرة ، وما أنعم الله على عبد من نعمة في الدنيا فلم يشكرها لله عز وجل ولم يتواضع بها لله إلا منعه الله عز وجل نفعها في الدنيا وفتح له طبقاً من النار ، فعذبه إن شاء أو تجاوز عنه .

وأخرج ابن أبي الدنيا عن عائشة رضي الله عنها قالت : ما من عبد يشرب من ماء القراح فيدخل بغير أذى ويجري بغير أذى إلا وجب عليه الشكر .

وأخرج أبو داود والترمذي وحسنه وابن ماجة وابن أبي الدنيا والحاكم وصححه عن أبي بكرة " أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا جاءه أمر يسره خرّ ساجداً لله عز وجل شكراً لله " .

وأخرج ابن أبي الدنيا عن عبد الرحمن بن عوف " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : إني لقيت جبريل عليه السلام فبشرني ، وقال : إن الله يقول لك : من صلى عليك صليت عليه ، ومن سلم عليك سلمت عليه ، فسجدت لله شكراً " .

وأخرج الخرائطي في الشكر عن جابر " أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا رأى صاحب بلاء خرّ ساجداً " .

(163/70)

وأخرج ابن سعد وابن أبي شيبة والخرائطي في الشكر عن شداد بن أوس " سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إذا كنز الناس الذهب والفضة فاكثروا هؤلاء الكلمات : اللهم إني أسألك الثبات في الأمر ، والعزيمة على الرشد ، وأسألك شكر نعمتك ، وأسألك حسن عبادتك ، وأسألك قلباً سليماً ، ولساناً صادقاً ، وأسألك من خير ما تعلم ، وأعوذ بك من شر ما تعلم ، وأستغفرك لما تعلم ، إنك أنت علام الغيوب " .

وأخرج الخرائطي عن جابر بن عبد الله " سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : أفضل الذكر لا إلا إله إلا الله ، وأفضل الشكر الحمد لله " .

وأخرج الخرائطي والبيهقي في الدعوات عن منصور بن صفية قال : " مر النبي صلى الله

عليه وسلم برجل وهو يقول : الحمد لله الذي هداني للإِسلام وجعلني من أمة محمد . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لقد شكرت عظيماً " " .

وأخرج الخرائطي عن محمد بن كعب القرظي قال : يا هؤلاء احفظوا اثنتين ، شكر النعمة واخلاص الإِيمان .

وأخرج الخرائطي عن أبي عمر الشيباني قال : قال موسى عليه السلام يوم الطور : يا رب إن أنا صليت فمن قبلك ، وإن أنا تصدقت فمن قبلك ، وإن أنا بلغت رسالاتك فمن قبلك ، فكيف أشكرك ؟ قال : يا موسى الآن شكرتني .

وأخرج ابن أبي الدنيا والخرائطي والبيهقي في شعب الإِيمان عن عبد الله بن قرط الأزدي وكان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إنما تثبت النعمة بشكر المنعم عليه للمنعم " .

وأخرج الخرائطي عن جعفر بن محمد بن علي بن حسين بن علي بن أبي طالب قال : أشكر المنعم عليك ، فإنه لا نفاد للنعم إذا شكرت ، ولا بقاء لها إذا كفرت ، والشكر زيادة في النعم ، وأمان من الغير .

وأخرج الخرائطي عن خالد الربعي قال : كان يقال : إن من أجدر الأعمال أن تعجل عقوبته : الأمانة تخان ، والرحم يقطع ، والإِحسان يكفر .

وأخرج الخرائطي عن كعب الأحبار قال : شر الحديث التجديف قال أبو عبيد : قال

الأصمعي : التجديف هو الكفر بالنعم ، وقال الأموي : هو استقلال ما أعطاه الله عز وجل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 1 صـ 359.374 ﴾

(164/70)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ (152)

فصل في وروده الذكر في القرآن

الذكر ورد على ثمانية أوجه :

الأول : بمعنى الطاعة كهذه الآية أي : أطيعوني أغفر لكم .

الثاني : العمل ، قال تعالى : ﴿ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ واذكروا مَا فِيهِ ﴾ [البقرة : 63] أي : اعملوا بما فيه .

الثالث : العِظَة ، قال تعالى : ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذكرى تَنفَعُ المؤمنين ﴾ [الذاريات : 55] أي العِظَة ، ومثله ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ [الأنعام : 44] أي : ما وعظوا به .

الرابع : الشَّرف قال تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ [الزخرف : 44] ومثله : ﴿

بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ ﴾ [المؤمنين : 71] أي : بشرفهم ، وقوله : ﴿ هذا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي ﴾ [الأنبياء : 24] أي : شرف .

الخامس : القرآن قال تعالى : ﴿ أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذكر مِن بَيْنِنَا ﴾ [ص : 8] أي : القرآن ، ومثله : ﴿ وهذا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ ﴾ [الأنبياء : 50] .

السادس : التوراة قال تعالى : ﴿ فاسألوا أَهْلَ الذكر ﴾ [النحل : 43] أي : التوراة .

السابع : البيان ، قال تعالى : ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [الأعراف : 63] .

الثامن : الصلاة ، قال تعالى : ﴿ فاسعوا إِلَى ذِكْرِ الله ﴾ [الجمعة : 9] .

قوله : ﴿ واشكروا لِي ﴾ .

تقدم أن " شَكَرَ " يتعدّى تارة بنفسه ، وتارة بحرف جر على حد سواء على الصحيح .

وقال بعضهم : إذا قلت : شكرت لزيد ، فمعناه شكرت لزيد صَنِيْعَهُ ، فجعلوه متعدياً لاثنين .

أحدهما : بنفسه ، والآخر بحرف الجر ، ولذلك فسر الزمخشري هذا الموضع بقوله : " واشكروا لي ما أنعمت به عليكم " .

وقال ابن عطية : " واشكروا لي ، واشكروني بمعنى واحد " .

و " لي " أفصح وأشهر مع الشّكر ، ومعناه : نعمتي وَأَيَادِيَّ ، وكذلك إذا قلت شكرتك . فالمعنى شكرت لك صنيعك وذكرته ، فحذف المضاف ؛ إذ معنى الشكر ذكر اليد ، وذكر مُسْدِيها معاً ، فما حذف من ذلك ، فهو اختصار لدلالة ما بقي على ما حذف . وأصل الشكر في اللغة : الظهور ، فشكر العبد لله – تعالى – ثناؤه عليه بذكر إحسانه ، وشكر الله سبحانه للعبد ثناؤه عليه بطاعته له ، إلا أن شكر العبد نُطق باللسان ، وإقْرَار بالقلب بإنعام الرب .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ نهي ولذلك حذفت منه نون الجماعة ، وهذه نون المتكلم ، وحذفت الياء حأنها رأس آية إثباتها أحسن في غير القرآن ، أي : لا تكفروا نعمتي ، فالكفر هنا سَتْر النعمة لا التكذيب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 3 صـ 75 . 77 ﴾ . باختصار .

(166/70)

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابوري في الآيات السابقة :

﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ
وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (142) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا
لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ
عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ
هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (143) قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ
وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا
كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ
بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (144) وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ
بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ
إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (145) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ
لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (146) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (147) وَلِكُلٍّ
وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ (148) وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ
وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (149) وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ
الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا
مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (150) كَمَا أَرْسَلْنَا

فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (151) فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ (152) ﴾

(167/70)

التفسير : هذه شبهة ثانية من أهل الكتاب طعناً في الإسلام . قالوا : النسخ يقتضي إما الجهل أو التجهيل لأن الأمر إن كان خالياً عن القيد كفى فعله مرة واحدة ، فلا يكون ورود الأمر بعده على خلافه ناسخاً مقيداً . وإن كان مقيداً بالدوام فكذلك ، وإن كان مقيداً بالدوام فإن كان الآمر يعتقد دوامه ثم رفعه كان جهلاً وبداء ، وإن كان عالماً بلا دوامه كان تجهيلاً ، وكل هذه من الحكيم قبيح . ثم إنهم خصصوا هذه الصورة بمزيد شبهة ، وهو أنّا إذا جوزنا النسخ عند اختلاف المصالح فههنا لا مصلحة فإن الجهات متساوية وهذا دليل على أن هذا التغيير ليس من عند الله .

(168/70)

قال القفال : لفظ ﴿ سيقول ﴾ وإن كان للاستقبال لكنه قد يستعمل في الماضي كالرجل يعمل عملاً فيطعن فيه بعض أعدائه فيقول : أنا أعلم أنهم سيطعنون فيّ . كأنه يريد أنه إذا ذكر مرة فسيذكرونه مرات أخرى ، ويؤيد ذلك ما ورد من الأخبار أنهم لما قالوا ذلك نزلت الآية . والمشهور

(169/70)

أن الله تعالى أخبر عنهم قبل أن ذكروا هذا الكلام أنهم سيذكرونه ، وفيه فوائد منها : أنه إخبار بالغيب فيكون معجزاً . ومنها أن مفاجأة المكروه أشد مما إذا وطن النفس له . ومنها أن الجواب العتيد أقطع للخصم وقبل الرمي يراش السهم ، والسفهاء الخفاف الأحلام وإذا كان من لا يميز بين ما له وعليه في أمر دنياه يعدّ سفيهاً شرعاً ، فالذي يضيع أمر آخرته أولى بهذا الاسم . عن ابن عباس ومجاهد : هم اليهود ، ذلك أنهم كانوا يأنسون بموافقة النبي صلى الله عليه وسلم إياهم في القبلة ، فلمّا تحول استوحشوا لا سيما وأنهم لا يرون النسخ . وعن البراء بن عازب والحسن الأصم : أنهم مشركو العرب قالوا : أبى إلاّ الرجوع إلى موافقتنا ولو ثبت عليه أولاً كان أولى به . وقيل : هم المنافقون ذكروا ذلك استهزاء من حيث إن تميز بعض الجهات عن بعض ليس له دليل معقول فحملوا الأمر على العبث والعمل

بالرأي والتشهي والأقرب أن يكون الكل داخلاً فيه ، لأن الأعداء جبلت على الغيظ وطلب التشفي ، فإذا وجدوا مجالاً لم يتركوا مقالاً ﴿ ما ولاهم ﴾ ما صرفهم استفهموا على جهة التعجب والاستهزاء ﴿ عن قبلتهم التي كانوا عليها ﴾ القبلة بيت المقدس ، وضمير الجمع للرسول والمؤمنين هذا هو المجمع عليه عند المفسرين ، ولولا الإجماع لاحتمل أن يعود الضمير في "كانوا" إلى "السفهاء" أي ما الذي صرف الرسول والمؤمنين عن القبلة التي كان السفهاء عليها فإنهم كانوا لا يعرفون إلاّ قبلة اليهود وهي إلى المغرب وقبلة النصارى وهي إلى المشرق ؟ فكأنهم قالوا : كيف يتوجه أحد إلى غير هاتين الجهتين المعروفتين ؟ فاجابهم الله

(170/70)

عن شبهتهم بقوله ﴿ قل لله المشرق والمغرب ﴾ أي بلادهما ، والأرض كلها والجهات بأسرها ملكاً وملكاً ، ثم أكد ذلك بقوله ﴿ يهدي من يشاء إلى صراطٍ مستقيمٍ ﴾ وهو القبلة التي اقتضت الحكمة في هذا الزمان توجيه الناس إليها ويحتمل أن يراد به الطريقة المؤدية إلى سعادة الدارين فيشتمل القبلة وغيرها . وحاصل الجواب بعد ما مر في آية النسخ أنه تعالى فاعل لما يشاء كما يشاء ، لا اعتراض لأحد عليه كما لا اعتراض على من

يتصرف في ملكه كما يريد ، وأفعاله تعالى لا تعلل بغرض وإن كانت لا تخلو عن فائدة وحكمة كما سبق ، وكثير منها مما لا يهتدي عقول البشر إلى تفاصيل حكمها لكنهم قد يستنبطون بحسب أفهامهم لبعضها وجوهاً مناسبة ، أما تعيين القبلة في الصلاة فالحكمة فيه أن للإنسان قوة عقلية يدرك المجردات والمعقولات بها وقوة خيالية يتصرف بها في عالم الأجسام ، وقلما تنفك العقلية عن الخيالية وإعانتها كالمهندس يضع في إدراك أحكام المقادير صورة معيّنة وشكلاً معيناً ليصير الحس والخيال معينين له على إدراك تلك الأحكام الكلية ، وكالذي يريد أن يثني على ملك مجازي فإنه يستقبله بوجهه ثم يشتغل بالثناء والخدمة .

(171/70)

فاستقبال القبلة في الصلاة يجري مجرى كونه مستقبلاً للملك ، والقراءة تجري مجرى الثناء عليه ، والركوع والسجود جاريان مجرى الخدمة . وأيضاً الخشوع في الصلاة لا يحصل إلا مع السكون وترك الالتفات ، ولا يتأتى ذلك إلاّ إذا بقي في جميع صلاته مستقبلاً لجهة واحدة على التعيين . وإذا اختص بعض الجهات بمزيد شرف في الأوهام فاستقباله أولى . وأيضاً إنه تعالى يحب الموافقة والألفة بين المؤمنين وقد من عليهم بذلك ﴿ واذكروا نعمة الله

عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً ﴾ [آل عمران : 103] . وتوجه كل مصلٍ إلى أي جهة تتفق مظنة الاختلاف فلم يكن بد من تعيين جهة ليحصل الاتفاق . وأيضاً كأنه تعالى يقول : يا مؤمن أنت عبد ، والكعبة بيتي ، والصلاة خدمتي ، وقلبك عرشي ، والجنة دار كرامتي ، فاستقبل بوجهك إلى بيتي وبقلبك إليّ ، أبوئك دار كرامتي . وأيضاً اليهود استقبلوا مغرب الأنوار ﴿ وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر ﴾ [القصص : 44] . والنصارى استقبلوا مطلع الأنوار ﴿ إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً ﴾ [مريم : 16] فالمؤمنون استقبلوا مظهر الأنوار وهو مكة ، فمنها محمد ومنه خلق الأنوار ولأجله دال الفلك الدوّار . وأيضاً المغرب قبلة موسى ، والمشرق قبلة عيسى ، وبينهما قبلة إبراهيم ومحمد ، وخير الأمور أوسطها ؛ وأيضاً الكعبة سرة الأرض ووسطها ، وأمة محمد وسط ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً ﴾ . والوسط بالوسط أولى ﴿ الطيبات للطيبين ﴾ [النور : 26] . وأيضاً العرش قبلة الحملة ، والكرسي قبلة البررة ، والبيت المعمور قبلة السفرة ، والكعبة قبلة المؤمنين ، والحق قبلة المتحيرين ﴿ فأينما تولوا فثم وجه الله ﴾ والعرش مخلوق من النور ، والكرسي من الدر ، والبيت المعمور من الياقوت ، والكعبة من جبال خمسة : سينا وزيتا وجوديّ ولبنان وحراء . كأنه قال : إن كان عليك مثل هذه الجبال ذنوباً فأتيت الكعبة حاجاً أو

معتمراً أو توجهت مصلياً الصلوات الخمس غفرتها لك . وأيضاً لما كان بناء هذا البيت سبباً لظهور دولة العرب كانت رغبتهم في توجهها أشد وأيضاً اليهود كانوا يعيرون المسلمين بأنا قد أرشدناكم إلى القبلة وينكسر بذلك قلوب المسلمين . فأزيل تشويشهم ، وأيضاً الكعبة منشأ محمد ، فتعظيمها يقتضي تعظيمه ، وتعظيمه مما يعين على قبول أوامره ونواهيه ، فبمقدار حشمة المرء يكون قبول قوله . فهذه هي الوجوه المناسبة ، والوجه الأقوى هو الذي ذكره الله تعالى في قوله ﴿ وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه ﴾ وقوله ﴿ وكذلك جعلناكم ﴾ الكاف للتشبيه ، وفي اسم الإشارة وجوه .

فقيل : راجع إلى معنى يهدي أي كما أنعمنا عليكم بالهداية كذلك أنعمنا عليكم بأن جعلناكم ، أو كما هدينا كم إلى أوسط البقلة جعلناكم أمة وسطاً . وقيل : عائد إلى قوله ﴿ ولقد اصطفينا ﴾ [البقرة : 130] . أي كما اصطفينا إبراهيم في الدنيا جعلناكم . وقيل : ينصرف إلى قوله ﴿ ولله المشرق والمغرب ﴾ أي كما خصصنا بعض الجهات المتساوية بمزيد التشريف والتكريم حتى صارت قبلةً فضلاً منا وإحساناً ، جعلناكم مختصين بالعدالة براً منا وامتناناً مع تساوي الخلق في العبودية . وقيل : قد يذكر ضمير الشيء وإن لم يكن المضمر مذكوراً إذا كان المضمر مشهوراً معروفاً مثل ﴿ إنا أنزلناه في ليلة

القدر ﴾ ثم من المشهور المعروف عند كل أحد أنه سبحانه هو القادر على إعزاز من يشاء وإذلال من يشاء ، فالمعنى ومثل ذلك الجعل العجيب الذي لا يقدر عليه أحد غيري جعلناكم أمةً وسطاً . الجوهري : يقال جلست وسط القوم بالتسكين لأنه ظرف ، وجلست وسط الدار بالتحريك لأنه اسم ، وكل موضع صلح فيه بين فهو وسط ، وإن لم يصلح فيه بين فهو وسط بالتحريك . قال : والوسط من كل شيء أعدله ، وشيء وسط أي بين الجيد والرديء ، وأمةً وسطاً أي عدولاً قال زهير :

(173/70)

هم وسط يرضى الأنام بحكمهم . . . إذا نزلت إحدى الليالي بمعظم

وذلك أن العدل متوسط في الأخلاق بين طرفي الإفراط والتفريط ، ولهذا ذكره الله تعالى في معرض المدح والامتنان . وقيل : الوسط الخيار لأنه يستعمل في الجمادات . قال في الكشاف : اكتريت بمكة جمل أعرابي فقال : أعطني من سطاتهن - أراد من خيار الدنانير - ويؤيده قوله تعالى في موضع آخر ﴿ كنتم خير أمةٍ أخرجت للناس ﴾ [آل عمران : 110] وإنما أطلق الوسط على الخيار لأن الأطراف يتسارع إليها الخلل والعيب ، والأوساط محمية محوطة . وقيل : المراد بالوسط ههنا أنهم متوسطون في الدين بين المفرط

والمفرّط والغالي والمقصر في شأن الأنبياء لا كالنصارى حيث جعلوا النبي صلّى الله عليه وسلم ابناً وإلهاً ، ولا كاليهود حيث قتلوا الأنبياء وبدلوا الكتب ، ولأن الوسط في الأصل اسم وصف به استوى فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث ﴿ لتكونوا شهداء على الناس ﴾ الأكثرون على أن هذه الشهادة في الآخرة إما بأن يكونوا شهداء للأنبياء على أممهم الذين يكذبونهم . روي أن الأمم يجحدون تبليغ الأنبياء يوم القيامة فيطالب الله الأنبياء بالبينة على أنهم قد بلغوا – وهو أعلم – فيؤتى بأمة محمد فيشهدون فيقول الأمم : من أين عرفتم ؟ فيقولون : علمنا ذلك بإخبار الله في كتابه الناطق على لسان نبيه الصادق . فيؤتى بمحمد فيسأل عن حال أمته فيزكيهم ويشهد بعدالتهم وذلك قوله تعالى ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمةٍ بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ﴾

(174/70)

[النساء : 41] قلت : والحكمة في ذلك تمييز أمة محمد صلى الله عليه وسلم في الفضل عن سائر الأمم حيث يبادرون إلى تصديق الله تعالى وتصديق جميع الأنبياء والإيمان بهم جميعاً ، فهم بالنسبة إلى غيرهم كالعدل بالنسبة إلى الفاسق ، ولذلك تقبل شهادتهم على الأمم ، ولا تقبل شهادة الأمم عليهم . وإنما سمي هذا الإخبار شهادة لقوله صلى الله عليه

وسلم " إذا علمت مثل الشمس فاشهد " والشيء الذي أخبر الله تعالى عنه معلوم مثل الشمس فتصح الشهادة عليه ، وإما بأنْ يشهدوا على الناس بأعمالهم التي خالفوا الحق فيها . قال ابن زيد : الأشهاد أربعة : الملائكة الحفظة ﴿ وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد ﴾ [ق : 21] والنبيون ﴿ ويكون الرسول عليكم شهيد ﴾ وأمة محمد صلى الله عليه وسلم خاصة ﴿ لتكونوا شهداء على الناس ﴾ ﴿ ويوم يقوم الأشهاد ﴾ [غافر : 51] والجوارح ﴿ يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم ﴾ [النور : 24] . وقيل : إن هذه الشهادة في الدنيا ، وذلك أن الشاهد في عرف الشرع من يخبر عن حقوق الناس بألفاظ مخصوصة على جهات مخصوصة ، فكل من عرف حال شخص فله أن يشهد عليه فإن الشهادة خبر قاطع ، وشهادة الأمة لا يجوز أن تكون موقوفة على الآخرة لأن عدالتهم في الدنيا ثابتة بدليل ﴿ جعلناكم ﴾ بلفظ الماضي ، فلا أقل من حصولها في الحال . ثم رتب كونهم شهداء على عدالتهم ، فيجب أن يكونوا شهداء في الدنيا . وإن قيل : لعل التحمل في الدنيا ولكن الأداء في الآخرة . قلنا : المراد في الآية الأداء لأن العدالة إنما تعتبر في الأداء لا في التحمل ، ومن هنا يعلم أن إجماعهم حجة لا بمعنى أن كل واحدٍ منهم محق في نفسه ، بل بمعنى أن هيئتهم الاجتماعية تقتضي كونهم محقين ، وهذا من خواص هذه الأمة ، ثم لا يبعد أن يحصل مع ذلك لهم الشهادة في الآخرة فيجري الواقع منهم

في الدنيا مجرى التحمل لأنهم إذا بينوا الحق عرفوا عنده من القابل ومن الراد ، ثم يشهدون بذلك يوم

(175/70)

القيامة كما أن الشاهد على لمعقود يعرف ما الذي تم وما الذي لم يتم ثم يشهد بذلك عند الحاكم ، أو يكون المعنى لتكونوا شهداء على الناس في الدنيا فيما لا يصح إلاّ بشهادة العدول الأخيار ، ويكون الرسول عليكم شهيداً يزكيكم ويعلم بعد التكم . وإنما قدمت صلة الشهادة في الثاني لأن الغرض في الأول إثبات شهادتهم على الأمم فقط ، فبقيت صلة الشهادة في مركزها . والغرض في الآخر اختصاصهم بكون الرسول شهيداً عليهم فأزيلت عن مركزها ليفيد الاختصاص . وإنما لم يقل لكم شهيداً مع أن شهادته لهم لا عليهم ، لأنه ضمن معنى الرقيب مثل ﴿ والله على كل شيءٍ شهيد ﴾ [المجادلة : 6] مع رعاية الطباق للأول . وإنما قيل " شهداء على الناس في الدنيا " لأن قولهم يقتضي التكليف إما بفعل أو بقول وذلك عليهم لا لهم في الحال .

(176/70)

قيل : الآية متروكة الظاهر لأن وصف الأمة بالعدالة يقتضي اتصاف كل واحدٍ منهم بها وليس كذلك ، فلا بد من حملها على البعض . فنحن نحملها على الأئمة المعصومين سلمناه لكن الخطاب في ﴿ جعلناكم ﴾ للموجودين عند نزول الآية لأن خطاب من لم يوجد محال . فالآية تدل على أن إجماع أولئك حق لكنا لا نعلم بقاء جميعهم بأعيانهم إلى ما بعد وفاة الرسول فلا تثبت صحة الإجماع وقتئذ . سلمنا ذلك لكن المراد بالعدالة اجتناب الكبائر فقط ، فيحتمل أن الذي أجمعوا عليه وإن كان خطأ لكنه من الصغائر فلا يقْدح ذلك في خيريتهم وعدالتهم . وأجيب بأن حال الشخص في نفسه غير حاله بالقياس إلى غيره ، فلم يجوز أن يكون الشخص غير مقبول القول عند الانفراد ويكون مقبولاً عند الاجتماع ؟ والخطاب لجميع الأمة من حين نزول الآية إلى قيام الساعة كما في سائر التكاليف مثل ﴿ كتب عليكم الصيام كما ﴾ [البقرة : 183] ﴿ كتب عليكم القصاص ﴾ [البقرة : 178] فللموجودين بالذات وللباقين بالتبعية ، لكنا لو اعتبرنا أوّل الأمة وآخرها بأسرها لزالت فائدة الآية إذا لم يبق بعد انقضائها من تكون الآية حجة عليه ، فعلمنا أن المراد به أهل كل عصر . ثم إن الله تعالى منّ على هذه الأمة بأن جعلهم خياراً أو عدولاً عند الاجتماع ، فلو أمكن اجتماعهم على الخطأ لم يبق بينهم وبين سائر الأمم فرق في ذلك فلا منة . ﴿ وما جعلنا ﴾ يريد الجعل بمعنى الشرع والحكم . ﴿ التي ﴾ صفة موصوف محذوف هو ثاني

مفعولي " جعل " أي وما جعلنا القبلة أي الجهة التي كنت عليها أي كنت معتقداً لاستقبالها كقولك " الشافعي على كذا " ثم ههنا وجهان : أحدهما أن هذا الكلام بيان للحكمة في جعل الكعبة قبلة وذلك أنه صلى الله عليه وسلم كان يصلي بمكة إلى الكعبة ثم أمر بالصلاة إلى بيت المقدس بعد الهجرة تألفاً لليهود وامتحاناً للذلن اتّبعوه بمكة ، ثم حول إلى الكعبة اختباراً ثانياً أي ما رددناك إلى الجهة التي كنت عليها

(177/70)

أولاً إلا امتحاناً للناس وابتلاء وثانيهما أنه بيان للحكمة في جعل بيت المقدس قبلة ، يعني أن أصل أمرك أن تستقبل الكعبة وأن استقبالك بيت المقدس كان أمراً عارضاً لفائدة هي أن نمتحن الناس وننظر من يتبع الرسول ومن لا يتبعه . واللام في ﴿ لنعلم ﴾ ليست لأجل الغرض وإنما هي لتقرير الحكمة والفائدة التي يستتبعها الجعل . فإن قيل : كيف ؟ قال ﴿ لنعلم ﴾ ولم يزل عالماً بذلك ؟ فالجواب أن معناه ليعلم حزبنا من النبي والمؤمنين كما يقول الملك : فتحنا البلد . وإنما فتحه جنده أو لنعلمه موجوداً حاصلاً وهو العلم الذي يتعلق به الجزاء . ولا يلزم منه أن يحدث لله علم فإن العلم الأزلي بالحادث الفلاني في الوقت الفلاني غير متغير ، وإنما هو قبل حدوث الحادث كهو حال حدوثه .

وإنما جاء المضي والاستقبال من ضرورة كون الحادث زمانياً وكون كل زمان مكنوفاً بزمانين : سابق ولاحق . فإذا نسبت العلم الأزلي إلى الزمان السابق قلت " سيعلم الله " وإذا نسبت إلى زمانه قلت " يعلم " وإذا نسبت إلى الزمان اللاحق قلت " قد علم " فجميع هذه التغيرات انبعثت من اعتباراتك ، وعلم الله واحد فافهم . أو لنميز التابع من الناكص كقوله ﴿ ليميز الله الخبيث من الطيب ﴾ [الأنفال : 37] فسمي التمييز علماً لأنه أحد فوائد العلم وثمراته ، أو لنرى كما تستعمل الرؤية مكان العلم . وعن الفراء : أن حدوث العلم في الآية راجع إلى المخاطبين ومثاله : أن جاهلاً وعاقلاً اجتمعا فيقول الجاهل : الحطب يحرق النار . ويقول العاقل : بل النار تحرق الحطب ، وسنجمع بينهما لنعلم أيهما يحرق صاحبه ، معناه لنعلم أينا الجاهل . وهذا من كلام المصنف مثل ﴿ وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين ﴾ [سبأ : 24] وقوله ﴿ ممن ينقلب على عقبيه ﴾ استعارة للكفر والارتداد كأنه يرجع إلى حيث أتى ثم إن هذه المحنة حصلت بسبب تعيين القبلة . أو بسبب تحويلها من الناس ، من قال بالأول لأنه صلى الله عليه وسلم كان يصلي إلى الكعبة ، فلما جاء إلى المدينة صلى إلى بيت المقدس فشق ذلك على العرب من حيث

إنه ترك قبلتهم ، ثم لما تحول إلى الكعبة شق ذلك على اليهود . والأكثرون على الثاني لأن الشبهة في أمر النسخ أعظم منها في تعيين القبلة ، عن ابن جريج أنه قال : بلغني أنه رجع ناس ممن أسلم وقالوا مرة ههنا ومرة ههنا ، ولو كان على يقين من أمر تغير رأيه . وعن السدي : لما توجه إلى الكعبة اختلفوا ، قال المنافقون : ما بالهم كانوا على قبلة ثم تركوها ؟ وقال المسلمون : ليتنا نعلم حال إخواننا الذين ماتوا وقد صلوا نحو البيت المقدس . وقال آخرون : اشتاق إلى بلد أبيه ومولده . وقال المشركون : تحير في دينه . ﴿ وإن كانت لكبيرة ﴾ هي " إن " المخففة التي يلزمها اللام الفارقة

(179/70)

بينها وبين " إن " النافية ، وتنهيأ بالتخفيف للدخول على الأفعال . لكن البصريين أوجبوا كون الفعل الذي دخلت هي عليه من باب " كان " أو " علم " ويبطل عمل " إن " في الظاهر ، وكذا في التقدير ، فلا يقدر ضمير الشأن كما يقدر في " أن " المفتوحة إذا خففت ، فقوله ﴿ لكبيرة ﴾ خبر " كانت " واسمها الضمير العائد إلى القبلة لأنها هي المذكورة ، أو إلى ما دل عليه الكلام السابق من التولية في ﴿ ما ولاهم ﴾ أو الجعلة ، أو الردة ، أو التحويلة في ﴿ وما جعلنا ﴾ ومعنى لكبيرة لثقيلة شاقة مستنكرة كقوله ﴿ كبرت كلمة تخرج من

أفواههم ﴾ وذلك أن الامتحان إن وقع بنفس القبلة فالفطام عن المألوف شديد والإعراض عن طريقة الآباء والأسلاف عسير ، وإن وقع بالتحويل فهو مبني على جواز النسخ وفيه ما فيه من الشبه والإشكال فيصعب اعتقاد حقيقته إلا على الذين هدى الله .

(180/70)

الراجع محذوف أي هداهم الله إلى الثبات على دين الإسلام بأن نصب لهم الدلائل أولاً ، ثم جعلهم منتفعين بها ثانياً ، وإلا فالدلالة عامة للكل ﴿ وما كان الله ليضيع إيمانكم ﴾ الخطاب للمؤمنين المعاصرين ، واللام لتأكيد النفي الداخل في "كان" ينتصب المضارع بعدها بتقدير "أن" أي لن يضيع الله ثواب ثباتكم على الإيمان ، وأنكم لم تزلوا ولم ترتابوا ، بل شكر صنيعكم وأعدّ لكم الثواب الجزيل عن الحسن . وقال ابن زيد : ما كان الله ليترك تحويلكم من بيت المقدس إلى الكعبة لعلمه بأن تقريركم على ذلك مفسدة لكم وإضاعة لصلواتكم ، أي لثوابها . أطلق الإيمان على الصلاة لأنها أعظم آثار الإيمان وأشرف نتائجه ، أو لأن المراد لا يضيع تصديقكم بوجوب تلك الصلاة . وعن ابن عباس : لما وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الكعبة قالوا : يا رسول الله كيف بإخواننا الذين ماتوا وهم يصلون إلى بيت المقدس ؟ فنزلت . وإنما خوطبوا تغليباً للأحياء مثل ﴿ وإذ قتلتم نفساً

﴿ [البقرة : 72] ﴿ وإذ فرقنا بكم البحر ﴾ [البقرة : 50] والمراد أهل ملتهم .

وليس هذا السؤال من الشك في حقية النسخ في شيء وإنما هو لأجل الاطمئنان وازدياد اليقين ولعلهم إنما خصوا السؤال بالأموات لأنهم ظنوا أنفسهم مستغنين عن ذلك حيث تقع صلاتهم إلى الكعبة بقية عمرهم مكفرة لما سلف منهم ، فأجيبوا بما يخرج عنه جواب الأموات والأحياء جميعاً ، فإن المنسوخ حق في وقته كما أن الناسخ حق في وقته ، سواء عمل المكلف بهما في وقتيهما أو لم يعمل إلا بالمنسوخ لانقضاء أجله قبل الناسخ . وجوز بعضهم أن يكون السؤال صادراً عن منافق فنبه الله المسلمين على الجواب . وقيل : بل المعنى وفقتكم لقبول هذا التكليف لئلا يضيع إيمانكم ، فإنهم لو ردوا هذا التكليف لكفروا . يحكى عن الحجاج أنه قال للحسن : ما رأيك في أبي تراب ؟ فقرأ قوله ﴿ إلا على الذين هدى الله ﴾ ثم قال : وعلي منهم وهو ابن عم رسول الله صلى

(181/70)

الله عليه وسلم وختنه على ابنته وأقرب الناس إليه وأحبهم ﴿ إن الله بالناس لرؤف رحيم ﴾ الجوهري : الرأفة أشد الرحمة . رؤفت به أرؤف بالضم فيهما رأفة ورآفة ورأفت به أرأف بالفتح فيهما . ورئفت به بالكسر رأفاً والصفة رؤوف ورؤف على " فعول " و " فعل

" وقيل : الرحمة تقع في الكراهة للمصلحة ، والرأفة لا تكاد تكون في الكراهة ، وقيل : الرأفة مبالغة في رحمة خاصة هي دفع المكروه وإزالة الضرر قال ﴿ ولا تأخذكم بهما رأفةٌ ﴾ [النور : 2] . والرحمة اسم جامع خصص أولاً ثم عمم . والمراد أن الرؤف الرحيم كيف يتصور منه الإضاعة ، أو كيف لا ينقلكم من شرع إلى شرع هو أصلح لكم وإنما هَدى مَنْ هَدَى لأنه بالناس رؤف رحيم ، فمن كان أقبل للفيض كان الأثر عليه أظهر .

قوله عز من قائل ﴿ قد نرى ﴾ معناه كثرة الرؤية ههنا وإن كان في الأصل للتقليل قال :

قد أترك القرن مصفراً أنامله . . . كأن أثوابه مجت بفرصاد

(182/70)

كما أن " رب " في الأصل للتقليل ، ثم قد تستعمل في معنى التكثير كقوله " فإن تمس مهجور الفناء فربما " . أقام به بعد الوفود وفود . ووجه ذلك أن المادح يستقل الشيء الكثير من المدائح لأن الكثير منها كأنه قليل بالنسبة إلى الممدوح ومثله ﴿ قد يعلم الله ﴾ فإن المتمدح بكثرة العلم يقول لا تنكر أن أعرف شيئاً من العلم . ﴿ تقلب وجهك ﴾ تردد نظرك في جهة السماء وذلك لانتظار تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة . عن ابن عباس أنه قال النبي صلى الله عليه وسلم : " يا جبريل وددت أن الله تعالى صرفني عن قبلة

اليهود إلى غيرها فقد كرهتها " . فقال له جبريل عليه السلام : أنا عبد مثلك فسل ربك ذلك . فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يديم النظر إلى السماء رجاء مجيء جبريل بما سأل فنزلت . وإنما أحب ذلك لأن اليهود كانوا يقولون : إنه يخالفنا ثم إنه يتبع قبلتنا ولولا نحن لم يدر أين يستقبل أو لأن الكعبة كانت قبلة أبيه إبراهيم ولأن ذلك أدعى للعرب إلى الإيمان لأنها مفخرتهم ومزارهم ومطافهم ، ولأنه أحب أن يحصل هذا الشرف للمسجد الذي في بلدته ومنشئه ، ولا يبعد أن يميل طبعه إلى شيء ثم يتمنى في قلبه إذن الله فيه . وقيل : إنه استأذن جبريل في أن يدعو الله تعالى فأخبره بأن الله قد أذن له في الدعاء ، فكان يقلب وجهه في السماء ينتظر مجيء جبريل للإجابة . وعن الحسن : أن جبريل أخبره بأن الله تعالى سيحوّل القبلة عن بيت المقدس من غير تعيين للمحول إليها – ولم تكن قبلة أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكعبة – فكان ينتظر الوحي بذلك وعلى هذا فقيل : منع من استقبال بيت المقدس ولم يعين له القبلة وكان يخاف أن يدخل وقت الصلاة ولا قبلة ، فلذلك كان يقلب وجهه عن الأصم . وقيل : بل وعد بذلك . وقبلة بيت المقدس باقية بحيث تجوز الصلاة إليها لكن لأجل الوعد كان يقلب طرفه وهذا وإلا لم تكن القبلة ناسخة للأولى بل كانت مبتدأة ، لكن المفسرين أجمعوا

على أنها ناسخة للأولى ، لأنه لا يجوز أن يؤمر بالصلاة إلا مع بيان موضع التوجه . واختلف في صلاته بمكة فقيل : كان يصلي إلى الكعبة فلما صار إلى المدينة أمر بالتوجه إلى بيت المقدس تسعة أشهر أو عشرة أشهر أو ثلاثة عشر أو ستة عشر أو سبعة عشر – وهو الأكثر – أو ثمانية عشر أو سنتين أقوال .

(184/70)

وقيل : بل كان بمكة يصلي إلى بيت المقدس إلا أنه يجعل الكعبة بينه وبين بيت المقدس . واختلفوا أيضاً في أن توجه بيت المقدس هل كان فرضاً لا يجوز غيره أو كان النبي صلى الله عليه وسلم مخيراً في توجهه إليه وإلى غيره . فعن الربيع بن أنس أنه كان مخيراً لقوله ﴿ ولله المشرق والمغرب ﴾ [البقرة : 115] الآية . ولما روي أن قوماً قصدوا الرسول من المدينة إلى مكة للبيعة قبل الهجرة فتوجه بعضهم في الطريق لصلاته إلى الكعبة وبعضهم إلى بيت المقدس ، فلما قدموا سألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك فلم ينكر عليهم . وعن ابن عباس أن ذلك كان فرضاً لقوله ﴿ فلنولينك قبلة ترضاها ﴾ فدل على أنه ما كان مخيراً بينها وبين الكعبة . ومعنى " فلنولينك " فلنعطينك ولنمكننك من استقبالها من

قولهم " وليته كذا " جعلته والياً له ، أو فلنجعلنك تلي سمتها دون سمت بيت المقدس . ترضاها تحبها وتميل إليها لأغراضك الصحيحة التي أضمرتها ووافقت مشيئة الله تعالى وحكمته . وعن الأصم : كل جهة وجهك الله إليها يجب أن تكون رضاً لا تسخطها كما فعل من انقلب على عقبيه . وقيل : ترضى عاقبتها لأنك تميز بها الموافق عن المنافق . ﴿ فول وجهك ﴾ أي كل بدنك لأن الواجب على الشخص أن يستقبل القبلة بجملته لا بوجهه فقط . وإنما خص الوجه بالذكر لأنه أشرف الأعضاء وبه تتميز الأشخاص . وشطر المسجد الحرام أي نحوه وجهته قاله جمهور المفسرين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم . وعن بعضهم أن الشطر نصف الشيء والكعبة واقعة من المسجد في النصف من جميع الجوانب ، فاختبر هذه العبارة ليعرف أن الواجب هو التوجه إلى بقعة الكعبة ، وزيف بالفرق بين النصف وبين المنتصف والمكلف مأمور بالثاني دون الأول . عن ابن عباس : بينما الناس بقباء في صلاة الصبح إذ جاءهم آتٍ فقال : إن النبي قد أنزل عليه الليلة قرآن ، وقد أمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها ، وكانت وجوههم إلى الشأم فاستداروا إلى الكعبة .

وفي الموطأ : صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن قدم المدينة ستة عشر شهراً نحو بيت المقدس ثم حوّلت القبلة قبل بدر بشهرين . واختلفوا في المراد بالمسجد الحرام . ففي شرح السنة عن ابن عباس أنه قال : البيت قبلة لأهل المسجد ، والمسجد قبلة لأهل الحرم ، والحرم قبلة لأهل المشرق والمغرب ، وهذا قول مالك . وقال آخرون : القبلة هي الكعبة لما أخرج في الصحيحين عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال : أخبرني أسامة بن زيد قال : لما دخل النبي صلى الله عليه وسلم البيت دعا في نواحيه كلها ولم يصل حتى خرج منه ، فلما خرج ركع ركعتين في قبل الكعبة وقال : هذه القبلة .

وقد وردت أخبار كثيرة في صرف القبلة إلى الكعبة كما قلنا في حديث ابن عمر ، فاستداروا إلى الكعبة . وقال آخرون : القبلة هي المسجد الحرام كله .

(186/70)

واعلم أن الواجب عند الشافعي في أظهر قوليه أن يستقبل المصلي عين الكعبة قريباً كان أو بعيداً لظاهر قوله تعالى ﴿ وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره ﴾ ولقوله صلى الله عليه وسلم : " هذه القبلة " مشيراً به إلى العين ، ولأن تعظيم الكعبة من النبي صلى الله عليه وسلم بلغ مبلغ التواتر . وتوقيف صحة الصلاة وهي من أعظم شعائر الدين على استقبال

عين الكعبة مما يوجب مزيد شرف الكعبة ، فوجب أن يكون مشروعاً . ولأن كون الكعبة قبلة أمر معلوم وغيره مشكوك فيه والأخذ بالمعلوم أحوط . وأما عند أبي حنيفة ويوافقه القول الآخر للشافعي ، فمحاذاة جهة الكعبة كافية لأن في استقبال عين الكعبة حرجاً عظيماً للبعيد ، ولأن في ذكر المسجد الحرام دون الكعبة دلالة على أن الواجب مراعاة الجهة دون العين ، ولأن الشطر الجانب واكتفى به في الآية ، ولأن أهل قباء استداروا إلى الكعبة في أثناء الصلاة وفي ظلمة الليل ومن المعلوم أن مقابلة العين من المدينة إلى مكة حيث إنها تحتاج إلى النظر الدقيق لم يتأت لهم حينئذ ، ثم لم ينكر النبي صلى الله عليه وسلم عليهم وسمى مسجدهم بذي القبلتين ، ولأن استقبال عين الكعبة لو كان واجباً ولا سبيل إليه إلا بالدلائل الهندسية فإنها هي المفيدة لليقين وغيرها من الأمارات لا يفيد إلا الظن ، والقادر على اليقين لا يجوز له الاكتفاء بالظن وما لم يتم الواجب إلا به فهو واجب ، لزم أن يكون تعلم تلك الدلائل واجباً ، ولم يذهب إليه أحد والإنصاف أن القول الأول أقرب إلى التعبد ، وإصابة العين للبعيد غير بعيد ، فما من نقطتين في الأرض ولا في السماء إلا ويمكن أن يوصل بينهما بخط ، والغرض أن يكون المصلي ساجداً على قوس عظيمة أرضية مارّة بقدميه وموضع سجوده ووسط البيت بشرط أن يكون القوس أقل من نصف الدور . وغير عسير معرفة هذا القدر بالدائرة الهندسية وغيرها من الطرق المشهورة فيما بين أهل الهيئة وقد برهنا على كثير منها في كتبنا

النجومية ، وذكرها ههنا خروج عن الصناعة مع أن المتعلم لا ينتفع بها دون مقدماتها .

ولمعرفة القبلة أمارات أخر قد يستعين بها المتحير وهي : إما أرضية وهي الجبال والقرى والأنهار ، أو هوائية وهي الرياح ، أو سماوية وهي النجوم . أما الأرضية والهوائية فغير مضبوطة لكن ربما يكون في الطريق جبل مرتفع يعلم أنه على يمين المستقبل أو شماله أو قدامه أو خلفه ، وكذلك الرياح قد تهب في بعض النواحي من صوب معين ، وأما السماوية ففي النهار لا بد أن يراعي قبل الخروج عن البلد ، الشمس عند الزوال هي بين الحاجبين أم على العين اليمنى أم على اليسرى أم تميل ميلاً أكثر من ذلك ، فإن الشمس في البلاد الشمالية قلما تعد وهذه المواقع .

وكذلك يراعى وقت العصر ويعرف وقت الغروب أنها تغرب عن يمين المستقبل أو هي مائلة إلى وجهه أو قفاه . وكذلك يعرف وقت العشاء الاخرة موضع الشفق ، ووقت الصبح مشرق الشمس ، ويحتاط في مشرق الصيف والشتاء ومغربها . وبالليل يستدل بالكوكب الذي يقال له " الجدي " فيعرف أنه على قفا المستقبل أو على منكبه الأيمن أو الأيسر في البلاد الشمالية من مكة وفي البلاد الجنوبية منها بخلاف ذلك . فإذا عرف هذه الدلائل في

بلده فليعول عليها في الطريق كله إلا إذا طال السفر ، فحينئذ إذا انتهى إلى بلد سأل أهل البصيرة أو يراقب هذه الكواكب وهو يستقبل محراب جامع البلد ثم يستدل بها في سائر طريقه . ومعرفة دلائل القبلة فرض على العين أم فرض على الكفاية ؟ أصح الوجهين في مذهب الشافعي الأول كأركان الصلاة وشرائطها .

قوله تعالى ﴿ وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره ﴾ ليس بتكرار لأن الأول الخطاب للرسول وهذا خطاب للأمة ، أو لأن الأمة قد دخلت في الأول تبعاً . واحتمل أيضاً أن يكون الخطاب مختصاً بأهل المدينة وفي الثاني عم المكلفين جميعاً في جميع بقاع الأرض .

(188/70)

واعلم أن الاستقبال يتوقف على مستقبل ومستقبل نحوه هو القبلة ، ولا بد من حالة يقع فيها الاستقبال ، فلنتكلم في هذه الأركان الثلاثة على الإجمال وتفصيل ذلك في كتبنا الفقهية .

الركن الأول الحالة : وهي الصلاة للإجماع على أن الاستقبال خارج الصلاة غير واجب وإن كان طاعة لقوله صلى الله عليه وسلم " خير المجالس ما استقبل به القبلة " والصلاة إما فريضة ويتعين الاستقبال فيها إلا في حالة الخوف ، وإما نافلة ويجب فيها الاستقبال إلا في

حالة الخوف ، وفي السفر راكباً أو ماشياً متوجهاً إلى طريقه لما روي عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يصلي في السفر في راحلته حيث توجهت به . ويحكى عن أحمد خلاف في الماشي وكذا من أبي حنيفة . وهل يجب على المتنفل أن يستقبل القبلة عند التحرم ؟ الأصح نعم إن سهل بأن لم تكن مقطرة أو لا حران بها وإلا فلا ، لما روي أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا سافر وأراد أن يتطوع استقبل القبلة بناقته وكبر ثم صلى حيث وجهه ركابه . وأم عدم الاشتراط عند الصعوبة فلدفع المشقة واختلال أمر السير عليه ، وأما الاستقبال عند السلام فالأصح أنه لا يشترط كما في سائر الأركان إلا الماشي فعليه الاستقبال في كل ركوع وسجود كما عليه الإتمام بخلاف الراكب فإنه لا يكلف الاستقبال فيهما ولا وضع الجبهة في السجود على السرج أو الإكاف ، بل يقتصر فيهما على الإيماء ويجعل السجود أخفض .

وليس لراكب التعاسيف الذي لا مقصد له رخصة ترك الاستقبال في التنقل .

(189/70)

الركن الثاني القبلة : للمصلي إن وقف في جوف الكعبة وهي على هيئتها مبنية تصح صلاته فريضة كانت أو نافلة خلافاً لأحمد ومالك في الفريضة . قيل لنا إنه صلى متوجهاً

إلى بعض أجزاء الكعبة فتصح صلاته كالنافلة كما يتوجه إليها من خارج، ثم يتخير في استقبال أي جدار شاء . ويجوز أن يستقبل الباب أيضاً إن كان مردوداً ، وإن كان مفتوحاً فإن كانت العتبة قدر مؤخرة الرحل صحت صلاته وإلا فلا . ومؤخرة الرحل ثلثا ذراع إلى ذراع تقريباً كأنهم راعوا أن يكون في سجوده يسامت بمعظم بدنه الشاخص . وإن انهدمت الكعبة – حاشاها – وبقي موضعها عرصة فإن وقف خارجها وصلى إليها جاز لأن المتوجه إلى هواء البيت والحالة هذه متوجه نحو المسجد الحرام كمن صلى على أبي قبيس والكعبة تحته يجوز لتوجهه إلى هواء البيت . ولو صلى في العرصة فالحكم كما لو وقف الآن على سطح الكعبة ، فإن لم يكن بين يديه شاخص من نفس الكعبة قدر مؤخرة الرحل فالأصح أنه لا يجزيه خلافاً لأبي حنيفة . وإن كان المصلي خارج الكعبة فإن كان حاضر المسجد الحرام وجب عليه لا محالة استقبال عين الكعبة بكل بدنه لأنه قادر عليه ، والإمام يقف خلف المقام استحباباً ، والقوم يقفون مستديرين بالبيت وإلا فصلاة الخارجين عن محاذاة الكعبة باطلة إلا عند من يرى الجهة كافية . ولو تراخى الصف الطويل ووقفوا في آخر باب المسجد صحت صلاتهم لأن البعيد تزداد محاذاته . يتبين ذلك إذا جعلت البيت رأس مثلث متساوي الساقين والصفوف خطوطاً موازية لقاعدته . وإن كان خارج المسجد فإن كان يعاين القبلة سوّى محرابه بناء على العيان وصلى إليه أبداً . ومحراب النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة نازل منزلة الكعبة لأنه لا يقر على الخطأ فهو صواب قطعاً

فيسوّي سائر المحاريب عليه . وفي معنى المدينة سائر البقاع التي صلى فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ضبط المحراب ، وكذا المحاريب المنصوبة في بلاد المسلمين . وفي الطرق التي

هي جادتهم يتعين التوجه إليها وكذلك في القرية الصغيرة التي نشأ فيها قرن من المسلمين ، ولا بد من الاجتهاد في التيامن والتياسر ، وأما في محراب الرسول صلى الله عليه وسلم فلا . ولا يجوز الاجتهاد في الجهة في شيء من محاريب المسلمين لأن الخطأ منهم في الجهة بعيد بخلاف التيامن والتياسر . ويقال : إن عبد الله بن المبارك كان يقول بعد رجوعه من الحج : تياسروا يا أهل مرو .

الركن الثالث المستقبل : إذا قدر على اليقين بالمعاينة أو بأمارات أخر فلا يجتهد ولا يقلد وإن لم يقدر ، فإن وجد من يخبره عن علم وكان المخبر ممن يعتد بقوله رجع إلى قوله ولم يجتهد أيضاً كما في الوقت إذا أخبره عدل عن طلوع الفجر يأخذ بقوله ولا يجتهد وكذلك في الحوادث إذا روى العدل خبراً يؤخذ به ، وكل ذلك قبول الخبر من أهل الرواية وليس من

التقليد في شيء ويشترط في المخبر أن يكون عدلاً يستوي فيه الرجل والمرأة والحر والعبد ، ولا يقبل خبر الكافر بحال وكذا خبر الصبي غير المميز عند الأكثرين .

(191/70)

ثم الإخبار عن القبلة قد يكون صريحاً وذلك ظاهر ، وقد يكون دلالة كما في نصب المحاريب في المواضع التي يعتمد عليها . ولا فرق في لزوم الرجوع إلى الخبر بين أن يكون الشخص من أهل الاجتهاد وبين أن لا يكون . فإن لم يجد من يخبره عن علم فإن قدر على الاجتهاد ولا يتيسر إلا بمعرفة أدلة القبلة كما عددنا اجتهد ولم يقلد كما في الأحكام الشرعية ، ولو فعل يلزمه القضاء ولا فرق في وجوب الاجتهاد ههنا بين الغائب عن مكة والحاضر بها إذا حال بينه وبين الكعبة حائل أصليّ كالجبال أو حادث كالأبنية ، ولو خفيت الدلائل على المجتهد بغيم أو حبس أو تعارضت ، صلّى كيف اتفق لحق الوقت ويقضي . وإن عجز عن الاجتهاد فإن لم يمكنه التعلم لعدم البصر أو لعدم البصيرة فالواجب عليه التقليد كالعامي في الأحكام ، وتقليد الغير هو قبول قول المستند إلى الاجتهاد بعد أن كان المجتهد مسلماً عدلاً عارفاً بأدلة القبلة يستوي فيه الرجل والمرأة والحر والعبد . فإن وجد مجتهدين مختلفين قلد من شاء منهما ، والأحب أن يقلد الأوثق الأعلم عنده ، وإن

أمكنه التعلم فليس له التقليد بناء على ما مر من أن تعلم الأدلة فرض العين . فإن قلد قضى ، وإن ضاق الوقت عن التعلم صلى لحق الوقت وقضى . ثم المجتهد إن بان له الخطأ يقيناً أو كان دليل الاجتهاد الثاني أرجح ولم يشرع بعد في الصلاة ، عمل بمقتضى الثاني . وإن بان بعد الفراغ من الصلاة فإن تيقن الخطأ قضى على الأصح ، وإن ظن لم يقض . وإن تغير الاجتهاد في أثناء الصلاة انحرف ويبني . فهذه هي المسائل المستنبطة من الآية التي ذكرناها لأنها من أهم مهمات الدين ﴿ وإن الذين أوتوا الكتاب ﴾ يعني أحبار اليهود وعلماء النصارى لعموم اللفظ ولشمول الكتاب التوراة والإنجيل ، ولكن يجب أن يكونوا أقل من عدد أهل التواتر ليصح عنهم الكتمان . وعن السدي : أنهم اليهود خاصة ، والكتاب التوراة ، والضمير في أنه الحق إما للرسول أي أنه مع شرعه ونبوته

(192/70)

حق يشمل أمر القبلة وغيرها ، وإما لهذا التكليف الخاص وهو أنسب بالمقام ، وذلك أن علماءهم عرفوا في كتب أنبيائهم خبر الرسول وأنه يصلي إلى القبلتين وأن الكعبة هي البيت العتيق الذي جعله الله قبلة لإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام .

(193/70)

وأيضاً أنهم كانوا يعلمون نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بالمعجزات والبشارات وكل ما أتى النبي صلى الله عليه وسلم فهو حق ، فهذا التحويل حق . ﴿ وما الله بغافلٍ عما يعملون ﴾ وعد للمتقين ووعيد للناكصين والمعاندين ، ثم بين استمرار أهل الكتاب على عنادهم فقال ﴿ ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب ﴾ قيل : هم جميع اليهود والنصارى لعموم اللفظ ، وقيل : هم علماؤهم المذكورون في الآية المتقدمة لأنهم وصفوا باتباع الهوى في قوله ﴿ ولئن اتبعت أهواءهم ﴾ ومجرد اعتقاد الباطل لا يكفي فيه ، بل الذين بقلوبهم ثم يقولون غير الحق في الظاهر فهم المتبعون للهوى . ونوقش فيه بأن صاحب كل شبهة صاحب هوى . قالوا : الآيتان المكتنفتان بهذه الآية مخصوصتان بالعلماء منهم لأن الجمع العظيم لا يجوز منهم الكتمان فكذا هذه الآية . وأجيب بأنه لا يلزم من تخصيصهما تخصيصها . قالوا : أخبر عنهم بالإصرار والاستمرار وهذا شأن المعاند اللجوج لا دأب العامي المتحير . وردّ بأن المقلد أيضاً قد يصر . قالوا : الحمل على العموم يكذبه الوجود فإن كثيراً من أهل الكتاب آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم واتبع قبلته . ووجه بأن المراد من قوله ﴿ ما تبعوا قبلتك ﴾ أنهم لا يجتمعون على الاتباع كقوله ﴿ ولو شاء الله لجمعهم على الهدى ﴾ [الأنعام : 35] وسلب الاجتماع لا ينافي اتباع البعض ﴿ بكل آية ﴾ بكل برهان قاطع على أن التوجه إلى الكعبة هو الحق ﴿ ما تبعوا قبلتك ﴾ جواب للقسم

المحذوف ساد مسد جواب الشرط واللام في ﴿ ولئن ﴾ لتوطئه القسم أي والله لئن أتيتهم بكل برهان ما اجتمعوا على قبلتك لأن فيهم من قد ترك اتباعك لا لشبهة تزيلها بإيراد الحجة بل عناداً ومكابرة مع علمهم بما في كتبهم من نعتك . ومن خص اللفظ بالعلماء بأن صح عنده أنه لم يتبع منهم أحد قبلتنا لم يحتج إلى هذا التأويل بل يكون ما تبعوا في قوة ما تبع أحد منهم ﴿ وما أنت بتابعٍ قبلتهم ﴾ رفع لتجويز النسخ وبيان أن هذه

(194/70)

القبلة لا تصير منسوخة بالتوجه إلى بيت المقدس حسماً لأطماع أهل الكتاب فإنهم طمعوا في رجوعه إلى قبلتهم وقالوا : لو ثبت على قبلتنا كلنا نرجو أن يكون صاحبنا الذي ننتظره . وفيه أنه لا يجب عليه استصلاحهم باتباع قبلتهم لأن ذلك معصية . وإنما وحد القبلة للعلم بأن لليهود قبلة وللنصارى قبلة أخرى أو لأنهما بحكم الاتحاد في البطلان واحد ﴿ وما بعضهم بتابعٍ قبلة بعض ﴾ إن حمل على الحال فالمعنى أنهم ليسوا مجتمعين على قبلة واحدة حتى يمكن رضاهم باتباعها أو أنهم مع اتفاقهم على تكذيبك متباينون في القبلة فكيف يدعونك إلى شيئين مختلفين ؟ أو أنه إذا جاز أن يختلف قبلتاهما للمصلحة فلم لا يجوز أن تكون المصلحة في ثالث ؟ وإن حمل على الاستقبال فالمعنى أن اليهود لا تترك

قبلتهم إلى المشرق ، ولا النصارى إلى المغرب ، بحيث تتعطل إحدى القبلتين ، لا أن اليهودي لا يصير نصرانياً أو بالعكس فإن ذلك قد وقع .

(195/70)

أخبر الله تعالى عن تصلب كل حزب فيما هو فيه محقاً أو مبطلاً ﴿ ولئن اتبعت أهواءهم ﴾ كلام على سبيل الفرض والتقدير لقرينة وما أنت بتابع قبلتهم المعنى لئن اتبعت مثلاً بعد وضوح الدلائل وانكشاف جلية الأمر في باب الديانة ﴿ إنك إذاً ﴾ أي إذا اتبعت لمن المرتكبين الظلم الفاحش لأن صغائر الرجل الكبير كبائر فكيف بكبائره ؟ وفيه أن ترك العمل من العلماء أقبح ، وفيه لطف للنبي صلى الله عليه وسلم فإن مزيد المحبة تقتضي التخصيص بمزيد التحذير ، ولعله كان في بعض الأمور يتبع أغراضهم كترك المخاشنة في القول واستمالة قلوبهم طمعاً منه في إسلامهم ومعاضدتهم ، فنهى عن ذلك القدر أيضاً وآيسه منهم بالكلية . كقوله ﴿ ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً ﴾ [الإسراء : 74] ﴿ يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ﴾ [التوبة : 73] وفيه إشارة للأمة كالرجل الحازم يقبل على أبرّ أولاده وأصلحهم فيزجره عن شيء بحضرة سائر الأولاد والغرض زجرهم وإصلاحهم وأنه لا محالة يؤاخذون بالطريق الأولى لو

خالفوه ﴿ الذين آتيناهم الكتاب ﴾ هم علماؤهم بدليل ﴿ يعرفونه ﴾ أي الرسول معرفة جلية يميزون بينه وبين غيره بالمشخصات من النعت والنسب والقبلة حسب ما وجدوه في كتبهم ﴿ كما يعرفون أبناءهم ﴾ لا يشتبه عليهم أبناؤهم وأبناء غيرهم . " وما " مصدرية أو كافة ، والغرض تشبيه عرفان شخصه بعرفان أشخاص الأبناء لا تشبيه العلم بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم بالعلم ببنوة الأبناء وإلا كان تشبيه المعلوم بالمظنون . عن عمر أنه سأل عبد الله بن سلام عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أنا أعلم به مني يا بني . قال : لم ؟ قال : لأني لست أشك في محمد أنه نبي ، فأما ولدي فلعل والدته قد خانت ، فقبل عمر رأسه . وجاز إضمار الرسول وإن لم يجز له ذكر لدلالة الكلام عليه ، وفيه تفخيم لشأنه وأنه معلوم بغير إعلام ، ولا يصح أن يقال : المراد بالمعرفة معرفتهم

(196/70)

الحاصلة من قبل ظهور المعجزات على يده لأنه لا يفيد إلا كونه نبياً وهم لا ينكرون ذلك ، وإنما ينكرون كونه النبي صلى الله عليه وسلم المنعوت في كتبهم فرد الله عليه ذلك فافهم . وإنما خص الأبناء بالذكر لأنهم أعرف وأشهر وبصحبة الآباء ألزم وبقلوبهم ألصق ولو تساويا فالذكور أولى بالذكر . وقيل : الضمير للعلم أو القرآن أو تحويل القبلة وفي الكل

تكلف ينبو عنه قوله ﴿ أبناءهم ﴾ ويباينه الحديث عن عبد الله بن سلام ولما كان من علمائهم العارفين بأحوال النبي صلى الله عليه وسلم من آمن به وأظهر الحق وهو ما يجب القول به ويجب العمل بمقتضاه كعبد الله بن سلام وأتباعه .

(197/70)

قال تعالى ﴿ وإن فريقاً منهم ﴾ يريد من سوى المسلمين المؤمنين منهم ﴿ ليكتمون الحق ﴾ الذي هو أمر محمد أو أمر القبلة ثم أكد ذلك بقوله ﴿ وهم يعلمون ﴾ فإنه لا يوصف بالكتمان إلا من علم المكتوم ﴿ الحق من ربك ﴾ يحتمل أن يكون خبر مبتدأ محذوف أي هو الحق ، " ومن ربك " خبر بعد خبر أو حال . وأن يكون مبتدأ خبره " من ربك " . ثم في اللام يكون وجهان : العهد والإشارة إلى الحق الذي عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو إلى الحق الذي في قوله ﴿ ليكتمون الحق ﴾ أو الجنس على معنى الحق ما ثبت أنه من الله كالذي أنت عليه وما سواه كما يدعيه أهل الكتاب باطل ﴿ فلا تكونن من الممترين ﴾ الشاكين في كتمانهم الحق مع علمهم أو في كون الحق من ربك . وقد يجوز أن ينهى الشخص عما يعلم أنه منته عنه لمثل ما تقرر في قوله ﴿ ولئن اتبعت ﴾ . ﴿ ولكل ﴾ التنوين فيه عوض عن المضاف إليه ، والوجهة اسم الجهة ولذلك ثبتت الواو كما قالوا " ولدة " في جمع

الوليد الصبي ، وإنما لا تجمع مع الهاء في المصادر ، وقوله ﴿ هو ﴾ إما أن يعود إلى الكل وإما أن يعود إلى الله . وثاني مفعولي ﴿ موليها ﴾ محذوف أي هو موليها وجهه ، أو الله موليها إياه . ثم اختلف في التفسير فقيل : المعنى ولكل أهل دين من الأديان المختلفة قبلة وجهة إما بشريعة وإما بهوى هو مستقبلها ومتوجه إليها لصلاته التي يتقرب بها إلى ربه ، وكل يفرح بما هو عليه ولا يفارقه فلا سبيل إلى اجتماعكم على قبلة واحدة ، ولستم تؤاخذون بفعل غيركم فإنما لهم أعمالهم ولكم أعمالكم ﴿ فاستبقوا ﴾ أنتم ﴿ الخيرات ﴾ الدنيوية وهي الشرف والفخر بقبلة إبراهيم ، والأخروية وهي الثواب الجزيل المعد للمطيعين . ﴿ وأينما تكونوا ﴾ من جهات الأرض ﴿ يأت بكم الله جميعاً ﴾ في صعيد القيامة فيفصل بين المحق منكم والمبطل والمصيب والمخطئ إنه قادر على ذلك . وقيل : إن الله تعالى عرفنا أن كل واحدة من بيت المقدس والكعبة قبلة . فالجهتان من

الله تعالى وهو الذي ولى وجوه عباده إليهما فاستبقوا الخيرات بالانقياد لأمره في الحالين ولا تلتفتوا إلى مطاعن السفهاء فإن الله يجمعكم وإياهم يوم القيامة فيحكم بينكم . وقيل : ولكل قوم منكم يا أمة محمد صلى الله عليه وسلم جهة يصلي إليها جنوبية أو شمالية أو

شرقية أو غربية ، فاستبقوا الفاضلات من الجهات وهي الجهات المسامتة للكعبة وإن اختلفت ﴿ أينما تكونوا ﴾ من الجهات المختلفة ﴿ يأت بكم الله جميعا ﴾ يجمعكم للجزاء ويجعل صلواتكم واحدة كأنها إلى جهة واحدة لمحاذاة الجميع الكعبة . ولقراءة ابن عامر ﴿ مولاها ﴾ معنيان : أحدهما أن ما وليته فقد ولاك والآخر زينت له تلك الجهة وحببت إليه .

(199/70)

وقيل : ولكل مخلوق قبلة فقبلة المقربين العرش ، وقبلة الروحانيين الكرسي ، وقبلة الكروبيين البيت المعمور ، وقبلة الأنبياء الذين قبلك بيت المقدس ، وقبلتك أنت الكعبة ، بل قبلة جسدك هي ، وقبلة الأنبياء الذين قبلك بيت المقدس ، وقبلتك أنت الكعبة ، بل قبلة جسدك هي ، وقبلة روحك أنا ، وقبلتي أنت " أنا عند المنكسرة قلوبهم لأجلي " . ثم إن الشافعي استدل بقوله ﴿ فاستبقوا الخيرات ﴾ على أن الصلاة في أول الوقت أفضل . وعند أبي حنيفة : التأخير أفضل إحرازاً لفضيلة الانتظار ولتكثر الجماعة ، ولما روي أنه صلى الله عليه وسلم قال " أسفروا بالفجر فإنه أعظم للأجر " وقال ابن مسعود : ما رأيت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حافظوا على شيء ما حافظوا على

التنوير بالفجر . وأجيب بأن الانتظار قبل مجيء الوقت لقوله صلى الله عليه وسلم " يا علي ثلاث لا تؤخرها : الصلاة إذا أتت والجنازة إذا حضرت ، والأيم إذا وجدت لها كفؤاً " وأن المراد بالإسفار والتنوير هو طلوع الفجر الصادق بحيث لا يشك فيه وذلك مما لا نزاع فيه ، وإنما النزاع فيما إذا تحقق دخول الوقت ثم تكاسل المكلف وتثاقل أو بغير أسباب الصلاة تشاغل . ﴿ ومن حيث خرجت ﴾ ومن أي بلد خرجت يا محمد ﴿ فولّ وجهك شطر المسجد الحرام ﴾ إذا صليت ﴿ وإنه ﴾ وإن هذا المأمور به ﴿ للحق ﴾ الذي يجب أن يقبل ويعمل به حال كونه ﴿ من ربك وما الله بغافلٍ عما يعملون ﴾ وعد للمتشاغلين ووعيد للمتغافلين . واعلم أن أمر التولية ذكره الله تعالى ثلاث مرات ، وللعلماء في سبب التكرير أقوال :

أولها : أن الآية الأولى محمولة على أن يكون المكلف حاضر المسجد الحرام ، والثانية على أن يكون غائباً عنه ولكن يكون في البلد ، والثالثة على أن يكون خارج البلد في أقطار الأرض ، فقد يمكن أن يتوهم للقريب من التكليف ما ليس للبعيد فأزيل ذلك الوهم .

وثانيها : أنه نيط بكل واحد ما لم ينط بالآخر ، وذلك أنه أكد الأول بأن أهل الكتاب يعلمون حقيته بشهادة التوراة والإنجيل ، وأكد الثاني بإخبار الله تعالى عن حقيته وكفى به شهيداً ، وأتبع الثالث غرض التحويل وهو قوله ﴿ لئلا يكون للناس عليكم حجة ﴾ كما أن قوله ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ وأمثال ذلك تكرر حيث نيط بكل منها فائدة .

وثالثها : أن الآية الأولى توهم أن التحويل إنما فعل رضا للنبي صلى الله عليه وسلم وطلباً لهواه حيث قال ﴿ فلنولينك قبلةً ترضاها ﴾ فأزيل الوهم بتكرار الأمر وتعقيبه بقوله ﴿ وإنه للحق من ربك ﴾ أي نحن ما حولناك إلى هذه القبلة بمجرد رضاك وهواك كقبلة اليهود والمنسوخة التي إنما يقيمون عليها بمجرد الهوى والتشهي ، ولكنها حق من ربك بعد أنها وافقت رضاك ، وفي الثالثة بيان الغرض .

ورابعها : أن الأولى لتعميم الأحوال والثانية لتعميم الأمكنة ، والثالثة لتعميم الأزمنة إشعاراً بأنها لا تصير منسوخة ألبتة .

وخامسها : الزم هذه القبلة فإنها التي كنت تهواها ، الزم هذه القبلة فإنها قبلة الحق لا قبلة الهوى . الزم هذه القبلة فبها ينقطع عنك حجج العدا وهذا قريب من الثالث .

وسادسها : هذه الواقعة أولى الوقائع التي ظهر النسخ فيها في شرعنا فدعت الحاجة إلى التكرير لمزيد التأكيد والتقرير .

وسابعها : قلت : الآية الأولى مشتملة على تكليف خاص بالنبي صلى الله عليه وسلم ﴿ فلنولينك قبلةً ترضاها فولّ وجهك شطر المسجد الحرام ﴾ ثم على تكليف عام له ولأمته ﴿ وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره ﴾ والآية الثانية ﴿ ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام ﴾ لأجل تكليف أخص وهو تكليف الالتفات عما سوى الله إلى الله وهو تكليف الصدّيقين وهو سنة خليل الرحمن صلى الله عليه وسلم ﴿ وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض ﴾ [الأنعام : 49] ومما يؤيد هذا التأويل تعقيبه بقوله ﴿ وإنه للحق من ربك ﴾ لم يستظهر على هذا إلا بشهادة نفسه حيث لم يبق إلا هو وهو مقام الفناء في الله بخلاف الآية الأولى فإنها أكدت بشهادة الغير . وأيضاً اقتصر ههنا على أمر النبي صلى الله عليه وسلم دون الأمة لأن هذه المرتبة وهي المسجد الحرام – حرام لا يليق بكل أحد جل جناب الحق عن أن يكون شريعة لكل وارد أو يطلع عليه إلا واحد بعد واحد . وأيضاً قدم على الآية قوله ﴿ ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات ﴾ فدل على أن المذكور بعدها مرتبة السابقين ﴿ ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ﴾ [فاطر : 32] لما كان من المحتمل أن يظن أن التكليف الأخص ناسخ للتكليف الخاص منه والعام له ولأمته ، كرر الآية الأولى بعينها ليعلم أن حكمها باقٍ بالنسبة إلى عموم المكلفين والله تعالى أعلم بحقائق الأمور .

قوله ﴿ لئلا يكون ﴾ أي ولوا لأجل هذا الغرض . وقال الزجاج : يتعلق بمحذوف أي عرفتكم لئلا يكون الناس عليكم حجة . و الناس قيل للعموم ، وقيل هم اليهود كانوا يطعنون بأنه يخالفنا في ديننا ويتبع قبلتنا ويقولون ما درى محمد أين يتوجه في صلاته حتى هديناه . وقيل : هم العرب قالوا : إنه يقول أنا على دين إبراهيم ، ولما ترك التوجه إلى الكعبة فقد ترك دين إبراهيم . وإنما أطلق الحجة على قول المعاندين لأن المراد بها المحاجة ، أو سماها حجة تهكماً أو طباقاً أو بناءً على معتقدهم لأنهم يسوقونها سياق الحجة . وقد تكون الحجة باطلة قال تعالى ﴿ حجتهم داحضة عند ربهم ﴾ [الشورى : 16] وكل كلام يقصد به غلبة الغير حجة ، وعلى هذا فالاستثناء متصل . والمراد بالذين ظلموا المعاندون من اليهود القائلون بأنه ما ترك قبلتنا إلى الكعبة إلا ميلاً إلى دين قومه وحباً لبلده ، ولو كان على الحق للزم قبلة الأنبياء ، أو بعض العرب القائلون بأن محمداً عاد إلى ديننا في الكعبة وسيعود إلى ديننا بالكلية .

وقيل : الاستثناء منقطع . وقيل : " إلا " بمعنى الواو وأنشد شعر :

وكل أخٍ مفارقه أخوه . . . لعمر أبيك إلا الفرقدان

يعني والفرقدان . وإذا طعنوا في دينكم من غير ما سببٍ ﴿ فلا تخشوهم ﴾ فإنهم لا يضرونكم ﴿ واخشون ﴾ واحذروا عقابي إن أنتم عدلتم عما ألزمتكم وفرضت عليكم على وفق مصلحتكم ، فعلى المرء أن ينصب بين عينيه في كل أفعاله وتروكه خشية الله ويقطع الرجاء والخوف عمن سواه . قوله ﴿ ولأتم ﴾ قيل : معطوف على ﴿ لئلا ﴾ أي حوّلتكم إلى هذه القبلة لحكمتين : إحداهما انقطاع حجتهم ، والثانية إتمام النعمة بحصول شرف قبلة إبراهيم . وقيل : متعلقة محذوف معناه ولإتمامي النعمة عليكم وإرادتي اهتداءكم أمرتكم بذلك . وقيل : معطوف على علة مقدرة كأنه قال : واخشوني لأوفقكم ولأتم نعمتي عليكم وهذا الإتمام لا ينافي ما أنزل في آخر عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ﴾ [المائدة : 3] فإن لله تعالى في كل وقت نعمة على المكلفين ولها تمام بحسبها ، فهذا إتمام النعمة في أمر القبلة ، وذاك تمام النعمة في أمر الدين على الإطلاق وعن علي عليه السلام : تمام النعمة الموت على الإسلام . وفي الحديث " تمام النعمة دخول الجنة " ﴿ كما أرسلنا ﴾ " ما " مصدرية أو كافة . ثم إن الجار والمجرور يتعلق بما قبله أو بما بعده . وعلى الأول قيل : معناه ولأتم نعمتي

عليكم في الدنيا بحصول الشرف وفي الآخرة بالفوز بالثواب كما أتممتها عليكم في الدنيا بإرسال الرسول ، أو لأتم نعمتي ببيان الشرائع ، أو أهديكم إلى الدين إجابة لدعوة إبراهيم حيث قال ﴿ ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا ﴾ [البقرة : 128] كما أرسلنا فيكم رسولاً إجابةً لدعوته حيث قال ﴿ ربنا وابعث فيهم رسولاً ﴾ [البقرة : 129] وقيل : معناه كذلك جعلناكم أمة وسطاً كما أرسلنا فيكم رسولاً ، وعلى الثاني معناه كما ذكرتكم بإرسال الرسول فاذكروني أذكركم تارةً أخرى . وفيه أن نعمه على العبد لا تنقطع ، فكل نعمة سابقة فسيضم إليها أخرى لاحقة حتى يكون له الفضل أولاً وأخيراً

(204/70)

وبدايةً ونهايةً . وفي إرساله فيهم ومنهم أي من العرب نعمة عظيمة عليهم لما لهم فيه من الشرف ، ولأن المشهور من حال العرب الأنفة الشديدة من الانقياد للغير فبعثه الله تعالى من واسطتهم ليكونوا إلى القبول أقرب . وكون القرآن متلواً من أعظم النعم لأنه معجزة باقية ولأنه يتلى فتتأدى به العبادات ، ولأنه يتلى فتستفاد منه جميع العلوم ، ولأنه يتلى فيوقف على مجامع الأخلاق الحميدة ففي تلاوته خير الدنيا والآخرة . ومعنى التزكية وتعليم

الكتاب والحكمة قد مر في دعاء إبراهيم . وفي قوله ﴿ يعلمكم ما لم تكونوا تعلمون ﴾ تنبيه على أنه تعالى أرسله على فترة من الرسل وجهالة من الأمر وتحير الناس في أمر الديانة ، فعلمهم ما احتاجوا إليه في صلاح معاشهم ومعادهم وذلك من أعظم أنواع النعم ﴿ فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون ﴾ تكليف بأمرين : الذكر والشكر . وقد مر ذكر الشكر في تفسير الحمد وقوله ﴿ ولا تكفرون ﴾ عطف بالواو ليعلم أن جحود النعمة منهيّ عنه كما أن الشكر مأمور به . ولو قطع على طريقة قوله :

(205/70)

" أقول له ارحل لا تقيمن عندنا " لأوهم أن المقصود بالذات هو الثاني والأول في حكم المنحى . ويحتمل من حيث العربية أن تكون " لا " نافية والنون ليست للوقاية ، ومحل الجملة النصب على الحال أي اشكروا لي غير جاحدين لنعمتي . وأما الذكر فباللسان وهو أن يحمده ويسبحه ويمجده ويقرأ كتابه ، أو بالقلب وهو أن يتفكر في الدلائل على ذاته وصفاته ، وفي الأجوبة عن شبه الطاعنين فيها وفي الدلائل على كيفية تكاليفه وأحكامه وأوامره ونواهيه ووعده ووعيده ليعمل بمقتضاها ، ثم يتفكر في أسرار المخلوقات متوصلاً من كل ذرة إلى موجدها ، أو بالجوارح وهو أن تكون مستغرقة في الأعمال المأمور بها فارغة

عن الأشغال المنهي عنها . وبهذا الوجه سمى الصلاة ذكراً ﴿ فاسعوا إلى ذكر الله ﴾ [الجمعة : 9] وأما ذكر الله تعالى فلا بد أن يحمل على ما له تعلق بالثواب وإظهار الرضا واستحقاق المنزلة والإكرام فالحاصل اذكروني بطاعتي أذكركم برحمتي ، اذكروني بالدعاء أذكركم بالإجابة ، اذكروني في الدنيا أذكركم في الآخرة ، اذكروني في الخلوات أذكركم في الفلوات ، اذكروني في الرخاء أذكركم في البلاء ، اذكروني بالمجاهدة أذكركم بالهداية ، اذكروني بالصدق والإخلاص أذكركم بالخلاص ومزيد الاختصاص ، اذكروني بالعبودية أذكركم بالربوبية ، اذكروني بالفناء أذكركم بالبقاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 1 صـ 418. 438 ﴾

(206/70)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال الآلوسى :

ومن باب الإشارة والتأويل في الآيات السابقة إلى هنا : (وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات) أي بمراتب الروحانيات كالقلب والسر والروح والخفاء والوحدة والأحوال والمقامات التي يعبر بها على تلك المراتب كالتسليم والتوكل والرضا وعلومها ﴿ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ بالسلوك إلى

الله تعالى وفي الله تعالى حتى الفناء فيه ﴿ قَالَ إِنِّي جاعلكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ بالبقاء بعد الفناء ، والرجوع إلى الخلق من الحق ، تؤمهم وتهديهم سلوك سبيلي ، ويقتدون بك فيهتدون ﴿ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظالمين ﴾ [البقرة : 124] فلا يكونون خلفائي مع ظلمهم وظلمتهم برؤية الأغيار ومجاوزة الحدود ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ﴾ بيت القلب مرجعاً للناس ، ومحل أمن وسلامة لهم إذا وصلوا إليه وسكنوا فيه من شر غوائل صفات النفس ، وفتك قتال القوى الطبيعية وإفسادها ، وتخييل شياطين الوهم والخيال وإغوائهم .

(207/70)

﴿ واتخذوا مِن مَّقَامِ إبراهيم ﴾ الذي هو مقام الروح والخلة موطناً للصلاة الحقيقية التي هي المشاهدة والخلة الذوقية ﴿ وَعَهِدْنَا إلى إبراهيم وإسماعيل ﴾ [البقرة : 125] أمرناهما بتطهير بيت القلب من قاذورات أحاديث النفس ، ونجاسات وساوس الشيطان ، وأرجاس دواعي الهوى ، وأدناس صفات القوى للسالكين المشتاقين الذين يدورون حول القلب في سيرهم ، والواصلين إلى مقامه بالتكول الذي هو توحيد الأفعال ، والخاضعين الذين بلغوا إلى مقام تجلي الصفات وكمال مرتبة الرضا ، الغائبين في الوحدة ، الفانين فيها ﴿ وَإِذْ قَالَ إبراهيم رَبِّ اجعل هذا ﴾ الصدر الذي هو حريم القلب ﴿ بَلَدًا آمِنًا ﴾ من

استيلاء صفات النفس ، واغتيال العدو اللعين ، وتخطف جن القوى البدنية ﴿ وارزق أَهْلَهُ ﴾ من ثمرات معارف الروح من وحد الله تعالى منهم وعلم المعاد إليه ، قال : ومن احتجب أيضاً من الذين يسكنون الصدر ولا يجاوزون حده بالترقي إلى مقام العين لاحتجابهم بالعلم الذي وعاؤه الصدر ﴿ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ﴾ من المعاني العقلية والمعلومات الكلية النازلة إليهم من عالم الروح على حسب استعدادهم ﴿ ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلى عَذَابِ ﴾ نار الحرمان والحجاب ﴿ وَبِئْسَ المصير ﴾ [البقرة : 126] مصيرهم لتعذيبهم بنقصانهم وعدم تكميل نشأتهم ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إبراهيم القواعد مِنَ البيت ﴾ على الكيفية التي ذكرناها قبل ﴿ وإسماعيل ﴾ كذلك قائلين ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ﴾ مجاهداتنا ومساعينا في السلوك إليك بامداد التوفيق ﴿ إِنَّكَ أَنتَ السميع ﴾ لهواجس خواطرنا فيه ﴿ العليم ﴾ [البقرة : 127] بنياتنا وأسرارنا ﴿ رَبَّنَا واجعلنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ ﴾ لاتكلنا إلى أن أنفسنا ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا ﴾ المنتمين إلينا ﴿ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا ﴾ طرق الوصول إلى نفي ما سواك ﴿ وَتُبْ عَلَيْنَا ﴾ فيك عن أنفسنا وفنائنا ﴿ إِنَّكَ أَنتَ التواب ﴾ الموفق للرجوع إليك

﴿ الرحيم ﴾ [البقرة : 128] بمن عوّل دون السوى عليك ﴿ رَبَّنَا وابعث فِيهِمْ رَسُولاً مّنْهُمْ ﴾ وهو الحقيقة المحمدية ﴿ يَتْلُو عَلَيْهِمْ ءاياتك ﴾ الدالة عليك ﴿ وَيُعَلّمُهُمُ ﴾ كتاب العقل الجامع لصفاتك ﴿ والحكمة ﴾ الدالة على نفي غيرك ﴿ وَيُزَكّيهِمْ ﴾ ويطهرهم عن دنس الشرك ﴿ إِنَّكَ أَنتَ العزيز ﴾ [البقرة : 129] الغالب ، فأنى يظهر سواك المحكم لما ظهرت فيه فلا يرى إلا إياك ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِلَّةِ إبراهيم ﴾ وهي التوحيد الصرف ، إلا من احتجب عن نور العقل بالكلية ، وبقي في ظلمة نفسه ﴿ وَلَقَدِ اصطفيناه ﴾ [البقرة : 130] فكان من المحبوبين المرادين بالسابقة الأزلية في عالم الملك ، وأنه في عالم الملكوت من أهل الاستقامة ، الصالح لتدبير النظام وتكميل النوع ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ ﴾ أي وحّد وأسلم لله تعالى ذاتك ﴿ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبّ العالمين ﴾ [البقرة : 131] وفنيت فيه ﴿ ووصى ﴾ بكلمة التوحيد ﴿ إبراهيم بَنِيهِ ﴾ السالكين على يده وكذلك يعقوب ﴿ وَيَعْقُوبُ يا بنى إِنَّ الله اصطفى لَكُمُ ﴾ دينه الذي لا دين غيره عنده ﴿ فَلاَ تَمُوتُنَّ ﴾ [البقرة : 132] بالموت الطبيعي وموت الجهل ، بل كونوا ميتين بأنفسكم ، أحياء بالله أبداً ، فيدرككم موت البدن على هذه الحالة ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ﴾ فلا تكونوا مقيدين بالتقليد البحت لهم ، فليس لأحد إلا ما كسب من العلم والعمل والاعتقاد والسيرة ، فكونوا على بصيرة في أمركم ، واطلبوا ما طلبوا لتنالوا ما نالوا ﴿ والذين

جاهدوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت : 69] ومن دق باب الكريم ولج. انتهى انتهى. اهـ ﴿ روح المعانى حـ 1 صـ 392. 393 ﴾

(209/70)

فصل

قال الشيخ سيد قطب فى الآيات السابقة :

﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (142) ﴾

إلى قوله تعالى :

فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ (152) ﴾

الحديث في هذا الدرس يكاد يقتصر على حادث تحويل القبلة ، والملابسات التي أحاطت به ، والدسائس التي حاولها اليهود في الصف المسلم بمناسبته والأقاويل التي أطلقوها من حوله ؛ ومعالجة آثار هذه الأقاويل في نفوس بعض المسلمين وفي الصف المسلم على العموم . ولا توجد رواية قطعية في هذا الحادث ، كما أنه لا يوجد قرآن يتعلق بتاريخه بالتفصيل . والآيات الخاصة به هنا تتعلق بتحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة . وكان هذا في

المدينة بعد ستة عشر أو سبعة عشر شهراً من الهجرة.

ومجموع الروايات المتعلقة بهذا الحادث يمكن أن يستنبط منها - بالإجمال - أن المسلمين في مكة كانوا يتوجهون إلى الكعبة منذ أن فرضت الصلاة - وليس في هذا نص قرآني - وأنهم بعد الهجرة وجهوا إلى بيت المقدس بأمر إلهي للرسول - صلى الله عليه وسلم - يرجح أنه أمر غير قرآني. ثم جاء الأمر القرآني الأخير: ﴿ فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوكم شطره ﴾ .. فنسخه.

وعلى أية حال فقد كان التوجه إلى بيت المقدس - وهو قبلة أهل الكتاب من اليهود والنصارى - سبباً في اتخاذ اليهود إياه ذريعة للاستكبار عن الدخول في الإسلام، إذ أطلقوا في المدينة ألسنتهم بالقول، بأن اتجاه محمد ومن معه إلى قبلتهم في الصلاة دليل على أن دينهم هو الدين، وقبلتهم هي القبلة؛ وأنهم هم الأصل، فأولى بمحمد ومن معه أن يفيئوا إلى دينهم لا أن يدعوهم إلى الدخول في الإسلام!

(210/70)

وفي الوقت ذاته كان الأمر شاقاً على المسلمين من العرب، الذين ألفوا في الجاهلية أن يعظموا حرمة البيت الحرام؛ وأن يجعلوه كعبتهم وقبلتهم. وزاد الأمر مشقة ما كانوا يسمعونه من

اليهود من التبجح بهذا الأمر ، واتخاذه حجة عليهم !

وكان الرسول – صلى الله عليه وسلم – يقلب وجهه في السماء متجهاً إلى ربه ، دون أن ينطق لسانه بشيء ، تأدباً مع الله ، وانتظاراً لتوجيهه بما يرضاه . .

ثم نزل القرآن يستجيب لما يعتمل في صدر الرسول – صلى الله عليه وسلم – : ﴿ قد نرى تقلب وجهك في السماء ، فلنولينك قبلة ترضاها ، فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره ﴾ . .

وتقول الروايات : إن هذا كان في الشهر السادس عشر أو السابع عشر من الهجرة ، وإن المسلمين حينما سمعوا بتحويل القبلة ، كان بعضهم في منتصف صلاة ، فحولوا وجوهم شطر المسجد الحرام في أثناء صلاتهم ، وأكملوا الصلاة تجاه القبلة الجديدة .

عندئذ انطلقت أبواق – يهود وقد عز عليهم أن يتحول محمد – صلى الله عليه وسلم – والجماعة المسلمة عن قبلتهم ، وأن يفقدوا حجتهم التي يرتكنون إليها في تعاظمهم وفي تشكيك المسلمين في قيمة دينهم – انطلقت تلقي في صفوف المسلمين وقلوبهم بذور الشك والقلق في قيادتهم وفي أساس عقيدتهم .

. قالوا لهم : إن كان التوجه – فيما مضى – إلى بيت المقدس باطلاً فقد ضاعت صلاتكم طوال هذه الفترة ؛ وإن كانت حقاً فالتوجه الجديد إلى المسجد الحرام باطل ، وضائعة

صلاتكم إليه كلها . . وعلى أية حال فإن هذا النسخ والتغيير للأوامر – أو للآيات – لا يصدر من الله ، فهو دليل على أن محمداً لا يتلقى الوحي من الله !

(211/70)

وتتبين لنا ضخامة ما أحدثته هذه الحملة في نفوس بعض المسلمين وفي الصف الإسلامي من مراجعة ما نزل من القرآن في هذا الموضوع ، منذ قوله تعالى : ﴿ ما ننسخ من آية أو ننسها ﴾ – وقد استغرق درسين كاملين في الجزء الأول – ومن مراجعة هذا الدرس في هذا الجزء أيضاً . ومن التوكيدات والإيضاحات والتحذيرات التي سندرسها فيما يلي تفصيلاً عند استعراض النص القرآني .

أما الآن فنقول كلمة في حكمة تحويل القبلة ، واختصاص المسلمين بقبلة خاصة بهم يتجهون إليها . فقد كان هذا حادثاً عظيماً في تاريخ الجماعة المسلمة ، وكانت له آثار ضخمة في حياتها . .

لقد كان تحويل القبلة أولاً عن الكعبة إلى المسجد الأقصى لحكمة تربوية أشارت إليها آية في هذا الدرس :

﴿ وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه ﴾ . .

فقد كان العرب يعظمون البيت الحرام في جاهليتهم ، ويعدونه عنوان مجدهم القومي . .

ولما كان الإسلام يريد استخلاص القلوب لله ، وتجريدها من التعلق بغيره ، وتخليصها من كل نعرة وكل عصبية لغير المنهج الإسلامي المرتبط بالله مباشرة ، المجرد من كل ملابسة تاريخية أو عنصرية أو أرضية على العموم . . فقد نزعهم نزعاً من الاتجاه إلى البيت الحرام ، واختار لهم الاتجاه – فترة – إلى المسجد الأقصى ، ليخلص نفوسهم من رواسب الجاهلية ، ومن كل ما كانت تتعلق به في الجاهلية ، وليظهر من يتبع الرسول اتباعاً مجرداً من كل إيحاء آخر ، اتباع الطاعة الواثقة الراضية المستسلمة ، ممن ينقلب على عقبيه اعتزازاً بنعرة جاهلية تتعلق بالجنس والقوم والأرض والتاريخ ؛ أو تتلبس بها في خفايا المشاعر وحنايا الضمير أي تلبس من قريب أو من بعيد . .

(212/70)

حتى إذا استسلم المسلمون ، واتجهوا إلى القبلة التي وجههم إليها الرسول – صلى الله عليه وسلم – وفي الوقت ذاته بدأ اليهود يتخذون من هذا الوضع حجة لهم ، صدر الأمر الإلهي الكريم بالاتجاه إلى المسجد الحرام . ولكنه ربط قلوب المسلمين بحقيقة أخرى بشأنه . هي حقيقة الإسلام . حقيقة أن هذا البيت بناه إبراهيم وإسماعيل ليكون خالصاً لله ، وليكون

تراثاً للأمة المسلمة التي نشأت تلبية لدعوة إبراهيم ربه أن يبعث في بنيه رسولاً منهم بالإسلام، الذي كان عليه هو وبنوه وحفدته.

. كما مر في درس: ﴿ وإذا ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن ﴾. في الجزء الماضي.

ولقد كان الحديث عن المسجد الحرام: بنائه وعمارته، وما أحاط بهما من ملابسات؛ والجدل مع أهل الكتاب والمشركين حول إبراهيم وبنيه ودينه وقبلته، وعهده ووصيته.. كان هذا الحديث الذي سلف في هذه السورة خير تمهيد للحديث عن تحويل قبلة المسلمين من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام بعد هذه الفترة. فتحويل قبلة المسلمين إلى المسجد الحرام الذي بناه إبراهيم وإسماعيل، ودعوا عنده ذلك الدعاء الطويل.. يبدو في هذا السياق هو الاتجاه الطبيعي المنطقي مع وراثة المسلمين لدين إبراهيم وعهده مع ربه. فهو الاتجاه الحسي المتساوق مع الاتجاه الشعوري، الذي ينشئه ذلك التاريخ.

لقد عهد الله إلى إبراهيم أن يكون من المسلمين؛ وعهد إبراهيم بهذا الإسلام إلى بنيه من بعده، كما عهد به يعقوب - وهو إسرائيل - ولقد علم إبراهيم أن وراثة عهد الله وفضله لا تكون للظالمين.

ولقد عهد الله إلى إبراهيم وإسماعيل بإقامة قواعد البيت الحرام.. فهو تراث لهما، يرثه من يرثون عهد الله إليهما.. والأمة المسلمة هي الوارثة لعهد الله مع إبراهيم وإسماعيل ولفضل الله عليهما؛ فطبيعي إذن ومنطقي أن ترث بيت الله في مكة، وأن تتخذ منه قبلة.

فإذا اتجه المسلمون فترة من الزمان إلى المسجد الأقصى ، الذي يتجه إليه اليهود والنصارى ، فقد كان هذا التوجه لحكمة خاصة هي التي أشار إليها السياق ، وبيناها فيما سبق . فالآن وقد شاء الله أن يعهد بالوراثة إلى الأمة المسلمة ، وقد أبى أهل الكتاب أن يفيئوا إلى دين أبيهم إبراهيم – وهو الإسلام – فيشاركوا في هذه الوراثة . . الآن يجيء تحويل القبلة في أوانه . تحويلها إلى بيت الله الأول الذي بناه إبراهيم . لتتميز للمسلمين كل خصائص الوراثة . حسيها وشعوريها ، وراثة الدين ، ووراثة القبلة ، ووراثة الفضل من الله جميعاً .

إن الاختصاص والتميز ضروريان للجماعة المسلمة : الاختصاص والتميز في التصور والاعتقاد ؛ والاختصاص والتميز في القبلة والعبادة . وهذه كتلك لا بد من التميز فيها والاختصاص . وقد يكون الأمر واضحاً فيما يختص بالتصور والاعتقاد ؛ ولكنه قد لا يكون بهذه الدرجة من الوضوح فيما يختص بالقبلة وشعائر العبادة . . هنا تعرض التفاتة إلى قيمة أشكال العبادة .

إن الذي ينظر إلى هذه الأشكال مجردة عن ملابساتها ، ومجردة كذلك عن طبيعة النفس البشرية وتأثراتها . . ربما يبدو له أن في الحرص على هذه الأشكال بذاتها شيئاً من

التعصب الضيق ، أو شيئاً من التعبد للشكليات ولكن نظرة أرحب من هذه النظرة ، وإدراكاً أعمق لطبيعة الفطرة ، يكشفان عن حقيقة أخرى لها كل الاعتبار .

إن في النفس الإنسانية ميلاً فطرياً – ناشئاً من تكوين الإنسان ذاته من جسد ظاهر وروح مغيب – إلى اتخاذ أشكال ظاهرة للتعبير عن المشاعر المضمرة .

فهذه المشاعر المضمرة لا تهدأ أو لا تستقر حتى تتخذ لها شكلاً ظاهراً تدركه الحواس ؛ وبذلك يتم التعبير عنها . يتم في الحس كما تم في النفس . فتهدأ حينئذ وتستريح ؛ وتفرغ الشحنة الشعورية تفريغاً كاملاً ؛ وتحس بالتناسق بين الظاهر والباطن ، وتجد تلبية مريحة لجنوحها إلى الأسرار والمجاهيل وجنوحها إلى الظواهر والأشكال في ذات الأوان .

(214/70)

وعلى هذا الأساس الفطري أقام الإسلام شعائره التعبدية كلها . فهي لا تؤدى بمجرد النية ، ولا بمجرد التوجه الروحي . ولكن هذا التوجه يتخذ له شكلاً ظاهراً : قياماً واتجاهاً إلى القبلة وتكبيراً وقراءة وركوعاً وسجوداً في الصلاة . وإحراماً من مكان معين ولباساً معيناً وحركة وسعياً ودعاء وتلبية ونحراً وحلقاً في الحج . ونية وامتناعاً عن الطعام والشراب والمباشرة في الصوم . . وهكذا في كل عبادة حركة ، وفي كل حركة عبادة ، ليؤلف بين

ظاهر النفس وباطنها ، وينسق بين طاقاتها ، ويستجيب للفطرة جملة بطريقة تتفق مع تصوره الخاص .

ولقد علم الله أن الرغبة الفطرية في اتخاذ أشكال ظاهرة للقوى المضمرة هي التي حادت بالمنحرفين عن الطريق السليم . فجعلت جماعة من الناس ترمز للقوة الكبرى برموز محسوسة مجسمة من حجر وشجر ، ومن نجوم وشمس وقمر ، ومن حيوان وطير وشيء . . حين أعوزهم أن يجدوا متصرفاً منسقاً للتعبير الظاهر عن القوى الخفية . . فجاء الإسلام يلبي دواعي الفطرة بتلك الأشكال المعينة لشعائر العبادة ، مع تجريد الذات الإلهية عن كل تصور حسي وكل تحيز لجهة . فيتوجه الفرد إلى قبلة حين يتوجه إلى الله بكليته . . بقلبه وحواسه وجوارحه . . فتتم الوحدة والاتساق بين كل قوى الإنسان في التوجه إلى الله الذي لا يتحيز في مكان ؛ وإن يكن الإنسان يتخذ له قبلة من مكان !

ولم يكن بد من تمييز المكان الذي يتجه إليه المسلم بالصلاة والعبادة وتخصيصه كي يتميز هو ويتخصص بتصوره ومنهجه واتجاهه . . فهذا التميز تلبية للشعور بالامتياز والتفرد ؛ كما أنه بدوره ينشيء شعوراً بالامتياز والتفرد .

(215/70)

ومن هنا كذلك كان النهي عن التشبه بمن دون المسلمين في خصائصهم ، التي هي تعبير ظاهر عن مشاعر باطنة كالنهي عن طريقتهم في الشعور والسلوك سواء . ولم يكن هذا تعصباً ولا تمسكاً بمجرد شكليات . وإنما كان نظرة أعمق إلى ما وراء الشكليات . كان نظرة إلى البواعث الكامنة وراء الأشكال الظاهرة . وهذه البواعث هي التي تفرق قوماً عن قوم ، وعقلية عن عقلية ، وتصوراً عن تصور ، وضميراً عن ضمير ، وخلقاً عن خلق ، واتجاهاً في الحياة كلها عن اتجاه .

عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال إن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : " إن اليهود والنصارى لا يصبغون ، فخالفوهم " .

وقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وقد خرج على جماعة فقاموا له " لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضها " .

وقال صلوات الله وسلامه عليه – : " لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم إنما أنا عبد فقولوا : عبد الله ورسوله " .

نهى عن تشبه في مظهر أو لباس . ونهى عن تشبه في حركة أو سلوك . ونهى عن تشبه في قول أو أدب . . لأن وراء هذا كله ذلك الشعور الباطن الذي يميز تصوراً عن تصور ، ومنهجاً في الحياة عن منهج ، وسمة للجماعة عن سمة .

ثم هو نهى عن التلقي من غير الله ومنهجه الخاص الذي جاءت هذه الأمة لتحققه في

الأرض . نهى عن الهزيمة الداخلية أمام أي قوم آخرين في الأرض . فالهزيمة الداخلية تجاه مجتمع معين هي التي تتدسس في النفس لتقلد هذا المجتمع المعين . والجماعة المسلمة قامت لتكون في مكان القيادة للبشرية ؛ فينبغي لها أن تستمد تقاليدها – كما تستمد عقيدتها – من المصدر الذي اختارها للقيادة . . والمسلمون هم الأعلون . وهم الأمة الوسط . وهم خير أمة أخرجت للناس . فمن أين إذن يستمدون تصورهم ومنهجهم ؟ ومن أين إذن يستمدون تقاليدهم ونظمهم ؟ إلا يستمدوها من الله فهم سيستمدونها من الأدنى الذي جاءوا ليرفعوه !

(216/70)

ولقد ضمن الإسلام للبشرية أعلى أفق في التصور ، وأقوم منهج في الحياة . فهو يدعو البشرية كلها أن تفيء إليه . وما كان تعصباً أن يطلب الإسلام وحدة البشرية على أساسه هو لا على أي أساس آخر ؛ وعلى منهجه هو لا على أي منهج آخر ؛ وتحت رايته هو لا تحت أية راية أخرى . فالذي يدعوك إلى الوحدة في الله ، والوحدة في الأرفع من التصور ، والوحدة في الأفضل من النظام ، ويأبى أن يشتري الوحدة بالحيدة عن منهج الله ، والتردي في مهاوي الجاهلية . . ليس متعصباً أو هو متعصب . ولكن للخير والحق والصلاح !

والجماعة المسلمة التي تتجه إلى قبلة مميزة يجب أن تدرك معنى هذا الاتجاه. إن القبلة ليست مجرد مكان أو جهة تتجه إليها الجماعة في الصلاة. فالمكان أو الجهة ليس سوى رمز. رمز للتميز والاختصاص. تميز التصور، وتميز الشخصية، وتميز الهدف، وتميز الاهتمامات، وتميز الكيان.

والأمة المسلمة – اليوم – بين شتى التصورات الجاهلية التي تعج بها الأرض جميعاً، وبين شتى الأهداف الجاهلية التي تستهدفها الأرض جميعاً، وبين شتى الاهتمامات الجاهلية التي تشغل بال الناس جميعاً، وبين شتى الرايات الجاهلية التي ترفعها الأقوام جميعاً.. الأمة المسلمة اليوم في حاجة إلى التميز بشخصية خاصة لا تتلبس بشخصيات الجاهلية السائدة؛ والتميز بتصور خاص للوجود والحياة لا يتلبس بتصورات الجاهلية السائدة؛ والتميز بأهداف واهتمامات تتفق مع تلك الشخصية وهذا التصور؛ والتميز براية خاصة تحمل اسم الله وحده، فتعرف بأنها الأمة الوسط التي أخرجها الله للناس لتحمل أمانة العقيدة وتراثها..

إن هذه العقيدة منهج حياة كامل. وهذا المنهج هو الذي يميز الأمة المستخلفة الوارثة لتراث العقيدة، الشهيدة على الناس، المكلفة بأن تقود البشرية كلها إلى الله.

. وتحقيق هذا المنهج في حياة الأمة المسلمة هو الذي يمنحها ذلك التميز في الشخصية والكيان ، وفي الأهداف والاهتمامات ، وفي الراية والعلامة . وهو الذي يمنحها مكان القيادة الذي خلقت له ، وأخرجت للناس من أجله . وهي بغير هذا المنهج ضائعة في الغمار ، مبهمة الملامح ، مجهولة السمات ، مهما اتخذت لها من أزياء ودعوات وأعلام !

ثم نعود من هذا الاستطراد بمناسبة تحويل القبلة لنواجه النصوص القرآنية بالتفصيل :

﴿ سيقول السفهاء من الناس : ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها ؟ قل : لله المشرق والمغرب . يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم . وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيداً وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه . وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله . وما كان الله ليضيع إيمانكم . إن الله بالناس لرؤوف رحيم ﴾ .

من السياق القرآني ومن سياق الأحداث في المدينة يتضح أن المقصود بالسفهاء هم اليهود . فهم الذين أثاروا الضجة التي أثيرت بمناسبة تحويل القبلة كما أسلفنا . وهم الذين أثاروا هذا التساؤل : ﴿ ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها ؟ ﴾ وهي المسجد الأقصى .

عن البراء بن عازب – رضي الله عنه – قال : " أول ما قدم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – المدينة نزل على أجداده – أو قال أخواله – من الأنصار ؛ وأنه صلى قبل بيت المقدس ستة عشر شهراً ؛ أو سبعة عشر شهراً ؛ وكان يعجبه أن تكون قبلته قبل البيت ، وأنه صلى أول صلاة صلاها صلاة العصر ؛ وصلى معه قوم ، فخرج رجل ممن صلى معه ، فمر على أهل مسجد وهم راكعون . فقال أشهد بالله لقد صليت مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قبل الكعبة ، فداروا كما هم قبل البيت " وكانت اليهود قد أعجبهم إذ كان يصلي قبل بيت المقدس ، فلما ولى وجهه قبل البيت أنكروا ذلك ، فنزلت : ﴿ قد نرى تقلب وجهك في السماء . . . ﴾ فقال السفهاء – وهم اليهود – ﴿ ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها ﴾ .

وسنلاحظ أن علاج القرآن لهذا التساؤل ولتلك الفتنة يشي بضخامة آثار تلك الحملة في نفوس بعض المسلمين وفي الصف المسلم في ذلك الحين . .

والذي يظهر من صيغة التعبير هنا :

﴿ سيقول السفهاء من الناس : ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها ؟ ﴾ .

أن هذا كان تمهيداً لإعلان تحويل القبلة في المقطع التالي في هذا الدرس ، وأخذاً للطريق على الأقاويل والتساؤلات التي علم الله أن السفهاء سيطلقونها . . أو كان رداً عليها بعد

إطلاقها ، – كما جاء في الحديث السابق – اتخذ هذه الصيغة للإيحاء بأن ما قالوه كان مقدراً أمره ، ومعروفة خطته ، ومعدة إجابته .

وهي طريقة من طرق الرد أعمق تأثيراً .

وهو يبدأ في علاج آثار هذا التساؤل ، والرد عليه بتلقين الرسول – صلى الله عليه وسلم – ما يواجههم به ، ويُقِّر به الحقيقة في نصابها ؛ وفي الوقت نفسه يصحح التصور العام للأمور .

﴿ قل : لله المشرق والمغرب ، يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ . .

(219/70)

إن المشرق لله والمغرب لله . فكل متجه فهو إليه في أي اتجاه . فالجهات والأماكن لا فضل لها في ذاتها . إنما يفضلها ويخصصها اختيار الله وتوجيهه . . والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم . فإذا اختار لعباده وجهة ، واختار لهم قبلة ، فهي إذن المختارة . وعن طريقها يسيرون إلى صراط مستقيم . .

بذلك يقرر حقيقة التصور للأماكن والجهات ، وحقيقة المصدر الذي يتلقى منه البشر التوجهات ، وحقيقة الاتجاه الصحيح وهو الاتجاه إلى الله في كل حال .

ثم يحدث هذه الأمة عن حقيقتها الكبيرة في هذا الكون ، وعن وظيفتها الضخمة في هذه

الأرض ، وعن مكانها العظيم في هذه البشرية ، وعن دورها الأساسي في حياة الناس ؛ مما يقتضي أن تكون لها قبلتها الخاصة ، وشخصيتها الخاصة ؛ وألا تسمع لأحد إلا لربها الذي اصطفاها لهذا الأمر العظيم :

﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا ، لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيداً ﴾ . .

إنها الأمة الوسط التي تشهد على الناس جميعاً فتقيم بينهم العدل والقسط ؛ وتضع لهم الموازين والقيم ؛ وتبدي فيهم رأيها فيكون هو الرأي المعتمد ؛ وتزن قيمهم وتصوراتهم وتقاليدهم وشعاراتهم فتفصل في أمرها ، وتقول : هذا حق منها وهذا باطل . لا التي تتلقى من الناس تصوراتها وقيمها وموازينها . وهي شهيدة على الناس ، وفي مقام الحكم العدل بينهم . . وبينما هي تشهد على الناس هكذا ، فإن الرسول هو الذي يشهد عليها ؛ فيقرر لها موازينها وقيمها ؛ ويحكم على أعمالها وتقاليدها ؛ ويزن ما يصدر عنها ، ويقول فيه الكلمة الأخيرة . . وبهذا تتحدد حقيقة هذه الأمة ووظيفتها . . لتعرفها ، ولتشعر بضخامتها . ولتقدر دورها حق قدره ، وتستعد له استعداداً لائقاً . .

وإنها للأمة الوسط بكل معاني الوسط سواء من الوساطة بمعنى الحسن والفضل ، أو من الوسط بمعنى الاعتدال والقصد ، أو من الوسط بمعناه المادي الحسي . .

﴿ أمة وسطاً ﴾ . . في التصور والاعتقاد . . لا تغلو في التجرد الروحي ولا في الارتكاس المادي . إنما تتبع الفطرة الممثلة في روح متلبس بجسد ، أو جسد تتلبس به روح . وتعطي لهذا الكيان المزدوج الطاقات حقه المتكامل من كل زاد ، وتعمل لترقية الحياة ورفعها في الوقت الذي تعمل فيه على حفظ الحياة وامتدادها ، وتطلق كل نشاط في عالم الأشواق وعالم النوازع ، بلا تفريط ولا إفراط ، في قصد وتناسق واعتدال .

﴿ أمة وسطاً ﴾ . . في التفكير والشعور . . لا تجمد على ما علمت وتغلق منافذ التجربة والمعرفة . . . ولا تتبع كذلك كل ناعق ، وتقلد تقليد القردة المضحك . . إنما تستمسك بما لديها من تصورات ومناهج وأصول ؛ ثم تنظر في كل نتاج للفكر والتجريب ؛ وشعارها الدئم الحقيقة ضالة المؤمن أنى وجدها أخذها ، في تثبت ويقين .

﴿ أمة وسطاً ﴾ . . في التنظيم والتنسيق . . لا تدع الحياة كلها للمشاعر ، والضمائر ، ولا تدعها كذلك للتشريع والتأديب . إنما ترفع ضمائر البشر بالتوجيه والتهذيب ، وتكفل نظام المجتمع بالتشريع والتأديب ؛ وتزاوج بين هذه وتلك ، فلا تكل الناس إلى سوط السلطان ، ولا تكلهم كذلك إلى وحي الوجدان . . ولكن مزاج من هذا وذاك .

﴿ أمة وسطاً ﴾ . . في الارتباطات والعلاقات . . لا تلغي شخصية الفرد ومقوماته ، ولا تلاشي شخصيته في شخصية الجماعة أو الدولة ؛ ولا تطلقه كذلك فرداً أثراً جشعاً لا

هم له إلا ذاته . . إنما تطلق من الدوافع والطاقات ما يؤدي إلى الحركة والنماء ، وتطلق من النوازع والخصائص ما يحقق شخصية الفرد وكيانه . ثم تضع من الكوابح ما يقف دون الغلو ، ومن المنشطات ما يثير رغبة الفرد في خدمة الجماعة ; وتقرر من التكاليف والواجبات ما يجعل الفرد خادماً للجماعة والجماعة كافلة للفرد في تناسق واتساق .

(221/70)

﴿ أمة وسطاً ﴾ . . في المكان . . في سرة الأرض ، وفي أوسط بقاعها . وما تزال هذه الأمة التي غمر أرضها الإسلام إلى هذه اللحظة هي الأمة التي تتوسط أقطار الأرض بين شرق وغرب ، وجنوب وشمال ، وما تزال بموقعها هذا تشهد الناس جميعاً ، وتشهد على الناس جميعاً ؛ وتعطي ما عندها لأهل الأرض قاطبة ؛ وعن طريقها تعبر ثمار الطبيعة وثمار الروح والفكر من هنا إلى هناك ؛ وتتحكم في هذه الحركة ماديها ومعنويها على السواء .

﴿ أمة وسطاً ﴾ . . في الزمان . . تنهي عهد طفولة البشرية من قبلها ؛ وتحرس عهد الرشد العقلي من بعدها . وتقف في الوسط تنفض عن البشرية ما علق بها من أوهام وخرافات من عهد طفولتها ؛ وتصدها عن الفتنة بالعقل والهوى ; وتزواج بين تراثها الروحي من عهود الرسالات ، ورصيدها العقلي المستمر في النماء ؛ وتسير بها على

الصراط السوي بين هذا وذاك .

وما يعوق هذه الأمة اليوم عن أن تأخذ مكانها هذا الذي وهبه الله لها ، إلا أنها تخلت عن منهج الله الذي اختاره لها ، واتخذت لها مناهج مختلفة ليست هي التي اختارها الله لها ، واصطبغت بصبغات شتى ليست صبغة الله واحدة منها ! والله يريد لها أن تصطبغ بصبغته وحدها .

وأمة تلك وظيفتها وذلك دورها ، خليقة بأن تحتمل التبعة وتبذل التضحية ، فللقيادة تكاليفها ، وللقوامة تبعاتها ، ولا بد أن تفتن قبل ذلك وتبتلى ، ليتأكد خلوصها لله وتجردها ، واستعدادها للطاعة المطلقة للقيادة الراشدة .

وإذن يكشف لهم عن حكمة اختيار القبلة التي كانوا عليها بمناسبة تحويلهم الآن عنها :

﴿ وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه ﴾ . .

ومن هذا النص تتضح خطة التربية الربانية التي يأخذ الله بها هذه الجماعة الناشئة ، التي يريد لها أن تكون الوارثة للعقيدة ، المستخلفة في الأرض تحت راية العقيدة .

(222/70)

إنه يريد لها أن تخلص له ؛ وأن تتخلص من كل رواسب الجاهلية ووشائجها ؛ وأن تتجرد من كل سماتها القديمة ومن كل رغابها الدفينة ؛ وأن تتعرى من كل رداء لبسته في الجاهلية ومن كل شعار اتخذته ، وأن ينفرد في حسها شعار الإسلام وحده لا يتلبس به شعار آخر ، وأن يتوحد المصدر الذي تتلقى منه لا يشاركه مصدر آخر .

ولما كان الاتجاه إلى البيت الحرام قد تلبست به في نفوس العرب فكرة أخرى غير فكرة العقيدة ؛ وشابت عقيدة جدهم إبراهيم شوائب من الشرك ، ومن عصبية الجنس ، إذ كان البيت يعتبر في ذلك الحين بيت العرب المقدس . . والله يريده أن يكون بيت الله المقدس ، لا يضاف إليه شعار آخر غير شعاره ، ولا يتلبس بسمة أخرى غير سمته .

لما كان الاتجاه إلى البيت الحرام قد تلبست به هذه السمة الأخرى ، فقد صرف الله المسلمين عنه فترة ، ووجههم إلى بيت المقدس ، ليخلص مشاعرهم من ذلك التلبس القديم أولاً ؛ ثم ليختبر طاعتهم وتسليمهم للرسول – صلى الله عليه وسلم – ثانياً ، ويفرز الذين يتبعونه لأنه رسول الله ، والذين يتبعونه لأنه أبقى على البيت الحرام قبلة ، فاستراحت نفوسهم إلى هذا الإبقاء تحت تأثير شعورهم بجنسهم وقومهم ومقدساتهم القديمة .

إنها لفتة دقيقة شديدة الدقة . . إن العقيدة الإسلامية لا تطيق لها في القلب شريكاً ؛ ولا تقبل شعاراً غير شعارها المفرد الصريح ؛ إنها لا تقبل راسباً من رواسب الجاهلية في أية صورة من الصور . جل أم صغر . وهذا هو إيحاء ذلك النص القرآني : ﴿ وما جعلنا القبلة

التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه ﴾ . . والله – سبحانه – يعلم كل ما يكون قبل أن يكون . ولكنه يريد أن يظهر المكنون من الناس ، حتى يحاسبهم عليه ويأخذهم به فهو – لرحمته بهم – لا يحاسبهم على ما يعلمه من أمرهم ، بل على ما يصدر عنهم ويقع بالفعل منهم .

(223/70)

ولقد علم الله أن الانسلاخ من الرواسب الشعورية ، والتجرد من كل سمة وكل شعار له بالنفس عُلقة . . أمر شاق ، ومحاولة عسيرة . . إلا أن يبلغ الإيمان من القلب مبلغ الاستيلاء المطلق ، وإلا أن يعين الله هذا القلب في محاولته فيصله به ويهديه إليه :

﴿ وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله ﴾ . .

فإذا كان الهدى فلا مشقة ولا عسر في أن تخلع النفس عنها تلك الشعارات ، وأن تنفض عنها تلك الرواسب ؛ وأن تتجرد لله تسمع منه وتطيع حيثما وجهها الله تتجه وحيثما قادها رسول الله تقاد .

ثم يطمئن المسلمين على إيمانهم وعلى صلاتهم . إنهم ليسوا على ضلال وإن صلاتهم لم تضع ، فالله سبحانه لا يعنت العباد ، ولا يضيع عليهم عبادتهم التي توجهوا بها إليه ؛ ولا

يشق عليهم في تكليف يجاوز طاقتهم التي يضاعفها الإيمان ويقويها :

﴿ وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرؤوف رحيم ﴾ .

.

إنه يعرف طاقتهم المحدودة ، فلا يكلفهم فوق طاقتهم ؛ وإنه يهدي المؤمنين ، ويمدهم بالعون من عنده لاجتياز الامتحان ، حين تصدق منهم النية ، وتصح العزيمة . وإذا كان البلاء مظهراً لحكمته ، فاجتياز البلاء فضل رحمته : ﴿ إن الله بالناس لرؤوف رحيم ﴾ . .

بهذا يسكب في قلوب المسلمين الطمأنينة ويذهب عنها القلق ، ويفيض عليها الرضى والثقة واليقين . .

بعد ذلك يعلن استجابة الله لرسوله – صلى الله عليه وسلم – في أمر القبلة ؛ ويعلن عن هذه القبلة مع تحذير المسلمين من فتنة يهود ، وكشف العوامل الحقيقية الكامنة وراء حملاتهم ودسائسهم . . في صورة تكشف عن مدى الجهد الذي كان يبذل لإعداد تلك الجماعة المسلمة ووقايتها من البلبلة والفتنة :

﴿ قد نرى تقلب وجهك في السماء ، فلنولينك قبلة ترضاها ، فول وجهك شطر المسجد الحرام ، وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره . وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم ، وما الله بغافل عما يعملون . ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك ، وما أنت بتابع قبلتهم ، وما بعضهم بتابع قبلة بعض . ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذاً لمن الظالمين . الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون . الحق من ربك فلا تكونن من الممترين . ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات ، أينما تكونوا يأت بكم الله جميعاً إن الله على كل شيء قدير . ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام . وإنه للحق من ربك وما الله بغافل عما تعملون . ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام ، وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره ، لئلا يكون للناس عليكم حجة . إلا الذين ظلموا منهم فلا تخشوهم واخشوني ، ولأتم نعمتي عليكم ولعلكم تهتدون ﴾ . .

وفي مطلع هذه الآيات نجد تعبيراً مصوراً لحالة النبي – صلى الله عليه وسلم – :

﴿ قد نرى تقلب وجهك في السماء ﴾ . .

وهو يشي بتلك الرغبة القوية في أن يوجهه ربه إلى قبلة غير القبلة التي كان عليها . بعد ما كثر لجاج اليهود وحجاجهم ؛ ووجدوا في اتجاه الجماعة المسلمة لقبلتهم وسيلة للتمويه والتضليل والبلبلة والتلبيس . . فكان – صلى الله عليه وسلم – يقلب وجهه في السماء ،

ولا يصرح بدعاء ، تأدباً مع ربه ، وتحرجاً أن يقترح عليه شيئاً أو أن يقدم بين يديه شيئاً .

ولقد أجابه ربه إلى ما يرضيه . والتعبير عن هذه الاستجابة يشي بتلك الصلة الرحيمة الحانية الودود :

﴿ فلنولينك قبلة ترضاها ﴾ . .

ثم يعين له هذه القبلة التي علم – سبحانه – أنه يرضاها :

﴿ فول وجهك شطر المسجد الحرام ﴾ . .

قبلة له ولأمته من معه منها ومن يأتي من بعده إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها :

(225/70)

﴿ وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره ﴾ .

.

من كل اتجاه ، في أنحاء الأرض جميعاً قبلة واحدة تجمع هذه الأمة وتوحد بينها على اختلاف مواطنها ، واختلاف مواقعها من هذه القبلة ، واختلاف أجناسها وألسنتها وألوانها . . قبلة واحدة ، تتجه إليها الأمة الواحدة في مشارق الأرض ومغاربها . فتحس أنها جسم واحد ، وكيان واحد ، تتجه إلى هدف واحد ، وتسعى لتحقيق منهج واحد ،

منهج ينبثق من كونها جميعاً تعبد إلهاً واحداً ، وتؤمن برسول واحد ، وتتجه إلى قبلة واحدة .

وهكذا وحد الله هذه الأمة . وحدها في إلهها ورسولها ودينها وقبلتها . وحدها على اختلاف المواطن والأجناس والألوان واللغات . ولم يجعل وحدتها تقوم على قاعدة من هذه القواعد كلها ؛ ولكن تقوم على عقيدتها وقبلتها ؛ ولو تفرقت في مواطنها وأجناسها وألوانها ولغاتها . . إنها الوحدة التي تليق ببني الإنسان ؛ فالإنسان يجتمع على عقيدة القلب ، وقبلة العبادة ، إذا تجمع الحيوان على المرعى والكلأ والسياج والحظيرة !

ثم . . ما شأن أهل الكتاب وهذه القبلة الجديدة ؟

﴿ وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم ﴾ . .

إنهم ليعلمون أن المسجد الحرام هو بيت الله الأول الذي رفع قواعده إبراهيم . جد هذه الأمة الوارثة وجد المسلمين أجمعين . وإنهم ليعلمون أن الأمر بالتوجه إليه حق من عند الله لا مرية فيه . .

ولكنهم مع هذا سيفعلون غير ما يوحيه هذا العلم الذي يعلمونه . فلا على المسلمين منهم ؛ فالله هو الوكيل الكفيل برد مكرهم وكيدهم :

﴿ وما الله بغافل عما يعملون ﴾ . .

إنهم لن يقتنعوا بدليل ، لأن الذي ينقصهم ليس هو الدليل ؛ إنما هو الإخلاص والتجرد من

الهوى ، والاستعداد للتسليم بالحق حين يعلمونه :

﴿ ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك ﴾ . .

(226/70)

فهم في عناد يقوده الهوى ، وتؤرثه المصلحة ، ويحدوه الغرض . . وإن كثيراً من طيبي القلوب ليظنون أن الذي يصد اليهود والنصارى عن الإسلام أنهم لا يعرفونه ، أو لأنه لم يقدم إليهم في صورة مقنعة . . وهذا وهم إنهم لا يريدون الإسلام لأنهم يعرفونه ! يعرفونه فهم يخشونه على مصالحهم وعلى سلطانهم ؛ ومن ثم يكيدون له ذلك الكيد الناصب الذي لا يفتر ، بشتى الطرق وشتى الوسائل . عن طريق مباشر وعن طرق أخرى غير مباشرة . يحاربونه وجهاً لوجه ، ويحاربونه من وراء ستار . ويحاربونه بأنفسهم ويستهوون من أهله من يحاربه لهم تحت أي ستار . . وهم دائماً عند قول الله تعالى لنبيه الكريم : ﴿ ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك ﴾ .

وفي مواجهة هذا الإصرار من أهل الكتاب على الإعراض عن قبلة الإسلام ومنهجه الذي ترمز هذه القبلة له ، يقرر حقيقة شأن النبي – صلى الله عليه وسلم – وموقفه الطبيعي :

﴿ وما أنت بتابع قبلتهم ﴾ . .

ليس من شأنك أن تتبع قبلتهم أصلاً . واستخدام الجملة الاسمية المنفية هنا أبلغ في بيان الشأن الثابت الدائم للرسول – صلى الله عليه وسلم – تجاه هذا الأمر .

وفيه إيحاء قوي للجماعة المسلمة من ورائه . فلن تختار قبلة غير قبلة رسولها التي اختارها له ربه ورضيها له ليرضيه ؛ ولن ترفع راية غير رايتها التي تنسبها إلى ربها ؛ ولن تتبع منهجاً إلا المنهج الإلهي الذي ترمز له هذه القبلة المختارة . . هذا شأنها ما دامت مسلمة ؛ فإذا لم تفعل فليست من الإسلام في شيء . . إنما هي دعوى . .

ويستطرد فيكشف عن حقيقة الموقف بين أهل الكتاب بعضهم وبعض ؛ فهم ليسوا على وفاق ، لأن الأهواء تفرقهم :

﴿ وما بعضهم بتابع قبلة بعض ﴾ . .

والعداء بين اليهود والنصارى ، والعداء بين الفرق اليهودية المختلفة ، والعداء بين الفرق النصرانية المختلفة أشد عداء .

(227/70)

وما كان للنبي – صلى الله عليه وسلم – وهذا شأنه وهذا شأن أهل الكتاب ، وقد علم الحق في الأمر ، أن يتبع أهواءهم بعد ما جاءه من العلم :

﴿ ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذاً لمن الظالمين ﴾ . .

ونقف لحظة أمام هذا الجد الصارم ، في هذا الخطاب الإلهي من الله سبحانه إلى نبيه الكريم الذي حدثه منذ لحظة ذلك الحديث الرفيق الودود . .

إن الأمر هنا يتعلق بالاستقامة على هدي الله وتوجيهه ؛ ويتعلق بقاعدة التميز والتجرد إلا من طاعة الله ونهجه ومن ثم يجيء الخطاب فيه بهذا الحزم والجزم وبهذه المواجهة والتحذير . . ﴿ إنك إذاً لمن الظالمين ﴾ . .

إن الطريق واضح ، والصراط مستقيم . . فإما العلم الذي جاء من عند الله . وإما الهوى في كل ما عداه . وليس للمسلم أن يتلقى إلا من الله . وليس له أن يدع العلم المستيقن إلى الهوى المتقلب . وما ليس من عند الله فهو الهوى بلا تردد .

وإلى جانب هذا الإيحاء الدائم نلمح كذلك أنه كانت هناك حالة واقعة من بعض المسلمين ، في غمرة الدسائس اليهودية وحملة التضليل الماكرة تستدعي هذه الشدة في التحذير ، وهذا الجزم في التعبير .

وبعد هذه الوقفة العابرة نعود إلى السياق ؛ فنجده لا يزال يقرر معرفة أهل الكتاب الجازمة بأن الحق في هذا الشأن وفي غيره هو ما جاء به القرآن ، وما أمر به الرسول . ولكنهم يكتمون الحق الذي يعلمونه ، للهوى الذي يضمرونه :

﴿ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم

يعلمون ﴾ . .

ومعرفة الناس بأبنائهم هي قمة المعرفة ، وهي مثل يضرب في لغة العرب على اليقين الذي لا شبهة فيه . . فإذا كان أهل الكتاب على يقين من الحق الذي جاء به النبي – صلى الله عليه وسلم – ومنه هذا الذي جاء به في شأن القبلة ، وكان فريق منهم يكتمون الحق الذي يعلمونه علم اليقين . . فليس سبيل المؤمنين إذن أن يتأثروا بما يلقيه أهل الكتاب هؤلاء من أباطيل وأكاذيب .

(228/70)

وليس سبيل المؤمنين أن يأخذوا من هؤلاء الذين يستيقنون الحق ثم يكتمونه شيئاً في أمر دينهم ، الذي يأتيهم به رسولهم الصادق الأمين .

وهنا يوجه الخطاب إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – بعد هذا البيان بشأن أهل الكتاب :

﴿ الحق من ربك فلا تكونن من الممترين ﴾ . .

ورسول الله – صلى الله عليه وسلم – ما امترى يوماً ولا شك . وحينما قال له ربه في آية أخرى : ﴿ فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك ﴾ .

قال : " لا أشك ولا أسأل " .

ولكن توجيه الخطاب هكذا إلى شخصه – صلى الله عليه وسلم – يحمل إيحاء قوياً إلى من وراءه من المسلمين . سواء منهم من كان في ذلك الحين يتأثر بأباطيل اليهود وأحابيلهم ، ومن يأتي بعدهم ممن تؤثر فيهم أباطيل اليهود وغير اليهود في أمر دينهم .

وما أجدرنا نحن اليوم أن نستمع إلى هذا التحذير ؛ ونحن – في بلاهة منقطعة النظير – نروح نستفتي المستشرقين – من اليهود والنصارى والشيوعيين الكفار – في أمر ديننا ، ونتلقى عنهم تاريخنا ، ونأمنهم على القول في تراثنا ، ونسمع لما يدسونه من شكوك في دراساتهم لقرآننا وحديث نبينا ، وسيرة أوائلنا ؛ ونرسل إليهم بعثات من طلابنا يتلقون عنهم علوم الإسلام ، ويتخرجون في جامعاتهم ، ثم يعودون الينا مدخولي العقل والضمير .

إن هذا القرآن قرآننا . قرآن الأمة المسلمة . وهو كتابها الخالد الذي يخاطبها فيه ربها بما تعمله وما تحذره . وأهل الكتاب هم أهل الكتاب ، والكفار هم الكفار ، والدين هو الدين !

ونعود إلى السياق فنراه يصرف المسلمين عن الاستماع لأهل الكتاب والانشغال بتوجيهاتهم ، ويوحي إليهم بالاستقامة على طريقهم الخاص ووجهتهم الخاصة . فلكل فريق وجهته ، وليستبق المسلمون إلى الخير لا يشغلهم عنه شاغل ، ومصيرهم جميعاً إلى الله القادر على جمعهم وعلى مجازاتهم في نهاية المطاف :

﴿ ولكل وجهة هو موليها ، فاستبقوا الخيرات ، أينما تكونوا يأت بكم الله جميعاً إن الله على كل شيء قدير ﴾ . .

وبهذا يصرف الله المسلمين عن الإنشغال بما يبثه أهل الكتاب من دسائس وفتن وتأويلات وأقاويل . . يصرفهم إلى العمل والاستباق إلى الخيرات . مع تذكر أن مرجعهم إلى الله ، وأن الله قدير على كل شيء ، لا يعجزه أمر ، ولا يفوته شيء .

إنه الجد الذي تصغر إلى جواره الأقاويل والأباطيل . .

ثم يعود فيؤكد الأمر بالاتجاه إلى القبلة الجديدة المختارة مع تنويع التعقيب :

﴿ ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وإنه للحق من ربك ، وما الله بغافل عما تعملون ﴾ . .

والأمر في هذه المرة يخلو من الحديث عن أهل الكتاب وموقفهم ، ويتضمن الاتجاه إلى المسجد الحرام حيثما خرج النبي - صلى الله عليه وسلم - وحيثما كان ، مع توكيد أنه الحق من ربه .

ومع التحذير الخفي من الميل عن هذا الحق . التحذير الذي يتضمنه قوله : ﴿ وما الله بغافل

عما تعملون ﴾ . . وهو الذي يشي بأنه كانت هناك حالة واقعة وراءه في قلوب بعض المسلمين تقتضي هذا التوكيد وهذا التحذير الشديد .

ثم توكيد للمرة الثالثة بمناسبة غرض آخر جديد ، وهو إبطال حجة أهل الكتاب ، وحجة غيرهم ممن كانوا يرون المسلمين يتوجهون إلى قبلة اليهود ، فيميلون إلى الاقتناع بما يذيعه اليهود من فضل دينهم على دين محمد ، وأصالة قبلتهم ومن ثم منهجهم . أو من مشركي العرب الذين كانوا يجدون في هذا التوجيه وسيلة لصد العرب الذين يقدسون مسجدهم وتنفيرهم من الإسلام الذي يتجه أهله شطر قبلة بني إسرائيل !

﴿ ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام ، وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره ، لئلا يكون للناس عليكم حجة ، إلا الذين ظلموا منهم فلا تخشوهم واخشوني ، ولأتم نعمتي عليكم ، ولعلكم تهتدون ﴾ . .

(230/70)

وهو أمر للرسول – صلى الله عليه وسلم – أن يولي وجهه شطر المسجد من حيث خرج ، وإلى المسلمين أن يولوا وجوههم شطره حيثما كانوا وبيان لعلة هذا التوجيه :

﴿ لئلا يكون للناس عليكم حجة ﴾ . .

وتهوين لما بعد ذلك من أقاويل الظالمين الذين لا يقفون عند الحجة والنطق ، إنما ينساقون مع العناد واللجاج. فهؤلاء لا سبيل إلى إسكاتهم ، فسيظلون إذن في لجاجهم . فلا على المسلمين منهم :

﴿ فلا تخشوهم . . واخشوني ﴾ . .

فلا سلطان لهم عليكم ، ولا يملكون شيئاً من أمركم ، ولا ينبغي أن تحفلوهم فتميلوا عما جاءكم من عندي ، فأنا الذي استحق الخشية بما أملك من أمركم في الدنيا والآخرة . .

ومع التهوين من شأن الذين ظلموا ، والتحذير من بأس الله ، يجيء التذكير بنعمة الله ، والإطماع في اتمامها على الأمة المسلمة ، حين تستجيب وتستقيم :

﴿ ولأتم نعمتي عليكم ولعلكم تهتدون ﴾ . . .

وهو تذكير موح ، وإطماع دافع ، وتلويح بفضل عظيم بعد فضل عظيم . .

ولقد كانت النعمة التي يذكرهم بها حاضرة بين أيديهم ، يدركونها في أنفسهم ، ويدركونها في حياتهم ، ويدركونها في مجتمعهم وموقفهم في الأرض ومكانهم في الوجود . .

كانوا هم أنفسهم الذين عاشوا في الجاهلية بظلامها ورجسها وجهالتها ، ثم انتقلوا هم أنفسهم إلى نور الإيمان وطهارته ومعرفته . فهم يجدون في أنفسهم أثر النعمة جديداً واضحاً عميقاً .

وكانوا هم أنفسهم الذين عاشوا في الجاهلية قبائل متناحرة ، ذات أهداف صغيرة

واهتمامات محدودة . ثم انتقلوا هم أنفسهم إلى الوحدة تحت راية العقيدة ، وإلى القوة والمنعة ، وإلى الغايات الرفيعة والاهتمامات الكبيرة التي تتعلق بشأن البشرية كلها لا بشأن ثأر في قبيلة ! فهم يجدون أثر النعمة من حولهم كما وجدوه في أنفسهم .

(231/70)

وكانوا هم أنفسهم الذين عاشوا في الجاهلية في مجتمع هابط دنس مشوش التصورات مضطرب القيم . . ثم انتقلوا هم أنفسهم إلى مجتمع الإسلام النظيف الرفيع ، الواضح التصور والاعتقاد ، المستقيم القيم والموازين .

. فهم يجدون أثر النعمة في حياتهم العامة كما وجدوه في قلوبهم وفي مكانهم من الأمم حولهم .

فإذا قال الله لهم : ﴿ ولأتم نعمتي عليكم ﴾ . . كان في هذا القول تذكير موح ، وإطماع دافع وتلويح بفضل عظيم بعد فضل عظيم . .

ونجد في تكرار الأمر بشأن القبلة الجديدة معنى جديداً في كل مرة . . في المرة الأولى كان الأمر بالتوجه إلى المسجد الحرام استجابة لرغبة الرسول – صلى الله عليه وسلم – بعد تقلب وجهه في السماء وضراعته الصامتة إلى ربه . . وفي الثانية كان لإثبات أنه الحق من

ربه يوافق الرغبة والضراعة . . وفي الثالثة كان لقطع حجة الناس ، والتهوين من شأن من لا يقف عند الحق والحجة . .

ولكننا – مع هذا – نلمح وراء التكرار أنه كانت هناك حالة واقعة في الصف الإسلامي تستدعي هذا التكرار ، وهذا التوكيد ، وهذا البيان ، وهذا التعليل ، مما يشي بضخامة حملة الأضاليل والأباطيل ، وأثرها في بعض القلوب والنفوس . هذا الأثر الذي كان يعالجه القرآن الكريم ؛ ثم تبقى النصوص بعد ذلك على مدى الزمان تعالج مثل هذه الحالة في شتى صورها ؛ في المعركة الدائبة التي لا تهدأ ولا تفتر ولا تلين !

واستطراداً مع هذا الغرض نرى السياق يستطرد في تذكير المسلمين بنعمة الله عليهم ، بإرسال هذا النبي منهم إليهم ، استجابة لدعوة أبيهم إبراهيم ، سادن المسجد الحرام قبلة المسلمين ؛ ويربطهم – سبحانه – به مباشرة في نهاية الحديث :

﴿ كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم ، يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ، ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون . فاذكروني اذكركم واشكروا لي ولا تكفرون ﴾ . .

والذي يلفت النظر هنا ، أن الآية تعيد بالنص دعوة إبراهيم التي سبقت في السورة ، وهو يرفع القواعد من البيت هو وإسماعيل . دعوته أن يبعث الله في بنيه من جيرة البيت ، رسولاً منهم ، يتلو عليهم آياته ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم . . ليذكر المسلمين أن بعثة هذا الرسول فيهم ، ووجودهم هم أنفسهم مسلمين ، هو الاستجابة المباشرة الكاملة لدعوة أبيهم إبراهيم . وفي هذا ما فيه من إيحاء عميق بأن أمرهم ليس مستحدثاً إنما هو قديم ؛ وأن قبلتهم ليست طارئة إنما هي قبلة أبيهم إبراهيم ، وأن نعمة الله عليهم سابغة فهي نعمة الله التي وعدها خليله وعاهده عليها منذ ذلك التاريخ البعيد .

إن نعمة توجيهكم إلى قبلتكم ، وتمييزكم بشخصيتكم هي إحدى الآلاء المطردة فيكم ، سبقتها نعمة إرسال رسول منكم :

﴿ كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم ﴾ . .

فهو التكريم والفضل أن تكون الرسالة فيكم ، وأن يختار الرسول الأخير منكم ، وقد كانت يهود تستفتح به عليكم !

﴿ يتلو عليكم آياتنا ﴾ . .

فما يتلو عليكم هو الحق . . والإيحاء الآخر هو الإشعار بعظمة التفضل في أن يخاطب الله العبيد بكلامه يتلوه عليهم رسوله . وهو تفضل يرتعش القلب إزاءه حين يتعمق حقيقته .

فمن هم هؤلاء الناس ؟ من هم وما هم ؟ حتى يخاطبهم الله سبحانه بكلماته ، ويتحدث

إليهم بقوله ، ويمنحهم هذه الرعاية الجليلة ؟ من هم وما هم لولا أن الله يتفضل ؟ ولولا أن فضل الله يفيض ؟ ولولا أنه – سبحانه – منذ البدء منحهم فضل النفخة من روحه ليكون فيهم ما يستأهل هذا الإنعام ، وما يستقبل هذا الإفضال ؟

﴿ ويزكيكم ﴾ . .

(233/70)

ولولا الله ما زكي منهم من أحد ، ولا تطهر ولا ارتفع . ولكنه أرسل رسوله – صلى الله عليه وسلم – يطهرهم . يطهر أرواحهم من لوثة الشرك ودنس الجاهلية ، ورجس التصورات التي تثقل الروح الإنساني وتطمره . ويطهرهم من لوثة الشهوات والنزوات فلا ترتكس أرواحهم في الحمأة . والذين لا يطهر الإسلام أرواحهم في جنبات الأرض كلها قديماً وحديثاً يرتكسون في مستنقع آسن وبيء من الشهوات والنزوات تزري بإنسانية الإنسان ، وترفع فوقه الحيوان المحكوم بالفطرة ، وهي أنظف كثيراً مما يهبط إليه الناس بدون الإيمان ! ويطهر مجتمعهم من الربا والسحت والغش والسلب والنهب . . وهي كلها دنس يلوث الأرواح والمشاعر ، ويلطخ المجتمع والحياة . ويطهر حياتهم من الظلم والبغي وينشر العدل النظيف الصريح الذي لم تستمتع به البشرية كما استمتعت في ظل الإسلام وحكم الإسلام

ومنهج الإسلام ويطهرهم من سائر اللوثات التي تلطخ وجه الجاهلية في كل مكان من حولهم ، وفي كل مجتمع لا يزكيه الإسلام بروحه ومنهجه النظيف الطهور . .

﴿ ويعلمكم الكتاب والحكمة ﴾ . .

وفيها شمول لما سبق من تلاوة الآيات وهي الكتاب ؛ وبيان للمادة الأصيلة فيه ، وهي الحكمة ، والحكمة ثمرة التعليم بهذا الكتاب ؛ وهي ملكة يتأتى معها وضع الأمور في مواضعها الصحيحة ، ووزن الأمور بموازينها الصحيحة ، وإدراك غايات الأوامر والتوجيهات . . وكذلك تحققت هذه الثمرة ناضجة لمن رباهم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وزكاهم بآيات الله .

﴿ ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون ﴾ . .

وكان ذلك حقاً في واقع الجماعة المسلمة ، فقد التقطها الإسلام من البيئة العربية لا تعلم إلا أشياء قليلة متناثرة ، تصلح لحياة القبيلة في الصحراء ، أو في تلك المدن الصغيرة المنعزلة في باطن الصحراء . فجعل منها أمة تقود البشرية قيادة حكيمة راشدة ، خبيرة بصيرة عالمة . . وكان هذا القرآن – مع توجيهات الرسول المستمدة كذلك من القرآن – هو مادة

التوجيه والتعليم . وكان مسجد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – الذي يتلى فيه القرآن والتوجيهات المستمدة من القرآن – هو الجامعة الكبرى التي تخرج فيها ذلك الجيل الذي قاد البشرية تلك القيادة الحكيمة الراشدة : القيادة التي لم تعرف لها البشرية نظيراً من قبل ولا من بعد في تاريخ البشرية الطويل .

وما يزال هذا المنهج الذي خرّج ذلك الجيل وتلك القيادة على استعداد لتخريج أجيال وقيادات على مدار الزمان لو رجعت الأمة المسلمة إلى هذا المعين ولو آمنت حقا بهذا القرآن ولو جعلته منهجاً للحياة لا كلمات تغنى باللسان لتطريب الآذان !

وفي آخر هذا الدرس يتفضل الله على المسلمين تفضلاً آخر ، وهو يدعوهم إلى شكره ويحذرهم من كفره .

يتفضل عليهم فيضمن لهم أن يذكرهم إذا هم ذكروه .

﴿ فاذكروني أذكركم ، واشكروا لي ولا تكفرون ﴾ . .

يا للتفضل الجليل الودود ! الله جل جلاله . يجعل ذكره لهؤلاء العبيد مكافئاً لذكرهم له في عالمهم الصغير . . إن العبيد حين يذكرون ربهم يذكرونه في هذه الأرض الصغيرة . . وهم أصغر من أرضهم الصغيرة ! والله حين يذكرهم يذكرهم في هذا الكون الكبير . . وهو الله العلي الكبير . . أي تفضل ! وأي كرم ! وأي فيض في السماحة والجود !

﴿ فاذكروني اذكركم ﴾ .

إنه الفضل الذي لا يفيضه إلا الله الذي لا خازن لخزائنه ، ولا حاسب لعطاياه . الفضل الفائض من ذاته تعالى بلا سبب ولا موجب إلا أنه هكذا هو سبحانه فياض العطاء .

(235/70)

وفي الصحيح : يقول الله تعالى : " من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه " .

وفي الصحيح أيضاً : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال الله عز وجل : " يا ابن آدم إن ذكرتني في نفسك ذكرتك في نفسي ، وإن ذكرتني في ملأ ذكرتك في ملأ من الملائكة – أو قال في ملأ خير منه – وإن دنوت مني شبراً دنوت منك ذراعاً ، وإن دنوت مني ذراعاً دنوت منك باعا ، وإن أتيتني تمشي أتيتك هرولة " إنه ذلك الفضل الذي لا يصفه لفظ ولا يعبر عن شكره الحق إلا سجود القلب . .

وذكر الله ليس لفظاً باللسان إنما هو انفعال القلب معه أو بدونه ، والشعور بالله ووجوده والتأثر بهذا الشعور تأثراً ينتهي إلى الطاعة في حده الأدنى ، وإلى رؤية الله وحده ولا شيء غيره لمن يهبه الله الوصول ويذيقه حلاوة اللقاء . .

﴿ واشكروا لي ولا تكفرون ﴾ . .

والشكر لله درجات ، تبدأ بالاعتراف بفضله والحياء من معصيته . وتنتهي بالتجرد لشكره والقصد إلى هذا الشكر في كل حركة بدن ، وفي كل لفظة لسان ، وفي كل خفقة قلب ، وفي كل خطرة جنان .

والنهي عن الكفر هنا إلماع إلى الغاية التي ينتهي إليها التقصير في الذكر والشكر ؛ وتحذير من النقطة البعيدة التي ينتهي إليها هذا الخط التعيس ! والعياذ بالله !

ومناسبة هذه التوجيهات والتحذيرات في موضوع القبلة واضحة . وهي النقطة التي تلتقي عندها القلوب لعبادة الله ، والتميز بالانتساب إليه ، والاختصاص بهذا الانتساب .

(236/70)

وهي كذلك واضحة في مجال التحذير من كيد يهود ودسها ؛ وقد سبق أن الغاية الأخيرة لكل الجهود هي رد المؤمنين كفاراً . وسلبهم هذه النعمة التي أنعم الله بها عليهم . . نعمة الإيمان أكبر الآلاء التي ينعم الله بها على فرد أو جماعة من الناس . وهي بالقياس إلى العرب خاصة النعمة التي أنشأت لهم وجوداً ، وجعلت لهم دوراً في التاريخ ، وقرنت اسمهم برسالة يؤدونها للبشرية ، وكانوا بدونها ضائعين ، ولولاها لظلوا ضائعين ، وهم بدونها أبداً ضائعون .

فما لهم من فكرة يؤدون بها دوراً في الأرض غير الفكرة التي انبثقت منها ؛ وما تنقاد البشرية لقوم لا يحملون فكرة تقود الحياة وتنميها . وفكرة الإسلام برنامج حياة كامل ، لا كلمة تقال باللسان بلا رصيد من العمل الإيجابي المصدق لهذه الكلمة الطيبة الكبيرة .

وتذكُّر هذه الحقيقة واجب على الأمة المسلمة ليذكره الله فلا ينساها . ومن نسيه الله فهو مغمور ضائع لا ذكر له في الأرض ، ولا ذكر له في الملأ الأعلى . ومن ذكر الله ذكره ، ورفع من وجوده وذكره في هذا الكون العريض .

ولقد ذكر المسلمون الله فذكرهم ، ورفع ذكرهم ، ومكنهم من القيادة الراشدة . ثم نسوه فنسيهم فإذا هم هَمل ضائع ، وذيل تافه ذليل . . والوسيلة قائمة . والله يدعوهم في قرآنه الكريم : ﴿ فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون ﴾ . انتهى انتهى . اهـ

﴿ الظلال حـ 1 صـ 125 ـ 141 ﴾

(237/70)

قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (153) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

ولما ختم الآيات الآمرة باستقبال البيت في الصلاة بالأمر بالشكر ومجانبة الكفر وكان ذلك

رأس العبادة وفاعله شديد الافتقار إلى المعونة التفت إلى قوله تعالى في أم الكتاب : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ [الفاتحة : 5] فأمرهم بما تضمن ذلك من الصبر والصلاة ﴿ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾ [العنكبوت : 45] عالماً بأنهم سيمتثلون حيث عصى بنو إسرائيل حين أمرهم بمثل ذلك في أول قصصهم بقوله : ﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين ﴾ [البقرة : 43] إلى أن قال : ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين ﴾ [البقرة : 45] فكان في ذلك إشارة إلى أنهم هم الخاشعون وحسن موقع هذه الآية كونها بعد أذى أهل الكتاب بنسبهم لهم إلى بطلان الدين بتغيير الأحكام ونحو ذلك من مُرّ الكلام كما في الآية الأخرى ﴿ ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور ﴾ [آل عمران : 186] وكونها عقب الأمر بالذكر والشكر إيماء إلى أن ملاك كل منهما الصبر والصلاة فكأنه قيل : لا تلتفتوا إلى طعن الطاعنين في أمر القبلة فيشغلكم ذلك عن ذكري وشكري بل اصبروا وصلوا إليّ متوجهين إلى القبلة التي أمرتكم بها عالمين أن الصبر والصلاة نعم العون على كل ما ينوب من دين ودنيا ، وأرشق من هذا أن يقال : ولما علم من هذه الآيات إعضال ما بينهم وبين السفهاء وأمرهم بالدواء المنجح من الإعراض عنهم والإقبال على ذكره وشكره أتبع ذلك للإشارة إلى أن الأمر يصل إلى أشد مما توهموه فقال : يا أيها الذين آمنوا ﴾ مخاطباً لهم على وجه يشمل الكامل - صلى الله عليه وسلم -

ولعله صرف الخطاب عنه لما في السياق مما يحمي عنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ مقامه العالي

﴿ استعينوا بالصبر ﴾ أي على ما تلقون منهم وعلى الإقبال إليّ لأكفيكم كل مهم

﴿ والصلاة ﴾ فإنها أكبر معين لأنها أجمع العبادات ، فمن أقبل بها

على مولاه حاطه وكفاه لإعراضه عن كل ما سواه ، لأن ذلك شأن كل كبير فيمن أقبل

بكليته عليه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 277 ﴾

(238/70)

وقال الفخر رحمه الله :

اعلم أنه تعالى لما أوجب بقوله : ﴿ فاذكرونى ﴾ جميع العبادات ، وبقوله : ﴿ واشكروا لِي ﴾ ما يتصل بالشكر أردفه ببيان ما يعين عليهما فقال : ﴿ استعينوا بالصبر والصلاة ﴾ وإنما خصهما بذلك لما فيهما من المعونة على العبادات ، أما الصبر فهو قهر النفس على احتمال المكاره في ذات الله تعالى وتوطينها على تحمل المشاق وتجنب الجزع ، ومن حمل نفسه وقلبه على هذا التذليل سهل عليه فعل الطاعات وتحمل مشاق العبادات ، وتجنب المحظورات ومن الناس من حمل الصبر على الصوم ، ومنهم من حمله على الجهاد لأنه تعالى ذكر بعده : ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ اللهِ ﴾ [البقرة : 154] وأيضاً فلأنه تعالى أمر

بالتثبت في الجهاد فقال : ﴿ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فاثبتوا ﴾ [الأنفال : 45] وبالتثبت في الصلاة أي في الدعاء فقال : ﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ رَبَّنَا اغفر لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِى أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وانصرنا عَلَى القوم الكافرين ﴾ [آل عمران : 147] .

إلا أن القول الذي اخترناه أولى لعموم اللفظ وعدم تقييده ، والاستعانة بالصلاة لأنها يجب أن تفعل على طريق الخضوع والتذلل للمعبود والإخلاص له ، ويجب أن يوفر همه وقلبه عليها وعلى ما يأتي فيها من قراءة فيتدبر الوعد والوعيد والترغيب والترهيب ومن سلك هذه الطريقة في الصلاة فقد ذلل نفسه لاحتمال المشقة فيما عداها من العبادات ولذلك قال : ﴿ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾ [العنكبوت : 45] ولذلك نرى أهل الخير عند النوائب متفقين على الفزع إلى الصلاة ، وروي أنه عليه الصلاة والسلام كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 4صـ 168. 169 ﴾

(239/70)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ إنا لله ﴾ بالإمالة فيهما : قتيبة ونصير . وإنما جازت مع امتناعها في

الحروف لكثرة استعمال كلمة الاسترجاع .

الوقوف : ﴿ والصلاة ﴾ ط ﴿ الصابرين ﴾ لا ﴿ أموات ﴾ ط ﴿ لا تشعرون ﴾ 5 ﴿ والثمرات ﴾ ط ﴿ الصابرين ﴾ لالأن صفتهم ﴿ مصيبة ﴾ لالأن "قالوا" جواب "إذا" ﴿ راجعون ﴾ ط لأن "أولئك" مبتدأ على الأصح ومن ابتداء بالذين فخبره "أولئك" مع ما يتلوه ووقف على الصابرين ولم يقف على ﴿ راجعون ﴾ ﴿ المهتدون ﴾ 5 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 1 صـ 438 ﴾

(240/70)

سؤال : لم افتُتح الكلام بالنداء ؟

الجواب : افتُتح الكلام بالنداء لأن فيه إشعاراً بخبرٍ مهم عظيم ، فإن شأن الأَخبار العظيمة التي تَهُول المخاطبَ أن يقدَّم قبلَها ما يهيءُ النفس لقبولها لتستأنس بها قبل أن تفْجَأَها .

وفي افتتاح هذا الخطاب بالاستعانة بالصبر إيذان بأنه سيُعقب بالنَّدْب إلى عمل عظيم وبلْوى شديدة ، وذلك تهيئةٌ للجهاد ، ولعله إعداد لغزوة بدر الكبرى ، فإن ابتداء المغازي كان قُبيل زمن تحويل القبلة إذ كان تحويل القبلة في رجب أو شعبان من السنة الثانية للهجرة وكانت غزوة بُوَاطَ والعُشَيْرَة وبدْرٍ الأولى في ربيع وجمادى من السنة الثانية ولم يكن فيهما

قتال ، وكانت بَدْرٌ الكبرى في رمضان من السنة الثانية فكانت بعد تحويل القبلة بنحو شهرين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 2صـ 52 ﴾

(241/70)

قوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾

قال البقاعى :

ولما كانت الصلاة لا تقوم إلا بالصبر اقتصر على التعليل به فقال : ﴿ إن الله ﴾ أي الذي له الكمال كله ﴿ مع الصابرين ﴾ أي ومعلوم أن من كان الله سبحانه وتعالى معه فاز . قال الحرالي : وأيسر الصبر صبر النفس عن كسلها بأخذها بالنشاط فيما كلفت به ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها ﴾ [الطلاق : 7] و﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ﴾ [البقرة : 286] فمتى يسر الله سبحانه وتعالى عليها الجد والعزيمة جعل لها فيما كانت تصبر عليه في الابتداء الاستحلاء فيه وخفت عنها وظيفة الصبر ، ومتى لم تصبر عن كسلها وعلى جدها تدنست فنالها عقوبات يكون الصبر عليها أشد من الصبر الأول ، كما أن من صبر عن حلو الطعام لم يحتج أن يصبر على مر الدواء ، فإن تحملت الصبر على عقوبات ضياع الصبر الأول تداركها نجاة من اشتداد العقوبة عليها ، وإن لم تتصبر على تلك

العقوبات وقعت في مهالك شدائد العذاب فقيل لأهلها ﴿ فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم ﴾ [الطور : 16] ثم قال : فبداية الدين صبر وخاتمته يسر ، فإن من كان الله سبحانه وتعالى معه رفع عنه مرارة الصبر بوضع حلاوة الصحبة التي تشعر بها كلمة مع – انتهى . ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 277.278 ﴾

سؤال : إن قيل لم قال ﴿ إن الله مع الصابرين ﴾ ولم يقل مع المصلين وقال فى الآية الأخرى ﴿ واستعينوا بالصبر والصلوة وإنها لكبيرة ﴾ فاعتبر الصلاة دون الصبر ؟

قيل لما كان فعل الصلاة أشرف وأعلى من الصبر إذ قد ينفك الصبر عن الصلاة ولا تنفك الصلاة عن الصبر ذكر ها هنا الصابرين فمعلوم أنه تعالى إذا كان مع الصابرين فهو لا محالة يكون مع المصلين بطريق الأولى وقال هناك لكبيرة فذكر الصلاة دون الصبر تنبيها على أنها أشرف منزلة من الصبر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح البيان حـ 1 صـ 321 ﴾ .

فائدة

المعيّة على قسمين :

أحدهما : معيّة عامة ، وهي المعية بالعلم والقدرة ، وهذه عامة في حق كل أحد .

والثاني : معيّة خاصة وهي المعيّة بالعَوْن والنصر ، وهذه خاصة بالمتقين والمحسنين والصابرين ، ولهذا قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ مَعَ الذين اتقوا والذين هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل : 128] وقال هاهنا : ﴿ إِنَّ اللهَ مَعَ الصابرين ﴾ أي : بالعون والصبر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 3 صـ 78 ﴾ .

" بحث قيم فى الصبر "

ورد ذكر الصبر من القرآن في أكثر من سبعين موضعا وذلك لعظمة موقعه في الدين .

قال بعض العلماء : كل الحسنات لها أجر محصور من عشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلا الصبر فإنه لا يحصر أجره لقوله تعالى ﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾

وذكر الله للصابرين ثمانية أنواع من الكرامة

أولها المحبة قال ﴿ والله يحب الصابرين ﴾

والثاني النصر قال ﴿ إن الله مع الصابرين ﴾

والثالث غرفات الجنة قال ﴿ يجزون الغرفة بما صبروا ﴾

والرابع الأجر الجزيل قال ﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾ والأربعة الأخرى المذكورة في هذه الآية ففيها البشارة قال ﴿ وبشر الصابرين ﴾

والصلاة والرحمة والهداية ﴿ أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون ﴾

والصابرون على أربعة أوجه

صبر على البلاء وهو منع النفس من التسخيط والهلع والجزع

وصبر على النعم وهو تقييدها بالشكر وعدم الطغيان وعدم التكبر بها

وصبر على الطاعة بالمحافظة والدوام عليها

وصبر عن المعاصي بكف النفس عنها

وفوق الصبر التسليم وهو ترك الاعتراض والتسخيط ظاهرا وترك الكراهة باطنا

وفوق التسليم الرضا بالقضاء وهو سرور النفس بفعل الله وهو صادر عن المحبة وكل ما

يفعل المحبوب محبوب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التسهيل . حـ 1 صـ 65 ﴾

(243/70)

من أجمع وأنفس ما قيل فى الصبر

وهو فى القرآن على ستَّة عشر نوعا :

الأَوّل : الأَمر به نحو قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ ، ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ ﴾ .

الثاني : النَّهى عن ضدّه كقوله : ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلاَ تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾ ، وقولِه : ﴿ فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ ﴾ ، فإن تَوْلية الأَدبار ترك الصّبر والمصابرة .

الثالث : الثَّناء على أَهله كقوله : ﴿ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ ﴾ ، وقوله : ﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَآءِ والضَّرَّآءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَائِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَائِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ . وهو كثير النَّظائر فى التنزيل .

الرّابع : إيجاب معيّته لهم المعيّة التى تتضمّن حفظهم ونصرهم وتأْييدهم ، ليست معيَّة عامّة ، أَعنى مَعيَّة العِلْم والإحاطة ، كقوله : ﴿ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ .

الخامس : إيجاب محبّته لهم ، كقوله : ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾ وقوله : ﴿ وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾

السّادس : إخباره بأَنَّ الصبر خير لهم ، كقوله : ﴿ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴾ ، وقوله : ﴿ وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ .

السّابع : إيجابه الجزاء لهم بأَحسن ما كانوا يعملون .

الثامن : إيجابه الجزاء لهم بغير حساب ، كقوله : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ .

التاسع : إطلاق البُشرَى لأَهل الصّبر ، كقوله : ﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾ .

العاشر : ضمان النَّصْر والمَدَدِ لهم ، كقوله : ﴿ بَلَى إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هذا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ ﴾ وفى الحديث : " إِنَّ النَّصْرَ مع الصبر " .

الحادى عشر : الإخبار أَنَّ أَهل الصّبر مع أَهل العزائم ، كقوله تعالى : ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾ .

الثانى عشر : الإخبار أَنَّه ما يُلَقَّى الأَعمال الصّالحة وجزاءَها إِلاَّ أَهل الصّبر ، كقوله : ﴿ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلاَ يُلَقَّاهَآ إِلاَّ الصَّابِرُونَ ﴾ ، وقوله : ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّاهَآ إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ .

الثالث عشر : الإخبار أَنَّه ينتفع بالآيات والعِبَر أَهل الصّبر ، كقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذلك لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ ، وقوله فى أَهل سبأ : ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ ، وقوله فى سورة الشورى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلاَمِ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ .

الرّابع عشر : الإخبار بأَنَّ الفوز بالمطلوب ، والنجاةَ من المرهوب ، ودخولَ الجنَّة إِنَّما نالوه

بالصّبر ، كقوله تعالى : ﴿ وَالمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِّن كُلِّ بَابٍ سَلاَمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ .

(245/70)

الخامس عشر : يورث صاحبه الإمامة . وإنَّ بالصبر واليقين يُنال الإمامة فى الدّين ، كقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ وَكَانُواْ بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ .

السّادس عشر : اقترانه بمقامات الإسلام والإيمان ، كما قرنه سبحانه باليقين وبالتَّقوى والتوكُّل والشكر ؛

ولهذا كان الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد .

ولا إيمانَ لمن لا صَبْرَ له ، كما أَنَّه لا جَسَد لمن لا رأس له .

قال عمر بن الخطَّاب : خير عيش ما أَدركناه بالصّبر . وفى الحديث : " الصّبرُ ضِياء " .

وفيه : " من يتصبّر يُصَبّره الله " . وأَمَر بالصّبر عند المصيبة ، وأَخبر أَنه عند الصَّدْمة الأُولى ، وأَمر المصاب بأَنفع الأُمور له وهو الاحتساب ، فإنَّ ذلك يخفّف مُصيبته ويوفّر أَجره . والجزع والسّخط والتشكّى يزيد المصيبة ، ويُذهب الأَجر .

والصّبر على ثلاثة أَنواع : صَبْرٌ على طاعة الله ، وصبر عن معصية الله ، وصبر على

امتحان الله .

فالأَولان : الصّبر على ما يتعلق بالكسب . والثالث : الصّبر على ما لا كسب للعبد فيه .

(246/70)

وقال بعض المشايخ : كان صبر يوسف عن طاعة امرأَة العزيز أَكمل من صبره على إِلقاءِ إِخْوته إِيّاه فى الجُبّ ، وبيعهم [إِيّاه] ، وتفريقهم بينه وبين أَبيه ، فإِنَّ هذه أُمور جرَت عليه بغير اختياره ، لا كسب له فيها ، ليس للعبد فيها حيلة غير الصّبر . وأَمّا صبره عن المعصية فصبر اختيار ورضا ، ومحاربةٌ للنّفس ، ولا سيّما مع أَسبابٍ تقوّى معها داعية الموافقة ؛ فإِنّه كان شابًّا ، وداعية الشابّ إِليها قوّته ؛ وكان عَزَبًا ليس له ما يعوّضه ويَرُدّ شهوته ؛ وغريبًا ، والغريب لا يستحى فى بلدِ غُربته ممّا يستحى منه بين أَصحابه وأَهلِه ؛ ويحسبونه مملوكًا ، والمملوك ليس وازعهُ كوازع الحرّ ؛ والمرأَة جميلة وذات مَنْصِب ، وقد غاب الرّقيب ، وهى الدّاعية له إِلى نفسها ، والحريصة على ذلك أَشدّ الحرص ، ومع ذلك توعّدته بالسجن إِن لم يفعل . فمع هذه الدّواعى كلّها صبر اختيارًا ، وإِيثارًا لما عند الله . وأَين هذا من صبره فى الجُبّ على ما ليس من كسبه ؟ !

والصّبر على أَداءِ الطّاعات أَكمل من الصّبر على اجْتِنَاب المحرّمات ؛ فإِنَّ مصلحة فعل

الطَّاعة أَحَبُّ إِلى الشَّارع من مصلحة ترك المعصية ، ومفسدة عدم الطاعة أَبغض وأَكره من مفسدة وجود المعصية .

ثمّ الصّبر ينقسم بنوع آخر من القسمة على ثلاثة أَنواع : صبر بالله ، وصبر لله ، وصبر مع الله .

فالأَوّل : الاستعانة به ، ورؤية أَنَّه هو المصبِّر ، وأَنَّ صبر العبد بربّه لا بنفسه ، كما قال تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ ﴾ ، يعنى إِنْ لم يُصَبِّرك هو لم تصبر .

والثَّانى : أَن يكون الباعث على الصّبر محبّة الله وإِرادة وجهه ، والتقرّب إِليه ، لا إِظهار قوّة النفْس ، والاستحماد إِلى الخلق ، وغير ذلك من الأَغراض .

(247/70)

والثالث : دروان العبد الذى (مُنى مع) الأَحكام الدينيّة صابرًا نفسه معها ، سائرًا بسَيرها ، مقيمًا بإِقامتها ، يتوجّه معها أَينما توجّهت ركائبها ، وينزل حيث استقلَّت مضاربُها .

فهذا معنى كونه صابرًا مع الله ، قد جعل نفسه وَقْفًا على أَوامره ومحابّه . وهو أَشدّ أَنواع الصّبر وأَصعبها . وهو صب الصدّيقين .

قال ذو النُّون : الصبر : التباعد من المخالفات ، والسّكون عند تجرّع غُصص البليّات ،

وإظهار الغنى مع طول الفقر بساحات المعيشة. وقيل: الصبر: الوقوف مع البلاءِ بحسن الأَدب. وقيل: هو الفناءُ فى البلوَى، بلا ظهور شكوَى. وقيل: إلزام النَّفْس الهجومَ على المكاره. وقيل: المُقام مع البلاءِ بحسن الصّحبة كالمقام مع العافية.

وقال عمرو بن عثمان: هو الثبات مع الله، وتلقّى بلائه بالرُّحْب والسّعة. وقال الخّواص: هو الثبات على أَحكام الكتاب والسنة.

وقال يحيى بن مُعَاذ: صبر المحبّين أَشدّ من صبر الزاهدين. واعجبا كيف يصبرون!

وأَنشد.

والصّبر يُحْمَدُ فى المواطن كلّها إلاَّ عليك فإنَّه مذمومُ

وقيل: الصّبر هو الاستعانة بالله. وقيل: هو ترك الشكوَى. وقيل: الصّبر مثل اسمه مُرٌّ مَذاقته لكنْ عواقبه أَحلَى من العسلِ

وقيل: الصّبر أَن ترضى بتلَف نفسك فى رضا مَن تحبّه، كما قيل:

سأَصبر كى ترضَى وأَتْلَفُ حسرةً وحَسْبِىَ أَن ترضى ويقتلنى صبرى

وقيل: مراتب الصّبر خمسة: صابر، ومصطبر، ومتصبّر، وصَبُور، وصبّار.

فالصّابر أَعمّها. والمصطبر: المكتسِب للصبر، والمبتلَى به. والمتصبرّ: متكلّف الصّبر حامل نفسِه عليه. والصّبور: العظيم الصّبر الّذى صَبْره أَشدّ من صبر غيره. والصّبّار:

الشديد الصّبر ، فهذا فى القَدْر والكمّ ، والَّذى قبله فى الوصف والكيف .

وقال علىّ بن أَبى طالب : الصّبر مطيَّة لا تَكْبُو .

(248/70)

وقف رجل على الشِّبْلِىّ فقال : أَىّ الصّبر أَشدّ على الصّابرين ؟ فقال : الصّبر فى الله .

فقال السّائل : لا . قال : مع الله . قال : لا . قال : فأَيش ؟ قال : الصّبر عن الله . فصرخ الشِّبلىّ صَرخةً كادت نفسه تتلف .

وقال الجَرِيرىّ : الصّبر ألَّا تفرق بين حال النعمة وحال المحنة ، مع سكون الخاطر فيهما .

والتصبّر : السّكون مع البلاءِ ، مع وِجدان أَثقال المِحْنَة .

وقال أَبو على الدّقَّاق : فاز الصّابرون بعز الدّارَين ؛ لأَنهم نالوا مع الله معيَّته ؛ فإِنَّ اللهَ مَعَ الصّابرين .

وقيل فى قوله : ﴿ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ ﴾ ، انتقال من الأَدنى إِلى الأَعلى . فالصبر دون المصابرة ، والمصابرة دون المرابطة : مفاعلة من الرّبط وهو الشدّ . وسمّى المرابِط مرابطًا لأَنَّ المرابِطين

يربِطون خيولهم ينتظرون الفزَع . ثمّ قيل لكلّ منتظر ، قد ربط نفسه لطاعة ينتظرها :

مرابِط . وقيل فى تفسيره : اصبروا بنفوسكم ، وصابروا بقلوبكم على البَلْوَى فى الله ، ورابطوا بأَسراركم على الشوق إِلى الله . وقيل : اصبروا فى الله ، وصابروا بالله ، ورابطوا مع الله لعلكم تفلحون فى دار البقاءِ . فالصبر مع نفسك ، والمصابرة بينك وبين عدوّك ، والمرابطة : الثبات وإِعداد العدّة ؛ كما أَن الرّباط ملازمة الثغر لئلاَّ يهجُمه العدوّ . فكذلك المرابَطة أَيضًا : لزوم ثَغْر القلب ؛ لئلاَّ يهجُم عليه الشيطان فيملكَه . أَو يُخربه أَو يشعّثه . وقيل : تَجَرَّعِ الصّبرَ ، فإِنْ قَتَلَك قتلك شهيدًا ، وإِن أَحياك أَحياك عزيزًا حميدًا . وقيل : الصّبر لله عَناء ، وبالله بقاء ، وفى الله بلاء ، ومع الله وفاء ، وعن الله جفاء . والصّبر على الطَّلب عنوان الظَّفر ، وفى المِحَن عنوان الفَرَج .

(249/70)

وفى كتاب الأَدب للبخارىّ : سئل رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم عن الإِيمان فقال : " الصّبر والسّماحة" . وهذا من أَجمع الكلام ، وأَعظمه برهانًا ، وأَوعاه لمقامات الإِيمان من أَوّلها إِلى آخرها ؛ فإِن النَّفس يراد منها شيئان : بذل ما أُمِرَت به وإِعطاؤه ، فالحامل عليه السّماحة ؛ وتركُ ما نُهِيَتْ عنه والبعد عنه ، فالحامل عليه الصّبر . وقد أضمر الله سبحانه فى كتابه بالصّبر الجميل الذى لا شكوى معه ، والصّفح الجميل الَّذى لا عِتاب معه ،

والهجرِ الجميل الذى لا أَذى معه .

وقال ابن عُيَيْنَة فى قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ﴾ : أَخذوا برأْس الأَمر فجعلهم رُءُوسًا .

واعلم أَنَّ الشكوى إِلى الله عزَّ وجلّ لا تُنافى الصّبر ؛ فإِنَّ يعقوب - عليه السلام - وَعَد بالصّبر الجميل ، والنبىّ إِذا وَعَدَ لا يُخلف ، ثمّ قال : ﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ ﴾ ، وكذلك أَيوب عليه السّلام أَخبر الله عنه أَنه وجده صابرًا مع قوله : ﴿ مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ ، وإِنَّمَا ينافى الصبر شكوى الله لا الشكوى إِلى الله ؛ كما رأَى بعضهم رجلاً يشكو إِلى آخر فاقةً وضرورة ، فقال : يا هذا ، تشكو من يَرْحَمُكَ إِلى مَنْ لا يرحمك !

ثمّ أَنشده :

وإِذا اعْتَرَتْكَ بليّةٌ فاصبر لها صَبْرَ الكريمِ فإِنَّه بك أَرحمُ

وإِذا شكوتَ إِلى ابن آدم إِنّما تشكو الرّحيم إِلى الَّذى لا يرحم

وقال الشيخ عبد الله الأَنصارىّ : الصّبر حبس النفْس على المكروه ، وعقل اللّسان عن الشكوى .

وهو على ثلاث درجات :

الأُولى : الصّبر عن المعصية بمطالعة الوعيد . وأَحسن منها الصّبر عن المعصية حياءً .

الثانية : الصّبر على الطاعة بالمحافظة عليها دوامًا ، وبرعايتها إخلاَصًا ، وبتحسينها عِلمًا .

(250/70)

الثالثة : الصّبر فى البلاءِ بملاحظة حسن الجزاءِ ، وانتظار رَوْح الفَرَج ، وتهوين البليّة بعَدّ أَيادى المِنَن ، وتذكُّر سوالف النّعم .

وأَضعف الصّبر ، الصَّبْرُ لله وهو صبر العامة .

وفوقه الصبر بالله وهو صبر المريدين . وفوقه الصبر على الله وهو صبر السّالكين .

ومعنى كلامه أَنّ صبر العامّة لله ، أَى رجاءَ ثوابه وخوف عقابه ، وصبر المريدين بالله ، أَى بقوّة الله ومعونته ، فهم لا يرون لأَنفسهم صبرًا ولا قوّة عليه ، بل حالهم التَّحقُّق بلا حول ولا قوّة إلاَّ بالله عِلمًا ومعرفة وحالاً . وفوقها الصّبر على الله ، أَى على أَحكامه . هذا تقرير كلامه رحمه الله .

والصّواب أَنَّ الصّبر لله فوق الصّبر بالله ، وأَعلى درجة ، وأَجلّ شأْنًا ؛ فإِنَّ الصّبر لله متعلق بالإِلَهية ، والصّبر به متعلق بربوبيّته ، وما تعلق بالإِلَهية أَكمل وأَعلى مما تعلق بربوبيّته ، ولأَنَّ الصّبر له عبادة ، والصّبر به استعانة ، والاستعانة وسيلة ، والعبادة غاية ، والغاية مرادة

لنفسها ، والوسيلة مرادة لغيرها ؛ ولأَنَّ الصّبر به مشترك ، بين المؤمن والكافر ، والبرّ والفاجر ، فكلّ من شهد الحقيقة الكونيّة صَبَر به ، وأَمّا الصّبر له فمنزلة الرُّسُل والأَنبياءِ والصّدّيقين ؛ ولأَن الصّبر له صبر فيما هو حقّ له ، محبوب له ، مرضىّ له ، والصّبر [به] قد يكون فى ذلك ، وقد يكون فيما هو مسخوط له ، وقد يكون فى مكروه أَو مباح. فأَين هذا من هذا ؟ !

وأَمّا تسمية الصّبر على أحكامه صبرًا عليه فلا مشاحّة فى العبارة بعد معرفة المعنى .

والله أَعلم .

وقد يعبّر عن الانتظار بالصبر لمّا كان حق الانتظار أَلاَّ ينفكّ عن الصّبر ، بل هو نوع من الصّبر ؛ قال تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ أَى انتظر حكمه لك على الكافرين .

وقيل : الصّبر لفظ عامّ ، وربّما خُولِفَ بين أَسمائه بسبب اختلاف مواقعه . فإِن كان حَبْسُ النَّفس لمصيبة سُمّىَ صبرًا لا غَيْر ، ويضادّه الجزع . وإِن كان فى محاربة سمّى شجاعة ، ويضادّه الجُبْن . وإِن كان فى نائبة مُضجرة سمّى رُحْب الصّدر ، ويضادّه الضَّجْر . وإِن كان فى إِمساك الكلام سُمّىَ كتمانًا ، ويضادّه المَذْل . وقد سمّى الله تعالى كلّ ذلك صبرًا لقوله : ﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَآءِ وَالضَّرَّآءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ﴾ ، ﴿ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَآ أَصَابَهُمْ ﴾ . انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 3 صـ 371 . 383 ﴾ .

موعظة

لما رأيت نفسي في العلم حسنا فهي تقدمه على كل شيء وتعتقد الدليل وتفضل ساعة التشاغل به على ساعات النوافل وتقول : أقوى دليل لي على فضله على النوافل أني رأيت كثيرا ممن شغلتهم نوافل الصلاة والصوم عن نوافل العلم عاد ذلك عليهم بالقدح في الأصول فرأيتها في هذا الاتجاه على الجادة السهلة والرأي الصحيح

إلا أني رأيتها واقفة مع صورة التشاغل بالعلم فصحت بها : فما الذي أفادك العلم ؟ أين الخوف ؟ أين القلق ؟ أين الحذر ؟

أو ما سمعت بأخبار أخيار الأحبار في تعبدهم واجتهادهم ؟

أما كان الرسول صلى الله عليه وسلم سيد الكل ثم إنه قام حتى ورمت قدماه ؟

أما كان أبو بكر رضي الله عنه شجي النشيج كثير البكاء ؟

أما كان في خد عمر رضي الله عنه خطان من آثار الدموع ؟

أما كان عثمان رضي الله عنه يختم القرآن في ركعة ؟

أما كان علي رضي الله عنه يبكي بالليل في محرابه حتى تخضل لحيته بالدموع ؟ ويقول : [يا دنيا عري غيري ؟]

أما كان الحسن البصري يحيا على قوة القلق ؟

أما كان سعيد بن المسيب ملازما للمسجد فلم تفته صلاة في جماعة أربعين سنة ؟

أما صام الأسود بن يزيد حتى اخضر واصفر ؟

أما قالت بنت الربيع بن خيثم له : [مالي أرى الناس ينامون وأنت لا تنام] ؟ فقال : [إن أباك يخاف عذاب البيات]

أما كان أبو مسلم الخولاني يعلق سوطا في المسجد يؤدب به نفسه إذا فتر ؟

أما صام يزيد الرقاشي أربعين سنة ؟ وكان يقول : والهفاة سبقني العابدون وقطع بي .

أما صام منصور بن المعتمر أربعين سنة ؟

أما كان سفيان الثوري يبكي الدم من الخوف ؟

أما كان إبراهيم بن أدهم يبول الدم من الخوف ؟

(252/70)

أما تعلمين أخيار الأئمة الأربعة في زهدهم وتعبدهم : أبو حنيفة ومالك والشافعي وأحمد ؟ فاحذري من الإخلاد إلى صورة العلم مع ترك العمل به فإنها حالة الكسالى الزمنى :

(وخذ لك منك على مهلة . . . ومقبل عيشك لم يدبر)

(وخف هجمة لا تقبل العثا . . . ر وتطوي الورود على المصدر)

(ومثل لنفسك أي الرعيل . . . يضمك في حلبة المحشر . انتهى انتهى . اهـ ﴾ صيد الخاطر صـ 69 ﴾

(253/70)

ومن فوائد القاسمى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ﴾

أرشد تعالى المؤمنين ، إثر الأمر بالشكر في الآية قبل ، بالاستعانة بالصبر والصلاة ؛ لأن العبد إما أن يكون في نعمة فيكر عليها ، أو في نقمة فيصبر [في المطبوع : فيصير] عليها . كما جاء في الحديث : < عجباً للمؤمن لا يقضى له قضاء إلا كان خيراً له ، إن أصابته سراء فشكر كان خيراً له ، وإن أصابته ضراء فصبر كان خير له > . وبيّن تعالى أن أجود ما يستعان به على تحمل المصائب في سبيل الله ، الصبر والصلاة ؛ كما تقدم في قوله : ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾ [البقرة : 45] ، وفي الحديث : < أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا حزبه أمر صلى > . ثم إن الصبر صبران : صبر على ترك المحارم والمآثم ، وصبر على فعل الطاعات والقربات .

والثاني أكثر ثواباً ؛ لأن المقصود وأما الصبر الثالث ، وهو الصبر على المصائب والنوائب ، فذاك أيضاً واجب . كالاستغفار من المعائب .

(254/70)

وقال الإمام ابن تيمية في كتابه " السياسة الشرعية " وأعظم عون لوليّ الأمر خاصة ، ولغيره عامة ثلاثة أمور : أحدها الإخلاص لله ، والتوكل عليه بالدعاء وغيره . وأصل ذلك المحافظة على الصلاة بالقلب والبدن . والثاني الإحسان إلى الخلق بالنفع والمال الذي هو الزكاة . والثالث الصبر على الأذى من الخلق وغيره من النوائب ؛ ولهذا يجمع الله بين الصلاة والصبر كثيراً كقوله تعالى : ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ﴾ [البقرة : 45] ، وكقوله تعالى : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ * وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [هود : 114 - 115] ، وقوله : ﴿ فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾ [طه : 130] ، وأما قِرانُهُ بين الصلاة والزكاة في القرآن فكثير جداً . فبالقيام بالصلاة والزكاة والصبر يصلح حال الراعي والرعية ، إذا عرف الْإِنْسَانُ ما يدخل في هذه الأسماء الجامعة ، يدخل في الصلاة من ذكر الله تعالى ودعائه وتلاوة كتابه وإخلاص الدين له والتوكل

عليه ، وفي الزكاة الإحسان إلى الخلق بالمال والنفع : من نصر المظلوم وإعانة الملهوف وقضاء حاجة المحتاج . وفي الصبر احتمال الأذى وكظم الغيظ والعفو عن الناس ومخالفة الهوى وترك الشر والبطر . انتهى .

(255/70)

﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ قال الإمام ابن تيمية في " شرح حديث النزول " : لفظ المعية في كتاب الله جاء عاماً كما في قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ﴾ [الحديد : 4] ، وفي قوله : ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾ [المجادلة : 7] إلى قوله : ﴿ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ﴾ [المجادلة : 7] وجاء خاصاً كما في قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ [النحل : 128] ، وقوله : ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾ [طه : 46] ، وقوله : ﴿ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة : 40] ، فلو كان المراد بذاته مع كل شيء لكان التعميم يناقض التخصيص ، فإنه قد علم أن قوله : ﴿ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ أراد به تخصيص نفسه وأبا بكر دون عدوهم من الكفار ، وكذلك قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ خصهم بذلك دون الظالمين والفجار . وأيضاً ، فلفظ المعية ليست في لغة العرب ولا في شيء من القرآن أن يراد بها اختلاط

إحدى الذاتين بالأخرى . كما في قوله : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾ [الفتح : 29] ، وقوله : ﴿ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النساء : 146] ، وقوله : ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ [التوبة : 119] ، وقوله : ﴿ وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ ﴾ [الأنفال : 75] ، ومثل هذا كثير . فامتنع أن يكون قوله : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ ﴾ يدل على أن تكون ذاته مختلطة بذوات الخلق .

(256/70)

وقد بسط الكلام عليه في موضع آخر وبين أن لفظ المعية في اللغة ، وإن اقتضى المجامعة والمصاحبة والمقارنة ، فهو ، إذا كان مع العباد ، لم يناف ذلك علوّه على عرشه ، ويكون حكم معيته في كل موطن بحسبه ، فمع الخلق كلهم بالعلم والقدرة والسلطان ، ويخص بعضهم بالإعانة والنصرة والتأييد . انتهى مختصراً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 2 صـ 481.483 ﴾

(257/70)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (153) ﴾

الله سبحانه وتعالى يطالبنا أن نستعين بالصبر والصلاة . . على ماذا ؟ على كل ما يطلبه منا الله . . على تكليفاته ومنهجه نستعين على ذلك بالصبر والصلاة . . ولكن لماذا الصبر ؟ لأن الصبر هو منع النفس من أي شيء يحدث وهو يأخذ ألوانا شتى حسب تسامي الناس في العبادة . . فمثلا سئل الإمام علي رضي الله عنه عن حق الجار ؟ قال : تعلمون أنك لا تؤذيه ؟ قالوا نعم . . قال وأن تصبر على أذاه . . فكأنه ليس مطلوبا منك فقط ألا تؤذي جارك بل تصبر على أذاه . . والصبر هو الذي يعينك على أن تفعل ما أمرك الله به ولا تفعل ما نهاك عنه .

إن الله منعك من أشياء هي من شهوات النفس وأمرك بأشياء فيها مشقة وهذه محتاجة إلي الصبر . . وأنت أن أخذت منهج الله تعبداً ستأخذه فيما بعد عادة يقول أحد الصالحين في دعائه : اللهم إني أسألك ألا تكلني إلي نفسي فإني أخشى يا رب ألا تثيبني على الطاعة لأنني أصبحت أشتهيها فسبحانك أمرتنا أن نحارب شهواتنا . . انظر إلي الطاعة من كثرة حب الله أصبحت مرغوبة محببة إلي النفس . . رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول لبلال ساعة الآذان : (أرحنا بها يا بلال) .

ولم يقل كما يقول بعض الناس والعياذ بالله أرحنا منها ؛ ذلك أن هناك من يقول لك أن الصلاة تكون على كتفي مثل الجبل وأرتاح ، نقول له أنت ترتاح بها ولا ترتاح منها ؛ لأنك وقفت بين يدي الله المكلف ، ومادام الإنسان واقفا أمام ربه فكل أمر شاق يصبح سهلا . يقول أحد العابدين : أنا لا أواجه الله بعبوديتي ولكن أواجهه بربوبيته فأرتاح لأنه ربي ورب العالمين . . الذي له أب يعينه لا يحمل هما فما بالك بالذي له رب يعينه وينصره . قول الحق سبحانه : " إن الله مع الصابرين " أي أنه يطلب منك أن تواجه الحياة في معية الله ؛ فأنت لو واجهت المشكلات في معية من يثق في قوته تواجه الأمور بشجاعة فما بالك إذا كنت في معية الله وكل شيء في الوجود خاضع لله ، أيجرؤ شيء أن يقف أمامك وأنت مع الله ؟

إن الأحداث لا تملأ الخلق بالفزع والهلع إلا ساعة الانفلات من حضانة ربهم . . وإنما من يعيش في حضانة ربه لا يجرؤ عليه الشيطان فالشيطان خناس . . ما معنى خناس ؟ إذا سهوت عن الله اجترأ عليك وإذا ذكرت الله خنس وضعف ؛ فهو لا قوة له . . وهو لا يدخل مع الله سبحانه وتعالى في معركة ، وإنما يدخل مع خلق الله الذين ينسون الله ويبتعدون عنه يقول القرآن الكريم :

قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (82) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (83)

(سورة ص)

(259/70)

وما دام الله سبحانه وتعالى مع الصابرين فلابد أن نعشق الصبر . . وكيف لا نعشق ما يجعل الله معنا ؟ يقول الحق جل جلاله في الحديث القدسي : (يا بن آدم مرضت فلم تعدني قال : يا رب وكيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمت أن عبدي فلاناً مرض فلم تعده ؟ أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده) ؟أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه يقول بعض الصالحين : اللهم إني استحي أن أسألك الشفاء والعافية حتى لا يكون ذلك زهدا في معيتي لك . . إذن لابد أن نعشق الصبر لأنه يجعلنا دائماً في معية الله . الله سبحانه وتعالى يقول : " إن الله مع الصابرين " . . ونحن نريد أن يكون الله سبحانه معنا دائما . . إن هذه الآية لا تجعل الإنسان ييأس مهما لقى في حركة حياته من المشقة . انتهى انتهى . اهـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ 650.648 ﴾

(260/70)

" فصل "

قال السيوطى :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (153)

أخرج الحاكم والبيهقي في الدلائل عن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف قال : غشي على عبد الرحمن بن عوف في وجعه غشية ظنوا أنه قد فاضت نفسه فيها حتى قاموا من عنده وجللوه ثوباً ، وخرجت أم كلثوم بنت عقبة امرأته إلى المسجد تستعين بما أمرت به من الصبر والصلاة ، فلبثوا ساعة وهو في غشيته ثم أفاق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 1 صـ 375 ﴾

(261/70)

قوله تعالى ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ (154) ﴾

سبب نزول الآية

قال الخازن :

نزلت فيمن قتل ببدر من المسلمين وكانوا أربعة عشر رجلاً ستة من المهاجرين وهم : عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب وعمير بن أبي وقاص بن أهيب بن عبد مناف بن زهرة الزهري أخو سعد بن أبي وقاص وذو الشمالين واسمه عمير بن عبد عمرو بن العاص بن نضلة بن عمرو بن خزاعة ثم بني غبشان وعاقل بن البكير من بني سعد بن ليث بن كنانة ومهجع مولى لعمر بن الخطاب ، وصفوان بن بيضاء من بني الحارث بن فهر ومن الأنصار ثمانية ، وهم سعد بن خيثمة ومبشر بن عبد بن المنذر ، ويزيد بن الحارث بن قيس بن فسحم وعمير بن الحمام ورافع بن المعلى وحارثة بن سراقة ، وعوف ومعوذ ابنا الحارث بن رفاعة بن سواد وهما ابنا عفراء وهي أمهما ، كان الناس يقولون لمن قتل في سبيل الله مات فلان وذهب عنه نعيم الدنيا ولذاتها فأنزل الله تعالى هذا الآية ، وقيل : إن الكفار والمنافقين قالوا : إن الناس يقتلون أنفسهم ظلماً لمرضاة محمد من غير فائدة فنزلت هذا الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 1 صـ 127 ﴾ .

(262/70)

وقال الثعالبى :

سببها أن الناس قالوا فيمن قتل ببدر وأُحُدٍ من المؤمنين : مَاتَ فلانٌ ، ماتَ فلانٌ ، فكره اللَّه

سبحانه ؛ أن تُحَطَّ منزلةُ الشهداءِ إلى منزلة غيرهم ، فنزلَتْ هذه الآية ، وأيضاً : فإن المؤمنين صَعْبٌ عليهم فراقُ إخوانهم وقرابتِهِمْ ، فنزلَتِ الآيةُ مسلّية لهم ، تعظّم منزلة الشهداءِ ، وتخبر عن حقيقةِ حالِهِمْ ، فصاروا مغبوطين لا محزوناً لهم ؛ ويظهر ذلك من حديث أُمِّ حارثَةَ في السِّيَرِ .

: خرَّجه البخاريُّ في " صحيحه" عن أنسٍ ، قال : " أُصِيبَ حارثةُ يوم بَدْرٍ أصابه غَرْبُ سَهْمٍ ، وهو غلامٌ ، فجاءَتْ أُمُّهُ إلى النبيِّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالَتْ : يا رسُولَ اللَّهِ ، قد عَرَفْتَ مَنْزِلَةَ حَارِثَةَ مِنّي ، فَإِنْ يَكُ فِي الجَنَّةِ أَصْبِرْ ، وَأَحْتَسِب ، وَإِن تَكُن الأخرى ، ترى مَا أَصْنَعُ ، فَقَالَ : وَيْحَكِ ، أَوَ هُبِلْتِ ، أَو جَنَّةٌ وَاحِدَةٌ هَيَ ؛ إنَّهَا جِنَانٌ كَثِيرَةٌ ، وَإِنَّهُ فِي الفِرْدَوْسِ الأعلى . . . " الحديثَ . انتهى . . أ هـ

﴿ الجواهر الحسان حـ 1 صـ 121 ﴾ .

قوله تعالى ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾

قال الحرالي : فكأنه تعالى ينفي عن المجاهد مثال المكروه من كل وجه حتى في أن يقال عنه إنه ميت ، فحماه من القول الذي هو عندهم من أشد غرض أنفسهم لاعتلاق أنفسهم بجميل الذكر ، ثم قال وأبهم أمرهم في هذه السورة ونفى عنهم القول ، لأن هذه سورة الكتاب المدعو به الخلق وصرح بتفضيله في آل عمران لأنها سورة قيام الله الذي به تجلى الحق فأظهر غيب أمره في سورة إظهار أمره وأخفاه في سورة ظاهر دعوتهم – انتهى .

ولما كان الحس قاصراً عما أخبر به سبحانه وتعالى قال منبهاً على ذلك ﴿ ولكن لا تشعرون ﴾ أنهم أحياء كما ترون النيام هموداً لا يتحركون ولا شعور لكم بمن فيهم ينظر ، أحلاماً من غيره ، فلا فخر أعظم من ذلك في الدنيا ولا عيش أرغد منه في الآخرة ، وأما المقتول من أعدائكم فليس له في الدنيا إلا الخزي والفضيحة بالقهر والذل والهوان والعذاب الذي لا آخر له في الآخرة . قال الحرالي : قال ذلك نفياً بكلمة لا ومثال الدوام ففيه إعلام بأن الذين آمنوا ليس في رتبتهم الشعور به أصلاً إلا أن يرقيهم الله بنماء سن القلوب وصفاء الأنفس إلى ما فوق ذلك من سن المؤمنين إلى سن المحسنين الذين يشهدون من الغيب ما لا يشهده من في رتبة الذين آمنوا – انتهى . وفي هذا إشارة إلى أن كون الله معهم لا يمنع أن يستشهد منهم شهداء ، بل ذلك من ثمرات كون الله معهم حيث يظفر من استشهد منهم بسعادة الأخرى ومن بقي بسعادة الدارين ، وتلخيص ذلك أن يقال إنه لما كان حاصل ما تقدم في هذه السورة أن أهل الأرض كلهم قريبهم وبعيدهم وثنيهم وكتابيهم مطبقون على عداوة أهل هذا الدين وكان كثيراً ما يأمرهم بالصبر على أذاهم اشتد تشوّف النفوس إلى أنه هل بعد هذا الكف من فعل ، فأشار إلى أنه سيأمر بعد الصبر على أذى اللسان بالصبر

على جلاد السيف والسنان أمراً عاماً فقال عاطفاً هذا النهي على الأمر بالصبر ، أي اصبروا الآن على هذا الأذى ثم اصبروا إذا أمرتكم بالجهاد على وقع السيوف واقتحام الحتوف وفقد من يقتل منكم ولا تصفوهم بالموت ، ولعله فاجأهم بما تضمنته هذه الآية توطيناً لهم على القتل في سبيله وكان استشرافهم إلى الحرب قد كثر وبشرهم بأن القتيل فيه حي وإن رئي ميتاً تسلية لهم عن هذا الحادث العظيم والخطب الجسيم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 1 صـ 279 ﴾ .

(264/70)

سؤال : لم عطف النهى فى قوله تعالى ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ ﴾ على الأمر فى الآية السابقة ﴿ اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ ﴾ ؟

الجواب : عطف النهي على الأمر قبله لمناسبة التعرض للغزو مما يتوقع معه القتل في سبيل الله ، فلما أمروا بالصبر عرفوا أن الموت في سبيل الله أقوى ما يصبرون عليه ، ولكن نبه مع ذلك على أن هذا الصبر ينقلب شكراً عند ما يَرى الشهيد كرامته بعد الشهادة ، وعند ما يوقن ذووه بمصيره من الحياة الأبدية ، فقوله : ﴿ ولا تقولوا ﴾ نهي عن القول الناشىء عن اعتقاد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 2 صـ 53 ﴾ .

وقال فى روح البيان :

قال عصام الدين قدم الترك على الفعل لأن التخلية قبل التحلية ولهذا قدم النفى فى كلمة التوحيد . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح البيان حـ 1 صـ 321 ﴾ .

فوائد

الفرق بين الشهيدِ وغيرِهِ إنما هو الرِّزْقُ ، وذلك أنَّ اللَّه تعالى فضَّلهم بدوام حالِهِمُ التي كانَتْ في الدنيا فرزقَهُم .

(265/70)

: وللشهيدِ أحوالٌ شريفةٌ منها ما خرَّجه الترمذيُّ وابن ماجة عن النَّبيِّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ قَالَ : " لِلشَّهِيدِ عِنْد اللَّهِ سِتُّ خِصَالٍ ؛ يُغْفَرُ لَهُ فِي أَوَّلِ دَفْعَةٍ ، ويرى مَقْعَدَهُ مِنَ الجَنَّةِ ، ويُجَارُ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ ، وَيَأْمَنُ مِنَ الفَزَعِ الأَكْبَرِ ، وَيُوضَعُ على رَأْسِهِ تَاجُ الوَقَارِ ، اليَاقُوتَةُ مِنْهُ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا ، ومَا فِيهَا ، وَيُزَوَّجُ ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ زَوْجَةً مِنَ الحُورِ الْعِينِ ، وَيَشْفَعُ فِي سَبْعِينَ مِنْ أَقْرِبَائِهِ " قال الترمذيُّ : هذا حديثٌ حَسَنٌ غريبٌ ، زاد ابن ماجَة : " ويحلى حُلَّةَ الإِيمَانِ " ، قال القرطبيُّ في " تذكرته " : هكذا وقع في نسخ الترمذيّ وابن ماجة : " ستَّ خِصَالٍ " وهي في متن الحديث سَبْعٌ ، وعلى ما في ابن ماجة : " ويحلى حُلَّةَ الإِيمَانِ "

تكون ثمانياً ، وكذا ذكره أبو بكر أحمد بن سَلْمَان النَّجَّاد بسنده عن النبيّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : " لِلشَّهِيدِ عِنْدَ اللَّهِ ثَمَانِ خِصَالٍ " انتهى . وخرَّج الترمذيُّ ، والنسائِيُّ عنْه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال : " الشَّهِيدُ لاَ يَجِدُ أَلَمَ القَتْلِ إِلاَّ كَمَا يَجِدُ أَحَدُكُمْ أَلَمَ القَرْصَةِ " انتهى .

: روي عن النبيّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " أَنَّ أَرْوَاحَ الشُّهَدَاءِ فِي حَوَاصِلِ طَيْرٍ خُضْرٍ تُعَلَّقُ مِنْ ثَمَرِ الجَنَّةِ " ، وروي : " أَنَّهُمْ فِي قُبَّةٍ خَضْرَاءَ " ، وروِيَ : " أنهم في قَنَادِيلَ مِنْ ذَهَبٍ " ، إلى كثير من هذا ، ولا محالة أنها أحوالٌ لطَوَائفَ ، أو للجميع في أوقات متغايرة .

: وكذا ذكر شَبِيبُ بن إبراهيم في كتاب " الإفصاح " أنَّ المنعَّمين على جهاتٍ مختلفةٍ ؛ بحسب مقاماتهم وتفاوتهم في أعمالهم ، قال صاحب " التذكرة " : وهذا قول حَسَنٌ ، وبه يجمع بين الأخبار حتى لا تتدافع انتهى .

(266/70)

قال : وجمهور العلماء على أنهم في الجَنَّة ؛ ويؤيِّده قولُ النبيّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأمِّ حَارِثَةَ : " إِنَّهُ فِي الفِرْدَوْسِ الأعلى " .

وقال مجاهد : هم خارجُ الجَنَّةِ ويعلَّقون من شجرِهَا ، وفي " مختصر الطبريّ " ، قال : ونهى

عزَّ وجَلَّ أنْ يقالَ لِمَنْ يقتلُ في سبيلِ اللَّهِ أمْوَاتٌ ، وأعْلَمَ سبحانه أنهم أحياءٌ ، ولكنْ لا شعورَ لَنَا بذلك ؛ إذ لا نُشَاهِدُ باطنَ أمرهم ، وخُصُّوا مِنْ بين سائر المُؤمنين ، بأنهم في البَرْزَخِ يرزقُون من مطاعِم الجَنَّة ما يُرْزَقُ المؤمنون من أهْل الجنة على أنه قد ورد في الحديثِ : " إنَّمَا نَسَمَةُ المُؤْمِنِ طَائِرٌ يُعَلَّقُ فِي شَجَرِ الجَنَّةِ " ، ومعنى : "يُعَلَّق" : يأكل ؛ ومنه قوله : ما ذُقْتُ عَلاقاً ، أي : مأكلاً ، فقد عم المؤمنين ؛ بأنهم يرزقُونَ في البرزخ من رزق الجنة ، ولكن لا يمتنعُ أن يخصَّ الشهداء من ذلك بقَدْر لا يناله غيرهم ، واللَّه أعلم . انتهى .

وروى النسائيُّ أن رجلاً قال : "يَا رَسُولَ اللَّهِ ، مَا بَالُ المُؤْمِنِينَ يُفْتَنُونَ فِي قُبُورِهِمْ إلاَّ الشَّهِيدَ ؟ قَالَ : كَفَى بِبَارِقَةِ السُّيُوفِ على رَأْسِهِ فِتْنَةً " انتهى .

، وحديثُ : " إنَّمَا نَسَمَةُ المُؤْمِنِ طَائِرٌ " خرَّجه مالك رحمه اللَّه . قال الدَّاوودِيُّ : وحديث مالكٍ ، هذا أصحُّ ما جاء في الأرواح ، والذي روي أنها تجعل في حواصِلِ طيرٍ لا يصحُّ في النقل . انتهى .

قال أبو عُمَرَ بْنُ عبْدِ البَرِّ في " التمهيد " : والأشبه قولُ من قال : كَطَيْرٍ أو كصُوَرِ طيرٍ ؛ لموافقته لحديثِ " الموطَّإ " ، هذا وأسند أبو عمر هذه الأحاديثَ ، ولم يذكر مطعناً في إسنادها . . انتهى . ا هـ ﴿ الجواهر الحسان حـ 1 صـ 122 ﴾ .

قوله تعالى ﴿ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾

﴿ بل ﴾ للإضراب الإبطالي إبطالاً لمضمون المنهي عن قوله ، والتقدير بل هم أحياء ، وليس المعنى بل قُولوا هم أحياء لأن المراد إخبار المخاطبين هذا الخبرَ العظيمَ ، فقوله : " أحْيَآء " هو خبر مبتدأ محذوف وهو كلام مستأنف بعد ﴿ بل ﴾ الإضرابية .

وإنما قال : ﴿ ولكن لا تشعرون ﴾ للإشارة إلى أنها حياةٌ غير جسمية ولا مادِّيَة بل حياة روحية ، لكنها زائدة على مطلق حياة الأرواح ، فإن للأرواح كلها حياة وهي عدم الاضمحلال وقبول التجسد في الحَشْر مع إحساس ما بكونها آيلة إلى نعيم أو جحيم ، وأما حياة الذين قتلوا في سبيل الله فهي حياة مشتملة على إدراكات التنعم بلذات الجنة والعوالم العلوية والانكشافات الكاملة ، ولذلك ورد في الحديث " إن أرواح الشهداء تجعل في حواصل طيور خضر ترعى من ثمر الجنة وتشرب من مائها " . والحكمة في ذلك أن اتصال اللذات بالأرواح متوقف على توسط الحواس الجسمانية ، فلما انفصلت الروح عن الجسد عُوِّضت جسداً مناسباً للجنة ليكون وسيلة لنعميها . أ هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 2صـ 53.54 ﴾ .

سؤال : ما ما المراد من قوله ﴿ بل إحياء ﴾ ؟

قال الماوردى :

في الآية تأويلان :

أحدهما : أنهم ليسوا أمواتاً وإن كانت أجسامهم أجسام الموتى بل هم عند الله أحياء النفوس منعّمو الأجسام .

والثاني : أنهم ليسوا بالضلال أمواتاً بل هم بالطاعة والهدى أحياء ، كما قال تعالى : ﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ﴾ [الأنعام : 122] فجعل الضالَّ ميتاً ، والمُهْتَدي حياً .

ويحتمل تأويلاً ثالثاً : أنهم ليسوا أمواتاً بانقطاع الذكر عند الله وثبوت الأجر . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ النكت والعيون حـ 1 صـ 109 ﴾ .

وقد رجح القول الأول الإمام فخر الدين الرازى فقال :

اعلم أن أكثر العلماء على ترجيح القول الأول ، والذي يدل عليه وجوه .

(268/70)

أحدها : الآيات الدالة على عذاب القبر ، كقوله تعالى : ﴿ قَالُواْ رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثنتين وَأَحْيَيْتَنَا اثنتين ﴾ [غافر : 11] والموتتان لا تحصل إلا عند حصول الحياة في القبر ، وقال الله تعالى : ﴿ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَاراً ﴾ [نوح : 25] والفاء للتعقيب ، وقال : ﴿ النار يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً وَيَوْمَ تَقُومُ الساعة أَدْخِلُواْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ العذاب ﴾ [غافر : 46] وإذا

ثبت عذاب القبر وجب القول بثواب القبر أيضاً لأن العذاب حق الله تعالى على العبد والثواب حق للعبد على الله تعالى ، فاسقاط العقاب أحسن من إسقاط الثواب فحيثما أسقط العقاب إلى يوم القيامة بل حققه في القبر ، كان ذلك في الثواب أولى .

وثانيها : أن المعنى لو كان على ما قيل في القول الثاني والثالث لم يكن لقوله : ﴿ وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ ﴾ معنى لأن الخطاب للمؤمنين وقد كانوا لا يعلمون أنهم سيحيون يوم القيامة ، وأنهم ماتوا على هدى ونور ، فعلم أن الأمر على ما قلنا من أن الله تعالى أحياهم في قبورهم .

وثالثها : أن قوله : ﴿ وَيَسْتَبْشِرُونَ بالذين لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم ﴾ [آل عمران : 170] دليل على حصول الحياة في البرزخ قبل البعث .

ورابعها : قوله عليه الصلاة والسلام : " القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النيران " والأخبار في ثواب القبر وعذابه كالمتواترة ، وكان عليه الصلاة والسلام يقول في آخر صلاته : " وأعوذ بك من عذاب القبر " وخامسها : أنه لو كان المراد من قوله : أنهم أحياء أنهم سيحيون ، فحينئذ لا يبقى لتخصيصهم بهذا فائدة ، أجاب عنه أبو مسلم بأنه تعالى إنما خصهم بالذكر لأن درجتهم في الجنة أرفع ومنزلتهم أعلى وأشرف لقوله تعالى : ﴿ وَمَن يُطِعِ الله والرسول فأولئك مَعَ الذين أَنْعَمَ الله عَلَيْهِم مّنَ النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ﴾ [النساء : 69] فأرادهم بالذكر تعظيماً .

واعلم أن هذا الجواب ضعيف وذلك لأن منزلة النبيين والصديقين أعظم مع أن الله تعالى ما خصهم بالذكر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 4 صـ 133 ﴾

سؤال : فإن قيل : فنحن نراهم موتى ، فما وجه النهي ؟

فالجواب أن المعنى : لا تقولوا : هم أموات لا تصل أرواحهم إلى الجنات ، ولا تنال من تحف الله ما لا يناله الأحياء ، بل هم أحياء ، أرواحهم في حواصل طير خضر تسرح في الجنة ، فهم أحياء من هذه الجهة ، وإن كانوا أمواتاً من جهة خروج الأرواح ، ذكره ابن الأنباري . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 1 صـ 161 ﴾

(269/70)

ومن فوائد ابن العربى فى الآية

قال رحمه الله :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ ﴾ وَفِي السُّورَةِ الَّتِي بَعْدَهَا : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ﴾ تَعَلَّقَ بَعْضُهُمْ فِي أَنَّ الشَّهِيدَ لَا يُغَسَّلُ ، وَلَا يُصَلَّى عَلَيْهِ بِهَذِهِ الْآيَةِ ؛ لِأَنَّ الْمَيِّتَ هُوَ الَّذِي يُفْعَلُ ذَلِكَ بِهِ ، وَالشَّهِيدُ حَيٌّ ، وَبِهِ قَالَ مَالِكٌ وَالشَّافِعِيُّ .

وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : لَا يُصَلَّى عَلَيْهِ ، وَكَمَا أَنَّ الشَّهِيدَ فِي حُكْمِ الْحَيِّ فَلَا يُغَسَّلُ ، فَكَذَلِكَ لَا يُصَلَّى عَلَيْهِ ؛ لِأَنَّ الْغُسْلَ تَطْهِيرٌ ، وَقَدْ طُهِّرَ بِالْقَتْلِ ، فَكَذَلِكَ الصَّلَاةُ شَفَاعَةٌ وَقَدْ أَغْنَتْهُ عَنْهَا الشَّهَادَةُ ، يُؤَكِّدُهُ أَنَّ الطَّهَارَةَ إذَا سَقَطَتْ مَعَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهَا سَقَطَتْ الصَّلَاةُ ؛ لِأَنَّهَا شَرْطُهَا ، وَسُقُوطُ الشَّرْطِ دَلِيلٌ عَلَى سُقُوطِ الْمَشْرُوطِ .

وَمَا رُوِيَ " أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَّى عَلَيْهِمْ ، لَا يَصِحُّ فِيهِ طَرِيقُ ابْنِ عَبَّاسٍ وَلَا سِوَاهُ ، وَقَدْ اسْتَوْفَيْنَاهَا فِي مَسَائِلِ الْخِلَافِ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 1 صـ 68. 69 ﴾

(270/70)

كلام نفيس للعلامة ابن القيم فى هذا الموضع

قال رحمه الله :

إن الله سبحانه جعل الدور ثلاثا

دار الدنيا ودار البرزخ ودار القرار

وجعل لكل دار أحكاما تختص بها وركب هذا الإنسان من بدن ونفس وجعل أحكام دار الدنيا على الأبدان والأرواح تبعا لها ولهذا جعل أحكامه الشرعية مرتبة على ما يظهر من

حركات اللسان والجوارح وإن أضمرت النفوس خلافه ، وجعل أحكام البرزخ على الأرواح والأبدان تبعا لها فكما تبعت الأرواح الأبدان في أحكام الدنيا فتألمت بألمها والتذت براحتها وكانت هى التي باشرت أسباب النعيم والعذاب تبعت الأبدان الأرواح في نعيمها وعذابها

والأرواح حينئذ هى التي تباشر العذاب والنعيم فالأبدان هنا ظاهرة والأرواح خفية والأبدان كالقبور لها والأرواح هناك ظاهرة والأبدان خفية في قبورها تجرى أحكام البرزخ على الأرواح فتسرى إلى أبدانها نعيما أو عذابا كما تجرى أحكام الدنيا على الأبدان فتسرى إلى أرواحها نعيما أو عذابا فأحط بهذا الموضع علما واعرفه كما ينبغى يزل عنك كل إشكال يورد عليك من داخل وخارج

وقد أرانا الله سبحانه بلطف فهو رحمته وهدايته من ذلك أنموذجا في الدنيا من حال النائم فإن ما ينعم به أو يعذب في نومه يجرى على روحه أصلا والبدن تبع له وقد يقوى حتى يؤثر في البدن تأثيرا مشاهدا فيرى النائم في نومه أنه ضرب فيصبح وأثر الضرب في جسمه ويرى أنه قد أكل أو شرب فيستيقظ وهو يجد أثر الطعام والشراب في فيه ويذهب عنه الجوع والظمأ

وأعجب من ذلك أنك ترى النائم يقوم في نومه ويضرب ويبطش ويدافع كأنه يقظان وهو نائم لا شعور له بشيء من ذلك ، وذلك أن الحكم لما جرى على الروح استعانت بالبدن من خارجه ولو دخلت فيه لاستيقظ وأحس فإذا كانت الروح تتألم وتتنعم ويصل ذلك إلى بدنها بطريق الاستتباع فهكذا في البرزخ بل أعظم فإن تجرد الروح هنالك أكمل وأقوى وهى متعلقة ببدنها لم تنقطع عنه كل الانقطاع فإذا كان يوم حشر الأجساد وقيام الناس من قبورهم صار الحكم والنعيم والعذاب على الأرواح والأجساد ظاهرا باديا أصلا ومتى أعطيت هذا الموضع حقه تبين لك أن ما أخبر به الرسول من عذاب القبر ونعيمه وضيقه وسعته وضمه وكونه حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة مطابق للعقل وأنه حق لا مرية فيه وإن من أشكل عليه ذلك فمن سوء فهمه وقلة علمه أتى كما قيل

وكم من عائب قولا صحيحا . . . وآفته من الفهم السقيم

وأعجب من ذلك أنك تجد النائمين في فراش واحد وهذا روحه في النعيم ويستيقظ وأثر النعيم على بدنه وهذا روحه في العذاب ويستيقظ وأثر العذاب على بدنه وليس عند أحدهما خبر عند الآخر فأمر البرزخ أعجب من ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الروح ـ صـ 64.63 ﴾

(272/70)

سؤال : إن قلت : هلا قيل : لمن قتل في سبيل الله بلفظ الماضي ؟

قال ابن عرفة أجيب عنه بوجهين : – الأول : أن ابن عطية قال : سبب نزولها أن الناس قالوا فيمن قتلوا ببدر وأحد مات فلان وفلان فكره الله تعالى أن يحط منزلة الشهداء إلى منزلة غيرهم فنزلت الآية . وغزوة بدر وأحد [هما] أعظم الغزوات وما بعدهما من الغزوات دونهما بلا شك فلو كان الفعل ماضيا لتوهم خصوصية هذه الفضيلة بمن قتل في الغزوتين فقط فأتى به مضارعا ليدل على عمومها فيمن بعدهم وفيهم من باب أحرى .

الثاني : لو قال : " قتل " لكان فيه إيحاش ووصم عليهم لأنهم كانوا (متأسفين) على من قتل منهم فيتذكرونهم بهذا ويزداد حزنهم عليهم ، ولا يقال : قتل فلان غالبا إلا فيمن يفتجع عليه أو يفرح لموته فيقال : لِمَنْ يُقْتَلُ ، ليعم على من يأتي ومن مضى ويسلم من هذا الإيحاش . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عرفة حـ 2 صـ 469 ﴾

(273/70)

سؤال : فإن قلت : ليس سائر المطيعين من المسلمين لله يصل إليهم من نعيم الجنة في قبورهم فلم خصص الشهداء بالذكر ؟ .

قلت : إنما خصهم لأن الشهداء فضلوا على غيرهم بمزيد النعيم وهو أنهم يرزقون من مطاعم الجنة وما كلها وغيرهم ينعمون بما دون ذلك . وجواب آخر أنه رد لقول من قال : إن من قتل في سبيل الله قد مات وذهب عنه نعيم الدنيا ولذاتها فأخبر الله تعالى بقوله : ﴿ بل أحياء ﴾ بأنهم في نعيم دائم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 1 صـ 127 ﴾

فصل

قال الآلوسى :

اختلفوا في المراد بالجسد ، فقيل : هو هذا الجسد الذي هدمت بنيته بالقتل ولا يعجز الله تعالى أن يحل به حياة تكون سبب الحس والإدراك وإن كنا نراه رمة مطروحة على الأرض لا يتصرف ولا يرى فيه شيء من علامات الأحياء ، فقد جاء في الحديث :

" إن المؤمن يفسح له مد بصره ويقال له نم نومة العروس " مع أنا لا نشاهد ذلك إذ البرزخ برزخ آخر بمعزل عن أذهاننا وإدراك قوانا . وقيل : جسد آخر على صورة الطير تتعلق الروح فيه ، واستدل بما أخرجه عبد الرزاق عن عبد الله بن كعب بن مالك قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " إن أرواح الشهداء في صور طير خضر معلقة في

قناديل الجنة حتى يرجعها الله تعالى يوم القيامة " ولا يعارض هذا ما أخرجه مالك ، وأحمد ، والترمذي وصححه ، والنسائي ، وابن ماجه عن كعب بن مالك : " أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : إن أرواح الشهداء في أجواف طير خضر تعلق من ثمر الجنة أو شجر الجنة " ولا ما أخرجه مسلم في " صحيحه " عن ابن مسعود مرفوعاً " إن أرواح الشهداء عند الله في حواصل طيور خضر تسرح في أنهار الجنة حيث شاءت ، ثم تأوي إلى قناديل تحت العرش " لأن كونها في الأجواف أو في الحواصل يجامع كونها في تلك الصور إذ الرائي لا يرى سواها ، وقيل : جسد آخر على صور أبدانهم في الدنيا بحيث لو رأى الرائي أحدهم لقال : رأيت فلاناً وإلى ذلك ذهب بعض الإمامية واستدلوا بما أخرجه أبو جعفر مسنداً إلى يونس بن ظبيان قال : كنت عند أبي عبد الله جالساً فقال : ما تقول الناس في أرواح المؤمنين ؟ قلت : يقولون : في حواصل طير خضر في قناديل تحت العرش ، فقال أبو عبد الله : سبحان الله المؤمن أكرم على الله تعالى من أن يجعل روحه في حوصلة طائر أخضر يؤنس المؤمن إذا قبضه الله تعالى صير روحه في قالب كقالبه في الدنيا فيأكلون ويشربون ، فإذا قدم عليهم القادم عرفوه بتلك الصورة التي كانت في الدنيا . ووجه الاستدلال إذا كان المراد بالمؤمنين الشهداء ظاهر ، وأما إذا كان المراد بهم سائر من آمن فيعلم منه حال الشهداء وأن أرواحهم ليست في الحواصل بطريق الأولى ، وعندي أن الحياة

في البرزخ ثابتة لكل من يموت من شهيد وغيره ، وأن الأرواح وإن كانت جواهر قائمة بأنفسها

(275/70)

مغايرة لما يحس به من البدن لكن لا مانع من تعلقها ببدن برزخي مغاير لهذا البدن الكثيف ، وليس ذلك من التناسخ الذي ذهب إليه أهل الضلال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 2 صـ 21 ﴾ . (1)

---

(1) الأولى فى هذه الأمور وما شاكلها من سائر الأمور الغيبية تفويض العلم بحقيقتها وكيفيتها إلى صاحب الغيب فإن أذن لنا بوحى من كتاب أو سنة فعلى الرأس والعينين ، وإلا وجب التوقف والسكوت من باب مراعاة الأدب مع ملك الملوك والله أعلم وأحكم .

(276/70)

سؤال :

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ ﴾ الآية هذه الآية تدل

بظاهرها على أن الشهداء أحياء غير أموات, وقد قال في آية أخرى لمن هو أفضل من كل الشهداء صلى الله عليه وسلم : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ .

(277/70)

والجواب عن هذا أن الشهداء يموتون الموتة الدنيوية فتورث أموالهم وتنكح نساءهم بإجماع المسلمين, وهذه الموتة التي أخبر الله نبيه أنه يموتها صلى الله عليه وسلم وقد ثبت في الصحيح عن صاحبه الصديق رضي الله عنه أنه قال لما توفي صلى الله عليه وسلم : " بأبي أنت وأمي والله لا يجمع الله عليك موتتين, أما الموتة التي كتب الله عليك فقد متها " وقال : " من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات " . واستدل على ذلك بالقرآن ورجع إليه جميع أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم التي ثبت في الحديث أنه يرد بها السلام على من سلم عليه فكلتاهما حياة برزخية ليست معقولة لأهل الدنيا , أما في الشهداء فقد نص تعالى على ذلك بقوله : ﴿ وَلَكِنْ لا تَشْعُرُونَ ﴾ , وقد فسرها النبي صلى الله عليه وسلم بأنهم : " تجعل أرواحهم في حواصل طيور خضر ترتع في الجنة وتأوي إلى قناديل معلقة تحت العرش فهم يتنعمون بذلك " , وأما ما ثبت عنه صلى الله عليه وسلم من أنه لا يسلم عليه أحد إلا رد الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام وأن الله وَكَّل ملائكته يبلغونه سلام أمته

فإن تلك الحياة أيضا لا يعقل حقيقتها أهل الدنيا لأنها ثابتة له صلى الله عليه وسلم مع أن روحه الكريمة في أعلى عليين مع الرفيق الأعلى فوق أرواح الشهداء فتعلق هذه الروح الطاهرة التي هي في أعلى عليين بهذا البدن الشريف الذي لا تأكله الأرض يعلم الله حقيقته ولا يعلمها الخلق كما قال في جنس ذلك ﴿ وَلَكِنْ لا تَشْعُرُونَ ﴾ ولو كانت كالحياة التي يعرفها آهل الدنيا لما قال الصديق رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم مات ولما جاز دفنه ولا نصب خليفة غيره ولا قتل عثمان ولا اختلف أصحابه ولا جرى على عائشة ما جرى ولسألوه عن الأحكام التي اختلفوا فيها بعده كالعول وميراث الجد والاخوة ونحو ذلك .

(278/70)

وإذا صرح القرآن بأن الشهداء أحياء في قوله تعالى بل أحياء , وصرح بأن هذه الحياة لا يعرف حقيقتها أهل الدنيا بقوله : ﴿ وَلَكِنْ لا تَشْعُرُونَ ﴾ , وكان النبي صلى الله عليه وسلم أثبت حياته في القبر بحيث يسمع السلام ويرده وأصحابه الذين دفنوه صلى الله عليه وسلم لا تشعر حواسهم بتلك الحياة عرفنا أنها حياة لا يعقلها أهل الدنيا أيضا , ومما يقرب هذا للذهن حياة النائم فإنه يخالف الحي في جميع التصرفات مع أنه يدرك الرؤيا ويعقل

المعاني والله تعالى أعلم .

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى في كتاب الروح ما نصه : " ومعلوم بالضرورة أن جسده صلى الله عليه وسلم في الأرض طرى مطرا وقد سأله الصحابة : كيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت ؟ فقال : " إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء " ولو لم يكن جسده في ضريحه لما أجاب بهذا الجواب, وقد صح عنه " إن الله وكل بقبره ملائكة يبلغونه عن أمته السلام " , وصح عنه أنه خرج بين أبي بكر وعمر وقال : " هكذا نبعث " هذا مع القطع بأن روحه الكريمة في الرفيق الأعلى في أعلى عليين مع أرواح الأنبياء , وقد صح عنه أنه رأى موسى يصلي في قبره ليلة الإسراء ورآه في السماء السادسة أو السابعة, فالروح كانت هناك ولها اتصال بالبدن في القبر وإشراف عليه وتعلق به بحيث يصلي في قبره ويرد سلام من يسلم عليه وهي في الرفيق الأعلى ولا تنافي بين الأمرين, فإن شأن الأرواح غير شأن الأبدان " . انتهى محل الغرض من كلام ابن القيم بلفظه, وهو يدل على أن الحياة المذكورة غير معلومة الحقيقة لأهل الدنيا . قال تعالى : ﴿ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لا تَشْعُرُونَ ﴾ والعلم عند الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 29 . 30 ﴾

(279/70)

ومن فوائد القاسمى فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاء وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴾ ينهى تعالى عباده المؤمنين عن أن يقولوا للشهداء أمواتا ؛ بمعنى الذين تلفت نفوسهم وعدموا الحياة ، وتصرمت عنهم اللذات ، وأضحوا كالجمادات ، كما يتبادر من معنى الميت ، ويأمرهم سبحانه بأن يقولوا لهم : الأحياء ؛ لأنهم أحياء عند ربهم يرزقون ، كما قال تعالى في آل عِمْرَان : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عِمْرَان : 169 - 171] ، فقوله في هذه الآية : ﴿ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ يفسر المراد من حياتهم ؛ أي : إنها لأرواحهم عنده تعالى ، وقوله : ﴿ وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴾ أي : بحياتهم الزوجية بعد موتهم ؛ إذ لم يظهر منها شيء في أبدانهم ، وإن حفظ بعضها عن التلف ، كما ترون النيام هموداً لا يتحركون ، فلا فخر أعظم من ذلك في الدنيا ، ولا عيش أرغد منه في الآخرة .

قال الحرالي : فكأنه تعالى ينفي عن المجاهد منال المكروه من كل وجه ، حتى في أن يقال عنه : ميت . فحماه من القول الذي هو عندهم من أشد غرض أنفسهم ، لاعتلاق أنفسهم

بجميل الذكر . انتهى .

ولذا قال الأصم : يعني لا تسموهم بالموتى ، وقولوا لهم الشهداء الأحياء . وقال الراغب الأصفهانيّ : الحياة على أوجه ، وكل واحد منها يقابله موت :

(280/70)

الأولى : هو القوة النامية التي بها الغذاء ، والشهوة إليه ، وذلك موجود في النبات والحيوان والْإِنْسَانْ ؛ ولذلك يقال : نبات حيّ .

والثانية : في القوة الحاسة التي بها الحركة المكانية ، وهي في الحيوان دون النبات .

والثالثة : القوة العاملة العاقلة ، وهي في الْإِنْسَانْ دون الحيوان والنبات ، وبها يتعلق التكليف ، وقد يقال للعلم المستفاد والعمل الصالح : حياة ، وعلى ذلك قوله تعالى : ﴿ اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال : 24] وقيل : المحسن حي وإن كان في دار الأموات ، والمسيء ميت وإن كان في دار الأحياء .

قال : ونعود إلى معنى الآية فنقول : قد أجمعوا على أنه لا يثبت لهم الحياة التي بها النموّ والغذاء ، ولا الحياة التي بها الحس ، فإن فقدانهما عن الميت محسوس ومعقول ، فبعض المفسرين اعتبر الحياة المختصة بالْإِنْسَانْ . وقال : إن هذه الحياة مخصصة بالقوة المسماة

تارة الروح وتارة النفس . قال : والموت المشاهد هو مفارقة هذه القوة – التي هي الروح – البدنَ . فمتى كان الْإِنْسَانْ محسناً كان منعّماً بروحه مسروراً لمكانه إلى يوم القيامة ، وإن كان مسيئاً كان به معذباً ، وإلى هذا ذهب الحكماء ودلوا عليه بالبراهين والأدلة ، وهو مذهب أصحاب الحديث ، ويدل على صحته الأخبار والآيات المروية عن النبي صلى الله عليه وسلم . بل إليه ذهب أصحاب الملل كلها .

(281/70)

ومما دل على صحته خَبَرَا < الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف > وما روي عن أمير المؤمنين رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : < إن الله خلق الأرواح قبل الأجساد بألفي عام > . وروي أنه لما قتل من قتل من صناديد قريش – يوم بدر – وجمعوا في قَليب ، أقبل النبيّ صلى الله عليه وسلم فخاطبهم بقوله : < هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟ فأني وجدت ما وعدني ربي حقاً > قيل : يا رسول الله ! أتخاطب جيفاً ؟ فقال : < ما أنتم بأسمع منهم ، ولو قدروا لأجابوا > . إلى غير ذلك من الأخبار . وقال تعالى في آل فرعون : ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً ﴾ وهذا يعني به قبل يوم القيامة ؛ لأنه قال في آخر الآية : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ

فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ [غافر : 46] . انتهى .

وفي البيضاوي وحواشيه : إن إثبات الحياة للشهداء في زمان بطلان الجسد ، وفساد البنية ، ونفي الشعور بها – دليل على أنّ حياتهم ليست الجسد ، ولا من جنس حياة الحيوان ، لأنها بصحة البنية ، واعتدال المزاج وإنما هي أمر يدرك بالوحي لا بالعقل . انتهى .

(282/70)

وقد جاء الوحي ببيان حياتهم – كما أسلفنا – قال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى في كتاب " الروح " : وقد أخبر سبحانه عن الشهداء بأنهم أحياء عند ربهم يرزقون ، وهذه حياة أرواحهم ، ورزقها دارٌّ ، وإلاّ فالأبدان قد تمزقت ، وقد فسّر رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الحياة : بأن أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلّقة بالعرش ، تسرح من الجنة حيث شاءت ، ثم تأوي إلى تلك القناديل ، فاطلع إليهم ربهم اطّلاعة فقال : هل تشتهون شيئاً ؟ قالوا : أي : شيء نشتهي ؟ ونحن نسرح في الجنة حيث شئنا . . . ! ففعل بهم ذلك ثلاث مرات . فلما رأوا أنهم لن يُتركوا من أن يُسألوا – قالوا : يا رب ! نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى . . ! فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا . وصحّ عنه صلى الله عليه وسلم : < إن أرواح الشهداء في طير خضر

تعلُق من ثمر الجنة > . – وتعلُق بضم اللام ؛ أي : تأكل العلقة – وهذا صريح في أكلها ، وشربها ، وحركتها ، وانتقالها ، وكلامها . . . . ! انتهى .

قال الطيبيّ : قوله صلى الله عليه وسلم : < أرواحهم في جوف طير خضر > أي : يخلق لأرواحهم ، بعد ما ما فارقت أبدانهم ، هياكل تلك الهيئة ، تتعلق بها وتكون خلفاً عن أبدانهم ، فيتوسلون بها إلى نيل ما يشتهون من اللذات الحسية . وقال ابن القيم في كتاب " لروح " : إن الله سبحانه وتعالى جعل الدور ثلاثة : دار الدنيا ، ودار البرزخ ، ودار القرار ، وجعل لكل دار أحكاماً تختص بها ، وركب هذا الْإِنْسَانْ من بدن ونفس وجعل أحكام دار الدنيا على الأبدان ، والأرواح تبع لها ، ولهذا جعل أحكامه الشرعية مرتبة على ما يظهر من حركات اللسان والجوارح ، وإن أضمرت النفوس خلافه .

(283/70)

وجعل أحكام البرزخ على الأرواح ، والأبدان تبع لها ، فكما تبعت الأرواح الأبدان في أحكام الدنيا ، فتألمت بألمها ، والتذّت براحتها ، وكانت هي التي باشرت أسباب النعيم والعذاب – تبعت الأبدان الأرواح في نعيمها وعذابها ، والأرواح حينئذ هي التي تباشر العذاب والنعيم ، فالأبدان هنا ظاهرة ، والأرواح خفية . والأبدان كالقبور لها ، والأرواح

هناك ظاهرة والأبدان خفية في قبورها ، فتجري أحكام البرزخ على الأرواح ، فترى إلى أبدانها نعيماً وعذاباً ، كما جرى أحكام الدنيا على الأبدان فترى إلى أرواحها نعيماً وعذاباً ، فأحطْ بهذا الموضع علماً واعرفه كما ينبغي ، يَزُلْ عنك كل إشكال يورد عليك من داخل وخارج . وقد أرانا الله سبحانه ، بلطفه ، ورحمته وهدايته من ذلك ، أنموذجاً في الدنيا من حال النائم ، فإن ما ينعم به ، أو يعذب في نومه ، يجري على روحه أصلاً ، والبدن تبع له ، وقد يقوى حتى يؤثر في البدن تأثيراً مشاهداً ، فيرى النائم أنه في نومه ضُرِبَ ، فيصبح وآثار الضرب في جسمه ، ويرى أنه قد أكل وشرب ، فيستيقظ وهو يجد أثر الطعام والشراب فيه ، ويذهب عنه الجوع والظمأ .

وأعجب من ذلك أنك ترى النائم ، ثم يقوم من نومه ، ويضرب ويبطش ويدافع ، كأنه يقظان ، وهو نائم لا شعور له بشيء من ذلك ؛ لأن الحكم ، لما جرى على الروح ، استعانت بالبدن من خارجه ، ولو دخلت فيه لاستيقظ وأحسّ .

(284/70)

فإذا كانت الروح تتألم وتتنعم ، ويصل ذلك إلى بدنها بطريق الاستتباع ، فهكذا في البرزخ ، بل أعظم ، فإن تجرد الروح هناك أكمل وأقوى ، وهي متعلقة ببدنها ، لم تنقطع عنه كل

الانقطاع ، فإذا كان يوم حشر الأجساد ، وقيام الناس من قبورهم ، صار الحكم والنعيم والعذاب على الأرواح والأجساد ظاهراً بادياً . ومتى أعطيت هذا الموضع حقه تبين لك أن ما أخبر به الرسول من عذاب القبر ونعيمه ، وضيقه وسعته ، وضمه ، وكونه حفرة من حفر النار ، أو روضة من رياض الجنة – مطابق للعقل ، وأنه حق لا مرية فيه ، وأن من أشكل عليه ذلك ، فمن سوء فهمه ، وقله علمه . . انتهى . اهـ ﴾ محاسن التأويل حـ 2 صـ 483.486 ﴾

(285/70)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاء وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ (154) ﴾

الحق جل جلاله يعلم أن أحداث الإيمان وخصوم الإيمان سيواجهون المسلمين بمشقة عنيفة . . لا تهددهم في أموالهم فقط ولكن تهددهم في نفوسهم ، فأراد الله عز وجل أن يعطي المؤمنين مناعة ضد هذه الأحداث . . وأوصاهم بالصبر والصلاة يواجهون بها كل حدث يهزهم بعنف . . قال لهم إن المسألة قد تصل إلي القتل . . إلي الاستشهاد في سبيل الله .

وأراد أن يطمئنهم بأن الشهادة هي أعلى مرتبة إيمانية يستطيع الإنسان المؤمن أن يصل إليها في الدنيا فقال سبحانه : " ولا تقولون لمن يقتل في سبيل الله أموات " . إن القتل هو أشد ما يمكن أن يقع على الإنسان . . فأنت تصاب في مالك أو في ولدك أو في رزقك أو في صحتك ، أما أن تصاب في نفسك فتقتل فهذه هي المصيبة الكبرى . . والله سبحانه سمى الموت مصيبة واقرأ قوله تعالى :

إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ

(من الآية 106 سورة المائدة)

الله تبارك وتعالى أراد أن يفهم المؤمنون أن الذي يقتل في سبيل الله لا يموت وإنما يعطيه الله لونا جديدا من الحياة فيه من النعم ما لا يعد ولا يحصى يقول جل جلاله : " ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون " . ما هو مظهر الحياة التي يعيشونها ؟ الحياة عندنا مظهرها الحركة ، والذي قتل في سبيل الله ما هي حركته ؟ حركته بالنسبة لغير المؤمنين خصوم الإسلام والإيمان بأنه لن يسلب منه الحياة . . لأنه سيذهب إلي حياة أسعد والموت ينقله إلي خير مما هو يعيش فيها . . أما بالنسبة للمؤمنين فإنه سيحمي لهم منهج الله ليصل إليهم إلي أن تقوم الساعة .

إن كل المعارك التي يستشهد فيها المؤمنون إنما هي سلسلة متصلة لحماية حركة الإيمان في الوجود . . وعظمة الحياة ليست في أن أتحرك أنا ولكن أن اجعل من بعدي يتحرك . . والمؤمن حين يستشهد يبقى أثره في الوجود لكل حركة من متحرك بعده . . فكل حركة لحماية الإيمان تستشهد به وبما فعله وتأخذ من سلوكه الإيماني دافعا لتقاتل وتستشهد فكأن الحركة متصلة والعملية متصلة . . أما الكافر فإن الحياة تنتهي عنده بالموت ولكن تنتظره حياة أخرى حينما يبعث الله الناس جميعا ثم يأتي بالموت فيموت . . وحين يموت الموت تصبح الحياة بلا موت إما في الجنة وإما في النار .

الله سبحانه وتعالى يريدنا أن نعلم أن من يقتل في سبيل الله هو حي عند ربه ينتقل من الحياة الدنيا إلى الحياة الآخرة مباشرة . . ولا يكتب عليه الموت في حياة البرزخ حتى يوم القيامة مثل من يموت ميتة طبيعية ولا يموت شهيدا . . ولأن هذه الحياة حياة الشهداء أخفى الله سبحان عنا تفاصيلها لأنها من حياة الآخرة . . وهي غيب عنا قال تبارك وتعالى : " ولكن لا تشعرون" . . ومادمنا لا نشعر بها فلابد أن تكون حياة أعلى من حياتنا الدنيوية .

الذي استشهد في عرف الناس سلب نفسه الحياة ولكنه في عرف الله أخذ حياة جديدة . . ونحن حين نفتح قبر أحد الشهداء نجد جسده كما هو فنقول إنه مت أمامنا . . لابد

أن تتنبه إنك لحظة فتحت عليه انتقل من عالم الغيب إلي عالم الشهادة والله سبحانه قال : " أحياء عند ربهم" ولم يقل أحياء في عالم الشهادة . . فهو حي مادام في عالم الغيب ولكن أن تفتح وتكشف تجده جسدا في قبره لأنه انتقل من عالم الغيب إلي عالم الشهادة . . أما كيف ؟ قلنا إن الغيب ليس فيه كيف . . لذلك لن تعرف وليس مطلوبا منك أن تعرف .

(287/70)

إننا حين نجري عملية جراحية لمريض يعطيه الطبيب (البنج) لكي يفقد الوحي والحس ولكن لا يعطيه له ليموت ثم يبدأ يجري العملية فلا يشعر المريض بشيء من الألم . فالمادة لا تحس لأنها هي التي أجريت عليها العملية والجسد لازال فيه الحياة من نبض وتنفس ولكنه لا يحس . . ولكن النفس الواعية التي غابت هي التي تحس بالألم . أنت عندما يكون هناك ألم في جسدك وتنام ينقطع الإحساس بالألم فكأن الألم ليس مسألة عضوية ولكنه مرتبط بالوعي . . فعند النوم تنتقل إلي عالم آخر قوانينه مختلفة . . والعلماء فحصوا مخ الإنسان وهو نائم فوجدوا أنه لا يستطيع أن يعمل اكثر من سبع ثوان يرى فيها رؤيا يظل يحكيها ساعات . . فإذا قال الحق تبارك وتعالى : " إنهم أحياء عند ربهم" . . فلابد أن نأخذ هذه الحياة على أنها بقدرات الله ومن عنده . . والله عز وجل أراد أن يقرب لنا مسألة

البعث والقيامة مثل مسألة النوم .

واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى

(من الآية 42 سورة الزمر)

فكأن الحق جل جلاله يعطي الشهداء حياة دائمة خالدة لأنهم ماتوا في سبيله . . ومادام تعالى قال : " لا تشعرون" فلا تحاول أن تدركها بشعورك وحسك لأنك لن تدركها على أن الشهيد لابد أن يقتل في سبيل الله وليس لأي غرض دنيوي . . وإنما لتكون كلمة الله هي العليا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 653.651 ﴾

(288/70)

" فصل "

قال السيوطى :

وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ (154)

أخرج ابن منده في المعرفة من طريق السدي الصغير عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن

عباس قال : قتل تميم بن الحمام ببدر وفيه وفي غيره نزلت ﴿ ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات . . . ﴾ الآية .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله ﴿ لمن يقتل في سبيل الله ﴾ قال : في طاعة الله ، في قتال المشركين .

وأخرج ابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الإِيمان عن أبي العالية في قوله ﴿ ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ﴾ قال : يقول : هم أحياء في صور طير خضر ، يطيرون في الجنة حيث شاؤوا ، ويأكلون من حيث شاؤوا .

وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف وابن جرير عن عكرمة في قوله تعالى ﴿ ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات . . . ﴾ الآية . قال : أرواح الشهداء طير بيض فقاقيع في الجنة .

وأخرج ابن أبي شيبة والبيهقي في البعث والنشور عن كعب قال : جنة المأوى فيها طير خضر ترتقي فيها أرواح الشهداء في أجواف طير خضر ، وأولاد المؤمنين الذين لم يبلغوا الحنث عصافير من عصافير الجنة ترعى وتسرح .

وأخرج عبد الرزاق عن معمر عن قتادة قال " بلغنا أن أرواح الشهداء في صور طير بيض تأكل من ثمار الجنة ، وقال الكلبي عن النبي صلى الله عليه وسلم : في صورة طير بيض تأوي إلى قناديل معلقة تحت العرش " .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة ﴿ ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل

أحياء ولكن لا تشعرون ﴾ قال : ذكر لنا أن أرواح الشهداء تعارف في طير بيض تأكل من ثمار الجنة ، وان مساكنهم السدرة ، وان الله أعطى المجاهد ثلاث خصال من الخير : من قتل في سبيل الله كان حياً مرزوقاً ، ومن غلب آتاه الله أجراً عظيماً ، ومن مات رزقه الله رزقاً حسناً .

(289/70)

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ بل أحياء ﴾ قال : كان يقول : من ثمر الجنة ، ويجدون ريحها وليسوا فيها .

وأخرج مالك وأحمد والترمذي وصححه والنسائي وابن ماجة عن كعب بن مالك " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن أرواح الشهداء في أجواف طير خضر تعلق من ثمر الجنة أو شجر الجنة " .

وأخرج عبد الرزاق في المصنف عن عبد الله بن كعب بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " أرواح الشهداء في صور طير خضر معلقة في قناديل الجنة حتى يرجعها الله يوم القيامة " .

وأخرج النسائي والحاكم وصححه عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "

يؤتى بالرجل من أهل الجنة فيقول الله له : يا ابن آدم كيف وجدت منزلك ؟ فيقول : أي رب خير منزل . فيقول : سل وتمنّ . فيقول : وما أسألك وأتمنى ، أسألك أن تردني إلى الدنيا فأقتل في سبيل الله عشر مرات لما يرى من فضل الشهادة " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 1 صـ 375.376 ﴾

(290/70)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ (154)

قوله تعالى : " أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ " خبر مبتدأ محذوف أي : لا تقولوا : هم أموات ، وكذلك " أحياء " خبر مبتدأ محذوف أي : بل هم أحياء .

[وقد راعى لفظ " من " مرة فأفرد في قوله : " يقتل " ، ومعناها أخرى ، فجمع في قوله : " أموات بل أحياء "] و " اللام " هنا للعلة ، ولا تكون للتبليغ ؛ لأنهم لم يُبَلِّغُوا الشهداء قوله هذا .

والجملة من قوله : " هم أموات " في محلّ نصب بالقول ؛ لأنها محكية به .

وأما " بل هم أحياء " فيحتمل وجهين :

أحدهما : ألا يكون له محل من الإعراب ، بل هو إخبار من الله – تعالى – بأنهم أحياء ، ويرجحه قوله : ﴿ وَلَكِنْ لاَ تَشْعُرُونَ ﴾ ؛ إذ المعنى لا شعور لكم بحياتهم .

والثاني : أن يكون محلّه النصب بقول محذوف تقديره ، بل قولوا : هم أحياء ، ولا يجوز أن ينتصب بالقول الأول لفساد المعنى ، وحذف مفعول " يشعرون " لفهم المعنى : أي بحياتهم ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 3 صـ 80 . 81 ﴾ . باختصار .

(291/70)

AL-HAWI FE AL-TAFSEER

Sheikh Abdul Rahman
Bin Mohammed
AL-QAMMASH

4